تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السفر الأول

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السفر الأول

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، شَهادةَ عبدٍ نطق بها لسانُه وقلبُه، وأَنِسَ بها ضميره ولُبُّه .

وأشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه، الذى جُعلت له الأرضُ مسجدا وترابُها طَهُورا، وأُنزل عليه : ﴿يَاأَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا ودَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ . صلّى الله وسلّم عليه وعلىٰ آله الذين رَقُوا بنسبهم إليه أعلىٰ المراتب، وتسنّموا من ذِرْوَة الشرف والثناء كاهلَ الكواكب ، وعلىٰ أصحابه الذين آتّطدت بهم قواعد الشريعة وعلا منارُها، وهُدِمت معاقلُ الكفر وعَفَتْ آثارُها؛ وأنفقوا من قَبْل الفتح وقاتلوا، وجالدوا فى دين الله وجادلوا : صلاةً ترفع منار قائلها، وتُرسِل عليه سحائب المغفرة بوابلها!

وبعد، فمن أَوْلىٰ ماتديّجت به الطروس والدفاتر، ونطقت به ألسنة الأقلام عن أفواه المحابر، وأصدرته ذوو الأذهان السليمه، وآنتسبت إليه ذوو الأنساب الكريمه؛ وجعله الكاتب ذريعةً يتوصّل بها إلىٰ بلوغ مقاصده، ومَحَجَّةً لا يَضِلُّ سالكها فى مصادره وموارده : فنُّ الأدب الذى ما حلّ الكاتب بِوَاديه، إلّا وعَمرت بَوَاديه؛ ولا وَرَدَ مشارعه، إلّا وآستعذَبَ شرائعه؛ ولا نَزَل بساحته إلّا وآتّسعت له رحابها، ولا تأمّل مشكلاته إلّا وتبيّنت له أسبابها .

وكنتُ ممن عدل فى مباديه، عن الإلمام بناديه؛ وجعل صناعة الكتابة فَنَنَه الذى يستظلّ بوارفه، وفنَّه الذى جُمِع له فيه بين تليده وطارفه . فعرَفتُ جَلِيَّها، وكشفتُ خَفِيَّها؛ وبسطتُ الخرائد(١) ونظمتُ منها الآرتفاع، وكنتُ فيها كمُوقد نارٍ علىٰ

(١) لعلها : الجرائد . أى جرائد الحسبانات التى يستخرج منها الآرتفاع أى مقدار الإيراد . وبقية الكلام تدل علىٰ ذلك لأنه آستعار اصطلاحات أهل الحساب .

يفاع . وآسترفعتُ القوانين ، ووضعتُ الموازين ، وعانيتُ المُقْتَرَحات . وآعتمدتُ على المقايسات ، وفَذْلكتُ على الأصل وما أُضيف إليه ، وحررتُ مابعد الفَذْلَكة فكان العمل على ما آستقرّت الجملة عليه ، وآستخرجتُ وحصّلت ، وجمّلتُ من عرضه وخصّلت ، وسُقتُ الحواصل ، وأوردتُ المحاسيب وفَذْلكتُ على الواصل ، وطردتُ ما آنساق إلى الباقي والموقوف ، ونضّدتُ شواهد المصروف ، وشطبتُ شواهد الآرتفاع ، وقَرَنْتُ أعمال المبيع بالمبتاع ، وآستوفيتُ أعمال الآعتصار وتوالى الغلّات ، وتأمّلتُ سياق الأصناف والآلات ، ونظرتُ في سياقات العُلوفات والعوامل . وأجبتُ عن المُخْرَج والمردود فأعجزتُ المُناظر والمُناضل ، وأتقنتُ مواد هذه الصناعه ، وتاجرتُ فيها بأنفس بضاعه .

ثمّ نبذتُها وراء ظهري ، وعزمتُ على تركها في سِرّي دونَ جَهْري ، وسألتُ الله تعالى الغُنْيَة عنها ، وتضرّعتُ إليه فيما هو خيرٌ منها . ورغبتُ في صناعة الآداب وتعلّقتُ بأهدابها ، وآنتظمتُ في سلك أربابها ، فرأيتُ غرضي لا يتمّ بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاها . ومَوْرِدي منها لا يصفو مالم أُجرّد العزم سفاها .

فآمتطيتُ جواد المطالعه ، وركضتُ في ميدان المراجعه . وحيث ذلّ لي مَرْكَبُها ، وصفا لي مشرَبها ، آثرتُ أن أُجرّد منها كتابا أستأنِسُ به وأرجعُ إليه ، وأُعَوّل فيما يعرِض لي من المهمّات عليه . فآستخرتُ الله سبحانه وتعالى وأثبتُّ منها خمسة فنون حَسَنة الترتيب ، بيّنة التقسيم والتبويب : كلّ فنّ منها يحتوي على خمسة أقسام .

الفن الاوّل

فى السماء والآثار العُلويّة ، والأرض والمعالم السُّفليّة

ويشتمل علىٰ خمسة أقسام :

القسم الأوّل — فى السماء وما فيها .

وفيه خمسة أبواب : ٥

الباب الأوّل — فى مبدإ خلق السماء .

الباب الثانى — فى هيئتها .

الباب الثالث — فى الملائكة .

الباب الرابع — فى الكواكب السبعة .

الباب الخامس — فى الكواكب الثابتة . ١٠

القسم الثانى — فى الآثار العُلويّة .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى السَّحاب ، وسبب حدوثه ، وفى الثلج ، والبَرَد .

الباب الثانى — فى الصواعق ، والنَّيازك ، والرعد ، والبرق .

الباب الثالث — فى أُسْطُقُسّ الهواء . ١٥

الباب الرابع — فى أُسْطُقُسّ النار ، وأسمائها .

القسم الثالث — فى الليالى ، والأيام ، والشهور ، والأعوام ، والفصول ، والمواسم ، والأعياد .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى الليالى ، والأيّام . ٢٠

الباب الثانى — فى الشهور، والأعوام.

الباب الثالث — فى الفصول.

الباب الرابع — فى المواسم، والأعياد.

القسم الرابع — فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون.

وفيه سبعة أبواب :

الباب الأول — فى مبدإ خلق الأرض.

الباب الثانى — فى تفصيل أسماء الأرض.

الباب الثالث — فى طول الأرض، ومساحتها.

الباب الرابع — فى الأقاليم السبعة.

الباب الخامس — فى الجبال.

الباب السادس — فى البحار، والجزائر.

الباب السابع — فى الأنهار، والغُدْران، والعيون.

القسم الخامس — فى طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها، وخصائصها، والمبانى القديمة، والمعاقل، والقصور، والمنازل.

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — فى طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها.

الباب الثانى — فى خصائص البلاد.

الباب الثالث — فى المبانى القديمة.

الباب الرابع — فيما وُصِفَتْ به المعاقل.

الباب الخامس — فيما وُصِفَتْ به القصور، والمنازل.

ما قيل فى الشكر، والثناء.
ما قيل فى الوعد، والإنجاز.
ما قيل فى الشفاعة.
ما قيل فى الاعتذار، والاستعطاف.

الباب الثانى — فى الهجاء. ٥
وفيه أربعة عشر فصلا:
ما قيل فى الهجاء، ومَن يستحقُّه.
ما قيل فى الحَسَد.
ما قيل فى السِّعاية والبَغْى.
ما قيل فى الغِيبة والنميمة. ١٠
ما قيل فى البُخل واللُّؤْم، وأخبار البخلاء، واحتجاجهم.
ما قيل فى التطفُّل. ويتصل به أخبار الأَكَلَة والمؤاكلة.
ما قيل فى الجُبْن، والفِرار. ١٥
ما قيل فى الحُمْق، والجهل.
ما قيل فى الكَذِب.
ما قيل فى الغدر، والخيانة.
ما قيل فى الكِبْر، والعُجْب.
ما قيل فى الحِرص، والطمع. ٢٠
ما قيل فى الوعد، والمَطْل.
ما قيل فى العِىّ، والحَصَر.

الباب الثالث — في المُجون، والنوادر، والفُكاهات، والمُلَح .

الباب الرابع — في الخمر، وتحريمها، وآفاتها، وجناياتها، وأسمائها. وأخبار مَن تنزّه عنها في الجاهليّة، ومن حُدّ فيها من الأشراف، ومَن اشتهر بها، ولبس ثوبَ الخَلَاعة بسببها . وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل في وصف آلاتها، وآنيتها، وما قيل في مبادرة اللذّات، وما وُصفت به المجالس، وما يجري هذا المجرىٰ.

الباب الخامس — في النُّدمان، والسُّقاة .

الباب السادس — في الغِناء، والسَّماع، وما ورد في ذلك من الحَظْر والإباحة، ومَن سمع الغِناء من الصحابة (رضوان الله عليهم) والتابعين، والأئمة، والعُبّاد، والزُّهّاد، ومَنْ غنّى من الخلفاء، وأبنائهم، والأشراف، والقوّاد، والأكابر، وأخبار المُغنّين ممن نقل الغناء من الفارسيّة إلىٰ العربيّة .

الباب السابع — فيما يَحتاج إليه المُغنّي، ويُضْطَرُّ إلىٰ معرفته، وما قيل في الغِناء، وما وُصفت به القِيان، وما وُصفت به آلات الطرب .

القسم الخامس — فى المَلِك ، وما يُشترَط فيه ، وما يَحْتاج إليه ، وما يجب له علىٰ الرعيّة ، وما يجب للرعيّة عليه . ويتّصل به ذكر الوزراء ، وقادة الجيوش ، وأوصاف السلاح ، وولاة المناصب الدينيّة ، والكتّاب ، والبُلَغاء .

وفيه أربعة عشر بابا : ٥

الباب الاوّل — فى شروط الإمامة : الشرعيّة ، والعرفيّة .

الباب الثانى — فى صفات المَلِك وأخلاقه ، وما يفضُل به علىٰ غيره . وذكر ما نُقل من أقوال الخلفاء والملوك الدالّة علىٰ عُلُوّ همّتهم ، وكرم شيمتهم .

الباب الثالث — فيما يجب للملك علىٰ الرعايا من الطاعة ، والنصيحة ، والتعظيم ، والتوقير . ١٠

الباب الرابع — فى وصايا الملوك .

الباب الخامس — فيما يجب علىٰ المَلِك للرعايا .

الباب السادس — فى حُسن السياسة ، وإقامة المملكة . ويتّصل به الحزم ، والعزم ، وآنتهاز الفُرْصة ، والحلم ، والعفو ، والعقوبة ، والآنتقام . ١٥

الباب السابع — فى المَشُورة ، وإعمال الرأى ، والآستبداد ، ومن يُعتمد علىٰ رأيه ، ومن كَرِه أن يستشير .

الباب الثامن — فى حفظ الأسرار ، والإذن ، والحجاب .

الباب التاسع — في الوزراء، وأصحاب المَلِك،

الباب العاشر — في قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروب، ووصف الوقائع، والرباط، وما قيل في أوصاف السلاح .

الباب الحادى عشر — في القضاة، والحكام .

الباب الثانى عشر — في ولاية المظالم، وهى نيابة دار العدل .

الباب الثالث عشر — في نَظَر الحِسبة، وأحكامها .

الباب الرابع عشر — في ذكر الكتّاب، والبلغاء، والكتابة، وما تفرّع عنها من الوظائف والكتابات، وهى: كتابة الإنشاء، وكتابة الديوان، والتصرّف، وكتابة الحُكم، والشروط، وكتابة النسخ، وكتابة التعليم .

الفن الثالث

فى الحيوان الصامت

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأوّل — فى السباع، وما يتصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الاوّل — فى الأَسَد ، والبَبْر ، والنَّمِر.

الباب الثانى — فى الفَهْد ، والكلب ، والذئب ، والضَّبُع ، والنِّمْس.

الباب الثالث — فى السِّنجاب، والثعلب، والدُّبّ، والهِرّ، والخنزير.

القسم الثانى — فى الوحوش، والظباء، وما يتّصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأوّل — فيما قيل فى الفيل، والكَرْكَدَّن، والزَّرافة، والمَهَاة، والإِيَّل[1].

الباب الثانى — فى الحُمُر الوحشيّة، والوَعِل، واللَّمْط.

الباب الثالث — فيما قيل فى الظَّبْى، والأرنب، والقرد، والنَّعام.

(١) ويقال أيضا : الأُيَّل والأَيَّل (قاموس) .

القسم الثالث — وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول — في الخيل.

الباب الثاني — في البغال، والحمير.

الباب الثالث — في الإبل، والبقر، والغنم.

٥ القسم الرابع — وفيه بابان:

الباب الأول — في ذوات السموم القواتل.

الباب الثاني — فيما هو ليس بقاتل بفعله، من ذوات السموم.

القسم الخامس — وفيه سبعة أبواب: ستة منها في الطير، وباب في السمك.

(وذيلت عليه بباب ثامن، أوردت فيه ما قيل

١٠ في آلات صيد البر، والبحر).

الباب الأول — في سباع الطير، وهي: العقبان، والبوازي، والصقور، والشواهين.

الباب الثاني — في كلاب الطير، وهي: النسر، والرخم، والحدأة، والغراب.

١٥ الباب الثالث — في بهائم الطير، وهي: الدراج، والحبارى، والطاووس، والديك، والدجاج، والإوز، والبط، والنحام، والأنيس، والقاوند، والخطاف، والقيق، والزرزور، والسمانى[1]، والهدهد، والصقعق، والعصافير.

٢٠ (١) في الأصل السمان. وقال في الصحاح والسمانى ولا شدد الميم.

الباب الرابع — فى بُغَاث الطيْر، وهو : القُمْرِى، والدُّبْسِىّ، والوَرَشانُ، والفَواخِتُ، والشُّفْنِين، والعَبَطْبَط، والنوّاح، والقَطَاة، والحَمَام، وأصنافه، والبَبَّغاء.

الباب الخامس — فى الطيْر الليلىّ، وهو : الخُفَّاش، والكَرَوان، والبُوم، والصَّدىٰ. ٥

الباب السادس — فى الهَمَج، وهو : النمل، والزُّنبور، والعنكبوت، والجراد، ودود القَزّ، والذُّباب، والبَعوض، والبراغيث، والحُرْقُوص.

الباب السابع — فى أنواع الأسماك. ١٠

الباب الثامن — يشتمل علىٰ ذكر شىء مما وُصفت به آلات الصيْد فى البرّ، والبحر، ووصف رُماة البُندق، وما يجرى هذا المجرىٰ.

الفن الرابع

في النبات

ويستمل على خمسة أقسام :

(وذيّلتُ على هذا الفن، في القسم الخامس، بشيء من أنواع الطِّيب، والبَخُورات، والغوالي، والنُّدود، والمُستقطَرات، وغير ذلك) .

القسم الأوّل — في أصل النبات ، وما تختصّ به أرضٌ دون أرض .
(ويتّصل به ذكر الأقوات، والخضْراوات، والبُقولات).

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأوّل — في أصل النبات، وترتيبه .

الباب الثاني — فيما تختصّ به أرض دون أرض، وما يستأصل شأفة النبات الشاغل للأرض عن الزراعة .

الباب الثالث — في الأقوات، والخَضراوات، والبقولات .

القسم الثاني — في الأشجار .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأوّل — فيما لثمره قشرٌ لا يؤكل .

الباب الثاني — فيما لثمره نوًى لا يؤكل .

الباب الثالث — فيما ليس لثمره قشر ولا نوًى .

القسم الثالث — فى الفواكه المشمومة .

وفيه بابان :

الباب الأول — فيما يُشَمُّ رَطْبًا، ويُستقطر .

ويشتمل على أربعة أنواع : وهى "الوَرْد، والنَّسْرِينُ، والخِلَافُ، والنَّيْلُوفَرُ" .

الباب الثانى — فيما يُشَمُّ رَطْبا، ولا يُستقطَر .

ويشتمل على ماقيل فى البَنَفْسَج، والنرجس، والياسَمين، والآس، والزعفران، والحَبَق .

القسم الرابع — فى الرياض، والأزهار . (٧)

(ويتصل به الصُّموغ، والأَمْنَان، والعصائر) .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — فى الرياض، وما وُصفت به نظمًا، ونثرًا .

الباب الثانى — فى الأزهار، وما وُصفت به .

الباب الثالث — فى الصموغ .

وفيه ثمانية وعشرون صِنفا .

الباب الرابع — فى الأمنان .

القسم الخامس — فى أصناف الطيب، والبَخُورات، والغوالى، والنُّدود، والمُستقطَرات، والأدهان، والنَّضُوحات، وأدوية الباه، والخواصّ .

وفيه أحد عشر بابا :

الباب الأول — فى المسك، وأنواعه

الباب الثانى — فى العنبر، وأنواعه، ومعادنه .

الباب الثالث — فى العُود، وأصنافه، وأنواعه، ومعادنه .

الباب الرابع — فى الصَّنْدل، وأصنافه، ومعادنه .

الباب الخامس — فى السُّنْبُل الهندىّ، وأصنافه، والقَرَنْفُل، وجوهره .

الباب السادس — فى القُسْط، وأصنافه .

الباب السابع — فى عمل الغَوَالى، والنُّدود .

الباب الثامن — فى عمل الرامَك، والسُّكّ من الرامَك والأدهان .

الباب التاسع — فى عمل النَّضوحات، والمياه المستقطَرة، وغير المستقطرة .

الباب العاشر — فى الأدوية التى تزيد فى الباه، وتُلذِّذ الجماع، وما يتصل بذلك .

الباب الحادى عشر — فيما يفعل بالخاصِّيَّة .

الفن الخامس

فى التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأوّل — فى مبدإ خلق آدم (عليه السلام) وحوّاء ، وأخبارهما ، ومَن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرسّ . ٥

وفيه ثمانية أبواب :

الباب الأوّل — فى مبدإ خلق آدم (عليه السلام)، وموسى (عليه السلام)، وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

الباب الثانى — فى خبر شيث بن آدم (عليهما السلام)، وأولاده . ١٠

الباب الثالث — فى أخبار إدريس : النبىّ (عليه السلام) .

الباب الرابع — فى قصّة نوح (عليه السلام) ، وخبر الطُّوفان .

الباب الخامس — فى قصّة هود (عليه السلام) مع عاد، وهلاكهم بالريح العقيم .

الباب السادس — فى قصة صالح (عليه السلام) مع ثمود ، وعَقْرهم الناقة ، وهلاكهم . ١٥

الباب السابع — فى أخبار أصحاب البئر المُعَطَّلة ، والقصر المَشِيد ، وهلاكهم .

الباب الثامن — فى أخبار أصحاب الرّسّ ، وما كان من أمرهم .

القسم الثانى — فى قصّة إبراهيم، الخليل (عليه السلام)، وخبره مع نُمْرود؛
وقصّة لوط؛ وخبر إسحاق، و يعقوب؛ وقصّة يوسف؛
وأيُّوب؛ وذى الكِفْل؛ وشُعيب (عليهم السلام) .

وفيه سبعة أبواب :

٥ الباب الأول — فى قصّة إبراهيم ، الخليل (عليه الصلاة والسلام)، وأخبار نمرود بن كنعان .

الباب الثانى — فى خبر لوط (عليه السلام) مع قومه، وقلب المدائن .

الباب الثالث — فى خبر إسحاق، و يعقوب (عليهما السلام) .

١٠ الباب الرابع — فى قصّة يوسف بن يعقوب (عليهما السلام) .

الباب الخامس — فى قصّة أيوب (عليه السلام)، وابتلائه، وعافيته .

الباب السادس — فى خبر ذى الكِفْل بن أيوب (عليهما السلام) .

الباب السابع — فى خبر شُعَيْب (عليه السلام)، وقصته مع مَدْيَنَ .

١٥ القسم الثالث — يشتمل على قصّة موسى بن عِمْران (عليه السلام)،
وخبره مع فِرْعَوْن؛ وخبر يُوشَع، ومَن بعده؛ وحِزْقِيلَ،
و إلياس، واليَسَع، وعيلا، وأشْمَوِيل، وطالوت،
وجالوت، وداود، وسليمان بن داود، وشعيا،
وأرميا، وخبر بُخْتَ نَصَّرَ، وخراب بيت المقدس،
٢٠ وعمارته؛ وما يتصل بذلك من خبر عُزَيْر؛ وقصّة

يُونس بن متّى ، وخبر بلوقيا ، وزكريا ، ويحيىٰ ، وعِمران ، ومريم ، وعيسى (عليهم السلام) ، وقصص الحواريّين ، وما كان من أمرهم فيمن أُرسِلوا إليه ، وخبر جرجيس .

وفيه ستة أبواب :

(وذيّلتُ علىٰ هذا القسم ذيلا يشتمل علىٰ أربعة أبواب ، ذكرتُ فيها ماقيل فى الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسىٰ — عليه السلام — إلىٰ الأرض ومدّة إقامته بها ، ووفاته ، وما يكون بعده ، وشيئا من أخبار المحشر والمعاد) .

الباب الأوّل — فى قصّة موسىٰ بن عِمْران ، وهرون ، وغرق فِرْعَوْن ، وأخبار بنى إسرائيل ، وأخبار قارون ، وخبر بلعم بن باعوراء ، والجبّارين ، وغير ذلك .

الباب الثانى — فيما كان بعد موسىٰ بن عِمْران (عليه السلام) من أخبار يُوشَع بن النون ، ومَن بعده ، وخبر حِزْقِيل ، وإلياس ، واليَسَع ، وعيلا ، وأشمويل ، وطالوت ، وجالوت ، وداود ، وسليمان .

الباب الثالث — فى أخبار شعيا ، وأرميا ، وخبر بُخْتَ نَصَّر ، وخراب بيت المقدس ، وعمارته ، وما يتّصل بذلك من خبر عُزَيْر .

الباب الرابع — في قصّة ذي النون يونُس بن متّى (عليه السلام)، وخبر بلوقيا.

الباب الخامس — في خبر زكريّا، ويحيىٰ، وعِمْران، ومريم ابنته، وعيسىٰ بن مريم (عليهما السلام).

الباب السادس — في أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسىٰ (عليه السلام)، وما كان من أمرهم بعد رفعه، وخبر جرجيس.

التذييل علىٰ هذا القسم — ويشتمل علىٰ أربعة أبواب:

الباب الأوّل — في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسىٰ بن مريم.

الباب الثاني — في خبر نزول عيسىٰ إلىٰ الارض، وقتل الدجّال، وخروج يأجوج، ومأجوج، وهلاكهم، ووفاة عيسىٰ (عليه السلام).

الباب الثالث — في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسىٰ ابن مريم إلىٰ النفخة الأُولىٰ.

الباب الرابع — في أخبار يوم القيامة والحشر، والمعاد، والنفخة الثانية في الصُّور.

القسم الرابع — فى أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم، والطوائف؛
وخبر سيل العَرِم، ووقائع العرب فى الجاهليّة .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — فى أخبار ذى القرنين، المذكور فى سورة الكهف .

الباب الثانى — فى أخبار ملوك الأصقاع، وهم : ملوك مصر، ٥
والهند، والصين، وجبل الفتح .

الباب الثالث — فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم : ملوك
الفُرْس الأُول ، وملوك الطوائف منهم ؛
والملوك الساسانيّة ؛ وملوك اليونان والسريان ؛
والكلدانيين ؛ والصقالبة ؛ والبوكبرد ؛ ١٠
والإفرنجة ؛ والجَلَالقة ؛ وطوائف السودان .

الباب الرابع — فى أخبار ملوك العرب .
(ويتّصل به خبر سَيْل العَرِم) .

الباب الخامس — فى أيّام العرب، ووقائعها فى الجاهليّة .

القسم الخامس — فى أخبار الملة الإسلاميّة؛ وذكر شىء من سيرة نبيّنا محمد ١٥
(صلى الله عليه وسلم) ، وأخبار الخلفاء من بعده
(رضى الله عنهم) ؛ وأخبار الدولة الأُمَويّة ؛
والعباسيّة ؛ والعلويّة ؛ ودول ملوك الإسلام،
وأخبارهم، ومافتح الله (سبحانه وتعالى) عليهم — على
ماسنبيّن ذلك — إن شاء الله (تعالى .) ٢٠

وفيه اثنا عشر بابا :

الباب الأول — في سيرة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

الباب الثاني — في أخبار الخلفاء من بعده : أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وآبنه : الحَسَن (رضي الله عنهم أجمعين) .

الباب الثالث — في أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالشام وغيره .

الباب الرابع — في أخبار الدولة العباسيّة بالعراق، ومصر .

الباب الخامس — في أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالأندلس، وأخبار الأندلس بعد آنقراض الدولة الأموية .

الباب السادس — في أخبار إفريقيّة، وبلاد المغرب، ومَنْ وَلِيَها من العُمّال، ومَن آستقلّ منهم بالمُلك .

الباب السابع — في أخبار مَن نهض في طلب الخلافة من الطالبيّين، في مدّة الدولتين : الأُمَوِيّة، والعباسية، فقُتل دونها، بعد مقتل الحسين آبن عليّ (رضي الله عنهما) .

الباب الثامن — في أخبار صاحب الزنج، والقرامطة، والخوارج بالموصل .

الباب التاسع — في أخبار من آستقلّ بالمُلك، والممالك، بالبلاد الشرقيّة والشماليّة، في خلال الدولة العباسيّة، وهم : ملوك خُراسان، وما وراء النهر، والجبال، وطَبَرْسْتَان، وغَزْنَة، والغَوْر

وبلاد السند، والهند : كالدولة السامانيّة .
والصّفّاريّة، والغزنويّة، والغوريّة، والدّيلميّة
الختليّة .

الباب العاشر — فى أخبار ملوك العراق . وما والاه ؛ وملوك
الموصل، والديار الجزيريّة، والبكريّة، والبلاد ٥
الشاميّة، والحلبيّة : كالدولة الحمدانيّة .
والدّيلميّة البويهيّة، والسّلجوقيّة، والأتابكيّة .

الباب الحادى عشر — فى أخبار الدولة الخوارزميّة . والجنكزخانيّة ،
وهى دولة التتار، وما تفرّع منها .

الباب الثانى عشر — فى أخبار ملوك الديار المصريّة الذين ملكوا ١٠
فى خلال الدولة العباسيّة، نيابةً عن خلفائها،
وهم : الملوك العبيديّون الذين انتسبوا إلى
علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه)، وما كان
من أمرهم، وما ملكوه من بلاد المغرب،
وكيف استولوا على الديار المصريّة، والبلاد ١٥
الشاميّة، والحلبيّة، والثغور، والسواحل،
وغير ذلك إلى أن انقرضت دولتهم ؛ وقيام
الدولة الأيّوبيّة، وأخبار ملوكها بمصر، والشام
إلى حين انقراضها ؛ وقيام دولة الترك، ومَن
ملك منهم من أبنائهم، وما حازوه من الأقاليم، ٢٠
وما فتحوه من الممالك، وغير ذلك من

أخبارهم، وما آستقر في ملك مُلوك هذه الدولة
إلىٰ حين وضعنا لهذا التأليف في سنة ... ...
وسبعمائة (في أيام مولانا السلطان السيد
الأجل المالك الملك الناصر، ناصر الدنيا
والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، ٥
أبي الفتح محمد، بن السلطان الشهيد، الملك (١٠)
المنصور، سيف الدنيا والدين، أبي المظفر
قلاون، الصالحيّ. خلد الله ملكه علىٰ ممر
الزمان، وسقىٰ عهد والده صَوب الرحمة
والرِّضوان، ببركة سيد ولد عدنان!) ١٠

هذا مجموعُ ما يشتمل عليه هذا الكتاب، من فنون وأقسام وذيول وأبواب. ثم ينطوي كل باب منها علىٰ فصول وأخبار، ويحتوي علىٰ وقائع وآثار.

ولما آنتهت أبوابه وفصوله، وآنحصرت جملته وتفصيله، ترجمتُه:

بنهاية الأَرَب في فنون الأَدب

١٥ وأتيتُ فيه بالمقصود والغرض، وأثبتُّ الجوهر ونفيتُ العَرَض، وطوّقتُه بقلائد من مقولي، ورصّعتُه بفرائد من منقولي. فكلامي فيه كالسارية تلتها السحائب، أو السرِيّة رَدِفَتْها الكتائب. فما هو إلّا مترجِمٌ عن فنونه، وحاجب لعيونه.

وما أوردتُ فيه إلّا ماغلب علىٰ ظنّي أنّ النفوس تميل إليه، وأن الخواطر تشتمل عليه. ولو علمتُ أنّ فيه خطأ لقبضتُ بناني، وغضضتُ طَرْفي، ولو خَبَرتُ طريق

المعترض لعطفتُ عِنانى ، وثنيتُ عِطفى . لكنّى تبعتُ فيه آثار الفضلاء قَبْلى ، وسلكتُ منهجهم فوصلتُ بحبالهم حبلى . فإنْ يكن آعتراض ، فعلىٰ عُلاهم لا علىّ العار . وقد علمتُ أنه مَن صنّف كتابا فقد آستهدف ، وأصمّ الأسماع وإنْ كان لبعضها قد شنّف .

وخليق للواقف عليه أن يسُدّ مايجد به من خَلَل ، وأن يغفر ما يلمح فيه من زَلَل . فأسبِلْ عليها سِتْرَ معروفك الذى سترتَ به قِدْمًا علىٰ عَوارى . والذى أدّى إليه آجتهادى من تأليفه فقد أصدرتُه ، والذى وَقَفَتْ عنده غايتى فقد أوردتُه . قد تبلّغتُ فيه وُسعى ، لكنْ ليس من عثرة الكِتاب أمان . وبالله سبحانه المستعان ! وعليه أتوكّل ، واليه أتضرّع فى التيسير وأتوسل ، ومن فضله أستمدّ الصواب ، وباسمه أستفتح الكتاب[1] !

---

(١) ورد فى النسخة الفوتغرافية التى آعتمدنا الطبع عليها (وهى المحفوظة بكتبخانة الكوبريلى بالقسطنطينية) مانصه فى هذا الموضع : "هذا آخر الفهرست لهذا الكتاب . ولنبتدئ إن شاء الله تبارك وتعالىٰ بما بدأ به مؤلفه عفا الله تعالىٰ عنه وهو الفن الأول . ونرجو بعون الله وحوله وقوته الإتمام بسلام . وصلى الله وسلم علىٰ أشرف الأنام ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام" — وهى من زيادات الناسخ .

الفن الأوّل

في السماء والآثار العُلويّة، والأرض والمعالم السُّفليّة

وقد أوردتُ في هذا الفن نُبذة من وصف السماء، التي هي قبلة الدعاء، وباب الرجاء؛ والكواكب السيّارات ذوات السنا والسناء؛ والملائكة الذين هم أولو أجنحة، مثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباع؛ والسحائب التي تجود بوَبْلها فتعدلُ في قَسْمها بين السهل واليَفاع؛ والرعدِ الذي إن وَنَتْ يَحُثُّها؛ والريح الذي إن اجتمعت يُثُّها؛ والبرق الذي شُبِّه ببنانِ الحاسب والكفّ الخضيب؛ والثلج الذي خَلَع علىٰ الأرض رداء المشيب؛ وقوس السَّحاب الذي تنكَّبَهُ الجوُّ فأفرغ عليه مُصَبَّغات الحُلَل، ورمىٰ الجدْب ببنادق البَرَد فتباشرت بالخصب أهل الحِلَل؛ والنِّيران وعُبَّادِها وعَدَدِها، والمياه وأمدادها ومَدَدِها؛ والليالي والأيام، والشهور والأعوام؛ والسَّنةِ وفصولِها ومباديها، والأعيادِ والمواسم ومُتَّخِذِيها؛ والأرضِ والجبال، والبراري والرمال؛ والجزائرِ والبحار، والعيون والأنهار؛ وطبائعِ البلاد، وأخلاقِ مَن سكنها من العبَاد؛ والمباني والمعاقل، والقصور والمنازل.

وجعلتُه خمسة أقسام يُستدلُّ بها عليه، ويُتَوَصَّل من أبوابها إليه.

القسم الأول

فى السماء وما فيها

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول

من القسم الأول من الفن الأول

١ — فى مبدإ خلق السماء

قال الله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ .

§ والسماء تُذكَّر وتُؤنَّث .

فشاهد التذكير قول الله (عزّ وجلّ) : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ ؛ وقول الشاعر :

فلو رَفَعَ السماءُ إليه قوما ، * لَحِقْنا بالسماء مع السَّحاب !

وشاهد التأنيث ، قوله (تبارك وتعالى) : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ ؛ وقول الشاعر :

* يارَبِّ ، ربَّ الناس فى سماته ! (١) *

(١) هكذا فى الأصول ، أى بالتاء المثناة . ولو هُمزت ، لفات الشاهد .

٢ — ذكر ما قيل في أسماء السماء وخَلْقِها

قد نطقت العرب للسماء بأسماء .

منها : الجَرْباء . وسُمِّيَتْ بذلك لكثرة النُّجوم بها .

ومنها : الخَلْقاء . لملاستها .

٥ وبرقع[1] . والرَّقيع . ومنه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن مُعاذ : «لقد حكمتَ فيهم بحُكم الله من فوق سبع أرقعة» . أي من فوق سبع سماوات .

ومنها : الطرائق . قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ .

والسماء مخلوقة من دُخَان .

---

٣ — حُكي في سبب حدوثه

١٠ أنَّ الله تعالى خلق جوهرة ، وَصف من طولها وعرضها عظما . ثم نظر إليها نظرَ هيبة ، فانماعت ، وعلاها من شدّة الخوف زَبَدٌ ودُخَان . فخلق الله من الزبد الأرضَ ، وفتقها سبعا ، ومن الدخان السماءَ ، وفتقها سبعا . ودليله قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ . قال : ولما فتق الله تعالى السماوات ، أوحى في كل سماء أمرها .

واختلف المفسّرون في الأمر ، ما هو؟ فقال قوم : خلق فيها جبالا من بَرَد وبحارا ،

١٥ وقال قوم : جعل في كل سماء كوكبا ، قدّر عليه الطلوع والأفول ، والسير والرجوع .

وقال قوم : أسكنها ملائكة سخّرهم للعالَم السُّفلىّ ، فوكّل طائفة بالسحاب وطائفة بالريح ، وجعل منهم حَفَظَة لبني آدم وكاتبين لأعمالهم ومستغفرين لذنوبهم .

---

(١) كبرج وقنفذ كما في القاموس .

الباب الثانى

١ — فى هيئتها

ذهب المفسّرون لكتاب الله عزّ وجلّ أنّ السماء مسطوحة ، بدليل قوله تعالىٰ :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وإِلَى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾.

وقال تعالىٰ : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾.

ويُطلق علىٰ مجموعها فَلَكٌ ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾. (١٢)

وذهب الحَسَن إلىٰ أنّ الفَلَكَ غيرُ السماوات ، وأنّه الحامل بأمر الله تعالىٰ للشمس والقمر والنجوم.

قالوا : ولمّا فتق الله تعالىٰ رَتْق السماوات ، جعل بين كلّ سماء وسماء مسيرةَ خمسمائة عام.

ورُوى عن أبى هُرَيْرة (رضى الله عنه) ، قال : "بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالسٌ هو وأصحابه ، إذ أتىٰ عليهم سَحاب . فقال النبىّ (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ماهذا؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا العَنان (١) ، هذه رَوَايا الأرض ، يسوقها الله تعالىٰ إلىٰ قوم لايشكرونه ولا يدْعُونه . ثم قال : أتدرون ما فوقكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا الرقيع : سقف محفوظ ، وموج مكفوف . ثم قال : هل تدرون مابينكم و بينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : بينكم و بينها خمسمائة سنة . ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك؟ قالوا : الله و رسوله أعلم . قال : سماءٌ فى بُعد ما بينهما

(١) العنان السحاب . واحدته بهاء . (قاموس).

خمسمائة سنة . قال ذلك حتّى بلغ سبع سماوات ، ما بين كل سماءين ، ما بين السماء والأرض . ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنّ فوق ذلك العرش . وبينه وبين السماء بُعد مابين السماءين . ثم قال : هل تدرون ماتحتكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنّها الأرض . ثم قال : أتدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنّ تحتها أرضا أخرىٰ ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة . حتّى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة " . أخرجه أبو عيسىٰ الترمذىّ ، في "جامعه" .

ويُروىٰ عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان جالسا بالبطحاء ، بين أصحابه ، إذ مرّت عليهم سحابة . فنظروا إليها . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ما اسم هذه؟ قالوا : نعم . هذا السحاب . فقال (صلى الله عليه وسلم) : والمُزْن . قالوا : والمُزْن . قال : والعَنَان . قالوا : والعَنان . فقال : هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لاندرى . قال : خمسمائة عام . وبينها وبين السماء التى فوقها كذلك . (حتّى عدّ سبع سماوات) . ثمّ قال : وفوق السماء السابعة بحرٌ ، بينَ أعلاه وأسفله كما بين سماء إلىٰ سماء (وفى لفظٍ : كما بين السماء والأرض) . وفوق ذلك ثمانية أوْعال ، بين أظلافهم وركبهم[1] مثل مابين سماء إلىٰ سماء ، ثم فوق ظهورهم[1] العرش ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض .

وجاء فى رواية أخرىٰ ذكر الكُرْسىّ ، وقال : « ثم مابين السماء السابعة والكرسىّ مسيرة خمسمائة عام . ثم ما بين الكرسىّ إلىٰ الماء مسيرة خمسمائة عام . والعرش فوق الماء . » ولم يذكر الأوْعال .

(١) فى الترمذىّ : أظلافهنّ وركبهنّ ... ... ظهورهنّ .

وجاء فى رواية أخرىٰ ذكر الكرسىّ ، وأنّ السماواتِ فى ضمنه . وهى بالنسبة إليه كحلْقة مُلقاة فى أرض فلاة ، والكُرْسىّ بالنسبة إلىٰ العرش كذَرّة مُلقاة فى أرض فلاة فيحاء.(وفى رواية كحلقة).

ورُوى أن أبا ذرّ (رضى الله عنه) قال : "يارسول الله : أىّ آية أُنزلت عليك أعظم؟ قال : آية الكرسىّ. ثم قال : ياأبا ذرّ ! أتدرى ما الكرسىّ ؟ قلتُ : لا، فعلّمنى يارسول الله ، مما علّمك الله . فقال : ما السماوات والأرض وما فيهنّ فى الكرسىّ ، إلا كحلْقة ألقاها مُلقٍ فى فلاة . وما الكرسىّ فى العرش، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة. وما العرش فى الماء، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة. وما الماء فى الريح، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة. وجميع ذلك فى قبضة الله كالحبّة ، وأصغر من الحبّة، فى كفّ أحدكم . تعالىٰ الله سبحانه" . رواه أبو حاتم فى كتاب العَظَمة .

والقول فى هيئة السماء، علىٰ مذاهب أصحاب علم الهيئة، كثير . أغضينا عنه، لأنه لايقوم عليه دليل واضح . فلذلك اقتصرنا علىٰ ذكر المنقول دون المعقول .

فلنذكُرْ ما جاء فى الأمثال التى فيها ذكر السماء، وما وصفها الشعراء به وشبّهوها .

٢ ــ أما الأمثال

فقولهم : أرفع من السماء، للبالغة .

وقول الشاعر :

مَن ذا رأىٰ أرضًا بغير سماء ؟

إنّ السماء تُرَجّى حين تحتجِبُ .

إنّ السماء ، إذا لم تبك مُقلتُها، * لم تضحكِ الأرضُ عن شىء من الزّهَرِ .

٣ — وأما الوصف والتشبيه

فمنه قول عبد الله بن المعتز :

كأنّ سماءَنا، لمّا تجلّتْ * خِلالَ نُجُومها عِنْدَ الصَّباح،
رياضُ بَنَفْسَجٍ خَضِلٍ، نَدَاه * تفتّح بَيْنَه نَوْرُ الأَقَاح .

٥ وقال آخر :

كأنّ سماءَنا، والشُّهْبُ فيها، * وأصغرُها لأكبرها مُزاحِمْ،
بِساطُ زُمُرُّدٍ نُثِرتْ عليه * دَنانيرٌ تُخالِطُها دَراهِمْ .

ونحوه قول الآخر :

كأنّ سَماءَ الأرض نَطْعُ زُمُرُّدٍ، * وقدفُرِشَت فيهالدَّنانيرُللصَّرْفِ .

١٠ وقال آخر :

ورأيتُ السَّماءَ كالبَحْرِ إلّا * أنَّ مَرْسُوبَهُ من الدُّرّ طافى .
فيه ما يَمْلَأُ العُيُونَ كبيرٌ * وصغيرٌ ما بَيْن ذلكَ خافى .

(١٣)

وقال التَّنُوخىّ يصف ليلةً :

كأنما نُجُومُها، * نُصْبَ عُيونِ الرَّمَق،
١٥ دَراهِمٌ قَد نُثِرَتْ * علىٰ بِساطٍ أزرَقِ .

وقال أبو طالب الرَّقّىّ :

وكأنّ أجرامَ السماء، لَوَامعًا، * دُرَرٌ نُثِرْنَ علىٰ بِساطٍ أزْرَقِ .

وقال ظافر الحدّاد :

كأنّ نُجُوم الليلِ، لما تبلجتْ، * توقُّدُ جَمْرٍ فى خِلالِ رَمادِ .
٢٠ حكىٰ، فوق ممتدّ المجرّة شَكْلُها، * فَوَاقِعَ تَطْفُو فَوْقَ لُجّةِ وادِى .

وقال آخر:

كأنَّ النُّجومَ، نجومَ السما، * وقد لُحنَ للعَيْنِ من فَرْط بُعْدِ،
مَسَامِيرُ من فِضَّةٍ سُمِّرَتْ * علىٰ وجه لَوْحٍ من اللَّازَوَرْدِ.

وقال محمد بن عاصم:

تُرىٰ صَفْحةُ الخَضْراء، والنَّجْمُ فَوْقَها، * ككفِّ سُدُوسيّ بَدَا فيه دِرْهَمُ. ٥
تُرىٰ، وعلىٰ الآفاق أثوابُ ظُلمةٍ، * وأزْرَارُهـا منها شَمَالٌ ومُرْزِمُ[1].

٤ — ومما قيل فى الفَلَك

قال أبو العَلاء المَعَرِّىُّ:

ياليتَ شِعْرِى! وهَلْ لَيْتٌ بنافعةٍ؟ * ما ذا وراءَكَ أو ما أنْتَ يا فَلَكُ؟
كَمْ خَاضَ فى إثْرِكَ الأقوامُ واختلفُوا * قِدْمًا! فما أوْضَحُوا حَقًّا ولا تَرَكُوا. ١٠
شمسٌ تَغِيبُ ويَقْفُو إثْرَها قَمَرٌ، * ونُورُ صُبحٍ يُوَافِى بَعْدَه حَلَكُ.
طَحَنْتَ طَحْنَ الرَّحىٰ مِن قَبْلِنا أُمَمًا * شَتَّىٰ، ولم يَدْرِ خلقٌ أيَّةً سَلَكُوا.
وقال، إنَّكَ طَبْعٌ خامِسٌ، نَفَرٌ، * عَمْرِى! لقد زعموا بُطْلًا وقد أَفَكُوا!
رامُوا سَرائِرَ للرحمٰن حَجَبَها، * ما نالَهُنَّ نَبِىٌّ، لا ولا مَلَكُ.

وقال الرئيس أبو علىّ بن سينا[2]: ١٥

بِرَبِّكَ! أيُّها الفَلَكُ المُدَارُ، * أقَصْدٌ ذا المَسِيرُ أم اضْطِرارُ؟
مَدارُكَ، قُلْ لنا، فى أىِّ شىءٍ؟ * ففِى أفْهامِنَا مِنْكَ انْبِهارُ!

---

(١) المرزم: الثابت القائم على الأرض.

(٢) قال صاحب عيون الأنباء (ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩) إن بعض الناس ينسب هذه القصيدة لابن سينا وليست له، ونص على أنها لابن الشبل البغدادى وقد أوردها فى خمسين بيتا. ٢٠

وعِنْدكَ تُرفَعُ الأرواحُ؟ أم هَلْ * مَعَ الأجسادِ يُدرِكُها البَوارُ؟
وفيكَ الشَّمْسُ رافِعةٌ شُعاعًا، * بأجْنِحَةٍ قَوادِمُها قِصارُ؟
قُطُوفٌ، ذِي النُّجومُ أم اللآلي؟ * هِلالٌ أم يدٌ فيها سِوارُ؟
وشُهْبٌ، ذي المَجَرَّةُ أمْ ذُبالٌ[1] * عليها المَرْخُ[2] يُقدَحُ والعَفارُ[3]؟
وترصيعٌ، نُجومُكَ أمْ حَبابٌ * تُؤلِّفُ بينها اللُّجَجُ الغِزارُ؟
تُمَدُّ رُقومُها لَيْلًا وتُطْوَى * نَهارًا، مِثْلَ ما طُوِيَ الإزارُ!
فَكَمْ بِصِقالِها صَدِئَ البَرايا! * وما يَصْدا لها أبدًا غِرارُ.
وتبدو ثُمَّ تَخْنِسُ راجِعاتٍ * وتكنِسُ مثلَ ما كَنَسَ الصُّوارُ[4].
فَبَيْنا الشَّرْقُ يُقْدِمُها صُعُودا * تَلَقّاها من الغَرْبِ انْحِدارُ.
هي العَشْواءُ، ما خَبَطَتْ هَشِيمٌ * هي العَجْماءُ، ما جَرَحَتْ جُبارُ[5].

وقال أبو عُبادة البُحتُرِيّ:

أناةً! أيُّها الفَلَكُ المُدارُ! * أنَهْبٌ ما تُصرِّفُ أم خِيارُ؟
ستَبلى مِثْلَ ما نَبلى، وتَفْنى * كما نَفْنى، ويُؤخَذُ منكَ ثارُ.

---

(١) الذبال: الفتائل.

(٢) المَرخ: شجر سريع الوَرْي كثيره. وقد وصفه المؤلف فيما بعد (ص ٣٩) بأنه شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورى نارا.

(٣) العفار: شجر يتخذ منه الزناد وهو من شجر النار.

(٤) الصوار كالصيار بكسر الصاد وضمها: القطيع من البقر.

(٥) الجبار (بضم الجيم) الهَدَر.

الباب الثالث

من القسم الأول من الفن الأول

١ — فى ذكر الملائكة

(١٤) قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أطّتِ[1] السماءُ، وحُقّ لها أن تئطّ. ما فيها موضعُ أربع أصابعَ، إلّا وعليه مَلَك قائم أو راكع أو ساجد". ٥

والملائكة أولو أجنحة: مثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباعَ، وأكثر من ذلك. فإنه قد ورد أن جبريل (عليه السلام) له ستمائة جناح. وهى الصورة التى رآه النبىّ (صلى الله عليه وسلم) فيها مرّتين:

إحداهما فى الأرض، وقد سدّ ما بين الخافقين. ووصفه الله تعالىٰ بالقوّة، فقال تعالىٰ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العرشِ مَكِينٍ﴾. ومن قوّته، أنه اقتلع مدائن ١٠ قوم لوط، وكانت خمس مدائن، من الماء الأسود، وحملها علىٰ جناحه. ورفعها إلىٰ السماء، حتّى إنّ أهل السماء يسمعون نُباح كلابهم، وأصوات دَجاجهم، ثُمّ قلبها.

والمرّة الثانية، رآه (صلى الله عليه وسلم) عند سِدْرَة المنتهىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ﴾.

وكان هبوط جبريل (عليه السلام) علىٰ الأنبياء (صلوات الله عليهم) ورجوعه ١٥ فى أَوْحَىٰ[2] من رَجْع الطَّرْف.

---

(١) أطّ: صوّت.

وعُظماء الملائكة أربعة ، وهم : إسرافيل ، وميكائيل ، وجبرائيل ، وعزرائيل . وأقربهم من الله تعالىٰ منزلةً ، إسرافيل .

فإذا أراد الله تعالىٰ بوحْيٍ ، جاء اللوحُ المحفوظُ حتّى يقرعَ جَبْهة إسرافيل ، فيرفع رأسه . فينظر فيه . فإن كان إلىٰ السماء ، دفعه إلىٰ ميكائيل ؛ وإن كان إلىٰ الأرض ، دفعه إلىٰ جبرائيل ؛ وإن كان بموت أحد ، أمر به عزرائيل . صلوات الله عليهم !

وقد رُوى في قوله تعالىٰ : ﴿ فالمُدَبِّراتِ أمْرًا ﴾ ، هم أربعة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل . فجبريل علىٰ الجنود والرياح ، وميكائيل علىٰ القَطْر والنبات ، وعزرائيل علىٰ قبض الأرواح ، وإسرافيلُ يبلِّغهم ما يؤمَرون به .

وجعل الله تعالىٰ لهم أن يتمثلوا للبشر علىٰ ما شاءوا من الصور ، كما كان جبريل يتمثل لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علىٰ صورة دِحْية الكلبيّ مرارا ، وفي صورة غيره من الرجال ؛ وكما تمثّل لمريم عليها السلام بشرا سويا . ونزلت الملائكة في غزوة بدر علىٰ الخيول المسوّمة ، وقد سدلوا ذوائب عمائمهم علىٰ مناكبهم . وهم مخلوقون من نور . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين !

الباب الرابع

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ — فى الكواكب السبعة المتحيرة

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِى الْكُنَّسِ ﴾ . ذهب المفسرون إلىٰ أنها هى الكواكب السبعة : زُحلُ، والمشترِى ، والمِرّيخ، والشمسُ، والزُّهَرة، وعُطاردٌ، والقمر . ٥

وقالوا : إن هذه الكواكب هى المعنيّة بقوله تعالىٰ : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .

وسميت كُنَّسا لأنها تجرى فى البروج ثم تَكْنِس أى تستتر كما تكنس الظباء، وخُنَّسا لاستقامتها ورجوعها . وقيل الخُنَّس والكُنَّس منها خمسة، دون الشمس والقمر . وسميت خُنَّسا لأن الخُنُوس فى كلام العرب الانقباض . وفى الحديث الشريف ١٠ "الشيطانُ يُوَسْوِس للعبد، فإذا ذكر اللهَ تعالىٰ خَنَس" أى انقبض ورجع . فيكون فى الكوكب بمعنىٰ الرجوع . وكُنَّسا من قول العرب كَنَس الظبىُ اذا دخل الكِناس، وهو مقرّه، ويكون فى الكوكب اختفاءه تحت ضوء الشمس .

وأسماء هذه الكواكب عند العرب مشتقة من صفاتها .

§ فقالوا فى زحل : زَحَل فلانٌ إذا أبطأ، وبذلك سمّى هذا الكوكب لبطئه فى السماء. ١٥ وقيل الزَّحْل والزِّحيل[1] الحقد وهو فى طبعه . وهذا الكوكب عند المفسرين هو المعنىّ بقول الله عز وجل ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .

(١) الذحل الذى بمعنى الحقد بالذال المعجمة ولم يذكره أحد من أئمة اللغة فى الزاى . فهو اشتباه على الناقل . والذى "فى اللسان" أنه سمى بذلك لبعده .

§ وقالوا في المشترِى : إنه إنما سمِّى بذلك لحسنه ، كأنه آشترىٰ الحسنَ لنفسه . وقيل لأنه نجم الشراء والبيع ، ودليل الأموال ، والأرباح .

§ وقالوا في المِرّيخ : إنه مأخوذ من المَرْخ (وهو شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتُورِى نارا) فسمِّى بذلك لآحمراره . وقال آخرون المرّيخ سهمٌ لاريش له إذا رُمِىَ به لايستمرّ في ممرّه . وكذلك المِرّيخ ، فيه آلتواء كثير في سيره وحكمه ، فشبه بذلك .

§ وقالوا في الشمس : إنها لما أن كانت واسطة بين ثلاثة كواكب عُلْوية وثلاثة سفلية ، سميت بذلك لأن الواسطة التي في المِنْطَقة تسمّٰى "شمسة" .

§ وقالوا في الزُّهَرَة : إنها مشتقة من الزاهر ، وهو الأبيض النَّيِّر من كل شيء . (١٥)

§ وقالوا في عطارد : إنه النافذ في الأمور ، ولهذا سمِّى بالكاتب . وهكذا هذا الكوكب كثير التصرف مع مايلابسه ويقارنه .

§ وقالوا في القمر : إنه مأخوذ من القُمْرة ، وهي البياض ؛ والأقمر الأبيض .

§ والفُرس تسمِّى هذه الكواكب بلغتها "كِيوان" ، ويعنون به زُحَل ؛ و"تير" ، ويعنون به المشترِىَ (وبعضهم يسميه "البِرْجِيس") ؛ و"بَهْرام" ويعنون به المِرّيخ ؛ و"مِهْر" ويعنون به الشمس ؛ و"أَناهيد" ويعنون به الزُّهَرَة (وبعضهم يسميها "بِيدُخْتْ") ، و"هِرْمِسْ" (ويعنون به عُطارد) ، و"ماه" (ويعنون به القمر) .

§ وقد جمع بعض الشعراء أسماء هذه الكواكب في بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال :

لازلْتَ تَبْقىٰ وتَرْقىٰ للعُلَا أبدًا * مادامَ للسَّبْعةِ الأفلاكِ أحْكامُ !

مِهْرٌ ، وماهٌ ، وكِيوانٌ ، وتيرُ معًا * وهِرْمِسٌ ، وأَناهيدٌ ، وبَهْرامُ !

وقال أبو إسحاق الصابى :

نَلِ المُنىٰ فى يَوْمكَ الأجْوَدِ * مُسْتَنْجِحا بالطالع الأسْعدِ!
وٱرقَ كَمَرْقىٰ زُحَلٍ صاعدًا * إلىٰ المَعَالِى أشرفَ المَقْصِدِ!
وفِضْ كَفَيْضِ المُشْتَرِى بِالنَّدىٰ * إذا ٱعْتَلىٰ فى أُفْقِه الأبعدِ!
وزِدْ علىٰ المِرّيخ سَطْوًا بمَنْ * عاداكَ مِنْ ذى نَخْوةٍ أَصْيدِ! ٥
وٱطْلُعْ كما تَطْلُعُ شمسُ الضُّحىٰ * كاسفةً للجِنْدِسِ الأسْوَدِ!
وخُذْ من الزُّهرةِ أفعالَهَا * فى عَيْشِكَ المُسْتَقْبَلِ الأرغدِ!
وَضَاهِ بالأقْلامِ فى جَرْيِها * عُطارِدَ الكاتِبَ ذا السُّودَدِ!
وبَاهِ بالمَنْظَرِ بَدْرَ الدُّجىٰ * وٱفضُلْهُ فى بَهْجَتِه وٱزدَدِ!

وقد ٱختُص كلُّ كوكب من هذه الكواكب بقول . سنذكر من ذلك ماتقوم به ١٠ الحجة ، وينهض به الدليل من الكتاب والسنة ، وما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكرها ، وما ورد فى ذلك من الأوصاف والتشبيهات : نظما ونثرا مما وقفتُ عليه فى أثناء مطالعتى لكتب الفضلاء وتصانيفهم ودواوينهم . وعدلتُ عن أقوال المنجمين لما فيها من سوء الطوية وقبح الاعتقاد : لأن منهم من يرىٰ أن للنجوم فى الوجود تأثيرات وأفعالا . أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك! ١٥

---

٢ — ذكر ماقيل فى الشمس

(والشمس هى النيِّر الأعظم)

وقد ذهب بعض المفسرين لكتاب الله تعالىٰ إلىٰ أن نور الشمس والقمر فى سائر السماوات بدليل قول الله عز وجل ﴿وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ .

وجاء في الحديث عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "الشمس والقمر وجوههما إلىٰ السماء وأقفاؤهما إلىٰ الأرض" وفي حديث آخر "وجوههما إلىٰ العرش وأقفاؤهما إلىٰ الأرض". وفي حديث آخر "ان الشمس تكون في الصيف في السماء الخامسة، وفي الشتاء في السماء السابعة تحت عرش الرحمن".

٥ § وزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا في يومها، وتغيب في الأرض في عين حَمِئَةٍ. ومعنىٰ حَمِئة ذات حَمْأة.

وقد جاء في تفسير قوله تعالىٰ ﴿ والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أي إلىٰ موضع قرارها، لأنها تجرى إلىٰ أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع؛ ومن قرأ "لامستقرّ" لها أي هي دائبة السير ليلا ونهارا. وهي قراءة شاذة[1].

١٠ وقد قال الله تعالىٰ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ دائِبَيْنِ ﴾ وروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنها تجرى لمستقر لها تحت العرش، فتخرّ ساجدة؛ فلا تزال كذلك حتّى (١٦) يُؤْذَن لها في الطلوع. ويوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها.

١٥ وذهب وَهْب بن مُنَبِّه إلىٰ أن الشمس علىٰ عجلة لها ثلثمائة وستون عروة، وقد تعلق بكل عروة مَلَكٌ، يجرّونها في السماء ودونها البحر المسجور في موج مكفوف كأنه جبل ممدود في الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ماعلىٰ وجه الأرض من شيء حتّى الجبال والصخور. ورُوى عن كعب أنه قال: "خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار".

٢٠ (١) هذا الرأى هو الذى استقر عليه علماء الفلك أخيرا، بعد التحقيق والتدقيق. فلله در صاحبه! فإنه، وإن كان قد خالفه فيه الدهماء، لكنه قد أقرّه الراسخون في العلم الآن.

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ . والسراج لا يكون إلا من نار، وهما مضيآن لأهل السماوات، كما يضيآن لأهل الأرض .

وقد تقدم الدليل على ذلك .

٣ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الشمس

يقال : أشهرُ من الشمس . أحسنُ من الشمس . أدلُّ على الصبح من الشمس .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهَلْ شمسٌ تكونُ بلا شُعاعٍ * * فى طَلْعةِ الشمسِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ *

* ولو لم تَغِبْ شمسُ النهارِ، لمُلَّتِ * * الشمسُ نَمَّامةٌ واللَّيلُ قَوَّادُ *

* الشمسُ طالعةٌ إنْ غُيِّبَ القمرُ * * وربَّما تَنْكَسِفُ الشمسُ *

* والشمسُ تخطُّ فى المَجْرى وترتفعُ * * إذا الشمسُ لم تغرُبْ، فلا طَلَعَ البَدْرُ *

ومن الابيات قول الطائى :

فإنِّى رأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ محبَّةً * إلى الناس إذ لَيْسَتْ عليهم بسَرْمَد .

وقال علىّ بن الجهم .

والشَّمْسُ لولا أنها مَحْجُوبةٌ * عن ناظرَيْكَ لما أضاءَ الفَرْقَدُ .

وقال أبو تمّام :

وإنّ صَريحَ الرأْى والحَزْمِ لامْرِئٌ * إذا بلغَتْهُ الشمسُ، أن يَتَحَوَّلا .

وقـــوله :

وكلُّ كُسوفٍ فى الدَّرارِى شنيعةٌ، * ولٰكنَّه فى الشمْسِ والبَدْرِ أشْنَعُ.

وقـــوله أيضا :

أعِنْدكَ الشمسُ تجْرِى فى مَنازِلِهَا، * وأنْتَ مُشتَغِلُ الالحاظِ بالقَمَرِ؟

٥ وقال البُحتُرِىُّ :

كَذاكَ الشَّمسُ تَبْعُد أن تُسامَى، * ويَدْنُو الضَّـوْءُ منهـا والشُّعاعُ.

وقال ابن الرومى :

ورأيتُه كالشَّمْس: إن هى لم تُنَلْ * فالدِّفء منهـا والضِّياء يُنَـالُ.

وقال أيضـا :

١٠ كالشَّمْسِ لاتَبْـدُو فَضِـيلتُها * حتَّى تُغَشَّى الأرضُ بالظُّـلَمِ.

وقال أيضـا :

كالشمسِ فى كَبِدِ السماءِ مَحَلُّها، * وشـعاعُهـا فى سـائرِ الآفاقِ.

وقال العبّاس بن الأحنف :

هِىَ الشمسُ مَسْكَنُها فى السماء، * فعَزِّ الفُـؤادَ عَزاءً جمِيـلا!

١٥ وقال أبو عبيد البكرىّ :

والشمسُ يُستَغْنَى، إذا طلَعَتْ، * أن يستَضاءَ بغرّة البَـدْرِ.

وقال أبو الطيب المتنبى :

كالشمسِ لاتبتغِى بمـا صَنَعَتْ * مَنْفَعَةً عِنْدَهُـمْ ولا جاهَـا.

وقال ابن لَنْكَك البصرىّ :

وهَبْكَ كالشَّمْس فى حُسنٍ ؛ ألم ترَها * يُفَرُّ منها إذا مالَتْ إلىٰ الضَّرر؟

وقال ابن عَبَّاد :

فقلتُ : وشمسُ الضُّحىٰ تُحْتَمىٰ * إذا بَسطَتْ فى المَصيف الأذىٰ.

وقال ابن مسعويه الخالدىّ : ٥

لايُعجِبَنَّكَ حُسْنُ القَصْرِ تَنْزِلُه * فَضيلةُ الشمسِ لَيْسَتْ فى مَنازلها.

وقال أبو الفتح البُسْتِىّ :

فالحرُّ حُرٌّ عَزيزُ النَّفسِ حَيْثُ ثَوىٰ، * والشَّمسُ فى كُلِّ بُرْجٍ ذاتُ أنوار.

---

٤ — ذكر ما جاء فى وصف الشمس وتشبيهها

§ من ذلك قول الوزير المهلَّبىّ : ١٠

الشَّمْسُ فى مَشْرِقِها قد بَدَتْ * مُنِيرةً ليْسَ لها حاجِبُ.

كأنَّها بَوْدَقَةٌ أُحْمِيتْ، * يَجُولُ فيها ذهبٌ ذائِبُ.

وقال ظافر الحدّاد :

أُنْظُرْ لقَرْن الشَّمْسِ بازِغَةً * فى الشَّرْق تَبْدُو ثم تَرْتَفِع!

كَسَبِيكةِ الزَّجَّاج ذائِبةً * حَمْراءَ يَنْفُخُها فتَتَّسِع. ١٥

وقال أبو هلال العسكرىّ :

والشمسُ واضِحةُ الجَبِينِ كأنَّها * وجهُ المَلِيحةِ فى الخِمَار الأزْرقِ!

وكأنّها عِنْد انْبِساطِ شُعاعِها * تَبْرٌ يَذُوبُ على فُرُوعِ المَشْرِقِ!

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ :

أَوَ مَا تَرَى شمسَ الأصيلِ عَلِيلةً * تَزْدَادُ من بَيْنِ المَغارِبِ مَغْرِبا؟

ما لَتْ لتحْجُبَ شَخْصَها فكأنها * مَدّتْ على الدُّنيا مُلاءً مُذْهَبا!

٥ §ومما وصفت به — وقد قابلت القمر — قول الشاعر :

أما تَرَى الشمسَ، وهْيَ طالِعَةٌ، * تَمنَعُ عنّا إدامةَ النَّظَرِ؟

حَمْراءَ صَفْراءَ في تَلَوُّنِها * كأنّها تَشْتَكِي من السَّهَرِ.

مِثْلَ عَرُوسٍ غَداةَ لَيْلَتِها * تُمْسِكُ مِرْآتَها من القمرِ.

وقال مؤيد الدين الطغرائي، عفا الله عنه ورحمه :

١٠ وكأنّما الشمسُ المُنِيرةُ إذ بَدَتْ، * والبَدْرُ يَجْنَحُ للمَغِيبِ وما غَرَبْ، (١٧)

مُتحارِبانِ : لِذا مِجَنٌّ صاغَهُ * من فِضّةٍ، ولِذا مِجَنٌّ من ذَهَبْ.

§ومن أحسن ما وصفت به في الطلوع والزوال والغروب قول أعرابيّة .

مُخَبَّأةٌ : أمّا إذا اللَّيْلُ جَنَّها * فتَخْفَى وأمّا في النَّهارِ فتَظْهَرُ.

إذا انْشَقَّ عنها ساطِعُ الفَجْرِ وانْجَلَى * دُجَى الليلِ وانْجابَ الحِجابُ المُسَتَّرُ

١٥ وأَلْبَسَ عَرْضُ الأُفْقِ لَوْنًا كأنّهُ * على الأُفْقِ الغربيّ ثَوْبُ مُعَصْفَرِ

عليها دُرُوعُ الزَّعفرانِ، يَشُوبُهُ * شُعاعٌ تَلالا فهْو أبيضُ أصْفَرُ:

تَرَى الظِّلَّ يُطْوَى حين تَبْدُو وتارَةً * تراه إذا زالَتْ عن الأرْضِ يُنْشَرُ.

وأفْنَتْ قُرُونًا، وهْيَ في ذاك لم تَزَلْ * تَمُوتُ وتَحْيَا كلَّ يومٍ وتُنْشَرُ!

وقال آخر :

وبدا لنا تُرْسٌ من الذَّهَب الذى * لم يُنْتَزَعْ من مَعْدِن بتعمُّل .
مِرْآة نُور لم تُشَنْ بِصِيَاغة * كَلَّا ولا جُلِيَتْ بكفِّ الصَّيْقَل .
تَسْمُو إلىٰ كَبِد السماء كأنَّها * تبغى هُناكَ دِفاعَ أمرٍ مُعْضِل .
حتَّى إذا بلَغَتْ إلىٰ حيثُ انتهَتْ * وقَفَتْ كوقْفة سائلٍ عن مَنْزِل .
ثم انثنَتْ تبغِى الحُدورَ كأنها * طيرٌ أَسَفَّ مَخَافةً من أجْدَلِ .

§ ومما وصفت به ، وقد قابلت الغيم ، قول ابن المعتز :

تظَلُّ الشمسُ ترمُقُنا بطَرْفٍ * خَفِيٍّ لَحْظُه من خَلْفِ سِتْر .
تُحاوِلُ فَتْقَ غَيْمٍ وهو يأبىٰ * كعِنِّينٍ يُحاوِلُ نَيْلَ بِكْر .

وقال آخر :

وعَيْنُ الشمسِ تَرْنُو من بَعِيدٍ * رُنُوَّ البِكْرِ من خَلْفِ السُّتُور .

وقال محمد بن رشيق :

فكأنَّ الشَّمسَ بِكْرٌ حُجِبَتْ * وكأنَّ الغَيْمَ سِتْرٌ قد سُتِرْ[1] .

٥ — ذكر شىء مما وصفت به علىٰ طريق الذم

فمن ذلك ماقاله عبد الملك بن عمير ، وقد سئل عنها فقال : مُظْهِرة للدّاء ، مثقِّلة للهواء ، مَبْلاة للثوب ، جالبة للَّهَب .

وقال آخر : الشمس تشحب اللون ، وتغيِّر العَرَق ، وتُزْرِى البدن ، وتُثِير المِرّة . إذا احتجمت فيها ، أمرضتك ؛ وإن أطلت النوم فيها ، أفلجتك ؛ وإن قُرِبت منها ، صرت زَنْجِيًّا ، وإن بعدت عنها ، صرت صِقْلِيًّا .

(١) كذا بالأصل ولعل يد الناسخ حرفته عن "سدل" كما هو ظاهر .

وقال ابن سنا الملك :

لا كانت الشمسُ! فكَمْ أصْدأتْ * صَفْحةَ خدٍّ كالحُسَام الصَّقيلْ!
وكَمْ وكَمْ صَدتْ بِوَادِى الكَرَى * طيفَ خيالٍ جاءنِى عن خَليلْ!
وأعدمَتْنِى من نُجُومِ الدُّجَى * ومنه روْضًا بين ظِلٍّ ظليلْ!
تَكْذِبُ فى الوَعْدِ، وبُرهَانُه * أنّ سَرَاب القَفْرِ منها سَليلْ.
وهْىَ إذا أبصَرَها مُبْصِرٌ * حَدِيدُ طرفٍ، راحَ عنها كَليلْ.
ياعِلَّةَ المَهمُومِ، يا جِلدةَ الـ * ـمحموم، يا زَفْرةَ صَبٍّ نحيلْ!
ياقَرْحَةَ المَشْرِق عند الضُّحَى، * وسَلْحَةَ المَغْرِبِ عِنْدَ الأصِيلْ!
أنتِ عَجُوزٌ، لِمْ تبرَّجْتِ لِى، * وقد بَدَا منكِ لُعَابٌ يَسِيلْ؟

وقال التيفاشى، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

فى خِلْقةِ الشمس وأخلاقِها * شَتَّى عُيُوبٌ ستة تُذْكَرُ.
رَمْداءُ، عَمْشاءُ، إذا أصبحَتْ، * عَمياءُ عِنْدَ اللَّيلِ، لا تُبصِرُ.
ويَغْتَدِى البدرُ لها كاسِفًا * وجِرْمُها من جِرْمِه أكبَرُ.
حُرورُها فى القَيْظِ لا تُتَّقَى * ودِفْؤُها فى القُرِّ مُسْتَحْقَرُ.
وخُلْقُها خُلْقُ المَلِيكِ الذى * يَنْكُثُ فى العهد ولا يَصبِرُ.
ليسَتْ بحسناءَ، وما حُسْنُ مَنْ * يَحْسِرُ عنه اللحظُ لا يُبصِرُ؟

وقال أبو الطيب المتنبى :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ منَّا بِيضَ أوْجُهنا * ولا تُسَوِّدُ بِيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ.
وكان حالُهما فى الحكم واحدةً * لو اخْتَصَمْنا من الدُّنيا إلى حَكَمِ.

٦ — ذكر ما قيل فى الكسوف

روى أن الشمس كُسفت فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووافق ذلك موتَ إبراهيم بن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال الناس: إنما كسفت الشمس لأجله فقال النبىّ (صلى الله عليه وسلم) "إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات الله تعالى يُخوِّف بهما عباده، وإنهما لا يكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك، فادْعُوا اللهَ وكبِّروا وصلُّوا حتّى يكشَفَ ما بكم".

وقال محمد بن هانئ فى الكسوف.

هى الحوادثُ لا تُبْقِى ولا تَذَرُ! * ما لِلْبَرِيَّة من مَحْتُومها وَزَرُ!
لَوْ كان يُنْجِى عُلُوٌّ من بَوَائِقِها، * لم تُكْسَفِ الشمسُ بل لم يخسَفِ القمرُ!

٧ — ذكر أسماء الشمس اللغوية

ولِلشمس أسماء نطقت بها العرب. فمنها: ذُكاءُ، والجارية، والجَوْنة، والغَزَالة، واللاهة[1]، والضُّحى، والضَّحُّ، ويُوح (بالياء المثناة والباء الموحدة)، والشَّرْق، وحَنَاذِ، والعَيْن، والمؤوِّبة، والسِّراج.

(١) الذى فى كتب اللغة أن اللاهة اسم هيئة. وأما الشمس فاسمها إلاهة مثلثة وإلية. فلعل ما هنا تصحيف من الناسخ.

٨ — ذكر عُبَّاد الشمس

قال الشهرستانيّ في كتابه المترجم "بالملل والنحل": إن عَبَدَة الشمس طائفةٌ من الهنود يسمَّوْن الديبكينية[1] أي عباد الشمس، ومذهبهم مذهب الصابئة. وتوجههم إلى الهياكل السماوية دون قصر الإلهية والربوبيّة عليها. ويزعمون أن الشمس ملَك من الملائكة، وأن لها نفسا وعقلا، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتكوّن الموجودات السفلية. وهي مَلَك يستحق التعظيم، والسجود، والتبخير، والدعاء. ومن سنتهم أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار. وللصنم بيت خاصٌّ بنوه باسمه ووقفوا عليه ضياعا، وله سَدَنة وقُوّام. فتأتي هذه الطائفة إلى البيت، ويصلّون فيه ثلاث كرّات. ويأتي أصحاب العلل والأمراض فيصومون له، ويصلّون، ويدعون، ويستشفون به.

---

٩ — ذكر ماقيل في القمر

(وهو النير الثاني)

ذهب وَهْبُ بن مُنَبِّه أن القمر موضوع على عجلة في فَلَك، والفلَك يدور بأمر الله تعالى إلى ناحية المغرب، والعجلة يجرّها ثلثمائة وستون ملكا إلى ناحية المشرق؛ وتدوير العجلة من تدوير الفلك الأعظم، وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة.

ويقال: إن القمر كان كالشمس في الضياء. فلم يكن يعرف الليل من النهار، فأمر الله تعالى جبريل أن يمرّ عليه بجناحه، فمرّ عليه، فمحاه. فهو ما ترى فيه من السواد.

---

(١) الذي في الشهرستاني طبع نويدرة: "الديكيتيّة". وهو الأقرب للصواب ويقول مترجمه الألماني العلامة هار بردكرانه ولعله من "ديـ كَرْت" ومعناه «صانع النهار».

وبهذا القول فسر قوله تعالىٰ ﴿ وجَعَلْنا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيتَيْن فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ وجَعَلْنا آيةَ النَّهارِ مُبْصِرة ﴾ .

قالوا : ولا يسمّى قمرا إلا بعد مضىّ ثلاث ليال من آستهلاله . والأقمر هو الأبيض .

---

١٠ — ذكر ما قيل فى القمر

(من آستهلاله إلىٰ آنقضاء الشهر وأسماء لياليه) ٥

قالوا : وللقمر من أوّل الشهر إلىٰ آخره خمسُ حالات ، ولليالیه عشرة أسماء

§ أما حالاته الخمس :

فالأُولىٰ : الهلالية ، وهى خروجه من تحت شُعاع الشمس وظهوره فى الغرب فى أوّل الشهر .

الثانية : أن يفضل فيه النور علىٰ الظلمة ، وذلك فى الليلة السابعة من الشهر . ١٠

الثالثة : الآستقبال ، وهو كونه فى البرج السابع من بروج الشمس ، ويسمّى الآمتلاءَ لآمتلاء القمر فيه نورا ، وذلك فى الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، ويسمّى القمر فيها بدرًا لكماله ، ويسمّى بذلك لآمتلائه ، وقبل لمبادرته الشمسَ بالطلوع ، وتسمّى الليلة التى قبلها (وهى الثالثة عشرة) ليلة السَّواء لآستواء القمر فيها ، وقيل : لآستواء ليلها ونهارها فى الضياء ، وهى ليلة التَّمام . ١٥

الرابعة : أن تفضل الظلمة فيه علىٰ النور ، وذلك فى الليلة الثانية والعشرين من الشهر .

الخامسة: المِحاقيَّة، وهي مُدَّة آستتاره بشُعاع الشمس؛ ويسمّى ذلك أيضا سِرارا، وذلك في الليلة التاسعة والعشرين، ويمكن أن يغيب ثلاث ليال لا يرى ويهلّ في اليوم الرابع، ويسمّى حينئذ قمرا لاهلالًا؛ والشمس تعطيه من نورها كلَّ ليلة مايستضيء به نصفُ سُبع قُرصه حتّى يكمل، ثم يُسْلَبُه من الليلة الخامسةَ عشرةَ، في كل ليلة نصف سبع قرصه حتّى لا يبقى فيه نور فيستتر.

وأما أسماء لياليه، فإنه يقال لأوّل ثلاثة منها غُرَر، والثانية شُهب، والثالثة زُهْر، والرابعة بُهْر، والخامسة بِيض، والسادسة دُرَع، والسابعة حَنادِس[1]، والثامنةُ ظُلَم، والتاسعة دَآدٍ، والعاشرة ليلتان منها مِحَاق وليلة سِرَار؛ ويسمُّون الليلة الثامنة والعشرين الدَّعْجاء، والليلة التاسعة والعشرين الدَّهماء، والليلة المُوفِيَةَ ثلاثين اللَّيْلاءَ، ويسمُّونها ليلة البَرَاء لتبرّي القمر من الشمس.

١١ — ذكر أسماء القمر اللُّغوية

وللقمر أسماء نطقَتْ بها العرب. فمنها: القَمر، والباهِر، والبَدْر، والطَّوْس، والجَلَم، والغاسِق، والوَبَّاص، والزَّبْرِقانُ، والمُنْشَقُّ، والواضِح[2]، والباحُور، والأبرص، والزَّمْهَرِير. ومنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وقول بعض العرب.

وليلةٍ ظَلَامُها قد آعتكَرْ * قَطَعْتُها والزَّمهرِيرُ ما ظهَرْ.

(١) الذي في اللسان والقاموس: ان الظُّلَم، ثلاث ليال يَلِينَ الدُّرَع. والحنادس، ثلاث ليال بعد الظلم. ويؤيده ما في الصحاح: ان الحِنْدِس الليل الشديد الظلمة. وقد ذكر ابن سيدة هذه الأسماء في المخصص (ج ٩ ص ٣٠ — ٣١) وأوردها على هذا الترتيب. وعليه فصواب العبارة هكذا: (والسادسة درع، والسابعة ظلم، والثامنة حنادس الخ) اه.

(٢) الذي في كتب اللغة: ان الوضح القمر، فلعله تحريف من الناسخ.

ومن أسمائه : السِّنِمَّار، والسَّاهُور .

والفَخْت ضوءُه، والأَخْذ[1] مَنزلته . وكذلك الوَكْس، وهى المنزلة التى يُكْسَف فيها . والهالَة دارتُه .

١٢ — ذكر مايتمثل به مما فيه ذكر القمر

يقال فى أمثالهم :

أضيَعُ من قمر الشتاء! قيل لأنه لايُجلَس فيه .

إن يَبْغِ عليكَ قومُكَ، لا يَبْغِ عليك القمر .

ويقال : أضوأ من القمر، وأتمُّ من البدر .

ومن أصناف الأبيات :

* أُرِيها السُّهَا وتُرِينِى القَمَرْ * * لاتَخْرُجُ الأقمارُ من هالاتها *

* هكذا البَدْرُ فى الظَّلام يُوافِى * * كذاك كُسُوفُ البدرِ عِنْد تَمامِه *

ومن الأبيات قول الطائى :

إنَّ الهِلَالَ إذا رأيتُ نُمُوَّه * أيقنتُ أنْ سيكُونُ بَدْرا كامِلا .

وقال ابن أبى البغل، والبيت الثانى لابن بحر :

المَرْءُ مِثْلُ هِلَالٍ حين تُبْصِرُه * يَبْدُو ضعِيفًا ضَئِيلا ثم يَتَّسِق .

«يَزْدادُ حتّى إذا ماتَمَّ أعْقَبَه * كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثم يَنْمَحِق» .

وقال أبو الفرج الببغا :

سَتَخْلُصُ من هذا السِّرَار وأيُّما * هلالٌ تَوارَى فى السِّرارِ فما خَلَص !

(١) عبارة اللسان فى مادة (أ خ ذ) : ونجوم الأخذ منازل القمر لأن القمر يأخذ كل ليلة فى منزل منها اهـ.

١٣ — ذكر ماقيل في وصفه وتشبيهه

من ذلك قول عبد الله بن المعتز في الهلال:

وانظُرْ إليهِ كزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ * قد أثقلَتْه حُمُولُه من عَنْبر !

وقول عبد الجبار بن حمديس الصقلىّ:

٥ ورُبَّ صُبْحٍ رقَبْناهُ، وقد طَلَعتْ * بَقِيَّةُ البَدْرِ في أُولى بَشَائِرِهِ !

كأنَّما أدْهَمُ الإظْلامِ حينَ نَجَا * من أشْهبِ الصُّبْحِ، ألقى نَعْلَ حافِرِهِ !

وقال آخر:

قَدِ انْقضَتْ دَوْلَةُ الصِّيامِ وقد * بَشَّر سُقْمُ الهِلَالِ بالعِيدِ !

يَتْهلُو الثُّرَيَّا كفاغِرٍ شَرِهٍ * يَفْتَحُ فاهُ لأكْلِ عُنْقُودِ !

١٠ وقال أبو هلال العسكرىّ:

في هِلَالٍ كأنَّهُ حَيَّةُ الرَّمْلِ أصابَتْ على اليَفَاعِ مَقِيلا .

باتَ في مِعْصَمِ الظَّلامِ سِوَارًا * وعلى مَفْرِقِ الدُّجى إكْلِيلا .

وقال آخر:

والجَوُّ صافٍ والهِلالُ مُشَنَّفٌ * بالزُّهرةِ الزَّهْراء نَحْوَ المَغْرِب .

١٥ كصَحِيفةٍ زَرْقاءَ فيها نُقْطَةٌ * من فضةٍ من تحتِ نُونٍ مُذْهَب .

وقال آخر:

قُلْتُ لَمَّا دنَتْ لمَغْرِبِها الشَّمْسُ ولاحَ الهِلَالُ للنُّظَّارِ :

أقرضَ الشَّرقُ صِنْوَه الغَرْبَ دينًا * رافأعطاهُ الرَّهْنَ نِصفَ سِوَارِ .

(٢٠) وقال أبو العلاء المعرّى :

ولاحَ هِلالٌ مِثلُ نُونٍ أجادَهَا * بذَوْب النُّضَار الكاتِبُ ابنُ هِلال .

وقال آخر :

وكأنّ الهِلالَ نُونُ لُجَيْنٍ * غَرِقَتْ فى صَحِيفةٍ زَرْقاء .

وقال أبو عاصم البصرىّ من شعراء اليتيمة : ٥

رأيتُ الهِلالَ، وقد أحدَقَتْ * نُجُومُ الثُّرَيَّا لكى تَسْبِقَه .

فشَبَّهْتُهُ وَهْو فى إثْرِها * وبينَهُما الزُّهَرةُ المُشْرِقه ،

بقَوْسٍ لِرامٍ رَمَى طائرا * فأتْبَع فى إثْرِه بُنْدُقه .

وقال آخر :

ولاح لَنَا الهِلالُ كشَطْرِ طَوْقٍ * علىٰ لَبَّاتِ زَرقاءِ اللِّباسِ . ١٠

وقال الواوا الدمشقىّ رحمه الله :

وكأنّ الهِلالَ تحتَ الثُّرَيَّا * مَلِكٌ فوْقَ رأسه إكليلُ !

وقال إبراهيم بن محمد المرادىّ، من شعراء الأُنموذج، ملغزا فيه :

دَعْ ذا ! وقُلْ للنّاس : ماطارقٌ، * يَطْرُقُكُمْ جَهْرًا ولا يَتَّقِى ؟

ليس له رُوحٌ علىٰ أنّهُ * يَرْكَبُ ظَهْرَ الأدْهَمِ الأبْلَق . ١٥

شَيْخٌ رَأىٰ آدَمَ فى عَصْرِه * وهْوَ إلىٰ الآنَ بخدٍّ نَقِى .

ومدّ وَسْطَ السِّجْنِ مع قَوْمِه * لايَنْبَرِى من نَهْجِه الضَّيِّق .

هذا ويَمْشِى الأرضَ فى لَيْلةٍ * أعْجِبْ به من مُوثَقٍ مُطْلَق .

فتارةً يَـنْزِلُ تحتَ الثَّرىٰ * وتارةً وَسْطَ السَّما يَرْتقى .
وتارةً يُوجَدُ فى مَغْـرِبٍ * وتارةً يُوجَد فى المَشْـرِق .
وتارةً تحسَـبُه سابحًـا * يَسْرِى بشاطِى البَحْرِ كالزَّوْرَق .
وتارةً تحسَـبُه وهْـوَ فى * أستارِهِ والبعضُ منه بَقِى ،
ذُبابةٌ من صارِمٍ مُرْهَفٍ * بارِزةٌ من جَفْنِه المُطْبَـق . ٥
يَدْنُو إلىٰ عِـرْسٍ له حُسْنُهـا * يختَطِفُ الأبصـارَ بالرَّوْنَق .
حـتّٰى اذا جا معها يَرْتَدِى * بحُـلَّةٍ سَـوْداءَ كالمُحْرَق .
وهـو علىٰ عادتِهِ دائمًـا * يُجامِـعُ الأنثىٰ ولا يَتَّـقِى .
ثم يَجُوبُ القَـفْرَ من أجْلِها * مُشْـتَمِلا فى مُطْرَفٍ أزرقِ .
حـتّٰى إذا قابَلَهـا ثانِيًـا * تَشُكُّه بالرُّمْحِ فى المَفْـرِق . ١٠
وبَعْـدَ ذا تُلْبِسُـه حُلَّةً * يا حُسْنَها فى لَوْنِها المُونِق !
جِسْـمُه من ذهبٍ جامِدٍ * وجِلْدُه صِيغَ من الزِّئْبَقِ .
وهو إذا أبصرته هـكذا * أملحُ من صـاحبة القُرْطَق .

وقال ابن المعتز :

نَظَـرْتُ فى يَوْمِ لَذَّةٍ عَجَبًا * وافىٰ به للسُّـعودِ مِقْـدارُ . ١٥
يقابِلُ الشمسَ فيه بدرُ دُجى * يأخُذُ من نُورِهـا ويَمْتـارُ .
كَصَيْرَفِىٍّ يروحُ منتَقِـدًا * فى كَفِّه دِرْهَـمٌ ودينـارُ .

وقال عبد الله بن علىّ الكاتب :

كَشَفَ البدرُ وجْهَهُ لتمامٍ، * فوُجُوه النُّجُومِ مستتِرَاتُ .
وكأنّ البَدْرَ التّمامَ عَرُوسٌ، * وكأنّ النُّجُومَ مُستنقِبَاتُ .

١٤ — ذكر شىء مما قيل فيه على طريق الذم

حكى أن أعرابيا رأى رجلا يرقُبُ الهلال . فقال له : ماترقب فيه، وفيه عيوب لو كانت فى الحمار لَرُدَّ بها؟ قال: وما هى؟ فقال : إنه يهدم العمرَ، ويقرّب الأجل، ويُحِلُّ الدَّين، ويَقرِض الكتّان، ويشجب اللون، ويفسد اللحم، ويَفْضَح الطارق، ويَدُلُّ السارق . ٥

ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام فى ضوئه حدث فى بدنه نوع من الاسترخاء والكسل، ويهيج عليه الزكام والصُّداع، وإذا وُضعت لحوم الحيوانات مكشوفة فى ضوئه، تغيرت طعومها وروائحها . ١٠

وقال ابن الرومىّ :

رُبَّ عِرْضٍ مُنزَّهٍ عن قَبِيحٍ * دنَّسَتْهُ مُعرِّضاتُ الهِجاء .
لوأرادَ الأديبُ أن يَهْجُوَ البَدْ * رَ، رماهُ بالخُطَّة الشَّنْعاء .
قال : يابَدْرُ أنتَ تَغْدُرُ بالسَّا * رِى وتُزْرِى بزَوْرَة الحَسْناء . ١٥
كَلَفٌ فى شُحُوبِ وجْهِكَ يَحْكى * نُكَتًا فوقَ وَجْنَةٍ بَرْصاءِ .
يَعْتريكَ المحاقُ ثُمَّ يُحَلِّيكَ شَبِيهَ القُلامة الجَحْناء .

ويَلِيكَ النُّقصانُ في آخِرِ الشَّهْـ * ـرِ فيمْحُوكَ من أديمِ السَّماء .

فإذا البَدْرُ نِيلَ بالهَجْوِ، هَلْ يا * مَنْ ذُوالفَضْلِ ألْسُنَ الشُّعراء ؟

لا لأجْلِ المَدِيحِ، بل خِيفَةَ الهَجْـ * ـوِ أخذْنا جَوائِزَ الخُلَفاء !

هذا ما أمكن إيراده في القمر، فلنذكر خبر عُبّاد القمر .

١٥ — ذكر عُبّاد القمر

قال الشهرستانيُّ: عُبّاد القمر طائفة من الهنود يسمّون الحندربكتية[(١)]، أي عُبّاد القمر . يزعمون أن القمر ملَك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفليّ، ومنه نُضْج الأشياء المتكوّنة واتصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات؛ وهو تِلْو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته ونقصانه؛ ومن سُنَّتهم أنهم اتخذوا صنما على عجلة تجرّه أربعة[(٢)]، وبيده جوهرة؛ ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتّى يطلع القمر، ثم يأتون الصنم بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر، ويسألونه حوائجهم؛ فإذا استهلّ الشهر علَوْا السُّطوح، وأوقدوا الدُّخَن، ودعَوْا عند رؤيته، ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة . وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار، أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر .

(١) في الشهرستاني طبع لوندرة : "الجندربكنية" . وأفادنا مترجمه الى الألمانية أن "چندراكا" معناه القمر في لغتهم .

(٢) الذي في الشهرستاني : صنما على صورة عجل وبيد الصنم الخ .

١٦ — ذكر ما قيل فى الكواكب المتحيرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تُسمّى المتحيرة. ثلاثة منها علوية تعلو أفلاكُها فلكَ الشمس، وهى : زحل، والمشترِى، والمِرّيخ؛ واثنان سفلية فلكهما تحت فلك الشمس، وهى : الزُّهَرَة، وعُطارد.

وسمّيت هذه الكواكب المتحيرةَ لأنها ترجع أحيانا عن سَمْت مسيرها بالحركة الشرقية، وتتبع الغربية. فهذا الارتداد فيها شبه التحير. ٥

١٧ — ذكر عباد الروحانيات

(وما احتجوا به فى سبب عبادتهم لها[1])

وعباد الروحانيات هم الصابئة. يقال : صبأ الرجل إذا مال وزاغ.

ومذهب هؤلاء أن للعالَم صانعا فاطرا حكيما مقدّسا عن سمات الحدثان. ١٠

وكانت الصابئة تقول : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالىٰ ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه، إلىٰ متوسط؛ ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا. وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب؛ والجسمانىّ بشر مثلنا يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا فى الصورة والمادّة.

قالوا : ﴿ولئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذًا لخاسرون﴾. ١٥

وقالوا : الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلىٰ جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه، وهم الروحانيون المقدّسون المطهرون، جوهرا وفعلا وحالة. (٢٣)

(١) نقل المؤلف هنا بعض عبارات الشهرستانى فى الملل والنحل مع تقديم وتأخير (أنظر ص ٢٠٣ من طبعة الأب كرتون الانكليزى فى لندرة سنة ١٨٤٢ — ١٨٤٦).

أما الجوهر فهم المقدّسون عن المواد الجسمانية، المبرؤون عن القوى الجسدانية، أى منزّهون عن الحركات المكانية، والتغييرات الزمانية؛ قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس والتسبيح ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾.

وإنما أرشدنا إلى هذا معلمنا الأوّل، عاذيمون، وهُرْمُس. فنحن نتقرّب إليهم، ونتوكل عليهم، وهم أربابنا، وآلهتنا، ووسائلنا، وشفعاؤنا عند رب الأرباب، وإله الآلهة. فالواجب علينا أن نطهّر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعية، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، حتّى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات. فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبأ في جميع أمورنا إليهم. فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم. وهذا التطهير والتهذيب ليس إلا باكتسابنا، ورياضتنا، وفطامنا لأنفسنا عن دَنِيّات الشهوات، باستمداد من جهة الرُّوحانيات؛ والاستمداد هو التضرّع والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وبذل الزكوات، والصيام عن المطعومات والمشروبات، وتقريب القرابين والذبائح، وتبخير البَخُورات، وتعزيم العزائم. فيحصل لنفوسنا استعداد أو استمداد من غير واسطة، بل يكون حكمنا وحكم من يدعى الوحى واحدا.

قالوا: والأنبياء أمثالنا في النوع، وأشكالنا في الصورة، ومشاركونا في المادّة. يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب، ويساهموننا في الصورة. أناس بشر مثلنا، فمن أين لنا طاعتهم، وبأيّة مزية لهم لزم مشايعتهم؟ ﴿ولَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾.

قال: وأما الفعل، فالروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع، والإيجاد،

وتصريف الأمور من حال إلىٰ حال، وتوجيه المخلوقات من مبدإ إلى كمال، يستمدّون القوّة من الحضرة القدسية، ويفيضون الفيض علىٰ الموجودات السفليه.

§ فمنها — مدبرات الكواكب السبعة السيّارة فى أفلاكها، وهى هياكلها. فلكل روحانى هيكل، ولكل هيكل فلك. ونسبة الروحانىّ إلىٰ ذلك الهيكل الذى آختص به نسبة الروح إلىٰ الجسد. فهو ربه ومديره ومدبره.

وكانوا يسمون الهياكل أربابا (وربما يسمونها آباء)، والعناصرَ أمهاتٍ.

ففعل الروحانيات تحريكها علىٰ قدر مخصوص ليحصل من حركاتها آنفعالات فى الطبائع والعناصر، فيحصل من ذلك تركيبات وآمتزاجات فى المركبات فتتبعها قوّى جسمانية، وتركب عليها نفوس روحانية، مثل أنواع النبات والحيوان. ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحانىّ كلىّ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحانىّ جزئىّ. فمع جنس المطر ملك، ومع كل قطرة مَلَك.

§ ومنها — مدبرات الآثار العلوية الظاهرة فى الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبَرَد والرياح، وما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب، وما يحدث فى الجوّ من الرعد والبرق والسحاب وقوس قُزَح وذوات الأذناب والهالة والمَجَرّة، وما يحدث فى الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة إلىٰ غير ذلك.

§ ومنها — متوسطات القوىٰ السارية فى جميع الموجودات، ومدبرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات، حتى لاترىٰ موجودا ما خاليا عن قوّة وهداية، إذا كان قابلا لها.

قالوا: وأما الحالة، فأحوال الروحانيات من الرَّوْح، والرَّيحان، والنعمة، واللذة، والراحة، والبهجة، والسرور فى جوار رب العالمين، كيف تخفى؟ ثم طعامهم وشرابهم

التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد ؛ وأُنسهم بذكر الله وطاعتـه ، فمن قائم وراكع وساجد ، ومن قاعد لا يريد تبدل حالته لما هو فيه من النعمة واللذة ، ومن خاشع بصره لا يرفع ، ومن ناظر لا يغمض ، ومن ساكن لا يتحرك ، ومتحرك لا يسكن ، وكَرُوبِي[1] في عالم القبض ، وروحانيّ في عالم البسط ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ﴾ .

٥ وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين الروحانيّ المحض والبشرية النبوية ، ليس هذا موضع إيرادها .

فلنذكر إن شاء الله تعالىٰ بيوت الهياكل ، تلو ما ذكرناه من عباد الروحانيات ومحتجّاتهم !

---

١٨ — ذكر بيوت الهياكل

١٠ (وأماكنها ونسبتها إلىٰ الكواكب) (٢٣)

قالوا : ثم لم تقتصر الصابئة علىٰ التقرب إلىٰ الروحانيات بأعيانها ، والتلق بذواتها حتّى اتخذوا أصناما علىٰ هيئة الكواكب السبعة ، وجعلوا لها بيوتا ، وسمّوا البيوتَ بالهياكل ، وجعلو[illegible] الأفلاك للكواكب . وعظموا هـذه الأصنام التي صنعوها ، وزعموا أنهم إذا عظموها تحركت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل ١٥ ما يريدون .

وحكىٰ المسعوديّ في كتابه المترجم "بمروج الذهب ومعادن الجوهر" أن هـذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زُحَل ، وإنما طال بقاء هـذا البيت علىٰ مرور الدهور ، معظما في سائر العصور ، لأن زُحَل تولّاه : إذ من شأنه الثبوت[2] .

---

(١) الكروبيون سادة الملائكة المقربون .

٢٠ (٢) راجع الشهرستاني طبعة كرنّن (ص ٤٣٠ - ٤٣١) .

ومن البيوت المشهورة[1] :

§ بيت على رأس جبل أصفهان، يسمى مارس[2]، ثم اتخذه بعض ملوك المجوس بيت نار ؛

§ وبيت ببلاد الهند ،

§ وبيت ببلخ، بناه منوشهر على اسم القمر، وكان الموكل بسدانته يسمونه برمك، وإليه تنسب البرامكة ؛

§ وبيت غُمْدان باليمن، بناه الضحاك على اسم الزُّهَرة ؛

§ وبيت بفَرْغانة[3]، على اسم الشمس، يعرف بكاوسان، بناه كاوس[4] أحد ملوك الفرس، وخربه المعتضد[5] بالله ؛

§ وبيت ببلاد الصين، بناه ولد عامور بن شوبل[6] بن يافث، وقيل بناه بعض ملوك الترك[7] .

§ وحكى غير المسعودى أن البيت الأول الكعبة . ويذكرون أن إدريس (عليه السلام) أوصى به، وأوصى أن يكون الحج إليه وهو عندهم بيت زحل ؛ والبيت

(١) وراجع الشهرستانى (ص ٤٣١، ٤٣٢) .

(٢) فى الشهرستانى : فارس .

(٣) من مدن خراسان .

(٤) فى الأصل : مكاوس [وهو خطأ من الناسخ . والتصويب عن المسعودى وعن الشهرستانى] .

(٥) فى الشهرستانى أنه المعتصم .

(٦) فى بعض نسخ المسعودى : سوبل (بالسين المهملة) .

(٧) انظر الباب الرابع والستين من مروج الذهب، ففيه تفصيل لما أورده النويرى هنا بغاية التلخيص .

الثانى وهو بيت المريخ، يزعمون انه كان بصور من الساحل الشامى؛ والبيت الثالث وهو بيت المشترى، كان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأموى؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية الى وقتنا هذا[1]؛ والبيت الخامس وهو بيت الزهرة، كان بمَنْبِج وخرِب؛ والبيت السادس بيت عُطارد، وكان بصَيْدا من الساحل الشامى وخرِب؛ والبيت السابع وهو بيت القَمَر، كان بحرّان؛ وهو بيت الصابئة الأعظم.

الباب الخامس

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ — فى الكواكب الثابتة

ذهب بعض من تكلم فى ذلك أن هذه الكواكب معلقة فى سماء الدنيا كالقناديل، وأنها مخلوقة من نور.

وقال آخرون: إنها معلقة بأيدى ملائكة. وفسر بهذا القول قوله تعالى ﴿إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وإذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾. يقال انتثارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة.

وهذه الكواكب فى سماء الدنيا بنص الكتاب العزيز، لقول الله عز وجل: ﴿ولقد زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

(١) زالت هذه الآثار الآن.

وقال قتادة : خلق الله تعالىٰ هذه النجوم لثلاثة : جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يُهتدىٰ بها فى البر والبحر. فمن تأوّل غير هذا فقد أخطأ .

قالوا : وإنما سميت بالثوابت، وإن كانت متحركة لأنها ثابتة الابعاد علىٰ الأبد، لا يقرب أحدها من الآخر، ولا يبعد عنه، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا تتغير عن جهاتها . لأنها تتحرك بحركتها الطبيعيه حول قطبي العالم . ولهذا سميت ثابتة . وهى فى فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيارة . ودليل ذلك أن للكواكب السبعة حركات أسرع من حركات هذه .

٢ — ذكر مايتمثل به مما فيه ذكر الكواكب

يقال : أنأىٰ من كوكب ؛ أبعد من مَنَاط النجم ؛ أهدىٰ من النجم .

ومن أنصاف الأبيات :

* وأَيْنَ نَزِيلُ الأرضِ عِندَ الكَواكِبِ؟ * * وأَيْنَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدِ لُمتناوِلِ؟ *

* والكَوْكَبُ النَّحْسُ يَسْقِى الأرضَ أحْيانا *

ومن الأبيات قول أبى تمّام عفا الله عنه :

كالنَّجْمِ إن سافَرْتَ كانَ مُوَاكِبا * وإذا حطَطْتَ الرحْلَ كانَ جَلِيسا .

وقال أبو نُوَاس :

أينَ النُّجُومُ الثَّابِتا * تُ مِنَ الأهلَّةِ والبُدورِ؟

وقال آخر :

وكُنَّا فى اجْتِماعٍ كالثُّرَيَّا * فصِرْنا فُرْقَةً كبَناتِ نَعْشِ !

وقال آخر:

كالفَرْقَدَيْنِ إذا تأمَّلَ ناظِرٌ، * لم يُعْلِ موضِعَ فَرْقدٍ من فَرْقدِ.

وقال الوزير أبو الفتح البُستيّ:

وللنَّجم من بَعْدِ الرُّجُوع آستِقامةٌ * وللشَّمْس من بَعْد الغُرُوب طُلُوعُ.

٥ وقال جَحْظَةُ:

مثـــل الَّذى يَرْجُو البُـلُو * غَ إلى الكَوَاكب وهو مُقْعَدْ.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلا، * عَمْرَكَ اللهَ! كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ؟

هِيَ شامِيَّةٌ إذا ما آسْتَهَلَّتْ، * وسُهَيْلٌ إذا آستَهَلَّ يَمَـانِى.

١٠ وقال آخر:

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُه أخُوه، * لَعَمْرُ أبِيكَ، إلا الْفَرْقَدانِ!

---

٣ — ذكر ماقيل فى وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ماقاله آبن حَجَّاج فى المَجَـرّة:

ياصاحِبَيَّ آسْتَيْقِظا من رَقْدةٍ * تُزْرِى على عَقْلِ اللَّبِيبِ الأكْيَسِ!

هـــذى المَجَرّةُ والنُّجومُ كأنَّهـا * نَهْرٌ تَدَفَّقَ فى حَدِيقةِ نَرْجِسِ!

وقال آخر:

وكأنَّ المَجَـرّ جَدْوَلُ ماءٍ * نَوَّرَ الأقْحُـوانُ فى جانِبَيْهِ.

وقال المهذب بن الزبير فيها :

وترى المجرّة والنجوم كأنها * تسقى الرياض بجدول ملآن.
لو لم يكن نهراً، لما عامت به * أبداً نجوم الحوت والسرطان.

وقال أبو هلال العسكرى :

تبدو المجرّة منجرّا ذوائبها * كالماء ينساح أو كالأيم ينساب.[1] ٥

وقال هشام بن إلياس فى الجوزاء:

فكأنما جوزاؤه فى غربها * بيضاء سابحة ببركة زئبق.
وكأنما أومت ثلاث أنامل * منها تقول: إلى ثلاث نلتقى!

وقال آخر:

وكأن الجوزاء لما استقلت * وتدلت، سرادق ممدود. ١٠

وقال العلوى فيها أيضا :

ها إنها الجوزاء فى أفقها * واهية ناعسة تسحب.
نطاقها واه لدى أفقها * ينسل منها كوكب كوكب.

وقال ابن وكيع فيها :

قم فاسقنى صافية * تهتك جنح الغسق! ١٥
أما ترى الصبح بدا * فى ثوب ليل خلق؟

(١) الأيم، والأين : ضرب من الحيات . (عن النوادر فى اللغة) .

أَمَا تَرَىٰ جَـوْزاءَهُ * كأنَّهـا في الأُفُـق،
مِنطَقَـةٌ من ذَهَبٍ * فَوْق قَبـاءٍ أزْرَقِ؟

وقال كعب الغَنَوىّ :

وقد مالَتِ الجَوْزاءُ حتَّى كأنَّها * فَسَاطيطُ رَكْبٍ بالفَلاة نُزُولُ.

٥ وقال آمرؤ القيس في الثُّرَيَّا :

إذا ما الثُّرَيَّا في السَّماء تعرَّضَتْ * تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ.

وقال آبن الطَّثَرِيَّة :

إذا ما الـثُّرَيَّا في السَّماءِ كأنَّهـا * جُمَانٌ وَهِيَ من سِلْكِهِ، فتبدَّدَا.

وقال المـبرّد :

١٠ إذا ما الثُّرَيَّا في السَّماءِ تعرَّضَتْ، * يَراهَا حَدِيدُ العينِ ستَّةَ أنجُمِ.
علىٰ كَبِـدِ الجَرْباء وهْيَ كأنَّها * جَبِيرَةُ دُرٍّ رُكِّبَتْ فوقَ مِعْصَمِ.

وقال عبد الله بن المعتز :

فناوَلَنيهـا، والـثُّرَيَّا كأنَّهـا * جَنىٰ نَرْجِسٍ حَيَّا النَّدامىٰ بها الساقِي.

وقال أيضا :

١٥ كأنَّ الـثُّرَيَّا في أَواخِرِ لَيْلِهـا * تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لِحامٌ مُفَضَّضُ.

وقال السلامىّ، شاعر اليتيمة فيها :

فَسَمَوْنا، والفَجْرُ يَضْحَكُ في الشَّرْ * قِ إلَيْنـا مُبَشِّرًا بالصَّـبَاح.

والثُّرَيَّا كرَايةٍ أو لِجام * أو بَنَانٍ أو طائرٍ أو وِشَاح،
وكأنَّ النُّجومَ فى يَدِ ساق * يَتَهادَىٰ تَهادىَ الأقْداح.

وقال ٱبن المعتز :

ولاحَتْ لِسارِيها الثُّرَيَّا كأنَّها * علىٰ الأُفُق الغَرْبىّ قُرْطٌ مُسَلْسَلُ.

وقال أبو نضلة :

وتَأَمَّلْت الثُّرَيَّا * فى طُلُوعٍ ومَغيب.
فتخيَّرْتُ لَهَا التشْبِيهَ فى المَعْنىٰ المُصيب.
وَهْىَ كَأْسٌ فى شُرُوقٍ * وهى قُرْط فى غُرُوب.

(٢٥) وقال آخر :

كأنَّ الثُّرَيَّا هَوْدجٌ فَوْقَ ناقَةٍ * يَسِير بها حادٍ مَعَ الليل مُزْعِجُ،
وقد لمَعَتْ بَيْنَ النُّجومِ كأنَّها * قَوارِيرُ فيها زِئْبِقٌ يَتَرَجْرَجُ.

وقال ٱبن سكرة الهاشمىّ :

تَرَىٰ الثُّرَيَّا، والغَرْبُ يَجْذِبُها * والبَدْرُ يَهْوِى والفَجْرُ يَنْفَجِر.
كفٌّ عَرُوسٍ لاحَتْ خَوَاتِمُها * أو عِقْدُ دُرٍّ فى البَحْرِ يَنْتَثِر.

وقال محمد بن الحسن الحاتمىّ :

وخِلْتُ الثُّرَيَّا كفَّ عَذْراءَ طَفْلةٍ * مُخَتَّمةٍ بالدُّرّ منها الأنامِلُ.
تخيَّلْتُها فى الجَوِّ طُرَّةَ جَعْبةٍ * مُلُوكيّةٍ لم تَعْتَلِقْها حَمائلُ.
كأنَّ نِبالًا سِتَّةً من لَآلِئٍ * يُوَافِى بها فى قُبَّةِ الأُفْق نابِلُ.

وقال أحمد بن إبراهيم الضبيّ: شاعر اليتيمة :

خِلْت الثريا إذ بَدَتْ * طالعةً في الحِنْدس:
مُرْسَلَةً من لُؤْلُؤٍ * أو باقةً من نَرْجِس

وقال أبو العلاء المعرّيّ في سَهَيل .

وسُهَيْل كوجْنَة الحِبِّ في اللو * ن وقلب المُحِبِّ في الخَفَقان.
مُسْتَبِدًّا كأنَّهُ الفارِسُ المُعْـ * ـلَمُ يُبْدُو مُعَارِضَ الفُرْسان.

وقال عبد الله بن المعتز :

وقَدْ لاحَ لِلسَّارِي سُهَيْلٌ كأنَّهُ * علىٰ كُلِّ نَجْمٍ في السَّماءِ رَقيبُ !

وقال الشريف بن طباطبا :

وسُهَيْلٌ كأنَّهُ قَلْبُ صَبٍّ * فاجأَتْه بالخَوْفِ عَيْنُ الرقيب.

وقال أبو عبادة البُحْتُرِيّ :

كأنَّ سُهَيْلًا شَخْصُ ظمآنَ جانحٌ * من اللَّيْلِ في نَهْرٍ من الماءِ يَكْرَع.

وقال ابن طباطبا :

كأنَّ سُهَيْلًا، والنُّجُومُ أمامَه * يُعَارِضُهَا، راعٍ أمامَ قطيعِ.

وقال الشريف الرضيّ في الفرقدين :

وهَبَّتْ لضَوْءِ الفرقَدَيْن نَواظرى * إلىٰ أن بَدَا ضَوْءٌ من الفَجْرِ ساطِعُ.
كأنَّهُما إلفانِ قال كِلاهُمَا * لشَخْصٍ أخِيهِ : قُلْ فإنِّي سامعُ !

وقال آخر:

قُلْتُ للفَرْقَدَيْنِ واللَّيْلُ مُرْخٍ * سِتْرَ ظَلْمائِهِ علىٰ الآفاقِ:
إبقَيا ما بَقِيتُما سَوْفَ يُرْمىٰ * بَيْنَ شَخْصَيْكُما بسَهْمِ الفِراقِ!

وقال القاضي التنُوخيّ:

وأشقر الحق قد لاحتْ كواكبُه * فيه كدرٍّ علىٰ الياقوت مَنْثُور. ٥

وقال القاضي الفاضل، عبد الرحيم من رسالة:

"سِرْنا، وروضةُ السماء فيها من الزهر زَهَر، ومن المجرّة نَهَر، والليل كالبَنَفْسَج تخلله من النجوم أَقَاح، أو كالزَّنج شعله من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب لا مُعَرّس لها دون الصَّباح، وسهيل كالظمآن تدلّى إلىٰ الأرض ليشرب، أو الكريم أَنِفَ من المُقام بدار الذُّل فتغرّب. فكأنه قَبَسٌ تتلاعب به الرياح، أو زينة قدمها بين يَدَى الصباح، أو ناظر يُغُضُّه الغيظ ويفتحه، او معنًى يغمضه الحسن ثم يشرحه، أو صديقٌ لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيبٌ علىٰ المواكب مُواكِب، أو فارسٌ يحمِي الأعقاب، أو داع به إليها وقد شَرَدت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب، أو الشجرة المنوّرة، أو الحبر المصوّرة. والثريا قد همّ عُنقودها أن يتدلّى، وجيش الليل قد همّ أن يتولّى". ١٠ ٢٠

القسم الثانى

من الفن الأوّل فى الآثار العلوية

وفيه أربعة أبواب (٢٦)

الباب الأوّل

من القسم الثانى من الفن الأوّل

١ — فى السحاب، وسبب حدوثه، وفى الثَّلْج والبَرَد

والسحاب من الآثار العلوية .

روىٰ أبو الفرج بن الجوزىّ بإسناد يرفعه إلىٰ عبيد ابن عمير أنه قال : يبعث الله ريحا فتقُمُّ الأرض، ثم يبعث المُثيرة فتثير السحاب، وذلك أنها تحمل الماء فتمَجُّه فى السحاب، ثم يَمْرِيه فيَدِرُّ كما تدرّ اللِّقحة .

وقد روى فى الأثر أن الرياح أربع : ريح تَقُمّ، وريح تُثير، فتجعله كِسَفًا، وريح تؤلِّف، فتجعله رُكَامًا، وريح تُمْطر .

ورُوِىَ عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال : إن الله تعالىٰ يرسل الرياح فتُثير سحابا، وينزل عليه المطر فتمخض به الريح كما تمخض النَّتوج بولدها .

وروى عن عكرمة (رضى الله عنه) أنه قال : يُنزل الله الماء من السماء السابعة

فتقع القطرة على السحاب مثل البعير ، والسحابُ للمطر كالغربال ينزل منه بقَدَر . ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذ من البحر . ويؤيد ذلك قوله عز وجل ﴿ وَيُنَزِّلُ من السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ .

٢ — ذكر ما قيل فى ترتيب السحاب

(وأسمائه اللغوية وأصنافه)

قال أبو منصور ، عبد الملك بن محمد الثعالبىّ فى فقه اللغة ، ينقله عن أئمتها :

أوّل ما ينشأ السحاب، فهو نَشْء .

فإذا انسحب فى الهواء ، فهو السحَابُ .

فإذا تغيرت وتغممت له السماء ، فهو الغَمَام .

فإذا كان غيم ينشأ فى عُرْض السماء فلا تبصره، وإنما تسمع رعده، فهو العَقْر .

فإذا أطلّ وأظلّ السماء، فهو العارِضُ .

فإذا كان ذا رعد و برق، فهو العَرَّاصُ .

فإذا كانت السحابة قِطَعا صغارا متدانياً بعضُها من بعض، فهى النَّمِرَةُ .

فإذا كانت متفرّقة ، فهى القَزَعُ .

فإذا كانت قطعا متراكمة، فهى الكِرْفِئُ (واحدتها كِرْفِئَة) .

فإذا كانت قطعا كأنها قطع الجبال ، فهى قَلَعٌ ، وكَنَهْورٌ (واحدتها كَنَهْورَة) .

فإذا كانت قطعا رِقَاقا، فهى الطَّخَارِيرُ (واحدتها طُخْرُورٌ) .

فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهي مُكَلَّلَةٌ .

فإذا كانت سوداء، فهي طَخْياءُ، ومُتَطَخْطِخَة .

فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهي مُخَيِّلة .

فإذا غَلُظ السحاب وركب بعضُه بعضا، فهو المُكْفَهِرّ .

٥ فإذا ٱرتفع ولم ينبسط، فهو النَّشَاصُ .

فإذا تقطع في أقطار السماء وتلبَّدَ بعضُه فوق بعض، فهو القَرِدُ .

فإذا ٱرتفع وحمل الماء وكُثُف وأَطْبَق، فهو العَمَاء، والعَمَاية، والطَّخَاء، والطَّخَاف، والطَّهَاء .

فإذا ٱعترض ٱعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الحَبِيُّ .

١٠ فإذا عنّ، فهو العَنَان .

فإذا أظل الأرض، فهو الدَّجْن .

فإذا ٱسودّ وتراكب، فهو المُحْمَوْمِي (١) .

فإذا تعلق سحاب دون السحاب، فهو الرَّبَاب .

فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الغِفَارَةُ .

١٥ فإذا تدلّى ودنا من الأرض مثل هُدْب القَطِيفة، فهو الهَيْدَبُ .

فإذا كان ذا ماء كثير، فهو القَنِيف .

فإذا كان أبيض، فهو المُزْن، والصَّبِير .

فإذا كان لرعْده صوتٌ، فهو الهَزِيم .

---

(١) اسم فاعل من ٱحموى الشيء اذا ٱسودّ . يوصف به نحو السحاب والليل .

فإذا آشتدّ صوتُ رعده، فهو الأجَشّ .

فإذا كان باردًا وليس فيه ماءٌ، فهو الصَّرّاد[1] .

فإذا كان ذا صوت شديد. فهو الصَّيِّب .

فإذا أهرق ماءه، فهو الجَهَام (وقيل بل الجَهَام الذى لا ماء فيه) .

٣ — ذكر ما قيل فى ترتيب المطر

قال الثعالبيّ رحمه الله: أخفُّ المطر وأضعَفُه الطَّلُّ، ثم الرَّذَاذُ، ثم البَغْشُ والدَّثُّ ومثله الرَّكُّ، ثم الرِّهْمة .

(٢٧) ويقال أيضا: أوّله رَشٌّ وطَشّ، ثم طَلٌّ ورَذَاذ، ثم نَضْح ونَضْخ، وهو قَطْرٌ بين قَطْرين، ثم هَطْل وتَهْتانٌ، ثم وابِلٌ وجَوْدٌ .

٤ — ذكر ما قيل فى فعل السحاب والمطر

يقال إذا أتت السماءُ بالمطر اليسيرِ الخفيف[2] : حَفَشت، وحَشَكت .

فإذا آستمرّ قَطْرها، قيل : هَطَلتْ، وهَتَنَتْ .

فإذا صبَّت الماءَ، قيل : هَمَعت، وهَضَبتْ .

فإذا آرتفع صوتُ وَقْعها، قيل : آنهَلَّت، واستَهَلَّت .

(١) فى فقه اللغة بعده : فإذا كان خفيف تسفره الريح فهو الزِّبْرِج، وبعده فإذا كان ذا صوت الخ .

(٢) كذا فى فقه الثعالبى وعبارة لسان : حَفَشت السماءُ تحفِش حَفْشا : جاءت بمطر شديد ساعة ثم أقلعت ، ومثله حشكت وأغبت فالحَفْشة والحَشْكة والغَبْيه بمعنى واحد .

فإذا سالَ المطرُ بكثْرة، قيل : ٱنْسكَبَ، وٱنْبعَقَ.

فإذا سال يركب بعضُه بعضا، قيل : ٱنْعَنْجَرَ، وٱنْعَنْجَجَ.

فإذا دام أيامًا لا يُقْلِع، قيل : أَنْجَم، وأغْبَطَ، وأدْجَنَ.

فإذا أقْلع، قيل : أنْجَمَ، وأفْصَمَ، وأفْصىٰ.

٥ — ذكر أسماء أمطار الأزمنة

قالت العرب : أوّل مايبدأ المطر في إقبال الشتاء، فٱسمه الخَرِيفُ، ثم يليه الوَسْمِيّ، ثم الرَّبيع، ثم الصَّيِّف، ثم الحَمِيم.

وقيل المطر الأوّل هو الوَسْمِيّ، ثم يَليه الوَلْيُ، ثم الربيع، ثم الصَّيِّف، ثم الحَمِيم.

٦ — ذكر أسماء المطر اللغوية

قال الثعالبيّ :

إذا أحيا الأرض بعدَ موتها، فهو الحَيَا.

فإذا جاء عقيبَ المَحْل أو عند الحاجة إليه، فهو الغَيْثُ.

فإذا دام مع سكون، فهو الدِّيمةُ. والضَّرْب فوق ذلك قليلا، والهَطْل فوقه.

فإذا زاد، فهو الهَتَلان، والهَتَّان، والتَّهْتَانُ.

فإذا كان القطر صغارا كانه شَذْرٌ، فهو القِطْقِطُ.

فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهى الرِّهْمَةُ.

فإذا كانت ليست بالكثيرة، فهى الغَبْيَة، والحَفْشَة، والحَشْكَة.

فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهى الذِّهَابُ، والهَمِيمةُ[1].

فإذا كان المطر مستمِرّا، فهو الوَدْق.

فإذا كان ضَخْمَ القَطْر شديدَ الوَقْع، فهو الوَابِل.

فإذا انْبَعَق بالماء، فهو البُعَاق.

فإذا كان يروى كل شيء، فهو الجَوْد. ٥

فإذا كان عامًّا، فهو الجَدَا.

فإذا دام أيَّاما لا يُقلِع، فهو العَيْن.

فإذا كان مسترْسِلا سائلا، فهو المُرْثَعِنُّ.

فإذا كان كثير القطر، فهو الغَدَق.

فإذا كان شديد الوَقْع كثير الصَّوْب، فهو السَّحِيفَةُ[2]. ١٠

فإذا كان شديدا كثيرا، فهو العِزُّ، والعُبَاب.

فإذا جرَف ما مرّ به، فهو السَّحِيقَةُ[2].

فاذا قشرتْ وجه الأرض، فهى السَّاحِيَةُ.

فإذا أثرت فى الأرض من شدّة وقعها، فهى الحَرِيصَةُ.

فإذا أصابت القطعةَ من الأرض وأخطأت الأُخرىٰ، فهى النُّفْضَةُ. ١٥

فإذا جاءت المطرة لما يأتى بعدها، فهى الرَّصْدة، والعِهَادُ نحوٌ منها.

---

(١) فى فقه الثعالبي: الهَيْمة. بإسقاط الميم الأولىٰ وهو تحريف كما يعلم من مراجعة القاموس.

(٢) نقل صاحب اللسان فى مادة (س ح ف) عن الأصمعى: (ان السحيفة بالفاء، المَطْرة الحديدة التى تجرف كل شيء. والسحيقة بالقاف، المطرة العظيمة القطر الشديدة الوقع القليلة العرض) وهو عكس ما نقله النويرى عن الثعالبي. ٢٠

فإذا أتىٰ المطر بعد المطر، فهو الوَلْىُ.

فإذا رجع وتكرر، فهو الرَّجْعُ.

فإذا تتابَعَ، فهو اليَعْلُولُ.

فإذا جاءت المطرة دَفَعات، فهى الشَّآبِيبُ.

---

٧ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر المطر

يقال: أبردُ من غِبِّ المطر. أرقُّ من دَمْع الغمام. أسرَعُ من السيل إلىٰ الحُدُور. أطغىٰ من السيل. أغشَمُ من السيل. أمضىٰ من السيل. يذهب يومُ الغيم ولا يُشْعَر به. قد بلغ السيل الزُّبىٰ. اضطره السيل إلىٰ مَعْطَشِه. أرنيها نَمِره، أُريكَهَا مَطِره. سبق سيله مطَرَه. قبل السحاب أصابنى الوَكْف.

ومن أنصاف الأبيات:

* هَلْ يُرْتَجىٰ مَطَرٌ بغَيْرِ سَحَابِ * وأوَّلُ الغَيْثِ طَلٌّ ثم يَنْسَكِبُ *

* سَحَابةُ صَيْفٍ عنْ قَرِيبٍ تَقَشَّعُ * فَدَرَّ كما دَرَّ السَّحاب علىٰ الرَّعْدِ *

* أسْرَعُ السُّحْبِ فى المَسِيرِ الجَهامُ * ومَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ العارِضِ الهَطِلِ؟ *

* سَحَابٌ عَدَانِى فَيْضُه وهْوَ صَيِّبُ * يَحْسَبُ المَمْطُورُ أنْ كُلُّ مُطِرْ *

* سالَ بِهِ السَّيْلُ وما يَدْرِى بِهِ *

ومن الأبيات قول الطائى:

وكذا السَّحائبُ، قَلَّمَا تَدْعُو إلىٰ * مَعْرُوفِهَا الرُّوّادَ ما لم تَبْرُقِ.

وقال البحترىّ عفى عنه :

(٢٨) وأعلَمْ بأنَّ الغَيْثَ ليس بنافعٍ * ما لم يَكُنْ لِلنَّاس فى إبَّانِهِ .

وقال أبو الطَّيِّب :

لَيْتَ الغَمامَ الَّذِى عِنْدِى صَواعِقُهُ * يُزِيلُهُنَّ إلىٰ مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ !

وقال كُثيِّر :

كما أبْرَقَتْ يَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ . * فلَمَّا رَجَوْها ، أقْشَعَتْ وتجلَّتِ .

وقال آخر :

أنَا فى ذِمَّة السَّحابِ وأظمَا ! * إنَّ هٰذَا لوَصْمَةٌ فى السَّحابِ !

وقال آخر :

واللهِ يُنْشِى سَحَابًا تَطْمَئِنُّ بِهِ النُّـ * ـفُوسُ من قَبْل بَلِّ الأرْضِ بالمَطَر .

٨ — ذكر شىء مما قيل فى وصف السحاب والمطر

قال أبو تمَّام الطائى :

سَحَابَةٌ صادِقَـةُ الأنْواءِ * تَجُرُّ أهْدابًا علىٰ البَطْحاءِ ،

تَجْمَعُ بَيْنَ الضِّحْكِ والبُكَاءِ : * بَدَتْ بِنَارٍ وثَنَتْ بماءِ .

وقال أبو عبادة البُحْتُرِىّ عفا الله تعالىٰ عنه :

ذات ارْتِجَاسٍ بِحَنِينِ الرَّعْدِ * مَجْرُورَةِ الذَّيْلِ صَدُوقِ الوَعْدِ ،

مَسْفُوحَةِ الدَّمْعِ بغَيْرِ وَجْدِ * لَهَا نَسِيمٌ كنَسِيمِ الوَرْدِ ،

ورنّةٌ مثل زئير الأُسْد * ولَمْعُ برقٍ كسيُوف الهِنْد.
جاءتْ بها ريحُ الصَّبا من نَجْدِ * فٱنتثرتْ مثلَ ٱنتثار العِقْد.
وراحتِ الأرضُ بعَيْشٍ رَغْدِ * من وَشْيِ أنوار الثَّرىٰ في بُرْد.
كأنما غُدْرانُها في الوَهْد * يَلْعَبْنَ تَرْحاباً بها بالزَّنْد.

٥ وقال أبو الحسن عليّ بن القاسم القاشاني من شعراء اليتيمة عفى عنه:

إذا الغُيُومُ ٱرْجَحَنّ باسِقُها * وحَفّ أرجاءَها بَوَارِقُها،
وعُبِّيتْ للثَّرىٰ كَتائبُها * وٱنتصبتْ وسْطَها عَقائقُها،
وجَلْجَلَ الرعدُ بَيْنها فحكىٰ * خَفْقَ طُبُولٍ أَلَحَّ خافِقُها،
وٱبتسمتْ فَرْحةً لوامِعُها * وٱختلفَتْ عَبرةً حَمَالِقُها،
١٠ وقيل: طُوبىٰ لبلدةٍ نُجِبتْ * بِجَوٍّ أكنافِها بَوَارِقُها.
أيَّةُ نَعْماءَ لا تَحُلُّ بها؟ * وأيُّ بأساءَ لا تُفارِقُها؟

وقال القاضي التَّنُوخيّ:

سحابٌ أتىٰ كالأمْنِ بعد تَخَوُّف * له في الثَّرىٰ فِعلُ الشِّفاء بمُدْنَف.
أكبَّ علىٰ الآفاقِ إكْبابَ مُطْرِقٍ * يُفَكِّرُ أو كالنَّادم المُتلهف.
١٥ ومَدَّ جَناحَيْه علىٰ الأرضِ جانِحًا * فراحَ عليْها كالغُرَاب المُرَفْرِف.
غدا البَرُّ بحرا زاخِرًا وٱنثنىٰ الضُّحى * بظُلْمته في ثَوبِ ليلٍ مُسَجَّف.
فعبَّسَ عن بَرْقٍ به مُتَبَسِّمٍ * عُبُوسَ بَخِيلٍ في تبسُّم مُعْتَف.
تُحاوِلُ منه الشمسُ في الجوِّ مَخْرَجا * كما حاوَلَ المغلوبُ تَجْرِيدَ مُرْهَف.

وقال ابن الرومىّ :

سَحَائبُ قِيسَتْ بالبِلاد فأُلفِيَتْ * غِطَاءً علىٰ أغوارِهَا ونُجُودِهَا.
حَدَتْهَا النُّعَامىٰ مُقْبِلاتٍ فأقبَلَتْ * تَهادىٰ رُوَيْدا سَيْلُها كُرُكُودِها.

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وبَرْقٍ سَرىٰ، واللَّيْلُ يُمْحىٰ سَوادُه * فَقُلْتُ : سِوارٌ فى مَعَاصِمِ أَسْمَرا! ٥
وقد سَدّ عُرْضَ الأُفْقِ غَيْمٌ تَخالُه * يَزُرُّ علىٰ الدُّنْيا قَمِيصًا مُعَنْبَرا.
تَهادىٰ علىٰ أيْدِى الحَبائِبِ والصَّبَا * نَكِرْقٍ من الفِتْيانِ نازَعَ مُسْكرا.
تَخَالُ بِهِ مِسْكًا وبالقَطْرِ لُؤْلؤًا * وبالرَّوْضِ ياقُوتًا وبالوَحْلِ عَنْبَرا.
سَوَادُ غَمَامٍ يَبْعَثُ الماءَ أبيضًا * وغُرّة أرضٍ تُنْبِتُ الزَّهْرَ أصْفَرا.
أَتَتْكَ بِهِ أنْفَاسُ رِيحٍ مَرِيضَةٍ * كُمُفْظَعة رَعْناءَ تَسْتاقُ عَسْكَرا. ١٠ (٢٩)
فألقىٰ علىٰ الغُدْرانِ درْعا مُسَرَّدًا * وأهدىٰ إلىٰ القِيعانِ بُرْدا مُحَبَّرا.
تَخالُ الحَيَا فى الجَوّ دُرًّا منظَّمًا * وفى وَجَنات الرَّوْضِ دُرًّا منَثَّرا.
وأقْبَلَ نَشْرُ الأرضِ فى نَفَسِ الصَّبَا * فباتَ بِهِ ثَوْبُ الهَوَاءِ مُعَطَّرا.
إذا مادَعَتْ فيه الرُّعُودُ فأسْمَعَتْ * أجابَ حُدَاةً واسْتَهَلَّ فأغْزَرا.
ويَبْكِى إذا ما أضْحَكَ البَرْقُ سِنَّهُ * فيجْعَلُ نارَ البَرْقِ ماءً مُفَجَّرا. ١٥
كأنَّ بِهِ رُؤْدَ الشَّباب خريدةً * قد اتَّخَذَتْ ثِنْىَ السَّحابَةِ مِعْجَرا.
فثغرٌ يُرِينا من بَعِيدٍ تَبَلُّجًا * ودَمْعٌ يُرِينا من بعيدٍ تَحَدُّرا.

وقال مؤيد الدين الطُّغرائى :

سـارِيةٌ ذاتُ عُبُوسٍ بَرْقُهـا * يَضْحَك والأجْفانُ منها تَهْمِلُ .
كُحْـلَةٍ دَكْناءَ فى حاشِـيَةٍ * فيها طِرازٌ مُذْهَبٌ مُسَـلْسَلُ .
إذا دَنَتْ عِشَارُها، صاحَ بِهـا * قاصِفُ رَعْدٍ وحدَتْها الشمْأَلُ .

وقال عبد الله بن المعتزّ :

ومُزْنةٍ جاد من أجْفانها المطَرُ: * فالرَّوْضُ منتَظِمٌ والقَطرُ منتَثِرُ.
تَرىٰ مواقعَهُ فى الأرضِ لائحةً * مِثْلَ الدراهِمِ تَبْدُو ثم تَسْـتَتِرُ.

وقال أيضا :

ما ترىٰ نِعْمَةَ السَّماء علىٰ الأر * ضِ وشُكْرَ الرِّياضِ للأمْطارِ؟
وكأنّ الرَّبيعَ يَجْـلُو عَرُوسا * وكأنّا مِنْ قَطْرِه فى نِثَارِ!

وقال ابن عوف الكاتب فى إطباق الغيم وقُربه :

فى مُزْنةٍ أطبقَتْ فكادَتْ * تُصَـافِحُ التُّرْب بالغَمام .

وقال آخر :

تَبَسَّمَتِ الرِّيحُ ، ريحُ الجَنُـو * بِ فيهـا هَوًى غالِبًا وادِّكارا .
وساقَتْ سَحَابًا كمِثْـلِ الجِبَال * إذا البَرْقُ أوْمَضَ فيه، أنارَا .
إذا الرَّعْـدُ جَلْجَلَ فى جانِبَيْـه، رَوَىٰ النَّباتَ وأرْوَىٰ الصَّحارَىٰ .
تُطالِعُنا الشَّمْسُ مِنْ دُونِه * طِلاعَ فَتـاةٍ تَخافُ اشْتِهارا ،
تَخـافُ الرَّقيبَ علىٰ نَفْسِـها * وتَحْذَرُ من زَوْجها أن يَغَـارَا .
فتَسْـتُرُ غُـرَّتَهـا بالخِمَـا * رِ طَوْرًا، وطَوْرًا تُزِيل الخِمَارا .

فلمّا رآهُ هُبُوبُ الجَنُو * بِ وانْهَمَرَ الماءُ فيه انْهمارا،
تَبسَّمَتِ الأرضُ لمّا بكَتْ * عليْها السَّماءُ دُمُوعًا غِزَارا !

وقال الأسعد بن بُليطة من شعراء الذخيرة :

لَوْ كُنْتَ شاهِدَنا عَشِيَّةَ أمْسِنا، * والمُزْنُ تَبْكِينا بعَيْنَيْ مُذْنِبِ،
والشمسُ قد مَدَّتْ أَدِيمَ شُعاعِها * فِي الأرضِ تَجْنَحُ غيرَ أنْ لم تَذْهَبِ، ٥
خِلْتَ الرَّذاذَ بُرادةً مِنْ فِضَّةٍ * قد غُرْبِلَتْ من فَوْقِ نِطْعٍ مُذْهَبِ !

وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من شعرائها :

راحَتْ تُذَكِّرُ بالنَّسِيمِ الرَّاحا * وَطْفاءُ تَكْسِرُ للجُنُوحِ جَنَاحا.
أخْفَى مَسَالِكَها الظلامُ فأوْقَدَتْ * من بَرْقِها، كي تَهْتَدِي، مِصْباحا.
وكأنّ صَوْتَ الرَّعْدِ خَلْفَ سَحابِها * حادٍ إذا وَنَتِ السحائبُ، صاحا. ١٠
جادَتْ على التَّلَعاتِ فاكتَسَتِ الرُّبا * حُلَلًا أقامَ لها الرَّبِيعُ وِشَاحا.

(٣٠) وقال ابن بُرد الأصغر الأندلسيّ من شعرائها :

ومازِلْتُ أحسَبُ فيه السَّحاب، * ونارُ بَوَارِقِها تَلْتَهِبْ :
بَخَاتِيَّ تُوضِعُ في سَيْرِها * وقد قُرِعَتْ بِسِياطِ الذَّهَبْ.

ومما ورد في وصفها نثرا

١٥

§ قال بعض الأندَلُسِيِّينَ من رسالة :

ثم أرسل الله الرياح من كمائنها، وأخرجها من خزائنها؛ فجرتْ ذيولَها، وأجرت خيولها؛ خافقة بنودُها، متلاحقة جنودُها؛ فأثارت الغمام، وقادَتْه بغير زِمام؛ وأنشأت بَحْرِيَّةً من السحاب، ذات أتراب وأصحاب؛ كثيرًا عددُها، غزيرا مددُها،

فبشّرتْ بالقَطْر كلَّ شائم ، وأنذرت بالوِرْد كلَّ حائم ، والريح تَنْثُّها ، والبرق يحثُّها ، كأنه قضيب من ذهب ، أو لسان من لهب ؛ وللسحاب من ضوء البرق هاد ، ومن صوت الرعد حاد ؛ والريح توسع بلُحْمتها سَدَاها ، وتُسْرِع فى حياكتها يداها . فلما ٱلتحم فَتْقُها ، وٱلتأم رَتْقُها ؛ وٱمتدّت أشطانها ، وٱتسعت أعطانها ؛ وٱنفسحت أجنابها ، وٱنسدلت أطنابها ؛ وتهدّل حملها ، وتمخض حملها ؛ ومدّت علىٰ آفاق السماء نِطاقَها ، وزرّت علىٰ أعناق الجبال أطواقَها ، كأنها بناء علىٰ الجوّ مقبوب ، أو طَبَقٌ علىٰ الأرض مكبوب ؛ تمشِى من الثقل هَوْنا ، وتستدعِى من الريح عَوْنا ؛ ومخايلها تقوىٰ ، وعارضها أحوىٰ . فلما أذن الله لها بالٱنحدار ، وأنزل منه الوَدْق بمقدار ، أرسلت الريح خُيوطَ القطر من رُود السحائب ، وأسبلتها إسبال الذوائب . فدرّت من خِلْف مَصْرُور ، ونثرت طلّها نَثْر الدرور . ثم ٱنخرق جيبُها ، وٱنبثق سيبُها ؛ وصار الخيط حبلا ، والطلُّ وَبْلا . فالسحاب يتعلّق ، والبرق يتألّق ؛ والرعد يرتجس ، والقطر ينبجس ؛ والنُّقَط تترامىٰ طِباقا ، وتتبارىٰ ٱتساقا ؛ فيَرْدِف السابقُ المصلّى ، ويتصل التابع بالمولّى ؛ كما يقع من المُنْخُل البُرّ ، وينتثر من النظام الدُّرّ ؛ فجيوب السماء تُسقطه ، وأكفّ الغُدْران تلقُطه ؛ والأرض قد فَتّحت أفواهها ، وجَرّعت أمواهها . حتّى أخذت رِيّها من المطر ، وبلغت منه غاية الوطر ، فخلى من الرعد تسبيحه ، وطَفِئت من البرق مصابيحه ، وحَسَرت السماء نِقابها ، وولّت المطر أعقابها ؛ وحكت فى ردّها طِلْق السابق ، وهَرَب الآبق .

§ ومن رسالة لمحمد بن شرف القيروانى :

برئ عليل البرىٰ ، وأثرىٰ فقير الثرىٰ ، وتاريخ ذلك ٱنصرام ناجِر[1] ، وقد بلغتِ القلوبُ

(١) رجب أو صفر . وكل شهر من شهور الصيف (قاموس) .

الحناجر، محمارّةٌ احمرت لها خضرة السماء، واغبرّت مِرآة الماء، حتّى انهلّ طالعَ وسْمِيّ، وتلاه تابع ولِيّ، دنا فأسفّ، ووكَفَ فما كفّ. فما فتئ مسكوبا قَطْرُه، محجوبا شمسه وبدرُه، وجليت عروسُ الشمس، معتذرةً عن مغيبها بالأمس. فعندها مُزِّق عن الدقعاء صحيحُ إهابها، واختُزِن دُرّ البر فى أصداف ترابها. فما مرّت أيام إلا والقِيعان مسندَسه، والآكام مطوّسه. ٥

§ ومن رسالة لأبى القاسم، محمد بن عبد الله بن أبى الجد فى وصف مطر بعد قَحْط:

قال: لله تعالىٰ فى عباده أسرار، لا تُدرِكها الأفكار، وأحكام، لا تنالُها الأوهام. تختلف والعدل مُتّفِق، وتفترق والفضل مجتمع مُتّسق. ففى مِنَحها نفائس المأمول، وفى مِحَنها مَدَاوس(١) العقول. وفى أثناء فوائدها حدائقُ الإنعام رائقه، وبين أرجاء سرائرها بوارق الإعذار والإنذار خافقه. وربما تفتحت كمائم النوائب، عن زَهَرات المواهب. ١٠ وانسكبت غمائم الرزايا، بنفحات العطايا. وصدع ليلَ اليأس صبحُ الرجاء، وخلع عاملَ البأس والِى الرخاء. ذلك تقدير اللطيف الخبير، وتدبير العزيز القدير!

(٣١) ولما ساءت بتثبط الغيث الظُّنون، وانقبض من تبسط الشك اليقين، واسترابت حياض الوِهاد، بعهود العِهاد، وتأهبت رياضُ النِّجاد، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثمد النقع المُثار، وتعطلت أجياد الأنوار، من حُلى الديمة المِدْرار، ١٥ أرسل الله بين يدىْ رحمته ريحا بَلِيلةَ الجَناح، مُخِيلةَ النَّجاح، سريعة الإلقاح. فنظمتْ عقودَ السحاب، نظم السِّخاب، وأحكمت برود الغَمام، رائقة الأعلام. وحين ضربت تلك المُخِيلةُ فى الأفق قِبابَها، ومدّت علىٰ الأرض أطْنابَها، لم تلبث أن انهتك رُواقها،

(١) جمع مِدْوَس [أى مصاقل العقول].

وآنبتك وَشيكًا نِطاقُها، وآنبرت مدامعُها تبكى بأجفان المُشْتاق، غداة الفِراق، وتحكى بَنَان الكرام، عند أريحيّة المُدام، فآستغربت الرياض ضحكا ببُكائها، وآهتزّ رُفَات النبات طرَبا لتغريد مُكَّائها، وآكتست ظهور الأرض من بيض إنائها، خُضْرَ مُلائها. فكأنّ صنعاء قد نشرت على بسيطها بِساطا مُفَوَّفا، وأهدت إليها من زخارف بَزِّها ومطارف وشْيها ألطافا وتحفا. وخُيِّل للعُيون أن زواهر النجوم، قد طلعت من مواقع التُّخُوم، ومباسم الحسان، قد وصلت بأفترار الغيطان. فيا بَرْدَ موقِعها على القلوب والأكباد! ويا خلوص ريها إلى غُلَل النفوس الصَّواد! كأنما آستعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشَّفت شَنَب الثنايا العِذاب، أو تحملتْ ماء الوِصال، إلى نار البلبال. أو سرت على أنداء الأسحار وريحان الآصال. لقد تبين للصنع الجليل، من خلال ديمها تنفس ونصول، وتمكنَ للشكر الجميل، من ظلال نعمها معرّس ومقيل. فالحمد لله على ذلك ما آنسكب قطر، وآنصدع فجر، وتوقّد قبَس، وتردّد نَفَس، وهو الكفيل تعالى بإتمام النعمى، وصلة أسباب الحياة والحيا بعزته!

§ وقال الوزير أبو عمرو الباجىّ فى مثل ذلك:

إن لله تعالى قضايَا واقعةً بالعدل، وعطايَا جامعةً للفضل، ونِعَما يبسطها إذا شاء إنعاما وتَرْفيها، ويقبضها متى أراد إلهاما وتنبيها، ويجعلها لقوم صلاحا وخيرا، ولآخرين فسادا وضَيْرا. ﴿وهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ويَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وهُوَ الوَلِىُّ الحَمِيدُ﴾. وإنه كان من آمتساك السُّقيا، وتوقُّف الحيا، ما رِيعَ به الآمن، وآستُطير له الساكن، ورَجَفت الأكباد فزعا، وذَهَلت الألبابُ جَزَعا، وأذكتْ ذُكاءُ حرَّها، ومنعت السماءُ دَرَّها، وآكتست الأرضُ غُبرة بعد خُضرة، ولبست شُحوبا بعد نَضرة، وكادت بُرودُ الرياض تُطْوَى، ومُدُود نِعم الله تُزْوَى،

ثم نشر الله تعالىٰ رحمته ، وبسط نِعمته ، وأتاح مِنّته ، وأزاح مِحْنته . فبعث الرياح لَوَاقِح ، وأرسل الغَمام سَوَافِح ، بماء يتدفّق ، ورَوَاء غَدَق ، من سماء طبَق . آستهلّ جفنها فدمَع ، وسمح دمعها فهمَع ، وصاب وَبْلُها فنقع . فاستوفت الأرضُ رَيّاً ، وآستكملت من نَباتها أثاثا ورِيّاً ؛ فزينة الأرض مشهوره ، وحُلّة الزهر منشوره ، ومِنّة الرب موفوره ؛ والقلوب ناعمة بعد بُوسها ، والوجوه ضاحكة إثر عُبُوسها ؛ وآثار الجزَع ممحوّه ، وسُوَر الشكر متلوّه ؛ ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق ، ونستهديه فى قضاء الحقوق إلىٰ سواء الطريق ؛ ونستعيذ به من المِنّة أن تعودَ فتنه . والمنحة أن تصير محنه ! والحمد لله رب العالمين !

٩ — ذكر شيء مما وصف به الثلج والبَرَد

قال أبو الفتح كشاجم :

الثّلجُ يسقُطُ أم لُجَينٌ يُسبَكُ ، * أم ذا حَصىٰ الكافور ظَلَّ يُفترَكُ ؟
راحتْ به الأرضُ الفَضَاءُ كأنّها * فى كُلِّ ناحيـــةٍ بثَغْر تَضْحَكُ !
شابتْ ذوائبُهـا فَبَيَّنَ ضَحْـكَها * طربًا وعَهْدى بالمَشيب يُنَكِّكُ !
وتَرَدّت الأشجـارُ منـه مُلاءةً * عَمّـا قَليـلٍ بالرِّياح تُهَتَّـكُ !

وقال أيضا :

ثَلْـجٌ وشمسٌ وصَـوْبُ غاديةٍ * فالأرضُ من كُلِّ جانب غُرَّه !
باتت . وقِيعـانُها زَبَرْجدةٌ * فأصـبحتْ قد تحوّلتْ دُرّه !
كأنهـا والثُّـلوجُ تُضْحِكُها * تُعـار ممن أُحِبُّـه ثَغْـرَه !
شاتْ فسُرّتْ بذاك وآبتهجتْ * وكان عهدى بالشّيب يُستَكْره !

وقال الصاحب بن عبّاد :

أقبلَ الثّلجُ في غلائل نَوْرٍ * تتهادىٰ بلؤلؤ منثُورِ !
فكأنّ السماءَ صاهَرَتِ الأر * ضَ فصار النّثار من كافُور !

وقال النميرىّ :

٥ أهدىٰ لنا بَرَدًا يَلُوحُ كأنه * في الجو حَبُّ لآلِئٍ لم يُثْقَبِ،
أو ثَغْرُ حَوَاءِ اللّثاتِ تبسّمَتْ * عن واضِحٍ مثل الأقاحى أشْنَبِ !

الباب الثانى

من القسم الثانى من الفن الأوّل

فى النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قُزَح

١ (ا) فأما النيازك، فهو ما يُرىٰ من الذوائب المتصلة بالشُّهُب والكواكب .

روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال لجماعة من الأنصار : "ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمىٰ به؟ قالوا : يارسول الله، كنا نقول إذا رأيناها يرمىٰ بها : مات ملك، ولد مولود . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ليس ذلك كذلك، ولكن الله تعالىٰ كان إذا قضىٰ فى خلقه أمرا سمعه الملائكة فيسبحون،

١٥ فيسبّح مَن تحتهم لتسبيحهم، فيسبّح مَن تحت أولئك حتّى ينتهى إلىٰ السماء الدنيا فيسبحون، ثم يقولون ألا تسألون من فوقكم ممّ يسبحون، فيقولون قضىٰ الله فى خلقه كذا وكذا، للأمر الذى كان . فيهبط به الخبر من سماء إلىٰ سماء حتّى ينتهى إلىٰ السماء الدنيا فيتحدّثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع علىٰ توهم واختلاف . ثم يأتون

به الكُهَّان، فيصيبون بعضا، ويُخطئون بعضا . ثم إن الله تعالىٰ حجب الشياطين بهذه النجوم التى يُقْذَفون بها، فانقطعت الكَهَانة، فلا كَهَانةَ اليومَ".

والشهب التى يُقذف بها الشياطين غير النجوم الثوابت التى منها البروج والمنازل لقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

وقال بعض الشعراء :

وَكَوْكَبٍ نَظَرَ العفريتَ مُسْتَرِقًا * للسَّمْعِ فَانْقَضَّ يُذْكى إثْرَه لَهَبه
كفارِسٍ حلَّ من تِيهٍ عمامَتَه * وجَرَّها كُلَّها من خَلْفِه عَذَبه

وكتب ابن الحرون إلىٰ صديق له ، وقد كثر انقضاض الكواكب ، وذلك فى أيام المتوكل علىٰ الله :

أما بعد . فإن الفلك قد تفرّى عن شُهُبٍ ثواقب ، كنيران الحُبَاحِب ، مُتَّقِدَة كشرر الزنود ، وشُعَل زُبَر الحديد ؛ مازجها عرض حمرة البَهْرَمَان ، وصفرة العِقْيَان(آ). فهى كأرسال جرادٍ منتشِر ، وهشيم ذَرَتْه ريحٌ صرصَرٌ ، فى سُرْعة الكفّ ، ووَحَى لحظ الطَّرْف .

(ب) وأما الصواعق ، فهى ماقاله الزمخشرىّ فى تفسيره : الصاعقة قصفة من رعد ينقضّ معها شُقّة من نار .

وقالوا : إنها تنقدح من السحاب إذا اصطكّت أجرامُه . وهى نار لطيفة حديدة لا تمر بشىء إلا أتت عليه ، إلا أنها مع حدّتها سريعةُ الخمود . علىٰ أنها متىٰ سقطت علىٰ نخلة أحرقت عاليَها .

(١) العقيان الذهب .

وقال صاحب كتاب "مناهج الفكر ومباهج العبر" في كتابه :

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكِيس ، ولا تُحْرِق الكِيس ؛ وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال. قال : وهي إذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته ، وإذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه.

٥ وربما عرض لها عند انطفائها في الأرض برد ويبس ، فتكوّن منها أجرام حجرية ، (٣٣)
أو حديدية ، أو نحاسية . وربما طبعت الحديد سيوفا لا يقوم لها شيء .

(ج) وأما الرعد وما قيل فيه . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾.
قال المفسرون : الرعد ملَكٌ موكل بالسحاب ، معه كَرٌّ من حديد ، يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله . فكلما خالف سحاب ، صاح به فزجره . فالذي يُسْمَع هو
١٠ صوت المَلَك .

وقال الزمخشري من تفسيره : الرعد الذي يسمع من السحاب ، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدَتها الريح فتصوّت عند ذلك .

وأما صوت الرعد ، تقول العرب : رَعَدت السماء .

فإذا ازداد صوتها ، قيل : ارتجَسَتْ .

١٥ فإذا زاد ، قيل : أرزَمَت ، وقَعقَعَتْ[1] .

فإذا بلغت النهاية ، قيل : جَلجلَتْ ، وهَدْهَدَتْ .

---

(١) عبارة فقه اللغة : (فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، ورددت . فإذا زاد واشتد ، قيل : قصفت ، وقعقعت . فإذا بلغ النهاية إلخ) اهـ .

المثـــل

رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة. (البخيل المتكبر) .

(د) وأما البرق وما قيل فيه، فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالىٰ إلىٰ أنه ضَرْبُ المَلَك الذى هو الرعد للسحاب بمِخْراق من حديد . وروى عن مجاهد: ان الله عز وجل وكّل بالسحاب مَلَكا. فالرعد قَعْقَعة[1] صوته، والبرق سَوْطه[2] . ٥

وأما ترتيبه فى لمعانه

تقول العرب إذا برق كأنه يتبسم، وذلك بقدر ما يريك سوادَ الغَيْم من بياضه : ٱنكلَّ ٱنكلالًا .

فإذا بدا من السماء برقٌ يسير، قيل : أَوْشَمَت السماءُ . ومنه قيل : أوشَمَ النبتُ إذا أبصرت أوّلَهُ . ١٠

فإذا بَرَق بَرْقا ضعيفا، قيل: خَفَا .

فإذا لمع لمعا خفيفا، قيل : لَمَحَ، وأَوْمَضَ .

فإذا تشقق، قيل: ٱنعقَّ ٱنعِقَاقًا .

فإذا ملأ السماء وتكشف وٱضطرب، قيل: تبوَّجَ .

فإذا كثر وتتابع، قيل: ٱرتَعَجَ . ١٥

فإذا لمع وأطمَعَ ثم عَدَلَ، قيل له : خُلَّبٌ .

---

(١) فى الأصل نغنغة : . وهو محرّف عن قعقعة بالقاف كما يقتضيه السياق .

(٢) فى الأصل صوته . وهو محرّف عن سوطه وهو مخراق الحديد الذى ذكر فى السطر الذى قبله .

المثـــل :

" ليس في البرق اللامع مُسْتَمْتَعٌ " .

ذكر ما قيل في وصف الرعد والبرق

قال أبو هلال العسكريّ، عفا الله عنه :

٥ والرعـــدُ في أرجائه مُـــتَرَنِّم * والـــبرقُ في حافاته متلَهِّبُ .
كالبُلْق ترمَح، والصَّوارمُ تُنْتَضَىٰ * والجو يَبْسِمُ، والأنامل تَحْسُب .

وقال آخر :

إذا وَنَتِ السُّحْبُ الثِّقالُ وحثَّها * من الرعد حادٍ ليس يُبْصِرُ أكمَهُ،
أحاديثُه مُسْـتَهِولاتٌ وصَوْتُه * إذا انخفضت أصواتُهن مُقَهْقِهُ،
١٠ إذا صـاح في آثارهنّ حسِبْتَه * يحاوبُه من خَلْفِه صاحبٌ له .

وقال ابن الدقّاق الأندَلُسيّ :

أرىٰ بارقًا بالأبلق الفَـرْد يُومِض * يُذَهِّب أكناف الدُّجىٰ ويُفَضِّضُ .
كأنَّ سُلَيْمىٰ من أعاليـه أشرَفَتْ * تَمُدّ لنـا كفًّا خضيبا وتَقْبِضُ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندَلُسيّ :

١٥ ويوم جَرىٰ برقُـــهُ أشـــقَرا * يُطارِدُ من مُزْنه أشهَبا :
تَرىٰ الأرضَ فيه وقد فُضِّضَتْ * ووجهَ السَّـماءِ وقد ذُهِّبـا !

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ، شاعر الذخيرة :

ولمـا تجلّى اللَّيـلُ والبَرْقُ لامِعٌ * كما سَلَّ زَنْجِيٌّ حُسامًا من التِّبر .
وبِتُّ سَمِيرَ النجم وهو كأنه * علىٰ مِعْصم الدّنيا جبائرُ من دُرّ .

وقال محمد بن عاصم، شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أضاءَ بِوادِى الأثْلِ واللَّيلُ مُظلِمُ * بُرَيْقٌ كحَدِّ السَّيف ضَرَّجَهُ الدَّمُ.
إذا البرقُ أجرىٰ طرْفه فصهيله * إذا ما تفرّى رعدُه المُتَرَنِّمُ.
فشبَّهتُه إذ لاحَ فى غسَق الدُّجىٰ * بأسنانِ زَنْجِىٍّ بَدَتْ تَتبسَّمُ.

وقال أيضا :

والبرقُ يَضحَك كالحبيب وعِنْده * رَعْدٌ يُخَشِّنُ كالرَّقيب مَقالَهُ!

وقال آخر :

أرِقْتُ لبرقٍ غَدَا مَوْهِنًا * خَفِىٍّ كغَمزِكَ بالحاجب.
كأنَّ تألُّقَه فى السما * يدَا كاتبٍ أو يدَا حاسبِ.

وقال عبد الله بن المعتزّ، يشير إلىٰ سحابة :

رأيتُ فيها بَرْقها مُنْذُ بدتْ * كمثل طَرْف العين أو قَلْبٍ يُحِبْ.
ثم حَدَتْ بها الصَّبا حتّى بدا * فيها إلىٰ البرق كأمثال الشُّهُب.
تَحْسَبُه فيها إذا ما انْصَدَعَتْ * أحْشَاؤها عنه شُجَاعًا يَضْطَرِبْ.
وتارةً تُبْصِرُه كأنَّهُ * أبْلَقُ مالَ جُلُّه حِينَ وَثَبْ.
حتّى إذا ما رَفَع اليَوْمُ الضُّحىٰ * حَسِبْتَه سَلَاسِلًا مِنَ الذَّهَبْ.

قوله شجاعا يضطرب مأخوذ من قول دعبل :

أرِقتُ لبَرْقٍ آخِرَ الليلِ مُنْصِب * خَفِىٍّ كبطن الحَيَّة المتقلِّب.

وقال ايضا :

مازِلْتُ أكْلَأُ بَرْقًا فى جَوانِبه * كطَرْفَةِ العَيْنِ تَخْبُو ثم تَخْتَطِفُ.
بَرْقٌ تجاسَرَ من حَفَّان لامِعُه * يَقْضِى اللُّبانَةَ من قَلْبِى ويَنْصَرِفُ.

(هـ) وأما قوس قزح وماقيل فيه . قالوا : وإنما سمى بذلك لتلوّنه .

وكان ٱبن عبّاس (رضى الله عنهما) يكره أن يسميَه قوس قُزَحَ، ويسميه قوس الله، ويقول: قُزَحُ ٱسم الشيطان .

وزعم القدماء فى علة تلوّنه وتكوّنه، أنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق عليه نور بعض الكواكب ٱنصبغ ذلك الجزء، وٱنعطف منه الضوء إلىٰ مايليه من الهواء، كالحمرة الصافية إذا طلعت عليها الشمس سطع نُورها، وٱنعطف منه ألوان مختلفة إلىٰ ما يقرب منها. وحمرته وصفرته من قِبَل الرُّطوبة واليُبْس .

قالوا : وقياس ذلك النارُ، فإنهـا إذا كانت من حطب رَطْب، كان لونها أحمر كَدِرًا، فإن كانت من حطب يابس، كان لونها أصفر صافيا .

وقال آخرون : القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصـقالته، حتّى يمكن أن ترسم فيه دائرة الشمس كما تُرسم الأشباح فى المَرَايا، وتشتبك الأشعة بمـا يكون فيه البخار الرطب فيتولد، فيكون منها تلك الألوان. وإنمـا توجد دائرة علىٰ الناظر، لأن الشمس أبدا تكون فى قفاها، ولذلك تُرىٰ فى مقابلة الجهة التى تكون فيهـا الشمس، فتُرىٰ فى المغرب إذا كانت الشمس فى المشرق، وتُرىٰ فى المشرق إذا كانت فى المغرب .

وزعم بعض القـدماء أن أثر القوس غير حقيقىّ، وإنمـا هو تخييل لا وجودَ له فى نفسه. وقال إن إدراكه علىٰ نحو إدراك صورة الإنسان فى المرآة من غير أن تكون منطبعة علىٰ الحقيقة فيها ولاقائمةً بها. وذلك بحسب غِلَظ الحس الباصر، وهو لايُرىٰ إلا أن يكون وراء السحاب الصقيل، إذ ذاك يكون كالمرآة مؤديا للبصر علىٰ نحو تأدية البِلَّوْرِ، إذا جعل وراءه شىء غير مشفّ، ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده، كما لا يكون عن البِلَّوْر وحده، ولا عن غير المُشِفّ وحده. والله أعلم .

ذكر ما قيل فى وصفه وتشبيهه

قال أبو الفرج الوأواء، عفا الله تعالىٰ عنه و[illegible] :

(٣٥) سَقْيًا ليومٍ بَدَا قَوْسُ الغَمَامِ به * والشَّمْسُ طالِعةٌ والبرقُ خَلَّاسُ!
كأنه قَوْسُ رامٍ والبُرُوقُ له * رَشْقُ السِّهام وعينُ الشمس بُرْجاسُ.

وقال سعيد بن حميد القيروانى، رحمة الله عليه : ٥

أما تَرىٰ القوسَ فى الغَمَامِ وقد * نَمَّقَ فيه الهَواءُ نُوَّارا؟
حَكىٰ الطَّواوِيسَ وهى جاعلةٌ * أذْنابَها لِلِيَاهِ أسْتارا.
أخْضَرُ فى أحمرٍ علىٰ يَقَقٍ * علىٰ وِشاحِ السَّحابِ قَد دارا.
كأنما المُزْنُ وهى راهبةٌ * شَدَّتْ علىٰ الأُفْقِ منه زُنَّارا.

وقال ظاهر الدين الحريرى . شاعر الخريدة عفا الله عنه : ١٠

ألستَ تَرىٰ الجوَّ مُستَعْبِرًا * يُضاحِكُه برقُهُ الخُلَّبُ؟
وقد بَاتَ من قُزَحٍ قَوْسُه * بَعِيدًا وتحسَبه يَقْرُبُ؟
كطاقَىْ عَقِيقٍ وفَيْرُوزَجٍ * و بينهما آخَرٌ مُذْهَبُ.

وقال سيف الدولة بن حمدان، من أبيات :

وقد نشرَتْ أيْدِى الجَنُوبِ مَطَارِفًا * علىٰ الجوِّ دُكْنًا والحَواشى علىٰ الأرض. ١٥
يُطَرِّزُها قَوْسُ السَّحابِ بأصفرٍ * علىٰ أحمرٍ فى أخْضَرٍ وَسْطَ مُبْيَضِّ.
كأذْيالِ خَوْدٍ أقبلَتْ فى غَلَائِلٍ * مُصَبَّغةٍ، والبعضُ أقصرُ من بعضِ.

وقال عبد المحسن الصُّورىّ، عفا الله تعالىٰ عنه :

تأمَّلِ الجَوَّ تَرىٰ والِيًا * قد ولىَ العَهْدَ علىٰ السُّحْبِ!
سار، وقَوْسُ الله تاجٌ له، * رَكْضًا من الشَّرقِ إلىٰ الغَرْبِ! ٢٠

الباب الثالث

من القسم الثانى من الفن الأول

١ — فى أُسطقسّ الهواء (١)

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : "الريح من رَوْح الله تعالىٰ، تأتى بالرحمة، وتأتى بالعذاب . فلا تسبُّوها، وآسألوا الله خيرها، وآستعيذوا بالله من شرّها". أخرجه البيهقىّ فى سننه .

وروىٰ أبو الفرج بن الجوزىّ بإسناده أن الريح تنقسم إلىٰ قسمين : رحمة وعذاب، وينقسم كل قسم إلىٰ أربعة أقسام. ولكل قسم آسم. فأسماء أقسام قسم الرحمة : المبشّرات، والنُّشُر، والمرسَلات، والرُّخاء . وأسماء أقسام قسم العذاب: العاصف، والقاصف (وهما فى البحر)، والعقيم، والصرصر (وهما فى البر) .

وقد جاء القرءان بكل هذه الأسماء .

٢ — ذكر ما قيل فى حدّ الهواء

قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا فى حدّه : الهواء جِرم بسيط ، طباعه أن يكون حارّا رطبا مشفا متحركا إلىٰ المكان الذى تحت كرة النار التى فوق كرة الأرض والماء .

(١) كلمة معربة عن اليونانية معناها : العنصر .

وقال إبقراط : إنّ تغير حالات الهواء هو الذى يغير حالات الناس مرة إلى الغضب، ومرة إلى السكون، وإلى الهم والسرور، وغير ذلك . وإذا آستوت حالات الهواء، آستوت حالات الناس وأخلاقهم .

وقال : إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرف الهواء، إذا برد مرة، وسخن مرة، خرج مرة الزرع نضيجا، ومرة غير نضيج، ومرة قليلا، ومرة كثيرا، ومرة حارّا، ومرة باردا، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم . وإذا آستوى وآعتدل الهواء، خرج الزرع معتدلا، فآعتدلت بذلك الصور والمزاجات. قال : والعلة فى تشابه التُّرك، هو أنه لما آستوى هواء بلادهم فى البرد آستوت صورهم وتشابهوا .

وقال : إنّ الرياح تقلب الحيوان حالا إلى حال، وتصرفه من حرّ إلى برد، ومن يبس إلى رطوبة، ومن سرور إلى حزن، وإنها تغير ما فى البيوت من أصناف المآكل كالتمر، والعسل، والسمن، والشراب، فتسخنها مرة، وتبردها أخرى، وتصلّبها مرة، وتيبّسها مرة . وعلة ذلك أنّ الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها، وإذا تغير الهواء، تغير بتغيره كل شىء .

وقال : إنّ الجنوب إذا هبت، أذابت الهواء وبرّدته، وسخنت البحار والأنهار . فكل شىء فى رطوبة تغير لونه وحالاته . وهى ترخى الأبدان والعصب، وتورث الكسل، وتحدث ثِقَلا فى الأسماع، وغشاوة فى الأبصار. وأما الشَّمال فإنها تصلب الأبدان، وتصحح الأدمغة، وتحسن اللون، وتصفى الحواس، وتقوى الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال، ووجع الصدر .

وزعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء : أن الجنوب إذا هبت بأرض العراق، تغير الورد، وتناثر الورق، وتشقق القَنَّبِيط، وسخُن الماء، وآسترخت الأبدان، وتكدر الهواء .

وزعم آخرون من القدماء : ان الهواء جسم رقيق متى تموج من المشرق إلى المغرب سمى ريح الصَّبا .

قيل : سميت ريحَ الصَّبا، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها ورَوْحها . والصَّبْوة المَيْل . وجاء في بعض الآثار: مابعث نبيّ إلا والصَّبا معه، وهي الريح التي سُخِّرت لسليمان (عليه السلام) غدوُّها شهر، أي من أول النهار إلى الزوال، ورواحها شهر، أي من الزوال إلى المغرب . كان يغدو من تَدْمُر من بلاد الشام فيَقِيل في إصْطَخْر من بلاد فارس، ويبيت بكَابُل من بلاد الهند .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال "نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور" .

وإذا تموج من الجَنُوب إلى الشَّمال، سمى ريحَ الجنوب، وهي الريح التي أهلك الله عز وجل بها عادًا .

وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في الفن الخامس من كتابنا هذا .

وإذا تموج من الشَّمال إلى الجَنوب، سمى ريحَ الشَّمال .

وهم يزعمون أن مبادئ الرياح شَمَالِية أخَذَتْ إلى الجَنوب، وغربيةٌ أخذَتْ إلى المشرق للطف الهواء في هاتين الجهتين، .

والعرب تُحبُّ الصَّبَا لرقتها، ولأنها تجيء بالسحاب . والمطرُ فيها والخِصْبُ . وهي عندهم اليمانية .

٣ ـ ذكر أسماء الرياح اللغوية

قال الثعالبيّ فى فقه اللغة :

إذا وقعتِ الريحُ بين رِيحَيْنِ ، فهى النَّكْباءُ .

فإذا وقعت بين الجَنوب والصَّبَا ، فهى الجِرْبِيَاء .

فإذا هَبَّتْ من جهات مختلفة ، فهى المتناوِحة .

فإذا كانت لَيِّنَةً ، فهى الرَّيْدانةُ .

فإذا جاءت بنَفَسٍ ضعيف ورَوْح ، فهى النَّسيمُ .

فإذا كان لها حَنِين كحَنِينِ الإبل ، فهى الحَنُونُ .

فإذا ٱبتدأت بشدّة (١) ، فهى العاصف ، والسَّيْهُوج .

فإذا كانت شديدة ولها زَفْزَفة وهى الصوت ، فهى الزَّفْزافَةُ .

فإذا ٱشتدّت حتّى تَقْلَع الخيامَ ، فهى الهَجُوم .

فإذا حرَّكت الأغصانَ تحريكا شديدا أو قَلعت الأشجار ، فهى الزَّعْزاع ، والزَّعْزعَانُ ، والزَّعْزَعُ .

فإذا جاءت بالحَصْباء ، فهى الحاصِبَةُ .

فإذا دَرَجتْ حتّى ترىٰ لها ذيلا كالرَّسَن فى الرمل ، فهى الدَّرُوج .

فإذا كانتْ شديدة المرُور ، فهى النَّؤوج .

فإذا كانتْ سريعة ، فهى المُجْفِل ، والجافِلَةُ .

فإذا هَبَّت من الأرض كالعَمُود نحوَ السماء ، فهى الإعْصَار .

فإذا هبَّت بالغَبَرة ، فهى الهَبوة .

(١) عبارة الثعالبى . فإذا ٱبتدأت بشدة . فهى النابغة . فإذا كانت شديدة . فهى العاصف الخ .

فإذا حملَتِ المُورَ وجَرَّت الذيل، فهي الهَوْجاء .

فإذا كانتْ باردةً، فهي الحَرْجَف، والصَّرْصَر، والعَرِيَّة .

فإذا كان مع بَرْدها نَدًى، فهي البَلِيل .

فإذا كانتْ حارّةً، فهي الحَرُور، والسَّمُوم .

٥ فإذا كانت حارّة وأتتْ من قِبَل اليَمَن، فهي الهَيْف .

فإذا كانت باردةً شديدة تَخْرِق البيوت، فهي الخَرِيق (١) .

فإذا ضَعُفت وجرت فُوَيقَ الأرض، فهي المُسَفْسِفَة .

فإذا لم تُلْقِحْ شجرا ولم تحملْ مطرا، فهي العَقِيم . (وقد نطق بها القرآن) .

٤ — فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع

١٠ يقال : الرياح الحواشِك : المختلفة الشديدة . البوارح : الشَّمال الحارّة في الصيف . الأعاصير : التي تهيج بالغُبَار . المُعْصِرات : التي تأتي بالأمطار . المبَشِّرات : التي تَهُبُّ بالسحاب والغيث . السَّوافي : التي تسفي التراب .

٥ — ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الهواء

يقال :

١٥ أخَفُّ من النسيم . أسرع من الرِّيح . ريحهما جَنوب (يضرب للتصافِيَين) . هو ساكن الريح (اذا كان عليها) . قد هبَّتْ ريحه (إذا قامت دولته) .

ومن أنصاف الأبيات .

* إن كنتَ رِيحاً فقد لاقَيْتَ إعصارا * * وبعضُ القولِ يَذهبُ بالرياح *

* تَجْرى الرياحُ بما لاتشتهِى السُّفنُ * * لو كنتَ ريحًا كانتِ الدَّبُورا *

٢٠ (١) في اللسان أنها الريح الباردة الشديدة الهبوب كأنها خُرِقَت . أماتوا الفاعل بها .

ومن الأبيات :

إذا هبَّتْ رِياحُكَ، فاغتنمها * فإن لكلِّ خافقةٍ سُكُونُ !

وقال آخر :

وكلُّ ريح لها هُبوبٌ * يوماً فلا بدَّ من رُكُودِ.

وقال آخر :

والريحُ ترجعُ عاصفًا * من بعد ما ابتدأتْ نسيما.

(٣٧) وقال أبو تمَّام، عفا الله عنه :

إنّ الرياحَ إذا ما أعْصَفَتْ، قَصَفَتْ * عِيدانَ نَجْدٍ ولم يَعْبَأْنَ بالرَّتَمِ.

وقال ابن الرومىّ، رحمة الله عليه :

لا تُطفِئَنَّ جَوًى بلَوْمٍ إنه * كالريح تُغرِى النَّارَ بالإحراق .

٦ — ذكر ما جاء فى وصف الهواء وتشبيهه

قال عبد الله بن المعتزّ، رحمة الله عليه :

ونَسيم يُبَشِّرُ الأرضَ بالقَطْـ * ـرِ كذَيْلِ الفَلالةِ المَبْلول.

ووجوهُ البلاد تنتظرُ الغَيْـ * ـثَ انتظارَ المُحِبِّ ردَّ الرسول.

وقال ابن الرومىّ :

حَيَّتْكَ عنَّا شَمالٌ طافَ طائفُها * تحيَّةً، فجرَتْ رَوْحا ورَيْحانا.

هبَّت سُحَيْرًا فناجى الغُصْنُ صاحبَه * سِرًّا بها، وتنادى الطيرُ إعلانا.

وُرْقٌ تُغَنِّى على خُضْرٍ مُهَدَّلة * تَسْمُو بها وتَشُمُّ الأرضَ أحيانا.

يُخَالُ طائرُها نَشْوانَ من طَرَبٍ * والغصنُ من هَزِّه عِطْفَيْه نَشْوانا.

وقال أيضا :

كأنَّ نَسيمَها أَرَجُ الخُزَامَى * وَلَاهَا بَعْدَ وَسْمِيٍّ ولِيُّ.
هَدِيَّةُ شمالٍ هبَّتْ بليلٍ * لأفنان الغُصون بها نجيُّ.
إذا أنفاسُها نسَمَتْ سُحَيْرًا * تَنَفَّسَ كالشَّجِيِّ لها الخَلِيُّ.

وقال آخر :

وأنفاسٌ كأنفاسِ الخُزَامَى * قُبَيْلَ الصُّبْحِ بلَّتْها السماءُ.
تَنَفَّسَ نشرُها سَحَرًا فجاءتْ * به سَحَرِيَّةَ المَسْرَى رُخاءُ.

وقال إسحاق الموصلي :

ياحبَّذا ريحُ الجَنُوب إذا جَرَتْ * في الصُّبح وهي ضَعِيفَةُ الأنفاسِ!
قد حُمِّلَت بَرْدَ النَّدى وتَحَمَّلَتْ * عَبَقًا من الجَنْجاث (١) والبَسْباس (٢)!

(١) في الأصل بالإهمال وهو من إهمال الناسخ . فقد ورد في مادة (ج ث ث) من لسان العرب : « الجنجاث شجر أصفر مُرٌّ طيب الريح تستطيبه العرب وتكثر ذكره في أشعارها » . وقال أبو حنيفة الدينوري إنه من أحرار الشجر وهو أخضر ينبت بالقيظ له زهرة صفراء كأنها زهرة العرفجة طيبة الريح . وقال ابن البيطار : أول ما رأيته بساحل نيل مصر في أعلاه في صحاريه بمقربة من ضيعة هناك ، تسمى شاهور ، وهي على طريق الطرانة . وقال داود في تذكرته إنه يسمى باليونانية نرديسيون .

(٢) في اللسان : "البسباس نبات طيب الريح" . وهو المعروف عند علماء العرب بالاسم الفارسي "الرازيانج" وبهذا الاسم كان يعرف في الأندلس والمغرب ولا يزال معروفا به إلى اليوم في قطر الجزائر واسمه السرياني "برهليا" ويعرف في مصر والشام باسم "الشمار" ومنه نوع برى ينبت بالقيروان ويسميه

وقال آخر:

إذا خلَا الجَوّ من هَواء، * فعيْشُهم غُمَّـــةٌ وبُوسُ.
فَهْـو حَيـاةٌ لكلِّ حىٍّ، * كأنّ أنفاسَـــه نُفُوسُ.

وقال ابن سعيد الأندلسىّ:

الرِّيحُ أقودُ ما يَكُونُ لأنَّهـا * تُبدى خَفَايا الرِّدْف والأعْكَانِ.(١) ٥
وتُميِّـلُ الأغْصانَ بعْـدَ عُلوِّها * حتّى تُقَبِّـــلَ أوجُهَ الغُـدْران.
وكذلكَ العُشَّـاقُ يتَّخِـــذُونَها * رُسُلا إلىٰ الأحْباب والأوْطانِ.

وقال آخر:

أيا جَبَـــلَىْ نَعمانَ باللهِ خَلِّيَـا * سَبِيلَ الصَّبا يَخْلُصْ إلىّ نَسِيمُها.
أجِدْ بَرْدَها أو تَشْفِ منِّى حرارةً * علىٰ كَبِـدٍ لم يبـقَ إلا صَمِيمُها. ١٠
فإنَّ الصَّبَا رِيحٌ إذا ما تَنَفَّسَتْ * علىٰ كَبِـدٍ حرَّاءَ، قَلَّتْ هُمُومُها.

وقال ابن هُتَيْمِل اليمنىّ:

هبَّتْ لنا سَحَرًا، والصبحُ ملتَثِمُ، * واللَّيلُ قد غابَ فيه الشِّيبُ والهَرَمُ.
سَقيمةٌ من بَنَـاتِ الشَّرقِ أضْعفَهَا * عن قُوَّة السَّيْر، لَمَّا هبَّتْ، السَّقَمُ.
فبلَّغتْ بلِسـانِ الحـالِ قائـلةً * ما لم يُبلِّغْـــهُ يومًا إلىّ فَـــمُ، ١٥
سِرًّا لغـانيَـةٍ تَســرِى إلىّ بِهِ * من النَّسِـــيم رَسُولٌ ليس يُتَّهَمُ.
أُصـافِحُ الرِّيحَ إجلالا لِمَـا حَمَلَتْ * إلىّ من ريح بُرْدَيْهـا وأسْـتَلِمُ.

(١) واحده عُكْنة بالضم، وهى ماتثنّى من لحم البطن سِمَنا.

الباب الرابع

من القسم الثانى من الفن الأوّل

١ — فى أسطقس النار[1] وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران

(٣٨) حكىٰ أصحاب التواريخ فى حدوث النار أن آدم عليه السلام لما هبط إلىٰ الارض وجع، نزل جبلَ أبى قُبَيْس. فأنزل الله إليه مَرْختَيْن من السماء، فحكّ إحداهما بالأخرىٰ فأَوْرَيَا نارا. فلهذا سمى الجبل بأبى قُبَيْس.

ويدل علىٰ أن النار من الشجر، قوله عز وجل: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نارًا فإذا أنتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

والعرب تقول: "فى كل شجر نار، وٱستَمْجَد المَرْخُ والعَفَار". لأنهما أسرع ٱقتداحا. قال الله عز وجل: ﴿أفرأيتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ أأنتُم أنشأتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ المُنْشِئُونَ﴾.

وقال أصحاب الكلام فى الطبائع: إن الله عز وجل جمع فى النار الحركة، والحرارة، واليُبوسة، واللّطافة، والنور. وهى تفعل بكل صورة من هذه الصور خلاف ما تفعل بالأخرىٰ.

فبالحركة تعلى الأجسام؛ وبالحرارة تسخن؛ وباليبوسة تجفف؛ وباللطافة تنفذ؛ وبالنور تضىء ما حولها.

(١) أنظر فى كتاب الحيوان للجاحظ تفصيلات ومعلومات عن النار. وهى مما يجب الوقوف عليه والاحاطة به من الوجهة العلمية والفلسفية. أما من حيث اللغة والأدب فيراجع ما ورد فى كتاب «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» للتيفاشى باختصار صاحب لسان العرب، وهو موجود بالفتوغرافية فى «دار الكتب المصرية» ومحل الشاهد هو الباب الثامن من ص ٣٩١ الى ص ٤٢٣

ومنفعة النار تختص بالإنسان دون سائر الحيوان. فلا يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنها غنى فى حال من الأحوال.

ولهذا عظمتها المجوس[1]، وقالوا: إذ أفردتنا بنفعها، فنفردها بتعظيمها. على أنهم يعظمون جميع ما فيه منفعة على العباد، فلا يدفنون موتاهم فى الأرض، ولا يستنجون فى الأنهار.

٢ — ذكر أسماء النار

(وأحوالها فى معالجتها وترتيبها)

أما أسماؤها، فمنها:

النار، والصِّلاء، والسَّكَن، والضَّرَمةُ، والحَرَق، والحَمَدةُ (وهو صوتُ التهابها)، والحَدَمةُ. والجَحِيم، والسَّعِير، والوَحَى.

وأما تفصيل أحوالها ومعالجتها وترتيبها، فقد قال الثعالبىّ فى فقه اللغة:

إذا لم يُخْرِج الزَّنْدُ النارَ عند القَدْح، قيل: كَبَا يَكْبُو.

فإذا صوّت ولم يخرج، قيل: صَلَدَ يَصْلِد.

فإذا أخرج النار، قيل: وَرَى يَرِى.

فإذا ألقى الإنسانُ عليها ما يحفَظُها ويُذْكِيها، تقول: شيّعتها وأثقبتها.

فإذا عالجها لتلتهبَ، قال: حَضَأْتُها وأَرَّثْتها[2].

فإذا جعل لها مَذْهَبا تحت القِدْر، قال: سَخَوتُها.

---

(١) gnèbres, mages. عند الفرنسيين. والمجوس لفظ مشتق من "موغ" و "مُغ" ومعناه النور فى اللغة الطورانية.

(٢) فى فقه الثعالبى: وأرّثتها بالشين وعبارة القاموس فى مادة (ارش) وتأريش النار تأريثها.

فإذا زاد في إيقادها وإشعالها، قال : أَجَّجْتُها .

فإذا اشتدّ تأجُّجها، فهي جاحمة[1] .

فإذا طَفِئت البتةَ، فهي هامدةٌ .

فإذا صارت رَمَادا، فهي هابِيَة .

له والله تعالى أعلم .

٣ — ذكر عُبَّاد النار

(وسبب عبادتها و بيوت النيران)

§ أوّل مَن عبد النار قابيلُ بنُ آدم .

وذلك أنه لما قتل أخاه هابيلَ هرب من أبيه إلى اليمن، فجاءه إبليس لعنه الله، وقال له : إنما قُبِل قُرْبان هابيلَ وأكلته النارُ لأنه كان يخدمها و يعبُدها . فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولِعَقِبِكَ، فبنى بيت نار .

فهو أوّل من نَصَب النار وعَبَدها .

§ وأوّل من عظمها من ملوك الفرس، جم . وهو أحد ملوك الفرس الأُوَل، عظمها ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال : إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب، لأن النور عنده أفضل من الظلمة .

§ ثم عُبدت النار بالعراق، وأرض فارس، وكَرْمان، وسِجِسْتان، وخُرَاسان، وطَبَرِسْتَان، والجبال، وأَذْرَبِيجان، وأَرَّانَ، وفي بلاد الهند، والسند، والصين .

(١) عبارة فقه اللغة بعده : (فاذا سكن لهبها ولم يُطفأ جرها فهي خامدة) وبعده فاذا طفئت البتة الخ

§ وبُنِيَ فى جميع هذه الأماكن بيوت للنِّيران ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالىٰ .

§ ثم انقطعت عبادة النيران من أكثر هـذه الأماكن إلا الهند . فإنهم يعبدونها إلىٰ يومنا هـذا . وهم طائفة تدعىٰ الإكنواطرية (١) . زعموا أن النار أعظم العناصر جِرْما ، وأوسعُها حيزا ، وأعلاها مكانا ، وأشرفها جوهرا ، وأنورها ضـياء وإشراقا ، وألطفها جسما وكيانا ؛ وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلىٰ سائر الطبائع ؛ ولا نور فى العالم إلا بها ؛ ولا نمو ولا انعقاد إلا بمازجتها .

وعبادتهم لها أن يحفِروا أُخْدُودا مربعا فى الأرض ويحشُوا النار فيه ، ثم لا يَدَعُون طعاما لذيذا ، ولا شرابا لطيفا ، ولا ثوبا فاخرا ، ولا عطرا فائحا ، ولا جوهرا نفيسا ، إلا طرحوه فيها : تقربا إليها ، وتبرّكا بها . وحرّموا إلقاء النفوس فيها ، وإحراق الأبدان بها ، خلافا لجماعة أخرىٰ من زهّاد الهند .

§ وعلىٰ هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها . يعظمون النار لجوهرها تعظيما بالغا ، ويقدّمونها علىٰ الموجودات كلها .

§ ومنهم زهّاد وعبّاد يجلسون حول النـار صاغين ، يسدّون منافسهم حتّى لا يصل إليها من أنفاسهم نَفَسٌ صَدَرَ عن صَدْر مجرم . وسُنّتهم الحثّ علىٰ الأخلاق الحسنة ، والمنع من أضـدادها ، وهى : الكذب ، والحسَـد ، والحِقْد ، والكِفَاح ، والحرص ، والبغى ، والبطر . فإذا تجرّد الإنسان عنها ، تقرّب من النار .

(١) أفادنا المترجم الألمانى لكتاب الملل والنحل أن هذه الكلمة مأخوذة من "أجنيهُتْرا" وهى النار المقدسة (أى التى تتأجج إكراما للإله أجنى .)

٤ ــ وأما بيوت النيران

(ومَن رسمها من ملوك الفرس)

قال المسعودىّ :

§ أوّل من حُكِى ذلك عنه أَفْريدون الملك . وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها ، [وهم][1] معتكفون علىٰ عبادتها . [فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم فى عبادتها . فأخبروه بأشياء آجتذبت نفسه إلىٰ عبادتها][1] وأنها واسطة بين الله تعالىٰ وبين خلقه ، وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكروها له . وجعلوا للنور مراتب وقوانين [وفرقوا بين طبع النار والنور][1] وزعموا أن الحيوان يجتذبه النور ، فيحرق نفسه : كالفَرَاش الطائر بالليل فما لَطف جسمه ، يطرح نفسه فى السراج فيحرقها . وغير ذلك مما يقع فى صيد الليل من الغِزلان ، والوحش ، والطير ، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج فى الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة فى الليل ، فإنهم يجعلون السُّرُج حوالى المركب ، فيثب السمك من الماء إليها ؛ وأن بالنور صلاح هذا العالم ، وشرف النار علىٰ الظلمة إلىٰ غير ذلك .

فلما أخبروا الملك أفريدون بذلك أمر أن تحمل جمرة منها إلىٰ خراسان ، فحملت . فاتخذ لها بيتا بطوس . [وآتخذ بيتا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة][2] . وبيتا آخر بسجستان كوا كر[3] ، كان آتخذه بَهمن بن إسفنديار بن يُسْتاسْف بن يهراسف .

(١) الزيادة عن المسعودىّ .

(٢) سماه الشهرستانى : "قُباذان" (ص ١٩٧) .

(٣) سماه الشهرستانى : "كَرْكَرَا" (ص ١٩٧) .

§ و بيت آخر ببلاد الشير و الرّان ، كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان ، وقيل إنه صادف هذا البيت ،وفيه نار معظمة فنقلها إلىٰ الموضع المعروف بالبركة .

§ و بيت آخر للنار يقال له كوسجة[(١)] : بناه كيخسرو الملك .

§ وقد كان بقومس بيت نار معظم لايُدرىٰ من بناه ، يقال له حريش[(٢)] . و يقال إن الإسكندر لما غلب عليها ، تركها ولم يطفئها .

§ و بيت نار آخر يسمّى كَنْكَدَز ، بناه سياوش بن كاوس الجبار ، وذلك فى زمن لُبْثِه بشرق الصين مما يلى البركة .

§ و بيت نار بمدينة أزجان من أرض فارس ، بناه قمار .

§ و بيت بأرض فارس اتُّخذ فى أيام يهراسف[(٣)] .

§ فهذه البيوت كانت قبل ظهور زرادشت .

§ ثم اتخذ زرادشت بعد ذلك بيوتا للنيران . فكان مما اتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان ، و بيت بمدينة نَسا والبيضاء من أرض فارس . وقد كان زرادشت أمر يستاسف[(٤)] الملك بطلب نار كان يعظمها جَمْ[(٥)] فطلبت ، فوجدت بمدينة خوارزم . فنقلها يستاسف إلىٰ مدينة دَارَابْجِرْد من أرض فارس ... ... والمجوس تعظم هذه النار مالا تعظم غيرها من النيران والبيوت ... ... وللفرس بيت نار

(١) سماه الشهرستانى : "كُوَيسة" (ص ١٩٧) .

(٢) سماه الشهرستانى : "جَرِير" (ص ١٩٧) .

(٣) هو فراسب .

(٤) فى الشهرستانى : كشتاسف .

(٥) هو الملك جمشيد .

بإصطخر فارس، يعظمه المجوس . كان في قديم الزمان للأصنام، فأخرجتها جمان بنت بهمن بن آسپنديار وجعلته بيت نار . ثم نقلت عنه النار فخرب ... ... وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عندهم آتخذه دارا بن دارا . وفي مدينة جور من أرض فارس ... ... بيت بناه أردشير بن بابك ... ... وقد كان أردشير بنى بيت نار يقال له بارنوا في اليوم الثاني من غلبته على فارس . و بيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور الجنود آبن أردشير بن بابك حين نزل على هذا الخليج وحاصر القسطنطينية . ولم يزل هذا البيت إلى خلافة المهدى . وكان سابور آشترط على الروم بقاء هذا البيت ... ... و بأرض العراق بيت نار بالقرب من مدينة السلام . بنته بُوران[1] بنت كسرى أبرويز، الملكة، بالموضع المعروف بأسنيبا[2] . و بيوت النيران كثيرة تعظمها المجوس . والذى ذكرناه هو المشهور منها[3] .

٥ — ذكر نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارا .

١ — نار المُزْدلِفة . توقد حتى يراها مَن دفع من عرفة . وأول من أوقدها قُصىّ بن كلاب .

٢ — نار الآستسقاء . كانت الجاهلية الأولى، إذا تتابعت عليهم الأَزَمات، وآشتدّ الجدب، وآحتاجوا إلى الأمطار . يجمعون لها بَقَرًا، معلقة في أذنابها وعراقيبها

(١) في الشهرستاني : توران .

(٢) في المسعودى : استينيا . وفي الشهرستاني : إسفينيًا .

(٣) هذا الباب كله منقول عن مروج الذهب (أنظر طبعة باريس ج ٤ ص ٧٢ — ٨٦) .

السَّلَع[1] والعُشَر[2]، ويصعدون بها إلى جبل وَعْر، ويشعلون فيها النار، ويَضِجُّون بالدعاء والتضرّع. وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصَّل بها إلى نزول الغيث[3]. وفى ذلك يقول الوديك الطائى:

لادَرَّ دَرُّ رجالٍ خابَ سَعْيُهُمُ * يَستَمْطِرُونَ لَدَى الأزماتِ بالعُشَرِ!
أجاعِلٌ أنتَ بَيْقُورًا مُسَلَّعَةً * ذَريعةً لَكَ بينَ اللهِ والمَطَرِ؟

وقال أُمية بن أبى الصَّلْت:

ويَسُوقُون باقِرَ السَّهْلِ للطَّوْ * دِ مَهازِيلَ خَشيةً أن تَبُورا.
عاقِدِينَ النِّيرانَ فى بُكَرِ الأَذْ * نَابِ مِنْها، لِكَيْ تَهِيجَ النُّحُورا.
سَلَعٌ مَّا ومِثْلُهُ عُشَرٌ مَّا * عائِلٌ مَّا وعالَتِ البَيْقُورا.

٣ — نار الزائر والمسافر. ويسمونها نار الطَّرْد. وذلك أنهم كانوا إذا لم يحبوا رجوع شخص، أوقدوا خلفه نارا ودعَوْا عليه، ويقولون فى الدعاء: أبعده الله وأسحقه! وأوقدوا نارا إثره. قال الشاعر:

وجُمَّةَ قَوْمٍ قد أتَوْكَ ولم تَكُنْ * لِتُوقِدَ نارًا خَلْفَها للتَنَدُّمِ.

(١) قال العلامة الدكتور أوغست هفنر الألمانى والأب المحقق الفاضل لويس شيخو اليسوعى فى حاشية صفحة ٣٦ من كتاب النبات والشجر للأصمعى الذى عنيا بتحقيقه وطبعه فى بيروت سنة ١٩٠٨، مانصه: السلع نبات. وقيل شجر مر، وقيل أنه سمّ. له ورقة صغيرة شاكة كأن شوكها زغب. وهو بقلة تنفرش كأنها راحة الكلب.

(٢) قال الفاضلان المذكوران فى ذلك الموضع أيضا مانصه: "قيل إن العشر من كبار شجر العضاه وهو ذو صمغ حلو وحرّاق مثل القطن. يقتدح به. وهو عريض الورق. يخرج من شعبه ومواضع زهره سكر فيه شىء من المرارة يقال له سكر العشر. ويخرج له نفاخ كشقاشق الجمال. وله نور كالدِفْلَى، مشرق حسن النظر. وله ثمر: L.. Asclepias gigantea. Le.. Asclépiade: Forsk.. Calotropis procera:

(٣) أما الافرنج والأمريكان فى هذا العصر فانهم يستنزلون الغيث باطلاق المدافع لاحداث الدوىّ والضجيج والالتهاب فى الجو.

والجُمَّة : الجماعة يمشون فى الدم، وفى الصلح . ومعنىٰ هذا البيت : لم تندم علىٰ ما أعطيت فى الحَمَالة عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارا كى لا يعُودوا .

٤ — نار التحاليف . كانوا لا يعقِدون حِلْفهم إلا عليها، فيذكرون منافعها، ويدعُون اللهَ بالحِرْمان والمنع من منافعها علىٰ الذى ينقضُ العهدَ، ويطرحُون فيها الكبريتَ والمِلْح . فإذا فرقعتْ هوَّل علىٰ الحالف . قال الكُمَيت :

هُمُو خَوَّفُونِى بالعَمىٰ هُوَّة الرَّدىٰ * كما شَبَّ نارَ الحالِفِينَ المُهَوِّلُ .

وقال أَوْس بن حَجَر :

إذا ٱستَقْبلَتْه الشَّمْسُ، صَدَّ بوَجْهِه * كما صَدَّ عنْ نارِ المُهَوِّلِ حالِفُ .

٥ — نار الغَدْر . كانت العرب إذا غدر الرجل بجاره، أوقدوا له نارا بمنى، أيامَ الحج علىٰ الأخشَب (وهو الجبل المطلّ علىٰ منًى). ثم صاحوا : هذه غَدْرة فلان. قالت ٱمرأة من هاشم :

فإنْ نَهْلِكْ فلم نَعْرِفْ عُقُوقا * ولم تُوقَدْ لنا بالغَدْرِ نارُ .

٦ — نار السَّلَامة . وهى نار توقد للقادم من سفره، إذا قدم بالسلامة والغنيمة . قال الشاعر :

يا سُلَيْمىٰ أَوْقِدِى النارا * إنَّ مَنْ تَهْوِينَ قَدْ زارَا .

٧ — نار الحرب . وتسمّى نار الأُهْبَة والإنذار. توقد علىٰ يَفَاع، فتكون إعلاما لمن بَعُد . قال ٱبن الرومى :

له نارَان : نارُ قِرًى وحَرْبٍ . * ترىٰ كلْتَيْهِمَا ذاتَ ٱلْتهابِ .

٨ — نار الصَّيْد . يوقدونها لصيد الظباء، لتُعْشِىَ أبصارها .

٩ — نار الأَسَد . كانت العرب توقدها إذا خافوه؛ فإن الأسد إذا عاين النار حدّق إليها وتأملها .

١٠ — نار السَّلِيم . توقَد للملدوغ، والمجروح، ومَن عضّه الكَلْب الكَلِب حتّى لاينامو فيشتدّ بهم الألم . قال النابغة :

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمامِ سَلِيمُها * لِحَلْيِ النِّساءِ فى يَدَيْهِ قَعاقِعِ .

وذلك لأنهم كانوا يعلقون عليه حَلْى النساء ويتركونه سبعة أيام .

١١ — نار الفداء . وذلك أن ملوكهم كانوا إذا سَبَوْا قبيلة وخرجت إليهم السادات فى الفداء وفى الآستيهاب، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحْن . وأما فى الظلمة فيخفىٰ قدر ما يحبسون من الصبىّ لأنفسهم، وقدرُ ما يجودون به، وما يأخذون عليه الفداء . فيوقدون لذلك النار . قال الشاعر :

نِساءُ بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أُوَارَةٍ * علىٰ النَّارِ إذ تُجْلىٰ له فَتَياتُها .

١٢ — نار الوَسْم . كانوا يقولون للرجل : ما نارك ؟ (فى الآستخبار عن الإبل) أو ما سِمَتُك ؟ [فيقول] : حياط، أو علاط، أو حَلْقة، أو كذا، أو كذا .

حُكى أن بعض اللصوص قرّب إبلا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتّى إلىٰ بعض الأسواق، فقال له بعض التجّار : ما نارُك ؟ وإنما سأله عن ذلك، لأنهم كانوا يعرفون مِيسَم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها، فقال :

تَسْأَلُنِي البـاعةُ : ما نِجارُها، * إذ زَعْزَعُوها فسَمَتْ أبصارُها؟
وكلُّ دارٍ لأناسٍ دارُها ! * وكلُّ نارِ العـالَمِين نارُهـا(١) !

(١) يقول العرب فى أمثالهم : "كل نجار إبل نجارها" وشطره الثانى "ونار إبل العالمين نارها" يضربون المثل للخلط الذى فيه كل لون من الأخلاق وليس له رأى يثبت عليه .

١٣ — نار القِرىٰ . وهى من أعظم مفاخر العَرَب . كانوا يوقدونها فى ليالى الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القِرىٰ . فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع، كان أفخر. وهم يتمادحون بها، قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بكُلِّ وادٍ * إذا النِّيرانُ أُلْبِسَتِ القِنَاعا.

٥ وقال إبراهيم بن هَرِمة :

إذا ضلَّ عنهم ضَيْفُهم، رَفَعُوا له * من النار فى الظَّلْماء ألْوِيةً حُمْرا .

١٤ — وكانت للعرب نار عظمىٰ تسمّٰى نار الحرّتين . وهى التى أطفأها الله تعالىٰ بخالد بن سنان العبسىّ . وكانت حَرَّة ببلاد عبس، تسمّٰى حَرَّة الحدثان .

روى عن ٱبن الكلبىّ أنه قال : كان يخرج منها عنق فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة (٤١)
١٠ أميال، لا تمرّ بشىء إلا أحرقته . وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بنى عبس رجُلا فخرج بهم نحوها، ومعه درّة حتّٰى ٱنتهىٰ إلى طَرَفها، وقد خرج منها عُنُق كأنه عُنُق بعير فأحاط بهم، فقالوا : هلكتْ والله أشياخ بنى عبس آخِرَ الدهر ! فقال خالد كلّا ! وجعل يضرب ذلك العُنُق بالدِّرّة ويقول : " بَدًّا بَدًّا، كُلُّ هَدْيِ الله يُؤَدّىٰ ! أنا عبد الله خالد بن سنان ! " فما زال يضربه حتّٰى رجع، وهو يتبعه والقوم مَعه كأنه
١٥ ثُعبانٌ يتملك حجارة الحرّة حتّٰى ٱنتهىٰ إلىٰ قَلِيب، فٱنساب فيه وتقدّم عليه، فمكث طويلا . فقال ٱبن عم لخالد، يقال له عروة بن شب : لا أرىٰ خالدا يخرج إليكم أبدا ! فخرج يَنْطُف عَرَقا، وهو يقول : زعم ٱبن راعية المعْزىٰ أنى لا أخرج . فقيل لهم بنو راعية المعزىٰ إلىٰ الآن .

وفى هذه النار يقول الشاعر :

٢٠ كنار الحَرّتَيْن لها زَفِيرٌ * تُصِمُّ مَسَامِعَ الرجل السَّميع .

٦ — ذكر النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لا حقيقية. فمنها :

§ نار البرق . وقد وصفها بعض الأعراب فقال :

نار تُجَـــدِّد لِلعِيدانِ نَضْرتَها * والنارُ تُشْعِل عِيدانًا فتَحْتَرِق

إشارة إلى أن النار تُحْرق العيدان، إلا نار البرق فإنها تجيء بالغيث . ٥

§ نار المَعِدَةِ . وهى التى تهضم الطعام، وهى كنار الحياة، ونار الغريزة، وقوتها مادة للصحة، كما أن ضعفها سبب للعلة .

§ نار الحُمّى . وقد قيل : النيران ثلاثة : نار لا تأكل ولا تشرب، وهى نار الآخرة؛ ونار تأكل وتشرب، وهى نار الحمّى، تأكل اللحم وتشرب الدم؛ ونار تأكل ولا تشرب، وهى نار الدنيا . ١٠

ومن النيران المجازية :

§ نار الشوق، نار الشَّرَه، نار الشباب، نار الشراب.

قال شاعر يمدح بعض الملوك :

وُقِيتَ نارَ الجَحِيم يامَلِكُ، * أربعُ نِـــيرانِه له نَسَقُ!

نارُ شَبابٍ تَرُوقُ نَضْرتُها، * ونارُ راحٍ كأنَّهُ شَفَقُ، ١٥

ونارُ سُـلْطانِه، تقارِنُهـا * نارُ قِـــرًى لاتزالُ تأْتَلِقُ،

٧ — ذكر النيران التي يضرب المثل بها

يُضْرب المثل :

§ بنار الحُباحِبِ . وهي نار لبخيل كان يوقدها . فإذا آستضاء بها إنسان ، أطفأها .

وقيل : إنها النار التي تُوريها الخيل بسنابكها من الحجارة . قال الله تعالى : ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ . وقال النابغة :

٥ ويُوقِدْنَ بالصَّفَاحِ نارَ الحُباحب

وهذا المثل يضرب لما لا منفعةَ فيه ولا حاصلَ له .

§ نار الغَضَى . يضرب بها المثل في الحَرارة . وهي جمر أبيض لا يصلح إلا للوقود .

§ نار العَرْفَج . هي نار تتقد سريعا . قال قتيبة بن مسلم لعمرو بن عباد بن الحصين : ١٠ "للسُّؤدُدُ أسرع إليك من النار في يبس العرفج" . إذا آلتهبت فيه النار آنتشرت

وتسمى نار الزَّحْفتين . لأن العرفج إذا آنتشرت فيه النار عظُمت وآستفاضت . فمن كان بالقرب منها زحف عنها ، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها . فيحتاج الذي زحف عنها أن يزحف إليها . فلا يزال المصطلي بها كذلك ، فلذلك سميت نار الزحفتين .

§ نار الحَلْفاء . يضرب بها المثل في سرعة الآتقاد ، كما قيل :

١٥ فما ظَنُّك بالحَلْفا ءِ أدْنَيْت له نارا .

وفي سرعة الآنطفاء ، كما قيل : نار الحَلْفاء ، سريعة الآنطفاء .

٨ — ذكر ماجاء منها على لفظ أفعل

يقال :

آكل من النار، أحرّ من النار، أحرّ من الجمر، أحسَنُ من النار، أسرع من شرارة فى قَصْباء .

ويقال :

فلان وارى الزناد، وَرِيَتْ بك زِنَادى، فلان ثاقب الزَّنْد، فلان كَابِى الزِّنَادِ، صَلَدَتْ زِنَادُه، فلان مايُصْطَلَى بِنَارِهِ، هو القَابِسُ العَجْلان، هما زَنْدَانِ فى وِعاء.

ومن أنصاف الأبيات :

والنار قد يُخْمِدُها النَّافِخُ * كَمُلْتَمِسٍ إطفاءَ نارٍ بنافخ

والجمرُ يُوضَعُ فى الرَّمادِ فيَخْمُدُ * كذا كُلُّ نارٍ رُوِحَتْ تَتَوَقَّدُ

* هيهاتَ تُكْتَمُ فى الظَّلام مَشَاعِلُ *

ومن الأبيات قول على بن الجَهْم :

والنَّارُ فى أحْجَارِها مَكْنُونَةٌ * لاتَصْطَلِى إن لم تُثِرْهَا الأزْنُدُ

وقال آخر :

والنارُ بالماء الذى هو ضِدُّها * تُعْطِى النَّضَاجَ، وطَبْعُهَا الإحراقُ.

وقال آخر :

والكَاتِمُ الأمْرِ ليس يَخْفَى * كالمُوقِدِ النارِ باليَفَاعِ.

وقال آخر :

لاتَتْبِعْ كلَّ دُخَانٍ تَرَى * فالنَّارُ قد تُوقَدُ لِلْكَىّ.

وقال أبو تمام :

لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ * ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرْفِ العُود .

وقال آخر :

وفَتيلةُ المصباح تُحرِقُ نفسَها * وتُضيءُ للسَّارى، وأنتَ كذا كا .

٩ — ذكر ما قيل في وصف النار وتشبيهها

قال عبد الله بن المعتزّ، غفر الله له :

كأنَّ الشَّرارَ على نارها * وقد راق مَنْظَرُها كُلَّ عَيْن .

سُحالةُ تِبْرٍ إذا ما عَلا * فإمّا هَوىٰ فَفُتاتُ اللُّجَيْن .

أخذه العسكريّ فقال :

أَوْقَدْتَ بعد الهُدُوِّ نارًا * لها علىٰ الطارقين عَيْنُ .

شَرارُها إنْ عَلا نُضارٌ، * لكنّهُ إن هَوىٰ لُجَيْنُ .

وقال السَّريّ الرّفاء :

والتَهبَتْ نارُنا، فمَنْظَرُها * يُغْنيك عن كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ .

إذا رَمَتْ بالشَّرارِ فاطَّرَدَتْ * علىٰ ذُراها مَطارِدُ اللَّهَبِ ،

رأيتَ ياقوتةً مُشَبَّكةً * تَطيرُ عنها قُرَاضَةُ الذَّهَب .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ :

حَمْراءُ نازعَتِ الرِّياحَ رِداءَها * وَهْنًا وزاحَمَتِ السَّماءَ بِمَنْكِبِ .

ضَرَبَتْ سَماءً من دُخانٍ فوقها، * لم تدر منها شُعْلَةً من كوكب .

وتَنَفَّحَتْ عن كُلِّ نفحةِ جَمْرةٍ * باتت لها ريحُ الشَّمال بِمَرْقَبِ .

قد أُلْهِبَتْ فتذهَّبَتْ فكأنها * شَقْراءُ تَمْرَحُ في عَجاجٍ أَكْهَبِ .(١)

(١) الكهبة لون ليس بخالص في الحمرة . وهو في الحمرة خاصة (صحاح الجوهري) .

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ :

كأنما النارُ والرَّمادُ وقد ... كاد يُوارِى من نُورِها النُّورَا :
وَرْدٌ جَنِىُّ القِطافِ أحمرُ قد ... ذَرَتْ عليه الأَكُفُّ كافُورَا .

وقال تاج الملوك بن أيوب :

أمَا تَرىٰ النارَ وهى تُضْرَمُ فى ... أحشاء كانُونِهَا وتلتَهِبُ ؟
كأنَّما الفحمُ فوقها قُضُبٌ ... من عَنْبَرٍ وهى تحتَهُ ذَهَبُ .

وقال أبو مرْوان بن أبى الخِصَال :

لابنة الزَّنْدِ فى الكوانين جَمْرٌ ... كالدَّرارِىّ فى دُجىٰ الظَّلماءِ .
خَبِّرونى عنها ولاتكْتُمُونى ... أَلَدَيْها صِناعَةُ الكِيمِياءِ ؟
سَبَكَتْ فَحْمَها صَفائِحَ تِبْرٍ ... رَصَّعَتْها بالفِضَّةِ البيضاءِ .
كُلَّمَا رَفْرَفَ النَّسِيمُ عليها ... رَقَصَتْ فى غِلالَةٍ حَمْراءِ .

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجىّ :

وكأنَّها والريحُ عابثةٌ بها ... تُزْهىٰ فَتَرْقُصُ فى قميصٍ أحمرِ .

وقال أبو هلال العسكرىّ :

نارٌ تَلَعَّبُ بالسُّقُوفِ كأنها ... حُلَلٌ مُشَقَّقَةٌ علىٰ حُبْشانِ .
رَدَّتْ عليها الريحُ فَضْلَ دُخانِها ... فأتَتْ به سُبْحًا علىٰ عقْيانِ .
فالجوُّ يَضحَكُ فى ٱبيضاضِ شَرائِرٍ ... منها ويَعْبِسُ فى ٱسْوِدادِ دخانِ .

وقال ٱبن أبي الحِصَال :

وعُوجُوا على ياقوتة ذَهَبِيَّةٍ * يَهِيمُ بها المقرورُ بالسَّبَرَات(١).

إذا ما ٱرتَمَتْ من فَحْمِها بِشَرَارِها * رَأَيْتَ نُجومَ اللَّيلِ مُنْكَدِرات.

وقال سيف الدّولة بن حمدان :

كأنما النارُ والرَّمادُ معا * وضَوْءُها في ظلامِهِ يُحْجَبْ :

وَجْنَةُ عَذراءَ مَسَّها خَجَلٌ * فٱستَتَرَتْ تَحْتَ عَنْبَرٍ أَشْهَبْ.

وقال آخر :

فحمٌ كيوم الفِرَاق تُشْعِلُهُ * نارٌ كنار الفِرَاق في الكَبِد.

أسْوَدُ قَدْ صار تحت حُمْرتها * مثلَ العُيونِ ٱكْتَحَلْنَ بالرَّمَدِ.

وقال أبو طالب المأمونيّ :

ما ترى النارَ كيف أسقَمَها القُرُّ فأضحت تخبو وطورا تَسَعَّرْ؟

وغَدَا ٱلجمرُ والرَّمادُ عَلَيْهِ * في قميصٍ مُذَهَّبٍ ومُعَنْبَرْ؟

وقال أبو فِرَاس الحَمْدانيّ :

لله بَرْدٌ ما أشَدَّ ومَنْظَرٌ ما كان أعْجَبْ!

جاء الغلامُ بنارِهِ * هَوْجاءَ في فَحْمٍ تَلَهَّبْ.

فكأنما جَمَعَ الحُلِيَّ فمُحْرَقٌ منه ومُذْهَبْ.

ثم ٱنطفت فكأنها * ما بيننا نَدٌّ مُعَشَّبْ.

(١) سَبْرة : الغداة الباردة .

١٠ — ذكر شيء مما قيل فى الشَّمْعَة والشَّمْعدان (١) والسراج والقِنْديل (٢)

١ — أما الشمعة، فمن جَيِّد ماقيل فيها قولُ الأَرَّجانىّ :

نَمَّتْ بأسرار لَيْـلٍ كان يُخْفِيها * وأطْلَعَتْ قلبهَا للنَّـاسِ مِنْ فِيهَا.
قَلْبٌ لها لم يَرُعْنَا وهو مُكْتَمِنٌ * إلا بِرُقْيَـةِ نار من تَرَاقِيهـا. ٥
سقيمةٌ لم يَزَلْ طولُ اللسان لها * فى الحىِّ يَجْنِى عليها ضَرْبَ هَادِيها.
غَرِيقَةٌ فى دُمُوع، وهى تُحْرِقُها * أنفاسُها بدَوَامٍ من تَلَظِّيهـا.
تَنَفَّسَتْ نَفَسَ المَهْجُور إذْ ذَكَرَتْ * عَهْدَ الخَلِيط فبات الوَجْدُ يُبْكِيها.
يُخْشَىٰ عليها الرَّدَىٰ مَهْمَا أَلَمَّ بها * نَسِـيمُ رِيحٍ إذا وافَىٰ يُحَيِّيهـا.
بَدَتْ كنَجْمٍ هوىٰ فى إثْرِ عِفْرِيَةٍ * فى الأرض فاشتعلَتْ منه نَوَاصِيها. ١٠
نجم رأىٰ الأرضَ أولىٰ أن يُبَوَّأها * من السماءِ، فأمْسَىٰ طَوْعَ أهلِيها.
كأنهـا غُرَّةٌ قد سالَ شادِخُها * فى وَجْه دَهْمَـاءَ يُزْهِيها تَجَلِّيهـا.
أوضَرَّةٌ خُلِقَتْ للشَّمْس حاسِدةً * فكُلَّما حُجِبَتْ، قامت تُحَاكِيها.
وَحِيـدةٌ كشَبَاةِ الرُّمْحِ هازِمةٌ * عساكِرَ الليل إن حَلَّتْ بِوَادِيها.
ماطَنَّبَتْ قَطُّ فى أرض مخيِّمةً * إلا وأقْمَرَ للأَبصـارِ دَاجِيهـا. ١٥

---

(١) مما يجب التنبية اليه ان "سُورَج" و"سُرْج" معناهما الشمس فى اللغة الهندية عن السنسكريتيه (أنظر القاموس الهندى الانكليزى تأليف فوربس) .

(٢) فى اللغة اللاتينية Candella وفى الفرنسية Chandelle بمعنى الشمعة وعنها Candélabre . و يقول علماء الافرنج ان اختراع الشمع للاستضاءة مما توصل اليه الغاليون وعلى ذلك يكون الأصل افرنكيا ثم نقله العرب لمعنى المصباح المعرف بالقنديل . ٢٠

لَهَا غَرائِبُ تَبْدُو من مَحَاسِنِها، * إذا تَفَكَّرْتَ يَوماً فى مَعَانِيها.
كصَعْدةٍ فى حَشَا الظَّلْماءِ طاعنةٍ * تَسْقِي أَسافِلَها رَيّاً أَعَالِيها.
فالوَجْنَةُ الوَرْدُ إلا فى تناوُلِها * والقامةُ الغُصْنُ إلا فى تَثَنِّيها.
صَفْراءُ هِنْدِيَّةٌ فى اللَّوْنِ إن نُعِتَتْ، * والقدُّ واللِّين إن أَتْمَمْتَ تَشْبِيها.
فالهِنْدُ تَقْتُلُ بالنِّيرانِ أَنْفُسَها * وعِنْدَها أنَّ ذاكَ القَتْلَ يُحْيِيها. ٥
قد أَثْمَرَتْ وردةٌ حمراءَ طالِعةً * تَجْنِي على الكَفِّ إن أَهْوَيْتَ تَجْنِيها.
وَرْدٌ تُشَاكُ به الأَيْدِى إذا قُطِفَتْ، * وما على غُصْنِها شوكٌ يُوَقِّيها.
ما إن تَزالُ تَبِيتُ اللَّيلَ ساهِرةً * وما بها غُلَّةٌ فى الصَّدْرِ تُطْفِيها.
صُفْرٌ غَلائِلُها، حُمْرٌ عمائِمُها، * سُودٌ ذوائِبُها، بِيضٌ لَيالِيها.
تُحْيِي اللَّيالِيَ نُوراً، وهى تَقْتُلُها. * بِئْسَ الجَزاءُ لَعَمْرُ اللهِ تَجْزِيها! ١٠ (٤٤)
قُدَّتْ على قَدِّ ثوبٍ قد تَبَطَّنَها * ولم يُقَدَّرْ عليها الثوبَ كاسِيها.
غَرَّاءُ فَرْعاءُ ماتنفكُّ قالِيَةً * تقصُّ لِمَّتَها طَوْراً وتَفْلِيها.
شَبَّاءُ شَعْثاءُ لا تُكْسَى غدائِرُها * لَوْنَ الشَّبِيبةِ إلا حينَ تُبْلِيها.
قَنَاةُ ظَلْماءَ لا تنفكُّ يأكلُها * سِنانُها طولَ طَعْنٍ أو يُشَظِّيها.
مَفْتوحةُ العينِ تُفْنِي ليلَها سَهَراً، * نَعَمْ، وإفْناؤُها إيَّاهُ يُفْنِيها. ١٥
ورُبَّما نالَ من أَطْرافِها مَرَضٌ * لم يُشْفِ منه بغيرِ القَطْعِ مُشْفِيها.

وقال آخر:

بَيْضاءُ أَضْحَكَتِ الظلامَ فَرَاعَها * فبَكَتْ وأسبَلَتِ الدُّمُوعَ بَوَادِرا.
جَفَّتْ دُموعُ جُفُونِها فكأنَّما * كُسِيَتْ من الطَّلْعِ النَّضِيدِ ضَفَائِرا.

وقال أبو القاسم المطرِّز من أبيات :

وللشُّـــمُوع عُيُونٌ كُلَّمـا نظَرَتْ * تَظَلَّمَتْ من يَدَيْهـا أنجُم الغَسَـق.
من كلِّ مُرْهَفَةِ الأعْطاف كالغُصُن الـ * ـمَيَّاد لكنَّـه عارٍ من الوَرَق.
إنى لأعْجَبُ منْهـا وهى وادِعَـةٌ * تَبْلَى ، وعيشَتُها من ضَرْبة العُنُق!

وقال آخر : ٥

جاءتْ بِجِسْمٍ كأنَّه ذَهب * تَبْكِى وتَشْكِى الهَوىٰ وتلتهِبُ.
كأنها فى أكُفِّ حامِلِها * رمحُ لجينٍ سِـنانُه ذَهَبُ.

وقال محمد بن أبى الثبات، شاعر اليتيمة :

ومَجْدولَةٍ مثل صَـدْر القناة * تعرّت، و باطِنُهـا مُكْتَسِى.
لها مُقْـلَةٌ هى رُوحٌ لَهَـا، * وتاجٌ علىٰ الرأس كالـبُرْنُس. ١٠
إذا غازَلَتْها الصَّـبَا حَرَّكَتْ * لِسَـانًا من الذَّهَبِ الأمْلَس.
وتُنْتَجُ من حيْثُ ما ألْقَحَتْ * ضِياءً يُجَلِّى دُجىٰ الحِنْـدِس.
فنَحْنُ من النُّور فى أسْعُدٍ، * وتِلْك من النـارِ فى أنْحُس!

وقال آخر:

ورشيقةٍ بيضاءَ تُطْلِـعُ فى الدُّجىٰ * صُبْحا وتَشْـفِى الناظِرِينَ بِدَائها. ١٥
شـابَتْ ذوائِبُهـا أوانَ شَبَابِها، * وآسْـوَدَّ مَفْرِقُها أوانَ فَنَائِهـا.
كالعَيْن : فى طَبَقَاتِها ودُمُوعِها * وبَيَـاضِها وسوادِها وضِيَائِها.

وقال الصاحب بن عبّاد :

وشمعةٍ قُدِّمَتْ إلينا * تجمعُ أوصافَ كلِّ صبّ :
صُفرةُ لونٍ، وذوبُ جسمٍ، * وفيضُ دمعٍ، وحرّ قلب .

وقال السريّ الرفّاء :

٥ مفتولةٌ مجدولةٌ * تحكي لنا قدّ الأسَلْ .
كأنّها عُمرُ الفتى * والنارُ فيها كالأجَلْ .

ومما ورد في وصفها نثرا .

من رسالة لابن الأثير الجزريّ جاء منها :

وكان بين يديّ شمعةٌ تعمُّ مجلسي بالإيناس، وتغني بوجودها عن كثرة الجُلّاس؛ ١٠ وكانت الريح تتلعّبُ بشُعَبها، وتدور على قُطْب لَهَبها؛ فطَوْرًا تقيمه فيصير أنمُله، وطورا تُميله فيصير سِلسِله؛ وتارة تُجوّفه فيصير مُدْهُنَه، وتارة تجعله ذا وَرَقات فيمثل سَوْسَنَه؛ وآونة تنشره فيبسط مِنْدِيلًا، وآونة تَلُفُّه على رأسها فيستدير إكْليلا .

ومن رسالة أخرى له :

وكانت الريح تتلعّبُ بلَهَبها لدى الخادم فتشكله أشكالا . فتارة تُبْرِزُه نجما، وتارة ١٥ تُبْرِزه هِلالا؛ ولربما سطع طورا كالجُلّنارة في تضاعيف أوراقها، وطورا كالأصابع في انضمامها وافتراقها .

§ وقال سيف الدين المشدّ في الفانوس : (٤٥)

وكأنّما الفانوسُ في غَسَقِ الدُّجى * دَنِفٌ براهُ سُقْمُهُ وسُهادُه .
حُنِيَتْ أضالِعُه ورقّ أديمُه * وجرتْ مدامعُه وذابَ فؤادُه .

٢ — ومما قيل فى السراج .

من رسالة لأبى عبدالله محمد بن أبى الخصال ، جاء منها :

عذرا إليك أيّدك الله ! فإنى خططت والنوم مُغَازِل ، والقُرّ نازل ؛ والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صَوْلَةَ الحَجّاج ؛ فطورا تبرزه سنانا ، وتحرّكه لسانا ؛ وآونةً تَطْوِيه جُنّابَه ، وأخرىٰ تنشره ذُؤَابه ؛ وتارة تقيمه إبْرة لهب ، وتعطفه بُرَةَ ذهب ؛ وحينا تقوّسه حاجب فتات ، ذات غمزات ؛ وتسلطه علىٰ سليطه ، وتديله علىٰ خليطه ؛ وربما نصبته أُذُنَ جَوَاد ، ومسخته حَدَقَ جَرَاد ؛ ومشّقته حروف برق ، بكفّ وَدْق ؛ ولَثَمت بسناه قِنْدِيلَه ، وألقت علىٰ أعطافه مِنديلَه ؛ فلاحظّ منه للعين ، ولا هداية فى الطّرس سيدين .

٣ — رسالة القِنديل والشمعدان .

من إنشاء المولىٰ الفاضل البارع البليغ تاج الدين عبد الباقى بن عبدالمجيد اليمانى ، سمعتُها من لفظه ، وقرأتها عليه ، وأجاز لى روايتها عنه . وهى الموسومة "بزهر الجِنان ، فى المفاخرة بين القنديل والشمعدان" .

إبتدأها بأن قال :

الحمد لله الذى أنار حَالِك الظّلْمَاء ، بأنوار بَدْر السماء ؛ وحلّى جيدها ، بعقود النجوم ، وحرس مَشِيدها ، بسِهَام الرجوم ؛ وجعلها عبرة للاستبصار ، ونزهة للأبصار ؛ غِشَاؤها لَازَوَرْدٌ مكلل بِنُضَار ، أو أقاحىّ خميلة تفتحت فيها أزرارُ الأزهار ؛ تَهْدِى السارىَ بسواريها ، وتُزْرِى بالدرر أنوارُ دراريها ؛ كرع فى نهر مجَرّتها النَّسْرَان ، ورتع فى مراعى رياضها الفَرْقَدَان .

أحمده على نعمه التى لايقوم بشكرها لسان، ولا يؤدّى واجب حقها إنسان؛ حمدا يجلِبُ إلى الحامد أنواعَ الإحسان، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحسان.

وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذى أنار الله بوجوده ظُلْمة الوجود، وأظهر بظهوره أفعالَ الركوع والسجود؛ صلّى الله وسلم عليه وعلى آله الوافين بالعهود، وعلى أصحابه أهل الإفضال والجود، صلاة وسلاما دائمين إلى اليوم الموعود!

وبعد فإن فُنونَ الاداب كثيرة الشعوب، متباينة الأُسْلُوب؛ طالمَا تلاعب الأديب بفنونها بين جِدٍّ ومُجُون، وكيف لا والحديث ذو شجون. وكنت بحمد الله ممن هو قادر على إبراز مُلَح الأدب، وعلى إظهار لطائف لغة العرب؛ فَتَمَثَّل فى خاطرى المفاخرة بين الشمعدان والقِنديل، ولا بدّ من إبراز المفاخرة بينهما فى أحسن تمثيل؛ لأنهما آلتا نور، ونديما سرور؛ طالما مزّقا جِلْباب الدُّجى بأضوائهما، وحسما مادّة الظلمة بأنوارهما؛ وطلعا فى سماء المجالس بدورا، وأخجلا نَوْر الرياض لما أصدرا من جوهرهما نُورا. سما كل واحد منهما إلى أنه الأصل، وأن بمدحه يَحْسُن الفصل والوصل؛ وأنه الجوهرة اليتيمه، والبَدْرَةُ التى ليست لها قيمه؛ سارت بمحاسنه ركائب الركبان، ونُظِمت فى جيد مجده قلائدُ العِقْيان.

فأحببت أن أنظِمهما فى مَيْدان المناظرة لِيُبْرِز كل واحد منهما خصائصه الواضحه، ويُظْهِرَ نقائص صاحبه الفاضحه؛ وليتسنم غارب الآستحقاق بالفضيله، ويؤكد فى تقرير فضائله الراجحة دليله؛ مع أنه لاتقبل الدَّعاوى إلا بالبرهان، ولعمرى لقد قيل قدْمًا:

من تَحَلّى بغَيْرِ ماهُو فِيهِ * فَضَحَتْه شَواهِدُ الْإمْتِحان.

فأتلع الشمعدان جِيدَه لمطاوله، وعَرَض سَمْهَرِيَّه المجنيَّ للناضله. وقال :

* اِسْتَنَّت الفِصالُ حَتَّى القَرْعَى *

لستَ بنديم الملوك فى المجالس، كلّا ولا الروضةِ الغَنَّاءِ للمُجَالس! طالما أحدقتْ بى عساكرُ النظار، ووقفت فى آستحسان هياكلى رؤيةُ الأبصار، وحُمِلْتُ على الرؤوس إذا عُلِّقْتَ بآذانك، وجُلِيتُ كِحلاء المرهَفات إذا آسودّ وجهك من دُخَانك.

فنضنض لسانُ القِنديل نضنضة الصِّلّ، وآرتفع آرتفاع البازى المُطِلّ. وقال :

إن كان فخرك بمجالسة السلاطين، فآفتخارى بمجالسة أهل الدين! وطالما طلعتُ فى أفق المحراب نجما آزداد عُلا، وآزدانت الأماكن المقدّسة بشموس أنوارى حُلا، جمع شكلى مجموع العناصر، فعلى مثلى تُعْقَد الخناصر، يحسَبُنى الرائى جوهرة العقد الثمين، إذا رأى آصفرار لونك كصُفْرة الحزين، ولقد علوتك فى المجالس زمانا، ومن صبر على حرّ المشقة آرتفع مكانا.

فنظر إليه الشمعدان مُغْضَبًا، وهمّ بأن يكون عن جوابه منكّبا. وقال :

أين ثمنك من ثمنى، ومسكنك من مسكنى؟ صفائحى صَفَحات الإبريز، فلذا سموت عليك بالتَّبْريز، تَنَزّه العيونُ فى حمائلى الذهبيه، وتسر النفوسُ ببزُوغ أنوارى الشمسيه، ولا يملكنى إلا من أوطنته السعادة مِهادَها، وقَرَّبَتْ له الرياسة جِيَادها، ولقد نفعتُ فى الصحة والسَّقَم، وآزدادت قيمتى إذا نقصتَ فى القيم، إن آنفصمت عُرَاك فلا تُشْعَبْ، ولا تعاد إلى سبْكِ نار فتصبّ وتُقْلَبْ، لست من فُرْسان مناظرتى، ولا من قُرَناء مفاخرتى.

فالتفت القنديل آلتفات الضِّرغام، وفوّق إلى قرينه سهامَ الملام. وقال :

أنت عندى كثُعاله ، لامحاله ، طالك العنقود ، فأبرزت أنواع الحقود ، وأين الثريّا من يد المتناول؟ أم أين السها من كف المتطاول؟ تالله إنك فى صرفك بصُفرك مغلوط! لقد خُصِصْتُ بالعلو وخُصِصْتَ بالهُبُوط . ترىٰ باطنى من ظاهرى مشرقا ، وتخالنى لخزائن الأنوار مطلقا ، فحديث سيادتى مُسَلْسَل ، وتاج فضائلى بجواهر العلو مكلَّل .

٥ فلحظه الشَّمعدان بطرَف طَرْفه . وأرسل فى مَيْدان المناظرة عِنان طِرْفه . وقال :

إنّ ٱفتخارك بالعلو غير مفيد ، ومزية ٱختصاصك به ليس له أبهّة مزيد ، طالما علا القَتَام وٱنحطت الفُرسان ، ومكث الجمر وسما الدُّخَان ، ولقد صَيَّرتك كنظر المشنوق حاله ، وكضوء السُّها ذُبَاله ، وأنت الخليق بما قيل :

* وقلْبٌ بلا لُبٍّ ، وأذْنٌ بلا سَمْع *

١٠ وسلاسلك تشعر بعقلك ، وعلوك ينبئ عن غلو إسقاطٍ كمثلك ، عادلت التبر كِفَّة بكفِّه ، ووزنته إذ كان فيه خفه . فأصِخْ لمفاخرى الجليله ، وٱستمع مناقبى الجميله . أُطارِد جيوش الظَّلْماء برمحى ، وأمزق أثوب الديجور بصبحى ، جمع عاملى بين طلع النخل . وحلاوة النحل ، يتلو سورة النور لسانى . ويقوىٰ فى مصادمة عساكر الليل البهيم جَنَانى ، أسامر المليك خَلْوه ، ويستجلى من محاسنى أحسن جَلْوَه .

١٥ ولله درّ القائل :

أُنظر إلىٰ شَمْعدانٍ شَكْلُه عَجَبُ * كروضة رَوّضتْ أزهارَها السُّحُبُ .

يُطارِدُ الليلَ رمحٌ فيه من وَرِق * سنَانُه لَهَبٌ من دونه الذَّهَبُ .

فمثل هذه المناقب تتلىٰ ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتُجْلىٰ .

فأضرم نار تبيينه، فى أحشاء قرينه. فعندها قال القنديل :

لقد أطلت الآفتخار بمحاسن غيرك، لمّا وقفتُ فى المناظرة ركائبُ سيرك؛ فآشكر اليد البيضاء من شمعك، وآحرص على معرفة قيمتك ووضعك؛ وأما آفتخارك بتلاوة سورة النور، فأنا أحق بها منك إذ محلى الجوامع، والفرقان فارق بينى وبينك مع أنه ليس بيننا جامع؛ ففضيلتى فيه بيّنه، وآية نورى فى سورة النور مبيّنه؛ فآقطع مواد اللجاجة، وآقرأ الآية المشتملة على الزجاجة؛ يظهر لك من هو الأعلى، ومن بالآفتخار الأولى؛ تخالنى دُرّةً عُلّقت فى الهواء، أو كوكبا من بعض كواكب الجوزاء.

ولله درّ القائل :

قِنْدِيلُنَا فاقَ بأنوارِه ❊ نَوْرَ رِياضٍ لم تَزَلْ مُزْهِرَهْ.
ذُبالةٌ فيه إذا أُوقِدَتْ ❊ حَكَتْ بحُسْنِ الوَضْعِ نَيْلُوفَرَهْ.

لا يحمل الأقذاء خاطرى. ولا يغتمّ مشاهدى وناظرى؛ فأنا خلاصة السبك، والتبر الذى لا يفتقر إلى الحكّ؛ إشتقاق آسمك من النحوس، ومن جِرْمِك تقام هياكل الفلوس؛ لقد عرضتَ نفسك للمنيه، وآنعكست عليك مواد الأمنيه؛ مع أن الحق أوضحُ من لَبّة الصباح، وأسطعُ من ضوء المصباح؛ والآن غُضِضْتَ بِرِيقك، وخفيتْ لوامع بُرُوقك؛ فهذه الشهباء والحَلَبَه، وهذه ميادين المناضلة رَحْبه. (٤٧)

فحار الشمعدان فى الجواب، وجعل ما أبداه أوّلا فصل الخطاب

فقال القنديل :

لا بدّ من الإقرار بأن قِدْحى المعلّى، وأنى عليك بالتقديم الأولى؛ وأن مقامى العالى، ونورى المتوالى.

فقال الشمعدان :

لا منازعة فيما جاء به الكتّاب من تفضيلك، وكونك الكوكب الدّرّيّ الذى قَصُر عن بلوغك باعُ مثيلك .

فجنح الشمعدان للسِّلْم ، وترفع عن آستيطان مواطن الإثم، وشرع يُبْدِى شعائر الخضوع، و ينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع ، وقال :

لولا حَمِيَّةُ النفوس، ما تجَمَّلَت بمفاخرنا صفحات الطروس، ولولا القال والقيل، ما ضَمَّنا معرض التمثيل، ولكن أين صفاؤك من كدرى، وأين نظرك من نظرى، خصك الله بنوره، وذكرك فى فرقانه و زبوره .

فعندها تهللت أسارير القِنْديل ، وتبسم فرحا بالتعظيم والتبجيل . وقال :

حيث رجعنا إلىٰ شرع الإنصاف، وإظهار محاسن الأوصاف، ففضلك لايبارىٰ، ووصفك لايجارىٰ، يحسبك الرائى خميلة نَوْر تفتّحت أزهارها، وحديقة نرجس آطّردت أنهارها، تُسَرّ بك النفوس، وتدار علىٰ نضارتك الكؤوس، وإن اللائق بحالنا طىّ بساط المنافسه، وإخماد شرر المقابسه، والآستغفار فيما فرط من كلامنا، والرجوع إلىٰ الله فى إصلاح أقوالنا وأفعالنا .

ونقول :

الأصل فيما نقلناه عدمه، فقد حَفِىَ كل واحد منا فى إبراز معايبه قَلَمُه . ونسأل الله أن تدوم لنا نِعَمُه، ويتعاهدنا فى المساء والصباح كرمه ! بمنه وجوده وكرمه ! آمين !

القسم الثالث من الفن الأوّل

فى الليالى والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

وفيه أربعة أبواب

الباب الأوّل

من هذا القسم

١ — فى الليالى والأيام

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : خلق الله الخلق فى ظلمة . (ورُوى : فى عَمَاء) ثم رش عليهم من نوره .

وهذا يدل علىٰ أن الظلمة خلقت قبل النور .

وروى أن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) سئل عن الليل ، أكان قبل أو النهار؟ قال : أرأيتم حيث كانت السماوات والأرض رتقا، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار .

والذى ورد فى القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور بدأ الله (عز وجل) بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور .

ويروىٰ أن الله (عز وجل) لما خلق السماء والأرض، وقع ظل السماء علىٰ الارض فأظلمت، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا .

ثم خلق الزمان وقسمه قسمين : ليلا، ونهارا . فجعل حصة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس . فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما ، فلم يكن بين الليل والنهار فرق في الإضاءة .

فلما أراد الله عز وجل خلق النوع الإنسانيّ — وعلم أنه لاغِنىٰ له عن حركته للعاش نهارا وسكونه للراحة ليلا — أمر جبريل فأمرّ جناحه علىٰ القمر فمحا نوره . فالسواد الذى يرىٰ فى القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلما، والنهار مبصرا .

ورُوِى أيضا أن الله (عز وجل) خلق حجابا من ظلمة مما يلى المشرق، ووكّل به مَلَكا يقال له سراهيل . فإذا انقضت مدّة النهار، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة واستقبل بها المغرب، فلا تزال الظلمة تخرج من خلل أصابعه وهو يراعى الشفق . فإذا غاب الشفق، بسط كفه فطبق الدنيا ظلمة . فإذا انقضت مدّة الليل، قبض كفه علىٰ الظلمة ، إصبعا بعد إصبع إلىٰ أن يذهب الظلام، حتّىٰ تنتقل الشمس من الشرق إلىٰ الغرب . وذلك من أشراط الساعة . والله أعلم !

٢ — ذكر ما قيل فى الليل وأقسامه

الليل طبيعيّ، وشرعيّ .

أما الطبيعيّ، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلىٰ طلوعها وظهورها .

وأمّا الشرعيّ، فهو من حين غروبها إلىٰ طلوع الفجر الثانى، وهو المراد بقوله تعالىٰ : ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ . (٨٧)

§ والليل ينقسم إلىٰ اثنتى عشرة ساعة، لها أسماء وضعتها العرب، وهى :

الشاهد، ثم الغَسَقُ، ثم العَتَمَةُ، ثم الفَحْمَةُ، ثم المَوْهِنُ، ثم القِطْعُ، ثم الجَوْشَنُ ثم العبكة[1]، ثم التَّباشير، ثم الفجر الأوّل، ثم الفجر الثانى، ثم المُعْتَرِض .

هذا ما ذكره ابن النحاس فى وصف صناعة الكتّاب .

وحكى الثعالبىّ فى فقه اللغة — عن حمزة الأصفهانىّ، قال : وعليه عهدته — أسماء غير هذه، وهى :

الجَهْمَةُ، والشَّفَقُ، والغَسَقُ، والعَتَمَةُ، والسُّدْفَةُ، والزُّلَّة[2]، والزُّلْفَةُ، والبُهْرَةُ، والسَّحَر، والفجر، والصُّبح، والصَّباح .

فصل

وقد عُبِّر بالليالى عن الأيام، كقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَوَاعَدْنا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾؛ وقوله تعالى : ﴿والفَجْرِ ولَيَالٍ عَشْرٍ﴾. فعبر عن الأيام بالليالى، لأن كل ليلة تتضمن يوما .

٣ — ذكر الليالى المشهورة

من الليالى المشهورة :

§ ليلة البَرَاءة. وهى ليلة النصف من شعبان، قيل سميت بذلك لأنها بَراءة لمن يُحييها ؛

§ وليلة القَدْر. والصحيح أنها فى مفرَدات العشر الأخير من شهر رمضان ؛

§ وليلة الغَدِير. وهى ليلة الثامنَ عشرَ من ذى الحجة ؛

(١) كذا بالأصل والذى فى كتب اللغة بهذا المعنى "الهُتْكَة" فلعل ماهنا تحريف من الناسخ .

(٢) لا توجد هذه الكلمة بهذا المعنى لا فى اللسان ولا فى القاموس ولا فى مستدرك شارحه . وهذا هو الذى دعا الثعالبى لجعل العهدة على حمزة الاصفهانى .

§ وليلة الهَرِير. وهى ليلة من ليالى صِفِّينَ، قُتِل فيها خَلْقٌ كثير من أصحاب معاوية (رضى الله عنه) ؛

§ وليلة الخُلَعاء. وهى ليلةٌ باتها أبو الطَّمَحان القَيْنِيّ عند دَيْرانية، فأكل طَفَيْشَلَها[1] بلحم الخنزير، وشرب خمرها، وزنى بها، وسرق كساءها ؛

§ وليلة النابغة. يُضْرب بها المثل فى الخوف ؛

§ وليلة المتوكل. تضرَب مثلا فى موت نتج من سرور، لأنه قُتِل فى مجلس أُنسه، على ما نذكره فى أخباره إن شاء الله تعالى .

٤ — ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الليل

يقال :

أطغى من الليل. أطْفَل من ليل على نهار. أحْيَرُ من الليل. أستَرُ من الليل. أظلم من الليل. أندى من ليلةٍ ماطرة .

ويقال :

الليل أخفى للويل. الليل نهار الأريب. الليل طويل وأنت مُقْمر. الليل وأهضام الوادى. الليل أعور (لأنه لا يُبْصَر فيه).

ويقال :

آتخذ الليلَ جَمَلا. شَمِّرْ ذيلا، وآدرِعْ ليلا. أمرُ نهارٍ قُضِى بليل .

(١) نوع من المرق (قاموس) . وقال ابن الخشاب فى تفسير ألفاظ الكتاب المنصورى للرازى مانصه : طِفَشِيل (بهذا الضبط) طعام يتخذ من الحبوب كالباقلى والحمص ونحوهما (عن تكملة المعجمات العربية لدوزى) .

ومن أنصاف الأبيات :

* الليل حُبْلىٰ ليس تَدْرِى ما تَلِد * * ما أقصرَ الليلَ علىٰ الراقد! *

* ما أشْبَهَ الليلَةَ بالبارِحَهْ! * * وليلُ المُحِبِّ بلا آخر *

* إحدىٰ لياليكِ فهيسِى هِيسِى! * * فإنَّكَ كالليل الذى هو مُدْرِكى *

ومن الأبيات : ٥

إن اللَّيالىَ لم تُحْسِنْ إلىٰ أحدٍ * إلا أساءتْ إليه بعْدَ إحسان.

❖

واللَّيالى كما عَهِدتَ حَبَالىٰ * مُقْرِباتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيب.

❖

أمَا تَرىٰ اللَّيلَ والنهارا * جَارَيْنِ لا يُبْقِيَان جارَا؟ ١٠

وقال حميد بن ثور :

ولَنْ يَلبَثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ * إذا طَلَبَا أن يُدْرِكَا ما تمنَّيَا!

وقال أبو حية النُّمَيرىّ :

إذا ما تقاضىٰ المرءَ يومٌ وليلةٌ، * تقاضاه شىءٌ لا يَمَلُّ التَّقاضيَا.

---

٥ — ذكر ما قيل فى وصف الليل وتشبيهه ١٥

قد أكثر الشعراء فى وصف الليل بالطُّول والقصَر. وذكروا سببَ الطول الهُمُومَ وسبَب القِصر السرورَ.

ولهذا أشار بعض الشعراء فى قوله :

إنّ الليالِىَ للأنامِ مَنَاهل * تُطوىٰ وتُنْشَرُ بينها الاعمارُ.

فقِصارُهنّ مع الهُمُومِ طويلةٌ، * وطِوالهُنّ مع السرورِ قِصارُ. ٢٠

وقال آخر :

إنّ التّواصُلَ فى أيامِه قِصَرٌ * كما التهاجُر فى أيّامِه طُولُ.
فليس يَعْرِف تَسْهِيدًا ولا رَمَدًا * جفنٌ برؤية مَنْ يهواهُ مشغولُ.

وقال ابن بَسّام :

٥ لا أظْلِمُ الليلَ ولا أدّعى * أنّ نجومَ الليلِ ليستْ تَغُورْ.
ليلٌ كما شاءت فإن لم تَزُر، * طالَ، وإنْ زارَتْ، فليلٌ قصيرْ. (٤٩)

أصله من قول عليّ بن الخليل :

لا أظْلِمُ الليلَ ولا أدّعى * أنّ نجوم الليلِ ليسَتْ تَعُولْ.
ليلٌ كما شاءَتْ قصيرٌ إذا * جادَتْ، وإن صدّتْ، فليلٌ طويلْ.

١٠ وقال آخر :

أخُو الهوىٰ يستطيلُ الليلَ من سَهَرٍ، * والليلُ فى طُوله جارٍ علىٰ قَدَرِهْ.
ليلُ الهوىٰ سَنَةٌ فى الهَجْر مدّتُه، * لكنّه سِنَةٌ فى الوَصْل منْ قِصَرِهْ.

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

لا أسألُ اللهَ تغييرًا لما صَنَعَتْ: * نامتْ وقد أسهرتْ عَيْنَىّ عيناها.
١٥ فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أفقِدُها * والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها.

٦ — وأما ما وصِف به من الطول

قال الخبّاز :

وليلٍ كَوَاكِبُه لا تَسِيرْ * ولا هُوَ منها يُطيقُ البَرَاحا.
كيومِ القِيامةِ فى طُولِهِ * علىٰ مَنْ يُراقِبُ فيه الصَّبَاحا.

وقال ابن المعتز :

مالِي أرىٰ الليلَ مُسْبِلًا شَعَرًا * عَنْ غُرّةِ الصُّبْحِ غيرَ مَفْروقِ.

وقال بشار :

خَلِيلَيَّ ! ما بالُ الدُّجىٰ لا يُزَحْزَحُ ، * وما بالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لا يَتَوَضَّحُ ؟
أَضَلَّ النَّهارُ المستَنِيرُ طَرِيقَهُ ؟ * أمِ الدّهرُ لَيْلٌ كُلُّه لَيْس يَبْرَحُ ؟

وقال الرِّفاء :

ألَا رُبَّ لَيْلٍ بِتُّ أرعىٰ نُجومَهُ * فلم أَغْتَمِضْ فيه ولا اللَّيلُ أغْمَضا.
كأنَّ الثُّرَيَّا راحةٌ تَشْبُرُ الدُّجىٰ * لتَعْلَمَ طالَ اللَّيْلُ لى أم تعرَّضا.
عَجِبْتُ لِلَيْلٍ بَيْنَ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ * يُقاس بشِبْرٍ كَيْفَ يُرجىٰ له انقِضَا ؟

وقال محمد بن عاصم :

أقول ، واللَّيْلُ دُجىً مُسْبَلُ * والأَنْجُمُ الزُّهْرُ به مُثَّلُ :
ياطُولَ لَيْلٍ ما لَهُ آخِرٌ * مِنْكَ ، وصُبْحٌ ماله أوّلُ !

وقال التنوخى :

ولَيْلَةٍ كأنَّها قُرْبُ أمَلْ * ظَلامُها كالدَّهْرِ ما فيه خَلَلْ.
كأنَّما الإصْباحُ فيها باطِلٌ * أزْهَقَهُ اللهُ بحقٍّ ، فبَطَلْ.
ساعاتُها أطولُ من يَوْمِ النَّوىٰ * وليلةِ الهَجْرِ وساعاتِ العَذَلْ.
مؤصَدَةٌ علىٰ الورىٰ أبوابُها * كالنار لا يَخرُجُ منها مَن دخلْ.

وقال أبو محمد ، عبد الله بن السيِّد البَطَلْيُوسِىّ :

تَرىٰ ليلَنا شابتْ نواصِيه كِبْرَةً * كما شَبَّ ، أو فى الجَوِّ رَوْضُ نَهارِ ؟
كأنّ الليالى السَّبعَ فى الأفقِ جُمِّعَتْ * ولا فصلَ فيما بَيْنَها بنهارِ.

وقال الشريف البياضيّ:

أقولُ لصَحْبِي والنجومُ كأنَّها، * وقد ركَدَتْ في بحرِ حِندِسِها غَرْقَى:
أرى ثوبَ هذا اللَّيلِ لا يَعرِفُ البِلَى! * فهل أَرَيَنْ للصُّبْحِ في ذَيْلِه فَتقا؟

وقال أيضا:

٥ أقولُ وللدُّجى عُمْرٌ مَديدٌ * وآخِرُه يُرَدّ إلى مَعادِ.
وقد ضَلَّتْ كواكِبُه، فظلَّتْ * حَيارَى مالها في الأُفْقِ هادي:
لعلَّ الليلَ ماتَ الصُّبحُ فيه، * فلازَمَ بعدَه لُبْسَ الحِداد.

وقال آخر:

أَمَا لِظَلَامِ لَيْلِي من صَبَاحِ؟ * أَمَا لِلنَّجمِ فيه من بَرَاحِ؟
١٠ كأنَّ الأُفْقَ سُدَّ، فليس يُرجَى * به نَهْجٌ إلى كُلِّ النواحي.
كأنَّ الشَّمسَ قد مُسِخَتْ نُجومًا * تَسِيرُ مَسِيرَ رُوَّادٍ طِلَاحِ.
كأنَّ الصُّبحَ مَهجورٌ طَرِيدٌ، * كأنَّ الليلَ مات صَريعَ راحِ.
كأنَّ بناتِ نَعْشٍ مُتْنَ حُزْنًا، * كأنَّ النَّسرَ مَكسورُ الجَناحِ.

وقال آخر:

١٥ يا لَيْلةً طالَتْ على عاشِقٍ، * مُنْتَظِرٍ للصُّبْحِ مِيعادًا!
كادَتْ تَكونُ الحَوْلَ في طُولِها، * إذا مَضَى أوَّلُها، عادا.

وقال ابن الرومي:

رُبَّ لَيْلٍ كأنَّهُ الدَّهْرُ طُولًا * قد تَناهَى فلَيْسَ فيه مَزِيدُ.
ذِي نُجومٍ كأنَّهنَّ نُجومُ الشَّـ * ـيْبِ لَيْسَتْ تَزُولُ، لكنْ تَزِيدُ.

وقال أبو الأحنف :

حَدِّثُونِى عن النَّهارِ حَدِيثًا * أو صِفُوه، فقد نَسِيتُ النَّهارا .

وقال بشَّار :

طالَ هذا اللَّيْلُ بَلْ طالَ السَّهَرْ ! * ولقَدْ أعْرِفُ لَيْلِى بالقِصَرْ .

لم يَطُلْ حَتَّى دَهانِى فى الهَوىٰ * ناعِمُ الأطْرافِ فَتَّانُ النَّظَرْ . ٥

فكأنَّ الهَجْرَ شَخْصٌ ماثِلٌ * كُلَّما أبْصَرَه النَّومُ نَفَرْ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأَنْدَلُسِىّ :

يا لَيْلَ وَجْدٍ بِنَجْدِ * أما لِطَيْفِكَ مَسْرىٰ ؟

وما لِدَمْعِى طَلِيقٌ * وأَنْجُمُ الجَوِّ أسْرىٰ ؟

وقد طَمَا بحرُ لَيْلٍ * لم يُعْقِبِ المَدَّ جَزْرا . ١٠

لا يَعْبُرُ الطَّرْفُ فيه * غَيْرَ المَجَرَّةِ جَسْرا .

وقال أبو مَرْوان بن أبى الخصال :

وليلٍ كأنَّ الدهرَ أفْضىٰ بعُمْره * جميعًا إلَيْه، فانتهىٰ فى ٱبْتِدائه .

يُحَدِّثُ بعضُ القومِ بَعْضًا بطُولِه ، * ولم يَمْضِ منه غيرُ وَقْتِ عِشَائِهِ .

وقال إبراهيم ولد ٱبن لنكك البصرىّ، شاعر اليتيمة : ١٥

ولَيْلَةٍ أرَّقَنِى طُولُها * فبِتُّها فى حَيْرَةِ الذَّاهِلِ .

كأنَّما ٱشْتُقَّتْ لإفراطها * فى طُولها من أمل الجاهل .

وقال امرؤ القيس :

وليلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ مُرْخٍ سُدولَه * علىَّ بأنواع الهُمُوم ليبتلى .

فقُلْتُ له لما تَمَطَّى بصُلْبِه * وأردفَ أعجازًا ونَاءَ بِكَلْكَلِ : ٢٠

ألَا أيُّها الليلُ الطويلُ، ألَا انجلِي * بصبْحٍ! وما الإصباحُ منكَ بأمثل!
فيا لَكَ من ليـــلٍ كأنّ نُجومَه * بأمراسٍ كتّانٍ إلىٰ صُمِّ جَنْدَل.

وقال آخر:

أُراقبُ في السَّماء بناتِ نعشٍ، * ولو أَسْطِيعُ، كنتُ لهنَّ حادي.
كأنَّ اللَّيـــلَ أُوثِقَ جانِبَاهُ * وأوسَطُه بأمراسٍ شِـــدَاد. ٥

وقال أخرم بن حميد:

وليـلٍ طويلِ الجانِبَيْنِ قطعتُه * علىٰ كَمَدٍ، والدَّمعُ تَجْرِي سَوَاكِبُهْ.
كَواكِبه حَسرىٰ عليـــه كأنها * مُقَيَّدةٌ دونَ المسِـــيرِ كَواكِبُه.

وقال ابن الرقاع:

وكأنَّ لَيْـلى حينَ تغرب شَمْسُهُ * بِســـواد آخَرَ مثـلِه مَوْصُولُ. ١٠
أَرْعىٰ النجومَ، إذا تغيبَ كوكبٌ، * أبصرتُ آخَرَ كالسِّراج يَجُـولُ.

وقال آخر:

ما لِنُجُومِ اللَّيْـــلِ لا تَغْرُبُ؟ * كأنَّهـا منْ خَلْفِها تُجْـذَبُ!
رَوَاكِدٌ ماغارَ في غَرْبِهَـا * ولا بَدَا من شَرْقِها كَوْكبُ.

١٥ وقال سعيد بن حميد:

يا لَيْـــلُ، بَلْ يا أبَدُ! * أنائِمٌ عَنْـــكَ غَـدُ؟
يا لَيْـــلُ لو تَلْقَىٰ الَّذِي * ألْقَىٰ بهـا أو تَجِـدُ،
قَصَّر من طُولكَ أو * ضَعَّفَ منك الجَلَدُ!

وقال سيف الدين المشد :

ماتَ الصَّباحُ بلَيْلٍ * أحْيَيْتُه حِينَ عَسْعَسْ.
لو كانَ فى الدهر صُبْحٌ * يَعيشُ ، كان تَنَفَّسْ.

٧ — أما ما وصف به من القِصَر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العباس : ٥

وَلَيْلةٍ إحْدىٰ الليالى الزُّهْرِ ، * قابلتُ فيها بَدْرَها بِبَدْرى.
لم تَكُ غَيْرَ شَفَقٍ وفَجْرٍ ، * حتّى تَوَلَّتْ وهى بِكْرُ الدَّهْرِ.

وقال الشريف الرضىّ :

يا لَيْلَةً كادَ مِنْ تَقَاصُرِها * يَعْثُرُ فيها العِشَاءُ بالسَّحَرِ.

وقال آخر : ١٠

يا ليلةً جَمَعتْنَا بعد فُرْقَتِنَا * فبِتُّ من صُبْحِها لَمَّا بدا ، فَرِقا.
لما خَلَوْتُ بآمالى بها ، قَصُرتْ * وكاد يَسبِقُ فيها فجْرُها الغَسَقَا.

وقال آخر :

يا رُبَّ لَيلِ سُرُورٍ خِلْتُهُ قِصَرًا * يُعارِضُ البرق فى أُفْقِ الدُّجىٰ بَرَقَا.
قد كاد يَعْثُرُ أُولاه بآخِرِهِ * وكادَ يسبِقُ منه فَجْرُهُ الشَّفَقَا. ١٥

(٥١) وقال القاضى السعيد بن سناء الملك :

يا ليلَةَ الوَصْلِ ، بل يا ليلَةَ العُمُرِ ! * أحْسَنْتِ ، إلا إلىٰ المشتاق ، فى القِصَرِ.
يا ليتَ زِيدَ بحكم الوصل فيكِ لنا * ماطوّلَ الهَجْرُ من أيامِكِ الأُخَرِ.

أو ليتَ نجمكِ لم تَفِلْ ركائبُه، * أو ليتَ صُبحَكِ لم يَقدُم من السَّفَر.
أوليتَ لم يَصْفُ فيكِ الشرقُ من غَبَش، * فذلك الصَّفوُ عِندى غايةُ الكَدَر.
أوليتَ كُلًّا من الشرقَيْنِ ما ٱبتَسَمَا، * أو ليتَ كُلًّا من النَّسرَيْنِ لم يَطِر.
أو ليتَ كنتِ كما قد قال بعضُهم: * "ليلَ الضَّرير فصُبْحى غيرُ مُنتَظَر".
أو ليتَ فَخْرَكِ لم يَنفُرْ به رشَئى، * أو ليتَ شَمسَكِ ما جارَتْ علىٰ قَمرى.
أو ليتَ قَلبِي وطَرْفِي تحتَ مِلكِ يدِى * فزدْتُ فيه سَوادَ القلب والبَصَر.
أو ليتَ ألقىٰ حَبيبِي سِحْرَ مُقْلَتِه * علىٰ العِشَاء فأبقاها بلا سَحَرِ.
أو ليتَ كنت سألتيه مُسَاعدةً * فكان يَحْبُوكِ بالتكحيل والشَّعَر.
كأنَّها حينَ ولَّتْ قمتُ أَجْذِبُها * فٱنقدّ فى الشَّرْق منها الثَّوْبُ من دُبُرِ.
لا مَرْحبًا بِصباحٍ جاءنِى بَدَلًا * من غُرّة النَّجم أو من طَلْعَة القمر!

وقال عبد الله بن المعتز:

يا ليلةً ما كان أطْيَبَها سِوىٰ قِصَرِ البقاء!
أحييتُها فأمتُّها * وطَوَيْتُها طَىَّ الرِّداء.
حتّى رأيتُ الشَّمْسَ تتلو البَدْرَ فى أُفقِ السماء.
فكأنه وكأنَّها * قَدَحانِ من خمرٍ وماء.

وقال المهلبى:

قد قَصُرَ الليلُ عِندَ أُلفَتِنا * كأنّ حادِى الصَّباح صَاحَ بِهِ.

وقال آخر:

كأنَّما الليلُ راكِبٌ فرسًا * منهزِمًا والصَّباح فى طَلَبِهْ.

٨ — أما ما وصف به من الإشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسيّ :

رُبَّ ليلٍ عَمَرتُه * فيكَ خالٍ من الفِكَرْ.
كَثُرتْ حَوْلَه الجُحُو * لُ وسارَتْ به الغُرَرْ.

وقال أبو بكر الصنوبرى : ٥

يا ليلةً طَلَعتْ بأسْعَدِ طالِعِ * تاهَتْ علىٰ ضَوْءِ النهارِ السَّاطِعِ.
بمحاسِنٍ مَقْرُونةٍ بمَحاسِنٍ * وبَدائعٍ مَوْصُولةٍ ببَدائعِ.
ضَوءُ الشُّموعِ وضَوْءُ وجهِكَ مازجَا * ضَوْءَ العُقارِ وضوءَ برقٍ لامِعِ.
فكأنَّما ألْقىٰ الدُّجىٰ جلْبابَه * وأراكَ جلْبابَ النَّهارِ الساطِعِ.

٩ — أما ما وصف به من الظلمة ١٠

قال الله عز وجل : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ . فهذه أتمّ أوصاف الظلمة .

وقال مُضَرِّسُ بن رِبْعِيٍّ :

وليلٍ يقولُ الناس فى ظُلُمَاته : * سَواءٌ صحيحاتُ العُيُونِ وعُورُها
كأنَّ لَنَا منه بيوتًا حَصِينةً * مُسُوحٌ[1] أعاليها وسَاجٌ كُسُورُها ١٥

وقال أبو تمام :

إليكَ هَتَكْنا جُنْحَ ليلٍ كأنَّما * قدِ اكتحلَتْ منه البِلادُ بإثمدِ

(١) جمع مِسْح بكسر فسكون وهو الكساء يتخذ من الشعر .

وقال أبو نواس :

أَبِنْ لى : كيف صِرتَ إلى حَرِيمى ، * وجَفْنُ الليـــلِ مُكْتحِلٌ بقار

وقال العلوىّ الأصفهانىّ :

وربَّ ليـلٍ باتَتْ عَسَاكِرُهُ * تحملُ فى الجوّ سُـودَ رايات

لامعـــة فوقَهَـا أسِنَّتُهـا * مثل الأزاهير وسْطَ رَوْضَات

ومن رسالة لابى عبدالله بن أبى الخصال . جاء منها :

(٥٢)

والليل زنجىّ الأديم ، تبرِىّ النجوم ، قد جلَّلَنا ساجهُ ، وأغرقتنا أمواجهُ ، فلا مجال لِلَّحْظ ، ولا تعارُف إلا باللفظ ، ولو نظرتْ فيه الزرقاء لاكتحلت ، ولو خُضبتْ به الشَّيبة مانَصَلَتْ .

---

١٠ — ومما قيل فى تباشير الصباح

قال أبو محمد العلوىّ :

كأنّ اخضرارَ الجوّ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ * وفيـــه لآلٍ لم تُثَنْ بثُقُوبِ .

كأنّ سَوَادَ اللَّيلِ فى ضَوْءِ صُبْحِه * سوادُ شَباب فى بياضِ مَشِيبِ .

وقال أبو علىّ بن لؤلؤ ، الكاتب :

رُبَّ فجرٍ كطَلْعةِ البدر جَلَّى * جُنْحَ ليلٍ كطلعةِ الهِجْرانِ ،

زَارَ فى حُلَّةِ الـبُزاة فولَّى اللـــيلُ عنه فى حُلَّةِ الغِرْبَان .

وقال الخالديّان :

وكأنَّما الصُّبْحُ المنيرُ وقد بدا * بازٌ أطارَ من الظَّلامِ غُرابَا (١) .

---

(١) البازلغة فى البازىّ . (عن الجوهرى) ، واخترنا ذلك لأنه منقول عن كلمة فارسية هى "باز" . وتركية "طوغان" وهو نوع من الصقور وأشد الجوارح تكبرا وأضيقها خلقا . يوجد بأرض الترك ويؤخذ للصيد .

وقال النظامُ البلخىّ، من شعراء الخريدة :

فَلَاحَ الصبحُ مبتسِمَ الثَّنَايَا * وطارَ اللَّيلُ مَقْصُوصَ الجَناحِ.
يَطِيرُ غُرابُ أوْكارِ الدَّياجِى * إذا ماحَلَّ بازِىُّ الصَّباحِ.

وقال تميم بن المعزّ :

وكأنَّ الصَّباحَ فى الأُفْقِ بازٌ * والدُّجىٰ بين مِخْلَبَيْه غُرابُ. ٥

وقال ابن وكيع :

غَرِّدَ الطيرُ فنبِّهْ من نَعَسْ. * وأدِرْ كأسَكَ فالعيشُ خُلَسْ!
سُلَّ سَيْفُ الفجرِ من غِمْدِ الدُّجىٰ * وتعرّىٰ الصبحُ من ثوبِ الغَلَسْ.
وانْجَلىٰ فى حلة فضِّيَّةٍ * ما بها من ظُلْمة اللَّيلِ دَنَسْ.

وقال أبو مروان بن أبى الخصال : ١٠

ولَمَّا رأيتُ الغَرْبَ قد غُصَّ بالدُّجىٰ * وفى الشَّرْق من ثوب الصَّباح دلائلُ،
توهَّمتُ أن الغربَ بحرٌ أخُوضُهُ * وأن الذى يَبْدُو من الشَّرْق ساحلُ.

وقال أسعد بن بليطة الأندلسىّ :

جَرَتْ بِمِسْك الدُّجىٰ كافُورةُ السَّحَر * فغاب، إلا بَقَايَا منه فى الطُّرَرِ،
صبحٌ يَفِيض وجُنحُ الليلِ مُنغَمِسٌ * فيه كما غَرِقَ الزِّنْجِىُّ فى نَهَر. ١٥
قد حارَ بينَهُما فى بَرْزَخ قَمَرٌ * يلُوحُ كالشَّنْف بين الخَدِّ والشَّعَر.

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبىّ :

بِتْنا كأنَّ حِدَادَ الليلِ شَمْلتنا * حتّى بدا الصبحُ فى ثوبٍ سَحُولىّ.
كأنَّ ليلتَنا، والصبحَ يتبعُها، * زنجيَّةٌ هربتْ قُدّام رُومىّ.

وقال أبو نُوَاس :

فقُمْتُ والليلُ يحلُوه الصَّباحُ، كَما * جَلَا التَّبسمُ عن غُرِّ الثَّنيَّاتِ.

وقال عبد الله بن المعتزّ :

قد أغتدِى واللَّيلُ فى جِلْبَابِهِ * كالحَبَشىِّ فَرّ من أصحابِهِ.

والصُّبحُ قد كَشَّرَ عن أنيابِهِ * كأنَّما يَضْحَك من ذَهَابِه.

وقال السرىّ :

وشَرَّدَ الصبحُ عنَّا الليلَ فٱتَّضَحتْ * سُطُورُه البيضُ فى آياتِهِ السُّود.

وقال أبو فراس :

مَدَدْنَا علينا الليلَ، والليلُ راضِعٌ * إلىٰ أن تَرَدّىٰ رأسُه بِمَشِيب.

بحال تَرُدُّ الحاسدينَ بغَيْظهم * وتَطْرِفُ عنَّا عينَ كُلِّ رقِيبِ.

إلىٰ أنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّباح كأنه * مَبَادِى نُصُولٍ فى عِذَار خَضِيب.

وقال عبد الصمد بن بابك، شاعر اليتيمة :

وٱستهلَّتْ لِمَصْرعِ الليل وُرْقٌ * ثاكلاتٌ، حدادُها التَّطْويقُ.

فتضاحَكْتُ شامِتًا وكأنَّ الصُّبحَ جيْبٌ علىٰ الدّجىٰ مَشْقُوقُ.

وقال أبو بكر الصنوبرىّ :

وليلَةٍ كالزَّرفِ المُعْلَمِ * مَحْفُوفةِ الظَّلماء بالأنجمُ.

تَعلَّقَ الفجرُ بأرْجائها، * تَعلُّقَ الأشْقَر بالادْهم.

وقال السلامىّ، شاعر اليتيمة :

وقد خالطَ الفجرُ الظَّلامَ كما ٱلتقىٰ * علىٰ روضةٍ خَضْراءَ وَرْدٌ وأَدهمُ.

وعَهدِى بها، والليلُ ساقٍ ووَصْلُنا ٭ عُقَارٌ، وفُوها الكأسُ أو كأسُها الفمُ.
إلىٰ أن بَدَرْنَا بالنجوم، وغربُها ٭ يَفُضُّ عُقُودَ الدُّرِّ والشَّرقُ يَنْظِم.
ونَبَّهتُ فِتيانَ الصَّبُوح للذَّة ٭ تلوحُ كدينارٍ يُغَطِّيه دِرْهَمُ.

٭٭٭

ومن رسالة للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى، عفا الله عنه. جاء منها : ٥

"فلما قضىٰ الليلُ نحبَه، وأرسلَ الصباحُ علىٰ دُهْمِه شُهْبَه، شمَّر الليلُ إزارَه، ووضع النجمُ أوزارَه، ونزحَ بالطَّيْف طاردًا، وظلّ وراء الصبح ناشدا، وفجَر الفجرُ نهر النهار، وآسترد البنفسجَ وأهدىٰ البَهار، فمواكِب الكواكب منهزمَه، وغرَّة الفجر كغرّة مولاى مبتسمَه".

١٠ ٭٭٭

ومما يدخل فى هذا الباب، ما حُكِى أن بعض الأعراب تزوّج بأربع نسوة، فأراد أن يختبر عقولَهنّ.

فقال لإحداهنّ : إذا دنا الصبحُ فأيقظينى. فلما دنا الصبح، قالت له : قم، فقد دنا الصبح! فقال : وما يدريك؟ قالت : غارت صغار النجوم وبقى احسنها وأضوؤها وأكبرها، وبَرَدَ الحُلِىُّ علىٰ جسدى، وآستلذذت بآستنشاق النسيم. فقال ١٥ لها : إن فى ذلك دليلا.

ثم بات عند الثانية، فقال لها مثل مقالتـه للأولىٰ. فلما دنا الصبح، أيقظته. فقال لها: وما يُدريكِ؟ قالت: ضحكت السماءُ من جوانبها، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحُها، وعينى تطالبنى بإغفاءة الصباح. فقال لها : إن فى ذلك دليلا.

ثم بات عند الثالثة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، أيقظَتْه. فقال لها : وما يدريك؟ فقالت : لم يبق طائر إلا غَرِد، ولا ملبوس إلا بَرَد، وقد صار للطَّرْف في الليل مجال، وليس ذلك إلا من دنوّ الصباح. فقال لها : إن في ذلك لدليلا .

ثم بات عند الرابعة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، قالت له : قم، فقد دنا الصبح! فقال لها : وما يُدريكِ؟ قالت : أبتْ نفسي النوم، وطلبني في بالسواك وآحتجت إلى الوَضُوء . فقال لها : أنت طالق، فإنكِ أقبحهنّ وصفا .

١١ — ذكر ما قيل في النهار

والنهار طبيعيّ، وشرعيّ .

فالطبيعيّ زمان بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق، وإلى غيابه في المغرب . والشرعيّ ما بين آنفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس .

والفجر فجران : الفجر الكاذب، وهو بياض مستطيل؛ والفجر الصادق بياض مستطير .

§ وقد وضعت العربُ لساعات النهار أسماء، كما وضعت لساعات الليل، وهي :

الذُّرُورُ، ثم البُزوغُ، ثم الضُّحى، ثم الغَزَالةُ، ثم الهاجرة، ثم الزَّوالُ، ثم الدُّلُوكُ، ثم العَصْرُ، ثم الأصيلُ، ثم الصَّبُوبُ، ثم الحَدُورُ، ثم الغُروبُ .

ويقال أيضا : البُكورُ، ثم الشُّروق، ثم الإشراقُ، ثم الرَّأْدُ، ثم الضُّحى، ثم المُتُوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيلُ، ثم العَصْر، ثم الطَّفَل، ثم العَشِيّ، ثم الغُرُوب .

ذكر ذلك معا أبو جعفر النحاس .

وحكى الثعالبيّ فى كتاب فقه اللغة — عن حمزة بن الحسن — قال: وعليه عهدتها :
الشُّروقُ، ثم البُكورُ، ثم الغُدْوةُ، ثم الضُّحى، ثم الهاجرة، ثم الظَّهيرة، ثم الرَّواحُ، ثم العصر، ثم القَصْر، ثم الأصيل، ثم العشِيُّ، ثم الغروب.

§ وكانت العرب العاربةُ تُسَمِّى أيامَ الأُسبوع بأسماءٍ غير هذه التى نتداولها الناس فى وقتنا هذا، وهى :

"أوَلُ" وهو الأحد "أهْوَنُ" وهو الاثنان "جُبَارٌ" وهو الثلاثاء "دُبَارٌ" وهو الأربعاء "مُؤنِسٌ" وهو الخميس "عَرُوبةُ" وهو الجمعة "شِيَارٌ" وهو السبت.

نظم ذلك شاعرٌ فقال :

أؤمِّلُ أن أعِيشَ وأنَّ يومى * لِأوَلَ أو لِأهونَ أو جُبَار،
أو التالى دُبارَ وإن أفُتْه * فمؤنِس أو عَرُوبةَ أو شِيَار.

١٢ — ذكر الأيام التى خُصَّتْ بالذكر

منها :

§ الأيام المعلومات . وهى عشر ذى الحجة، وفيها يوم التَّرْوية. وهو اليوم الثامن سمى بذلك لأنهم يرتوون من الماء لما بعده، لأن مِنًى لا ماء بها .

§ الأيام المعدودات . هى أيام التشريق . وعدتها ثلاثةٌ بعد يوم النحر. سميت بذلك لأنهم كانوا يشرّقون فيها لحومَ الأضاحى فى الشمس والهواء، لئلا تَفسُدَ .

§ أيام العجوز . ويقال فيها الأيام الأعجاز. وهى سبعة: أولها السادس والعشرون من شباط من شهور الروم، والخامس من برمهات من شهور القِبط . وهى لا تخلو من رياح وبردٍ. وسميت بالعجوز: لأنها فى عَجُزِ الشتاء .

§ يوم عَبِيد ، مَثَلٌ لليوم المنحوس . كان عَبِيد بن الأبرص قد تصدّىٰ للنعمان في يوم بؤسه الذى لا يُفْلِحُ مَن لقيه فيه ، كما لا يَخِيبُ مَن لقيه في يوم نعيمه ، قال أبو تمّام :

مِنْ بعدِ ماظَنَّ الأعادى أنَّه * سيكونُ لى يومٌ كيوم عَبِيدِ .

٥ § يوم المطر . يضرب مثلا في كفر النعمة . وذلك أنه حكى عن المعتمد علىٰ الله ابن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجته الرميكية في مجلس أنس ، والزمان فيه قيظٌ . فتمنَّتْ عليه غيما ومطرا . فأمر بمجامر العنبر والعود والنَّدّ ، حتّى انعقد الدّخان كالضَّباب ، ثم أمر برشّ صحن المجلس بماء الورد من أعلاه . وحصل بينهما بعد ذلكَ نَبْوَةٌ ، فقالت له : مارأيتُ معكَ يومَ سرورٍ قَطُّ ! فقال لها : ولا يوم المصر؟ (١)

١٠ صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله : إنَّهنَّ يَكْفُرْنَ العَشِيرَ .

§ يوم عاشوراء . وهو اليوم العاشر من المحرّم . ورد في فضله أحاديث كثيرة . ويقال إن نوحا (عليه السلام) ركب السفينةَ فيه فصامه وأمر مَن معه بصومه .

وصحّ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما هاجر ، رأىٰ اليهود في المدينة صِيَاما في هذا اليوم . فسألهم عنه ، فقالوا : هذا اليوم الذى نجّى الله تعالىٰ فيه موسىٰ

١٥ وبنى إسرائيل ، وأغرق فرعون وقومه . فنحن نصومه شكرا لله تعالىٰ . فقال (عليه الصلاة والسلام) : أنا أحقُّ بأخى موسىٰ . ثم أمر مناديا فنادىٰ : من أكل فليُمْسِكْ ، ومن لم يأكل فليصُم !

وفيه قُتِل الحسين بن علىّ (رضى الله عنهما) .

---

(١) راجع رواية أوفى في نفح الطيب [illegible] "يوم الطين" . (ص ٢٨٧ ج ١ طبعة ليدن) .

١٣ — ذكر أيام أصحاب الملل الثلاث

§ يوم الجمعة، للمسلمين . وسبب آتخاذهم له أنه اليوم الذى أتمّ الله فيه خلق العَالَم، وأوجد فيه أبا البشر آدم (عليه السلام) وفيه قُبِضَ ، وفيه يكون النفخُ فى الصُّور، وفيه الصَّعْقُ، وفيه الساعة التى لا يُصادفُها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها له .

§ يوم السبت، لليهود . وحُجّتهم علىٰ آتخاذهم له أن الله تعالىٰ آبتدأ خلق العالَم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، وأن يوم السبت يومُ فراغٍ ودَعَةٍ . ولهم فى ذلك أقوال كثيرة .

§ يوم الأحد، للنصارىٰ . ذكر فى سبب آتخاذهم له أن الله (سبحانه وتعالىٰ) آبتدأ فيه بخلق الأشياء .

---

١٤ — ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر النهار

يقال :

أطولُ من يوم الفِراق . أضْوَأُ من نهارٍ . أنورُ من وضَحِ النهار .

ويقال :

يَذْهَبُ يومُ الهَمِّ ولا يُشْعَرُ به . ما يومُ حَليمةَ بِسِرٍّ . مَنْ يُرِ يومًا يُرَ بِهِ . يومُ السُّرورِ قصيرٌ . اليومَ خمرٌ وغدًا أمرٌ . اليومَ عَيْشٌ وغدًا خَيْشٌ . اليومَ فِعْلٌ وغدًا ثوابٌ . يومٌ لنا ويومٌ علينا . لكُلِّ قَوْمٍ يومٌ .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يَخْفَى علىٰ الناس النهارُ * * وفى اللَّيالى والأيامِ مُعْتَبر *

ومن الأبيات :

وآلُهُ ما أمكنَ يومٌ صالحٌ * إنَّ يومَ الشَّر لا كانَ عَتِيدَا !

وقال آخر :

أَمَامَ! لا أَدْرِى، وإن سَأَلْتِ: * ما نُسْكُ يومِ جمعةٍ من سَبْتِ .

وقال آخر :

وأيامُ! الشُّرورِ مُقَصَّصَاتٌ * وأيَّامُ السُّرورِ تَطِيرُ طَيرَا .

وقال آخر:

لا تَحملَنَّ هُمُومَ أيَّامٍ علىٰ * يومٍ، لعلَّكَ أن تُقَصِّرعن غَدِه .

١٥ — ذكر شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه

فمن ذلك قول شاعر، يصفه بالقِصَر :

ويوم سُرُورٍ قد تكامَلَ وصفُهُ * سِوىٰ قِصَرٍ، لاعيبَ فيه سِواهُ !
وعَهْدِى به كالرُّمْحِ طُولًا، فعندَمَا * هَزَزْنَاهُ لِلْهَوِ ٱلتَقَىٰ طَرفَاه .

وقال آخر :

بِأبى مَنْ نَعِمْتُ منه بيومٍ، * لم يَزَلْ لِلسُّرورِ فيه نُمُوُّ !
يومُ لَهوٍ، قد ٱلتقىٰ طَرَفَاهُ * فكأنَّ العَشِيَّ فيه غُدُوُّ .

وقال آخر :

لم يَنْتَشِرْ فَلَقُ الإصْباحِ مِنْ سَمَرٍ * فيه إلىٰ أن طَواهُ فَيْلَقُ الغَسَقِ .
ولم يكن مُلْتَقَى جَفْنَىْ أخى رَمَدٍ * كملتقىٰ طرفيه: الصُّبحِ والشَّفَقِ .
وماتناولْتُ فيه الرِّطلَ مُصْطَبِحًا * إلا أعادَتْه مِنِّى كَفُّ مُغْتَبِقِ .

وقال آخر :

لِلّهِ يَـومُ مَسَـرَّةٍ * أَضْوَا وأقصرُ من ذُبَالَهْ!
لما نَصَبْنَا للمُنَى * فيه بأشراكٍ حِبَالَهْ،
طارَ النَّهارُ مُرَوَّعًا * فيه وأجفلَتِ الغزالَهْ!

وقال آخر :

حُثَّ الكُؤوسَ! فذا يومٌ به قِصَرٌ، * وما به من تمام الحُسْنِ تَقْصِيرُ.
صَحْوٌ وغَيْمٌ، يَرُوقُ الطَّرفَ حُسْنُهُما: * فالصَّحْوُ فَيْرُوزَجٌ، والغيمُ بَلُّورُ.

وقال آخر :

ويوم كَحُلْكِ الغانِيَاتِ سَلبتُه * حُلِيَّ الرُّبَا حتَّى انثنَى وهو عاطِلُ.
سبقت إليه الشمس، والشمسُ غَضَّةٌ * وصِبْغُ الدُّجَى من مَفْرِقِ الفجرِ ناصِلُ.

ومن كلام ابن برد الأصغر الأندلسيّ :

اليومُ يومٌ بكت أمطارُه، وضحِكت أزهاره، وتقنعت شمسُه، وتعطّر نسيمُه؛ وعندنا بُلْبُلٌ هَزِج، وساقٍ غَنِج؛ وسُلَافتانِ : سُلَافَةُ إخوان، وسُلَافَةُ دِنَان؛ قد تشاكلتا فى الطباع، وازدوجتا فى إثارة السرور . فأخرِق إلينا سُرادقَ الدَّجْنِ تجد مَرْأًى لم يحسن إلا لك، ولا يتم إلا بك .

ومن كلامه أيضا :

لم نلتق منذ عرّينا مَرْكَبَ اللّهو، وأخلينا رَبْعَ الأُنس، وقَصَصنا جناحَ الطَّرَب، وعبَسْنا فى وجوه اللذات . فإن رأيت أن تخِفّ إلى مجلس قد نُسِخت فيه الرياحين

بالدواوين، والمجامر بالمحابر، والأطباق، بالأوراق، وتنازع المدام، بتنازع الكلام؛ واستماع الأوتار، باستماع الأخبار؛ وسجع البلابل، بسجع الرسائل؛ كان أشحذ لذهنك، وأرشد لرأيك.

١٦ — ذكر شيء مما وصفت به الآلات الموضوعة لمعرفة الأوقات

قد وضع أهلُ هذا الفنّ لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات، يستدلُّون بها على معرفة مامضى من ذلك ومابقي، ولتحرير المواقيت: كالأصطرلاب، والطَّرْجَهَارة والبنكام.

ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالى ما نقف عليه.

١ — فأما الأصطرلاب وما قيل فيه.

فقال أبو طالب، عبد السلام المأمونى:

وشبيهٍ بالشَّمس يَسْترِقُ الأنـ ـوارَ من نُورِ جِرْمها فى خفاء.
فتراهُ أدرى وأعلمَ منها، * وهو فى الأرض، بالذى فى السَّماء.

وقال أيضا:

وعالم بالغيبِ مِنْ غيرِ مَا * سَمْعٍ، ولا قَلْبٍ، ولا ناظر!
يُقابلُ الشمسَ فيأتى بما * ضُمِّنَها من خبرٍ حاضرِ.
كأنها ناجتْهُ لَمَّا بَدَا * لِعَينِها بالفكر والخاطرِ.
وألهمَتْه علمَ ما يحتوى * عليه صَدْرُ الفلكِ الدائرِ.

وقال أبو إسحاق الصابى ، وقد أهداه فى مهرجان إلى مخدومه :

أَهْدىٰ إليكَ بَنُو الآمالِ وٱجتهدُوا * فى مَهْرجانٍ جديدٍ أنت تُبْلِيه.
لكنَّ عبدَكَ إبراهيمَ، حين رأىٰ * سُمُوَّ قَدْرِكَ عن شَىءٍ يُساميه.
لم يرضَ بالأرض يُهدِيها إليك فقد * أهدىٰ لك الفَلَكَ الأعلىٰ بما فيه!

وقال أبو الصلت أُميَّة بن عبد العزيز :

أفضَلُ ما ٱستَصْحَبَ النبيلُ فلا * يُعْدَل به فى المُقَام والسَّفَرِ،
حِرْمٌ إذا ما ٱلتَمْتَ قيمتَه * جَلَّ عن التِّبرِ وهو من صُفُرِ.
مُختَصَرٌ وهو إذْ تُفَتِّشُه * عن مُلَحِ العلم غيرُ مختَصَرِ.
ذُو مُقْلةٍ تَستنيرُ ما رَمَقَتْ * عن صائبِ اللحظِ صادقَ النَّظَرِ.
تَحْمِلُه وهو حاملٌ فَلَكًا * لو لم يُدَرْ بالبَنَانِ لم يَدُرِ.
مَسْكَنُه الأرضُ وهو يُنْبِئنا * عن جُلِّ ما فى السماء من خَبَرِ.
أبدعَهُ رَبُّ فِكْرَةٍ بَعُدَتْ * فى اللُّطْفِ عن أنْ تُقَاسَ بالفِكَرِ.
فاستَوْجَبَ الشُّكرَ والثناءَ به * من كلِّ ذى فطنةٍ من البَشَرِ.
فهو لذِى اللُّبِّ شَاهِدٌ عَجَبٌ * علىٰ ٱختلاف العُقُول والفِطَرِ.

(٥٦) وكتب أبو الفرج الببغاء يصف أصطرلابا أهداه فقال :

آثرتك — أيدك الله — ببرهان الحكمة ونسبها ، ومدار الفلسفة وقطبها ؛ ومُرشد الفكر ومناره ، وميزان الحسن ومِعياره ؛ ونَافِى الشك ومُزِيله ، وشاهِد الأثير ودليله ؛ مصوّر الحكمة ومُمثّلها ، ومقسم البروج ومعدّلها ؛ وموقف النجوم ومسيِّرها ، وجامع الأقاليم ومدبِّرها ؛ مرآة الحبك ، وصورة الفلك ؛ وأمين الكواكب ، وحدّ المشارق والمغارب ؛ مما ٱخترعت العقولُ تسطيحَه ، وأتقنَ الحُسَّابُ تصحيحَه ؛ وتمارت الفطَنُ

في ترتيبه، وٱصطلحت الحكماءُ على تركيبه؛ فأوضحت بالنقش تقسيمَه، وأبانتْ بالكتابة رُسومَه؛ إلى أن شافهنا بالٱرتفاع على بعد مسافته، وحصرَ متفرّقَ الأمور في خَرْقَيْ عضادته؛ وٱحتوى على قُطْرَيِ الشّمال والجَنُوب، وٱطلع باللطف على خفيّات الغيوب؛ الملقب بالأصطرلاب، الفاصل بين الخطإ والصواب.

٥ وقال أبو نصر الكاتب فيه:

قطبُ الزمن ومدارُه، وميزانُ الفلك ومعيارُه؛ وأساسُ الحكمة وموضوعها، وتفصيلُ الفطنة ومجموعُها؛ الناطقُ في صمته، المُوفي على نعته؛ مظهرُ السِّر المكنون، المخبر بما كان وما يكون؛ ذو شكل مقمر مستدير، ولون مشمس مستنير؛ ومنطقة محيطة بأجزائه، وخطوط معدّلة على اعضائه؛ وكتابة مطبقة بتدويره، ورموز بائحة ١٠ بضميره؛ متقابل الأهداف، متكامل الأوصاف؛ بحجرة مسكونه، وصفائح مصونه؛ وقدّ مومق، وباب مطروق؛ للعلم فتحه ورتاجه، وعليه طريقه ومنهاجه؛ إذا ٱنتصب قال فحمد، وإذا ٱضطجع عي فلم يُفْد؛ صفريّ الانتساب، ذهبيّ الإهاب؛ يخترق الأنوار من نقابه، ويستخدم الشّمسَ في حسابه؛ يجمع الشرقَ والغرب في صفحته، ويستره الحامل في راحته؛ رافعه ينظر من تحته، وأخباره ١٥ تسند عن خُرْته.

٢ — ومما قيل في طَرْجَهَارَة.

قال أبو الفتح كُشَاجم يصفها[1]:

رُوحٌ من الماء في جِسْم من الصُّفْرِ * مؤلَّفٌ بلطيف الحِسِّ والفكْرِ.

(١) هي من الآلات التي تعرف بها الساعات. ولهم آلات أخرى في هذا المعنى مثل صندوق الساعات، ٢٠ دَبّة الساعات، الرخامة، المكحلة، اللوح (أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي طبع ليدن ص ٢٣٥).

له على الظَّهر أجفانٌ مُحجَّرةٌ * ومُقلةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ .
تُنْشَا له حَرَكاتٌ فى أسافِلِه * كأنها حَرَكاتُ الماءِ فى الشَّجَرِ .
وفى أعاليه حُسَّابٌ مُفَصَّلةٌ * للناظرينَ بلا ذِهْنٍ ولا نَظَرِ .
إذا بكى ، دارَ فى أحشائه فَلَكٌ * خافِى المَسيرِ ، وإن ، لم يَبْكِ لم يَدُرِ .
ومُخرِجٌ لك بالأجزاء ألطفَها * من النهار ، وقَوْسُ اللَّيل فى السَّحَر . ٥
مُتَرجِمٌ عن مواقيتٍ يُخَبِّرُنا * عنها فيوجَدُ فيها صادقَ الخبر .
تُقْضَى به الخمسُ فى وقت الوجوب وإن * غُطِّى على الشمس أو غُطِّى على القمر .
وإن سَهِرتُ لأسباب تُؤَرِّقُنى * عَرَفْتُ مقدارَ ما ألقى من السَّهَر .
مُحَدِّدٌ كُلَّ مِيقاتٍ ، تَحَيُّرُهُ * ذَوُو التَّحَيُّرِ للأسباب والسَّفَر .

الباب الثانى ١٠

من القسم الثالث من الفن الأوّل

فى الشهور والأعوام

نذكر فى هذا الباب الشهورَ العربيةَ ، واشتقاقها ، والشهورَ العجميةَ ، ودخول بعضها فى بعض ، والسنين القمرية ، والشمسية ، والنسىء ومعناه ، وما يجرى هذا المجرى ، مما لمحناه أثناء المطالعة بعون الله تعالى وقدرته . وإياه أسأل التوفيق بكرمه ومنته ! . ١٥

١ — ذكر الشهور وما قيل فيها

الشهر إما طبيعىّ ، وإما اصطلاحىّ .

فالطبيعىّ هو مدّة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة أخرى .

وقال آخرون : هو عود شكل القمر في جهة بعينها إلى شكله الأول .

وأما الأصطلاحي ، فهو مدة قطع الشمس مقدارَ برج من بروج الفلك . وذلك ثلاثون يوما ، وثلثُ عُشْرِ يوم بالتقريب . وهذا مذهب الروم ، والسريان ، والفُرْس والقبط . والله (سبحانه وتعالى) أعلم !

---

٢ — ذكر الأشهر العربيـــة

(وما يختص بها من القول)

والأشهر العربية قسمان : قسم غير مستعمل ، وهو الذي وضعته العرب العاربة ؛ وقسم مستعمل ، وهو الذي وضعته العرب المســتعربة . وكلا القسمين موضوع على الأشهر القمرية .

§ فأما القسم غير المستعمل ، فهو أسماء كانت العرب العاربة اصطلحوا عليها ، وهي : مؤتمر ، ناجر ، خَوّان ، صوان (ويقال فيه : بُصَان) ، رُنّى ، أيِّدة ، الأصَمُّ ، عَادِل ، ناطِلٌ ، واغلٌ ، وَرْنَةُ ، بُرَك .

وفي هذه الأسمـاء خلاف عند أهل اللغـة . والذي ذكرناه منها هو المشهور ، ويدل عليه قول الشاعر :

بمؤتَمِـرٍ وناجرٍ ابتـدَأنا * وبالخَوَّانِ يَتْبعُـه البُصَانُ
ورُنًّى ثم أَيِّدةٌ تليـــه * تَعودُ أصَمُّ صُمَّ به السِّنَانُ
وعادله وناطـــله جميعًـا * وواغِله فَهم غُرَرٌ حِسَانُ
ووَرْنَةُ بعدها بُرَكٌ فتمتْ * شُهورُ الحول يَعْقدها البَنَانُ .

§ وأما القسم المستعمل، فهو هذه الأسماء المشهورة :

المحرّم، صَفَر، الربيعان، الجُمَادَيان، رَجَبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوّالٌ، ذو القَعْدة، ذو الحِجّة .

قيل : وإنما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت فى كل شهر، فسمى الشهر بها عند ابتداء الوضع . فسموا المحرّم محرّما : لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحرّموا القتال فيه، فسمّوه محرّما . وسموا صَفَراً : لِصَفَرِ بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات . وقيل : لأنهم كانوا يُغيرُون على الصُّفريّة، وهى بلاد . وشهرا ربيع : لأنهم كانوا يُخصِبون فيهما بما أصابوا فى صفر، والربيع الخِصْب . والجُمَاديان : من جَمَد الماءُ، لأن الوقت الذى سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامدا فيه لبرده . ورجب : لتعظيمهم له . والترجيب التعظيم . وقيل : لأنه وسطُ السنة فهو مشتق من الرواجب، وهى أنامل الأصبع الوسطى . وقيل : إن العود رجب النبات فيه أى أخرجه، فسمى بذلك . وكذلك تشعّب العود فى الشهر الذى يليه، فسمى شعبان . وقيل : سمى بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسمى رمضان، أى شهر الحر . مشتق من الرمضاء . وشوّال، من شالت الإبل أذنابها إذا حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع . وذو القعدة : لقعودهم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم . وذو الحجة، لأن الحج اتفق فيه، فسمى به .

ويقال إن أول من سماها بهذه الأسماء، كلاب بن مُرّة .

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سَرْد، وهى : ذو القَعْدة، وذو الحجة، والمحرم؛ وواحد فرد، وهو رجب .

هذا ما رواه الأصمعيّ عن العرب في ترتيب الأشهر الحرم. واختار غيره أن الواحد الفرد هو المحرّم، والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، لتكون الأربعة أشهر في سنة واحدة . وهذا مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة، وهى : شهرا ربيع، وشهر رجب، وشهر رمضان[1] .

فهذه الشهور العربية وما قيل فيها .

٣ — وأما شهور اليهود

فأسماؤها :

تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيّار، سيوان، تموز، آب، أيلول .

٤ — وأما الشهور العجمية

فإنها شمسية . وهى أقسام، بحسب الأمم التى تنسب إليهم .

§ فمنها الشهور القبطية، وتنسب لدقلطيانوس . وكل شهر منها ثلاثون يوما . وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيسا فى آخر شهر منها، وهى :

توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرىٰ .

وأوّل توت يكون النوروز . وفى أوّل يوم من كيهك تدخل الأربعينيات، وهى أربعون يوما باردة تؤذن بالشتاء . وفى الرابع من برمودة تدخل الخمسينيات، وهى أيام حارّة تؤذن بالصيف .

(١) أى لا يُقال : ربيع الأوّل، ربيع الثانى، رجب، رمضان . بل يضيفون الى كل منها لفظة "شهر" .

§ ومنها شهور السريان والروم . وهما متفقان فى العدد والدّخول . والسريانيون
(٥٨) ينسبون شهورهم لأغسطُش[(١)]، وهو قيصر. وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين،
ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها. وفيها يقول الكيزانىّ :

شهورُ الروم ألوانُ : * زياداتٌ ونقصانُ.
فتشرينُهم الثانى، * وأيلولٌ ونيسانُ. ٥
ثلاثون ، ثلاثون ، * سَواءٌ، وحَزيرانُ.
وأشباطٌ ثمانٌ بعـ * ـد عشرين له شَانُ.

والسبعة التى تركها، كل شهر منها يزيد يوما .

ووضع لها بعض المغاربة ضابطا، وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها فى أربع
كلمات، وهى : "فازَ رجلٌ خَتمَ بحجّ" . وجمعها آخر فى مثل ذلك فقال : "غاب ١٠
عنك زيدٌ فحجّ" . فما كان معجما فهو أحد وثلاثون يوما، وما كان مهملا فهو
ثلاثون، والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون .

وأوّل سنة السريان تشرين الأوّل. ودخوله رابع بابه، ويوافق أكتوبر من شهور
الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم تشرين الثانى، ودخوله فى الخامس من هتور،
ويوافقه نُوَمبر[(٢)] من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم كانون الأوّل، ودخوله ١٥
فى الخامس من كيهك، ويوافقه دجنبر[(٣)] من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛

(١) هو القيصر الرومانى المشهور، نقلا عن اللاتينية Augustus . ولكن العرب حينما عربوا الشهر المعروف باسمه اكتفوا بقولهم أغشت (August) للتمييز بين اللفظين . وأما نحن فى هذه الأيام فقد تركنا هذا الفارق ونقول فى تسمية هذا الشهر "أغسطس" أيضا .

(٢) Novembre . ونقول فى مصر الآن نوفمبر . ٢٠

(٣) Décembre . ونقول فى مصر الآن ديسمبر .

ثم كانون الثانى، ودخوله فى السادس من طوبه، ويوافقه يَنِير[1] من شهور الروم، وهو أوّل سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوما؛ ثم شباط، ودخوله فى السابع من أمشير ويوافقه فبرير[2] من شهور الروم، وهو ثمانية وعشرون يوما وربع يوم؛ ثم آذار، ودخوله فى الخامس من برمهات، ويوافقه مارس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم نيسان، ودخوله فى السادس من برمودة، ويوافقه أبريل من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم أيّار، ودخوله فى السادس من بشنس، ويوافقه مايه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم حزيران، ودخوله فى السابع من بؤونة، ويوافقه يونيه من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم تموز، ودخوله فى السابع من أبيب، ويوافقه يوليه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم آب، ودخوله فى الثامن من مسرى، ويوافقه أغشت[3] من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم أيلول، ودخوله فى الرابع من توت، ويوافقه ستنبر[4] من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما.

* * *

§ ونظم بعض الشعراء أرجوزة فى مداخلة الشهور، فقال:

وإن حفِظتَ أشهرَ السُّرْيانِ * وكنتَ من ذاكَ علىٰ بيان.
ورُمْتَ منها عَمَلَ المنازل * فإنها معلومةُ التداخل.

(١) Janvier. وتقول فى مصر الآن يناير. (وقد كان عربه المرحوم رفاعه بك بقوله: "ينويه") غير ان هذا الاصطلاح لم يُعمل به.

(٢) Février. وتقول فى مصر الآن فبراير (مع الإشباع).

(٣) أنظر حاشية رقم (١) من صفحة ١٦٠

(٤) تقول الآن فى مصر "سبتمبر" مجاراة للنطق الفرنسى الحديث Septembre. على انهم يقولون "ست" عند ما يريدون السبعة Sept بإهمال حرف الباء، فاذا أرادوا السبعين لفظوا بالباء.

أيلولُ يبدو رابعًا من تُوتِ * هـذا بحكم النظر المثبوتِ.
وهكذا تشرينُ وهو الأوّلُ * من بابة أربعـة تكمل.
أوّل تشرين الأخير يدخلُ * ومن هتور خمسـة يارجلُ.
أوّل كانون وأعـنى الأوّلا * وخامس من كيهك تعـدّلا.
أوّل كانون الأخير سادس * من طوبة فيها يقيس القائس. ٥
ومن شـباط أوّلٌ يوافى * سـابع أمشـير بلا خلاف.
أوّل آذار حسـابٌ صادقُ * من برمهات خامسا يوافِقُ.
برمودة سادسُـه وأوّلُ * نيسانَ وَفْقٌ ليس عنه مَعْدل.
أوّل أيّار بغـير لبسِ * يوافقُ السادسَ من بشنسِ.
بؤونة وافق منـه سابعه * أوّلُ حزيران لما يتابعـه. ١٠
أوّل تمـوز على الترتيب * يدخلُ فى السابع من أبيب.
أوّل آب ثامن من مسرى، * العلم بالمـرء اللبيب أحرى.

وقال بعض الشعراء فى مثل ذلك :

متى تشأ معرفة التـداخُل * من أوّل الشهور فى المَنَازل. ٥٩
فعدّ من توت بلا تطويل * أربعـةً فهى ابتدا أيلول . ٦١٥
وبابة كذاك من تشرين * الأوّل السابق فى السِّنين .
والخامسُ المعدودُ من هاتور * أوّل تشرينهـم الأخـيرِ .
أوّلُ كانون بغير دُلْسَـهْ * إذا نقصت من كيهك خمسه .
وطوبة إن مرّ منه سِتّهْ * أتاك كانونُ الأخيرُ بَغْتَـهْ .

ومن شباط أوّل يوافِقُ * سابعَ أمشير، حسابٌ صادقُ .

أوّل آذار إذا جعلتَه * لبرمهات خامسًا وجدتَه .

أوّلُ نيسانَ لدى التجريد * السادسُ المعدودُ من برمودِ .

ومثله أيّار مع بشنس * واحدةٌ مقرونةٌ بخمس .

٥ أما حزيرانُ فيحسُبُونهْ * من أوّل السابع من بؤونه .

كذلك السابع من أبيبِ * أوّلُ تموز بلا تكذيب .

أوّل آب عند من يُحَصِّل * ثامنُ مسرىٰ ذاك مالا يُجْهَلُ .

✤

§ وأما شهور الفرس، فهى موافقة لشهور القبط فى العدد. لأن كل شهر منها ثلاثون يوما، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسىء، ويسمونها الاندركاه . ولكل يوم من أيام الشهر آسم خاص، يزعمون أنه آسم ملك من الملائكة موكل به . فأسماء المشهور منها : افريدون ماه (وهو رأس سنتهم)، أرديهشت ماه، حرداد ماه، تير ماه، ترد ماه، برماه، مهر ماه، أبان ماه، ادر ماه، دى ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه . ويعنون بقولهم "ماه" القمر .

✤

المثل — قول بعض الشعراء :

شُهورٌ ينقضينَ وما شَعَرنا * بأنْصافٍ لهُنَّ ولا سَرَارِ

٥ — ذكر ما يختص بالسنة من القول

وما جاء من آختلاف الأمم فى آبتدائها وآنتهائها، والفرق بين السنة والعام

§ أما الفرق بين السنة والعام، فإنهم يقولون "سَنَةٌ جَدْبٌ" و "عامٌ خِصْبٌ". قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾. وقال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ . ٥

والصحيح أنهما آسمان موضوعان علىٰ مسمًّى واحد . قال الله تعالىٰ : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ .

§ والسنة طبيعية ، وآصطلاحية .

فالطبيعيــة قمرية ؛ وأولهـا آستهلال القمر فى غُرَّة المحرم، وآنسلاخُها بِسَرَارِه فى ذى الحجة . وهي آثنا عشر شهرا ، وعدد أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم تقريبا ؛ ويتم من هـذا الخمس والسدس فى ثلاث سنين يومٌ، فتصير السنة فى الثالثة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما . ويبقى شىء يتم منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف فى السنة يوم واحد إلىٰ أن يبقىٰ الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة . وتسمّى تلك السنين كبائس العرب . ١٠

وأما السَّــنةُ الآصطلاحيةُ فإنها شمسيَّةٌ ، وعَدَدُ أيامها عند سائر الأمم ثلثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربعُ يوم. فتكون زيادتها علىٰ السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربع يوم وثمن يوم وخُمسًا من خُمس يوم . ١٥

ويقال: إنهم كانوا فى صدر الإسلام يُسقِطون عند رأس كل آثنتين وثلاثين سنةً عربيةً سـنةً ، ويسمونها الآزدلاف . لأن كل ثلاث وثلاثين سـنةً قمرية آثنتان

وثلاثون سنة شمسية تقريبا . وذلك لتحرزهم من الوقوع فى النسىء الذى أخبر الله عز وجل أنه زيادة فى الكفر . وهذا الأزدلاف هو الذى نسميه فى عصرنا هذا بين كتاب التصرف " التحويل " . لأنا نحوّل السنة الخراجية إلىٰ الهلالية ، ولا يكون ذلك إلا بأمر السلطان .

٥ § وسنة العالم — علىٰ ما آتفق عليه المنجمون — هى من حين حلول الشمس رأس الحمل ، وهو الأعتدال الربيعىّ . ومنهم من يجعل أوّلها من حين حلول الشمس رأس الميزان ، وهو الأعتدال الخريفىّ .

§ وآبتداء سنة القبط قطع الشمس آثنتى عشرة درجة من السنبلة ، وآبتدؤا بفعل ذلك فى زمن أغسطش ، وهو قيصر الأوّل علىٰ ماذكره أصحاب الزيجات .

١٠ § وأما الفُرْس ، فأوّل سنتهم عند حلول الشمس أوّلَ نقطة من الحَمَل[1] .

§ وأما السُّريانيون ، فأوّل سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ستَّ عشرة درجة .

٦ — ذكر النسىء ومذهب العرب فيه

يقال إن عمرو بن لُحَىّ ، وهو خُزاعة — ويقال آسمه عمرو بن عامر الخزاعىّ — هو أوّل من نَسَأ الشهور ، وبَحَر البحيرةَ ، وسَيَّب السائبة ، وجعل الوصيلة ، والحامى . وهو

١٥ أوّل من دعا الناس إلىٰ عبادة هُبَل ، قدم به معه من هِيت .

ومعنىٰ النسىء أنهم يُنْسِئُونَ المحرمَ إلىٰ صَفَر ، ورجبَ إلىٰ شعبان .

---

١) وهذا اليوم هو عيد نيروزهم إلى الآن .

وكان جملة ما يعتقدونه من الذين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة، وكانوا يتحرّجون فيها من القتال. وكانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا فى شهر حرام، حرموا مكانه شهرا من أشهر الحلّ، ويقولون نُسِئ الشهر.

وحكىٰ ٱبن إسحاق صاحب السيرة النبوية (علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام) أن أوّل من نَسَأ الشهور علىٰ العرب، وأحلّ منها ما أحلّ، وحرّم ما حرّم، القَلَمَّسُ. وهو حذيفة بن قُقَيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ٱبنه قلع، ثم قام بعد قلع ٱبنه أمية، ثم قام بعد أمية ٱبنه عوف، ثم قام بعد عوف ٱبنه أبو ثمامة جنادة، وعليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجها، ٱجتمعت عليه بمنىٰ، فقام فيها علىٰ جمل، وقال بأعلىٰ صوته: «اللهم إنى لا أخافُ ولا أعافُ[1]، ولا مردّ لما قضيتُ! اللهم إنى أحللت شهر كذا (ويذكر شهرا من الأشهر الحرم، وقع ٱتفاقهم علىٰ شنّ الغارات فيه) وأنسأته إلىٰ العام القابل (أى أخرت تحريمه) وحرمتُ مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى!»

وكانوا يحلون ما أحلّ، ويحرّمون ما حرّم.

وفى ذلك يقول عمرو بن قيس بن جذُل الطّعان، من أبيات يفتخر:

أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ علىٰ مَعَدٍّ ۞ شُهُورَ الحِلِّ، نجعلُها حَرامَا؟

وحكىٰ السهيلىّ فى كتابه المترجم "بالروض الأُنُف" أن نسىء العرب كان علىٰ ضربين: أحدهما تأخير المحرّم إلىٰ صفر لحاجاتهم إلىٰ شنّ الغارات وطلب الثأر، والثانى تأخير الحج عن وقته تحرّيا منهم للسنة الشمسية. فكانوا يؤخرونه فى كل عام

(١) فى اللسان: "أنا الذى لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لى قضاء".

أحد عشر يوما حتّى يدور الدّور فى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلىٰ وقته . فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة، حج بالناس أبو بكر الصدّيق (رضى الله عنه) فوافق حجه فى ذى القَعدة، ثم حج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى العام القابل فوافق عود الحج إلىٰ وقته فى ذى الحجة كما وضع أوّلا . فلما قضىٰ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حجه، خطب فكان مما قال فى خطبته (صلى الله عليه وسلم) : "إنَّ الزمانَ قد آستدار كهيئته يوم خلق الله السماواتِ والأرض". يعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة .

٧ — ذكر السنين التى يضرب بها المثل

يُضْرب المثل :

§ بعام الجراد . كان سنة ثمان من الهجرة .

§ عام الحزن . وهى السنة التى مات فيها أبو طالب عم النبىّ (صلى الله عليه وسلم) وخديجة (رضى الله عنها) وهى سنة عشر من الهجرة ، وكان موتها بعده بثلاثة أيام وقيل بسبعة .

§ عام الرَّمَادةِ . كان سنة ثمانى عشرة من الهجرة، فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . أصاب الناسَ فيه قحطٌ حتّى صارت وجوههم فى لون الرماد من الجوع . وقيل : كانت الريح تَسفِى ترابا كالرَّمادِ لشدّة يُبْس الأرض . علىٰ ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ فى "التاريخ" .

§ عام الرُّعَاف . كان سنة أربع وعشرين من الهجرة، سمى بذلك لكثرة ما أصاب الناسَ فيه من الرُّعاف .

§ عام الجماعة . كان سنة أربعين من الهجرة . فيه سلّم الحسن بن علىّ (رضى الله عنهما) الخلافة لمعاوية ، فاجتمعت الكلمة فيه .

§ عام الجحاف . كان سنة ثمانين من الهجرة ، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الحمول .

§ عام الفقهاء . وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة . فيها مات علىّ بن الحسين زين العابدين ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق (رضى الله عنهم) وسعيد بن المسيّب ، وعروة بن الزبير ، وعطاء بن يسار ، وسعيد بن زيد بن ثابت . وفيه قتل الحجاج بن يوسف الثقفىّ سعيدَ بن جبير .

§ سُنَيَّاتُ خالد . يُضربُ بها المثلُ فى الجدب . وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث المعروف بأبى مطير . كان قد تولّى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى القحط فيها حتّى أجلى أهل البوادى .

§ سنة عشر ومائة . مات فيها قرينان فى الزهد : الحسن البصرى ومحمد بن سيرين ، وقرينان فى الشعر : جرير والفرزدق .

§ سنة ست وخمسين وثلثمائة . مات فيها جماعة من الملوك ، وهم : شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان ، ومعز الدولة بن بويه ، وكافور الأخشيدىّ صاحب مصر ، ويقفور ملك الروم ، وأبو علىّ محمد بن إلياس صاحب كرمان ، وسيف الدولة ابن حمدان ممدوح المتنبى ، والحسن بن فيرزان صاحب أذربيجان .

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الأول

١ — في الفصول وأزمنتها

وفصول السنة أربعة : الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء . ولكل فصل منها ثلاثة بروج، وثلاثة أشهر، وسبع منازل، وموافقة من الطبائع الأربع .

١ — فأما فصل الربيع ، وهو عند العرب الصيف ، فطبعه حار رطب . ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل، والثور، والجوزاء. وهذه البروج عندهم تدل على الحركة . وله من السن الطفولية والحداثة، ومن الرياح الجنوب، ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة، ومن القوى القوة الجاذبة، ومن الأخلاط الدم، ومن الكواكب القمر والزُّهَرَة، ومن المنازل بعض الفَرْغ المقدم والفرغ المؤخر، والرشاء، والسَّرَطَان، والبُطَين، والثُّريَّا، والدَّبَران، وبعض الهَقْعة . وعدد أيامه أربعة وتسعون يوما .

وحلول الشمس[1] في الثاني عشر من آذار ، ويوافقه مارس من شهور الروم، وفي السادس عشر من برمهات من شهور القبط، وفي العشرين من آسفندار ماه من شهور الفرس . وإذا حلت الشمس برج الحمل ، اعتدل الليل والنهار ، وصار كل واحد منهما اثنتي عشرة ساعة. ثم يأخذ النهار في الزيادة، والليل في النقصان .

وفي هذا الفصل تتحرك الطبائع، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء . فيطلع النبات وتُزْهِرُ الأشجار وتُورِق، ويَهِيجُ الحيوان للسِّفاد، وتذوب الثلوج، وتنبُع العيون، وتسيل الأودية.

(١) أي برج الحمل الذي هو أول فصل الربيع .

ذكر ما قيل فى وصف فصل الربيع وتشبيه نظما ونثرا .

فمن ذلك ما قاله الصنوبرىّ :

ما الدَّهْرُ إلّا الرَّبيعُ المُسْتَنيرُ إذا * جاء الرَّبيعُ ، أتاكَ النَّوْرُ والنُّورُ .
فالأرضُ ياقوتةٌ ، والجوُّ لُؤلُؤةٌ ، * والنَّبْتُ فيروزَجٌ ، والماءُ بَلُّورُ .

وقال آخر :

اِشرَبْ هنيئًا قد أتاكَ زَمانُ * مُتَعطِّرٌ ، مُتَهلِّلٌ ، نَشْوانُ !
فالأرضُ وَشْيٌ ، والنَّسيمُ مُعَنْبَرٌ ، * والماءُ راحٌ ، والطُّيورُ قِيانُ .

وقال الثعالبىّ :

أَظُنُّ الرَّبيعَ العامَ قد جاءَ زائرًا * ففى الشَّمسِ بَزَّازًا ، وفى الرِّيحِ عَطَّارا .
وما العَيشُ إلا أنْ تُواجِهَ وجْهَهُ * وتَقْضِىَ بين الوَشْيِ والمِسْكِ أَوْطَارا .

وقال آخر :

وفصَّلَ فصْلُ الربيع الرياض * عقودًا ورصَّع منها حُلِيًّا .
وفاخَرَ بالأرضِ أُفقَ السَّماء * فحَلَّى الثَّرىٰ بنجوم الثُّريَّا .

وقال الحسن بن وهب :

طَلَعَتْ أوائلُ للرَّبيعِ فبشَّرتْ * نَوْرَ الرِّياض بجِدَّةٍ وشَبَابِ !
وغَدَا السحابُ يكادُ يَسْحَبُ فى الثَّرىٰ * أَذْيَالَ أَسْحَمَ حالكِ الجِلْبَابِ .
فَتَرىٰ السَّماءَ إذا أجَدَّ رَبابُها * فكأنَّما التحفَتْ جَناحَ غُرابِ .
وتَرىٰ الغُصونَ إذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ * مُلْتَفَّةً كتَعانُقِ الأحْبابِ .

وقال بعض فضلاء أصفهان فى وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد الأصفهانىّ فى الخريدة :

أما بعد . فإن الزمانَ جَسَدٌ وفصلُ الربيعِ رُوحُه ، وسِرّ حكمةٍ إلهيةٍ وبه كَشْفُه ووضُوحُه ؛ وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه ، ومنهلٌ جَمٌّ وهو نَميره وصافِيه ؛ ودَوْحَة خَضِرَةٌ وهو يَنْعُها وجَنَاها ، وألفاظ مجموعة وهو نتيجتها ومعناها ؛ فمن لم يَسْتَهِ طباعَه نسيمُ هوائه ، ولم يُدرِك شِفَاء دَائه في صَفَاء دَوَائه ؛ لم يَذُقْ لِطَعْم حياته نفعًا ، ولم يجد لخفض حظه من أيامه رفعا . (٦٢)

٢ — وأما فصل الصيف ، فإن طبيعته الحرارة واليبس ، ودخوله عند حلول الشمس برج السرطان ، والأسد ، والسنبلة .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السنّ الشباب ؛ ومن الرياح الصبا ؛ ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ؛ ومن القوى القوة الماسكة ؛ ومن الأخلاط المِرَّة الصفراء ؛ ومن الكواكب المِرّيخ ، والشمس ؛ ومن المنازل بعض الهَقْعة ، والهَنْعة ، والذراع ، والنَّثْرة والطَّرْف والجَبْهة (وهي أربعة عشر يوما) والخَرَاتَانِ وبعض الصَّرْفة . وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران . وعدد أيامه ثلاثة وتسعون يوما ، ويوافقه ينير من شهور الروم ؛ وفي العشرين من بؤونه ، وإذا حلت الشمس برج السرطان ، أخذ الليل في الزيادة ، والنهار في النقصان . والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظما ونثرا

فمن ذلك ما قاله ذو الرمّة :

وهَاجِرَةٍ حَرُّهَا وَاقِدٌ * نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي .
تَلُوذُ من الشمس أَطْلَاؤُهَا * لِيَاذَ الغَرِيم من الطَّالِب .
وتَسْجُدُ للشمس حِرْبَاؤُهَا * كما يَسْجُدُ القَسُّ لِلرَّاهب .

وقال مسكين الدارمىّ .

وهاجرةٍ ظَلَّتْ كأنّ ظِبَاءَها * إذا ما اتّقَتْها بالقرون سُجُودُ .
تَلُوذُ بِشُؤْبُوبٍ مِن الشمس فوقَها * كما لاذَ مِن حرِّ السِّنَانِ طَرِيدُ .

وقال ابن القفيسىّ :

فى زَمَانٍ يَشْوِى الوُجُوهَ بحَرٍّ * ويُذِيبُ الجُسومَ لوكُنَّ صُخْرا . ٥
لا تَطِيرُ النُّسُورُ فيه إذا ما * وَقَفَتْ شَمْسُه وقارَبَ ظُهْرَا .
ويَوَدُّ الغُصْنُ النَّضِيرُ به لَوْ * أنّه مِن لِحَائِه يَتَعَرَّى .

وقال أيضا :

ياليلةً بِتُّ بها سَاهِدًا * من شِدَّةِ الحَرِّ وفَرْطِ الأُوَارْ .
كأنّنِى فى جُنْحِها مُحْرِمٌ * لو أنَّ لِلعَورَةِ مِنِّى ٱسْتِتَارْ . ١٠
وكيف لا أُحْرِمُ فى لَيلةٍ * سَمَاؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِى الحِمَارْ؟

وقال آخر :

ويومِ سَمُومٍ خِلتُ أنَّ نَسِيمَهُ * ذَوَاتُ سُمُومٍ للقُلوبِ لَوَادِغ ،
ظَلِلْتُ به أشكو مُكَابَدَةَ الهوىٰ * فَكُو زِىَ مَلآنٌ ومائِىَ فَارِغُ .

وقال محمد بن أبى الثياب ، شاعر اليتيمة : ١٥

وهَاجِرَةٍ تَشْوِى الوُجُوهَ كأنَّها * إذا لَفَحَتْ خَدَّىَّ نارٌ توهَّجُ .
وماء كلونِ الزيتِ مِلْحٍ كأنَّه * بِوَجْدِىَ يَغْلِى أو بِهَجْرِكَ يُمْزَجُ .

وقال الثعالبىّ :

رُبَّ يَومٍ هَوَاؤُهُ يَتَلَظَّى * فَيُحَاكِى فُؤَادَ صَبٍّ مُتَيَّمْ .
قُلْتُ إذ صَكَّ حَرُّهُ حُرَّ وَجْهِى : * "رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمْ"! ٢٠

ومما وصف به من النثر قول بعضهم :

أوقدت الظهيرة نارها ، وأذكت أوارها ؛ فأذابت دماغ الضب ، وألهبت قلب الصب ؛ هاجرة كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت بنيران الفراق ؛ حرّ تهرب له الحرباء من الشمس ، وتستجير بمتراكب الرمس ؛ لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع معه سرج ولا خيش ؛ فهو كقلب المهجور ، أو كالتنور المسجور .(١)

٣ — وأما فصل الخريف — فإن طبعه بارد يابس ؛ ودخوله عند حلول الشمس برأس الميزان والعقرب والقوس .

وهذه البروج تدل على الحركة ؛ وله من السن الكهولة ؛ ومن الرياح الشمال ؛ ومن الساعات السابعة والثامنة والتاسعة ؛ ومن القوى القوة الهاضمة ؛ ومن الأخلاط المرة السوداء ؛ ومن الكواكب زحل ؛ ومن المنازل بعض الصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانيان والقلب وبعض الشولة ؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما ؛ ويكون حلول الشمس الميزان في الخامس عشر من أيلول ، ويوافقه سمبر من شهور الروم ، وفي الثامن عشر من توت .

وفي هذا الفصل يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتصرم الثمار ، ويغبر وجه الأرض ، ويصفر ورق الشجر ، وتهزل البهائم ، وتموت الهوام ، وتنجحر الحشرات ، وتطلب الطير المواضع الدفئة ، وتصير الدنيا كأنها كهلة مدبرة .

ويقال : فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين .

والله أعلم .

(١) هكذا بالأصل وفي صبح الأعشى ثلج .

ذكر ماقيل فى وصف فصل الخريف وتشبيه نظما ونثرا .

فمن ذلك ماقاله الصنوبرى ، عفا الله عنه :

ماقضىٰ فى الربيع حقَّ المسرَّا * تِ مُضيعٌ زمانَهُ فى الخريف .
نحنُ منه علىٰ تلقِّى شتاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أو وَدَاعِ مَصِيف .
فى قَمِيصٍ من الزمان رَقِيقٍ * ورِداءٍ من الهَوَاءِ خَفِيف . ٥
يَرعُدُ الماءُ منه خوفًا إذا ما * لَمَسَتْه يَدُ النَّسيم الضَّعِيف .

وقال عبد الله بن المعتز :

طَابَ شُرْبُ الصَّبوح فى أيلولِ ! * بَرَدَ الظلُّ فى الضُّحىٰ والأَصِيلِ !
وخَبَتْ جَمْرَةُ الهَواجِرِ عنَّا ، * واسْتَرَحْنَا من النهار الطَّويلِ .
وخَرَجْنَا من السَّمُومِ إلىٰ بَرْ * دِ نَسِيمٍ ، وطيب ظلٍّ ظَلِيلِ ، ١٠
وشَمالٍ تبشّر الأرض بالقَطْـ * ـر كذيل الفِلَالة المبلولِ .
فكأنّا نزداد قُرْبا الى الجنـ * ـة فى كلّ شارق وأصيلِ .
وَوُجُوهُ البِقَاعِ تَنْتَظِرُ الغَيْـ * ـثَ انتِظَارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسُولِ .
تَبْتَغِى غُلَّةً لِتَعْمَلَ رَوْضًا * بكثيرٍ من الحَيَا أو قَلِيلِ .

وقال آخر : ١٥

اِشْرَبْ علىٰ طِيبِ الزمَانِ فقد حَدَا * بالصَّيف من أَيلُولَ أَسْرَعُ حَادِ .
وأَشَمَّنَا باللَّيلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ * فارتاحَتِ الأرواحُ فى الأجسادِ .
وافاكَ بالأنْداءِ قُدَّامَ الحَيَا * فالأرضُ للأمطارِ فى اسْتِعدَادِ .
كم فى ضَمائِرِ تُربِها من رَوْضَةٍ * بمَسِيلِ مَاءٍ أو قَرَارَةِ وَادِ .
تَبْدُو إذا جَادَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ * فكأنما كانَا علىٰ مِيعَادِ . ٢٠

وقال آخر :

لا تَصْغَ لِلَّوْمِ إنَّ اللَّومَ تَضْلِيلُ * وٱشْرَبْ ففى الشُّرْبِ للأحزانِ تحليلُ .
فقد مَضىٰ القيظُ وٱجتُثَّتْ رَوَاحِلُه ، * وطَابَتِ الرَّاحُ لما آلَ أَيْلُولُ .
وليس فى الأرضِ نَبتٌ يشْتَكِى رَمَدًا * إلا ونَاظِرُهُ بالطَّلِّ مَكْحولُ .

٥ وقال آخر يذمه :

خُذْ بالتَّدَثُّرِ فى الخَرِيفِ فإنَّهُ * مُسْتَوْبَلٌ ، ونَسِيمُه خَطَّافُ .
يَجْرى معَ الأيَّام جَرْىَ نِفَاقِها * لِصَدِيقِها "ومن الصَّديق يُخَافُ" !

ومما وصف به من النثر :

قال أبو إسحاق الصابى يصفه :

١٠ الخريفُ أصحّ فصول السنة زمانا ، وأسهلُها أوانا ، وهو أحد الاعتدالين ، المتوسطين بين الانقلابين ، حين أبدتِ الأرضُ عن ثمرتها ، وصرَّحَتْ عن زينتها ؛ وأطلقت السماءُ حوافِلَ أنوائها ، وتأذَّنَتْ بانسكاب مائها ؛ وصَارَتِ الموارد ، كُمُتُونِ المَبَارد ؛ (٦٤) صَفَاءً من كَدَرِها ، وتَهَذُّباً من عَكَرِها ؛ وٱطِّرادا مع نَفَحات الهواء ، وحركات الريح الشَّجْوَاء ؛ وٱكتَسَتِ الماشيةُ وبَرها القَشِيب ، والطائر رِيشَه العَجِيب .

١٥ وقال ٱبن شبل :

كُلُّ ما يَظْهَر فى الربيع نُوَّاره ، ففى الخَرِيفِ تُجْتَنَى ثِمَارُه ؛ فهو الحاجِبُ أَمَامَه ، والمُطْرِقُ قُدَّامَه .

وقال ضياء الدين ٱبن الأثير الجزرىّ عن الخريف يفتخر علىٰ فصل الربيع :

أنا الذى آتِى بَذَهاب السَّمُوم ، وإيابِ الغُيُوم ، وٱعتصار بناتِ الكُرُوم ، وتكاثر ألوان ٢٠ المشروب والمطعوم ؛ وفىَّ يترقرقُ صفاءُ الأنهار ، فتشتبه القوابلُ بالأسحار ، وأيامى

هى الذهبيات وتلك نسبة كريمة النجار، ومن ثمراتى ما لا تزال أمهاته حوامل ، وأوراقه بوصر وغيرها ذوابل، وقد شبه بالمصابيح وشبهت أغصانه بالسلاسل .

ولقد أنصف من قال :

تَحَاسِنُ لِلخَرِيف بِهِنَّ فَخْرٌ * علىٰ زمن الربيع، وأىُّ فَخْرِ !
به صَارَ الزَّمانُ أَمَامَ بردٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وعقيبَ حَرٍّ .

: — وأما فصل الشتاء، فإن طبعه بارد رطب، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدى والدلو والحوت .

وهذه البروج تدل علىٰ السكون، وله من السنّ الشيخوخة، ومن الرياح الدبور، ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة، ومن القوىٰ القوّة الدافعة ، ومن الاخلاط البلغم، ومن الكواكب المشترى وعُطَارِد، ومن المنازل بعض الشولة والنعائم والبلدة وسعدُ الذابح وسعدُ بُلَعَ وسعد السعود وسعد الأخبية وبعض الفرغ المقدم، وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما .

ويكون حلول الشمس برأس الجدى فى الثالث عشر من كانون الأول، ويوافقه دجنبر من شهور الروم ، وفى السابع عشر من كيهك من شهور القبط . وإذا حلت الشمس ببرج الجدى يشتد البرد، ويخشن الهواء، ويتساقطُ ورق الشجر، وتنجحرُ الحيوانات، وتضعُفُ قوىٰ الأبدان، وتكثر الأنواء، ويُظْلِم الجوّ، وتصير الدنيا كأنها عجوز هَرِمة قد دنا منها الموت .

وروى عن علىّ (رضى الله عنه) أنه قال : "توقّوا البرد فى أوّله، وتلقّوه فى آخره، فإنه يفعل فى الأبدان كفعله فى الأشجار : أوّله يُحرِق، وآخره يُورِق".

ذكر ماقيل في وصف فصل الشتاء وتشبيه .

فمن ذلك ماقاله جرير شاعر الحماسة :

في ليلةٍ من جُمادَى ذاتِ أنديةٍ * لا يُبصِرُ الكلبُ في ظلمائها الطُّنبا .
لا ينبحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ * حتى يلفَّ على خيشومه الذَّنبا .

وقال ابن حكينا البغدادي :

٥ البَسْ إذا قدمَ الشتاءُ بُرودَا * وافرُشْ على رغمِ الحصيرِ لُبودَا .
الرِّيقُ في اللَّهواتِ أصبحَ جامدًا * والدَّمعُ في الآماقِ صارَ بُرودَا .
وإذا رميتَ بفضلِ كأسِكَ في الهوا * عادتْ عليكَ من العقيقِ عُقودَا .
وترى على بردِ المياهِ طُيورَها * تختارُ حرَّ النارِ والسُّفُودَا .
١٠ ياصاحبَ العُودَيْنِ لاتُهمِلْهُما * أوقِدْ لنا عودًا، وحرِّكْ عودَا !

وقال آخر :

ويومُنا أرواحُه قرَّةٌ * تُحمِّشُ الأبدانَ من قَرْصِها .
يومٌ تودُّ الشمسُ من بَرْدِه * لو جرَّتِ النارَ إلى قُرْصِها !

وقال عبد الله بن المعتز :

١٥ قد منعَ الماءُ من اللَّمسِ * وأمكنَ الجمرُ من المَسِّ .
فليسَ نلقى غيرَ ذي رِعدةٍ، * ومُسلمٍ يسجُدُ للشَّمسِ !

وقال آخر :

ليس عندي من آلةِ البردِ إلَّا * حُسنُ صبري، ورِعدتي، وقُنوعي .
فكأنِّي لِشدَّةِ البردِ هِرٌّ * يرقُبُ الشَّمسَ في أوانِ الطُّلوعِ .

(٦٥) وقال ابن سُكَّرة الهاشمىّ، عفا الله تعالىٰ عنه ورحمه:

قيل: ما أعددتَ للبَرْ * دِ وقد جاءَ بِشِدَّهْ؟
قلت: دُرَّاعَةُ بَرْد * تحتها جُبَّةُ رِعْدَهْ.

وقال أبو سعيد المخزومىّ:

إذا كُنتَ فى بلدةٍ نازلًا * وحَلَّ الشِّتَاءُ حُلُولَ المُقِيم، ٥
فلا تَبرُزَنَّ إلىٰ أن تَرَىٰ * من الصَّحْو يومًا صحيحَ الأدِيم.
فكم زَلْقَةٍ فى حَواشِى الطريق * تَرُدُّ الثيابَ بِخِزْيٍ عَظِيمْ!
وكَم مِنْ لئيمٍ غدَا راكبًا * يُحِبُّ البلاءَ لماشٍ كَرِيم!

وقال الصاحب بن عبّاد:

أنّى رَكِبْتُ فكفُّ الأرضِ كاتِبَةٌ * علىٰ ثِيَابِى سُطورًا ليس تَنكَتِمُ. ١٠
فالأرضُ مِحْبَرةٌ، والحِبْرُ مِنْ لَثَقٍ * والطِّرسُ ثوبى، ويُمنَى الأشْهَبِ القَلَمُ.

قال أبو علىّ كاتب بكر شاعر اليتيمة:

يا بلدةً أسلَمَنِى بَرْدُهَا * وبَرْدُ مَنْ يَسْكُنُها للقَلَقْ.
لا يَسْلَمُ الشَّاتِى بها من أذًى * من لَثَقٍ، أو دَمَقٍ، أو زَلَقْ.

١٥ ومما وصف به ثرا قول بعضهم:

إذا حَلَّتِ الشمسُ برجَ الجدى مدّ الشتاءُ رِوَاقَه، وحَلَّ نِطَاقَه، ودَبَّتْ عَقَارِبُ البردِ لَاسِبَهْ، ونَفَعَ مَدْخُورُ الكَسْبِ كَاسِبَهْ.

ومن رسالة لابن أبى الخصال، جاء منها:

الكلب قد صافح خَيشومه ذنبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه، وٱلْتَوىٰ ٱلتِواءَ الحُبَاب، وٱستدارَ ٱستدارة الغراب، وجَلَده الجليد، وضربه الضَّريب وصعّد أنفاسَه الصعيد؛ ٢٠

فماه مباح، ولا هَرِيرَ له ولا نُباح، والنارُ كالصَّدِيق، أوكالرَّحيق، كلاهما عَنْقاء مُغْرب، أونجم مُغَرِّب.

وقال بعضهم:

برد يُغير الألوان، وينشّف الأبدان، ويُجمّدُ الريقَ في الأشداق، والدَّمعَ في الآماق، بردٌ حالَ بين الكلب وهَرِيره، والأسدِ وزَئيرِه، والطيرِ وصَفيرِه، والماء وخَرِيره.

وقيل لبعضهم: أيُّ البرد أشدُّ؟ فقال: إذا دمعت العينان، وقَطر المَنْخَران، وتلجلج اللسان، وآصطكّت الأسنان.

ووصف آبن وكيع الفصول الأربعة في أرجوزة فقال:

عِنْدِيَ في وَصْفِ الفُصولِ الأرْبَعه * مَقَالَةٌ تُغْنِي اللَّبِيبَ مُقْنِعَهْ.

ذكر ما قيل في فصل الصيف

أمَّا المصيفُ، فاستمِعْ ما فيه * من فَطِنٍ يُفْهِمُ سَامِعِيه.
فصل من الدَّهْرِ إذا قيلَ حَضَرْ * أذْكَرَنَا بِحَرِّهِ نارَ سَقَرْ.
يَظَلُّ فيه القلبُ مُقْشَعِرًّا * والأرضُ تشكو حَرَّه المُضِرَّا.
أوّلُه فيه نَدًى مُنغِّصُ * كأنه على القُلُوبِ يَقْنِصُ.
يَلْصَقُ منه الجلدُ بالثِّيابِ * ويَعْلَقُ التُّرابُ بالأثوابِ.
حتّى إذا ما طَرَدَتْه الشمسُ * وفَرِحتْ بأن يَزُولَ النَّفْسُ.
فَتَّحَتِ النَّارُ لنا أبوابَها * وشَبَّ فيها مالكٌ شِهابَها.
حرٌّ يحيلُ الأوجُهَ الغُرَّانَا * حتّى تُرى الرومُ به حُبْشَانَا.
يَعْلُو بِهِ الكَرْبُ ويَشْتَدُّ القَلَقْ * وتَنْضَحُ الأبدانُ فيه بالعَرَقْ.

تُبصِرُه فوقَ القَميصِ قد علاَ * حتّى ترىٰ مُبيَضَّهُ مُصَنْدَلاَ.
إن كانَ رَثًّا، زادَ فى تَمزيقِهِ * أو مُستَجِدًّا، جَدَّ جَبْلَ زِيقِه.
ثم يُعِيدُ الماءَ نارًا حامِيَهْ * يَزِيدُ فى كربِ القُلوبِ الصَّادِيَه.
شَارِبُهُ يَكْرَعُ فى حَمِيمٍ * كأنَّه من ساكِنِي الجَحِيمِ.
يُنْسِيهِ ما يَلْقىٰ من ٱلتَهابِهِ * أن يَحْمَدَ الله علىٰ شَرابِهِ.
حتّى إذا أعيَا، ٱنقضىٰ نهارُه * وأُرخِيَتْ من لَيلِهِ أستارُه،
تَحَرَّكَتْ فى جُنحِه دَوَاهِى * سَارِيَةٌ، وأنتَ عَنها لاَهِى.
من عَقْرَبٍ يَسْعىٰ كسَعْىِ اللِّصِّ * سِلاَحُها فى إثْرِهِ كالشِّصِّ.
وحَيَّةٍ تَنفُثُ سُمًّا قاتِلاَ * تُزَوِّدُ المَلْسُوعَ حَتْفًا عاجِلاَ.
تُبصِرُ ما يَجلِدُها من الرَّقَشْ * كَوَجْنَةٍ مُصْفَرَّةٍ فيها نَمَشْ.
لو نَهَشَتْ بالنَّابِ منها الخَضِرَا، * لَنَثَرَتْ منه الحياةَ نَثْرًا.
فلا تَقُلْ إن جاء يومًا أهْلاَ * فَلعنَةُ الله عليهِ فَصْلاَ.

ذكر ما قيل فى فصل الخريف

حتّى إذا زَالَ، أتىٰ الخَرِيفُ: * فَصْلٌ بِكُلِّ سَوْأَةٍ مَعْرُوفُ.
أَهْوَنُهُ يُسرِعُ فى حَلِّ الجَسَدْ * وهو كَطَبْعِ المَوْتِ يُبْسٌ وبَرَدْ.
يَخْفِى علىٰ الأجسامِ من آفاتِهِ، * وأرضُهُ قَرْعَاءُ من نَباتِهِ.
لا يُمكِنُ النَّاسَ ٱتِّقَاءُ شَرِّهِ * ولا خِلافُ بَرْدِهِ وحَرِّهِ.
تُبصِرُه مثلَ الصَّبِيِّ الأَرْعَنِ * من كثرةِ العُشَّاقِ والتَلَوُّنِ.
فأنتَ منه خائفٌ علىٰ حَذَرْ * لأنه يمزُجُ بالصَّفْوِ الكَدَرْ.

أَحْسَنُ مَا يُهْدِى لَكَ النِّسيَا * يَقْلِبُــهُ فى سَــاعَةٍ سَمُومَا.
وهو علىٰ المعدودِ من ذُنُوبِهِ * خيرٌ من الصَّيفِ علىٰ عُيُوبِهِ.

ذكر ماقيل فى فصل الشتاء.

حَتّٰى إذا ما أقبلَ الشِّتاءُ، * جاءتكَ منــه غُمَّــةٌ عَمْيَــاءُ.
لو أنَّهُ رُوحٌ، لكان قَدْمَا * أو أنه شَخْصٌ، لكان جَهْمَا.
يلقاكَ منــه أَسَــدٌ يَزِيرُ * له وَعِيــدٌ وله تَحْــذِيرُ.
تأتِيــكَ فى أيَّامِــه رِيَاحُ * ليسَ علىٰ لَاعِنِهَا جُنَاحُ.
حَرَاكُها ليسَ إلىٰ سُكُونِ * تَضُرّ بالأَسْمَاعِ والعُيُــونِ.
يَحْــدُثُ من أفعالِها الزُّكَامُ * هــذا إذا ما فاتَكَ الصُّــدَامُ.
ثم يَلِيهَــا مَطَــرٌ مُــدَاوِمُ * كأنه خَصْمٌ لَنَــا مُلَازِمُ.
يَقْطَعُنَا بعْضًــا عن الطرِيقِ * وعن قَضاءِ الحَقِّ للصَّــدِيقِ.
وربمــا خَرَّ عليكَ السَّقْفُ، * فإن عَفا عنكَ أتاكَ الوَكْفُ.
وإنْ أردتَ فى النَّهارِ الشُّرْبَا * فيه، فقد قَاسَيْتَ خَطْبًا صَعْبَا.
وٱحتجتَ أن تُوقِدَ فيه نَارَا * تُطِيرُ نحو الحَــدَقِ الشَّرَارَا.
يَتْرُكُ مُبيَضَّ الثِّيَــابِ أرْقَطَا * يَحكِى السَّعِيدىَّ لَكَ المُنَقَّطَا.
وبَعْــدَ ذَا تُسَدِّدُ النِّقَــابَا * من خوفه وتُغْلِقُ الأبوابَا.
نعم، وتُرْخِى دُونَه السُّــتُورَا * حتّٰى تَرىٰ صَبَاحَه دَيْجُورَا.
وإن أردتَ الشُّربَ فى الظَّلَامِ * عاقَكَ عن تَنَاوُلِ المُدَامِ.
حَسْبُكَ أن تَنْدَسَّ فى اللِّحَافِ * من خَشْيةِ البَرْدِ علىٰ الأطرافِ!
ورَعْدُهُ يَشْغَلُ عن كُلِّ عَمَلْ * ويُؤْثِرُ النَّومَ ويَسْتَحْلِى الكَسَلْ.

حتّى إذا جئتَ إلى الرُّقَادِ، * نِمْتَ على فرشٍ من القَتَادِ.
إنَّ البراغيثَ عَذَابٌ مُزْعِجٌ * لكُلِّ قلبٍ ولِجلدٍ ينضجُ.
لا يَسْتَلِذُّ جِلدُكَ المَضَاجِعَا * كأنما أفرشَهُ مَبَاضِعَا.
تَنَحَّ فَضْلًا فوق ما ذَمَمْتُهُ * لو أنه يَظْهَرُ لى، قَتَلْتُهُ.
حَتَّى إذا ما هُوَ عَنَّا بَانَا * وزَالَ عَنَّا بَعْضُه، لَا كَانَا! ٥

ذكر ما قيل فى فصل الربيع

جاءَ إلَيْنا زَمَنُ الرَّبيعِ * فجاءَ فصلٌ حَسَنُ الجَمِيعِ.
لِبَرْدِهِ وحَرِّهِ مِقْدارُ * لم يكتنِفْ حَدَّهُمَا إكْثَارُ.
عُدِّلَ فى أوزانِهِ حتَّى اعْتَدَلْ * وحُمِدَ التَّفْصِيلُ منهُ والجُمَلْ.
نهارُهُ فى أحْسَنِ النَّهارِ * فى غايَةِ الإشْرَاقِ والإسْفَارِ. ١٠
تَضْحَكُ فيه الشَّمسُ من غيرِ عَجَبْ * كأنَّها فى الأُفْقِ جامٌ من ذَهَبْ.
ولَيْلُهُ مُسْتَلْطَفُ النَّسِيمِ * مُقَوَّمٌ فى أحْسَنِ التَّقْوِيمِ.
لِبَدْرِهِ فَضْلٌ على البُدُورِ * فى حُسْنِ إشْراقٍ وفَرْطِ نُورِ.
كَمَامَةِ البَلُّورِ فى صَفَائِهَا * أذَابَتِ الجَرادَ فى نِقَابِهَا.
كأنَّها إذا دَنَتْ من بَدْرِهِ * جَوْزَاؤُه قَبْلَ طُلُوعِ فَجْرِهِ. ١٥
رُومِيَّةٌ حُلَّتُهَا زَرْقَاءُ * فى الجِيدِ منها دُرَّةٌ بَيْضَاءُ.
هذا وكم تجمعُ من أُمُورِ * إطْرَاءُ مُطْرِيهَا من التَّقْصِيرِ.
فيه تَظَلُّ الطَّيرُ فى تَرَنُّمِ * حَاذِقَةً بالَّلحنِ لم تُعَلَّمِ.
غِنَاؤُها ذُو عُجْمَةٍ لا يَفْهَمُهْ * سَامِعُهُ وهو على ذا يَغْرَمُهْ.
من كُلِّ دُبْسِيٍّ له وَنِينُ * وكُلِّ تُحْرِيٍّ له حَنِينُ. ٢٠

في قُرْطَقٍ أُعْجِلَ أن يُوَرَّدَا * خاطَ له الخَيَّاطُ طَوْقاً أَسْوَدَا.

تُبصِرُه منـهُ علىٰ الحَيْزُومِ * كَمِثْلِ عِقْدِ سَبَجٍ مَنْظُومِ.

هـذا وفيه للرِّياضِ مَنْظَرُ * يُفْشِي الثَّرىٰ من سِرِّه ما يُضْمِرُ.

سِرُّ نَبَاتٍ حُسْنُهُ إعْلانُهُ * إذا سِواهُ زانَهُ كِتْمانُهُ.

فيه ضروبٌ لنَبَاتِ(١) الغَضِّ * يَحْكِي لِباسَ الجُنْدِ يومَ العَرْضِ. ٥

من نَرجِسٍ أبيضَ كالثُّغُورِ * كأنَّه مَخَانِقُ الكافُورِ.

ورَوْضَةٍ تُزهِرُ من بَنَفْسَجٍ * كأنَّها أرْضٌ من الفَيْرُوزَجِ.

قَدْ لَبِسَتْ غلالَةً زَرْقاءَ * وكايَدَتْ بلونِها السَّماءَ.

يَضْحَكُ منها زَهَرُ الشَّقِيقِ * كأنَّه مَدَاهِنُ العَقِيقِ.

مُضَمَّناتٌ قِطَعاً من السَّبَجْ * قد أَشْرَقَتْ من آحمرارٍ ودَعَجْ. ١٠

كأنَّما المُحْمَرُّ في المُسْوَدِّ * منهُ إذا لاحَ عُيونُ الرِّمْدِ.

وآرْمِ بِعَيْنَيْكَ إلىٰ البَهارِ * فإنَّهُ من أَحْسَنِ الأزْهارِ.

كأنَّهُ مَدَاهِنٌ من عَسْجَدِ * قد سُمِّرَتْ في قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ

فانْهَضْ إلىٰ اللَّهْوِ ولا تَخَلَّفِ * فلَسْتَ في ذلكَ بالمُعَنَّفِ.

وآشْرَبْ عُقَاراً طالَ فِينا كَوْنُها * يَصْفَرُّ من خَوْفِ المِزاجِ لَوْنُها. ١٥

* * *

دونَكَ هذي صِفَةُ الزَّمانِ * مَشْرُوحَةً في أَحْسَنِ التِّبْيانِ!

وآرْضَ بِتَقْلِيدِي فيما قُلْتُهُ * فإنَّني أَدْرِي بما وَصَفْتُهُ.

(١) لعله للنبات بالتعريف .

الباب الرابع

من القسم الثالث من الفن الأوّل

فى ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب آتخاذهم لها، وما قيل فى ذلك

والذى أُورِدُه فى هذا الباب، هو مما وقفتُ عليه أثناء مطالعتى للكتب الموضوعة فيه، ونقلته منها لمّا تعذر علىّ مَنْ أتلقاه مِنْ فِيهِ. وضمنته أعياد المسلمين، والفُرْس والنصارىٰ، واليهود. ٥

١ — ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التى وردت بها الشريعة آثنان: عيد الفطر، وعيد الأضحىٰ.

والسبب فى آتخاذهما، ما رُوِى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أنه قَدِم لمدينةَ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ماهذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إن الله (عز وجل) قد بدّلكم خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحىٰ". فأوّل ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة آثنتين من الهجرة. وفيها كان عيد الأضحىٰ. ١٠

وعيد آبتدعته الشّيعة، وسموه عيد الغَدِير. وسبب آتخاذهم له مؤاخاة النبىّ (صلى الله عليه وسلم) علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) يوم غَدِير خُمّ. والغدير علىٰ ثلاثة أيام[1] من الجُحفة بِسُرَّةِ الطّريق. قالوا: وهذا الغدير تَصُبُّ فيه عين، وحوله شجر كثيرٌ ملتفٌّ بعضها ببعض. وبين الغدير والعين مسجدٌ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم). ١٥

واليوم الذى آبتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذى الحجة، لأن المؤاخاة كانت

(١) فى صبح الأعشى (ج ٢ ص ٤٠٧) ثلاثة أميال، وفى المعجم [بينه وبين الجحفة ميلان].

فيه في سنة عشرة من الهجرة، وهي حجة الوداع. وهم يُحْيون ليلتها بالصلاة، ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال. وشِعارُهم فيه لبس الجديد، وعتق الرِّقاب، وبرّ الأجانب، والذبائح.

وأوّل من أحدثه معز الدّولة أبو الحسن عليّ بن بويه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره في سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة. ٥

ولما ابتدع الشيعة هذا العيد واتخذوه من سُنَنهم، عمل عوامُّ السُّنَّة يومَ سرورٍ نظير عيد الشيعة في سنة تسع وثمانين وثلثمائة. وجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام، وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الغار هو وأبو بكر الصدّيق (رضي الله عنه). وأظهروا في هذا اليوم الزينةَ، ونصبَ القِبَابِ، وإيقادَ النيران.

٢ — ذكر أعياد الفُرس ١٠

وأعياد الفُرس كثيرة جدّا. وقد صنف عليّ بن حمزة الأصفهانيّ فيها كتابا مستقلًّا ذكر فيه أعيادهم، وسبب اتخاذهم لها، وسُنَنَ ملوكهم فيها. وقد رأيتُ أن أقتصر على المشهور منها، وهي ثلاثة أعياد: النَّيْرُوزُ، والمَهْرَجَانُ، والسَّدَقُ.

١ — فأما النَّيْروز، فهو أعظم أعيادهم وأجلُّها. يقال إن أوّل من اتخذه جمشيد أحد ملوك الفرس الأُوَل. ويقال فيه جمشاد، ومعنى جم القمر، وشاد الشعاع والضياء، وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن طهومرث لما هلك، ملك بعده جمشاد. ١٥ (٦٩) فسمى اليوم الذي ملك فيه نُوروز، أي اليوم الجديد.

ومن الفرس من يزعم أن النَّيْروزَ اليومُ الذي خلق الله (عز وجل) فيه النورَ، وأنه كان مُعَظَّمَ القدر عند جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران.

ومدّته عندهم ستة أيام، أوّلها اليوم الأوّل من شهر أفريدون ماه، الذى هو أوّل شهور سنتهم. ويسمون اليوم السادس النُّوروزَ الكبير، لأن الأكاسرة كانوا يقضُون فى الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلىٰ مجالس أُنسهم مع خواصّهم.

وحكىٰ ٱبن المُقَفَّع أنه كانَ من عادتهم فيه أن يأتى الملكَ من الليل رجلٌ جميلُ الوجه، قد أُرْصد لما يفعله. فيقف علىٰ الباب حتّى يُصبِح. فإذا أصبح دخل علىٰ الملك من غير ٱستئذان. فإذا رآه الملك، يقول له: من أنت؟ ومن أين أقبلتَ؟ وأين تريد؟ وما ٱسمك؟ ولأىّ شىء وردتَ؟ وما معك؟ فيقول: أنا المنصور، وٱسمى المبارك، ومن قِبَل الله أقبلتُ، والملكَ السعيدَ أردتُ، و بالهناء[1] والسلامة وردتُ، ومعى السنة الجديدة. ثم يجلس، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة، وفيه حنطة، وشعير، وجُلْبَانٌ، وحِمَّصٌ، وسمسم، وأرز (من كل واحد سبع سنابل وتسع حبات) وقطعة سكر، ودينار ودرهم جديدان. فيضع الطبق بين يدى الملك. ثم تدخل عليه الهدايا. ويكون أوّل من يدخل عليه وزيره، ثم صاحب الخراج، ثم صاحب المَعُونة، ثم الناس علىٰ طبقاتهم ومراتبهم. ثم يقدّم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب، موضوع فى سَلّةٍ. فيأكل منه ويُطْعِمُ من حضره. ثم يقول: هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن نجدّد فيه ما أخلق من الزمانُ، وأحَقُّ الناس بالفضل والإحسان الرأسُ لفضله علىٰ سائر الأعضاء. ثم يخلع علىٰ وجوه دولته ويصلهم ويفرّق فيهم ما حُمِل إليه من الهدايا.

وكانت عادةُ عوامّ الفرس فيه رفعَ النار فى ليلته، ورشَّ الماء فى صبيحته. وفى ذلك يقول المعوج:

---

[1] لم نجد هذا المصدر فى القاموس [illegible] معنى والمصدر [illegible] والتهنئة.

كيف أبتهاجُكَ بالنَّيْرُوزِ يا سَكَنِي؟ * وكُلُّ ما فيه يَحْكِينِي وأَحْكِيهِ!
فنارُه كلهيبِ النار في كَبِدِي! * وماؤه كَتَوَالِي عَبْرَتِي فِيهِ!

وقال آخر:

نَوْرَزَ النَّاسُ ونَوْرَزْ * تُ، ولكنْ بدموعي!
وذَكَتْ نارُهُمُ، والنَّـ * ـارُ ما بينَ ضُلوعي!

٢ — وأما المهرجان، فوقوعه في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السُّرْيان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس.

وهذا الأوان وسط زمان الخريف، وفيه يقول بعض الشعراء:

أُحِبُّ المَهْرَجانَ لأنَّ فيه * سُرُورًا للملوك ذَوِي السَّنَاءِ،
وبَابًا للمصيرِ إلى أَوَانٍ * تُفَتَّحُ فيه أبوابُ السَّماءِ.

وهو ستة أيام. ويسمّى اليوم السادس المهرجان الأكبر. قال المسعودي: وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم، أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم. وكان لهم ملك يسمّى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف. فمات في نصف الشهر الذي يسمونه مهرماه، فسمي ذلك اليوم مهرجان. وتفسيره "نفس مهر ذهبت" وهذه لغة الفرس الأُوَل. وزعم آخرون أن "مهر" بالفارسية حِفَاظ و"جان" الروح.

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ذلك، فقال:

إذا ما تَحَقَّقَ بالمَهْرَجا * نِ مَنْ ليس يَعْرِفُ معناهُ، غاظَا.
ومَعْنَاهُ أن غَلَبَ الفُرْسُ فيه * فَسَمَّوْهُ للرُّوحِ حَفًّا حِفَاظَا.

ويقال إنه إنما عُمِلَ في عهد أفريدون الملك، وأن معنى هذا الاسم "إدراك الثأر".

وسبب اتخاذهم له ، أن بيوراسف (وهو الضحاك)، ويقال له أزدهاق ذوالحيّتَيْنِ والأفواه الثلاثة، والأعين الستة، الدّاهى الخبيث المتمرّد، لما قتل جمشاد، وملك بعده، غيّر دين المجوسية . وجاء إبليس فى صورة خادم، فقبّل منكبيه، فنبت فيهما حيتان، فكان يُطْعِمهما أدمغة الناس . فأجحف ذلك بالرعية، فخرج رجل بأصبهان، يقال له كابى، ويقال فيه كابيان . ودعا الناس إلىٰ قتاله، فاجتمع له خلق كثير . فشخص الضحاك لقتاله، فهاب كثرةَ جمعه وفرّ منهم. فاجتمع الناس علىٰ كابى ليملكوه عليهم، فأبىٰ ذلك وقال: ماأنا من أهل الملك، وأخرج صبيا من ولد جمشاد، يسمّى أفريدون وملّكه، فأطاعه الناس فيه وملّكوه عليهم .

وخرج أفريدون فى طلب الضحاك ليأخذ ثأر جدّه فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيدا، وسماه المهرجان . ويقال إن المهرجان هو اليوم الذى عقد فيه التاج علىٰ رأس أردشير بن بابك، أوّل ملوك الفرس الساسانية .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان علىٰ النيروز:

أخَا الفُرْسِ إنّ الفُرْسَ تَعْلَمُ إنّه * لأطْيَبُ من نَيْرُوزِهَا مَهْرَجَانُها:
لإدبارِ أيّام يَغُمُّ هَـواؤُهـا * وإقبالِ أيّامٍ يَسُـرُّ زَمَانُهـا.

وكان مذهب الفرس فيه أن يَدَّهِنَ ملوكُهم بدُهن البان تبرُّكا، وكذلك عوامهم، وأن يلبس القَصَبَ والوَشْىَ، ويتوّج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدّائرة عليها، ويكون أوّل من يدخل عليه المُوبَذَان بطبق فيه أُتْرُجّةٌ، وقطعة سُكّرٍ، ونَبْق، وسَفَرْجَل، وعُنّاب، وتُفّاح، وعُنْقُودُ عنب أبيض، وسبعُ طاقات آسٍ قد زَمْزم عليها .

ثم يدخل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك .

وكان أردشير، وأنو شروان يأمران بإخراج ما في خزائنهم في المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفُرُش، فتتفرّق كلّها في الناس على مراتبهم، ويقولان : إن الملوكَ تستغني عن كُسوة الصيف في الشتاء، وعن كُسوة الشتاء في الصيف ، وليس من أخلاقهم أن يَخْبؤوا كسوتهم في خزائنهم ويساووا العامّة في فعلها .

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز عَمِلته الفُرْس قبل المهرجان بألفي سنة وخمسمائة سنة .

٣ — وأما السَّدَقُ ، فإنه يعمل في ليلة الحادي عشر من شهر بهمن ماه . ويسمّى هذا اليوم عندهم أبان روز، لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم آسما .

ويقال في سبب آتخاذهم له : إن فراسياب لما ملك، سار إلى بلاد بابِلَ وأكثر فيها الفساد، وخرّب العمران . فخرج عليه دق بن طهماسب، وطرده عن مملكته إلى بلاد التُّرك . وكان ذلك في يوم أبان روز . فآتخذ الفُرْس هذا اليوم عيدا، وجعلوه ثالثا ليوم النيروز، والمهرجان .

ويقال أيضا في سبب آتخاذهم له : إن الأب الأول، وهو عندهم كيومرت، لما كمل له مائة ولد، زوج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسًا أكثر فيه من إشعال النيران، فوافق ذلك الليلة المذكورة، وآستسنه الفُرْس بعده .

وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان، ويزيدون في الوَلُوع بها، حتّى إنهم يلقون فيها سائر الحيوانات .

وفى ذلك يقول ابن حجاج من أبيات يمدح بها عضد الدولة بن بويه :

مَوْلَاىَ يا مَنْ نَدَاهُ يَعْدُو * فَفَاتَ سَبْقًا ولَيْسَ يُلْحَقْ .
لَيْلَتُنَا حُسْنُهَا عَجِيبٌ * بالقَصْفِ والعَزْفِ قَدْ تَحَقَّقْ .
لِنَارِهَا فى السَّمَا لِسَانٌ * عن نُورِ ضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقْ .
والجَوُّ[1] منها قد صار جَمْرًا * والنجمُ منها قد كَادَ يُحْرِقْ . ٥
وَدِجْلَةٌ أضْرَمَتْ حَرِيقًا * بأَلْفِ نَارٍ وأَلْفِ زَوْرَقْ .
فَمَاؤُها كلُّها حَمِيمٌ * قَدْ فَارَ مما غَلَى[2] وبَقْبَقْ .

وقال أبو القاسم المطرز، فى سَدَق عمله السلطان ملك شاه، أشعل فيه الشموع والنيران فى السُّمَيْرِيَّات بدِجْلَةَ، وذلك فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة :

وكُلُّ نارٍ على العُشَّاقِ مُضْرَمَةٌ * مِن نارِ قَلْبِىَ أو من ليلة السَّدَقِ . ١٠
نارٌ تَجَلَّتْ بها الظَّلْماءُ فاشْتَبَهَتْ * بسَدْفَةِ الليل فيها غُرَّةُ الفَلَقِ !
وزارَتِ الشمسُ فيها الليلَ واصطلحا * على الكواكب بعد الغَيْظِ والحَنَقِ .
مدَّتْ على الأرض بُسْطًا من جواهِرِها * ما بين مُجْتَمِعٍ وارٍ ومُفْتَرِقِ .
مثلَ المَصَابيحِ إلا أنها نَزَلَتْ * من السماء بلا رَجْمٍ ولا حَرَقِ .
أعْجِبْ بنارٍ ورِضْوانٌ يُسَعِّرُها * ومالكٌ قائم منها على فَرَقِ ! ١٥
فى مجلس ضَحِكَتْ روضُ الجِنَانِ له * لما جلا ثَغْرُهُ عن واضحٍ يَقَقِ .

(١) كذا فى الأصل ولعله « والجو منها يصير جمرا * والنجم منها يكاد يحرق » ليستقيم الوزن .

(٢) فى الأصول يغلى .

٣ — ذكر أعياد النصارىٰ القبْط

وأعياد النصارىٰ أربعة عشر عيدا: سبعة يسمونها كبارا، وسبعة يسمونها صغارا. (٧١)

فأما الكبار:

١ — فمنها عيد البِشَارة. ويعنون بها بشارة غبريال، وهو عندهم جبريل عليه السلام علىٰ ما يزعمون أنه بشر مريم ابنة عمران بميلاد عيسىٰ (عليهما السلام). وهم يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم.

٢ — ومنها عيد الزيتونة. وهو عيد الشَّعانين، وتفسيره التسبيح. يعملونه في سابع أحد من صومهم. وسُنَّتهم فيه أن يخرجوا بِسَعَفِ النخل من الكنيسة. ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليَعْفُور في القدس، وهو الحمار، ودخوله صِهْيَوْن وهو راكب، والناس يسبحون بين يديه، وهو يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر.

٣ — ومنها الفِصْحُ. وهو العيد الكبير عندهم يقولون إن المسيح قام فيه بعد الصَّلَبُوت بثلاثة أيام.

٤ — ومنها خميس الأربعين. ويسميه الشاميون السُّلَّاق[1]. وهو الثاني والأربعون من الفِطْر. يزعمون أن المسيح عليه السلام تَسَلَّق فيه من بين تلاميذه إلىٰ السماء من بعد القيام، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس.

٥ — ومنها عيد الخميس. وهو العُنْصُرة يُعمل بعد خمسين يوما من يوم القيام يقولون إن روح القدس حلَّت بالتلاميذ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس، فتكلموا بجميع الألسنة، وتوجه كل واحد منهم إلىٰ بلاد لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلىٰ دين المسيح.

(١) في الأصل السلاق. وفي القاموس [وكُرْمَّان عيد للنصارىٰ] وفي صبح الأعشى بغير ياء، على الصواب.

٦ — ومنها الميلاد . وهو اليوم الذى ولد فيه المسيح . يقولون إنه ولد فى يوم الاثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد . وهم يوقدون فيه المصابيح بالكنائس ويزينونها . ويعمل فى التاسع والعشرين من كيهك من شهورهم .

٧ — ومنها الغطاس . ويعمل فى الحادى عشر من طوبة من شهورهم . ويقولون إن يحيىٰ بن زكريا ، وينعتونه بالمعمدان ، غسل عيسىٰ عليه السلام فى بحيرة الأُرْدُنّ ، ويزعمون أن عيسىٰ (عليه السلام) لما خرج من الماء آتصل به روح القدس علىٰ هيئة حمامة . والنصارىٰ يغمسون أولادهم فى الماء فيه ، ووقته شديد البرد .

وأما الأعياد الصغار :

١ — فمنها الختان . ويعمل فى سادس بشونة ، يقولون إن المسيح ختن فى هذا اليوم ، وهو الثامن من الميلاد .

٢ — ومنها الأربعون . وهو عند دخول الهيكل يقولون إن سمعان الكاهن دخل بعيسىٰ (عليه السلام) مع أمه [الهيكل][1] وبارك عليه . ويعمل فى ثامن أمشير من شهورهم .

٣ — ومنها خميس العهد . ويعمل قبل الفِصْح بثلاثة أيام . وسُنّتهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤوه ماء ويزمزموا عليه ، ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس . ويزعمون أن المسيح عيسىٰ (عليه السلام) فعل مثل هذا بتلاميذه فى مثل هذا اليوم ، يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض . وعوام النصارىٰ يسمون هذا الخميس خميس العَدَس ، وهم يطبخون فيه العدس المقشور

(١) الزيادة من صبح الأعشى .

علىٰ ألوان، ويسميه أهل الشام خميس الأرز . ومنها خميس البيض أيضا . ويسميه أهل الأندلس خميس أبريل، وأبريل شهر من شهور الروم .

٤ — ومنها سبت النور . وهو قبل الفصح بيوم . يقولون إن النور يظهر علىٰ مقبرة المسيح فى هذا اليوم، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التى بالقدس . وليس كذلك، بل هو من تخييلاتٍ فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصاغرهم . وقيل إنهم يعلقون القناديل فى بيت المذبح، ويتحيلون فى إيصال النار إليها بأن يمدّوا علىٰ سائرها شريطا من حديد فى غاية الدقة، يدهنونه بدُهْن البَلَسان ودهن الزَّنْبق . فإذا صلّوْا، وحان وقت الزوال، فتحوا المذبح، فدخل الناس إليه، وقد أُشعلت فيه الشموع . ويتوصل بعض القوم إلىٰ أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار فتسرى عليه، فتقد القناديل واحدا بعد واحد بسبب الدهن .

٥ — ومنها حدّ الحُدُود . وهو بعد الفِصْح بثمانية أيام . يعمل أوّل أحد بعد الفطر، لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم . وفيه يجدّدون الآلات، والأثاث، واللباس، ويأخذون فى المعاملات، والأمور الدُّنيوية .

٦ — ومنها التجلى . يقولون : إن المسيح (عليه السلام)، تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفِع، وتمنّوْا عليه أن يُحْضِر لهم إيليا، وموسىٰ، فأحضرهما لهم فى مصلّى بيت المقدس، ثم صعد . ويعمل فى ثالث عشر مسرىٰ من شهورهم .

٧ — وعيد الصليب . وتزعم النصارىٰ أن قسطنطين بن هيلانى انتقل عن اعتقاد اليونان إلىٰ اعتقاد النصرانية، وبنىٰ كنيسة قسطنطينية العظمىٰ، وسائر كنائس الشام .

(٧٢) وسبب ذلك — على ما نقله المؤرخون — أنه كان مجاورا للبُرْجان، فضاق بهم ذَرْعا من كثرة غاراتهم على بلاده. فهمّ أن يصانعهم ويقرر لهم عليه إتاوة فى كل عام ليكفُّوا عنه. فرأى ليلة فى المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان، فحاربت البُرْجان فهزموهم. فلما أصبح، عمل أعلاما وصوّر فيها صلبانا، ثم قاتل بها البرجان فهزمهم.

وقيل إنه رأى فى المنام صلبانا من نور فى السماء، وقائلا يقول له: اعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر. فلما أصبح، أمر بعمل صلبان من ذهب على رءوس أعلامه وقاتل بها فنُصِر. فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدخول فى دين النصرانية، وأن يقصوا شعورهم، ويحلقوا لحاهم. وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبلُ يأمرونهم بالتعبد بدين النصرانية، فأعرضوا عنهم، ومثّلوا بهم هذه المثلة نَكالا بهم. ففعلوا ذلك تأسّياً بهم.

ولما تنصر قسطنطين، خرجت أمه هيلانى إلى الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، فطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح، على ما يزعمون. وكانت مدفونة فى مزبلة. فأُخرجتْ منها، وفيها مواضع سبعة مسامير فلما حُمِلَتْ إليها، غلفتها بالذهب وحملتها إلى ابنها. واتخذت يوم رؤيتها لها عيدا.

قال المسعودىّ: وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول، ووافق ذلك سبع عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط. وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذى وجدت فيه الخشبة ثلثمائة وثمان وعشرون سنة.

وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار الروم فى فنّ التاريخ، وهو فى الجزء الثالث عشر من هذا الكتاب.

٤ — ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التي نطقت بها توراتهم خمسة :

١ — منها عيد رأس السنة . ويسمونه رأس هيشا، أي عيد رأس الشهر . وهو أول يوم من تشرين . يتزل عندهم منزلة عيد الأضحية عندنا . ويقولون إن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح إسحاق ابنه عليهما السلام فيه، وفداه بذبح عظيم .

٢ — ومنها عيد صوماريا . ويسمى الكبور . وهو عندهم الصوم العظيم الذي فرض عليهم . ويقتل من لم يصمه . ومدة الصوم خمس وعشرون ساعة . يبدأ فيه قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرين . ويختم بمضي ساعة بعد غروبه من اليوم العاشر . ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار . وهي عندهم تمام الأربعين الثالثة التي صام فيها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم في يوم الأحد ، ولا يوم الثلاثاء ، ولا في يوم الجمعة . ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا بالمحصنات ، وظلم الرجل أخاه ، وجحد ربوبية الله تعالى .

٣ — ومنها عيد المظلة . وهو ثمانية أيام[1] ، أولها الخامس عشر من تشرين . وكلها أعياد . واليوم الأخير منها يسمى عرابا[2] ، وتفسيره شجر الخلاف . وهو أيضا حج لهم . وهم يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر ، وأغصان الزيتون ، والخلاف ، وسائر الشجر الذي لا ينشر ورقه على الأرض . ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله تعالى إياهم في التيه بالغمام .

(١) في صبح الأعشى [سبعة أيام] .
(٢) في صبح الأعشى [عرابا] .

٤ — ومنها عيد الفطير . ويسمونه الفِصْح . ويكون في الخامس عشر من نَيْسَان . وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير . لأنها عندهم الأيام التي خلص الله تعالىٰ فيها بني إسرائيل من فرعون وأغرقه، فخرجوا إلىٰ التيه، وجعلوا يأكلون اللحم، والخبز الفطير، وهم بذلك فرحون . وفي آخر هذه الأيام غرق فرعون .

٥ — ومنها عيد الأسابيع، وهي الأسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض، وكمّل فيها الدين . ويسمّى عيد العنصرة، وعيد الخطاب . ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع . يقولون إنه اليوم الذي خاطب الله تعالىٰ فيه بني إسرائيل من طورسيناء . وإن من جملة ما خوطبوا به العشر كلمات، وهي وصايا تتضمن أمرا ونهيا . وهو : من حجوجهم . وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع، والفطير، والمظلّة . وهم يعظمونه ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلا عن المنّ الذي أُنزل عليهم في هذا اليوم، علىٰ ما يزعمون . واتخاذهم هذا العيد في اليوم السادس من سيوان .

٦ — وعيد الفوز . وهو عيد أحدثوه، ويسمونه الفوريم . وذكروا في سبب اتخاذهم له أن بختنصر لما أجلىٰ من كان ببيت المقدس من اليهود إلىٰ عراق العجم، أسكنهم مدينة جَيّ، وهي إحدىٰ مدينتي أصفَهان . فلما ملك أردشير بن بابك، سماه اليهود بالعبرانية أجشادوس . وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون . ولليهود يومئذ حبر يسمّى بلغتهم مردوخاى . فبلغ أردشير أن له ابنة عمّ جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها . فطلب تزويجها منه، فأجابه إلىٰ ذلك . فتزوجها، وحظيت عنده، وصار مردوخاى قريبا منه . فأراد هيمون الوزير إصغاره حسدا له، وعزم علىٰ إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير . فرتب مع نوّاب الملك في سائر الأعمال

أن يقتل كلُّ واحد منهم من يعلمه من اليهود. وعيّن لهم يوما وهو النصف من آذار. وإنما خص هذا اليوم دون غيره ، لأن اليهود يزعمون أن موسىٰ عليه السلام وُلد فيه ، وتوفى فيه . وأراد بذلك المبالغة فى نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم، وبموت موسىٰ (عليه السلام) .

٥ فبلغ مردوخاى ذلك، فأرسل إلىٰ ٱبنة عمه يُعْلِمُها بما بلغه، ويحضها علىٰ إعمال الحيلة فى خلاصهم. فأعلمت الملك بالحال، وذكرت له أن الوزير إنما حمله علىٰ ذلك الحسد، لقرب مردوخاى منه. فأمر بقتل هيمون الوزير، وأن يكتب أمان لليهود.

فاتخذوه عيدا . واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام .

وهذا العيد عندهم عيد سرور، ولهو، وخَلَاعة، وهدايا يهديها بعضهم لبعض،

١٠ ويصوّرون فيه من الورق صورة هيمون، ويملئون بطن الصورة نخالة ويلقونها فى النار حتّى تحترق .

٧ — وعيد الحنكة . وهو أيضا مما أحدثوه . وهو ثمانية أيام . أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا . وهم يوقدون فى الليلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا؛ وفى الثانية سراجين؛ ويَضْعُف ذلك فى كل ليلة إلىٰ ثمان

١٥ ليال . فيكون فى الثامنة ثمانية سُرُج .

وسبب ٱتخاذهم لهذا العيد، أن بعض الجبابرة تغلّب علىٰ البيت المقدس وقتل من كان فيه من بنى إسرائيل، وٱفتض أبكارهم. فوثب عليه أولاد كاهنهم، وكانوا ثمانية، فقتله أصغرهم. فطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا، وزعوه علىٰ عدد مايوقدونه من السرج علىٰ أبوابهم فى كل ليلة إلىٰ ثمان ليال. فاتخذوا هذه الأيام عيدا

٢٠ وسموه الحنكة، وهو مشتق من التنظيف، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار.

القسم الرابع من الفن الأول

فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغُدْران

وفيه سبعة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

١ — فى مبدإ خلق الأرض

قال الله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾.

والأرض سبع، كما أن السماوات سبع. والدليل على ذلك قوله عز وجل: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

واختلف فيها هل هى سبع متطابقات بعضها فوق بعض، أو سبع متجاورات؟ فذهب قوم إلى أن الله تعالى خلق سبعَ سماوات متطابقات متعاليات، وسبعَ أرضين متطابقات متسافلات؛ وبين كل أرض وأرض، كما بين كل سماء وسماء، خمسمائة عام. وفسر بهذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[1]. أى كانت سماء واحدة ففتقناهما سبعا.

قيل: ولكل أرض أهل وسُكّان مختلفو الصور والهيئات، ولكل أرض اسمٌ خاص.

(١) أى وأرضا واحدة [ولعله سقط من قلم الناسخ].

وذهب قوم إلىٰ أنها سبع متجاورات متفرّقات لا متطابقات. فجعلوا الصين أرضا، وخراسان أرضا، والسند والهند أرضا، وفارس والجبال والعراق وجزيرة العرب أرضا، والجزيرة والشام وبلاد إرْمِينِيَة أرضا، ومصر وإفْرِيقِيَّة أرضا، وجزيرة الأندلس وما جاورها من بلاد الجلالِقة والأنْكَبُرْدَة وسائر طوائف الروم أرضا.

٥ ويقال: إنها كانت علىٰ ماء، والماء علىٰ صخرة. والصخرة علىٰ سَنَام ثور. والثور علىٰ كَمْكَم(١)، والكمكم علىٰ ظهر حوت، والحوت علىٰ الماء، والماء علىٰ الريح. والريح علىٰ حجاب ظلمة، والظلمة علىٰ الثرىٰ. وإلىٰ الثرىٰ انقطع علم المخلوقين.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَهُ ما فِي السَّمٰوات وَمَا فِي الأَرْض وما بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرىٰ﴾.

وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صخرةً. وتحت الصخرة الحوت، وتحت

١٠ الحوت الماء، وتحت الماء الظلمة، وتحت الظلمة الهواء، وتحت الهواء الثرىٰ.

وقد تقدّم في الباب الأوّل من هذا الكتاب أن الأرض مخلوقة من الزَّبَد. فلا فائدة في تكراره.

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١٥ ١ — في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها، في الاتساع، والاستواء، والبعد، والغلظ، والصلابة، والسهولة، والحزونة، والارتفاع، والانخفاض، وغير ذلك (٧٤)

قال الثعالبيّ: في كتابه المتَرْجَم "بفقه اللغة" وأسنده إلىٰ أئمة اللغة:

---

(١) كذا بالأصل؟

إذا اتّسعت الأرض ولم يتخللها شجر أو خمر، فهى الفَضَاءُ والبَرَازُ والبَرَاحُ؛ ثم الصَّحْرَاءُ والعَرَاءُ؛ ثم الرَّهَاءُ والجَهْرَاءُ .

فإذا كانت مستوية مع الاتّساع، فهى الخَبْتُ والجَدَدُ؛ ثم الصَّحْصَحُ والصَّرْدَحُ؛ ثم القَاعُ والقَرْقَرُ؛ ثم القَرِقُ والصَّفْصَفُ .

فإذا كانت مع الاستواء والاتساع بعيدة الأكْنَاف والأطراف، فهى السَّهْب والخَرْقُ؛ ثم السَّبْسَبُ والسَّمْلَقُ والمَلَق . ٥

فإذا كانت مع الاتّساع والاستواء والبُعْد لا ماء فيها، فهى الفَلَاةُ والمَهْمَهُ؛ ثم التَّنُوفَةُ والفَيْفَاءُ؛ ثم النَّفْنَفُ والصَّرْمَاءُ .

فإذا كانت مع هذه الصفات لا يهتدىٰ فيها لطريق، فهى اليَهْمَاءُ والغَطْشَاء .

فإذا كانت تُضِلُّ سالكَها، فهى المُضِلَّةُ والمَتِيهَةُ . ١٠

فإذا لم يكن بها أعلام ولا معالم، فهى المَجْهَلُ والهَوْجَلُ .

فإذا لم يكن بها أثر، فهى الغُفْلُ .

فإذا كانت قَفْرَاءَ، فهى القِيُّ .

فإذا كانت تُبِيدُ سالكَها، فهى البَيْدَاءُ. والمَفَازَةُ كنايةٌ عنها .

فإذا لم يكن فيها شىء من النَّبْت، فهى المَرْتُ والمَلِيعُ . ١٥

فإذا لم يكن فيها شىء، فهى المَرْوَرَاةُ والشَّبْرُوتُ والبَلْقَعُ .

فإذا كانت الأرض غليظةً صُلْبةً، فهى الجَبُوبُ، ثم الجَلَدُ، ثم العَزَازُ، ثم الصَّيْدَاء، ثم الجَدْجَدُ .

فإذا كانت صُلْبةً يابسة من غير حصًى، فهى الكَلَدُ، ثم الجَعْجَاعُ .

فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل، فهى البُرْقَةُ والأَبْرَقُ .

فإذا كانت ذات حصًى، فهى المَحْصَاةُ والمَحْصَبَةُ .

فإذا كانت كثيرة الحصى، فهى الأَمْعَزُ والمَعْزَاءُ .

فإذا ٱشتملت عليها كلّها حجارة سودٌ، فهى الحَرَّةُ واللَّابَةُ .

٥ فإذا كانت ذات حجارة كأنها السكاكينُ، فهى الحَزِيزُ .

فإذا كانت الأرض مطمئنة، فهى الجَوْفُ والغَائِطُ؛ ثم الهَجْلُ والهَضْمُ .

فإذا كانت مرتفعة، فهى النَّجْد والنَّشْزُ .

فإذا جمعت الأرض الٱرتفاع والصَّلَابة والغلَظَ، فهى المَتْنُ والصَّمْدُ، ثم القُفُّ والفَدْفَدُ والقَرْدَدُ .

١٠ فإذا كان ٱرتفاعها مع ٱتّساع، فهى اليَفَاعُ .

فإذا كان طولها فى السماء مثل البيت، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع، فهى التَّلُّ؛ وأطول وأعرض منها الرَّبْوَةُ والرَّابِيَةُ؛ ثم الأَكَمَةُ؛ ثم الزُّبْيَةُ، وهى التى لا يعلوها الماء. وبها ضُرب المثل فى قولهم: "بلغ السيل الزُّبَى"؛ ثم النَّجْوَةُ، وهى المكان الذى تظن أنه نجاؤك؛ ثم الصَّمَّانُ، وهى الأرض الغليظة دون الجبل .

١٥ فإذا ٱرتفعت عن موضع السيل وٱنحدرت عن غِلَظ الجَبَل، فهى الخَيْفُ .

فإذا كانت الأرض لينة سهلة من غير رَمْل، فهى الرَّقَاقُ والبَرْثُ؛ ثم المَيْثَاءُ والدَّمِثَةُ .

فإذا كانت طيبة التربة كريمة المَنْبت بعيدة عن الأَحْسَاء والنُّزُوز، فهى العَذَاةُ .

فإذا كانت مخيلة للنبت والخير، فهى الأَرِيضَةُ .

فإذا كانت ظاهرة لا شجر فيها ولا شىء يختلط بها، فهى القَرَاحُ والقِرْوَاحُ .

٢٠ فإذا كانت مهيأة للزراعة، فهى الحَقْلُ والمَشَارَةُ والدَّبْرَةُ .

[فإذا لم تهيأ للزراعة، فهى بور[1]] .

فإذا لم يصبها المطر، فهى القِلُّ والجُرُزُ

فإذا كانت غير ممطورة وهى بين أرضين ممطورتين، فهى الخَطِيطة .

فإذا كانت ذات نَدًى ووَخَامة، فهى الغَمِقَةُ .

فإذا كانت ذات سِباخ، فهى السَّبِخَةُ .

فإذا كانت ذات وباء، فهى الوَبِئَةُ والوَبِيئَةُ .

فإذا كانت كثيرة الشجر، فهى الشَّجْرَاءُ والشَّجِرَةُ .

فإذا كانت ذات حَيّات، فهى المُحْوَاةُ[2] .

فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب، فهى المَسْبَعَةُ والمَذْأَبَةُ .

٢ — ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته

قال الثعالبيّ رحمه الله تعالى :

الصَّعِيد، تراب وجه الأرض .

والبَوْغَاءُ، والدَّقْعَاءُ، التراب الرخو الرقيق الذى كأنه ذَرِيرَةٌ .

والثَّرَى، التراب النَّدِىّ : وهو كل تراب لا يصير طينا لازبا إذا بُلّ .

المُورُ، التراب الذى تَمُور به الريح .

الهَبَاءُ، التراب الذى تُطَيِّره الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم [يلتزق لُزُوقا[1]] .

(١) الزيادة من فقه الثعالبي .

(٢) كذا ضبط فى فقه اللغة ، وفى اللسان : (وأرض مَحْواة ومَحْواة كثيرة الحيات) وهو الأولى لاطراد هذا الوزن فى مثل ذلك .

[والهَابِي: الذى دقَّ وآرتفع][1] .

السَّافِيَاءُ. التراب الذى يذهب فى الأرض مع الريح .

النَّبِيثَةُ. التراب الذى يُخرَجُ من البئر عند حفرها .

الرَّاهِطَاءُ والدَّأْمَاءُ، التراب الذى يُخرجه اليربوع من جُحْرِه ويجمعه .

٥ الجُرْثُومَةُ. التراب الذى يجمعه النمل عند قريته .

العَفَاءُ، التراب الذى يُعَفِّى الآثارَ . وكذلك العَفَرُ .

الرَّغَامُ: التراب المختلط بالرمل .

السَّمَادُ. التراب الذى يُسَمَّدُ به النبات. فإذا كان مع السِّرْقِين، فهو الدَّمَالُ . (٧٥)

٣ — ذكر تفصيل أسماء الغبار وأوصافه

١٠ النَّقْعُ والعَكُوبُ. الغبار الذى يَثُور من حوافر الخيل وأَخْفاف الإبل .

العَجَاج، الغبار الذى تُثيره الريح .

الرَّهَجُ والقَسْطَلُ. غبار الحرب .

الخَيْضَعَةُ، غبار المَعْرَكَةِ .

العِثْيَرُ. غبار الأقدام .

١٥ المَنِينُ ما تقطَّع منه .

٤ — ذكر تفصيل أسماء الطين وأوصافه

قال :

إذا كان الطين حُرّا يابسا، فهو الصَّلْصَالُ .

فإذا كان مطبوخا. فهو الفَخَّارُ .

٢٠ (١) الزيادة من فقه الثعالبى .

فإذا كان عَلِكا لاصقا، فهو اللَّازِبُ .

فإذا غَيَّره الماء وأفسده، فهو الحَمَأ.

(وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة) .

فإذا كان رطبا، فهو الثَّأْطَةُ والثُّرْمُطَةُ والطَّثْرَة .

فإذا كان رقيقا، فهو الرِّدَاغُ . ٥

فإذا كان تَرْتَطِم فيه الدوابُّ، فهو الوَحَلُ . وأشدّ منه الرَّدْغَة والزَّرَغَةُ. وأشدّ منها الوَرْطَةُ تقع فيها الغنم فلا تقدِر على التخلُّص منها ؛ ثم صارت مثلا لكل شِدّة يقع فيها الإنسان .

فإذا كان حُرًّا طيبا عَلِكًا وفيه خضرة، فهو الغَضْرَاءُ .

فإذا كان مخلوطا بالتبن، فهو السِّيَاعُ . ١٠

فإذا جُعل بين اللَّبِن، فهو المِلَاطُ .

٥ — ذكر تفصيل أسماء الرِّمال

قال :

العَدَابُ، ما ٱسترقَّ[1] من الرمل .

الحَبْلُ، ما ٱستطال منه . ١٥

اللَّبَبُ، ما ٱنحدر منه .

الحِقْفُ، ما ٱعْوَجَّ منه .

الدَّعْصُ، ما ٱستدار منه .

(١) في الأصل : ما ٱشتدّ . ولكن الذي في القاموس وفقه اللغة : ما ٱسترق .

العَقِدَةُ، ما تعقَّد منه .

العَقَنْقَلُ، ما تراكم منه .

السَّقْطُ، ما جَعَل يتقطَّع ويتصل منه .

النُّهْبُورَةُ، ما أشرف منه .

٥ التَّهْوُرُ، ما ٱطمأنّ منه .

الشَّقِيقَة، ما ٱنقطع وغَلُظ منه .

الكَثِيبُ والنَّقَا، ما ٱحْدَوْدَبَ وٱنهال منه .

العَاقِرُ، ما لا يُنْبِت شيئا منه .

الهِدَمْلَةُ، ما كثر شجره منه .

١٠ الأَوْعَسُ، ما سُهل ولان منه .

الرَّغَامُ، ما لان منه . وليس هو الذى يسيل من اليد .

الهَيَامُ، ما لا يتمالك أن يُمْسك باليد منه للينه .

الدَّكْدَاكُ، ما ٱلتبد بالأرض منه .

العَانِكُ، ما تعقَّد منه حتّى لا يقدر البعير على المسير فيه .

---

١٥ ٦ — ذكر ترتيب كمية الرمل

قال الثعالبيّ :

الكثير يقال له العَقَنْقَلُ .

فإذا نقص، فهو كَثِيبٌ .

فإذا نقص، فهو عَوْكَلٌ .

فإذا نقص عنه ، فهو سِقْطٌ .

فإذا نقص عنه ، فهو عَذَابٌ .

فإذا نقص ، فهو لَبَبٌ .

وقال فى كتابه "الغريب"(١) :

إذا كانت الرملة مجتمعة ، فهى العَوْكَلَةُ . ٥

فإذا انبسطت وطالت ، فهى الكَثِيبُ .

فإذا انتقل الكَثِيبُ من موضع إلى آخر بالرياح وبقى منه شىء رقيق ، فهو اللَّبَبُ .

فإذا نقص ، فهو العَذَابُ .

٧ — ذكر تفصيل أسماء الطرق وأوصافها

قال الثعالبىّ :

المِرصاد والنَّجْدُ ، الطريق الواضح ، وكذلك الصِّرَاطُ

والجادّة والمَنْهَجُ واللَّقَمُ والمَحَجَّةُ ، وسَطُ الطريق ومُعْظَمه .

واللَّاحِبُ ، الطريق المُوَطَّأ .

المَهْيَعُ ، الطريق الواسع .

الوَهْمُ ، الطريق الذى يَرِدُ فيه الموارد . ١٥

الشَّارِعُ ، الطريق الأعظم .

النَّقْبُ والشِّعْبُ ، الطريق فى الجبل .

الخَلُّ ، الطريق فى الرمل .

(١) ليس هذا الكتاب للثعالبى ، وإنما هو كتاب "الغريب المصنف" لأبى عمرو الشيبانى ؛ الموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . ٢٠

المَخْرَفُ، الطريق في الأشجار. ومنه الحديث: "عائدُ المريض في مَخَارِف الجنة".

النَّيْسَبُ، الطريق المستقيم؛ وقيل إنه الطريق المستدق الواضح، كطريق النمل والحية وحمر الوحش.

والله أعلم.

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الأول

في طول الأرض ومسافتها

ذهب المتكلمون في ذلك أن مسافة الأرض خمسمائة عام: ثُلُثٌ عمران، وثُلُثٌ خراب، وثُلُثٌ بِحَار، وأن مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة: تسعون منها ليأجوج ومأجوج، وآثنا عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لسائر الأمم.

وقيل إن الدنيا سبعة أجزاء: ستة منها ليأجوج ومأجوج، وواحدٌ لسائر الناس.

وقيل إن الأرض خمسمائة عام: البحار منها ثلثمائة، ومائة خراب، ومائة عمران.

وقيل إن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ: للسودان منها آثنا عشر ألفا، وللروم ثمانية آلاف فرسخ، ولفارس ثلاثة آلاف، وللعرب ألفٌ. (٧٦)

وقال وهب بن منبه: ما آلعمارة من الدنيا في الخرب إلا كفُسْطاط في الصحراء.

وقال أردشير بن بابك: إن الأرض أربعة أجزاء: جزء منها للترك، وجزء للعرب، وجزء للفرس، وجزء للسودان.

وقيل : إن الأقاليم سبعة، والأطراف أربعة، والنواحى خمسة وأربعون، والمدائن عشرة آلاف، والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفا .

وقال الخُوَارَزْمىّ صاحب الزيج : دور المعمور سبعة آلاف فرسخ، وهو نصف سُدُس الأرض، والجبال، والمفاوز، والبحار . والباقى خراب يَبَاب لا نباتَ فيه ولا حيوانَ .

ومثّل المعمور بصورة طائر، رأسه الصين، والجناح الأيمن الهند والسند، والجناح الأيسر الخزر، وصدره مكة والعراق والشام ومصر، وذَنَبه الغرب .

وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا، وأن دَوْرها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل . وذلك جميع ما أحاطت به من بر وبحر .

وإنما علم ذلك وحرر من عبد الله المأمون، وذلك أنه لما أشكل عليه ما ذكره المتقدّمون من مقدار الأرض بعث جماعة من أهل الخِبرة بالحساب والنجوم — منهم علىّ بن عيسىٰ — إلىٰ بَرِّية سِنْجَار . وتفرّقوا من هناك . فذهب بعضهم إلىٰ جهة القطب الشمالىّ، وذهب آخرون إلىٰ جهة القطب الجنوبىّ، وسار كل منهم فى جهته إلىٰ أن وصل غاية ٱرتفاع الشمس نصف النهار، وقد زال وتغير عن الموضع الذى ٱجتمعوا فيه وتفرّقوا منه . مقدار درجة واحدة . وكانوا قد ذرعوا الطريق فى ذهابهم، فنصبوا السهام، ووتدوا الأوتاد، وشدّوا الحبال . ثم رجعوا وٱمتحنوا الذرع ثانية، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامتت وجه بسيط الأرض ستة وخمسين ميلا وثلثى ميل . (والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع ست قبضات، والقبضة أربع أصابع، والإصبع ست شعيرات، بطون بعضها إلىٰ بعض، والشعيرة

ست شعرات من شعر الخيل) . فضربت هذه الأميال فى جميع درجات الفلك، وهى ثلثمائة وستون درجة، فخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل .

فحكم بأن ذلك دور الأرض .

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخىّ : مسافة طول الأرض من أقصىٰ المشرق إلىٰ أقصىٰ المَغْرِب نحو من أربعمائة مَرْحَلة، ومسافة عرضها من حيث العُمْران الذى من جهة الشمال (وهو مساكن يأجوج ومأجوج) إلىٰ حيث العمران الذى من جهة الجنوب (وهو مساكن السودان) مائتان وعشرون مرحلة؛ وما بين برارى يأجوج ومأجوج والبحر المحيط فى الجنوب خراب ليس فيه عمارة .

ويقال إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ .

حكى هذه الأقوال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر" رحمه الله .

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — فى الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلىٰ أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود ، طوله من المغرب إلىٰ المشرق، وعرضه من الجنوب إلىٰ الشمال .

١ — فأما الإقليم الأوّل. فمبدؤه من مشرق أرض الصين إلىٰ مدائن أبوابها. وهى الأنهار التى تدخل السفن فيها من البحر إلىٰ المدائن الجليلة، مثل خانقو وخانفور.(١)

(١) كذا بالأصل والصواب، خانجو عن كتاب "تقويم البلدان" لأبى الفدا .

وفيه جزيرة سرنديب . ومن أرض اليمن ما كان جنوبيا من صنعاء ، مثل ظَفَار وحضرموت وعَدَن . وفيه من بلد النوبة دُنْقُلَة ؛ ومن بلد السودان غَانَة . ثم ينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من خط الأستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة .

وذهب بعض الناس إلى أن أوّل المعمور من حيث يكون العرض وخط الأستواء ٥ اثنتى عشرة درجة ونصف وربع درجة ، وفيما بين هذا العرض وخط الأستواء مسكون بطوائف من السودان فى عِداد الوحوش والبهائم . وعدّ فيه بَطْلَيْمُوس من البلاد ذوات العروض ستين مدينة . وأهل هذا الإقليم سود ، وهو قليل الساكن لإفراط حرّه .

٢ — وأما الإقليم الثانى . فيبتدئ من بلاد الصين ، ويمرّ على بعض بلاد الهند الساحلية ، مثل تانَة[1] ، وصَيْمُور ، وسَنْدَان ؛ ومن بلاد السند على المَنْصُورة ودَيْبُل ، ١٠ ثم يبلغ عُمَان . ويكون فيه من أرض العرب : نَجْران ، وهَجَر ، وجَنَّابة[2] ، ومَهَرَة ، وسَبَأ ، وتَبَالَة ، والطائف ، وجُدَّة ، ومكّة ، والمدينة ، ومملكة الحبشة ، وأرض البُجة ، وأُسْوان ، وقوص ، والصعيد الأعلى ، وجنوب بلاد المغرب حتّى ينتهى إلى البحر المحيط ؛ وعرضه من غاية الإقليم الأوّل إلى سبع وعشرين درجة واثنتى عشرة دقيقة .

وزعم بَطْلَيْمُوس أن فيه أربعمائة وخمسين مدينة . وأهله بين السمرة والسواد ، ١٥ وهو كثير الذهب .

(١) اسم لمدينة ببلاد الهند . قال البيرونى : هى على الساحل . والنسبة اليها "تانَثى" ومنها الثياب التانثية (أُنظر تقويم البلدان) .

(٢) فى معجم ياقوت : جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس ، وهى فى الاقليم الثالث . وفى "تقويم البلدان" (جنابة بلدة قد خرب غالبها ، وهى فرضة لفارس ، وضبطها ابن خلكان بفتح الجيم والمشهور الضم) . ٢٠

٣ — وأما الإقليم الثالث . فمبدؤه من شرق أرض الصين ، وفيه مدينة مملكتها ، خمدان[1] ، وفيه من بلاد الهند تانش والقُنْدُهار ، ومن بلاد السند المُولْتان وقُزْدار[2] . ثم يمر ببلاد سِجِسْتان ، وكَرْمان ، وفارس ، وأصْبهان ، والأهواز ، والبصرة ، والكوفة ، وأرض بابل ، وبلاد الجزيرة ، والشام ، وفِلَسْطين ، وبيت المقدس ، والقُلْزُم ، والتِّيه ، وأرض مصر ، والإسكندرية ، وبلاد بَرْقَة ، وإفْرِيقِيَّة ، وتاهَرْت ، وبلاد طَنْجَة ، والسُّوس ، وينتهي إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الثاني في العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة .

وزعم بطليموس أن فيه تسعا وخمسين مدينة ، وأهله سمر .

٤ — وأما الإقليم الرابع . فمبدؤه من أرض الصين ، ويمر على التُّبَّت والخُتَّن[3] . ثم على جبال قِشْمير ، ووخان[4] ، وتل حسان ، وكابُل ، والغُور ، وهَرَاة ، وبَلْخ ، وطَخَارِسْتان ، ويمتد إلى الرَّيّ ، وقُمّ ، وهَمَذان ، وحُلْوان[5] ، وبغداد ، والموصل ، وأذْرَبِيجان . ويمتد على مَنْبِج ، وطَرَسُوس ، والثغور ، وأنْطاكِيَة ، وجزيرة قُبْرُس ، وصِقِلِّيَّة ، ثم على الزُّقاق إلى البحر المحيط ، وعرضه من غاية الإقليم الثالث في العرض إلى تتمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة .

(١) هكذا بالأصل . ولعل المراد مدينة واقعة على النهر المشهور باسم خمدان ببلاد الصين .

(٢) في الأصول : "كورا" وليس بالسند بلد بهذا الاسم . ويترجح أن الناسخين حرفوه عن "كردار" . ويقال فيه "قُصدار" (أنظر معجم ياقوت) .

(٣) في ياقوت : والخُتَن . . . . وبُرْجان ، وبَدَخْشان . وهو الصواب .

(٤) لم نعثر على بلدة بهذا الاسم ولعلها محرفة عن "وخش" وهي كما في معجم ياقوت : بلدة من نواحي بلخ . وفي "تقويم البلدان" : انها بلدة بما وراء النهر في الاقليم الرابع .

(٥) أي حلوان العراق ، لا حلوان مصر .

وزعم بطليموس أن فيه مائة وثلاثين مدينة . وأهله بين السمرة والبياض .

٥ - وأما الإقليم الخامس . فمبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج إلى كاشغر، وبلاساغون، وفرغانة، وإسبيجاب[1]، والشاش، وأشروسنة، وسمرقند، وبخارى، وخوارزم، وبحر الخزر إلى باب الأبواب، وبرذعة، وميافارقين، ودروب الروم، وبلادهم . ثم يمر على رومية الكبرى، وأرض الجلالقة[2]، وبلاد الأندلس؛ ويتنهى إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثمانى عشرة دقيقة .

وذكر بطليموس أن فيه سبعا وتسعين مدينة . وأكثر أهله بيض .

٦ - وأما الإقليم السادس . فمبدؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكيماك، والتغزغز، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها، واللان، والسرير، وأرض برجان، ثم على قسطنطينية، وأفرنجة[3]، وشمال الأندلس؛ ويتنهى إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الخامس إلى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة .

وزعم بطلميوس أن فيه ثلاثا وثلاثين مدينة، وهو كثير الإمداد والثلوج . وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور .

٧ - وأما الإقليم السابع . فليس فيه كبير عمارة، وإنما هو فى المشرق غياض وجبال يأوى إليها طوائف من الترك كالمتوحشين . ويمر على بلاد البجناك، ثم على بلاد البلغار، ثم على الروس والصقالبة، ويتنهى إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية

(١) هى المشهورة أيضا باسم : إسفيجاب .
(٢) أهل جليقية بشمال الأندلس .
(٣) أى فرنسا .

الإقليم السادس إلىٰ ثمة خمسين درجة ونصف . وفيه الأرض المحفورة، وهى وَهْدة لا يقدر أحد أن ينزل إليها، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعد قعرها . يسكنها أُمّة من الناس لا يُدرىٰ مَن هم . وإنما علم أنها معمورة برؤية الدخان فيها نهارا، والنار ليلا . يشقها نهر يجرى ، والعمارة محيطة به .

٥ وزعم بطليموس أن فيها ثلاثا وعشرين مدينة . وأهل هذا الإقليم بيض صهب الشـــعور .

وما بقى من المعمور إلىٰ نهايته إلىٰ ثلاث وستين درجة مضاف إلىٰ هذا الإقليم ومحسوب فيــه . يسكنه طوائف من النـاس، هم بالبهائم فى الخَلْق والخُلُق أشبه منهم ببنى آدم .

---

١٠ ٢ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الأرض

يقـال :

أحملُ من الأرض . أكتمُ من الأرض . أصبر من الأرض . آمن من الأرض . أوثق من الأرض . أوطأ من الأرض . أحفظ من الأرض . أكثر من الرمل . أظلم من الرمل . أعطش من الرمل . أوجد من التراب .

١٥ ويقال :

قتل أرضا عالِمُها، وقتلت أرضٌ جاهلَها . رماه بين سَمْع الأرض وبَصَرها . أخذت الأرض زخارفها . أَفِقْ قبل أن يُحفَر ثَرَاك . ابتغوا الرزق فى خَبايَا الأرض .

ومن أنصاف الأبيات :

* الأرضُ من تُربةٍ والناسُ من رجُلٍ * * وأنّى تُمطِـرُ الأرضُ السماءَ *

ومن الأبيات :

والأرضُ لا تُطعِمُ مَنْ فَوْقَها * إلا لِكَيْ تُطْعَمَ مَنْ تُطْعِمُهْ

وقال آخر :

(٧٨) إذا الأرضُ أدَّتْ رَيْعَ ما أنْتَ زارِعٌ * من البَذْرِ، فهي الأرضُ. ناهيكَ من أرْضِ!

وقال آخر :

ولا تَمْشِ فوقَ الأرضِ إلا تَواضُعًا، * فكَمْ تحتَها قومٌ هُمُو مِنْكَ أرْفَعُ!

وقال آخر :

يا أرضُ كَمْ وافِدٍ أتاكِ فَلَمْ * يَرْجِعْ إلىٰ أهْلِهِ ولم يَؤُبِ!

٣ — ذكر شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها

قال الأخطل :

وتَيْهاءَ مِمْحالٍ كأنَّ نَعامَها * بأرجائها القُصْوىٰ أباعِرُ هُمَّلُ.
تَرىٰ لامِعاتِ الآلِ فيها كأنَّها * رجالٌ تَعَرّىٰ تارةً وتَنَسْرَبَلُ.
وجَوْزَ فَلاةٍ لا يُغَمِّضُ رَكْبُها * ولا عينُ هاديها من الخَوْفِ تَغْفُلُ.
وكلَّ بَعيدِ الغَوْرِ لا يُهتدىٰ لَهُ * بعِرْفانِ أعلامٍ ولا فيهِ مَنْهَلُ.
مَلاعِبُ جِنَّانٍ كأنَّ تُرابَها * إذا أطَّرَدَتْ فيها الرِّياحُ تُغَرْبَلُ.
تَرىٰ الثَّعْلَبَ الحَوْلِيَّ فيها كأنَّهُ * إذا ما عَلا نَشْزًا حِصانٌ مُحَجَّلُ.

وقال ذو الرمة :

ودَوِّيَّةٍ جَرْداءَ جَدْداءَ خَيَّمَتْ * بها هَبَواتُ الصَّيْفِ من كلِّ جانِبِ.
مَسَارِيتُ يَخْلُو سَمْعُ مُجْتازِها بِها * من الصَّوْتِ، إلا مِنْ صِياحِ الثَّعالِبِ.

وقال ذو الرمة :

وهاجِرةِ السَّرابِ من المَوَامِي * تَرَقَّصُ في عَسَاقلها الأُرُومُ.
تَموتُ قَطَا الفَلاةِ بِهَا أُوَامًا * ويَهْلِكُ في جَوَانِبِها النَّسِيمُ.
مَلِلْتُ بها المُقَامَ فأَرَّقَتْنِي * هُمُومٌ لا تَنَامُ ولا تُنِيمُ.

٥ وقال ضابئ البرجمي :

ودَاوِيَّةٍ تِيهٍ يَحَارُ بِهَا القَطَا * عَلَى مَنْ عَلاهَا مِنْ ضَلُولٍ ومُهْتَدى.
مُسَافِهَةٍ لِلْعِيسِ نَاءٍ نِيَاطُهَا * إذا سَارَ فِيها رَاكِبٌ لَمْ يُغَرَّدِ.

وقال مسلم بن الوليد :

وقَاطِعَةٍ رِجْلَ السَّبِيلِ مَخُوفَةٍ * كأنَّ على أرجائِهَا حَدَّ مِبْرَدِ.
١٠ مُؤَزَّرَةٍ بالآلِ فيها كأنَّها * رِجالٌ قُعُودٌ في مُلاءٍ مُعَمَّدِ.

وقال الصاحب بن عباد :

وتَيْهَاءَ لم تُطْمَثْ بِخُفٍّ وحَافِرٍ * ولم يَدْرِ فِيهَا النَّجْمُ كَيْفَ يَغُورُ.
مَعَالِمُهَا أَنْ لا مَعَالِمَ بينَهَا * وآياتُهَا أَنَّ المَسِيرَ غُرُورُ.
ولو قيلَ للغَيْثِ اسقِهَا: ما اهتدَى لها * ولو ظَلَّ مِلْءَ الأرضِ وهو جَزُورُ.
١٥ تَجَشَّمْتُهَا، واللَّيلُ وَحْفٌ جَنَاحُه * كأنِّي سِرٌّ والظَّلامُ ضَمِيرُ.

وقال الشريف الرضي :

وتَنُوفَةٍ حَصْبَاؤُهَا * خُلِقَتْ لنارِ القَيْظِ جَمْرًا.
تُبْدِي جَنَادِبُهَا الأنِينَ أسًى على المُجْتَازِ ظُهْرًا.
وترى بها العُصْفُورَ مُتَّخِذًا وِجَارَ الضَّبِّ وَكْرًا.

وقال المتنبي :

مَهَالِكُ لم يَصْحَبْ بِهَا الذِّئْبُ نَفْسَه * ولا حَمَلَتْ فِيها الغُرَابَ قَوادِمُـهْ.

وقال ابراهيم بن خفاجة الاندلسى :

ومفـازةٍ لا نَجْـمَ فى ظَلْمـائها * يَسْرى ولا فَلَكٌ بِهـا دَوّارُ.
تَتَلَهَّبُ الشِّـعْرىٰ بِهـا فكأنَّهـا * فى كَفِّ زِنْجِىٍّ الدُّجىٰ دِينـارُ. ٥
تُرْمَى بهـا الغيطانُ فيها والرُّبىٰ * آلٌ كما يَتَمَـوَّجُ التَّيَّـارُ.
والقُطْبُ مُلْـتَزِمٌ لمـركَزِه بِهَـا * فكأنَّه فى سَاجِـهِ مِسْمَارُ.
قد لقّنى فيهـا الظَّلامُ وطَافَ بِى * ذِئْبٌ يُـلِمُّ مع الدُّجىٰ زَوَّارُ.
طَرَّاقُ سَـاحَاتِ الدِّيَارِ مُغَـاوِرٌ * خَبِثٌ لأبنـاء السُّرىٰ غَـدَّارُ.
يَسْرى، وقد فَضَحَ الدّجىٰ وجْهُ الضِّيا، * فى فَرْوةٍ قَـدْ مَسَّها اقْشِـعْرارُ. ١٠
فعَشَوْت فى ظَلْمـاءَ لم يُقْدِحْ بها * إلا لمُقْلَتِـــه، وبأسِى نارُ.
ورَفَلْتُ فى خِلَعٍ عَلَىّ من الدُّجىٰ * عُقِـدَتْ بهـا من أنْجُمٍ أزْرَارُ.
واللَّيْـلُ يَقْصِر خَطوَه، ولَرُبَّمـا * طالَتْ لَيالِى الرَّكْبِ وهى قِصَارُ.

وقال آخر :

وبَجْهولةِ الأَعْلَامِ طامسـةِ الصُّوىٰ * إذا عَسَفَتْها العِيسُ بالرَّكْبِ، ضَلَّتِ. ١٥
إذا ما تَهادىٰ الرَّكْبُ فى فَلَواتِها، * أجابَتْ نِداءَ الرَّكْبِ فيها فأصْدَتِ.

وقال مسعود، أخو ذى الرمّة يصف بُعْدَ فلاة :

ومَهْمَهٍ فيهـا السَّرابُ يَلْمَـحُ * يَدْأَبُ فيهـا القَوْمُ حتّى يَطْلَحُوا. (٧٩)
ثُمَّ يَظَـلُّون كأنْ لم يَبْرَحُوا * كأنَّمـا أمْسَوْا بحيثُ أصْبَحُوا.

وقال مسلم :

تَجْرى الرِّيَاحُ بهـا مَرْضىٰ مُوَلَّهَةً * حَسْرىٰ تَلُوذُ بأطراف الجَلَاميد.

وقال آخر :

ودَوِّيَّةٍ مِثْـلِ السَّماءِ قَطَعْتُها * مُطَـوَّقةٍ آفاقُها بسَمائِها.

وقال بعض الاعراب (١) فى الآل :

كَفَى حَزَنًا أَنِّى تَطَالَلْتُ كَىْ أَرىٰ * ذُرىٰ عَلَمَىْ دَعْخٍ فَمَا يُرَيَانِ!

كأنَّهما، والآلُ ينجابُ عنهما، * من البُعْـدِ عَيْنَا بُرْقُعٍ خَلَقَـانِ.

قال أبو هلال : وهذا من أغرب ماروى من تشبيهات القدماء .

وقال آخر :

والآل تَنْزُو بالضُّـحىٰ أَمْواجُه * نَزْوَالقَطَا الكُدْرِىِّ فى الأَشْرَاكِ.

والظِّـلُّ مَقْرُونٌ بِكُلِّ مَطِيَّـةٍ * مَشْىَ المِهَارِ الدُّهْمِ بين رِمَاكِ.

وقال ابن المعتز :

وما راعَنِى بالبَيْنِ إلا ظَعَـائِنٌ * دَعَوْنَ بُكائِى، فاستَجابَ سَوَاكِبُه.

بَدَتْ فى بياض الآلِ والبُعْدُ دُونَهُ * كأسْطُرِ رَقَّ أَمْرَضَ الخَطَّ كاتِبُه.

---

(١) هو طهمان بن عمرو الدارى ، كما فى ياقوت . وأورد القصيدة بتمامها ، وهى ١٥ بيتا . (معجم البلدان ، مادة دعخ) .

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — فى الجبال

قال الله تعالىٰ : " وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ " .

قال المفسرون : خلق الله عز وجل الأرض علىٰ الماء فمادت وتكفأت ، كما تتكفأ السفينة ، فأثبتها بالجبال . ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقاً . ٥

وروىٰ أبوحاتم فى كتاب العظمة ، أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن الله تعالىٰ لما خلق الأرض ، جعلَتْ تَميد . فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فعجبت الملائكة من خلق الجبال ، وقالت : يارب هل خلقت خلقا أشدّ من الجبال؟ قال : الحديد ، قالت : فهل من خلق أشدّ من الحديد؟ قال : النار ، قالت : فهل من خلق أشدّ من النار؟ قال : الماء ، قالت : فهل من خلق أشدّ من الماء؟ قال : الريح ، قالت : فهل من خلق أشدّ من الريح؟ قال : ٱبن آدمَ ، يتصدّق بيمينه فيخفيها عن شماله " . ١٠

وعن ٱبن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال : " كان العرش علىٰ الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض . فبعث الله ريحا فعصفت الماء فأبرز عن حشفة فى موضع البيت . فدحا الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال " . ١٥

فكان أوّل جبل وُضِعَ ، جبلُ أبى قُبَيْس . وهو الجبل المطلُّ علىٰ الكعبة .

وفى كنيته بأبى قبيس قولان :

أحدهما — أن آدم كناه بذلك حين ٱقتبس منه النار التى بين أيدى الناس (وقد تقدّم بيان ذلك فى الباب الرابع من القسم الثانى من هذا الفنّ فى ذكر النّيران) . ٢٠

الثانى — أنه أضيف إلىٰ رجل من جُرْهُم كان يتعبد فيه، آسمه أبو قبيس . ويقال فيه أبو قابوس، وشيخ الجبال . وكان من قبل يسمّى بالأمين .

وقال محمد بن السائب الكلبيّ : "إن الله عز وجل لما خلق الأرض، مادت بأهلها . فضربها بجبل السَّراة فاطمأنت" .

٥ وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرا، ويسمّى الحجاز . وهو الذى حجز بين تهامة ونجد . فتهامة من جهته الغربية مما يلى البحر، ونجد من جهته الشرقية . وهو آخذ من قعر عدن إلىٰ أطرار الشأم"[1] . ويسمّى هناك جبل لُبْنان . فإذا تجاوز اللاذقية ومرّ بالثغور، سُمّىَ جبل اللُّكَّام . ثم يمتدّ فى بلاد الروم إلىٰ بلاد أرمينية، فيسمّى هناك حارثا وحويرثا . ثم يمتدّ إلىٰ بحر الخزر، وفيه "الباب والأبواب" .

١٠ وقال بعض المفسرين فى قوله تعالىٰ : "قٓ والقُرْآنِ المَجِيدِ" إنه جبل محيط بالعالَم من زمرّدة خضراء، وإن جبال الدنيا متفرّعة عنه .

وقال قوم : إن السماء مطبقة عليه والشمس تغرب فيه، وهو الحجاب الساتر لها عن أعين الناس، فى أحد الوجوه المفسَّر بها قوله تعالىٰ: "حَتّٰى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ" .

وقال قوم : إن منه إلىٰ السماء مقدار ميل، وإن الذى يُرىٰ من خضرة السماء

١٥ مكتسب من لونه .

وقال ابن حوقل : جميع الجبال الموجودة فى الدنيا متفرّعه عن الجبل الخارج من بلاد الصين، مشرقا ذاهبا علىٰ خط مستقيم إلىٰ بلاد السودان مغرّبا .

---

(١) فى الاصل أطبران، وهو تحريف . والتصحيح عن البكرى : أطرار الشام وفيه فى موضع آخر "أطراف بوادى الشام" ومثل هذا فى ياقوت . وأطرار الوادى نواحيه وكذلك أطرار البلاد

٢٠ والطريق واحدها طر . وأطرار البلاد أطرافها . (عن تاج العروس) .

(٨٠) وقال أبو الفرج قُدامة بن جعفر فى "كتاب الخَراج" : وجدت خلف خط الاستواء فى الجنوب وقبل الإقليم الأوّل جبالا تسعة : خمسةٌ منها متقاربة المقادير، أطوالها ما بين أربعمائة ميل إلىٰ خمسمائة ميل؛ وجبلا طوله سبعُمائة ميل؛ وجبل القَمَر، وطوله ألف ميل؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه فى الإقليم الأوّل؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه فى الإقليم الثانى . ٥

قال : ومجموع ما عُرف فى الأقاليم السبعة من الجبال مائةٌ وثمانيةٌ وتسعون جبلا. منها فى الإقليم الأوّل سبعةَ عشرَ جبلا، وفى الإقليم الثانى تسعةٌ وعشرون جبلا، وفى الإقليم الثالث أحدٌ وثلاثون جبلا، وفى الإقليم الرابع أربعةٌ وعشرون جبلا، وفى الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلا، وفى الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلا، وفى الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلا . ١٠

٢ — ذكر أسماء ما ارتفع من الأرض إلىٰ أن يبلُغ الجبيل

ثم ما ارتفع عن ذلك إلىٰ أن يبلغ الجبل العظيم . وترتيب ذلك

قال الثعالبىّ فى كتابه المترجم "بفقه اللغة" وأسنده إلىٰ أئمتها :

أصغرُ ما ارتفَع من الأرض النَّبكة؛ ثم الرابيـة أعلىٰ منها؛ ثم الأَكَمة؛ ثم الرُّبْية؛ ثم النَّجْوة؛ ثم الرِّيعُ؛ ثم القُفُّ؛ ثم الهَضْبة (وهى الجبل المنبسط علىٰ الأرض)؛ ثم القَرْن (وهو الجبل الصغير)؛ ثم الدَّكُّ (وهو الجبل الذليل)[1]؛ ثم الضِّلَع (وهو الجبل الذى ليس بالطويل)؛ ثم النِّيقُ (وهو الجبل الطويل)؛ ثم الطَّوْد؛ ثم الباذِخُ والشَّامِخُ؛ ثم الشَّاهِق؛ ثم المُشْمَخِرُّ؛ ثم الأَقْودُ والأَخْشَب؛ ثم الأَيْهَم؛ ثم القَهْب (وهو العظيم)؛ ثم الخُشَام .

(١) فى الأصل : الجبل الدكيك . وقد اعتمدنا ما فى القاموس وفقه اللغة أيضا .

٣ — ذكر ترتيب أبعاض الجبل

قال الثعالبيّ :

أوّل الجَبَل الحَضِيض، وهو القَرَار من الأرض عند أصْل الجبل .

ثم السَّفْح، وهو ذيله .

٥ ثم السَّنَد، وهو المرتفع في أصله .

ثم الكِيحُ، وهو عَرْضه .

ثم الحُضْن، وهو ما أطاف به .

ثم الرَّيْد، وهو ناحيته المشرِفة على الهواء .

ثم العُرْعُرَة، وهي غلظه ومعظمه .

١٠ ثم الحَيْد، وهو جَنَاحه .

ثم الرَّعْن، وهو أنفه .

ثم الشَّعَفة، وهي رأسه .

وقال صاحب كتاب "الفاخر" : يقال من أسماء الجبال : العظيم منها الطَّور، والطَّوْد، والكَفِرُ، والقَهْب، والعَمُود، والعَلَم، والأرْعَن[1]، والمُشْمَخِرّ .

١٥ والأَيْهم الطويل، وهو الشامِخُ، والشاهِقُ، والباذِخُ، والباسِقُ، والأَقْوَدُ .

والأخْشَب، الخَشِن .

والعِقَابُ، الصِّعاب .

والثَّنَايَا، التي ليست بصَعْبة .

(١) كذا بالأصل ، والذي في القاموس واللسان والمخصص (الرَّعْن أنف الجبل المتقدم أو الجبل الطويل) فما هنا من تحريف النساخ .

والهِرْشَمُّ، النَّخر .

والخُشَام، جبل طويل ذو أنف .

والوَزَر، والمَلْجَأ، والقَلْعة، ما يُحَصَّن فيه .

والقَرْن، جبل صغير .

والضِّلَعُ والدُّكُّ، فيه دِقَّة وانْحِناء . ٥

والنِّيق، الذى لا يُستطاع أن يُرْتَقَىٰ إليه .

وأعلىٰ الجبل قُلَّته وقُنَّته وذُؤابتُه .

وعُرْعُرَتُه، غِلَظه .

والفِنْد، القِطْعة منه .

وشَعَفُه ومَصَادُه، أعلاه . ١٠

والكِيحُ والكَاح، عُرْضه .

والرُّكْ[1]، ناحيته المُشْرِفة علىٰ الهواء .

والحَضِيض، أسفله .

قال : وصغار الجبال ، اليَفَع ، والضِّرْس ، والضَّرب والعنتيبة[2] ، والعُنْتُوتُ ، والأَكَمة، والهَضْبة . ١٥

والذَّرِيحة، ما انبسط علىٰ وجه الأرض .

واللَّوْذ، حِضْن الجبل وما يُطِيف به .

(١) فى الأصل : الوكح بالواو . وهو تصحيف من الناسخ . وقد صححناه اعتمادا علىٰ ما فى القاموس والمخصص .

(٢) كذا بالأصل ولم نعثر عليها فى القاموس واللسان والمخصص . ٢٠

والرِّيد والرُّيود، نَواحِيه المحتدة .

والحَيْدُ، شاخصٌ يتقدم كالجَناح . ومثله الشُّنعُوفُ .

والصَّدْع والشَّقْب، شَقٌّ فيه .

والغارُ والكَهْف، مثل البُيُوت فيه .

٥ والقُرْدُوعة، الزاوية فيه .

واللَّهْب والنَّفَنُف والغارُ، مَهْواة بين جبلين .

والشُّؤُون، خُطُوط فيه .

والمَخْرِم، مُنقَطَع أنْفه .

والقُرْناس، شِبْه الأنْف .

١٠ والإِرَم، العَلَم فيه .

---

٤ — ذكر ترتيب مقادير الحجارة

قال الثعالبي :

إذا كانت صغيرة، فهى حَصَاة .

فإذا كانتْ مثلَ الجَوْزة وصلحت للاستنجاء بها، فهى نَبْلة . وفى الحديث :

١٥ "اتَّقُوا المَلاعِنَ وأعِدّوا النَّبْلَ" . يعنى عند إتيان الغائط .

فإذا كانت أعظم من الجَوْزة، فهى قُتْرُعَة .

فإذا كانت أعظم منها وصَلَحت للقَذْف، فهى مِقْذاف ورُجْمَة ومِرْداة . ويقال :

إن المِرْداة، حَجَر الضبِّ الذى ينصبه علامة لجحره .

فإذا كانت مِلءَ الكفِّ، فهى يَهْيَرٌ .

فإذا كانت أعظم منها، فهى: فِهْر، ثم جَنْدل، ثم جَلْمَد، ثم صَخْرة، ثم قَلْعة . وهى التى تنقلِع من عُرْض الجبل. وبها سميت القَلْعة التى هى الحِصْن .

وقال صاحب كتاب "الفـاخر" : من أسمائها ، الحِجَارة ، والجُلْمود والجَلْمَـد الحجر الصَّلْب .

والبِرْطِيلُ، الصَّخْرة العظيمة .

والصَّفْوانُ، الأملسُ .

والرَّضْمة، الحجر العظيم .

(٨١) والأَتَان، صخرة فى مَسِيل ماء أو حافة نهر .

والإِزَاء، التى عند مهراق الدلو .

والرُّجْمة، ما تطوىٰ به البئر .

والكَذَّانُ، الرَّخْو .

واليَرْمَع، الأبيضُ الرَّخو .

والمُدُقُّ والمَدَاك والصَّلَايَة، حجر العطار الذى يسحق عليه العِطر .

والفِهْر، ما يملأ الكَفّ ويُسْحَق به العِطْر .

والمِرْداة، ما يكسر به الحجر .

والمِرْداس، ما يُرْمىٰ به فى البئر لينظر أفيها ماء أم لا . قال الشاعر:

مَنْ جَعَل العِدّ القَدِيمَ الَّذِى * أنت له عِـدَّةُ أحراسِ،
إلىٰ ظَنُونٍ أنتَ من مائِهِ * منتَظِرٌ رَجْعـةَ مِرْداسِ.

والنَّشَف، حجر تُدْلَك به الرِّجْل فى الحَمّام .

والنَّقَل، ما كان فى طرق الجبال .

والأُنْفِيَّـة ـ ما يُنْصَب عليه القدر .

والقُلَاعة ، ما يُرمىٰ به فى المِقْلاع .

والظُّرَّان ، حِجـارة محدّدة يذبَحُ بها .

والصَّفِيح ، مارَقَّ منه وعَرُض .

٥ والكَفَاف ، حِجارة عِرَاض .

والفَلَك ، قِطْعة مستديرة وترتفع عما حولها .

والمُدَمْلَك ، المدوّر .

والكَلِيت ، حَجَر مستدير يسدّ به وِجَار الضَّبُع .

والبِلِّيت[1] ، التـام .

١٠ وقال ابن الأعرابىّ : القَبِيلة ، صخرة علىٰ رأس البئر ، والعُقَابان من جنبتيها يعضدانها .

ومنها المَرْو ، وهى البِيض كالحصىٰ .

والحَصْباء ، الصغار .

والرَّضْراض ، نحوها .

والقَضِيض ، أصغر منها .

١٥ والزَّنَانير ، واحدها زُنَّيْر ، أصغر ما يكون .

---

(١) كذا بالأصـل وعبارة القاموس (والبليت كبيكيت لفظا ومعنى) واللسان (وبلّيت الرجل ازمّيت) وهو الحليم الساكن القليل الكلام .

٥ — ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل . يقال :

أثقلُ من ثَهْلانَ . أثقل من نَضَادٍ . أثقلُ من أُحُد . أصلَبُ من الحَجَر . أصلب من الجَنْدل . أقسى من الحجر . أصبَرُ من حجر . أيْبَسُ من صَخْر . أبقى من النَّقْش في الحجر .

ويقال :

رُمِي فلان بحجره . رُدَّ الحجرَ من حيثُ جاءك . وَجِّهِ الحجرَ وِجْهةً تا . أى دَبِّرِ الأمر على وَجْهه . ألقِمْه الحجر ، أى جاوِبْه بجوابٍ مُسْكت . رماه بثالثة الأثافِي . أنجدَ مَنْ رأى حَضَنا (وحَضَنٌ جبل بنجد) أى من رآه لم يحتج أن يسأل هل بلغ نَجْدا أم لا . الليل يُوارِى حَضَنا ، أى يُخْفِى كل شىء حتى الجبل . ١٠

ومن أنصاف الأبيات :

* كأنَّهُ عَلَمٌ فى رأسه نارُ * إذا قطَعْنا عَلَمًا بَدَا عَلَمْ *

* قُومُوا انظُروا كَيْفَ تَزُول الجِبالْ *

(يضرب لموت الرؤساء) .

* جَنْدلتانِ اصْطَكَّتا اصْطِكاكا * ١٥

(يضرب لقرنين يتصاولان) .

ومن الأبيات :

ولو بَغَى جَبَلٌ يوما على جَبَلٍ ، * لانْهَدَّ مِنْهُ أعاليهِ وأسْفَلُهُ !

تَتَناثَرُ الأطوادُ وهى شَوامِخٌ * حتى تَصِيرَ مَدَاوِسَ الأقْدامِ .

جُدْ فقَدْ تَنْفَجِرُ الصَّخْرةُ بالماءِ الزُّلال . ٢٠

٦ — ذكر شيء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها

قال السموءل بن عاديا :

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَن نُجِيرُه * مَنِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وهْوَ كَلِيلُ !
رَسَا أَصْلُه تحت الثَّرىٰ وسَمَا بِهِ * إلىٰ النَّجْم فَرْعٌ لا يُرَامُ طَوِيلُ !

٥ وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ :

وأَرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤابة باذخٍ * يطَاوِل أَعْنانَ السَّماءِ بغَارِب .
يَصُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ من كُلِّ وجْهةٍ * ويَزْحَمُ لَيْلا شُهْبَهُ بالمَنَاكِب .
وقُورٍ علىٰ ظهر الفَلاة كأنَّه * طِوَالَ اللَّيالِي ناظِرٌ في العَواقِبِ .
يَلُوثُ عليه الغَيْمُ سُودَ عَمَائِمٍ * لَهَا مِنْ وَمِيضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوائِبِ .
١٠ أَصَخْتُ إليه وهْوَ أَخْرَسُ صامتٌ * فحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرىٰ بالعَجَائِب .
وقال : أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجأً فاتِكٍ * ومَوْطِنَ أَوَّاهٍ ومَوْئِلَ تائِبِ !
وكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ ومُؤَوِّبٍ * وقَالَ بسَفْحِي مِنْ مَطِيٍّ وراكِبِ !
ولَاطَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّياحِ مَعَاطِفِي * وزاحَمَ من خُضْرِ البِحارِ جَوَانِبِي !
فَما كانَ إلَّا أَنْ طَوَتْهُمْ يَدُ الرَّدىٰ * فطارَتْ بهم رِيحُ النَّوىٰ والنَّوائِبِ .
١٥ وما غَيَّضَ السُّلْوانُ دَمْعِي وإنَّمَا * نَزَفْتُ دُمُوعِي من فِراقِ الأَصَاحِبِ .
وأَسْمَعَنِي من وَعْظِه كلَّ عِبْرةٍ * يُتَرْجِمُها عنه لِسانُ التَّجارِبِ .
فَسَلَّى بما أَبْكَىٰ، وسَرَّ بما شَجَىٰ، * وكان علىٰ ليل السُّرىٰ خَيْرَ صاحِبِ .
وقُلْتُ وقد نَكَّبْتُ عنه مَطِيَّتِي : * سَلَامٌ فإنَّا من مُقِيمٍ وذاهِبِ !

(٨٢) وقال أيضا عفا الله عنه :

وأشرفَ طَمَّاحِ الذُّؤابة شامخٍ * تَمَنْطَقَ بالجَوْزاء لَيْلًا، له خَصْرُ.
وَقُورٍ علىٰ مَرِّ اللَّيالِي كأنَّما * يُصيخُ إلىٰ نَجْوىٰ وفى أُذْنِه وَقْرُ.
تَمَهَّدَ منه كُلُّ رُكْنٍ زَكَا به * فقَطَّبَ إطراقًا وقد ضَحِكَ البَدْرُ.
ولَاذَ به نَسْرُ السَّماءِ كأنَّما * يُجَرِّ إلىٰ وَكْرٍ به ذلك النَّسْرُ. ٥
فلم أَدْرِ من صَمْتٍ له وسَكِينةٍ * أَكَبْرَةُ سنٍّ وَقَّرتْ منه أم كِبْرُ.

وقال أيضا يصفه نثرا من رسالة كتبها إلىٰ بعض الرؤساء :

وكيف لى بقُرْبك ودونَك كل عَلَم باذخ، جَجَّ الليلُ عليه رُضَابَه، وصافحت النجومُ هِضَابه؛ قد ناء بطَرْفه، وشمخ بأنْفه، وسال الوَقَار علىٰ عِطْفه؛ قد لاثَ من غَمَامه عِمَامه، وأرسل من رَبَابه ذُؤابه؛ تُطرِّزها البُروق الخواطف، وتهفو بها الرياح العواصف؛ بحيث مدّه البسيطُ بِساطا، وضُرِبت السماء فُسْطاطا . ١٠

الباب السادس

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — فى ذكر البحار والجزائر

روى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: "لما أراد الله عز وجل أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ووصف من طولها وعرضها وسمكها، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء يترقرق لايثبت فى ضحضاح . فما يرىٰ من التموّج والاضطراب إنما هو ارتعاده من خشية الله تعالى؛ ثم خلق الريح فوضع الماء علىٰ متنه؛ ثم خلق العرش ووضعه علىٰ متن الماء". وفسر بهذا قوله عز وجل: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ". ١٥

٢ — ذكر بحار المعمور من الأرض

وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم بحر ما نيطش[1]، ثم بحر الخزر.

فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمّى باليونانية أوقيانوس، ويسمّى بحر الظلمات، سمّي بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحلله الشمس لأنها لا تطلع عليه. فيغلظ ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته. ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه، وكثرة أهواله، لم يَعلَم العالَمُ من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور. والذي عُلم به من الجزائر ستةٌ من جهة المغرب، تسمّى جزائر السعادات، والجزائر الخالدات.

قال أبو عبيد البكريّ في كتابه المترجم "بالمسالك والممالك": وبإزاء طنجة الجزائر المسماة باليونانية. فُرطنائُس أي السعيدة. وسميت بذلك لأن في شَعْرائها[2] وغياضها كلّها أصنافَ الفواكه الطيبة من غير غراسة ولا فلاحة، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب، وأصناف الرياض بدل الشوك. وهي متفرقة متقاربة.

ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقتها إلى جزيرة من هذه الجزائر، فنزل مَنْ فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفاويه وأنواع اليواقيت كل مستحسن. فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس. فسألهم ملكها من أين لهم هذا. فأخبروه بأمرهم، فجهز مراكب وسيرها، فلم يقفوا على جزيرة منها. وعدمت المراكب لعظم البحر وشدة عصف الريح فلم يرجع منها شيء.

(١) كذا في الأصل. وفي كثير من كتب الجغرافية العربية: وهو المعروف في كتب الجغرافية العربية مثل أبي الفدا ببحر أزق، وعند الأتراك ببحر آزوف.

(٢) الشعراء: الأرض ذات الشجر.

ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم هم بالوحوش أشبه منهم بالناس . وبينها وبين ساحل البحر عشرة أجزاء .

ويقال إن فى جهة المشرق مما يلى بلاد الصين ستة جزائر أخرى ، تسمّى جزائر السيلى . يقال إن ساكنيها قوم من العلويين ، وقعوا إليها لما هربوا من بنى أُمية .

ويقال إن جزائر السيلى لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج منها لصحة هوائها ورقة مائها ، وإن كان منها فى عيش قشيف . ٥

وفى هذا البحر من الجزائر العامرة جزيرة برطانية ، وهى تحاذى جزيرة الأندلس ، وأهلها صُهْب الشعور ، زُرْق العيون .

ومما يلى بلاد إفرانسية جزائر يعْمُرها خلق من الفرنج ، لا ينقادون لبلد ، ولا يدينون بدين . ١٠

وفيما يلى الأرض الكبيرة جزيرة ذات أبرجة ، يحيط بها سبعمائة ميل وخمسون ميلا ، وفيها أربع مدائن ، فى كل مدينة ملك .

وجزيرة برفاغة . يحيط بها أربعة آلاف ميل ، وفيها ثلاث مدائن عامرة . والداخل إليها قليل . وهى كثيرة الأنواء والأمطار . وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم ، ويجعلونه فى بيت ويوقدون النار حوله حتّى يجف . ١٥

وجزيرة أنقلطرة . فيها مدائن عامرة ، وجبال شاهقة ، وأودية ، وأرض سهلة . والشتاء بها دائم . وبين هذه الجزيرة والبر مجاز سعته آثنا عشر ميلا .

وفيه مما يلي الصقالبة جزيرتان : إحداهما جزيرة أمرنانيوس النساء، لايسكنها غير النساء فقط . وتسمّى الأخرىٰ أمرنانيوس الرجال، لايسكنها غير الرجال . وهم في كل عام يجتمعون زمان الربيع، ويتناكحون نحوا من شهر ثم يفترقون .

ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما لكثرة الغمام، وظلمة البحر، وعظم الأمواج .

٣ — ذكر ما يتفرّع من البحر المحيط

يتفرع من البحر المحيط خليجان : أحدهما من جهة المغرب، ويسمى البحر الرومىّ . والآخر من جهة المشرق، ويسمّى البحر الصينىّ، والهندىّ، والفارسىّ، واليمنىّ، والحبشىّ، بحسب ما يمر عليه من البلاد .

وهما المرادان بقوله تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ . أى لايبغى هذا علىٰ هذا .

والبرزخ أرض بين الفَرَما التى هى علىٰ بحر الروم، وبين مدينة القُلْزُم التى هى علىٰ بحر الحبش[1]، مسافتها ثلاثة أيام . وقيل : البرزخ إرسال ماء البحر الحلو علىٰ ماء البحر الملح، لأنه مَغِيض له . فلا سبيل لأحدهما علىٰ الآخر، بل جعل الله بينهما حاجزا وهو البرزخ .

فأما البحر الرومىّ وجزائره، فإن المؤرخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط . ويقولون إن جزيرة الاندلس وبلاد البربر كانت أرضا واحدة يسكنها الإشبان والبربر . وكان بعضهم يُغير علىٰ بعض، والحرب بينهم سجال . فلما

(١) في الأصل بحر فارس . وكان الأصوب أن يعبر باللفظ الذى اختاره لهذا المقام، وهو البحر الحبشى

ملك الإسكندر، رغب إليه الإشبان فيما يحول بينهم وبين البربر. فرأىٰ ان يجعل بينهما خليجا من البحر يمكن به آحتراس كل طائفة من الأخرىٰ. فحفر زُقاقا طوله ثمانية عشر ميلا، وعرضه آثنا عشر ميلا. وبنى بجانبيه سكرين[1]، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها، وجعل عليها حرّاسا يمنعون الجواز عليها من جهة البربر إلا بإذن من جعله نائبا عنه فى بلاد الإشبان. وكان قاموس البحر أعلىٰ من أرض الزقاق، فطما وغطّى السّكرين والقنطرة، وساق بين يديه بلادا وطغا علىٰ أخرىٰ. حتّى إن المسافرين فيه يخبرون أن المراكب فى بعض الأوقات يتوقف سيرها فيه مع وجود الريح. فيسبرون أمرها، فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين. فعظم طولا وعرضا، وصار بحرا[2].

قال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر": وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه فى زمن الإسكندر. فصار ثمانية عشر ميلا.

قال: وزعم السالكون فيه أنّ البحر ربما جزر فى بعض الأوقات، فترىٰ القنطرة. قالوا: وهـذا الزقاق صعب شديد متلاطم الأمواج مهول، شبيه بما جاوره من البحر المحيط.

وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرا يسمونه بحر الأيلاية بتفخيم اللام[3]. وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك.

---

(١) السكر (بكسر السين) هو ما سُدَّ به النهر.

(٢) هو المسمى بحر الزقاق واسمه الآن مجاز جبل طارق.

(٣) لعل المؤلف يشير إلىٰ خليج ليون فهو مشهور بشدّة التيار وبصعوبة السلوك.

ومبدأ جريه من البحر الرومىّ من الإقليم الرابع . فإذا خرج من الزقاق يمرّ مشرّقا في جهة بلاد البربر وشمال المغرب الأقصىٰ إلىٰ أن يمرّ بالمغرب الأوسط ، إلىٰ إفريقية ، إلىٰ برقة ، إلىٰ الإسكندرية ، إلىٰ شمال أرض التيه وأرض فِلَسْطِين . فيمرّ بسواحل الشام إلىٰ أن يصل إلىٰ السويدية التي هي فرضة أنطاكية ، وعندها حجز البحر . ومنها يعطف فيمرّ علىٰ العلايا وأنطالية (وهما فرضتان لبلاد الروم)، ثم علىٰ ظهر بلاد قسطنطينية إلىٰ أن ينتهي إلىٰ المكان الذي منه خرج . وطوله خمسة آلاف ميل . وقيل ستة آلاف . وعرضه مختلف : ففي موضع ثلثمائة ميل ، وفي موضع ستمائة ميل . وفي موضع سبعمائة .

ويقال إن فيه ما يزيد علىٰ مائة وسبعين جزيرة . كانت عامرة بطوائف من الفرنج ، أخرب المسلمون أكثرها بالمغازي في صدر الإسلام .

وأجلّ ما ملك المسلمون منها . ثم انتُزِع أكثره من أيديهم :

١ — جزيرة الأندلس .

٢ — وجزيرة يابسة . وهي حيال جزيرة الأندلس ، ومسافتها يومان في يوم . وفيها مدينة صغيرة مسوّرة .

٣ — وجزيرة منرقة ، ومسافتها يومان في نصف يوم . وفيها مدينة عامرة .

٤ — وجزيرة ميورقة . ويقال فيها مايورقة . ومسافتها يومان في يومين ، وبها مدينة .

٥ — وجزيرة رودس[1] . وهي حيال بلاد أفرنجة[1] . ويحيط بها ثلثمائة ميل . وفيها حصنان .

(١) هذا الوصف لا ينطبق علىٰ جزيرة رودس . بل علىٰ جزيرة قورسقة التي هي حيال بلاد أفرنجة أي فرنسا ، وهي تابعة لها .

(٨٤) ٦ — وجزيرة سردانية . وطولها مائتان وثمانون ميلا ، وعرضها مائة وثمانون ميلا . وفيها ثلاث مدائن كبار . وسكانها قوم من الفرنج متوحشون . وبها معدن فضة .

٧ — وجزيرة صقلية . وهى حيال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس . وشكلها مثلث . يحيط بها خمسمائة ميل . كثيرة الجبال ، والحصون ، والأمصار ، والأنهار، والأشجار . ٥

ومما فيها من المدن المشهورة على ساحل البحر :

بلرمو . وبها يكون الملك ، وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم انتقل الناس منها إلى الخالصة . وهى محدثة . بنيت فى أيام القائم ابن المهدى العبيدى فى سنة خمس وعشرين وثلثمائة . ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضا لها ؛ ١٠

وقطانية . وكانت عظيمة فأحرقها البركان الذى فى الجزيرة . فبنى الأمبرطور مدينة عوضها ، وسماها غشطارة .

ومسينى . وهى على أحد أركان الجزيرة .

وسرقوسة . وهى على الركن الآخر، والبحر محيط بها من ثلاث جهاتها .

وطرابنش . وهى على الركن الثالث ، والبحر محيط بها . ولها مجاز . ١٥

ومن بلاد هذه الجزيرة البرية : والشاقة ، ومازر ، وكركنت ، ونوطس ، وطبرمين ، وقصريانة ، والنور ، ورغوص ، وغيطة ، وغير ذلك .

وبهذه الجزيرة . (ويقال بجزيرة ملاصقة لها) بركان ، وهو أطمة يخرج منها أجسام كأجسام الناس بغير رؤوس من النار ، فتعلو فى الهواء ليلا ثم تسقط فى البحر ، فتطفو على وجه الماء . ومنها يكون حجر المرو الذى تحك به الأرجل . ٢٠

٧ — وجزيرة بلونس . ودورها ألف ميل . ولها مجاز إلى البر الطويل ، عرضه ستة أميال . فيها ما يزيد على خمسين مدينة ، القواعد منها خمس عشرة مدينة ، وهي مشهورة عند الفرنج .

٨ — وجزيرة مالطة . وطولها أربعة وعشرون ميلا ، وعرضها آثنا عشر . وفي وسطها مدينة واحدة .

٩ — وجزيرة قوسرة . وفيها مواضع متوحشة .

١٠ — وجزيرة أقريطش . وهي حيال برقة . طولها ثلثمائة ميل ، وعرضها مائة وثلاثون ميلا . وبها مدينتان : إحداهما تسمى الخندق ، والأخرى تسمى ربض الجبن . وفيها معدن ذهب .

١١ — وجزيرة قُبْرُس . وهو آسم النحاس ، لأن بها معدن نحاس . يحيط بها ألف ميل وخمسمائة ميل . وفيها من المدن الجليلة ، ليمسون ، والباف بباء مفخمة ، والماغوصة . وكلها في البحر . وفي وسط الجزيرة مدينة الأفقسية . وهي القصبة . وبها يكون متولي الجزيرة .

---

٤ — ويخرج من هذا البحر خليجان

أحدهما يسمى جون البنادقة ، والآخر يسمى خليج القسطنطينية .

١ — فأما خليج البنادقة . فإنه خليج كبير متسع ليس له فُوَّهة . وإنما هو جونٌ له ركنان ، سعة ما بينهما سبعون ميلا . يحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج تسمى البنادقة . وهي ذوات حصون وقلاع ممتنعة .

ومبدؤه من شرقىّ بلاد قلورية عند مدينة تسمى أُذْرَنْت[1]، ومنتهاه بلاد إيكلاية[2].
ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل. وفيه ست جزائر، ثلاثة منها فى ضفة، وثلاثة فى أخرىٰ، بها مدن عامرة. وثلاثة معترضة بين ركنيه مهملة لا ساكن بها.

٢ — وأما خليج القسطنطينية. ويسمى بحر نيطش فإن فوهته مقابلة لجزيرة رودس، وسعتها غلوة سهم. ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها فى برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها. ٥

ويمتر هذا الخليج نحو مائتى ميل وخمسين ميلا إلىٰ أن ينتهى إلىٰ القسطنطينية فتكون فى غربيه، يحيط بجهتين منها.

وهى مدينة عظيمة مشهورة. وعرض البحر عندها أربعة أميال. ١٠

ثم يمتر ستين ميلا حتّى ينصب فى بحر ما نيطش. وهو بحر سوداق. وعرض فوهته هناك عشرة أميال. وفى موضع أقلّ، وفى موضع أكثر.

فهذا البحر الرومى وجزائره وما تفرّع منه.

والله أعلم.

---

(١) فى الأصل أكدنت وهو تحريف لمدينة أذرنت قال فى نزهة المشتاق: خليج البنادقيين ومبدؤه من شرق بلاد قلوريه ... من عند أذرنت ... وينتهى طرفه إلىٰ بلاد إيكلاية. ١٥

(٢) فى الأصل آنكلاية، وهو تحريف ظاهر عن إيكلاية التى ذكرها الإدريسى فى هذا الموضع.

٥ — وأما بحر الهند وجزائره

فمبدؤه من مشرق الصين فوق خط الاستواء . ويجرى إلى جهة الغرب، فيجتاز ببلاد الواق[1]، وبلاد سُفالة الزنج، ثم ببلاد الزنج حتى يصل إلى بلاد بربرا، وهناك حجزه .

٥ وأما الشرقىّ : فمبدؤه من لوقين ، وهى أوّل مرافىء الصين ثم بخانقو فُرْضَة الصين العظمى، ثم إلى سَمَنْدُور من بلاد الهند، ثم إلى حارتين ، إلى قندرينه[2]، إلى تانة ، إلى سندابور، إلى بَرْوَص (ويقال بَرْوَج، وإليها ينسب القماش البَرْوَجى)، إلى صَيْمُور[3]، إلى سَنْدَان ، إلى سوتارة ، إلى كنباية . (وإليها ينسب القماش الكنبايتى)، إلى دَيْبُل (وهى أوّل مرافىء السند) ، ثم إلى سرون ، ثم إلى التِّيز[4] من بلاد مُكْرَان، (٨٥)

١٠ وهى أحد ركنى الخليج الفارسىّ . والركن الآخر يسمى رأس الجُمْجَمَة : وهو جبل خارج فى البحر، ومن هناك يسمى بحر اليمن ، ثم يمتدّ على ظَفَار، ثم على الشِّحْر ساحل بلاد مَهَرَة، ثم على شُرْمَة ولَسْعا (ساحلى بلاد حضر موت)، ثم على أَبْيَن ، ثم على عَدَن ، ثم المَخْنَق ، ثم العارة ، ثم يمتدّ إلى باب المندب .

---

(١) قال البيرونى مانصه : (فى كتاب تحقيق ما للهند ص ١٠٣ سطر ٧) جزيرة الوقواق من جملة قمر .

١٥ وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كرءوس الناس تصيح ولكن قمر قوم ألوانهم الى البياض قصار القدود على صور الأتراك ودين الهنود تحرى الآذان وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان والناس فيهم أرغب ويجلب منهم الآبنوس الأسود وهو لب شجرة تلق حواشيها فأما الملمع والشوحط والصندل الأصفر فمن الزنج . ا ه

(٢) لعل المقصود : قندابيل (وقد ذكرها ياقوت) .

٢٠ (٣) ويقال صيمون (أنظر ياقوت) .

(٤) هى قصبة بلاد مكران بالسند .

ومن هناك يخرج خليج القُلْزُم، وطوله ثمانية آلاف ميل، وعرضه يختلف . فى موضع ألف ميل وسبعمائة ميل، وفى موضع ألفان، وفى موضع دون ذلك .

ويقال : إن بينه وبين البحر المحيط بحرا آخر يسمى البحر الزفتى، سمى بذلك لظلمته وسواده، وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل .

وهذا البحر — أعنى الهندىّ — بجملته قسمه السالكون له ستّ قطع، وضعوا لها أسماء مختلفة .

١ — فالذى يمر بأرض الصين يسمى بحر صنجى[1]، ينسب لمدينة فى جزيرة من جزائره . وهو بحر كثير الأمواج مهول . فإذا كان فى أول هياجه ظهر فيه بالليل أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقلّ من ذلك . يصعدون إلى المراكب ولا يضرون أحدا . فإذا عاينهم السُّفّار، أيقنوا بالدّمار . وإذا قدّر الله تعالى نجاتهم من هذه الشدّة، أراهم على رأس الدَّقَل طائرا أبيض كأنما خلق من النور، فيتباشرون به . فإذا ذهب عنهم الروع، فقدوه .

وفيه من الجزائر المعمورة :

جزيرة شريرة[2] . يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل . فيها مدائن كثيرة، أجلها المدينة التى تنسب إليها، ومنها يجلب الكافور .

وجزيرة صنجى . وإليها تنسب هذه القطعة . وطولها مائتا ميل، وعرضها أقلّ من ذلك . وفيها جواميس وبقر بغير أذناب .

(١) لعل هذا الاسم هو و"شنجو" لمسمى واحد . وهى المعروفة عند العرب باسم مدينة "زيتون" وهى فُرْضَة الصين (راجع أبا الفدا) .

(٢) سماها أبو الفدا : سريرة .

وجزيرة أنفوجة . يحيط بها أربعمائة ميل . عمارتها متصلة .

٢ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمّى بحر الصَّنْف . في جزيرة من جزائره مدينة . وهو بحر خبيث كثير الأمطار والرياح الشديدة . وفي جباله معادن الذهب والرصاص ، وفيه مغاصُ اللؤلؤ ، وفي غياضه الخيزران . وفيه مملكة المهراج .

٥ ويشتمل على جزائر لا تحصى ، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها في سنة . وفيها أنواع الطيب من الكافور ، والقَرَنْفُل ، والعود ، والصَّنْدل ، والجَوْزبَوَّى ، والبَسْبَاسَة ، والكَبَابَة .

ومن جزائره المشهورة :

جزيرة الزانج . وتكسيرها سبعمائة فرسخ ، وبها يكون المهراج ، وهو اسم يطلق على كل من ملكها .

١٠ وجزيرة البركان . وهي جزيرة فيها جبل يرمي بالشرر ليلا ، وبالرعود القواصف نهارا ، وهي أحد آطام الدنيا المشهورة .

وجزيرة قُمار . وإليها ينسب العود القماري . وبها شجر الصندل . دورها أربعة أشهر . وهي مأوى عُبَّاد الهند وعلمائهم . يسمّى ملكها قامرون .

وجزائر الرامي[1] . وهي نحو ألف جزيرة معمورة . بها الملوك . وفيها معادن

١٥ الذهب ، وشجر الكافور .

وجزائر لنجيالوس . ويقال لنكالوس . وهي كثيرة ، وأهلها سود . مشوّهو الصور لقُرْبها من خط الاستواء . وبها معادن الحديد .

٣ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمّى بحر لاروى ، وبحر كَلَه ، وبحر الجاوه ، وبحر فنصور . وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يمر عليه من البلاد والجزائر .

٢٠ (١) في الأصل الراقى وفى نزهة المشتاق "الرامى" .

وهو بحر لايدرك قعره . وفيه نحو ألف جزيرة تسمّى جزائر النارجيل، لكثرته بها . وكلها عامرة بالناس . وبين الجزيرة والجزيرة الفرسخ والفرسخان . وليس يوجد فى سائر جزائر البحر ألطف صنعة من أهل جزائره فى سائر المهن . وبيوت أمواله الوَدَعُ .

ومن جزائره المشهورة مما يلى أوائل بلاد الهند :

جزيرة المـانِد . وهى جزيرة يحيط بها ألف ميل . وفيها ثلاث مدن كبار . ٥

وجزيرة كرموه . يحيط بها ثلثمائة ميل .

وجزيرة بلى . منسوبة لمدينة من الهند على ساحله . يأتيها التجار لاجل الفلفل .

وجزائر الذئاب . وهى كثيرة . وأكبرها جزيرة ديبى . وسكانها قبائل من العرب . يحيط بها أربعمائة ميل . وفيها الموز، وقصب السكر .

وجزيرة السيلان . وطولها ستمائة ميل ، وعرضها قريب من ذلك . وفيها ١٠ مدن كثيرة . وإليها ينسب العود السيلى .

وجزيرة كَلَه . وإليها ينسب البحر . وهى جزيرة خطيرة، طولها ثمانمائة ميل . وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلا . وبها من المدن فنصور . فيها شجر الكافور (وفيها العود الفاخر) وملاير، ولاروى، وكله (وإليها ينسب الدّهن) . ولكل مدينة من هذه المدن خَوْر تعبره المراكب من البحر . ١٥

وجزيرة صندابولات . وطولها نحو من مائتى ميل، وعرضها نحو مائة ميل . تنسب إلى مدينة هى فيها .

وجزائر بداميان . فيها أمم سود، قِبَاح الوجوه . قامة الرجل منهم أقلّ من ذراع . ليس لهم مراكب . فإذا وقع اليهم غريق أو من يَتِيه من التجّار، أكلوه .

٤ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر هَرْكَنْد، وفيه جزائر كثيرة. ويقال إن عدّتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة. ويقع فيها العنبر الذى تكون القطعة منه مثل البيت. وسكانها أحذق الناس فى الحياكة، ينسجون القميص بكمّيه ودَخَارِيزِه قطعة واحدة. (٨٦)

٥ وفيه من الجزائر المشهورة:

جزيرة سرنديب[1]. وهى مدوّرة الشكل، يحيط بها ألف فرسخ. يشقّها جبل الراهون، وهو الجبل الذى هبط عليه آدم (عليه السلام) من الجنة. وفى أوديتها الياقوت والماس والسُّنْبَاذَج. وطولها مائتان وستون ميلا. ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى أَغْنا، يسكنها مسلمون، ونصارى، ويهود، ومجوس. ولكل أهل ملة من ١٠ هذه الملل حاكم. لا يبغى بعضهم على بعض. وكلهم يرجع إلى ملك يسوسهم ويجمع كلمتهم. ولهذا البحر أربعة أودية تصب فى البحر تسمى الأغباب[2].

٥ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن. وأوّله بحر الجُحْفة، وهو بلاد مَهْرَة. معترض فى البحر فيمرّ بحاسك (وهو أوّل مرافئ اليمن)؛ ثم يمرّ بمِرْبَاط[3] (ساحل بلاد ظَفَار)؛ ثم يمرّ بالشِّحْر (ساحل بلاد مَهْرَة)؛ ثم بشُرْمَة ولَسْعَا (ساحلى بلاد ١٥ حضرموت)؛ ثم بأَبْيَنَ؛ ثم بعدن؛ ثم بالمخنق؛ ثم بالعارة؛ ثم الباب بالمندب.

(١) قال البيرونى فى كتابه على الهند: سنكديب وهى جزيرة سرنديب (ص ١٠٢) وفى أبى الفدا سنكاديب.

(٢) الأغباب واحدها غُبّ. وهو — على ما قال البيرونى — كالزاوية والعطفة يدخل من البحر إلى البر ويكون للسفن فيه مخاوف وخاصة من جهة المد والجزر. والغَوْر هو شبه الغُبّ ولكنه ليس من جهة دخول البحر وإنما هو من مجىء المياه الجارية واتصاله بالبحر ساكنا ومخاوف السفن فيه من جهة العذوبة التى لا تستقلّ بالأثقال استقلال الملوحة بها (تحقيق ماللهند ص ١٠٢).

٢٠ (٣) مدينة بين حضرموت وعمان وهى الفُرضة لمدينة ظفار الواقعة على خمسة فراسخ منها.

وفيه من الجزائر المشهورة :

جزيرة سقوطرة . وطولها نحو من مائة وثمـانين ميلا ، وعرضها فى الوسط نحو خمسة عشر ميلا . وبها الصبر . يسكنها قوم من اليونان، تغلبوا على من كان فيها من الهنـد فى زمن الإسكندر . وبها عيون يقال إن الشرب منها يزيد فى العقل . ولهذا سميت فى الكتب القديمة جزيرة العقل . ٥

ويلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج، وبحر بربرا، ويسمى ساحله الزنجبار.

وفيه ممـا يلى بلاد اليمن جزائر منها :

جزيرة دعون[1]، وهى مدورة .

وجزيرة السود .

وجزيرة حورتان . ١٠

وجزيرة مروان . وفيها مدن يسكنها السُّرّاق ،وهى مقابلة لبلاد مهرة.

وجزائر الديبجات . وهى كثيرة. وأهلها مفرطون فى السواد. وجميع ماعندهم أسود، حتّى قصب السكر والكافور .

وجزيرة القُمْر . وتسمى جزيرة ملاى. وطولها أربعة أشهر، وعرض الواسع منها يزيد على عشرين يوما . وهى تحاذى جزيرة سرنديب . وفيها بلاد كثيرة أجلها ١٥ كيدانة، وملاى (وإليهـا تنسب الجزيرة) ودهمى ، وبليق ، وخافورا ، ودعلى، وقُمْرية (وإليها ينسب القُمْر) . ويقال : إن بهذه الجزيرة خشبا، ينحت من الخشبة

(١) من المعلوم أن العرب يسمون شبه الجزيرة بالجزيرة . ولم أجد لهذا الاسم أثرا فيما بين يدىّ من كتب المراجعة فلعلها هى التى ذكرها ياقوت باسم "دغوث" وقال إنها بلد بنواحى الشحر من أرض عمان أو لعلها "دغوطة" التى قال أبو الفدا انها آخر مدن سفالة وآخر العمارة فى البر المتصل . ٢٠

منه شانٍ[1] يكون طوله ستين ذراعا ، يحذف على ظهره مائة وستون رجلا .
ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل محلات يسكنونها فى سفح جبل يعرف بهم . ومنها يخرج نهر النيل[2] .

---

٦ — ويخرج من هذا البحر الذى يجمع هذه القطع خليجان

٥ أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس .

١ — فأما خليج القلزم. فخروجه من باب المَنْدَب. وهو جبل طوله آثنا عشر ميلا ، وسَعَة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البرّ الآخر . فاذا قارب المَنْدَب يمرّ فى جهة الشمال، بغلافقة، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجَرَدَة، ثم الشَّرْجَة، ثم عَثَّر (وكانت مقرّ ملك قديم) ثم بالسِّرَّيْن، وحَلْى، وعُسْفَان، والجَارُ ١٠ (وهى فرضة المدينة) والجُحْفَة ، والصَّفْراء، والحَوْراء ، ومَدْيَن، وأَيْلَةَ، والطُّور ، وفَارَان، ثم القُلْزُم (وكانت مدينة مسكونة، وكذلك أيلة) . ومن القلزم ينعطف من جهة الجنوب فيمرّ بالقُصَير (وهى فرضة لقوص) ثم إلى عَيْذَاب (وهى فُرْضة لبلاد البُجَّة)، ثم يمتدّ إلى زَيْلَع (وهى ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا .

وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل . وعرضه فى مواضع أربعمائة ميل، ودون ذلك ١٥ إلى مائتى ميل إلى ما دون ذلك .

وهو بحر كريه المنظر والرائحة .

---

(١) أى من السفن المعروفة بآسم الشوانى .

(٢) يخلط الجغرافيون العرب كثيرا بين هذه الجزائر المعروفة بالقُمْر (بضم فسكون) وبين الجبل المعروف بالقَمَر (بفتح فسكون) فيجعلونهما شيئا واحدا و يقولون بخروج منابع النيل من تلك الجزائر . وهذا ٢٠ أمر غير معقول .

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دُرْدُورَ عُمَان. لأنه فى سفح جبل إذا وقفت الريح على دُرْدُورَتِه انقطعت بنصفين على شُعْبَتَيْن متقابلتين، ثم يخرج من كُمِّ هاتين الشعبتين، فيثير البحر فتتبلّد السفن باختلاف الريح فلا تكاد تسلم. وهاتان الشعبتان تسميان الجبيلين، ومقدار هذا الموضع ستة أميال، ويسمى بركة الغُرُنْدُن[1]. ويقال: إنها التى أغرق الله فرعون وقومه فيها. فإذا كان للجنوب أدنى مهب، فلا يمكن سلوكه.

(٨٧)

وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة، العامر منها أربعة، وهى:

جزيرة دَهْلَك. يحيط بها نحو مائتى ميل، يسكنها قوم من الحبوش. مسلمون.

وجزيرة سواكن. وهى أقل من ميل فى ميل. وبينها وبين البحر الحبشى بحر قصير يخاض. وأهلها طائفة من البُجَّة تسمى الخاسد وهم مسلمون، ولهم بها ملك.

وجزيرة النعمان. وبها نويس[2] تعيش من لحوم السلاحف.

وجزيرة السامرىّ. يسكنها قوم من اليهود، سامرةٌ، فى عيش قَشِيف.

٢ — وأما خليج فارس. فإنه مثلث الشكل على هيئة القِلْع.

أحد أضلاعه من تِيز مُكْرَان. فيمر فى بلاد كَرْمان على هُرْمُز، ومن بلاد فارس على سِيرَاف، وتوح[3]، ونَجِيرَم، وجَنّابة، ودَارِين، وسِينِيز، ومَهْرُوبان، ومنها يُفضى

(١) الذى فى تقويم أبى الفداء: الغرندل باللام.

(٢) تصغير ناس.

(٣) هكذا فى الأصل وفى أبى الفدا. وأما ياقوت فقال إنها تَوَّج. (وضبطها أبو الفدا بضم التاء وسكون الواو) واتفق أبو الفدا وياقوت على أنها هى التى تسمى أيضا توز (ولكن ياقوت يضبطها بفتح فتشديد). والذى فى ياقوت هو الصواب كما يتضح من "لب اللباب" للسيوطى، ومن "لطائف المعارف" للثعالبى.

البحر إلىٰ عَبّادان، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمتر بالخط، وهو ساحل بلاد عُمَان إلىٰ صور، وهى ساحل بلاد عمان مما يلى بلاد اليمن؛ ثم يمتد إلىٰ رأس الجُمْحَة من بلاد مَهَرَة .

والضلع الآخر يمتد علىٰ سطح البحر من تِيزِ مُكْرَانَ إلىٰ رأس الجُمْحَة .

٥ وهذه الأضلاع غير متفاوتة فى الطول؛ فإن الضلع الذى يمتد علىٰ سطح البحر طوله خمسمائة ميل ، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدئ من تِيزِ مُكْرَان إلىٰ أن ينتهى إلىٰ عَبّادان ثم ينعطف إلىٰ أن يصل إلىٰ رأس الجُمْحَة، تسعمائة ميل .

وفيه مما يلى عَبّادان مكان يعرف بالدُّرْدُور . وهو بين جبلين ، أحدهما يسمى كُسَير، والآخر عُوَير. ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه "وآخر ما فيه

١٠ خير" لشدّة ما يرىٰ بها من الأهوال . وهى جبال سود ذاهبة فى الهواء يتكسر الماء علىٰ شُعَبها . ولا بدّ للراكب أن تمتر بينها، وقلّما تسلم .

وفى هذا البحر من الجزائر المشهورة علىٰ ألسنة التجار تسع ، منها أربعة عامرة ؛ وهى :

جزيرة خارَك . يحيط بها آثنا عشر ميلا . وهى عامرة آهلة كثيرة البساتين .

١٥ وبها مغاص اللؤلؤ .

وجزيرة كِيش . وبها مغاص اللؤلؤ أيضا . وهى آهلة . وتسمى هذه الجزيرة فى عصرنا هذا "قِيس" .

وجزيرة أُوال . وهى تجاه ساحل البحرَيْن، وبينهما يوم. وبها مدينة. وأوال مدينة من مدائن البحرين .

وجزيرة لافت . وتعرف بجزيرة بنى كاوان[1] . وطولها اثنان وخمسون ميلا ، وعرضها تسعة أميال . وهى آهلة .

وهاتان الجزيرتان معدودتان فى بلاد جُور من أعمال فارس .

ويقال أيضا إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث فى شمال الصقالبة ، ويمتد قرب بلد بلغار المسلمين ، ويسمى بحر أدريك ، منسوب إلى أمة على ساحله فى جهة الشمال ، ثم ينحرف نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك أرضون وجبال مجهولة خربة .

فهذا البحر المحيط وما يتفرع منه .

٧ — وأما بحر مانيطش[2]

ويسمى البحر الأسود وبحر سوداق . وهى مدينة على ساحله . هى فرضة لبلاد القفجاق مما يلى القسطنطينية . وعليه أيضا للقفجاق مدينة عظيمة تسمى قِرِم[3] ،

(١) ويسميها الإدريسى : ابن كاوان ، وغيره يسميها : بركاوان .

(٢) جرى المؤلف على تعريف هذا البحر بأنه المعروف بالبحر الاسود . والحقيقة أن بحر نيطش هو المعروف الآن بالبحر الأسود . وأما بحر مانيطش فهو المعروف ببحر آزاق وبحر آزوف . ومما يجب التنبيه عليه أن كثيرا من كتاب العرب يخلطون بين هذين البحرين . ولذلك قال المسعودىّ : "فبحر نيطش وبحر مانطش يجب أن يكونا بحرا واحدا ، وإن تضايق البحر فى بعض المواضع بينهما أو صار بين الماءين كالخليج . وليست تسمية ما اتسع منه وكثر ماؤه بمانطش . وما ضاق منه وقل ماؤه بنيطش ينبغى أن تجمعهما فى اسم مانطش أو نيطش . فإذا عبّرنا فى بعض المواضع فى مبسوط هذا الكتاب فقلنا "مانطش" أو "نيطش" فإنما نريد به هذا المعنى فيما اتسع من البحر وضاق" . (من مروج الذهب ، ص ٥٨) .

(٣) وبها سميت شبه الجزيرة الموجودة فى البحر الأسود وهى شبه جزيرة القرم .

مقصودة من كل الجهات . وبها علماء، وفقهاء، ورؤساء . وهى محدثة . مُصِّرَتْ فيما بين الثلاثين والأربعين وستمائة للهجرة النبوية . ويسمى هـذا البحر أيضا بحر الروس، لجزائر فيه يسكنها أمة تسمى الروس، نصارىٰ . وهو بحر ضخم كثير الأخوار والتروش[1] والجبال الجرش . وطوله من الشمال إلىٰ الجنوب ألف ميل وثلثمائة، وعرضه مختلف . ففى موضع ستمائة ميل، وفى موضع ثلثمائة ميل . والناس مختلفون فيه . فمنهم من يقول إنه بحر مستقل بنفسه، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب فى بحر الروم أو هو مغيض لخليج القسطنطينية . وأكثرهم علىٰ أنه بحر مستقل بنفسه لطوله وعرضه وكثرة جزائره . وبعضهم يقول إنه خليج يخرج من البحر المحيط علىٰ ظهر بلاد الصقالبة، ويحيط به بلاد البطلمية، وبلاد الغامانية، وبلاد الأزكشية، وبلاد الشركسية، وبلاد العلان[2] والعنكر والناشقرد .

وفيه ست جزائر عامرة، وهى كثيرة المدن والقرىٰ، يسكنها الروس .

---

٨ — وأما بحر الخزر

وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم . وذلك بحسب ما يمر عليه من البلاد . وهو — علىٰ ما حكاه ابن حوقل — مدوّر الشكل، ليس له اتصال ببحر آخر .

---

(١) فى الاصل التروس . ولكن الإدريسى يستعمل لفظة "التروش" بالشين المعجمة . ومعناها الشُّعَب أى الصخور التى تكون تحت سطح الماء قليلا فتكسر السفن وتتحطم إذا اصطدمت بها .

(٢) العلان ترك تنصروا وهم خلق كثير وقلعتهم إحدى قلاع العالم تتعمم بالسحاب (عن أبى الفدا) وبلادهم فى أرض قفجاق أو قفقاسية وهم المشهورون فى كتب العرب أيضا باسم اللان .

قال : ولو أن إنسانا طاف به ، لانتهى إلى الموضع الذى ابتدأ منه ، لا يقطعه عن ذلك إلا نهر يصب فيه[(١)] .

وفى شرقىّ هـذا البحر بعض بلاد الديلم ، و بلاد طبرستان ، وجُرْجان ، و بعض المسافة التى بين جرجان وخوارزم ؛ وغربيه بلاد أرّان ، و بلاد الخزر ، و بعض مفازة الغزية[(٢)] ، وشماليه مفازة الطُّغُزْغُزية ، وجنوبيه الجيل[(٣)] ، والديلم . وطوله ثمانمائة ميل ، وعرضه ستمائة ميل .

وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق" : طوله من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل[(٤)] ، وعرضه من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتِل ستمائة ميل[(٥)] ، وخمسون ميلا وهو يقطع عرضا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب فى أسبوع بالريح الطيبة ، وفيه أربع جزائر ، وهى :

جزيرة سياكوه[(٦)] . وهى تجاه آبسكون ، فرضة جرجان . يسكنها طائفة من الترك . يصاد بها البزاة البيض .

وجزيرة سهلان . وطولها نحو مائة ميل ، وعرضها نحو خمسين ميلا .

---

(١) هذا ملخص العبارة التى أوردها ابن حوقل (وانظر كتابه ص ١٣) .

(٢) فى الأصل : الغرنة . والتصحيح عن أبى الفدا .

(٣) فى الأصل : الختل (وهو تحريف ظاهر من النساخ) .

(٤) هكذا فى مقدمة الإدريسى (فى جميع النسخ) ولكنه عند كلامه على الجزء السابع من الإقليم الخامس نص على أن طول هذا البحر ٨٠٠ ميل وأن عرضه ٦٠٠ ميل (وهذا هو الذى نقله عنه أبو الفدا) ، ثم عاد الادريسى فقال ان طوله ٩٠٠ ميل .

(٥) فى الأصل مائه ميل [والتصحيح عن الإدريسى] .

(٦) فى الاصل : بساه كوه . (والتصحيح عن أبى الفدا) .

وجزيرة البركان[1]. وهي أطمة عظيمة تظهر منها نار في الهواء، كأشمخ ما يكون من الجبال . ترى من نحو مائه فرسخ من البر .

وجزيرة تجاه باب الأبواب . كثيرة المروج والأنهار . وهـذا البحر يقال إنه كثير التنانين .

٥ وقد آختلف فيها . فمن الناس من يقول إنهـا دواب تعظم في قعر البحر فتؤذى ما به من دواب، فيبعث الله عز وجل عليها السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها في أرض يأجوج ومأجوج، فتكون طعاما لهم . وهذا ممـا يحكى عن آبن عباس رضى الله عنهما . ومنهم من رأى أنهـا ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم وتلحق بالسحاب، كالزَّوْبعة التي تثور من الأرض وتستدير ثم تطول

١٠ في الهواء . فيتوهم الناس أنها حيّات سود .

وسائر البحار تَمُـدّ وتَجْزُرُ، خلا هذا البحر .

ويقـال إن علة المدّ والجزر تكون عن وضع المَلَك الموكل بقاموس البحر عقبه في أقصى بحر الصين، فيفور فيكون منـه المدّ ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر . (ومنهم من روى مكان العقب الإبهام) .

١٥ ومنهم من قال إن العلة فيه غير هذا كله .

والله أعلم !

---

(١) هي شـبه الجزيرة المعروفة الآن باسم "شيروان" . وفيها مدينة "باكو" المشهورة وهـذه المدينة سماها أبوالفدا "باكوى" وسماها المسعودى "بكه" وقال ان بها معدن النفط الأبيض (أى البترول) ثم قال وفى هذه النفاطة أَطَمَةٌ، وهى عين من عيون النار لاتهدأ على سائر الأوقات تتضرم الصعداء .

٢٠ فهذا هو الذى عناه النويرى باسم "البركان" .

ذكر ما فى المعمور من البحيرات المالحة المشهورة
وما بها من العجائب

وفى المعمور بحيرات مالحة :

فالذى آشتهر منها :

§ بحيرة خُوَارَزْم . وشكلها مثلث كالقِلْع ، وليس فى المعمور بحيرة أعظم منها . يحيط بها أربعمائة فرسخ . يصبُّ فيها نهرا سيحون وجيحون ، اللذان فى أرض الهياطلة ، وغيرُهما من الأنهار العظيمة الجارية فى بلاد الترك . وهى مع ذلك لا تزيد ولا تعذُب .

وزعم صاحب كتاب " نزهة المشتاق إلىٰ آختراق الآفاق " أن فى هذه البحيرة حيوانا يظهر علىٰ سطحها فى صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعا ، بلغة لا تُفْهَم ثم يغوص . وظهوره عندهم يدل علىٰ موت مَلِك من ملوك ذلك الحين .

§ ومنها بحيرة الطِّرِّيخ[1] : لسمك صغير يصاد منها ويحمل إلىٰ سائر بلاد أرمينيَةَ وأذْرَبيجان . وطولها أربع مراحلَ ، وعرضها مرحلة . يُجْمَع من أطرافها البُورَق . والسمكُ يوجد بها فى زمان مخصوص ، يأتيها فى نهر يصب إليها ، ويكثر حتّى يصاد بالأيدى . فإذا آنقضىٰ ذلك الزمان ، لا يوجد منه شىء آلبتة .

(١) وآسمها فى كتب الجغرافية العربية بحيرة أرْجيش ، وهذا السمك الذى سميت به ، كما فى "القاموس" سمك صغار تعالج بالملح وتؤكل . وقد عرَّفنا آبن حوقل أنه صغير مقدار الشبر يملح ويحمل الى الجزيرة والموصل والرقة وحران وحلب وسائر الثغور .

§وفى بلاد أذربيجان بحيرة كَبُوذان[1] . وكَبُوذان قرية فى جزيرة، يسكنها ملّاحو المراكب التى يُرْكَب فيها من هـذه البحيرة . وطول هـذه البحيرة نحو ثلاثة أيام، وعرضها كذلك . وفيها جزائر : منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمّى تلا . ولا يكون بهذه البحيرة حيوان ألبتةَ ، لأن ماءها منتن ردىء .

٥ §وفى بلاد البَحرينِ بُحَيرة . وبها وبالبحر الكبير سميت أرض هَجَر : "البحرين".

§وفى الشام بأرض الغَوْر بحيرة زُغَر، وتسمّى المُنتِنةَ والميتة . لأنها لا يعيش بها حيوان ولا يتكوّن فيها شىء مما يتكوّن فى المياه الجارية والراكدة من الحيوانات. وطولها ستون ميلا، وعرضها اثنا عشر ميلا .

ويقال إنهـا ديار قوم لوط التى خَسَفهم الله بها . ويقال إنها كانت خمس مُدُن،
١٠ أسمـاؤها : "ضيعه"، و"ضعوه"، و"عمره"، و"دوما"، و"سذوم" . وكانت سذوم أكبرها وأعظمها .

ويُصبُّ فى هذه البحيرة نهر الأُرْدُنّ وغيرُه من الأنهار الصغار والسـيول من بلاد الكَرَك وغيرها، فلا تزيد . ويقال إن لها مَنْفَـذا إلىٰ بحر القُلْزم. وبساحلها الشرقىّ إلىٰ حدّ أَرِيحا معدِنُ الكبريت الأبيض، يُحْفَر عليه ويُخْرَج . ويتكوّن فى هذه البحيرة
١٥ شىء علىٰ شكل البقر، ويطفو علىٰ وجهها ويتفقع، فيجمع منه شىء أسود يسـمونه "الحُمَر" وينقل إلىٰ قلعة الكَرَك يدّخر بها ، يدخل فى النِّفط .

(١) هى التى ذكرها أبوالفدا باسم "بحيرة تلا" و ياقوت بأسم "بحيرة أُرْمِيَة" . وقد ذكر أن فى وسطها جبلا يقال له "كبوذان" وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها ملّاحو سفن هـذا البحر (معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨) .

§ وفى أعمال مصر بحيرة تِنِّيس ، مقدارها إقلاع يوم فى[عرض](١) نصف يوم. يكون ماؤها فى أكثر السنة مِلْحا من دخول ماء البحر الرومىّ إليها ، فإذا مَدّ النيلُ صبّ فيها فتحلو فإذا جَزَرَ مَلُحت .

(٨٩) ويقال : إنه كان فى مكانها بَرٌّ مسلوك تغلّب عليه البحر فى ليلة واحدة، فما كانت أرضه مستفِلة غرق، وما كانت أرضه عالية مثل تِنِّيس وتُونَةَ بقى .

وفى وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سِنْجار، يسكنها قوم صيادون .

وقال إبراهيم بن وصيف شاه فى "كتاب العجائب الكبير": إن بحيرة تِنِّيس كانت أجِنَّةً وكروما ومنازلَ ومنتزَهات ، وكانت مقسومة بين مَلِكين من ولد أَتْرِيبَ بن مصر، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا ، فأنفق المؤمن ماله فى وجوه البِرّ حتّى باع حصته من أخيه وفترق مالها أيضا، فأصلحها أخوه وزاد فيها غُرُوسا وفَجَّر فيها أنهارا وبنىٰ فيها بنيانا ، وآحتاج أخوه إلىٰ ما فى يده فكان يمنَعُه ويفتخر عليه بما فى يده من المال والأجِنَّة ، فخاطبه أخوه فى بعض الأيام فسطا عليه، وقال : أنا أَكْثَرُ مِنْك مالا وولدا وخيرا ، فقال له أخوه : فما أراك شاكرا لله تعالىٰ علىٰ ما رزقك ، ويوشك أن ينزِع ذلك منك . ويقال : إنه دعا عليه فغترق ماء البحر ما كان له فى ليلة واحدة .

وقيل : إن هذين اللذان ذكرهما الله تعالىٰ فى كتابه العزيز، فقال : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ الآيات، والله تعالى أعلم .

وبالقرب من الإسكندرية بحيرة، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك، يدخل إليها الماء من بحر الروم من مكان الأُشْتُوم ، ويخرج منها إلىٰ بحيرة أخرىٰ دونها

(١) الزيادة من "معجم ياقوت" .

في خليج عليه مدينتان، إحداهما تسمّى الجدية، والأخرى تسمّى أتلو[1] كثيرة المقات والنخل، وكلها في الرمل. ويصب في البحيرة خليج من النيل يسمّى "الحافر" طوله نصف يوم إقلاعا، وهو كثير الطير والسمك والعُشب.

§ وفي بلاد إفريقية بحيرة بَنْزَرْت ماؤها مِلْح، وطولها ستة عشر ميلا، وعرضها ثمانية أميال. وعلى عشرة أميال منها بحيرة ماؤها عذب تسمّى بحيرة مِتّيجة[1]. فإذا جاء الشتاء وكثُرت السيول، غاضت بحيرة بنْزَرْت، وفاضت بحيرة متّيجة حتّى تمدّها ستة شهور فلا يحلو ماؤها؛ فإذا انقضى زمن الشتاء وجاء الصيف، غاضت بحيرة متّيجة، وفاضت بحيرة بنْزَرْت فلا يملُح ماؤها. ويصاد في هذه البحيرة في كل شهرين من شهور السنة نوعٌ من السمك لا يخالطه غيره؛ وأهل الناحية يعرفون دخول الشهور بتغيُّر السمك فيها.

§ وحكى صاحب كتاب "مَبَاهِج الفِكَر ومَنَاهِج العبر": أن بقوم بلاد أرمينيَةَ بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستةَ أشهر كواملَ، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع. وهذا دأبها مدى الزمان.

§ وبخِلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضِفْدَع ولا سَرَطان عشرةَ أشهر من السنة، ثم يظهر ذلك كله في الشهرين الباقيين.

---

(١) كذا بالأصل وفي معجم ياقوت "أتكو" بلدة قرية من نواحي مصر قرب رشيد.

(١) وزنها في القاموس بسكّينة.

§ وبقرية من ناحية بَنْجِهِير[1] من بلاد خراسان بحيرةٌ، ما غُمِس فيها شيءٌ إلا ذاب: حديدًا كان أو خشبا .

§ وكذلك بركة النَّطْرون التى بأرض مصر ما وقع فيها شيء إلا صار نَطْرونا حتّى العظم والحجارة .

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر البحر

(ما جاء من ذلك على لفظ أفعل)

يقال : أعْمَقُ من البحر . أنْدَى من البحر .

ويقال : حدِّثْ عن البَحْر ولا حَرَجَ .

ويقال : جاء بالطَّمِّ والرَّمِّ . والطَّم البحر، والرَّم البر .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يملِكُ البحرُ أن لا يَفِيضَا ؟ * * ومَنْ وردَ البحرَ استقلَّ السَّواقِيَا ! *

* أنا الغريق، فما خوفى من البلل ؟ *

ومن الأبيات :

هو البحرُ إلا أنّه عَذْبُ مَوْرِدٍ، * وذا عجبٌ أنَّ العُذُوبةَ فى البَحْر!

وقال ابن الرومىّ :

كالبَحْرِ يَرْسُبُ فيه لُؤْلُؤُه * سُفْلًا، وتَعْلُو فوقَهُ جِيَفُهْ .

(١) فى الأصل "بنجهير" وهى على ما قال ياقوت مدينة بنواحى بلخ . فلذلك أظن أن ذلك الاسم محرف عن "بَنْجَدِيه" التى قال ياقوت إنها من نواحى خراسان وهو الصقع الذى أشار إليه المؤلف . نعم إن ياقوت لم يذكر هذه البحيرة عند كلامه على كل من المدينتين ولكن المسعودىّ نص على أن بنجهير من أرض خراسان (ج ٢ ص ١٥ طبع أوروبا) .

ومثله قول الآخر :

كمثلِ البَحْرِ يَغْرَقُ فيه حَيٌّ، * ولا يَنْفَكُّ تطفُو فيه جيفَهْ.

وقال ابن الرومىّ :

ألا فَارْجُهُ وَاخْشَـــهُ إنه * هو البحرُ: فيه الغنىٰ والغَرَق!

٥ وقال أبو نُوَاس :

مَنْ قاسَ غيرَكُمُ بِكُمْ، * قاس الثَّمَـادَ إلىٰ البُحُور!

وقال آخر :

إذا كنتُ قُرْبَ البَحْرِ مالِيَ مَخْلَصٌ * إليه، فما يُغْنِي اقْتِرابِي من البحر!

وقال آخر :

١٠ كالبحر يَقْذِفُ للقَرِيبِ جَواهِرًا * منه، ويُرْسِـــلُ للبَعيد سَحائبا.

ذكر شيء مما قيل في وصف البحر وتشبيهه

قال ابن رشيق عفا الله عنه :

البحرُ مُرُّ المَذَاقِ صَعْبٌ * لاجُعِلَتْ حاجتِي إليْـه.

أليس ماءً ونحنُ طِينٌ ؟ * فما عسىٰ صَبْرُنا عليه؟

١٥ وقال ابن حمديس :

لا أركبُ البحرَ، أخشىٰ * عَلَىّ منـــه المَعاطِبْ!

طِينٌ أنَا وهو ماءٌ، * والطِّينُ في الماء ذائبْ.

وقال آخر :

وزاخِرٍ ليس له صَـــوْلَةٌ * إلَّا إذا ما هَبَّتِ الرِّيحُ.

٢٠ فهُو إذا ما سكنَتْ ساكِنٌ * كأنما الرِّيح له رُوحُ.

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :

تناهىٰ البحرُ فى عَرْضٍ وطُولٍ، * وليس له علىٰ التحقيقِ كُنْهُ.
وأعْجَبُ كلّما شاهدتُ فيه * سلامَتَنا علىٰ الأهوال مِنْهُ.
فحسبي أنْ أراهُ من بَعيدٍ * وأهرُبُ فوق ظَهْرِ الأرض عنْهُ.

ومما وصف به البحر والسفن

قول بشر بن أبي خازم :

أُطاعنُ صَفَّهم ولقد أرَانِي * علىٰ زَوْرَاء تسجُد للرِّياحِ.
إذا اعترضَتْ براكبها خليجا، * تَذَكَّر ما عليه من جُنَاحِ.
ونحنُ علىٰ جوانبِها قعودٌ، * نغُضُّ الطَّرْف كالإبل القِماحِ.

وقال ابن تولو من أبيات :

تحثُّ بِنَا فيه قِلَاصٌ كأنها * وِعَالٌ، تبدّتْ من جِبالٍ شواهِقِ.
لها كافِلَا ماءٍ وريحٍ كِلَاهُما * يعلِّمُها فى الجَرْيِ سبْقَ السَّوابِقِ.
إذا انحدَرَتْ، فالماءُ ألطفُ قائدٍ، * وإنْ صَعِدتْ، فالريحُ أعسَفُ سائقِ.

وقال السلامىّ :

ومَيْدانٍ تَجُول به خُيُولٌ * تقودُ الدَّارِعينَ ولا تُقَادُ.
ركِبتُ به إلىٰ اللَّذّات طِرْفا * له جِسْمٌ، وليس له فُؤادُ!
جرىٰ فظننْتُ أنّ الأرض وَجْهٌ، * ودِجلَةَ ناظِرٌ، وهو السَّوَادُ.

وقال محمد بن هانئ :

مُعَطَّفةُ الأعناقِ نَحْوَ مُتُونِها * كما نَبَّهتْ أيْدِى الحُواةِ الأفَاعِيا.

إذا أعملُوا فيها المَجاذِيف سُرْعةً، * ترىٰ عَقْربا منها علىٰ الماء ماشِيا.
إذا ما وَرَدْنَ الماءَ شَوْقا لبَرْدِه، * صدَرْنَ ـ ولم يَشْرَبْنَ ـ غَرْثىٰ صَوادِيا.

وقال الرستمىّ :

لم تَزَلْ مُشْفِقِينَ مُذْقيل: سارَتْ * بك دُهْمٌ قليلةُ الأوْضاحِ.
أصلُها البَرُّ وهى ساكنةٌ فى البحر سُكْنىٰ إقامةٍ لا بَراحِ. ٥
هِىَ فى الماءِ وهى صِفْرٌ من الما * ءِ سوىٰ نَضْحِ مَوْجِها النَّضّاحِ.
فإذا أُوقِرَتْ، فذاتُ وَقارٍ، * وإذا أُخْلِيتْ، فذاتُ جِماحِ.
وتَراها فى اللُّجِّ ذاتَ جناحيْنِ وإن لم تكنْ بِذاتِ جَناحِ.
مِنْ مَطَايَا لا يَغْتَذِين ولا يَسْـ * ـأمْنَ سَيْرَ البُكُورِ بعدَ الرَّواحِ.
مُنْشَآتٌ من الجَوارِى اللَّواتِى * لَسْنَ من صَنْعة الجَوارِى المِلاحِ. ١٠
والداتٌ مُوَلَّداتٌ بلا حِلْـ * ـلِ نِكاحٍ ولا حَرامٍ سِفاحِ.
لا مِنَ البِيضِ بل من السُّودِ ألْوا * نًا وذاتِ الألْواحِ والأرْواحِ.
طائراتٌ مع الرِّياحِ، وطَوْرًا * كاسِراتٌ بالجَرْى حَدَّ الرِّياحِ.
سائراتٌ لا يَشْتكِينَ سُرىٰ الليـ * ـلِ ولا يرتَقِبْنَ ضَوْءَ الصَّباحِ.
ساكِناتٌ بلا خُضُوعِ سُكُونٍ، * جامِحاتٌ بلا غَرامِ جِماحِ. ١٥
لا يَخَفْنَ الغِارَ يُقْذَفْن فيها، * ويَخَفْنَ المُرُورَ بالضَّحْضاحِ.
إنْ صَدَمْنَ الحصىٰ عَطِبْنَ ولا يعـ * ـطَبْنَ إمَّا صَدَمْنَ حَدَّ الرِّماحِ.
مارأىٰ الناسُ من قصورٍ علىٰ الما * ءِ سِواهَا يَسِيرُ سَيْرَ القِداحِ. (٩١)
يتَسَبْسَبْنَ كالأساوِدِ فى الخِفْـ * ـفةِ لا فى معادة الأشْباحِ.
فإذا ما تقابَلَتْ، قلت: نُوْدٌ * من كِباشٍ تقابلَتْ للنِّطاحِ. ٢٠

شُرْعُها البِيضُ كالنعامات فى الصَّيْـــف صِحَاحًا منها وغـــيْرَ صِحَاحِ.
كم مُـــدِلٍّ بالجاه والمـالِ فيها، * وبه حاجـــةٌ إلى المَـــلَّاحِ!
قائدٍ جُنْـــدَه لهـــمْ أدواتٌ * نَفْعُها ثَمَّ فـــوقَ نفع السِّـــلَاحِ.
فإذا البحـــرُ صالَ، صالُوا عليها * بِمَـــوَاضٍ تَمْضى بغـــيْرِ جِراحِ.
يُكْثِرُون الصِّـــياحَ حتّى كأنَّ السُّـــفْنَ تَجْرى من خَوْف ذاكَ الصِّياحِ. ٥

ومما وصفت به البحار والسفن شعرا

قال أبو عمرو صاحب الصلاة القرطبيّ يصف شانِيًا(١) سافر فيه :

"فارقتُ مولاىَ حين أخذتُ للسَّفَر عُدَّةَ الحَزْم، وشدَدتُ عُقدة العزم، وآنتظمتُ مع السَّفْر فى سلك، وركبنا على آسم الله ظهرَ الفُلْك، فى شانٍ عظيم الشان، أحدقَتْ به النُّطقُ إحداقَ الحَيَازِم، وأمسكَتْه إمساكَ الأَبَازِمْ، ثم نُتِّعَ خَلَلُه فسُدّ، ورِخْوه فشُدّ، حذرًا على ألواحه من الإنخاع، وآتصلتْ بعَرَانِيسِه آتصالَ الجلود بالأضْلاع، ثم جُلْبِبتْ جِلْبابا من القار، وضُمِّخ فى المتنَيْنِ والفَقَار، فامتاز بأغرب مِيسَم، وعاد كالغُراب الأَعْصَم(٢)، قد حَسُن منه المَخْبر، وكأنّ الكافور قد قُرِن فيه بالعَنْبر. له من التماسيح أجنابُها، ومن الخَطَاطيف أذنابُها، وآستقلّت رجله بفِراشها، آستقلالَ السِّهام بِرِيَاشها، وقد مدّ قِلْعيه ذراعيه متلقيا من وَفْد الرياح مصالِحه، ومستهديا منها منالحه. تقلّد الحكم عليها إِشْتِيَامٌ(٣) ذو تيقظ وآستبصار، وآستدلالٍ على الأعماق ١٠ ١٥

(١) الشانى آسم لنوع من السفن التجارية والحربية عند المسلمين وجمعه شوانى.

(٢) أى الأبيض الجناحين (عن تاج العروس).

(٣) الإشتيام هو رئيس الملّاحين، لفظ أعجمىّ أخذه العرب (راجع الجواليقىّ) ٢٠

والأقصار، يستدلُّ باختلاف المياه إذا جَرىٰ، ويهتدى بالنجوم إذا سرىٰ، قد جعل السماء مِرْآة ينظُر فيها، ويحـذَر من دَجْنٍ يوافيها، فإذا أصدأها ٱلظلامُ بحَنادِسه، وصقلها ٱلضياء بمَدَاوسه، يسبِّح الله فى مَصْبَحه ومَمْساه، ويُسْمِل فى مَجْراه ومَرْساه، ويذكر ربًّا يحفَظُه ولا ينساه. قد ٱتخذ فيه مُوَاتِيَـه، من أنجد النَّواتِيه، مشمِّرين الأثواب، مدَبِّرين بالصواب، يفهَمُون عنه بالإيماء، ويتصرَّفون له تصرُّف الأفعال للأسماء، ويترنَّمون عند الجَذْب والدَّفْع، والحَطّ والرفع: بهَيْنَمةٍ تبعثهم علىٰ النَّشَاط. والجَمَام(١)، وتؤدِّيهم فى عملهم بالتمام. فخرجنا ونَفْحُ الريح نَسِيم، ووجه البحر وَسِيم، وراحةُ الرِّيح تُصافحُ عُبَابه مُصافحَة الحِلّ، وتطوِى جَنَـاحه طَىَّ السِّجِل، وتجول من لُجَّه أبرادا، وتَصُوغُ من حُبُكه أزرادا: كأنمـا ترسُم فى أديمٍ رَقْشا، أو تفتَحُ فى فُصوصٍ نَقْشا. فلما توسطنا ثَبَجَ البَحْر، وصرنا منه بين السَّحْر والنَّحر، صَحَتِ الريح من سُكْرِها، وطارت من وَكْرها، فسمعنا من دَوِىّ البحر زئيرا، ومن حبال الشانِى صَفِيرا، ورأيناه يُزْبِد ويضطرب، كأنَّه بكأس الجنوب قد شَرِب، وٱستقبلنا منـه وجهٌ باسر، وطارت من أمواجه عِقْبانٌ كواسِرْ، يضْـطَرِب ويصْطَفق، ويختلف ولايتَّفِق، كأن الجوّ يأخُذُ بنواصِيها، ويجْذِبها من أقاصيها، والشانى تلعب به أكُفُّ الموج، ويَفْحَص منها بكلكله فوجًا بعـد فَوْج، ويجوب منها ما بين أنْجاد وأَغْوار، وخنادقَ وأسوار، والبحرُ تحتَنا كأرض تميد بأهلها، وتتزلزل بوعْرِها وسَهْلِها، ونحن قُعودٌ، دُودٌ علىٰ عُود، قد نبَتْ بنا من القَلَق أمكنَتُنا، وخَرِستْ من الفَرَق ألسنتُنا، والرَّشُّ يكتَنِفُنا من كل جانب، ويَسِيلُ من أثوابنـا سيلَ المَذَانِب. فشمِمْنا رِيحَ الموت، وظننَّا التلفَ والفَوْت، وبقينا فى هَمٍّ ناصب، وعذابٍ واصب، حتَّى ٱنتهينا

(١) ذهاب الإعياء والتعب.

إلىٰ كَنَف الجَوْن، وصرنا منه فى كنّ وصَوْن ؛ وهدأ من البحر ما آستشرىٰ، وتنادَيْنا بالبُشْرىٰ ؛ ووطِئْنا من الأرض جدَدًا، ولبسنا أثواب الحياة جُدُدا ! ... ... "

(٩٢) ومن رسالة لأبى عامر بن عقال الأندلسىّ عفا الله عنه

جاء منها : ٥

"... وكان جَوَازه، أيده الله علىٰ بحر ساكن، قد ذل بعد آستصعابه، وسَهُل بعد أن رأىٰ الشامخ من هِضَابه ؛ وصار حيُّه ميْتا، وهديره صَمْتا ؛ وجِبالُه لاتَرىٰ بها عِوَجًا ولا أَمْتا ؛ وضَعُف بعد تعاطيه، وعَقَدَ السِّلْمَ بين موجه وشاطِيه . فعبرَ آمِناً من لهَوَاته، متملّكا لصَهَواته ؛ علىٰ جواد يقطَع البحر سَبْحا ، ويكاد يسبِق الريحَ لَمْحا ؛ لا يحمل لِجامًا ولا سَرْجا، ولا يعرف غير اللُّجّة سَرْجا ؛ فلله هو من جواد، له جسمٌ وليس له فُؤاد ؛ يخترِق الهواء ولا يَرْهَبُه، ويركض فى المـاء ولا يَشْرَبُه ! ... ... " ١٠

ومن رسالة للأُستاذ آبن العميد فى مثل ذلك

جاء منها :

"... وكأن العشاريات وقد رُدِّيتْ بالقار، وحُلِّيت باللُّجَين والنُّضَار، عرائسُ منشورةُ الذوائب، مخضوبة الحواجب ؛ موشحةُ المَناكِب، مقلَّدة الترائب ؛ متوَّجة المَفَارق، مكلَّلة العواتِق، فِضّـية الحُلَلِ والقَراطق ؛ أو طواويس أَبْرزَتْ رقابهـا ، ونشرت أجنحتها وأذنابَها ؛ وكأنها إذا جدّتْ فى اللَّحَاق، وتنافست فى السِّـباق ؛ نوافِرُ نَعام، أوحوافِلُ أنعام ؛ أو عقاربُ شالت بالإبَر، أودُهْمُ الخيل واضحة المحجول والغُرر ؛ وكأن المجاديف طير تنفُض خوافيها، أو حبائبُ تعانِقُ حبائب بأيديها ... ... " ١٥ ٢٠

الباب السابع

من القسم الرابع من الفن الأول

في العيون والأنهار والغُدْران

وما وُصِفت به البرك والدواليبُ والنَّواعير والجَداول

٥ قال الله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال المفسرون : هو المطر . ومعنىٰ سَلَكه أدخله في الأرض ، وجعله عيونا ومسالك ومجارِيَ كالعُروق في الجسَد .

قال أبو الفرج، قدامةُ بن جعفر: مجموع ما في المعمور من الأنهار في الأقاليم السبعة مائة نهر وأربعة وثمانون نهرا، منها :

١٠ في الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم الثالث ستة وعشرون نهرا ؛ وفي الاقليم الرابع أربعة وعشرون نهرا ؛ وفي الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم السادس ستة وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهرا .

ثم قال : وفي هذه الأنهار ماجَرَيانه من المشرق إلىٰ المغرب، كنهر نَهاوَنْد ونهر

١٥ سِجِسْتان ؛ وماجَرَيانه من الشمال إلىٰ الجنوب كدِجْلة ؛ وماجَرَيانه من الجنوب إلىٰ الشمال ، كنهر النِّيل ونهر مِهْران؛ وماجَرَيانه مركَّب من هذه الجهات ، كنهر الفراتُ وجَيْحُون ونهر الكُرِّ .

وسنذكر المشهور منها .

فأما نهـــر النيـــل

§ فزعم قُدامة بن جعفر أن آنبعاثه من جبل القمر و راء خطّ الآستواء، من عين تجرى منها عشرة أنهار، كلُّ خمسة منها تنصب إلىٰ بَطِيحة . ثم يخرج من كل بطيحة نهران . وتجرى الأنهـار الأربعة إلىٰ بَطِيحة كبيرة فى الإقليم الأوّل . ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل .

§ وقال صاحب كتاب " نزهة المشتاق إلىٰ آختراق الآفاق " : « إن هذه البحيرة تسمّٰى بحيرة كُورَى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها، متوحّشُون : يأكلون من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانَةَ، ونهر الحبشة؛ فإذا خرج النِّيـل منها يشق بلاد كُورَى ثم بلاد نته (طائفة من السودان أيضا، وهم بين كانم والنُّوبة)، فإذا بلغ دُنْقُلة (مدينة النوبة) عَطَف من غربيها إلىٰ المغرب، وآنحدر الى الإقليم الثانى . فيكون علىٰ شطّيه عمارة النُّوبة . وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرىٰ . ثم يشرّق إلىٰ الجَنَادل، و إليهـا تنتهى مراكب النوبة آنحدارا، ومراكب الصعيد إقلاعا . وهناك أحجار مضرسة لا مُرورَ للمراكب عليها إلا فى إبّان زيادة النيل . ثم يأخذ علىٰ الشّمال فيكون علىٰ شرقيّه مدينة أُسْـوان من بلاد الصعيد الأعلىٰ؛ ثم يمرّ بين جبلين هما يكتنفان لأعمال مصرَ، أحدهما شرقىّ والآخر غربىّ حتّى يأتى مدينة مصر فتكون فى شرقيه (١) . فإذا تجاوزها بمسافة يوم، آنقسم قسمين : أحدهما يمرّ حتّٰى يصب فى بحر الروم عند مدينة دمْياط، ويسمّٰى بحر الشرق؛ والآخر — وهو عمود النيل ومعظمه — يمرّ إلىٰ أن يصب فى بحر الروم أيضا عند مدينة رَشِيد، ويسمّٰى بحر الغرب .

(١) يشير إلىٰ الفسطاط، أى مصر العتيقة فى عرفنا الآن .

§ قالوا : وتكون مسافة النيل من منبعه إلىٰ أن يصب في رشيد سَبْعمائةِ فرسخ وثمانيةً وأربعين فرسخا . وقيل إنه يجرى في الخراب أربعةَ أشهر، وفي بلاد السودان شهرين، وفي بلاد الإسلام شهرا . »

§ وروىٰ البخارى في "صحيحه" عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) في حديث المعراج، قال: "ثم رُفِعتُ إلىٰ سِدْرة المنتهىٰ، فإذا نَبْقُها مثل قِلَال هَجَر، وإذا ورَقُها مثل آذانِ الفِيلَة . (قال: هذه سدرة المنتهىٰ) وإذا أربعةُ أنهار نهرانِ باطنانِ، ونهرانِ ظاهرانِ، فقلتُ: ما هذا ياجبريلُ؟ قال: أمّا الباطنانِ، فنهران في الجنة؛ وأمّا الظاهران، فالنيلُ والفُراتُ" . وليس في الأرض نهر يزيد حين تنقص الأنهار وتغيض، غيره . وذلك أن زيادته تكون في الفيظ الشديد في شمس السَّرطان والأسد والسنْبُلة .

§ وقد حكى في فضائل مصر أن الأنهار تمدّه بمائها، وذلك عن أمر الله تعالىٰ .

وقال قوم : إن زيادته من ثلوج يُذيبها الصيفُ علىٰ حسب مَدَدها، كثيرة كانت أو قليلة؛ وفي مَدَده آختلاف كثير .

§ وكان منتهىٰ زيادته قديما ستة عشر ذراعا، والذراع أربعة وعشرون إصبعا، بمقياس مصر . فان زاد عن ذلك ذراعا واحدا، زاد في الخراج مائة ألف دينار : لما يُرْوى من الأراضي العالية .

والغاية القصوىٰ في الزيادة ثمانية عشر ذراعا في مقياس مصر[1] . فإذا انتهىٰ إلىٰ هذا الحدّ، كان في الصعيد الأعلىٰ آثنين وعشرين ذراعا : لآرتفاع البِقاع التي يمرّ عليها .

فإذا آنتهت زيادتُه، فتحت خُلْجانات وترع تتخرّقُ المياه فيها يميناً وشمالا إلىٰ البلاد البعيدة عن مجرىٰ النيل .

§ وللنيل ثمان خُلْجانات . وهى : خليج الإسكندرية ؛ وخليج دِمياط ؛ وخَليج مَنْف ؛ وخليج المَنْهىٰ (حفره يوسفُ الصدّيق عليه السلام) ؛ وخليج أُشْموم طَنَّاح ؛ وخليج سَرْدُوس (حفره هامانُ لفرعونَ) ؛ وخليج سَخَا ؛ وخليجٌ حفره عَمْرو بن العاص، يجرى إلىٰ أن يصُبَّ فى السِّباخ .

§ ويحصل لأهل مصر إذا وفىٰ النيلُ ستة عشر ذراعا — وهى قانون الرىّ — فَرَحٌ عظيم : بحيث إن السلطان يركَبُ فى خواصّ دولته وأكابر الأمراء فى الحَرَاريق إلىٰ المِقْياس، ويمدّ فيه سماطا يأكل منه الخواصّ والعوام، ويَخْلَع علىٰ القَيَّاس، ويَصله بصلة مقرّرةٍ له فى كلّ سنة .

§ وقد ذكر بعض المفسرين "للكتاب العزيز" أن يوم "وفاء النيل" هو اليوم الذى وَعَد فيه فرعون موسىٰ بالاجتماع ؛ وهو قوله تعالى إخبارا عن فرعون ﴿قالَ موْعِدُكُمْ يومُ الزِّينَةِ وأنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ . والعادة جارية أن آجتماع الناس للتخليق فى هذا الوقت .

ومتىٰ قصَّر النيل عن هذا المقدار، غلَتِ الأسعارُ .

وهو إذا آبتدأ فى زيادته يكون مخْضَرًّا، ثم محمرّا، ثم كَدِرا .

وإذا آنتهى فى الزيادة غشّى الأرض، وتصير القرىٰ فوقَ الرَّوابى فلا يُتوصَّل إليها إلا فى المراكب أو علىٰ الجسور الممتدّة التى تُنفَق عليها الأموال الكثيرة وتتخذ لحفظ الماء .

فإذا آنتهى رىّ مكان وأخذ حدّه ، قُطِع جَسْر ذلك المكان من مكان معروف (يعرفه خَوَلة البلاد ومشايخها) تروىٰ منه الجهة التى تليها مع ماتجمع فيها من الماء المختص بها . ولولا إتقان هذه الجسور وحفر الترع لَقَلَّ الآنتفاع بالنيل .

§ وقد حكى أنه كان يُرْصَد لعمارة الجسور فى كل سنة ثلثُ الخَرَاج لعنايتهم بها : لما يترتب عليها من المصالح، ويحصُل بها من النفع فى رىّ البلاد .

§ وقد وصف بعض الشعراء، النيل فى طلوعه وهُبُوطه ، فقال :

واهًا لهذا النِّيلِ ، أىُّ عَجِيبةٍ * بِكْرٍ بمثل حديثها لا يُسْمَعُ!
يَلْقىٰ الثرىٰ فى العامِ وهو مسَلِّم * حتى إذا ما مُلَّ عادَ يُوَدِّعُ .
مستَقْبَلٌ مثلَ الهلال، فدهْرُه * أبدا يَزِيد كما يَزِيد ويَرْجِعُ .

وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات، نذكرها بعدُ إن شاء الله تعالىٰ فى موضعها .

§ وهذا النهر مخالف فى جريه لسائر الأنهار، لأنه يجرِى مما يَلِى الجنوب مستقبل الشمال . وكذلك نهر مِهْرانَ بالسِّند، ونهر الأُرُنْط ، وهو نهر حِمْص وحَمَاةَ، ويسمّى العاصىَ لمخالفته للأنهار فى جريها . وماعداها من الأنهار جريُها من الشمال إلىٰ الجَنُوب : لآرتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه . (٩٤)

وهو أخفُّ المياه وأحلاها وأعمُّها نفعا وأكثرُها خراجا .

§ وقد حُكى أنه جُبِي فى أيام كيقاوش (أحد ملوك القبط الأُوَل) مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار، وجباه عمرو بن العاص آثنَىْ عشرَ ألف ألف دينار، ثم رَذُل إلىٰ أن جُبِيَ أيام القائد جوهر (مَوْلىٰ المعزّ العُبيدىّ) ثلاثةَ آلاف ألف ومائتَىْ ألف دينار .

وسبب تقهقره أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنْفَق فى حفر تُرعه وإتقان جسوره وإزالة ماهو شاغل للأرض عن الزراعة كالقَصَب والحَلْفاء .

وحكى ٱبن لَهِيعة أن المرتَّبين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل : سبعُون ألفا للصعيد، وخمسون ألفا للوجه البحرىّ .

وحكى ٱبنُ زولاق أن أحمد بن المدبر لما وَلِى الخراج بمصر، كشَف أرضها فوجد غامرها أكثَرَ من عامرها، فقال : والله لو عَمَرها السلطان، لوفَتْ له بخراج الدنيا . ٥

§ وقيل إنها مُسِحَتْ أيامَ هشام بن عبد الملك، فكان ما يركبه الماء العامر والغامر مائةَ ألفِ ألف فدان. والفدان أربعمائة قصبة، والقصبة عشرة أذرع .

وٱعتبر أحمد بن المدبر مايصلح للزراعة بمصر فى وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرينَ ألف ألف فدان. والباقى ٱستَبْحَر وتَلِف . ١٠

وٱعتبر مدّة الحَرْث فوجدها ستين يوما. والحراث يحرُث خمسين فدانا، فكانت محتاجة إلى أربعمائة ألف وثمانين ألف حرّاث .

وأما الفـــرات

فهو أحد الرافدين، ويقال الوافِدين، والآخر دجلة ، سميا بذلك لأنهما يجريان فى جانبى بغـداد : دجلة من شرقيها ، والفرات من غربيها : يأتى إليها من دجلة من واسط ، والبصرة ، والأُبُلة ، والأهواز، وفارس، وعُمَان، واليمامة، والبحرين، وسائر بلاد الهند، والسند، والصين؛ ويأتى إليها من الفرات من الموْصِل، وأَذْرَبِيجان، وأَرْمينِيَة، والجزيرة، والثغور، والشام، ومصر، والمغرب؛ وقد تقدّم ذكرنا لحديث البخارى أنه يجرى من تحت سدرة المنتهى . ١٥ ٢٠

وأما مبتدأ جريه الذى يعرفه الناس، فمن مدينة قاليقَلَا من نهر يسمّى أودَخش، ويجرى مقدار أربعمائة وخمسين ميلا مغرِّبا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتّى يمرّ بين ثغرَىْ مَلَطْية، وسُمَيساط، ثم إلىٰ جَسْر مَنْبِج، ثم يعطف ويأخذ جهةَ الجنوب حتّى يصل إلىٰ بالِسَ ويمر بنَصِيبين، والرَّقة، وقَرْقِيسيا، والرَّحْبة، فيَلْتحِف علىٰ عانات، ثم يمتدّ حتّى يمر بهيت والأنبار. فإذا جاوزها انقسم قسمين: قسم يأخذ نحو الجنوب قليلا وهو المسمّى بالعَلْقم، ينتهى إلىٰ بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والكوفة والحِلَّة، إلىٰ البَطِيحة التى بين البصرة وواسط؛ والقسم الآخر يسمّى نهر عيسىٰ، منسوب لعيسىٰ بن علىّ بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهى إلىٰ بغداد، ويمرّ حتّى يصبّ فى دجلة.

قال المسعودىّ: وقد كان الأكثر من ماء الفُرَات ينتهى إلىٰ بلاد الحيرة؛ ثم يتجاوزُها ويصب فى البحر الفارسىّ، وكان البحر يوم ذاك فى الموضع المعروف بالنَّجَف فى هذا الوقت، وكانت مراكب الهند والصين ترد علىٰ ملوك الحِيرة فيه.

قال: والموضع الذى كان يجرى فيه بيّن إلىٰ زمَن وضعى هذا الكتاب، يعنى "كتاب مروج الذهب" وهو فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة القادسية.

وطول الفُرات من حيثُ يخرُج عند ملَطْية إلىٰ أن يأتى ما يأتى منه إلىٰ بغداد ستُّمائةِ فرسخ وثلاثةٌ وعشرون فرسخا، وفى شطّه مُدُن فى جزائر تعدّ من أعمال الفُرات، وهى الريسة، والناوُوسة، والقَصْر، والحَدِيثة، وعانات، والدّالية.

وأما نهـــر دجلة

ويسـمى السلامة ، وبه سميت بغداد دار السـلام علىٰ أحد القولين ، والثانى السلام علىٰ الخلفاء فيها .

وهـذا النهر فارز بين العراق والجزيرة ، وانبعاثه من أعين بجبـال آمد ، ويصب إليه نهران يخرجان من أرْزَن الروم ومَيّا فارقين وعيون أخرىٰ من جبال السلسلة ، فيمتر ببلد ، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينيـة بين بلاد سورا وقبر سابور ، ويصب فيه الزاب الأكبر الخارج من بلاد أذربيجان علىٰ فرسخ من الحديثـة . ويسمى المجنون لحدّته وشدّة جريه ، ثم تمتر دجلة فيصب فيها الزاب الأوسط ، ومخرجه من الفرات ويجرى بين إرْبِل ودَقُوقاء ، ويصب فى دِجلة أيضا الزاب الأصغر ، ومخرجه أيضا من الفرات .

وهذه الزوابى الثلاثة أنبطها زاب بن طِهماسب : أحد ملوك الفرس الأول ، ثم تمتر دِجلة بتَكْرِيتَ إلىٰ أن تجاوز سامَرّا قليلا فيقع فيها نهر عيسىٰ ويمتر حتّىٰ يشقّ بغداد . فاذا تجاوزها صب فيه نهرٌ يخرُج من بلاد أرمينيَةَ يسمّىٰ تامَرّا بعد أن يمتر بناصلو ثم بباجِسْرَا فيسمّىٰ النهروان ، ويشق مدينةً تعرف به ، ثم تمتر دجلة بجَرْجَرَايَا والنُّعمانية ثم بواسِط ، ثم إلىٰ البطائح ، ثم تخرج منها فتمتر بالبصرة وتجرى حتّىٰ تنتهى إلىٰ عَبّادان ، وعندها تصبُّ فى البحر الفارسىّ .

وما يمتر من دجلة بالبصرة يملُح إذا مدّ البحرُ فلا يُشرب منه ألبتة ، ويحلو إذا جَزَر . فأهل البصرة ينتظرون بالأستقاء منه الجَزْر ، وهو يمدّ بكرةً ويَجْزِر عشاء .

وكانت المراكب التي ترد من الهند والصين تدخُل في دِجلة من بحر فارس إلىٰ مدينة المَدَاين ، فاتفق أن انبثق في أسافل كَسْكر بَثْقٌ عظيم علىٰ عهد قُباذ بن فيروز فأهمل حتّى طغىٰ ماؤه وغَرّق عماراتٍ وضياعا فصارتْ بطائح .

ويسمّى هذا البَثْق دِجلة العَوْراء لتحوّل المـاء عنه . وصار بين دِجلة الآن ودِجلة العوراء مسافة بعيدة تسمّى بطن جُوخىٰ ، وهو من حدّ فارس من أعمال واسط إلىٰ نحو السُّوس من أعمال خُوزِستان .

ويقـال إن كسرىٰ أنفق أموالا عظيمة علىٰ أن يحوّل المـاء إليها فأعياه ذلك . ورامه خالد بن عبد الله القَسْرى فعجَز عنه .

§ ومقدار مسافة جَرْيِ نهر دِجلة إلىٰ أن يصب في البحر الفارسي ثلثمائة فرسخ ؛ ومقـدار البطائح ثلاثون فرسخا طولا وعرضا . وهي تفيض في كثير من الأوقات حتى يخشىٰ علىٰ بغداد الغرق .

وأما نهـــر سِجِسْتان

§ ويسمّى الهِنْدمَنْد[1] ، فيقال إن منوچهر بن أيراج[2] بن أفريدون أنبطه .

§ وهو يجرى من عيون في بلاد الهند ويمرّ ببلد الغُور ؛ فإذا تجاوزها ، مرّ من أعالى سِجِستان علىٰ بر رُخَّج ، ثم علىٰ بُسْط[3] ، ثم علىٰ دونج[4] فتتفرّع منه أنهـار تجرى في شوارعها . ثم يمرّ عمود النهر حتّى يصب في بحيرة زَرَة .

(١) وسماه المسعودى "الهرمند" في كتاب "التنبيه والإشراف" .

(٢) في المسعودى "أيران" وقال : إن أيران تسميه الفرس أيراج .

(٣) هي المشهورة بأسم "بست" . ومنها أبو الفتح البستىّ الشاعر المعروف .

(٤) لم أعثر على هذا الأسم فيما يبدى من كتب الجغرافيـة العربية ، ولعلها هي نفس المدينة التي ذكرها ياقوت وغيره بأسم "زرنج" وقال إنها قصبة سجستان .

§ وطول هذا النهر من حيث يبتدئ إلىٰ نهايته مائة فرسخ .

وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكَنْك .

وأما نهر مِهْران

§ وهو نهر السند[(١)]، فهو يشبه نِيلَ مصر فى زيادته ونَقْصه واصناف حيوانه وما يتفرّع منه من الخُلْجان .

§ وهو يستمدّ من أربعة أنهر : نهران يجريان من السند، ونهر من ناحية كابُل، ونهر من بلاد قِشْمير . وتجتمع فتكون نهرا واحدا، ويجرى حتّى ينتهى إلىٰ الدور فيمرّ بها، ومن ثم يسمّى نهر مِهْران ، ثم يمرّ بالمُولْتان، ثم بالمنصورة، ثم يجرى إلىٰ دَيْبُل . فإذا تجاوزها صب فى بحر الهند علىٰ ستة أميال منها .

§ وطوله ألف فرسخ .

وأما نهر جَيْحون[(٢)]

ويسمّى بالفارسية "به روذ" وهو "نهر بلخ"[(٣)] .

§ وأنبعاثه من بحيرة فى بلاد التُّبَّت، مقدارها طولا وعرضا أربعون ميلا، تجتمع من أنهار الخُتَّل .

(١) لا يزال آسم "مهران" علما يطلقه بعض الهنود إلىٰ الآن علىٰ القسم الأسفل من نهر السند .

(٢) فى الأصل "جيحان" . وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر فى آسيا الصغرى و يعرف بنهر المصيصة و يصب فى بحر الشام . أنظر ياقوت وآبن رسته فى "التنبيه والإشراف" .

(٣) ويسمى أيضا نهر كالف علىٰ مارواه المسعودى بآسم قلعة حصينة ، قال ياقوت إنها قائمة علىٰ طرفه شبيهة بالمدينة بينها و بين بلخ ثمانية عشر فرسخا .

فإذا خرج منها مر بوَخّان فيسمّى نهر جرياب[(١)] ، ويجرى من المشرق إلى المغرب إلىٰ أعلىٰ حدود بَلْخ . ثم يعطف إلىٰ ناحية الشمال إلىٰ أن يصير إلىٰ التِّرْمِذ، ثم منها إلىٰ زَمّ وآمُل من بلاد خُراسان . ثم يجرى إلىٰ أن يمرّ ببلاد خُوارَزْم فيشُق قصَبَتها .

فإذا تجاوزها تشعّب منه أنهار وخُلجان يمينا وشمالا، تصُب إلىٰ مستنقَعات وبطائحَ يصاد فيها السمك .

ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودا واحدا ، تجرى مقدارَ أربعة وعشرين فرسخا، ثم تصب فى بحيرة خوارزم .

§ ويكون مقدار جريه من مبدئه إلىٰ نهايته ثلثمائة وخمسين فرسخا . وقيل : أربعمائة . وساحله يسمّى الرُّوذْبار[(٢)] .

ويقال إنه يخرج منه خليج يأخذ سَمْتَ المغرب حتّى يقرب من كَرْمان، ثم يمضى حتّى يصبّ فى بحر فارس .

§ ونهر جَيْحون ربما جَمَد فى الشتاء حتّى تعبر عليه القفول . قالوا : ويبتدئ جمودُه من ناحية خوارزم .

وأما نهر سَيْحُون

ويسمّى نهر الشّاش، وهو فارزٌ بين بلاد الهياطلة وبلاد تُرْكِسْتان .

§ قال ابن حوقل : مبتدؤُه من أنهار تجتمع فى حدود بلاد التُّرك [والإسلام] ، فتصير عمودا واحدا وتجرى حتّى تظهر فى حدود أُوزْكَنْد من بلاد فَرْغانة فتصب فيه

(١) فى الأصول "جواب" والتصحيح عن الاصطخرى وابن حوقل .

(٢) قال ياقوت : كأن معناه بالفارسية "موضع النهر" : ثم نقل عن السمعانىّ أن الروذبار لفظة لمواضع عند الأنهار الكبيرة فى بلاد متفرّقة . ثم ذكر روذبار بلخ ثم قال وبالشاش أيضا قرية يقال لها روذبار من وراء جيحون . [ولعل المراد هنا بلاد النهر أى نهر جيحون كما قالوا زنجبار أى بلاد الزنج].

فيعظم ويكثر ماؤه، ثم يمتد إلى فاراب. فإذا تجاوزها يجرى فى برّية فيكون على جانبيه الأتراك الغُزّيّة، ويمر إلى أن يصب فى نهر جَيْحون[1].

وبين موقعه فى النهر وبين بُحيرة خوارزم عشرة أيام.

وأما نهر الكَنْك[2]

وهو نهر تعظّمه الهند، فينبعث من بلاد قِشْمير ويجرى فى أعالى بلاد الهند.

§ وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظّمونه غاية التعظيم.

(٩٦) § ومن عجائبه أنه إذا ألقى فيه شىء من القاذورات، أظلم جَوُّه ورجَفَتْ أرجاؤه وكثُرت الأمطارُ والرياحُ والصواعقُ.

§ وقد وصفه العُتْبىّ فى "التاريخ اليمينى" فقال:

"وهذا النهر الذى يتواصف الهنود قدرَه وشرفَه، فيروْن من عين الخلد التى فى السماء مُغترَفه، إذا أُحرق منهم ميت ذَرّوه فيه بعظامه، فيظنون أنّ ذلك طُهْر لآثامه؛ وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيُغْرِق نفسه فيه، يرى أنّ هذا الفعل يُنجيه. والهنود يُفْرِطون فى تعظيمه حتّى إن الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفْسَه وألقى رماده فيه، أو يأتى إلى النهر (وهناك شجر القَنَا فى غاية الارتفاع، وقوم هناك بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيرْبِط نفسه فى طَرَف قناة، ثم يحزّ رأسَه بيده

(١) اختصر المؤلف كلام ابن حوقل اختصارا خفيفا (وانظر كلام ابن حوقل فى كتابه "المسالك والممالك" ص ٣٩٢ — ٣٩٣).

(٢) قال أبو الفدا إن اسمه الهندى: كانكو وسماه المسعودى "جَنْجَس" فى كتاب "التنبيه والإشراف".

فيبقَى الرأس معلقا فى طَرَف القنـاة وتسقط الجثةُ، أو يلقى نفسَه من شاهق علىٰ تلك السيوف والخناجر فيتقطع، ومنهم من يلقِى نفسه فى النهر فيَغْرق" .

وأما نهـــر الكُر

٥ فهو نهر بأرض أرمينِيَة .

§ وآنبعاثه من بلاد اللّان، فيمرّ ببلاد الأبخاز[1] حتّى يأتى ثغر تَفْليس فيشقُّه ويجرى فى بلاد الساوَرْدية[2] . ثم يخرج بأرض بَرْذَعَة، ويجرى إلىٰ بَرْزَنج فيصب فيه نهر الرَّسّ .

§ وهذا النهر هو المذكور فى القرآن العزيز فى قوله تعالىٰ ﴿ وأصحابُ الرس[3] ﴾ علىٰ ما ذهب إليـه بعض المفسرين . فإذا صب فيه هذا النهر، صارا نهرا واحدا يصب

١٠ فى بحر الخَزَر .

§ ونهر الرَّسّ يخرج من أقاصى بلاد الروم، علىٰ ما زعم المسعودى .

وأما نهـــر إتِل

§ وهو نهر عظيم، فهو نهر الخَزَر .

١٥ § ويمرّ جانبه الشرقىّ علىٰ ناحية خَرْخِيز، ويجرى ما بين الكيماكية والغُزّية . ثم يمتدّ غربًا علىٰ ظهر بُلْغار[4] وبُرْطاس والخَزَر . ثم ينقسم قسمين : أحدهما إلىٰ مدينة إتل

(١) فى الأصل "الأبحار" . والأصوب "الابخاز" وهو آسم لجهة من بلاد أرمينيه (وقد ذكر الابخاز كل من الإصطخرى وآبن حوقل والمقدسى وآبن خرداذبة والمسعودى) .

(٢) جيل من الأرمن يسميهم العرب أيضا "السياوردية" ويصفونهم بأنهم "أهل العبث والفساد والتلصص (عن حاشية فى ص ١٩٢ من "مسالك الممالك" للإصطخرى) .

٢٠ (٣) فى الاصل "كذب أصحاب الرس المرسلين" وهو غير نظم القرآن، فتنبه .

(٤) مدينة كانت على نهر الإتل ببلاد الروسيا . ومنها خرج البلغار الى البلاد المعروفة الآن باسمهم .

يشقُّها بنصفين ويجرى إلىٰ أن يصب فى بحر الخَزَر، ويجرى الآخر فيمرّ ببلد الرُّوس حتّى يصب فى بحرهم وهو بحر سُوداق .

§ ويقال إنه يتشعب منه نَيِّف وتسعون نهرا، وإذا وقع فى البحر، يجرى فيه مسيرة يومين ثم يغلب عليه .

§ وقيل إنه يجمُدُ فى الشتاء، ويتبين لونه فى لون البحر . ٥

والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما فى المعمور

من الأنهار والعيون التى يُتَعجَّب منها

قال صاحب " مباهج الفكر ومناهج العبر" فى كتابه :

«وذكر المعتَنُون بتدوين العجائب فى كتبهم التى وضعوها لذلك أن فى المعمور أنهارا وعيونا يُتعجَّب منها إذا أُخْبِر عنها . فذكروا منها نهر الكَنْك (وقد تقدم ذكره) وأن بأرض الهند مكانا يعرف بعقبة عَوْرك فيه عين ماء لا تقبل نَجَسا ولا قَذَرا ، وإن أُلقى فيها شىء من ذلك، آكفهرَّت السماء وهبَّت الريح وكثر الرعد والبرق والمطر . فلا تزال كذلك إلىٰ أن يُخْرَج منها ما طُرِح فيها . ١٠

«وذكروا أن فى ناحية الباميَان عينا تسمّى دِيوَاش تفور من الأرض كغَلَيان القِدر، متىٰ بصق فيها إنسان أو رمىٰ فيها شيئا من القاذورات، آزداد غَلَيانها وفَوَرانها وفاضت . فربما أدركَتْ من جعل ذلك فيها فغرّقته . ١٥

«وبناحية الباميان أيضا عين تجرى من جبل فى بعض الأحيان . فإذا خرج ماؤها، صار حجرا أبيضَ .

«وبقرية من أعمال فارس كَهْف بين جبال شاهقةٍ فيه حُفْرة بقدر الصَّحْفة، يقْطُر فيها من أعلىٰ الكهف ماء: إن شرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن شرب منه ألف عَمَّهم وأرواهم .

«وبناحية أردشير جرد[1] عين يجرى منها ماء حلو يُشرَب لشَفْية الجوف . فمن شرب منه قَدَحا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة .

«وبدارِينَ من أعمال فارس نهر ماؤه شَرُوب. إذا غُطَّت فيه الثيابُ خَضَّرها .

«وفى بعض رساتيق هَمَذان عيون متىٰ خرج منها الماء تحجَّر .

«وبنواحيها أيضا ماء يخرُج من تحت قلعة ويجري فى جَداوِلَ إلىٰ بعض الرساتيق. فما تشبَّث منه فى صَدْع أو شقٍّ صار حجرا صَلْدا ، وإذا صُبَّ فى خَزَفة وأقام فيها ثلاثة أيام ثم كُسِرت، وجد فى جوفها أخرىٰ قد تحجرت من الماء .

«وبناحية تَفْليس عين تنبُعُ، فإذا خرج منها الماء صار حَيَّات .

«وبأرض القُدْموس من حصون الدَّعْوة بَرَبَضها حَمَّام يجرى إليها الماء من عين هناك . فإذا كان فى أول شهر تَمُّوز ينبُع فى الحَمَّام حَيَّات فى طول شبرين أوّلا، ثم فى طول شبر، وتكثر. ولا توجد فى غير الحمام . فإذا انقضىٰ شهر تَمُّوزَ، عُدمت تلك الحَيَّات، فلا توجد إلىٰ العام القابل .

«وبأرض أَرْمِينِيَةَ واد لا يقدر أحد ينظر إليه ولا يقف عليه ولا يُدْرىٰ ما هو. إذا وضعت القدر علىٰ ضَفَّته غلتْ ونَضِج ما فيها. وفيها واد عليه الأَرْحَاء والبساتينُ. ماؤه حامض؛ فإذا نزل فى الإناء، عَذُب وحَلَا .

(١) فى معجم ياقوت "أَرْدَشِيرْخُرَّه" مضبوطا بالعبارة .

«وبالمَرَاغة عيون اذا خرج ماؤها لَمْ يلبثْ إلا قليلا حتى يتحجّر . فمنه تُفرَش دورهم .

«وبنواحى أرْزَن الروم ماء يستقىٰ فيستحجر ويصير مِلْحا .

«وأكثرُ مياه بلاد اليمن تستحيل شَبًّا .

«وبنواحى واحات من أعمال مصر عيون مياهها ألوانٌ مختلفة : من الحُمْرة والصُّفْرة والخُضْرة . تسيل إلىٰ مستنقَعَات ، فتكون مِلْحا بحسب ألوانها . ٥

«وفى هذه الناحية عيون يطبخ بمائها بدلًا عن الخَلّ .

«وبنواحى أُسْوان من الصعيد الأعلىٰ مستنقعاتٌ منها النِّفط .

«وكذلك بتَكْرِيت من أرض العراق .

«وبأرض كَتَامة[1] من بلد إفريقيّة عينٌ تسمّى عينَ الأوْقاتِ . تجرى فى أوقات الصلوات الخمس . فإذا حضَرَ جُنُبٌ أو امرأة حائضٌ ، لاتَبِضُّ بشىء من الماء . وإذا أتَّهِم رجلان ، أتتْ بالماء للصادق وشحّتْ علىٰ الكاذب . ١٠

«وببلد إفريقية أيضا عين تنبُع بالمِداد ، يكتُب به أهل تلك الناحية .

«وبطَرْطُوشَة من بلاد الأنْدَلُس واد يجرى رملا .

قال : وذكر بعض أصحاب المجاميع أنه كان بمدينة طَحَا من كُورة الأُشْمونين من صعيد مصر بئر فيها ماء مَعِين يُشْرب منها طولَ أيام السنة فيكون الماء كسائر المياه ، حتّى إذا كان أوّلُ يوم من برمودة من شهور القبط فمن شَرِب من ذلك الماء ١٥

(١) فى الأصل : "كامة" وهو غلط من الناسخ ، لأن "كتامة" قبيلة من البربر منتشرة فيما بين برقة الى أرض الجزائر .

يومئذ خدمَتْه الطبيعة مقدار ما شَرِب . فاذا كان وقتُ الزوال عاد الماء إلىٰ حالته الاولىٰ، ثم لا يفعل كذلك إلا فى مثل ذلك اليوم من العام القابل .

ويقال : إنه كان بمدينة الأُشْمونَيْنِ كنيسة تعرف ببُوجُرج إلىٰ جانبها بئر لانداوةَ فيها ولا بلَلَ فى سائر أيام السنة، فاذا كان اليوم العاشر من طوبة من شهور القبط تمتلئ تلك البئر ماءً شَرُوبا . فلا يبقىٰ أحد من نصارىٰ ذلك البلد إلا ويأخذ من ذلك الماء للتبرُّك به . حتّٰى إذا كان عند الزوال، غاض الماء فلا يبقىٰ فى البئر منه شيء ويجِفُّ لوقته .

«وبأرض مَرْمَنِينا من عملِ حصن الأكراد عين تسمّٰى الفَوّارة. تكون فى غالب الأوقات بينها وبين وجه الأرض تقديرُ ثلاثة أذرع . وتفور فى بعض الأيام ويخرج منها ماءٌ يدير أرحيةَ الطواحين ويسقِى البساتينَ فيستمرّ كذلك بعضَ يوم ثم يغور . ويتكرر ذلك فى الاسبوع مرتين وثلاثة .

«وبقلعة بعْلَبك من الشام بئر تعرَف ببئر الرحمة لايُرىٰ فيها الماء إلا إذا حُوصرت . فإنها عند ذلك تمتلئ حتّٰى تفيض . فإذا زال الحِصار جَفّتْ » .

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الماء

(ما جاء من ذلك علىٰ لفظ افعل)

الأمثال :

يقال :

أسْرَعُ من الماء إلىٰ قَرَاره .

أرَقُّ من الماء .

أحمقُ من لاعِقِ الماء .

أحمقُ من القابض علىٰ الماءِ .

أصفىٰ من ماء المَفَاصِل .

أعذَبُ من ماء المَفَاصل .

أجرىٰ من الماء .

أعذَبُ من ماء الحَشْرَج . ٥

أعذَبُ من ماء البارِق .

ألطفُ من الماء .

أوجدُ من الماء .

ويقال :

أنْ تَرِدِ الماءَ بماء أكْيَسُ . ١٠

ماءٌ ولا كصَدَّاء .

قد بَلَغ الماء الزُّبىٰ .

ويقال :

فلان يرقُم علىٰ الماء . (إذا كان حاذقا) .

تَأْطَةٌ مُدَّتْ بماء . (للأمر يزداد فسادا) . ١٥

ليس الرِّيُّ فى التَّشَافّ . (فى ذم الاستقصاء) .

الماءُ إذا طال مكثُه ، ظهر خبثُه ، وإذا سكَنَ مَتْنه ، تحرّك نَتْنه .

الكَدَر من رأس العَيْن .

إذا عَذُبتِ العُيون ، طابَتِ الأنهار .

هذا غَيْض من فَيْض ، وبَرْضٌ من عدّ . (أى قليل من كثير) . ٢٠

ومن أنصاف الابيات :

* والمرءُ يَشْرَق بالزُّلَال البـارِد ! * * كذلك غَمْرُ الماءِ يُرْوِى ويُغْرِق ! *

* والمَشْرَبُ العَذْبُ كَثِير الزِّحام ! * * مَوَاقِع الماءمن ذى الغُلَّةِ الصادِى ! *

* وكيف يَعَافُ الرَّنْقَ مَنْ كان صادِيا ؟ *

٥ ومن الابيات :

يا سَرْحةَ الماءِ قد سُدّتْ مَوَارِدُه * أمَا إليكِ سَبِيلٌ غيرُ مسـدود ؟

لحـائِمٍ حامَ حتّى لا حِيَـام به * مُحَلَّإٍ عن طريق المـاء مَصْدُود !

وقال آخر :

أيَجُوزُ أخْذُ المـاءِ من * متَلَهِّبِ الأحشاءِ صادِى ؟

١٠ وقال آخر :

أرىٰ ماءً وبِى عطَشٌ شديدٌ ، * ولكن لا سـبِيلَ إلىٰ الوُرُود !

وقال آخر :

مَنْ غُصّ داوىٰ بشُرْب الماءغُصّتَه ، * فكيف يَصْنَعُ من قد غُصّ بالماءِ ؟

وقال آخر :

١٥ وما كُنتَ إلّا المـاءَ جئنا لشُرْبه ، * فلَمّـا وردْناه إذا المـاءُ جامد !

وقال آخر :

وفى نَظْرة الصادى إلىٰ الماء حَسْرةٌ ، * إذا كان ممنوعًا سَبِيلَ المَـوارِد !

وقال آخر :

وإنّى للـماءِ المخالِط للقَـذىٰ * إذا كَثُرتْ وُرّادُه ، لَعَيُوفُ !

وقال آخر :

سأقنع بالثمادِ، لعلّ دهرًا * يَسُوقُ الماءَ من حُرٍّ كريم!

وقال آخر :

ومَنْ يأمَنِ الدنيا يكُنْ مِثْلَ قابِضٍ * علىٰ الماء، خانَتْه فُروجُ الأصابِعِ.

وقال آخر :

وإنّى وإشرافى عليك بِهِمّتى * لَكالمبتغى زُبْدًا من الماء بالمَخْض.

وقال آخر :

فقُلْ فى مَكْرَعٍ عَذْبٍ، * وقد وافاهُ عَطْشانُ!

وقال آخر :

وكيف الصَّبْرُ عنك، وأىُّ صَبْرٍ * لظمآنٍ عن الماءِ الزُّلال؟

وقال آخر :

وإنَّ الماءَ فى العِيدانِ يَجْرِى، * ورُبَّما تغيَّر فى الحُلُوق!

وقال آخر :

إذا أنا عاتَبْتُ المَلُولَ فإنّما * أخُطُّ بأقلامٍ علىٰ الماءِ أحْرُفا!

وقال آخر :

والماء ليس عجيبًا أنّ أعذَبَهُ * يفنىٰ، ويمتدّ عُمْرُ الآجِنِ الأَسِن.

وقال آخر :

المالُ يُكْسِب أهلَه، مالم يفضْ * فى الراغبين إليه، سُوءَ ثناءِ.

كالماء تأسِنُ بِئْرُه إلا إذا * خَبَط السُّقاةُ حِمامَه بِدِلاءِ.

ذكر شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه

§ فأما ما آختص به نهر النيل من الوصف .

فمن ذلك قول آبن النَّقِيب :

كأنَّ النِّيلَ ذُو فَهْمٍ ولُبٍّ * لما يَبْدُو لِعَيْنِ الناس مِنْه .
فَيأْتِي حِينَ حاجَتِهم إليه، * ويَمْضِي حِينَ يَسْتَغْنُون عنه !

وقال تميم بن المعزّ العُبَيدىّ :

يَوْمٌ لنا بالنِّيل مختَصَرُ * ولكُلِّ يومٍ مَسَرَّةٍ قِصَرُ .
والسُّفْن تَجْرى كالخُيُول بنا * صُعُدًا، وجيْشُ الماءِ مُنْحَدِرُ .
فكأنَّما أمواجُه عُكَنٌ * وكأنما داراتُه سُرَرُ .

§ ومن رسالة للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى قال :

وأما النيل فقد ملأ البِقَاع ، وآنتقل من الإصبع إلى الذِّراع . فكأنما غار على الأرض فغطَّاها ، وعارَ عليها فاستَتْعدها وما تخطَّاها . فما يوجد بمصر قاطِعُ طريق سواه ، ولا مرغوبٌ مرهوبٌ إلا إيَّاه .

وأما ما آختصت به دجلة من الوصف .

قال التنوخىّ :

وكأنّ دِجْلَةَ إذ تغمَّض موجُها * مَلِكٌ يُعَظِّم ، خِيفةً ويَبَجَّلُ .
عذُبَتْ ، فما أَدْرِى أماءٌ ماؤها * عند المَذَاقةِ أم رَحِيقٌ سَلْسَلُ ؟
وكأنَّها ياقوتةٌ أو أعْيُنٌ * زُرْق يُلاءَم بَيْنها ويُوصَّلُ .
ولها بَمَدٍّ بعد جَزْرٍ ذاهِبٍ * جَيْشانِ : يُدْبِر ذا، وهذا يُقْبِلُ .

وقال محمد بن عبد الله السلامىّ ، شاعر "اليتيمة" :

وميدانٍ تَجُولُ به خُيولٌ * تَقُود الدَّارِعِينَ(١) ولا تُقادُ .
رَكِبْتُ به إلىٰ اللَّذاتِ طِرفًا * له جِسْمٌ وليس له فُؤادُ .
جرىٰ فظننتُ أن الأرضَ وجهٌ * ودِجلةَ ناظرٍ وهو السَّوادُ .

وقال الصنوبرىّ :

فلمَّا تعالىٰ البدرُ واشتدّ ضَوْءُه * بدِجْلةَ فى تَشْرِين بالطُّول والعَرض
وقد قابل المَاءَ المفضَّض نُورُه * وبعضُ نجوم الليل يُطْفِى سَنا بَعْض ،
تَوهَّم ذُو العينِ البَصِيرة أنه * يَرىٰ ظاهِرَ الأفلاك فى باطِن الأرض .

ومما وصفت به الأنهار

قال الصنوبرى :

والعَوجانُ الذى كَلِفتُ به * قد سُوِّى الحُسْنُ فيه مُذْ عَوَّجْ .
ما أخْطأ الأيْمَ فى تَعَوُّجِه * شيئًا إذا ما استقام أو عَرَّجْ .
تُدرِّجُ الريحُ متنَه فتَرىٰ * جَوْشَنَ ماء عليه قد دُرِّج .
إن أعنقتْ بالجَنُوب أعنَقَ فى * لُطْف ، وإن هَمْلَجتْ به هَمْلَج .
من أيْنَ طافَتْ شمسُ النهارِ به * حَسِبْتَ شَمْسا من جَوْفِه تَخْرُج .

وقال أبو فراس :

والماءُ يَفْصِل بيْنَ زَهْرِ الرَّوض فى الشَّطَّيْن فَصْلا . (٩٩)
كبِسَاطٍ وَشْىٍ جَرَّدتْ * أيْدِى القِيَان عليه نَصْلا .

(١) أنظر قبل هذا ص ٢٥٦ فى وصف البحر والسفن . وكتب فى بعض الأصول عند هذا الموضع لفظة "مكرر" .

وقال الناجم :

أُنظُرْ إلىٰ الرَّوض الذَّكىّ فَحُسْنُه للعين قُرَّهْ!
فكأنَّ خُضرتَه السما * ءُ، ونَهْرُه فيه المَجَرَّهْ.

وقال عبد الله بن المعتزّ :

٥ وترىٰ الرِّياحَ إذا مَسَحْنَ غَديره * وصَفَيْنه ونَقَيْنَ كُلَّ قذاةِ،
ما إنْ يزالُ عليه ظبيٌ كارعٌ * كتَطَلُّع الحَسْناءِ في المِرْآةِ.

ومثله قول الآخر :

وغَديرٍ رقَّتْ حواشِيه حتى * بانَ في قَعْره الذى كان ساخَا.
وكأنَّ الطُّيورَ إذ وردَتْه * من صَفاءٍ به، تَزُقُّ فِراخَا.

١٠ وقال آخر :

والنَّهْرُ مَكْسُوٌّ غِلالةَ فِضَّةٍ، * فإذا جَرىٰ سَيْلٌ، فثوبُ نُضَارِ.
وإذا استقام، رأيتَ صَفْحةَ مُنْصُلٍ(١)، * وإذا استدارَ، رأيتَ عَطْفَ سِوَارِ.

وقال أبو مَرْوان بن أبي الخصال :

النَّهْرُ قد رَقَّتْ غَلالةُ خَصْره * وعليه من صِبغ الأصيلِ طِرَازُ.
١٥ تترقرقُ الأمواجُ فيه كأنَّها * عُكَنُ الخُصُور تهُزُّها الأعجازُ.

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسى :

لله نَهْرٌ سالَ في بَطْحاءِ * أشهىٰ وُرُودا من لَمىٰ الحَسْناءِ!
وغدَتْ تَحُفُّ به الغُصونُ كأنَّها * هُدُبٌ تُحُفُّ بمُقْلةٍ زَرْقاءِ.
والرِّيح تعبَثُ بالغُصُون وقد جَرىٰ * ذهَبُ الأصيلِ علىٰ لُجَيْن الماءِ!

٢٠ (١) المنصل (بضم فسكون فضم) هو السيف .

وقال أبو القاسم بن العطار :

مَرَرْنا بشاطِى النهر بيْنَ حدائقٍ * بها حَدَقُ الأزْهار تستَوْقفُ الحَدَقْ .
وقد نَسَجتْ كَفُّ النَّسيم مُفاضةً * عليه، وما غَيْرُ الحُبَابِ لها حَلَقْ !

وقال محمد بن سهل البلخى، شاعر «الذخيرة» :

راقَنا النهرُ صَفَاءً * بعدَ تَكْديرِ صَفائِهْ . ٥
كان مثْلَ السيفِ مُدْمًى * فجَلَوْهُ من دِمَائِهْ .
أو كمثْلِ الوَرْدِ غَضًّا * فهو اليومَ كمائِهْ .

وقال القاضى التَّنُوخى، شاعر «اليتيمة» :

أحْبِبْ إلىّ بنهرِ مَعْقِلٍ الذى * فيه لقَلْبِي من هُمُومى مَعْقِلُ !
عَذْبٌ إذا ما عَبَّ فيه ناهِلٌ * فكأنَّه من رِيقِ حِبٍّ يَنْهَلُ . ١٠
متسَلْسِلٌ فكأنَّه لصَفَائِه * دمعٌ بخدَّىْ كاعِبٍ يتَسَلْسَلُ .
فإذا الرِّياحُ جَرَيْنَ فوقَ مُتُونِه * فكأنَّها دِرَعٌ جلاه الصَّيْقَلُ !

وقال مؤيد الدين الطُّغْرَائِىّ فى الغدير :

عُجْنا إلىٰ الجَزْعِ الذى مدّ فِى * أرجائِهِ الغَيْمُ بِسَاطَ الزَّهَرْ .
حَوْلَ غَدِيرٍ ماؤُه المنتمِى * إلىٰ بنَاتِ المُزْنِ يَشْكُو الحَصَرْ . ١٥
لو لاذَهُ[1] الرِّيحُ سَمُومًا به * لانقلبَتْ وهى نَسِيمُ السَّحَرْ .
حَصْبَاؤُه دُرٌّ ورَضْراضُه * سُحالةُ العَسْجدِ حَوْلَ الدُّرَرْ .
وقد كَسَتْه الرِّيحُ من نَسْجِها * دِرْعا به يلْقَىٰ نِبَالَ المَطَرْ .

(١) كذا بالأصل . وفى ديوانه : "لو لاذت الريح الخ" وهو الصواب .

وألبسته الشمسُ من صِبغِها * نُورًا به يَخطِفُ نُورَ البصَرْ.
كأنَّها المِرآة مَجلُوَّةً * على بِساطٍ أخضَرٍ قد نُشِرْ.

وقال أيضا :

مِلنا إلى النَّشر الذى تَرتَقِى * إليه أنفاسُ الصبا عاطِرَهْ.
حَولَ غديرٍ ماؤه دارِعٌ * والأرضُ من رِقَّتِه حاسِرَهْ.
والشمسُ إن حاذته رأدَ الضُّحى * حَسناءُ فى مِرآتها ناظِرَهْ.
والشُّهب إن حاذته جُنحَ الدُّجى * تَسبَحُ فى لُجَّتِه الزاخِرَهْ.
قد رُكِّبَ الخَضراءُ فيه، فمِن * حَصبائِهِ أنجُمُها زاهِرَهْ.
يَخضَرُّ(١) إن مرت بأرجائِه * لَفحُ سَمُومٍ فى لَظى هاجِرَهْ.
أُنمُوذَجُ الماء الذى جاءنا الـ * ـوعدُ بأن نُسقاه فى الآخِرَهْ!

ومما وصفت به البرك

قال البحترىّ عفا الله عنه :

يامَنْ رأى البِركةَ الحَسناءَ رؤيتَها * والآنساتِ التى لاحَتْ مَغانِيها!
ما بالُ دِجلةَ كالغَيرى تُنافِسُها * فى الحُسنِ طَورًا، وأطوارًا تُباهِيها؟
كأنَّ جِنَّ سُلَيمانَ الذين وَلَوْا * إبداعَها فأدَقُّوا فى مَعانِيها.
فلو تَمُرُّ بها بِلقِيسُ عن عُرُضٍ، * قالتْ: هى الصَّرحُ تمثيلًا وتَشبِيها.
تنصَبُّ فيها وُفُودُ الماء مُعجِلَةً * كالخَيلِ خارجةً من حَبلِ مُجرِيها.
كأنَّما الفِضَّةُ البيضاء سائلةً * من السبائك تَجرِى فى مَجارِيها.

(١) فى الأصل "يخضر" وفى ديوانه (الموجود منه نسخة مخطوطة «بدار الكتب المصرية») "يحضر" ولا معنى لهما . ولعل الصواب "يخصر" من الخَصَر، وهو شدّة البرد كما يرتضيه السياق .

إذا علّتها الصّبا أبدَتْ لها حُبُكًا * مثلَ الحواشِنِ مصقُولًا حَواشيها.
إذا النُّجوم تراءتْ فى جَوانبها * ليلًا، حَسِبْتَ سَماءً رُكِّبتْ فيها.
لا يبلُغ السَّمكُ المحصُور غايتَها * لبُعْدِ ما بينَ قاصيها ودانيها.
يَعُمْن فيها بأوساطٍ مجنّحةٍ * كالطيرِ تنقضُّ فى جوٍّ خوافيها.
كأنها حين لجّتْ فى تدفُّقها * يدُ الخليفة لمّا سالَ واديها! ٥

وقال ابن طباطبا :

كَمْ ليلةٍ ساهَرْتُ أنجمَها لَدىٰ * عَرَصات أرضٍ ماؤها كسمائها.
قد سُيِّرَتْ فيها النجومُ كأنّما * فَلَكُ السماءِ يَدُور فى أرجائها.
أحسِنْ بها بحرًا إذا التبَسَ الدُّجىٰ، * كانتْ نجومُ الليل من حَصْبائها!
تَرْنُو إلىٰ الجَوْزاء وهى غَريقةٌ * تَبْغِى النَّجاءَ، ولاتَ حِينَ نجائها! ١٠
تَطْفُو وتَرْسُب فى اصطفاقِ مياهِها * لا مُستعانَ لها سِوىٰ أسمائها.
والبَدْرُ يَخْفُقُ وَسْطَها فكأنّهُ * قَلْبٌ لها قد ريعَ فى أحشائها.

وقال عبد الجبار بن حَمْديس، يصف بركة يجرى إليها الماء من شاذَرْوان من أفواهِ طيور وزَرافات وأُسُود، من أبيات :

والماءُ منه سَبائكٌ من فِضّةٍ * ذابَت علىٰ دُولَابِ شَاذَرْوان! ١٥
فكأنّما سَيْفٌ هُناك مشطَّبٌ * ألقَتْه يومَ الرَّوعِ كفُّ جَبانِ!
كم شاخِصٍ فيه يُطِيل تعجُّبًا * من دَوْحةٍ نَبَتَتْ من العقْيانِ!
عجبًا لها تَسقِى هُناك ينائعًا * يَنَعَتْ من الثمَرات والأغصانِ!
خُصَّت بطائرةٍ علىٰ فَنَنٍ لها * حَسُنت، فأُفْرِدحسنُها من ثانى!

قُسّ الطيورِ الساجعاتِ بلاغةً * وفصاحةً من مَنْطِق وبَيَان.
فإذا أُتيحَ لها الكلامُ تكلّمَتْ * بخَرِير ماء دائمِ الهَمَلانِ.
وكأنّ صانِعَها استبدّ بصنعةٍ * نَخَر الجمادُ بها على الحَيَوانِ!
أوْفَتْ على حَوْضٍ لها فكأنّها * منها إلى العَجَب العُجَاب رَوَان.
وكأنّها ظنّتْ حلاوةَ مائِها * شَهْدًا، فذاقَتْه بكُلِّ لِسان.
وزَرافة في الجَوّ من أُنْبوبِها * ماءٌ يُريكَ الجَرْيَ في الطَّيَران.
مَرْكُوزة كالرُّمْح حيثُ ترى له * من طَعْنه الحَلَق انعطافَ سنَان.
وكأنّما تَرْمِي السماءَ ببُنْدُقٍ * مُستَنْبَطٍ من لُؤْلؤ وجُمَانِ!
لو عادَ ذاك الماءُ نِفْطا، أحرَقت * في الجوّ منه قميصَ كلِّ سَنان.
في بِرْكةٍ قامتْ على حافاتِها * أُسْدٌ تَذِلُّ لعِزّة السُّلطان!
نَزَعتْ إلى ظُلْمِ النفوس نُفُوسُها، * فلذلك انتُزِعتْ من الأبْدان.
وكأنّما الحَيّاتُ من أفواهها * يَطْرَحْنَ أنفسَهنّ في غُدْران.
وكأنّما الحِيتانُ إذ لم تَخْشَها، * أخذَتْ من المَنْصُور عَهْد أمان!

وقال آخر:

ولقد رأَيتُ، وما رأيتُ كبِركة * في الحُسْنِ ذاتِ تدَفُّق وخَرِير!
عَقَدتْ لها أيْدِي المِياهِ قَناطِرًا * من جَوْهَرٍ في لُجّةٍ من نُور!

وقال عليّ بن الجهم، يصف فوّارة:

وفَوّارةٍ ثارُها في السَّماءِ، * فليسَتْ تُقَصِّر عن ثارِها!
تَراها اذا صَعِدت في السَّماءِ * تعودُ الينا بأخْبارها.
تَرُدُّ على المُزْن ما أنزلَتْ * على الأرضِ من صَوْبِ مِدْرارها!

وقال ابن حجاج فيها :

عَلِمْتُ فى دارِكَ فَـوّارةً ، * غرّقَتِ الأفْـقَ بها الأنجُا!
فاضَ علىٰ نَجْـم السما ماؤُها ، * فاصبحَتْ أرضُك تَسْقِى السما!

وقال تميم بن المعزّ العبيدىّ :

وقاذِفةٍ بالمـاء فى وَسْـط بِركةٍ * قد ٱلتحفَتْ ظِلًّا من الأيْك سَجْسَجَا. ٥
إذا أينَعتْ بالمـاء سَـلّتْه مُنْصُـلا * وعاد عليهـا ذلك النَّصْـلُ هَوْدَجا.
تُحـاولُ إدْراكَ النجُـومِ بقَذْفِها ، * كأنّ لها قَلْبًـا علىٰ الجوّ مُحْرَجا!

ومما وصفت به الدواليب والنواعير

قال أبو حفص بن وَضّاح :

لله دُولابٌ يَطُوفُ بسَلْسَـلٍ * فى رَوْضَـةٍ قد أينَعتْ أفنانا! ١٠
قَدْ طارحَتْ فيه الحَمائمُ شَجْوَها * بنَحيبِهـا ، وتُرَجِّـعُ الألحـانَا.
فكأنّه دَنِفٌ يطُوفُ بمَعْهَـدٍ ، * يَبْكِى ويسْأل فيه عمّنْ بانَا.
ضاقَتْ مَجارِى طَرْفِه عن دَمْعِه ، * فتفتّحَتْ أضْـلاعُه أجْفـانَا!

وقال الموفّق ، رحمه الله :

ناعورةٌ تُحسَبُ من صَوْتِها * مُتَيَّـما يَشْـكُو إلىٰ زائِرِ. ١٥
كأنّمـا كِيزانُها عُصْبةٌ * رُمُوا بصَرْف الزَّمَنِ الواتِرِ.
قد مُنِعُوا أن يَلْتَقُوا فٱغتَدَوْا * أوّلُهُـم يَبْكِى علىٰ الآخِرِ!

وقال آخر :

وناعورةٍ قد ضاعفَتْ بنُـوَاحِها * نُواحى ، وأجْرَتْ مُقْـلَتىّ دُمُوعُها!
وقد ضَعُفَتْ ممـا تئِنّ ، وقد غَدَتْ * من الضَّعْف والشَّكْوىٰ بَعْدُ صُلوعُها! ٢٠

وقال ابن مُنِيرٍ الطرابلسي :

لِنَـواعِيرِها على المـاءِ ألحـا * نٌ تَهِيجُ الشَّجا لِقَلْبِ المَشُوق.
فَهْي مِثْلُ الأفلاكِ شَكْلًا وفِعْلًا، * قُسِمَتْ قَسْمَ جاهِـلٍ بالحُقُوق:
بينَ عالٍ، سامٍ، يُنَكِّسُـه الحَظّ * ويَعْـلو بسـافِـلٍ مَرْزُوق.

وقال أبو الفرج الوأواء :

وكريمـةٍ سقَت الرياضَ بدَرِّها، * فغدَتْ تَنُوبُ عن السَّحاب الهامِع.
بلِبَـاسِ مَحْزونٍ، ودَمْعة عاشِقٍ، * وحَنِينِ مُشْـتاقٍ، وأنَّةِ جازع.
فكأنَّها فَلَكٌ يَدُورُ، وعُـلْوُهُ * يَرْمِي القَـرَار بكلِّ نَجْـمٍ طالِـعِ.

وقال الصنوبري :

فلَكٌ من الدُّولابِ فيـه كَوَاكِبٌ * من مائه تَنْقضُّ ساعة تَطْلُع.
متلوِّنُ الأصْوات: يَخْفِضُ صَوْتَه * بغِنـائِهِ، طَـوْرًا وطَوْرًا يَرْفَعُ.

ومما وصفت به نثرا

من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلى بعض إخوانه يستدعي منه ثلاثة أسهم ومَلِيَّات . جاء منها :

"...والحاجةُ داعيةٌ إلى ثلاثةِ أسهم، كأنها هَقْعةُ الأنجم، ممتدّةٍ امتـداد الرُّمْح، مقوَّمةٍ تقويم القِدْح، غيرِ مشَعَّثةِ الأطراف، ولا معقَّدة الأعطاف، ولا مُسوَّسة الأجْواف، تُحاسِن الغُصُون بقَوامها، والقُدودَ بتمامها، وتخالِفُ هَيْئتها مَلاءَ خُصُورِها، وتُساوِي [بين] هَوادِيها وصُـدُورِها، معتدِلة القُدود، ناعمة الخُدود،

مع مَلِيّات أخذَتِ النارُ منها مأخَذَها فاسودّت ، وتطاوَلَتْ عليها مُدّةُ الجَفافِ فاشتدّتْ ، وترامَتْ بها مدّةُ القِدَم ، كأنها فى حيِّز العَدَم ، صِلابِ المَكاسر ، غلاظ المآزِر ، تُشْبِه أخلاقَه(١) فى هيجاء السِّلم ، وتحكِى صَلابةَ آرائه فى نَفاذ الرأى ومَضاء العزْم ، تَكْظِم على الماء بغَيْظها ، فتجود على الأرض بفَيْضها ، تمدّ يد أيْدها فى آقتضاء إرادتها ، وتطلُع طلوعَ الأنجم فى فَلَك إدارتها ، وتُعانق أخَواتها معانقةَ التشييع ، فآخِرُ التسليم أوّلُ التوديع ، على أنها تُؤْذن بحقائق الآعتبار ، وتجرى جَرْىَ الفلك المُدَار فى قناة الأعمار :

تَمُرُّ كأنفاس الفتى فى حَيَاتِه * وتَسْعى كسَعْىِ المرء أثناءَ عُمْره .
يُفارِقُ خلٌّ خِلَّه ، وهو سائرٌ * على مثل حال الخِلّ فى إثْرِ سَيْرِه .
ويُعْلِمُه التَّدوارُ ، لو يَعْقِل الفتى * بأن مُرورَ العُمْر فيه كَمَرِّه .
فمَنْ أدركَتْ أفكارُه سِرَّ أمْرِها ، * فقد أدْرَكَتْ أفكارُه سِرَّ أمْرِه .
ومَنْ فاته ، الإدْراكُ أدْرَكَه الرَّدى : * إذا جُرِّعَتْ أنفاسُه كأسَ مُرِّه .»

ومما وصفت به الجداول

قال آبن المعتز عفا الله عنه :

على جَدْولٍ رَيَّانَ ، لا يقبَلُ القَذى : * كأنّ سواقِيه مُتُونُ المَبارد .

وقال الناجم :

أحاطَتْ أزاهيرُ الرَّبيع سوِيَّةً * سِماطَيْنِ مُصْطَفَّيْنِ ، تستَنْبِتُ المَرْعى .
على جَدْولٍ رَيَّانَ كالسَّهْم مُرْسَلا ، * أو الصارِمِ المسْلُولِ ، أو حَيَّةٍ تَسْعى .

(١) أى أخلاق المرسل إليه .

وقال المفجّع :

علىٰ جَدْولٍ رَيَّانَ ينْسابُ مَتْنُـه * صَقيلًا، كمتْنِ السيف وافىٰ مجرَّدا.
إذا الرِّيح ناغَتْه، تحلَّقَ وجْهُـه * دُرُوعا وِضَاءً، أو تَحَزَّز مِـبْرَدا.

وقال ٱبن الرومىّ :

٥ علىٰ حِفَافَىْ جَدْولٍ مَسْجُورِ * أبيضَ مِثْلِ المُهْرَق المَنْشُورِ.
أو مثْل متْنِ المُنْصُل المَشْهُور * يَنْسابُ مثلَ الحيَّةِ المَذْعُور.

وقال ذو الرمّة :

فما ٱنْشَقَّ ضَوءُ الصُّبْح حتّىٰ تبيَّنَتْ * جَدَاوِلُ : أمثالُ السُّيُوفِ القَوَاطِعِ.

وحيث ٱنتهينا من ذكر المياه إلىٰ هذه الغاية فلنذكر عباد المـاء .

ذكر عُبَّاد المـاء[1]

١٠ وعُبَّاد المـاء طائفةٌ من الهند يُسمَّوْن الجَلَهِكيَّة[2]، يزعمُون أن المـاء مَلَك ، ومنه ملائكة، وأنه أصلُ كل شيء، وبه كلُّ ولادة ونموّ ونُشُوء وبقاء وطَهَارة وعمارة ، وما من عمل فى الدنيا إلا ويحتاج إلىٰ المـاء .

§ فإذا أراد الرجل منهم عبادتَه، تجرّد وسترَ عورتَه . ثم دخل المـاء حتى يصل

١٥ إلىٰ وسـطه، فيقيم ساعتين وأكثرَ. ويأخذ ما أمكنه من الرِّياحين فيُقَطِّعها صغارا ويُلْقِى فى المـاء بعضَها بعد بعض ، وهو يُسبِّح ويقرأ. وإذا أراد الٱنصراف، حرّك المـاء بيـده . ثم أخذ منـه فنقَّط علىٰ رأسـه ووجهه وسائر جسده . ثم يسـجُدُ وينصرف .

---

(١) هذه العبارة كلها منقولة عن كتاب "الملل والنحل" للشهرستانى .

٢٠ (٢) فى الأصل : المهكنية . [وهو تصحيف وصوابه من الشهرستانى] .

القسم الخامس من الفن الأوّل

فى طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمَبانى القديمة، والمَعَاقل، وما وُصِفت به القصورُ والمنازل

وفيه خمســـة أبواب

البـاب الأوّل

٥

من هذا القسم

(فى طبائع البلاد، وأخلاق سُكّانهـا)

§ رُوِى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعبَ الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سُكّانها، فقال: إن الله تعالىٰ لمـا خلق الأشياءَ، جعل كل شىء لشىء. فقال العقل: أنا لاحقٌ بالشأم، فقالت الفِتنةُ: وأنا معك. وقال الخِصْب: أنا لاحق بمصر، فقال الذُّلُّ: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحقٌ بالبادية، فقالت الصِّحّة: وأنا معك.

١٠

§ وقال محمد بن حبيب: لَمّا خلق الله تعالىٰ الخلق، خلق معهم عشرة أخلاق: الايمـان، والحياء، والنجدة، والفتنة، والكبر، والنفاق، والغنى، والفقر، والذل، والشقاء. فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء: وأنا معك. وقالت النجدة: أنا لاحقة بالشأم، فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الكبر: أنا لاحق بالعِراق، فقال النّفاق: وأنا معك. وقال الغِنىٰ: أنا لاحق بمصر، فقال الذلُّ: وأنا معك. وقال الفقر: أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء: وأنا معك.

١٥

§وحكى عن الحجاج انه قال : لما تبوّأتِ الأشياءُ منازلَها، قال الطاعون : أنا نازلٌ بالشأم، فقالت الطاعة: وأنا معك . وقال النِّفاق : أنا نازلٌ بالعراق، فقالت النعمة: وأنا معك . وقال الشقاء : أنا نازل بالبادية، فقال الصبْر : وأنا معك .

نوع آخر منـــه

§رُوِىَ عن عبد الله بن عباس (رضى الله تعالىٰ عنهما) أنه قال : إن الله تعالىٰ خلق البَرَكة عشرة أجزاء : فتسعةٌ منها فى قريش، وواحد فى سائر الناس . وجعل الكرم عشرة أجزاء : فتسعة منها فى العَرَب، وواحد فى سائر الناس . وجعل الغَيْرة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الأكراد، وواحدٌ فى سائر الناس . وجعل المكر عشرة أجزاء : فتسعة منها فى القِبْط، وواحد فى سائر الناس . وجعل الجفاء عشرةَ أجزاء : فتسعة منها فى البَرْبَرِ، وواحد فى سائر الناس . وجعل النَّجابة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الرُّوم، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الصناعة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الصين، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الشهوةَ عشرة أجزاء : فتسعة منها فى النِّساء، وواحد فى سائر النـاس . وجعل العمل عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الأنبيـاء، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الحسَدَ عشرة أجزاء : فتسعة منها فى اليهود، وواحد فى سائر الناس .

§ويقـال : قُسِم الحقد عشرة أجزاء : فتسـعة منها فى العرب، وواحد فى سـائر الناس . وقُسِم البخل عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الفرس، وواحد فى سائر الناس . وقسم الكبْر عشرة أجزاء : فتسـعة منها فى الروم، وواحد فى سائر النـاس . وقسم

الطَّرَب عشرة أجزاء : فتسعة منها فى السُّودان ، وواحد فى سائر الناس . وقسم الشَّبَق عشرة أجزاء : فتسعة منها فى اليهود، وواحد فى سائر الناس .

§ ويقال : أربعة لا تعرف فى أربعة : السَّخاء فى الروم ، والوَفَاء فى التُّرك ، والشجاعة فى القِبْط ، والغَمُّ فى الزِّنْج .

نوع آخر منه

§ حُكى عن الحجاج أنه سأل أيوب بن القِرِّيَّة عن طبائع أهل البلاد ، فقال : أهل الحجاز أسرعُ الناس إلى فتنة وأعجزُهم عنها ؛ رجالها جُفاة ، ونساؤها كُساة عراةٌ . وأهل اليمن أهلُ سَمْع وطاعه ، ولزومِ الجماعه . وأهل عُمَان عرب استَنْبَطُوا . وأهل البحرين نَبَطٌ آستَعْرَبوا . وأهل اليمامة أهلُ جَفاء ، وآختلافِ آراء . وأهل فارس أهلُ بأسٍ شديد ، وعِزٍّ عَتِيد . وأهل العراق أبحثُ الناس عن صغيره ، وأضيَعُهم لكبيره . وأهل الجزيرة أشجع فُرْسان ، وأقتلُ للأقران . وأهل الشام أطوعُهم لمخلوق وأعصاهم لخالق . وأهل مصر عبيدٌ لمن غَلَب ؛ أكيسُ الناس صغارا ، وأجهلُهم كِبارا .

وحكى عن أبى عثمان "عمرو بن بحر الجاحظ" أنه قال : كنا نُعلَّم فى المكتب كما نُعلَّم القرآن : احذروا حماقةَ أهل بُخارى ، وغلَّ أهل مَرْو ، وشَغَب أهل نَيْسابور ، وحسد أهل هَرَاةَ ، وحِقْد أهل سِجِسْتان .

§ وقال أبو حامد القاضى : أعيانى أن أرى خُراسانيًّا ذكيًّا ، وطبريا رَزِينا . وهَمَذانيا لبيبا ، وبَصْريًّا ركيكا ، وكُوفيًّا رئيسا ، وبغداديًّا سخيًّا ، ومَوْصِليًّا لَطِيفا ، وشاميًّا خَفيفا ، وحجازيا منافقا ، وبَدَويًّا ظريفا .

§ وقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة : قُمّيٌّ من رُعونة، ويمانى من جنون، وواسطيّ من غفلة، وبصريّ من جَدَل، وكوفيّ من كَذِب، وسَوَاديّ من جَهْل، وبغداديّ من مَخْرَقة، وخوزيّ من لؤم، وطبريّ[1] من زَرَق .

§ وقيل : جاوَرَ أهلُ الشام الرومَ، فأخذوا عنهم اللؤم وقلةَ الغيرة . وجاور أهلُ الكوفة أهلَ السواد، فأخذوا عنهم السَّخاء والغيرة . وجاور أهلُ البصرة الخُوزَ، فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء .

§ ويقال : إن القدماء آعتبروا البلاد وما آمتاز به بعضُها عن بعض من الطبائع، فوجدوا أخصبَ بقاع الدنيا ثمانيةَ مواضع : أَرْمِينِيَة، وأَذْرَبِيجان، ومَاهْ دينَوَر، وماهْ نَهَاوند، وكَرْمان، وأَصْبَهان، وقُومَس، وطَبَرِسْتَان .

§ ووجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً، ماءَ ثمانية مواضع : دجلة، والفرات، وزَنْدرُود أصبَهان، وماء سوران، وماء هَفيجَان، وماء جُنديسابُور، وماء بَلْخ، وماء سَمَرْقَنْد. (وغفلوا عن نيل مصر، ولعله أحقُّها بهذه الخصوصية من سائر المياه) .

§ ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع : النُّوبَنْدَجان، وسابُورخُواست، وجُرْجان، وحُلْوان[2]، وبَرْذَعه، وزَنْجان . (وغفلوا عن شَيْزَر .)

§ ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة : أهل أصبَهان، والحِيرة، والمداين، وماهْ دِينَوَر، وإصْطَخْر، ونَيْسابور، والرَّيّ، وطَبَرِسْتان، ونَشَوَى (وهى نَقْجَوان) .

§ ووجدوا أسرىٰ أهلِ بقاع الدنيا أهلَ سبعة مواضع : طوسفون (وهى المداين)، وبلاشون (وهى حُلْوان)[2]، وماسَبَذان، ونَهاوند، والرَّيّ، وأصبَهان، ونَيْسابور .

(١) من أهل طبرستان . وأما النسبة الى طبرية الشام فطَبَرانيّ .

(٢) أى حلوان العراق، لا حلوان مصر .

§ ووجدوا أهل[1] بقاع الدنيا أهل عشرة مواضع : ماسَبَذَان ، ومِهْرجانقَذَق[2] ، وسُورَسْتان ، والرَّىّ ، والرُّويان ، وأذْرَبِيجان ، والمَوْصل ، وأرمينِيَة ، وشَهْرزُور ، والصَّامَغَان .

§ ووجدوا البخل فى أهل ثمانِ بقاع : مَرْو ، وإصطَخْر ، ودارَابْجِرد ، وخُوزستان ، وماسَبَذَان ، ودَيْبُل ، وماه دينور ، وحُلْوان .

§ ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض أربعة : أهل السِّدْجان[3] ، وبادَرَايا ، وما كسَايَا ، وخُوزستان .

§ ووجدوا أقل أهل الأرض نظرا فى العواقب أهلَ سبعة مواضع : طَبَرِسْتان ، وأرمينِيَة ، وقُومس ، وكِرْمان ، وكُوسان ، ومُكْران ، وشَهْرزُور .

❖

§ ويقال : إنه وفد رجل من عجم خُراسان على كِسْرى ، فقال له : أخبرنى مَنْ أحسنُ أهل خُراسان لقاءً ؟ قال : أهل بُخارى . قال : فمن أوسَعُهم بَذْلا للخُبْز والمِلْح ؟ قال : أهل جُوزْجان . قال : فمن أحسنُهم ضِيافةً ؟ قال : أهل سَمَرْقند . قال : فمن أدقُّهم نظرا وتقديرا ؟ قال : أهل مَرْو . قال : فمن أسوأُهم طاعة ؟ قال :

(١) فى بعض النسخ "آهل" بالمدّ .

(٢) هذا الاسم يتركب من ثلاث كلمات : مهر (أى الشمس ، المحبة ، الشفقة) ؛ جان (أى النفس ، الروح) ؛ قذق (وقد يضم أوله ولعله اسم رجل) . فيكون معناه : محبة أو شمس نفس قذق . وهى كورة حسنة من نواحى بلاد الجبل (عن ياقوت) .

(٣) كذا فى الأصل ولم يذكرها ياقوت . وإنما ذكر "السيرجان" ، مدينة بين كرمان وفارس . فلعلها مصحفة عنها .

أهل خُوارَزْم . قال : فمن أخبثهم طَوِيَّة ؟ قال : أهل مَرْو الروذ، إن رضى بذلك أهل أَبِيورد . قال : فمن أسقطهم عقلا ؟ قال : أهل طُوس، إن رضىَ بذلك أهل نَسَا . قال: فمن أكثرهم شَغَبا وجَدَلا ؟ قال : أهل سَرَخْس، إن رضى بذلك أهل قُوهِسْتان . قال : فمن أضعفهم وأخبثهم ؟ قال : أهل نَيْسابور . قال : فمن أقلُّهم غيرةً علىٰ النساء؟ قال : أهل هَراةَ .

الباب الثانى

من القسم الخامس من الفن الأوّل

فى خصائص البلاد

ولنبدأ من ذلك بمكةَ ويثرِب، وأُعْرِب عما أنقله من فضلهما ولا أُغْرِب ؛ وأَصِلُه بذكر البيتِ المقدّس والمسجد الأقصىٰ، ولا أشترط الاستيعابَ لأن فضائلها لا تحصىٰ .

فأما مكة (شرّفها الله تعالىٰ وعظمها)

ففضائلها مشهورة بَيِّنة . قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعالَمِينَ فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقَامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِنًا﴾ . وقال الله تعالىٰ : ﴿وإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وأَمْنًا﴾ .

قال بعض المفسرين : "أمْنا" من النار . وقيل : كان يأمَنُ من الطلب مَنْ أحدث حَدَثا ولجأ إليه فى الجاهلية .

وحكىٰ القاضى عياض فى "كتاب الشفا" أنه حُدِّث أن قوما أتوا سَعْدون الحَوْلانى بالمُنَسْتِير، وأعلموه أن كُثَامَةَ قتلوا رجلا وأضرموا عليه النارَ طولَ الليل، فلم

تعمل فيه وبقِيَ أبيضَ البَدن، فقال : لعله حَجَّ ثلاثَ حِجَج ؟ قالوا : نعم . قال : حُدِّثتُ أن "من حَجَّ حَجَّة أدّىٰ فرضَه، ومن حَجَّ ثانية دايَنَ ربَّه، ومن حَجَّ ثلاثَ حِجَجٍ حَرّم اللهُ شَعَرَه وبَشَره علىٰ النار" .

ولما نظر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ الكعبة قال: "مَرْحباً بِكِ من بَيْتٍ، ماأعْظَمَكِ وأعْظَمَ حُرْمَتَكِ ! ". وجاء فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : "ما مِنْ أحدٍ يَدْعو اللهَ عند الرُّكْن الأسْودِ إلا آستجَابَ له" (١) . وكذلك عند الركن . ٥

وعنه صلى الله عليه وسلم: "مَنْ صَلّىٰ خَلْفَ المَقَامِ ركعتيْنِ، غُفرله ماتَقَدّم من ذَنْبه وما تأخّر وحُشِر يومَ القيامة مع الآمِنِينَ" .

ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء

قبل أن يخلق الله السماوات والأرض ١٠

قال أبو الوليد الأزرقىّ بسند يرفعه إلىٰ كعب الأحبار أنه قال : كانت الكعبة غُثَاء علىٰ الماء قبل أن يخلُق الله عز وجل السماوات والأرضينَ بأربعين سنةً . ومنها دُحِيَت الأرضُ .

وقال يرفعه إلىٰ مجاهد : خلق الله تعالىٰ هذا البيتَ قبل أن يخلُق شيئا من الأرضينَ .

وعنه يرفعه إلىٰ آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما كان العَرْش علىٰ الماء قبل أن يخلُق الله السماوات والأرضَ بعث الله ريحًا فصفّقت الماء فأبرزَتْ عن حَشَفة فى موضع البيت كأنها قُبَّة . فدحا الله عز وجل الأرضَ من تحتها فمادَتْ ثم مادَتْ . فأوْتَدها الله تعالىٰ بالجبال، فكان أوّلَ جبل وضع فيها أبو قُبَيْس، فلذلك سميت مكةُ أمَّ القُرىٰ ١٥

(١) كذا فى جميع النسخ ولعله "الركن اليمانى" . ٢٠

وعنه يرفعه إلىٰ مجاهد أنه قال : لقد خلق الله عز وجل موضعَ هذا البيت قبل أن يخلُق شيئا من الأرض بألفَيْ سنة، وإن قواعده لفى الأرض السابعة السُّفلىٰ .

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام، ومبـــدإ الطواف

٥ قال أبو الوليد الأزرقىّ، يرفعه إلىٰ علىّ بن الحسين رضى الله عنهما إنه أتاه سائل يسأله، فقال له : عَمَّ تسأَلُ ؟ فقال : أسألك عن بَدْء الطواف بهذا البيت لِمَ كان؟ وأنّى كان ؟ وحيث كان ؟ وكيف كان بالحجر ؟ فقال له : نعم، من أينَ أنتَ ؟ فقال : من أهل الشام . فقال : أين مَسْكَنُك ؟ قال : فى بيت المقدس . قال : فهل قرأت الكتابَينِ ؟ (يعنى التوراة والإنجيل) . قال له الرجل : نعم . فقال له : ياأخا ١٠ أهل الشام آحفَظْ، ولا تروِينَّ عَنِّى إلا حقا :

أمّا بَدْء هـذا الطواف بهـذا البيت، فإنّ الله تعالىٰ قال للملائكة : ﴿إنِّى جاعِل فى الأرْضِ خَلِيفةً﴾، قالت الملائكة : أى رَبِّ، أخَلِيفة من غيرنا : ممن يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدماء، ويتحاسدُون، ويتباغَضُون، ويتنـازَعُون؟ أىْ رَبِّ، آجعل ذلك الخليفةَ منا، فنحن لا نُفْسِـد فيها، ولا نَسْـفِك الدماء، ولا نتباغَضُ، ولا نتحاسَدُ، ١٥ ولا نتباغىٰ؛ ونحن نُسَبِّح بحمدك ونقدّس لك، ونُطِيعك ولا نَعْصِيك . قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿إنِّى أعلم مالا تَعْلَمُون﴾ . قال : فظنَّت الملائكة أن ماقالوه ردٌّ علىٰ ربهم عز وجل وأنه قد غَضِب من قولهم، فلاذُوا بالعرش، ورفعُوا رءُوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرَّعون ويبكُون إشفاقا لغَضَبه . فطافوا بالعرش ثلاثَ ساعاتٍ . فنظر الله عز وجل إليهم، فنزلت الرحمةُ عليهم، فوضع اللهُ سبحانه تحت العرش بيتًا علىٰ أربع

أساطِينَ من زَبَرْجَد، وغَشَّاه بياقوتة حمراءَ وسمَّى البيت الضرَاحَ . ثم قال للملائكة: طُوفُوا بهذا البيت، ودَعُوا العرش، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهونَ عليهم، وهو البيتُ المعمور الذى ذكره الله عز وجل : يدخُلُه كلَّ يوم وليلة سبعُون ألفَ ملَك لا يعُودون فيه أبدا . ثم إن الله سبحانه بعث ملائكة فقال : ابنُوا لى بيتًا فى الأرض بمثاله وقَدْره . فأمر الله سبحانه مَنْ فى الأرض من خلقه أن يطُوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمورِ .

فقال الرجل : صَدَقْتَ يا ابنَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، هكذا كان،

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقىّ ، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما : إن جبريل عليه السلام وقَفَ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه عِصابةٌ حمراءُ قد علاها الغُبارُ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : ماهذا الغبارُ الذى أرىٰ علىٰ عِصابتك، أيُّها الرُّوح الأمينُ؟ قال : إنى زرتُ البيتَ فازدحمت الملائكةُ على الركن، وهذا الغبار الذى ترىٰ مما تُثير بأجْنِحَتها .

وقال، مرفعه إلىٰ ليث بن معاذ رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا البيتُ خامسُ خمسةَ عشر بيتا، سبعةٌ منها فى السماء إلىٰ العرش، وسبعةٌ منها إلىٰ تخوم الأرض السُّفلىٰ، وأعلاها الذى يلى العرشَ: البيتُ المعمور. لكل بيت منها حَرَم كحَرَم هذا البيت . لو سقط منها بيتٌ، لسقط بعضها علىٰ بعض إلىٰ تخوم الأرض السُّفلىٰ، ولكل بيتٍ من أهل السماء ومن أهل الأرض من يَعْمُره، كما يُعْمَر هذا البيتُ .

ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وبنيانه الكعبة المشرفة وحجه وطوافه بالبيت

قال الأزرقي، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة، كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض. وهو مثل الفلك من رعدته. قال: فطأطأ الله عز وجل منه إلى الأرض ستين ذراعا، فقال: يارب مالي لا أسمع أصوات الملائكة ولا حسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم، ولكن اذهب فابن لي بيتا تطف به واذكرني حوله كنحو مارأيت الملائكة تصنع حول عرشي، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطى، فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من مخاض أو بحر فجعله خطوة، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة. فبنى البيت الحرام. وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت في الأرض السفلى فقذفت الملائكة فيه الصخر، ما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا. وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور زيتا، وطور سينا، والجودي، وحراء[1]، حتى استوى على وجه الأرض.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به، آدم عليه السلام. حتى بعث الله سبحانه الطوفان، فدرس موضع البيت في الطوفان. حتى بعث الله تبارك وتعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فرفعا قواعده وأعلامه. ثم بنته قريش بعد ذلك. وهو بحذاء البيت المعمور، لو سقط، ما سقط إلا عليه.

(١) في النسخ "حبرى". والتصحيح من حاشية الجمل على الجلالين، فقد نقل أثر ابن عباس.

وقال أبوالوليد أيضا، ورفعه إلىٰ وهب بن منبّه : إن الله تبارك وتعالىٰ لما تاب علىٰ آدم عليه السلام، أمره أن يسيرَ إلىٰ مكة. فَطوىٰ له الأرضَ وقَبضَ له المفاوزَ، فصارت كلُّ مفازة يمرُّ بها خَطْوة ، وقبض له ما كان فيها من مخَاضِ ماء أو بحر فجعله له خَطْوة. فلم يضع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عُمْرانا وبَرَكةً حتّٰى انتهىٰ إلىٰ مكة . وكان قبل ذلك قد اشتدّ بكاؤه وحُزْنه لما كان فيه من عظم المصيبة ، حتّٰى إن كانت الملائكة لتَحْزَن لحُزْنه ولتَبْكِى لبُكائه. فعزّاه الله عز وجل بخيمة من خيام الجنة، ووضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة . وتلك الخيمةُ ياقوتة حمراءُ من ياقوت الجنة : فيها ثلاثة قناديلَ من ذهبٍ من تِبْر الجنة ، فيها نُور يتلَهَّب من نُور الجنة. ونزل معها الرُّكْنَ، وهو يومئذ ياقوتةٌ بيضاء من رَبَض الجنة. وكان كُرْسِيًّا لآدم عليه السلام، يجلس عليه. فلما صار آدم بمكة، حرسها الله تعالىٰ، حرسه الله تعالىٰ وحرس تلك الخيمة بالملائكة. كانوا يحرُسُونها ويَذُودون عنها ساكنَ الأرض، وساكنوها يومئذ الجنُّ والشياطين، فلا ينبغى لهم أن ينظُروا إلىٰ شىء من الجنة ، لأنه مَنْ نظر إلىٰ شىء من الجنة وجبت له . والأرض يومئذ طاهرة نَقِيَّة لم تَنْجُس ولم يُسْفك فيها الدمُ، ولم تُعْمل فيها الخطايا . فلذلك جعلها الله عز وجل مسكن الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا فى السماء يُسَبِّحُون اللَّيْلَ والنَّهارَ، لَا يَفْتُرُونَ . وكان وقوفهم علىٰ أعلام الحَرَم صَفًّا واحدا مستديرين بالحرم كلِّه : الحِلُّ من خلفهم، والحَرَمُ كله من أمامهم . ولا يجوزهم جنىٌّ ولا شيطان . ومن أجل مُقام الملائكة، حُرِّم الحرم حتّٰى اليوم . ووضعت أعلامٌ حيث كان مقامُ الملائكة . وحرم الله علىٰ حوّاء دخولَ الحرم والنظرَ إلىٰ خيمة آدم من أجل خطيئتها التى أخطأتْ فى الجنة. فلم تنظر إلىٰ شىء من ذلك حتّٰى قُبضت . وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها لِيُلِمَّ بها

(١٠٦)

للولد، خرج من الحرم كله حتّى يلقاها. فلم تزل خيمةُ آدمَ مكانها حتّى قبض الله آدم عليه السلام ورفعها اللهُ. وبنىٰ بنو آدم بها من بعدها مكانا: بيتا بالطّين والحجارة. فلم يزل معمورا، يَعْمرُونه ومَنْ بعدهم حتّى كان زمنُ نوح عليه السلام. فنَسَفه الغَرَق وخَفِي مكانهُ. فلما بعث الله تعالىٰ إبراهيم عليه السلام طلب الأساسَ، فلما وصل إليه ظلّل الله مكان البيت بغمامة. فكانت حِفَافَ البيت الأوّل، ثم لم تزل راكزة علىٰ حِفَافه تُظِل إبراهيم عليه السلام وتَهْدِيه مكانَ القواعد حتّى رفع الله القواعد قامةً. ثم انكشفت الغمامة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وإذ بَوَّأْنا لإبْراهِيمَ مَكانَ البَيْتِ﴾ أى الغمامةَ التى ركزت علىٰ الحِفَاف لتَهْدِيَهُ مكانَ القواعد.

وعن وهب بن منبه أنه قال: قرأتُ فى كتاب من الكتب الأُوَل، ذُكر فيه أمرُ الكعبة، فوجدتُ فيه أن ليس من مَلَك من الملائكة بعثه الله تعالىٰ إلىٰ الأرض إلا أمَرَه بزيارة البيت. فينقَضُّ من عند العرش مُحْرِما ملبِّيا، حتّى يستلِمَ الحجر. ثم يطوفُ بالبيت سبعا ويركعُ فى جوفه ركعتين، ثم يَصعَد.

وقال الأزرقىّ، يرفعه إلىٰ ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض، أهبطه إلىٰ موضع البيت الحرام. وهو مثل الفَلَك من رعْدته. ثم أنزل عليه الحجرَ الأسودَ يعنى الركنَ، وهو يتلألأ من شدّة بياضه. فأخذه آدم صلى الله عليه وسلم فضمّه إليه أُنْسًا به. ثم أنزلَتْ عليه العصىٰ فقيل له: تخطَّ يا آدم، فتخطّى، فإذا هو بأرض الهند والسند. فمكَثَ هنالك ما شاء الله، ثم استوحش إلىٰ الركن فقيل له: احْجُجْ، قال فحج فلقيَتْه الملائكة فقالوا: برّ حجُّك يا آدمُ، لقد حَجَجْنا هذا البيت قبلك بألفَىْ عامٍ.

قال : وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه كعب الأحبار فقال : اخبرنى عن البيت الحرام . فقال كعب : أنزله الله من السماء ياقوتةً مجوّفةً مع آدم ، فقال له : يا آدم إن هذا بيتى أنزلتُه معك ، يُطَاف حوله كما يُطَاف حولَ عَرْشِى ، ويصلّى حوله كما يصلّى حول عرشى . ونزلتْ معه الملائكة فرفعوا قواعِدَه من حجارة ثم وضع البيت عليه . فكان آدم يطوف حوله كما يُطاف حول العرش ، ويصلّى عنده كما يصلّى عند العرش . فلما أغرق الله تعالىٰ قومَ نوح ، رفعه إلى السماء وبقيت قواعدُه .

وقال وهب بن منبه : كان البيت الذى بوّأه الله تعالىٰ لآدم عليه السلام يومئذ من ياقوت الجنة . وكان من ياقوتةٍ حمراء تلتَهِب ، لها بابانِ : أحدُهما شرقىّ والآخر غربىّ . وكان فيه قناديلُ من نُور آنيتها ذهبٌ من تِبْر الجنة . وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض . والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء .

والله أعلم .

ذكر فضل البيت الحرام ، والحَرَم

قال أبو الوليد ، يرفعه عن وهب بن منبه أنه قال : إن آدم لما أُهْبِط إلى الأرض آستوحش فيها لما رأىٰ من سَعَتِها ولم ير فيها أحدا غيره ، فقال : يارب ، أما لأرضك هذه من عامر يسبّحك فيها ويقدّس لك غيرى ؟ قال : إنى سأجعَلُ فيها من ذُرِّيتك مَنْ يسبّح بحمدى ويقدّس لى ، وسأجعل فيها بيوتا تُرفَع لذكرى ويسبّحُنى فيها خلقى ، وسأبوّئك فيها بيتا أختاره لنفسى ، وأخصّه بكرامتى ، وأوثِرُه علىٰ بيوت الأرض كلها بآسمى ، فأسمّيه بيتى ، وأُنطِعُه[1] بعظمتى ، وأحوزه بحرماتى ، وأجعله أحق بيوت الأرض

(١) أنطعه : بسط له النطع بالكسر ، بساط من أديم (تفسير بهامش الأصل) . وفى بعض النسخ "وأنطفه" بالفاء" .

كلها وأولاها بذكرى، وأضعه في البقعة التي آخترت لنسي، فإني آخترت مكانه يوم (١٠٧)
خلقتُ السماواتِ والأرضَ، وقبل ذلك قد كان بعيني: فهو صفوتي من البيوت، ولستُ
أسكُنه، وليس ينبغي لي أن أسكُنَ البيوتَ، ولا ينبغي لها أن تَسَعَني، ولكن على كرسي
الكِبرياء والجبروت، وهو الذي استقلَّ بعزتي، وعليه وضعتُ عظمتي وجلالي.
٥ وهنالك آستقر قراري، ثم هو بعدُ ضعيف عنّي لولا قُوّتي، ثم أنا بعد ذلك مِلْءُ كل
شيء، وفوق كلّ شيء، ومحيط بكلّ شيء، وأمامَ كلّ شيء، وخلف كلّ شيء. وليس
ينبغي لشيء أن يعلم علمي ولا يقدُر قدرتي، ولا يبلُغ كُنْه شأني. أجعل ذلك البيت
لك ولمن بعدك حَرَما وأمْنا، أُحَرِّم بحرماته ما فوقه وما تحته وما حوله. فمن حرّمه بحرمتي
فقد عظّم حُرُماتي. ومن أحلّه فقد أباح حُرُماتي، ومن أمّن أهلَه فقد آستوجب بذلك
١٠ أماني، ومَنْ أخافهم أخفرني في ذمتي، ومن عظّم شأنَه عَظُم في عيني، ومن تهاوَنَ به
صَغُر في عيني، ولكل مَلِك حيازةٌ ما حواليه مما حواليه، وبطنُ مكة خِيرتي وحِيزتي،
وجيرانُ بيتي وعُمّارها وزوّارها، وفَدْيي وأضيافي في كنفي وأفْنيتي، ضامنون على ذمتي
وجواري، فأجعله أوّل بيتٍ وُضِع للناس، وأعمُره بأهل السماء وأهل الأرض: يأتونه
أفواجا شُعْثا غُبْرا على كل ضامر يأتين من كلّ فجٍّ عميق، يَعُجّون بالتكبير عَجيجا،
١٥ ويَرُجّون بالتلبية رَجيجا، ويتحبون بالبكاء نَحيبا. فمن آعتمره لا يريد غيره، فقد زارني
ووَفَد إليّ ونزل بي، ومَنْ نزل بي، فحقيق عليّ أن أتحفه بكرامتي، وحقّ على الكريم
أن يُكرِم وفده وأضيافه، وأن يُسْعِف كل واحد منهم بحاجته. تَعْمُره يا آدم ما كنتَ
حيا، ثم تعمُره من بعدك الأممُ والقرونُ والأنبياء: أمةٌ بعد أمة، وقرنٌ بعد قرن، ونبيٌّ
بعد نبيّ، حتّى ينتهي ذلك إلى نبيٍّ من ولدك وهو خاتَمُ النبيين. فأجعلَه من عُمّاره
٢٠ وسُكّانه وحُمّاته، وولاته وسُقاته، يكون أميني عليه ما كان حيا، فإذا آنقلب إليّ،

وجدنى قد ذَخَرت له من أجره وفضيلته ما يتمكن به القربةَ منى والوسيلةَ إلىّ، وأفضلَ المنازل فى دار المقام . وأجعل آسمَ ذلك البيت ودِكْره وشرفَه ومجدَه وثناءه ومَكْرُمته لنبىٍّ من ولدك يكون قبل هذا النبى وهو أبوه يقال له إبراهيم، أرفع له قواعده، وأقضى على يديه عمارتَه، وأُنبِط له سِقايته، وأُريه حِلَّه وحَرَمه ومَواقفه، وأُعلمه مشاعره ومناسكه، وأجعله أُمةً واحدة قانتا لى، قائما بأمرى، داعيا إلى سبيلى؛ أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم؛ أبتليه فيَصْبِر، وأُعافيه فيشكر، وينذرُ لى فيفى؛ ويَعِدنى فيُنْجِز؛ أستجيب له فى ولده وذرّيته من بعده وأُشَفِّعه فيهم، وأجعلهم أهل ذلك البيت ووُلاتَه وحُماتَه وسُقاتَه وخُدّامَه وخُزّانَه وحُجّابَه حتّى يبتدعوا ويغيروا؛ فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل مَنْ أشاء بمن أشاء. أجعل إبراهيم إمام أهلِ ذلك البيت وأهل تلك الشريعة، يأتمّ به مَنْ حضر تلك المواطن من جميع الإنس والجن؛ يطئون فيها آثاره، ويتبعون فيها سُنّته، ويقتدون فيها بهَدْيه. فمن فعل ذلك منهم أوفى نذره، وآستكمل نُسُكه؛ ومن لم يفعل ذلك منهم ضيّع نسكه، وأخطأ بُغْيتَه . فمن سأل عنى يومئذ فى تلك المواطن : أين أنا؟ فأنا مع الشُّعْثِ الغُبْر المُوفين بنذورهم، المستكملين مناسكهم، المبتهلين إلى ربهم الذى يعلم ما يبدون وما يكتمون. وليس هذا الخلق ولا هذا الأمر الذى قصصت عليك شأنه؛ يا آدم، بزائدى فى ملكى ولا عَظَمتى ولا سلطانى ولا شىءٍ مما عندى إلا كما زادتْ قطرةٌ من رَشّاش وقعتْ فى سبعة أبحر تمدّها من بعدها سبعةُ أبحر لا تحصى، بل القطرة أزيد فى البحر من هذا الأمر فى شىء مما عندى. ولو لم أخلُقْه لم ينتقص شىء من مُلْكى ولا عظمتى ولا مما عندى من الغَناء والسَّعة، إلا كما نقصت الأرضَ ذرّةٌ وقعت من جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها، بل الذرّة أنقص للأرض من هذا الأمر لو لم أخلقه . ليس مما عندى ويعدّ هذا مثلا للعزيز الحكيم .

ذكر ما جاء في طواف سفينة نوح عليه السلام بالبيت

قال أبو الوليد الأزرقيّ، ورفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كان مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما، وإن الله جل ثناؤه وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما، ثم وجهها إلى الجُودىّ فاستقرت عليه .

وقال عن مجاهد : كان موضع الكعبة قد خَفِيَ ودَرَس زمنَ الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. فكان موضعه أكمةً حمراءَ مدوّرة، لا تعلوها السيول . غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعُه . وكان يأتيه المظلوم والمبعود من أقطار الأرض، ويدعو عِنْده المكروب . فقلَّ مَنْ دعا هنالك، إلا استجيب له . وكان الناس يحجُّون إلى مكة، إلى موضع البيت، حتّى بوّأ الله تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام . فلم يزل منذ أهْبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظما محترما تتناسخه الأمم والملل أمةٌ بعد أمة، وملّةٌ بعد ملة . قال : وكانت الملائكة تحجُّه قبل آدم عليه السلام .

ذكر ما جاء من تخير إبراهيم عليه السلام موضع البيت

قال عثمان بن ساج : بلغنا (والله أعلم) أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عُرِج به إلى السماء فنظر إلى الأرض، مشارِقِها ومغاربِها، فاختار موضع الكعبة . فقالت له الملائكة : ياخليل الرحمن اخترتَ حرمَ الله في الأرض، قال : فبناه من حجارةِ سبعة أجبُل (ويقولون خمسة) . وكانت الملائكة تأتى بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال .

ذكر حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج

وحج الأنبياء بعده وطوافهم

قال أبو الوليد عن محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيمُ خليلُ الرحمن من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليه السلام فقال : طُفْ به سبعا، فطاف به سَبْعا، هو وإسماعيل. يستلمان الأركانَ كلَّها فى كل طواف، فلما أكملا سبعا، صلَّيا خلف المقام ركعتين. قال : فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها : الصَّفا والمَرْوة ومِنًى ومُزْدلِفة وعرفةَ. فلما دخل منًى وهبط من العقبة، مُثِّل له إبليس عند جَمْرة العقبة، فقال له جبريل : آرمه، فرماه بسبع حصيات. فغاب عنه؛ ثم برَزَ له عند الجمرة الوسطىٰ، فقال له جبريل : آرمه، فرماه إبراهيم بسبع حصيات، فغاب عنه؛ ثم برز له عند الجمرة السفلىٰ، فقال له جبريل : آرمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصىٰ الخَذْف، فغاب عنه إبليس؛ ثم مضىٰ إبراهيم فى حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتّٰى آنتهىٰ إلىٰ عرفة. فلما آنتهىٰ إليها، قال له جبريل : أعَرَفْتَ مناسِكَكَ؟ قال : نعم، قال : فسميت عرفات بذلك. قال : ثم أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن فى الناس بالحج، فقال إبراهيم : يا ربِّ وما يبلُغُ صوتِى؟ قال الله جل ثناؤه : أذِّن، وعلىّ البلاغُ، قال : فعَلَا إبراهيم على المقام فأشرف به حتّٰى صار أرفع الجبال وأطولها فجُمعت له الأرض يومئذ : سهلُها، وجبلُها، وبَرُّها، وبحرُها، وإنسها، وجِنُّها حتّٰى أسمعهم جميعا. فأدخل إصبعيه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وبدأ بشق اليمين فقال : "أيها الناس كُتِب عليكم الحجُّ إلىٰ البيت العتيق، فأجيبوا ربكم" فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلىٰ منقَطَع التراب من أقطار الأرض كلها :

(لَبَّيكَ، اللهمَّ لَبَّيْك) . قال : وكانت الحجارة على ماهي اليوم، إلا أن الله عز وجل أراد أن يجعل المقام آية . فكان أثرُ قدميه في المقام آية إلى اليوم . قال : أفلا تراهم اليوم يقولون : (لبيك، اللهم لبيك) . فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم . وأثر قدمَيْ إبراهيم في المقام آية . وذلك قوله تعالى : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ .

قال ابن إسحاق : وبلغني أن آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم، وحجَّه إسحاقُ وسارةُ من الشام . قال : وكان إبراهيم يحجُّه كل سنة على البُرَاق . قال : وحَجَّتْ بعد ذلك الأنبياء والأمم .

وعن مجاهد، قال : حج إبراهيم وإسماعيل، ماشيين .

وعن عبد الله بن ضمرة السلولي : مابين الرُّكن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيا، جاءوا حجَّاجا فقُبِروا هنالك .

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان النبيُّ من الأنبياءِ إذا هلكَتْ أمَّتُه لحق بمكة فتعبّد بها النبيُّ ومن معه حتّى يموت . فمات بها : نوح، وهود، وصالح، وشعيب . وقبورهم بين زمزم والحِجْر .

وعن مجاهد : حج موسى النبيّ عليه السلام على جمل أحْمَر . فمرّ بالرَّوْحاء عليه عباءتان قَطَوانيَّتان متَّزِرٌ بإحداهما، مرتدٍ بالأخرى . فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة . فبينما هو يلبِّي بين الصفا والمروة، إذ سمع صوتا من السماء يقول : (لَبَّيك عبدي، أنا مَعَك) قال : فخرّ موسى ساجدا .

وعن عُرْوة بن الزبير رضى الله عنهما قال: بلغنى أن البيتَ وُضع لآدم يطوفُ به ويعبد الله عنده، وأنَّ نوحا قد حَجَّه وجاءه وعظمه قبل الغرق. فلما أصاب البيتَ ما أصاب الأرض من الغرق فكان ربوةً حمراء معروفا مكانه؛ فبعث الله هودا إلىٰ عاد، فتشاغل بأمر قومه حتّٰى هلك، ولم يحجّه. ثم بعث الله تعالىٰ صالحا إلىٰ ثمود، فتشاغل بهم حتّٰى هلك، ولم يحجّه. ثم بوّأه الله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام فحجّه وأعلم مناسكه ودعا إلىٰ زيارته. ثم لم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم، إلا حجه. ٥

وعن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لقد سَلَك فَجَّ الرَّوْحاء سبعون نبيا، حُجَّاجًا: عليهم لباسُ الصُّوف. مُطَّهِى إبلهم بحبال اللِّيف. ولقد صلّٰى فى مسجد الخَيْف سبعون نبيًّا.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لقد مَرَّ بفَجِّ الرَّوْحاء (أو لقد مَرَّ بهذا الفَجِّ) سبعون نبيا علىٰ نُوقٍ حُمْرٍ خُطُمها الليفُ. لَبُوسُهم العباء وتلبيتهم شتّٰى. فمنهم يونس بن متّٰى. فكان يونس يقول: (لَبَّيْك فراجَ الكُرَب، لبَّيْك)؛ وكان موسىٰ يقول: (لَبَّيْك، أنا عبدُك لديْك، لَبَّيْك) قال: وتلبية عيسىٰ: (لبَّيْك، أنا عبدك ابن أمَتِك بنتِ عبديك، لَبَّيْك)". ١٠

وعن عطاء بن السائب أن إبراهيم رأىٰ رجلا يطوف بالبيت فأنكره، فسأله: مَن أنْتَ؟ فقال: من أصحاب ذى القَرْنَيْنِ، قال: وأيْنَ هو؟ قال: هو بالأبطح. فتلقَّاه إبراهيم عليه السلام فاعتنقه، فقال لذى القرنين: ألا تركب؟ قال: ما كنتُ لأركبَ، وهذا يمشى، فحجَّ ماشيا. ١٥

ذكر ماجاء من مسئلة إبراهيم عليه السلام الأمْنَ والرزقَ لأهل مكة والكتبِ التى وجد فيها تعظيم الحرم

قال أبو الوليد الأزرقىّ، يرفعه إلىٰ محمد بن كعب القُرَظى أنه قال : دعا إبراهيم عليه السلام للمؤمنين، وترك الكُفّار لم يدعُ لهم بشىء، فقال الله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

وقال عثمان بن ساج : وأخبرنى محمد بن السائب الكلبىّ قال : قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ . فاستجاب الله عز وجل له فجعله بلدا آمنا وآمن فيه الخائفَ ورزقَ أهلَه من الثمرات، تُحمَل إليهم من الآفاق .

وقال مجاهد : جعل الله هذا البلد آمنا، لا يخاف فيه مَن دخله .

وقال سعيد بن السائب بن يَسَار: لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات، نقل الله أرضَ الطائف من الشام فوضعها هنالك : رزقا للحرم .

وروى عن محمد بن المنكدر، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: لما وضع الله الحرم نقل له الطائفَ من الشام .

وعن الزُّهْرىّ أنّ الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم خليل الله : ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ من الثمرات﴾ .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما، قال: جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوجده غائبا، ووجد ٱمرأته الآخرة، وهى السيدة بنتُ مُضاض بن عمرو الجُرْهُمى. فوقف وسلم فردّت عليه السلام وٱستنزلته وعَرَضت عليه الطعامَ والشراب،

فقال : ما طعامُكم وشرابكم ؟ قالت : اللحم والماءُ ، قال : هل من حَبٍّ أو غيره من الطعام ؟ قالت : لا ، قال : بارك الله لكم فى اللحم والماء .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو وَجَدَ عندها يومئذ حَبًّا لدعا لهم بالبَرَكة فيه ، فكانت تكون أرضا ذاتَ زرع" .

وعن سعيد بن جُبَيْر مثله ، وزاد فيه : "ولا يخلُو أحدٌ على اللحم والماء فى غير مكةَ إلا وَجِع بَطْنُه ، وإن خلا عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى" .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "وُجِد فى المقام كتاب فيه "هذا بيت الله الحرامُ بمكة ، توكَّل اللهُ برزق أهله من ثلاث سُبُل ، مباركٌ لأهله فى اللحم واللَّبَن"

ووجد فى حَجَر فى الحِجْر كتابٌ من خِلْقة الحجرِ "أنا الله ذو بَكَّة الحرام صُغْتها يوم صُغْت الشمس والقمرَ وحَفَفتها بسبعة أملاك حُنَفاء لا تزول حتّى يزول أخْشَباها مبارك لأهلها فى اللحم والماء" .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما هدموا البيت وبلَغوا أساس إبراهيم عليه السلام وجدوا فى حجر من الأساس كتابًا ، فدعَوْا له رجلا من أهل اليمن ، وآخَر من الرُّهبان ، فإذا فيه : "أنا الله ذو بكة حرَّمتها يوم خلقت السموات والأرضَ والشمسَ والقمرَ ويوم صُغْت هذين الجبلين وحفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها فى الماء واللبن" .

وعن مجاهد رضى الله عنه قال : وجد فى بعض الزبور "أنا الله ذو بَكَّة جعلتُها بين هذين الجبلين وصغتها يوم صغت الشمس والقمر وحَفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء

وجعلت رزق أهلها من ثلاث سُبُل فليس يوتا[1] أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى الوادى وأسفلِه وكُدًى وباركت لأهلها فى اللحم والماء".

ذكر أسماء الكعبة ومكة

عن ابن أبى نَجِيح قال : إنما سُمِّيت "الكعبةَ" لأنها مُكَعَّبة على خِلْقة الكَعْب .

٥ قال : وكان الناس يبنُون بيوتهم مدورة تعظيما للكعبة . فأول من بنى بيتا مربَّعا حُمَيد بن زُهَير، فقالت قريش : "رَبَّع حميدُ بنُ زُهَيْر بيتا، إما حياةً وإما موتا" .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : إنما سمِّيت "بكة" لأنه يجتمع فيها الرجالُ والنساء جميعا . وقالوا : "بَكَّةُ" موضع البيت، ومكَّة القرية .

وقال ابن أبى أنيسة : "بَكَّةُ" موضع البيت، ومكة هو الحرمُ كلُّه .

١٠ وكان ابن جريج يقول : إنما سميت "بكة" لتَبَاكِّ الناس بأقدامهم قدامَ الكعبة .

ويقال : إنما سميت "بكة" لأنها تَبُكُّ أعناقَ الجبابرة .

وعن الزهرى : أنه بلغه إنما سمِّى "البيتَ العتيقَ" من أن الله تعالى أعتقه من الجبابرة .

وعن مجاهد والسدى : إنما سمى "البيت العتيقَ" الكعبةُ، أعتقها الله من

١٥ الجبابرة؛ فلا يَتَجبَّرون فيه إذا طافوا . وكان البيت يدعى "قادسا" ويدعى "بادرا" ويدعى "القرية القديمة" ويدعى "البيت العتيق" .

وعن مجاهد قال : من أسمائها "مكَّة" و"بكَّة" و"أمُّ رُحْم" و"أمُّ القُرى" و"صَلَاح" و"كُوثى" و"الباسَّة" .

(١) فى الأصل "بيوت" . وفى بعض النسخ كما فى الصلب بدون نقط . ولعل الصواب يؤى .

وعن ٱبن أبى نجيح قال : بلغنى أن أسماء مكة "مكةُ" ، و "بكةُ" ، و "أم رُحْم" ، و"أم القُرىٰ" : و"الباسَّةُ"، و"البيتُ العتيقُ"، و"الحاطمةُ": (تحْطِم من يستخفُّ بها) ، و" الناسَّة "(تنُسُّهم ، أى تخرجهم إخراجا إذا غشَموا وظلموا) .

ذكر ما جاء فى فضل الركن الأسود

عن ٱبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ليس فى الأرض من الجنة إلا الرُّكْن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتانِ من جواهر الجنة، ولولا ما مَسَّهما من أهل الشِّرك ما مسَّهما ذُو عاهة إلا شفاه الله عز وجل .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال فى الرُّكْن الأسود: لولا ماَمَسَّه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم. ما مَسَّه ذو عاهة إلا بَرَأ . وقال : نزل الركن، وإنه لأشدّ بياضا من الفِضَّة .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها، وهى تطوف معه بالكعبة حين ٱستَلَم الركنَ: "لولا ما طُبع علىٰ هذا الحجر، يا عائشةُ، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها، إذَنْ لٱستُشْفِىَ به من كل عاهة، وإذن لألفِى كهيئته يوم أنزله الله، وليعيدنه الله إلىٰ ما خلقه أوّل مرة، وإنه لياقوتة بيضاءُ من يواقيت الجنة، ولكنَّ الله غيره بمعصية العاصين، وستر زِينتَه عن الظَّلَمة والأَثَمة لأنهم لا ينبغى لهم أن ينظروا إلىٰ شىء كان بدؤه من الجنة" .

وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله يبعثُ الركنَ الأسودَ، وله عينان يبْصر بهما، ولِسان ينَطِق به : يشهد لمن ٱستلمه بحق" .

وعنه رضى الله عنـه : الركن يمينُ الله فى الأرض : يصافِحُ بها عباده كما يصافح أحدُكم أخاه .

وعن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه قال : خرجْنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلىٰ مكة . فلما دخلْنا الطوافَ، قام عند الحجر وقال : والله إنى لأعلم أنك حَجَرٌ لا تضرُّ ولا تنفَع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبِّلك ، ماقبَّلتك. ثم قبَّله ومضىٰ فى الطواف فقال له علىّ رضى الله عنه : بل يا أمير المؤمنين هو يضرّ وينفع ، قال : وبم قلتَ ذلك؟ قال : بكتاب الله، قال : وأين ذلك من كتاب الله؟ قال : قال الله عز وجل : ﴿ وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأشْهَدَهُمْ علىٰ أنفُسِهِمْ ألَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلىٰ شَهِدْنا ﴾ . فلما خلق الله تعـالىٰ آدم مسح ظهره وأخرج ذرّيته من صلبه فقرّرهم أنه الربُّ وهم العبيد، ثم كتب ميثاقهم فى رَقٍّ، وكان هذا الحجر له عينانِ ولسانٌ، فقال له : آفتح فاك ، فألقمه ذلك الرَّقّ وجعله فى هذا الموضـع ، وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيشَ فى قوم لستَ فيهم، يا أبا الحسن .

وعن عِكْرِمة : أنّ الحجر الأسود يمينُ الله فى الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الركنَ فقد بايع اللهَ ورسولَه .

وعن مجاهد : يأتى الركنُ والمَقَام يوم القيامة، كلُّ واحد منهما مثلُ أبى قُبَيس: يشهدان لمن وافاهما بالموافاة .

والله أعلم .

ذكر ما جاء فى فضل آستلام الركن الأسود ، واليمانى

(١١١) عن عطاء بن السائب أن عبيد بن عمير قال لآبن عمر رضى الله عنهما : إنى أراك تُزاحم علىٰ هذين الركنين ، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنَّ آستلامَهُما يحُطُّ الخطايا حَطًّا ".

وسئل رضى الله عنه ، فقيل له : إنا نراك تفعل خِصالا أربعا لا يفعلُها الناسُ : نراك لا تستلم من الأركان إلا الحجرَ والركن اليمانِىَ ، ونراك لا تلبَس من النِّعال إلا السِّبْتية ، ونراك تَضَفِّر شعرك وقد يصبُغ الناس بالحنَّاء ، ونراك لا تُحرم حتّٰى تستوى بك راحلتك وتَوَجَّهَ . فقال عبد الله : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلُ ذلك .

وعن آبن عمر رضى الله تعالىٰ عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يَدَعُ الركنَ الأسود والركن اليمانِىَ أن يستلمهما فى كل طواف أتىٰ عليهما . قال : كان لا يَدَعُهما فى كل طواف طاف بهما حتّٰى يستلمَهما ، لقد زاحم علىٰ الركن مرةً فى شدّة الزحام حتّٰى رُعِف ، فخرج فغسل عنه ثم رجع . فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتّٰى رُعِف الثانية ، فخرج فغسل عنه ثم رجع . فما تركه حتّٰى آستلم .

وعن نافع قال : لقد رأيت آبن عمر رضى الله عنهما ، زاحم مرةً على الركن اليَمَانى حتّٰى انبهر فتنحّى فجلس فى ناحية الطواف حتّٰى آستراح ، ثم عاد فلم يدَعْهُ حتّٰى آستلمه . قالوا : وليس هذا واجبا على الناس ، ولكنه كان يحب أن يصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر ما جاء في فضل الطواف بالكعبة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ طافَ بالبَيْتِ، كَتَبَ اللهُ له بكُلِّ خَطْوة حسنةً ومحا عنه سيِّئةً".

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا خَرجَ المرْءُ يُرِيدُ الطَّوافَ بالبيْتِ، أقبلَ يُرِيد الرحمةَ . فإذا دَخَله غَمَرْته . ثم لا يرفَعُ قدَما ولا يَضَعُ قدَماً إلا كَتَبَ اللهُ له بكلِّ قَدَم خمْسِمائة حسنةٍ، وحَطَّ عنه خَمْسِمائةِ سيئةٍ (أو قال خطيئةٍ) ، ورُفِعت له خَمْسُمائة درجةٍ . فإذا فَرَغ من طوافه فصلّى ركعتين دُبُرَ المَقامِ، خرج من ذنوبه كيومَ ولَدَتْه أمه، وكُتِب له أجْرُ عِتْق عشرِ رقابٍ من ولد إسماعيل، واستقبله مَلَكٌ على الركن فقال له : استأنِف العمل فيما بقِيَ فقد كُفِيت ما مضى، وشُفِّع في سبعين من أهل بيته" .

وعن حَسَّان بن عطية : أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة يُنزِلُها في كل يوم، فستُّون منها للطائفين، وأربعون للمصلِّين، وعشرُون للناظرين. قال حسان : فنظَرْنا فإذا هي كلها للطائفين هو يطوف ويصلي ويَنْظُر .

ذكر ما جاء في فضل زمزم

عن وهب بن منبِّه أنه قال في زمزم : والذي نفسي بيده، إنها لفي كتاب الله مَضْنُونة، وإنها لفي كتاب الله بَرَّة، وإنها لفي كتاب الله شَرابُ الأبرار، وإنها لفي كتاب الله طعامُ طُعْم وشفاءُ سُقْم .

وعن ابن خُثَيم قال : قَدِم علينا وهب بن منبه مكةَ فاشتكى، فجئناه نعوده، فإذا عنده من ماء زمزمَ. قال : فقلنا له : لو استعذبْتَ، فإن هذا ماء فيه غِلَظ؟ قال : ما أريد

أن أشرب حتّى أخرج منها غيْرَه، والذى نفس وهب بيده ، إنها لفى كتاب الله زمزم لا تُنْزَف ولا تُذَم ، وإنها لفى كتاب الله بَرَّة شراب الأبرار ، وإنها لفى كتاب الله مَضْنونة، وإنها لفى كتاب الله طَعامٌ من طُعْمٍ وشفاءٌ من سُقْمٍ، والذى نفس وهب بيده لايعمدُ أحد إليها فيشربُ منها حتّى يتضلع إلا نزعَتْ منه داءً أو أحدَثَتْ له شفاءً .

وعن كعب أنه قال لزمزم : إنا نجدها مضنونةً ضَنَّ بها لكم، وإن أول مَنْ سُقِىَ ماءَها إسماعيلُ عليه السلام، طعامٌ من طُعْمٍ، وشفاءٌ من سُقْمٍ .

وعن مجاهد قال : ماءُ زمزمَ لما شُرِب له، إن شربته تريد به شفاءً شفاك الله. وإن شربته لظمإٍ أرواك الله، وإن شربته لجُوع أشبعكَ الله ، وهى هَزْمةُ جبريل عليه السلام بعَقِبه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "التضَلُّع من ماءِ زمزمَ براءةٌ من النِّفاق".

وعن الضحاك بن مزاحِم أنه قال : بلغنى أنَّ التضلع من ماء زمزم براءةٌ من النفاق، وأن ماءها يَذْهَبُ بالصُّدَاع، وأن التطلُّع فيها يجلو البصَر، وأنه سيأتى عليها زمان تكون أعذبَ من النيل والفرات . قال : قال لى الخزاعىّ : وقد رأينا ذلك فى سنة إحدى أو اثنتين وثمانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكةَ أمطارٌ كثيرة وسال واديها فى سنة تسع وسبعين، وسنة ثمانين ومائتين، فكثُر ماء زمزم وارتفع حتّى قارب رأسَها، فلم يكن بينه وبين شَفتِها العليا إلا سبعُ أذرع أونحوها. وعذُبت حتّى كان ماؤها أعذبَ مياه مكة التى يشربها أهلها . وإنا رأيناها أعذبَ من مياه العيون .

وعن الضحاك بن مزاحم أيضا أن الله عز وجل يرفع المياه العِذَابَ قبل يوم القيامة غير زمزَم، وتغور المياه العَذْبة غيرَ زمزم .

ذكر ما جاء من اتساع مِنًى أيام الحج ولِمَ سميت مِنًى

§ عن أبي الطُّفَيل، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يُسْأَلُ عن منًى ، ويقال له : عجبًا لضيقه فى غير أيام الحج ! فقال ابن عباس : إن منًى يتسع بأهله كما يتسع الرحم للولد .

§ وعن ابن عباس ، قال : إنما سميت منًى منًى لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم، قال له . تمنَّ ، قال : أتمنَّى الجنة ، فسميت منًى لتمنى آدم .

وقيل : إنما سميت منًى لِمَنْيِ(١) الدماء بها .

ذكر ما جاء فى فضائل مقبرة مكة

§ عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال : "نِعْمَ المَقْبُرَةُ هذه ! " (لمقبرة أهل مكة) .

وعن محمد بن عبد الله بن صيفيّ أنه قال : من قُبِر فى هذه المقبرة، بُعِث آمنا يوم القيامة (يعنى مقبرة مكة) .

ذكر شيء من خصائص مكة

§ من خصائصها أن الذئب فيها يروع الظبي و يعارضه و يصيده . فإذا دخل الحَرَم، كَفَّ عنه .

(١) المَنْيُ هو إراقة الدماء .

§ ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمامٌ إلا إن كان عليلا ، وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلُوها . والله أعلم .

وأما المدينة المشرفة

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

§ ففضائلها أوسعُ من أن أحصرَها ، وأعظم من أن أسبُرَها . ناهيك بها من بلد آختاره الله تعالى لرسوله ، ونص على فضله فى محكم تنزيله ، قال الله عز وجل : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ .

§ وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه سُئل : أىّ مسجد هو ؟ فقال : مسجدى هذا ، وهو قول آبن المسيَّب وزيد بن ثابت وآبن عمر رضى الله تعالى عنهم ، وبه أخذ مالك رحمه الله . وقال آبن عباس : هو مسجد قباء .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صلاةٌ فى مسجِدِى هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سِواه ، إلا المسجدَ الحَرَامَ" .

قال القاضى عياض رحمه الله : إختلف الناس فى معنى هذا الآستثناء على اختلافهم فى المفاضلة بين مكة والمدينة . فذهب مالك أن الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أفضلُ من الصلاة فى سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام ، فان الصلاة فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم أفضلُ من الصلاة فيه بدون الألف . وآحتج مالك وأشهبُ وآبن نافع وجماعةُ أصحابه بما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه "صلاة فى المسجد الحرام خيرٌ من مائة صلاة فيما سواه" فتأتى

فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة وعلى غيره بألف. وهذا مبنيّ على تفضيل المدينة على مكة، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين.

§ وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة. وهو قول عطاء وابن وهب وابن حبيب، من أصحاب مالك. وحكاه الباجي عن الشافعي.

٥ § قال القاضي أبو الوليد الباجي: الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر المساجد، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة.

§ قال القاضي عياض: ولا خلاف أن موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ما بين بَيتي ومِنْبَرِي روضةٌ من رِيَاض الجنة".

١٠ قالوا: هذا يحتمل معنيين، (أحدهما). أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل: "الجنةُ تحتَ ظِلال السُّيوف". (والثاني) أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها. قاله الداوديّ.

§ وروى ابن عمر وجماعةٌ من الصحابة رضي الله عنهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في المدينة: "لا يَصْبِر على لأْوائها وشدّتها أحدٌ، إلا كنتُ له شهيدا أو شفيعا

١٥ يوم القيامة".

§ وقال صلى الله عليه وسلم فيمن تحمّل عن المدينة: "والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلَمُون". وقال: "إنما المَدينةُ كالكِيرِ: تَنْفِي خَبَثَها وتَنْصَع طِيبَها".

§ وقال: "لا يخرجُ أحدٌ من المدينة رغبةً عنها إلا أبدلها اللهُ خيرًا منه".

§ وعنه صلّى الله عليه وسلم: "مَنْ مات فى أحد الحرمين حاجًّا أو معتمِرا، بعثه اللهُ يومَ القيامة لا حِسابَ عليه ولا عَذَاب" . وفى طريق آخر : "بُعث من الآمنين يومَ القيامة" .

§ وعن ٱبن عمر رضى الله عنهما : "مَنِ ٱستطاع أن يموتَ بالمدينة، فليمُتْ بها فإنّى أشفَعُ لمن يموتُ بها" .

§ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم طَلَع له أُحُدٌ فقال: "هذا جبَلٌ يحبُّنا ونحبُّه . اللهم إنَّ إبراهيم حَرَّم مكة، وأنا أُحَرِّم ما بين لابَتَيْها" . (١١٣)

§ وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبَّبتَ إلينا مكةَ أو أشدَّ، وٱنقل حُمَّاها إلى الجُحْفة، اللهم بارِكْ لنا فى صاعنا ومُدِّنا" . ودعا النبىّ صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة فقال : "اللهم بارِكْ لهم فى مكيالهم، وبارك لهم فى صاعهم ومُدِّهم" .

§ وقال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ زار قَبْرِى، وجبَتْ له شفاعَتِى" .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زارنِى فى المدينةِ مُحْتَسِبا، كان فى جِوَارِى وكنتُ له شَفِيعاً يومَ القيامة" .

§ وكان مالك رحمه الله لا يركب فى المدينة دابّةً، ويقول: أستحْيِي من اللهِ أنْ أطأَ تُربةً فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافِرِ دابّةٍ .

وروى أنه وَهَب للشافعىّ كُرَاعا كثيرا، فقال له الشافعىّ : أَمْسِك منها دابّة. فأجابه بمثل هذا الجواب .

§ وحكى القاضى عياض فى "كتاب الشفاء" قال : حُدّث أن أبا الفضل الجوهرىّ لمّا ورد المدينة زائرا وقَرُب منها، ترجّل ومشى باكيا منشدا :

ولَمَّا رأينا رَسْمَ مَنْ لم يَدَعْ لنا * فُؤاداً لِعِرْفانِ الرُّسُوم ولا لُبّا،
نَزَلْنا عنِ الأكوارِ نَمْشي، كرامةً * لِمَنْ بانَ عنــه أن نُلِمَّ به رَكْبا.

قال: وحكى بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنشأ يقول متمثلا:

٥ رُفِعَ الحِجابُ لنا فَلاحَ لناظِرٍ * قَمَــرٌ تَقَطَّعُ دونَه الأوهامُ.
وإذا المَطِيّ بنا بلَغْنَ محمّداً، * فظُهورُهُنّ على الرِّجال حَرامُ.
قَرِّبْنا من خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرى، * فلهـا علَيْنا حُرمــةٌ وذِمامُ.

§ وأفتى مالك رحمه الله فيمن قال "تربة المدينة رديّة" بضرب ثلاثين دِرّة، وأمر بحبسه، وكان له قَدْر. وقال: "ما أحْوجَه إلى ضَرْب عُنُقه، تربةٌ دفن فيها النبيّ صلى الله عليه وسلم، يزعُم أنها غير طَيِّبة!".

١٠

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في المدينة: "مَنْ أحدَثَ فيها حَدَثاً أو آوى مُحْدِثاً، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً".

ذكر شيء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها

١٥ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

§ من خصائصها، أن العِطْر والبَخُور يوجد لهما فيها من الضَّوْع والرائحة الطيِّبة أضعافُ ما يوجَد في سائر البلاد، ولها في قصبتها فَغْمة طيِّبة ورائحة عَطِرة، وإن لم يكن فيها شيء من الطيب آلبتةَ. ولهذا سميت "طَيْبة" و"طابَة".

قال الشاعر :

ماذَا عَلىٰ مَنْ شَمَّ تُربةَ أحْمَـــدٍ * أن لا يَشَمَّ مَدىٰ الزمان غَوَالِيَا؟

وهذا البيت ينسب لفاطمةَ الزهراء رضى الله عنها .

§ ومن أسمائها "طَيْبة" "وطابةُ" و"يَثْرِب" و"المدينةُ" و"الدارُ" .

§ قال القاضى عياض رحمه الله : وجَدِيرٌ بمواطن عَمَرت بالوحْى والتنزيل ، وتردّدَ بها جبريلُ وميكائيل ، وعَرَجت منها الملائكةُ والرُّوح ، وضَجَّت عَرَصاتها بالتقديس والتسبيح ، وآشملَتْ تربتُها علىٰ جَسَـــد سيد البَشَر ، وآنتَشَر عنها من دين الله وســنة رســوله ما آنتَشَر ، مَدَارِسُ آيات ، ومَسَاجدُ جماعاتٍ وصلوات ، ومشاهدُ الفضل والخيرات ، ومعاهدُ البراهين والمُعْجزات ، ومناسكُ الدين ، ومَشَاعر المسلمين ؛ ومواقفُ سيد المرسلين ، ومتبوَّأ خاتَم النبيين ؛ حيث آنفجرت النبوّة ، وأيْن فاض عبابُها ، ومواطن مَهْبَط الرسالة ، وأوّلُ أرضٍ مسَّ جلدَ المصطفى ترابُهـا : أن تُعَظَّم عَرَصاتها ، وتُتَنَسَّم نفحاتها ، وتُقَبَّل ربُوعُها وجدراتها .

وقال :

يادارَ خَيْرِ المرسَلِينَ ومَنْ بِه * هُـدِىَ الأَنامُ وخُصَّ بالآياتِ .

عِنْدِى لاجْلِكِ لَوْعةٌ وصَـبابَةٌ * وتَشَـــوُّقٌ متوقِّدُ الجَمَـــرات .

وعَلَىَّ عهدٌ إن ملأتُ محَاجِرِى * من تِلْكُمُ الجُدُرات والعَرَصاتِ ،

لأُعَفِّرَنَّ مَصُونَ شَـيْبِى بينَهـا * من كَثْرة التَّقْبِيلِ والرَّشَـفَاتِ .

لولا العَوَادِى والأَعَادِى ، زُرْتُها * أبدًا ولو سَحْبًا علىٰ الوَجَنـاتِ .

لكن سَأُهْدِى من حَفِيل تَحِيَّتِى * لِقَطِينِ تِلْكَ الدارِ والحُجُراتِ .

أذكى من المِسْك المفتّق نَفْحةً * تَغْشاه بالاصال والبُكُراتِ. (١١٤)
وتخُصُّه بزَواكِي الصَّلواتِ * ونَوامِي التسليم والبَرَكات.

وأما البيت المقدّس، والمسجد الأقصى

فالبيت المقدّس أحدُ القبلتين، والمسجد الأقصى ثالثُ الحرمين. إليه تُشَدّ الرِّحال، ويكثرُ النزولُ والارتحال؛ وفي الأرض المقدّسة تُحشَر الخلائق ليوم العَرض، ويبْسُط الله تعالى الصخرةَ الشريفة حتّى تكونَ كعرض السماء والأرض؛ وتجتمع الناس هناك لفصل الحساب، ويُضْرب بينهم بسورٍ له باب، باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرُه من قِبَله العذاب.

ولنبدأ بذكر الأرض المقدّسة

§ قال الله عز وجل إخبارا عن موسى عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. قال الزجاج: والمقدّسة المطهّرة.

وقيل للسَّطْل "القَدَس" لأنه يتطهّر منه. وسمى بيت المقدس لأنه يتطهّر فيه من الذنوب. وقيل: سماها مقدّسة لأنها طُهِّرت من الشرك وجعلت مسكنا للأنبياء والمؤمنين.

§ وقد اختلف في الأرض المقدّسة ما هي؟

فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أريحا.

وقال السُّدّى: أريحا هي أرض بيت المَقْدِس. وقال مجاهد: هي الطُّور وما حوله. وقال الضحاك: هي إيلياء وبيت المَقْدس. وقال الكلبي: دِمَشْق وفِلَسطين وبعض الأُرْدُنّ. وقال قتادة: هي الشام كلها.

وقال عبد الله بن عمر : والحرم محرَّمٌ مِقدارُه من السماوات والأرض ، و بيت المقدس مقدّسٌ مقدارُه من السماوات والأرض .

§ وقال ٱبن قتيبة . وقرأت فى مناجاة موسىٰ عليه السلام أنه قال : اللهمّ إنك ٱخترتَ من الأنعام الضائنةَ ، ومن الطير الحمامةَ ، ومن البُيوت مكةَ و إيلياءَ ، ومن إيلياءَ بيتَ المقدس .

§ وقال الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصىٰ ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَه ﴾ .

والمسجد الأقصىٰ بيتُ المقدِس : سمّى أقصىٰ لأنه أبعد المساجد التى تزار . وقيل : لبعد المسافة بين المسجدين . وقوله عز وجل "الذى باركنا حوله" قيل : بالماء والأنهار والأشجار والثمار . وقال مجاهد : سماه مباركا لأنه مقرّ الأنبياء ، وفيه مَهْبَط الملائكة والوحى ، وهو الصخرة ، ومنه يُحشَر الناس يوم القيامة .

§ وقال تعالىٰ : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ .

قال الثعلبىّ فى تفسيره : قال كعب الأحبار وقتادةُ وٱبنُ زيد وعبدُ الرحمن بن غنم : «التِّين مسجدُ دمشقَ ، والزيتونُ بيتُ المقدِس» . وقال الضحاك : «هما مسجدان بالشام» . وقال محمد بن كعب : «التينُ مسجد أصحابِ الكهف ، والزيتون مسجدُ إيلياءَ» . ومجازه علىٰ هذا التأويل : مَنابِت التينِ والزيتونِ .

وروىٰ عطية عن ٱبن عباس : « التينُ مسجدُ نوح عليه السلام الذى بنى على الجُودى ، والزيتون بيت المَقْدس» .

وروى نهشل عن الضحاك : "التين المسجد الحرامُ، والزيتونُ المسجدُ الأقصى"
قال : "وطورِ سينينَ، يعني جبل موسىٰ عليه السلام" .

قال عكرمة : "السِّينينُ الحسن بلغة الحبشة" . وعنه : كل جبل يُنْبِتُ فهو سِينينُ .

٥ وقال مجاهد : "الطُّور الجبل، وسينين المبارك" .

وقال قتادة : "المُبارك الحَسَنُ" .

وقال مقاتل : "كل جبل فيه شجر فهو سينين، وسيناءُ وهو بلغة النَّبَط" .

وقال الكلبيّ : "يعني الجبل المُشْجِر" .

§ وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : "أربعة أجبال مقدّسة بين يدَيِ الله تعالىٰ:

١٠ طُور تينًا ، وطور زَيْتا ، وطور سِينًا ، وطور تيمانا .

فاما طور تينا : فدمشق .

وأما طور زَيْتا : فبيت المقدِس .

وأما طور سِينا : فهو الذى كان عليه موسىٰ عليه السلام .

وأما طور تيمانا : فمكّةُ .

١٥ § والبلد الأمين مكة بلا خلاف" .

§ ومسجد بيت المقدس أحدُ المساجد الثلاثة التى لا تشدّ الرحال إلا إليها ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما ورد فى الصحيح : "لاتُشَدّ الرِّحالُ إلّا إلىٰ ثلاثةِ مساجِدَ : المسجدُ الحرام، ومسجدى هذا، والمسجدُ الأقصىٰ" .

وفى الصحيح أيضا "أن موسى عليه السلام ، لما حضرتْه الوفاةُ سأل اللهَ تعالىٰ

٢٠ أن يدنيه من الأرض المقدّسة رميةً بحَجَر" .

وكانت عمارة مسجد البيت المقدّس بأمر الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام أن يعْمُره ثم لم يقدّر له عمارتَهُ وقدّر الله تعالىٰ ذلك علىٰ يدى سليمان بن داود عليهما السلام ، فهو الذى عمره . وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ مبينا فى الفن الخامس فى التاريخ .

§ وقد وردت آثارٌ وأحاديثُ فى فضل بيت المقدس ، وفضل زيارته ، وثوابِ الصلاة فيه ، ومضاعفةِ الحسنات والسيئات فيه ، وفضلِ السكنىٰ فيه ، والإقامةِ به ، والوفاة فيه ، ومابه من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومحراب داود ، وعين سُلْوانَ ، وما ورد فى أن الحشر منه ، وما ورد فى فضل الصخرة والصلاة إلىٰ جانبها ، وما ورد من أن الله عز وجل عَرَج بنبيه من بيت المقدس إلىٰ السماء ، وثواب الإهلال من بيت المقدس ، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرةَ يوم القيامة .

وسنذكر من ذلك طرفا تقف عليه إن شاء الله تعالىٰ ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبةً فى الاختصار فنقول . وبالله التوفيق :

أما فضل بيت المقدس

§ فقد ورد عن الزهرىّ أنه قال : لم يبعثِ اللهُ عز وجل نبيا ، إلا جعل قبلته صخرةَ بيت المقدس . وقد صلّى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته سبعة عشر شهرا ، كما روى فى الصحيحين ، حتّى أنزل الله عز وجل علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ .

وتحويلُ القبلة أوّلُ ما نُسِخ من أمور الشرع . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة . فلما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أمره الله تعالىٰ أن يصلّي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقربَ إلىٰ تصديق اليهود إيّاه إذا صلّى إلىٰ قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه في التوراة .

٥ هذا قول عامة المفسرين، علىٰ ما حكاه الثعلبيّ عنهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : قال الله تعالىٰ لنبيه صلّى الله عليه وسلم : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هٰؤلاءِ يَهُودُ يستقبِلونَ بيتًا من بُيُوتِ اللهِ". فاستقبله النبيّ صلى الله عليه وسلم . قالوا جميعا : فصلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس سبعةَ عشرَ شهرا، وكانت الأنصار قد صلّتْ

١٠ قِبَل بيت المقدس ستين يوما ، قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وكانت الكعبة أحب القبلتين إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

§ واختلفوا في السبب الذي كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوىٰ قبلةَ الكعبة .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لأنها كانت قبلةَ أبيه إبراهيم عليهما السلام .

١٥ وقال مجاهد : من أجل أن اليهود قالوا : يخالفنا محمد في ديننا، ويتّبع قبلتنا !

وقال مقاتل بن حَيّان : لما أُمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي نحوَ بيت المقدس ، قالت اليهود : يزعم محمد أنه نبي ، وما نراه أحدَثَ في نبوّته شيئا ! أليس يصلي إلىٰ قبلتنا ويستنّ بسنتنا ؟ فإن كانت هذه نبوّةً . فنحن أقدمُ وأوفرُ نصيبا .

فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فشق عليه و زاده شوقا إلىٰ الكعبة .

وقال ٱبن زيد : لما ٱستقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، بلغه أن اليهود تقول : والله ما درىٰ محمد وأصحابُه أين قبلتهم حتّى هديناهم ، قالوا جميعا : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : وَدِدتُ أن الله صَرَفنى عن قبلة اليهود إلىٰ غيرها، فإنى أُبْغِضهم وأُبْغِض موافقتهم، فقال جبريل: إنما أنا عبدٌ مثلُك، ليس لى من الأمر شىءٌ؛ فسَلْ ربَّك، فعرج جبريل. وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلىٰ السماء رجاء أن يَنْزِلَ جبريل بما يُحِبُّ من أمر القبلة. فأنزل الله عز وجل : ﴿قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ الآية .

فلما صُرِفَتِ القبلة إلىٰ الكعبة قال مشركو مكة : قد تردّدَ علىٰ محمد أمره، وٱشتاق إلىٰ مولده ومولد آبائه ، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلىٰ دينكم عاجلا ، وتكلم اليهود والمنافقون فى تحويلها . فأنزل الله تعالىٰ : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

§ وروى عن كعب أنه قال : إن الله عز وجل ينظر إلىٰ بيت المقدس كل يوم مرتين .

وأما فضل زيارته، وفضل الصلاة فيه

§ فقد روى عن مكحول أنه قال : مَنْ زار بيت المقدس شوقًا إليه، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء فى الجنة وغَبَطُوه بمنزلته من الله تعالىٰ؛ وأيُّما رُفْقَةٍ خرجوا يريدون بيت المقدس، شيّعهم عشرةُ آلاف من الملائكة : يستغفرون لهم و يصلُّون عليهم،

ولهم مثل أعمالهم اذا آتهوا إلىٰ بيت المقدس، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاةُ سبعين مَلَكا؛ ومَن دخل بيت المقدِس طاهرا من الكبائر، تلقاه الله بمائة رحمة، ما منها رحمة إلا ولو قسمت علىٰ جميع الخلائق لوَسِعتهم؛ ومن صلّٰى فى بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بـ"فاتحة الكتاب" و"قل هو الله أحد" خرج من ذنوبه كيومَ ولدَتْه أمه، وكان له بكل شعرة علىٰ جسده حسنةٌ؛ ومَن صلى فى بيت المقدس أربعَ ركعات، مرّ علىٰ الصراط كالبَرْق وأُعْطِىَ أمانا من الفزع الأكبر يوم القيامة؛ ومَن صلى فى بيت المقدس ستَّ ركعات، أُعْطِىَ مائةَ دعوة مستجابة، أدناها براءةٌ من النار، ووجبت له الجنةُ؛ ومَن صلّٰى فى بيت المقدس ثمانَ ركعات، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن؛ ومَنْ صلّٰى فى بيت المقدس عشرَ ركعات، كان رفيق داود وسليمان فى الجنة؛ ومَن آستغفر للمؤمنين والمؤمناتِ فى بيت المقدس ثلاثَ مرات، كان له مثلُ حسناتهم، ودخل علىٰ كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرةً، وغُفِر له ذنوبُه كلُّها.

§ وروى عن أنس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ صلّٰى ببيتِ المَقدِس خمسَ صلوات نافلةً، كلُّ صلاة أربعُ ركعات يقرأ فى الخمس صلوات عشرةَ آلافِ مرةٍ ﴿قل هو الله أحدٌ﴾، فقد آشترىٰ نفسَه من الله عز وجلّ؛ ليس للنار عليه سلطانٌ".

وعنه أيضا، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلاةُ الرجلِ فى بيته بصلاةٍ واحدةٍ، وصلاتُه فى مسجدِ القبائل بستٍّ وعشرين، وصلاتُه فى المسجد الذى يُجمع فيه بخمسمائةِ صلاةٍ، وصلاتُه فى المسجد الأقصىٰ بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصلاتُه فى المسجد الحرام بمائة ألفِ صلاةٍ".

وعن مكحول أن ميمونة رضى الله عنها سألتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن بيتِ المقدس قال : "نِعمَ المَسْكنُ بيتُ المقدِس ! ومَنْ صلى فيه صلاةً بألف صلاة فيما سواه . قالت : فمن لم يُطِق ذلك؟ قال : يُهدِى له زَيْتًا"(١)

§ وعن مكحول عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قال : لا يسمَع أهلُ السماء من كلام بنى آدمَ شيئًا غير أذانِ مؤذِّنِ بيت المقدِس . ٥

وأما ما ورد
فى بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه

فقد روى عن نافع ، قال : قال ابن عمر رضى الله عنهما ، ونحن فى بيت المقدس : يا نافعُ ، اخرُج بنا من هذا البيت ، فإن السيئاتِ تُضاعف فيه كما تُضاعف الحسناتُ .

وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو : الحسنة فى بيت المقدس بألف ، والسيئة بألف . ١٠

وأما فضل السكنى فيه والإقامةِ والوفاةِ به

§ فقد روى عن ذى الأصابع أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتَ يارسولَ الله إن ابتُلِينا بالبقاء بعدكَ ، فأين تأمرنا؟ قال : "عليكَ ببيت المقْدِس ، لعلَّ الله يرزقُك ذرّية تغدُو إليه وتَرُوح" . ١٥

(١) يظهر أن بعض الكلمات قد سقطت فى هذا الموضع . ولذلك رأيت إيراد الحديث بلفظ آخر عن ابن الفقيه الهمذانى فى كتابه "مختصر كتاب البلدان" المطبوع فى ليدن سنة ١٣٠٢هـ (سنة ١٨٨٥م) وهذا نصه : "قالت ميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفتِنا عن بيت المقدس ، قال : نعم المصلى هو أرض المحشر وأرض المنشر ، إيتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة . قلت بأبى وأمى أنت من لم يطق أن يأتيه . قال فليُهدِ إليه زيتا يسرج فيه ، فإنه من أهدى إليه ، كان كمن صلى فيه" . ٢٠

§ وعن أبي أُمامة الباهلي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرين علىٰ الحقّ، لعدوهم قاهِرين، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم، حتّى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله، وأينَ هُمْ؟ قال: ببيت المقدِس وأكناف بيت المقدس".

٥ § وعن عطاء، قال: لاتقوم الساعةُ حتّى يسوق الله عز وجل خيارَ عباده إلىٰ بيت المقدس وإلىٰ الأرض المقدّسةِ، فيُسكِنَهم إيّاها.

§ وعن كعب، قال: قال الله عز وجل لبيت المقدس: أنتَ جنتي وقُدْسي وصفوتي من بلادي، مَنْ سكنكَ فبرحمة مني، ومَنْ خرج منك فبسخط مني عليه.

§ وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جيرانُ الله، وحقٌّ علىٰ الله عز

١٠ وجل أن لا يعذّب جيرانَه؛ ومن دُفِن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضِيقه.

§ وعن كعب، قال: اليومُ في بيت المقدس كألفِ يومٍ، والشهر فيه كألفِ شهر، والسنةُ فيه كألف سنة؛ ومَنْ مات فيه فكأنما مات في السماء، ومَنْ مات حوله فكأنما مات فيه.

وعن خالد بن مَعْدان قال: سمعت كعبا يقول: مقبورُ بيتِ المقدس لايعذّب.

---

١٥ وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سُلْوان

§ ففي الأرض المقدّسة قبرُ إبراهيم الخليل، وإسحاقَ، ويعقوبَ، ويوسفَ عليهم السلام.

§ وفي الصحيح أن موسىٰ عليه السلام لما حضرَتْه الوفاةُ سأل الله عز وجل أن يُدْنِيه من الأرض المقدّسة، رميةَ حَجرٍ.

§ وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بشر بن بكر عن أمّ عبد الله عن ابنها أنه قال : من أتى بيت المقدس، فليأت محراب داود، فليصلِّ فيه، ويَسْبَح فى عين سلوان فإنها من الجنة .

§ وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز، قال : كان فى زمان بنى إسرائيل فى بيت المقدس عند عَيْن سُلْوان عينٌ . وكانت المرأة إذا قُذِفت ، أتَوْا بها فشرِبت منها فإن كانت بريئة لم تضرَّها، وإن كانت نَطِفةً ماتت. فلما حملَتْ مريمُ حملوها، فشربتْ منها فلم تزدَدْ إلا خيرا . فدعت الله أن لايفضَح بها آمرأةً مؤمنة . فغارت العينُ . (١١٧)

وأما ما ورد
فى أن الحشر من البيت المقدس

§ فقد روى عن أبى ذرّ رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله "أخبِرْنا عن بيتِ المقدس . قال : أرضُ المحشَر والمنْشَر. إيتوه فصلُّوا فيه وليأتِينَّ على بيت المقدس (١) ولبَسْطةُ قوس أو مَسْحةُ قوس فى بيت المقدس أومن حيثُ يُرى بيت المقدس خيرٌ من كذا وكذا" .

§ وعن كعب قال : العَرْض والحساب من بيت المقدس .

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمة . وقد روى ابن فضل الله العمرى فى "مسالك الأبصار" المطبوع بدار الكتب المصرية (ج ١ ص ١٣٦) حديثا تقرب ألفاظه جدا من هذا الحديث ان لم يكونا حديثا واحدا . فلأجل تكملة النقص الموجود فى نسخ النويرى فى هذا الموضع نورد ما رواه ابن فضل الله وهو : وعن أبى ذر قال : قيل يارسول الله صلاة فى البيت المقدس أفضل ، أم صلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : صلاة فى مسجدى هذا أفضل من أربع صلوات فيه . ولنعم المصلى هو أرض المحشر والمنشر! وليأتين على الناس زمان ، ولَبَسْطةُ قَوْسٍ من حيث يُرى بيت المقدس ، أفضلُ وخيرٌ من الدنيا جميعا .

§ وعن قتادة في قوله تعالىٰ ﴿ يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال: من صخرة بيت المقدس .

§ وعن يزيد بن جابر "يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ" قال : يقف إسرافيل علىٰ صخرة بيت المقدس فينفُخ في الصُّور فيقول : أيَّتها العظامُ النَّخرة ، والجلود المتمزِّقة ، والأشعار المتقطِّعة ، إن الله تعالىٰ أمرك أن تجتمعي للحساب .

§ وقال المفسرون في قوله تعالىٰ ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ هو أن إسرافيل يقف علىٰ صخرة بيت المقدس فينادى : " يأيها الناس ، هَلُمُّوا إلىٰ الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ، وهذه هي النفخة الأخيرة . "

والمكان القريب صخرة بيت المقدس .

§ قال كعب ومقاتل : هي أقرب إلىٰ السماء بثمانيةَ عشرَ ميلا . وقال ٱبن السائب : باثنَىْ عشرَ ميلا .

§ وعن ٱبن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ قال : هو حائط بيت المقدس الشرقيُّ الذى من ورائه وادٍ يقال له وادى جهنم ، ومن دونه بابٌ يقال له باب الرحمة .

وأما ما ورد
في فضل الصخرة ، والصلاة إلى جانبها

§ فقد روى عن أنس بن مالك ، قال : إن الجنة لتحنّ شوقًا إلىٰ بيت المقدس ، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس ، وهي سُرَّة[1] الأرض .

(١) أى الصخرة .

§ وعن أبى إدريس الخَوْلانىّ : قال : يحوِّل الله صخرةَ بيت المقدس مَرْجانةً بيضاء كعرض السماء والأرض ؛ ثم يَنْصِبُ عليها عرشَه ، ثم يقضِى بين عباده : يصيرون منها إلىٰ الجنة و إلىٰ النار .

§ وعن أبى العالية فى قوله تعالىٰ ﴿ إلىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : من بركتها أن كلّ ماءٍ عَذْبٍ يخرج من أصل صخرة بيت المقدس . ٥

§ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : "الأنهارُ كلُّها والسَّحابُ والبِحارُ والرياحُ من تحتِ صخرةِ بيتِ المقْدِس" .

§ وقال آبن عباس رضى الله عنهما : صخرةُ بيت المقدس من صخور الجنة .

§ قال الزجاج : يقال إنها فى وَسَط الأرض .

§ وعن كعب قال : مَنْ أتىٰ بيتَ المقدس فصلّى عن يمين الصخرة وشمالها ، ودعا عند موضع السِّلْسِلة ، وتصدّق بما قلّ أو كثُر ، آستُجيب دعاؤه ، وكشف الله حُزْنه ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدتْه أمه ؛ و إن سأل الله الزيادة أعطاه إياها . ١٠

وأما ما ورد
فى أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس إلى السماء

فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطى الخطيب رحمه الله بسنده إلىٰ سوادة بن عطاء الحضرمىّ ، قال : نجد فى الكتاب مكتوبا أن الله عز وجل لمّا أن خلق الأرضَ وشاء أن يعرُج إلى السماء وهى دُخَانٌ ، آستشرف لذلك الجبالُ أيُّها يكون ذلك عليه ؟ وخشَعَتْ صخرةُ بيت المقدس تواضُعًا لله عز وجل ، فشكر اللهُ لها ذلك وجعل المعراج عنها . وكان عليها ما شاء الله أن ١٥

يكون . قال: فمدّ الجبار يديه حتّى كانتا حيث يشاء أن تكونا، ثم قال : «هذه جنتى غربًا، وهذه نارى شرقا، وهـذا موضع ميزانى طَرَف الجبـل . وأنا الله دَيَّانُ يوم الدِّين» وكان معراجه إلى السماء عن الصخرة .

وروى أيضا بسـنده إلى هانئ بن عبـد الرحمن ، ورُدَيح بن عطية عن إبراهيم ابن أبي عبلة أحسبه كذا قال: وسئل عبادةُ بن الصامت ورافع بن خَدِيج وكانا عقبيَّين بدريَّين ، فقيل لهما : أرأيتمـا ما يقول الناسُ فى هذه الصخرة أحقًّا هو فنأخذ به ، أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فندَعُه؟ فقال كلاهما : سبحانَ الله! ومَنْ يشكُّ فى أمرها ، إن الله عز وجل لمـا آستوى إلى السماء ، قال لصخرة بيت المقدس : «هذا مَقامى وموضعُ عرشى يوم القيامة، ومَحْشَرُ عبادى . وهـذا موضع نارى عن يسارِها وفيه أنصِبُ ميزانى أمامَها، وأنا الله دَيَّانُ يوم الدِّين» ثم أستوى إلى عِلِّيِّين .

(١١٨)

وروى أيضا بسنده عن كعب ، قال : إن فى التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس « أنت عرشى الأدنى ومنكِ آرتفعتُ إلى السماء، ومن تحتك بسطتُ الأرضَ وكلُّ ما يسيل من ذِرْوة الجبال من تحتِك، مَن مات فيك فكأنمـا مات فى السماء ، ومن مات حولك فكأنما مات فيك، لا تنقضى الأيامُ والليالى حتّى أرسل عليك نارا من السماء فتأكل آثارَ أكُفِّ بنى آدم وأقدامِهم منك ، وأُرسِلَ عليك ماءً من تحت العرش فأغسلَك حتّى أتركك كالمِرآة، وأضربَ عليك سُورا من غمامٍ غِلَظُهُ آثنا عشر ميلا ، وسِياجًا من نار، وأجعل عليكِ قبةً جَبَلْتها بيدى ، وأُنْزِل فيك روحِى وملائكتى يُسبِّحون لى فيك، لا يدخلكِ أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة، فمن بَرَ ضوءَ تلك القبة من بعيد، يقول : طوبى لوجه يَخِرّ فيك لله ساجدا ، وأضرب عليك حائطا من نار،

وسياجا من الغَمَام، وخمسةَ حيطان من ياقوت ودرّ وزبَرْجَد، أنت البَيْدَر، وإليك المحشَر، ومنك المَنْشَر» .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن محمد بن الجوزىّ رحمه الله فى ذلك حديثين، ثم تكلم عليهما وضعّف رُواتهما .

أما أحدهما، فقال : أخبرنا المبارك بن أحمد، قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد، قال : أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النَّصيبي، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن صالح بن عمر المقرى، قال : حدثنا عيسى بن عبيد الله، قال : حدّثنا على ابن جعفر الرازى، قال : حدّثنا العباس بن أحمد بن عبد الله، قال : حدّثنا عبد الله ابن عمر المقدسى، قال : حدّثنا بكر بن زياد الباهلىّ، عن عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن زرارة بن أوْفى، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما أُسْرِى بى إلى بيت المقدس مَرّ بى جبريلُ عليه السلام إلى قبر إبراهيم، فقال : انزل، فصلِّ هاهنا ركعتين، هاهنا قبر أبيك إبراهيم . ثم مَرّ بى ببيت لحم، فقال : انزل، صلِّ هاهنا ركعتين، فإن هاهنا وُلِد أخوك عيسى . ثم أتى بى إلى الصخرة فقال : من هاهنا عَرَج ربك إلى السماء" .

قال الحافظ أبو حاتم بن حَبَّان : هذا حديث لا يشك عوامُّ أصحاب الحديث أنه موضوع . وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات .

وأما الحديث الثانى، فرواه بسنده إلى إبراهيم بن أعين عن رَدَيح بن عطية بن النعمان، عن عبد الله بن بسر الحمصىّ، عن كعب الأحبار، قال : يقول الله عز وجل

لبيت المقدس: أنت عرشي الذي منك ارتفعت إلى السماء، ومنك بسطتُ الأرضَ، ومن تحتك جعلت كل ماءٍ عذبٍ يطلُع في رءوس الجبال.

قال أبو حاتم الرازيّ: إبراهيم بن أعين مُنْكَرُ الحديث.

هذا ما ورد في هذا الفصل وقد نبهنا على ما فيه من المآخذ والله أعلم.

وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس

فقد روى عن أم سلمة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ورضي عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ أهَلَّ مِن بيتِ المقدسِ، غُفِرله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر".

قال سالم: وأهلَّ ابن عمر رضي الله عنهما من بيت المقدس بعُمْرة.

وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ أحرمَ منْ بَيْتِ المَقْدِس، قَدِم مكةَ مغفوراً له".

وأما ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة

فقد روى عن كعب الأحبار قال: لا تقوم الساعة حتّى يزور البيتُ الحرامُ بيتَ المقدس، فينقادان جميعا إلى الجنة وفيهما أهلوهما.

وروى عن خالد بن مَعْدان قال: يحشر الله الكعبةَ إلى الصخرة زَفّاً إليها زَفّاً، متعلقين بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبا: بالزائرة والمزور إليها.

هذا ما اتفق إيراده في فضائل البيت المقدس، وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخباره طرفا آخر وهو في الباب الثاني، من القسم الثالث، من الفن الخامس في التاريخ عند ذكرنا لأخبار سليمان بن داود عليهما السلام، فنذكر خلاف ذلك.

وأما اليمن وما يختص به

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الإيمانُ يمانٍ، والحكمة يمانيةٌ".

وقال الجاحظ : من خصائص اليمن السيوفُ، والبرودُ، والقُرود .

(١١٩) ويقال : ان السيف متى قُلِع بالهند وطبع باليمن، فناهِيكَ به ! ٥

وقال الأصمعيّ : أربعة ملائِتِ الدنيا ولا تكون إلا باليمن، وهى الوَرْس، والكُنْدُر، والخَضَض، والعَقِيق .

وأما الشام وما يختص به

فمن ذلك أن الشام موطِن الأنبياء عليهم السلام، ومعدِن الزُّهّاد والعُبّاد .

وحُكى أن الابدالَ السبعين بأرض الشام، بجبل لُكَام وجبل لُبْنان . ١٠

ومن خصائص الشام :

مسجد دمشقَ

الذى ما عُمِر على وجه الأرض مثلُه وكانت عمارته فى سنة ست وثمانين، عمّره الوليد بن عبد الملك . ووقع الحريق فيه فى سنة إحدى وستين وأربعمائة، فدَثرت محاسنُه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة . ١٥

وعن قتادة، قال : أقسم الله تعالى بمساجدَ أربعة، قال : "والتِّينِ" وهو مسجد دمشق، "والزَّيتون" وهو بيت المقدس، "وطُورِ سِينينَ" وهو حيث كلم الله موسى، "وهذا البَلَدِ الأمِينِ" وهو مكة .

وقال محمد بن شعيب : سمعتُ غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التينَ مسجدُ دمشق، وأنهم قد أدركوا فيه شجرا من تينٍ قبل أن يَبْنِيَهُ الوليد .

وعن هشام بن عبد الملك قال : لما أَمَر الوليد ببناء مسجد دمشق ، وجدوا في الحائط القبليّ من المسجد لَوْحا فيه نقش فأتوا به الوليد، فبعث إلى الروم والعبرانيين وغيرهم، فلم يستخرجوه. فدُلَّ على وهب بن منَبِّه فبعث إليه، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فإذا الحائط الذي وجد فيه بناء هودٍ عليه السلام .

وعن زيد بن واقد قال : وكَّلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مَغَارةً فعرَّفْنا الوليد ذلك . فلما كان الليل وافى، وبين يديه الشَّمَع، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة : ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع، وإذا فيها صُندوق، فَفُتح فإذا فيه سَفَطٌ، وفي السَّفَط رأس يحيي بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه : "هذا رأس يحيي بن زكريا". فأمر الوليد، فرُدّ إلى مكانه، وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه مغيَّرًا من الاعمدة ، فجعلوا عليه عمودا مُسَفَّط الرأس . وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير .

وقال أبو زُرعة : مسجد دمشق خَطَّه أبو عبيدة بنُ الجرّاح، وكذلك مسجد حِمْص . وقيل : لما قدم المهديّ يريد بيت المقدس، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعريّ كاتبه، فقال : يا أبا عبد الله سبَقَنا بنو أمية بثلاثٍ، قال : وما هنّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت (يعني المسجد) لا أعلم على وجه الأرض مثلَه ، وبنُبْل الموالي فإن لهم موالِيَ ليس لنا مثلهم، وبعُمَر بن عبدالعزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدا ! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة ، فقال : يا أبا عبد الله وهذه رابعة .

وحكى عمرو بن مهاجر الأنصارىّ قال : حَسَبوا ما أُنْفق على الكرمة التى فى قبلة مسجد دمشق . فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصىّ : أُنْفق فى عمارة مسجد دمشق أربعمائة صُندوق ، كل صُندوق أربعةَ عشَر ألفَ دينار .

وقال بعض شعراء المُحْدَثين فى وصفه : ٥

دمَشْقُ قد شاع ذِكْرُ جامعها * وما حَـوَتْه رُبى مَرابِعِهـا .
بديعـةُ المُدْنِ فى الكمال لِمَـا * يُدْرِكُه الطَّرْفُ من بَدائِعِهـا .
طَيِّبَـةٌ أرضُها مبـارَكَةٌ * باليُمْن والسَّـعد أخْذُ طالِعِها .
جامعُها جامعُ المحاسِن قَدْ * فاقتْ به المُدْنَ فى جَوامِعِهـا .
تُذْكَر فى فَضْـلِه ورِفْعتِـه * أخبارُ صِدقٍ راقت لسامِعِها . ١٠
قد كان قبلَ الحَرِيق مَدْهشةً * فغَـيَّرته النارُ بلاقِعِهـا .
فأذهبَتْ بالحـريقِ بهجَتَه * فليس يُرْجى يومَ راجعِهـا .
إذا تفكَّرْتَ فى الفُصوص وما * فيها . تيقَّنْتَ حذْقَ واضعِها .
أشجـارُها لا تزالُ مثمـرةً * لا تَرْهَبُ الريحَ فى مَدافِعِهـا .
كأنَّها من زُمُرُّدٍ غُرِستْ * فى أرض تِبْرٍ يُغشى بفاقِعِهـا . ١٥
فيهـا ثِمـارٌ تخالُهـا يَنَعَتْ * وليس يُخْشى فسادُ يانِعِهـا .
تُقْطَف باللحظ لا بجـارحة الأيْدى ولا تُجْتَـنى لبائِعِهـا .
وتحتَهـا من رُخامه قِطَعٌ * لا قَطَع اللهُ كَفَّ قاطِعِهـا .
أحكَمَ ترخيمَها المرخِّم قـد * بانَ عليهـا إحكامُ صانِعِها .

وإنْ تفكَّرْتَ في قناطِرِه * وسَقْفه ، بانَ حذْق رافعها .
وان تبيَّنْتَ حُسْنَ قُبَّتِه * تحيَّرَ اللُّبُّ في أضالِعِها .
تخترِقُ الريحُ في مَخارِمِها * عَصْفًا فتقْوى على زَعازعها .
وأرْضُه بالرُّخام قد فُرِشَتْ * يَنْفسِحُ الطَّرْف في مَواضِعِها .
مجالِسُ العِلْم فيه مُونَقَةٌ * يَنْشرِحُ الصدْرُ في مجامِعِها . ٥
وكلُّ بابٍ عليه مِطْهرةٌ * قد أمِنَ الناسُ دَفْعَ مانِعِها .
يرتفِقُ الخلْقُ من مَرافِقِها * ولا يُصَدُّونَ عن مَنافِعِها .
ولا تزالُ المِياهُ جاريةً * فيها لما شُقَّ من مَشارِعِها .
وسوقُها لا تزالُ آهِلةً * يزدَحِمُ الناسُ في شَوارِعِها .
لِمَا يَشاءُون من فواكِهِها * وما يُريدون من بَضائعِها . ١٠
كأنَّها جَنَّةٌ معجَّلةٌ * في الأرض، لولا سُرى جفائعِها .
دامتْ برَغْم العِدا مُسَلَّمةً * وحاطَها اللهُ من قَوارِعِها .

وقال عبد الله بن سلام: بالشام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبعمائة قبر؛ وقبرُ موسى بدمشق؛ ودمشق معقِل الناس في آخر الزمان .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مَنْ أراد أن ينظر إلى الموضع الذى قال الله عز وجل فيه ﴿ وآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ فليأت النَّيْرب الأعلى بدمشق بين النهرين ، وليَصْعد الغارَ في جبل قاسِيُونَ ، فليُصَلِّ فيه فإنه بيتُ عيسى وأمِّه . ومن أراد أن ينظر إلى إرَمَ ، فليأت نهرا في دمشق يقال له بَرَدَى . ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التى فيها مريمُ بنتُ عمران والحواريُّونَ . فليأت مقبرة الفراديس . ١٥ ٢٠

ومن خصائصها التُّفَّاح الذى يضرَبُ به المثل فى الحسن والطِّيب. وكان يحمل منه إلى الخلفاء فى كل سنة ثلاثون ألف تفاحة .

وبها الغُوطةُ، وهى أحد متنزَّهات الدنيا الأربعة . وهى أجَلُّها .

وسنذكر وصفها فى باب الرياض إن شاء الله تعالى .

وأما مصرُ وما يختصُّ بها من الفضائل

فمن فضلها أن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز فى أربعة وعشرين موضعا . منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلَّت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ ، فقوله تعالى : ﴿ إِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن يوسف عليه السلام : ﴿ أُدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ .

وأما ما دلت عليه القرائن ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . قال ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ووهب بن منبه وغيرهم : هى مصر .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ . يعنى مصر .

وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ . يعنى قوم فرعون ، وأن بنى إسرائيل ورثوا أرض مصر .

وقوله عز وجل : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون : ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

وقوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون : ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن بنى إسرائيل : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ . يعنى أرض مصر . ٥

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وذكر ابن عباس مصر، فقال : سميت مصر بالأرض كلها فى عشرة مواضع ١٠ من القرآن . والله تعالى أعلم .

§ وأما ما ورد فيها من الحديث النبوى صلوات الله وسلامه على قائله

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مِصْرُ، فَاسْتَوْصُوا بِقِبْطِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا"

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا فتح اللهُ عليكم مصرَ فاتَّخِذُوا بها جُنْدًا ١٥ كَثِيفًا، فذلك الجندُ خَيْرُ أجنادِ الأرضِ" فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولِمَ يارسولَ الله ؟ فقال : "لأنهم وأزواجَهُم فى رِبَاط إلى يوم القيامة" .

وعنه صلى الله عليه وسلم، وذكر مصر : "ما كادَهُمْ أحدٌ إلا كَفَاهُمُ اللهُ مَؤُونَتَه" .

وتكررت الأحاديث فى فضلها .

وقال عبد الله بن عمرو : وأهلُ مصرَ أكرمُ الأعاجم كلِّها، وأسمحُهم يدا، وأفضَلُهم عُنْصرا، وأقربُهم رَحِمًا بالعرب عامةً وبقريش خاصَّةً .

وقال أيضا : لما خلق الله عز وجل آدم، مثَّل له الدنيا : شرقَها، وغَرْبها، وسَهْلَها، وجبلها، وأنهارها، وبِحارها، وبناءها، وخرابها، ومَن يسكنها من الأمم، ومَن يملكها من الملوك . فلما رأى مصر، رآها أرضًا سهلةً ذات نهر جار، مادّتُه من الجنة، تنحدِر فيه البركة، ورأى جبلا من جبالها مكسوًا نورا لا يخلو من نظر الربّ عز وجل إليه بالرحمة . في سفحه أشجار مثمرة، فروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة . فدعا آدمُ في النيل بالبركة . ودعا في أرض مصرَ بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجَبَلها سبع مرات . وقال : «يا أيها الجبل المرحوم، سفحُك جنة وتربتك مسْكةٌ تدفن فيها عرائس الجنة . أرض حافظة مطبقة رحيمة . لا خَلَتْك يا مصر بركةٌ، ولا زال بك حفظ، ولا زال منك مُلْك وعِزٌّ، يا أرضَ مصر فيك الحباء والكُنوز، ولك البِر والثَّروة، سال نهرُك عَسَلا . كثَّر الله زرعَك، ودرّ ضرعُك، وزكّا نباتُك، وعظُمت بركتُك وخَصُبت، ولا زال فيك يامصر خيرٌ ما لم تتجبَّري وتتكبَّري أو تخوني، فإذ فعلت ذلك، عراك شرّ، ثم تَغَوّر خيرك» .

فكان آدم أوّلَ من دعا لها بالخِصْب والرحمة والرأفة والبركة .

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : دعا نوح عليه السلام لابن ابنه بيصر ابن حام وهو أبو مصر، فقال : اللهم إنه قد أجاب دَعْوتي، فبارِكْ فيه وفي ذرّيته وأسكِنْه الأرضَ الطيبةَ المباركةَ التي هي أمُّ البلاد .

قال عبد الله بن عمرو : لما قَسم نوح عليه السلام الأرضَ بين ولده، جعل لحامٍ مصر وسواحلَها والمغربَ وشاطئَ النيل . فلما دخل بيصر بن حام وبلغ العريشَ،

قال : «اللهم إن كانت هذه الارضُ التى وعدتَنا على لسان نبيك نوح عليه السلام وجعلتها لنا منزلا فاصرف عنا وباها، وطَيِّب لنا ثَرَاها، وأجمع ماها، وأنبت كلاها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، إنك على كل شىء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد» وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به . والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام ابن نوح .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبار مصر وبنيه عند ذكرنا لملوك مصر، وهو فى الفن الخامس فى التاريخ .

وعن كعب الأحبار : لولا رَغْبتِى فى بيت المقدِس لما سكنْتُ إلا مصر. فقيل له : ولِمَ؟ فقال : لأنها معافاةٌ من الفِتَن ومن أرادها بسوء كَبَّه الله على وجهه، وهو بلد مبارَكٌ لأهله فيه .

وقال أبو بَصْرة الغفارى : سلطان مصر سلطان الأرض كلِّها .

قال : وفى التوراة مكتوب : مصرُ خزائنُ الأرض كلِّها، فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى .

وقال عمرو بن العاص : ولايةُ مصر جامعةٌ، تعدِل الخلافةَ .

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، قاضى العراق : سألت أحمد بن المدبِّر عن مصر فقال : كشفتها فوجدتُ غامرَها أضعاف عامرِها. ولو عَمَّرَها السلطان، لوفَتْ له بخراج الدنيا .

ذكر مَن وُلد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن كان بها منهم

ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جماعةٌ ، منهم : موسى ، وهرونُ ، ويُوشَعُ بن نون ، ودانِيالُ ، وأرْمِيَا ، ولُقمانُ ، وعيسى بن مريم . ولدته أمه بأهناس ، وبها النخلة التى ذكرها الله تعالى لمريم على أحد الأقوال .

ولما سار عيسى إلى الشأم أخذ على سَفْح المقطم ماشيا ، عليه جبةُ صوف مربوط الوسط بشَرِيط ، وأمه تمشى خَلْفَه ، فالتفت إليها وقال : يا أماه ، هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما مَن كان بها منهم ، فكان : إبراهيم الخليلُ ، وإسماعيلُ ، ويعقوبُ ، ويوسفُ عليهم السلام ، واثنا عشر سِبْطا .

ذكر مَن كان بها من الصدّيقين والصدّيقات رضى الله عنهم

كان بها من الصدّيقين مؤمِن آل فرعون الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن .

وقيل : إنه ابن لفرعون لصُلْبه . آمن بموسى ولَحِق به وجعله الله نبيا وآيةً .

وكان بها وزراءُ فرعونَ الذين وصفهم الله تعالى وفضّلهم على قوم نمرود حين قالوا : "أرجئه وأخاه" وقال وزراء النمرود : "اقتلوه أو حرّقوه" .

وأخرجتْ مصر السحرةَ الذين أحضرهم فرعونُ لموسى . وكانت عدّتهم مائتى ألف واثنين وثلاثين ألفا وقيل أكثر من ذلك ، آمنوا كلُّهم فى ساعة واحدة . ولم نعلم ممن آمن فى ساعة واحدة مثلَ هذا العدد .

ومن فضائل مصر ونُبْل أهلها أنهم لم يُفْتَنوا بعبادة العجل .

وكان بها من الصدّيقات آسيةُ بنتُ مزاحم آمرأة فرعون، وأم إسحاقَ، ومريمُ آبنةُ عمران، وماشطةُ بنتُ فرعون، التى مشطها فرعون بأمشاط الكَتّان لما آمنت بموسى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "شَمِمتُ ليلة أُسْرِى بى فى الجنة رائحةً ما شَمَمْت أطيبَ منها ، فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ فقال : هذا رائحة ماشطة بنتِ فِرْعون" .

ذكر مَن صاهر أهل مصر من الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام

منهم :

إبراهيم الخليل عليه السلام، تزوج بهاجَر أم إسماعيل .

ويوسف الصدّيق ، تزوج بنت صاحب عين شمس . وتزوج زليخا بعد أن عجزت وعميت . دعا الله لها فردّها الله إلى حالتها الأولى، ورُزق منها الولد .

وتسرّى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارِيَةَ القِبْطية التى أهداها له المقوقِس، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى السيرة النبوية .

ذكر مَن أظهرته مصر من الحكماء

(الذين عَمَروا الدنيا بكلامهم وحكَمهم وتدبيرهم . وأظهروا ماخفِىَ من العلوم)[1]

قال الحسن بن إبراهيم، صاحب تاريخ مصر :

(١) بعض الحكماء المذكورين فى هذا الفصل ليسوا من أهل مصر بل وفدوا عليها وأقاموا بها مدّة قليلة أو كثيرة .

منهم : ذو القَرْنَيْنِ ، وهو الإسكندر[1] من قرية يقال لها لُوبِيَةُ[2] . وهو الذى قتل دَارَا بْنَ دَارَا . وسيأتى خبره إن شاء الله تعالى فى التاريخ فى ذكر ملوك اليونان .

ومنهم : هرمس ، وهو المثلث بالنعمة : نبىّ ، وحكيم ، ومَلِك : وهو الذى صير الرَّصاصَ ذهبا ، وبنى الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال . وقيل : هو إدريس عليه السلام . (١٢٣)

ومنهم تلميذاه : أغاثاذيمون و فيثاغورس ، ولهما من العلوم الموروثة صناعةُ الكيمياء ، والنُّجوم ، والسِّحر ، وعلم التارنجيات . والطلسمات ، والبرابى ، وأسرار الطبيعة .

ومنهم أوسلا و سيزوارس و بندقليس ، أصحاب الكَهَانة والزَّجْر .

ومنهم سقراط ، صاحب الحِكمة ، والكلام على البارئ جل ذكره ، وهو صاحب البلاغة .

ومنهم أفلاطون ، صاحب السِّياسة ، والنواميس ، والكلامِ على المُدُن والملوك .

ومنهم بطليموس ، صاحب الرَّصَد ، والمِساحة ، والحساب ، وهو صاحب كتاب المجَسْطِى من كتب الأفلاك ، وحركة الشمس ، والقمر ، والكواكب المتحيرة والثابتة ، وصورة فَلَك البروج . وله صفة الأمم الذين يَعْمُرون الأرض ، وكتاب الثمرة فى علم النجوم وتسطيح الكُرَة .

(١) هو الاسكندر الأكبر ابن فيلبس وهو ليس من مصر وإنما غزاها بجيوشه وأسس فيها مدينة الاسكندرية التى صارت بعده مدينة العلم والحكمة .

(٢) هذا اللفظ محرف عن "پيلا" وهى احدى مدن اغريقية . وبها كانت ولادة الاسكندر الاكبر .

ومنهم أرسطاطاليس، صاحب المنطق، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، والكون والفساد، والسماء والعالم، وسمع الكيان والسمع الطبيعى، ورسالة نَبْت الذهب، قالوا: وليعقوب بن إسحاق الكِندىّ نحو ألف كتاب مستخرجة من كتب أرسطاطاليس.

ومنهم أراطُس، صاحب البيضة ذات الثمانية والأربعين صورة فى تشكيل صورة الفلك، والألف كوكب، واثنان وعشرون كوكبا من الكواكب الثابتة، والزيج. ٥

ومنهم أنطوليوس[1]، صاحب الفلاحة.

ومنهم إبرخس، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذات الحلق.

ومنهم ثاون، صاحب الزيج المنسوب إليه. ١٠

ومنهم أُسْطَفِنْس، و دُرُوثيُوس، و والنس، أصحاب كتب أحكام النجوم، وعنهم انتشر ذلك.

ومنهم إيرُن، صاحب الهندسة والمقادير، وكتاب جر الأثقال، والحيل الروحانية، وعمل البَنَاكِيم والآلات لقياس الساعات.

ومنهم فيلون البُزَنْطِى، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة. ١٥

ومنهم أرشميدس، صاحب الحيل والهندسة والمَرَايا المحرقة وعمل المَجَانيق ورمى الحصون، والحيل على الجيوش والعساكر برًّا وبحرًا.

(١) ورد هذا الاسم فى الاصل هكذا: "أفلطيونس" وليس هناك رجل بهذا الاسم. وإنما المشهور بكتابه فى الفلاحة هو "انطوليوس الأفريقى". وقد ذكره ابن العوام فى كتاب الفلاحة الأندلسية، ونقل عنه. ٢٠

ومنهم ماريه و قلبطره، أصحاب الطَّلَّسْمَات، والخواص للطبائع .

ومنهم أبلونيوس، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط .

ومنهم ثيودوسيُس، وهو صاحب كتاب الأكر .

ومنهم ذيوفنطس، وله كتاب الحساب .

٥ ومنهم أوطوقيُس، وله كتاب الكرة والأسطوانة .

ومنهم المشاءون[1]، أصحاب الرواق .

و بمصر من العلوم التى عَمَرت بها الدنيا علمُ الطب اليونانى، وعلمُ النجوم، وعلمُ المساحة، وعلم الهندسة، وعلمُ الكيمياء، وغير ذلك وبها الطلسمات العشرة .

و بادى[2] الاسكندرانى صاحب الزيج .

١٠ والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس، صاحب الطب، تعلمه بمصر، ومن كتبها أَخَذ .

ومنهم ديسقريد : صاحب الحشائش، و ديوجانس، و اركاغانس، و أُرِباسيوس، و فريقونوس، وروفس. هؤلاء أصحاب الطب اليونانى .

فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤهم الذين ورثوا الحكمة، من مصر خرجوا، وبها

١٥ وُلدوا، ومنها انتشرت علومُهم فى الأرض .

قال الحسن بن إبراهيم : وكانت مصر يسير إليها فى الزمن الأوّل طلبةُ العلم وأصحابُ العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوّة الذكاء ودقة الفطنة . والله تعالى أعلم.

---

(١) فى الأصل : "المساتير" . ولعله يشير إلى أتباع ارسطو الذين يسميهم العرب "المشائين".

(٢) لعل هذا الاسم محرف عن "ثاون" الذى سبقت الاشارة اليه .

ومن فضائل مصر

أنها تَمير الحرمين الشريفين ، ولولا مصرُ لما أمكن أهلَ الحرمين وأعمالها المقامُ بهما ، ولَمَّا توصل إليهما من يَرِد من أقطار الأرض .

ومنها أنها فُرْضة الدنيا ، يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين ، وإلى جُدّة ، وإلى عُمَان ، وإلى الهند ، وإلى الصين ، وصنعاء ، وعَدَن ، والشَّحْر ، والسِّند ، وجزائر البحر . ٥

ومن جهة تِنِّيس ، ودِمْياط ، والفَرَما فُرْضة بلد الروم ، وأقاصى الأفرنجه ، وقبرس ، وسائر سواحل الشام ، والثغور إلى حدود العراق .

ومن جهة الإسكندرية فُرضة أقْرِيطِش ، وصِقِلِّيَّة ، وبلد الروم ، والمغرب كلّه إلى طَنْجة ، ومغرب الشمس . ١٠

ومن جهة الصعيد فرضة بلد النُّوبة ، والبُجة ، والحَبَشة ، والحِجاز ، واليمن .

وفيها من ثغور الرِّباط : البَرَلُّس ، ورَشِيد ، والإسكندريةُ ، ورباط ذات الحمام ، ورباط البُحَيرة ، ورباط إخْنا ، ورباط دمْياط ، وشَطَا ، وتِنِّيس ، والأُشْتوم ، والفرَمَا ، والوَرّاده ، والعَرِيش ، والشَّجَرتين ، ورباط الحَرَس . وجهة الحَبَشة ، والبُجة . ورباط أُسْوان على النُّوبة . ورباط الواحات على البَرْبر والسُّودان . ورباط قُوص . ١٥ (١٢٤)

وبها من المساجد والمشاهد والآثار الصالحة ، مالم يكن فى غيرها . ولو آستقصينا ذلك ، لطال به الشرح وآنبسط القول .

وقال سعيد بن عقبة : كنتُ بحضرة المأمون حتَّى قال ، وهو فى قبة الهواء : لعن الله فِرعونَ حين يقول ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مصْرَ ﴾ فلو رأى العراقَ ! . فقلت :

يا أمير المؤمنين لا تقل هـذا فإن الله عز وجل قال ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ . فما ظنُّك ياأمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقيَّتُه؟ .

قال : ثم قلت : لقد بلغني أن أرضًا لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطِرَ وجسورٍ وتقديرٍ حتَّى إن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم : يحبِسونه متى شاءوا، ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحافَتَيِ النيل من أوله إلى آخره، ما بين أُسوان إلى رشيد إلى الشام متصلةً لا تنقطع . ولقد كانت الأَمَة تضع المِكْتَل على رأسها فيمتلئُ ممـا يسقُط من الشجَر. وكانت المرأة تخرج حاسرةً لا تحتاج إلى خِمَار لكثرة الشجر .

ومن فضائلها النيل، وقد تقدّم ذكره في باب الأنهار .

ومن عجائبها الهرمان وسيأتى ذكرهما في باب المباني القديمة إن شاء الله تعالى .

ومن عجائبها أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بمـا فيها عن سائر بلاد الدنيا .

وفيها ماليس في غيرها، وهو حيوان السَّقَنْقُور، والنِّس . ولولاه لأكلت الثعابين أهلَها؛ وهو لها كقنافذ سِجِسْتانَ لأهلها .

وفيها سمك يسمَّى الرَّعَّاد . وهو سمك إذا أمْسَكه إنسان أو أمسَك ما يتصـل به من خيط الصِّنارة أو الشبكة التي يقع فيها، ارتعدَتْ يدُه .

والحَطَبُ السَّنْط الذى لو وُقِد منه يوما وجُمِع ماوُجد من رَمَاده كان ملْءَ كفٍّ . وهو صُلْب العُود، سريعُ الوُقُود، بطِيءُ الخُمود . ويقال : إنه الآبنوسُ، وإنمـا البُقْعة قَصَّرت عن الكيّان فجاء أحمرَ شديدَ الحمرة .

ودُهْنُ البَلَسان . والأَفْيُون، وهو عُصارة الخَشْخاش . وكان بها اللَّبَخ، وهو ثمر فى قَدْر اللوز الأخضرِ إلا أن المأكول منه الظاهرُ . ورأيته أنا بها وأكلت منه سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وبها الأُتْرُجّ الأبلق .

وبها من المعادن : مَعْدِن الزُّمُرُّذ، ومعدِن النِّفط، والشَّبّ، والبِرَام، والرُّخَام . ٥

وقيل : إن بها سائرَ المعادن كلَّها .

وأهلها يأكلون صَيْد بحر الرُّوم وبحر فارس طرِيًّا[1] .

وفى كل شهر من شهور القبط صِنْف من المأكول والمَشْروب والمَشْموم، يوجد فيه دون غيره . فيقال: رُطَب توت، ورُمّان بابه، ومَوْز هاتُور، وسَمَك كيهك، وماء طُوبة، وخَرُوف أمشير . ولَبَن برمهات . ووَرْد برموده، ونَبِق بشنس، وتين بشونة، وعسل أبيب، وعنب مسرى .

ومنها أن صيفها خَرِيفٌ ، وشتاءها ربيعٌ، وما يقطَعُه الحرّ والبرد فى سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها فى الحرّ والبرد : لأنها فى الإقليم الثالث والرابع . فسلمت من حرّ الأوّل والثانى، وبَرْد السادس والسابع[2] .

ويقال : لو لم يكن من فضل مصر إلا أنها تغنى فى الصيف عن الخيش والثلج ويطون الأرض ، وفى الشتاء عن الوَقودُ والفراء . ١٥

(١) يشير إلى البحر الأحمر المتصل بالخليج الفارسى بواسطة بحر الهند .

(٢) قارن ذلك بما ورد فى المقريزى (طبع بولاق ج ١ ص ٢٨) .

ومما وصفت به

أن صعيدها حجازيّ . حَجَره كحجر الحجاز ينبت النخلَ والدَّوم (وهو شجر المُقْل)، والعُشَر، والقَرَظ، والإهْلِيلَجَ، والفُلْفل، والخِيَارَ شَنْبَرَ. وأسفل أرضها شاميٌّ: يمطر كمطر الشام، وتقع فيه الثلوج، ويُنْبت التينَ والزيتونَ والعنبَ والجوزَ واللَّوز والفستُق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين .

وهي ما بين أربع صفات: فضة بَيْضاء، أو مِسْكة سوداء، أو زَبَرْجَدة خضراء، أو ذَهَبة صفراء . وذلك أن النيل يعمُّ أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينصَبُّ عنها فتصير مِسكة سَوْداء، ثم تُزْرَع فتصير زبرجدةً خضراء، ثم تَسْتَحْصِد فتصير ذهبة صفراء[1] .

وحكى ابن زولاق في "فضائل مصر" أن أميرها موسى بن عيسى [الهاشمي][2] وقف بالمَيْدان عند بِرْكة الحبش. فالتفت يمينا وشِمالا، وقال لمن كان معه : أتَرَوْن ما أَرى؟ قالوا: وما يَرى الأمير؟ قال : أَرى عجبا ما في الدنيا مثله! فقالوا : يقول الأميرُ! فقال: أرى مَيْدان رِهان. وحِيطان نخلٍ، وبُستانَ شجر، ومنازلَ سكنى، وذروة جبل، وجَبَّانةَ أموات. ونهرا عَجَّاجا، وأرضَ زرعٍ، ومراعِيَ ماشية، ومَرَاتع خيل، وساحل بحر . [وصائد نهر] وقانصَ وحش، وصائدَ سمكٍ، ومَلَّاح سفينة، وحادِيَ إبل، ومفازَةَ رمل، وسَهْلا، وجَبَلا ! فهذه ثمانية عشر متنزَّها في أقل من ميل في ميل .

(١) قارن ذلك بما ورد في المقريزي (طبع بولاق ج ١ ص ٢٦) .

(٢) هو والي مصر في أيام الرشيد سنة ١٧٥ هجرية . والزيادة عن المقريزي (طبع بولاق ج٢ ص١٥٣) .

وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنَس بالبصرة حيث يقول :

زُرْ وادِيَ القَصْرِ نِعْمَ القَصْرُ والوادِي ! * لا بُدّ من زَوْرةٍ من غير مِيعـاد .
زُرْهُ فليس لهُ شيءٌ يشاكله * من مَنْزِلٍ حاضرٍ إن شئتَ أو بادِي .
تَرى به السُّفُن والظِّلْمانَ حاضرةً * والضبَّ والنونَ والمَلّاح والحادِي .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسيّ، يصف جبل الرَّصَد مثل ما وُصِف به قصر أنَس :

يا نُزْهةَ الرَّصَدِ المصريّ قدجمعت * من كلِّ شيءٍ حَلَا في جانب الوادي .(١)
فذا غَدِيرٌ، وذا رَوْضٌ، وذا جَبَلٌ : * فالضَّبُّ والنُّون والمَلّاح والحادي .

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة في الاختصار، لكانت فضائلها تكون كتابا مفردا .

وأما جزيرة الأَنْدَلُس

فقد اقتصرتُ في وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها، فقال :

"...أرضها شاميَّة في طِيبها، تِهاميَّة في اعتدالها واستوائها، أهْوازية في عِظَم خَراجها وجِبايتها، عَدَنيَّة في منافع سواحلها، صِينيَّة في مَعادِنها، هِنْدية في عطْرها وطِيبها وذَكائها . وأهْلها عرَب في الأنساب والعِزَّة والأَنَفَة، وفصاحة الألْسُن، وطِيب النُّفوس، وإباءِ الضيم. وقلَّة احتمال الذل والإهانة، والنَّزاهة عن الخُضُوع؛ هِنْديُّون في فرط عنايتهم بالعلوم وحُبِّهم لها؛ بغداديُّون في ظَرْفهم ونظافتهم، ورِقَّة أخلاقهم

---

(١) هـذه رواية المقريزيّ . أما الاصل فقد ورد فيه الشطر الأول غير موافق في الوزن للبقية هكذا :
يا نزهة الرصد التي قد نزهت * عن كل شيء الخ

ونَبَاهتهم ، ولطافة أذهانهم ، وحدّة أفكارهم ، نَبَطِيُّون فى آستنباط المياه ، ومُعَاناتهم للغِراسة ، وتركيب الشجر والفِلاحة ، صِينيُّون فى إتقان الصنائع العلمية ، وإحكام المِهَن الصورية ، تُرْكِيُّون فى معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر فى مهمّاتها » .

قال إبراهيم بن خفاجة ، يصفها :

إنَّ للجنَّةِ بالأندَلُس * مجتَلى عينٍ وريّاً نَفَسِ!

فسَنا صُبْحتها من شَنَبٍ * ودُجى ليلتها من لَعَس .

وقد أظهرت الأندلُس جماعةً من الفضلاء والأعيان والأكابر ، ذكرهم ابن بسّام فى كتابه المترجم "بالذخيرة ، فى محاسن أهل الجزيرة" . وذكرهم الفتح بن خاقان فى كتابه "المطمح" و "قلائد العقيان" وغيرهما .

وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وآبتداء عمارتها وملوكها عند ذكرنا فتحها ، وهو فى الباب الخامس من القسم الأوّل من الفن الخامس فى التاريخ من اخبار الدولة الأموية فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مَرْوان فى سنة ٩٢ من الهجرة .

وأما البَصْرة وما آختصت به

فمن خصائصها أن للغِرْبان بها ضربا من العَجَب . وذلك أنها تقَع إليها بالخريف حتّى تكون الأرض بها سوداء ، وتقع على كل نخلة أُصْرم ثمرها ، ولا تقع على ما لم تُصرَم ، ولو بقى عليها عِذْق واحد .

ومن عجائبها أيضا ، أن التمر يكون مصبوباً فى بيادره ، فلا يقع عليه شىءٌ من الذُّباب لا فى الليل ولا فى النهار .

وأهل البصرة يتخذون المِظَلّات على التمر والعجوة خوفًا عليها من الخُفَّاش . ومن عادة الذباب الفِرار من الشمس إلى الظلّ، فلا يوجد فى تلك الظلال شىء منه ألبتة . فيتوهمُ المتوهِّم أن هاتين الحالتين من طِلَّسْم، له من الخاصية ما يمنع الغِرْبان والذباب. وليس كذلك، وإنما هو من حماية الله ووقايته .

ووصف خالد بن صفوان البصرة، فقال: منابِتها قَصَب، وأنهارها عَجَب، وسماؤها رُطَب، وأرضها ذَهَب . ٥

وفى الكوفة عدم الوفاء .

وأما بغداد وما آختصت به

فإنه يقال : إنها جنةُ الأرض، ومجتَمَع الوافدَيْنِ : دجلةَ والفُراتِ، وواسطةُ الدنيا، ومدينةُ السلام، وقبة الإسلام، لأنها غُرّة البلاد، ودارُ السلام والخلافة، ومجمع الطَّرائف والطيبات، ومعدِن المحاسن واللطائف، وبها أرباب النِّهايات فى كل فن، وآحاد الدهر فى كل نوع . ١٠

وكان أبو إسحاق الزجّاج يقول : بغدادُ حاضرةُ الدنيا، وما عداها باديةٌ .

وكان أبو الفضل بن العميد اذا طرأ عليه أحد وأراد آمتحانَ عقلِه سأله عن بغداد . فان فَطِن لفضائلها وخواصِّها، جعل ذلك مقدّمةَ فضله وعنوانَ عقله . ١٥ (١٢٦)

وقال آبن زُرَيق الكوفىّ، الكاتب :

سَافَرْتُ أبغِى لَبَغْدادٍ وساكِنِها * مِثْلا، فحاوَلْت شَيْئا دُونَه الياسُ.
هيهاتَ ! بغدادُ الدنيا بأجمعها * عندى، وسُكّانُ بغدادٍ هُمُ الناسُ.

وقال آخر :

سقى اللهُ بَغْدادَ من جنة * غدَتْ للورى نُزْهة الأنفُس .
على أنَّها مُنْيةُ المُوسِرين، * ولكنَّها حَسْرةُ المُفْلِس .

وأما الأهواز وما آختصت به

٥ فقال أبو عثمان " عمرو بن بحر الجاحظ " : إن قَصَبة الأهواز مخصوصة بالحمَّى الدائمة اللازمة، حتَّى إنها ليست إلى الغريب بأسرَعَ منها إلى القريب .

وقال إبراهيم بن العباس عن مَشْيَخة من أهلها عن القوابل بها : إنهن ربما قَبِلن الطِّفْل المولود بها فيجِدْنَه محموما ؛ ولا تكاد تُوجَد بها وجنةٌ حمراء لصبيّ ولا صبية، ولا دمٌ ظاهر .

١٠ ومن عجائب خصائصها : أن جميع أصناف الطِّيب تستحيلُ رائحتُه فيها جدّا، حتَّى لا تكاد توجد له رائحةٌ . وذلك من كثرة الرُّطوبات ، وغلَظ الهواء، والأبخرة الفاسدة . (وهذا موجود بأنطاكِيَةَ والقُسْطنطينِيَّة) . ويقال : إن الخيل لا تنْزُو بها ولا تصْهَل، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن ؛ لما يلحقها من الرَّبْو، لنداوة البلد وعفونتـــه .

١٥ وأما فارس وما آختصت به

فمن خصائصها : ماء الورد الذى لا يُوجَد مثله فى سائر البلاد طيبا ، والجُورِىّ الموصوف من أحد بلادها يُجْلَبَ إلى أقاصى البلاد، ويُضرَب به المثل .

ولشيرازَ من بلاد فارس فَغْمة طيبة ليست فيما عداها من بلاد فارس .

وأما أصفَهَان وما آختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء، وجَوْدة التُّربة، وعُذُوبة المـاء .

وحُكى أن الحجاجَ ولّى بعض خواصّه أصفَهَان، فقال له : قد وَلّيتك بلدةً حَجَرُها الكُحْل، وذُبابُها النَّحل، وحشيشُها الزَّعْفَران .

ومن خصائص الرَّىّ : بُرودُها موصوفة كبُرود اليَمَن، وتسمَّى العَدَنِيَّات تشبيها لهـا ببرودِ عَدَن . وفيها الثياب المنيَّرة . ٥

قالوا : واللص الحاذق ينسب إلى الرَّىّ .

وأما جُرْجان وما آختصت به

فهى سُهْلِيَّة جَبلِية ، برِّية بحرِيَّة . وأهلها يَعُدّون زيادةً على مائة نوع من أنواع الرياحين، والبُقُول، والحشائش الصَّحْراوية، والثمـارِ والحبوب السُّهْليـة التى هى مبذولة بها للفُقراء والغُرَباء . ١٠

ومن خصائصها : العُنَّاب الذى لا يكون فى سائرالبلاد مثلُه ، ويقال : هى بغداد الصُّغرى، إلا أنها وبِيَّةٌ، مختلفة الهواء فى اليوم الواحد، قَتَّالة للغرباء، كثيرة الأنداء.

ويقال : جُرْجان مقْبُرة أهل خُرَاسان .

وفى بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان، يُسَاق إليها قصار الأعمار من الناس. ١٥

وكان أبو تراب النيسابورىّ يقول : لمـا قُسمت البـلادُ بين الملائكة، وقعَتْ جُرجانُ فى قسم أبى يحيى (يعنى مَلَك الموت) .

وأما نيسابور وما آختصت به

حكى عن عمرو بن الليث الصَّفَّار أنه كان يقول : كيف لا أقاتِلُ عن بَلْدة حشيشها الرِّياس، وتُرابها النُّقل، وحَجرها الفيروزج. أراد بقوله : "تُرابها النُّقل" طينَ الأكل الذى لا يوجَد مثله فى الأرض، ويحمل منها إلى أقاصى البلاد وأدانيها، ويُتحف به الملُوك. قالوا : وربما بيع الرِّطل منه بدينار . قال المأمون يصفه :

جُدْ لِي من النُّقل، فذاك الذِى * منه خُلِقْنا وإليه نَصِيرْ.
ذاكَ الذى يُحْسَب فى مثله * أحجارَ كافورٍ عليها عبيرْ.

قالوا : والفَيْروزَج لا يكون إلا فى نَيْسابور، وربما بلغت قيمة القَصِّ منه — الذى إذا أربى وزنه على مثقال، وجمع الخضرة والآستدارة، وصَبَر على النار، وآمتنع على المِبْرد، ولم يتغير بالماء الحارّ — مائتى دينار .

ويقال إن له خاصية فى تقوية القلب بالنظَر إليه، كما أنَّ للياقوت خاصِّيَّة فى مَسَرَّة النفس .

ولما دخلها إسماعيل بن أحمد السامَانِىُّ، مِلكُ ماوراءَ النهر وخُراسان. آستحسنها وآستطابها، وقال : يا لها من بلدة جليلة، لو لم يكن لها عيبان ! كان ينبغى أن تكون مياهُها التى فى باطن الأرض على ظاهرها، وأن تكون مسالحها[1] التى على ظهرها فى بطنها .

ومن خصائصها الثياب النيسابورية الرِّقاق .

وأهلها لا يكرِمون الغريب . قال المرادىّ :

لا تنزِلَنَّ بنَيْسابُورَ مغْتَرِبًا * إلَّا وحَبْلُك موصولٌ بسُلْطانِ.
أوْلَا، فلا أدبٌ يُغْنى ولا حَسَبٌ * يُجْدِى ولا حُرمةٌ تُرْعى لإنسانِ.

(١) فى الاصل "مشايخها" .

وقال أيضا فيها :

قال المُـــرَادِىّ قولًا غيرَ متَّهَـم ، * والنُّصحُ ما كان من ذِى اللُّبِّ مقبولُ :
لا تنزِلَنَّ بنَيْسابورَ مُغْـتربًا ، * إن الغريبَ بنَيْسابُورَ مَخْـذولُ .

وأما طُوس وما ٱختصت به

(١٢٧)

فمن خصائصها السَّبَج الذى لا يكون إلا بهـا ، ومنها يُنْقَـل إلى الآفاق . والحجر الأبيض الذى تتخذ منه القُدُور .

ويقال : إن الله عز وجل ألَانَ لأهلها الحجارةَ كما ألَان لداود الحديدَ ، حتَّى إنهم يتخذُون منها ما يتخذ غيرُهم من الزُّجاج من سائر الأوانى .

وأما بَلْخ وما ٱختصت به

فيقال : هى من أقدم البلاد وأخصِّها بالملوك ، وهى شبيهة بالعِراق ، وخُراسان ، والهند . وإليها ينسَبُ جَيْحون ، فيقال : نهر بلخ .

وكان سعيد بن الحسن يقول : العَيْش فى الصيف ببَلْخ كتَصْحِيفها (١) .

ومن خصائصها البخاتى (٢) والنَّيْلُوفر .

(١) أى مثل ثلج .

(٢) فى الأصل : النجادى . [وهو تحريف لاشك فيه] . "والبخاتى" هى نوع من النياق ٱشتهرت بها هذه المدينة . قال ٱبن حوقل الرحالة البغدادىّ الشهير فى كتابه "المسالك والممالك" (ص٣٢٨ ، ٣٢٩) ما نصـــه :

"ويرتفع من بلخ وأعمالها فى نفسها النوق المتقدمة على ما فى جنسها وتعرف بالبخاتى ولا نظير لها من جنسها فى جميع الأرض . وبها الأترج والنيلوفر وقصب السكر وما لا يكون الا بالبلدان الحارة الا أنه لا نخيل بها" .

وأما بُسْت وما آختصت به

فيقال : إن هواءها كهواء العراق، وماءها كماء الفُرات، ومن خصائصها الإجّاص الذى لا يوجد مثله فى غيرها . ويقال : إن مَنْ مات ببُسْت مغفورًا له فقد آنتقل من جنّة إلى جنّة .

وأما غَزْنة وما آختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء، وجودة التُّربة، وعُذوبة الماء، وهى جَبَلية شَمالية؛ ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة ، والأمراضَ قليلة . قالوا : وهى أرضٌ تنبت الذهبَ، ولا تولد الحياتُ والعقاربَ والحشرات المؤذية . ومنها خرج الأجِلّاء الأنجاد من الرجال .

وقال أبو سعيد منصور زعيم جرجان : لم أر بلدة فى الصيف أطيب ، وفى الربيع أشبه، ومن الحشرات أنظف من غزنةَ . ثم قال : إن قلّة ثِمارها من منافعها، لأن كثرة الثمار مقترنةٌ بكثرة الأمراض . وقد وصفها صاحب كتاب "لطائف المعارف" فقال :

واهًا لغَزْنةَ إذ غَدَتْ ... للمُلْكِ والإسلامِ دَارَا .
من كَعْبةٍ قد أصبحَتْ * للمَجْدِ والعَلْيَا مَدَارا .
فى صَدْرها الملكُ الذى * قُطْبُ السُّعود عليه دَارَا .

وقال أيضا فيها :

يا دارَ مُلْك نرى كُلَّ الجمال بها * وأسعد الدهر تَبْدُو من جَوانِبها .
كأنما جَنّة الفِرْدوس قد نزلَتْ * بأرض غَزْنةَ تعجيلًا لصاحِبها .

وأما سِجِستان وما آختصت به

فيقال فيها : ماؤها وَشَل، وتَمرُها دَقَل، ولِصُّها بَطَل .

ومما تختص به الطاسات وجلاجل البُزَاة، والطبولُ المَوْكِبية، والفُرُش الدِّيباج .

وأما الهند وما آختصت به

فيقال : الهند بحرها دُرّ ، وجبلُها ياقوت ، وشجرُها عُود، ورَقُها عطْر . ٥

وعُود الهند يذكر مع أمّهات الطيب .

وفى الهند الفِيل ، والكَرْكَدَّن، والبَبْر، والطاوُوس، والبَبْغاء .

وفيه الياقوتُ الأحمر، والصَّنْدل الأبيضُ، والعاجُ، وأصناف العِطر، والثياب المُخْمَلة وغيرها، واللَّانِس[1]، والأقمشة .

وأما الصين وما آختصَّ به ١٠

فإن العرب تقول لكل طُرْفة من الأوانى : صينِيَّة كائنةً ما كانت : لآختصاص الصين بالطَّرائف .

وأهلُ الصين خُصُّوا بصناعة الطُّرَف ، والمُلَح ، وخَرْط التماثيل ، والإبداع فى عمل النُّقُوش والتصاوير، حتَّى إن مصوّرهم يصوّر الإنسان فلا يغادر شيئا إلا الرُّوح، ثم لا يرضى بذلك حتَّى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخَجِل، وبين ١٥ المتبسِّم والمستغرب، وبين ضَحِك المسرور والهازئ، ويركِّب صُورة فى صورة .

وفيه مناديل الغَمَر التى إذا آتَّسخت وأُلقيت فى النار، نَقِيت ولم تحترق .

---

(١) كذا بالأصل ولعلها محرفة عن القلانس .

وفيه الحديد . وربما آشترِى بأضعاف وزنه فضةً .

وفيه السِّنجاب الفارحانىّ الذى هو من أنفَس الأوبار . وفيه اللُّبُود الجياد .

قال الجاحظ فى كتاب "النظر فى التجارة" : إن خير اللُّبُود الصينية، ثم المغربية الحُمْر، ثم الطالَقَانيَّة البِيض .

وأما سَمَرْقَنْد وما آختصت به

٥

قال قُتَيبة بن مسلم، لما أشرف على سمرقند لأصحابه : شَبِّهوها ، فلم يأتوا فيها بشىء، فقال : كأنها السماء فى الخُضْرة، وكأن قصورَها النجومُ الزاهرة، وكأن أنهارَها المَجرّة . فاستحسنوا هذا التشبيه .

ومن خصائصها : الكَوَاغدُ التى عطَّلتْ قراطيس مصر، والجلودَ التى كان الأوائل يكتُبون عليها، لأنها أحسَنُ وأنعمُ وأرفَقُ وأرقُّ . ولا تكون إلا بها وبالصين .

١٠

ومن خصائصها : الثياب الوَذَارية، والنشادر، والزَّئبَق، والبُنْدُق .

وأما بلاد التُّرك وما آختصت به

قيل . إنها توازِن بلاد الهند فى كثرة الخصائص .

وفيها المِسْك والسِّنجاب والسَّمُّور والقاقُم والفَنَك والثَّعالب السُّود والأرانب البيض وغير ذلك . وفيها البُزاة البيضُ والخيل .

١٥

وتَثَبَّتُّ من بلاد الترك خاصيةً : أنه من أقام بها آعتراه سُرور لايدرِى ما سببُه، ولا يزال متبسما ضاحكا ؛ وأن الميت إذا مات فيها لا يدخُل على أهله كبيرُ حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب .

(١٢٨) وأما خُوَارَزْم وما آختصَّتْ به

فانها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها فى الخصائص والمتاجر .

ومن خصائصها البِطيخ الذى يقال له "النارَنْج" يقال إنه أحلى البطاطيخ وأطيبُها . وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق فى قوالب الرصاص، معبَّأة فى الثلج . فكانت تُقوَّم الواحدة منه — إذا سلمت ووصلت — بسبعمائة درهم . والله أعلم . ٥

ذكر الخصائص التى تجرى مجرى الطِّلَّسْمات

منها :

مدينة "خَبِيص" من مُدُن كَرْمان . لا يُمطِر المطر فيها داخلَ السور أبدا حتَّى إن الرجل يُخْرِج يده من سورها إلى خارجها، فتبتلُّ يدُه ولا يبتلُّ ساعده .

وبقرية من قُرى كَرْمان أيضا "حصن عادى" ليس فيه فأر . وإذا دخل إليه فأر، مات . ١٠

ومدينة "حمص" لا يُوجَدُ فيها عَقْرب . وإذا نُثِر ترابُها على ظهر عَقْرب، ماتت . وكذلك قلعة أعزاز[1] من أعمال حلب . ويقال إنه لا يدخل مدينتها حيَّة . ومتى نُثِر عليها من ترابها، ماتت لوقتها . ولا يوجد فيها بَعُوضُ آلبتةَ . وإن الرجل متى أخرج يده من السور، وقع عليها، فإذا أدخل يده، طار عنها . ١٥

و"بمصر"[2] أن التماسيح إذا ساقها الماءُ إليها وحاذَتْها، آنقلبت على ظهرها . فإذا بَعُدت عنها، لا تضر أحدا . بخلاف ماهى فى بلاد الصعيد، فإنها تفترس جميع ما تظفَر به من الحيوان حتَّى الخيل . ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس .

ومدينة "سِجِلْماسة" لا يوجد فيها ذُباب آلبتةَ .

(١) كذا ذكرها أيضا فى التقويم بالهمزة . وفى المعجم "عزاز" بدونها . ٢٠

(٢) يعنى مصر العتيقة أى الفسطاط .

ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة

(وهي العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والفُرُش، والمراكب، والحيواناتُ ذواتُ السموم، والحَلْوى، والثمار، والرياحين، والخَلْق، والأخلاق، والأمراض، والآثار العُلْوية)

٥ أما خصائصها العلميـة والعملية، فيقال: حُكماء اليونان، وأطباء جُنْدَيْسَابور، وصاغة حَرَّان، وحاكَةُ اليمن، وكُتَّاب السَّوَاد.

ومن خصائصها في الجواهر، يقال: فَيْروزَج نَيْسابورَ، وياقوت سَرَنْديب، ولؤلؤ عُمان، وزبرجَدُ مِصْر، وعَقيق اليمن، وجَزْع ظَفَار، وبجادىّ بلخ، ومَرْجانُ إفْرِيقِيَّـة.

١٠ ومن خصائصها في الملابس، يقال: بُرود اليمن، ووَشْيُ صنعاء، ورَيْط الشام، وقَصَب مصر، ودِيباج الرُّوم، وقَزُّ السُّوس، وحَرير الصين، وأكْسية فارس، وحُلَل أصْبَهان، وسَقْلاطُون بغداد، وعَمَـائم الأُبُلَّة، ومُنَيَّر الرىّ، ومُلْحَم مَرْو، وتِكَك أرمينِيَة، ومَناديل الدَّامَغان، وجَوارِب قَزْوين.

ومن خصائصها في الأوبار، يقـال: سنجاب خِرْخِيز، وسَمُّور بُلْغار، وثعالب

١٥ الخَزَر، وفَنَك كاشْغر، وحَواصِل(١) هَرَاة، وقاقُم تغزغز.

---

(١) ورد هـذا اللفظ في كثير من كتب العرب بمعنى الجلود السنية التي يتدفأ بها أهـل الترف والنعيم فقد ذكر الهمذاني (ص ٢٣٥) الفنك والسمور والقاقم والحواصل والوَشَق والدَّلَق الخ. وذكره ابن البيطار فقال: «أنه طائر يكون بمصر كثيرا يعرف بالكُّي (بضم الكاف وإسكان الياء المنقوطة باثنتين من أسفل) ... ... ولباسه يصلح للشباب وذوى الأمزاج الحارة ومن يغلب عليه الصفراء». وذكر السيوطي في الجزء الثاني من "حسن المحاضرة" لطائف مصر وأورد من جملتها الحوصل (بغير ألف في النسخة المطبوعة طبع حجر بمصر، ص ١٧٦) حيث قال ما نصه: «وطير الحوصل يعمل من جلده الخفاف الناعمة والفرا الأبيض الذي يقوم مقام الفنك في لينه ورقته».

ومن خصائصها فى الفرش، يقال : بُسُط أرمينية، وزَلَالِىُّ قاليقلا، ومطارحُ ميّسان، وحُصُر بغداد (١) .

ومن خصائصها فى المراكب ، يقال : عِتاق البادية ، ونجائب الحجاز . وبراذين طَخارستان، وحمير مصر، وبغال برذعة .

ومن خصائصها فى الحيوانات ذوات السموم، يقال : أفاعى سجستان، وحيّات اصفهان ، وثعابين مصر ، وعقارب شهرزور ، وجرارات الأهواز ، وبراغيث أرمينية ، وفأر أرزن ، ونمل مَيّا فارقين ، وذبابُ تل فافان (٢) ، واقداح نلد (٣) .

ومن خصائصها فى الحلواء، يقال : سُكّر الأهواز ، وعسل أصفهان ، وقانيذ ماكسان (٤) ودِبْسُ أَرّجان .

---

(١) لعله مصحف عن "حصر عبادان" لأن المقريزى طالما يتكلم عن الحصر العبدانية فى مواضع كثيرة جدا من خططه . وكذلك السيوطى قال فى لطائف مصر : «وبها من الحصر العبدانى ومن سائر أصناف الحصر ما لا يوجد فى غيرها» . وقال المقدسى ص ١١٨ «ان أكثر أهل عبادان صناع الحصر من الحلفاء» وكانت هذه الحصر فى غاية من الجمال حتى كان أهل مصر يقلدونها كما رأينا من عبارة السيوطى .

(٢) مفرده "قدح" وقال فى القاموس : «والقدح والقادح أكال يقع فى الشجر والانسان ... والقادحة الدودة» . وقال ابن البيطار فى كلامه على "التريد" نوع من النبات ما نصه : «والتريد اذا طال به الزمان عمل فيه القادح كما يعمل فى الخشب ... ... تراه مثقبا كأنه ثقب برأس ابرة» . ثم قال فى بقية الكلام ما نصه : «لا يجب أن يستعمل منه (أى التريد) إلا ... ... السليم من السوس» .

(٣) هكذا فى الأصل . وربما كان محرفا عن "بَلَد" المدينة المشهورة فى العراق .

(٤) كذا بالاصل وصوابه "ماسَكان" وقد أوردها ياقوت فقال «انها بلد مشهور بالنواحى المجاورة لكرمان وراء سجستان» ثم قال «ولا يوجد القانيذ بغير مكان إلا بهذا الموضع ... واليه ينسب القانيذ الماسكانى» .

ومن خصائصها في الثمار، يقال: رُطَب العراق، وتَمْر كَرْمان، وعُنَّاب جُرْجان، وإجَّاص بُسْت، وسَفَرْجَل نيسابور، وتُفَّاح الشام، ومِشْمِش طوس، وكُمَّثْرى نَهَاوَنْد، وأُتْرُجّ طبرستان، ونارَنْج البصرة، وتِين حُلْوان، وعنَب بغداد، وقِشْمش هراة، ومَوْز اليمن، وجَوْز الهند، وبِطِّيخ خُوارَزْم، وباقِلاء الكوفة.

٥ ومن خصائصها في الرياحين، يقال: نَرْجِس جُرْجان، ووَرْد جُور، ونَيْلُوفر السِّيرَوان، ومنثُور بَغداد، وزَعْفران قُم، وشاهسْفَرم سمرقند.

ومن خصائصها في الخَلْق والأخلاق، يقال: شُقْرة الروم، وسَوَاد الزِّنْج، وغَلَظ الترك، وجَفَاء الجِيل، ودَمَامة الصِّين، وقِصَر يأجُوج.

ومن خصائصها في الأمراض، يقال: طواعينُ الشام، وطِحَال البحرين، ١٠ ودَمَامِيل الجزيرة، وحُمَّى خيبَر، وجُنُون حمْص، وعَرَق اليمن، ووَبَاء مصر، وبِرْسام العراق، والنارُ الفارسية، وقُرُوح بَلْخ.

ومن خصائصها في الآثار العلوية، يقال: شِتَاء أرمينِيَةَ، ومَصيف عُمَان، وصواعق تِهَامه، وزَلازِلُ دَبِيل. (١٢٩)

وقال الجاحظ في "كتاب الأمصار": الصناعة بالبصرة، والفَصَاحة بالكوفة، ١٥ والتَّخْنِيث ببغداد، والطَّرْمذَة بسمرقند، والغَىّ بالرَّىّ، والجَفَاء بنَيْسابور، والحُسْن بهَراةَ، والمُروءة ببلخ، والبُخْل بمرو، والعجائب بمِصْر.

وحكى عن عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا، أنه قال لقومه لما تحقق كونَ سيلِ العَرِم: من كان ذا شاءٍ وبَعير وجمالٍ غير شُرُود، فليلحق بالشِّعب من كُوفان، فلحقتْ به

هَمْدان ؛ ومَن كان ذا سِياسة وصَبْر على أزَمات الدهر فليلحَق ببطن مَرّ، فلحقت به خُزَاعة . ومَن كان يريد الراسخات فى الوَحْل، المُطعِمات فى المَحْل، فليلحَقْ بيَثْرِب ذاتِ النخل، فلحقت بها بنو قَيْلَةَ، وهم الأوس والخَزْرَج؛ ومن كان يريد الخمر والخَمير والأمر والتأمير فليلحق ببُصْرى وسَدير (وهى من أرض الشام)، فلحقَتْ به غَسَّان؛ ومَن كان يريد الثياب الرِّقاق، والخُيول العِتَاق، والذَّهَب والأوراق، فليلحَقْ بالعراق. فلحقت به لَخْم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الأوّل

(فى المبانى القديمة)

والمبانى القديمة كثيرة، فلنذكر منها ما عَظُم خَطَره، وشاع فى الآفاق ذِكْره.

ذكر أوّل بناء وضع على وجه الأرض

قيل: أوّل ما بنى على وجه الأرض "الصَّرْح" ويسمَّى "المِجْدل" بناه النُّمرود الأكبَرُ ابن كُوش بن حام بن نوح، بكُوثى رَبَّى من أرض بابل. قيل: وبها إلى هذا العصر من أثره كالجبال. وكان طوله فى الهواء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع. وكان مبنيا بالحجارة والرَّصاص والكِلْس والشَّمَع واللِّبان. بناه ليمنعه وقومَه من بأس الله عز وجل. وكان قد كفر وطغى وادّعى الألوهية، فأرسل الله تعالى

إليه جبريل، فضربه بخافقة جناحه فهدمه . وهام مَن كان حوله على وجهه ، وقد تبلبلت ألسنتهم من الدَّهَش والذُّعر، فكانت عنه هذه اللغاتُ التى يتكلم بها سائرُ الأمم. وهى آثنتان وسبعون لغةً، وسميت تلك الأرض التى كان بها بابِلَ .

ذكر خبر إرَمَ ذاتِ العماد

٥ وهى التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ .

وكان سبب عمارتها أن شدّادَ بن عاد بن إرَم لما سَمِع وصفَ الجنة سوّلتْ له نفسه أن يبنى مثلها . فبنى مدينة بين حَضْرَمَوْتَ وصنعاءَ، طُولها آثنا عشر فرسخا ، وعرضُها مثلُ ذلك . وأحاط بها سورا آرتفاعه خمسمائة ذراع، غشّاه بصفائح الفضة ١٠ المموّهة بالذهب، فلا يُدركه البصر إذا أشرقتْ عليه الشمسُ. وبنى داخلها مائةَ ألف قصر (بعَدَد رؤساء أهل مملكته) من الذهب والفضّة، وكذلك جُذُوع سُقُوفها وأعمدتُها . وأجرى فى وسطها نهرا صَفَّح أرضه بالذهب ، وجعل على حافتيه أنواعَ الجواهر والياقيت بدلًا من الحصباء وألقى فيه المسْك والعنبرَ بدلا من الحَمْأة . وفرّع منه جداول إلى تلك القُصور والمنازل . وغَرَس على شُطوطها من الأشجار ما كان ١٥ لزَهَره عَرْفٌ طيِّبٌ و رائحةٌ ذكيَّة .

زعموا أنه أقام فى بنائها ثلثمائة سنة ، فلما تمّ بناؤها، زاد فى طغيانه وخرج من حضرموت إليها ليسكُنَها . فلما أشرف عليها جاءته صَيْحة من السماء فأهلكَتْه هو وجنوده .

ويروى أن عبد الله بنَ قِلابة خرج فى طلب إبل له ندَّتْ فوقع عليها، فحمل ماقدَر عليه ، فبلغ معاويةَ خبرُه، فاستحضره وسأله فقصَّ عليه قصته . فبعث معاويةُ إلى كعب الأحبار، فقال: هى إرمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك: أحمرُ قصير، على حاجبه خالٌ ، وعلى عقِبه خال، يخرج فى طلب إبل له ندَّتْ . ثم ٱلتفت فرأى ٱبن قلابة فقال : هذا والله ذاك الرجُلُ . ٥

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود ، ولهذا سميت ذات العماد . وقد ذهب قوم إلى أنها دمشق .

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العماد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شَديد وشَـدّاد، ٱبنى عاد ؛ وهو فى الباب الخامس من القسم الأوّل، من الفن الخامس فى التاريخ، وذلك فى السِّفر الحادى عشر من هـذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك . والله تعالى أعلم . ١٠

ذكر خبر سدّ يأجوج ومأجوج

هو فى الإقليم السادس فى آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء .

قال[1] صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى ٱختراق الآفاق" إن الواثق بالله لما رأى فى المنام كأنّ السّدّ الذى بناه ذو القرنين مفتوح، أحضر سَلّاما الترجمان وقال له : ١٥

(١) ان ابن خرداذبة هو أوّل من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نفس رئيسها ثم ٱستملاه منه من الكتاب الذى كان كتبه فى هذا المعنى للخليفة الواثق بالله (انظر المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ — سنة ١٨٨٩ م من صفحة ١٦٢ — ١٧٠) . وعن ٱبن خرداذبة نقل جميع المؤلفين الذين جاءوا بعـده مثل الإدريسى وٱبن رسته وٱبن الفقيه الهمذانى والمقدسى . وقد نقل النويرى عن الإدريسى . وكلهم قد يزيد وينقص بعض الكلمات أو يبدلها بغيرها . ٢٠

آذهب فانظر إلى هذا السد وجئني بخبره وحاله وما هو عليه ، ثم أمر له بأصحاب يسيرون معه ، عددهم خمسون رجلا ، ووصله بخمسة آلاف دينار ، وأعطاه ديتَه عشرة آلاف درهم . وأمر أن يعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألفَ درهم ورزقَ سنة ، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد . قال سلام الترجمان : فشخصنا من سامَرّا بكتاب الواثق إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينيَة بالنظر إلى تنفيذنا من هناك ، فكتب لنا كتبا إلى ملك السَّرير وأنفذنا إليه . فلما وردْنا عليه ، أشخصَنا إلى ملك اللّان . فلما وصلنا إليه ، أشخصَنا إلى صاحب فيلان شاه[1] . فلما وردنا عليه [أرسلنا الى ملك الخزر وهو] آختار لنا خمسة أدِلّاء يدُلُّون على الطريق . فسرنا من عنده سبعة وعشرين يوما فى تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض سوداء طويلة ممتدة كريهة الرائحة ، فشققناها فى عشرة أيام . وكنا قد تزودنا لقطعها أشياء نشمها خوفًا من أذى روائحها الكريهة . ثم آنفصلنا عنها . فسرنا مدة شهر فى بلادٍ خراب قد دَرَست ابنيتُها ولم يبقَ منها إلا رسوم يُستدل بها عليها . فسألنا من معنا عن تلك المُدُن ، فأخبرونا أنها المدن التى كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخرِّبونها . ثم سِرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذى فى شُعبة السد وذلك فى ستة أيام . وفى تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية . وهناك مدينة يدعى ملكها خاقان بن أدكش ، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب . فسألونا من أينَ أقبلنا ، فأخبرناهم أنا رُسُل أمير المؤمنين الواثق بالله ، فعجبوا منا ومن قولنا "أمير المؤمنين" ثم سألونا عن أمير المؤمنين : أشيخ هو أم شابّ ؟ فقلنا : شابّ ، فعجبوا أيضا . ثم قالوا : وأين يكون ؟ قلنا : هو بالعراق بمدينة سُرَّ مَنْ رأى . فعجبوا أيضا

(١) فى الأصل : "قبلاه شاه" . والتصويب عن آبن خرداذبة .

من ذلك، وقالوا : ما سمعنا هذا قطُّ . فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم ومَنْ علَّمه لهم ؟ فقالوا : وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة العُنق طويلة اليدين والرجلين ، لها فى موضع صلبها حَدَبة ، (فعلمنا أنهم يصفون الجمل) قالوا : فنزل بنا وكلمنا بكلام فهمناه ، ثم علَّمنا شرائع الإسلام فقبلناها ، وعلمنا أيضا القرآن ومعانيَه فتعلمناه وحفِظناه . قال سلام : ثم خرجنا بعد هذا إلى السدّ لنُبْصِره ، فسرنا عن المدينة نحوا من فرسخين ، فوصلنا السدّ . فإذا جبل مقطوع بوادٍ عرضه مائة وخمسون ذراعا ، وله فى وسط هذا الفِناء باب من حديد طوله خمسون ذراعا قدْ كتنفه عِضادتان، عرض كل عِضادة منهما خمسة وعشرون ذراعا . والظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب . وكله مبنىّ بلَبِن الحديد مغيب بالنُّحاس . وآرتفاع العضادتين خمسون ذراعا ، وعلى أعلى العضادتين دَرَوْند حديد ، طوله مائة وعشرون ذراعا . والدَّرَوَنْد للعتبة العليا ، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع . ومن فوق الدَّرَوَنْد بنيانٌ متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس الجبل . وآرتفاعه مدّ البصر . وفوقه شُرَّافات حديد ، فى طَرَف كل شُرَّافة قرنتان تَثْنِى أطراف كل واحدة منهما على الأخرى (١) ، وللباب مصراعان مُغْلَقان ، عرض كل مِصْراع خمسون ذراعا فى ثِخَن خمسة أذرع ، وقائمتاهما فى دوّارة على قدر الدروند . وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غِلَظ ذراع فى الاستدارة ، وآرتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعا . وفوق القفل بخمسة أذرع غَلَقٌ طوله أكثر من طول القُفْل ،

(١) هذه رواية ابن خرداذبة . وفى الأصل « قرنان مثنى الأطراف بعضها الى بعض » . ورواية المقدسى : «قرنان يثنى كل واحد منهما» .

وعلى الغَلَق مِفْتاح طوله ذراع ونصف . وله اثنتا عشرة دنداجة[1] ، كل دنداجة منها كأغلظ ما يكون من دساتج[2] الهواوين ، مُعلَّق كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق[3] . وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذرع سوى ما تحت العضادتين ، الظاهر منها خمسة أذرع . وكلها مكالة بالذراع السوادى . ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة مع عشرة فوارس . مع كل فارس إرزبَّة حديد ، كل إرزَبَّة خمسةُ أمنان . فيضرب القفل بتلك الإرزَبَّات في كل يوم ثلاث مرات ليسمع من خلف الباب . فيعلم أنَّ هناك حفظةً . وليعلم هؤلاء أن يأجوج ومأجوج لم يحدثوا في الباب حَدَثا . وإذا ضرب أصحابُ الإرزَبَّات القفل ، وضعوا آذانهم ليسمعوا ما وراء الباب ، فيسمعون من ورائه دوِيًّا يَدُلُّ على أن خلفه بشرا . وبالقرب من هذا الموضع حصن يكون عشرة [فراسخ] في عشرة [فراسخ] . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتى ذراع في مائتى ذراع ، وبين هذين الحصنين عينُ ماء عذبةٌ ، في أحد الحصنين آلةُ البناء التى بُنِى بها السدّ من قُدور الحديد ومَغارف الحديد ، والقدور فوق دِيكْدَانات[4] على كل دِيكْدَان أربع قدور مثل قدور الصابون . وهناك أيضا بقايا من لَبِن الحديد

(١٣١)

(١) هذه رواية الإدريسى . والذى فى ابن خرداذبة "دنداكة" وهى كلمة فارسية معناها "سن" والمراد أسنان المفتاح .

(٢) الدستج كلمة فارسية معناها "يد الهاون" أى المِدَقّ الذى تُدَقّ به الأشياء فى الهاون .

(٣) فى ابن خرداذبة ما يفيد أن المفتاح وحده هو المعلق فى السلسلة وهذا نص روايته : « معلق فى سلسلة ملحومة بالباب طولها ثمانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق » وهى رواية معقولة أكثر مما ورد فى المتن لأن المفتاح فقط هو الذى يصح تعليقه دون القفل والغلق .

(٤) كلمة فارسية يقابلها عند العرب "الأتافى" .

التى بُنى بها السدّ وقد آلتصق بعضها ببعض من الصدإ، وطول اللَّبِنة ذراع ونصفٌ فى آرتفاع شبر .

قال سلام الترجمان : وقد سألْنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رأَوا أحدا من يأجوج ومأجوج قطُّ ، فأخبرونا أنهم رأَوْا منهم [مرّة] عددا فوق شُرُفات الردم، فهبَّتْ عليهم ريح عاصفة، فرمت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا (١) . وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفا .

قال سلام : فكتبت هذه الصفاتِ كلَّها، ثم آنصرفنا مع الأدِلَّاء من تلك الحصون، فأخذوا بنا على ناحيــة خُراسان . فسرنا إلى مدينة بختان، إلى غُرْيان، إلى مدينة برساخان، إلى انطرار، إلى سمرقند، فوصلنا إلى عبــد الله بن طاهر، ثم وصلنا إلى الرىّ، ثم رجعنا إلى سرّ من رأى بعد خروجنا عنها . فكان مغيبنا فى سفرنا ثمانية وعشرين شهرا .

قال : فهذا جميع ما حدّث به سلام .

وقال الشيخ أبو عبــد الله محمد بن أحمد القرطبىّ فى تفسيره : إن آرتفاع الســدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعا . قال : وروى فى طوله مابين طرفى الجبلين مائةُ فرسخ، وفى عرضه خمسون ذراعا . نقله عن وهب بن منبه .

وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخبار الســدّ وكيفية بنائه وطوله وعرضه، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذى القرنين . فتأمّله هناك، وهو فى الباب

(١) فى آبن خرداذبه : «فهبت ريح سوداء فألقتهم الى جانبهم» أى الى الجهة التى ظهر منها أولئك الناس، وهو المعقول، لانه عقب بأن طول الرجل كان شبرين ونصفا، ومعنى ذلك فى رأى العين من هذا البعد فتنبه .

الأوّل من القسم الرابع من الفن الخامس فى التاريخ، وهو فى السفر الثانى عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا .

ذكر مبانى الفُرْس المشهورة

ومبانى الفرس كثيرة : قديمة وحديثة .

٥ فمن قديمها "سَدُّ اللَّبِن" . بناه قُبَاذ بن فيروز ، وقيل إن الذى بناه ٱبنه كسرى ٱبن قباذ بن فيروز . كذا ورد فى التاريخ .

وهذا السدّ من أرض شَرْوانَ إلى بلاد اللّان ، و بينهما مائة فرسخ ، بين شعاب جبل القَبْق . وهو جبل عظيم قد ٱشتمل على ٱثنتين وسبعين أمة ، لكل أمة لسان وملك ، لا يعرف بعضهم بعضا لكثرة غياضه وأشجاره ؛ وفيه عيون وأنهار ؛ وتقدير ١٠ مسافته طولا وعرضا نحوُ شهرين .

ومبدأ السُّور من جوف بحر الخَزَر على مقدار مسافة ميل مارّا إلى البرّ، ثم يمرّ إلى أن يتصل بقلعة طبرشروان . وهو مبنىّ بالصخر والحديد والرَّصاص . بناه على زِقَاق البقر المنفوخة ، فكان كلما ٱرتفع البناء نزلت تلك الزِّقاقُ إلى أن ٱستقرّتْ فى قعر البحر، فغاصتِ الرجالُ بالخناجر فشقُّوها فتمكن البناء . وجعل بين كل ثلاثة أميال من السور ١٥ وأقل وأكثر بابا من الحديد على حسب الطريق التى تجعل من أجله ، و بنى عليه حصنا وأسكن فيه مَنْ يحفظ ذلك الباب ويحرسه .

وزعم المؤرّخون أن سبب بنائه لهذا السور أن الخَزَر كانت تُغير على بلد فارس إلى أن تبلغ هَمَذان والموصل، فحجزهم بهذا السور .

ومن مبانى الفرس إيوان كسرى

زعم المسعودىّ أن سابُورَ ذا الأكتاف بناه فى نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين ذراعا فى آرتفاع مائة ذراع ، وطول كل شُرْفة منه خمسة عشر ذراعا .

ولما ملك المسلمون المداين ، أحرق ستر هذا الإيوان فأخرجوا منه مائة ألف دينار ذهبا . ٥

ولما بنى المنصور بغداد، أحب أن ينقُضَه ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمَك فى ذلك فنهاه، وقال : "هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذى بناه لا يُزِيل ملكه إلا نبىّ والمؤُونة على نقضه أكثر من الآرتفاق به". فقال له : "أبيتَ إلا ميلا إلى العجم" فَهُدِمت منه ثلمةٌ . فبلغت النفقةُ عليها مالا كثيرا ، فأمسك المنصور عن هدمه، فقال له خالد : "أنا الآن، يا أمير المؤمنين، أشير بهدْمه لئلا يتحدّث الناس بعجزك عن هَدْم ما بناه غيرك" فلم يفعل . ١٠

وحكى مثل هذه القصة أنها وقعَتْ ليحيى بن خالد مع الرشيد ، وهو إذ ذاك فى آعتقاله . وكان الرشيد بلغه أن تحته كنزا فأراد هَدْمه وآستشار يحيى فأشار عليه بمثل هذا . ١٥

ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شُرُفاته هُدمت وجُعِلت فى أساس سور بغداد .

(١٣٢) وقال آبن الأثير فى تاريخه إن الإيوان باقٍ إلى الآن . (وكان يوم ذاك فى سنة خمس وعشرين وستمائة)، والله أعلم .

ومن المباني القديمة الحَضْر

وكان حِصْنا حصينا مبنيًّا بالرُّخام، يسكنه ملوك الضَّيازن. وهو بين دِجْلة والفرات، بحيال تكريت.

ويقال إن بانيه الساطِرُون. وذُكِر أن قصر ملكه قائمٌ إلى وقتنا هذا في وسط المدينة، وفي وسطه هيكلٌ مربَّع مبنيّ بالصخر، وفيه صور دقيقة المعاني.

حكى أن سابورَ الجنودِ حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه. واتفق أن بنت ملكه وهي النضرة بنت الضَّيْزَن[1] حاضت، فأُخرِجت من القصر إلى رَبَضه لأجل ذلك. فرأت سابورَ، وكان جميل الصورة، فعشقته. فأرسلت إليه تقول: إن ملَّكْتَك الحصن فما تجعل لي؟ قال: حَكَّمتك. قالت: تتزوَّجُ بي. فأجابها إلى ذلك، فقالت له: خُذْ حمامة ورقاء مطوّقةً، فاخْضِب رجليها بدم حيض جاريةٍ بكر زرقاءَ، وأرسِلْها. فإنها تقع على سور البلد فيقع لوقته. وكان ذلك حلَّ طِلَّسْمٍ له. ففعل ذلك، فوقع السُّور ودخل سابور الحصن وقتل ملِكَه وأصحابَه واصطفى ابنته لنفسه. فلما كانت ليلةُ دخولها عليه، لم تزل متململة قَلِقة طول ليلتها، فالتمس سابورُ ما الذي قلِقَتْ من أجله، فاذا ورقةُ آسٍ قد لصِقتْ بعُكْنة من عُكَنها، فقال لها: ما كان أبوك يغذُوك؟ فقالت: الزُّبد والمُخّ وشُهد أبكار النحل والخمر، فقال لها: أنا أحقُّ منك بشار أبيكِ، ثم أمر رجلا أن يركب فرسا جَمُوحا وأن يربِطَ غدائرها في ذَنَبه ويركُضَ به. ففعل ذلك، فتقطَّعت.

---

(١) في ياقوت: "النضيرة".

وهذا الحصن قد آختُلِف فى موضعه. فقيل: بحيال تَكْرِيت بين دَجْلة والفرات. وقيل: بالجزيرة. ويقال إنه كان حاجزا بين الرُّوم والفُرس، وملكَتْه الزَّبَّاء بنت مليح[1] وآسمها فارعة.

وفيه يقول عدىّ بن زيد العِبَادىّ من قصيدة:

وأخو الحَضْر إذ بَنَاه وإذ دِجْـ ـلةُ تُجْبَى إليه والخابُورُ. ٥
شادَهُ مَرْمَرًا وكَلَّلَه كِلْـ ـسًا فللطَّيْر فى ذُراه وُكُورُ.
لم يَهَبْه ريب المنون فباد الْـ ـمُلْك عنه فبابُه مهجُورُ.

ومن المبانى القديمة القَلَيس

وهى كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح، ملك اليمن بصنعاء. ونقل إليها الرخام المجزَّع والملوَّن، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بِلْقِيس. وكان أراد أن يرفع بناءها حتَّى يشرِف منها على بحر عدن. فلما أهلكه الله تعالى وفرّق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثُرت حولها السِّباع والحَشَرات. وبقيت إلى زمن السَّفَّاح فذُكر له أمرها، فبعث إليها من خَرّبها وأخذ ما كان فيها. حكى ذلك السهيلى فى "الروض الأنف". ١٠

وحكى أن كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها بابٌ من نحاس طولُه عشرة أذرع وعَرْضه أربعة أذرع، يدخل منه إلى بيتٍ طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا، مسقَّف بالساج المنقوش، مسمَّر بمسامير الذهب والفِضَّة. ثم يُدْخَل من البيت إلى إيوانٍ معقود طوله أربعون ذراعا، عن يمينه ويساره عُقود مزخْرَفة. ١٥

(١) كذا فى الأصل "بنت فريح". وذكر فى تاج العروس فى مادة زبب أنها بنت عمرو بن الظرب وأن آسمها بارعة أو ميسون أو نابلة. فتنبه. ٢٠

ثم يُدخَل من الإيوان إلى قبّة . ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا ، جُدُرها مموّهة بالذهب والفضة . وفي صدر القُبّة مِنبر من الآبنوس المرصّع بالعاج . المصفّح بالذهب والفضة . ولما تم بناؤها ، خرج رجلٌ من بني كنانة فقعد فيها لَيْلا (أي أحدث) ، فأغضب أبرهةَ ذلك ، فحلف ليهدمنّ الكعبةَ ، فخرج بجيشٍ كثيفٍ من الحبشة ، فكان من أمره ما قصه الله تعالى في كتابه العزيز في سورة النمل : ﴿ ومَكَرُوا مَكْرًا ومَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وذُكر لي أن الذي خرّبها العباسُ بن الربيع بن عبد الله العامريّ ، عامل المنصور على اليمن .

ومن المباني المشهورة قنطرة صَنْجَة

وهي من مباني الروم على نهر عظيم يسمّى بهذا الاسم . يصبّ في الفُرات ، لا يمكن خوضه : لأن قراره رمل سائل متى وطئه الإنسان برجله سال . وهو ما بين حِصن منصور وكَيْسوم من ديار بكر .

وهذه القنطرة طاقٌ واحد : ما بين جُدْرانها مائةُ خَطْوة . وهي مبنية بحجارة مهندَمة ، طول الحجر منها عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع .

ومن المباني القديمة مَلْعبا بعلبك

وهما كبير وصغير .

فالكبير ، يُحكى أنه من بناء سُلَيمان بن داود عليهما السلام . وهو مبنيّ على عَمَد شاهقة . وحجارتُه منها ما هو عشرة أذرع وأكثر .

(١٣٣) والمَلْعَب الصغير تهدّم أكثره، وبقى منه حائط طوله عشرون ذراعا وآرتفاعه كذلك. ليس فيه إلا سبعة أحجار: واحد من أسفله، وحجران فوقه، وأربعة أحجار فوقهما.

ويقال إنه البيت الذى كان فيه الصنم الذى كان يدعى "بعلا".

ذكر مبانى العرب المشهورة

وهى غُمْدان، وحصن تَيْما، والخَوَرْنَق، والسَّدِير، والغَرِيَّان. ٥

قال الجاحظ: أحبَّت العرب أن تشارك الفرس فى البناء وتنفرد بالشعر، فبنَوْا: غُمْدان، وكعبة نَجْران، وحِصن مارِد، والأَبْلَق الفردَ.

فأما غُمْدان

فكان بصنعاء. زعم بعض المؤرّخين أن بانيه حام بن نوح. وزعم آخرون أن بيوراسب بناه على آسم الزُّهَرة. ١٠

وقال آبن هشام إن الذى أسسه يَعْرُب بن قَحْطان، وأكمله بعده وائلُ بنُ حِمْير آبن سبإ بن يعرب. وخرّبه عثمانُ بن عَفّان، رضى الله عنه.

وقيل فى صفته إنه كان مُرَبَّعا، أحدُ أركانه مبنىّ بالرخام الأبيض، والثانى بالرُّخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرُّخام الأحمر. وفيه سبعة سُقُوف طِباقًا، ما بين السَّقْف والآخر خمسون ذراعا. وعلى كل ركن تِمْثالُ أسدٍ من نُحاس، ١٥ إذا هبَّت الريح دخلت من دُبُره وخرجت مِنْ فيه، فيسمعُ لها صوت كزَئير الأسد.

وقال آبن الكلبىّ: كان على كل ركن من أركان غُمْدان مكتوب "اسلَمْ غُمدانْ، مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدْوانْ".

ويقال : إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر الشياطينَ أن يبنُوا لِبلْقِيس أربعة قصور : غُمْدان ، وصِرْواح ، وبَيْنِين ، وسَلْحين . وكلُّها باليمن .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : لا يستقيمُ أمر العرَب ما دام فيها غُمْدانها . وهذا القول هو الذى حضّ عثمان على هدمه .

٥ ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا ، وإنه تلٌّ عالٍ مطلٌّ على صنعاء .

وأما حصن تَيْماءَ

فهو الأبلَقُ الفَرْد . سمّى بالأبلق الفرد لأنه كان مبنيا بحجارة مختلفة الألوان وهو بأرض تَيْماء .

بناه السَمَوْءل بن عاديا اليهودىّ . ويقال إنه من بناء سليمان بن داود عليه السلام .

١٠ وبه تضرب العربُ المَثَل فى المَنَعة والحَصَانة . وفيه يقول الشاعر :

طَلَبَ الأبلَقَ العَقُوقَ فلَمّا * لم يَنَلْهُ فرام بَيْضَ الأُنُوقِ .

وقصدت الزَّبّاءُ هذا الحصن وحِصْنَ مارِدٍ فلم تقدر عليهما . فقالت : "تمرّدَ مارِدٌ وعَزَّ الأبلَقُ" .

ومارد حصن كان بدُومَة الجَنْدل . مبنىّ بحجارةٍ سود . ويقال إنه أيضا من بناء السموءل بن عادياء اليهودىّ .

وأما الخَوَرْنَق والسَّدير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحِيرة . والسَّدير فى بَرِّيةٍ بالقُرْب منها .

بناهما النعمان بن آمرئ القيس . وهو النعمان الأكبر . ويقال فى سبب بنائه لهما : ن يَزْدَجُرْد بن سابور كان لا يَعيش له ولد . فسأل عن مكانٍ صحيح الهواء . فذُكر له

ظَهْرُ الحيرة . فدفع ابنه بَهْرام جُور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق . فبناه على نهر سنداد فى عشرين سنة . بناه له رجل يسمَّى سِنِمّار .

فلما فرغ من بنائه، عَجِب النُّعمانُ من حسن بنائه وإتقانه، فأمر أن يلقى سِنِمّار من أعلاه حتَّى لا يبنِيَ مثله لأحد . ويقال إنه إنما فعل ذلك به لأنه لما أعجبه، شَكَره على عمله ووَصَله . فقال : لو علمتُ أن الملك يحسن إلىّ هذا الإحسان، لبنيتُ له بناء يَدُور مع الشمس كيفما دارت ، فقال له النعمان : وإنك لتقدِر على أن تبنِيَ أفضل منه، ولم تبنه ؟ فأمر به، فطُرِح من أعلاه .

وقيل : بل قال : أنا أعرف فيه حجرا متى أُخذ من موضعه، تداعى البناء . فخاف النعمان إن هو لم يُنْصفه فى أجرته فعل ذلك، فقتله .

والعرب تضرب المثل بفعل النُّعمان مع سِنِمّار فى المكافأة على الفعل الحَسَن بالقبيح، فيقال : جازاه مُجَازاة سِنِمّار .

وفيه يقول بعض الشعراء :

جَزانِى جَزَاه اللهُ شَرَّ جَزائه * جَزَاءَ سِنِمَّارٍ، وما كانَ ذَا ذَنْب .

سوى رفعِه البُنيانَ عِشْرينَ حِجَّةً * يُعَلَّى عليه بالقَرَامِيدِ والسُّكْبِ .

والخَوْرَنق تعريب خُورَنْقاه[1]، وهو الموضع الذى يؤكَل فيه ويشرَب . والسَّدِير تعريب سادل أى قُبَّة فى ثلاث قِباب متداخلة .

وفى هذه الأبنية يقول الأسود ابن يَعْفُر :

ماذا أُؤمِّل بعد آلِ مُحَرِّقٍ * تَرَكُوا منازِلَهُمْ، وبعدَ إيادِ؟

أهلِ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وبارِقٍ * والقَصْرِ ذِى الشُّرُفاتِ من سِنْدادِ .

(١) بالأصل خانقاه . (من هامش الأصل) .

وقال عدىّ بن زيد العِبَادىّ :

وتفكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَقِ إذْ أشْـــرَفَ يَوْماً، وَلِلْهُدى تَفْكِيرُ.
سَرَّه مُلْكُه وكَثْرَةُ ما يَحْـــوِيه والبحرُ مُعْرِضا والسَّدِيرُ.
فَأرْعَوى قلْبُه، فقال: فما غِبْـــطَةُ حَىٍّ إلى المَمَاتِ يَصِيرُ؟

وأما الغَرِيَّانِ

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة .

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قَيْنَتَيْنِ تَغَنَّيان بين يديه، فماتتا، فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغَرِيَّيْنِ .

ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبى شَمِرٍ الغَسَّانىّ، وكان بينهما وقعة على عين أَبَاغ، وهى من أيام العرب المشهورة . فقُتِل للحارث ولدان، وقُتِل المنذر وانهزمت جيوشه . فأخذ الحارث ولَدَيْه وحملهما عِدْلَيْن على بعير، وجعل المنذر فوقهما، وقال: "ما العِلَاوة بِدُون العِدْلَيْن" فذهبت مثلا . ثم رحل إلى الحيرة فانتهبها وحَرَّقها ودفن ابنيه بها، وبنى الغَرِيَّين عليهما . حكاه ابن الأثير فى تاريخه "الكامل" .

وأمر المنصور بهدم أحدهما، لكنز توهَّم أنه تحتهما . فلم يجد شيئا .

وقيل فى سبب بنائهما غير ذلك . والله أعلم .

ذكر الأبنية القديمة التى بالديار المصرية

وهى الأهرام، وحائط العَجُوز، ومَلْعب أَنْصنا، ومدينة عَيْنِ شَمْس، والبَرابى، وحَنِيَّة اللازَورد، ومنارة الإسكندرية، ورُواق الإسكندرانيِّين .

فأما الأهرام

التى بأرض مصر فهى كثيرة . وأعظمها الهَرَمان اللذان بالجيزة غَرْبىّ مصر . وقد آختلف فى بانيهما .

فقال قوم : بانيهما سُورِيد بن سهلوق بن سرناق . بناهما قبل الطوفان لرؤيا رآها، فقصّها على الكَهَنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث فى العالم ، فأقاموا مراكزها فى وقت المسألة . فدلت على أنها نازلة من السماء تحيط بوجه الأرض . فأمر حينئذ ببناء البَرَابى والأهرام، وصوّر فيها صُور الكواكب ودَرَجَها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس وعمل الصنعة .

ويقال إن هرمس المثلث بالحكمة (وهو الذى يسميه العبرانيون أَخْنُخ، وهو إدريس عليه السلام) آستدلّ من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان . فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائفَ العلوم وما يُخاف عليه الذهابُ والدُّثور .

وكل هَرَم منها مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، آرتفاع عموده ثلثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعا ، يحيط به أربعة سطوح متساوياتُ الأضلاع ، كل ضِلَع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا ، ويرتفع إلى أن يكون سطحُه مقدارَ ستة أذرع فى مثلها .

ويقال إنه كان عليه حجر شبه المِكَبَّة فرمته الرياح العواصف .

وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث إنه لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزَعْزَعة الزلازل ؛ وطولُ الحجر منه خمسة أذرع فى سَمْك ذراعين .

ويقال إن بانيهما جعل لهما أبوابا على آزاج مبنية بالحجارة فى الأرض ، طول كل أزج منها عشرون ذراعا ، وكل باب من حجر واحد يدور بلولب ، إذا أطبق لم يعلم أحد أنه باب . فأزج الشرقىّ منها فى ناحية الجنوب ، وأزج الغربىّ فى ناحية الغرب . يُدْخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت ، كل بيت منها على آسم كوكب من الكواكب السبعة ؛ وكلها مُقْفلة بأقفال . وحِذاءَ كل بيت منها صنم من ذهب مجوّف ، إحدى يديه على فيه ، وفى جبهته كتابةٌ بالمُسْنَد إذا قرئت آنفتح فوه فتوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها .

والقبط يزعمون أنها والهرمَ الصغير الملوّن قبورٌ : فالهرم الشرقىّ فيه سوريد الملك ، وفى الهرم الغربىّ أخوه هوحيت[1] .

والصابئة تزعم أن أحدها قبر أغاثُذيمُون ، والآخر قبر هرمس ، والملوّن قبر صاب ابن هرمس ؛ وإليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم ؛ وهم يحجُّون إليها ويذبحون عندها الدِّيكة والعجول السُّودَ ، ويُبَخِّرون بدُخَن ؛ ويزعمون أنهم يعرفون عند آضطراب ما يذبحون حالةَ الذبح ما يريدن عمله من الأمور الطبيعية .

وقَصُرت همَمُ الملوك والخلفاء عن معرفة ما فى هذين الهرمين ، إلى أن وَلى عبد الله المأمون الخلافةَ وورد مصر ، أمر بفتح واحد منها . ففتح بعد عناء طويل ، وآتفق لسعادته أنه وقع النَّقْب على مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب ، وهو زَلّاقة ضيقة من الحجر الصوّان المانع الذى لا يعمل فيه الحديد ، بين حاجزين ملتصقين بالحائط قد نُقِر فى الزَّلّاقة حُفَر ، يتمسك السالك بتلك الحفر ، ويستعين بها

(١) كذا بالأصل وكذلك فى خطط المقريزى . وفى ياقوت "هوجيب" .

على المشى فى الزَّلّاقة لئلا يَزْلَق ، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر . ويقال إن أسفل البئر أبواب يُدْخَل منها إلى مواضع كثيرة و بيوت ومخادع وعجائب . وآنتهت بهم الزَّلّاقة إلى موضع مربَّع فى وسَطه حوض من حجر صَلْد مغطًّى . فلما كُشِف عنه غطاؤه ، لم يوجَدْ فيه إلا رِمّة بالية . فأمر المأمون بالكف عما سواه .

(١٣٥) وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا . ٥

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان و بعده ، وذلك فى الباب الثانى من القسم الرابع من الفن الخامس ، وهو فى السفر الثانى عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك .

وقال بعض أهل النظر ، وقد عاين الأهرام : "كلُّ بناءٍ يُخاف عليه من الدهر ، إلا هذا البناء فإنى أخاف على الدهر منه" . ١٠

ونظم عمارة اليمنىّ هذا القول ، فقال :

خَلِيلَىَّ ، ما تحتَ السماءِ بَنِيَّةٌ * تُماثِلُ فى إتقانِها هَرَمَىْ مِصْرِ!
بِناءٌ يَخافُ الدهرُ منه ، وكلُّ ما * على ظاهرِ الدنيا يَخافُ من الدهرِ!
تَنَزَّهْ طَرْفِى فى بَدِيعِ بنائها ، * ولم يتنزَّهْ فى المُرادِ بها فكرى .

وقال بعض الشعراء : ١٥

حَسَرتْ عقولَ ذَوِى النُّهى الأهرامُ ، * وآستصغرتْ لعظيمها الأعلامُ .
مُلْسٌ مُنَيَّفَةُ البِناءِ شواهِقٌ ، * قَصُرت لعالٍ دُونَهنّ سِهامُ!
لم أدْرِ حين كَلَّ التفكُّرُ دُونَها * وآستَبْهَمَتْ لعَجيبِها الأوهامُ ،
أقُبورُ أملاكِ الأعاجم هنّ ، أمْ * طِلَّسْمُ رَمْلٍ هُنّ ، أم أعلامُ؟

وقال أبو الطيّب المتنبي :

أَيْنَ الذي الهَرَمان من بُنْيانِهِ؟ * ما قَوْمُه؟ ما يَوْمُه؟ ما المَصْرَعُ؟
تَتَخَلَّفُ الآثارُ عن أصحابِها * حِيناً، ويُدْرِكُها الفَناءُ فتَتْبَعُ.

وقال أُميّة بن عبد العزيز الأندلسيّ :

٥ بعَيْشِكَ هلْ أبصَرْتَ أحْسَنَ مَنْظَرًا * على طُولِ ما عايَنْتَ من هَرَمَيْ مِصْرِ؟
أَنافَا بأعْنانِ السَّماء وأشْرَفَا * على الجَوِّ إشْرافَ السِّماكِ أوِ النَّسْرِ.
وقد وافَيَا نَشْزًا من الأرضِ عالِيًا * كأنَّهما ثَدْيانِ قامَا على صَدْرِ.

وقال آخر :

أُنْظُرْ إلى الهرَمَيْنِ إذ بَرَزَا * للعَيْنِ في عُلْوٍ وفي صَعَدِ!
١٠ وكأنما الأرضُ العَرِيضةُ إذ * ظَمِئَتْ لفَرْطِ الحَرِّ والوَمَدِ.
حَسَرَتْ عن الثَّدْيَيْنِ بارِزةً * تَدْعُو الإلهَ لفُرْقةِ الوَلَدِ.
فأجابها : لَبَّيْكِ! يُوسِعُها * رِيًّا ويَشْفِيها من الكَمَدِ.

وقال ابن الساعاتيّ :

ومن العَجائبِ، والعَجائبُ جَمَّةٌ * دَقَّتْ عن الإنْكارِ والإسْهابِ.
١٥ هَرَمانِ قد هَرِمَ الزمانُ وأدبَرَتْ * أيّامُه، وتَزِيدُ حُسْنَ شَبابِ.
لِلّهِ! أيُّ بَنِيَّةٍ أزَلِيَّةٍ * تَبْغِي السَّماءَ بأطْوَلِ الأسْبابِ؟
ولَرُبَّما وقَفَتْ وُقُوفَ تَبَلُّدٍ * أسَفًا على الأيّامِ والأحْقابِ.
كَتَمَتْ عن الأسْماعِ فَصْلَ خِطابِها * وغَدَتْ تُشِيرُ به إلى الألْبابِ.

وقال سيف الدين بن جُبارة :

لله! أىُّ غريبـــةٍ وعجيبـــةٍ * فى صَـــنْعة الأَهْرام للألباب؟
أخفَتْ عن الأسماع قِصَّة أهلها، * ونَضَتْ عن الإبْداع كلَّ نِقَابِ.
فكأنَّمـا هى كالخيام مُقامـــةً * من غير ما عَمَـــدٍ ولا أَطْنابِ.

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزرىّ فى ذكر مصر ووصف الأهرام، جاء منها: ٥

بلدٌ أشهَدُ بفضله على البِلاد، ووجدتُه هو المصرَ وما عداه فهو السَّواد. فما رآه راءٍ إلا ملأ عينَه وصدرَه. ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدُرْه قَدْره. وبه عجائبُ من الآثار، لا يضْبطها العِيَانِ ولا الإخبار. فمن ذلك الهَرَمان، اللذان هَرِم الدهرُ وهما لا يَهْرَمان؛ قد اختص كل منهما بعظم البِناء، وسَعةِ الفِناء؛ وبلغ من الارتفاع غايةً لا يبلغها الطيرُ على بُعْد تحليقه، ولا يُدرِكها الطَّرْف على مدّة تحديقه؛ فإذا أُضْرِم ١٠ برأسه قَبَسٌ ظنه المتأمل نَجْما، وإذا استدارت عليه قوسُ السماء كان لها سَهْما».

وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان، تسميه العامّة "أبو الهول" لعظمه. والقبط يزعمون أنه طِلَّسم للرمل الذى هناك. لئلا يغلب على أرض الجيزة.

وأما حائط العجوز

والعجوز هى دَلُوكا ملكة مصر. ١٥

وهذا الحائط من العريش (وهو حدّ مصر من جهة الشام) إلى أسوان (وهى حدّ مصر من جهة النوبة)، شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقىّ.

وزعمت القبط أنّ سبب بنائها أن الله عز وجل لما أغرق فرعونَ وقومه، خافت دَلُوكا على مصر أن يطمع الملوكُ فيها. فبنته. وزوّجت النساءَ بالعبيد حتّى يكثر النَّسل والذرّية. ٢٠

وقيل في سبب بنائه : إن دَلُوكا ولدت ولدا فأخذت لمولده رصدا ، فرأت أن التمساح يقتُله ، فبنت هـذا الحائط وقايةً له من التمساح . فلما شبّ الغلام رأى في مولده ذلك ، فأحب أن يراه . فصُوِّر له من خشب . فلما رآه ، هاله منظَرُه واستولى على نفسه الوهم والفزع ، فمات[1] .

وأما ملعب أنْصِنا

فإنه كان مقياسا للنيل .

ويقال : إنه من بناء دَلُوكا . وكان بناؤه كالطَّيْلسان ، وعليه أعمدةٌ بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر المـاتع ، بين العمود والعمود خَطْوة . وكان النيل يدخل إليـه من فُوهَةٍ فيه عند زيادة النيل . فاذا بلغ الحدّ الذى يحصل به الرِّىّ ، جلس الملك في مُشْرَف له ، ويصعد قوم إلى رءوس الأعمدة فيتعادَوْن عليها ما بين ذاهب وآت . فمن زلّت به قدمه منهم ، سقط إلى البِرْكة .

وأما مدينة عين شمس

فهى من المبانى التى دَرَسَتْ .

وكانت مصرَ فرعونِ موسى ، ومنها خرج بجنوده في طلب موسى وبنى إسرائيل ؛ وكانت عدّتهم ستمائة ألف ، ليس فيهم ابن عشرين سنة ولا ابن ستين سنة . واستقلّ فرعون هـذا العدد وقال كما أخبر الله تعـالى عنه : (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) . وكان بها هيكل الشمس لخرِب .

(١) لم يرض ابن فضل الله بذكر هذه الخرافة في كتابه . وقد وصف لنا جزءا من هذا السور (انظر مسالك الأبصار المطبوع ، ج ١ ص ٢٣٩) .

والفُرس تزعم أن هرسيك بناها .

ويقال : إنه كان قد بقى منها عمودان من حجر صلد ، فَلَكاتُ طولِ كل عمود منهما أربعة وثمانون ذراعا ، على رأس كل عمود صورةُ إنسان على دابة ، وعلى رأسيهما شبهُ الصومعتين من نحاس . فإذا كان (النِّيلُ) ، قَطَر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذى هو مركب عليه . والموضع الذى يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا .

وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستمائة .

وأما البرابى

وهى بيوت حكمة القبط . ويقال : إنه كان لكل كُورة من كُوَر مصر بِرْباةٌ ، يجلس فيها كاهن على كرسىّ من ذهب .

ومن أعجب البرابى وأعظمها (بِرْباةُ إخميم) . وهى مبنية بحجر المَرْمر ، طول كل حجر خمسة أذرع فى سَمك ذراعين . وهى سبعة دهاليز ، سقوفها حجارة ، طول كل حجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع ، مدهونة بالّلازَورد وسائر الاصباغ ، يخالها الناظر إليها كأنما فَرغ الدّهّان منها . يقال إن كل دهليز منها على آسم كوكب من الكواكب السبعة . وجُدْران هذه الدهاليز منقوشة بصُوَر مختلفة الهيئات والمقادير ، يقال إنها رموز على علوم القبط ، وهى : الكيمياء ، والسِّيمياء ، والطِّلَّسْمات ، والطب . أودعوها هذه الصور .

ويقال إن ذا النون المصرىّ العابد فكّ منها علم الكيمياء .

وأما حَنِيَّة اللازورد

وهي بأرض مَنْف. ومَنْف هذه هي التي تسمَّى مصر القديمة .

يقال إن عَقْد الحَنِيَّة أحسنُ من عَقْد قنطرة صَنْجَة التي تقدّم ذكرها. والحَنِيَّة معقودة من حجارة مهندمة ، طولُ كل حجر منها أكثر من خمسةَ عشرَ ذراعا . وفيها نقوش وكتابة وطِلَّسْمات مموّهة باللّازورد . وهي من الشرق إلى الغرب ، وفي صدرها فَضَاء فيه بناء مرتفع ، عليه بَلَاطةٌ من الصوّان الأسود ، مكتوب فيها بالقلم البِرْباوي ثلاثون سطرا . يقال إنه قبر الذي بنى الحَنِيَّة . وأنه دِيساره : ملك كان بمصر ، حكيمٌ .

وللقبط عيد يسمَّى ديساره : وهو عيد هذا الملك . ويسمَّى عيد العنب .

وأما منارة الإسكندرية

فهي مبنية بحجارة مهندمة مضَبَّبة بالرصاص ، على قناطر من زجاج ، والقناطر على ظهر سَرَطان من نحاس . وفيها نحو ثلثمائة بيت بعضُها فوق بعض ، تصعَدُ الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها . وللبيوت طاقات يُنْظر منها إلى البحر .

وبين أهلِ التاريخ خلافٌ فيمَن بناها .

فزعم بعضُهم أنها من بناء الإسكندر بن فيلبّس المَقْدونيّ . وزعم آخرون أنها من بناء دَلُوكا ، ملكة مصر . ويقال إن على جانبها الشرقيّ كتابةً ، وإنها نقلت إلى اللسان العربيّ فوجدت "بَنَتْ هذه القنطرة فرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب". (١٢٧)

ويقال : إن طولها كان ألف ذراع .

وكان في أعلاها تماثيل من نحاس .

منها تمثال قد أشار بيديه اليمنى نحو الشمس: أينما كانت من الفلك، يدور معها حيثما دارت .

ومنها تمثال وجهه في البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة، سُمِعَ له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طُروقَ العدو .

ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة، صوّت صوتا مطربا .

ويقال: إنه كان بأعلاها مرآة تُرى منها قُسْطنطينيَّة، وبينهما عرض البحر . وكلما جهز الروم جيشا رؤى في المرآة .

وحكى المسعودىّ في "مروج الذهب" أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية، وأنها تعدّ من بناء العالِم العجيب ، بناها بعض البَطالسة من ملوك اليونان يقال له الإسكندر، لِمَا كان بينهم وبين الروم من الحروب في البرّ والبحر. فجعلوا هذه المنارة مَرْقَبا، وجعلوا في أعلاها مِرْآة من الأحجار المُشِفَّة، تشاهَد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رُومِيَة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها .

ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون، فاحتال ملك الروم على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خَوَاصِّه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب في الإسلام. فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام ، وأخرج كنوزا ودفائن كانت في الشام حملت الوليد على تصديقه فيما يدّعيه . ثم قال له : إن تحت المنارة أموالا ودفائنَ وأسلحة، دفنها الإسكندر. فصدّقه وجهّزه مع جماعة من خدمه إلى الإسكندرية، فهدم ثلث

المنارة وأزال المِرآة ، ثم فطن الناس أنها مكيدة ، فاستشعر ذلك فهرب فى مركب كانت معدّة له . ثم بُنِي ما هُدِم بالجص والآجُرّ .

ثم قال المسعودىّ : وطول المنارة فى هذا الوقت (يعنى الوقت الذى وضع فيه كتابه ، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة) مائتان وثلاثون ذراعا . وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع .

وهى فى عصرنا هذا ثلاثة أشكال : فمنها تقدير الثلث مربع مبنىّ بالحجارة ، ثم بعد ذلك بناء مُثَمَّنُ الشكل بالآجُرّ والجص نحو ستين ذراعا ، وأعلاها مدوّر الشكل .

ويقال إن أحمد بن طولون بنى فى أعلاها قبة من الخشب فهدمتها الرياح . فبنى فى مكانها مسجدا فى الدولة الظاهرية الركنية بيبرس صاحب مصر رحمه الله تعالى . ثم هُدِم فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة بسبب الزَّلْزلة الحادثة . ثم بنى فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة فى دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور، ثبت الله دولته ، وكان المندوب لذلك الأميرَ ركنَ الدين بيبرس الدَّوَادار المنصورىّ ، نائب السلطنة الشريفة فى الغيبة .

وقد وصف الشعراء منارة الإسكندرية .

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدروىّ :

وسامية الأرجاءِ تُهدى أخا السُّرى * ضياءً، إذا ما حِندِسُ الليلِ أظلَما .
لبِستُ لها بُرْدا من الأُنْسِ ضافيا * فكانَ بتَذْكار الأحِبَّةِ مُعْلَمَا .
وقد ظلّلتْنِي من ذُراها بقُبَّةٍ * أُلاحِظُ فيها من صِحَابِي أنْجُما .
تُخيِّلْتُ أنَّ البحرَ تحتِي غمامةٌ * وأنِّى قد خيَّمْتُ فى كَبِد السَّما !

وقال أبو الفتح الأغر بن قلاقس :

وَمَنْزِلٍ جاوَزَ الجَوْزاءَ مُرْتَفِعًا * كأنَّما فيه للنَّسْرَيْنِ أوكارُ.

رامِي القَرارةِ سامِي الفَرْعِ فى يَدِه * النُّور والنُّون أخْبارٌ وأخْيارُ.[1]

أطْلَقْتُ فيه عِنانَ القولِ فاطَّرَدَتْ * خيلٌ لها فى بَدِيعِ الشِّعْرِ مِضْمارُ.

وأما رواق الإسكندرانيين

فهو ملعب كان بالإسكندرية .

كانوا حكماء يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئا دون الآخر، ووجهُ كل واحد منهم — وإن اختلفت جهاتُهم — تلقاء وجه الآخر . وإن عمل أحد منهم شيئا أو تكلم ، سمعه الآخرُ . ونظرُ القريبِ والبعيدِ فيه سواءٌ .

وقد بقيت منه بقايا عَمَد تكسرت ، غير عمود منها يسمَّى عمود السَّوارى فى غاية الطول والغلظ من الحجر الصوّان الأحمر .

ذكر شىء من عجائب المبانى

قال صاحب كتاب " مباهج الفكر ومناهج العبر " :

ذكر بعض المصنفين لكتب العجائب ، أن الفرس تزعم أن أوشهنج بنى بأرض بابل سبع مدائن، جعل فى كل مدينة منها أعجوبة ليست فى الأخرى .

(١) هكذا فى الأصل . وفى بدائع البدائه "أخبار وآثار" وفى مسالك الأبصار "إنجار وأخيار" وهذا الوجه الأخير أولى ويكون المعنى أن هذه المنارة تخبر عن المراكب المضيئة القادمة الى الإسكندرية وأن فيها أخبارا عن السمك السابح فى البحر حولها .

فكان في الأولى — التي يكون فيها الملك — مثالُ أنهار الدنيا كلّها . فإذا آلتوى عليه أحد من أهل مملكته بخراجهم ، خَرَّج نهرا من تلك الأنهار الشبيهة بنهر تلك الناحية فغَرِقوا . فإذا أدّوا الخراجَ ، سدّ عليهم من عنده فانسدّ عنهم .

وفي الثانية حوض . فإذا أراد الملك أن يجمع الناس لشراب ، أتى من أحبّ منهم بشراب له خاص فيصبه في الحوض . يفعل ذلك كل إنسان منهم ؛ فيختلط الجميع . ثم تقوم السُّقاة فتأخذ الأواني ويُسْقى كلُّ واحد من شرابه الذي جاء به .

وفي الثالثة طبل . فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره ، أحيّ هو أو ميت ، ضربوا الطبلَ : فإن كان حيا صوّت ، وإن كان ميتا لم يصوّت .

وفي الرابعة المِرْآة . فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حالَه ، نظروا في المرآة فرأَوْه في الحالة التي هو عليها .

وفي الخامسة إوَزّةُ نُحاس . فإذا دخل المدينة غريب ، صَفَّرت . فيعلمون أن غريبا دخلها .

وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء . فيجيء المُحِقّ والمُبْطِل ليجلسا معهما . فيجلس المحق ، ويرسب المبطل .

وفي السابعة شجرة . لا تظل إلا ساقها . فإذا جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف . فإن زاد على الألف واحد ، قعدوا كلهم في الشمس .

وكنتُ قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت عدمَها وإلغاءها والإضراب عنها . فرأيت ابن الجوزيّ وضعها في كتابه الذي سماه "سلوة الأحزان" فأوردتُها .

وحكى أنه كان بمدينة قَيْسَارِيَّة — لما كانت فى أيدى الروم — كنيسةٌ بها مِرْآة، إذا اتّهم الرجلُ امرأته بزنًا، نظر فى تلك المرآة، فيرى وجه المتّهَم فيها. وأن بعض الناس اتّهم فرأوه فيها فقتله الملك، فجاء أهله إلى المرآة حَمِيَّةً فكسروها.

وحكى الواقدىّ فى فتوح السند: أن عبد الله العبدىّ عامل معاوية على السند غزا بلد القِيقَان، فأصاب منهم غنائمَ كثيرةً، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه الفداء وحمل إليه هَدايَا كان فيها قطعة من مِرْآة، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم عليه السلام، لما كَثُر ولده وانتشروا فى الأرض، فكان ينظر فيها فيرى من بَعُدَ منهم على الحالة التى هو عليها من خير أو شر، فحملها عبد الله إلى معاوية، فبقيت فى ذخائر بنى أمية إلى أن انتقل الملك عنهم إلى بنى العباس، فضاعت فيما فُقِد من الذخائر.(1)

وقيل: إن بِنَهَاوَنْد حجرا يسمّى الكِلان، بالقرب منه صخرة، من أراد أن يتعرّف حال غائب أو آبق أو سارق، أتى إلى تلك الصخرة فنام تحتها، فيرى فى النوم حال ما تَعرف به على ما هو عليه. وعجائب المبانى كثيرة، سنذكر إن شاء الله تعالى منها جملة فى أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، فتأمّله هناك تجده.

---

(١) بهامش الأصل ما نصه: "قد ذكر أبو جعفر الطبرى فى تاريخه أن هذه المرآة كانت عند أبى جعفر المنصور فالله أعلم أين صارت بعده".

الباب الرابع

من القسم الخامس من الفن الأول

(فيما وصفت به المعاقل والحصون)

وهذا الباب قد ترجمتُ عليه في الفن الثاني الذي يلي هـذا الفن فيما يحتاج إليه الملك . وإنما ضممتُه إلى هذا الفن لمناسبته له وشَبَهه به ، وآستثنيته من الفن الثاني وآقتصرت فيه على مجرّد الترجمة . وبالله التوفيق .

وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتّاب والبلغاء القولَ في هذا المعنى وتواردُوا فيه ، فاقتصرنا على مانورده من ذلك ، وهو قليل من كثير .

فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار :

« ... وهـذه القلعةُ التي آنتهينا إلى قرارها ، وآستولَيْنا على أقطارها ، أرحبُ المدن أمدا للعيون ، وأخصبها بَلَدا إذا أمحلَت السّنون ، فُرُوعها فوق الثُّريّا شامخة ، وعروقها تحت الثَّرى راسخة ، تباهي بأزهارها نجوم السماء ، وتُناجي بأسرارها أُذُنَ الجوزاء ، وكانت في الزمن الغابر ، عتَتْ على عظيم القياصر ، فنازلَهَا بأكثَرَ من النجوم عددا ، وطاولها بأوفى من البحر مَدَدا ، فأبتْ على طاعته كلَّ الإباء ، وآستعصَتْ على مقارعته أشدَّ آستعصاء ، ومَرَدتْ مرود مارِدٍ على الزّباء ، فأمكننا الله من ذِرْوتها ، وأنزل رُكّابَها لنا عن صهْوتها » .

وقال القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني رحمه الله ، يصف آمِدَ من رسالة جاء منها :

«... وآمدُ ذِكْرها بين العالَم متعالَم ، وطالما صادَمَ جانبُها مَنْ تَقادَم ، فرجع عنها مَقْدوعا أنفُه وإن كان فحلا ، وفرّ عَنْها فَريدا بهمّه وإن آستصحب خيلا ورَجْلا ،

(١٣٩) ورأى حجرها فقدر أنه لا يُفَكُّ له حَجْر، وسوادَها فظن أنه لا ينسخه فَجْر، وحَمِيَّةَ أنف أنفتها فاعتقد أنه لا يستجيبُ لزَجْر؛ من ملوك كانهم قد طوى صدْرَه على الغليل إلى مَوْرِدها، ووقف وقفة المحب السائل فلم يُفِزْ بما أمَّل من سؤال مَعْهَدها» .

وقال من أخرى يصفها :

« ... وهى العقيلة التى صَدْرُ الصُّدورِ الأُوَلِ مُحَلًّا عن وِرْدها، والطريدة التى حصل منها على راحة يأسه وتعب طَرْدها؛ والمحجَّبةُ التى كُشِفَتْ ستورُها، ودار لعِصْمتها كِسوار مِعْصَمِها سُورُها، وغلَتْ على أنها السوداء على خُطَّابها لأن المُهَج مُهورُها؛ ولربما نآى بجانبها الإعراض، ونبا جوهرُها عن الأَعْراض. وطاشَتْ دون أوصافها سِهام الأغراض؛ ودرَجَتِ الملوك على حَسْرتها فلم تَحْسَر لها لِثاما، وما استطاعت لثغرها ثَلْما ولا له الْتِثاما» .

وقال من أخرى يصف قلعة نَجْم، وهى من عيون الرسائل. جاء منها :

« ... هى نَجْم فى سَحاب، وعُقاب فى عِقاب؛ وهامةٌ لها الغمامة عِمامه، وأنملة إذا خَضَبها الأصيلُ كان الهلال لها قُلامه؛ عاقدةٌ حُبوةً صالَحَها الدهرُ أن لا يَحُلَّها بقَرْعه، بادية عصمة صالحها الزمن على أن لا يروِّعها بخُلْعه؛ فاكتنفَتْ بها عقاربُ منجنيقات لم تُطْبع طَبْعَ حِمْصَ فى العقارب، وضربتها بحجارة أظهرتْ فيها العَداوة المعلومة فى الأقارب؛ فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثَّرتْ فيها الحجارةُ جُدَرِيًّا بضربها، ولم يصل إلى السابعة إلا والبحرُ مؤذِن بنَقْبها؛ فاتسعَ الخرقُ على الراقع. وسقط سعده عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع؛ وفُتِحت الأبراج فكانت أبوابا، وسُيِّرت الجبال فكانت سَرَابا» .

وقال من أخرى في فتح بيت المقدس، جاء منها :

« ... زاوَلَ المدينـةَ من جانب ، فاذا هو أودِيَةٌ عميقة ، وبُحَجٌ وَعْرٍ غريقة ؛ وسور قد انعطف عَطْفَ السِّوار ، وأبْرِجة قد نَزَلت مكانَ الواسطةِ من عُقْر الدار ؛ وقدّم المَنْجنيقات التي تتولّى عقابَ الحصون عِصيُّها وحبالُهـا ، وأوتر لهم قِسيَّها التي تَضْرب ولا تفارق سهامَها ولا سهامَها نِصالُها ؛ فصافحت السُّور فإذا سهامُها في ثَنَايا شُرُفاتها سِوَاك ، وقدّم النصر بشرى من المنجنيق تُخْـلِد إخلاده إلى الأرض وتعلو عُلُوّه إلى السِّماك ؛ فشَـجّ مَرَابع أبراجها ، وأسمَعَ صـوتَ عجيجها ، ورفع مَثَـار عَجَاجِها ؛ وأسـفَرَ النُّقّاب عن الخَرَاب النِّقَاب ، وأعاد الحجر إلى خِلْقته الأولى من التُّراب ؛ ومَضَـغ سَرْد حجارته بأنيابِ مِعوله ، وأظهر من صناعته الكثيفةِ ما يدلُّ على لَطَافة أنمله ، وأسمع الصخرةَ الشريفة أنِينَه إلى أن كادت ترقُّ لمقتله » .

وقال أيضا من أخرى :

« ... فنصبْنا عليهـا المَنْجنيقاتِ تمطر سمـاؤُها نَبْلَ الوَبَال ، وتملأ ارضَها بالنِّكاية والنَّكال ، وتهدّ بساريَات حجارتها راسِيَاتِ الجبال ؛ وتُنْزِل نوازلَ الأسْواء بالأسوار ، وتُوسِع مجالَ الدَّوائر في الدِّيار ، وتَخْطَف بخُطَّافاتها أعمارَ الأغمار ؛ وتُطِير حمامَها بكُتُب الحِمام ، وتديم إغراء سِهامها في أهلها بتوفير سهام الإرغام ؛ وكشَفَ النقّابون نِقابَ السُّور المحجوج المحجوب ، فتهدّم بنيانُه ، وتداعت أركانه ، بتظاهر المنجنيقات عليها والنُّقُوب » .

ووصف القاضي الفاضل المنجنيق من رسالة فقال :

« فسَلَّمتْ كأنّها بَنَان ، ونضْنَضَت كأنها لسان ، وأطّت كأنها مِرْنان ، واهتزّتْ كأنها جانّ ، وتقوّمت كأنها سِنَان ، وانعطفَتْ كأنها عِنَان ، وأقدمت كأنها شُجَاع وأحجمت

كأنها جبان . ورمَتْ رءوسَهم الموقَّرة من أحجارها بأمثال الرءوس المحلَّقه، فأعادَتْهم إلى الحلقة الأولى محلَّقة وغيرَ محلَّقه » .

ووصف النامى المنجنيق فقال :

وحِصْنٍ زيادٍ غُدوةَ السَّبْت نافثاً * سِمَاما، أَراكَ ٱبْنَ الأراقِمِ أرقَا .
نصبْتُ له فى الأرضِ بَيْتَ حَدِيقةٍ * تَمُدُّ لها فى الجوّ كَفًّا ومِعْصَما . ٥
لها أخَواتٌ للمَنَايَا كَوَامِنٌ * وإنْ لم يكن ما أضمَرَتْه مُكَتَّما .
عَذَارى، ولكن قد وُجِدْن حوامِلًا * بعُرْسٍ تَرَاه للجَنَادِل مَأْتَما .
ترى الصَّخْرَ فيه الصَّخْرُ وهو نَسِيبه * عَدُوًّا بيوم أرضُه تُمْطِر السَّما .
إذا أقْعَدَتْ جُذْرا قياما، رأيتَهَا * تُنَبِّه قِيعاناً من التُّرب نُوَّما !

ومما وصفت به المعاقل والحصون نظما . ١٠

فمن ذلك قول كعب الأشقرى، يصف قلعة :

مُحَلَّقَةٌ دُونَ السَّماء كأنَّها * غمامةُ صَيْفٍ زالَ عنها سَحَابُها .
ولا يَبْلُغُ الأَرْوى شمارِيخَهَا العُلى، * ولا الطَّيرُ إلا نَسْرُها وعُقابُها .
ولا خُوِّفَتْ بالذِّئبِ وِلْدانُ أهْلِها، * ولا نَبَحَتْ إلا النُّجُومَ كِلَابُها .

وقال أبو تمام، يصف عَمُّورية : ١٥

وبَرْزَةُ الوجه قد أعيَتْ رِياضَتُها * كِسرى وصَدَّت صُدُودا عن أبى كَرِب .
بِكْرٌ، فما افْتَرَعَتْها كَفُّ حادثةٍ * ولا تَرَقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ .
من عَهْد إسكَنْدرٍ أو قَبْل ذاكَ، فقد * شابَتْ نَواصِى اللَّيالِى وهى لم تَشِب !

وقال الخالديان :

وخَلْقاءَ قد تاهَتْ على من يَرُومُها * بمَرْقَبِها العالى وجانِبِها الصَّعبِ . ٢٠

يَزُرُّ عليها الجَوُّ جَيْبَ غَمَامِه * ويُلْبِسُها عِقْدا بأنجُمِه الشُّهْبِ.
إذا ما سَرى بَرْقٌ، بَدتْ من خِلَالِهِ * كما لاحتِ العَذْراءُ من خِلَلِ الحُجْبِ.
سَمَوتَ لَها بالرأْيِ: يُشْرِق في الدُّجى، * ويَقْطَع في الجُلَّى، ويَصْدَع في المَضْبِ.
فأبْرَزْتَها مهتُوكَةَ الجيب بالقَنَا * وغادَرْتَها ملصوقَةَ الخَدِّ بالتُّرْبِ!

٥ وقالا أيضا في قلعة:

وقَلْعَةٍ عانَقَ العَيُّوقُ سافِلَها، * وجار مِنطقَةَ الجَوْزا أعالِيها.
لا تَعْرِفُ القَطْرَ، إذ كان الغَمَامُ لها * أرضًا تَوَطَّأُ قُطْرِيهِ مَوَاشِيها.
إذا الغمامةُ لاحَتْ، خاضَ ساكِنُها * حِياضَها قبل أن تَهْمِي عَزَالِيها.
يُعَدُّ من أنجُمِ الأفلاكِ مَرْقَبُها، * لَوْ أنَّه كان يَجْرِي في مَجَارِيها.
١٠ على ذُرى شامِخٍ وَعْرٍ: قد امتلأَتْ * كِبْرًا بِهِ، وهو مَمْلُوءٌ بها تِيهًا.
له عِقَابٌ: عُقَابُ الجوِّ حائمةً * من دُونِها، فهْي تَخْفى في خَوافيها.

وقال أبو بكر الخوارزمي:

وبِكْرٍ تحامَتْها البُعُولُ مَخَافَةً، * فقد تُرِكَتْ من كَثْرَةِ المَهْرِ أيِّما.
ممنَّعةٌ لم يَغْلَطِ الدهرُ باسْمِها، * ولم يَرَها في النَّوْمِ إلا تَوَهُّما.
١٥ تَزِلُّ عُقابُ الجَوِّ عن شُرُفاتِها، * وتَبْغي إليها الرِّيحُ مَرْقًى وسُلَّما!
ويُسْمَع في الأفلاكِ صَيْحةُ دِيكِها، * فتَحْسَبُ ديكَ العَرْشِ صاحَ تَرَنُّما.
عَجُوزٌ، تُرى في صِحَّةِ الجِسْمِ كاعِبًا، * ولو أُرِّخَتْ، كانَتْ مِنَ الدَّهْرِ أقْدَما!
تُوارِي أَسَاسًا بالتُّخُومِ مُؤَزَّرا، * وتُبْرِزُ رأْسًا بالنُّجُومِ معمَّما.
تُنازِعُها الأرضَ السَّماءُ وتَدَّعي * لَدَيْها بها حَقًّا لها مُتَهَضَّما.
٢٠ وتَحْسَبُها زُهْرُ الكواكبِ كَوْكَبًا * هَوى خَلْفَ شَيْطانٍ رَجِيمٍ، فخَيَّما!

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفن الأوّل

(فيما وصفت به القصور والمنازل)

ولنبدأ بذكر ما بناه المتوكل من القُصور وما أُنْفق عليها، ثم نذكُر ما قيل فى وصفها، وما وُصِفت به المنازل الخالية، وما قيل فى حُبِّ الوطن .

فأما قصور المتوكل، فهى : الكامِلُ، والجَعْفَرىّ، و بركوانا[1]، والعَرُوس، والبِرْكة، والجَوْسَق، والمُخْتار، والغَرِيب، والبَدِيع، والصَّبِيح، والمَلِيح، والقَصْر، والبُرْج، والمتوكِّلِيَّة، والقُلَّاية .

حكى المؤرّخون أنه أنفق فى بنائها مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار عينا، ومائتا ألف ألف وثمانيةٌ وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم .

قالوا : وكان "البرج" من أحسنها . كان فيه صُوَر عظيمةٌ من الذهب والفضة، و بركةٌ عظيمة غُشِّى ظاهرُها و باطنها بصفائح الفضة، وجعل عليها شجرةٌ من الذهب فيها طُيُور تصوت وتصفِّر سماها "طُوبى" بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار .

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السرىّ :

مجْلِسٌ فى فِناء دِجْلةَ، يَرْنا * حُ إليه الخَلِيع والمَسْتُورُ.
طائرٌ فى الهواءِ، فالبَرْق يَسْرى * دُونَ أعلاهُ والحَمَامُ يَطِيرُ.
فإذا الغَيْمُ سِرْ، أُسْبِل منه * حُلَلٌ دون جُدْرِه وسُتُور.
وإذا غارَتِ الكَواكبُ صُبْحا، * فهو الكَوْكَبُ الذى لا يَغُور!

(١) كذا بالأصل . وفى معجم ياقوت "بَزْكُوَار" .

وقال أيضا :

مَنْزِلٌ كالرَّبيع حَلَّت عليه * حالياتُ السَّحاب عقدَ النِّطاق .
يُمْتِع العَيْنَ في طرائفِ حُسْنٍ * تتحامى بها عن الإطْراق .
بيْنَ ساجٍ كأنَّهُ ذائبُ التِّبرِ على مِثْل ذائبِ الأَوْراق .

٥ وقال أيضا :

والقصرُ يَبْسِم عن وجه الضُّحى ، فترى * وجْهَ الضُّحى عِنْد ما أبدى له خَجِلا .
يَبيتُ أعلاهُ بالجَوْزاء مُنْتَطِقا ، * ويَغْتَدِي بِرِداءِ الغَيْم مُحْتَجِبا !

وقال أبو سعيد الرستمي ، يصف دارا بناها الصاحب بن عَبَّاد :

وسَامِيَةِ الأعْلامِ تَلْحَظُ دُونَها * سَنَا النَّجْم في آفاقِها مُتَضائِلا .
١٠ نَسَخْتَ بها إيوانَ كِسْرى بنِ هُرْمُزٍ ، * فأصبحَ في أرضِ المَدائِنِ عاطِلا .
فلو أبصَرَتْ ذاتُ العِمادِ عِمادَها ، * لأمسَتْ أعاليها حَيَاءً أسافِلا .
ولو لحظَتْ جَنَّاتُ تَدْمُرَ حُسْنَها ، * دَرَتْ كيف تَبْنِي بعدَهُنَّ المَجادِلا .
متى تَرَها خِلْتَ السماءَ سُرادِقًا * عليها وأعْلامَ النُّجومِ تَماثِلا .

وقال عليّ بن يوسف الإيادي ، يذكر دارا بناها المعز العُبَيدي بمصر وسماها "العروسين" :

١٥ بَنى مَنْظَرا يُسْمى "العَرُوسَيْنِ" رِفْعَةً ، * كأنَّ الثُّرَيَّا عَرَّسَتْ في قِبابِهِ .
إذا الليلُ أخْفاهُ بحُلْكةِ لَوْنِهِ ، * بَدا ضَوْءُهُ كالبَدْرِ تحت سَحابِهِ .
تمكَّنَ من سَعْدِ السُّعُودِ محلُّهُ ، * فأضْحى ومِفْتاحُ الغِنى فَتْحُ بابِهِ .
ولو شادَهُ عَزْمُ المُعِزِّ ورأيُهُ * على قَدْرِهِ في مُلْكِهِ ونِصابِهِ
٢٠ لكانَ حَصى الياقُوتِ والتِّبْرِ مُفْرَغًا * على المِسْكِ من أجُرِّهِ وتُرابِهِ .

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلىّ، يصف دارا بناها المعتمد بن عبّاد من أبيات :

ويا حَبَّذَا دارٌ قضى اللهُ أنّها * يُجَدِّد فيها كُلُّ عِزٍّ ولا يَبْلى !
وما هِىَ إلا خِطَّةُ المَلِك الّتِى * يَحُطُّ إلَيْها كُلُّ ذِى أمَلٍ رَحْلا.
إذا فُتِحَتْ أبْوابُها، خِلْتَ أنّها * تقُولُ بتَرْحِيبٍ لداخِلِها : أهْلا.
وقد نَقَلَتْ صُنّاعُها من صِفَاتِهِ * إليها أفانِينًا، فأحسَنَتِ النَّقْلا. ٥
فمن صَدْرِه رُحْبا، ومن نُوره سَنًا، * ومن صِيتِه فَرْعا، ومن حِلْمِه أصْلا !
فأعلَتْ به فى رُتْبةِ المُلْكِ نادِيًا، * وقَلَّ له فَوْقَ السِّماكَيْنِ أن يُعْلى.
نَسِيت بِهِ إيوانَ كِسْرى، لأنّنِى * أراهُ له مَوْلًى من الحُسن لا مِثْلا.
تَرى الشَّمْسَ فيه لِيقَةً تستَمِدُّها * أكُفٌّ، أقامتْ من تَصاوِيرِها شَكْلا.
لها حَرَكاتٌ أُودِعتْ فى سُكُونِها، * فما تَبِعتْ من نَقْلِهنّ يَدٌ رِجْلا. ١٠
ولما عَشِينا من توَقُّد نُورِها، * تَخِذْنا سَناهُ فى نواظِرِنا كُحْلا.

وقال أيضا من قصيدة يصف فيها دارا بناها المنصور ببجاية، جاء منها :

وأعْمُرْ بقَصْر المُلْكِ ناديكَ الّذِى * أضْحى بمَجْدِك بَيْتُه مَعْمورًا !
قَصْرٌ لو أنّكَ قد كَحَلْتَ بنُورِه * أعمى، لعادَ على المقامِ بصيرا.
وأشتَقَّ من مَعْنى الحياةِ نَسِيمُه، * فيكادُ يُحْدِث للعِظام نُشُورا. ١٥
فلَو أنّ بالإيوانِ قُوبِلَ حُسْنُه، * ما كان شَيْئًا عِنْده مَذْكُورا.
نُسِىَ "الصَّبِيحُ" مع "المَلِيح" بذكره، * وسَما ففاقَ "خَوَرْنَقًا" و"سَدِيرًا".
أعْيَت مطالِعُه على الفُرْسِ الأُلى * رَفَعُوا البِناءَ وأحْكَمُوا التَّدْبِيرا.
ومضَتْ على القَوْمِ الدُّهُورُ وما بَنَوْا * لمُلُوكِهِمْ شَبَهًا له ونَظِيرا.
أذكَرْتَنا الفِرْدَوْسَ حين أرَيْتَنا * غُرَفا رفَعْتَ بِناءَها، وقُصُورا. ٢٠

فلكٌ من الأفلاكِ، إلّا أنه * حَقَر البُدُورَ فأطلع "المَنْصُورا".
أبصرتُه فرأيتُ أبدعَ مَنظرا * ثم انثنيتُ بناظرى مَحْسُورا.
وظننتُ أنّى حالمٌ فى جنّةٍ * لمّا رأيتُ المُلْكَ فيه كبيرا.
وإذا الوَلائدُ فتحتْ أبوابَها، * جعلتْ تُرحّبُ بالعُفاة صَريرا.
عضّتْ على حَلَقاتِهِنّ ضَراغِمٌ * ففَرَتْ بها أفواهَها تَكْشيرا. (١٤٢)
فكأنّها لَبِدَتْ لتَهصر عندها * مَنْ لم يَكُنْ بدُخولِهِ مأمُورا.
تَجرى الخَواطرُ مُطْلَقاتٍ أعِنّةٍ * فيه، فتكبُو عن مَداهُ قُصُورا.
بمَرَخّمِ الساحاتِ تَحْسَبُ أنّهُ * فرشَ البَها وتَوَشّحَ الكافُورا.
ومُحصّبٍ بالدُّرِّ تَحْسَبُ تُرْبَه * مِسكًا تضوّعَ نَشْرُه وعَبيرا.
يَستَخلِفُ الإصْباحُ منه إذا انقضى * صُبْحا على غَسَقِ الظّلامِ مُنيرا.
ضَحِكَتْ محاسِنُه إليكَ كأنّما * جُعلتْ له زُهْرُ النُّجومِ ثُغُورا.
ومُصَفّحِ الأبْوابِ تِبْرًا نَظَرُوا * بالنَّقْشِ بين شُكُولِهِ تَنْظيرا.
تَبْدُو مَسامِيرُ النُّضارِ كما علَتْ * فَلَكُ النُّهودِ من الحِسَانِ صُدُورا.
خلَعَتْ عليه غَلائلًا وَرْسيّةً * شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عنه حَسيرا.
فإذا نَظَرْتَ إلى غَرائبِ حُسْنِه، * أبصرتَ رَوْضًا فى السّماء نَضيرا.
وعَجِبْتَ من خُطّافِ عَسْجَدِهِ الّتِى * حامَتْ لتَبْنِى فى ذُراه وُكُورا.
وضَعَتْ به صُنّاعُه أقلامَها، * فأرَتْكَ كُلَّ طَريدةٍ تَصْويرا.
فكأنّما للشّمْسِ فيه لِقَةٌ * مَشَقُوا بها التّزْويقَ والتّشْجيرا.
وكأنّما فرَشُوا عليه مُلاءةً * تَرَكُوا مَكانَ وِشاحِها مَقْصُورا.
ياما لكَ المُلْكِ الذى أضحى لَهُ * ملكُ السّماءِ على العُداة نَصيرا.

كَمْ من قُصُورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ * فاستوْجَبَتْ بِقُصورِكَ التأخيرا .
فعَمَرْتَها وملَكْتَ كلَّ رِياسَةٍ * منها ، ودَمَّرتْ العِدا تَدْمِيرا .

وقال عمارة اليمنيّ ، يصف دارا بناها فارس الإسلام من أبيات :

فتَمَلَّ دارًا شَيَّدَتْها هِمَّةٌ ، * يَغْدُو العَسِيرُ بأمْرِها متيَسِّرا .
فاقَتْ على الإطْلاقِ كُلَّ بَنِيَّةٍ ، * وسَمَتْ بسَعْدِكَ عِزَّةً وتكبُّرا . ٥
أنشأْتَ فيها لِلعُيُونِ بدائعًا * دَقَّتْ ، فأذهَلَ حُسْنُها مَنْ أبصَرا .
فِنَ الرُّخَامِ : مُسَيَّرًا ، ومسَهَّما ، * ومُنَمْنَمًا ، ومُدَرْهَمًا ، ومُدَنَّرا .
وسقَيْتَ من ذَوْبِ النُّضارِ سُقُوفَها * حتَّى يَكادَ نُضارُها أن يَقْطُرا .
لم يَبْقَ نَوْعٌ صامِتٌ أو ناطِقٌ * إلا غَدَا فِيها الجَمِيعُ مُصَوَّرا .
فيها حَدائقُ لم تَجُدْها دِيمَةٌ ، * كَلَّا ولا نَبَتَتْ على وَجْهِ الثَّرى . ١٠
لم يَبْدُ فيها الروضُ إلا مُزْهِرا ، * والنخْلُ والرمَّانُ إلا مُثْمِرا .
والطَّيْرُ مُذْ وقعَتْ على أغصانِها * وثِمارِها ، لم تَسْتَطِعْ أن تَنْفِرا .
وبها مِنَ الحَيَوانِ كُلُّ مُشَبَّهٍ[1] * لَبِسَ الحريرَ العَبْقَرِيَّ مُصَوَّرا .
لا تَعْدَمُ الأبصارُ بين مُرُوجِها * لَيْثًا ولا ظَبْيًا بوَجْرَةَ أعْفَرا .
أَنِسَتْ نوافِرُ وَحْشِها لِسِباعِها : * فظِبَاؤُها لا تَتَّقِي أُسْدَ الشَّرى . ١٥
وكأنَّ صولَتَكَ المُخِيفَةَ أمَّنَتْ * أسْرابَها أن لا تَخافَ فتُذْعَرا .
وبها زَرَافاتٌ كأنَّ رِقابَها * في الطُّولِ أَلْوِيَةٌ تَؤُمُّ العَسْكَرا .
نُوبِيَّةُ المَنْشَا تُرِيكَ من المَهَا * رَوْقًا ، ومن بُزْلِ المَهارِي مِشْفَرا .
جُبِلَتْ على الإقْعاءِ من أعْجازِها ، * فتَخالُها في التِّيهِ تَمْشِي القَهْقَرى !

(١) في الأصول "مسبهن" . ولعلها تصحيف .

وقال أبو الصلت أُميّة بن عبد العزيز، يصف قصرا بناه علىّ بن تميم بن المعزّ بمصر:

لله، مَجلِسُكَ المُنِيفُ ! فَبَابُهُ * بمُوطَّدٍ فَوْقَ السِّماكِ مُؤَسَّسِ.
مُوفٍ على حُبُكِ المَجَرّةِ تَلْتَقِي * فيه الجَوارِى بالجَوارِ الكُنَّسِ.
تتقابَلُ الأنوارُ فى جَنَباتِهِ * فاللَّيلُ فيه كالنَّهارِ المُشْمِسِ.
عُطِفَتْ حَنَاياه دُوَيْنَ سَمائِهِ * عَطْفَ الأهِلَّةِ والحَواجِبِ والقِسِى. ٥
واستَشْرَفَتْ عَمَدُ الرُّخامِ وظُوهِرَتْ * بأجَلَّ من زَهْرِ الرَّبِيعِ وأنْفَسِ.
فهَواؤُه من كُلِّ قَدٍّ أهْيَفٍ، * وقَرارُه من كُلِّ خَدٍّ أمْلَسِ.
فَلَكٌ تَحَيَّرَ فِيهِ كُلُّ مُنَجِّمٍ، * وأقَرَّ بالتقصيرِ كُلُّ مُهَنْدِسِ.
فَبَدا لِلَحْظِ العَيْنِ أحْسَنَ مَنْظَرا، * وغَدا لِطِيبِ العَيْشِ خَيْرَ مُعَرَّسِ.
فاطْلُعْ به قَمَرا، إذا ما أطْلَعَتْ * شمسُ الخُدورِ عليك شَمْسَ الأكْؤُسِ. ١٠
فالناسُ أجْمَعُ دُونَ قَدْرِكَ رُتْبَةً، * والأرضُ أجمَعُ دُونَ هذا المَجْلِسِ!

وقال الوزير أبو سليمان بن أبى أُميّة :

يا دارُ، آمَنَكِ الزَّما * نُ خُطوبَهُ ونَوائِبَهْ.
وجَرَتْ سُعُودُكِ بالَّذِى * يَهْوَى نَزِيلُكِ دائِبَهْ.
فلَنِعْمَ مَأْوَى الضَّيْفِ أنْـ * ـتِ، إذا تَحامَوْا جانِبَهْ. ١٥
خَطَرٌ شأَوْتِ به الدَّيا * رَ، فأذْعَنَتْ لَكِ قاطِبَهْ.

وقال أبو صخر القرطبىّ :

دِيارٌ عَلَيْها من بَشَاشَةِ أهلِها * بَقايَا، تَسُرّ النَّفْسَ أُنْسًا ومَنْظَرا.
رُبُوعٌ كَساها المُزْنُ من خِلَعِ الحَيَا * بُرُودًا، وحَلَّاها من النَّوْرِ جَوْهَرا.

(١٤٣) وقال الشريف الرضىّ :

مازلتُ أطرُقُ المَنازِلَ باللِّوى * حتّى نزلتُ مَنازِلَ النُّعمانِ.
بالحِيرةِ البَيضاءِ حيثُ تقابَلَتْ * شُمُّ العِمادِ، عَرِيضَةُ الأعطانِ.
شهِدَتْ بفَضْلِ الرّافِعينَ قِبابُها. * وبَيِين بالبُنْيانِ فَضْلُ البانِي!
ما يَنْفَعُ الماضِينَ أنْ بَقِيَتْ لهم * خِطَطٌ مُعَمَّرةٌ بعُمْرِ فانِي! ٥

وأما ما وُصفت به المنازل الخالية

فمن ذلك ماقاله البحترىّ يشير إلى "الكِرْمان" الذى بناه كسرى أنو شروان من أبيات :

فَكأنَّ الكِرْمانَ من عَدَمِ الأُنْسِ وإخْلائِه بَنِيَّةُ رَمْسِ.
لو تَراه، عَلِمْتَ أنَّ اللَّيالى * خلَعَتْ فيه مَأْتَمًا بعد عُرْسِ.
وهْوَ يُنْبِيك عن عَجائِبِ قومٍ، * لا يُشابُ البَيانُ فيها بلَبْسِ. ١٠
وإذا ما رأيْتَ صُورَةَ أنْطاكِيَةَ، ارتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وفُرْسِ.
والمَنايا مَواثِلٌ وأنُو شِرْوانُ يُزْجِى الصُّفُوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ!

وقال أيضا من قصيدة يرثى فيها المتوكل، ويذكر قصره "الجعفرىّ" :

مَحَلٌّ على القاطُولِ(١) أخْلَقَ دارُهُ، * وعادَتْ صُروفُ الدَّهرِ جَيْشًا تُعاوِرُهْ.
كأنَّ الصَّبا تُوفِى نُذُورا، إذا انبَرَتْ * تَجُرُّ به أذْيالَها وتُباكِرُهْ. ١٥
ورُبَّ زَمانٍ ناعِمٍ تَمَّ عَهْدُه، * تَرِقُّ حَواشِيه ويونِقُ ناظِرُهْ.
تغيَّرَ حُسْنُ "الجَعْفَرِىِّ" وأُنْسُه، * وقُوِّضَ بادِى "الجَعْفَرِىِّ" وحاضِرُهْ.
تَمَحَّلَ عنه ساكِنُوه بجُفاءةٍ، * فعادَتْ سَواءً دُورُه ومَقابِرُهْ.
إذا نَحْنُ زُرْناه، أجَدَّ لنا الأسى، * وقَدْ كان قَبْلَ اليَوْمِ يُبْهِجُ زائِرُهْ.

(١) نهر مشهور معروف .

٢٠

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه، * وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذره.
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أستاره وسرائره.
وأوحشه حتى كأن لم يكن به * أنيس، ولم تحسن لعين مناظره.
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة * بشاشتها، والملك يشرق زاهره.
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها * وبهجتها، والعيش غض مكاسره.
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت * بهيبتها أبوابه وستائره؟
وأين عمود الملك في كل نوبة * تنوب، وناهي الدهر فيه وآمره؟

وقال عمر بن أبي ربيعة:

يا دار، أمسى دارسا رسمها * وحشا قفارا ما بها آهل.
قد جرت الريح بها ذيلها، * واستن في أطلالها الوابل.

وقال شاعر أندلسي:

قلت يوما لدار قوم تفانوا: * أين سكانك الكرام لدينا؟
فأجابت: هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا، ولست أعلم أينا!

وقال عبد الله بن الخياط الأندلسي:

يا دار علوة، قد هيجت لي شجنا * وزدتني حزنا! حييت من دار!
كم بت فيك على اللذات معتكفا، * والليل مدرع ثوبا من القار!
كأنه راهب في المسح ملتحف، * شد المجر له وسطا بزنار!

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكي:

إن ربعا عرفته مألوفا * كان للبيض مربعا ومصيفا.
غيرت آيه صروف الليالي، * وغدا عنه حسنه مصروفا.

مامَرَرْنا عليــه ، إلَّا وَقَفْنا * وأطلْنَا شَوْقًا إليــه الوُقُوفا.
آلِفًا للبُكاءِ فيــه ، كأنِّى * لم أكُنْ فيه للغوَانِى أليفَا.
حاسِدًا للجُفُونِ لَمَّا أذَالَتْ * فى مَغَانِيهِ دَمْعها المَذْرُوفَا!

وقال الشريف الرضىّ من أبيات :

ولقــد رَأَيْتُ بِدَيْرِ هِنْــدٍ مَنْزِلًا * أَلِمًا من الضَّرَّاءِ والحَــدَثانِ! ٥
بالِى المَعَالِمِ ، أطْــرَقَتْ شُرُفاتُه * إطْراقَ مُنْجذِبِ القَرِينة عانِى.
أمَقَاصِرَ الغِزْلانِ ، غَيَّرَكِ البِلى * حتَّى غَدَوْتِ مَرَاتِعَ الغِزْلانِ! (١٤٤)
ومَلَاعِبَ الأِنْسِ الجَمِيعِ طوى الرَّدى * مِنْهم ، فَصِرْتِ مَلَاعِبَ الجِنَّانِ!

وقال أبو الحسن علىّ القابوسىّ نثرا :

«قد كان منزِلُهُ مَأْلَف الأضياف ، ومَأْنَس الأشراف ، ومُنتَجَع الرَّكْب ، ومقصد ١٠ الوَفْد ، فاستبْدَل بالأُنْس وَحْشــه ، وبالنَّضارة غُبْره ، وبالضِّــياء ظُلْمه ، وٱعتاض من تزاحم المواكب ، بالأُدْم النَّوادِب ، ومن ضجيج النِّــداء والصَّهِيل ، عجيجَ البكاء والعويل» .

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزرىّ ، جاء منها :

« ... دارٌ لَعِبت بها أيدى الزمــن ، وفرّقت بين الساكن والسَّكَن . كانت ١٥ مقاصيرَ جَنَّه ، فأضحت وهى ملاعب جِنَّه . ولقد عَمِيَتْ أخبــار قُطَّانها ، وعَفَّت آثارُها آثارَ وُطَّانها ، حتى شابهت إحداهمــا فى الجفا ، الأخرى فى العفا . وكنت أظن أنها لا تُسْقَى بعدهم بغمام ، ولا يُرفَع عنها جلْبابُ ظلام ، غير أن السحاب بَكَاهم وأجرى بهــا سوافِحَ دموعه ، والليــل شقَّ عليهم جُيوبَه فظهر الصَّباح من خلال صُدُوعه» .

٢٠

ومما قيل في حب الأوطان

قال ابن الرومي (وهو أول من بيّن السبب في حب الوطن) :

ولي منزلٌ، آليتُ أن لا أبيعَهُ * وأن لا أرى غيري له الدهرَ مالكا!
عهدتُ به شرخَ الشباب ونعمةً * كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا.
فقد ألفته النفسُ حتى كأنهُ * لها جسدٌ، إن غاب عُودِرتُ هالكا.
وحبّب أوطانَ الرجالِ إليهمُ * مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا.
إذا ذكروا أوطانَهم، ذكّرتهمُ * عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا!

ذكر شيء مما قيل في الحمّام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

أهلًا ببيتِ النارِ من منزلٍ * شيدَ لأبرارٍ وفجّارِ!
يدخلُهُ ملتمسُ لذّةً * فيدخلُ الجنةَ في النار!

وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسي :

نعمْ، أبا عامرٍ بلذّته، * وأعجبْ لأمرينِ فيه قد جُمعا!
بئرٌ له من زنادكمْ قدحتْ، * وماؤه من بنانكمْ نبعا!

وقال علي بن عطية البلنسي :

ربَّ حمّامٍ تلظّى * كتلظّي كلِّ وامقْ.
ثم أذرتْ عبراتٌ * صوبُها بالوجدِ ناطقْ.
فغدا منّي ومنه * عاشقٌ في جوفِ عاشقْ!

وقال أبو طالب المأموني، شاعر اليتيمة :

وبيتٍ كأحشاءِ المحبِّ دخلتُه * ومالي ثيابٌ فيه غيرُ إهابي.

أرى مُحْرِمًا فيه وليس بكَعْبةٍ . فَمَا ساغَ إلا فيه خَلْعُ ثيابِي .
بماءٍ كدَمْعِ الصَّبِّ فى حرِّ قَلْبِه * إذا آذنَتْ أحْشَاؤُه بذَهَابِ .
توهَّمْتُ فيه قِطْعةً من جَهَنَّم * ولكنَّها من غير مَسِّ عقابِ .
يُثِيرُ ضَبابا بالبُخَار مُجَدَّلا * بُدور زُجاج فى سَماءِ قِبَابِ !

وقال آخر :

إنَّ حَمَّامَك هـذا * غيرُ مَذْمُومِ الجوارِ .
ما رأيْنَا قَبْل هـذا * جَنَّةً فى وَسْط نارِ !

وأنشدنى جمال الدين محمد بن الحكم لنفسه :

قالوا : تَراكَ دخَلْتَ حَمَّاما ، وما * حِلْفُ الهوَى يلتذ بالأهواءِ .
فأجبْتُهم : لم تَكْفِ أدْمُعُ مُقْلتِي * حتَّى بكَيْتُ بجُملة الأعضاءِ .

تم السفر الأوّل

(نسخة ما هو مكتوب فى آخر الأصل بخط المؤلف)

نجز السِّفْر الأوّل من "كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب" على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدائم البكرى التيمى القرشى ، عرف بالنويرى عفا الله عنه ، ووافق الفراغ من كتابته فى يوم السبت المبارك لعشر بقين من ذى القعدة عام إحدى وعشرين وسبعمائة أحسن الله تقضيه ، وذلك بالقاهرة المعزية عمرها الله تعالى يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل السِّفْر الثانى "الفنّ الثانى فى الإنسان وما يتعلق به" والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه وسلم آمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فهرس

السّفر الأوّل

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

للنـــويرى

صحيفة

مقدّمة الكتاب ١

الفن الأوّل

فى السماء والآثار العلوية، والأرض، والمعالم السفلية ٢٧

القسم الأوّل

فى السماء وما فيها، وفيه خمسة أبواب

الباب الأوّل :

مبدأ خلق السماء ٢٨

ذكر ما قيل فى أسماء السماء وخلقها ٢٩

« ما حكى فى سبب حدوثها ٢٩

الباب الثانى :

فى هيئة السماء ٣٠

فى الأمثال التى ورد فيها ذكر السماء ٣٢

فى وصف السماء وتشبيهها... ... ... ٣٣

ما قيل فى الفلك... ... ... ٣٤

صحيفة

الباب الثالث :
فى ذكر الملائكة ٣٦
الباب الرابع :
فى الكواكب السبعة المتحيرة ٣٨
ذكر ما قيل فى الشمس ٤٠
« ما يتمثل به مما فيه ذكر الشمس... ... ... ٤٢
« ما جاء فى وصف الشمس وتشبيهها ٤٤
« شىء مما وصفت به على طريق الذم ٤٦
« ما قيل فى الكسوف ٤٨
« أسماء الشمس اللغوية ٤٨
« عبّاد الشمس ٤٩
« ما قيل فى القمر ٤٩
« « « (من آستهلاله الى آنقضاء الشهر وأسماء لياليه) ... ٥٠
« أسماء القمر اللغوية ٥١
« ما يتمثل به مما فيه ذكر القمر ٥٢
« ما قيل فى وصف القمر وتشبيهه ٥٣
« شىء مما قيل فيه على طريق الذم ٥٦
« عبّاد القمر ٥٧
« ما قيل فى الكواكب المتحيرة ٥٨
« عبّاد الروحانيات ٥٨
« بيوت الهياكل وأماكنها ونسبتها الى الكواكب ٦١

صحيفة

الباب الخامس :

في الكواكب الثابتة ٦٣
ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الكواكب ٦٤
« ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها ٦٥

القسم الثاني

في الآثار العلوية، وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج والبرد ٧١
ذكر ما قيل في ترتيب السحب، وأسمائه اللغوية وأصنافه ٧٢
« « في ترتيب المطر ٧٤
« « في فعل السحاب والمطر ٧٤
« أسماء أمطار الأزمنة ٧٥
« « المطر اللغوية ٧٥
« ما يتمثل به مما فيه ذكر المطر ٧٧
« شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر... ... ... ٧٨
« ما ورد في وصفها نثرا ٨٢
« شيء مما وصف به الثلج والبرد ٨٦

الباب الثاني :

في النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قزح ٨٧

صحيفة

الباب الثالث :

فى أسطقسّ الهواء ٩٥

ذكر ما قيل فى حد الهواء ٩٥

« أسماء الرياح اللغوية ٩٨

فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع ٩٩

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الهواء ٩٩

« ما جاء فى وصف الهواء وتشبيهه ١٠٠

الباب الرابع :

فى أسطقسّ النار، وأسمائها، وعبّادها، وبيوت النيران ١٠٣

ذكر أسماء النار ١٠٤

« عبّاد النار ١٠٥

بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس ١٠٧

ذكر نيران العرب ١٠٩

« النيران المجازية ١١٤

« النيران التى يضرب بها المثل ١١٥

« ما جاء منها على لفظ أفعل ١١٦

« ما قيل فى وصف النار وتشبيهها ١١٧

« شىء مما قيل فى الشمعة والشمعدان، والسراج، والقنديل... ... ١٢٠

ماورد فى وصفها نثرا ١٢٣

ما قيل فى السراج ١٢٤

رسالة القنديل والشمعدان ١٢٤

صحيفة

القسم الثالث من الفن الأول

فى الليالى والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد، وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

فى الليالى والأيام ١٣٠

ذكر ما قيل فى الليل وأقسامه ١٣١

فصل وقد عبر بالليالى عن الأيام ١٣٢

ذكر الليالى المشهورة ١٣٢

« ما يتمثل به مما فيه ذكر الليل ١٣٣

« ما قيل فى وصف الليل وتشبيهه ١٣٤

« ما وصف به الليل من الطول ١٣٥

« « « من القصر ١٤٠

« « « من الإشراق ١٤٢

« « « من الظلمة ١٤٢

« شىء مما قيل فى تباشير الصباح ١٤٣

« ما قيل فى النهار ١٤٧

« الايام التى خصت بالذكر ١٤٨

« أيام أصحاب الملل الثلاث ١٥٠

« ما يتمثل به مما فيه ذكر النهار ١٥٠

« شىء مما قيل فى وصف النهار وتشبيهه ١٥١

« « « وصفت به الآلات الموضوعة لمعرفة الأوقات ١٥٣

صحيفة

الباب الثانى :

فى الشهور والأعوام ١٥٦
ذكر الشهور وما قيل فيها ١٥٦
« الأشهر العربية وما يختص بها من القول ١٥٧
شهور اليهود ١٥٩
الشهور العجمية ١٥٩
ذكر ما يختص بالسنة من القول ١٦٤
« النسىء ومذهب العرب فيه ١٦٥
« السنين التى يضرب بها المثل ١٦٧

الباب الثالث :

فى الفصول وأزمنتها ١٦٩
ذكر ما قيل فى وصف فصل الصيف وتشبيهه نظما ونثرا ١٧١

الباب الرابع :

فى ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب اتخاذهم لها، وما قيل فى ذلك ١٨٤
ذكر الأعياد الإسلامية ١٨٤
« أعياد الفرس ١٨٥
« « النصارى القِبْط ١٩١
« « اليهود ١٩٥

صحيفة

القسم الرابع من الفن الأوّل

فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغدران، وفيه سبعة أبواب

الباب الأوّل :

فى مبدأ خلق الأرض ١٩٨

الباب الثانى :

فى تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها، فى الاتساع، والاستواء، والبعد، والغلظ، والصلابة، والسهولة، والحزونة، والارتفاع، والانخفاض، وغير ذلك ١٩٩

ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته ٢٠٢

« « « الغبار وأوصافه ٢٠٣

« « « الطين « ٢٠٣

« « « الرمال ٢٠٤

« ترتيب كمية الرمل ٢٠٥

« تفصيل أسماء الطرق وأوصافها ٢٠٦

الباب الثالث :

فى طول الأرض ومسافتها ٢٠٧

الباب الرابع :

فى الأقاليم السبعة ٢٠٩

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الأرض ٢١٣

« شىء مما قيل فى وصف الأرض وتشبيهها ٢١٤

صفحة

الباب الخامس :

في الجبال ٢١٨

ذكر أسماء ما ارتفع من الأرض الى أن يبلغ الجبل ٢٢٠

« ترتيب أبعاض الجبل ٢٢١

« « مقادير الحجارة ٢٢٣

« ما يتمثل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة ٢٢٦

« شيء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها ٢٢٧

الباب السادس :

في ذكر البحار والجزائر ٢٢٨

ذكر بحار المعمور من الأرض ٢٢٩

« ما يتفرع من البحر المحيط ٢٣١

« الخلجان التي تخرج من البحر الرومي ٢٣٥

بحر الهند وجزائره ٢٣٧

ذكر خلجان البحر الهندي ٢٤٣

بحر مانيطش ٢٤٦

بحر الخزر وجزائره ٢٤٧

ذكر ما في المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب... ٢٥٠

« ما يتمثل به مما فيه ذكر البحر ٢٥٤

« شيء مما قيل في وصف البحر وتشبيهه ٢٥٥

« « وصف به البحر والسفن ٢٥٦

« ما وصفت به البحار والسفن نثرا ٢٥٨

صحيفة

الباب السابع :

في العيون والأنهار والغدران وما وصفت به البرك ، والدواليب ،

والنواعير، والجداول ٢٦١
نهر النيل ٢٦٢
« الفرات ٢٦٦
« دجلة ٢٦٨
« سجستان ٢٦٩
« مهران ٢٧٠
« جيحون... ... ... ٢٧٠
« سيحون ٢٧١
« الكنك ٢٧٢
« الكر... ... ... ٢٧٣
« إتل ٢٧٣
ذكر ما في المعمور من الأنهار والعيون التي يتعجب منها ٢٧٤
« ما يتمثل به مما فيه ذكر الماء ٢٧٧
« شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه ٢٨١
« « « وصفت به الأنهار ٢٨٢
« « « « البرك ٢٨٥
« « « « الدواليب والنواعير ٢٨٨
« « « « « « ثرا... ... ... ٢٨٩

صحيفة
ذكر شيء مما وصفت به الجداول ٢٩٠
« عبّاد الماء ٢٩١

القسم الخامس من الفن الأوّل

فى طبائع البلاد ، وأخلاق سكانها ، وخصائصها ، والمبانى القديمة ، والمعاقل ، وما وصفت به القصور والمنازل ، وفيه خمسة أبواب

الباب الأوّل :

فى طبائع البلاد ، وأخلاق سكانها ٢٩٢

الباب الثانى :

فى خصائص البلاد ٢٩٧
مكة المشرفة ٢٩٧
ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض ٢٩٨
« بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام ومبدأ الطواف ... ٢٩٩
« زيارة الملائكة البيت الحرام ٣٠٠
ذكر هبوط آدم عليه السلام الى الأرض ، وبنيانه الكعبة المشرفة وحجه وطوافه بالبيت ٣٠١
ذكر فضل البيت الحرام ، والحرم ٣٠٤
« ما جاء فى طواف سفينة نوح عليه السلام بالبيت ٣٠٧
« « من تخير إبراهيم عليه السلام موضع البيت ٣٠٧
« حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج وحج الأنبياء بعده وطوافهم ... ٣٠٨
ذكر ماجاء من مسألة إبراهيم عليه السلام الأمن والرزق لأهل مكة والكتب التى وجد فيها تعظيم الحرم ٣١١

صحيفة

ذكر أسماء الكعبة ومكة ٣١٣
« ما جاء فى فضل الركن الأسود ٣١٤
« « « آستلام الركن الأسود، واليمانى ٣١٦
« « « الطواف بالكعبة ٣١٧
« « « زمزم ٣١٧
« « من آتساع مِنًى أيام الحج، ولِمَ سميت مِنًى ٣١٩
« « فى فضائل مقبرة مكة ٣١٩
« شىء من خصائص مكة ٣١٩
المدينة المشرّفة (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) ٣٢٠
ذكر شىء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها ٣٢٣
البيت المقدّس ، والمسجد الأقصى ٣٢٥
البدء بذكر الأرض المقدسة ٣٢٥
فضل بيت المقدس ٣٢٨
« زيارة بيت المقدس، وفضل الصلاة فيه... ... ... ٣٣٠
ما ورد فى بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه ٣٣٢
فضل السكنى فيه والإقامة والوفاة به ٣٣٢
ما ببيت المقدس من قبور الأنبياء، ومحراب داود وعين سلوان ٣٣٣
ماورد فى أن الحشر من بيت المقدس ٣٣٤
« فى فضل الصخرة والصلاة الى جانبها ٣٣٥
« فى أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس الى السماء ٣٣٦

صحيفة
ثواب الإهلال من بيت المقدس ٣٣٩
ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة ٣٣٩
اليمن وما يختص به ٣٤٠
الشام وما يختص به ٣٤٠
مسجد دمشق وما قيل فيه ٣٤٠
مصر وما يختص بها من الفضائل ٣٤٤
ذكر مَنْ وُلد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومَنْ كان بها منهم ٣٤٩
« « كان بها من الصدّيقين والصدّيقات، رضى الله عنهم ٣٤٩
« « صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام... ... ... ٣٥٠
« « أظهرته مصر من الحكماء ٣٥٠
ومن فضائل مصر ٣٥٤
ما وصفت به مصر ٣٥٧
جزيرة الأندلس ٣٥٨
البصرة وما آختصت به ٣٥٩
بغداد وما آختصت به ٣٦٠
الأهواز وما آختصت به ٣٦١
فارس وما آختصت به ٣٦١
أصفهان وما آختصت به ٣٦٢
جرجان وما آختصت به ٣٦٢
نيسابور وما آختصت به ٣٦٣

صحيفة

طوس وما آختصت به ٣٦٤
بلخ وما آختصت به... ... ... ٣٦٤
بست وما آختصت به ٣٦٥
غزنة وما آختصت به ٣٦٥
سجستان وما آختصت به ٣٦٦
الهند وما آختصت به ٣٦٦
الصين وما آختص به ٣٦٦
سمرقند وما آختصت به ٣٦٧
بلاد الترك وما آختصت به ٣٦٧
خوارزم وما آختصت به ٣٦٨
ذكر الخصائص التى تجرى مجرى الطِّلَّسمات ٣٦٨
ذكر خصائص البلاد فى أشياء مختلفة (وهى العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والفرش، والمراكب، والحيوانات ذوات السموم، والحلوى، والثمار، والرياحين، والخلق، والأخلاق، والأمراض والآثار العلوية) ٣٦٩

الباب الثالث :

فى المبانى القديمة ٣٧٢
ذكر أول بناء وضع على وجه الأرض ٣٧٢
« خبر إرم ذات العماد ٣٧٣
« خبر سدّ يأجوج ومأجوج ٣٧٤

صحيفة
ذكر مبانى الفرس المشهورة ٣٧٩
من مبانى الفرس إيوان كسرى ٣٨٠
« المبانى القديمة الحَضْر ٣٨١
« « « القَلِيس ٣٨٢
« « المشهورة قنطرة صنجة ٣٨٣
« « القديمة مَلْعبا بعلبك ٣٨٣
ذكر مبانى العرب المشهورة ٣٨٤
غمدان ٣٨٤
حصن تيماء ٣٨٥
الخورنق والسدير ٣٨٥
الغَرِيان ٣٨٧
ذكر الأبنية القديمة التى بالديار المصرية ٣٨٧
الأهرام ٣٨٨
حائط العجوز ٣٩٢
ملعب أنْصِنا ٣٩٣
مدينة عين شمس ٣٩٣
البرابى ٣٩٤
حنية اللازورد ٣٩٥
منارة الاسكندرية ٣٩٥

صفحة

رواق الإسكندرانيين ٣٩٨

ذكر شيء من عجائب المبانى ٣٩٨

الباب الرابع :

فيما وصفت به المعاقل والحصون ٤٠١

الباب الخامس :

فيما وصفت به القصور والمنازل ٤٠٦

ما وصفت به المنازل الخالية ٤١٢

ذكر شيء مما قيل فى حب الأوطان ٤١٥

« « « « فى الحمام ٤١٥

نسخة ما هو مكتوب فى آخر الأصل بخط المؤلف ٤١٦

تمّ فهرس السفر الأوّل

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الفن الثانى

فى الإنسان وما يتعلق به

وهذا الفن قد اشتمل على معانٍ مؤنسة للسامع، مشنِّفة للمسامع؛ مرصِّعة لصدور الطروس والدفاتر، جاذبةٍ لنوافر القلوب والخواطر؛ واضحةِ البيان، معربة عن وصف الإنسان.

فمن تشبيهاتٍ فائقه، وغَزَلِيَّات رائقه؛ وأنسابٍ طاهره، ووقائعَ ظاهره؛ وأمثالٍ امتدّت أطنابها، وتبينَتْ أسبابُها؛ وأوابِدَ جعلتها العرب لها عادةً ودليلا، واتخذتها ضَلَالة وتبديلا؛ ونصبتها أحكاما ونُسُكا، وصيرتها عبادة ومُدَاواة فتبوّأت بها من النار دَرَكا؛ وشيءٍ من أخبار الكُهَّان، وزَجْرِ عَبَدة الأوثان؛ وكاياتٍ نَقَلت الألفاظ إلى معانٍ أبهى من معانيها، وبلَغَت النفوسُ بعُذُوبتها غاية أمانيها؛ وألغازٍ غوّرَتْ بالمعانى وأنْجدَتْ، وأشارتْ إليها بالتأويل حتَّى إذا قربتها من الأفهام أبعدَتْ؛ ومدائحَ رفعتْ للممدوح من الفضل مَنَارا، وأهاجِىَ صيَّرت المهجُوَّ من القوم يتوارى؛ ومُجُون ترتاح إليها عند خلوتها النفوس، ويبتسم عند سماعها ذو الوجهِ العَبُوس؛ وشيءٍ مما قيل فى الخمر والمُعاقَره، وأربابِ الطَّرب وذوِى المسامره؛ وتَهَانٍ نَشَرتْ من البشائر مُلَاء، ورفعتْ من المَحَامد لِوَاء؛ وتَعازٍ حسرَتْ نِقاب الحَسَرات، وأبرزتْ مَصُون العَبَرات.

وأورد

ت فيه نبذةً من الزهد والإنابه، وجملةً من الدعوات المستجابه .

وطرزتُه بذكر ملك، مدّ رِواق العدل، ونشر لواء الفضل؛ وقام بفُروض الجهاد وسُنَنه، وأراع العدوّ فى حالتى يقظته ووَسَنه؛ وعم الأولياء بمواصلة بِرّه وموالاة نَواله، وقهر الأعداء بمراسلة سِهامه ومناضلة نِصاله؛ وشَمِل رعاياه بعدله وجُوده، واردف سَراياه بجيوشه وجُنُوده، فهو الملك الذى جَمَع بين شِدّة البأس، ولين النّدى، وأزال مَرارة الإياس، بحلاوة العطا .

وما يحتاج إليه لإقامة المملكة : من نائبٍ ناهيك به من نائب ! ، يكُفّ بعزمه كَفّ الحوادث ويفُلّ بحَزْمه ناب النوائب؛ ويُنْصِف الضعيف من القوىّ، ويفرّق ببديهته بين المُريب والبرىّ؛ ويتفقد أحوال الجيوش ويصْرِف همته إليهم، ويجعل اهتمامه بهم وفكرتَه فيهم وتعويلَه عليهم؛ إلى غير ذلك من استكمال عَدَدها، والمطالبة بعَرْض خيولها وإصلاح عُدَدها؛ وسَدّ ثغور الممالك، وضبط الطرق وتسهيل المسالك؛ وقَمْع المفسدين، وإرغام المُلْحِدين؛ وبث السَّرايا، وتيسير الأرزاق والعطايا .

ووزيرٍ يشيّد قواعد ملكه بحسن تدبيره وجميل سَدَاده، ويُعْمِل فكره فيما يستقرّ بسببه نِظامُ الملك على مِهاده؛ ويأمر بتحصيل الأموال من جهات حِلّها، ويقرّ مناصب الدولة الشريفة فى الكُفَاة من أهلها؛ ويتصفّح الأقاليم والمعاملاتِ والأعمال، ويستكفِى لمباشرتها أمناءَ النظّار ومحقّق المستوفين وكُفَاةَ العمال .

وقائد جيوش إن انتدبه لقاء عدوّ بَدْر الكتائب، وأنهل من دمائهم السُّمْر العوالى وعلا هامهم بالبيض القواضب؛ تتبعه عساكر تَنْفِرُ قلوبهم عن الفِرار، ويُحِلّوا مَنْ قاتلهم من أعداء الله دارَ البَوار؛ يَدْرِعون السابِرِيّة[1] الذوائل، ويعتقلون السَّمْهرية الذّوابل؛

(١) هى دروع دقيقة النسج فى إحكام، والذوائل جمع ذائلة وهى الطويلة " قاموس " .

ويتقلدون المَشْرَفية البواتر، ويتنكّبون القِسِيّ النواتر[1]، ويمتطون من كل جواد صَفَا منه أديمُه وعيناه وحوافره، وآتسع منه جوفُه وجبهته ومَنَاخِره، وطال منه أنفه وعنقه وذراعه، وقَصُر منه ظهره وساقه وعَسِيبه وآمتدّ عند الحُضْر باعه: فهو من أكرم الأصائل، والمعنيّ بقول القائل:

٥ وَقَدْ أغْتدِى قَبْلَ ضَوْءِ الصَّباحِ * ووِرْدِ القَطَا فى الغُطَاطِ الحثَاث.

بصافِي الثَّلاث عريضِ الثلاث * قصيرِ الثلاث طويلِ الثَّلاث.

وذكرتُ ماورد فى فضل الرباط والجهاد، وما أعدّ اللهُ تعالى من الثواب لمن أنفق فيه الطَّوارف والتِّلاد، وبذل الكريمين: (النفسَ والمال) لحسن المآل، وهجر الحبيبين: (الوطنَ والعيال) لبلوغ الآمال.

١٠ ومِن قاضٍ يحكُم بين الناس بالعدل، ويقدّم ذوى النباهة والفضل.

ومتولّى مظالمَ يردّها على أهلها بقهره وسلطانه، وسطوته وأعوانه.

وناظرِ حِسْبة يُجرِى الأمور على قواعدها الشرعية، وأوضاعها العُرفية وقوانينها المَرْضية.

إلى غير ذلك:

١٥ من كاتب، ذى رأى صائب، وفهم ثاقب، آنقادت له المعانى بأسهل زمام، وأغنت صحائفه عن صفَحَات الحُسَام:

لَوْ لاحظَتْ عينُ آبن أوْسٍ كُتْبَهُ * ماقال: "إن السيف منها أصْدقُ".

(١) فى القاموس "قوس ناترة تقطع وترها لصلابتها".

وكاتبِ خراج ضَبَط بقلمه الأموال، وحرّر بنَبَاهتــه الغِلال؛ وبسط الموازين، ووضع القوانين؛ وفصل بين الخراجىّ والهلالى، وميز ما بين الأعمــال والتوالى .

وما لا بدّ للملك منه من خواصّ جُبلتْ على محبته قلوبُهم، وتجافت عن المضاجع فى خدمته جُنُوبُهم .

ومن معقِلٍ شَمخ على الجوزاء بأنفه ، وآتخذ الثريّا وِشاحا لِعطْفه؛ تَوَارى فى قَرار التخوم أساسُــه ، ولاح للسارى ككوكب الظلماء مِقْباسُــه . فالأرض تدّعيه : لأنه ثبتَ على مناكبها، والسماء تنازعها فيه : لأنه تمَنْطَق بكواكبها؛ والجبال تقول منى آتُّخِذت أحجارُه، والمياه تقول علىّ آستقرّ قرارُه؛ وجفن السحاب يَهْمَع لآنحطاطه عن هذه الرتبة، والطير تقول إن لم أبلغه فقد آتّحَدَ به مَنْ بينى وبينه نِسْبَه .

وضمّنتُ هــذا الفن من المنقول ما يسهُل تعاطيه على الأفهام، ووضعتُه على خمسة أقســام .

القســـم الأوّل

فى آشـــتقاقه، وتسميته، وتنقلاته، وطبائعه، ووصفه، وتشبيهه والغَزَل، والنَّسيب، والهوى، والمحبة، والعشق، والأسباب

وفيــه أربعـــة أبواب

البــاب الأوّل

من القسم الأوّل من الفن الثــانى

(فى آشتقاقه، وتسميته، وتنقلاته، وطبائعه، وما يتصل بذلك)

فأما آشتقاقه وتسميته، فقد آختلف الناس فى ذلك: هل هو من الأنْس الذى هو نقيض الوحشة، أو النَّوْس الذى هو نقيض السكون، أوالإيناس الذى هو بمعنى الإبصار، أو النِّسيان الذى هو نقيض الذِّكْر.

قال الشريف السيد ضياء الدّين أبو السعادات هبــة الله المعروف بابن الشجرى فى "أماليه" (فى المجلس التاسع عشر وهو يوم السبت سابعَ عشرَ رجب سنة أربع وعشرين وخمسمائة) فى شرح قول أعشى تَغْلِب:

وكانُوا أُناسًا يَنْفَحُون فأصبَحُوا، * وأكثَرُ مايُعْطُونَك النظَرُ الشَّزْرُ.

قوله: "وكانوا أناسا ينفَحون" وزن أناس فُعال، وناس منقوص منه عند أكثر النحويين: فوزنه عالٌ. والنقص والإتمام فيه متساويان فى كثرة الآستعمال ما دام منكورا. فإذا دخلت عليه الألف واللام، آلتزموا فيه الحذفَ، فقالوا "النــاس" ولا يكادون يقولون "الأُناس" إلا فى الشعر. كقوله:

إنَّ المَنَــايَا يَطَّلِعْــنَ على الأُنَاسِ الآمنينَا.

وحجة هـذا المذهب وقوع الأُنس على الناس . فاشتقاقه من الأُنس نقيض الوحشة : لأن بعضهم يأنس إلى بعض . [وبه[1] أخذ بعض الشعراء فى قوله :

وما سُمِّىَ الإنسانُ إلا لأُنْسِه * ولا القلبُ إلا أنه يتقلَّبُ] .

قال : وذهب الكسائىّ إلى أن "الناس" لغة مفردة، وهو آسم تامّ وألفه منقلبة عن واو، وآستدلَّ بقول العرب فى تحقيره نُوَيْس . ٥

قال : ولو كان منقوصا من أناس لردّه التحقير إلى أصله ، فقيل "أُنَيْس" .

وقال بعضُ مَنْ وافق الكسائىّ فى هذا القول : إنه مأخوذ من النَّوس، مصدر ناس يَنُوس إذا تحرّك . ومنه قيـل لملِك من ملوك حمير ذو نُوَاس : لضفيرتين كانتا تَنُوسان على عاتقه .

قال الفرّاء : والمذهب الأوّل أشبه، وهو مذهب المشيخة . ١٠

وقال أبو علىّ الفارسىّ : أصـل الناس الأناس . فحذفت الهمزة التى هى فاء ويدلك على ذلك الإنْسُ والأَنَاسِىّ . فأما قولهم فى تحقيره نُوَيس فإن الألف لما صارت ثانية وهى زائدة أشبهت ألف فاعل . يعنى أنها أشبهت بكونها ثانية وهى زائدة أَلِفَ "ضارِب" فقيل نويس، كما قيل ضويرب .

وقال سَلَمَة بن عاصم، وكان من أصحاب الفراء : الأشبه فى القياس أن يكون كلُّ واحد منهما أصـلا بنفسه فأناس من الأنس ، وناس من النوس لقولهم فى تحقـيره نويس كبويب فى تحقير باب . ١٥

هذا ما قاله آبن الشجرىّ فى أماليه .

(١) لم نجد هذه الزيادة فى أمالى آبن الشجرى الموجود منها نسخة مخطوطة "بدار الكتب المصرية" .

وذهب أبو عمرو الشَّيبانىّ : أنه مشتق من الإيناس، الذى هو بمعنى الإبصار؛ وحجته قوله تعالى : "إنِّى آنَسْتُ نارًا" أى أبصرت نارا .

وذهب الكوفيون إلى أنه مشتق من النِّسْيان، وحجتهم أن أصله إنسِيَان. فحذفت الياء تخفيفا وفتحت السين لأن الألف تطلب فتح ماقبلها. ولأن العرب حين صغرته قالت فيه أُنَيْسِيان، فزادت الياء . والتصغير يردّ الأشـياء إلى أصولها، ولو لم تكن فى المكبر لمـا رُدَّت فى المصغَّر . و به أخذ أبو تمـام فى قوله :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنمـا * سُمِّيتَ إنسـانًا لأنك ناسِى .

وأنكر البصريون ذلك، وقالوا : لا حجة فيه، لأن العرب قد صغرت أشياء على غير قياس كما قالوا فى تصغير رجل بمعنى راجل رُوَيْجل ، وفى تصغير ليـلة لُيَيْلَة . وفى تصغير عَشِيّة عُشَيْشة .

وقال ابن عباس : إنما سمى الإنسان إنسانا لأنه عُهِد إليه فَنسِى .

وهذا هو الأرجح والله تعالى أعلم .

فصـــل

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد فى كتابه يرفعه إلى وهب بن منبِّه إنه قال : قرأت فى " التوراة " أن الله عز وجل حين خلق آدم ركَّب جسده من أربعة أشياء؛ ثم جعلها وِرَاثة فى ولده، تنمى فى أجسادهم ويمون عليها إلى يوم القيامة . رَطْب، ويابس، وسُخْن، وبارد . قال : وذلك أن الله سـبحانه وتعالى خلقه من تراب وماء، وجعل فيه يُبْسا ورطوبة، فيبوسة كل جسد من قِبَل التراب، ورطوبته

من قِبَل الماء، وحرارتُه من قِبَل النفس، وبرودته من قِبَل الروح . ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأوّل أربعةَ أنواع أُخَر وهى مِلَاك الجسد وقِوَامه، لا يقوم الجسد إلا بهنّ، ولا تقوم واحدة منهنّ إلا بالأخرى : المِرّة السوداء، والمِرّة الصفراء، والدم الرطب الحارّ، والبلغم البارد . ثم أسكن بعضَ هـذا الخلق فى بعض، فجعل مَسْكن اليبوسة فى المِرّة السوداء، ومسكن الرطوبة فى الدّم، ومسكن البرودة فى البلغم، ومسكن الحرارة فى المِرّة الصفراء. فأيما جسدٍ آعتدلت فيه هـذه الفطَر الأربع وكانت كلُّ واحدة فيه وفقا لا تزيد ولا تنقص، كملت صحته وآعتدل بناؤه. فإن زادت واحدة منهنّ عليهنّ وقهَرتْهنّ ومالت بهنّ، دخل على أخواتها السُّقْم من ناحيتها بقدر ما زادت ؛ وإن كانت ناقصة عنهنّ، مِلْن بها وعلونها وأدخلن عليها السُّقْم من نواحيهنّ، لغلبتهنّ عليها حتّى تضعُف عن طاقتهنّ وتعجزَ عن مقاومتهنّ .

قال وهب : وجعل عقله فى دماغه، وشَرَهه فى كُلْيتيه، وغضبه فى كبده، وصَرَامته فى قلبه، ورغبته فى رئته، وضحكه فى طحاله، وحزنه وفرحه فى وجهه. وجعل فيه ثلثمائة وستين مَفْصِلا .

ويقال : إنما لُقِّب الإنسان بالعالم الصغير، لأنهم مَثَّلُوا رأسه بالفلك، ووجهه بالشمس إذ لا قِوام للعالَم إلا بها كما لا قوام للجسد إلا بالرُّوح، وعقلَه بالقمر لأنه يزيد وينقص ويذهب ويعود، ومثلوا حواسَّه الخمسَ ببقية الكواكب السيَّارة، وآراءه بالنجوم الثابتة، ودمعه بالمطر، وصوته بالرعد، وضحكه بالبرق، وظهره بالبرّ، وبطنه بالبحر، ولحمه بالأرض، وعظامه بالجبال، وشعره بالنبات، وأعضاءه بالأقاليم، وعروقه بالأنهار، ومغار عروقه بالعيون .

ومنها : أن فيه مايشاكل الجمعة، والشهر، والأيام، والسنة .

أما أيام الجمعة، فإن بدنه سبعة أجزاء، وهي اللحم، والعظام، والعروق، والأعصاب، والدَّمُ، والجلد، والشعر .

وأما الشهور، فإن لبدنه آثنى عشر جزءا مدبرةً : ستة منها باطنة؛ وهي الدماغ، والقلب، والكَبِد، والطِّحال، والمعدة، والكُلْيتان؛ وستة ظاهرة، وهي العقل، والحواسُّ الخمس؛ فهذه الآثنا عشر مقابلة لشهور السنة .

وأما الأيام، فإن فيه ثلثمائة وستين عظما؛ منها ما هو لِبِنْية الجسد مائتان وثمانية وأربعون عظما . والإنسان ينقسم إلى أربعة أنواع : الرأسُ، واليدان، والبدن، والرِّجلان؛ ففي الرأس آثنان وأربعون عظما؛ وفي اليدين آثنان وثمانون عظما؛ وفي البدن أربعون عظما؛ وفي الرجلين أربعة وثمانون عظما؛ والباقي سُمْسُمانية لسدّ الفروج التي تكون بين العظام . وفيه ثلثمائة وستون عِرْقا .

وأما فصول السنة : فإن فيه أربعة أخلاط طبْعُها طبعُ الفصول الأربعة، فالدّم كالربيع في حرارته ورطوبته، والمِرّة الصفراء كالصيف في حرّه ويبسه، والمرّة السوداء كالخَرِيف في برده ويبسه، والبلغم كالشتاء في برده ورطوبته . وهذه الأخلاط من أوّل مزاج الأركان التي هي العناصر الأربعة، وهي : النار، والهواء، والماء، والأرض .

فصـــل

وأما ترتيب أحواله وتنقل السنّ به إلى أن يتناهى :

[قال الله تبارك وتعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ .(١)

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

وفى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يكون عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يبعثُ اللهُ تعالى مَلَكًا فيؤمَرُ بأربع : برزقه وأجله وشقىّ أو سعيد" ، الحديث .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وكَّلَ اللهُ بالرحم مَلَكا : فيقولُ أىْ رب نطفةٌ ! أى ربِّ علَقةٌ ! أى ربِّ مضغةٌ ! فإذا أراد اللهُ أن يقضِىَ خَلْقَها قال : أىْ ربِّ ذكرٌ

(١) هذه الزيادة المحصورة بين قوسين مربعين منقولة كما هى عن إحدى النسخ .

أم أنثى ؟ أشقيّ أم سعيد؟ فما الرزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيُكتَبُ كذلك في بطن أمّه" .

خرّج ذلك البخاريّ في "صحيحه" في باب القَدَر .

وقال الثعلبيّ في تفسير قوله تعالى ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ :

" قالت الحكماء : يشتمل الإنسانُ من كونه نطفة إلى أن يهرَمَ ويموت على سبعة وثلاثين حالا[1] ، وسبعة وثلاثين اسما[1] : نُطفة ، ثم عَلَقة ، ثم مُضْغة ، ثم عَظْما ، ثم خَلْقا آخر ، ثم جَنِينا ، ثم وَلِيدًا ، ثم رَضِيعا ، ثم فَطِيما ، ثم يافِعًا ، ثم ناشِئًا ، ثم مُتَرَعْرِعا ، ثم حَزَوَّرا ، ثم مُرَاهِقا ، ثم مُحْتَلِما ، ثم بالِغًا ، ثم أمْرَدَ ، ثم طارًّا ، ثم باقِلًا ، ثم مُسَيْطِرا ، ثم مُصْرِخا ، ثم مُخْتَطًّا ، ثم صُمُلًّا ، ثم مُلْحِيا ، ثم مستريما ، ثم مصعدا ، ثم مُجْتَمِعا .

وقال غيره] :

مادام الولد في الرَّحِم ، فهو جَنِين ، فإذا وُلِد ، فهو وَلِيد ، وما دام لم يَسْتَتِمّ سبعةَ أيام ، فهو صَدِيغ : لأنه لم يشتدّ صُدْغُه إلى تمام السبعة ، ثم مادام يَرْضَع ، فهو رَضِيع ، فإذا قُطِع عنه اللبن ، فهو فَطِيم . ثم إذا غَلُظ وذهبت عنه تَرارة الرَّضاعة ، فهو جَحْوَش .

قال الهذليّ :

قَتَلْنَا مَخْلَدًا وَٱبْنَيْ خُرَاق * وآخَرَ جَحْوَشًا فوقَ الفَطِيم .

ثم إذا دَبَّ ونما ، فهو دارِج .

فإذا بلغ طُولُه خمسةَ أشبار ، فهو خُمَاسيّ .

فإذا سقطت رواضعُه ، فهو مَثْغُور .

فإذا نبتت أسنانه بعد السُّقُوط ، فهو مُثْغِر ومتَّغِر معا .

(١) البيانات التالية بعدد سبعة وعشرون فلعلها محرفة عنها .

فإذا تجاوز عشر سنين أو جاوزَها[1]، فهو مترعْرِع وناشئ .

فإذا كاد أن يبلُغَ الحُلُمَ أو بلغه، فهو يافِعٌ ومراهِق .

فإذا آحتلم وآجتمعَتْ قوّتُه، فهو حَزَوَّر، وآسمه فى جميع هذه الأحوال التى تقدّم ذكرها غُلَام .

فإذا آخضرّ شاربه وأخذ عِذارُه يَسِيل، قيل فيه قد بَقَل وجهُه . ٥

فإذا صار ذا فَتَاءٍ، فهو فتًى وشارخ .

فإذا آجتمعت لحيته وبلغ غايةَ شبابه، فهو مجتمِع .

ثم مادام بين الثلاثين والأربعين، فهو شابٌّ، ثم هو كَهْل إلى أن يستوفِيَ الستين .

فصـــل

فى ظهـــور الشيب وعمومه ١٠

يقال للرجل أوّلَ مايظهر به الشيبُ، قد وَخَطَه الشيب .

فإذا زاد، قيل خَصَّفه وخَوَّصه .

فإذا ابيضّ بعضُ رأسه، قيل قد أخْلَس رأسُه، فهو مُخْلِس .

فإذا غلب بياضُه سوادَه، فهو أغْثَمُ .

فإذا شَمِطت مواضعُ من لحيته، قيل وخَزَه القَتِير ولَهَزه . ١٥

فإذا كثر فيه الشيبُ وآنتشر، قيل فيه قد تقشّع[2] فيه الشيبُ .

(١) وردت هذه الجملة هكذا بالأصل . وفى فقه الثعالبى (فاذا كاد يجاوز العشر السنين، أو جاوزها فهو مترعرع وناشئ) وهو الصواب .

(٢) كذا بالأصل وفقه اللغة وهو محرف عن "تَفَشَّغ" قال فى القاموس (وتفَشَّغ فيه الشيب أو الدم: آنتشر وكثر) . ٢٠

ويقال أيضا : شابَ الرجل، ثم شَمِط، ثم شاخَ، ثم كَبِر، ثم توجَّه، ثم دَلَف، ثم دَبَّ، ثم حَجَّ، ثم هَدَج، ثم تَلَّب، ثم الموت .

وقيل : ما السرور؟ قال : إدراك الحقيقه، وآستنباط الدَّقيقه .

✦
✦ ✦

وأما النفس الغضبية، فهمُّ صاحبها منافَسَة الأكْفاء ومغالبة الأقْران ومكاثرة العشيرة .

ومن ذلك ما أجاب به حصين بن المنذر، وقد قيل له : ما السُّرور؟ قال: لواءٌ منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليكَ أيها الأمير .

وقيل للحسن بن سهل : ما السرور؟ قال : توقيعٌ جائز، وأمرٌ نافذ .

وقيل لعبد الله بن الأهتم : ما السرو ؟ قال : رفْع الأولياء، ووَضْع الأعداء، وطول البقاء، مع الصحَّة والنماء .

وقيل لزياد : ما السرور؟ قال: من طال عُمُره، ورأى في عدوّه ما يسُرُّه .

وقيل لأبي مسلم، صاحب الدعوة : ما السُّرور ؟ قال : ركوب الهَمَالجة، وقتل الجبابرة . وقيل له : ما اللذة ؟ قال : إقبال الزمان، وعِزُّ السلطان .

✦
✦ ✦

وأما النفس البهيمية، فهمُّ صاحبها طلبُ الراحة. وآنهماك النفْس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح .

وعلى هذه الطبيعة البهيمية قسمت الفُرْسُ دهرها كلَّه، فقالوا :

يوم المَطَر للشرب ، ويوم الريح للنوم ، ويوم الدَّجْن للصيد ، ويوم الصَّحْو للجلوس .

قيل : ولما بلغ ابن خالويه ما قسمته الفرس من أيامها قال : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم ! ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

ولكنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم جزَّأ نهارَه ثلاثةَ أجزاء : جزءا لله ، وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزَّأ جزأه بينه وبين الناس ، فكان يستعين بالخاصة على العامة ، ويقول : "أبلِغُوا حاجةَ مَنْ لا يَسْتطِيعُ إبلاغي . فإنه مَنْ أبلغ حاجةَ مَنْ لا يستطيع ، آمنه الله يوم الفَزَع الأكبر" .

قالوا : والطبيعة البهيمية هي أغلبُ الطبائع على الإنسان : لأخذها بمجامع هواه ، وإيثار الراحة وقلة العمل .

ومن ذلك قولهم : الرأى نائم ، والهوى يقظانُ ، وقولهم : الهوى إلهٌ معبودٌ .

ومن ذلك ما أجاب به امرؤ القيس ، وقد قيل له : ما السرور ؟ فقال : بيضاء رُعْبُوبه ، بالطيب مَشْبوبه ، باللحم مَكْروبه . "وكان مفتونا بالنساء" .

وقيل لأعشى بكر : ما السرور ؟ قال : صَهْباءُ صافيه ، تمزُجُها ساقيه ، من صَوْب غاديه . "وكان مغرما بالشراب" .

وقيل لطَرَفة بن العبد : ما السرور ؟ قال مَطْعَم هَنِيّ ، ومَشْرَب رَوِيّ ، ومَلْبَس دَفِيّ ، ومَرْكَب وَطِيّ . "وكان يؤثر الخفض والدَّعة" . وهو القائل :

فلولا ثَلاثٌ هنّ من عِيشةِ الفتى ، * وعَيْشك ! لم أحْفِلْ متى قام عُوَّدى .
فمنهنّ سبق العاذلات بشَرْبة * كُمَيت متى ما تُعلَ بالماء تزبد .

وكَرِّى إذا نادى المُضافُ مُحَنَّبا * كسيدِ الغَضَا نبهتَه المتوردِ.
وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِب، * ببَهْكَنةٍ تحت الخِباء المُعَمَّدِ.

وسمع هذه الأبياتَ عمر بن عبد العزيز فقال : وأنا لولا ثلاث لم أحفل متى قام عُوَّدى : لولا أن أعدِل فى الرعيه، وأقسِم بالسويّه، وأنفِرَ فى السَّريّه .

٥ وقال عبد الله بن نَهِيك، عفا الله تعالى عنه :

فلولا ثلاثٌ هنّ من عِيشة الفتى، * وعَيْشك، لم أحْفِل متى قام رامسُ.
فمنهن سَبْقُ العاذلات بشربة * كأنَّ أُخاها مطلعَ الشمس ناعِسُ.
ومنهنّ تجريدُ الكَواعب كالدُّمى * إذا ابتُزَّ عن أكفالهنّ الملابِسُ.
ومنهن تقريط الجَوَاد عِنانَه * إذا ابتدر الشخصَ الخفىَّ الفوارسُ.

١٠ وقيل ليزيد بن مزيد : ما السرور ؟ فقال : قُبْلة على غفلة .

وقيل لحُرقَة بنت النعمان : ما كانت لذةُ أبيك ؟ قالت : شربُ الحِرْيال، ومحادثة الرجال .

وقيل للحسن بن هانئ : ما السرور ؟ فقال : مجالسة الفِتْيان، فى بيوت القِيان، ومنادمة الإخوان، على قُضُب الرَّيْحان، ثم أنشد :

١٥ قلتُ بالقُفْص لموسى، * ونَدَامَاىَ نِيَامُ:
يا رضيعى ثدى أمٍّ * ليس لى عنه فِطَامُ!
إنما العَيْشُ سَمَاعٌ * ومُدَام ونِدامُ.
فإذا فَاتَك هذا، * فعلى الدنيا السلامُ!

... ...

الباب الثانى

من القسم الأوّل من الفن الثانى

(فى وصف أعضاء الإنسان وتشبيهها)

وما وصف به طِيب الريق والنَّكهة، وحسن الحديث، والنَّغمة، واعتدال القدود، ووصف مشْى النساء. وهو مرتب على ترتيب بِنْية الإنسان فى المذكر والمؤنث .

فأما الشَّعر وما قيل فيه، قال الثعالبىّ عن أئمة اللغة :

العَقِيقة ، الشعر الذى يولَد به الإنسان .

الفَرْوة ، شعر معظم الرأس .

الناصِيَة ، شعر مقدّم الرأس .

الذُّؤابة ، شعر مؤخّر الرأس .

الفَرْع، شعر رأس المرأة .

الغَدِيرة، شعر ذُؤابتها .

الغَفَر، شعر ساقها .

الدَّبَب ، شعر وجهها .

الوَفْرة ، ما بلغ شحمَة الأذن من الشعر .

اللِّمّة، ما ألَمّ بالمَنْكِب منه .

الطُّرّة، ما غشّى الجَبهة منه .

الجُمّة والغَفْرة، ما غطّى الرأس منه .

الهُدْب، شعر أشفار العين .

الشارب، شعر الشَّفَة العليا .

العَنْفَقَة، شعر الشفة السُّفلى .

المَسْرَبة، شعر الصدر. وفى الحديث أنه كان عليه الصلاة والسلام دقيق المَسْرَبة .

٥ الشَّعْرة، العانة .

الإسْب، شعر الأست .

الزَّبَب، شعر بدن الرجل . ويقال بل هو كثرة الشعر فى الاذنين .

فصل
فى تفصيل أوصافه

١٠ يقال : شعر جُفَال، إذا كان كثيرا .

ووَحْفٌ، إذا كان متصلا .

وكَثٌّ، إذا كان كثيرا كثيفا مجتمعا .

ومُعَلْنِكس، ومُعَلْنِكك، إذا زادت كثافته .

ومُنْسدِر، إذا كان منبسطا .

١٥ وسَبِط، إذا كان مسترسلا .

ورَجِل، إذا كان غير جَعْد ولا سبط .

وقَطَطٌ، إذا كان شديد الجُعُودة .

ومُقْلَعِطٌّ، إذا زاد على القَطَط .

ومُفَلْفَل، إذا كان نهايةً فى الجُعُودة كشعر الزِّنج .

وسُخَام، إذا كان حسنا لَيِّنا .

ومُغْدَوْدِن، إذا كان طويلا ناعما .

وقال الأصمعىّ : من لم يَخِفَّ شعره قبل الثلاثين لم يَصْلَع أبدا، ومن لم يحمل اللحم قبل الثلاثين لم يحمله أبدا .

٥

* * *

ومما وُصف به الشَّعَرُ، قال نصر بن أحمد، عفا الله تعالى عنه :

سَلْسَل الشَّعْر فوقَ وجهٍ، فحاكى * ظُلْمَةَ الليل فوقَ ضَوْء الصَّباح .

وقال ابن الرومىّ :

وفاحمٍ واردٍ يُقَبِّلُ مَمْشاه إذا اختالَ مُرْسِلا غُدُرَهْ .

أقْبَلَ كاللَّيْل من مَفَارِقه * منحدرًا لا يَذُمُّ منحَدَرَهْ .

١٠

حتَّى تناهى إلى مَوَاطِنِه * يَلْثِمُ من كلِّ مَوْطِئٍ عَفَرَهْ .

كأنَّهُ عاشِقٌ دَنَا شَغَفًا * حتَّى قضى من حَبِيبه وَطَرَهْ .

وقال فتح الدين بن عبد الظاهر :

حَلَّ ثلاثًا يوم حَمَّامِه * ذوائبًا يَعْبَقُ منها الغَوالْ .

فقلتُ، والقَصْدُ ذُؤاباتُه : * ياسَهَرِى فى ذى اللَّيالِ الطِّوالْ !

١٥

وقال آخر :

قد عُلِّقَ القلب بدَبُّوقةٍ * وجُنَّ منها فهو مَفْتونُ

واعَجَبًا للعِشْق فى حُكْمِه * بشَعْرِه قُبِّحَ مجنونُ .

وقال آخر:

رأيتُ على قَــدِّ الحَبيبِ ذُؤابةً * فعَيْنِي على تلك الذُّؤابة تَهْمَعُ.
يقول لِيَ الواشُونَ: مالك باكِيًا؟ * فقلت: بعيني شَعْرةٌ فهي تَدْمَعُ.

وقال آخر:

٥ وشَــعْرةٍ عاينَهَا ناظِرى * على قَوَامٍ مائِسِ الخَطْرَهْ.
فسالَ دَمْعا وهَمى جَفْنُهُ، * والدَّمْعُ لاشَكَّ من الشَّعْرَهْ.

وقال آخر:

ولَرُبَّ مَمْشُوقِ القَوَامِ تَضُــمُّه * ممشوقةٌ، فتعانقَـا غُصْنَيْنِ.
أرْخَتْ ذوائبَها وأسبلَ شَعْرَه، * فتقابَلا قمرَيْـن فى لَيْلَيْنِ!

١٠

* * *

ومما وُصِفت به شعورُ النساء؛ قال بكر بن النطَّاح:

بَيْضاءُ تَسْحَبُ من قِيامٍ فَرْعَها * وتَغِيبُ فيه فهو جَثْلٌ أسْحَمُ.
فكأنَّهـا فيـه نهـارٌ ساطِـعٌ، * وكأنَّه لَيْــلٌ عليهـا مُظْلِمُ.

وقال آخر:

(٨)

١٥ نشرَتْ عَلَىَّ ذوائبًا من شَعْرِها * حذَرَ الكَواشِحِ والعَدُوِّ المُحْنَقِ.
فكأنَّنِي وكأنَّهـا وكأنَّهُ * صُبْحانِ باتا تحت ليلٍ مُطْبِقِ.

وقال عمرُ بن أبى ربيعة:

سَبَتْهُ بوَحْفٍ فى العَقاص كأنَّهُ * عَناقِيدُ، دَلَّاها من الكَرْمِ قاطِفُ.
أَسِيلاتُ أبدانٍ، دقاقٌ خُصُورُها، * وَثِيراتُ ما التَفَّتْ عليه المَلَاحِفُ.

وقال المتنبي :

وَمَنْ كُلَّمَا جَرَّدْتُها من ثِيابِها ، * كَسَاها ثِياباً غيرَها الشَّعَرُ الوَحْفُ .

وقال أيضا :

دعَتْ خَلاخِيلُها ذوائِبَها ، * فِخْنَ مِن فَرْقِها إلى القَدَمِ .

وقال فى أخرى : ٥

نشَرَتْ ثَلاثَ ذوائِبٍ من شَعْرِها * فى لَيْلَةٍ ، فأرَتْ لَيالِيَ أرْبَعَا .

وٱستَقْبَلَتْ قَمَرَ السماءِ بوجْهِها ، * فأرَتْنِيَ القَمَرَيْنِ فى وَقْتٍ مَعَا .

وقد ألَمَّ فى ذلك بقول ٱبن المعتزّ :

سَقَتْنِيَ فى لَيْلٍ شَبِيهٍ بشَعْرِها * شَبِيهَةَ خَدَّيْها بغَيْرِ رَقِيبِ .

فأمْسَيْتُ فى لَيْلَيْنِ بالشَّعْرِ والدُّجى ، * وشَمْسَيْنِ من خَمْرٍ وخَدٍّ حَبِيبِ . ١٠

وقال ٱبن المعتزّ :

فلَمَّا أنْقَضتْ وَطَرا وهَمَّتْ * على عَجَلٍ بأخْذِ للرِّداءِ ،

رأتْ شَخْصَ الرَّقِيبِ على تَدانٍ * فأسبَلَتِ الظَّلامَ على الضِّياءِ .

وغابَ الصبْحُ منها تحتَ لَيلٍ ، * وظَلَّ الماءُ يَقْطُرُ فوقَ ماءِ .

وقال ٱبن لَنْكَك : ١٥

هَلْ طالِبٌ ثَأْرَ مَنْ قد أهدَرَتْ دَمَهُ * بِيضٌ ، عليهنّ نَذْرٌ قتلُ مَنْ عَشِقا ؟

من العَقائلِ ما يَخْطِرْنَ عن عُرُضٍ * إلّا أرَيْنَكَ فى قَدٍّ قَنًا ونَقَا .

رَوَاعِفٌ بخُدودٍ زانها سَبَجٌ * قد زَرْفَنَ[1] الحسنُ فى أصداغِها حَلَقا .

(١) زرفن صدغيه جعلهما كالزُّرْفين وهو حلقة الباب .

نَوَاشِرٌ فى الضُّحى من فَرْعِها غَسَقًا، * وفى ظَلام الدُّجى من وَجْهها فَلَقا.
أَعَرْنَ غِيدَ ظِباءٍ رُوِّعتْ غَيَدًا، * والوَرْدَ تَوْرِيدَ خدٍّ، والمَهَا حَدَقا.

وقال ابن دُريد الأزدىّ :

غَرَّاء لو جَلَتِ الخُدودُ شُعاعَها * للشَّمْس عند طُلُوعها، لم تُشْرِقِ.
غُصْن على دِعْصٍ تألَّقَ فَوْقَهُ * قمرٌ تألَّقَ تحتَ ليْل مُطْبِقِ.
لو قِيل للحُسْن : أحتكِمْ لم يَعْدُها. * أو قيل : خاطِبْ غيْرَها ! لم يَنْطِقِ.
فكأنَّنا مِن فرعها فى مَغْرِبٍ، * وكأنَّنا من وَجْهِها فى مَشْرِقِ.

وقال آخر :

جُعودةُ شعرها تَحْكِى غَدِيرا * يُصَفِّقه الجَنوبُ مع الشَّمالِ.

٭٭٭

ذكر ما قيل فى الشيب والخضاب من المدح والذم

فأما مدح الشيب، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ شابَ شَيْبةً فى الإسلام كانتْ له نُورا يومَ القِيامةِ" .

وقال ابن أبى شيبة : "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نَتْف الشيب وقال : هو نور المؤمن" .

وفى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ان أوّلَ مَنْ رأى الشيب إبراهيمُ الخليل عليه السلام ، فقال : يا ربِّ ما هذا ؟ فقال له : الوقارُ، فقال : رب زِدْنِى وقارا" .

وتأمل حكيمٌ شيبَه فقال : مرحبا بزَهْرة الحُنْكة ويُمْن الهدى ومقدِّمة العفَّة ولباس التقوى .

وقيل : دخل أبو دُلَف على المأمون وعنده جارية له ، وكان أبو دُلَف قد ترك الخضاب ، فأشار المأمون إلى الجارية فقالت له : شِبْتَ ياأبا دُلَف . إنا لله وإنا اليه راجعون . فسكتَ عنها أبو دلف ، فقال له المأمون : أجبها ، فقال :

تَهزَّأتْ إذ رأتْ شَيْبِي فقلتُ لها : * لا تَهْزَئِي مَنْ يطُلْ عمرٌ به يَشِبِ !
شَيْبُ الرجالِ لهم زَيْنٌ ومَكْرُمةٌ . * وشَيْبُكن لكُنَّ الويلُ فاكتَئِبي !
فينا لكُنَّ ـ وإن شَيْب بَدَا ـ أرَبٌ ، * وليس فيكُنَّ بعد الشَّيْب من أرَب !

وقال آخر :

أهْلا وسَهْلا بالمشيب ومرحبا ، * أهْلًا به من وافدٍ ونَزِيل !
أَهْدى الوقارَ وذادَ كلَّ جَهالة * كانتْ ، وساقَ إلىّ كلَّ جميل .
فصَحِبتُ فى أهل التقى أهل النهى * ولُقِيتُ بالتعظيم والتبجيل .
ورأى لىَ الشُّبَّانُ فضلَ جلالةٍ * لما اكتَهَلْتُ ، وكنتُ غير جَليل .
فإذا رأَوْنى مقبلًا ، نهضُوا معًا : * فِعْلُ المقرِّ لهيبة التفضيل .
إن قلتُ ، كنتُ مصدَّقًا فى مَنْطِقى ، * ماضى المَقَالة حاضرَ التعديل .

وقال مُسْلم بن الوليد :

الشَّيْبُ كُرْهٌ ، وكُرْهٌ أن يُفارقَنِي * إعجبْ لشىءٍ على البغضاءِ مودُود .

وقال علىّ بن محمد الكوفىّ :

بكى للشَّيْب ، ثم بكى عليه * وكان أعزَّ من فقد الشَّبابِ .
فقُلْ للشَّيْب : لا تبرَحْ حَمِيدًا * إذا نادى شبابُكَ بالذَّهاب .

وقال العسكري :

يَودُّ أنَّ شَيْبَهُ * إذ جاءَ لا يَنْصَرِفُ.
يَخْلُفُ رَيْعانَ الصِّبا * والمَوتُ منه خَلَفُ.

وقال ابن المعتز :

٥ قد يَشِيبُ الفَتى ، وليس عَجِيباً * أن يُرى النَّوْرُ في القضيب الرَّطيب.

وقال أبو تمام :

ولا يُؤرِّقْكَ إيماضُ القَتِيرِ بِهِ * فإنَّ ذاك ابتسامُ الرأيِ والأدَبِ.

وقال أبو الفتح البستي :

يا شَيْبَتي دُومي ولا تَتَرَحَّلي * وتيقَّني أنِّي بوصْلِكِ مُولَعُ!
١٠ قدكنتُ أجْزَعُ من حُلولكِ مرةً ، * فالآن من خوفِ ارْتِحالِكِ أجْزَعُ!

وقال آخر :

فأمَّا المَشِيبُ فصُبْحٌ بدا * وأما الشَّباب فليْل أفَلْ.
سَقى الله هذا وهذا معًا * فنِعْمَ المُوَلِّي ونعم البَدَلْ!

وقال أبو الفتح كشاجم :

١٥ تفكَّرْتُ في شَيْبِ الفَتى وشبابِهِ * فأيقنتُ أن الحقَّ للشَّيْبِ واجِبُ.
يصاحبُني شَرْخُ الشبابِ فينقَضِي ، * وشَيْبي لي حتَّى المَمات مصاحبُ.

وقال أبو العلاء السروي ، شاعر اليتيمة :

حيِّ شَيْبا أتى لغير رحيل ، * وشبابًا مضى لغيرِ إيابِ!
أيُّ شيءٍ يكونُ أحسَنَ من عا * جٍ مَشِيبٍ في آنوس شَبابِ؟

وقال أبو عَوانة الكاتب :

هَزِئْتْ إذرأتْ مَشيبِي، وهل غَيْرُ المَصابيح زينةٌ للسماءِ؟
وتولَّتْ فقلتُ قولًا بإفصا * ح لها، لا بالرَّمْز والإيماء:
إنما الشيْبُ فى المَفارِق كالنُّو * ر بَدَا والسَّوادُ كالظلماء.
لا مَحِيصٌ عن المَشيبِ أو المو * ت، فكُنْ للحَوْباء أو للنَّماء! ٥
إن عُمْرا عُوِّضتَ فيه عن المو * ت بشَيْبٍ من أعظَم النَّعماء!

وقال ابن عبد ربه :

كأنَّ سوادَ لِمتِهِ ظلام * يُطِلُّ من المَشيب عليه نُورُ.

وقال أبو عبد الله الاسباطى :

لا يَرُعْكِ المَشيبُ، يا ابنة عبد الله، فالشيبُ زينةٌ ووَقارُ! ١٠
إنما تحسُنُ الرِّياضُ إذا ما * ضَحِكتْ فى ظلالها الأنْوار.

❖

وأما ما ورد فى ذم الشيب، قال قيس بن عاصم رحمة الله عليه: الشيبُ خِطامُ المنيَّة.

وقال غيره : الشيبُ نذير الموت. ١٥

وقد ورد فى بعض التفاسير فى قوله تبارك وتعالى ﴿وجاءكُمُ النَّذِيرُ﴾. قيل : هو الشيب.

وقال أعرابىّ : كنتُ أُنكر البيضاءَ، فصرت أُنكر السوداء، فيا خَيْرَ مبدول ويا شرَّ بَدَل.

وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : عَجَّلَ عليك الشيبُ يا رسول الله، قال : "شيَّبتني هودٌ وأخواتُها" . قيل : هي عَبَس، والمرسلات، والنازعات .

وقيل لعبد الملك بن مَرْوان : عَجَّلَ عليك الشيب يا أمير المؤمنين، قال : شيبني ارتقاءُ المنابر وتوقُّع المِحَن .

٥ وقال بعضهم : خرجت إلى ناحية الطَّفَاوة، فإذا أنا بامرأة لم أر أجمل منها، فقلت : أيتها المرأةُ ، إن كان لك زوج فبارك الله له فيكِ ، وإلا فأعلميني . قال فقالت : وما تصنَعُ بي ؟ وفيّ شيء لا أراك ترتضيه . قلتُ : وما هو؟ قالت : شيبٌ في رأسي . (١٠) قال : فثنيتُ عِنَان دابتي راجعا، فصاحتْ بي : على رِسْلك، أخبرك بشيء، فوقفتُ وقلت : وما هو، يرحمكِ الله ؟ قالت : والله ما بلغت العشرين بعدُ، وهذا رأسي ١٠ فكشفَتْ عن عناقيد كالحُمَم ، وقالت : والله ما رأيتُ برأسي بياضا قطُّ ، ولكن أحببت أن تعلم أنّا نكره منك ما تكره منا ، وأنشدت :

أرى شيبَ الرِّجال من الغَوَانِي * بموضع شيبهنّ من الرجال !

قال : فرجعتُ نَجِلا ، كاسف البال .

قال أبو تمام :

١٥ غَدَا الشيبُ مختطا بفَوْدَيّ خِطَّةً * سبيلُ الرَّدى منها إلى النفس مَهْيَعُ .
هو الزُّور يُخْفَى، والمُعاشِر يُحْتوى، * وذو الإلف يُقْلى ، والجديد يرقَّعُ .
له مَنظَرٌ في العين أبيضُ ناصعٌ، * ولكنه في القلب أسودُ أسفَعُ .

وقال آخر :

تقول لَمَّا رأتْ مشيبي * بدَا، وعندي له انقباضُ :
٢٠ لا ترجُ عَطْفا عليكَ منِّي، * سوَدَ ما بيننا البياضُ !

وقال آخر :

وقالوا : مَشيبُ المرْءِ فيه وقارُه، * وما علموا أن المَشيب هو العيْبُ.
وأيُّ وقارٍ لامرئٍ عُرِّى الصِّبا، * ومن خَلْفِه شيبٌ وقدَّامه شيبُ؟

وقال آخر :

مَنْ شابَ، قد مات وهْو حَىٌّ، * يمشِى على الأرض مشى هالكْ! ٥
لو كان عُمْرُ الفتى حسابًا * كان له شيْبُه فذالِكْ.(١)

وقال محمود الورّاق :

بَكَيْتُ لقُرْب الأجَلْ، * وبُعْدِ فوات الأمَلْ!
ووافق شَيْبٌ طَرَا * بعَقْب شبابٍ رحَلْ.
شَبَابٌ كأن لم يَكُنْ * وشيبٌ كأن لم يَزَلْ. ١٠
طوى صاحبٌ صاحبًا * كذاك آختلافُ الدُّوَلْ!

وقال عَبِيد بن الأبرص :

والشيبُ شيْنٌ لمن أمسى بساحته! * لله درُّ شَبَاب اللِّمة الخالى.

وقال البحترىّ :

وِددْتُ بياضَ السيف يوم لقيننى * مكانَ بياض الشيب حلَّ بمَفْرِقى. ١٥

وقال أبو العتاهية :

عَرِيتُ عن الشباب، وكان غَضًّا، * كما يَعرى من الورق القَضِيب.
ألَا ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا * فأُخْبِرَهُ بما فعل المَشِيبُ!

(١) الفذالك جمع الفذلكة أى نتائج الحساب التى يقال عندها : فذلك يكون كذا . (أنظر : شفاء الغليل للخفاجى) . ٢٠

وقال آخر :

يَاحَسْرتَا أين الشبابُ الذى * على تَعدِّيه المشيبُ اعتدى؟
شِبْتُ، فما أنْفَكُّ من حسرةٍ * والشيبُ فى الرأس رسولُ الرَّدى!
إنَّ مدى العُمْر قريبٌ فما * بقاءُ نَفْسى بعد قُرْب المَدَى؟

٥ وقال آخر :

هذا عِذارُك بالمَشيبِ مُطرَّزٌ * فقبولُ عُذْرك فى التصابِى مُعْوِزُ!
ولقد علمتُ ـ وما علمتُ توهُّماً ـ * أن المَشيبَ لهَدْم عمرك يَرْمُزُ.

وقال أيضا :

ألَسْتَ ترى نُجومَ الشَّيْب لاحَتْ * وشَيْبُ المرْءِ عنوانُ الفساد!

١٠ وقال أيضا :

أبلى جَدِيدَى هذان الجديدانِ * والشأن فى أن هذا الشَّيْبَ يَنْعانِى!
كأنما اعتمَّ رأسِى منه بالجَبَلِ الر * اسى، فأوْهنى ثِقْلا وأوهانِى.

وقال آخر :

لما رأتْ وَضَح المَشيب بعارضِى * صدّتْ صُدودَ مُجانِب متحمِّل.
١٥ فجعلتُ أطلُب وصلَها بتلطُّف، * والشيبُ يغمِزُها بأن لا تَفْعَلى!

وقال كُشاجم :

ضَحِكتْ! من شَيْبةٍ ضَحِكتْ * لسَواد اللِّمَّة الرجِلَهْ
ثم قالتْ وهى هازئةٌ : * جاء هذا الشيبُ بالعَجَلَهْ!
قُلت: من حُبِّك، لا كِبَرٌ * شاب رأسى فانثنت خَجِلَهْ.

وثَنَتْ جَفْنا على كَحَلٍ * هى منه الدَّهرَ مكتحِلَهْ.
أكثَرَتْ منه تعجُّبَها! * فَهْى تَجْنِيه وتعجَبُ لَهْ.

وقال أبو تمام :

دقةٌ فى الحياة تُدْعى جَلَالا، * مثلَ ما سُمِّى الدِّيغ سليما.
غُرَّةٌ مُرَّة ألا إنَّما كنتُ أغرًّا أيامَ كنت بَهيما.

وقال ابن المعتز :

لقد أبغضتُ نفسى فى مَشيبى * فكيف تُحِبُّنى الخُودُ الكعَابُ؟

وقال أبو هلال العسكرى :

فلا تعجَبَا أن يَعِبْنَ المَشيبا * فما عِبْنَ من ذاك إلا مَعِيبا!
إذا كان شَيْبِى بَغيضًا إلىّ * فكيف يكونُ إليها حَبِيبا؟

وقال محمد بن أُميّة :

رأينَ الغَوانِى الشيبَ لاحَ بعارِضِى، * فأعرَضْنَ عنِّى بالخُدود النَّواضر.
وكُنّ إذا أبصرنَنِى أو سمعْنَ بِى، * دَنَوْنَ فرقَّعْنَ اللَّوَى بالمَحاجِر.

وقال آخر :

قالت، وقد راعها مَشيبى : * كنتَ ابنَ عمٍّ فصرتَ عَمَّا.
واستهزأتْ بِى، فقلتُ أيضا : * قد كنتِ بنتًا فصرتِ أمَّا.

وقال آخر :

تضاحكتْ لَمَّا رأتْ * شَيْبا تلالا غُرَرُهْ.
قلتُ لها : لا تعجبى * أنبيكِ، عندى خَبَرُهْ.
هذا غَمَامٌ للردَّى، * ودمعُ عينى مَطَرُهْ.

❖

ومما قيل في الخضاب من المدح، ما رُوِيَ عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "غَيِّروا هذا الشيبَ، وجَنِّبُوه السوادَ".

وكان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يَخْضِب بالحِناء وبالكَتَم.

٥ وقد مدح الشعراء الخِضابَ.

فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ:

وقالُوا: النُّصُولُ مشيبٌ جَدِيدٌ! * فقلتُ: الخضاب شباب جَدِيدْ!

إساءةُ هذا بإحسان ذَا * فإن عاد هذا فهذا يَعودْ.

وقال أبو الطيب المتنبي:

١٠ وما خَضَب الناسُ البياضَ لأنَّهُ * قَبِيحٌ، ولكن أحسنُ الشَّعْر فاحِمُه.

وقال محمود الورّاق:

لِلضَّيْف أن يُقْرى ويُعْرَف حقُّه! * والشيبُ ضيفُك، فأَقْرِه بخضابِ.

وقال عبدان الأصبهانيّ:

في مَشيبي شَماتةٌ لعِداتِي، * وهو ناعٍ منغِّصٌ لحياتِي.

١٥ ويعيبُ الخِضابَ قومٌ، وفيه * أيّ أُنْسٍ إلى حُضُور وفاتِي.

لا ومَنْ يعلَمُ السرائرَ منِّي * ما به رُمْتُ خُلَّةَ الغانياتِ.

إنما رمتُ أن يُغيَّبَ عني * ما تُرينِيهِ كلَّ يومٍ مِراتِي.

وهو ناعٍ إلى نفسي، ومَنْ ذا * سَرَّه أن يرى وجوهَ النُّعاتِ؟

وقال ابن الرومى :

يا بياضَ المَشيبِ سوّدتَ وجهى ، * عند بيضِ الوجوه سُودِ القرون !
فلعَمْرى ، لأُخفينَّكَ جُهْدى * عن عِيانى وعن عِيانِ العُيُون !
ولعمْرى ، لأَمْنَعَنَّكَ أن تضـ * ـحك فى رأسِ آسفٍ محزونِ !
بخضابٍ فيه ابيضاضٌ لوَجْهى * وسوادٌ لوجهك الملعون ! ٥

وقال آخر :

نَهى الشيبُ الغوانِىَ عن وَصالِى * وأوْقَع بين أحبابى وبَيْنِى .
فلستُ بتارِكٍ تدبيرَ ذَقْنِى * إلى أن ينقضى أمدى لحَيْنِى .
أُدَبِّرُ لِحْيَتى ما دمتُ حيًّا * وأعتِقُها ولكن بَعْدَ عَيْنِى .

وقال آخر : ١٠

قالوا : فلانٌ لم يَشِبْ ، * وأرى المَشيبَ عليه أبْطا .
فأجبتُهُمْ : لولا حديـ * ـثُ الصَّبْغِ لانكشَفَ المُغَطَّى .

* * *

ومما قيل فى ذم الخضاب : قال محمود الورّاق ، رحمه الله :

يا خاضِبَ الشيبِ الذى * فى كُلِّ ثالثةٍ يَعُودْ . ١٥
إن النُّصُولَ إذا بدَا * فكأنه شَيْبٌ جَدِيدْ .
وله بَدِيهةُ رَوْعةٍ * مكروهُها أبدا عَتِيدْ .
فدَعِ المَشيبَ لِمَا أرا * د فلنْ يعودَ لما تُرِيدْ .

وقال آخر :

تَسَتَّرَ بالخِضاب ، وأىّ شىءٍ * أدلُّ على المشيب من الخِضَابِ ؟ ٢٠

وقال ابن الرومي :

قُلْ للسوِّدِ حينَ سوّدَ : هكذا * غِشُّ الغواني في الهوى إيّاكا !
كذَبَ الغوانِيَ في سَوادِ عِذارِه، * فكذبْنَه في وُدِّهِنَّ كذاكا !

وقال المتنبي :

ومِنْ هوى كلِّ مَنْ ليست مموِّهة * تركتُ لونَ مشيبي غيرَ مخضوب .
ومِنْ هوى الصدقِ في قولي وعادتِه * رغِبتُ عن شَعَرٍ في الوجه مكذوبِ .

وقال الأمير شهاب الدين بن يغمور عفا الله عنه : (١٢)

ياصابغَ الشَّيبِ، والأيامُ تُظْهِره: * هذا الشبابُ، وحَقِّ الله مصنوعُ !
إن الجديد إذا ما كان في خَلَقٍ * يَبِينُ للناس أن الثوبَ مرقوعُ .

٥ ✦ ✦ ✦

وأما ما وصف به الوجه، فمن ذلك ما قيل في المذكر

قال الوجيهي :

مستقبَلٌ بالذي يهوى، وإن كثرت * منه الإساءة ، معذورٌ بما صَنَعا .
في وجهه شافعٌ يمحو إساءتَهُ * من القلوب ، وجيها حيثما شَفَعا .

١٥ وقال الآخر :

رأيتُ الهلالَ على وجْهِهِ * فلم أدْرِ أيُّهما أنورُ ؟
سوى أنَّ ذاكَ قريبُ المَزارِ * وهذا بعيد لمن يَنْظُر .
وذاك يَغيبُ وذا حاضِرٌ * فما مَنْ يغيبُ كمن يَحْضُر .
ونَفْعُ الهلالِ كثيرٌ لنا * ونَفْعُ الحبيبِ لنا أكْثَرُ .

وقال ابن لنكك :

البَدْرُ والشمس المُنِيرةُ والدُّمى والكَوْكَبُ :
أضحتْ ضرائرَ وجهه * من حيثُ يَطْلُعُ تغرُبُ .
وكأنّ جَمْرَ جوانحي * في خَدِّه يتلهَّبُ .
وكأنّ غُصْنَ قَوامِه * من ماءِ دمعي يشرَبُ . ٥
وصَوالجٍ في صُدْغه * بسواد قلبي تلعَبُ .

وقال ابن المعتز :

نظرتُ إلى مَنْ زيّن الله وجْهَه ، * فيا نظرةً كادتْ على عاشقٍ تقضي !
وكبّرتُ عشرا ، ثم قلتُ لصاحبي : * متى نَزَلَ البدرُ المنيرُ إلى الأرضِ ؟

وقال الخُبْزُ أرْزِي : ١٠

رأيتُ الهلالَ ووجهَ الحبيبْ * فكانا هلالَيْنِ عند النَّظَرْ .
فلَمْ أدر من حَيْرَتي فيهما * هلالَ الدُّجى من هلال البشَرْ !
فلولا التوردُ في الوجنتيْن * وما راعني من سَواد الشَّعَرْ ،
لكنت أظنُّ الهلالَ الحبيبْ * وكنتُ أظنُّ الحبيبَ القمَرْ !

وقال أبو الشيص : ١٥

تَخْشَعُ شمسُ النهارِ طالعةً * حينَ تراه ، ويخشع القَمَرُ .
تَعْرِفُه أنه يفوقُهما * بالحسن ، في عين مَنْ له بَصَر .

وقال أبو هلال العسكري :

ووَجْه تَشرَّب ماء النعيمْ ، * فلو عُصِرَ الحسنُ منه انعصَر .

يمُـرّ فأمنحُه ناظـرِى * فينثُرُ وردا عليـه الخفَرْ.
تمتّعت العينُ فى حُسْنه، * فـا حَفَلَتْ بطلوع القَمَرْ.

وقال ابن المعتز :

يامُفـرَدًا بالحسن والشّكْلِ، * مَنْ دلّ عينيـك على قتْـلِي؟
البدرُ من شمس الضُّحى نُورُهُ، * والشمسُ من وجهك تستَمْلِي.

وقال ابن المعدّل يصف عُتْبَةَ :

لعُتبـةَ صفحتاَ قمـرٍ * يفوق سَناهما القَمَرا.
يَزيدُكَ وجهُه حسنا * إذا ما زدتَهُ نَظَـــرا.

وقال السرىّ الرفاء :

قمـرٌ تفـرّد بالمحـاسن كلّهـا، * فإليه يُنْسَب كلُّ حسنٍ يوصَف.
بجبينـه صُبْحٌ، وطُرّته دُجًى، * وقَـوامُه غصنٌ رطيب أهيفُ.
لله ذاك الوجهُ! كيف تألّفتْ * فيـه محاسنُ لم تكن تتألّفُ؟

وقال آخر :

وفى أربع منّى حلّتْ منـك أربعٌ، * فـا أنا أدرى أيُّهـا هـاجَ لى كَرْبِى؟
أوَجْهُك فى عينِى، أم الرِّيقُ فى فَمى، * أم النطقُ فى سمعى، أم الحُبُّ فى قلبى؟

ومثله قول يعقوب الكندىّ :

وفى خمسةٍ منّى حلّتْ منك خمسةٌ: * فريقُك منها فى فَمِى طيّب الرَّشْفِ،
ووجهُك فى عينى، ولَمْسُك فى يدى، * ونُطْقُك فى سمعى، وعَرْفُك فى أنفى.

وقال أبو نُوَاس :

كأنما الوجهُ إذ بَدَا قمرٌ * مُرَكَّب فوق قامة الغُصُن.
ياذا الذى أصبح العِبادُ به * فى فتنةٍ من عظائم الفِتَن !
أقْبِلْ بوجه الهَوى إلىّ، فقد * أطلْتَ بالصدّ مُعرضًا حَزَنِى !

وقال محمد بن وهب :

نَمْ فقد وَكَّلْتَ بى الأرَقَا * لاهَنَا بَعْدُ لمن عَشِقا.
إنما أبقيتَ من جَسَدِى * شَبَحا غير الذى خُلِقا.
ما لمن تَمَّتْ محاسِنهُ * أن يُعادِى طَرْفَ مَن رَمَقا.
لك أن تُبْدِى لنا حَسَنا * ولنا أن نُعْمِل الحَدَقا.

❖

(١٣) ومن ذلك ماقيل فى المؤنث، قال ابن سكرة :

فى وجْه إنسانةٍ كَلِفتُ بها * أربعةٌ ما اجتمعْنَ فى أحد.
فالخدُّ وَرْدٌ والصُّدغ غاليةٌ * والرِّيق خمرٌ والثغرُ من بَرَدِ.
لكلِّ جُزْء من حُسنِها بِدَعٌ * تُودِعُ قلبى ودائعَ الكَمَد !

وكان مكتوبا على عِصابةِ وَرْد جارية الماهانىّ :

تَمَّتْ ! وتَمَّ الحسنُ فى وجهِها ! * فكلُّ شىءٍ ما سواها مُحالْ.
للناس فى الشهرِ هِلالٌ، ولى * فى وجْهها كلَّ صباحٍ هلالْ !

وقال آخر :

وإذا الدُّرّ زانَ حُسْنَ وجُوهٍ، * كان للدُّرّ حسنُ وجهكِ زَيْنا.
وتَزِيدين طَيِّبَ الطيب طِيباً * إن تَمَسِّيه ! أينَ مثلُك أينا ؟

وقال آخر :

ليس فيها أن يُقال لها : * كَمُلَتْ، لو أن ذا كَمُلا.
كلُّ جزءٍ من محاسنها * صائرٌ من حسنها مَثَلا.

وقال عمر بن أبي ربيعة :

٥ وفتاةٍ إن يغِبْ بدرالدُّجى، * فلنا في وجْهها عنه خَلَفْ.
أجمع الناسُ على تفضيلها، * وهواهُمْ في سواها مختلِفْ.

وقال الجمانيّ من أبيات :

نرى الشمسَ والبدرَ معناهما * بها واحدًا، وهما مَعْنيانْ.
إذا طلَعتْ وجهها، أشرقا * بطلعتها، وهما آفِلانْ.

١٠ ❖

ومما وُصِف به صفاء الوجه ورقّة البشرة، فمن ذلك ماقيل مذ كرا .

قال أبو نُوَاس :

نظرتُ إلى وجهه نظرةً * فأبصرتُ وجهِيَ في وجهه.

وقال آخر .

١٥ أعِدْ نظَرا! فما في الخدِّ نبتٌ، * حماهُ الله من رَيْب المَنُونِ!
ولكنْ رَقَّ ماءُ الوجه حتّى * أراك مثالَ أهداب الجُفُونِ!

ومثله قول الآخر :

فلما استدارتْ أعينُ الناسِ حولَهُ * تُلاحِظُه كيف استقلَّ وسارا،
تمثّلتِ الأهدابُ في ماء وجهه، * فظَنُّوا خيالَ الشَّعْر فيه عِذارا.

وقال الأرّجانيّ

ما أنس، لا أنسى له موقفًا، * والعيس قد ثوّرهنّ الحُداهْ.
لمّا تجلّى وجهه طالعًا، * وقد رامت نظراتُ الوُشاهْ.
قابلني حين بدت أدمعي * في خدّه المصقول مثل المراهْ.
يُوهِم صحبي أنه مُسعِدي * بأدمعٍ لم تُدرها مقلتاهْ. ٥
وإنما قلّدني منّةً * بدمع عينٍ من جفوني امتراهْ.
ولم تقع في خدّه قطرةٌ * إلا خيالاتِ دموع البُكاهْ.

وقال أيضا :

وأغيدَ رقّ ماءُ الوجه منه، * فلو أرخى لثاما عنه، سالا.
تُبين سوادَها الأبصارُ فيه، * فحيثُ لحظتَ منه، حسبتَ خالا. ١٠

❖

ومن ذلك ما قيل في المؤنث، قال بشار

وما ظفرتْ عيني غداة لقيتُها * بشيءٍ، سوى أطرافها والمحاجرِ.
بحوراءَ من حُور الجنان عزيزةٍ، * يرى وجهَهُ في وجهها كلُّ ناظرِ.

وقال السريّ الرفاء ١٥

بيضاءُ تنظر من طرفٍ تقلّبُهُ * مفرّقٍ بين أجسادٍ وأرواحِ.
ماءُ النعيم على ديباج وجنتها * يجولُ بين حنى وردٍ وتفّاحِ.
رقّت فلو مُزِجَ الماءُ القراحُ بها * والراحُ، لامتزجت بالماء والراحِ

وقال الأرجانيّ من أبيات :

ولمّا تلاقَيْنا، وللعين عادةٌ * تُثير وُشاةً عند كلِّ لِقاءِ،
بدتْ أدمُعي في خدِّها من صقالِه، * فغاروا وظنوا أن بكَتْ لبُكائي !

٥ ومما قيل في صفرة الوجه، فمن ذلك ما قيل مذكرا .

قال أبو عبادة البحتريّ :

بَدتْ صُفرةٌ في وجهه، إنّ حَمْدَهُمْ * من الدُّرّ ما اصفرّت نواحيه في العِقْدِ.

وقال آخر :

لم تَشِنْ وجهَه المليحَ، ولكن * جعلَتْ وَرْد وجنتيه بَهارا.

١٠ وقال الأرجانيّ وأجاد :

راقَ ماءُ الحياةِ من وجنتيه، * فهو مِرْآةُ أوجُهِ العُشّاقِ !

ومن ذلك ما قيل في المؤنث، قال سَلْم الخاسر : (١٤)

تبدّتْ فقلتُ : الشمسُ عند طلوعها * بوجهٍ غنيٍّ اللون عن أثَرِ الوَرْسِ !
١٥ فقلتُ لأصحابي، وبي مثلُ ما بهم، * على مَرْيةٍ : ما هاهنا مطلَعُ الشمسِ !

وقال أبو تمام :

صفراءُ — صفرةَ صحة — قد رُكِّبتْ * جُثمانُها في ثوب سُقْمٍ أصفَرِ.

وقال مسعود الأصبهانيّ، شاعر الخريدة :

وقَينةٍ قالَ لها ناقِضٌ : * كُلْتِ، لولا صُفرة اللونِ.
٢٠ قلتُ : اتّئِد ! فالشمسُ مصفَرّةٌ، * وهْيَ صلاحُ الأرض في الكَوْنِ !

❖

ومما قيل فى السُّمْرة، قال شاعر :

كيفَ لا أعْشَقُ ظَبْيا * سارحًا فى ظِلِّ ملك.
إنما السُّمْرة فيه * مَزْجُ كافور بمِسْك.

وقال آخر :

ياذا الذى يُذْهِبُ أموالَهُ * فى حُبِّ هذا الأسمر الفائق!
ماالذهبُ الصامتُ مستكثَرًا * إذهابُهُ فى الذهَب الناطِق!

وقال آخر :

ذَهبيُّ اللون! تحسَبُ مِن * وجنتيه النارَ تُقْتَدَحُ.
خوّفُونى مِن فضيحتِه! * ليتَهُ وافى، وأفتضِحُ!

❖

ومما قيل فى السَّواد (وهو يختص بالمؤنث) :

قال الزركشىّ فى "دنانيرَ" البرمكية :

أشْبَهَكِ المسكُ، وأشبهتِه: * قائمةً فى لونه قاعدَهْ.
لا شكَّ، إذ لونُكما واحدٌ، * أنكما من طينةٍ واحده.

وقال ابن الرومىّ :

أكْسَبها الحُبَّ أنها صُبِغتْ * صبغةَ حَبِّ القلوب والحَدَقِ.
فأقبلتْ نحوها الضمائرُ والأبصارُ، يعبَقْن أيّما عَبَقِ!
يفترُّ ذاكَ السوادُ عن يَقَقٍ * فى ثغرها كاللآلئِ النَّسَقِ.
كأنّها، والمِزاحُ يُضْحِكها، * ليلٌ تفرّى دُجاه عن غَسَق.

وقال الصنوبرى :

يا غُصْنا من سَبَج رَطْبٍ، * أصبح منكِ الدرّ فى كَرْبِ!
حُبُّكِ من قلبي مكانَ الذى * أشبهتِه من حَبّة القلْب.

وقال محمد بن عبد الله السلامىّ، شاعر اليتيمة عفا الله عنه :

يارُبَّ غانيةٍ بيضاءَ تَصْبَحُنِي * من العتاب كُؤوسا ليس تَنْساغُ.
أشتاقُ طُرّتَها أو صُدْغَها ومعى * من كلِّها طررٌ سُود وأصداغ!
كأننا، لا أتاح الله فُرْقتَنا! * يا كعبةَ المِسْك، يازَنْجيَّةً، زاغُ.

وقال آخر :

أُحِبُّ النساءَ السُّودَ من أجْل تُكْتَمٍ، * ومن أجْلِها أحببتُ مَنْ كان أسودَا!
يحيّيني بمثلِ المسك أطيبَ نفحةً! * وجئتى بمثل الليل أطيَبَ مَرْقَدا!

وقال العسكرىّ :

صرفْتُ وُدّى إلى السُّودانِ من هَجَرٍ، * ولا ٱلتفتُّ إلى رُومٍ ولا خَزَرِ!
أصبحْتُ أعشَقُ من وجْهٍ ومن بدَنٍ * مايعشَقُ الناسُ من عينٍ ومن شَعَرِ.
فإن حسِبْتَ سَوادَ الخدِّ منقصةً، * فانظرْ إلى سُفْعة فى وجْنة القَمَرِ!

وقال بشار وأجاد :

يكونُ الخالُ فى خدٍّ نقىٍّ * فيُكسِبُه المَلاحة والجَمالَا،
ويُوثِقُه لأعيُنِ مُبْصِريه، * فكيف إذا رأيتَ اللون خالا؟

وقال أبو علىّ بن رشيق :

دعاكِ الحسنُ فاستجيبي * باسمكِ فى صِبغة وطِيب.
تبهى على البِيض وٱستطيلِي، * تيهَ شبابٍ على مَشيب!

ولا يَرُعْكِ ٱسوِدادُ لوبٍ * كُقْلة الشادِن الرَّبيب.
فإنما النُّور عن سَوَاد * فى أعيُن الناس والقُلُوب!

وقال آخر :

إن أزهَرَتْ لَيلًا نجومُ السما * بيضًا على أسودَ مُرْخى الإزارْ.
وأوجب العكسُ مثالًا لها ، * فالسُّود فى الأرض نجومُ النهارْ.

٥

❖ ❖ ❖

ومما وصف به أثر الجُدَرىّ فى الوجه، فمن ذلك قول الناجم :

يا قمرًا جَدَر لما ٱستوى * وٱكتسب الملحَ بتلك الكُلُومْ!
أظنُّه غنّى لشمس الضُّحى * فنقَّطته فَرَحا بالنُّجومْ.

وقال آخر :

١٠

وقالوا : شانَهُ الجُدَرِىُّ، فانظُرْ * إلى وجهٍ به أثرُ الكُلومِ!
فقلتُ : ملاحةٌ نُثِرت عليه! * وما حُسْنُ السماء بلا نُجُوم؟

ومثله قول الآخر :

(١٥) أيُّها العائبونَ وجهًا مَليحا * نَثَر الحُسْنُ فيه نَبْذَ خُدُوشِ!
أىَّ أُفْقٍ بهَا بغير نُجوم؟ * أىَّ ثوب زَهَا بغير نُقُوشِ؟

١٥

وقال أبو زيد القاضى :

غايةُ الحاسدِ الذى لامَ فيه * أنْ رأى فوقَ خدِّه جُدَرِيًّا.
إنما وجهُه هلالُ تَمامٍ، * جعلُوا بُرقُعا عليه الثريَّا!

وقال أبو تمام بن رباح

خَدُّكِ مِرآةُ كلِّ حُسْنٍ ، * تحسُنُ من حُسْنِها الصِّفاتُ!

مالى أرى فوقَهُ نُجُوما ، * قد كُسِفتْ وهى نيِّراتُ؟

* * *

٥ ومما قيل فى الحواجب، فمن محاسنها : الزَّجَجُ، والبَلَج .

فأما الزَّجج، فدقة الحاجبين وامتدادُهما .

وأما البَلَج، فهو أن يكون بينهما فُرجة . والعرب تستحب ذلك .

ومن معايبها : القَرَن، والزَّبَب ، والمَعَط .

فالقرن، اتصال الحاجبين . والعرب تكرهه .

١٠ والزَّبب، كثرة شعرهما .

والمَعَط، تساقط الشعر عن بعض أجزائهما .

* * *

ومما وُصِفت به الحواجب، قال الزاهى :

وأغيدَ مجدولِ القَوامِ جبينُه ، * سَنا القمر البدْرىّ فى الغُصُن الرَّطْب .

١٥ تنكَّب قوسَ الحاجبَينِ فسهمه * لواحظُه المَرْضى ، وبرجاسُه قلبى!

وقال عبد الله بن أبى الشيص :

حَذِرتُ الهوى حتَّى رُميتُ من الهوى * بأصْرِدِ سهمٍ من قِسِىِّ الحواجبِ .

وقال محمد بن عبد الرحمن الكوفىّ :

ومستلِبٍ عينَ الغزال وقد تُرى * بجبهته عينُ الغزالة ماثلا .

٢٠ تناول قوس الحاجبين مُفَوَّقا * بأسهم ألحاظٍ تشُكُّ المَقاتلا .

وقال آخر :

غَزَانِي الهوى فى جيشه وجُنوده * وعيَّ علىّ الخيلَ من كلِّ جانبِ .

بميمنـةٍ أعلامُها أعينُ المَهَا * وميسرةٍ تقضى بزُجِّ الحواجبِ .

وقال آخر :

لها حاجبان، الحُسْن والغُنْج منهما * كأنهما نونان من خطِّ ماشق . ٥

❖

ومما قيل فى العيون ووصفها، فمن محاسنها :

الدَّعَج ، وهو شدّة السَّواد مع سَعَة المُقْلة .

البَرَج، وهو شدّة سوادها وشدّة بياضها .

النَّجَل، سَعَتها . ١٠

الكَحَل، سواد جُفُونها من غير كُحْل .

الحَوَر، اتساع سوادها كأعيُنِ الظباء . وقيل: هو سواد العين وشدّةُ بياضها .

الوطَف، طول أشفارها؛ وفى الحديث أنه كان عليه الصلاة والسلام فى أشفاره وَطَفٌ .

الشُّهْلة، حمرة فى سوادها . ١٥

ومن معايبها :

الحَوَص، ضيق العين .

الخَوَص، غُؤُورها مع الضيق .

الشَّتَر، انقلاب الجفن .

العَمَش، هو أن العين لاتزال سائلةً رامصةً . ٢٠

الكَمَش ، أن لاتكاد تبصر .

الغَطَش، شبه العَمَش .

الجَهَـر، أن لاتبصر نهارا .

العَشَـا ، أن لاتبصر ليلا .

٥ الخَـزَر، أن ينظر بمؤخر عينه .

الغضَنُ ، أن يكسر عينه حتَّى تتغضَّنَ جُفونُه .

القَبَـل، أن يكون كأنه ينظر إلى أنْفه. وهو أهون من الحول .

الشُّطور، أن تراه ينظرُ إليك وهو ينظر إلى غيرك. وهو قريب من صفة الأحول.

وفيه يقول الشاعر :

١٠ حَمِـدْتُ إلهِي إذ بَلانِي بحبِّـه * وبى حَولٌ أغنى عن النظَر الشَّزْرِ.

نظـرتُ إليـه — والرقيبُ يظُنُّنى * نظرت إليه — فاسترحتُ من العذرِ.

الشَّوَص، أن ينظر بإحدى عينيه ويُمِيلَ وجهه فى شق العين التى ينظر بها .

الخَفَش، صِغَر العين وضَعْف البصر . ويقال إنه نساد فى العين يضيق له الجَفنُ من غير وجع .

١٥ الدَّوَش ، ضيق العين وفساد البصر .

الإطْراق، آسترخاءُ الجفن .

الجُحُـوظ، خروج المُقْلة وظهورها من الحِجَاج .

البَخَـق، أن يذهب البصر، والعين منفتحةٌ .

الكَمَـه، أن يولد الإنسان وهو أعمى .

٢٠ البَخَص، أن يكون فوق العين أوتحتها لحم ناتئ .

فصل
فى عوارض العين

يقال :

حَسِرتْ عينُه ، إذا اعتراها كَلَال من طول النظر .

زَرَّتْ عينُه ، إذا توقّدت من خوف .

مَدِرتْ عينه ، إذا لم تكد تبصر .

اِسْمَدَرّت عينه ، إذا لاحت لها سماديرُ ، وهى مايتراءى لها من أشباه الذُّباب وغيره .

قَدِعت عينُه ، إذا ضعُفتْ من الإكباب على النظر .

حَرِجتْ عينه ، إذا حارت .

قال ذو الرمّة :

* وتَحْرَجُ العينُ فيها حِينَ تَنْتقِبُ *

هَجَمتْ ، إذا غارت .

ونَقْنَقَتْ ، إذا زاد غؤورها ، وكذلك حَجَلتْ وهَجَّجتْ .

ذَهِبت ، إذا رأتْ ذَهَبا كثيرا فحارتْ فيه .

شَخَصت ، إذا لم تكد تَطْرف من الحَيْرة .

فصل
فى كيفية النظر وهيئته

إذا نظر الإنسانُ إلى الشىء بمجامع عينيه ، قيل : قد رَمَقه .

فإذا نظر من جانب أذنه ، قيل : لَحَظه .

فإذا نظر إليه بعَجَلة، قيل : لَمَحه .

فإذا رماه ببصره مع حِدَّة، قيل : حَدَجه بطَرْفه .

(وفي حديث ٱبن مسعود «حَدِّث القومَ ما حَدَجُوك بأبصارهم») .

فإن نظر إليه بشدّة وحِدّة، قيل : أرْشَقَه وأسَفَّ النظرَ إليه .

(وفي حديث الشعبيّ أنه كَرِه أن يُسِفَّ الرجلُ إلى أمّه وأخته وٱبنته) .

فإن نظَر إليه نظر المتعجِّب أو الكاره المبغِض، قيل : شَفَنه وشَفَن إليه شُفُونا وشَفْنا .

فإن أعاره لَحْظَ العداوة، قيل : نظر إليه شَزْرا .

فإن نظر إليه بعينِ المَحَبة، قيل : نظر إليه نَظْرةَ ذي عَلَق .

فإن نظر إليه نظرة المستَثْبت، قيل : تَوَضَّحه .

فإن نظر إليه واضعًا يده على حاجبه مستظلًّا بها من الشمس ليستبين المنظورَ إليه . قيل ٱستكَفَّه وٱستَوْضَحه وٱستَشْرفَه .

فإن نشر الثوبَ ورفعه لينظر إلى صَفَاقته : قيل ٱستَشَفَّه .

فإن نظر إلى الشيء كاللَّمْحة ثم خفِيَ عنه، قيل : لاحه لوحةً . قال الشاعر :

* وهَلْ تَنْفَعَنِّي لوحةٌ لو ألُوحُها *

فإن نظر إلى جميع ما في المكان حتّى يعرفه، قيل : نَفَضه نَفْضا .

فإن نظر في كتاب أو حساب، قيل : تَصَفَّحه .

فإن فتح عينيه لشدّة النظر، قيل : حَدَق .

فإن لَأْلَأَهما، قيل رَقَّ .

فإن ٱنقلب حُلاقُ عينيه، قيل : حَمْلَق .

فإن غاب سواد عينيه من الفزع، قيل بَرِقَ بصرُه .

فإن فتح عين مُفَزَّع أومهدَّد، قيل : حَمَّج .

فإن بالغ فى فتحها وأحدَّ النظرَ عند الخوف، قيل : حَدَّج .

فإن كسر عينه عند النظر، قيل : دَنْقَش وطَرْفَش .

فإن فتح عينه وجعل لايَطْرف، قيل : شَخَص . وفى القرآن العزيز: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُهُمْ﴾ .

فإن أدام النظر مع سكون، قيل : أَسْجَدَ .

فإن نظر إلى أُفُق الهلال ليراه، قيل : تَبَصَّره .

فإن أتبع الشيءَ بصرَه ، قيل : أَتْأَرَه بصَرَه .

وقد أوسع الشعراء فى وصف العيون ووصفوها بالمَرَض والسُّقْم، وإن كانت صحيحةً . فمن ذلك قول الشاعر :

بَرَّحَ السُّقْمُ بى وليس صَحِيحًا * مَنْ رأَتْ عينُه عُيونًا مِرَاضًا .
إنَّ للأَعْيُنِ المِرَاضِ سِهامًا * صيَّرتْ أنفُسَ الوَرَى أغْرَاضًا .
جَوْهَرُ الحُسْنِ منذُ أعرضَ للقَلْـب ثَنَى الجسمَ كلَّه أعْرَاضًا .

وقال جرير :

إنَّ العيونَ التى فى طَرْفِها مَرَضٌ * قَتَلْنَنا ثُمَّ لم يُحْيِينَ قَتْلانَا .
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتَّى لاحَرَاكَ به * وهُنَّ أضعفُ خَلْقِ اللهِ أرْكانَا .

وقال ذو الرمّة :

وعينانِ قال اللهُ كُونَا فكانَتَا * فَعُولَيْنِ[1] بالألباب ماتَفْعَل الخمرُ .

(١) المشهور فعولان . بالرفع وصف لعينين .

ومما وصفت به العيون على لفظ التذكير، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتز:

عليمٌ بما تحتَ الصُّدورِ من الهوى * سريعٌ بكرِّ اللَّحظِ والقلبُ جازعُ.
ويجرَح أحشائي بعينٍ مَريضةٍ * كما لانَ مسُّ السيفِ والسيفُ قاطعُ.

وقال خالد:

عينُه سَفَّاكةُ المُهَجِ * من دَمِي في أعظم الحَرَجِ.
أسهرَتْني وهي لاهيةٌ * باحْورار العين والدَّعَجِ.

وقال الهَمْدانيّ:

تَعْمَل الأجفانُ بالدَّعَجِ * عملَ الصَّهباءِ بالمُهَجِ.
قُلْ لظَبْيٍ تُسْترقُّ له * مُهَجُ الأحرار بالدَّعَجِ:
أنتَ والأجفانُ ما لَحَظَتْ * من فُتور العينِ في حَرَجِ.
كيفَ أدْعُو اللهَ أسألُهُ * فَرَجاً ممَّنْ به فَرَجي؟

وقال خالد:

ومَريضِ طَرْفٍ ليس يَصْرِف طَرْفَه * نحوَ امْرِئٍ، إلا رماه بحَتْفِهِ.
قد قلتُ إذ أبصَرْته متمايلاً، * والرِّدفُ يجْذب خصْرَه من خَلْفه:
يا مَنْ يُسَلِّم خصْرَه من رِدْفه، * سَلِّمْ فؤادَ محبِّهِ مِنْ طَرْفه!

وقال أبو هفّان:

أخُو دَنَفٍ رمَتْه فأقصَدَتْهُ * سِهامٌ من جُفُونك لا تَطِيشُ.
قواتِلُ لا قِداحَ سِوى أحْوارٍ * بهنَّ، ولا سِوى الأهداب رِيشُ.

وقال أبو تمام :

يا سَقَمِ الجفنِ من حَبِيبي، * ألبستني حُلَّةَ السُّقَامِ!
كَمْ قتلتْ مُقْلتاكَ ظُلْما * مِنْ عاشقِ القلب مُسْتهامِ.
يامَنْ بعينيه لى غَرامٌ * قَرِّبَ من مُهْجتى حمامى !
قدرَوِيَتْ من دمى، فحسْبي * صوائبُ النَّبْلِ والسِّهامِ!

وقال العسكرى :

فأرْعى تحتَ حاشيةِ الدِّيَاجى * شَقائقَ وَجْنةٍ سُقيَتْ مُداما.
إذا كَرَّتْ لواحِظُ مقلتَيْه، * حَسبْتَ قُلوبَنا مُطرت سِهاما.

وقال ابن المعلم :

سَلْ مَنْ بعينَيْه يَصُولْ: * أهِيَ اللحاظُ أم النُّصُولْ؟
ما جُرِّدت يَوْمَ النَّوى، * إلا لتختَلِسَ العُقُولْ!
شَهَرت عيونُهم سُيُو * فا، ما بمَضْربها فُلُولْ.
تُصْمِى بغيرِ جِراحةٍ، * تَفْرِى بغيرِ دمٍ يَسِيلْ.
ولَهَا بأفئدةِ الهَوى * فَتْكٌ، وليس لها صَلِيلْ.

وقال آخر:

رُوحِى الفداءُ لمَنْ أدار بلَحْظِه * صهباءَ فى عَقْلِي لها تأثيرُ!
ومن العَجائب أن يُديرَ بلحْظه * مشمولَةً، وإناؤها مَكْسُورُ!

وقال آخر :

القَلْب بك المسْلُوب والملسوب * والصب بك المعْتُوب والمتعُوب.
يامَنْ طَلَبَتْ لحاظُه سفْكَ دمى: * مهْلا، ضعُف الطالبُ والمَطْلوب!

وقال أبو تمام :

مُتَطَلِّبٌ بصُدُودِه قَتْلى * فردُ المَحَاسِن وجْهُه شُغْلى.
ألحاظُه في الخَلْقِ مُسْرِعةٌ * فيما تُرِيدُ كسُرْعة النَّبْل.

وقال آخر :

٥ ألحاظُكُمْ تجرَحُنا في الحَشَا، * ولحظنا يجرحكم في الخُدُودْ.
جَرْح بجَرْح، فاجعلُوا ذابِذَا! * فما الَّذِي أوجبَ هذا الصُّدُودْ؟

وقال آخر :

ومُقْلةِ شادِنٍ أوْدتْ بقلبِي، * كأنَّ السُّقْمَ لى ولها لِباسُ.
يَسُلُّ اللحظُ منها مَشْرَفِيًّا * لقَتْلى، ثم يُغْمِدُه النُّعاسُ.

١٠ وقال ابن الرومى :

ياعَلِيلًا، جعلَ العِلَّةَ مِفْتاحا لظُلْمِى!
ليس في الأرضِ عَلِيلٌ * غيرَ جَفْنَيْكَ وجِسْمِى.
لك سُقْمٌ في جُفُونٍ، * سُقْمُها أكَّد سُقْمى.

وقال تاج الدين بن أيوب :

١٥ أسْقَمَنِي طَرْفُك السَّقِيمُ، وقد * حكاه مِنِّى في سُقْمِه الجَسَدُ!
هَبَّ نسيمٌ من نحوِ أرضِك لِى * فزادنِى في هَواكَ ما أجِدُ.
وهاج شَوْقى، والنارُ ما بَرِحتْ * عندهُبُوب الرِّياح تتَّقِدُ.

وقال ابن المعتز :

ضعيفةٌ أجفانُهُ، * والقَلْبُ منه حَجَرُ!
٢٠ كأنما ألحاظُه * من فعْله تَعْتَذِرُ.

* * *

ومما وصفت به العيون على لفظ التأنيث، فمن ذلك ما قاله عدىّ بن الرقاع :

وكأنَّها بينَ النِّساءِ أعارَها * عينيه أحْورُ من جآذرِ جاسِم.
وَسْنانُ أقصدهُ النُّعاسُ فرنَّقَتْ * فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم.

وقال الناجم : ٥

كادالغزالُ يَكُونُها، * لكنَّما هو دُونَها.
والنَّرجِسُ الغَضُّ الجنىّ أغضُّ منه جُفُونُها.
مَنْ كان يعرف فضلَها * فعن القياس يَصُونُها.

وقال أبو دلف :

نَقْتنِصُ الآسادَ مِنْ غِيلِها، * وأعيُن العينِ لنا صائِدَهْ! ١٠
يَنْبُو الحُسامُ العَضْبُ عنا وقد * تَكْلِمُ فينا النظرةُ القاصِدَهْ!
تهابُنا الأُسْدُ، ونَخْشى المَهَا: * آبِدةٌ ما مِثْلُها آبِدهْ!

وقال آخر :

لله ما صنَعَتْ بنا * تلك المَحاجِرُ فى المَعاجِرْ!
أمضى وأنفذُ فى القلو * ب من الخَناجر فى الحَناجِرْ! ١٥

وقال آخر :

يَنْظُرْنَ من خَلَلِ السُّجُوف كأنَّما * يُمْطِرنَ أحشاءَ الكريم نِبالا!

وقال أبو فراس الحمدانىّ عفا الله تعالى عنه ورحمه :

وبِيضٍ بألحاظ العُيونِ كأنَّما * هَزَزْنَ سُيوفًا أوسَلَلْنَ خَناجِرا.
تَصَدَّيْنَ لى يومًا بمُنعَرَج اللِّوى * فغادَرْنَ قلبى بالتصبُّر غادرا. ٢٠

سَفَرْنَ بُدورا، وٱنتقبْنَ أهلَّةً، * ومِسْنَ غصُونا، وٱلْتفتْنَ جآذِرا.
وأطْلَعْنَ في الأجياد للدُّرّ أنجُمًا * جُعِلْنَ لحَبَّات القلوب ضَرائِرًا.

وقال ٱبن الرومىّ :

نظَرَتْ، فأقصدتِ الفُؤادَ بطَرْفِها. * ثم ٱنثنَتْ عنّى، فكِدتُ أَهِيمُ!
وَيْلاىَ! إن نظَرتْ وإن هى أعرضَتْ: * وقعُ السِّهامِ ونزعُهنَّ أَلِيمُ!

وقال أيضا :

لطَرْفُها وهو مصروفٌ كموْقِعِه * في القلب حِينَ يروعُ القلبَ مَوْقعُه.
تصُدّ بالطَّرْف لا كالسَّهم تَصْرِفُهُ * عنّى. ولكنَّه كالسَّهْم تَنْزِعُه.

وقال الأرّجانى :

نَقبُوهُنَّ خَشْيةَ العُشَّاق! * أوَلم تَكْفِ فِتنةُ الأحْداق؟
إنّ في الأعينِ المِراضِ لَشُغْلا * للمُعَنَّى عن الخُدود الرِّقاق!
كلُّ ما فاتَ في الليالِى المواضِى * فهو في ذمّة لَيالِى البَواقى.

وقال أيضا :

سَتَرْنَ المحاسنَ إلا العيُونَا * كما يَشْهد المَعْرَكَ الدَّارِعُونا.
سَلَلْنَ سُيُوفا ولاقَيْنَنَا! * فلا تَسْأل اليومَ ماذا لَقِينا.
كَسَرْنَ الجفُونَ ولولا الرِّضا، * بحكْمِ الغَرامِ كَسَرْنا الجُفُونا.
وحَسْبُ الشهيدِ سُرورًا بأن * يُعايِنَ حُورًا مع القَتْل عينَا.

وقال أبو نُوَاس :

ضعيفةُ كَرِّ الطَّرْف تَحْسَبُ أنها * قريبةُ عَهْدٍ بالإفاقةِ من سُقْم.

وقال آخر :

يامَنْ تَكَحَّلَ طَرْفُها * بالسِّحْر لا بالإثمِد!
نَفْسى كما عَذَّبتِها * وقتَلْتِها بالإثم، دِى![1]

* * *

ومما قيل فى أدواء العين، فمن ذلك :

الغَمَص، أن لا تزال العين تَرْمَص .

الَّلمَح ، أسوأ الغَمَص .

الَّلخَص. التِصاق الجُفُون .

العائر . الرَّمد الشديدُ . وفيه يقول النابغة :

وباتَ وباتَتْ له ليلةٌ .. كليلة ذى العائرِ الأرْمَد.

وكذلك الساهِكُ .

الغَرْب، ورَم فى المآق .

السَّبَل ، أن يكون على بياضها وسوادها شِبْه غِشَاء .

السَّجَا[2] ، أن يعسُر على الإنسان فتحُ عينيه إذا آنتبه من النوم .

الظَّفَر ، ظهور ظَفَرة (وهى جُلَيدة تغشى العين من تلقاء المآق) .

الطَّرْفة، أن يحدُث فى العين نقطةٌ حمراء .

الآنتِشَار، أن يتسع ثقب الناظِر حتّى يلحق البياضَ من كل جانب .

الحَتَر، أن يخرُج فى العين حَبٌّ وهو الجَرَب .

القَمَر، أن يعرض للعين فَتْرة وفساد . يقال : قَمِرت عينه .

(١) فعل أمر للمؤنث من "ودى" بمعنى دفع الدية بسبب الإثم الذى وقع منها .

(٢) فى "فقه اللغة" الجساة [بتقديم الجيم على السين ولعله الصواب] .

* * *

ومما قيل في أرمد، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتز (وقيل إنها لابن الرومي، وقيل للناجم) :

قالوا: اشتكت عينه! فقلت لهم: * من كثرة الفتك نالها الوصب!
حمرتها من دماء من قتلت، * والدم في النصل شاهد عجب.

وقال ابن منير الطرابلسي :

رنا وفي طرفه احمرار، * يفض من سحر مقلتيه.
وفاض من نرجسيه ماء، * ضرجه ورد وجنتيه.
فقلت يا مرضي بوجه، * أظن داني سرى إليه!
هيهات، لا تجحدن قتلي! * هذا دمي شاهد عليه!

وقال الواثق بالله :

لي حبيب قد طال شوقي إليه، * لا أسميه من حذاري عليه.
لم تكن عينه لتجحد قتلي، * ودمي شاهد على وجنتيه!

وقال الصولي :

يكسر لي طرفا به حمرة، * قد خلط النرجس في ورده.
ما احمرت العين، ولكنه * يكحلها من وردتي خده!

وقال آخر :

قالوا: بدت في عينه حمرة * قد حازها من ورد الخد.
فقلت لم يرمد ولكنه * يصابغ النرجس بالورد!

وقال أبو عبد الله بن الحدّاد الوزير :

يا شاكى الرَّمَدِ الذى بشكاته، * قد صار دهرى فيه ليلةَ أرمدَا!
اللهُ والإشفاق يعلم أنّنى * لو أستطيعُ فِدًا، لكنتُ لك الفِدَا!
كَمْ من دمٍ سفكَتْ جُفونُكَ لم تَزلْ * تُخْفِى وتكتُمُ سَفْكَه حتّى بدا.
لم يَشْتَمِلْ بدمٍ غِرارُ مهنّدٍ * إلا وقد أهْدى النفوسَ إلى الرَّدى. ٥

وقال أبو الفرج الببغاء :

بنفسِىَ مايشكوه مَنْ راحَ طَرْفُهُ * ونَرْجِسُه مما دهى حسنَهُ وَرْدُ!
أراقتْ دمى ظُلْما محاسنُ وجهه، * فأضحتْ وفى عينيه آثارُه تبدُو!
غدَتْ عينُه كالجَمْر حتّى كأنما * سقى عينَهُ من ماء تَوْرِيده الخدُّ.
لئن أصبحتْ رمداءَ مُقْلةُ مالكى، * لقد طال ما آستَشْفتْ به مُقَل رُمْدُ! ١٠

وقال آخر :

قُضُب الهندِ والقَنَا أخدانُكْ! * والمَقادِيرُ فى الورى أعوانُكْ!
أيُّها ذا الأميرُ مارَمدت عَيْنك! حاشَا لها، ولا أجفانُكْ!
بل حكَتْ فِعلَكَ الكريمَ ليضحى * شأنُها فى العُلى سواءً وشانُك.
فهى تَحْمَرُّ مثل سيفك فى الرَّو * ع، وتصفُو كما صَفَا إحسانُك. ١٥

وقال آخر وأجاد :

لقد جارَ ماتشكوه فى الحُكْم وآعتدى * وأسْرفَ فى أفعاله وتَمَرّدا!
فمَنْ لى بأنْ لو كنتُ أعرِفُ حِيلةً * تُصَيِّرُ أجفانِى لأجفانِكَ الفِدا؟
دهَتْ عينَكَ العينُ التى قدقضى القَضا * بأنك فيها سوفَ تُصْبِح أرمدا.

فمذ بُدِّلَتْ مِن نرجِسٍ بشقائقٍ ، * أعادَتْ لُجَيْنَ الدمعِ مِنِّيَ عَسْجدا.
سَلَلْتَ حُسامَ اللحظ منها على الورى ، * وقد كان أحْرى أن يُصانَ ويُغْمَدا!
فأنتَ الذى أبلَيْتَهَا بالذى بها ، * إذا السيفُ لم يُغْمَدْ تراكبه الصَّدا.

✦
✦ ✦

ومما قيل فى أرمد غطى عينيه بشَعْرِيَّة(١)، قول السراج الورّاق :

شَعْرِيَّتِي ، مُذْ رَمِدتُ قد حجَبَتْ * طرْفِي عَنكُمْ ، فصِرْتُ محبوسَا.
الحمـــدُ لله! زادنِي شَرَفا: * كنتُ سِراجا فصِرْتُ فانوسا.

وقال آخر :

غَطَّى على عينيه شَـعْرِيَّةٌ ، * تُشْعِل فى القلب لَهِيبَ الغَرامْ.
كأنَّه البـدرُ بدا نِصْـفُه ، * ونصفُه الآخَرُ تحتَ الغَمامْ!

وقال آخر :

لا تَحْسَبُوا شَعْرِيَّةً أصبحَتْ * من رَمَدٍ فى وجهه مُرْسَلَهْ.
وإنمـا وجنتـه كعبة ، * أستارها من فَوقها مُسْـبَلَهْ.

ومن رقعة كتبها أرمد (وهو عبد الله بن عثمان الواثق) عفا الله عنه . قال :

صادف وُرُودُ كتابه رمدا فى عينى قد حصرنى فى الظُّلمه ، وحبسنى بين الغم والغُمَّه ، وتركنى أُدْرِك بيـدى ما كنت أدرك بعينى : كليلَ سِلاح البصر ، قصير خَطْو النظر ، قد ثَكِلْتُ مِصباح وجهى ، وعَدِمت بعضى ، الذى هو آثَرُ عندى

(١) لم نعثر على هذه الكلمة فى اللسان ولا فى القاموس . وفى شفاء الغليل للخفاجى : أن "شعريّة نسبة الى الشعر : غشاء أسود رقيق يكون على وجه النساء والأرمد ، وأصله أنه ينسج من الشعر ثم يطلق على كل ما شابهه ، وهى مولّدة" .

من كُلِّى . فالبِيض عندى سُود، والقريب منِّى بعيد! قد أحاط الوجعُ أجفانى، وقبض عن التصرُّف بَنانى، ففراغى شُغْل، ونهارى ليل، وطوال الخُطا قصار، وقِصار أوقاتى طِوال . وأنا ضرير وإن عُددتُ فى البصراء، وأمّىّ وإن كنت من جملة الكُتَّاب والقرّاء. قد قصرت العلة خطوتَىْ قلمى وبَنانى، وقامت بين يدى ولسانى .

وقد كانت العرب تزاوج بين كلمات، فيقولون :

القِلَّة ذِلَّة، والوَحْدة وَحْشة، والهَوى هَوان، والأقارب عَقارب، والمَرَض حَرَض، والرَّمد كَمَد، والعلة قِلَّة، والقاعد مُقْعد .

والله تعالى أعلم .

فصل

فى ترتيب البكاء

إذا تَهيأ الرجل للبكاء، قيل : أَجْهَشَ .

فإذا آمتلأتْ عينه دُموعًا، قيل : آغرَوْرَقت عينهُ، وترقْرقتْ .

فإذا سالَتْ، قيل : دَمَعَتْ، وهَمَعت .

فإذا كثُرتْ دموعه، قيل : هَمَتْ .

فإن كان لبكائه صوت، قيل نَحَب ونَشَج .

فإذا صاح مع بكائه، قيل : أعول .

قال سَلْم الخاسر :

أَنَتْنِى تُؤنِّبنى فى البُكاء ... فأَهْلًا بها، وبتَأْنِيبِها!

تقول، وفى قولها حِشْمةٌ : ... أتَبْكِى بعين تَرَانِى بها؟

فقلتُ : إذا آستحسنَتْ غيرَكُم، ... أمرتُ الدُّموعَ بتأديبِها .

فصـــل

فيما قيـــل فى الأنف

الشَّمَم، ٱرتفاعُ قصبة الأنف مع ٱستواء أعلاها .

القَنَـا، طُول الأنف، ودِقَّة أرنبته، وحَدَبٌ فى وَسَطه .

٥ الفَطَس، تطامُن قصبتِه مع ضِخَم الأرنبة .

الخَنَس، تأخُّر الأنف عن الوجه .

الذَّلَف، شُخوص طَرْفه مع صغر أرنبته .

الخَشَم، فِقْدان حاسَّة الشمّ .

الخَرَم، شَقٌّ فى المَنْخِرين .

١٠ الخَثَم، عِرَض الأنف . (يقال ثور أخْثَمُ) .

القَعَم، ٱعوجاج فى الأنف . (قال الشاعر :

لَيِّن المَنْخِرين معتدلُ المـا * رن لاسائلٌ ولا جَعْـدُ .)

* * *

ومما قيل فى الشِّفاه والفَمِ ، الشَّدَق ، سَعة الشِّدقين .

١٥ الضَّجَم ، مَيَل فى الفم وفيما يليه .

الضَّزَز ، لُصوق الحَنَك الأعلى بالأسفل .

الهَدَل ، ٱسترخاء الشفتين وغلظُهما .

اللَّطَـع، بياضٌ يعتريهما .

القَلَب ، ٱنقلابهما .

٢٠ الجَلَـع، قصَرهما عن الٱنضمام .

فصل

فى تقسيم ماء الفم

ما دام فيه، فهو رِيق، ورُضَاب .

فإذا عَلِك ، فهو عَصيب .

فإذا سال ، فهو لُعَاب .

فإذا رمى به، فهو بُزَاق، وبُصَاق .

فصل

فى ترتيب الضحك (١)

التبسّم أوّل مراتبه، ثم الإهْلاس وهو إخفاؤه، ثم الأفتِرار، ثم الآنْكلال وهما الضحك الحَسَن ، ثم الكَتْكتة أشدّ منهما ، ثم القَهْقَهة والقَرْقرة والكَرْكرة ، ثم الآستِغراب ، ثم الطَّخْطَخَة ، ثم الإهْزاق والزَّهْزقة ، وهو أن يذهب الضحك به كلَّ مذهب .

قال كُشاجم :

عَذُبتْ فى الرَّشْفِ منه شَفَةٌ ❊ مَصُّها أطيبُ من نَيْل الأمَلْ !

وعليها حُمْرةٌ فى لَعِس ❊ تستعيرُ اللونَ من صِبْغ الخَجَلْ !

هِيَ فيما خِلْتُ آثارُ دَمٍ ❊ من فؤادى، عَلَّ فيه ونَهَلْ !

---

(١) فى الأصل : فى تقسيم ماء الوجه وترتيب الضحك . ولعدم وجود كلام على تقسيم ماء الوجه حذفناه من العنوان .

وقال ابن سُكَّرة الهاشمي :

يا ضاحكًا، يستهلُّ مَضْحَكُه ❊ عن بَرَد واضح وعَنْ شَنَبِ!
أعطيتَني قُبْلة رشفتُ بها الشَّهدَ مَشُوبا بعَبْرة العنَبِ.
كأنني إذ لثمتُ فاكَ بها ❊ لثمتُ تُفَّاحةً من الذهَبِ.

٥ وقال كشاجم :

كأنَّ الشفاه اللعْسَ منها خَواتِمٌ ❊ من التِّبْر مختومٌ بهنَّ على دُرّ.

وقال سيف الدولة بن حمدان، في صباه :

أُقَبِّلُه على عَجَلٍ كشُرْب الطائر الفَزِعِ.
رأى ماءً فأطْمَعَه مخافُ عَواقِبَ الطَّمَعِ.
١٠ فصادف فُرْصةً فدَنَا ❊ ولم يلْتَذَّ بالجَزَعِ.

❖ ❖ ❖

ومما قيل في طيب الريق والنَّكْهة على لفظ التذكير، فمن ذلك قول ابن الرومي :

أَهيفُ الغُصْن، أهيلُ الدَّعْص لما يَقْتسِمْ قَدَّه وِشاحٌ ومِرْطُ.
١٥ طَيِّب طعمُه إذا ذُقتَ فاه، ❊ والثُّريَّا في جانب الغَرْب قُرْطُ.

وقال آخر :

يا مانِعِي طيبَ المَنامِ، ومانِحِي ثَوْبَ السَّقامِ، وتارِكِي كالآل!
عمَّن أخذتَ جوازَ منعي ريقَكَ المعسول، ياذا المَعْطِف العَسَّال؟
عن ثَغْرك النظَّام، أم عن شعرك الفَحَّام، أم عن طَرْفك الغَزَّال؟

وقال آخر

أتَدْرون شَمْعتنا لِمْ هَوَتْ؟ * لتقبيلِ ذا الرَّشإ الأكحلِ!
درَتْ أن ريقتَه شُهْدةٌ * فحنَّتْ إلى إلفها الأوّل.

وقال بشار بن بُرْد :

يا أطيبَ الناس ثَغْرًا غير مختَبَر * إلّا شهادة أطرافِ المَسَاويكِ! ٥

وقال ابن وكيع البستىّ :

ريقٌ إذا ما ازددتُ من شُرْبه * ريًّا، ثنانِي الرِّىُّ ظمآنا.
كالخمر أروى ما يكون الفتى * من شُرْبها أعطَشُ ما كانا.

وقال ابن الرومىّ :

يارُبَّ ريقٍ باتَ بدرُالدّجى * يمجُّه بين ثَنايَاكا. ١٠
يُرْوى ولا ينهاك عن شُرْبه * والماءيُرويكَ ويَنْهاكا.

وقال أبو الفتح كشاجم :

بَلَغَتْهُ الكأسُ فارتعدَتْ * طَرَبًا منها إلى فَمِهِ.
منَعتْه أن يؤخِّرها * فى يديه من تحشُّمِه.
فحَساها ثم أعقبَها * أرَجًا من طِيبِ مَبْسِمِه. ١٥

وقال آخر :

بقَدْر الصَّبابة عند المَغِيبِ، * تكونُ المَسرّةُ عند الحُضُورِ.
وأطيبُ ما كان ردُّ الثُّغُورِ * إذا هُوَ صادفَ حَرَّ الصُّدورِ.

❖

ومما وصف به على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول ابن ميّادة :

كأنّ على أنيابها المِسْكَ شابَهُ * بُعَيْدَ الكَرى من آخر الليل عابِقُ.
وما ذُقْتُه إلا بعيني تَفَرَّسا * كما شِيمَ في أعلى السحابة بارِقُ.
يضم إلىّ الليلُ أذيالَ حُبِّها * كما ضمَّ أردانَ القميص البنائقُ.

وقال البحترىّ :

كأنَّ على أنيابها بعد هَجْعةٍ، * إذا ما نُجومُ الليل حانَ انْحِدارُها،
مُجاجةَ مِسْك صُفِّقَتْ بمُدامةٍ * معتَّقة صَهباءَ، حان اعْتِصارُها.

وقال ذو الرمة :

أَسِيلةُ مَجْرى الدمع هَيفاءُ طَفْلة * عَرُوبٌ، كإيماض الغمام ابتسامُها.
كأنّ على فيها، وما ذُقْتُ طَعْمَه، * زُجاجةَ خمر طابَ فيها مُدامُها.

وقال كشاجم :

البدرُ لا يُغْنيكَ عنها إذا * غابَتْ وتُغْنيك عنِ البَدْر.
في فَمِها مِسْك ومشمولةٌ * صِرْفٌ ومنظومٌ من الدُّرّ.
فالمِسْك للنَّكْهة، والخمر للرِّيقة، واللُّؤلؤُ للثَّغْر.

وقال الهذلىّ :

وما صَهباءُ صافيَةٌ شمولٌ، * كعين الديك مُنجابٌ قَذَاها،
تُشَجُّ بماءِ سارِيةٍ عَرِيض * على ظمإٍ به رصف صَفَاها،
بأطيبَ نَكْهةً من طَعْمِ فيها * إذا ما طار عن سِنَةٍ كَرَاها.

وقال ابن الرومى :

وما تَعْتَرِيها آفةٌ بَشَرِيَّةٌ * من النَّوم إلا أنها تَتَخَثَّرُ.
كذلك أنفاسُ الرِّياضِ بسُحْرةٍ * تَطِيبُ وأنفاسُ الأنامِ تَغَيَّرُ.
وما ذُقْتَه إلا بشَمِّ ابتسامِها * وكم مُخْبِرٍ يُدْنِيه للعين مَنْظَرُ.
وغيرُ عجيبٍ طِيبُ أنفاسِ روضة * مُنَوَّرة باتت تُراح وتُمْطَرُ. ٥

وقال جميل :

وكأنَّ طارِقَها على عَلَلِ الكَرى، * والنجمُ وَهْنًا قد دَنَا لتغَوُّرِ،
يَسْتافُ رِيحَ مُدامةٍ مَعْلُولة * بذكِيِّ مِسْكٍ أو سَحِيقِ العَنْبَرِ.

وقال الشريف الموسوى، شاعر اليتيمة :

يا عذْبةَ المَبْسِمِ! بُلِّى الجَوى * بنَهْلةٍ من ريقِكِ البارِدِ! ١٠
أرى غَدِيرًا سَيِّحًا ماؤُه، * فهلْ لذاكَ الماء من وارِدِ؟
مَنْ لى بذاك العسلِ الذائبِ الـ * ـجارى خِلالَ البَرَدِ الجامدِ؟

* * *

ومما قيل فى طيب عَرْف النساء، قالوا : من أجود ما قيل فى ذلك من قديم الشعر قول الاعشى : ١٥

ما رَوضةٌ مِن رياضِ الحَزْنِ مُعشِبةٌ * خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ،
يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ * مؤزَّرٌ بعَميمِ النبتِ مكتَهِلُ،
يومًا بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ * ولا بأحسنَ منها إذ دَنَا الأُصُلُ.

وقول القطامي :

ومارِيحُ قاعٍ ذي خُزامى وحَوْلَهُ * شَذَا أَرَجٍ من طيِّب النَّبْت غاربِ،
بأطْيَب من مَيَّ إذا ما تقلَّبَتْ * من الليل وَسْنى جانباً بعد جانبِ.

أخذه ابن المعتز ببعض لفظه وزاد زيادة حسنة، فقال :

٥ وما ريحُ قاعٍ زاهرٍ مَسَّت النَّدى * وروضٍ من الرَّيحان سَحَّت سحائبُه،
فجاء سُحَيْرا بين يومٍ وليلةٍ * كما جَرَّ من ذيل الغلالة ساحبُه،
بأطيَبَ من أنيابِ سَرَّةَ مَوْهِنًا * إذا الليلُ أدجى وارجحنَّت كتائبه.
إذا رَغِبتْ عن جانبٍ من فِراشها * تَضوَّعَ مِسْكًا أين مالَتْ جوانبُه.

وقال ابن الرومي :

١٠ والعَرْفُ نَدٌ ذكيٌّ، وهي ذاكيَةٌ * إذا أساء جِوارَ العِطْر أبدانُ.
نعيمُ كلِّ بهارٍ من مجامرِها * ويُشْمِسُ الليلُ منها فهو ضَحْيانُ.
كأنها، وعُثانُ النَّدِّ يشملُها، * شمسٌ عليها ضَبابَاتٌ وأدْجانُ.

وقال ابن الأحنف :

ذكَرْتُكِ بالرَّيحان لَمَّا شَمِمْتُه * وبالراح لما قابلَتْ أوجُهَ الشَّرْبِ.
١٥ تذكَّرتُ بالريحانِ منكِ روائحا * وبالراح طَعْما من مُقَبَّلِكِ العَذْبِ.

ومن البليغ قول سحيم :

فما زالَ بُرْدِي طَيِّبا من ثيابها * إلى الحول، حتَّى أنهجَ البُرْدُ باليا.

وأبلغ منه قول الأحنف :

وجَدَ الناسُ ساطِعَ المِسْك من دِجْلةَ قد أوسع المَشارِعَ طيبا.
٢٠ فهُمُ يُنكِرُون ذاك وما يَدْ * رونَ أن قد حَلَلْتِ منها قريبا.

(٢٢) وقال آخر، وأحسَنَ :

جاريةٌ أطيبُ من طِيبها * والطِّيبُ فيها المِسْكُ والعنبرُ.
ووجْهُها أحسنُ من حَلْيِها * والحَلْيُ فيها الدّرّ والجوهَرُ.

وقال آمرؤ القيس :

ألم تَرَ أنى كُلَّما جئتُ طارقًا، * وجدْتُ بها طيبًا، وإن لم تَطَيَّب. ٥

وقال آخر :

أتاها بعِطْـر أهلُهـا فتضاحَكَتْ * وقالت: وهل يَحتاجُ عِطْر إلى عِطْر؟

وقد بالغوا حتّى وصفوا طيب المواضع التى وَطِئها المحبوبُ .

وأوّل من قال ذلك النميرى الشاعر فى زينبَ بنت يوسف أخت الحجاج فقال:

تَضوّعَ مِسْكا بطنُ نَعْمانَ أن مشَتْ * به زينبٌ فى نِسْـوة خَفِرات. ١٠

وقال جميل :

ألَا أيُّهـا الربعُ الذى غيَّر البِـلى! * عَفَا وخَلَا، من بعدما كانَ لايخلُو.
تَداءبَ ريحُ المِسْـك فيه وإنمـا * به المسكُ أن جَرّتْ به ذيلَها جُمْلُ.

وقول الآخر :

أرى كلَّ أرض دُستِ فيها، وإن مضت * لهـا حِجَجٌ، يزدادُ طيبـا تُرابُهـا! ١٥

* * *

ومما قيل فى الأسنان، فمن محاسنها :

الشَّنَب، وهو رِقّة الأسنان وآستواؤها وحُسْنها .

الرَّتَـل، حُسْن تنضيدها وآتساقها .

التَّفْلِيج، تفرُّج ما بينها . ٢٠

الشَّتَت، تفرقها من غير تباعد بل في استواء وحسن . (يقال : ثغر شَتِيت، إذا كان مُفَلَّجا حسنا أبيضَ) .

الأشَرُ، تحزيز في أطراف الثنايا يدل على حَدَاثة السن .

الظَّلْم . الماء الذي يجري على الأسنان من البَرِيق لا من الرِّيق .

فصل

في مقابحها

الرَّوَق . طولها .

الكَسَسُ، صِغَرها .

الثَّعَلُ، تراكُبها وزيادة سِنٍّ فيها .

١٠ الشَّغَا، اختلاف منابتها .

اللَّصَصُ . شدّة تقاربها وانضمامها .

اليَلَلُ . إقبالها على باطن الفم .

الدَّفَقُ . انصبابها إلى قدّام .

القَقَمُ . تقدم سُفْلاها على العليا .

١٥ القَلَحُ . صُفْرتها .

الطَّرَامةُ، خُضْرتها .

الحَفَرُ . ما يلزق بها .

الدَّرَدُ . ذَهابها .

الهَتَمُ . انكسارها .

٢٠ اللَّطَطُ . سقوطها .

فصل
فى ترتيب الأسنان

وهى : أربعُ ثنايَا ، وأربعُ رَبَاعِيَات ، وأربعُ أنياب، وأربعُ ضَوَاحِك، وثِنْتا عَشْرَةَ رَحًا ، وأربعةُ نواجذَ .

قال أبو الفتح كُشاجم : ٥

عَرَضْن ! فعرَّضْنَ القُلوبَ من الجوى * لأسْرَع فى كَىِّ القُلوبِ من الجَمْر !
كأن الشِّفاهَ اللُّعْسَ فيها خواتِمٌ * من المِسْك، مختومٌ بهنَّ على دُرّ.

وقال أيضا :

كالغُصْن فى روضة تميسُ : * تَصْبُو إلى حسنها النُّفُوسُ.
ماشَهِدَتْ والنِّساءَ عُرْسا، * فشُكَّ فى أنها عَرُوسُ ! ١٠
تَبْسِمُ عن باسِم بَرُودٍ * تَعْبَقُ من طِيبه الكُؤوسُ.
يجْمَعُ فيه لمجتنيه : * مسكٌ، ووَرْد، وخَنْدرِيسُ.

وقال المتنبي :

ويَبْسِمْنَ عن دُرٍّ تقلَّدْنَ مثلَهُ * كأنَّ التَّرَاقِى وُشِّحتْ بالمَباسم.

وقال الصنوبرىّ : ١٥

تلك الثَّنايَا من عقدها نُظمتْ، * بل نُظِم العِقدُ من ثَنَايَاها.

وقال البحترىّ :

ويَرْجِعُ الليلُ مُبْيضًّا إذا ضَحِكتْ * عن أبيضِ خَصِلِ السِّمْطَيْنِ وَضَّاح.

وقال ابن الرومىّ :

كأنِّى لم أبِتْ أُسْقَى رُضابًا : * يموتُ به ويحيَا المُسْتَهامُ ! ٢٠

تُعَلِّلُنيه واضحةُ الثَّنايا، * كأنّ لِقاءَها حَوْلًا لِمَامُ.
تَنَفَّسُ كالشَّمُول ضُحًى شَمالٌ * إذا ما فُضَّ عن فَمِها الخِتامُ.

وقال النابغة :

تجلو بقادمتَيْ حمامةِ أيكةٍ * بَرَدًا، أُسِفَّ لِثاتُه بالإثمِدِ.
٥ كالأُقْحُوان غداةَ غِبَّ سَمائِه * جُنَتْ أعاليه، وأسفلُه نَدِى.

وقال شقيق بن سليل :

وتَبْسِم عن ألمى اللَّثاتِ، مفلَّج: * خَليقِ الثَّنايا بالعُذوبة والبَرْدِ.

وقال جميل :

بِذى أُشُرٍ كالأُقْحُوان يَزِينُه * نَدى الطَّلِّ، إلا أنه هو أمْلَحُ.

١٠ وقال السمهرىّ :

كأنَّ وميضَ البرق بيني و بينها، * إذا حانَ من بعض البُيوت، ابتسامُها.

وقال آخر :

أُحاذِرُ في الظلماء أن تستَشِفَّني * عيونُ العَبارَى في وميضِ المَضَاحِك!

* * *

١٥ ومما قيل في السِّواك، قول بعض الشعراء : (٢٣)

أقولُ لِمِسْواك الحبيب: لك الهَنا، * بلَثْمِ فَمٍ ما ناله ثَغْرُ عاشقِ!
فقال، وفي أحشائه حُرَقُ الجوى * مقالَةَ صبٍّ للديار مُفارِق:
تذكَّرتُ أوطاني فقلبي كما ترى، * أُعَلِّلُه بين العُذَيْب وبارق!

وقال آخر :

نقلَ الأراكُ بأن ريقةَ ثغرِه * من قهوةٍ، مُزِجت بماءِ الكَوْثَرِ.
قد صحَّ ما نقل الأراكُ لأنه * قدجاءيروى عن "صحاح الجوهرى".

وقال آخر :

بالله، إن جُزتَ بوادِى الأراكْ * وقبّلتْ أغصانُه اللُّدْنُ فاكْ، ٥
فابعث إلى المملوكِ من بعضِها * فإنّنى والله مالِى سِوَاكْ!

❖

ومما قيل فى اللسان، فمن محاسنه :

إذا كان الرجلُ حادّ اللسان قادرا على الكلام، فهو ذَرب اللسان، وفَتِيقُ اللسان .
فإذا كان جَيِّده، فهو لَسِن . ١٠
فإذا كان يضعه حيثُ أراد، فهو ذليق .
فإذا كان فصيحا بَيِّن اللَّهْجة، فهو حُذَاقِىّ .
فإذا كان مع حِدّة اللسان بليغا، فهو مِسْلاق .
فإذا كان لا يعترضُ لسانَه عُقْدة، ولا يتحيَّفُ بيانَهُ عُجْمة، فهو مِصْقَع .
فإذا كان المتكلمَ عن القوم، فهو مِدْرَهٌ . ١٥

فصل

فى عيوبه

الرُّتّة، حُبْسةٌ فى لسان الرجل، وعَجَلة فى كلامه .
اللُّكْنة والحُكْلَة، عُقْدة فى اللسان وعُجْمة فى البيان .
الهَتْهتة (بالتاء والثاء)، حكايةُ التواء اللسان عند الكلام . ٢٠

التَّعتعة (بالتاء والثاء). حكايةُ صوت الألَكنِ والعَيّ .

اللُّثغة . أن يُصيِّر الراءَ لامًا من كلامه .

الفَأْفأة . أن يتردّد في الفاء .

التَّمتمة ، أن يتردّد في التاء .

٥ اللَّفَف . أن يكون في اللسان ثِقَل وانعقاد .

اللَّيَغ ، أن لا يُبَيِّن الكلام .

الفَجْلجةُ . أن يكون فيه عِيّ وإدخال بعض كلامه في بعض .

الخَنْخَنة ، أن يتكلم من لَدُنْ أنفه . ويقال : هي أن لا يُبَيِّن الرجل كلامه فيُخَنْخِن في خياشيمه .

١٠ المَقْمَقة ، أن يتكلم من أقصى حلقه .

فصـــل

في ترتيب العِيّ

يقال : رجل عَيٌّ . ثم حَصِر ، ثم فَهٌّ ، ثم مُفْحَم ، ثم لَجْلاج ، ثم أبْكَمُ .

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : المرءُ مخبوٌّ تحت لسانه .

١٥ وقال شاعر :

وما المَرْء إلَّا الأصغَرانِ : لسانُه * ومعقولُه . والجسم خَلْقٌ مصوَّرُ .

وقال امرؤ القيس :

وذلكَ من نَبَإٍ جاءني ، * وخُبِّرتُه عن أبي الأسْوَدِ .

ولو عن نَثًا غيره جاءني . * وجُرح اللسان كجُرح اليَد .

٢٠ (النَّثا القبيح من الكلام) .

وقال جرير :

لسانِى وسيفِى : صارمانِ كلاهُما ! * وللسَّيفُ أشوى وقعةً من لسانيا !

(قوله أشوى إذا أخطأ المَقْتَل) .

وقال آخر :

وجُرْحُ السيفِ تَدْمُله فيَبْرى ، * وجُرْحُ الدهرِ ما جَرح اللسانُ ! ٥

❖

ومما وصف به حسن الحديث والنغمة ، فمن ذلك قول ذى الرمة :

ولَمَّا تلاقَيْنا ، جَرَتْ من عُيونِنا * دموعٌ كَفَفْنا غَرْبها بالأصابِعِ .

ونِلْنا سُقاطا من حديثٍ كأنهُ * جَنى النحلِ ممزوجًا بماء الوقائِعِ .

وقال أيضا : ١٠

وإنا لَيَجرِى بيننَا حينَ نَلْتقِى * حديثٌ له وَشْىٌ كوشْيِ المَطارِفِ !

حديثٌ كوَقْعِ القَطْرِ فى المَحْلِ يُشْتفَى * به من جَوًى فى داخلِ القَلب ، لاطف .

وقال ابن الرومىّ :

ولقد سئمتُ مآرِبِى ، * فكأنَّ طَيِّبَها خَبِيثْ .

إلَّا الحديثَ فإنَّهُ * مثلُ اسمِه أبدًا حَدِيثْ . ١٥

وقال بشَّار :

وكأنَّ رجْعَ حديثِها * قِطَعُ الرياضِ كُسِينَ زَهْرا .

وكأنَّ تحتَ لسانِها * هارُوتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا .

وتَخالُ ما اشتملَتْ عليه ثيابُها : ذَهَبا وعِطْرا .

وقال البحترى :

فلمّا ٱلتقينا — وٱلتقا موعدٌ لنا — * تعجّب رائى الدُّرّ حُسْنا ولاقطُه.

فمن لُؤْلؤٍ تجلُوه عند ٱبتسامِها، * ومن لُؤْلؤ عند الحديث تُساقطُهْ!

وقال آخر :

ظَلِلْنا نَشَاوى عند أمّ محمدٍ * بنَوْمٍ، ولم نشربْ شرابا ولا خَمْرا!

إذا صمتتْ عنّا، صحَوْنا بصَمْتها، * وإن نطقتْ، هاجتْ لألبابنا سُكْرا.

وقال ٱبن الرومى عفا الله عنه :

وحديثُها السِّحرُ الحلالُ، لوٱنّه * لم يَجْنِ قتلَ العاشق المتحرِّزِ.

إنْ طال لم يُمْلِلْ، وإن هى أوجزَتْ * ودّ المحدِّثُ أنها لم تُوجِزِ.

شَرَكُ القلوب، وفتنةٌ ما مثلُها * للمطمئنّ، وعُقْلةُ المستوفِزِ.

وقال القطامى :

فهنّ يَنْبِذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ به * مواقعَ الماءِ من ذى الغُلّة الصادى.

وقال علىّ بن عطية البلنسىّ :

كلّمتْنى فحلْتُ دُرّا نثيرا، * وتأمّلتُ عِقْدها هل تناثر.

فازْدهاها جمالُها، فأرتْنى * عِقْدَ دُرٍّ من التبسّم آخَر!

وقال الوأواء الدمشقىّ :

وحديثٍ كأنّه * أوبةٌ من مُسافِرِ.

كانَ أحلى من الرُّقا * د لدى طَرْفِ ساهِرِ.

بِتُّ ألهو بطِينِه * فى رِياضٍ زَواهِرِ:
بَيْنَ ساقٍ وسامِرٍ * ومُغَنٍّ وزَامِرِ.

وقال الطائى :

مَدَّتْ إليكَ بنانةٌ أُسْرُوعَا، * تَشْكُو الفِراقَ، ومُقْلةٌ يَنْبُوعا.
كادَتْ لِعِرْفانِ النَّوى ألفاظُها * من رِقَّةِ الشَّكْوى تكون دُمُوعا.

وقال ابن المعتز :

وسِرّ أحاديثٍ عِذَابٍ لَوَ أنَّها * جَنى النحل، لم تَمْجُجْ حلاوتَها النحلُ.

* * *

ومما قيل فى الأذن، الصَّمَعُ، صِغرها .

السَّكَكُ، كونها فى نِهَايَة الصِّغَر .

القَنَفُ ، ٱسترخاؤهما وإقبالهما إلى الوجه .

الخَطَلُ ، غلظهما .

فصل
فى ترتيب الصَّمَم

يقال :

بأذُنه وَقْرٌ .

فإذا زاد ، فهو صَمَمٌ .

فإذا زاد ، فهو طَرَشٌ .

فإذا زاد حتَّى لايسمع الرعدَ ، فهو صَلَخٌ .

* * *

ومما وصف به الصُّدْغ، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتز :

رِيمٌ ! يَتِيهُ بحُسْنِ صُورتِهِ، * عبَثَ الفتورُ بلحظ مُقْلتِهِ.
فكأن عَقْرَبَ صُدْغه وقفَتْ، * لما دَنَتْ من نارِ وجْنتِهِ.

وقال ابن الرومي :

أبدًا نحنُ في خِلاف : فمِنِّي * فرطُ حُبٍّ ومنك لي فرط بُغْض.
فبصُدْغَيْكَ فوقَ خطِّ عذارٍ * ظُلُماتٌ، وبعضُها فوقَ بعض.

وقال الصاحب بن عبّاد :

وعهدي بالعَقارِبِ حينَ تَشْتُو * تُخَفِّفُ لَدْغها وتَقِلُّ ضُرّا.
فما بالُ الشتاء أتى، وهذا * عقاربُ صُدْغِه يزدَدْنَ شرًّا؟

وقال ابن المعتز :

أمن سَبَجٍ في عارِضَيْهِ صَوالِجٌ * مُعطَّفةٌ تُفَّاحَ خدّيه تضربُ؟
وما ضرَّه نارٌ بخدَّيه أُلْهِبتْ * ولكنْ بها قلب المُحِبِّ يُعذَّبُ؟
عناقيدُ صُدْغَيْه بخدَّيْه تلتوي * وأمواجُ ردْفَيْه بخصْرَيْه تَقْلِبُ.
شَربْتُ الهوى صِرْفا زُلالا، وإنما * لواحظُه تَسْقِي وقلبي يَشْرَبُ.

وقال الثعالبي :

وصَوْلجانٍ في يدَيْ شادنٍ * لا يسمَحُ العاشقُ أن يذْكُرَهْ.
وصولجانُ المِسْك في خدِّه * متَّخذٌ حبَّةَ قلبي كُرَهْ.

وقال الناشئ الأصغر :

لك صُدْغٌ كأنما * نُونُه نونُ كاتِبْ.

يلدَغُ الناسَ إذْ تَعَقْـــرَبَ لَدْغَ العقاربْ.

وقال الصاحب بن عبّاد :

ياشادنًا فى وجْهــه عقْربٌ * ما يَسْتجيبُ الدهرَ للراقِى. ٥

يَسْلَمُ خدَّاه على لدغها، * ولَدْغُها فى كَبِدى باقى!

وقال عمر المطوعىّ :

بنفسِىَ مَن تَمَّتْ محاسِنُ وجهه! * فما هُو إلا البدرُ عند تَمامِ.

وأرسلَ صُدْغا فوقَ خدٍّ كأنه * جَناحُ غرابٍ فوق طوقِ حَمامِ.

وقال آخر : ١٠

حَلَّتْ عقاربُ صُدغه فى خَدِّهِ * قَمَرا، بخَلَّ بها عن التشبيهِ!

ولقد عَهِدناهُ يحِلُّ ببُرْجِها * فمن العجائب كيفَ حَلَّتْ فيهِ؟

وقال العماد الأصبهانىّ :

وإذا بَدَا لك صُدْغُه فى وجهه، * أبصرتَه قمرًا بدَا فى العَقْرب!

وقال ابو الفتح كُشاجم : ١٥

ومَنعْنَ وَرْدَ خدودهنَّ فلم نُطِقْ * قَطْفًا لها لعَقارب الأصْداغِ!

✣

ومما وصفت به الخدود والوجَنات، فمن ذلك ماورد على لفظ التذكير .

قال أبو الفتح كُشاجم :

غَدَا، وغَدَا تورْدُ وجنتَيْــه * لعينِ محبه يصف الرِّياضَا. ٢٠

على خدّيهِ ماءٌ عَسْجَدِيٌّ ؛ * فلو نظَر الرقيبُ إليه، غَاضَا.

وقال آخر :

دعوتُ بماء في زُجاج، فجاءني * حبيبي به خَمْرًا نَظَرْتُ له شَزْرا.

فقال : هو المـاء القَرَاح وإنما * تجلَّى له خدّي فأوهمكَ الخمرَا !

٥ وقال أبو القاسم عبد الغفار المصريّ، شاعر اليتيمة :

وَرْدُ الخدودِ أرقُّ من * وَرْدِ الرِّياضِ وأنعَمُ.

هـذا تَنَشَّقُهُ الأنُوفُ * فُ، وذا يقبِّلُهُ الفَمُ.

فإذا عدَلْتَ، فأفضلُ الـ * ـوَرْدَيْنِ وَرْدٌ يُلْثَمُ.

(٢٥)

وقال أيضا (ويروى للوأواء الدمشقي) :

١٠ لا تظلِمُوا الناسَ ولا تطْلبُوا * بثارِيَ اليوم أذَى مُسْلِمِ !

ويا لَقَوْمي دونَكُم شادنًا * معتدِلَ القامة والمَبْسِمِ !

فإنْ أبى إلا جحودَ الهوى * وآكتتم الأمرَ ولم يُعْلِمِ،

قولوا له يكشِفُ عن خدِّه ؛ * فإن فيه نُقَطًا من دمِي.

وقال ابن الرومي :

١٥ وغزالٍ ترى على وجنتيه * قَطْرَ سهميه من دماء القُلوبِ.

لَهْفَ نفسي لتلْكَ من وجَنَاتٍ * وَرْدُها وَرْدُ شارقٍ مهضُوبِ !

أنهلَتْ صِبْغَ نفسِها ثم عُلَّتْ * من دماء القَتْلى بغيرِ ذُنُوبِ.

جرحتْه العيونُ فآقتصَّ منها * بجوًى في القلوب دامي النُّدوب.

وقال أيضا :

يا وجنتَيْهِ اللتينِ من بَهَجٍ * في صُدْغَيْه اللذين من دَعَجِ!
ما حُمرةٌ فيكما : أمن خَجَلٍ، * أم صِبْغةُ الله، أم دَمُ المُهَجِ؟

وقال أبو الفتح البستىّ :

ومُهفْهَفٍ غَنِجِ الشمائلِ أزعجتْ * قلبي محاسن وجهه إزعاجا.
دَرَتِ الطبيعةُ أن فاحِمَ شَعْرِه * ليلٌ فأذْكتْ وجنتَيْه سِراجا.

وقال عبد الله بن المعتزّ :

يا مَنْ يجودُ بموعِدٍ من لحظه * ويصُدّ حينَ أقولُ : أين المَوْعِدُ؟
ويظلُّ صَبّاغُ الحياء بخدّه * تَعِبًا : يُعَصْفِر تارة ويُوَرِّدُ.

وقال الراضى بالله :

يَصْفَرُّ وجهى إذا تأمّلَنِي * خوفًا، ويحمرُّ خدُّه خَجَلا.
حتّى كأنّ الذى بوَجْنته * من ماء وجْهِى إليه قد نُقِلا.

وقال الخُبْزَأرُزّى :

صِلْ بخدّى خَدَّيْكَ، تلْقَ عجيبًا * من معانٍ يَحارُ فيها الضميرُ.
فبخَدَّيْكَ للرَّبيع رياضٌ، * وبخدّى للدُّموع غَدِيرُ.

وقال أيضا :

أظهرَ الكِبْرياءَ من فَرْط زَهْوٍ، * فتلقَّيْتُه بذُلِّ الخضوعِ.
وحَبانِى ربيعُ خدّيْه بالوَرْ * دِ فأمطَرْتُه سَحابَ الدُّموعِ.

وقال الصنوبرىّ :

رَقَّ، فلو كلّفتُه أعيُنَنا * أن يرشَح الخمرَ خدُّهُ، رَشَحا.

وقال المفجّع :

ظَبْيٌ إذا عقربَ أصداغه ، * رأيتَ مالا يُحسِن العقربُ.
تُفّاح خدّيهِ له نَضرةٌ * كأنّه من دَمْعتي يَشْرَبُ.

وقال آخر :

٥ ومُبيحُ أسرارِ القُلو * ب بوجنتَيْه وحاجِبَيْه.
جمع الإلهُ له المحا * سنَ ثم أفرغَها عليه.
وكأنّ مِرآتين عُلّقتا بصفحة عارضَيْه.
وكأنّ وَرْدَ الجُلّنار مُضعَّف في وجنتَيْه.

وقال عليّ بن عطيّة البلنسيّ في غلام جُرِح خدّه :

١٠ وأحْوَى رَمَى عن قِسيّ الحَوَرْ * سهامًا يُفوِّقُهنّ النظَرْ.
يقولون : وجنتُه قُسِّمَتْ * ورسمُ محاسنه قد دَثَرْ.
وما شَقَّ وجنتَه عابثًا * ولكنّها آيةٌ للبَشَرْ.
جَلاَها لنا اللهُ كيما نَرى * بها كيفَ كان انْشقاقُ القمرْ.

* * *

١٥ ومما وصفت به على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ :

نُجْلُ العُيون ، سواحِرُ اللحَظاتِ * هيَّجْنَ منك سواكنَ الحَرَكاتِ.
أقبلْنَ يرمين الجِمار تنسُّكًا، * فجعلْن قلبَك موضعَ الجَمَراتِ.
فكأنهنّ غُصونُ بانٍ ناعمٍ * يحملْنَ تُفّاحا على الوَجَناتِ.

وقال ابن الرومى :

تَشْرَعُ الألحاظ فى وجْنتها * فتُلاقى الرِّىّ من مَشْرَبِها .
فَهْى حَسْبُ العينِ من نُزْهتها * وهْى حَسْبُ الأُذْن من مَطْرَبِها .

وقال ديك الجن :

بأبى الثلاثُ الآنسا * تُ الرائقاتُ الغانِيَاتْ !
أقبلْن ، والأصداغُ فى * وجَناتهنّ مُعَقْرَباتْ !
ألفاظُهنّ مؤنّثا * تٌ والجُفُون مُذَكَّراتْ !
حتّى إذا عاينتهنّ * وللأمُور مسبِّباتْ ،
جمّشتَهنّ ، وقلتَ : طيـ * ـبُ عِناقكُنّ هو الحياةْ !
فخجلْنَ حتّى خلتُ أنّ * خدودَهنّ معصْفَراتْ .

* * *

(١٦) ومما وصفت به الخيلان ، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير .

قال بعض الشعراء :

فى الساعدِ الأيمنِ خالٌ له * مثلُ السُّويْداءِ على القَلْبِ .
كأنه من سَبَجٍ فاحِمٍ * مُرَكَّبٍ من لُؤْلؤ رَطْبِ .

وقال ابن منير الطرابلسى :

لاحَ لنا عاطِلًا ، فَصِيغ له * مَناطِقٌ من مَراشِقِ المُقَلِ .
حياةُ رُوحى وفى لواحِظِه * حَتْفِى بين النَّشاطِ والكَسَلِ .
ما خالُهُ مِنْ فَتيتِ عَنْبرِ صُدْ * غَيْه ولا قَطْرِ صبْغة الكَحَلِ .
لكنْ سُوَيداءُ قلبِ عاشِقِهِ * طفَتْ على نارِ وَرْدَةِ الخجَلِ .

وقال أيضا :

أنكرتْ مُقْلَتُه سَفْكَ دمي، * وعلى وجْنَتِه فاعترفتْ.
لا تخالُوا خالَهُ في خدِّه * قطرةً من صِبْغ جَفْنٍ نطفتْ.
تلكَ من نار فُؤادي جَذْوةٌ * فيه ساخَتْ وانطفتْ ثم طفتْ!

٥ وقال آخر :

لاتخالُ الخالَ يعلُو خدَّهُ * نَقْطَ مِسْك ذابَ من طُرَّتِهِ.
ذاك قلبي سُلِبتْ حبَّتُهُ * فاستوتْ خالًا على وجْنتِه.

وقال ابن منير :

كأنَّ خدَّيْهِ ديناران قد وُزِنا * وحَرَّرَ الصَّيْرَفيُّ الوزْنَ واحتاطا.
١٠ فخفَّ إحداهما عن وَزْنِ صاحبه، * فحطَّ فوقَ الذي قد خفَّ قيراطا.

وقال آخر :

أضحى ليوسُفَ في الجمالِ خَليفةً، * يخشاهُ كلُّ العالمين إذا بَدَا.
عَرِّجْ معي وانظر إليه لِكَيْ ترى * في خدِّه عَلَمَ الخلافةِ أسودَا.

وقال آخر :

١٥ كم قلتُ للنفس : إليه اذهَبي، * فحُبُّه المشهورُ من مَذْهَبي!
مُهفهفُ القَدِّ له شامَةٌ * من عَنْبرٍ في خدِّه المُذْهَبِ.
آيِسني التوبةَ من حُبِّه * طلوعُه شمسًا من المَغْرِبِ!

وقال آخر :

ومُهفْهَفٍ من شعره وجبينِه * يغدُو الوَرَى في ظُلمةٍ وضِيَاءِ.
٢٠ لاتنكروا الخالَ الذي في خدِّه * كلُّ الشقيق بنُقْطةٍ سوداءِ.

وقال آخر :

لَهيبُ الخدّ حينَ رأتْه عيني * هوى قلبي عليه كالفَرَاشِ.
فأحرقَهُ فصار عليه خالًا * وها أثرُ الدُّخَان على الحَوَاشِي!

وقال آخر :

بَدَا على خدِّهِ خالٌ يزيِّنُه * فزادني شغفًا منه إلى شَغَفي.
كأنَّ حبَّةَ قلبي عند رُؤيته * طارتْ فقلتُ لها : في الخدِّ منه قِفي!

وقال آخر :

خِيلانُ خدِّك ردّتْ * صحيحَ قلبي مَريضا.
في العين سُودٌ، ولكنْ * مازِلْنَ في القلب بيضا.

وقال آخر :

خدُّك مِرآةُ كلِّ حُسنٍ * يحسُنُ من حسنها الصِّفاتْ.
مالي أرى فوقَهُ نُجومًا * قد كُسِفَتْ وهي نَيِّراتْ؟

وقال آخر :

حجَّتْ إلى وجْهك أبصارُنا * طائفةً، يا كعبةَ الحسْن!
تمسحُ خالًا منك في وجْنةٍ * كالحجَر الأسود في الرُّكْن.

وقال الأسعد بن بليطة :

سكرانُ لا أدْري ـ وقد وافى بنا ـ * أمِن المَلاحةِ أم من الخِرْيالِ.
تتنفَّسُ الصَّهباء في لَهَواتِه * كتنفُّس الرَّيْحان في الآصالِ.
وكأنما الخِيلانُ في وجَناتِه * ساعاتُ هَجْرٍ في لَيَال وصالِ.

❖

ومما وصفت به على لفظ التأنيث ، فمن ذلك قول أبي الفتح كشاجم :

فديتُ زائرةً في العيد واصلةً * لمستها ثم بها للوصل منتظر.
فلم يزل خدُّها ركنًا ألوذُ به، * والخالُ في صحنه يُغني عن الحجر.

٥ وقال العباس بن الأحنف :

ومحجوبةٍ في الخِدْر عن كلِّ ناظر، * ولو برزتْ، ماضلَّ بالليل مَنْ يَسْرِي.
بخالٍ بذاك الخد أحسنَ منظرا * من النُّقطة السَّوداء في وَضَح البدر.

❖

ومما قيل في العذار، فمن ذلك ماورد فيه على سبيل المدح .

١٠ قال مانى الموسوس عفا الله عنه ورحمه :

وماغاضتْ محاسنُه، ولكنْ * بماء الحُسْن أورقَ عارضاهُ.
سمعتَ به فهِمتَ إليه شوقًا! * فكيفَ لك التصبُّر، لو تراهُ؟

وقال أبو فِراس :

مِن أينَ للرشإ الغريرِ الأحوَرِ * في الخد مثلُ عِذاره المتحدِّرِ؟
يامَنْ يلومُ على هواه سَفاهةً! * أنظُر إلى تلك السوالف، تَعْذُرِ.
قمرٌ كأنَّ بعارضيه كليهما * مِسكٌ تساقطَ فوق وردٍ أحمرِ.

وقال ابن المعتز :

سالتْ مسايلُ عارضَيْه بنفسجا في وَرْده.
فكأنَّهُ من حُسْنِه * عَبَثَ الربيعُ بخدِّه.

وقال الخبّاز البلدى :

وعارضٍ مثل دارة البَدْرِ * دارَ بوجهٍ كليلةِ القَدْر.
فلَوْ تراهُ وحسنَ منظَرِه، * شهدْتَ أنّ الجمال للشَّعْر.

وقال ابن المعتزّ :

وتكادُ الشمسُ تُشْبِهُهُ * ويكادُ البدرُ يَحْكِيه. ٥
كيف لا يخضَرُّ عارضُه، * ومياه الحُسْن تسقيه؟

وقال محمد بن وهب :

صُدُودُكَ فى الورى هَتَكَ استتارى، * وساعده البكاءُ على اشتهارى.
ولم أخْلَعْ عِذَارِى فيك إلّا * لِمَا عاينتُ من حُسْنِ العِذارِ.
وكم أبصرتُ من حُسْنٍ، ولكنْ * عليك من الورى وقعَ اختيارى. ١٠

وقال أبو الفرج الوأواء :

وشَمْسٌ بأعلاه ولْبلانِ أسْبِلا * بخدّيْه، إلا أنّها ليس تَغْرُبُ.[1]
ولمّا حوى نصفَ الدجى نصفُ خدّه * تحيّرَ حتّى مادرى أين يَذْهَبُ.

وقال الخُبْزأرزى :

أُنظر إلى الغُنْجِ يجرى فى لَواحِظِه، * وانظرْ إلى دَعَجٍ فى طَرْفه الساجى! ١٥
وانظُر إلى شَعَراتٍ فوق عارِضِه * كأنهنّ نِمالٌ سِرْنَ فى العاج!

وقال أيضا :

وجهٌ تكاملَ حُسْنُه * لما تطرّفه عِذارُهْ.
والسيفُ أحسنُ ما ترَى * ما كان مُخْضَرًّا غِرارُهْ.

(١) فى الأصل : "لين" . والتصويب عن اليتيمة . ٢٠

وقال الأمير سيف الدين المشد :

ولائمٍ في عِـذار بَـدْرٍ * لم أستطِعْ عن هواه مَيْلا .
فقلتُ، والدمعُ في جُفـونِي * لفرطِ وجدي تسيل سَيْلا :
ضَلَلْتُ في خَـدِّه نهارا ! * كيفَ رشادي، وصار ليلا؟

وقال أيضا :

ولَمَّا أن بدا في الخد شَـعْرٌ * توقَّف عند منتصَفِ العِـذارِ .
فقلتُ للائمي فيـه : تعجَّبْ * لنصف الليل في نِصْف النهار!

وقال أيضا :

ومُهفهفٍ يَحْمي وُرُودَ رُضابِه * بصوارِمٍ سُلَّتْ من الأجفانِ .
كتب العِـذارُ بليقةٍ مِسْكيَّةٍ * في خدّه سَطْرا من الرَّيْحان .

وقال أيضا :

يقـولُ العَـواذلُ لَمَّا بدا * على خـدِّه شـعَرٌ زائرُ:
ذَوَى وَرْدُ خدّيه، قلت : اقْصروا * فنرجِسُ ألحاظِـهِ وافِـرُ!

وقال آخر :

وقالوا : تسلَّ فقد شانَهُ * عِذارٌ أراحك من صَدِّه .
فقلت : وهِمْتم، ولٰكنَّني * خلَعْتُ العِذارَ على خدِّهِ .

وقال آخر :

بروحِي وقلبي ذلك العارضُ الذي * غدا مسْكُه فوق السَّوالف سائلا .
درَى خدُّه أنِّي أُجَنُّ من الهوَى ، * فأظهر لي قبل الجُنون سَـلَاسلا!

وقال آخر :

أصبحتُ مأسورًا بغُنج لِحاظه * ومقيَّدًا من صُدْغه بسلاسِل.
حتّى بدا سيفُ العذار مجرَّدا * فخشيتُ منه ، فقلتُ هذا قاتِلي!

وقال آخر :

قالت : أسودَّ عارضاكَ بشَعْرٍ ، * وبه تقبُح الوجوهُ الحِسانُ! ٥
قلتُ : أشعلْتِ في فؤادي نارًا ، * فعلى عارضَيَّ منه دُخَان!

وقال آخر :

قلتُ ، وقد أبصرتُه مُقْبِلًا * وقد بدا الشَّعْر على الخدِّ :
صُعودُ ذا النملِ على خدّه * يشهد أن الرِّيق من شَهْدِ. (٢٨)

١٠ ومثله قول الآخر :

قالوا : ألتحى ، فأصبُ إلى غيره! * قلتُ لهم : لستُ إذًا أسْلُو!
لو لم يكُنْ من عسلٍ رِيقُه ، * ما دَبَّ في عارضه النملُ.

وقال آخر :

عِذارُه أحسنُ ما فيه ، * وتيهُه من أحسنِ التِّيهِ.
في فِيه الشَّهْد ، فلا تعجَبُوا * إن دَبَّ نملٌ بعذاريهِ. ١٥

وقال آخر :

أصلَى بنار الخدِّ عنبر خاله * فغدا العذارُ دُخانَ ذاك العنبرِ.

وقال آخر (وقد تقدم إيراده في صفاء الخدّ)

أعِدْ نظرًا ، فما في الخدّ نبتٌ * حماه اللهُ من رَيْب المَنُونِ!
ولكن رقَّ ماءُ الوجه حتّى * أراكَ مثالَ أهدابِ الجُفُونِ. ٢٠

ومثله قول الآخر (وقد تقدم إيراده) :

ولَمَّا ٱستدارَتْ أعينُ الناس حوْلَهُ * تُلاحظُه كيف ٱستقلَّ وسارا،
تمثَّلت الأهدابُ في ماءِ وجهِه * فظنُّوا خيال الشِّعْر فيه عِذارا.

وقال الحاجري :

٥ وما ٱخضرَّ ذاكَ الخدُّ نَبْتاً، وإنما * لكثرة ما شُقَّت عليه المَرائرُ.

وقال آخر :

يالائمي في حُبِّ ذي عارضٍ، * ما البَلَدُ المُخصِبُ كالماحِلِ!
يَموجُ ماء الحسنِ في وجهِهِ * فيَقْذِفُ العنبَرَ في الساحل.

وقال آخر :

١٠ ولَمَّا بدَا خطُّ العِذار بوجهِهِ * كظُلْمةِ ليل في ضِياء نهار،
تغلْغَلَ في قلبي هواه فلم أزَلْ * خليعَ عِذار في جَديدِ عِذار.

وقال آخر :

قالوا: ٱلتحَى، فامتحَتْ بالشِّعر بهجَتُه! * فقلت: لولا الدُّجَى لم يحسُنِ القمرُ.
مَن كان منتظِرا للصبر عنه بِهِ، * فإنَّني لغَرامي كنتُ أنتَظِرُ.
١٥ خَطَّتْ يدُ الحسنِ منه فوق وجنَتِه: * هذي محاسنُ، يا أهلَ الهوَى، أُخَرُ!

وقال آخر :

وقلتُ: الشِّعْر يُسْلِيني هواه! * ولم اعلم بأنَّ الشِّعْر حَيْني.
فَظَلْتُ لِشقْوتي أفْدي وأحمي * سوادَ عِذاره بسَوادِ عيني.

وقال محمد بن عبد الله السلامي، شاعر اليتيمة :

٢٠ عذارُكَ جادتْ عليه الرِّيا * ضُ بأجْفانها وبآماقها.

وطال غرامُ الغَـــوانِي به * فقـــد طَرَزَتْهُ بأحداقهـا.

وقال ٱبن سُكَّرَةَ الهاشمىّ :

وغزالٍ لولا نميمـــةُ شَـــعْر * ذكَّرتْه، لقلتُ: إحدى الجَوارى.
شاربٌ أشْرَبَ الصَّـبابةَ قلبِى، * وعذارٌ خلعْتُ فيـــه عِذارى.

وقال آخر : ٥

قالوا: ٱلتحَى وستَسْلُوعنه، قلتُ لهم: * هل يحسُن الروضُ مالم يطْلُعِ الزَّهَرُ؟
هَـلِ ٱلتحَى طَرْفُهُ الساجى، فأهْجُرَه؟ * وهـــل تَزحْزَح عن ألحاظه الحَوَرُ؟

وقال أبو الفتح كُشاجم :

مَنْ عَذِيرى من عِذارَىْ قمرٍ، * عرّض القلْبَ لأسبابِ التلَفْ؟
زِيدَ حُسْـنًا وضياءً بهـما، * فهُو الآنَ كبَدْرٍ فى سَدَفْ. ١٠
خَمَّشَا خـــدَّيْه ثم ٱنعطَفَا، * آه ما أحسنَ ذاك المنعطَفْ!
عَلِمَ الشَّـــعْرُ الذى عاجَـــلَهُ * أنه جارَ عليـــه، فَـــوقَفْ.
فهـــو فى وقْفته معـــتَرِفٌ * بالتناهِى فى التعدِّى والسَّرَفْ.

وقال آخر :

لاتعتقِدُوا مالاح فى وجْنَتِـــهِ * شَعرا، غَلَطًا! ماذاك من شِمتِه! ١٥
بل ساكنُ ماءِ الحسن قد حرَّكه * مَوْجٌ قذف العنبرَ فى حافَتِـه.

وقال عبد الله بن سارة الإشبيلىّ :

ومُعذِّرٍ رقَّت حواشى حُسنِه، * فقـلوبُنا حَذَرًا عليـــه رِقاقُ.
لم يُكسَ عارضُه السوادَ، وإنما * نفضَتْ عليه صباغَها الأحداقُ.

وقال أبو بكر الدانيّ، شاعر الذخيرة :

بدا على خدّه عِـــذارٌ * في مثله يُعذَر الكَئيبُ.
وليس ذاك العِذارُ شَعْرًا، * لكنّما سِـــرُّه غَريبُ.
لَمّا أراق الدماء ظُلْمًا، * بدتْ على خدّه الذُّنوبُ.

٥ وقال عبد الجليل الأندلسيّ :

ومُعذَّرِين كأنما بخُدودِهِمْ * طُرُقُ العيون ومَنْهَجُ الأوداجِ.
وكأنما صقَلُوا الجمالَ فأظهرُوا * مَشْيَ النِّمال على مُتُون العاجِ.

✦ ✦ ✦

ومما وصف به العِذار على طريق الذمّ، فمن ذلك ما قاله الوزير أبو المغيرة
١٠ ابن حَزْم، عند ما عُرِضت عليه رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب إليه وُدّه بعد أن عَذَّره، قال :

«ورد كتابك يَنْشُد ضالّةَ وُدّنا . ويَرْقَع خَلَقَ عهدنا ، ويطلُب ما أفاءتْه جريرتك «إلينا، وذهبتْ به جنايتُك علينا ، أيامَ غصنُك ناضر، وبدرُك زاهر ، لانجد رسولا «إليك، غير لحظة تَخْرِق حجاب الدموع، أو زفرةٍ تُقيم مُنْآدَ الضُّلوع ، فإن رُمْنا شكوى
١٥ «يَنْفُث بها مَصْدُورنا ، ويستريح إليها مَهْجورنا ، لقينا دُونَها أمنع سدّ ، وأقبح كفّ «وصدّ، وأقدح ردّ .

وفي فصل منها :

«حتّى إذا طَفِئتْ تلك النِّيران ، وانتصف لنا منك الزمان ، بشَـــعَراتٍ أغشَتْ «هلالَك كُسوفا، وقلبَتْ ديباجكَ صُوفا ، وأعادت نهارَك ليلا ، وناحتْ عليك تلَهُّفا

«ووَيْلا ، وأطار حَمامَك غرابُك ، وحجب ضِياءَك ضَبابُك ، فصار عُرْسك مأتَما ،
«وعاد وصلُك محرما ، قال القائل :

«وبِتَّ مُداما تُسِرُّ النزيف * فأصبحتَ تُجْرَع خَلًّا ثقيفا .
«وصرتَ حِجازًا جديبَ المَحَلّ ، * وقد كنتَ للطالب الخِصْبَ ريفا .

«أقبلْتَ تتسلّل إلينا لِواذا ، وتطلُب منا عِياذا ، قد أنساك ذُلُّ العزل عِزَّ الولايه ، ٥
«وأولاك طمعا نِسيانُنا تلك الجنايه ، أيّامَ ترشُقنا سهامُ ألحاظك رَشْقا ، وتقتُلنا سيوفُ
«ألفاظك عِشْقا ، وتَميس غصنا ، فتثير حُزْنا ، وتطلعُ شمسا ، فتفتّت نفسا .

«فالآن نلقاك بدمع قد جَفّ ، ووجْد قد كَفّ ، وعزاء قد أبَدّ ، وصبر قد أغار
«وأنجد ، وننظر منك إلى روض قد صَوّح ، وسارٍ قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ،
«ومُبهَم قد صرّح . فلا شكّ قد رُفع الغطاء ، ولا إفكَ قد بَرِح الخفاء ، ولا لومَ قد وقع ١٠
«الجزاء . وهلّا ذكرت المَثَل الممتهَن " الصَّيْفَ ضَيَّعتِ اللبن ! " ونسيتَ من أحرقتَ
«قلبه صدّا ، وأقلقت جنبه رَدّا ، وملأت جوانحه نارا ، وتركتَ نومه غِرارا ،
«أن يُوفيَك قَرْضا ، ويجازيَك حتّى ترضى ، حين نُكِّس علَمُك ، وعثرت قدمُك ،
«وضاقت طُرُقك ، وأظلم أُفُقك ، وهوى نجمُك ، وخاب قِدْحُك ، وفُلّ سيفُك ، وحُطّ
«رُمْحُك ، فأطْوِ ثوبَ وصلك فلا حاجة لنا إلى لباسه ، وأزْوِ طارقَ شخصك فلا رغبةَ ١٥
«لنا في إيناسه ، فما يشتهي اليومَ زيارةَ رمْس ، مَنْ زَهِد فيه أمس . قال :

«حانتْ منيتُه فاسودّ عارضُهُ ، * كما تُسوّدُ بعد الميّت الدارُ .
«يامن نَعَتُه إلى الإخوان لِحيتُه ، * أدبرتَ ، والناسُ إقبال وإدبارُ !
«فيالدهرٍ مضى ما كان أحسنَهُ ! * إذ أنت ممتنعٌ والشَّرْطُ دينار .
«أيّامَ وجهُك مصقولٌ عوارضه ، * وللرياض على خدّيكَ أنوارُ !

وقال علىّ بن نصر الكاتب تعزيةً لمن طلعت لحيته :

«لكل حادثة يفجع بها الدهر — أحسن الله معونتك — حدّ من القلق والألتياع، «ومَبْلغ من التحرّق والارتياع؛ تستوجب فنًّا من التعزيه، وتستحق نصيبا من العظة «والتسليه؛ والاختصار فيها لما قرب خطبه وشانه، والإكثار لما جلّ محلّه «ومكانه .

«ومُصابُك هذا — أعانك الله — في بياض عارضك لما اسودّ، كمُصابك في سواده «إذا ابيضّ؛ والألم بياض رَوْضه جميا، نظير الألَم به يوم يعود هشيما .

«فليس أحد يدفع عظيمَ النازل بك، ولا يستصغر جسيمَ الطارق لك؛ وإن كان «ما يتعقبه من المشيب أقذى للعيون .

«التفتتْ عنك النواظر، وكانت ملتفتة إليك، ووقفت عنك الخواطر، وكانت (٣٠) «موقوفة عليك؛ وصيّرك قَذى الأجفان وكنت جِلاها، وجعلَكَ كُرْبة النفوس «وكنت هواها؛ وأبدلك من أنس التقبل، وحشة التنقل؛ وعوّضك من رقة الترفرف، «كلفة التأفّف؛ فتبارك الله الذي صرف عنك الابصار، وثقّل فيك الأطوار! ... ...

... ...

«ثم لاحيلة، فإنها الأيام التى لا تثبت على حاله، ولا تعرف غيرَ التنقل والاستحاله!
«فآجرك الله فى وجه نَضَب ماؤه، وذهب رُوَاؤه ومات حَياؤه! وفى ضيعة آستأجم
«بُرُّها، وآستدغل نَوْرها، وأسبع طريقُها، وآتسعت تَنُوفتُها! وفى جاه كان عامرا
«فخَرِب، ودَخْل كان وافرا فذهب، وتَذْكار كان واصلا إلى القلوب فحُجِب!
«فأصبحتَ مسبوق السكّيت، وظِلْت حيا وأنت الميْت؛ فلا حول ولا قوّة إلا بالله ٥
«من مِحَنٍ دُفعتَ إليها، ولم تُعَنْ بحال عليها.

«وقد يشغل الإنسانَ عن نوائبه المشاركون فيها، ويسلّيه عنها المساهمون فى مَعْنَى
«معانيها؛ وأنت من بين هذه المنزلة لا شريك لك، فإنهم يعتاضون عنها ولستَ
«بمعتاض، ويركُضُون للعيش ولست بركّاض. والدهر يطوِى محاسنَكَ طىَّ السجلّ
«كتابه، وينشر مَقابحك نشر اليمانى أثوابه. ويَمَلُّ الطرف رؤيتك فلا يُفيق عليك ١٠
«جفنا، ويمجُّ السمع ذكرَك فلا يجد عنده أذنا.

ومنها:

وقد جعلتُ رُقعتى هذه جامعةً بين البكاء عليك والأنين، وناظمةً بين العزاء والتأبين. لها حلاوةُ النثر، وعليها طَلاوة الشعر. تحيّتها قريحةٌ عليك، ونسجتها خواطر خاطرت إليك؛ تخفّف غرامك والناس مشاغيلُ بتثقيله، وتكرم مكانك والإجماع ١٥ واقع على تهوينه. فإن عرفتَ لى ذاك، وإلا عرفه الصّدق؛ وإن شكرنه، وإلا شكره الحق.

والسلام عليك من أسير لايخلص بالفدية، وقتيل بسيف السِّبال واللحية.»

وقال الصنوبرىّ:

ما بدَتْ شَعْرةٌ بخَدِّك إلّا ∴ قلتُ فى ناظرىَّ أو فى فُؤادِى. ٢٠

أنت بدرٌ جَنَى الخسوفُ عليه * ظلمةً، لا أرى لها من نَفَاد.
فاسوداد العِذارِ بعدَ ٱبيضاضٍ * كٱبيضاضِ العِذار بعد ٱسْوِدادِ.

وقال آخر :

أصبحَ نَحْسًا ـ وكان سَعْدا ـ * مَنْ كان مَوْلًى فصار عَبْدا.
بكى على حُسْنِهِ زمانا، * لما رأى الشَّعْرَ قد تَبَدّى. ٥
لو نَبت الشَّعْرُ في وِصالٍ، * لعادَ ذاكَ الوِصالُ صَدّا!

وقال الخبزأرزى :

بَدا الشَّعرُ في وَجْهه، فٱنتقَمْ * لعاشِقِه منه لَمّا ظَلَمْ.
وما سلَّطَ اللهُ نَبْتَ اللِّحى * على المُرْدِ إلّا زَوالَ النِّعَمْ.
تَوَحَّشتِ العينُ في وجْهِه، * وحَقّ لها وحشَةٌ في الظُّلَمْ. ١٠
إذا ٱسْودّ فاضلُ قِرْطاسِه، * فما ظَنُّه بمَجارِي القَلَمْ؟
ولم يَعْلُ في خَدِّه كالدُّخا * ن إلّا وأسْفَلُه كالحِمَمْ.

وقال التَّنُوخىّ :

قلْتُ لأصحابِي، وقد مَرّ بِي * مُنْتقِبًا بعدَ الضِّيا بالظُّلَمِ:
بالله، يا أهْلَ وِدادِي! قِفُوا * كَيْ تُبْصِرُوا كيْفَ زَوالُ النِّعَمِ! ١٥

وقال إبراهيم بن خَفاجة الأندلسىّ في ملتحٍ :

ما للعِذارِ، وكانَ وَجْهُكَ قِبلةً، * قد خَطَّ فيه من الدُّجى مِحْرابا.
وإذا الشَّبابُ ـ وكان ليس بخاشِعٍ ـ * قد خَرّ فيه رَاكعا، وأنابا.

وقال أيضا :

وافى بأوله صحيفةُ صَفْحةٍ * جعل العِذارُ بها يَسِيل مِدادَا.
متَجَهِّما نُكْلَ الشَّبابِ كأنما * لَبِس العِذارَ على الشَّباب حِدَادا.

وقال عمر المطوعىّ، من شعراء اليتيمة :

غَدَا — منذُ ٱلتحى — لَيْلًا بهيما، * وكان كأنَّه القَمَرُ المُنِيرُ. ٥
فقد كتَبَ السَّوادُ بعارِضَيْهِ * لمن يقرأ : "وجاءَكُمُ النَّذِير".

وقال عبد الجليل الأندلسىّ، من شعراء الذخيرة :

(٣١) وأمْرَدَ يَسْتَهِيمُ بكل وادٍ * ويَنْصِب للحَشَا خدًّا صَلِيبا.
دعوتُ دُعاءَ مظلومٍ عليه، * وكان الله مستمِعًا مُجِيبا.
فَطَوَّقه الزمانُ بما جَنَاه * وعلَّق من عِذَارِيه ذُنُوبا. ١٠

✦
✦ ✦

ومما قيل فى العُنُق، يقال :

الجَيد، طولها — التَّلَع، إشرافها — المَنَع، نطامُنُها — الغَلَب، غِلَظُها — البَتَع، شِدَّتُها — الصَّعَر، ميلُها — الوَقَص، قِصَرها — الخَضَع، خُضُوعها — الحَدَل، عوجها. ١٥

وقال دِعْبِل :

أتاحَ لكَ الهوى بيض حِسَانٌ * سلَبْنكَ بالعُيونِ وبالنُّحُورِ.
نَظَرْتَ إلى النُّحور فكِدْتَ تَقْضِى * فأوْلى لو نظَرتَ إلى الخُصُور.

وقال قيس بن الخطيم :

وجيدٍ كجيد الرِّيم صافٍ يزينه * توقُّدُ ياقوتٍ وفَصْلُ زَبَرْجَد .

كأنَّ الثريَّا فوقَ ثُغْرة نَحْرها * تَوَقَّدُ في الظَّلْماء أيَّ تَوَقُّـدِ .

❖ ❖ ❖

٥ ومما قيل في اليد إذا باشرَتْ ما يَعْلَق بها، يقال :

من اللحم غَمِرة، ومن الشحم زَهِمة، ومن السمن نَسِمة، ومن الزُّبد وَضِرة، ومن الجُبن نَشِمة، ومن اللبن مَذِقة، ومن البَيْض زَهِكة، ومن السمك صَمِرة، ومن الزيت قَنِمة، ومن الخمر عَتِكة، ومن الخل خَمِطة، ومن العسل ونحوه لَزِجة، ومن الطِّيب عَطِرة، ومن الغالية عَبِقة، ومن الزعفران رَدِعة، ومن العنبر لَطِخة، ومن

١٠ الحَلُوق ضَمِخة، ومن الحنَّاء قَنِئة، ومن الدم ضَرِجة، ومن الماء بَلِلَة، ومن الطين لَثِقة رَدِغة، ومن البرد صَرِدة، ومن التراب كَثِبة رَغِضرة، ومن القار حَلِكة، ومن الفحم حَمِمة، ومن المداد طَرِسة، ومن الحديد سَهِكة، ومن الفضة سَبِكة، ومن الذهب نَضِرة، ومن النار شَعِلة، ومن الرياحين فَوِحة، ومن البقل زَهِرة، ومن الفاكهة الرطبة لَزِقة، ومن اليابسة فَكِهة، ومن العمل مَجِلة رَفِطة، ومن الخُشُونة

١٥ شَثِنة رَثِفنة، ومن الشوك مَشِطة رَشِظية، ومن الحطب حَزِمة، ومن الرمح كَعِبة، ومن الصولجان لَعِبة، ومن الجود سَبِطة، ومن العطية مَنِحة، ومن البخل جَعِدة، ومن المنع لَحِزة، ومن العدم تَرِبة، ومن الرزّ زَنِخة، ومن الصابون حَفِرة، ومن الفِرصاد قانِية، ومن الرجيع قَثِمة، ومن كل القاذورات قَذِرة، ومن الوسخ دَرِنة . اهـ

❖

ومما مُدِحت به اليدُ، قال مؤيد الدين الطُّغرائى :

ويدٍ تُمِدُّ المالَ راحتُها * أبدًا، ويغمُرظهرَها القُبَلُ.
إن ضَنَّ غيثٌ أوخَبَا قمرٌ، * فجبينُه ويمينُه البَدَلُ.

وقال عبد المؤمن بن هبة الله الأصبهانىّ ٥

قالوا: بدَتْ عارِضةٌ لابدَتْ! * فى كفِّ ذاكَ السيِّدِ الأوحدِ.
راحتُه راحةُ من يَجْتدِى، * وكفُّه كفُّ الذى يَعتدِى.
فلا أصابتْ يَدَه آفةٌ! * فكم يدٍ عندى لتلك اليدِ!

وقال ابن دُرَيد :

يامَنْ يقبِّلُ كفَّ كلِّ مُمَخْرِقٍ، * هذا ابن يحيى ليس بالمِخْراقِ! ١٠
قَبِّلْ أنامِلَهُ، فلسْنَ أنامِلًا، * لكنهنَّ مَفاتحُ الأرْزاق!

وقال إبراهيم بن العباس بن محمد :

لفضلِ بنِ سَهْلٍ يدٌ * تقاصَرَ عنها المَثَلْ.
فبا طنُها للنَّدَى، * وظاهِرُها للقُبَلْ.
وبَسْطتُها للغنَى، * وسَطْوتُها للأجَلْ. ١٥

وقال ابن الرومىّ :

فامْدُدْ إلىّ يدا تَعوَّدَ بطْنُها * بذلَ النَّوالِ، وظَهْرُها التقبيلا.

وقال أبو نُوَاس :

يا قَمَرًا، أبرزَهُ مأتَمٌ * يَنْدُبُ شَجْوا بين أتْراب!
يَبكى فيُذْرِى الدُّرَّ من نَرْجِس، * ويَلْطِمُ الوَرْدَ بعُنَّاب.

وقال الناشي :

من كفِّ جاريةٍ كأنَّ بَنانَها * من فِضَّةٍ قد طُرِّفت عُنَّابا.
وكأنَّ يُمناها إذا نَطَقَتْ بها * تُلْقي على يدها الشِّمالِ حِسَابَا.

وقال الراضي بالله :

قالوا: الرَّحيلَ! فأنْشبت أظفارَها * في خَدِّها، وقد اعتلقْنَ خِضَابا.
فاخضَرَّ تحتَ بَنانِها فكأنَّها * غرسَتْ بأرضٍ بنَفْسَجٍ عُنَّابا.

وقال ابن كيغلغ :

لَمَّا اعتنقْنَا للوَداع وأعربَتْ * عَبَراتُنا عنَّا بدَمْعٍ ناطقِ، (٣٢)
فرَّقْنَ بينَ مَعاجِرٍ ومحاجِرٍ، * وجمعْنَ بين بَنفْسَجٍ وشَقائقِ.

وقال كُشاجِمُ :

فما أنسَها، لا أنسَ منها إشارةً * بسَبَّابةِ اليُمنى إلى خاتمَ الفَمِ!
وأعلنتُ بالشكوى إليها فأومأَتْ * حِذارًا من الواشينَ أنْ لا تكلَّمِ.
فلم أرَ شَكْلًا واقعًا فوقَ شَكْلِه * كعُنَّابةٍ تُومِي بها فوقَ عَنْدَمِ.

❖ ❖ ❖

ومما قيل في النهود، يُقال :

ثُنْدُوة الرَّجُل، ثَدْي المرأةِ، خِلْف الناقةِ، ضَرْع الشاة والبقرة، طُبْيُ الكَلْبة.

قال ابن الرومي :

صُدورٌ فوقَهُنَّ حِقَاقُ عاجٍ، * وحَلْيٌ زانَهُ حُسْنُ اتِّساقِ!
يقولُ الناظرونَ إذا رأَوْها: * أهذا الحَلْيُ من هذي الحِقَاقِ؟
وما تلْكَ الحِقَاقُ سِوَى ثُدِيٍّ * قُدِرْنَ من الحِقَاقِ على وِفَاقِ.

نَواهِدُ لا يُعَدُّ لهنَّ عيبٌ * سِوى مَنْعِ المُحِبِّ من العِناقِ.

وهو مأخوذ من قول بعض الأعراب :

أَبَتِ الرَّوادِفُ والثُّدِيُّ لقُمْصِها * مَسَّ البُطونِ، وأن تَمَسَّ ظُهُورا.

وقال محمد بن مبادر :

ولَهَا ثَدْيانِ ماعَدَوَا * من حِقَاقِ العاج أن كَعَبا. ٥

قُسِمَتْ نِصفَيْنِ دِعْصَ نَقًا * وقَضِيباً لانَ، فاضْطَرَبا.

وقال عبد الله بن أبي السِّمْط بن مَرْوان :

كأنَّ الثُّدِيَّ إذا ما بَدَتْ * وَزانَ العُقودُ بهنَّ النُّحورا،

حِقاقٌ من العاجِ مكنونةٌ * يَسَعْنَ من الدُّرِّ شيئا كثيرا.

وقال عليّ بن الجهم : ١٠

كنتُ مُشْتاقاً وما يَحْجُزُني * عَنْك إلا حاجزٌ يمنَعُني.

شاخصٌ في الصدْر، غضبانٌ على * قَبَبِ البَطْن وطَيِّ العُكَنِ.

يملأُ الكَفَّ ولا يَفْضُله، * وإذا أثْنَيْتُه لا يَنْثَني.

وقال ابن الرومي :

مُلقماتٌ أطفالَهنَّ ثُدِيًّا * ناهِداتٍ كأحسَنِ الرُّمَّانِ. ١٥

مُفْعَماتٌ كأنها حافلاتٌ * وهي صِفْرٌ من دِرَّةِ الألبانِ.

وقال ابن المعتز :

قَبِيحٌ بمثلك أن تَهْجُرى، * وأقبحُ من ذاكَ أن تُهْجَرى.

أقابلني بفُتُورِ الجُفُونِ * ورُمَّانتَيْنِ على مِنْبَرِ،

كحُقَّتَيْنِ من لُبِّ كافورةٍ * برأسَيْهِما نُقطتا عنبرِ! ٢٠

***

ومما قيل في البطن، يقال :

الدَّحَل، عِظَمُه — الحَبَن، خروجه — التَّجَل، آسترخاؤه — القَمَل، ضخمُه — الضُّمُور، لَطافته — العَجَر والبَجَر، تُخُوصه — التَّخَرْخُر، آضطرابه .

٥ قال محمد بن مبادر :

والبَطنُ ذُو عُكْنةٍ لطيفٌ * صِفْرٌ وشَاحاه جائلانِ .
أشرفَ من فوقِهِ عليــه * ثَدْيانِ مِيــلان ناهِــدانِ .

... ...

***

١٠ ومما قيل في الأرداف والخصور، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير .

فمنه قول عبد الله بن طاهر :

صبٌّ كئيبٌ يشتكيكَ الهوى * كما آشتكى خَصْرُكَ من رِدْفكا .
لسانُه عن وصْفِ أسقامِه * أكَلٌّ منــه عن مَدى وصْفكا .

وقال آبن أبي البغل :

١٥ كأنَّه في آعتــداله غُصُن * وفي السَّراويل منه أمواجُ .
إذا مشى كالقَضِيب جاذبَهُ * رِدْفٌ له كالكَثِيب رَجْراجُ .
ويعــلَمُ الله أنَّني رجُــل * إليه مذ قد كَبرتُ محتــاجُ .

وأنشد أبو بكر بن دُرَيْد عفا الله عنه ورحمه :

قد قلتُ لَمَّا مَرَّ يَخْطِرُ ماشِيًا * والرِّدفُ يجذب خَصْرَه من خَلْفه .

يا مَنْ يُسَلِّم خَصْره من رِدْفِه * سَلِّمْ فُؤادَ محبِّه من طَرْفه .

وقال السرىّ الرفّاء :

ضَعُفَتْ معاقِدُ خَصْره وعُهودُه * فكأنَّ عَقْدَ الخَصْر عَقْدُ وفائه .

وقال المتنبي :

وخَصْر تثبتُ الأبصارُ فيه * كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطاقا .

وقال السرىّ الرفّاء :

أحاطَتْ عيونُ الناظرينَ بخَصْره * فهُنَّ له دونَ النِّطاق نِطاقُ .

وقال الأمير سيف الدين المشدّ :

وأَهْيف القدّ بتُّ أشكو * له تلافٍ وما تلافَى .

فلانَ عِطْفا ودقَّ خَصْرا * وإنما رِدْفُه تجافَى .

وقال أبو نُوَاس :

لَيِّنُ القَدِّ لَذيذُ المُعْتَنَقْ * يُشْبِهُ البدرَ إذا البدرُ ٱتَّسَقْ .

مثقَلُ الرِّدفِ إذا وَلَّى حكى * مُوثَقًا فى القيد يَمْشى فى زَلَقْ .

وإذا أقبلَ كادتْ أعيُنٌ * نَحْوه تجرَحُ فيه بالحَدَقْ .

وقال آخر وأجاد :

أيامَنْ نِصْفُه غُصنٌ * يميلُ ونِصْفُه كَفَلُ .

صفاتُكَ فى تَبايُنِها * مُنْفَصِلٌ ومُتَّصِلُ .

فنصفُك موجُ عاصفةٍ * ونصفُك شاربٌ ثَمِلُ .

❖

ومما وصفت به على لفظ التأنيث، فمنه قول أبي عُبَادة البحتُرِيّ :

كأنَّهـنّ وقـد قارَبْنَ في نَظَـرِي * ضِدّيْنِ في الحسن تَثْقِيلا وإخْطافا.

رَدَدْنَ ما خَفَّفتْ عنه الخُصور إلى * ما في المآزر فاستَثْقَلْنَ أرْدافا.

وقال آخر :

لهـا رِدْفٌ تعلَّقَ في لَطِيف * فذاك الرِّدف لي ولها ظَلُومُ.

يُعَـذِّبُنِي إذا فكَّرتُ فيـه * ويُتْعِبها إذا قصَـدَتْ تقُومُ.

وقال مؤمل وأفرط :

مَنْ رأى مثلَ حِبِّي * تُشْبِه البدرَ إذ بَدا.

تدخُـلُ اليومَ ثم تَدْ * خُلُ أردافُها غَـدَا.

وقال أبو هلال :

تَمْشِي بأرْدافٍ أَبَيْنَ قُعُودَها * بين النِّساءِ كما أَبَيْنَ قيامَها.

وقال عليّ بن عطية البلنسي :

وإنْسِيَّةٍ زارتْ من اللَّيْلِ مَضْجَعي * فعانقْتُ غُصنَ البان منها إلى الفَجْر.

أسائلُها أيْنَ الوِشَـاحُ ؟ وقد سرَتْ * مُعَطَّـلةً منـه، معطَّـرةَ النَّشْر.

فقالَتْ : وأومَتْ، للسِّوارِ نقَلْتُـه * إلى مِعْصَمِي لمـا تقَلْقَلَ في خَصْرِي.

وقال الطائيّ :

من الهِيف لو أنَّ الخَلاخلَ صُيِّرت * لها وُشُحًا جالتْ عليهـا الخَلاخلُ.

وقال إسحاق الموصلىّ :

ظِباءٌ كالْيَعافِيرِ * كُنُوسٌ فى المَقَاصِيرِ.
وأَدبرنَ بأَعْجازٍ * كأَوْساط الزَّنابِيرِ.

وقال عمر بن أبى ربيعة :

يتقابَلْنَ كالبُدُور على الأغْصانِ فى مُثْقَل من الأَرْدَافِ. ٥
بحُصُورٍ تَحْكِى خُصُورَ الزَّنابِيرِ ضعافٍ هَمَمْنَ بالانْقصاف.

وقال آخر :

عظُمَتْ روادِفُها فآذَتْ خَصْرَها * ووشاحُها قَلِقٌ كقَلْب المُغْرَم.

وقال آخر :

آخِرُهَا مُتْعِبٌ لأوّلِها * فبعضُها جائرٌ على بَعْض. ١٠

وقال آخر :

تَمْشِى فتُثْقِلُها روادِفُها * فكأنَّها تمشى إلى خَلْف.

وقال البجلىّ :

إن العزيزَ علىّ خَصْرُكِ إنه * بالرِّدْفِ حُمِّل منك ما لا يُحْمَلُ.
فخُذِى له جِسْمى مكانَ وشاحه * إن العَلِيلَ بشَكْله يتعلَّلُ. ١٥

* * *

ومما قيل فى السَّوق، فمن ذلك قول الأمير سيف الدين المشدّ :

ساقٍ تجلَّى كأنَّه قَمَرُ، * يحمل شمسًا، أَفْدِيه من ساقِ!
شَمَّر عن ساقِه غلائِلَهُ، * فقلتُ: مهلا، وآكفُفْ عن الباقى!
لَمَّا رآنِى، وقد فُتِنْتُ به * من فَرْطِ وَجْدِى وعُظْم أشواقِى، ٢٠
غنَّى وكأسُ المُدامِ فى يَدِه: * قامتْ حروبُ الهوى على ساق.

وقال عُرْوة :

فقُمْنَ بطيئًا مَشْيُهنَّ تأوُّدا * على قَصَبٍ قد ضاقَ عنه خَلاخِلُهْ .
كما هَزَّتِ المِيزانَ رِيحٌ فحرَّكتْ * أعالِيَه منه وارجحَنَّتْ أسافِلُهْ .

وقال كُثَيِّر عَزَّة :

ويجعلْنَ الخلاخِلَ حين تَلْوِى * بأَسْوُقِهنَّ فى قَصَبٍ خِدَال .

وقال كُشاجم :

قلتُ : وقد أبصرتُها حاسِرًا * عن ساقِها فاضلَ سِرْبالِها :
لو لم تَكُنْ من بَرَدٍ ساقُها ، * لاحترقَتْ من نارِ خَلْخالِها .

وله أيضا :

وإذا لَبِسْنَ خَلاخلًا ، * كذَّبْن أسماءَ الخلاخل .

✦ ✦ ✦

ومما وصفت به القدود ، فمن ذلك قول أبى فِرَاس الحمدانىّ : (٣٦)

غُلامٌ فوقَ ما أصِفُ * كأنَّ قَوامَهُ أَلِفُ .
إذا ما مالَ يُرْعِبُنِى : * أخافُ عليه يَنْقَصِفُ .
وأشفَقُ من تأوُّده : * أخافُ يُذِيبه التَّرَفُ .

وقال الخُبْزَأُرُزِّىّ :

أهيفُ يحكِى بقدِّهِ الألِفا * يَخْسَرُ مَن لم يكُنْ به كَلِفا .
أحسنُ من بهجة الخلافة والأمـ * ـن لمن قد يُحاذِرُ التَّلَفا .
لو أبصرَ الوجهَ منه مُنْهزِمٌ * يطلُبُه أنفُ فارِسٍ ، وَقَفا .

وقال ماني :

أتمنّى الذى إذا أنا أومأتُ إليه بطَرْف عينى، تجنّى.
أهيفُ كالقضيبِ لو أنّ ريحًا * حرّكتْ هُدْبَ ثوبه، لتثنّى!

وقال آخر :

أيا سائلى عن قدّ محبوبىَ الذى * كلِفتُ به وَجْدًا وهمتُ غراما. ٥
أبى قِصَرَ الأغصانِ ثمّ رأى القنا * طِوالًا، فأضحى بينَ ذاكَ قَواما.

وقال آخر، وهو محمد بن التلمسانى :

يا مُخجلًا بقوامه * أغصانَ باناتِ اللّوى!
ما أنتَ عندى والقضيبُ اللّدْنُ فى حدّ سوى!
هذاكَ حرّكه الهوا * ءُ وأنتَ حرّكتَ الهوى! ١٠

وقال آخر :

يا غُصنا راحَ الصّبا * يثنيه، لا ريحُ الصّبا!
ما إنْ بدا للعينِ إلا * ارتاحَ قلبى وصبا.
ولا انثنى يخطر إلا * ازدادَ قلبى وصبا.

وقال آخر، وهو كُشاجم : ١٥

مُعتدلٌ من كلِّ أعطافه، * مُستحسَنُ القامةِ والمُلتفتْ.
لو قيستِ الدنيا ولذّاتُها * بساعةٍ من وصله، ما وفتْ.
سُلّطت الألحاظُ منه على * قلبى، فلو أودتْ به ما اشتفتْ.
واستعذبتْ روحى هواه فلا * تصحُو ولا تسلُو، ولو أتلفتْ.

❖

ومما قيل في العِنَاق، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير.

فمنه قول الحسين بن الضحاك:

ومُوَشَّح، نازعتُ فضلَ وِشَاحِه * وكسوتُهُ من ساعِدَيَّ وِشَاحا.
بات الغيُور يشُقُّ جلدةَ خَدِّه * وأمالَ أعطافًا على مِلَاحا.

وقال آخر:

بِتُّ وبدرُ الدُّجَى نديمِي * وهو مُوَاتٍ بلا امْتِنَاعِ.
فقلتُ للحاسدِينَ لَمَّا * أشرقَتِ الشمسُ بالشُّعَاعِ:
القَلْبُ والطَّرْف مَنْزِلاهُ * وَهْو إلى الآنَ في الذِّراعِ.

وقال ابن المعتز:

ما أقصرَ الليلَ على الراقِدِ! * وأهونَ السُّقْمَ على العائِدِ!
يَفْدِيكَ ما أبقيتَ من مُهْجتِي، * لستُ لِمَا أوليتَ بالجاحِدِ.
كأنَّنِي عانَقْتُ رَيحانةً * تنفَّستْ في ليلِها البارِدِ.
فلو ترانَا في قَمِيصِ الدُّجَى، * حَسِبْتَنا في جَسَدٍ واحدِ.

وقال أبو هلال في نحو ذلك:

ونحنُ في نَظْمِ الهَوى واحِدٌ * كأنَّنا عِقْدانِ في نَحْرِ.

وقال ابن الصولي:

طالَ عُمْرُ الليلِ عِنْدِي * إذ تَوَلَّعْتَ بصَدِّ.
يا ظَلُوما نقضَ العَهْـ * ـدِ ولم يُوفِ بعَهْدِ!

أنسيتَ الوصل إذ بِتْـــنا على مَرْقـدٍ وَرْدِ.
وٱعتنقنا كوِشـاحٍ * وٱنتظمْنا نظمَ عِقْدِ.
وتعطّفنـــا كغُصـــنَيْن، فقـــدّانا كقَـدّ.

وقال ٱبن عبد كان الكاتب :

وكلانا مُرْتَدٍ صـاحِبَـــه * كارتداء السَّيْف فى يَوْمِ الوَغَى.
بخُدودٍ شافيـاتٍ من جَوًى * وشِفاهٍ مُرْوِياتٍ من ظَمَا.
نَتَسـاقى الريقَ فيما بيننـا: * زَقَّ أُمّات القَطَا زُغْبَ القَطَا.

وقال على بن الجَهْم :

سَقَى اللهُ ليلا ضَمَّنا بعد فُرْقة، * وأدْنى فؤادًا من فُؤادٍ مُعذَّبِ!
فبِتْنا جميعًا : لو تُراق زُجاجةٌ * من الخمر فيما بيْننا، لم تَسَرَّبِ.

وقال الخُبْزأَرُزّىّ :

طوّقتُه طَوْقَ العِناقِ بساعِدى، * وجعلتُ كفّى للّثام وِشاحَا.
هـذا هو الفَوْزُ العظيمُ فخلِّنا، * مُتعانقَيْن فما نُرِيدُ بَرَاحا!

وقال صالح بن يونس :

لِى سـيِّدٌ ما مثلُه سـيِّدٌ، * تَصَدّتِ الحمّى له فاشـتكَى.
عانقتُـــه عِنْـدَ مُوافاتِه، * والأُفْقُ بالليلِ قد ٱحْلَوْلَكَا.
فجـاءتِ الحمّى كعاداتِهـا، * فلم تجِـدْ ما بيْننـا مَسْلَكا!

وقال الحسين بن علىّ بن بِشْر الكاتب :

ضَمَمتُه ضَمَّ مُفْـرِطِ الضَّمِّ، * لا كأَبٍ مُشْـفِقٍ ولا أُمِّ.
ولم نَزَلْ، والظلامُ حارِسُنا، * جسمَيْنِ مستودَعَيْنِ فى جسْمِ.

أَلْثُمُه في الدُّجَى، وبَرْقُ ثَنَا * يَاهُ يُرِيني مواضِعَ اللَّثْمِ.
ثُمَّ افترقْنا عِنْدَ الصباحِ وقَدْ * أثَّرتِ فيه كَهَيْئَةِ الخَتْمِ.

وقال أبو عبد الله الحامدي :

سَقَانِي وحَيَّانِي وباتَ مُعانِقِي ! * فياعَطْفَ مَعْشوقٍ على ذُلِّ عاشِقِ !
ويا ليلةً، باتتْ سَواعِدُنا بها * تَدُورُ على الأعناقِ دَوْرَ المَخانِقِ ! ٥
نَبُثُّ من الشَّكْوى حديثاً كأنَّهُ * قلائدُ درٍّ في نُحورِ العَواتِقِ.

* * *

ومما ورد على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول أبي إسحاق الصابي :

هَيفاءُ تَحْكِي قَضِيبا * قد جَمَّشَتْه الرِّياحُ.
تَفْتَرُّ عن سِمْطِ دُرٍّ * عليه مِسْكٌ وراحُ. ١٠
جَرَّدتُها واعتنَقْنا: * كُلٌّ لِكُلٍّ وِشاحُ!
باتَتْ، وكلُّ مَصُونٍ * لِي من حِماها مُباحُ.
في ليلةٍ لم يَعِبْها * في الدَّهْرِ إلا الصَّباحُ.

وقال أيضا :

أقولُ وقد جَرَّدتُها من ثيابِها * وعانَقْتُها كالبدرِ في ليلة التَّمِّ: ١٥
لَئِن آلَمَتْ صَدْرِي بشِدَّة ضَمِّها، * لقد جَبَرَتْ قلبي وإنْ أوهَنَتْ عَظْمِي !

وقال أبو الفضل الأصبهاني :

ياليلةً قُرِنَتْ لنا * فيها المآرِبُ بالنَّجاحْ.
بِتْنا بِرَغْمِ وُشاتِنا * متعانِقَيْنِ إلى الصَّباحْ.

متمازجين كأننا * رُوحانِ من ماء وراحْ .
ظنَّ الوشاةُ لفَرْط ضَمِّي أنَّني بعضُ الوشاحْ !

* * *

ومما قيل فى وصف مَشْيِ النساء، يقال :

تَهَالَكتِ المرأةُ، إذا آنفتلَتْ فى مِشْيتها .

تأوَّدتْ ، إذا اختالتْ فى تَثَنٍّ وتكسُّر .

بَدَحتْ وتبدَّحتْ ، إذا أحسنت مِشْيتها .

تَهزَّعتْ تهزُّعا، إذا آضطربت فى مِشْيتها .

قَرْصَعَتْ قَرْصعةً ، وهى المِشْية القبيحة، وكذلك مَنَعتْ مَنْعا .

وقال الأعشى :

غَرَّاءُ، فَرْعاءُ، مَصْقُولٌ عوارِضُها * تمشى الهُوَيْنَى كما يمشى الوجى الوَحِلُ
كأنَّ مِشْيَتَها من بيت جارَتِها * مَرُّ السحابةِ : لا ريث ولا عَجَلُ .

وقال آخر :

يَمشِين مَشْىَ قَطا البِطاحِ تأوُّدًا، * قب البطونِ، رواجِحِ الأكفالِ .

وقال آبن عائشة من أبيات :

فكأنَّهنّ إذا أردْنَ خُطًّا * يَقْلَعْنَ أرجُلَهنَّ من وَحَلِ

وقال أبو الفتح كُشاجم :

وتهتزُّ فى مَشْيها مِثْلَ ماءٍ * تَهُزُّ الصَّبا غُصنًا ناعما .
وتأمُر بالأمْرِ فيه الذى * كَرِهتُ فأرضَى به راغما .

وقال آخر :

شبَّهتُ مِشْيتَها بِمِشْيةِ ظافِرٍ * يختالُ بينَ أسِنَّةٍ وسُيوفِ.
صَلِفٍ تباهَتْ نفسُه في نَفْسِه، * لما انْثَنَى بسِنانِه المَرْعُوفِ.

وقال آخر :

تمشي الهُوَيْنَى إذا مَشَتْ فُضُلا * مَشْيَ النَّزِيفِ المخمُورِ في صَعَدِ.
تظَلُّ من زَوْرِ بَيْتِ جارتِها * واضعةً كفَّها على الكَبِدِ.

وقال المُنَخَّل اليَشْكُرِيّ :

ولقد دَخَلْتُ على الفَتَا * ةِ الخِدْرَ في اليَوْمِ المَطِيرْ.
فدفَعْتُها فتدافعَتْ * مَشْيَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرْ.
ولَثَمْتُها فتنفَّسَتْ * كتنفُّسِ الظَّبْيِ البَهِيرْ.

وقال عمر بن أبي ربيعة :

أبصَرْتُها ليلةً، ونِسْوتُها * يمشِينَ بينَ المقامِ والحِجْرِ.
يرُفْلْنَ في الرَّيْطِ والمُرُوطِ كما * تَمْشي الهُوَيْنَى سواكِنُ البقَرِ.

وقال ابن مُقْبِل :

يَهْزُزْنَ للمَشْيِ أوصالًا منعَّمةً * هَزَّ الجَنُوبِ صُحَى عَيْدانَ يَبْرِينا[1].
أو كأهتزازِ رُدَيْنِيٍّ تداوَلَهُ * أيْدِي التُّجَّارِ فزادُوا مَتْنَه لِينا.
يَمْشِينَ هَيْلَ النَّقَا مالتْ جوانِبُه * يَنْهالُ حِينًا وينهالُ الثَّرَى حِينا.

(١) العيدان : النخل الطوال واحدته بهاء، ويبرين : اسم قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء .

وقال أشجعُ السلمىّ :

وماجَتْ كموجِ الماء بيْنَ ثيابِها * يَميلُ بها شَطْرٌ ويَعْدِلُها شَطْرُ.
إذا وصَفَتْ مافوقَ مَجْرى وِشاحِها * غلائلُها رَدَّتْ شهادتَها الأُزْرُ.

(٣٨) وقال العباس بن الأحنف :

شمسٌ مقدرةٌ فى خَلْق جاريةٍ * كأنما كَشْحُها طَىُّ الطَّوامِيرِ. ٥
كأنها حينَ تمشِي فى وَصائِفها * تَخْطُو على البَيْضِ أوخُضْرِ القَوارِيرِ!

انتهى الغرض فى وصف الأعضاء، وما شاكلها واتصل بها .

فلنذكُرْ إن شاء الله تعالى ما جاء فيما قدّمناه من الأمثال .

فأما ما جاء منها فى الإنسان، يقال :

شديدٌ على الإنسان مالم يعوَّد . ١٠

وما عُلِّم الإنسانُ إلا ليَعْلما .

الناس من جهة التمثيلِ أكْفَاء .

الناس أخيافٌ وشَتَّى فى الشِّيَم .

الناس بزَمانهم اشبهُ منهم بآبائِهم .

وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالك . ١٥

والناسُ أولادُ عَلّاتٍ فمن عَلِمُوا * أن قد أقَلَّ فمهْجُورٌ ومحقُورُ.

وقال آخر :

الناسُ أكيسُ من أن يحسُدُوا رجُلا * حتَّى يَرَوْا عنده آثار إحْسان.

ويقال :

المرءُ أعلم بشأنه .

المرءُ مَعَ من أحَبّ .

دَعِ ٱمرأً وما ٱختـار .

٥ كلُّ ٱمرِئٍ في شأنِه ساع .

كلُّ ٱمرِئٍ مُصبَّحٌ في أهله .

كلُّ ٱمرِئٍ من شَجْوِ صاحِبِه خلْو .

المرء يَعْجَزُ لا مَحالة .

المرء تَوَّاقٌ إلى ما لَمْ ينَلْ .

١٠ المرء يجمعُ، والزمانُ يفرِّقُ .

ويقـال :

الرِّجالُ بالأموال .

تُقَطِّعُ أعناقَ الرجال المطامعُ .

ولكلِّ دهرٍ دولةٌ ورجالٌ .

١٥

* * *

ومما يتمثل به في ذكر النفس، يقال :

النفسُ مُولَعَـةٌ بحُبِّ العاجِلِ .

النفس أعلَمُ مَنْ أخُوك النافِعُ .

أكْذِبِ النفسَ إذا حدّثتَها .

ماعاتبَ الرجلَ اللبيبَ كنَفْسه .

الجُودُ بالنفس أقصى غايةِ الجُود .

نَفْسُ عِصامٍ سَوّدتْ عصَاما .

* * *

ومما يتمثل به من أعضاء الإنسان الظاهرة والباطنة

ما قيل فى الرأس والشعر

مَنْ نَجَا برأسه فقد رَبِحَ .

رماه بإخْفاف رأسه . أى بالدواهى .

اختلفَتْ رُءوسها فرتَعَتْ .

كلُّ رأسٍ به صُدَاع .

ويقال :

ادقُّ من الشَّعر .

اهْونُ من الشَّعر الساقِط .

ما يتمثل به من ذكر الوجه

وجهٌ محرَّش أقبَحُ . أى وجه مبلَّغ القبيح أقبح من وجه قائله .

فى وَجْه مالكٍ تُعْرَف إمرتُه .

قَبْل البُكاء كان وجْهُك عابسا .

قال أبو تمام :

وما أُبالِى، وخيرُ القولِ أصدَقُه، * حقَنْتَ لى ماءَ وجهى أم حقَنْتَ دَمِى .

وقال ابن الرومي :

وقَلَّ مَنْ ضَمِنتْ خَيْرًا سَجِيَّتُه * إلا وفى وَجْهِهِ للخَيْرِ عُنْوانُ.

له مُحَيًّا جميلٌ يُسْتَدَلُّ به * على جميلٍ، وللبُطْنان ظُهْرانُ.

وقال آخر :

٥ صَلَابةُ الوجه صَلَاحُ الفتَى * ورِقَّة الوَجْه من الخُرْقة.

ما يتمثل به من ذكر العين، يقال :

أسرَعُ من طَرْف العَيْنِ .

أسرَعُ من لَمْح البَصَر .

العَيْنُ تَرْجُمانُ القلب .

١٠ شاهِدُ البُغْض اللحظُ .

رُبَّ عَيْنٍ أَنَمُّ من لسان .

ليس لمَا قَرَّتْ به العينُ ثَمَن .

نظرةٌ من ذِى عَلَق .

عينٌ عَرَفَتْ فذَرَفَتْ .

١٥ لحظةٌ أصدقُ من لفظه .

ليس لعينٍ ما رأتْ، ولكِنْ لِكفٍّ ما أخذَتْ .

لا تطلُبْ أثرًا بعد عَيْنٍ .

من أطاع طَرْفَه، أصاب حَتْفَه .

وأىُّ عارٍ على عينٍ بلا حَوَر .

٢٠ والدمعُ قد يُعْلِنُ ما فى الصُّدُور .

ومن الأبيات :

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَلِيلةٌ ، * ولكنَّ عين السُّخْط تُبْدِى المَساوِيا .

وقال الأمير أبو الفضل الميكالىّ :

كَمْ والدٍ يَحْـرِمُ أولادَه * وخَيْرُه يَحْظى به الابعَـدُ .

كالعين لاتنظُر ماحَوْلَها ، * ولَحْظُها يُدْرِك مايَبْعُـدُ .

ما يتمثل به من ذكر الأنف

أنْفُك مِنْك وإن كان أجْدَعَ . يضرب فى القريب السَّوْء .

شفَيْتُ نَفْسِى وجَدَعْتُ أنفى .

لأمرٍ مّا جُدِعَ قَصِيرٌ أنفُه .

كلُّ شىءٍ أخطأ الأنْفَ جَلَل .

لُدِغتُ حيثُ لايضَعُ الراقى أنْفَه . يضرب للأمر الذى لادواء له .

رُبَّ حامٍ لأنفِه وهوجادِعُه . يضرب لمن أنِفَ من الشىء فتوقعه الأنَفَةُ فى أشدَّ منه .

مات حتْفَ أنفه .

جَدَع الحلالُ أنْفَ الغيرَةِ . قاله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

أنْفٌ فى السَّماء ، وآسْتٌ فى المـاء !

ما يتمثل به من ذكر الفم ، واللسان ، والأسنان

كل جانٍ يدُه إلى فِيه .

حدّثنِى ، فاهُ إلى فِىّ .

فلان خفيفُ الشَّفَة . أى قليل المسألة .

سكتَ ألفا، ونَطَق خَلْفا .

قَرَع سِنّ النادِم .

كَدَمْتَ في غير مَكْدَمٍ . أي طلبت غير مَطْلَب .

وجُرْح الدهرِ ما جَرَح اللسانُ .

٥ وجُرْح اللسان كجُرْح اليد .

ما يتمثل به من ذكر الأُذُن

جاء فلانٌ ناشرًا أُذُنَيْه .

لَبِستُ على ذلك أُذُنَ .

أساء سَمْعا فأساء إجابةً .

١٠ كلامُه يدخُل في الأُذُن بلا إذْن .

جعلْتُ ذلك دَبْرَ أُذُني .

ما يتمثل به من ذكر العُنُق

حَسْبُك من القِلادة ما أحاط بالعُنُق .

أذَلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال .

١٥ وقال أبو الفتح البستي : (٣٩)

فكَمْ دَقَّتْ وشَقَّتْ واسترقَّتْ * فُضُولُ العيش أعناقَ الرِّجالِ .

ما يتمثل به من ذكر اليد

أهْدى من اليدِ إلى الفَم .

ألزَمُ من اليمينِ للشِّمال .

يَدَاكَ أوكَتَا ، وفُوكَ نَفَخ .

اليَدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السُّفْلَى .

آثَرُ لَدَيْه من يمين يَدَيْه .

ذَهَبُوا أيْدِى سَبَا . أى متفرّقين .

بالساعِدِ تَبْطِشُ الكفُّ .

على يَدِى دارَ الحديثُ . إذا كان خبيرا بالأمر .

هو على حَبْل ذراعِه . أى موافق له .

تَرِبَتْ يَدَاه . دعاء عليه بالفقر .

ما تَبُلُّ إحْدى يديْهِ الأُخْرى . البخيل .

تَرَكَه على أنْقى من الراحة .

فلان يُقَلِّب كَفَّيه .

سُقِط فى يَدَيْه . النادم .

أعْطاهُ عن ظهْرِ يدٍ . أى ابتداء لا عن مُكافأة .

ماسَدّ فَقْرَك مثلُ ذاتِ يَدِك .

إن الذَّلِيلَ الذى ليسَتْ له عَضُدُ .

يَدٌ تَشِحُّ ، وأخرى منك تأسُونِى .

على اليَدِ ردُّ ما أخذَتْ .

وما الكَفُّ إلا إصْبَعٌ ثم إصْبَع .

ومن الأبيات :

قد تَطْرِفُ الكَفُّ عينَ صاحِبِها، * ولا يَرَى قَطْعَها من الرَّشَدِ.

وقال آخر :

فلَوْ أنَّها إحْدَى يَدَىَّ رُزِئْتُها، * ولكنَّ يَدِى بانَتْ على إثْرِها يَدُ.

٥ وقال أبو تمام :

وهل يَسْتعيضُ المرءُ من خَمْسِ كَفِّه، * ولو صاغَ من حُرِّ الجُبَيْنِ بَنانَها؟

ما يتمثل به من ذكر الصدر والقلب

صَدْرُك أوسع لسرِّك .

صُدُور الاحرار، قُبورُ الاسْرار .

١٠ لا بدّ للصَّدُور من أن يَنْفُثَ .

ألْزَمُ له من شعَرَات صَدْره .

ماجَعَل اللهُ لرجُلٍ من قَلْبَيْنِ فى جَوْفه .

القَلْب طَلِيعةٌ .

القلوبُ تتقلَّب .

١٥ قال بعض الشعراء :

مَتَى تجمعِ القلْبَ الذَّكِىَّ وصارماً * وأنْقَا حمًّا، تجتَنِبْكَ المَظَالِمُ.

وقال آخر :

إنَّ التباعُدَ لا يضُرُّ إذا تقارَبتِ القُلُوبُ.

ما يتمثل به من ذكر الظهر والبَطْن والجَنْب

اِستظْهِر على الدهر بخِفَّة الظَّهْر .

قَلَب الأمْرَ ظهرًا لبَطْنٍ .

لا تجعل حاجتِي بظَهْرٍ . أى لا تُلقِها وراء ظهرك .

اِنقَطَع السَّلى فى البَطْن . لتناهى الشِّدّة .

نَزَتْ به البِطْنة . لمن لا يحتمل النِّعمة .

لكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ .

لجَنْبه فلْتكُن الوَجْبَة، فى الدعاء عليه .

دمَّثْ لجَنْبِك قبلَ النَّوم مُضْطَجَعا .

ما يتمثل به من ذكر الكبد والدّم والعروق

يا بَرْدَها على الكَبِد !

فلانٌ بين الحِلْب والكَبِد .

ما ينفَعُ الكَبِدَ يَضُرّ الطِّحَال .

ويقال :

جَرَى منه مَجْرى الدّم فى العرُوق .

هو أعَزّ من دَمِ الفُؤاد .

سِرُّك منْ دَمِك .

لا تَكايُلَ بالدّم .

لا يَحْزُنك دمٌ هَراقَهُ أهْلُه . لجانى على نفسه .

فلانٌ لا يشرَبُ الماء إلا بدَمٍ .

العِرْق نَزَّاع .

ألَا إنَّ عِرْقَ السُّوء لا بُدّ مُدْرِكُ !

ما يتمثل به من ذكر الساق والقدم، يقال :

٥ الْتفَّتِ الساقُ بالساق . في الشدة .

كشفَتِ الحربُ عن ساقها، وكَشرتْ عن نابها .

قَدَحَ في ساقِه، إذا عمل في شيء يكرهه .

لا يُرسِلُ الساقَ إلا مُمْسكًا ساقا .

قد شَمَّرتْ عن ساقِها، فشمِّري ! في الحثّ على الجِدّ .

١٠ ويقال :

له قَدَم في الخيرِ . أي سابقةٌ .

إنك لا تَسْعَى برِجْلَيْ مَنْ أتَى .

وقال الشاعر :

إنَّ قُريشًا — وهي من خَيْرِ الأُمَمْ — * لا يَضَعُونَ قَدَمًا على قَدَمْ .

---

١٥ من ضُرِب به المثلُ من الرجال على لفظ أفعل للتفضيل

يقولون :

أسْخَى من حاتِم .

أجودُ من كَعْب بنِ مامَةَ .

أجودُ من هَرِم . قال الميدانى : هو هَرِم بنُ سِنانِ بن أبى حارثة .

وفيه يقول زُهَيْر بن أبى سُلمى :

إن البخيلَ مَلُومٌ حيثُ كانَ ولـ * ـكنَّ الجوادَ على عِلّاتِه هَرِمُ .

أقْرى من مَطاعِيم الرِّيح . ومطاعيم الريح أربعة : منهم أبو مِحْجَن الثقفىّ .

وكان لبيدُ بن ربيعة العامرىّ يُطْعِم إذا هَبَّت الصَّبا .

أشجَعُ من ربيعة بن مُكَدَّم .

أعزُّ من كُلَيْب بن وائل .

أعزُّ من مَرْوان القَرَظ .

أسْوَدُ من قَيْس بن عاصم .

أحْلَمُ من الاحنفِ بن قيس .

أزكَى من إياس بن معاويةَ .

أفتَكُ من البَرّاض بن قيس النمرىّ ، خليع بنى كِنانَة . فتك بعُرْوة الرحّال ، والمُسَاور بن مالك الغَطَفانىّ ، وأسد بن خيثم الغنوىّ بسبب لَطِيمة النعمان . وبسبب ذلك كانت أيام الفجار الأخر ؛ وسنذكرها فى وقائع العرب إن شاء الله تعالى .

أوْفَى من الحارث بن عُبَاد . وخبره مشهور مع مهلهل أخى كُلَيب لما أمنه يوم تَحلاق اللِّمَم

أوْفَى من عَوْفِ بن مُحَلِّم .

أوْفَى من هانِئ بنِ قَبِيصة . وخبره مشهور فى أدرع النعمان ؛ وبسببها كانت وقعة ذى قار .

أوفَى من السَّمَوْءل بن عادياء .

أجملُ من ذِى العِمامة . وهو سعيدُ بنُ العاص بن أمية ، ويكنَى أبا أُحَيْحَةَ ؛ وهو المقول فيه :

أبُو أُحَيحةَ مَنْ يَعُمُّ عِمَمَه * يُضْرَبْ ولو كان ذا مالٍ وذا وَلَدِ .

أمضَى من سُلَيْك المَقانِب .

أغلى فداءً من حاجب بنِ زُرارة ، ومن بِسْطام بنِ قَيْس ، ومن الأشعث .
أسَرَته مَذْحِج فقدى نفسَه بثلاثة آلاف بعير .

أعْدَى من الشَّنْفَرَى ، ومن السُّلَيْك بن السُّلَكة .

أبطأُ من فَنْد . وهو مولًى لعائشة بنت طلحة ، وقال أبو هلال العسكرى : عائشة بنت سعد بن أبي وقّاص ، بعثت به مولاته ليقتبس نارا ، فأتى مصر ، فأقام بها سنة ، ثم جاء يشتد ومعه نارٌ ، فتبددت فقال : تَمَسَّتِ العجلةُ !

أنْوَمُ من عَبُّود . كان عبود عبدًا أسودَ ، وكان الله عز وجل قد بعث نبيا الى قومه . قال الميدانى : إن النبيّ هو خالدُ بن صفوانَ ، نبيُّ أهل الرَّسّ . فلم يؤمن به أحد منهم إلا ذلك العبدُ الأسودُ ، وإن قومه احتفروا له بئرا فصيّروه فيها وأطبقوا عليه صخرةً . فكان ذلك الأسود يخرج من القرية فيحتطب ، ويبيع الحطب فيشترى به طعاما وشرابا ، ثم يأتى به إليه فيُعينُه الله تعالى على الصخرة فيرفعها ويدلى إليه الطعامَ والشرابَ . فاحتطب يوما وجلس فنام على شقِّه الأيسر سبعَ سنين . ثم هبَّ من نومه فانقلب على شقِّه الأيمن ، فنام سبع سنين ، وهو يظن أنه نام ساعة من نهار . ثم احتمل حُزْمته وأتى القريةَ ، فباع الحطب وجاء الى الحفرة فلم يجد النبيّ وكان قد بدا للقوم فأخرجوه . فكان يسأل عن الأسود ، فيقولون : لا نَدْرى . فضُرب به المثل لمن ينامُ نوما طويلا . وقيل فيه غير ذلك . وذكره الميدانى فى أمثاله ولم يذكر السبعة الثانية ، وإنما ذكرها صاحب كتاب الفاخر (١) .

أنعمُ من خُرَيم الناعم . هو رجل من ولد سنان بن أبي حارثة ، كان فى زمن الحجاج .

أبلَغُ من سَحْبانِ وائلٍ . ويقال أخطَبُ من سَحْبان : وهو الذى يقول :

لقد علِمَ الحىُّ اليمانون أنني * إذا قلتُ : أمّا بعدُ ، أنى خطيبُها .

أخطَبُ من قُسّ . هو قُسُّ بن ساعدة بن حُذَافة بن زُهَير بن إياد بن نزار . وكان من حكماء العرب وهو أول من كتب من فلان الى فلان ، وأول من أقرّ بالبَعْث من غير علم ، وأول من قال : "البيّنةُ على من ادّعى ، واليمين على مَنْ أنكر" . وقيل : إنه عُمِّر مائةً وثمانينَ سنةً .

(١) هو كتاب "الفاخر" وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : وفَدَ وفْد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فلما فرغ من حوائجهم قال : أفيكُمْ مَنْ يعرفُ قُسَّ بنَ ساعدة الإيادىّ ؟ فقالوا : كلنا نعرفه ! قال : مافعل ؟ قالوا : هَلَكَ ! فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : كأنّى به على جملٍ أحمرَ بعُكَاظ قائما ، يقول : « أيها الناسُ اجتمعوا واسمعوا وعُوا ! كلُّ مَنْ عاش ماتَ ، وكلُّ مَنْ مات فاتَ ، وكل ما هو آتٍ آتٍ ! إنّ فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لَعِبَرا : مهادٌ موضوع ، وسَقْف مرفوع ، وبحارٌ تَمُوج ، وتجارةٌ لن تَبُور وليلٌ داج ، وسماءٌ ذاتُ أبراج ! أقسَم قُسٌّ حقّا : إن كان فى الأرض رضا ليكونَنَّ بعده سخط ! وإن لله عز وجل دينا هو أحبُّ إليه من دينكم الذى أنتم عليه ! مالى أرى الناس يذهبونَ فلا يرجِعُون ؟ أرَضُوا فأقاموا ؟ أم تُرِكوا فناموا ! » ثم أنشد أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه شعرا حفظه له ، وهو :

فى الذاهبينَ الأوّلـــين من القُرون لنا بَصائرْ .
لَمَّا رأيتُ مَـــوارِدًا * للموت ليس لهَـا مَصَادِرْ .
ورأيتُ قَـــوْمِى نَحْوَها * تسعى : الأصاغرُ والأكابرْ .
لا يَرْجِـعُ المـاضى إلىّ * ولا من الباقين غابِرْ .
أيقنتُ أنّى لامَحَـــا * لةَ حيثُ صار القومُ صائرْ !

ويقال : أعْيا من باقِلٍ . وهو رجل من ربيعة ابتاع ظَبْيا وحْشيا بأحدَ عشرَ درهما ، وجعل بقية الدراهم فى فيه . فسُئل عن ثمنه ، ففعل بيديه تُجاه السائل (أى فتح أصابعَه وفغر فاه وأدلى لسانه يشير بذلك إلى ثمنه) . فحصل من ذلك انفلات الظبى ، وسقوطُ الدراهم ، والإساءة على السائل فضُرِب به المثل .

أبَرُّ من العَمَلَّس . كان برًّا بأمه فكان يحملها على عاتقه .

أبَرُّ من فَلْحَس . وهو رجل من شيبان . حمل أباه على ظهره وحجّ به .

وفيه أيضا يقال :

أسْأَلُ من فَلْحَس كان سيدا عزيزا ، يَسْأَلُ سهما فى الجيش وهو فى بيته فيُعطى لعزه ، فإذا أُعطى سأل لامرأته ، فإذا أُعطى سأل لبعيره ، وكان له ولد يقال له زاهر ، فكان مثله ، فقيل فيه : "العَصَا من العُصَيَّة" .

ويقال :

أخيبُ صفقةً من شيخ مَهْو . وهو حيّ من عبد القيس اشتروا القَسْوَ من إياد وكانوا يُعرَفون به ، فعرفت به عبدالقيس . قال الميداني : هذا الشيخ اسمه عبدالله بن بيدرة ، اشترى القَسْوَ من إياد بمُبْرَدَيْ حِبَرَةٍ ، وقال لقومه : اشتريتُ لكم عار الدهر ، فقالت عبد القيس في ذلك :

إنّ القُساةَ قبلنا إيادُ * ونحن لا نَقْسُو ولا نَكادُ .

وفيهم يقول شاعر :

يامَنْ رأى كصَفْقَةِ ابن بيدَرَهْ * من صَفْقَةٍ خاسرة مُخْسَرَهْ ؟
المُشْتَرِي العارَ بمِبْرَدَيْ حِبَرَهْ ! * شَلَّتْ يمينُ صافقٍ بها أخْسَرَهْ !

أخسرُ صَفْقةً من أبي غَبْشانَ . فإنه باع مفاتيح الكعبة من قُصَيّ بزِقّ خمر .

أضَلُّ من سِنَانٍ . وهو ابن أبي حارثة المرّي ؛ وكان قومه عفوه على الجود ، فركب ناقة له ورمى بها الفلاة ، فلم يُرَ بعد ذلك . وسمته العرب ضالّةَ غَطَفان ؛ وقالوا : إن الجانّ استفحلته تطلبُ كرم نجله .

أبطَشُ من دَوْسَر . وهي كتيبة النعمان .

أهدى من قَيْس بن زُهَير .

أفرغُ من حَجّامٍ ساباطَ . يقال إنه كان إذا أعوزه من يَحْجُمُهُ حجم أمّه . فلم يزل يحجُمُها حتى نَزَف دَمُها ، فماتت .

أندَمُ من الكُسَعِيّ . واسمه مُحارب بن قيس ؛ وقيل غامد بن الحارث . وكان أرمى الناس ، لا يخطئ له سهم ، فخرج ومعه قوس وخمس سهام فرمى صيدا في الليل فأصاب سهمُهُ ونفَذ ، فوقع في الحجر فقدَح نارا . ثم رمى كذلك حتى استنفد السِّهامَ . وهو يظن أنه أخطأ في الجميع فكسر قوسه ، وخلع إبهامه . فلما أصبح رأى رميَّته ، فندم على فعله .

أمنعُ من الحارثِ بنِ ظالم . وسيأتي خبره في وقائع العرب

أبخَلُ من مَادِر . وسيأتي خبره في باب الهجاء .

أكذبُ من مُسَيْلِمَة الحَنَفِيّ ، (وخبره مشهور فى دعواه النبوّة) ومن المُهَلَّب ، (وكان يكذب لأصحابه فى حرب الأزارقة ، يَعِدُهم بالنَّجْدَة والإمداد) .

أحمقُ من راعِى ضأنٍ ثمانينَ ، (وذلك أن أعرابيا بَشَّر كِسرى ببشارةٍ سُرَّ بها ، فقال له كسرى : سلنى ماشئتَ ! فقال : أسألك ضأنا ثمانين) ؛ ومن هَبَنَّقَة ، وهو ذو الرُّدعات ، واسمه يزيد بن ثَرْوان أحد بنى قيس بن ثعلبة ؛ وبلغ من حُمْقه أنه ضلّ له بعير ، فنادى مَنْ وجد بعيرى فهو له ، فقيل له : فلِمَ تُنْشِدُه؟ قال : فأين حلاوة الوِجْدان . وفيه يقول الشاعر :

عِش بجَدّ وكُنْ هَبَنَّقَةَ القَيْسِيَّ نَوْكًا أو شِبْهَ بنَ الوليدِ .
رُبَّ ذى إِرْبَةٍ مُقِلٍّ من المالِ * لَ وذى عُنْجُهِيَّةٍ مَجْدودِ .

العنجهية الجهل

أحمقُ من ربيعَةَ البَكَّاء . هو ربيعةُ بن عامر بن ربيعةَ بن عامر بن صَعْصَعة . ومن حُمْقه أن أمّه تزوّجَتْ بعد أبيه ، فدخل عليها الخِباءَ ، وكان قد ألتحى فوجد زوجها يباضِعُها ، فتوهّم أنه يريد قتلَها ، فبكى وهتَكَ الخباء ، فاجتمع الناس وسألوه عن شأنه ، فأخبرهم أنه وجده على بطنها يريد قتلها ، فقالوا : "أهون مقتول" فصار مثلا .

أَتْيَهُ من أحمقِ تَمِيف . وهو يوسف بن عمرو .

أَلَصُّ من شِظَاظٍ . وهو رجل من بنى ضَبَّة .

أزنى من قِرْد . وهو قِرْد بن معاوية بن هُذَيل .

أمطَلُ من عُرْقوب .

وقال كعب بن زهير :

كانتْ مَواعِيدُ عُرْقوبٍ لها مَثَلًا * وما مَوَاعِيدُها إلا الأباطِيلُ .

أشأمُ من خَوْتَعَة . وهو رجل من بنى نُفَيْلَة بن قاسط أخى النمر بن قاسط .

أشأمُ من قُدَار (وهو عاقر الناقة) ؛ ومن أحمر ثمودَ (وهو عاقرها أيضا) .

أشأم من طُوَيْس . وهو مخنث ، كان يقول إنه ولد يوم مات النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفُطِم يوم مات أبو بكر ؛ وبلغ يوم قتل عُمَر ؛ وتزوّج يوم قتل عثمان ؛ وولد له يوم قتل عليّ .

أمكرُ من قيس بن زُهَير .

وأمّا من ضرب بها المثل من النساء

٥ يقال . أنجبُ من مارِيَةَ . ولدت لزُرارة : حاجبا ، ولَقيطا ، وعَقْعَة .

أنجبُ من بنت الحارث[1] . ولدت لزِياد العبسيّ بَنِيه الكَمَلَة ، وهم : ربيعة الكامل ، وعمارة الوهاب ، وقيسٌ الحافظ ، وأنسُ الفَوارس .

أنجبُ من أمّ البنين[2] . ولدت لمالك بن جعفر بن كلاب ، مُلاعِبَ الأسنة عامرا ، فارسا .

أنجبُ من عاتِكَةَ : ولدت لعبد مناف هاشما ، وعبدَ شمس ، والمطّلبَ .

١٠ أسرَعُ من نِكاح أمّ خارجةَ . وهي عُميرة بنتُ سعد بن عبدالله بن قُدار بن ثعلبة بن معاوية بن زيد ابن الغوث بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجُب ابن يعرُب بن قحطان . ولدت في نَيِّف وعشرين حَيًّا من العرب . كان الرجل يقول لها : خِطْبٌ ! فتقول : نِكْحٌ !

قال أبو الفرج الأصبهاني : فمن ولدت ، الدِّيلُ ، وليث ، والحارث بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة ؛ وغاضرةُ بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خُزَيمة ؛ والعنبرُ ، وأسيد ، والهُجَيم بنو عمرو بن تميم ؛ وخارجةُ ١٥ ابن بشكر (وبه كانت تكنّى) ؛ وسعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن مُزيقيا (وهو أبو المُصْطَلِق) .

---

(١) صوابه الخرشب وهي فاطمة بنت الخرشب الأنمارية أُنظر "مجمع الأمثال" و "تاج العروس" .

(٢) هم كما في "أمثال الميداني" أبو براء ، وملاعب الأسنة عامر ، وطفيل فارس قرزل وربيعة ، ومعاوية ، وأم البنين هي ابنة عمرو بن عامر فارس الضحياء ، وبذلك تعلم ما في الأصول من السقط .

قال : وزعموا أن بعض أزواجها طلّقها فرحل بها ابن لها عن حيه إلى حيها فلقيها راكب ، فلما تبينته ، قالت لابنها : هذا خاطب لى لاشكّ فيه ، أفتراه يعجلنى أن أنزل عن بعيرى ، بفعل ابنها يسيّبها .

أحمقُ من المَهْورة إحدى خَدَمَتَيْها . وذلك أن زوجها طلقها ، فطالبته بمَهْرها ، فأخذ أحد خَلْخَالَيها من رجلها وأعطاها إياه ، فرضيت به .

أحمقُ من دُغَةَ . هى ماريةُ بنت مَغْنج[1] بن ربيعة بن مجل ، وقيل بنت منعج ؛ تزوّجت وهى صغيرة فى بنى العَنْبر بن تميم ، فحملت . فلما أدركها المخاض ، ظنّت أنها تريد الخلاء . فتبرزت فولدت فاستهلّ الولدُ . فانصرفت وهى تقدّر أنها إنما أحدثت . فقالت لضَرّتها ياهَنْتاه ، هل يفغُر الجَمْرُفاه ؟ قالت : نعم ، ويدعو أباه ! فضت ضَرّتُها الولد فأخذته ، فبنو العنبر تسمّى بنى الجَمْراء .

أبْصَرُ من زَرْقاءِ اليمامةِ . وهى امرأة من طَسْم ، كانت تُبصر الراكبَ على مسيرة ثلاث ليال . وسيأتى إن شاء الله تعالى خبرُها فى وقعة طَسْم وجَديس .

أزنى من هِرٍّ . وهى امرأة يهودية ؛ وهى التى قطع المهاجرُ يدَها فيمن قطع من النساء حين شَمِتْن بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أشبَقُ من حُبَّى المَدَنيّة .

أشأم من البَسُوس . وهى جارةُ جَسّاس بن مُرّة ، صاحبةُ الناقة التى قتل بسببها كُلَيب ، وثارت الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة .

ويقال :

أمنعُ من أمّ قِرْفَةَ . وهى امرأة مالك بن حُذَيفة بن بدر الفزارى . كان يُعلّق فى بيتها سبعون سيفا ، كلُّ سيفٍ لذى مَحْرَم منها . فضُرِب بها المثل . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) فى الأصل "معج" وفى اللسان والقاموس وشرحه "مَغْنج" وفى بعض النسخ "مِنْعج" قال المفضل بن سلمة : من أعجم العين فتح الميم ومن أهملها كسر الميم . قاله البكرى فى شرح أمالى القالى .

الباب الثالث

من القسم الأوّل من الفن الثانى

(فى الغَزَل ، والنَّسيب ، والهوى ، والمحبة ، والعِشْق)

ولْنبدأْ بذكر الهوى ،لأنه السبب الباعث على الغَزَل . وذلك أنه إذا حلَّ فى الأجسام ارتاحت النفوس، ورقَّت القلوب، وانجذبت الخواطر ، وصَفَت الأذهان، وسَهُل على القرائح فأبرزته الألسُن . والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم .

٥ (٤٣)

ذكر شيء مما قيل فى الهوى ،والمحبة ،والعشق ،وما قيل فى ماهية العشق ،وحقيقته وسببه ، وما قيل فى مدحه ،وذمّه ، والممدوح منه ، والمذموم ،وضرر العشق فى الدنيا ، والآفات التى تجرى على العاشق : من المرض ، والجنون ، والضَّنا ، والمخاطرات بالنفوس ، وإلقائها إلى الهلاك .

١٠

ثم نذكر أخبارَ ... ... ومن أخرجه عن دينه حتّى كفر بربه ، ومن قَتل ، وقُتِل فيه ، ومن قتل نفسه .

ثم نذكر ماورد فى التحذير من فتنة النساء ، وذمّ الزنا ، والنظر إلى المُرْدان ،والتحذير من اللِّواط ، وعقوبة اللائط ، وغير ذلك من أمر العشق ، على ما سنشرحه إن شاء الله تعالى فنقول ، وبالله التوفيق .

١٥

أمّا ماهية العشق وحقيقته ، فقد تكلم عليه أوائل الحكماء والفلاسفة وغيرهم من المسلمين ، على ما نشرحه إن شاء الله تعالى .

فأما كلام الحكماء والفلاسفة

فقال أفلاطون : العِشْق، حركة النفس الفارغة بغير فكرة .

وسئل ديوجانس عن العشق ، فقال : سوء اختيارٍ صادف نفسا فارغة .

وقال أرسطاطاليس : العشق، هو عمى الحِسّ عن إدراك عيوب المحبوب .

وقال فيثاغورس : العشق ، طبع يتولد فى القلب ويتحرّك وينمى ثم يتربّى ، ويجتمع إليه موادّ من الحرص ، وكلما قوىَ ازداد صاحبه فى الاهتياج والتّلجاج ، والتمادى فى الطمع ، والفكر فى الأمانىّ ، والحرص على الطلب ، حتى يؤدّيه ذلك إلى الغم المقلق .

وإلى هذا المعنى أشار المتنبى بقوله :

وما العِشْقُ إلا غِرّةٌ وطَلَاعةٌ : * يعرِّض قلبٌ نفسَه فيُصابُ .

وقال بعض الفلاسفة : لم أر حقًّا أشبهَ بباطل، ولا باطلا أشبه بحق من العشق : هَزْله جِدّ ، وجِدّه هَزْل ، وأوّلُه لعب ، وآخره عَطَب .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه مرضٌ وسْواسىٌّ شبيه بالماليخوليا .

وأما كلام الإسلاميين وما قالوه فيه

فقد حكى عن أبى العالية الشامىّ ، قال : سأل المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال : هو سوانحُ للمرء يَهِيم بها قلبه وتُؤْثرها نفسه! قال فقال له ثمامة : اسكت يا يحيى! إنما عليك أن تجيب فى مسئلة طلاقٍ أو مُحْرِم صاد ظبيا، أو قتلَ نملة؛ فأما هذه فمسائلنا نحن! فقال له المأمون : ما العشق؟ يا ثمامة، فقال: العشق جليسٌ مُمْتِع ، وأليف مؤنِس ، وصاحب مملّك ، ومالك قاهر ، مسالكه لطيفة ،

ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، مَلَكَ الأبدانَ وأرواحها، والقلوبَ وخواطرَها، والعيونَ ونواظرَها، والعقولَ وآراءَها، وأُعطِي عنانَ طاعتها، وقيودَ تصرفها، توارى عن الأبصار مَدْخَله، وغِيض في القلوب مسلكه! فقال له المأمون: أحسنتَ والله، يا ثمامة! وأمر له بألف دينار.

وحكى عن الفضل بن يعقوب: قال لما اجتمع ثمامة بن أشرس، ويحيى بن أكثم عند المأمون، قال ليحيى: خبِّرني عن العشق ماهو؟ فقال: يا أمير المؤمنين، سوانح تسنح للعاشق يؤثرها، ويهيم بها تسمَّى عشقا! فقال له ثمامة: يا يحيى، أنت بمسائل الفقه أبصر منك بهذا، ونحن بهذا أحذق منك! فقال المأمون: فهاتِ ما عندك! فقال: يا أمير المؤمنين، إذا امتزجتْ خواطرُ النفوس بوصل المشاكلة نتجتْ لمح نور ساطع تستضيء به نواظر العقول، ويتصوّر من ذلك اللمح نور خاص بالنفوس متصل بجواهرها يسمَّى عشقا! فقال له المأمون: صدقت، هذا وأبيك الجوابُ!

وحكى عن الأصمعيّ، قال: دخلت على هرون الرشيد، فقال: يا أصمعيّ، إني أرقت ليلتي هذه، فقلت: ممّ؟ أنام الله عين أمير المؤمنين، قال: فكّرت في العشق ممّ هو، فلم أقف عليه، فصِفْه لي حتّى إخاله جسما مجسما! قال الأصمعيّ: لا والله ما كان عندي قبل ذلك فيه شيء فأطرقت مليًّا، ثم قلت: نعم ياسيّدي، إذا تقاربت الأخلاق المشاكلة وتمازجت الأرواح المشابهة، لمح نورٌ ساطع يستضيء به العقلُ، وتهتز لإشراقه طِباع الحياة، ويتصوّر من ذلك النورِ خُلُق خاص بالنفس متصل بجوهريتها يسمَّى العشق! فقال: أحسنت والله! يا غلام، أعطه وأعطه وأعطه! فأعطيت ثلاثين ألف درهم.

وحكى عن الأصمعيّ أنه قال : لقد أكثر الناسُ فى العشق ، فما سمعت أوجزَ ولا أجمل من قول أعرابيّة (وقد سئلت عن العشق) فقالت : ذلٌّ وجنونٌ . قلت : هذه صفة ثمرة العشق ومآله .

والتحقيق أن العشقَ شدّةُ ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها ، فإذا قوى فكرها فيه تصوّرتْ حصولَها وتمنّتْ ذلك ، فيتجدّد من شدّة الفكر مرضٌ .

وقيل لبعضهم : ما العشقُ ؟ فقال : ارتياح فى الخِلْقة ، وفرح يجول فى الرُّوح ، وسرور ينساب فى أجزاء القُوى .

وقال أبو العيناء : سألت أعرابيّا عن الهوى ، فقال : هو أظهر من أن يخفى ، وأخفى من أن يُرى ، كامنٌ ككمون النار فى الحجر ، إن قدحتَه أورى ، وإن تركته توارى .

وسئل يحيى بن معاذ عن حقيقة المحبة ، فقال : التى لا تزيد بالبر ، ولا تنقص بالجفاء .

وسئل بعض الصوفيــة عن الهوى والمحبة فقال : الهوى يحلّ فى القلب ، والمحبة يحلّ فيها القلب !

وللعشق مراتب من ابتدائه إلى انتهائه .

ذكر مراتب العشق وضروبه

قالوا : أوّل ما يتجدّد الاستحسان للشخص تحدُث إرادةُ القرب منه ، ثم المودّة . (وهو أن يودّ لو ملكه) ، ثم يقوى الودّ فيصير محبة ، ثم يصير هوًى (فيهوى بصاحبه فى محابِّ المحبوب من غير تمالك) ، ثم يصير عشقا ، ثم يصير تَتَيُّمًا (والتتيّم حالة يصير بها المعشوق مالكا للعاشق لا يوجد فى قلبه سواه) ، ثم يزيد التتيّم فيصير وَلَهًا (والوَلَه الخروج عن حدّ الترتيب ، والتعطل عن أحوال التمييز) .

وقال بعضهم : أوّل مراتب العشق الميل إلى المحبوب، ثم العلاقة، ثم الحب، ثم يستحكم الهوى فيصير مودّة تزيد بالمؤانسة، وتَدْرُس بالجفاء والأذى، ثم الخُلّة، ثم الصَّبابة (وهي رقة الشوق) تولّدها الألفة، ويبعثها الإشفاق، ويهيجها الذكر، ثم تصير عشقا. وهو على أضرب. فمبدؤه يصفي الذهن، ويهذّب العقل. كما قال ذو الرياستين لأصحابه : «أعشقوا، ولا تعشقوا حراما! فإن عشق الحرام يطلق اللسان ويرفع التبلّد ويطلق كفّ البخيل ويبعث على النظافة ويدعو إلى الذكاء، فإذا زاد، مرض الجسد، فإذا زاد، أخرج العقل وأزال الرأي فاستهلك، ثم يترقّى فيصير وَلَهًا، ويسمّى ذو الوله مُدَلَّهًا، ومستهاما، ومستهترا، وحيرانَ، ثم بعدها التتيّم فيدعى متيّما، والتتيّم نهاية الهوى، وآخر العشق، ومن التتيّم يكون الداء الدَّوِيّ، والجنون الشاغل» .

وقال بعض الحكماء : أوّل الحب العلاقة (وهو شيء يحدثه النظر أو السمع فيخطُر للبال، ويعرِض للفكر، ويرتاح له القلب، ثم ينمي بالطمع، والتّجاج، وإدمان الذكر)، ثم يقوى فيصير حُبًّا، ثم يصير هوًى، ثم يصير خُلّة، ثم عشقا، ثم وَلَهًا، فيسمّى صاحبه مُدَلَّهًا، ومستهاما، وهائما، وحيرانَ، ثم يصير متيّما، وهو أرفع منازل الحب، لأن التتيم التعبُّد، والـ[illegible] والهَيَان الذهاب في طلب غرض لاغاية له؛

[illegible]

[illegible] الحب .

[illegible]قة الحب اللازم للقلب ؛ والجوى الهوى [illegible] المحرق؛ والشَّغَف أن يبلغ الحب شَغَاف [illegible] الهوى؛ والتَّبَل أن يُسقمه الهوى،

نقل العفش مع الفك والتركيب
تنظيف وتعقيم الخزانات
تنظيف سجاد وموكيت وكنب وباطرمه
مكافحة الحشرات والنمل الأبيض (العتة)
صيانة عامة ونظافة المباني وسباكة وكهرباء
جلي وتلميع جميع أنواع البلاط والرخام والمزايكو

يقال : رجل متبول، والتَّدْلِيهُ، ذَهاب العقل من الهوى، يقال : رجل مُدَلَّهٌ، والهُيُوم أن يذهب على وجهه، والشَّغَف إحراق القلب مع لذة يجدها وهو شبيه باللَّوْعة .

وقال أبو عبد الله بن عرفة : الإرادة قبل المحبة، ثم المحبة، ثم الهوى، ثم العشق .

وقال ٱبن دُرَيْد : الصَّبابة رقَّة الهوى. وٱشتقاق الحب من أحب البعير، إذا بَرَك من الإعياء .

ذكر ما قيل فى الفرق بين المحبة والعشق

قالوا : المحبة جنس، والعشق نوع . فإن الرجل يحب أباه وأمه، ولا يبعثه ذلك على تَلَف نفسه، بخلاف العاشق .

وقد حكى أن بعض العشاق نظر إلى جارية كان يهواها، فارتعدت فرائصُه وغُشِيَ عليه، فقيل لبعض الحكماء : ما الذى أصابه؟ فقال : نظر من يحبُّه، فانفرج قلبه، فتحرّك الجسم لٱنفراج القلب! فقيل له : فنحن نحب أهالينا ولا يصيبنا ذلك فقال : تلك محبة العقل، وهذه محبة الرُّوح !

وقالوا : كل عشق يسمَّى حُبًّا، وليس كل حب يسمَّى عشقا . لأن العشق ٱسم لما فَضَلَ عن المحبة، كما أن السَّرَف ٱسم لما جاوز الجُود، والبُخْلَ ٱسم لما نقص عن الٱقتصاد، والجبنَ ٱسم لما فَضَل عن شدّة الٱحتراس، والهَوَجَ ٱسم لما فَضَلَ عن الشجاعة .

قال الشاعر :

ثلاثةُ أحبابٍ : فحبٌّ علاقةٌ، * وحُبٌّ تِملّاقٌ، وحُبٌّ هو القتلُ!

❖

وأما سبب العشق وما قيل فيه، فقالوا: سبب العشق مصادفة النفس ما يلائم طبعَها فتستحسنه وتميل إليه. وأكثر أسباب المصادفة النظر. ولا يكون ذلك باللمح، بل بالتثبت في النظر ومعاودته بالنظر، فإذا غاب المحبوب عن العين طلبتْه النفسُ، ورامت التقربَ منه، وتمنّتْ الاستمتاعَ به. فيصير فكرها فيه، وتصويرها إياه في الغَيْبة حاضرا، وشغلُها كله به، فيتجدّد من ذلك أمراضٌ لانصراف الفكر إلى ذلك المعنى. وكلما قويت الشهوة البدنية، قوِيَ الفكر في ذلك. وقد أمر الله عز وجل بغَضّ البصر فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. فقرن غض البصر بحفظ الفرج، لأنه يسببه ويؤول إليه.

وعن عليّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال: "لا تُتْبِع النظرة النظرةَ، فإن لك الأُولى! وليستْ لك الآخرةُ".

وعن أبي هُرَيرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العَيْنانِ تَزْنِيانِ، وزِناهُما النظَرُ".

وعن عليّ رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم! "يا عليُّ، اتّقِ النظْرَة بعد النَّظْرة! فإنها سَهْم مَسْمومٌ، يُورِث الشَّهوةَ في القَلْبِ".

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نَظَرُ الرجُلِ إلى مَحَاسِن المرأةِ سَهْمٌ مسمومٌ من سِهَام إبليس".

وعن يحيى بن سعيد قال: كان عيسى بن مريم عليه السلام يقول: "النظرُ يَزْرعُ في القلب الشهوةَ، وكفى بها خَطِيئةً!".

وعن سفيان قال : قال عيسى عليه السلام : "إيّاكُم والنظرَ! فإنّه يزرَعُ فى القلبِ الشهوة، وكفَى بها لصاحبها فِتنَةً ! » .

وقال الحسن البصرىّ : من أطلق طَرْفه، أطال أَسَفَه .

وقال ذو النون : اللَّحَظاتُ تورث الحَسَرات : أوّلها أسَفٌ، وآخرها تَلَفٌ . فمن تابع طَرْفه، تابع حَتْفه .

وقال حكيم : أوّل العِشْق النظر، وأوّل الحريق الشَّرَر .

وقال أبو الفرج بن الجوزىّ : البصر صاحب خَبَر القلب . ينقل إليه أخبار المُبصَرات، وينقش فيه صُوَرها، فيجول الفكر فيها فيشغَلُه ذلك عن الفكر فيما ينفَعُه من أمر الآخرة . فاحذَرْ من شر النظر! فكم أهلك من عابد، وفَسَخ عزمَ زاهد! وهو سبب الآفات، إلا أن علاجه فى بدايته قريب. فإذا كرر تمكن الشرّ فصعُب علاجه. فإن النظرة إذا أثّرت فى القلب، فإن أعجل الحازم بغضّها وحسم المادّة من أوّلها سهُل علاجه، وإن كرر النظر نَقَّب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب متفرّغ ونقشها فيه. فكلما تواصلت النظرات كانت كالمياه تسقى بها الشجرة، فلا تزال تنمو فيفسُد القلب، ويُعْرِض عن الفكر فيما أُمِرَ به، ويخرج بصاحبه الى المِحَن، ويوجب ارتكاب المحظورات، ويلقى فى التلف .

وقد أكثر الشعراء فى وصف ما يحدثه النظر من البلايا، فمن ذلك، قول الفرزدق :

تَزوّدَ منها نظرةً لم تَدَعْ لَهُ * فُؤادًا، ولم يَشْعُرْ بما قد تَزوّدا.

فلَمْ أر مقتُولًا ولم أر قاتِلًا * بغَيْرِ سلاح مثْلَها حينَ أقْصدَا.

وقال إبراهيم بن العباس بن صول الكاتب :

فمَن كانَ يُؤْتَى من عدوٍّ وحاسِدٍ، * فإنِّيَ من عينِي أُتِيتُ ومن قَلْبِي!
هما اعتوراني نظرةٌ ثم فِكْرَةٌ، * فما أبقيَا لى من رُقَاد ولا لُبِّ!

وقال إسمعيل بن عمار الأعرابيّ :

٥ عَينانِ مشئومتانِ، وَيْحَهُما! * والقَلْبُ حَيْرانُ مُبتَلًى بهما.
عَرَّفتاه الهوى لظُلْمِهما، * يالَيْتَنِي قبلَه عَدِمتُهما!

وقال أبو عبد الله المارستانيّ :

رَمَانِي بها طَرفِي فلم يُخْطِ مَقْتَلِي، * وما كُلُّ من يُرْمَى تُصابُ مقاتِلُهْ!
إذا مُتُّ، فابكُونِي قَتِيلا لِطَرْفِه * قَتِيلَ عدُوٍّ حاضر ما يُزايِلُهْ!

١٠ وقال ابن المعتز :

متيَّمٌ يرْعَى نُجُومَ الدُّجى * يَبْكِي عليه رحمةً عاذِلُهْ!
عَيْنِي أشاطَتْ بدمِي فى الهَوى، * فابكُوا قَتِيلًا بعضُه قاتِلُهْ!

وقال المتنبي :

وأنَا الَّذِى اجتلَب المنِيَّةَ طَرْفُه * فَمَنِ المطالَبُ؟ والقتيلُ القاتلُ!

١٥ وقال ابن المعتز :

وما أدرِى، إذا ما جَنَّ ليلٌ، * أشوقًا فى فُؤادِى أم حَرِيقا؟
ألا يا مقلَتَيَّ، دهيتُمانِي * بلحْظِكما فذُوقا! ثم ذُوقا!

(٤٦)

وقال أبو عبد الله بن الحجاج :

يامَنْ رأى سُقْمِى يَزِيـد وعِلَّتِى تُعْيِي طَبِيبِي.
٢٠ لا تَعْجَبَنَّ فهكذا * تَجْنِي العيونُ على الأُلُوبِ!

وقال أبو منصور بن الفضل :

لواحِظُنا، تَجْنِي ولا عِلْمَ عِنْدَها * وأنفُسُنا مأخوذةٌ بالجَرائِرِ.
ولم أرَ أغْبى من نُفُوسٍ عفائِفٍ * تُصَدِّقُ أخبار العُيونِ الفَواجِرِ.
ومَنْ كانتِ الأجفانُ حُجّابَ قلبِه * أذِنَّ على أحْشائِه بالفَواقِرِ!

وقال أبو محمد بن الخفاجيّ : ٥

رمَتْ عيْنُها عَيْنِي، وراحتْ سليمةً! * فَمَنْ حاكمٌ بين الكَحِيلة والعَبْرا؟
فياطَرْفُ، قد حَذَّرْتُكَ النظرةَ التي * خَلَسْتَ فما راقَبْتَ نهيا ولا زَجْرا!
وياقلبُ، قد أرْداكَ من قبلُ مرةً! * فوَيْحكَ! لِمْ طاوعْتَه مرّةً أُخْرى؟

وقال عبد المحسن بن غالب الصوريّ :

ما نَظْرةٌ إلا لها سَكْرةٌ * كأنّما طَرْفُك خَمّارُ. ١٠
هذا هوًى يَصْدُرُ عنه جَوًى * يَتْلُوه لَوْعاتٌ وأفكارُ.
وهذه أفعالُها، هذه! * ما بعد رأْيِ العينِ إخبارُ.
ولم يكُن أوّلَ مَنْ غرِنِي! * كلُّ غَرِيرِ الطَّرْفِ غَرّارُ!

وقال أبو شجاع الوزير :

لأُعذِّبنَّ العينَ غيرَ مفكِّرٍ * فيها، جرَتْ بالدمعِ أم فاضَتْ دَمَا! ١٥
ولأَهْجُرَنَّ من الرُّقاد لذيذَهُ * حتّى يصيرَ على الجُفُون مُحرَّما!
سفَكَتْ دمِي، فلأَسْفِكَنّ دمُوعَها * وهي التي بَدأتْ فكانتْ أظلَما!
هيْ أوقعَتْنِي في حبائل فتنةٍ: * لولم تَكُنْ نظرَتْ، لكنتُ مسلَّما!

وقال آخر عفا الله عنه :

ياعينُ أنت قتلْتِني، * وجعَلْتِ ذنبَكِ من ذُنوبِي! ٢٠

وأراكِ تَهْـوِينَ الدُّمو * عَ كأنَّها وَفْق الحبيبِ.
تالله، أحلِفُ صـادقًا * والصِّدقُ من شِيَمِ الأريبِ!
لو مُـيِّزَتْ نُوَبُ الزما * ن من البعيد إلى القَريبِ،
ما كُنَّ إلا دُونَ مَا * جَنَتِ العيونُ على القُلُوبِ!

٥ وقال آخر، وأجاد:

أنا ما بَيْنَ عَـدُوَّيْـنِ هما: قَلْبي وطَرْفي.
ينظُر الطَّرْفُ ويهوى الـقَلْبُ، والمقصودُ حَتْفي.

وقال ابن الحريريّ:

فتَصبَّرْ، ولا تَشِمْ كلَّ بَرْقٍ! * رُبَّ برقٍ فيه صَـواعِقُ حَيْنِ!
١٠ وٱغضُضِ الطَّرْفَ، تَسْتَرِحْ من غَرامٍ * تكتَسِي فيه ثوبَ ذُلٍّ وشَيْنِ.
فَقِيادُ الفَتى موافقةُ النفـس، وبَدْءُ الهوى طُمُوحُ العَيْنِ.

فصـل

قالوا: ومن أسباب العشق، سماع الغِناء وإنشاد الغَزَل. فإن ذلك يصوّر في النفس نقوشَ صور فتخمّر خميرةَ صـورة موصوفة، ثم تصادف نظرا مستحسنا، فتتعلق
١٥ النفس بما كانت تطلبه حالة الوصف.

فصـل

وذكر بعض الحكماء أنه لا يقع العشـق إلا لمجانس، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل. وٱستدل بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم! "الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة ما تعارَفَ منها ٱئتلفَ، وما تناكَرَ منها ٱختلَفَ". قال: وقد كانت الأرواح موجودة

قبل الأجسام ، فمال الجنسُ إلى الجنس . فلما آفترقت في الأجساد ، بقى فى كل نفس حب ما كان مقارنا لها . فإذا شاهدت النفس من نفسٍ نوعَ موافقة ، مالت إليها ظانّة أنها هى التى كانت قرينَتَها . فإن كان التشاكل فى المعانى كانت صداقةً ومودّة ، وإن كان فى معنى يتعلق بالصورة ، كان عشقا . وإنما يوجد الملل والإعراض من بعض الناس لأن التجربة أبانت آرتفاع المجانسة والمناسبة . ٥

وأنشدوا على ذلك :

وقائلٍ : كَيْفَ تهاجَرْتُما ؟ * فقلتُ قَوْلا فيه إنْصافُ :
لم يَكُ من شَكْلِي ففارَقْتُه ، * والناس أَشْكال وأُلّافُ .

قال أبو الفرج بن الجوزىّ : فإن قيل إذا كان سبب العشق نوعَ موافقة بين شخصين فى الطباع ، فكيف يحب احدهما صاحبه والآخر لايحبه ؟ فالجواب أنه يتفق ١٠ فى طبع المعشوق ما يوافق طبع العاشق ، ولا يتفق فى طبع العاشق ما يلائم طبع المعشوق . فإذا كان سبب العشق آتفاقا فى الطباع بطل قولُ من قال : إن العِشق لا يكون إلا للأشياء المستحسنة . إنما يكون العِشق لنوع مناسبة وملاءمة ، ثم قد يكون الشىء حسنا عند شخص غير حسن عند آخر . وحكى على ذلك حكاية رفعها بالسند إلى علىّ بن الحسين القرشىّ ، عن رجل من أهل المدينة كان أديبا ظريفا ١٥ طَلّابا للأدب والمُلَح ، قال : كنت يوما فى مجلس رجل من قريش ومَعَنا قَيْنة ظريفة حَسَنة الصورة ، ومعنا فتًى من أقبح مارأته العين ، والقَيْنة مقبلة عليه بحديثها وغنائها . فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا فتًى من أحسن الناس وجهًا ، وأثراهم ثوبا ، وأطيبهم ريحا ، فأقبل علىّ صاحب البيت ، فقال : إن فى أمر هذين لعجبا ! قلت : وما ذاك ؟ قال : هذه الجارية تحب هذا (يعنى القبيحَ الوجهِ) وليس لها فى قلبه محبة ، وهذا ٢٠

الحسن الوجهِ يحبها، وليس له في قلبها محبةٌ. فبينا نحن على شرابنا إذ سرّ الفتى الحسن الوجه فتغنّى وقال :

بِيَدِ الذي شُغِف الفُؤادُ بهم * فـرَجُ الذى ألقَى من السُّقْم!
فاستيقِنِي أنْ قَـد كَلِفتُ بكم * ثم آفعَـلِي ما شِئتِ عن عِلْم!

٥ فأقبلت عليه، وقالت: قد علمنا ذاك، فَهْ! ثم تركته، وأقبلت على القبيح الوجه، فلبثنا ساعة، ثم تغنى الفتى أيضا :

ألَا ليتَنِي أعمى أصمُّ تقودُنِي * بُثَيْنَـةُ لا يخفَى علَيَّ كلامُها!

فقالت : اللهم أعط عبدك ماسأل! فغاظتنى، فقلت لها : يافاجرة تختارين هذا، وهو أقبح من ذنوب المُصِرِّين، على هذا الذى هو أحسنُ من توبة التائبين، فقالت

١٠ لى : ليس الهوى بالاختيار! ثم أنشأت تغنى وتقول :

فلا تَـلُمِ المُحِبَّ على هَوَاه * فكلّ متـيَّمٍ كلِفٌ عميـدِ
يَظُنُّ حبيبَه حَسَنا جميلاً، * وإن كان الحَبِيبُ من القُرودِ!

فقلت : أجل! إنه لكما قلتِ، وليس فى هـذا حيلة، وذكرت قول عُمَر ابن أبى ربيعة :

١٥ فتَضاحَكْنَ، وقد قُلْن لنا : * حَسَنٌ فى كلِّ عينٍ ما تَودّ!

فصـــل

قالوا : ويتأكد العشق بإدمان النظر، وكثرة اللقاء، وطول الحديث. فإن انضم إلى ذلك معانقة أو تقبيل فقد تمّ استحكامُه.

وقد ذكر حكماء الأوائل أنه إذا وقعتْ القُبَل بين المُتحابَّيْن ووصلت بِلّة من

٢٠ ريق كل واحد منهما إلى مَعدة الآخر، اختلط ذلك بجميع البدن ووصـل إلى جِرْم

جبد، وهكذا إذا تنفس كل واحد منهما فى وجه صاحبه، فإنه يخرج مع ذلك النفس شىءٌ من نسيم كل واحد منهما فيختلط بأجزاء الهواء، فإذا آستنشق من ذلك الهواء دخل فى الخياشيم، فوصل بعضه إلى الدماغ فسرى فيه كسَرَيان النُّور فى جِرْم البِلَّور، ووصل بعضه إلى جِرْم الرئة، ثم إلى القلب فَيدِبُّ فى العروق الضوارب فى جميع البدن فينعقد فى بَدَن هذا ما تحلل من بَدَن هـذا فيصير مزاجا، فيتولد به العشق ويَنْمى . ٥

هذا ما قيل فى سبب العشق والله أعلم .

* * *

وأما ما قيل فى مدحه وذمّه والممدوح منه والمذموم ، قال آبن الجوزىّ فى كتابه المترجم بِـ" ذَمّ الهوى " : آختلف النـاس فى العشق ، هل هو ممـدوح أو مذموم . فقال قوم : هو ممدوح ، لأنه لا يكون إلا من لَطَافة الطبع ، ولا يقع ١٠ عند جامد الطبع . ومن لم يجد منه شيئا فذلك من غِلَظ الطبيعة . فهو يجلو العقولَ ، ويصفّى الأذهان ، ما لم يُفْرِط . فإن أفرط عاد سُمّـا قاتلا . وقال آخرون : هو مذموم، لأنه يستأسر العاشق ويجعله فى مقام المستعبَد . قال : قلت : وفصل الحكم فى هذا الفصل أن نقول : أما المحبة والودّ والميل إلى الأشـياء المستحسنة والملائمة فلا يُذَم ، وأما العشـق الذى يزيد على حدّ الميـل والمحبة فيملِك العـقلَ ويُصرِّف ١٥ صاحبه على غير مقتضى الحكمة فذلك مذموم . ويتحاشى من مثله الحكماء .

هذا ما قيل فى مدحه وذمّه مجملا . والله تعالى أعلم .

* * *

فأما الممدوح منه ، وهو الذى قدّمنا ذكره ، فقـد وقع فيه جماعة من الخلفاء والأكابر فلم يُعَب عليهم ولا نَقَصهم . وقد تكلموا فى مدحه وتفضيله بمـا سنذكر ٢٠ منه إن شاء الله تعالى طَرَفا .

فقالوا : العشق يولّد الأخلاقَ الحميدة! وقالوا : لو لم يكن في الهوى إلا أنه يشجّع الجبانَ، ويصفّي الأذهان، ويبعث حزم العاجز، لكفاه شرفا ! (٤٨)

وقال أعرابيّ : من لم يُحِبّ قط فهو رديء التركيب جافي الطبع كزّ المعاطف .

وقد روى أن الشعبيّ كان ينشد :

إذا أنتَ لم تَعْشَق ولم تَدْرِ ما الهوى ، * فأنتَ وعيرٌ في الفَلاة سَواء!

وسمع ابنُ أبي مليكة غناء وهو يؤذّن، فطَرِب . فقيل له في ذلك، فقال :

إذا أنت لم تَطْرَبْ ولم تَدْرِ ما الهوى * فكن حَجَرا من يابِس الصَّخر جَلْمَدا.

وسئل أبو نوفل : هل يسْلَمَ أحدٌ من العشق ؟ فقال : نعم الجِلْفُ الجافي الذي ليس فيه فضل ولا عنده فَهْم . فأما من في طبعه أدنى ظَرْف أو معه دَمَاثة أهل الحجاز ورِقّةُ أهل العراق، فهيهات !

وحكى أبو الفرج بن الجوزيّ بسند يرفعه إلى اليمان بن عمرو مولى ذي الرياستين، قال : كان ذو الرياستين يبعثني ويبعث أحداثا من أهله إلى شيخ عالم بخُراسانَ، له أدبٌ وحسنُ معرفة بالأمور، ويقول لنا : تعلّموا منه الحكمة، فإنه حكيم ! ، وكنا نأتيه . فإذا انصرفنا من عنده، سألنا ذو الرياستين واعترض ما حَفِظناه فنخبره به . فقصدناه ذات يوم، فقال : أنتم أُدباءُ، وقد سمعتم الحكمة ولكم جِدَاتٌ ونِعَمٌ، فهل فيكم عاشق؟ فقلنا : لا . فقال : اعشَقُوا، فإن العشق يُطْلِق اللسان العَيّ، ويفتح جِبِلّة البليد، ويبعث على التنظيف وتحسين اللباس وتطييب المَطْعَم ، ويدعو إلى الحركة والذّكاء ، ويُشَرِّف الهمة ! وإياكم والحرام ! فانصرفنا من عنده إلى ذي الرياستين، فسألنا عما أخذنا في يومنا ذلك فهِبْناه أن نخبره . فعزَم علينا فأخبرناه، فقال : صدَق والله ! فهل

تعلمون من أين أخذ هذا؟ فقلنا : لا. قال ذو الرياستين : إن بَهْرامَ جُور كان له ابن، وكان قد رشّحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقصَ الهمة، ساقطَ المُروءة، خامل النفس، سيئ الأدب. فغمه ذلك ووكّل به من يلازمه من المؤدّبين والحكماء ليعلموه. فكان يسألهم عنه فيحكون عنه ما يغُمّه من سوء فهمه وقلة أدبه. إلى أن سأل بعض مؤدّبيه يوما، فقال له المؤدّب : قد كنا نخاف سُوءَ أدبه، فحدث من أمره ما صيّرنا إلى اليأس من فلاحه، قال : وما ذاك الذى حدث؟ قال : إنه رأى ابنة فلان المَرْزُبان فعشِقَها حتى غلب عليه هواها، فهو لا يَهْذِى إلا بها، ولا يتشاغل إلا بذكرها. فقال بهرام : الآن رجوتُ فلاحه! ثم دعا بأبى الجارية، فقال : إنى مُسِرٌّ إليك سرّا فلا يعدُوَنّك. فضمن له ستره. فأعلمه أن ابنه قد عَشِق ابنته، وأنه يريد أن ينكِحَها إياه، وأمره أن يأمرها بإطاعته فى نفسها ومراسلته من غير أن يراها، فإذا استحكم طمعه فيها تجنّتْ عليه وهَجَرته، فإن استعتبها أعلمته أنها لا تصلح إلا الملك ومَنْ همته همة الملوك، وأنه يمنعُها من مواصلته أنه لا يصلح للملك. ثم ليعلمه خبرهما، فقبل أبوها ذلك منه. ثم قال للمؤدّب الموكل به خوّفه منى وشجعه على مراسلة المرأة! ففعل ذلك وفعلتْ الصبيّة ما أمرها به أبوها. فلما انتهت إلى التجنى عليه، وعلم الفتى السبب الذى كرهته له، أخذ فى الأدب وطلب الحكمة والعلم والفُروسية والرّماية وضرب الصوالجة حتّى مَهَر فى ذلك. ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج من الدوابّ والآلات والمطاعم والملابس والندماء إلى فوق ما عنده. فَسُرّ الملك بذلك، وأمر له بما طلب. ثم دعا مؤدّبه، فقال : إن الموضع الذى وضع به ابنى نفسه من حبّ هذه المرأة لا يُزْرِى به. فتقدّمْ إليه أن يرفع ذلك إلىّ ويسألنى أن أزوّجه إياها. ففعل. ورفع الفتى ذلك إلى أبيه، فاستدعى أباها، وزوّجه بها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال له :

إذا ٱجتمعتَ بها فلا تحدث شيئا حتّى آتيك! فلما ٱجتمع أتاه، فقال: يابُنَيّ لا يضعَنّ منها عندك مراسلتُها إيّاك، وليست في حبالك! فإني أنا أمرتها بذلك. وهي أعظم الناس مِنّةً عليك، بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك، حتّى بلغت الحدّ الذي تصلح معه لُلْك بعدي. فزِدْها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك! ففعل الفتى ذلك، وعاش مسرورا بالجارية، وعاش أبوه مسرورا به، وأحسن ثواب أبيها، ورفع مرتبته وشرفه بصيانة سره وطاعته، وأحسن جائزة المؤدّب، وعقد لٱبنه على المُلْك من بعده.

(٤٩)

قال اليمان: ثم قال لنا ذو الرياستين: سلوا الشيخ الآن: لِمَ حملكم على العشق؟ فسألناه: فحدّثنا بحديث بهرام جور وٱبنه.

فهذا ممن ٱرتفع بالهوى وترقّى بسببه إلى مرتبة الملك.

وحكى ٱبن الجوزيّ أيضا، قال: حدّث القاسم بن محمد النُّمَيْرِيّ، قال: مارأيت شابا ولا كهلا من ولد العباس أصْونَ لنفسه، وأضبطَ لحاشه وأعفَّ لسانا وفَرْجا من عبد الله بن المعتزّ! وكان ربما عبَثْنا بالهزل في مجلسه، فجرى معنا فيه فيما لا يقدح به عليه قادح. وكان أكثرَ مايَشْغَل به نفسه سماعُ الغناء. وكان كثيرا مايَعيب العِشْق، ويقول: هو ضرب من الحمق! وكان إذا رأى منا من هو مطرق أو مفكّر اتهمه بالعشق ويقول: وقعْتَ والله يافلان! وقلّ عقلك وسَخُفْتَ! إلى أن رأيناه، وقد حدث به سهو شديد، وفكر دائم، وزفير متتابع، وسمعناه ينشد أشعارا منها:

مالِي أَرَى الثُّرَيّا * ولا أَرَى الرَّقِيبا؟
يامُرْسِلًا غزالًا، * أما تَخَافُ ذيبا؟

وسمعناه مرة أخرى ينشد، وهو يشرب فى إناء قد لفه، فاتهمناه فيه. وكتب عبد هذا الشعر:

ماقَلِيــلٌ منكَ لى بقَلِيــلِ، * يامُنى عينى وغايةَ سُــولِى!
سَــل بحقِّ الله عينيــكَ عنِّى: * هل أحَسَّتْ فى الهوى بقَتِيلِ؟
أنتَ أفسَدْتَ حياتِى بهَــجْرٍ، * وتمَــاتِى بحِسابٍ طَــوِيلِ! ٥

وأنشــد:

أسَرَ الحُبُّ أمِــيرًا * لم يكُنْ قبْلُ أسِيرا.
فارحَمُــوا ذُلَّ عَزِيزٍ * صارعَبْدًا مستَجِيرا!

وأنشد يوما، وقد راى دار بعض الناس، فقال:

أيا دارُ كَمْ فِيكِ من لَذَّةٍ * وعَيْشٍ لنا، كانَ ما أطْيَبَهْ! ١٠
ومن قَيْنةٍ أفسَدَتْ ناسِكًا، * وكانَتْ له فى التُّقى مَرْتَبَهْ.

وقال أيضا مرّة:

لقد قتَلَتْ عيناكَ نفْسًا كريمــةً، * فلا تأمَنَنْ إن مُتُّ سَــطْوةَ ثائِرِ!
كأنَّ فُؤادِى فى السَّماء معَــلَّقٌ، * إذا غِبْتَ عن عينِى، بمِخْلَب طائِرِ.

وأنشد يوما، وفى يده خاتم: ١٥

حَصَلْتُ منك على خا * تَمٍ حَــوَتْه البنانُ!
فــا يُفــارِقُ كَفِّى * كأنَّه قَهْــرَمانُ.
ياأهلَ وُدِّى بَعُــدْتُم * وأنــتُمُ جِــيرانُ!

قال النميرىّ: فقلتُ له: جعلنا الله فداك! هذه أشياء قد كنت تعيب أمثالها منا، ونحن الآن ننكرها منــك! وكان يرجع عن بعض ذلك تصنعا، ثم لا يلبث

مستوره ان يظهر حتى تحقق عنـدنا عشقه، ودخل فى طبقة المرحومين، فسمعته يوما ينشد :

مَكْتُومُ، يا أحسَنَ خلقِ اللهِ * لا تَتْرُكِنِي هكذا باللهِ!

ثم تنفس إثر ذلك فأجبته :

٥ قد ظَفِر العِشـقُ بعبد اللهِ * وأنْهتكَ السِّـتْرُ بحمد اللهِ.

فقل له : سَمِّ لنـا سَيِّدِى * هذا الذى تَهْوى، بحقِّ اللهِ!

فضحك وقال : لا، ولا كَرامة !

فكتبتُ إليه من الغَدِ :

بكَتْ عيْنُـه وشَكَا حُرقةً * من الوَجْد فى القَلْب ما تنطفى.

١٠ فقلتُ لَهُ : سـيِّدِى، ما الذى * أرى بِكَ؟ قال : سِقَام خَفِى.

فقلتُ : أعِشْقٌ؟ فقال : اقْتصِر * على ما تَرى بى، أما تَكْتَفِى؟

فكتب إلىّ :

يا مَنْ يُحـدِّث عَنِّى * بظَنِّ سمـع وعيْنِ!

إن كنتَ تَخْطُب سِرِّى، * فارجِعْ بخُفَّىْ حُنَـيْنِ!

١٥ فكتبت إليه :

هَيْهـاتَ لحظك عِنْدِى * يُقِـرُّ فيـه بعِشْـقِك!

دَعْ عنـك خُفَّىْ حُنَيْنٍ * واحْرِص على حَلِّ رِبْقِك!

تعـالَ نَحْتـالُ فيـما * تهوى، برِفْقِى ورِفْقِـك!

وصرتُ إليه فقال : يا أبا طيب، قد عصيتُ إبليسَ أكثر مما عصى ربَّه إلى أن

٢٠ أوقعنى فى حبائله، فأنشدته :

من أينَ لا كان إبليسُ جاءنى بِكَ يَسْعَى؟
أبْداكَ لى من بَعِيدٍ * فقلت : طَوْعًا وسَمْعًا!

فأخبرنى بقصته . فسعيت له بلطيف الحيلة وأعاننى بحزم الرأى حتّى فاز بالظفر .

قال أبو بكر الصولى : أعتل عبد الله بن المعتز فأتاه أبوه عائدا وقال : ما عراك، يابنىّ ؟ فأنشأ يقول :

أيُّها العاذلُونَ ، لاتَعْذُلُونِى * وانظروا حُسْنَ وجهها تَعْذِرُونى!
وانظروا هل تَرَوْنَ أحسنَ منها، * إن رَأَيْتُمْ شَبِيهها فَاعْذُلُونِى!
بى جُنُونُ الهوى، ومابى جُنُونٌ * وجُنونُ الهوى جُنونُ الجُنونِ!

قال : فتتبع أبوه الحال حتّى وقع عليها، فابتاع الجارية التى شُغِف بها بسبعة آلاف دينار، ووجّهها إليه .

وحكى أن الرشيد كان له ثلاث جوارٍ اشتدّ شغفه بهنّ ، فقال العباس بن الأحنف على لسانه :

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِساتُ عنانِى * وَحَلَلْنَ من قلبى بكُلِّ مكانِ!
مالى تُطاوِعُنِى البريّةُ كلُّها، * وأُطِيعُهنّ وهُنّ فى عِصْيانِى؟
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى * وبه عززن أعزُّ من سلطانِى!

أخذ المعنى والروىّ سليمان بن الحَكَم المستعين، أحدُ خلفاء بنى أمية بالأندلس، فقال :

عَجَبًا يهابُ الليثُ حدَّ سِنَانِى، * وأهابُ لَحْظ فَواتِرِ الأجْفانِ!
وأُقارِعُ الأهوالَ لا متهيِّبا * منها سِوى الإعراض والهِجْرانِ!
وتملّكتْ نفسِى ثلاثٌ كالدُّمى * زُهرِ الوُجُوهِ نواعمُ الأبدانِ!

ككواكِبِ الظلماء لُحْنَ لناظِرٍ * من فوقِ أغصانٍ على كُثْبانِ.
هذى الهِلالُ، وتلك بنتُ المشترِى * حُسْناً، وهذى أختُ غُصنِ البانِ!
حاكمتُ فيهنَّ السُّلُوَّ إلى الصِّبا * فقضى لسُلْطانٍ على سُلطانِ.
فأبحْنَ من قلبي الحمَى وثَنَيْنَني * عن عِزِّ مُلْكِي كالأسيرِ العانِي.
لا تَعْذلوا مَلِكا تذلَّل في الهوى! * ذُلُّ الهوى عِزٌّ ومُلْكٌ ثانِي!
إن لم أُطِعْ فيهنَّ سُلطانَ الهوى * كَلَفا بهنّ، فلستُ من مَرْوانِ!
وإذا الكريمُ أحَبَّ، أمَّن إلفَهُ * خَطْبَ الفِلَى وحَوادثَ السُّلْوانِ!

وقال العباس :

لاعارَ في الحُبِّ إنَّ الحبَّ، مَكْرُمةٌ * لكنَّه ربَّما أزرى بذى الخَطَرِ!

وأما القسم المذموم منه، وهو الذى ثنَّينا بذكره في صدر هذا الفصل فقد أكثر الناس القول في ذمه، وبيّنوا أسبابه .

فقال ابن الجوزىّ : بيان ذمه أن الشيء إنما يعرف مذموما أو ممدوحا بتأمل ذاته وفوائده وعواقبه، وذات العشق لَهَج بصورة، وهذا ليس فيه فضيلة فتمدَحَ، ولا فائدةَ في العشق للنفس الناطقة، إنما هو أثر غلبة النفس الشَّهْوانية .

وقال بعض الحكماء : ليس العشق من أدواء الحُصَفاء الحكماء، إنما هو من امراض الخُلَعاء الذين جعلوا دأبهم ولهَجهم متابعةَ النفس وإرخاءَ عِنانِ الشهوة وإمراح النظر في المستحسنات من الصور . فهنالك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس، ثم تألف، ثم تَتُوق، ثم تَلْهَج، فيقال «عَشِق» . وليس هذا من صفة الحكماء :

لأن الحكيم من آستطال رأيُه على هواه، وتسلطت حكمتُه على شهوته . فَرُعُونات طبعه مقيَّدة أبدا كصبيّ بين يدى معلمه أو عبد بمرأى سيده ؛ وما كان العشق قط إلا لأرعن بَطَّال . وقَلَّ أن يكون لمشغول بصناعة أو بتجارة، فكيف لمشغول بالعلوم والحكم، فإنها تصرفه عن ذلك . ولهذا لا تكاد تجده فى الحكماء .

(٥١) وقال آبن عُقَيل : العشق مرض يعترِى النفوس العاطلة، والقلوب الفارغة المتلمحة للصور لدواعٍ من النفس، ويساعدها إدمان المخالطة، فيتأكد الإلْف ويتمكن الأنس، فيصير بالإدمان شَغَفا . وما عَشِق قط إلا فارغٌ . فهو من علل البَطَّالين وأمراض الفارغين من النظر فى دلائل العبر، وطلب الحقائق، المستدل بها على عِظَم الخالق . ولهذا قلما تراه إلا فى الرَّعْن البَطِرين، وأرباب الخَلَاعة النَّوْكى . وما عَشِق حكيم قط : لأن قلوب الحكماء أشدّ تمنعا عن أن توقفها صورة من صُوَر الكون مع شدّة تطلبها، فهى أبدا تلحظ وتَخْطَف ولا تقف . وقلَّ أن يحصل عشق من لمحة، وقلَّ أن يُضِيف حكيم إلى لَمْحة نظرةً، فإنه مارّ فى طلب المعانى، ومن كان طالبا لمعرفة الله لا توقفه صورة عن الطلب لأنها تحجبه عن الصور .

وقال آبن الجوزىّ : وآعلم أن العشاق قد جاوزُوا حدّ البهائم فى عدم ملكة النفس فى الانقياد إلى الشهوات : لأنهم لم يرضَوْا أن يصيبوا شهوة الوطء وهى أقبح الشهوات عند النفس الناطقة من أىّ موضع كان حتى أرادوها من شخص بعينه فضمُّوا شهوة إلى شهوة، وذَلُّوا للهوى ذلّا على ذل . والبهيمة إنما تقصد دفع الأذى عنها حسبُ . وهؤلاء آستخدموا عقولهم فى تدبير نيل شهواتهم .

ثم قال : والعشق بَيِّن الضرر فى الدِّين والدنيا . أما فى الدين فإنه يشغَلُ القلب عن الفكر فيما له خُلِق : من معرفة الله تعالى، والخوف منه، والقرب إليه . ثم ينفذ ما ينال

من موافقة غرضه المحرم الذى يكون فيه خُسْران آخرته . و يعرضه لعقوبة خالقه . فكلما قَرُب من هواه ، بَعُد من مولاه . ولا يكاد العشق يقع فى الحلال المقدور عليه فان وقع ، فياسُرْعان زوالُه ! قالت الحكماء : كل مملوك مملول . وقال الشاعر :

وزادنى شَغَفا بالحِبِّ أن مَنَعتْ ... أحَبُّ شىء إلى الإنسان ما مُنِعا .

فان كان المعشوق لايباح ، اشتد القلق به والطلب له . فإن نيل منه غرض ، فالعذاب الشديد فى مقابلته . على أن بلوغ الغرض يزيد ألمًا فتُرْبِى مرارة الفراق على لذَّة الوصال . كما قال الشاعر :

كلُّ شىء رَبِحْتُهُ فى التَّدانِى ... والتَّلاقِى ، خَسِرْتُه فى الفِراق .

فإن منعه خوفُ الله تعالى عن نيل غرض ، فالامتناع عذاب شديد فهو معذب فى كل حال .

هذا ضرره فى الدين .

وأما ضرره فى الدنيا فإنه يورث الهمَّ الدائم ، والفكر اللازم ، والوِسْواس ، والأرَق ، وقلة المَطْعَم ، وكثرة السهر . و يتسلط على الجوارح فتنشأ الصفرة فى البدن ، والرِّعدة فى الأطراف ، والفَلْتَجة فى اللسان ، والنُّحول فى الجسد . فالرأى عاطل ، والقلب غائب عن تدبير مصلحة ، والدموع هواطل ، والحسَرات تتتابع ، والزَّفَرات تتوالى ، والأنفاس لا تمتد ، والأحشاء تضطرم . فإذا غشَّى على القلب غشاء ثانيا أخرج إلى الجنون . وما أقْرَبَه حينئذ من التلف !

قال : هذا ، وكم جنى من جناية على العرض ، ووَهَّن الجاه بين الخلق ، ور بما أوقع فى عقوبات البدن وإقامة الحدود .

وقال جالينوس : العشق من فعل النفس ، وهى كامنة فى الدماغ والقلب والكبد .

وفى الدماغ ثلاثة مساكن :

مسكن للتخيُّل، وهو فى مقدَّم الرأس،

ومسكن للفِكْر، وهو فى وسطه؛

ومسكن للذِّكْر، وهو فى مؤخَّره .

ولا يسمى عاشقا إلا من إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيله فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبِد، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل والفكر والذكر فيكون جميع مساكن النفس قد آشتغلت به .

وقال الجاحظ : ذُكر لى عن بعض حكماء الهند أنه قال : إذا ظهر العشق عندنا فى رجل أو آمرأة ، غَدَونا على أهله بالتعزية .

قال : وبلغنى أن عاشقا مات بالهند عشقا، فبعث ملك الهند إلى المعشوق فقتله به .

وقال الربعى : سمعت أعرابية تقول : مسكينٌ العاشق ! كل شىءٍ عدوّه ! هُبُوب الريح يُقْلِقه ، ولَمَعان البرق يؤرّقه ، ورسوم الديار تُحْرقه ، والعذْل يؤلمه ، والتذكُّر يُسْقِمه ، والبعدُ والقُرْبُ يهيجه ، والليل يُضاعف بلاءه ، والرقاد يهرُب منه . ولقد تداويتُ بالقرب والبعد فلم ينجع فيه دواء ، ولا عَزَّ بى عزاء .

وقال شاعر :

وقد زَعَمُوا أنَّ المحبَّ إذا دنَا * يُمَلُّ ، وأن النَّأْىَ يَشْفِى من الوجْد !

بكلٍّ تداوينا ، فلم يُشْفَ ما بِنَا ! * على أنَّ قُرْبَ الدار خيرٌ من البعد !

وأنشد المارستانىّ :

إذا قَرُبتْ دارٌ كَلِفْتُ ، وإن نَأَتْ * أَسِفْتُ ! فلا بالقُرْب أسلُو ولا البُعْد !

وإن وعَدَتْ زاد الهَوى لانتظارها، * وإن بَخِلتْ بالوعد مُتُّ على الوعْدِ!
ففى كُلِّ حبٍّ لا محالَةَ فَرْحةٌ، * وحُبُّك ما فيه سِوى مُحكَم الجَهْدِ!

وحكى الزبير بن بكّار قال: حدّثنى موهوب بن راشد قال: وقفت آمرأة من (٥٢) بنى عُقَيل على أختٍ لها، فقالت لها: يافلانةُ، كيف أصبحتِ من حبِّ فلان؟
٥ قالت: قَلْقَلَ والله حبُّه الساكنَ، وسكّن المتحرك! ثم أنشدتها:

ولو أنّ ما بى بالحَصَى فَلَقَ الحصَى، * وبالرِّيح لم يسمَعْ لهُنَّ هُبُوبُ!
ولو أنّنِى أستغفِرُ الله كلّما * ذكرتُك لم يُكتَبْ على ذُنُوبُ!

قالت: لاجَرَمَ والله، لا أقف حتّى أسأله كيف أصبح من حبِّك! فجاءته فسألته فقال: إنما الهوى هَوَانٌ، وإنما خُولف باسمه، وإنما يعرف ما أقول من كان
١٠ مثلى قد أبكته المَعَارِف والطلول.

وقال مسلم بن عبدالله بن جندب الهذلىّ: خرجت أنا وريان السوّاق إلى العقيق فلقينا نِسوةً نازلات من العقيق ذوات جمالٍ وفيهن جارية حسناء العينين، فأنشد ريان قول أبىّ:

ألَا ياعِبادَ اللهِ، هذا أخُوكُمُ * قَتِيلٌ! فهَلّا فيكُمُ اليومَ ثائِرُ؟
١٥ خُذُوا بدَمِى إن متُّ كلَّ خَريدةٍ * مريضةِ جَفْنِ العين، والطَّرْفِ ساحرُ!

وأقبل علىّ، وأشار إليها فقال: ياآبن الكرام دمُ أبيك فى أثوابها فلا تطلب أثرا بَعْدَ عين! قال: فأقبلت علىّ آمرأة جميلة، أجملُ من تيك، فقالت: أنت آبن جندب؟ فقلت: نعم. قالت: إن أسيرنا لايُفَكُّ، وقتيلنا لايُودى، فاحتسب أباك، وآغتنم نفسك! ومَضَيْنَ.

ذكر شيء من الشعر المقول فى ذم العشق والحب

قال الأصمعيّ: سئل أعرابيّ عن الحُبّ، فقال: وما الحب؟ وما عسى أن يكون؟ هل هو إلا سحر أو جنون. ثم قال:

هَل الحُبُّ إلا زَفْرةٌ بعد زَفْرةٍ، * وحَرٌّ على الأحشاءِ ليس له بَرْدُ؟
وفَيْضُ دموعِ العينِ منّى كلّما * بدا عَلَمٌ من أرضكُمْ لم يكُنْ يَبْدُو؟

وقال: قلت لأعرابيّ: ما الحب؟ فقال:

الحُبُّ مَشْغَلَةٌ عن كلِّ صالحةٍ * وسَكْرَةُ الحبِّ تنفى سَكْرَةَ الوَسَنِ.

وقال محمد بن عبد الله بن مبادر:

مَنْ فتًى أصبحَ فى الحُبِّ سَقَاه الحُبُّ سُمّا؟
كُلّما أخفى جوى الحُبِّ، عليه الدمعُ نَمّا.
ساهر لا يَطْعَمُ النوْ * مَ إذا الليل ادْلهَمّا.
كُلّما راقبَ نَجْما * فهوى، راقبَ نَجْما.
أنتُمو هَمّى فإن لم * تَصِلُونِى متُّ غَمّا.
يا ثِقاتِى، خَطَمَ الحُبُّ لكُمْ انفِى وزَمّا!
يا أخِى، دائى جَوى الحبِّ وداءُ الناسِ حُمّى.
لا تَلُمْ مُفْتَضِحا فى الحُبِّ، إن الحُبَّ أعمى!

وقال محمد بن ابى أُمية:

فوالله، ما أَدْرِى امن لوعةِ الهَوى * صَبَرتُ على التقصير أم ليس لى قَلْبُ؟
أُقَبِّحُ أمرا، والفؤاد يودّه، * أجُنُّ فؤادى فى الهَوى؟ بل هو الحُبُّ.

وقال أبو عُبادة البحتريّ :

قال بُطْلا وأَفَال الراى مَنْ * لم يقُلْ إن المَنَـايَا فى الحَدَقْ!
إن تَكُنْ مُحْتَسِبًا مَنْ قد ثَوى * بِحِمام، فاحتَسبْ من قد عَشِق!

وقال أبو تمـام :

٥ أمَّا الهوى فهو العذابُ، فإن جَرَتْ * فيــه النَّوَى فالتَّـيمُ كُلّ التَّـيمِ.

وقال ٱبن أبى حُصينة :

والعِشْق يجتَذِبُ النفوسَ إلى الرَّدى * بالطَّبْع، واحَسَدًا لمن لم يَعْشَـقِ!
طَرَق الخيـالُ فهاج لى بُطروقهِ * وَلَهًـا، فليتَ خَيَالَهَـا لم يَطْرُقِ!

وقال صالح بن عبد القدّوس :

١٠ عاصِ الهَوى إن الهوى مَرْكَبٌ * يَصْعُبُ بعد اللِّين منه الذَّلُولْ!
إن يَحْلُبِ اليَوْمَ الهَوى لَذَّةً * ففى غَدٍ منـه البُـكَا والعَوِيلْ.

وقال ابن المعتزّ :

فكَأنَّ الهَوى ٱمرؤٌ عَلَوِىٌّ * ظَنَّ أنِّى وليتُ قَتْلَ الحُسَيْن!
وكأنِّى لَدَيْهِ نَجْـلُ زِيادٍ * فهو يَخْتارُ أوجَعَ القِتْلَتَـيْنِ!

وقال أبو عبدالله بن الحجاج :

١٥ وَيْحَكَ، ياقَلْبِىَ ما أغْفَلَكْ! * تَعْشَق مَنْ يعشَقُ أن يقْتُلَكْ؟
وأنتَ ياطَـرْفِىَ أوقَعْتَنِى، * وَيْحَـكَ ياطَرْفِىَ مالى ولَكْ؟
قد كانَ من حَقِّ بكائى على * تَبتُّلِى بالحُبِّ أن يَشْغَلَكْ.
حتَّى توصلت لقَتْـلِى، فلا * كُنْتَ ولا كان الذى أرْسَلَكْ!

وقال عبد المحسن بن غالب الصورىّ :

وكانَ ٱبتداءُ الذى بى مُجُونا، * فلمّا تمكّنَ أمسى جُنونا.
وكنتُ أظُنّ الهوى هَيِّنا * فلاقَيْتُ منه عذَاباً مُهِينا.

وقال أبو بكر بن محمد بن عمر العنبرىّ :

ياصاحِ، إنّى مُذْ عرفْتُ الهوى * غَرِقْتُ فى بحرٍ بِلَا ساحِل! ٥
عَيْنِى لَحَيْنِى نَظَرتْ نظرةً * رُحْت بها فى شُغُلٍ شاغِلِ.
عُلِّقتُه فى البيتِ من فارِسٍ، * لكنّه فى السِّحْرِ من بابِلِ.
يَظْلِمُنى، والعَدْلُ من شأنِهِ! * ما أوْجَعَ الظُّلْمَ من العادل!

وقال آخر :

مَنْ سَرَّه أن يَرى المَنايَا * بعَيْنِه مَنْظَرا صُرَاحا. ١٠
فلْيَحْسُ كأسًا من التجَنِّى * وليَعْشَقِ الأَوْجُهَ المِلَاحا!
ياأعيُنًا أُرسِلَتْ مِراضا * فاختَلَسَتْ أعيُنًا صِحاحَا!

وقال آخر :

ماأقْتَلَ الحُبَّ! والإنسانُ يجهَلُهُ * وكلُّ مالم يَذُقْه فهو مَجْهُولُ.
راحَ الرُّماةُ إلى بعضِ المَهَا، فإذا * بَعضُ الرُّماةِ ببَعْضِ الصَّيدِ مَقْتُولُ! ١٥

وأما الآفات التى تجرى على العاشق من المرض والضّنا والجنون والمخاطرات بالنفوس وإلقائها إلى الهلاك، فهى كثيرة جدّا، مشاهَدة ومسموعة .

فمن ذلك ماحكاه أبو الفرج بن الجوزىّ بسند يرفعه ، قال : لما بعثت قُرَيْشٌ عمارةَ بن الوليد مع عمرو بن العاص إلى النجاشىّ يكلمانه فيمن قدم عليه من المهاجرين، فراسل عمارة جارية لعمرو بن العاص كانت معه فصغَتْ إليه. فاطلع عمرو على ذلك ٢٠

فوَجَد على عمارة. وكان عمارة أخبر عَمْرا أن زوجة النجاشيّ عَلِقته وأدخلته إليها فوشى عمرو بعمارة عند النجاشيّ وأخبره بالخبر، فقال له النجاشيّ: ائتني بعلامة أستدلُّ بها على ماقلتَ! ثم عاد عمارة فأخبر عمرا بأمره وأمر زوجة النجاشيّ، فقال له عمرو: لا أقبل هذا منك إلا أن تُعطِيَك من دُهْن الملك الذى لا يَدَّهن به غيره. فكلمها عمارة في ذلك، فقالت: أخاف من الملك فأبى أن يرضى منها حتّى تعطيه من ذلك الدُّهْن فأعطته منه فأعطاه عمرا فجاء به عمرو إلى النجاشيّ فنفخ سحرا في إحليل عمارة. فذهب مع الوحش (فيما تقول قريش) فلم يزل متوحِّشا يرد ماء في جزيرة بأرض الحبش حتى خرج إليه عبد الله بن أبي ربيعة في جماعة من أصحابه فرَصَده على الماء فأخذه فجعل يصيح به: يابجير أرسلني! فإني أموت إن أمسكتني! فأمسكه فمات في يده.

وحكى عن محمد بن زياد الأعرابيّ قال: رأيت بالبادية أعرابيا في عُنُقه تمائمُ وهو عُرْيانٌ وعلى سوأته خرقة وفي رجله حَبْل ومن خلفه عجوز آخذة بطَرَف الحبل وهو يَعَضُّ ذراعيه، فقلت للعجوز: من هذا؟ فقالت: ابن ابنتي! فقلت لها: أبه مَسٌّ من الجنّ؟ فقالت: لا والله ولكنه نشأ وابنة عم له في مكان واحد، فعُلِّقها وعُلِّقته. فحبسها أهلها ومنعوها منه فزال عقله وصار إلى ما ترى! فقلت لها: ما اسمه قالت: عكرمة. فقلت: أيا عِكْرِمة ما أصابك؟ قال: أصابني داء قيس وعروة وجميل: فالجسم مني نحيل، والفؤاد عليل. قال: فتركته ومضيت.

وحكى عن عباس بن عبيد، قال: كان بالمدينة جارية ظريفةٌ حاذقةٌ بالغناء فهَوِيتْ فتى من قريش، فكانت لا تُفارقه ولا يفارقها. فملَّها الفتى وفارقها، وتزايدت محبتها له حتى ولِهَتْ. وتفاقم الأمر بها حتّى هامت على وجهها ومزَّقت ثيابها، فرآها مولاها في ليلة من الليالي، وهي تدور في السِّكك ومعه أصحاب له، فجعلت تبكي وتقول:

الحُبُّ أوّلِ ما يكُونُ لَجَاجَة * تَأْتِي به وتَسُوقُه الأقدارُ.
حتّى إذا اقتحم الفتى لُجَجَ الهوى * جاءت أمورٌ لا تُطاق كِبَارُ.

قال : فما بقى أحد إلا رحمها . فقال لها مولاها : يافلانة، امضى معنا إلى بيتنا! فأبت وقالت :

* شَغَلَ الحَلْيُ أهْلَه أن يُعارَا *

قال : وذكر بعض من رآها ليلة وقد لقيتْها جاريةٌ أخرى مجنونةٌ فقالت لها : فلانة، كيف أنت؟ قالت : كما لا أُحب، فكيف أنت من وَلَهك وحُبِّك؟ قالت : على مالم يَزَلْ، يتزايد على مَرِّ الأيام! قالت لها : فغنّى بصوتٍ من أصواتك فإنى قريبة الشَّبَه بك ! فأخذت قصبة تُوقِّع بها وغنّت :

يامَنْ شَكَا ألَمًا لحُبِّ شبَّهه * بالنار فى القَلْب من حُزْنٍ وتَذْكارِ!
إنّى لأُعْظِمُ مابِى أن أشَبِّهَه * شيئا يُقاس إلى مِثْلٍ ومِقْدارِ.
لو أنَّ قَلْبِى فى نارٍ لأحْرَقها * لأنَّ أجزاءه أذْكى من النّارِ!

ثم مضت .

وحكى عن سليمان بن يحيى بن معاذ قال : قدم علىّ بنيسابورَ إبراهيم بن سبابة الشاعر البصرى . فأنزلته علىّ فجاء ليلة من الليالى وهو مكروب قد هاجَ . فجعل يَصيح بى : ياأبا أيوب ! فخشيت أن يكون قد غشيَتْه بليةٌ، فقلت : ماتشاء ؟

فقال : * أعْيانِىَ الشادِنُ الرَّبِيبُ! *

فقلت : بما ذا ؟

فقال : * أشْكُو إليه فلا يُجِيبُ! *

فقلت : داره وداوه !

فقال :

مِنْ أينَ أبغِي شِفاء دائِي؟ * وإنمـا دَائِيَ الطَّبِيب!

فقلت : إذنْ يفرّج الله عز وجل !

فقال :

يارَبِّ، فَرِّج إذًا وعَجِّل، * فإنَّك السامِـعُ المُجِيبُ!

ثم انصرف .

وحدث عن علي بن محمد النوفلي عن أبي المختار عن محمد بن قيس العبدي، قال: إني لبمزدلفة بين النائم واليقظان إذ سمعت بكاء حرقا وغناء عاليا . فاتبعتُ الصوت فإذا أنا بجارية كأنها الشمس حسنا ومعها عجوز . فلَطَمْتُ بالأرض لأمتع عيني بحسنها، فسمعتها تقول :

دعوتُكَ يامولاى سرا وجَهْـرة * دعاءَضعيف القلب عن محمل الحبِّ!

بُليتُ بقاسي القلب لايَعرِف الهوى * وأقتـلِ خلق الله للهائم الصبِّ!

فإن كنتَ لم تقض المودّة بيننا * فلا تُخْـلِ من حبٍّ له أبدا قلبي!

رضيتُ بهذا ماحييتُ فإن أمتْ * فحسبي مَعَادا في المعاد به حسبي!

قال : وجعلت تردّد هذه الأبيات وتبكي، فقمتُ إليها وقلت : بنفسي من أنتِ؟ مع هذا الوجه وهذا الجمال يمتنع عليك من تريدين ؟ قالت : نعم! والله إنه يفعل تصبرا وفي قلبه أكثر مما في قلبي! قلت : فإلى كم البكاء؟ قالت : أبدا! أو يصير الدمع دما وتتلَف نفسي غما . فقلت : إن هذه آخر ليلة من ليالي الحج، فلو سألت الله تعالى التوبة مما أنتِ فيه، رجوتُ أن يذهب حبه من قلبك! قالت : يا هذا، عليك بنفسك في طلب رغبتك، فإني قد قدّمت رغبتي إلى من ليس يجهل بغيتي! وحوّلتْ وجهها عني، وأقبلتْ على بكائها وشعرها .

وحكى أبو الفرج، عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزىّ فى كتابه المترجم بـ"ذَمّ الهوى" بسند رفعه إلى هشام بن عروة، قال: أذِنَ معاوية بن أبى سفيان يوما للناس، فكان فيمن دخل عليه فتى من بنى عُذْرة. فلما أخذ الناس مجالسهم، قام الفتى العذرىّ بين السماطين فأنشأ يقول:

مُعاوِىَ، ياذا الفَضْلِ والحِلْمِ والعَقْلِ * وذا البِرِّ والإحسانِ والجُودِ والبَذْلِ!
أتيتُك لمّا ضاقَ فى الأرض مَسْكَنِى * وأنكَرْتُ مما قد أُصِبتُ به عَقْلِى.
ففَرِّج — كَلَاكَ اللهُ — عنّى فإننى * لَقِيتُ الذى لم يَلْقَهُ أحدٌ قَبْلِى!
وخُذْ لِى — هداكَ اللهُ — حقّى من الذى * رمانِى بسَهْمٍ كان أهونُه قَتْلِى!
وكنت أُرَجّى عَدْلَه إن أتيتُه * فأكثر تَرْدادى مع الحَبْسِ والكَبْلِ!
سَبانِى سُعْدى وانبرى لخُصُومتِى * وجارَ ولم يَعْدِلْ وغاصَبَنى أهْلِى.
فطَلّقتُها من جَهْدِ ما قد أصابَنِى! * فهذا أميرَ المؤمنين من العَدْلِ؟

فقال معاوية: أُدْنُ بارك الله عليك! ماخَطْبُك؟ فقال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين! إننى رجل من بنى عُذْرة، تزوجت ابنة عمّ لى. وكانت لى صِرْمةٌ من الإبل وشُوَيْهات فأنفقت ذلك عليها، فلما أصابتنى نائبة الزمان وحادثات الدهر، رَغِب عنى أبوها. وكانت جارية فيها الحياء والكرم، فكرِهَتْ مخالفة أبيها. فأتيت عاملك مروان بن الحكم مستصرخا به راجيا لنصرته. فذكرت له قصتى، فأحضر أباها وسأله عن قضيتى. وكان قد بلغه جمالها، فدفع لأبيها عشرة آلاف درهم، وقال له: هذه لك، وزوّجنى بها وأنا أضمن خلاصها من هذا الأعرابىّ! فرغب أبوها فى البذل فصار الأمير لى خصما وعلىّ منكرا! فانتهرنى وأمر بى إلى السجن وأرسل إلىّ أن أطلقها فلم أفعل. فحبسنى وضيق علىّ وعذبنى بأنواع العذاب، فلما أصابنى مَسُّ الحديد وألَمُ العذاب ولم أجد

بُدًّا عن ذلك، طلقتها . فما استكملت عدّتها حتّى تزوج بها . فلما دخل بها أرسل إلىّ فأطلقني . وقد أتيتك يا أمير المؤمنين مستجيرا بك، وأنت غياث المكروب، وسند المسلوب . فهل من فرج؟ ثم بكى وقال في بكائه :

في القَلْبِ مِنِّي نارُ * والنارُ فيها اسْتِعارُ!
والجِسْمُ مِنِّي نَحِيلٌ * واللونُ فيه اصْفِرارُ.
والعينُ تَبْكِي بشَجْوٍ * فدَمْعُها مِدْرارُ.
والحُبُّ داءٌ عَسِيرٌ * فيه الطَّبِيبُ يَحارُ.
حُمِّلْتُ منه عَظِيما * فما عليه اصْطِبارُ.
فليس لَيْلِي لَيْلًا * ولا نَهارِي نَهارُ!

فرقّ له معاوية وكتب إلى ابن الحكم كتابا غليظا، وكتب في آخره :

رَكِبْتَ أمرًا عظيما لستُ أعرِفُه * أستغفِرُ اللهَ من جَوْرِ امرِئٍ زانِي!
قد كُنتَ تُشْبِه صُوفِيًّا له كُتُبٌ * من الفرائِضِ أو آياتِ فُرقانِ.
حتّى أتانا الفتى العُذْرِيُّ متّجِبًا * يَشْكُو إلىّ بحقٍّ غيرِ بُهْتانِ.
أُعْطِي الإلٰهَ عُهُودًا لا أُخِيسُ بها * أوْ لا فبُرِّئْتَ من دِينٍ وإيمانِ!
إن أنتَ راجَعْتَنِي فيما كَتَبْتُ به * لأجعَلَنَّكَ لَمّا بين عِقْبانِ!
طَلِّقْ سُعادَ، وجَهِّزْها معجَّلةً * مع الكُمَيْتِ، ومعْ نَصْرِ بن ذبيانِ!
فما سمعتُ كما بُلِّغتُ من عَجَبٍ * ولا فِعالُكَ حقًّا فعْلَ إنسانِ!

ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الكميت ونصر بن ذبيان وقال : اذهبا به إليه !

قال : فلما ورد كتاب معاوية على ابن الحكم وقرأه تنفس الصُّعَداء، وقال : وَدِدْتُ أن أمير المؤمنين خلّى بيني و بينها سنة ثم عرضني على السيف ! وجعل يؤامر نفسه

فى طلاقها فلا يقدر . فلما أزعجه الوفد طلقها وأسلمها إليهما . فلما رآها الوفد على هذه الصورة العظيمة وما اشتملت عليه من الجمال المفرط ، قالوا : لا تصلح هذه إلا لأمير المؤمنين ! وكتب ابن الحكم كتابا لأمير المؤمنين معاوية ، ودفعه إليهما مع الجارية . فكان مما كتب فيه يقول :

لا تحنثنّ أميرَ المؤمنينَ فقد * أوفى بعهدك فى رفق وإحسان .
وما ركبتُ حراماً حينَ أعجبنى ، * فكيف سُمّيتُ باسمِ الخائنِ الزانى؟
أعذر فانك لو أبصرتها لجرتْ * منك الأمانى على تمثال إنسانِ!
وسوف تأتيكَ شمسٌ ليس يعدلها * عند البريّة من إنس ومن جانِ!
حوراءُ يقصُر عنها الوصفُ إن وُصِفتْ ، * أقولُ ذلك فى سرٍّ وإعلانِ!

فلما ورد الكتاب على معاوية وقرأه ، قال : لقد أحسن فى الطاعة ، ولكن أطنب فى ذكر الجارية ! ولئن كانت أعطيت حسن النغمة مع هذا الوصف الحسن فهى أكمل البرية! فأمر بإحضارها ، فلما مثلتْ بين يديه ، استنطقها فإذا هى أحسن الناس كلاما وأكملهم شكلا ودلالا . فقال : يا أعرابىّ ، هذه سعدى! ولكن هل لك عنها من سلوة بأفضل الرغبة ؟ قال نعم ، إذا فرّقت بين رأسى وجسدى! فقال : أعوّضك عنها يا أعرابىّ ثلاث جوارٍ أبكار ومع كل واحدة ألف دينار وأقسم لك من بيت المال ما يكفيك فى كل سنة ويعينك على صحبتهنّ . فشهق شهقة ظن معاوية أنه مات . فقال له : ما بالك يا أعرابىّ؟ قال : أشرّ بال وأسوأ حال ، استجرت بعدلك من جور ابن الحكم ، فعند من أستجير من جورك ؟ ثم أنشأ يقول :

لا تجعلنّى والأمثالُ تُضرَبُ بى * كالمُستغيثِ من الرّمضاء بالنارِ!
أُردُدْ سُعادَ على حيرانَ مكتئبٍ * يُمسى ويُصبح فى همٍّ وتذكارِ!

قد شفّه قلقٌ مامثله قلقٌ * وأسعر القلبُ منه أيّ إسعار!
كيف السلوّ، وقد هام الفؤاد بها * وأصبح القلبُ عنها غير صبّار؟

قال: فغضب معاوية غضبا شديدا، ثم قال: يا أعرابيّ، أنت مقرٌّ بأنك طلقتها! ومروان مقرٌّ بأنه طلقها، ونحن نخيرها فان آختارتك أعدناها إليك بعقد جديد، وإن اختارت سواك زوجناه بها. ثم آلتفت إليها أمير المؤمنين وقال: ما تقولين، ياسُعْدى؟ أيما أحبُّ إليك، أمير المؤمنين في عزه وشرفه وسلطانه وما تصيرين إليه عنده، أو مروانُ بن الحكم في عَسْفه وجَوْره، أو هذا الأعرابي في فقره وسُوء حاله؟ فأنشأت تقول:

هذا، وانْ كانَ في فقرٍ وإضرارِ، * أعزُّ عندِيَ من قَوْمي ومن جاري!
وصاحبِ التّاجِ أو مَرْوانَ عاملِهِ * وكلِّ ذي درْهمٍ عِنْدي ودينارِ!

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ولا لغَدَرات الأيام! وإن لي معه صحبة لا تُنْسى ومحبة لا تَبلى! والله إني لأحق مَنْ صبر معه في الضراء كما تنعّمت معه في السرّاء! فعجب كلُّ من كان حاضرا. فأمر له بها ثم أعادها له بعقد جديد، وأمر لها بألف دينار. فأخذها وآنصرف يقول:

خلُّوا عن الطّريق للأعرابي! * ألم ترقُوا، ويحكُمْ مما بي؟

[قال: فضحك معاوية وأمر بها فأدخلت في قصوره حتى آنقضت عدّتها من آبن الحكم ثم أمر برفعها الى الأعرابي].

(١) روى هذا الشعر في نسخة أخرى على وجه آخر وهو:

هذا وإن أصبح في أطمار * وكان في نقص من اليسار
أكثر عندي من أبي وجاري * وصاحب الدرهم والدينار
* أخشى إذا غدرت حرّ النار *

(٢) وجدت هذه الزيادة في بعض النسخ.

ولقد ساق ابن الجوزى فى كتابه من أخبار العشاق وما نالهم من الأمراض والجنون والضنا، وقصّ كثيرا من أخبارهم، تركنا إيراد ذلك رغبةً فى الاختصار، لأنه أمر غير منكور .

وأما من خاطر بنفسه وألقاها إلى الهلاك لأجل محبوبه ، فمن ذلك ما روى عن أبى ريحانة أحد حجاب عبد الملك بن مروان أنه قال : كان عبد الملك يجلس يومين فى الأسبوع جلوسا عامًّا للناس : فبينا هو جالس فى مُستَشْرَفٍ له وقد ادخلت عليه القصص، إذ وقعت فى يده قِصَّة غير مترجمة . فيها :

«إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغنينى ثلاثة أصوات ثم ينفذ فىّ ماشاء من حكمه، فعل! » .

فاستشاط من ذلك غضبا وغيظا، وقال : يارباح! علىّ بصاحب هذه القصة! فخرج الناس جميعا فأدخل عليه غلام كما عدَّر، من أحسن الفتيان، فقال له عبدالملك: يا غلام، هذه قصتك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، قال : وما الذى غرّكَ منّى؟ والله لأمثلّنّ بك ولأردعنّ بك نظراءك من أهل الجسارة ! ثم قال : علىّ بالجارية فجىء بها كأنها فِلقة قمر ! وبيدها عودها ووضع لها كرسىّ، فجلستْ، فقال عبد الملك : مرها يا غلام ! فقال لها : يا جارية، غنينى بشعر قيس بن ذَرِيح :

لقد كنتِ حَسْبَ النفس، لو دام ودنا، * ولكنما الدنيا متاع غُرورِ!
وكنّا جميعًا قبل أن يَظْهرَ الهوى * بأنعَمِ حالَىْ غبطةٍ وسُرورِ.
فما بَرِح الواشُونَ حتّى بدَتْ لنا * بُطونُ الهوى متلوبةً لظُهورِ.

فغنّت . فخرج الغلام من جميع ما كان عليه من الثياب تخريقا ، ثم قال له عبد الملك : مرها تغنك الصوت الثانى! فقال : غنينى بشعر جميل :

ألا ليْتَ شِعْرِى ! هل أَبِيتَنَّ ليلةً * بوادى القُرى؟ إنى إذًا لَسعِيدُ!
إذا قلتُ : مابى يابُثينةُ قاتِلِى * من الحُبِّ! قالت: ثابتٌ ويَزِيدُ!
وإن قلتُ: رُدِّى بعضَ عقْلِى أعِشْ بِهِ * مع الناس! قالتْ: ذَاكَ مِنكَ بَعِيدُ!
فلا أنا مَرْدُودٌ بما جئتُ طالِبًا، * ولا حُبُّها فيما يَبِيدُ يَبِيدُ!
يموتُ الهوى منّى إذا ما لقِيتُها، * ويَحْيَا إذا فارقْتُها فيعُودُ!

فغنته الجارية. فسقط الغلام مغشيًّا عليه ساعة . ثم أفاق، فقال له عبد الملك : مرها فلتغنك الصوت الثالث! فقال ياجارية! غنينى بشعر قيس بن الملوح :

وفى الحِيرةِ الغادِينَ من بَطْنِ وَجْرةٍ * غزالٌ غَضِيضُ المُقْلتيْنِ رَبِيبُ.
فلا تحسَبِى أن الغَرِيبَ الذى نَأى، * ولكنَّ من تَنْأيْنَ عنه غَرِيبُ!

فغنته الجارية فطرح نفسه من المستشْرَف، فتقطع قبل وصوله إلى الأرض. فقال عبد الملك : ويحه! لقد عجّل على نفسه! ولقد كان تقديرى فيه غيرَ الذى فعل! وأمر بإخراج الجارية عن قصره، فأُخرجت. ثم سأل عن الغلام فقالوا : غريب، لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادى فى الأسواق، ويده على رأسه :

غَدًا يكثُرُ الباكُونَ منا ومِنْكُمُ، * وتَزْدادُ دارِى مِنْ دِيارِكُمُ بُعْدَا! (٥٧)

وحكى أن مثل هذه الحكاية جرت فى مجلس سليمان بن عبد الملك .

حكى عن أبى عثمان الجاحظ أنه قال : قعد سليمان بن عبد الملك يوما للمَظَالم وعُرِضتْ عليه القِصَص فمرّت به قصة فيها : إنْ رأى امير المؤمنين أن يُخرج إلىّ فلانة

(إحدى جواريه) حتّى تغنينى ثلاثةَ أصوات، فعل . فاغتاظ سليمان وأمر أن يؤتى برأسه . ثم أتبع الرسول برسول آخر فأمره أن يدخلَ الرجلَ إليه . فلما مثل بين يديه، قال له : ما الذى حملك على ما صنعتَ؟ فقال : الثقة بحلمك، والاتكال على عفوك ! فأمره بالجلوس، فجلس حتى لم يبق من بنى أمية أحد . ثم أمر بإخراج الجارية فأخرجت ومعها عود، ثم قال : اختَرْ ! فقال : تغنى لى بقول قيس بن الملوّح :

تعلّق رُوحِى رُوحها قبلَ خَلْقِنا * ومن بَعْدِ أنْ كنّا نِطَافًا وفى المَهْدِ !
فعاشَ كما عِشْنا فأصبح ناميًا، * وليسَ ـ وإن متْنا ـ بمنقصِفِ العَهْدِ .
يكاد فَضِيضُ الماء يَخْدِشُ جلدَها، * اذا اغتسلت بالماء من رِقّة الجِلْدِ .
وإنّى لَمُشْتاق إلى رِيح جَيْبِها، * كما اشتاقَ إدريسُ إلى جَنّة الخُلْدِ !

فغنت . ثم قال : تأمر لى برطل . فأمر له به فشربه . ثم قال : تغنى بقول جميل :

عَلِقتُ الهوى منها وَلِيدًا، فلم يَزَلْ * إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويَزِيدُ .
وأفنيتُ عُمْرِى فى انتظار نَوالِها * وأَبْلَيْتُ فيها الدّهرَ وهو جَديدُ .
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالبًا، * ولا حُبُّها فيما يَبِيدُ يَبِيدُ .
إذا قلتُ : ما بى يابُثينةُ قاتِلِى * من الحُبِّ ! قالت : ثابت ويَزِيدُ .
وإن قلتُ : ردّى بعضَ عَقْلِى أعِشْ به * مع الناسِ ! قالتْ : ذاكَ منكَ بعيدُ .

فغنّت، فقال له سليمان : قل ما تريد؟ قال : تأمر لى برطل، فأمر له به فشربه . ثم قال : تغنى بقول قيس بن ذريح :

"لقد كنت حَسْبَ النفس" الأبيات

فغنت . فقال له سليمان : قل ما تشاء ! قال : تأمر لى برطل ! فأمر له به ، فما آستتمه حتّى وثب فصعد إلى أعلى قبة ثم زَجّ نفسه على دماغه فمات . فاسترجع سليمان وقال : أتُراه توهّم الجاهلُ أنى أُخرج إليه جاريتى وأردّها إلى ملكى؟ ياغلام خذ بيدها فآنطلق بها إلى أهله إن كان له أهل، وإلا فبيعوها وتصدّقوا بثمنها عنه.

٥ فلما آنطلقوا بها، نظرتْ إلى حفرة فى الدار قد أُعِدّت للمطر، فجذبت يَدَها من أيديهم وأنشأت تقول :

مَنْ ماتَ عِشْقا فليمُتْ هكذا! * لاخَيْرَ فى عشْق بلا مَوْتِ!

وزجت نفسها فى الحفرة على دماغها . فماتت .

وقد حكى أيضا مثل هذه، وأنها وقعت للرشيد .

١٠ روى عن أبى بكر محمد بن علىّ المخزومىّ قال : آشتريتُ للرشيد جارية مدنية . فأُعْجِبَ بها وأمر الفضلَ بن الربيع أن يبعث فى حَمْل أهلها ومواليها لينصرِفُوا بجوائزها، وأراد بذلك تشريفها. فوفد إلى مدينة السلام ثمانون رجلا، ووفد معهم رجل من أهل العراق آستوطن المدينة كان يهوى الجاريةَ. فلما بلغ الرشيدَ خبرُ مَقْدَمِهم أمر الفضلَ أن يخرج إليهم ليكتب آسمَ كل واحد منهم وحاجتَه، ففعل . فلما بلغ إلى العراقىّ

١٥ قال : ماحاجتك؟ قال له : إن أنت كتبتَها وضمنت لى عَرْضَها مع مايُعرَض، أنبأتك بها. فقال : أفعلُ ذلك. فقال : حاجتى أن أجلس مع فلانة حتّى تغنّينى ثلاثة أصوات وأشربَ ثلاثةَ أرطال، وأخبرها بما تُجِنّ ضُلوعى من حبها! فقال الفضل : أنت مُوَسْوَس مدخُول عليك فى عقلك! فقال : ياهذا، قد أُمِرتَ أن تكتب ما يقول كلُّ واحد منا فآكتب ما أقول وآعرضه، فإن أُجبت إليه وإلا فأنت فى أوسع العذر، فدخل

٢٠ الفضل مغضَبا فوقف بين يدى الرشيد، وقرأ عليه ما كتب من حوائجهم . فلما فرغ

قال: يا أمير المؤمنين فيهم واحد مجنون! سأل ما أُجِلُّ مجلس أمير المؤمنين عن التفوّه به. فقال: قل، ولا تجزَعنّ! فقال: قال كذا وكذا. فقال: آخرج إليه، وقل له «إذا كان بعد ثلاث، فآحضُرْ لِيُنجزَ لك ماسألت». وكن أنت متولّيَ الآستئذان له. ثم دعا بخادم فقال له: آمض إلى فلانة فقل لها: حَضَر رجل يذكر كذا وكذا وقد أجبناه إلى ماسأل فكُونِي على أُهْبة. وخرج الفضل إلى الرجل وأخبره بما قال الرشيد، فانصرف وجاء ٥ فى اليوم الثالث. فعرّف الفضل الرشيد خبره فقال: يُوضَع له بحيث أرى كرسيٌّ من فضة، وللجارية كرسيٌّ من ذهب! وليُخرَج إليه ثلاثة أرطال! ففعلوا ذلك وجاء الفتى فجلس على الكرسيّ، والجارية بإزائه، فجعل يحدّثها والرشيد يراهما. فقال له الخادم: لم تُدْخَل فتشتُو وتُصَيِّف! فأخذ رطلا وخرّ ساجدا، وقال: إن شئت أن تغنّى فغنّى: ١٠

خَلِيلَيَّ عُوجَا! باركَ اللهُ فيكما * وإن لم تكُنْ هندٌ بأرضكما قَصْدا!
وقُولَا لها: ليس الضلالُ أجازَنَا، * ولكنّما جُزْنا لنَلْقاكُمَا عَمْدا!
غَدًا يَكْثُرُ الباكُون منا ومِنْكُمُ، * وتَزْدادُ دارى من دِيَارِكُمُ بُعْدَا!

فغنت، فشرب الرطل. وحادثها ساعة. فآستحثه الخادم فأخذ الرطلَ بيده وقال: غنى جعلنى الله فداءك! ١٥

تَكَلَّمُ مِنّا فى الوُجوه عُيونُنا، * فنحنُ سُكوتٌ والهوى يَتَكَلَّمُ!
ونَغْضَب أحيانًا ونَرضى بطَرْفِنا، * وذلكَ فيما بَيْنَنا ليس يُعْلَمُ!

فغنته وشرب الرطل الثانى وحادثها ساعة. وآستعجله الخادم فخرّ ساجدا يبكى واخذ الرطل بيده وآستودعها الله وقام ودموعه تستبق آستباق المطر وقال: إذا شئت أن تغنّى فغنّى. ٢٠

أحسْـــنَ ما كُنَّا تفرقْنَـا * وخَاننا الدَّهْرُ وما خُنَّا!
فليتَ ذا الدَّهرَ لنا مَرَّةً * عادَ لَنـا الدَّهرُ كما كنَّا!

فغنته الصوتَ، فقلَّب الفتى طرفه فبَصُر بدرجة في الصحن، فأمها. فاتبعه الخدم ليَهْدُوه الطريقَ. ففاتهم وصعد الدرجة فألقى نفسه إلى الأرض على رأسه فمات. فقال الرشيد: عجِّل الفتى! ولو لم يعجِّل لوهبتُها له!

* * *

وممن خاطر بنفسه في هواه وعَرَّضها للتلف فنجا ونال خيرا، ما حكاه ابن الجوزى بسند يرفعه إلى أبى الفرج أحمد بن عثمان بن إبراهيم الفقيه المعروف بابن الترسى قال: كنت جالسا بحضرة أبى، وأنا حَدَث، وعنده جماعة. فحدّثنى حديث وصول النعم إلى الناس بالألوان الظريفة. وكان ممن حضر صديق لأبى. فسمعته يحدّث أبى، قال: حضرت عند صديق لى من التُّجّار — كان يتّجر بمائة ألف دينار — في دعوة. وكان حسن المُروءة، فقدّم مائدة وقدّم عليها ديكريكة[1] فلم يأكل

(١) في الباب الثانى الخاص بالحوامض من كتاب "صفة الأطعمة" الموجود منه نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية مانصه:

«ديكبريكة. يقطّع اللحم أوساطا و يترك في القدر ويلق عليه يسير ملح وكف حمص مقشور وكسفرة يابسة و رطبة و بصل مقطع وكراث و يطرح عليه غمرة ماء و يغلى ثم تؤخذ رغوته و يلق عليه شيرج يسير وخل خمر ومرى و يلق عليه قليل فلفل مسحوق ناعم و يطبخ حتى يتبين طعمه. ومن الناس من يحلها بقليل سكر فاذا نضجت طرح فيها أطراف الطيب مع فلفل وكزبرة يابسة وتترك حتى تهدأ وترفع» انتهى.

والظاهر أن صواب اللفظ (ديكبرديكة) ثم اختصر أو حرف الى ديكبريكة وديكريكة لأن الذى في المعاجم الفارسية (ديك برديك) فمعنى (ديك) القدر و (بر) فوق وعلى، فيكون المراد قدر فوق قدر. وتقول هذه المعاجم إن هذا النوع المزدوج يستعمل لأعمال التصعيد والتقطير. ولا يبعد أن يكون هذا الطعام مما يعالج في طبخه بالبخار أى بوضع قدره على قدر أخرى فيها ماء يغلى على النار فسمى الطعام باسم وعائه اهـ.

أفادنيه حضرة صاحب السعادة العلامة أحمد تيمور باشا.

منها . فامتنعنا . فقال : كلوا ! فإنى أتأذّى بأكل هذا اللون . فقلنا : نساعِدُك على تركه . قال : بل أساعدكم على الأكل ، وأحتمل الأذى ! فأكل وأكلنا ، فلما أراد غسل يده أطال . فعددت عليه أنه قد غسلها أربعين مرة . فقلت : ياهذا ، وسوستَ ! فقال : هذه الأذية التى قرفت منها ! فقلتُ : وما سببها ؟ فامتنع من ذكر السبب ، فلما ألححتُ عليه ، قال : مات أبى وسنى عشرون سنة ، وخلّف لى نعمة وفيرة ورأس مال ومتاعا فى دكانه . فقال لما حضرته الوفاة : يابُنَىّ ! إنه لا وارثَ لى غيرك ، ولا دَيْن علىّ ولا مَظْلِمةَ . فإذا أنا مِتُّ فأحسِنْ جهازى وتصدّق عنى بكذا وكذا . وأخرج عنى حَجّة بكذا . وبارك الله لك فى الباقى ! ولكن احفظ وصيتى ! فقلت : قُلْ ! قال : لا تسرف فى مالك . فتحتاجَ إلى ما فى أيدى الناس فلا تجده . واعلم أن القليل مع الإصلاح كثير ، والكثير مع الفساد قليل . فالزم السُّوقَ وكن أوّل من يدخلها ، وآخِرَ من يخرج منها . وإن استطعت أن تدخلها سَحَرا بليل فافعل ، فإنك تستفيد بذلك فوائد تكشفها لك الأيام ، ومات . فأنفذتُ وصيته ، وعملتُ بما أشار به . وكنت أدخُل السوق سَحَرا ، وأخرج منها عِشاء . فلا أعدَمُ مَن يجىء يطلب كفنا فلا يجد من قد فتح غيرى فأحتكم عليه ، ومَن يبيع شيئا والسوق لم تقم فأبتاع منه ، وأشياء من هذه الفوائد . ومضى علىّ سنة وكسر ، فصار لى بذلك جاه عند أهل السوق وعرفوا استقامتى وأكرمونى . فبينا أنا جالس يوما ولم تتكامل السوق ، وإذا بامرأة راكبة حمارا مصريا وعلى كفله منديل دبيقىّ[1] ومعها خادم وهى بزىّ القهارمة . فبلغت آخر السوق ثم رجعت ، فنزلت عندى . فقمت إليها وأكرمتها ، وقلت : ما تأمرين ؟ وتأملتها فإذا بامرأة لم أر قبلها

(١) دبيق (بالباء الموحدة ثم الياء) مدينة كانت بالقرب من دمياط وكانت مشهورة بنفائس المنسوجات التى تعرف باسمها .

بعدها إلى الآن أحسن منها فى كل شىء . فتكلمتْ وقالت : أريد كذا وكذا (ثيابا طلبتْها) . فسمعت نَغْمة ورأيت شكلا قتلنى فعشِقْتها فى الحال أشدّ عشق ، وقلت : أصبرى حتى يخرج الناس ، فآخذ ذلك لك فليس عندى إلا القليل مما يصلح لك . وأخرجت الذى عنـدى وجلستْ تحادثنى ، وكأن السكاكين فى فؤادى من عشقها . وكشفت عن أنامِل رأيتها كالطَّلْع ، ووجه كدارة القمر . فقمتُ لئلا يزيد علىّ الأمر ، وأخذتُ لها من السوق ما أرادتْ ، وكان ثمنـه مع مالى نحو خمسمائة دينار ، فأخذتْه وركبتْ ولم تعطنى شيئا . وذهب عنى لما تداخلنى من حبها أن أمنعها من المتاع إلا بالمال ، وأن أستدل على منزلها ومِن دار مَن هى ؟ فحين غابت عنى ، وقع لى أنها محتالة وأن ذلك سبب فقرى . فتحيرتُ فى أمرى وكتمتُ خبرى ، لئلا أفتضح بما للناس علىّ . وأجمعتُ على بيع ما فى يدى من المتاع وإضافته إلى ما عندى من الدراهم وأدفع أموال الناس إليهم ولزوم البيت والاقتصار على غلة العقار الذى ورثتُه . وأخذتُ أشرع فى ذلك مدة أسـبوع ، وإذا بها قد أقبلتْ ونزلتْ عندى ، فحين رأيتُها أُنسيتُ جميع ماجرى علىّ ، وقمت إليها . فقالت : يافتى ، تأخرنا عنك لشُغُل عرض لنا ، وماشككنا فى أنك لم تشك أنا آحتلنا عليك ، فقلت : قد رفع الله قدرَكِ عن هذا ! فقالت ، هاتِ التخت والطيار[1] ، فأحضرته ، فأخرجت دنانير عُتْقا ، فوفتنى المـال بأسره . وأخرجت تذكرة بأشياء أُخَر . فأنفذتُ إلى التجّار أموالهم وطلبتُ منهم الذى أرادت ، وحَصَّلتُ أنا

(١) فى شرح المقامات الحريرية للمرزوقى المسمى بالايضاح فى تفسير قول الحريرى فى المقامة الثانية والأربعين « ثم اعتضد عصا التَّسيار وأنشد ملغزا فى الطيار .

وذى طيشة شقه مائل ¤ وما عابه بهما عاقل »

ما نصه : « الطيار معيار الذهب لأنه على شكل الطائر وقيل هو ميزان لا لسان له » أفادنيه حضرة صاحب السعادة العلامة أحمد تيمور باشا .

فى الوسط ربحا جيدا. وأحضر التُّجّار الثياب فقمتُ وثمنتها معهم لنفسى. ثم بعتها عليها بربح عظيم، وأنا فى خلال ذلك أنظر إليها نظر من تألّف حبها، وهى تنظر إلىّ نظر مَن فَطِنَتْ بذلك ولم تنكره. فَهَمَمْت بخطابها ولم أقدر عليه. وجمعت المتاع فكان ثمنه ألف دينار. فأخذتُه، وركبت ولم أسألها عن موضعها. فلما غابت عنى، قلتُ: هذه الآن الحيلة المحكَمَة! أعطتنى خمسمائة دينار وأخذت ألف دينار، وليس إلا بيعُ عقارى الآن، والحصولُ على الفقر! وتطاولت غيبتها عنى نحو شهر. وألحّ التجّار علىّ بالمطالبة، فعرضتُ عقارى على البيع، ولازمنى بعضُ التجّار فوزنت جميع ما كنت أملكه وَرِقا وعَيْنا. فبينا أنا كذلك، إذ نزلت عندى. فزال عنى جميعُ ما كنت فيه برؤيتها. وآستدعت الطيّار والتخت، فوزنت المال ورمت إلىّ تذكرة يزيد ما فيها على ألفى دينار بكثير. فتشاغلتُ بإحضار التجّار ودفع أموالهم إليهم وأخْذ المتاع منهم، وطال الحديث بيننا. فقالت لى: يافتى، ألك زوجةٌ؟ فقلت: لا، والله ما عرفت آمرأة قط، وأطمعنى ذلك فيها، وقلت: هذا وقت خطابها، والإمساكُ عنها عجزٌ، ولعلها تعود أو لا تعود. وأردت كلامها فهِبْتُها. وقمتُ كأنى أحُثُّ التجار على جمع المتاع. وأخذتُ يد الخادم وأخرجتُ إليه دنانير وسألته أن يأخذها ويقضى لى حاجة. فقال: أفعل، فقصصتُ عليه قصتى وسألتُهُ توسط الأمر بينى وبينها. فضحك وقال: والله إنها لك أعشق منك لها! ووالله ما بها حاجة إلى أكثر هذا الذى تشتريه، وإنما تأتيك محبةً لك وطريقا إلى مطاولتك، فخاطبها ودعنى، فجسّرنى على خطابها فخاطبتها وكشفت لها عشقى ومحبتى وبكَيْت، فضحكتْ. وتقبلت ذلك أحسن قبول. وقالت: الخادم يأتيك برسالتى. ونهضَتْ ولم تأخذ شيئا من المتاع، فرددتُه على أصحابه. وحصل لى مما آشترته أولا وثانيا ألوفُ دراهم ربحًا،

ولم أعرف النوم في تلك الليلة شوقا إليها، وخوفا من انقطاع السبب بيننا. فلما كان بعد أيام جاءني الخادم، فأكرمتُه وسألتُه عن خبرها، فقال: هي والله عليلة من شوقها إليك، فقلت: أشرحْ لي أمرها، فقال: هذه مملوكة السيدة أم المقتدر وهي من أخص جواريها، واشتهت رؤيةَ الناس والدخول والخروج. فتوصلتْ حتّى جعلتها قَهْرَمَانة. وقد والله حدّثت السيدةَ بحديثك وبكت بين يديها وسألتها أن تزوّجها منكَ، فقالت السيدة: لا أفعل أو أرى هذا الرجل. فإن كان يستأهلك وإلا لم أدَعْك ورأيَك. وتحتاج أن تحتال في إدخالك الدار بحيلة، فإن تمت وصلت بها إلى تزويجك بها، وإن انكشفت ضرب عنقك. وقد أنفذتني إليك في هذه الرسالة، وقالت لك: إن صبرتَ على هذا، وإلا فلا طريق لك والله إليّ، ولا لي إليك بعدها! فحملني ما في نفسي أن قلت: أصبِرُ، فقال: إذا كانت الليلة فاعبر إلى المحرم، وادخل إلى المسجد، وبت فيه. ففعلت ذلك. فلما كان وقت السَّحَر، إذا بطيار[1] قد قدم، وخدم قد رفعوا صناديق فراغا. فجعلوها في المسجد وانصرفوا. وخرجت الجارية فصَعدت إلى المسجد، والخادمُ معها. فجلستْ وفرقتْ باقي الخدم في حوائج، واستدعَتْني فعانَقَتْني وقبلَتْني. ولم أكن نِلْتُ ذلك منها قبله. ثم أجلستني في بعض الصناديق وأقفلته. وطلعت الشمس وجاء الخدم بثياب وحوائج من المواضع التي كانت أنفذتهم إليها، فجعلت ذلك بحضرتهم في باقي الصناديق، وأقفلتها. وحُملت إلى الطيار وانحدر. فلما حصلت فيه ندمت وقلتُ: قتلت نفسي لشهوة، وأقبلت ألُومها تارةً، وأشجّعها وأمَنّيها أخرى، وأنذر النُّذور على خلاصي، وأوطّن مرة نفسي على القتل إلى أن بلغنا الدار. وحمل الخَدَم الصناديقَ، وحمل صندوقي

(١) أي زورق من الزوارق الخفيفة.

الخادم الذى يعرف الحديث ، وبادر به أمام الصناديق وهى معى ، والخدم يحملون بقيتها . وكلما جازت بطائفة من الخدم والبوابين، قالوا : نريد أن نفتّش الصندوقَ، فتصيح عليهم وتقول: متى جرى الرسم معى بهذا؟ فيمسكون عنها ورُوحى فى السِّياق إلى أن آنتهينا إلى خادم خاطبته هى بالأُستاذ . فعلمت أنه أجل الخَدَم، فقال : لابدّ من فتح الصندوق الذى معك ، فخاطبته بلين وذل، فلم يجبها . وعلمتُ أنها ماذَلّت ولها حيلة، فأغمى علىّ. وأنزلوا الصُّندوق ليفتحوه . فبُلْت من شدّة ما نالنى من الفَزَع، فجرى البول من خلال الصندوق . فصاحتْ: يا أستاذ، أهلكتَ علينا متاعا بخمسة آلاف دينار فى الصندوق . ثيابٌ مصبَّغات وماء ورد، وقد آنقلب على الثياب ، والساعةَ تختلط ألوانها . وهى هلاكى مع السيدة! فقال لها : خذى صندوقك إلى لعنة الله أنت وهو ، مُرّى ! فصاحت بالخدم : آحملوا، فأُدخلتُ الدار ورجعتْ إلىّ روحى . فبينا نحن كذلك إذ قالت : واويلاه ! الخليفة والله! فجاءنى أعظم من الأوّل . وسمعت كلام خدم وهو يقول من بينهم : ويك يا فلانة! إيش فى صندوقك؟ أرينى هو ، فقالت : ثياب لستى يا مولاى، والساعة أفتحه بين يديها ، وتراه ، وقالت للخدم : أسرِعُوا ويلكم ! فأسرعوا فأدخلتنى إلى الحجرة وفتحت الصندوق وقالت : آصعد من هذه الدرجة إلى الغُرْفة فاجلس فيها ، وفتحت صندوقا آخر فقلبت بعض ما فيه إلى الصندوق الذى كنت فيه، وأقفلت الجميعَ . وجاء المقتدرُ وقال : آفتحيه، ففتحته، فلم ير شيئا فيه . فصعِدتْ إلىّ وجعلت تقبلنى وترشُفُنى . ونسيتُ ماجرى. ثم تركتنى، وأقفلَتْ باب الحجرة يومها. ثم جاءتنى ليلا فأطعمتنى وسقتنى وآنصرفَتْ . فلما كان من غد جاءتنى ، فقالت : السيدة الساعةَ تجىء ، فانظر كيف تخاطبها ، ثم عادت بعد ساعة مع السيدة ،

وقالت : آنزل، فنزلت . فإذا بالسيدة جالسة على كرسيّ وليس معها إلا وَصيفتانِ وصاحبتي . فقبّلتُ الأرض وقمتُ بين يديها، فقالت : آجلس، فقلت : أنا عبد السيدة وخادمُها ، وليس من محلي أن أجلس بحضرتها ، فتأملتْني وقالت : ما آخترتِ يافلانة إلا حسن الوجه والأدبِ، ونهضت، فجاءتني صاحبتي بعد ساعة، وقالت : أبشر، فقد أذِنَتْ لي في تزويجك،وما بقي الآن عقبة إلا الخروج. فقلت : يسلم الله ! فلما كان من غَدٍ حملتني في الصندوق . فخرجتُ كما دخلتُ بعد مخاطرة أُخرى وفزع ثان . ونزلت في المسجد ورجعت إلى منزلي، فتصدّقت، وحمدت الله تعالى على السلامة . فلما كان بعد أيام جاءني الخادم ومعه كيس وفيه ثلاثة آلاف دينار عينا وقال : أمرتني سيّدتي بإنفاذ هذا إليك من مالها . وقالت : اشتر به ثيابا ومركوبا وخدما، وأصلح به ظاهرَك، وآحضر يوم الموكب إلى باب العامّة ، وقِفْ حتّى تُطلَب . فقد وافَق الخليفة أن يزوجك بحضرته . فأخذتُ المال وأجبتُ عن رُقْعة كانت معه، وآشتريت ما قالوه بشيء يسير منه وبقي الأكثر عندي . وركبتُ إلى باب العامة في يوم الموكب بزيّ حسن . وجاء الناس فدخلوا إلى الخليفة، ووقفتُ إلى أن آستُدْعيتُ ودخلتُ . فإذا أنا بالمقتدر جالسا والقضاة والقوّاد وغيرهم من الهاشميين . فهِبْتُ المجلس وعُلِّمت كيف أُسَلِّم . ففعلت . وتقدّم المقتدر إلى بعض القضاة الحاضرين فخطب لي وزوّجني . وخرجت من حضرته . فلما آنتهيت إلى بعض الدهاليز، عُدِل بي إلى دار عظيمة مفروشة بأنواع الفُرُش الفاخرة وفيها من الآلات والخدم والقماش مالم أر مثله قطُّ . وآنصرف من أدخلني . فجلستُ يومي لا أقوم إلا إلى الصلاة . وخدمٌ يدخلون وخدم يخرجون، وطعام عظيم ينقل وهم يقولون : الليلة تُزَف فلانة بآسم صاحبتي إلى زوجها البزّاز،

وأنا لا أصدّق فرحا . فلما جاء الليل أثّـرَ فىّ الجوع وأُقفلتِ الأبوابُ ، ويئستُ من الجـارية ، فقمت أطوف الدار فوقعت على المَطْبَخ . ووجدت الطبـاخين جُلُوسا فاستطعمتهم فلم يعرِفُونى وقدّرونى بعض الوكلاء . فقدّموا إلىّ هـذا اللون مع رغيفين فأكلتهما وغسلت يدى بأشنان كان فى المطبخ وقدّرت أنها قد نقيت . وعدت إلى مكانى . فلمـا جنّ الليل إذا طبول وزمور وأصـوات عظيمة . وإذا أنا بالأبواب قد فُتّحت وصاحبتى قد أُهْدِيت إلىّ وجاءوا بها فحلوها علىّ . وأنا أقدّر أن ذلك فى النوم . ثم تُرِكتْ معى فى المجلس . وتفرّق ذلك البَوْش . فلما خلونا، تقدّمْتُ إليها فقبلتها وقبلتنى . فلما شمّت رائحة لحيتى . رفَسَتْنى فرمت بى عن المِنَصّة وقالت : أنكرتُ والله أن تُفلِح ياعامّى، ياسَفِلة ، وقامت لتخرج . فقمت وعَلِقت بهـا وقبلتُ الأرض ورجلَيْها . وقلت : عرفينى ذنبى وآعملى بعـده ما شئت . فقالت : ويحك . أكلت ولم تغسِلْ يدك ! فقصصت عليها قصتى . فلمـا بلغت إلى آخرها قلتُ : علىّ وعلىّ — وحلفتُ بطلاقها وطلاق كل آمرأة أتزوّجها وصدقة مالى وجميع ما أملكه والحجّ ماشيا على قدمىّ وكلّ مايحلف به المسلمون — لا أكلتُ بعدها ديكيريكة إلا غسلتُ يدى أربعين مرة . فآستحيتْ وتبسمتْ وصاحت : ياجوارى ! فجـاء مقدار عشر جوار ووصائف . فقـالت : هاتوا شيئا نأكل . فقُدّمتْ ألوان ظريفـة وطعام من أطعمة الخلفاء . فأكلنا وغسلنا أيدينـا . وآسـتدعت شرابا فشربْنا وغنّى أولئك الوصائفُ أطيبَ غِنـاء وأحسنَه ؛ ثم قمنـا إلى الفراش فخلوتُ بها وبتُّ بأطيبِ ليلة . ولم نفترق أسبوعا . وكانت يوم الأسبوع وليمةٌ عظيمة اجتمع فيه الجوارى . فلما كان من الغد ، قالت لى : إن دار الخلافة لاتحتمل المُقامَ فيها أكثر من هذا مع جارية غيرى، لمحبة سيدتى لى . وجميع ماتراه

فهو هبة من السيدة لى . وقد أعطتنى خمسين ألف دينار من عين وورق وجوهر . ولى ذخائر فى خارج القصر كثيرةٌ من كل لون . وجميعها لك ، فاخرج إلى منزلك ، (٦١) وخذ معك مالا وآشتر دارا سَرِيَّةً واسعةَ الصحن ، فيها بستان ، كثيرةَ الحُجَر . وتحوّل إليها ، وعرفنى لأنقل إليها هذا كله ، ثم آتيك ، وسلمت إلىّ عشرة آلاف دينار عينا . فخرجت وآبتعتُ الدار وكتبتُ إليها بالخبر . فحملت إلىّ تلك النعمة بأسرها . فجميع ما أنا فيه منها ، فأقامت عندى كذا وكذا سنة أعيش معها عيش الخلفاء ، ولم أدع مع ذلك التجارةَ . فزاد مالى وعَظُمت منزلتى وأثْرَتْ حالى ، وولدتْ لى هؤلاء الفتيان وأوما إلى أولاده . ثم ماتت (رحمها الله) وبقى علىّ من مضرَّة الديكيريكة ما شاهدتَه .

وبالجملة فلا يغترّ أحد بهذه الحكاية وأمثالها ، فيجهل بنفسه فيهلكها . "فما المُغَرَّر محمودٌ وإن سَلِمَا" .

* * *

وأما من كفر بسبب العشق فكثير جدّا لا ينحصرون ، ومما ورد فى ذلك حكاية عجيبة أوردتها لغرابتها وهى مما حكاه آبن الجوزىّ فى كتابه المترجم "بذم الهوى" قال :

سمعت شيخنا أبا الحسن علىّ بن عبيد الله الزعفرانى يحكى أن رجلا آجتاز بباب آمرأة نصرانية ، فرآها فَهَوِيَهَا من وقته ، وزاد الأمرُ به حتّى غلب على عقله ، فحمل إلى البيمارستان . وكان له صديق يتردّد إليه ويترسّل بينه وبينها . ثم زاد الأمر به ، فقالت أمّه لصديقه : إنى أجىء إليه فلا يكلمنى ، فقال : تعالى معى ،

فأتت معه . فقال له : إن صاحبتك بعثت إليك رسالة ، قال : كيف ؟ قلتُ : هذه أمك تؤدّى رسالتها . فجعلت أمه تحدّثه عنها بشيء من الكذب . ثم زاد الأمر عليه ونزل به الموت ، فقال لصديقه : قد جاء الأجل وحان الوقت وما لقيت صاحبتى فى الدّنيا ، وأنا أريد أن ألقاها فى الآخرة . فقال له : كيف تصنع ؟ قال : أرجع عن دين محمد ، وأقول عيسى ومريم والصليب الأعظم . فقال ذلك ومات .

فمضى صديقه إلى تلك المرأة فوجدها عليلة فجعل يحدّثها ، وأخبرها بموت صاحبها ، فقالت : أنا ما لقيته فى الدّنيا وأنا أريد أن ألقاه فى الآخرة . وأنا أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأنا بريئة من دين النصرانية . فقام أبوها فقال للرجل : خذوها الآن فإنها منكم ، فقام الرجل ليخرجَ ، فقال له : قِفْ ساعة ، فوقف ، فما لبث أن ماتت .

قال : وبلغنى عن رجل ببغداد (يقال له صالح المؤذن ، أذّن أربعين سنة ، وكان يُعْرَف بالصلاح) أنه صعد يوما إلى المنارة ليؤذن فرأى بنت رجل نصرانىّ كان بيته إلى جانب المسجد . فافتتن بها ، فجاء فطرق الباب فقالت له : من أنت ؟ قال : أنا صالح المؤذن . ففتحت له الباب فدخل وضمها إليه ، فقالت : أنتم أصحاب الأمانات ، فما هذه الخيانة ؟ فقال : إن وافقتينى على ما أريد وإلا قتلتك ، فقالت : لا ، إلا أن تترك دينك ، فقال كلمة الكفر وبرئ من الإسلام . ثم تقدّم إليها فقالت : إنما قلتَ هذا لتقضى غرضك ثم تعود إلى دينك . فكل من لحم الخِنْزير ، فأكل منه ، قالت : فاشرب الخمر ، فشرب . فلما دبّ الشرابُ فيه دنا منها فدخلت بيتا وأغلقت بينها وبينه

الباب، وقالت له : اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوّجني منك . فصعد فسقط فمات . فخرجت إليه ولفته في مِسْح . وجاء أبوها فقصت عليه القصةَ فأخرجه في الليل ورماه في السكة . وظهر حديثه، فرُمي على مَزْبلة .

* * *

وأما من قَتَلَ بسبب العشق فلا يكاد ذلك يحصر كثرةً، وأعظمه وأشدّه واقعة عبد الرحمن بن مُلجم المراديّ، لعنه الله .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لابن عمه عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : "يا عليّ أشقى الأولين عاقر ناقة صالح، وأشقى الأولين والآخرين قاتلك، وهو هذا" وأشار إلى ابن ملجم قبحه الله تعالى ولعنه، وأوجب له خزيه ومقته وعذابه، وذلك نكالا لما اجترأ عليه في قتله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه . وذلك أن ابن ملجم قبحه الله رأى امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام، كانت من أجمل النساء وكانت ترى رأيَ الخوارج، وقد قتل عليّ رضي الله عنه قومها يوم النَّهروان. فلما رآها ابن ملجم عَشقها فخطبها فقالت : لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، وأن تقتل عليّ بن أبي طالب . فحمله العشق على أن خسر الدنيا والآخرة، وتزوجها على ذلك . وكان من خبره في قتل عليّ رضي الله عنه ما نذكره إن شاء الله تعالى في التاريخ .

وفي ذلك يقول الشاعر :

فَلَمْ أرَ مَهْرا ساقه ذُو سَماحةٍ * كمَهْر قَطَام بَيِّنا غَيْرَ مُعْجَم .
ثلاثةُ آلافٍ، وعبدٌ، وقينةٌ، * وضربُ "عليٍّ" بالحُسَام المُصمِّم .
فلا مَهْرَ أغلى من "عليٍّ" وإن علَا * ولا فَتْكَ إلا دُونَ فَتْكِ ابنِ مُلْجَم !

(٦٤) ومنهم من حمله العشق على قتل أبيه . وهو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن ابن مروان بن عبد الرحمن الناصر، و يعرف هذا "بالطليق". كان يتعشق جارية كان أبوه قد رَبَّاها معه وذكر أنها له، ثم استأثر بها وخلا معها . فحمله العشق على أن انتضى سيفا و رَصَد أباه فى بعض خلواته بها فقتله . فسجنه المنصور بن أبى عامر سنين ، ثم أطلقه . فلُقِّب "بالطَّلِيق" واعتراه من ذلك شبه الجنون فكان يُصْرَع فى بعض الأوقات .

* * *

وأما من قُتل بسبب العشق، فروى عن الشعبىّ قال : دخل عمرو بن معد يَكرِب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال له عمر : ياعمرو، أخبرنى عن أشجع مَن لَقِيت ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين .

خرجت مرة أريد الغارة . فبينا أنا أسير إذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز، و إذا رجل جالس، وهو كأعظم ما يكون من الرجال خلقا ، وهو محتب بسيف . فقلت له : خذ حِذْرَكَ فإنى قاتلك ، فقال : ومَن أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن معديكرب ، فشهق شهقة فمات .

فهذا أجبن من رأيت يا أمير المؤمنين .

وخرجت يوما حتّى انتهيت إلى حىّ . فإذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز و إذا صاحبه فى وهدة يقضى حاجةً . فقلت : خذ حِذْرك فإنى قاتلك ، قال : مَن أنت؟ قلتُ : أنا عمرو بن معديكرب، قال: أبا ثور، ما أنصفتنى، أنت على ظهر فرسك، وأنا فى بئر، فأعطنى عهدا أنك لا تقتلنى حتى أركب فرسى وآخذ حِذرى، فأعطيتُه عهدا أنْ لا أقتله حتى يركب فرسه و يأخذ حذره . فخرج من الموضع الذى كان فيه

حتى آحتبى بسيفه وجلس . فقلتُ له : ماهذا ؟ فقال : ما أنا براكب فرسي ولا بمقاتلك، فإن نكثت عهدك فأنت أعلم، فتركته ومضيت

فهذا يا أمير المؤمنين أحيل من رأيت !

ثم إني خرجتُ يوما آخر حتّى آنتهيتُ إلى موضع كنت أقطع فيه . فلم أر أحدا فأجريتُ فرسي يمينا وشمالا فظهر لي فارس . فلما دنا مني إذا هو غلام قد أقبل من نحو اليمامة . فلما قَرُبَ مني سلّم فرددت عليه وقلت : مَن الفتى ؟ قال أنا الحارث بن سعد، فارس الشهباء، فقلت له : خذ حذرك، فإني قاتلك فقال : الويل لك ! مَن أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن معديكرب، قال : الحقير الذليل ؟ والله ما يمنعني من قتلك إلا آستصغارُك، فتصاغرت نفسي إليّ وعظُم عندي ما آستقبلني . فقلت له : خذ حذرك، فوالله لاينصرفُ إلا أحدنا، قال : أغرب، ثكلتك أمُّك ! فإني من أهل بيت ما نَكَلْنا عن فارس قط ! فقلتُ : هو الذي تسمع، قال : آختر لنفسك، إما أن تطرد لي، وإما أن أطرد لك، فاغتنمتها منه، فقلت : أطرد لي، فاطردَ وحملتُ عليه، حتى إذا قلتُ إني وضعت الرمح بين كتفيه، إذا هو قد صار سزاما لفرسه، ثم آتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال : ياعمرو، خذها إليك واحدة، فوالله لولا أني أكره قتل مثلك لقتلتُك، فتصاغرتْ إليّ نفسي، وكان الموت والله يا أمير المؤمنين أحبَّ إليّ مما رأيت، فقلتُ : والله لا ينصرف إلا أحدنا، فقال : آختر لنفسك، فقلت : أطردْ لي، فاطرد لي . فظننت أني قد تمكنت منه وآتبعته حتّى إذا ظننت أني قد وضعت الرمح بين كتفيه، فإذا هو قد صار لبيا لفرسه، ثم آتبعني فقرع رأسي بالقناة وقال : ياعمرو، خذها إليك آثنتين، فتصاغرتْ إليّ نفسي فقلت : والله لا ينصرف إلا أحدنا، فقال : آختر لنفسك، فقلت : أطرد

لى، فاطرد حتّى إذا قلت إنى وضعت الرمح بين كتفيه وثب عن فرسه فإذا هو على الأرض، فأخطأته ومضيتُ، فاستوى على فرسه وأتبعنى فقرع بالقناة رأسى وقال: يا عمرو، خذها إليك ثالثة، ولولا أنى أكره قتل مثلك لقتلتُك، فقلتُ له: أقتلنى، فإن الموت أحب إلىّ مما أرى بنفسى وأن تسمع فِتيانُ العرب بهذا، فقال يا عمرو: إنما العفو ثلاث، وإنى إن استمكنت منك الرابعة قتلتك، وأنشأ يقول:

وَكَّدتُ أغلاظا من الأَيْمانِ * إن عُدْتَ يا عمرو إلى الطِّعان،
لَتوجَرَنَّ لَهَبَ السِّنانِ * أوْلا، فلَسْتُ من بَنِى شَيْبان!

(٦٥) فلما قال هكذا، كرهت الموت، وهبتُه هيبة شديدة، وقلت: إنّ لى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قلت: أكون لك صاحبا، ورضيتُ بذلك يا أمير المؤمنين، قال: لست من أصحابى، فكان ذلك والله أشدّ علىّ وأعظم مما صنع. فلم أزل أطلب إليه حتى قال: ويحك، وهل تدرى أين أريد؟ قلت: لا، قال: أريد الموت عيانا، فقلت: رضيت بالموت معك، فقال: أمض بنا، فسرنا جميع يومنا وليلتنا حتّى جَنَّنا الليل وذهب شطره. فوردنا على حىّ من أحياء العرب، فقال لى: يا عمرو فى هذا الحىّ الموتُ، ثم أومأ إلى قبة فى الحىّ فقال: وفى تلك القبة الموت الأحمر، فإما أن تمسك علىّ فرسى فأنزل فآتى بحاجتى، وإما أن أمسك عليك فرسك فتنزل فتأتينى بحاجتى، فقلت: لا، بل أنزل أنت، فأنت أعرف بموضع حاجتك، فرمى إلىّ بعنان الفرس ونزل، فرضيت لنفسى يا أمير المؤمنين أن أكون له سائسا. ثم مضى حتّى دخل القبة فاستخرج منها جارية لم ترعيناى قط مثلها حسنا وجمالا، فحملها على ناقة، ثم قال: يا عمرو، قلتُ: لبيك، قال: إما أن تحمينى وأقود أنا، وإما أن

أحميك وتقود أنت، قلت: بل تحميني أنت، وأقود أنا، فرمى إلىّ بزمام الناقة. وسرنا بين يديه وهو خلفنا حتّى أصبحنا، فقال لى: ياعمرو، قلت: لبيك، ماتشاء؟ قال: التفت فأنظر هل ترى أحدا؟ قال: فالتفت، فقلت: أرى جمالا، قال: أغذّ السير، ثم قال لى: ياعمرو، قلت: لبيك، قال: أنظر، فإن كان القوم قليلا فالجَلَد والقوّة والموت، وإن كانوا كثيرا فليسوا بشيء، قال: فالتفتُّ، فقلت: هم أربعة أو خمسة، قال: أغذَّ السيرَ، ففعلت، وسمع وَقْع الخيل، فقال لى: ياعمرو، قلت: لبيك! قال: كن عن يمين الطريق، وقِفْ وحوّلْ وُجوه دوابنا إلى الطريق، ففعلتُ، ووقفت عن يمين الراحلة ووقف هو عن يسارها. ودنا القومُ منا، فإذاهم ثلاثة نفر فيهم شيخ وهو أبو الجارية وأخواها غلامان شابان، فسلموا فرددنا السلامَ، ووقفوا عن يسار الطريق. فقال الشيخ: خَلِّ عن الجارية يا ابن أخى، فقال: ماكنتُ لأُخَلِّيها ولا لهذا أخذتُها، فقال لأصغر ابنيه: أُخرج إليه، فخرج وهو يجرّ رمحه وحمل عليه الحارث وهو يقول:

مِنْ دُونِ ماتَرْجُوه خَضْب الذابِلِ * من فارِسٍ مستَلْئِمٍ مقاتِلِ،
يُنْمى إلى شَيبانَ خير وائِلِ * ماكان سَيْرِى نَحْوَها بباطِلِ!

ثم شدّ عليه فطعنه طعنة دَقّ منها صُلْبه، فسقط ميتا. فقال الشيخ لابنه الآخر: أُخرج اليه يابُنىّ، فلا خير فى الحياة على الذُّلّ، فخرج إليه وأقبل الحارث يقول:

لقَدْرأيتَ كيفَ كانتْ طَعْنتى! * والطَّعن للقِرْن الشديد هِمَّتِى.
والموتُ خيرٌ من فراق خِلّتِى * فقَتَلْتِى اليوم ولاَ مَذَلَّتِى!

ثم شدّ عليه فطعنه طعنةً سقط منها ميتا . فقال له الشيخ : خَلِّ عن الظعينة يا ابن أخى ، فإنى لستُ كمن رأيتَ ، قال : ما كنت لأُخلّيها ولا لهذا قصدتُ ، فقال له الشيخ : اختر يا ابن أخى ، فإن شئت طاردتك ، وإن شئت نازلتك ، فاغتنمها الفتى ونزل . ونزل الشيخ وهو يقول :

ما أرتجى بعد فَناءِ عُمْرى؟ * سأجعلُ السِّنِينَ مثل الشَّهْرِ.
شيخٌ يحامى دون بِيضِ الخِدْرِ. * إنَّ استباحَ البيضِ قَصْمُ الظَّهرِ.
* سوف ترى كيفَ يكونُ صَبْرى. *

فأقبل الحارث وهو يقول :

بَعْد ارتحالى وطويلِ سَفْرِى * وقد ظَفِرتُ وشَفَيْتُ صَدْرِى.
والموتُ خيرٌ من لِباسِ الغَدْرِ، * والعارِ أُهْديه لحَىِّ بكرِ.

ثم دنا فقال له الشيخ : يا ابن أخى، إن شئت نازلتك. وإن بقيت فيك قوة ضربتنى؛ وإن شئت فاضربنى، فان بقيت فىّ قوةٌ ضربتك. فاغتنمها الفتى فقال : وأنا أبدؤك، قال: هات، فرفع الحارث السيفَ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه، ضرب بطنَه ضربة فقدّ معاه، ووقعت ضربة الحارث فى رأسه. فسقطا ميتين. فأخذت يا أمير المؤمنين أربعة أفراس وأربعة أسياف. ثم أقبلتُ إلى الناقة فعقدت أعنة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودها. فقالت الجارية : يا عمرو، إلى أين ؟ ولستَ لى بصاحب، ولستَ كمن رأيت، ولو كنت صاحبى لسلكت سبيلهم! فقلت: أسكتى، قالت: فإن كنت صادقا فأعطنى سيفا ورمحا، فإن غلبتَنى فأنا لك، وإن غلبتك قتلتك، فقلتُ لها : ما أنا بمعطيك ذلك، وقد عرفتُ أصلك وجُرأة قومكِ وشجاعتَهم، فرمت بنفسها عن البعير وهى تقول :

(٦٦)

أَبَعْدَ ماشَيْخِى وبَعْدَ إخْوتِى * أطْلُبُ عيشًا بعْدَهُم فى لَذَّةِ؟
* هَلْ لا تَكُونُ قبل ذَا مَنِيَّتِى؟ *

وأهوت إلى الرُّمح فكادت تنتزعه من يدى. فلما رأيتُ ذلك خفتُ إن هى ظَفرت بى أن تقتلنى، فقتلتها

٥ فهذا أشدّ ما رأيته يا أمير المؤمنين.

فقال عمر بن الخطاب: صدقت ياعمرو.

وروى ابن الجوزىّ بسند يرفعه إلى الليث بن سعد أنه قال: أُتى عمر رضى الله عنه بفتًى أمردَ قد وجد قتيلا مُلْقًى فى الطريق. فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر، ولم يعرف قاتله. فشقّ ذلك عليه، وقال: اللهم ظَفِّرنى بقاتله.

١٠ حتّى إذا كان رأسُ الحول أو قريب من ذلك، وُجدَ صبىّ مولود مُلْقًى بموضع القتيل فأُتِىَ به عمر. فلما أُتِىَ به وأُخْبِر بمكانه، قال: ظَفِرتُ تالله بدم القتيل إن شاء الله تعالى، فدفع الصبىّ إلى امرأة، وأمرها أن تقوم بشأنه وأعطاها نفقة. وقال: انظرى مَن يأخذه منكِ، فإذا وجدتِ امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلمينى بمكانها. فلما شبّ الصبىّ جاءت جاريةٌ فقالت للمرأة إن سيدتى بعثتنى إليك لتبعثى إليها بالصبىّ

١٥ لتراه وتردّه إليك. قالت: نعم، اذهبى به إليها وأنا معك، فذهبتْ بالصبىّ والمرأة معها إلى سيدتها. فلما رأته أخذته فقبلته وضمّته إلى صدرها. وإذا هى بنت شيخ من الأنصار، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخبرتْ عمر خبرها. فاشتمل على سيفه، ثم أقبل على منزلها، فوجد أباها متكئا على باب داره. فسلم عليه، وقال له: أبا فلان، قال: لَبَّيْك، قال: مافعلت ابنتك فلانة؟ قال: ياأمير المؤمنين،

٢٠ جزاها الله خيرا، هى من أعرف الناس بحق الله تعالى وحق أبيها، مع حُسْن صَلَاتها

وصيامها والقيام بدينها، فقال عمر: قد أحببتُ أن أدخل إليها فأزيدَها رغبةً فى الخير وأَحُثَّها على ذلك . فقال : جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين ، آمكُثْ مكانك حتّى أعود إليك، فاستأذن بعمر، فلما دخل عمر، أمر من كان عندها بالخروج عنها، فخرجوا . وبقيت هى وعمر ليس معهما ثالث . فكشف عمر عن السيف، وقال: لتصدقينى وإلا ضربت عنقك ، وكان عمر لا يُكذب ، فقالت : على رِسْلك ياأمير المؤمنين، فوالله لأصدُقَنّك. إن عجوزا كانت تدخل علىّ فاتخذتها أمّا، وكانت تقوم من أمرى بما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت، فأمضتْ بذلك حينا. ثم إنها قالت لى يوما : يابنية ، إنه قد عرض لى سَفَر، ولى بنت فى موضع أتخوف عليها فيه أن تضيع، وقد أحببتُ أن أضمها إليكِ حتّى أرجع من سفرى، فعمدَتْ إلى آبن لها شاب أمرد، فهيأته كهيئة الجارية وأتتنى به لا أشك أنه جارية . فكان يرى منى ماترى الجارية من الجارية حتّى أغفلنى يوما وأنا نائمة فما شعرتُ حتّى علانى وخالطنى . فمددت يدى إلى شَفْرة كانت إلى جنبى فقتلتُه . ثم أمرتُ به فأُلقى حيث رأيتَ . فاشتملتُ منه على هذا الصبى ، فلما وضعته ألقيته فى موضع أبيه . فهذا والله خبرهما، فقال عمر : صدقتِ ، بارك الله فيك ، ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج ، وقال لأبيها : بارك الله لك فى آبنتك ، فنعم الابنة هى ! وقد وعظتها وأمرتها، فقال : وصلك الله ياأمير المؤمنين ، وجزاك خيرا عن رعيّتك .

وروى أيضا بسنده إلى أبى عباد قال : أدركتُ الخادمَ الذى كان يقوم على رأس الحجاج، فقلت له : أخبرنى بأعجب شىء رأيتَه من الحجاج ! قال : كان آبن اخيه أميرا على واسطَ، وكان بواسط آمرأة يقال لها أبّة، لم يكن بواسطَ فى ذلك الوقت

أجملُ منها . فأرسل آبن أخيه إليها يراودها عن نفسها مع خادم له . فأبت عليه وقالت : إن أردتني فاخطبني إلى إخوتي ، وكان لها أربعة إخوة فأبى ، وقال : لا ، إلا كذا . وعاودها فأبت ، فراجعها وأرسل إليها بهدية فأخذتها وعزلتها . وأرسل إليها عشية الجمعة : إني آتيكِ الليلة ، فقالت لأمها : إن الأمير بعث إليّ بكذا وكذا . فأنكرتْ أمُّها ذلك ، وقالت أمها لاخوتها إن أختكم قد زعمت كيت وكيت : فأنكروا ذلك وكذبوها . فقالت إنه قد وعدني أن يأتيني الليلةَ ، ترَوْنه . قال : فقعد إخوتها في بيت حيَال البيت الذي هي فيه ، وجويريةٌ لها على باب الدار تنتظره . فجاء ونزل عن دابته وقال لغلامه : إذا أذن المؤذن في الغلس ، فأْتني بدابتي ، ودخل والجاريةُ أمامه . فوجد أبَّةً على سرير مستلقيةً . فاستلقى إلى جانبها ثم وضع يده عليها ، وقال : إلى كم ذا المَطْلُ ؟ فقالت له : كف يدك يا فاسقُ ، ودخل إخوتها عليه بأيديهم السيوف فقَطَّعوه ثم لفوه في نطع وجاءوا به إلى سكة من سكك واسط فألقوه فيها . وجاء الغلام بالدابة فجعل يدُقُّ الباب دقًّا رفيقا فلا يكلمه أحد . فلما خَشِي الضوء وأن تعرف الدابةُ آنصرف . وأصبح الناس فإذا هم به على تلك الصفة . فأتوا به الحجاجَ فأخذ أهل تلك السكة ، فقال أخبروني : ماقصتُه ؟ قالوا : لانعلم حاله ، غير أنا وجدناه ملقًى . ففطِن الحجاجُ فقال : عليّ بمن كان يخدمه ، فأُتِيَ بذلك الخصيّ الذي كان الرسولَ بينهما ، فقالوا : هذا كان صاحبَ سره ، فقال له الحجاج : آصدقني عن خبره وقصته ، فأبى . فقال : إن صدقتني لم أضرب عنقك ، وإن لم تصدقني فعلتُ بك وفعلت . قال : فأخبره الأمر على جهته . فأمر بالمرأة وأُمها وإخوتها ، فجيء بهم ، وعُزلت المرأة عنهم . فسألها فأخبرته بمثل ماأخبر به الخصيّ ، ثم سأل إخوتها ، فأخبروه بمثل ذلك ولم يختلفوا ، وقالوا : نحن صنعنا به الذي ترى ،

(٦٧)

فأمر برقيقه ودوابه للمرأة ، فقالت المرأة : هديته عندى ، فقال : بارك الله لك فيها ، وكثّر فى النساء مثلك ، هى لك ، وماترك من شىء فهو لك ، وقال : مثل هذا لا يُدْفن . فألقُوه للكلاب ، ودعا بالخصىّ فقال : أما أنت فقد قلت لك إنى لا أضرب عنقك ! وأمر بضرب وسطه ، فقطع نصفين .

والأخبار فى مثل هذا كثيرة ، فلا نطوّل بذكرها . ٥

* * *

وأما من قتله العشق فكثير جدّا لا يكاد يحصر ، روى عن عكرمة قال : إنى لَمَعَ ٱبن عباس عشيةَ عرفةَ ، إذ أقبل فتيةٌ يحملون فتًى من بنى عُذْرة فى كساء ، وهو ناحل البَدَن ، أحلى من رأيت من الفِتْيان ، فوضعوه بين يديه ثم قالوا : ٱستشفِ لهذا يا ٱبن عمّ رسول الله ، فقال : وما به ؟ فترنم الفتى بصوت ضعيف خفىّ الأنين ، ١٠ وهو يقول :

بِنَا من جَوى الأحزان والحُبِّ لَوْعةٌ * تَكادُ لها نَفْسُ الشَّفِيق تَذُوبُ !
ولكنَّما أبقى حَشاشةَ مُعْوِلٍ * على مابه عُودٌ هناك صَلِيبُ !
وما عَجَبٌ موت المحِبِّينَ فى الهَوى ، * ولكنْ بقاءُ العاشِقِين عجِيب !

قال : ثم حمل فمات فى أيديهم ، فقال ٱبن عباس : هذا قتيلُ الحُبّ ، لا عَقْلٌ ١٥ ولا قَوَد .

قال عكرمة : فما رأيت ابن عباس سأل الله تعالى تلك الليلةَ — حتّى أمسى — إلا العافيةَ مما ٱبتلِى به ذلك الفتى .

وروى عن الأصمعىّ قال : حدّثنى أبو عمرو بن العلاء قال : حدّثنى رجل من بنى تميم قال : خرجت فى طلب ضالّة لى . فبينا أنا أدور فى أرض بنى عُذْرة أنشُد ضالّتى ، ٢٠

إذا بيتٌ معتزل عن البيوت، وإذا في كِسْر البيت شابٌّ مغمًى عليه، وعند رأسه عجوز لها بَقِيَّة من جمال، وهي ساهيةٌ تنظر إلى وجه الفتى. فسلمتُ فردَّت السلامَ. فسألتها عن ضالَّتي فلم يك عندها منها علم. فقلت: أيتُها العجوزُ، مَن هذا الفتى؟ قالت: ابني، ثم قالت: هل لك في أجرٍ لا مَئُونةَ فيه؟ فقلت: والله إني لأُحبُّ الأجر وإن رُزِئْت! فقالت: إن ابني هذا يهوى ابنةَ عمٍّ له عَلِقها وهما صغيران. فلما كَبِرَ حُجبت عنه، فأخذه شبيهٌ بالجنون. ثم خطبها إلى أبيها فامتنع من تزويجه، وخطبها غيره فزوّجها إياه. فنَحِل جسمُ ولدي واصفرّ لونه وذَهَلَ عقلُه. فلما كان منذ خمس، زُفَّت إلى زوجها. فهو كما ترى: لا يأكل ولا يشرب، مغمًى عليه. فلو نزلت إليه فوعظته!

قال: فنزلتُ إليه فلم أدَعْ شيئا من المَوعظة إلا وعظته به حتّى أن قلت له فيما قلت: إنهنّ الغواني صاحباتُ يوسف. ناقضاتُ العهد، وقد قال فيهن كُثَيِّر عَزَّة:

هَلْ وَصْلُ عَزَّةَ إلا وَصْلُ غانيـة * في وَصْلِ غانيةٍ من وَصْلِها خَلَفُ؟

قال: فرفع رأسه، محمرةً عيناه كالمُغْضَب، وقال: لستُ كَكُثَيِّر عزة! إنّ كُثَيِّرا رجل مائقٌ، وأنا رجل وامقٌ! ولكنني كأخي تميم حيث يقول:

ألَا لا يَضيرُ الحبُّ ما كان ظاهِرًا، * ولكنَّ ما اخْتافَ الفؤاد يَضيرُ!

ألَا قاتل الله الهوى كيف قادَني * كما قِيدَ مغلولُ اليدَيْنِ أسيرُ!

فقلتُ له: فإنه قد جاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أُصيبَ منكم بمُصيبةٍ فليَذْكُرْ مُصابه بي".

فأنشأ يقول:

ألَا ما للمليحـة لا تَعُـودُ؟ * أبُخْـلٌ بالمليحةِ أم صُـدُودُ؟

مَرِضْتُ فعـادَني أهلي جميعًا * فمـا لَكِ لا تَرى فيمن يَعُـودُ!

فقَدْتُكِ بينهُمْ فبكَيْتُ شَوْقًا، * وفَقْدُ الإلْفِ ياأملى شَديدُ!
وما آستَبْطأْتُ غيرَكِ فاعلَمِيهِ * وحَوْلِى من ذَوِى رَحِمى عَديدُ!
ولوكُنْتِ السقيمةَ، كنْتُ أسعَى * إليكِ ولم يُنَهْنِهْنِى الوَعِيدُ!

قال: ثم شهِق شهقةً وخَفَتَ، فمات. فبكت العجوز وقالت: فاضت والله نفسُه! فدخلنى أمر لم يدخلنى مثلُه قط. فلما رأت العجوزُ ماحلَّ بى، قالت: يافتى لاتُرَعْ! عاش بأجَلٍ، ومات بقَدَر، وقدم على ربٍّ كريم، وآستراح من تباريحِه وغُصَصه! ثم قالت: هل لك فى آستكمالِ الصنيعة؟ قلت: قولى ماأحببتِ! قالت: تأتى البيوت فتنعاه اليهم ليعاوِنُونى على رَمْسه، فإنى وحيدة. قال: فركبت فرسى وقصدت البُيوتَ وأقبلت أنعاه إليهم. فبينا أنا أنعاه، إذا خيمةٌ رُفع جانبٌ منها، وإذا آمرأة قد خرجتْ كأنها القمر ليلة البدر. ناشرةً شعرها، تجرُّ خِمارها، وهى تقول: بِفيك الكَثْكَثُ! بفيك الحَجَرُ! مَن تَنْعَى؟ قلت: أنعى فلانا! قالت: أوَ قد مات؟ قلت: إى والله قد مات! قالت: فهل سمعت له قولا. قلت: اللهم لا، إلا شعرا، قالت: وما هو؟ فأنشدتُها قوله:

* ألا ما لليحة لاتعود * الأبيات.

فاستعبرتْ باكية وأنشأت تقول:

عَدَانِى أنْ أزُورَكِ يامُنَاىَ * مَعَاشِرُ كُلُّهم واشٍ حَسُودُ!
أشاعُوا ماعلِمْتَ من الدَّواهى * وعابُونا، وما فِيهِمْ رَشِيدُ!
فأما إذ ثَوَيْتَ اليومَ لَحْدًا * فكلُّ الناسِ دُورُهُمُ لُحُودُ.
فلا طابَتْ لىَ الدُّنيا فُوَاقا * ولا لَهُمُ ولا أَثْرَى عديدُ!

ثم شهقتْ شهقةً وخرّتْ مغشيًّا عليها، وخرج النساء من البيوت وٱضطربت ساعة وماتت. فوالله ما برحتُ حتّى دفنتهما جميعا .

وروى الساجى عن الأصمعىّ قال : رأيت بالبادية رجلا قد دق عظمه، وضؤل جسمه، ورق جلده . فتعجبت ودنوت منه أسأله عن حاله . فقالوا : ٱذكر له شيئا من الشعر يكلمك ، فقلتُ :

سَبَقَ الفضاءُ بأنّنى لك عاشقٌ * حتّى المماتِ، فأيْنَ منك مذاهبي؟

فشهق شهقة ظننتُ أن روحه قد فارقته، ثم أنشأ يقول :

أخلُو بذكْرِكِ لا أريدُ محدّثا * وكفى بذكْرِكِ سامِرًا وسُرُورا!

قال : فقلت له : أخبرنى عنك! قال : إن كنت تريد علم ذلك فاحملنى وألقِنى على باب تلك الخيمة ! ففعلت، فأنشأ يقول بصوت ضعيف يرفعه :

ألا ما للمَليحةِ لا تَعُودُ * أبُخْلٌ بالمَليحةِ أم صُدُودُ ؟

فلوكُنتِ المريضَةَ كنتُ أسْعى * إليك ولم يُنَهْنِهْنِى الوَعِيدُ !

فإذا جارية مثل القمر، قد خرجت فألقت نفسها عليه فاعتنقا . وطال ذلك، فسترتهما بثوبى خشية أن يراهما الناسُ. فلما خفتُ عليهما الفضيحة، فرّقت بينهما، فإذا هما ميتان . فما بَرِحت حتّى صليت عليهما ودُفِنَا . فسألت عنهما، فقيل لى : عامرُ بن غالب، وجميلة بنت أميل المُزَنيّان .

وروى ٱبن الجوزىّ بسند يرفعه إلى محمد بن خلف قال : ذكر بعض الرواة عن العمرىّ قال : كان أبو عبد الله الجيشانىّ يعشَق صفراء العلاقية. وكانت سوداء، فاشتكى من حبها، وضَنِى حتّى صار إلى حدّ الموت. فقال بعض أهله لمولاها : لو وجهت

صفراء إلى أبي عبد الله الجيشاني، فلعله أن يعقل إذا رآها! ففعل. فلما دخلتْ عليه قالت له : كيف أصبحتَ ياأبا عبدالله؟ قال : بخير مالم تبرحي! قالت : ما تشتهي ؟ قال : قُرْبَك! قالت : ما تشتكي ؟ قال : حُبَّك! قالت : فتوصي بشيء ؟ قال : نعم، أوصي بك إن قبلوا مني! فقالت : إني أريد الانصراف! قال: فتعجلي ثوابَ الصلاة عليّ! فقامت فانصرفت، فلما رآها مولية تنفس الصعداء، ومات من ساعته .

وروى أيضا بسند يرفعه إلى عَوَانة بن الحكم أن عبد الله بن جعفر وفد إلى عبد الملك بن مَرْوان فحدثه، قال : اشتريت جاريةً بعشرة آلاف درهم، فوصفتْ ليزيد بن معاوية فأرسل إليّ يقول : إما أن تهديها إليّ ، وإما أن تبيعها بحكمك ، فكتبت إليه : لا تخرج والله من ملكي ببيع ولا هبة أبدا . ومكثتُ عندي لا أزداد لها إلا حبا . حتّى أتتني عجوز من عجائزنا ، فذكرتْ أن بعض عُزّاب المدينة يهواها، وأنه يجيء في كل يوم متنكرا فيقف بالباب حتّى يسمع غناءها . فراعيتُ مجيئه ليلة،فإذا به قد أقبل متقنعَ الرأس حتّى قعد مستخفيا فدعوت قيّمة الجارية، فقلت : انطلقي الساعة فأصلحي هذه الجاريةَ بأحسن ما أمكن، وعجلي بها ، ففعلتْ . فقمتُ وقبضتُ على يدها وفتحتُ الباب وأتيتُ إلى الرجل فحركتُه فانتبه مذعورا . فقلت : لا بأس عليك، خذ هذه الجارية، هي لك، فإذا هممت ببيعها فارددها إليّ ، فَدهِش الفتى . فدنوتُ إلى أذنه فقلت : ويحك، قد أظفرك الله عز وجل ببُغْيتك، فانصرفْ إلى منزلك، فإذا الفتى ميت ، فلم أر شيئا قط أعجبَ من ذلك، وهانت عليّ الجاريةُ، فكرهتُ أن أوجّه بها إلى يزيد فيعلم بحالها أو تخبره

عن نفسها فيحقد ذلك عليّ . فمكثت مدة مديدة ثم ماتت . ولا أظنها ماتت إلا كمدا وأسفا على الفتى .

وروى ابن الجوزيّ أيضا بسنده قال : حُكِيَ عن شَبَابة بن الوليد العُذْريّ أن فتًى من بني عُذْرة يقال له أبو مالك بن النضر، كان عاشقًا لابنة عم له عشقا شديدًا، فكان على ذلك مدةً، ثم إنه فُقِد بضعَ عشرةَ سنةً، لا يُحَسُّ له خبر . قال شبابة : فاضلَلْتُ إبلًا لي . فخرجت في طلبها . فبينا أنا أسير في الرمال إذا بهاتف يَهْتف بصوت ضعيف :

يا ابنَ الوليدِ ، ألا تحمونَ جارَكُمُ ، وتحفَظُون له حقَّ القرابات؟
عهدي إذا جارُ قوم نابَهُ حَدَثٌ ، وَقَوْه من كلِّ مكروه الملِمّات!
هذا أبو مالك المسمى بلُقمةٍ من الضِّباع وآساد بغابات!
طليحُ سوقٍ ، بنار الحبِّ محترقٌ ، تعتادُه زَفَراتٌ إثْرَ لوعات!
أما النهارُ فيُنْصِيه تذكُّرُه ، والليلُ مرتقبُ الصبح هل يأتي .
يهدي بجاريةٍ من عُذْرةَ اختلَسَتْ فُؤادَه ، فهو منها في بَلِيّات!

فقلت : دُلَّني عليه ، رحمك الله ! قال : نعم ، اقصد الصوت ، فقصدته ، فسمعت أنينا من خباء ، فإذا قائل يقول :

يا رَسيسَ الهوى ، أذبْتَ فؤادي ، وحشَوتَ الحشا عذابًا أليما!

فدنوت منه فقلت : أبو مالك؟ قال : نعم ! قلت : ما بلغ بك إلى ما أرى ؟ قال : حُبِّي سعادَ ابنة أبي الهندام العذريّ . شكوت يوما ما أجدُ من حبها إلى ابن عم لنا فاحتملني إلى هذا الوادي ، منذ بضع عشرة سنة ، يأتيني كل يوم بخبرها ويقوتني من عنده . فقلت إني أصير إلى أهلها فأخبرهم ما رأيت . قال : أنتَ وذاك ، قال : فانصرفتُ

فأخبرتهم، فرقّوا له فزوّجوه بحضرتى . فرجعتُ إليه لأفرّج عنه، فلما أخبرته الخبر، نظر إلىّ، ثم تأوّه تأوّها شديدا بلغ من قلبى، ثم قال :

ألآن إذ حَشْرجَتْ نفسى وخامَرَها * فِراقُ دُنْيا وناداها مُنَاديها!

ثم زَفَر زَفْرة فمات. فدفنته فى موضعه ثم انصرفت فأخبرتهم الخبر . فأقامت الجارية بعده ثلاثا لا تَطْعَمُ، ثم ماتت .

وحكى عن المبرد قال : خرجتُ أنا وجماعة من أصحابى مع المأمون. فلما قَرُبنا من الرَّقّة، إذا نحن بدير كبير، فقال لى بعض أصحابى: مِلْ بنا إلى هذا الدير لننظر مَنْ فيه ونحمد الله تعالى على ما رَزَقنا من السلامة، فدخلنا إلى الدير، فرأينا مجانين مُغَلْغَلين، وهم فى نهاية القَذَارة، فاذا فيهم شابٌّ عليه بقية من ثيابٍ ناعمةٍ، فلما بصُر بنا قال : مَن أنتم يا فِتيانُ؟ حياكم الله! فقلنا: نحن من العراق. فقال: بأبى العراقُ وأهلُها! بالله أنشدونى أو أنشدكم! فقال المبرد : قلت : والله إن الشعر من هذا لَظَرِيف، فقلنا : أنشدنا، فأنشأ يقول :

اللهُ يَعْلَمُ أنّنِى كَمِدُ * لا أسْتَطِيعُ أبُثُّ ما أجِدُ !
رُوحان لى : رُوحٌ تضمَّنها * بلدٌ وأُخرى حازها بَلَدُ !
وأرى المقيمةَ ليس يَنْفَعُها * صَبْرٌ ولا يَقْوى لها جَلَدُ .
وأظنُّ غائبتى كما جَدَتِى * فكأنّها تجدُ الذى أجِدُ !

قال المبرد : بالله زدنا، فأنشأ يقول :

لَمّا أناخُوا قُبَيْلَ الصُّبح عِيرَهُمُ * ورَحَّلُوها فثارَتْ بالهوى الإبِلُ،
وقلَّبتْ من خَلال السَّجْف ناظرَها * تَرْنُو إلىّ ودمعُ العين مُنْهمل،

وَوَدَّعتْ بَنانٍ عقدُها عَنَمٌ، * ناديتُ: لاحَمَلَتْ رِجْلاكِ ياجَمَلُ!
وَيْلِي من البَيْنِ! ماذا حَلَّ بي وبِهَا * مِنْ نازل البَيْنِ؟ حانَ البينُ فارتَحَلُوا!
ياراحِلَ العِيسِ، عَرِّجْ كَيْ نُودِّعها! * ياراحِلَ العِيسِ، في تَرْحالكَ الأجَلُ؟
إنِّي على العَهْد لم أنقُضْ مودَّتَهم، * ياليت شِعْرِيَ! بعد العهدِ مافعلُوا؟

قال: فقال رجل من البغضاء الذين معي: ماتُوا! قال: قال إذَنْ فأموتُ! فقال له: إن شئتَ! فتمطَّى وآستند إلى السارية التي كان مشدودا فيها فمات. فما برِحْنا حتَّى دفناه.

وحكى عن أبي يحيى التيمي، قال: كنا نختلف إلى أبي مِسْعَر بن كِدَام، وكان يختلف معنا فتًى من النُّسَّاك، يقال له أبو الحسن، ومعه فتًى حسنُ الوجه يفتتِنُ به الناس إذا رأَوْه. فأكثر الناسُ القولَ فيه وفي صحبته إياه. فمنعه أهله أن يصحبه وأن يكلمه. فذهَلَ عقله حتَّى خيف عليه التلفُ. فلقيته فأخبرته بذلك، فتنفس الصُّعَداء ثم أنشأ يقول:

يامَنْ بدائعُ حُسْنِ صُورتِه * تَثْنِي إليه أعِنَّةَ الحَدَقِ!
لِي مِنْكَ ما للناسِ كُلِّهِمِ: * نَظَرٌ وتَسْليمٌ على الطُّرُقِ.
لكِنَّهمْ سَعِدُوا بأمْنِهِمِ * وشَقِيتُ حِينَ أراكَ بالفَرَقِ!

ثم صرخ صرخة وشخص بصره نحو السماء وسقط إلى الأرض. فحركته فإذا هو ميت.

وروى آبن الجوزيّ قال: أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك الأنماطيّ، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميديّ قال: حدّثني أبو محمد عليّ بن أحمد

الفقيه الحافظ قال : حدّثنى أبو عبد الله محمد بن الحسن المَذْحِجىّ الأديب، قال : كنت أختلف فى النحو إلى أبى عبدالله محمد بن خطاب النحوى فى جماعة ، أيام الحَدَاثة . وكان معنا أسلَمُ بن سعيد قاضى قضاة الأندلس . قال محمد بن الحسن : وكان من أجمل من رأته العيون . وكان معنا عند ابن خطاب أحمدُ بن كُلَيب . وكان من أهل الأدب والشعر فاشتدّ كلَفُه بأسلم، وفارق صبره ، وصرف فيه القول متسترا بذلك، إلى أن فشت أشعارُه فيه وجرت على الألسنة ،وأُنشدت فى المحافل . ٥

فَلَمَهْدى بُعرس فى بعض الشوارع و"البكورىّ" الزامر فى وسط المحفل يزمر بقول أحمد بن كليب فى أسلم .

أَسَلَّمَنِى فى هَوا * ه أَسْلَمُ، هذا الرَّشا!
غَزَال له مُقْلَةٌ * يُصِيبُ بها مَنْ يَشَا! ١٠
وشى بيننا حاسِدٌ * سَيُسْأَلُ عَمَّا وَشَى!
ولَوْ شاءَ أن يَرْتَشِى * على الوَصْلِ رُوحِى، ارْتَشَى!

ومغنٍّ محسن يسايره . فلما بلغ هذا المبلغ، انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ولزم بيته والجلوسَ على بابه . فكان أحمد بن كليب لا شُغْل له إلا المرور على باب دار أسلم نهارَه كله . فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهارا . فإذا صلّى المغرب وانختلط الظلام، خرج مستَرْوحا، وجلس على باب داره . فعيل صبر أحمد بن كليب . فتحيل فى بعض الليالى ولبس جُبَّة من جباب أهل البادية، واعتمّ بمثل عمائمهم، وأخذ بإحدى يديه دَجَاجا وبالأخرى قَفَصا فيه بيض . وجاء كأنه قدم من بعض الضِّياع، فتقدّم إلى أسلم وقبل يده، وقد انختلط الظلام، وقال : يامولاى، مَن يَقْبِض ١٥

هذا؟ فقال له أسلمُ : من أنت ؟ فقال : أجيرُك في الضَّيْعة الفلانية — (وقد كان يعرف أسماء ضياعه) . فأمر أسلمُ غلمانَه بقبض ذلك منه على عادتهم في قبول هدايا العاملين في ضياعهم . ثم جعل أسلم يسأله عن أحوال الضيعة ، فلما جاوبه أنكر الكلامَ فتأمله فعرفه ، فقال له : يا أخي ! وإلى هاهنا تتبعُني ؟ أما كفاكَ انقطاعي عن مجالس الطلب ، وعن الخروج جملةً ، وعن القُعود على بابي نهارا حتَّى قطعت عليّ جميعَ مالي فيه راحةٌ فصرتُ في سِجْنك ؟ والله لافارقتُ بعد هذه الليلة قَعْرَ منزلي ، ولا جلستُ بعدها على بابي ، لا ليلا ولا نهارا ، ثم قام . وانصرف أحمد بن كليب حزينا كئيبا .

(٧١)

قال محمد : واتصل ذلك بنا فقلنا لأحمد بن كليب : وخسرت دجاجك وبيضك ؟ فقال : مات كلَّ ليل قُبلةٌ في يده ، وأخسر أضعاف ذلك ! فلما يئس من رؤيته البتةَ ، نهكته العلة وأضجعه المرض . قال محمد بن الحسن : فأخبرني شيخنا محمد بن خطاب قال : فعُدْته فوجدته بأسوإ حال . فقلت له : لم لاتتداوى ؟ فقال : دوائي معروف ، وأما الأطباء فلا حيلةَ لهم فيّ البتةَ ، فقلت له : وما دواؤك ؟ قال : نظرةٌ من أسلم ! فلو سعيتَ في أن يزورني لأعظم الله جزاءك بذلك ، وآجره . قال : فرحمته وتقطعت نفسي عليه ، فنهضت إلى أسلم فاستأذنتُ عليه ، فأذن لي وتلقَّاني بما يجب ، فقلت : لي حاجةٌ ، فقال : وما هي ؟ قلت : قد علمت ما جَمَعك مع أحمد بن كليب من ذمام الطلب عندي . فقال : نعم ، ولكن قد تعلم أنه برّح بي ، وشَهَّر اسمي وآذاني . فقلت له : كل ذلك يُغتفَر في مثل هذه الحال التي هو فيها ، والرجل يموتُ ، فتفضل بعيادته . فقال لي : والله ماأقدِر على ذلك ، فلا تكلِّفْني هذا ! فقلت : لا بدَّ من ذلك فليس عليك فيه شيء ، وإنما هي عيادة مريض . قال : ولم أزل به حتَّى أجاب ، فقلت له : فقم الآن ، قال : لستُ والله أفعلُ ، ولكن غدًا ، فقلت له : ولا خُلْفَ ،

قال: نعم. فانصرفت إلى أحمد بن كليب فأخبرته بوعده فسُرَّ بذلك وآرتاحتْ نفسه. فلما كان من الغد بكَّرتُ إلى أسلم، وقلت له: الوعدَ، قال: فَوجِم، وقال: والله لقد تحملني على خُطَّة صَعْبة عليّ، وما أدرى كيف أُطيق ذلك؟ فقلت له: لا بدّ أن تفى بوعدك لى، قال: فأخذ رداءه ونهض معى راجِلًا، فلما أتينا منزل أحمد، وكان يسكن فى درب طويل. فعند ما توسَّط الزُّقاق وقف وآحمرّ وخجل، وقال: ياسيدى، الساعة والله أموت! وما أستطيع أن أعرض هذا على نفسى! فقلت: لا تفعل بعد أن بلغت المنزل، قال: لا سبيل والله إلى ذلك البتَّةَ! ورجع هاربا فاتَّبعته وأخذتُ بردائه، فتمادى وتمزق الرداء وبَقِيتْ قطعة منه فى يدى لشدّة إمساكى له. ومضى ولم أدركه. فرجعت ودخلت على أحمد، وكان غُلامه قد دخل عليه لما رآنا من أول الزقاق مبشّرا. فلما رآنى تغير وجهُه وقال: أين أبو الحسن؟ فأخبرته بالقصة فاستحال من وقته وآختلط وجعل يتكلم بكلام لا يعقل منه أكثر من الآسترجاع. فاستبشعت الحال وجعلت أتوجَّع وقمت، فثاب إليه ذهنُه، وقال لى: يا أبا عبدالله، قلت: نعم، قال: آسمع منى، وآحفظ عنّى، وأنشأ يقول:

أَسْلَمُ، ياراحةَ العَلِيل * رِفْقا على الهائم النَّحِيل!
وصْلُك أشهى إلى فُؤادِى * من رحمةِ الخالِقِ الجليل!

قال: فقلت له: آتق الله، ما هذه العظيمة؟ قال: قد كان، فخرجت عنه فوالله ماتوسطت الزقاقَ حتّى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا.

وهذه الحكاية مشهورة عند أهل الأندلس. وأسلم هذا من بنى خالد وكانت فيهم وزارة وحجابة. وهذا الباب طويل والحكايات والأخبار والوقائع فيه كثيرة يطول الشرح بذكرها.

* * *

وأما من قتل نفسه بسبب العشق، فحكى عن عبد الرحمن بن إسحاق القاضي قال: انحدرتُ من "سُرَّ مَنْ رأى" مع محمد بن إبراهيم أخي إسحاق، ودجلة تَزْخَر من كثرة مائها. فلما سِرْنا ساعةً، قال: ارفُقُوا بنا، ثم دعا بطعامه فأكلنا، ثم قال: ما ترى في النبيذ؟ قلت له: أعز الله الأمير، هذه دِجلة قد جاءت بمدّ عظيم يُرْغَب مثله. وبينك وبين منزلك مَبِيتُ ليلة، فلو شئتَ أخرته، قال: لا بدّ لي من الشراب. واندفعت مغنيةٌ فغنَّتْ، واندفعت أخرى فغنته:

يا رَحْمتَا للعاشِقينا، ❊ ما إنْ أرى لهُمُ معينا!
كم يُشْتَمُون ويُضْرَبو ❊ نَ ويُهْجَرون، فيصبِرُونا!

فقالت لها المغنية الأولى: فيصنعون ماذا؟ قالت: يصنعون هكذا، ورَفَعَتِ الستارة وقذفتْ بنفسها في دِجْلَة. وكان بين يدي محمد غلامٌ ذَكَر أنّ شراءه ألفُ دينار، بيده مِذَبَّة، لم أر أحسن منه. فوضع المِذَبَّة من يده وقذف بنفسه في دجلة، وهو يقول:

أنتِ التي غَرَّقْتِني ❊ بعد انقضا، لو تَعْلَمِينا!

فأراد الملاحون أن يطرحوا أنفسهم خلفهما، فصاح بهم محمد: دَعُوهما يَغْرَقا إلى لعنة الله! قال: فرأيتهما وقد خرجا معتنقين ثم غَرِقا.

وحكى عن جميل بن معمر العذري أنه قال: دخلتُ على عبد الملك بن مَرْوانَ فقال لي: يا جميل حدِّثْني بعض أحاديثِ بني عذرة، فإنه بلغني أنهم أصحاب أَدَب وغَزَل، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، انتجعوا عن حَيِّهم مرة فوجدوا النُّجْعة بموضع نازح فقطنوه. فخرجت أريدهم. فبينا أنا أسير، غلِطتُ الطريقَ وجنَّ عليّ الليلُ،

فلاح لى باب فقصدته . فوردت على راعٍ فى أصل جبل قد ألجأ غنمَه إلى كهف فى الجبل، فسلمت عليه، فردّ علىّ السلام، وقال : أحسَبُك قد ضَلَلْتَ الطريق؟ قلت : قد كان ذلك، فأرشِدْنى! قال : بل أنزل حتّى تُريح ظهرك، وتبيتَ ليلتَك، فإذا أصبحْتَ وقّفتك على القصد. فنزلت فرحّب بى وأكرمنى، وعمد إلى شاة فذبحها، وأجّج نارا، وجعل يَشْوِى ويُلْقِى بين يدىّ، ويحدّثنى فى خلال ذلك. ثم قام إلى كساء فقطع به جانب الخباء ومهّد لى جانبا، ونزل جانبا خاليا . فلما كان فى الليل سمعتُه يبكى ويشكو إلى شخص . فأرِقْت ليلتى. فلما أصبحت، طلبت الإذن فأبى، وقال : الضيافةُ ثلاث! فأقمت عنده، وسألته عن آسمه ونسبه وحاله، فآنتسب لى. فإذا هو من بنى عُذْرة، من أشرافهم. فقلت : ياهذا، وماالذى أحلّك هذا الموضعَ؟ فأخبرنى أنه كان يهوى آبنة عمّ له وتهواه، وأنه خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوّجه إيّاها لقِلّة ذات يده، وأنه زوّجها رجلا من بنى كلاب فخرج بها عن الحىّ وأسكنها فى موضعه ذلك، وأنه تنكّر ورَضِى أن يكون راعيا لتأتيَه ويراها. وجعل يشكو إلىّ صَبابتَه بها وعشقه لها، حتى إذا جنّنا الليل وحان وقت مجيئها، جعل يتقلقل ويقوم ويقعد كالمتوقّع لها . فلما أبطأت عن الوقت المعتاد وغلبه الشوق، وثب قائما وأنشأ يقول :

ما بالُ مَيّةَ لا تأتى لِعادتها! * أهاجَهَا طَرَبٌ أم صَدّها شُغُلُ؟

لكنّ قَلْبِىَ لا يُلْهِيهِ غيرُهمُ * حَتّى المَمَاتُ، ولا لى غيرُهمْ أمَلُ!

لو تعلَمِينَ الّذِى بِى من فِراقِكُمُ * لما آعتللْتِ ولا طابَتْ لَكِ العِلَلُ!

رُوحى فِداؤُك! قد هيّجْتِ لى سَقَما * تكادُ من حَرّه الأعضاءُ تنفَصِلُ!

لو أن عادِيَةً مِنّى على جَبَلٍ، * لزال وآنهدّ من أركانِه الجبَلُ!

ثم قال : ياأخا بنى عذرة ، مَكانَكَ حتّى أعود إليك ! فما أتوهّم أن أمْرَ ٱبنة عمّى صحيح! ثم مضى . فما لبث أن أقبل وعلى يده شىء محمول ، وقد علا شَهِيقُه ونحيبُه ، فقال : ياأخا بنى عذرة ، هذه ٱبنة عمى ، أرادت أن تأتينى فٱعترضها الأسد فأكلها ! ثم وضعها عن يده ، وقال : على رِسْلِكَ حتّى أعودَ اليك ، ومضى فأبطأ حتّى يئِستُ من رجوعه . ثم أقبل ورأسُ الأسد على يده ، فألقاها وجعل ينكتُ على أسنان الأسد ويقول :

ألَا أيُّها الليثُ المُخِيلُ بنفسه ! * هَلَكْتَ ! لقد حَرَّتْ يداك لنا حُزْنا !

وغادَرْتَنى فَرْدا وقد كنتُ آلفا * وصَيَّرتَ بطنَ الأرض ثَمَّ لنا سِجْنا !

أقولُ لدَهْرٍ خانَنى بفِراقِه : * معاذَ إلٰهى أنْ أكونَ له خِدْنا !

ثم قال : ياأخا بنى عُذرة ، إنك سترانى بين يديك مَيِّتا ! فإذا متُّ فاعمِدْ إلىّ وٱبنة عمّى ، فأدرجنا فى كفن واحد ، وٱحفُرْ لنا جَدَثا واحدا ، وٱدفِنّا فيه . وٱكتب على قبرى هذين البيتين :

كُنّا على ظَهْرِها ، والعَيْشُ فى مَهَلٍ ! * والشَّمْلُ يجمَعُنا والدارُ والوطَنُ

ففَرَّقَ الدهرُ والتصريفُ أُلْفَتَنا * فصار يجمَعُنا فى بَطْنِها الكَفَنُ .

ورُدَّ الغنم إلى صاحبها وأعلمْه بقصتنا ، ثم عَمَد إلى خِناق فطرحه فى عنقه ، فناشدته الله تعالى أن لا يفعل ، فأبى وجعل يخنُق نفسه حتّى سقَط ميتا . فكفَّنتهما ودفنتهما فى قبر واحد ، وكتبت البيتين على قبرهما ، وردَدْتُ الغنم إلى صاحبها ، وأعلمته بقصتهما فحزِن حُزْنا شديدا أشفقتُ منه على نفسه .

ذكر شيء مما ورد فى التحذير من فِتنة النساء، وذَمّ الزنا، والنظرِ إلى المُرْدان، والتحذير من اللِّواط، وعقوبةِ اللّائط

❖

أما ما ورد من التحذير من فتنة النساء، فقد رُوِى عن أبى أُمامة بن يزيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما تَرَكْتُ فى الناسِ بَعْدِى فِتنةً أضَرَّ على الرجال من النِّساءِ".

(٧٣) وعن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ الدنيا حُلْوةٌ خَضِرةٌ، وإن الله عز وجل مُستَخْلِفُكُم فيها لِيَنْظُرَ كيف تَعْمَلُون. فاتَّقُوا الدنيا واتَّقُوا النساءَ، فإن أوّلَ فِتنةِ بنى إسرائيل كانتْ فى النِّساءِ".

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ على أمّتِى النساءُ والخَمْرة".

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لم يكن كُفْرُ مَنْ مضى إلّا من قِبَلِ النساء، وهو كائن، كُفْر من بَقِى من قِبَل النساء.

وعن حسان بن عطية، قال: ما أُتِيَتْ أمّةٌ قَطُّ إلا من قِبَل نِسائِهم.

وعن سعيد بن المسيب، قال: ما يَئِسَ الشيطانُ مِنَ ابنِ آدم قطُّ، إلا أتاه مِنْ قِبَل النِّساءِ.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال إبليسُ لربه عز وجل: يارَبِّ قد أُهْبِطَ آدمُ، وقد علمت أن سيكُونُ لهم كِتابٌ

ورسل. فما كتابهم ورسلهم؟ قال الله عز وجل: رسلهم الملائكة والنبيون منهم، وكتبهم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوشم، وقرآنك الشعر، ورسلك الكهنة. وطعامك مالم يذكر اسم الله عليه، وشرابك من كل مسكر. وصدقك الكذب، وبيتك الحمام. ومصايدك النساء، ومؤذنك المزمار، ومسجدك الأسواق".

٥

* *

ومن فتنة النساء، ما روى عن وهب بن منبه أن عابدا كان في بني إسرائيل، وكان من أعبد أهل زمانه. وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت. وكانت بكرا. فخرج البعث عليهم فلم يدروا عند من يخلفون أختهم. ولا من يأمنون عليها. فأجمعوا رأيهم على أن يخلفوها عند العابد. فأتوه وسألوه أن يخلفوها عنده. فأبى ذلك. فلم يزالوا به حتى قال: أنزلوها في بيت جوار صومعتي. فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها. فمكثت في جوار العابد زمانا ينزل إليها الطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة. ثم يغلق بابه ويصعد صومعته. ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ماوضع لها من الطعام. قال: فتلطف له الشيطان. فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عنده خروج الجارية من بيتها نهارا، ويخوفه ان يراها أحد فيعلقها. فلم يزل به حتى مشى بطعامها ووضعه عند باب بيتها، ولا يكلمها. فلبث بذلك زمانا. ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر، وقال له: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها. كان أعظم لأجرك. فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها. فلبث بذلك زمانا. ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه، وقال له: لو كنت تكلمها وتحدثها، فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، فلم يزل به حتى حدثها

١٠ ١٥ ٢٠

زمانا، يطلُعُ إليها من فوق صومعته. ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال له: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدّثها، وتقعد على باب بيتها فتحدّثك، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتّى أنزله فأجلسه على باب صومعته يحدّثها، وتخرُج الجارية من بيتها حتّى تقعُد على بابها. فلبثا زمانا يتحدّثان. ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير، فقال: لو خرجت من باب صومعتِك فجلستَ قريبا من بيتها فحدّثتَها، كان آنَسَ لها. فلم يزل به حتّى فعل. فلبثا بذلك زمانا. ثم جاءه إبليس فقال: لو دَنَوْتَ من باب بيتها، ثم قال: لو دخلت البيت فحدّثتها ولم تتركها تُبْرِز وجهها لأحدٍ، كان أحسنَ، فلم يزل به حتّى دخل البيت فجعل يحدّثها نهاره كله. فإذا أمسى صَعِد فى صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزيّنُها له حتّى ضرب العابدُ بيده على فخذها وقبّلها، ثم لم يزل يحسنها فى عينه ويُسوّل له حتّى وقع عليها فأحبلها، فولدت غلاما. فجاء إبليس، فقال له: أرأيت إن جاء إخوتُها، وقد ولَدَتْ منك كيف تَصْنَع؟ فاعمِدْ إلى آبنها فاذبحه وآدفِنْه، فإنها ستكْتُم ذلك عليك مخافَةَ إخوتها، فقتله. ثم جاءه، فقال: أتُراها تكتُم ماصنعتَ بها؟ خذها فآذبحها وآدفنها مع آبنها، فذبحها وألقاها فى الحُفْرة. فمكَثَ ما شاء الله حتّى قَفَل إخوتُها من الغزو. فجاءوه فسألُوه عن أختهم فنعاها لهم وترحّم عليها وبكاها، وقال: كانت خيْرَ آمراة، وهذا قبرها. فأتى إخوتُها القبْرَ فبكَوْها وترحّمُوا عليها، وأقاموا على قبرها أياما ثم آنصرفوا إلى أهاليهم. قال: فلما جنّهم الليلُ وأخذوا مضاجِعَهم، أتاهم الشيطانُ فى النوم فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم. فأخبره بقول العابد وبموتها. فكذّبه الشيطانُ، وقال: لم يَصْدُقْكُم أمرَ أُختكم. إنه أحبلها وولدتْ منه غلاما فذبحه، وذبحها معه فَرَقًا منكم، وألقاهما فى الحُفْرة خلفَ باب البيت. وأتى الأوسط فى منامه، فقال له مثلَ ذلك، ثم أتى أصغرهم، فقال له مثل

ذلك. فلما آستيقظ القوم، آستيقظوا متعجبين لما رآه كلُّ واحدٍ منهم. فأقبل بعضهم على بعض يقول: لقد رأيتُ عجَبا! وأخبر بعضهم بعضا بما رأى، فقال كبيرهم: هذا حُلُمٌ، ليس هذا بشيء، فامضُوا بنا ودَعُوا هذا، فقال أصغرهم: لا أَمْضِي حتَّى آتِيَ ذلك المكانَ فأنظُرَ فيه، فانطلقوا فبحثوا الموضع، فوجدوا أُختَهم وآبنَها مذبوحيْنِ. فسألوا عنها العابد، فصدّق قولَ إبليس فيما صنع بهما. فاستعدَوْا عليه ملِكَهم فأنْزِل من صومعته وقدّموه لِيَصْلُبوه. فلما أوثقوه على الخشبة، أتاه الشيطانُ، فقال له: قد علمتَ أني صاحبك الذي فتنتك في المرأة حتَّى أحبَلْتها وذبحتها وآبنَها، فإن أنت أطعتَني اليوم وكفَرْت بالله الذي خلقك، خلَّصْتك مما أنت فيه، فكَفَر العابدُ بالله. فلما كَفَر، خلَّى الشيطانُ بينه وبين أصحابه فصَلَبوه.

قال وهب: ففيه نزلت هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ آكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

نسأل الله العافية من فتنتهن، ونعوذ به من الشيطان الرجيم.

* * *

وأما ما جاء في ذم الزنا. فكفى به ذمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يَسْرِقُ السارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهُوَ مُؤْمِن، ولا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ" الحديث

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا أُمَّةَ محمد، ما أحَدٌ أغْيَرَ من الله أن يَرى عبْدَه أو أمتَهُ تَزْنِي".

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اشْتدَّ غضَبُ الله تعالى على الزُّناةِ" .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الإيمانَ سِرْبال يُسَرْبِلُه اللهُ مَنْ يَشَاء. فإذا زنى العبدُ، نُزِع منه سِرْبالُ الإيمانِ. فاذا تاب رُدَّ عليْه" .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما مِنْ ذنبٍ بعدَ الشِّرْكِ أعظَمَ عند الله من نُطْفةٍ وضَعَها رجلٌ فى رَحِمٍ لايَحِلُّ له" . ٥

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إيَّاكُمْ والزِّنا، فإنَّ فى الزنا ستَّ خِصَال، ثلاثٌ فى الدنيا، وثلاثٌ فى الآخرة : فأما اللواتى فى الدنيا، فذَهَاب نُور الوجْهِ، وانقطاعُ الرِّزْق، وسُرْعة الفَنَاء، وأما اللَّواتى فى الآخرة، فغَضَبُ الربِّ، وسُوءُ الحِسَاب، والخلُودُ فى النار، إلا أن يشاءَ الله تعالى" . ١٠

وعن عبد الله قال : قلت : يارسول الله أىُّ الذنب أعظَمُ؟ قال : "أن تجعَلَ لله نِدًّا، وهو خلَقَك!" قلت : ثم أىّ ؟ قال : "أن تَقْتُل ولَدَك من أجل أن يَطْعَمَ مَعَكَ" . قلت : ثم أىّ؟ قال : "أن تَزْنِى بحليلةِ جَارِكَ" .

والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة .

* * * ١٥

وأما ماجاء فى النهى عن النظر إلى المُرْدان ومجالستهم . روى عن أبى السائب انه قال : لَأَنَا على القارئ من الغُلام الأمْرِدِ أخوفُ منِّى عليه من سَبْعينَ عَذْراء. وفى لفظ عنه : لَأَنَا أخوف على عابد من غلامٍ أمردَ من سبعين عَذْراءَ .

وعن سعيد بن المسيب أنه قال : إذا رأيتم الرجلَ يُلِحُّ النظر إلى غلام أمرد، فاتَّهموه .

وكان سفيان الثوريّ رضى الله عنه لا يَدَع أمْرَدَ يجالسه .

وعن يعقوب بن سوال قال : كنا عند أبي نصر بشر بن الحارث. فوقفَتْ عليه جاريةٌ مارأينا أحسَنَ منها ، فقالت ياشيخُ : أين مكانُ باب حَرْب؟ فقال لها : هذا الباب الذى يقال له بابُ حَرْب. ثم جاء بعدها غلام فسأله ، فقال له ياشيخ : أين مكانُ باب حرب؟ فأطرق بشرٌ. فردّ عليه الغلامُ السؤالَ فغمَّض عينيه. فقلنا للغلام : أىَّ شيءٍ تريد؟ فقال : باب حرب. فقلنا : بين يديك. فلما غاب. قلنا يا أبا نَصْر. جاءتْك جاريةٌ فأجبتها وكلمتها، وجاءك غلام فلم تكلمه؟ فقال: نعم، يروى عن سفيان الثوريّ أنه قال: مع الجارية شيطانٌ، ومع الغلام شيطانان، فخشيت على نفسى من شيطانَيْه .

وعن أبي سعيد الخراز. قال: رأيت إبليس فى النوم، وهو يمرّ عَنِّى ناحية. فقلت : تعالَ، فقال: أىَّ شيء أعمل بكم؟ أنتم طَرَحتم عن نفوسكم ما أُخادعُ به الناسَ، قلت ماهو؟ قال : الدنيا، فلما ولَّى. ٱلتفت إلىّ فقال : غير أن لى فيكم لطيفةً، قلت: ماهى؟ قال : صحبةُ الأحداث .

وعن مظفر القِرْميسينيّ. قال: من صَحِب الأحداث على شَرْط السلامة والنصيحة، أدّاه ذلك إلى البلاء. فكيف من صَحِبهم على غير وجه السَّلامة ؟

وقد ذكر أبو الفرج فى كتابه المترجم "بذم الهوى" من ٱفتتن بالأحداث، وصرح بأسمائهم . فلم نُؤثر التعرض لذلك ، لما فيه من التشنيع عليهم والإذاعة لمساويهم .

* * *

وأما ماجاء فى التحذير من اللواط وما ورد فى سِحَاق النساء، روى عن ٱبن عباس رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَلْعونٌ ملعونٌ من عَمِل بعَمَلِ قومِ لُوطٍ" . وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لَعَن اللهُ من عَمِل عَمَلَ قومِ لوط" .

وعن جابر بن عبد الله، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنَّ أخوفَ ماأخافُ على أُمّتى عملُ قومِ لُوطٍ" . وفى لفظ آخر عنه صلى الله عليه وسلم : "إن أخْوفَ ما أخافُ على أُمّتى من بعدِى عمـلُ قَوْمِ لوط ، أَلَا فلْتَرْقُبْ أمتى العذابَ إذا كان الرجالُ بالرجال والنساءُ بالنساءِ" .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاينظُرُ الله إلى رجل أتى رجُلًا أو ٱمرأةً فى دُبُرِها" .

وعن عبد الله بن عمرَ رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم يَعْلُ فَخْذٌ فَخْذًا حتّى كان قومُ لوطٍ ، فإذا عَلَا الفحلُ الفحلَ ، ٱرتجّ أو ٱهتزّ عرش الرحمن عز وجل ، فاطّلعت الملائكة تعظيما لفعلهما ، فقالوا : يارب ، ألا تأمُرُ الأرضَ أن تَغُورَ بهما ، وتأمرُ السماءَ أن تَحْصِبَهما ، فيقول الله تعالى : إنّى حليم لا يفوتُنِى شىءٌ" .

وعن سماك بن حَرْب، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الرجلَ ليأتِى الرجلَ فتَضِجُّ الأرضُ من تحتهما ، والسماءُ من فوقهما ، والبيت والسقفُ ، كلهم يقولون : أىْ ربِّ ، ٱئذَنْ لنا بنطبِقْ بعضُنا على بعض فنجعلَهم نَكَالا ومُعتبَرًا ، فيقول الله عز وجل : إنهم وَسِعهُمْ حِلْمِى ولن يَفُوتُونِى .

وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول : لو أنَّ رجلا عَبَث بغلام بين إصبعين من أصابع رجليه يريد الشهوةَ، لكان لِوَاطا .

وروى عن مكحول عن واثلة بنِ الأسقع أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سِحَاقُ النساء زنًى بينهن" .

٥ ✦✦✦

وأما ماورد في عقوبة اللائط والمَلُوط به في الدنيا والآخرة :

أما عقوبة الدنيا، فقد جاء بها نصُّ القرآن في قصة قوم لوط، وشَرْح أفعالهم، وما عذبوا به في آي كثيرة .

وجاء في الأحاديث النبوية، على قائلها أفضل الصلاة والسلام، في عقوبة اللائط ١٠ والملوط به ما يدل على التغليظ والتشديد .

فمن ذلك ما رُوِي عن عكرمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيمن عَمِل عَمَلَ قومِ لوط : يُقْتَلُ الفاعلُ والمفعولُ به، وفي لفظ آخر عن ابن عباس عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم : اقْتُلُوا الفاعلَ والمفعولَ به، في عَمَل قوم لوط .

١٥ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ عَمِل بعمل قومِ لُوط فاقتُلُوه" .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ وَجَدْتُمُوه يعملُ عملَ قومِ لُوط ، فارْجُموا الأعْلى والأسفَلَ" .

وعن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه، أنه وجد رجلا فى بعض الأضاحى ينكح رجلا كما تنكح المرأة . فجمع أبو بكر رضى الله عنه لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . فيهم علىّ بن أبى طالب، وقال : إن هذا ذنب لم تعمل به أمة إلا أمة واحدة . ففعل الله بهم ما قد علمتم . أرى أن نُحَرِّقَه بالنار، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يُحَرَّق بالنار . فأمر به أبو بكر رضى الله عنه أن يُحَرَّق بالنار. وقد حرّقهم عبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك .

— وعن يزيد بن قيس أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه رَجَم لُوطِيًّا .

— وعن سعيد بن زيد قال : سئل عبدُ الله بنُ عباس رضى الله عنهما، ماحدُّ اللوطىّ؟ قال : ينظر أعلى بيت فى القرية فيرمى منكّسا ثم يُتْبَع بالحجارة .

وللتابعين ولأئمة العلماء فى ذلك أقوال :

فمنهم من رأى أن حدّه كحدّ الزنا، وفرق بين المُحصَن وغير المُحصن .

ومنهم من رأى أن حدّه القتلُ أحصَنَا، أولم يُحصِنا .

روى سفيان عن جابر عن الشعبىّ أنه قال : اللُّوطىّ يرجَم، أُحْصن أولم يُحْصِن .

وعن ابن أبى نجيح عن عطاء قال : حدُّ اللوطىّ حدُّ الزانى، وإن أُحْصن رُجِم، وإلا جلد . وبه قال الهيثم .

(٧٦) وعن قتادة عن الحسن أنه قال فى الرجل يخالط الرجل : إن كان أُحْصن، جُلد ورجم؛ وإن كان لم يُحْصِن، جلد ونُفى .

وعن مالك بن أنس عن الزهرى قال : يُرْجَم، أُحْصن أولم يُحصِنْ .

وعن الطيالسيّ قال : حدّثنا إسحاق الكَوْسَج ، قال : قلت لأحمد بن حنبل : أيرجم اللوطى ، أحْصَن أو لم يُحْصِن؟ قال : يرجم ، أحْصن أو لم يُحْصِن .

وقد روى عن أحمد بن حنبل أن حدّ اللوطىّ كحدّ الزانى ، يختلف بالثُّيوبة والبَكارة . وهو قول محمد عن الشافعىّ .

وقال الحكم : يُضرَب اللوطىّ دون الحَدّ . قال ابن الجوزىّ : وإلى هذا مال أبو حنيفة .

وأما مذهب ابن حزم الظاهرىّ فإنه لا يضرب فى اللّواط فوقَ عشرة أسواط .

وقال النخعىّ : لو كان أحد ينبغى أن يُرجم مرتين ، لكان ينبغى أن يرجم اللوطىّ مرتين .

وحكى أبو الفرج بن الجوزىّ ، قال : أخبرتنا شهدة بنت أحمد ، قالت : أخبرنا جعفر بن أحمد السراج ، قال : أخبرنا عبد العزيز بن علىّ ، قال : أخبرنا علىّ بن جعفر الصوفى ، قال : سمعت الموازينى يقول : قال لى رجل من الحاج : مررت بدار قوم لوط ، وأخذتُ حجرا مما رُجِمُوا به ، فطرحته فى مخلاة ، ودخلت مصر . فنزلت فى بعض الدور فى الطبقة الوسطى . وكان فى سُفْل الدار حَدَثٌ ، فأخرجت الحجر من خُرْجى ، ووضعته فى رَوْزنة فى البيت . فدعا الحدث الذى كان فى البيت صبيا إلى عنده واجتمع معه ، فسقط الحجر على الحَدَث من الروزنة ، فقتله .

وقال أيضا : أخبرتنا شهدة ، قالت : أخبرنا جعفر بن أحمد ، قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن عثمان بن مكىّ ، قال : أخبرنى جدّى أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد ، قال : أخبرنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشا المقرى ، قال : سمعت أبا عبد الله

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم يقول : سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول : خرجتُ حاجًّا إلى مكة . فلما كانت ليلةُ عرفاتَ، رأى الإمامُ الذى حَجَّ بنا تلك الليلةَ منامًا . فلما صِرْنا إلى مكةَ بعد انقضاء الحج، سمعنا مناديا ينادى فوق الحجر : أنصتوا يامعشر الحجيج ، فأنصتَ الخلقُ، فقال : يامعشر الحجيج، إن إمامكم رأى أن الله عز وجل قد غفر لكل من وافى البيتَ العامَ إلا رجلًا واحدا فإنه فَسَق بغلام . ٥

***

وأما عقوبته فى الآخرة، فقد رُوِى عن أبى سلمة عن أبى هريرة وعبد الله ابن عباس رضى الله عنهم ، قالا : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فى خطبته : "مَن نَكَح امرأةً فى دُبُرِها أو غُلامًا أو رَجُلا، حُشِر يوم القيامةِ أنْتَنَ من الجيفة، يتأذى به الناسُ حتّى يُدْخِلَه الله نارَ جهنم. ويُحبطُ الله عملَه، ولا يقبلُ ١٠ منه صَرْفا ولا عَدْلا . ويُجعلُ فى تابوتٍ من نار، ويُسَمَّر عليه بمسامير من حديد من نار، فتشتبك تلك المسامير فى وجهه وفى جَسَده" . قال أبو هريرة : وهذا لمن لم يَتُبْ .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سبعةٌ لاينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامة ولا يُزَكِّيهم ولا يجمَعُهم مع العالمين، يَدْخُلونَ ١٥ النارَ أوّلَ الداخلين إلا أن يَتوبُوا، فمن تاب، تاب الله تعالى عليه : الناكح يَدَه، والفاعلُ والمفعولُ به، ومُدْمنُ خمرٍ، والضاربُ أبويْهِ حتّى يستغيثا، والمؤذِى جيرانَهُ حتّى يلعنوه، والناكِحُ حليلةَ جاره" .

وعن إبراهيم بن علقمة عن عبد الله، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللُّوطِيَّان لو اغتَسلا بماء البحر، لم يَجْزهما إلا أن يَتُوبا" . ٢٠

وعن أنس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ مات من أُمَّتِى يعمَلُ عملَ قومِ لُوط، نقلَهُ الله إليهم حتَّى يُحشَر معَهم".

قلتُ: وقد بلغنى من كثير من الناس أن رجلين مشَيَا على جانب البِرْكة المعروفة ببِرْكة قوم لُوط، وهى فى غَوْر الكرك على جانبها ضِياعٌ، منها الصافية واللاخية وسويمة وغيرها، وتعرف هـذه البركة أيضا بالمنتنة، ويقال إنها إحدى المدائن التى خُسِف بها (من مدائن قوم لوط). فجعلا يتباسطان. فكان مَن جملة ما قالاه أو قاله أحدهما للآخر فلم ينكره: هـذه بركة أصحابِنا، فطلعت من البركة مَوجة آختطفَتْهما معـا، وألقتهما فى البركة. فكان آخرَ العهد بهما.

وهذه الحكاية يتداولها أهل تلك البلاد. لاينكرها سامع منهم على قائل. ولا يبعُد أن يُعاقَب مَن تجاهر بمعاصى الله وآنتسب لمن كفر بالله وعصاه وكذَّب رسولَه أن يعاقبه الله بمـا عاقبهم به ويلحقه بهم. وفى بعض هذا عبرة لمن آعتبر.

ولنرجع إلى سياق ماجاء فى ذلك من الأحاديث والأخبار.

روى أبو الفرج عبـد الرحمن بن الجوزىّ بسـنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنـه أنه قال: سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول: "مَنْ قَبَّل غُلامًا بشهوة، عَذَّبه الله فى النار ألْفَ سنةٍ، ومن جامعه لم يَجِدْ رائحةَ الجنةِ، وريحُها يُوجدُ من مَسيرةِ خمسمائة عام، إلا أن يَتُوبَ".

وعن خالد عن إسمعيل بن كَثِير عن مجاهد، قال: لو أن الذى يعمل ذلك العملَ (يعنى عمل قوم لوط) آغتسل بكل قَطْرة فى السماء وكلِّ قطرة فى الأرضِ، لم يزل نجسا.

وعن عَبَّاد بن الوليد العنبرىّ قال : سمعت إبراهيم بن شَمَّاس يقول : سمعت الفُضَيل بن عياض يقول : لوأنَّ لُوطِيًّا ٱغتسل بكل قَطْرة من السماء، لَقِىَ الله تعالى غير طاهر .

وعن طلحة بن زيد عن بُرد بن سنان عن أبى المنيب عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما، قال : يُحشَر اللوطيون يوم القيامة فى صورة القِرَدة والخنازير . ٥

وعن أبى الصهباء عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم قال: مَن خرج من الدنيا على حالٍ، خرج من قَبْره على تلك الحال، حتَّى إن اللوطىّ يخرج يعلق ذكره على دبر صاحبه مفتضحين على رءوس الخلائق يوم القيامة .

هذا ما أمكن إيراده فى هذا الفصل على سبيل الٱختصار والإيجاز، وإلا فالأخبار فى العشق وتوابعه ومايتولد عنه كثيرة جدًّا، ووقفنا منها على كثير، ولا يحتمل أن ١٠ يُورد فى الكتب الشاملة لفنون مختلفة أكثرُ مما أوردناه. فلنذكر الآن نبذة مما قيل فى الغزل والنسيب .

ذكر نبذة مما قيل فى الغَزَل والنسيب

هذا الباب — أكرمك الله وعافاك، ووقاك من فتنه وكفاك — بابٌ متسع، قد أكثر الشعراء القول فيه، وتنوعوا فى أساليبه ومعانيه؛ لو ٱستقصيناه لطال به ١٥ هذا التصنيف، وٱنبسط هذا التأليف؛ وكان بمفرده كُتُبا مبسوطة وأسفارا كبيرة، فلخصنا منه دررا نفيسة وأعلاقا خطيرة؛ وٱقتصرنا منه على ما رَقَّ معناه وراق، وحَسُن لفظه وشاق؛ وٱرتاحت إليه النفوس، وتحلت به الطروس؛ ولَمَحَته النواظر، وٱنجذبت إليه الخواطر . وقد تنوع الشعراء فى الغَزَل : فتغزَّلوا فى المحبوب باسمه،

وكَنَوْا عنه واستعاروا له ، ووصفُوا أعضاءه وشبهوها بأشياء ، فشبهوا العيون بالنَّرجس ، وأفعالَها بالخمر والسِّهام ، وشبَّهوا الحواجب بالقِسِيّ ، والجبين بالصَّباح ، والشُّعور بالليالى ، والسَّوالف بالغَوالى والصوالج والعقارب ، وشبهوا الوجه بالشمس والقمر ، وشبهوا الخدود بالورد والتُّفاح ، وشبهوا الثُّغور بالأُقْحُوان ، واللمى بالخَمْر ، والريق بالشَّهد ، والشَّفاهَ بالعقيق ، والأسنان باللُّؤلؤ ، وشبهوا النُّهود بالرُّمَّان ، والقَوَام بالغُصون ، والأرداف بالكُثْبان . وغير ذلك . وقد تقدم إيراد ذلك كله مستوفًى في موضعه ، وهو في الباب الذى قبل هذا الباب .

وتغزلوا أيضا في أصناف الفواكه المأكولة والمشمومة ، وتغزلوا في الرياض والأزهار .

وسنورد إن شاء الله ذلك في موضعه ، وهو في القسم الثانى والثالث والرابع من الفن الرابع من كتابنا هذا ، في السفر العاشر من هذه النسخة .

فلنورد الآن ها هنا من باب الغزل والنسيب خلافَ ما قدّمنا ذكره مما ذكرناه وما نذكره إن شاء الله تعالى .

والذى نورده في هذا الباب نبذة مما قيل في المذكَّر ، والمؤنَّث ، والمطْلق ، والمشترَك ، وطَيْف الخيال ، والرد على العَذْول ، ورُجُوع العذول ، والوِصال ، والفراق ، والبَيْن ، والتوديع ، والصدّ ، والهِجْران ، وما قيل في الزيارة وتخفيفها ، وموانعها ، والمدامع ، والرضا من المحبوب باليسير ، والنُّحول ، وما قيل في المحبوب إذا اعتلّ ، وما قيل على لسان الورقاء ، والمراجعات ، والمردوف ، والجناس ، والموشَّحات .

فما قيل فى المذكر

قال العماد الأصفهانى الكاتب :

وأحْوَرَ يَسْبِي بِطَرْف يكِلّ * وتَخْجَلُ منه الظُّبا والظِّباءْ.
بخدَّيْه من حُسْنِه والشبابْ * تَجمَّعَ ضِدَّان : نارٌ وماءْ.
وفى مُقْلتيــه وقد صَحَّتا * كما صَحَّتا سَقَمٌ وانتشاءْ. ٥
عَفَفْت وعِفْت الحَيَا فى هوا * ه حتَّى استوى صَدُّه واللِّقاءْ.
وكلُّ حيــاءٍ يَذُود العَفَا * فَ عن وُدِّه، فعليه العَفَاءْ! (١٨)

وقال آخر :

وكأنَّ بهجةَ وجهِهِ فى شَعره * قمرٌ بَدَا فى لَيْلةٍ لَيْلاءِ.
وكأن عَقْربَ صُدْغه فى خَده * وقفَتْ مخافَةَ نارِه والماءِ. ١٠
قمرٌ رجوتُ من الزمان وِصالَهُ * يومًا، فأخلَفَ بالصُّدُود رَجَائى!

وقال عبد الجليل بن وهبون :

وافَتْ به غَفلةُ الرَّقيبِ * والنجمُ قد مالَ للغُرُوب ،
نَشْوانَ قد هَزَّت الحُمَيَّا * منه قَضِيباً على كَثِيبِ !
يَعْثُرُ فى ذيله فيَحْكى * عَثْرَةَ عينيه فى القُلُوبِ ! ١٥
واللهِ لو نالَتِ الثُّرَيَّا * ما نال من بَهْجةٍ وطِيبِ ،
دَنَا إليهـا الهلال حتَّى * قَبَّل فى كَفِّها الخَضيب !

وقال ابن حجاج :

ومُدَلَّلٍ! أما القضيبُ فقَدُّه * شَكْلا وأمَّا رِدفُه فكَثِيبُ!
يَمْشِى وقد فَعَلَ الصِّبا بقَوامِه * فعْلَ الصَّبا بالغُصْنِ، وهو رَطيبُ. ٢٠

مُتلوِّنٌ يُبدى ويُخفِي شخصَه * كالبدر يطلُع تارةً ويغيبُ.
أرمِي مَقاتِلَه فتُخطِئُ أسهُمِي * غرضِي، ويرمِي مُهْجَتِي فيُصيبُ!
نفسي فِداؤُك! إنَّ نَفسِي لم تَزَلْ * يَحلُو فِداؤُكَ عندها ويَطيبُ!
مالِي ومالَكَ لا أراك تَزُورُنِي * إلا ودُونَكَ كاشِحٌ ورقِيبُ!

٥ وقال أبو نُوَاس :

شَبِيهٌ بالقَضِيبِ وبالكثِيبِ! * غريبُ الحسنِ ذُو دَلٍّ غَرِيبِ!
بعيدٌ. إن نظرْتَ إليه يومًا، * رجعْتَ وأنتَ ذُو أجلٍ قَرِيبِ!
تَرى للصَّمْتِ والحَركات فيه * سُوَاما لا يُذَادُ عن القُلوبِ.
ويمتحنُ القلوبَ بمقلتَيْه، * فينكشفُ البرىء من المُرِيب!

١٠ وقال الوأواء الدمشقيّ :

بَدْرٌ تَقَنَّع بالظَّلا * م على قَضِيب فى كَثِيبِ!
تَدْعُو محاسِنُه القلو * بَ إلى مُشافَهة الذُّنوبِ.
فعلَتْ به ريحُ الصَّبا * ماليس تَفْعل بالقَضِيبِ.
عُقِلتْ ركائبُ حُسْنِه * بعقُولنا عند المَغِيبِ.
١٥ وتلطَّمتْ وجَناتُنا * بيد الدُّموع من النَّحِيبِ!

وقال الأمير تاج الملوك ابن أيوب :

سَلَب الفؤادَ فلا عَدِمْتُ السالبا! * وَرنًا، فكان اللحظُ سَهْما صائبا!
قمرٌ مَشَارقُه الجيوبُ، فلا تَرى * أبدًا له إلا القُلوبَ مَغارِبا!
ملَكَ الفؤادَ بمقلتين وحاجِبٍ * أمسى لحُسْن الصبر عَنِّى حاجِبا.
٢٠ وحكى القضيبَ شمائلا عَبِثَتْ به * أيدى النَّسيم شمائلا وجَنائبا!

وقال أيضا :

يا أيها البدرُ الذى * مَطْلَعُهُ طَوْقُ القَبَا!
يا جَنَّةَ القلب الذى * أضرَمَ فيه لَهَبَا!
فَدَّيتُ هذا الوجهَ، ما * أحْسَنَه وأعجبا!
لم تَرَ عينى قَبْله * صُبْحا تردَّى غَيْهبا! ٥

وقال أبو نُوَاس :

يا بِدْعةً فى مِثَالٍ * يجُوزُ حدَّ الصِّفات!
فالوجهُ بدرُ تَمامٍ * بعَيْنِ ظَبْيِ فَلاةِ!
والقَدّ قدُّ غُلامٍ * والغَنْج غَنْج فَتاة!
مذكَّر حين يبدُو، * مؤنَّثُ الحَلَوات! ١٠
زَهَا عَلَىَّ بصُدْغٍ * مُزَرْفَن الحَلَقات.
مِنْ فوق خَدٍّ أسِيلٍ * يُضِىءُ فى الظُّلُمات!

وقال كُشاجم :

مُعْتَدِلٌ من كُلِّ أعطافه! * مُسْتحسَنُ الإقبال والمُلْتَفَتْ!
لو قيستِ الدُّنْيا ولَذَّاتُها * بساعةٍ من وصله، ماوفَتْ! ١٥
سُلِّطت الألحاظُ منه على * قلبى، فلو أوْدَتْ به ما آشتَفَتْ!
وآستعذَبَتْ رُوحِى هواه فما * تسلُو ولا تَصْحُو، ولو أُتْلِفَتْ!

وقال فضل الرَّقَاشىّ :

وشاطرٍ فاتكِ الشَّمائلِ قَدْ * خالَطَ منه المُجونُ تَخْنيثا.
تراه طَوْرا مذَكَّرا، فإذا * عاقَرَ راحا، رأيتَ تأْنيثا. ٢٠

أَلْثَغُ إن قلت يافديتك : قُلْ * مُوسى، يقُلْ من رُطوبة : مُوثَا.
ما زال حتّى الصباح معتنِقِ * مُطارحِى فى الدُّجى الأحادِيثا.

وقال كُشاجم :

بليتُ بوجْدَيْنِ[1] وجْدِى بظَبْيٍ * يَصُدّ، وما به إلا لجَاجُ.
وعذَّبنِي قضيبٌ فى كَثِيبٍ * تَساوى فيه لِينٌ وانْدِماجُ.
أغارُ إذا دَنَتْ مِنْ فيه كأسٌ * على دُرٍّ يقبِّلُه زُجَاجُ.

وقال أيضا :

يالَقَوْمِى! مَنْ لمُكْتَئِبٍ * دمْعُه فى الخدِّ مُنْسَفِحُ؟
لامَهُ العُذَّال فى رَشَإٍ * عُذْرُه من مِثْلِهِ يَضِحُ.
وادَّعَوْا نُصْحِى! وأخْوَنُ ما * كان عُذَّالى إذا نَصَحُوا!
خوّفُونِى من فَضيحَتِه، * لَيْتَه وافى وأفتَضِحُ!
كَيْفَ يسْلُو القَلْبُ عن غُصُنٍ، * عَلَّه من مائه المَرِح؟
ذهَبِيُّ الحُسْنِ تحسَبُ من * وجنَتَيْه النارَ تقْتَدِحُ!
وكأنَّ الشمسَ نِيطَ لها * قمرٌ، يُمناه والقَدَحُ.
صَدّ أنْ ما زَحْته غَضَبا! * ماعلى الأحباب إن مَزَحُوا؟
وهو لا يدرى لنَخْوتِه * أننا فى النَّوْم نَصْطَلِحُ!
ثُمَّ لا أنسى مقالَتَه : * أطُفَيْلِىٌّ ومقْتَرِح؟

(١) كذا فى الأصول، وهو مخالف للوزن الشعرى، والذى فى ديوان كشاجم المطبوع :
* بليت ولَجَّ بى وجد بظبي * الابيات.

وقال تاج الملوك ابن أيوب :

فَدَيْتُ وجهَ الحبيبِ بَدْرا ! * والبَدْرُ يُفْدى ، وليس يَفْدى !
مَبى فُؤادِى بلَيْلِ شَعرٍ * وصُبْحِ وجهٍ وغُصْنِ قَدّ .
فى فَمِهِ عَنْبَرٌ مُدَافٌ * فى قَهْوةٍ خُولِطَتْ بشَهْدِ .
كأنَّما خَدُّه شقيقٌ ، * نُقِّط مِنْ خالِه بنَدّ . ٥
ظَبْيٌ من التُّرك ذُو دَلَال * يَستَحْسِنُ الجورَ والتَعَدّى .
كأنَّهُ غُصْنُ خيزُرانٍ ، * إذا انْثَنى أو قَضِيبُ رَنْد .
يَحُلُّ فى الحُبِّ عَقْد صَبْرِى * إن شَدَّ فى الخَصْر عقْد بَنْد !

وقال أبو نُوَاس :

أيا مَنْ يُحِبّ علَىّ اجترى ؟ * ومَنْ بلسانى علىّ افترى ؟ ١٠
ومَنْ بيَدى غَلَّنِى للهوى ، * فأصبَحْتُ للحُبّ مستأسِرا ؟
أمَا والذى جَعل المُسْتَهام * صَدِيقَ السُّهادِ عَدُوّ الكَرَى !
لقد ذهبَتْ مُهْجتِى باطلًا ، * لئن متُّ منك على ما أرى !

وقال آخر :

ومُهَفهفٍ طاوِى الحَشَا * خَنِثِ المَعَاطِف والنظَرْ ! ١٥
مَلَأ القلوب بصُورةٍ * تُلِيَت مَحاسِنُها سُوَرْ !
فإذا رَنَا وإذا شَدَا * وإذا سقى وإذا سَفَرْ :
فَضَح الغَزالَة والحَمَامة والمُدامةَ والقَمَرْ !

وقال آخر :

إذا أكْثَرَ الواشُونَ فينا مَقَالَهُمْ * وليس لهمْ عندى وعندَك من ثار ، ٢٠

وشَنُّوا على أسماعِنا كُلَّ غارةٍ * وقَلَّتْ حُماتِي عِندَذاكَ وأنصارِي،
لَقِيناهُمُ من مُقْلَتَيْكَ وأدمُعِي * وأنفاسِنا بالسَّيفِ والسَّيْلِ والنار.

وقال آخر، من شعراء اليتيمة :

وأغَنَّ أغيدَ حُبُّه * مستأنس لِي، وَهْو نافِرْ!
إنْ قُلتُ : زُرْنِي! قال : نَعَمْ، * فالطَّيْفُ ليس يَزُور ساهِرْ!
كيفَ السبيلُ إلى الرُّقا * دِ كما رَسَمْتَ، وأنت هاجِرْ؟
ويقولُ لى فيما يقو * لُ : نَعَمْ! وما للقَوْل آخِرْ!
حتَّى أُشاوِرَ! قلت : لكِنِّى هوِيتُ ولم أُشاوِرْ!

وقال تاج الملوك :

يا قمرًا أقبلَ يَسْعى على * دعْصٍ من الأغصان مَهْزُوز!
وصْلُك، واويلى! على طِيبِه * أصبَحَ ذا مَنْع وتَعْزِيز.
ما كانَ إلا بَيْضةَ الدِّيك لى * أو مَطْرةً فى شهر تَمُّوز.

وقال أبو نُوَاس :

عَذَّبَنِى قلبِي بمَنْ قَلْبُه * للصَّبِّ مثلُ الحَجَر القاسِى.
أحْورَ فَتَّانٍ قَطُوفِ الخُطَا * أغْيَدَ مثل الغُصْنِ مَيَّاسِ.
أبِيتُ لَيْلِي ونَهارِى معًا * مُعَلَّقًا منه بوسْوَاس.
إنِّى وإنْ لم يَكُ لِى نائلٌ * مِنْه لَأَرْجُوه على يَأس.

وقال سيف الدين المشدّ :

إلى قَدِّكَ اللَّدْنِ يُعْزى الهَيَف! * فما هبَّتِ الرِّيحُ إلا انْعطف!
قَوامٌ أرادَ قَضيبُ النَّقا * يُحاكيه، لَمَّا انْثنى، فانقصَف!

فيارَامِيًا قد رَمانِى هَواهُ * بنار الأسى فى بحار الأسَفْ!
سِهَامُ جُفونِك قَلْبِى غَدَا * لها غَرَضًا، وضُلُوعى هَدَفْ.
وأوردْتَنِى فى الهَوى مَوْرِدًا * تجرّعْتُ فيه مَرِيرَ التَّلَفْ.
وأعرضْتَ عنّى، ولاذَنْبَ لِى! * فكَمْ ذا الدّلال! وكَمْ ذَا الصَّلَفْ! (٨٠)
ومُخْطَفُ خَصْرٍ على رِدْفه، * فكلُّ فُؤادٍ به مختَطَفْ! ٥

وقال أبو القاسم العطار :

وبِى غَزالٌ، إذا صادَفْت غِرَّتَهُ * جنَيْتُ من وجْنَتَيْهِ رَوضةً أُنُفَا!
كالبَدْر مكتَمِلا، كالظَّبْى ملتَفتا، * كالروض مُبْتَسِما، كالغُصن مُنْعطفا!

وقال تاج الملوك :

ياقمرًا فى غُصُنٍ من بانَةٍ، * يَميلُ عُجْبا فى كَثِيبٍ من نقا! ١٠
أصبَح قَلْبُ المُستهامِ مَغْرِبا * له، وأطْواقُ القَبَاءِ مَشْرِقا!
أغيَدُ، لا يَقْصد إلّا تلفِى! * ولم يَزَلْ قلبِى به مُعَلَّقا.
ذَكَّرنِى حسنُ ابتسامٍ ثَغْرِه الـ * ـواضِحِ لَمْعَ البَرْقِ إذ تَأَلَّقا.
وطالَمَا ذكَّرنِى رُضابُه الـ * ـباردُ صِرْفَ الراح إذ تَعَتَّقا.
أغنّ، مافَوْقَ سَهْمِ لَحْظِه * إلا أصاب القَلْبَ لمّا فَوَقا. ٥
حاجِبُه قوسٌ ولَحْظُ عينِه * سهمٌ، فما يُخْطِى إذا مارَشَقا.

وقال أبو نُوَاس .

جلَا ماءُ الشَّباب فى خَدَّيْكا، * وتَلألَا البَهاءُ فى عارِضَيْكا.
ورمى طَرْفُك المُكَحَّلُ بالسِّحْـ * ـرِ فؤادى فصار رَهْنا لَدَيْكا.

أنا مستهتر بحبك صب * لستُ أشكو هواك إلا إليكا.
يا بديعَ الجمالِ والحسن والدلّ، حياتي وميتتي في يديكا،
بأبي أنتَ! لو بليتَ بوجدي * لم يهن ما لقيتُ منك عليكا!
أصبحتْ بالهوى سهامُ المنايا * قاصداتٍ إليَّ من عينيكا!

وقال أيضا :

يا مَنْ جداه قليلُ * ومَنْ بلاه طويلُ!
ومَنْ دعاني إليه * طَرْفٌ أحمُّ كحيلُ،
وواضحُ النبتِ يحكي * مزاجَهُ الزنجبيلُ،
ووجنةٌ جائلٌ ما * ؤُها وخدٌّ أسيلُ.
وغُصْنُ بانٍ تثنّى * قدّا، وردفٌ ثقيلُ،
ويجمع الحسنَ فيه * وجهٌ وسيمٌ جميلُ!
فكلُّ ناحيةٍ من * قلبي إليه تميلُ!

وقال الوأواء الدمشقي :

رماهُ ريمٌ فأصا * بَ القلبَ منه، إذ رمى.
واحتجَّ في قتلته * بأنه ما علما.
يا معشرَ الناسِ! أما * يُنصفُني مَنْ ظلما؟
علّم سُقْمُ طرفه * جسمي منه سقما.
فسُقْمُ جسمي في الهوى * من طرفه تعلما.
لو قيلَ لي: ما تشتهي؟ * مخيّرًا محكّما.
لقلتُ أنْ ألثمَه: * نحرا ووجها وفما!

وقال الوزير أبو مروان عبد الملك بن جَهْوَر :

أحْوى النواظِرِ، ألْعَسُ الشَّفتين، عذْبُ الرِّيقِ، ألْمَى !
لو زارَنِى طَيْـــفٌ له * عِنْد الهُجُوع ولو ألَمَّا،
لأفادَ رُوحا أو لفـــرَّجَ من هُمُوم النفس هَمَّـا !

وقال آخر :

وأهيفَ، مهزوزِ القَوَامِ إذا آنثنَى * وهبْتُ لعُـذْرى فيه ذَنْبَ اللَّوائم.
بثغرٍ كما يبدُو لك الصُّبْحُ باسِمٍ، * وشعرٍ كما يبدُو لك الليـلُ فاحِمِ.
مَليحِ الرضا والسُّخْط، تلقاه عاتبًا * بألفـاظِ مظـلومٍ وألحـاظِ ظالِمِ.
ومما شَجَـانى أنَّنِى يومَ بَيْنِهِـمْ * شكوتُ الذى ألقى إلى غير راحِمِ.
وحَمَّلتُ أثقالَ الجَوى غيرَ حامِلٍ * وأودعتُ أسرارَ الهوى غيرَ كاتِمِ.
وأبرحُ مالاقَيْتُـــه أنَّ مُتْلِفى * بمـا حَلَّ بِى فى حُبِّـه، غيرُ عالِمِ.
ولو كنتُ مذ بانُوا سهِرْتُ لساهِرٍ * لهانَ، ولكِنِّى سَهِرْتُ لنـائِمِ.

وقال أبو نُوَاس :

يا رِيمُ هات الدَّواةَ والقَلَمَا * أكْتُبُ شَوْقِى إلى الَّذِى ظَلَمَا !
غَضْبانُ قد غَرَّنى رضَاه ولَوْ * يُسْئَلُ ممَّـا غضِبْتَ، ما عَلِما.
فليْسَ ينفَكُّ منـه عاشِـقُهُ * فى جَمْعِ عُذْرٍ لغَيْرِ ما آجترَمَا.
أظَـلُّ يَقظانَ فى تَذَكُّره * حتَّى إذَا نِمْتُ، كان لى حُلُمَا.
لو نَظَـــرَتْ عينُه إلى حَجَرٍ، * ولَّد فيـــه فُتُـــورُها سَقَما !

وقال سيف الدين المشدّ :

وبِى رَشِيقُ القَوامِ لَدْنٌ * لِقَـــدِّه يُنْسَب الرُّدَيْنِى !

ما نظرته العيونُ إلّا * فدته من نظرةٍ وعينِ!
قابَلَ بالكأس وجنتيه، * فخُفَّ نجمٌ بنيّرينِ.
وزيّنتْ كفُّه الحُميّا! * ما أحسنَ التبرَ في اللجينِ!

وقال كُشاجِم:

٩ بالله يا مُتفرّدًا في حُسنِه * ومقلّبًا هاروتَ بين محاجرِه! (٨١)
ومُحكّمًا أردافَه في خصرِه، * ومُصافحًا خلخالَه بضفائرِه!
لا تغضبنّ على فتًى يرضى بما * أوليتَه، ولو انتعلتَ بناظرِه.
ويُكاتمُ الأسرارَ حتّى إنه * ليصونُها عن أن تمرَّ بخاطرِه.

وقال أبو تمام الطائي:

١٠ لهَا، وأعارني ولهَا! * وأبصرَ ذلّتي فعزَها!
له وجهٌ بعزّه، * ولي حُرَق أذلُّ بها!
دقيقُ محاسنٍ، وصلتْ * محاسنُ وجنتيه بها.
ألاحظُ حسنَ وجنته، * فتجرحُني وأجرحُها.

وقال أيضا:

١٥ نشرتُ فيك رسيسًا كنتُ أطويه! * وأظهرتْ لوعتي ما كنتُ أخفيه!
إن كان وجهُك لي تترى محاسنُه، * فإنّ فعلَك لي تترى مساويه!
مُرتجّةٌ في تهاديه أسافلُه، * مهتزّةٌ في تثنّيه أعاليه!
تاهتْ على صُوَر الأشياءِ صورتُه * حتّى إذا كملتْ، تاهتْ على التيهِ!

وقال المخزومىّ :

أىّ مُحِبٍّ فيك لم أحكِهِ ؟ * وأىّ لَيْـلٍ فيك لم أبكِهِ؟
إنْ كان لا يُرْضِيك إلا دَمِى، * فقَدْ أذِنّا لك فى سَـفْكِهِ!

وقال أبو نُوَاس :

يا قابِرِى بَمَـلالِهْ * ودامِرِى بِمَطَـالِهْ! ٥
ويا مُبَـدِّلَ لَيْـلِى * قِصارِه بِطِـوَالِهْ!
أعوذُ مِنْـك بوَجْـهٍ * بدْرُ الدُّجى فى مِثالِهْ!
لكنّه مِنْـه أحلى * لحُسنِ موضعِ خالِهْ.
هَلّا رَحِمْتَ صَرِيعًـا * تحتَ الرّدى وطِلالِهْ؟
مَنْ لا يُرى منه فوق الـ * ـفراش غيرُ خَيَـالِهْ. ١٠
مثلَ الخلال نَحِيـلًا * يَخْفى على عُـذّالِهْ.
فَمَنْ بَغى لكَ سُـوءًا، * فكان فى مِثْل حالِهْ!

وقال محمد بن عبد الله السلامىّ، شاعر اليتيمة :

ومُخْتَصِرِ الخَصْرِ، من بُعْدِهِ * هَرَبْتُ فأُلْقِيتُ فى صَدِّهِ!
وقابَلَنِى وَجْهُـه مُقْبِـلا * بحَـدِّ الحُسَـامِ وإفرِنْدِه. ١٥
فما زِلْتُ أعْصِرُ من خَمْرِه * وأقْطِفُ من مُجْتَنى وَرْدِهِ.
وأَظْمَا فأرْشُفُ من رِيقِهِ! * فيا حَرَّ صَـدْرِى من بَرْدِه!

وقال أبو هلال العسكرىّ :

أقولُ لمّا لاحَ مِنْ خِدْرِه، * واللّيلُ يُزْجِى الفَضْلَ من سِتْرِهِ:
أبدْرُهُ أحسَنُ من وَجْهِـه، * أم وجْهُـه أحسَنُ من بَدْرِه؟ ٢٠

قد مالَتِ الرِّقَّةُ في شَطْرِه، * ومالَتِ الغِلْظَةُ في شَطْرِه.
فأَزْرُهُ غَصَّتْ بأَرْدافِه، * ووُشْحُه جالَتْ على خَصْرِه.
أصبَحْتُ لا أدْرِي ـ وإنْ لم يَكُنْ * في الأرض شَيءٌ أنا لم أدْرِه ـ
أشَعْرُه أحسَنُ من قَدِّه؟ * أم قَدُّه أحسنُ من شَعْرِه؟
ودُرُّه يؤخَذُ من لَفْظِه، * أم لَفْظُه يُؤخَذُ من دُرِّه؟
وثَغْرُه ينظِمُ من عِقْدِه، * أم عِقْدُه ينظِمُ من ثَغْرِه؟
فَمَنْ عَذِيرُ الصَّبِّ من صَدِّه؟ * ومَن مُجِيرُ القَلْبِ من هَجْرِه؟
يا لَيْتَهُ يَعْرِفُ حُبِّي له! * عَسَاه يَجْزِيني على قَدْرِه!

وقال تاج الملوك بن أيوب:

يا هِلالًا لاحَ في غُصْنٍ، * تُشْرِقُ الدُّنْيا بطَلْعَتِه!
وغزالًا طالَمَا خضع * الأَسَدُ الضارِي لهيبَتِه!
ما رَنَا إلَّا وجَرَّد لِي * صارِمًا من لَحْظِ مُقْلَتِه.
صلْ عَلِيلًا، أنتَ أعْلَمُ من * كلِّ مَخْلوقٍ بعِلَّتِه.
قد أطالَتْ مُقْلَتاكَ بِلا * سبَبٍ تَعْذِيبَ مُهْجَتِه.
كُلَّمَا لَجَّتْ عَوَاذِلُهُ * أجَّجَتْ نِيرانَ لَوْعَتِه.
فاتَّئِدْ من طُولِ عَذْلِكَ لي، * يا عَذُولِي في مَحَبَّتِه!
من بَنِي الأتْرَاكِ مُعْتَدِلٌ، * قد تَمادَى في قَطِيعَتِه.
ليس يَشْفِي القَلْبَ من ظَمَإٍ * غيرُ رَشْفِي راحَ رِيقَتِه!
لا، ولا يُطْفِي لَظَى كَبِدِي * غيرُ تَقْبِيلِي لوَجْنَتِه!
لَيْتَ أن الدَّهْرَ مَكَّنَنِي * بيَدِي من حَلِّ تِكَّتِه!

وقال آخر :

ومُهَفْهَفٍ! عنّى يَميلُ ولم يَمِلْ * يومًا إلىّ، فقُلْتُ من ألَمِ الجَوى :
لِمَ لا تَميلُ إلىّ، ياغُصْنَ النَّقا؟ * فأجابَ: كَيْفَ، وأنتَ من جِهَةِ الهَوى؟

وقال ابن منير الطرابلسىّ :

(٨٢) مَنْ رَكَّبَ البَدْرَ فى صَدْرِ الرُّدَيْنِىِّ، * ومَوَّهَ السِّحْرَ فى حَدِّ اليَمَانِىِّ؟ ٥
وأنزَلَ النَّيِّرَ الأعلى إلى فَلَكٍ * مَدارُه فى القَبَاءِ الخُسْرُوانِىِّ؟
طَرْفٌ رَنَا أمْ قِرابٌ سُلَّ صارِمُهُ؟ * وأغْيَدٌ ماسَ أم أعْطافُ خَطِّىِّ؟
وبرقُ غادِيَةٍ أم بَرْقُ مُبْتَسِمٍ، * يفْتَرُّ من خِلَلِ الصُّدْغِ الدَّجُوجِىِّ؟
وَيْلاهُ، من فارِسِىِّ النَّحْرِ مفْتَرِسٍ * بفاتِرٍ أسَدِىِّ الفَتْكِ رِيمِىِّ!
يُكِنُّ ناظِرُه ما فى كِنَانَتِهِ! * فليس يَنْفَكُّ من إقْصادِ مَرْمِىِّ! ١٠
أذلَّنِى بعْدَ عِزٍّ، والهوى أبدًا * يَسْتَعْبِدُ الليثَ للظَّبْىِ الكِنَاسِىِّ.
مامانَ مانِىَ،(١) لولا ليلُ عارِضِهِ * ما شَدَّ خيلَ المنايا بالأمانِىِّ.
تَكَنَّفَ الحسنُ منه وجْهَ مُشْتَمِلٍ * نِفارَ أحْوَرَ فى تأنيثِ حُورِىِّ.
أمَا وذائبِ مِسْكٍ من ذوائِبِهِ * على أعالِى القَضِيبِ الخَيْزُرانِىِّ؟
لوقيلَ للبَدْرِ: مَنْ فى الأرضِ تحسُدُه؟ * إذا تَجَلَّى، لقالَ ابنُ الفُلانِىِّ! ١٥
أربى علىّ بشَتَّى من مَحَاسِنِه * تألَّفتْ بين مسمُوعٍ ومَرْئِىِّ.
إباءُ فارِسَ مَعْ لينِ الشَّآمِ مع الظَّرْفِ العِراقِىِّ فى النُّطْقِ الحِجازِىِّ.
وما المُدامةُ بالألبابِ ألعَبُ من * فَصاحةِ البَدْوِ فى ألفاظِ تُرْكِىِّ!
أشبهتُه ببعادِى، ثم كانَ له * مَزِيَّةُ الخَلْقِ والأخلاقِ والزِّىِّ.
من أينَ لى لَهَبٌ يَجْرى على ذَهَبٍ * فى صَحْنِ أبيضَ صافِى الماءِ فضِّىِّ؟ ٢٠

(١) الإشارة إلى مانى القائل بالثنوية أى بالنور والظلام .

وروضةٌ لم تحكها كفُّ ساريةٍ * ولا شكا خدُّها من لَثْمٍ وَسِمِيِّ
يحفُّها سوسنٌ غضٌّ يغازلُه * بنرجسٍ بنطافِ السِّحرِ مولِّي .
مَنْ مُنقذِي أو مُجيرِي من هوى رشإٍ * أفتى وأفتكُ من عمرو بن معْدِيِّ ؟
لا يعشق الدهرَ إلا ذِكرَ معركةٍ * أو خوضَ مهلكةٍ أو ضربَ هنديِّ .
ولا يُحدِّثُ إلا عن رِبابتِه * من المِهارِ العوالِي والمَهارِيِّ . ٥
والصافناتُ ولُبْسُ الضافياتِ وشُرْ * بُ الصافياتِ وإطرابُ الأغانيِّ ،
أشهى إليه من الدَّوْحِ الظليلِ على الـ * ـرَّوحِ العليلِ وتغريدِ القَمارِيِّ ،
شدَّ الجِياد لأيامِ الجِلاد وإر * شادِ الصِّعاد إلى طَعْنِ الأناسِيِّ ؟
وحثَّ بازٍ على نأْيٍ وحَمْلِ قطا * مِيٍّ تكدَّر منه عيشُ كُدْرِيِّ ؟
في غِلْمةٍ كغُصونِ البانِ يحملُها * كُثبانُ بُردٍ على غاداتِ بَرْدِيِّ ؟ ١٠
يمشُون في الوَشْيِ أسرابًا ، فتحسَبُهم * روضَ الربيعِ على بَيْضِ الأداحِيِّ .
والساحرُ الساخرُ الغرَّارُ بينهم * كالشمسِ تكسِفُ أنوارَ الدراريِّ .
مُهفْهَفُ القدِّ ، سَهْلُ الخدِّ ، أغربُ في الـ * ـحِجالِ من لُثْغةٍ في لفظِ نَجْدِيِّ .
يُلْهِيه عن كُتُبٍ تُروى ونُصرتِه * لشافعيٍّ فقيهٍ أو حنيفيِّ .
عُوجُ القِسِيِّ وقُبُّ الأعوجيَّةِ والشُّـ * ـهبُ المماليجُ تُرْبى في الأَوارِيِّ . ١٥
والشِّعرُ في الشَّعرِ الداجي على الغَنَجِ السَّا * جي يُلَيِّنُ منه قلبَ حُوشِيِّ .
فلو بَصُرتَ به يَصْغى وأُنشِدُه ، * قلتَ النُّواسيُّ يشجو قلبَ عُذْرِيِّ .
أو صائدُ الإنسِ قد ألقى حبائلَه * ليلا فأوقعَ فيها صِيدَ وَحْشِيِّ .
أغراه بي بعدَ ما جَدَّ النِّفارُ به * شَدْوُ التَّريضِ وألحانُ السُّرَيْجِيِّ .
فصار أطوعَ لي منه لمُقلتِه ، * وصرتُ أعرفُ فيه بالعزيزيِّ . ٢٠

ومما قيل فى المؤنث، قال ابن الرومى :

مخففةٌ مثقّلةٌ، تراها * كأنْ لم يعدُ نِصْفَيها غِذاءُ!

إذا الإغبابُ جدّد حُسْنَ شيْءٍ * من الأشياء، جدّدها اللّقاءُ.

لها رِيقٌ تَشِفُّ له الثّنايَا، * ويَرْوى عنه — لامنه — الظّماءُ. ٥

وأنفاسٌ كأنفاس الخُزامى * قُبيلَ الصُّبح، بلّتْها السّماءُ!

تنفّس نَشْرُها سَحَرا، فجاءتْ * به سَحَرِيّةَ المَسْرى رُخاءُ!

وقال أبو نُوَاس :

ماهَوًى إلا له سَبَبُ * يبتدى منه ويَنْشَعِبُ.

فتنَتْ قلبى مُحَجَّبةٌ، * وجْهُها بالحُسن منتقِبُ. ١٠

خُلِّيَتْ والحُسْنَ تأخُذُه * تَنْتقِى منه وتَنْتخِبُ.

فاكتسَتْ منه طَرائفَهُ * واستزادَتْ بعضَ ماتَهَبُ.

صار جِدًّا ما مَزَحْتُ به * رُبَّ جِدٍّ ساقه اللّعِبُ!

وقال أيضا :

ياقَمَرا، أبصرْتُ فى مأتَم * ينْدُب شَجْوا بينَ أتْرابِ! ١٥

يبكى فيُذْرِى الدُّرَّ من نَرْجِس، * ويَلْطِمُ الوردَ بعُنّاب.

أبرزَه المأتَمُ لى كارِهًا، * برَغْم دايَاتٍ وحُجّاب!

لاتَبْك مَيْتا حَلَّ فى رَمْسه، * وابْك قتيلاً لكَ بالباب!

وقال سيف الدين المشد :

وبُهْجَتِي! مَنْ لو بَدَتْ * للشمسِ من تَحْتِ النِّقابْ،
سَتَرَتْ محاسِنَ وجْهِها * خَجَلا، ولاذَتْ بالسَّحابْ!

وقال القاضي أبو علي التَّنُوخي، شاعر اليتيمة :

أقولُ لَهَا والحَيُّ قد فَطِنُوا بنا * ومالِيَ عن أيدِي المَنُون بَرَاحُ:
لَمَا ساءنِي أنْ وشَّحَتْنِي سُيُوفُهم * وإنِّي لكُمْ دُونَ الوِشاح وِشَاحُ.

وقال عمارة اليماني :

طَرَقَتْها، والليلُ وَحْفُ الجَنَاحْ، * وما تَلَبَّستُ بثَوْب الجُنَاحْ.
في ليلةٍ بات نِجَادِي بها * ذوائبًا يَخْفُقْن فوقَ الوشَاحْ.
والحسنُ قد ألَّفَ أشتاتَهُ * غُصْنٌ تثنَّى فوقَ رِدْف رَدَاحْ.
نامَ رقيبُ الصُّبْحِ عن لَيْلَتِي، * وباتَ لِي كلُّ مَصُون مُبَاحْ!
أجمَعُ من خَدٍّ ومن مَبْسِمٍ * بُحْمَرَةِ الوَرْد بَيَاضَ الأَقَاحْ.
حصَلْتُ من رِيقٍ ومن مَنْطِقٍ * على اقْتِراحٍ ونَمِيرٍ قَرَاحْ.
ترنَّحتْ مِنْ نَشَوات الصِّبا * فبِتُّ مَسْرُورًا بنَشْوانَ صاحْ.
وفاحَ مِن نَشْرِ الصَّبا عَنْبَرٌ * أحْرقه الفَجْر بجَمْر الصَّبَاحْ!

وقال أبو نُوَاس :

وذاتِ خَدٍّ مُوَرَّدْ * قُوهِيَّةِ المتجَرِّدْ.
تأمَّلُ العينُ منها * محاسِنًا ليس تَنْفَدْ.
فالحُسْن في كل جُزْء * منها مُعادٌ مُرَدَّدْ.

فبعضُه فى انتهاءٍ * وبعضُه يتَوَلَّدْ.
وكُلَّما عُدْتُ فيه * يكونُ لى العودُ أحمَدْ!

وقال علىّ بن عبد الرحمن بن المنجم :

شبَّهتُها بالبَدْرِ فاستَضْحَكَتْ * وقابلَتْ قولِى بالنُّكْرِ.
وسفَّهتْ قولِى وقالتْ : متى * سَمُجْتُ حتَّى صِرتُ كالبَدْرِ.
البدْرُ لا يرنُو بعَيْنٍ كما * أرنُو، ولا يَبْسِمُ عن ثَغْرِ.
ولا يُميط المِرْطَ عن ناهدٍ، * ولا يَشُدُّ العِقْدَ فى نَحْرِ.
مَنْ قاسَ بالبدر صِفاتِى، فلا * زالَ أسيرًا فى يَدَىْ هَجْرِى!

وقال العماد الأصفهانىّ :

لُثْنَ الأهِلَّةَ بالمَعاجِرْ * وكَحَلْنَ بالسُّقْمِ المَحاجِرْ.
ونظَرْنَ عن حَدَقٍ حَجَرْ * نَ بِهَا على آرام حاجِرْ.
شَهَرتْ لِحاظُ ظِبَائِهِنَّ على القُلُوب ظُبًا بواتِرْ.
آرامُ خِدْرٍ بالمَها * ظ تَصيدُ آسادًا خَوادِرْ.
غِيدٌ لسَفْك دَمِ المُحِبِّ تَظَافَرتْ منها الظَّفائِرْ.
بيضُ التَّرائب حُمرُها * خُضْرُ اللَّمى سُودُ الغدائِرْ.

وقال كُشاجِم :

جعلتُ إليكِ الهوى * شَفِيعا فلم، تُشْفِعِى!
وناديتُ مستعْطِفا * رضاكِ فلم تَسْمَعِى.
أتارِكتِى مُدْنَفًا * أخا جَسَدٍ مُوجَعِ!
ومُغْرِيتِى والدُّمو * عُ قد أحرقَتْ مَدْمَعِى.

أحينَ سَبَيْتِ الفُؤا * دَ بالنظـــر المُطْمِعِ،
جفَوْتِ وأقصيتِنِي؟ * فهَـــلَّا، وقَلْبِي مَعِي؟

وقال آبن المعلم :

صَعْدةُ القَدِّ وسيفُ الكَحَلِ * حَكَما حُكْمَ الهوى فى أجلِي.
يالقَومِى! حَمَلتْ ثِقْلَ دَمِى * غادةٌ يُثْقِلُها حَمْلُ الحُـــلِي! ٥
قَدُّهـا مُعتَـدِلٌ يَظْلِمُنِى! * حَزَنِى من قَدِّها المعتدل!
خَصْرُها يَنْشَطُ، لكن رِدْفُها * أبدًا يَقْـــهَرُهُ بالكَسل.
نظرةٌ من مُقْلَتَىْ جاريَةٍ * وثَنَتْ عِطْفَ القَضيبِ الثَّمِلِ.
لستُ أدرِى: قمـر فى كِلَّةٍ * ما أرى، أم دُمْيَةٌ فى هَيْكل؟
سألتْ جِسْمِىَ عن ساكِنِه! * ومن الجَهْـل سُؤالُ الطَّلَلِ! ١٠

وقال سيف الدين المشد :

وغادةٍ، أعشَقُ من أجْلِهـا * بدرَ الدُّجى والظَّبْيَ والخَيْزُرانْ.
لأنَّ ذا يُشْبِهُها بهجةً، * وذاكَ ألحاظًا، وهذا بَنانْ.

وقال أبو نُوَاس :

يامُنْسِىَ المَـــأْتَم أشجـــانَهُ * لمـا أتاهُـــمْ فى المُعَزِّيـنَا! ١٥
حَلَّتْ عِجَارَ الوَشْىِ عن صُورةٍ * ألبسهـا اللهُ التَّحاســـينَا!
اســتَفْتَتْهُنَّ بِتِمْثالِهـا * فهُنَّ للتَّكليفِ يَبْكِينا.
حَقٌّ لذاك الوجه أن يَزْدَهِى * عن حُزْنِه مَنْ كان محزُونَا.

وقال أيضا :

أيا لَيْتَ شعْرِى أمِنْ صَخْرةٍ * فُؤادُكِ هـذا الذى لا يَلِـينْ! ٢٠

تقولُ إذا ما آشتكيتُ الهوى، * كما يَشتكى البائسُ المُسْتَكِينْ:
أفى النَّومِ أبصَرْتَ ذا كُلَّه؟ * فخيراً رأيتَ، وخيرًا يكُونْ!

وقال المشوق الشامى:

أتُرَى بشارٍ أو بدَيْنِ * عَلِقتْ محاسِنُها بعيْنِى؟
فى خَصْرِها وقَوامِها * ولِحاظِها ما فى الرُّدَيْنِى. ٥
وبوَجْهِها ماءُ الشَّبا * ب خليطُ نار الوجنتَيْن.

وقال السرىُّ الرفَّاء، شاعر اليتيمة:

قامتْ وخُوطُ البانة الـ * ـمَيَّاسُ فى أثوابِها.
ويَهُزُّها سُكرانِ: سُكـ * ـرُ شَرابِها وشَبابِها!
تَسْعى بصَهْبَاوَيْنِ من * ألحاظِها وشَرابِها. ١٠
وكأنَّ كأْسَ مُدامِها * لَمَّا ارْتَدَتْ بحُبابِها:
توريدُ وَجْنتِها إذا * ما لاح تحتَ نِقابِها.

وقال ابن الرومىّ:

مِنْ بناتِ الرُّوم، لا يَكْذِبُنا * لونُها المُشْرِقُ عن مَنْصِبِها.
قامةُ الغُصْنِ ـ إذا ما آعتدَلَتْ، * قامةُ الغُصْنُ ـ إلى مَنْكِبِها. ١٥
شهِدَ الشاهدُ من أحسنِها، * فحكى الغائبَ من أطْيبِها.
تَشْفَعُ الحسنَ بإحسانٍ لها * يَجْلُبُ الأفراحَ من مَجْلَبِها.
تَشْرَعُ الألحاظُ فى وَجْنتِها * فتُلاقِى الرِّىَّ فى مَشْرَبِها.
وجَنَةٌ للغنج فيها عَقْرَبٌ، * وبَلاءُ الصبِّ من عَقْرَبِها.

وإذا قامَتْ إلى مَلْعَبِهـا * كَمَهاةِ الرمْـلِ في مَلْعَبِهـا،
سألت أردافُهـا أعطافَهَا: * هَلْ رأتْ أوطأَ من مَرْكَبِهـا؟

وقال أبو الحسين بن فارس :

مَرَّتْ بنا هَيْفاءُ مَقْـدُودةٌ * تُرْكِيَّةٌ تُنْـمى لـتُرْكِيّ .
ترنُو بطَـرْفٍ فاترٍ فاتنٍ * أضعَفَ من حُجَّةِ نَحْوِيّ .

ومما قيل في المُطْلَق والمشترك، قال الطغرائي :

فيمَ التعجُّبُ من قَلْبي وصَبْوتِهِ * كأنَّكُم لم تَرَوْا من قَبْلِهِ عَجَبا!
ذوقُوا الهَوى ثم لُومُوا ما بَدَا لكُمُ، * أولا، فخَلُّوا مَلامِي وآربَحُوا التَّعَبا!

وقال ايضا :

وكنْتُ أُرانِي مُفْلِتاً شَرَكَ الهَوى، * وقد صادني سِحرُ العُيونِ النَّوافِثِ.
وأسْمَعَـنِي داعِي الغَـرامِ نِداءَه، * فقمتُ إليـه مُسْرِعا غير لابِثِ.
وأعطيْتُ إخْوانَ البَطالةِ صَفْقَتِي، * وبعتُ قديما من غَرامِي بحادِثِ.
فما صَفْقَتِي في البيعِ صَفْقةُ خاسِرٍ، * ولا بَيْعَتِي للحُبِّ بيعـةُ ناكِثِ.
فلا تعذِلُونِي في غرامِيَ بعـدَ مَا * تولَّى الصِّبا، فالعَذْلُ أوّلُ باعِثِ!
ولا تبحَثُوا عن سِرِّ قلبِيَ إنَّهُ * صَفاً، ليس يَمضِي فيه مِعْوَلُ باحِثِ.
أرى صَبَواتِ الحبِّ قد جَدَّ جِدُّها، * وقد كان بدءُ الحب مَزْحةَ عابِثِ!

وقال الأرّجانيّ :

قفَـا مَعِي في هـذه المَعَاهِدِ! * لا بُدّ للصَّبِّ من المُسـاعِدِ!
لا تَبْخَـلا يا صاحِبَيَّ وآسمحا * بوقْفَـةٍ على المُعَـنَّى الواجِدِ.

فى منزلٍ عَهِدْتُ فى عِرَاصِه، * لو ردّ معهودا بكاءُ عاهِد،
كواعبًا من الدُّمى لواعبًا * مُشْبِهةَ الثُّغور لا القلائِد.
يمشين من فرط النَّعيم والصِّبا * كالقُضُب المَوائل المَوائِد.
فيهنَّ ظَبْيٌ عَلِقَ القلبُ به * من الظِّباء النُّفرِ الشوارد.
إذا تَبَدّى مرضٌ بطَرْفِه، * لم يخلُ من أفئدة عوائِد.
رميتُه، فصادنى . فمن رأى * صيْدًا يمرّ بفؤاد الصائِد؟
قطعتُ من قلبى رجائى فى الهوى! * والقَطْعُ طِبُّ كلِّ عُضو فاسِد!

وقال أبو القاسم عبد الله الدينورىّ، شاعر اليتيمة :

يا لِعَصْرِ الخَلاعةِ المودود * ولِظِلِّ الشَّبِيبة الممدُود!
وارتشافِ الرُّضابِ من بَرَد الثَّغـ * ـر ولَثْمى عليه وردَ الخُدُود!
وبُكُورى إلى مجالس عِلْم * ورَواحى إلى كواعبَ غيد!
فى قميصٍ من السُّرور مُذَال * ورداء من الشَّباب جَديد!

وقال تاج الملوك بن أيوب :

ألَّا رحِمْتُمْ متيما دنفا * مأزالَ من جَوْرِكم بكُمْ عائذْ! (٨٥)
صَبًّا قضى الله أن يَهيم بكُمْ * ولا مردّ لحكمِه النافِذْ!
يلوذُ حُبًّا دُونَ الأنام بكم * وحَسْبُه أنه بكُم لائذْ!

وقال فخر الدين الوركانى، شاعر الخريدة :

أأحبابَنَا أمَّا حياتِى بَعْدكُم * فموتٌ، وأما مَشْرِبِى فمنغَّصُ
وأسعَدُ شىء فىّ قلبى لأنَّه * لدَيْكم، وجسْمى بالبِعاد مخصَّصُ!

وقال العماد الأصفهاني :

بذلتُ لهم ـ أبغي رضاهم ـ مودّتي * وقلبي وصبري والرُّقادَ، فما رَضُوا.
وهبني عن كلٍّ تعوّضتُ بعدهم * فقُلْ لي : بماذا عنهمُ أتعوّض؟
وما كان ظنّي أنّ عيشيَ ينقضي * ونجمَ الصِّبا ينقضّ والعهدُ يُنقَضُ.

٥ وقال الطغرائي :

إن الألى أرضاك قولهمُ * بالأمس، تحتَ رضاهمُ سُخْطُ!
لمّا صفا ذاك الجمالُ لهمْ، * تاهوا على العُشّاق واشتطّوا.
همّوا ببَيْنٍ فاستطارَ له * قلبي، فكيفَ يكُون إن شطّوا؟

وقال الطغرائي أيضا :

١٠ في القلب من حرّ الفراق شُوَاظُ، * والدمعُ قد شَرِقتْ به الألحاظ.
ولقد حفظْتُ عهودكمْ، وغدرتُمُ، * شتّانَ غَدْرٌ في الهوى وحفاظُ!
لله أيُّ مواقفٍ رقّتْ لنا * فيها الوسائلُ، والقلوبُ غلاظُ!

وقال أيضا :

وسائلٍ عن جَوى قلبي، فقلتُ له : * ما أنتَ عندي على سرٍّ بمتّهَمِ!
١٥ طابَ الجَوى في الهوى حتّى أنِستُ به، * فهو المرارةُ يحلُو طَعْمُها بفمي!

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

أتقتلُني ظُلْما وتجحدُني قتلي، * وقد قام من عينيكَ لي شاهدا عَدْل!
أطُلّابَ ذَحْلي، ليس لي غيرُ شادنٍ * بعينيه سحرٌ فاطلبُوا عنده ذَحْلي!
أغارَ على قلبي، فلما أتيتُهُ * أُطالبُه فيه، أغارَ على عقلي!
٢٠ بنفسي التي ضنّتْ بردّ سلامها! * ولو سألتْ قتلي، وهبتُ لها قتلي!

إذا جئتها صَدَّتْ حَياءً بوجهِها، * فتَهْجُرُنى هَجْرا ألَذّ من الوصْلِ.
وإن حَكَمَتْ جارتْ عَلَىّ بحُكْمِها، * ولكنَّ ذاكَ الجورَ أشهى من العَدْلِ.
كتمتُ الهوى جَهْدِى، فجَوده الأسى * بماء البُكا، هذا يَخُطُّ وذا يُمْلِى!
وأحببْتُ فيها العَذْلَ حُبًّا لذِكْرها، * فلاشَىءَ أحلى فى فُؤادى من العَذْلِ!
أقولُ لقلبِى كُلَّما ضامه الأسى: * إذا ما أبيتَ العِزَّ، فاصبِرْ على الذُّلِّ! ٥
برأْيكَ لا رأيى تعرَّضْتَ للهوى، * وأمرِكَ لا أمرِى وفعلِك لا فِعْلِى.
وجدْتَ الهوى نصلا من الموت مُغْمَدا * فجَرَّدتَهُ ثم آتكأتَ على النصل!
فإن كنتَ مقتولًا على غيرِ ريبةٍ * فأنتَ الذى عَرَّضتَ نفسَكَ للقَتْلِ!

وهذه الأبيات معارضة لصريع الغوانى فى قوله:

أديرا علَىَّ الكأس، لا تَشْرَبا قَبْلِى * ولا تطْلُبا من عند قاتلتِى ذَحْلِى! ١٠
فما حَزَنى أنّى أموتُ صَبابةً، * ولكنْ على مَنْ لا يَحِلُّ لها قَتْلِى!
فَدَيْتُ التى صَدَّتْ وقالت لِتِرْبها: * دَعُوه، الثُّرَيّا منه أقربُ من وَصْلِى!

وقال آبن عبد ربه:

صَحا القلْبُ، إلا خَطرةً تبعثُ الأسى * لها زَفْرةٌ موصولةٌ بحَنِينِ.
بلى، رُبَّما حلتْ عُرَى عَزَماتِهِ * سوالِفُ آرام وأعيُنُ عِينِ. ١٥
لواحظ حَبّات القلوب إذا رنَتْ * بسِحْرِ عيونٍ وآنكسارِ جُفُونِ.
ورَيْط من المَوْشِىّ أينَعَ تحتَهُ * ثِمارُ صُدورٍ، لا ثِمارُ غُصُونِ.
بُرُودٌ كأنوارِ الربيع لِبْسُنَها * ثيابَ تَصابٍ لا ثيابَ مُجُونِ.
فَرَيْنَ أَدِيمَ الليلِ عن نُورِ أوجُهٍ * تُجَنُّ بها الألبابُ كلَّ جُنونِ.
وجوهٌ جرى فيها النعيمُ فكُلِّلَتْ * بوَرْدِ خدودٍ يُجْتَنى بعيُونِ. ٢٠

سألبَسُ للأيّام دِرْعًا من العَـزَا، * وإنْ لم يكُن عند اللّقَـا بحَصينِ.
وكيفَ، ولى قَلْبٌ إذا هَبَّت الصَّبا * أهابَ بشَوْقٍ فى الضُّلوع دَفِينِ؟

وقال آخر:

هَزُّوا القُدودَ وجَرِّدوا الأجْفانَا! * فاطلُبْ لنفسك، إنْ قدَرْتَ أمانَا.
وٱلق السِّلاحَ إذا ٱنثَنَوْا وإذا رَنَوْا، * وكُنِ الجَبانَ وإن مَلَكْتَ جَنَانا.
وٱحذَرْ ضِرَاما بالعُيون، وسَلْ به * مِثْلِي، وجانب بالقُدُود طعَـانا.
فلقد رأيْتُ الأُسْـدَ وهى كواسرٌ * تَخْشى بمعـتَرَك الهوى الغزْلانا.
لا تعبَثَنَّ بذابِـلٍ وبباتِرٍ! * وخَفِ المُهفْهَفَ وٱحذر الوَسْنانَا!
لولَا تشابُهُ مقـلةٍ أو قامـةٍ، * ما خفْتُ يوما صَعْدةً وسنَانا.
وأنا الَّذى حَضَرَ الوقائعَ فى الهوى * وأقامَ فى أَسْـرِ الغَرام زَمانَا.
ولكَمْ رأيتُ به الشَّـدائدَ مُرَّةً! * ولَـكَمْ رأيتُ به المَمـاتَ عيَانا!
وثبَتُّ بينَ مَعَاطِفٍ ولواحِظٍ * فى مَوْقِفٍ يَذَرُ الشُّجاعَ جَبَانا!
مُسْتَسْلِمًا للعِشْق: لا مُسْتَصْرِخا * صَبْرًا، ولا مستَنْجدًا سُـلْوانا.
أرجُو الشهادةَ إن قُتِلْتُ به، وما * ولَّيتُ فيـه ولا ثَنيتُ عِنَـانا.
ياويْحَ قلبٍ ما خَلَا من شُـغْلِهِ * بصَبابةٍ ومَحبَّـةٍ مذ كانَا!
لو فَتَّشُوه لمـا لَقُوا لِسوى الهوى * فيـه ولا غَيْرِ الغـرام مَكانَا.

وقال التلعفرىّ:

هـذا العَذُول عليـكُم، مالى ولَهْ؟ * أنا قد رَضِيتُ بذا الغَرامِ وذا الوَلَهْ!
شـرْطُ المحبـةِ أنّ كلَّ متـيَّمٍ * صَبٌّ يُطِيع هَواه، يَعْصِى عُذَّلَهْ.
وأخذْتُمُونِى حينَ سار بحبِّـكُم * مَثَـلِى، ومِثْلِى سِرّه لن يَبْـذُلَهْ!

ما أعربَتْ واللهِ عن وَجْدِى بكُمْ * وصبابَتِى إلّا دُمُوعى المُهْمَلَهْ.
جُزْتُم مَدَاكم فى قطيعتِكُمْ، فلا * عطفٌ لعائدكُمْ يُرامُ، ولا صلَهْ.
أألُومُكُمْ فى هَجْرِكم وصُدُودِكُم، * ما هذه فى الحُبِّ منكم أوّلَهْ!
قسَمًا بكم، قد جرْتُ مما أشتكى! * حَسْبِى الدُّجى، فعَدِمتُه ما أطْوَلَهْ!
لَيْلِى كيومِ الحَشْرِ معنًى إن يكن * لا ليلَ ذاكَ له، فذا لاصُبْحَ لَهْ. ٥
ياسائلى منْ بعدِهم عنْ حالتِى! * تركُ الجوابِ جوابُ هذى المسألَهْ!
حالِى إذا حَدَّثتُ لا لُمَعًا ولا * جُمَلا لإيضاحى لما من تَكْلِمَهْ.(١)
عِنْدِى جَوًى يَذَر الفصيحَ مبلَّدًا: * فاتْرُكْ مَفَصَّله! ودُونَك مجمَلَهْ!(٢)
القلبُ ليس من الصِّحاحِ فيُرْتجى * إصلاحُه، والعينُ سُحْبٌ مُثْقَلَهْ.(٣)
يانازِحِينَ، وفى أكِلَّةِ عِيسِهِمْ * رَشَأٌ عليه حَشَا المُحِبِّ مقَلْقَلَهْ! ١٠
قمرٌ له فى الطَّرْفِ بل فى القَلْبِ بل * فى النَّثْرَةِ الحَصْداء أشرفُ مَنْزِلَهْ.(٤)
الصُّدْغُ منه عَقْرَبٌ، ولِحاظُه * أَسَدٌ، وخلفَ الظَّهْرِ منه سُنْبُلَهْ.(٥)
ما أجورَ الألحاظَ منه إذا رَنَا! * وإذا انْثنى، فقَوامُه ما أعْدَلَهْ!
لو لم يُصِبْ صُدْغَيْهِ عارضُ خدِّه، * ما أصبحَتْ فى عارِضَيْه مُسلْسَلَهْ.
لله منه مهفهفٌ أجْنيتُه * عَسَلَ الهوى فجَنَيْتُ منه حَنْظَلَهْ! ١٥
لو كنتُ فيه قَبِلتُ نُصْحَ عَوَاذلى، * ما أدبرتْ أيامُ حَظِّى المُقْبِلَهْ!

(١) إشارة إلى الكتب الشهيرة : اللمع، الجمل، الإيضاح، التكملة. وكلها فى علم العربية.
(٢) يشير إلى "الفصيح" لثعلب، و"المفصل" للزمخشرى، و"المجمل" لابن فارس. وكلها كتب فى اللغة.
(٣) الاشارة إلى "الصحاح" للجوهرى، و"العين" للخليل بن أحمد. وهما من كتب اللغة.
(٤) يشير إلى بعض منازل القمر، وهى : الطرفة، والقلب، والنثرة.
(٥) يشير إلى بعض البروج، وهى : العقرب، والأسد، والسنبلة.

وقال الطغرائي :

رُوَيدَكُمُ! لا تَسْبِقُوا بقَطِيعتِي * صُروفَ الليالي، إنَّ في الدهر كافيَا.
ويا قلبُ، عاوِدْ ما ألِفْتَ من الجَوى! * مَعاذَ الهوى أن تُصبِح اليومَ سالِيَا!
ويا كبِدِي، ذُوبي! ويا مقلتي، اسْهَري! * ويا نفسِ لا تُبقِي من الوجْد باقيَا!
٥ فلا تَطْمَعُوا في بُرْءِ ما بِي، فإنَّه * هو الداءُ قد أعيَا الطبيب المُداوِيَا!

ومما قيل في طَيْف الخيال، قال قيس بن الخطيم : (٨٧)

إني شَرِبْتُ، وكنتُ غيرَ شَرُوب! * وتُقرِّبُ الأحلامُ غيرَ قَرِيب.
ما تَمْنعِي يَقْظَى، فقد تُؤْتِينَهُ * في النوم غيرَ مُكدَّر مَحْسُوب.
١٠ كان المُنى تِلْقاءَها، فلقيتُها * ولهَوْتُ من لَهْوٍ امرئٍ مَكْذُوب!

وقال عمرو بن قَمِيئَة :

نَأَتْكَ أُمامةُ، إلا سُؤالَا * وإلَّا خَيالًا يُوافِي خَيالَا.
خَيالًا يُخَيِّل لي نَيْلَها، * ولو قَدَرتْ لم يُخَيِّلْ نَوالَا!

قال أبو هلال العسكري : ومن هاتين القطعتين أخذ المحدَثونَ أكثرَ معانيهم
١٥ في الخَيال.

وقال البَعِيث :

أزارَتْكَ ليلى، والرِّكابُ خَواضِع؟ * وقد بَهَر الليلَ النجومُ الطَّوالِعُ!
وأعطَتْكَ غاياتِ المُنى غير أنَّها * كَواذبُ إنْ حَصَّلتَها وخَوادِعُ.

وقال أبو تمام :

اِستَزَارتْه فِكْرَتِي فى المَنَامِ، * فأتاها فى خِفْيةٍ وٱكْتِتَامِ.
يا لها لَيْلةً تزاوَرتِ الأرْ * واحِ فيها سِرًّا عنِ الأجْسامِ!
مجلِسٌ لم يكن لنا فيه عَيْبٌ * غيرَ أنَّا فى دَعْوة الأحْلامِ!

وقال الحمدونىّ :

لم أَنَلْه، فنِلْتُــه بالأمَانِى * فى مَنَامى سرًّا من الهِجْرانِ!
واصل الحُلْمُ بيننا بَعْدَ هَجْرٍ، * فاجتمَعْنا ونحنُ مُفْتَرِقانِ.
وكأنَّ الأرواحَ خافَتْ رَقِيبًا، * فطَوَتْ سِرَّها عن الأبْدانِ.
مَنْظَرٌ كان نُزهةَ العَيْنِ إلَّا * أنه مَنْظَرٌ بغَيْرِ عِيَانِ.

وقال ٱبن الرومىّ :

طَــرَقَتْنا، فأنالَتْ نائــلًا * شُكْرُه — لو كان فى النُّبْه — الجُحُودُ.
ثم قالتْ، وأَحَسَّــتْ عَجَبِي * من سُرَاها حيثُ لا تَسْرِى الأُسُودُ.
لا تَعَجَّبْ من سُرَانا، فالسُّرى * عادةُ الأقمارِ والناس هُجُــودُ.

أخذ العسكرىّ المعنى، فقال :

رَقَبَتْ غَفْلَةَ الرَّقِيبِ، فزارَت * تحتَ لَيْلٍ مُطَرَّزٍ بنَهارِ.
فتعجَّبْتُ من سُراها، فقالتْ : * غَيْرُ مستَطْرِفٍ سُرى الأقمارِ!
ثم مالَتْ بكأسِها فسَقَتْنى * جُلَّنارِيَّةً على جُلِّ نارى!

وقال آخر :

فيا لَيْتَ طَيْفا، خيَّلَتْه لىَ المُنى، * وإنْ زادنى شوقًا إليك، يَعُودُ!
أُكلِّف نفسى عنك صَبْرا وسَلْوةً، * وتَكْليفُ مالا يُستطاعُ شديدُ!

وقال العسكريّ :

طَرَق الخَيَالُ، فزارَ منه خَيَالا. * فسرى يُغازِل في الرُّقاد غَزَالا.
يا كَشْفَةً للكَرْب، إلّا أنّهُ * وَلّى على دُبُر الظّلامِ فزالا.
قَعَد المتيّمُ، وهو أكثرُ صَبوةً * وأشدُّ بِلبالًا وأكسَفُ بالَا!

٥ وقال العماد الأصفهانيّ :

ظَبْيٌ طَرِبتُ لِطَيْفِه المتأوِّب * طَرَب العليلِ لرُؤْيةِ المتطبِّب.
لم أدرِ زَوْرَتَهُ، أكانت خَطْفَةً * من بارقٍ أم لمعةً من كَوْكبِ.
زار الكَرى متهيِّبا رُقَباءَه، * أهْلا به من زائرٍ متهيِّب!
لَمّا رأى وَجْدِي، تأوّه رحمةً. * لله مِنْ مُتأوِّه متأوِّب!
١٠ وأتى ليقرُبَ من وِسادِ متيَّمٍ، * لَمّا أحسَّ بنارِه، لم يَقْرُب.

وقال محمد بن بختيار :

لو أنَّ طَيْفَ الخيالِ يَسْرِي، * بَلَّ سُراهُ غليلَ صَدْرِي.
ولو أرادَ الحبيبُ أن لا * يَضيمَنِي، ما استطابَ هَجْرِي.
يلومُنِي في هَواه مَنْ لا * يعلَمُ أنَّ المَلامَ يُغْرِي.
١٥ كَمْ ليلةٍ زار في دُجاها، * فكان تَحْتَ الظلامِ بَدْرِي.
يُتْحِفُنِي باحْمِرار خَدٍّ * مُوَرَّدٍ وابيضاض ثَغْرِ.
يجمَعُ لِي بينَ سُكْرِ لَحْظٍ * وسُكْرِ رِيقٍ وسُكْرِ خَمْرِ،
ودُرَّ لَفْظٍ ودُرَّ ثَغْرٍ * ودُرَّ كأسٍ ودُرَّ نَحْرِ.

وقال آخر :

قلتُ للمُعْرِض الَّذى صَدّ عَنِّى : * إنَّ طيفَ الخيالِ لى عنكَ يُغْنِى .
قال : لا تَحْمَدِ الخَيالَ فما زا * رَكَ إلَّا عن اختيارِى وإذْنِى .
كِدْتَ تَقْضِى أسًى ، فقلتُ لطَيْفِى : * أَحْيِ لى روحَهُ بِزُورِ التَّمَنِّى !
ليس شُحًّا بأن تموتَ ، ولكنْ * خِفْتُ أن تستَرِيحَ بالموتِ مِنِّى !

وقال آخر :

فإنْ يحجُبُوها بالنهار ، فَمَا لَهُمْ * بأن يَحْجُبوا بالليل عَنِّى خَيَالَهَا !

وقال المجنون :

وإنِّى لأستَغْشِى ، ومابى نَعْسةٌ ، * لعَلَّ لِقاهَا فى المَنَامِ يَكُونُ !
تُخَبِّرُنى الأحلامُ أنِّى أراكُمُ ، * ألَا ليتَ أحلامَ المَنامِ يَقِينُ !

وقال المؤمل :

أتانِى الكَرى لَيْلًا بشَخْصٍ أُحِبُّه ، * أضاءت له الآفاقُ ، والليلُ مُظْلِمُ .
فكلَّمَنِى فى النَّومِ غيرَ مُغاضِبٍ ، * وعَهْدِى به يَقْظانَ لا يتكلَّمُ !

وذكر العباس بن الأحنف العلةَ فى طُروق الخيال ، فقال :

خَيالُكَ حِينَ أرْقُدُ نُصْبَ عينِى * إلى وقتِ انْتِباهِى لا يَزُول .
وليس يَزُورُنِى صِلةً ، ولكنْ * حديثُ النفس عنكَ به الوُصولُ .

وتبعه الطائىّ فقال :

زار الخيالُ لها ، لا بل أزارَكَهُ * فِكْرٌ ، إذا نامَ فِكْرُ الحِلْمِ لم يَنَمِ .
ظَبْيٌ تقنَّصتُهُ لَمَّا نَصَبْتُ له * فى آخر الليلِ أشراكًا من الحُلُمِ .

ومما قيل في الردّ على العذول، قال أبو نُوَاس :

ماحَطَّك الواشُونَ من رُتْبةٍ * عِنْدِى، ولا ضَرَّك مُغتابُ.
كأنَّما أثنَوْا — ولم يَشْعُروا — * عليكَ عِندى بالذى عابُوا.

٥ وقال تاج الملوك :

مَهْ ياعَذُولُ عن المحبِّ، فإنَّما * عَذْلُ المحبِّ يَزِيدُ فى بِلْبَالِهِ!
لا تَعْذُلَنّ على الصَّبابةِ مُغْرَمًا * حتَّى تَبِيتَ من الزَّمان بحالِهِ!

وقال أيضا من قصيدة :

ولقد قُلْتُ للذى لامَنِي فيـ * ـك، وما زَال حالُه مِثلَ حالِي :
١٠ ياعَذُولِي فى حُبِّه، كُفَّ عَذْلِي. * أنا ما للعَذُول فيه وما لِي!
كُلما زِدْتَ فى مَلامِي وعَذْلِي، * زِدتُ فى لَوْعَتِي وفى بَلْبالِي!

وقال الأرّجانى :

وَجْدِى بلَوْمكَ، ياعَذُولُ يَزِيدُ! * فاستَبْقِ سَهْمَكَ، فالرمىُّ بَعِيدُ!
بَلَغ الهوى من سِرِّ قلبِيَ مَوْقِعًا : * لا العَذْلُ يَبْلُغه ولا التفنِيدُ!
١٥ وَتُنِمُّ بالشَّجْوِ المُكَتَّم عَبْرَتِى، * ومن الدُّموعِ على الغَرام شُهودُ!

وقال سيف الدين المشد :

ياعاذِلى، خَلِّ عَنِّى! * أسمعْتَ غيرَ سَمِيعِ!
لا تَرْجُ مِنِّى سُلُوًّا! * فما فُؤادِى مُطِيعِى!
وكيفَ أكتُمُ ما بِى * من لَوْعة ووَلُوعِ،
٢٠ والذَّارِياتُ جُفُونِى، * والمُرْسَلاتُ دُموعِى!(١)

(١) إشارة إلى اسم السورتين الكريمتين : الذاريات والمرسلات .

وقال ابن الخيمى :

وتأمُرنِى العُذّال بالصبر عنكُمُ، * ومَنْ ذا الذى يَرْضى عن الحُلْو بالصَّبْرِ؟
ومِنْ أعجبِ الأشياءِ أنَّ عواذِلِى * يُطيلون لَوْمى فى الهوى، والهوى عُذْرى!

ومما قيل فى رجوع العذول، قال ابن وكيع :

أقبَلَ والعُذّالُ يَلْحُونَنِى، * فكلُّهم قال : مَنِ البَدْرُ؟
فقلت : ذَا مَنْ طالَ فى حُبِّه * منكم لىَ التعنيفُ والزَّجْرُ!
قالوا : جهِلْنا، فاغتفرْ جهْلَنا * فليس عنْ ذا لِامْرِئٍ صَبْرُ!
عُذْرُك فى الحُبِّ له واضِحٌ، * وما لَنَا فى لَوْمِنَا عُذْرُ!

وقال أيضا :

أبْصَرَه عاذِلِى علَيْه، * ولم يكنْ قبْلَ ذَا رآهُ.
فقال لى : لو عَشِقْتَ هذا، * ما لامَكَ الناسُ فى هَواهُ!
قل لى : إلى من عَدَلْتَ عنه * فليس أهْلَ الهوى سِوَاهُ؟
وظَلَّ من حيث ليس يَدْرى، * يأمر بالحُبِّ مَنْ نَهاهُ!

ومما قيل فى الوِصال، قال ابن الرومىّ :

ولقد يؤلِّفنا اللِّقاءُ بليلةٍ * جُعلَتْ لنا حتَّى الصباحِ نِظامَا.
نَجْزِى العيونَ جزاءَهُنَّ عن البُكَا * وعن السُّهاد ولا نُصيب أثامَا.
فنُبيحهُنَّ مَرادَهنَّ، يَرُدْنَهُ * فيما أدَّعينَ، مَلاحةً ووَسَاما.

ونُكافِئُ الآذانَ ، وهي حَقِيقة * إذ لا تَزالُ تُكابِدُ اللُّـوَّاما .
فنُثيبُهنَّ من الحديث مَثُوبةً * تَشْفِي الغليلَ وتَكْشِفُ الأسقامَا .
ونُكافِئُ الأفـواهَ عن كِتْمانها ، * إذْ لا يَزالُ لهـا الصُّماتُ لِجاما .
فنبيحهُنَّ مَلاثمًا ومَراشفًا ، * ماضَرَّها أنْ لا تكُونَ مُدَاما !
نَجْزِي الثـلاثةَ أنصباءَ ثلاثةً * مقسـومةً آناؤُهـا أقسـاما .

ومما قيل في الفراق والبين ، قال بعض الكُتَّاب : في الفراق مصافحةُ التسليم ، ورجاءُ الأَوْبةِ ، والسلامةُ من المَلَال ، وعمارةُ القلب بالشوق ، والدلالةُ على فضل المواصلة واللقاء .

قال شاعر :

جَزى الله يومَ البيْنِ خيرًا ، فإنَّهُ * أرانَا على عِـلَّاتِهِ أُمَّ ثابت !

وقال ٱبن الرومىّ :

فإذا كان في الفِراقِ ٱعْتِناقٌ ، * جعَـلَ اللهُ كلَّ يومٍ فِراقَا !

وقال أبو حفص الشطرنجىّ :

مَنْ يكُنْ يكْرَهُ الفِـراقَ ، فإنِّي * أشْـتَهِيهِ لموضِـعِ التَّسْلِيمِ !
إنَّ فيه ٱعْتِناقَةً لِفِـراقٍ * وٱنتظـارَ ٱعتناقةٍ لقُـدومِ .

وقال سيف الدولة بن حَمْدان :

راقبَتْنِي العُيونُ فِيـكَ ، فأشْفَقْـتُ ، ولم أخْلُ قَطُّ من إشـفاقِ .
ورأيتُ العَـدُوَّ يَحْسُـدنِي فيـكَ مُجِـدًّا بأنْفَسِ الأعْـلاقِ .

فتمنَّيتُ أنْ تكونَ بعيدًا ، * والذى بيْنَنا من الوُدِّ باقِ!
رُبَّ هَجْرٍ يكُونُ من خوفِ هَجْرٍ * وفِراقٍ يكُونُ خَوْفَ فِـراقِ!

وأرى هذا كلَّه على سبيل التعلل ليس إلا ، وإنما الفراقُ لا شكَّ فى إيلامه للقلوب.

قال بعض الشعراء :

فـلِمْ لا تُسْبَلُ العَبَرَاتُ منِّى ، * ولسْتُ على اليقـينِ من التَّلاقِ؟
فـلا وأبِيكَ ، ما أبصَرْتُ شيئًا * أمَرَّ على النُّفُوس من الفِـراقِ!

وقال آخر :

يارَبِّ ، باعِدْ بيْنَ جَفْنِي والكَرَى * مادام مَنْ أهواهُ فى هجْرانِى!
إنِّى لأخْشى أنْ أنامَ فألْتقِى * بخَيالِهِ ، خَوْفَ الفـرَاق الثانِى!

وقال آخر :

فارقْتُه وبُودِّى لو تُفـارِقُنِي * رُوحُ الحياة ، وأنِّى لا أُفارِقُهُ!

وقال أبو تمـام :

الموتُ عنْـدِى والفِـرا * قُ : كِلاهُمـا مالا يُطاقُ!
يَتَعـاونَانِ على النفُو * سِ : فذا الحِمامُ وذا السِّياقُ!
لو لم يكُنْ هذا كذَا ، * ما قيـل : مَوْتٌ أو فِرَاقُ!

وقال غريبُ بن سعيد شاعر "اليتيمة" :

ألَانَ يومُ الفِراق قَسْـوَتَهُ * حتَّى جَرى دَمْعُه وما شَعَرا.
نخِلْتُ ما سالَ مِن مَدامِعه * دُرًّا على وجْنَتَيْـهِ مُنْتَـثِرا.
لم يَبْكِ شَوْقا ، لكِنْ بكى جَزَعًا * لهَوْلِ يومِ الفِراقِ إذْ حَضَرا.

في مَشْهَدٍ لو أطاقَ شاهِدُه * فيه آستِتاراً لوجهه ، سَتَرَا.
أبَى أَساهُ وفيضُ أدْمُعِه * إلا آشْتِهاراً في الحُبِّ، فآشْتَهرا.

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

هَيَّجَ البينُ دواعِي سَقَمِي، * وكَسَا جِسْمِيَ ثوبَ الألَمِ!
أيُّها البَيْنُ ، أقِلْنِي مَرَّةً * فإذا عُدْتَ، فقد حَلَّ دَمِي.
ياخَلِيَّ الرَّوعِ، نَمْ في غِبْطَةٍ! * إنَّ مَنْ فارَقْتُه لم يَنَمِ.
ولقدْ هاجَ لقَلْبِي سَقَمًا * ذِكْرُ مَنْ لو شاء، داوى سَقَمِي.

وقال آخر :

بكَتْ وبكَيْتُ لوَشْكِ الفِراقْ، * فقِفْ، تَرَ مِنْ مَدْمَعَيْنا العَجَبْ!
فذا فضَّةٌ في عَقيقٍ جرَى، * وهذا عقيقٌ جرى في ذَهَبْ!

وقال آخر :

قلتُ له والرَّقيبُ يُزْعِجُه * مستَعْجِلًا للفِراق: أيْنَ أنا؟
فمَدَّ كَفًّا إلى ترائِبِه * وقال : كُنْ آمِنًا، فأنتَ هُنا!

وقال آخر :

قد قلتُ إذ سارَ السَّفِينُ به، * والشَّوقُ يَنْهَبُ مُهْجَتِي نَهْبَا:
لو كانَ لِي مُلْكٌ أصُولُ به، * "لأخَذْتُ كُلَّ سَفينَةٍ غَصْبَا"

وقال كُشاجِم :

مُزِجَتْ دُموعُ العينِ مِنِّي يومَ بانُوا بالدِّما.
فكأنَّما مَزَجَتْ بخَدِّي مُقْلَتِي خَمْرًا بما!

وقال آخر :

لم أنس يومَ الفِراقِ مَوْقِفَها، * وطَرْفُها فى دُمُوعِها غَرِق.
وقولَها، والرِّكابُ سائرةٌ : * تَتْرُكُنا هكذا، وتَنْطَلِقُ؟

ومنه ماقيل فى مفارقة الأصحاب :

لَمَّا رأيتُ مُصاحِبي ومعاشِرى * لجديد وُدِّى بالقطيعةِ مَزَّقَا، ٥
فارقْتُه وسلَلْتُ من يَده يَدى، * وقرأتُ لى وله : "وإنْ يتَفَرَّقَا".

وقال آخر :

قالوا : قَطعْتَ صديقَكَ البَرَّ الذى * منه آستفَدْتَ مَكارِمَ الأخْلاقِ.
فأجبتُهم : بعضُ المَفاصل رُبَّما * فسَدَتْ، فتُقْطَع فى صَلاح الباقى!

وقال آخر : ١٠

ولقد شَكَرْتُ مُفارِقِى * إذْ ساءَ فى أخْلاقِه.
لو كان أحْسنَ عِشْرتِى، * لهلَكْتُ يومَ فراقِه.

ومثله قول الآخر :

علَّمتْنِى بهَجْرِها الصَّبْرَ عنها، * فهى مَشْكُورةٌ على التَّقْبِيحِ!
وأرادَتْ بذا قَبِيحَ فَعَالٍ * صنعَتْه، فكان عينَ المَلِيحِ! ١٥

ومما قيل فى التوديع، قال البحترىّ :

أقولُ له عِنْدَ تَوْدِيعِه، * وكُلٌّ بعَبْرتِه مُبْلِسُ :
لئن قعَدَتْ عنكَ أجسامُنَا، * لقد سافَرَتْ مَعك الأنْفُسُ!

وقال أبو الطيب المتنبي :

يا راحلًا ، كلُّ مَنْ يودِّعُهُ * مُودِّعٌ دِينَـــه ودُنْيـاه.

إنْ كان فيما نراهُ مِنْ كَرَم * فيـكَ مَزِيدٌ ، فزادَكَ اللهُ!

وقال البحتري :

٥ ألم تَرَنِي يومَ فارقْتُـــهُ * اوَدِّعُه ، والهوى يَسْتَزِيدْ

أُوَلِّي إذا أنا ودَّعْتُـهُ ، * فيغْلِبُنِي الشوقُ حتَّى أَعُودْ.

وقال أبو تمـام :

نَأْيٌ وَشِيكٌ وَانطلاقُ ، * وغَلِيلُ شَوْقٍ وَاحْتِرَاقُ.

بأَبِي فَـتًى وَدَّعتُـــه * تاهَتْ بصُحْبته الرِّفَاقُ!

١٠ بدرٌ يُضِيء لعاشِـــقيـــه فما يُطِيفُ به المِحَاقُ!

وقال ابن زيدون :

وَدَّعَ الصـــبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ، * حافظٌ من سِرِّه ما اسْتَوْدَعَكْ!

يقْرَعُ السِّنَّ على أنْ لم يَكُنْ * زاد فى تِلْكَ الخُطَا ، إذ شَيَّعَكْ!

يا أخا البَـــدْرِ سَنَاءً وسَـنًا ، * حفِظَ اللهُ زمانًا أطْلَعَـــكْ!

١٥ إن يَطُلْ بَعْـدَكَ ليلِي ، فلَكَمْ * بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليل مَعَكْ!

وقال أبو عبد الرحمن شاعر "اليتيمة":

إذا دَهَاكَ الوداعُ فاصبر * ولا يهُولنَّـك البعـادُ!

وانتظر العود عن قريب ، * فانَّ قلبَ الوَداع عادُوا.

وقال آخر :

وَدَّعتُه حيثُ لا تُودِّعُهُ * رُوحى، ولكنَّها تسير معَهْ
ثم تَوَلَّى وفى القُلُوب له * ضيقُ مجالٍ وفى الدموع سَعَهْ

وقال الإمام الصولى :

لو كُنْتَ يوم الوَدَاعِ حاضِرَنَا * وهُنَّ يَشْكُونَ عِلَّةَ الوجد، ٥
لم تَرَ إلا الدُّمُوعَ جاريةً * تَسْقُط من مُقْلَةٍ على خَدِّ.
كأنَّ تِلكَ الدُّموعَ قَطْرُ نَدًى، * يَقْطُر من نَرْجِسٍ على وَرْدِ!

وقال أبو منصور أحمد بن محمد المخمىّ :

وقَفْتُ يومَ النوى منهم على بَعَدٍ * ولم أُودِّعْهُمُ وَجْدًا وإشْفاقَا.
إنِّى خَشِيتُ على الأظعان من نَفَسِى * ومن دُموعِىَ : إحراقًا وإغراقا. ١٠

وقال ابن نُبَاتة :

ولَمَّا اسْتَقَلَّتْ للرَّواحِ حُمُولُهُمْ * ولم يَبْقَ إلا شامِتٌ وغَيُورُ،
وقَفْنا : فمِن باكٍ يُكَفْكِفُ دَمْعَه، * ومُلْتَزِمٍ قلبًا يَكادُ يَطِيرُ!

وقال آخر :

ولَمَّا وَقَفْنا للوَدَاعِ، وقَلْبُها * وقَلْبِى يَبُثَّان الصَّبَابةَ والوَجْدا، ١٥
بكَتْ لُؤْلُؤًا رَطْبًا ففاضَتْ مَدَامِعِى * عقيقًا فصارَ الكُلُّ فى نَحْرِها عِقْدا.

(٩١) وقال آخر :

وَدَّعتُها ولَهِيبُ الشَّوقِ فى كَبِدِى * والبَيْنُ يُبعِدُ بينَ الرُّوح والجَسَدِ،
وَدَاعَ صَبٍّ لم يُمكِنْ وَدَاعُهما * إلا بلَحْظَةِ عَيْنٍ أو بَنَانِ يَدِ.

وحاذَرتْ أعيُنَ الواشينَ فانصرفَتْ * تَعَضُّ من خَوفِها العُنَّابَ بالبَرَدِ.
وكان أوّلُ عَهْـدِ العيْنِ يوم نأَتْ * بالدّمعِ آخِرَ عهدِ القَلْبِ بالجَـلَدِ.

وقال الهيثم الكلاعىّ، من شعراء "اليتيمة":

ولم أنْسَها يومَ الوَداعِ، ومَسْحَها * بوادِرَ دَمْعِ العَيْنِ. والعَيْنُ تَذْرِفُ.
أفانِينُ تَجْـرِى من دُموعٍ ومن دَمٍ * على الخـدِّ منها تَسْتَهِلُّ وتَرْعُفُ.
وتكرارَنا نَجْوى الهوى ذاتَ بَيْنِنا، * وكلٌّ إلى كلٍّ يلِينُ ويَعْطِفُ.
جعلْنا هُناكَ الهَجْـرَ منّا بجانِبٍ، * وللبَيْنِ داعٍ بالتَّرحُّـلِ يَهْتِفُ.
ولولا النوى، لم نَشْكُ ضَعْفا عن الأسى! * ومَنْ يَحمِلُ الأثقالَ بالبَيْنِ يَضْعُفُ!
فقلتُ: كِلانا مُثقَلٌ من صَبابةٍ، * ولكنّنى عن حَمْلِها مِنْكِ أضْعَفُ.

وقال الظاهر البصرىّ:

نَفْسِى الفِـداءُ لمن جاءَتْ تُودِّعُنِى * يومَ الفِراقِ بقَلْبٍ خافِقٍ وجِلِ!
قد كنتُ فارقتُ رُوحى يومَ فُرْقَتِها، * لكن حَيِيتُ بطيبِ الضَّمِّ والقُبَلِ!

وقال يزيد بن معاوية:

جاءتْ بوجْهٍ كأنَّ البدْرَ رَقْعَهُ * حُسْنا على مِثلِ غُصْنِ البانةِ الثَّمِلِ.
إحْدى يَدَيْهـا تُعاطِينِى مُعتَّقَـةً * نكَّتْها عَصْفَرتُه حُمْـرةُ الخَجَلِ.
ثُمَّ آستبدّتْ وقالت وهْىَ عالمـةٌ، * بما تقول وشمسُ الكأسِ لم تَفِلِ:
لا ترحَلَنَّ، فما أبقيْتَ لى جَـلَدا * ممـا أُطيق به تَوْدِيعَ مُرْتَحِـلِ!
ولا مِن الصـبْرِ ما ألْقى الفِراقَ بِهِ * ولا من الدّمعِ ما أبْكِى على طَلَلِ!

ومن الناس من كره الوداع. وفى ذلك يقول البحترىّ:

اللهُ جارُكَ فى آنْطِلاقِـكْ * تِلقاءَ شامِـكَ أو عِراقِكْ!

لا تَعْـــــذُلَنِّى فى مَسِيـــرى يومَ سرت ولم أُلاقِـكْ!
إنِّى خَشِـيتُ مَـواقِفًا * للبَيْنِ تَسْـفَحُ غَرْبَ ماقكْ!
وعلمتُ أنَّ بُكاءنَا * حسبُ ٱشتياق وٱشتِيَاقِكْ!
وذكَرْتُ مايَجِـدُ المودِّعُ عنـد ضَمِّـكَ وٱعتِناقِكْ،
فـتَرَكْتُ ذاكَ تعمُّـدًا * وخرجتُ أهْرُبُ من فراقِكْ! ٥

وقال آخر:

الله يعلَمُ ما تَرَكْت وَدَاعَهُ، * ولقد جَزِعْت لبُعْدِه وفِراقِه،
إلا مخافـةَ أنْ يُذيبَ فُؤادَهُ * مافى فُؤادِى منه عنْد عِنَاقِه!

وقال آخر:

إنّ تَرْكِى فَضِـيلةَ التشْيِيع * لٱجتِنَـابِى مَشَـقَّةَ التَّوديع. ١٠
مايَفِى أُنْسُ ذا بوَحْشة هذا، * فـرأيتُ الصَّوابَ تَرْكَ الجميع!

وقال آخر:

ما تركْتُ الوَداعَ يوم ٱفـترقْنا * عن مَلَالٍ ولا لوجهٍ قَبِيـحِ.
أنتَ رُوحِى على الحقيقـة ما زِلْـتَ، وما ٱختَرْتُ أن أُودِّعَ رُوحى!

١٥

ومما قيل فى الصدّ والهِجْران، قال أبو عُبادة البحترىّ:

هَجَر الحبيبُ، فمتُّ من شَغَفٍ * لَمَّا حُرِمْتُ عَزِيمةَ الصَّـبْرِ!
فإذا قضَيْتُ، فنـادِ: ياحَزَنِى، * هـذا قَتِيلُ الصَّـدّ والهَجْرِ!
والبـدرُ فى حلٍّ وفى سَـعَةٍ * من سَفْكه دمَ عَبْـدِهِ الحُرِّ!

وقال ابن مَيَّادة :

كانُوا بَعِيدًا، فكنتُ آمُلُهُمْ * حتَّى إذا ماتقارَبوا، هَجَرُوا.

فالبُعْدُ منهم على رجائِهِمُ * أنفَعُ من قربهم إذا هَجَرُوا!

وقال أبو الحسن أحمد بن عمر النهروانيّ : (٩٢)

٥ على قَلْبِي الاحِبَّةُ بالتمادِي * في الهوى غَلَبُوا.

وبالهجْرانِ من عينيَّ طِيبَ النومِ قد سَلَبُوا.

وما طَلَبُوا سِوى قتلي، * فهانَ عَلَيَّ ما طَلَبُوا!

ولما سمع الشيخ العالم صدر الدين محمد بن الوكيل هذه الأبيات، عارضها، وأنشدني لنفسه في صَفَر الأغر الميمون سنة ثلاث عشرة وسبعمائة .

١٠ لَئِنْ غَلَبُوا على عَقْلِي، * لقد سَلَبُوا لِمَنْ غَلَبُوا!

وإنْ أبْكِي تبسُّمَهُمْ، * فخُلَّبَ بَرْقِهِمْ خَلَبُوا!

وإن تَرْجُ العيونُ، فَقَدْ * إليها السُّهْدَ قد جَلَبُوا!

وإنْ عطَفُوا برِقَّتِهِم، * فدَرَّ مَدامعي حَلَبُوا.

١٥ ومما قيل في الزيارة، قال الوزير أبو عبد الله بن الحداد :

إذا جاءني زائرا حُسْنُهُ * أقامَ عليه رَقِيبا عَتِيدَا.

إذا ما بَدَا، سَرْبَلَتْهُ العُيون * وخَرَّتْ وُجُوهٌ إليه سُجُودَا.

هوالبَدْرُوالغُصْن: خَدّاوقَدًّا، * كما أنهُ الظَّبْيُ: لَحْظا وَجِيدَا.

أتى زائرا وفُؤادِي خَلِيّ، * فمرَّ به مُسْتهامًا عَمِيدَا.

٢٠ وغادَرَني بعْدَه في غَرَام * تَضَرَّم بين ضُلُوعي وَقُودَا!

وقال نصير الخُبْزَأَرْزِى، شاعر "اليتيمة" عفا الله عنه :

خَلِيلَىَّ ! هَلْ أبصَرْتُما أو سَمِعْتُما * بأكْرَمَ من مَوْلًى تَمَشَّى إلى عَبْد !
أتى زائِرًا من غَيْرِ وَعْدٍ وقال لى : * أَصُونُكَ عن تعليق قَلْبِك بالوَعْدِ !

وقال الوأواء الدمشقى :

زارَ بليلٍ على صَبَاحٍ * على قَضِيبٍ على كَثِيبِ !
حتَّى أتت ألْسُنُ الليالِى * مُعْتذِراتٍ من الذُّنُوبِ.
فيالَهَا زَوْرَةً أخَذْنا * بها أماناً من الخُطُوب !

وقال أبو عبد الله الحداد :

يازائرًا، مَلأَ النَّواظِرَ نُورا * والنَّفْسَ لَهْوًا والفُؤادَ سُرورا !
لوأسْتَطِيعُ، فرشْتُ كلَّ مَسَالِكى * حَدَقًا وبِيضَ سَوَالِفٍ ونُحورَا.

وقال آخر :

أهْلًا وسَهْلًا بطارِقٍ طَرَقَا، * أحبَبْتُ فيه السهاد والارَقا !
زارَ على غَفْلةِ الرقيب ويُمْناه تُدارِى وِشَاحَه القَلَقا.
فبِتُّ منه مُعانِقًا صَنَمًا * يَنْفَحُ مِسْكًا وعَنْبَرًا عَبِقا.
لوشِئْتُ، أنشأْتُ من ذَوَائِبه * لَيْلا، ومن نُور وجْهِه فَلَقَا !

وقال أبو عبد الله الحامدىّ من شعراء "اليتيمة" :

مُشتاقةٌ طَرَقَتْ فى الليل مُشْتاقَا ! * أهلًا بمَنْ لم يَخُنْ فى العَهْدِ مِيثاقَا !
أهْلًا بمن ساقَ لِى طَيْفَ الأحِبَّةِ فى * ليلِ الدُّجُنَّةِ، بل أهْلًا بما ساقَا !
يازائرًا زارَ من قُرْبٍ على بَعَدٍ، * آنسْتَ مستوحِشًا ! لا ذُقْتَ ماذاقَا !

اللهُ يعلَمُ لو أنى ٱستطعْتُ، لقد * فرشْتُ مَمْشاكَ آماقًا وأحداقا!
يالَيْلُ، عرِّجْ على إلفَيْنِ قد جعلا * عقْدَ السواعِدِ للأعناقِ أطواقا!

وقال مؤيد الدين الطغرائىّ:

وزائرةٍ وافَتْ، فأجللْتُ خدَّها * وقبَّلْتُ إكراما لمَوْرِدِها الأرضا!
فيا زَورةً جاءتْ على غيرِ مَوْعِدٍ، * فقرَّتْ عيونٌ وٱشتفَتْ أنفُسٌ مَرْضى!
فلَمْ أرَ إلَّا ما ألَذُّ وأشتَهِى، * ولم أرَ إلَّا ما أوَدّ وما أرضى!
على أنَّها وَلَّتْ ولم أقْضِ سُنَّةً * — من الوَطَرِ المطُولِ دَهْرا — ولا فرضا!
وما سوَّغَتْنا ليلةَ الوصلِ قَرْضَها * إلى أنْ بَدَا الإصْباحُ يَسْتَرْجِعُ القَرْضا.

وقال ٱبن سُكَّرة، من شعراء "اليتيمة":

أهلًا وسَهْلًا بمَنْ زارتْ بلا عِدَةٍ * تحْتَ الظلامِ ولم تحْذَرْ من الحَرَسِ!
تستَّرتْ بالدُّجى عَمْدا، فما ٱستَتَرَتْ * وباتَ إشراقُها لَيْلًا على قَبَسِ!
ولو طَوَاها الدُّجى عنَّا، لأظهَرَها * برقُ اللِّثاتِ وعطْرُ النَّحْرِ والنَّفَسِ!

(٩٣) ومما قيل فى تخفيف الزيارة وموانعها، قال شاعر الحماسة:

ولَمَّا رأيتُ الكاشِحِينَ تَتَبَّعُوا * هَوانَا وأبْدَوْا دُونَنا نَظَرا شَزْرا،
جعَلْتُ — ومابى من جَفاءٍ ولاقِلًى — * أزورُكُمُ يومًا وأهْجُرُكُمْ شَهْرا!

وقال مسلم بن الوليد:

أقْلِلْ زيارَتَكَ الصَّديقَ، يَرَاكَ كالثَّوبِ ٱستَجَدَّهْ!
إنَّ الصَّديقَ يُمِلُّه * أنْ لا يَزَالَ يَرَاكَ عِنْدَهْ.
إلَّا الكِرامَ ذَوِى النُّهى، * إنَّ الكريمَ يُدِيمُ عَهْدَهْ!

وقال آخر:

إذا ما كَثرتَ على صاحبٍ * وقد كان يُدْنيك من نَفْسِهِ،
فلا بُدّ من مَللٍ واقِعٍ، * يُغَيِّر ما كان منْ أُنْسِهِ!

وقال آخر:

لئِنْ تأخَّرتُ عن مَفروضِ خِدْمَتِكمْ * تجَشُّما، فضَمِيرِى غيرُ مُتَّهَمِ! ٥
سعى وِدادِى إليكُمْ بالوفاءِ لكم، * والسَّعىُ بالقَلْب فوقَ السعْىِ بالقَدَمِ!

وقال ابن المعلم:

لم أَطْوِ بَحْرَ نَداكَ ـ مع قُرْبِى ـ قِلًى * إلا مَخافةَ مَوْجِهِ المُتراكب.
وعَلِمْتُ أنِّى إن أتيْتُك زائرًا، * ثَقُلتُ، والتثقيلُ ليس بواجب.

وقال المعوّج: ١٠

ثلاثةٌ منعَتْها من زيارَتِنا، * وقد طوى الليلُ جَفْنَ الكاشِحِ الحَنِق:
نُورُ الجَبِين، و وَسْواسُ الحُلِىّ، وما * يَمُسُّ أردانَها من عَنْبَرٍ عَبِقِ.
هَب الجَبِينَ بفَضْلِ الثوبِ تسْتُره، * والحَلْىَ تنْزِعه، ما الشأْنُ فى العَرَق؟

وقال أبو فراس الحمدانىّ:

لقد نافَسَنِي الدّهْرُ * بتأْخيرى عن الحَضْرهْ. ١٥
فَما ألْقى من العِلّةِ ما ألقى من الحَسْرهْ!

ومنها التأخر عن عيادة المرضى، قال ابن زُرَيق الكوفىّ الكاتب:

يامَرِيضًا لِسُقْمِهِ، * مَرِضَ العِلْمُ والوَفا!
لم يكُنْ تَرْكَ العيا * دةَ هَجْرًا ولا جَفا.

لم أُطِقْ أنْ أراكَ يا * أكرمَ الناسِ مُدْنَفا!
طالَ خَوْفِي عليك، والـ * ـحمدُ للهِ إذ كَفى!

وقال آخر:

منَعَتْنِي عليـكَ رِقَّةُ قَلْبِي * من دُخُولِي عليكَ في العُوّادِ.
لو بأُذْنِي سمعتُ منكَ أنِيناً، * لتَفَـرّى على الأَنِينِ فُؤادي.

وقال آخر:

فواللهِ! لَيْسَ انْقطاعِي جَفًا * وفي كَبِدِي منك نارٌ تَشِبْ!
ولكنّني قَطُّ لا أشْـتَهِي * أرى مَنْ أُحِبُّ كما لا أُحِبْ!

ومما قيل في المدامع، قال العسكريّ: أبلغُ ما قيل في امتلاء العين من الدمع قولُ بعض الأعراب:

فَظَلْتُ كأنّي من وَراءِ زُجاجةٍ * إلى الدّار من فَرْط الصَّبابة أنظُرُ.

وقال البحتريّ:

ويحسُنُ دَلُّها والموتُ فيـه، * وقد يُسْتَحْسَنُ السيفُ الصَّقِيلُ!
وَقَفْنا والعُيونُ مُثَقَّلاتٌ * يُعالِجُ دَمعَها طَـرْفٌ كَلِيـلُ!
نَهَـتْهُ رِقْبَـةُ الواشينَ حتّى * تعلّق: لا يَغِيضُ ولا يَسِـيلُ!

وقال السريّ:

بنفسِيَ مَنْ رَدَّ التحيـةَ ضاحِكًا، * فجَدّدَ بعد اليَأْسِ في الوَصْلِ مَطْمَعِي!
إذا ما بَدَا، أبدى الغَـرامُ سرائِرِي * وأظهَرَ للعُذّال ما بين أضْلُعِي.
وحالَتْ دُموعُ العينِ بيني وبَيْنَه، * كأنّ دُموعَ العينِ تَعْشَقُه مَعِي.

وقال الصولىّ :

قد كانَ فى طُولِ البُكا لِى راحةٌ، * وعِنَانُ سِرِّى فى يَدِ الكِتْمانِ.
حتَّى إذا الإعْلانُ نَبَّـه واشِيًا، * رقَأَتْ دُموعى خَشْـيةَ الإعْلانِ!

وقال بشّار :

ماءُ الصَّـبابةِ، نارُ الشَّوقِ تَحْـدِرُه * فهـل سَمِعتُم بمـاءٍ فاضَ من نَارِ؟ ٥

وقال أبو هلال العسكرىّ :

أشـكُو الهوى بدُموعٍ قادها قَلَقٌ * حتَّى عَلِقْنَ بجَفْنٍ ردَّها الفَرَقُ.
ففى الفُـؤادِ سَبِيلٌ للأسى جَدَدٌ، * وفى الجُفُونِ مَقِيـلٌ للكَرى قَلِقُ.
لَهِيبُ قلبى أفاضَ الدَّمْعَ من بَصَرى، * والعُودُ يَقْطُر ماءً وهو يَحْـتَرِقُ!

وقال الصولىّ : أنشد أبو الحسن بن رجاء المبرّد يوما بيتَ ذى الرّمّة : ١٠

"لعَلَّ انْحِـدارَ الدمع يُعْقِب راحةً * من الوَجْدِ أو يَشْفِى نَجِىَّ البَلابِلِ!"

وقال : من قال فى مثله، فقد ملح .

وقال الحسن بن وهب :

إبْكِ! فمـا أكْثَرَ نَفْعَ البُكا! * والحُبُّ إشْـفاقٌ وتَعْلِيلُ!
إفْزَعْ إليه فى ازْدِحام الجوى * ففيـه مَسْـلاة وتَسْهِيلُ. ١٥
وهـو إذا انت تأمَّلْتَـهُ * حُزْنٌ على الخدّيْنِ مَحْلُولُ!

وقال العباس بن أحمد بن الأحنف :

إنِّى لأجْحَـدُ حُبَّـكم وأُسِرُّهُ * والدمعُ مُعْـتَرِفٌ به لم يَجْحَدِ. (٩٤)
والدمعُ يشهدُ أنَّنى لكِ عاشِـقٌ * والناسُ قد علمُوا وإن لم يَشْهَدِ!

وقال آخر :

فلا تُنْكِرَنْ لَوْنَ الدموعِ فإنَّما * يُبَيِّضُها تصعيدُها من دَمِ القَلْبِ!

وقال العسكريّ :

آفةُ السِّرِّ من دُمُو * ع دَوامٍ دوامِـــعِ!

٥ كيفَ يخفى مع الدُّمُو * ع الهوامِي الهوامِـعِ؟

ما رأينـا أخا هَوًى * سِرُّه غـيرُ ذائِـعِ!

إنّ نِيرانَ حُبِّـه * باديـاتُ الطلائِـعِ!

وقال خالد الكاتب :

بَكَيْتُ دمًا حـتّى بقِيتُ بلا دَمٍ، * بُكاءَ فَتًى فردٍ على شَجَنٍ فَرْدِ!

١٠ أأبْكِي الذى فارقْتُ بالدَّمْع وحدَه؟ * لقد جَلَّ قدرُ الدمع فيه إذًا عنْدى!

وقال آخر :

غدَتْ بأحِبَّتى كُومُ المَطَايَا، * فبانَ النومُ وامتنَعَ القَـــرارُ.

وكان الدَّمْعُ لى ذُخْرًا مُعَدًّا، * فأنفقْتُ الذخيرةَ يومَ ساروا!

وقال آخر :

١٥ طالَ عَهْدِى بها فلمّا رأتْنِي، * نظَمَتْ لُـؤلؤا على تُفّـاحِ!

وقال آخر :

إذ لا جَوابَ لمُفْحَمٍ متحيِّرٍ * إلا الدموعُ تُصانُ بالأطْرافِ.

وقال آخر :

تقول غَداةَ البَيْنِ عِنْـدَ وَدَاعِها : * إلى الكَبِدِ الحَرّى : فَسِرْ، ولكَ الصَّبْرُ!

٢٠ وقد ســبقَتْها عَبْرةٌ: فدمُوعُهـا * على خدِّها بِيضٌ، وفى نحرِها حُمْرُ!

معناه : أن الدّموع إذا انحدرت إلى نحرها احمرّت من الطِّيب .

قالوا : وأحسن ماقيل فى صفة الدّموع إذا آمتزجت بالدماء، قول أبى الشّيص :

لَهَوْنَ عن الإخوانِ إذْ سَفَرَ الضُّحى * وفى كَبِـدِى من حَرِّهنّ حَرِيقُ.
مزجْتُ دَمًا بالدّمْع حتّى كأنما * يُذابُ بعيْـنِى لؤلؤٌ وعَقِيـقُ.

وقول أبى تمـام :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدامِـعٍ لم تُنْظَمِ، * والدمعُ يَحْمِلُ بعضَ ثِقْلِ المُغْرَمِ! ٥
وَصَلَتْ نجيعا بالدُّموع، نخدها * فى مثل حاشِـيَةِ الرِّداءِ المعلم!

ومن أجود ماقيل فى بياض الدمع على حمرة الخدّ قول الصولىّ :

كأنَّ تلكَ الدُّموعَ قَطْرُ نَدًى * يَقْطُر من نَرْجِس على وَرْد!

وهى أبيات تقدّمت فى التوديع .

ونحوه قول آبن الرومىّ : ١٠

لَمَّا دَنَا البيْنُ وزاحَ الدَّلُّ، * ودّعتُهـا ودمعُها منهَلُّ.
وخدُّها من قَطْره مخضَلُّ * كأنه وَرْدٌ عليـه طَلُّ!

وقال آخر :

كأنَّ الدُّموعَ على خَدّها * بَقِيَّـةُ طَلٍّ على جُلَّنَار.

١٥

ومما قيل فى الرضا من المحبوب باليسير، فمن ذلك قول حُمَيد بن ثور :

أُقَلِّب طَرْفِى فى السماء لعَـلَّه * يُوافِقُ طَرْفِى طَرْفَها حين تَنْظُر!

ومثله قول آبن المَعْلُوط :

أليس اللّيـلُ يجمع أمَّ عمرو * وإيَّانَا؟ فذاكَ لنـا تَدانِى!
بلى، وأرى السماء كما تَرَاها، * ويَعْـلُوها النهارُ كما عَلَانِى! ٢٠

وقال جميـــل :

وإنى لأرْضى منكِ، يابثن، بالَّذِى * لو ٱستَيْقَن الواشِى لَقَرَّتْ بَلابِلُهْ !
بِلَا، وبأنْ لاأَسْـتطِيع، وبالمُنَى * وبالأملِ المكذوب قد خابَ آملُهْ !
وبالنَّظْرةالعَجْلى، وبالحول ينقضى، * أواخِـــرُه لا تلتَـــقى وأوائِـــلُهْ !

٥ وقريب منه قول الآخر :

يَودُّ بأنْ يُمْسِى سقيما لعَلَّها * إذا سمِعَتْ منه بشَكْوى تُراسِلُهْ !
ويهتَزُّ للمعروف فى طَلَب العُـلا * لتُحْمَدَ يومًا عند سَلْمى شمائِلُهْ !

أخذ العسكرىّ المعنى فقال :

وقلتُ : عساها إن مَرِضْتُ تَعُودُنِى * فأحبَبْتُ لو أنِّى غَدَوتُ مَرِيضا !
١٠ وزِدتُ ٱتِّسـاعا فى المَكارِمِ والعُلا * لِيُصْبِحَ جاهى عنـدهُنَّ عَرِيضا !

وقال أبو الفضل بن عبد العزيز :

يامَنْ تَهجَـرَتْ فلا تُبالِى ! * هل تَرْجِع دولةُ الوِصالِ؟
هل أطمَعُ ياعذابَ قلبى * أن يَنْعَم فى هـواك بالِى؟
الطَّرْف كما عَهِـدْتِ باكٍ * والجِسْـمُ كما تَرَيْنَ بالى !
١٥ ماضَرَّكِ أن تعلِّلِينى * فى الوَصْل بموعد المُحَال !
أهْواك وأنت حَظُّ غيرى، * يا قاتِلتِى، فما ٱحْتِيـالى؟

ومما قيل فى النحول، فمن ذلك قول المتنبى : (٩٥)

أبْلى الهَوى أسَفًا يومَ النَّوى بَدَنِى، * وفرَّقَ الهَجْرُ بين الجَفْن والوَسَنِ !
٢٠ رُوحٌ تَرَدَّدُ فى مثـــل الخِلَال إذا * أطارَت الريحُ عنه الثوبَ لم يَبِنِ .

كفى بجسمى نُحُولا أننى رجلٌ * لولا مُخَاطبتِى إيَّاكَ — لم تَرَنِى!

وقال آخر :

أُسَرّ إذا بليتُ ، وذاب جِسْمِى * لعلَّ الريحَ تَحْمِلُنى إليهِ!

وقال ابن المعتزّ :

ماذا تَرى فى مُدْنَفٍ * يَشْكُوك طُولَ سُقْمِه؟ ٥
أضنَيْتَه فما يطيـ * ـق ضَعفُه حملَ اسْمِه،
ولا يَرَاك عائدًا * إلا بعَيْنِ وَهْمِه!

وقال كُشَاجم :

وما زَال يَبْرِى أعظُمَ الجسم حُبُّها * ويَنْقُصها حتَّى لطُفْنَ عن النَّقْص.
فقد ذُبْتُ حتَّى صِرْتُ لو أنا زُرْتُها، * أمِنْتُ عليها أنْ يَرى أهلُها شَخْصى. ١٠

ومن أبلغ ماقيل فى ذلك، قول ديك الجنّ :

أنْحَلَ الوجْدُ جِسْمَهُ والحنينُ، * وبَرَاه الهوى فما يَسْتَبِينُ!
لم يَعِشْ أنَّه جليدٌ، ولكن * دَقَّ جِدًّا، فما تَراه المَنُونُ!

وقال نصير بن أحمد :

أنْحَلَنِى الحُبُّ فلو زُجَّ بِى * فى مُقْلةِ النائِم، لم يَنْتَبِهْ! ١٥
وكان لِى فيما مَضى مخاتَمٌ * واليوم لو شِئْتُ، تمنْطَقْتُ بِهْ!

وقال الحسن بن وهب :

أبْلَيْتَ جسْمِى من بَعْدِ جِدَّتِه، * فما تكادُ العيونُ تُبْصِرُهُ.
كأنه رَسْمُ مَنْزِلٍ خَلَقٍ * تَعْرِفُه العينُ، ثُمَّ تُنْكِرُهُ!

ومما قيل في المحبوب إذا اعتلّ، قال العباس بن الأحنف :

زعمُوا لى أنّها صارتْ تُحَمّ! * إبتلى اللهُ بهذا مَنْ زَعَمْ!
اِشتَكَتْ أكلَ ما كانَتْ، كَمَا * يُكْسَفُ البَدْرُ إذا ماقِيل تَمّ!

٥ وقال أحمد بن إسحاق الطالقانىّ :

لقد حَلّت الحُمّى بساحةِ خَدِّهِ * فأبدلَتِ التُّفّاح بالسَّوْسَنِ الغَضّ!

قال أبو هلال العسكرىّ : والأصل فى ذلك قول عبد بنى الحسحاس . ونقل فى كتابه ديوان المعانى بسند رفعه قال : كتب عبد الله بن عامر إلى عثمانَ بنِ عفّان رضى الله عنه : إنى اشتريت لك عبدا حبشيا شاعرا . فكتب إليه عثمان : لاحاجة ١٠ لى فيه ، فإن قُصارى الشاعر منهم أن يهجو أعراضهم ويشبب بكريمتهم . فاشتراه بنو الحَسْحاس ، فرئى يوما وهو ينشد :

ماذا يُرِيدُ السَّقامُ من قَمَرٍ * كلُّ جمالٍ لوجْهِه تَبَعُ؟
ما يَبْتغى — خابَ — من مَحاسِنه؟ * أما لَهُ فى القِباح مُتَّسَعُ؟
غيّرَ مِنْ لَوْنِه وصَفَّرَ ما * وردَّ منه الجَمالُ والبِدَعُ.
١٥ لو كان يَبْغِى الفِداءَ، قيل له : * ها أنا دُونَ الحبيبِ يا وَجَعُ!

ثم يقول لنفسه : أحسَنْتَ والله! يريد أحسَنْتَ . وكان العبد كما حَدَس عثمانُ، فما زال يهجو مواليَه ويشبّب بنسائهم، حتّى قتلوه . فضحكتْ منه امرأة وقد ذهبوا به ليقتلُوه ، فقال :

فإنْ تَضْحكى مِنّى، فيارُبَّ ليلة * جعلْتك فيها كالقَباء المفرَّج!

وقال لهم :

فلقد تحدَّر من جَبِينِ فتاتِكُمْ * عَرَقٌ على ظَهْرِ الفراشِ وطيبُ !

وهو الذى مدح نفسه بقوله :

إن كنْتُ عبدًا ، فنَفْسِى حُرَّةٌ كَرَما ، * أو أسودَ اللونِ ، إنى أبيضُ الخُلُقِ !

ولم أورد هذه الواقعة هنا لأنه موضعها من كل وجه ، وإنما الشىء بالشىء يذكر. ٥

وقال شاعر :

لو لم تَكُنْ حُمَّاه مشغُوفةً * تَعْشَقُه طَوْرًا وتَهْواهُ ،

ماعانقَتْ إذ أقبلتْ جِسْمَه * وقَبَّلتْ إذْ فارَقَتْ فاهُ !

وقال آخر :

لو كانَ كُلُّ مَرِيض * يزدادُ مثْلَكَ حُسْنًا ،

١٠ لكانَ كُلُّ صَحيح * يَودُّ لو كان مُضْنى !

وقال محمد بن العباس الخوارزمى ، من شعراء "اليتيمة" :

ولِى من أُمِّ مِلْدَمَ كُلَّ يومٍ * ضَجِيعٌ لا يَلَذُّ له مَنَامُ !

مقَبِّلةٌ وليس لها ثَنَايَا ، * معانِقةٌ ولَيْس لها آلْتِزامُ !

١٥ كأنَّ لها ضَرائرَ من غِذَائِى ، * فيُغْضِبُها شَرَابِى والطَّعامُ .

إذا ماصافَحَتْ صَفَحاتِ جِسْمِى ، * غَدَا أَلِفًا وأَمسى وهو لامُ . (٩٦)

ومما يناسب هذا الفصل ما قيل فى شرب الدواء ، فمن ذلك قول أبى تمام :

أعْقبكَ اللهُ صِحَّةَ البَدَنِ ، * ما هَتَفَ الهاتِفاتُ فى الغُصُنِ .

٢٠ كيْفَ وجَدْتَ الدَّواءَ ؟ أوْجدَكَ اللهُ شِفَاءً به مَدى الزَّمَنِ !

وقال ابن حجاج :

يا مَنْ به تَتَبَاهى * مَجالِسُ الخُلَفاءِ!
ومَنْ تُقصِّرُ عَنْه * مَدائِحُ الشُّعَراءِ!
ياسيِّدى كيْفَ أصبحْتَ بعْدَ شُرْبِ الدَّواءِ؟
خرجْتَ منه تُضاهِى * فى الحُسْنِ بَدْرَ السَّماءِ!
فى ثوبِ صِحَّةِ جِسْمٍ * مُطَرَّزٍ بالشِّفاءِ.

***

ومما قيل على لسان الورقاء — وكل مطوّقة عند العرب حمامة : كالدُّبْسِىّ والقُمْرِىّ والوَرَشانِ وما أشبه ذلك . وجمعها حَمَامٌ . يقال للذكر والأنثى منه حمامة.

والحمامة تَبْكِى، وتُغَنِّى، وتَنُوح، وتُغَرِّد، وتَسْجَع، وتُقَرْقِر، وتَتَرَنَّم .

وإنما لها صوت سجيع لا يُفْهم : فجعله الحزينُ بكاءً، والطَّرِبُ غناءً .

قال حميد بن ثور :

مطوّقةٌ خَطْباءُ تَسْجَع كُلَّما * دنَا الصيفُ وانزاح الربيعُ فأنْجَما.
تغنَّتْ على غُصْنٍ عِشاءً فلم تَدَعْ * لنائحةٍ فى نَوْحِها متلوَّمَا.
فلم أرَ مِثْلِى شاقَهُ صوتُ مِثْلِها، * ولا عَرَبِيًّا شاقَهُ صوتُ أعْجَما!

وقال مجنون بنى عامر :

ألَا ياحماماتِ اللّوى عُدْنَ غُدْوةً * فإنِّى إلى أصواتِكُنَّ حَزِينُ!
فعُدْنَ، فلمَّا عُدْنَ، كِدْنَ يُمِتْنَنِى * وكِدتُ بأسرارٍ لهُنَّ أُبِينُ!
فلم تَرَ عَيْنِى مثلَهُنَّ حمائمًا * بكَيْنَ، ولم تَدْمَعْ لهنَّ عُيُونُ!

وقال أبو الأسود الدؤلى :

وساجعٍ فى فُروعِ الأَيْكِ هَيَّجنِي ! * لَمْ أدرِ لِمْ ناحَ مِمَّا بِى ولِمْ سَجَعا؟
أباكيًا إلْفَه من بعدِ فُرْقتِه، * أمْ جازِعًا للنَّوى من قَبْلِ أن يقَعَا؟
يَدْعُو حمامَتَه، والطيرُ هاجِعةٌ: * فما هَجَعْتُ له لَيْلِى وما هَجَعا!
شَكَا النَّوى فبكى خَوْفَ الأسى فرمى * بَيْنَ الجَوانِحِ من أوجاعِه وَجَعا! ٥
كأنَّه راهبٌ فى رأسِ صَوْمعةٍ * يتلُو الزَّبُورَ، ونجمُ الصُّبْحِ قد طَلَعا!

وقال جَحْدَر العُكْلىّ :

وقِدْمًا هاجَنى فازددْتُ شَوْقا * بُكاءُ حامتَيْنِ تجاوَبان.
تجاوَبَتَا بلَحْنٍ أعجَمِىٍّ * على عُودَيْنِ من غَرْبٍ وبانِ.
فكان البانُ أن بانَتْ سُلَيْمى * وفى الغَرْبِ اغْتِرابٌ غيرُ دانِى! ١٠

وقال عوف بن مُحلِّم :

ألا ياحَمامَ الأيْكِ إلْفُك حاضِرٌ * وغُصْنُكَ مَيَّادٌ! ففِيمَ تَنُوحُ ؟

وقال ابن عبد ربه من ابيات :

وَكَيْفَ، وَلِى قَلْبٌ اذا هَبَّتِ الصَّبَا * أهابَ بشَوْقٍ فى الضُّلُوعِ دَفِينِ ؟
ويهتاجُ منه كُلّ ما كان ساكِنًا * دعاءُ حمامٍ لم تَبِتْ بوُكُون. ١٥
وإنَّ ارتياحِى من بُكاءِ حمامَةٍ * كذى شَجَنٍ داوَيْتُه بشُجُونِ.
كأنَّ حَمام الأيْك لَمَّا تجاوَبَتْ، * حَزِينٌ بكى من رَحْمةٍ لحَزِين!

وقال ابن قلاقس :

غناءُ حَمامٍ فى مَعاطِفِ بانِ * إلى مَذْهَبِ الحُبِّ القَديمِ ثَنانِى.

تغنّى فأعطافُ الغُصونِ رواقِصٌ * وأحْداقُ أزهارِ الرِّياضِ رَوانِي.
فذكّرني شَرْخَ الزمانِ فدمْعي * سَفُوحٌ وقلْبي دائمُ الخفقانِ.

وقال أعرابيّ :

وقَبْلِيَ أبْكي كُلَّ مَنْ كان ذا هَوًى * هُتُوفُ البَوا كي والدِّيارُ البَلاقِعُ.
وهُنّ على الأغْصان من كُلِّ جانبٍ * نَوائحُ، ما تَخْضَلُّ منها المَدامِعُ!

وقال فتح الدين بن عبد الظاهر :

نَسَبَ النـاسُ للحَمامَـةِ حُزْنًا، * وأرَاها في الحُزْنِ ليسَتْ هُنالكْ!
خَضبَتْ كَفَّها وطَوَّقت الجِيـ * ـدَ وغَنَّتْ، وما الحَـزينُ كذلكْ!

وقال ابن الرومىّ :

أشَجَتْكَ داعِيَـةٌ مع الإشْراقِ، * هتفَتْ بساقٍ من ذُؤابةِ ساقِ؟
أيْكِيَّـةٌ تدعُـو، ولم أر باكِيًا * رَيْبَ الزمانِ قَرِينَها لِفراقِ.
تَبْدُو أواميتُ(١) الشَّجَى في صَوتِها * وتُرى عليهـا أنّة الإطْـراقِ.
لو تَسْتطيعُ، تسلَّبتْ من طَوْقِها * لو كان مُنْتحَلًا من الأطْواقِ.

ومما قيل في المراجعات، فمن ذلك قول وضّاح اليمن :

قالَتْ : ألَا لا تَلجَنْ دارَنَا، * إنَّ أبانَا رجُـلٌ غائرُ!
أما رأيتَ البابَ من دُونِنا؟ * قلتُ : فإنّي واثِبٌ طافِـرُ!
قالت : فإن القَصْر من دُونِنا! * قلتُ : فإنّي فوقَهُ ظاهِـرُ!

(١) يطلق الامت في اللغة على الضعف والوهن ويجمع على إمات وأموت ولم ترجمه على أواميت .

قالت : فإنَّ الليثَ عالٍ به * قلت : فسيفى مُرْهَف باتِرُ!
قالت : فهذا البحْرُ ما بيْننَا * قلت : فإنِّى سابحٌ ماهِرُ!
قالت : أليس اللهُ من فوْقنا؟ * قلت : بلى! وهو لنا غافِرُ. (١٧)
قالت : فإمَّا كنْتَ أعيَتْنا، * فأْتِ إذا ما هجَع السَّامِرُ!
وٱسقُطْ علينا كسُقُوطِ النَّدى، * ليلةَ لا ناهٍ ولا زاجِرُ! ٥

وقال المؤمل بن أميل :

وطارقاتٍ طَرَقْنى رُسُلا، * والليلُ كالطَّيلسانِ مُعْتكِرُ.
فقُلْنَ : جِئْنا إليكَ عن ثِقةٍ * من عندِ خَوْدٍ كأنَّها قَمَرُ!
هَلْ لكَ فى غادةٍ مُنعَّمةٍ * يَحارُ فيها من حُسْنِها النَّظَرُ؟
فى الجِيدِ منها طُولٌ إذا ٱلتفتَتْ * وفى خُطاها إذا خطَتْ قِصَرُ. ١٠
فقُمتُ أسْعى إلى مُحَجَّبةٍ * تُضىء منها البُيوتُ والحُجَرُ.
فقلتُ لَمَّا بدا تخَفُّرُها : * جُودى، ولا يمنعَنَّكِ الخَفَرُ.
قالت : تَوقَّرْ، ودَعْ مقالَكَ ذا * أنتَ ٱمرُؤٌ بالقَبيحِ مشْتَهِرُ!
واللهِ لا نِلْتَ ما تُحاوِلُ أو * يَنْبُتَ فى بطنِ راحتى شَعَرُ!
لا أنتَ لى قَيِّمٌ فتجْبُرَنى * ولا أميرٌ علىَّ مُؤْتَمَرُ. ١٥
قلتُ : ولكِنْ ضَيفٌ أتاكِ به * تحتَ الظلامِ القضاءُ والقَدَرُ.
فاحتَسِبى الأجْرَ فى إنالَتِه، * ويا يسرى قد تطاوَلَ العسرُ!
قالتْ : فقد جئْتَ تبْتغِى عَمَلا * تكادُ منه السماءُ تَنْفَطِرُ.
فقلتُ : لَمَّا رأيتها حَرِجَتْ * وغَشِيَتْها الهمومُ والفِكَرُ :
لا عاقَبَ اللهُ فى الصِّبا أبدًا * أنثى ولكنْ يُعاقَبُ الذَّكَرُ! ٢٠

قالت : لقد جئتَنا بمبتدَع، * وقد أتتْنا بغيرِه النُّذُرُ.
قد بيَّنَ اللهُ في الكتابِ فلا * وازرةٌ غيرَ وِزْرِها تَزِرُ.
قلتُ : دَعي سورةً لَهِجْتِ بها * لا تحرمَنَّا لَذَّاتِنا السُّورُ.
وجْهُك وجهٌ تمَّتْ محاسنُه، * لا وأبي لا تمسُّه سَقَرُ.

٥ وقال آخر :

خَطَرتْ فقلْتُ لها مَقالةَ مُغْرَمٍ: * ماذا عَلَيْكِ من السَّلامِ فسَلِّمي.
قالتْ : بمَنْ تَعْني فحُبُّكَ بيِّنٌ * في سُقْمِ جِسْمِكَ؟ قلت: بالمتكلِّمِ.
فتبسَّمَتْ، فبكَيْتُ، قالت: لا تُرَعْ * فلعلَّ مثلَ هواكَ بالمتبسِّمِ.
قلتُ : اتَّفقْنا في الهوى، فزيارةً * أو مَوْعدًا قبلَ الزيارةِ قدِّمي.
١٠ فتضاحكَتْ عجبًا، وقالتْ : يافتى * لو لم أدَعْكَ تنام، بي لم تحلُمِ.

وقال آخر:

ولمَّا نزلْنا على زَمْزمٍ، * ونحنُ نُريد طَوافَ الإفاضَهْ،
بكَيْتُ، فقالت : علامَ البُكا؟ * فقلتُ : على الوُدِّ أخْشَى انتقاضَهْ.
فقالت : ثكِلْتُكَ من عاشقٍ * تُشَمِّر ذيلَكَ قبل المخاضَهْ.
١٥ فقلتُ : صَدَقْتِ، ولكنَّني * أُعلِّم نفسي طَريقَ الرِّياضَهْ.

ومما قيل في المردوف، قال بعض الشعراء :

عيناكَ على سفك دمي أسرفتا والجسم نحيلْ .
أطلِقْ برضاك في الهوى أسرَفتَّي حيرانَ ذليلْ .

فى ريقــكَ خمرتان قد حُرِّمتا من غير دليــلْ .
والعاشــق ظمآنُ فيا حرُّ! متى تســقيه قليــلْ ؟

وقال آخر :

فى خدّكَ وردتان قــد رُكِّبتا من فوق قضيبْ .
فى قلبىَ جمــرتان قــد أُضرِمتا: نارٌ ولهيـــبْ . ٥
حلّفتــكَ بالإله ياخيرَ فـــتى رفقًا بكئيبْ .
حيرانَ يهــيم بين حتّى ومتى والأمر عجيبْ .

وقال آخر :

يابدرُ ! عصَيتُ فى الهوى عذّالى طوْعا لهــواكْ .
وآتقــدتُ لأمرك الكبير العالى ماقــلَّ وفاكْ ! . ١٠
إن كان رِضاكَ سقمَ جسمى البالى صــبرا لرضاكْ .
عذّبْ جســدى بسائر الأحوالِ إلا بجفــاكْ .

وقال آخر :

يامرتحِــلا إلى الحِمَى مَصرَفُه بالله عليــكْ خذ معك كتابْ، فيه خبرى .
لى ثمّ رشًا عساك تســتعطفُه إن هان عليكْ فى رد جــوابْ، للمتظــرِ . ١٥
إنْ عرَّضَ بى، فقل : نعم أعرفُهُ يشــتاق اليكْ قــد رقّ وذابْ، بين البشرِ .
ما يتركه هــواكَ أو نتلفَــه والأمر اليــكْ ما الهجر صوابْ، من مقتدرِ .

ومما قيل فى الجناس، قال ابو الفضل الميكالى :

مواعيده بالوصل أحلام نائم * أشــبّهها بالقــفر أو بسَرابِهِ ٢٠
فمن لى بوجه لو تحيّر فى الدجى * أخو سفرٍ فى جُنح ليل سَرَى بِهِ

وقال أيضا :

صِلْ محبًّا، أعياه وصفُ هواه * فضناه ينوب عن تَرجُمانِهْ.
كلّما راقه سواك، تصدّت * مقلتاه بدمعه تَرجُمانِهْ.

وقال آخر :

٥ ماضرّ مَن قد أباح قتلى * في حبّه لو أباح رِيقَهْ.
أبَى فؤادى السلوَّ عنه * لكنه ما أبَى حريقَهْ.

وقال آخر :

أقول والليل مرخىً غياهبه * والدَّيْر يَسمعنى حِسّ النواقيس :
يانفسُ كم بين مسرورٍ بلذّته * وبين مُبْلًى بتشتيت النوى قيسى.

١٠ وقال آخر :

يامن تنكّدت الدنيا لغيبته * أساخطٌ أنت عنى اليومَ أم راضى؟
أمرضتَ بالهجر قلبَ المستهام فما * عليك، بالوصل لو داويتَ أمراضى؟

وقال آخر :

لقد راعنى بدر الدجى بصدوده * ووكّل أجفانى برعيِ كواكِبهْ.
١٥ فياعَبْرتى سُحّى دَمًا لفراقه * ويا كبدى صبرا على ما كواكِ بهْ!

وقال آخر :

قلت له : ما ذا السواد الذى * فيك تبدّى؟ قال : ذا غاليهْ.
فقلت : قبّلنى إذًا قُبلة * فقال : خذها قُبلةً غاليهْ.
فقلت : ماتغلو على عاشق * فى حبكم، ذى كبدٍ غاليهْ.

وقال آخر :

شافَــهَ كَفّى رشأٌ * بقُبــلةٍ ما شَــفَتِ .
فقلت إذ قبّلهـا : * ياليت كفّى شفتى !

وقال آخر :

لم يكفكم أخذُ قلبــه سلَبًـا * حتى أخذتم عن طرفه وسَنَهْ .
كم ليــلةٍ بات للغــرام وكم * يومٍ وشهرٍ ما نامــه وسَــنَهْ .

وقال آخر :

يا من لحظاته أســودٌ وَثَبَتْ * قــد صحّ هواك فى فؤادى وثَبَتْ .
جرّدتُها ســيوفَ صبرى فنبت * يامن غرس الهوى بقلبى فنبتْ .

وقال آخر :

يامن بحشاشتى ـ إذا غابـ سكنْ * هيّجتَ من الغرام ما كان سكنْ .
يا من شَرَع الصدودَ فى الحبّ وسَنّ * من بعدك مهجورُك ماذاق وَسَنْ .

وقال آخر :

أهوى قمرا ســفكُ دمى حلّ لهُ * فى أىّ شريعــةٍ ومَن حلّلَهُ .
ما بلّــلَ شَــعرَه وما حلّلَهُ * إلا سمــحَ البخيلُ وانحلّ لهُ .

وقال آخر :

مَن بلّلَ صُدْغَ قاتلى مَن سَلْسَلْ ؟ * مَن أودع ثغرَه رحيقا سَلْسَــلْ ؟
مَن علّلنى فى حبّه ؟ مَن سَلْسَلْ ؟ * يا عاذل إن جهلتَ مابى سَلْ سَلْ .

وقال آخر :

يا بانــةً لحبّهــا * فى القلب أصلٌ قد نبتْ .

سيوف صبرى عن سيو * ف مقلتيك قد نَبَتْ.
تلك لحاظُ أعين * أم أُسْدُ غيلٍ وثبت؟
(١)
... ...
لواحظٌ لو برزتْ * فى يوم حربٍ، لسَبَتْ.
٥ وعقربُ الصُّدغ التى * لكلّ قلب لَسَبَتْ.
أَسْنَاؤُكم تاقت لها النفوس يوما وصَبَتْ.
لاسيّما إن حَملتْ * نشرَك ريح وصبتْ.
فخيلهم دون بلو * غ السُّول فينا قد كَبَتْ.
أفدى حبيبا زارنى * فكم عدوٌّ قد كَبَتْ.
١٠ رعى حقوق فى الهوى * عليه لمّا وَجبتْ.
وسكّن الأحشاء بالوصال لمّا وَجَبَتْ.

وقال أيضا :

من لفتى، جار عليه طرفه فيما قضَى؟
صبٌّ إذا الدهر قضى * عليه بالبين، قضَى.
١٥ يبكى على دهر تولّى بالتدانى أو مضى.
تمطر عيناه إذا الشبرق الشآمِى أو مضا.

وقال آخر :

رمى حرَّ قلبى بهجرانه * رشًا مادرى قدرَما قد رمى.
وقد كان قدّم إحسانه * ولكنه قدَّ ما قدّما.
٢٠ فتسليم أمرى به للقضا * ذَخرتُ به أجرَ ما أجرما.

(١) لعل هنا بيتا سقط من الأصل ولم نعثر عليه .

ومما قيل فى الموشّحات، فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين :

يد الإصباح، قدحتْ زناد الأنوار * فى مجامر الزّهر.
دهر جذلان، وٱعتدال ريْعان * فما الإظعان؟ عن طَلًا وغزلانْ.
راق الزمان، وشدَتْ على البان * ذاتُ الجناح، وٱنثنت قدودُ الأشجارْ. ٥
* فى الغلائل الخُضر *
لنا أجساد، للسرور تتجذبُ * كما تنقاد، لربيعها العرب.
حتى الجماد، لا يفوته الطربُ * طافت بالراح، سحبٌ فسكر النّوّارْ.
* من سُلافة القَطْرِ *
إن ٱنخلاعى، مع رشًا وصهباء * لدى بقاعٍ، حكت وشى صنعاء. ١٠
وللشّعاع، لهبٌ على الماء * وللرياح، فى متون تلك الأنهارْ.
* شَبَكٌ من التِّبر *
وريم المى، بات بيدَه صدرى * كبدر تمًّا، وسط غُرّة الشهر.
شدوتُ لمًّا، راعنى سنا الفجر * قل للصباح: إن تدنُ بطرد الأقمارْ.
* فمع الدجى نسرى * ١٥
وغصن مائلْ، الهلال أعلاه * له من نابلْ، فى النفوس قتلاه. (٩٩)
سيف الحمائل، غمده عذاراه * طوع الجماح، إن يكن كثيرَ النِّفارْ.
* فهى عادة العُفْر *

وقال ٱبن بقى :

مابى شَمول، إلا شجون * مزاجها فى الكأس، دمع هتون. ٢٠

لله ما بذَرْ، من الدمـوعِ * صبّ قد آستعبرْ، من الوَلُوعِ.
أودى به جؤذَرْ، يوم البقيـعِ * فهو قتيـلُ؛ لابل طعينُ.
* بين الرجا واليأسْ، له منونُ *

[خرجْتُ للحينِ، كفّى بكفّى * وحيل ما بينى، وبين إلفى.
لا شك بالبينِ، يكون حتفى * حان الرحيـلُ، ولى ديونُ.
* إن ردها العباسْ، فهو الأمينُ (١) *]

أما ترى البدرا؟ بدرَ السـعودِ * قد آكتسى خُضرًا، من البرود.
إذا آنثنى نَضْرًا، من الفـدودِ * أضحى يقولُ، : مت ياحزينُ.
* قد آكتسى باليأسْ، الياسَمينُ *

قلت وقد شرّد، النومَ عنّى * وآيَس العوّد، السقم منّى:
صدّ فلما صدّ، قرعتُ سنّى * جسمى نحيلُ، لايستبينُ.
* يطلبه الجُلّاسْ، حيث الأنينُ *

تجاوز الحـدّا، قلبى آشتياقا * وكلّفَ السهدا، مَن لا أطاقا.
قلتُ وقد مـدّا، ليـلى رُواقا * ليـلى طويلُ، ولا مُعينُ:
* ياقلبَ بعضِ الناسْ، أماتلينُ؟ *

وقال سراج الدين عمر الكنّانى الحلبىّ، يمدح الملك المنصور صاحب حماه:

جسمى ذوَى، بالكمدِ، والسهرِ، والوصبِ، من جانى
ذى شنبِ، كالبَرَدِ، كالدّررِ، كالحببِ، جمانى.

(١) الزيادة من نفح الطيب.

لى غصن بانٍ نَضِرُ * يسبيك منه الهَيَفُ.

يرتع فيه النظرُ * فزهره يُقتطفُ.

والخد منه قِفرُ * والجسم منه ترفُ.

قد جاءنا يعتذرُ * عِذاره المنعطفُ.

ثم ٱلتوى، كالزردِ، مُعبقَرِى، مُعقرَبى، رَيحانى ٥

فى مُذهَبٍ، مورَّدٍ، مدنَّرٍ، مكتَّبٍ، سَوسانى.

ظبيٌ له مرتَشَفُ * كالسلسبيل الباردِ.

غصنٌ نقًا ينعطفُ * من لين قدّ مائدِ.

بدرٌ علاه سَدَفُ * من ليل شَعرٍ واردِ.

مُقَرطَقٌ مشنَّفُ * يختال فى القلائدِ. ١٠

بين اللِّوَى، وشَهمَدٍ، بكُؤذَرٍ، فى رَبرَبٍ، غِزلانى

ذى ضَرَبٍ، ذى غَيدٍ، ذى حَوَرٍ، ذى هُدُبٍ، وَسنَانِى.

أمَا وَحلْيِ جيده! * ورنَّةِ الخلاخلِ!

والضمِّ من بروده * قَدَّ قضيبٍ مائلِ.

والوردِ من خدوده، * إذْ نَمَّ فى الغلائلِ. ١٥

لا كنتُ من صدودِه * متصلا بعاذلِ!

نارَ الجَوَى، لا تَخمُدِى، وٱستَعِرِى، وكذِّبِى، سُلوانِى

وأَسبِلِى، وٱطَّرِدِى، وٱنهَمِرِى كالسُّحُبِ، أجفانِى.

مولايَ جفني ساهرُ * مـؤرَّق كما ترى.

فـلا خيـالٌ زائرُ * يَطْرُقـني ولا كَرَى.

إنّي عليـلٌ صـابرُ * فما جَزَا من صبرا؟

إنْ سَحَّ دمعي الهامرُ * فلا تَلُمْه إنْ جَرَى.

٥ جَالَ الهوى، في جَلَدي، ومُضْمَري، أضرَّ بي، كتماني

مؤنِّبي، اتَّئِد، لا تَفْـتَرِ. وجَنِّبِ، عن عَانِي.

إنْ صَالَ بالهجر وصَـدْ * رحتُ بصبري مرتدي.

عنـه وإن طال الأمدْ * إلى ذُرَى محمـدِ.

وكيف يخشى مَن قَصَدْ * مَلْـكا كريمَ المحتِـدِ.

١٠ الملكَ المنصـورَ قـد * سَمَا سَمَاءَ السُّـودَدِ.

ثم آسْتَوى، بأجْرَدِ، مضمَّرٍ، ومِقْضَبٍ، يَمَانِي

ذي شُطَبٍ، مهنَّدٍ. وسَمْهَرِي. مضطَرِبٍ، مُرَّانِي.

مَلْـكا علت هِمَّاتُه * من فوقِ هَامِ المشترِي.

وبَخَّلَـتْ راحاتُه * سُحَّ السـحابِ الممطرِ.

١٥ وعُـوِّذَتْ راياتُه * بمحـكماتِ السُّـورِ.

بدرٌ بدتْ هـالاتُه * من الصباحِ المُسْـفِرِ.

تحت لِوَى، منعقدٍ، بالظَّفَرِ، في موكبٍ، فِرْسَانِي

كالأَشْهَبِ، في الأَسْعُدِ، كالأقمرِ. في أعْذَبِ، سَيْحَانِي.

يامَلِكًا دون الورى * تخطبُـــه المـالكُ.
ومالكا إذا سـرَى * تحْجُبُـــه الملائكُ.
بعضُ عَطَاك هل تُرَى * جادت به البرامِـكُ.
فاستَجْلِهَا من عُمَرَا * ثغـرُ مُنَـاها ضاحكُ.

لا يُحْتَوَى : كالشُّهُدِ، كالسُّكَّرِ . كالضَّرَبِ، مَعَانِى ٥
كالسُّحُبِ، كالعسجَدِ، كالجوهرِ، من حَلَبٍ، تَكَّانِى.

آنتهى ما أوردناه من الغزل والنسيب فى هذا الموضع؛ وقد آن أن نأخذ فى ذكر الأنساب وبالله التوفيق .

البـاب الرابع

من القسم الأوّل من الفن الثـانى فى الأنساب ١٠

قال الله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ . ومعرفة أنساب الأمم مما آفتخرت به العرب على العجم، لأنها آحترزت على معرفة نسبها، وتمسكت بمتين حسبها؛ وعرفت جماهير قومها وشعوبها، وأفصح عن قبائلها لسان شاعرها وخطيبها؛ وآتحدت برهطها وفصـائلها وعشائرها، ومالت إلى أفخاذها وبطونها وعمائرها؛ ونفت الدعىّ فيها، ونطقت بملء فيها . ١٥

وسأورد منها إن شاء الله تعالى ما يكتفى به، ويتمسك بأسبابه .

وقد وقفت على المقدّمة التى وضعها الشريف "أبو البركات الجوّانىّ" فرفعت له علما، ونصبت له إلى المعـالى سلما : لأنه أتقن أصولها، وحرّر فصولهـا؛ وأورد

فيها من الأنساب ما ينتفع به اللبيب، ويستغنى بوجوده الكاتب الأريب . فوجدته بدأ فيها بذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بآبائه ، وشرح جملة من نسبه الطاهر وأبنائه . فرأيت أن أسرد النسب من أصله ، وأبدأ بآدم عليه السلام، ثم بنسله ؛ وأجعل العمدة على سرد عمود النسب المتصل بسيد البشر .

٥ وأذكر من ذلك ما آشتهر عند أهل الأنساب وآنتشر؛ إلى أن أنتهى إلى آسمه الشريف فأجعله خاتمة النسب ، وأتمسك من شريعته ومحبته بأوثق سبب . وأرجو ببركته بلوغ مآربى، ونجح مطالبى؛ وستر عيوبى، ومغفرة ذنوبى؛ وتزكية عملى ، وسدّ خللى ، والتجاوز عن سيئاتى ، والمسامحة بفلتاتى ولفتاتى ؛ والخِيَرة فى حركاتى وسكناتى .

١٠ هذا واللهِ رجائى من كرم ربى، وإن قل عملى وكثر ذنبى؛ وعلى الشريف العمدة فيما أوردته ، والعهدة فيما نقلته ؛ فمن تأليفه نقلت، وعلى مقالته آعتمدت .

قال السيد الشريف نقيب النقباء أبو البركات بن أسعد بن علىّ بن معمر الحسينى الجوّانى، النسابة رحمه الله: إن جميع ما بنت عليه العرب فى نسبها أركانَها، وأسست عليه بنيانها، عشر طبقات .

---

١٥ الطبقة الأولى الجذم

وهو الأصل إما إلى عدنان وإما إلى قحطان، والجذم القطع، يقال: جِذْم وجَذْم؛ وذلك لما كثر الآختلاف فى عدد الآباء وأسمائهم فيما فوق ذلك، وشق على العرب تشعب المناهج فيه وتصعب المسالك؛ قُطع الخوض فيما فوق قحطان ومعدّ وعدنان، وآقتُصر على ذكر ما دونهما، لآجتماعهم على صحته . ومنه قول سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم لما انتسب إلى معدّ بن عدنان : «كذب النسابون فيما فوق ذلك» لتطاول العهد. فمن كان من ولد قحطان، قيل يمنيّ. ومن كان من ولد معدّ بن عدنان، قيل خِنْدفى، أو قَيْسى، أو نِزَارى، وإن كان الجميع داخلا فى نِزَار، أعنى معدّ بن عدنان؛ وإنما كان بعد نِزَار جَمَاجِم استُغنى بالنسبة إليها عن نزار بن معدّ بن عدنان؛ ولأن جمهور العلماء طبقوا النسب على ما قدّمناه أربع طبقات : خندفىّ، وقيسىّ، ونزارىّ، ويمنىّ. فقولهم: خندفى أى كل من يرجع إلى الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان؛ وهو جمّاع خندف، فتوسعت العرب فى ذلك إلى أن قالوا: إلياس هو خِنْدف، لأن ولده وهم مُدْرِكَة، وطَابِخَةُ، وقَمَعَةُ، أمهم خندف، وهى ليلى بنت حُلْوان بن عِمْران، بن إِلْحَاف بن قُضَاعة، خندفت فى طلب ولدها أى أسرعت، فقال لها إلياس : مالك تخندفين ؟ أى تهرولين فسميت خندف، فرجع إلى خندف أبطن عدّة: كُمَزَيْنَة، والرِّبَاب، وضَبَّة، وصُوفَة، والشُّعَيْرا، وتَمِيم، وهُذَيل، وأَسَد، والقَارَة، وكِنَانَة، وقُرَيْش، فقيل لولد إلياس "خندف" ثم قيل لإلياس نفسه خندف إذ كان أبا لمن أمه خندف لاغير ولا ولد له إلا من خندف. ولذلك نظائر وأشباه فى العرب، كما قيل لمالك بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مضر: "عائدة" لأن أم ولده عائدة بنت الحُمْس بن قُحَافة الخَثْعَمِيَّة .

وكما قيل لعَوْف بن وَائِل بن قَيْس بن عَوْف بن عبد مَنَاة بن أُدّ بن طَابِخَة بن إلياس بن مضر: "عُكْل" لأن أمّه يقال لها عُكْل حضنت ولده .

وكما قيل لعمرو بن أُدّ بن طابخة بن إلياس : "مزينة" لأن أم ولده مُزَيْنة بنت كَلْب بن وَبَرَة القُضَاعية .

وكما قيل لعمرو بن قيس بن عَيْلان بن مضر بن نزار "جَدِيلَةُ قَيْس" لأن أم ولده جَدِيلة بنت مُرّ، أخت تميم بن مر، بن أُدّ، بن طابخة .

وكما قيل للحارث بن عَدِيّ بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عُرَيْب بن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَإ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان "عاملة" لأن أم ولده عاملة بنت مالك بن وديعة القضاعية .

وكما قيل لأَشْرَس بن السكون بن أَشْرَس بن كِنْدَة "نُجِيبُ" لأن أم ولده نُجِيبُ بنت ثَوْبَان المَذْحِجِيَّة، وغير ذلك مما يطول الكلام باستقصائه والله أعلم .

وأما قولهم قيسيّ، فالمراد به من ولد قَيْس بن عَيْلَان بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عَدْنَان، ويكون عيلان هاهنا أخا إلياس بن مضر، وكان[1] آسم إلياس عيلان . (١٠١)

وقال الوزير ابن المغربي : هو الناسّ بتشديد السين فيكون مضر أعقب إلياس والناس . ومن العلماء من قال : إن عيلان كان حاضنا، حَضَن قيسا وليس بأب فيقول قيس عيلان بن مضر، مضاف إليه بغير ذكر البنوّة، كما قيل في لخذ من قضاعة سَعْد هُذَيْم، وهُذَيْمٌ حاضن، وغير ذلك في العرب كثير والأول أصح . وهذا قيس بن عيلان بن مضر هو الذى قيل لقيس به قيس والله أعلم .

وذهب قوم إلى أن ولد معدّ بن عدنان كلهم يقال لهم : قيس وهو خطأ، وإنما هم يجوّزون ذلك على وجه بعيد ليميزوا بالعزوة إلى ذلك بين يمن وغيرها : فيقولون : قيس ويمن، فيظن السامع أنهما أخوان، وأين قيس من قحطان جدّ يمن : لأن قحطان أبا اليمن هو أخو الجدّ العشرين لقيس : وهو فالَغ بن عابرَ، وقحطان بن عابرَ . وسيرد ذلك في سرد النسب بعون الله ومشيئته .

(١) لعله أو كان آسم إلياس الخ ليستقيم الكلام .

وبيانه هاهنا أن قيس بن عيلان ، بن مضر ، بن نزار ، بن معدّ ، بن عدنان ، ابن أُد[1] ، بن أُدَد ، بن اسماعيل الذبيح ، بن إبراهيم الخليل ، بن تَارَحَ : وهو آزر بن ناحُور ، بن سَاروغ ، بن أَرْغُو ، بن فالَغ ، بن عَابَر . فقالغ أخو قحطان ، وقحطان هو الجد الذى ترجع إليه يمن كلها ؛ وهو أحد جِذْمَى النسب كما تقدّم .

فقد بان أن قول من يقول قيس : ويمن قبيلة ليس بشىء ، وإنما قال ذلك لولد معدّ بن عدنان إشارة لإعلام السائل إذا سأل المعدىّ من أىّ نسب هو ، فكأنه يقول له من البطن التى منها قيس . وهذا بعيد وشاذ . ٥

ومما يؤكد بعده أنا إذا جوزنا ذلك لمن ينتسب إلى جمجمة فوق قيس كربيعة ابن نِزار بن معدّ بن عدنان ، وإياد بن نزار وغير ذلك وان كان بعيدا فكيف يجوز أن يطلق ذلك على قريش . فنقول : هم قيس ، وإنما قريش بنو فهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزَيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مضر بن نزار ، وإلياس هو عم قيس فيكون قريش دون قيس بهذه العدّة ، فلا يجوز أن يقال : إن قريشا من قيس ، وقيس إنما هو ابن عم الأب السادس من قريش : وهو مدركة ؛ ولو كان عمًّا له ، لكان ربما يجوز على وجه التعارف عند العرب بأن العم أب كما أخبر الله تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام فقال تعالى : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ، والذى ذهب إلى أن العم أب قال : أنا أطلق على ولد معدّ بن عدنان قيسا لأن قيسا منهم ، فأقول : قريش من قيس . وهذا بعيد من وجه أن قيسًا ليس ١٠ ١٥

(١) هكذا بالأصل . وفى كتاب الجوانى المنقول منه هذا الفصل والموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ناقصة الآخر (ابن أُدّ بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذار بن إسماعيل الذبيح الخ) . ٢٠

بعم لقريش، وإنما هو ابن عم، ولا ترجع العُزْوة في الانتساب إلى ذيل الأعقاب، إنما يعزى لأعلى النسب، لا لأسفل العقب، ولو صح ذلك، لعُزِي الإنسان لابن ابن عمه وهذا لا يصح.

فقد وضح أن العزوة إلى قيس لاتصح إلا لمن يرجع إليه بالولادة منه: لأن ربيعة وإيادا ابني نزار أعلى منه، فلا يصح أن يُعْزوا إليه؛ وقريش وكنانة أسفل منه فلا يصح أن يعزوا إليه. ٥

وبالجملة فإنه ابن عم لهما، أعني قريشا وكنانة، وأخ لهما أعني ربيعة وإيادا؛ ولا يجوز أن يعزى الأب إلى ابنه إذ كانت النسبة في ذلك لا ترجع إلى الابن إنما ترجع إلى الأب. ولو اعتمد ذلك في الأنساب لاختلطت العزوة إلى كل أب بالأب الآخر فلم يتميز، ولم يقف عند حد دون الآخر. وهذا يؤول إلى الجهالة بالأبطن والأفخاذ والعشائر. ١٠

وأما شهرة العزوة إلى قيس، فلما فيها من الجماجم والرءوس والقبائل والأرحاء وهي عند النسابين أكبر من تميم ومن بكر ابني مُرّ بن أد بن طابخة؛ إذ كان في قيس بنو عَبْس، وذُبْيان، وغَطَفان، وأَعْصُر، وهَوازِن، وعُدْوان، وفَهْم: وهم جَدِيلة قيس، وسُلَيم، وثَقِيف، وعامِر، وجُشَم، ونَصْر، وبَكْر، وسَعْد، وسَلُول، وربيعة، وكِلاب، وقُشَير، وحَبِيب، وعُقَيْل، وحَرِيش، وخَفَاجة، وطَهْفَة، وغير ذلك من الأفخاذ والعشائر التي تشرح في مواضعها بمشيئة الله وعونه. ١٥

وأما نزار بن معد بن عدنان، ففيها من الأبطن والأفخاذ والعشائر: كبني رَبِيعَة الفَرَس، وضُبَيْعة أَضْجَم، وأَكْلُب، وأَسْلم، ويقدم، وأجلان، وهميم، وعبد القَيْس، ودُهْن، والنَّمِر، وتَغْلِب، ووَائِل، وبَكْر، وصعب، وعلى، وحبيب، وعَنَزَة، وعَنْز، ٢٠

ورُفَيْدة، وإراشة، ويَشْكر، وعُكَابة، وعِجْل، وجُشَيْم، وحَنِيفة، وزِمَّان، والدول[1]، وشَيْبان، وذُهْل، ومازِن، وسَدُوس، وبَلِيّ، وعَوْف، وبَدْر، ومَعْن، ودُعْمِيّ، وزُهْرة، وحُذَافة.

فأما أَنْمار بن نِزار، فانقلب في يمن كما انقلبت قضاعة في غير ذلك من الأفخاذ والعشائر مما بين في موضعه إن شاء الله تعالى والحمد لله. ٥

(١٠٢) وأما يمن، فهم أولاد قحطان، بن عابر، بن شالخ، بن أَرْفَخْشَذ، بن سَام، بن نوح عليه السلام.

وفيها عدّة جماجم وقبائل وأبطن وأفخاذ وعشائر: كَسَبَإ، وطَيِّئ، والأَشْعر، وحِمْيَر، وقُضَاعة، وغَسَّان، وأَوْس، والخَزْرَج، والأَزْد، ولَخْم، وجُذَام، وعَامِلَة، وخَوْلان، وغَافِق، ومَذْحِج، وحَرْب، وسَعْد العَشِيرة، ومَعَافِر، وهَمْدان، وكِنْدة، وكَلْب، ومَهْرة، وصِنْهَاج[2]، وبَارِق، وبَجِيلَة، وثَعْلَبة، وذَرْما، وزُرَيْق، وعُنَيْز، وعَتَّاب، وبُحْتُر، وجَرْم، ومُرَاد، وعَبْس، وجُعْفِيّ، وسَلْمَان، وتُجِيب، وصدا، والنَّخَع، والصَّدِف، وحَضْرَمَوْت وغير وذلك. ١٠

وكل ما ذكرناه فهو أبطن وأفخاذ وعشائر مختلطة، وما قصدنا فيها الترتيب، على طبقات النسب والتعقيب، وإنما جئنا من كل عُزْوة ببعض مشاهيرها التي تنسب إليها: ليتبين بعضها من بعض ويعلم غرضنا في تحرير ما قدمناه والله أعلم. ١٥

---

(١) بضم الدال وإسكان الواو وهو غير الدؤل الذي ينسب اليه أبو الأسود الدؤلي.

(٢) الذي في القاموس: وصنهاجة قوم بالمغرب من ولد صنهاجة الحميري وفي تاج العروس: "قال ابن دريد بضم الصاد ولا يجوز غيره. قال شيخنا والمعروف عندنا الفتح خاصة في القبيلة بحيث لا يكادون يعرفون غيره". ٢٠

وأما عِزْوة العرب إلى يمن : وهم ولد قحطان، فلكونهم نزلوا اليمن؛ وكان منهم ملوك الحِيَرة وأصحاب سدّ مأرب فتيامنوا، فنسبوا إلى اليمن .

وقيل: إنما قيل لهم: يمن بأَيْمَن بن هَمَيْسَع بن حِمْيَر، وهو جدّ الملوك التبابعة؛ والأول أولى .

وأكثر العزوة لمن ينقلب عن نسبه إلى اليمن، لأجل أن الملوك كانت في اليمن : مثل آل النُّعْمان بن المُنْذِر من لَخْم، وآل سَلِيح من قُضَاعة، وآل مُحَرِّق، وآل العَرَنْجِج وهو حمير الأكبر بن سبإ كالتبابعة والأذواء وغيرهم .

والعرب يطلبون العزّ ولو كان في شامخات الشواهق [و بطون الأمالق البوالق فينتسبون الى الأعز لحماية الحمية و إباءة الدنيـة وسكون النفوس الى نفيس الكثرة والعصبية بطريق دقيق في النظر لا على الظن المشتهر] : كما جرى لقضاعة بن معدّ ابن عدنان [لمـا خلف على أمه الجرهمية بعدُ] مالك بن مرة بن عمرو بن زيد بن مالك ابن حمير أباه معد بن عدنان؛ فجاءت بقضاعة على فراش مالك بن مرة فنسبه العرب إلى زوج أمه [مالك بن مرة، عادة للعرب فيمن يولد على فراش زوج أمه]. وقيل إن اسم الجرهمية: قضاعة، فلما جاءت بولدها سمته باسمها. وقيل بل كان اسمه عميرا فلما تقضع عن قومه أي بعد سمي قضاعة . والعادة عند العرب أن تنسب الرجل إلى زوج أمه؛ ألا ترى أنها قالت في عبد مناة بن كنانة : بنو علي وهو علي بن مسعود الأزدي وكان حضن بني أخيـه لأمه وهم بكر وعامر ومرة أولاد عبد مناة بن كنانة، فغلب

(١) زيادات وجدت في نسخة الجواني المخطوطة ولم توجد في الأصل «الفوتوغرافي» .

آسمه عليهم لما تزوج أمهم هند آبنة بكر بن وائل وخلف عليها بعد أخيه، فضم إليه بنى أخيه المذكورين مع أمهم هـذه، وهم صغار فربوا فى حجره فنسبهم العرب إلى على . وسيأتى من هذا الباب أمثال له فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

والطبقة الثانية الجماهير، والتجمهر : الآجتماع والكثرة؛ ومنه قولهم : جماهير العرب أى جماعتهم، ومنه ترجمة مجموع لغـة العرب " الجمهرة " الكتاب الذى ألفه أبو بكر بن دريد وجمهرة "الأنساب" أى مجموعها والله أعلم .

والطبقة الثالثة الشعوب، واحدها شِعْب؛ ويقال شَعْب؛ ويقال فى القبيلة بالفتح وفى الجبل بالكسر : وهو الذى يجمع القبائل وتتشعب منه، ويشـبه بالرأس من الجسد؛ قال الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ الآية .

والطبقة الرابعة القبيلة، وهى التى دون الشعب تجمع العمائر؛ وإنما سميت قبيلة لتقابل بعضها ببعض وآستوائها فى العدد؛ وهى بمنزلة الصدر من الجسد .

والطبقة الخامسـة العمائر، واحدها عِمَارة : وهى التى دون القبائل . وتجمع البطون؛ وهى بمنزلة اليدين .

والطبقة السادسة البطون، واحدها بطن : وهى التى تجمع الأفخاذ .

والطبقة السابعة الأفخاذ، واحدها فَخِذ وفَخْذ، مثل كبد وكبد : وهى أصغر من البطن . والفخذ تجمع العشائر .

٥ والطبقة الثامنة العشائر، واحدها عشيرة : وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء. وسميت بذلك لمعاشرة الرجل إياهم، قال الله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ .. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم علياء قريش إلى أن آقتصر على بنى عبد مناف؛ وهم يجتمعون معه فى الجد الرابع. فمن هاهنا جرت السنة بالمعاقلة إلى أربعة آباء؛ وهم بمنزلة الساقين من الجسد اللتين يعتمد عليهما دون الأفخاذ .

١٠

والطبقة التاسعة الفصائل، واحدها فصيلة؛ وهم أهل بيت الرجل وخاصته؛ قال الله تعالى : ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُؤْوِيهِ ﴾ وهى بمنزلة القدم . (١٠٣)

١٥ والطبقة العاشرة الرهط، وهم رهط الرجل وأسرته : بمنزلة أصابع القدم . والرهط دون العشرة، والأسرة أكثر من ذلك، قال الله عز وجل : ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ . قال السيد أبو طالب فى قصيدته المشهورة التى يمدح فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأحضرتُ عند البيتِ رهطى وأسرتى * وأمسكتُ من أثوابه بالوصائل.

ورهطه بنو عبد المطلب وكانوا دون العشرة . وأسرته من بنى عبد مناف الذين عاضدوه فى نصرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تمثيل التفصيل — عدنان جذم، قبائل معد جمهور، نزار بن معد شعب، مضر قبيلة، خندف عمارة : وهم ولد إلياس بن مضر، كنانة بطن، قريش فخذ، قصى عشيرة، عبد مناف فصيلة، بنو هاشم رهط .

وحيث انتهى القول فى ذكر الطبقات فلنأخذ الآن فى بسط النسب وسرده فنقول وبالله التوفيق .

أصـــل النسب

(أبو البشر آدم عليه الســلام)

وآدم هو الجدّ الخمسون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمود النسب الطاهر المحمدىّ من آدم عليه السلام فى ابنه شيث بن آدم عليهما السلام : وهو هبة الله، وأمه حواء أمة الله .

ولما قتل قابيل بن آدم أخاه هابيل، ولد شيث، وقال آدم عليه السلام : هذا هبة من الله وخلف صالح . وهو الذى بنى الكعبة — شرفها الله تعالى — بالطين والحجارة على موضع الخيمة التى كان الله تعالى وضعها لآدم من الجنة .

وقال وهب : إن الله تعالى أنزل على شيث خمسين صحيفة، ورزق عدّة من البنين والبنات .

والعقب منه فى ابنه أنوش بن شيث وأمه لبود ابنة آدم عليه السلام . وهو الذى غرس النخلة وزرع الحبة، ونطق بالحكمة، وتدعى أمه محوايلة البيضاء .

والعقب منه في آبنه قينان بن أنوش ، وله ولد آسمه أروى (أعنى لأنوش) ، اعقب وآنقرض عقبه .

والعقب من قينان في آبنه مهلائيل بن قينان ولم يرزق غيره .

والعقب منه في ولده يارد بن مهلائيل . وكان ليارد اخوة .

٥ والعقب من يارد في آبنه أخنوخ بن يارد، وهو إدريس النبي عليه السلام، وأمه تدعى بره. قيل سمى إدريس لدرسه الصحف الثلاثين التي أنزلها الله تعالى عليه، وهو أول من خطّ بالقلم، وكان له إخوة آنقرضوا .

والعقب منه في آبنه متوشلخ بن أخنوخ، وأمه بروخا .

وعقبه في آبنه لمك بن متوشلخ، وآسمه لامخ .

١٠ والعقب منه في آبنه نوح النبيّ عليه السلام، وأمه قينوش آبنة بركائل بن محوايل، وهو عليه السلام آدم الثاني : لأنه لا عقب لآدم عليه السلام إلا من نوح وولده . وإخوة نوح عليه السلام جماعة : منهم صالح بن لمك . وسقطان . ومنان، وترسيس، وصدفا، وكان لهم أولاد آنقرضوا كلهم والعقب من نوح لا غير ، ورزق لمك والد نوح عليه السلام نوحا، وله من العمر مائة واثنان وثمانون سنة، وتوفي وقد ١٥ مضى من عمر نوح خمسمائة سنة .

وآختلف في عمر نوح : فقيل عاش ألف سنة إلا خمسين عاما : ستمائة قبل الطوفان وثلثمائة وخمسين سنة بعده . وقيل بل لبث قبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في قصته في التاريخ . وعمود النسب من نوح في آبنه سام بن نوح عليه السلام، وسام هو الجد الأربعون لسيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وأمه عمردة . وإخوة سام حام، ويافث، وبوناطل، وسالوم وهو الذى غرق فى الطوفان .

وأما سام بن نوح، فإن الله تعالى جعل فى ذرّيته الكتاب والنبوّة والملك والجمال والبياض ، ونزلوا ما بين ساقيد إلى البحر ، وما بين البحر إلى الشام : وهو وسط الأرض ، والحرم وما حوله ، والحرم إلى حضرموت ، وإلى عمان ، وإلى عالج والدهناء . ٥

والعقب من يافث بن نوح طرسوس، وهمذان، والجبال ، والجزر ، وفرنجة ، والصقالبة الذين على تخوم القسطنطينية ، واشكار ، والترك، وقبرس ، ويأجوج، ومأجوج ، وكومر، والمصيصة، وأدنه، وروادنيم ، ومأسج ، وخراسان ، وباوال ، ويونان ، وبرجام ، وكرد بن مرد بن يافث . ١٠

قال : وهذه رواية العلماء بالنسب، وسنذكر خبر كرد بعد هذا فى موضعه .

ومن ولد يونان بن يافث الروم واليونانيون ؛ كان منهم الفلاسفة وأهل الحكمة كالإسكندر وغيره .

وولد بوناطل بن نوح : وهو الذى عقد الألوية للناس حين تفرقوا : الأرغار ، والبعاس ، والدكايك ، والدمشق ؛ وهم أمم لا يحصون خلف صين الصين . ١٥

والعقب من حام بن نوح، الهند والسند والنوب، والزنج ، والحبشة، والقبط، والبربر، ومصرايم أو آسمه مصر بن حام .

(١٠٤) وذكر صاحب الشجرة : أن مصرايم أعقب من آبنه لوديم، وأن لوديم أعقب قبط مصر بالصعيد، والبيهيم، والتفوحيم، والبرنسيم ، والكشلوجيم ، والقابدقايين ، ومودشايا، وكوشايا، وهبورشايا ٢٠

قال : وهؤلاء بأجمعهم ولد قوط بن حام ، وأندلش ، وكوشان ؛ فولد قوط بن حام مصر ، فولد مصر بن قوط قبط : وهم قبط مصر ؛ وبهم سمّيت مصر مصر .
قال : هذا قول شيوخنا . وذكر أهل التاريخ : أن مصر سُمّيت بمصر بن بيصر بن حام ؛ كل ذلك قد قيل وهو الأكثر عن العلماء .

٥ وقال أبو المنذر النسابة في روايته : إن السند والهند وما بينهما من البلاد قتلهم يوشع ابن نون إلا بقيّة منهم يسيرة لحقوا بأطراف بلاد السودان : وهم الذين ما بين مصر إلى بلاد السودان ، ومنهم البربر والبجة .

وذكر صاحب الشجرة : أن كوش أبو الحبش ، وأنه كوش بن حام ، وأنه أعقب من نمرود أبي ملوك بابل ، ومن أحويلا وهو الواحات ، ومن سُفنَا وهو أبو زغاوة ،
١٠ ومن سبيا ، ومن سفخا : وهو أبو الدمدم ، ومن رعما وهو أبو البقاقو من السودان ، والعقب من رعما هذا من سبيا أبي الهند ومن دادان أبي السند .

وذكر أبو المنذر النسابة أن كنعان بن حام أعقب من حماة ، وحمص ، واروادودى وطرابلس ، وصيدون ، وهي صيداء ، وحاث ، ونفوسة ، وهوارة ، ومُزاتة ، وامورا ، وكركاسي ، ومزانة من البربر .

١٥ قال الجوّانيّ : وهذا كلّه بيّن الخلاف بين النسابين ؛ ومن النسابين من يلحق لَواتة وهم ولد بَرّ بالبربر هذا بن كنعان بن حام ، ومن اللواتيّين من يقول فيهم : إنهم قيس ، ويعبرون أنهم من ولد جابر بن بَغيض ، بن رَيْث ، بن غَطَفان ؛ وأنّ جابرا جدّهم عمّ فزارة . ومن لواتة ومزاتة من يزعم أنهم قوم ناقلة صاروا إلى بلد البربر ، وأن البربر إنما هم هوّارة ، وصَنْهاجة ، وأن أباهم تزوّج امرأة منهم يقال لها : تصوين ، فنُسبوا
٢٠ إلى أمهم ، وهوّارة تزعم أنهم قوم ناقلة من يمن جهلوا أنسابهم .

وولد لَوَاتة بن بَرّ : وهو لَواتة أربعة أفخاذ : وهم زُنَّارة ومَصَّانا ونَيْطا وتَطُوفَا؛ ولكلّ فخذ من هـذه الأفخاذ عدّة عشـائر، حصل الإضراب عن ذكرها رغبـة فى الاختصار . فلنرجع إلى عمود النسب فنقول :

إن عمود النسب الشريف من سام بن نوح فى ابنه أَرْفَخْشَذ بن سام؛ وأمه من بنات الملوك .

وكان لسام من الأولاد غير أرْفَخْشَذ : إرم ولاوَذ وأَشُوذ وغُلَيم وماش (والموصل ولد وأبو الأرمن وخُوزِستان أولاد سام)[1] . وفيهم خلاف عند النسابين .

والعقب من إرم بن سام من عَوص وجاثَر وماش وأهلُوا وإيران أولاد إرم .

فالعقب من أهلوا بن إرم بن سام : قادسان .

والعقب من أكراد[2] جدّ القبيـلة المعروفة بالأكراد، فى قول أكثر النسّابين . ومن عشيرة القبيلة من يذكر أنهـم من بنى عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن العبسىّ كما نذكره فى بنى هوازن .

وفى الأكراد عدّة بطون : كالحَلاليّة والمروانيّة وغيرهما .

وقد ذكر بعض النسابين أن كُرد بن مُرد بن يافث بن نوح . وفى ذلك خلاف .

والعقب من عَوص بن إرم بن سام : عاد، وبه سمّيت عاد إرم .

والعقب من ماش بن إرم بن سام من نَبِيط : وهو نَبَط سواد العراق .

---

(١) هكذا فى الأصل بحروفه وجاء فى "العبر" أن بنى أشوذ هم أهل الموصل وبنى غليم أهل خوزستان، ولعله الصواب .

(٢) لعله والعقب من إيران فى كرد الخ، انظر "العبر" .

والعقب من جاثَر بن إرم : ثمود وجَدِيس . فالعقب من ثمود بن جاثَر : فالِج وهَيلع وبَنوق وأَرام ؛ من ولده صالح النبيّ عليه السلام ٱبن أسف بن كَاشِج بن أرام بن ثمود .

والعقب من لاوَذ بن سام : عِمْليق وهو أبو العمالقة والفراعنة والجبابرة بمصر والشام ، وطَسم بن لاوَذ وأُمَيم بن لاوذ . وفرعون موسى : هو الوليد بن مصعب ٱبن أَشْمير بن الهُون بن عمليق بن لاوذ بن سام .

وولد الفرس أَشُور[1] بن سام : تَيرش وهم الفرس ؛ وبهم سُمّيت فارس ؛ ومنهم الأكاسرة .

وولد غُلَيم بن سام : خُوزان وهم الخُوز الذين مساكنهم بلاد الأهواز مما يلي بحر الصين .

فلنرجع إلى سرد عمود النسب فنقول : إن عمود النسب منه في شالَخ[2] بن أرفخشذ وكان له من الأولاد غير شالَخ مالك وقَينان ٱبنا أرفخشذ . قال : وزعموا أن قَينان أول من نظر في علم النجوم بعد الطوفان وٱستنبط ذلك من تَنُّورِ صُفْر كان فيه علمُها قبل الطوفان ، ودُفن في الأرض فٱستخرجه وعَلِمَ مافيه .

والعقب من شالَخ في ٱبنه عابَر بن شالَخ ، وعابر : هو هود النبيّ عليه السلام ؛ وأمه مَرجانة وهو جماع النسب . وله من الأولاد : فالِغ ، وفيه عمود النسب ، وهو أبو قريش وقحطان ويَقْطُن . فولد يقطن بن عابر : جُرْهُم بن يقطن ، كانوا ولاة البيت الحرام فمكثوا ما شاء الله ، ثم ٱستحلّوا المحارم ، وكثرت فيهم المآثم ، فأخرجهم الله تعالى من جوار بيته ، ورماهم بالفناء فلم يبق منهم أحد . وفيهم يقول القائل :

* وبادوا كما بادت بقيّةُ جُرهُمِ *

(١) هكذا بالأصل وفي "العبر" : أنهم من ولد إيران بن أشوذ بن سام بن نوح - وفي ٱبن الأثير أنهم بنو فارس بن تيرش بن ماسور بن سام .

(٢) وردت هكذا في كل المصادر التي يعتمد عليها في النسب ووردت في الكتاب المقدس في سفر التكوين (شالح) بالحاء المهملة .

وقحطان بن عابر هو أبو اليمن كلها، وجذم نسبها .

وولد قحطان هم العرب المتعربة ؛ إذ العرب ثلاث فرق : عاربة ومتعربة ومستعربة .

فأما العاربة فهم تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح : وهم عاد ، ثم ثمود ، ثم أُمَيم، ثم عَبِيل، ثم طَسْم، ثم جَدِيس، ثم عِمْلِيق، ثم جُرْهُم، ثم وَبَارِ . فعاد وعبيل ٥
(١٠٥) آبنا عوص بن إرم بن سام بن نوح، وطسم وعمليق وأميم : بنو لاوذ بن سام؛ وثمود وجديس آبنا جاثر بن إرم بن سام ؛ ووبار وجرهم آبنا فالغ بن عابر : فهذه العرب العاربة .

وأما المتعربة فهم بنو قحطان بن عابر الذين نطقوا بلسان العرب العاربة وسكنوا ديارهم . ١٠

وأما المستعربة فهم بنو إسماعيل بن إبراهيم : وهم بنو عدنان بن أُدّ .

قال الشريف الجوّانى : وهذا مختصر من نسب اليمن . قال : إن العقب من قحطان آبن عابرَ من يَعْرُب بن قحطان : وهو الذى زعمت يمن أن العرب إنما سميت عربا به وأنه أوّل من تكلم بالعربية ونزل أرض اليمن فهو أبو اليمن كلّها .

وذكر بعض النسّابين أن حضرموت بن قحطان ، وإليه يُنسب كلّ حضرمىّ . ١٥
وقيل . حضرموت من ولد حمير، وإنه حضرموت بن عمرو بن قيس بن معاوية آبن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قُطْن بن عَرِيب بن زُهَير بن أَيْمن آبن الهَمَيْسع بن حِمْير . قال : وعلى ذلك آعتماد شيوخنا فى النسب .

وقال آخرون : هو حضرموت بن يقطان بن عابر .

فولد يَعْرُب بن قحطان : يَشْجُب ؛ فولد يشجب بن يعرب : سبأ واسمه عبد شمس ؛ وإنما سُمى بسبإ لأنه أول من سَبَى من العرب ، فولد سبأ بن يشجب : حِمْير وكَهْلان .

وقالت طائفة من النسّابين : ومِراء بن سبإ . فولد مرّاء بن سبإ : شعبان قبيلة وصَرِيحان قبيلة ، ولهم عدد ومدد .

٥ وولَد حمير بن سبإ بن يشجب : مالكا وعامرا وعوفا وسعدا ووائلة وعمرا وهميسعا .

فأما عمرو بن حمير فهم آل ذى رُعَين ملوك اليمن : وهم بنو الحارث بن عمرو ابن حمير .

ومن النسّابين من ينسب ذا رُعَين الى أنه ولد زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن ١٠ معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قُطْن بن عَرِيب بن زهير بن أيمَن بن الهَمَيْسع بن حِمْير : وهم عشيرة ذى أصبح وعشيرة سيف بن ذى يزن .

قال : وشيوخنا فى النسب ينسبون التبابعة الملوك إلى أيمن بن هميسع بن حمير ولا خلاف عندهم فيه وأنهم يرجعون إلى أيمن .

وأما عامر بن حمير، فمنه قبائل يَحْصُب كلّها، وهو يحصب بن دُهمان بن عامر بن ١٥ حمير . قال : ومن شيوخ النسب من قال : يحصب بن ذى يزن بن ذى أصبح بن زيد بن الغَوْث بن سعد بن عوف بن مالك بن زيد بن سَدَد بن زُرعة ، وهم حمير الأصغر .

وأما هَمَيْسَع بن حمير فمن ولده : صَنْهَاجَة : القبيلة المشهورة المعقبة بالمغرب وفى ذلك خلاف ؛ وهى من بنى زُهَير بن أيمن بن هَمَيْسَع بن حِمْير ، وصَنْهَاجة اسم الجدّ للقبيلة كلها : وهو صَنْهَاجَة بن المثنّى بن المِسْور بن يَحْصب بن ذى يَزَن بن ذى أَصْبَح بن

زيد بن الغَوْث بن سعد بن عَوْف بن عَدِىّ بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة، وهم حِمْير الاصغر بن سَبَا الأصغر بن كَعْب بن كَهْف الظلم، بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قُطْن بن عَرِيب بن زُهَير بن أَيْمن بن هَمَيْسَع المذكور .

قال: وإلى ذى أَصْبَح هذا يرجع الإمام مالك بن أنس الأَصْبَحىّ . وقيل: ذو يزن ٥
آبن أسلم بن زيد، وذو أصبح بن مالك بن زيد .

قال : ومن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس هذا الذى فى عمود النسب ثلاث بطون غير سهل بن عمرو : وهم شَعْبان بن عمرو وحَيْران بن عمرو وحضرموت بن عمرو ؛ وحضرموت هذا هى القبيلة التى يُنسَب إليها كلّ حضرمىّ ١٠
وقد تقدّم ذكره .

وأما سعد بن حمير، فمنه السَّلَف البطن المشهورة، وأَسْلم بطن : وهما آبنا ربيعة آبن سعد بن حمير .

وأما وائلة بن حمير، فمنهم السَّكاسِك : وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير، وهى غير سكاسك كندة .

وأما مالك بن حِمْير فمن ولده قُضاعة : وهم قُضاعة بن مالك بن مُرَّة بن عمرو بن ١٥
زيد بن مالك بن حمير البطن المشهورة على مانذكره. وقيل: إنها من ولد مَعَدّ بن عَدْنان وفى ذلك يقول القائل :

أبوكم مَعَدّ كان يُكنَى ببكره * قُضاعةَ ما كنّى به من تجحجا.

ومن قضاعة ثلاث بطون : وهم عِمران بن الحاف بن قضاعة وعمرو بن الحاف
وأَسلَمُ بن الحاف بن قضاعة . ٢٠

فأما البطن الأولى من قضاعة : وهم ولد عِمران ، فأعقب حُلْوان بن عِمران بن الحاف بن قضاعة من خمس قبائل : وهم تَغْلِب الغَلْباء، ويقال : تَغلبيّ قُضاعيّ أو يمنيّ، يراد به هذا الأب ؛ وتَغلبيّ مَعَدّيّ أو نِزاريّ، فيراد به تَغلِب بن وائل بن قاسط الذى فى أَسَد بن رَبيعة بن نِزار ؛ وعَشْم بن حلوان ، وزَبّان بن حلوان ، وعمرو بن حلوان وهو سَلِيح وتَزِيد بن حُلوان (بالتاء باثنتين من فوق وفتحها) .

والعقب من تَغلِب بن حُلْوان بن عِمْران بن الحاف بن قُضاعة : وَبَرَة بن تَغلِب .

والعقب من وَبَرة بن تَغلِب من خمس أفخاذ : كَلْب بن وَبَرة ، وإليه يُنسب كلّ كَلْبيّ ، وفيهم عدة أفخاذ وعشائر : كبنى عَوف وبنى ضَمْضَم وبنى غُلَيم وبنى زهير وبنى كِنَانة ، والجميع عشائر يرجعون إلى عُذْرة بن زيد الله بن رُفَيدة بن ثور بن كلب ، وعُرَيْنة بن ثور بن كلب بن وبرة ، وإليه يرجع كل عُرَنىّ ، وأَسَد بن وَبَرة ، والبُرَك ابن وَبَرة ، والنَّمِر بن وَبَرة ، والتغلب بن وبرة ، وفهد ، وضبع ، ودبّ ، وسِيد ، وسرحان ، وذئب أولاد وَبَرة بن تَغلِب الغَلْباء .

فمن أسد بن وَبَرة : بنو القَيْن بن جَسْر بن شَيْع الله بن أسد ، وتَنُوخ : وهو مالك بن زهير بن عمرو بن فَهْم بن تَيْم الله بن أَسَد ؛ والى تَنُوخ هذا يُنسب كلّ تَنُوخىّ ؛ واليه يرجع أبو العلاء المَعَرّى الشاعر .

وأعقب نَمِر بن وَبَرة بن تَغلِب فى ثلاث أفخاذ : خُشَيْن ، واليه يرجع كلّ خُشَنىّ وهو نُمَيْر ، منهم أبو ثَعْلَبة الخُشَنىّ الصحابىّ رضى الله عنه ؛ ومَشْجَعة بن تَيْم بن النَّمِر بن وَبَرة ، واليه يرجع كلّ مَشْجَعىّ ، وغَاضِرة بن النَّمِر وعاتية بن النمر إلا أنهما دخيلان فى سُلَيم . قالوا : عاتية وغاضرة ابنا سليم بن منصور .

وأما زَبّان بن حُلْوان فأعقب من جَرْم بن زَبَّانَ، واليه يرجع كلّ جَرْمىّ . وفى جَرْم عدة بطون : منها مَلَكان بن جَرْم بفتح الميم واللام ؛ بطن .

وأما عمرو بن الحاف بن قضاعة فأعقب من ثلاث أفخاذ : بَلِىّ بن عمرو، وبَهْرَاء ابن عمرو، وحَيْدان، وقيل: حُدّان بن عمرو؛ والى بَلِىّ هذا يُنسب كلّ بَلَوِىّ ككعب ابن عُجْرة البَلَوِىّ، وبنو العَجلان، وبنو أُنَيف، وبنو عصية[1] : وهم كلّهم حلفاء الأنصار: بنى عمرو بن عوف من الأوس وهى قبائل من بَلِىّ فى الأنصار، منهم: المُجَذَّر ابن ذِياد وطلحة بن البرّاق، وأبو بُرْدة بن نيار الصحابىّ بَلَوِىّ حليف الأنصار واسمه هانئ .

وأما بَهْرَاء بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة، فإليه يُنسب كلّ بَهْرَانِىّ كالمِقْداد بن الأَسْوَد الكندىّ ولم يكن كندياً ولكن كان بَهْرَانياً قُضاعياً : لأنه المِقْداد بن عمرو بن ثَعْلبة بن مالك بن رَبيعة بن ثُمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن لؤىّ بن ثعلبة ابن مالك بن الشَّرِيد بن أبى أهون بن قيس بن دُرَيم بن القين بن أَهْود بن بهراء . وإنما قيل المِقْداد بن الأَسْود لأن الأَسْود بن عبد يَغُوث بن وهْب بن عَبْد مَنَاف ابن زهرة تبنّاه لحلف كان بينهم فنُسب اليه ، وكان أبوه عمرو حليفا فى كندة . وفى بَهْراء بطون .

وأما حَيْدان، ويقال : حُدّان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، فمن بطونه خمس: عَريب بن حيدان، وعُرَيْد بن حيدان، وتزيد بن حيدان؛ واليه تُنسب الثياب التَّزِيدِيةُ، ومَهْرة بن حَيْدان . وإلى مَهْرة هذا يُنسب كلّ مَهْرىّ، وفى مَهْرة أفخاذ، وحَيَاذَة بن حَيْدان .

(١) هكذا فى الأصل، وفى الجوّانى : "غُصَيْنة" .

وأما أَسْلَم بن الحاف بن قضاعة، فأعقب من نخذين: حَوْتكة وسُود؛ فأما سُود ٱبن أسلم بن الحاف، فأعقب من زيد وليث ٱبنى سود، وأعقب زيد بن سود من أربع بطون: جُهَيْنة، واليه يرجع كلّ جُهَنىّ، ونَهْد: رهط أبى عثمان النَّهدىّ، واليه يرجع كلّ نَهْدىّ، وسَعْد هُذَيْم، وعُذْرة؛ واليه يرجع كلّ عُذْرىّ أولاد زيد بن سود بن أَسلَم بن الحاف بن قضاعة .

وقال ٱبن الكلبىّ: عُذْرة بن زيد اللّات بن رُفَيْدة بن كلب بن وَبَرة .

فأما جُهَيْنة بن زيد، فرهط عُقْبة بن عامر الجُهَنِىّ الصحابىّ . وفى جُهَيْنة الحُرْقَة وهم بنو أَحْمَس بن عامر بن مُودَعَة بن جُهَيْنة .

وفى نَهْد بن سُود المقدّم ذكره: بنو حُرْقَة بن خُزَيْمة بن نَهْد .

وفى عُذْرة بن زيد بن سُود بن أَسلَم: بنو ضِنَّة بالنون بن عَبْد بن كبير بن عُذْرَة بن زَيْد ٱبن سُود بن أَسْلَم بن الحَاف بن قُضَاعَة .

ومن ولد لَيْث بن سُود بن أَسْلم: بنو عِلَّة بكسر العين مشدّدة اللام بن غَنْم بن سَعْد ٱبن زَيْد بن لَيْث بن سُود، وفى سَعْد هُذَيْم بن زيد بن سُود: بنو عِلَّة بن غَنْم ٱبن ضِنَّة بن سَعْد هُذَيْم بن زَيْد بن سُود بن أَسْلَم .

قال: فهذا نهاية الٱختصار فى نسب حِمْير . وهذا ولد كَهْلان أخيه .

قال: وولد كَهْلانُ بن سَبَإ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطَان بن عابر عليه السلام: زيدا، فولد زَيْد بن كَهْلان بن سَبَإ بن يَشْجُب بن قَحْطَان: مَالِكًا وعَرِيبًا وهما نخذان .

فالعقب من عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلان من يَشْجُب .

والعقب من يَشْجُب بن عريب بن زيد بن كَهْلان من زيد بن يَشْجُب .

والعقب من زيد هذا : أُدَد بن زيد بن يَشْجب .

والعقب من أُدَد فى طَيِّئ بن أُدَد ، وآسمه جُلْهُمة ، وهو البطن العليا ، واليه ينسب كل طائىّ ، والأَشْعرَ بن أُدَد ، واليه يرجع كل أَشْعَرى ، وآسم الأَشْعَر نَبْت ، وإنما قيل له الأَشْعَر : لأنه وُلد أَشْعَر الجسد ، ومَالِك بن أُدَد وهو مَذْحِج ، واليه يرجع كلّ مَذْحِجىّ . وقيل : إن مَذْحِج أمّ مالك بن أُدد فنُسب اليها ولدها . وقيل : بل هى أكمة حمراء وُلد عليها مالك ، فعُرف بها ولدُه . وقيل : بل آجتمعوا على الأكمة باليمن ، والأكمة تسمى مَذْحِج ، فقالوا : تعالوا نجعل مذحِجا أمًّا .

وذكر آبن عبد البرّ فى روايته : أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أكثر القبائل فى الجنة مَذْحِج" : ومَذْحِج إحدى الجماجم التسع من جماجم العرب ، سُمُّوا جماجم لأن ميلادها آستوى بميلاد قبائل بإزائها من أفناء العرب ، ثم تفرّعت منها قبائل آجترأت بأسمائها والآنتساب إليها فبعدت عنها وآكتفت بانتسابها إليها . ومُرّة بن أُدَد : أربع أبطن لأدد .

والعقب من طيِّئ بن أُدَد بن زَيد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كَهْلان من فخذين : فُطْرَة والغَوْث آبنى طيِّئ .

(١٠٧) والعقب من فُطْرة بن طَيِّئ بن أُدَد من سَعْد بن فُطْرة . ومنه فى خَارِجَة بن سَعْد ومنه فى جُنْدَب ، ومنه فى رُومَان بن جُنْدَب .

والعقب من رُومَان بن جُنْدَب بن خَارِجَة بن سَعْد بن فُطْرَة من بطنين : ذُهْل وثَعْلَبة ، وهما الثَّعْلَبَتَان وجماعة صغار .

والعقب من الغَوْث بن طَيِّئ من عَمْرو بن الغَوْث .

والعقب من عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ من ثُعَل : بطن ، ونَبْهَانَ : بطن ، وهِنَاء ٱبن عَمْرو : بطن ، وثَعْلَبَة بن عَمْرو : بطن ، ومَزْرُوعَة بن عَمْرو : بطن ، وحَسَّان بن عَمْرو : بطن ، وزَيْد بن عَمْرو : بطن ، وخُشَين بن عَمْرو : بطن ؛ وإلى نَبْهَانَ هذا ينسَبُ كل نبهانىّ .

والعقب من نَبْهَانَ بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ من ٱبنيه : سَعْد ونَائِل ، ومن بنى سَعْد بن نبهان : بنو اليُسْر بن ثَعْلَبَة بن نَصر بن سَعْد بن نَبْهان : فَخِذ ، وإلى هِنَاء ٱبن عمرو هذا يُنسب كلّ هنائىّ .

والعقب من ثُعَل بن عَمْرو بن الغَوْث[1] . فأما سَلَامَانُ فالعقب منه من عُنَيْز وثَعْلَبَة وسل[2] أولاد سلامان لصلبه ؛ وعُنَيْز هذا جدّ القبيلة المشهورة ؛ وثَعْلَبَةُ هذا جدّ ثَعْلَبَة طائفة من العربان المجاورين للدّارُوم من الشام [وهم] بطنان : دِرْما وزُرَيْق ، فالعقب من عُنَيْز بن سَلَامَانَ بن ثُعَل بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ من فخذين : فُرَيْر بن عُنَيْز ، له عدد ، وعُتُود بن عُنَيْز .

والعقب من عُتُود ، من مَعْن وبُحْتُر ٱبنيه ، وإليهما يرجع كلّ مَعْنىّ وبُحْتُرىّ ، والشاعر البُحْتُرىّ منهم .

والعقب من مَعْن بن عُتُود من ثلاث : ثُوَب ، ووُدّ ، ومَالِك : بنى مَعْن بن عُتُود .

---

(١) أسقط الناسخ الخبر وهو "من سلامان وجرول فأما الخ" كما يؤخذ مما يأتى فى التفصيل فتنبه .

(٢) كذا بالأصل . ولعلها محرفة عن "نابل" أنظر نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ؛ للقلقشندى . فى الكلام على بنى نابل .

والعقب من ثُوَب بن مَعْن : غَنْم له عدد ، وأبو حَارِثَة فأعقب من غَنْم بن ثُوَب بن مَعْن بن سِلْسِلَةَ الفخذَ التى يرجع إليها كلّ بنى سِلْسِلَة المَعْنِيّون .

وأما بُحْتُر بن عُتُود بن عُنَيْز بن سَلَامَانَ فالعقب منه فى تَدُول بن بُحْتُر .

والعقب من تَدُول من ستة أفخاذ : وهم جُدَىّ ، وسَنام ، وأَيْمَن ، وخَيْثم ، وأَعْور ، وسَالِم أولاد تدول . ٥

وأما ثَعْلَبَةُ بن سَلَامَانَ بن ثُعَل بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ فأعقب من عوف ابن ثَعْلَبَة ، وأعقب عَوْفٌ من فخذين : دِرْمَا وزُرَيْق ؛ ودِرْما هو عَمْرو بن عَوْف ودِرْما أمّه . فأعقب دِرْما بن عَوْف بن ثَعْلَبَة بن سَلَامَانَ من خمس أفخاذ : سَلَامَة والأحمر وعَمْرو وقَصِير والأَوْس : أولاد دِرْما . وأعقب زُرَيْق بن عَوْف بن ثَعْلَبَة من فخذين : لُبْنَى والأشعث ولدى زُرَيْق . ١٠

وأما جَرْوَلُ بن ثُعَل بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ ، فأعقب من ابنيه : مُعَاوِيَة ورَبِيعَة ؛ فأعقب مُعَاوِيَةُ بن جَرْوَل من سِنْبِس[1] : القبيلة المشهورة ، وعَدِىّ ولَوْذَان : أولاد مُعَاوِيَة .

والعقب من سِنْبِس بن مُعَاويه بن جرول من ثلاث أفخاذ : عَمْرو ، ولَبِيد ، وعَدِىّ ؛ فأما لَبِيد بن سِنْبِس ، فأعقب من حِرْمِز ، فأعقب حِرْمِز من يَحْصب وجَرْم ؛ وعُقْدَةُ أولاد لَبِيد فخذان ، وإلى لبيد هذا تُنسب العرب السَّنَابِسَةُ الذين بالبحيرة من أعمال مصر ؛ وهم من فخذ يقال لها : قُنَّةُ بن خَلَّاد . ١٥

وأما عَدِىّ بن سِنْبِس بن مَعَاوية ، فأعقب من أَبَانِ بن عدِىّ ، وهو فخذ .

(١) ضبط فى الأصل بضم السين والباء وكذا فى صبح الأعشى : وضبطه السويدىّ فى سبائك الذهب بفتح السين . وذكر فى القاموس أنه بالكسر وكذا هو فى الصحاح واللسان وكتاب المعارف لابن قتيبة . ٢٠

والعقب من رَبيعة بن جَرْوَل بن أبي أَحْزم: هَزومة، وأعقب هَزومة من أَحْزَم، وأعقب أَحْزَم من عَبشَمْس مكسور الباء متصلا .

وأما مَذْحِج : وهو مالك بن أُدَد بن زَيْد فأعقب من أفخاذ أربعة : سَعْد العَشيرة، ومُراد : هو يُحابِر، وعَنْس، ولُمَيس، وجَلْد أولاد مالك وهو مَذْحِج . وإلى مُراد هذا يُنسب كلّ مُرادىّ، وسُمّى مُرادا لتمرده، وإلى عَنْس يُنْسب كلّ عنسىّ، منهم عَمّار بن يَاسِر الصحابىّ والأسود العنسىّ الكذّاب .

والعقب من سَعْد العشيرة بن مالك من ثلاث عشرة فخذا : وهم زَيْد اللات، وعَابِد اللات، وعَبْد اللات، وجا[1]، وجُعْفِىّ، وجَرْد، وحَكَم، وأَوْس اللات، ونَمِرة، وأَنَس اللات، وسَعْد اللات، وعَمْرو. وصَعْب : أولاد سعد العشيرة لصلبه. فإلى جعفىّ هذا يُنسب الجعفيّون، وإلى نمرة يُنسب النمريّون، وفى نمرة فخذان : جَدَا، على وزن ندا، وسِلْهِم ابنا نمرة .

وأما جُعْفِىّ فالعقب منه فى فخذين : مَرّان، وحَرِيم ابنى جعفىّ بن سعد العشيرة، يرجع بنو سِلْهِم بن حكم[2] فخذ بكسر السين واهاء .

وأما صَعْب بن سعد العشيرة، فالعقب منه فى زُبَيد، واسمه مُنَبِّه، وإليه يرجع كل زبيدىّ، وفيهم عدّة أفخاذ منهم بنو حرب وغيرهم . وقيل للفخذ زُبَيْد وهم بنو منبّه الأكبر لأن مُنَبِّها الأصغر بن صَعْب بن سعد العشيرة بن مالك بن أُدَد قال : من يَزْبُدُنى رِفدَه؟ فأجابه إلى ذلك أعمامه كلّهم بنو مُنَبِّه الأكبر، فقيل لهم جميعا زُبَيْد . ومن بنى زُبَيد مَازِن بن منبّه .

(١) كذا بالأصل وصوابه "خارجة" .

(٢) كذا بالأصل والكلام مبتور .

والعقب من مُرَاد بن مَذْحِج من فخذين : نَاجِية و زاهر آبنى مُرَاد بن مَذْحِج .

والعقب من ناجية : جَمَلُ بن كِنَانة بن نَاجِية بن مُراد : رهط هند بن عمرو الجَمَلىّ الذى قتله آبن يَثْرِبى فى يوم الجمل ؛ وجمل هـذه رهط سِيفَوَيْهِ القاص . قال : وينزلون بنهر الملك ؛ وعُطَيف بن ناجية بن مراد رهط فَرْوَة بن مُسَيْك العطيفىّ الصحابىّ ، وسَلْمَان بن يشكُر بن ناجية بن مراد رهط عُبَيْدة السَّلْمانىّ ؛ وهو جاهلى إسلامىّ من كبار التابعين . (١٠٨) ٥

ومن نَاجِية : قَرَنُ بن رَدْمانَ بن نَاجِية بن مُرَاد : رهط أُوَيْس القَرَنىّ نفعنا الله والمسلمين ببركته .

وفى مراد ، تَجُوب : وهو رجل من حِمْير ، كان أصاب دَمًا فى قومه فلجأ إلى مُراد فقال : جئت اليكم أجوبُ البلاد لأحالفكم ؛ فقيل له : أنت تَجُوب ، فسُمِّىَ به ؛ وهو فى مُرَاد رهط عَبد الرحمن بن مُلجَم المُرادىّ التَّجُوبىّ لعنه الله ، قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . ١٠

وأمّا جَلْد بن مَذحِج ، فأعقب منه عِلَّة بن جَلْد ؛ والعقب من علة من ثلاث أفخاذ : عَمْرو وعَامِر وحَرْب . فمن بنى حرب بن علة : رَهَاء : وهو رهاء بن منبّه بن حرب آبن علة : منهـم مالك بن مُرَارة الرَّهاوىّ الصحابىّ ، ويَزِيد بن شَجَرة الرّهاوىّ ، وصُدَاء : وهو يزيد بن حرب بن علة ، منهم زِيَاد بن الحارث الصُّدَائىّ الصحابىّ . ١٥

وأمّا عَمْرو بن علة بن جَلْد بن مَذْحِج ، فالعقب منه ثلاث أفخاذ : النَّخَع القبيلة المشهورة ، وكَعْب ، وعَامِر .

فأمّا النَّخَع بن عَمْرو ، فأعقب منه فخذان : مَالِك وعَوْف آبنا النَّخَع .

وأمّا كَعْب بن عَمْرو، فأعقب منه فخذان : الحَارث ، وهم بَلْحَارِث بن كَعْب ورُعَيل بن كَعْب .

وأمّا عَامِر بن عَمْرو بن علة، فالعقب منه في فخذ واحدة : وهي مُسْلِيَة بن عَامِر .

وأمّا مرّة بن أُدد بن زَيْد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلَان بن سَبَا ، فأعقب من فخذين : مرهم والحارث آبني مرّة بن أدد؛ فالعقب من الحارث من فخذين : عَدِيّ ومَالِك ولديه . فالعقب من مَالك بن الحَارِث بن مُرّة خَوْلَان بن عمرو بن مالك وإليه يُنسب كلّ خَوْلَانيّ ، ومَعَافِر بن يَعْفُر بن مالك بن الحارث آبن مُرّة بن أدد بن زيد بن يَشْجُب ؛ وإليه ترجع المعافر في أنسابها ، ولهم خطة بمصر، ومنهم فخذ بني قَرَافَة وهي أمهم : وهم الذين عُرفتْ بهم القَرافةُ بمصر ، ومسجدهم المسجد المعروف بمسجد الرحمة بالقَرافة ؛ وهم بنو عِضّ بن سيف بن وائل بن الحريّ بن المَعَافر بن يعفر .

وأما عَدِيّ بن الحارث بن مُرّة فأعقب من أربع أبطن لصلبه : وهم عُفَيْر ولَخْم : قبيلة ؛ وآسمه مالك بن عديّ ، وجُذَام بن عديّ : قبيلة ؛ وآسمه عامر ، والحارث بن عديّ وهو عَامِلة : قبيلة . وإنما سُمِّيا لخما وجُذاما : لأنّ أحدهما لَخَم وجهَ أخيه فسُمّي لخما ، واللخمة : اللطمة ، وجَذَم الآخرُ إصبعَ أخيه فقطعها فسُمّي جُذاما : وهما القبيلتان المشهورتان ؛ والحارث بن عديّ وهو عاملة وإليه يرجع كلّ عامليّ ، وعاملة وهي بنت مالك بن وَدِيعَة بن قُضَاعة ؛ وهي أمّ ولد الحارث المذكور .

فأما عُفَيْر بن عديّ بن الحارث فأعقب من ثَوْر بن عُفَير، وثَوْر هو كِنْدة الملوك فأعقب كِندة من فخذين : مُعَاوِيَة وأَشْرَس آبني ثور . والعقب من معاوية هذا من آبنيه مُرَتِّع وزيد؛ فمن ولد مُرَتِّع : بنو آمرئ القيس وبنو الرائش وبنو معاوية

الأكرمين وبنو وهب . وبنو بدًّا مشدد، خمسة : بنو الحَارِث بن مُعَاوية بن ثَوْر بن مُرَتِّع . وإلى مُعَاوية بن الحَارِث يرجع آمرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عَمْرو آبن حجر آكل المُـرَار بن معاوية المذكور الكندىّ الشاعر . والنسب إلى آمرئ القيس بن الحارث بن معاوية المقدّم ذكره : مَرقبىّ، مسموع عن العرب، وكلّ آمرئ القيس غيره فى العرب فالنسب مَرْئىّ بوزن مَرعىّ . ٥

والعقب من أَشْرس بن ثَوْر وهو : كِندة بن عُفَير بن عدىّ : السَّكُون بن أشرس، والسَّكاسك : وهو حُمَيس السَّكْسَك بن أشرس ، وإليهما يُنسب السَّكُونيون والسَّكْسَكِيّون؛ ومن السكونيين معاوية بن حُدَيج السكونىّ الصحابىّ، وحاشد بن أشرس، ومالك بن أشرس .

والعقب من السكون بن أشرس من نخذين : شَبِيب وعُقْبة آبنى السَّكون . ١٠ أعقب شبيب بن السكون من أشرس وشُكَامة، فأعقب أشرس بن شبيب بن السَّكون آبن أشرس من عدىّ وسعد : وهم تُجيبُ البطن المشهورة ؛ ولهم خطة بمصر، وعرفوا بتُجيب : وهى أمهم بنت ثَوْبان بن سُلَيم بن رَهاء بن منبّه بن حرب بن علة آبن جَلْد بن مَذحِج .

والعقب من مالك بن أشرس بن شبيب المذكور: الصَّدِف، وآسمه عمرو بن مالك، ١٥ وإليه يُنسب كلُّ صدَفىّ بالفتح كما قالوا : شقَرىّ ونمَرىّ وسلَمىّ : فى شقرة تميم ونمر آبن قاسط وسَلَمة من الأنصار . ومن النسّابين من قال: الصدف هو سِماك بن عمرو آبن دُعْمىّ بن حضرموت .

وأما لخم بن عدى، فأعقب من نخذين وهما لصلبه : نُمارة وجَدِيلة، ويقال: جُديلة؛ وذكر الوزير أبو القاسم بن المغربىّ أنه قيل فيها : جُدَبْلة بالباء بواحدة . ٢٠

والعقب من نُمارة بن لخم بن عدىّ بن الحارث بن مُرّة بن أُدَد بن مالك بن نُمارة فخذ، وحبيب بن نمارة، وهو عَمٌّ [وعدىّ بن نُمارة](١) سُمّى بذلك لأنه أوّل من اعتمّ، وهو الذى عمّم ملوك العراق؛ ولهم إخوة صغار: كالوجفا بن نُمارة وقَبيصة وعمرو وعوف ومجن أولاد نُمارة أعقبوا؛ ومن يُنسب اليهم يُعزَى لجدّهم لخم وأمّهم نُمارة.

ومن بنى مالك بن نمارة الفخذ الأولى: بنو راشدة بن مالك بطن مشهورة.

ومن بنى عدىّ بن نُمارة؛ وهم عَمّ بن لخم: بنو نَصْر بن ربيعة من ربيعة بن نصر.

ومن ولد نصر بن ربيعة: النعمان بن المنذر بن ماء السماء: وهى أمّه، بضدّ ما فى غسّان، لأن غسّانَ عامرا ماءَ السماء أبٌ فهو عَمٌّ "أبٌ" وهاهنا "أمٌّ"، وماء السماء هاهنا هو امرؤ القيس بن النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدىّ بن نصر بن ربيعة.

قال: وفى ذلك خلاف.

ومن بنى حبيب بن نُمارة: بنو الدار بن هانئ بن حبيب بن نُمارة، ينتسبُ كلُّ دارىّ إلى هذه البطن، وهم رهط تميم الدارىّ الصحابىّ المعروف بالمختطِف، وقد انقرض تميم الدارىّ ولا عقبَ له.

وأما جَرِيلة(٢) بن لَخْم ويقال: جُزَيلة، فأعقب من أَرَاش وحجر وحُلَيل ويشكُر وعمرو، أولاد جزيلة بن لخم. فمن بنى أراش بن جزيلة أَرْش بن أراش لا غير؛ ويقال: أُرَيْش مصغّرا.

---

(١) الزيادة عن "السبائك" وتؤخذ أيضا من كلامه الآتى قريبا.

(٢) كذا فى الأصل وفى السبائك أيضا بالزاى وأوردها القاموس فى مادة (ج ز ل) وهو مخالف لما سلف له قريبا من قوله (جديلة) فتنبّه.

والعقب من أَرْش بن أَراش من لخذين : غَنْم وحَدَس — بالحاء المهملة والدال المهملة المحرّكتين — والحمراء القبيلة ؛ لها خطة بمصر ، والأشعث لخذ ، وهذه الحمراء فى غيرها من الحمراء من قُضاعة ، وفَهْم ، وعَدوان ، والأَزْد ، وهُذَيل بن مدركة وبنى الأزرق وهم من الروم ؛ ومنهم سُمّيت الحمراوات .

فأعقب غَنْم بن أُرَيش بن أَرَاش بن جَزِيلة بن لخم من صعب وفَهْم وزِرّ وعمرو : أولاد غنم .

ومن شيوخ النسب من قال : إن النعمان بن المنذر بن ماء السماء بن آمرئ القيس ابن المنذر بن النعمان بن آمرئ القيس بن عُيَيْنة بن أبى الحرام بن العَمَرَّط بن غَنْم ابن عَوْدة بن عُبيد بن زِرّ المذكور .

والعقب من حَدَس بن أُرَيش بن أراش بن جَزِيلة بن لخم من ربيعة ورَمِيمة .

والعقب من ربيعة بن حَدَس أربع عشائر : مَنارة ، وسعد ، وكعب ، والهُذَيم : بنو ربيعة .

والعقب من هُذَيم هذا من حُدَاد وعامر والحارث : بنى الهُذيم .

والعقب من رميمة بن حَدَس بن أُريش بن أراش بن جَزِيلة من عمرو وجدّه .

والعقب من عمرو بن رميمة هـذا : الحارث وصعب وعَلَامة وعدىّ والمنذر وثعلبة .

فأما الحارث بن عمرو فأعقب من أُبَىّ بن الحارث ، فأعقب أُبَىّ من كليب وعدىّ .

وأعقب من كُلَيب بن أُبَىّ [بن] الحارث من أربع أفخاذ : فيض وحارث وغَنْم وغُمَيْت : أولاد كليب .

والعقب من فيض بن كليب من أربع أفخاذ : أبي الشتاء ، ورَقَاش ، وحَمران ، وصابي : أولاد فيض بن كُلَيب .

والعقب من الحارث بن كليب بن أبيّ من سعد وجدّه . وولد كعب بن غَنْم ثلاث أفخاذ : بني قرقر بن كعب وبني برّ بن كعب وبني مُرقّش بن كعب . ومن بني برّ بن كعب : بنو واسع بن كعب : وهم بنو رومي وزُهَير وزير وحسان وبرّ : أولاد واسع ، كلّ منهم فخذ .

والعقب من عُمَيت بن كليب بن أبيّ من دَعْجان وجدّه ، ومن أفخاذه : مُغالة بن دعجان : الفخذ المعروفة في آخرين .

وأما حجر بن جزيلة بن لخم ، فأعقب من ثلاث أفخاذ : أَزْدة وزُغَر وأَذَبّ . فأعقب أزدة من فخذين : منيع وعوف ابني أزدة بن حجر . وأعقب زغر بن حجر من مالك بن دَعِن ، وهو الذي استخرج يوسف الصدّيق عليه السلام من الجبّ ، وله عقب . فهذا مختصر في نسب لخم .

وأما جذام واسمه عامر ، فالعقب منه في بطنين : حَرام وحِشْم ابني جُذام .

والعقب من حَرام بن جذام من فخذين : إياس ومالك ابني حرام بن جذام .

والعقب من إياس بن حرام من رَبيل بن إياس ، ومن سعد بن إياس ، فأعقب سعد هذا من أَفْصَى ، فأعقب أفصى بن سعد بن إياس من فخذين : زيد ومالك ابني أفصى ، وأعقب مالك هذا من سعد بطن المنسوب اليها بنو سعد جذام ، وإن كان في جذام عدّة سعود ، لكن هذه ذات القُعدُد والبيت والصيت .

ومن ولد زيد بن أفصى بن سعد بن إياس بن حرام بن جذام: سعد بن مالك بن زيد المذكور: بطن؛ ووائل بن مالك ولَهْبَة؛ وإلى وائل بن مالك بن زيد: يرجع زيد بن زنباع فى نسبه.[1]

والعقب من مالك بن حرام بن جذام، من وائل وسعد. أعقب وائل بن مالك من حُبَيش وجمع ومازن. من ولد حبيش: شُعيب النبيّ عليه السلام: وهو شُعيب بن ثُوَيْب بن حُبَيش المذكور ابن وائل بن مالك بن حَرَام بن جذام. وأعقب سعد ابن مالك بن حرام بن جذام من غَطَفان: البطن الأكبر فى جذام. وأعقب غطفان ابن سعد من يامة بن عَنْبَس بن غطفان وغنم بن غطفان. وأعقب يامة بن عنبس ابن غطفان من علىّ بن يامة. وأعقب علىّ من كعب بن علىّ. وأعقب كعب بن علىّ من ثلاثة أفخاذ لصلبه: عُبَيد ومطرود وعوف؛ من ولد عبيد بن كعب هذا: الضُّبَيب بن قُرط بن حفيد بن مدح[2] بن عبيد: فخذ. وأعقب مطرود الضبيب هذا من ثعلبة بن أميّة بن الضبيب: فخذ، وعمرو بن مالك بن الضبيب: فخذ. وأعقب مطرود بن كعب بن علىّ من خالد وعمرو ومبذول ونُفَاثة.

(١٠) فأعقب غنم بن غطفان بن سعد، من نَضْرة بن غنم فى آخرين، فأعقب نضرة ابن غنم بن صَبِرَة الفخذ المشهورة ابن نصر.

والعقب من حِشْم بن جذام من بُدَيل بن حِشم. فالعقب من بديل: بكر وشَنُوءَة ابنى بُدَيل. والعقب من بكر هذا من سود بن بكر. والعقب من سعد: أسود وعمرو

(١) لعل الصواب "روح".

(٢) كذا بالأصل ولم نعثر على صحتها فى كتب الأنساب.

آبنا سود . والعقب من أسعد بن سود بن بكر بن بديل بن حِشم بن جذام من فخذين : السَّلْم والهُون آبنى أسعد . وفى سود أيضا : السَّلْم بن مالك بن سود بإسكان اللام فخذ .

والعقب من عمرو بن سود من لَهَبَة وحُبَيش وعِدَا : أولاد عمرو .

فهذا مختصر من نسب جذام .

وأما عائذة : وهم ولد الحارث بن عدىّ بن الحارث بن مرة بن أدد بن يشجب وهو أخو جذام ولخم ، فالعقب من الحارث بن عدىّ المذكور من فخذين : الزهد ومعاوية آبنى الحارث : وهما آبنا عاملة كما تقدّم ، وزهد : فعل ، من وهم : شىء زهيد أى قليل .

والعقب من الزهد بن الحارث بن عدىّ من ثلاث أفخاذ : عَوْكَلان وزَحْفان وسَلْمان : بنى الزهد . ومن بنى عَوْكَلان المذكور السَّلم بن ظِبْيان بن أبى عزم بن عوكلان المذكور .

والعقب من معاوية بن الحارث بن عدىّ أخو الزهد خمس أفخاذ لصلبه : ثعل ، وعِجْل ، وسلمة ، وقُرَّة ، وثعلبة . قال : وهذا النهاية فى آختصار نسب مرّة بن أدد .

وأما الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، فأعقب من جُماهير بن الأشعر وله عدد ، وعبد الثريّا بن الأشعر وعبد شمس والأدغم ونُعَيْم : أولاد الأشعر . وأعقب جُماهير وهو جُماهِر بن الأشعر من ناجية بن جماهير له عدد . وأعقب ناجية من وائل بن ناجية وهو البيت .

وهذا مختصر نسب الأشعريّين . ومنهم من الصحابة : أبو موسى وأبو عامر وأبو بُرْدة ، وهم فخذ متسع وفيه عدّة أفخاذ وعشائر يطول الكتاب بشرحها .

قال : وهـذا نسب بنى مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب ابن قحطان .

فالعقب من مالك بن زيد من بطنين : همـ نبت والخيار ابنا مالك . والعقب من نبت من الغوث ابنه . والعقب من الغوث بن نبت من عمرو والأزد ، وإلى هذا الأزد ينسب كل أزدى .

فمن ولد عمرو بن الغوث : بجيلة : وهم ولد أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان ابن عمر وأم الغوث وبجيلة بن أنمار : وهى بنت صعب بن سعد العشيرة بن مذحج ، وقد قيل : بل هى أم ولد أنمار .

والعقب من أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان بن عمرو بن مالك بن زيد : خمس قبائل : الغوث وعبقر وصهيبة وودَاعة وأفتل : وهو خثعم : بنو أنمار بن أراش . قال : وذكر علماؤنا فى النسب أن بجيلة هو عبقر والغوث وصهيبه ، وسُمُّوا بذلك لأجل أمهم بجيلة ، وأن خثعم هو أفتلُ وأمه هند بنت الغافق الأزدى ، وسُمِّىَ خثعم باسم جمل كان لآل أنمار أو لآل أفتل بن أنمار ، وكانوا يسمّونه خثعم . ويقال : بل قيل خثعم لأنهم تخثعموا بالدم ؛ والأول أقرب إلى الصحيح .

والعقب من الغوث بن أنمار من ثلاث أفخاذ : وهم زيد وأحمس وقيس كندة : بنو الغوث . وفى أحمس هذا : أسلم بن أحمس : فخذ ؛ وفى أسلم بن أحمس بن الغوث : دُهْن . معاوية بن أسلم بن أحمس ؛ فخذ : رهط عمّار بن أبى معاوية الدُّهنىّ الصحابىّ .

والعقب من عبقر : بجيلة بن أنمار بن أراش بن عمرو من ثلاث أفخاذ : قَسْر وعَلَقَة وقَطَن : أولاد عبقر . وفى قسر : عُرَيْنة بن زيد بن قسر ، يقال له : قَسْرىٌّ فى النسب ، ويقال : عُرَنىّ . والى علقة يرجع كلّ علقىّ .

والعقب من صهيبة بجيلة بن أنمار بن أراش بن عمرو: أُتَيْد بن خِطام بن صهيبة ابن أنمار : نخذ .

والعقب من زُرعة بن أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان بن عمرو من ثلاث أنخاذ : حُزْرُق وسِمْط وحبيب : أولاد زرعة .

٥ والعقب من خثعم وهو أفتل بن أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان من ثلاث أنخاذ : شَهْران وربيعة وناهِش: أولاد عَقْرَس بن خَلَف بن أفتل وهو خثعم . وفي ربيعة بن أفرس : بنو أكلُب بن ربيعة .

فهذا مختصر كافٍ في بجيلة وخثعم .

وأما الأزد بن الغوث (واسمه دِراء : مثل رِداء وقيل : دِرء مثل درع ،) فالعقب من ولده أربع أبطن : وهم مازن وغَسّان ، وغسّان ماء بسدّ مأرب باليمن وقيل : بالمُشَلَّل نزلوا به فنُسبوا اليه . والى غسّان هذا يُنسب كلّ غسّانيّ ، ونصر وعبد الله والهِنوُ بنو الأزد بن الغوث . والى غسّان هذا يرجع الأنصار ، وقد يكون مِن غسّان من ليس أنصاريّا كثيرا ، ويكون من مازن من ليس غسّانيا .

والذى نزل على غسان من الأزد بعضُ بنى امرئ القيس البِطريق بن ثعلبة البُهْلول ابن مازن وماوية وربيعة وامرؤ القيس: بنو عمرو بن الأزد، وكُرْز وعامر ابنا ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد .

والعقب من عبد الله بن الأزد بن الغوث من ثلاث أنخاذ: الحارث وقرن وعُدْثان: أولاد عبد الله بن الأزد

والعقب من عدثان[1] هذا من عَكّ وسود ومالك وغالب وكعب . ومن بنى سود ابن عدثان : طاحِيةُ بن سود : نخذ .

والعقب من عك بن عدثان نخذان : الشاهد وصُحارٌ ابنا عَكّ .

(١١١) والعقب من الشاهد بن عكّ : غافق، وإليه يُنسب كلّ غافقىّ، قال : ولهم خطّة بمصر، وساعدة ابنا الشاهد . وقيل : بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث ابن عدثان . ٥

والعقب من صُحار بن عك بن عدثان : بَولان وعَبْس وغسّان : أولاد صُحارٍ هذا .

وأما نضر بن الأزد ، فأعقب من مالك بن نصر من أربع قبائل : عبد الله وراسب ومَيْدَعان وأكفر من حِمارٍ : أولاد مالك بن نصر بن الأزد . والى راسب ينسب كلّ راسبىّ . وفى بنى مالك راسبيّون أُخر يأتى ذكرهم إن شاء الله تعالى . ١٠

والعقب من عبد الله بن مالك فى كعب بن عبد الله . ومنه فى الحارث بن كعب .

والعقب من الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك من ثلاث أفخاذ : كعب ومالك ونُبَيْشة وهو فاسخة . فمن ولد فاسخة بن الحارث بن كعب : بنو غراء بن شُرَيْق ابن فاسخة ؛ ومن ولد مالك بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر : بنو مَجَاعَة وبنو الأرنب : ابنى مالك . ١٥

والعقب من كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر : زَهْران وأَحْجُنُ وعبد الله : أولاد كعب بن الحارث . والى زهران ينسب كلّ زَهرانىّ .

---

(١) ورد فى كل كتب النسب التى تحت أيدينا باسم (عدنان) بالنون وقال عنها صاحب القاموس ما يأتى : « وعك بن عدثان بالثاء المثلثة ابن عبد الله بن الأزد ، وليس ابن عدنان أخا معدّ » .

ومن أفخاذه: دَهْمان بن نصر بن زهران، وغاضرة بن زهران، ودَوْس بن عدثان من زهران، منهم: أبو هريرة الدوسيّ الصحابيّ؛ واسمه عمرو بن عامر، وفي اسمه خلاف.

والعقب من أحجن بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر من ثلاث: أسلم ولِهْب وقرن، أولاد أحجن فمن أفخاذ أسلم هذا: بنو ثُمالة وهو عوف بن أسلم بن أحجن: رهط محمد بن يزيد المبرّد النحويّ؛ وفيه يقول عبد الصمد ابن المعذّل.

سألنا عن ثُمالة كلَّ حيٍّ * فقال القائلون: ومن ثُمالَهْ؟
فقلت: محمد بن يزيد منهم * فقالوا: زدتنا بهم جهالَهْ.

وأما مَيْدَعان بن مالك بن نصر فمنه أربع أفخاذ: راسب واليه يُنسب الراسبيّون أيضا، ومُنْهِب وحبيب ومعاوية: بنو مالك بن ميدعان.

فهذا مختصر نسب بني نصر الأزديّين.

وأما الهِنو بن الأزد، فأعقب من سبع أفخاذ: الهُون وبُدَيد ودَهْنة وبَرْقا وعَوْجا وأَفْكه وحُجْر: أولاد الهنو. فأعقب الهُونُ من فخذين: النَّدَب ونَكل.

وأما مازن بن غسّان بن الأزد فأعقب من فخذين لصلبه: وهما عمرو وثعلبة العنقاء، سُمّي بالعنقاء: لطول عنقه.

فالعقب من عمرو بن مازن بن الأزد في عدّة أولاد، كلّهم في الأزد، من جماجمهم: عَديّ والعاص. فأما العاص فمن ولده: بنو بُقَيلة بن سُنَين بن زيد بن سعد بن عديّ ابن نمير بن صوفة بن العاص بن عمرو بن مازن، وسُمّي بُقَيلة: لأنه لبس ثوبين أخضرين.

وأما عدىّ بن عمرو بن مازن بن الأزد، فأعقب من عدّة أولاد، من جماجمهم: هند بن هند بن عمرو بن عدىّ وصَبِرَة بن عمرو بن صبرة بن حارثة بن عدىّ ومسعود بن مازن بن ذئب بن عدىّ؛ اليه يرجع سَطِيح الكاهن وكلّ مسعودىّ فى الأزد، وجميع بنى عدىّ بن عمرو يعزون الى الأزد.

وأعقب ثعلبةُ العنقاء بن مازن بن غسّان من آمرئ القيس البطريق بن ثعلبة؛ فأعقب آمرؤ القيس البطريق: حارثة الغِطْريف؛ فأعقب الغطريف من عامر ماء السماء؛ فأعقب عامر ماء السماء من عمران وعمرو وهو مُزَيْقِياء سُمّى بذلك: لأنه كان يمزّق فى كلّ يوم [حلّتين] لئلا يلبسهما غيره.

والعقب من عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن آمرئ القيس البطريق بن ثعلبة العنقاء بن مازن بن غسّان وهو السَّراج بن الأزد بن الغوث فى ست أفخاذ: ثعلبة: بطن الأنصار، وحارثة: بطن خزاعة، وجَفْنَة: بطن، وعمران من أزد عُمَان، ومحرِّق: بطن، سُمّى بذلك لأنه أوّل من حَرَّق بالنار، وكعب: أولاد عمرو مزيقياء واليهما يرجع نسبُ الأنصار. فأما الأوس بن ثعلبة بن عمرو فأعقب من مالك بن الأوس، وأعقب مالك من خمس قبائل: النَّبِيت، وعوف، وجشم، وآمرئ القيس، ومرّة: أولاد مالك بن الأوس.

قال: وسُمّى النَّبِيت نَبِيتًا لكثرة ولده، فأعقب النبيت من فخذين: الحارث وكعب وهو ظَفَر بن الخزرج بن النبيت الأوسىّ. فأعقب الحارث بن الخزرج بن النبيت من آبنيه: جشم وحابية. فأعقب جشم من رَعْوان وآنقرض، ومن عبدالأشهل: آبنى جشم. وأعقب حابية بن الحارث من مجدَعَة وجويرَة وجشم بنى حارثة. ومن بنى جشم بن حارثة: بنو خديج بن رافع بن عدىّ بن جشم، وطُهْر بن رافع بن عدى.

وأما ظَفَر وهو كعب بن الخزرج بن النبيت بن مالك بن الأوس — وبنو ظفر البطن المشهورة فى الأوس — فأعقب من أربع أفخاذ : وهم بنو مُرة وهَيْثم وعبد رَدَاح وسواد : بنى ظفر بن الخزرج . ومن بنى سواد : بنو الحَطِيم بن عدىّ بن عمرو ابن سواد : فخذ؛ فهؤلاء بنو النبيت .

٥ أما عوف بن مالك بن الأوس، فأعقب من عمرو، وأعقب عمرو من لَوْذان، فخذهم (١١٣) بنو السَّمِيعة وثعلبة وحبيب وعوف : أولاد عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .

والعقب من عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس من بنيه : مالك وجِلْس وكُلْفَة . فأعقب مالك بن عوف من بنيه : عُزَير ومعاوية وزيد . وأعقب زيد بن مالك هذا من ضُبَيْعة : الفخذ المشهورة، وأميَّة الفخذ المشهورة فى الإسلام،

١٠ وعُبَيد أولاد زيد. وبنو ضُبَيعة بن زيد بن مالك، يقال لولده : بنو كِسْر الذهَب، منهم : بنو حارثة بن عامر بن مُجَمِّع بن عِطاف بن ضبيعة بن زيد : بطن معروفة . ومن أفخاذ كلفة بن عمرو بن عوف : جُلَاح بن حَرِيش بن جَحْجَبَى من كُلفة : بطن .

وأما جشم بن مالك بن الأوس بن حارثة، فأعقب من خَطْمَةَ : بطن؛ واسم خطمة عبدالله، وإنما سُمّى خطمة : لأنه خَطَم رجلا بسيفه على خَطْمه فسُمّى به، وأعقب

١٥ خطمة بن جشم من ثلاث أفخاذ : الحارث وعامر ولوذان : بنى خطمة .

وأما امرؤ القيس بن مالك بن الأوس، فأعقب من فخذين : بنى السَّلْم وبنى واقف، وإليه يرجع كلّ واقفىّ فى الأوس .

وأما مرّة بن مالك بن الأوس بن حارثة، فأعقب من ثلاث أفخاذ : عامر وسعيد ومازن .

٢٠ وهذا نهاية الاختصار فى ولد الأوس .

وأما الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مُزيقياء، فأعقب من خمس أفخاذ : الحارث وعمرو وعوف وجشم وكعب : بنى الخزرج .

والعقب من الحارث هذا من سبع أفخاذ : عوف وحُرَيش وجشم وصخر وجديم والخزرج وزيد : أولاد الحارث، ومن عوف بن الحارث بن الخزرج : خُدْرة وخُدَار ابنا عوف؛ ولخدرة يرجع أبو سعيد الخدرىّ، وهو فخذ بنى خدرة .

وأما عمرو بن الخزرج فمن ولده : بنو النجّار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج : البطن المشهورة؛ واسم النجار : تَيْم الله يدعى العِتْر، وإليه يرجع حسّان بن ثابت ابن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدىّ بن عمرو بن مالك بن النجار الشاعر : أعنى بالشاعر حسّان، وقد انقرض عقب حسّان .

وأما عوف بن الخزرج فمن أفخاذه : بنو غنم قَوْقِل : فخذ، وهو أُطُمٌ كان لبنى غنم، وسالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وغنم : رهط عُبَادة بن الصامت الصحابىّ . ومن بنى عوف بن الخزرج : سالم الحُبْلَى بن غنم بن عوف، سُمّى بذلك لعظم بطنه .

وأما جشم بن الخزرج، فأعقب من فخذين : وهما تَزيدُ وغَضْب ابناه لصلبه؛ فمن أفخاذ تزيد بن جشم هذا : بنو سَلِمة وربيعة ابنا سعد بن علىّ بن راشد بن ساردة ابن تزيد . وسَلِمة رهط معاذ بن جبل الصحابىّ بكسر اللام .

وأما غضب بن جشم بن الخزرج، فمن أفخاذه : بنو زُرَيق وبَيَاضَة : ابنى عامر ابن زريق بن عبد بن حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج .

وأما كعب بن الخزرج فمن أفخاذه: سعيد وقيس ٱبنا سعد بن عبادة بن دُلَيم بن حارثة ٱبن أبي جَذِيمة بن طَرِيف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج؛ وقد ٱنقرض قيس بن سعد بن عبادة .

ومن كعب بن الخزرج المذكور غير طريف هذا: ثلاث أفخاذ أخر إخوة طريف ٱبن الخزرج هذا : وهم ثعلبة وعامر وعمرو؛ كان لعامر هذا ٱبن الخزرج بن ساعدة ٱبن كعب بن الخزرج الأول : بنو قَسِيَّة بن عامر وقد ٱنقرضوا عن آخرهم .

فهذا مختصر كاف في أنساب الأوس والخزرج .

وأما حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من أربع أفخاذ : عمرو بن ربيعة بن حارثة وهو أبو خُزاعة؛ وإنما قيل لهم خزاعة: لأنهم ٱنخزعوا من بني عمرو مزيقياء بن عامر، والانخزاع التقاعس والتخلف، فأقاموا بمَرِّ الظَّهْران بجنبات الحرم ووُلُّوا حجابةَ البيت دهرا وهم حلفاء بني هاشم؛ وقد ٱختلف النسَّابون في خزاعة بعد إجماعهم على أنهم ولد عمرو بن لُحَيٍّ وأنّ خزاعة هو كعب بن عمرو بن لحيّ بن قَمَعَة بن خِنْدِف، وهو ٱبن الياس بن مضر؛ وعمرو بن لحيّ : هو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [فيه] لأكثم بن أبي الجون الخزاعيّ: "يا أكثم رأيتُ عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف يجرّ قُصْبه في النار، ما رأيت رجلا أشبهَ منه برجل منك"، فقال أكثم : أيضرّني شبهه يارسول الله؟ فقال : "لا، لأنك مسلم وهو كافر" والقُصْبُ: الحشوة من الأمعاء وهو المصران؛ وكان عمرو بن لحيّ أوّلَ من غيّر دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان وسيّب السائبةَ وبحّر البحيرةَ ووصل الوصيلةَ وحمى الحاميَ . قال عبد الله ٱبن عباس رضي الله عنهما : نزل القرءان بلغة الكعبيين : كعب بن لؤيّ وكعب بن

عمرو بن لحىّ ، وذلك أن دارهم كانت واحدة، وأفصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء وعدىّ بن حارثة وغمرو بن حارثة .

(١١٣) فأما عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء، قال شيخنا شيخ الشرف : عمرو هو خزاعة نفسه أعقب من خمس أفخاذ : كعب وسعد وعدىّ ومُلَيح وهو لحىّ : بطن كثيّر بن عبد الرحمن الشاعر، وعوف بن عمرو خزاعة . ٥

فأما كعب بن عمرو خزاعة بن ربيعة، فأعقب من ستّ أفخاذ : وهم مُنْقِذ وسَلُول وحُبْشِيَّة ومطرود ومازن وسعد : أولاد كعب بن عمرو خزاعة .

فأما سلول بن كعب ، وإليه ينسب كلّ سلولىّ ، فأعقب من ثلاث أفخاذ : حبشيّة وعدىّ وحِرمِز ، فأعقب حبشيّة بن سلول من قُمَيْر وضَاطِر وكليب وحُلَيل وغاضرة : بنيه لصلبه . وأعقب عدىّ بن سلول من حَبِير وهَيْنه وحُرَيز : بنى عدىّ . ١٠

وأما حبشيّة بن كعب بن عمرو خزاعة، فأعقب من ابنيه لصلبه : غاضرة وحرام .

وأما سعد بن عمرو وهو خزاعة، فأعقب من ثلاث قبائل : بنى المُصْطَلِق ، وبنى عامر وبنى الكاهن .

وأما أفصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء، فإنه أعقب من أسلم : بطن فى آخرين : وهم مَلَكَان وزيد وعمرو وعدىّ وجُهَادة وحَطّاب وسَوادة وجُرَيش وامرؤ القيس وصهيبة وجشم . فمن بنى أسلم بن أفصى : سلامان : نخذ، وهَوزن : نخذ : ابنا أسلم بن أفصى، ومن ملكان، بالفتح، بن أفصى : غبشان بن ملكان : نخذ، منهم : ذو الشّمالين المقتول ببدر . ١٥

وأما عدىّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من سعد بارق، نزل بماء بالسراة أيام سدّ مأرب يسمّى بارق، وقيل: هو جبل. وقيل: بل تبعوا البرق فسُمّوا بذلك، وعمرو وعوف: بنى عدىّ.

وأما عمران بن عمرو مزيقياء، فأعقب من الأَسْد والحُجْر آبنيه لصلبه؛ فأعقب الأسد من ثلاث أفخاذ: العَتِيك وشُهَيل والحارث: بنى الأسد. فمن ولد العتيك: أسد بن الحارث بن العتيك: نخذ، ووائل بن الحارث، واليه ينسب المُهلَّب بن أبى صُفْرة.

وأما الحجر بن عِمران بن عمرو مزيقياء، فأعقب من أربع أفخاذ: زيد مناة ومرحوم وعمرو وسُود: أولاده لصلبه؛ فأعقب عمرو بن الحجر من آبنه رَباب.

وأما كعب بن عمرو مزيقياء، فأعقب من خمس أفخاذ: السموءل وحنظلة وثعلبة ومالك وقاتل الجوع: أولاد كعب بن عمرو.

وأما عمرو بن حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من ثلاث أفخاذ: حارثة والرَّبْعَة وملادس: بنى عمرو.

وأما جفنة بن عمرو مزيقياء، فهم ملوك الشام. والعقب من جفنة من ثلاث أفخاذ: كعب ورِفاعة والحارث: بنى جفنة فى آخرين.

فالعقب من كعب بن جفنة بن مزيقياء، من أُمام والحارث: آبنيه لصلبه؛ ومن ولد أُمام: جَبَلَة بن الأَيْهم بن عمرو بن جبلة بن الحارث الأعرج بن جبلة بن الحارث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث الأكبر بن عمرو بن حجر بن هند بن أمام هذا آبن كعب بن جفنة بن عمرو مزيقياء. وقيل: بل هو جبلة بن الأيهم بن جبلة

ٱبن الحارث الأكبر بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، وفيه ٱختلاف ؛ وجبلة هو الذى تنصّر فى خلافة عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، ومن رفاعة بن جفنة : السموءل ٱبن أوفَى بن عادياء بن رفاعة بن جفنة : بطن؛ وأعقب الحارث بن جفنة من المنذر ٱبن النعمان بن الحارث : بطن، ومن الجسحاس ومنارة : ٱبنى عوف بن الحارث: بطن. وجماعة من قبيلة الأزمن نصارى يزعمون أن جدّهم هيّر يرجع الى جفنة غسّان. ٥

وأما الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان، فالعقب من ولده فى هَمْدان : وهو أَوْسَلَةُ ٱبن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار المذكور . وقيل : هو الجبار بالجيم والباء الموحدة .

والعقب من همدان : ٱبن مالك بن جشم بن خَيْران بن نَوْف بن همدان هذا ، ومن جشم : ٱبن بَكِيل وهو الحبك : نخذ، وحاشد ٱبنا جشم لصلبه . فأعقب ١٠ الحبك من دَوْمان وسَوْران وخَيْران . فمن ولد دومان بن الحبك وهو بَكِيل : أرحب ومرهِنه : ٱبنا عامر بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان ، اليه يُنسب كلّ أرحبىّ . ومن حاشد ٱبن جشم بن خيران : سَبِيع : نخذ، ٱبن سبع بن صعب ٱبن خيران بن معاوية بن كبير بن خيران : وهو مالك بن زيد بن مالك بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيران : رهط أبى إسحاق السَّبِيعىّ؛ وفى ذلك خلاف بين النسّابين ١٥ فى الأسماء .

وذكر بعض النسّابين أنّ ألهانَ بن مالك : أخا همدان بن مالك، اليه يرجع ويُنسب كلّ ألهانىّ : وهم قليل، ويَامُ بن أُحىّ بن نافع بن خيران وهو مالك بن زيد : رهط زُبَيد اليامىّ شيخ التَّوْزىّ .

وذكر بعض النسابين : أن الأَوْزاع ، وهم من مَزِيدة بن زيد عددهم فى همدان وهم من حمير، واليه يرجع كلّ أوزاعىّ . ومن ولد سَدَد بن زُرعة وهو حمير الأصغر : الأوزاع بن سعد بن عوف بن عدىّ بن مالك بن زيد بن سَدَد، والأوزاع بن زيد ابن سدد، والأوزاع بن سدد، والأوزاع بن شُقْران بن المعلّل بن سَدَد .

قال : وهذه النهاية فى اختصار أنساب اليمن . وقد احتوت على الغاية فى حسن إيصال البطون وتبيينها فى الترتيب؛ فلنرجع الى عمود النسب المحمدىّ فنقول :

إن عمود النسب من عابر بن شالخ فى ابنه : فالغ بن عابر، وأمّه ميشاخا، وكان له من الولد غير عمود النسب الجبابرة، مثل تميم وقينان وسيرى[1] ومُدبّر وغيرهم انقرضوا كلّهم لم يعقب منهم إلا أرغو بن فالغ ، وهو الجدّ الذى يرجع إليه كلّ قرشىّ وكلّ قيسى ،وهو أحد شعبى النسب .

والعقب من ولده فى أرغو بن فالغ[1] وكان منه جبابرة انقرضوا . وعقبه فى ابنه ساروغ بن أرغو . وكان له غير عمود النسب من العقب عشائر وأولاد جبابرة . منهم يَعْصُم ،ويَعْظُم ،ونعمان ،وبعلاك ،وبَهران ،وكاشَم ،وطولان ،وغيرهم هلكوا دارجين .

والعقب منه فى ابنه ناحور بن ساروغ ، فالعقب من ناحور فى ابنه تارَح : وهو آزَر بن ناحور .

ومن تارح غير عمود النسب : هاران بن تارح وناحور بن تارح ، فولد هَارَانُ : لوطا النبىّ صلى الله عليه وسلم .

وعمود النسب من آزر فى ابنه :

(١) الأسمان المرقومان برقم ١ وردا فى الأصل هكذا ، وفى التوراة : (سِرِى) . (رَعُو بن فالج) .

إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام

وهو الجدّ الحادى والثلاثون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم! وأمه أدبا بنت نمر بن أرغو بن فالغ بن عابر. وله من الولد غير إسمعيل عمود النسب: إسحاق عليه السلام ويشباق: وهو طالب، وسَوَاح: وهو خاضع، وزِمْرَان: وهو نجدان، ومَدَان، ويُقْشان: وهو مصعب؛ فهؤلاء ولد إبراهيم عليه السلام لصلبه، والعقب منهم غير عمود النسب وهو إسماعيل لإسحاق لا غير. فولد إسحاق صلى الله عليه وسلم: يعقوب إسرائيل الله صلى الله عليه وسلم والعِيصُ وهو عيصُو،[1] وُلدا فى بطن واحد، فخرج عيصو أوّلا وخرج يعقوب بعده، ويده عالقة بعقبه فسُمّى يعقوب. وأمّهما رِفْقَا[1] بنت ناحور بن تارح بنت عم أبيهما إسحاق. فولد العيص بن إسحاق: رَعْوَال[1] ويَعُوس وأَلِيفَاز ويَعْلام وقُورَح ورُوم. فولد أليفاز بن العيص: عَمَالِق[1] وغيره. وولد رعوال بن العيص: ناجب وغيره. وولد رُوم بن العيص بن إسحاق: بنى الأصفر لأن روم كان رجلا أصفر فى بياض فلذلك سُمّيت الروم: بنى الأصفر.

قال: وعمّر عيصو مائة وسبعا وأربعين سنةً. وكذلك يعقوب؛ ودفنا معا عند قبر ابيهما إبراهيم الخليل عليه السلام فى مزرعة حَبْرُون. وقيل: هى مزرعة عَفْرُون كان إبراهيم اشتراها لقبره، وفيها دُفنت سارَةُ.

ومن ولد العيص: أيوب النبىّ عليه السلام، قيل: هو أيوب بن أَموص بن تارَح ابن رفو بن عيصان بن إسحاق، وأمّه من ولد لوط بن هاران عليه السلام.

وولد يعقوب عليه السلام: اثنى عشر سِبْطا. منهم يوسف النبى عليه السلام: عزيز مصر وصاحبها، وإخوته: كاد[1] وبِنْيامين ويهوذا ونَفْتَالى وزَبُولُون وشِمْعون

(١) الأسماء المنمرة بنمرة ١ وردت كذا فى الأصل؛ وفى التوراة: عيسو. رِفْقَةُ. رَعُوئيل. يَعُوش. عَماليق. جَادٌ.

ورَأُوبين، وكشاحا، ولَاوِى، ودَان، ويَاشِير.(١) جاء من ولد يهوذا : سليمان النبيّ عليه السلام، وجاء من سليمان : مريم ٱبنة عِمران أمّ المسيح عليهما السلام . وجاء من لاوى بن يعقوب : موسى كليم الله وهارون عليهما السلام ٱبنا عمران بن قاهث، وجاء من ولد هارون : يحيي بن زكريّا والياسُ واليَسَعُ والعزَيرُ. وقد روى: أن الياس بن حضر نبيّ، وأنه المعنيّ بقوله تعالى وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ في قراءة نافع وٱبن عامر، وأن آلَ ياسين آلُ محمد صلى الله عليه وسلم .

والعقب من يوسف الصدّيق عليه السلام : أفرائيم ومَنَشّا(٢) ٱبنيه لصلبه؛ فمن ولد أفرائيم : يُوشَع بن نُون وصيّ موسى عليه السلام : وهو الذى رُدّت عليه الشمس في حربه : وهو يوشع بن نون بن عازر بن شوتالح بن داباد بن ناحب بن العاد ٱبن ناحب بن يارد بن شوتالح بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب . وفي ولد منشا ٱبن يوسف : موسى بن منشا بن يوسف . وولد لمنشا ٱبنة ٱسمها رَحْمة: وهي ٱمرأة أيوب عليه السلام .

قال : وزعم أهل التوراة أن الله تعالى نبّأه وأنه صاحب الخضر. وذكر المؤرّخون أنه لما مات يعقوب، فشا في الأسباط الكهانة فبعث الله تعالى موسى بن منشا (١١٥) يدعوهم الى عبادة الله تعالى، وهو قبل موسى بن عمران بثمانمائة سنة والله تعالى أعلم.

ونرجع إلى عمود النسب؛ وهو من إبراهيم في ولده إسماعيل : الذبيح بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وأمه أم ولد، تدعى هاجَر، من قبط مصر، من قرية يقال لها : أمّ العرب نحو الفرما .

(١) في التوراة : أشير .

(٢) في التوراة : مَنَسّى .

وآختلف العلماء فيما بين عدنان إلى إسماعيل فى ذكر الآباء: فمن العلماء من ينسب اليمن إلى إسمعيل عليه السلام ويقولون : إنهم من ولد يَمَن بن نَبْت بن إسماعيل ، وآفترق باقى ولد إسماعيل فى أقطار الأرض فدخلوا فى قبائل العرب ودرج بعضهم فلم ينسب النسابون لهم نسبا إلا من كان من ولد قَيْدار آبنه عمود النسب .

قال : وآتفق أهل العلم بالنسب كما وجدوه فى التوراة وكما حملوه عن علماء أهل الكتاب، وكما روى عن عبدالله بن عباس : أن النسب فيما بين آدم وإسماعيل صحيح على ماأوردناه لاخلف فيه بينهم ولا خلاف إلا فى الأسماء لتنقل الألسنة، وإنما الخلاف فيما بين إسماعيل وعدنان ، وذلك أن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها، وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض ، فمن أجل ذلك حدث الآختلاف فيما حفظوه ، فقال قوم برواية وقال آخرون برواية . قال: وهذه الرواية التى أوردها فى هذا التأليف هى أحسن الروايات، وهى عمدة أكثر النسّابين الأجلّاء، وعليها كان يعتمدشيخ الشرف محمد بن أبى جعفر الحسينىّ العُبَيدلىّ النسابة، وهى رواية عبد الله بن عباس، وآختيار أبى بكر محمد بن عبده العبقسىّ النسّابة الطرسوسى وغيره .

وكان لإسماعيل عليه السلام من الولد غير قَيْدار عمود النسب أحد عشر ولدا : وهم مَسًّا ويَطُور ومِسماع ودُوماء، وقيل: هو الذى بنى دُومَة الجَنْدل، ومبشام وإديال ونَعَابوا وتِيما ، وحُداد ونافيس وقَيدَما .

وعمود النسب من إسماعيل عليه السلام فى آبنه قيدار بن إسماعيل ، وأمه هَالَةُ بنت الحارث بن مُضَاض الجرهمىّ ويقال: آسمها سلمى، وقيل: الحنفا، وقيل: هى أم أولاد إسماعيل كلهم .

والعقب منه فى ٱبنه حَمَل بن قيدار ، وأمه الغاضريّة بنت مالك الجرهمىّ .

والعقب منه فى نبت بن حمل وأمه هَامَة بنت زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب ٱبن يعرب بن قحطان، وتدعى حُرَيرة .

والعقب من نبت فى ٱبنه سلامان بن نبت .

٥ والعقب من سلامان فى ٱبنه الهميسع بن سلامان، أمّه حارثة بنت مراد بن زرعة ذى رُعَيْن الحميرىّ .

والعقب منه فى ٱبنه اليسع بن الهميسع .

والعقب من اليسع فى ٱبنه أدد بن اليسع، وأمّه حيّة من قحطان .

والعقب منه فى ٱبنه أدّ بن أدد، وأمّه النعجا بنت عمرو بن تُبَّع سعد ذى فَائش
١٠ الحميرىّ .

والعقب منه فى ٱبنه عدنان بن أدّ، وأمّه المتمطّرة بنت عدى الجرهميّة : وهو الجدّ الحادى والعشرون لسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال أكثر النسّابين : إن العقب من عدنان غير معدّ عمود النسب من عكّ : وهو الحارث والذئب والنعمان والضحّاك لاعقب له : وهو المُذْهَبُ الذى يقال
١٥ فى المثل : « أحسنُ من المُذْهَبِ » وعدىٌّ دَرَجَ، والغنىّ وأبىّ وعَدَن : وهو صاحب عدن، وعمرو ونبت وأدّ وعدًا ٱنقلبت فى اليمن .

فأما عكّ بن عدنان فكلّ من كان منهم بالمشرق فهم يُنسبون الى الأزد، والذى فى الأزد أيضا عكّ بن عدثان بالثاء المثلّثة ٱبن عبد الله بن الأزد .

وقال شيخ الشرف النسّابة : عكّ بن عدنان بالنون . وقال الأفطسيّ النسابة : عكّ بن الحارث بن عدنان بن عبد الله بن الأزد، وكلّ من كان منهم بالشام ومصر واليمن والمغرب فهم مقيمون على نسبهم فى عدنان .

وأما الذئب بن عدنان فيزعمون أن الأوس والخزرج من ولده . قال عبّاس بن مرداس :

وعكّ بن عدنان الذين تلعّبوا ❊ بغسّان حتى طرّدوا كلَّ مُطرَدِ

نرجع . وعمود النسب من عدنان فى ٱبنه معـدّ بن عدنان، وأمّه مَهْـدَدُ بنت اللَّهَم الجرهميّة .

قال النسابون فى أولاده لصلبه فقالوا : إن ولده أحد عشر رجلا : وقالوا : ثمانية، وزاد آخرون، وقال قوم : لم يكن له غير نزار .

قال : فالذى أورد له أحد عشر ولدا قال : والعقب من معدّ بن عدنان : عُبَيد الرَّمّاح أعقب، وجُنَيد وجُنَادة وحَيد وقبضة، وقيل : بل ٱسمه قَنَصٌ ٱنقرض، وقُنَاصة وحَيدان أعقب، وشَطّ وعوف وسَنام وقُضاعة، قال العلماء : وكلّهم ٱنتقلوا فى اليمن وغيرها إلا نزارا . وقد قيل : إن حيدان هذا هو أبو مَهْرة : القبيلة . وقال النسّابون : والقَحْم أعقب، وسنام أعقب، وحبيب والضحّاك أعقب . وأَوْد أعقب : أولاد معدّ .

فأما عبيد الرَّمّاح فانتسب فى بنى مالك بن كنانة . ومنهم كان إبراهيم بن عربىّ صاحب اليمـامة .

وأمّا سنام بن معدّ فإنه ٱنتسب فى سعد العشيرة بن مالك فى اليمن .

(١) لعله : قال وٱختلف النسابون الخ .

وأمّا حَيدَةُ بن معدّ فانتسب فى الأشعريّين .

وأمّا القحم بن معدّ فانتسب فى مالك بن كنانة .

وأمّا أود بن كعب فانتسب فى مذحج .

وأمّا قَنَصٌ فانقرض عقبه، وقيل : كان منهم النعمان بن المنذر .

٥ وروى عن ٱبن عباس رضى الله عنه أنه قال : ذو القرنين عبد الله بن الضحاك بن معدّ بن عدنان .

نرجع . وعمود النسب من معدّ بن عدنان فى ٱبنه نزار بن معدّ وأمّه مُعَانَةُ بنت جَوشَم[1] الجرهميّة، ومنه غير مُضر الذى هو عمود النسب ثلاث بطون : ربيعة الفَرَس وإياد وأنمار: بنو نزار . والصِّريحان من ولد إسماعيل عليه السلام: مُضَر الحمراء

١٠ وربيعة الفرس. وقولهم: ربيعة الفرس ومضر الحمراء، فزعموا أنه لما مات نزار تقسم بنوه ميراثه وٱستهموا عليه ؛ وكان له فرس، مشهور فضله فى العرب فأصابه ربيعة فقيل: ربيعة الفرس؛ وكان له ناقة حمراء، مشهورة الفضل بين العرب فأصابها مضر فقيل: مضر الحمراء؛ وكان له جَفنةٌ عظيمة يطعم فيها الطعام فأصابها إياد؛ وكان له قدح كبير يسقى فيه اللبن إذا أطعم فأصابه أنمار . هذا أحد ما قيل فى ذلك ،

١٥ وسنذكر ما قيل فى قسمة ميراث نزار وما ٱتفق لأولاده مع الأفعَى الجرهمىّ فى أمثال العرب فى حرف الهمزة وفى قولهم: "إن العصا من العُصَيّة"، وهو فى الباب الأوّل من القسم الثانى من هذا الفن فى أوّل السفر الثالث من كتابنا هذا إن شاء الله تعالى .

---

(١) كذا فى الأصل وفى الطبرىّ : جَرْشُم .

نرجع . فأمّا أنمار بن نزار فإنها آنقلبت فى اليمن، قال : كذا روينا عن شيوخنا فى النسب ومن قال : إنها آنقلبت فى اليمن يقول فيه : إنّ خثعم وبَجِيلة آبنا أنمار بن نزار، وإنما لحقا باليمن وآنتسبا عن جِهل منهما إلى أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث آبن النبيت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وأمّا إياد بن نزار وهى القبيلة التى يرجع اليها كلّ إيادىّ، فمنها فخذان : بنو دُعْمِىّ آبن إياد، وبنو زَهْر بن إياد؛ ومن زهر بنو حُذَاقة بن زهر : عشيرة فى إياد، اليها ينسب الحذاقيّون . ٥

وأما ربيعة الفرس بن نزار بن معدّ، فأعقب من ثلاثة أبطن : أَسَد، وهو البطن الأعظم من ربيعة، وضُبَيعة بن ربيعة، وأكلب. وضبيعة يقال له : ضبيعة الأَمْجَم : لأنه كان مائلَ الفم . ومن أكلب أفخاذ : منها لصلبه : هُرَير وعوف ومَعْن ومُبَشّر وجليلة . ١٠

والعقب من ضبيعة بن ربيعة بن نزار من ثلاث قبائل : جُلّى وعوف وبدر : بنو أَحْمَس بن ضبيعة؛ ومن بنى جلّى : بنو مُجَمِّع الشعوب : ربيعة بن سَلَمَة بن سعد بن بلال آبن بُهْثة بن حرب بن وهب بن جلّى : بطن .

وأما أسد بن ربيعة فمنه ثلاث بطون : أفصى بن دعمىّ بن جديلة بن أسد، وعَنَزة آبن اللهازم بن أسد، وآسمه عمرو، وعميرة بن أسد؛ و إلى عَنَزة يُنسب كلّ عنزىّ محرّك النون . ١٥

والعقب من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذان : وهما أسلَم ويَقْدُم : آبنا يَذْكُر آبن عنزة بن أسد . فمن أسلم فخذان : بنو صُباح، وهو قمر الليل والنهار، وبنو حُلّان :

آبنى العتيك بن أسلم . ومن يقدم بن يذكر فخذان : تيم ونصر : آبنا يقدم . ومن بنى تيم : بنو هَميم بن عبد العُزّى بن ربيعة بن تيم بن يقدم .

والعقب من عَميرة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذان : هما مبشّر وعدىّ : آبنا عميرة بن أسد بن ربيعة .

٥ وأما أفصى بن دعمىّ بن جديلة بن أسد، فمنه بطنان : هِنب وعبد القيس : آبنا أفصى بن دعمىّ بن جديلة ؛ وإلى عبد القيس هذا ينسب كلّ عبقسىّ .

والعقب من عبد القيس بن أفصى بن دعمىّ بن جديلة بن أسد من افصى بن عبد القيس، واللّبود بن عبد القيس . والعقب من أفصى بن عبد القيس من لُكَيز بن أفصى وشَنّ بن أفصى . فمن لكيز بن أفصى ثلاث عشائر : وَديعةُ وصُباح ونُكْرة .

١٠ فمن ولد نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس : دُهن بن عذرة بن منبّه بن نكرة بن لكيز آبن أفصى بن عبد القيس ؛ وليس دهن هذا فخذ عمارة الدهنىّ، إنما فخذه دهن التى فى بجيلة . (١١٧)

والعقب من وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دعمى من عمرو بن وديعة ودهن بن وديعة وغنم بن وديعة .

١٥ والعقب من عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى — و قال لولده : العُمُور — أنمار وعِجل ومُحارب والدِّيل : أولاد عمرو بن وديعة .

والعقب من هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة من قاسط آبن هنب وعمرو بن هنب، فمن ولد عمرو بن هنب هذا : عتيب بن عمرو، ومن عَتيب فى دهن : فخذ، وخفاجة : آبنى عتيب .

والعقب من قاسط بن هنب من النمر بن قاسط؛ واليه ينسب كل نمرى، وعمرو وهو غُفَيلة بن قاسط: قبيلة، ومعاوية بن قاسط فى عاملة، ووائل بن قاسط: البطن الأعظم من قاسط.

فالعقب من النمر بن قاسط من تيم الله ويقال: تيم اللات، وأوس مناة: آبنى النمر؛ ومن النمر بن قاسط: بنو الضَّحْيان وهو عامر بن سعد بن الخزرج بن سعد بن تيم الله آبن النمر. واليه كانت الرياسة واللواء والحكومة والمِرْباع. وقيل له الضحيان لأنه كان يحكم بين العرب فى الضُّحَى. ٥

وأما وائل بن قاسط بن هنب، فأعقب من أربع أبطن: تغلب بن وائل: البطن المشهورة، اليها يرجع كلّ تغلبىّ معدّىّ. (وفى قضاعة أيضا تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة جدّ بنى كلب)، وبكر بن وائل، وعَنْز بن وائل ساكنة النون كما يُنسب فى نزار إلى عنزة بن أسد كلّ عنَزىّ محرك النون، وعمرو بن وائل. فمن عنز بن وائل بن قاسط فخذان: وهما رَفيدة بن عنز وأَرَاشة بن عنز، وفيهما عدّة أفخاذ وعشائر. ١٠

والعقب من بكر بن وائل بن قاسط بن هنب من الحارث وعلىّ ويشكر وجشم وبَدَن: بنى بكر؛ وإلى علىّ هذا يُنسب كلّ علوىّ فى نزار؛ وإلى يشكر هذا يُنسب كلّ يشكرىّ. ١٥

والعقب من يشكر بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب من ثلاث قبائل لصلبه: وهم حرب وكنانة وكعب؛ فأعقب حرب بن يشكر من جشم وذُهْل: ولدَىْ كنانة بن حرب؛ ومن بنى جشم بن حرب: بنو عُصَيم بن سعد بن عمرو بن جشم؛ وبنو الحُمَير: حُبيِّب بن كعب بن جشم، وإلى جشم هذا يُنسب كلّ جشمىّ فى نزار.

وأعقب كنانة بن يشكر من ذِبيان بالكسر بضد ذبيان عبس الذى هو بالضمّ ، وأعقب ذبيان من نخـذ وائلة وعامر : آبنى ذبيان بن كنانة بن يشـكر . فمن بنى عامر بن ذبيان : بنو جشم بن عامر : نخذ يقال لهم : الجشميّون أيضا .

وأما بنو علىّ الوائلى فالعقب من علىّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى آبن دعمىّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة من صعب بن علىّ وحده ، وإليه يرجع كلّ صعبىّ فى نزار . والعقب من صعب من ثلاث بطون : عُكَابة ولُحَيم[1] ومالك : أولاد صعب بن علىّ بن بكر بن وائل ، فأعقب مالك بن صعب فى بنى زِمّان بن مالك : نخذ ، وإليه ينسب كلّ زِمّانىّ .

وأما لُحَيم بن صعب ، فأعقب من حَنِيفة بن لحيم : البطن المشهورة ، ومن عجل آبن لُحَيم .

قال الزبير بن بكّار : وحَنِيفة آمرأة نُسب اليها ولدها : وهى حنيفة بنت كاهل بن أسد بن خَزِيمة . فأعقب حنيفة من ثلاث قبائل : الدُّؤَل بن حنيفة : القبيلة المشهورة فى بنى حنيفة ، ويقال فى النسبة إليـه : دؤلىّ كذا بضد النسبة الى دؤل كنانة ، وعامر آبن حنيفة وعدىّ بن حنيفة ؛ وفيهم عدّة عشائر وقبائل ، والعزوة إلى حنيفة تغنى عنها ؛ منها بنو يَربوع بن الدؤل بن حنيفة إليه يُنسب كلّ يربوعىّ : وهم قبيلة خَولة بنت جعفر بن قيس بن سـلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع المذكور أم أبى القاسم محمد بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه المعروف بابن الحنفيّة ؛ وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لعلىّ "سيولد لك ولد وقد نحلته آسمى وكنيتى" .

(١) كذا بالأصل وفى كتاب المعارف لآبن قتيبة : "لُجَيم" بالجيم المعجمة .

قال : ولعبيد بن ثعلبة بن يربوع غير سلمة خمس أفخاذ لصلبه : مَسلَمة وشَيْبان وزيد ووهب وأرقم ؛ ولهم عدد فى بنى مَسلَمة المذكور : عمرو بن معدى كرب بن الحارث بن مسلمة ، إليه يُنسب كنز الدولة حامى أسوان .

وأما عجل بن لجيم فأعقب من أربع أبطن : وهى سعد وكعب وهم قليل ، وربيعة وضبيعة أولاد عجل ؛ وإليه ينسب كلّ عجلىّ . وفيهم عدّة أفخاذ وعشائر ، وإلى ضبيعة يُنسب كلّ ضبعىّ . ٥

(١١٨) وأما عكابة بن صعب بن علىّ فأعقب من بطنين : ثعلبة وفيه العدد ، وقيس : آبنى عكابة .

والعقب من ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على من خمسة : قيس من اللّهازم : بطن ، ومالك وتيم الله من اللهازم : قبيلة أولاد ثعلبة بن عكابة ، وشَيبان وذُهْل وهما الذهلان : آبنا ثعلبة ؛ وإلى شيبان هذا يرجع كلّ شيبانىّ ، وإلى ذهل يرجع كلّ ذُهلىّ . ١٠

فأما قيس آبن ثعلبة فأعقب من ضُبَيعة وسعد : آبنيه لصلبه . والعقب من ضبيعة آبن قيس بن ثعلبة بن عكابة من ربيعة وهو جُحْدَر ، وإليه يرجع كلّ جَحدرىّ ، وسعد وتيم وعُبَاد ومالك : بطن .

وأعقب تيم الله بن ثعلبة بن عكابة من سبع أفخاذ : وهم الحارث وذُهْل وعدىّ ومالك وعامر وزِمّان وحَاطِبة ؛ ومن بنى مالك بن تيم الله : بنو عائش بن مالك : فخذ . ١٥

فأما شيبان بن ثعلبة بن عكابة فأعقب من ثلاث بطون لصلبه : ذهل ، وإليه يرجع الذهليّون ، وتيم وثعلبة ؛ وثعلبة هذا : هو الفخذ الذى يُنسب إليه ويرجع أبو الصقر محمد بن إسماعيل وزير المعتمد . وفيه يقول آبن الرومىّ الشاعر :

قالوا: أبو الصقر من شيبان، قلت لهم: * كلّا لعَمرى ولكن منه شيبانُ
وكم أبٍ قد علا بابنٍ له شرفا * كما علا برسول الله عدنانُ

وأعقب ذهل بن شيبان من أولاده لصلبه: وهم مُرّة، وإليه يرجع المزيون الشيبانيّون وأبو ربيعة ومُحلِّم وصُبيح[1] والحارث وعمرو: وهو جِذْرة وعوف وعبد غنم، ومن ولد أبي ربيعة بن ذهل: المُزدلِفُ: وهو عمرو بن أبي ربيعة: فخذ كبيرة.

وفي مرة بن ذهل بن شيبان عدّة أفخاذ: وهم سعد ودُبّ وسيّار وكثيّر وجندب وبُجَير وجسّاس ونضلة وهمّام: قبيلة الأحلاف أولاد مرة. قال: وهمام بن مرة ابن ذهل هو بيتُ ذهلٍ وقعددُ فخرهم. وأعقب لصلبه الأحلاف من مازن وعوف وثعلبة خمسين بيتا، وعمرو وعائشة والأسعد وحبيب: هؤلاء هم الأحلاف ومرّة وعبد الله والحارث.

وأما ذهل بن ثعلبة وهو أحد الذهلين فمنه بطنان لصلبه: شيبان وعامر، فأعقب شيبان بن ذهل بن ثعلبة من سبع أفخاذ لصلبه: وهم سَدُوس ومازن وعمرو الأعمى وعلْباء ومالك وعامر وزيد مناة. وإلى سدوس هذا يُنسب كلّ سدوسيّ. ومن ولد مازن هذا: أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حَيّان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن. وإليه أيضا يُنسب أبو عثمان المازنيّ النحويّ وكلّ مازنيّ، وفي مذحج في بني سُلَيم: زُبَيد مازن المعروفة.

نعود إلى باقي نسب وائل.

وأما تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب، واسم تغلب دِثار وكان أكثرهم نصارى، فالعُقب منه في ثلاث أفخاذ لصلبه: عِمران وهم قليل، وأوس وغنم، وفيه العدد

(١) كذا بالأصل وفي كتاب المعارف لابن قتيبة: صُبيح.

والبيت ؛ ومن قبائل غنم الخنّاقون : بكر ورَزَاح ومالك وعدىّ : بنو معاوية ٱبن عمرو بن غنم بن تغلب ، والأراقم الستة : جشم ومالك وعمرو والحارث ومعاوية وثعلبة : أولاد بكر بن حُبَيْب بن غنم بن عمرو بن تغلب ، ومن جشم هـذا : بنو عُطَيْف مُجزِئة بن حارثة بن مالك بن جشم بن بكر بن حبيب : رهط سيف الدولة ٱبن حمدان . فهذا نهاية الاختصار فى نسب بنى نزار .

وعمود النسب منه فى ٱبنه مضر بن نزار ، وأمّه سَوْدة بنت عكّ العدنانية . ومنه غير عمود النسب وهو الياس ٱبنه قيس بن عَيْلان بن مضر ؛ وٱسم عيلان : الناس ، وهو أخو الياس . ويقال : قيس عيلان بن مضر ؛ وعيلانُ حاضنٌ كان لقيس فنُسبَ إليه كما نُسب غير واحد من العرب إلى الحضان : كسعد هذيم حضنه هُذَيم فنُسب إليه ؛ والصحيح : أن عيلان بن مضر ، وٱسمه الناس ، وقيسا ولده . وقد قيل فى الناس : الناسّ بتشديد السين .

ذكر نسب قيس وبطونها

والعقب من قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ثلاثة نفر : خَصَفَة وسعد وعمرو . وقال قائلون : وَبْر بن قيس وإنه ولد طوائفَ من البربر ، وفى ذلك خلاف عند النسّابين .

فالعقب من خصفة هـذا من بطنين : عِكْرِمة ومُحارِب ٱبنى خصفة بن قيس . وقيل : إن خصفة بن عكرمة غلب ٱسمها عليه فنُسب إليها كما قيل فى خندف . أعقب عكرمة بن خصفة من منصور بن عكرمة : البيتَ الأوّل من بنى قيس ، فيه العدد ، وسعد بن عكرمة وأبى مالك وعامر : بنى عكرمة . أعقب منصور بن عكرمة من هوازن

آبن المنصور : القبيلة المشهورة، ومن سُلَيم بن منصور : القبيلة المشهورة، وسلامان آبن منصور : قبيلة ، ومازن بن منصور : قبيلة .

فأما هوازن فأعقب من بكر بن هوازن لا غير، وأعقب بكر بن هوازن من ثلاث أفخاذ : معاوية بن بكر، وفيه العدد. وقَسِيّ وهو ثقيف، وآسمه منبّه بن بكر، وإليه يرجع كلّ ثقفيّ ؛ وسعد بن بكر ؛ وإليه يرجع كلّ سعديّ من عشيرة حليمة بنت أبي ذؤيب السعديّة : ظئر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شِجْنَة بن جابر بن رِزام بن ناصرة بن قُصيّة بن نصر ابن سعد المذكور؛ وآسم زوجها وهو والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة : الحارث بن عبد العزّى بن رفاعة بن مَلّان بن ناصرة بن قصيّة بن نصر بن سعد ؛ وكنيته أبو كبشة؛ وبه كانت العرب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : آبن أبي كبشة . وقيل في أبي كبشة [أقوال] منها أن جدّه لأمّه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهْرة كان يكنى أبا كبشة فنسبوه إلى ذلك ليتمه وموت أبيه . وكان أيضا عمرو بن زيد أبو أسد النجاريّ أبو سلمى بن عبد المطّلب جدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يكنى : أبا كبشة . وقيل : بل لحظوا لقولهم : أبا كبشة يعنون أبا كبشة جرير بن غالب بن الحارث، وهو أبو قَيْلة أمّ وهب بن عبد مناف والد آمنة أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال آبن قتيبة : إنه كان يعبد الشعرى دون العرب، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة الله دون عبادة الأصنام، شبّهوه في شذوذه عنهم بشذوذ بعض أجداده من قبل أمّه بعبادة الشعرى وآنفصاله منهم .

وأما معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، فأعقب من صعصعة بن معاوية : القبيلة العظمى، وجشم بن معاوية؛ وإليه ينسب

كلّ جشميّ فى هوازن . وله ثلاث أفخاذ : عُصَيمة وزِمّان وبنو جشم ونصر ابن معاوية جدّ النصريّين القيسيّين . ومنه فخذان : بنو دهمان وبنو عوف : ابنى نصر، وجحش بن معاوية : فخذ، وسيّار بن معاوية : فخذ، وكلاب بن معاوية، ومِنجاب ابن معاوية، وعمرو بن معاوية، وأُدحيّة بن معاوية، ودُحَيّة بن معاوية، ودَحْوَة ابن معاوية، والسَّبّاق : وهو يعيش بن معاوية، وعوف بن معاوية، وجِحَاش بن معاوية : هؤلاء كلّهم أفخاذ قليلو العدد، يقال لهم : الهوازنيّون .

وأما صعصعة بن معاوية فأعقب لصلبه عامر : القبيلة المشهورة، ومرّة : وهم سَلول، وكلّ سلوليّ ينسب إلى مرّة هـذا، وأمّ ولده سلول الشيبانيّة : وهى سلول ابنة شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وولده عشرة أفخاذ : وهم عمرو وضبيعة ونهار وسُحَيم : وهو أعيا، وغاضرة وعُدَيّة وجابر ومعاوية وجنى ودهى . وباقى ولد صعصعة لصلبه قبائل صغار : عبد الله وعائذ وعمرو وقيس وكبير وسيار ومساور وزبيبة وربيعة وغالب ووائل ومازن وعوف ومنجور والحارث : خمس عشرة قبيلة، وفى هذه القبائل : بنو عادية وبنو عُدَيّة بالضم، فأما بنو عادية فهى أم عبد الله عادية والحارث. وأما بنو عدية فهى أم قيس عدية وعوف عدية . والى عمرو بن صعصعة بن معاوية تُعزَى الطائفة المعروفة بالأكراد . ومن النسّابين من ذكرهم إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة المذكور . ومنهم من نسبهم إلى أكراد بن فارسان بن أهلوا بن إرم بن سام بن نوح، وعليه اعتمدوا . ومنهم من قال : كرد بن مرد بن يافث ابن نوح .

وأما عامر بن صعصعة فأعقب من أربع بطون : وهم نمير وسُوَاءة وهلال وربيعة .

فأما نمير بن عامر . واليه يُنسب كلّ نميرىّ، ففيهم عدّة أفخاذ : بنو المقشّب : وهو ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير ، وبنو خُوَيلفة بن عبد الله بن الحارث ابن نمير، وبنو أسقع : وهو مالك بن عامر بن نمير .

وأما سواءة بن عامر بن صعصعة فمنه عدّة أفخاذ : منها بنو حُبَيب بن سواءة وبنو جسّاس بن سواءة وبنو حرثان بن سواءة .

وأما هلال بن عامر بن صعصعة فالبطن المشهور، وقد نزلوا المغرب من تلمسان إلى طرابلس، فأعقب هلال من إحدى عشرة قبيلة وهم أولاده لصلبه .

أولهم البيت المقدّم عبد الله ونَهيك وربيعة وعائذة وعبد مناف ورُوَيْبة وصخر وشعبة وشعَيبة وناشرة وحضرة . (١٢٠)

وفى هلال عدّة أفخاذ وعشائر : كزُغبة ورياح وفادع والأثيج وحُوثة ، وقُرّة وغيرهم .

فأعقب عبد الله : وهو البطن الأولى من بنى هلال من ثلاث أفخاذ : رُوَيْبَة ابن عبد الله وحوثة وحارثة : ابنى عبد الله ؛ فأعقب رويبة بن عبد الله من أربع عشائر : زغبة ورياح وهزوم ومعاوية : بنى رويبة بن عبد الله، فمن بنى الهزم بن رويبة بن عبد الله : ميمونة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله أمّ المؤمنين زوج النبى صلى الله عليه وسلم، ومن بنى رياح : بنو نجيّة بن علىّ ابن فادع : نخذ أعقب، إليه يرجع جنادة بن كامل مقدّم بنى هلال .

وأما نَهيك بن هلال فأعقب من خمس قبائل لصلبه : وهم معشر وأبو ربيعة وأبو معاوية وسهل وأبو جشم .

وأما عبد مناف بن هلال فأعقب من أربع قبائل : الحارث وعمرو وربيعة ويَعْمر : بنى عبد مناف لصلبه . فمن بنى ربيعة بن عبد مناف بن هلال : قرّة بن عمرو بن ربيعة : فخذ مشهورة كبيرة ، إليه يرجع كلّ قرّىّ . ومن بنى عمرو بن عبد مناف بن هلال : زينب بنت خُزَيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف أمّ المساكين زوج النبي صلى الله عليه وسلم أمّ المؤمنين . فهذا مختصر قبائل هلال . ٥

وأما ربيعة بن عامر بن صعصعة ، فأعقب من خمس قبائل : وهم الحارث وكليب وعامر وكلاب وكعب : بنوه لصلبه .

أما الحارث بن ربيعة فأعقب من فخذين لصلبه : عوف وعُوَيف .

وأما كليب بن ربيعة فأعقب من خمس أفخاذ لصلبه : أبان وجَهْم وجشم وخلف ومسروق . ١٠

وأما عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فأعقب من أربع أفخاذ لصلبه : عمرو وعوف والبَكّاء ومعاوية .

وأما كلاب بن ربيعة بن عامر فأعقب من عشر أبطن ، قال الشاعر :

وإن كلابا هذه عشر أبطن * وأنت برىء من قبائلها العشر

يعنى شُمَر بن ذى الجَوْشن الضِّبَابىّ ، والعشر أبطن لصلب كلاب : وهم جعفر وأبو بكر واسمه عبيد ، ومعاوية : وهو الضِّبَاب بن كلاب وعامر وربيعة والأضبط وعمرو وعبد الله ورؤاس "قيل : بالفتح وواو بدل الهمز" ، وكعب . ١٥

فأما جعفر بن كلاب فأعقب من أربعة أفخاذ لصلبه : مالك والأحوص وخالد وعُتْبة ، وفيهم عدّة عشائر .

وأما أبو بكر عبيد بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ لصلبه : عبْد وكعب وعبد الله . فأما عبد بن أبي بكر فمن العشائر التي لصلبه : بنو قُرْط وبنو قُرَيط .

وأما كعب بن أبي بكر فمن العشائر التي لصلبه : بنو جَحْش بن كعب .

وأما عبدالله بن أبي بكر فمن عشائره لصلبه : بنو المجنون : وهو ربيعة بن عبدالله .

٥ وأما معاوية بن كلاب وهو الضِّباب فمنه ثلاث عشرة قبيلة : وهم ضَبّ ومُضِبّ وضِباب ؛ ولأجلهم عرف هذا البطن أعني بني معاوية بالضِّباب ، وحُسَيل وحِسْل وعمرو وأنس والأعور وزفر وأنيس ومالك وربيعة وزهير : أولاد عمرو بن معاوية . ومن ولد الأعور هذا شمر بن شُرَحْبيل بن الأعور قاتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه .

وأما عامر بن كلاب فمنه أربع قبائل لصلبه : وهم بنو الأصمّ ، وهم قليل ، وبنو

١٠ كعب وهو البيت من عامر بن كلاب وطَريف بن عامر وعقيل بن عامر . فأعقب كعب بن عامر من الوَحِيد : وهو عامر بن كعب ، من أفخاذه : خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب ، منه أمّ البنين بنت حِزَام بن خالد المذكور زوج عليّ بن أبي طالب ، وهي أمّ ابنه العباس السقّاء ؛ عرف بذلك لأنه سقى الحسينَ الماءَ بكربلا .

١٥ وأما ربيعة بن كلاب فمنه ثلاثة أفخاذ لصلبه : وهم بُجَيْر وعُبَيْد ونفيل أبو نمير .

وأما الأضبط بن كلاب فمنه : بنو وَبْر بن الأضبط ؛ ومن بني وَبْر سبع عشائر : وهم وَهْب الأكبر ووهب الأصغر وواهب وإهاب ووَهْبان وخالد وأبو ربيعة : أولاد وبر بن الأضبط .

وأما عمرو بن كلاب فمنه فخذان : نفيل وأبو عوف : ابنا عمرو بن كلاب .

وأما عبد الله بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ : عامر وعمرو والصَّمُوت : أولاده لصلبه . ومن عشائر الصموت بن عبد الله : ضُبَيعة الأغرّ بن عبد الله ابن الصموت .

(١٢١) وأما رؤاس بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ : بِجَاد وبُجَيد وعُبَيد : أولاده لصلبه ؛ ومن بُجَيد : عُفَيف بن بُجَيد : فخذ ، وإلى رؤاس هذا ينسب كلّ رؤاسيّ . ٥

وأما كعب بن كلاب فأعقب من أربعة لصلبه : عامر ووهب وربيعة وأوس .

فهذا مختصر بنى كلاب وأبطنها — نعود إلى باقى ولد ربيعة بن عامر .

وأما كعب بن ربيعة بن عامر فأعقب من ستة أبطن لصلبه : وهم جَعْدَةُ بن كعب : البطن المشهورة ؛ إليها يرجع كلّ جَعْدىّ ؛ وفيها عدّة قبائل وعشائر ، وحبيب ابن كعب : البطن المشهورة ؛ وإليها يرجع كلّ حبيبىّ ؛ وفيها أفخاذ ، وعبد الله بن كعب ١٠ منه العَجلان بن عبد الله : بطن ، وربيعة بن عبد الله ، ونُهَم بن عبد الله ؛ وفيهم أفخاذ ، وقُشَيْر بن كعب ، وإليه يرجع كلّ قُشَيرىّ ؛ وفيها عدّة أفخاذ وعشائر ، والحرِيش بن كعب ، وإليه يرجع كلّ حَرَشِىّ : كعبد الله بن الشِّخِّير بن عوف بن كعب بن وَقْدان بن الحريش الحرشىّ الصحابىّ وغيره ، وعُقَيل بن كعب : البطن المشهورة ، إليها يرجع كلّ عُقَيلىّ بالضم . والعقب من عقيل بن كعب : بن ربيعة ١٥ ابن عامر من خفاجة بن عمرو بن عقيل : البطن المشهورة ، وعبد الله وربيعة ومعاوية وعامر وعُبادة ؛ كلّ هؤلاء أبطن . والعقب من خفاجة من أحد عشر فخذا لصلبه : وهم بنو معاوية ذى القَرْح : فخذ ، وبنو كعب ذى النُّويرة ، وبنو الأقرع : فخذ ، وبنو كعب الأصغر ، وبنو عامر ، وبنو مالك ، وبنو الهيثم ، وبنو الوازع ؛

إليه ينسب كلّ وازعيّ، وبنو عمرو، وبنو حزن، وبنو خالد. والفخذ العظمى من بني عقيل بعد بني خفاجة: بنو يُزيد بضم الياء بن عبد الله بن يزيد بن قيس بن حوثة بن طَهْفَة بن حزن بن عبادة: عشيرة الأمير أبي المنيع شرف الدولة محمد بن مرداس، ودرج شرف الدولة، وهو ملك العرب.

٥ فهذا مختصر من نسب بني عقيل. وهؤلاء هوازن وهم بكر. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما سُلَيم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان: وهو البطن المشهورة، فأعقب من بهثة بن سليم، وأعقب بهثة من خمسة أفخاذ لصلبه: معاوية وعوف وآمرئ القيس والحارث وثعلبة. ومن بني آمرئ القيس بن بهثة: بنو عُصَيّة بن خُفَاف بن آمرئ القيس: بطن.

١٠ وأما محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان، فأعقب فخذين لصلبه: طريف وجَسْر، ويقال لبني جسر: بنو عليّ لأن العقب من جسر بن محارب في عليّ بن جسر لا غير.

انقضى ذكر بني خصفة بن قيس بن عيلان.

وأما سعد بن عيلان فأعقب من بطنين لصلبه: وهما غَطَفَان، ومنبه: وهو أَعْصُر، والعقب من رَيْث بن غطفان من أربع أبطن لصلبه: بَغِيض ومازن وأشجع وإليه يرجع كلّ أشجعيّ، وأَهْون: بنو ريث.

١٥

والعقب من بغيض بن ريث [من عَبْس وذُبيان] وهما القبيلتان المشهورتان.

وذكر بعض النسّابين أنمار بن بغيض منهم أبو كبشة الأنماريّ. وقيل: إن أبا كبشة الأنماريّ إنما هو من مذحج.

والعقب من عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان من نخـذين : قَطِيعة ووَرَقة آبنى عبس .

والعقب من قَطِيعة بن عبس من الحارث، ومُعتمِر : قبيلة قليلة، وعوف : قبيلة، وغالب : قبيلة الحُطَيئة، ومُرَيْطة : قبيلة من ولد خالد بن سنان نبىّ أهل الرَّسّ بن جابر آبن غيث بن مريطة .

والعقب من الحارث بن قطيعة بن عبس من جِرْوَة وعامر ومازن : قبيلة وذَكْوان وشـدّاد : بنى الحارث بن قطيعة . ومن مازن بن الحارث أنخاذ : منهم جَذِيمة بن رَوَاحَة بن ربيعة بن مازن : نخذ؛ إليه يرجع الجذميون بالجيم : منهم عشيرة بنى زهير آبن جذيمة فى آخرين .

وأما ذبيان بن بغيض ، فأعقب من فَزَارة : البطن المشهورة ، وسعد ؛ فأعقب فزارة بن ذبيان من مرّة وظالم ورومىّ ، دَرَجَ وشَمْخ وعدىّ ومازن : أولاد فزارة ؛ وفيهم قبائل وعشائر وأنخاذ .

وأما سعد بن ذبيان فمن بطونه المزيون : بنو مرّة بن عوف بن سـعد ، وفيهم أنخاذ ، وبنو عقال بن سـعد : نخذ ، وبنو بَجَالَة بن ثعلبة بن سعد وبنو عَجب بن ثعلبة وبنو رِزَام بن ثعلبة .

(١٢٢)

وأما عبد الله بن غطفان بن سعد فالعقب منه فى بهثة بن عبد الله وقُطْبَة وعدىّ وعُذرة وكلب وباعث وشَبَابة وغنم وعوف ومنبّه؛ عشرة أنخاذ .

وأما أَعْصُر : وهو منبّه بن سعد بن قيس فأعقب من باهلة : وهم ولد مالك بن أعصر، وهى باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة أخت بَجِيلة بن مذحج؛ ولد سعد

ٱبن مالك بن يَعصُر ومَعْن بن مالك بن يعصر فغلب ٱسمُها عليهم ونُسبوا إليها ؛ وكلّ باهليّ ينسب إلى باهلة وهم ولد مالك بن أعصر بن معن بن مالك ، وغنيّ بن أعصر بن سعد بن قيس أعقب من غنم وجعدة ، إليها ينسب كلّ غَنَوىّ والطُّفَاوة ، ٱسمه الحارث بن أعصر إليه ينسب الطُّفَاوِيّون ، وعامر بن أعصر .

٥ وأما عمرو بن قيس بن عيلان ، فمنه بطنان لصلبه : وهما عَدْوَان وٱسمه الحارث ، وفَهْم : ٱبنا عمرو بن قيس ؛ وإنما قيل له عَدْوان : لأنه عدا على أخيه فَهْم فقتله . وفهم وعدوان يقال لهما : جَدِيلة قيس ، وهى أمهم جديلة بنت مرّ بن أدّ : أخت تميم بن مرّ . ومن قبائل عدوان : بنو يشكر وبنو دَوس : ٱبنى عدوان : القبيلتان المشهورتان .

١٠ هذا آخر مختصر نسب قيس بن عيلان بن مضر .

فلنرجع إلى عمود النسب . وعمود النسب من مضر فى ٱبنه :

الياس بن مضر بن نزار

وأمّه الرّباب بنت إياد المعَدّية ؛ ومنه غير عمود النسب (وهو مُدْرِكة) بطن واحد وهو طابخة بن الياس ؛ قال : لأن قمعة بن الياس فيه خلاف كثير ، وأكثر مشايخ

١٥ النسب يذكرون أنه دَرَجَ ولا عقبَ له ؛ وذكر آخرون : أنه أبو خزاعة ، وخزاعة ليست بأبٍ ولا أمٍّ وإنما هم ٱنخزعوا من مضر الى اليمن ببطنِ مَرٍّ ، وذلك حين أقبل بنو عمرو بن عامر يريدون الحجاز ؛ ألا ترى قول عون بن أيّوب الأنصاريّ[1] :

ولما هبطنا بطنَ مَرٍّ تخزّعتْ * خُزاعةُ منّا فى حُلولٍ كَرَاكِرِ
حمتْ كلَّ وادٍ من تِهامةَ وٱحتمتْ * بصُمّ القنا والمرهَفاتِ البواترِ

٢٠ (١) كذا بالأصل وفى اللسان أن القائل : حسان بن ثابت .

وقد أوردنا نسب خزاعة فى بنى عمرو بن عامر ماء السماء الغسانى فى نسب اليمن، ومن قبائل طابخة بن الياس خمس : بنو مُرّ بن أد بن طابخة . وبنو ضبّة بن أد ابن طابخة، وبنو عمرو، وبنو خميس، وبنو عبد مناة : أولاد أد بن طابخة .

فأما بنو مُرّ بن أد بن طابخة، فمنه بنو تميم بن مرّ، وبنو ثعلبة بن مرّ : ظاعنة من الشُّعَيْراء، وبنو صوفة : وهم ولد الغوث : وهو الرَّبيط بن مرّ وبكر بن مرّ من الشعيراء، ومحارب بن مرّ، فهم عدّة أفخاذ وقبائل . وقبائل تميم : وهم ثلاث : زيد مناة والحارث وعمرو : أولاد تميم لصلبه . فمن قبائل زيد مناة بن تميم : نَهْشَل بن دارم ابن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وبنو سَدُوس بن دارم : قبيلة . وبنو عبد الله بن دارم : منهم عُطارد : قبيلة حاجب بن زُرارة بن عُدُس (وكلّ من عداه بفتح الدال) ابن زيد بن عبد الله بن دارم مجوس، وبنو أبان بن دارم : قبيلة . وبنو ثعلبة بن يربوع بن حنظلة : قبيلة . وبنو كليب بن يربوع : قبيلة . وبنو رياح بن يربوع : قبيلة . وبنو غُدَانة بن يربوع : قبيلة . وبنو جارية بن سَلِيط بن يربوع . وبنو البَرَاجم : وهم ظُلَيم وعمرو وقيس وغالب وكلفة : أولاد حنظلة بن مالك؛ فهؤلاء بنو حنظلة بن مالك؛ سموا بَرَاجم لتجمّعهم كالأصابع . ثم قبيلة الجوع : وهم ولد ربيعة بن مالك بن زيد مناة؛ والكُرْدُوسان من بنى زيد مناة : معاوية وقيس ابنا مالك بن زيد مناة بن تميم . ومن زيد مناة : بنو سعد بن زيد مناة، منه عدّة قبائل، منهم قبائل الأبناء : وهم عبشمس وعُوَافة وعوف وجشم ومالك وعمرو : بنو سعد بن زيد مناة . ومن بنى سعد بن زيد مناة : بنو الحرام : وهو من الخُدَعَة بن كعب ابن سعد، وبنو حِمّان بن عبد العُزّى بن كعب بن سعد، وبنو الأعرج : وهو الحارث

ابن كعب بن سعد، وبنو قُرَيْع بن عوف بن كعب بن سعد، وبنو بَهْدَلَة بن عوف ابن كعب، وبنو بِرْنِيق بن عوف بن كعب، وبنو عطارد بن عوف بن كعب قليلون.

ومن قبائل كعب بن سعد المذكور: بنو مِنْقَر بن عبيد بن مُقاعِس: وهو الحارث ابن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهم المِنْقَرِيُّون. ومن بني زيد مناة: بنو امرئ القيس بن زيد مناة. له عدد ومدد. منه ثلاثة أفخاذ: بنو عُصَيَّة وبنو مالك وبنو الحارث: أولاد امرئ القيس المذكور. ومن بني زيد مناة: بنو عامر الصحيح بن زيد مناة؛ فهؤلاء بنو زيد مناة بن تميم.

وأما الحارث بن تميم فمنه شَقِرة بن الحارث: قبيلة، اسمه معاوية، وسُمّي شقرة ببيت قاله:

وقد أحمل الرمح الأصمّ كُعوبُه ... به من دماء القوم كالشقِرات

والشقرات: شقائق النعمان. والنعمان: الدم؛ والله أعلم.

وأما عمرو بن تميم فمنه سبعة أفخاذ. وهم بنو مالك وبنو العنبر وبنو الهُجَيْم وبنو أُسَيد وبنو الحَبَطَة: وهو الحارث. وبنو القُيَيْب: وهو أُلَيْهَة [وزن عَلَيَة] وكعب: بنو عمرو ابن تميم؛ وولي كعب هذا البيت قبل قريش.

فأما مالك بن عمرو بن تميم فمنه فخذان: مازن. منهم أَوْفَى بن مَطَر المازنيّ جليّ العرب، والحِرْماز: وهو الحارث بن مالك. فمن بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: أنمار بن مازن: فخذ قليلون. ورَالان بن مازن: قبيلة، وحُرْقوص بن مازن، ورزام بن مازن: قليل، وخزاعيّ بن مازن: قليل.

وأما بَلْعَنبر بن عمرو بن تميم فأعقب من ثلاثة: كعب وجندب ومالك: أولاد العنبر؛ وكلّ بلعنبريّ ينسب إلى بلعنبر هذا: وهي قبيلة مشهورة.

وأما بَلْهُجَيْم بن عمرو بن تميم وهو المُجَيْم فأعقب من خمسة : عامر وسعد وعمرو وربيعة وأنمار . ويقال لبلعنبر وبلهجيم : الخَبَطَّات[1] . وكذلك أخوهما الحارث الخَبِطُ؛ وهو الذى عُرِفوا بذلك من أجله ، يقال : إنه أكل خَبَطًا فسُمِّى به[2] .

وأما أُسَيدُ بن عمرو بن تميم فأعقب من ستة لصلبه : عقَيل ونمير وجروة : قبيلة ، وعمرو والحارث . فمن بنى جروة بن أسيد بن هند بن أبى هالة : نَبَّاشُ ٱبن زرارة ٱبن وقدان بن حبيب بن سلامة بن غوىّ بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم : ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وأمّه خديجة بنت خويلد .

وأما الحارث الخبط بن عمرو بن تميم فمنه قبيلة سعد بن الحارث، وهى قبيلة الخبطات، ومشّادة بن الحارث الخبط ونضلة بن الحارث الخبط : فهؤلاء بنو تميم فى مُرّ بن أدّ بن طابخة .

وأما بنو ضبة بن أدّ فثلاث قبائل : سعد وسُعَيد وباسل . ولسعد وسعيد المثل السائر "أسعد أم سُعَيد" . أما سعيد بن ضبة فقليل عددهم . وأما سعد بن ضبة فأعقب من ٱثنين : ثعلبة وبكر : ٱبنى سعد؛ فأما ثعلبة بن سعد، فمن قبائلها : بنو مسعود بن دُلْجة بن نُعَيم بن قُرَامة بن كعب بن ربيعة بن ثعلبة بن سعد : قبيلة يُنسب إليها كلّ مسعودىّ ، وبنو مبذول بن عامر بن ربيعة بن كعب بن ربيعة بن ثعلبة

(١) كذا فى الاصل الكوبريلى بإعجام الخاء . والصواب بالمهملة كما فى كتب الأنساب واللغة ، أنظر القاموس واللسان فى مادة : ح ب ط .

(٢) إنه أكل خبطا فسمّى به كذا فى الأصل ، وجاء فى القاموس : أن الذين سموا بهذا الأسم هم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم جاعوا فى الطريق حتى أكلوا الخَبَط وهو الورق المضروب بالمخابط يجفف ويطحن ، فسموا بسَرِيَّة الخَبَط أو جيش الخَبَط وعليه يكون أسم الحارث الحبط بالحاء المهملة .

ٱبن سعد: قبيلة . ومن بنى بكر بن سعد بن ضبة: صبح وبجالة : ٱبنا نعل بن مالك ٱبن بكر بن سعد : نخذان، وعائذة[1] بن مالك بن بكر بن سعد: نخذ، ونصر بن عبد الله ٱبن بكر بن سعد : نخذ .

وأما باسل بن ضبة فإنه خرج مغاضبا لابيه فوقع بأرض الدَّيْلم فتزوج ٱمرأة من الديلم، فولدت له الديلم بن باسل: جدّ القبيلة المشهورة؛ ومن رجالها فى الجاهلية : زيد الفوارس بن حصَين. وفى الإسلام ٱبن شُبْرُمَة القاضى . وأعقب من الديلم نخذان : الأبيض بن معاوية بن الديلم، وبُجَيْر بن معاوية بن الديلم . فأعقب الأبيض ٱبن معاوية من الضحاك ولار وشهريار وإيران وناشر : أولاد الأبيض بن معاوية ٱبن ديلم من بهرام بن الضحاك؛ وفيروز وزربوران وبريانوس: أربعة أنخاذ. وأعقب بريانوس بن الضحاك من قابوس بن بريانوس . وأعقب قابوس من شاه مرد . وأعقب لار بن الأبيض من كامياد بن لار . وأعقب كامياد من ٱبنه جور .

وأعقب بجير بن معاوية بن ديلم من باسل بن تيداذما، فأعقب تيداذما من دادوه.

فهذه النهاية فى ٱختصار نسب الديلم؛ والله سبحانه وتعالى أعلم .

وأمّا عمرو بن أدّ بن طابخة فهو مُزَيْنة، ومزينة أُمه : وهى بنت كلب بن وَبَرة ٱبن ثعلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وكلّ مزنىّ ينسب إلى مزينة هذا . ومن مزينة : عثمان وأوس : ولدا عمرو؛ فمن عثمان بن عمرو بن أدّ بن طابخة بطنان : عدا ولاطِم : ٱبنا عثمان . ومن مزينة : النعمان بن مقرِّن وزهير بن أبى سُلْمَى؛ وليس فى العرب سُلمَى بالضمّ سواه، ورؤبة بن العجّاج . قال رسول الله

(١) وردت فى بعض كتب الأنساب بالدال المهملة وفى بعضها بالذال المعجمة فتنبه .

صلى الله عليه وسلم! "أسلَم وغِفَار ومزينة وجهينة (أو قال : مَن كان من جهينة) خيرٌ من بنى تميم و بنى عامر بن صعصعة ومن الحليفين أسد وغَطَفان" .

وأما عبد مناة بن أدّ بن طابخة فمنه ثورُ أطحل بن عبد مناة : بطن — رهط سفيان الثورىّ رحمه الله، (وأطحل جبل) ، وبنو الرباب : ولد تيم بن عبد مناة وعدىّ بن عبد مناة وعوف بن عبد مناة : سُمُّوا الرِّبَاب : لأنهم غمسوا أيديَهُم فى رُبٍّ إذ تحالفوا على بنى تميم .

قال : ومن النسّابين من يجعل الرباب بنى تيم وعدىّ وثور وعُكْل : وهم بنو عبد مناة وضبة بن أدّ .

فأما عدىّ بن عبد مناة، فإليه ينسب كلّ عدوىّ ليس من عدىّ قريش؛ ومنهم : أبو قَتادة العدوىّ : تابعىّ؛ وإلى عوف بن عبد مناة ينسب كلّ عوفىّ؛ ومنهم : عطيّة العوفىّ . قال : وشيخ الشرف النسابة يقول : إن عكْلًا هو عوف بن وائل ابن قيس بن عوف بن عبد مناة، وعُكْل : أَمَةٌ لامرأةٍ من حمير يقال لها : بنتُ ذى اللِّحْيَة، تزوّجها عوف بن وائل، فولدت له جشما وسعدا وعليّا، ثم هلكت، فحضنتْ عُكْل ولدَها فغلبت عليهم ونُسبوا اليها .

وأما تيم بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة ففخذه : عمرو بن الحارث بن التيم بن عبد مناة وفيه العدد .

انقضت خندف فلنرجع الى عمود النسب من الياس فى ابنه :

مُدرِكة بن الياس بن مضر

واسمه عمرو، وأمه خندف : وهى ليلى بنت حلوان القضاعيّة؛ وإنما سُمّى مدركة : لان أباه الياس خرج متجعا ، ومعه أهله وماله ، فدخلتْ بين إبله أرنب ، فنفرت

الإبل . فخرج أولاد الياس، فأدركها عمرو، فسمّاه أبوه الياسُ : مدركة؛ وخرجتْ لُيلَى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة أمّه تهرول فقال لها الياس : مالك تخندفين؟ والخندفةُ : الهَرْوَلة، فسمّيت خندف، وخرج عامر بن الياس أخو مدركة في طلب الأرنب فاصطادها وطبخها، فقال له أبوه الياس : أنتَ طابخة، ورأى عَمْرا أخاهما قد انقمع في الظلّة فهو يخرج رأسه منه، فقال له أبوه الياس : أنت قَمَعَة .

ومن مدركة غير عمود النسب : بنو هذيل بن مدركة، ومن هذيل : بطنان لصلبه : بنو لِحيان وسعد؛ ومن قبائل سعد بن هذيل : بنو خُنَاعة بن سعد، وبنو صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل؛ منهم : عبد الله بن مسعود ابن غافل بن حبيب بن شَمْخ بن قار بن مخزوم بن صاهلة الصحابيّ : أحد القرّاء رضي الله عنه . ومن شعراء هذيل : أبو ذؤيب الهذليّ وأبو كبير وأبو المثلّم وغيرهم .

وعمود النسب من مدركة في ابنه خزيمة بن مدركة، وأمّه سلمى بنت اسلم القضاعية؛ ومنه غير كنانة عمود النسب قبيلتان : وهما الهون وأسد . فأما الهون ابن خزيمة، فأعقب من عَضَل والدِّيش ابني بليغ بن الهون، وهم القارَة : سُمّوا قارة : لأن يَعْمَر بن عوف بن الشدّاخ أحد بني ليث لما أراد أن يفترقهم في بطون كنانة، قال رجل منهم : دعوا قارة لا تنفرونا فنجفل مثل إجفال الظليم فسمّوا قارة : وهم رماة العرب وفيهم قيل "قد أنصفَ القارَةَ من رَامَاها" وسبب هذا المثل أن رجلين التقيا، أحدهما من القارة، فقال القاريّ للآخر : إن شئتَ صارعتُك، وإن شئتَ سابقتُك، وإن شئتَ راميتُك، فقال خصمُه : قد اخترتُ المراماةَ، فقال القاريّ :

قد أنصف القارة من راماها * إنا إذا ما فئةٌ نلقاها

* نردّ أولاها على أخراها *

ثم انتزع له سهما فسلّ فؤاده، وقيل غير ذلك .

ومن أسَد بن خزيمة أربع عشائر : بنو كاهل وصعب وعمرو ودودان : بنى أسَد .

فمن دودان : بنو عمرو بن دودان : قبيلة : وهم وجوه بنى أسد، منهم : زينب بنت جحش بن رئاب بن يَعْمَر بن صبرة بن مرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، زوّجت النبيّ صلى الله عليه وسلم : وهى بنت عمّته أميمة بنت عبد المطلب . وبنو سعد بن الحارث بن ثعلبة بن دودان : قبيلة . من شعرائهم : بشر بن أبى خازم الوالبيّ الجاهليّ . وبنو قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن دودان : قبيلة، منهم : نخذ بنى نصر بن قعين، ومنهم بنو قعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة ابن دودان : قبيلة . وبنو أعيا بن طريف : قبيلة، وبنو قيس بن طريف : قبيلة، وبنو كعب بن عمرو بن قعين : قبيلة، وبنو سُواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان : نخذ، وبنو ناشرة بن نصر بن سواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان .

وعمود النسب من خزيمة بن مدركة فى ابنه كنانة بن خزيمة، وأمّه عوانة بنت سعد القيسية . وبنو كنانة أوّلُ عربٍ تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسبه .

ومن بنى كنانة غير عمود النسب وهو النضر : خمس قبائل لصلبه : بنو عبد مناة وعمرو وعامر وملكان ومالك منهم : بنو حداد بن مالك بن كنانة : نخذ .

فأما عبد مناة بن كنانة، فمنهم : بنو بكر وبنو عامر وبنو مرة : بنى عبد مناة، ومن بنى بكر بن عبد مناة : بنو الدُّئِل بن بكر بن عبد مناة : رهط أبى الأسود الدؤلىّ :

وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن عمرو بن حلس بن نفاثة بن عدىّ بن الدئل بن بكر المذكور: وهو تلميذ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى النحو، ويقال فى النسبة إلى هذا الفخذ: دؤلى مهموز مفتوح.

ومن بنى بكر: بنو الحارث بن بكر: فخذ، وبنو ليث بن بكر: فخذ، منهم: بنو مدلج بن ليث بن بكر فخذ، وبنو ضَمْرَة بن بكر: فخذ. منهم: بنو غِفار بن مُلَيْل بن ضمرة بن بكر: رهط أبى ذرّ الغفارىّ: وهو جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مذيل بن صعير بن حرام بن غفار، وقد أقرض أبو ذرّ الغفارىّ رضى الله عنه.

وأما عامر بن عبد مناة بن كنانة، فمنه: قَيْن بن عامر: قبيلة أهل الغُمَيْصاء، قتلهم خالد بن الوليد رضى الله عنه.

وأما مرّة بن عبد مناة بن كنانة، فمنه: بنو مُدْلِج بن مرّة: قبيلة سراقة بن مالك ابن جعشم وهم المدلجيّون، قالوا: وهم قافة العرب وأعلمهم بالزجر والقيافة. (١٦٦)

وأما عمرو بن كنانة، فهم العَمْريّون. وأما عامر بن كنانة، فهم العامريّون، وأما ملكان بن كنانة فهم الملكانيّون، وأما مالك بن كنانة فمنه فى الحارث، ومن الحارث فى ثعلبة، ومن ثعلبة فى فخذين: بنو عامر وبنو غنم. أما غنم فمنه: فِراس بن غنم: وهم الفراسيّون. ومن بنى غنم: أمّ رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أُذَينة بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم: وهى أم عائشة بنت أبى بكر الصدّيق رضى الله عنها زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم.

ومن عامر عشيرتان: بنو مُخْدَج بن عامر بن ثعلبة المُخْدَجيّون، وبنو قُثَيْم بن عدىّ بن عامر النسأة. فهؤلاء أفخاذ كنانة، والله أعلم.

وعمود النسب من كنانة بن خزيمة فى ابنه النَّضْر بن كنانة، واسمه قيس، وأمه برّة بنت مرّ الأدية، والنضر: الذهب؛ وكان له: يخلد[1] بن النضر، منه: بدر بن الحارث بن يخلد الذى سُمّيت به بدرٌ بَدْرا. قال: وليس له ولد باق

والعقب من النضر بن كنانة فى ابنه عمود النسب وهو:

مالك بن النضر

وأمه عِكْرِشة بنت عَدْوان القيسيّة، ولا عقب لمالك إلا من عمود النسب وهو ابنه:

فِهر بن مالك

وهو قريش، وأمه جَندلة بنت عامر الجرهميّة، وكلّ من لم يلده فهرٌ فليس بقرشىّ. وقد قيل فى تسميته بقريش أقوال: منها أنه اسم دابّة فى البحر، وأنه اسم للقبيلة، وأحسن ما قيل فيه: إن التقريش: التفتيش، فكان يقرش عن خَلّة كلّ ذى خَلّة فيسدّها بفضله: فمن كان محتاجا أغناه، ومن كان عاريا كساه، ومن كان طريدا آواه، ومن كان خائفا حماه، ومن كان ضالا هداه. قال الحارث بن حِلّزة اليشكرىّ عفا الله تعالى عنه:

أيها الناطق المقرّش عنا * عند عمرو، وهل لذاك بقاء؟

وقيل: التقرّش: التجمّع، وسُمّيت قريش لتجمّعها، فإنها لما تجمّعت بمكّة وجمعت خصائل الخير سُمّيت قريشا؛ وتُسمّى أيضا الحُمْس من الحماسة؛ وذلك أنها تحمّست فى دينها فقالت: لا نطوف بالبيت عراةً، ولا تسلأ نساؤنا سَمْناً، ولا تغزل وبَرا، ولا نخرج إلى عرفات، ولا نزايل حرمنا، ولا نعظّم غيره، ولا نطوف بين الصفا والمَرْوة.

(١) كذا بالاصل ووردت فى مكان آخر منه "مخلد".

وكانوا يقفون بالمزدلفة ومن سواهم من العرب يقال لهم : الحُمْسُ : كانوا يطوفون بالبيت عراةً ويقولون : نكرم البيت أن نطوف فيه بثيابنا التي اجترحنا فيها الآثامَ .

قال : ومن بني فهر غير غالب عمود النسب : بنو الحارث بن فهر وبنو محارب ابن فهر . فمن بني الحارث بن فهر : قيس بن الخُلُج[1] بن الحارث . ويقال : الخلج بلاد قيس ، سمّوا بذلك : لأنهم نزلوا الخلج بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام . منهم آل هَرْمة الشاعر : وهم هرمةُ بن الهذيل بن ربيع بن عامر ابن صبيح بن عدىّ بن قيس .

ومن بني الحارث بن فهر : أبو عبيدة أمين هذه الأمة : وهو عامر بن عبد الله ابن الجراح بن هلال بن أُهَيب بن الحارث بن فهر، لا عقب له .

ومن بني محارب بن فهر : ضِرَار بن الخطّاب بن مرداس بن كثير بن حبيب بن شيبان بن محارب بن فهر وهو القائل :

ونحن بنو الحرب العَوان نشبّها * وبالحرب سُمّينا فنحن محاربُ

وعمود النسب من فهر بن مالك في ابنه غالب بن فهر وأمه ليلى بنت الحارث الهذلية ، منه فخذ واحد غير عمود النسب ، وهم الأُدْرَميون : ولد تيم بن غالب . والأدرم : الناقص الذقن ، وهم قليل وقد ولدوا في العرب ولادات . وعمود النسب من غالب بن فهر في ابنه لؤى بن غالب ، وأمه عاتكة بنت مَخلد الكنانية النضرية ، وقيل بل هي سلمى بنت عمرو الخزاعية ؛ وهو تصغير اللأى وهو ثور الوحش مهموز ، وقال أبو حنيفة : اللأى البعرة ، وقيل لؤىّ تصغير لأْيٍ وهو البطء : نقيض العجلة .

(١) وردت في القاموس بضمتين وفي كتاب المعارف لابن قتيبة بتسكين اللام .

وأنشد أبو أسامة :

فدونكُمُ بنى لأيٍ أخاكم * ودونكِ مالكا يا أمَّ عمرو

وقال ابن دريد : هو مشتقّ من لِوَاء الجيش وهو مهموز ، وإن كان من لِوَى الرمل فهو مقصور، قال امرؤ القيس :

* بسَقْطِ اللِّوَى بيْنَ الدَّخولِ فحَوْمَلِ *

واللوى : أعوجاجٌ فى ظهر الفرس . قال : ومن قبائل بنى لؤى غير كعب عمود النسب : بنو عامر وبنو أسامة وبنو خزيمة : وهم عائذة قريش وسعد، وإليه ينسب بنو نُبَاتة بفتح النون وضمها : وهى أمّ سعد بن لؤىّ؛ بها يعرفون، وإليها ينسبون، وقيل: نُسبوا إلى حاضنةٍ لهم اسمها نباتة من بنى القيْن بن جَسْر بن شَيْع الله، ويقال: سبع الله ابن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة . والحارث بن لؤىّ، وعوف وجشم : أولاد لؤىّ .

فأما عامر بن لؤىّ، فمنهم ابن أمّ مكتوم الأعمى الذى نزل فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ وهو مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة؛ واسمه عمرو بن قيس بن زائدة ابن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن مُعَيْص بن عامر بن لؤىّ ؛ ومنهم عمرو ابن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسْل بن عامر، الذى قتله علىّ بن أبى طالب يوم الخندق .

وأما بنو أسامة بن لؤىّ، فيزعم من نسب بنى ناجية إلى قريش أنهم يلقون بنى لؤىّ عند أسامة بن لؤىّ، وقد كان علىّ بن أبى طالب سباهم حين أقاموا على النصرانية ثم باعهم فيمن يريد، فاشتراهم مَصْقَلة بن هُبيْرة الشيبانىّ بمائة ألف درهم، فقدّم منها

ثلاثين ألفا وأعتقهم، فأنفذ عليّ عتقهم، وهرب مصقلة ببقيّة المال إلى معاوية . وقد قيل عن عليّ إنه قال : ماأعقب عمّى سامة بن لؤىّ .

وأما خزيمة بن لؤىّ، فإليه يُنسب القوم الذين يزعمون أنهم عائدة قريش . قال: وشيخ الشرف بن أبي جعفر النسابة يدفعهم عن النسب؛ وهم قوم تكثر بهم معاوية فأدخلهم فى قريش، وعائدة هى ٱبنة الخِمس بن لُخافة بن خثعم، بها يُعرَفون: وهم بنو الحارث بن مالك بن عُبَيد بن خزيمة بن لؤىّ، وعائدة أمّ الحارث هذا؛ ويقال: الحارث بن مالك بن عوف بن حرب بن خزيمة بن لؤى، وهم بمالك خمسُ أفخاذٍ من عوف : بنو جذيمة، وبنو عامر، وبنو سلامة ، وبنو معاوية : أولاد عوف، وعائدة مع بنى مَحْلَب بن ذهل بن شيبان ، باديتهم مع باديتهم ، وحاضرتهم مع حاضرتهم يد واحدة .

فلنرجع إلى عمود النسب، وهو من لؤىّ بن غالب فى ٱبنه :

كعب بن لؤىّ بن غالب

وأمّه مارِيَة بنت كعب القضاعيّة . ومنه غير مُرّة عمود النسب وهما بطنان : بنو عدىّ وبنو هُصَيْص؛ فأما بنو عدىّ، فمنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ٱبن نُفَيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدىّ بن كعب . وسعيد بن زيد بن نفيل المذكور أحد العشرة . ومن بنى عدىّ : عبد الله بن مُطِيع ٱبن الأسود بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عُويج بفتح العين وضمها، بن عدىّ بن كعب، وهو وأبوه من الصحابة ، وهو الذى أمره أهل المدينة حين أخرجوا بنى أميّة منها فى وقعة الحرّة .

وأما بنو هُصَيْص بن كعب فمنه فخذان : بنو جُمَح وبنو سهم : أبنى عمرو بن هصيص .

فأما بنو سهم : فمنهم عمرو بنُ العاصُ بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص .

وأما بنو جمح ، فمنهم عثمان بن مظعون بن حُبَيْب بن وهب بن حُذافة بن جمح : هاجر الهجرتين وشهد بدرًا . ومنهم صفوان بن أميّة بن خلف بن وهب بن حذافة المذكور، كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! "أبا وهب". ومنهم أبو محذورة : أوس بن مَعين ابن لوذان بن سعد بن جمح ، مؤذن المسجد الحرام لرسول الله صلى الله عليه وسلم . (١٢٨)

ويرجع إلى عمود النسب وهو كعب بن لؤى فى ابنه :

مرّة بن كعب

وأمه وحشيّة بنت شيبان الفهرية . ومنه غير كلاب الذى هو عمود النسب : بطنان وهما : بنو تَيْم ، منهم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ويكنى بعتيق ، ابن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنيسه فى الغار بنصّ القرءان بقوله تعالى ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ فشهد له القرءان بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهيك بذلك شرفا ، وصهره ، وخليفته صلى الله عليه وسلم ورضى عن أبى بكر وأرضاه .

ومن بنى تيم : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم أحد العشرة ، وبنو يَقَظَة بن مرّة ، منهم : ام سلمة الصادقة : زوج النبي صلى الله عليه وسلم ،

وهى بنت أبى أميّـة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرّة ، وخالد بن الوليـد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم الملقّب بسيف الله . قال وقد آنقرض ولد خالد بن الوليد فلم يبق منهم أحد شرقا ولا غربا ، و إن آنتمى إليهم أحد فهو مبطل فى آنتمائه ، وكلّ من آدّعى إليه ، فقد كذب . قال الشريف : وكان شيخنا الفقيه مجلّى بن جميع بن نجـاء الشافعىّ قاضى مصر يدعى إليه ، وهو على كتبه بخطه وشافهنا به ولا صحّة لذلك

وعمود النسب من مرّة بن كعب فى آبنه :

كلاب بن مرة بن كعب

وأمّه هند بنت بَهْز بن حكيم . وقيل عُروة . ومنه غير قصىّ عمود النسب : بطن واحد : وهم زهرة بن كلاب ، منهم : السّيّدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، آبن زهرة : أمّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وعبد الرحمن بن عوف بن الحارث آبن زهرة : أحد العشرة ، وسعد بن أبى وَقّاص .

و يرجع عمود النسب منه فى آبنه قصىّ بن كلاب بن مرّة .

وأمّه فاطمة بنت سَيْل الأزديّة ، وآسمه زيد ، و يُدعَى مجمِّعا : لجمعه أمر قريش بالرحلتين وأوّل من جمع يوم الجمعة . وقيل : إنما سُمّى قصىٌّ "مجمِّعًا" : لأنه لما أخرج خزاعة من مكة ورأى أنه من صريح ولد إسماعيل عليـه السلام ، وأنه أحقّ من خزاعة بالبيت الحرام ، و بَنَى دار الندوة . وجعل بابها إلى البيت الحرام ، وتجمّعت قريش بمكة ، فسـمى بذلك "مجمِّعا" ، لأنه جمعهم ولم يجعل معهم غيرهم ، وكان يجمعهم فى دار الندوة .

وأما الرحلتان ، فأوّل من سنّهما هاشم : فكان يرحل فى الشتاء إلى اليمن و إلى الحبشة إلى النجاشىّ فيكرمه ، و يرحل فى الصيف إلى الشام إلى غزّة ، و بها مات ؛ و ربما وصل إلى أنْقِرة و يدخل على قيصر فيكرمه . وقد قال ٱبن الزِّبَعْرَى :

عمرو العلا هشمَ الثريدَ لقومه * و رجالُ مكّةَ مسنتون عِجافُ
سُنّت إليه الرحلتان كلاهما : * سفر الشتاء و رحلة الأصيافِ (١)

وأما أوّل من جمع يوم الجمعة فهو كعب بن لؤىّ ، وكان يُسمّى : يومَ العَروبَة ؛ فكان يجمعهم و يعظهم و يحثّهم على ٱتباع نبىّ من صلبه .

و إنما سمّىَ قصيًّا : لأن أمّه فاطمة بنت سعد بن سيل لما تقصّت به مع زوجها ربيعة بن جذام القضاعىّ ، فأحملها إلى بلاده من أرض عُذْره من بلاد الشام سُمّىَ بذلك . قال : ومنه غير عمود النسب وهو عبد مناف بطنان : بنو أسد بن عبد العُزّى ٱبن قصىّ ، وبنو عبد الدار بن قصىّ .

فأما بنو أسد ، فمنهم خديجة بنت خويلد بن أسد : زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ومنهم : الزُّبير بن العوّام بن خويلد بن أسد أحد العشرة وحوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما بنو عبد الدار بن قصىّ ، فمنهم الحَجَبَة ، فيهم : بنو شَيْبة بن عثمان بن أبى طَلْحة عبد الله بن عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار . وفى بنى عبد الدار : هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . قال . وهى مسألة فى النسب يُمتَحَنُ بها من يدّعِى علم النسب : يقال له : من يعلم فى بنى قصىّ جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هاشم بن عبد مناف غير هاشم بن عبد مناف بن قصىّ ؟

نرجع إلى عمود النسب من قصىّ بن كلاب فى ٱبنه :

(١) يلاحظ القارئ أن قافيتى البيتين غير متجانستين والعرب يفعلون ذلك فى أشعارهم ، ويسمى "الإقواء" وهو ٱختلاف إعراب القوافى .

عبد مناف بن قصيّ

وأمه حُبَّى بنت حُلَيل الخزاعيّة ، وٱسمه المغيرة والقمر . ومنه غير هاشم عمود (١٢٩)
النسب ثلاث بطون : بنو المطّلب : وهو العِيص ، وبنو عبد شمس وبنو نوفل : أولاد
عبد مناف . فمن بنى عبد شمس : أميّة الأصغر . يقال لولده : العَبَلَات : لأن أمّ أميّة
٥ هذا عَبْلَة بنت عبيد من البراجم بن تميم ، وبنو أميّة الأكبر بن عبد شمس ، منهم :
ذو النورين : عثمان بن عفّان بن العاص بن أميّة بن عبد شمس أحد العشرة وزوج
ٱبنتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ورضى عنه . ومن بنى عبد شمس : أبو العاص بن
الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُثنى عليه فى صهارته خيرا . ومن بنى عبد المطّلب بن
١٠ عبد مناف : رهطُ بن عبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب البدريّ ، ٱنقرض ، وشافع
ٱبن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطّلب جدّ الشافعيّ رضى الله عنه :
وهو محمد بن إدريس بن العبّاس بن عثمان بن شافع . ومن بنى نوفل : جُبَيْر بن مُطعِم
ٱبن عديّ بن نوفل . وكان ممّن قام فى أمر الصحيفة ، وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يشكر له ذلك ، وهم يدٌ مع بنى أميّة .

١٥ وعمود النسب من عبد مناف فى ٱبنه هاشم بن عبد مناف ، وأمه عاتكة بنت
مُرّة السلميّة ، وٱسمه عمرو العُلَا ، وسُمّى هاشما لكرمه وهشمه الثريدَ فى الجدبِ مبتدئا
بذلك ، ٱنقرض جميع ولده من الذكور إلا عمود النسب عبد المطّلب ، وكان له أسد
ٱبن هاشم ، منه : فاطمة بنت أسد أمّ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ وهى أوّل
هاشميّة تزوّجت هاشميّا فولدت له ، وٱنقرض أسد إلا منها ، وكان رسول الله صلى الله
٢٠ عليه وسلم يقول : هى أمّى بعد أمّى . والعقب من هاشم فى ٱبنه :

عبد المطّلب بن هاشم

وأمه سَلْمى بنت زيد النجّارية : وهو شَيْبة الحمد ، أعقب من غير عبد الله عمود النسب من بنى أبى طالب عبد مناف بن عبد المطّلب والعباس بن عبد المطّلب والحارث بن عبد المطّلب وأبا لهب بن عبد المطّلب وهو عبد العزّى .

فأما بنو أبى طالب فهم ثلاث بطون : بنو علىّ بن أبى طالب بن عبد المطّلب : وهم العلويّون ، وبنو جعفر الطيّار : وهم الجعفريّون ، وبنو عَقِيل بن أبى طالب : وهم العَقيليّون . ٥

فالعلويّون خمس أفخاذ : بنو الحسن بن علىّ ، وبنو الحسين بن علىّ ، وبنو محمّد ٱبن الحنفيّة : وهم المحمّديون ، وبنو العباس السقّاء بن علىّ : سمّى بذلك لأنه كان قد سقى أخاه الحسينَ الماءَ بالقربة فى الطَّفّ ، وبنو عمر الأطراف بن علىّ . وفى كلّ فخذ منهم عدّة عشائر . ١٠

وأما الجعفريّون فثلاث أفخاذ : بنو علىّ بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهم الزينبيّون ، لأن أمّ علىّ هذا زينبُ بنت فاطمة ٱبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت علىّ رضى الله عنه ، وبنو إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وبنو إسحاق العِرْضىّ بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . والعرضُ : موضع بالمدينة . وفى كلّ فخذ عدّة عشائر . ١٥

وأما العَقيليّون ، ففخذان : بنو محمّد ومسلم : ٱبنى عبد الله الأحول بن محمد بن عقيل بن أبى طالب : فهؤلاء بطون بنى طالب .

وأما العباسيّون ، فبطنان : بنو عبد الله الحَبْر ومَعْبَد : ٱبنى العبّاس بن عبد المطلب .

فأما عبدالله، فمنه ثماني أفخاذ: بنو عبدالله وأنقرض، وبنو عيسى، وبنو عبد الصمد، وبنو داود، وبنو إسماعيل، وبنو صالح: صاحب الشام، وبنو سليمان: صاحب البصرة، وبنو محمد الكامل: جدّ الخلفاء أولاد عليّ السجّاد بن عبد الله بن العبّاس.

وأما مَعْبد، فمنه فخذان: بنو داود ومحمد: أبنى ابراهيم بن عبد الله بن معبد بن العبّاس: فهؤلاء بنو العباس بن عبد المطّلب.

وأما الحارث بن عبد المطّلب، فمنه ثلاث أفخاذ: وهم الحارثيّون: بنو ربيعة، وبنو نوفل، وبنو أبي سفيان: أولاد الحارث بن عبد المطلب: فهؤلاء بنو الحارث.

وأما أبولهب عبد العزّى، فمنه فخذان: بنو عُتْبة وبنو مُعَتِّب: ولدىْ أبي لهب.

وعمود النسب الشريف في عبدالله بن عبد المطّلب، وأمّه آمنة بنت عمرو المخزوميّة، ولا عقب لعبدالله بن عبد المطّلب إلّا من سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محمد النبيّ العربيّ، ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ ابن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر (واسمه قيس) ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ابن أدّ بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ابن تارح: وهو آزر بن ناحور ابن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر: وهو هود النبيّ عليه السلام؛ وهو جماع قيس ويمن ونزار وخندف بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ابن لَمِك بن مَتُوشَلَخ[1] بن أخنوخ: وهو إدريس النبيّ عليه السلام ابن يَارَدَ بن مَهْلَائِيل[2]

(١) في التوراة: مَتُوشَالَخ.

(٢) في التوراة: مَهْلَلْئِيل.

ابن قَيْنان بن أَنُوشَ بن هبة الله شيث بن أبى البشر آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر أنبياء الله تعالى أجمعين .

نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضحى * نورًا ومن فلَق الصباح عَمودا

وروى عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لما خلق الله تعالى آدم، أهبطنى فى صلبه إلى الأرض، وحملنى فى صلب نوح فى السفينة، وقذف بى فى النّار فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلنى من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجنى من بين أبوين لم يلتقيا على سِفاح قطّ". ٥

والى هذا أشار العبّاس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه بقوله حيث يقول :

مِنْ قبلِها طِبتَ فى الجِنانِ، وفى * مستودَعٍ، حيث يُخصَفُ الورقُ

ثم هبطتَ البلاد، لا بشرٌ * أنتَ، ولا مُضْغةٌ، ولا عَلَق ١٠

بل نطفةٌ، تركبُ السفينَ وقد * ألجم نسرًا وأهلَه، الغَرَقُ

تُنقَلُ من صالَبٍ إلى رحِمٍ * إذا مضَى عالَمٌ، بدا طَبَقُ

اللّهم صلّ على أسعد الخلق سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم أفضلَ صلواتِك وسلامك عددَ خَلْقك، وأَجْرِ لطفَك فى أمورنا فى الدنيا والآخرة، حسبُنا الله ونعم الوكيل!

كمل الجزء الثانى ١٥

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب،

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء الثالث : "القسم الثانى من الفن الثانى فى الأمثال"

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وصلّى الله وسلّم على أشرف الخلق أجمعين

تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السفر الثاني

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

فهرس

السفر الثانى

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

للنويرى

الفن الثانى

صحيفة

فى الإنسان وما يتعلق به ١

القسم الأول

فى اشتقاقه، وتسميته، وتنقلاته، وطبائعه، ووصفه، وتشبيهه، والغزل، والنسيب، والهوى، والمحبة، والعشق، والأسباب؛ وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

فى اشتقاقه وتسميته وتنقلاته وطبائعه، وما يتصل بذلك ٥

فصل قال أحمد بن محمد بن عبد ربه ٧

فصل وأما ترتيب أحواله ١٠

فصل فى ظهور الشيب وعمومه ١٢

النفس الغضبية ١٣

النفس البهيمية ١٣

صحيفة

الباب الثانى :

فى وصف أعضاء الإنسان وتشبيهها ١٦

الشعر وما قيل فيه ١٦

فصل فى تفصيل أوصافه... ... ... ١٧

ومما وصف به الشعر ١٨

ومما وصفت به شعور النساء ١٩

ذكر ما قيل فى الشيب والخضاب من المدح والذم... ... ... ٢١

فأما مدح الشيب ٢١

وأما ما ورد فى ذم الشيب ٢٤

ومما قيل فى الخضاب من المدح... ... ... ٢٩

ومما قيل فى ذم الخضاب ٣٠

وأما ما وصف به الوجه ٣١

ومن ذلك ما قيل فى المؤنث ٣٤

ومما وصف به صفاء الوجه ورقة البشرة ٣٥

ومن ذلك ما قيل فى المؤنث ٣٦

ومما قيل فى صفرة الوجه ٣٧

ومن ذلك ما قيل فى المؤنث ٣٧

ومما قيل فى السمرة... ... ... ٣٨

ومما قيل فى السواد... ... ... ٣٨

ومما وصف به أثر الجدرى فى الوجه ٤٠

صحيفة

ومما قيل فى الحواجب ٤١
ومما وصفت به الحواجب ٤١
ومما قيل فى العيون ووصفها... ... ... ٤٢
فصل فى عوارض العين ٤٤
فصل فى كيفية النظر وهيئته ٤٤
ومما وصفت به العيون على لفظ التأنيث... ... ... ٥٠
ومما قيل فى أدواء العين... ... ... ٥٢
ومما قيل فى أرمد ٥٣
ومما قيل فى أرمد غطى عينيه بشعرية ٥٥
فصل فى ترتيب البكاء ٥٦
فصل فيما قيل فى الأنف ٥٧
ومما قيل فى الشفاه والفم... ... ... ٥٧
فصل فى تقسيم ماء الفم ٥٨
فصل فى ترتيب الضحك ٥٨
ومما قيل فى طِيب الريق والنكهة على لفظ التذكير... ... ... ٥٩
ومما وصف به على لفظ التأنيث... ... ... ٦١
ومما قيل فى طِيب عَرف النساء... ... ... ٦٢
ومما قيل فى الأسنان ٦٤
فصل فى مقابحها... ... ... ٦٥
فصل فى ترتيب الأسنان ٦٦
ومما قيل فى السواك ٦٧

صحيفة

ومما قيل فى اللسان ٦٨
فصل فى عيوبه ٦٨
فصل فى ترتيب العِىّ ٦٩
ومما وصف به حسن الحديث والنغمة ٧٠
ومما قيل فى الأذن ٧٢
فصل فى ترتيب الصمم ٧٢
ومما وصف به الصدغ ٧٣
ومما وصفت به الخدود والوجنات ٧٤
ومما وصفت به على لفظ التأنيث ٧٧
ومما وصفت به الخِيلان ٧٨
ومما وصفت به على لفظ التأنيث ٨١
ومما قيل فى العذار ٨١
ومما وصف به العذار على طريق الذم ٨٧
ومما قيل فى العنق ٩٢
ومما قيل فى اليد إذا باشرت ما يعلق بها ٩٣
ومما مدحت به اليد ٩٤
ومما قيل فى النهود ٩٥
ومما قيل فى البطن ٩٧
ومما قيل فى الأرداف والخصور ٩٧
ومما وصفت به على لفظ التأنيث ٩٩
ومما قيل فى السُّوق ١٠٠

صحيفة

ومما وصفت به القدود ١٠١
ومما قيل فى العناق ١٠٣
ومما ورد على لفظ التأنيث ١٠٥
ومما قيل فى وصف مشى النساء ١٠٦
ماجاء من الأمثال فى الإنسان ١٠٨
ومما يتمثل به فى ذكر النفس... ... ... ١٠٩
ومما يتمثل به من أعضاء الإنسان الظاهرة والباطنة ١١٠
ما قيل فى الرأس والشعر... ... ... ١١٠
مايتمثل به من ذكر الوجه ١١٠
ما يتمثل به من ذكر العين ١١١
ما يتمثل به من ذكر الأنف ١١٢
ما يتمثل به من ذكر الفم واللسان والأسنان... ... ... ١١٢
ما يتمثل به من ذكر الأذن ١١٣
ما يتمثل به من ذكر العنق ١١٣
ما يتمثل به من ذكر اليد ١١٣
ما يتمثل به من ذكر الصدر والقلب ١١٥
ما يتمثل به من ذكر الظهر والبطن والجنب ١١٦
ما يتمثل به من ذكر الكبد والدم والعروق ١١٦
ما يتمثل به من ذكر الساق والقدم ١١٧
من ضرب به المثل من الرجال على لفظ أفعل للتفضيل ١١٧
وأما من ضرب بها المثل من النساء ١٢٣

صحيفة

الباب الثالث :

فى الغزل والنسيب والهوى والمحبة والعشق ١٢٥

ذكر شىء مما قيل فى الهوى والمحبة والعشق ١٢٥

فأما كلام الحكماء والفلاسفة ١٢٦

وأما كلام الإسلاميّين وما قالوه فيه ١٢٦

ذكر مراتب العشق وضروبه ١٢٨

ذكر ما قيل فى الفرق بين المحبة والعشق ١٣٠

وأما سبب العشق وما قيل فيه ١٣١

فصل ومن أسباب العشق ١٣٥

فصل وذكر بعض الحكماء ١٣٥

فصل ويتأكد العشق بإدمان النظر ١٣٧

وأما ما قيل فى مدحه وذمه والممدوح منه والمذموم ١٣٨

فأما الممدوح منه ١٣٨

وأما القسم المذموم منه ١٤٥

ذكر شىء من الشعر المقول فى ذم العشق والحب ١٥٠

وأما من خاطر بنفسه وألقاها إلى الهلاك لأجل محبوبه ١٦٠

وممن خاطر بنفسه فى هواه وعرّضها للتلف فنجا ونال خيرا ١٦٥

وأما من كفر بسبب العشق ١٧٣

وأما من قَتَل بسبب العشق ١٧٥

وأما من قُتِل بسبب العشق ١٧٦

وأما من قتله العشق ١٨٤

صحيفة

وأما من قتل نفسه بسبب العشق ١٩٥
ذكر شيء مما ورد فى التحذير من فتنة النساء وذم الزنا والنظر الى المردان
والتحذير من اللواط وعقوبة اللائط ١٩٨
أما ما ورد من التحذير من فتنة النساء ١٩٨
وأما ما جاء فى ذم الزنا ٢٠١
وأما ما جاء فى النهى عن النظر الى المردان ومجالستهم ٢٠٢
وأما ما جاء فى التحذير من اللواط وما ورد فى سحاق النساء ٢٠٤
وأما ما ورد فى عقوبة اللائط والملوط به فى الدنيا والآخرة ٢٠٥
أما عقوبة الدنيا ٢٠٥
وأما عقوبته فى الآخرة ٢٠٨
ذكر نبذة مما قيل فى الغزل والنسيب... ... ... ٢١٠
فما قيل فى المذكر ٢١٢
ومما قيل فى المؤنث... ... ... ٢٢٦
ومما قيل فى المطلق والمشترك ٢٣١
ومما قيل فى طيف الخيال ٢٣٧
ومما قيل فى الرد على العذول ٢٤١
ومما قيل فى رجوع العذول... ... ... ٢٤٢
ومما قيل فى الوصال ٢٤٢
ومما قيل فى الفراق والبين ٢٤٣
ومما قيل فى مفارقة الأصحاب ٢٤٦

صحيفة
ومما قيل فى التوديع ٢٤٦
ومما قيل فى الصدّ والهجران ٢٥٠
ومما قيل فى الزيارة ٢٥١
ومما قيل فى تخفيف الزيارة وموانعها ٢٥٣
ومنها التأخر عن عيادة المرضى ٢٥٤
ومما قيل فى المدامع ٢٥٥
ومما قيل فى الرضا من المحبوب باليسير ٢٥٨
ومما قيل فى النحول ٢٥٩
ومما قيل فى المحبوب اذا اعتلّ ٢٦١
ومما يناسب هذا الفصل ما قيل فى شرب الدواء ٢٦٢
ومما قيل على لسان الورقاء ٢٦٣
ومما قيل فى المراجعات ٢٦٥
ومما قيل فى المردوف ٢٦٧
ومما قيل فى الجناس ٢٦٨
ومما قيل فى الموشّحات ٢٧٢

الباب الرابع :

فى الأنساب ٢٧٦
الطبقة الاولى الجذم ٢٧٧
وأما عزوة العرب الى يمن ٢٨٣
والطبقة الثانية الجماهير ٢٨٤

صحيفة
والطبقة الثالثة الشعوب ٢٨٤
والطبقة الرابعة القبيلة ٢٨٤
والطبقة الخامسة العمائر ٢٨٤
والطبقة السادسة البطون... ... ... ٢٨٤
والطبقة السابعة الأفخاذ ٢٨٥
والطبقة الثامنة العشائر ٢٨٥
والطبقة التاسعة الفصائل... ... ... ٢٨٥
والطبقة العاشرة الرهط ٢٨٥
أصل النسب أبو البشر آدم عليه السلام ٢٨٦
إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام ٣٢٢
ذكر نسب قيس وبطونها ٣٣٤
الياس بن مضر بن نزار ٣٤٣
مدركة بن الياس بن مضر ٣٤٨
مالك بن النضر ٣٥٢
فهر بن مالك ٣٥٢
كعب بن لؤى بن غالب ٣٥٥
مرة بن كعب ٣٥٦
كلاب بن مرة بن كعب ٣٥٧
عبد مناف بن قصيّ ٣٥٩
عبد المطّلب بن هاشم ٣٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثانى من الفن الثانى

فى الأمثال المشهورة

(١)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد العرب، وأخبار الكهنة، والزجر، والفأل، والطيرة، والفراسة، والذكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجى، والألغاز؛ وفيه خمسة أبواب.

الباب الأوّل

من هذا القسم

(فى الأمثال)

ضرب الله عز وجل الامثال فى كتابه العزيز فى آى كثيرة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ وتكرر ذكر الأمثال.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضرب الله مثلاً صراطا مستقيما، وعلى جَنَبَي الصراط أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصراط داعٍ يقول ادخلوا الصراط ولا تعرّجوا" فالصراط: الإسلام، والستور: حدود الله تعالى، والأبواب: محارم الله، والداعى: القرآن.

قال المبرّد : المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر، شبّه به حال الثانى بالأوّل والأصـــل فيه التشبيه . قال : وقولهم مَثَـــل بين يديه ، إذا آنتصب ؛ معناه أشبه الصورة المنتصبة . وفلان أمثل من فلان، أى أشبه .

والمثال : القصاص، لتشبيه حال المقتصّ منه بحال الأوّل .

وقال آبن السِّكِّيت : المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه . ٥

وقال إبراهيم النظّام : يجتمع فى المثل أربع لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة .

وقال آبن المقفّع : إذا جُعل الكلام مثلا كان أوضحَ للنطق، وآنقَ للسمع، وأوسعَ لشعوب الحديث .

وأوّل ما نبـــدأ به من ذلك ما تُمُثِّل به من أقوال ســـيدنا رسول الله صـــلى الله عليه وسلم . ١٠

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم وهو ممـــا لم يسبق إليه :

"إيَّاكم وخضراءَ الدِّمَن" فقيل له : وما ذاك يارسول الله؟ فقال : "المرأةُ الحَسْنَاءُ فى مَنْبِتِ السُّوء ! "

"كلّ الصيدِ فى جَوْف الفَرَا" قاله لأبى سفيان يتألّفه على الإسلام . ١٥

" مات فلان حَتْف أنفه " .

" لا ينتطح فيه عَنْزَان " .

" إن المُنْبَتَّ لا أرضًا قَطَعَ ولا ظَهْرا أَبْقَى " المنبتُّ : المنقطع عن أصحابه فى السفر؛ والظهر : الدابّة، قاله فى الغلوّ فى العبادة .

" الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيس " : ضربه فى الحرب .

" يَاخَيْلَ اللهِ ٱرْكَبِي " .

" اشْتَدِّى أَزْمَةُ تَنْفَرِجِى " .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " الناس كأسنان المُشْطِ وإنما يتفاضلون بالعافية " .

٥ " الناس كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا " .

" النَّاسُ كَإِبِلٍ ، مِائَةٌ لا تَجِدُ فيها راحِلَةً " .

" المؤمن هيّن ليّن ، كالجمل الأَنِفِ إن ٱنقيد ٱنقاد ، وإن أُنيخ على صخرة ٱستناخ " .

" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدّ بعضه بعضا " .

١٠ " أصحابى كالنجوم ، بأيّهم ٱقتديتم ٱهتديتم " .

" مثل أصحابى كالملح لا يصلح الطعام إلا به " .

" أُمَّتى كالمطر ، لا يُدْرَى أوّله خير أم آخره " .

" مثل أبى بكر كالقَطْر أين وقع نفع " .

" عُمَّالكم كأعمالكم وكما تكونوا يولّى عليكم " .

١٥ وقال لما كتب كتاب المهادنة بينه وبين سهيل بن عمرو : "والعقد بيننا كشَرْج العَيْبَة" يعنى إذا ٱنحلّ بعضه ٱنحلّ جميعه .

" المرأة كالضِّلَع العوجاء إن قوّمتها كسرتها ، وإن داريتها ٱستمتعت بها " .

" المتشبِّع بما لم يُعْطَهُ كلابس ثَوْبَىْ زُور " .

" الدالُّ على الخير كفاعله " .

٢٠ " لو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بطانا " .

(٢) "وعد المؤمن كالأخذ باليد" .

"مَثَل المؤمن كالنحلة، لا تأكل إلا طيِّبا ولا تُطعِم إلا طيِّبا" .

"مَثَل المؤمن كالسُّنْبُلَةِ تميل أحيانا، وتعتدِل أحيانا" .

"مَثَل الجليس الصالح كالعطّار، إن لم تصب من عطره أصبت من ريحه، ومثل الجليس السوء كالكِير إن لم يحرق ثوبك آذاك بدُخَانه" . ٥

"علم لا ينفع كنز لا ينفق منه" .

وقال : "المؤمن مِرْآة أخيه" .

"قد جَدَعَ الْحَلَالُ أنْفَ الغَيْرَة" .

"الأعمـال بالنيّات ولكل آمرئ ما نوى" .

"نيَّة المرء خير من عمله" . ١٠

"إن من الشِّعْر لحكمةً وإن من البيان لَسِحْرًا" .

"من كثّر سواد قوم فهو منهم" .

"الأعمـال بخواتمها" .

"ساقى القوم آخرهم شربا" .

"المرء على دِين خليله فلينظر آمرؤ مَنْ يُخَالّ" . ١٥

"المستشير معان والمستشار مؤتمن" .

ومن كلام أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه

إن الله قرن وعده بوعيده :

ليست مع العَزَاء مصيبة .

الموت أهون ممـا بعده وأشدّ ممـا قبله . ٢٠

ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البغى، والنَّكْثُ، والمَكْر .

ذلّ قوم أسندوا أمرهم إلى آمرأة .

احرص على الموت توهبْ لك الحياة ؛ قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الرِّدّة .

كثير القول ينسى بعضه بعضا . وإنما لك ما وعى عنك .

٥ لا تكتم المستشار خبرا فتُؤْتَى من قِبَل نفسك .

خير الخَصْلتين لك أبغضهما إليك .

صنائع المعروف تقِى مَصارِعَ السوء .

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه

مَنْ كتم سِرَّه كان الخيار فى يده .

١٠ أشقى الوُلَاة من شَقِيتْ به رَعِيَّته .

اتقوا مَنْ تَبْغَضُه قلوبُكم .

أعقلُ الناس أعذَرُهم للناس .

اجعلوا الرأسَ رأسين .

أخيفوا الهوامّ قبل أن تخيفكم .

١٥ لو أن الشكرَ والصبرَ بعيران لم أبال أيهما رَكِبتُ .

مَنْ لم يعرِف الشرّ كان أجدَرَ أن يقع فيه .

ما الخمر صِرْفا بأذهب للعقول من الطبع .

إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوىّ .

اقتصاد فى سُنَّة خير من آجْتهاد فى بِدْعة .

٢٠ لا يكن حبك كَلَفًا ، ولا بُغْضك تَلَفًا .

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه

ما يَزَعُ اللهُ بالسلطان أكثرُ مما يَزَعُ بالقرآن .

الهدية من العامل اذا عُزِل، مثلها منه اذا عمل .

أنتم إلى إمام فعّال، أحوجُ منكم إلى إمام قوّال؛ قاله يوم صعد المنبر فأرتجَ عليه .

وقال يوم قُتل : لأن أُقتَل قبل الدماء، أحبُّ الىّ من أن أُقتَل بعد الدماء . ٥

ومن كلام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه

من رضى عن نفسه كثر الساخط عليـه؛ ومن ضيَّعه الأقربُ أُتيح له الأبعـد؛ ومن بالغ فى الخصومة أَثِمَ، ومن قصر فيها ظَلَم .

رأى الشيخ خير من مشهد الغلام .

الناس من خوف الذلّ فى الذلّ . ١٠

إن من السكوت ما هو ابلغ من الجواب .

ومن كلام عبد الله بن عباس رضى الله عنهما

لكل داخل دهشة فابدءوه بالتحية؛ ولكل طاعم حشمة فابدءوه باليمين .

ومن أمثـال العرب ما نقلته من كتاب " الأمثال " للميدانىّ . [والميدانىّ[1] : هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميدانىّ النيسابورىّ — والميدانىّ : بفتح الميم ١٥ وسكون اليـاء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة نسبة إلى ميدان زياد، وهى محلة بنيسابور؛ توفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة] ووضعته على حروف المعجم .

فمن ذلك ماجاء منها على حرف الهمزة :

(١) هذه زيادة فى إحدى النسخ .

حرف الهمزة

تقول العرب : "إنَّ المُوَصَّيْنَ بَنُو سَهْوَان" قال الميدانىّ : يُضرَب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به ، وبنو سهوان : بنو آدم عليه السلام حين عهد اليه فسها ونسى .

٥ وقولهم : " إنَّ الرَّثِيئَةَ تَفْثَأُ الغضب " قال : الرثيئة : اللبن الحامض يخلط بالحلو، والفَثْءُ : التسكين ، وزعموا أن رجلا نزل بقوم وكان ساخطا عليهم ، وكان جائعا فسقوه الرثيئة فسكن غضبه ، فقال هذا المثل : يضرب فى الهدية تورث الوفاق .

وقولهم : "إن الحديد بالحديد يُفْلَح" أى يستعان فى الأمر الشديد بما ١٠ يشاكله ويقاويه .

وقولهم : "إن السلامة منها تَرْكُ مافيها" فى اللُّقَطَة وذمّ الدنيا[1] .

والنفس تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمتْ * أن السلامةَ منها تركُ مافيها

وقولهم : "إن العَصَا من العُصَيَّة" يقال : إن أول من قال ذلك الأفعَى الجرهمىّ ، ذلك أن نزارا لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر، وإيادا، وربيعة، وأنمارا، ١٥ فقال : يابنىّ ! هذه القبة الحمراء — وكانت من أدم — لمضر، وهذه الفرس الأدهم والحباء الأسود لربيعة، وهذه الخادم — وكانت شمطاء — لإياد، وهذه البدرة والمجلس لأنمار، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون، فأتوا الأفعَى الجرهمىّ ومنزله بنجران ، فتشاجروا

(١) فى الميدانى : وهذا فى بيت أوّله . والنفس الخ .

فى ميراثه، فتوجهوا إليه، فبيناهم فى سيرهم إذ رأى مضر أثر كلإ قد رعى، فقال : إن البعير الذى رعى هـذا أعور، وقال ربيعة : إنه لأزور، وقال إياد : إنه لأبتر، وقال أنمـار : إنه لشرود، فساروا قليلا، فإذاهم برجل يوضع حمله (١) فسألهم عن البعير، فقال مضر : أهو أعور؟ قال : نعم، وقال ربيعة : أهو أزور؟ قال : نعم، وقال إياد : أهو أبتر؟ قال : نعم، وقال أنمـار : أهو شرود؟ قال : نعم، هذه والله صفة بعيرى، فدلونى عليـه، فقالوا : والله ما رأيناه . فقال : هـذا والله الكذب كيف أصدّقكم وأنتم تصفونه بصفته؟ فساروا حتى قدموا نجران، فلمـا نزلوا، نادى صاحب البعير، هؤلاء أصحاب جملى وصفوا لى صفته ثم قالوا : لم نره، فاختصموا إلى الأفعى، فقال لهم : كيف وصفتموه وأنتم لم تروْه؟ فقال مضر : رأيته قد رعى جانبا وترك جانبا، فعلمت أنه أعور، وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة والثانية فاسـدة، فعلمت أنه أزور لأنه أفسدها بشدّة وطئه، وقال إياد : عَرَفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذيّالا لمصع به، وقال أنمـار : وعرفت أنه شرود، لأنه يرعى فى المكان الملتفّ نبته ثم يجوزه إلى مكان أرقّ منـه، فقال الأفعى : ليسوا بأصحاب جملك فاطلبه، ثم سألهم : من أنتم؟ فأخبروه بخبرهم، وبما جاءوا له، فأكرمهم، وقال : أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى؟ ثم أنزلهم وذبح لهم شاة، وأتاهم بخمر، وجلس لهم الأفعى بحيث لا يرى، فقال ربيعة : لم أر كاليوم أطيب لحما لولا أن شاتة غذيت بلبن كلبة، وقال مضر : لم أر كاليوم أطيب خمرا لولا أن حُبْلته نبتت على قبر، فقال إياد : لم أر كاليوم رجلا أسرّى لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له، فقال أنمـار : لم أر كاليوم كلاما أنفع فى حاجتنا من كلامنا، وكلامهم بأذنه، فدعا قهرمانة، فقال : ماهذه الخمر،

(١) فى الميدانى : ينشد حمله .

وما أمرها؟ قال: هى من حُبْلة غرستها على قبر أبيك؛ وقال للراعى: ماهذه الشاة؟ فقال: هى عناق أرضعتها بلبن كلبة وكانت أمها ماتت؛ ثم أتى أمه، فقال: أصدقينى، مَنْ أبى؟ فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال وكان لايولد له، فخفتُ أن يموت وليس له ولد، فأمكنت من نفسى ابن عم له كان نازلا عليه فولدتك، فرجع إليهم وقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال نزار فهو لمضر، فذهب بالإبل الحمر والدنانير، فسمّيت: مضر الحمراء. وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شىء أسود، فصار لربيعة الخيل الدُّهْم وما شاكلها، فقيل: ربيعة الفرس. وأما الخادم الشمطاء فلصاحبها الخيل الْبُلْق والماشية، فسميت: إياد الشمطاء، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض فصدروا من عنده على ذلك، فقال الأفعى: إن العصا من العصيّة، وإنّ خُشَيناً من أخشن؛ فأرسلهما مثلا.

وقولهم: "إن العَوانَ لا تُعَلَّم الخِمرة": يضرب للرجل المجرّب.

وقولهم: "إنى لآكل الرأس وأنا أعلم بما فيه": يضرب للأمر تأتيه وأنت تعلم ما فيه مما تكره.

وقولهم: "أنفٌ فى السماء، وآستٌ فى الماء": يضرب للمتكبر الصغير الشأن.

وقولهم: "إن الذليل الذى ليست له عَضُد" أى أنصار وأعوان: يضرب لمن يخذُله ناصره.

وقولهم: "إنْ يَدْمَ أَظَلْكَ فقد نَقِبَ خُفِّى" لأظل: ما تحت مَنْسِم البعير: والخُفّ: قائمته: يضربه المشكو إليه لمشاكى أى أنا منه فى مثل ما تشكوه.

وقولهم: "إن تسلم الجِلَّةُ فالنِّيبُ هَدَر" الجِلَّةُ: جمع جليل يعنى العظام من الإبل، والنيب: جمع ناب وهى الناقة المسنّة، معناه إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به.

وقولهم: "إنْ يَبْغِ عليك قومُك لا يبغ عليـك القمر" يقال: إن بنى ثعلبـة ابن سعد فى الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة، فقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر يُرى، وقالت طائفة: بل يغيب قبل طلوعها، فتراضوا برجل جعلوه بينهم، فقال رجل منهم: إن قومى يبغون علىّ، فقال العدل: إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر؛ فذهبت مثلا: يضرب للأمر المشهور. ٥

وقولهم: "إنْ كنتَ رِيحًا فقد لَاقَيْتَ إعْصَارا" الإعصار: ريح شديدة تهبّ فيما بين السماء والأرض: يضرب للدل بنفسه إذا صُلِىَ بمن هو أدهى منه وأشد.

وقولهم: "إنَّكَ خيرٌ من تَفَارِيقِ العَصَا" قالوا: قالته غُنَيّة الأعرابية لابنها، وكان عارما مع ضعفه، فواثب يوما فتى فقطع أذنه فأخذت ديتها، فزادت حُسنَ حالٍ ثم واثب آخر فقطع شفته فأخذت الدية فذكرته فى أرجوزتها فقالت ١٠

أَحْلِفُ بالمَرْوَةِ حقًّا والصَّفَا * إنك أجدى (١) من تَفَاريق العَصَا

فقيل لأعرابى: ماتفاريق العصا؟ فقال: العصا تقطع ساجورا والسواجير للكلاب والأسرى من الناس ثم تقطع عصا الساجور فتصير أوتادا ويقطع الوتد فيصير كل قطعة شِظَاظا وإن جعل لرأس الشظاظ كالفَلْكة صار للبُخْتِىّ مِهَارا وهو ١٥

(١) فى الميدانى: خير.

العود الذى يدخل فى أنفه، واذا فرق المهار جاءت منه تَوَادٍ وهى الخشبة التى تشد على خِلْف الناقة .

وقولهم : " إنَّهُ لَيَعلَمُ من أينَ تُؤْكَلُ الكَتِف " : يضرب للرجل الداهى ؛ قال بعضهم : لِمَ تُؤكَلُ الكتف من أسفلها ؟ قال : لأنها تنقشر عن عظمها وتبقى المرقة مكانها ثابتة .

وقولهم : " إنَّكَ لا تَجْنِي من الشَّوْكِ العِنَب " أى لا تجد عند ذى المَنبِت السوء جميلا ؛ والمثل من قول أكثم قال : إذا ظلمت فاحذر الانتصار . فان الظلم لا يكسبك إلا مثل فعلك .

وقولهم : " أَخُو الظَّلْمَاء أعْشَى بالليل " : يضرب لمن يخطئ حجته ولا يبصر المخرج مما وقع فيه .

وقولهم : " إنَّكَ لَتُكْثِرُ الحَزَّ وتُخْطِئ المَفْصِل " : يضرب لمن يجتهد فى السعى ثم لا يظفر بالمراد .

وقولهم : " أوّل الشجرة النّواة " : يضرب للأمر الصغير يتولد منه الكبير .

وقولهم : " إذا صاحت الدّجاجة صِياح الدِّيك فلْتُذْبَح " قاله الفرزدق فى امرأة قالت الشعر .

وقولهم : " إذا رآنى رأى السِّكين فى الماء " : يضرب لمن يخافك جدّا .

وقولهم : " إنك ريّان فلا تعجلْ بشربك " : يضرب لمن أشرف على إدراك بغيته فيؤمر بالرفق .

وقولهم : " أبْطَشُ مِنْ دَوْسَرٍ " هى إحدى كتائب النعمان أشدّها بطشا ونكاية ؛ قال بعض الشعراء

ضَرَبَتْ دَوْسَرُ فيهم ضَرْبة (١) * أثبتتْ أوتاد ملْكٍ فاستقَرّ

وقولهم : " أبْرَمًا قَرُونًا " البَرَمُ : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر لبخله ، والقَرُون : الذى يقرن بين الشيئين ؛ وأصله أن رجلا كان لا يدخل فى الميسر ولا يرى اللحم فجاء إلى امرأته وبين يديها لحم تأكله فأقبل يأكل معها بضعتين يقرن بينهما فقالت له : أبْرَمًا قَرُونًا : يضرب لمن يجمع بين خَصْلَتين مكروهتين .

وقولهم : " الثَّيِّبُ عُجَالَةُ الراكب " : يضرب فى الحث على الرضا بيسير الحاجة عند إعواز جليلها .

وقولهم :

" اِلْبَسْ لِكُلِّ حَالةٍ لَبُوسَهَا * إمّا نَعِيمَهَا وإمّا بُوسَهَا "

أوّل من قال ذلك بَيْهس : وهو رجل من بنى غراب بن فَزارة . وكان سابع سبعة إخوة ، فأغار عليهم أناس من بنى أشجع ، وهم فى إبلهم فقتلوا منهم ستة وتركوا بيهسا لحمقه فقال : دعونى أتوصل معكم إلى أهلى فأقبل معهم . فلما كان من الغد نحروا جزورا فى يوم شديد الحر . فقال بعضهم : أطلوا لحمكم لا يفسده الضحّ ، فقال

(١) فى اللسان : وصوابه « فيه » لأنه عائد على يوم الخنو .

بيهس : لكن بالأَثْلَاث[1] لحم لا يظلّل، فأرسلها مثلا؛ ثم فارقهم وأتى أمه فأخبرها الخبر فقالت : ما جاء بك من بين إخوتك وأنت أخبثهم ، فقال : ما خيّرك القومُ فتختارى، فأرسلها مثلا ؛ ثم أعطته ثياب إخوته ومتاعهم، فقال : ياحبذا التراث لولا الذِّلة، فأرسلها مثلا؛ وأخذ يوما يَبْرُمُ سكينا، فقيل له : ما تصنع بها؟ فقال : أقتل بها قتلة إخوتى، فقيل له : إنك لأحمق، فقال : مايؤمنك من أحمق فى يده سكين، فأرسلها مثلا؛ ثم إنه مرّ بنسوة من قومه يصلحن آمرأة يردن أن يهدينها لبعض قتلة إخوته فكشف ثوبه عن آسته وغطى به رأسه، فقيل له : ما تصنع؟ فقال :

البَسْ لكل حالة لبوسَها، * إما نعيمَها وإما بُوسَها

وقولهم : "الصيفَ ضيّعتِ اللبن" قال الأصمعىّ : معناه تركت الشىء فى وقته؛ وقال غيره : تركت الشىء وهو ممكن، وقال أبو عبيدة : أوّل من قاله عمرو بن عُدس، وكان قد تزوج دَخْتَنُوس بعد ما كبر، فكان ذات يوم نائما فى حجرها فخَفَق وسال لعابه فتأففته فانتبه وهى تتأفف منه، فقال : أتحبين أن أطلّقك؟ قالت : نعم، فطلقها، وتزوجها فتى ضرير حسن الوجه، ففجأتهم ذات يوم غارةٌ والفتى نائم فجاءت دَخْتَنوس فأنبهته وقالت له : الخيل ـ فجعل يقول : الخيل الخيل ـ من الخوف حتى مات فَرَقا وسُبِيتْ دختنوس فبلغ عمرو الخبر فركب ولحقهم وقاتل حتى آستنقذ

(١) قال ياقوت فى معجمه : أثلات «بالك» هو الموضع المذكور فى المثل فى بعض الروايات؛ لكن بالأثلات الخ . ثم قال : وأكثر الرواة يقولون : الأثلات «بالك» جمع أثلة وهو صنف من الطرفاء كبير يظلل بفيئه مائة نفس .

جميع ما أخذوا وآستنقذها فوضعها قدامه على السرج وردّها إلى أهلها ، ثم اصابتهم سنة فبعثت إليه تقول : نحتاج اللبن فبعث إليها بلقحة وقال : الصيف ضيّعت اللبن .

وقولهم : "آضْطَرَّهُ السَّيْلُ إلى مَعْطَشِه" وهو أن رجلا عطش وكان قد أتى واديا له غور وماء شديد الجرية، فبقى فى أصل شجرة لا يقدر أن ينزل فيأخذ به الماء، ولم يجد ماء فمات عطشا : يضرب لمن ألقاه الخير الذى كان فيه إلى شرّ . ٥

وقولهم :

"إنّ الحَمَاةَ أُولِعَتْ بالكَنَّهْ * وأُولِعَتْ كَنَّتُهَا بالظِّنَّهْ"

الحماة : أمّ الزوج ، والكَنّة : آمرأة الابن والأخ ، والظِّنّة : التهمة ، وبين الحماة والكنة عداوةٌ مُستحكِمَةٌ : يُضرب بها المثل فى الشر يقع بين قوم هم أهل لذلك . ١٠

وقولهم : "إن لله جنودا منها العَسَل" قاله معاوية : لما بلغه أن الأشتر سُقى عسلا فيه سمّ فمات : يضرب عند الشماتة بمصاب العدوّ .

وقولهم : "إن الهوى لَيَميل بآسْتِ الراكِب" أى من هوى شيئا مال نحوه قبيحا أو جميلا ، كما قيل

وما زُرْتكم عَمْدًا ولكنّ ذا الهوى * إلى حيث يَهْوى القلب تهوى به الرِّجْل ١٥

وقولهم : "إن الجَوَادَ قَدْ يَعْثُر" : يضرب لمن يكون الغالب عليه فعل الجميل ثم تكون منه الزلّة .

وقولهم : " إن الشفيق بسوء ظنّ مُولَع " : يضرب للمعنىّ بشأن صاحبه لأنه لا يكاد يظن به غير وقوع الحوادث كظنون الوالدات بالأولاد .

وقولهم : " إن خَصْلتين خيرُهما الكذب لَخَصْلتَا سُوء " : يضرب للرجل يعتذر من شيء فعله بالكذب .

٥ وقولهم : " أحاديثُ طَسْمٍ وأحلامُها " : يضرب لمن يخبرك بما لا أصل له .

وقولهم : " أحَشَفًا وسُوءَ كِيلَةٍ " : يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين .

وقولهم : " الحق أبْلَج، والباطلُ لَجْلَج " : معناه أن الحق واضح بيّن والباطل يتلجلج فيه أى يتردّد فلا يجد صاحبه مخرجا .

وقولهم : " الحزمُ سُوءُ الظَّنّ بالناس " : هذا المثل قاله اكثم بن صيفىّ .

١٠ وقولهم : " اختلط الخاثِرُ بالزُّبّادِ " . الخاثر: ما خثر من اللبن، والزُّبّاد : الزّبد : يضرب للقوم يقعون فى التخليط من أمرهم .

وقولهم : " أخطأتِ أسْتُه الحُفْرة " : يضرب لمن رام شيئا فلم ينله .

وقولهم : "ادعِ الى طِعَانِكَ، مَن تدعوه الى جِفَانِكَ " أى استعمل فى حوائجك من تخصّه بمعروفك .

١٥ وقولهم : " أرَوَغانًا يا ثُعال، وقد عَلِقتَ بالحبال " ثعالة : الثعلب : يضرب لمن يراوغ وقد وجب عليه الحق .

وقولهم : " إرْمِ فَقَدْ أَفَقْتَهُ مَرِيشًا " يقال : أفقت السهم إذا وضعت فُوقَه في الوتر : يضرب لمن تمكّن من طَلِبَته .

وقولهم : " أَضَرِطًا وأنت الأعلى ؟ " قاله سُلَيك بن سُلَكة السعدىّ ، وذلك انه بينا هو نائم إذ جثم عليه رجل من الليل وقال : استأسِر فقال له سليك : الليل طويل وأنت مقمر ، فأرسلها مثلا : ثم ضمه سليك بيديه ضمّة أضرطته . فقال له : أَضَرِطًا وأنت الأعلى فأرسلها مثلا : يضرب لمن يشكو فى غير موضع الشكوى .

وقولهم : " أَضْلَلْتَ من عَشْرٍ ثَمَانِيًا " : يضرب لمن يفسد أكثر مايليه من الأمر .

وقولهم : " أَعْطِ أخاك تمرة ، فإن أبَى فجمرة " : يضرب لمن يختار الهوان على الكرامة .

وقولهم : " أَكْذِبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَها " معناه لاتحدّث نفسك بأنك لاتظفر ، فإن ذلك يثبّطك . قال لبيد

أَكْذِبِ النفس إذا حـــدَّثتها ... إنّ صدق النفس يُزْرى بالأَمَل

وقولهم : " أَكِبْرًا و إمْعَارًا ؟ " أى أتجمع بين الكبر والفقر .

وقولهم : " أَمَكْرًا وأنت فى الحَدِيد ؟ " هذا المثل قاله عبد الملك بن مروان لعمرو ابن سعيد لما قبض عليه وكبّله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن لاتفضحنى بأن تخرجنى للناس فتقتلنى بحضرتهم فافعل ، وإنما أراد عمرو بهذه المقالة أن يخالفه عبد الملك فيخرجه فيمنعه منه أصحابه . فقال : أنا أمية ! أمكرا وأنت فى الحديد . يضرب لمن أراد أن يمكر وهو مقهور .

وقولهم : "أَهْوَنُ هَالِكٍ عَجُوزٌ فى هام سَنَةٍ" : يضرب للشىء يُستخفّ به وبهلاكه .

قال الشاعر

وأهون مفقود إذا الموتُ نابه * على المرء من أصحابه مَن تَقَنَّعا

٥ وقولهم : "أوسعتُهم سَبًّا وأودَوْا بالإبل" أصله أن رجلا من العرب أُغير على إبله فأخذت ، فلما تواروا صعد أَكَمَةً وجعل يسُبّهم ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله ، فقال هذا المثل .

ويقال : إن أوّل من قاله كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى ، وذلك أن الحارث بن ورقاء الصيداوىّ أغار على بنى عبد الله بن غطفان وآستاق إبل زهير وراعيَه ، فقال
١٠ زهير فى ذلك قصيدته التى أوّلها

بان الخليطُ ولم يأووا لمن تركوا * وزوّدوك آشتياقا أيّةً سلكوا

وبعث بها إلى الحارث فلم يردّ الإبل ، فهجاه . فقال كعب آبنه : أوسعتهم سبّا وأودوا بالإبل ، فذهبت مثلا : يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام .

وقولهم : "أَوْرَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ" : هو سعد بن زيد مناة أخو مالك
١٥ الذى يقال فيه : إنّك آبلُ من مالك ، وذلك أن مالكا تزوّج بآمرأة وبنى بها فأورد الإبل أخوه سعد ولم يحسن القيام عليها والرفق بها ، فقال مالك

أَوْرَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مشتمِل * ماهكذا تورَد ياسَعْدُ الإبل

فضرب مثلا لمن قصّر فى طلب الأمر .

وقولهم : " إن الشَّقِيّ وَافِدُ البَرَاجم " قاله عمرو بن هنـد الملك . وذلك أن سُوَيْد بن ربيعة التميمىّ قتل أخاه سعد بن هند وهرب فنذر عمرو ليقتلن بأخيه مائة من بنى تميم ، فسار إليهم بجمعه فلقيهم الخبر فتفرقوا فى نواحى بلادهم فلم يجد إلا عجوزا كبيرة وهى حمراء بنت ضَمْرة ، فلما نظر اليها قال : إنى لأحسبك أعجمية ، قالت : لا والذى أسأله أن يخفِض جَناحك ، ويهدّ عِمادك ، ويضع وسادك ، ويسلبك بلادك ، ما أنا بأعجمية ، قال : فمن أنتِ ؟ قالت : أنا بنت ضمرة بن جابر ، ساد مَعدّا كابرا عن كابر ، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة ، قال : فمن زوجك ؟ قالت : هَوْذَة ابن جَرْوَل ، قال : وأين هو الآن ؟ أما تعرفين مكانه ؟ قالت : لو كنت أعلم مكانه حال بينى و بينك ، فقال عمرو : أما والله لولا أنى أخاف أن تلدى مثل أبيك وأخيك وزوجك لأستبقيتك ، فقالت : والله ما أدركتَ ثارا ، ولا محوتَ عارا ، مع كلام كثير كلّمته به فأمر بإحراقها ، فلما نظرت إلى النار ، قالت : ألا فَتًى مَكَانَ عَجوز ! فذهبت مثلا ، ثم مكثت ساعة فلم يفدِها أحد ، فقالت : هيهـات صارتِ الفتيان حُمَمًا ، فذهبت مثلا ثم أُلقيت فى النار ولبث عمرو عامّة يومه لا يقدر على أحد ، حتّى إذا كان آخر النهار أقبل راكب يسمى عَمّارا تُوضع به راحلته حتى أناخ اليه ، فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا رجل من البراجم ، قال : فما جاء بك إلينا ؟ قال : سطع الدُّخان وكنت طَوِيت منذ أيام وظننته طعاما ، فقال عمرو : إن الشقىّ وافدُ البراجم ، فذهبت مثلا وأمر به فأُلقى فى النار ، قيل : إنه أحرق مائة من بنى تميم : تسعة وتسعين من بنى دارم ، وواحدا من البراجم .

وقال بعضهم : مابلغنا أنه أصاب من بنى تميم غير وافد البراجم وإنما أحرق النساء والصبيان؛ قال جرير

وأخزاكُمُ عمروكما قد خُزِيتُمُ * وأدرك عمّارا شقيّ البَرَاجِم

ولذلك عُيِّرت بنو تميم بحب الطعام؛ قال الشاعر

٥ إذا ما مات مَيْت من تميم * وسرّك أن يعيش، فجِئْ بزادِ

بخُبْز أو بلحم أو بتمر * أو الشِّيء الملفّف فى البجادِ

تراه يُنَقِّب الآفاق حولا * ليأكلَ رأسَ لقمانَ بن عادِ

وهذا المثل يضرب لمن يوقع نفسه فى هَلَكَة طمعا .

حرف الباء

١٠ تقول العرب : " بلغ السيلُ الزُّبَى " هى جمع زُبية وهى حفرة تُحفر للأسد إذا أرادوا صيده لا يعلوها الماء فإذا بلغها السيل كان مجحفا : يضرب لمن جاوز الحد .

وقولهم : " بَيْنَ العَصَا ولِحَائِها " الفاء : القشر : يضرب للمتخالّين المتفقين ؛ ويروى : لا مدخل بين العصا ولحائها .

١٥ وقولهم : " بينهم داء الضرائر " هى جمع ضَرَّة يضرب للعداوة إذا رسخت بين قوم .

وقولهم : " بينهم عِطر مَنْشِم " قال الأصمعىّ : مَنْشِم كانت عطارة بمكة وكانت خُزاعة وجُرْهُم إذا أرادوا القتال تطيّبوا من طِيبها فاذا فعلوا ذلك كثرت

بينهم القتلى فكان يقال : أشأم من عطر منشم : يضرب فى الشرّ العظيم ، وفيه يقول زهـــير

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وذُبْيَانَ بعد ما * تَفَانَوْا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ

وقولهم : "به داءُ ظَبْيٍ" : أى أنه لا داء به كما أن الظبى لا داء به ، وقيل : ربمـا يكون بالظبى داء لا يعرف مكانه معناه أنّ به داءً لا يُعرف .

وقولهم : "بلغتِ الدِّمَاءُ الثُّنَنَ" الثُّنَنُ ، الشعَرَات التى فى مؤخر رُسغ الدابّة : يضرب عند بلوغ الشرّ النهاية .

وقولهم : "بَرِحَ الخَفَاءُ" أى زال من قولهم ما برح ، والمعنى زال الشرّ فوضح الأمر ، ويقال : الخفاء المتطاطئ من الأرض ، والبراح المرتفع أى صار الخفاء بَراحا .

وقولهم : "بَنَانُ كفٍّ لَيْسَ فيها ساعِدٌ" : يضرب لمن له همة ولا مقدرة له على ما فى نفسه .

وقولهم : "بات فلانٌ يَشْوِى القَرَاحَ" : يعنى المـاء الخالص لا يخالطه شىء : يضرب لمن ساءت حاله ، وفقد ماله بحيث يشوى المـاء شهوةً للطبيخ .

وقولهم : "بَخٍ بَخٍ ساقٌ بخَلْخَالٍ" هى كلمة يقولها المتعجب من حسن الشىء وكماله . وأوّل من قال ذلك الوِرْثَةُ بنت ثعلبة ، وذلك أنّ ذُهل بن شيبان كان زوج الوِرثة وكانت لا تترك له امرأة إلا ضربتها فتزوج رَقَاش بنت عمرو بن عثمان من بنى ثعلبة ، فخرجت رقاش يوما وعليها خَلْخَالان ، فقالت الوِرْثَةُ ذلك ، فذهبت مثلا .

حرف التـاء

قولهم : "تَرَكَ الظَّبْيُ ظِلَّه" أى كناسه الذى يستظلّ به : يضرب لمن نفر من شىء فتركه تركا لا يعود له .

وقولهم : "تركتُه على مثلِ ليلة الصَّدَرِ" وهى ليـلة ينفر الناس من منًى فلا يبقى منهم احد .

وقولهم : "تركتُه أنقى من الرَّاحَة" أى على حال لا خير فيه كما لا شعر على الراحة : يضرب فى اصطلام الدهر .

وقولهم : "تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تأكُلُ بثَدْيَيْهَا" : أى لا تكون ظِـئرا و إن آذاها الجـوع .

(٧) اوّل من قاله الحارث بن سليل الأسدىّ وكان حليفا لعلقمة بن حصفة الطائىّ فزاره فنظر إلى ابنته الزَّبَّاء وكانت من أجمل أهل دهرها ، فقال : أتيتك خاطبا وقد يُنْكَح الخاطب ، ويُدْرَك الطالب ، ويُمْنَح الراغب ، فقال له علقمة : أنت كفء كريم يُقْبَل منك الصفو ، ويؤخَذ منك العفو ، فأقم ننظر فى أمرك ، ثم انكفأ إلى أمها ، فقال : إن الحارث سيّد قومه حسبا ومنصِبا و بيتا ، وقد خطب إلينا الزبّاء فلا ينصرفَنّ إلا بحاجته ، فقالت المرأة لابنتها : أى الرجال أحب إليك الكَهْل الجَحْجاح ، الواصل المنـاح ، أم الفتى الوضاح ؟ قالت : بل الفتى الوضّاح ، فقالت : إن الفتى يُغيرك ، و إن الشيخ يُميرك ، وليس الكهل الفاضل ، الكثير النائل ، كالحديث السنّ ، الكثير المَنّ ، قالت يا أماه : إن الفتاة تحب الفتى ، كحُبّ الرّعاء أنيق الكلا ، قالت : أى

بنية! إن الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب، قالت: إن الشيخ يُبْلى شبابى، ويدنّس ثيابى، ويُشْمِت بى أترابى. فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها، فتزوجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم، فأبتنى بها، ثم رحل بها إلى قومه فبينا هو ذات يوم جالس بفناء قومه وهى إلى جانبه، إذ أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون فتنفست الصُّعَدَاءَ، ثم أرخت عينيها بالبكاء، فقال: مايبكيك؟ قالت: مالى وللشيوخ، النـاهضين كالفروخ، فقال لهـا: ثَكِلَتْكِ أمك! تجوع الحرة ولا تأكل بثديها، ثم قال لها: وأبيك، لرب غارة شهدتُها، وسبِيَّة أردفتُها، وخمرة شربتُها، فألحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك، وهذا المثل يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب.

وقولهم: "تَجَشَّأ لُقْمانُ من غير شِبَع": يضرب لمن يدّعى ما ليس يملك.

وقولهم: "تُخْبِر عن مجهوله مَرْآتُه": أى منظره يخبر عن مَخْبره.

وقولهم: "تشكو إلى غير مُصَمِّتٍ": أى إلى من لم يهتم بشأنك. قال الشاعر

إنك لا تشـكو إلى مُصَمِّتٍ * فاصْبِر على الحِمْل الثقيل أو مُت

وقولهم: "تجاوز الرَّوضَ إلى القاع القَرِق": يضرب لمن يعدل بحاجته من الكريم إلى اللئيم، والقَرِق: المستوى.

وقولهم: "تسمع بالمُعَيْدِىّ خيرٌ من أن تَراه" ويروى: لا أن تراه: يضرب لمن خبره خيرٌ من مرآه، أوّل من قاله: المنذر بن ماء السماء.

وقولهم : " تُقَطِّعُ أعناقَ الرجال المطامعُ " : يضرب فى ذم الطمع .

وقولهم : " تَقَلَّدها طَوْقَ الحمامة " كناية عن الخَصْلة القبيحة التى لا تزايله ولا تفارقه .

حرف الثاء

قولهم : " ثارَ حابِلُهُم على نابلهم " الحابل : صاحب الحبالة ، والنابل : صاحب النبل أى آختلط أمرهم : يُضرَب فى فساد ذات البَيْن وتأريث الشرّ فى القوم .

وقولهم : " ثَوْر كِلَابٍ فى الرِّهان أَقْعَدُ " : هو كِلاب بن ربيعة بن عامر آبن صَعْصَعَة القيسىّ كان يحمق ، وذلك أنه آرتبط عجل ثور ليسابق عليه ، والأقعد من القَعِيد وهو المتخلف المتباطئ : يُضرَب لمن يروم مالا يكون .

حرف الجيم

قولهم : " جَرْى المُذَكِّيَاتِ غِلَاب " المُذَكِّيَة من الخيل التى أتى عليها بعد قُروحها سَنَةٌ أو سنتان والغلَاب المغالبة : يضرب لمن يُوصف بالتبريز على أقرانه فى حلبة الفضل ، وأول من قاله نذكره إن شاء الله تعالى فى حرب داحس والغبراء .

وقولهم : " جَزَاء سِنِمَّار " وهو الذى بنى الخَوَرْنق وتقدم خبره فى مبانى العرب .

وقولهم : " جَرَحَه حيث لا يَضَعُ الراقى أَنْفَه " قالته جندلة بنت الحارث ، وكانت تحت حنظلة بن مالك وهى عذراء ، وكان حنظلة شيخا كبيرا فخرجت فى ليلة

مطيرة فبصر بها رجل فوثب عليها وآفتضّها، فصاحت وقالت : لُسِعت . قيل أين؟ قالت: حيث لا يضع الراقى أنفه: يضرب لمن يقع فى أمر لا حيلة له فى الخروج منه.

وقولهم : "جَعْجَعَةً ولا أَرَى طِحْناً" : يضرب لمن يعد ولا يفى .

وقولهم : "جَرَى منه مَجْرَى اللَّدُود" وهو ما يُصبّ فى أحد شِقّ الفم من الدواء، يضرب لمن يُبْغَض ويُكْره .

وقولهم : "جَمَاعةٌ على أَقْذَاء" . معناه آجتماعٌ بالأبدان، وآفتراق بالقلوب، وهو بمعنى قوله صلى الله عليه وسلم "هُدْنَةٌ على دَخَن" : يضرب لمن يُضْمِر أذى ويُظْهِر صفاء .

وقولهم : "جَارٌ كجَارِ أبى دُؤَاد" يعنون كعب بن مامة فإنه كان إذا جاوره رجل فإن مات وداه، وإن هلك له بعير أو شاة أخلف عليه، فضربت به العرب المثل فى حسن الجوار، قال طرفة

إنّى كفانى من أمر هممتُ به ❊ جَارٌ كجَارِ الحُذَاقِىّ الذى آتّصَفَا

والحذاقىّ هو أبو دؤاد .

وقولهم : "جَدَعَ الحَلالُ أَنْفَ الْغَيْرَة" قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة زُفت فاطمة إلى علىّ رضى الله عنهما .

وقولهم : "جوِّع كلبَك يتبعْك" . أوّل من قال ذلك ملِك من ملوك حِمْير كان جائرا على أهل مملكته يسلبهم ما فى أيديهم وإن آمرأته سمعت صوت السؤّال

فقالت : إنى لأرحم هؤلاء و إنى لأخاف أن يكونوا عليك سباعا ، بعدما كانوا لك أتباعا ، فقال : جوّع كلبك يتبعك ، ثم إنه غزا بهم ولم يقسم عليهم شيئا فقالوا لأخ له : قد ترى ما نحن فيه من الجهد ونحن نكره خروج الملك عنكم إلى غيركم فساعدنا على قتل أخيك وآجلس مكانه ، فوافقهم على ذلك ، ثم وثبوا على الملك فقتلوه ، فمرّ به عامر بن جَذِيمة وهو مقتول ، فقال : ربما أكل الكلب مؤدّبه اذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلا ، والمثل يضرب فى اللئام وما ينبغى أن يعاملوا به .

وقولهم : " جاءتْهم عَوانًا غيرَ بِكْر " أى مستحكمة غير ضعيفة يريدون حَرْبا أو داهية عظيمة .

وقولهم : " جاء بصحيفة المتلمّس " إذا جاء بالداهية ؛ وكان من خبر صحيفة المتلمس أن المتلمس وطرفة قدما على عمرو بن المنذر بن آمرئ القيس فجعلهما فى صحابة قابوس بن المنذر أخيه وأمرهما بلزومه ، وكان قابوس شابا يعجبه اللهو ، فطال بقاؤهما عنده ، فهجا طرفة عمرا بأبيات فبلغته فاستدعاهما فجاءاهما بجاء وكتب معهما إلى أبى كَرِب عامله على هَجَر أن يقتلهما ، وقال : قد كتبت لكما بجاء ومعروف ، فلما صدرا من عنده ، قال المتلمس لطرفة : هل لك فى كتابينا ، فإن كان فيهما خير مضينا له ، و إن كان شرّا آتقيناه ، فأبى طرفة وقرأ المتلمس كتابه فإذا فيه السوءة فألقاه فى الماء وقال لطرفة : ألق كتابك فأبى ومضى بكتابه ، قال : ومضى المتلمس حتى لحق بملوك بنى جَفْنة بالشام وسار طرفة بكتابه ، فلما آنتهى إلى العامل قتله .

وقولهم : " جَنْدلَتَانِ آصْطَكَّتَا " : يضرب لِقِرْنَيْن يتصاولان .

وقولهم . " جَزَيْتُه حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْل " : للمكافأة .

وقولهم : " جاءوا على بَكْرَةِ أبيهم " أى جاءوا جميعا لم يتخلّف منهم أحد . وقيل : بل البَكرة تأنيث البَكر، يصفهم بالقلة أى بحيث تحملهم بَكرة أبيهم . وقيل بل البكرة التى يُستقى عليها . معناه جاءوا بعضهم يتلو بعضا كدوران البَكرة على نسق واحد ؛ وقيل : المراد بالبكرة الطريقة كأنهم جاءوا على طريقة أبيهم ، وقال ٱبن الأعرابىّ : البكرة : جماعة من الناس أى بأجمعهم .

وقولهم : " جَاوَزَ الحِزَامُ الطِّبْيَيْنِ " : يضرب فى تجاوز الحدّ .

حرف الحاء

قولهم : " حرِّكْ لَهَا حُوَارَهَا تَحِنّ " الحوار : ولد الناقة ، والجمع القليل أَحْورة والكثير حُورَان وحِيران . معناه ذكّره بعضَ أشْجَانِه يهجْ له ، قاله عمرو بن العاص لمعاوية حين أراد أن يستنصر أهل الشام ، أى أَرِهم دم عثمان على قميصه .

وقولهم : " حلبتُها بالساعِد الأَشدّ " أى أخذتها بالقوة إذ لم يتأتّ بالرفق .

وقولهم : " حَذْوَ القُذَّةِ بِالْقُذَّة " أى مِثْلا بمثْل : يضرب فى التسوية بين الشيئين ؛ ومثله : حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْل ، وقد تقدّم .

وقولهم : " حَلَبَ الدهرَ أَشْطُرَه " معناه أنه ٱختبر الدَّهرَ شَطْرَى خيره وشرّه فعرف ما فيه .

وقولهم : " حَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِىّ " ؛ قال آمرؤ القيس

إذا ما لم تكن إبلٌ فمَعْزى * كأنّ قُرونَ جِلَّتِها العِصِىُّ

فتملا بيتنا أَقِطًا وسَمْنًا * وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِىُّ

قال أبو عبيدة : يحتمل معنيين أحدهما أعط كل ما كان لك وراء شِبَعك وريِّك، والآخر القناعة باليسير .

وقولهم : " حَسْبُكَ من القِلَادةِ ما أحاط بالعُنُق " أى آكتف بالقليل عن الكثير .

وقولهم : " حسبك من شَرٍّ سَمَاعُه " أى آكتف بسماعه ولا تعاينه ، قال : ويجوز أن يريد يكفيك سماع الشرّ وإن لم تقدم عليه ولم تُنسب إليه ، والمثل قالته فاطمة بنت الخُرْشُب من بنى أنمار بن بغيض أمّ الربيع بن زياد، وذلك أن آبنها الربيع كان أخذ من قيس بن زهير بن جذيمة دِرْعا، فتعرّض قيس لأمّ الربيع وهى على راحلتها فأراد أن يذهب بها ليرتهنَها بالدرع ، فقالت له : أين عزُب عنك عقلك ياقيس؟ أترى بنى زياد مصالحيك! وقد ذهبتَ بأمّهم يمينا وشمالا وقال الناس ما قالوا وشاءوا، وإن حسبك من شرٍّ سماعه، فذهبت كلمتها مثلا تقول : كفى بالمقالة عارا وإن كان باطلا .

وقولهم : "حَلَقَتْ به عَنْقَاءُ مُغْرِب": يضرب لما يُئس منه؛ قال الشاعر

إذا ما آبنُ عبد الله خلّى مكانه * فقد حَلَقَتْ بالجود عنقاءُ مُغرِبُ

قال الميدانىّ : والعنقاء طائر عظيم معروف الآسم مجهول الجسم يقال : كان بأرض الرَّسّ جبل يقال له : دَمْخٌ مصعّد فى السماء ، وكان يأتيه طائر عظيم لها عنق

طويلة؛ وهى من أحسن الطير؛ فيها من كل لون، وكانت تقع منتصبة وتنقضّ على الطير فتأكلها، فجاعت يوما وأعوزها الطير فانقضّت على صبيّ فذهبت به فسميت عنقاء مغرب : لأنها تغرب بكل ما تأخذه، ثم انقضّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت، فشكوا ذلك إلى نبيّهـم : خالد بن صفوان، فقـال : اللهم خذها واقطع نسلها وسلّط عليها آفة ! فأصابتها صاعقة فاحترقت فضربتها العرب مثلا .

قال عنترة بن الأخرس الطائىّ فى مرثية خالد بن زيد

لقد حلّقت بالجود عنقاء كاسرٌ ❊ كَفَتْخَاءِ دمخ حلّقت بالحَزَوَّر
فمـا إن لها بيضٌ فيُعرفُ بيضُها ❊ ولا شِـبهُ طير منجدٍ أو مُغَوِّرِ

وقولهم : "حتّام تَكْرَع ولا تُنْقَع" كرع إذا تناول المـاء بفيه من موضعه : يضرب للحريص فى جمع الشىء .

وقولهم : "حَسْبُكَ من إِنْضَاجِه أن تقتلَه" : يضرب لطالب الثأر فيقول : لأقتلنّ فلانا وقومه أجمعين فيقـال : لا تعدّ، حسبك أن تدرك ثأرك وطلبتك : ويضرب لمتجاوز الحدّ .

حرف الحـاء

قولهم : "خَيْرَ حالِبَيْكِ تَنْطَحِين" : يضرب لمن يكافئ المحسن بالإساءة، ومثله : خيرَ إناءيك تكفئين .

وقولهم: "خامِرى أمّ عَامِر" معناه آستترى يوأم عامر: الضبع، يشبه بها الأحمق، ومثله: خامِرى حَضاجِر، أتاك ما تحاذِر: وهو آسم للذكر والأنثى من الضباع.

وقولهم: "خلا لِك الجوُّ فبيضِى وآصْفِرِى" قاله طرفة بن العبد، وكان فى سفر مع عمّه فنصب فخاً للقنابر ونثر حَبًّا فلم يصد شيئا، فلما تحملوا رأى القنابر يلقطن الحبّ الذى نثره لهنّ، فقال فى ذلك

يالك من قنبرةٍ بمعمرِ! * خلا لك الجوّ فبيضى وآصفِرى
ونقّرى ما شئتِ أن تنقّرى * قد رحل الصيّاد عنك فابشِرى
ورفع الفخّ فما ذا تحذرى؟ * لابدّ من صيدك يوما فاصبِرى!

يضرب فى الحاجة يتمكّن منها صاحبها.

وقولهم: "خَلْعُ الدِّرْع بِيد الزَّوْجِ" المثل لرَقاش بنت عمرو بن تغلب بن وائل، وكان زوجها كعب بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة، فقال لها: آخلعى، فقالت: خَلْعُ الدِّرع بيد الزَّوج، فقال: آخلعيه لأنظر إليك، فقالت: التجرُّدُ لغير النكاح مُثلةٌ، فذهبت كلمتاها مثلين يُضربان فى وضع الشىء فى غير موضعه.

وقولهم

"خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤُهُ * ومَنْ هُرِيق بالفَلاة ماؤُهُ"

يُضرَب لمن كره صحبتك وزهد فيك.

وقولهم: "خَمْرُ أبى الرَّوْقاء لَيْسَتْ تُسكِر": يُضرَب للغنىّ الذى لا فضل له على أحد.

حرف الدال

قولهم : " دَمِّثْ لجَنْبك قبل النَّوم مُضْطَجَعا " أى آستعدّ للنوائب قبل حلولها، والتدميث : التليين .

وقولهم : " دَعِ آمرءًا وما آخْتَار " : يُضرَب لمن لا يقبل النصح ؛ قال الشاعر

إذا المـــرءُ لم يدرِ ما أَمكنَهْ * ولم يأتِ من أمره أَزينـــهْ!
وأَعجبَـــهُ العُجبُ فاقتـادَهُ * وتاهَ به التِّيـهُ فآستحسنهْ،
فدعْهُ فقـــد ســاءَ تدبيرهُ * سيضحَكُ يومًا ويبكى سنَهْ!

حرف الذال

قولهم : " ذَكَّرَنِى فُوكِ حِمَارَىْ أَهلِى " أصله أن رجلا خرج يطلب حمارين ضلّا له . فرأى آمرأةً فأعجبته فنسى الحمارين، فلما أسفرت عن وجهها رآها فَوْهاء فقال : ذكّرنى فُوكِ حمارَىْ أهلى ، وقال

ليت النِّقابَ على النساء مُحرَّمٌ * كى لا تَغُـــرَّ قبيحةٌ إنســانا

وقولهم : " ذهبوا أيدِى سَبَا " ويقال : تفرقوا، أى تفرّقوا تفريقا لا آجتماع معـــه .

وقصة سبإ لمّـا تفرقوا بسبب سَيْل العرِم مشهورة؛ وسنذكرها إن شاء الله تعالى فى التاريخ .

وقولهم : " ذهبوا شَغَرَ بَغَرَ، وشَذَرَ مَذَرَ، وخِذَعَ مِذَعَ " أى فى كل وجه .

وقولهم : " ذَلَّ بعد شِمَاسِه اليَعْفُورُ " : يضرب لمن انقاد بعد جماحه، واليعفور: فرس .

وقولهم : " ذَهَبتَ طُولا، وعَدِمتَ معقولا " : يضرب للطويل بلا طائل .

حرف الراء

قولهم : " رمتْنى بدَائِها وانْسَلَّت " أصل هذا المثل : أن سعد بن زيد مناة تزوج رُهْمَ ابنة الخزرج، وكانت من أجمل النساء، وكان ضرائرها إذا سابَبْنَها يقلن لها : ياعفلاء، فقالت لها أمها : إذا سابَبْنَكِ فابدئيهنّ بذلك، ففعلت رُهْم ذلك مع ضرّتها ، فقالت : رمتنى بدائها وانسلّت ، فذهبت مثلا : يضرب لمن يُعيِّر الآخر بما هو يُعيَّر به .

وقولهم : " رماه بثالثة الأَثَافِى " وهى قطعة من الجبل يوضع إلى جنبها حَجَران ويُنصب عليها القدر : يضرب لمن رُمِى بداهية عظيمة .

وقولهم : " رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعِدة " الصَّلَف : قلّة الخير، والراعدة : السحابة ذات الرعد : يضرب للبخيل مع السّعة .

وقولهم : " رَجَع بِخُفَّىْ حُنَيْن " أصله أن حُنَيْنا كان إسكافا بالحِيرة وساومه أعرابىّ بخفّين فاختلفا حتى أغضبه، فلما ارتحل الأعرابىّ أخذ حنين الخفين فألقى أحدهما على طريق الأعرابىّ، ثم ألقى الآخر بموضع آخر على طريقه ، فلما مرّ الأعرابىّ بالخف الأول قال : ما أشبه هذا بخف حنين ولو كانا خفين لأخذتُهما ،

ثم مرّ بالآخر فندم على ترك الأول فأناخ راحلتـه وانصرف إلى الأول وقد كَمَنَ له حنين ، فأخذ الراحلة وذهب بها وأقبل الأعرابيّ إلى أهـله ليس معه غير خفّى حنين ، فذهبت مثلا : يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة .

وقولهم : "رُبَّ ساعٍ لقاعد ، وآكِلٍ غير حامِد" أول من قاله النابغة الذُّبيانى ، وكان سبب ذلك أن وفدًا وفَدَ إلى النعمان وفيهم رجل من بنى عَبْس يقال له : شَقِيق ، فمات عنده ، فلما حبا النعمان الوفود بعث بحبائه إلى أهله ، فقال النابغة فى ذلك

أتى أهلَه منـه حِباءٌ ونعمةٌ * ورُبَّ امرِئٍ يسعى لآخرَ قاعِدِ

وقولهم : "رُبَّ مَلوم لَا ذَنْبَ لَه" قاله أكثم بن صيفىّ ، معناه قـد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون عذره ؛ وقيل : إن رجلا قال للأحنف ابن قيس : أنا أبغض التمر والزبد ، فقال : ربَّ ملوم لا ذنب له .

وقولهم : "رُبَّ كَلِمةٍ تقول لصاحبِها دَعْنِي" : يضرب فى النهى عن الإكثار مخافة الإهجار ، ذكروا أن ملكا من ملوك حِمْير خرج إلى الصيد ومعه نديم له فوقفا على صخرة ملساء ، فقال النديم : لو أن إنسانا ذُبح على هذه الصخرة إلى أين كان يبلغ دمه ، فأمر بذبحه ، وقال : ربَّ كلمة تقول لصاحبها دعنى .

ومثله قولهم : "رُبَّ رَأسٍ حَصِيد لِسَان" : يضرب للأمر بالسكوت .

وقولهم : "رُدَّ الحَجَـرَ من حيث جاءك" : أى لا تقبل الضَّيْمَ وارم مَن رماك .

حرف الزاى

قولهم : " زُيِّنَ فى عَيْنِ والدٍ وَلَدُه " : يضرب فى عجب الرجل برهطه .

وقولهم : " زَاحِم بعَوْد أَوْ دع " اى لا تستعن إلا بأهل السنّ والتجربة .

وقولهم : "زَوْجٌ مِنْ عُود، خير من قُعُود"، قالته بعض نساء العرب، قالوا: كان ذو الإصبع العَدْوانِىّ غيورا، وله بنات أربع، وكان لا يزوّجهنّ غَيرة عليهنّ، فاستمع عليهنّ يوما وقد خلَوْن يتحدّثن، فقالت إحداهنّ : لتقل كلُّ واحدة منا ما فى نفسها، ولنصدقنّ جميعا، فاشتهت كلّ واحدة من الثلاثة زوجا وصفتْ من جماله وكماله وسعة حاله، ثم أبت الصغرى أن تتكلّم، فقالوا : لابدّ أن تقولى، وألحّوا عليها، فقالت : زَوجٌ من عُود، خيرٌ من قُعُود، فزوّجهنّ . (١١)

وقولهم : "زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا" قاله مَعاذ بن صَرم الخزاعىّ، وكانت أمّه من عَكّ، وكان يكثر من زيارة أخواله، فأقام فيهم زمانا، ثم خرج يتصيّد مع بنى أخواله، فحمل على عير، فلحقه ابن خال له يقال له : الغضبان فتخاصما، فقال له الغضبان : والله ! لو كان فيك خير لما تركت قومك، فقال : زُرْ غِبًّا، تزددْ حبًّا، فأرسلها مثلا، وفى ذلك يقول الشاعر

إذا شئتَ أن تُقلَى فَزُرْ متواليًا * وإن شئتَ أن تَزدادَ حُبًّا فزرغِبًا

وقال آخر

عليك بإغباب الزيارة إنها * إذا كَثُرتْ كانت إلى الهجر مَسْلَكا

ألم ترَ أنّ القطْرَ يُسْأم دائما * ويُسْأل بالأيدى إذا هو أمسكا

حرف السين

قولهم : "سَبَقَ السيفُ العذَلَ" قاله ضَبَّةُ بن أدّ لمّا لامه الناس على قتل قاتل ابنه فى الحرم، ويقال : إنه لخُزَيْم بن نوفل الهمدانىّ .

وقولهم : "سَقَطَ العَشَاء به على سِرْحان" أصله أن رجلا خرج يلتمس العَشَاء، فوقع على ذئب فأكله، وقال ابن الأعرابىّ : أصله أن رجلا من بنى غَنِىّ يقال له : سِرْحانُ ابن هرزلة كان بطلا فاتكا فقال رجل ! والله لأرعينّ إبلى هذا الوادى، فورد بإبله، فوجد سرحانَ فقتله، وأخذ إبله وقال

أبلِغْ نصيحةَ : أنّ راعِىَ أهْلِها * سقط العَشَاء به على سِرْحانِ

سَقَط العَشَاءُ به على مُتَقَمِّرٍ * طَلْقِ اليدين مُعَاوِدٍ لِطِعانِ

يضرب فى طلب الحاجة يؤدّى صاحبها إلى التلف .

ومثله قولهم : "سقط العَشَاءُ به على مُتَقَمِّرٍ" وهو الأسد .

وقولهم : "سَكَتَ أَلْفًا، ونَطَق خَلْفًا" الخَلْف : الردىء من القول وغيره .

وقولهم : "سَاءَ سَمْعًا فأساء جَابة" أوّل من قاله سُهَيل بن عمرو أخو بنى عامر، وكان قد خرج بابنه أَنَس، فوقف بجَزْورة مكة، فأقبل الأخنس بن شَرِيق الثَّقفىّ فقال له : من هـذا؟ فقال : ابنى ! فقال : حياك الله يافتى [أين أمُّك ؟] فقـال : لا والله ما أمِّى فى البيت، ولكنها انطلقت إلى أمّ حنظلة تطحن دقيقا، فقال أبوه : ساء سمعا فأساء جابةً، فأرسلها مثلا .

وقولهم : "سحابٌ نَوْءٍ ماؤُه حَمِيم" : يضرب لمن له لسانٌ لطيف وليس وراءه خير .

وقولهم : "سوء الاستمساك خير من حُسْن الصَّرْعة" : معناه حصول البعض مع الاحتياط خيرٌ من الكلّ مع التهوّر .

حرف الشين

٥

قولهم : "شُخْبٌ فى الإناء وشُخْبٌ فى الأرض" : يضرب لمن يتكلم فيصيب مرة ويخطئ أخرى .

وقولهم : "شَرِقَ بالرِّيق" أى ضرّه أقرب الأشياء إلى نفعه .

وقولهم : "شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزَم" قاله أبو أخزم الطائىّ : وكان له

١٠ ابن يقال له : أخزم ، فمات وترك بنين ، فوثبوا على جدّهم يوما فأدموه ، وكان أبوهم عاقًّا له فقال

إنّ بَنِىّ ضَرَّجُونى بالدَّمِ * شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم

والشنشنة : الطبيعة والعادة : يضرب فى قرب الشبه .

وقولهم : "شَمِّرْ ذَيْلا ، وادَّرِعْ لَيْلا" : يضرب على الحثّ فى الجدّ والطلب .

١٥ وقولهم : "شَنُوءة بين يتامى رُضَّع" الشنوءة : ما يستقذر من القول والفعل : يضرب لقوم اجتمعوا على فجور وفاحشة ليس فيهم مرشد ولا ناهٍ .

وقولهم : "شَيخٌ بحَوْران له ألقاب" وبعده * الذئب والعقعق والغراب *

حَوْران بأرض الشام : يضرب لمن يُظهر للناس العفاف ، ومن حقّه أن يُحترز منه .

وقولهم : "شَغَلَ الحَلْىُ أهلَه أن يُعارا" : يضرب للسؤول شيئا هو إليه أحوج من السائل .

وقولهم : "شَبَّ عَمْرٌو عن الطَّوْق" قاله جَذيمة الأبرش، وعمرو هذا هو ابن أخته وهو عمرو بن عدىّ بن نَصْر

حرف الطاء

٥ قولهم : "صَبْرًا على مجامِر الكِرام" قال ذلك يَسارُ الكواعب، وكان عبدا أسودَ يَرْعَى لأهله إبلا ضخمة، وكان معه عبد يراعيه، فمرّ أهله يوما سائرين بهذه الإبل التى يرعاها، فعَمَد إلى لَقُوح فحلبها فى علبة، حتّى ملأها ثم مشى بها، وكان أفحَجَ الرِّجلين، حتى أتى بها ابنة مولاه يسقيها، وهى راكبة على جملها، فنظرت إلى رِجْليه فتبسمت، ثم شربت اللبن وجرّته خيرا، فانطلق فرِحا حتّى أتى صاحبه، فقصّ عليه ١٠ القصة، فقال : أتسخر بنفسك ولا تسخر ببنات الأحرار ؛ فقال : والله لقد دَحِكت إلىّ دِحْكةً لا أُخَيِّبُها، يريد : ضحِكت، وكان أعجمىّ اللسان، ثم باتا فقام فحلب فى علبة فملأها، ثم أتى ابنة مولاه، فنبّهها من نومها فاستيقظت وشربت، ثم اضطجعت وجلس يسار حِيالَها، فقالت : ما حاجتك ؟ فقال : ما أعلَمُكِ بحاجتى ! فقالت : لا والله ! فما هى ؟ قال : ذاك الرجل الذى دحكتِ إلىّ . فقالت : حيّاك الله، ١٥ وقامت إلى سَفَطٍ لها فأخرجت منه بَخورا ودُهنا طيبا، وعمدت إلى موسى كانت تحفُّ به الشعر، وأخذت مِجْمَرةً فيها نار، فوضعت عليها البخور ووضعتها تحته، وطأطأت كأنها تصلح البخور، فعمدت إلى مذاكيره فمسحتها بالموسى، فلما أحس بحرارة الحديد . قال : صبرًا على مجامر الكِرام، ثم أومأت إلى أنها تدهنه وقالت :

إن هذا دهن طيب، إلا أن فيه حرارةً فتصبّر عليه، فإن ريحك ريح الإبل وأنا أعافُك، ثم أشمّته الدهن على الموسى، ورفعته فوضعته بين عينيه فاستَلَتَتْ بها أنفه . وقالت : قم إلى إبلك يابن الخبيثة، فأتى صاحبه، فلما رآه . قال : أمقبل أنت أم مدبر ؟ قال : أخزاك الله، أوَ قد عمى بصرُك ؟

٥ إذ لا ترى أنفا ولا أذنيْنِ * أما ترى وبّاصة العينيْنِ

هذا أحد الأقوال فى هذا المثل : يضرب لمن يؤمر بالصبر على ما يكره . ويقال : إن أعرابيا قدم الحضر بإبل ، فباعها بمال كثير وأقام لحوائج له ، ففطن قوم من جيرته لما معه من المال، فعرضوا عليه تزويج جارية وصفوها بالجمال والحسب طمعا فى ماله ، فرغب فيها فزوّجوه إياها ، ثم اتخذوا طعاما وجمعوا الحىّ، وجلس

١٠ الأعرابىّ فى صدر المجلس، فأكلوا الطعام وأداروا الكؤوس وشرب الأعرابىّ، ثم أتوه بكسوة فاخرة، فلبسها وقدّموا له مِجْمرة فيها بخور لاعهد له به، وكان لايلبس السراويل، فلما جلس على المجمرة، سقطت مذاكيره فى النار، فظن أن ذلك سُنّةٌ لابدّ منها، واستحيا أن يكشف ثوبه . فقال: صبرا على مجامر الكرام، فذهبت مثلا واحترقت مذاكيره، وتفرق القوم، وارتحل إلى البادية وترك المرأة والمال، فلما وصل

١٥ إلى قومه وقصّ عليهم القصة . قالوا : استُّ لم تُعَوَّد المِجْمَر، فذهبت مثلا : يضرب لمن لا قديم له .

وقولهم : "صار الزُّجُّ قُدَّامَ السِّنَانِ" : يضرب فى سبق المتأخّر المتقدّم من غير استحقاق لذلك .

وقولهم : "صَرَّحَ المَحْضُ عن الزُّبْدِ" : يضرب للأمر إذا انكشف وتبيّن .

وقولهم : "صَفْقَةٌ لم يَشْهَدْها حاطِب" هو حاطب بن أبى بلتعة كان حازما، فباع بعض أهله بيعة غُبِن فيها حين لم يشهدها حاطب، فسارت مثلا لكلّ أمر ينبرم دون صاحبه .

حرف الضـاد

قولهم : "ضَرَبَهُ ضَرْبَ غرائب الإبل" وذلك أن الغريبة تزدحم على الحياض عنـد الورود، وصاحب الحوض يطردها ويضربها بسبب إبله : يضرب فى دفع الظالم عن ظلمه بأشدّ ما يمكن . ٥

وقولهم : "ضَلَّ الدُّرَيْصُ نَفَقَه" الدُّرَيص : ولد الفأرة واليربوع والهرّة وأشباه ذلك، ونفقه : جحره : يضرب لمن يُعْنى بأمره ويُعدّ حُجَّةً لخَصْمه، فَيَنْسَى عند الحـاجة . ١٠

وقولهم : "ضَـلَّ حِلْمُ آمرأةٍ فأين عيناها ؟" أى هَبْ أنّ عقلهـا ذهب فأين ذهب بصرها ؟ : يضرب فى آستبعاد عقل الحليم .

وقولهم : "ضَائفُ اللَّيْث قتيلُ الْمَحْل" : يضرب لمن آضطرّ لشىء فغرّر بنفسه فى طلبه .

حرف الطـاء ١٥

قولهم : "طويتُه على بِلَالِه وعلى بُلُلَتِه" قال الشاعر

وصاحبٍ مُرَامِقٍ داجيتُهُ * على بِلَال نفسِـه طويتُه

ويقال : طويت السقاء على بُلُلَته إذا طويته وهو نَدٍ لأنه إن طُوِى يابسا تكسّر، وإن طوى نديّا عَفِن : يضرب للرجل يحمل على ما فيه من العيب؛ قال الشاعر

ولقد طويتُكُمُ على بُلَّاتِكم * وعلِمتُ ما فيكم من الأذرابِ
فإذا القرابة لا تُقَرِّبُ قاطعا * وإذا المودّة أقربُ الأنسابِ

والأذراب : جمع ذَرَبٍ وهو الفساد .

وقولهم : " طويتُه على غَرِّهِ " : غَرُّ الثوبِ : أثر كسره الأول : يضرب لمن يُوكَل إلى رأيه وما آنطوى عليه .

حرف الظاء

(١٣)

قولهم : " ظالِعٌ يَعودُ كَسيرا " : يضرب للضعيف يَنصُر من هو أضعف منه .

وقولهم : " ظِئْرٌ رَءوم، خيرٌ من أمٍّ سؤوم " : الظئر : الحاضنة، والرءوم : العطوف، والسؤوم : الملول : يضرب فى عدم الشفقة وقلة الاهتمام .

وقولهم : " ظاهِرُ العِتاب خيرٌ من باطن الحِقْد " معناه ظاهر .

وقولهم : " ظِلَالُ صيفٍ ما لها قِطار " : يضرب لمن له ثروة ولا يُجدى على أحد .

حرف العين

قولهم : " عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى " أوّل من قاله خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه، وكان باليمامة أن يسير إلى العراق، ونالته مشقة بسبب العطش، فأسرى حتى أدرك الماء فقال : عند الصباح يحمد القوم السرى : يضرب لمن يحمل المشقة رجاء الراحة .

وقولهم : " عند جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقين " : يضرب فى معرفة الشىء حقيقة .

وقولهم : " عَيْرٌ عَارَهُ وَتِدُه " أى أهلكه ؛ وأصـله أنّ رجلا أشفق على حماره فربطه إلى وتد ، فهجم عليه السبع فلم يمكنه الفرار فأهلكه .

وقولهم : " عند النِّطاح يُغْلَبُ الكبْشُ الأَجَمّ " وهو الذى لا قرن له : يضرب لمن غلبه صاحبه بمـا أعدّ له .

وقولهم : " على أهلها تَجْنِي بَرَاقِش " قالوا : كانت براقشُ كلبـةً لقوم من العرب ، فأغير عليهم فهربوا وهى معهم ، فنبحت فاتبع القوم آثارهم بنُباحها ، فأدركوهم فقتلوهم ، ففيها يقول حمزة بن بَيْض

بل جناها أخٌ علىّ كريمٌ * وعلى أهلها بَرَاقِشُ تَجْنِي

وقيل فى هذا المثل غير ذلك .

وقولهم : " عسى الغُوَيْر أبْؤُسا " الغُوَيْر : تصغير غارٍ ، والابؤس : جمع بؤس وهو الشدّة ، قالته الزَّبّاء عند رجوع قَصِـير من العراق ، ومعه الرجال ، وكان الغوير على طريقه ، ومعناه لعل الشرّ يأتيكم من قبل الغار : يضرب للرجل يقال له : لعل الشرّ جاء من قبلك .

وقولهم : " عُشْبٌ ولا بَعِير " : يضرب للرجل له مال كثير ولا ينفقه على نفسه ولا على غيره .

وقولهم : " عَادَ غَيثٌ على مَا أَفْسَد " : يضرب للرجل فيه فساد ، وصلاحه أكثر .

وقولهم : " عاد السهمُ الى النَّزَعة " أى رجع الحق إلى أهله .

وقولهم : " عصا الجبانِ أطول " لانه يفعل ذلك من فشله ، يرى أن طولها أشدُّ ترهيبا لعدوّه من قِصَرها .

وقولهم : " على الخبير سَقَطْت " المثل لمالك بن جُبَير العامرىّ، وتمثّل به الفرزدق حين لقى الحسينَ بن علىّ رضى الله عنهما، عند مقدمه من العراق وخروج الحسين إليه وقد قال له : ما وراءك ؟ فقال : على الخبير سقطْتَ، قلوبُ الناس معك، وسيوفهم مع بنى أميّة، والنصر من السماء .

وقولهم : " عادة السُّوءِ شَرٌّ من المَغْرَم " معناه أن المَغْرَم إذا أدّيتَه فارقك ، وعادة السوء لا تفارق صاحبها .

وقولهم : " عَجْعَجَ لمّا عَضّهُ الظِّعَان " أى صاح ، والظعان : نِسْعٌ يُشدّ به الهَوْدَجُ : يُضرَب لمن يَضِجّ إذا لَزِمَهُ الحقّ .

وقولهم : " عندَ الرِّهان تُعرَف السّوابق " : يُضرَب لمن يدّعى ما ليس فيه .

وقولهم : "عادَ الأمرُ إلى نِصابه" : يُضرَب فى الأمر يتولّاه أربابه .

وقولهم : "عَيْنُكَ عَبْرَى والفُؤادُ فى دَد" الدَّدُ والدَّدَنُ والدَّدَا : اللعبُ واللهوُ : يُضرَب لمن يُظهر حُزنا لحزنك وفى قلبه خلاف ذلك .

وقولهم : "عُرْفُطَةٌ تُسْقَى مِنَ الغَوادق" ويروى : الغوابق، العُرفُطة : شجرةٌ خَشْنَةُ المسّ، والغَوادقُ : السحابُ الكثير الماء : يُضرَب للشّرير يُكرَّم ويُبجّل .

حرف الغين

قولهم: "غُدَّةٌ كغُدَّة البَعير ومَوْتٌ فى بَيْت سَلُولِيَّة" قاله عامر بن الطُّفَيل ؛ وذلك أنه لما قَدم على النبىّ صلى الله عليه وسلم! وقدم معه أَرْبَد بن قَيْس اخو لَبيد آبن رَبيعة العامرىّ الشاعر لأمّه، فقال رجل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطُّفَيل قد أقبل، قال: "دعهُ، فإن يُرد اللهُ به خيرًا يهدِه" فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد، ما لى إن أسلمتُ؟ قال: "لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم" قال: تجعل لى الأمر بعدك، قال: "ليس ذاك إلىّ، إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء" قال: فتجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر، قال: "لا" قال: فما ذا تجعل لى؟ قال: "أجعل لك أعنَّة الخيل تغزو عليها"، قال: أو ليس ذلك إلىّ اليوم؟ وكان قد أوصى إلى أَرْبَد بن قَيْس: "إذا رأيتنى أُكلِّمه فدُر من خلفه فاضربه بالسيف" فاخترَط أَرْبَد سيفه شبرًا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سَلِّه، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أَرْبَد ومايصنع بسيفه، فقال: "اللهمّ آكفِنيهما بما شئت" فأرسل الله تعالى على أَرْبَد صاعقةً فى يوم صائف صاحٍ فأحرقته، وولَّى عامر بن الطُّفَيل هاربًا وقال: يامحمد، دعوتَ ربَّك فقُتِل أَرْبَد، والله لأملأنَّها عليك خيلا جُرْدا وفِتيانا مُرْدا، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم "يمنعك الله من ذلك" فسار عامر حتى نَزَل ببيت امرأة سَلُولِيَّة، فخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمة، فقال: غدّة كغُدَّة البعير ومَوْتٌ فى بَيْت سَلُولِيَّة، ثم مات على ظهر فرسه، وسَلُول أقلّ العرب وأذلّهم، فسار كلامه مثلا: يُضرَب فى خَصْلتين إحداهما شرٌّ من الأخرى.

وقولهم: "غَرَّنى بُرْدَاكَ من خَدَافِلى" ويروى: من غدافلى. أصل المثل

أن رجلا ٱستعار بُردَي ٱمرأة فلبسهما، ورَمَى بخُلْقَانٍ كانت عليه، فاسترجعت المرأة بُردَيها فقاله : يُضرَب لمن ضَيّع ماله طمعًا فى مال غيره .

حرف الفـاء

قولهم : "فى وَجْه المـال تَعرِفُ أَمْرَتَه" أى نماءه وخيره، ويقال: أمِرَتْ أموالُ بنى فلان إذا نَمَتْ وكثُرت : يُضرَب لمن يُستدلّ بحسن ظاهره على حسن باطنـــه .

وقولهم : "فى بَيْتـه يُؤتَى الحَكَم" زعمت العرب أن الأرنب ٱلتقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضبّ، فقالت الأرنب : يا أبا الحِسْـل، قال : سميعًا دعوتِ، قالت : أتينـاكَ لنختصم إليـك، قال : عادلا حكَمتما، قالت : فٱخرج إلينا، قال : فى بيتـه يُؤتى الحَكَم، قالت : إنى وجدتُ تمرةً، قال : حُلوةٌ فكُليها، قالت : فاختلسها الثعلب، قال : لنفسه بغَى الخـير، قالت : لطمتُه، قال : بحقّك أخذتِ، قالت : لطمَنِي، قال : حرٌّ ٱنتصر، قالت : فاقض بيننا، قال : حَدِّث حديثين ٱمرأةً، فإن أبَتْ فأربعـةً؛ فذهبتْ أقوالُه كلُّها أمثالا .

وقولهم : "فتًى ولا كمالِك" قاله مُتَمِّم بن نُوَيرة فى أخيه مالك لمّـا قُتل .

وقولهم: "فى دُون هذا ما تُنكِرُ المرأةُ صاحبَها" أوّل من قاله جارية من مُزَيْنة، قال الحَكَم بن صَخْر الثَّقَفىّ: خرجتُ منفردًا فرأيتُ بإمَّرَة (وإمّرة موضع)، جاريتين أُختين لم أَرَ كجمالهما، فكسوتُهما وأحسنتُ إليهما، قال : ثم حججتُ من قابلٍ ومعى أهلى، وقد ٱعتللتُ ونصَل خضابى، فلمّا صرتُ بإمّرة، إذا إحداهما قد جاءت، فسألت

سؤال مُنكِرة، قال فقلت : فلانة ؟ قالت : فِدًى لك أبى وأمى، أنّى تعرِفُنى وأُنكرك ؟ قال فقلتُ : أنا الحَكَم بن صَخْر، قالت : رأيتُك عامَ أوّل شابًّا سُوقَةً، وأراك العام شيخًا مِلكًا، وفى دُون هذا ما تُنكِرُ المرأةُ صاحبَها، فذهبت مثلا، قال قلت : مافعلتْ أختك ؟ قال : فتنفّست الصُّعَداءَ، وقالت : تزوّجها ٱبن عمّ لها وذهب بها، فذاك حيث تقول ٥

إذا ما قَفَلنـا نحوَ نَجْـد وأهلها * فحسبي من الدنيا قُفولٌ إلى نجد

قال قلت : أمَا إنى لو أدركتُها لتزوّجتُها، قالت : وما يمنعك من شريكتها فى حسنها وجمالها وشقيقتها ؟ قال قلت : يمنعنى من ذلك قول كُثَيِّر حيث يقول

إذا وصلتنا خُلّة كى تزيلَنـا * أبَينا وقلنـا الحاجبيّة أوّل

فقالت : كثيّر بينى وبينك، أليس الذى يقول ١٠

هل وصل عَزّةَ إلا وصل غانية ؟ * فى وصل غانيـة من وصلها خَلَفُ

قال : فتركت جوابها عيًّا .

وقولهم : " فاتكةٌ واثقةٌ بِرِىّ " زعموا أن ٱمرأة كُثر لبنها وطفقت تُهريقه، فقال لها زوجها : لِمَ تهرِيقينه ؟ فقالت : فاتكة واثقة برىّ : يضرب للمفسد الذى وراء ظهره مَيسرة . ١٥

حرف القـاف

قولهم : " قطعتْ جَهِيزَةُ قولَ كلّ خَطيب " أصله أن قوما ٱجتمعوا يخطبون فى صلح بين حيّين، قَتل أحدُهما من الآخر قتيلا ليرضَوا بالدية، فبيناهم فى ذلك، إذ جاءت أمة يقال لهـا : جَهيزة، فقالت : إن القاتل قد ظَفر به بعضُ

أولياء المقتول فقتله، فقالوا: قطعت جهيزة قول كلّ خطيب: يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بجهله.

وقولهم: "قَبْلَ البكاء كان وجهك عابسا": يضرب للبخيل يعتل بالإعدام. (١٥)

ومثله: "قَبْلَ النِّفَاسِ كُنتِ مُصْفَرَّةً".

٥ وقولهم: "قَلَبَ الأمرَ ظَهْرًا لبطنٍ": يضرب فى حسن التدبير.

وقولهم: "قد شَمَّرتْ عن ساقها فشمِّرى": يضرب فى الحثّ على الجدّ فى الأمر.

وقولهم: "قد يَضرِط العَيْر والمكواةُ فى النار" قاله عُرفُطة بن عَرفَجة سيّد بنى هِزّان، وكان بينه وبين الحُصَين بن نَبِيت العُكْلىّ حروب ووقائع، فقتلت عُكْل

١٠ رجلا من بنى هِزّان، وأسر عُرفُطة بن عُكْل رجلين، فقال لهما: أيكم أفضل لأقتله بصاحبنا؟ فجعل كلّ واحد منهما يخبر أنّ صاحبه أكرم منه، فأمر بقتلهما جميعا، فقدّم أحدهما للقتل، فجعل الآخر يَضرِط، فقال عُرفُطة: قد يضرط العير والمكواة فى النار، فأرسلها مثلا: يضرب للرجل يخوّف بالأمر فيجزع قبل وقوعه. وهذا أحد الأقوال فيه؛ وقيل غير ذلك.

١٥ وقولهم: "قد بَيَّنَ الصبحُ لذى عَينين": يضرب فى ظهور الأمر كلّ الظهور.

وقولهم: "قد أنصَفَ القارَةَ من راماها" القارةُ: قبيلةٌ قد تقدّم ذكرها فى الأنساب.

وقولهم: "قبل الرِّماء تُملأ الكنائن" أى تؤخذ أهبة الأمر قبل وقوعه.

ومثله : "قبل الرَّمي يُراش السهم" : يضرب فى تهيئة الآلة قبل الحاجة اليها .

وقولهم : "قَلَب له ظَهر المِجَنّ" : يضرب لمن كان لصاحبه على مودّة ، ثم حال عن عهده فيها .

وقولهم : "قد ألقَى عصاه" إذا آستقرّ من سفر أو غيره ، يقال : إنه لما بويع لأبى العباس السفّاح ، قام خطيبا فسقط القضيب من يده ، فقام رجل من القوم وأنشد

فألقتْ عصاها وآستقرّ بها النوى * كما قـــرّ عينًا بالإياب المســافرُ

وقولهم : "قد ونَى طَرَفاه" : يضرب لمن ذلّ وضعُف عن أن يتمّ له أمر ؛ قال النجاشىّ

وإنّ فلانا والإمارة كالذى * وَنَى طَرَفاه بعد ما كان أجدعا

وقولهم : "قُدّتْ سيورُهم من أديمك" : يضرب للشيئين يستويان فى الشبه قال الشاعر

وقُدّت من أديمهم سيورى *

وقولهم : "قد بلَغ الشِّظاظ الوِركَين" الشظاظ : عُوَيد يُجعل فى عروة الجوالق : يضرب فيما جاوز الحدّ ، وهو كقولهم : جاوز الحزامُ الطُّبْيَين .

حرف الكاف

قولهم : "كان كُراعا ، فصار ذراعا" : يضرب للذليل الضعيف صار عزيزا قويّا .

وقولهم : "كلامٌ كالعسَل ، وفعلٌ كالأسَل" : يضرب فى آختلاف القول والفعل .

وقولهم : "كنتَ تبكى من الأثر العافى فقد لاقيتَ أُخدودا" : يضرب لمن يشكو القليل من الشرّ ثم يقع فى الكثير .

وقولهم : "كلّ ذاتَ بعلٍ ستَئيم" هـذا من أمثال أكثم بن صيفىّ ، قال الشاعر

٥ أفاطم إنى هالك فتثبّتى * ولا تجزعى ، كلّ النساء تئيم

أى ستفارق زوجها .

وقولهم : "كلّ أزَبَّ نَقور" قاله زُهَير بن جَذِيمة لأخيه أُسيد ، ونذكر الخبر فى وقائع العرب .

وقولهم : "كلّ فتاة بأبيها مُعجَبة" : يضرب فى عجب الرجل بعشيرته ورهطه .

١٠ وقولهم : "كلّ الصيْد فى جوف القَرا" الفرا : الحمار الوحشىّ ، أصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيّدين ، فاصطاد أحدهم أرنبا ، والآخر ظبيا ، والثالث حمارا ، فتطاولا عليه بصيدهما ، فقال : كلّ الصيد فى جوف الفرا : يضرب لمن يفضّل على أقرانه ، وقد تمثّل به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقولهم : "كَدَمْتَ غير مَكْدَم" : يضرب لمن يطلب شيئا فى غير مطلبه .

١٥ وقولهم : "كالثور يُضرب لمّا عافت البقر" : يضرب فى عقوبة البرىء بذنب المجرم ، ويأتى ذكر ذلك فى أوابد العرب .

وقولهم : "كالكبش يحمل شَفْرةً وزنادا" : يضرب لمن يتعرّض للهلاك .

وقولهم : "كالمستغيث من الرمضاء بالنار" : يضرب فى الخلّتين يجتمعان على الرجل .

وقولهم : "كالقابس العَجلان" : يضرب لمن عجّل فى طلب حاجته .

وقولهم : "كلاهما وتمرا" أوّل من قاله عمـرو بن حُمران الجعدىّ، وذلك أنه مرّ برجل وبين يديه زُبد وسَـنام وتمر، فقال : أنلنى ممّـا بين يديك ، فقال : أيّمـا أحبّ إليك أزُبدٌ أم سَنام ؟ فقال : كلاهما وتمرا ، فسارت مثلا .

وقولهم : "كالباحث عن المُدْيَة" يقال : إن رجلا وجد صيدا، ولم يكن معه ما يذبحه به، فبحث الصيد بأظلافه فى الأرض، فسقط على شفرة فذبحه بها : يضرب فى طلب الشىء يؤدّى صاحبه إلى تلف النفس . ٥

وقولهم : "كذى العُرّ يُكوَى غيرُه وهو راتع" : يُضرب فى أخذ البرىء بذنب الجانى، ويأتى ذكره فى أوابد العرب .

وقولهم : "كالمحتاض على عَرْض السراب" : يُضرب لمن يطمع فى محال . ١٠

وقولهم : "كلّ لياليه لنا حَنادس" : يُضرب لمن لا يصل إليك منه إلا ما تكره .

حرف اللام

(١٦)

قولهم : "لو ذاتُ سِـوار لطمَتنى" معناه لو ظلمنى من كان كفؤا لى لهان علىّ، ولكن ظلمنى من هو دونى، وهو كقول بعضهم

فلو أنى بُليتُ بهـاشمىّ * خؤولته بنو عبـد المَدان ١٥

لهـان علىّ ما ألقى ولكن * تعالَىْ فانظرى بمن ابتلانى

وقولهم : "لو غير ذاتِ سِوارٍ لطمَتنى" روى الأصمعىّ : أن حاتما الطائىّ مرّ ببلاد عَنزة فى بعض الأشهر الحُرُم فناداه أسير لهم : يا أبا سَفانة : أكلنى الإسار

والقمل، فقال: ويحك، أسأتَ إذ نوهت باسمى فى غير بلاد قومى، فساوم القومَ به ثم قال : أطلقوه وآجعلوا يدىَّ فى القِدّ مكانه ، ففعلوا ذلك ؛ ثم جاءته آمرأة ببعير ليفصده فنحره فلطمته فقال : لو غير ذات سوار لطمتنى، يعنى أنى لا أقتصّ من النساء، ثم عُرِف، ففدى نفسه فداءً عظيما .

٥ وقولهم : "لو تُرِكَ القَطا ليلا لَنَـام" قالته آمرأة عمرو بن مامة، وقد نزل عليه قوم من مُرادٍ، فطرقوه ليلا، فأثاروا القطا، فرأته آمرأته فنبّهته فقال : إنما هذا القطا ، فقالت : لو تُرِكَ القطا ليلا لنام ؛ فسار مثلا : يُضرب لمن حُمل على مكروه من غير إرادته؛ وقيل : إن التى قالته له حَذامِ بنت الريّان .

وقولهم : "لبِسَ له جِلْدَ النِمر" : يضرب فى إظهار العداوة وكشفها .

١٠ وقولهم : "لقد ذَلّ من بالت عليـه الثعالب" أصله أن رجلا من العرب كان يعبد صنما، فجاء ثعلب فبال عليه، فقال فى ذلك :

أربٌّ يبول الثُّعلُبانُ برأسه؟ * لقد ذلّ من بالت عليه الثعالبُ

وقولهم : "ليس هذا بعُشّكِ فآدرُجى" : يُضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره .

وقولهم : "لم أجدْ لشَفْرتى مَحَزّا" : يُضرب عذرا فى تعذّر الحاجة .

١٥ وقولهم : "لو سـئلت العاريةُ أين تذهبين لقالت أُكسبُ أهلى ذمّا" هذا من كلام أكثم بن صيفىّ: يُضرب فى سوء الجزاء للمنعم .

وقولهم : "ليس من العَدْل ، سرعةَ العـذْل" أى لا ينبغى أن تعجّلَ بالعذل قبل أن تعرفَ العذرَ .

وقولهم : " ليس القُدامَى كالخَوافِى " : يُضرب عند التفضيل .

وقولهم : " لو كُوِيتُ على داءٍ لم أكرهْ " أى لو عوتبتُ على ذنب ما ٱمتعضتُ .

وقولهم : " ليس على الشَّرْق طَخَاءٌ يَحجُب " أى ليس على الشمس سحاب : يُضرب فى الأمر المشهور الذى لا يخفى على أحد .

وقولهم : " لأكوينّه كيّة المتلوِّم " أى كيّا بليغا ، والمتلوِّم : الذى يتتبّع الداء حتى يعلم مكانه : يُضرب فى التهديد الشديد .

وقولهم : " لأمرٍ مّا جدَع قَصِيرٌ أنفه " قالتـه الزَّبّاء لمـا رأت قَصيرا مجدوعا ، وخبره يأتى فى باب المكايد .

حرف المـــيم

قولهم : " ماتَنفع الشَّفْعةُ فى الوادى الرُّغُب " الشَّفْعة : المطرة الهيّنة ، والرُّغُب : الواسع : يضرب للذى يعطيك قليلا لايقع منك مَوقعا .

وقولهم : " ما وراءكِ ياعِصام ؟ " يقال : أوّل من قال ذلك الحارث بن عمرو ملك كندة ، وذلك أنه بلغه جمال ٱبنة عَوف بن مُحَلِّم فأرسل إليها ٱمرأة ذات عقل ولسان ، يقال لها : عِصام ، وقال : ٱذهبى لتعلمينى بحالها ، فلما ٱنتهت إليها ونظرتها خرجت وهى تقول : " تَرَكَ الخداع ، مَن كَشَف القِناع " فذهبت مثلا ، ثم عادت اليه ، فقال لها : ماوراءكِ ياعصام ؟ فقالت : " صرَّحَ المَحْضُ عن الزُّبد " فأرسلتها مثلا ، وساق الميدانىّ على هـذا المثل كلاما طويلا قالته عِصام فى وصف أعضاء المخطوبة .

وقولهم : "ما يومُ حَليمةَ بسرّ" هى حليمة بنت الحارث بن أبى شَمِر، كان أبوها وجّه جيشا إلى المنذر بن ماء السماء فأخرجتْ لهم طيبا فى مِرْكَنٍ فطيّبتهم؛ فلما آنتهت إلى لَبيد بن عمرو وذهبت لتُخلِّقه، قبّلها، فلطمته وأتت أباها، فقال لها : ويلكِ آسكتى عنه، فهو أرجاهم عندى ذكاءَ فؤادٍ، وإنى مرسله، فإن قُتل فقد كفى الله شرّه؛ فسار إلى المنذر بالجيش، فقتلوا المنذر وكان يوما مشهورا، فقيل فيه : ما يوم حليمةَ بسرّ .

وقولهم : "ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة" أى ما أشبهَ بعض القوم ببعض .

وقولهم : "مرْعًى ولا كالسَّعدان" قالوا : السَّعدان أخثر العُشبِ لبنا، ومنابته السهول : يُضرب مثلا للشىء يفضَّل على أقرانه وأشكاله؛ وأوّل من قال المثل : خنساء بنت عمرو بن الشريد، وقيل : بل قالته آمرأة من طيئٍ تزوّجها آمرؤ القيس بن حُجْر الكِندىّ فقال لها : أين أنا من زوجك الأوّل ؟ فقالت : مرعًى ولا كالسّعدان، أى إنك إن كنت رضًا فلست كفُلانٍ . (١٧)

وقولهم : "ماءٌ ولا كصَدَّاء" صَدَّاءُ: ركيّة عذبة؛ قال ضِرار السعدىّ

وإنى وتَهيامى بزينبَ كالذى * تطلَّبَ من أحواض صَدَّاءَ مَشْرَبا

معناه أنه لا يصل إليها إلا بالمزاحمة لفرط حسنها، كالذى يرِدُ الماءَ فإنه يزاحم عليه لفرط عذوبته .

وقولهم : "محا السيفُ ما قال آبنُ دارةَ أجمعا" هو سالم بن دارة الغطفانىّ، ودارةُ : أمّه، وكان قد هجا بعض بنى فزارة فآغتالهُ زَميل فقتله، ففيه يقول الكميت

فلا تُكثروا فيه الضَّجاجَ فإنه * محا السيفُ ما قال آبنُ دارة أجمعا

وقولهم : "مَلَكتَ فأسجِحْ" الإسجاح : حسن العفو، أى ملكت الأمر فأحسِن العفو؛ وقد تمثّل به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته؛ ونذكر الخبر فى ذلك فى المغازى .

وقولهم : "من ينكح الحسناءَ يُعطِ مَهرَها" أى من طلب حاجة بذل ماله فيها .

وقولهم : "من سرّه بنوه ساءته نفسه" قاله ضِرار بن عمرو الضبىّ : وكان ولده ثلاثة عشر رجلا، كلّهم قد غزا ورأس، فرآهم يوما وأولادَهم، فعلم أنهم لم يبلغوا هذه الأسنان إلا مع كبر سنّه، فقال : من سرّه بنوه ساءته نفسه، فأرسلها مثلا .

وقولهم : "من أشبه أباه فما ظلم" معناه ظاهر .

وقولهم : "من يُرِ يوما يُرَ به" قاله كَلْحَب بن شُؤبوب الأسدىّ، وكان يُغير على طيئ وحده، فدعا حارثةُ بن لأْم رجلا من قومه يقال له : عترم، فقال له : أما تستطيع أن تكفيَنى مؤونة هذا الخبيث؟ فقال : بلى، فأرسل عشرة عيون عليه، فعلموا مكانه فانطلق إليه عترم فوجده نائما فى ظلّ أراكة فنزل ومعه آخر فأخذ كلّ واحد منهما بإحدى يديه فانتبه فنزع يده اليمنى من مُمْسكها وقبض على حَوْذ الآخر فقتله وبادر الباقون فأخذوه وشدّوه وثاقا وأتوا به حارثة، فقال له : يا كحب، إن كنتَ أسيرا فطالما أسرتَ، فقال : من يُرِ يوما يُرَ به، فأرسلها مثلا، وقال حَوذة وهو ابن المقتول لحارثة : أعطنيه أقتلْه بأبى، فقال : دونكه ! وجعلوا يتكلّمون وهو يعالج كتافَه حتى انحلّ، ثم وثب على رجليه فاتّبعوه بالخيل فأعجزهم .

وقولهم : "مَنْ سلَك الجَدَدَ أمن العثار" الجَدَدُ : الأرض المستوية : يُضرب فى طلب العافية .

وقولهم : "مَن يشترى سيفى وهـذا أثره؟" قاله الحارث بن ظالم، وذلك انه لما قتل خالد بن جعفر بن كلاب بزهير بن جذيمة العبسىّ على ما نذكره إن شاء الله فى وقائع العرب وحرب، فوجّه النعمان فوارس فى طلبه فأدركوه سحرا فعطف عليهم وقتل منهم جماعة وكرّوا عليه فجعل لايقصد لجماعة إلا فرّقها وهو يقول : من يشترى سيفى وهذا أثره، فارتدعوا عنه وانصرفوا إلى النعمان .

وقولهم : "مِنْ مالِ جَعْدٍ وجعدٌ غير محمود" قاله جعد بن الحُصين أبو صخر ابن جعد الشاعر، وكان قد كبر فتفرق عنه بنوه وأهله، وبقيت له جارية سوداء تخدمه، فعلقت بفتى من الحىّ يقال له : عَرابة، فجعلت تنقل إليه ما فى بيت جعد، ففطن جعد لذلك، فقال فى ذلك

أبلغ لديك بنى عمـرو مُغلغلةً * عمرا وعَوفا وما قولى بمردودِ
بأنّ بيتىَ أمسى فوق داهيةٍ * سوداءَ قد وعدتْنى شرّ موعودِ
تُعطى عَرابةَ بالكفّين مُجتنحاً * من الخَلوق وتُعطينى على العودِ
أمسى عَرابةُ ذا مالٍ يُسرّ به * من مالِ جعدٍ، وجعدٌ غير محمودِ

يُضرب للرجل يصاب من ماله ويذم .

وقولهم : "من مأمنه يؤتَى الحذِر" قاله أكثم بن صيفىّ .

وقولهم : "من يمشِ يرضَ بما ركب" : يضرب للذى يضطر إلى ما كان يرغب عنه .

وقولهم : "من يلقَ أبطالَ الرجالِ يُكلَم" قاله عُقيل بن علقمة المُرّى ، وقد رماه عَمَلّس ابنه بسهم فخلّ فخذيه، فقال أبياتا منها

إنّ بنىّ زقلونى بالدمِ * شِنشِنةٌ أعرفُها من أخزمِ

* من يَلْقَ أبطالَ الرجال يُكلَمِ *

وقولهم : " من لا يذُدْ عن حوضه يُهدَّم " أى من لم يدفع عن نفسه يُظلم، قاله زُهَير بن أبى سُلمى .

وقولهم : " مكْرَه أخوك لا بطل " قاله أبو حَنَش خال بَيْهس : يُضرب لمن يُحمل على ما ليس من شأنه . (١٨)

وقولهم : " من نام لا يَشعُر بشجو الأرِق " : يُضرب لمن غفل عما يعانيه صاحبه من المشقّة .

حرف النون

قولهم : " نفْس عِصامٍ سوّدتْ عِصاما " هو عصام بن شَهْبَر حاجب النعمان ابن المنذر : يُضرب فى نباهة الرجل من غير قديم ؛ وقيل فى هذا

نفْسُ عصامٍ سوّدت عصاما * وعلّمتْه الكرَّ والإقـــداما

* وصيّرتْه ملِكا هُمـاما *

وقولهم : " نظرةٌ مِن ذى عَلَق " أى من ذى هوًى : يُضرب لمن ينظر بودّ .

وقولهم : " نَزَت به البِطنة " : يُضرب لمن لا يحتمل النِّعمة ؛

قال الشاعر

فلا تكونَنّ كالنـازى ببِطنته * بين القرينيْن حتى ظلّ مقرونا

وقولهم : " نجوتُ وأرهنتُهم مالكا " قال عبد الله بن هَمّام السَّلولىّ

فلمّا خَشِيتُ أظافيرَهم * نجوتُ وأرهنتُهم مالكا

يُضرب لمن ينجو من هَلَكة نَشَبَ فيها شركاؤه وأصحابه .

وقولهم : " نام عِصام ساعةَ الرحيل " : يُضرب لمن طلب الأمر بعد ما ولّى .

حرف الهاء

قولهم : " هُدْنةٌ على دَخَن " .

وقولهم : " هذا أوانُ شدّكم فشُدّوا " .

ومثله قولهم : " هذا أوانُ الشدّ فٱشتدّى زِيَم " قال الأصمعىّ : زيم : ٱسم فرس : يُضرب للرجل يؤمر بالجِدّ .

وقولهم : " هو على حَبْلِ ذراعك " أى الأمر فيه إليك : يُضرب فى قرب المتناوَل ؛ وحبْل الذراع : عِرقٌ فى اليد .

وقولهم : " هان على الأَملسِ ما لاقَى الدَّبِر " : يُضرب فى سوء ٱهتمام الرجل بشأن صاحبه .

وقولهم : " هو بين حاذِف وقاذِف " الحاذف بالعصا ، والقاذف بالحصى : يُضرب لمن هو بين الشرّين .

وقولهم : " هو على طَرَف الثُّمام " الثمامُ : نبت ضعيف سهل المتَناولُ تسدّ به خصاصُ البيوت ، وربما حُشيتْ به المَخادّ ؛ قالوا : إنه ينبت على قدر قامة الإنسان : يُضرب فى تسهيل الحاجة وقرب النجاح .

وقولهم : " هى الخَمر تُكنَى الطِّلاء " : يضرب للأمر ظاهره حسن وباطنه على خلاف ذلك .

حرف الواو

قولهم : "وافق شَنٌّ طَبَقَةَ" قال الشرقىّ بن القطامىّ : كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له : شَنٌّ ، فآلى أنه يطوف البلاد حتى يجد آمرأة مثله فيتزوجها ، فبينا هو فى بعض مسيره إذ وافقه رجل فى الطريق فسارا جميعا ، فقال له شَنٌّ : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال : أنا راكب وأنت راكب ، فكيف تحملنى أو أحملك ؟ ! ثم سارا فانتهيا إلى زرع قد آستحصد ، فقال شَنٌّ : أترى هذا الزرع أُكل أم لا ؟ فقال : لم أر أجهل منك ، نبتا مستحصدا فتقول : أُكل أم لا ! فسكت ، ثم سارا حتى دخلا القرية فلقيا جنازة ، فقال شَنٌّ : أترى صاحب هذا النعش حيّا أم ميّتا ؟ فقال له الرجل : ترى جنازة تسأل عنها أميّت صاحبها أم حىّ ! فسكت عنه شَنّ وأراد مفارقته فأبى أن يتركه وسار به إلى منزله ، وكان للرجل بنت يقال لها : طبقة ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ، فقال : ما رأيت أجهل منه ، وحدّثها بحديثه ، فقالت : يا أبتِ ما هذا بجاهل ! قوله : أتحملنى أو أحملك ؟ أراد أتحدّثنى أم أحدّثك ، وأما قوله : أترى هذا الزرع أُكل أم لا ؟ فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا ؟ وأما الجنازة فأراد هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا ؟ فخرج الرجل فقعد مع شَنٍّ فحادثه ، وقال له : أتحب أن أفسر لك ما سألتنى ؟ قال نعم ، ففسره ، فقال شَنٌّ : ما هذا من كلامك ، فأخبرْنى مَنْ صاحبُه ؟ فقال : آبنة لى ، فخطبها إليه فزوّجه إياها وحملها إلى أهله ، فلما رأوها قالوا : وافق شَنٌّ طبقة ، فذهبت مثلا : يُضرب للمتوافقين ؛

وقال الاصمعىّ : هم قوم كان لهم وعاء من أَدَمٍ فتشنّن فجعلوا له طَبَقا فوافقه فقيل : وافق شَنٌّ طَبَقه، ورواه أبو عبيدة فى كتابه، وقال ٱبن الكلبىّ : طبقة : قبيلةٌ من إياد كانت لا تطاق فأوقعت بها شنّ بن أفصى بن دُعْمِىّ فانتصفَتْ منها وأصابت فيها فضُربتا مثلا وأنشد

٥ لَقِيَتْ شَنٌّ إيادا بالقنا * طبَقًا، وافق شَنٌّ طَبَقَه

وقولهم : " وجدتُ الناس ٱخبُرْ تَقْلُه " أصله ٱخبُرُ الناس تَقْلُهم : يُضرب فى ذمّ الناس وسوء معاشرتهم .

وقولهم : " وَلُودُ الوعد عاقرُ الإنجاز " : يُضرب لمن يكثُر وعده ويقِلُّ نقدُه .

وقولهم : " وَدَّعَ مالًا مُودِعُه " لأنه إذا ٱستودعه غيره فقد ودّعه وغرّر به ١٠ ولعله لا يرجع اليه .

وقولهم : " ومَوْرِد الجهل وَبِىءُ المَنهل " : يُضرب فى النَّهْىِ عن ٱستعمال الجهل .

ما جاء فى ما أوّله (لا)

قولهم : " لا مَخْبأَ لعِطْرٍ بعد عَروس " ويقال : " لا عِطْرَ بعد عَروس " ١٥ أوّل من قاله ٱمرأة من عُذْرة، يقال لها : أسماء بنت عبد الله، وكان لها زوج من بنى عمّها يقال له : عَروسٌ، فمات عنها، فتزوّجها رجل من قومها يقال له نَوْفَل، وكان أعسرَ أبخرَ بخيلا ذميما، فلما دخل بها قال : ضُمّى إليك عِطرَك، فقالت : لا عِطرَ بعد عَروس، فذهبت مثلا، ويقال : إن رجلا تزوّج ٱمرأة، فلما أهديت إليه

وجدها تَفِلَةً فقال لها : أين الطِّيبُ ؟ فقالت : خَبَّأْتُه، فقال لها : لاخَبَأً لعطرٍ بعد عَروس : يُضرب مثلا لمن لا يُدَّخر عنه نفيسٌ .

وقولهم : " لا يُلدَغ المؤمن من جُحرٍ مرّتين "[1] : يُضرب لمن أُصيب ونُكب مرّة بعد أخرى ، يقال هذا من امثال النبيّ صلى الله عليه وسلم قاله لأبى عَزّة الشاعر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسره يوم بدرٍ فمنّ عليه وأطلقه ثم أتاه يوم أُحدٍ فأسره ، فقال : مُنَّ عليّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يُلدغ المؤمنُ من جُحر مرّتين " أى لو كنتَ مؤمنا لم تعدْ لقتالنا .

وقولهم : " لا أطلبُ أثَرًا بَعدَ عين " أوّل من قاله مالك بن عمرو العامرىّ[2] ، وكان من حديثه أن بعض ملوك غسّان كان يطلب فى بنى عامر ذَحْلًا فأخذ منهم مالكا وسِمَاكَ ابنى عمرو العامرىّ فاحتبسهما زمانا ثم دعا بهما ، فقال لهما : إنى قاتل أحدكما . فأيكما أقتل ؟ فجعل كلّ واحد منهما يقول : اقتلنى مكان أخى ، فقتل سِمَاكا وخلَّى سبيلَ مالك ، فقال سِماك حين ظنّ أنه مقتول

فأقسمُ لو قَتلوا مالكا * لكنتُ لهم حيّةً راصدهْ
برأس سبيلٍ على مَرقبٍ * ويوما على طُرْقٍ واردهْ
فأمَّ سِماكٍ فلا تجزعى * فللموت ما تلد الوالدهْ

وانصرف مالك إلى قومه فأقام فيهم زمانا ثم إنّ ركبا مرّوا وواحد منهم يتغنّى بقول سِماكٍ * فأقسم لو قَتلوا مالكا * فسمعتْه أمّ سِماك ، فقالت : يامالك ، قبح الله الحياة بعد سِماك ، اخرج فى الطلب فخرج فلقى قاتل أخيه يسير فى ناسٍ من قومه فقال :

(١) كذا فى الأصل وفى مجمع الأمثال وفرائد اللآل : "لا يلسع" .

(٢) هكذا فى الأصل وفى مجمع الامثال : "العاملىّ" باللام وفى فرائد اللآل : "الباهلىّ" .

من أحسّ لى الجملَ الأحمرَ، فقالوا له وقد عرفوه : يا مالك آ كفف ولك مائة من الإبل، فقال : لا أطلب أثرا بعد عين، فذهبت مثلا .

وقولهم : "لا يُرسِل الساقَ إلا مُمسِكا ساقا" أصله فى الحِرباء : يُضرب لمن لا يدع حاجةً إلا سأل أخرى .

٥ وقولهم : "لا ماءَكِ أبقيْتِ، ولا حِرَكِ أنقيْتِ" ويُروى : ولا دَرَنَكِ؛ اصله أنّ رجلا كان فى سفر ومعه آمرأته، وكانت عاركا فطهُرتْ وكان معها ماء يسير فاغتسلت به فنفد ولم يكفها لغسلها فعطشا فقال هذا القول فسار مثلا، وقيل : إنّ الذى قاله الضبّ بن أروَى الكلاعىّ قاله لآمرأته عَمْرة بنت سُبيع ؛ قال الفرزدق

وكنتُ كذات الحيض لم تُبقِ ماءَها * ولا هى من ماء العَذابة طاهرُ

١٠ وقولهم : "لا ناقتى فى هذا ولا جَملى" المثل للحارث بن عَبّاد حين قَتل جَسّاسُ بن مُرّة كُليبا وهاجت الحرب بين الفريقين وآعتزلها الحارث ؛ قال الراعى

وما هجرتُك حتى قلتِ مُعلِنةً * لا ناقةٌ لىَ فى هذا ولا جَملُ

يُضرب عند التبرّؤ من الظلم والإساءة .

وقولهم : "لا يَنتطِح فيها عَنْزان" قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٥ وقولهم : "لا يُنبتُ البَقْلة، إلا الحَقْلة" الحَقْلَةُ : القَراحُ، أى لا يلد الوالد. إلا مثله : ويُضرب مثلا للكلمة الخسيسة تخرج من الرجل الخسيس .

وقولهم : "لا تَدخُلْ بين العصا ولِحائها" : يضرب فى المتخالّين المتصافيين .

وقولهم : "لا يحزُنْكَ دمٌ هَرَاقه أهلُه" قال هذا المثل جَذيمةُ : يُضرب لمن يُوقِع نفسَه فيما لا مَخلَص له منه .

حرف اليـاء

قولهم : "يَداك أوْكَتا وفُوك نَفَخ" أصـله أن رجلا كان فى جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبُر على زِقّ قد نَفَخ فيـه فلم يُحسن إحكامَه ، فلمّـا توسّط البحر خرجت منه الريح فغرِق فاستغاث برجل ، فقال له : يداك أوْكَتا وفوك نفخ ، فذهبت مثلا : يُضرب لمن يجنى على نفسه الحَيْن .

وقولهم : "يَشُجُّ و يأسو" : يُضرب لمن يُصيب فى التدبير مرّة و يخطئ أخرى ؛ قال الشاعر

إنى لأُكثِر ممّـا سُمتنى عَجَبـا * يدٌ تشُجُّ وأخرى منك تأسونى

وقولهم : "يُسِرُّ حَسْواً فى ارتغاء" أصـله أن الرجل يؤتَى باللبن فيُظهِر أنه يريد الرِّغوة خاصّةً فيشربها ، وهو فى ذلك ينـال من اللبن : يُضرب لمن يُريك أنه يُعينك وإنمـا يجرّ النفع إلى نفسه ؛ قال الكميت

فإنى قد رأيتُ لكم صدودا * وتَحساءً بعـــلّةِ مُرتغينا

وقولهم : "يمشِى رُوَيْدًا و يكون أوّلا" : يُضرب للرجل يُدرك حاجتَه فى تُؤَدةٍ ودَعَةٍ ، ويُنشَد فيه

تسألنى أمُّ الوليد جمـلَا * يمشى رُوَيْدا ويكون أوّلَا

وقولهم : "يُصبح ظمآنَ وفى البحر فَمُه" : يُضرب لمن يعاشر بخيلا مُثريا .

وقولهم : "يَمْلأُ الدَّلو الى عَقْد الكَرَب" مأخوذ من قول عُتْبـة بن أبى لَهَب

من يُساجِلْنى يُساجِلْ ماجدًا * يملأ الدَّلو إلى عَقْد الكَرَبْ .

وهو الحبل الذى يُشدّ فى وسط العَراقىّ : يُضرب لمن يبالغ فيما يلى من الأمر .

وقولهم : "يُكْوَى البعيرُ مِن يَسيرِ الداء" : يُضرب فى حَسْم الأمر الضائر قبل أن يعظُم ويتفاقم .

وقولهم : "يعود على المرء ما يأتمر" ويُروَى : يَعْدو، معناه يعود على الرجل ما تأمره به نفسه فيأتمر، أى يمتثله ظنّاً منه أنه رشد، وربما كان هلاكه فيه، ومنه قول امرئ القيس

أحارِ بنَ عمرو كأنى خَمِرْ * ويعدو على المرء ما يأتمرْ

ومما يتمثل به من أشعار الجاهلية

امرؤ القيس بن حُجْر : قد تقدّم من شعره فى الاستشهاد على أمثال العرب ما يُستغنى عن إعادته فى هذا المكان .

ومن شعره

* والبِرُّ خير حقيبة الرَّجل * * رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ *
* إن الشقاءَ على الأشقَيْنَ مصبوبُ *

وقال أيضا

وقاهم جدّهم ببنى أبيهم * وبالأشقَيْنَ ما كان العتابُ

وقال

فإنك لم يفخَر عليك كفاخرٍ * ضعيفٍ ولم يغلِبْك مثل مُغلَّبِ

زُهير بن أبى سُلمَى يقول

ومن يغترِبْ يَحسِبْ عدوًّا صديقَه * ومن لا يُكرِّمْ نفسَه لا يُكرَّمِ
ومهما يكن عند امرئ من خَليقة * ولو خالها تخفَى على الناس تُعلَمِ

ومن لا يصانعْ فى أمور كثيرةٍ * يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بمَنسِم
ومن يجعل المعروفَ من دون عِرضه * يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتَمِ
ومن يك ذا فضل فيبخلْ بفضله * على قومه يُستغنَ عنه ويُذمَمِ
ومن لا يذُدْ عن حوضه بسلاحه * يُهدَّمْ ومن لا يَظلم الناس يُظلَمِ
ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنه * مُطيعُ العوالى رُكِّبَتْ كلَّ لَهذَمِ ٥

وقال أيضا

وهل يُنبِتُ الخَطِّىَّ إلّا وشيجُه * وتُغرَس إلا فى مَنابتها النخلُ

وقال أيضا

والسترُ دون الفاحشاتِ وما * يلقاكَ دون الخير من سِترِ

وقال أيضا ١٠

فإنّ الحقَّ مَقطَعُه ثلاثٌ * يمينٌ أو نِفارٌ أو جلاءُ

يقول: إنما الحقوق تصحّ بواحدة من هذه الثلاث: يمينٌ أو محاكمةٌ أو حُجّةٌ واضحةٌ؛ وكان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه يتعجّب من معرفته بمَقاطع الحقوق.

النابغة الذُّبيانى: آسمه زياد بن عمرو، ويُكنَى أبا أُمامة؛ غلب عليه "النابغةُ" لأنه عبَر بُرهةً لا يقول الشعرَ ثم نبغ فقاله؛ وكذلك الجعدىّ؛ وقيل: إنما لُقِّب بالنابغة ١٥ لقوله

* فقد نَبَغَتْ لهم منّا شؤونُ *

وقيل فى نسبه: زياد بن معاوية بن ضِباب بن جابر بن يَربوع بن غَيْظ بن مُرّة آبن عوف بن سعد بن ذُبيان.

فمما يُتمثّل به من شعره قوله

* فإنك كالليل الذى هو مُدرِكى * * فإن مطيّةَ الجهل الشبابُ *

وقال

ولستَ بمُستبقٍ أخًا لا تَلُمُّه * على شَعَثٍ، أىُّ الرجال المهذَّبُ؟

٥ وقال أيضا

اِستبق ودَّك للصديق ولا تكن * قَتَبًا يعضُّ بغاربٍ مِلحاحَا

طرفة بن العبد يقول

* حَنانَيْك بعضُ الشرّ أهون من بعضٍ * * ما أشبهَ الليلةَ بالبارحَه *

وقال أيضا

١٠ ستُبدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلا * ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزوِّدِ

وقال أيضا

وأَعلمُ عِلما ليس بالشكّ أنه * إذا ذلّ مولَى المرء فهو ذليلُ

أوس بن حَجَرٍ يقول

فإنكما يا ابْنَىْ حُبابٍ وُجدتُما * كمن دبَّ يستخفِى وفى الكفِّ جُلْجُلُ

١٥ وقال أيضا

وما ينهض البازِى بغير جَناحه * ولا يَحمِل الماشِينَ إلا الحوامِلُ

اذاأنت لم تعرِضْ عن الجهل والخنا * أصبتَ حليما أو أصابك جاهلُ

وقال أيضا

ولستُ بخابئٍ أبدا طعاما * حذارَ غدٍ، لكلِّ غدٍ طعامُ

بشر بن أبى خازم يقول

* وأيدى الندى فى الصالحين قروضُ * * كَفى بالموت نأياً وآغترابا *

المتلمس وهو جرير بن عبد المسيح يقول

قليـلُ المـال تُصلحه فيبـقَى * ولا يبـقَى الكثيرُ مع الفسـادِ

وقال أيضا ٥

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصا * وما عُـلِّم الإنسانُ إلا ليَعلَما

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى * جَعلتُ لهم فوق العَرانِينِ مِيْسَما

وما كنتُ إلا مثـلَ قاطع كفّه * بكفٍّ له أخرى فأصـبح أجذما

وقال أيضا

ولا يُقـيم على ذلّ يراقبه * إلا الأذلّان عَيرُ السوء والوتدُ ١٠

هذا على الخسف مربوط برُمّته * وذا يُشَـجُّ فلا يَرثِى له أَحَدُ

الأفوه الأودىّ يقول

إنمـا نعـمةُ دنيا مُتعـةٌ * وحياة المـرء ثوبٌ مستعارُ

وصروف الدهر فى أطباقه * حَلْقة فيها آرتفاعٌ وآنحـدارُ

بينما النـاس على عَلبائهـا * إذ هوَوا فى هوّة منها فغاروا ١٥

وقال أيضا

والبيت لا يُبتنَى إلا له عَمَـدٌ * ولا عِمـادَ إذا لم تُرسَ أوتادُ

فإن تجمّع أوتادٌ وأعمـدةٌ * وساكنٌ، بلغوا الأمر الذى كادوا

تُهدَى الأمورُ بأهل الرأى ماصلَحتْ * وإن تولّت فبالأشرار تنقـادُ

لا يَصلح الناسُ فَوْضَى لا سَراةَ لهم * ولا سَراةَ إذا جُهّالهـم سـادوا ٢٠

تميم بن أبي مقبل يقول

خليلىّ لا تستعجلا وانظرا غدًا * عسى أن يكون الرفقُ فى الأمر أرشدا

وقال أيضا

ما أنعم العيشَ! لو أن الفتى حجرٌ * تنبو الحوادثُ عنه وهو ملمومُ

٥ حُمَيد بن ثَوْر يقول

أرى بَصَرى قد رابنى بعد صحّة * وحسبك داءً أن تَصِحّ وتسلما

ولن يلبثَ العصران يوما وليلةً * — إذا طَلَبا — أن يُدرِكا ما تيمّما

عدى بن زيد يقول

كفى واعظا للمرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى

١٠ عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكلّ قرينٍ بالمقارِن يقتدى

وظلم ذوى القُربَى أشدُّ مَضاضةً * على المرء من وقع الحسام المهنّد

(٢١)

إذا ما رأيت الشرّ يبعث أهلَه * وقام جُناة الشرّ للشرّ فاقعد

قال أيضا

يا راقد الليل مسرورا بأوّله * إن الحوادثَ قد يطرُقن أسحارا

١٥ وقال

قد يُدرك المبطئُ من حظّه * والخير قد يسبق جَهد الحريص

وقال

لو بغير الماء حَلْقى شرقٌ * كنت كالغَصّان بالماء اعتصارى

وقال

٢٠ فهل من خالدٍ إما هلكنا * وهل بالموت يا للناس عارُ؟

الأسود بن يعفُر يقول

ماذا أؤمل بَعــدَ آل محــرّق * تركوا منـازلهم وبَعــدَ إيادِ
أرض تخــيّرهـا لطيب مَقيلها * كعبُ بنُ مامـــةَ وٱبنُ أمّ دؤاد
أهلُ الخَورنَق والسّــديرِ و بارقٍ * والقصرِ ذى الشُّرُفاتِ من سِندادِ
جرت الرياح على محــلّ ديارهم * فكأنهـم كانوا على ميعـاد
ولقــد غَنَوا فيهـا بأنعَمِ عيشــةٍ * فى ظــلّ مُلكٍ ثابتِ الأوتاد
فإذا النعــيم وكلّ ما يُلهــى به * يوما يصــير إلى بِلًى ونَفَـاد

علقمة بن عَبَدَة يقول

فإن تسألونى بالنســاء فإننى * علــيم بأدواء النســاء طبيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالُه * فليس له فى ودّهن نصيبُ
يُرِدْنَ ثَراءَ المـال حيث علِمنــه * وشرخُ الشباب عندهنّ عجيبُ

وقال أيضا

وكلّ حِصنٍ و إن طالت إقامتُه * على دعائمــه لا بدّ مهــدومُ
ومن تَعرّض للغِربان يزجُرها * على ســلامته لا بدّ مشــئومُ

عمرو بن كُلثوم يقول

وما شرُّ الثــلاثة أمَّ عمــرو * بصاحبك الذى لا تَصحبينا
و إنّ غدًا و إنّ اليــومَ رهنٌ * وبَعــدَ غد بمـا لا تَعلَمينا

الحارث بن حِلّزة يقول

لا تكسع الشّولَ بأغبارها * إنك لا تدرى مَنِ النـاتجُ؟
وٱصبُبْ لأضيافك ألبانَها * فإن شرّ اللبن الوالجُ

حاتم الطائىّ يقول

أماوىَّ ما يُغنى الثراءُ عن الفتى * إذا حَشْرَجتْ يوما وضاق بها الصدر
وقد عَلِم الأقوامُ لو أن حاتما * أراد ثَراء المال، كان له وَفْرُ

وقال أيضا

٥ وأنت إذا أعطيتَ بطنك سؤلَه * وفَرجَك، نالا منتهى الذمّ أجمعا

المرقّش الأصغر يقول

ومَن يَلقَ خيرا يَحمَدِ الناسُ أمرَه * ومن يَغوَ لا يعدم على الغىّ لائما

النِمر بن تَولَب يقول

يودّ الفتى طولَ السلامة جاهدا * فكيف تُرى طولُ السلامة يفعلُ؟

١ وقال أيضا

ومتى تُصبْك خَصاصةٌ فارج الغنَى * وإلى الذى يَهَب الرغائب فارعِب
لا تغضبنّ على امرئ فى ماله * وعلى كرائم صُلب مالك فاغضب

وقال

فلا وأبى، الناسُ لا يعلمو * ن، للخير خيرٌ وللشرّ شرّ
١ فيوما علينا ويوما لنا * ويوما نُساء ويوما نُسرّ

مهلهل بن ربيعة، واسمه عدىّ يقول

أعِززْ على تغلب بما لقيتْ * أختُ بنى الأكرمين من جُشَمِ
أنكحها فقدُها الأراقمَ فى * جَنْبٍ وكان الحباء من أدَمِ
لو بابانين جاء يخطبها * ضُرّج ما أنفُ خاطبٍ بدمِ
٢ ليسوا بأكفائنا الكرامِ ولا * يغنُون من ذلّة ولا عَدَمِ

طُفَيل الغنوىّ يقول

إنّ النساء كأشجارٍ نَبَـتن معـا * منهن مُرٌّ، وبعض المرّ ماكولُ

إنّ النساء متى يُنهـنَ عن خُلُقٍ * فإنه واجب لا بدّ مفعـــولُ

عُروة بن الورد يقول

وما شاب رأسى من سنينَ تتابعتْ * علىّ ولكن شيّبتنى الوقائعُ ٥

وقال أيضا

ومن يك مثلى ذا عِيالٍ ومُقـترا * من المال يَطرَحْ نفسَه كلَّ مَطرَحِ

لِيَبلغَ عُـذرا أو يَنـالَ رغيبـةً * ومُبْلِـغُ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجِحِ

الأعشى : وهو ميمون بن قيس من بنى قيس بن ثعلبة يقول

كناطحِ صخـرةً يوما ليفلقهـا * فلم يَضِرْها وأوهَى قرنَه الوعلُ ١٠

وقال أيضا

تعالَوا فإنّ الحكم عند ذوى النهى * من الناس كالبَلقاء بادٍ مُجولُهـا

وقال أيضا

ومن يغتربْ عن قومه لم يزل يرى * مَصارعَ مظلومٍ مجَـرًّا ومَسْحَبَا

وتُدفَن منه الصالحاتُ وإن يُسئْ * يكن ما أثار النار فى رأس كَبكَبَا ١٥

وقال أيضا

عوّدتَ كَندةَ عادةً فاصبر لها * اِغفرْ لجاهلها وروِّ سجالَهـا

لَقِيط بن مَعْبَد يقول

قوموا قياما على أمشاط أرجلكم * ثم انفزعوا، قد ينال الأمرَ مَنْ فَزِعا

هيهات، ما زالت الأموال مذ أبدٍ * لأهلها — إن أُصيبوا مرّة — تَبَعا

تأبط شرًّا : وهو ثابت بن جابر يقول

لَتقرَعنَّ علىَّ السنَّ من ندمٍ ٭ إذا تذكَّرتَ يوما بعضَ أخلاقى

المثقِّب العبدىّ يقول

فإما أن تكون أخى بحقٍّ ٭ فأعرف منك غثّى من سمينى

وإلا فاطّرحنى واتّخذنى ٭ عدوًّا أتقيك وتتّقينى

فإنى لو تعاندنى شِمالى ٭ عنادَك ما وصلتُ بها يمينى

المُمزّق العَبْدىّ يقول

فإن كنتُ ماكولًا فكن أنت آكلى ٭ وإلّا فأدركنى ولمّا أمزَّقِ

أفنون التَّغلِبىّ يقول

لعمرك ما يدرى الفتى كيف يتّقى ٭ إذا هو لم يجعلْ له اللهُ واقيا

الأَضْبط بن قُرَيع السَّعدىّ يقول

قد يجمع المالَ غيرُ آكله ٭ ويأكل المالَ غيرُ من جَمَعَهْ

لا تحقرنَّ الفقيرَ علّك أن ٭ تركع يوما والدهرُ قد رفعهْ

واقبَلْ من الدهر ما أتاك به ٭ من قرّ عينا بعيشه نفعهْ

سُوَيد بن أبى كاهل يقول

رُبَّ من أنضجتُ غيظا قلبَه ٭ قد تمنّى لى موتا لم يُطَعْ

ويرانى كالشَّجَى فى حلقه ٭ عسِرًا مَخرجُه ما يُنتزَعْ

ويُحَيّينى إذا لاقيتُه ٭ وإذا يخلو له لحمى رَتَعْ

انتهى ما يتمثل به من أشعار الجاهلية .

ومما يتمثل به من أشعار المُخَضْرَمين

المخضرمون : هم الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام .

منهم لَبِيد بن ربيعة، وفاته سنة إحدى وأربعين ؛ وعمره مائة سنة وسبع وخمسون سنة يقول

وإذا رُمتَ رحيلا فارتحلْ * وٱعص ما يأمر تَوصيمُ الكسَلْ

وٱكذِبِ النفسَ إذا حدّثتَها * إنّ صدق النفس يُزرى بالأملْ

وقال أيضا

وما المالُ والأهلون إلّا وَدِيعةٌ * ولا بدّ يوما أن تردَّ الودائعُ

وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه * يحور رَمادًا بعدَ إذ هو ساطعُ

وقال أيضا

كانت قَناتى لا تلين لغامز * فألانها الإصباحُ والإمساء

ودعوتُ ربّى فى السلامة جاهدا * ليُصحّنى فإذا السلامةُ داء

وقال أيضا

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم * وبَقيتُ فى خَلْف كجلد الأجرب

وقال أيضا

إلى الحوْل ثم ٱسمُ السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد ٱعتذرْ

كَعْب بن زُهَير يقول

ومن دعا الناسَ إلى ذمّه * ذمّوه بالحقّ وبالباطلِ

مقالةُ السوء إلى أهلها * أسرع من منحدر سائل

النابغة الجعدىّ : وهو قيس بن عبد الله، وقيل حسّان بن قيس بن عبد الله ويكنى النابغة : أبا ليلى . وهو أسنّ من الذبيانىّ، وطال عمره حتى أدرك أيّام بنى أميّة، وهو الذى قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم "لا يفضُض الله فاك" فما سقطت له سنّ . وفى رواية : فكان أحسن الناس ثغرا إذا سقطت له سنّ تنبت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة . وقيل أكثر .

ومما يُتمثل به من شعره قوله

ولا خيرَ فى حلم إذا لم يكن له * بوادرُ تحمى صفوَه أن يُكدَّرا
ولا خيرَ فى جهلٍ إذا لم يكن له * حليمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمرَ أصدرا

وقال أيضا

كُليبُ لعمرى كان أكثر ناصرا * وأيسر جرما منك ضُرِّج بالدم

أميّة بن أبى الصَّلت الثقفىّ يقول

تلك المكارمُ لا قَعبانِ من لبن * شيباً بماءٍ فعادا بعدُ أبوالَا

حسّان بن ثابت يقول

وإن امرأ يُمسى ويُصبح سالما * من الناس — إلا ما جنى — لَسعيدُ

وقال أيضا

رُبَّ حِلمٍ أضاعه عَدَم المـا * لِ وجهلٍ غطّى عليه النعيمُ
ما أبالى أنبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ * أم لحانى بظهرِ غَيبٍ لئيمُ؟

الحُطَيئة : واسمه جرول بن أوس بن مخزوم . وقيل : جرول بن أوس بن مالك ابن غطفان بن سعد ويُكنَى : أبا مُلَيكة، والحطيئة لقبٌ غَلب عليه؛ قيل لقب به

لقصره وقربه من الأرض، وقيـل : حبق فى مجلس قومه فقال : إنمـا هى حَطْأَة فسُمِّىَ الحُطيئة .

فما يتمثّل به من شعره قوله

مَنْ يفعل الخيرَ لا يَعدَمْ جوازِيَه * لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ
دع المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتهـا * وآقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وقال أيضا

أقِلُّوا عليهـم لا ابًا لأبيكُمُ * من اللوم أوسُدّوا المكان الذى سَدّوا
أولئك قومٌ إن بَنَوا أحسـنوا البِنَا * وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا

متمم بن نويرة يقول

وكنّا كندمانَىْ جَذِيمـةَ حِقبةً * من الدهر حتى قيل لن يتصدّعَا
فلمـا تفرّقنا كأنى ومالـكا * لطول آجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معًا

أبو ذؤيب الهذلىّ يقول

وتجلّدى للشامتين أريهُمُ * أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ
وإذا المنيّة أنشبت أظفارَها * ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ
والنفسُ راغبة إذا رغّبتهـا * وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقنعُ

الخنساء : وهى تُماضِرُ بنت عمرو بن الشريد تقول

ومَنْ ظنّ ممن يُلاقى الحروبَ * بأن لا يصاب فقـد ظنَّ عَجْزا

وقالت أيضا

نُهِينُ النفوسَ وبذلُ النفو * س عند الكريهةِ أبقَى لهـا

عمرو بن معديكرب يقول

إذا لم تستطع أمرا فدعه * وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وقال أيضا

ليس الجمالُ بمئزرٍ * فاعلم وإن رُدّيتَ بُردا
إن الجمال مآثرٌ * ومكارمٌ أورثن مجدا

معن بن أوس يقول

وفى الناس إن رثّت حبالُك واصلٌ * وفى الأرض عن دار القِلَى متحوّل
إذا انصرفتْ نفسى عن الشىء لم تكدْ * إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقبلُ

وقال أيضا

أُعلّمه الرماية كلّ يوم * فلما اشتدّ ساعدُه رمانى

زياد بن زيد يقول

ولا أتمنى الشرَّ والشرُّ تاركى * ولكنى متى أُحمَلْ على الشرّ أركبِ (١٣)

وقال أيضا

هل الدهر والأيام إلا كما ترى؟ * رزيّةُ مالٍ أو فراقُ حبيبِ

أيمن بن خُرَيم بن فاتك الأسدىّ يقول

إن للفتنة مَيْطًا بيننا * فرويدَ المَيْط منها تَعتدلْ
فإذا كان عطاءٌ فأتِمّ * وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ

انتهى ما يُحتمل به من أشعار المخضرمين .

ومما يتمثل به من أشعار المتقدمين فى صدر الإسلام

القُطامىّ : واسمه عُمير بن شُيَيم يقول

ومَعصيةُ الشفيقِ عليك ممّا * يَزيدك مرّةً منه استماعَا
وخيرُ الأمرِ ما استقلت منه * وليس بأن تتبعه اتّباعَا
أراهم يغمزون من استركوا * ويجتنبون مَن صَدق المِصاعَا
كذاك وما رأيت الناس إلا * إلى من جرّ جانبهم سِراعَا

وقال أيضا

قد يُدرِك المتأنّى بعضَ حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلَل
وربما فات بعضَ القوم أمرُهُمُ * مع التأنّى وكان الرأىُ لو عجِلوا
والناس من يلقَ خيرا قائلون له * ما يشتهى ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

الطِّرِمّاح بن حكيم بن الحكم يقول

لقد زادنى حبّا لنفسىَ أننى * بغيضٌ إلى كلّ امرئ غيرِ طائلِ
وأنى شقىّ باللئام ولن ترى * شقيًّا بهم إلا كريمَ الشمائل

الكُمَيت بن زيد الأسدىّ يقول

إذا لم يكن إلا الأسنةَ مركبٌ * فلا رأى للمضطرّ إلا ركوبُها

وقال أيضا

فيا موقدا نارا لغيرك ضوءُها * ويا حاطبا فى حبلِ غيرِك تحطِبُ

المساور بن هند يقول

شَقيتْ بنو أسدٍ بشعر مُساورٍ * إن الشقىّ بكل حبلٍ يُخنَقُ

عدىّ بن الرِقاع يقول

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى * ضنًّا به نظرى إلى الأمراءِ
بل ما رأيتُ جبالَ أرضٍ تستوى * فيها عشيتُ ولا نجومَ سماءِ
كالبرق منه وابلٌ متتابع * جَوْدٌ وآخرُ ما يبِضُّ بماءِ
والمرء يورِثُ مجدَه أبناءَه * ويموت آخرُ وهو فى الأحياءِ

الفرزدق، واسمه همام بن غالب يقول

فواعجبا حتى كُليبٌ تسبّنى * كأنّ أباها نهشلٌ أو مُجاشعُ

وقال أيضا

تُرجّى ربيعٌ أن يجىءَ صِغارُها * بخيرٍ وقد أعيا عليك كِبارُها

وقال أيضا

فإن تَنجُ منها، تَنجُ من ذى عظيمةٍ * وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

وقال أيضا

يَمضى أخوك فلا تَلقَ له خَلَفًا * والمالُ بعد ذهاب المال مُكتَسَبُ

وقال ايضا

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا * مثل الشفيع الذى يأتيك عُريانا

وقال أيضا

قُلْ لنضيرٍ، والمرء فى دولة السلـ * ـطان أعمى مادامه يُدعَى أميرا
فإذا زالت الولاية عنه * واستوى بالرجال، عاد بصيرا

وقال أيضا

ولا تلبس سلطانٌ يُكايدُنا * حتى يلين لِضرس الناضج الحجرُ

وقال أيضا

هل ابنك إلا ابنٌ من الناس فاصبرن * فلن يَرجعَ الموتى حنينُ المآتمِ

جرير : هو ابن الخَطَفَى تُوفِّى سنة عشر ومائة يقول

إن الكريمةَ يَنصرُ الكرمَ ابنُها * وابنُ اللئيمة للئام نصورُ

وقال أيضا

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مَربعا * أبشرْ بطول سلامةٍ يا مَربعُ

وقال أيضا

وابن اللَّبون إذا ما لُزَّ فى قَرَنٍ * لم يستطع صَولةَ البُزْل القَناعيس

وقال أيضا

رأيتك مثلَ البرق يُحسَبُ ضوءُه * قريبا وأدنى ضوئه منك نازحُ

وقال أيضا

أمّا الرجالُ فجُمّالانٌ ونِسوتُهم * مثلُ القَنافذِ لا حُسنٌ ولا طِيب

الأخطل : واسمه مالك بن غياث بن غوث ، وقال أبو الفرج الأصبهانى : اسمه غياث ابن غوث بن الصلْت بن طارقة بن سيحان بن عمرو ، ورُفِعَ نسبُه إلى جُشَم بن بكر ويُكنَى : أبا مالك ، قال : وقال المدائنى هو غياث بن غوث بن سلمة بن طارقة .

فمما يتمثّل به من شعره قوله

والناس همُّهمُ الحياةُ ولا أرى * طولَ الحياة يزيد غيرَ خَبال

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجِدْ * ذُخراً يكون كصالح الأعمالِ

قال أيضا

إنّ الصنيعةَ تلقاها وإن قدُمت ... كالعَرِّ يكمن حينا ثم ينتشرُ
وأقسمَ المجدُ حقًّا لا يُحالفهم * حتى يحالف بطنَ الراحة الشَّعَرُ

وقال أيضا

٥ وإذا دعَوتكَ يا أُخيَّ فإنه * أحنى إليك مودّةً ووصالا
وإذا دعَوتكَ عمَّهُنَّ فإنه * نسبٌ يزيدك عندهنّ خَبالا

وقال أيضا

ضَفادعُ فى ظَلماءِ ليلٍ تجاوبتْ * فدلَّ عليها صوتُها حيَّةَ البحرِ

وقال أيضا

١٠ يا مرسلَ الريح جَنوباً وصَبَا * إنْ غضِبتْ قَيسٌ فزدها غضَبَا

الصَّلَتانُ العَبْدِىّ يقول

وإنْ يكُ بحرُ الحنظَليّين واحدا * فما يستوى حيتانُه والضفادعُ
وما يستوى صدرُ القناة وزُجُّها * وما يستوى فى الراحتيْن الأصابعُ

كُثيِّر عزة: وهو كثيّر بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعىّ، توفّى سنة خمس ومائة

١٥ يقول

وإنى وتهيامى بعزّةَ بعد ما * تخلّيتُ ممّا بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظلَّ الغمامةِ كلّما * تبوّأ منها للمقيلِ اضمحلّت
فقلتُ لها ياعزَّ كلُّ مصيبةٍ * إذا وطّنتْ يوماً لها النفسُ ذلّت
هنيئا مريئا غيرَ داءٍ مخامرٍ * لعزّةَ من أعراضنا ما استحلّت

(٢٤)

وقال أيضا

قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوفَّى غريمَه * وعزَّةُ ممطولٌ مُعنًى غريمُها

وقال أيضا

ومن لا يُغمِّضْ عينَه عن صديقه * وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتبُ

ومن يتتبَّعْ جاهدا كلَّ عثرةٍ * يجدْها ولا يسلَمْ له الدهرَ صاحبُ ٥

جميل يقول

فإن بك حربٌ بين قومى وبينها * فإنى لها فى كلِّ نائبةٍ سِلْمُ

وقال أيضا

ورُبَّ عارضةٍ عينا وصلتُها * بالجِدِّ تخلطه بقول الهازل

فأجبتُها فى القول بعدَ تستُّرٍ * حُبِّى بثينةَ عن وصالكِ شاغلى ١٠

لو كان فى قلبى كقَدْرِ قُلامةٍ * وصلًا وصلتُك أو أتتك رسائلى

عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة يقول

ليت هندًا أنجزتنا ما تعدْ * وشفت أكبادَنا مما نجدْ

واستبدَّتْ مرَّةً واحدةً * إنما العاجزُ من لا يستبِدْ

وقال أيضا ١٥

لا تلُمنى وأنتَ زيَّنتها لى * أنتَ مثلُ الشيطان للإنسان

ومما يتمثَّل به من أشعار المُحدَثين

منهم إبراهيم بن هَرْمة يقول

عجبت أُثَيْلةُ أنْ رأتنى مُخلِقا * ثَكِلتكِ أمُّكِ، أىُّ ذاك يروعُ؟

قد يُدرِك الشرفَ الفتى ورداؤه * خَلَقٌ وجَيبُ قميصه مرقوعُ ١٠

وقال ايضا

كتاركةٍ بيضها بالعراء * وملبسةٍ بيض أخرى جناحا

بشّار بن بُرد يقول

اذا كنت فى كلّ الأمور معاتبا * صديقك لم تلق الذى لا تعاتبُهْ

٥ فعش واحدا أو صِلْ أخاك فإنه * مُقارف ذنبٍ مرة ومجانبُهْ

إذا أنت لم تشربْ مرارا على القذى * ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربُهْ

وقال أيضا

ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً * فإن الخوافى عُدّةٌ للقوادمِ

وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلُّ أختَها * وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائمِ

١٠ وقال أيضا

كبكرٍ تَشَهّى لذيذَ النّكاح * وتَفرَقُ من صولة الناكح

وقال أيضا

أنتَ من قَلبها محلُّ شرابٍ * يُشتَهى شربهُ ويُخشَى صُداعُهْ

وقال أيضا

١٥ الحرُّ يُلحَى والعصا للعبد * وليس للمُلحِف مثلُ الرَّدّ

وصاحبٍ كالدُّمّل ممِدٍّ * حملتُه فى رُقعةٍ من جِلْدى

وقال أيضا

وإذا جفوتَ قطعتُ عنك منافعى * والدَّرُّ يقطعه جفاءُ الحالب

وقال أيضا

٢٠ ولولا الذى خَبَّروا لم أكنْ * لأمدحَ رَيحانةً قبلَ شَمّْ

وقال أيضا

تأتي المقيمَ — وما سعى — حاجاته * عددَ الحصَى، ويَخيبُ سعيُ الناصبِ

وقال أيضا

أنا والله أشتهى سحر عينيـــكِ وأخشَى مَصارعَ العشَّاقِ

وقال أيضا

نرجو غـدا، وغدًا كاملةٍ * فى الحىّ لا يدرون ماتلدُ

وقال أيضا

تسقط الطيرُ حيث ينتثر الحَبُّ وتُغشَى منـازلُ الكرماءِ
ليس يُعطيك للرجاءِ ولا الخو * فِ ولكنْ يَلذُّ طعمَ العطاءِ

وقال أيضا

* والصعبُ يُمكِنُ بعـد ماجمحا * ولن تَبلغَ العليا بغـيرِ الدراهم *

وقال أيضا

ولابدّ من شكوى إلى ذى مروءة * يواسيك أو يُسـليك أو يتوجّعُ

أبو العتاهية يقول

* أذلّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ * وكلُّ غَنًى فى العيونِ جَليلُ *
* روائحُ الجَنّـةِ فى الشـبابِ * وأىُّ الناسِ ليس له عُيوبُ *

وقال أيضا

إنَّ الشبابَ والفَراغَ والجِدَهْ * مَفْسَدَةٌ للدِّين، أىّ مَفْسَدَهْ!

وقال أيضا

أنتَ ما ٱستغنيتَ عن صا * حبِكَ الدهرَ أخوهُ
فإذا ٱحتجتَ إليه * ساعةً تجحدكَ فوهُ

وقال أيضا

٥ ما يَحرُزُ المرءُ من أطرافه طَرَفا * إلا تخوَّنه النقصانُ من طَرَفِ

وقال أيضا

يُصادُ فؤادى حين أَرمِى ورَمْيتى * تعودُ إلى نَحرِى ويسلمُ مَن أَرمِى

وقال أيضا

ولربَّ شهوةِ ساعةٍ * قد أورثتْ حزنا طويلا

١٠ سَلْمُ بن عمرو الخاسر: وهو مولى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه، وهو بصرىّ لُقِّبَ الخاسر لأنه ورث من أبيه مصحفا فباعه وٱشترى بثمنه طُنبورا، وقيل: بل خلَّف أبوه مالا فأنفقه فى الأدب والشعر، فقال له بعض أهله: إنك لخاسر الصفقة، فلُقّب بذلك.

فما يتمثّل به من شعره قوله

١٥ مَن راقبَ الناسَ مات غمًّا * وفاز باللذة الجسورُ
لولا مُنى العاشقين ماتوا * غمًّا، وبعض المنى غرورُ

وقال أيضا

ولو ملكتَ عِنانَ الريح تصرفُه * فى كلّ ناحيَة ما فاتك الطلبُ

وقال ايضا

٢٠ لا تسألِ المرءَ عن خلائقه * فى وجهه شاهدٌ من الخَبَرِ

صالح بن عبد القُدّوس يقول

ما يَبلغ الأعداءُ من جاهـلٍ * ما يبلُغُ الجاهـلُ من نفسهِ
والجاهـل الآملُ ما فى غدٍ * كحفظه فى اليوم أو أمسه
والشـيخ لا يَترُك أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثرى رمسه
والحُمـقُ داءٌ ما له حيـلةٌ * تُرجَى كبُعد النجم من لمسهِ ٥

(٢٥) وقال أيضا

وإنَّ عنـاءً أن تُفهِّمَ جاهـلا * فيَحْسَبَ جهلًا انه منك أفهمُ
متى يبلغ البنيانُ يوما تمـامَهُ * اذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهدمُ

وقال أيضا

إذا وَترتَ آمرءًا فاحذرْ عداوتَه * من يزرع الشوكَ لايحصدْ به عِنبَا ١٠

وقال أيضا

شرّ المواهب ماتجود به * من غير محْمَدَة ولا أَجرِ

وقال أيضا

لا تجدْ بالعطـاء فى غير حقٍّ * ليس فى منعِ غير ذى الحقّ بخلُ
إنمـا الجود أن تجودَ على من * هو بجودٍ منك والبذلِ أهـلُ ١٥

وقال أيضا

يَشقَى رجالٌ ويَشقَى آخرون بهم * ويُسـعدُ اللهُ اقـواما بأقوامِ
وليس رزق الفتى من لُطف حيلته * لكنْ جدودٌ بأرزاقٍ وأقسامِ
كالصَّيد يُحْرَمُه الرامى المُجيدُ وقد * يُرْمَى فيُرزَقُه من ليس بالرامى

وقال أيضا

إنْ يكنْ مابه أصبتَ جليلا * فذهابُ العــزاءِ منــه أجلُّ
كلّ آتٍ لاشك آت وذو الجهــل مُعَنًّى والغمُّ والحزنُ فضلُ

ابن مَيَّادة : هو الرقاح بن أبى أبرد كنيته شُرَحْبِيل يقول

٥ واعجبا من خالدٍ كيف لا * يُخطئ فينا مرّةً بالصواب

وقال أيضا

وأرانا كالزرع يحصده الدهــرُ فمن بينِ قائم وحصيد
وكأنّا للموت رَكْبٌ مُخِبُّو * ن سراعٌ لمنهلٍ موردِ

أبو نُواس الحسن بن هانِئْ يقول

١٠ * دع عنك لَومى فإن اللومَ إغراءُ * * ألا ربَّ إحسان عليك ثقيلُ *

وقال

* وللرجاء حرمةٌ لاتُجهــلُ * * وأىُّ جِــدٍّ بلَغ المــازحُ *

وقال أيضا

إذا آمتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيــاب صديقِ

١٥ وقال أيضا

لا أَذودُ الطيرَ عن شجرٍ * قد بلَوتُ المرّ من ثمــرِهْ

وقال أيضا

وليس لله بمســتنكرٍ * أن يجمعَ العالَمَ فى واحدِ!

وقال أيضا

٢٠ صار جدًّا ما مزحتُ به * ربَّ جدٍّ ساقــه اللعبُ

وقال أيضا

كفى حَزَنًا أنّ الجوادَ مُقَتَّرٌ * عليه ولا معروفَ عند بخيلِ

وقال أيضا

وأوبةُ مشتاقٍ بغـير دراهمٍ * إلى أهله من أعظم الحَدَثان

أبو عُيَيْنَة المهلّبيّ يقول

* وكيف جُحود القلبِ والعينُ تشهدُ * ولا خيرَ فيمن لا يدوم له عهدُ *

* وشتّانَ ما بين الولاية والعزْلِ *

وقال أيضا

وإذا تطـاولت الرءو * س فغطّ رأسَك ثمّ طاطِهْ

عبد الله بن أبي عتبة المُهلّبي يقول

كل المصائب قد تمرّ على الفتى * فتهونُ غيرَ شماتة الأعداءِ

وقال أيضا

ما كنتَ إلا كلحم مَيْتٍ * دعا إلى أكله اضطرارُ

العبّاس بن الأحنف يقول

لو كنتِ عاتبـــةً لسكّن رَوْعتي * أمَلي رضاكِ وزرتُ غيرَ مراقَبِ

لكن مللْتِ فما لصدّكِ حيلةٌ * صدُّ الملول خلافُ صدِّ العاتبِ

وقال أيضا

صرتُ كأنّي ذبالةٌ نُصبتْ * تُضيءُ للناس وهي تحترقُ

وقال أيضا

أرى الطريقَ قريباً حين أسلكُهُ * إلى الحبيبِ، بَعيدًا حين أنصرِفُ

وقال أيضا

كفى حَزَنًا أنّ التباعدَ بيننا * وقد جمعتْنا والأحبّـةَ دارُ

وقال أيضا

اقمنا مكرَهين بهـا فلمّا * ألِفناها خرجنا مُكرَهينا

٥ وقال أيضا

* ولا خيرَ فى ودٍّ يكون بشافعٍ * * من عالج الشوقَ لم يستبعد الدارا *

مُسلم بن الوليد : هو مولى الأنصار، ثم مولى آل أبى أُمامة : أسعد بن زُرارَة الخَزْرَجى ولُقِّب صريع الغوانى، وممّا يُتَمَثَّلُ به من شعره قوله

دلّتْ على عيبها الدنيـا وصـدّقها * ماآسترجعَ الدهرُ ممّا كان أعطانى

١٠ وكان يقول أخذتُ معنى هذا البيت من التوراة .

وقال أيضا

يَعُدّ الفتى مرِ الليالى سليمةً * وهنّ به عمـا قليـل عواثر

وقال أيضا

أما الهجاء فدَقّ عِرضُـك دونَه * والمدحُ عنـك كما علمتَ جليـلُ

١٥ فاذهب فأنتَ طليقُ عِرضِك إنه * عرضٌ عزَزتَ به وأنت ذليـل

منصور النَمِرىُّ : هو منصور بن الزِبْرِقان بن سَلَمَة. وقيل منصور بن سَلَمَة بن الزِبْرِقان بن شريك، مُطْعِمُ الكبشِ الرَّخَم؛ سُمّى بذلك لأنه أطعم ناسا نزلوا به ونَحَرَ لهم. ثم رفع رأسه فإذا هو برَخَم يَحُمّن حول أضيافه، فأمر أن يُذْبَح لهنّ كبشٌ ويُرمى لهنّ ففُعِل ذلك ونزلن عليه فمزّقنه؛ وهو ابن مالك بن سعد بن عامر الضحيان، سُمّى

بذلك لأنه كان سيد قومه وحاكمهم وكان يجلس لهم إذا أضحى النهارُ، وهو ٱبن سعد ٱبن الخَزْرَج بن تَيْم الله بن النَّمِر بن قاسط بن هِنْب بن أفصى بن دُعْمِىّ بن جَدِيلة ٱبن أسد بن ربيعة بن نِزَار .

فما يُتَمَثَّل به من شعره قوله

لعـلّ لهـا عذرًا وأنت تلوم * ورب ٱمرئٍ قد لام وهو مَلِيم

وقال أيضا

ما كنتُ أوفى شبابى كنه عِزَّته * حتى ٱنقضى فإذا الدنيا له تَبَع

وقال أيضا

أقلل عتابَ من ٱستربتَ بُوِدّه * ليست تُنـال مـودةٌ بعتاب

العَتَّابِىّ : هو كُلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن مسعود ٱبن عمرو بن كُلثوم الشاعر ٱبن مالك بن عَتّاب بن سعد بن زُهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تَغْلب .

فما يُتَمَثَّل به من شعره قوله

وإن عظيمات الأمور مَشُوبةٌ * بمستودعات فى بطون الأساود

وقال أيضا

ولله فى عَرْض السموات جَنّة * ولكنهـا محفوفة بالمَـكاره

وقال أيضا

قلت للفرقدين، والليل مُلقٍ * سُـودَ أكنافه على الآفاق

إبقيا مابقيتما سـوف يُرمَى * بين شخصيكما بسهـم الفراق

أشجع السُّلَمىُّ : هو أشجع بن عمرو أبو الوليد، وقيل: أبو عمرو من أهل الرَّقّة.

فمما يتمثل به من شعره قوله

نسيبُك من أمسى يناجيك طرفه * وليس لمن تحت التراب نسيبُ

وقال ايضا

سبق القضاءُ بكلِّ ما هو كائن * فليَجهد المتقلّب المحتالُ

وقال أيضا

داءٌ قديم فى بنى آدمٍ * فتنةُ إنسان بإنسان

وقال أيضا

وعلى عدوك يا ابن عمّ محمدٍ * رَصَدان، ضوءُ الصبح والإظلامُ

فاذا تنبه رعتَه وإذا غفا * سلّتْ عليه سيوفَك الأحلامُ

الجُرْهُمىُّ

وأعددتُه ذخرا لكل مُلِمةٍ * وسهمُ الرزايا بالذخائر مولعُ

وقال أيضا

إذا مامات بعضُك فابك بعضًا * فإن البعضَ من بعضٍ قريبُ

وقال أيضا

أرى الحلمَ فى بعضِ المواطنِ ذِلةً * وفى بعضها عزًّا يُسَوِّدُ فاعله

وقال أيضا

ودون الندى فى كل قلبٍ ثَنيّةٌ * لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنحَدرٌ سهلُ

وقال أيضا

العيش لا عيشَ إلا ما قَنَعت به * قد يكثر المالُ والإنسان مُفتقِر

إلا كآخر عاجز * اذا حل بالإنسـان ما يُتوقَّعُ

هو محمود بن الحسن البغدادى مولى بنى زُهرة، ويُكنى

فما يُمثّل به من شعره قوله

وإذا غلا شيءٌ علىّ تركتُه * فيكون أرخصَ ما يكون إذا غلا

وقال أيضا

ما كدتُ أفحص عن أخى ثقةٍ * إلّا ذَممتُ عواقبَ الفحصِ

وقال أيضا

الدهر لا يَبْـقى عـلى حالة * لابدّ أن يُقبِـلَ أو يُدبرا

فإن تَلقَّـاك بمـكروهـه * فاصبر فإن الدهرَ لن يَصـبرا

وقال أيضا

إذا كان وجهُ العُذرِ ليس بواضح * فإنّ اطّراحَ العذرِ خيرٌ من العذر

محمود بن حازم الباهلىّ

ألا إنمـا الدّنيا على المرءِ فتنةٌ * على كل حال أقبلتْ أم تولّتِ

وقال أيضا

وقائـلٍ كيف تفـرّقتما * فقلتُ قولا فيـه إنصـافُ

لم يك لى شـكلا ففارقتُـه * والناسُ أشـكالٌ وأُلافُ

السَّمَوءَلُ بن عَادياء

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤمِ عِرضُه * فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

وقال أيضا

إذا كنت مَلْحيًّا مُسيئا ومُحسِنا * فغِشْيان ماتهوى من الأمر أكيسُ

٥ محمد بن أبي زُرْعَة الدِّمَشْقي

لا يُؤنِسَنَّك أن ترانى ضاحكا * كم ضَحْكَة فيها عُبوس كامِن

وقال أيضا

قد يَمْهَنُ الهِندىُّ وهو حُسام * ويُحتّ الجوادُ وهو جوادُ

أبو الشِيص : واسمه محمد بن رزين بن تَميم بن نَهْشَل ، وأبو الشِّيص لَقَبٌ غَلَب

١٠ عليه ، وكُنْيَتُه أبو جعفر وهو عم دِعْبِل بن علىّ .

فمما يُتمثل به من شعره قوله

اذا لم تَكُنْ طُرُقُ الهوى لى ذليلةً * تنكبتُها وانحزتُ من جانبِ السَّهل

علىّ بن جَبَلَةَ بن عبد الرحمن الأنبارىّ ، وهو المُلَقَّب العَكَّوك قال

وأرى الليالى ماطوتْ من شِرَّتى * ردَّتْه فى عِظَتى وفى إفهامى

١٥ وعلمتُ انّ المرء من سَنَن الردى * حيثُ الرِمِيَّة من سِهام الرامى

وقال أيضا

وخافت على التطواف قومى وإنما * تُصاب غرار الوحش وهى رُتُوعُ

الجُلاجُ الحارثىّ

وما كنتُ زوّارا ولكن ذا الهوى * إلى حيث يَهوَى القلبُ تَهْوِى به الرِجْلُ

وقال أيضا

اذا ما أهانَ آمرؤٌ نفسَـــه * فلا أكرم اللهُ من يُكرمه

عبد الصمد بن المعذَّل

ليس لى عُذْرٌ وعندى بُلْغةٌ * إنمـا العذر لمن لا يستطيع

وقال أيضا ٥

وأعلم أن بنات الرجاء * تُحِلّ العزيزَ محَـلَّ الذليل

وأن ليس مُستغنيا بالكثـــير * من ليس مُستغنيا بالقليل

وقال ايضا

أرى النـاسَ أُحدوثةً * فكونوا حديثاً حَسَنْ

كأن لم يكن ما أتى * وما قد مضى لم يكن ١٠

إذا وطنٌ رابنى، * فكل بلادٍ وطن

إذا عزّ يوماً أخـــو * ك فى بعض أمر فهُنْ

الحَمْدونىّ

إن المُقَدَّمَ فى حِذْقٍ بصنعته * أنى توجه فيها فهو محـــروم

العتبى ١٥

قالت عهِدتُك مجنونًا، فقلتُ لها: * إن الشـبابَ جنون برؤُه الكِبَر

وقال أيضا

وحسبُك من حادث بامرئ * يرى حاســديه له راحمينا

أبو سعيد المخزومى: وآسمه عيسى بن خالد بن الوليد، والصحيح أنه أبو سعد لا سعيد .

فما يُتمثل به من شعره قوله

وكم رأينا للدهر من أسَدٍ * بالت على راسِه ثعالبـهُ

٥ وقال أيضا

إذا ضنّ الجَـوادُ بمـا لديه * فما فضلُ الجواد على البخيل؟

وقال أيضا

ليس لبسُ الطيَالسْ * من لبـاسِ الفوارسْ
لا ولا حَوْمة الوغى * كصـدور المجـالسْ
١٠ وظُهـورُ الجيـادِ غـيرُ * ظهـور الطنـافس
ليس من مارس الخطو * ب كمن لم يمـارس

دِعْبِل بن علىّ الخزاعىّ : هو أبو جعفر وآسمه محمد ودعبل لقبٌ غَلَب عليه، والدِعْبِلُ : البعيرُ المسنُّ، وقيل : الناقةُ التى معها أولادها . (٢٧)

فما يُتمثل به من شعره قوله

١٥ لا تعجبي ياسَـلْمُ من رجل * ضَحِك المشيبُ برأسه فبكى

وقال ايضا

هى النفس ماحسّنتَه فَحُسّن * إليهـا وما قبّحتَـــه فُقبّح

وقال أيضا

جئنـا به يشـفع فى حاجةٍ * فاحتاج فى الإذن إلى شافع

وقال أيضا

تلك المساعى اذا ماأخرتْ رجلا * أحب للناس عيبًا كالذى عابهْ
كذاك من كان هَدْمُ المجد عادَتَه * فإنه لِبناء المجـــدِ عَيَّـابهْ

إسحاق بن إبراهيم المَوصِلىّ

وكلُّ مسافرٍ يزداد شـــوقًا * إذا دنتِ الديارُ من الديارِ ٥

المؤمل بن أميل

إذا مَرِضنا أتينا كم نَعودكُمُ * وتذنبون فنأتيكم ونعتـــذرُ
لاتحسَبونى غنيًا عن مودّتكم * إنى إليكم وإن أيسرت مفتقرُ

إبراهيمُ بن العباس بن محمد بن صُول مولى يزيد بن المُهَلّب يُكنى أبا إسحاق ، وأصله من خُراسان . ١٠

فما يُتمثّل به من شعره قوله

ورب أخٍ ناديتُـــه لمُلمة * فألفيتُه منها أجلّ وأعظما

وقال أيضا

وكنت أذُمّ إليك الزمانَ * فأصبحتُ فيك أذمّ الزمانا
وكنت أُعدّك للنائبـــات * فها أنا أطلبُ منك الأمانا ١٥

وقال أيضا

دنت بأناس عن تناءٍ زيارةٌ * وشَطّ بليلى عن دُنوّ مَزَارُها
وإن مقيماتٍ بمُنقَطِع اللوى * لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

أبو عليّ البصير : وهو الفضل بن جعفر الكوفيّ يقول

فلا تعتذرْ بالشُّغل عنّا فإنّما * تناطُ بك الآمال ما اتّصل الشُّغلُ

وقال أيضا

لعمر أبيك ما نُسب المعلّى * الى كرم وفى الدنيا كريمُ
٥ ولكنّ البلاد إذا اقشعرّت * وصوّح نبتُها رُعى الهشيمُ

سعيد بن حميد يقول

* إنّ جَهد المقلّ غير قليل * * وعلى المريب شواهدٌ لا تدفعُ *

وقال أيضا

وإنك كالدنيا تُذَمُّ صروفها * ونوسعها سبّا ونحن عبيدها

١٠ عليّ بن الجهم يقول

ولكلّ حال مَعْقَبٌ ولربما * أجلَى لك المكروهُ عمّا تحمَدُ

وقال أيضا

وعاقبةُ الصبر الجميل جميلة * وأفضل أخلاق الرجالِ التفضُّلُ
ولا عار إن زالت عن المرء نعمةٌ * ولكنّ عارا أن يزولَ التجمُّلُ

١٥ وقال أيضا

ارضَ للسائل الخضوعَ وللقا * رفِ ذنبًا مَذلّة الأعذارِ

ابن أبي فنن : هو أحمد بن صالح بن أبي معشر مولى المنصور يقول

أرى الدهرَ يُخلِقُنى كلّما * لبستُ من الدهر ثوبًا جديدا

وقال أيضا

سُرَّ من عاش مالُه فإذا حا * سَـبهُ اللهُ سَرَّهُ الإعدامُ

وقال أيضا

ربَّ أمرٍ سرَّ أخرُهُ * بعد ما ساءَتْ أوائلُهُ

يزيد بن محمد المهلبيّ يقول

* لا عار إن ضامك دهرٌ أو مَلِكْ *

وقال

وإن الناسَ جمعهُمُ كثيرٌ * ولكنْ من تُسَرُّ به قليـلُ

وقال أيضا

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلُّها * كفى المرء نُبلًا ان تعدَّ معايبُـهْ

عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير يقول

فإن تلحظى حالى وحالَك مرَّةً * بنظرةعين عن هوى النفس تُحجَبُ
ترَىْ كلَّ يوم مرَّ من بؤس عيشتى * عليـك بيومٍ من نعيمك يُحسبُ

أحمد بن أبى طاهر يقول

ودين الفتى بين التماسك والنهى * ودنيا الفتى بين الهوى والتغرّرِ

وقال أيضا

حسن الفتى أن يكون ذا حسبٍ * من نفسه، ليس حسنَه حسبُهْ

أبو تمام حبيب بن أوس الطائى يقول

* ما الحبّ الإ للحبيب الأوّل * * لسان المرء من جذم الفؤاد *
* وذى النقص فى الدنيا بذى الفضل مولع *

وقال

ما أبٌّ مَنْ أبٌّ لم يظفر بحاجته * ولم يُعَبْ طالبٌ للنُّجح لم يُجَبِ

وقال أيضا

ومن لم يُسلِّم للنوائب أصبحتْ * خلائقه طرًّا عليـــه نوائبَـا

٥ وقال أيضا

لأمرٍ عليهم أن يتمَّ صدورُه * وليس عليهم أن تتم عواقِبُهْ

وقال أيضا

لاتنكرى عَطَلَ الكريم من الغِنى * فالسيلُ حَربٌ للمكانِ العـالى

وقال أيضا

١٠ واذا تأملتَ البـلادَ رأيتهـا * تُثرِى كما تُثرِى الرجالُ وتُعدمُ

وقال أيضا

واذا أمرؤ أهدى اليك صنيعةً * من جاهه فكأنهـا من ماله

وقال أيضا

خلقنا رجالا للتجـلد والأسى * وتلك الغوانى للبـكا والمآتم

١٥ وقال أيضا

ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ * ويُكدِى الفتى فى دهره وهو عالمُ

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجى * هلكن إذًا من جهلهنّ البهائمُ

وقال أيضا

أآلفـة النحيب كم آفتراق * أطلَّ فكان داعيةَ آجتماعِ

وليست فرحةُ الأوبات إلا * لموقوفٍ على تَرَحِ الوداعِ

وقال أيضا

وإذا أراد الله نشرَ فضـــيلة * يوما، أتاح لهـا لسان حَسودِ
لولا آشتعال النار فيما جاورت * ما كان يُعرف طِيبُ عَرفِ العودِ

وقال أيضا

خشعوا لصولتك التى هى عندهم * كالموت يأتى ليس فيـــه عار ٥

وقال أيضا

ذاك الذى قَرِحتْ بطونُ جفونه * مَرَّهًا وتربة أرضه من إثمِـد

(٢٨) وقال أيضا

وتَرَكى سرعة الصَّدَرِ آعتباطًا * يدلّ على موافقـــة الورود

وقال أيضا ١٠

ولم أر كالمعروف تُدعى حقوقُه * مغارمَ فى الأقوام وهى مَغانمُ

وقال أيضا

وإن أمرءًا ضنّت يداه على أمرئٍ * بنيـــلِ يدٍ من غيره لبخيـــلُ

أبو عُبَادة البُحترىّ، وهو الوليد بن عُبَيد بن يحيى بن عُبَيد بن شَمْلان بن جابر آبن مُسلمة بن مُسهِر بن الحارث بن خَيْثَم بن أبى حارثة بن جدى بن نزوَل بن بُحتُر الطـائىّ . ١٥

فمما يتمثل به من شعره قوله

* وأبرحُ ممّـا حَلّ ما يُتَوقَّعُ *

وقال أيضا

* وليس تقترن النعماءُ والحسدُ *

وقال أيضا

* إن المعنَّى طالبٌ لا يظفرُ *

وقال أيضا

* أرى الكفرَ للنعماء ضربا من الكفرِ *

٥ وقال أيضا

* يزين اللآلى فى النظام ازدواجها *

وقال

وكان رجائى أن أؤوب مملَّكا * فصار رجائى أن أؤوب مسلَّما

وقال أيضا

١٠ متى أَحرجتَ ذا كرم تخطَّى * اليك ببعض أخلاق اللئيمِ !

وقال أيضا

والشىء تُمنَعُه يكون بفَوْته * أجدى من الشىء الذى تُعطاهُ

وقال أيضا

تناسَ ذنوبَ قومك إنّ حفظَ الـ * ـذنوبِ اذا قدمنَ من الذنوبِ

١٥ وقال أيضا

واذا ما خَفيتُ كنتُ حَرِيًّا * أن أُرى غير مُصبح حيث أُمسِى

وقال أيضا

متى أرت الدنيا نباهةَ خاملٍ * فلا تنتظرْ إلا تُحولَ نبيهِ

وقال أيضا

٢٠ وأرى النجابةَ لا يكون تمامُها * لنجيب قوم ليس بابن نجيب

وقال أيضا

واذا ما الشريفُ لم يتواضعْ * للأخلّاءِ فهو عينُ الوضيعِ

وقال أيضا

ولم أر أمثـالَ الرجال تفاوتتْ * الى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحد

وقال أيضا ٥

ليس الذى يُعطيـك تالدَ ماله * مثلَ الذى يُعطيك مالَ الناسِ
وتَفاضُل الأخلاقِ إن حصَّلتَها * فى الناس حيثُ تفاضلُ الأجناسِ

وقال أيضا

لاييأس المرء أن ينجيَه * ما يحسَبُ الناسُ أنه عطبُهْ
يسرّك الشيءُ قد يسوءُ وكم * نوه يوما بخـامل لقبُـهْ ١٠

وقال أيضا

اذا محاسِـنِيَ اللاتى أدلُّ بهـا * كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذرُ

وقال أيضا

وعطـاءُ غيرك إن بذلـتَ عنـايةً فيه عطاؤكْ

ديك الجن، وآسمه عبد السلام بن رَغْبان بن عبدالسلام بن حبيب بن عبد الله ١٥
آبن رغبان بن زيد بن تميم بن مجد من أهل حمص يقول

وشافى النصح يُعدَل بالأشافِى * وليس القِـدر إلا بالأثافى

وقال

اذا شجر المـودة لم تجـدهُ * بغيث البرِّ أسرع فى الجفافِ

وقال أيضا

يرقدُ الناسُ آمنين وريب الـــدهر يرعاهُمُ بمقـلة لصّ

ابن الرومىّ يقول

وكم داخلٍ بين الحميمين مصـلح * كما آنغلّ بين العينِ والجفنِ مِروَدُ

٥ وقال أيضا

هـــو بازٍ صائد أرسلتُـهُ * فارجعوه سالمـا إن لم يَصِدْ

وقال أيضا

وما الحمـدُ إلا توأم الشـكر فى الفـتى * وبعض السـجايا ينتسـبن الى بعضِ

اذا الأرض ردّت ريْعَ ما أنت زارعٌ * من البذر فهى الأرض ناهيك من أرضِ

١٠ وقال أيضا

واذا أتاك من الأمور مقدَّرٌ * ففررتَ منه فنحوهُ تتوجّهُ

وقال أيضا

كيف تَرضَى الفقر عِرسا لامرئٍ * وهو لا يَرضَى لك الدنيـا أمَـهْ!

وقال أيضا

١٠ عدوّك من صديقك مستفادٌ * فلا تستكثرنّ من الصحابِ

فإن الداءَ أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشرابِ

عبد الله بن المعتزّ يقول

* فإن العيون وجوهُ القلوبِ *

وقال أيضا

* أمّ الكرام قليـلةُ الأولاد *

وقال أيضا

* أبطأ فيض الدلاء أملؤها *

وقال أيضا

إصبر على كيد الحسو * د فإن صـبرك قاتلَهْ

فالنـار تأكل بعضها * إذ لم تجـد ما تأكله

وقال أيضا

ولا همّ إلا سوف يُفتَحُ قُفلُه * ولا حالَ إلا للفتى بعدها حالُ

وقال أيضا

لا تأمنوا من بعـد خيرٍ شرًّا * كم غُصُنٍ أخضرَ عاد جمـرَا

وقال أيضا

وإنى على إشفاق عينى من البكا * لتجمح منى نظـرة ثم أُطرقُ

كما حُلّئت عن ماء برد طريدةٌ * تمدّ اليـه جيدَها وهى تَفـرقُ

وقال أيضا وإشارته الى الديك

صفّقَ إما ارتياحةً لسَـنا الـ * ـفجر وإما على الدجى أسفا

عبيد بن عبد الله بن طاهر

ألم تر أن المرءَ تدوَى يمينُه * فيقطعها عمـدا ليسـلمَ سائرُهْ؟

فكيف تراه بعـد يمناه صانعا * لمن ليس منه حين تدوَى سرائرُهْ؟

وقال أيضا

ألا قبّـح الله الضرورةَ إنهـا * تكلّف أعلى الخَلْقِ أدنى الخلائقِ!

وقال أيضا

وكم قائل قد قال مالك راجلا؟ * فقلت له من أجل أنك فارس!

وقال أيضا

ومن سرّه أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذْ شيئا يخاف له فقدا

٥ ابن طباطبا العلوىّ: هو أبو الحسن محمد بن أحمد العلوى الأصبهانى يقول

إنّ فى نيل المُنَى وشكَ الردى * وقياس القصد عند السرف

كسراج دهنه قوتٌ له * فاذا غرّقته فيه طُفى

وقال أيضا

لقد قال أبو بكرٍ * صوابا بعدما أنصتْ

١٠ خرجنا لم نصد شيئا * وما كان لنا أفلتْ

وقال أيضا

يا عيشنا المفقودَ خذ من عمرنا * عامًا ورُدَّ من الصِّبا أياما!

منصور الفقيه المقرئ يقول

يا من يخاف أن يكو * ن ما أخافَ سرمدَا

(٢٩)

١٥ أما سمعتَ قولهم * إنَّ مع اليوم غدَا!

وقال أيضا

الملح يُصلح كلّ ما * يُخشى عليه من الفسادِ

فاذا الفساد جرى عليـ * ـه فحكمه حُكْمُ الرّماد

وقال أيضا

كلُّ مذكورٍ من الناس اذا ما * فقدوه صار فى حكم الرّماد

وقال أيضا

كلّ مذكورٍ من النـــاس اذا ما فقدوه
صار فى حكم حديث * حفظوه ونســـوه

وقال أيضا

كلّ من أصبح فى دهـــرك ممن قد تراهْ
هو من خلفك مِقرا * ض وفى الوجه مِراهْ

ابن بسّام : هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسّام كنيته أبا الحسن يقول

* وكم أُمنيّة جلبتْ منيّهْ *

وقال

ولولا الضرورةُ ما جئتكُم * وعند الضرورة يؤتَى الكنيف !

وقال أيضا

قل لأبى القاسم المرجّى * قابلك الدهر بالعجائبْ
مات لك ٱبنٌ وكان زينا * وعاش ذو الشين والمعائبْ
حياة هذا كموت هـذا * فلست تخلو من المصائبْ

وقال أيضا

ربَّ يوم بكيت منه فلما * جزت فى غيره بكيت عليه

وقال أيضا

قـــد يحمل الشيخُ الكبيـــرُ جنازةَ الطفلِ الصغير

جَحْظَـة : هو أبو الحسن أحمـد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك النديم يقول

* وللمساكين ايضا بالندى وَلَعُ *

وقال أيضا

* وآفة التبر ضُعفُ منتقدهْ *

وقال أيضا

* متى يلتقى الميْتُ والغاسلُ؟ *

٥ وقال أيضا

لا تعدّنّ للزمان صديقا * وأعدّ الزمان للأصدقاءِ

وقال أيضا

وما كذب الذى قد قال قبلى: * اذا ما مرَّ يوم مرَّ بعضى

وقال أيضا

١٠ اذا الشهر حلَّ ولا رزقَ لى * فعَدِّى لأيامه باطلُ

وقال أيضا

واذا جفانى جاهلٌ * لم أستخر ما عشتُ قطعَهْ

وجعلته مثل القبو * ر أزوره فى كلّ جمعهْ

الصنوبرىّ يقول

١٥ محَن الفتى يُخبرنَ عن فضل الفتى * كالنار مخبرةٌ بفضل العنبرِ

وقال أيضا

ربَّ حال كأنها مُذْهَبُ الديـ * ـباج صارت من رقةٍ كاللاذ (١)

وزمانٍ مثلِ ابنة الكَرْم حُسنا * عاد عند العيون مثلَ الداذى (٢)

أو ما من فساد رأى الليالى * أنّ شعرى هذا وحالىَ هذى!

---

(١) اللاذة: ثوب حرير أحمر صينىّ والجمع: لاذ.

(٢) الداذىّ: شراب للفسّاق.

أبو الفتح كُشاجم : هو محمود بن الحسين بن السندىّ بن شاهك، وشاهك أمّه

يقول

يُعاد حديثه فيزيد حُسـنا * وقد يُستقبَحُ الشىءُ المُعـادُ

وقال أيضا

شخصَ الأنامُ الى جمالكَ فاستعِذْ * من شرّ أعينهم بعيبٍ واحد! ٥

*
* *

ومما يتمثّل به من أشعار المولَّدين : منهم

أبو فراس الحمدانىّ

غنَى النفس لمن يعقـ * ـل خير من غِـنَى المـالِ

وفضل الناس فى الأنفـ * ـس ليس الفضل فى الحال ١٠

وقال أيضا

ونحن أناسٌ لا توسّط عنـدنا * لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ

تهون علينا فى المعـالى نفوسُنا * ومَن خطَبَ الحسناءَ لم يغلِهِ المَهرُ

وقال أيضا

وندعو كريمـا مَن يجود بماله * ومَن يبذل النفس النفيسة أكرمُ ١٥

وقال أيضا

وجميل العـدوّ غير جميلٍ * وقبيحُ الصديق غير قبيح!

أبو الطيب المتنبّى يقول

* مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائد *

وقال أيضا

* إن المعارفَ فى أهل النُّهى ذِمَمُ *

وقال أيضًا

* وخير جليسٍ فى الزمان كتابُ *

٥ وقال أيضا

* وتأبَى الطباعُ على الناقلِ *

وقال أيضا

* ومنفعة الغوث قبل العطب *

وقال أيضا

١٠ * ومن فرح النفس ما يقتل *

وقال أيضا

* اذا عظم المطلوب قلّ المساعدُ *

وقال أيضا

* أنا الغريق فما خوفى من البلل *

١٥ وقال أيضا

* فإن الرفق بالجانى عتابُ *

وقال أيضا

* بغيضٌ الىّ الجاهلُ المتعاقلُ *

وقال أيضا

٢٠ وكلّ آمرئ يولى الجميلَ محبّبٌ * وكلّ مكان يُنبت العزّ طيّبُ

وقال أيضا

اذا أنتَ أكرمتَ الكريم ملكتَه * وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمـــرّدا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعُلى * مضرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى

وقال أيضا

والأمر لله، ربَّ مجتهدٍ * ما خاب إلا لأنه جاهـدُ ٥

وقال أيضا

وليس يصحّ فى الأفهام شىء * اذا آحتاج النهار الى دليـــلِ

وقال أيضا

ومن نكدِ الدنيا على الحرِّ أن يرى * عـدوّا له ما من صداقته بُدُّ

وقال ١٠

وإذا كانت النفوسُ كِبارًا * تعبتْ فى مرادها الأجسامُ

وقال أيضا

وإن يكن الفعلُ الذى ساء واحدا * فأفعـاله اللّاتى سَررنَ أُلوفُ

وقال أيضا

واذا أتتك مذمّتى من ناقص * فهى الشهادة لى بأنى فاضـلُ ١٥

وقال أيضا

وما الحُسنُ فى وجه الفتى شرفا له * اذا لم يكن فى فعـلِه والخلائقِ!

وقال أيضا

وما يوجع الحرمانُ من كفّ حارمٍ * كما يوجع الحرمانُ من كفِّ رازقِ!

وقال أيضا

إنّا لفى زمن تركُ القبيح به * من أكثر الناس إحسانٌ وإجمالُ
ذكرُ الفتى عمرُه الثانى وحاجته * ما فاته وفضول العيش أشغالُ

وقال أيضا

٥ وقيّدتُ نفسى فى ذراك محبّةً * ومَنْ وجَد الإحسان قيدًا تقيّدا

وقال أيضا

ما كلّ ما يتمنّى المرءُ يُدركه * تجرى الرياحُ بما لاتشتهى السفُنُ!

السرىّ بن أحمد بن السرىّ الموصلىّ يقول

اذا العبءُ الثقيل توزّعته * أكفّ القوم هان على الرقاب

١٠ وقال أيضا

فإنك كلّما آستُودعتَ سرًّا * أتمّ من النسيم على الرياض

وقال أيضا

إلى كم أحبّر فيك المديحَ * ويَلقى سواى لديك الحُبورا؟

أبو بكر محمّد بن هاشم الخالدىّ يقول

١٥ إن خانك الدهرُ فكن عائذا * بالبيد والظّلْماءِ والعِيس
ولا تكن عبدَ المنى فالمُنى * رءوس أموال المفاليس

وقال أيضا

وأخٍ رَخُصتُ عليه حتى ملّنى * والشىء مملول اذا ما يَرخُصُ
ما فى زمانك ما يَعِزّ وجودُه * إن رمتَه إلا صديق مخلصُ

أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدىّ [أخوه] يقول

يا هــذه إن رحتُ فى * خَلَق فـا فى ذاك عارُ
هذى المُدام هى الحيا * ة قميصها خرَقٌ و قَارُ

وقال أيضا

صغيرٌ صرفتُ اليه الهوى * وما خاتمٌ فى سوى خِنْصَر ٥

الخَبَّاز البلدىّ : هو أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان، نسـبة الى "بلد" وهى من بلاد الجزيرة التى منها المَوصِل يقول

اذا آستثقلتَ أو أبغضتَ خَلْقا * وسَرّك بعـدُه حتى التَّنادِ
فشرّده بقرض دُريهمات * فإن القَرض داعيةُ الفسادِ

١٠ أبو إسحاق الصابئ يقول

نِعمُ الله كالوحوش وما تأ * لف إلّا الأخايرَ النُّسا كا
نفّرتهـا آثامُ قوم وصارتْ * لأولى البرِّ والتُّقى أشرا كا

وقال أيضا

ومن الظلم أن يكون الرضى سـ * ـرا ويبدو الإنكار وسْطَ النادى

١٥ وقال أيضا

الضبّ والنون قد يُرجى آتقاؤهمـا * وليس يرجى التقاء اللبِّ والذَهبِ

عبد العزيز عمر بن نُباته يقول

فلا تحقِرنّ عدوّا رماك * وإن كان فى ساعِديه قِصَرْ
فإن السيوف تحزّ الرقابَ * وتعجز عمـا تنال الإبر

وقال أيضا

مَثَّلَ خلعتُ على الزمان رداءه * عَوَزُ الدراهم آفةُ الأجواد

وقال أيضا

يهوى الثناءَ مُبرِّز ومُقصِّر * حُبُّ الثناء طبيعة الإنسان

٥ وقال أيضا

ونَبَتْ بنا أرضُ العِرا * ق فما تَجَنَّاها بمُجنه

غير الرحيل، كفى البلا * د برِحلةِ العجفاء هُجنه

ابن لنكك البصرىّ : هو أبو الحسين محمد بن محمد يقول

وماذا أُرجّى من حياةٍ تكدّرت ؟ * ولو قد صفت كانت كأضغاث أحلام

١٠ وقال أيضا

عـدّنا فى زماننـا * عن حديث المكارمِ

من كفى الناس شرَّه * فهو فى جود حاتمِ

وقال أيضا

جار الزمانُ علينـا فى تَصرّفه * وأىّ دهر على الأحرار لم يَجُـرِ

١٥ عندى من الدهر مالو أنّ أيسره * يُلقَى على الفَلَك الدوّار لم يَدُرِ

أبو الحسن عبدالله بن محمد بن محمد السلامىّ يقول

تبسّـطنا على الأيام لمـا * رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال أيضا

والمرء ما شغلته فرصة لذة * ناسى الحوادث آمن الحدثانِ

وقال

وكان رقادى بين كأسٍ وروضـة * فصار سُهادى بين طِرْفٍ وصارمِ

وقال أيضا

ركوبُ الهولِ أركبك المَذاكى * ولُبسُ الدِرع ألبسك الغلائلْ

أبو الفرج البَبَّغا يقول ٥

ما الذل إلا تَحَمُّـــل المِنَنِ * فكن عزيزًا إن شئتَ أو فَهُنِ

وقال أيضا

ومن طلب الأعداءَ بالمـال والظُبى * وبالسـعد لم يبعُد عليـه مرامَ

وقال أيضا

ولم أر مُذ عرفتُ محلَّ نفسى * بلوغَ مُنى تساوى حمـلَ مَنِّ ١٠

وقال أيضا

أكلُّ وميض بارقة كذوبُ * أما فى الدهر شئٌ لا يريب؟

ابن سُكَّرة الهاشمىّ : هو محمد بن عبد الله يقول

* وعلة الحال تُنسى علَّة الجسـد *

وقال أيضا ١٥

* وقد ينبت الشوك بين الأقاحى *

وقال أيضا :

الموت أنصف حين عدّل قِسْمَة * بين الخليفـة والفـقير البائسِ

ابن الحَجّاج : هو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج يقول

* ورُبَّ كلام تُستثار به الحربُ *

وقال أيضا

* خَود تُزَفّ الى ضريرٍ مُقعد *

وقال أيضا

واللوزة المرّة يا سادتى * يفسد فى الطَّعم بها السكّرُ

٥ وقال أيضا

ما زلتُ أسمع كم من واقفٍ نجِلٍ * حتى ٱبتليتُ فكنتُ الواقفَ الخَجِلا

وقال أيضا

وبى مرضان مختلفان حال الـعليلة منهما يمنى بحالى

اذا عالجتُ هذا جفّ كِبْدى * وإن عالجتُ ذاك رَبَى طِحالى

١٠ أبو الحسن المُوسوىّ النقيب : هو محمد بن الحسين بن موسى يقول

أمسيتُ أرحمُ من قد كنتُ أغبطه * لقد تقارب بين العزّ والهُون

ومنظرٍ كان بالسرّاء يضحكنى * يا قرب ما عاد بالضَّراء يُبكينى

وقال أيضا

والحرّ من حذر الهوا * ن يزاول الامر الجسيما

١٥ وهو العظيم وغير بدْ * ع منه إن ركب العظيما

وقال أيضا

ماالسُّؤددُ المطلوب إلّا دون ما * يُومِى اليه السؤدد المولودَ

فاذا هما ٱتّفقا تكسرت القنا * إن غالبَا وتضعضع الجُلمودُ

وقال أيضا

٢٠ اشترِ العزّ بما بيع * فما العزّ بغالى

بالقِصار البيض إن شئـــتَ أو السُمرِ الطِوالِ

ليس بالمغبون عقلا * مشـتر عزّا بمـال

إنمـا يُدّخر المـال * لحـــاجات الرجالِ

والفتى من جعل الأقـــوال أثمـان المعالى

أبو طالب المأمونىّ يقول ٥

لى فى ضمير الدهر سرٌّ كامِنٌ * لابدّ أن تستلّه الأقـدارُ

وقال أيضا

وما شرفُ الإنسان إلا بنفسه * أكان ذووه سادة أم مواليا

وقال

(٣١) اذا الغيث وفّى الروضَ واجبَ حقّه * وزاد فإن الغيث للروض ظالمُ ١٠

ابن العميد : هو أبو الفضـل محمد بن أبى عبد الله الحسين بن محمد ، عُرف بابن العميد، كان أبوه أبو عبـد الله وزير مرداويج توفى ابن العميد بالرّىّ فى محرّم سنة ستين وثلثمائة يقول

لن يصرف الدهر من سجيّته * أرب أريب وحول ذى حيلِ

أىُّ مَعين صـفا على كدر الدهر وأىّ النعـيم لم يزلِ ١٥

وقال أيضا

من يُشفَ من ذا بآخَر مثـلهِ * أثرتْ جوانحـــه من الأدواءِ

داوى جوى بجوى وليس بحازم * من يَستكفّ النـارَ بالحَلْفاءِ

الصاحب بن عَبّاد : هو أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد. توفى فى صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة وعمره خمس وستون سنة وسمىّ بالصاحب لصحبة آبن العميد يقول

* بقدر الهموم تكون الهمم * * كم صارمٍ جُرِّبَ فى خنزيرِ *

وقال أيضا

٥ لقد صدقوا والراقصات الى مِنى * بأن مودّات العدا ليس تنفعُ
ولو أنّنى داريت دهرىَ حيّة * اذا آستمكنت يوما من اللسع تَلسعُ

الحسن بن علىّ بن عبد العزيز القاضى يقول

* القلبُ يُدرِك مالا يُدرِك البصر * * يُملك الأحرارُ بالإيناسِ *

وقال أيضا

١٠ وما أعجبتنى قطّ دعوى عريضةٌ * ولو قام فى تصديقها ألفُ شاهدِ !

وقال أيضا

يقولون لى فيك آنقباض وإنّما * رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
اذا قيل هذا مَوردٌ قلت قد أرى * ولكنّ نفس الحُرّ تحتمل الظما

وقال أيضا

١٥ وقالوا آضطرب فى الأرض فالرزقُ واسع * فقلتُ ولكن مطلب الرزق صعبُ
اذا لم يكن فى الأرض حرّ يُعينى * ولم يك لى كسبٌ فمن أين أُرزقُ؟

أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمىّ يقول

* ومن عجب الأيام تَرْكُ التعجّبِ *

وقال أيضا

٢٠ * لكلّ صناعة يوما مديلُ *

وقال أيضا

واذا مدة الشـــوق تناهت * جاءه من شـــقائه متقاضى

وقال أيضا

عليك بإظهار التجلّد للعـــدا * ولا تظهرنْ منهـا الدنوّ فتُحقرا

بديع الزمان أبو الفضل الهمَذانىّ، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد تُوفّى ٥
سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مسموما وأوفى على الأربعين سنة يقول

ياحريصا على الغـنى * قاعدًا بالمراصـــدِ !

لست فى سعيك الذى * خضت فيه بقاصـدِ

إن دنيـاك هـــذه * لست فيهـا بخـالدِ

بعض هـــذا فإنمـا * أنتَ سـاعٍ لقاعـــدِ ١٠

إسماعيل الناشئ يقول

* وللشباب نزاعى حرمة الكتم *

وقال أيضا

وكنت أرى أنّ التجارب عـدّة * فخانت ثقات الناس حتى التجارب

وقال أيضا

فركضـا فى ميادين التصابى * أحقُّ الخيـل بالركض المُعارُ ١٥

وقال أيضا

ولَا تجـزعنّ على أيكة * أبت أن تُظلّك أغصانُها

أبو الفتح علىّ بن محمد البستىّ يقول

اذا مرّ بى يوما ولم أتخـــذ يدًا * ولم أستفدْ علما فما ذاك من عمرى!

وقال أيضا

أنا كالوَردِ فيــه راحةُ قومٍ * ثُمَّ فيـــه لآخرين زكامُ!

٥ وقال أيضا

لا ترجُ شيئًا خالصا نفعُــه * فالغيث لا يخـلو من العيثِ

وقال أيضا

ولم أرَ مثــلَ الشكر جَنّــة غارسٍ * ولا مثلَ حسنِ الصبرِ جُنَّة لابِس

وقال أيضا

١٠ ولن يشرب السمّ الزُّعافَ أخو الحجى * مُـدِلًّا بدرياقٍ لديه مجـــرَّبِ

وقال أيضا

ما آســتقامتْ قناةُ رأيىَ إلا * بعدَ أن عوّج المشيبُ قنــاتى

وقال أيضا

وطول حِمامِ المــاءِ فى مُستقرّه * يغـــيّره لونا وريحــا ومَطعما

١٥ وقال أيضا

اذا حيوانٌ كان طعمَةَ ضدّه * توقّاه كالفار الذى يتّقى الهــرّا

ولا شك أن المرءَ طعمةُ دهره * فما باله ياويحه يأمن الدهرا!

وقال أيضا

لا تحقر المــرءَ إن رأيت به * دمامــةً أو رثاثة الحُلَــلِ

٢٠ فالنحل لا شــك فى ضؤولته * يَشتارُ منه الفتى خَيْرَ العســل

البـاب الثـانى

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى أوابد العرب

ومعنى الأوابد هاهنا : الدواهى ؛ وهى مما حمى الله تعالى هذه الملّة الإسـلاميّة منها، وحذر المؤمنين عنها . فقال تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) وقال تعالى (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ) وقال تعالى (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا) وكانت للعرب أوابدُ جعلوها بينهم أحكاما ونسكا وضلالة وعادة ومداواة ودليلا وتفاؤلا وطِيَرةً . فمنها :

البَحِيرَةُ :

قالوا : كان أهل الوبر يُعطون لآلهتهم من اللحم، وأهلُ المدر يُعطون لها من الحرث، فكانت الناقة اذا أنتجت خمسـة أبطن عمدوا الى الخامس ما لم يكن ذكرا فشـقّوا أذنها، فتلك : البحيرة ؛ فربما آجتمع منها هَجمةٌ من البحر فلا يُجزُّ لها وبر ولا يذكر عليها إن ركبت آسم الله، ولا إن حمل عليها شيء، فكانت ألبانها للرجال دون النساء .

الوصيلة :

كانت الشاة اذا وضعت سـبعة أبطن عمدوا الى السابع ، فإن كان ذكرا ذُبح ، وإن كانت أنثى تُركت فى الشاء، فان كان ذكرا وأنثى قيل : وَصلتْ أخاها، فحُرِّما جميعا، وكانت منافعها، ولبن الأنثى منها للرجال دون النساء .

السائبة :

كان الرجل يسيّب الشيء من ماله ، إما بهيمةً أو إنسانا ، فتكون حراما أبدا ، منافعها للرجال دون النساء . (٣٢)

الحامى :

كان الفحل اذا أدركتْ أولادُه فصار ولده جَدًّا قالوا : حمى ظهره ، آتركوه فلا يحمل عليه ، ولا يركب ، ولا يمنع ماء ، ولا مرعى ، فاذا ماتت هذه التى جعلوها لآلهتهم ، آشترك فى أكلها الرجال والنساء ، وذلك قوله تعالى (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ) قالوا : وكان أهل المدر والحرث اذا حرثوا حرثا ، أو غرسوا غرسا ، خطّوا فى وسطه خطًّا ، فقسموه بين آثنين فقالوا : مادون هذا الخط : لآلهتهم ، وما وراءه : لله ، فإن سقط ممّا جعلوه لآلهتهم شيء فيما جعلوه لله ردّوه ، وإن سقط مما جعلوه لله فيما جعلوه لآلهتهم أقرّوه ، واذا أرسلوا الماء فى الذى لآلهتهم . فانفتح فى الذى سموه لله سدّوه ، وإن آنفتح من ذاك فى هذا قالوا : آتركوه فإنه فقير اليه ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) .

الأزلام :

قالوا : كانوا اذا كانت مداراة أو نكاح أو أمر يريدونه ، ولايدرون ما الامر فيه ولم يصحّ لهم أخذوا قداحا لهم فيها : أفعل ولا أفعل لا يفعل ، نعم لا خير ، شرٌّ بطيءٌ سريع ، فأما المداراة فإن قداحا لهم فيها بيضا ليس فيها شيء فكانوا يحيلونها فمن خرج

سهمه فالحق له، وللحضر والسفر سهمان؛ فيأتون السادن من سدنة الأوثان فيقول السادن : اللهم أيهما كان خيرا فأخرجه لفلان ، فيرضى بما يخرج له ، فاذا شكوا فى نسب الرجل أجالوا له القداح وفيها : صريحٌ، وملصَقٌ؛ فإن خرج الصريح ألحقوه بهم، وإن خرج الملصق نفوه، وإن كان صريحا فهذه قِداح الاستقسام .

الميسر :

قالوا فى الميسر : إن القوم كانوا يجتمعون فيشترون الجُزورَ بينهم، فيفصّلونها على عشرة أجزاء؛ ثم يؤتى بالخُرْضَة وهو رجل يتألّهُ عندهم لم يأكل لحما قط بثمن ، ويؤتى بالقِداح وهو أحد عشر قِدْحا ، سبعة منها لها حظّ إن فازت ، وعلى أهلها غرم إن خابت، بقدر مالها من الحظّ إن فازت، وأربعة يُنقل بها القداح، لاحظّ لها إن فازت، ولا غرم عليها إن خابت .

فأما التى لها الحظّ : فأوّلها الفَذُّ فى صدره حزٌّ واحد؛ فإن خرج أخذ نصيبا، وإن خاب غرم صاحبه ثمن نصيب، ثم التوأم، له نصيبان إن فاز، وعليه ثمن نصيبين إن خاب، ثم الضَّرِيب، وله ثلاثة أنصباء، ثم الحِلْس وله أربعة ، ثم النافِس، وله خمسة، ثم المُسْبِل، وله ستة، ثم المُعَلَّى وله سبعة . قالوا : والمسبِل يسمّى : المُصْفَحُ، والضريب يقال له : الرقيب .

وقد جمع الصاحب بن عَبّاد هذه الأسماء ونظمها فى أبيات فقال

إنّ القِداحَ أمرُها عجيبُ * الفذُّ، والتوأمُ، والرقيبُ،
والحِلْسُ، ثم النّافِسُ المصيبُ * ، والمُصْفَحُ المشتهر النجيبُ،
ثم المعلّى حظّه الترغيبُ * هاك فقد جاء بها الترتيبُ،

وأما الأربعة التى يُنقل بها القداحُ فهى : السَّفيح، و المَنيح، و المُضْعَف، و الوغد .

قال ابن قتيبة : والمنيح له موضعان : أحدهما لاحظّ له، والثانى له حظّ، فكأنه الذى يُمنح حظّه، وعلى ذلك دلّ قول عمرو بن قبيصة

٥ بأيديهمُ مقرومةٌ ومَغالقٌ * يعودُ بأرزاق العيال مَنيحها

قالوا : فيؤتى بالقِداح كلها وقد عرف كلّ ما اختار من السبعة ولا يكون الأيسار إلا سبعة، لا يكونون أكثر من ذلك، فإن نقصوا رجلا أو رجلين، فأحب الباقون أن يأخذوا ما فضل من القداح، فيأخذ الرجل القِدح والقِدحين فيأخذ فوزهما إن فازا، ويغرم عنهما إن خابا ويدعى ذلك : التَّميمُ قال النابغة

١٠ إنى أتمم أيسارى وأمنحهم * من الأيادى وأكسوا الجفنة الأدَما

فيعمدوا الى القداح، فتُشدّ مجموعة فى قطعة جِلدٍ ثم يعمد الى الحُرْضة فيلفّ على يده اليمنى ثوبا لئلا يجد مَسّ قِدحٍ له فى صاحبه هوى، فيحابيه فى إخراجه، ثم يؤتى بثوب أبيض يُدعى . المِجْوَلُ، فيبسط بين يدى الحُرْضة، ثم يقوم على رأسه رجل يدعى : الرقيب، ويدفع رِبابةَ القِداح الى الحُرضَة وهو محوّل الوجه عنها،

١٥ والرِّبابة : ما يجمع فيها القداح، فيأخذها ويدخل شماله من تحت الثوب، فينكر القِداحَ بشماله، فاذا نهد منها قدح تناوله فدفعه إلى الرقيب . فإن كان مما لا حظّ له رُدَّ الى الرِّبابة، فإن خرج بعده المُسْبِلُ، أخذ الثلاثة الباقية، وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور أخرى، وعلى هذه الحال يفعل بمن فاز ومن خاب، فربما نحروا عدة جزور ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئا، وإنما الغرم على الذين خابوا ولا يحلّ

للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئا . فإن فاز قِدحُ الرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خِطار فعلوا ذلك به .

ومنها : نكاحُ المقت : كان الرجل اذا مات قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيـه فورث نكاحها، فإن لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون نكاح النساء كما يرثون المـال، فأنزل الله تعـالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كُرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) . ٥

ومنها : رمى البعرة : كانت المرأة فى الجاهليّـة اذا توفى عنها زوجها ، دخلَتْ حَفْشًا، والحَفْشُ : الخُصّ، ولبست شرَّ ثيابها ولم تمسَّ طِيبا ولا شيئا، حتى تمرَّ لها سـنةٌ ثم تؤتى بدابةٍ : حمـارٍ أو شاةٍ أو طيرٍ فتفتضُّ به أى تمسح به، فقلّما تفتضّ بشىء إلا مات ، ثم تخرج على رأس الحول ، فتعطى بعرة فترمى بهـا ، ثم تراجع ما شاءت من طِيب أو غيرِه ومعنى رميها بالبعرة : أنها ترى أن هذا الفعل هيّن عليها مثل البعرة المرميّة، فنسخ الإسلام ذلك بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) . ١٠

ومنها : ذبح العتائر : قالوا : كان الرجل منهم يأخذ الشاة ، وتسمّى العَتِيرُ والمعتورةُ فيذبحها ويصبّ دمها على رأس الصنم ، وذلك يفعلونه فى رجب ، والعَتْرُ قيل : هو مثل الذبح، وقيل : هو الصنم الذى يُعتَر له . قال الطرماح ١٥

نخترِ صريعًا مثلَ عاترة النسك

أراد بالعاترة : الشاة المعتورة .

عقد السَّلَع والعُشَر : وقد تقدم ذكره عند ذكر أسماء نيران العرب .

ذبح الظبي : كان الرجل ينذر أنه إذا بلغت إبله أو غنمه مبلغا فأذبح عنها كذا، فاذا بلغت ضنّ بها، وعمد الى الظّباء فيصطادها و يذبحها وفاء بالنذر، قال الشاعر

عَتَتْ باطلًا وزُورًا كما يُعْتَرُ عن حَجْرة الرَّبيض الظباءُ

ومنها : حبس البلايا : كانوا اذا مات الرجل يشدّون ناقته الى قبره، و يعكسون رأسها الى ذَنَبها ، و يغطّون رأسها بَوَلَّةٍ وهى البردعة ، فإن أفلتت لم تُرَدَّ عن ماء ولا مرعًى ، و يزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليركبها صاحبها فى المَعاد ، ليُحشر عليها، فلا يحتاج أن يمشى ، قال أبو زبيد

كالبلايا رءوسها فى الولايا مانحاتِ السَّمومِ حُرَّ الخدودِ

ومنها : خروج الهامة : زعموا أن الإنسان اذا قُتل ، ولم يطالبْ بثأره ، خرج من رأسه طائرٌ يسمّى : الهامة ، وصاح على قبره : آسقونى ! آسقونى ! الى أن يطلب بثأره، قال ذو الإصبع

يا عمرو إن لا تدعْ شتمى ومَنقَصَتى * أضربْكَ حتى تقول الهامةُ : آسقونى

ومنها : إغلاق الظهر : كان الرجل منهم اذا بلغت إبله مائة ، عمد الى البعير الذى أمات به ، فأغلق ظهره لئلا يُركب ، و يعلم أن صاحبه حمى ظهره ، و إغلاق ظهره أن ينزع سنامَ فقرته و يَعقرَ سنامَه .

ومنها : التعمية والتفقئة : وكان الرجل إذا بلغت إبله ألفا فقأ عين الفحل يقول : إن ذلك يدفع عنه العين والغارة، قال الشاعر

وهبتَها وأنت ذو آمتنانٍ * تفقأ فيها أعين البُعرانِ

فإن زادت عن ألف فقأ العين الأخرى ، فهو التعمية .

ومنها : بكاء المقتول : كان النساء لا يبكين المقتول إلا أن يُدرِكَ بثأره، واذا أُدرك بثأره بكينه؛ قال شاعر

من كان مسرورا بمقتل مالكٍ * فليأتِ نسـوتَنا بوجهِ نهارِ
يجد النساء حواسرا يندبنـــه * يلطمن حُرَّ الوجهِ بالأسحارِ

ومنها : رمى السنّ فى الشمس : يقولون : إن الغلام اذا ثغر، فرمى سِـنَّه فى عين الشمس بسبّابته وإبهامه وقال : أبدلينى أحسن منها، أمن على أسنانه العوجَ، والفَلَجَ ، والثَّمَلَ؛ قال طرفة

بدّلتْـه الشمسُ من مَنبِتِهِ * بَرَدا أبيضَ مصقولَ الأشَرْ

ومنها : خضاب النحر : كانوا اذا أرسلوا الخيل على الصّيد فسبق واحدٌ منها، خضبوا صدرَه بدم الصّيد علامة له؛ قال الشاعر

كأن دماء العاديات بنحـره * عصارة حنّاءٍ بشيبٍ مرجَّلِ

ومنها : التصفيق : كانوا اذا ضلّ الرجل منهم فى الفلاة، قلَبَ ثيابه، وحبس ناقته، وصاح فى أذنها كأنه يومئ الى إنسان، وصـفّق بيديه : الوحا الوحا، النجا النجا، هيكل، الساعة الساعة ، الىّ الىّ، عجّل؛ ثم يحرّك الناقة فيهتـدى ؛ قال الشاعر

وأذّن بالتصفيق من ساء ظنُّه * فلم يدرِ من أىّ اليدين جوابها

يعنى : يسوء ظنّه بنفسه اذا ضل .

ومنها : جز النواصى .كانوا اذا أسروا رجلا،ومنّوا عليه فأطلقوه،جزّوا ناصيته ووضعوها فى الكنانة؛ قال الحطيئة

قدنا سَلولَ فسلُّوا من كتائبهم * مجدا تليدا ونبْلا غيرَ أنكاسِ

يعنى بالنُّبْلِ : الرجالَ؛ وقالت الخنساء

جززنا نواصىَ فرسانهم * وكانوا يظنون أن لا تُجزّا

ومنها : كىّ السليم عن الجَرِب : زعموا أن الإبل اذا أصابها العُرُّ فأخذوا الصحيح وكووه زال العُرُّ عن السقيم؛ قال النابغة

وكلَّفتنى ذنبَ امرئ وتركته * كذى العُرِّ يُكوَى غيرُه وهو راتعُ

ويقال : إنهم كانوا يفعلون ذلك، ويقولون : تؤمن معه العدوى .

ومنها : ضرب الثور : وزعموا أن الجنّ تركب الثيرانَ فتصدّ البقر عن الشرب؛ قال الأعشى

وإنى وما كلفتُمانى وربّكم * لَيَعلَمُ من أمسى أعقَّ وأحوبا

لكالثور والجنّىّ يركب ظهره * وماذنبه إن عافت الماء مشربا

وماذنبه إن عافت الماء باقر * وما إن تعاف الماء إلا ليُضرَبا

وقال آخر

كذاك الثور يُضرب بالهَراوَى * اذا ما عافت البقرُ الظِّماءُ

ومنها : كعب الأرنب : كانوا يعلّقونه على أنفسهم ويقولون : إن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سحر ، وذلك أن الجنّ تهرب من الأرنب ، لأنها ليست من مطايا الجنّ لأنها تحيض؛ قال الشاعر

ولا ينفع التعشير إن حُمّ واقع * ولا زعرعٌ يغنى ولا كعب أرنب

وقيــل لزيد بن كُثْوَةَ : أحقٌّ ما يقولون : إن من علّق على نفســه كعبَ أرنب لم يقربْه جنّانُ الحىّ وعُمّار الدار ؟ فقال : إى والله ! ولاشيطان الحمّاطة، الحماطة: شجرة التين ؛ وجان العُشرة، وغول العُقر ، وكلّ الخوافى ، إى والله يطفئ نيرانَ السّعالى .

ومنها : حيض السَّمُرة : يزعمون أن الصبى اذا خيف عليه نظرة أو خطفة ، فعلّق عليه سنّ ثعلب، أو سنّ هرة، أو حيض سَمُرة، أمن ، فإن الجنيّة اذا أرادته لم تقدر عليه، فاذا قال لها صواحباتها فى ذلك، قالت

كانت عليــه نُفَرَهْ * ثعــالبٌ وهِــرَرَهْ
* والحيض حيض السَّمُرَهْ *

ومنها : الطارف والمطروف : يزعمون أن الرجل اذا طرف عين صاحبــه ، فهاجت فمسح الطارفُ عين المطروف سبع مراتٍ وقال فى كلّ مرة: بإحدى جاءت من المدينة، بأثنتى جاءتا من المدينة ، بثلاث جئن من المدينة، الى سبع، سكن هيجانها .

ومنها : وطء المقاليت : يزعمون أن المرأة المقلات اذا وطئت قتيــلا شريفا بقى أولادها، وفى ذلك يقول بشر بن أبى خازم

تظلّ مقاليتُ النســاء يطأنه * يقلن ألا يُلقَى على المرء مِئْزَرُ

ومنها : تعليق الحلى على السليم : كانوا يعلّقون الحلىَ على الملسوع ويقولون إنه اذا علّق عليــه أفاق ، فيلقون عليه الأسورة والرِّعاث، ويتركونها عليه سبعةَ أيام ويمنع من النوم؛ قال النابغة

يُسهَّدُ فى وقت العشاءِ سليمُها * لحلْى النســاءِ فى يديْهِ قَعاقعُ

ومنها : ذهاب الخَدَر : يزعمون أن الرجل اذا خدرت رجلهُ فذكر أحبّ الناس اليه ذهب عنه ؛ قال كثيّر

اذا خدرتْ رِجلى دعوتك أشتفى * بذكراك من مَذْل بها فيهونُ

وقالت آمرأة من كلاب

٥ اذا خدرتْ رجلى ذكرتُ آبن مُصعب * فإن قلتُ : عبد الله ، أجلَى فتورُها

وقيل ذلك لآبن عمر وقد خدرت رجله فقال : يا محمّداه .

ومنها : الحَلَأ : زعموا أنه اذا ظهرت بشفة الغلام بثور ، يأخذ مُنخُلا على رأسه ويمرّ بين بيوت الحىّ ، وينادى : الحَلَأ الحلأ ، فيلقى فى منخله من ها هنا ثمرة ، ومن ها هنا كسرة ، ومن ثمّ بضعة لحم . فاذا آمتلأ ، نثره بين الكلاب ، فيذهب عنه

١٠ البَثْر ، وذلك البثر يسمَّى : الحَلَأ .

ومنها : التعشير : يزعمون أن الرجل اذا أراد دخول قرية ، تخاف و باءَها ، فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشّر كما ينهق الحمار ، ثم دخلها لم يصبه وباؤها ؛ قال عروة آبن الورد

لعمرى لئن عشّرت من خشية الردى * نهاق الحمير إننى لجزوعُ !

٥ ومنها : عقد الرَّتَم : كان الرجل منهم اذا أراد سفرا ، عمد الى رَتَم فعقده ، والرتم : نبت ، فإن رجع ورآه معقودا ، زعم أن آمرأته لم تخنه ، وإن رآه محلولا زعم أنها قد خانته ؛ قال الشاعر

هل ينفعنك اليوم إن همّت بهم * كثرة ما توصى وتعقادُ الرَّتَمْ ؟

وقال آخر

خانته لما رأت شيبا بمَفرِقه * وغرّه حَلفُها والعَقْدُ للرَّتَمِ

ومنها : **دائرة المهقوع** : وهو الفرس الذى به الدائرة التى تسـمَّى : الهَقْعَةُ ، يزعمون أنه اذا عرِق تحت صاحبه ، اغتلمتْ حليلتُه وطلبتْ الرجال ؛ قال الشاعر

اذا عَرِق المهقوعُ بالمرء أنعظتْ * حليلتُـــه وازدادَ حَرًّا عِجـانُها

ومنها : **شقّ الرداء والبرقع** : زعموا أن المرأة اذا أحبّت رجلا أو أحبّها ثم لم تشقّ عليه رداءه ، ويشقّ عليها برقعَها ، فسد حبّهما ، فاذا فعل ذلك دام حبّهما ؛ قال الشاعر

اذا شُق بُرْدٌ شُقّ بالبُرْدِ بُرْقُـعٌ * دَواليْك حتى كلّنا غـير لابِس

فكم قد شققنا من رداءٍ محبّرٍ * ومن برقع عن طفلة غيرِ عانِس

ومنها : **نوء السماك** : كانوا يكرهونه ويقولون فيه داء الإبل ؛ قال الشاعر

ليت السماك ونوءَه لم يُخلقـا * ومشى الأُفَيرِقُ فى البلاد سـلما

ومنها : **النسيء** : وقد تقدّم خبره فى الفن الأوّل من الكتاب .

ومنها : **وأد البنات** : وقد نهاهم الله عز وجلّ عنه فى قوله : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) . وكانوا يقتلونهنّ خشية الإملاق أو من الإملاق ؛ وقد قيل : إنهم كانوا يقتلونهنّ خوف العار أو أن يُسبيْنَ ، فمن قتلهـم خشية الإملاق ما روى عن صعصعة بن ناجية المجاشعىّ جد الفرزدق : أنه لمـا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهليّة ، أفينفعنى ذلك اليوم؟ قال : وما عملك؟ قال : أضللت ناقتين عشراوين ، فركبت جملا ومضيت فى بغائهما فرُفع لى بيت جريد ، فقصدته فاذا رجل جالس بفنائه ، فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارهما؟ قلت : مِيْسَم بنى دارم ، قال : هما عندى ، وقد أحيا الله تعالى

بهما قوما من أهلك من مضر، واذا عجوز قد خرجت من كسر البيت، فقال لها : ما وَضَعَتْ؟ فان كان سَقْبا شاركنا فى أموالنا، وإن كانت حائلا وَأَدْنَاهَا، (معنى قوله سقبا أى ذكرا، وحائلا أى أنثى) فقالت العجوز : وضَعتْ أنثى، فقلت : أتبيعها؟ قال : وهل تبيع العرَبُ أولادها؟ قال قلت : أحتكم، قال بالناقتين والجمل، قلت : لك ذلك، على أن تبلغنى الحمل وإياها ففعل، فآمنت بك يا رسول الله، وقد صارت لى سُنَّةٌ على أن أشترى كلّ موءودة بناقتين عشراوين وجمل، فعندى الى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينفعك ذلك، لأنك لم تبتغ به وجه الله تعالى، وإن تعملْ فى إسلامك عملا صالحا تُثب عليه؛ ففى ذلك يقول الفرزدق مفتخرا

وجدى الذى منع الوائدين * وأحيي الوئيد فلم توءَدِ!

ومن قتلهم خشية العار : قيس بن عاصم المنقرىّ وكان من وجوه قومه ومن ذوى الأموال فيهم وكان يئد بناته وسبب ذلك : أن النعمان بن المنذر لما منعته بنو تميم الإتاوة التى كانت تؤدّيها له جهّز اليهم أخاه الريّان بن المنذر، ومعه بكر بن وائل فغزاهم، فاستاق النعم وسبي الذرارى، فوفدت اليه بنو تميم فلما رآها أحب البقاء عليها، فقال النعمان

ما كان ضرّ تميما لو تعمّدها * من فضلنا ماعليه قيس غيلان

فأناب القوم وسألوه النساء، فقال النعمان : كلّ امرأة اختارت أباها ردّت اليه وإن اختارت صاحبها تُركتْ عليه، فكلّهن اخترن أباهن إلا ابنة لقيس بن عاصم اختارت صاحبها عمرو بن المُشمَرِج، فنذر قيس لا يولد له ابنة إلا قتلها، فاعتلّ بهذا من وأد وزعم أنه حيّة.

البـاب الثـالث

من القسم الثـانى من الفن الثـانى

فى أخبار الكهنة

ويتصل به الزجر والفأل والطِّيرةُ والفِراسة والذكاء . وكانت كهنة العرب لهم أتباع من الشياطين يسترقون السمع ويأتونهـم بالأخبار ، فيلقونها لمن يتبعهم، ويسألهم عن خفيّات الأمور حتى جاء الإسـلام ، فمُنعت الشياطين من آسـتراق السمع ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى كتابه العزيز (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) فعند ذلك آنقطعت الكهانة فلم يسمع فى الإسلام بكاهن، وهـذا من معجزات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم لزوال الإشكال فى الوحى. فمن أخبار الكهنة، خبر سطيح الكاهن حين ورد عليه آبن أخته عبدالمسيح وهو يعالج الموت ، فأخبره خبر ما جاء لأجله ، وذلك أنه لمـا كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم آرتجس إيوان كسرى، وسقط منه أربع عشرة شُرفةً، وخمدتْ نارُ فارس، ولم تكن خمدتْ قبل ذلك بألف عام، وغارت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وآنتشرت فى بلاد فارس ، فلما أصبح كسرى تصبّر تشجُّعا ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ومَرْزَبته ، فلبس تاجه، وقعد على سريره ، وجمعهم وأخبرهم الخبر فبيناهم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النار فآزداد غمًّا وسأل المُوبذَان وكان أعلمهم فقـال : حادثٌ يكون من قِبَل العرب، فكتب كسرى الى النُّعمان آبن المُنْذِر : أن وجّه الىَّ رجلًا عالمـا بما أريد أن

أسأله عنه فوجّه اليه عبد المسيح بن حسّان بن نُفيلة الغسّانىّ فقال له كسرى : أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرنى المَلِكُ فإن كان عندى منه علم ، وإلّا أخبرتُه بمن يُعلمه، فأخبره بما رآه فقال : عِلْمُ ذلك عند خالٍ لى يسكن مشارق الشام يقال له : سَطِيح، فأرسله كسرى اليه فورد على سطيح وقد أشفى على الموت فسلّم عليه وحيّاه فلم يُحِر سطيحٌ جوابا فأنشد يقول

أصُمٌّ أم يسمع غِطريفُ اليمنْ * أم فاز فأزلمَّ به شأوُ العَنَنْ؟
يا فاصل الخُطّة أعيت مَن ومَنْ * وكاشفَ الكُربة عن وجه الغَضَنْ
أتاك شيخ الحىّ من آل سَنَنْ * وأمّه من آل ذئب بن حَجَنْ
أزرقُ مُمْهَى الناب صَرّار الأُذُنْ * أبيضُ فَضْفَاض الرِّداء والبدنْ
رسول قَيْل العُجم يسرى بالوسنْ * لا يرهب الرعد ولا ريب الزمنْ
يجوب فى الأرض على ذاتِ شجنْ * ترفعنى وُجْنًا وتهوى بى وُجُنْ
حتى أتى عارى الجَآجِى والقَطَنْ * تَلُفّه فى الريح بَوغاءُ الدِّمَنْ
* كأنما حُثِحتَ من حِضْنىْ ثَكَنْ *

ففتح سطيح عينيه ثم قال: عبد المسيح، على جَمَلٍ مُشيح، أتى الى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك مَلِكُ بنى سَاسَان، لأرتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا المُوبَذان؛ رأى إبلا صِعَابا، تقود خيلا عِرابا، قد قطعتْ دِجلة وآنتشرت فى بلاد فارس، يا عبد المسيح اذا كثرت التلاوه، وبعث صاحب الهِرَاوه، وفاض وادى السماوه، وغاصت بحيرة سَاوه، وخمُدت نار فارس؛ فليس الشام لسطيح شاما، ولا بابِلُ للفرس مُقاما، يملك فيهم ملوك وملِكات، بعدد الشُّرُفات، وكلّ ما هو آت آت؛ ثم قضى سطيح لوقته، فثار عبدُ المسيح الى رحله وهو يقول

شمّرْ فإنك ماضى العـزم شمّيرُ * لا يفزعنّك تفريقٌ وتغيـيرُ
إن كان ملك بنى ساسان أفرطهم * فإن ذا الدهر أطوارٌ دهاريرُ
فربّمـا ربّمـا أضحوا بمـنزلة * تهاب صولتهم الأسدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصّرح بهرام وإخوته * والهُرمُزان وسابورٌ وشـابورُ
والناس أولاد علّاتٍ فمن علموا * أن قد أقلّ فمحقورٌ ومهجورُ
وهم بنو الأمّ أمّا إن رأوا نشبا * فذاك بالغيب محفوظ ومنصورُ
والخير والشرّ مقرونان فى قَرَنٍ * فالخـير مُتّبع والشرّ محـذورُ

فلما قصّ الخبرَ على كسرى قال: الى أن يملك منّا أربعة عشر تكون أمورٌ، فملك منهم عشرة فى أربع سنين، وملك الباقون الى زمن عثمان رضى الله عنه .

ومن أخبـارهم: أن سُعدى بنت كُرَيز بن ربيعة كانت قد تطرّقت وتكهّنت وهى خالة عثمان بن عفّان رضى الله عنهُ، روى عنه أنه قال : لمـا زوّجَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم ابنته رُقيّة من عُتبة بن أبى لهب وكانت ذات جمال رائع، دخلتنى الحسرة أو كالحسرة أن لا أكون سـبقت اليها ثم لم ألبث أن انصرفت الى منزلى فألفيت خالتى فلما رأتنى قالت

أبشرْ وحيّيتَ ثلاثا تترى * ثمّ ثلاثا وثـلاثا أُخرَى
ثمّ بأُخرى كى تتمّ عشـرا * أتاك خير ووُقيت شرّا
نكحت والله حَصانا زَهرا * وأنتَ بِكرٌ ولقيت بِكـرا
وافيتها بنت نفيس قدرا * بنت نبىّ قد أشاد ذكرا

قال عثمان : فعجبتُ من قولها، وقلتُ : مادا تقولين " فقالت

عثمان يا ابن أخت يا عثمانْ * لك الجمـال ولك البيـانْ

هـــذا نبيّ معه البرهانُ * أرســله بحقّه الدّيّانُ
وجاءه التنزيل والفُـرقانُ * فاتّبعْه لا تحتالك الأوثانُ

فقلت : يا خالة ! إنك لتذكرين ما قد وقع ذكره فى بلدتنا فأثبتيه لى ، فقالت : إن محمد بن عبد الله رسولٌ من عند الله ، جاء بتنزيل الله ، يدعو الى الله ، مصباحه مصباح ، وقولُه صلاح ، ودينه فلاح ، وأمرُه نجاح ، وقَرْنه نطّاح ، ذلّت له البطاح ، ما ينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسُلّت الصفاح ، ومـدّت الرماح ، قال : ثم قامت فانصرفتُ ووقع كلامها فى قلبى ، وجعلت أفكّر فيه ، وذكر بعد ذلك إسلامه وتزويجه رقية ؛ فكان يقال : أنهما أحسن زوجين اتفاقا وجمالا .

ومنها أن هندا بنت عُتبة بن ربيعة كانت عند الفاكه بن المُغيرة ، وكان من فتيان قريش ، وكان له بيت الضيافة ، خارجا من البيوت ، تغشاه الناس من غير إذن ؛ فخلا البيتُ ذات يوم واضطجع هو وهند فيه ، ثم نهض لبعض حاجته ، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رآها ولّى هاربا وأبصره الفاكه فأقبل اليها فضربها برجله وقال لها : من هذا الذى خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيتُ أحدا ، ولا انتبهتُ حتى أنبهتنى ! فقال لها : ارجعى الى أبيك ، وتكلّم النساء فيها ، فقال لها أبوها : يا بنيّة ! إن النـاس قد أكثروا فيك ، فأنبئينى نبأك ، فإن يكن الرجل عليك صادقا دسستُ عليه من يقتله ، فتنقطع عنك المقالةُ ، وإن يك كاذبا حاكمتُه الى بعض الكُهّان ، فقالت : لا والله ! ما هو علىّ بصادق ، فقال له : يا فاكه ! إنك قد رميتَ ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى الى بعض كُهّان اليمن ؛ فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عُتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ، ومعهم هند ونسوةٌ ، فلما شارفوا البلاد ، وقالوا : غدا نَرِد على الرجل ، تنكّرتْ حالُ هند ، فقال لها عتبةُ : إنى أرى

ما بك من تنكّر الحال، وما ذاك إلّا لمكروه عندك، فهلّا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا؟ فقالت: لا والله! ولكنّي أعرف أنكم تأتون بَشَرًا يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمني مِيْسما يكون عليّ سُبّةً فقال: إنى سوف أختبره لك، فصفّر لفرسه حتى أدلى ثمّ أدخل فى إحليله حبّةَ حِنْطة وأوكأ عليها بسيره، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم، فلما تغدّوا قال له عتبة: قد جئناك فى أمر وقد خبأنا لك خبيئا أختبرك به، فانظر ما هو؟ فقال ثمرة، فى كَمَرَة. قال إنّى أريد أبين من هذا، قال: حَبّة بُرّ، فى إحليل مُهر، قال: أنظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهنّ فيضرب بيده على كتفها ويقول لها، أنهضى. حتى دنا من هند فقال لها: أنهضى غير رسحاء ولا زانية، ولتلدنّ ملكا اسمه معاوية. فنهض اليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبتْ يدَها من يده وقالت: اليك عنّى فوالله لأحرصنّ أن يكون من غيرك؛ فتزوّجها أبو سفيان.

ومنها. أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف الى المنافرة، فقال هاشم: إنّى أنافرك على خمسين ناقة سود الحَدَق، ننحرها بمكّة أو الجلاء عن مكّة عشر سنين، فرضى أميّة وجعلا بينهما الخُزاعىّ الكاهن وخرجا اليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا: نخبأ له خبيئًا فان أصابه تحاكمنا اليه، وإن لم يصبه تحاكمنا الى غيره، فوجدا أبا هَمْهَمَة وكان معهم أطباق جُمجمة، فأمسكها معه ثم أتوا الكاهن فأناخوا ببابه وكان منزله بعُسْفان: فقالوا: إنا قد خبأنا لك خبيئا فأنبئنا عنه. قال: أحلفُ بالضّوء والظلمه، وما بتهامة من تهمه، وما بنجد من أكمه، لقد خبأتم لى أطباق جمجمه، مع الفلنْدَح أبى همهمه، فقالوا: صدقت أحكم بين هاشم بن عبد مَناف وبين أميّة بن عبدِ شمس بن عبد مناف أيّهما أشرف بيتًا ونَفْسًا، قال: والقمر الباهر.

والكوكب الزاهر . والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما آهتدى بعلم مُسافر ، من منجد وغائر . لقد سبق هاشم أميّة الى المآثر ، أوّلا منه وآخر ؛ فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أميّة الى الشام فأقام بها عشر سنين ؛ فيقال : إنها أوّل عداوة وقعت بين بنى هاشم وبين بنى أميّة .

٥ ومنها : أن بنى كلاب وبنى رُبَاب من بنى نَصْر خاصموا عبدَ المُطّلب فى مال قريب من الطائف فقال عبدُ المطّلب : المال مالى فسلونى أعطكم ، قالوا : لا ، قال : فاختاروا حاكمًا قالوا : ربيعة بن حُذار الأسدىّ فتراضوا به وعقلوا مائة ناقة فى الوادى وقالوا : الإبل والمال لمن حكم له ، وخرجوا وخرج مع عبد المطّلب حَرْبُ بن أميّة فلما نزلوا بربيعة بعث اليهم بجزائر فنحرها عبدُ المطّلب ، وأمر فصنع جزرا وأطعم ١٠ من أتاه ، ونحر الكلابيّون والنضريّون ووشّقوا فقيل لربيعة فقال : إنّ عبد المطلب آمرؤ من ولَدِ خزيمة فمتى يُملق يصله بنو عمّه وأرسل اليهم أن آخبأوا لى خبيئًا فقال عبد المطّلب : قد خَبَأتُ كلبا آسمه سوّار فى عنقه قِلادة ، فى خرزة مزادة ، وضممتها بين جَرادة ، فقال الآخرون : قد رضينا ما خَبَأتَ وأرسلوا الى ربيعة فقال : خبأ ثمّ خبيئا حيًّا قالوا : زد ، قال : ذو بُرثن أغبر ، وبَطْن أحمر ، وظَهْر أنمر ؛ قالوا : قربت ، قال : سما ١٥ فسَطع ، ثمّ هبط فلطع ، فترك الأرض بَلْقَع ، قالوا : قَرُبت فَطَبِّق قال : عين جَرادة ، فى خرزة مزادة ، فى عنق سوّار ذى القلادة ، قالوا : زه زه أصبتَ فآحكم لأشدّنا طِعانا ، وأوسعنا مَكانا ، قال عبدُ المطلب : آحكم لأولانا بالخيرات ، وأبعدنا عن السوآت وأكرمنا أمهات . فقال ربيعةُ : والغَسَق والشَّفَق ، والخلق المتّفق ، ما لبنى كلاب وبنى رُبَاب من حقّ ، فانصرف يا عبدالمطّلب على الصواب ، ولك فصل الخطاب ؛ ٢٠ فوهب عبد المطّلب المال لحرب بن أميّة .

وأخبار الكهنة كثيرةٌ نذكر منها إن شاء الله تعالى فى السيرة النبويّة جملة تقف عليها فى المبشرات برسول الله صلى الله عليه وسلّم وذلك فى السِفْر الرابع عشر من كتاب الأصل .

الزَّجْـــر

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى زجر الطير : إنّ العلماء بهذا الفنّ قالوا : اذا خرجتَ من منزلك تطلب حاجةً ، أو تخطب آمرأةً ، فنَعَب غرابٌ عن يمينك وعن يسارك أو سَنَح أو برح فامض فإنّك مُدرِك حاجتك إن شاء الله تعالى فإن نعب أمامَك أو فوقك فارجع ففيها تأخير .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعب فوق رأسِك فآمض فإنك مُدرِكٌ حاجتك إن شاء الله تعالى .

فإن خرجتَ تطلب دابّةً فنعب عن يمينك أو يسارك على حائط مرتفع ، فامض لحاجتك ، فإن نَعَب أمامك فارجع .

(٣٨) وإن خرجتَ تطلب مالًا ضلّ عنك أو سُرق ، فنَعَب غرابٌ على شجرة يابسة فلا تطلبه فقد آستهلك وقد يأتيك بعضُه ، فإن نعب على جِدار جديد أو شجرة خضراء فإنك تصيب مالك إن شاء الله تعالى .

فإن خرجتَ تريد الضّالّ فنعَب من ورائك ، فارجع فليس لك فى ذلك خيرة ، وإن نعب عن يسارك فإنى خائف على نفسك إلا أن يشاء الله .

فإن خرجت تريد الصيد فنعب من فوقك فارجع فإن نعب أمامك فامض فإنّك تدرك خيرا .

وإن خرجت تطلب سلطاناً فى طلب مال أو حاجة فنعب عن يمينك ثمّ طار ثمّ نعب أدركتَ منه طلبتك إن شاء الله تعالى .

وإن خرجتَ تريد شراء شىء فنعب عن يمينك فإنه صالح، وإن نعب عن يسارك فلا خير فيه .

٥ وإن خرجتَ من منزلك فرأيت غراباً يمسح منقاره على الأرض فإنك تصيب أو تأتيك هديّة من مكان بعيد .

وإن خرجتَ تطلب حاجةً فنعب عن يمينك ثم قطع الطريق الى يسارك فنعب فإنك تدرك حاجتك عجلا إن شاء الله تعالى! فإن نعب فوق رأسك فارجع فإنى أخاف عليك بعض أعدائك .

١٠ وإن خرجت تريد سلطانا فنعب غراب وهو مستقبل الشرق فامكث يومك ذلك فإنى أخاف عليك .

فإن خرجتَ فرأيت غرابا ينفض ريشه، فإنه يأتيك خير عاجل .

وإن خرجتَ تريد أرضًا بعيدة فرأيتَ غرابا ينتفض فامض لحاجتك، فإنك تدرك أمَلك إن شاء الله تعالى .

١٥ وإن خرجتَ تريد السلطانَ فوقع غرابٌ على شىء فنعب ثلاث مرّات فامض لحاجتك، فهو خيرٌ عاجل وتيسيرٌ للحوائج إن شاء الله تعالى .

وإن خرجتَ فرأيتَ غراباً ناشرًا جناحيه يريد الطيران فامض، فإن نعب فارجع يومَك .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعَب من فوقك فامض ، وإن نعب فأجابه الآخر

٢٠ فهو جيّد صالح .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعب من فوقك أو شخّ فامض؛ فإنك تلقى فى يومك ذلك ما تريد إن شاء الله تعالى .

وإن خرج جماعةٌ وفيهم رجل شريف فشخّ غرابٌ على رأس الشريف، ثم أتوا ملكًا فإنهم يصيبون خيرا إن شاء الله تعالى .

وإن خرج يطلب حاجةً الى سلطان فواجهه غراب فليمكث يومه ذلك ولا يمض فى تلك الحاجة، وإن نعب عن يمينه فقطع الطريق ثمّ وقع فهو يُدرك حاجَته .

وإن خرج يريد السلطان أو بعث اليه وهو لايدرى فرأى غراباً يطير قليلا؛ ثم يقع فيلقط من الأرض شيئا فليمض فإنه يصيب سلطاناً ويلى قوما، وإن رأى غراباً يبحث فى الأرض فإنّ بعض أهله يموت سريعا، وإن رآه ينقر فى الأرض فذلك ملك .

وإن خرج فرأى غرابًا يطير ثمّ وقع ثلاث مرات وهو ساكت لا ينعب، فذلك غمّ يصيبه إلا أن يدفع الله عزّ وجلّ عنه .

وإن خرج فرآه ينتفض ثم ينعب ثمّ يطير فذلك سلطانٌ يناله ويتزوج؛ والعلم عند الله .

وإن خرج فرأى غرابا يطير ثمّ يقع فذاك خير وسرور يأتيه .

وإن خرج فرأى غرابًا يطير نحو عين الشمس فذاك همّ يصيبه شديد .

وإن خرج فلقى بقـرا فليرجع فإن لقى من البغال شيئًا لم يركب فليرجع والمركوبة صالحة لابأس بها .

وإن خرج يعود مريضا فنهق حمار عن يمينه أو عن يساره فالمريض صالح، وإن نهق خلفه فقد اشتدّ بالمريض مرضه وأنا خائف عليه .

وإن خرج يريد حاجةً فاستقبله غلامٌ يبكى وهو متلطّخ بعَذِرَة وهو ذاهب والغلام راجع فليمض فإنّ حاجته تقضى ، وإن آستقبله غلام يعدو ويتلهّف فإن حاجتـه تعسر وتطول .

وإن خرج فى حاجته فرأى وَرَشانًا يطير، يرتفع ويَهبِط فليمض فإن ذلك أنجح لحاجته ،وإن رآه يطير مستعليا فليرجع ،وإن رأى حمامة مسرولة تطير من فوق رأسه وتدور فإنّ حاجته مقضيّة بعد بطء ومَطْل ، وإن رأى حمامة هابِطةً واقعةً تقع وتطير فإنّ ذلك خير صالح وسرور إن شاء الله تعالى .

وإن خرج من منزله فآستقبلته جنازةٌ وجماعةٌ فليرجع يومَه ذلك ولا يعود لحاجته فإنّها غير مقضية ، فإن كانت الجنازة قد جاوزته مُدْبِرة فليذهب لحاجته ؛ فإن ذلك صالح . وإن رأى نسوةً الى المقابر وهنّ مقبلات نحوه فليقعـد حتى يمضين عنـه فإنّه أنجح لحاجته وإن رآهن مُدبرات فليمض فى حاجته فإنها مقضيّة .

وإن خرج من داره فرأى فى أرضها نملًا كثيرا وفى حائطها فليمض لحاجته (٣٦) فذلك خير وسرور يناله . فإن رأى ذُبابا كثيرا مجتمعا على حائط وهو يسمع لهنّ دبيبا فذاك مرض يصيبه فى بدنه أو يصيب بعضَ أهله . ومن رأى ذَرًّا كثيرا وقِردانًا فذلك فرح ورزق عاجل يناله إنْ شاء الله تعالى . ومن رأى دَجَاجتين تقتتلان بنقر بعضهما فذاك يدل على أنّه يقع بينه وبين آمرأته كلامٌ وغضب .

وإن خرج من منزله فرأى وَرَشانين يقتتلان فى جوّ السماء رافعين وهابطين فيأتيه ما يُسرّبه . وإن رأى كلبـة والكلاب تطوف حولها ويتبع بعضها بعضا فإن كان عليه دين قضاه الله عنه وإن كانت له حاجة مهمة قضيت فى وجهه ذلك وإن أراد شيئًا يسّره الله له وإن أراد سفرا تهيّأ له ورجع سالمـا .

وإن خرج فرأى على رجل قِربة ثمّ آنشـقت فليرجع الى منزله ويتعوّذ بالله من شرّ ذلك اليوم فإنّه مكروه جدّا .

وإن خرج فرأى رجلًا وهو يريد أن يملأ قِربةً فليمض فى حاجته فإنه فرح وسرور وخير يناله عاجلا إن شاء الله تعالى .

وإن خرج فرأى حمارا أو بغلا عليـه راوية مملوءة فشأنه غير صالح وهو مكروه ، وإن كان صاحب الراوية يريد أن يملأها فليمض لحاجته مقضية إن شاء الله تعالى . ٥

وإن خرج من منزله فرأى جملا عليـه حطب أو بعض منافع النـاس فهو من علامات النجاح فى الخصومة والظفر العاجل إن شاء الله تعالى ، فإن رآه غير محمول عليه وعليـه صاحبه فإنّ ذلك خير يأتيه وينعى اليه بعض أهله من مكان بعيـد . قال : وأرجو أن يدفع الله ، فإن رآه مناخا يرغو فإن ذلك خير يأتيه ويُخبر عن شىء ممّـا يحبّ من تزويج أو غنيمة وهو صالح . ١٠

وإن خرج فرأى بعيرا قد شَرِدَ ورأى من يطلبه فإن ذلك نجاة من عدوّه وفرح قريب إن شاء الله تعالى .

وإن خرج فرأى بعيرا قد شرد فاجتمع عليه الناس فإن ذلك يدلّ على ظَفَره بعدوّه وآنتقامه منه فليحمد الله على ما رأى ويشكره . ١٥

ومن خرج من منزله فرأى قِردًا يتقلّب والناس حوله فليمض لحاجتـه فإنّهـا مقضية .

وإن خرج فرأى القِرد يلعب والناس مجتمعون عليه وقد صار لعبه الى أن يتقلّب ظهرا لبطن فى الأرض فليرجع من وجهه ذلك فليس بموفّق وهو مكروه .

وإنْ خرج من منزله فرأى غلماناً يلعبون بالأُكرة ويتسابقون فليمض فى وجهه ذلك فإنّه يصيب رفعةً وشرفًا وتمكنًا من السلطان ويصيب مالًا عظيما .

وإن خرج فرآهم يلعبون بالصوالجة فهو رفعة ويدلّ على مال ردىء حرام يصيبه من سلطان ويركب أمرًا عظيما من عمله فليتق الله .

٥ وإن رأى جوارىَ يلعبن بالطرق كأنهنّ يزففن عروسا فهو خير وسرور ودخول فى أمرٍ شريف وإنّه يربح ربحا عظيما وهو خير الزجر .

وإن خرج فرأى عصفورين يلقطان الحبّ فهو صالح، وإن رآهما يتسافدان فهو خير يناله فى يومه، وإن رآهما مدبرين فليمض لحاجته فإنها مقضية إن شاء الله تعالى.

وإن خرج فتعلق بثوبه شىء فليرجع؛ فإنى أكره له أن يذهب فى حاجته تلك .

١٠ وإن خرج فرأى حِدَأةً تسفِد حِدَأةً وهى تصيح فهو نجاح فليمض لحاجته .

وإن خرج فعثر فلا يذهبن فى تلك الحاجة وليؤخّرها .

ومن الزجر ما مخرجه مخرج الكِهانة .

فمن ذلك ما حكى أنّ أُميّة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفىّ بينا هو يشرب مع إخوان له فى قصر عَيْلان بالطائف إذ سقط غرابٌ على شُرْفة القصر فنَعب نعبة فقال أُميّة :

١٥ بفيك الكَثْكَث أى التراب فقال له أصحابه : ما يقول؟ قال يقول : إنّك اذا شربتَ الكأس التى بيدك متَّ ، ثم نعب نعبة أخرى ، فقال أميّة كمقالته الأولى فقال أصحابه : ما يقول؟ قال : يزعم أنّه يقع على هذه المزبلة فى أسفل القصر فيستثير عظما فيبتلعه فيشجى به فيموت، فوقع الغرابُ على المزبلة فأثار العظم وابتلعه فشجى فمات، فأنكر أميّة ووضع الكأس من يده وتغيّر لونُه فقال أصحابه : ما أكثر ما سمعنا

مثل هذا وكان باطلا وألحّوا عليه حتى شرب الكأس فمال فأغمى عليه ثم أفاق فقال: لا برىءٌ فأعتذر، ولا قوىٌّ فأنتصر، ثم خرجت نفسه .

وزعموا أن رجلا من كعب خرج فى جماعة ومعـه سِقَاء من لبن فسار صدر يومه فعطش فأناخ ليشرب فاذا غراب ينعَب فأثار راحلتَـه ، ثم سار فلمـا أظهر أناخ ليشرب ،فنعب الغراب وتمرّغ فى التراب فضرب الرجل السقاء بسيفه فاذا فيه أسود ضخمٌ فقتله ، ثم سار فاذا غراب واقع على سِدْرة فصاح به فوقع على سَلَمة فصاح به فوقع على صخرة فانتهى اليها فأثار كَنْزا، فلما رجع الى أبيه قال له : إيه ما صنعت ؟ قال : سِرتُ صدر يومى، ثم أنختُ لأشرب فنعب الغراب، قال أثرها وإلا فلست بابنى! قال: أثرتُها، ثم أنخت لأشرب فنعب الغرابُ وتمرّغ فى التراب قال : اضرب السِقاء وإلا لست بابنى! قال : فعلتُ ،فاذا أسود ضخم قال : ثم مه! قال : ثم رأيتُ غرابا على سِدْرة قال : أطِرْه وإلا فلست بابنى! قال : فعلتُ فوقع على سَلَمة قال: أطرْه وإلا فلستَ بابنى! قال : فعلتُ فوقع على صخرةٍ قال : أحِد يابنىّ ! فأحداه

ومن الزجر : ما يُروى أن كسرى أبْرَويز بعث الى النبىّ صلى الله عليه وسلّم حين بُعِث زاجرا ومصوّرا وقال للزاجر : انظر ما ترى فى طريقك وعنده، وقال للمصوّر : ائتنى بصورته ، فلمـا عاد اليه أعطاه المصوّر صورته صـلى الله عليه وسلم فوضعها كسرى على وسادته، وقال للزاجر : ما رأيت ؟ فقـال : لم أر ما أزجره حتى الآن وأرى أمرَه يعلو عليك لأنك وضعتَ صورتَه على وسادتك .

وقيل: إن كُثَيِّرا تعشّق امرأةً من خُزاعة يقال لها: أمّ الحُويرث ،فشبّب بها فكرهتْ أن يفضحها كما فضح عَزّة فقالت له : إنّك رجل فقير لا مال لك فابتغ مالًا،

ثم تعال فاخطبنى كما يخطبُ الكرامُ قال : فاحلفى لى ووثّقى أنّك لا تتزوّجين حتى أقدم عليك فحلفَتْ ووثقتْ له فمدح عبدَ الرحمن بن الأزْدىّ وخرج اليه ، فلقى ظباءً سوانح ، ولقى غُراباً يفحص التراب بوجهه فتطيّر من ذلك حتى قدم على حىّ من لَهْب فقال : أيّكم يَزجُر ؟ قالوا : كلّنا ! فمن تريد ؟ قال : أعْلَمكم بذلك ! قالوا : ذلك الشيخ المنحنى الصُلْب ، فأتاه فقصّ عليه القصّة فكرِه ذلك له وقال : قد ماتت أو تزوّجت رجلا من بنى عمّها فقال كثيّر

تيممتُ لَهْبا أبتغى العلمَ عندهم * وقد رُدّ علمُ العائفين الى لَهْبِ !
فيممتُ شيخا منهمُ ذا نحالة * بصيراً بزجر الطير مُنحنىَ الصُّلْبِ !
فقلتُ له : ماذا ترى فى سوانح * وصوتِ غراب يفحص الأرض بالتربِ ؟
فقال : جرى الطير السنيح بينها * ونادى غرابٌ بالفراق وبالسلبِ
فإن لا تكن ماتت فقد حال دونها * سؤال خليل باطنٍ من بنى كعبِ

قال : ثم مدح الرجل الأزدىّ فأصاب منه خيراً ، ثم قدِم عليها فوجدها قد تزوّجتْ رجلًا من بنى عمّها فأخذه الهُلاس فكُشِح جنباه بالنار ، فلمّا آندمل من علّته ووضع يده على ظهره فاذا هو برقتين فقال : ما هذا ؟ قالوا : أخذك الهُلاس وزعم الأطباء أنّه لا علاج لك إلا بالكَشْح بالنار فكُشِحتَ بها فأنشأ يقول

عفى الله عن أمّ الحويْرث ذَنبها * علام تعنّينى وتكى دوائيا ؟
ولو آذنونى قبل أن يرقوا بها * لقلتُ لهم : أمّ الحويرث دائيا

وحُكى أن صاحب الروم بعث الى النبىّ صلى الله عليه وسلم رسولا وقال له : آنظر أين تراه جالسا ، ومَن الى جانبه ، وآنظر مابين كَتِفيه حتى الخاتمَ والشامةَ ، فقدم

ورسول الله صلى الله عليه وسلم على نَشْزٍ واضعا قدميه فى المـاء، وعن يمينه علىٌّ عليه السـلام ؛ فلما رآه صلى الله عليه وسـلم قال : « تحوّل فانظر ما أُمرتَ به » فنظر ثم رجع الى صاحبه فأخبره الخبر فقال : ليعلونّ أمرُه وليملكنّ ماتحت قدمى وقال : بالنَّشز العُلو و بالمـاء الحياة .

ومن الزجر : مارُوى عن أبى ذُؤَيب الهُذَلىّ قال : إنّه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل فأوجس أهل الحىّ خِيفةً عليه فبتُّ بليلة ثابتة النجوم طويلة الأناة لا ينجاب ديجورها ولا يَطْلُع نورها حتى اذا قَرُب السَّـحَر غفوتُ فهتف لى هاتف يقول

خَطْبٌ أجلّ أناخ بالإسـلام ... بين النخيـل ومَعْقَـد الآطامِ
قُبِض النـبىّ محمد فعيوننـا ... تذرى الدموعَ عليـه بالتَّسجامِ

قال أبو ذؤيب : فوثبتُ من نومى فزعاً فنظرتُ الى السماء فلم أر إلّا سعد الذابح فتفاءلْتُ به ذبحا يقع فى العرب، وعلمت أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قد مات أوهو ميتٌ من علّتـه، فركبتُ ناقتى وسرتُ حتى أصبحتُ فطلبتُ شيئا أزجره ، فعنّ لى شَيْهَمٌ قد أرَمّ على صِلّ وهو يتلوّى عليه والشيهم يقضمُه حتى أكله فزجرتُ ذلك شيئا مهمّا فقلت : تَلوّى الصِّلّ : انفتال الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أوّلت أكل الشيهم إياه : غَلَبَة القائم على الأمر فحثثتُ ناقتى حتى اذا كنت بالعليـة زجرتُ الطير فأخبرنى بوفاته . ونعب غراب سانحا بمثـل ذلك فتعوّذتُ من شرّ ماعنّ لى فى طريق ، ثم قدمتُ المدينةَ ولأهلها ضجيج كضجيج الحجيج أهلّوا جميعا بالإحرام فقلتُ : مه ! قالوا قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فحثثتُ المسجدَ فأصبته خالياً فأتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم فأصبتُ بابه مُرْتجا وقد

خلا به أهلُه فقلت : أين الناس ؟ فقيل : فى سَقِيفة بنى سَاعِدة صاروا الى الأنصار فجئتُ السقيفةَ فوجدتُ أبا بكر، وعمر رضى الله عنهما ، وأبا عُبَيْدة ، وسَالمًا ، وجماعةً من قريش ورأيت الأنصارَ فيهم سَعْد بن عُبَادة ومعهم شُعراؤهم وأمامهم حسّان بن ثابت، وكَعْب فى مَلإٍ منهم فأويتُ الى الأنصار فتكلموا فأكثروا وتكلّم أبو بكر فلله من رجل لا يُطيل الكلام ويعلم مواضِعَ الفصل، والله لتكلّم بكلام لم يسمعه سامعٌ إلّا انقاد له ومال اليه، وتكلم بعده عمرُ رضى الله عنه بكلام دون كلامه ، ومدّ يده فبايعه، ورجع أبو بكر رضى الله عنه ورجعتُ معه، فشهدتُ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وشهدت دفنَه قال : ولقد بايع الناس من أبى بكر رجلا حلّ قُداماها ولم يركب ذُنابابها وانصرف أبو ذؤيب الى باديته وثَبتَ على إسلامه .

ومنه : ما روى عن مُصْعَب بن عبد الله الزُّبيرىّ أنه حَدّث عن رجل قال : شَرَدتْ لنا إبلٌ فأتيتُ حُليسا الأسدىّ فسألتُه عنها فقال لبنت له : خُطّى، فخطّت ونظرتْ ثمّ انقبضت وقامت مُنصَرِفَةً فنظر حليس فى خطّها فضحك وقال: أتدرى لم قامت؟ قلت : لا، قال : رأت أنك تجد إبلك وأنّك تتزوجها فاستحيت فقامت، فخرجتُ فأصبتُ إبلى ثمّ تزوجتُها بعد .

الفأل والطِّيَرَة

حُكى أنه لما وُلِد لسعيد بن العاص عَنْبَسة قال سعيد لابنه يحيى : أىّ شىء تجلّه ؟ قال: دجاجة بفراريجها، وإنما أراد احتقاره بذلك لأن أمّه كانت أمَةً فقال سعيد: إن صدق الطيرُ ليكونَنّ أكثركم ولدًا فكان كذلك .

لما طلب عامر بن إسماعيل مَرْوان بن محمد آعترضه بالفيّوم قومٌ من العرب فسأل رجلًا : ما آسمك ؟ فقال منصور بن سعد : وأنا من سعد العشيرة ، فتبسم تفاؤلًا به وتيمّنًا وآستصحبه فظفر بمروان تلك الليلة .

ومن الطِّيَرَة : ما حكى عن بعضهم قال : حضرتُ الموقِف مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فصاح به رجلٌ من خلفه : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! فقال رجل من خلفه : دعاه بآسم ميت ! مات والله أمير المؤمنين ، ولا يَقِف هـذا الموقف أبدا ! فآلتفتَ اليه فاذا هو اللَّهْبِيُّ . فقُتِل عمر قبل الحول .

وحكى أنّ عمر رضى اللهُ عنه خرج الى حَرّة واقِم فلقِ رجلا من جُهينة فقال له : ما آسمك ؟ قال : شِهاب . قال : آبن من ؟ قال : آبن جَمْـرة ! قال : وممن أنتَ ؟ قال : من الحُرْقة ! قال : ثم ممن ؟ قال : من بنى ضِرام ! قال : وأين منزلك ؟ قال : بحَرّةِ ليـلى ! قال : وأين تريد ؟ قال : لظى وهو موضـع ! فقـال عمر : أدرِك أهلك ، فما أراك تُدركهم إلا وقد آحترقوا ، قال : فأدركهم ، وقـد أحاطت بهم النار .

وقال المدائنىّ : وقع الطاعونُ بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان فخرج هاربا منه فنزل قريةً من الصعيد يقال لها : شكر ، فقدِم عليه حين نزلها رسولٌ لعبد الملك فقال له عبد العزيز : ما آسمك ؟ قال طالب بن مُدْرِك ! فقال : أوه ! ما أرانى راجعا الى الفِسطاط أبدا ، ومات فى تلك القرية .

وقيل : بينا مروان بن محمد فى إيوان له يُنَفِّذ الأمورَ . فانصدعتْ زُجاجةُ الأموال ، فوقعت الشمسُ منها على مَنْكِب مروان وكان هناك عَيّاف فقال : صَدْعُ الزُّجاج

أمر منكر على أمير المؤمنين، ثم قام فاتّبعه ثوبان مولى مروان . فقال له : ويحك! ما قلت ؟ قال . قلتُ : صَدْعُ الزجاج صَدْعُ السلطان، ستذهب الشمسُ بمُلك مروان، بقوم من الترك أو خُراسان، ذلك عندى واضح البرهان ! قال : فما ورد لذلك شهران حتّى ورد خبرُ أبى مُسلم .

٥ وقال إبراهيم بن المَهْدىّ : أرسل الىّ محمد الأمينُ فى ليلة مُقْمرة من ليالى الصيف فقال : يا عمّى! إن الحرب بينى وبين طاهر قد سكنت فصِر الىّ فإنى اليك مشتاق فجئتُه وقد بُسِط له على سطح، وعنده سليمان بن جعفر، وعليه كِساءٌ رُوذَبارِىّ، وقَلَنْسوة طويلة، وجواريه بين يديه وضعف جاريته عنده . فقال لها : غنّينى فقد سُررتُ بعمومتى فاندفعت تغنّيه

١٠ هُمُ قتلوه كى يكونوا مكانَه * كما فعلتْ يوما بكسرَى مَرَازِبُهْ!
بنى هاشم كيف التّواصُل بيننا * وعند أخيه سيفُه ونجائبُهْ؟

هكذا غنّته، وإنما هو

* وعند علىّ سيفه ونجائبه *

فغضب وتطيّر، وقال : ما قِصّتُك؟ ويحك ! غنّينى ما يسرّنى، فغنّتْ

١٥ هـذا مقام مطـرِّدٍ * هُدِمتْ منازله ودورُهْ!

فازداد تطيّرا، ثم قال : ويحك ! آنتهى وغنّى غير هذا فغنّت

كُلَيْب لعمرى كان أكثرَ ناصراً * وأيسر جُرماً منك ضُرّج بالدّمِ

فقال لها : قومى الى لعنة الله، فوثبت، وكان بين يديه قَدَح بِلّور وكان لحبه إيّاه يسمّيه محمدا باسمه، فأصابه طَرَفُ ذيلها فسقط على بعض الصوانى فانكسر،

فأقبل عليّ وقال : أرى والله ياعم أن هذا آخر أمرنا ، فقلت : كلّا ! بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرّك ، قال : ودجلةُ والله هادئة ما فيها صوت مجداف ، ولا أحد يتحرّك ، فسمعتُ هاتفاً يهتف : (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) قال فقال لى : سمعتَ ياعم ؟ فقلتُ : وما هو ؟ وقد والله سمعتُه ، فاذا الصوت قد عاد فقال : انصرف بيتك اللهُ بخيرٍ فمحال أن لاتكون الآن قد سمعتَ ما سمعتُ ، فانصرفت وكان آخر العهد به .

(٤٢)

وشبيه بهذا ما حكى عن عَلُّويَة المغنّى قال : كنتُ مع المأمون لما خرج الى الشام ، فدخلنا دِمَشق فطفنا فيها ، وجعل يطوف على قصور بنى أميّة ، ويتتبّع آثارهم ، فدخلنا صحناً من صحونهم ، مفروشًا بالرخام الأخضر ، وفيه بِرْكة ماء فيها سمك ، وأمامها بستان ، فاستحسن ذلك وعزم على الصَّبُوح ودعا بالطعام والشراب ، وأقبل عليَّ فقال : غنّنى ونشّطنى ، فكأنّ الله تعالى أنسانى الغناء كله إلا هـذا الصوت من شعر عبد الله بن قيس الرُّقيّات

لو كان حولى بنو أميـة لم * تنطق رجالٌ أراهمُ نطقـوا
من كلّ قَرْمٍ محضٍ ضرائبه * عن منكبيه القميص يخرقُ

قال : فنظر الىّ مُغْضَباً ، وقال : عليك وعلى بنى أميّة لعنة الله ، ويلك ! أقلتُ لك سُرَّنى أو سؤْنى ؟ ألم يكن لك وقت تذكر فيه بنى أميّة إلا هذا الوقت تُعرّض بى ؟ فتجلّدتُ عليه وعلمتُ أنّى قد أخطأتُ ، فقلت : أتلومنى على أن أذكر بنى أميّة ؟ هـذا مولاكم زرياب عندهم يركب فى مائتى غلام مملوك له ، ويملك ثلثمائة ألف دينار [وهبوها له سوى الخيل والضياع والرّقيق](١) : وأنا عندكم أموت

(١) الزيادة عن الأغانى .

جوعا، فقال: أو لم يكن لك شيء تذكّرني به نفسك غير هذا؟ فقلت: هكذا حضّرني حين ذكرتُهم، فقال: أعرض وتنبّه على إرادتي وغنّ فأنساني الله كلّ شيء أحسنه إلا هذا الصوت

الحيْنُ ساق الى دِمَشْق وما * كانت دمشقُ لأهلنا بلدا
قادتك نفسك فاستقدت لها * وأرتك أمرَ غَوَايةٍ رَشَدا

فرماني بالقدح فأخطأني وانكسر القدح، وقال: قم الى لعنة الله وحرّ سَقَر! فركب، وكانت تلك الحال آخر عهدي به حتى مرض ومات بعد ذلك بقليل.

ومثل ذلك ما حكي في قتْلة المتوكل، وذلك أنه جلس يوم الأربعاء لأيام خلون من شوّال سنة تسع وأربعين ومائتين وقال للفتح بن خاقان: أحبّ أن نصطبح؛ فأحضر المغنّين وفيهم أحمد بن أبي العلاء فقال له: غنّ فغنّى

ياعاذلَيّ من الملام دعاني * إنّ البليّة فوق ماتصفانِ
زعمتْ بُثينة أنّ فرقتنا غدا * لا مرحبا بغدٍ فقد أبكاني

فتطيّر المتوكّل منه، وقال: أحمد! كيف وقع لك أن تغنّي بهذا الشعر، قال: فشُغِل قلبُ ابن أبي العلاء لما أنكر عليه، ثم ذهب ليغنّي غيره، فغنّاه ثانية، فقال المتوكّل: نسأل الله خير هذا اليوم، وصرف المغنّين وقام لصلاة الظهر، فلمّا فرغ قال له الفتح: يا سيّدي أتمِمْ يومك، فدعا بالشراب وقال: أين ابن أبي العلاء؟ فأُحضر فقال له: غنّ، فأغمي عليه فأعاد البيتين فاغتمّ المتوكّل غاية الغمّ وقُتِل في الليلة الآتية من ذلك اليوم.

قال القاضي أبو علي الجُوينيّ: حضرتَ بين يدي سيف الدولة أبي الحسن صَدَقةَ ابن منصور بن دُبَيْس، وابنه أبو المكارم محمد إذ ذاك مريض مرضه الذي مات فيه

وقد أتى بديوان أبى نصر بن نُباته فتصفّحه فوقع بيـده وقال : يعزّى سيف الدولة أبا الحسن ويرثى ابنه أبا المكارم محمد، فأخذتُ المجلّد وأطبقتُه فعاد فتصفّحه فخرج ذلك، ومن القصيدة التى عناها قوله

فإنّ بميّا فارقين حُفَيرةً * تركنا عليها ناظر الجود داميا

تضمّنها أيدى فتى ثكلتْ به * غداةَ ثوى أمالنـا والأمانيا ٥

ولمّا عدمنا الصبرَ بعد محمد * أتينا أباه نستفيد التعازيا

وحكى: أنّ أبا الشَمَقْمَق شخص مع خالد بن يزيد بن مَزيد وقد تقلّد المَوْصِل ، فلما أراد الدخول اليها آندقّ لواؤه فى أوّل درب منها ، فتطيّر من ذلك وعظُم عليه ، فقال أبو الشمقمق

ما كان مندقَّ اللواء لريبةٍ * تُخشَى ولا أمرٍ يكون مبـذّلا ١٠

لكنّ هـذا الريح ضَعّف متنَه * صِغَر الولاية فاستقلّ المَوْصلا

فسرّى عن خالد، وكتب صاحبُ البريد بذلك الى المأمون، فزاده ديار ربيعـة وكتب اليه : هذا التضعيف المُوصِل متن ريحك ، فأعطى خالدٌ أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم .

وقيل : لمّا توجّه المسترشدُ للقاء السلطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه السلجوقىّ، ١٥ وقع على الشمسية التى تُرفع على رأسه طائرٌ من الجوارح وألحّ، كلما نُفّر عاد، فتفاءل الناس له بذلك وسُرّهو به، فقال إنسان يُعرَف بمَلِكْدار: هذا جارح ومنقبض الكفّ وليس فيـه بُشرى بل ضدّها ، وأقبل السلطانُ فى جيشـه فكانت الكسرة وقُبِض على المسترشد وقُتِل من بعد .

خرج بعضُ ملوك الفُرس الى الصيد، فكان أوّل من آستقبله أعورُ فأمر بضربه وحبسه، ثم خرج وتصيّد صيدًا كبيرا، فلّما عاد آستدعى الأعورَ وأمر له بصِلَة، فقال الأعور: لا حاجة لى فى صلتك، ولكن آئذن لى فى الكلام، فقال: تكلّم! قال: لقيتنى فضربتنى وحبستنى، ولقيتك فصِدتَ وسَلِمتَ فأيّنا أشأم؟ فضحك وخلاه.

الفراسة والذكاء

يقولون: عظم الجبين يدلّ على البَلَه، وعَرْضُه يدلّ على قلة العقل، وصِغَره على لُطف الحركة، والحاجبان اذا آتصلا على آستقامة دلّا على تخنيث وآسترخاء، واذا ترجحا نحو الصُّدغين دلّا على طَنْزٍ وآستهزاء، والعين اذا كانت صغيرة الموق دلّت على سوء دخلَة، وخُبث شمائل، واذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد، والعين المتوسطة فى حجمها دليل فطنة وحسن خُلق ومروءة، والناتئة على آختلاط عقل، والطائرة على حِدّة، والتى يطول تحديقها على حُمْق وحُمق، والتى تكسر طَرْفها على خفّة وطيش، والشَّعر على الأذن يدلّ على جودة السمع، والأُذن الكبيرة المنتصبة تدلّ على حمق وهَذَيان.

وحكى: أن أبا موسى الأشعرى وجّه السائب بن الأقرع فى خلافة عمر بن الخطّاب رضى الله عنه الى مهرجا بعد أن فتحها ودخل دار الهُرمُزان بعد أن جمع السبىَ والغنائم، ورأى فى بعض مجالس الدار تصاوير فيها مثال ظبى وهو مشير بإحدى يديه الى الأرض، فقال السائب: لأمرٍ مّا صُوّر هذا الظبىُ هكذا، إن له لشأنا، فأمر بحفر الموضع الذى الإشارة اليه فأفضى الى موضع فيه حوض من رخام، فيه سَفَطُ جوهر فأخذه السائبُ وخرج به الى عمر رضى الله عنه.

وقيل: كان المعتضد يوما جالسا فى بيت يُبنى له وهو يشاهد الصُّنَّاع فرأى فى جملتهم عبدا أسود منكر الخَلْق، شديد المرح، يصعد على السلاليم مرقاتين مرقاتين ويحمل ضِعْف ما يحمل غيره، فأنكر أمرَه، وأحضره وسأله عن سبب ذلك، فلجلج فقال لوزيره: قد خَمَّنتُ فى هـذا تخمينًا ما أحسبه باطلا، إمّا أن يكون معـه دنانير قد ظفر بها من غير وجهها، أو لِصًّا يتسـتّر بالعمل، ثم قال: علىّ بالأسود فأحضره وضربه، وحلف إن لم يصدقه ليضربنّ عنقه، فقال الأسود: ولى الأمان يا أمير المؤمنين، قال: نعم! إلّا ما كان من حدّ، فظن أنه قد أمّنـه، فقال: كنت أعمل فى أتّون الآجُرّ، منذ سنين، فأنا منذ شهور جالس إذ مرّ بى رجل فى وسطه كيس فتبعتُه وهو لا يعرف مكانى فحلّ الهَمْيان وأخرج منـه دينارا فتأمّلتُه فاذا كله دنانير فكتّفتهُ وسددتُ فاه وأخذت الهميان وحملتهُ على كتفى وطرحته فى التّنور وطيّنتُ عليـه، فلما كان بعد أيام أخرجتُ عِظامه وطرحتها فى دجلة والدنانير معى تقوّى قلبى قال: فأرسـل المعتضد من أحضر الدنانير، واذا على الكيس: لفلان بن فلان، فنادى فى المدينـة، فحضرت آمرأته وقالت: هذا زوجى وقد ترك طفلا صغيرا خرج فى وقت كذا ومعه كيس فيـه ألف دينار، فغاب الى الآن، فسلّم الدنانير اليها وأمرها أن تعتدّ، وضرب عنق الأسـود وأمر أن يوضع فى الأتّون.

وقيل: جلس المنصور فى إحدى قباب المدينة فرأى رجلا ملهوفا مهموما يجول فى الطُّرُقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنّه خرج فى تجارة فأفاد مالا ورجع الى منزله به، فدفعه الى آمرأته، فذكرت المرأةُ أنّ المال سُرِق ولم ير نَقْبًا ولا تسلّقا، فقال له المنصور: منذ كم تزوّجتها؟ قال: منذ سنة، قال: فبكرًا أو ثَيِّبًا؟

قال ثيّبا، قال : فلها ولد من سواك ؟ قال : لا، قال : شابّة أم مسنّة ؟ قال : شابّة، فدعا المنصور بقارورة طيب، وقال : تطيّب بهذا، فهو يذهبُ همّك، فأخذها وانقلب الى أهله، ثم قال المنصور لأربعة من ثِقاته : اقعدوا على أبواب المدينة، فمن مرّ بكم وعليه شيء من هذا الطِّيب فأتونى به، وأشمهم من ذلك الطِّيب، ومضى الرجلُ بالطِّيب، فدفعه الى امرأته وقال : وهبه لى أمير المؤمنين، فلمّا شمّته بعثتْ به الى رجل كانت تحبّه وقد كانت دفعتْ اليه المال فتطيّب به، ومرّ مجتازا ببعض الأبواب، فأُخذ وأُتى به الى المنصور، فقال له : من أين استفدتَ هذا الطيب ؟ فاجلج لسانه، فسلّمه الى صاحب شرطته وقال : أن احضر الدنانير وإلّا فاضربه ألف سوط، فما هو إلّا أن جُرّد وهُدِّد، فأحضر الدنانير على حالتها فأُعلم المنصورُ بذلك، فدعا صاحبَ الدنانير وقال : أرأيتك إن رددتُ عليك متاعَك بعينه أتحكّمنى فى امرأتك؟ قال : نعم ! قال : خذ دنانيرك وقد طلّقتُ امرأتك وخبّره الخبر.

ودخل شَريك بن عبد الله القاضى على المهدىّ فأراد أن يبخّره فقال للخادم : ائتِ القاضى بعُود، فذهب فجاء بالعود الذى يُلْهَى به، فوضعه فى مجمر شريك، فقال شريك : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : عود أخذه صاحبُ العَسَس البارحة فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضى، فقال شريك : جزاكَ اللهُ خيرا يا أمير المؤمنين، ثم ضرب به الأرضَ فكسره ثم أفاضوا فى حديث آخر حتى نُسى الأمر ثم قال المهدىّ لشريك : ما تقول فيمن أمر وكيلًا له أن يأتى بشيء فجاء بغيره فتَلِف ذلك الشيءُ ؟ فقال : يَضْمَن يا أمير المؤمنين، فقال للخادم : اضمن ما تلف.

البـاب الرابع

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى الكنايات والتعريض

والكنايات لها مواضع ؛ فأحسنها العُدول عن الكلام القبيح الى ما يدُلّ على معناه فى لفظ أبهى منه . ومن ذلك أن يُعظِّم الرجل فلا يدعى باسمه ويُكنى بكُنيته ، أو يكنى بٱسم ٱبنه صيانة لٱسمه ، وقد ورد فى ذلك كثير من آى القرآن فمنها قوله تعالى (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) أى كنِّياهُ . وقد كَنَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه : بأبى تراب ؛ وقال البحترىّ

يتشاغفن بالصغير المسمَّى * موضعاتٍ وبالكبير المكَنَّى

وهذا يدل على أن المراد بالكنية التبجيل ؛ وقول ٱبن الرومىّ

بكت شجوها الدنيا فلما تبيَّنتْ * مكانك منها ٱستبشرت وتثنَّتِ
وكان ضئيلا شخصها فتطاولتْ * وكانت تسمَّى ذِلةً فتكنَّتِ

وقال أبو صخر الهذلىّ

أبى القلب إلا حُبَّهُ عامريةً * لها كنيةٌ : عمرٌو ، وليس لها عمرُو

ومن عادة العرب وشأنهم ؛ ٱستعمال الكنايات فى الأشياء التى يستحيي من ذكرها ، قصدا للتعفّف باللسان ، كما يُتعفّف بسائر الجوارح ، قال الله عز وجلّ تأديبا لعباده (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) فقرن عفّة البصر

بعفّة الفرج؛ وفى القرآن كناياتٌ عُدِلَ بها عن التصريح تنزيها عن اللفظ المستهجَن ، كقوله تعالى : (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) وقال أبو عبيد : هو كناية ، شبّه النساءَ بالحَرْث ، وقوله تعالى : (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) ، قيل : هو كنايةٌ عن الفروج ، وفى موضع آخر : (يَوْمَ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، وقوله تعالى : (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)، وقوله تعالى : (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) قال المفسرون : هـذا تنبيه بأكل الطعام على عاقبة ما يصير اليه ؛وهو الحَدَث، لأن من أكل الطعام فلا بدّ أن يحدث . ثم قال : (أُنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ) وهذا من ألطف الكناية، ومنه قوله تعالى: (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) فالغائط : المطمئن من الأرض ،وكانوا يأتونه لحاجتهم ويستترون به عن الأماكن المرتفعة . ومن لم يرَ الوضوء من لمس النساء جعل الملامسةَ هاهنا كنايةً عن الفعل .

ومن الكنايات فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو وإن كان قد ورد فى الأمثال أشبه بالكناية — منها قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم وخضراءَ الدِّمن" يريد بها المرأة الحسناء فى المنبت السوء، وتفسير ذلك : أن الريح تجمع الدِّمَنَ، وهو البعر فى البقعة من الأرض فإذا أصابه المطر نبت نبتـا غضًّا يهتزّ وتحته الدِّمَنُ الخبيث، يقول : فلا تنكحوا هـذه المرأة الحسناء لجمالها، ومنبتُها خبيثٌ كالدِّمن؛ فإن أعراق السوء تزرع أولادها؛ وقال زُفَر بن الحارث

وقد ينبتُ المرعى على دِمَنِ الثرى * وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هيا !

وقوله صلى الله عليه وسلم : "حَمِىَ الوطيسُ" قاله لمـا جال المسلمون يوم حُنين، والوطيس: حفيرة تحتفر فى الأرض شبيهةٌ بالتنّور ؛ وقال الحسن : لبث أيوب عليه السلام على المزبلة سبعَ سنين، وما على الأرض يومئذ خَلْقٌ أكرمُ على الله منه، فما سأل اللهَ العافيـةَ إلا تعريضا فى قوله : (إِنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) والعرب تكنى عن الفضلة المستقذرة بألفاظ كلّها كنايات، منها : الرَّجيعُ والنَّجْوُ والبرازُ والغائطُ والعَذِرَةُ والحُشّ، فبعض هـذه الألفاظ يراد بها نفسُ الحدَثِ ، وبعضها يراد بهـا المواضع التى يأتى اليها المحدِثُ، وكذلك آستعملوا فى إتيان النساء: المجامعة، والمرافعة، والمباضعة ، والمباشرة ، والملامسة ، والمماسّة ، والخلوة ، والإفضاء ، والغشيان، والتغشّى، وكل هذه الألفاظ مذكورة فى القرآن .

وحكى : أن رجلا من بنى العنبر كان أسـيرا فى بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم رسولا الى قومه، فقالوا : لا نرسل إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم، وجىء بعبد أسود، فقال له : أتعقل ؟ قال : نعم إنى لعاقل ! قال : ما أراك عاقلا ! ثم أشار بيده الى الليل، فقال : ما هذا ؟ قال : الليل ! قال : أراك عاقلا . ثم ملأ كفّيه من الرمل فقال : كم هذا ؟ قال : لاأدرى وإنه لكثير، قال : أيّما أكثر؟ النجوم أم النيران؟ قال : كلّ كثير، فقال : أبلغ قومى التحيّة، وقل لهم ليُكرموا فلانا، يعنى أسيرا كان فى أيديهم من بكر، فإن قومه لى مكرمون وقل لهم : إن العَرْجَفَ قد أَدْبَى ، وشكّتِ النساء ، وأمرهم أن يُعْرُوا ناقتى الحمراء ، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلتُ معهم حَيْسًا، وآسألوا عن خبرى أخى الحارث؛

فلما أدّى العبد الرسالة اليهم قالوا : قد جُنَّ الأعورُ، والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملا أصهبَ ، ثم سرّحوا العبدَ ودعوا الحارث فقصّوا عليه القصّة ، فقال : قد أنذركم ؛ أمّا قوله : قد أدبَى العرنجُ ؛ يريد : أن الرجال قد آستلاموا ولبسوا السلاح، وقوله : وشكّت النساء؛ أى آتخذن الشَّكَاءَ للسفر، وقوله : الناقة الحمراء؛ (٤٥)
٥ أى آرتحلوا عن الدهناء وآركبوا الصَّمَّانَ وهو الجمل الأصهب، وقوله : بآية ما أكلت معكم حيسًا أى أخلاط من الناس وقد غزوكم؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فآمتثلوا ما قال، وعرفوا لحنَ كلامه. وحكى أبو الفرج الأصفهانيّ بسنده الى مجالد آبن سعيد عبد الملك بن عمر قال : قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة ، فأرسل الى عشرةٍ أنا أحدهم من وجوه أهل الكوفة، فسمرنا عنده . ثم قال : ليحدثنى كلّ رجل
١٠ منكم أحدوثة . وآبدأ أنت يا أبا عمرو ، فقلت : أصلح الله الأمير، أحديث الحق أم حديث الباطل ؟ قال : بل حديث الحقّ ، قلت : إن آمرأ القيس آلى أليةً أن لا يتزوج آمرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وآثنين، فجعل يخطب النساء فاذا سألهنّ عن هذا، قلن أربعة عشر، فبينا هو يسير فى جوف الليل اذا هو برجل يحمل آبنة له صغيرة، كأنها البدر لتمّه، فأعجبته فسألها : ياجارية! بما ثمانية وأربعة وآثنان؟
١٥ فقالت : أما ثمانيةٌ فأطْبَاءُ الكلبة ، وأما أربعةٌ فأخلافُ الناقة، وأما آثنان فثديا المرأة ، فخطبها الى أبيها ، فزوّجه إياها وشرطت عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصالٍ ، فجعل لها ذلك ، وعلى أن يسوق اليها مائةً من الإبل ، وعشرة أعبدٍ، وعشر وصائفَ ، وثلاثة أفراس؛ ففعل ذلك، ثم إنه بعث عبدا له الى المرأة، وأهدى لها نحيًا من سمن، ونحيًا من عسل، وحلّة من قصب، فنزل العبد

على بعض المياه، فنشر الحلّة فلبسها فتعلّقت بسَمُرة فانشقّت، وفتح النّحيين فاطعم أهل الماء منهما فنقصا، ثم قدم على حىّ المرأة وهم خلوف فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع اليها هديّتها فقالت له : أعلِمْ مولاك أنّ أبى ذهب يقرّب بعيدا، ويبعّد قريبا، وأنّ أمّى ذهبت تشقّ النفس نفسيْن، وأنّ أخى ذهب يراعى الشمس، وأنّ سماءكم انشقّت، وأنّ وِعاءيْكم نضَبا، فقدم الغلام على مولاه فأخبره، فقال : أما قولها : أنّ ابى ذهب يقرّب بعيدا ويبعّد قريبا : فإن أباها ذهب يحالف قوما على قومه، وأما قولها : ذهبت أمّى تشق النفس نفسين : فإن أمها ذهبت تَقْبُلُ امرأة نفساء؛ وأما قولها : ذهب أخى يراعى الشمس : فإن أخاها فى سَرْح له يرعاه، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به، وقولها : أن سماءكم انشقّت : فإن البُرْدَ الذى بعثتَ به انشقّ، وأما قولها : أن وعاءيكم نضبا : فإن النّحيْن نقصا؛ فاصدقنى؛ فقال : يامولاى ! إنى نزلت بماء من مياه العرب، فسألونى عن نسبي، فأخبرتهم أنى ابن عمك، ونشرتُ الحلّة فلبستها وتجمّلتُ بها، فتعلّقتْ بسَمُرة فانشقّت، وفتحتُ النّحيْن فاطعمتُ منهما أهل الماء . فقال : أَوْلَى لك؛ ثم ساق مائةً من الإبل، وخرج ومعه الغلام ليسقَ الإبلَ، فعجز؛ فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام فى البئر، وخرج حتى أتى المرأة بالإبل فأخبرهم أنه زوجها، فقيل لها : قد جاء زوجك ! فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ ولكن انحروا له جزورا وأطعموه من كرشها وذنَبها، ففعلوا؛ فأكل ما أطعموه، قالت : اسقوه لبنا حازرا (وهو الحامض) فسقوه؛ فشرب، فقالت : افرشوا له عند الفَرْث والدم، ففرشوا له؛ فنام . فلما أصبحت أرسلت اليه : أريد أن أسألك عن ثلاث، قال: سلى عما بدا لك، فقالت : لم تختلج شفتاك؟

قال : من تقبيلى إياك ! قالت : لم تختلج فخذاك ؟ قال : لتورُّكى إياك ! قالت : فلم يختلج كَشْحاك ؟ قال : لالتزامى إياك ! قالت : عليكم العبد ! فشدّوا أيديكم به ؛ ففعلوا ؛ قال : ومرّ قوم فاستخرجوا آمرأ القيس من البئر، فرجع الى حيّه وآستاق مائةً من الإبل وأقبل الى آمرأته . فقيل لها : قد جاء زوجك ! فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا؟ ولكن آنحروا له جزورا وأطعموه من كرشها وذنبها، ففعلوا؛ فلما أتوه بذلك ، قال : وأين الكبد والسَّنام والمَلْحاء ؟ فأبى أن يأكل ، فقالت : آسقوه لبنا حازرا، فأُتِىَ به ، فأبى أن يشربه وقال : أين الصَّريف والرَّئيئة؟ فقالت : آفرشوا له عند الفَرْثِ والدم، ففرشوا له ؛ فأبى أن ينام وقال : آفرشوا لى فوق التلعة الحمراء وآضربوا عليها خباء، ثم أرسلت اليه : هلمّ شريطتى عليك فى المسائل الثلاث، فأرسل اليها : سلينى عما شئت، فقالت: لم تختلج شفتاك؟ قال: لشرب المشعشعات؛ قالت : فلم يختلج كشحاك ؟ قال : للبس الحبرات ؛ قالت : فلم يختلج فخذاك ؟ قال : لركض المطهّمات؛ قالت : هـذا زوجى لعمرى! فعليكم به، وآقتلوا العبد فقتلوه ، ودخل آمرؤ القيس بالجارية؛ قال آبن هُبَيْرة : حسبكم ! فلا خير فى الحديث فى سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ولن يأتينا أحدٌ بأعجب منه، فقمنا فانصرفنا وأمر لى بجائزة .

وقيل : بعث نَشَامة بن الأعور العنبرىّ الى أهله بثلاثين شاةً ونحْيٍ صغير فيه سمن، فسرق الرسول شاة ، وأخذ من رأس النحى شيئا ، فقال لهم الرسول : ألكم حاجةٌ أُخبِرُه بها ؟ فقالت آمرأته : أَخبِرْه أنّ الشهر محاق ، وأن جدينا الذى كان يطالعنا وجدناه مرثوما، فآرتجع منه الشاة والسمن .

وقيــل : أسرت طيّءٌ غلاما، فقدم أبوه ليفديَهُ، فاشتطّوا عليــه . فقال أبوه : لا والذى جعل الفرقدين يُمسيانِ ويصبحانِ على جبلَىْ طيّءٍ ! ما عندى غير ما بذلتهُ، ثم انصرف وقال : لقد أعطيته كلاما إن كان فيه خيرٌ فهمه . كأنه قال : إلزم الفرقدَيْن على جبلَىْ طيّء، ففهم الأبن تعريضه وطرد إبلًا لهم من ليلته ونجا .

ومن التخليصِ المتوسَّط اليه بالكناية ؛ ماروى عن عدىّ بن حاتم بن عبد الله الطائىّ، أنه قال يوما فى حق الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط : ألا تعجبون لهذا؟ أشعرَ بَرْكًا يُوَلَّى مثل هــذا المصر، والله ما يحسن أن يقضىَ فى تمرتين . فبلغ ذلك الوليــدَ فقال على المنبر : أنشُد الله رَجُلًا سمّانى أشعرَ بَرْكًا إلا قام ، فقام عدىّ بن حاتم فقال : أيها الأمير، إن الذى يقوم فيقول : أنا سمّيتك أشــعرَ بَرْكًا لجرىءٌ، فقال له : اجلس يا أبا طريف! فقد برّأك الله منها، فجلس وهو يقول : ما برّأنى الله منها .

وقيل: كان شُريح عند زياد بن أبيه وهو مريض، فلما خرج من عنده أرسل اليه مسروق رسولا وقال: كيف تركت الأمير؟ فقال: تركته يأمر وينهى، قال مسروق: إنه صاحب مرض، فارجع اليه واسأله ما يأمر وينهى، قال : يأمر بالوصيّة وينهى عن النّوح .

خطب رجل الى قوم فجاءوا الى الشعبىّ يسألونه عنه، وكان به عارفا، فقال : هو والله ما علمت نافذ الطعنة، ركين الجلسة، فزوّجوه ؛ فاذا هو خيّاط فأتوه فقالوا : غررتنا فقال : ما فعلتُ وإنه لكما وصفت .

وخطب باقلانىّ الى قوم وذكر أن الشعبىّ يعرفه فسألوه فقال : إنه لعظيم الرماد، كثير الغاشية .

قيل : أخذ العسس رجلين فقال لهما : من أنتما ؟ فقال أحدهما

أنا ابن الذى لا يُنزل الدهر قِدْرَهُ * وإن نزلتْ يوما فسوف تعودُ

ترى الناسَ أفواجا الى ضوء ناره * فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ !

وقال الآخر

أنا ابن من تخضع الرقاب له * ما بين مخزومها وهاشمها

تأتيه بالذلّ وهى صاغرة * يأخذ من مالها ومن دمها !

فظنوهما من أولاد الأكابر، فلما أصبح سأل عنهما، فإذا الأول ابن طبّاخ والثانى ابن حجّام .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للأحنف : أىّ الطعام أحبّ اليك ؟ قال : الزُّبدُ والكَمْأَةُ . فقال : ما هما بأحبّ الطعام اليه ، ولكنه يحبّ الخصب للمسلمين .

وقال لقمان لابنه : كُلْ أطيب الطعام، ونَمْ على أوطأ الفرش، كنّى عن إكثار الصيام، وإطالة القيام .

ومن جيّد التورية وغريبها مع توخّى الصدق فى موطن الخوف : قولُ أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، وقد أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رَديفُه عامَ الهجرة، فقيل له : من هذا يا أبا بكر ؟ فقال : رجل يهدينى السبيل .

ورُفِعَ الى عبيد الله بن الحسن قاضي البصرة وصـيةٌ لرجل بمال أمر أن تُتَّخذَ به حصون . فقال : آشتروا به خيلا للسبيل، أما سمعتم قول النخعيّ

ولقـد علمت على تجنبيَ الردى * أن الحصون الخيلُ لامدَرُ القُرَى

قيـل كان البَرَاءُ بن قَبِيصة صاحبَ شرابٍ، فدخل على الوليد بن عبد الملك، وبوجهه أثر، فقال : ماهـذا ؟ قال فرس لى أشقر، ركبته فكابى، فقال : لو ركبتَ الأشهبَ لَمَا كابك، يريد المـاء . ٥

قال عبد الملك بن مروان لثابت بن الزبير : ماثابت من الأسماء! ليس بآسم رجل ولا آمرأة، قال : يا أمير المؤمنين لا ذنب لى لو كان آسمى الىَّ، لسمّيتُ نفسى زينبَ، يُعرِّضُ به ؛ فإنه كان يعشق زينبَ بنت عبد الرحمن بن هشام فخطبها؛ فقالت : لا أوسّخ نفسى بأَثْيِ الذبّان . ١٠

قال نُمَيْريّ لفقعسيّ : إنى أريد إتيانك فأجد على بابك جروا، فقال له الفقعسيُّ : اطرح عليه ترابا وآدخل؛ أراد النميريّ قول الشاعر

ينـامُ الفقعسيُّ وما يُصـلِّي * ويخرى فوق قارعةِ الطريق

وأراد الفقعسيّ قول الآخر

ولو وُطئتْ نساءُ بنى نميرٍ * على تَرَبٍ لخبّثْنَ الترابَا ١٥

قال عبد الله بن الزبير لآمرأة عبد الله بن حازم السلميّ : أَخرجى المالَ الذى وضعته تحت آستِك، فقالت : ما ظننت أن أحدا يلى شيئا من أمور المسلمين يتكلّم بهذا، فقال بعض من حضر : أما ترون الخلْخالَ الخفىَّ الذى أشارت اليه ؟ فلما أخذ الحجّاج أمّ عبد الرحمن بن الأشعث تجنّب ماعيبَ على آبن الزبير، فكنّى عن المعنى فقال لها : عمدت الى مال الله فوضعته تحتَ ذيلك . ٢٠

(٤٧)

ماتت للهذلىّ أمُّ ولدٍ، فأمر المنصورُ الربيعَ بأن يعزّيَه ويقولَ له : إن أمير المؤمنين يوجّه اليك بجارية نفيسة لها أدبٌ وظَرفٌ تُسلِيك عنها، وأمر لك بفرسٍ وكُسوةٍ وصِلةٍ؛ فلم يزل الهذلىّ يتوقّعها، ونسِيَها المنصور، ثم حجّ ومعه الهذلىّ فقال له وهو بالمدينة : أحبّ أن أطوفَ الليلة فى المدينة، وأطلبَ من يطوف بى فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين؛ فطاف به حتى وصل الى بيت عاتكةَ فقال : يا أمير المؤمنين! وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص

* يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزّلُ *

فأنكر المنصور ذكرَ بيتِ عاتكةَ من غير أن يسأله عنه؛ فلما رجع أمرّ القصيدة على خاطره فاذا فيها

وأراك تفعلُ ما تقولُ وبعضهم * مذقُ الحديثِ يقول ما لا يفعلُ

فتذكّر الموعدَ وأنجزه واعتذر اليه .

اجتمع الشعراء بباب أمير من أمراء العرب ، فمرّ رجل ببازٍ فقال رجل من بنى تميم لآخر من بنى نمير : هذا البازى ! فقال النميرىّ : إنه يصيد القَطا؛ عرّض الأوّل بقول جرير

أنا البازى المطلّ على نُميرٍ * أتيح من السماء لها انصبابا

وأراد الآخر قول الطرماح

تميم بطرق اللؤم أهدَى من القَطا * ولو سلكتْ طُرُقَ المكارمِ ضلّتِ

قال عمر بن هُبَيْرة الفزارىّ لأيوب بن ظَبيان النميرىّ وهو يسايره : غُضّ من بغلتك! فقال : إنها مكتوبة، أراد بن هبيرة قول جرير

فغُضّ الطرف إنك من نمير * فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

وأراد النميرىّ قول ٱبن دارة

لا تأمننَّ فَزارياً خلوتَ به * على قلوصِك وٱكتُبْها بأسيارِ

وقيل : كان العزيز بن المعزّ العُبيدىّ أحد الخلفاء بمصر يلعب بالحَمام فتسابق هو وخادم له فسبق طائرُ الخادم طائرَ الخليفة ؛ فبعث الى وزيره ٱبن كلس اليهودىّ يستعلمه عن ذلك فٱستحيى أن يقول : إن طائر الخليفة سُبِقَ ، فكتب إليه

يٱبن الذى طاعتُـه عِصمةٌ * وحُبُّـه مفترَضٌ واجبُ

طائرك السـابقُ لكنّه * جاء وفى خدمته حاجبُ

جاءت ٱمرأة إلى عمر رضى الله عنه فقالت : أشكو اليـك زوجى ، خيرُ أهـل الأرض إلا رجلٌ سبقه لعمل ، أو عمل مثلَ عمله ، يقوم الليل حتى يُصبح ، ويصوم النهار حتى يُمسِى ؛ ثم أخذها الحياء فقالت : أقِلْنى يا أمير المؤمنين ! فقال : جزاك الله خيرا ! فقد أحسنتِ الثناء ، فلما ولّتْ قال كعبُ بن سَوْر : يا أمير المؤمنين لقد أَبلَغَتْ اليك فى الشكوى ، فإنها كنَّتْ بذلك عن عدم المباضعة .

البـاب الخامس

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى الألغـاز والأحاجىّ

قالوا : وٱشتقاق اللُّغز من ألْغزَ اليَربوعُ ولَغَزَ : إذا حفر لنفسه مستقيما ، ثم أخذ يَمْنةً ويسرة ليوارى بذلك ويعمّى على طالبـه . وللُّغز أسماءٌ فمنها : المُعاياة ، والعويص ، والرمز ، والمحاجاة ، وأبيات المعانى ، والمَلاحن ، والمرموس ، والتأويلُ ، والكناية ،

والتعريض، والإشارة، والتوجيه، والمعمّى، والمُمَثَّل، ومعنى الجميع واحد، وٱختلافها بحسب ٱختلاف وجوه ٱعتباراته، فانك إذا ٱعتبرته من حيث إن واضعه كأنه يعابيك، أى يُظهر إعياءك وهو التعبُ، سمّيتَه : معاياة، وإذا ٱعتبرته من حيث صعوبة فهمه وٱعتياص ٱستخراجه، سمّيته : عَويصا، وإذا ٱعتبرته من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب، سمّيته : لُغزاً، وفعلك له : إلغازا، واذا ٱعتبرته من حيث إن واضعه لم يفصح عنه قلت : رَمَزَ، وقريب منه الإشارة، وإذا ٱعتبرته من حيث إن غيرك حاجاك أى ٱستخرج مقدار عقلك، سمّيته : محاجاة، وإذا ٱعتبرته من حيث إنه ٱستخرج كثرة معانيه، سمّيته : أبيات المعانى، وإذا ٱعتبرته من حيث إنّ قائله قد يوهمك شيئا ويريد غيره، سميته : لحنا وسميتَ فعلك : المَلاحن، وإذا ٱعتبرته من حيث إنه سُتر عنك ورُمس فهو : المرموس، والرمس: القبر، وإذا ٱعتبرته من أن معناه يؤوَّل اليك، سميته : مؤوَّلا، وسميت فعلك : تأويلا، وإذا ٱعتبرته من حيث إن صاحبه لم يصرّح بغرضه، سميته : تعريضا وكناية، وإذا ٱعتبرته من حيث إنه ذو وجوه، سميته : الموجَّهُ، وسميت فعلك : التوجيه، وإذا ٱعتبرته من حيث إنه مغطًّى عليك، سمّيته : مُعَمًّى .

قال الحكيم أمير الدولة المعروف بابن التلميذ فى الميزان

ما واحد مختلف الأسماءِ؟ * يعدل فى الأرضِ وفى السماءِ
يحكم بالقسط بلا رياءِ * أعمى يُرى الرشادَ كلَّ رائى
أخرس لا من علّة وداءِ * يُغنِى عن التصريح بالإيماءِ
يجيب إن ناداه ذو ٱمتراءِ * بالرفع والخفض عن النداء
يُفصح إن عُلِّقَ فى الهواءِ

قولة : مختلِف الأسمـاء يعنى ميزان الشمس ، والآصطرلاب ، وسائر آلات الرصد، وهو معنى قوله : يحكم فى السماء . وميزان الكلام : النحو، وميزان الشعر : العروض، وميزان المعانى : المنطق، وهذه الميزان والذراع والمكيال .

وقال آخر فيه

ما تقولون ؟ : فيما نزل من السماء، وعُلِّق فى الهواء، له عينٌ عمياء، وكفٌّ شلاء، ليس له إن عدل ثواب، ولا عليه إن جار عقاب، خُلِقَ من ثلاثة أجناس، تضعضعه الأنفاس، جسمه عارٍ من غير لباس، أخرسُ اللسان، فى أذنه خُرصان، مكرر الذكر فى القرآن، ينطوى اذا نام كالصِّلّ، وفعله المستقبل معتلّ، وله فى الآخرة أكبر محلّ.

وقال أبو نصر الكاتب فى الخاتم

ومنكوحٍ إذا ملكتْه كفٌّ * وليس يكون فى هذا مِراءُ
له عينٌ تخلّلها ضياءٌ * فإن كُحِلتْ فللميـلِ العَماءُ
يظلّ طليعةً للوصل هونا * وللخـاشى بزورته آحتماءُ
وقد أوضحتُه وأبتُ عنه * ففسِّرْه فقد برح الخفـاءُ

أراد بقوله : تخلّلها ضياءٌ أى أنها مفتوحة وكحلها بالإصبع ؛ وقد يبعث المحبوب بخاتمه علامةً للزيارة أو رهنا عليها وهو أمانٌ للجانى .

وقال آبن الرومىّ فى فتيلة السراج

ما حَيَّـةٌ فى رأسها دُرَّة * تسبح فى بحرٍ قليل المَدَى؟
إن غُيِّبتْ كان العمى حاضرا * وإن بدت لاح طريقُ الهدى!

وقال السرىّ الرفّاء فى شبكة الصيّاد

وكثيرة الأحداق إلا أنها * عمياءُ ما لم تنغمس فى ماءِ
وإذا هى آنغمست أفادت ربَّها * ما لا يُنال بأعينِ البصراءِ

وقال آخر فى النوم

٥ وحاملٍ يحملنى * وما له شخصٌ يُرَى!
إذا حصلتُ فوقه * وهو لذيذُ المتطَى!
سريتُ لا أدرى أفى * أرض سريتُ أم سما!

وقال أبو العلاء المعرىّ فى ركابىِّ السرج

خليلانِ نيطا فى جوانب مجلسٍ * جداراه قدّام له ووراءُ!
١٠ متى يضع الرِّجْلينِ ماشٍ عليهما * يَزُلْ عنه فى وَشْكٍ حَفًا وحَفاءُ!

قوله : خليلان لتشابههما، والمجلس : السرج، وجداراه : قربوسه ورادفته، والحفا مقصور : وجعُ الرِّجل، وممدود : من مشى الرجل حافيا بغير نعل .

وقال آبن القاسم عبد الصمد بن نائل فى القُفْل

مُجامعٌ يَعقِد عَقْد الكلبهْ * إن رامه غيرك جرّ نكبَهْ
١٥ ينام كالأمرد لا كالقحبهْ * حتى اذا شكَّ القُمُدُّ جنبَهْ
وعالج الجذبةَ بعد الجذبهْ * وآنحلَّ بالحقنة لا بالشربهْ
ألقى جنينا تحتَه العزبهْ * ثم إذا عاد إليه أشبهْ
بعضَ حروفِ المُعجَم المُنكبَهْ * يبغض وهو صادق المحبهْ
يعتقد السِّلم وينوى حَربهْ * وهو على ذاك طويل الصحبهْ

شَبّهه بالمجامع : لدخول الفَراش فى بطنه ، وقوله : يعقد عقد الكلبة : فى عُسر المفارقة ، وإن فتحه غيرك جرّ نكبة عليك لسرقة مافيه ، ينام كالأمرد : لأنكابه ، والقُمُدُّ : الذكر وهو المفتاح ، والجنين : الفَراش ، وإذا عاد إليه أشبه حرف الكاف .

وقال فى آسم سعيد

يبسم عن أوّل آسمـــه حِبّى * ثم بثـانى حروفه يسـبى
ثم بحرفين لو بدا بهما * أسدى يدا ، صورةُ آسمها تُنبى
أربعـــة نصفهـا بكملتها * فى العدّ لم تنتقص ولم تُربى
هذا وفيه آسمُ يومٍ آتفقت * بمفاخرُ العُجْم فيه والعُرْبِ
فأعمـل الفكـر فى تأمله * وآركب به كلّ مَرْكَب صعبِ

شبّه السين بالثغر ، وثانيه العين وهى تسبى القلوب ، والحرفان يَد وهى أربعة فى العدد وستّة فى الصورة ، وإذا أخذتَ السين والعين فهى أربعة وهى جملة العدد ، وفيـه عيد وهو يوم التفاخر بالزينة واللبوس .

وقال آبن أبى البَغْل الكاتب فى القلم

اصمّ عن المنادى لا يجيبُ * به تخبو وتشـتعل الخطوبُ
ضئيل الجسم "أعلَمُ" ليس تخفَى * عليه غيوبُ ما تُخفى القلوبُ
تراه راجلًا لا روح فيـــه * ويُحييه ويُنطقه الرّكوبُ
يبين لسانُه مكنٌ سـودًا * معارفه ويُخرسـه المشيبُ
يقسّم فى الورى بؤسى ونُعمى * ويحكم والقضـاءُ له مجيبُ
عجبت لسطوة فيـه وضعف * وكلّ أموره عجبٌ عجيبُ

أراد بقوله : أعلم : مَشقوق الشَّفَة .

وقال أبو العلاء المعرّى فى المِلْح

وبيضاء من سرّ المِلاح ملكتُها * فلما قضتْ إِرْبى حبوتُ بها صحبى
فباتوا بها مستمتعين ولم تزل * تحثّهم بعد الطعام على الشُّربِ

قوله : سرّ أى خالصة، والمِلَاح جمع مِلْح، والإرب : الحاجة .

٥ وقال آخر فى عودى الغناء والبخور

وما شيئان إسمهما سَواءٌ * وأصلهما معا عند آنتسابِ
إذا حضراك بتّ قرير عين * بلا طعم يلذّ ولا شَرابِ
وما أن يوجدان النفع إلّا * بضرب أو بضرب من عذابِ

معنى آسمهما سواء ظاهرٌ، وأصلهما خشب. والضَّرب الأول : ضَرب العود ،

١ والثانى : من العذاب وهو الإحراق .

وقال آخر فى الحرب

ما ذات شَوْكٍ لها جناح * يختطف الناسَ عن قريبِ
وهى عقيم ترى بنيها * من بين مُرْدٍ وبين شيبِ
يأكل بعض البنين بعضا * طلوعَ شمس الى غروبِ
١٥ تصحيفها الداء غير شك * قد يُحسم الداءُ بالطبيبِ
والداء معكوسه مكان * يصلح للطائر النجيبِ
يعرفها من يكون طَبّا * بالشعر والنحو والغريبِ

هذا لغز معمى فى الحرب، وشوكها : السلاح، وجناحها : جانباها ، وعقيم : لأنها لا تلد . وبنوها : رجالها. وأكلهم : قتلهم. وتصحيفها : الجرب، وعكسه :

٢٠ برج .

وقال آخر فى الثدى •

وما أخوان مشتبهان جِدًّا * كما آشـتبه الغَرابة والغرابُ
يَضمّهما على مرّ الليـالى * وما آجتمعا ولا آفترقا إهابُ
لذاك وذا دموع هاملات * ولكن كلّ دمعهما شَرابُ
يصونهما عن الأبصار دِين * ويُضرَب دون نَيْلهما حِجَابُ

هما : ثديا المرأة، ويضمّهما إهاب : وهو الجلد •

وقال آخر فى الفخّ

وما ميّت كفّنته ودفنته * فقام الى حىّ صحيح فأوثقَهْ

وقال آخر وهو لغز

حلف الحبيبُ علىّ لا سمّيتُـه * فكنيته ولطفت خوف تغاضِبِهْ
ظبي ! اذا ما زارنى حلّ آسمـه * قلبى وذلك من عجيب عجائبِـهْ
ويكون إن رحمتَه وخَرمتَه * وقلبتَه ما تشتهى من صاحبِهْ
ويكون إن صحفتَ مبدأه الذى * أصبحتَ تهواه لعين مراقبِـهْ
وتراه بعـد الجزم إن ميّزت فى التصحيف مقلوبا أشـدّ معائبِهْ
وحروفها فالنصف منها جذرها * وحساب ذلك غير متعبِ حاسِبِهْ
فاطلبه سادس سادس ثانيه ثا * نيـه وثالثه كذاك لطالبِهْ
وتمـامه من بعـد مثل حروفه * فى البيت صحّ آسم الحبيب لقالبِهْ

هو لغز فى فرحةٍ ، والترخيم : حذف الآخر ، والخرم : حذف الأوّل ؛ فاذا رخم وخرم وقلب بقى : حِر ، واذا قلبت الفاء قافا بقى : قَرْحة لعين المراقب ، واذا صحفته مقلوبا ، وجزمت آخره صار : هجر ، والنصف من حروفه اثنان ، وهما جذر جميع حروفه ، وقوله : فاطلبه سادس سادس : يعنى البيت السادس .

٥ وقال آخر فى سَلْمى

سل ماهرًا بالقريض والأدب * ما اسم فتاةٍ قعيدة النّسبِ

قد صرّح الشّعر باسمها فتى * فكرّتَ فيها ظفرتَ بالعجبِ

الاسم : سلمى ، وهو ظاهر فى أول البيت .

وقال آخر فى الكُرة

١٠ ومضروبةٍ تحيا إذا ما ضربتها * وإن تُركت من شدّة الضرب ماتت

وقال أبو عبد الله بن المغلّس فى السِّراج

وداعٍ الى نفسه فى الظلامِ * وما سمعتْ أذنه صوتَهُ

اذا هو بيّض وجه الطريـ * ـقِ سوّد فى وجهه بيتَهُ

وقال آخر فى الصَّدَى

١٥ وساكنٍ يسكن فى الفلاةِ * ليس من الوحش ولا النباتِ

ولا من الجنّ ولا الحيّاتِ * ولا الخيام الشّعر والأبياتِ

ولا بذى جسم ولا حياةِ * كلا ! ولا يدرك بالصفاتِ

بلى ! له صوت من الأصوات * يُسمع فى الأحيان والأوقاتِ

وقال آبن المغلّس فى النخلة

وقائمـــة أبدا لا تنـام * وما قعدت قطّ مذ قامت

تعيش إذا غســلوا رِجلها * وإن حلقــوا رأسَها ماتت

وقال آخر

مايقول سيدنا الشيخ : فى شىء نزل من السماء، وركض فى الهواء، وخيّم فى البيداء، نطق على نفسه فأفصح، وتكلّم فبيّن وأوضح، أفقر وأغنى، وأمات وأحيا، له شوارق من غير غضب، ورقصات على غير طرب، يسبق الفرس السريع، ويسبقه الطفل الرضيع، مختلف الألوان، يوجد فى كلّ زمان، ما أكثر لغاته ! وأعمّ فى البشر ذكر صفاته ! وهو خفيف ثقيل. كثير قليل، كبير صغير، طويل قصير، غال رخيص، قوىّ ضـعيف، سريع بطىء، بارد حارّ، نافع ضارّ، أبيض أسود أزرق، قريب بعيد، قديم جديد، متحرك ساكن، ظاهر باطن، يتجسّر ويتكسّر، ويتعوّج ويتدوّر، سلطانه فى الشمال وبه يذلّ. وضـعفه فى الجنوب وبه يعزّ. نحيل يخفى جثّة الفيـل فى طيّه وعطفه. ويتخلّل جفن العين الرمدة برفقه ولطفه، يمشى على الحـدق فلا يؤلمها، ويطأ القلوب فلا يُكلمها، على أنّه يقطع الطريق، ويخيف الفريق، كم أهلك من قوم وما راق ولا سفك ! يحمل ألف قنطار، ويعجز عن حمل دينار، وهو ليـلىٌّ نهارىٌّ. عربىٌّ عجمىٌّ، برىٌّ بحرىٌّ، سهلىٌّ جبلىٌّ، رومىٌّ نوبىٌّ، هندىٌّ حبشىٌّ، صينىٌّ جاهلىٌّ إسلامىٌّ. كان مع آدم فى الجنّة، وصحب نوحا فى السفينة، وتوسّط النار مع إبراهيم، كما له مع موسى من خبر ! ولموسى فيه من آية وأثر ! حمل المسيح على غير ظهر، وما سار فى برّ ولا بحر، أخرجه النبىّ صلى الله عليه وسلّم من جسده، ونزقه على صحابته. إذا نطقت به كان بعض أحد خلفاء بنى العباس تسعة وهو ١٤٣١ .

وقال آخر

ما شيءٌ وجهه قمر، وقلبه حجر إن علّقته ضاع، وإن أدخلتهُ السّوقَ أبى أن يباع، وإن فككته دعا لك، وإن ركبت نِصْفَه هالك، وربّما كثّر أموالك، وإن حذفتَ آخره، وشدّدت ثانيَه، أورثك الألم عند الفَجْر، والضجر عند العصر: هو الدُّملج الفضة.

٥

✣ ✣ ✣

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص

فمن ذلك: آمرأتان آلتقتا برجلين قالتا لهما: مرحبا بابنينا وزوجينا وآبنى زوجينا، وذلك أن كلّ واحد منهما تزوّج بأم الآخر فهما آبناهما وزوجاهما وآبنا زوجيهما.

١٠ رجلان كلّ واحد منهما عمّ الآخر وآبن أخيه، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بأم الآخر، فرُزِق كل واحد منهما ولدا فكل من الولدين عمّ الآخر وآبن أخيه.

رجلان كل واحد منهما خال الآخر وآبن أُخته، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بابنة الآخر، فرزق كلّ واحد منهما ولدا فكلّ من ولديهما خال الآخر وآبن أخته.

١٥ رجل وآمرأتان هو خال أحديهما، وهى خالته وعمّ الأخرى، وهى عمّته، وذلك: أنّ جدّته أمّ أبيه تزوّجت بأخيه لأمّه وأخته لأبيه تزوّجت بأب أمّه، فولدتا بنتين فبنت أخته خالته وهو خالها، وبنت جدّته عمّته وهو عمّها، وهذا أصل الأبيات المنظومة فى ذلك

ولى خالة وأنا خالها * ولى عمّة وأنا عمّها

رجلان كلّ واحد منهـما آبن خال الآخر وآبن عمّته، وذلك : أنّ كل واحد من أبويهما تزوّج بأخت الآخر، فرزق كلّ منهما ولدا، فكل من ولديهما آبن خال الآخر وآبن عمّته .

رجلان كلّ واحد منهما عمّ والد الآخر، وذلك : أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بأم أب الآخر، فكلّ من أولادهما عمّ أب الآخر . ٥

رجلان كلّ واحد منهما عمّ أمّ الآخر، وذلك : أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بابنة آبن الآخر، فكلّ من أولادها عمّ أمّ الاخر .

رجلان كل واحد منهـما خال أمّ الآخر، وذلك : أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بابنة بنت الآخر، فكلّ من أولادهما خال أمّ الآخر .

رجلان احدهما عمّ الآخر والآخر خاله، وذلك : أن رجلين تزوّج أحدهما آمرأةً وتزوّج الآخر آبنة آبنها، فولد لكل منهما ولد فابن الأب عمّ آبن الآبن، وآبن الآبن من أمّ آمرأة الأب، هو أخوها وخال آبنها . ١٠

رجلان أحدهما عمّ الآخر وخاله، والآخر آبن أخيـه وآبن أختـه، وذلك : أن رجلًا له أخ لأب وأخت لأمّ فزوّج أخاه لأبيه بأخته لأمّه فأولدها ولدا فهما كذلك .

القسمُ الثالث من الفنّ الثـانى

فى المدح، والهجو، والمجون، والفُكاهات، والمُلَح، والخمر، والمُعاقرة، والنّدْمَان، والقِيان، ووصف آلات الطّرب

وفيه خمســـة أبواب

البـاب الأوّل

من هذا القسم

فى المدح، وفيه ثلاثة عشر فصلا

حقيقة المدح وماقيل فيه، ماقيل فى الجود والكرم وأخبار الكرام، ماقيل فى الإعطاء قبل السؤال، ما قيل فى الشجاعة والصبر والإقدام، ما قيل فى وفور العقل، ما قيل فى الصِّدق، ماقيل فى الوفاء والمحافظة، ما قيل فى التواضع، ماقيل فى القناعة والنّزاهة ما قيـل فى الشكر والثناء، ما قيل فى الوعد والإنجاز، ما قيل فى الشفاعة، ما قيـل فى الاعتذار والاستعطاف.

فأمّا حقيقية المدح، فقد عبّر عنها الحمدونىّ فى "غاية الاختصار والإيجاز" بقوله: حقيقة المدح: وصف الموصوف بأخلاق يُحمد صاحبُها عليها، ويكون نَعْتًا حميدًا. قال الله تعـالى (قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) وقال عزّ وجلّ: (ٱلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ ٱلسَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ

بِٱلْمَعْرُوف وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وروى عن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم أنه قال : " أصحابى كالنجوم بأيّهم ٱقتديتم ٱهتديتم " وقد أوّلوا الخبر المروىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم " اذا رأيتم المَدّاحين فٱحثوا فى وجوههم التراب " قال العُتْبىّ هو المدح الباطل والكذب .

وأمّا مدح الرجل بما هو فيه فلا بأس به ، وممّا يعضد هذا أنّ العبّاس بن عبدالمطّلب وكعب بن زهير ، وحسّان بن ثابت ، وغيرهم ، مدحوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم يَرِد أنه حثا فى وجه أحد منهم ترابا .

وقيل فى حثو التراب مَعْنَيَان : أحدهما التغليظ فى الردّ عليه ، والثانى يقال له : بفمك التراب .

وللشعراء عادة فى تجاوز قدر الممدوح فوق ما يستحقّه حتى إنّ ذلك أفضى بكثير منهم الى الكفر والخروج عن الحدّ أعاذنا الله من ذلك . وقال أبو شروان : من أثنى عليك بما لم تولِهِ فغير بعيد أن يذمّك بما لم تحبّه . وقال وهب بن منبّه : من مدحك بما ليس فيك ، فلا تَأمَن أن يذمّك بما ليس فيك .

(٥١)

وأنشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قول زهير بن أبى سُلْمى فى هَرِم بن سِنَان

دع ذا ! وعُدَّ القولَ فى هَرِم * خير الكهول وسيّد الحَضْرِ
لو كنتَ من شىء سوى بشر * كنتَ المنوّر ليلةَ القَدْرِ
ولأنتَ أوصل من سمعتُ به * لنوائل الأرحام والصِّهْرِ
ولنعم حشو الدّرع أنت اذا * دُعِيتْ نَزَال ولُجّ فى الذُّعْرِ

فقال عمر رضى الله عنه : ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

ولما حضر أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه الوفاةُ ، قالت عائشة رضى الله عنها وهو يغمُض

وأبيض يُستسقَى الغَمام بوجهه * ثِمال اليتامى عصمة للأرامِلِ

فنظر اليها وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

٥ وقال آخر

ولو كنتِ أرضًا كنتِ مَيْثاءَ سهلةً * ولو كنتِ ليلًا كنتِ صاحبة البدرِ

ولو كنتِ ماءً كنتِ ماء غَمامة * ولو كنتِ يوما كنتِ تَعريسة الفجرِ

وقال محمّد بن هانئ

أغَيرُ الذى قد خطّ فى اللوح أبتغى * مديحا له إنّى إذا لعنودُ

١٠ وما يستوى وحىٌ من الله منزل * وقافيةٌ فى الغابرين شرودُ

وقال عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه لمُتَمّم بن نُوَيرة صِف لى أخاك فإنى أراك تمدحه ، فقال : كان أخى يحبس المزاد بين الصُّوحَيْن فى الليلة القَرَّة معتقلا للرمح الخَطِل ، عليه الشَّمْلَة القلوب ، يقود الفرس الحَرون فيصيح ضاحكًا مستبشرًا : الخَطِل : الطويل المضطرب ، والقلوب : التى لا تنضمّ على الرَّحل لقصرها .

١٥ وسأل عبد الله بن عباس صَعْصَعةَ بن صُوحان العَبْدىّ عن إخوته فقال : أما زيد فكما قال أخو عبس

فتى لا يبالى أن يكون بوجهه * إذا نال خلّان الكرام شحوبُ

ثم قال : كان والله يا ابن عباس ، عظيم المروءة ، شريف الأَبوّة ، جليل القدر ، بعيد الشرّ ، كميش العُروة ، زين النَّدْوة ، سليم جوانح الصدر ، قليل وساوس الفكر ،

ذاكراً لله تعالى فى طَرَفى النّهار وزلفًا من الليل، الجوع والشّبَع عنده سِيّان، لا منافس فى الدنيـا، ولا غافل عن الآخرة، يطيل السكوت، ويديم الفكر، ويكثر الاعتبار، ويقول الحق، ويلهج الصدق، ليس فى قلبه غير ربه، ولا يهمه غير نفسه، فقال ابن عبّاس: ما ظنّك برجل سبقه عضو منه الى الجنّة؟ رحم الله زيدا! فأين كان عبد الله منه؟ فقال: كان عبد الله سيّدا شجاعًا، شيخًا مُطاعًا، خيره وِسَاع، وشره دِفَاع. ليّن النحيزة، أحوذىّ الغريزة، لا يُنهنهه مُنهنه عمّا أراد، ولا يركب إلّا ما اعتاد، سِمَام العدى، فيّاض النّدى، صعب المَقادة، جزل الرِّفادة. أخو إخوان، وفتى فتيان، ثم أنشد شعر حسّان بن ثابت

اذا قال لم يترك مقالًا لقـائل * بُملتقطاتٍ لا يرى بينها فصـــلا
قضى فشفى ما فى النّفوس فلم يدع * لذى إربة فى القوم جدّا ولا هزلا

ودخل ضِرَار بن ضَمْرة الكِنانىّ على معاوية بن أبى سُفيان فقال له: صِفْ لى عليًّا فقال له: أو تعفينى؟ فقال: لا أعفيك؟ قال: أما إذ لا بدّ، فإنّه كان بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة نواحيـه، يستوحش من الدنيا وزَهْرتها، ويأنس بالليل وظُلمته، كان والله غزير العَبْرة، طويل الفِكرة، يقلّب كفّيه، ويخاطب نفسَه، يعجبه من اللّباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خَشُن، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقرّبه إلينا وقُربه منا لا نكلّمه هيبةً له، فان تبسّم فعن مثل لؤلؤ منظوم. يُعظّم أهـلَ الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوىُّ فى باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وذكر عمرو بن مَعْدِيكَرِب بنى سُلَيْم فقال : بارك الله على حىّ بنى سليم ما أصدق فى الهيجاء لقاءَها! وأثبت فى النوازل بلاءَها! وأجزل فى النائبات عطاءَها! والله لقد قابلتهم فما أجبتهم، وهاجيتهم فما أفحمتهم، وسألتهم فما أبخلتهم .

وقال بعضُ العرب : فلان حتف الأقران غداةَ النزال، وربيع الضِّيفَان عَشيّة النزول .

وقال آخر: فلان لَيْثٌ اذا غدا، وبدر اذا بدا، ونجم اذا هدى . وسُمّ إذا أردى .

ودخل على النُّعمان بن المُنذِر بن آمرئ القيس ابنُ عمرو بن عدىّ اللخمىّ فحيّاه بتحيّة الملوك ثم قال : أيفاخرك ذو فائش وأنت سائس العرَب ، وعُرْوة الحسب والأدب ، لأمْسُك أيمن من يومه ! ولعبْدك أكرم من قومه ، ولقفاك أحسن من وجهه ، وليسارك أجود من يمينه ، ولظنّك أصدق من يقينه ولوعدك أثلج من رفده ، ولخالك أشرف من جدّه ، ولنفسك أمنع من جُنده ، وليومك أزهر من دهره ، ولفترك أبسط من شبره ، ثم قال

أخلاقُ مجدك جُلّتْ مالها خطر * فى البأس والجود بين الحِلم والخَفَرِ
مُتوّج بالمعالى فوق مَفْرِقه * وفى الوغى ضيغم فى صورة القمرِ
اذا دجا الخطب جلاه بصارمه * كما يُجلّى زمانُ المحل بالمطرِ

فتهلّل وجهُ النعمان سرورًا، ثم أمر أن يُحشى فوه درّا وكُسِىَ أثواب الرضى وكانت حباب أطواقها الذهب بقصب الزمُرّد . ثم قال النّعمانُ : هكذا فليمدح الملوك .

وذو فائش : هو سَلامة بن يزيد بن سَلامة من ولد يَحْصُب بن مالك وكان النابغة

مُتّصلا به قبـل آتصاله بالنّعمان ، وله فيه مدائح كثيرة فاقتص الله تعـالى من النّعمان آبن المنذر بعـد ذلك لمـا حُكِيَ أنه دخل حسان بن ثابت على الجفنيّ فقال : آنعم صباحا أيها الملك ! السماء غِطَاؤك ، والأرض وِطَاؤك ، ووالدى ووالدتى فِداؤك ، أنّى ينافسك آبن المنذر؟ فوالله لَقذالك أحسن من وجهه ، ولأمّك خير من أبيه ، ولظلك خير من شخصه ، ولصَمْتك أبلغ من كلامه ، ولشمالك خير من يمينه ، ثم قال ٥

قذالك أحسنَ من وجهه * وأمّك خيرٌ من المنذر

ويُسرَى يديك اذا أعسرتْ * كيُمنى يديه فلا تمـترى

أخذ المعنى الحسنُ بن هانئ فقال

بأبى أنت من غزالٍ غرير * بذّ حسنَ الوجوه حسنُ قفاكا

ونظر بعض الشـعراء الى هذا المعنى فقال يمدح زُبيدة آبنة جعفر بن أبى جعفر ١٠ المنصور أم الأمين

أزبيـدة آنـــة جعفر * طـوبَى لزائرك المُثـابِ

تعطين من رجليـك ما * تعطى الأكفُّ من الرِّغابِ

فلما أنشد ذلك تبادر العبيدُ ليوقعوا به فقالت زبيدةُ : كفّوا عنه فلم يرد إلّا خيرًا ، ومن أراد خيرًا فأخطأ خير ممّن أراد شرًّا فأصاب ، إنّه سمع الناس يقولون : قفاك ١٥ أحسن من وجه غيرك ، وشمالك أندى من يمين سواك ، فقدّر أن هذا مثل ذاك ، أعطوه ما أمل ، وعرّفوه ماجهل . ومثله : مدح شاعرٌ أميرا فقـال

أنت الهمام . آبن الهما * م الواسع آبن الواسعهْ

فقال له : من أين عرفتها؟ قال : قد جرّبتها فقال : أسوأ من شعرك ، ما أتيت به من عذرك ! ٢٠

قال دخل خالدُ بن عبد الله العنبرىّ على عمر بن عبد العزيز لمّا ولى الخلافة فقال : يا أمير المؤمنين من تكن الخلافة قد زانَتْه فأنت قد زيّنتها، ومن يكن شرّفته فقد شرّفتَها، وأنت كما قال الشاعر

وإذا الدّر زان حسنَ وجوه * كان للدّر حسنُ وجهك زَيْنا

٥ فقال عمر بن عبد العزيز : أُعْطِىَ صاحبكم مَقُولا، ولم يُعْط معقولا . ولمّا دخل عبد الله المأمون بغدادَ تلقّاه وجوه أهلها فقال له رجل منهم : يا أمير المؤمنين! بارك الله لنا فى مَقْدمك، و زادك فى نعمتك، وشكرك على رعيّتك، تقدّمتَ من قبلك، وأتعبت من بعدك، وأيأسْتَ أن نُعاين مثلك، أمّا فيمن مضى فلا نعرفه، وأمّا فيمن بقى فلا نرجوه، فنحن جميعا ندعولك، ونُثنى عليك . خَصِبَ لنا جنابك، وعَذُب ١٠ شرابك، وحَسُنتْ نُصرتك، وكَرُمتْ مقدرتك . جبرتَ الفقيرَ، وفككتَ الأسير، فأنت يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

مازلت فى البذل للنوال و إطـ * ـلاق لعانٍ بجرمه عَلِقِ

حتى تمنّى البُراء أنّهم * عندك أمسوا فى القِدّ والحَلَقِ

وقال رجل للحسن بن سَهْل : لقد صرت لا أستكثر كثيرَك، و إن قليلك أكثر ١٥ من كثير غيرك . وقال الرشيد لبعض الشعراء : هل أحدثتَ فينا شيئًا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! المديح كلّه دون قدرك، والشّعر فيك فوق قدرى . ولكنى أستحسن قول العَتّابى

ماذا عسى مادح يُثنى عليك وقد * ناداك فى الوحى تَقديسٌ وتطهيرُ

فتّ المادح إلا أن ألسننا * مستنطقات بما تخفى الضمائرُ!

وقال رجل فى خالد بن صفوان : قريع المنطق، جزل الألفاظ، عربىُّ اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتا قؤولا ، يَهنأ الجرب، ويداوى الدبر، ويفك المحزّ، ويطبق المِفْصَل، لم يكن بالزَمِر فى مروءته، ولا بالهِذر فى منطقه، متبوعا غير تابع، كأنّه عَلَم فى رأسه نار .

وقيل لبعض الخلفاء: إن شَبِيب بن شَيبة يستعمل الكلام ليستعدّ به؛ فلو أمرتَ به ان يصعد المنبر فُجَاءَة لأفتضح ، قال : فأمر من أخذ بيده فصعد المنبرَ فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبىّ صلى الله عليه وسلّم ثم قال : إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة؛ فمنها : الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر، فأشبهُ منه صولته ومضاؤه . وأما البحر الزاخر، فأشبه منه جُوده وعطاؤه . وأمّا القمر الباهر، فأشبه منه نوره وضياؤه . وأما الربيع الناضر، فأشبه منه حسنه وبهاؤه، ثم نزل .

وقيل دخل رجل على المنصور فقال له تكلّم بحاجتك؛ فقال : يبقيك الله تعالى يا أمير المؤمنين ! قال : تكلّم بحاجتك ؛ فإنّك لا تقدر على مثل هذا المُقام فى كلّ حين . قال : والله يا أمير المؤمنين ! ما أستقصر أجلَك، ولا أخاف بخلَك، ولا أغتنم مالك، وإن عطاءك لشرف، وإنّ سؤالك لزين، وما بآمرئ بَذَلَ اليك وجهَه نقص ولا شَيْن، فأحسن جائزته وأكرمه .

وقال محمد بن مالك القُرطبىّ من رسالة : ما رأيتُ وجها أسمح، ولا حِلما أرجح، ولا سجيّة أسمح، ولا بِشرا أبدى، ولا كفًّا أندَى، ولا غُرّة أجمل، ولا فضيلة أكمل،

ولا خُلُقًا أصفى، ولا وعدا أوفى، ولا ثوبًا أطهر، ولا سَمْتا أوفر، ولا أصلا أطيب، ولا رأيا أصوب، ولا لفظًا أعذب، ولا عِرْضا أنقى، ولا بناء أبقى، ممّا خصّ الله به ثالث القمرين، وسِراج الخافقين، وعِماد الثّقلين المُعْتَصِم بالله .

وقال بعض الكتّاب : إنّ من النعمة على المُثنِي عليك أن لا يخاف الإفراط ، ولا يأمن التقصير ، ولا يحذر أن يلحقه نقيصة الكذب ، ولا ينتهى به المدحُ الى غاية ، إلا وجد فى فضلك عونا على تجاوزها . ومن سعادة جَدِّك أنّ الداعِىَ لك لا يعدم كثرةَ المشايعين له ، والمؤمِّنين معه .

وقال آخر : إنى فيما أتعاطَى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر الذى لا يخفى على كلّ ناظر ، وأيقنت أنى حيث انتهى بى القول الى العجز مقصرٌ عن الغاية فانصرفت عن الثناء عليك الى الدعاء لك ، ووكلت الإخبارَ عنك الى علم الناس بك .

وقال أبو عبد الله محمد بن الخيط من رقعة طويلة فى المظفّر فى أوّلها : حجب الله عن الحاجب المظفّر أعينَ النائبات ، وقبض دونه أيدى الحادثات ؛ فإنه مذ كان أنورَ من الشمس ضياءً، وأكمل من البدر بهاءً، وأندى من الغيث كفًّا، وأحمى من الليث أنفا، وأسخى من البحر بذلا، وأمضى من النصل لسانا، وأنجبه المنصور فجرى على سَنَنِه، وأدّب فأخذ بسُننه، وكانت الرياسة عليه موقوفة، والسياسة اليه مصروفة، قصرت الأوهام عن كنه فضله، وعجزت الأقلام عن وصف مثله، غير أن الفضائل لابدّ من نشرها، والمكارم لا عذر فى ترك شكرها .

فهذه نبذة كافية مما ورد فى المنثور فلنذكر ما ورد من المنظوم فى ذلك .

قال أبو هلال العسكرىّ : سمعتُ أبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد يقول : امدح بيت قالته العرب قول النابغة الذبيانىّ يمدح النّعمان بن المنذر

ألم تر أن الله أعطاك سُورة؟ * ترى كلَّ ملْك دونها يتذبذَب
بأنك شمس والملوك كواكب * اذا طلعت لم يبدُ منهنّ كوكبُ

وهو مأخوذ من قول بعض شعراء كندةَ مدح عمرو بن هند ٥

تكاد تميد الأرض بالناس أن رأوا * لعمرو بن هند غضبةً وهو عاتبُ
هو الشمس وافت يوم سعدٍ فأفضلتْ * على كلّ ضوء والملوكُ كواكبُ

وقال نُصَيب

هو البدر والناس الكواكبُ حوله * وهل يشبه البدرَ المضىءَ كواكبُ

وقالوا : أبدع بيت قيل فى المديح قول النابغة ١٠

فإنك كالليـل الذى هو مدركى * وإن خِلْتُ أن المنتأَى عنك واسعُ

وقوله : "أخلاقُ مجدك" — الأبيات وقد تقدمت — وقد تداول الناس قول النابغة

* فإنك كالليل الذى هو مُدركى *

فقال الفرزدق

فـلو حملتْـنى الريحُ ثم طلبتنى * لكنتُ كشىءٍ أدركته مقادرُهْ ١٥

وقول النابغة أبلغ ، لأن الليـل أعمّ منْ الريح ، والريح يُمتنع منها بأشياء ، والليل لا يمتنع منه بشىء . وأخذ سلم الخاسر قول الفرزدق فقال

فأنت كالدهر مبثوثا حبـائله * والدهر لا ملجأ منه ولا هربَ
ولو ملكتُ عِنانَ الريح أصرفه * فى كلّ ناحيـةٍ ما فاتك الطلبُ

وقالوا : أجود شيء قيل فى الحسن مع الشجاعة من شعر المتقدّمين والمحدَثين قول أبى العتاهية يمدح الرشيد بن المهدىّ وولده

بنو المصطفى! هارون حول سريره * نخير قيامٍ حوله وقعودِ
تُقلِّب ألحاظَ المهابة بينهم * عيونُ ظباءٍ فى قلوب أسود

٥ وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول أبى الطَّمَحان القَينىّ

أضاءت لهم أحسابهم ووجوهُم * دجى الليل حتى نظَّم الجَزْعَ ثاقبُهْ
نجوم سماء كلّما انقضّ كوكبٌ * بدا كوكب يأوى اليه كواكبُهْ
وما زال منهم حيث كان مسوّدٌ * تسير المنايا حيث سارت كتائبُهْ

وهذه الأبيات من قصيدة مدح بها بُجَيرُ بنُ أوس بنُ حارثةٍ ، ابنَ لأُمِ الطائى ،

١٠ وكان أسيرا فى يده، فلما مدحه بها أطلقه بعد أن جزّ ناصيته ؛ وأوّل القصيدة

اذا قيل : أىّ الناس خيرٌ قبيلةً؟ * وأصبر يوما لاتوارى كواكبُهْ ؛
فإنّ بنى لأم بن عمرو أرومةٌ * علتْ فوق صعبٍ لاتُنال مراتبُهْ!

أضاءت لهم أحسابهم الأبيات .

ومثله قول ابن أبى السَّمْط

١٥ فتى لا يبالى المدلجون بنوره * الى بابه أن لا تضىءَ الكواكبُ
له حاجبٌ من كلّ أمرٍ يَشينه * وليس له عن طالب العُرف حاجبُ

ومثله قول الحُطيئة

نمشى على ضوء أحساب أضأن لنا * كما أضاءت نجومُ الليل للسارى

ومثله قول الآخر

٢٠ وجوهٌ لو انّ المدلجين اعتشوا بها * صدعن الدجى حتى يُرى الليلُ ينجلى

وقال عيسى بن أوس يمدح الجُنَيد بن عبد الرحمن

الى مستنير الوجه طال بسؤددٍ * تقاصَرَ عنه الشاهقُ المتطاوِلُ
مدحتك بالحق الذى أنت أهله * ومن مِدَحِ الأقوام حَقٌّ و باطلُ
يعيش الندى مادمت حيًّا فإن تمت * فليس لحىّ بعد موتك طائلُ
وما لأمرئ عندى مَخِيلةُ نعمةٍ * سواك وقد جادت علىّ مَخائلُ ٥

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى

فتًى، لو يُنادى الشمسَ ألقت قناعَها * أو القمرَ السارى لألقَى المَقالدَا

وهذا من الغلو وهو مذموم عند بعضهم .

ومثله فى الغلو قول طُرَيْح بن إسماعيل

لو قلتَ للسيل : دع طريقك والـ * ـموج عليه كالهَضْبِ يعتلجُ ١٠
لأرتدّ أو ساخ أو لكان له * فى جانب الأرض عنك منعرَجُ

ومن الغلو قول أبى تمّام فى المعتصم بالله

بيُمنِ أبى إسحاقَ طالت يدُ العلى * وقامت قناة الدين واشتدّ كاهلُهْ
هو البحر من أىّ النواحى أتيتَه * فلُجّتُه المعروفُ والجود ساحلُهْ
تعوّد بسطَ الكفّ حتى لو أنه * أراد انقباضا لم تُطعْه أنامِلُهْ ١٥
ولو لم يكن فى كفّه غيرُ نفسه * لجاد بها فليتّقِ اللهَ سائلُهْ

وقال العسكرىّ

وكيف يَبيت الجارُ منك على صدًى؟ * وكفُّك بحرٌ لُجّة الجود ساحلُهْ

وقال أبو هلال العسكرىّ يرفعه الى الأصمعىّ قال : سمعت أعرابيّا يقول : إنكم معاشر أهل الحضر، لتخطئون المعنى، إنّ أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن فيقول : كأنها الشمس ، ولم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه؟ ثم قال : والله لأُنشِدنّك شعرا يكون لك إماما . ثم أنشدنى

٥ اذا سألتَ الورى عن كلِّ مَكرُمةٍ * لم تُلفِ نِسبتها إلا الى الهَوْلِ
فتى حوادا أعار النِّيلَ نائلَه * فالنِّيلُ يشكو منه كثرةَ النَّيْلِ
والموت يَرهَبُ أن يلقَى منيّته * فى شدّة عند لفّ الخيل بالخيلِ
لو عارض الشمس ألفَى الشمسَ مظلمةً * أو زاحم الصُّمَّ ألجاها الى المَيْلِ
أو بارز الليلَ غطّته قوادمُه * دون الخوافى كمثلِ الليل فى الليلِ
١٠ أمضى من النجم إن نابته نائبةٌ * وعند أعدائه أجرى من السيل

ومثله قول الآخر

علّم الغيثَ الندى حتى اذا * ماحكاه علّم البأسَ الأسَدْ
فله الغيث مقرٌّ بالندى * وله الليث مقرٌّ بالجلَدْ

وقال امّية بن أبى الصلت فى عبد الله بن جُدْعان

١٥ أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حياؤك؟ إن شيمتك الحياءُ
كريم لا يغيّره صباحٌ * عن الخُلُق الكريم ولا مَساءُ
فأرضك أرضُ مكرمة بنتها * بنو تَيْمٍ وأنتَ لها سماءُ

ونحوه قوله

لكل قبيلة شرفٌ وعزٌّ * وأنت الرأسُ تقدمُ كلَّ هادِ

وقال ابن الرومىّ

قوم يحلّون من مجدٍ ومن شرفٍ * ومن غَناء محلَّ البَيْض واليلَبِ
حلّوا محلّهما من كلّ جُمجمة * نفعا ودفعا وإطلالا على الرتبِ
قوم هم الرأسُ إذ حسّادهم ذنَبٌ * ومن يمثّلُ بين الرأس والذنبِ

وقال أبو هلال العسكرىّ ٥

فابشر فإنك رأس والعلى جَسَدٌ * والمجد وجهٌ وأنت السمع والبصرُ
لولاك لم تك للأيّام مَنقَبَـــةٌ * تســمو اليها ولا للدهر مفتخَرُ

وقال علىّ بن جَبَلَة

لولا أبو دُلَف لم تَحْىَ عارفَـــةٌ * ولم يَنُـؤْ نَوْءُ مأمـــولٍ بآمالِ
يابنَ الأكارمِ من عدنان، قد علموا * وتالد المجـد بين العمّ والخالِ ١٠
وناقلَ الناس من عُدْمٍ الى جدَةٍ * وصارفَ الدهر من حالٍ الى حالِ
أنت الذى تُنزِل الأيّام منزلَها * وتُمسِك الأرضَ عن خسفٍ وزلزال
وما مددتَ مدَى طرفٍ الى أحدٍ * إلا قضَـيتَ بآمـــالٍ وآجال
تَزْوَرُّ سخطا فتمسى البِيضُ راضيةً * وتَستهِلُّ فتبـــكى أوجهُ المـال

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول زهير ١٥

تراه اذا ما جئتـــه متهـــللاً * كأنك تعطيه الذى أنت سائلُهْ

وعاب بعضهم هذا البيت وقال : جعل الممدوح يفرح بغرض يناله ، وليس هـذا صفة كبير الهمة ، والجيّد قول أبى نوفل عمرو بن محمد الثقفىّ

ولئن فرحتَ بمـا يُنيلُك إنه * لبمـا ينيلك من نداه أفرح
ما زال يعطى ناطقا أو ساكتا * حتى ظننت أبا عَقيلٍ يمـزح ٢٠

ومثله قول أبى تمّام

أسائلَ نَصرٍ لا تَسـلْه فإنّه * أحنّ الى الإرفاد منك الى الرِّفد

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول الحُطَيئة

متى تأته تعشو الى ضوء * تجدْ خيرَ نار عندها خيرُ مُوقد

٥ وقال القاسم بن حنبل

من البِيضِ الوجوهِ بنى سِنانٍ * لو آنك تستضىء بهم أضاءوا
لهم شمس النهار اذا آستقلّتْ * ونورٌ لا يغيّبه العماءُ
هم حلُّوا من الشرف المعلّى * ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
فلو أنّ السماء دنتْ لمجدٍ * ومكرمةٍ دنتْ لهمُ السماءُ

١٠ وقالوا أيضا : أمدح بيتٍ قيل قول الأوّل أيضا

قومٌ، سِنانٌ أبوهم حين تنسبهم * طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يَقْعُدُ فوق الشمس من كرمٍ * قومٌ بعزّهمُ أو مجدِهمْ قَعَدُوا
مُحسّدون على ما كان من نِعمٍ * لا ينزع الله عنهم ما له حُسِدوا

وقالوا : أمدح بيتٍ قاله محدّث ، قول مروان بن أبى حفصة فى معن

١٥ آبن زائدة

بنو مطرٍ يومَ اللقاء كأنّهم * أسودٌ لها فى غيلِ خفّان أشبُلُ
هم المانعون الجارَ حتى كأنما * لجارهمُ بين السّماكَيْنِ منزِلُ
بَهاليلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن * كأوّلهم فى الجاهليّة أوّلُ
هم القوم، إن قالوا أصابوا، وإن دُعُوا * أجابوا، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

وقال العسكرىّ : وأنشد بعض أهل الأدب قول ٱبن أبى طاهر وقال : لو ٱستعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدّم ومتأخّر وهو

إذا أبو أحمـــدٍ جادت لنا يدُه * لم يُحْمَدِ الأجودان : البحرُ والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوارُ غُرّته * تضاءل النيّران : الشمسُ والقمر
وإن مضى رأيُه أو جدّ عزمتَه * تأخّر الماضيان : السيفُ والقدَرُ
من لم يكن حَذِرًا من حدّ صولته * لم يدر ما المزعجان : الخوفُ والحذَرُ
حُلْوٌ، اذا أنت لم تَبعثْ مرارتَهُ * فإن أمرّ فحلوٌ عنده الصَّبِرُ
سهلُ الخلائقِ إلا أنه خَشِنٌ * لَيِّنُ المهزّة إلا أنه حجـــر
لا حَيَّةٌ ذَكَرٌ فى مثل صولتـــه * إن صال يوما ولا الصَّمصامةُ الذكَرُ
اذا الرجالُ طغَتْ آراؤهم وعَموا * بالأمر رُدَّ اليـــه الرأىُ والنظر
الجود منـــه عِيانٌ لا ٱرتيابَ به * إذ جود كلّ جوادٍ عنـــده خبر

وقال : ومن المديح القليل النظير، قول علىّ بن محمد الأفوه

أوفَوا من المجدِ والعلياءِ فى قُلَلٍ * شُمٍّ، قواعدُهنّ البأسُ والجودُ
سُبْطُ اللقاءِ اذا شيمت مخائلهم * بُسْلُ اللقاء اذا صيد الصناديدُ
مُحْسِـــدون ، ومَن يعلقْ بحبلِهم * من البريّةِ يصْبحْ وهو محسودُ

وقالوا : أمدح بيت قاله محدّث قول علىّ بن جَبَلَة فى أبى دُلَف

إنما الدنيا أبو دُلَف * بين باديه ومحتضرِهْ
فاذا ولّى أبو دُلَف * ولّتِ الدُّنيا على أثرِهْ

وهى من القصائد المشهورة، وأولها

ذاد وِرد الغىّ عن صَدرِه * وٱرعوى، واللهْو من وطَرِه

جاء منها فى مدحه

يا دواء الأرض إنْ فسدتْ * ومُجيرَ اليسر من عُسُرِهْ
كلّ من فى الأرض من عَرَبٍ * بين باديه الى حَضرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمةً * يكتسيها يومَ مفتخَرِهْ
إنما الدنيا أبو دلف * ... ...

قال العسكرىّ : ومن المديح البارع قول بشار

ألا أيها الطالبُ المبتغِى * نجومَ السماء بسعى أَمَمْ
سمعتَ بمكرمة آبن العلاءِ * فأنشأت تطلُبها لستَ ثَمْ
اذا عَرَض الهمُّ فى صدره * لَهَا بالعطاء، وضرب البُهَمْ
فقل للخليفة إن فقه * نصيحا ولا خيرَ فى المتَّهَمْ
اذا أيقظتك جسامُ الأمورِ * فنبِّهْ لها عُمَرًا ثم نَمْ
فتًى، لا يبيت على دِمنة، * ولا يشرب الماء إلا بدَمْ
يحبّ العطاءَ وسفكَ الدماءِ * فيغدو على نِعَمٍ أو نِقَمْ

قال ومن المديح القليل النظير : قول أمامة بنت الجلّاح الكلبيّة

اذا شئت أن تلقى فتى لو وزنته * بكلّ معدّىّ وكلّ يمانى
وفَى بهمُ جودا وحلما وسؤددًا * وبأسًا، فهذا الأسود بن قنان
فتى، كالفتاة البكر، يُسفرُ وجهُهُ * كأن تلالِى وجهه القمران
أغرُّ أبُ آبنى نِزار ويعرُبٍ * وأوثقهم عَقْدا بقول لسان
وأوفاهمُ عهدًا وأطولهم يدا * وأعلاهمُ فِعْلا بكلّ مكانِ .

وأضربُهم بالسيف من دون جارِهِ * وأطعنُهـم من دونهِ بسنانِ
كأنّ العطايا والمنـايا بكفه * سحابانِ مقـرونانِ مؤتلفانِ

ومن المديح البارع قول أبى تمّـام

رأيت لعيّاشٍ خلائقَ لم تكن * لتكمُلَ إلّا فى اللُّبـاب المهـذّبِ
له كرمٌ لو كان فى المـاء لم يَغِضْ * وفى البرق ما شام آمرؤ برقَ خُلّبِ ٥
أخو عزماتٍ بذله بذلُ محسنٍ * الينا ولكن عذره عذر مذنبِ
يهولُك أن تلقاه فى صـدر محفـلٍ * وفى نحـرِ أعداءٍ وفى قلب موكبِ
وما ضيقُ أقطار البلاد أضافنى * اليك ولكن مذهبى فيـك مذهبى
وهذى بنات المدح فآجرر ذيولها * عليك وهذا مركب الحمد فآركبِ

وقد أحسن التّنوخىّ فى قوله ١٠

وفتيـة من حِمْيَرٍ حُمرِ الظُّبَى * بيضِ العطايا حين يَسـودُّ الأَمَلْ
شموسِ مجـدٍ فى سموات عُـلًى * وأُسْـد مَوتٍ بين غاباتٍ أَسَـلْ

وقالت الخنساء فى أخيها صخر (٥٦)

طويل النجاد رفيـع العما * د سـاد عشـيرتَه أمردا
اذا القـوم مدّوا بأيديهـمُ * الى المجـدِ مدَّ اليـه يدا ١٥
فنـال الذى فوق أيديهـمُ * من المجـد ثم مضى مُصْعِدا
فكلّفـه القـومُ ما عالهم * وإن كان أصغرهم مَوْلِدَا
ترى الحمـد يهوى الى بيته * يرى أفضلَ الكسب أن يُحمَدا

قال آخر

ومُصْعِدٍ هضباتِ المجد يطلعها * كأنه لسكون الجأش منحدرُ
مازال يسبق حتى قال حاسِدُه * له طريقٌ الى العَلياء مُخْتَصَرُ

وقال إبراهيم بن العبّاس

٥ تَلج السنون بيوتَهم وترى لها * عن بيت جارهم آزورار مناكِبِ
وتراهم بسيوفهم وشفارهم * مستشرفين لراغبٍ أو راهبِ
حامين أو قارِين حيث لقيتهم * نهبَ العفاة ونزهة للراغبِ

وقال أيضا

اذا السَّنَةُ الشَّهباء مدّتْ سماءَها * مددت سماءً دونها فتحلّتِ
١٠ وعادت بك الريح العقيم لدى القِرى * لِقاحا فدرّت عن نداك وطَلّتِ

وقال ابن الرومىّ

كأن مواهبه فى المحو * ل رّاؤه عند ضِيق الحيلْ
فلو كان غيثًا لعمّ البلاد * ولو كان سيفا لكان الأجلْ
ولو كان يُعطى على قدره * لأغنى النفوس وأفنى الأملْ

١٥ وقال أبو الحسن بن أبى البغل البغدادىّ يمدح أبا القاسم بن وهب وقد تقدّم ذكر بعضها لابن أبى طاهر

اذا أبو قاسم جادت لنا يدُه * لم يُحمد الأجودان : البحر والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوار غرّته * تضاءل النيّران : الشّمس والقمرُ
وإن بدا رأيُه أو جدّ عزْمته * تأخر الماضيان : السيف والقدَرُ

ينال بالظنّ ما كان اليقين به * والشاهدان عليه العين والأثرُ
كأنّه وزِمام الدهر فى يده * يدرى عواقبَ ما يأتى وما يَذَرُ

وقال ذو الرمّة

يطيب تُراب الأرض إن نزلوا بها * ويختال أن تعلو عليها المنابرُ
وما زلت تسمو للمعالى وتجتنى * جَنى المجد مذ شُدّتْ عليك المآزِرُ
الى أن بلغتَ الأربعين فأُلقِيَت * اليك جماهير الأمور الأكابرُ
فاحكمتها لا أنت فى الحكم عاجز * ولا أنت فيها عن هُدى الحقّ جائرُ

وقال الشّريف الرّضىّ

يامخرس الدّهر عن مقالته * كلّ زمان عليك متّهمُ
شخصُك فى وجه كلّ داجية * صُحًى وفى كلّ مَجْهَل عَلَمُ

وقال أبو الحسن السلامىّ

اذا زرتَه لم تلق من دون بابه * حجابا ولم تدخل عليه بشافع
كماء الفرات الجمّ أعرض وِرْدَه * لكلّ أناس فهو سهل الشرائع
تراه اذا ما جئتَه متهللا * تهلّل أبكار الغيوث الهوامع

وقال محمد بن الحسين الآمدىّ

من القوم لما آستغرب المجدَ غيرهم * من الناس أمسَوا منه فوق الغرائب
اذا سالموا كانوا صدور مراتب * وإن حاربوا كانوا قلوب مواكب
جواد متى ما رامت الريحُ شأوه * كبت دون مَرْمى خطوه المتقارب
وبحر ندًى لو زاره البحر حدّثت * عجائبُه عن فعله بالعجائب

وقال الأصمعى : كنتُ بالبادية فرأيتُ آمرأةً على قبر تبكى وتقول

فمنْ للسؤال ومن للنوال * ومن للقـال ومن للخُطبْ؟
ومن للحُماة ومن للكُماة * اذا ما الكماة جثوْا للرُّكَبْ ؟
اذا قيـل: مات أبو مالك * فتى المكرمات قريع العربْ
[فقـد مات عزّ بنى آدم * وقدْ ظهر النّكد بعد الطرب] (١)

قال : فملتُ إليها، وسألتُها عنه، فقالت : فديتُكَ! هذا أبو مالك الحجّام، ختن أبى منصور الحائك، فما ظننتُ إلا أنّه من سادات العرب .

وقال العِماد الأصفهانىّ

حييّون يخفون إحسـانهم * ويعتذرون كان قد اساءوا
اذا أظلم الدهر أعدوا عليه * وإن أظلم الخطبُ يوما أضاءوا
بمثـلكُمُ قد أقرّ الرجال * فمثلكُمُ لم تلده النِّسـاءُ
وللنـاس من حسن أيّامكم * بدولتكم كلّ يوم هنـاءُ

وقال ايضا

فَـلَأطْوين على أغرّ مُـحَجَّل * عرضَ الفـلاة الى أغرّ محجّبِ
ليث الوغى غَوث الورى غَيْث النّدى * بدر النّدىّ، نعم ! وصـدر الموكبِ
واذا آستوى فى دَسْته مالت له * أعنـاقُ كلّ متـوّج ومُعصّبِ
وتُميت رأفتُـه حقـودَ عـداته * وتَحِـلّ هيبتُـه عقـود المُحتبى
إنّ الممالك ما تزال برأيه * فى صائب ويجـوده فى صيّبِ

(١) الزيادة عن أمالى القالى ج ١ ص ٦٣

يجيـوك معتذرا اليك فيـالَه * من محسن تعروه خجلة مُذنبِ
يُزْهَى بأصـلٍ فى العَلاء مُخَيَّمٍ * شرفا وفرعٍ بالكرام مطنَّبِ

وقال أحمد بن محمد الناميّ

له سُورة فى البشر تُقرأ فى العلا * وتثبُتُ فى صُحْفِ العطاءِ وتُكتَبُ
اذا ما علىٌّ أمطـرتك سمـاؤه * رأيتَ العـــلا أنواؤها تتحلّبُ ٥
وأزهرَ يَبيضّ الندى منه فى الرضا * ويحمرُّ أطرافُ القنا حين يغضبُ
أميرَ الندى ما للندى عنك مَذهبٌ * ولا عنك يوما للرغائب مَرْغَبُ

وقال أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكيّ

سـيدٌ شادت علاه له * فى العـــلا آباؤه النجبُ
وله بيتٌ يُمَـــدّ له * فوق مجرى الأنجمِ الطُّنُبُ ١٠
حســبه بالمصطفى شرفاً * وعلىٌّ حين ينتســبُ
رتبـــةٌ فى العـز شامخةٌ * قصرتْ عن مثلها الرتبُ

وقال ابن نباتة السعديّ

يَرَى الشمسَ أمًّا والكواكبَ إخوةً * وينظرُ مِنْ بدر السماءِ الى تِرْبِ
غنيتُ عن الآمال حين رأيتُـــه * وأصبح من بين الورى كلّهم حسبي ١٥
فلم أطلب المعروفَ من غير كفّـه * وهل تطلب الأمطار إلا من السحب؟

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكيّ

لو نيـل بالمجـد فى العلياء مترلةٌ * لنـال بالمجد أعنـانَ السمواتِ
يرمى الخطوبَ برأيٍ يُستضاء به * اذا دجا الرأىُ من أهل البصيراتِ
فليس يلقاه إلا عنـد عارفـة * أو واقفا فى صدور السمهريّاتِ ٢٠

وقال أبو طالب المأمونى

قد وجدنا خُطا الكلامِ فِساحًا * فجعلنا النسيبَ فيك آمتداحا
وأفضنا ما فى الصدور ففاض الـ * ـمدح قبلَ النسيب فيك آنفساحا
وعمدنا الى علاك فصغنا * لصدور القريض منها وشاحا
وصدعنا فى أوجه الشِّعرِ من بيـ * ـضِ مَساعيكَ بالندى أوضاحا
كم كسيرٍ جبرتَه وفقيرٍ * مستميح رددتَه مُستماحا
وأمانٍ خُرسٍ بسطتَ لها فى الـ * ـقول حتى أعدتهنّ فِصاحا
وبلادٍ جوامحٍ رُضْتَها بالعـ * ـزم حتى أنسيتهنّ الجِماحا
شهرَتْ منك آلُ سامانَ عضبا * يُنجِح السعىَ غربُهُ إنجاحا
لا يذوق الإغفاء إلا رجاءً * أن يرى طيف مستميح رواحا

وقال أحمد بن محمد النامى

أميرَ العلا إن العوالِى كواسبٌ * عَلاءَك فى الدنيا وفى جَنّة الخُلد
يَمرُّ عليك الحولُ، سيفُك فى الطُّلَى، * وطرفُك ما بين الشكيمةِ والقَيْدِ
ويَمضى عليك الدهرُ، فعلُك للعُلا * وقولُك للتقوى، وكفُّك للرِّفدِ

وقال أيضا

فتى، قسّم الايّام بين سيوفه * وبين طريفاتِ المكارمِ والتلدِ
فسوّد يوما بالعَجاج وبالردى * وبيّض يوما بالفضائل والحمد

وقال الصاحب بن عبّاد

أيّها الآملون حُطّوا سريعا * برفيع العماد وارى الزنادِ

فهو إن جاد ذُمّ حاتم طيء * وهو إن قال فلّ قُسّ إيادِ
واذا ما ربا فأين زيادٌ * من علاه وأين آل زيادِ

وقال أبو طالب المأمونيّ من قصيدة

فتًى مُلئتْ بردتاه عُلًا * ونُبلا وفضلًا ومجدًا وخيرا
اذا ضمّه الدّستُ ألفيتَه * سحابًا مَطيرًا وبدرًا مُنيرا
وإن أبرزَتْه وغًى خلتَه * حُساما بَتورا وليثا هَصورا
وطورا مُعيدا وطورا مُبيدا * وطورا مجيرا وطورا أميرا
ترى فى ذراه لسانَ المنى * طويلا وباعَ الليالى قصيرا
تضمّ الأسرّة منه ذُكاءً * وتحمل منه المذاكى ثبيرا

وقال أبو الطيّب المتنبي

يمشى الكرام على آثار غيرهِمُ * وأنت تخلقُ ما تأتى وتبتدعُ
من كان فوق محلّ الشمس موضعُه * فليس يرفعه شيء ولا يضع

وقال أبو المعالى محمد بن مسعود الأصفهانيّ شاعر الخريدة

قد حلّ فى مَدرَج العلياء مرتبةً * مطامحُ الشهبِ عن غاياتها تقِفُ
أغْرَى بوصف معاليه الورى شغفًا * لكنه والمعالى فوق ما وصفوا
إن ناصبتْه العدا فالدهر معتذر * أو أنكروا فضله فالمجد معترف

وقال السلامىّ شاعر اليتيمة

يزور نائلُك العافى وصارمك العاصى فتحويهما أيدٍ وأعناقُ
فى كلّ يوم لبيت المجد منك غنًى * وثروةٌ ولبيت المال إملاقُ
كم خضتَ من لجةٍ للنفع زاخرة * ماءُ المنون بها — حاشاك — دفّاقُ

وقال المتنبي

أنت الجوادُ بلا منّ ولا كدرٍ * ولا مطالٍ ولا وعدٍ ولا مَـلِلِ

وقال أبو الفرج الببّغاء

لاغيثُ نعماه فى الورى خلّب الـ*ـبرق ولا وِردُ جوده وشَلُ

٥ جاد الى أن لم يُبقِ نائلُه * مالًا ولم يَبقَ للورى أملُ

وقال محمد بن الحسن الحاتمىّ شاعر اليتيمة

ومَن عوّدتْه المكرماتُ شمائلا * فليس له عنها — ولو شاء — ناقلُ

وإن راسل الأعداء فالجود رُسْلُه * اليهم وأطراف العوالى الرسائلُ

عظُمتَ، فهذا الدهرُ دونك همةً، * وجُدتَ فهذا القَطرُ عندك باخلُ

١٠ وقال مؤيّد الدين الطغرائىّ

لو دبَّ رأيُك فى كعوبِ قناً * ما مسّها طَنَبٌ ولا خللُ

أو كان ضوءُك للغزالة لم * يَحجبْ ضياءَ جبينها الطَّفَلُ

أو كان لطفُك فى الحياة لما * طافت بها الأسقام والعللُ

أنت الذى لولا علاه عَفَتْ * طُرُقُ الهدى واستبهم السُّبُلُ

١٥ فى كلّ شَعبٍ من رويّته * شُعَبٌ ومن آرائه شُعَلُ

يرتدّ عنه جفنُ حاسدِه * فكأنه بالنار يكتحلُ

وجهٌ كيوم الصحو مبتسمٌ * ويدٌ كليل الدّجنِ تنهملُ

مَسحَتْ على الأنواء راحتُه * فانساق منها العارض الهطِلُ

إن ضنّ غيثٌ أو خبا قمرٌ * فجبينه ويمينه البدَلُ

وقال ٱبن الرومىّ

آراؤكم ووجوهكم وسـيوفكم * فى الحادثات ــ اذا دجونَ ــ نجوم
فيهـا مَعالم للهـدى ومَصـابحٌ * تجـلُو الدجَى والأخرياتُ رُجومُ

وقال أبو الطيّب المتنبّى

قومٌ بلوغُ الغـلام عنـدهُمُ * طعنُ نحـورِ الكماةِ لا الحُـلُمُ ٥
كأنمـا يولَد النـدَى معهم * لاصِـغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ
اذا تولَّوا عـداوةً كشفوا * وإن تولَّوا صنيعة كتموا
تظن من كثرة ٱعتـذارهِم * أنهـمُ أنعموا وما علمـوا
إن برقوا فالحتـوفُ حاضرة * أو نطقوا فالصـواب والحِكَمُ
أو شهدوا الحربَ لاحقًا أخذوا * من مُهَج الدارعين ما ٱحتكموا
أو ركبوا الخيـلَ غيرَ مُسرجةٍ * فإن أخذهم لها حُزُمُ
شُرق أعراضُهم وأوجهُهم * كأنهـا فى نفوسهم شِـيَمُ
أعيـذكم من صروفِ دهركُمُ * فإنه فى الكرام متَّهَـمُ

وقال أيضا

ودانت له الدنيا فأصبح جالسا * وأيّامُـه فيما يريد قيـامُ ١٥
وكلّ أناس يبتغون إمامهم * وأنت لأهل المكرمات إمامُ

وقال أيضا

هم المحسنون الكرَّ فى حَومة الوغى * وأحسنُ منـه كرُّهم فى المكارمِ
ولولا ٱحتقار الأسد شبّهتُها بهم * ولكنها معـدودةٌ فى البهـائم

وقال المشوّق الشامىّ شاعر اليتيمة

يروح الى كسبِ الثناءِ ويغتدى * اذا كان همّ الناس كسبُ الدراهمِ
وإن جلس الأقوامُ عن واجبِ الندى * وحقّ العطايا كان أوّلَ قائمِ
يزيد ابتهاجا كلّما زار قاصد * كأنّ به شوقًا الى كلّ قادمِ

٥ وقال السلامىّ شاعرها

تُشبّه المُذاح فى البأس والندى * بمن لو رآه كان أصغرَ خادمِ
ففى جيشه خمسون ألفا كعنترٍ * وأمضَى وفى خُزّانه ألف حاتمِ

وقال أبو طالب المأمونىّ من قصيدة

يُعمّم بالهندىّ حين يسلُّه * أسودَ الوغى بالضرب فوق العمائمِ
١٠ فلا مُلكَ إلا ما أقمت عروشَه * ولا غيث إلا ما أفضتَ لشائمِ
ولا تاجَ إلا ما توليتَ عقدَه * على جبهة المَلْكِ المكنّى بقاسمِ
فرأيك نجمٌ فى دُجى الليل ثاقبٌ * وعزمُك عضبٌ فى طُلى كلّ ناجمِ

وقال المشوّق الشامىّ

ما زال يبنى كعبةً للعلى * ويجعل الجود لها ركنا
١٥ حتى أتى الناسَ فطافوا بها * وقبّلوا راحته اليُمنَى

وقال المأمونىّ من قصيدة

همام يُبكّى للشرفيّة ساخطا * ويُضحك أبكارَ الأمانىّ راضيا
ولو أنّ بحرا يستطيع ترقّيا * اليه لأمّ البحرُ جدواه راجيا

ذكر ما قيل فى الأفتخار

قالوا : أفخر بيت قالته العرب قول جرير

إذا غضِبتْ عليك بنو تميمٍ * حسبت الناس كلّهمُ غضابا

قال : دخل رجل من بنى سعد على عبد الملك بن مروان فقال له : ممن الرجل؟

قال : من الذين قال لهم الشاعر ٥

اذا غضبت عليك بنو تميم، البيت .

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول فيهم القائل

يزيدُ بنُو سعدٍ على عَدَد الحصى * وأثقلُ من وزن الجبال حُلومُها

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر

بناتُ بنى عوفٍ طَهارَى نقية * وأوجههمْ عند المشاهِدِ غُرّانُ ١٠

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر

فلا وأبيكَ ما ظَلَمَتْ قُرَيعٌ * بأن بنوا المكارمَ حيث شاءوا

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر

قوم هم الأنف والأذناب غيرهُمُ * ومن يسوّى بأنف الناقة الذنَبا

قال : آجلس، لا جلَست، والله لقد خفت أن تفخر علىّ ! ١٥

وقالوا : أفخر بيت قالته العرب قول الفرزدق

ترى الناس ما سِرنا يسيرون خلفنا * وإن نحن أومأنا الى الناس وَقّفوا!

وقال عمرو بن كلثوم وهو أبلغ ما قاله جاهلىّ فى الأفتخار

ونحن الحاكمون إذا أُطِعنا * ونحن العائمون اذا عُصِينا!

ونحن التاركون لما سَخِطْنَا * ونحن الآخذون لما رَضِينا! ٢٠

وقال إبراهيم بن العبّاس

إما ترينى أمامَ القوم متّبعًا، * فقد أرى من وراء الخيل أتّبعُ
يوما أُبيحُ فلا أرعى على نَشَب * وأستبيح فلا أُبقِى ولا أدَعُ
لا تسألى القومَ عن حىّ صبَحْتُهُمُ * ماذا صنعت؟ وماذا أهلُه صنعوا؟

٥ وقالوا : من أحسن ما مَدح به الرجلُ نفسَه قولُ أعشَى ربيعة

وما أنا فى نفسى ولا فى عشيرتى * بمهتضَمٍ حقٍّ ولا قارعٍ سِنّى
ولا مُسلِمٍ مولاى عند جنايةٍ * ولا خائفٍ مولاى من شرِّ ما أجنى
وأن فؤادى بين جنبىّ عالمٌ * بما أبصرتْ عينى وما سمِعتْ أذنى
وفضّلنى فى الشّعر واللُّبِّ أننى * أقول على علمٍ وأعلمُ ما أعنى
١٠ فأصبحتُ إذ فضّلتُ مروانَ وابنَه * على الناس قد فضّلتُ خيرَ أبٍ وابنِ

وقال أبو هفان

لعمرى لئن بُيِّعت فى دارِ غُربةٍ * بناتىَ إذ ضاقت علىّ المآكلُ
فما أنا إلا السيفُ يأكلُ جفنَه، * له حليةٌ من نفسه وهو عاطِلُ

قال أبو هلال العسكرىّ : ولا أعرف فى الافتخار أحسن مما أنشده أبو تمام وهو

١٥ فقل لزهير إن شتمتَ سَراتنا * فلسنا بشتّامينَ للمُتشتِّمِ
ولكننا نأبَى الظّلامَ ونقتضى * بكلِّ رقيقِ الشّفرتين مصمِّمِ
وتجهل أيدينا ويحلُمُ رأيُنا * وتَشتُمُ بالأفعالِ لا بالتكلّمِ

ومن الافتخار قول السموءل بن عاديا من كلمته التى أوّلها

اذ المرء لم يدنَسْ من اللؤم عِرضُه * فكلّ رداءٍ يرتديه جميلُ
٢ وإن هو لم يَحمِل على النفس ضَيْمَها * فليس إلى حُسن الثناء سبيلُ

وقائلةٍ ما بالُ أُسرةِ ماديًا * تُنادِي وفيها قِلَّةٌ وحُمولُ
تُسيِّرنا أنّا قليلٌ عَديدُنا * فقلتُ لها إنّ الكرامَ قليلُ
وما قَلَّ من كانت بقاياه مثلَنا * شَبابٌ تَسامَى للعلا وكُهولُ
وما ضَرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا * عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ
وأنّا أناسٌ لا نَرى القتلَ سُبّةً * اذا ما رأته عامرٌ وسَلُولُ
يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا * وتكرهُهُ آجالُهم فتطولُ
وما مات منّا سيدٌ حتفَ أنفه * ولا طلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ
تَسيلُ على حدِّ الظُّباة نفوسُنا * وليست على غير الظُّباة تسيلُ
صفونا فلم نكدُر وأخلص سِرُّنا * إناثٌ أطابتْ حملَنا وفحولُ
علونا الى خير الظهور وحطَّنا * لوقت الى خير البطون نُزولُ
فنحن كماء المُزنِ ما في نِصابنا * كهامٌ ولا فينا يُعدّ بخيلُ
ونُنكر إن شئنا على الناس قولَهم * ولا يُنكرون القولَ حين نقولُ
اذا سيّد منا خلا قام سيّد * قؤولٌ لما قال الكرامُ فعولُ
وما أُخمدتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ * ولا ذمَّنا في النازلين نزيلُ
وأيامُنا مشهورة في عَدوِّنا * لها غُرَرٌ معلومة وحُجولُ
وأسيافنا في كلِّ شرقٍ ومغربٍ * بها من قِراع الدارعين فُلولُ
معوّدةٌ أن لا تُسَلَّ نِصالُها * فتُغمَدَ حتى يُستباحَ قبيلُ
على إن جهلَ الناس عنا وعنهمُ * وليس سَواء عالمٌ وجهولُ
فإن بني الديّانِ قطبُ قومهمْ * عمودُ رحاهم حولهم وتحولُ

وقال أبو هلال العسكرىّ من قصيدة

وما ضاع مثلى حيث حلّت ركابُه * بلى حيث ضاع المجد مثلىَ ضائعُ
ومِثلىَ مخضوعٌ له غير أنه * اذا كان مجهول الفضائل خاضعُ
ومثلىَ متبوعٌ على كل حالة * فإنْ ينقلب وجه الزمان فتابعُ

٥ وقال عبد الله بن المعتز

سألتكما بالله هل تُعلمانى؟ * ولا تكتما شيأ فعندكما خُبْرى
أأرفعُ نيرانَ القِرى لمُفاتها * وأصبر يوم الرَّوْع فى ثُغرة الثَّغرِ؟
وأُسأل نَيْلا لا يُجاد بمثله * فيفتحه بِشرى ويختمه عُذرى؟

ومن الافتخار قول بعض الشعراء. ويروى لحسّان بن ثابت من قصيدة أوّلها

١٠ أنسيمُ ريحِكِ أم خِيارُ العنبرِ * يا هذه، أم ريحُ مسكِ أزفرِ؟
قولى لطيفك أن يصدَّ عن الحشى * سطواتِ نيرانِ الأسى، ثمّ آهجرى
وآنهى رُماتَك أن يُصِبنَ مَقاتلى * فينالَ قومَك سطوةٌ من مَعشرى
إنّا من النَّفَرِ الذين جِيادُهم * طلعتْ على كِسْرى بريح صَرْصرِ
وسَلَبْن تاجى مُلك قيصرَ بالقنا * وآجتَرْن باب الدَّرب لآبن الأصفرِ
١٥ كم قد وَلَدنا من كريمٍ ماجدٍ * دامى الأظافرِ أو ربيع مُمْطِرِ
خُلِقتْ أنامِلُهُ لقائمِ مُرْهَفٍ * ولِبذْل مَكْرُمة وذِرْوة مِنْبَرِ
يَلْقى الرماحَ بوجهِهِ وبصدره * ويُقيم هامته مقام المِغْفَرِ
ويقول للطَّرف آصطبر لِشَبا القَنا * فهدمتَ ركنَ المجدِ إن لم تَصبِرِ
واذا تأمّل شخصَ ضيفٍ مُقبِلٍ * مُتسرْبِلٍ سِربالَ ثوبٍ أغبَرِ
٢٠ أوما الى الكَوْماء هذا طارقٌ * نحرتْنِىَ الأعداءُ إذْ لم تُنْحَرِ

ذكر ما قيل فى الجود والكرم وأخبار الكرام

حقيقة الجود بذل المـال ، قال الله عزّ وجلّ : (لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وقال تعالى : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ٱستخلص هـذا الدِّينَ لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاءُ وحسنُ الخُلُق ألا فزيِّنوا دينكم بهما » وقال صلى الله عليه وسلم : «تجاوزُوا عن ذنب السَّخِىّ فإن الله عزّ وجلّ آخذ بيده كلّما عَثَر وفاتحٌ له كلّما ٱفتقر» وقال صلى الله عليه وسلم : «الجود من جود الله تعالى فجودوا يجود الله عليكم » . « ألا إن السخاء شجرة فى الجنة أغصانها متدلية فى الأرض فمن تعلق بغصن منها أدخـله الجنة » . « ألا إن السخاء من الإيمـان والإيمـان فى الجنة » . وقال علىّ بن عبد الله بن عبّاس : سادةُ الناس فى الدنيـا الأسخياء . وقال بعضُ الحكماء : الجوَاد من جاد بمـاله وصان نفسه عن مالِ غيره . وقيل لعمرو بن عبيد : ماالكرم؟ فقال : أن تكون بمـالك متبرّعا ، وعن مال غيرك متورّعا . ويقال : مراتب السخاء ثلاثة : سخاء وجودٌ وإيثـارٌ ، فالسخاءُ إعطاء الأقل وإمساك الأكثر ، والجود إعطاء الأكثر وإمساك الأقل ، والإيثارُ إعطاء الكل من غير إمساك بشىء ، وهو أشرف درجات الكرم ، وبه ٱستحقُّوا ثنـاء الله عزّ وجلّ عليهم فى قوله : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) . ومن كلامٍ يُنْسَب الى جعفر بن محمّد : لا يتمّ المعروفُ إلا بثلاثة : تعجيله ، وتصغيره ، وسَتْره . الجُودُ زكاةُ ٱلسّعادة ، وٱلإيثار على النفس موجب لأسم الكرم ، وقال : لا يَسْتَحِى مَن بَذَل القليل فإن الحِرْمان أقلّ منه . قال بعضُ الشّعراء

أعط القليلَ ولا يمنعك قِلّتُهُ ❊ فكلُّ ما سدّ فقرًا فهو محمودُ

وقال علىّ بن الحسين : الكريم يبتهج بفضله ، واللئيم يفتخر بماله .

وقال الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما : أيها الناس من جاد ساد ، ومن بخل رذل ، وأن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه . وقيل ليزيد بن معاوية : ما الجود ؟ قال : أن تُعطى المال من لا تعرف ، فإنه لا يصير اليه حتى يتخطّى من تعرف .

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه : لو لم يكن فى الكرم ، إلا أنه صفة من صفات الله تعالى ، تَسَمَّى بها فهو الكريم عزّ وجلّ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه " . وقيل لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفتَ فى بذل المال ، قال : إن الله عز وجل قد عوّدنى بعادة أن يتفضل علىّ ، وعودته أن أتفضّل على عباده ، وأخاف أن أقطع العادة فيقطعَ عنى . وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلّبىّ : إنك مِتلاف ، قال : منعُ الجود ، سوء ظنّ بالمعبود . قال الله تعالى : (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) . وقال أكثم بن صيفىّ حكيم العرب : ذلّلوا أخلاقكم للمطالب ، وقودوها الى المحامد ، وعلّموها المكارم ، ولا تقيموها على خلق تَذُمُّونَه من غيركم ، وصِلُوا من رغب اليكم وتحلّوا بالجود يُكْسِبكم المحبة ، ولا تعتقدوا البخل ، تتعجلوا الفقر ، أخذه شاعر فقال

أَمِنْ خوف فقر تعجّلْتَه * وأخّرتَ إنفاق ما تجمعُ ؟
فصرتَ الفقير وأنت الغنىّ * وما كنتَ تعدو الذى تصنعُ

وكتب رجل من البخلاء الى رجل من الأسخياء يأمره بالإنفاق على نفسه ويخوّفه الفقر ، فأجابه : (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا) وإنى أكره أن أترك أمرا قد وقع لأمر لعلّه لا يقع .

وكان سـعيد بن العاصى يقول على المنبر : من رزقه الله رزقا حسنا ، فلينفق منه سرا وجهرا ، حتى يكون أسعد الناس به ، فإنمـا يترك ما يترك لأحد رجلين ، إما لمُصْلِح ، فلا يقلّ عليه شىء ، وإما لمفسد ، فلا يبقَى له شىء . أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقـال :

آسـعد بمالِكَ فى الحياة فإنمـا * يبقى خلافك مصلِـحٌ أو مفسِدُ
فاذا جمعت لمفسـد لم يُغنِـهِ * وأخو الصّلاح قليـله يتزيّدُ

وقال أبو ذرّ رضى الله عنه : لك فى مالك شريكان ، الحَدَثَان ، والوارث ، فإن آستطعتَ أن لا تكون أبخسَ الشركاء حظًّا فافعـل . وقال بَزُرْجُمِهر الفارسىّ : إذا أقبلت عليك الدنيا ، فانفق منها ، فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عليك ، فانفق منها ، فإنها لا تبقى ، أخذ الشاعر هذا المعنى فقال

لا تبخلَنّ بدُنْيَا وهى مقبِـلةٌ * فليس ينقُصها التبذير والسَّرَفُ
وإنْ تولّت فأحرى أن تجودَ بها * فالحمد منها إذا ما أدبَرَتْ خَلَفُ

وكان كسرى يقول : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ، فإنهم أهل حسن ظنّ بالله ، ولو أن أهـل البخل ، لم يدخل عليهم من ضَرّ بُخلهم ، ومذمّة الناس لهم ، وإطباق القلوب على بغضهم ، إلا سوءُ ظنّهـم بربهم فى الخلف ، لكان عظيما ، أخذه محمود الورّاق فقال

من ظنّ بالله خـيرا جاد مبتدِئا * والبخل من سوءِ ظنّ المرء بالله

وقيل لأبى عُقَيل البليغ العراقىّ : كيف رأيت مروان بن الحَكَم عند طلب الحاجة اليه ؟ قال : رأيتُ رغبَته فى الإنعام ، فوق رغبتِه فى الشكر ، وحاجتـه الى قضاء الحاجة ، أشدّ من حاجة صاحِبها .

وقال زياد : كفى بالبخيل عارا، أن آسمه لم يقع فى حمد قطّ .

وقال أسماء بن خارجة : ما أُحِبُّ أن أردّ أحدا عن حاجة طَلَبها، لأنه لا يخلو أن يكون كريما، فأصون له عِرْضَه، أو لئيما، فأصون عِرْضى منه .

وقال إبراهيم بن المهدىّ : قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها كان لا يجفّ بيده قلم، ولا يستريح قلبُه، ولا تسكن حركتُه فى طلب حوائج الرجال، وإدخال المرافق على الضعفاء : أخبِرْنى عن الحالة التى خفّفَتْ عنك النَّصَبَ، وهوّنت عليك التعبَ، فى القيام بحوائج الناس، ما هى ؟ قال : قد والله سمعتُ [تغريد الطَّير بالأسحار، فى فروع الأشجار، وسمعتُ خَفْق أوتار العيدان][1] وترجيع أصوات القيان، فما طربتُ من صوت قطّ، طَرَبى من ثناء حسن، بلسان حسن، على رجل قد أحسن، ومن شُكْر حرّ لمنعِم حرّ، ومن شفاعة محتسب، لطالب شاكر. قال إبراهيم : فقلت، لله أبوك ! لقد حشيت كرما . وكان طلحة بن عبدالله بن عوف الزهرىّ من أجود قريش فى زمانه، فقالت له آمرأته : ما رأيت قوما ألأم من إخوتك، فقال لها : لمه ؟ وأنّى قلت ذاك ؟ فقالت : أراهم إذا أيسرتَ أتوك، وإذا أعسرت تركوك، قال : هذا والله كرمهم، يأتوننا فى حال القوّة عليهم، ويتركوننا فى حال العجز عنهم .

وحكى أن رجلا شيخا أتى سعيد بن سالم، وكلّمه فى حاجة وماشاه، فوضع الشيخ زجّ عصاه التى يتوكأ عليها، على رجل سعيد حتّى أدماها، فما تأوّه لذلك، وما تباه، فلما فارقه، قيل له : كيف صبرتَ على هذا منه ؟ فقال : خفتُ أن يعلم جِنايته، فينقطع عن ذكر حاجته .

(١) الزيادة عن النسخة الراغبة .

ذكر من انتهى اليهم الجود فى الجاهلية

وذكر شىء من أخبارهم

(٦١)

والذى انتهى اليهم الجود فى الجاهلية حاتم بن عبد الله بن سعد الطائىّ، وهَرِم بن سِنان المُرِّىّ، وكعب بن مَامَة الإيادى، وضرب المثل بحاتم وكعب، والمشهور حاتم. وكعب هذا: هو الذى جاد بنفسه، وآثر رفيقه بالماء فى المفازة، ولم يشتهر له خبرٌ غير هذا. وأما حاتم فأخباره مشهورة

منها: أنه كان اذا اشتد البَرْد، أمر غلامه يسارا، فأوقد نارا فى بقاع من الأرض، لينظر اليها مَنْ ضلّ عن الطريق، وفى ذلك يقول

أَوقِدْ فإن الليل ليل قَرٌّ * والريح يا واقِد رِيحٌ صِرٌّ
عسى يرى نارَك مَنْ يمرُّ * إن جلبتْ ضيفا فأنتَ حرٌّ

قالوا: ولم يك حاتم يمسك غير سلاحه وفرسه، ثم جاد بفرسه فى سنة أَزْمة.

قالت النوار امرأة حاتم: أصابتنا سنة اقشعرّت لها الأرض، واغبرّ أُفُق السماء، وضنَّتِ المراضِعُ عن أولادها، لا تَبِضُّ بقطرة، وأيقنّا بالهلاك، فوالله، إنّى لفى ليلة صِنَّبْرَة، بعيدة ما بين الطرفين، إذ تَضاغى صِبْيتُنا جُوعا، عبد الله، وعدىّ، وسَفانة، فقام حاتم الى الصبيّين، وقمت الى الصبيّة، فوالله ماسكتوا إلا بعد هَدْأَة من الليل، وأقبل يعلّلنى، فعرفت ما يريد، فتناومت، فلما تهوّرتِ النجوم، إذا بشىء قد رفع كِسْرَ البيت، فقلت: مَنْ هذا؟ فولّى، ثم عاد آخر الليل، فقال مَنْ هذا؟ فقالت: جارتك فلانة، أتيتُك من عند صِبْيَة يتعاوون عوىَ الذئاب، فما وجدتُ معوَّلا إلا عليك أبا عدىّ، فقال: أعجليهم، فقد أسبغك الله وإياهم، فأقبلت المرأة تحمل اثنين،

ويمشى بجانبها أربع كأنها نَعامة حولها رِئالُها ، فقام الى فرسه، فوجأ لبَّته بمُدية، نخر، ثم كَشَط عن جلده، ودفع المدية الى المرأة، وقال : شأنك، فاجتمعنا على اللحم نَشْوِى ، ونأكل، ثم جعل يأتيهم بينا بينا، فيقول : هبّوا عليكم بالنار، والتفع بثوبه ناحية ينظر الينا، لا والله إن ذاق منه مضغة وإنه لأحوج اليه منّا، فأصبحنا وما فى الأرض إلا عظم أو حافر .

وقيل : كان مبدأ الأمر لحاتم فى الجود، أنه لما تَرَعْرَع، جعل يُخرج طعامَه فإن وجد من يأكله معه أكله، وإن لم يجد طرحه، فلما رأى أبوه، أنه يُهلك طعامَه ، قال له : ألْحِق بالإبل، فخرج إليها، فوهب له جارية، وفرسا وفِلْوَها .

وقيل: بل هلك أبو حاتم وهو صغير، وهذه القِصّة كانت مع جدّه سعد بن الحَشْرج، فلما أتى حاتم الإبل، طفِقَ يبتغى الناس، فلا يجدهم، ويأتى الطريق، فلا يجد عليه أحدا، فبينا هو كذلك، إذ بَصُر بركْب على الطريق، فأتاهم، فقالوا: يافتى، هل من قِرًى؟ فقال : تسألوننى عن القِرَى؟ وقد تَرَوْن الإبل! وكان الذى بَصُر بهم، عَبِيد ابن الأبرص، وبِشر بن أبى خازم، والنابغة الذّبيانىّ، وكانوا يريدون النعمان، فنحر لهم ثلاثة من الإبل، فقال عَبِيد : إنما أردنا اللبن، وكانت تكفينا بَكْرة، إن كنت لا بدّ متكلّفا لنا شيئا، فقال حاتم : قد عرفتُ، ولكن رأيت وجوها مختلفة، وألوانا متفرّقة، فظننت أن البلدان غير واحد، فأردت أن يذكر كلّ واحد منكم ما رأى ، إذا أتى قومه فقالوا فيه أشعارا ابتدحوه بها، وذكروا فضله، فقال حاتم : أردت أن أُحسِن اليكم ، فصار لكم الفضل علىّ ، وإنى أعاهد الله أن أضرِب عراقيبَ إبلى عن آخرها، أو تقوموا اليها فتقتسموها ففعلوا! فأصاب كل واحد تسعا وثلاثين بعيرا، ومضوا على سفرهم الى النعمان، وأن أبا حاتم أو جدّه، سمع بما فعل، فقال :

أين الإبل؟ فقال : يا أبت طوقتُك بها طوق الحمامة مجدا وكَرما ، لا يزال الرجل يحمل بيت شعر أثنى به علينا عِوضا من إبلك ، فلما سمع أبوه ذلك ، قال : أبإبلى فعلتَ ذلك؟ قال : نعم ، قال : والله لا أُساكنك أبدا ، فخرج أبوه بأهله ، وترك حاتما ، ومعه جاريته وفرسه وفِلْوه . قال : فبينما حاتم يوما نائم ، إذ آنتبه ، وحوله نحو مائتى بعير تجول وتحطِمُ بعضها بعضا ، فساقها الى قومه ، فقالوا : ياحاتم ، أبقِ على نفسك ، فقد رزقتَ مالا ، ولا تعودَنّ الى ما كنت فيه من الإسراف ، قال : فإنها نهب بينكم ، فانتُهِبت ؛ ثم أقبل ركب من بنى أسد ومن قيس يريدون النعمان ، فلقوا حاتما ، فقالوا له : إنا تركنا قومنا يُثْنُون عليك خيرا ، وقد أرسلوا اليك برسالة ، قال : وما هى ؟ فأنشده الأسديّون شعرا ، لعبيد ، وأنشده الليثيّون شعرا للنابغة ، ثم قالوا : إنا لنستَحِى أن نسألَك شيئا وإنّ لنا لحاجة ، قال : وما هى؟ قالوا : صاحب لنا راجل ، فقال حاتم : خذوا فرسى هذه ، فاحملوا عليها صاحبكم ، فأخذوها ، ورَبَطتِ الجاريةُ فِلْوها بثوبها ، فأفلت فاتبعته الجارية لتردّه ، فقال حاتم : مالحقكم من شىء فهو لكم ، فذهبوا بالفرس والفلو والجارية .

(٦٢) وأما هرِم بن سِنان ، فمن أخباره : أنه آلى على نفسه أنه لا يسلّم عليه زُهَير إلا أعطاه فقلّ مال هَرِم ، وكان زهير يمرّ بالنادى وفيه هرِمٌ فيقول : أنعموا صباحا ماخلا هرما ، وخير القوم تركتُ ؛ قالوا : وكان عبد الله بن جُدعان ، حين كَبُر ، أخذتْ بنو تميم على يده ، ومنعوه أن يعطى شيئا من ماله ، فكان الرجل اذا أتاه يطلب منه ، قال له : آدن منّى ، فاذا دنا منه لَطَمه ، ثم قال : آذهب فاطلب لطمتك أو ترضى ، فترضيه بنو تميم من ماله ؛ وفيه يقول الشاعر

والذى إن أشار نحوك لَطْماً * تبع اللطمَ نائلٌ وعَطاءُ

ومن أخبار الكرام : ما حُكى أنّ خالد بن عبد الله القَسْرىّ أميرَ العراق، كان يكثر الجلوس ثم يدعو بالبِدَر ويقول: إنما هذه الأموال ودائع العرب لابدّ من تفرقتها، فقال ذلك مرّة، وقد وفد عليه أخوه أسد بن عبد الله من خُراسان، فقام، فقال: أيها الأمير إن الودائع تُجمع لا تُفرق، فقال : ويحك! إنها ودائع المكارم؛ وأيدينا وكلاؤها، فإذا أتانا المُملِق فأغنيناه، والظمآن فأرويناه، فقد أدّينا فيها الأمانة، ومرّ يزيد بن المهلّب بأعرابية فى هروبه من سجن عمر بن عبد العزيز، وهو يريد البصرة، فقدّمت له عَنْزا فقبلها، ثم قال لآبنه معاوية : مامعك من النفقة؟ قال ثمانمائة دينار، قال : آدفعها اليها! فقال له آبنه : إنك تريد الرجال، ولا تكون الرجال إلا بالمال، وهذه يرضيها اليسير، وهى بعدُ لاتعرفك، فقال: إن كانت ترضى باليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفنى، فأنا أعرف نفسى، آدفعها إليها، فدفعها اليها.

قال الأحنف : كثرت علىّ الدّيات بالبصرة، لما قُتِل مسعود، فلم أجدها فى حاضرة تميم، فخرجت نحو يَبْرِينَ، فسألت : مَن المقصودُ هناك؟ فأرسلت الى قُبّة، فاذا شيخ جالس بِفِنائها، مؤتزر بشَمْلة، مُحتَبٍ بحبل، فسلمت عليه، وآنتسبت له، فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت : تُوُفِّى، قال : فما فعل عمر بن الخطاب الذى كان يحفظ العرب ويحوطها؟ قلت : مات، قال : فأىّ خبر فى حاضرتكم بعدهما؟ قال : فذكرت الديات التى لزمتنا للأزد وربيعة، قال : أقم، فإذا راعٍ قد أراح عليه بألف بعير، فقال : خذها، ثم أراح عليه آخر بمثلها، فقال: خذها، قلت : لا أحتاج اليها، فآنصرفت بالألف، ووالله ما أدرى من هو الى الساعة.

وروى عن مَعْن بن زائدة، قال : لما هربت من المنصور، خرجت من باب حرب، بعد أن أقمت فى الشمس أياما، وخففتُ لِحْيتى وعارضى، ولبست

جُبَّة صوف غليظة، وركبت جملا، وخرجت عليه لأمضى الى البادية، قال : فتبعنى أسودُ متقلد سيفا، حتى إذا غبت عن الحرس، قَبَض على خِطام الجمل فأناخه، وقبض علىّ، فقلت : ما شأنك؟ فقال : أنت بغية أمير المؤمنين فقلت له : ومن أنا حتّى يطلبنى أمير المؤمنين ؟ فقال مَعْن بن زائدة فقلت : يا هـذا ! آتق الله وأين أنا من معن ؟ فقال : دع هذا عنك، فأنا والله أعرف بك، فقلت له : فإن كانت القصة كما تقول، فهذا جوهر حملتُه معى، بأضعاف ما بذله المنصور، لمن جاءه بى فخذه ولا تَسْفك دَمِى، فقال : هاته، فأخرجتُه اليه، فنظر إليه ساعة، وقال : صدقتَ فى قيمته، لست قابله حتى أسأَلك عن شىء، فإن صدقتنى أطلقتك، فقلت : قل، فقال : إن الناس قد وصفوك بالجود فأخبرنى هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه ! قلت : لا، قال : فنصفه ! قلت : لا، قال : فثلثه ! قلت، لا حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت : إنى أظن قد فعلت هذا، فقال : ما ذاك بعظيم، أنا والله راجل، ورزقى على أبى جعفر، عشرون درهما، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار، وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك، ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن فى الدنيـا من هو أجود منك، ولا تعجبك نفسك، ولتَحقِّرْ بعد هـذا كلّ شىء تفعله ولا تتوقف عن مكْرُمة، ثم رمى بالعقد إلىّ، وخلّى خِطام الجمل وآنصرف، فقلت : يا هذا ! قد والله فضحتَنى، ولسَفْكُ دمى أهونُ علىّ مما فعلت، فخذ ما دفعته اليك، فإنى عنه فى غنًى، فضَحِك، ثم قال : أردت أن تكذّبنى فى مقامى هـذا، فوالله لا آخذه، ولا آخذ لمعروف ثمنا أبدا، ومضى، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنتُ، وبذلت لمن جاءنى به ماشاء، فما عرفت له خبرا، وكأنّ الأرض آبتلعته، وكان سبب غضب المنصور على مَعْن

(٦٣) آبن زائدة : أنه خرج مع عمرو بن يزيد بن عمرو بن هُبَيْرَة وأَبْلَى فى حربه بلاء حسنا.

ويقال : إن شاعرا أتى وهب بن وهب ، وكان جوادا، فمدحه فهَشّ وبَش له وثنى له الوِسَادة وأضافه و رفده وحمله ، فلما أراد الرجل الرحلة ، لم يخدمْه أحد من غِلْمان وهب ، فأنكر الرجل ذلك مع جميل فعله ، فعاتب بعضهم، فقال له الغلام : إنّا انما نُعين النازل على الإقامة ولا نُعين الراحل على الفراق .

٥ وكان الحارث بن هشام المخزومى فى وقعة اليرموك ، وبها أصيب فأثبتته الجراح ، فاستسقى ماء ، فأُتِىَ به ، فلما تناوله ، نظر الى عِكْرِمة بن أبى جهل صريعا فى مثل حاله ، فردّ الإناء على الساقى ، وقال : آمض الى عِكْرِمة بن أبى جهل ، فمضى إليه ، فأبى أن يشرب قبله ، فرجع الى الحارث ، فوجده ميتا ، فرجع الى عِكْرِمة ، فوجده قد مات ، فلم يشرب واحد منهما .

١٠ وقد وصف الناس أهل الجود والكرم بمدائح ، سنذكر ما آستجودناه منها .

فمن ذلك ما حكى عن أبى العباس أحمدَ بن يحيى المعروف بثعلب ، قال : كان ببغداد فتى يُحَنّ ستة أشهر ، فاستقبلته ببعض السكك ذات يوم ، فقال : ثعلب ؟ قلت : نعم ، قال : فأنشِدْنى فأنشدته

وإذا مررتَ بقبره فاعقِرْ به * كُومَ الهِجان وكلَّ طرْفٍ سابِحِ

١٥ وآنضحْ جوانبَ قبره بدمائها * فكذا يكون أخا دمٍ وذَبائحِ

فضَحِك ، ثم سكت ساعة ، وقال : ألا قال؟

آذهبا بى إن لم يكن لكما عَقْـ * ـرٌ على تُرب قبره فاعقِرانى

وآنضحا من دمى عليه فقد كا * ن دمى من نَداه لو تعلمانِ

ثم رآنى يوما بعد ذلك فتأملنى ، وقال : ثعلب ! قلت : نعم ، قال : أنشدنى

٢٠ فأنشدته

أعار الجَـوْدَ نائلُه * إذا ما مالُهُ نَفَـدَا
وإنْ لَيْثًا شَكَا جُبنا * أعار فؤادَه الأسـدا

فضحك، وقال : ألا قال؟

علَّم الجَوْدَ النَّـدى حتّى إذا * ما حكاه علَّم البأسَ الأسدْ
فـله الجَوْدُ مقرٌّ بالنـدى * وله الليثُ مقرٌّ بالجَـلَدْ ٥

وقال مسلم بن الوليد وهو ممـا يجوز إيراده فى الشجاعة والكرم

يجود بالنفس إن ضنّ الجوادُ بهـا * والجود بالنفس أقصى غايةِ الجودِ

وأول من أتى بهذا المعنى علقمة بن عَبْدة حيث قال

تجود بنفس لا يُجَـاد بمثلها * فأنتَ بها يوم اللِّقاء خَصِيبُ

وهذا مثل قول يزيد بن أبى يزيد الشيبانى : من جاد بنفسه عند اللقاء ، وبماله ١٠ عند العطاء، فقد جاد بنفسيه كلتيهما . قالوا : وأجود ماقيل فى ذلك قول أبى العتاهية يمدح العباس بن محمد

لو قيـل للعباس يا ٱبنَ محمـد * قل "لا" وأنت مخلّد ما قالَها
إن السماحة لَم تَزَلْ معقولةً * حتّى حللتَ براحتيك عِقَالَها
وإذا الملوك تسايرتْ فى بلدة * كانوا كواكِبها وكنتَ هِلَالَها ١٥

فلم يثبه العباس، فقال

هززتُك هِزَّة السيف المحـلَّى * فلما أن ضربت بك ٱنثنيتُ
فهبها مِدْحةً ذهبت ضـياعا * كَذَبتُ عليك فيها وٱفتريتُ

فلما سمع العباس الأبيات غضب ، وقال : والله لأجهدنّ فى حتفه ، قال : فمرّ أبو العتاهية بإسحاق بن العباس، وقال له إسحاق : أنشدنى شيئا من شعرك فأنشده ٢٠

ألا أيها الطالبُ المستَغيثُ * بمن لا يُفيدُ ولا يَرْفِدُ
ألا تسأل الله من فضله * فإن عطاياه لا تَنْفَدُ
إذا جئت أفضلهم للسؤا * ل ردّ وأحشاؤُه تَرْعَدُ
كأنّك من خشيةٍ للسؤا * ل فى عينه الحيّةُ الأسودُ
ففِرّ الى الله من لؤمهم * فإنى أرى الناس قد أَصْلَدُوا
وإنى أرى الناس قد أبرقُوا * بلؤم الفِعَال وقد أَرْعَدُوا

ثم مضى ، فقيل لإسحاق : إن هذا الشعر له فى أبيك ، فقال إسحاق : أولى له ، لم عرّض نفسه وأحوج أبا العتاهية إلى مثل هذا مع ملكه وقدرته ؟

وقد أورد أبو الفرج الأصفهانىّ خبر هذه الأبيات ، فقال : آمتدح ربيعة الرَّقِّى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بقصيدة لم يُسْبق اليها حسنا ، وهى طويلة يقول فيها

لو قيل للعباس : يا آبن محمّدٍ * قل "لا" وأنت مخلّد ماقالهَا
ماإن أعدّ من المكارم خَصْلة * إلا وجدتُك عمّها أو خَالهَا
وإذا الملوك تسايرت فى بلدة * كانوا كواكبها وكنتَ هِلالهَا
إن المكارم لم تَزَلْ معقولةً * حتّى حللتَ براحتيك عقالهَا

قال : فبعث إليه بدينارين ، وكان يقدّر فيه ألفين ، فلما نظر إلى الدينارين ، كاد أن يُجَن غضبا ، وقال للرسول : خذ الدينارين فهما لك على أن تردّ إلىّ الرُّقعة ، من حيث لا يدرى العباس ، ففعل الرسول ذلك ، فأخذها ربيعة ، وأمر من كتب فى ظهرها

مدحتُك مِدْحة السيف المُحَلَّى * لتجْرِىَ فى الكرام كما جريتُ
فهبها مِدْحة ذهبت ضياعا * كذبتُ عليك فيها وٱفتريتُ
فأنت المـــرء ليس له وَفَاءٌ * كأنى إذْ مدحتُك قد زَنَيتُ

(٦٤) ثم دفعها إلى الرسول وقال : ضعها فى الموضع الذى أخذتَها منه ، ففعل ، فلما كان من الغد ، أخذها العباس فنظر فيها ، فلما قرأ الأبيات ، غضب ، وقام من وقته ، فركب إلى الرشيد ، وكان أثيرا عنده يبجّله ويقدّمه ، وكان قد هم أن يخطب اليه ٱبنته ، فرأى الرشيد الكراهة فى وجهه ، فقال ماشأنك؟ قال: هجانى ربيعة الرقّى ، فأحضره الرشيد ، وقال له : يا ماصّ كذا وكذا من أمه أتهجو عمّى ، وآثر خلق الله عندى؟ لقد هممت أن أضرب عنقك ، فقال : ياأمير المؤمنين ، والله لقد ٱمتدحتُه بقصيدة ما قال أحد مثلها من الشعراء فى أحد من الخلفاء ، ولقد بالغت فى الثناء ، وأكثرت الوصـــف ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضارها فعل ، فلمـــا سمع الرشيد ذلك ، سكن غضبه ، وأحب أن ينظر فى القصيدة ، فأمر العباس بإحضارها فتلكأ عليه ، فقال له الرشيد : سألتك بحق أمير المؤمنين ، إلا أمرت بإحضارها ؟ فأُحضِرت ، فإذا فيها القصيدة بعينها ، فاستحسنها وٱستجادها وأعجب بها ، وقال : والله ما قال أحد من الشعراء فى أحد من الخلفاء مثلها ، ولقد صـــدق ربيعة فبرّ ، ثم قال للعباس : كم أثبتَه عليها ؟ فسكت العباس ، وتغيّر لونه ، وغُصّ بريقه ، فقال ربيعة : أثابنى عنها يا أمير المؤمنين دينارين ، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموجدة عليـــه ، فقال : بحياتى يارَقّى كم أثابك ؟ فقال : وحياتِك يا أمير المؤمنين ما أثابَنى إلا بدينارين ، فغضب الرشيد غضبا شديدا ، ونظر فى وجه العباس ، وقال : سوءة لك ! أيّةُ حال قعدَت بك عن إثابته ؟ أقلّة مال ؟ فوالله لقد نولتك جهـــدى ، أم

انقطاع المال عنك ؟ فوالله ما انقطعتُ بك ، ام أصلُك ؟ فهو الاصل الذى لا يدانيه شيء ، أم نفسك ؟ لا ذنب لى ، بل نفسك والله فعلت بك ذلك ، حتى فضحتَ أجدادَك وفضحتَنى ، وفضحت نفسَك ، فنكَس العباس رأسه ، ولم ينطق ، فقال الرشيد : يا غلام ، أعطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم ، وخِلْعَةً ، وآحمله على بغلة ، ثم قال له : بحياتى لا تذكره فى شيء من شعرك تعريضا ولا تصريحا ، وفتر الرشيد عما كان قد هم به من أن يتزوج اليه وأظهر له بعد ذلك جفاء واطراحا .

وقال محمد بن هانئ

الواهب الألفَ لا أنها بِدَرٌ * والطاعنُ الألفَ إلا أنها نَسَقُ
تأتى عطاياه شتّى غير واحدة * كما تدافعَ موجُ البحر يصطَفِقُ

وقال الرضىّ المُوسوىّ

ريّان ولأيام ظمآنةٌ * من النّدى نَشْوان بالبِشْرِ
لا يُمسك الغيثُ يديه ولا * تأخذُ منه نشْوةُ الخمر

وقال أيضا

ذخائرُه العُرْف فى أهله * وخُزّان أمواله السائلونا

وقال أمية بن أبى الصلت الثقفىّ يمدح عبد الله بن جُدْعان

أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حَياؤك إن شيمتك الحياءُ؟
وعلمك بالأمور وأنت قِرْمٌ * لك الحسَبُ المهذَّبُ والسناءُ
كريمٌ لا يغيِّره صَباحٌ * عن الخُلُق السنىّ ولا مَساءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوما * كفاه من تعرُّضه الثناءُ

وقال الشمّاخ بن ضِرَار

نَزورُ آمرأً يُعْطِى على الحمد مالَه * ومن يُعْطِ أثمانَ المحامدِ يُحْمَدِ
وأنتَ آمرؤ، مَن تُعطِه اليوم نائلا * بكفّك، لا يمنعْك من نائلِ الغدِ
ترى الجودَ لا يُدنى من المرء حتفَه * كما البخل والإمساك ليس بمُخلِدِ
مُفيـدٌ ومِتلافٌ، اذا ما سألتـه * تهـلّل، وآهتزّ آهتزاز المهـنّدِ
متى تأتِه تعشو الى ضـوءِ نارِه * تجدْ خيرَ نارٍ عنـدَها خيرُ مُوقِدِ

قال : ولمـا سمع عمر رضى الله عنه هذا البيت ، قال : كَذبَ ، تلك نار موسى عليه السلام .

وقال السرىّ الرفّاء

كالغيثِ والليثِ والهلالِ اذا * أقمـر بأسًا وبهجةً وندَى
ناسٍ من الجـودِ ما يجود به * وذاكرٌ منـه كلما وعدا

وقال أبو الفرج الوأواء

من قاسَ جدواك بالغمام فما * أنصف فى الحكم بين آثنيْنِ
أنت اذا جدت ضاحكا أبدا * وهو اذا جاد باكِىَ العيْنِ

وقال آبن نباتة السعدىّ من قصيدة

لم يُبقِ جـودُك لى شيئا أؤمّله * تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

ذكر ما قيل فى الإعطاء قبل السؤال

قال سَعيد بن العاصى : قبح الله المعـروف، اذا لم يكن آبتداءً من غير مسألة ، فـا المعروف عوضٌ من مسألة الرجل، اذا بذل وجهَه، فقلبُه خائفٌ ، وفرائصـه ترعُد، وجبينه يرشح، لا يدرى ايرجع بنُجح الطلب أم بسوء المنقلب ، قد بات ليلته

يتململ على فراشه، يعاقب بين شِقّيه، مرّة هكذا، ومرّة هكذا، مَنْ لحاجته؟ فخطرتُ بباله أنا أو غيرى، فمثّل أرجاهم فى نفسه، وأقربهم من حاجته، ثم عزم علىّ، وترك غيرى، قد انتُقِع لونُه، وذهب دمُ وجهه، فلو خرجتُ له مما أملك لم أكافئه، وهو علىّ آمنُ منّى عليه، اللهم فإن كانت الدنيا لها عندى حظٌّ فلا تجعل لى حظًّا فى الآخرة. (٦٥)

٥ وقال أكثم بن صيفىّ: كلّ سؤال وإن قلّ، أكثر من كلّ نوال وإن جلّ.

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لأصحابه: من كانت له إلىّ منكم حاجة، فليرفعها فى كتاب، لأصونَ وجوهكم عن المسألة.

وقال عبد العزيز بن مروان: ما تأملنى رجل قط، إلا سألته عن حاجته، ثم كنت من ورائها.

١٠ وقال حبيب

عطاؤك لا يفنَى ويستغرقُ المنَى * وتبقى وجوهُ الراغبين بمائها

وقال أيضا

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت * من ماء وجهى إذا أفنيتُه عوضُ

وقالوا: مَنْ بذلَ اليك وجهَه، فقد وفّاك حقَّ نعمته.

١٥ وقال معاوية لصَعْصَعَةَ بن صُوحان: ما الجود؟ فقال: التبرّع بالمال، والعطاء قبل السؤال.

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربّه

كريمٌ على العِلّاتِ جَزْلٌ عطاؤه * يُنيلُ وإن لم يُعتمدْ لنوالِ

وما الجود مَنْ يُعطى اذا ما سألته * ولكنّ مَنْ يُعطى بغير سؤالِ

وقال حبيب الطائى :

لئن جَحَدْتُك ما أوليتَ من كَرَمٍ * إنى لفى اللؤم أمضَى منك فى الكرمِ
أنسَى ٱبتسامُك ـ والألوانُ كاسفةٌ ـ * تبسُّمَ الصبح، فى داجٍ من الظُّلَمِ
رددتَ رونقَ وجهى فى صفيحَته * ردَّ الصِّقالِ صفاءَ الصارم الخَذِمِ
وما أبالى ـ وخيرُ القول أصدقُه ـ * حقنتَ لى ماءَ وجهى أم حقنتَ دمى

ذكر ما قيل فى الشجاعة والصبر والإقدام

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده، إن الله يحبّ الشجاع ولو على قتل حيّة » .

وقالوا : حدّ الشجاعة سعة الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة .

وسئل بعضهم عن الشجاعة فقال : جِبِلّةُ نفس أبيّة، قيل له : فما النجدة؟ قال: ثقة النفس عند ٱسترسالها الى الموت، حتى تجمد بفعلها دون خوف .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة . وقال بعض أهل التجارب : الرجال ثلاثة : فارس، وشجاع، وبطل، فالفارس : الذى يشدّ اذا شدّوا، والشجاع : الداعى الى البراز والمجيب داعيَهُ، والبطل : الحامى لظهور القوم اذا ولّوا .

قال يعقوب بن السكّيت فى كتاب الألفاظ : العرب تجعل الشجاعة فى أربع طبقات، تقول : رجلٌ شجاعٌ، فاذا كان فوق ذلك، قالوا : بطلٌ، فاذا كان فوق ذلك، قالوا : بُهمةٌ، فاذا كان فوق ذلك، قالوا : اليَس .

وقال بعض الحكماء : جسمُ الحرب : الشجاعة، وقلبها : التدبير، ولسانها : المكيدة، وجَناحها : الطاعة، وقائدها : الرفق، وسائقها : النصر .

قالوا : لما ظفر المهلّب بن أبى صُفرة بالخوارج ، وَجّه كعبَ بنَ معْدانَ الى الحجّاج ، فسأله عن بنى المهلّب ، فقال : المغيرةُ فارسهم وسيّدهم ، وكفى بيزيد فارسا شجاعا ، وجوادُهم وشيخُهم : قَبيصةٌ ، ولا يستحيي الشجاعُ أن يفرّ من مُدرِك ، وعبدُ الملك : سمٌّ ناقعٌ ، وحبيبٌ : موتٌ زعافٌ ، ومحمدٌ : ليثُ غابٍ ، وكفاك بالمفضَّل نَجدةً ، قال : فكيف خلّفتَ جماعةَ الناس ؟ قال : خلّفتهم بخير ، قد أدركوا ما أملوا ، وأمنوا ما خافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلّب فيهم ؟ قال : كانوا حُماة السَّرح نهارا ، فاذا أليلوا ففرسان البيات ، قال : فأيّهم كان أنجدَ ؟ قال : كانوا كالحلْقة المفْرغة ، لا يُدرَى أين طَرَفُها ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوّكم ؟ قال : كنّا اذا أخذنا ، عفونا ، واذا اجتهدوا ، اجتهدنا فيهم ، فقال الحجّاج : (إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقالوا : أشجعُ بيت قالته العرب قول العباس بن مِرداس السلمىّ

أَشُدُّ على الكتيبة لا أبالى * أحتفى كان فيها أم سواها؟

وقد مدح الشعراءُ الشجاعةَ وأهلَها ، وأوسعوا فى ذلك ، فمن ذلك قول المتنبّى

شجاعٌ كأنّ الحربَ عاشقةٌ له * اذا زارها فدّته بالخيل والرَّجْلِ

وقال أيضا

وكم رجالٍ بلا أرضٍ لكثرتهم * تركتَ جمعَهُمُ أرضًا بلا رجُلِ

ما زال طِرفُك يجرى فى دمائهمُ * حتى مشى بك مشىَ الشاربِ الثمِلِ

وقال العماد الإصفهانىّ

قوم إذا لبِسوا الحديدَ الى الوغى * لبِس الحِدَاد عدوُّهم فى المهربِ

المُعمِدرون الدُّهْمَ عن وِرْدِ الوغى * شُقْرًا تُجَلَّلُ بالعَجاج الأشهبِ

وقال أبو الفرج الببغاء

واليومُ من غَسَقِ العَجاجةِ ليـلةٌ * والكرُّ يخـرَق سَجْفَها الممـــدودا
وعلى الصِّفاحِ من الكِفاحِ وصِدقِه * رَدْعٌ أحالَ بياضَـــها توريدا
والطعنُ يَغتصبُ الجيادَ شـياتَها * والضربُ يقـدح فى التليل وقودا
وعلى النفوس من الحِمـام طلائعٌ * والخوف يَنشُد صـبرَها المفقودا
وأجلّ ما عنـد الفوارس حظُّهـا * فى طاعة الهربِ الجيـادَ القُـودا
حتى إذا ما فارق الرأىُ الهـوى * وغدا اليقينُ على الظنون شهيـدا
لم يُغنِ غيرُ أبى شجاعٍ والعلا * عنـه تنـاحِى النصرَ والتأييـدا

وقال أيضا ورُوى للبحترىّ

مِن كلّ متّسِع الأخلاق مبتسِم * للخطب إن ضاقت الأخلاقُ والحِيلُ
يسعى به البرق ، إلا أنه فَـرَسٌ * فى صورة المـــوتِ إلا أنه رجلُ
يلقَى الرماحَ بصـدرٍ منه ليس له * ظَهـرٌ وهادِى جوادٍ ما له كَفَلُ

وقال البحترىّ

معشر أمسكت حلومُهُمُ الأر * ضَ وكادت لولاهُمُ أن تميدا
فإذا الجـدبُ جاء كانوا غيـوثا * وإذا النقع ثار ثاروا أســـودا
وكأنّ الإلهَ قال لهُمْ فى الـــحرب كونوا حجارةً أو حديدا

وقال مُسْلِم

لو أنّ قوما يخلُقون منيّةً * من بأسهم كانوا بنى جبريلا
قوم إذا حمِى الوطيسُ لديهِمُ * جعلوا الجماجمَ للسيوفِ مَقِيلا

وقال آخر

عِقبانُ رَوْع والسروجُ وكُورها * وليوثُ حربٍ والقنا آجامُ
وبدور تمّ والشوائك فى الوغَى * هالاتُها والسابرىُّ غَمامُ
جادوا بممنوع التلادِ وجوّدوا * ضربا تُخَدُّ به الطُّلا والهامُ
وتجاورت أسيافُهم وجيادُهم * فالأرض تُمطَرُ والسماء تُغامُ

وقال آخر

قوم، شرابُ سيوفِهم ورماحِهم * فى كلّ معترَكٍ دمُ الأشرافِ
رجَعتْ إليهم خيلُهم بمعاشرٍ * كلٌّ لكلِّ جسيمِ أمرٍ كافِ
يتحنّنون إلى لقاء عدوّهم * كتحنّن الألّاف للألّافِ
ويباشرون ظُبَا السيوف بأنفسٍ * أمضَى وأقطع من ظُبَا الأسيافِ

وقال ابن حَيّوس

إن تُرِدْ خُبْرَ حالهم عن قريبٍ * فَأْتِهم يومَ نائلٍ أو نِزال
تَلْقَ بيضَ الوجوه سودَ مَثار الـ * ـنقع، خُضْرَ الأكنافِ حُمْرَ النصال

ومما قيل فى الصبر والإقدام

قال الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تتمنّوا لقاءَ العدوّ وسلوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا من ذكر الله وإن جلبوا وضجّوا فعليكم بالصمت».

ومن كلام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : ربَّ حياةٍ، سببها التعرّض للموت، وربَّ منيّة، سبّبها طلبُ الحياة .

وقالوا : أجمع كلمة قيلت فى الصبر قول بعضهم : الصبر مطيّة النصر .

وقال آخر : الصبر مَطِيّةٌ لا تكبو، وإن عَنُفَ عليه الزمان .

وقال آخر : الصبر شَرْيَةٌ[1]، تمر أرْيَةٌ[2] . ٥

وقيل للمهلّب بن أبى صفرة : إنك لتُلقى نفسك فى المهالك ، فقال : إن لم آت الموت مسترسلا ، أتانى مستعجلا، إنى لست آتى الموت من حُبّه، وإنما آتيه من بغضه، وتمثّل بقول الحُصَيْن بن الحمام

تأخّرتُ أستبقى الحياةَ فلم أجدْ * لنفسِى حياةً مثلَ أن أتقدّما

وهى قصيدة مشهورة منها ١٠

فلسنا على الأعقابِ تَدمَى كلومُنا * ولكن على أقدامنا تقطُرُ الدّما

نفلّقُ هامًا من كرامٍ أعزّةٍ * علينا، وهم كانوا أعقّ وأظلما

ولما رأينا الصبرَ قد حِيلَ دونه * وإن كان يوما ذا كواكبَ مُظلِما

صبرنا، وكان الصبرُ منا سجيّةً * بأسيافنا يقطعنَ كفًّا ومِعصما

ولما رأيت الودَّ ليس بنافعى * عمدتُ الى الأمر الذى كان أحزما ١٥

فلستُ بمبتاعِ الحياة بسُبّةٍ * ولا مرتقٍ من خَشيةِ الموتِ سُلّما

وقالت العرب : الشجاعة وقاية، والجُبْن مَقْتَلة . وكذلك : إن مَنْ يُقتل مدبرا، أكثر ممن يقتل مقبلا .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لخالد بن الوليد : آحرِصْ على الموت ، توهَبْ لك الحياة . ٢٠

(١) الشرية : الحنظلة . (٢) الأرية : العسل .

وقالت الحكماء : آستقبال الموت، خير من آستدباره .

وقال العلوىّ

محـزمةٌ أكفالُ خيلى على القنا * وداميـــةٌ لبّاتُهـا ونحورُهـا
حرامٌ على أرماحِنا طعنُ مدبِر * وتندقُّ منها فى الصدور صدورُها

٥ وقال أبو تمّـام

قَلُّوا ولكنّهـم طابوا فأنجـدَهم * جيشٌ من الصبر لا يُحصَى له عَدَدُ
اذا رأَوا للمنـايا عارضًا لبِسـوا * من اليقين دروعا مالهـا زَرَدُ
ناوا عن المصْرَع الأدنَى فليس لهم * إلا السيوفَ على أعدائهم مددُ

وما زالت العـرب يتمادحون بالموت قَعْصًـا ، ويتسابّون بالموت على الفراش،
١٠ ويقولون فيه : مات فلانٌ حتفَ أنفه ،وأوّل من قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومدح أعرابىّ قوما فقال

يقتحمون الحربَ كأنمـا * يَلقونها بنفوس أعدائهم

وقال عبد الله بن الزبير لمـا بلغه قتل أخيه مُصْعَب : إن يُقتلْ فقد قُتِـل أخوه وأبوه وعمه، إنا والله لانموت حتفًا ولكن قَعْصًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظِلال
١٥ السيوف، وقال السموءل بن عادياء

وما مات منا سـيّد فى فراشه * ولا طُلَّ منا حيث كان قتيلُ
تسيل على حدّ الظُّباة نفوسُنا * وليست على غير الظُّباة تسيلُ

وقال أيضا آخر

وإنا لتستحلى المنايا نفوسـنا * ونترك أخرى مُرَّةً ما نذوقها

(٦٧) وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوم صفّين، وقد قيل له : أتقاتل أهـل الشام بالغداة، وتظهر بالعشىّ فى إزار ورداء ؟ فقال : أبالموت تخوّفونى ؟ فوالله ما أبالى، أسقطت على الموت، أم سقط الموت علىّ؛ وقال لآبنه الحسن : لاتدعوَنَّ أحدا الى المبارزة ، وإنْ دعيت اليها فأجب ؛ فانّ الداعىَ اليها باغٍ ، والباغى مصرعٌ . وقال رضى الله عنه

٥

* بقية السيف أنمى عددا *

يريد أن السيف اذا أسرع فى أهل بيتٍ كثر عددُهم ونمَى .

وقال آبن عباس رضى الله عنه : عقمت النساء أن تأتى بمثل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ، لمهدى به يومَ صِفّين، وعلى رأسه عِمامة بيضاء ، وهو يقف على شِرذِمةٍ شرذمة من الناس ، يحضُّهم على القتال، حتى آنتهى الىَّ، وأنا فى كنفٍ من الناس، وفى أغيلمة من بنى عبد المطّلب، فقال: يامعشر المسلمين، تجلببوا السكينةَ، وكمّلوا اللأمةَ، وأقلقوا السيوف فى الأغماد، وكالحوا بالظُّبا، وصِلوا السيوف بالخُطَا، فإنكم بعين الله، ومع آبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، عاودوا الكرّ، وآستحيوا من الفرّ، فإنه عار فى الأعقاب، ونار فى الحساب، وطيبوا على الحياة أنفسا، وسيروا الى الموت سيرا سُجُحا[1]، ودونكم هذا الرواق الأعظم، فاصبروا، فإن الشيطان راكب صَعْدَته، قدّموا للوثبة رِجلا ، وأخّروا للنكوص أخرى ، فصمدًا صمدًا ، حتى يبلغَ الحقُّ أجلَه ، والله معكم ، ولن تتركم اعمالكم ؛ ثم صـدَرَ عنا ، وهو يقرأ (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) .

١٠

١٥

وكان معاوية بن أبى سفيان يتمثل يوم صِفّين ببذه الأبيات

أبتْ لى شيمتى وأبَى بلائى * وأخذى الحمدَ بالثمن الربيح

٢٠

(١) السجح بضمتين : اللين السهل .

وإقدامى على المكروه نفسى * وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلّما جشأت لنفسى * مكانكِ تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثرَ صالحاتٍ * وأحمِىَ بعدُ عن عِرضٍ صحيح

وقال قَطَرِىُّ بن الفُجَاءة أمير الخوارج

٥ وقولى كلّما جشأت لنفسى * من الأبطال ويحكِ لا تَرَاعِى
فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ * على الأجل الذى لك لم تطاعِى
فصبرا فى مجال الموت صبرًا * فما نَيْل الخلود بمستطاعِ
سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حىٍّ * وداعيه لأهل الأرض داعِى

وقال عبد الله بن رواحة الأنصارىّ

١٠ يانفس إن لم تُقتلى تموتى * إن تسلمى اليومَ فلا تفوتى
أو تُبتَلِى فطالما عُوفيتِ * هذى حياضُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنّيتِ فقد لَقِيتِ * إن تفعلى فعلَهما هُدِيتِ
* وإن تولّيت فقد شَقِيتِ *

يريد بقوله

١٥ * فإن تفعلى فعلهما هُديتِ *

فعلَ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكانا قُتلا فى ذلك اليوم بمؤته . وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، يخرج كلّ يوم بصفّين حتى يقف بين الصفين ويُنشد

من أىّ يومىَّ من الموتِ أفِرّْ * يومُ لا يُقدَرُ أم يومُ قُدِرْ
٢٠ فيومُ لا يُقدَرُ لا أرهبهُ * ثمَّ من المقدور لا ينجو الحذِرْ

ومثله قول جرير من قصيدة أولها

* هاجَ الفراق لقلبك المهتاج *

منها

قل للجبـان إذا تأخر سَرجُه * ما أنت من شَرك المنية ناجى

وقالت امرأة من عبد القيس ٥

أبوا أن يَفرُّوا والقنـا فى نحورهم * ولم يبتغوا من خشـية الموتِ سُلَّما

ولو أنهـــم فرُّوا لكانوا أعزَّةً * ولكن رأَوا صبرًا على الموت أكرما

وقال حبيب بن أوس الطائىّ

فأثبَتَ فى مستنقع الموت رِجـلَه * وقال لها من تحت أخمَصك الحشرُ

وقد كان فوتُ الموتِ سهلًا فردَّه * عليـه الحِفاظُ المُـرُّ والخُلُقُ الوعْرُ ١٠

غدَا غدوةً والحمـــدُ نسجُ ردائه * فلم ينصرفْ إلا وأكفانُه الأجْرُ

تردَّى ثيابَ الموتِ حُمْرًا فمـا أتى * لها الليلُ إلا وَهْىَ من سندس خُضرُ

وقال

قومٌ اذا لبسوا الحديدَ حسبتهم * لم يحسَبوا أن المنيَّة تُخلَقُ

أُنظرْ بحيثُ ترى السيوف لوامعًا * أبدًا وفوق رءوسهـــم تتألَّقُ ١٥

وقال البيغاء

يسعى الى الموت والقنا قِصَدٌ * وخيـله بالرءوس تنتعلُ

كأنه واثق بأنّ له * عُمرًا مُقيما وما له أجل

وقال كعب بن مالك

نَصلُ السيوف اذا قصُرن بخطونا * قَدَمًا ونلحقُهـا اذا لم تُلحقِ ٢٠

ومثله لبعض بنى قيس بن ثعلبة

لو كان فى الألف منّا واحد فدعوا * مَنْ فارسٌ ؟ خالهم إياه يعنونا
إذا الكماة تنحّوا أن يُصيبَهُمُ * حدُّ الظباة وصلناها بأيدينا

ومثله قول الآخر

٥ إذا قصُرتْ أسيافُنا كان وصلُها * خُطانا الى أعدائنا فنقاربُ

ومثله قول وَدّاك بن ثُمَيْل المازنىّ

مَقاديمُ وصّالون فى الرَّوْع خَطوَهم * بكلِّ رقيقِ الشَّفرتين يمانِى
اذا آستُنجدوا لم يسألوا مَن دعاهُمُ * لأيةِ حربٍ أم بأىّ مكان

وقال أبو تمّام فى سعة الخطو

١٠ خَطْوٌ، ترى الصارم الهندىّ منتصرا * به، من المازن الخطّىّ منتصفا

وقال آخر

كأنّ سيوفَه صِيغت عقودا * تجول على الترائب والنحورِ
وسُمْرَ رماحه جُعلتْ هموما * فما يخطُرنَ إلا فى ضمير

(٦٨)

وأجود ما قاله مُحدَثٌ فى الصبر قول آبن الرومىّ

١٥ أرى الصبر محمودا وعنه مذاهبٌ * فكيف اذا ما لم يكن عنه مذهبُ؟
هناك يحقّ الصبر، والصبر واجبٌ * وما كان منه كالضرورة أوجبُ
فشدَّ امرؤ بالصبر كفًّا فإنه * له عِصمةٌ، أسبابُها لا تقضّبُ
هو المهربُ المنجى لمن أحدقتْ به * مكارهُ دهرٍ ليس منهنّ مَهرَبُ
لبوس جمال جُنّةٌ من شماتةٍ * شِفاء أسى يُتّقَى به ويُشوَّبُ

فياعجبا للشيء هـــذى خـلاله * وتارك ما فيه من الحظ أعجبُ
وقد يتظنى الناس أنّ أساهُمُ * وصبرَهُمُ فيهـــم طِباعٌ مُركَّبُ
فإنهـما ليسـا كشيء مُصرَّفٍ * يصرّفه ذو نكبة حين يُنكَبُ
فإن شاء أن يأسى أطاع له الأسى * وإن شاء صبرا جاءه الصبر يحلبُ
وليسا كما ظنوهمـا بل كلاهمـا * لكلّ لبيب مستطاعٌ مسبّبُ ٥
يصـــرّفه المختـارُ منـا فتارةً * يُراد فيأتى ، أو يُزاد فيـذهبُ
اذا احتجّ محتجٌّ على النفس لم تكد * على قدرٍ يُمـنَى لهـا تتعتّبُ
وساعَدَها الصـبرُ الجميلُ فاقبلتْ * إليهـا له طوعا جنائبُ مُجنَبُ
وإن هو منّاها الأباطيلَ لم تزل * تقاتل بالعتب القضاءَ وتُغلبُ
فيُضحِي جزوعا إن أصابت مصيبةٌ * ويمسى هلوعا إن تعـذّر مطلَبُ ١٠
فلا يعذرنَّ التاركُ الصبرَ نفسَـهُ * بأن قيل : إن الصبرَ لا يُتكسّبُ

ذكر ما قيل فى وفور العقل

قال الله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) قال المفسرون : عبّر عن العقل بالقلب، لأنه محلّه وسكنه، وقال تعالى : (وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ)، وقال تعالى : (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو ٱلْأَلْبَابِ) . وقال تعالى : (هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ) . ١٥

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوّل ما خلق الله العقل، قال له : أقبل، فأقبل، ثم قال له : أدبر، فأدبر، ثم قال : وعزتى وجلالى، ما خلقتُ خلقا أكرم على منك، بك آخذ، وبك أعطى، وبك أثيب، وبك أعاقب» .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى قسم العقل على ثلاثة أقسام، فمن كنَّ فيه كمل عقلُه، ومن لم يكن فيه جزء منها، فلا عقل له»، قيل: يا رسول الله، ما أجزاء العقل ؟ قال : حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما آكتسب رجل مثل فضلِ عقلٍ يَهدى صاحبَه الى هدًى، ويردّه عن ردًى ، وما تمّ إيمان عبدٍ ولا استقام دينُه ، حتى يكمُلَ عقله» .

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لتميم الدارىّ : ما السؤدد فيكم ؟ قال : العقل، قال : صدقتَ، سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كما سألتُك، فقال كما قلتَ، ثمّ قال : سألت جبريل ما السؤدد ؟ فقال : العقل .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يارسول الله، بأى شىء يَتفاضل الناسُ فى الدنيا ؟ قال : بالعقل، قلت : وفى الآخرة ؟ قال بالعقل، قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ! فقال : « ياعائشة، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله تعالى من العقل ، فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يُجزَون » .

وعن سعيد بن المسيِّب: أن عمر وأبىّ بن كعب وأبا هُريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يارسول الله، من أعلم الناس؟ قال : العاقل، قالوا : فمن أعبد الناس ؟ قال : العاقل، قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال : العاقل ، قالوا : أليس العاقلُ من طَهُرت مروءتُه ، وظَهرت فصاحته ، وجادتْ كفّه ، وعظُمت منزلته؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) إن العاقل هو التقىّ وإن كان فى الدنيا خسيسا دنيًّا .

وورد فى الأثر : «أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام العقلَ والدينَ والحياءَ، فاختار العقلَ، فقيل للدين والحياء : ٱرتفعا، قالا : لا، قال : أفعصيتما أمرَ ربّكما؟ قالا : ما عصينا أمرَ ربّنا، ولكنّا أُمِرنا أن نتبعَ العقلَ حيث كان» .

وقال لقمان لٱبنه : إن غاية الشرف والسؤدد فى الدنيا والآخرة، حسنُ العقل، لأن العبدَ إذا حسُن عقلُه، غطّى ذلك عيوبَه، وأصلح مساوِيَهُ، ورضى عنه خالقُه، وكفى بالمرء عقلا أن يسلمَ الناس من شرّه .

وقيل : مكتوبٌ فى حكمة آل داود عليه السلام : على العاقل أن يكون عالما بأهل زمانه، مالكا للسانه، مقبلا على شأنه .

وقال بعض الحكماء : كلّ شىء يعز اذا قلّ، والعقل كلّما كان أكثر كان أعز وأغلى، ولو بيع، لما ٱشتراه إلا العاقلُ لمعرفته بفضله، وأوّل شرف العقل أنه لا يُشترَى بالمال .

قال أبو عطاء السندىّ

فإن العقلَ ليس له اذا ما * تذكّرتَ الفضائلَ من كفاءِ

وقالوا : العلم قائد، والعقل سائق، والنفس بينهما حرون، فاذا كان قائدٌ بلا سائقٍ هلكتْ، وان كان سائق بلا قائد أخذَتْ يمينا وشمالا، فاذا ٱجتمعا أجابت طوعا أو كُرْها .

ذكر ما قيل فى حدّ العقل وماهيّته وما وصف به

وقد آختلف الحكماء، فى حد العقل، فقيل : حدّه الوقوف عند مقادير الأشياء قولا وفعلا ، وقيل : النظر فى العواقب ، وقال المتكلمون : هو آسم لعلوم اذا حصلت للإنسان صحّ تكليفُه . وقيل : العاقل من له رقيب على شهواته، وقيل : هو من عقل نفسه عن المحارم، وقال عمرو بن العاص : أن يَعرِفَ خيرَ الخيرَيْن، وشرّ الشرّيْن .

قال أبو هلال : ومن العجب أن العرب تمثّلت فى جميع الخصال، بأقوام جعلوهم أعلاما فيها، فضربوا بها المثل اذا أرادوا المبالغة، فقالوا : أحلم من الأحنف، ومن قيس بن عاصم، وأجودُ من حاتم، ومن كعبِ بن مامة، وأشجعُ من بِسطام، وأبْين من سَحبان، وأرمَى من آبن تِقْنٍ، وأعلمُ من دَغْفَل. ولم يقولوا : أعقلُ من فلان، فلعلّهم لم يستكملوا عقلَ أحدٍ، على حسب ما قال الأعرابىّ، وقد قيل له : حِدَّ لنا العقلَ، فقال : كيف أحِدُّه ولم أره كاملا فى أحدٍ قطّ .

وقيل لحكيم : ما جماع العقل ؟ فقال : ما رأيتـه مجتمعا فى أحدٍ فأصفُه، وما لا يوجد كاملا فلا حدّ له .

وقالوا : لكلّ شىء غاية وحدّ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار فى الرائحة والطّيب .

وآختلفوا فى ماهيّة العقل، كما آختلفوا فى حدّه، فقال بعضهم : هو نور وضعه الله تعالى طبعا وغريزةً فى القلب، كالنور فى العين وهو البصرُ، فالعقل نورٌ فى القلب، والبصرُ نورٌ فى العين، وهو ينقص ويزيد، ويذهب ويعود، وكما يُدرَكُ بالبصر شواهدُ

الأمور، كذلك يُدرَكُ بالعقل كثيرٌ من المحجوب والمستور، وعَمَى القلب كعَمَى البصر، قال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس الأعمى من عمِيَ بصرُه، ولكن من عَمِيَتْ بصيرتُه» .

وقال عبد الله بن عمر بن معاوية عن عمر بن عُتبةَ المعروف بالعتبيّ : العقل عقلان، عقلٌ تفرّدَ الله تعالى بصنعه، وهو الأصل، وعقلٌ يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع، فاذا اجتمعا، قوّى كلّ واحدٍ منهما صاحبَه، تقويةَ النار فى الظُّلمة للبصر .

نظم بعض الشعراء هذا اللفظ فقال، ويروى لعليّ بن أبى طالب رضى الله عنه

رأيتُ العقلَ عقلانِ: * فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفع مسموعٌ * اذا لم يك مطبوعُ
كما لا تنفع الشمسُ * وضوءُ العين ممنوعُ

وأكثرُ الناس على أنّ العقلَ فى القلب، ودليله قوله عز وجلّ : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ) .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العقل فى القلب يفرق به بين الحقّ والباطل» .

وقال بعضهم : هو فى الدماغ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه .

وأما ما وُصف به فقيل : العقلُ وزير رشيد، وظهير سعيد، من عصاه أرداه، ومن أطاعه أنجاه .

وقال سَعِيد بن جُبَير : لم ترعيناى أجلّ من فضلِ عقلٍ يتردّى به الرجلُ إن انكسر جَبَره، وإن تصدّع أنعشَه، وإن ذلّ أعزّه . وإن اعوجّ أقامه ، وإن عثر اقاله ، وإن افتقر أغناه، وإن عرِى كساه، وإن غوى أرشده، وإن خاف أمّنه ، وإن حزن أفرحه، وإن تكلّم صدقه، وإن أقام بين أظهرِ قومٍ اغتبطوا به . وإن غاب عنهم أسفوا عليه، وإن بسط يدَه قالوا : جوادٌ، وإن قبضها قالوا : مقتصدٌ، وإن أشار قالوا : عالم، وإن صام قالوا : مجتهد، وإن أفطر قالوا : معذور .

قال بعض الشعراء

يُعَدُّ رفيعُ القوم من كان عاقلا * وإن لم يكن فى قومه بحسيب
وإن حلّ أرضا عاش فيها بعقله * وما عاقلٌ فى بلدةٍ بغـــريب

وقال بعض الحكماء : إذا غلبَ العقلُ الهوى، صرف المساوئ الى المحاسن، فجعل البلادةَ حِلما، والحدّة ذكاءً، والمكرَ فطنةً، والهـذرَ بلاغةً، والعِيَّ صمتًا ، والعقوبةَ أدبا، والجُبنَ حَذَرا، والإسرافَ جُودا .

وقيل : لو صُوِّر العقلُ، لأضاء معه الليلُ، ولو صُوِّر الجهلُ، لأظلم معه النهارُ .

قال المتنبّى

لولا العقولُ لكان أدنَى ضيغمٍ * أدنَى الى شرَفٍ من الإنسان

وقد نُدبَ الى صحبة العقلاء .

قال الزُّهرِىّ : اذا أنكرتَ عقلَك، فاقدحْه بعاقلٍ . قال ابن زُرارةَ : جالِس العقلاءَ أعداءً كانوا أم أصدقاءً، فإنّ العقلَ يقع على العقل . (٧٠)

قال بعض الشعراء

عدوُّك ذو العقل أبقَى عليكَ * وأبقى من الوامق الأحمـقِ

وقال آخر

لله دَرُّ العقل من راشـــدٍ * وصاحبٍ فى اليسرِ والعسرِ
وحاكمٍ يقضِى على غائبٍ * قضيَّةَ الشاهـد للأمْرِ
وإنَّ شيئًا بعضُ أحواله * أن يفصلَ الخير من الشرِّ
له قُوًى ، قد خصّه ربُّه * بخالِصِ التقديس والطُّهْرِ ٥

وقال آخر

إذا لم يكن للـــرء عقلٌ فإنه * — وإن كان ذا قدر على الناس — هيِّنُ
وإن كان ذا عقل أُجِلَّ لعقـــله ، * وأفضـــلُ عقلٍ عقلُ من يتَبَيَّنُ

وقال آخر

العقلُ حُلَّةُ فخـرٍ مَنْ تَسربَلَها * كانت له نَشَبا يغنى عن النَّشَبِ ١٠
وأفضل العقل ما فى الناس كلِّهِمِ * بالعقل ينجو الفتى من حومة العطبِ

وقال ابن دُرَيد

وأفضلُ قِسمِ الله للـــرء عقلُه * فليس من الخيرات شىءٌ يقاربُهْ
فَزينُ الفتى فى الناس صحّةُ عقله * وإن كان محظورا عليه مَكاسِبُهْ
ويُزرى به فى الناس قِلَّةُ عقله * وإن كُرِمتْ أعراقُه ومَنَاسِبُهْ ١٥
اذا أكمل الرحمن للـــرء عقلَه * فقـــد كُمِلتْ أخلاقُـــه ومآربُهْ

وقال آخر

ما وهب الله لامرئٍ هِبـــةً * أشرفَ من عقله ومن أدبِهْ
هما جمال الفتى ، فإن عدمَا * فإنَّ فقـــدَ الحيـــاة أنفعُ به

وقال آخر

ولم أرَ مثلَ الفقر أوضعَ للفتى * ولم أرَ مثل المال أرفعَ للنَّذْلِ
ولم أرَ من عُدْمٍ أضرَّ على الفتى * اذا عاش بين الناس من عَدَمِ العقلِ

ذكر ما قيل فى الصدق

٥ قال الله عزّ وجلّ مبشّرا للصادقين : (هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تحرُّوا الصدقَ . فإن الصدقَ يَهدِى الى البِرِّ، والبِرُّ يَهدى الى الجنة ، وإن المرء ليتحرَّى الصدقَ ، حتى يُكتَبَ صِدِّيقا » .

١٠ وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال: جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله، ما عَمَلُ أهلِ الجنّة؟ قال : الصدق، اذا صدق العبد بَرَّ، واذا بر أَمِنَ ، واذا أَمِنَ دخل الجنّة . قال : يا رسول الله ما عمل أهل النار ؟ قال : الكذب، إذا كذب العبدُ فجر، واذا فجر كفر، واذا كفر دخل النار .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، بمَ يُعرفُ ١٥ المؤمنُ ؟ قال: بوقاره، ولِينِ كلامه، وصدقِ حديثه. ومن كلام عليّ رضى الله عنه: الإيمان أن تؤثر الصدقَ حيث يضرّك، على الكذب حيث ينفعك .

وقال بعض الحكماء . الصدق أزينُ حلية ، والمعروف أربح تجارة، والشكر أدوم نعمة . وقال بعضهم : رأيت أرسطاطاليس فى المنام، فقلت : أىّ الكلام أحسن ؟

فقال : ما صدق قائله ، قلتُ : ثمّ ماذا؟ قال : ما ٱستحسنه سامعه ، قلت : ثمّ ماذا؟ قال : كل كلام جاوز هذا فهو ونهيقُ الحمارِ بمنزلة .

وقال الأحنف لٱبنه : يا بنيَّ ، يكفيك من شرف الصدق . أن الصادق يُقبَل قولُه فى عدوّه ، ومن دناءة الكذب . أن الكاذب لا يُقبل قولُه فى صديقه ولا عدوّه ، لكلّ شيء حليةٌ . وحليةُ المنطق الصدقُ يدل على ٱعتدال وزن العقل .

قال عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ فى وصيّته : إنى وجدتُ صدق الحديث طرفا من الغيب فاصدقوا ، من لزم الصدق وعوّده لسانه . فلا يكاد يتكلّم بشيء يظنّه ، إلا جاء على ظنّه .

وقالوا : ما السيف الصارم . فى كفّ الشجاع ، بأعزّ من الصدق .

وقيل : مرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بعجوز تبيع اللبنَ ، فقال لها : يا عجوز ، لا تغشّى المسلمين ، ولا تشوبى لبنَك بالماء ، قالت : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم مرّ بها بعد ذلك ، فقال يا عجوز ، ألم أعهد إليك أن لا تشوبى لبنَك بالماء ؟ فقالت : والله ما فعلتُ يا أمير المؤمنين ، فتكلّمتْ بنتٌ لها من داخل الخباء ، فقالت : يا أماه ، أغشًّا وحنثًا جمعتِ على نفسك؟ فسمعها عمر فأعجبته ، فقال لولده : أيّكم يتزوجها؟ فلعلّ الله أن يُخرج منها نَسَمةً طيّبةً ، فقال ٱبنه عاصم : أنا أتزوجها يا أمير المؤمنين ، فزوّجها منه ، فأولدها أمَّ عاصم . تزوجها عبد العزيز بن مروان فأولدها عمرَ ٱبن عبد العزيز .

ورُوىَ أنّ بلالا لم يكذب منذ أسلم ، فبلغ ذلك بعض من يحسده ، فقال : اليوم أكذبه فسايره ، فقال له : يابلال ما سنُّ فرسك؟ قال عَظُمَ ، قال : فما جريه؟ قال :

يحضر ما استطاع، قال: فأين تنزل؟ قال: حيث أضع قدمي، قال: ممن أنت؟ قال ابن أبي وأمي، قال: فكم أتى عليك؟ قال: ليالٍ وأيام، الله أعلم بعددها. قال: هيهات. أعيتْ فيك حيلتي، ما اتعبُ بعد اليوم أبدا. (٧١)

ذكر ما قيل في الوفاء والمحافظة والأمانة

قال الله عزّ وجلّ: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا). وقال تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ). وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا). وقال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ).

وروى: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: عليك بصدق الحديث، ووفاء العهد، وحفظ الأمانة، فإنها وصيّة الأنبياء.

كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس، خَتَن[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته زينب، تاجرا تضاربه قريشٌ بأموالهم، فخرج الى الشام سنة الهجرة، فلما قدم، عرض له المسلمون، وأسروه، وأخذوا ما معه، وقدموا به المدينة ليلا، فلما وصلوا الفجرَ، قامت زينب على باب المسجد، فقالت: يا رسول الله، قد أجرتُ أبا العاص وما معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أجرنا من أجرتِ ودفع اليه ما أخذوه منه، وعرضَ عليه الإسلام، فأبى، وخرج الى مكّة، ودعا قريشا، فأطعمهم، ثم دفع اليهم أموالهم، ثم قال: هل وفيتُ؟ قالوا: نعم، قد أديتَ الأمانةَ ووفيتَ، قال: اشهدوا جميعا، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وما منعني أن أسلم إلا أن يقولوا: أخذ أموالنا، ثم هاجر، فأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على النكاح، وتُوفّي في سنة اثنتي عشرة.

(١) الخَتَن: الصهر أو كل مَنْ كان من قِبَلِ المرأة كالأب والأخ وجمعه: أَخْتان.

وقيل لمّا قوى أمرُ بنى العباس وظهر، قال مروان بن محمد لعبد الحميد بن يحيى كاتبـه : إنّا نجد فى الكتب، أن هـذا الأمرَ زائل عنا لا محالةَ ، وسيظهر اليك هؤلاء القوم ، يعنى ولد العباس، فصر اليهم، فإنى لأرجو أن تتمكن منهم، فتنفعنى فى مخلفى ، وفى كثير من أمورى، فقال : وكيف لى بعلم الناس جميعا أن هـذا عن رأيك، وكلّهم يقول : إنى غدرت بك، وصرت الى عدوّك ؟ وأنشد ٥

أسرّ وفاءً ثم أُظهرُ غـدرَةً * فمن لى بعُذرٍ يوسِع الناسَ ظاهِرُهْ

ثم قال

ولؤمٌ ظاهرٌ لا شكَّ فيه * للائمةٍ وعذرى بالمعيبِ

فلما سمع مروان ذلك، علم أنه لا يفعل، ثم قال له عبد الحميد: إن الذى أمرتَنى به، لأنفعُ الأمرين لك، وأقبحهما بى، ولك علىّ الصـبر معك، الى أن يفتح الله ١٠ عليك، أو أقتلَ معك .

والعرب تضرب المثل فى الوفاء بالسموءل بن عادياء الأزدىّ، وقيل: إنه من ولد الكاهن بن هارون بن عمران ، وكان من خبره ، أن آمرأ القيس بن حُجْر، أودعه أدراعا مائة، فأتاه الحارث بن ظالم، ويقال الحارث بن أبى شمر الغسّانىّ، ليأخذها منه ، فتحصّن منـه السموءل ، فأخذ آبنـا له غلاما وناداه : إما أن أسـلمتَ إلىّ الأدرع ، وإما أن قتلت آبنك ، فأبى أن يسلمَها ، فقتل آبنه بالسيف ، ففى ذلك يقول ١٥

وفَيتُ بأدْرُعِ الكِنْدِىِّ، إنى * اذا ما القومُ قدغَدَروا وفَيتُ

وأوصَى عاديا يوما بأن لا * تُهَـدِّم ياسموءلُ ما بَنَيتُ

وفيه يقول الأعشى

كن كالسموءل إذْ طاف الهُمامُ به * فى جَحْفَلٍ كَسَواد الليل جَرّارِ
الأبلق الفرد من تَيْمَاء منزِلُه * حِصن حصينٌ وجارٌ غيرُ غَدّارِ
قد سامه خُطّتَىْ خسف فقال له : * قل ما بدا لك إنى سامعٌ حَارِ
فقال : ثكل وغدر أنت بينهما * فٱخْتَرْ وما فيهما حظٌّ لمختارِ
لخار غير طويل ثم قال له : * أُقتلْ أسيرَك إنّى مانع جارى

ومن وفاء العرب، مافعله هانئ بن مسعود الشَّيْبانىّ، حتى جرّ ذلك يوم ذى قار، وكان من خبره : أن النعمان بن المنذر لما خاف كسرى ، وعلم أنه لا منجأ منه ولا ملجأ، رأى أن يضع يده فى يده، فأودع ماله وأهله عند هانئ، ثمّ أتى كسرى فقتله ، وأرسل الى هانئ يطالبه بوديعة النعمان، وقال له : إن النعمان كان عاملى ، فابعث الىّ بوديعته، وإلا بعثت اليك بجنود تقتل المقاتلة وتَسْبى الذُّرّية، فبعث اليه هانئ: أن الذى بلغك باطل، وإن يكن الأمر كما قيل، فأنا أحد رجلين، إما رجل استُودع أمانة، فهو حقيق أن يردّها على من ٱستودعه إياها، ولن يسلّم الحرّ أمانته، أو رجل مكذوب عليه، وليس ينبغى للملك أن يأخذه بقول عدوّ، فبعث كسرى اليه الجنود، وعقد لإياس بن قبيصة على جميع العرب ، وبعث معه الكَتِيبة الشَّهْبَاء والأساورة[1]، فلما ٱلتقوا ، قام هانئ بن مسعود ، وحرّض قومه على القتال ، وجرى بينهم حروب كثيرة ليس هذا موضع ذكرها، وسنذكرها إن شاء الله فى وقائع العرب، فٱنتصر هانئ وٱنهزمت الفُرْسُ، وكانت وقعة مشهورة، قيل : وكان مِرْداس فى سجن عبيد الله بن زياد بن أبيه ، فقال له السجّان : أنا أُحِبّ أن أوليك حسنة ، قال : فإن أذنتُ لك فى الٱنصراف الى دارك أفتُدْلج علىّ؟ قال : نعم، فكان يفعل ذلك به،

(٧٢)

(١) الأساورة جمع إسْوار بالضم والكسر وهو قائد الفرس .

فلما كان ذات يوم، قتل بعضُ الخوارج صاحبَ شرطة ٱبن زياد، فأمر أن يقتل من فى السجن من الخوارج، وكان مرداس إذ ذاك خارجا، فقال له أهله : ٱتّق الله فى نفسك، فإنك مقتول إن رجعت، فقال : ما كنت لألقى الله غادرا، وهذا جبّار، ولا آمن أن يقتلَ السجّانَ، فرجع وقال للسجّان : قد بلغنى ما عزم صاحبك عليه من قتل أصحابنا، فبادرت لئلا يلحقَك منه مكروه، فقال له السجّان : خذ أىّ طريق شئت، فانج بنفسك .

خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المُهَلَّب الى بعض جبابين[1] الشام، وإذا بامرأة جالسة عند قبر تبكى، فجاء سليمان ينظر اليها، فقال لها يزيد، وقد عجب سليمان من حسنها : يا أَمَةَ الله، هل لك فى أمير المؤمنين؟ فنظرت إليهما، ثم نظرت الى القبر، وقالت

فإن تسألانى عن هوايَ فإنه * بحَوماء هذا القبرِ يافتيانِ
وإنى لأَستحْيِيه والتُّربُ بيننا * كما كنتُ أستحييه وهو يَرانِى

ومن أحسن الوفاء، ما حكى عن نائلة بنت القرافصة زوج عثمان بن عفّان رضى الله عنه : أن معاوية خطبها فردّته، وقالت : ما يعجب الرجال منّى؟ قالوا : ثناياك، فكَسرتْ ثناياها، وبعثت بها الى معاوية، فكان ذلك مما رغّب قريشا فى نكاح نساء كلب. وٱمرأة هُذْبة لما قُتِل زوجها، قَطَعت أنفَها وشفَتَيْهَا، وكانت جميلة الوجه، لئلا يرغب فيها .

وحيث ذكرنا الوفاء والمحافظة، فلنذكر بيعة خليفةٍ ويَمينٍ، ذكرها بعض أهل الأدب فى تصنيفه، وهى : تبايع عبد الله الإمام أمير المؤمنين، بيعة طوع وإيثار ورضا وٱختيار وٱعتقاد وإضمار وإعلان وإسرار وإخلاص من طويتك وصدق من نيتك،

(١) الجَبَابين جمع جَبَانة .

وٱنشراح من صدرك، وصحة من عزيمتك، طائعا غير مُكْرَه، ومنقادا غير مُجْبَر، مُقرًّا بفضلها، مُذْعِنا بحقها، ومعترِفا ببركتها، ومُعتَدًّا بحسن عائدتها، وعالِما بما فيها، وفى توكيدها من صلاح الكافّة، وٱجتماع كلمة الخاصّة والعامّة، ولمّ الشَّعث، وأمن العواقب، وسكون الدَّهْمَاء، وعزّ الأولياء، وقَمْع الأعداء، على أن فلانا عبد الله وخليفته المفترض عليك طاعته، الواجب على الأمة إمامته وولايته، اللازم لهم القيام بحقه، والوفاء بعهده، لا تَشُكّ فيه، ولا ترتاب به، ولا تُداهِن من أمره، ولا تميل، ولكنك ولىّ أوليائه، وعدوّ أعدائه، من خاصّ وعامّ، وقريب وبعيد، وحاضر وغائب، متمسك فى بيعته بوفاء العهد، وذمّة العقد، سريرتُك مثل علانيتك، وضميرك فيه وَفْق ظاهرك، على أن إعطاءك هذه البيعة من نفسك، وتوكيدك إياها فى عنقك، لفلان أمير المؤمنين، على سلامة من قلبك، وٱستقامة من عزمك، وٱستمرار من هواك ورأيك، على أن لا تتأوّل عليه فيها، ولا تسعى فى نقض شىء منها، ولا تقعد عن نصرة له فى الرخاء والشدّة، ولا تدع النُّصْح له فى كل حال راهنة وحادثة، حتى تلقى الله مُوفِيا بها، مؤدّيا للأمانة فيها، إذ كان الذين يبايعون وُلَاة الأمر وخلفاء الله فى الأرض (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) عليك بهذه البيعة التى طوّقتها عنقك، وبسطت لها يدك، وأعطيتَ ما شُرط عليك فيها، من وفاء، ونُصْح، ومُوَالاة، ومشايعة، وطاعة، وموافقة، وٱجتهاد، ومبالغة؛ عهد الله إن عهده كان مسئولا، وما أخذ الله على أنبيائه ورسله عليهم السلام، وعلى من أخذ من عباده من وَكَدات مواثيقه، ومُحْكَمات عهوده، وعلى أن تمسك بها، فلا تُبدل، وتستقيم، فلا تميل، وإن نكثتَ هذه البيعة، وبدّلتَ شرطا من شروطها، أو غيّرتَ رسما من رسومها، أو غيّرتْ

حكما من أحكامها، معلنا أو مسرّا، محتالا اومتأولا، أو زُغْتَ عن السبيل التى يسلكها من لا يحتقر الأمانة، ولا يستحِلّ الغدر والخيانة، ولا يستجيز حلّ العقود والعهـود، فكلّ ما تملكه من عين أو وَرِق، أو آنيـة أوعقَار أو سائمة أو زرع أو ضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتقدة، والأموال المدّخرة، صدقة على المساكين، يحرّم عليك أن ترجع شيئا من ذلك الى مالكَ، بحيلة من الحيل، على وجه من الوجوه، أو سبب من الأسباب، أو مخرج من مخارج الإيمان، فكلّ ما تفيده عمرك من مال يقلّ خطره أو يجلّ فتلك سبيله الى أن تتوفاك [منيتك، أو يأتيك أجلك، وكل مملوك لك اليوم من ذكر وأنثى أو تملكه الى آخر أيامك أحرار سائبون لوجه الله تعالى، ونساؤك يوم يلزمك الحِنْث وما تتزوج بعدهن مدة بقائك طوالق ثلاثا، طلاق الحَرَج والسنّة لا مثنويّة فيها ولا رجعة، وعليك المشى الى بيت الله الحرام، ثلاثين حجّةً حافيا راجلا، لايرضى الله منك إلا بالوفاء بها، ولايقبل الله صرفا ولا عدلا، وخذلك يوم تحتاج اليه، وبرّأك من حوله وقوّته، وألجأك الى حولك وقوّتك والله عز وجلّ بذلك شهيد (وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) والله على ما نقول وكيل.

(١)

ذكر ما قيل فى التواضع

قال الله تبارك وتعالى: (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ). وقال الله تعـالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ). وقال قتادة فى تفسـير قوله تعالى: (وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ) قال: هم المتواضعون. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض متواضعا.

(١) الكلام الذى يبتدئ بهـذا المربع ينتهى فى صحيفة ٢٥٠ بمربع مثله وهو ساقط بالأصل ويقع فى صحيفتى (٧٣ و ٧٤) وقد نقلنا من النسخة الراغية.

وقال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار، ولقد رأيته يوم حُنَين على حِمار، خِطَامه ليف . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن العفو لا يزيد العبد إلا عزًّا فاعفُوا يُعزّكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رِفْعة فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء فتصدّقوا يزدكم الله » . وقال عروة آبن الزبير: التواضع أحد مصايد الشرف ، وفى لفظ " سلّم الشرف " . وقال جعفر بن محمد : رأس الخير التواضع، فقيل له : وما التواضع ؟ فقال : أن ترضى من المجلس بدون شرفك وأن تُسَلِّم على من لَقِيت ، وأن تترك المِرَاء وإن كنت مُحِقًّا .

وعن على رضى الله تعالى عنه ولم يذكر المِرَاء فيه وزاد فيه : وتكره الرياء والسمعة . وقيل : ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة، وقيل: التواضع نعمة لا يفطن لها الحاسد ، وقيل : التواضع كالوَهْدة يجتمع فيها قَطرها وقطر غيرها .

وقال عبد الله بن المعتز : متواضِع العلماء أكثرُهم علما ، كما أن المكان المنخفض أكثرُ الاماكن ماءً .

وكان يحيى بن خالد يقول : لست أرى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه اكبر مما نال من سلطانه .

ومن التواضع المأثور ما رُوِى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرَّ ويَدُه على الْمُعَلَّى بن الجارود فلقيته آمرأة من قريش، فقالت له : يا عمر، فوقف لها، فقالت له : كنا نعرفك مرّة عُمَيْرا ثم صرتَ بعدَ عُمَيْرٍ عُمَرَ ثم صرت بعد عمرَ أَمِيرَ المؤمنين فاتق الله يابنَ الخطّاب، فانظر فى أمور الناس ، فإنّه من خاف الوعيد ، قرب عليه

البعيد ، ومن خاف الموت ، خشى الفوت ، فقال لها المعلّى ، إيهًا ، إليك يا أَمَةَ الله لقد أبكيتِ أمير المؤمنين ، فقال له عمر أتدرى مَنْ هذه ؟ ويحك ! هذه خَوْلة بنت حكيم التى سمع الله قولها من سمائه ، فعمرُ أحرى أن يسمع قولها ويقتدىَ به . وقال عدىّ بن أَرْطاة لإياس بن معاوية : إنك لسريع المشية ، قال : ذلك أبعد من الكِبْر وأسرع الى الحاجة . وقال عمر رضى الله عنه وقد قيل له مثل هذا : أنجح للحاجة وأبعد من الكِبْر . أما سمعت قوله عز وجل ؟ (وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) .

وقد مدح الشعراء أهل التواضع ، فمن ذلك قول أبى تمّام حبيب

مُتَبَذِّلٌ فى القوم وهو مُبَجَّلٌ * متواضع فى الحَىِّ وهو مُعَظَّمُ

وقال آخر

متواضع والنُّبْلُ يَحْرُس قدرَه * وأخو النباهة بالنباهة يَنْبُـلُ

وقال البحترىّ

دَنَوْتَ تواضعا وعلَوْتَ مجدا * فشأناك ٱنحـدارٌ وٱرتفـاعُ
كذاك الشمسُ تبعد أن تُسامَى * ويدنو الضوء منها والشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمىّ

تواضعَ لمـا زاده اللهُ رِفْعَةً * وكلُّ رفيع قدرُه متواضِـعُ

وقال آخر

دَنوتَ تواضعا وعلوت قدرا * ففيـك تواضـعٌ وعُلُو شانِ

ذكر ما قيل فى القناعة والنزاهة

جاء فى تفسير قوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) أن المراد بالحياة الطيبة : القناعة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القناعة مال لا يَنْفَدُ". وقال عليه السلام : "ما عَالَ مَنِ ٱقْتَصَد" . ومن كلام على رضى الله عنه : كفى بالقناعة مُلْكا، وبحسن الخُلُق نعيما .

وقال جعفر بن محمد : ثمرة القناعة الراحة .

وقال على بن موسى : القناعة تجمع الى صيانة النفس، وعز القدرة طَرْح مؤونة الاستكثار والتعبّد لأهل الدنيا ، ولا ملك طريقَ القناعة إلا رجلان، إما متقلِّلٌ يريد أجرَ الآخرة ، أو كريمٌ يتنزّه عن آثام الدنيا .

وقال الراضى: القانع يعيش آمنا مطمئنا مستريحا مريحا، والشَّرِهُ لا يعيش إلا تعِبًا نَصِبًا فى خوف وأذًى .

وقال بعض الحكماء : عزّ النزاهة أحبّ الىّ من فرح الفائدة، والصبر على العسرة أحبّ الىّ من ٱحتمال المِنّة . وقال أبو ذؤيب الهُذَلِىّ

والنفسُ راغبة إذا رغّبتَها * وإذا تُرَدُّ الى قليل تَقْنَعُ

وقال سالم بن وامضة

غِنَى النفسِ ما يكفيك فِى سَدِّ فاقةٍ * فإن زاد شيئا عاد ذاك الغِنَى فَقْرا

وقال أبو هلال العسكرى

أَلَا إنَّ القناعة خيرُ مالٍ * لذى كَرَمٍ يروح بغيرِ مالِ

وإن يصبرْ فإن الصبر أولى * بمَنْ عثرت به نُوَبُ الليـالى
تجمّـلْ إن بُليتَ بسوء حالٍ * فإن من التجملِ حسن حالِ

ذكر ما قيل فى الشكر والثناء

قال الله تبارك وتعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) فالشكر مما يوجب الزيادة .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه : لا يُزَهِّدك فى المعروف من لا يشكرك عليه، فقد يشكرك عليـه من لا يستمتِـع بشىء منه ، وقد يُدرك من شكر الشاكر، أكثر مما أضاع الكافر، (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) .

ومما تعزيه الفرس الى إسفنديار : الشكر أفضل من النعمة لأنه يبقى وتلك تفنى .

وقال موسى بن جعفر : المعروف لا يفكّه إلا المكافأة أو الشكر، وقال : قلّة الشكر تُزهِّد فى ٱصطناع المعروف .

وقيل : إذا قصرت يدك عن المكافأة، فليطلْ لسانك بالشكر . وقيل : للشـكر ثلاث منازل : ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد . قال الشاعر

أفادتكما النَّعْـــماء منِّى ثلاثة * يدى ولسانى والضميرَ المُحَجَّبَا

وقال يحيى بن زياد الحارثىّ بن كعب

حلفتُ بربِّ العِيسِ تَهْوِى بِرَكْبِهـا * الى حَرَمٍ ما عنه للنـاس معـدِلُ
لمـا يبلغ الإنعـام فى النفع غاية * على المرء إلا مبلغ الشـكر أفضـلُ
ولا بلغتْ أيدى المُنيـلينَ بَسْـطةً * من الطَّول إلا بسطةُ الشكر أطولُ

ولا ثقُلَت فى الوزن أعباءُ مِنَّةٍ * على المرء إلا مِنَّةُ الشكر أثقلُ
فمن شكر المعروفَ يوما فقد أتى * أخا العرف من حُسن المكافاة من علُ

وقال رجل من غطفان

الشكر أفضلُ ما حاولتَ ملتَمِسًا * به الزيادَة عند الله والناسِ

٥ وقال أبو بَجيلةَ

شكرتُك إنّ الشكرَ حَبْلٌ من التُّقى * وما كلّ من أوليتَه نِعمةً يقْضِى
ونَبّهتَ لى ذِكْرى وما كان خامِلًا * ولكنّ بعضَ الذِّكْر أنبهُ منْ بعضِ

وقال آخر

سأشكرُ عَمرًا ما تراختْ مَنِيَّتِى * أَيادِىَ لم تُمْنَن وإن هِى جَلَّتِ
١٠ فتى غير محجوبِ الغِنى عن صديقه * ولا مُظهِر الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خلَّتِى من حيث يَخفَى مكانُها * فكانتْ قَذَى عينيه حتَّى تَجَلَّتِ

وقال أبو تمام

كَمْ نِعمةٍ منك تَسَرْبلتُها * كأنها طُرَّةُ بُردٍ قَشيب
من اللواتى إن ونَى شاكر * قامت لمُسْديها مقامَ الخطيب

١٥ وقال أبو عُيَيْنة بن محمد بن أبى عُتْبةَ المُهَلَّبىّ

ياذَا اليَمِينَين قد أوليتَنى مِنَناً * تَتْرَى هى الغايةُ القُصْوى من المِنَنِ
ولستُ أستطيع من شكرٍ أجىءُ به * إلا آستطاعة ذِى جِسْم وذى بدنِ
لو كنتُ أعرِف فوقَ الشكر منزلة * أوفى من الشكر عند الله فى الثَّمَنِ
أخلصتُها لك من قلبى مُهَذَّبةً * حَذْوًا على مثل ما أوليتَ من حَسَنِ

قالوا وأجود ما قيـل فى عِظم النعمة وقصور الشكر من قديم الشّـعر قول طُرَيح ابن إسماعيل

سعيتُ ٱبتغاء الشكر فيما صنعتَ لى * فقصّرتُ مغـلوبا وإنّى لشـاكرُ
لأنك تُولِـينى الجميـلَ بَدَاهـةً * وأنت لمـا ٱستكثرتُ من ذاك حاقِرُ
فأَرْجِـع مَغبوطا وترجِـعُ بالّتِى * لهـا أوّلٌ فى المكرماتِ وآخرُ ٥

وقال دعبِل

هجرتُك لا عن جَفْـوةٍ ومَلَالَة * ولا لِقِلّى أبطأتُ عنك أبا بكرِ
ولكنّنِى لمـا رأيتُـك راغبًـا * فأفرطتَ فى برِّى عجزتُ عن الشكرِ
فـلآن[1] لا آتيـك إلا تعـذُّرًا * أزورك فى الشهرين يوما وفى الشهرِ ١٠

وقال البحترىّ

هاتيك أخلاقُ إسماعيل فى تَعبٍ * من العُلَا والعُلَا منهنّ فى تَعبِ
أبثّ شكرى فأُمسى منك فى نَصَبٍ * أقصِرْ فمالىَ فى جَدواك من أَرَبِ
لا أقبلُ الدهرَ نَيْلا لا يقوم له * شكرى ولو كان يُسديه إلىّ أَبِى
لمـا سألتُـك وافانى نَدَاك على * أضعافِ شكرى فلم أظفر ولم أَخِبِ ١٥

وقال أيضا

إنى هجرتُك إذ هجرتُك وَحْشةً * لا العَـودُ يذهبُها ولا الإبداءُ
أنجلتَنِى بِنَدى يَدَيْك فسوّدتْ * ما بيننا تلك اليـدُ البيضاءُ
وقطعتنى بالجـود حتّى إنّنِى * مُتَخَوِّفٌ أن لا يكون لِقـاءُ
صِلَةٌ غَدَتْ للناس وهىَ [قطيعةٌ] * عَجَبًا وبِرٌّ راح وهو جَفَـاءُ
ليواصِلَنّك رَكْبُ شِـعرٍ سائر * يرْويهِ فيكَ لحسنِه الاعداءُ

(١) فلآن أى فى الآن .

حتى يتمّ لك الثناءُ مُخَلَّدا * أبدا كما تمّتْ لك النَّعماءُ
فتظلّ تحسدُك الملوكُ الصِّيد بى * وتظلّ تحسدُنى بك الشعراءُ

وقال الحسن بن هانئ

قد قلتُ للعباس معتذِرًا * من عُظم شكريهِ ومعترِفَا
أنت آمرؤ جلَّلْتَنِى نِعَمًا * أوهتْ قُوَى شكرى فقد ضَعُفَا
لا تُسْدِيَنَّ إلىَّ عارِفةً * حتَّى أقومَ بشكرها سَلَفَا

وقال الحسين بن الضحّاك للواثق من أبيات

إذا كنتُ من جَدْواك فى كلِّ نعمةٍ * فلا كنتُ إن لم أَفْنِ عُمْرِى بشكركا

وقال البحترىّ

إذا أنا لم أشكر لنُعماك جاهِدًا * فلا نلتُ نُعْمَى بعدها تُوجب الشُّكرا

وقال عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر

إنى لشاكرٌ أَمْسِهُ ووليُّهُ * فى يومه ومُؤَمِّلٌ عنه غدَا

وقال آخر

وكيف أنساك ؟ لا نُعْماك واحدة * عندى ولا بالذى أوليتَ من قِدَمِ

وقال عبدُ الأَعْلى بن حمّاد : دخلتُ على المتوكّل، فقال لى : قد همّنا أن نصِلَك، فتدافعت الأمور، فقلت : يا أمير المؤمنين، قد بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : من لم يشكر للهِمَّة، لم يشكر للنعمة، وأنشدته قول الباهِلىّ

لأشكرنَّك معروفا هممتَ به * إن آهتمامَك بالمعروف معروفُ
ولا ألومُك إن لم يُمضِه قَدَرٌ * فالشىءُ بالقَدَر المحتومِ مصروفُ

وقال ابن الرومىّ

كم من يدٍ بيضاءَ قد أسـديتَها * تَثْنِي إليـــك عِنَان كلِّ وِدَادِ
شَكَر الإلهُ صـــنائعًا أوليتَها * سَلَكَتْ مع الأرواح فى الأجسادِ

وقال آخر

وأحسنُ ماقال امرؤ فيك مِدْحة * تلاقَتْ عليهـا مِنَّـــةٌ وقَبُولُ ٥
وشكرٌ كأن الشمسَ تعنَى بنشره * ففى كلّ أرض مُخْـبرٌ ورسولُ

ومن كلام الحسن بن وهب : من شكر لك على درجة رفعتَه اليها ، أو ثروة أفدتَه إيّاها ، فإن شكرى لك على مهْجة أحييتَها ، وحُشَاشة أبقيتَها ، ورَمَق أمسكته ، وقمتَ بين التَّلَف و بينه ، ولكل نعمة من نعم الدنيا حدٌّ يُنتهَى إليه ، ومدًى توقَف عليه ، وغاية من الشكر يسمو اليها الطرْف ، خلا هـذه النعمة التى فاتَتِ الوصفَ ، ١٠ وطالتِ الشكرَ ، وتجاوزتْ كلَّ قَدْر ، وأتت من وراء كلّ غاية ، وردت عنّا كَيْد العدوّ ، وأرغمتْ أنفَ الحسود ، نلجأ منها الى ظِلٍّ ظليل ، وكَنَفٍ كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغُ جهد المجهود .

وقال الشريف الرضىّ

ألبستنى نِعَـما عـلى نِعَـمٍ * ورفعتَ لى عَلَمًـا على عَلَمِ ١٥
وعلوتَ بى حتّى مشيتُ على * بُسُـطٍ من الأعناق والقمَمِ
فلأشـكرَنَّ يديك ما شكرت * خُضْرُ الرِّياضِ مَصَانِـعَ الدِّيَمِ
فالحمـدُ يُبْقِى ذِكْرَ كلِّ فَتًى * ويُبِينُ قَدْرَ مواقِـعِ الكَرَمِ
والشكر مَهْـرٌ للصنيعة إنْ * طُلِبَتْ مُهُـورُ عقائِلِ النِّعَمِ

وقال أبو الحسن الكاتب المغربيّ:

سأشكر نُعماك التي انبسطَتْ بها * يَدِي ولسانِي فهو بالمجْدِ يَنْطِقُ
وأُثنِي بما أوليتَنِي من صنيعةٍ * ومن مِنَّةٍ تَغْدُو عليَّ وتَطْرُقُ
وكلُّ امرئٍ يرجو نداك مُوفَّقٌ * وكلُّ امرئٍ يُثْنِي عليك مُصَدَّقُ

٥ وقال ابن رشيق القيروانيّ:

خُذْ ثَنَاءً عليك غِبَّ الأيادى * كَثَنَاءِ الرُّبَى على الأمطارِ
سَقَطَ الشكرُ وهو موجبُ نُعْما * ك سُقُوطَ الأنواءِ بالأثمارِ

ومن المُنْعِمين من رأى أن الشكر بإظهار النعمة، أبلغ منه بالنطق باللسان، وعاقب على ذلك بالحِرْمان.

١٠ فمن ذلك ما رواه أبو هلال العسكريّ يسنده الى العُتْبِيّ قال: أراد جعفر بن يحيى حاجة كان طريقه إليها على باب الأَصْمَعِيّ، فدفع الى خادم له كيسا فيه ألفُ دينار وقال: إنى سأنزِل فى رَجْعتى الى الأَصْمَعِيّ، ثم سيحدثنى ويُضحِكُنى، فاذا ضحِكت، فضعِ الكِيسَ بين يَدَيْه. فلما رجع، ودخل إليه، رأى حُبًّا[1] مكسورَ الرَّأس، وجَرَّةً مكسورةَ العُنُقِ، وقَصْعة مشعبة، وجَفْنة أعشارا، ورآه على مُصلًّى بالٍ، وعليه بَرْنَكان[2]

١٥ أجْرُدُ، فغمز غلامَه أن لا يضعَ الكيسَ بين يديه، فلم يدع الأَصْمَعِيّ شيئا مما يُضْحِك الثَّكلان والغضبان إلا أورده عليه فلم يتبسم، ثمّ خرج، فقال لرجل يسايره: من استرعى الذئب ظَلَم. ومن زَرَع السَّبخة حصد الفقر، إنى والله لما علمت أن هذا يكتم المعروف بالفعل، ما حفِلتُ بنشره له باللسان، وأين يقع مديح اللسان

(١) الحُبّ: الجَرَّة الضخمة. (٢) البَرْنَكان على وزن زعفران: ضرب من الأكسية.

من آثار العيان؟ إن اللسان قد يكذِب ، والحال لا تكذِب، ولله در نُصَيب حيث يقول

فعاجُوا فَأَثْنَوْا بالذى أنت أهلُه * ولو سَكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ

ثم قال : أعلمت أن ناووس أبرويز، أمدح لأبرويز من زُهَيْر لآل سِنَان ؟

(٧٦) وقالت الحكماء : لسان الحال، أصدق من لسان الشكوى .

وقد أجاد ابن الرومىّ فى هذا المعنى فقال

حالى تَبُوح بما أَوْلَيتَ من حسَنٍ * فكلُّ ما تدعيـــه غـيرُ مردودِ

كلّى هجاء، وقتـلى لا يحِـلُّ لكم * فمـا يداويكُمُ منّى سوى الجُـودِ

وقالوا : شهادات الأحوال، أعدل من شهادات الرجال .

ذكر ما قيل فى الوَعْد والإنجاز

رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وعد المؤمن كأخذٍ باليد » .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهـما : الوعد مرض فى الجود، والإنجاز دواءه .

ومن كلامه : المسئول حُرٌّ حتَّى يَعِدَ، ومستَرَقٌّ بالوعد حتى يُنْجِزَ .

وقال الزُّهْرِىُّ : حقيق على من أزهر بالوعد، أن يُثمِرَ بالفعل .

وقال مسلم بن الوليد عن أبيه قال: سألت الفضل بنَ سَهْلٍ حاجة، فقال : أشرِّفك اليوم بالوعد، وأحبوك غدا بالإنجاز ، فإنى سمعتُ يحيى بنَ خالد يقول : المواعيـد شَبَكة من شِباك الكرام ، يَصِيدون بهـا محامِد الأحرار، ولو كان المُعْطى لا يعـد، لارتفعتْ مفاخر إنجاز الوعد، ونقص فضلُ صدقِ المقال .

وقال الأَبْرَش الكلبىُّ لهشام بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين، لا تصنع إلىّ معروفا حتى تَعِدَنى، فإنه لم يأتنى منك سَيْب على غير وعد ، إلا هان علىّ قَدْرُه ، وقلّ منّى

شكره، فقال له هشام : لئن قلتَ ذلك، لقد قال سيّدُ أهلِك أبو مسلم الخَوْلانيّ : أنجعُ المعروف فى القلوب ، وأبردُه على الأكباد ، معروف منتظَر مِن وعد لا يُكدّر بالمطل .

وكان يحيي بن خالد لا يقضى حاجةً إلا بوعد .

٥ وقالت أعرابيّة لرجل : مالك تعطِى ولا تَعِد، فقال : مالكِ والوعد؟ قالت ينفسِح به البصرُ، وينشر فيه الأملُ، وتطيب بذكره النفسُ ، ويَرْخَى به العيشُ، وترجح به المدحَ بالوفاء .

قيل : كلّم منصور بن زياد يحيي بن خالد فى حاجة لرجل فقال : عِدْه عنّى قضاءَها، قال : وما يدعوك أعزّك الله الى العِدَة مع وجود القُدْرة ؟ فقال يحيي : هذا قول ١٠ من لا يعرف موضِع الصنائع من القلوب ، إن الحاجة إن لم تتقدمها بوعد ينتظر به نُجْحها، لم تتجاذب الأنفسُ بسرورها، ولم تتلذذ بتأميلها، وإن الوعد تطعّم، والإنجاز طعام ، وليس من فاجأه طعام، كمن وجد رائحته ، وتمطّق له وتطعّمه ، ثم طَعِمه، فدع الحاجة تحتّم بالوعد، ليكون لها عند المصطنع اليه حسنُ موقع، ولطفُ محلّ .

وقال عيسى بن ماهان : إنى أُحِبُّ أن أَهِب بلا وعد، وأُحِبُّ أن أَعِد، لأَخرجَ ١٥ من جملة المخلفين ، وأدخلَ فى عدد الوافين ، ويُؤْثَر عنّى كرم المُنْجزين ، فإن من سبق فعلُه وعدَه، وُصِف بكرم فرد، وسقط عنه جميع ما ذكرت .

قال ذَكر العباس المأمون فقال : إنه أَلْقَحَ معروفه عندى بالوعد، ونتجه بالنُّجح، وأرضعه بالزيادة ، وشيّبه بالتعهد ، وهرّمه باستتمامه من جِهاته ، وهنّأه بترك الامتنان به .

٢٠ (١) هَنّأه : طلاه بالهناء وهو القَطِران .

وشكا رجلٌ جعفرَ بن يحيى لأبيه: أنه وعده وعدا ومَطَله به، فوقّع: يا بَنِيَّ، أنتم معـاقل الأحرار ومَظانّ المطالب ومعادِنُ الشـكوى، فكونوا سَواءً فى الأقوال والأفعال، فإن الحُرَّ، يدّخر وعدَ الحر ويعتقده وينفقه قبل مَلْكته، فإن أخفق أمله، كان سببا لذمّه واتّهامه وسوءِ ظنّه، حتّى يوارِىَ قُبْحُ ذلك حُسنَ يقينه، فأنجِز الوعد، وإلا فأَقْصِرِ القول، فإنه أعذر والسلام. ٥

قال: كُلِّم المأمون فى الحسين بن الضحّاك الخليع أن يردّ عليه رزقَه، فقال: أليس هو القائل فى الأمين

فلا فَرِح المأمونُ بالمُلْك بعـدَه * ولا زال فى الدُّنيا طَرِيدًا مشردا

فما زالوا يتلطفون معه فى القول، إلى أن أَذِن له أن يُنْشِده، فأنشده

أَبِنْ لى فإنى قد ظَمِئْتُ الى الوعدِ * متى تُنْجِزِ الوعدَ المؤَكَّدَ بالعهدِ؟ ١٠

أُعِيذُك من صَدِّ الملوك وقد ترى * تقطُّعَ أنفاسى عليك من الوَجْدِ

فما لى شَفِيعٌ عند حسنك غيره * ولا سببٌ إلا التمسـك بالوُدِّ

أيَبْخَلُ فَرْدُ الحُسنِ فرد صـفاته * علىّ وقد أفردتُه بِهَوًى وحدى

رأى اللهُ عبـد الله خيرَ عباده * فملّكَهُ والله أعلم بالعبـد

فقال له المأمون: هذه بتلك، وقد عفونا عنك فقال: يا أمير المؤمنين، فأتبع عفوَك ١٥ إحسانَك، فأمر بردّ أرزاقه عليه، وكانت فى كلّ شهر خَمْسِمائةِ دينارٍ، فقال المأمون: لولا أنى نويتُ عفوا عنه، وجعلت ذلك وعدا له من قبل، ما فعلته، وإنمـا ذكر الوعد فى تشبيبه يذكرنيه.

وقال بعض ملوك العجم: البخل بعـد الوعد، يضعفُ قبحه على البخل قبـلَه، فمـا قولك فى أمرٍ، البخل أحسن منه؟ ٢٠

وقال بعض الشعراء

ولى منك مَوْعودٌ طلبتُ نجاحه * وأنت آمرؤٌ لا تُخلف الدهرَ مَوْعِدَا
وَعَوَدتَنى أن لا تزالَ تُظلُّنِى * يدٌ منك قد قدَّمتَ من قبلها يَدَا
فلو أن مجدا أو ندًى أو فضيلة * تُخَلِّد شيئا كنتَ أنت المخلَّدَا

وقال بشّار

وعد الكريم يَحُثُّ نائلَه * كالغَيْث يَسْبِقُ رعدُه مَطَرَهْ

وقال ٱبن الرومىّ

يتخطّى العِداةَ عمدا الى البَذْ * لِ كسَحِّ الحَيَا بلا إيماضِ

ذكر ما قيل فى الشفاعة

قال الله عزّ وجلّ : (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره، فيقول له : جعلت لك جاها، فهل نصرتَ به مظلوما، أو قمعتَ به ظالما، أو أعنتَ به مكروبا» ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاهَ له » وقال : «الخلق عيال الله، فأحبُّهم اليه ، أنفعُهم لعياله » .

وقال : « الشفيعُ جَناحُ الطلب » .

وقيل : قصد ٱبن السمّاك الواعظ رجلا فى حاجةٍ لرجلٍ سأله الشفاعة فيها ، فقال ٱبن السمّاك : إنى أتيتك فى حاجةٍ ، وأن الطالب والمطلوبَ اليه عزيزان إن قُضيتْ الحاجةُ ، وذليلان إن لم تُقْضَ ، فٱختر لنفسك عزَّ البذل ، على ذلّ المنع ، وٱختر لى عزَّ النُّجح ، على ذلّ الرّد، فقضى حاجته .

قال أبو تمـام

وإذا آمرؤ أسدى إليك صنيعة * من جاهه فكأنها من ماله

وقال رجل لبعض الملوك : إنّ الناس يتوسّلون اليك بغيرك، يسألون معروفك، ويشكرون غيرك، وأنا أتوسّل اليك بك، ليكون شكرى لك لا لغيرك .

قال بعض الشعراء

إذا أنتَ لم تَعطفْك إلا شفاعةٌ * فلا خيرَ فى ودّ يكون بشـافع

ذكر ما قيل فى الآعتذار والآستعطاف

رأيتُ جماعةً من أهل الأدب قد ألحقوا الآعتذار والآستعطاف بالمدح، كالحمدونىّ فى تذكرته، وغيره، فلذلك أضفته اليه، وجعلته من فصوله . قال الله عزّ وجلّ : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ) .

ورُوىَ عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : « من آعتذر اليه أخوه المسلمُ، فلم يقبلْ، لم يَرِدْ على الحوض » .

وقال علىّ رضى الله عنـه : أَوْلَى الناس بالعفو، أقدرهم على العقوبة . وقال : العفو زكاة الظَّفر . وقال : اذا قدرت على عدوّك ، فاجعـل عفوك عنـه شـكر المقدرة عليه .

وقال الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : لا تعاجل الذنبَ بالعقوبة، وآجعل بينهما للآعتذار طريقا . وقال : أوسعُ ما يكون الكرمُ بالمغفرة، اذا ضاقت بالذنب المعذرة .

وقال جعفر بن محمد الصادق : شفيع المذنب إقراره، وتوبة المجرم الآعتذار .

وقالوا ما أذنب من آعتذر، ولا أسى من آستغفر .

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال : يابنىّ لا يعتذر اليك أحد من الناس ، كائنا من كان ، فى أى جرم كان ، صادقا كان أو كاذبا ، إلاقبلتَ عذره ، فكفاك بالاعتذار بِرًّا من صديقك ، وذلًّا من عدوّك .

قال بعض الشعراء

٥ فإن كنت ترجو فى العقوبة راحةً ٭ فلا تزهدَنْ عند التجاوز فى الأجْرِ

وقال أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرىّ : الاعتذار ذِلّة ، ولابدّ منه ، لأن الإصرار على الذنب ، فيما بينك و بين خالقك هلكةٌ ، وفيما بينك و بين صديقك فُرقةٌ ، وعند سائر الناس مثلبةٌ وهُجنةٌ ، فعليك به ، اذا واقعت الذنب ، وقارفت الجرم ، ولا تستنكفْ من خضوعك وتذلّلك فيه ، فربما آستثير العزّ من ١٠ تحت الذلة ، وآجتُنِيَ الشرفُ من شجرة النذلة ، وربّ محبوبٍ فى مكروه ، والمجدُ شهدٌ يُجتَنَى من حنظل .

قال : ومما خُصّ به الاعتذار أنّ الحقَّ لا يثبت لباطله ، والحقيقةَ لا تقوم مع تخييله وتمويهه ، وأنّ ردَّه لا يسعُ مع الكذب اللائح فى صفحاته . وقالوا : لا عذرَ فى ردِّ الاعتذار ، والمعتذرُ من الذنب ، كمن لا ذنب له ، وهذه خَصلة لا يشركه ١٥ فيها غيرُه .

قال بعضهم : كنت بحضرة عُبيد الله بن سليمان ، فوردت عليه رقعة من جعفر آبن توابة ، نسختُها : قد فتحتَ للظلوم بابَك ، ورفعتَ عنه حجابَك ، فأنا أحاكم الأيّام الى عدلك ، وأشكو صُروفَها الى فضلك ، وأستجير من لؤم غلَبتها بكرم قدرتِك ، وحسن ملكِك ، فإنها تؤخّرنى اذا قدّمتْ ، وتحرمنى اذا قسّمتْ ، فإن

أعطت أعطت يسيرا، وإن ٱرتجعتْ ٱرتجعتْ كثيرا، ولم أشكُها الى أحد قبلك، ولا أعددت الٱنتصاف منها إلا الى فضلك، ولى مع ذمام المسألة لك، وحقّ الظُّلام اليك، ذمامُ تأميلك، وقَدمُ صدقٍ فى طاعتك، والذى يملأ من النَّصَفَة يدى، ويُفرغ الحقَّ علىّ، حتى تكونَ لى محسِنا، وأكونَ بك الى الأيام مقتربا، أن تخلطنى بخواصّ خدمك الذين نقلْتهم من حدّ الفراغ الى الشغل، ومن الخمول الى النباهة والذِّكْر، فإن رأيتَ أنْ تعـذّبنى فقد ٱستعديتُ اليك، وتنصُرَنى فقد عذت بك، وتُوسعَ لى كنفَك فقد أويتُ اليه، وتسمَنى بإحسانك فقد عوّلت عليه، وتستعمل يدى ولسانى فيما يصلحان له من خدمتك، فقد درستُ كتبَ أسلافك وهم القدوة فى البيـان، وٱستضأتُ بآرائهم، وٱقتفوتُ آثارَهم ٱقتفاءً جعلنى بين وحشىّ الكلام وأنيسـه، ووقفنى منه على جادةٍ متوسطةٍ، يرجع اليها العالى، ويلحق بها المقصّر التالى، فعل إن شاء الله . قال : فعل إن شاء الله ! قال : فجعل عبيد الله يرددها ويستحسنها؛ ثم قال : هذا أحقّ بديوان الرسائل .

ومن الٱستعطاف : ماحكى أن محمد بن الحنفيّة، جرى بينه وبين أخيه الحسين، كلام ٱفترقا بسببه متغاضبين؛ فلما وصل محمد الى منزله، كتب الى الحسين رقعة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن لك شرفا لا أبلغه، وفضلا لا أدركه، أبونا علىٌّ، لا أفضلك فيـه ولا تفضلنى، وأمّى ٱمرأة من بنى حنيفـة، وأمّك فاطمةُ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان ملء الأرض نساءً مثلَ أمى ما وفين بأمّك، فاذا قرأت رقعتى هـذه فٱلبس رداءك ونعليك وتعـال لترضّانى، وإياك أن أسبقك الى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى والسلام . فلبس الحسين رداءه ونعليه وجاء الى محمد وترضّاه .

(٧٨)

وقيل : وقّع جعفر بن يحيى فى رقعة معتذرا : قد تقدمتْ طاعتُك ونصيحتُك ، فإن ثبت منك هفوة فلن تغلبَ سيئةٌ حسنتين .

وقال شاعر

إرضَ للسائل الخضوعَ وللقا * رف ذنبًا مَذلّةَ الإعتذارِ

٥ قال أبو هلال العسكرىّ : لم يُروَ عن أحد قبل النابغة الذبيانىّ فى الاعتذار شعر ؛ فمن أجود ما روى له فيه ، قوله حين سعى به المتخّل اليشكُرىُّ الى النّعمان ، وزعم أنه غشى المتجردةَ حظيّة النعمان ، وذلك حين وصفها النابغة فى شعره فقال

واذا لمستَ ، لمستَ أخثمَ جائما * متحيِّزًا بمكانه ملءَ اليدِ

واذا طعنتَ ، طعنتَ فى مستهدِف * رابى المجسّة بالعبير مقرمَدِ

١٠ واذا نزعتَ ، نزعتَ من مستحصِف * نزعَ الحَزَوَّر بالرِّشاء المحصَدِ

فقال المتخّل للنعمان : هذا وصفُ من ذاقها ، فوقَر ذلك فى نفس النعمان ، ثم وفد عليه رهط من بنى سعد بن زيد مناة من بنى قُرَيع ، فأبلغوه أن النابغة ما يزال يذكرها ويصف منها ، فأجمع النعمان على الإيقاع بالنابغة . فعرّفه بذلك عِصام حاجب النعمان ، وهو الذى قيل فيه

١٥ * نفسُ عِصامٍ سوّدتْ عِصاما *

فانطلق النابغة الى آل غسّان وكانوا قتلوا المنذر والد النعمان ، فزادهم لحاق النابغة بهم حشمة ؛ ثم اتصلت بالنعمان كثرة مدائح النابغة فيه ، فحسدهم عليه وأتمنه وراسله فى المصير اليه ، فأتاه وجعل يعتذر ممّا قذف به ومن مدحه لآل غسّان فقال

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبَةً * وليس وراء الله للمرء مذهبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنى جنايةً * لَمبلغُك الواشى أغشُّ وأكذبُ
ولستَ بمستبقٍ أخا لا تَلُمّـه * على شعث! أىّ الرجال المهذبُ؟
فأن أكُ مظلوما، فعبدٌ ظلمتَه * وإن تك ذا عُتبى، فمثلك يعتبُ

يقول: مثلك يعفو ويُحسِنُ وإن كان عاتبا، وفى كرمك ما يفعل ذنبك، ولك العتبى والرجوع الى ما تحبّ. ومنه قوله أيضا للنعمان

أتانى أبيتَ اللعنَ! أنك لمتنى * وتلك التى تستكُّ منها المسامعُ
مقالةُ أن قد قلتَ سوف أنالُه * وذلك من تِلقاء مثلِكَ رائعُ
فبتُّ كأنّى ساورتنى ضئيلةٌ * من الرُّقشِ فى أنيابها السمُّ ناقعُ
لَكلّفتنى ذنبَ امرئٍ وتركته * كذى العُرِّ يُكوى غيرُه وهو راتعُ

الى أن قال

فإن كنتُ لا ذو الضِّغْنِ عنى مكذَّبٌ * ولا حَلِفى على البراءةِ نافعُ
ولا أنا مأمونٌ بشىء أقوله * وأنت بأمرٍ لا محالة واقعُ
فإنك كالليل الذى هو مدركى * وإن خلتُ أنّ المنتأى عنك واسعُ

وقال أيضا

أنبئت أن أبا قابوس أوعدنى * ولا قَرار على زارٍ من الأسدِ
مهلًا، فداءٌ لك الأقوام كلّهم، * وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن ولدِ
لا تقذفنّى بركن لا كِفاءَ به * وإن تأنّقَ الأعداءُ بالرِّفَدِ
ما قلتُ من سيئٍ ممّا أُتيتَ به * اذا فلا رفعتْ سوطى الىّ يدى

قال: فخلع عليه النعمان خِلَعَ رِضى، وكنّ حبراتٍ خُضرا مطرَّقةً بالجوهر.

(١) أى لم تبرح تغريك.

قال العسكرىّ : ولم يسلك أحد طريقته فأحسن فيها كإحسان البحترىّ ، فمن اعتذاراته قوله فى قصيدته التى أولها

* لوت بالسلام بنانا خضيبا *

قال منها

٥ فديناك من أىّ خطبٍ عَرَى * ونائبةٍ أوشكتْ أن تنوبا (٧٩)
وإن كان رأيك قد حَالَ فىَّ * وأوليتنى بعدَ شرٍّ قُطوبا
يريبُنىَ الشىءُ تأتى به * وأُكبرُ قدرَك أن أستريبا
وأكره أن يتمادى علىَّ سبيلُ اغترارٍ فألقى شَعوبا
أكذّب نفسى بأن قد سخطتَ * وما كنتُ أعهد ظنّى كذوبا
١٠ ولو لم تكن ساخطا لم أكن * أذمّ الزمان وأشكو الخطوبا
أيُصبح ودّىَ فى ساحتيك طَرْقا(١) ومرعاىَ محلًا جديبا
وما كان سخطك إلا الفراق * أفاض الدموعَ وأشجى القلوبا
ولوكنتُ أعرف ذنبا لما كا * ن خالجنى الشك فى أن أتوبا
سأصبر حتى ألاقى رضا * ك إما بعيدا وإما قريبا
١٥ أراقب رأيَك حتى يصحّ * وأنظرُ عَطفَك حتى يثوبا

وقوله

عَذيرى من الأيّام رقّنَ مشربى * ولقّيننى نحسا من الطير أشأما
وأكسبننى سخط امرئ بتُّ مَوْهِنا * أرى سخطه ليلا مع الصبح مظلما
تبلّج عن بعض الرضى، وانطوى على * بقيةِ عتبٍ شارفت أن تَصَرّما
٢٠ اذا قلتُ يوما : قد تجاوز حدّها * تلبّثَ فى أعقابها وتلوّما
وأصيد إن نازعتُه الطرف رده * قليلا، وإن راجعتُه القول جمجما

(١) الطَّرْقُ : الماء الذى خوضه الإبل وبزلت فيه .

ثناه العدا عنى، فأصبح مُعرِضا * ووهَّمـه الواشون حتى توهّمـا
وقد كان سهلا واضحا فتوعّرت * رباه، وطَلْقـا ضاحكا فتجهّما
أمتخذٌ عندى الإسـاءة محسنٌ * ومنتقم منى آمرؤ كان مُنعما
ومكتسِبٌ فىَّ الملامـةَ ماجـد * يرى الحمـد غُنماً والملامـةَ مَغْرما
يخوِّفنى من سـوء رأيك معشرٌ * ولا خوف إلا أن تجور وتظلما
أعيذك أن أخشاك من غير حادثٍ * تَبَيَّنَ، أو جُرمٍ إليك تقـدما
الستُ الموالى فيك نظمَ قصائدٍ * هى الأنجم آقتادت مع الليل أنجما؟
أعِدْ نظرا فيما تسخطْتَ، هل ترى * مقالا دنيئًـا أو فَعالا مذمَّما؟
وكان رجائى أن أؤوب مملَّكا * فصار رجائى أن أؤوب مسلّما
حياء فلم يذهب بىَ الغىُّ مذهبًا * بعيدا، ولم أركب من الأمر مُعظَما
ولم أعرف الذنب الذى سؤتنى له * فأقتـلَ نفسى حسرةً وتنـدّما
ولو كان ما خُبّرتُه أو ظننتهُ * لمـا كان غروا أن ألوم وتكرما
أذكِّرك العهدَ الذى ليس سؤددا * تناسيه، والودَّ الصحيح المسلّما
وما حمل الركبان شرقا ومغـربا * وأنجد فى أعلى البـلاد وأتهـما
أُقِرّ بمـا لم أجنـه متنصّـلا * اليـك، على أنى إخالك ألوما
لىَ الذنب معروفا. فإن كنتُ جاهلا * به، فلك العتبى علىّ وأنعـما
ومثلك، إن أبدى الفَعـال أعاده * وإن صـنع المعروف زاد وتمّـما

وقال سعيد بن حُميد

لم آت ذنبا، فإن زعمت بأن * أتيت ذنبـا، فغـير معتمدِ
قد تطرِفُ الكفُّ عينَ صاحبها * فلا يرى قطعَها من الرشد

وقال آخر

وكنتُ اذا ما جئتُ أدنيتَ مجلسى * ووجهك من ماء البشاشة يقطُر
فمن لى بالعين التى كنتَ مرّةً * الىَّ بها فى سالف الدهر تنظرُ؟

وقال آخر

٥ اغتفر زلّتى لتُحرز فضل ا * عفو عنى ولا يفوتك أجرِى
لاتكِلْنى الىٰ التوسّل بالعذ * ر لعلّى أن لا أقوم بعذرى

وقال بعض فضلاء الأندلس

إنى جنيتُ ولم يزل أهلُ النهى * يَهبونُ للجانين ما يجنونَهُ
ولقد جمعتُ من الذنوب فنونها * فاجمع من الصفح الجميل فنونَهُ
١٠ من كان يرجو عفوَ مَن هو فوقه * فليعفُ عن ذنب الذى هو دونَهُ

الباب الثانى

من القسم الثالث من الفن الثانى

فى الهجاء، وفيه أربعة عشر فصلا

ما قيل فى الهجاء ومن يستحقّه .

١٥ ما قيل فى الحسد .

ما قيل فى السعاية والبغى .

ما قيل فى الغيبة والنميمة .

ما قيل فى البخل واللؤم وأخبار البخلاء واحتجاجهم .

ما قيل فى التطفيل و يتّصل به أخبار الأكَلَة والمؤاكلة.

ما قيل فى الجبن والفرار .

ما قيل فى الحمق والجهل .

ما قيل فى الكذب .

ما قيل فى الغدر والخيانة . ٥

ما قيل فى الكبر والعجب .

ما قيل فى الحرص والطمع .

ما قيل فى الوعد والمطل .

ما قيل فى العىّ والحَصَر .

ذكر ماقيل فى الهجاء ومن يستحقه ١٠

قال الله تعالى : (وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) فهذه رخصة لمن ظلم فى الانتصار .

وقال حسّان بن ثابت الأنصارىّ يردّ على أبى سفيان بن الحارث ١٥

ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... مغلغلة[11] فقد برح الخفاءُ

هجوتَ محمّداً فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاءُ

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ ... فشرّكما لخيركما الفداءُ

(١١) مغلغلة : أى محمولة من بلد إلى بلد .

لنا فى كلّ يومٍ من معــدّ * سبابٌ أو قتــالٌ أو هجــاءُ
لسانى صارم لا عيب فيه * وبحــرى لا تكدّره الدِّلاءُ
فإنّ أبى ووالدتى وعِرضى * لعــرض محمّدٍ منكم وِقاءُ

ويستحقّ الهجاءَ من آتصف بسوء الخصال، وآتسم بأخلاق الأرذال والأنذال، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره، والبخل وِطاءه ودثاره. وسأذكر جماع ما آتصفوا به من سوء الفعال، وأسّسوا بنيانهم عليه من قبح الخلال .

قال بعض الحكماء : أربعة من علامات اللؤم : إفشاء السرّ، وآعتقــاد الغدر، وغِيبة الأحرار، وإساءة الجوار .

وسأل عبــد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن خلقه، فتلكأ عليه وأبى أن يخبره فأقسم عليــه فقال : حسود، كنود، حقود. فقال عبد الملك : ما فى إبليس شرٌّ من هذه الخلال . فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال : لقد آنتحل الشرَّ بحذافيره، ومرق من جميع خلال الخير، وتأنّق فى ذمّ نفسه. وتجرّد فى الدلالة على لؤم طبعه، وأفرط فى إقامة الحجة على كفره. وخرج من الخلال الموجبة رضى ربّه .

قال أبو تمــام

تأنّستْ بذميمِ الفعلِ طلعتُه * تأنُّسَ المقلة الرمداء بالظلَمِ

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربعة، من كنّ فيه فهو منافق، مَن اذا حدّث كذب، واذا وعد أخلف، واذا عاهد غدر، واذا أؤتمن خان » .

وقالوا : اللئيم كذوب الوعد، خؤون العهد، قليل الرفد . وقالوا : اللئيم اذا آستغنى بطر، واذا آفتقر قنط، واذا قال أفحش، واذا سئل بخل، وإن سأل ألحّ، وإن

أُسدِىَ اليه صنيعٌ أخفاه، وإن آستُكتِمَ سرًّا أفشاه، فصديقه منه على حذر، وعدوّه منه على غَرَر(١).

وإنَّ للشعراء والبلغاء فى الذّم والهجاء نظما ونثرا سنورد منه طُرَفا، ونشرح ما يجعل ضوء النهار على المقول فيه سَدَفا(٢).

فمن ذلك ما قاله أحمد بن يوسف الكاتب فى بنى سعيد بن مسلم بن قتيبة: محاسنهم مساوئُ السِّفَل، ومساوئهم فضائح الأمم، وألسنتهم معقودة بالعِىّ، وأيديهم معقولة بالبخل، وأعراضهم أعراض الذمّ؛ فهم كما قيل

لا يَكْثُرُون وإن طالتْ حياتهمُ * ولا تَبِيـد مخازيهم وإن بادوا

وذمّ أعرابى قوما فقال

هم أقلّ الناس ذنوبا الى أعدائهـم، وأكثرهم تجرؤا على أصدقائهم، يصومون عن المعروف، ويُفطِرون على الفحشاء.

وذمّ أعرابىّ قوما فقال: قوم سُلِخت أقفاؤُهم بالهجاء، ودُبغت جلودُهم باللؤم، فلباسهم فى الدنيا الملامة، وفى الآخرة الندامة.

وكان عيسى بن فرخان شاه يتيـه على أبى العَيْناء حال وزارته، فلمـا صرف عن الوزارة لقى أبا العيناء فى بعض السكك فسلّم عليـه سلاما خفيفا، فقال أبو العيناء لقائده: من هـذا؟ قال: أبو موسى، فدنا منه حتّى أخذ بعنان بغلته وقال: لقد كنت أقنع بإيمائك دون بَنَانك، وبلحظك دون لفظك، الحمد لله على ما آلت اليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة، لقد أصابت فيك النِّقمة؛ ولئن كانت الدنيا أبدت صفحاتها بالإقبال عليـك، لقد أظهرت محاسـنَها بالإدبار عنك، ولله المِنَّـةُ

(١) الغَرَرُ: التعرض للهلكة. (٢) السَّدَفُ: الظلمة.

إذ أغنانا عن الكذب عليك، ونزّهنا عن قول الزور فيك، وقد والله أسأتَ حمل النعمة، وما شكرتَ حقّ المنعم؛ ثم أطلق يده من عِنانه، ورجع الى مكانه فقيل له: يا أبا عبد الله! لقد بالغتَ فى السَّبِّ؛ فما كان الذنب؟ قال: سألته فى حاجة أقلّ من قيمته، فردّنى عنها بأقبح من خلقته.

٥ قال بعض الأعراب: نزلت بذاك الوادى فإذا ثياب أحرار على أجسام عبيد، إقبال حظهم، إدبار حظ الكرام؛ ألَمَّ بهذا المعنى شاعر فقال

أرى حُلَلًا تُصانُ على رجال * وأعراضًا تُذَالُ ولا تُصَانُ

يقولون الزمانُ به فسادٌ * وهم فسدوا وما فَسَد الزمانُ

وسئل بعضُ البلغاء عن رجل فقال: هو صغير القَدْر، قصير الشِّبْر، ضيِّق الصدر، ١٠ لئيم النَّجر[1]، عظيم الكِبْر، كثير الفخر.

وذمّ أعرابىّ رجلا فقال: هو عبد البَدَن، حُرُّ الثياب، عظيم الرّواق، صغير الأخلاق، الدهرُ يرفعه، ونفسه تَضَعُهُ.

وقال آخر: فلان غَثٌّ فى دينه، قَذِر فى دنياه، رَثٌّ فى مُرُوءته، سَمِج فى هيئته، منقطع الى نفسه، راضٍ عن عقله، بخيل بما أنعم الله عليه، كتوم لما آتاه الله من ١٥ فضله، حَلّاف لَجُوج، إن سأل ألحف، وإن وعد أخلف، لا يُنْصِف الأصاغر، ولا يعرِف حقَّ الأكابر.

وترجم الفتحُ بن عبد الله القَيْسىّ صاحبُ قلائد العِقْيان فى كتابه عن أبى بكر بن ماجة المعروف بابن الصائغ فقال: هو رَمَدُ جَفْن الدِّين، وكَمَدُ نفوس المهتدين، اشتهر سخفا وجنونا، وهجر مَفْرُوضا ومَسْنُونا، فما يشرع، ولا يأخذ فى غير الأضاليل ولا (٨١)

٢٠ (١) النَّجْر: الأصل.

يشرع ، ناهيك به من رجل ما تَطَهّر من جنابه ، ولا أظهر مَخيلةَ إنابه ، ولا آستنجى من حَدَث ، ولا أسْجَى فؤادَه مُوارًى فى جَدَث ، ولا أقرّ بمارئه ومُصوِّره ، ولا فرّعن تباريه فى ميدان تهوّره ، الإساءة اليـه أجدَى من الإحسان ، والبهيمة أهدَى عنده من الإنسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكّر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفَض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذه وراء ظهره ، ثانِىَ عِطْفه ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وآقتصر على الهيئة ، وأنكر أن يكون له عنـد الله تبارك وتعالى فيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، وآجترم على الله اللطيف الخبير ، وآجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، وآستهزأ بقوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) فهو يعتقـد أن الزمان دَوْر ، وأن الإنسان نبات له نَوْر ، حِمامُه تَمـامُه . وآختلافه فطامه ، قد مُحِى الإيمـان من قلبه فما له فيه رسم ، ونَسِىَ الرحمنَ لسانُه فما يمرّ له عليه آسم ، وآتمت نفسه للضلال وآنتسبت ، ونفت يوما تُجْزَى فيه كُلُّ نَفْسٍ بما كسبتْ ، فقصر عمرَه على طَرَب ولهو ، وآستشعر كل كبر وزهو ، وهو يَعْكِفُ على سماع التلاحين ، ويقف عليها كلَّ حين ، يعلن بذلك الآعتقاد ، ولا يؤمن بشىء قادنا الى الله فى أسلس مَقَاد ، مع منشإ وخيم ، ولؤم أصل وخيم (١) ، وصورةٍ شوّهها الله وقبحها ، وطلعةٍ لو رآها كلب لنبحها ، وقذارةٍ يُؤذى البلادَ نَفَسُها ، ووضارةٍ يحكى الحداد دَنَسَها وفَنَدٍ لا يَعمُر إلا كنفه ، ولَدَدٍ لا يُقَوِّم إلا الصِّفَادُ جَنَفه (٢) .

وكتب أحمد بن يوسف : أما بعـد فإنى لا أعرف للمعروف طريقا أوعر من طريقه إليك ، لأنه يحصل منك بين حسب دنىء ، ولسان بَذِىء ، وجهل قد ملك عليك طباعَك ، فالمعروف لديك ضائعٌ ، والشكر عندك مهجورٌ ، وإنما غايتك فى المعروف أن تُحَوِّره ، وفى وَلِيّه أن تُكفِّره .

(١) الخيمُ : السجيّة . (٢) الجنف : الميل .

ومما قيل فى الهجاء من النظم

فمن ذلك قول جرير وهو أهجى بيت قالته العرب

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ * فلا كَعْبًا بلغت ولا كِلَابَا

٥ ولو وُضِعَتْ فِقَاحُ بَنِي نُمَيْرٍ * على خَبَثِ الحَدِيدِ إذًا لَذَابَا

وقال عبد الملك بن مروان يوما لجلسائه : هل تعلمون أهل بيت قيل فيهم شعرٌ ودُّوا أنهم افتدَوْا منه بأموالهم، وشعرٌ لم يسرّهم به حُمْر النَّعم فقال أسماء بن خارجة : نحن يا أمير المؤمنين ! قال : وما قيل فيكم : قال : قول الحارث بن ظالم

وما قومى بثعلبة بن سعد * ولا بفزارة الشُّعْرِ الرِّقابا

١٠ فوالله يا أمير المؤمنين! إنى لأَلْبَسُ العِمَامة الصفيقة فيخيَّل إلىّ أن شعر قفاى قد بدا منها، وقول قيس بن الخطيم

هممْنا بالإقامة يومَ سِرْنا * مَسِيرَ حُذَيْفة الخير بن بدرِ

فما يسرّنا أنّ لنا بها أو بِهِ حُمْرَ النَّعم، فقال هانئ بن قبيصة النُّمَيْرىّ : أولئك نحن يا أمير المؤمنين ! قال : ما قيل فيكم ؟ قال قول جرير

١٥ * فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ *

والله لوددْنا أننا افتديناه بأملاكنا، وقول زياد الأعجم

لعمرُك ما رِماحُ بنى نُمَيْرٍ * بطائشةِ الصُّدور ولا قصَار

فوالله ما يسرّنا به حُمْر النَّعم

قال العسكرىّ وذكر أن جريرا لما قال

٢٠ والتَّغلبىُّ إذا تَحَنَّحَ لِلْقِرَى * حَكَّ اسْتَهُ وتَمَثَّلَ الأَمْثَالَا

قال : قلت فيهم بيتا لو طُعِنَ أحدُهم فى آسته لم يحُكّها ! وقالوا : مرت آمرأة ببنى نُمَير فتغامزوا إليها فقالت : يا بنى نمير ! لم تعملوا بقول الله ولا بقول الشاعر، يقول الله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ويقول الشاعر

* فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيرٍ *

فخجلوا ، وكان النُّمَيرىّ إذا قيل له : ممن أنت؟ قال : من نُمَير، فصار يقول : من بنى عامر بن صَعْصَعَةَ .

قال العسكرىّ : ولو قيل إنَّ أهجى بيت قالته العرب قول الفرزدق لم يبعد وهو

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِى كُلَيْبٍ * نُجومُ الليلِ ماوضَحَتْ لِسَارِى

ولو يُرْمَى بِلُؤْمِهِـمُ نهـار * لدنّس لؤمهم وَضَحَ النَّهارِ

وما يَغْدُو عَزِيزُ بنى كُلَيْبٍ * ليطلبَ حاجةً إلا بِجَـار

ومثله قول الآخر

ولَوْ أَنَّ عَبْدَ القَيْسِ ترمى بلؤمها * على الليل لم تَبْدُ النجومُ لِمَنْ يَسْرِى

وقالوا : أهجى بيت قالته العرب قول الأعشى

تَبِيتون فى المَشتا مِلاءً بطونكم * وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْنَ نَمائِصَا

وهذا البيت من أبيات ولها سبب نذكره الآن فى هـذا الموضع وإن كان خارجا عن مكانه وذلك : أن عامر بن الطُّفَيـل بن مالك وعلقمة بن عُلاثَةَ تنازعا الزعامة فقال عامر : أنا أفضل منك ! وهى لعَمّى ولم يمت، وعمّه عامر بن مالك بن جعفر آبن كلاب وكان قد أُهتر وسقط، وقال علقمة: أنا أفضل منك ! أنا عفيف، وأنت

عاهر، وأنا وفِيٌّ وأنت غادر، وأنا وَلُود وأنت عاقر، وأنا أدنَى الى ربيعة، فتداعيا الى هَرِم بن قُطْنة؛ ليحكم بينهما فرحلا اليه ومع كل واحد منهما ثلثمائة من الإبل، مائة يُطعمها مَنْ تبعه، ومائة يُعْطِيها للحاكم، ومائة تُعقر إذا حكم؛ فأبى هرم بن قُطْنة أن يحكم بينهما مخافةَ الشَّرِّ وأبيا أن يرتحلا؛ فخلا هَرِم بعلقمةَ وقال له: أترجو أن ينفرك رجل من العرب على عامرٍ فارسِ مُضَر؛ أندى الناس كفًّا، وأشجعهم لِقَاءً، لَسِنانُ رمح عامر أذكرُ فى العرب من الأحوص، وعمّه ملاعب الأسنة، وأمّه كبشة بنْت عُروة الرِّحال، وجَدَّتُه أم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضَّحْياء. وأمك من النَّخَع، وكانت أمُّه مُهَيْرة، وأمّ عُلاثة أخيذة من النَّخع، ثم خلا بعامر فقال له: أعلى علقمة تفخر؟ أنت تناوئه؛ أعلى بن عوف بن الأحْوَص؛ أعفّ بنى عامر وأيمنهم نقيبة، وأحلمهم وأسودهم وأنت أعور عاقر مشئوم! أما كان لك رأى يزعك عن هذا! أكُنتَ تظنّ أن أحدا من العرب يُنفّرك عليه؟ فلما آجتمعا وحضر الناس للقضاء قال: أنتما كركبتَيِ الجمل فتراجعا راضِيَيْن.

قال العسكرىّ: والصحيح أنه توارى عنهما ولم يقل شيئا فيهما ولو قال: أنتما كركبتى الجمل لقال كل واحد منهما: أنا اليُمنَى، فكان الشرّ حاضرا؛ قال وسأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعدذلك بحين: لمن كنتَ حاكما لو حكمت؟ فقال: أعفِنِى يا أمير المؤمنين! فلو قلتها لعادت جَذعةً. فقال عمر: صدقتَ! مثلُك فليَحْكُم.

قال فارتحلوا عن هَرِم لما أعياهم نحوَ عُكاظ فلقيهم الأعشى منحدرا من اليمن، وكان لمّا أرادها قال لعلقمة: آعقد لى حَبْلا فقال: أعقد لك من بنى عامر! قال: لا يغنى عنّى قال: فمن قيس! قال: لا. قال: فما أنا بزائدك، فأتى عامر بن الطفيل فأجاره من أهل السماء والأرض فقيل له: كيف تجيره من أهل السماء؟ قال: إن مات

وَدَيتُـه ، فقال الأعشى لعامر : أظهِر أنكما حَكَّمتُمانِى ففعل ؛ فقام الأعشى فرفع عَقيرتَه (أى صوته) فى الناس فقال

حَكَّمتُموه فقَضَى بينكم * أبلج مثل القَمَرِ الزاهِرِ
لا يأخذ الرِّشوة فى حُكمِه * ولا يبـالى خُسْرَ الخاسِرِ
علقم لا لستَ الى عامر الـ * ـناقضِ الأوتار والواتِرِ
واللابِسِ الخيل بخيلٍ اذا * ثار عَجَاجُ الكَبَّةِ الثائِرِ
إن تسد الحوص فلم تعدُهم * وعَامِرٌ سادَ بَنِى عَامِرِ
ساد وألْفَى رهطَه سادةً * وكابِراً سادُوك عن كَابِرِ

قال وشدّ القوم فى أعراض الإبل المـائة فعقروها وقالوا : نُفِّر عامر ، وذهبت بها الغوغاء ، وجهد علقمة أن يردّها فلم يقدر على ذلك ، فجعل يتهدّد الأعشى فقال

أتانى وعيد الحوص من آل عامر * فيا هبسه همرو لو نهيتَ الأحاوِصَا
فما ذنبُنا إن جاش بحر ابن عَمِّكم * وبحـرك ساجٍ لا يوارى الدَّعامِصَا
كِلا أبَوَيكم كان فَرْعا دَعامةٍ * ولكنَّهم زادوا وأصبحتَ ناقِصَا
تبيتون فى المشـتا مِلاءً بطونكم * وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصا
يراقِبْنَ من جوع خِلَالَ مخـافةٍ * نجوم العِشَاء العاتِمـات الغَوامِصَا
رمى بكَ فى أخراهمُ تَرْكُكَ النَّـدَى * وفضّـل أقواما عليـك مراهِصَا
فعضّ حديدَ الأرض إن كنت ساخطا * بفيك وأحجارَ الكلاب الرَّواهِصَا

قال فبكى علقمة لمـا بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه فى العار ، والعرب تعيّر بالبكاء ؛ قال مهلهل

يُبكَى علينـا ولا نبكى على أحد * ونحنُ أغلظُ أكبادا من الإبل

وقال جرير

بكى دَوْبَلٌ لا يُرقأُ اللهُ دَمْعَـه * ألا إنما يبكى من الذُّل دَوْبَلُ

قال عبد الملك بن مروان لأمية : مالك وللشاعر إذ يقول

إذا هتف العصفورُ طار فؤادهُ * وليثٌ حديدُ النابِ عند الشدائد

فقال : أصابه حدّ من حدود الله فأقمته عليه قال : فهلّا درأته عنه بالشُّبُهات ؟ قال : كان أهون عليّ من أن أُعطِّل حدّا من حدود الله فقال : يابنى أمية ! أحسابكم أحسابكم ، أنسابكم أنسابكم ، لا تعرضوا للفصحاء فإن للشعر مواسمَ لا يزيدها الليل والنهار إلا جِدّة ، والله مايسرّنى أنى هجيتُ بيت الأعشى حيث يقول : تبيتون فى المشتا الخ ولى الدنيا بحذافيرها ولو أن رجلا خرج من عَرَض الدنيا كان قد أخذ عوضا لقول ابن حُرْثان

على مكثريهم حقّ من يعتريهمُ * وعنـد المُقِلّين السماحةُ والبذْلُ

وهذا البيت لزهير .

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الحطيئة فى الزِّبْرِقان بن بدر

دَع المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتِهـا * واقعُدْ فإنك أنت الطاعِمُ الكاسى

ولهذا الشعر حكاية نذكرها فى أخبار الحطيئة فى البخلاء . وقيل : اتفق جماعة من الشعراء على أن أهجى بيت قالته العرب قول الفرزدق فى جرير

أنتم قرارة كلّ معدن سَوْءة * ولكلّ سائلة تسيل قَرَارُ

أخذه أبو تمام فقال

وكانت زفرة ثم انطمأنت * كذاك لكل سائلة قَرَارُ

(٨٣) وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الأخطل لجرير

ما زال فينا رباط الخيل مُعْلمة * وفى كُلَيب رِباطُ اللُّؤمِ والعَـارِ
قوم إذا آستنبح الأضيافُ كَلْبَهُمُ * قالوا لأمهم : بُولى على النَّـارِ

قالت بنو تميم : ما هجينا بشىء، هو أشـدّ علينا من هـذا البيت، وهو يتضمن وجوها شتّى من الذّم : جعلهم بخلاء بالقِرَى ، وجعـل أمّهم خادمهم ، يأمرونها بكشف فَرْجها، وجعلهم يبخلون بالمـاء أن يطفئوا به النار ، وجعل نارهم من قلّتها تطفى ببولة، وأغرى بينهم وبين المجوس، لتعظيم المجوس للنار، وإهانتهم لهـا إلى غير ذلك .

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الطرمّاح

تميمٌ بِطُرْق اللؤمِ أهـدى من القَطَا * ولو سلكتْ طُرْق المكارم ضَلَّتِ

وقيل أهجى بيت قالته العرب قول الأعرابىّ

اللـؤمُ أكرمُ من وَبْرٍ ووالدِه * واللؤم أكرم من وَبْر وما وَلَدا
قـوم إذا ما جَنَى جانِيهمُ أَمِنُوا * من لؤم أحسابِهم أن يُقتَلوا قَوَدَا

وقال مسلم بن الوليد يهجو دِعْبِل الخُزاعىّ

أما الهِجَاء فدقّ عِرْضُك دُونَه * والمَدْح عنك كما علمتَ جَلِيلُ
فاذهبْ فأنت طليقُ عِرْضك إنّه * عرضٌ عززتَ به وأنت ذليلُ

وكان سبب ذلك أنه كان بخراسان عند الفضل بن سهل، فبلغ دعبل ما هو فيه من الحَظْوَة عنده، فصار إلى مَرْو، وكتب الى الفضل بن سهل

لا تعبأنْ بآبن الوليـد فإنه * يرميك بعـد ثلاثة بملال
إن المَلُول إذا تقادم عهـدُه * كانت مودّتُه كَفَىْء ضلال

فدفع الفضل الرّقعة إلى مسلم، فلما قرأها قال : هل عرفت لقب دعبل وهو غلام أمرد يُفْسَق به ؟ فقال : لا، قال : كان يُلَقَّب بِمَيّاس، وكتب إليه

مياسُ قل لى : أين أنتَ من الورى ؟ * لا أنت معلوم ولا مجهولُ

أما الهجاء الخ، ومنه أخذ إبراهيم بن العباس فقال

٥ فكن كيف شئتَ وقُلْ ماتَشَاء * وأبْرِق يمينا وأرعِدْ شِمَالَا

نجا بك لؤمُك مَنْجا الذُّبابِ * حمتْهُ مقاذِيرُه أن يُنَالَا

وأنشد لجاحظ

ووثِقْتُ أنَّك لَا تُسَبُّ * حَماكَ لُؤْمُك أَنْ تُنَالَا

وقال الآخر

١٠ بِذِلَّةٍ والديْك كُسِيتَ عِزًّا * وباللؤم اجترأتَ على الجوَابِ

وقال آخر

دناءة عِرْضِك حِصْنٌ مَنِيعُ * يقيك إذا ساء مِنك الصنيعُ

فقل لعدوِّكَ ما تشتهى * فأنتَ المَنِيعُ الرفيعُ الوَضِيعُ

وقال أبو نُوَاس

١٥ ما كان لو لم أهجُهُ غالبٌ * قام له هجوى مقامَ الشرفْ

يقول : قد أسرفَ فى هجونا * وإنما ساد بذاك السَّرفْ

عَتْبٌ، لا تسعَ لتبنى العلا * بلغتَ مجدا بهجائى، فقِفْ

قد كنتَ مجهولا ولكننى * نوّهتُ بالمجهولِ حتى عُرِفْ

وقال أبو هلال العسكرىّ

أهنتُ هجائى يابن عُروةَ، فانتحى * علىّ ملام الناس فى البعد والقربِ
وقالوا : أتهجو مثله فى سقوطه؟ * فقلت لهم : جرَّبتُ سيفىَ فى كلبِ

وقال ابن لنكك

وعصـــبةٍ لمّـا توسّـــطهمْ * صارت علىّ الأرضُ كالخاتَمِ
كأنّهـم من سوء أفهامهـم * لم يخرجوا بعدُ إلى العـالَمِ
يَضحكُ إبليسُ سرورا بهـم * لأنهـــم عارٌ عـــلى آدمِ

وقالوا أهجى بيت قالهُ محدث قول الآخر

قَبُحَتْ مَناظِرُهم، فحين خبرتُهم، * حسُنتْ مناظرُهم لقبح المَخْـبرِ

وقال العسكرىّ : ولست أعرف فى الهجاء أبلغَ من قول الأول

إن يفجُروا أو يغدروا * أو يبخـلوا لم يحفِـلوا
وغدوا عليـــك مُرجَّلين كأنّهـم لم يفعـلوا !

ومن البليغ قول حسان

أبناء حار، فلن تلق لهم شبهاً * إلا التيوسَ على أكتافها الشَّـعَرُ
إن نافروا نُفِروا، أو كاثروا كُثِروا * أوقامروا الربحَ عن أحسابهم قُمِروا
كأنّ ريحهُمُ فى الناس إن خرجوا * ريحُ الكلاب إذا ما مسَّها المطرُ

وقال أيضا

أبوك أبو سوء وخالُك مثـــلُه * ولستَ بخيرٍ من أبيك وخالِكا
وإن أحقَّ الناس أن لا تلومَه * على اللؤم من ألفى أباه كذلكا

وقال الآخر

سلِ اللهَ ذا المنّ من فضله * ولا تسألنّ أبا واثله
فما سأل اللهَ عبدٌ به * فخاب ولو كان من باهله

وقال آخر

٥ ولو قيل للكلب : يا هِرُّ * لأعولَ من قُبْحِ هذا النسبْ!

وقال زياد : ما هُجيتُ ببيتٍ قطّ أشدَّ عليَّ من قول الشاعر

فَكِّرْ، ففى ذاك إن فكّرتَ معتبر * هل نلتَ مكرُمةً إلا بتأميرِ
عاشت سُمَيَّةُ ما عاشت وما علمت * أن ابنها من قريش فى الجماهير

وقال إبراهيم بن العباس

١٠ ولما رأيتك لا فاسقاً * تُهابُ ولا أنت بالزاهدِ
وليس عدوّك بالمتّقِى * وليس صديقك بالحامدِ
أتيتُ بك السوقَ سوقَ الهوان * فناديت : هل فيك من زائدِ؟
على رجلٍ غادر بالصديقِ * كفورٍ لنعمائه جاحدِ
فما جاءنى رجُلٌ واحد * يزيد على دِرهم واحدِ
١٥ سوى رجُلٍ حان منه الشقاء * وحلّت به دعوة الوالدِ
فبعتُك منه بلا شاهدٍ * مخافةَ ردِّك بالشاهدِ
وأبتُ الى منزلى سالماً * وحلّ البلاء على الناقد

وقال العسكرى

إن كان شكلُك غيرَ متّفِقٍ * فكذا خلالك غير مؤتلفَهْ
٢٠ صُوِّرْتَ من نُطَفٍ قد اختلفتْ * فأتت خلالُك وهى مختلفَهْ

من عصبةٍ شتّى اذا اجتمعوا * شبّهتُ داركم بهم عرفَهْ
فورثتَ من ذا قُبْحَ مَنظَرِه * وورثتَ ذاك خناه أو صلفَهْ

(٨٤)

وقال الحسن بن مطران شاعر اليتيمة

كم غصتُ فى مدحك فكرا على * درٍّ نفيس غـيرِ مثقـوبِ
ولم يغضْ رأيُك يوما عـلى * برّى، ولا رأىٌ لمكذوبِ
إن كان موعودك فى الجود لى * أكذب من موعودِ عُرقوبِ
فإنّ أخبـارك فى مدحتى * أكذبُ من ذئب ابن يعقوبِ

وقال أحمد بن محمد بن حامد شاعر الخريدة

بُليت بقومٍ ما لهم فى العـلا يدٌ * ولا قدمٌ تسعى لبذل الصـنائعِ
اذا نظرتْ عينى اليهم تنجّستْ * برؤيتهم طهّرتُها بالمـدامعِ

وقال المتنبّى

إن أوحشتك المعالى * فإنها دار غُربَـهْ
أو آنستك المخازى * فإنها بئس أشـبَهْ

وقال أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحجّاج

ولقـد عهـدتك تشـتهى * قربى، وتستدعى حضورى
وأرى الجفـا بعـد الوفا * مثل النُّسـا بعـد البخورِ
يا حرّية العـدس الصحـيح النّيء والخـبز الفطيرِ
فى جوف منحلّ الطبيـعة والنّوى شيخ كبيرِ
يجرى فيخرجُ سُـرمُه * شبرين من وجع الزحيرِ
يا فهمةً أمسـد العشا * بالبَيْض واللبن الكثيرِ

وفطائرٍ عُجنتْ بلا الْـمِلح الجريش ولا الخميرِ
يا نَتَنَ رائحةِ الطبيـخِ إذا تغيّر فى القدورِ
يا عُشَّ بيضِ القمْل فـرَّخَ فى السوالف والشعورِ
يا بَولَ صبيان الفِطا * مِ ويا خراهم فى الحجورِ
يا بعض تدخين الحشا * فى الصوم من تُخَم السَّحورِ
يا حَرَّ قُولَنج البطو * ن. وبردَ أعصابِ الظهورِ
يا ذِلّة المظلوم أصبح وهو معدومُ النصيرِ
يا سوءَ عاقبة التفـقُّد عند تشبيه الأمور
يا كلَّ شيء مُتعِبٍ * متعقِّدٍ صعبٍ عسيرِ
يا حَيْرَةَ الشيخ الأصمِّ، وحسرةَ الحَدَثِ الضريرِ
يا قعدةً فى دِجلَةٍ * والريحُ تلعبُ بالجسورِ
يا قرحةَ السلّ التى * هدّتْ شراسيفَ الصدورِ
يا أربعاء لا تدو * ر به مخافاتُ الشهورِ
يا هدَّةَ الحيطان تُنـقَضُ بالمعاوِلِ والمَرورِ
يا قَرحةً فى ناظرٍ * غلظوا عليها بالذّرورِ
فتسلّخَتْ مع ما يليـها فى الجفون من البُثورِ
يا خيبةَ الأمل الذى * أمسَى يُعلَّل بالغرورِ
يا عُلمةَ المتخدّرا * تِ وراء أبواب القُصورِ
يا وحشةَ الموتَى إذا * صاروا إلى ظُلَمِ القبورِ
يا ضجرةَ المحموم بالـمغدَوات من ماء الشعيرِ

يا شـؤمَ إقبالِ الشـتا * ءِ أضرَّ بالشـيخ الفقيرِ
يا دولةَ الحُسْنِ التى * خُسِفَتْ بأيّام السّـرورِ
يا ضجّـةَ الضَّجِرِ المصـدَّع بالتنازُع والشّـرورِ
يا عـثرَةَ القـلم المرشَّـش بين أثناءِ السطور
يا ليـلةَ العُريان غِبَّ عشـيّةِ اليومِ المَطـيرِ ٥
يا نومـةً فى شمس آ * بَ على الترابِ بلا حَصيرِ
يا فجأةَ المكروهِ فى الـبيوم العبوس القَمطريرِ
يا نهمةَ الكَلْبِ الرضيـع ونَكهةَ الليثِ المصـور
يا عيشَ عانٍ موثَقٍ * فى القَيْـد مغلولٍ أسـيرِ
يا حِـدّةَ الرَّمَد الذى * لا يستفيقُ من القُطورِ
يا غِيشةَ الكَنّاس من * شَـمِّ الذرائرِ والعبـيرِ
يا حَيْرةَ العطشانِ وقـتَ الظُّهر فى وسَـط الهبيرِ
من لى بأن تلقاك خيـلُ بنى كلاب بلا خفـيرِ
وأرى بعينى لحمَك المطبـوخَ فى حَـرّ الهجـيرِ
فى الأرض ما بين السما * ع وفى السما بين النُّسورِ ١٥

وقال المتنبّى

يمشى بأربعـة على أعقـابه * تحت العلوج ومن وراء يُلجمُ
وجفونه ما تسـتقر كأنها * مطروفةٌ أو فُتَّ فيها حِصرِمُ
وتراه أصـغر ما تراهُ ناطـقا * ويكون أكذبَ ما يكونُ ويُقسمُ

واذا أشار مكلّما فكأنه * قِردٌ يُقهقِهُ أو عجوزٌ تَلطِمُ
يَقلى مُفارقةَ الأكفّ قَذالُه * حتى يكادَ على يدٍ يتعمّمُ

ومما يذمّ به الرجل أن يكون ثقيلا، فأبلغ ما قيل فى ذلك قول بعضهم

وثقيل أشدّ من غَصَصِ المو * ت ومن زَفْرة العذابِ الأليمِ
لو عَصَتْ ربَّها الجحيمُ لما كا * ن سِواه عقوبةً للجحيمِ

وأبلغ ما قيل فى هذا المعنى قول بشّار

ولقد قلتُ حينَ وَتَّدَ فى الأر * ض ثقيلُ أرْبَى على ثَهْلانِ
كيف لم تحمِلِ الأمانةَ أرضٌ * حَمَلت فوقَها أبا سُفْيانِ

ومما هجى به أهلُ الوقت على الإطلاق. فمن ذلك قول أبى هلال العسكرىّ

كم حاجةٍ أنزلتُها * بكريمِ قومٍ أو لئيمِ
فإذا الكريمُ من اللئيـ * ـم أو اللئيمُ من الكريمِ
سبحان ربٍّ قادرٍ * قَدَّ البريّةَ من أديمِ
فشريفُهم ووضيعُهم * سيّان فى سَفَهٍ ولُؤمِ
قد قلّ خيرُ غنيّهم * فغنيُّهم مثلُ العديمِ
وإذا اختبرتَ حميدَهم * ألفيتَه مثلَ الذميمِ

ومما قيل فى هجاء بعض العشيرة ومدح بعضهم ، فمن ذلك قول أبى عُيينة ليهجوَ خالدَ بنَ يزيد المُهلّبيّ ويمدحُ أباه

أبوك لنا غَيْثٌ نعيشُ بفضلِه * وأنت جَرادٌ ليس يُبْقِى ولا يَذَرْ
له أثرٌ فى المَكْرُمات يَسُرُّنَا * وأنت تُعَفِّى دائبا ذلك الأَثَرْ
لقد قُنِّعتْ قحطانُ خِزْياً بخالدٍ * فهل لك فيه يُخْزِك اللهُ يامُضَرْ؟

وله فى قَبِيصة بن رُوح ، يُفَضِّل عليه ٱبنَ عَمِّه داودَ بنَ يزيد بن حاتم

أَقَبِيصُ لستَ وإن جهدتَ ببالغ * سَعْىَ ٱبنِ عمِّكَ ذِى النَّدى دَاودِ
شَتَّان بينك ياقبيصُ وبينَهُ * إن المُذَمَّمَ ليس كالمحمودِ
داودُ محمودٌ وأنت مُذَمَّمٌ * عجَبًا لذاك وأنتما من عُودِ
ولرُبَّ عُودٍ قد يُشَقُّ لمسجِدٍ * نصفًا وسائرُه لحشِّ يَهُودِى

وقال حسّان فى أبى سُفْيان بن الحارث

أبوكَ أبٌ حُرٌّ وأمُّك حُرَّةٌ * وقد يَلِدُ الحُرَّان غيرَ نجيبِ
فلا تعجبنّ الناسُ منك ومنهما * فقد خَبَثٌ من فِضَّةٍ بعجيبِ

ذكر ما قيل فى الحسد

ومما يذمّ به الرجلُ ، أن يكون حسودا ، وقد أمر الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام ، أن يتعوذ من شرّ الحاسد إذ حَسَد

قال ٱبن السمّاك

أنزل الله تعالى سورة جعلها عُوذةً لخَلْقه من صنوف الشرّ، فلما انتهى الى الحَسَد، جعله خاتمـا إذْ لم يكن بعـده فى الشرّ نهاية. والحسد أوّل ذنب عُصِىَ الله تعالى به فى السماء، وأول ذنب عُصِىَ به فى الأرض، أما فى السماء، فحسـد إبليسَ لآدمَ، وأما فى الأرض، فحَسَد قابيلَ لهابيلَ، وذهب بعضُ أهل التفسير فى قوله عزّ وجلّ إخبـارا عن أهـل النّار (رَبَّنَا أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ) أن المراد بالجنّ إبليس، و بالإنس قابيـل، وذلك أن إبليسَ أوّلُ من سَنّ الكفرَ، وقابيـلَ أوّلُ من سَنّ القتلَ. وأصـل ذلك كلّه الحسدُ.

وقال عبد الله بن مسعود: لا تُعادُوا نِعَمَ الله، فقيل له: ومن يُعادى نِعَمَ الله؟ قال: الذين يَحْسُدُون الناسَ على ما آتاهم الله مِن فَضْلِه، يقول الله تعالى فى بعض الكتب: الحَسُودُ عدوٌّ نِعْمتى، مسخِط لقضائى، غيرُ راض بقسمتى.

وقالت الحكماء: إذا أراد الله، أن يُسَلِّطَ على عبد عدوًّا لا يرحمه، سـلّط عليه حاسـدا.

وكان يقال فى الدعاء على الرجل: طلبك من لا يُقَصِّر دون الظَّفر، وحسدك من لا ينام دون الشَّقَاء.

وقالوا: ما ظنُّك بعداوة الحاسد، وهو يرى زوالَ نعمتك نعمةً عليه؟

قال أبو الطيب المتنبّى

سوى وجع الحساد داءٌ فإنه * إذا حَلَّ فى قلبٍ فليس يَحُولُ
ولا تطمعَنْ مِن حاسِدٍ فى مَوَدَّةٍ * وإن كنتَ تُبدِيها له وتُنِيـلُ

وقال البَيْغاءُ

ومن البلية أن تُداوىَ حِقْدَ مَنْ * نِعَمُ الإلهِ عليـك من أحقادهِ

وقال علىّ رضى الله عنه

لا راحةَ لحَسُود، ولا أخ لِمَلُول، ولا مُحِبَّ لسيئ الخُلُق .

وقال الحسن

ما رأيت ظالمـا أشبهَ بمظلوم من حاسد: نَفَس دائم، وحزن لازم، وغَيْرة لا تنفد؛ ثم قال : لله دَرُّ الحسد ما أعدله ! يقتل الحاسـد قبل أن يَصِلَ الى المحسود .

وقال الجاحظ : من العدل المَحْض، والإنصاف الصحيح، أن تَحُطَّ عن حاسد نِصفَ عِقابه، لأنّ ألَمَ جسمه، قد كفاك مَئُونَة شطر غيظك عليه .

وقيل : الحسد أن تتمنى زوال نعمةِ غيرك، والغبطة أن تتمنى مثلَ حالِ صاحبك. وفى الحديث : « المُؤْمِنُ يَغْبِطُ ، والمنافق يَحْسُدُ » .

وقال أرسطاطاليس : الحسـد حسدان : محمود، ومذموم، فالمحمود أن ترى عالمـا فتشتهى أن تكون مثله، وزاهدا فتشتهى مثل فعله، والمذموم أن ترى عالمـا وفاضلا فتشتهى أن يموتا . وقيـل : الحسود غضبان على القَدَر، والقدر لا يعتبه .

قال منصور الفقيه

ألا قُلْ لمن كان لى حاسـدا * أتدرى على من أسأتَ الأدبْ
أسأتَ على الله فى فضـله إذا أنتَ لم تَرْضَ ما قـدْ وَهَبْ

وقال المتنبى

وأظلم أهلِ الأرضِ من بات حاسدا * لمن بات فى نَعْمائه يتقلَّب

ومن أخبار الحَسَدة : ما حكي، أنه آجتمع ثلاثة نفر منهم ، فقال أحدهم لصاحبه : ما بلغ من حسدك ؟ قال : ما آشتهيتُ أن أفعل بأحد خيرا قطّ ، فقال الثانى : أنت رجل صالح، أنا ما آشتهيت أن يفعل أحد بأحد خيرا قطّ ، فقال الثالث : مافى الأرض أفضل منكما، أنا ما آشتهيت أن يفعل بى أحد خيرا قط .

٥

ومما قيل من الشعر فى تفضيل المحسود ومدحه ، وهجاء الحاسد وذمّه .

قال بعض الشعراء

إن يحسُدونى فإنى غيرُ لائمهم ، قبلى من الناس أهلَ الفضل قد حَسدوا
فدام لى وهم مابى وما بهم ، ومات أكثرنا غَمًّا بما يَجِدُ

١٠ وقال آخر

إن الغرابَ وكان يمشى مِشْيةً * فيما مضى من سالف الاحوالِ
حسَد القَطاةَ ورامَ يَمْشى مشيَها * فأصابه ضَرْب من العقّالِ

وقال آخر

حَسَدوا الفتَى إذْ لم ينالُوا سَعْيَه * فالقومُ أعداءٌ له وخُصُومُ
كضرائرِ الحَسْناء قُلْن لوجهِها * حَسَدًا وبَغْيًا إنّه لدَمِيمُ

١٥ وقال البُحترىّ

لا تحسُدوه فَضْلَ رُتْبته التى * أعْيَتْ عليكم وآفعلوا كفِعَالِه

وقال السَّرِىّ الرفّاء

نالتْ يدَاه أقاصِىَ المَجْدِ الّذى * بَسَط الحسود إليه باعا ضَيِّقا

أَعَدوَّهُ هـــل للسِّماك جَرِيرةٌ * فى أَنْ دَنَوتَ من الحَضِيضِ وحَلَّقَا؟
أم هل لِمَنْ مَلأَ اليَدَيْنِ من العُلَا * ذَنْبٌ إذا ما كنتَ منها مُمْلِقَا؟

وقال أبو تمـام الطائىّ

وإذا أراد الله نَشْرَ فضـــيلةٍ * يوما أتاح لهـا لِسَانَ حَســودِ
لولا ٱشتعال النار فيما جاورتْ * ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال البُحترىّ

ولن يَسْتَبِينَ الدَّهرَ مَوْضِعُ نِعْمةٍ * إذا أَنْت لم تُدْلَلْ عليها بحاســدِ

وقال محمد بن مُناذِر

يا أيُّهـا العاتِى وما بِىَ مِنْ * عَتْبٍ ألا تَرْعَوِى وتَزْدَجِرُ!
هل لك عنـدى وِتْرٌ فتطلبَهُ * أم أنت مِمَّـا أتيتَ مُعْتَذِرُ؟
إن يك قِسْمُ الإلٰهِ فَضَّلنِى * وأنت صَلْدٌ مافيـك مُعْتَصَرُ
فالحمـد والشـكر والثناء له * وللحســود التُّرابُ والحَجَـرُ
ماذا الذى يَجْتَنِى جليسُكَ أو * يبدُو له منك حين يَخْتَـبِرُ
اِقـرأْ لنـا ســورةً تُذَكِّرُنَا * فإن خيرَ المواعظِ السُّـوَرُ
أَوْصِفْ لنا الحُكْمَ فى فرائضنا * ماتسـتحقّ الأُنْثَى أو الذَّكَرُ
أَوِ ٱرْوِ فِقْهًا تُرْوِى القلوبَ به * جاء به عن نبيِّنَا الأَثَرُ
أو من أحاديثِ جاهليَّتِنَا * فإنهـا حِكمـةٌ ومفتَخَـرُ
أَوِ ٱرْوِ عن فارِسٍ لنا مَثَلًا * فإن أمثالَهـا لنـا عِبَرُ
أوغَنِّ صوتا تُشْجِى النُّفوسَ به * وذَنْبُ ما قـد أتيتَ مُغْتَفَرُ
فإن تكنْ قد جهلتَ ذالك وذا * فنيت للناظرين مُعْتَبَرُ

ذكر ما قيل فى السِّعاية والبَغْى والغِيبة والنَّميمة

قال الله تعالى : (يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم) . وقال تعالى : (ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ) . وقال تعالى : (هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يَرْفَعَن إلينا عَورَةَ أخيه المؤمن » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يَرَاحُ القَتَّاتُ رَائِحَةَ الجَنَّةِ » . وفى لفظ « لايدخُل الجنَّةَ قَتَّاتٌ » ؛ والقَتَّاتُ : النَّمَّام .

(٨٩)

قال بعض الشعراء

فلا تسعَى على أحد ببَغْيٍ ... فان البَغْى مصرَعُه وخِيمُ

وقال العتَّابِيّ

بَغَيتَ فلم تَقَعْ إلا صَرِيعًا ... كذاك البغىُ مصرعُ كلِّ باغِى

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَةَ . فقال لأصحابه : إذا شِئْتُم ، فقاموا ، فلما تهيّأ الرجل للكلام ، قال له : إياك أن تمدحَنى فإنى أعلم بنفسى منك ، أو تكذبنى ، فإنه لا رأىَ لِكَذُوب ، أو تسعى إلىّ بأحد ، وإن شئتَ أقلتُك ، قال : أقلنى .

قال : ولما وَلِى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دِمَشْقَ ، ولم يكن فى بنى أُمَيَّة ألبَّ منه فى حداثة سنّه . قال أهل دمشق : هذا غلام شابٌّ ، ولا علم له بالأمور ، وسيسمع منا ، فقام إليه رجل . فقال : أصلح الله الأميرَ ، عندى نصيحةٌ ، فقال له : يا ليتَ شعرى . ما هذه النصيحةُ التى ابتدأتنى بها من غير يدٍ سبقتْ منّى إليك ؟ فقال : جارٌ لى عاصٍ ، متخلّف عن ثَغْره ، فقال له : ما اتقيتَ الله ، ولا أكرمتَ أميرَك ، ولا حفظت جِوارَك . إن شئتَ ، نظرْنا فيما تقول ، فإن كنتَ صادقا ،

لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنتَ كاذبا ، عاقبناك . وإن شئتَ ، أقلناك . قال : أقلني . قال : آذهب حيث شئتَ ، لا صحبك الله . ثم قال : يا أهلَ دِمَشْق ، ما أعظمتم ما جاء به الفاسقُ ، إن السِّعاية أحْسَبُ منه سجيّةً ، ولولا أنه لا ينبغي للوالي أن يعاقِبَ ، قبل أن يُعاتِبَ . كان لي فيه رأيٌ . فلا يأتي أحد منكم بِسِعاية على أحد ، فإن الصادق فيها فاسق ، والكاذبَ بَهَّاتٌ . وسَعَى رجل برجل إلى عُمَرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فقال : إن شئتَ نظرنا في أمرك ، فإن كنتَ كاذبا ، فأنت من هذه الآية : (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ) وإن كنتَ صادقا ، فأنت من هذه الآية : (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) وإن شئت عفونا عنك . قال : العفو يا أمير المؤمنين ، قال : على أن لا تعودَ .

وكتب محمد بن خالد بن آبن الزيّات : إن قوما صاروا إلىّ مُتَنَصِّحين ، فذكروا أن رُسُوما للسلطان قد عَفَتْ ودَرَسَتْ ، وأنه توقّف عن كشفها إلى أن يعرف مَوقِع رأيه فيها . فوقّع على رُقْعته : قرأت هذه الرُّقعةَ المذمومة ، وسُوق السُّعاة مُكْسِدٌ عندنا ، وألسنتُهم تَكِلٌ في أيامنا ، فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما في ديوانك . فلم ترد للناحية بكشف الرسوم العافية . ولا لِتُحْيِيَ الأعلام الدارسة . وجنّبني وتجنّب قول جرير

وكنت إذا حَلَلْت بدار قوم * رَحَلْت بِخِزْيَة وتركتَ عَارَا

قالوا : وكان الفضل بن يحيى يكره السِّعاة ، فإذا أتاه ساع ، قال له : إن صَدَقْتَ ، أبغضناك . وإن كَذَبْتَنا ، عاقبناك . وإن آستقلتنا ، أقَلْناك .

وحكى صاحب العقد قال : قال العُتْبيّ . حدّثني أبي عن سعيد القصريّ ، قال : نظر إليّ عمرو آبن عتبة ورجل يسعى بين يَدَيّ رجلا ، فقال لي : وَيْلَك ،

وما قال لى ويلك قبلها : نزّه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزّه لسانك عن الكلام به، فإن السامع شريك القائل، وإنه عمد إلى شرّ ما فى وعائه، فأفرغه فى وعائك، ولو ردّت كلمةُ جاهل فى فيه، لسعد رادُّها، كما شقى قائلها، وقد جعله الله تعالى شريك القائل، فقال : (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ).

ومما قيل فى الغِيبة والنَّميمة، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قلت فى الرجل ما فيه فقد اغتبته وإذا قلت ما ليس فيه فقد بهته » .

اغتاب رجل رجلا عند قُتَيبة بن مسلم، فقال له : أمسك عليه أيها الرجلُ، والله لقد تلمظتَ بمُضْغة طالما لفظتْها الكرام .

وذكر فى مجلسه رجل، فنال منه بعض جلسائه، فقال له : يا هذا أوحشتَنا من نفسك، وأيأستَنا من مودّتك، ودلّتنا على عَوْرتك .

واغتاب رجل عند بعض الأشراف، فقال له : قد استدللتُ على كثرة عيوبك، بما تذكُر من عيب الناس، لأن الطالب للعيوب، إنما يطلبها بقدر ما فيه منها، أما سمعت قول الشاعر

لا تَهْتِكَنْ من مَساوِى الناسِ ما سَتَرُوا . فيهتِك الله سِتْرًا من مساويكا
واذْكرْ محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِرُوا . ولا تَعِبْ أحدا منهم بِمَا فيكا

وقال ابن عبّاس رضى الله عنهما

اذكرْ أخاك إذا غاب عنك بما تُحِبُّ أن يذكرَك به، ودَعْ منه ما تُحِبُّ أن يَدَع منك .

وقال بعض الملوك لولده وهو ولىّ عهده : يا بُنىّ ليكن أبغضُ رعيتك إليك ، أشقاهم كشفا لمعايب الناس عندك ، فإنّ فى الناس معايبَ وأنت أحق بسترها ، وإنما تحكم فيما ظهر لك ، والله يحكم فيما غاب عنك ، وأكره للناس ما تكرهه لنفسك ، واستُرِ العورةَ ، يستُرِ الله عليك ، ما يُحِبُّ ستره ، ولا تعجل إلى تصديق ساعٍ ، فإن الساعىَ غاشٌّ ، وإن قال قولَ نُصْحٍ .

وقيل لأبى يزيد الإسكندر فقال له : أتحبّ أن تقبلَ منك ما قلتَ فيه : على أن تقبلَ منه ما يقول فيك؟ قال : لا ، قال : فكُفَّ عن الشر ، نكفّ عنك .

وقال ذو الرياستين : قَبُول النميمة ، شرٌّ من النميمة ، لأن النميمةَ دَلالة ، والقبول إجابة ، وليس من دلّ على شىء ، كمن قبِله وأجازه .

قال أبو الأسود الدؤلى

لا تقبلنّ نميمةً بلّغتها ❊ وتحفظنّ من الذى أنباكها
إن الذى أهدى إليك نميمةً ❊ سيَنُمّ عنك بمثلها قد حاكها

وقال رجل لعمرو بن عُبَيد : إن الأساوِرىّ لم يزل يذكرك ، ويقول : الضالّ ، فقال عمرو : يا هذا ! والله ما راعيتَ حقَّ مجالستِه ، حتّى نقلتَ إلينا حديثَه ، ولا راعيتَ حقّى ، حين ألقيتَ عن أخى ما أكرهه ، اعلم أن الموت يعمّ ، والبعثَ يحشُرنا ، والقيامةَ تجمعنا ، والله يحكم بيننا .

وقال معاوية للأحنف فى شىء بلغه عنه ، فأنكره الأحنف : بلغنى عنك الثقة ، فقال الأحنف : إن الثقة لا يُبلِّغ .

قال بعض الشعراء

لعمرُك ماسَبَّ الأميرَ عدوُّه * ولكنما سَبَّ الأمـيرَ المُبَلَّغ

وقال آبن المعتزّ : الساعى كاذب لمن سعى إليه، خائن لمن سعى عليه .

وقالوا : النَّمام، شرٌّ من الساحر. فإن النمامَ، يُفسد فى الساعة الواحدة، ما لا يفسد الساحر فى المدة الطويلة .

وقالوا : النميمة، من الخلال الذميمة، تدُلُّ على نفس سقيمة، وطبيعة لئيمة، مشغوفة بهتك الأستار، وإفشاء الأسرار .

وقال بعض الحكماء : الأشرار يتتبعون مساوئ الناس، ويتركون محاسنهم، كما يتتبع الذباب المواضع الألمَة من الجسد، ويترك الصحيحة .

وقالوا : لم يَمْشِ ماش، شرٌّ من واش . والساعى بالنميمة، كشاهد الزُّور، يهلك نفسه، ومن سعى به، ومن سعى اليه .

وقالوا : حَسْبُك من شرٍّ سَماعه . وقد لهج الشعراء بذمّ النمام، وجعلوه من أهاجيهم .

قال بعض الشعراء

من نَمَّ فى الناس لم تُؤْمَنْ عقاربُه * على الصـديق ولم تُؤْمَنْ أفاعِيـهِ

كالسَّيل بالليل لا يدرى به أحدٌ * من أينَ جاء ولا من أين يأتيـه

وقال السَّرِىُّ الرِّفَّاء

أَنَمّ بمـا آسـتودعتَـه من زُجاجة * تَرى الشىءَ فيها ظاهرا وهو باطنُ

وقال محمد بن شَرَف

وناصبٍ نحوَ أفواه الورى أُذُنًا * كالقَعْب يلقُط فيها كلّ ما سَقَطَا

يظَلُّ يلتقِـط الأخبارَ مجتهِـدًا * حتى إذا ما وعاها زَقَّ ما لقطَا

وقال ابن وكيع

يَنُمُّ بسرٍّ مستـرعيـه لُؤْما * كما نَمَّ الظلامُ بسرِّ نارِ

أنَمَّ من النُّصول على مَشِيب * ومن صافى الزُّجاج على عُقارِ

وقال الحسن البصرىّ : لا غِيبة فى ثلاثة : فاسقٍ مجاهِر، وإمامٍ جائر، وصاحبِ بدعة .

وكتب الكِسائىّ الى الرقاشىّ

تركت المسجد الجامـعَ والتَّرْكُ له رِيبـهْ

وأخبـارُك تأتينـا * على الأعلام منصوبهْ

فإن زدت من الغيبـة زدناك من الغِيبـهْ

ذكر ما قيل فى البخل واللؤم

والبخل منع الحقوق وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) ، وقال تعالى : (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَلّتانِ لا تجتمعان فى مؤمن : البخلَ وسوءُ الخُلُقِ » .

وقال بعض السلف : منع الجود، سوء ظن بالمعبود، وتلا (وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

٥ وروى أبو بكر الخطيب فى كتاب البخلاء، بإسناده عن أبى هُرَيْرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "لما خلق الله تعالى جَنّة عَدْن، قال لها: تزيّنى فتزينت، ثم قال لها : أَظْهِرى أنهارَك . فأظهرتْ عَيْنَ السلسبيل . وعين الكافور . وعين التسنيم ، ونهر الخمر ، ونهر العسل . ونهر اللبن . ثم قال لها : أظهرى حُورَك، وحُلَلَك، وسررك وحجالك . ثم قال لها : تكلّمى . فقالت : طُوبَى لمن دخلنى . فقال

١٠ الله عزّ وجل : أنتِ حرام على كل بخيل" .

وقال سُقراط : الأغنياءُ البخلاءُ . بمنزلة البِغَال والحَمِير، تحمل الذهب والفضة، وتعتلف التِّبنَ والشعيرَ .

وقالوا : البخلُ من سوء الظن . وخمول الهِمّة، وضعف الرويّة، وسوء الاختيار، والزُّهْد فى الخيرات .

(٩١)

١٥ وقال الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : البخل جامع للمساوئ والعيوب . وقاطع للمودّات من القلوب .

وقالوا : حدُّ البخل، منع المسترفِد مع القدرة على رِفْده .

وكان أبو حنيفة لا يقبل شهادة البخيل . ويقول محتجّا لذلك : إن البخيل يحمله بخلُه، على أن يأخذ فوق حقّه، مخافةَ أن يُغْبن . ومن كان هكذا لا يكون مأمونا .

وقال بشر بن الحارث الحافى : لا غِيبة لبخيــل ، ولَشُرَطِىٌّ سخِىٌّ أحبّ إلىّ من عابد بخيل .

وقالوا : البخيل لا يستحقّ ٱسمَ الحُرِّية ، فإن ماله يملكه .

ويقال : لا مال للبخيل ، وإنما هو لمــاله .

وقال الحسن البصرىّ : لم أر أشقى بماله من البخيل ؛ لأنّه فى الدنيا يَهْتَمُّ بجمعه ، وفى الآخرة يحاسَبُ على منعه ، غيرَ آمن فى الدنيا من همه ، ولا ناج فى الآخرة من إثمه ، عيشه فى الدنيا عيشُ الفقراء ، وحسابه فى الآخرة حساب الأغنياء . ودخل رحمه الله على عبــد الله بن الأهتم يعوده فى مرضه ، فرآه يُصَــعِّد بَصَرَه ويُصَوِّبه الى صُندوق فى بيته ، ثم ٱلتفت اليــه ، فقال : ياأبا سعيد ، ما تقول فى مائة ألف دينار فى هــذا الصندوق لم أُؤَدِّ منها زَكاةً ولم أَصِــلْ بها رَحِماً ؟ فقال له : ثكلتْك أمك ! ولم كنتَ تجمعها ؟ قال لرَوْعة الزمان ، وجَفْوَة السلطان ، وتكاثر العشــيرة ، ثمّ مات ، فشَهده الحسن ، فلما فَرَغ من دفنه ، ضرب بيده على القَبْر . ثم قال : انظروا إلى هذا ، أتاه شيطانه فخوّفه رَوْعَة زمانه ، وجفوة سلطانه ، بما ٱستودعه الله إيّاه ، وعمّره فيه . انظروا اليه كيف خرج مذموما مَدْحُورا ! ثم ٱلتفت إلى وارثه ، فقال : أيها الوارث لاتُخْدَعَنَّ كما خُدِع صُوَيْحِبُكَ بالأمس ، أتاك هذا المــال حلالا ، فلا يكونن عليك وَبَالا ، أتاك عفوا صفوا ، ممن كان له جَمُوعا مَنُوعا ، من باطل جمعه ، ومن حقّ منعه ، قطع فيه لُجَجَ البحار ، ومفاوزَ القِفَار ، ولم تَكْدَحْ لك فيه عَيْنٌ ولم يَعْرَقْ لك فيه جَبين ، إنّ يوم القيامة يوم ذو حَسَرات ، وإن من أعظم الحسرات غدا ، أن ترى مالك فى ميزان غيرك ، فيالها حسرة لا تُقال ، وتَوْبة لا تُنال .

ومن أخبار البخلاء : قيل : بخلاءُ العرب أربعة، الحطيئة، وحُمَيد الأَرْقَط، وأبو الأسود الدُّؤَلِيّ، وخالدُ بنُ صفوان، ونُقِلت عنهم أُمُور دلّت على بخلهم .

أما الحطيئة : فقد حكى عنه : أنه مَرّ به ٱبن الحمامة، وهو جالس بفِنَاء بيته، فقال له : السلام عليكم، فقال : قلت مالا يُنْكَر، فقال : إنى خرجتُ من أهلى بغير زاد، قال : ما ضمنتُ لأهلك قِرَاكِ، قال : أفتأذن لى أن آتى بظلّ بيتك فأتفيّأ به؟ قال : دونك الجبل يَفِيء عليك، قال أنا ٱبن الحمامة، قال : ٱنصرف وكن ٱبن أى طائر شئتَ . قال : وٱعترضه رجل وهو يَرْعى غنما، فقال له : يا راعِيَ الغَنَم، وكان بيد الحطيئة عَصًا فرفعها، وقال : عَجْراءُ من سَلَم، فقال الرجل : إنما أنا ضيف، فقال : للأضياف أعددتها . وكان الحطيئة أحد الحُمْقَى، أوصى عند موته، أن يُحْمَلَ على حِمَار، وقال : لعلّى إن حُملتُ عليه، لا أموت، فإنى ما رأيت كريما مات عليه قطّ . وقال : لكُلِّ جَديد لذّةٌ، إلا جديد الموت، فإنى رأيته غيرَ لذيذ . وقيل له : أوص، فقال : أُوصِى أن مالى للذكور دونَ الإناث، قالوا : فإن الله ليس يقول كذلك، قال : لكنى أقوله . وقالوا له : قل لا إله الا الله، فقال : أشهَدُ أن الشمّاخ أشعرُ غطفان .

ومن أخباره : أن الزِّبرِقان بن بدر، لَقِيَه فى سفر، فقال له : مَن أنت ؟ فقال : أنا حَسَبٌ موضوع، أنا أبو مُلَيْكَة، فقال له الزِّبرِقان : إنى أريد وَجْهًا، فَصِرْ إلى منزلى، وكن هناك، حتّى أرجع . فصار الحُطَيئةُ إلى ٱمرأة الزِّبْرِقان، فأنزلته وأكرمته، فحسده بنو عمّه، وهم بنو لأيٍ، فقالوا للحطيئة : إن تحولتَ إلينا، أعطيناك مائةَ ناقةٍ، ونَشُدّ الى كلّ طُنُب من أطناب بيتك حُلّةً تحويه، وقالوا

لامرأة الزِّبرِقان : إن الزِّبرِقان إنما قدم هـذا الشيخ ليتزوج بنته ، فقَـدَح ذلك فى نفسها ، فلما أراد القوم النُّجْعَة، تخلّف الحطيئة، فتغافلت عنه امرأة الزِّبرِقان، فاحتمله القُرَيعِيّون ووفَّوْا له بمـا قالوا، فمدحَهُم، وهجا الزِّبرِقان، فقال

أزمعتُ يأسًا مُبِينًا من نوالِكُمُ * ولا يُرَى طاردا للحُـرِّ كاليـاس

دعِ المكارِمَ لا ترحـلْ لبُغْيتِها * واقْعُد فإنك أنتَ الطاعِمُ الكَاسِى

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَم جَوازِيَه * لايذهبُ العُرْفُ بين الله والنـاسِ

فاستعدى الزبرقانُ عليـه عمرَ بن الخطاب رضى الله عنـه ، فحكَّم عمرُ، حسانَ ابنَ ثابت، فقال حسان : ما هجاه ولكن سَلَح عليـه، فحبس عمرُ الحطيئةَ، فقال يستعطفه

ما ذا تقول لأفراخٍ بِذِى مَرَخٍ * حُمْرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَـرُ؟

ألقيتَ كاسبهم فى قَعْرِ مُظْلِمَة * فاغْفِر عليك سـلام الله يا عمرُ

ما آثروك بها إذْ قدَّموك لهـا * لكن لأنفسهم كانت بك الأَثَرُ

فأخرجه عمرُ، وجلس على كرسىّ، وأخذ بيده شَفْرة، وأوهم أنه يريد قَطْعَ لسانه، فضجّ، وقال : إنى والله يا أمير المؤمنين ! قد هجوتُ أبى وأمّى وامرأتى ونفسى، فتبسّم عمرُ، ثم قال : ما الذى قلتَ ؟ قال : قلتُ لأبى وأمّى (٩٢)

ولقد رأيتُك فى النساء فسوَّتنى * وأبَا بَنِيك فساءنى فى المجلس

وقلتُ لأبى خاصة

فبِئسَ الشـيخُ أنتَ لَدَى تميم * وبئس الشيخُ أنت لَدَى المَعَالى

وقلت لأمّي خاصة

تَنَحَّى وأجلسي منّي بعيـــدا * أراح الله منك العالمينـا؟
أغرْبالا إذا استودعتِ سرًّا * وكانونًا على المتحدِّثينـا؟

وقلت لامرأتي

أطوّف ما أطوّف ثم آتي * إلى بيت قعيـدتُه لَكَاعِ

وقلت لنفسي

أبتْ شفتايَ اليومَ إلا تكلُّمًا * بسوء فما أدري لمن أنا قائلُهْ
أرى لِيَ وَجْها شوَّه الله خَلْقَهُ * فَقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

فخلّى عمر سبيله، وأخذ عليه أن لا يهجوَ أحدا، وجعل له ثلاثة آلاف اشترى بها منه أعراض المسلمين، فقال يذكر نَهْيَهُ إيّاه عن الهجاء ويتأسف

وأخذتَ أطراف الكلام فلم تدَعْ * شَتْمًا يَضُرُّ ولا مديحا يَنْفَعْ
ومنعتني عِرْضَ البخيل فلم يَخَفْ * شَتْمِي وأصبحَ آمنًا لا يَجْزَعْ

وأما حميد الأرقط: فكان هجّاءً للضيف، فحاشًا عليه، فنزل به ضيف ذات ليلة، فقال لامرأته: نزل بك البلاءُ، قومي فأعدّي لنا شيئا، ففعلتْ، فجعل الضيف يأكل ويقول: ما فعل الحجاج بالناس؟ فلما فرغ، قال حُمَيد

يجرّ على الأطناب من جذْل بيتنا * هِجَفٌّ(١) مخزون التحيّة باذلُ
يقول وقد ألْقَى المراسيَ للقِرَى * أبِنْ لِيَ ما الحجّاجُ بالناس فاعلُ؟
فقلت: لَعَمْرِي ما هذا أتينا * فكُلْ ودعِ الأخبارَ ما أنت آكلُ

(١) الهجف: الجافي الثقيل.

تُدَبِّر كفاه ويحْـــدرُ حَلْقُـــهُ * الى الصدر ما حازتْ عليه الأَنامِلُ
أتانا ولم يَعْـــدِلْه سَحبانُ وائلٍ * بيانا وَعِلْمًـا بالذى هـــو قائلُ
فمـا زال عنـــه اللُّقْمُ حتَّى كأنه * من العِىِّ لمَّا أَنْ تكلَّم باقِلُ

ونزل به أضياف، فأطعمهم تمرا وهجاهم، وادعى عليهم أنهم يأكلونه بنواه، فقال

باتوا وجُلَّتُنَا(١) الصَّهْبَاءُ حَوْلَهُـــمُ * كأن أظفارَهم فيهـا السكاكِينُ
فأصبحوا والنَّوى مُلْقَى مَعَرَّسِهِم * وليس كلَّ النَّوى ألقى المساكِينُ

وأما خالد بن صفوان : فكان إذا أخذ جائزته، قال للدرهم : طالمـا سرتَ فى البلاد، أما والله لَأُطيلَنَّ حبسَك ، ولأُدِيمَنَّ لُبْثَك . وقيل له : مالك لا تنفق ، فإن مالك عريض؟ فقال : الدهر أعرضُ منه، قيـل : كأنك تؤمل أن تعيشَ الدهرَ كلَّه، قال : ولا أخاف أن أموت فى أوله .

وأما أبو الأسود الدؤلىّ : فعمل دكانا عاليا يجلس عليه . فكان ربمـا أكل عليه فلا يناله المجتاز، فمر به أعرابىّ على جمل، فعرض عليه أن يأكل معه ، وظنّ أنه لا يناله ، فأناخ الأعرابىّ بعيره، حتّى وازى الدكان ، وأكل معه ، فمـا جلس بعد ذلك على الدكان ، وكان يقول : لو أطعنا المساكين فى أموالنا ، كنا أسوأَ حالا منهم . وقال لبنيه : لا تُطمِعوا المساكين فى أموالكم ، فإنهم لا يَقْنَعُون منكم، حتَّى يَرَوْكم فى مثل حالهم . ووقف عليه أعرابىّ وهو يتغدّى ، فسلّم عليه، فردّ عليه، ثم أقبل على الأكل، ولم يَعْرِض عليه ، فقال الأعرابىّ : أما إنى قد مررتُ بأهلك، قال : كان ذلك طريقك ، قال : وهم صالحون ، قال : كذلك فارقتُهـم ، قال :

(١) الجُلّة : قفة كبيرة للتمر .

وأمرأتك حُبْلى، قال: كذلك كان عهدى بها، قال: ولدت، قال: ما كان بدُّ لها أن تلِد، قال: ولدتْ غلامين، قال: كذلك كانت أمُّها، قال: مات أحدهما، قال: ما كانت تقوى على رضاع اثنين، قال: ثمّ مات الآخر، قال كما كان ليبقى بعد أخيه، قال: وماتت الأمّ، قال: جزعًا على ولدَيْها، قال أطعِما أطيبَ طعامَك! قال: ذلك جزائى على أهله، قال: أفّ لك ما ألأمَك! قال بئس شاه سَبُّ صاحبه.

ونظير هذه الحكاية: ما حُكِىَ أن أعرابيًّا مرّ بأخر، فقال له: من أين أقبلت يابن عم؟ قال: من الثَّنِيَّة، قال: فهل أتيتنا منها بخبر؟ قال: سل عما بدا لك، قال: كيف عامُك يحيى؟ قال: أحسن العام، قال: هل لك علم بكلبى نفاع؟ قال: حارس الحِمَى، قال: فبأم عثمان؟ قال بخ بخ، ومن مثل أم عثمان! لا تدخل من الباب إلا متحرفة بالثياب المُعَصْفَرات، قال: فبعثمان؟ قال: وأبيك فإنه جَرْو الأسد ويلعب مع الصبيان، ويبدد الكِسْرَةَ، قال: فبجملنا السقّاء؟ قال: إن سنامه لَيَخْرج من الغبيط، قال فبالدار؟ قال: وأبيك، إنها لخصبة الجناب، عامرة الفِناء، ثم قام عنه، وقعد ناحيةً يأكل فلا يدعوه، فتركلب، فصاح به، وقال: يابن عم، أين هذا الكلب من نفاع؟ قال: يا أسفا على نفاع! مات، قال: وما أماته؟ قال: أكل من لحم الجمل السقّاء، فاغتص بعظم منه فمات، قال: إنا لله، أو قد مات الجمل! فما أماته؟ قال: عثر بقير أم عثمان، فانكسرت رِجْلُه. قال: ويلك! أمات أم عثمان؟ قال: إى والله، أماتها الأسف على عثمان. قال: ويلك! أمات عثمان؟ قال: إى وعهد الله! سقطت الدار عليه، فرمى الأعرابىّ

(٩٣) بطعامه وثره وأقبل ينتف لحيته ويقول: إلى أينَ أذهب؟ فيقول الآخر الى النار، وأقبل يلتقط الطعام ويأكله ويهزأ به ويضحك، ويقول: لا أرغم الله إلا أنفَ اللئام.

وكان أُحَيْحَةُ بن الجُلَاح من البُخَلاء، وكان إذا هبتِ الصَّبا، طلع أُطُمَة، ينظر الى ناحية هبوبها ثم يقول: هُبي هبوبَك، فقد أعددت لك ثلثمائةٍ وستين صاعا من عَجْوة، أدفع الى الوليد منها، خمسَ تمرات، فيردّ عليّ منها ثلاثا، أى لصلابتها بعد جهد ما يَلُوكُ منها.

والعرب تضرب المثل فى اللؤم بمَادِر، تقول: هو ألأَمُ من مَادِرٍ، ويزعُمون أنه بنى حوضا وسقى إبله، فلما أصدَرها سَلَحَ فى الحوض، لئلا يَسْقِيَ غيرُه فيه.

وكان عُمَرُ بن يزيد الأسدىّ مبخلًا جدّا، فأصابه القُولَنْجُ فحقنه الطبيب بدُهن كثير، فانحل ما فى بطنه، فلما أبرزه، قال للغلام: ما تصنع به؟ قال أَصُبُّه، قال: لا ولكن ميِّز الدُّهن منه واستصبح به.

وقال سلم بن أبى المعافى: كان أبى متنحياً عن المدينة، وكان الى جنبه مزرعة فيها قِثّاء، وكنت صبيّا فجاءنى صِبْيان أقران لى، فكلّمتُ أبى ليهب لى درهما أشترى لهم به قثّاء، فقال لى: أتعرف حال الدرهم؟ كان فى حجر فى جبل، فضُرب بالمعاول، حتى استُخرج، ثم طُحِن، ثم أُدخِل القِدْرَ وصُبّ عليه الماء، وجُمع بالزِّئبق، ثم صُفِّى من رَقّ، ثم أدخل النارَ فسُبك، ثم أُخرج فضُرب، وكُتِب فى أحد شِقّيه: لا إله إلا الله، وفى الآخر: محمد رسول الله، ثم حُمل الى أمير المؤمنين، فأمر بإدخاله بيت ماله، ووكّل به عُوجَ القلانِس صُهْب السِّبال، ثم وهبه لجارية حسناء حيلة، وأنت والله أقبح من قِرد، أو زَرَقه رجلا شجاعا وأنت والله أجبن من صُرَد، فهل ينبغى

لك أن تمس الدرهم إلا بثوب" ومثله قول سهل بن هارون. وقد قال له رجل هبني مالا مَرْزِئَةً عليك فيه. قال: وما ذاك؟ قال: درهما واحدا. قال: يابن أخي لقد هوّنتَ الدرهم، وهو طابع الله في أرضه، والدرهم ويحك عُشْر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف عشر دية المسلم. ألا ترى يابن أخي كيف انتهى الدرهم الذي هوّنته؟ وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم؟.

وقال سليمان بن مُزاحم، وقد وقع بيده درهم، فجعل يقلّبه، ويقول: في شِقّ، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي شِقّ، قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. ما ينبغي لهذا إلا أن يكون تَعْويذًا أو رُقْيَة، ويُرْمى به في الصندوق.

كان بعضهم إذا صار الدرهم في يده يخاطبه ويقول: بأبي وأمي أنت، كم من أرض قطعتَ، وكيس خرقتَ، وكم من خامل رفعتَ، ومن رفيع أخملتَ. لك عندي أن لا تَعْرى ولا تَضْحى، ثم يلقيه في كيسه، فيقول: آسكن على آسم الله، في مكان لا تزول عنه، ولا تزعج منه.

ومن البخلاء "مُزَيْد" وله حكاية تذكرها. فيما كان بالمدينة جارية جميلة مُغَنِّيَة، يقال لها: "بَصْبَص" وكانت الأشراف تجتمع عند مولاها، فاجتمع يوما عنده محمد بن عيسى الجعفري وعبد الله بن مُصعب الزُّبيري في جماعة من الاشراف، فتذاكروا أمر مزيد وبخله، فقالت الجارية: أنا آخذ لكم منه درهما. فقال لها مولاها: أنت حرّة إن فعلتِ إن لم أسعرك محتقة بمائة دينار وثوب وسي بمائة دينار، وأجعل لك مجلسا بالعقيق أنحر فيه بدنة. فقالت: جئ به، وآرفع لغيره، حتى أفعل. فقال: أنت حرة إن منعك منه، ولأعونّك عليك إن حصلت

منه الدرهمَ ، فقال عبـد الله بن مُصعب : أنا آتيكم به ، قال عبد الله : فصلّيْتُ الغَـداة فى المسجد ، فاذا أنا بهِ قد أقبل ، فقلتُ : يا أبا إسحاق ، إنَّا نُحِب أن نرى بصبص ؟ قال : بلى والله ، وآمرأته طالقٌ إن لم تكن له سـنة يشتهى أن يلقاها ، فقلت له : إذا صليتَ العصر ، فاتنى ها هنا ، فقال : آمرأته طالق إن برح من ها هنا الى العصر ، قال فانصرفتُ فى حوائجى ، فلمـا كان العصر جئتُ فوجدتُه ، فأخذتُ بيده ، وأتيتُهم به ، فأكل القوم وشربوا حتَّى صُلِّيتِ العَتَمَةُ ، ثم تساكروا وتناوموا ، فأقبلتْ بَصْبَصُ على مُزَبِّد ، فقالت له : يا أبا إسحاق كأنِّى والله فى نفسك تشتهى أن أُغَنِّيَك الساعةَ

لقد حَثُّوا الجِمالَ ليهـــرُبُوا مِنَّا فلم يئِلُوا

فقال لها : آمرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى اللوح المحفوظ ، فغنتْه إيَّاه ، ثم قالت له : كأنِّى بك تشتهى أن أقوم من مجلسى فأجلس إلى جنبك فتَدُخل يَدَك فى جِلْبَابى ، فقال : آمرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى الأرحام ، وما تَكْسِب الأَنْفُس غدًا قالت : فقم ، فقام وجلس إلى جانبهـا وغنَّتْ له ، ثم قالت : أعلم أنك تشتهى أن أغنّيك

أنا أبصرتُ بالليْـل * غُلامًا حَسَـنَ الدَّلِّ
كَغُصن البان قد أصبـــحَ مَسْقِيًّا من الطَّلِّ

فقال لها : آمرأته طالق أن لم تكونى نبيّةً مُرسلةً ، فغنّته وقبّلها ، ثم قالت : يا أبا إسحاق ، هل رأيتَ قطّ أنذل من هؤلاء ؟ يدعوننى ويدعونك ، ويُخرجوننى اليك ولا يشترون نُقْلا ولا رَيْحانا ، كأنِّى بك وفى جيبك درهم وأنت تقول : الساعة أخرجه ،

(٩٤)

وأعطيها إياه، وتشترى به ما تريد. فقام من جنبها وقال : أخطأت آستُك الحُفْرَة، وآنقطع عنك الوحى ، ووثب وجلس ناحيـة ، فآنتبه القوم وعَطْعَطُوا[1] عليها وعلموا أن حيلتها لم تَتِمّ، وخرج من عندهم ولم يَعُـد إليهم .

وقال بعضهم: بتُّ عند رجل من أهل الكوفة من الموسرين ، وله صِبْيان نِيام ، فرأيته فى الليـل يقوم فيقلّبهم من جنب الى جنب، فلما أصبحنا سألته عن ذلك، فقال : هؤلاء الصبيان يأكلون وينامون على اليسار، فيمرِيهم الطعام، ويصبحون جياعا ، فأنا أقلّبهم من اليسار الى اليمين لئلا يَنْهضِمَ ما أكلوه سريعا .

وكان زياد بن عبد الله الحارثىّ واليا على المدينة ،وكان فيه بُخْلٌ وجفاء،فأهدى اليه كاتب له سِلَالًا فيها أطعمةٌ، وقد تَنَوَّق فيها فوافته وقد تغدَّى، فقال : ما هذه؟ قالوا : غداء بعثه فلان الكاتب، فغضب، وقال : يبعث أحدهم الشىءَ فى غير وقته، ياخَيْثَم بن مالك! يريد صاحبَ شُرْطته، آدع لى أهل الصُّفَّة يأكلون هذا ، فبعث خيثمُ الحرسَ يدعونهم . فقال الرسـول الذى جاء بالسِّلَال : أصلح الله الأمير، لو أمرتَ بهذه السـلال تُفتَح ويُنْظَر ما فيها، قال : آكشفوها فاذا طعام حسن من دَجَاجٍ وفراخ وجِدَاءٍ وسمك وأَخْبِصَة وحَلْوَاء فقال : آرفعوا هذه السِّلَال، وجَاء أهلُ الصُّفَّة، فأُخبِر بهم، فأمر بإحضارهم وقال : يا خَيْثَم! آضْرِبهم عشرة أسواط، فإنه بلغنى أنهم يفسون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن الخلفاء من يُنْسب الى البخل . فمنهم عبد الملك بن مروان كان يلقب برَتْج الحَجَر ولبن الطير لبخله .

(١) العَطْعَطَة : تتابع الأصوات واختلاطها أو حكاية صوت الجُبَان اذا قالوا : عِيطْ عِيطْ وذلك اذا غلبوا قوما .

ومنهم هشام ٱبنه وكان ينظر فى بيع الهدايا التى تُهْدَى اليه . حُكِىَ عنه أن أعرابيًا أكل عنده فرفع اللُّقمةَ الى فيه، فقال له هشام : فى لقمتك شَعْرة ياأعرابىّ، فقال: وإنك تلاحظنى ملاحظة من يَرَى الشَّعْرَة ، والله لا أكلتُ عندك أبدا ، ثم قام وٱنصرف .

ومنهم أبو جعفر المنصور كان يلقب بأبى الدوانيق، لُقِّب بذلك لأنه لما بنى مدينةَ بغداد كان يباشرها بنفسه ويحاسب الصُّناع، فيقول لهذا : أنت نمتَ القائلة، ولهذا : لم تُبَكِّر، ولهذا : ٱنصرفتَ قبل أن تُكَمِّل اليوم، فَيُسقط لهذا دانقا، ولهذا دانِقين، فلا يكاد يعطى لأحد أُجْرَةً كاملة، وكان يقول : يزعُمون أنِّى بخيل، وما أنا ببخيل، ولكن رأيت الناس عبيدَ المال، فمنعتُهم عنه ، ليكونوا عبيدا لى . ويُحْكى عنه أنه قال لطباخه : لكم ثلاثة وعليكم ٱثنتان، لكم الرءوس والأكارع والجلود ، وعليكم الحبوب والتوابل . ومن حكاياته الدالة على بخله : أن صاحبه الربيع بن يونس قال له يوما : ياأمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك وهم كثير ، وقد طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم، فقال : ٱخرج إليهم وسلم عليهم، وقل لهم مَنْ مدحنا منكم فلا يصف الأسدَ، فإنما هو كلب من الكلاب، ولا الحيَّةَ، فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب، ولا الجَبَلَ فإنه حجر أصَمُّ، ولا البحرَ، فإنه عَطِن بضّ لِجَبٌ ، فمن ليس فى شعره شىء من هذا فليَدْخُلْ، ومن كان فى شعره شىءٌ منه فَلْينصَرِفْ ، فأبلغهم فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هَرْمَة فقال : أنا له يا ربيع فأدخلنى عليه : فأدخله ، فلما مثل بين يديه، قال له : يا ربيع قد علمت أنه لايجيبك غيره فأنشده قصيدته التى منها

له لحَظَات فى حِفَافَىْ سريره * إذا كرَّها فيها عِقاب ونائلُ
فَأُمُّ الذى أَمَّنتَ آمِنة الردى * وأُمُّ الذى خوَّفتَ بالثُّكل ثاكِلُ

فرفع له السِّتر وأقبل عليه وأصغى إليه، فلما فرغ من إنشاده أمر له بعشرة آلاف درهم وقال له : يا إبراهيم، لا تتلفها طمعا فى نَيْل مثلها منّا، فما كلّ وقت تصل إلينا، فقال إبراهيم : ألقاك بها يا أمير المؤمنين يوم القيامة وعليها الجهبذ[1] .

ودخل المؤمّل بن أميل على المهدىّ وكان بالرَّىّ، وهو إذ ذاك ولىّ عهد أبيه المنصور، فامتدحه بأبيات يقول فيها

هو المهدىُّ إلا أن فيه * مشابَه صورة القمر المنيرِ
تشابه ذا وذا فهُما إذا ما * أنارا يُشْكَلانِ على البصيرِ
فهذا فى الضياء سِراج عدلٍ * وهذا فى الظلام سراج نُورِ
ولكن فضَّل الرحمنُ هذا * على ذا بالمنابر والسَّريرِ
وبعض الشهرِ يَخْفَى ذا، وهذا * منير عند نقصان الشهورِ

وجاء منها

فإن سبق الكبير فأهلُ سَبْقٍ * له فضلُ الكبير على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ * فقد خُلِق الصغير من الكبيرِ

فأعطاه عشرين ألف درهم، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو ببغداد، فكتب الى المهدىّ يلومه ويقول له : إنما كان ينبغى أن تعطِىَ الشاعر إذا أقام ببابك سنة، أربعة آلاف درهم، وأمره أن يوجهه إليه، فطلب فلم يوجد، وتوجه إلى بغداد، فكتب الى المنصور بذلك، فأمر بإرصاده فمُسك، وقيل له أنت بغية أمير المؤمنين وطِلْبته، قال المؤمل : فكاد قلبى يخلِع خوفا وفَرَقا، ثم أخذ بيدى وانطلق بى إلى الربيع، فأدخلنى على المنصور، وقال : يا أمير المؤمنين، هذا المؤمّل

(١) الجهبذ : كاتب رسم استخراج المال وقبضه .

ٱبن أميل قد ظفر به، فسلمت عليه، فرد علىّ السلام، فسكن جاشى وٱطمأن قلبى وزال رَوْعى، ثم قال لى: أتيت غلاما غِرًّا فخدعته فٱنخدع، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما أتيت ملِكا جوادا كريما، فمدحته فحملته أريحيّتُه على أن وصلنى و برّنى، فأعجبه ذلك، ثم قال: أنشدنى ما قلت فيه، فأنشدتُه، فقال: والله لقد أحسنت، لكن ما يساوى عشرين ألفا، يا ربيع، خُذ المالَ منه، وأَعْطِه منه أربعة آلاف درهم، فلما ولى المهدى الخلافة، قدم عليه المؤمّلُ، فأخبره بما كان بينه و بين أبيه، فضحك وردّ عليه ما أُخِذَ منه.

وحكى ٱبن حمدون فى كتابه المترجَم بالتذكرة: أن المنصور حجّ فى بعض السنين فحدا به سالم الحادى يوما بقول الشاعر

أبلجُ بين حاجبيه نُورُهُ * إذا تغدّى رفعت ستورُهُ
يَزِينُــه حَيَــاؤُه وخيرُهُ * ومِسْكُه يَشُوبُه كافورُهُ

فطرِبَ المنصور حتى ضرب برجله المحْمِل، ثم قال: يا ربيع، أعطه نصف درهم، فقال سالم: لا غير، يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت بهشام بن عبد الملك فأمر لى بثلاثين ألف درهم، فقال المنصور: ما كان له أن يعطِيَك من بيت المال ما ذكرت، يا ربيع! وَكِّلْ به من يستخرج منه هذا المالَ، قال الربيع: فما زلت أسْفِر بينهما حتى شرط عليه أن يحدو به فى خروجه ورجوعه بغير مئونة، وكان سالم هــذا يورِد الإبل لثمان ولِتِســع ولعشر، فيحدو لها فَيُلْهِيها حدوه عن ورود المــاء.

ومن طريف ما حكِى عنه: أن عبيد الله بن زياد الحارثىّ، كتب إليه رقعة بليغة يستميحه فيها، فوقّع عليها: إن الغِنى والبلاغة إذا ٱجتمعا لرجل أبطره، وإن أمير المؤمنين مشفِق عليك، فاكتفِ بالبلاغة.

وقد ذمّ الشعراء البخل وهجوا من اتصف به. فمن ذلك، وهو أبلغ ما قاله مُحدث، قول ابن الرومي

الحابسُ الروث فى أعفاج بَغْلَتِه * خوفا على الحَبِّ من لَقْطِ العصافيرِ

وقال العسكرىّ: أبلغ ما قيل فى البخل، قول ابن الرومىّ

٥ يُقَتِّرُ عيسى على نفسه * وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلو يستطيع لتقتيره * تنفَّس من مَنْخِرٍ واحدِ
رضيت لتشتيت أمواله * يَدَىْ وارثٍ ليس بالحامدِ

وقال أبو تمام

صدِّق أليَّتَه إن قال مجتهدًا * لا وَالرَّغيفِ فذاك البرّ من قَسَمِهْ
١٠ وإن هممتَ به فافتُك بخُبْزَتِه * فإن موقعَها من لحمه ودمه
قد كان يُعجِبُنى لو كان غَيْرَتُه * على جَرَادِقِه كانت على حَرَمِهْ

وقال دِعبل

استَبْقِ وُدَّ أبى المقا * تِل حين تأكُلُ من طَعَامِهْ
سيَّان كَسْرُ رغيفِه * أو كسرُ عَظْمٍ من عِظامِهْ
١٥ وتراه من خوف التريـ * ـل به يُرَوَّع فى منامِهْ

وقال أبو هلال العسكرىّ

خُبْزُ الأَمِيرِ عَتِيقُهُ * يَغْدُو عليه يُلاعِبُهْ
وإذَا بَدَا لجليسِه * أفضى إليه يُعاتِبُهْ
وتحوطه حرّاسُهُ * وتَذُبُّ عنه كَتَائِبُهْ
٢٠ فالزَّوْرُ يُصْفَعُ عنده * والضيفُ يُنْتَفُ شارِبُهْ

وقال آخر

فتى لرغيفه قُرطٌ وشَـنْفٌ * وإكليلان من دُرٍّ وشَـذْرِ
إذا كُسِر الرغيفُ بكى عليه * بُكَا الخنساء إذْ فُجِعتْ بِصَخْرِ
ودون رغيفه قَلْعُ الثنايا * وحَرْبٌ مثل وَقْعَةِ يوم بَدْرِ

وقال آخر

إن هـذا الفتى يصون رغيفا * ما إليه لآكلٍ من سَـبيلِ
هو فى سُـفْرتين من أَدَم الطا * ئف فى سَـلَّتينَ من زَنْبيـلِ
خُتِمتْ كلُّ سَـلَّةٍ بِرَصَاصٍ * وسُـيُورٍ قُدِدْنَ من جلْدِ فِيلِ
فى جِرَابٍ فى جوف تابوتِ موسى * والمفاتيـح عنـد ميكائيـلِ

وقال العسكرىّ

قلَّ خـيرُ ابن قاسم * فغنـاه كُعُدْمِـهِ
كادَ من خشْية القِرَى * يختبى فى حِرِ آمـه
جاز فى اللؤم حدّه * كأبيـه وعمـه
كاد يُعـديك لؤمُه * لو تسمّيتَ باسمـه

وقال ايضا

لك بُرْمَـــةٌ نزّهتَهـا * من أن تُدَنَّس بالدَّسَمْ
بيضـاءُ يُشْرِق نُورها * كالبَدْر فى غَسَقِ الظُّلَمْ
لو كان عِرْضُك مثلَها * كنتَ المُمَدَّحَ فى الأُمَمْ
أو كانَ فعلُك مثلَ قو * لك كنتَ تاريخَ الكَرَمْ

وقال أيضا

ضفتُ عمـرا فجاءنى برغيف * زادنى أكْلُهُ على الجوع جُوعَا
ثم وَلَّى يقـول وهو كئيب: * لَهْفَ نَفْسِى على رَغيفٍ أُضِـيعَا
كان خدَّاعةَ الضيوف ولكن * ربمـا أصبح الخَدُوع خَدِيعَا
كنتُ أنزلتُـه محلاً رفيعًا * فغـدا ذلك الرفيع وَضِـيعَا
عَجَباً منـه إذْ أُبِيـح حِمَـاه * كيف لم يمتنع وكان مَنِيعَا

وقال آخر

أرى ضيفَك فى الدر * وكَرْب المـوت يَغْشَاهُ
على خُبْزِكَ مَكْتُوبٌ: * «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ»

(٩٦)

وقال بشّار

وضيفُ عمرٍو وعمرو يَسْهَران معًا * عمرٌو لبِطْنَتِه والضـيفُ للجوعِ

وقال آخر

نوالُك دونَهُ خَـرط القَتَـادِ * وخـبزُك كالثُّرَيَّا فى البعَـادِ
ولو أبصرتَ ضيفا فى منـام * لحـزمتَ المنـامَ الى التَّنَادِى
أرى عُمُرَ الرغيفِ يطول جِدًّا * لديك كأنَّه من قـومٍ عَادِ
وما أهجوك أنك كُفْءُ شِعْرِى * ولكنِّى هجـوتُك للكَسَـاد

وقال العسكرى

قد كان للـال رَبًّا * فصار بالبخل عَبْـدَهْ
وصَحَّفَ الضَّيفَ ضَيفًا * فـراح يَلْطُم خَـدَّهْ

وقال أبو نُوَاس فى إسماعيل بن نُوبخت. بعد أن نصب إسماعيل فى صحن داره طارمة، وٱصطبح فيها أربعين يوما ومعه جماعة. منهم أبو نُوَاس، فبلغت نفقته اربعين ألف درهم، ثم قال بعد ذلك

خبزُ إسماعيل كالوشـــى إذا ما شُـــقَّ يُرْفا
عجبا من أثر الصنـــعة فيه كيف تخفَى؟ ٥
إنَّ رَفَّاءك هـــذا * ألطف الأمة كَفًّا
فإذا أَلْصَـــق بالنصـــف من الجُرْدُق نصْفا
الطف الصنعة حتَّى * ما ترى مَطْعَنَ إشْفَى[1]
مثـل ما جاء من التَّنُّـــور ما غادر حَـــرْفا
وله فى المـاء أيضـا * عمـــلٌ أبدع ظَـرْفا ١٠
مَزجه العَذْب بماء البـــئْر كى يزدادَ ضِـعْفا
فهو لا يَسْقِيك منـــه * مثـل ما يشرب صِرْفا

وقال فيه

على خبز إسماعيل واقيـةُ البُخلِ * فقد حلَّ فى دار الأَمان من الأَكْلِ
وما خبزه إلا كعنقاء مُغْـرِب * يُصَوَّر فى بُسْط الملوك وفى المُثْلِ ١٥
يحدَّث عنها الناسُ من غير رؤية * سوى صورة ما إن تُمِرُّ ولا تُحْـلِي
وما خبزه إلا كآوَى يُرى ٱبْنُـــهُ * ولم يُرَ آوَى فى الحُزُونِ وفى السَّهْلِ
وما خبزه إلا كليبُ بنُ وائلٍ * ليـالى[2] يَحْمى عِزُّهُ مَنْبِتَ البَقْـلِ

(١) الإشفَى : الإسكاف .
(٢) هكذا فى الأصل . وفى ديوان أبى نواس : ومن كان الخ ولعله الصواب . ٢٠

وإذ هو لا يَسْتَبُّ خَصْمَان عنده * ولا الصوتُ مرفوعٌ بجِدٍّ ولا هَزْلِ
فإن خبزُ إسماعيلَ حلَّ به الذى * أصاب كليبا لم يكن ذاك عن ذُلِّ
ولكن قضاءٌ ليس يُسْطاعُ ردُّه * بحيلة ذى مَكرٍ ولا دَهْيِ ذى عقلِ

وقال ابن الرومى

٥ بخيلٌ يُصَوِّم أضيافَه * ويبخَلُ عنهم بأجر الصيامِ
بَدَتْ الغلامَ فيوليهمُ * هوانا فيَشْتُمُ مولى الغلامِ
فهم مُفطرون وهم صائمون * وما يُطْعَمون وهم فى أثامِ
فيحتال بخلا لأنْ يُفطِرون * على رَفَثِ القول دون الطَّعامِ

وقال أحمد بن كُشَاجم

١٠ صديقٌ لنا من أبرَعِ الناس فى البخلِ * وأفضلِهم فيه وليس بذى فَضْلِ
دعانى كما يدعو الصديقُ صديقَه * فجئت كما يأتى إلى مثله مِثْلِى
فلما جلسنا للطعام رأيتُه * يرى أنه من بعض أعضائه أَكْلِى
ويغتاظ أحيانا ويَشْتُمُ عبده * وأَعْلَمُ أن الغيظ والشتمَ من أجلى
فأقبلت أستلّ الغداء مخافةً * وألحاظ عينيه رقيبٌ على فِعْلى
١٥ أمدّ يدى سِرا لأَسْرِقَ لُقمةً * فيلحظنى شَزْرًا فأعبثُ بالبَقْلِ
إلى أن جنتْ كَفِّى لحتفى جِنايةً * وذلك أن الجوعَ أعدمنى عَقْلِى
فجرّت يدى لِلْحَيْنِ رِجْلَ دَجاجةٍ * فجُرَّتْ كما جرّتْ يدى رجلَها رِجْلِى
وقدّمَ من بعد الطعامِ حَلاوةً * فلم أستطع فيها أُمِرُّ ولا أُحْلِى
وقمتُ لو أنّى كنتُ بيّتُّ نيّةً * ربحتُ ثوابَ الصومِ مع عدم الأكلِ

وقال آخر

تراهم خشيَةَ الأضيافِ خُرْسًا * يُقيـمون الصـلاةَ بلا أذانِ

احتجاج البخلاء وتحسينهم للبخل على قبحه

قالت الحكماء : لتكن عنايتُك بحفظ ما آكتسبتَه، كعنايتك باكتسابه . ٥

وقال أبو الأسود الدؤلىّ لبنيه : لا تُجاودوا الله، فإنه أكرم وأجود . ولو شاء أن يُغْنِيَ الناس كلَّهم لفعل ، ولكنه علِم أن قوما لا يصلحهم ولا يصلح لهم إلا الفقر، وقوما لا يصلحهم ولا يصلح لهم إلا الغنى .

وقال رجل من تَغْلِب : أتيت رجلا من كِندة أسأله ، فقال : يا أخا بنى تغلب، إنِّى لن أصلَك حتَّى أحرِم من هو أقرب إلى منك، وإنه لم يبقَ من مالى وعِرْضى ١٠ واهلى إلا ما منعتُه من الناس .

وقيل : إن لقمانَ الحكيمَ ، قال لآبنـه : يابُنَىَّ، أُوصيك باثنتين لن تزال بخـير ما تمسكتَ بهما : دِرْهَمِكَ لمعاشك، ودينِكَ لمَعادِك .

وقال أبو الأسود : إمساكُك ما تبذُل، خير من طلبك ما يبذُل غيرُك، وأنشد

يلومونى فى البخل جَهْلًا وضَلَّةً * وَلَلْبُخْلُ خيرٌ من سؤال بخيل ١٥

ونظيره قول المتَلَمِّس

وحَبْسُ المـال أَيْسَرُ من بُغَاهُ * وضَرْبٌ فى البـلاد بغير زاد

وإصْلَاحُ القليـل يَزِيدُ فيـه * ولا يَبْقَى الكثيرُ مع الفسادِ

وقال الجاحظ : قلت للحزامىّ : يابخيل! قال : لا أعدمنى الله هذا الاسم ، لأنه لا يقال لى: بخيل إلا وأنا ذو مال فَسَلِّم لى المال، وسَمِّنِى بأىّ اسم شئت، قلت : ولا يقال لك : سخىّ، إلا وأنت ذو مال، فقد جمع الله لهذا الاسم المال والحمد، وجمع لذاك المال والذّم، فقال : بينهما فرق عجيب، وبَوْن بعيد، إن فى قولهم : بخيل، سببا لمكث المال فى ملكى، وفى قولهم: سخىّ، سببا لخروجه عن ملكى، واسم البخل فيه حزم وذَمّ واسم السخاء فيه تضييع وحمد، وما أقلّ غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه وعَرِىَ ظهره وضاع عياله وشمت به عدوّه .

وقال محمد بن الجَهْم : من شأن مَنِ استغنى عنك، أن لا يقيم عليك، ومن احتاج إليك أن لا يزول من عندك، ومن حُبِّك لصديقك وضَنِّك بمودّته أن لا تبذل له ما يغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يُحْوِجه إليك . (٩١)

وقد قيل فى مثل هذا : "أَجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْك، وسَمِّنْه يَأْكُلْك". فمن أَغْنَى صديقه فقد أعانه على الغَدْر، وقطع أسباب الشكر، والمُعين على الغدر شريك للغادر، كما أن المزيِّن للفُجُور شريكٌ للفاجر .

وقال أبو حنيفة : لا خير فيمَنْ لا يصون ماله ليصونَ به عِرْضَه، ويَصِلَ به رحِمه ويستغنِىَ به عن لئام الناس . قال عبد الله بن المعتزّ

أَعَاذِل ليس البخل منِّى سَجِيَّةً * ولكن وجدتُ الفقرَ شَرَّ سبيلِ
لموت الفتى خيرٌ من البخل للفتى * وللبُخلُ خيرٌ من سؤال بخيلِ

وكان داود بن علىّ يقول : لأن يتركَ الرجلُ مالَه لأعدائه، خيرٌ من الحاجة فى حياته لأوليائه، قال الشاعر

مَالٌ يُخَلِّفُـهُ الفـتَى * للشامتين من العِـدَا
خير له من قصـده * إخـوانَهُ مسـتَرْفِدا

وقال سُـفْيَان الثَّوْرِىّ : لأن أُخلِّفَ عشرة آلاف درهم أحاسب عليها، أحب إلىّ من أن أحتاج إلى الناس ؛ وقال : كان المـال فيما مضى يكره، وأما اليوم فهو يزين المؤمن؛ وجاءه رجل فقال له : يا أبا عبد الله، تمسك هذه الدنانير ! فقال : آسكت، فلولاها لَتَمَنْدَلَتَنَا هؤلاء الملوك، ولكن من كان فى يده منها شىء فليصلحه، فإنه زمانٌ من آحتاج فيه كان أوّل ما يبذُل دينه .

وقال المنصور لمحمد بن مروان التميمىّ : إنك لسيد لولا جودٌ فيـك ، فقال : يا أمير المؤمنين، إنى لأجمُد فى الحق، ولا أذوب فى الباطل .

وكان محمد بن الجهم يقول : من وَهَب من عمله ، فهو أحمق ، ومن وهب بعد العزل ، فهو مجنون، ومن وهب من جوائز ملوكه أو ميراثه ، فهو مخذول ، ومن وهب من كَسْبِه وما آستفاده بحِيلة، فهو المطبوع على قلبه، المأخوذ ببصره وسمعه .

وسأل رجلٌ زياد بن أبيه ، فأعطاه درهما ، فقال : صاحب العِراقَيْنِ أسأله فيعطينى درهما؟ فقال له زياد : مَنْ بيده خزائن السموات والأرض ربما رزق أخصّ عباده عنده وأكرمهم لديه التمرةَ واللقمة، وما يكبر عندى أن أصلَ رجلا بمائة ألف درهم ، ولا يصغر أن أعطى سائلا رغيفا ، إن كان ربّ العالمين فعل ذلك .

قال الشاعر

يارُبَّ جُود جرَّ فَقْـرَ آمرئٍ * فقام للنـاس مَقَام الذليـل
فاشدد عُرَى مالِكَ وآسْتَبْقِهِ * فالبخلُ خير من سؤال البخيل

وقال الشريف بن الهَبَّارِيَّة

لَأصونَنَّ درهمِى * فهو لا شكَّ صائنى
لم يُغنِ ٱبنُ والدى * وصحيحى أعانَنِى

وقال أيضا

لله دَرُّ دراهمِى * فَهِىَ التى أعلت مَكانِى
لولا الغِنَى عن صاحبى * لَأَحَلَّنِى دار الهوانِ

وقال آخر

كن بما أُوتيتَه مُغتبِطا * تَستدِمْ عيشَ القَنُوع المُكتفِى
إن فى نَيل المُنى وَشْكَ الرَّدَى * وٱجتناب القصد عين السَّرَفِ
كَسِراجٍ دُهْنُه قوتٌ له * فإذا غَرَّقْتَه فيه طُفِى

ومن ذلك رسالة كتبها سهل بن هارون، وقد عيب عليه أمور من البخل، فاعتذر عنها وٱحتجّ فقال: أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخيرَ، وجعلكم من أهلِه، قال الأحنفُ بن قَيْس: يا بنى تميم، لا تُسرِعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال، أقلّهم حَياء من الفِرار، وكانوا يقولون: إذا أردتَ أن ترى العيوب جَمّةً، فتأمّلْ عيّابا فإنه يعيب الناس بفضل ما فيه من العَيْب، ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تَنْهى مرشدا أو تُغرى مُشْفِقا، وما أريد بما قلت إلا هدايتكم وتقويمكم وصلاحَ فسادكم، وإبقاءَ النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم، ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما ٱخترناه لأنفسنا قبلكم، وشُهِرنا به فى الآفاق دونكم، ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: (وَمَا أُرِيدُ

أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) فما كان أحقّكم فى كريم حرمتنا بكم أن ترعوا حقّ قصدنا بذلك إليكم، على مارعيناه من واجب حقّكم، فلا العذر المبسوط بلغتُم، ولا بواجب الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب برًّا وفخرا، لرأينا فى أنفسنا عن ذلك شغلا، عبتُمونى بقولى لخادمى : أجيدى العجين فيكون أطيب لطعمه، وأزيد فى ريعه، ٥ وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أملكوا العجين فإنه أحد الريعين، وعبتمونى حين ختمت على سَلّ عظيم، وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، على عبدٍ نهِمٍ، وصبيّ جشِع، وأمة لكعاء، وزوجة مضيعة، وليس بين أهل الأدب، ولا فى ترتيب الحكم، ولا فى عادات القادة، ولا فى تدبير السادة، أن يستوى — فى نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب — التابع ١٠ والمتبوع، والسيد والمسود، كما لا تستوى مواضعهم فى المجالس، ومواقع أسمائهم فى العنوانات، ومن شاء أطعم كلبه الدَّجاجة السمينة، وَعلَف حِماره السِّمْسِمَ المُقشّر، وعبتمونى بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مُدّ سَوِيق، وختم على كيس فارغ، وقال طِينة خير من ظنّة، فأمسكتم عمن ختم على لا شىء، وعبتم على من ختم على شىء، وعبتمونى أيضا، أن قلت للغلام : إذا زدت فى المَرَق، فزد فى الإنضاج، ١٥ ليجتمع مع التأدم باللحم طِيبُ المَرَق، وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا طبَخ أحدكم لحما، فليزد من الماء، فمن لم يصب لحما أصاب مَرَقا، » وعبتمونى بخَصْف النعل، وبتصدير القميص، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالنُّسُك، وأن الترقيع من الحزم، والتفريقَ من التضييع، والاجتماعَ مع الحفظ،

وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نعلَه، ويُرَقِّع ثوبه، ويَلْطَع أصابعه، ويقول: «لو أُهدِىَ إلىّ كُرَاع لقبلت، ولو دُعِيتُ إلى ذراع لأجبت» وقال صلى الله عليه وسلم «من لم يَسْتَحِى من الخلال، خفت مَـؤُنته، وقلّ كِبْرُه». وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يَلْبَس الخَلَق، وبعث زياد رجلا يرتاد له مُحَـدِّثا، واشترط عليه أن يكون عاقلا، فأتاه به موافقا، فقال له: أكنتَ به ذا معرفة؟ قال: لا، ولكنّى رأيته فى يوم قائظ، يلبَس خَلَقا، ويلبس الناس جديدا، فتفرّست فيه العقل والأدب، وقد علمت أن الخَلَق فى موضعه، مثل الجديد فى موضعه، وقد جعل الله لكل شىء قَدْرًا، وسمى له موضعا، كما جعل لكل زمان حالا، ولكل مقام مقالا، وقد أحيا الله بالسّم، وأمات بالغِذَاء، وأغصّ بالماء، وقتل بالدواء، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين، كما زعموا أن قلّة العيال أحد اليسارين، وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز وأمر مالك بن أنس بفرك البَعر، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة، ولبِس سالم بن عبد الله جلد أُضحية، وقال رجل لبعض الحكماء: أريد أن أُهدىَ لك دجاجة، قال: إن كان لا بدّ، فاجعلها بَيُوضا، وعبتمونى حين قلت: من لم يعرف مواضع السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى الممتنع الغالى، وقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية، وأشفّ من الكفاية، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت فى الأعضاء فضلا عن الماء، فعلمت أن لو كنت مكّنتُ الاقتصاد فى أوائله لخرج أوّله على كفاية آخره، ولكان نصيب الأوّل كنصيب الآخر، فعبتمونى بذلك وشنعتموه علىّ، وقد قال الحسن وذكر السرف: أما إنه ليكون فى الماء والكلا، فلم يرض

بذكر المـاء حتى أردفه بالكلإ، وعبتمُونى انى قلت : لا يغترّن أحد بطول عمره، وتقويس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوّته، وأن يرى دخله أكثر من رزقه فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده، وتحويله إلى ملك غيره، أو تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعلّه أن يكون معمّرا وهو لا يدرى وممدودا له فى السن وهو لا يشْعُر، ولعلّه أن يُرْزَقَ الولَدَ على اليأس، وتُحدِث عليه آفات الكِبَر ما لا يخطر على باله، ولا يدركه عقله، فيستردّه ممن لا يردّه، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما كان له أن يطلب، فعبتمُونى بذلك، وقال عمرو بن العاص : ٱعْمَل لدنياك عَمَلَ من يعيش أبدا، وٱعْمَل لآخرتك عَمَلَ من يموت غدا، وعبتمُونى بأن قلت : إن التلف والتبذير إلى مال المواريث، وأموال الملوك، وإن الحفظ الى المال المكتسب، والغنى المجتلب، والى ما يعرض فيه بذهاب الدين، وٱهتضام العرض، ونصب البدن، وٱهتمام القلب أسرع، ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع المال، ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر، وطاب نفسا بالذلّ، وعبتمُونى بأن زعمت أن كسب الحلال، مُضمَّنٌ بالإنفاق فى الحلال، وأن الخبيث ينْزع إلى الخبيث، وأن الطيِّب يَدعو إلى الطيّب، وأن الإنفاق فى الهوى، حجاب دون الحقوق، وأن الإنفاق فى الحقوق حجاب دون الهوى، فعِبْتُم علىّ هذا القول، وقد قال معاوية بن أبى سفيان : لم أر تبذيرا قطّ، إلا وإلى جنبه حقٌّ مُضَيَّع، وقال الحسن : إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله، فانظروا فى أىّ شىء ينفقه، فإن الخبيث إنما يُنفَق فى السرف، وقلت لكم بالشفقة عليكم، وحسن النظر منّى إليكم، أنتم فى دار الآفات، والجوائحُ غير مأمونات، فإن أحاطت بمال

أحدكم آفةٌ، لم يرجع إلى ثقة، فاحذروا النِّقم، باختلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجرى فى الجميع، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العبد، والأمة، والشاة، والبعير: فرقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين، وقال ابن سيرين [لبعض البحريين](١): كيف تصنعون فى أموالكم؟ قالوا: نفرِّقها فى السفن، فإن عَطِب بعض، سلم بعض، ولولا أن السلامة أكثر، ما حملنا أموالنا فى البحر، فقال ابن سيرين: تَحْسَبُها خَرْقَاء وهى صَنَاعٌ، وعبتمُونى بأن قلت لكم عند إشفاقى عليكم: إن للغنى سُكْرًا، والمال نَزْوةً، فمن لم يحفظ الغنى من سكره، فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال لخوف الفقر فقد أهمله، فعبتمُونى بذلك، وقد قال زيد بن جَبَلَة: ليس أحدٌ أقصر عقلا، من غَنِىٍّ أَمِنَ الفقرَ، وسكرُ الغِنى أشدُّ من سكر الخمر، وقد قال الشاعر فى يحيى ابن خالد

وَهُوبٌ تِلَاد المال فيما ينوبُهُ * مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أَحْزَمَا

وعبتمُونى حين زعمتم، أنِّى أقدِّم المالَ على العلم، لأن المال به يُفاد العلم، وبه تقوم النفس، قبلَ أن يُعرَفَ فضلُ العلم، فهو أصل، والأصل أحقُّ بالتفضيل من الفرع، فقلتم. كيف هذا؟ وقد قيل لبعض الحكماء: الأغنياء أفضل أم العلماء؟ فقال: العلماء، قيل له: فما بالُ العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء، أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بحقّ المال، وجهل الأغنياء بحقّ العلم، فقلت: حالها هى القاضية بينهما، وكيف يستوى شىء حاجة العلماء إليه، وشىء يغنى فيه بعضهم عن بعض، وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتّخاذ الغَنَم، والفقراء باتّخاذ الدَّجَاج، وقال أبو بكر الصدِّيقُ رضى الله عنه: إنى

(١) الزيادة لازمة من كتاب البخلاء.

لأبغض أهل البيت ينفقون نفقةَ الأيام فى اليوم الواحد، وكان أبو الأسود الدُّؤَلِىّ يقول لولده : إذا بَسَط الله لك فى الرزق فابْسُط، وإذا قبض فاقبِض، وعبتُمُونى حين قلت : إن فضل الغِنَى عن القوت، إنّما هو كفضل الآلة تكون فى البيت، إن ٱحتيج إليها ٱسْتُعْمِلت، وإن ٱستغنِىَ عنها كانت عُدّةً، وقد قال الخُصَيْنُ بن المنذر: ودِدْتُ أن لى مِثلَ أُحُد ذهبا لا أنتفع منه بشىء، قيل له : فما كنتَ تصنع به ؟ قال : لكثرة مَنْ كان يخْدُمنى عليه، لأن المال مخدوم، وقال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك، وذُلٌّ فى قلب عدوّك، لكان الحظّ فيه جسيما، والنفع عظيما، ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتأدّب الخلفاء، وتعليم الحكماء، لأصحاب الهوى، فلستم علىّ تردّون، ولا رأيى تُفَنِّدُون، فقدّموا النظر قبل العَزْم، وأَدْرِكوا ما عليكم من قبل أن تُدرِكوا مالكم، والسلام .

ومن نوادر البخلاء، قال رجل لبعض البخلاء : لِمَ لا تدعونى إلى طعامك؟ قال : لأنك جَيِّدُ المَضْغ سريعُ البَلْع، إذا أكلتَ لُقْمَةً هَيَّأْتَ أخرى، قال: يا أخى أتريد إذا أكلتُ عندك أن أُصَلِّىَ ركعتين بين كلّ لقمتين ؟ .

وقال آخرُ لبخيل : لِمَ لا تدعونى إلى طعامك ؟ قال : لأنك تُعلّق، وتُشدّق، وتُحدق، أى تحمل واحدة فى يدك، وأخرى فى شِدْقك، وتنظر إلى الأخرى بعينك .

وقال بعض البخلاء : أنا لا آكل إلا نصفَ الليل، قيل له : ولِمَ ؟ قال يَبْرُدُ الماء، ويَنْقَمِع الذُّباب، وآمَنُ فجأة الداخل، وصَرْخَة السائل .

وطبخ بعض البخلاء قِدْراً ، وجلس يأكل مع زوجتـه فقال : ما أطيبَ هذا الطعامَ! لولا كثرة الزِّحام، فقالت : وأىّ زحام وما ثَمَّ إلا أنا وأنتَ؟ قال : كنت أحِبُّ أن أكون أنا والقِدْر .

وقال بعض البخلاء لغلامه : هاتِ الطعامَ ، وأغْلِقِ الباب، فقال : يا مولاى، ليس هذا بحَزْم، وإنّمـا أُغْلِقُ الباب، وأُقَدِّم الطعام، فقال له : أنت حُرٌّ لوجه الله .

وعزم بعضُ إخوانِ أشْعَبَ عليه ليأكلَ عنـده ، فقال : إنّى أخاف من ثقيل يأكل معا فينغّص لذّتنا ، فقال : ليس عنـدى إلا ما تُحِبّ فمضى معه فبينما همـا يأكلان ، إذا بالباب قد طُرِق ، فقال أشعب : ما أرانا إلا صِرْنا لمـا نكره ، فقال صاحب المنزل : إنه صديق لى، وفيه عشْرُ خصال، إن كرهتَ منها واحدة لم آذن له ، فقال اشعب : هاتِ ، قال : أوّلها ، أنه لا يأكل ولا يشرب ، فقال : اتسعُ لك ودَعْه يدخل ، فقد أَمِنّا منه ما نخافه .

ذكر ما قيل فى التطفيل

ويتصـــل به أخبـارُ الأَكَلة والمُؤَاكَلة

والتطفيل من اللؤم، وهو التعرّض إلى الطعام، من غير أن يدعى إليه، وسنذكر تلو هذا الفصل آدابَ الأكل ، والمُؤَاكلة ، والاقتصاد فى المطاعم ، والعفّة عنها، وما يجرى هذا المَجْرَى، وإن كان خارجا عنه، وإنما الشىء يُذْكر بالشىء، والعرب تقول للطفيلىّ : الوارِش، والراشِن، قيل : هو مشتق من الطَّفَل، وهو الظلمة لأن الفقير من العرب كان يحضر الطعام الذى لم يُدْعَ إليه مستترا بالظلمة، لئلا يُعرَف . وقيـل : سُمّى بذلك ، لإظلام أمره على الناس ، لا يدرى مَنْ دعاه . وقيل : بل

من الطَّفَل لهجومه على الناس كهجوم الليل على النهار، فيكون من الظلمة، ولذلك قيل: "أطفل من ليل على نهار"، وأول من سمى بهذا الأسم: طُفَيل العَرائس، وإليه ينسب الطُّفَيليّون، وكان يقول لأصحابه: إذا دخل أحدُكم عُرسا، فلا يلتفت تلفّت المريب، ويتخيّر المجالس، وإن كان العُرس كثيرَ الزحام، فليمض ولا ينظر فى عيون الناس، ليظنّ أهلُ المرأة أنه من أهل الرجل، ويظنّ أهل الرجل أنه من أهل المرأة، وإن كان البوّاب غليظا فاحشا، فليبدأ به، ويأمره وينهاه من غير أن يُعنّف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال.

وأشهر من نُسب إليه هذا الأسم، وكثرت عنه الحكايات، بُنَان الطُّفَيليُّ، وهو عبد الله بن عثمان، ويكنى أبا الحسن، ولقبه بُنَان، وأصله مَرْوَزِىّ وأقام ببغداد، وكان نقشُ خاتمه، "مَالَكُمْ لَا تَأْكُلُونَ". حكى أن رجلا سأله أن يدعو له، فقال: اللهم ارزقه صحة الجسم وكثرة الأكل، ودوام الشهوة، ونقاء المَعِدَة، وأمْتعه بضِرْس طَحُون، ومَعِدة هَضُوم، مع السعة والدَّعَة، والأمن والعافية؛ وقال يُوصى بعضَ أصحابه: إذا قعدتَ على مائدة وكان موضعُك ضيِّقا فقل للذى يليك: لعلى ضيقتُ عليك فإنه يتأخر إلى خلف، ويقول: موضعى واسع، فيتسع عليك موضع رجل؛ وقال له طفيلىٌّ: أوصنى، فقال: لا تصادِفَنَّ من الطعام شيئا، فترفع يدك عنه وتقول: لعلّى أصادف ما هو أطيب منه، فإن هذا عجز ووَهَنٌ، قال: زدنى، قال: إذا وجدت خبزا فيه قِلّة، فكُلِ الجروف، فإن كان كثيرا فكل الأوساط، قال: زدنى، قال: لا تكثر شرب الماء وأنت تأكل، فإنه يصدّك عن الأكل، ويمنعك من أن تستوفى، قال: زدنى، قال: إذا وجدت الطعام، فكل منه أكل من لم يره قط. وتزوّد منه زاد من لا يراه أبدا. قال: زدنى، قال: إذا وجدت الطعام، فاجعله زادك إلى الله تعالى،

وقال : إذا دعاك صديق لك ، فاقعد يَمْنَةَ البيت فإنّك ترى ما تُحِبّ ، وتسودهم فى كلّ شىء ، وتسبقهم إلى كلّ خير ، وأنت أوّل من يغسل يده والمِنْديل جافّ ، والماء واسع ، والخِوان بين يديك يوضع ، والنبيذ أوّل القِنّينَة ورأسها تشربه ، والنقل منتخب ، يوضع بين يديك ، وتكون أوّل من يتبخّر ، فإذا أردت أن تقوم لحاجة لم تحتج أن تتخطّاهم ، وأنت فى كل سرور الى أن تنصرف . قال البديع الهمذانىّ فى طُفيليّين يشبههم بُنَان

خلفتُم بُنَانا فكم من أديبٍ * من الغَيْظِ عَضّ عليكم بَنَانا
إذا ما النهار بدا ضوءُه * غدوتُم خِماصا ورُحْتُم بِطانا

ومنهم : عثمان بن درّاج ، قيل له : كيف تصنع إذا لم يدخلك أهل العُرس ؟ قال : أنوح على الباب ، فيتطيّرون فيدخلوننى . وحكى أبو الفرج الأصفهانى : أن عثمان هذا ، كان يلزم سعيد بن عبدالكريم الخطابىّ أحد ولد زيد بن الخطاب ، فقال له : ويحك ! إنى أبخل بأدبك وعلمك ، وأضنّ بك عما أنت فيه من التطفيل ولى وظيفة راتبة فى كلّ يوم ، فالزمنى وكن مدعوّا ، أصلح لك مما تفعل ، فقال : يرحمك الله فأين لذّة الجديد ، وطيب التنقل كل يوم إلى مكان ؟ وأين هُوَيْناك ووظيفتك من احتفال العرس ؟ وأين ألوانك من ألوان الوليمة ؟ قال : فأما إذا ثبت ذاك : فإذا ضاقت عليك المذاهب فأتنى قال : أمّا هذا فنعم ؛ قال : وقال له رجل : ما هذه الصُّفرة التى فى لونك ؟ قال : من الفترة التى بين القَصْعَتين ، ومن خوفى فى كل يوم من نفاد الطعام قبل أن أشبع ؛ وقيل له مرّة : هل تعرف بستان فلان ؟ فقال : إى والله ، وإنه لجنة الحاضرة فى الدنيا ، قيل له : فلم لاتدخل اليه فتأكل من ثماره ، وتقيل

تحت أشجاره، وتسبح فى أنهاره؟ قال: لأن فيه كلبا لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال، وعثمان هذا الذى يقول

لَذَّة التطفيل دُومى * وأَقيمى لَا تَرِيمى
أنت تشْفِين غَلِيلى * وتُسَلِّين هُمُومى

ولهم أخبار وحكايات، منهـا: ما نقل عن نصر بن علىّ الجهضمىّ أنه قال: كان لى جار طفيلىّ، إذا دعيت إلى مدعاة ركب معى وجلس حيث أجلس، فيأكل وينصرف، وكان نظيفا عطِرا، حسن اللباس والمركب، وكنت لا أعرف من أمره إلا الظاهر، فاتفق لجعفر بن القاسم الهاشمىّ حقٌّ دعا له أشراف البصرة ووجوهها، وهو يومئـذ أمير البصرة، فقلت فى نفسى: إن تبعنى هـذا الرجل إلى دار الأمير لأخزيته، فلما كان يوم الحضور، جاءنى الرسول، فركبت، وإذا به قد تبعنى حتى دخل بدخولى، وارتفع حيث أُجلست، فلما حضرنا الطعام، قلت: حدّثنا دُرُسْتُ ابن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل إلى دار قوم بغير إذْنهم، دخل سارقا، وخرج مُغيرا، ومن دُعِى ولم يُجب فقد عصى اللهَ ورسولَه»، فظننت أنى قد أشرفت على الرجل وقصّرت من لسانه، فأقبل علىّ وقال: أعيذك بالله من هذا الكلام فى دار الأمير، فإن الأشراف لا يحتملون التعريض باللؤم، وقد حَظَر الدينُ التعريضَ، وعزّر عليه عمر رضى الله عنه، ووليمة الأمير دعاء لأهل مِصره فإنه سَلِيلُ أهل السقاية، والرفادة، والمطعمين الأفضلين الذين هَشَمُوا الثَّرِيد، وأبرزوا الحِفَان لمن غدا إليهـا، ثم لا تُوزع وأنت فى بيت من العلم معروف من أن تحدّث عن درست بنِ زياد وهو ضعيف عن أبان ابن طارق وهو متروك الحديث بحكم رفعه الله إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، والمسلمون

(١٠١)

على خلافه، لأن حكم السارق القطع، والمغير يُعَزَّرُ على ما يراه الإمام، وهذان حكمان لاينفذان على داخلٍ دارا فى مجمع فيتناول لُقَما من فضل الله الذى آتى أهلها ثم لايُحدِثُ حدثا حتى يخرجَ عنها، وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: «طعامُ الواحد يكفى الاثنين، وطعامُ الاثنين يكفى الأربعة»، حدّثنا بذلك أبوعاصم النبيل عن ابن جريج عن أبى الزبير عن جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، فأين أنت عن هذا الحديث الصحيح الإسناد والمتن؟ قال نصر: فأصابتنى نَجْلَةٌ شديدة، فلما نظر الرجل إلى ما بى أكل ونهض قبلى، فلما خرجت وجدتُه واقفا على دابتــه بالباب، فلما رآنى تبعنى، ولم يكلّمنى ولم أُكلّمه، إلا أنى سمعته يتمثل

ومَن ظنَّ مِمَّن يُلاقِى الحروب * بأَنْ لا يُصاب فقد ظَنَّ عَجْزا

وقيل: مرّ طفيلٌ بسكة النَّخع بالبصرة على قوم، وعندهم وليمة، فاقتحم عليهم، وأخذ مجلســه مع مَنْ دُعِى، فأنكره صاحب المنزل، فقال له: لو تأنّيتَ أو وقفت حتّى يُؤْذَنَ لك، أو يُبعثَ إليك، فقال: إنما اتُّخذتِ البيوتُ ليُدخَلَ إليها، ووُضِعتِ الموائدُ ليؤكَلَ ما عليها، وماوجّهت بهديّة فأتوقع الدعوة، والحِشْمَةُ قطيعةٌ، وآطّراحُها صلةٌ، وقد جاء فى الأثر: «صِلْ مَنْ قطعك، وأَعْطِ مَنْ حرمك»، ثم أنشد

كلَّ يوم أدُورُ فى عَرْصَة الدّا * ر أَشُمُّ القُتَارَ[1] شمَّ الذُّبابِ
فاذا ما رأيتُ آثارَ عُرْس * أو دُخَانا أو دَعْوةَ الأصحابِ
لم أُعرِّج دونَ التقحُّم لا أر * هَب شتما ولَكْزة البوّابِ
مُستهينا بمن دخلت عليــه * غيرَ مُستأذِن ولا هيّابِ
فترانى أَلُفُّ بالرغم منــه * كلَّ ما قدّموه لَفَّ العُقابِ

(١) القتار: ريح الشواء.

ووصف طفيلٌ نفسه فقال

نحنُ قومٌ إذا دُعِينا أَجَبْنَا * ومتى نُنْسَ يَدْعُنَا الطفيلُ

قولنا : علَّنا دُعِينَا فَغِبنَا * أَوْ أتانا فلم يجِدْنَا الرسولُ

وقال آخر

نحنُ قومٌ نُحِبُّ هَدْىَ رسولِ اللهِ هَـدْياً به الصوابَ أَصَبْنَا

فادْعُنا كلَّما بَسطْتَ فإنَّا * لَو دُعِينا إلى كُرَاعٍ أَجَبْنَا

وقال آخر

نحنُ قومٌ إن جفا النَّا * سُ وَصَلْنَا من جفانا

لا نُبالى صاحب الدَّا * رَ نَسِينا أم دَعانا

وقال آخر وقد أقبل إلى طعام، من غير أن يُدْعى إليه فقال له صاحب الصنيع: مَنْ دعاك ؟ فأنشد

دعوتُ نفسى حين لم تَدْعُنى * فالحمدُ لِى لا لكَ فى الدَّعوةِ

وكان ذَا أحسن من مَوْعِدٍ * إخلافُه يدعو إلى جفـوةِ

وقد مدح أبو رَوْح ظفر بن عبدالله الهَرَوىّ طُفَيلياً ولم يسبق إليه، فقال

إنَّ الطفَيْـلِىَّ له حُرْمَةٌ * زادت على حُرمة نَدْمَانى

لِأنَّه جاء ولم أَدْعُـــه * مبتدِئاً منـه بإحسـانِ

ودخل طفيلٌ إلى قوم فقالوا له : ما دعوناك ! فما الذى جاء بك ؟ فقال : إذا لم تدعونى ولم آت، وقعت وحشة، فضحكوا منه وقربوه.

وقيل : مرّ طفيلىّ على قوم يتغدّون، فقال : سلام عليكم معشرَ اللئام ، فقالوا : لا والله ، ! بل كرام ، فثنى ركبتَه ونزل ، وقال : اللهمّ آجعلهم من الصادقين ، وآجعلنى من الكاذبين .

قال هشام أخو ذى الرمّة لرجل أراد سفرا : إن لكل رُفقة كلبا يشركهم فى فضلة الزاد، فإن آستطعت أن لا تكون كلب الرِّفاق فآفعل .

ونظر طفيلىّ إلى قوم من الزنادقة يُسار بهم إلى القتل ، فظنهم يُدْعون الى صنيع ، فتلطّف حتّى دخل فى لفيفهم وصار كواحد منهم، فلما بلغوا صاحب الشُّرطة، أمر بضرب أعناقهم ، فقدّموا واحدا بعد واحد حتّى آنتهوا إلى الطفيلىّ فلما قُدِّم للقتل آلتفت إلى صاحب الشُّرطة، فقال له : إنّى والله ما أنا منهم، ولا أعلم بما يدينون ، وإنما أنا طفيلىّ ظننتُهم يُذْهَبُ بهم إلى صنيع، فتلطّفت حتّى دخلت فى جملتهم ، فقال ليس هذا مما ينجيك، آضربوا عنقه، فقال : أصلحك الله، إن كنتَ عزمتَ على قتلى ، فأمر السياف أن يضرب بطنى بالسيف ، فإنه هو الذى أوقعنى فى هذه الورطة، فضَحِك، وكشف عنه، فأُخبِر أنه طفيلىّ معروف، فخلّى سبيله .

وحُكِى أن المأمون أمر أن يُحمل إليه عشرة من الزنادقة سُمُّوا له من أهل البصرة، فجُمِعوا، فأبصرهم طفيلىّ، فقال: ما آجتمعوا إلا لصنيع ، فدخل فى وسطهم ومضى بهم الموكَّلون، حتّى آنتهوا إلى زورق قد أُعِدَّ لهم، قال الطفيلىّ : هى نُزهة، فدخل معهم الزَّوْرق، فلم يكن بأسرع من أن قُيِّدُوا، وقُيِّدَ معهم الطفيلىّ، ثم سِير بهم إلى بغداد، فأُدْخِلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلا رجلا، ويأمر بضرب أعناقهم، حتّى وصل إلى الطفيلىّ، وقد آستوفى العِدَّة، فقال للموكلين : ما هذا ؟ قالوا : والله ما ندرى ، غيرَ أنّا وجدناه مع القوم ، فجئنا به ، فقال له المأمون :

ما قصَّتُك؟ ويلك! فقـال يا أمير المؤمنين : آمرأتى طالق إن كنت أعرف من أقاويلهم شيئا ولا ممـا يدينون به وإنمـا أنا رجل طفيلىّ ، رأيتُهـم مجتمعين ، فظننتُ صنيعا يُدْعَون إليـه ، فضحك المـأمون وقال : يُؤَدَّبُ ، وكان إبراهيم بن المهدىّ قائمـا على رأس المأمون فقال : يا أمير المؤمنين، هب لى أدبه ، وأحدثك بحديث عجيب عن نفسى، قال : قل يا إبراهيم، قال : يا أمير المؤمنين ، خرجتُ من عندك يوما، فطُفتُ فى سِكَك بغداد متطرِّفا ، حتّى آنتهيت إلى موضع كذا ، فشممت من قُتَار أبازير قُدور قد فاح ، فتاقت نفسى إليهـا ، وإلى طِيب ريحها، فوقفت إلى خياط ، فقلت له : لِمَنْ هذه الدار؟ فقال : لرجل من التّجار ، قلت : ما آسمه؟ قال : فلان بن فلان ، فرميت بطرفى إلى الدار ، فإذا شُبَّاك فيها مطلٌّ، وإذا كَفٌّ قد خرج من الشُّبَّاك ومِعْصَم، فشغلنى حسنُ الكفِّ والمعصم عن رائحة القُدور، فَبُهِتُّ ساعة، ثم أدركنى ذهنى، فقلت للخياط : أهو مِمَّن يشربُ النبيذَ؟ قال : نعم، وأحسب أن عنده اليومَ دعوة، وهو لا ينادم إلا تُجَّارا مثله مستورين، فإنى لكذلك، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدَّرْب، فقال لى الخياط : هؤلاء منادماه، فقلت : ما آسماهما وما كُناهما؟ فقال : فلان وفلان، فحرّكتُ دابّتى وداخلتهما، وقلت : جُعِلْتُ فِدَاكما، قد آستَبْطَأَكما أبو فلان، وسايرتهما حتّى بلغنا البـاب فأجلّانى وقدّمانى ، فدخلت ودخلا ، فلما رآنى صاحب المنزل معهما ، لم يشكّ أنى منهما، فرَحَّبَ بى وأجلسنى فى أفضل المواضع، فجىء يا أمير المؤمنين بمائدة عليها خبز نظيف وأُتينا بتلك الألوان، فكان طعمها أَطْيَبَ من رِيحها، فقلت فى نفسى : هـذه الألوان قد أكلتُها، بَقِيت الكَفُّ، كيف إلى صاحبتها؟ ثم رُفع الطعام، وجىء بالوَضُوء، ثم صرنا إلى مجلس المنادمة، فإذا أشكل منزل، وجعل

صاحب المنزل يلطف بى ، و يميل علىّ بالحديث ، حتّى إذا شربنا أقداحا ، خرجت علينا جارية ، كأنها بدر ، تثنى يا أمير المؤمنين كالخيزران ، فأقبلتْ ، وسلّمت غير عجلة وشُيت لها وِسادة ، فجلست عليها ، وأُتى بالعود فوُضع فى حِجْرِها ، فجسّته فاستبينتُ حِذْقها فى جَسّها ، ثم اندفعت تُغنّى

٥ توهّمَهَا طَرْفِى فأصبح خَدُّها * وفيه مكان الوَهْم من نظرى أَثْرُ
تُصافحُها كَفِّى فتُؤْلِمُ كَفَّهَا * فمِنْ مَسِّ كَفِّى فى أناملها عَقْرُ

فهيّجتْ يا أمير المؤمنين بلابلى ، وطرِبتُ لحسن شعرها ، ثم اندفعت تغنّى

أشرتُ إليها هل عرفتِ مودّتى؟ * فردّتْ بطرف العين إنى على العهد
فحَدْتُ عن الإظهار عَمْدا لسرها * وحادت عن الإظهار أيضا على عَمْدِ

١٠ فصحت يا أمير المؤمنين ، وجاءنى من الطرب مالم أملك نفسى معه ، ثم اندفعتْ فغنّت الصوت الثالث

أليس عجيبا أن بيتا يَضُمُّنِى * وإياك لا نخلو ولا نتكلّم!
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها * وتقطيع أكباد على النار تُضْرَمُ
إشارة أفواهٍ وغَمْز حواجبٍ * وتكسير أجفان وكَفّ تُسَلِّمُ

١٥ فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حِذْقها ومعرفتها بالغناء ، وإصابتها لمعنى الشعر ، فقلت : بقى عليك ياجارية ، فضربتْ بالعود على الأرض ، وقالت : متى كنتم تُحْضرون مجالِسَكم البُغَضاءَ ؟ فندمتُ على ما كان منّى ، ورأيت القوم قد تغيّروا لى ، فقلت : أما عندكم عود غير هذا ؟ قالوا : بلى ، فأُتيت بعود ، فأصلحت من شأنه ثم غنّيت

ما للمنازل لَا يُجِبْنَ حَزِينا * أَصممْنَ أم قَدُم البِـلَى فَبلِينـا؟
راحوا العَشِيَّةَ رَوْحةً مذكورةً * إنْ مُتْنَ مُتْنا أو حَيِينَ حَيِينَا

فما ٱسْتَتَمَمْتُه يا أمير المؤمنين، حتَّى قامت الجارية، فأكبّت على رجلىّ تقبّلهما، وقالت: مَعْذِرة ياسـيدى، فوالله ما سمعت أحدا يُغَنِّى هذا الصوت غِناءك، وقام مولاها وأهل المجلس، ففعلوا كفعلها، وطرب القوم وٱستحثّوا الشرب فشربوا، ثم ٱندفعتُ أُغَنِّى

أَفِى الحقِّ أن تَمْشِى ولا تَذْكرُنِّى * وقد هَمَعت عيناى من ذكرها الدَّما
إلى الله أشكو بُخلَها وسماحتى * لهـا عسـل منى وتبـذل عَلْقَما
فَرُدِّى مُصَابَ القلبِ أنتِ قتلتِه * ولا تَتْرُكيه ذَاهـلَ العقلِ مُغْرَما

فطَرِب القومُ حتَّى خرجوا من عقولهم، فأمسكت عنهم ساعة حتَّى تراجعوا، ثم غنّيتُ الثالث

هـذا مُحِبُّك مطوِيًّا على كَمَدِهْ * عبرى مدامُعه تَجْرِى على جسدهْ
له يَدٌ تسأَل الرحمنَ راحته * ممـا به ويَدٌ أخرى على كَبِـدِه

فجعلت الجارية تصيح: هذا الغناء والله ياسيدى، لا ما كُنّا فيه منذ اليوم، وسَكِرَ القومُ، وكان صاحب المنزل حسنَ الشرب، صحيحَ العقل، فأمر غلمانه أن يُخرِجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم، وخلوتُ معه، فلما شربْنا أقداحا، قال: ياسـيدى، ذهب ما مضى من أيامى ضَيَاعا، إذ كنتُ لا أعرفك، فمن أنت؟ ولم يزل يلِحُّ علىَّ، حتّى أخبرتُه الخَبَر، فقام وقبَّل رأسى، وقال: وأنا أعجب أن يكون هذا الأدب إلا لملك! وإنى لجالس مع الخلافة ولا أشعر، ثمّ سألنى عن قصتى، فأخبرته حتَّى بلغتُ إلى صاحبة الكف والمعصم، فقال للجارية: قومى فقولى لفلانة تنزل، فلم تزل تنزل

(١٠٣)

جواريه واحدةً واحدةً، فأنظر إلى كَفِّها ومِعصَمِها، وأقول : ليس هى هذه ! حتّى قال : والله مابقى غير أختى وأمّى، والله لأنزلها إليك، فعجبتُ من كرمه وسعة صدره، فقلت : جُعِلتُ فداك، آبدأ بالأخت قبل الأمّ فعسى أن تكون هى، فبرزتْ، فلما رأيتُ كَفَّهَا ومِعْصَمَها، قلت : هى هذه فأمر ! غلمانه، فساروا إلى عشرة مشايخ من جِلّة جيرانه، فأقبلوا بهم، وأمر بِبَدْرَتين فيهما عشرون ألف درهم، ثمّ قال للشايخ : هذه أختى فلانة، أشهدكم أنى قد زوّجتها من سيدى إبراهيم بن المهدىّ، وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم، فرضِيت وقَبِلت النكاح، فدفع إليها بَدْرة، وفرّق الأخرى على المشايخ وصرفهم، ثم قال : ياسيدى، أمهِّد بعض البيوت فتنام فيه مع أهلك، فأحشمنى مارأيت من كرمه، فقلت : أحضر عَمَارِيَّةً[1] وأحملها إلى منزلى، ففعل، فوالله يا أمير المؤمنين، لقد أتبعها من الجَهاز ما ضاقت عنه بيوتنا، فأولدتها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين، يشير إلى ولده، فعجب المأمون من كرم الرجل وألحقه فى خاصة أهله، وأطلق الطفلىّ وأجازه .

ومن إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانىّ وهو الذى حاز قصبات السبق فى فن الأدب على أترابه . وفاز من البلاغة بِقِدْحها المُعَلَّى فى عُنفُوان شبابه، رسالة وضعها فى هذا الفنّ، وصار له بها على أهله غاية المنّ، مع نزاهة نفسه الأبِيّة، وآرتفاعه عن المطامع الدنية، وإنما وضعها تجربة لخاطره، وضمها إلى فوائد دفاتره، وهى :

هذا عهد عهده زارِد بن لاقم، لبالع بن هاجم، آستفتحه بأن قال : الحمد لله مسهل أوقات اللذّات وميسّرها، وناظم أسباب الخيرات ومُكَثِّرها، وجاعل أسواق الأفراح قائمة على ساق، جابرة لمن ورد إليها بأنواع الإرفاد وأجناس الإرفاق، أحمده

(١) العمارية : هودج يُجلَس فيه .

على أن أحلّنا فى منازل السادات، أرفَعَ الدرجات، وأحلّ لنـا من الأطعمة الفائقة الطيّبات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تهدينا إلى المقام الرفيع، وتخصّنا بالمحل الجسيم المنيع، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رب المكارم الجسام، ومعدن الجسارة والإقدام، الجامع بين فضيلتى الطعان والطعام، صلى الله عليه وعلى آله أهـل السماحة والكرم والإكرام، صـلاة تُحِلُّ قائلها فى غُرُفَات الجنان فى دار ٥ السـلام، وبعد، فإن صـناعة التطفيل صناعةٌ مهوبة، وحِرْفة هى عنـد الظرفاء محبوبة، لا يَلْبَس شِعارَها إلا كلُّ مقدام، ولا يرفع خافقَ علمها إلا من عُدَّ فى حِرْفته من الأعلام، ولا يتلو أساطير شهامتها إلا من آرتضع أفاويق الصَّفَاقة، ولا يهتدى لمنار عَلَائِهـا إلا من نزع عن مَنْكِبيه رِدَاء الرَّقاعة والحمـاقة، وكنتُ والفَوْد غُدَافِىّ الإهاب، والغصن رَيّان من ماء الشباب، والقَدُّ يَمِيس فى حُلَّة النشاط، والقـدَم ١٠ تَذْرَع الأرض ذَرْعَ الآختباط، لا يُقام سوقُ وليمة إلا وأنا الساعى إليها، ولا ترفع أعلام نار مَأْدبة إلا وكنت الواقف لديها، أتخذ الدروب شِباكا للآصطياد، وحبائل أبلغ بها لذيذ الآزدراد، قد جعلت المعطس حليف الهواء، والقلب نزيل الأهواء، فحيث عَبَقت روائح الأبازير من أعالى تلك القصور، وتمنـدلت تلك الشوارع بزعفران البُرَم والقُـدُور، ألقيت عصا المسير على البـاب، وخَلبتُ بحسن أدبى ١٥ قلْبَ البواب، وأوسعت فى وصولى ألَفَ حيله، وجعلتها على ما عندى من حسن فنونها تَخِيله، فلا دعوة، إلا وكنت عليهم دعوة، ولا وليمة خِتَان، إلا وقد طلعت على أرجائها مثل الجان، ولا سِمَاط تأنيب، إلا وكنتُ إليه الساعى المنيب، ولا تجمّع ضيافة، إلا وكنت عليه أشد آفة، ولا ملاك عُرْس مشهود، إلا وآنتظمت فى سلك الشهود، يحسن فىّ قول القائل ٢٠

لو طُبخَت قِدْر بمَطْمُورة * مَوقدُها الشام وأعلى الثغور
وأنت فى الصين لوافيتها * ياعالمَ الغيب بما فى القُدُور

واليوم قد مال القَويمُ إلى الأعوجاج، وعزّ بازى الشيب غُرَاب الشَّعر الدّاج، وقيّد الزمَنُ أقداما، ومنعت الشيخوخة إقداما، وصرتُ لحما على وَضَم، بعد أن كنت نارا على عَلَم، وقد أفادتنِي التَّجْرِبةُ من هذه الصناعة فنونا، وتلت علىّ من محاسنها متونا، وقد أبقيت لكل مجمع بابا، وفَذْلَكْت لكل مَشهد حسابا، وقد آقتضى حسن الرأى أن أفوّض إليك أمرها، وأودِع تأمورَ قلبك وحِسّك سِرّها، على بأنك الكَيِّس الفَطِن، بل الألْمعِىّ الذَّرِب المَرِن، لو عقدت أكلةُ الولائم بغَابٍ ولجه، وأحسن بتأنّيه الجميل مَدْخَلَه ومَخْرَجَه، وقد شاهدتُ من أعمالك الصالحة، ما يقال عند ذهابى: ما أشبه الليلة بالبارحة، وقد عَهِدتُ إليك، وآستخرت الله فى التعويل عليك، فمثلك من يُخْطَب للمناصب، ويتسنّم ذِرْوَة المراتب، ودونك ما أنطق به من الوصايا، وآحفظ ما يسْرُده لسانُ القلم من جميل المزايا، إياك وموائدَ اللئام، وآنزل بساحات الكرام، وآتخذ الشروع فى الشوارع حِرفة، وأظهر على مشيك صَلَافة وعِفّة، وميّز بعينك حُسْنَ المساطب ونَقْشَ السُّتُور، وجمال الخدم وقُعود الصدور، وآقصد الأبواب العالية، والأكلة المنقوشة الجالية، فإن دُلّت على مَأْدبة نصبها بعض الأعيان، وجمع إليها أصحابه الإخوان، فالْبَسْ من ثيابك الجميلة قشيبَها، وضوّع بالمَنْدل الرطب طِيبَها، وأتقن خُبْرَ صاحب الدار وأخبره، وقف فى صدر الشارع من الحاره، فإذا رأيت الجمع وقد تهادَوْا بالهوادى والأقدام، وتهادَوْا فيما بينهم لذيذَ الكلام، تَقَدَّمْ إليهم بقلب قَلَبَ الأمور، وعلم بحسن تطلّعه وتضلّعه داءَ الجمهور، وقل لهم: رب الدار قد آستبطأكم، فما الذى أبطأكم؟ حتّى إذا قاربوا صُعُود العتبة،

(١٠٤)

ولم تبقَ هنا لك مَعْتَبَة ، تقدَّمْ رافعا لهم الستور ، ومعرّفا بمقـدار أولئك الصدور ، فالأضياف ، يعتقدون أنك غلام المضياف ، و ربُّ الحِلَّة ، يعتقد أنك رفيق السادة الحِلَّة ، و إن وَلَجْتَ مجتمع ختان ، وقد نُصبت فيه موائدُ الألوان ، وذُرِفَتِ الأبواب ، وآكفهرَّت وجوهُ الحُجَّاب ، فاجعل تحت ضِبْنِكَ المجمع ، وآخدع قلوبَهم فمثلك من يَخْدَع ، وقل : رفيق الأستاذ ومعينُه ، ورِجْله التى يسعى بها بل يمينُه ، فحينئذ تُرْفَع الستُور ، وتُقَدَّمُ لك أطايبُ القُدور ، وإن رماك القَدَرُ على باب غفل عنـه صاحبُه ، وسها فى غَلْقه حاجبُه ، وقد مدُّوا فى أوانيه سِمَاطا ، وجعلوا لأوائل من يقدمه فِرَاطا ، وقد تقاربت الزبادى ، وآمتدت الأيادى ، و رأيت السِّمَاط رَوْضَةً تخالفت ألوانها ، وآمتـدّت أفنانها ، والموائد فيما بينها أفلاكٌ تدور بصحونها ، بل بروج ثابتة تُشْعِرُ بسكونها ، فَلِجْ على غَفْلة من الرقيب ، وآبسُط بَنانَ الأكل وكُفَّ لسان المجيب ، فإن قيل لك : أما غُلق دونك باب؟ فقل : ما على الكرماء من حِجَاب ، و إيّاك والإطالةَ على الموائد ، فإنها مصايدُ الشوارد ، و إياك والقَذَارةَ عليها ، فإنها إمارة الحِرْمان لديها ، و إن وقعتَ على وليمة كثيرة الطعام ، قليلة الآزدحام ، كبِّر اللقمة ولا تطل عَلْكَها ، ومُرِ الفكَّ فى سرعة أن يَفُكَّهَا ، فإنك ما تدرى ما تُحدث الليالى والأيام ، خِيفةَ أن يعثُرَ عليـك بعض الأقوام ، فتكتسى حُلَّةَ الخَجَـل ، وتظهر على وجهك صُفرة الوَجَل ، وآجعل من آدابك ، تطلعك الى أثوابك ، ولا ترفع لمستجلّ وجها وجيها ، وقل لمن يحادثك : إيه ولا تقل : إيها ، وجاوب بنعم ، فإنها مُعِينة على آللُّقم ، وآجعل لكل مقام ما يناسبه من الحيلة ، ومِلْ على أهل الولائم والمآدب ميلةً وأىّ ميلة ، وآسأل عمن ورث من آبائه مالا ، وقد جمعـه بوَعْثاء السفر وعَنَائه حراما وحلالا ، أهل يَعْقد مقاما؟ أم يبلُغ من دنياه بالقصف مراما؟ فإن قيل : فلان الفلانىّ رَبّ

هـذه المثابة، وصاحب الدعوة المجابة . فكن ثالثةَ الأثافى لِبَابِه، وٱنتظم فى سلك عشرائه وأَتْرَابِه، وتفقَّدِ الأسـواق خصوصا الحَمّامين ، ومواطِنَ الطبخ ومساطِبَ المطربين، ومَجمَع القراء ومعاهدَ محالّ الوعّاظ، وكلَّ بقعة هى مَظَنَّة فرح يعود عليك نفعه وكن أوَّل داخل وآخرَ خارج، ومل إلى الزوايا، فهى أجمل مالهذه الحِرْفة من المزايا، ونَقِّلْ رِكابك فى كلّ يوم ، فتـارة فى سوق اللحم وتارة فى سوق الثَّوْم ، وغيِّرِ الحِلْيَة ، وقَصِّرِ اللحْية، وٱبْرُزْ كلَّ يوم فى لباس، فهو أكثر للالتباس، وجَدِّد البهْتَ حتى تتخِذَه عصاك ، وتجعلَه ذَرِيعةً لمن عصاك ، وأتقن الفنون المحتاج اليها من غنى ونجامة، وطب وشهامة، وتاريخ وأدب، وكرم أصـل وحسب، وحالتى التوقيت والتنزيل، فاجعلهما دأبك، فإذا عرفوك، وحضر الجمعُ وكشفوك، فَطَرِّز كلَّ مَحْفِل بمحاسن أقوالك ، وكلّل جِيدَ كلِّ مَأْدُبة بجواهر أفعالك ، وٱعلم أنهـا صنعة دَثَرَتْ معالمُها، وقلَّ عالمُها، ولو لم أَرَ على وجهك مخائِلَ بِشْرِها، وعلى أعطاف أردافك روائحَ نَشْرِها ، لمـا ألقيتُ إليك كتاب عهدها ، ولا حملتُ لبَابك رايةَ مَجْدِها، فتلَقَّ رايةَ هذا العهد بساعِدٍ مُساعِد، وعَضُد فى الوُلُوج على الأسْمِطَة مُعاضِد، فوَضتُ اليك أمرَ مَنْ تحلَّى بجواهرها المنظومة ، ولَبِسَ حُلَلَها القشيبةَ المرقومة ، وبسطتُ لسانَ قلمك فى رَقْم عهودِها، وأَذنتُ لك أن تُجْرِيَهم على سَنَن معهودِها، وإياك أن تَعْهَدَ إلا لمن ملك خِصَالها ، وجاس خلالها، وٱستجلى هِلالها، وأتقن أحوالهـا، ولايةً عامَّة ، وكَلِمـةً مُبْرَمَةً تامَّة، حَرَس الله بك مَعْقِلَ الأدب وٱللطافة، ومَحَا بك معالِمَ الثقالة والكثافة .

(١٠٣)

ذكر آداب الأكل والمُؤَاكلة

قال الله تعـالى (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) ورُوِى أنّ داودَ عليه السلام أمر مناديَه فنادى : أيها الناس، ٱجتمعوا لأعلّمكم التقوى، فاجتمعوا فقام فى محرابه، فبكى ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال : يأيها الناس، لا تُدخلوا ها هنا إلا طَيِّبا، ولا تُخرجوا منه إلا طَيِّبا، وأشار إلى فيه . قيـل : أوّل آداب الأكل، معرفة الحـلال من الحرام، والخبيث من الطيّب .

وأما الآداب فى هيئة المُؤَاكلة وأفعالها، فقد رُوِى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعاب طعاما قطُّ، إن ٱشتهاه أكله وإلا تركه . ورُوِى أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَشُمُّوا الطعام كما تَشُمُّه البهـائم، من ٱشتهى شيئا فليأكل، ومن كَرِه فَلْيَـدَع » . وقال أَنَس : قَدِمَ النبىّ صلى الله علـيه وسلم المدينة، وأنا ٱبن عشر، ودخل دارنا، فَحَلَبْنَا له شاةً، فشرب، وأبو بكر عن يساره، وأعرابىّ عن يمينه، فقال عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه : أعط أبا بكر. فقال صلى الله عليه وسلم : «الأيمنَ فالأيمن» وفى هذا المعنى يقول الشاعر

صَدَدْتِ الكأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو ❊ وكان الكأْسُ مَجْـرَاها اليَمِينا

ورُوِى عن أَنَس : أنه رأى النبىَّ صلى الله عليـه وسلم شرب جُرْعة، ثم قَطَع، ثمّ سَمَّى. ثم شَرِب جُرْعة، ثم قَطَع، ثم سَمَّى. ثم قَطَع الثالثة، ثمّ جَرَع مَصًّا، حتّى فَرَغ ثمّ حَمِد الله . وقد ندب إلى غسل اليد قبل الأكل فإنه ينفى الفقر، ويُنَقِّى اللَّمَمَ؛ ومن السُّنّة : البَدَاءةُ باسم الله. وحَمْدِه عند الانتهاء .

رُوِى عن عمر بن أبى سَلَمَةَ أنه قال : مررت بالنبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يأكل، فقال « آجلس يَا بُنَىّ وسَمِّ الله ، وكُلْ بيمينك مما يليك » .

وقال بعض السلف : إذا جَمَعَ الطعامُ أربعا ، فقد كَمُلَ كلُّ شىء ، إذا كان حلالا ، وذُكِرَ آسمُ الله عليه ، وكَثُرَتْ عليه الأيدى ، وحُمِدَ اللهُ حين يُفْرَغُ منه .

٥ ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال عند مَطْعَمِه ومَشْرَبه بسم الله خَيْرِ الأسماء رَبِّ الأرضِ والسماءِ لم يضره ما أَكَلَ وما شَرِب» وفى حديث عائشة رضى الله عنها ، عنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أكل أحدُكم فَلْيَذْكُرِ آسْمَ الله فإن نَسِىَ فى أوّله ، فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله فى أوّله وآخره » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أكل أحدُكم فليأكل بيمينه ، فإنّ الشيطان يأكل بشماله ويشرب ١٠ بشماله » .

ورُوِى : أنّ المسيحَ عليه السلام كان إذا دعا أصحابَه قام عليهم ، ثمّ قال : هكذا فاصنعوا بالفقراء .

ووصف شاعر قوما فقال

جُلُوسٌ فى مجالسهم رِزَانٌ * وإن ضَيْفٌ أَلَمَّ بهم وُقُوفُ

١٥ قال سَهْلُ بن حُصَين : شهدت الحسَنَ فى وليمة ، فَطَعِم ثم قام ، فقال : مدّ الله لكم فى العافية ، وأوسع عليكم فى الرزق ، وآستعملكم بالشكر .

ورُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تخلَّلُوا فإنه نظافة والنظافة من الإيمان ، والإيمان مع صاحبه فى الجَنَّة » .

وفى حديث عمر رضى الله عنه : عليكم بالخَشَبَتَيْن : يعنى السِّوَاكَ والخِلَالَ .

وكان بعضهم يقول لولده إذا رأى حرصه فى الطعام : يابُنَىَّ، عوِّد نفسك الأثرة، ومجاهدة الشهوة، ولا تَنْهَسْ نَهْسَ السِّباع، ولا تَخْضَمْ خَضْمَ البراذين، فإن الله جعلك إنسانا، فلا تَجْعَلْ نفسَك بهيمةً .

وحكى عن بعض الكتّاب قال : تغديت مع المأمون فالتفت إلىّ وقال : خِلال قبيحة عند الجلوس على الطعام : كثرةُ مسح اليد، والانكباب على الطعام، وكثرةُ أكل البقل، ومعنى ذمّه هذه الخلال الثلاث : أنه إذا أكثر مسح اليد فإنما ذلك من غَمْسها فى الطعام، والانكباب يدُلّ على شدّة الحرص وزيادة الشره والنَّهَم . قال الشاعر

لقد سَتَرَتْ منك الخِوانَ عِمامَةٌ * دَجُوجِيّـةٌ ظَلْمَاؤها ليس تقلع

وأما البقل، فإن الحاجة إلى البُلغة منه، وفى الإكثار منه تشبُّهٌ بالبهائم، لأنه مرعاها .

وقيل : الأكل ثلاثة : مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط، ومع أبناء الدنيا بالأدب .

وقيل لبعض الحكماء : أىّ الأوقات أحمد للأكل ؟ فقال : أما مَنْ قَـدَر فإذا اشتهى، وأما من لم يَقْدِر فإذا وجد .

ذكر الاقتصاد فى المطاعم والعفّة عنها

قال الله عز وجل : (يَابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْـدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « من زاره أخوه المسلمُ فقَرَّبَ إليه ما تيسر غفرَ له وجعِـل فى طعامه البركةُ، ومن قُرِّب إليه ما تيسر فاستحقر ذلك كان فى مَقْت من الله حتّى يخرج » . وقالت عائشة رضى الله عنها : أَوْلَمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم على بعض نسائه مُدَّيْنِ من شعير .

وقيل : كان عيسى بن مريم صلوات الله عليه يقول : اعملوا ولا تعملوا لبطونكم، وإياكم وفضولَ الدنيا، فإن فضولَها رِجزٌ، هذه طير السماء تغدو وتروح ، ليس معها من أرزاقها شيء، لا تحرُث ولا تحصد، والله يرزقها، فإن قلتم : بطونُنا أعظم من بطونها، فهذه الوَحْشُ تغدو وتروح، وليس معها من أرزاقها شيء والله يرزقها .

(١٠٦)

٥ ورُوِى أنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : لما دخل شهر رمضان كان يفطر ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبد الله بن جعفر، لا يزيد على لقمتين أو ثلاث، فقيل له ، فقال : إنما هي أيام قلائل يأتي أمر الله وأنا خَميص، فقتل من ليلته .

وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قلّ طُعْمُه صحّ بدنه وضفا قلبه، ومن كثر طعمه سَقِمَ جسمه وقسا قلبه" . وعنه صلى الله عليه وسلم ١٠ قال : "ما زيّنَ الله رجلا بزينة أفضل من عَفَاف بطنه" . قال حاتم

أَبِيتُ خَمِيص البطنِ مُضْطَمِر الحشا * من الجوع أخشى الذّم أن أتضلعا
فإنك إن أعطيتَ بطنك سُؤْلَه * وفَرْجَك نالا منتهى الذّم أجمعا

وقال بعضهم : رأيت مجنونا ببغداد ، وهو على باب دار فيها صنيع والناس ١٥ يدخلون، وكنتُ ممن دُعي، فقلت : ألا تدخل فتأكل ؟ فإن الطعام كثير، قال : وإن كثر فإني ممنوع منه، فقلت : كيف والباب مفتوح ، ولا مانع من الدخول ؟ فقال : أآكل طعاما لم أُدْعَ إليه؟ لقد اضطرّني إلى ذلك غير الجوع، فقلت : ما هو؟ قال : دناءة النفس وسوء الغريزة، قال شاعر

وإنّي لَعَفٌّ عن مَطَاعِمَ جَمّةٍ * إذا زَيّنَ الفَحشاءَ للنفس جُوعُها

وقال آخر

وأعرِضُ عن مَطَاعِمَ قد أراها * فأتركها وفى البطن انطواءُ
فلا وأبيـك ما فى العيش خيرٌ * وفى الدنيا إذا ذهب الحيـاءُ!

قال الجنيد : مرّ بى الحارث بن أسد المحاسبىّ، فرأيت فيه أَثَرَ الجوع، فقلت : ياعمّ، تدخل الدار وتتناول شيئا ؟ قال : نعم، فدخل، وقدّمت إليـه طعاما حُمِل إلىّ من عُرْس، فأخذ لقمة فلاكها ونَهَضَ فألقاها فى الدِّهليز ومضى، فالتقيت به بعـد أيام، فقلت له فى ذلك، فقال : كنت جائعا، وأردت أن أسرّك بأكلى، ولكن بينى وبين الله تعالى علامة، أن لا يُسَوِّغنى طعاما فيـه شُبْهة، فمن أين كان ذلك الطعام؟ فأخبرتُه، ثم قلت له : تدخل اليوم ؟ قال : نعم، فقدّمت إليه كِسَرًا كانت لنا فأكل وقال : إذا قدّمت لفقير شيئا، فقدّم مثل هذا .

رُوِى أن عمرو بن العاص قال لأصحابه يوم الحكمين : أكثِرُوا لهم الطعام، فوالله ما بَضَّ قوم إلا فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عَزْمَةُ رجل بات بطينا، فلما وجد معوية ما قال صحيحا، قال : البِطْنَة تُذْهِب الفِطْنة .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا تُميتوا القلوب بكثرة الطعام والشرب، فإن القلوب تموت كالزَّرع إذا كثر عليه المـاء» .

ودخل عمر رضى الله عنه على ابنه عاصم وهو يأكل لحما فقال : ما هذا؟ قال : قَرِمنا اليه . قال : ويحك! قَرِمتَ إلى شىء فأكلتَه، كفى بالمرء شَرَهًا أن يأكل كلَّ ما يشتهى .

قال ابن دريد : العرب تُعيِّرُ بكثرة الأكل، وأنشد

لستُ بأكَّال كأكل العبد * ولا بنَوَّام كنَوْم الفَهْـد

وقال عمر رضى الله عنه : ما آجتمع عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إدامان إلا أكل أحدَهُما وتصدّق بالآخر .

وقال أبو سليمان الدارانىّ : خيرُ ما أكون إذا لَصِقَ بطنى بظهرى ، أُجوعُ الجَوْعَة فأخرج تَرْحَمُنِي المرأةُ فما ألتفت إليها ، وأشبع الشَّبْعَة فأخرج فأرى عينىّ تطمحان .

ذكر أخبار الأكَلَة

قد نُسِب ذلك إلى جماعة من الأكابر وذوى الهِمَم ، فمن ذلك ما حكاه الحمدُونىّ فى تذكرته : أن معاوية بن أبى سفيان أُتى بِعِجْل مَشْوِىٍّ ، فأكل معه دستا من الخبز السميد ، وأربع فَرَانِىّ[1] ، وجَدْياً حارا ، وجديا باردا ، سوى الألوان ، ووُضِع بين يديه مِائةُ رِطل من الباقِلّاء الرطب ، فأتى عليه ، وقيل : إنه كان يأكل كل يوم أربع أَكَلات آخرهنّ أشدّهنّ ، ثم يقول : ياغلام ، آرفع ، فوالله ما شبِعت ، ولكنى مَلِلتُ .

ومنهم عُبَيد الله بن زياد ، كان يأكل فى اليوم خمسَ أكلات آخرها جنبة بغل ، ويُوضع بين يديه بعد ما يفرغ من الطعام عَنَاق[2] أو جَدْى فيأتى عليه وحدَه .

ومنهم الحجّاج بن يوسف ، قال سالم بن قُتَيبة : كنت فى دار الحجاج مع ولده ، وأنا غلام ، فقالوا جاء الأمير ، فدخل الحجاج وأمر بتَنُّور ، فنُصِب ، وأمر رجلا يَخْبِزُ خبز الماء ودعا بسمك ، فأكل حتّى أتى على ثمانين جاما من السمك بثمانين رغيفا من خبز الماء .

ومنهم سليمان بن عبد الملك ، رُوِى أنه شُوِىَ له أربعة وثمانون خَروفا ، فمدّ يده إلى كلّ واحد منها فأكل شحم أَلْيته ونصف بطنه ، مع أربعة وثمانين رغيفا . ثم أَذِن للناس ، وقُدّم الطعام ، فأكل معهم أَكْلَ من لم يَذُق شيئا .

(١) الفرانىّ : خبزٌ يُشْوَى ويُروَّى سمنا ولبنا وسكّرا .

(٢) العناق : الأنثى من أولاد المعز .

وقال الشَّمَرْدَل وكيل عمرو بن العاص : قَدِم سليمان بن عبد الملك الطائف ، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز ، فجاء حتى ألقى صدره إلى غصن ، ثم قال : يا شَمَرْدَل ، ما عندك شيء تُطعِمُنى ؟ قلت عندى جَذَعٌ تغدو عليه حافِل و تروح أخرى ، قال : عجِّل به ، فأتيته به كأنه عُكَّة سمن ، فجعل يأكل ، وهو لا يدعو عمر ، حتى بقى منه فخذ ، قال : ياأبا حفص ، هَلُمّ ، قال : إنى صائم ، فأتى عليـه ، ثم قال : ياشمردل ويلك ! ما عندك شيء ؟ قلت : دجاجات ست ، كأنهنّ رِئْلان النعام ، فأتيته بهنّ فأتى عليهن ، ثم قال : ويلك ياشمردل ! ما عندك ؟ قلت : سَوِيق كأنه قُراضة الذهب ، فأتيته بعُسٍّ (١) يغيب فيـه الرأس ، فشربه ، فلما فرغ تجشأ كأنه صارخ فى جُبّ ، ثم قال : يا غلام ! أفرغْتَ من غدائنا ؟ قال : نعم ، قال : ما هو ؟ قال : نَيِّف وثمانون قِدرا ، قال : فأت بقدر قدر ، وبقناع عليه رُقَاق ، فأكل من كل قِدْر ثلاث لقم ، ثم مسح يده واستلقى على فراشه ، فوضع الخوان ، وقعد يأكل مع الناس .

ومن المشهورين بالأكل ، هلال بن الأسْعر المـازنىّ ، قال المعتمر بن سليمان : سألتـه عن أكله فقال : جمعتُ مرة ومعى بعيرٌ لى فنحرتُه وأكلتُه إلا ما حملتُ منه على ظهرى ، فلما كان الليل راودتُ أمة لى فلم أصل إليها ، فقالت كيف تصل إلىّ وبينى وبينك جمل ؟ فقلت له : كم بلغتك هـذه الأكلة ؟ فقال : أربعة أيام . وحكى أبو سـعيد منصور بن الحسن الأبىّ فى كتابه المترجم بنـثر الدر : أنّ هلالا هذا أكل بعيرا ، وأكلت امرأته فصيلا وجامعها ، فلم يتمكن منها ، فقالت له : كيف تصل إلى وبينى وبينك بعيران ؟ وله حكايات ذكرها الحمدونىّ فى التذكرة ، والأبىّ فى نثر الدر تركناها اختصارا .

(١) العُسّ : القدح العظيم .

ومنهم محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، ذكر الجاحظ : أنه أكل يوما جنبى بكر شِواء بعد طعام كثير .

ومن المشهورين بالنهم ، أحمد بن أبى خالد الأحول وزير المأمون، وكان المأمون إذا وجهه فى حاجة، أمره أن يتغدى ويمضى فَرُفِع إلى المأمون فى المظالم: إن رأى أمير المؤمنين أن يجرى على آبن أبى خالد نُزُلا، فإنّ فيه كلبية، إلا أن الكلب يحرس المنزل بكِسْرة، وآبن أبى خالد يقتل المظلوم، ويُعين الظالم بأكْلة، فأجرى عليه المأمون فى كلّ يوم ألف درهم لمائدته، وكان مع ذلك يشرَه الى طعام الناس. ولما آنصرف دينار بن عبد الله من الجبل، قال المأمون لاحمد بن أبى خالد: امض إلى هذا الرجل وحاسبه وتقدّم إليه يُحمِل ما يحصل لنا عليه وأنفذ معه خادما يُنْهِى إليه ما يكون منه، وقال : إن أكل أحمد عند دينار عاد إلينا بما نكره، ولما آتصل خبر أحمد بدينار، قال للطباخ: إن أحمد أشره من نُفخ فيه الرُّوح، فإذا رأيته فقل له : ما الذى تأمر أن يتخذ لك ؟ ففعل الطباخ ، فقال أحمد : فراريج كسكرية بماء الرمان تقدّم مع خبز الماء بالسميد، ثم هَاتِ بعدها ما شئت، فابتدأ الطباخ بما أمر، وأخذ أحمد يُكَلِّم دينارا، فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : إن لنا قبلك مالا قد حبسته علينا، فقال : الذى لكم ثمانية آلاف ألف. قال فاحملها، قال : نعم. وجاء الطباخ فآستأذن فى نصب المائدة، فقال أحمد : عَجِّلْ بها فإنى أجوع من كلب. فَقُدِّمت وعليها ما آقترح، وقدّم الدجاج وعشرين فروجا كسكرية فأكل أكل جائع نهِم، ما ترك شيئا مما قدّم. فلما فرغ وقدّر الطباخ أنه قد شبِع، لوّح بطيفورية فيها خمس سمكات شبابيط كأنها سبائك الفضة ، فأنكر أحمد عليه إلا قدمها ؟ وقال : هاتها ، وأعاد أحمد الخطاب ، فقال دينار : أليس قد عرفتك

أن الباقى لكم عندى سبعة آلاف ألف؟ قال أحسبك اعترفتَ بأكثر منها، فقال: ما اعترفت إلا بها، فقال: هاتِ خطك بما اعترفت به، فكتب بستة آلاف ألف فقال أحمد: سبحان الله! أليس قد اعترفت بأكثر من هذا؟ قال: ما لكم قِبلى إلا هذا المقدار، فأخذ خطه بها وتقدّم الخادم، فأخبر المأمون بما جرى، فلما ورد أحمد ناوله الخط، فقال: قد عرفنا ما كان من الألف ألف بتناول الغداء، فما بال الألف ألف الأخرى، فكان المأمون بعد ذلك يقول: ما أعلم غداء قام على أحد بألفى ألف إلا غداء دينار، واقتصر على الخط ولم يتعقبه كَرَما ونُبْلا.

ومنهم أبو العالية، حُكِى أن امرأة حملت فحلفت إن ولدت غلاما لأُشبِعَنّ أبا العالية خَبِيصا، فولدت غلاما، فأطعمته، فأكل سبع جِفان، فقيل له: إنها حلفت أن تشبعك خَبِيصا، فقال: والله لو علمت لما شبِعت إلى الليل.

ومنهم أبو الحسن بن أبى بكر العلّاف الشاعر دخل يوما على الوزير المُهَلَّبى ببغداد، فأنفذ الوزير من أخذ حماره الذى كان يركبه من غلامه، وأُدخل المطبخ وذُبِح وطُبِخ لحمه بماء وملح، وقُدِّم بين يديه، فأكله كلّه وهو يظن أنه لحم بقر، فلما خرج طلب الحمار، قيل له: قد أكلتَه، وعوّضه الوزير عنه ووصله، فهذا كافٍ فى أخبار الأَكَلة.

ذكر ما قيل فى الجُبْن والفِرار

ومن أقبح ما هُجِى به الرجل أن يكون جَبَانا فرّارا، وقد نهانا الله عزّ وجل عن الفرار، فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ

وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ) . وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) .

وقالت عائشة رضى الله عنها : إن لله خَلْقا ، قلوبهم كقلوب الطير ، كلما خَفَقَتْ الريح خفقت معها ، فَأُفٍّ للجبناء ، أُفٍّ للجبناء .

٥ وقال خالد بن الوليد عند موته : لقيت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع إلا فيه طَعْنة بِرُمْح أو ضَرْبة بسيف أو رَمْية بسَهْم ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى ، كما يموت العَيْر . فلا نامت أعين الجبناء .

وقيل كتب زياد إلى ابن عباس : أن صف لى الشجاعة والجُبْن والجود والبخل فكتب إليه : كتبتَ تسألنى عن طبائع رُكِّبت فى الإنسان تركيب الجوارح ، اعلم أن ١٠ الشجاع يقاتل عمن لا يعرفه ، والجبانَ يَفِرُّ عن عِرْسه ، وأن الجواد يُعطى من لا يلزمه ، وأن البخيل يُمْسك عن نفسه ، وقال شاعر

يَفِرُّ جبانُ القومِ عن عِرْسِ نفْسِهِ * ويَحْمِى شُجاعُ القومِ من لا يناسِبُهْ

وقالوا : الجبن غريزة كالشجاعة يضعها الله فيمن شاء من خلقه .

قال المتنبى

١٥ يرى الجبناءُ أن الجبنَ حزْمٌ * وتلك خديعةُ الطبْعِ اللئيمِ

وقالوا : حدّ الجبن الضنّ بالحياة ، والحرص على النجاة .

وقالت الحكماء فى الفراسة : من كانت فزعته فى رأسه ، فذاك الذى يَفِرُّ من أُمّه وأبيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تُؤْويه .

ويقال : أسرع الناس إلى الفتنة أقلّهم حياء من الفِرار . وقال هانئ الشيبانىّ ٢٠ لقومه يومَ ذِى قار يحرِّضهم على القتال : يابنى بكر ! هالك مَعْذُور ، خيرٌ من نَجِ

فَرُور، المنيَّة، ولا الدَّنيَّة، آستقبال الموت خير من آستدباره، الثغر فى ثغور النحور، خير منه فى الأعجاز والظهور، يا بَنِى بكر! قاتلوا، فما من المنايا بُدٌّ، الجبان مُبغَض حتَّى لأُمّه، والشجاع مُحَبَّبٌ حتَّى لعدوّه.

ويقال: الجُبْنُ خيرُ أخلاق النساء، وشرُّ أخلاق الرجال.

وقال يَعْلَى بن مُنَبِّه لقومه حين فروا من علىّ يوم صِفِّين: إلى أين؟ قالوا: ذهب الناس، قال: أُفٍّ لكم! فِرارا وآعتذارا! قال: ولما قوتل أبو الطيّب المتنبى ورأى الغلبة عليه فرّ، فقال له غلامه: أترضى أن يُحدَّث بهذا الفِرار عنك؟ وأنت القائل

الخيلُ والليلُ والبَيْداءُ تعرفُنى * والطَّعْنُ والضَّرْبُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ

فكرّ راجعا، وقاتل حتى قُتِلَ، وآستقبح أن يُعَيَّرَ بالفِرار.

وقال المنصور لبعض الخوارج عليه وقد ظفر به: أخبرنى عن أصحابى، أيهم كان أشدّ إقداما فى المبارزة، قال: لا أعرف وجوههم مقبلين وإنما أعرف أقفيتهم مُدْبِرين، فقل لهم: يُدْبِروا لأعرّفك أيّهم كان أشدّ فِرارا.

وقال آبن الرُّومىّ فى سليمان بن عبد الله بن طاهر

قِرْنُ سليمانَ قد أَضَرَّ به * شوقٌ إلى وجهه سَيُدْنِفُهُ

لا يعرف القِرنُ وجْهَه ويرى * قفاه من فَرْسخٍ فيعرِفُهُ

وقال حسّان بن ثابت يُعَيِّر الحارث آبن هشام بفراره يوم بدر

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى * فنجوتَ مَنْجَى الحارث بن هِشَامِ

نَجْوَ الجَبَانَةِ لم يُقاتل دونهم * ونجا برأس طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

ملأت به الفَرْجَيْن فارمدّت به * وثَوَى أَحبّته بِشَرِّ مُقَامِ

وقال أبو الفرج الأصفهانىّ : وكان أبو حيَّة النميرىّ وهو الهَيْثَم بن الربيع ابن زُرَارة جبانا بخيلا كذّابا، قال ابن قُتَيبة : وكان له سيف يسمّيه : لُعَاب المنية، ليس بينه وبين الخشبة فرق ، قال : وكان أجبن الناس ، قال : فحدثنى جار له ، قال : دخل ليلة إلى بيته كلب فظنه لصًّا ، فأشرفتُ عليه ، وقد انتضى سيفه ، وهو واقف فى وسط الدار يقول : أيها المُغترّ بنا ، المجترئ علينا ، بئس والله ما اخترتَ لنفسك ، خيرٌ قليل ، وسيفٌ صقيل، لعاب المنية الذى سمعت به ، مشهورة ضربته ، لا تُخاف نَبْوتُه ، اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، إنى والله إن أدعُ قيسا إليك لا تقم لها، وماقيس ؟ تملأ والله الفضاء خيلا ورَجْلا، سبحان الله ! ما أكثرها وأطْيَبها ! فبينا هو كذلك، إذا الكلب قد خرج، فقال : الحمد لله الذى مسخك كلبا، وكفانا حَرْبا .

ومن أبلغ ما قيل فى الجبن من الشعر القديم، قول الشاعر

ولو أنها عُصْفُورة لحسبتها ... مسوّمةً تدعو عُبيدا وأَزْنَما (١)

ومثله قول عروة بن الورد

وأشجعُ قد أدركتُهم فوجدتُهم ... يخافون خَطْفَ الطير من كلّ جانب

وقال آخر

مازلت تَحْسَبُ كلّ شىء بعدهم ... خيلا تَكُرُّ عليهمُ ورِجالا

وقول أبى تمام

مُوَكَّلٌ بيفاع الأرض يشرفه ... من خِفة الخوف لامن خِفّة الطَّرَب

(١) فيلتان .

وقال ابن الرومى

وفارس أجبن من صِـفرِدٍ (١) * يحول أو يغور من صَفَرَهْ
لو صاح فى الليل به صَائِحٌ * لكانتِ الأرضُ له طَفرَهْ
يرحمه الرحمنُ من جُبنه * فيرزقُ الجنـد به النصرَهْ

ومن أخبار الفرَّارين الذين حسّنوا الفِرار على قبْحه

(١٠٩)

قال صاحب كليلة ودمنة : إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه ، لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة فى غيره من المـال .

وقالوا : من تَوقَّ سَلم، ومن تهوَّر نَدِم .

وقال عبـد الله بن المقفَّع : الشجاعة مَتْلَفة ، وذلك أن المقتول مُقْبلا أكثر من المقتول مُدْبرا، فمن أراد السلامة فَلْيُؤْثِر الجُبن على الشجاعة .

ولِيمَ بعضُ الجبناء على جبنه، فقال : أوّل الحرب شَكْوى، وأوسطها نَجْوَى ، وآخرها بَلْوى .

وقال آخر : الحرب مقتَلة للعباد، مذهبة للطارف والتِّلاد .

وقيل لجبان : لِمَ لا تقاتل ؟ فقال : عند النطاح يُغْلَب الكبش الأجمّ (٢) .

وقالوا : الحياة أفضل من الموت، والفِرار فى وقته ظَفَر .

وقالوا : الشجاع ملقًّى، والجبان موقًّى . قال البديع الهمذانى

ماذاق هَمًّا كالشجاع ولاخلا * بمَسَرَّةٍ كالعاجز المُتَـــوانِى

وقالوا : الفرار فى وقته، خير من الثبات فى غير وقته .

---

(١) الصفرد : طائر يقال له : أبو المليح وهو طائر جبان .

(٢) الأجمّ : الذى لا قرن له ، وهو مثل يضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدّ له .

وقالوا : السّلم أزكى للمال، وأبقى لأنفس الرجال .

وقالوا : الحمام فى الإقدام، والسلامة فى الإحجام .

وقال المتوكّل لأبى العيناء : إنى لأفرَق من لسانك، فقال: يا أمير المؤمنين، الكريم ذو فَرَق وإحجام، واللئيم ذو وقَاحة وإقدام .

٥ وقيل لأعرابىّ : ألا تعرف القتال؟ فإن الله قد أمرك به، فقال: والله إنى لأبغض الموت على فراشي فى عافية، فكيف أمضى إليه رَكْضا؛ قال شاعر

تمشى المنايا الى قومٍ فأبغضها * فكيف أعدو إليها عارىَ الكَفَنِ؟

وقيل ليزيد : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتَ شخصا بالليل، فكن للإقدام عليه أولى منه عليك » فقال : أخاف أن يكون قد سمع الحديث قبلى، فأقع

١٠ معه فيما أكره، وإنما الهربُ خير .

وسَمِع سليمانُ بن عبد الملك قارئا يقرأ (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) فقال : ذلك القليلَ نريد .

ولما فَرّ أُميّةُ بن عبد الله بن خالد بن أسد يوم مَرْدَاء هَجَر بالبحرين من أبى فُدَيْك الخارجىّ إلى البصرة، ودخل عليه أهلُها، فلم يدروا كيف يكلّمونه

١٥ ولا ما يَلقونَه به من القول، أيهنئونه بالسّلامة أم يعزّونه بالفِرار، حتى دخل عبد الله ٱبنُ الأهتم، فاستَشْرَف الناس له، ثم قالوا : ما عسى أن يقول لمنهزم؟ فسلّم ثم قال: مرحبا بالصابر المخذول، الحمد لله الذى نظر لنا عليك، ولم ينظر لك علينا، فقد تعرضت للشهادة جهدك، ولكن الله علم حاجة أهل الإسلام إليك فأبقاك لهم بخِذْلان من معك لك، فقال أميّة : ما وجدتُ أحدا أخبرنى عن نفسى غيرَك .

٢٠ وقال الحارث بن هشام وأحْسَن فى ٱعتذاره عن الفرار

الله يَعْـــلمُ ما تركْتُ قتالَهُم * حتى علَوْا مُهرى بأشقرَ مُزْبِدِ
وعلمتُ أنّى إن أقاتلْ واحدا * أُقتَلْ ولا يضرر عدوى مَشْهَدِى
فصَدفْتُ عنهم والأَحِبَّةُ فيهمُ * طمعا لهم بعقاب يوم سَرْمَـدِ

وقال زُفَرُ بن الحارث وقد فر يوم مَرْج رَاهِط عن رفيقيه

أَيَذْهبُ يوم واحد إن أَسَأتُه * بصالح أيامى وحسنِ بَلائيا؟ ٥
فلم تُرَ منّى زَلّةٌ قبـل هـــذه * فِرَارى وتَرْكى صاحبىّ ورائيا

وهى أبيات نَذْكُرها إن شاء الله فى التاريخ، ونظير ذلك قول عمرو بن معد يكرب من أبيات يخاطب بها أخته رَيْحَانة، وقد فر من بنى عَبْس

أجاعـــلةٌ أمُّ النُّـــوَيْر خزايةً * علىَّ فِرَارى إذ لَقِيتَ بنى عَبْسِ
وليس يُعاب المرءُ من جبنِ يومِه * إذا عُرِفت منه الحِمَايَة بالأَمْسِ ١٠

وعكَس هذا البيت عبدُ الله بنُ مطيع بن الأسود العَدوىّ، وكان قد فر يوم الحَرَّة من جيش مُسلِم بنِ عُقبةَ، فلما حاصر الحجاج عبدَ الله بنَ الزبير بمكةَ جعـل يقاتل أهل الشّام ويرْتَجِز

أَنا الذى فَرَرتُ يوم الحَـرَّهْ * والشيـــخ لا يَفِـــرّ إلا مَرَّهْ
فاليـــومَ أَجزِى كَرَّةً بِفَـــرَّهْ * لا بأس بالكَرَّة بعـــد الفَـرَّهْ ١٥

ولم يَزَلْ يُقاتِل حتى قُتِل، قال الفزار السّلمىّ

وفوارسٍ لَبَسْتُهـا بفـــوارس * حتى إذا ٱلْتَبَسَت أَمَلْتُ بها يدى
وتَرَكْتُهم نقض الرِّماح ظهورهم * من بين مَقتـــولٍ وآخرَ مُسْنَدِ
هل ينفعنّى أن تقول نســاؤهم * وقُتلتُ دون رجالِهم : لا تَبْعَـدِ؟

وقال آخر

قامت تُشَجِّعنى هِنـدٌ فقلت لها : * إن الشجاعة مَقْـرُون بها العطبُ
لا والذى منـع الأبصـارَ رؤْيتَه * مايشْتَهى الموتَ عندى منْ له أَرَبُ
للحرب قـوم أضـل الله سعيَهمُ * إذا دَعَتْهُـم إلى نِيرانِهَـا وَثَبُـوا

وقيل لجبان فى بعض الوقائع : تَقَدَّم، فقال

وقالوا : تقدم قلتُ : لستُ بفاعل * أخاف على بَخَّارتى أن تحطَّمـا
فلو كان لى رأسان أتلفتُ واحدا * ولكنه رأس إذا زال أعقما
وَأُوتِم أولادا وأرمـلُ نسـوةً * فكيف على هـذا تَرَوْن التقدما؟

ذكر ما قيل فى الحمق والجهل

قالوا : الحُمْق قِلَّةُ الإصابة، وَوَضْع الكلام فى غير موضعه، وقيل : هو فقْدان ما يُحمد من العاقِل؛ وقيل لعمرَ بنِ هُبَيْرة : ما حدّ الحمق ؟ قال : لاحدّ له كالعقل .

وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الأحمق أبغضُ الخلقِ إلى الله، لأنَّه حرمه أعزَّ الأشياء عليه وهو العقلُ» .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى، أتَدْرِى لمَ رزقتُ الأحمقَ؟ قال: لا يارب، قال : ليعلم العاقلُ أن طَلَبَ الرزقِ ليس بالاجتهاد .

وقال الشعبىّ : إذا أراد اللهُ أن يُزيلَ عن عبد نِعمةً، كان أوّل ما يُعدمه عقله .

وقالوا : الحمق داءٌ دواؤه الموتُ . وقد بيّن الله تعالى لحبيبه مَن لم يعقل بقوله (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) قيل : عاقلا، و بقوله (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

وعَنْ أنس بنِ مالكٍ رضى اللهُ عنه قال : أثنى قومٌ على رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى بالَغُوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف عقلُ الرجل؟ » فقالوا : نُخبرُك عن آجتهاده فى العبادَة وأصنافِ الخير وتسألنا عن عقله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الأحمقَ يصيبُ بحُمُقه أعظمَ من فُجُورِ الفاجرِ، وتَرتفِع العبادُ غدا فى الدرجات على قدر عقولهم » .

ومِن كلام لقمانَ لأبنه : أنْ تكون أخرسَ عاقلا خيرٌ من أن تكونَ نطوقا جاهلا، ولكل شىء دليل، ودليلُ العقلِ النقلُ، ودليلُ النقلِ الصمتُ، وكَفَى بك جهلا أن تَنهى الناس عن شىء وتركبه .

وقال عيسى عليه السلام : عَالجتُ الأكمَهَ والأبرصَ فأبرأتُهما، وعالجت الأحمقَ فأعْيانى، قال شاعر

لِكلِّ داءٍ دواءٌ يُستطبُّ به * إلا الحماقةَ أعيت من يُداويها

وقال آخر

وعلاجُ الأبْدان أيسرُ خطبٍ * حينَ تعتلّ من علاجِ العقــولِ

وقال آخر

الحمق داءٌ ما له حيــلةٌ * تُرْجى كبعدالنجم من مسّه

وقيل : إذا قيل لك إن فقيرا آستغنى، وغنيّا آفتقر، وحيّا مات، أو ميتا عاش، فصدّق، وإذا بلغك أن أحمقَ آستفادَ عقلا فلا تصدّقْ .

وقالوا : الأحمقُ تتمنى أمُّه أنّها به مُثْكلة، وتتمنى زوجُه أنّهـا منه أرملة، ويتمنى جارُه منه العزلةَ، ورفيقه منه الوحشةَ، وأخوه منه الفُرْقةَ .

وقال سهل بنُ هارونَ: وجدْتُ مودّة الجاهل، وعداوةَ العاقلِ، أسوةً فى الخَطَر، ووجدْت الأُنْسَ بالجاهل، والوحشَةَ من العاقل، سِيَّيْن فى العيْب، ووجدتُ غِشَّ العاقل أقلَّ ضررًا من نصيحةِ الجاهلِ، ووجدتُ ظنَّ العاقل أوقعَ بالصوابَ من يَقينِ الجاهل، ووجدتُ العاقلَ أحفظَ لما لم يُستَكتَم من الجاهل لما اسْتُكتِمَ .

٥ وقال لقمان لابنه : لا تُعاشرْ الأحمقَ وإنْ كان ذا جَمال ، وانظر إلى السيف ما أحسنَ مَنظَره وأقبحَ أثَرَه!

وقال علىٌّ رضى الله عنه : قَطيعةُ الجاهل تَعدِلُ صِلَةَ العاقلِ ؛ وقال : صديقُ الجاهلِ فى تعب .

وقال آخر : لَأَنَا لِلعاقلِ المُدْبِرِ، أرْجَى شىء من الأحْمقِ المُقْبِلِ، وقال شاعر

١٠ عَدُوّكَ ذُو العقل خيرٌ من الصَّديقِ لكَ الوَامقِ الأحْمَقِ

والبيت المشهور السائر

وَلَأن يُعَادِىَ عَاقِلا خَيْرٌ له * مِنْ أنْ يكُونَ له صديقٌ أحمقُ

وقيل : الحمق يَسلبُ السلامة، ويورث الندامة ؛ وقد ذمّوا مَنْ له أدب بلا عَقْل .

١٥ ووصف أعرابىّ رجلا فقال : هو ذو أدبٍ وافر، وعقل نافر؛ قال شاعر

فَهَبْكَ أخا الآدابِ، أىّ فَضيلةٍ * تكونُ لذى علمٍ وليس له عقلُ؟

ومن صفات الأحمقِ وعلاماتِه، قيل : ما أعْدمكَ من الأحمقِ فلا يعدمُك منه كثرة الالتفاتِ وسرعة الجوابِ، ومن علاماته الثقةُ بكلِّ أحد .

ويُقال: إنَّ الجاهلَ مُولَعٌ بحلاوةِ العاجل، غيرمبالٍ بالعواقب، ولا مُعْتَبر بالمواعظ، ليس يُعجبُه إلا ما ضَرَّه، إن أصابَ فعلَى غيرِ قَصدٍ، وإنْ أخطأ فهو الذى لا يحسن به غيرُه، لا يَستوحِشُ من الإساءة، ولا يفرحُ بالإحسانِ.

وقالوا: ستُّ خِصال تُعرفُ فى الجاهل، الغضبُ منْ غيرِ شىء، والكلام فى غير نفع، والفِطْنة فى غير موضع، ولا يَعرفُ صديقَه مِن عدوّه، وإفشاءُ السرِّ، والثِّقةُ بكلِّ أحد.

وقالوا: غضَب الجاهلِ فى قوله، وغضبُ العاقلِ فى فعـلِه، والعاقلُ إذا تكلَّم بكلمةٍ أتْبعها مثلا، والأحمق إذا تكلم بكلمة أتبعها خُلْفا، الأحمقُ إذا حَدَّث ذَهَل، وإذا تكلم عجل، وإذا حُمِلَ على القبيحِ فَعَل.

وقال أبو يوسف: إثباتُ الحجةِ على الجاهلِ سهلٌ، ولكن إقراره بها صعبَ.

وقال وهب بنُ منبّه: كان يقالُ للأحمق إذا تكلَّم: فضَحَه حمقُهُ، وإذا سكَت فضحه عِيُّه، وإذا عمِل أفسَدَ، وإذا تَرَكَ أضاع، لا علمُه يُعينُه، ولا علْمُ غيرِه يَنْفعُه، تَوَدّ أمُّه أنها ثكلتْه، وتتمنى امرأتُه أنهـا عَدِمتْه، ويتمنى جارُه منه الوحدةَ، وتأخذ جليسَه منه الوحشة.

ويُستدلُّ على الأحمق بأشياء، قالوا: من طالتْ قامتُه، وصَغُرت هامتُه، وانسدلت لحيته، كان حَقيقا على من يراه أنْ يُقرِئَه عن عقلِه السلامَ.

ويُقال فى التوراة: اللحيةُ مَخرَجُها من الدِّماغ، فمن أفرطَ عليه طولُها قلَّ دِماغُه، ومن قلّ دِماغُه قلَّ عقلُه، ومن قلَّ عقلُه فهو أحمقُ.

وقالت أعرابيّة لقاض قضى عليهـا: صَغُر رَأسُك، فبَعُدَ فهمُك، وانسـدلت لحيتُك، فتكوْسجَ عقلُك، وما رأيت ميّتا يقضى بين حَيّيْنِ غيرك.

وقال مَسْلَمة بنُ عبدِ الملكِ لجلسائه : يُعرفُ حمقُ الرجلِ فى أربع ، طولِ لحيتِه ، وبشاعةِ كنيتِه ، وإفراطِ شَهوتِه ، ونقشِ خاتَمِه ، فدخلَ عليه رجلٌ طويلُ اللحية ، فقال : أمّا هذا فقد أتاكم بواحدةٍ ، فانظروا أينَ هوَ من الثّلاثِ؟ فقيل له : ما كُنيتُك؟ فقال : أبو الياقوتِ ، فقيل له : ما نقشُ خاتَمِك؟ فقال : (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ) قيل : فأىُّ الطعامِ أحبُّ إليكَ ؟ قال : الجَلَنْجَبِين[1] ، فقال مَسْلَمة : فيه ما بعدَ كنيتِه ، معَ طولِ لحيتِه ، مع نقشِ خاتَمِه ، شكٌّ لِمُعْتَبِر .

قال الشّعبىّ : خطَبَ الحجاجُ يومَ جمعةٍ فأطال ، فقام إليه أعرابىٌّ ، فقال له : إن الوقت لا ينتظرُك وإنّ الربَّ لا يَعْذرك ، فأمر به فحُبِس ، فأتاه أهلهُ يشفعون فيه وقالوا : إنه مجنونٌ ، فقال الحجاجُ : إن أقرَّ بالجنونِ خَلّيتُ سبيلَه ، فأتوه وسألوه ذلك ، فقال : لا واللهِ ، لا أقول إن الله ابتلانى وقد عافانى ، فبلَغ كلامُه الحجاجَ ، فعظُم فى نفسه وأطلَقه .

وقال الأصمعىُّ : قلت لغلامٍ من أبناء العربِ : أيسرُّك أن يكون لك مائةُ ألفٍ وأنت أحمقُ؟ قال : لا واللهِ ، قلتُ : ولِمَ؟ قال : أخافُ أن يَجْنِيَ علىّ حُمقى جِنايةً ، فتذهب منّى ، ويبقى حُمقى .

والعربُ تَضربُ المَثَلَ فى الحُمقِ بعِجْل بن لُجَيْم ، ويزعمون أنّه قيل له : إنّ لكل فرسٍ جوادٍ اسمًا ، وإنّ فرسَك هذا سابقٌ فسمِّه ، فَفَقَأَ عينَه وقال : سميتُه الأعورَ ، وفيه يقول الشاعر

(١) قال صاحب أقرب الموارد : الجَلَنْجَبِينُ : معجون يعمل من الورد والعسل ، فارسىّ معرّب عن كلمة "كُلّ" ومعناها ورد ، وعن كلمة "أنكبين" ومعناها عسل .

رَمَتْنِي بَنُـو عجـلٍ بِداءِ أبيهِـمُ * وهل أحدٌ فى الناس أحمقُ من عجلِ؟
أليس أبوهم عَارَ(١) عينَ جـوادِه ؟ * فسارتْ به الأمثالُ فى الناس بالجهلِ!

ويضربون المَثَل فى الحمق بِهَبَنَّقَةَ القَيْسىّ، وهو يَزيدُ بنُ ثَرْوَان، ويكنى أبا نافع، حُكى أنه شَرد له بعيرٌ، فقال : من جاء به فله بَعـيران، فقيلَ له : أتجعلُ فى بعـير بَعيرَيْن؟ فقال : إنكم لا تعرفون فرحة الوجدان .

وقد رضِى قومٌ بالجهـل فقالوا : ضعفُ العقلِ أمانٌ من الغمّ؛ وقالوا : ما سُرَّ عاقل قَطّ؛ قال أبو الطيّب المتنبي

ذو العقلِ يَشقَى فى النعيم بعقلِه * وأخو الجَهَالَةِ فى الشقاوةِ يَنعمُ

وقال حكيمٌ : ثمرةُ الدنيا السرورُ، ولا سرورَ للعقلاءِ؛ وقال المغيرةُ بنُ شعبةَ : ما العيشُ إلّا فى إلقاء الحِشمةِ . وقالَ بكر بن المعتمر : إذا كان العقلُ سبعةَ أجزاءٍ احتاجَ الى جزء من جَهلٍ ليقدم على الأُمورِ، فإنَّ العاقلَ أبدا مُتوانٍ مترقبٌ متوقّف متخوّف؛ قال النابغةُ الجعدىّ

ولا خَيرَ فى حِلْمٍ إذا لَمْ تكن له * بوادرُ تحمى صـفوَه أن يُكدَّرا

وقال آخر

من راقبَ الناسَ لم يَظفرْ بحاجَتِه * وفَاز بالطيّباتِ الفـاتِكُ اللَّهِجُ

أخذه آخر فقال

من راقب الناس ماتَ غمًّا * وفاز باللـذّة الجَســورُ

وقالوا : الجاهلُ يَنالُ أغراضَه، ويَظفَر بآرائِه، ويطيعُ قلبَه، ويَجرى فى عِنان هواه، وهو برىءٌ من اللومِ، سليمٌ من العيبِ، مغفورُ الزَّلّات .

(١) عَارَهُ : صيّره أعور .

وقالوا : الجاهلُ رَخِىُّ الذرعِ، خالى البالِ، عازبُ الهمّ، حسنُ الظن، لا يَخطُرُ خوفُ الموت بفكرِه، ولا يَجرى ألمُ الإشفاق على ذكره .

وقالوا : الجهلُ مَطِيَّةُ المِزَاحِ والمسرة، ومسرحُ المِزَاحِ والفُكاهةِ، وحليفُ الهوى والتصابى، وصاحبُه فى ذِمَامٍ من عهدة اللوم والعَتْب، وأمانٍ من قوارِص الذمّ والسبّ؛ قال بعضُ الشعراء

ورأيتُ الهمومَ فى صحّةِ العقلِ فَداويتُها بإمراضِ عَقْلى

وقالوا : لو لم يكنْ من فَضيلةِ الجهلِ، غيرُ الإقدام، وورود الحِمام، إذ هما من الشجاعةِ والبسالة، وسببِ تحصيل المهابة والجلالةِ، لكفاه؛ قال أبو هلالٍ العسكرىّ: سألنى بعضُ الأُدباءِ أىّ الشعراء أشدُّ حمقا، قلت الذى يقول

أتيــهُ على إِنْسِ البــلاد وجِنِّها * ولَو لم أجد خلقا لَتِهْتُ على نفسى
أتيــه فلا أدرى من التِّيــهِ مَنْ أنا * سوى ما يقول الناسُ فىَّ وفى جنسى
فإنْ صدقوا أنى من الإنس مثلُهم * فما فىّ عيبٌ غيرَ أنّى من الإِنْسِ

ذكر ما قيــل فى الكذب

قال الله عزّ وجلّ : (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) . وقال : (إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ) وقال فى الكاذبين : (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيا كم والكَذِبَ فإنّ الكَذِبَ يَهدى إلى الفُجُور، والفجور يهدى إلى النّار » . وقال صلى الله عليه وسلم : « الكَذِبُ مُجانِبُ

الإيمانِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ من كُنَّ فيه فهو منافقٌ، وإنْ صلَّى وصامَ وزعَم أنه مسلمٌ، منْ إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعَد أخلَف، وإذا أؤتُمِنَ خان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لايجوز الكذبُ فى جدّ ولا هَزْل » وقال : « لا يكونُ المؤمنُ كذَّابا » .

وقالت الحكماء : ليس لكاذبٍ مُروءةٌ . ٥

وقالوا : من عُرِفَ بالكذِبِ لم يَحسُن صِدقُه .

وقال عبدُ الله بنُ عمرَ رضى الله عنهما : خُلْفُ الوعد ثُلُثُ النفاق .

وقال بعض الحكماء : الصدقُ مُنجيك وإنْ خِفتَه، والكذبُ مُرديك وإن أمِنتَه .

قال عمرُو بنُ العلاءِ القارئ : سادَ عُتبةُ بن ربيعة وكان مملقا، وساد أبو جهل وكان حَدَثًا، وساد أبو سفيان وكان بخّالا، وساد عامر بن الطُّفَيل وكان عاهرا، وساد ١٠ كليب بن وائل وكان ظلوما، وساد عُيَينة وكان مُحمَّقًا، ولم يَسُد قطُّ كذاب، فصلح السؤدُد مع الفقر والحداثة والبخل والعهر والظلم والحمق، ولم يصلح مع الكَذِب، لأن الكذِبَ يعمّ الأخلاقَ كلَّها بالفساد .

(١١٢)

وقال يحيى بنُ خالد : رأيت شِرِّيبَ خمر نزَع، ولصًّا أقلَع، وصاحبَ فواحشَ رجع، ولم أرَ كذَّابا رجع . ١٥

ويقال : الكذبُ مِفتاح كُلّ كبيرة، والخمر جِمَاعُ كل شَرّ .

وقيل : لا تأمنَنَّ مَنْ يكذِبُ لك أنْ يَكذِبَ عليك .

وقيل : الكَذِبُ والنفاقُ والحسد أثافِيّ الذُّلّ .

وقال ٱبنُ عباس : حقيقٌ على الله أن لا يرفع للكاذبِ درجةً، ولا يُثبِّتَ له حجةً .

وقال سليمانُ بن سَعدٍ : لو صحبني رجلٌ وقال : لا تشترط علي إلا شرطا واحدا لقلت : لا تكذبني .

وقال أبو حيان التوحيديّ : الكذب شِعارٌ خلَق، ومورِدٌ رنِق، وأدبٌ سيِّئ، وعادةٌ فاحشةٌ ، وقلّ مَن ٱسترسلَ فيه إلا ألِفه ، وقلّ من ألفه إلا أتلفه .

وقال غيرُه : الكَذِب أوضع الرذائلِ خطة، وأجمعها للذمّة والمحطّة، وأكبرُها ذُلًّا في الدنيا، وأكثرُها خزيا في الآخرة، وهو من أعظمِ علاماتِ النفاقِ، وأقوى الدلائلِ على دناءة الأخلاق والأعراقِ، لا يُؤتمن حاملُه على حال، ولا يُصدَّق إذا قال .

وقيل : لكل شيء آفةٌ، والكذب آفة النطق .

وقال بعضُ الكرماء : لو لم أدَعِ الكَذِبَ تأثُّما، لتركته تكرُّما .

وقال أرسطاطاليس: فُضِّلَ الناطقُ على الأخرسِ بالنطق، وزَين النطق الصدقُ، فإذا كانَ الناطقُ كاذبا، فالأخرس خيرٌ منه .

وقال بعض الحكماء لولده : يابُنَيَّ إياك والكذبَ ، فإنه يُزرِي بقائله ، وإنْ كان شريفا في أصله، ويُذِلُّه وإن كان عزيزا في أهله .

وقال الأحنفُ بن قيس : ٱثنانِ لا يجتمعان : الكذبُ والمروءةُ .

وقال بزرجُمهر : الكاذبُ والميتُ سواء، لأن فضيلة النطق الصدقُ، فإذا لم يُوثق بكلامه بطُلَت حياته .

وقال معاويةُ يوما للأحنف : أتكذِبُ؟ فقال : والله ما كَذبتُ مُذ علمتُ أن الكذبَ شَينٌ .

وقيل : لا يجوز للرجل أن يكذِب لصلاح نفسه، فما عجز الصدقُ عن إصلاحه كان الكذب أولى بفساده . قال بعض الشعراء

ماأحسن الصدقَ والمغبوطُ قائلُه * وأقبحَ الكِذْبَ عند الله والناسِ

وقالوا : آحذر مصاحبةَ الكذّاب، فان آضطُرِرتَ إليها فلا تصدّقه ولا تعلمه أنك كذبتَه، فينتقل عن مودّته، ولا ينتقل عن كذِبه . ٥

وقال هُرمس : آجتنب مصاحبة الكذاب، فإنك لستَ منه على شيء يُتَحصَّل، وإنما أنت معه على مثل السَّراب يلمَعُ ولا ينفَع .

وقيل : الكذّاب شرٌّ من النَّمّام، فإن الكذّاب يختلق عليك، والنَّمّامَ ينقل عنك . قال شاعر

إن النَّمُـــومَ أُغَطّى دونه خَبَرِى * وليس لى حيلةٌ فى مفْتَرِى الكَذِبِ ١٠

وقال آخر

لى حيـــلةٌ فيمن يَنُمّ وليس فى الكذّاب حِيـلَهْ
من كان يخلُق ما يقو * لُ فحيلتى فيـــه قليـــلَهْ

ووصف أعرابىّ كذابا فقال : كَذِبهُ مثل عُطاسه، لا يُمكنه ردّه .

وقال بعض الأعراب : عجِبت من الكذّاب المُشيدِ بكَذِبه، وإنما هو يدلّ الناس على عيبـه، ويتعرّض للعِقاب من ربّه، فالآثام له عادة، والأخبـار عنه متضادّة، إن قال حقـا لم يُصَدَّق، وإن أراد خيرا لم يُوفّق، فهو الجانى على نفسه بفعاله، والدّالّ على فضيحتها بمقاله، فما صحّ من صدقه نُسِب إلى غيره، وما صحّ من كذب غيره نُسِب إليه . ١٥

ويقال : الكذب جِمَاع النفاق ، وعِمَاد مساوئ الاخلاق ، عارٌ لازم ، وذلّ دائم ، يخيف صاحبه نفسَه وهو آمن ، ويكشف سِتْر الحَسَب عن لُؤْمه الكامن ، وقال بعض الشعراء

لا يكذب المرءُ إلا من مَهَانته * أو عادةِ السوء أو من قِلّة الوَرَع

وقال الأصمعيّ : قيل لرجل معروف بالكذب . هل صدقتَ ؟ قال : أخاف أن أقول : " لا " فأصدق . وآفة الكذب النسيان . قال شاعر

ومن آفةِ الكذّابِ نسيانُ كِذْبِهِ * وتلقاه ذا دَهْيٍ إذا كان كاذبا

وقال عليّ بن الجَهْم شاعر البَقيمة

تكذِب الكِذْبة يوما * ثم تنساها قريبا
كن ذَكُورًا يا أبا يحـ * ـيى إذا كنت كَذُوبا

وقال أبو تمّام

يا أكثر الناس وعدا حَشْوُه خلف * وأكثر الناس قولًا حَشْوُه كَذِبُ

وقال أحمدُ بنُ محمّد بن عبد ربّه

صحيفةٌ أُفْنِيتْ "لَيْتٌ" بها و"عَسَى" * عُنوانُها راحة الراجى إذا يَئِسَا
وَعْدٌ له هاجِسٌ فى القلب قد بَرِمَتْ * أحشاءُ صدرى به من طول ما هَجَسَا
يراعةٌ غَرَّنى منها وَمِيضُ سنًا * حتى مددت إليها الكفَّ مُقْتَبِسا
فصادفَتْ حَجَرًا لو كنتَ تضربُه * من لُؤْمه بعصًا موسى لما انْبَجَسَا

وقال آخر

وتقول لى قولا أظنُّك صادقا * فأجيءُ من طمع اليك وأذهبُ
فإذا اجتمعتُ أنا وأنتَ بمجلس * قالوا مُسَيْلِمةٌ وهذا أشْعَبُ

ذكر ما قيل فى الغدر والخيانة

قال الله عزّ وجلّ : (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

(١١٣) وقال تعالى : (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) .

ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أَمَّنَ رجلا ثم قتله وجبت له النار وإن كان المقتول كافرا » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا جمع الله الأوّلين والآخرين رُفِع لكل غَادِرٍ لِواءٌ وقيل : هذه غَدْرة فلان» .

وقالوا : من نقض عهده، ومنع رِفْده، فلا خيرَ عنده .

وقالوا : الغالب بالغدر مغلول، والناكث للعهد ممقوت مخذول .

وقالوا : من علامات النفاق، نقضُ العهد والميثاق .

وقالوا : لا عذر فى الغدر . والعـذر يصلح فى كل المواطن ، ولا عذر لغـادر ولا خائن .

وفى بعض الكتب المنزّلة : إن مما تُعَجِّل عقوبته من الذنوب ولا يؤخر: الإحسان يُكْفَر، والذمة تُخْفَر . قال شاعر

أَخْلِقْ بمن رَضِيَ الخيانةَ شِيمةً * أن لا يُرَى إلا صريعَ حوادث

ما زالتِ الأرزاءُ تُلحِقُ بؤسَها * أبدا بغادرِ ذمّةٍ أو ناكث

وقالوا : الغَدْر ضامن العَثْرة، قاطع ليد النُّصرة .

ويقال : من تعدّى على جاره، دَلَّ على لُؤْمِ نِجَارِه .

وذكر أن عيسى صلوات الله عليه مرّ برجل وهو يُطارِد حيّة وهى تقول له : والله لئن لم تذهب عنّى، لأنفخنّ عليك نفخة أُقطّعك بها قِطَعا ، فمضى عيسى عليه السلام فى شأنه، ثم عاد فرأى الحية فى جُونة الرجل محبوسة، فقال لها : ويحك ! أين ما كنت تقولين ؟ قالت : يا روح الله، إنه حلف لى وغَدَر، وإنّ سُمّ غدره أقتل له من سُمّى .

ذكر أخبار أهل الغَدْر وغَدَراتهم المشهورة

أعرف الناس فى الغدر آل الأشعث بن قيس بن معد يكرب، وقد عدّت لهم غَدَرات ، فمنها : غدر قيس بن معد يكرب بمراد، وكان بينهم عهد أن لا يغزوهم إلى انقضاء شهر رجب، فوافاهم قبل الأَمَد بِكِنْدَة، وجعل يحمل عليهم ويقول

أقسمت لا أنزل حتّى يُهْزَمُوا * أنا ابن معد يكرب فاستسلِمُوا

* فارسُ هَيْجا ورئيسٌ مِصْدَمُ *

فقُتِل قيس بن معد يكرب وارتد الأشعث عن الإسلام . وغدر الأشعث ببنى الحارث بن كعب ، وكان قد غزاهم فأسَرُوه، ففدى نفسه بمائتى بعير . فأعطاهم مائة وبقى عليه مائة، فلم يُؤَدّها، وجاء الإسلام فهدَم ما كان فى الجاهلية .

وغدر محمد بن الأشعث بن قيس بمسلم بن عَقِيل بن أبى طالب، وغدر أيضا بأهل طَبَرِسْتان وكان عُبَيد الله بن زياد ولّاه إياها، فصالح أهلها على أن لا يدخلها ورحل عنهم، ثم عاد إليهم غادرا، فأخذوا عليه الشِّعاب، وقتلوا ابنه أبا بكر .

وغدر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالحجاج لما ولّاه خُراسان . وخرج عليه وادّعى الخلافة ؛ وكان بينهم من الوقائع ما نذكره فى التاريخ فى أخبار الحجاج

إن شاء الله تعـالى ، وكانت الدائرة على عبد الرحمن ، وكلّهم ورِثُوا الغـدر عن معديكرب، فإنه غدر مَهْرَة، وكان بينه و بينهم عهد إلى أجل، فغزاهم ناقضا لعهدهم، فقتلوه وبَقَرُوا بطنه وملأوه بالحصا .

وغدرت آبنـة الضَّيْزَن بن معاوية بأبيهـا صاحب الحصن ودلّت سابور على طريق فتحه، ففتحه وقتل أباها وتزوّجها، ثم قتلها . وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الأوّل من هذا الكتاب فى المبانى . ومن ذلك ما فعـله النعمان بسِنمّار، وقد ذكرناه أيضا فى خبر بناء الخَوَرْنَق .

وممن آشتُهر بالغـدر عمرو بن جُرموز : غدر بالزّبير بن العوّام ، وقتـله بوادى السباع، ونذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى حرب الجمل .

ومن الغدر الشنيع ما فعله عَضَـل والقَارَة ، رُوى أنه قدم على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بعـد أُحُد رهط من عَضَل والقارة ، فقالوا : يارسول الله إن فينا إسلاما وخيرا فآبعث معنا نفرا من أصحابك يفقّهوننا فى الدِّين ، و يُقرئوننا القرءان، و يعلّموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة نفر من أصحـابه ، وهم مَرْثَد بن أبى مرثد الغَنَوِىّ ، وخالد بن البُكَيْر حليف بنى عدىّ آبن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبى الأَقْلَح أخو بنى عمرو بن عوف، وخُبَيب بن عدىّ أخو بنى جَحْجَبَى بن كُلْفة بن عمرو بن عَوْف، وزيد بن الدَّثِنَـة أخو بنى بَيَاضَـة بن عامر، وعبد الله بن طارق، ومُعَتِّب بن عُبَيد أخو عبد الله لأُمّه، وأَمَّر عليهم مَرْثَد آبن أبى مرثد، وقيل أَمَّر عليهم عاصما، فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع : — ماء لهذيل — غدروا بهم وآستصرخوا عليهم هديلا، فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلّا

الرجال فى أيديهم السيوف، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا : إنا والله ما نُريد قتلكم، ولكنا نريد أن نُصيبَ بكم شيئا من أهل مكةَ، فأما مرثد وخالد وعاصم ومُعتّب فقالوا : والله ما نقبل من مشرك عهدا ولا عَقْدا، فقاتَلوا حتى قُتلوا : وأما زيد وخُبَيب وعبد الله فلانوا ورغبوا فى الحياة، وأعطوا بأيديهم، فأسروهم وخرجوا بهم الى مكة ليَبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بمَرّ الظَّهران، انتزع عبد الله بن طارق يده من القِران، ثم أخذ سيفه وتأخر عن القوم، فرَمَوْهُ بالحجارة حتى قتلوه، وقدِمُوا بخبيب وزيد الى مكة فباعوهُما فابتاع خبيبا حُجْر بنُ أبى إهاب التميمىّ حليف بنى نوفل لعُقْبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليَقْتله بالحارث، وأما زيد بن الدَّثِنَة فابتاعه صَفْوانُ بنَ أميّة ليقتله بأمية بن خَلَف، ورُوى أن خُبيبا لما حصل عند بنات الحارث استعارَ من إحداهن موسى يستحدّ بها فما راع المرأةَ إلا صبىّ لها يَدرُج، وخُبيب قد أجلس الصبىَّ على فخذه، والموسى فى يده، فصاحت المرأة، فقال خُبيب : أتحسبين أنى أقتله؟ إن الغدر ليس من شأننا، فقالت المرأة : ما رأيت بعدُ أسيرا قطّ خيرا من خُبيب، لقد رأيتُه وما بمكّة من ثمرة، وان فى يده قطْفا من عنب يأكله، إن كان إلا رزقا رزقه اللهُ خبيبا، ولما خُرج بخُبيب من الحرم ليقتلوه، قال : ذَرونى أصلّى ركعتين، ثم قال : لولا أن يقال : جزع لزِدْت، وما أبالى على أى شِقّ كان مصرعى، وهذه القصّةُ نذكرها إن شاء الله تعالى بما هو أبسطُ من هذا فى السّيرة النبويّة فى سيرة مَرْثَد إلى الرجيع .

قيل : أغار خَيْثَمة بن مالك الخُثْعمىّ على حىّ من بنى القَيْن فاستاقَ منهم إبلا فلحقوه ليستنقذوها منه، فلم يطمعوا فيه، ثم ذكر يدا كانت لبعضهم عنده، فخلّى عما كان فى يده، وولّى منصرفا، فنادوه وقالوا : إن المفازة أمامَك، ولا ماءَ معك، وقد فعلت

جميلا، فانزل ولك الذّمام والحِباء فنزل فلما آطمأنّ وسكن، وآستمكنوا منه غدروا به فقتلوه، ففى ذلك تقول عَمْرة آبنته

غدرتم بمن لو كان ساعةَ غدركم * بكفّيه مفتوقُ الغرارين قاضبُ
أذادكمُ عنـــه بضربٍ كأنّه * سنهام المنايا كلّهن صوائبُ

وتلاحَى بنو مَقْرون بن عمرو بن محارب، وبنو جَهْم بن مُرّة بن محارب، على ماءٍ لهم فغلبتهم بنو مقرون فظَهرت عليهم، وكان فى بنى جَهْم شيخٌ له تجربة وسنّ، فلمـا رأى ظهورهم، قال: يابنى مقرون، نحن بنو أب واحد، فلِمَ نتفانى؟ هلمّوا إلى الصلح، ولكم عهدُ الله تعالى وميثاقُه وذمّة آبائنا، أن لا نهيجكم أبدا ولا نزاحمكم فى هذا المـاء، فأجابتهم بنو مقرون إلى ذلك، فلما آطمأنوا ووضعوا السـلاح عدَا عليهم بنو جهم فنالوا منهم منالا عظيما، وقتلوا جماعة من أشرافهم، ففى ذلك يقول أبو ظَفَر الحارثىّ

هـلّا غدرتم بمقرونٍ وأسرته * والبيضُ مُصْلَتةٌ والحرب تَستعرُ
لمـا آطمأنوا وشاموا فى سيوفهمُ * ثُرْتم إليهم وعُرُّ الغـدر مشتهرُ
غدرتموهُم بأيمـانٍ مؤكدةٍ * والوِرْدُ من بعده للغادر الصَّدَرُ

هذا ما قيل فى الغدر.

وأما الخيانة، فقد نهى الله تعالى عنها فقال: (يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانةَ له ولا دينَ لمن لا عهدَ له».

وقيل: من ضيّع الأمانة، ورَضِى بالخيانة، فقد بَرِئ من الدِّيانة.

وقال حكيم : لو علم مُضيِّع الأمانَه، ما فى النّكث والخيانَه، لقصَّر عنهما عِنَانَه.

وقالوا : من خان مان، ومن مان هان، وتبرّأ من الإحسان .

قيل دخل شَهْر بنُ حَوْشَب وهو من جِلّة القرّاء وأصحاب الحديث على معاوية، وبين يديه خرائطُ فيها مال، قد جمعت لتوضع فى بيت المال، فقعَد على خريطة منها، وأخذها، ومعاوية ينظرُ إليه، فلما رُفعت الخرائط، فُقِدَ من عددها خريطة، فأعلم الخازنُ بذلك معاويةَ، فقال: هى محسوبة لك فلا تسألْ عن آخذها، ففيه يقول بعض الشعراء

لقد باع شَهْرٌ دينـه بخَريطةٍ * فمَن يأمَن القرّاءَ بعدك ياشهرُ؟

وقال المنصور لعامل بلغه عنه خيانتُـه : ياعدوّ الله، وعدوّ أمير المؤمنين، وعدوّ المسلمين، أكلتَ مالَ الله، وخُنتَ خليفةَ الله، فقال : يا أمير المؤمنين، نحن عيالُ الله، وأنت خليفةُ الله، والمـال مالُ الله، فمن أين نأكل إذا، فضحك وأطلقه، وأمر أن لا يُوَلَّى عملا بعدها .

وسرق رجل فى مجلس أَنُو شَرْوان جامًا من ذهب وهو يراه، فتفقّده الشرابىّ، فقال : والله لا يخرج أحد حتى يُفتَّش، فقال له أنو شَرْوان : لا تتعرّض لأحد، فقد أخذه من لا يردّه، ورآه من لا يَنُمّ عليه .

وحُكى أنّ بعض التّجار أودع عند قاضٍ بمَرَة النعمان وديعـةً، وغاب مدّةً، فلما رجع، طالب بها، فأنكرها القاضى، فتشفع إليه برؤساء بلده فى ردّها، فما زالوا به حتى أقرّ بها، وادّعى أنها سُرقت من حرْزه، فاستحلفه المُودع فحلف، فقال ابن الدُّوَيدة فى ذلك

لا يَصدقُ القاضى الخَـؤونُ إذا ادّعى * عدمَ الوديعـة من حصين المودع

(١١٥) إن قال قد ضاعت فيصدق أنهـا * ضاعت ولكن منك يعنى لو تَعِى!
أو قال قد وقعت فَيَصْـــدُق أنها * وقعت ولكن منـه أحسنَ مَوْقع

وقال ٱبن الحجاج

وأدعوهم إلى القـاضى عـاهُمْ * إذا وقَع اليمينُ يُحلِّفُـــونِى
وأضيع ما يكون الحقّ عندى * إذا عَزَم الغريمُ على اليمينِ ٥

ذكر ما قيل فى الكِبْر والعُجْب

قال الله عزّ وجلّ : (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ) . وقال تعالى : (فَٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ) . وقال : (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) . وقال : (كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) . وقال : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) . ١٠

وناهيك بهذا زجراً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يدخُل الجنةَ، من فى قلبه حَبّةٌ من خَرْدَلٍ من كِبْر» . وقال صلى الله عليه وسلم : «من تَعظَّم فى نفسه، وٱختال فى مِشْيته لقى الله عزّ وجلّ وهو عليه غضبان» . وقال صلى الله عليه وسلم : «من جَرَّ ثوبَه خُيَلاء لم ينظُرِ اللهُ إليه» . ١٥

وروى : أن عبد الله بنَ سَلّام، مرّ بالسوق يحمل حُزْمة حطب، فقيل له : أليس قد أغناك اللهُ عن هـذا ؟ قال : بلى ! ولكنى أردت أن أقمع به الكِبْر، سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبّة من كِبر » .

وقال عمر بنُ الخطاب رضى اللهُ عنه : ما وجدِ أحدٌ فى نفسه كبْرًا إلا من مَهانة يجِدُها فى نفسه .

وقالوا : مَنْ قَلّ لُبُّه، كثر عُجْبُه .

وقالوا : عُجب المرء بنفسه ، أحد حسّاد عقله .

٥ وقال أزدَشِير بن بابَك : ما الكِبْر إلا فضل حُمْقٍ لم يدر صاحبُه أين يَضَعُه فصرفه إلى الكِبْر .

ومن كلامٍ لابن المعتزّ : لما عرَف أهلُ التقصير حالَهم ، عند أهل الكمال استعانوا بالكِبر ليُعظِّم صغيرا، ويَرفعَ حقيرا، وليس بفاعل .

وقال أكثَمُ بنُ صَيْفِيّ : من أصاب حظا من دنياه، فأصاره ذلك الى كِبْرٍ وتَرفُّعٍ، ١٠ فقد علم أنه نال فوق ما يستحقّ، ومن أقام على حاله فقد علم أنه نال ما يستحقّ، ومن تواضع وغادر الكِبْر، فقد علم أنه نال دون ما يستحقّ .

وقال على رضى الله عنه : عجِبت للتكبر الذى كان بالأمس نطفة، وهو غدًا جِيفة .

وقيل : مرّ بعضُ أولاد المُهَلَّب بمالك بن دينار وهو يَخْطِر، فقال له : يا بُنَىّ، لو خَفَّضت بعض هذه الخُيَلاء! ألم يكن أحسنَ بك من هذه الشّهرة التى قد شَهَرْتَ ١٥ بها نفسَكَ؟ فقال له الفتى : أو ما تعرِفُ من أنا؟ قال : بلى! والله أعرِفك معرفة جيّدة، أوّلك نطفة مَذِره، وآخرك جيفة قَذِره، وأنت بين ذلك حامل عَذِره ، فأرخى الفتى رُدَيْنه وكفّ مما كان يفعله ، وطأطأ رأسه، ومضى مسترسِلا .

وقال الواقِدىّ : دخل الفضْل بنُ يحيى ذاتَ يوم على أبيه وهو يَتَبَخْتر فى مِشْيته، فقال له يحيى : يا أبا عبد الله ، إن البخل والجهلَ مع التواضع ، أزينُ بالرجل من ٢٠ الكِبْر مع السخاء والعلم، فيالها من حسنة غطّتْ على عيبَيْن عظيمين، ويالها

مِن سيّئة غطّت على حسنتَيْن كبيرتين، ثم أومأ اليه بالجلوس وقال: آحفظْه ياعبد الله، فإنه أدب كبير أخذناه عن العلماء .

ومن الكِبْر المستهجَن ما رُوى : أن وائل بنَ حُجْر أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأقطعه أرضا، وقال لمعاوية : آعرِض هذه الأرض عليه وآكْتبها له ، فخرج مع وائل فى هاجرة شاوية، ومشى خلف ناقتــه، وقال له : أَردفْنِي على عَجُز راحلتك، فقال : لست من أرداف الملوك ، قال : فأعطنى نعْلَيْك، فقال : ما بخــلٌ يمنعنى يٱبن أبى سُــفيان، ولكن أكرهُ أن يبلُغ أقْيالَ اليمن أنك لبست نَعْلى، ولكن آمش فى ظل ناقتى، فحسبُك بها شرفا . وقيل : إن وائلا أدرك زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدّثه .

والعرب تجعل جَذِيمة الأبرش الغاية فى الكِبْر، ورُوى : أنه كان لا ينادم أحدا ترفُّعا وكبرا، ويقول : إنمــا ينادمنى الفَرْقَدان . ومنه قول متمّم :

* وكنا كنَدْمَانَىْ جَذِيمة حِقْبَةً *

قيل : إنمــا أراد الفَرْقدين ، لا كما ذكره الرواة أنهما مالك وعَقِيل .

وقيل : كان أبو ثَوابة أقبحَ الناس كِبْرا ، روى : أنّه قال لغلامه آســقنى ماء، فقال : نعم، قال : إنمــا يقول : "نعم" من يقدر على أن يقول : "لا" وأمر بضربه، ودعا أَكَّارًا فكلمه ، فلما فرَغ دعا بمــاء، وتمضمض آستقذارا لمخاطبته . قال عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعود

ولا تعجبا أن تُؤْتَيَا فتُكَلَّما * فما حُشِىَ الأقوامُ شرًّا من الكبر

قال الجاحظ : المذكورون بالكبر من قريش، بنو مَخْزوم ، وبنو أُميَّـةَ ، ومن العرب، بنو جَعْفَر بن كلاب ، وبنو زُرارة بن عُدَس ، وأما الأكاسرة فكانوا لا يَعدّون الناس إلا عبيدا، وأنفسَهم إلا أربابا؛ والكِبرُ فى الأجناس الذليلة أرسخُ، ولكن القـلّة والذّلة مانعتان من ظهور كبرهم، ومن قَدَر من الوضـعاء أدبى قُدرة، ظهر من كبره ما لا خَفاء به، ولم أر ذا كبر قطّ علا مَنْ دونه، إلا وهو يَذلّ لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه .

قال : أما بنو مخزوم، وبنو أمية، وبنو جعفر بن كلاب، وٱختصاصهم بالتِّيه، فإنهم أَبطَرَهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان فى قُوَى عقولهم فضلٌ عن قُوَى دواعى الحَمِيَّـة فيهم، لكانوا كبنى هاشم فى تواضعهم وإنصافهم مَنْ دونهم . (١١٦)

وقال أبو الوليد الأعرابىّ

ولستُ بتيّاهٍ إذا كنتُ مُثْرِيا * ولكنه خُلْقِى إذا كنت مُعْدِما
وأن الذى يُعطَى من المـال ثَرْوةً * إذا كان نذلَ الوالدين تعظّما

ومن المتكبرين، عُمَارةُ بن حمزة، حُكِى عنه : أنه دخل على المهدىّ، فلما ٱستقر به الجلوس ، قام رجل كان المهـدىّ قد أعدّه له ليَتهكّم به ، فقـال : مظلوم يا أمير المؤمنين، قال : مَنْ ظلمك؟ قال : عُمَارة غصبنى ضَيْعتى، وذكر ضَيْعة من أحسن ضياع عُمَارة وأكثرها خَرَاجا، فقال المهدىّ لعُمَارة : قم فٱجلس مع خَصْمِك، فقال : ياأمير المؤمنين، ماهو لى بخَصْم، إن كانت الضّيعة له، فلستُ أنازعه فيها، وإن كانت لى فقـد وهبتُها له ، ولا أقومُ من مجلس شرّفنى به أميرُ المؤمنين ، فلما ٱنصرف المجلس، سأل عُمارة عن صـفة الرجل، وما كان لباسُه، وأين كان موضع

جلوســه ، وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه تكبرا عن الرجوع و يقول : نقض و إبرام فى ساعة واحدة، الخطأ أهون منه .

ومنهم من أهلكه الكبر وأذلّه . كان خالد بن عبد الله بن يَزيدَ بن أسد القَسْرىّ أميرا على العراق ، و بلغ من هشام بن عبد الملك محلا رفيعا ، فأفسد أمره العُجبُ والكِبرُ، وأدناه إلى الهَلَكَة ، وعُذّب حتّى مات ، وذلك أنه كان إذا ذُكِر هشام عنده، قال : آبن الحمقاء ! فسمعها رجل من أهل الشام ، فقال لهشام : إنّ هذا البَطِرَ الأَشِر الكافرَ لنعمتك ونعمة ابيك و إخوتك ، يذكرك بأسوأ الذّكر، قال : لعله يقول : الأحولُ، قال : لا، ولكنّه يقول : مالا تلتقى به الشّفتانِ، قال : لعله يقول : آبن الحمقاء ، فأمسك الشامىّ، فقال هشام قد بلغنى كلّ ذلك عنه ؛ وكان خالد يقول : والله ما إمارةُ العراق ممـا تشرّفنى، فبلغ ذلك هشاما ، فكتب إليه : بلغنى أنك يآبن النصرانية تقول : إن إمارة العراق لاتُشرّفك وأنت دَعِىّ بجيلة القليلة الذليلة ، والله إنى لأظن أن أول من يأتيك صيفىّ بن قيس فيشدّ يدَك إلى عُنقك، قال خالد بن صفوان بن الأهتم : لم تزل أفعال خالد حتى عزله هشام وعذّبه، وقتل آبنه يزيدَ بن خالد، فرأيت فى رجله شَرِيطا قد شدّه به الصّبيان يجرّونه ، فدخلت إلى هشام يوما، فحدّثته فأطلت، فتنفّس، وقال : ياخالد ! كان أحبّ إلىّ قُرْبا وألذّ عندى حديثا منك، يعنى خالدَ القَسْرىّ . قال : فانتهزتُها ورجوت أن أشفع فتكون لى عند خالد يدا، فقلت : يا أمير المؤمنين، ما يمنعك من آستئناف الصّنيعة ، فقد أدّبته بمـا فَرط منه ، فقال : هيهاتَ ! إن خالدا أوجَفَ فأعجَفَ ، وأدلّ فأملّ ، وأفرط فى الإساءة، فأفرطنا فى المكافاة، فَحَلَمَ الأديمُ ، ونغل الجُرْح، و بلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى، والحزام الطُّبْيَيْنِ، ولم يبق فيه مستصلَح . ولا للصّنيعة عنده موضع . عُدْ إلى حديثك .

ومنهم : من أفرط به الكبر إلى الكفر، حُكِي : أن سعيد بن زُرارة مرّت به امرأة فقالت له : ياعبد الله، كيف الطريقُ إلى مكان كذا؟ فقال لها : أمِثلى يكون مِنْ عَبِيد الله .

ومنهم : عُبَيْد الله بن زياد بن ظَبْيان، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كثّر اللهُ فينا مثلَك، فقال : لقد كلّفتم اللهَ شططا .

ومن أشعار المتكبّرين التيّاهين قول بعضهم

* أتيه على جِنّ البلاد وإنْسِها *

الأبيات، وقد تقدّمت فى الحَمْقَى .

وقال آخر

أَلْقِنى فى لَظًى فإن أحرقَتْنى * فتيقّن أن لستُ بالياقوت
صَنَعَ النسجَ كلُّ مَنْ حاك لكنْ * ليس داودُ فيه كالعنكبوتِ

قال ابن حُبَارة الحرّانىّ المنجنيقىّ يردّ عليه

أيّها المدّعى الفخارَ دعِ الفَخْـ * ـرَ لذى الكِبْرياء والجبرُوتِ
نسجُ داود لم يُفِد ليلة الغا * رِ وكان الفخار للعنكبوتِ
وبقاءُ السَّمَنْدِ(١) فى لَهَبِ النا * رِ مُزِيلٌ فضيلةَ الياقوتِ
وكذاك النّعام يلتقم الجمْـ * ـرَ وما الجَمْرُ للنّعام بقُوتِ!

✦ ✦ ✦

ومما هُجِى به أهل التكبّر ، قول جُعيفران يهجو سعيد بنَ مُسلم بن قُتَيبة

أمّ سعيدٍ لِمَ ولدتيه * ملوّثا بالكِبْر والتيه؟
ليتكِ إذ جئتِ به هكذا * حين خَرِيتيه أكلتيه

(١) السَّمَنْدُ : طائر يستلذّ بالنار ولا يحترق بها .

ذكر ما قيل فى الحرص والطمع

قال الله عزّ وجل لنبيّه صلى الله عليه وسلم : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أربعٌ من الشقاء الخ ... عُدّ منها الحرص والأمل» وقال : «ماذئبان جائعان أُرسلا فى غنم فأفسداها أشدّ من حرص المرء على المال»[1] . وقال : «يشيب ابنُ آدم وتشبّ منه اثنتان : «الحرص على المال، والحرص على العمر» وقال : «إيّاكم والطمعَ فإنه الفقر الحاضر» .

ومن كلام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الطمعُ مُورِد غيرُ مُصْدِر، وضامن غيرُ وفىّ، وكلما عَظُم قدر الشىء المتنافَس فيه، عظمت الرّزية لفقده، والأمانىّ تُعمِى البصائرَ . أزرى بنفسه من استشعر الطمع، واستولت عليه الأمانىّ .

وقال بعضهم : الحرص ينقص من قدر الإنسان، ولا يزيد فى رزقه .

وقال قُتَيبة : إن الحريص استعجل الذِّلّة، قبل إدراك البغية .

وقيل : لا راحةَ لحَرِيص، ولا غِنًى لِذِى طَمَع .

وقيل : إن كَعْبا لَقِىَ عبد الله بن سلام، فقال : يابن سلام، مَنْ أرباب العلم ؟ قال : الذين يعملون به، قال : فما أذهب العلم من قلوب العلماء بعد إذْ عَلِموه ووعوه؟ قال : الطمَعُ، وشَرَهُ النفس، وطلب الحوائج الى الناس . قال الأصمعىّ : سمعتُ أعرابيّا يقول : عجبتُ للحريص المستكثِر، المستقِلّ لكثير ما فى يده، المستكثِر

(١) هكذا فى الأصل : والذى فى الجامع الصغير : (ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) .

لقليل ما فى يد غيره، حتّى طلب الفضل، بذهاب الأصل، فركِبَ مفاوز البرارى، ولُجَجَ البِحار، معرِّضا نفسَه للمات، ومالَه للآفات، ناظرا إلى من سَلِم، غيرَ معتبر بمن عدِم.

قال يزيد بن الحَكَم الثَّقَفِىّ

٥ رأيتُ السّخِىَّ النفس، يأتيه رِزْقُه * هنيئا، ولا يُعطَى على الحِرْص جامِعُ
وكلّ حريص لن يُجَاوِزَ رزقه * وكم من مُوفّق رزقه وهو وَادِعُ

وقالوا: مصارِعُ الألباب تحت ظلال الطمع. ويقال

الحرّ عبد ما طَمِع * والعبد حرٌّ ما قَنِع

وقالوا: أخرِج الطمعَ من قلبك، تحلّ القيد من رجلك. وقال عمرو بن مالك الحارثىّ

١٠ الحِرْصُ للنفسِ فقرٌ والقُنُوعُ غِنًى * والقوتُ إن قَنِعتْ بالقوت يُجزيها
والنفسُ لو أن ما فى الأرض حِيزَ لها * ما كان إن هى لم تَقْنَعْ. بكافيها

وقال ابن هَرْمة

وفى اليأس عن بعض المطامِع راحةٌ * ويا رُبَّ خُسْرٍ أدركته المطامِعُ

وقال هَرْمة بن خَشْرم

١٥ وبعضُ رَجَاء المرء ماليس نائلًا * عَنَاءٌ وبعضُ اليأس أعفى وأرْوَحُ

وقال مُكْنِف بن معاوية التيمىّ

ترى المرءَ يأمُلُ ما لا يرى * ومن دون ذلك ريبُ الأَجَلْ
وكم آيِسٍ قد أتاه الرَّجَاءُ * وذِى طَمَعٍ قد لواه الأَمَلْ

وقال آخر

٢٠ طَمِعتَ فيما وعدتْك المنى * وليس فيما وَعَدتْ مَطْمَعُ

وثِقْتَ بالباطل من قولها ، وليس حقًّا كلُّ ما تسمعُ
وإنما مَوْعِدُهـا بارِقٌ ، فى كل حين خُلَّبٌ يَلْمَعُ

ويضرب المثل فى الطمع "بأشعب" . قيل له : ما بلغ من طمعك ؟ فقال للقائل له : لم تقل هذا إلا وفى نفسك خيرٌ تصنعه بى؛ وقيل : إنه لم يمت شريف قطّ من أهل المدينة إلا آستعدَى أشعبُ على وصِيِّه أو وارثه وقال له : آحلف أنه لم يُوصِ لى بشىء قبـل موته ؛ ووقف على رجل يعمل طبقا من الخَيْزُران ، فقال له : وسِّعْه قليلا، قال الخيزرانىّ : كأنك تريد أن تشتريَه؟ قال : لا ، ولكن ربمـا يشتريه بعض الأشراف فيَهْدِى إلىّ فيه شيئا؛ وسأله سالم بن عبد الله بن عُمَر رضى الله عنـه عن طمعه، قال : قلت لصبيان مرةً : آذهبوا، هذا سالم قد فَتَحَ بيت صدَقَة عمر حتى يُطعِمكم تمرا، فلما أحضروا ظننت أنه كما قلت لهم ، فعدوتُ فى إثرهم ؛ وقيل له : ماذا بلغ من طمعك؟ قال : أرى دخان جارى فأُثْرِدُ[1] عليه ؛ وقيل له أيضا : ما بلغ من طمعك ؟ قال: ما رأيت عَرُوسا بالمدينة تُزَفّ إلا كنست بيتى ورششته طمعا أن تُزَفَّ إلىّ؛ وقيل له : هل رأيتَ أطمع منك؟ قال : نعم، كلب أمّ حَوْمَل، تبعنى فرسخين، وأنا أمضغ كُنْدُرًا[2]، ولقد حسدته على ذلك.

ذكر ما قيل فى الوَعْدِ والمَطْل

رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العِدَة دَيْن » .

وقال بعض القُرشيِّين : من خاف الكذب، أقلّ من المواعيد .

وقيل : أمران لا يسلمان من الكذب : كثرة المواعيد، وشدّة الاعتذار .

(١) ثرد الخبزَ : فتّه .

(٢) الكُنْدُر : ضربٌ من العلك وهو اللبان الذكر .

وقالوا : خُلْف الوعد، خُلُقُ الوَغْد .

وقال المهلّب لبنيه : يا بنيّ، إذا غدا عليكم الرجل أو راح مُسَلِّمًا ، فكفى بذلك تقاضيا .

قال الشاعر

٥ اروح لتسليمٍ عليك وأغتدى * فحسبُك بالتسليم منى تقاضيا
كفى بِطِلاب المرءِ ما لا يناله * عَنَاءً وباليأس المصرّح ناهيا

وقيل : الوعد إذا لم يشفَعْه إنجاز يُحقِّقُه، كان كلفظٍ لا معنى له ، وجسم لا رُوح فيه . وقالوا : الخلف ألأَمُ من البخل، لأنه من لم يفعل المعروف، لزمه ذمُّ اللؤم، وذمُّ الخلف، وذمّ العجز . قال بعض الشعراء

١١٨

وعدتَ فأكذبت المواعيدَ جاهدا * وأقلعتَ إقلاع الجَهَام بلا وَبْلِ
وأجرَرْتَ لى حَبْلا طويلا تَبِعتُه * ولم أدرِ أن اليأس فى طَرَف الحبل

وقال أبو تمّام

وما نفعُ من قد مات بالأمس صادِيًا * إذا ما سماءُ اليوم طال انهمارُهَا
وما العُرْفُ بالتّسويف الا نَكَلَّة * تسلّيتَ عنها حين شَطَّ مَزَارُهَا

١٥ والعرب تضرب المثل بمواعيد عُرقوب ، وكان رجلا من العماليق وله فى ذلك حكايات، فمنها : أنه أتاه أخ له ، يسأله شيئا، فقال له عرقوب : إذا أطلعَتْ هذه النخلة فلك طَلْعها، فلما أطلعت، أتاه الرجل للعِدَة، فقال : دعها حتى تصير بَلَحا، فلما أبلحت، أتاه، فقال : دعها حتى تصير زَهْوًا، فلما أزهت، قال : دعها حتى

(١) فى العقد الفريد : ذم اللؤم وحده، ومن وعد فأخلف لزمه ثلاث مذمات : ذم اللؤم وذم الخلف وذم الكذب .

تصير رُطَبا ، فلما أرطبت ، قال : دعها حتى تصير تمرا . فلما أتمرت ، عمد إليها عرقوب ، فجذّها ولم يعط أخاه منها شيئا .

وفيه يقول الأشجعىّ

وعدْتَ وكان الخلف منك سجيّةً * مواعيـدَ عُرْقوب أخاه بيـثْرِبِ (١)

وقال كعب بن زُهَير بن أبى سُلْمى ٥

كانت مواعيدُ عُرْقوب لها مثلًا * وما مواعيـدُها إلا الأباطيـــلُ

وقال السِّكّيت للمهدىّ : يا أمير المؤمنين ، لو كان الوعد يُستنزَل بالإهمال والسكون ، لشكرتك القلوب بالضمير ، ولنظرت إلى فضلك العيون بالأوهام ، فقال المهدىّ : هذا جزاء التفريط فيما يكسب الأجر ، ويدخر الشكر ، وأمر بقضاء حاجته .

وقال أعرابىّ : العُـذْرُ الجميل ، أحسن من المَطْل الطويل ، فإن أردت الإنعام فأنجِح ، وإن تعذّرتِ الحاجةُ فأفْصِح . ١٠

وقال بعض كُرَماء العرب : لأن أموتَ عَطَشا ، أحبُّ إلىّ من أن أُخلِف مَوْعدا .

وقالوا : من وَعَد فأخلف ، لزِمتْهُ ثلاثُ مذمّات : ذمّ الشُّؤم ، وذمّ الخُلْف ، وذمّ الكذب ؛ وقال بعض الشعراء

ولا خيرَ فى وَعْدٍ إذا كان كاذبا * ولا خيرَ فى قول إذا لم يكن فِعْلُ ١٥

فإن تُجْمَـع الآفاتُ فالبخلُ شرُّها * وشرٌّ من البخل المواعيدُ والمَطْـلُ

قال بعض الأعراب : فلان له مواعيدُ عواقِبُها المَطْلُ ، وثِمارُها الخُلْفُ ، ومحصولُها اليـأْسُ .

(١) كذا بالأصل بالثاء المثلثة وقال فى اللسان وفى القاموس : إنه بالثاء المثلثة وفتح الراء وهى قرية باليمامة .

وقال آخر : فلان له وعد مُطْمِع ، ومَطْلٌ مُؤْيِس، وأنت منه أبدا بين يأس وطمع، فلا بَذْلٌ مُرِيح، ولا مَنْعٌ صَرِيح .

وقال الثعالبيّ : أوّل من أخلف المواعيدَ ولم يَفِ بشيء منها : إسماعيلُ بن صُبَيْح كاتبُ الرشيد، وما كان الرؤساء يعرفون قبله المواعيد الكاذبة

ذكر ما قيل فى العِيّ والحَصَر

قال الله عزّ وجلّ : (أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) وقال تعالى إخبارا عن فرعون عند ٱفتخاره على موسى بالبيان : (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) قال أهل التفسير : إن موسى عليه السلام لما سمع هذا القول قال : (رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) الآية، فقال الله تعالى : (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) .

وقيل : حدّ العِيّ معنًى قصير، يَحْويه لفظٌ طويل . وقال أَكْثَمُ بن صيْفِيّ : هو أن تتكلّمَ فوق ما تقتضيه حاجتُك . وقالوا : الفقير الناطق، أغنى من الغنيّ الساكت .

وقال كسرى : الصَّمْتُ خيرٌ من عِيِّ الكلام .

وقالوا : فُضِّلَ الإنسانُ على ما عداه من الحيوان بالبيان ، فإذا نطق ولم يُفْصِح عاد بهيما .

وقالوا : العِيُّ داءٌ دواؤه الخَرَسُ . ومن علامات العِيّ الاستعانة ، وهى أن ترى المخاطب إذا كلَّ لسانه عند مَقاطِع كلامه، يقول للمخاطب : اسمع منّى ، أو سمعت لى، وافهم عنى، وأشباه ذلك .

ومنهم من يقول : قولى كذا، أعنى به كذا، ولا يريد التفسير، ولكنه يعيد كلامه بصيغة أخرى تكون غير مراده الأوّل ليفهم عنه .

ومن عيوب اللسان، التَّمْتَمَةُ، والفَأْفَأَةُ، والعُقْلة، والحُبْسَةُ، واللَّفَفُ، والرُّتَّةُ، والغَمْغَمة، والطَّمْطَمة، واللُّكْنَةُ، والغُنَّة، واللُّثْغَة . فالتمتمة ، قال الأَصْمَعِيّ : إذا تَعْتَع فى التاء فهو تَمْتَام، وإذا ردّد فى الفاء فهو فَأْفَاء، قال الراجز

ليس بفَأْفَاءٍ ولا تمتـامِ * ولا كثيرِ الهُجْرِ فى الكلامِ

والعُقْلة : آلتواء اللسان عنـد الكلام ؛ والحُبْسَةُ : تعذّر النطق ، ولم تبلغ حدّ الفأفاء ولا التمتام، ويقال : إنها تعرض أوّل الكلام، فإذا مرّ فيه آنقطعت . واللَّفَفُ : إدخال بعض الكلام فى بعض؛ قال الراجز

كأنّ فيـه لَفَفًا إذا نَطَقْ * من طول تَحْبِيسٍ وهَمٍّ وأَرَقْ

والرُّتَّةُ : آتصال بعض الكلام ببعض دون إفادة ؛ والغمغمة : أن تسمع الصوت ولا يتبيّن لك تقطيعُ الحروف . ولا تفهم معناه؛ والطمطمة : أن يكون الكلام شبيها بكلام العجم، وهى حِمْيَرِيّة، وقالوا : هى إبدال الطاء بالتاء لأنهما من مخرج واحد، فيقول : السُّلتان والشَّيتان، وأشباه ذلك، قيـل : وكانت فى لسان زياد بن سَلْمَى، وكان خطيبا شاعرا كاتبا؛ واللُّكْنَةُ : إدخال بعض حروف العرب فى حروف العجم، وتشترك فيها اللغة التركية والنبطيّة، وهى إبدال الهاء حاءً، وآنقلاب العين همزة، وكانت فى لسان عُبَيد الله بن زياد، وصُهَيب الرومىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن مولًى لزياد، قال له : أيها الأمير، أَحْدوا لنا هَمَارَ وَحْشٍ : يريد : أهدوا لنا حمارَ وحشٍ، فلم يفهم زياد عنه، وقال : ويلك ! ماذا تقول ؟ قال : أحدوا لنا أَيْرًا : يريد عَيْرًا، فقال زياد : أرجعنا إلى الأول فهو خير ؛ والغُنَّة :

(١١٩)

أن يشرب الصوتَ الخَيْشُومُ، والخُنَّة : ضرب منها ، والترخيم : حذف بعض الكلمة لتعذّر النطق بها، والثُّغْغة : إبدال ستة حروف بغيرها، وهى الهمزة والراء والسين والقاف والكاف واللام ، فالتى تعرض للهمزة، فهى إبدالها عينا، فإذا أراد أن يقول : أنت ، قال : عَنْتَ وهى مستعملة فى لسان التُّكْرور ، وأما التى تعرض فى الراء، فهى ستة أحرف، فمنهم من يجعلها غينا معجمة فيقول (غُمَغ) : يريد عُمَر، وهى غالبة على لسان أهل دمشق، وإذا آجتمعت الراء والغين فى كلمة كقولهم: رغيف، قال : (غريف) ، وفَغَرْت بمكانٍ فرغت : فيبدلون كلّ حرف بالآخر. قيل : وكانت فى لسان محمد بن شَبِيب الخارجىّ، وواصل بن عَطَاء المعتزلىّ، وكان لآقتداره على الكلام، وغزارة مادته ، يتجنب النطق بها ، وفيه يقول الشاعر من ابيات

ويجعل الرُّقْعا فى تصرُّفه ، وجانبَ الرّاء حتى آحتال للشَّعَرِ
ولم يُطِقْ مَطَرًا والقولُ يعجله ، فعاد بالغَيْث إشفاقا من المَطَرِ

ومنهم من يجعلها عينا مهملة، فيقول فى أزرق : أزعق، وهى فى لسان عوام أهل دِمَشق، ومنهم من يجعلها ياءً، فيقول فى عُمَر : عُمَى، ومنهم من يبدلها بالظاء أخت الطاء ، ومنهم من يبدلها همزة ، فإذا أراد أن يقول : رأيت ، قال : أَأَيْتُ، وأما التى تعرض للسين ، فإنهم يبدلونها ثاء ، فيقولون : بثم الله ، ويُثْرة الله : إذا أرادوا بسم الله ، ويُسرة الله، أو أشباه ذلك، وهى مستحسنة فى الجوارى والغلمان . قال الشاعر

وأهيف كالهلال شكوتُ وَجْدى ، إليه لِحُسْنِه وأطلتُ بَثّى
وقلت له فدتْك النفسُ صِلْنِى ، تحزْ فىَّ الثوابَ فقال بَثّى

وأما التى تعرض للقاف ، فإن صاحبها يجعل القاف طاءً ، فإذا أراد أن يقول : قال ، وقلت ، نطق : بِطالَ ، وطُلْتُ ، وهى نبطيّة ، وكانت فى لسان أبى مُسْلم صاحب الدعوة ، وعُبَيد الله بن زياد ؛ ومنهم من يجعلها كافا فيقول : كَال وكُلْت ؛ وأما التى تعرض للكاف ، فمنهم من يجعلها همزة ، فيقول : أأَف ، ومنهم من يبدلها تاء ، فيقول : تانَ ، إذا أراد : كان ، وأما التى تعرض فى اللام ، فمنهم من يبدلها ياءً ، فيقول : أعتَيَيْتُ ، بمعنى : أعتللت ، ويقول فى جَمَل : جمى ، وإذا أقسم بالله ، يقول : ويّاه ، ومنهم من يبدل الخاء المعجمة حاءً مهملة ، فيقول فى خوخ : حُوح ؛ وتُستحسن فى الغِلْمان والجوارى ، ومنهم من يبدل الجيم ضاداً ، فإذا اجتمع لأحد فى كلمة جيم وضاد ، مثل ضجر ، ونضج ، فقال : جضر ، ونجض . والحمد لله وحده !

كمل الجـــزء الثـــالث

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول الجزء الرابع منه :

"الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثانى فى المجون والنوادر والفكاهات والملح"

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

وحسبنا الله ونعم الوكيل

تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السفر الثالث

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

فهرس

السِّفر الثالث

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للنويري

القسم الثانى من الفن الثانى

في الأمثال المشهورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد العرب وأخبار الكهنة، والزجر، والفأل، والطيرة، والفراسة والذكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجى، والألغاز وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

صحيفة

في الأمثال ١

ما تمثل به من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ٢

ومن كلام أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه ٤

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٥

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه ٦

ومن كلام على بن أبى طالب كرم الله وجهه... ... ... ٦

ومن كلام عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ٦

صحيفة

ومن أمثال العرب المرتبة على حروف المعجم ٦
حرف الهمزة ٧
حرف الباء ١٩
حرف التاء ٢١
حرف الثاء ٢٣
حرف الجيم ٢٣
حرف الحاء ٢٦
حرف الخاء ٢٨
حرف الدال ٣٠
حرف الذال ٣٠
حرف الراء ٣١
حرف الزاى ٣٣
حرف السين... ... ... ٣٤
حرف الشين... ... ... ٣٥
حرف الصاد ٣٦
حرف الضاد ٣٨
حرف الطاء ٣٨
حرف الظاء ٣٩
حرف العين ٣٩
حرف الغين ٤٢
حرف الفاء ٤٣

صحيفة

حرف القاف ٤٤
حرف الكاف ٤٦
حرف اللام ٤٨
حرف الميم ٥٠
حرف النون ٥٤
حرف الهاء ٥٥
حرف الواو ٥٦
ما جاء فيما أوله (لا) ٥٧
حرف الياء ٦٠
ومما يتمثل به من أشعار الجاهلية ٦١
امرؤ القيس بن حجر ٦١
زهير بن أبي سلمى ٦١
النابغة الذبيانيّ ٦٢
طرفة بن العبد ٦٣
أوس بن حجر ٦٣
بشر بن أبي خازم ٦٤
المتلمس ٦٤
الأفوه الأوديّ ٦٤
تميم بن أبي مقبل ٦٥
حميد بن ثور ٦٥
عديّ بن زيد ٦٥

صحيفة

الأسود بن يعفر ٦٦
علقمة بن عبدة ٦٦
عمرو بن كلثوم ٦٦
الحارث بن حلزة ٦٦
حاتم الطائىّ ٦٧
المرقّش الأصغر ٦٧
النمر بن تولب ٦٧
مهلهل بن ربيعة ٦٧
طفيل الغنوىّ ٦٨
عروة بن الورد ٦٨
الاعشى (ميمون بن قيس) ٦٨
لقيط بن معبد ٦٨
تأبط شرا ٦٩
المثقّب العبدىّ ٦٩
المزّق العبدىّ ٦٩
أفنون التغلبىّ ٦٩
الأضبط بن قريع ٦٩
سويد بن أبى كاهل ٦٩
ومما يتمثل به من أشعار المخضرمين ٧٠
لبيد بن ربيعة ٧٠
كعب بن زهير ٧٠

صحيفة

النابغة الجعدى ٧١
أمية بن أبى الصلت الثقفى ٧١
حسان بن ثابت ٧١
الحطيئة ٧١
متمم بن نويرة ٧٢
أبو ذؤيب الهذلى ٧٢
الخنساء ٧٢
عمرو بن معد يكرب ٧٣
معن بن أوس ٧٣
زياد بن زيد ٧٣
أيمن بن خزيم ٧٣
ومما يتمثل به من أشعار المتقدمين فى صدر الاسلام ٧٤
القطامى ٧٤
الطرماح ٧٤
الكميت بن زيد الأسدى ٧٤
المساور بن هند ٧٤
عدى بن الرقاع ٧٥
الفرزدق ٧٥
جرير ٧٦
الأخطل ٧٦
الصلتان العبدى ٧٧

صحيفة
كُثَيِّر عَزَّة ٧٧
جميل ٧٨
عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ٧٨
ومما يتمثل به من أشعار المحدثين ٧٨
إبراهيم بن هرمة ٧٨
بشار بن برد ٧٩
أبو العتاهية ٨٠
سلم بن عمرو الخاسر ٨١
صالح بن عبد القدوس ٨٢
ابن ميادة ٨٣
أبو نواس ٨٣
أبو عيينة المهلبي ٨٤
عبد الله بن أبي عتبة ٨٤
العباس بن الأحنف ٨٤
مسلم بن الوليد ٨٥
منصور النمري ٨٥
العتابي ٧٦
أشجع السلمي ٨٧
الجرهمي ٨٧
محمود الوراق ٨٨
محمود بن حازم الباهلي ٨٨

صحيفة

السموءل بن عادياء ٨٩
محمد بن أبى زرعة الدمشقىّ ٨٩
أبو الشيص ٨٩
علىّ بن جبلة ٨٩
الجلاج الحارثىّ ٨٩
عبد الصمد بن المعذّل ٩٠
الحمدونىّ ٩٠
العتبىّ ٩٠
أبو سعيد المخزومىّ ٩١
دعبل بن علىّ الخزاعىّ ٩١
إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ ٩٢
المؤمل بن أميل ٩٢
إبراهيم بن العباس ٩٢
أبو علىّ البصير ٩٣
سعيد بن حميد ٩٣
علىّ بن الجهم ٩٣
ابن أبى فنن ٩٣
يزيد بن محمد المهلبىّ ٩٤
عمارة بن عقيل ٩٤
أحمد بن أبى طاهر ٩٤
أبو تمام حبيب بن أوس الطائىّ ٩٤

القسم الثالث من الفن الثانى

فى المدح، والهجو، والمجون، والفكاهات، والملح، والخمر، والمعاقرة والندمان، والقيان، ووصف آلات الطرب

وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

صحيفة

فى المدح وفيه ثلاثة عشر فصلا ١٧٣

ذكر ماقيل فى الأفتخار ٢٠٠

ذكر ماقيل فى الجود والكرم وأخبار الكرام ٢٠٤

ذكر من انتهى اليهم الجود فى الجاهلية وذكر شىء من أخبارهم ٢٠٨

ذكر ماقيل فى الإعطاء قبل السؤال ٢١٨

ذكر ماقيل فى الشجاعة والصبر والإقدام ٢٢٠

ذكر ماقيل فى وفور العقل ٢٣٠

ذكر ما قيل فى حد العقل وماهيته وما وصف به ٢٣٣

ذكر ماقيل فى الصدق ٢٣٧

ذكر ماقيل فى الوفاء والمحافظة والأمانة ٢٣٩

ذكر ماقيل فى التواضع ٢٤٤

ذكر ماقيل فى القناعة والنزاهة ٢٤٧

ذكر ماقيل فى الشكر والثناء ٢٤٨

ذكر ماقيل فى الوعد والإنجاز ٢٥٤

ذكر ماقيل فى الشفاعة ٢٥٧

ذكر ماقيل فى الأعتذار والأستعطاف ٢٥٨

صحيفة

الباب الثاني :

في الهجاء وفيه أربعة عشر فصلا ٢٦٥
ذكر ماقيل في الهجاء ومن يستحقه ٢٦٦
ومما قيل في الهجاء من النظم ٢٧١
ذكر ما قيل في الحسد ٢٨٤
ذكر ما قيل في السعاية والبغي والغيبة والنميمة ٢٨٩
ذكر ما قيل في البخل واللؤم ٢٩٤
احتجاج البخلاء وتحسينهم للبخل على قبحه ٣١٤
ذكر ما قيل في التطفيل ويتصل به أخبار الأكلة والمؤاكلة... ... ... ٣٢٣
ذكر آداب الأكل والمؤاكلة ٣٣٨
ذكر الاقتصاد في المطاعم والعفة عنها ٣٤٠
ذكر أخبار الأكلة ٣٤٣
ذكر ما قيل في الجبن والفرار ٣٤٦
ذكر ما قيل في الحمق والجهل ٣٥٣
ذكر ما قيل في الكذب ٣٥٩
ذكر ما قيل في الغدر والخيانة ٣٦٤
ذكر أخبار أهل الغدر وغدراتهم المشهورة ٣٦٥
ذكر ما قيل في الكبر والعجب ٣٧٠
ذكر ما قيل في الحرص والطمع ٣٧٦
ذكر ما قيل في الوعد والمطل ٣٧٨
ذكر ما قيل في العي والحصر ٣٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل أفضل صلاة على أفضل خلقك سيدنا محمد وآله وسلم .

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الثانى

(فى المجون والنوادر والفُكاهات والمُلَح)

وهذا الباب مما تنجذب النفوس اليه، وتشتمل الخواطر عليه؛ فإن فيه راحةً للنفوس إذا تعبت وكلّتْ، ونشاطًا للخواطر إذا سئمت وملّت؛ لأن النفوس لاتستطيع ملازمة الأعمال، بل ترتاح إلى تنقل الأحوال . فإذا عاهدتها بالنوادر فى بعض الأحيان، ولاطفتها بالفكاهات فى أحد الأزمان، عادت إلى العمل الجدّ بنَشْطة جديدة، وراحةٍ فى طلب العلوم مديدة .

وقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رَوِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت عميت » .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أحِمُّوا[1] هذه القلوب وآلتمسوا لها طرق الحكمة، فإنها تَمَلّ كما تمل الأبدان، والنفس مؤثِرة للهوى، آخذة بالهوينى، جانحة إلى

---

(١) أى أريحوها من تعبها .

اللهو، أمّارة بالسوء، مستوطنة بالعجز، طالبـة للراحة، نافرة عن العـمل؛ فإن أكرهتها أنْضَيْتَها، وإن أهملتها أرْدَيْتَها[(١)].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك حتى تبدوَ نواجذه. وكان محمد بن سيرين يضحك حتى يسيل لُعابه.

وقال هشام بن عبد الملك: قد أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لواحد منهما طعما، وشممت الطِّيب حتى ما أجد له رائحة، وأتيت النساء حتى ما أبالى أمرأةً أتيتُ أم حائطا؛ فما وجدت شيئا ألذّ إلىّ من جليس تسقط بينى وبينه مـؤونةُ التحفُّظ[(٢)].

وقال أحمد بن عبد ربه: المُلَح نُزهة النفس، وربيع القلب، ومَرْتَع السمع، ومجلب الراحة، ومَعدِن السرور. وقال أيضا: إن فى بعض الكتب المترجمة أن يوحنّا وشمعون كانا من الحَوَارِيِّين، فكان يوحنا لايجلس مجلسـا إلا ضحك وأضحـك مَن حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلسا إلا بكى وأبكى من حوله. فقال شمعون ليوحنا: ما أكثر ضحكك! كأنك قد فرغت من عملك! فقال له يوحنا: ما أكثر بكاك! كأنك قد يئست من ربك. فأوحى الله إلى عيسى بن مريم عليه السلام: أنّ أحبَّ السيرتين إلىّ سيرة يوحنا.

والعرب إذا مدحوا الرجل قالوا: هو ضحوك السنّ، بسّام العشيّات[(٣)]، هَشٌّ الى الضيف. وإذا ذمّته قالت: هو عَبُوس الوجه، جَهْم المُحيّا، كريه المنظر، حامض الوجه "كأنمـا وجهه بالخل منضوح". وكأنما أُسعِط خيشومه بالخردل.

وقيل لسفيان: المِزاح مُجْنة؛ فقـال: بل سُنّة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق»، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) كذا فى العقد الفريد. وفى الأصل: «فان أكرهتها أنصبتها، وإن أهملتها أدبتها».
(٢) فى الأصل: «مروءة التحفظ».
(٣) فى العقد الفريد: «بسام الثنيات».

ذكر مُزَاحات رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد مزَح رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمن ذلك : أنه قال صلى الله عليه وسلم لرجل آستحمله : « نحن حاملوك على ولد الناقة » يريد : البعير . وقال صلى الله عليه وسلم لآمرأة من الأنصار : « الحَقِي زوجَك ففى عينه بياضٌ » . فسعتِ المرأة نحو زوجها مرعوبة؛ فقال لها : مادهاكِ ؟ فقالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ فى عينك بياضا؛ فقال : إن فى عينى بياضا لا لسوء . وأتته عجوز أنصاريّة فقالت : يارسول الله، آدع لى بالمغفرة. فقال لها : « أمَا علمتِ أنّ الجنة لايدخلها العُجُز» ! فصرخت؛ فتبسّم صلى الله عليه وسلم وقال لها : " أمَا قرأتِ ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ .

ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أعرابىّ قد صلى صلاة خفيفة ، فلما قضاها قال : اللهم زوّجنى بالحورِ العِينِ ؛ فقال عمر : ياهذا ! أسأت النّقد، وأعظمت الخِطْبة .

ذكر من آشتهر بالمزاح من الصحابة

رضوان الله عليهم

كان أشهرهم بالمزاح رضى الله عنهم نُعَيْمان، وهو أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم البدريّين، وله رضى الله عنه مزاحات مشهورة، منها ماروى : أنه خرج مع أبى بكر الصِّدّيق إلى بُصْرَى، وكان فى الحملة سُوَيْبِط، وهو بدرِىّ أيضا، وكان سويبط على الزاد؛ فجاءه نعيمان فقال له : أطعمنى؛ قال : لا، حتى يأتى أبو بكر . فقال نعيمان : والله لأغيظنّك . وجاء إلى أناس جلبوا ظَهْرًا، فقال آبتاعوا منى غلاما عربيا فارها إلا أنه دَعّاء، له لِسان، لعله يقول : أنا حرّ؛ فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه،

لا تُفسدوا علىّ غلامى . قالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص . فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقَلها ، ثم قال : دونكم ! هذا هو . فقالوا : قد آشتريناك . فقال سويبط : هو كاذب ، أنا رجل حرّ ، فقالوا : قد أُخبِرنا خبرك ، ووضعوا فى عنقه حبلا وذهبوا به . فجاء أبو بكر رضى الله عنـه فأخبِر بذلك ، فذهب هو وأصحابه ، فردّوا القلائص على أربابها وأخذوه . وأُخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالقصة فضحِك منها حولا .

ومن مزاحاته : أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جرّةَ عسل آشتراها من أعرابىّ ، وأتى بالأعرابىّ إلى باب النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : خذ الثمن من هاهنـا . فلما قسمها النبىّ صلى الله عليـه وسلم نادى الأعرابىّ : ألَا أُعْطَى ثمنَ عسلى ؟ ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "إحدى هَنَاتِ نُعَيمان" . وسأله : لِم فعلتَ هذا ؟ فقال : أردت بِرَّك يارسول الله ، ولم يكن معى شىء . فتبسّم النبىّ صلى الله عليه وسلم وأعطى الأعرابىّ حقّه .

ومن مزاحاته أيضا : أنه مرّ يوما بمَخْرَمة بن نَوْفَل الزُّهرىّ ، وهو ضرِير ، فقال له : قُدْنى حتى أبول ، فأخذ بيده حتى إذا كان فى مؤخّر المسـجد قال له : آجلس ، فجلس مخرمة ليبول ، فصاح الناس : ياأبا المِسْوَر ، أنت فى المسجد . فقال : من قادنى ؟ فقيل له : نعيمان . قال : لله علىّ أن أضربه بعصاى إن وجدته . فبلغ ذلك نعيمان ، فجاء يوما فقال لمخرمة : يا أبا المِسور ، هل لك فى نعيمان ؟ قال نعم . قال : هو ذا يصلى . وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفّان رضى الله عنـه وهو يصلّى ، فقال : هـذا نعيمان ، فعلاه مَخْرَمة بعصاه ، فصاح به الناس : ضربتَ أمير المؤمنين . فقال : من قادنى ؟ قالوا : نعيمان ، فقال : لاجَرَم لاعرَضت له بسوء أبدًا .

ومنهم ٱبن أبى عَتِيق، وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنهم . وكان ذا ورع وعفاف وشرف، وكان كثير المجون، وله نوادر مستظرفة، منها : أنه لقى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما تقول فى إنسان هجانى بشعر، وهو :

٥ أذهبتَ مالك غير مُـتَّرِكٍ * فى كل مؤنسـةٍ وفى الخمرِ[1]

ذهب الإله بمـا تعيش به * وبَقِيتَ وحدك غير ذى وَفْرِ

فقال عبد الله بن عمر : أرى أن تأخذ بالفضل وتصفَح . فقال له عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن : والله أرى غير ذلك . فقال : وما هو؟ قال : أرى أن أنيكه . فقال ٱبن عمر : سبحان الله ! ما تترك الهزل ! وٱفترقا . ثم لقيه بعد ذلك فقال له : أتدرى ١٠ ما فعلت بذلك الإنسان؟ فقال : أىّ إنسان؟ قال : الذى أعلمتك أنه هجانى . قال : ما فعلت به ؟ قال : كل مملوك لى حرّ إن لم أكن نِكته . فأعظم ذلك عبد الله بن عمر وٱضطرب له . فقال له : ٱمرأتى والله التى قالت الشـعر وهجتنى به . وكانت ٱمرأته أمّ إسحاق[2] بنت طلحة بن عبيد الله .

وقد مدح الشعراء اللعب فى موضعه، كما مُدِح الجِدّ فى موضعه؛ فقال أبو تمّام :

١٥ الجِدّ شيمتُه وفيه فُكاهـةٌ * طورًا ولا جِدّ لمن لم يلعبِ

وقال الأُبَيْرِد رحمة الله عليه :

اذا جدّ عند الجِدّ أرضاك جِدُّه * وذو باطلٍ إن شئت ألهاك باطِلُهْ

(١) رواية البيتين فى كتاب التاج للجاحظ ص ١٣١ :

ذهب الاله بمـا تعيش به * وقـرت ليلك أيمـا قر

٢٠ أنفقت مالك غير محتشم * فى كل زانية وفى الخمر

(٢) فى التاج أنها عاتكة بنت عبد الرحمن .

ومن مجونِ عبـد الله بن محمد بن عبد الرحمن ما حكِى أنّ جاريته قالت له : إن فلانا القارئ ، وكان يظهِر النسك ، قد قطع علىّ الطريق وآذانى و يقول لى : أنا أحبّكِ . فقال لها : قولى له : وأنا أُحبّك أيضا ، وواعديه المنزِل ؛ ففعلت وأدخلته المنزل ؛ وكان عبد الله قد واعد جماعةً من أصحابه ليضحكوا من الرجل . ودخلت الجارية الى البيت الذى فيـه الرجل ، فدعاها فاعتلّت عليه ؛ فوثَب إليها [فاحتملها (١)] وضرب بها الأرض ؛ فدخل عليه آبن أبى عَتِيق وأصحابه وقد تورّكها ؛ فخجل وقام وقال : يافُسّاق ، ما تجمّعتم هاهنا إلا لِريبة . فقال له آبن أبى عتيق : أُستر علينا ستر الله عليك . ثم لم يرتدع عن العبث بها ، فشكَتْ ذلك الى سيِّدها ؛ فقال لها : هَيِّئِى من الطعام طِحْن ليلة الى الغداةِ ففعلت ، ثم قال لها : عِدِيه الليلة ، فإذا جاء فقولى له : إنّ وظيفتى الليلة طَحْن هذا كله ، ثم آخرجى الى البيت وآتركيه ، ففعلت . فلما دخل طحَنت الجارية قليلا ، ثم قالت له : أدِرِ الرحَى حتى أفتقد سيِّدى ؛ فاذا نام وأمِنّا أن يأتينا أحد ، صرتُ إلى ما تحبّ ، ففعل ؛ ومضت الجارية الى مولاها ، وأمر آبن أبى عَتِيق عدّة من مَوْلَياته أن يتراوحن على سَهَرِ ليلتِهنّ ويتفقّدن أمر الطّحن ويَحُثّن عليـه ، ففعلن وجعلن يُنادِين الفتى كلما كفّ عن الطحن : يا فلانة إنّ مولاكِ مستيقظ والساعة يعلم أنك قد كَفَفت عن الطحن ، فيقوم إليك بالعصا كعادته مع من كانت نوبتها قبلك إذا هى نامت وكفّت عن الطحن . فلم يزل كلما سمع ذلك الكلام منهن آجتهد فى العمل والجارية تتفقّده وتقول له : استيقظ مولاى والساعة ينام فأصير الى ما تحبّ وهو يطحن ، حتى أصبح وفرغ القمح . فأتته الجارية بعد فراغه فقالت له : قد أصبح فانجُ بنفسـك . فقال : أوَ قد فعلتِهـا يا عدوّة الله !

(١) الكلام الذى يبتـدئ بهذا المربع [وينتهى فى صفحة ١١ بهذا المربع] ساقط من الأصل وموجود بالنسخة الراضية .

وخرج تعِبا نصِبا ، وأعقبه ذلك مرضا شـديدا أشرف منه على الموت، وعاهد الله ألّا يعود الى كلام الجارية،فلم تر منه بعد ذلك شيئا تكرهه . قال : وتعشّى عبد الله ليلة ومعه رجل من الأنصار، فوقع حجر فى الدار و وقع آخر وثالث، فقال للجارية : آخرجى فانظرى : أذّنوا المغرِبَ أم لا ؛ فخرجت وجاءت بعد ساعة ، وقالت : قد أذّنوا وصلّوا. فقال الرجل الذى كان عنده : أليس قد صلّينا قبل أن تدخل الجارية؟ قال: بلى، ولكن لو لم أرسلها تسأل عن ذلك لَرُجِمنا الى الغداة، أفهمت ؟! قال : نعم، قد فهمت . قال وسمع عبد الله بن أبى عَتِيق قول عمر بن أبى ربيعة .

مَنْ رسـولى الى الثُّرَيّا فإنى (١) * ضِقتُ ذرعًا بهجرها والكتابِ

فركب بغلته من المدينة، وسار يريد مكة،فلما بلغ ذا الحُلَيْفة (٢) قيل له : أحرم؛ قال: ذو الحاجة لا يُحرِم، وجاء حتى دخل على الثريّا . فقال لهـا : ابن عمك يقول :

* ضِقت ذرعًا بهجرها والكتاب *

ثم ركب بغلته وعاد .

ذكر شىء من مجون الأعراب

سئل أعرابىّ عن جارية له يقال لهـا زهرة، فقيل له : أيُسرّك أنك الخليفة وأن زهرة ماتت؟ فقال : لا والله! تذهب الأمّةُ وتضيع الأُمّة. وجد أعرابىّ مِرآة وكان قبيح الصورة ، فنظر فيهـا فرأى وجهه فاستقبحه، فرمى بها وقال : لشرٌّ ما طرحَك أهلُك . وقيل لأعرابىّ: لِمَ يقال : باعك الله فى الأعراب؟ فقال : لأنّا نُجيع كَبِده، ونُعرِى جلدَه، ونُطيل كدّه . وتزوّج أعرابىّ على كِبَر سِنه، فقيل له

(١) فى ديوان عمر بن أبى ربيعة : « بأنى » .

(٢) ذو الحليفة : ميقات أهل المدينة .

فى ذلك ؛ فقال : أُبادِره باليُتْم ، قبل أن يُبادِرنى بالعقوق . ومرّ أعرابىّ وفى يده رغيف برجل فى يده سيف ، فقال : بِعنى هذا السيف بهذا الرغيف ؛ فقال : أمجنون أنت ؟ فقال الأعرابىّ : ما أنكرت منى ؟ أُنظر أيهما أحسن أثرًا فى البطن .

وحُكى أن المهدِىّ خرج للصيد فغلبه فرسه حتى انتهى به الى خِباء لأعرابىّ ، فقال : يا أعرابىّ ، هل من قِرىً ؟ قال نعم ، وأخرج له فضلةً من خُبْز مَلّةٍ فأكلها وفضلة من لبن فسقاه ، ثم أتى بنبيذ فى زُكْرة (١) فسقاه قَعْبًا (٢) . فلما شرِب قال : أتدرى من أنا ؟ قال : لا والله . قال : أنا من خَدَم الخاصّـة ؛ قال : بارك لك الله فى موضعك . ثم سقاه آخر ؛ فلمّا شرِبه قال : أتدرى من أنا ؟ قال : نعم ، زعمت أنك من خدم الخاصة ؛ قال : بل أنا من قوّاد أمير المؤمنين ؛ فقال له الأعرابىّ : رحُبت بلادُك ؛ وطاب مزادك ومَرَادك . ثم سـقاه قدحا ثالثا ؛ فلما فرغ منه قال : يا أعرابىّ ، أتدرى من أنا ؟ قال : زعمتَ أخيرا أنك من قوّاد أمير المؤمنين ؛ قال : لا ولكنى أمير المؤمنين . فأخذ الأعرابىّ الزكرة فأوكاها (٣) وقال : والله لئن شربت الرابع لتقولنّ : إنك لرسول الله ؛ فضحك المهدىّ . ثم أحاطت بهم الخيل ، فنزل أبناء الملوك والأشراف ؛ فطار قلب الأعرابىّ ؛ فقال له المهدىّ : لا بأس عليك ! وأمر له بصلة . فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادّعيت الرابعة لخرجت منها .

ودخل أعرابىّ على يزيد بن المهلّب وهو على فرشه والناس سِمَاطان ، فقال : كيف أصبح الأمير ؟ قال يزيد : كما تُحِبّ . فقال الأعرابىّ : لو كنتَ كما أُحِبّ كنتَ أنت مكانى وأنا مكانك ؛ فضحِك يزيد .

---

(١) الزكرة (بالضم) : زق للخمر . (٢) القعب : القدح الضخم .

(٣) أوكاها : ربطها .

ذكر شيء من نوادر القضاة

قيل : أتى عَدِىّ بن أرطاة شُرَيْحا القاضى ومعه آمرأة له من أهل الكوفة يخاصمها اليه ؛ فلما جلس عَدِىّ بين يدى شُرَيح ، قال عدىّ : أين أنت؟ قال : بينك وبين الحائط . قال : إنى آمرؤ من أهل الشام ؛ قال : بعيد الدار . قال : وإنى قدمت العراق ؛ قال : خير مقدم . قال : وتزوجت هذه المرأة ؛ قال : بالرفاء والبنين . قال : وإنها ولدت غلاما ؛ قال : لِيَهْنِك الفارس . قال : وقد أردت أن أنقلها إلى دارى ؛ قال : المرء أحق بأهله . قال : كنت شَرَطت لها دارها ؛ قال : الشرطُ أملك . قال : آقض بيننا ؛ قال : قد فعلت . قال : فعلى من قضيت؟ قال : على ابن أُمّك .

ودخل على الشعبىّ فى مجلس قضائه رجل وآمرأته ، وكانت المرأة من أجمل النساء ، فاختصما اليه ، فأدلت المرأة بحجتها ، وقَوِيت بيِّنتها . فقال للزوج : هل عندك من دافع ؟ فأنشأ يقول :

فُتِنَ الشَّعْبِىّ لمّا * رفع الطَّرْفَ إليها
فتنتْه بِدلالٍ * وبِخَطَّىْ حاجِبَيْها
قال للجُلْوازِ(١) قَرِّبْ * بها وقدّم شاهِدَيْها
فقضى جَوْرًا على الخَصْـ * ـمِ ولم يقضِ عليها

قال الشعبىّ : فدخلت على عبد الملك بن مروان ؛ فلما نظر إلىّ تبسّم وقال :

فُتِن الشعبىّ لما * رفع الطرف اليها

ثم قال : ما فعلت بقائل هذه الأبيات ؟ قلت : أوجعته ضربًا يا أمير المؤمنين بما آنتهك من حرمتى فى مجلس الحكومة وما آفترى به علىّ . قال : أحسنت ! .

(١) الجلواز : الشرطى .

وأحضر رجل آمرأته الى بعض قضـاة البصرة، وكانت حسـنة المُنْتَقَبِ، قبيحة المَسْفَر، فمال القاضى لها على زوجها وقال: يعمِد أحدكم الى المرأة الكريمة فيتزوّجها ثم يسىء اليهـا . ففطن الرجل لميـله اليها فقال : أصلح الله القاضى، قد شككتُ فى أنها آمرأتى، فمُرْها تَسْفِر عن وجهها؛ فوقَع ذلك بوِفاق من القاضى، فقال لها: آسفرى رحمكِ الله؛ فسفَرت عن وجه قبيح. فقال القاضى لمّـا نظر الى قبح وجهها: قُومى عليكِ لعنة الله! كلامُ مظلوم، ووجهُ ظالم .

قيل: بينا رَقَبة بن مَصْقَلة القاضى فى حَلْقته، إذ مرّ به رجل غليظ العنق؛ فقال له بعض جلسائه : يا أبا عبد الله ، هذا أعبد الناس . فقال رقبة : إنى لأرى لهذا عنقًا ما دقّقتها العبادة[1] . قال : فمضى الرجل وعاد قاصدًا اليهم . فقال رجل لرقبة : يا أبا عبد الله، أَخبره بما قلت حتى لا تكون غِيبة؛ قال : نعم، أخبره أنت حتى تكون نميمة . ودخل رَقَبة الى المسجد الأعظم فألقى نفسه الى حلقة قوم، ثم قال : قتيل فالوذج رحمكم الله! قالوا: عند من ؟ قال : عند من حكم فى الفرقة وقضى فى الجماعة، يعنى : بلال بن أبى بُرْدة .

وآختصم رجلان الى إيَاس بن معاوية وهو قاضى البَصْرة لعمر بن عبد العزيز فى مِطْرَف خَزّ وأنبجانِىّ، وآدّعى كل واحد منهما أن المطرف له وأن الأنبجانىّ لصاحبه. فدعا إياس بمشط وماء، فبلّ رأس كل واحد منهما، ثم قال لأحدهما: سَرِّح رأسك فسرّحه، فخرج فى المشط عفر المطرف ، وفى مشط الآخر عفر الأنبجانىّ؛ فقال: ياخبيث ! الأنبجانىّ لك، فأقر، فدفع المطرف لصاحبه . وقال رجل لإياس : هل ترى علىّ من بأس إن أكلت تمـرا؟ قال لا . قال : فهل ترى علىّ من بأس ان أكلت معه كَيْسوما ؟ قال لا . قال : فإن شربت عليهـما ماء ؟ قال : جائز .

(١) فى أحد الأصول : « ماوقدتها » وفى أصل آخر : « مادقتها » .

قال: فلم تحترم السكر، وإنما هو ماذكرت لك؟ قال له إياس لو صببت عليك ماء هل كان يضرّك ؟ قال لا . قال : فلو نثرت عليك ترابًا هل كان يضرّك ؟ قال لا . قال : فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لَبِنةً عظيمة فضربت بها رأسك هل كان يضرّك ؟ قال : كنتَ تقتلنى . قال : فهذا مثل ذاك .

٥ دعا الرشيد أبا يوسف القاضى فسأله عن مسألة فأفتاه، فأمر له بمائة ألف درهم. فقال] إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بتعجيلها قبل الصبح ! فقال : عجّلوها له . (٣) فقيل : إن الخازن فى بيته والأبواب مغلقة . فقال أبو يوسف : وقد كنت فى بيتى والدروب مغلقة ، فلما دُعيت فُتِحت . فقال له الرشيد : بلغنى أنك لا ترى لبس السواد . فقال: يا أمير المؤمنين، ولِمَ وليس فى بدنى شىء أعزّ منه؟ قال : وما هو؟
١٠ قال : السواد الذى فى عينىّ .

وسأل الرشيد الأوزاعىّ عن لُبْس السواد، فقال: لا أحرّمه، ولكنى أكرهه. قال : ولِمَ ؟ قال : لأنه لا تُجْلَى فيه عَرُوس، ولا يلبِّى فيه مُحْرِم، ولا يُكَفَّن فيه ميت . فالتفت الرشيد الى أبى يوسف وقال : ما تقول أنت فى السواد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، النور فى السواد . فاستحسن الرشيد ذلك . ثم قال : وفضيلة
١٥ أخرى يا أمير المؤمنين . قال : وما هى ؟ قال : لم يكتب كتاب الله إلا به؛ فاهتزّ الرشيد لذلك .

تقدّم رجل الى أبى حازم عبد الحميد بن عبد العزيز السَّكُونىّ قاضى المعتمد، وقدّم أباه يطالبه بدَين له عليه، فأقرّ الأب بالدين، وأراد الابن حبس والده . فقال القاضى : هل لأبيك مال ؟ قال: لا أعلمه. قال : فمذ كم دايته بهذا المال ؟ قال :
٢٠ منذ كذا وكذا . قال: قد فرضتُ عليك نفقة أبيك من وقت المداينة؛ فحبس الابن وخلّى الأب .

كان عبد الملك بن عمر قاضى الكوفة، فهجاه هُذَيْل الأشجعىّ بأبيات منها :

اذا ذاتُ دَلٍّ كلّمتــه بحـاجةٍ * فهَمَّ بأن يقضى تحنح أو سَعَلْ

فكان عبد الملك يقول : قاتله الله! والله لربما جاءتنى النحنحة وأنا فى المتوضّأ فأذكر ما قال فأردّها .

وقيل: شهد سلمىّ الموسوس عند جعفر بن سليمان على رجل، فقال : هو — أصلحك الله — ناصِبىّ، رافِضىّ، قَدَرِىّ، مجبِرِىّ، يشتم الحجـاج بن الزبير الذى يهدم الكعبة على علىّ بن أبى سفيان . فقال له جعفر : ما أدرى على أى شىء أحسدك : على علمـك بالمقالات، أم على معرفتك بالأنساب ! فقال : أصلح الله الأمير، ما خرجتُ من الكُتّاب، حتى حذفت هذا كله ورائى .

وآستُفْتِى بعضُ القضاة، وقد نُسِبت الى القاضى أبى بكر بن قُرَيْعة، فقيل له : مايقول سيدنا القاضى أيده الله فى رجل باع حِجْرا(١) من رجل، فحين رفع ذنبها ليقلّبه خرجت منها رِيح مصوّتة آتصلت بحصاة ففقأت عين المشترى؟ أفتنا فى الدية والردّ يرحمك الله . فأجاب : لم تجرِ العادة بمثل هذه البدائع، بين مشترٍ و بائع؛ فلذلك لم يثبت فى كتب الفقهاء، ولم يستعمل فى فتوى العلماء؛ لكن هذا وما شاكله يجرِى مجرى الفضول، المستخرج من أحكام العقول، والقول فيه — وبالله العصمة من الزلل والخطل — : أن دِية ماجنته الحِجْر ملغى فى الهدر، عملًا بقول النبىّ المختار، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار، « جُرْح العجماء جُبَار »؛ لا سيما والمشترى عند كشفه لعورتها، آستثار كامِن سَـوْرتها . وعلى البائع لها آرتجاعها، وردّ ما قبض من ثمنها، لأنه دلّس حِجْرًا مَضِيقُها مَنْجنِيقُها . و إذا كانت السهام طائشة، فهى من العيوب الفاحشة. وكيف يمتنع ردّها وأغراضها نواظر الحَدَق، وقلّما يَسْتظهِر المقلِّبون الخيل بالدَّرَق .

(١) الحجر (بالكسر) : الأنثى من الخيل .

ذكر شيء من نوادر النُّحاة

قدّم رجل من النحاة خصما الى القاضى، وقال: لى عليه مائتان وخمسون درهما. فقال لخصمه : ماتقول ؟ فقال : أصلح الله القاضى، الطلاق لازم له، إن كان له إلا ثلثمائة، وإنما ترك منها خمسين ليعلم القاضى أنه نَحْوِىّ .

٥ ومرّ أبوعلقمة بأعدال قد كُتِب عليها : رُبَّ سُلَّم لأبو فلان؛ فقال لأصحابه : لا إله إلا الله! يلحنون و يربحون .

وجاء رجل الى الحسن البصرىّ فقال : ما تقول فى رجل مات فترك أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه. فقال : ما لأباه وأخاه؛ فقال الحسن: ما لأبيه وأخيه . فقال الرجل: إنى أراك كلما طاوعتك تخالفنى! . وقيل سكِر هارون بن محمد ١٠ ٱبن عبد الملك ليلة بين يدى الموفَّق، فقام لينصرف فغلبه السكر فنام فى المضرب. فلما ٱنصرف الناس جاء راشد الحاجب فأنبهه وقال : يا هارون ٱنصرف. فقال: هارون (٤) لا ينصرف. فأعاد راشد القول على هارون، فقال هارون : سل مولاك فهو يعلم أن هارون لا ينصرف . فسمع الموفّق فقال : هارون لا ينصرف؛ فتركه راشد. فلما أصبح الموفّق وقف على أن هارون بات فى مضربه؛ فأنكر على راشد، وقال: ١٥ يا راشد، يبيت فى مضربى رجل لا أعلم به! فقال : أنت أمرتنى بهذا، قلت : هارون لاينصرف . فضحك وقال : ما أردت إلا الإعراب وظننت أنت غيره .

وقيل: قدِم العُرْيان بن الهيثم على عبد الملك، فقيل له : تحفَّظ من مَسْلَمة فإنه يقول: لَأن يُلقِمنِي رجل بحجر أحبُّ إلىّ من أن يُسمِعنى رجل لحنا . فأتاه العريان ذات يوم فسلّم عليه . فقال له مَسْلَمة : كم عطاءك ؟ قال : ألفين. فنظر الى رجل ٢٠ عنده وقال له : لحن العراقِىّ؛ فلم يفهم الرجل عن مسلمة، فأعاد مسلمة القول على

العريان وقال : كم عطاؤك؟ فقال : ألفان . فقال : ما الذى دعاك الى اللحن أوّلا والإعراب ثانيـا؟ قال : لحن الأمير فكرِهت أن أُعرِب، وأعرب فأعربت . فاستحسن قوله وزاد فى عطائه .

ووقف نحوِىّ على بقّال يبيع الباذنجان فقال له : كيف تبيع؟ قال: عشرين بدانق، فقال : وماعليك أن تقول: عشرون بدانق؟ فقدّر البقّال أنه يستزيده، فقال ثلاثين بدانق. فقال : وما عليك أن تقول : ثلاثون؟ فما زال على ذلك الى أن بلغ سبعين، فقال: وماعليك أن تقول: سبعون؟ فقال: أراك تدور على الثمانون وذلك لايكون أبدا.

ذكر شىء من نوادر المتنبئين

قيل: اِدّعى رجل النبوّة فى أيام المهدى، فأُدخِل عليه، فقال له : الى من بُعثت؟ فقال : ما تركتمونى أذهب الى من بُعثت اليهم، فإنى بُعثت بالغـداة وحبستمونى بالعشىّ. فضحك المهدىّ منه وأمر له بجائزة وخلّى سبيله .

وتنبأ رجل وآدّعى أنه موسى بن عِمران. فبلغ خبره الخليفة، فأحضره وقال له: من أنت؟ قال : أنا موسى بن عمران الكليم . قال : وهذه عصاك التى صارت ثعبانا ! قال نعم . قال : فألقِها من يدك ومُرْها أن تصير ثعبانا كما فعل موسى . قال : قل أنت (أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى) كما قال فرعون حتى أُصَيِّر عصاى ثعبانا كما فعـل موسى. فضحك الخليفة منه وآستظرفه. وأُحضِرتِ المـائدة، فقيل له : أكلت شيئا ؟ قال : ما أحسَنَ العقلَ ! لو كان لى شىء آكله، ما الذى كنتُ أعمل عنـدكم ؟ فأعجب الخليفة وأحسن اليه .

وآدّعت آمرأة النبوّة على عهد المأمون، فأُحضِرت اليه فقال لها : من أنت ؟ قالت: أنا فاطمة النبيّة . فقال لها المأمون : أتؤمنين بمـا جاء به محمد صلى الله عليه

وسلم ؟ قالت : نعم، كل ما جاء به فهو حق . فقال المأمون : فقد قال محمد صلى الله عليه وسلم « لانبيّ بعدى » . قالت : صدق عليه الصلاة والسلام، فهل قال : لا نبية بعدى ؟ فقال المأمون لمن حضره : أمّا أنا فقد آنقطعت، فمن كانت عنده حجة فليأتِ بها، وضحِك حتى غطّى على وجهه .

وآدّعى رجل النبوّة، فقيل له : ما علاماتُ نبوّتك؟ قال : أنبئكم بما فى نفوسكم . قالوا : فما فى أنفسنا؟ قال : فى أنفسكم أنى كذبت ولست بنبيّ .

وتنبأ رجل فى أيام المأمون، فأُتِى به إليه، فقال له : أنت نبيّ؟ قال نعم . قال : فما معجزتك؟ قال : ماشئت . قال : أُخرِج لنا من الأرض بِطّيخة . قال : أمهلنى ثلاثة أيام . قال المأمون : بل الساعة أريدها . قال : يا أمير المؤمنين ، أنصفنى ، أنت تعلم أن الله يُنبِتها فى ثلاثة أشهر، فلا تقبلها منى فى ثلاثة أيام! فضحك منه ، وعلم أنه محتال، فآستتابه ووصله .

وآدّعى آخر النبوّة فى زمانه فطالبه بمُعْجِزة، فقال : أطرَح لكم حصاةً فى الماء فأُذيبها حتى تصير مع الماء شيئا واحدا . قالوا : قد رضِينا . فأخْرَجَ حصاةً كانت معه فطرحها فى الماء فذابت . فقالوا : هذه حيلة، ولكن أَذِبْ حصاةً غيرها نأتيك بها نحن . فقال لهم : لا تتعصّبوا، فلستم أضلّ من فرعون، ولا أنا أعظم من موسى، ولم يقل فرعون موسى : لا أرضى بما تفعله بعصاك حتى أُعطِيك عصا من عندى تجعلها ثعبانا . فضحك المأمون منه وأجازه .

وآدّعى رجل النبوّة فى أيام المعتصم، فأُحضر بين يديه، فقال له : أنت نبِي؟ قال نعم . قال : إلى من بُعثت ؟ قال : إليك . قال : أشهد إنك لسفيه أحمق . قال : إنما يذهب إلى كل قوم مثلُهم . فضحِك منه وأمر له بشىء .

وآدّعى آخر النبوّة فى أيام المأمون، فقال له: ما مُعْجِزتك؟ قال: سل ما شئت، وكان بين يديه قُفْل، فقال: خذ هذا القفل فافتحه. فقال: أصلحك الله، لم أقل إنى حدّاد. فضحك منه وآستتابه وأجازه.

وآدّعى آخر النبوّة، فطُلِب ودُعِى له بالسيف والنِّطْع، فقال: ما تصنعون؟ قالوا: نقتلك. قال: ولِم تقتلوننى؟ قالوا: لأنك آدّعيت النبوّة. قال: فلست أدّعيها. قيل له: فأىّ شىء أنت؟ قال: أنا صِدِّيق. فدُعِى له بالسياط، فقال: لم تضربوننى؟ قالوا: لآدّعائك أنك صِدّيق، قال: لا أدّعى ذلك. قالوا: فمن أنت؟ قال: من التابعين لهم بإحسان. فدُعِى له بالدِّرة. قال: ولِم ذلك؟ قالوا: لآدّعائك ما ليس فيك، فقال: ويحكم! أدخل إليكم وأنا نبىّ تريدون أن تحطّونى فى ساعة واحدة الى مرتبة العوامّ! لا أقلّ من أن تصبروا علىّ[1] الى غد حتى أَصِيرَ لكم ما شئتم.

وآدّعى آخر النبوّة، وسمّى نفسه نوحا، فنهاه صديق له عن ذلك فلم ينته، فأخذه السلطان وصلبه، فمرّ به صديقه الذى كان ينهاه، فقال: يانوح! ماحصل لك من السفينة غير الدَّقَل.

ذكر شىء من نوادر المغفّلين وآلحُمْق

قال بعضهم: رأيت آبن خلف الهمدانىّ فى صحراء وهو يطلب شيئا، فقلت له: ما تبغى هاهنا؟ قال: دفنت شيئا ولست أهتدى اليه. قلت: فهلّا علّمت عليه بشىء! قال: جعلت علامتى قطعة من الغيم كانت فوقه، وما أراها الساعة. ونظر مرة فى الحُبِّ (وهو الزير) فرأى وجهه، فعدا الى أمّه فقال: يا أمّى فى الحُبِّ لِصّ. فجاءت أمه وتطلّعت فيه، فقالت: إى والله ومعه خَبْـة. ورُئى فى وسط داره

(١) فى الأصول: «لا أقل مما تصبروا».

وهو يعدو عَدْوًا شديدا ويقرأ بصوت عال . فسئِل عن ذلك فقال : أردت أن أسمع صوتى من بعيد . ودخل إلى رجل يعزّيه ، فقال : عظّم الله مصيبتكم ، وأعان أخاك على مايرِد عليه من يأجوج ومأجوج . فضحِك الناس . فقال : تضحكون مما قلت ! وإنما أردت هاروت وماروت .

٥ وقيل : كتب المنصور إلى زِياد بن عبد الله الحارثىّ ، ليقسِّم بين القواعد والعميان والأيتام مالا . فدخل عليه أبو زياد التيمىّ ، وكان مغفّلا فقال : أصلحك الله ! آكتبنى فى القواعد ، فقال له : عافاك الله ، القواعد هنّ النساء اللّاتى قعدن عن أزواجهنّ . فقال : فآكتبنى فى العميان . قال : آكتبوه منهم ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . قال أبو زياد :

١٠ وآكتب آبنى فى الأيتام ؛ قال : نعم ! من كنتَ أباه فهو يتيم .

وسُئِل بعضهم عن مولده ، فقال : وُلِدت رأسَ الهلال للنصف من رمضان بعد العيد بثلاثة أيام ، فاحسبُوا الآن كيف شئتم .

ذكر شىء من نوادر النبيذيّين

قال رجل لبعض أصحاب النبيذ : وجّهتُ إليك رسولا عشيّة أمسِ فلم يجدك ؛

١٥ فقال : ذاك وقت لا أجد فيه نفسى .

وقيل لبعضهم : كم الصلاة ؟ فذكر الغداة والظهر . قالوا : فالعصر ؟ قال : تعرِف وتنكر . قالوا : فالعِشاء ؟ قال : يبلغها الجواد . قالوا : فالعَتَمة ؟ قال : ما كانت لنا فى حساب قطّ .

شرِب الأُقَيْشِر فى حانوت خمّار حتى نفِد مامعه ، ثم شرِب بثيابه وبقى عُرْيانا ،

٢٠ فجلس فى تِبن يستدفىء به . فمرّ رجل ينشُد ضالّة ؛ فقال الأقيشر : اللّهم آردُد عليه ،

وٱحفظ علينا . فقال له الحمار : سَخِنتْ عينُك، أىّ شىء يحفظ عليك ربّك ! قال : هذا التبن، لئلا يأخذه صاحبه فأهلِك من البرد .

وباع بعضهم ضَيعةً له ؛ فقال له المشترى : بالعشىّ أشهد عليك. فقال: لو كنتُ ممن يفرغ بالعشىّ ما بعت ضيعتى .

ذكر شىء من نوادر النساء والجوارى

قال رجل : قلت لجارية أريد شراءها : لا يُريبِك شيبى؛ فإن عندى قوّة . فقالت : أيسرك أنّ عندك عجوزا مُغْتلِمة !

أُدخِل على المنصور جاريتان فأعجبتاه. فقالت التى دخلت أوّلا : يا أمير المؤمنين، إن الله فضّلنى على هذه بقوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ . وقالت الأخرى : لا، بل الله فضّلنى عليها بقوله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ .

وعُرِض على المعتصم جاريتان بِكر وثيِّبٌ ؛ فمال إلى البِكر. فقالت الثيب : ما بيننا إلا يوم واحد . فقالت البكر : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

قيل لٱمرأة ظريفة : أبِكر أنتِ ؟ قالت : أعوذ بالله من الكساد .

وقال المتوكل لجارية ٱستعرضها : أنت بكر أم إيش ؟ قالت : أنا إيش يا أمير المؤمنين .

وٱستعرض رجل جارية فٱستقبح قدميها . فقالت : لا تُبالِ؛ فإنى أجعلهما وراء ظهرك .

وقال الرشيد لبغيض جاريته : إنك لدقيقة الساقين . قالت : أحوج ما تكون إليهما لا تراهما .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن إسحاق: أن الرشيد أحضره مجلسَه ذاتَ ليلة، وقد مضى شَطْر الليل؛ قال: فأخرج جارية كأنها مَهَاة، فأجلسها فى حِجره، ثم قال غنِّينى؛ فغنته:

جِئْن من الروم وقَاليقلا[1] * يَرفُلْنَ فى المِرْط ولِينِ المُلَا
مُقَرْطَقَات بصنوف الحُلَى * ياحبذا البِيضُ وتلك الحُلَى

فآستحسنه وشرب عليه.

طُلبت جارية محمود الورّاق للمعتصم بسبعة آلاف دينار، فامتنع من بيعها، وآشتريتْ له بعد ذلك من ميراثه بسبعمائة دينار. فذكر المعتصمُ ذلك لها، فقالت: إن كان أمير المؤمنين ينتظر بشهواته المواريث فسبعون دينارا فى ثمنى كثيرٌ، فكيف بسبعمائة!

وآستعرض رجل جارية فقال لها: فى يَدَيْك عمل؟ قالت: لا، ولكن فى رجلىّ.

وحُكى أنّ بعض المُجّان كان يعشق جارية أمجن منه. فضاق يوما، فكتب إليها: قد طال عهدى بك ياسيِّدتى، وأقلقنى الشوق إليك. فإن رأيتِ أن تستدركى رَمقى بمُضْغة عِلْك وتجعليه بين دينارين وتُنفذيه إلىّ لأستشفى به فعلتِ إن شاء الله. ففعلتْ ذلك وكتبتْ إليه: ردُّ الظَّرف من الظَّرف، وقد سارعتُ إلى إنفاذ ما طلبتَ؛ فأنعِمْ بردّ الطبق والمكبَّة، وآستعملِ الخبر: «اِستدِرّوا الهدايا بردّ الظّروف».

وطلب آخر من عشيقته خاتما كان معها؛ فقالت: يا سيِّدى، هذا ذهب وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود حتّى تعود.

---

(١) قاليقلا: بلد من أعمال أرمينية.

وكتب رجل الى عشيقته : مُرِى خيالك أن يلم بى . فكتبت اليه : اِبعث إلىّ بدينارين حتى آتيك بنفسى .

قدّم بعضهم عجوزاً دلّالة الى القاضى وقال : أصلح الله القاضى، زوّجتنى هذه امرأةً، فلمـا دخلت بها وجدتها عرجاء . فقالت : أصلح الله القاضى ! زوّجتـه آمرأة يجامعها، ولم أعلم أنه يريد أن يحج عليها أو يسابق بها فى الحَلْبة أو يلعب عليها بالكرة والصولجان ! . ٥

كتب رجل الى عشيقته رقعة، قال فى أوّلها : عصمنا الله وإياكِ بالتقوى . فكتبت اليه فى الجواب : يا غليظ الطبع، إن آستجاب الله دعاءك لم نلتق أبدا .

قال عقيل بن بلال : سمعتنى أعرابيّة أُنشد :

وكم ليـــلةٍ قد بِتّهـا غيرَ آثمٍ * بمهضومة الكشحينِ ريّانةِ القُلْبِ[1] ١٠

فقالت : هَلّا أَثِمت! أخزاك الله ! .

كان أبو نواس يوما عند بعض إخوانه ؛ فخرجت عليـه جارية بيضاء عليهـا ثياب خضر . فلما رآها مسح عينيه وقال : خيرا رأيت إن شاء الله تعالى. فقالت : وما رأيت ؟ قال : ألكِ معرفة بعـلم التعبير؟ قالت : ولا أعرف غيره . قال : رأيت كأنى راكب دابة شهباء، وعليها جُلٌّ أخضر وهى تمرح تحتى . فقالت : إن صدقت رؤياك فستدخل الجنة . وقد روى أن هذه الحكاية آتفقت له مع عنان جاريةِ الناطفىّ . ١٥

وكان بعضهم جالسا مع آمرأته فى مَنْظَرة ؛ فمرّ غلام حسن الوجه؛ فقالت : أُعيذ هـذا بالله؛ ما أحسنه وأحسن وجهـه وقدّه ! فقال الزوج : نعم، لولا أنه خَصِىّ . فقالت : لعنه الله ولعن من خصاه ! . ٢٠

(١) القلب (بالضم) : سوار المرأة .

قال أبو العيناء : خطبتُ آمرأة فآستقبحتني . فكتبت اليها :

فإن تَنْفِرِى من قبح وجهى فإننى * أريب أديب لا غبيّ ولا فُدُمُ

فأجابتى : ليس لديوان الرسائل أريدك .

وخطب ثُمامة العوفىّ آمرأة . فسألت عن حِرفته؛ فكتب اليها يقول :

٥ وسائلةٍ عن حِرفتى قلت حِرفتى * مقارعة الأبطال فى كل مَأزِقِ

وضربى طُلَى الأبطال بالسيف مُعْلَماً * إذا زحف الصفان تحت الخوافِق

فلما قرأتِ الشعر، قالت للرسول : قل له : فديتك! أنت أسد، فاطلب لك لَبُؤة؛ فإنى ظبية أحتاج الى غزال .

خرجت حُبَّى المدنيّة فى جوف الليل؛ فلقيها إنسان فقال لها : تخرجين فى هذا

١٠ الوقت! قالت : ما أبالى، إن لقينى شيطان فأنا فى طاعتـه، وإن لقينى رجل فأنا فى طلبـه . وجاءت الى شـيخ يبيع اللبن ، ففتحت ظرفا فذاقتـه ودفعته إليـه وقالت : لا تعجَل بشدّه؛ ثم فتحت آخر فذاقته ودفعته إليه . فلما أشغلت يديه جميعا، كشفت ثوبه من خلفه، وجعلت تَصْفِقُ[1] بظاهر قدميها آسته وخصييه ، وتقول : يا ثارات ذات النَّحْيَينِ، والشيخ يستغيث، فلم يخلُص منها إلا بعد جهد.

١٥ غاب رجل عن آمرأته فبلغها أنه آشـترى جارية، فاشترت غلامين . فبلغه ذلك فجاء مبادرا، وقال لها : ما هذا؟ فقالت : أمَا علمت أنّ الرحىَ الى بغلين أحوج من البغل الى رَحيَينِ! ولكن بع الجارية حتى نبيع الغلامين؛ ففعل ذلك ففعلت .

ومثـل ذلك ما حكِى عن الأحنف : أنه اعتمّ ونظر فى المرآة؛ فقـالت له آمرأته : كأنك قد هممت بخِطبة آمرأة! قال : قد كان ذلك . قالت: فإذا فعلت

٢٠ (١) تصفق : تضرب . والصفق : الضرب يسمع له صوت .

فاعلم أن المرأة الى رجلين أحوج من الرجل الى آمرأتين . فنقض عمته وترك ما كان قد همّ به .

ذكر شيء من نوادر العميان

قال إبراهيم بن سَيّابة لبشّار الأعمى : ما سلب الله من مؤمن كريمتيه إلا عوّضه عنهما : إمّا الحِفظ والذكاء ، وإمّا حسن الصوت . فما الذى عوّضك الله عن عينيك؟ قال : فقد النظر لبغيض ثقيل مثلك ! (١)

ونظير هذه الحكاية ماحُكِى عن بعضهم ، قال : خرجت ليلة من قرية لبعض شأنى ، فإذا أنا بأعمى على عاتقه جرّة وبيده سِراج ، فلم يزل حتى آنتهى إلى النهر ، وملأ جرّته وعاد . قال : فقلت له : ياهذا ، أنت أعمى ، والليل والنهار عندك سواه ، فما تصنع بالسراج ؟ قال : يا كثير الفضول ، حملته لأعمى القلب مثلك ، يستضىء به لئلا يعثر فى الظلمة ، فيقع علىّ ويكسِر جرّتى .

قالوا : بلغ أبا العيناء (٢) أنّ المتوكل يقول : لولا عمى أبى العيناء لآستكثرت منه ؛ فقال : قولوا لأمير المؤمنين : إن كان يريدنى لرؤية الأهلّة ونظم اللآلئ والياقيت وقراءة نقوش الخواتيم ، فأنا لا أصلُح لذلك ؛ وإن كان يريدنى للحاضرة والمنادمة والمذاكرة والمسامرة ، فناهيك بى . فانتهى ذلك الى المتوكل فضحك منه ، وأمر بإحضاره ، فحضر ونادمه .

تزوّج بعض العميان بسوداء ؛ فقالت له : لو نظرت الى حسنى وجمالى وبياضى لآزددت فىّ حبًّا . فقال لها : لو كنتِ كما تقولين ما تركك لِى البُصَراء .

---

(١) فى إحدى النسخ : « الراحة من النظر ... »

(٢) فى الأصول : « أبا العتاهية » والتصويب عن وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ٧٢٠ طبع بولاق) .

ذكر شيء من نوادر السؤّال

سأل أبو عونٍ رجلا فمنعه، فألحّ عليه فأعطاه؛ فقال: اللهم آجرنا وإياهم، نسألهم إلحافا ويعطوننا كرها، فلا يبارك الله لنا فيها ولا يُؤجرهم عليها .

وقف أعرابيّ سائل على باب وسأل؛ فأجابه رجل وقال : ليس هاهنا أحد. فقال : إنك أحَدٌ لو جعل الله فيك بركة .

ووقف سائل على باب، وكانت صاحبة الدار تبول فى البالوعة؛ فسمع السائل صوت بولتها فظنه نشيش المقلَى، فقال : أطعمونا من هذا الذى تَقْلونه؛ فضرطت المرأة وقالت : حَطبُنا رَطْبٌ ليس يُشعل .

ووقف سائل على باب وقال: تصدّقوا علىّ فإنى جائع. قالوا: إلى الآن لم نخبز . (١١)
قال : فكفٌّ سويق . قالوا: ليس عندنا سويق. قال: فشربة من ماء فإنى عطشان. قالوا : ما أنانا السقاء . قال : فيسير دهن أجعله فى رأسى. قالوا: من أين لنا دهن. فقال : يا أولاد الزنا، فما قعودكم هنا ! قوموا وآشحتوا(١) معى !

ذكر شيء من نوادر من آشتهر بالمجون

كان مُزَبِّد ممن آشتهر بالمجون والنوادر ، وله نوادر . فمنها ما قيل : إنه أخذه بعض الولاة وقد آتّهم بالشُّرب، فاستنكهه، فلم يجد منه رائحة؛ فقال : قيئوه . فقال مزبّد : ومن يضمن عشائى أصلحك الله؟ فضحك منه وأطلقه . وهبّت ريح شديد فصاح الناس : القيامة، القيامة! فقال مزبّد: هذه قيامة على الريق بلا دابة، ولا دجّال، ولا القائم، ولا عيسى بن مريم ، ولا يأجوج ومأجوج . وقيل له :

(١) هذه الكلمة عامية . والفصيح فى هذا المعنى «شحذ» أو «سأل» .

لم لا تكون كفلانٍ؟ (يعنون رجلا موسِرا) فقال : بأبى أنتم ! كيف أشبَّه بمن يَضْرِط فيُشمَّت[1] وأعطسُ فأُلطم ! . وقيـل له : ما بال حِمارك يتبلّد إذا توجّه نحو المنزل وحمير الناس إلى منازلها أسرع ؟ قال : لأنه يعرف سوء المنقلَب . ونظرت آمرأته وهى حبلى الى قبح وجهـه ، فقالت : الويل لى إنْ كان الذى فى بطنى يُشبهك . فقال لهـا : الويل لك إن لم يكن يشبهنى . وسمِـع رجلا يقول عنِ آبن عباس : مَنْ نوى حِجّةً وعاقه عائق ، كُتِبت له . فقال مزبّد : ما خرج العام كِراء أرخص من هذا .

وممن آشتهر بالمجون أشعب .

ذكر شىء من نوادر أشعب وأخباره

هو أشعب بن جُبَير. وآسمه شُعَيب ، وكنيته أبو العلاء . وأمه أم الجلندح ، وقيل : أم حميد حميدة[2] . وهى مولاة أسماء بنت أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنها . وكان أبوه قد خرج مع المختار بن أبى عُبَيـد ، فأسره مُصْعَب بن الزبير ، فقال له : ويلك ! تخرج علىّ وأنت مولاى ! وقتله صبرا . وقد قيـل فى ولائه : إن أباه مولى عثمان آبن عفّان رضى الله عنه ، وإن أمه كانت مولاة أبى سفيان بن حرب ، وإن ميمونة أم المؤمنين أخذتها لمـّا تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت تدخل على أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فيستظرِفنها ، ثم صارت تنقل أحاديث بعضهنّ الى بعض ، وتُغرِى بينهن . فدعا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . وقد حُكِى

---

(١) التشمت (بالشين المعجمة والسين المهملة) : الدعاء للعاطس .

(٢) فى الأغانى : « كان يقال لأمه أم " الخلندج " وقيل أم جميل وآسمها حميدة » .

عن أشعب : أنه جلس يوما فى مجلس فيه جماعة ، فتفاخروا وذكر كل واحد منهم مناقبه وشرفه أو شجاعته أو شِعره وغير ذلك مما يتمدّح به الناس ويتفاخرون ؛ فوثب أشعب وقال : أنا ٱبن أمّ الجلندح ، أنا ٱبن المحرّشة بين أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم . فقيل له : ويلك ! أو بهذا يفتخر الناس ! قال : وأىّ ٱفتخار أعظم من هذا ! لو لم تكن أمّى عندهن ثقةً لمَا قَبِلن روايتها فى بعضهنّ بعضا . وقد حُكى : أنها زنت ، فخُلِقت ، وطِيف بها على جمل ، فكانت تنادى على نفسها : من رآنى فلا يَزْنِيَنَّ . فقالت لها ٱمرأة : نهانا الله عز وجل عنه فعَصَيناه ، ونُطيعك وأنت مجلودة محلوقة ، راكبة على جمل ! . ونشأ أشعب بالمدينة فى دور آل أبى طالب ، وكَفَلته وتولّت تربيته عائشة بنت عثمان . وعُمِّر أشعب عمرًا طويلا . وحُكى عنه أنه قال : كنت مع عثمان رضى الله عنه يوم الدارِ لمّا حُصِر ؛ فلما جرّد مماليكه السيوف ليقاتلوا كنت فيهم ؛ فقال عثمان : من أغمد سيفه فهو حرٌّ . فلما وقعت فى أذنى كنت واللهِ أوّل من أغمد سيفه فعُتِقت . وكانت وفاته بعد سنة أربع وخمسين ومائة . وهذا القول يدل على أنه كان مولى عثمان بن عفّان رضى الله عنه .

(١٢) وقد روى أبو الفرج الأصفهانىّ بإسناد رفعه الى إبراهيم بن المهدىّ عن عبيد ابن أشعب عن أبيه : أنه كان مولده فى سنة تسع من الهجرة ، وأن أباه كان من مماليك عثمان بن عفان . وعمّر أشعب حتى هلَك فى أيام المهدىّ . قال : وكانت فى أشعب خِلال ، منها : أنه كان أطيب أهل زمانه عِشرة ، وأكثرهم نادِرة ، وكان أقوم أهل دهره لحجج المعتزلة ، وكان ٱمرأً منهم . وقال مصعب بن عبد الله : كان أشعب من القرّاء حسن الصوت بالقراءة ، وكان قد نسك وغزا ؛ وقد روى الحديث عن عبد الله بن جعفر . وقال الأصمعىّ : قال أشعب : نشأت أنا وأبى الزِّناد

فى حجر عائشة بنت عثمان؛ فلم يزل يعلو وأسفل حتى بلغنا هذه المنزلة . وقال إسحاق ابن إبراهيم : كان أشعب مع ملاحته ونوادره يغنّى أصواتا فيُجيدها . وفيه يقول عبد الله ابن مُصْعَب الزبيرى عفا الله عنه :

اذا تمـــززت صُراحِيَّـــةً[1] * كمثل ريح المِسك أو أطيبُ
ثم تَغَـــنَّى لى بأهزاجه * زيد أخو الأنصار أو أشعبُ
حسِبت أنى مَلِكٌ جالسٌ * حَفّت به الأملاك والموكب
وما أبالىَ وإلهِ العـــلا[2] * أشَـــرَقَ العـالم أم غَرَّبوا

ولأشعب نوادر مستظرفة وحكايات مستحسنة، وقد آن أن نذكرها . فمنها ما حُكى أنه كان يقول : كلبى كلب سوء، يبصبص للأضياف، وينبح على أصحاب الهدايا . وقيل له : قد لَقِيتَ رجالًا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فلو حَفِظت أحاديث تتحدّث بها! فقال : أنا أعلم الناس بالحديث. قيل : فحدِّثنا . قال : حدّثنى عِكْرِمة عن ابن عبّاس رضى الله عنهم قال : خَلّتان لا تجتمعان فى مؤمن إلا دخل الجنة، ثم سكت . فقيل له : هاتِ، ما الخلتان؟ قال : نسِى عكرمة إحداهما ونسيت أنا الأخرى . وكان أشعب يحدّث عن عبـد الله بن عمر رضى الله عنهما فيقول : حدّثنى عبد الله ، وكان يُبْغضنى فى الله . وكان أشعب يلازم طعام سالم بن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهم . فاشتهى سالم أن يأكل مع بناته فخرج الى البستان؛ فجاء أشعب الى منزل سالم على عادته؛ فأُخبر بالقِصـة ؛ فاكترى جملا بدرهم وجاء الى البستان . فلمـا حاذى الحائط وثب فصار عليـه ؛ فغطّى سالم بناته بثوبه وقال : بناتى بنـاتى ! فقال أشعب : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) .

(١) الصراحية : آنية الخمر . (٢) فى الأغانى : « وإله الورى » .

قال أشعب : جاءتنى جارية بدينار وقالت : هذا وديعة عندك ؛ فجعلتُه بين ثِنْى الفِراش . فجاءت بعد أيام وقالت : بأبى أنت ! الدينار ؛ فقلت ٱرفعى فراشى وخذى ولده فإنه قد ولد ، وكنت قد تركت الى جنبه دِرهما ، فأخذتِ الدرهم وتركت الدينار . وعادت بعد أيام فوجدت معه درهما آخر فأخذته ، وفى الثالثة كذلك . وجاءت فى الرابعة ، فلما رأيتها بكيتُ ؛ فقالت : ما يُبكيك ؟ قلت : مات دينارك فى النفاس . فقالت : وكيف يكون للدينار نفاس ؟ قلت : يا فاسقة ! تُصَدِّقين بالوِلادة ولا تصدّقين بالنفاس ! .

ومن أخباره المستظرفة ما حكاه المدائنىّ ، قال : قال أشعب : تعلّقت بأستار الكعبة فقلت : اللهم أذهب عنّى الحِرْص والطلبَ إلى الناس ؛ فمررت بالقرشيين وغيرهم فلم يُعطنى أحدٌ شيئا . فجئت الى أُمى ، فقالت : مالك قد جئت خائبا ؟ فأخبرتها بذلك ؛ فقالت : والله لا تدخل حتى ترجع فتستقيل ربك . فرجعت فجعلت أقول : يا ربّ أقِلنى ، ثم رجعت ، فما مررت بمجلس لقريش ولا غيرهم إلا أعطونى ، ووُهِب لى غلام ؛ فجئت الى أمى بمال موقرة من كل شىء . فقالت : ما هذا الغلام ؟ فخِفت أن أخبرها فتموت فرحا إن قلت : وهبوه لى . فقالت : أىّ شىء هذا ؟ فقلت : غين . قالت : أىّ شىء [غين](1) ؟ قلت : لام . قالت : أىّ شىء [لام](1) ؟ [قلت : ألف . قالت : وأى شىء ألف](1) ؟ قلت : ميم . قالت : وأىّ ميم ؟ قلت : غلام ؛ فغُشِى عليها . ولو لم أقطّع الحروف لماتت الفاسقة فرحا . قال : وجلس أشعب يوما الى جانب مروان بن أبان بن عثمان ؛ فانفلتت من مروان ريح لها صوت ؛ فانصرف أشعب يوهم الناس أنه هو الذى خرجت منه الريح . فلما ٱنصرف مروان الى منزله جاءه أشعب فقال له : الدية ،

(1) التكملة عن الأغانى (ج ١٧ ص ٨٥ طبع بولاق) .

قال : دية ماذا ؟ قال : دية الضرطة التى تحملتهـا عنك ، و إلا شهرتك ؛ فلم يدعه حتى أخذ منه شيئا صالحه عليه .

(١٣) وقال محمد بن أبى قبيلة : غذّى أشعب جديًا بلبن أمّه وغيرها حتى بلغ غاية ، ثم قال لزوجته أمّ آبنـه وردان : إنى أحِبّ أن ترضعيه بلبنك ففعلت . ثم جاء به الى إسماعيـل بن جعفر بن محمـد ، فقال : تالله إنه لأبنى ، رضع بلبن زوجتى ، قد حبـوتك به ، ولم أر أحدا يستأهله سواك . فنظر إسماعيل إليـه وأمر به فذُبح وسُمِط . فأقبل عليه أشعب وقال : المكافأة ؛ فقال : ما عنـدى والله اليوم شىء ، ونحن من تعـرف ، وذلك غير فائت لك . فلما يئس أشعب منـه قام من عنـده فدخل على أبيه جعفر ، ثم آندفع فشهَق حتى التقت أضـلاعه ، ثم قال : أَخْلِنى . قال : ما معنا أحد يسمع ، ولا عليك عين . قال : وثب آبنك إسماعيـل على آبنى فذبحه وأنا أنظر اليه . فارتاع جعفـر وصاح : ويلك ! وفِيم ؟ وتريد ماذا ؟ قال : أمّا ما أريد فوالله مالى فى إسماعيـل حيلة ولا يسمع هذا سامع أبدا بعدك . فجزاه خيرا وأدخله منزله وأخرج اليه مائتى دينار فقال : خذ هذه ، ولك عندنا ما تحِبّ . قال : وخرج الى إسماعيل وهو لا يبصر ما يطأ عليه ، فإذا به مسترسِل فى مجلسه . فلما رأى وجه أبيه أنكره وقام إليـه ؛ فقال : يا إسماعيل ، فعلتها بأشـعب ! قتلت ولده ؟ قال : فاستضحك وقال : جاءنى ، وأخبره الخبر . فأخبره أبوه بمـا كان منـه وما صار إليـه . قال : فكان جعفر يقول لأشعب : رُعْتنى راعك الله ! فيقول : روعة آبنك بنا فى الجدى أكثر من روعتك بالمـائتى الدينار .

قال المدائنىّ : دخل أشعب على الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وعنده أعرابىّ قبيح المنظر ، مختلف الخِلقة ؛ فسبّح أشعب حين رآه وقال للحسين : بأبى أنت وأمى ، أتأذن لى أن أسلح عليـه ؟ فقال : إن شئت . ومع الأعرابىّ قوس وكنانة ، ففوّق

نحوه سهما، وقال : والله لئن فعلت لتكونن آخر سلحة سلحتها . فقال أشعب للحسين : جُعِلتُ فِداك، أخذنى القَوْلَنْج[1] . وعنه قال : توضأ أشعب فغسل رجله اليسرى وترك اليمنى . فقيل له : لِم تركت غسل اليمنى؟ فقال : لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : «أمتى غُرٌّ محجّلون من آثار الوضوء»[2] وأنا أحب أن أكون أغرّ محجّلا مطلق اليمين . وقال : سمع أشعب حُبَّى المدنيّة تقول : اللهم لا تمتنى حتى تغفرلى ذنوبى؛ فقال لها : يا فاسقة ! أنت لم تسألى الله تعالى المغفرة، وإنما سألته عمر الأبد! (يريد : أن الله لا يغفر لها أبدا) .

وقال الزبير بن بكّار : كان أشعب يوما فى المسجد يدعو، وقد قبّض وجهه فصيّره كالصُّبْرة[3] المجموعة . فرآه عامر بن عبد الله بن الزبير فحصَبه وناداه : يا أشعب، إنما أنت تناجى ربك فناجه بوجه طليق . قال : فأرخى لَحْيَيه حتى وقعا على زَوْرِه[4] . قال : فأعرض عنه، وقال : ولا كلّ ذا .

وقال مصعب : بلغ أشعب أنّ الغاضرىّ قد أخذ فى مثل مذهبه ونوادره، وأن جماعة استطابوه؛ فرَقَبهم حتى علم أنه فى مجلس من مجالس قريش يحادثهم ويُضحِكهم، فصار اليهم، ثم قال : قد بلغنى انك قد نحوت نحوى، وشغلت عنى من كان يألفنى؛ فإن كنت مثلى فافعل كما أفعل . ثم غضّن وجهه وعرّضه وشنّجه، حتى صار عرضُه أكثرَ من طوله، وصار فى هيئة لم يعرفه أحد بها، ثم أرسل

(١) القولنج (بضم القاف وقد تفتح، وبفتح اللام وقد تكسر) : مرض معوىّ مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح .

(٢) الذى فى الجامع الصغير : «أمتى يوم القيامة غر من السجود محجلون من الوضوء» .

(٣) كذا فى الأغانى . والصبرة : المناسب من معانيها هنا أن تكون بالضم بمعنى الكومة المجتمعة من الطعام وغيره . وفى الأصول : «كالشعرة» . ولم نجد لها معنى مناسبا .

(٤) الزور : وسط الصدر .

وجهه حتى كاد ذقنه يجوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر فى سـيف؛ ثم نزع ثيابه وتحادب، فصار فى ظهـره حدبة كسنام البعـير، وصار طوله مقدار شِـبر، ثم نزع سراويله، وجعل يمد جِلد خصييه حتى حك بهما الأرض، ثم خلّاهمـا من يده، وجعل يميس، وهما يخطان الأرض، ثم قام فتطاول وتمدّد وتمطّى، حتى صار كأطول ما يكون من الرجال. فضحِك القوم حتى أغمى عليهم، وقُطع بالغاضرىّ فما تكلم بنادرة ولا زاد على أن يقول: يا أبا العلاء، لا أعاود ما تكره أبدا، إنمـا أنا عبدك وتخريجك؛ ثم انصرف أشعب وتركه.

وقال الزبير بن بكّار: حدثنى عمّى، قال: لِقى أشعبَ صديقٌ لأبيه، فقال له: ويلك يا أشعب! كان أبوك الحى وأنت أقطّ(١)، فإلى من خرجت تشـبه؟ قال: إلى أُمّى.

وقال الهيـثم بن عدِىّ: لقِيت أشعبَ فقلت له: كيف ترى أهـل زمانك هذا؟ قال: يسألونى عن أحاديث الملوك؛ ويعطوننى عطاء العبيد.

وقال مصعب بن عثمان: لقى أشـعبَ سالمُ بنُ عبـد الله بن عمر، فقال له: يا أشـعب، هل لك فى هرِيس أُعِدّ لنـا؟ قال: نعم، بأبى أنت وأمى. فمضى أشعب إلى منزله؛ فقالت له آمرأته: قد وجّه عبد الله بن عمرو بن عثمان يدعوك، قال: ويحك! إن لسالم بن عبد الله هريسة قد دعانى اليها، وعبـد الله بن عمرو فى يدى متى شئت، وسالم إنمـا دعوتُه للناس فتنة، وليس لى بدٌّ من المضىّ اليه. قالت: إذًا يغضب عبـد الله. قال: آكل عنده ثم أصير إلى عبد الله. فجاء إلى منزل سـالم فجعل يأكل أكلَ متعالِلٍ. فقال له: كل يا أشعب، وأبعث ما فضل

(١) الأقط: القصير الشعر.

عنك إلى منزلك . قال : ذلك أردت، بأبى أنت وأمّى . قال : فقال : ياغلام، (١٤)
احمل هذا إلى منزله، فحمله ومشى أشعب معه. فقالت امرأته : ثكلتك أمُّك، قد
حلف عبدالله لايكلّمك شهرا؛ قال: دعينى وإياه، هاتى شيئا من زعفران؛ فأعطته،
فأخذه ودخل الحمّام، فمسحه على وجهه وبدنه، وجلس فى الحمام حتى صفّره،
٥ وخرج متوكأ على عصا يرعد حتى أتى دار عبد الله بن عمرو بن عثمان . فلما رآه
حاجبه قال : ويحك ! بلغتْ بك العِلّةُ ما أرى . ودخل فأعلم صاحبه، فأذن له .
فلما دخل عليه، إذا سالم بن عبد الله عنده، فجعل يزيد فى الرعدة، ويقارب الخطو،
وجلس وما كاد أن يستقِلّ . فقال عبد الله : ظلمناك يا أشعب فى غضبنا عليك .
فقال له سالم : ويلك ! مالك ؟ ألم تكن عندى آنفا وأكلت هريسة ! قال : لقد
١٠ شُبّه لك، لاحول ولا قوة إلا بالله . قال : لعل الشيطان يتشبّه بك . قال أشعب :
علىّ وعلىّ إن كنت رأيتك منذ شهر . فقال له عبد الله : أعزب ويلك عن خالى !
أتبهته لا أمّ لك ! قال : ماقلتُ إلا حقّا . قال : بحياتى أصدُقْنى وأنت آمن
من غضبى . قال : وحياتِك لقد صدق؛ وحدّثه بالقصة؛ فضحك حتى استلقى
على قفاه .

١٥ وقال المدائنىّ والهيثم بن عدىّ : بعث الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان
إلى أشعب بعد ما طلّق امرأته سعدة، فقال له : يا أشعب، لك عندى عشرة
آلاف درهم على أن تُبَلّغ رسالتى سعدة . فقال له : أحضر المال حتى أنظر اليه،
فأحضر الوليد بَدْرة، فوضعها أشعب على عنقه، وقال : هات رسالتك . قال :
قل لها يقول لك :

٢٠ أسعدةُ هل اليك لنا سبيلٌ * وهل حتى القيامةِ من تلاقِ
بلى! ولعلّ دهرًا أن يؤاتى * بموتٍ من حليلِك أو طلاقِ

فأَصبِحَ شـامتاً وتقَرَّ عينى * ويجمعَ شملُنا بعـــد ٱفتراقِ

قال : فأتى أشعب الباب فأُخبِرتْ بمكانه ، فأمرت ففُرِش لها فرش وجلست وأذِنت له ؛ فدخل فأنشدها . فلما أنشد البيت الأوّل :

أسعدةُ هل اليك لنا سبيلٌ * وهل حتى القيامةِ من تلاقِ

قالت : لا والله ، لايكون ذلك أبدا . فلما أنشد البيت الثانى : ٥

بلى ! ولعلّ دهرا أن يؤاتى * بموتٍ من حليلك أو طلاقِ

قالت : كلّا إن شاء الله ، بل يفعل الله ذلك به . فلما أنشد البيت الثالث :

فأُصبِحَ شامتا وتقـرَّ عينى * ويُجمعَ شملُنا بعـــد ٱفتراق

قالت : بل تكون الشماتة به . ثم قالت لخدمها : خذوا الفاسِق . فقـال : ياسيِّدتى ، إنها عشرة آلاف درهم . قالت : والله لأقتلنّك أو تبلِّغه كما بلّغتنى . قال : ١٠ وما تَهَبِين لى ؟ قالت : بساطى الذى تحتى . قال : قومى عنه ؛ فقامت ، فطواه ، ثم قال : هاتى رسالتَك ، جُعلت فداكِ ! قالت : قل له :

أتبكِى على لُبْنَى وأنت تركتَها * فقد ذهبتْ لبنى فما أنت صانعُ ؟

فأقبل أشعب ، حتى دخل على الوليد ، فأنشده البيت . فقال : أوّه قتلتنى والله ! فما ترانى صانعا بك يا ٱبن الزانية ! اِختَرْ إمّا أنْ أُدلِيك مُنَكَّسًا فى بئر ، أو أرميَك من ١٥ فوق القصر منكّسا ، أو أضربَ رأسك بعمودى هـذا ضربة . قال له : ما كنتَ فاعلًا بى شيئا من ذلك . قال : ولم؟ قال : لأنك لم تكن لتعذِّب عينين قد نظرتا إلى سُعْدة ! قال : صدقت يا ٱبن الزانية !

ورَوى أبو الفرج الأصفهانىّ بإسناده إلى إبراهيم بن المهدىّ عن ٱبن أشعب عن أبيه ، قال : دُعِى ذات يوم بالمغنّين إلى الوليد بن يزيد ، وكنت نازلًا معهم ، ٢٠

فقلت للرسول : خذنى فيهم؛ قال: لم أؤمر بك؛ إنما أمرت بإحضار المغنين ، وأنت بطّال لا تدخل فى جملتهم . فقلت له : أنا والله أحسن غناءً منهم؛ ثم اندفعت فغنّيت. فقال : لقد سمعتُ حسنا، ولكن أخاف . قلت : لاخوف عليك؛ ولك مع ذلك شرط . قال : وما هو ؟ قلت : كل ما أصبت فلك شطره؛ فاشهد علىّ الجماعة، ومضينا حتى دخلنا على الوليد، وهو لَقِس النفس؛ فغنّاه المغنّون فى كل فنّ فلم يتحرّك ولم ينْشَط . فقام الأبجر إلى الخلاء، وكان خبيثا داهيا، فسأل الخادم عن خبره؛ فقال: بينه وبين امرأته شرّ، لأنه عشق أختها فغضبت عليه، وهو إلى أختها أميل، وقد عزم على طلاقها، وحلف ألّا يذكرها أبدًا بمراسلة أو مخاطبة ، فخرج على هذه الحال من عندها . فعاد الأبجر الينا، وجلس ثم اندفع يغنّى :

(١٥)

فبِنِى فإنى لا أُبالى وأيْقِنِى * أصعّد باقى حبّكم أم تَصَوّبا

ألم تعلمى أنى عَزُوفٌ عن الهوى * إذا صاحبى من غير شىء تَغَضّبا

فطَرِب الوليد وارتاح ، وقال للأبجر : أصبت والله يا عُبَيد ما فى نفسى ، وأمر له بعشرة آلاف درهم وشرِب حتى سَكِر، ولم يحظَ أحدٌ بشىء سوى الأبجر. فلما أيقنت بانقضاء المجلس وثبتُّ فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر من يضرب بى مائة سوط الساعة بحضرتك! فضحك. ثم قال: قبّحك الله! وما السبب فى ذلك؟ فأخبرته بقصّتى مع الرسول، وقلت له : إنه بدأنى بالمكروه فى أوّل يومه فاتصل(١) علىّ إلى آخره، فأريد أن أضرب مائة سوط ويضرب بعدى مثلها . فقال : لقد لطّفت، بل أعطوه مائة دينار ، وأعطوا الرسول خمسين دينارا من مالنا عوض الخمسين التى أراد أخذها من أشعب، فقبضتُها وانصرفت .

---

(١) فى الأغانى : « بما اتصل » .

قال ابن زَبَنَّج[1] : كان أبان بن عثمان من أهزل الناس وأعبثهم[2]، فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده أشعب، إذ أقبل أعرابىّ معـه جمل، والأعرابىّ أشقر أزرق أزعر يتلظّى كأنه أفعى، والشّرّ بيّنٌ فى وجهه، مايدنو منـه أحد إلا شتمه ونهره؛ فقال أبان: هذا والله من البادية[3]، ادعوه لى، فدعوه له وقيل: إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك؛ فأتاه فسلّم عليه، فسأله أبان بن عثمان عن نسبه، فانتسب له. فقال له أبان: حيّاك الله يا خال، اجلس، فجلس. فقال له: إنى أطلب جملًا مثل جملك هـذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهى بهذه الصفة وهذه الهامة والصورة والورك والأخفاف، والحمـد لله الذى جعل ظَفَرِى به عند من أُحبّه، أتبيعُنيه؟ فقال: نعم أيها الأمير. قال: فإنى قد بذلت لك به مائة دينار؛ فطمِع الأعرابىّ وسُرّ بذلك وانتفخ، وبان الطمع فى وجهه. فأقبل أبان على أشعب ثم قال له: ويلك يا أشعب! إن خالى هذا من أهلك وأقاربك (يعنى: فى الطمع) فأوسِعْ له مما عنـدك؛ قال: نعم، بأبى أنت وزيادة. فقال له أبان: يا خال، إنمـا زدتك فى الثمن على بصيرة أنّ الجمل يساوى ستين دينارا، ولكنى بذلت لك مائة دينار لقلة النقد عندنا، وإنى أُعطيك عُروضا تساوى مائة دينار؛ فزاد طمع الأعرابىّ وقال: قد قبلت ذلك أيها الأمير. وأسرّ أبان الى أشعب، فأخرج شيئا مغطًّى، فقال له: أخرج ما جئت به؛ فأخرج جرد عمامة تساوى أربعة دراهم. فقال له: قوّمها يا أشعب. فقال: عمامة الأمير يشهد فيها الأعيادَ والجُمَع ويلقَى فيها الخلفاء! خمسون دينارا. قال: ضعها بين يديه،

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٧ ص ١٠٢ طبع بولاق). وزبنج بفتح الزاى والباء وفتح النون مشدّدة، راوية ابن هرمة. وفى الأصول «ربيح» وهو تصحيف.

(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «وأولعهم» وهو تحريف.

(٣) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «البابة».

وقال لابن زَبَنّج: أثبت قيمتها، فكتب ذلك، ووُضعت العمامة بين يدى الأعرابىّ؛ فكاد يدخل بعضُه فى بعض غيظا، ولم يقدِر على الكلام. قال: هات قَلَنْسُوَتى، فأخرج قلنسوةً طويلة خَلَقًا[1] قد علاها الوسخ والدُّهْن وتخرّقت تساوى نصف درهم. قال: قَوِّم؛ فقال: قلنسوة الأمير تعلو هامته، ويصلّى فيها الصلوات الخمس، ويجلس فيها للحكم! ثلاثون دينارا. قال: أثبِتْ، فأثبت ذلك، ووُضعت القلنسوة بين يدى الأعرابىّ فاربَدّ وجهه وجحظت عيناه وهَمّ بالوثوب، ثم تماسك وهو مقلقل. ثم قال لأشعب: هاتِ ما عندك؛ فأخرج خُفّين خَلَقَين قد نُقبا وتقشّرا وتفتّتا، فقال: قَوِّمْ؛ فقال: خُفّا الأمير يطأ بهما الروضة، ويعلو بهما منبر النبىّ صلى الله عليه وسلم! أربعون دينارا، فقال: ضَعْهما بين يديه. ثم قال للأعرابى: أُضمم اليك متاعك، وقال لبعض الأعوان: آمِض مع الأعرابىّ وآقبض ما بقى لنا عليه من ثمن المتاع، وهو عشرون دينارا. فوثب الأعرابىّ فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم لا يألو فى شدّة الرمى، ثم قال له: أتدرى فى أى شىء أموت؟ قال لا؛ قال: لم أُدرك[2] أباك عثمان فأشترك والله فى دمه إذ وَلَد مثلك! ثم نهض كالمجنون حتى أخذ برأس بعيره، وضحِك أبان حتى سقط، وضحك من كان معه. فكان (١٦) الأعرابىّ بعد ذلك إذا لقِى أشعب يقول له: هلمّ إلىّ يابن الخبيثة، حتى أكافئك على تقويمك[3] المتاع يوم قوّمت؛ فيهرُب منه أشعب.

وقال المدائنىّ: حدّثنى شيخ من أهل المدينة قال: كانت آمرأة شديدة العين، لا تنظر الى شىء فتستحسنه إلا عانته؛ فدخلت على أشعب وهو فى الموت، وهو

(١) فى الأصل «خلقة» وهو خطأ، يقال: ثوب خلق وجبة خلق بغير هاء.

(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «كيف لا أدركت».

(٣) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «قيمتك»، وهو تحريف.

يقول لابنته : يا بنية ، إذا أنا مت فلا تندبيني ، والناس يسمعونك ، وتقولين : وا أبتاه ، أندبُك للصوم والصلاة ، للفقه والقرآن ، فيكذّب الناس ويلعنونني . ثم آلتفت فرأى المرأة ، فغطّى وجهه بكمه وقال لها : يا فلانة ، بالله إن كنت آستحسنت شيئا مما أنا فيـه ، فصلى على النبيّ صلى الله عليه وسـلم ولا تُهلكيني ؛ فغضبت المرأة وقالت : سخنت عينك ! وفي أي شيء أنت ممـا يستحسن ؟ أنت في آخر رمق ! قال : قـد علمت ، ولكن قلتُ لئلا تكوني قد آستحسنت خفة الموت عليّ وسهولة النزع ، فيشتدّ ما أنا فيه . فخرجت من عنده وهي تسبّه ، وضحك من كان حوله من كلامه ومات .

ذكر شيء من نوادر أبي دُلَامة

هو أبو دُلَامة زَنْد بن الجَوْن . وزند بالنون . وهو كوفيّ ، أسود ، مولى لبني أسد ؛ كان أبوه عبدا لرجل منهم يقال له قصاقص ، فأعتقه . وأدرك آخر زمن بني أمية ولم يكن له نباهة في أيامهم ، ونبغ في أيام بني العباس ، فانقطع الى أبي العباس السفّاح وأبي جعفر المنصور والمهـديّ ، وكانوا يقدّمونه ويفضّلونه ويستطيبون مجالسته ونوادره .

قال أبو الفرج الأصفهانيّ : كان أبو دُلامة رديء المذهب ، مرتكبا للمحارم ، مُضيّعا للفروض ، متجاهرا بذلك ؛ وكان يُعْلَم هـذا منه ويُعْرَف به ، فيُتَجافَى عنـه للطف محلّه . وله أخبار وأشعار ليس هذا موضع ذكرها ، وإنما نثبت في هذا الموضع ما له من نادرة أو حكاية مستظرفة . فمن ذلك أنه دخل على أبي جعفر المنصور ، وكان المنصور قد أمر أصحـابه بلُبْس السواد والقلانس الطوال ، تُدعم[2] بعيدان من

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصول : «ولكن قد لا تكونين» وهو تحريف .

(٢) كذا في الأغاني (ج ٩ ص ١ طبع بولاق) . وفي الأصول : «وتدعم» .

داخلها، وأن يعلّقوا السيوف فى المناطق، ويكتبوا على ظهورهم: (فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ). فلما دخل عليه أبو دُلامة فى هذا الزىّ قال له المنصور: ما حالك؟ قال: شرّ حال يا أمير المؤمنين، وجهى فى نصفى، وسيفى فى آستى، وقد صَبَغتُ بالسواد ثيابى ونبذتُ كتاب الله وراء ظهرى؛ ثم أنشد:

٥ وكنا نرجى مِنحةً من إمامنا * فجاءت بطُولٍ زاده فى القَلانِسِ
تراها على هام الرجال كأنها * دِنانُ[1] يهودٍ جُلِّلَتْ بالبَرانِسِ

فضحك منه المنصور وأعفاه وحذّره من ذلك، وقال: إياك أن يسمع هذا منك أحد.

وحكى عنه: أنه كان واقفا بين يدى السفاح أو المنصور، فقال له: سلنى

١٠ حاجتك؛ فقال أبو دلامة: كلب صيد؛ قال: أعطوه إياه. قال: ودابّة أتصيّد عليها. قال: أعطوه. قال: وغلام يقود الكلب ويتصيّد به؛ قال: أعطوه غلاما. قال: وجارية تُصلح لنا الصيد وتُطعمنا منه؛ قال: أعطوه جارية. قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال[2] فلا بدّ لهم من دار يسكنونها؛ قال: أعطوه دارًا تجمعهم. قال: فإن لم يكن ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: قد أقطعتك مائة جَرِيب[3] عامرة

١٥ ومائة جريب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: مالا نبات فيه. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافى بنى أسد. فضحك وقال: آجعلوا المائتين كلها عامرة. قال: فأْذَنْ لى أن أقبّل يدك؛ قال: أمّا هذه فدعها، فإنى لا أفعل. قال: والله ما منعت عيالى شيئا أقلّ عليهم ضررا منها.

---

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «ديار» وهو تحريف.

٢ (٢) فى الأغانى: «عيدك».

(٣) الجريب: مقدار معين من مساحة الأرض.

ورُوى : أنه دخل على المنصور فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

إنّ الخليط أجدّوا البين فٱنتجعوا * وزوّدوك خبالًا بئس ما صنعوا

والله يعلم أن كادت، لبينهم * يوم الفراق، حصاة القلب تنصدع

عجبتُ من صِبْيتى يومًا وأمِّهمُ * أمّ الدُّلامة لمّا هاجها الجزع

لا بارك الله فيها من مُنَبِّهةٍ * هبّتْ تلوم عيالى بعد ما هجعوا

ونحن مُشتبهو الألوان، أوجهنا * سود قباح، وفى أسمائنا شُنَعُ

إذا تَشَكّتْ إلىّ الجوعَ، قلتُ لها * ما هاج جوعَك إلا الرِّىّ والشِّبَعُ

أذابك الجوع مذ صارت عيالتنا * على الخليفة منه الرىّ والشبع (١)

لا والذى يا أمير المؤمنين قضى * لك الخلافة فى أسبابها الرِّفَعُ

ما زلت أُخلصها كسبى فتأكله * دونى ودون عيالى ثم تضطجع (١٧) ١٠

شوهاءُ مَشْنأةٌ (٢) فى بطنها ثَجَلٌ (٣) * وفى المَفَاصِلِ من أوصافها فَدَعُ (٤)

ذَكّرتُها بكتابِ الله حُرْمَتنا * ولم تكن بكتاب الله ترتجعُ

فأَخْرَنْطَمتْ (٥) ثم قالت وهى مُغْضَبةٌ (٦) * أأنت تتلو كتاب الله يا لُكَعُ!

---

(١) ورد هذا البيت فى الأصول : «قالت أذابك قد صارت الخ ...» . وهو تحريف . وقد أورد صاحب الأغانى هذا البيت على أنه رواية أخرى فى البيت قبله وهى الرواية الجيدة . ولذلك كانا متحدى القافيـــة . ٥

(٢) مشنأة : قبيحة .

(٣) الثجل : عظم البطن وٱسترخاؤه .

(٤) الفدع : اعوجاج الرسغ فى اليد أو الرجل .

(٥) ٱخرنطمت : رفعت أنفها ٱستكبارا أو غضبا . ٢٠

(٦) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « مصغية » وهو تحريف .

أخرُجْ تَبَغَّ لنا مالًا ومَزْرعةً * كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرَعُ
وآخْدَعْ خليفتَنا عنّا بمسألةٍ * إنّ الخليفة للسؤّال ينخدع

قال : فضحك أبو جعفر وقال : أرضوها عنه بمائتى جريب عامرة — ويروى ستمائة جريب عامرة وغامرة — فقال : أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة فيما بين الحِيرة والنّجَف ، وإن شئت زدتُك . فضحك وقال : آجعلوها كلها عامرة .

قال : ولمّا توفّى السفّاح دخل أبو دُلامة على المنصور والناس عنده يعزّونه ، فقال :

أمسيتَ بالأنبارِ يآبن محمد * لم تَستطِعْ عن عُقْرِها تحويلا
ويلى عليك وويل أهلى كلِّهم * ويلًا وعَوْلًا فى الحياة طويلًا
فَلْتَبْكِيَنّ لك السماءُ بعَبْرةٍ * ولتبكينّ لك الرجالُ عُويلا
مات الندى إذ متّ يآبن محمد * فجعلتَه لك فى التراب عديلا
إنى سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم * فوجدتُ أسمَح من سألتُ بخيلا
أَلِشقوتى أُخِّرتُ بعدك للتى * تدعُ العزيز من الرجال ذليلا؟
فَلَأَحْلِفَنّ يمينَ حقٍّ بَرّةٍ * تالله ما أُعطِيتُ بعدك سولا

قال : فأبكى الناس قولُه . فغضِب المنصور غضبًا شديدًا وقال : إن سمعتُك تُنشد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ أبا العباس أمير المؤمنين كان لى مُكرما ، وهو الذى جاء بى من البدو ، كما جاء الله بإخوة يوسف اليه ؛ فقل كما قال يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . فسُرِّىَ عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دُلامة ، فسل حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ولم أقبِضها . فقال المنصور : ومن يعلم ذلك؟ قال : هؤلاء (وأشار الى جماعة ممن حضر) فوثب سليمان آبن مُجالد وأبو الجهم فقالا : صَدَق أبو دُلامة ، نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبى

أيّوب الخازن [وهو مغيظ](١) : ياسليمان آدفعها اليـه وسَيِّره الى هـذا الطاغية (يعنى عبد الله بن علىّ ، وكان قد خرج بالشام وأظهر الخلاف) فوثب أبو دلامة وقال : يا أمير المؤمنين، أُعيذُك بالله أن أخرُج معهم، و والله إنى مشئوم . قال المنصور : امضِ فإن يُمْنِى يغلب شُـؤمَك. فقال : يا أمير المؤمنين، والله ما أُحبّ أن يجرّب ذلك منّى على مثل هذا العسكر، فإنى لا أدرى أيّهما يغلب: يمنك أو شؤمى؛ إلّا أنى بنفسى أوثق وأعرَف وأطولُ تجربة. فقال : دَعْنى وهذا، فمالك من الخروج بدّ . قال : فإنى أصْـدُقك الان، شهِدت والله تسعةَ عشر عسكرًا كلها هُزمت، وكنت سببها، فإن شئتَ الآن على بصيرةٍ أن يكون عسكرك تمام العشرين فافعل . فضحك المنصور وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

وعن جعفر بن حسين اللّهبىّ قال : حدثنى أبو دُلامة قال : أُتِى بِى المنصور او المهدىّ وأنا سكران، فحلف ليُخْرِجَنّى فى بَعْث حرب؛ فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المهلّبىّ لقتال الشُّراة(٢) . فلمـا آلتقى الجمعان قلت لروح : أما والله لو أنّ تحتى فرسَك ومعى سـلاحك لأثّرت فى عدوّك اليوم أثرًا ترتضيه ! فضحك وقال : والله العظيم لأدفعنّ اليك ذلك ولآخذنّك بالوفاء بشَرْطك؛ فنزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفع ذلك إلىّ ، ودعا بغيره فاستبدل به . فلمّا حصل ذلك فى يدى قلت : أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت أبياتا فاسمعها . قال : هات، فأنشدته :

إنى آستجرتُك أن أقدَّمَ فى الوغَى * لِتَطَاعُنٍ وتَنازُلٍ وضِرَابِ
فهَبِ السيوفَ رأيتُها مشهورةً * وتركتُها ومضيتُ فى الهُـرّاب
ماذا تقول لِمَـا يجىء ولا يُرَى * من بادرات الموتِ بالنُّشّـابِ

(١) زيادة عن الأغانى .

(٢) الشراة : الخوارج الذين شروا أنفسهم [أى باعوها] فى طاعة الله بالجنة .

(١٨) فقال : دع هـذا عنـك، وبَرَز رجل من الخوارج يدعو الى المبارزة فقال : اخرج اليـه يا أبا دُلامة . فقال : أَنشُـدك اللهَ أيها الأمير فى دمى . فقال : والله لَتَخْرُجنّ! فقلت : أيها الأمير، فإنه أوّل يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما تَنبعِث منى جارحةٌ من الجوع، فمُرْ لى بشىء آكلُه ثم أخرُج؛ فأمر لى برغيفين ودَجاجة ؛ فأخذت ذلك وبرزت عن الصفّ . فلما رآنى الشارى أقبـل نحوى وعليـه فروٌ قد أصابه المطر فابتلّ، وأصابته الشمس فاقفعلّ[1] وعيناه تَقِدان، فأسرع إلىّ؛ فقلت : على رِسْلك يا هذا! فوقف؛ فقلت : أتقتل من لا يقاتلك؟ قال لا . قلت : أتستحلّ أن تقتل رجلا على دينك ؟ قال لا . قلت : أفتستحلّ ذلك قبـل أن تدعو من تقاتله الى دينك؟ قال : لا، فاذهب عنى الى لعنة الله، فقلت : لا أفعل أو تسمعَ منى. قال : قل. فقلت : هل كانت بيننا عداوة أو تِرَةٌ أو تعرفنى بحالٍ تُحْفِظك علىّ أو تعلم بينى وبين أهلك وِترا؟ قال : لا والله؛ قلت: ولا أنا والله لك إلا على جميل [الرأى][2]، فإنى لأهواك وأنتحل مذهبك وأدين دينك وأريد السوء لمن أرادك. فقال : يا هذا، جزاك الله خيرا فانصرِف. قلت : إنّ معى زادًا أريد أن آكله وأُريد مؤاكلتك لتتوكّد المودّة بيننا ويرى أهلُ العسكرين هوانَهم علينا؛ قال : فافعل . فتقدّمت اليه حتى آختلفت أعناق دوابّنا وجمعنا أرجلنا على مَعَارِفها وجعلنا نأكل والناس قد غُلِبوا ضحكا . فلما آستوفينا ودّعنى، ثم قلت له : إنّ هـذا الجاهل، إن أقمتَ على طلب المبـارزة نَدَبنى اليك فتتعَب وتُتعبنى، فإن رأيت ألّا تبرز اليوم فافعل . قال : قد فعلت؛ فآنصرف وآنصرفت . فقلت لروح: أمّا أنا فقد كفيتُك قِرْنى ، فقل لغيرى يكفيك قِرْنَه كما كفيتك . وخرج آخر يدعو الى البِراز؛ فقال لى : اخرج اليه، فقلت :

(١) اقفعل : تقبض . (٢) زيادة عن الأغانى .

إنى أعوذ بروْح أن يُقَـدِّمَنى * الى القتال فتخزَى بى بنو أَسَدِ
إن البِرازَ الى الأقـران أعلمَـه * ممـا يُفرّق بين الرُّوح والجسد
قد حالفتك المنايا إذ رُصِدت لها * وأصبحت لجميع الخلق كالرَّصَد
إنّ المهلَّبَ حُبَّ الموت أورثكم * فما وَرِثْتُ اختيارَ الموت عن أحدِ
لو أنّ لى مهجةً أخرى لجُدْتُ بها * لكنها خُلقت فردًا فلم أَجُدِ

قال : فضحك روح وأعفانى .

قال : وشرب أبو دُلامة فى بعض الحانات وسكر، فمشى وهو يميـل ، فلقيـه العَسَس فأخذه ؛ فقيل له : من أنت؟ وما دينك؟ فقال :

دِينى على دين بنى العبّـاسِ * ما خُتِم الطِّين على القِرْطاسِ
إذا اصطحبتُ أربعًا بالكاسِ * فقـــد أدار شَرْبُهـا براسى
* فهل بما قلت لكم من باسِ *

فأخذوه وخرقـوا ثيابَه وساجه(١)، وأُتى به الى أبى جعفر ، فأمَر بحبسه مع الدَّجاج فى بيتٍ . فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرّةً وجاريته أخرى فلا يجيبه أحد ، وهو مع ذلك يسمع صـوت الدّجاج وزُقاء(٢) الديك . فلمّـا أكثر قال له السـجّان : ما شأنك ؟ قال : ويلك! من أنت ؟ وأين أنا؟ قال : أنت فى الحبس، وأنا فلان السجّان . قال : ومَنْ حَبَسنى ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ومن خرَق طيلَسانى؟ قال : الحرس . فطلب أن يأتيه بدواة وقرطاس، ففعـل فأتاه ؛ فكتب الى أبى جعفر المنصور يقول :

أميرَ المؤمنـين فَدَتْك نفسى * عَلَامَ حبستَنى وخَرَقْتَ ساجى

(١) الساج : الطيلسان .
(٢) الزقاء : الصياح .

أمِنْ صهباءَ صافيـةِ المِزاج * كأنّ شـعاعها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبِختْ بنـار الله حتى * لقد صارت من النُّطَفِ النِّضَاج
تَهَشُّ لهـا القلوب وتشتهيها * اذا بَرَزتْ تَرقْرَق فى الزُّجَاج
أُقاد الى السجون بغـير جُرْمٍ * كأنى بعضُ عمّـال الخراج!
فلَوْ معهم حُبِستُ لكان سهلا * ولكنى حُبِستُ مع الدجاج
وقد كانت تُخَـبِّرنى ذنوبى * بأنى من عِقابك غيرُ ناج
على أنّى وإن لاقيتُ شرًّا * لخيرِكَ بعد ذاك الشرِّ راجى

فاسـتدعاه المنصور وقال : أين حُبِست يا أبا دُلامة ؟ قال : مع الدَّجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أفوقَ(١) معهم الى الصباح ؛ فضحك وخلّى سبيلَه وأمر له بجائزة . فلما خرج قال الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين، أمَا سمعتَ قوله : وقـد طُبخت بنار الله ؟ (يعنى الشمس) قال : لا والله ، ما عَنَيتُ إلا نار الله المُوقَدة التى تَطّلِـع على فؤاد الربيع . فضحك المنصور وقال: خذها يا ربيع ولا تعاود التعرّضَ له . (١٩)

ورُوى عن المدائنىّ قال : دخل أبو دُلامة على المهدىّ وعنده إسماعيل بن على وعيسى بن موسى والعبّاس بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بنى هاشم ؛ فقال له المهدىّ : أنا أُعطِى الله عهدًا إن لم تَهْجُ واحدًا ممن فى البيت ، لأقطعنّ لسانَك أو لأضربنّ عُنُقَك . فنظر اليـه القوم ، وكلما نظر إلى أحد منهـم غمزه بأنّ علىّ رضاك . قال أبو دلامة : فعلمتُ أنى قد وقعت وأنهـا عَزْمةٌ من عَزَماته لابدّ منها ، فلم أرَ أحدًا أحقّ بالهجاء منّى ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسى، فقلت :

ألَا أبلِـغْ لديكَ أبا دُلامه * فلست من الكرامِ ولا كرامَه

(١) أفوقَ : أصيح .

إذا لبس العمامة كان قِـرْدًا (١) * وخـــنزيراً إذا نزع العمامه
جمعتَ دَمامةً وجمعت لؤمًا * كذاك اللؤم تتبعـه الذمامه
فإن تكُ قد أصبتَ نعيمَ دنيا * فلا تَفْرَحْ فقد دنتِ القيامه

فضحك القوم ولم يبقَ منهم أحد إلا أجازه .

قال : وخرج المهدىّ وعلىّ بن سليمان الى الصيد ، فسنح لهما قطيع من ظباء، فأُرسلت الكلاب وأُجرِيت الخيـل ، ورمى المهـدىّ سهما فأصاب ظبيا ، ورمى علىّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله؛ فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدىّ ظبيًا * شـكّ بالسهم فؤاده
وعلىّ بن سـليما * ن رمى كلباً فصـاده
فهنـــيئا لهـما كلّ امرئ يأكل زاده

فضحِك المهدىّ حتى كاد يسقط عن سرجه، وقال : صدق والله أبو دُلامة، وأمر له بجائزة سنية ؛ فلقّب علىّ بن سليمان بعد ذلك صائد الكلب ، فغلب عليه .

قال : وتوفّيت حمادة بنت عيسى، وحضر المنصور جنازتها؛ فلما وقف على حُفْرتها قال لأبى دُلامة : ماأعددت لهذه الحُفرة؟ قال : ابنة عمك يا أمير المؤمنين حمادة بنة عيسى يجاء بها الساعة فتدفن فيها . فضحك المنصور حتى غُلِب وستر وجهه .

قال الهيثم بن عدىّ رحمة الله عليـه : حجّت الخيزُران، فلمـا خرجت، صاح أبو دلأمة : جعلنى الله فداك ،اللهَ اللهَ فى أمرى ! فقالت : من هذا؟ قالوا : أبودلامة. فقالت : سلوه ما أمره ؛ قالوا له : ما أمرك ؟ قال : أدنونى من مَحْملها ؛ قالت أدنوه؛ فأُدنى، فقال لها : أيها السيدة، إنى شيخ كبير وأجرك فىّ عظيم . قالت :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « قلت قردا » .

فمه! قال: تَهَبِينى جاريةً من جَواريك تؤنسنى، وترفُق بى وتُريحنى من عجوز عندى؛ قد أكلت رِفدى، وأطالت كدّى؛ فقد عاف جلدى جلدَها، وتشوّقتُ فقدَها. فضحكت الخيزران وقالت: سوف آمرُ لك بما سألت. فلمّا رجعت تلقّاها وأذكرها وخرج معها الى بغداد، فأقام حتى غَرِض (١). ثم دخل على أمّ عَبِيدة حاضنة موسى وهارون فدفع اليها رقعة قد كتب بها الى الخيزران، فيها:

أبلغى سيّدتى بالله * يا أمّ عَبِيدَهْ
أنّها أرشدها الله * وإن كانت رشيده
وعدتنى قبل أن تخرجَ للحج وليده * فتأنّيتُ وأرسلتُ بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلفتُ لها أخرى جديده
ليس فى بيتى لتمهيد فِراشى من قعيده
غير عجفاء عجوز * ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حو * ت طَرِىٍّ فى عصيده
ما حياة مع أنثى * مثل عِرْسِى بسعيده

فلما قُرئت عليها، ضحكت ودعت بجارية من جواريها فائقة الجمال، فقالت لها: خُذِى كل مالك فى قصرى، ففعلت؛ ثم دعت بعضَ الخدم وقالت له: سلّمها الى أبى دُلامة. فانطلق الخادم بها فلم يصادفه فى منزله؛ فقال لامرأته: اذا رجع أبودلامة فادفعيها اليه وقولى له: تقول لك السيدة: أحسِنْ صُحْبة هذه الجارية فقد أمرت لك بها. فقالت له نعم. فلما خرج الخادم دخل ابنها دُلامة فوجد أمّه تبكى؛ فسألها عن خبرها فأخبرته وقالت: إن أردت أن تبرّنى يوماً من الأيام فاليوم.

(١) غرض: مل وضجر.

قال : قولى ما شئت فإنى أفعله . قالت : تدخل عليها فتعلمها أنك مالكها وتطؤها فتحرمها عليه وإلا ذهبتْ بعقله فجفانى وجفاك ، ففعل ودخل الى الجارية فوطئها ووافقها ذلك منه ، وخرج . فدخل أبو دلامة فقال لامرأته : أين الجارية؟ قالت : فى ذلك البيت ، فدخل اليها شيخ محطَّم ذاهب ، فمدّ يده اليها وذهب ليقبِّلها ؛ فقالت : مالك ويحك ! تَنَحَّ وإلّا لطمتُك لطمةً دققت منها أنفك . فقال لها : أبهذا أوصتك السيِّدة ؟ قالت : إنها بعثت بى الى فتى من هيئته وحاله كيت وكيت ، وقد كان عندى آنفا ونال منى حاجته . فعلم أنه قد دُهِى من أمّ دُلامة وابنها . فخرج أبو دلامة الى دُلامة فلطمه ولبّبه[1] وحلف ألّا يفارقه إلا الى المهدىّ . فمضى به مُلبِّبا[2] حتى وقف بباب المهدىّ ، فعُرِّف خبره ؛ وأنه جاء بابنه على تلك الحال . فأمر بإدخاله فلما دخل قال : مالك؟ قال : فعل بى هذا ابن الخبيثة ما لم يفعله ولد بأبيه ، ولا يرضينى إلا أن تقتله . قال : ويحك ! وما فعل بك ؟ فأخبره الخبر ؛ فضحك حتى استلقى ثم جلس . فقال له أبو دُلامة : أعجبك فعله فتضحك منه؟ ! فقال : علىّ بالسيف والنِّطع . فقال له دُلامة : قد سمعتَ قوله يا أمير المؤمنين ، فاسمع حجّتى . قال : هات ! قال : هذا الشيخ أصفق الناس وجها ، هو يفعل بأمّى منذ أربعين سنة ما غضِبتُ ، وفعلتُ أنا بجاريته مرّةً واحدة غضِب وصنع بى ما ترى . فضحك المهدىّ أشدّ من ضحكه الأوّل ، ثم قال : دَعْها له يا أبا دُلامة ، وأنا أُعطيك خيرا منها ؛ قال : على أن تخبأها لى بين السماء والأرض وإلا فعَل بها والله كما فعل بهذه ؛ فتقدّم إلى دُلامة ألّا يعاود مثل فعله ، وحلف أنه إن عاود قتله ، ثم وهب له جارية .

---

(١) كذا فى الأغانى . ولبيه : جمع ثيابه عند صدره ونحره وجره . وفى الأصول : « وتلبب به » وتلبب بالشىء : تحزم به وهى غير لائقة .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول . « متلبيا به » .

قال عبد الله بن صالح رحمه الله: جاء ٱبن أبى دُلامة يوما الى أبيه وهو فى محفل من جيرانه وعشيرته فجلس بين يديه ، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم : إنّ شيخى كما ترون قد كبِر سنُّه ورَقّ جلده ودقّ عظمه ، وبنا الى حياته حاجة شديدة ، فلا أزال أُشير عليه بالشىء يُمسك رمقَه ويُبقى قوّته فيخالفنى فيه ، وإنى أسألكم أن تسألوه قضاء حاجة لى أذكرها بحضرتكم فيها صلاح جسمه وبقاء حياته ، فأسعفونى بمسألته معى . فقالوا : نفعل حبًّا وكرامة ، ثم أقبلوا على أبى دُلامة بألسنتهم فتناولوه بالعتاب حتى رضى ٱبنه وهو ساكت ، قال : قولوا لخبيث فليقل مايريد ، فستعلمون أنه لم يأت إلا ببليّة . فقالوا له : قل ، فقال : إن أبى إنما قتله كثرة الجماع ، فتعاونونى حتى أخصيه ، فلن يقطعه عن ذلك غير الخصاء فيكون أصحّ لجسمه وأطول لعمره . فعجبوا بما أتى به وضحكوا . ثم قالوا لأبى دُلامة : قد سمعتَ فأجِبْ . قال : قد سمعتم أنتم فعرفتكم أنه لم يأت بخير . قالوا : فما عندك فى هذا ؟ قال : قد جعلتُ أمّه حكما فيما بينى وبينه ، فقوموا بنا اليها . فقاموا بأجمعهم ودخلوا اليها ، وقصّ أبو دلامة القصة عليها وقال : قد حكّمتك . فأقبلت على الجماعة فقالت : إن ٱبنى هذا أبقاه الله قد نصح أباه ولم يألُ جهدا ، وما أنا إلى بقاء أبيه أحوج منى الى بقائه ، وهذا أمر لم يقع به تجربة منّا ولاجرى بمثله عادة لنا ، وما أشك فى معرفته بذلك ، فليبدأ بنفسه فليخصها ، فاذا عوفى ورأينا ذلك قد أثّر عليه أثرا محمودا ٱستعمله أبوه . فضحك أبوه والقوم وٱنصرفوا يعجبون من خبثهم جميعا .

ومنهم أبو صدقة .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « ما أنا إلا الى » .

ذكر شيء من نوادر أبي صدقة

هو أبو صدقة مسكين بن صدقة من أهل المدينة مولى لقريش. قال أبو الفرج: وكان مليح الغناء طيب الصوت كثير الرواية صالح الصنعة، من أكثر الناس نادرة وأخفّهم رُوحا وأشدّهم طمعا وألحّهم مسألة، وهو من المغنّين الذين أقدمهم الرشيد من الحجاز فى أيامه. قيل: إنه عوتب على كثرة إلحاحه فى المسألة، فقال: وما يمنعنى من ذلك، وآسمى مسكين وكنيتى أبو صدقة وآبنتى فاقة وآبنى صـدقة، فمَنْ أحقُّ بهذا منى؟ وكان الرشيد يعبث به كثيرا؛ فقال ذات يوم لمسرور: قل لآبن جامع وإبراهيم الموصلىّ وزبير بن دحمان وزلزل وبرصوما وآبن أبى مريم المدينىّ: إذا رأيتمونى قد طابت نفسى، فليسأل كل واحد منكم حاجة، مقدارها مقدار صلته، وذكر لكل واحد منهم مبلغ ذلك، وأمرهم أن يكتبوا أمرهم عن أبى صدقة؛ فقال لهم مسرور ما أمر به الرشيد. ثم أذن الرشيد لأبى صدقة قبل إذنه لهم. فلما جلس قال له: يا أبا صدقة، لقد أضجرتنى بكثرة مسألتك وأنا فى هذا اليوم ضجر وأحببت أن أتفرّج وأفرح، ولست آمن أن تنغص علىّ مجلسى بمسألتك، فإما أن تعفينى أن تسألنى اليوم حاجة وإلّا فانصرف. فقال له: لست من يومى هذا الى شهر أسألك حاجة. فقال له الرشيد: أمّا إذ شَرَطت لى هذا على نفسك فقد اشتريت منك حوائجك بخمسمائة دينار وهاهى ذه فخذها طيبة معجلة، فإن سألتنى شيئا بعدها من هذا اليوم فلا لوم علىّ إن لم أصلك سنةً بشىء. فقال: نعم وسنتين. فقال له الرشيد: زدنى فى الوثيقة. فقال: قد جعلت أمر أمّ صـدقة فى يدك فطلّقها متى شئتَ، إن شئت واحدة وإن شئت ألفا إن سألتُك فى يومى هذا حاجة، وأشهدتُ الله ومَنْ حضر على ذلك. فدفع اليه المـال، ثم أذن للجلساء والمغنّين فدخلوا وشرب القوم. فلما طابت نفس الرشيد، قال له آبن جامع: يا أمير المؤمنين، قد نِلت منك مالم تبلغه أُمنيّتى،

وكثر إحسانك إلىّ حتى كَبَتّ أعدائى وقتلتهم، وليس لى بمكة دار تشبه حالى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بمالٍ أبنى به دارا وأفرشها بباقيه لأفقأ عيون أعدائى وأزهق نفوسهم فعل . فقال له : وكم قدّرت لذلك؟ قال : أربعة آلاف دينار، فأمر له بها . وقام إبراهيم الموصلىّ فقال : يا أمير المؤمنين، قد ظهرت نعمتك علىّ وعلى الكبار من ولدى؛ وفى أصاغرهم من أحتاج [إلى] (١) خِتانه، وفيهم صغار أحتاج أن أتخذ لهم خدما؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يحسن معونتى على ذلك فعل . فأمر له بمثل ما أمر به لابن جامع . وجعل كل واحد منهم يقول فى الثناء ما يحضره ويسأل حاجته على قدر جائزته، وأبو صدقة ينظر إلى الأموال تُفرَّق يمينا وشمالا، فوثب قائما ورمى بالدنانير من كمّه وقال للرشيد : أقِلْنى أقال الله عَثْرَتَك . فقال الرشيد : لا أفعل . فجعل يستحلفه ويضطرب ويلحّ والرشيد يضحك ويقول : مالى إلى ذلك سبيل، الشرط أمْلَكُ . فلمّا عيل صبرُه أخذ الدنانير ورمى بها بين يدى الرشيد وقال : ها كها قد رددتها عليك وزدتك أمّ صدقة فطلِّقها واحدة إن شئت وإن شئت ألفا . وإن لم تلحقنى بجوائز القوم فألحقنى بجائزة هذا البارد عمرو الغزّال — وكانت جائزته ثلاثة آلاف دينار — فضحك حتى استلقى ثم رد عليه الخمسمائة الدينار وأمر له بألفٍ أخرى معها، وكان ذلك أكثر ما أخذه منذ خدمه إلى أن مات، رحمة الله عليهم .

وروى أبو الفرج عن أبى إسحاق قال : مُطِرنا ونحن مع الرشيد بالرَّقّة مع الفجر فاتّصل إلى غد ذلك اليوم، وعرفنا خبر الرشيد أنه مقيم عند أمّ ولده المسماة سحر، فتشاغلنا عنه فى منازلنا . فلما كان من غد جاءنا رسول الرشيد فحضرنا جميعا، وأقبل يسأل كلّ واحد منا عن يومه الماضى وما صنع فيه؛ فيخبره إلى أن انتهى

(١) زيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ١٥٨ طبع أوربا) . وقد جاء الكلام فيه هكذا : «وفى أصاغرهم من قد بلغ وأريد تزويجه، ومن أصاغرهم من أحتاج الى أن أطهره ... الخ» .

إلى جعفر بن يحيى، فسأله عن خبره فقال له : كان عندى أبو زكّار الأعمى وأبو صدقة، وكان أبو زكّار كلّما غنّى صوتا، لم يفرغ منه حتى يأخذه أبو صدقة ؛ فإذا انتهى الدور اليه أعاده وحكى أبا زكّار فيه وحركاته وشمائله، ويفطن أبو زكّار لذلك فيُجَنّ ويموت غيظا ويشتم أبا صدقة كلّ الشتم حتى يضجر، وهو لايجيبه ولا يدع العبث به وأنا أضحك من ذلك، إلى أن توسّطنا الشرب وسمّنا من عبثه به؛ فقلت له : دع هذا عنك وغنّ غناءك . فغنّى رَمَلًا ذكر أنه من صنعته، فطربت له والله يا أمير المؤمنين طربا ما أذكر أنى طربتُ مثله منذ حين(١) وهو :

فتنتنى بفاحم اللونِ جَعْدٍ * وبثغرٍ كأنه نظمُ دُرِّ

وبوجه كأنه طلعة البـد * روعينٍ فى طرفها نفثُ سِحرِ

فقلت له : أحسنتَ والله يا أبا صدقة ! فلم أسكت من هذه الكلمة حتى قال : ياسيدى إنى قد بنيت دارًا أنفقتُ عليها جميع مالى وما أعددت لها فرشا فأفرشها لى . فتغافلت عنه . وعاود الغناء فتعمّدتُ أن قلتُ(٢) : أحسنتَ، فسألنى فتغافلت؛ فقال : يا سيدى، هذا التغافل متى حدث لك ؟ سألتك بالله وبحقّ أبيك عليك إلا أجبتنى عن كلامى ولو بشتم . فأقبلتُ عليـه وقلت له : أنت والله بغيض ، اسكت يا بغيض، وآكفُفْ عن هـذه المسألة الملحّة . فوثب من بين يدىّ، فقلت : إنه قد خرج لحاجة، فإذا هو قد نزع ثيابه وتجرّد منها خوفا من أن تبتلّ ووقف تحت السماء لا يواريه شىء والمطر يأخذه ورفع رأسـه وقال : يا ربّ أنت تعلم أنى مُلْهٍ ولست نائحا، وعبدك الذى قد رفعته وأحوجتنى الى خدمته يقول لى : أحسنتَ لا يقول لى : أسأت، وأنا مذ جلست أقول له : بنيت ولا أقول له : هدمت، فيحلف

(١) فى الأصول : « منذ حين وزمان » ولا معنى لذكر كلمة « زمان » وهى غير موجودة فى الأغانى .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « لأن قلت » .

بك جرأة عليك أنى بغيض، فاحكم بينى و بينه فأنت خير الحاكمين . فغلبنى الضحك وأمرت به فتنحّى، وجهدت به أن يغنّى فامتنع، حتى حلفتُ له بحياتك أنى أفرش له داره يا أمير المؤمنين، وخدعته فلم أُسمِّ له بما أفرشها. فقال له الرشيد: طيِّبٌ والله! الآن تمّ لنا به اللهو، أدعُه فإنه اذا رآك سوف يتنجّزُك الفرشَ لأنك حلفتَ له بحياتى فهو يقتضيك ذاك بحضرتى ليكون أوفق له؛ فقل له: أنا أفرشها لك بالبوارىّ[1] وحاكِمْه الىّ . ثم دعا به فحضر؛ فلما استقرّ فى المجلس قال لجعفر: الفرش الذى حلفت بحياة أمير المؤمنين أنك تفرش به دارى، تقدَّمْ به . فقال له جعفر: اختر، إن شئت فرشتُها لك بالبوارىّ و إن شئت فبالبَردِىّ من الحصر؛ فصاح واضطرب . فقال له الرشيد: وكيف كانت القصة؟ فأخبره، فقال له: أخطأتَ يا أبا صدقة إذ لم تسمِّ النوع ولا حدّدت القيمة[2]؛ فاذا فرشها لك بالبردىّ أو بما دون ذلك فقد برّ فى يمينه، و إنما خدعك ولم تفطن أنت ولا توثّقت وضيّعت حقّك. فسكت ثم قال: نوفّر أيضا البردىّ والبوارىّ عليه أعزّه الله. وغنّى المغنّون حتى انتهى الدور اليه، فأخذ يغنّى غناء الملّاحين والبنّائين والسقّائين وما يجرى مجراه من الغناء. فقال له الرشيد: أىّ شىء هذا الغناء؟ قال: مَن فُرِش داره بالبوارىّ والبردىّ فهذا الغناء كثير منه، [وكثير][3] أيضا لمن هذه صلته . فضحك الرشيد وطرب وصفّق وأمر له بألف دينار من ماله، وقال له: افرش دارك بهذه . فقال: وحياتك يا أمير المؤمنين لا آخذها أو تحكم لى على جعفر بما وعدنى و إلا متُّ والله أسفا لفوات ما حصل فى طمعى ووُعِدتُ به؛ فحكم له على جعفر بخمسمائة دينار أخرى، فأمر له جعفر بها .

(١) البوارىّ جمع بارىّ وهو الحصير المنسوج .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول: « ونحدّ » .

(٣) زيادة عن الأغانى .

ذكر شيء من نوادر الأُقَيْشر (١)

هو أبو مُعرض المغيرة بن عبد الله بن معرض بن عمرو بن معرض بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . والأقيشر لقب غلب عليه لأنه كان أحمر الوجه أقيشر. قال أبو الفرج الأصفهانى : وعُمِّر الأقيشر عمرا طويلا ، ولعله ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام، وكان أبعد بنى أسد نسبًا . قال : وكان كوفيًا خليعا ماجنا مدمنا للخمر . وهو الذى يقول لنفسه :

فإنّ أبا معرِض إذ حسا * من التراح كأسا على المنبر

خطيبٌ لبيبٌ أبو معرِض * فإن لِيم فى الخمر لم يصبرِ

أحلّ الحرامَ أبو معرِض * فصار خليعا على المكبرِ

يحبّ اللئامَ ويَلْحى الكرام * وإن أقصروا عنه لم يُقصرِ

قال : وشرب الأقيشر فى بيت خمّار بالحِيرة، فجاءه الشُّرطُ ليأخذوه، فتحرز منهم وأغلق الباب وقال : لست أشرب فما سبيلكم علىّ ؟ قالوا : قد رأينا العُسّ فى كفّك وأنت تشرب . فقال : إنما شربت من لبن لَقْحة لصاحب هذه الدار، فما برحوا حتى أخذوا منه درهمين . فقال :

إنما لقحتُنا باطيَةٌ (٢) * فاذا ما مُزِجتْ كانتْ عَجَبْ

لبنٌ أصفرُ صافٍ لونُهُ * ينزع الباسور من عَجْبِ (٣) الذَّنبْ

إنما نشرب من أموالنا * فسلوا الشرطىّ ماهذا الغضبْ ؟

---

(١) الأقيشر هو تصغير أقشر وهو الشديد الحمرة .

(٢) الباطية : إناء من الزجاج للخمر يوضع بين الشرب يغترفون منه .

(٣) العجب : أصل الذنب .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن أبى عمرو الشيبانىّ وغيره قال : كان الأقيشر لا يسأل أحدا أكثر من خمسة دراهم ، يجعل درهمين للشراب ودرهما للطعام ودرهمين فى كِراء بغل الى الحيرة . وكان له جار يكنى أبا المضاء، له بغل يكريه ، فكان يعطيه درهمين ويأخذ بغله فيركبه الى الحيرة حتى يأتى به بيت الخمّار فينزل عنه ويربطه ، ثم يجلس للشرب حتى يمسى ثم يركبه . وله فى ذلك أشعار كثيرة .

قال وتزوج الأقيشر ابنة عمّ له يقال لها الرّباب ، على أربعة آلاف درهم — ويقال: على عشرة آلاف درهم — فأتى قومه فسألهم فلم يعطوه شيئا ،فأتى ابن رأس البغل[1] وهو دَهْقان[2] الصين، وكان مجوسيّا، فسأله فأعطاه الصَّدَاق كاملا، فقال :

كفانى المجوسىُّ هَمّ[3] الرّباب * فـدًى للمجوسىّ خالٌ وعمّ
شهدت بأنك رَطْب[4] اللسان * وأنك بحر جـوادٌ خِضَمّ
وأنك سـيد أهـلِ الجحيم * اذا ما تردّيت فيمن ظَلَمْ
تجاور هامان[5] فى قعرها * وفرعون والمكتنى بالحكَمْ

فقال له المجوسىّ : ويحك ! سألت قومك فما أعطوك شيئا ، وجئتنى فأعطيتك فجزيتنى هذا القول ولم أُفلت من شرّك! قال : أو ما ترضى أن جعلتك مع الملوك وقرين أبى جهل؟ . قال : ثم جاء الى عكرمة بن ربعىّ التميمىّ، فسأله فلم يعطه؟ شيئا، فقال فيه :

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٠ ص ٩٢ طبع بولاق) . وفى الأصول : « الى » وهو تحريف .
(٢) الدهقان (بالكسر والضم) : رئيس الإقليم .
(٣) فى الأغانى : « مهر » .
(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «بظر اللسان» .
(٥) فى الأغانى: «قارون» .

سألت ربيعة مَنْ شَرُّها * أبًا ثم أمًّا فقالوا لِمَـهْ
فقلت لأعلم مَنْ شَرُّكم * وأجعلَ للسبّ فيه سِمَهْ
فقالوا لِعكرمةَ المخزياتُ * وما ذا يرى الناس فى عِكرِمَهْ
فإن يك عبدا زكا ماله * فما غير ذا فيه من مكرَمَهْ

قال الأصمعى : قال عبد الملك بن مروان للأقيشر : أنشدنى أبياتك فى الخمر؛ فأنشده قوله :

تُريك القذى من دونها وهى دونه * لوجه أخيها فى الإناء قطوبُ
كميتٌ اذا شُجَّت(١) وفى الكأس وَرْدةٌ * لها فى عظام الشاربين دبيبُ

فقال له : أحسنت والله يا أبا مُعرض ! لقد أجدت فى وصفها ، وأظنك قد شربتها . فقال : والله يا أمير المؤمنين، إنه ليريبنى معرفتك بها . قال : وكان الأقيشر يأتى إخوانا له فيسألهم فيعطونه ، فأتى رجلا منهم فأمر له بخمسمائة درهم فأخذها ومضى الى الحانة فدفعها الى صاحبها، وقال له : أقم لى ما أحتاج اليه، ففعل . فانضم اليه رفقاء له فلم يزل معهم حتى نفدت الدراهم؛ فأتاهم بعد إنفاقها فاحتملوه يوما و يوما . فلما أتاهم فى اليوم الثالث نظروا اليه من بعيد ، فقالوا لصاحب الحانة : آصعد بنا الى الغرفة ، وأَعلِمْ الأقيشر أنا لم نأت اليوم، ففعل . فلما جاء الأقيشر أعلمه بما قالوا، فعلم أنه لا فرج له عند صاحب الحانة إلا برهنٍ، فطرح اليه بعض ثيابه وقال له : أقم لى ما أحتاج اليه، ففعل . فلما أخذ منه الشراب أخذ يقول :

يا خليلىَّ آسقيانِى كأسا * ثمّ كأسا حتى أَخِرَّ نُعاسا

(١) فى الأغانى : "فضت"

إن فى الغرفة التى فوق رأسى * لأُنَاسا يُخادِعون أُناسا
يشربون المعتّق الراح صِرفا * ثم لا يرفعــون للزّور(١) راسا

قال : فلما سمع أصحابه هــذا الشعر، فدّوه بآبائهم وأمهاتهم، ثم قالوا له : إمّا أن تصعد الينا و إما أن ننزل اليك، فصعِد اليهم .

٥ قال : وكان يختلف الى رجل من بنى تميم وكان يجرى عليه فى كل شهر عشرة دراهم، فجاءه مرة فوجده قد أصيب بابنه ، فردّته آمرأته عنه ، ثم عاد بعــد ذلك بيومين فردّته عنه أيضا ؛ فكتب اليه بيتى شــعر ودفع الرقعة اليها وقال : أوصليها اليه؛ فقرأها، فاذا فيها :

ألا أبلــغْ لديك أبا هشــامٍ * فإن الريح أبردُها الشّمالُ
١٠ عِداتُك فى الهلال عِداتُ صدقٍ * فهــل سمنتْ كما سمن الهــلالُ

فلما قرأ الرقعة أمر بردّه وقال : لقد سمنت وما بقى إلا الهزال إن تأخرت، فأمر له بها و زادها خمسة دراهم .

وكان الأقيشر مع شرفه وشعره يرضيه اليسير و يسخطه . وأخباره كثيرة ونوادره مشهورة ، وفيما أوردناه منهــا كفاية . ومات الأقيشر قتيلا . وقيــل : إنه مدح ١٥ عبد الله بن إسحــاق بن طلحة بن عبيد الله فلم يعطه شيئا فهجاه؛ فزعموا أنّ غلمانا لعبد الله بن إسحاق قتلوه؛ فاجتمع بنوأسد وادّعوا عليه قتل الأقيشر؛ فافتدى منهم بديتــه . وقال آبن الكلبىّ : كان الأقيشر مولّعا بهجاء عبــد الله بن إسحاق ومدح أخيــه زكريا . فقال لغلمانه : ألا تريحوننى منــه ! فانطلقوا فجمعوا بعرا وقصبا

(١) الزور : جمع زائر، كراكب وركب .

بظهر الكوفة وجعلوه فى وسط إِرَةٍ[1] ، وأقبـل الأقيشر سكرانا من الحِيرة على بغـل أبى المضاء المكارى ، فأنزلوه عن البغل وشدّوه رباطا ثم وضعوه فى تلك الإرَةِ وألهبوا النار فى القصب والبعر فمات ، ولم يُعلَم من قتله . والله أعلم .

ذكر شىء من نوادر ٱبن سَيَّابة

هو إبراهيم بن سَيَّابة مولى بنى هاشم . كان يقال : إن جدّه حجام أعتقـه بعض الهـاشميين . قـدّمه إبراهيم الموصلىّ وٱبنـه إسحاق لأنه مدحهما فرفعا من قدره وغنّيا بشعره ونوّها بذكـره . وكان خليعا ماجنا حسن النادرة . وله نوادر نذكر منها نُبَـذًا فيما رواه أبو الفرج الأصفهانىّ . منها مارواه عن إسحاق الموصـلىّ قال : أتى إبراهيم ٱبن سيابة وهو سكران ٱبنـا لسوّار بن عبد الله القاضى أمرد ، فعانقه وقبّله ؛ وكانت معـه دايةٌ يقال لها رَحَاص ، فقيل لهـا : إنه لم يقبّله تقبيل التسليم ، وإنما قبّله شهوةً ؛ فلحقته الداية فشتمته وأسمعته كلّ ما يكره ، وهجره الغلام بعد ذلك ؛ فقال :

لئن لثمتُـــك سِرًّا * فأبصرتنى رَحاصُ
وقال فى ذاك قومٌ * على ٱنتقاصى حِراصُ
هَجَـــرتَنى وأتتـنى * شتيمة وٱنتـقاصُ
فهاك فاقتصّ منى * إنّا الجروحَ قِصاصُ

وقد قيل : إنّ رَحاص هذه كانت مغنّية كان الغلام يهواها ، وإنه سكر ونام ، فقبّله ٱبن سيّابة . فلما ٱنتبه قال للمغنّية : ليت شعرى ! ما كان خبرك مع ابن سَيّابة ؟ فقالت له : سَلْ عن خبرك أنت معه ، وحدّثته بالقصة ؛ فهجره الغلام ، فقال هذا الشـــعر .

(١) الإرة : موضع النار .

وقال إسحاق بن إبراهيم : كان ابن سيّابة عندنا يومًا مع جماعة تتحدّث ونتناشد وهو يُنشد شيئا من شعره، فتحرّك فضرط فضرب بيده على آسته غير مكترث وقال: إما أن تسكتى حتى أتكلّم، وإما أن تتكلّمى حتى أسكت .

وقال جعفر الكاتب : قال لى إبراهيم بن سيّابة الشاعر : اذا كان عند جيرانك جنازة وليس فى بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة، فإن المصيبة عندك أكبر منها عند القوم، و بيتك أولى بالمأتم من بيتهم . وقال سليمان بن يحيى بن معاذ : قدِم علىّ إبراهيم بن سيّابة بنيسابور فأنزلته علىّ، فجاء ليلة من الليالى فجعل يصيح : يا أبا أيّوب، فخشيت أن يكون قد غشيه شىء، فقلت : ما تشاء ؟ فقال : (٢٦)

* أعيانىَ الشادنُ الربيبُ *

قلت بماذا ؟ فقال :

* أكتبُ أشكو فلا يُجيبُ *

فقلت : دَارِه وداوِه، فقال :

من أين أبغى شفاء قلبى * وإنما دائىَ الطبيبُ

فقلت : لا دواء إذًا إلا أن يفرّج الله عزّ وجلّ عنك . فقال :

يا رب فرّج إذًا وعَجِّل * فإنك السامعُ المجيبُ

ثم انصرف . وقد تقدّمت هذه الحكاية . والسلام .

ذكر شىء من نوادر مطيع بن إياس الكنانىّ وأخباره

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو شاعر من مخضرمى الدولتين الأمويّة والعباسيّة . كان ظريفًا خليعًا ماجنا حلو العشرة مليح النادرة قال : وكان متهما فى دينه بالزندقة . وكان مولده ومنشؤه بالكوفة، وكان منقطعا الى الوليد بن عبد الملك، ثم اتصل بخدمة الوليد بن يزيد . وكان سبب ذلك ما حكى عن حكَم

الوادىّ المغنّى، قال : غنّيت الوليد بن يزيد وهو غلام حديث السنّ بشعر مطيع بن أياس وهو :

إكليلُهـا ألوانُ * ووجهها فتّـانُ
وخالُهـا فـريدٌ * ليس له جيرانُ
اذا مشت تثنّتْ * كأنها ثعبانُ
قدجُدِلتْ فجاءتْ * كأنها عِنانُ

فطرِب حتى زحف عن مجلسه الىّ ، واستعادنى الصوت حتى صَحِل(١) صوتى؛ ثم قال : ويحك ! من يقول هذا ؟ فقلت : عبد لك يا أمير المؤمنين أرضاه لخدمتك. قال: ومن هو ؟ قلت : مطيع بن إياس . قال : وأين هو ؟ قلت : بالكوفة؛ فأمر أن يُحْمَلَ اليه مع البريد، فحُمِلَ اليه؛ فسأله عن الشعر فقال: من يقول هذا؟ فقال: عبدك أنا يا أمير المؤمنين . فقال له : أدن منى، فدنا منه فضمّه الوليد اليه وقبّل فاه وبين عينيه، وقبّل مطيعٌ رجليه والأرضَ بين يديه ؛ ثم أدناه حتى جلس فى أقرب المجالس اليه، وآصطبح معه أسبوعا متوالىَ الأيام على هذا الصوت . وكان فى خلال الدولة الأمويّة ينقطع الى أوليائها وعلمائها ، ثم آنقطع فى الدولة العباسيّة الى جعفر آبن أبى جعفر المنصور فكان معه حتى مات جعفر . ومات مطيع فى خلافة الهادى بعـد ثلاثه أشهر مضت منها . وله نوادر وأخبار مستظرفة هـذا موضع ذكرها ، فلنقتصر هاهنا من أخباره عليها دون غيرها .

قيل : سقط لمطيع حائطٌ؛ فقال له بعض أصحابه : آحمد الله على السلامة . قال : آحمد الله أنت إذ لم تَرُعْك هدته، ولم يصبك غباره، ولم تغرم أجرة بنائه .

(١) صحل : ج

ومن أخباره ما رواه أبو الفرج الأصفهانى بإسناده الى عبد الملك المروانى عن مطيع بن إياس، قال: قال لى حماد عَجْرَد يوما: هل لك أن أريك "خُشَّة" صديقتى وهى المعروفة بظبية الوادى! قلت نعم. قال: إنك إن قعدت عندها وخبُثت عينك (١) فى النظر أفسدتها علىّ. فقلت: لا والله لا أتكلّم بكلمة تسوءك ولأسرّنك. فمضى بى وقال: والله لئن خالفت ما قلت لأخرجنّك. قال: قلت: إن خالفت إلى ما تكره فاصنع بى ما أحببتَ. قال: آمض بنا فمضينا، فأدخلنى على أحسن خلق الله وأظرفهم وأحسنهم وجها. فلما رأيتها أخذنى الزَّمَعُ (٢)، وفطن لى فقال: آسكت يابن الزانية، فسكتُّ قليلا، فلحظتنى ولحظتها لحظة أخرى فغضب ووضع قلنسوته عن رأسه، وكانت صلعته حمراء كأنها آست قرد؛ فلما وضعها وجدت للكلام موضعا، فقلت:

وإن السوءة السوءا * ء يا حمّاد عن خُشَّهْ
عن الأُتْرُجّة الغضّـ * ـة والتفّاحة الهشّهْ

فالتفتَ الىّ وقال: فعلتها يابن الزانية! فقالت له: أحسن، فوالله ما بلغ صفتك بعد، فما تريد منه! فقال لها: يا زانية! فسبّته وتناورا، فشقّت قميصه وبصقت فى وجهه وقالت له: ما يُصادقك ويدع مثل هذا إلا زانية، وخرجنا وقد لقى كلّ بلاء، وقال لى: ألم أقل لك يابن الزانية: إنك ستفسد علىّ مجلسى! فأمسكت عن جوابه، وجعل يهجونى ويسبنى ويشكونى الى أصحابنا؛ فقالوا لى: آهجه ودعنا وإياه؛ فقلت:

ألا يا ظبيةَ الوادى * وذات الجسد الرادى
وزينَ المصرِ والدارِ * وزينَ الحىّ والنادى

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٢ ص ٨٢ طبع بولاق). وفى الأصول: «إنك إن بعدت عنها وحققت عينيك فى النظر... الخ».
(٢) الزمع: الدهش.

وذات المِبسم العذبِ * وذات المِبسم البادى
أما بالله تستحيـ * ـين من خلّة حمّادِ
لحـــمّادٌ فتى ليس * بذى عزٍّ فتتقادى
ولا مالٍ ولا طِرْفٍ * ولا حـــظٌّ(١) لمرتادِ
فتـــوبى واتقى الله * وبُتّى حبلَ عَجْـرَادِ
فقد مُيِّزتِ بالحسنِ * عن الخَـلْق بإفراد
وهـــذا البينُ قد حُمَّ * فجـــودى لِىَ بالزادِ

قال : فأخذ أصحابنا رقاعا فكتبوا الأبيات فيها وألقوها فى الطريق، وخرجت أنا فلم أدخل عليهم ذلك اليوم، فلما رآها وقرأها قال لهم : يا أولاد الزنا فعلها ابن الزانيـة وساعدتموه ؟ قال : وأخذها حكم الوادىّ فغنّى بها، فلم يبق بالكوفة سَقّاء ولا طحّان ولا مكارٍ إلا غنّى فيها ثم غبتُ مدّة وقدمتُ فأتانى فسلّم علىّ حتى قال لى :

أما بالله تستحيـ * ـين من خلّة حمّادِ

قتلتنى قتلك الله ! والله ما كلمتنى حتى الساعةَ . قال : قلت : اللهم أَدِم هجرها له وسوء رأيها فيه وأسفَه عليها وأغوه بها؛ فشتمنى ساعة . قال مطيع : ثم قلت له : قم امض بنا حتى أريك أختى — وكانت لمطيع صديقةٌ يسمّيها أختى وتسمّيه أخى، وكانت مغنّية — فلما خرجت الينا، دعوتُ قيّمةً لها فأسررت إليها فى أن تصلح لنا طعاما وشرابا، وعرفتها أن الذى معى حمّاد فضحكت . ثم أخذت صاحبتى فى الغناء وقد علمت بموضعه وعرفت، فكان أوّل ما غنّت :

أما بالله تستحيـ * ـين من خلّة حمّاد

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «خلط» وهو تحريف .

فقال لها : يازانية! وأقبل علىّ وقال : وأنت يازانى يابن الزانية! أسررتَ هذا الى قيّمتها! فقلت : لا والله كذبت. وشاتمتُه صاحبتى ساعةً ثم قامت فدخلت، وجعل يتغيّظ علىّ . فقلت : أنت ترى أنى أمرتها أن تغنّى بما غنّت ؟ فقال : أرى ذلك وأظنّه ظنّا لا والله ولكنى أتيقنه . فحلفت له بالطلاق على بطلان ظنّه وانصرفنا .

٥ وحكى قال يحيى بن زياد المحاربىّ لمطيع وكان صديقا له : انطلق بنا الى فلانة صديقتى، فإن بينى و بينها مغاضَبة لتُصلح بيننا و بئس المصلح والله أنتَ . قال : فدخلا عليها[1]، فأقبلا يتعاتبان ومطيعٌ ساكتٌ، حتى اذا أكثر قال يحيى : مايسكتك؟ أسكت الله نأمتك[2] ! قال مطيع :

أنت معتلّة عليــه وما زا * ل مُهينًا لنفسه فى رضاكِ

١٠ فأعجب يحيى وهشّ له . فقال مطيع :

فدعيه وواصلى ابنَ إياسٍ * جعلت نفسُه الغداة فداكِ

فقام يحيى اليــه بوسادة فى البيت فمــا زال يجلد بها رأسه و يقول : ألهذا جئتُ بك يابن الزانية ! ومطيع يُغوّث[3] حتى ملّ يحيى، والجارية تضحك منهما، ثم تركه .

ورُوىَ عن محمد بن الفضل السكونىّ قال : رفع صاحب الخبر الى المنصور أن ١٥ مطيع بن إياس زنديق وأنه يلازم ابنه جعفر و جماعة من أهل بيته، و يوشك أن يفسد أديانهم أو يُنسَبوا الى مذهبه . فقال له المهدىّ : أنا به عارف، أما الزندقة فليس من أهلها، ولكنه خبيث الدين فاسق مستحلٌّ للمحارم؛ قال : فأحضره وانهه[4] عن صحبة جعفر وسائر أهله؛ فأحضره المهدىّ وقال له : يا خبيث يا فاسق ! لقــد

(١) فى الأصول : « فدخلتا » ، والتصويب عن الأغانى .

٢٠ (٢) النأمة : الصوت . وأسكت الله تعالى نأمته أى أماته .

(٣) غوّث الرجل : قال واغوثاه .

(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « ونهاه » وهو لا يستقيم مع السياق .

أفسدت أخى ومن تصحبه من أهلى ، والله لقد بلغنى أنهـم يتقارعون عليك ، ولا يتم لهم سرور إلا بك ، وقد غررتهم وشهرتهم فى الناس ، ولولا أنى شهدت لك عند أمير المؤمنين بالبراءة مما نسبت اليه من الزندقة ، لقد كان أمر بضرب عنقك ! يا ربيع آضربه مائة سوط وآحبسه . قال : ولِمَ يا سيدى ؟ قال : لانك سِكّير خِمِّير قد أفسدت أهلى كلَّهـم بصحبتك . فقال له : إن أذِنت لى وسمعت احتججت . فقال له : قل ؛ فقال : أنا آمرؤ شاعر ، وسوقى إنمـا تنفُق مع الملوك[1] وقد كسدت عندكم ، وأنا فى أيامكم مُطَّرَح[2] ، وقد رضيتُ منها مع سَعتها للناس جميعا بالأكل على مائدة أخيك ، لا يتبع ذلك غيره ، وأصـفيته على ذلك شكرى وشـعرى ؛ فإن كان ذلك غاليا عنـدك تبتُ منـه . فأطرق المهدىّ ثم رفع رأسه فقال : قد رفع إلىّ صاحب الخبر أنك تتماجن على السؤّال ، وتضحك منهم . قال : لا والله ما ذاك من فعـلى ولا شأنى ولا جرى منّى قط إلا مرة واحدة ؛ فإن سائلا أعمى آعترضنى وقد عبرت الجسر على بغلتى ، فظنّنى من الجند فرفع عصاه فى وجهى ، ثم صاح : اللهم سخّر الخليفة لأن يعطى للجند أرزاقهم فيشتروا من التجار الأمتعة وتربح التجار عليهم فتدرّ أموالهم فتجب فيها الزكاة عليهم فيتصدّقوا علىّ منها . فنفرتْ بغلتى من صياحِهِ ورفعِهِ عصاه فى وجهى حتى كدتُ أسقط فى المـاء . فقلت : يا هذا ، ما رأيت أكثر فضولا منك ، سَلِ الله أن يرزقك ولا تجعل بينك و بينه هذه الحوالات والوسائط التى لا يحتاج إليها فإن هذه المسائل فضول . فضحك الناس منه ورفع علىّ فى الخبر [قولى له هذا][3] . فضحك المهدىّ وقال : خلّوه ولا يُضرَب ولا يُحبَس . فقال له : أدخل عليـك لَموْجدة وأخرج عن رضا وتَبرأ ساحتى وأنصرف بلا جائزة ! قال :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « على » .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « مطوح » بالواو وهو تصحيف .
(٣) زيادة عن الأغانى (ج ١٢ ص ١٠١ طبع بولاق) .

لا يجوز هذا، اعطوه مائتى دينار، ولا يعلم أمير المؤمنين فتُجدَّد عنده ذنوبُه؛ وقال له : آخرج عن بغداد ودع صحبة جعفر حتى ينساك أمير المؤمنين، ثم عد إلىّ . فقال له : فأين أقصد ؟ قال : أكتبُ الى سليمان بن علىّ فيولّيك عملا ويُحسِن اليك . قال : قد رضيت . فوفد الى سليمان بكتاب المهدىّ فولّاه الصدقة بالبصرة، وكان عليها داود بن أبى هند فعزلَه به .

وأخباره فى هذا الباب كثيرة أغضينا عن كثير منها .

ذكر شىء من نوادر أبى الشِّبل

هو عاصم بن وهب بن البَرَاجِم . مولده الكوفة . نشأ وتأدّب بالبصرة . وفد إلى سامَرّاء[1] أيام المتوكل ومدحه . وكان طيّبا كثير الغزل والنوادر والمجون . فنفق عند المتوكل وخدمه وآختصّ به وآمتدحه بقوله :

أقبلى فالخير مُقبِلْ * وآتركى قول المَعَلِّلْ
وثِقى بالنُّجح إن * أبصرتِ وجهَ المتوكِّلْ
ملكٌ يُنصف يا ظا * لمتى فينا ويعدِلْ
فهو الغاية والمأ * مول يرجوه المؤمِّلْ

فأمر له بثلاثين ألف درهم . وله أخبار مستظرفة تتضمن شعرا ونوادر تدلّ على ظرفه سنذكر منها طرفا . فمن ذلك ما حكى عنه : أنه مدح مالك بن طوق، وقدّر أن يعطيه ألف درهم . فبعث اليه بصرة مختومة فيها مائة دينار، فظن أنها دراهم فردها اليه وكتب معها :

فليت الذى جادت به كفُّ مالكٍ * ومالك مدسوسان فى آستِ أمِّ مالكِ

(١) سامرّاء : لغة فى سر من رأى، وهى مدينة كانت بين بغداد وتكريت .

وكان الى يوم القيامة فى آستها * فأيسرُ مفقـــودٍ وأيســـر هالكِ

وكان مالك يومئذ أميرا على الأهواز . فلما قرأ الرقعة أمر بإحضاره فأحضر وقال: ما هـــذا ؟ ظلمتنا وآعتديت علينا . فقال : قدّرت عندك ألف درهم فوصلتنى بمائة درهم . فقال : آفتحها ؛ ففتحها فإذا فيها مائة دينار ؛ فقال : أقِلْنى أيها الأمير . فقال: قد أقلتك ولك كل ماتحب أبدا ما بقيت وقصدتنى . ٥

قال : وكان له جار طبيب أحمق ، فمات فرثاه فقال :

قـــد بكاه بولُ المريض بدمع * واكفٍ فوق مقلتيـــه ذروفِ

ثم شـــقّت جيوبَهن القوارير * رُعليه ونُحْنَ نَوْحَ اللهيفِ

ياكساد الخيـــار شـــنبَر والأقـ * ـراص طرًّا ويا كساد السفوفِ

كنت تمشى مع القوىّ فإن جا * ء ضعيفٌ لم تكترث بالضعيفِ ١٠

لهف نفسى على صنوف رقاعا * تٍ تولّت منـــه وعقل سخيفِ

وقال أبو الشبل : كان خالد بن يزيد بن هُبَيرة يشرب النبيذ ، وكان يغشانا ، وكانت له جارية صفراء مغنية يقال لها لَهَب ، كانت تغشانا معه ، وكنت أعبث بها كثيرا . فقام مولاها يوما الى الخابية (١) يستقى نبيذا ، فاذا قميصه قد آنشقّ ؛ فقلت فيه :

قالت له لَهَبٌ يوما وجاد لهـــا * بالشِّعر فى باب فعلانٍ ومفعولِ ١٥ (٣٠)

أمّا القميصُ فقد أزرى الزمانُ به (٢) * فليت شعرِىَ ما حالُ السراويلِ

قال أبو الشبل : وكانت أمّ خالد هذا ضرّاطة تضرط على صوت العيدان وغيرها فى الإيقاع . فقلت فيه :

فى الحىّ من لاعدِمت خلّته * فتى إذا ماقطعتُـــه وصـــلا

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٣ ص ٢٣ طبع بولاق) . وفى الأصول : « الجابية » وهو تحريف . ٢٠

(٢) فى الأغانى : « أودى » .

له عجوزٌ بالحِبْقِ[1] أبصر من * أبصرتُه ضاربا ومرتجلا
نادمتُه مرّة وكنت فتى * مازلت أهوى وأشتهى الغزلا
حتى إذا ما أمالها سَكَرٌ * يبعث[2] فى قلبها لها مثلا
اتكأتْ يَسرة وقد خرفت[3] * أشراجها كى تقوّم الرَّمَلا
فلم تزل إستها تطارحنى * اسمعْ إلى من يسومنى العِللا

وقال محمد بن المرزبان : كنت أرى أبا الشبل كثيرا عند أبى ، وكان إذا حضر أضحك الثكلى بنوادره . فقال له أبى يوما : حدّثنا ببعض نوادرك وطرائفك . قال نعم . من طرائف أمورى أن ابنى زنى بجارية سِنديّة لبعض جيرانى ، فحبلت وولدت ، وكانت قيمة الجارية عشرين دينارا . فقال : يا أبت ، الصبىُّ والله ابنى ، فساومتُ فيه فقيل لى : خمسون دينارا . فقلت له : ويلك ! كنت تخبرنى وهى حبلى فأشتريها بعشرين دينارا ونربح الفضل بين الثمنين ! وأمسكت عن المساومة بالصبى حتى اشتريته من القوم بما أرادوا . ثم أحبلها ثانيا فولدت ابنا آخر ، فجاء يسألنى أن أبتاعه ، فقلت : عليك لعنة الله ، أى شىء حملك على أن تُحبِل هذه ، هلا عزلت عنها ! فقال : إنى لا أستحلّ العزلَ . ثم أقبل على جماعة عندى فجعل يقول : شيخ كبير يأمرنى بالعزل ويستحلّه . فقلت له : يابن الزانية ! تستحلّ الزنا وتتحرّج من العزل ! فضحكنا منه .

ذكر شىء من نوادر حمزة بن بَيْض الحنفى

كان شاعرا من شعراء الدولة الأمويّة ، وهو كوفىّ خليع ماجن . وكان منقطعاً إلى المهلّب بن أبى صُفْرةَ وولَدِه ، ثم إلى أبان بن الوليد وبِلال بن أبى بُرْدة ،

(١) الحبق : الضراط . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « شعث »
(٣) خرفت : أمالت وصرفت .

وآكتسب بالشعر من هؤلاء مالًا عظيما . يقال : إنه أخذ بالشعر من مال وشاء ورقيق وحُمْلان وغير ذلك ألفَ ألفِ درهم . وله نوادر ، منها ما حكاه أبو الفرج الأصفهانىّ عنه :

أنه كان يسامر عبد الملك بن بشر بن مروان ، وكان عبد الملك يعَبث به عبثًا شديدا . فوجّه اليه ليلةً برسول وقال : خذه على أىّ حالة وجدته ، وأحلَفه وغلّظ عليه الأيمان على ذلك . فمضى الرسول فهجَم عليه فوجده يريد أن يدخل الخلاء ، فقال له : أجِب الأمير . فقال : ويحك ! إنى أكلت طعامًا كثيرا وشربت نبيذًا حُلْوًا وأخذنى بطنى . فقال : والله ما تفارقنى أوْ أمضىَ بك اليه ولو سلحتَ فى ثيابك . فجهد فى الخلاص فلم يَقْدِر عليه . ومضى به ، فوجده قاعدًا فى طارمة[1] له وجاريةٌ جميلةٌ جالسة بين يديه ، وكان يتحظّاها ، تسجُر[2] الندَّ . فجلس حمزة يحادثه وهو يعالج ماهو فيه . قال حمزة : فعَرَضتْ لى ريح فقلت : أُسَرِّحها وأستريح لعل ريحها لا يظهر مع هذا الندِّ ، فأطلقتها ، فغلبت والله ريحَ البخور وغَمَرته . فقال : ما هذا ياحمزة ؟ فقلت : علىّ عهد الله وميثاقه وعلىّ المشْىُ والهَدْىُ إن كنتُ فعلتُها ! وماهذا إلا عمل هذه الجارية الفاجرة . فغضِب ، وخَجلت الجارية فما قدَرتْ على الكلام . ثم جاءتنى أُخرى فسرّحتها ، فسَطَع والله ريحُها . فقال : ما هذا ؟ ويلك ! أنت والله الآفة . فقلت : امرأتى طالق ثلاثًا إن كنتُ فعلتها . فقال : وهـذه اليمين لازمةٌ إن كنت فعلتها ، وما هو إلا عمل هذه الجارية ، وقال لها : ماقصّتك ؟ ويلك ! قُومى إلى الخلاء إن كنت تجدين شيئا . فزاد خَجَلُها ، وطمِعتُ فيها فسرّحت الثالثة فسطَع من ريحها مالم يكن فى الحساب . فغضِب عبد الملك حتى كاد يخرج من جِلْدِه ، ثم قال : ياحمزة ، خذ بيد الزانيـة فقد وهبتُها لك وآمضِ ، فقد نغّصت علىّ ليلتى . فأخذتُ بيدها

(١) الطارمة : بيت من خشب كالقبة . (٢) تسجر : تحرق .

وخرجتُ. فلقِينى خادم له فقال: ما تريد أن تصنع؟ فقلت له: أمضى بهذه الجارية. فقال: لاتفعل، فوالله لئن فعلت لَيُبْغِضنّك بغضًا لاتنتفع به بعده أبدا، وهذه مائتا دينار خذها ودع هذه الجارية فإنه يتحظّاها، وسيندَم على هبتــه إيّاها لك. فأبيتُ إلا بخمسمائة دينار. فقال: ليس غير ماذكرت لك. فأخذتها وتركت الجارية. فلما كان بعد ثلاث دعانى عبد الملك. فلمــا قرُبت من داره لقينى الخادم وقال لى: هل لك فى مائة أخرى وتقول مالا يضرّك ولعله ينفعك؟ قلت: وماذاك؟[1] قال: إذا دخلت فادَّعِ الفَسَوات الثلاث وانسبُها إلى نفسك وانضح[2] عن الجارية ماقرَفتَها به. فأخذتُها ودخلتُ على عبد الملك. فلما وقفتُ بين يديه قلت له: الأمان حتى أخبرك بخبر يسرّك ويُضحكك. قال: لك الأمان. فقلت: أرأيتَ ليلةَ كذا وكذا وما جرى؟ قال نعم. قلت: فعــلىّ وعلىّ إن كان فسا تلك الفَسَوات غيرى. فضحِك حتى سقَط على قفاه وقال: ويلك! فلم لم تخبرنى؟ قال فقلت: أردت بذلك خصالاً، منها أنى قمتُ فقضيت حاجتى وقد كان رسولك منعنى من ذلك. ومنها أنى أخذتُ جاريتــك. ومنهــا أنى كافأتك على أذاك لى بمثــله. قال: وأين الجارية؟ قلت: ما بَرِحَتْ من دارك ولا خرجَتْ حتى سلّمتها الى فلان الخادم وأخذتُ مائتى دينار. فسُرَّ بذلك وأمر لى بمــائتى دينار أخرى، وقال: هــذه لجميلِ فعلك فىَّ وتَرْكِكَ أخذَ الجارية. قال حمزة: ودخلتُ اليه يوماً وكان له غلام لم ير الناس أنتنَ إبطًا منــه. فقال لى: يا حمزة، سابِقْ غلامى هذا حتى يفوح صُنانكما، فأيّكما كان صُنانه أنتن فله مائة دينار. فطمِعتُ فى المــائة ويئستُ منها لمــا أعلمــه من نَتْن إبط الغــلام؛ فقلت: أفعل. وتعادينا ساعةً فسبَقنى، فسلَحتُ فى يدى ثم طليت إبطى بالسُّلاح؛ وقد كان عبد الملك جعل بيننا حكما؛ فلمّا

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «وماذا».
(٢) انضح، أى ادفع عنها.

دنا الغلام منه وشمّه وثب وقال : هذا والله لا يُشاكله شيء. فصِحت به : لا تعجَل علىّ بالحكم ، مكانك! ثم دنوت منه فألقمت أنفه إبطى حتى علمت أنه قد خالط دماغَه وأنا ممســك رأسه تحت يدى ؛ فصاح : الموت والله ! هذا بالكُنُف أشبه منه بالإبط . فضحِك عبد الملك ثم قال: أفحكمت له؟ قال نعم . فأخذت الدنانير.

قال : ودخلت يومًا على سليمان بن عبد الملك . فلما مَثَلت بين يديه قلت :

رأيتُك فى المنام شتَنتَ خزًّا * علىّ بنَفْسَجًا وقضيتَ دَيْنى

فصدِّقْ يافدتك النفسُ رؤيا * رأتها فى المنـام لديك عينى

قال سليمان : يا غلام ، أدخِلْه خزانةَ الكُسْوة وآشتُن عليه كلَّ ثوب خزّ بنفسجىّ ، فخرجتُ كأنى مِشْجَبٌ . ثم قال : كم دَينك؟ قلت : عشرة آلاف ؛ فأمر لى بها وما أعلم والله أنّى رأيت من ذلك شيئا .

ذكر شىء من نوادر أبى العيناء عفا الله عنه

هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان، من بنى حنيفة أهل اليمامة . وأُسِر ياسر فى سِباء فى خلافة المنصور. فلما صار فى يد المنصور أعتقه؛ فهم موالى بنى هاشم . وكان أبو العينـاء ضرير البصر، يقال : إنّ جدّه الأكبر لقى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فأساء مخاطبته فدعا عليه وعلى ولده بالعمى؛ فكلّ من عَمِى منهم فهو صحيح النسب . وهو ممن آشتهر بالمجون، وله نوادر وحكايات مستظرفة، ومراسلات عجيبة، سأورد منها طَرَفا، وأُسَطِّر طُرَفا . فمن ذلك : أنّ بعض الرؤساء قال له : يا أبا العيناء، لو مُتَّ لرقص الناس طَرَبًا وسرورا . فقال بديهةً :

أردتَ مَذَمّتى فأجدتَ مَدْحى * بحمـد الله ذلك لا بحمْـدِكْ

(١) شتنت : نسجت وحكت . (٢) المشجب : خشبات تنصب لتوضع عليها الثياب .

فلا تك واثقًا أبدًا بعَمْدٍ * فقد يأتى القضاءُ بغير عَمْدِكْ

ثم قال : أجل ! الناس قد ذهبوا، فلو رآنى الموتى لطربوا لدخول مثلى عليهم ، وحلول عقلى لديهم ، ووصول فضلى اليهم؛ فما زال الموتى يغبطونكم ويرحموننى بكم .

وقال : وآتصلت أشغال أبى الصَّقْر الوزير ، فتأخر توقيعه عن أبى العيناء برسومه . فكتب اليه : رقعتى، أطال الله بقاء الوزير ، رقعة مَنْ عَلِم شُغْلَك فأطْرَح عَذْلَك ؛ وحقّق أمرك فبسَط عُذْرَك . أمّا والليل اذا عسعس ، فالبنان لبنات الدِّنان، ومُلامسات الحِسان ؛ وأمّا والصبح اذا تنفّس، فالبنان للعِنان، ومؤامرات السلطان؛ فمَنْ أبو العيناء القرنان (١) ! . فوقّع أبو الصَّقْر تحت سطوره : لكل طعام مكان، ولكل مُعْوِز إمكان؛ وقد وقّعنا لك بالرسوم ، وجعلنا لك حظًّا من المقسوم؛ وكَفَينا أنفسَنا عُذْرَك الذى هو تعزير، ولسانك الذى هو تحذير . والسلام .

ثم لقيه أبو العيناء فى صدر موكبه فقال : طاعة شِيمَك لسلطان كَرَمك، ألزمتك الصبر على ذنوبى إليك، وتَجَنِّى خُلُق عليك . فقال أبو الصقر : كبير حَسناتك ، يستغرق يسير سيئاتك . فدعا له وآنصرف شاكرا . قال : وبسط أبو العيناء لسانه على أهله فى بعض الدواوين . فقال له فتى من أبناء الكتّاب كانت فيه جرأة : كلّ الناس لك يا أبا العيناء زوجة، وأنت زوجة أبى علىّ البصير . فقال له أبو العيناء: قد ملكنا عِصْمتك بيقين فَحْواك، ثم ننظر فى شكوك دعواك، وقد طلّقت الناس كلهم سواك؛ ذلك أدنى ألّا نعول، وفيك ما يروى الفحول، ويتجاوز السول . قال : ففضحه بهذا الكلام، فلم يُجبه . قال : وكان فى بنى الجراح فتى خليع ماجن فأراد العبث بأبى العيناء ؛ فنهاه نصحاؤه فأبى ؛ فقالوا : شأنك . فقال له :

(١) القرنان : من لاغيرة له .

يا أبا العيناء، متى أسلمت؟ فقال : حين آمن أهلُك وأبوك الذين لم يؤدّبوك . فقال له الفتى : إذًا قـد علمتُ أنك ما أسلمت . فقـال أبو العيناء : شهادتُك لأهلك دعوى، وشهادتى عليهم بلوى، وسترى أىّ السلطانين أقوى . وأىّ الشيطانين أغوى؛ وسيعلم أهلُك، ما جنى عليهم جهلُك . قال : فأتاه أبوه فتبرّأ من ذِمّتـه، ودفعه اليه برُمّته . فقال له أبو العيناء : قد وهبتُ جورَه لعَدْلِك، وتصدّقتُ بحُمقه على عقلك .

ومن أخبار أبى العيناء أيضا : أنّ محمد بن عبيد الله بن خاقان حمله على برذون زعم أنه غير فاره، فكتب الى أبيه : أَعلِم الوزير أعزّه الله تعالى أنّ أبا علىّ محمدا أراد أن يبرّنى فعقّنى، وأن يُركِبنى فأرجلنى ! أمر لى بدابّة تقف للنبرة، وتعثُر بالبعرة، كالقضيب اليابس عَجَفا، وكالعاشق المجهود دَنَفا؛ يساعد أعلاه لأسـفله[1]، حُبَاقه[2] مقرون بسُعَاله؛ فلو أمسك لترجّيت، أو أفرَد لتعزّيت؛ ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مُرْشِد، أو شاعر مُنْشِد؛ تضحك من فعله النسوان، ويتناغى من فعـله الصبيان؛ فمن صائح يصيح : داوِه بالطباشير، ومن قائل يقول : نقّ له من الشعير . قد حفظ الأشعار، وروى الأخبار، ولحق العلماء فى الأمصـار؛ فلو أُعين بنطق، لروى بحقّ وصـدق، عن جابر الجُعْفىّ، وعامر الشَّعْبىّ . وإنمـا أُتِيتُ من كاتبه الأعور، الذى اذا آختار لنفسه أطاب وأكثر، وإذا آختار لغيره أخبث وأنزر . فإن رأى الوزير أن يُبدلنى ويريحنى بمركوب يضحكنى كما يُضحَك منى، يمحو بحسنه وفراهته، ما سطّره العيب بقُبحه ودَمامته . ولست أردّ كرامَهْ، سرجَه ولجامَهْ؛ لأن الوزير أكرم من أن يسلب ما يُهديه، أو ينقض ما يمضيه . فوجّه اليـه عبيد الله برذوناً من براذينه بسَرْجه ولجامه. ثم آجتمع محمد

(١) كذا بالأصل . (٢) الحباق : الضراط .

ابن عبيد الله عند أبيه . فقال عبيد الله لأبى العيناء : شكوتَ دابّة محمد، وقد أخبرنى إنه ليشتريه منك الآن بمائة دينار، وما هذا ثمنه فلا يُشتَكَى . فقال : أعزّ الله الوزير لو لم أكذب مستزيدا، لم أنصرف مستفيدا . وإنى وإياه لكما قالت آمرأة العزيز: (اَلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ). فضحك عبيد الله وقال : حجّتك الداحضة ، بملاحتك وظَرْفك أبلغ من حجة غيرك البالغة . ودخل أبو العيناء على أبى الصَّقْر وكان قد تأخّر عنه، فقال : ما أخّرك عنا؟ قال : سُرِق حمارى . قال: وكيف سرق ؟ قال : لم أكن مع اللص فأخبرك . قال : فلم لم تأتِ على غيره؟ قال : أبعدنى عن الشراء قلّة يسارى، وكرِهت ذِلّة المُكارى، ومنّة العوارى . قال: وصار يوما الى باب صاعد بن مَخْلَد، فقيل له : هو مشغول يصلّى؛ فقال : لكلّ جديد لذّة . وكان صاعد نَصْرانيًا قبل الوزارة . وقال له صاعد يوما : ما الذى أخّرك عنّا ؟ قال : بنتى . قال : وكيف؟ قال : قالت لى : يا أبت، قد كنت تغدو من عندنا فتأتى بالحِلْعة السَّرِيّة، والجائزة السنِيّة، ثم أنت الآن تغدو مُسْدِفاً، وترجع مُعْتِما، فإلى من؟ قلت : إلى أبى العلاء ذى الدرايتين . قالت : أيُعطيك؟ قلت : لا . قالت : أفيشفّعك؟ قلت : لا . قالت : أيرفع مجلسك؟ قلت : لا . قالت : يا أبت لِمَ تَعبُدُ ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئا ! .

وقال له رجل من بنى هاشم : بلغنى أنك بغّاء . قال : ولم أنكرت ذلك مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مولى القوم منهم"؟ قال : إنك دعىّ فينا . قال : بِغائى صحّح نسبى فيكم . وسأل أبو العيناء الجاحظَ كتابا الى محمد بن عبد الملك فى شفاعة لصاحبٍ له؛ فكتب الكتاب وناوله الرجل؛ فعاد به الى أبى العيناء وقال: قد أسعف . قال : فهل قرأته؟ قال : لا، لأنه مختوم . قال : ويحك! فُضَّه لا يكون صحيفةَ المتلمّس . ففضّه فاذا فيه : مُوَصِّل كتابى سألنى فيه أبو العيناء، وقد عرفتَ

سفهه وبذاء لسانه، وما أراه لمعروفك أهلا . فإن أحسنت اليه فلا تحسبه علىّ يدا، وإن لم تحسن اليه لم أعُدّه عليك ذنبا، والســلام . فركب أبو العيناء الى الجاحظ وقال له: قد قرأتُ الكتاب يا أبا عثمان . فخجل الجاحظ وقال : يا أبا العيناء، هذه علامتى فيمن أعتنى به . قال : فإذا بلغك أنّ صاحبي قد شتمك فاعلم أنهـا علامته فيمن شكر معروفه . وقال أبو العيناء: مررت يوماً بدرب بسامَرّاء؛ فقال لى غلامى: يا مولاى، فى الدرب حَمَل سمين والدرب خال. فأمرته أن يأخذه وغطّيته بطيلَسانى وصرتُ به الى منزلى. فلما كان من الغد جاءتنى رُقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب مكتوب فيها : جُعلت فداك، ضاع لنا بالأمس حَمَل، فأخبرنى صبيان دَرْبنا أنك أنت سَرَقته، فأُمُرْ بردّه متفضّلا . قال أبو العيناء : فكتبت اليه : أى سبحان الله! ما أعجبَ هـذا الأمر! مشايخ دَرْبنـا يزعمون أنك بَغّاء وأُكذّبهم ولا أُصـدّقهم، وتصدّق أنت صبيان دربكم أنى سرقت الحمـل! . قال فسكت وما عاودنى . ولأبى العيناء أخبار كثيرة وحكايات مشهورة قد أوردنا منها ما يدخل فى هذا الباب وتركنا ما سواه .

ذكر ما ورد فى كراهة المزح

رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ مَزَح آستُخِفّ به" . وقال حكيم : خير المزاح لا يُنـال ، وشرّه لا يُقـال؛ سكرات الموت به مُحدِقة ، وعيون الآجال اليـه محدّقة . وقال آخر : تجنّب شؤم الهزل ونكد المزاح؛ فإنهـما بابان إذا فُتحا لم يُغْلَقا إلا بعـد عسر ، وخلان إذا لَقَحا لم ينتجا غيرَ ضُرّ . وقالوا : المُزاح يضع قدر الشريف، ويُذهب هيبـة الجليل . وقالوا : لا تقـل ما يسوءك عاجله، ويضرّك آجله . وقالوا : إيّاك وما يُستقبَح من الكلام، فإنه يُنفّر عنـك

الكرام، ويُحَسّر عليك اللئام . وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا المزاح ، فإنها حَمْقة تورث ضغينة . وقال حكيم لابنه : يا بنيّ، إياك والمزاح، فإنه يذهب ببهاء الوجه ويحطّ من المروءة . قال شاعر :

إكْرَهْ لنفسك ما لغيرك تكرَهُ * وافعل لنفسك فعلَ من يتنزّهُ (٣٤)

وارفَع بصمتك عنك سُبّاتِ الورى * خوفَ الجواب فإنه بك أشبَهُ

ودع الفكاهةَ بالمزاح فإنها * تُودى وتُسقط مَنْ بها يتفكّهُ

وقيل :

ألاربّ قولٍ قد جرى من ممازحٍ * فساق اليه الموتَ فى طَرَف الحبل

فإنّ مزاحَ المرء فى غير حينه * دليلٌ على فرط الحماقة والجهل

وقيل :

فإياك إيّاك المزاحَ فإنه * يُجَرّى عليك الطفلَ والرجلَ النَّذْلا

ويُذهِبُ ماءَ الوجه بعد بهائه * ويورثُ بعد العزّ صاحبَه ذُلّا

وقال بعض البلغاء : المزاح خَرَف، والاقتصاد فيه ظَرْف، والإفراط فيه ندامة. وقالوا : من كثر مزحه لم يسلم من استخفافٍ به أو حقدٍ عليه . ويقال : أكثر أسباب القطيعة المزاح . وإن كان لا غنى للنفس عنه للجَمّام (١)، فليكن بمقدار الملح فى الطعام . قال أبو الفتح البستىّ رحمه الله :

أفِدْ طبعَك المكدودَ بالهمّ راحةً * تراحُ وعلّله بشيءٍ من المزح

ولكن إذا أعطيته المزحَ فليكن * بمقدار ما يُعطَى الطعامُ من الملح

(١) الجمام (بالفتح) : الراحة .

وقيـــل :

اِمزَحْ بمقدار الطلاقة واجتنب * مزحًا تضاف به الى سوء الأدَبْ

لا تُغضبنَّ أخًا إذا مازحتَـــه * إن المزاح على مقـدّمة الغضَبْ

وقيـــل :

مازح صديقك ما أحبَّ مزاحا * وتوقَّ منـه فى المـزاح جِماحا ٥

فلربمـا مَزَح الصـديقُ بمزحةٍ * كانت لبـدء عداوةٍ مِفتـاحا

وقال سعيد بن العاص لولده : يابنىّ ، اِقتصد فى مزحك ، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء ، ويُجَرِّئ السفهاء . ويقال : المزاح أوّله فَرَح ، وآخره تَرَح . قال أبو العتاهية :

وترى الفتى يَلقَى أخاه وخِدْنَهُ * فى بعض مَنطِقه بمـا لا يُغفَـر

ويقـول كنتُ ملاعبًا وممازحًا * هيهات ! نارُك فى الحشا تتسعَّرُ ١٠

ألقيتها وطَفِقتَ تضحك لاهيًا * وفـؤادُه ممـا به يتفطَّـرُ

أوماعلمتَ ومثلُ جهلك غالبٌ * أنّ المزاح هو السِّبابُ الأكبرُ

فهذه نبذة مما قيل فى الفكاهات والمجون ، يفرح لها قلب المحزون ، وتزول عنه الشجون . فلنذكر ما قيل مما يناسب هذا الباب من أشعار المزّاحين .

ذكر شىء من الشعر المناسب لهذا الباب والداخل فيه ١٥

وسنورد فى هذا الفصل من أشعار هذا الفن ، ما رَفَلَتْ معانيه فى حُلَل أنفاسها على صفحات أطـراسها ، وأهلت مغانيـه بما أودعه لسانُ القلم صدرَ قرطاسها من بديع إيناسها . يُضحك سامعَه وإن كان ثَكِلا . ويستوفيه وإن كان عَجِلا . هذا مع ما فيه من فُحش القول الذى إذا تأمّلتـه فى موضـعه كان أزين من عقود اللآلى ،

وإن لمحتـه فى غيره كان أقفر من ظُلَم الليالى . نسأل الله المسامحة لكاتبـه وقائله ، ومستمعه وناقله . فمن ذلك ما كتب به ابن حجاج لمن شرب دواء :

يا أبا أحمـد بنفسىَ أفـديـك وأهـلى من سائر الأسواءِ
كيف كان انحطاطُ جَعْسك(١) فى طا * عةِ شـرب الدواء يوم الدواءِ
كيف أمسى سِبالُ مَبْعَرك النَّدْ(٢) * ل غريقا فى المرّة الصـفراء

وقال الحسن بن هانئ :

لَلطمـةٌ يلطِمـنى أمرَدٌ * تأخذ منّى العين والفكّا
أطيبُ من تُفّاحةٍ من يَدَىْ * ذى لِحيـةٍ مُحْشوّةٍ مسكا

وقال أبو عبد الله محمد بن الحسن الحجاج :

قُومِى تنحّىْ فلستِ من شانى * قُومِى اذهبى لا يراكِ شيطانى
لا كان دهرٌ عليـك حصّننى * ولا زمانٌ اليـكِ ألجانى
قعـدتِ تفسين فوق طِنْفستى * ما بين راحى وبين ريحانى
فما عَدِمنـا من الكنيف وقد * حَضَرتِ إلا بناتِ وَرْدانِ(٣)

وقال أبو بكر محمد الخوارزمىّ :

فسـا الشيخ سهوًا وفى كفّهِ * شرابٌ فلُمْنـاه لومًا قبيحا
فقـال لِىَ الدخلُ والخرجُ لِى * فأدخلتُ راحا وأخرجتُ ريحا

وقال ابن سكّرة الهاشمىّ :

وبات فى السطح معى صاحبٌ * من أكرم الناس ذوى الفضل
أفسو فيفسو فهو لى مُسعِدٌ * وإنمـا أُمـلِى ويَسـتملى

(١) الجعس : الرجيع . (٢) الندل : الوسخ .
(٣) بنات وردان : دواب حمراء اللون وأكثر ما تكون فى الحمامات وفى الكنف .

البـاب الرابع

من القسم الثـالث من الفنّ الثـانى

في الخمر وتحريمها وآفاتها وجناياتها وأسمائها، وأخبار من تنزّه عنها فى الجاهليّة، ومن حُدّ فيها من الأشراف، ومن اشتهر بها، ولبس ثوب الخلاعة بسببها، وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيـل فى وصف آلاتها وآنيتها، وما قيل فى مبادرة اللذّات، وما وُصفتْ به المجالس وما يجرى هذا المجرى

ذكر ما قيل فى الخمر وتحريمها

أجمع الناس على أنّ الخمر المحرَّمةَ فى كتاب الله عزّ وجلّ هى المتَّخَذة من عصير العِنب بعد أن يَغلِي ويقذِف بالزَّبَد من غير أن يمسّها نارٌ. واذا انقلبت بنفسها وتخلّلت طهُرت من غير أن يُتسبّب فى ذلك بشىء يُلقَى فيها. وطهارتها إذا غلبت عليها الحموضةُ وفارقتها النشوة. والخمر المتَّخَذة أيضا من التمر، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه: «الخمر من هاتين الشجرتين النخلةِ والعنبةِ». وفى حديثٍ آخرَ: «من هاتين الشجرتين الكَرْمةِ والنخلةِ». وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت عمر رضى الله عنه على منبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «أمّا بعد، أيها الناس: إنه نزل تحريمُ الخمـر وهى من خمسـةٍ، من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير». والخمر ماخامر العقـلَ. ولا خلاف بين أحدٍ من الأئمة فى أن الخمـر حرام، لمـا ورد فى ذلك من الكتاب والسنة. أما ماورد فى كتاب الله عزّ وجلّ فأربع آيات، منها مايقتضى الإباحة، ومنها مايقتضى الكراهة والتحريم. فأوّل مانزل فيها بمكة قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ

ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾. فكان المسلمون يشربونها يومئذٍ وهى حلالٌ لهم . ثم أنزل الله عزّ وجلّ بالمدينة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ نزلت هذه الآية فى عمر بن الخطّاب ومعاذ بن جبل ونفرٍ من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، أفتنا فى الخمر والميسر فإنهما مَذْهَبَةٌ للعقل مَسْلبةٌ للمال ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن ربكم تقدّم فى تحريم الخمر» . فتركها قوم للإثم الكبير وقالوا : لاحاجة لنا فى شربها ولا فى شىء فيه إثم كبير ، وشربَها قومٌ لقوله تعالى : ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ . وكانوا يستمتعون بمنافعها ويتجنّبون مآثمها ؛ الى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعا ناسا من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب ، فقدّموا بعضهم ليصلّى بهم ؛ فقرأ قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون الى آخر السورة بحذف "لا" فأنزل الله عزّ وجلّ . ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ فحرّم السكر فى أوقات الصلاة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الله عزّ وجلّ تقارب فى النهى عن شرب الخمر وما أراه إلا سيحرّمها . فلما نزلت هذه الآية تركها قومٌ ، وقالوا : لا خير فى شىء يحول بيننا وبين الصلاة . وقال قوم : نشربها ونجلس فى بيوتنا؛ فكانوا يتركونها وقت الصلاة ويشربونها فى غير حين الصلاة ؛ الى أن شربها رجلٌ من المسلمين، فجعل ينوح على قَتْلَى بدرٍ ويقول :

تُحيّا بالسلامة أمُّ بكرٍ * وهل لى بعد رهطك من سلامِ
ذَرينى أصطبحْ بِكرًا فإنى * رأيت الموت كَفَّتَ عن هِشامِ
وودّ بنو المُغيرة لو فدَوْهُ * بألفٍ من رجالٍ أو سَوامِ

فى أبيات أخر . فبلغ ذلك رســول الله صلّى الله عليه وسـلّم ، فجاء فَزِعا يجرّ رداءه حتى انتهى اليه ، ورفع شَنًّا كان فى يده ليضربه ؛ فلما عاينه الرجل قال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، والله لا أطعمها أبدا ؛ ثم نزلت آية التحريم وهى قوله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ . ورُوى أن هذه الآية نزلت فى شأن حمزة بن عبد المطّلب ، وكان نزولها وتحريم الخمر فى شهر ربيع الأوّل ســنة أربع من الهجرة .

وكان من خبر حمزة بن عبد المطّلب مارواه مسلم بن الحجاج بن مسلم فى صحيحه عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : أصبتُ شارفًا (١) مع رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم فى مَغْنَم يوم بدر ، وأعطانى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شارفًا أخرى من الخُمْس . قال علىّ : فلما أردت أن أبتنى بفاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واعدتُ رجلا صَوّاغا من بنى قَيْنُقاع (٢) يرتحل معى فنأتى بإذْخِرٍ (٣) أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به على وليمة عُرْسى . فبينا أنا أجمع لشارفىّ متاعًا من الأقتاب والغرائر والحبال ، وشارفاى مُناختان الى جنب حُجرة رجل من الأنصار ورجعت حين جمعتُ ما جمعتُ ، فاذا شارفاى قد اجتُبّتْ أسنمتهما وبُقِرت خواصرهما وأُخذ من أكبادهما ، فلم أملك نفسى حين رأيت ذلك المنظر منهما [أن] (٤) قلت : مَنْ فعل هذا؟ قالوا : فعله حمزة بن عبد المطلب وهو فى هــذا البيت فى شَرْبٍ من الأنصار ، غنّته قَيْنة وأصحابُه ، فقالت فى غنائها :

* ألَا يا حمزَ للشُّرُفِ النِّواءِ *

(١) الشارف : المسنة الهرمة من النوق .

(٢) بنو قينقاع (بفتح القاف وتثليث النون) : شعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة .

(٣) الإذخر : حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب . (٤) زيادة يقتضيها السياق .

ـ لم يذكر مسلم فى صحيحه من الشعر غير ماذكرناه . والأبيات التى غنّت بها :

ألا يا حمـز للشُّرُفِ(١) النِّواءِ * وهنّ معقَّـلاتٌ بالفِنـاءِ
ضع السكّين فى اللّبات منها * فضرّجهُنّ حمزةُ بالدماءِ
وعجّـلْ من شرائحهـا كبابًا * ملهـوجةً(٢) على وهج الصِّـلاءِ
وأصلِحْ من أطايبها طبيخًا * لشَرْبِك من قَديدٍ أو شِواءِ
فأنت أبا عمـارةِ المُـرَجّى * لكشف الضرّ عنها والبلاءِ

ـ فقام حمزةُ بالسيف فاجتبّ أسنمتهما و بقر خواصرهما وأخذ من أكبادهمـا . فقال علىّ : فانطلقت حتى أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده زيد بن حارثة . قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهى الذي لقيت ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " مالك "؟ قلت : يارسول الله ، ما رأيت كاليوم قط ، عدا حمزةُ على ناقتىّ فاجتبّ أسنمتهما و بقر خواصرهما وها هو ذا فى بيت معه شَرْبٌ . فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بردائه فارتداه ثم انطلق يمشى واتّبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء الباب الذى فيه حمزةُ ، فاستأذن فأذنوا له ، فإذا هم شَرْبٌ ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوم حمزةَ فيما فعل و إذا حمزةُ محمّرةٌ عيناه ، فنظر حمزةُ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعّد النظر الى ركبتيه ثم صعّد النظر الى سرّته ثم صعّد النظر فنظر الى وجهه ، فقال حمزة : وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبى ! فعرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه ثَمِلٌ ، فنكص رسول الله صلى الله عليه وسلّم على عقبيه القَهْقرى وخرج وخرجنا معه . وفى حديث آخر : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لعلىّ : "إنّ عمّك قد ثَمِلَ وهما لك علىّ" فغرمهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) الشرف : جمع شارف وهى الناقة المسنة كما تقدّم قريبا .

(٢) ملهوجة : غير ناضجة

لعلىّ . فلما أصبح حمزة غدا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعتذر . فقال : "مَهْ يا عم فقد سألتُ الله فعفا عنك" . قالوا : وآتخذ عتبان بن مالك صنيعًا ودعا رجالًا من المسلمين ، منهم سعد بن أبى وقّاص[1] ، وكان قد شوَى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى أخذت منهم ، ثم إنهم آفتخروا عند ذلك وآنتسبوا وتناشدوا الأشعار ، وأنشد سعد قصيدةً فيها هجاء الأنصار وفخرٌ لقومه ؛ فقام رجلٌ من الأنصار فأخذ لَحْىَ البعير فضرب به رأس سعد فشجّه شجّةً مُوضِحةً . فانطلق سعدٌ الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشكا اليه الأنصار . فقال عمر رضى الله عنه : اللهم بَيِّنْ لنا رأيك فى الخمر بيانا شافيًا ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ تحريم الخمر فى سورة المائدة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ الآية الى ﴿ مُنْتَهُونَ ﴾ . فقال عمر : انتهينا ياربِّ . وقيل : إنها حُرِّمت بعد غزوة الأحزاب بأيام فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة . والله أعلم . قال أنس رضى الله عنه : حُرِّمتْ ولم يكن للعرب يومئذ عيشٌ أعجبُ منها ، وما حُرِّم عليهم شيء أشدُّ من الخمر . قال : فأخرجنا الجِبابَ الى الطريق فصببنا ما فيها ، فمّنا من كسر حُبَّه ، ومنّا من غسله بالماء والطين ، ولقد غودرت أزقّة المدينة بعد ذلك حِينًا ، كلّما مُطِرت آستبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : كنتُ ساقى القوم يوم حُرِّمت الخمر فى بيت أبى طلحة ، وما شرابهم إلا فَضِيخ[2] البسر والتمر ، فاذا منادٍ ينادى ، فقال القوم : أُخرج فآنظر ، فاذا منادٍ ينادى : ألَا إنّ الخمر قد حُرِّمَتْ ، قال : فجَرَت فى سكك المدينة . فقال لى أبو طلحة : أُخرجْ فآهْرِقها فهرقتُها . فقالوا أو قال بعضهم : قُتِل فلان ! قُتِل فلان ! وهى فى بطونهم ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ .

(١) فى الأصل : «فنهم» . (٢) الفضيخ : نبيذ يعمل من البسر والتمر .

***

وأما ماورد فى تحريمها فى كتاب الله وبيَّنته السُّنَّةُ، فالأحاديث متضافرة فى تحريمها . فمن ذلك ما رُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : « من مات وهو مدمنُ خمرٍ لقى الله وهو كعابدِ وثن » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايدخل الجنة مدمنُ خمرٍ » . وأمّا من زعم أنها تباح للتَّداوى بها فيردّ عليه ذلك ما صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طارق بن سويد الجُعْفىّ سأل النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عن الخمر فنهاه أو كرِه أن يصنعها، وقال: إنما أصنعها للدواء؛ فقال : «إنها ليست بدواء ولكنه داء» . وعنه صلّى الله عليه وسلّم وقد سأله رجل قدِم من جَيشان (وجَيشان من اليمن) فسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذّرة يقال له المِزْر؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : « أَوَمُسْكِرٌ هو» قال نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلّ مسكر حرام إن على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال » . فقالوا : يا رسول الله، وما طينة الخبال ؟ قال : « عَرَقُ أهل النار » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلّ مسكرٍ خمرٌ وكلّ مسكرٍ حرامٌ ومَنْ شربَ الخمرَ فى الدنيا فمات وهو يُدمنها لم يتب لم يشربها فى الآخرة » وفى لفظٍ : « حُرِمَها فى الآخرة فلم يُسقَها» وفى لفظٍ : «إلا أن يتوب» . وعن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما قال : حُرِّمتِ الخمر قليلها وكثيرها وما أسكر من كلّ شرابٍ . وعنه رضى الله عنه : من سرّه أن يُحرِّم ماحرّم اللهُ ورسولُهُ فليحرّم النبيذ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : « لا يزنى الزّانى حين يَزْنى وهو مؤمن ولا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» أخرجه البخارىّ فى صحيحه والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ذكر ما قيل فى إباحة المطبوخ

والمطبوخ يسمّى الطِّلاء وهو الذى طُبِخَ حتى ذهب ثُلُثاه وبقى ثلثه . سُمِّىَ بذلك لأنه شبيه بطِلاءِ الإبل فى ثخنه[1] وسواده . وقد آختلف العلماء فى المطبوخ ، فقال بعضهم : كلّ عصيرٍ طُبِخَ حتى ذهب نصفه فهو حلالٌ إلا أنه يُكْرَه ، وإن طُبِخَ حتى ذهب ثلثاه وبقى ثلثه فهو حلالٌ مباحٌ شربُهُ وبيعُـهُ إلا أن السكر منه حرام . وحجتهم فى ذلك ماروى : أن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه كتب إلى بعض عماله : أن آرزق المسلمين من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه . وعن عبد الله بن يزيد الخطمىّ قال : كتب الينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أمّا بعد ، فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فى عود الكَرْم ، فإن له اثنين ولكم واحد . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : أنّ نوحا عليـه السلام لمّـا نازعه الشيطان فى عود الكرم فقال : هذا لى ، وقال : هذا لى ، فاصطلحا على أن لنوح ثلثها وللشيطان ثلثيها . وسئل سـعيد بن المسيّب : ما الشراب الذى أحلّه عمر رضى الله عنـه ؟ فقال : الذى يطبخ حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه . وحكى أن أبا موسى الأشعرىّ وأبا الدرداء كانا يشربان من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه . وعلى الجملة فمجموع هذه الأخبار فى مُثَلَّث[2] لم يسكر البتة . ودليل ذلك ماحُكِى عن عبد الله بن عبد الملك ابن الطفيل الخزرجىّ قال : كتب الينا عمر بن عبد العزيز : ألاّ تشربوا من الطِّلاء حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه ، وكلّ مسـكرٍ حرامٌ . هذا الذى عليه أكثر العلماء . وقال قوم : اذا طُبِخَ العصيرُ أدنَى الطبخ صـار حلالا ، وهو قول إسماعيل بن عُلَيّة

(١) الثخن : الغلظ .

(٢) المثلث من الشراب : الذى طبخ حتى ذهب ثلثاه .

وبشر المِرّيسيّ وجماعة من أهل العراق . وذهب بعضهم الى أن الطِّلاء الذى رُخِّص فيه إنما هو الرُّبّ[1] والدِّبْس . والله عزّ وجلّ أعلم .

ذكر آفات الخمر وجناياتها

وآفات الخمر وجناياتها كثيرة، لأنها أمّ الكبائر . وأوّل آفاتها أنها تُذهب العقلَ، وأفضل ما فى الإنسان عقلُه، وتحسّن القبيحَ وتقبّح الحسَنَ . قال أبو نُوَاس الحسن ابن هانئ عفا الله عنه ورحمه وغفر له ما أسلف :

اِسقنى حتى ترانى * حَسَنًا عندى القبيحُ

وقال أيضا :

اِسقنى صِرْفًا حُمَيّا * تترك الشيخَ صبيّا
وتريه الغَىّ رُشْدًا * وتُريه الرُّشْد غَيّا

وقال أبو الطيّب :

رأيتُ المُدامةَ غلّابةً * تُهيِّج للمرء أشواقَهُ
تسيء من المرء تأديبَه * ولكن تُحَسِّن أخلاقَهُ
وأنْفَسُ ما للفتى لبُّهُ * وذو اللبِّ يكره إنفاقَهُ
وقد مُتُّ أمسِ بها ميتةً * وما يشتهى الموتَ مَنْ ذاقَهُ

قالوا : وإنما قيل لمُشارب الرجل نديمٌ، من الندامة ؛ لأن الرجل معاقر الكأس اذا سكر تكلّم بما يندَم عليه وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه «نادَمه» لأنه فعل مثل فعله فهو نديم له، كما يقال : جالسه فهو جليس له . والمعاقر : المدمِن، كأنه لزِم عُقْرَ الشىء أى فِناءه . وقد شُهِر أصحابُ الشراب بسوء العهد وقلّة الحِفاظ،

(١) الرب : ما يطبخ من التمر، أو سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها . والدبس : عسل التمر .

وقالوا : صاحب الشراب صديقك ما آستغنيتَ عنه حتى تفتقر، وما عُوفيت حتى تُنْكَب، وما غَلَت دِنانُك حتى تُنْزَف، وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك. قال بعض الشعراء عفا الله تعالى عنه :

أرى كلّ قومٍ يحفَظون حريمهم * وليس لأصحابِ النّبيـذ حريمُ
اذا جئتَهم حيّوْك ألفًا ورحّبوا * وإن غبتَ عنهم ساعةً فذميمُ
إخاؤهُمُ مادارت الكأسُ بينهم * وكلّهُمُ رَثُّ الوصال سئومُ
فهـذا بيـانى لم أقل بجهالةٍ * ولكننى بالفاسقين عليمُ

قيل : سقى قومٌ أعرابيّـةً مسكرا، فقالت : أيشرب نساؤكم هذا الشراب ؟ قالوا نعم . قالت : فما يدرى أحدُكم مَنْ أبوه . وقال قُصَىّ بن كلاب لبَنِيه : اِجتنبوا الخمر فإنه يصلح الأبدان ويفسد الأذهان . وقيل لعدىّ بن حاتم : مالك لاتشرب النبيذ؟ قال: معاذ الله! أُصبحُ حليمَ قوم وأُمسى سفيههم . وقيل لأعرابىّ : مالك لا تشرب النبيذ؟ قال : لا أشرب ما يشرب عقلى . وقيل لعثمان بن عفّان : ما منعك من شرب الخمر فى الجاهليّة ولا حرج عليك؟ قال: إنى رأيتها تُذهِب العقل جملةً وما رأيت شيئا يَذهَب جملةً ويعود جملة . وقال عبد العزيز بن مروان لنُصَيب آبن رَباح : هل لك فيما يُثمر المحادثة ؟ يريد المنادمة، فقال : أصلح الله الأمير ! (٤١) الشَّعْرُ مفلفلٌ واللون مُرْمَدٌّ ، ولم أقعد اليك بكرم عنصر ولا بحسن منظَر ، وإنما هو عقلى ولسانى ؛ فإن رأيت ألّا تفرّق بينهما فافعل . ودخل نُصَيبٌ هذا على عبد الملك آبن مروان فأنشده فاستحسن عبدُ الملك شِعْرَه فوصله ؛ ثم دعا بالطعام فطَعِم معه . فقال له عبد الملك : هل لك [أن] تُنادِم عليه؟(١) قال: يا أمير المؤمنين، تأمّلنى. قال: قد أراك . قال : يا أمير المؤمنين، جلدى أسود وخَلْقى مشوّه ووجهى قبيح ولست

(١) زيادة يقتضيها السياق .

فى منصب ، وإنما بلغ بى مجالستَكَ ومؤاكلتَكَ عقلى ، وأنا أكره أن أُدخِل عليه ماينقُصُه . فأعجبه كلامه وأعفاه .

وقال الحسن : لو كان العقل عَرَضا لتغالى الناسُ فى ثمنه ؛ فالعجب لمن يشترى بماله شيئا ليشربه فيُذهب عقله ! .

٥ وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج بن يوسف فى وَفْدة وفدها عليه وقد أكلا : هل لك فى الشراب؟ قال : ياأمير المؤمنين ، ليس بحرام ماأحللتَ ، ولكن أمنع أهل عملى ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح[1] وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ .

وقالوا : للنبيذ حدّان ، حدّ لا همّ معه ، وحدّ لا عقلَ معه ؛ فعليك بالأوّل

١٠ وأتّق الثانى .

ومن آفات الخمر افتضاح شاربها بريحها عند من يَحْتشم منه ويتّقيه ويخافه فلا يستطيع مع وجود ريحها إنكارَ شربها . والوُلاة تَحُدّ بالاستِنْكَاه ؛ لأن خُمَارها يثبت فى الفم اليوم واليومين بعد تركها . فمن شربها ساعةً وهو يحتشم من الناس أن يظهر ذلك عليه احتاج الى الانقطاع فى بيته بعد زوال السكر وأوْبة العقل حتى

١٥ تزول الرائحة . وقد تحايل الذين يشربون الخمر على قطع ريحها من الفم وعالجوا ذلك بأدوية صنعوها يستعملونها بعد شربها . فأجود ماصنعوه من هذه الأدوية أن يؤخذ من المرّ والبَسْبَاسة[2] والسَّعْد[3] والجَنَاح[4] والقَرَنْفُل أجزاءٌ متساوية وجزءان من الصمغ ، ويُدَقّ

(١) هو شعيب عليه السلام . (٢) البسباسة : قشر جوزة الهند .

(٣) السعد : نبات له أصل تحت الأرض أسود طيب الرائحة .

٢٠ (٤) الجناح : نبات طيب الرائحة ، ويقال له : " الراسن " .

ذلك ويُجبَل[1] بماء الورد ويستعمل منـه فإنه يقطع رائحة الخمر من الفم ، كما زعموا .

وقد نظم بعض الشعراء هذه المفردات فى أربعة أبيات فقال :

مُرٌّ وبسباسةٌ وسُـعدٌ * الى جَنَـاحٍ وماءِ وَردِ
ينظمها الصمغُ إن تلاه * قرنفُل الهند نظم عِقـدِ
أجزاؤها كلّها سـواءٌ * والصمغ جزآن ، لاتعدّى
فيـه لذى مِرّةٍ شفاءٌ * وصونُ عِرْضٍ وحفظُ ودِّ

ذكر أسماء الخمر من حين تُعصَر الى أن تُشربَ

الخمر اذا عُصِرَ فاسم مايسيل منه قبـل أن تطأه الرجل : السُّلَاف ؛ وأصله من السَّلَف وهو المتقدّم من كلّ شيء ، وهو فى مثل ذلك الخُرطوم أيضا . ويقال للذى يعصر بالأقدام : العصير ، والموضع الذى يُعصَر فيه : المَعصرة . والنَّطل : ما عُصِرَ فيه السلافُ ؛ ويقال للعاصر : الناطِل ، ثم يُترَكُ العصيرُ حتى يغلى فاذا غلا فهو خمر ، وقيل : سمّيت خمرا لأنها تخامر العقول فتخالطها . وقالوا : لأنها تُخمَرُ فى الإناء ، أى تُغطَّى وهى مؤنثة . ويقال لها : القهوة ، لأنها تُنْهِى عن الطعام والشراب ، يقال : أقهَى عن الطعام وأقهم عنه اذا لم يشتهه . ومن أسمائها : الشَّـمول ، سمّيت بذلك لأن لها عَصْفة كعصفة الشَّمال ، وقيل : لأنها تشمَل القومَ بريحها . ومنها : السُّلَاف والسُّلافة والخرطوم وقد تقدّم معناها . ومنهـا : القَرْقَف لأن شاربها يُقرقِف اذا شربها ، أى يَرْعد ، يقال : قَرْقَفَ وقَفْقَفَ . وقال أبو عمرو : القرقف اسم للخمر غير صفة وأنكر قولَهم سمّيت بها لأنها تُرْعِد . ومنها : الراح لأنها تكسب صاحبها الأريحيّة أى خفة العطاء . ومنها : العُقَار لأنها عاقرت الدّنّ ، وقيل : لأنها تعقِر شاربَها

(١) يجبل : يرش .

من قول العرب : كلأ بنى فلان عقّار، أى يعقِر الماشية . ومن أسمائها : المُدامةُ والمدام لأنها داومت الظّرف الذى انتُبذت فيه . والرحيق ومعناه الخالص من الغش . وقيل : الصافى . وقيل : العتيق . والكميت سمّيت بذلك للونها اذ كانت تضرب الى السواد . والجِرْيال وهو صِبغٌ أحمرُ سمّيت بذلك للونها أيضا . والسبيئةُ والسّباء وهى المشتراة وأصلها مَسْبوءة، يقال : سبأتُ الخمر اذا اشتريتها . والمشعشعة وهى الممزوجة . والصهباء وهى التى عُصِرَتْ من العنب الأبيض . والشّموسُ شبّهت بالدابّة التى تجمح براكبها . والخَندريس وهى القديمة . والحانيّة : منسوبة الى الحانة . والماذيّة : اللّيّنة يقال : عسل ماذىّ اذا كان ليّنا . والعانيّة: منسوبة الى عانة . والسُّخَامية : اللّيّنة من قولهم : قطن سُخَامٌ أى ليّن وثوبٌ سُخَامٌ. قال الراجز :

كأنه بالصَّحْصَحان الأنجلِ (١) * قطنٌ سُخَامىّ بأيدى غُزَّلِ

والمَزّةُ والمُزّاءُ لطعمها . والإسفِنْطُ، قال الأصمعىّ : هو بالرومية . والغرب ومعناه الحدّ، وغَرْبُ كلّ شىء حدّه . ولعلها سمّيت بذلك لحدّتها . والحُمَيّا، وحُمَيّا كلّ شىء سَوْرته وحدّته . والمُصْطَارُ : الخلّة ويقال : المُضْطار بالضاد أيضا . والخَمْطَةُ : المتغيّرة الطعم . والمعتّقة : التى قد طال مكثها . والإثم : اسم لها لعله وقع عليها لما فى شربها من الإثم . والحمق كذلك . قال الشاعر :

شربتُ الإثم حتى ضلّ عقلى * كذاك الإثم يفعل بالعقولِ

والمُعَرّق : الممزوج قليلا، يقال : عَرَقٌ من ماء أى ليس بكثير . ومن أسمائها : القِنْدِيدُ والفَيْهَجُ وأمّ زَنْبق والمَقَطّب والطّوْس والسّاسَال والسّلسَل والزّرْجُون والكَلْفاء والجَرْباء والعانسة والطّابَةُ والنّاجُود والكأس والطّلاء ، قال عَبِيدُ بن الأبرص :

(١) الصحصحان : ما استوى من الأرض . والأنجل : الواسع .

(٤٢) هي الخمر صرفا تكنّى الطلا (١) * كالذئب يُسمَى أباجعدةِ

والباذَق والبُخْتَج : فارسيّان . والجَهْوَرِىّ . والمَقَدِىّ منسوبة الى قرية من قُرَى الشام . والمزاء من قولك : هذا أَمْزَى من هذا أى أفضل . والنبيذ . والبِتْعُ : نبيذ العسل والسُّكُرُكَةُ من الذرة . والجِعَة من الشعير . والفَضِيخ من البسر . والمِزْر من الحبوب

ذكر أخبار من تنزّه عنها فى الجاهليّة وتركها ترفّعا عنها

كان ممن تركها فى الجاهلية عثمان بن عفان رضى الله عنه وعبد المطلب بن هاشم وعبدالله بن جُدعان التيمىّ وكان سيّدا جوادا من سادات قريش، وسبب تركه لها أنه شرب مع أميّة بن أبى الصلت الثقفىّ فأصبحت عين أميّة مخضرّة فخاف عليها الذهاب، فسأله عبد الله : مابال عينك ؟ فقال : أنت صاحبها أصبتها البارحة، قال : وبلغ منّى الشراب ما أبلغ معه من جليسى هذا المبلغ، فأعطاه عشرة آلاف درهم وقال : الخمر علىّ حرام، لا أذوقها أبدا، وقال فيها :

شربت الخمر حتى قال صحبى * ألستَ عن السُّقاة بمستفيقِ ؟
وحتى ما أُوسَّد فى مبيتٍ * أنام به سوى التُّرب السحيقِ

وممّن حرّمها فى الجاهليّة : قيس بن عاصم المنقرىّ، والسبب فى ذلك أنه سكر فغمَز عُكنة ابنته أو أخته فهربت منه، فلما صحا أخبروه فحرّم الخمر على نفسه، وقال فى ذلك :

وجدتُ الخمرَ جامحةً وفيها * خصالٌ تفضح الرجلَ الكريما
فلا واللهِ أشربُها حياتى * ولا أدعو لها أبدا نديما

(١) فى اللسان : وقالوا هى الخمر تكنى الطلا * كما الذئب ... الخ .

ولا أعطى لها ثمنا حياتى * ولا أشفى بها أبدا سقيما
فإنّ الخمرَ تفضح شاربيها * وتجشمهم بها أمرا عظيما
اذا دارت حمّاها تعلّت * طوالع تَسْفَه الرجلَ الحليما

ومنهم : عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ، قال :

سآلةٌ للفتى ماليس فى يده * ذَهّابةٌ بعقول القوم والمالِ
أقسمتُ بالله أسقيها وأشربها * حتى يفرّق ترُبُ القبرِ أوصالى

ومنهم : صفوان بن أميّة بن مُحرِّث الكنانىّ وعُفَيف بن معديكرب الكندىّ والأسلوم بن نامى من همدان ومِقْيَس بن عدىّ السهمىّ وكان سكر فجعل يخط ببوله : أنَعَامةً أو بعيرًا، فلما أفاق وأخبر بذلك حرّمها .

ومنهم : العبّاس بن مرداس السلَمىّ قيل له : لم تركتَ الشراب وهو يزيد فى جرأتك وسماحتك؟ فقال : أكره أن أصبح سيّد قومى وأمسى سفيههم .

ومنهم : سعيد بن ربيعة بن عبد شمس وورقة بن نوفل والوليد بن المغيرة . وقال زيد بن ظبيان :

بئس الشراب شراب حين تشربه * يوهى العظام وطورا يوهى العصبِ (١)
إنى أخاف مليكى أن يعذّبنى * وفى العشيرة أن يُزرى على حسبى

وقال رجل لسعيد بن سلم : ألا تشرب النبيذ ؟ فقال : تركت كثيره لله تعالى وقليله للناس .

(١) كذا بالأصل، ولعل صوابه "وطورا موهن العصب" .

ذكر من حُدَّ فيها من الأشراف ومن شربها منهم ومن اشتهر بها ولبس فيها ثوب الخلاعة ومن افتخر بشربها

فأما من حُدَّ فيها من الأشراف فالوليـدُ بن عُقبة بن أبى مُعَيط وهو أخو عثمان بن عفّان لأمه ، شهد عليه أهل الكوفة أنه صـلّى بهم الصبح ثلاثَ ركعاتٍ وهو سكران ثم التفت اليهم فقال : وإن شئتم زدتكم ، فجلده عبد الله بن جعفر بين يدى عثمان رضى الله عنه ، وسنذكر الواقعة إن شاء الله تعالى بجملتها فى الباب الثانى من القسم الخامس من الفن الخامس فى التاريخ فى خلافة عثمان رضى الله عنه .

ومنهم : عبيـد الله بن عمر بن الخطاب شرب بمصر فحدّه بها عمرو بن العاص سرًّا ، فلما قدم على أبيه جلده حدّا آخر علانية .

ومنهم : عبد الرحمن بن عمر بن الخطّاب المعروف بأبى شَحْمة[1] ، حدّه أبوه فى الشراب فمات تحت حدّه .

ومنهم : عاصم بن عمر بن الخطّاب ، حدّه بعض ولاة المدينة .

ومنهـم : قُدامة بن مظعون ، حدّه عمـر بن الخطّاب رضى الله عنه بشهادة علْقمة الخصىّ وغيره .

ومنهم : عبد الله بن عروة بن الزبير ، حدّه هشام بن إسماعيل المخزومىّ . (٤٣)

ومنهم : عبد العزيز بن مروان ، حدّه عمرو بن سعيد الأَشْدَق .

ومنهم : أبو مِحْجَن الثقفىّ واسمه عمـرو بن حبيب ، وكان مغرما بالشراب ، حدّه عمر مرارا فى الخمر ، وحدّه سعيد بن أبى وقّاص مرارا وشهد القادسـيّة وأبلى

(١) كذا فى كتاب المعارف لابن قتيبة والقاموس . وفى الأصول : « سحمة » بالسين المهملة وهو تحريف .

بلاء حسنا، ثم حلف بعد القادسيّة ألا يذوق الخمر أبدا ومات تائبا عنها، وأنشد رجل عند عبد الله بن مسلم بن قتيبة قوله :

اذا مِتُّ فآدفنّى الى جنب كَرمةٍ * تُروِّى عظامى بعد موتى عروقُها
ولا تدفننّى فى الفــلاة فإننى * أخاف اذا مامِتّ أن لّا أذوقها

٥ فقال عبد الله : حدّثنى من رأى قبره بأرمينيَة بين شجرات كرم يخرج اليه الفتيان و يشربون عنده و يتناشدون شعره فاذا جاءت كأسه صبّوها على قبره .

ومنهم : إبراهيم بن هَرْمة وكان مغرما بالشراب؛ حدّه جماعة من عمال المدينة فلما طال ذلك عليه رحل الى أبى جعفر المنصور، وقيل : إنما رحل الى المهدىّ وآمتدحه بقصيدته التى يقول فيها :

١٠ له لحظاتٌ فى حِفافَىْ سريره * اذا كرَّها فيهـا عِقابٌ ونائلُ
له تربةٌ بيضاءُ من آل هاشم * اذا آسودَّ من لؤم التراب القبائلُ

فآستحسن شعره وقال له : سل حاجتـك، فقال : تأمر لى بكتاب الى عامل المدينـة ألّا يحدّنى على شراب ، فقال له : ويلك ! لو سألتنى عزلَ عامل المدينة وتوليتك مكانه لفعلت؛ قال : يا أمير المؤمنين، ولو عزلته وولّيتنى مكانه أما كنت ١٥ تعزلنى أيضا وتولّى غيرى ! قال : بلى، قال : فكنت أرجع الى سيرتى الأولى فأُحَدّ، فقال المهدىّ لوزرائه : ماتقولون فى حاجة آبن هرمة وما عندكم فيها من التلطّف ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، إنه سأل مالا سبيل اليـه، إسـقاطُ حدّ من حدود الله عزّ وجلّ، فقال المهدى : له حيلة اذا أعيتكم الحيل فيه، اكتبوا الى عامل المدينة : مَنْ أتاك بآبن هرمة سكرانا فآضربه مائة سوط وآجلد آبن هرمة ثمانين، فكان إذا ٢٠ شرب ومشى فى أزقة المدينة يقول : مَنْ يشترى مائةً بثمانين ؟

وأما من شربها منهم وٱشتهر بها، جماعة من الأكابر والأعيان والخلفاء .

منهم : يزيد بن معاوية شُهر بشربها، وكان يقال له : يزيد الخمور، روى هشام ابن الكلبيّ عن أبيه قال : وجّه معاوية جيشا الى أرض الروم فأصابهم الجُدَرِيّ ، وعند يزيد ٱمرأته أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر فسكر وأنشأ يقول :

إذا ٱرتَفَقْتُ على الأنماطِ فى غُرَفٍ * بدَيْرِ مُرَّانَ عنـدى أمُّ كلثوم
فما أبالى الذى لاقت جيوشُهُـمُ * بالفَـذْقَذُونَةِ(١) من حُمّى ومن مُومِ(٢)

فبلغ الخبر معاوية ، فقال : أنت هاهنا ! إلحقْ بهم ، وسيّره الى قتال الروم .

ومنهم : عبد الملك بن مروان، وكان يسمّى : حمامة المسجد ، لٱجتهاده فى العبادة، هـذا قبل أن يلى الخلافة، فلما أفضت الخلافةُ اليه شرب، فقال له سعيد بن المسيّب : بلغنى يا أمير المؤمنين ، أنك شربت الطلاء، قال : إى والله والدماء .

ومنهم : يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو صاحب حَبَابة(٣) وسَلّامة، وأخباره مشهورة .

ومنهم : ٱبنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ذهب به الشراب كلّ مذهب حتى خُلع وقُتل ؛ وله فى ذلك حكايات وأشعار . منها : أنه سمع بشُرّاعة بن الزَّنْدَبوذ الكوفيّ، وكان من أهل البَطالة المشهورين باللعب واللهو وإدمان الشراب ؛ فاستدعاه

(١) الفذقذونة : ٱسم جامع للثغر الذى منه المصيصة وطرسوس وغيرهما .
(٢) المُوم : البرسام وأشد الجدرىّ .
(٣) حبابة وسلامة : قينتان مشهورتان كانتا له .

بالكوفة الى دمشق فحمل اليه فلما دخل عليه قال له : ياشرّاعة، ما أرسلت اليك لأسألك عن كتاب الله ولا سنّة نبيّه، قال : لو سألتنى عنهما لوجدتنى فيهما حمارا، قال : وإنما أرسلت اليك لأسألك عن القهوة، قال : أنا دهقانها الخبير، ولقمانها الحكيم، وطبيبها الماهر؛ قال : فأخبرنى عن الشراب قال : سل عمّا بذالك قال : ما تقول فى الماء قال : لا بدّ منه، والحمار شريكى فيه . قال : فاللبن ؟ قال : مارأيته إلا آستحييت من طول ما أرضعتنى أمّى به، قال : فالسّويق ؟ قال : شراب الحزين والمستعجل والمريض . قال : فشراب التمر ؟ قال : سريع الآمتلاء، سريع الآنفشاش . قال : فنبيذ الزبيب؟ قال : حاموا به على الشراب، قال : فالخمر ؟ قال : تلك والله صديقة روحى، قال : وأنت والله صديق روحى، قال: فأى المجالس أحسن ؟ قال : ماشرب فيه على وجه السماء؛ ومن شعر الوليد :

خذوا ملككم لاثبّت اللهُ ملككم * ثباتا يساوى ماحييت عقالا
دعوا لِىَ سلمَى والنبيذَ وقينةً * وكأسا، ألا حسبي بذلك مالا
أبآلملك أرجو أن أخلّد فيكُمُ * ألا ربَّ مُلك قد أزيل فزالا

ومنهم : المأمون بن الرشيد وشُهِر بالشراب وله فيه أخبار، منها : أنه شرب هو ويحيي بن أكثم القاضى وعبد الله بن طاهر، فتعامل[1] المأمون وآبن طاهر على سكر يحيي، فأشار الى الساقى فأسكره، وكان بين أيديهم رِزَم من الورد والرياحين، فأمر المأمونُ فشُقّ ليحيي لحدٌ من الورد والرياحين وصيّروه فيه، وعمل بيتى شعر ودعا قينة فجلست عند رأس يحيي وغنّت بالشعر :

دعوته وهو حىٌّ لاحياةَ به * مكفّنا فى ثياب من رياحينِ
فقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى * فقلت خذ قال كفّى لا تواتينى

(١) كذا بالأصول، ولعلها « فتحامل » .

فانتبه يحيى لرنّة العود وصوت الجارية فقال :

ياسـيّدى وأميرَ النـاس كلِّهـم * قد جار فى حكمه من كان يسقينى
إنى غفلتُ عن الساقى فصـيَّرنى * كما ترانى سـليبَ العقلِ والدِّينِ
فانظر لنفســك قاضٍ إننى رجل * أَلراحُ يقتــلنى والرَّوح يُحيينى

ومنهم : العباس بن علىّ بن عبدالله بن العباس وهو عمّ المنصور، كان يأخذ الكأس بيـده ويقول : أما العقل فتُتلفين، وأما المروءة فتَمحقين، وأما الدِّين فتُفسدين، ويسكت ساعة ثم يقول : وأما النَّفس فتُسَخِّين، وأما القلب فتُشَجِّعين، وأما الهمّ فتطردين، أفتراك منى تُفلتين! ثم يشربها .

ومنهم : بلال بن أبى بُردة فُضح بالشراب وفيه يقول يحيى بن نوفل الحميرىّ :

وأما بلالٌ فــذاك الذى * يميــل الشرابُ به حيثُ مالا
يبيت يمصُّ عتيــقَ الشراب * كمَصِّ الوليــد يخاف الفِصالا
ويصــبح مضــطربا ناعسا * تخال من السُّكْر فيــه أحولالا
ويمشى ضعيفا كمشى النزيف(١) * تخالُ به حين يمشى شِكالا

ومنهم : عبد الرحمن بن عبد الله الثقفىّ قاضى الكوفة وفُضِح بمنادمة سعد بن هَبّار وفيه يقول حارثة بن بدر :

نهـارُه فى قضـايا غيرِ عادلةٍ * وليلُهُ فى هَوَى سـعد بن هَبّارِ

ومنهم : آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو الذى يقول :

هاك فاشرب يا خليـلى * فى مَدَى الليل الطويلِ
قهوةً فى ظـلّ كرمٍ * سُبِيتْ من نهر نيـلِ

(١) النزيف : الذى سال دمه بافراط حتى ضعف .

فى لسانِ المرء منها * مثــلُ لَذْع الزنجبيل
إنمـا أَذهبَ مالى * طولُ إدمانِ الشَّمولِ (١)
وحنينُ العُــودِ تثنيـ * ـه يدا ظبى كحيــلِ
فالطويلُ العنقِ الأ * هيفُ كالسيفِ الصقيل
يا خليــلىَّ اسقيـانى * واهتفا بالشمس زُولى
قل لمن لامك فيهـا * من نصيح أو عذول
يَبْق بين البـاب والدا * ر على نَعْب الطلولِ

وقيل لأبيه عبد العزيز بن عمر: إن بنيك يشربون الخمر، فقال: صفوهم لى، فقالوا: أما فلان إذا شرب خرق ثيابه وثياب نديمه، فقال: سوف يدَع هذا شربها، قالوا: وأما فلان فاذا شربها تقيأ فى ثيابه، قال: وهذا سوف يدعها، قالوا: وأما آدم فإذا شربها فأسكن ما يكون لاينال أحدًا بسوء، قال: هذا لا يدعها أبدا.

ومنهم: حارثة بن زيد العَدْوانىّ — رجل من تميم — دخل يوما على زياد ابن أبيه و بوجهه أثر، فقال له زياد: ما هذا الأثر بوجهك؟ فقال: أصلح الله الأمير ركبت فرسى الأشقر (٢) فجمح بى حتى صدمنى الحائط، فقال: أما إنك لو ركبت فرسك الأشهب (٢) لم يصبك مكروه. ولحارثة فيها أشعار كثيرة وأخبار مع الأحنف ابن قيس، وكان الأحنف ينهاه عنها وهو لا ينتهى ويجيبه بشعر فى مدحها وقيل: إن حارثة هذا أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلّم بالسنّ فى حال صباه وحداثته.

ومنهم: والبة بن الحُبَاب الأسدىّ وهو الذى ربّى أبا نُوَاس وأدّبه وعلّمه الفتوة وقول الشعر. حكى أن المنصور قال له يوما: ادخل إلى محمد — يعنى المهدىّ — وحدِّثه، فدخل عليه، فأوّل ما أنشده قوله:

(١) الشمول: من أسماء الخمر. (٢) يريد الأول بالأشقر: الخمر، ويريد الثانى بالأشهب: الماء.

قولا لعمرو لا تكن ناسيا * وسقّنى لا تحبسنْ كاسيا
وأردد على الهيثم مثل الذى * هجتَ به ويحك وَسْواسيا
وقل لساقينا عـلى خلوة * أدِن كذا رأسَك من راسيا

(٤٥) فبلغ ذلك المنصور، فقال: لاتعيدوه إليه أردنا أن نصلحه فأراد هو أن يفسده.

ومنهم: أبو الهندىّ وهو عبد المؤمن بن عبد القدّوس بن شبث بن رِبعىّ اليربوعىّ، حجّ به نصر بن سيّار فلما ورد الحرم قال له نصر: إنك بفِناء بيت الله الحرام ومحل حرمه فدع الشراب، فلما زال عنه وضعه بين يديه وجعل يشرب ويبكى ويقول:

رضيعُ مدامٍ فارق الراحُ رُوعَه * فظلّ عليها مستهلَّ المدامِع
أديرا علىّ الكأسَ إنى فقدتها * كما فَقَد المفطومُ دَرَّ المراضع

ومرّ به نصر بن سيّار وهو يميل سكرا، فقال له: أفسدت شرفك، فقال: لو لم أُفسد شرفى لم تكن أنت اليوم والى خراسان.

ومنهم: سعيد بن وهب وكان شاعرا بصريّا.

ومنهم: الحسين بن الضحّاك النديم صاحب الحسن بن هانئ وكان خليعا ماجنا مليح الشعر وهو الذى يقول:

ألا إنما الدُّنيا وصالُ حبيبِ * وأخذُك من مشمولةٍ بنصيبِ
وعيشُك بين المُسمعاتِ ممتّعا * بفنّين من عزف وشدو مصببِ
وأنسٌ وإنسان تلذُّ بقربه * وبدلةُ معشوقٍ ويوم رقيبِ
وعدِّىَ ساعاتِ النهارِ ورقّبى * إلى الشمس لما آذنت بمغيبِ

ومنهم : يحيي بن زياد وهو الذى يقول :

أعاذل ليت البحرَ خمرٌ وليتنى * مدى الدهر حوتٌ ساكن لُجَّةَ البحرِ

فأضحى وأمسى لا أفارق لجّة * أروّى بها عظمى وأشفى بها صدرى

طوال الليالى، ليس عنّى بناضبٍ * ولا ناقصٍ حتى أصيرَ الى الحشرِ

٥ ومنهم: أبو نُوَاس الحسن بن هانئ ممن اشتهر بالشراب واللهو والطرب ومخالطة القيان، وله فى الخمر تشبيهات حسنة وحكايات ظريفة ، نذكر هاهنا من أخباره طرفا :

حكى أن مسلم بن الوليد عاتبه وقال : يا أبا نواس، قد خلعت عذارك وأطلت الإكباب على المجون حتى غَلب على لبّك وما كذلك يفعل الأدباء ! فأطرق ثم قال :

١٠ فأوّلُ شربك طرحُ الرداء * وآخِرُ شربك طرحُ الإزارِ

وما هنّأتك الملاهى بمثل * إماتةِ مجدٍ وإحياءِ عارِ

وما جاد دهرٌ بلذّاته * على من يَضَنُّ بخلع العذارِ

فانصرف مسلم وقد أيس من فلاحه وهو يقول : جوابٌ حاضر، من كهلٍ فاجر . ومما يحفظ من أخباره، ويروى من أشعاره فى ذلك : أنه بلغ إخوانه عنه

١٥ أنه ترك الشراب واللذّات وأخذ فى الزهد والصلاة فى أوقاتها فاجتمعوا إليه وأقبلوا يهنّئونه، فوضع بين يديه باطِيَةً وجعل لا يدخل اليه أحد يهنئه إلا شرب بين يديه رطلا وأنشد :

قالوا نزعتَ ولمّا يعلموا وطرى * فى كلّ أغيدَ ساجى الطرف ميّاسِ

كيف النزوع وقلبى قد تقسّمه * لحظُ العيون وقرع السنّ بالكاسِ

٢٠ لاخير فى العيش إلا فى المجون مع الـ * ـأكفاء والراح والريحان والآسِ

ومسمع يتغنّى والكئوس لهـا * حَثٌّ علينـا بأخماسٍ وأسـداسِ
يا مُورِىَ الزند قد أكبت قوادحُه * اقبِس اذا شئت من قلبي بمقباسِ
ما أقبح الناسَ فى عينى وأسمجَهم * إذا نظرتُ فلم أُبصِرْك فى النـاس

(٤٦) وحدّث الفضـل بن سلمة عن الثورىّ، قال : خرج الحسن بن هانئ ومعه مُطَيط صاحبـه ، حتى أتيا دار خمّار . فقال الحسن لمطيط : ادخل بنا نمزح بهذا الخمّار . فدخلا فسلّما فردّ عليهما . فقال له الحسن : أعندك خمرٌ عتيقةٌ يا خمّار؟ فقال : عندى منها أجناس، فأيها تريد؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

حُجبَتْ خِيفةً وصِينتْ فجاءت * بجلاءِ العروس بعـد الصّيانِ
وكأنّ الأكفّ تُصْبَغُ من ضو * ءِ سناها بالوَرْسِ والزعفـرانِ

فملأ له الخمّـار قَدَحا من خمر صفراء ، كأنها ذهبٌ محلولٌ؛ فشربه الحسن وقال : أحسن من هذا أريد . فقال له الخمـار : أىّ جنسٍ تريد؟ قال : التى يقول فيها الشـاعر :

دفعتها أيدى الهواجر حتّى * صَيَّرتْ جسمَها كجسم الهواءِ
فهى كالنُّور فى الإناء وكالنّا * ر إذا ما تَصيرُ فى الأحشاءِ

فملا له الخمار قدحا من خمر كأنها العقيق . فشربه وقال : أرفع من هذا أريد. فقال : أىّ جنس؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

وإذا حَسَا منها الوضيعُ ثلاثةً * سَمُحَ الوضيعُ كفعلِ ذى القَدرِ
فى لونِ ماء الغيث إلا أنها * بين الضلوع كواقد الجمـر

فملأ له قَدَحًا من خمر بيضاء ، كأنها ماء المزن . فشرب الحسن وقال للخمار : أتعرفنى؟ قال : إى والله يا سيدى، أنا أعرَف الناس بك . قال : من أنا؟ قال:

أنت الذى يسكر من غير وزن . فضحك الحسن وقال لمطيط : ادفع إليه ما بقى عندك من النفقة، فأعطاه مائة درهم وآنصرف .

وقال الحسين بن الضحّاك : كنت مع أبى نُوَاس بمكة عامَ حجّ، فسمع صبياً يقرأ (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) .

٥ فقال أبو نُوَاس : فى مثل هذا يجىء للخمر صفة حسنة؛ ففكّر ساعةً ثم أنشدنى :

وسيّارةٍ ضلّت عن القصد بعد ما * ترادفهم أفقٌ من الليل مظلمُ
فأصغوا الى صوتٍ ونحن عصابةٌ * وفينا فتًى من سكره يترنّمُ
فلاحت لهم منّا على النأى قهوة * كأن سناها ضوءُ نار تضرّمُ
إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم * وإن مُزجتْ حثّوا الركاب ويمّموا

١٠ قال : فحُدّث بهذا الحديث محمدُ بن الحسين فقال : لا ولا كرامة، ما سرقه من القرآن ولكن من قول الشاعر :

وليلٍ بهيمٍ كلّما قلت غوّرتْ * كواكبُهُ عادت لنا تتذيّلُ
به الركبُ إمّا أومضَ البرقُ يمّموا * وإن لم يَلُحْ فالقوم بالسير جُهّلُ

وقال أبو نُوَاس فيها :

١٥ ألَا دارِها بالماء حتى تُلينَها * فما تُكرِمُ الصهباءُ حتى تُهينَها
أُغالِى بها حتى اذا ما مَلِلْتُها * أهنتُ لإكرام النديم مصونَها

وقال أيضا :

نَبّهتُهُ والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه حُثَاثَهُ(١) فانزاحا
قال آبغنى المصباحَ، قلتُ له آنْتَدْ * حسبى وحسبك ضوءُها مِصباحا

٢٠ (١) الحثاث : النوم .

فسكبت منهـا فى الزجاجة شَربةً * كانت له حتى الصباح صباحا
من قهوةٍ جاءتك قبـــل مِزاجها * عطـــلا فألبسها المِـــزاجُ وشاحا
شـــكَّ البِزالُ(١) فـــؤادَها فكأنهـا * أبدت اليـــك بريحهـا تُفـاحا

وقال أيضا :

رُدّا عَلىَّ الكأسَ ، إنكما * لا تدريان الكأسَ ما تُجدى ٥
خوّفتمانى اللهَ جَهـــدَكما * وتكيفتيه رجاؤه عنـــدى
لا تعـــذُلَا فى الراح إنكما * فى غفلةٍ عن كنه ما تُسدى
لو نلتما ما نلتُ ما مُزِجتْ * إلا بدمعكما من الوجدِ
ما مثـــل نُعماها اذا آشتملت * إلا آشتمالُ فـــمٍ على خـــدِّ
إن كنتما لا تشربان معى * خوف الإله شربتُها وحدى ١٠

وأخبار الحسن بن هانئ فيها كثيرة، وفيما أوردناه منها كفاية .

ومنهم : التَّرْوانىّ ، كان شاعرا مطبوعا بليغا ، من أهل الخلاعة المشهورين .

وكان آخر أمره أن أصيب فى حانة خمّار بين زِقّ خمرٍ وهو ميتٌ . وهو القائل فيهـا :

كَرَّ الشرابُ على نشوانَ مضطجع * قد هب يشربهـا والدِّيكُ لم يَصِح ١٥
والليـــلُ فى عسكرٍ حُمـــرٍ بوارقُهُ * من النجوم، وضوء الصبح لم يضِح
والعيش لا عيشَ إلا أن تُباكرها * نشوانَ تقتُـــلُ همَّ النفسِ بالفرح
حتى يظَلَّ الذى قد بات يشربُها * ولا مراحَ به يختـــال كالمَـــرِح

(١) البزال : الحديدة يفتح بها مبزل الدن .

ومنهم : مُطِيع بن إياس . وكان شاعرا أديبا ظريفا مشتهرا بالخلاعة واللعب . وكان أصحابه على ذلك، وهم يحيى بن زياد، ووالبة بن الحُباب ، وحمّاد عجرد .

ومنهم : أبو عبد الرحمن العطَوِىّ . كان شاعرا فصيحا، لا يكاد يتقدّمه أحد لجزالة ألفاظه وحلاوة معانيه . وكان مولعا بالخمر مشتهرًا بها مُدمنًا عليها ، أكثرُ أشعاره فيها . فمن شعره :

أخطبْ لكأسك نَدْمانا تُسَرُّ به * أولَا فنادِمْ عليها حِكمةَ الكتبِ
أخطبهُ حرًّا كريما ذا مُحافظةٍ * ترى مودّتَهُ من أقربِ النسب

وقال أيضا :

وكم قالوا تَمَنَّ ، فقلتُ كأسًا * يطوف بها قضيبٌ فى كثيبِ
ونَدْمانًا يُساقطنى حديثًا * كصدقِ الوعد أو غضِّ الرقيبِ

ومنهم : أبو هفّان . وكان شاعرا محسنا، وخليعا ماجنا . حكى أنه شرب مع أحمد بن أبى طاهر حتى فنى ما عندهما ، وكانا بجوار العلاء بن أيّوب . فقال ٱبن أبى طاهر لأبى هفّان : تماوتْ حتى نحتال على أبى العلاء فى أن ينيلنا شيئا . فمضى اليه ٱبن أبى طاهر فقال : أصلحك الله ! نزلنا جوارك فوجب حقّنا عليك، وقد مات أبو هفّان وليس له كَفَن . فقال لوكيله : اِمض معه وشاهد أمره وٱدفع اليه كَفَنًا . فأتاه فوجده مُلقًى عليه ثوبٌ فنقر أنفه فضرط . فقال : ما هذا؟ فقال : أصلحك الله عَجَّلْتَ له صعقةَ القبر فإنه مات وعليه دين ؛ فضحك وأمر له بدنانير .

ومنهم : الأقيشر . وكان مغرما بالشراب مُدمنا عليه . وهو القائل :

ومُقْعَدِ قومٍ قد مشى من شرابنا * وأعمى سقيناه ثلاثا فأبصرا

كميتٌ كأن العنـــبر الورد ريحُـه * ومسحوق هندىّ من المسك أذفرا

ومنهم : النعمان بن علىّ بن نَضْلة . وكان عاملا لعمر بن الخطّاب رضى الله عنه على مَيْسان، وكان مدمنَ الشراب . وهو القائل :

ألا أبلغ الحســـناء أنّ خليلها * بمَيْسان يُسْقَى فى زُجاجٍ وحَنْـــتَمِ (١)

فإن كنتَ نَدمانى فبالأكبر آسقِنى * ولا تســـقِنى بالأصغر المتثـــلِّمِ

لعـلَّ أميرَ المؤمنين يســـوءه * تَنادُمُنا بالجَوْســـقِ المتهـــدِّمِ (٢)

فبلغ الشعر عمر رضى الله عنه .

فكتب اليه : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أما بعد، فقد بلغنى قولك :

لعلَّ أميرَ المؤمنين يســـوءه * تنادُمُنـا بالجَوْسَـقِ المتهدِّمِ

وأيم الله لقد ساءنى ! وعزله . فلمّا قدِم عليه سأله ، فقال : والله ما كان من هذا شىء ، وما كان إلا فضل شعر وجدته وما شربتها قط . فقال عمر : أظنّ ذلك، ولكن لا تعمل لى عملا أبدا . فنزل البصرة، ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات رحمه الله .

ومنهم : عمـارة بن الوليـد بن المغيرة . خطب آمرأة من قومه ، فقالت : لا أتزوّجك حتى تدع الخمر والزنا . فقال : أمّا الزنا فإنى أدعه ، وأما الخمر فوجدى بها شديد . ثم آشتدّ وجده بالمرأة فعـاود طلبها ، فقالت : حتى يحلف بطلاق يوم

(٤٨)

(١) الحنتم : الجرّة الخضراء .

(٢) الجوسق : القصر .

يزنى أو يشرب خمرا؛ فحلف لها وتزوجها . ومكث حينا لايشرب، الى أن مرّ بخمّار وعنده قوم يشربون وقينة تغنّيهم وهو على ناقة؛ فطرب اليهم وأرتاح ورمى بثيابه الى الخمّار، وقال : أسقهم بها؛ ونحر لهم ناقته، ومكث أياما يطعمهم ويسقيهم حتى أنفد مامعه . ثم رجع الى امرأته، فلامته، فأنشأ يقول :

٥ أقلّى علىّ اللومَ يا أمّ سالم * وكُفّى فإن العيش ليس بدائم
أسرّكِ لمّا صرّعَ القومَ نشوةٌ * خروجى منهم سالمًا غير غارِم
سليما كأنى لم أكن كنتُ منهمُ * وليس الخداعُ من تصافى التنادُم

ثم قال لها : الحقى بأهلك، وعاد الى ما كان عليه .

* * *

١٠ وأما من افتخر بشربها وسِبائها[1]، فقد كانت العرب تفتخر بسبائها، وتضيفه إلى عظيم غنائها، وتقرنه بمذكور بلائها . وشاهد ذلك قول امرئ القيس :

كأنّى لم أركبْ جوادًا للذّةٍ * ولم أتبطّن كاعبا ذاتَ خَلخالِ
ولم أسبأ الزِّقّ الروىّ ولم أقل * لخيلىَ كُرّى كَرّةً بعدَ إجفالِ

فقرن جودَه فى سِباء الزقّ ببسالته فى كرّ الخيل . ولمّا أنشد أبو الطيب المتنبي
١٥ سيف الدولة بن حمدان قصيدته التى يقول فيها :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ * كأنك فى جفن الردى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً * ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ

فقال له سيف الدولة : انتقدنا عليك يا أبا الطيّب هذين البيتين كما انتُقِد على امرئ القيس بيتاه، وذكرهما، قال : وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما لا يلتئم شطرا
٢٠ هذين البيتين : كان ينبغى لامرئ القيس أن يقول :

(١) السباء : شراء الخمر .

كأنىَ لم أركب جوادا ولم أقل * لخيـــلىَ كرّى كرّة بعد إجفالِ
ولم أســـبأ الزقّ الروىّ للذّةٍ * ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

وأن تقول أنت :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ * ووجهـك وضّاحٌ وثغـــرك باسمُ
تمـرّ بك الأبطال كَلْمَى هزيمـــةً * كأنك فى جفن الردى وهو نائمُ

فقال : أيّد الله مولانا ! إن كان صحّ أنّ الذى آستدرك على آمرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ آمرؤ القيس وأخطأتُ أنا، والثوبُ لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك لأن البزّاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاريقه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزليّة الى الثوبيّة . و إنما قرن آمرؤ القيس لذّة النساء بلذّة الركوب للصيد، وقرن السماحة فى ســباء الخمر للأضـيـاف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ؛ وأنا لمـا ذكرت الموت فى أوّل البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه . ولمـا كان الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه باكية قلت :

* ووجهك وضّاح وثغرك باسم *

لأجمع بين الأضداد فى المعنى و إن لم يتسع اللفظ لجميعها . فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله .

وقال لَقِيط بن زُرارة :

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ أنى * أبو قابوسَ أو عبدُ المَدَان

وقال حسّان بن ثابت الأنصارىّ عفا الله عنه و رحمه :

إذا ما الأشربات ذُكرنَ يوما * فهنّ لطيّبِ الراح الفِداءُ
ونشربهـا فتتركنا ملوكا * وأُسْـــدًا ما ينهنهها اللّقـاءُ

حكى أنّ حسّان بن ثابت عنّف جماعةً من الفتيان على شرب الخمر وسوء تنادمهم عليها وأنهم يُضَرِّبُون عليها ضربَ الإبل ولا يرجعون عنها ؛ فقالوا : إنا اذا همنا بالإقلاع عنها ذكرنا قولك :

ونشربها فتتركنا ملوكا * وأُسْدًا ما ينهنهها اللقاءُ

٥ فعاودناها .

وقال الأخطل يخاطب عبد الملك بن مروان :

إذا ما نديمى علّنى ثم علّنى * ثلاثَ زجاجات لهنّ هديرُ

خرجتُ أجرُّ الذيلَ حتى كأننى * عليك أمير المؤمنين أميرُ

وقال آخر :

١٠ إذا صدَمتنى الكأسُ أبدت محاسنى * ولم يخش نَدْمانى أذاىَ ولا بخلى

واست بفحّاش عليه وإن أسا * وما شكلُ من آذى نداماه من شكلى

وقال آخر :

شربنا من الذاذىّ (١) حتى كأننا * ملوكٌ لهم برُّ العراقَيْن والبحرُ

فلما انجلت شمسُ النهار رأيتُنا * تَوَلّى الغنى عنّا وعاودنا الفقرُ

١٥ ومثله لمُنَخَّل اليَشْكُرِىّ :

فإذا سكرتُ فإننى * ربُّ الخورنقِ والسديرِ

وإذا صحوتُ فإننى * ربُّ الشُّوَيهةِ والبعيرِ

وقال عنترةُ :

وإذا سكرتُ فإننى مستهلك * مالى، وعِرضى وافرٌ لم يُكلَمِ

٢٠ وإذا صحوتُ فما أُقَصِّر عن نَدًى * وكما علمت شمائلى وتكرُّمى

(١) الذاذىّ : شراب معروف بجودة إسكاره .

أخذه البحترىّ وزاد عليه فى قوله :

وما زلتَ خِلًّا للندامَى إذا ٱنتشوا * وراحوا بدورا يستحثُّون أنجما

تكرّمت من قبل الكئوس عليهمُ * فما ٱسطعن أن يُحدثن فيك تكرُّما

والزيادة أن عنترة ذكر أنه يستهلك ماله اذا سكر، والبحترى ذكر أن ممدوحه يتكرم قبل الكئوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكئوس أن تزيده تكرُّما . ٥

وكان الأعشى ميمون بن قيس مشهورا بتعاطى الخمر مشغوفاً بها كثير الذكر لها فى شعره . ومن ٱشتهاره بها قال المفضَّل بين قدماء الشعراء : أشعرهم ٱمرؤ القيس اذا ركب، والنابغة اذا رهب، وزُهَير اذا رغِب، والأعشى اذا طَرِب . وقصد الأعشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسلم وٱمتدحه بقصيدته التى أولها :

ألم تغتمض عيناك ليلةَ أرمَدَا * وبتَّ كما باتَ السليمُ مسهَّدَا ١٠

فاعترضه فى طريقه من أراد منعه ، فقالوا له : إنه يحرّم عليك الزنا والخمر . فقال : أمّا الزنا فقد كَبِرت فلا حاجة لى فيه ، وأمّا الخمر فلا أستطيع تركها . وعاد لينظر فى أمره، وقيل : إنه قال : أعود فأشربها سنة وأرجع ، فمات قبل الحول .

قالوا : ونظر الحسن بن وهب الى رجل يَعبِس فى كأسه ، فقال : ما أنصفتَها ، تضحك فى وجهك وتعبِس فى وجهها . ومن ذلك قول الشريف الرضىّ : ١٥

كالخمر يعبِس حاسيها على مِقَةٍ * والكأسُ تجلو عليه ثغرَ مبتسم

وهو مأخوذ من قول عبد الله بن المعتزّ حيث يقول :

ما أنصف النَّدمانُ كأسَ مُدَامةٍ * ضَحِكتْ اليه فشمّها بتعبُّس

ذكر شيء مما قيل فيها من جيّد الشعر

قد أوسع الشعراء فى هذا المعنى وأطنبوا فيه وتنوّعوا . فمنهم من مدحها ومنهم من وصفها وشبّهها، ومنهم من ذكر أفعالها وتغزّل فيها . وسنورد فى هذا الموضع نبذة مما طالعناه فى ذلك، إذ لو أوردنا مجموع ماوقفنا عليه لطال، ولاتسعت فيه دائرة المقال .

***

فأمّا ما قيل فيها على سبيل المدح لها، فمن ذلك قول ابن الرومى حيث يقول :

تالله ما أدرى بأيّة علّةٍ * يدعون هذا الراحَ باسم الراحِ؟
ألريحها ولروحها تحت الحشا * أم لارتياح نديمها المرتاحِ؟
إن حُرِّمت فبحقِّها من حرمةٍ * ما كان مثلُ حريمها بمباحِ
أو حُلِّلتْ فبحقِّها من نَشْوةٍ * تشفى سقامَ قلوبنا بصحاحِ

وقال أيضا :

خمرٌ اذا ما نديمى ظلَّ يكرَعها * أخشى عليه من اللألاء يحترقُ
لو رام يحلف أن الشمس ماغَرَبت * فى فيه كذَّبه فى وجهه الشفَقُ

ومثله قول الطليق المروانىّ :

فإذا ما غَرَبتْ فى فمه * أطلعتْ فى الخدّ منه شفقا

وقال الناجم :

وقهوةٍ كشعاع الشمس صافيةٍ * مثل السراب تُرَى من رقّةٍ شبحا
اذا تعاطيتَها لم تدرِ من فرحٍ * راحًا بلا قدَحٍ أُعطيتَ أم قدَحا؟

وقال الناشى :

يا ربّما كأس تناولتها * تسحب ذيلا من تلاليها
كأنها النـار ولكنها * منعّـمٌ واللهِ صاليهـا

ومما قيل فى وصفها وتشبيهها، فمن ذلك ما قاله يزيد بن معاوية :

وُمَدامةٍ حمـراءَ فى قارورةٍ * زرقاءَ تحملهـا يدٌ بيضـاءُ
فالخمر شمسٌ والحَبابُ كواكبٌ * والكفُّ قُطْبٌ والإناءُ سماءُ

وقال السرىّ :

عُنيتْ بالمـدامةِ الشـعراءُ * وصفوها وذاك عنـدى عناءُ
كيف تحصيل علمها وهى موتٌ * وحيـاةٌ وعـلّةٌ وشـفاءُ
فهى فى باطن الجوانح نارٌ * وهى فى ظاهر المحاجر ماءُ
حُلوةٌ مرّةٌ فما أحـدٌ يد * رى أداءٌ خُصُوصُها أم دواءُ

وقال البحترىّ :

اِشرب على زَهْر الرياض يشوبُه * زهرُ الخـدود وزهرةُ الصهباءِ
من قهوةٍ تُنسِى الهمومَ وتبعث الـ * ـشوقَ الذى قد ضلّ فى الأحشاءِ
يُخفى الزجاجةَ لونُها فكأنها * فى الكفّ قائمةٌ بغـير إناءِ
ولها نسـيمٌ كالرياض تنفّستْ * فى أوجـه الأرواح والأنـداءِ
وفواقعٌ مثـل الدموع تردّدت * فى صحن خدّ الكاعبِ الحسناءِ
يسقيكها رشأٌ يكاد يردّها * سكرى بفـترةِ مقـلةٍ حوراءِ
يسعى بها وبمثلها من طَرْفِهِ * عَـوْدًا وإبداءً على النـدماءِ

وقال الوأواء الدمشقىّ :

فامزُج بمائك نار كأسك واسقنى * فلقـد مزجتُ مدامعى بدماءِ

وآشرب على زهر الرياض مُدامةً * تَنفِى الهمومَ بعاجل السَّراءِ
لَطُفتْ فصارتْ من لطيف محلِّها * تجرى بجرى الروحِ فى الأعضاءِ
وكأنّ مِخنَقَةً عليها جوهرٌ * ما بين نارٍ أُذكِيَتْ وهواءِ
وكأنها وكأنّ حاملَ كأسها * إذ قام يجلوها على النُّدماءِ
شمس الضحى رقَصتْ فنقّط وجهَها * بدرُ الدجى بكواكب الجوزاءِ

وقال أبو نُوَاس :

أقول لما تحاكيا شبها * أيّهما للتشابه الذهبُ
هما سواءٌ وفرقُ بينهما * أنهما جامدٌ ومُنسكبُ

وله أيضا :

إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خلتَه * يقبِّل فى داجٍ من الليل كوكبا
ترى حيثما كانت من البيت مَشرِقًا * وما لم تكن فيه من البيت مَغرِبا
يدور بها ساقٍ أغنّ ترى له * على مستدار الأذن صُدْغًا مُعَقْرَبا
سقاهم ومنّانى بعينيه مُنيةً * فكانت الى نفسى ألذَّ وأطيبا

ومثل البيت الأوّل قول ابن المعتزّ :

كأنه قائم والكأس فى يده * هلالُ أوّلِ شهرٍ غابَ فى شفق

وقال ابن الرومىّ :

ومهفهفٍ تمّت محاسنُه * حتى تجاوز منتهى النفسِ
أبصرتُه والكأسُ بين فم * منه وبين أناملٍ خمسِ
فكأنه والكأس فى فمه * قمرٌ يقبِّل عارضَ الشمس

(١) العب : الشرب من غير مص .

وقال الحسين بن الضحّاك :

كأنما نُصْبَ كأسِه قمــرٌ * يكرَع فى بعض أنجم الفلكِ

وقال آخر :

وآكتست من فضّةٍ دُرَرًا * خلتُها من تحتها ذهبا
ككميت اللون قلدها * فارسٌ من لؤلؤ حَبَبا ٥

وقال آخر :

تغشى (١) بياض شاربها * فتخالها بيمين مختضبِ
دارت وعين الشمس غائبة * فحسبتُ عينَ الشمس لم تغب

وقال آخر :

حمــراء ورديّة مشعشعة * كأنها فى إنائها لهبُ ١٠
صهباء صِرْفا لو مسّها حجرٌ * من جامه الصخر مسّه طربُ

وقال آخر :

قلت والراح فى أكفّ النّدامَى * كنجومٍ تــلوحُ فى أبراجِ
أمُــدامًا خرطــتُمُ لمُــدامٍ * أم زجاجا سبكتُمُ لزجاجِ

وقال الحسن بن وهب : ١٥

وقهــوةٍ صافيــةٍ * كالمسك لمّا نفحا
شربتُ من دِنانهــا * من كلّ دنٍّ قَدَحا
فعــدتُ لا تحملنى * أعوادُ سرجى مَرِحا
من شدة السكر الذى * على فؤادى طفحا

(١) هــذا الشعر مختل الوزن وورد هكذا بكل الأصول . ولعله : « تمشى الكؤوس » أو تغشى المدام » مما يستقيم به المعنى والوزن . ٢٠

وقال ابن المعتز :

خليلىّ قد طاب الشرابُ المبرّدُ * وقد عدتُ بعد النسك والعودُ أحمدُ

فهاتِ عُقارا من قميص زجاجةٍ * كيافوتةٍ فى دُرّةٍ تتوقّدُ

يصوغ عليها الماءُ شُبّاكَ فضةٍ * له حَلَقٌ بيضٌ تُحَلّ وتُعقَدُ

٥ وقال التنوخىّ :

وراح من الشمس مخلوقةٍ * بدت لك فى قَدَحٍ من نهارِ

هواءٌ ولكنه ساكنٌ * وماءٌ ولكنه غير جارى

اذا ما تأملته وهى فيه * تأملتَ ماءً محيطا بنارِ

فهذا النهاية فى الأبيضاضِ * وهذا النهاية فى الأحمرارِ

١٠ وما كان فى الحكم أن يُوجَدَا * لفرطِ تنافيهما والنِّفارِ (٥١)

ولكن تجاوَرَ سطحاهما الـ * بسيطان فأتلفا بالجوارِ

كأنّ المديرَ لها باليمين * إذا مال بالسَّقْىِ أو باليسارِ

تدرَّعَ ثوْبا من الياسمين * له فردُ كُمٍّ من الجُلّنارِ

وقال ابن وكيع التِّنّيسىّ :

١٥ حَمَلتْ كفُّه الى شفتيه * كأسَه والظلامُ مُرخى الإزارِ

فالتقَى لؤلؤا حَبابٍ وثغرٍ * وعقيقانِ من فم وعُقارِ

وقال آخر :

قم فاسقنى قد تبلّج الغَسَقُ * من قهوةٍ فى الزجاج تأتلِقُ

كأننا والكئوس نأخذها * نشرب نارًا وليس نحترق

وقال أبو نواس :

غنّنا بالطلول كيف بَلينا * وأسقِنا نُعطِكَ[1] الجزاء الثمينا
من سلاف كأنها كلّ شيء * يتمنى مخيّر أن يكونا
أكل الدهرُ ماتجسّم منها * وتبقّى لنا[2] بها المكنونا
فإذا ما آجتليتَها فهباءٌ * تمنع الكفّ ماتُبيح العيونا
ثم شُجّتْ فاستضحكت عن لآلٍ * لو تجمّعنَ فى يدٍ لأقتُنينا
فى كئوسٍ كأنهن نجوم * جاريات ، بُروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا * فاذا ما غَرَبْنَ يغرُبْنَ فينا
لو ترى الشَّرْبَ حولها من بعيدٍ * قلتَ قومٌ من قِرّةٍ يصطلونا

وقال آبن المعتزّ :

وخمّارةٍ من بناتِ المجوسِ * ترى الدَّنَّ فى بيتها شائلا
وزَنّا لها ذَهَبًا جامدًا * فكالت لنا ذَهَبًا سائلا

* * *

وأما ماقيل فى أفعالها، فمن ذلك قول أبى تمّام الطائىّ :

وكأسٍ كمعسول الأمانى شربتُها * ولكنها أجلَتْ وقد شَرِبتْ عقلى
اذا عُوتبت بالماء كان آعتذارُها * لهيبا كوقع النار فى الحطَب الجَزْلِ
اذا اليدُ نالتها بوَتْرٍ توفّرت * على ضِغْنها[3] ثم آستقادت من الرِّجل

(١) فى الأصل : « نقطة الجزاء ... » وهو تحريف . وفى ديوان أبى نواس
* وأسقنا نعطك الثناء الثمينا *
(٢) كذا بالأصل ، وفى الديوان : * وتبقى لبابها المكنونا *
(٣) كذا فى الديوان . وفى الأصل : «صنعها» وهو تحريف .

ومثله قول ديك الجنّ واسمه عبد السلام :

فقام تكاد الكأس تخضب كفّه * وتحسَبه من وجنتيه استعارَها
مشعشعة من كفِّ ظبي كأنما * تناولها من خدّه فأدارَها
فظلنا بأيدينا نُتعتِعُ رُوحها * وتأخذ من أقدامنا الراحُ ثارَها

وقريب من المعنى الأوّل قول أبي بكر الخالديّ :

كانت لها أرجُل الأعلاج[1] واترةً * بالدوس فانتصفَت من أرؤس العربِ

[أخذ[2] هذا المعنى أبو غالب الإصباعيّ الكاتب فقال :

عَقَرَتْهُمُ معقورةٌ لو سالمت * شُرَّابها ما سُمِّيَتْ بعُقارِ
لَانَتْ لهم حتى انتشَوْا وتمكّنتْ * منهم فصاحت فيهمُ بالثارِ
ذكرت حقائدَها القديمةَ إذ غدت * صَرْعَى تُداسُ بأرجل العُصّارِ]

وقال آخر :

أسروها وجهَ النهار من الدَّنّ * فأمسَوْا وهم لها أُسَراءُ

وقال عبد الصمد بن بابك عفا الله عنه :

عُقارٌ عليها من دم الصّبّ نفضةٌ * ومن عَبَرات المستهام فواقعُ
معوّدةٌ غصبَ العقول كأنما * لها عند ألباب الرجال ودائعُ

* * *

وأما ماوُصفت به غير ماقدّمناه، فمن ذلك قول أبي الفضل يحيي بن سلامة الحصكفيّ [والحصكفي نسبة الى حصن كيفا] :

وخليع بتُّ أعتِبه * ويرى عتبي من العبثِ

(١) الأعلاج : جمع علج وهو الرجل من كفار العجم .

(٢) الزيادة التي بين هاتين العلامتين [ ] منقولة عن إحدى النسخ .

قلتُ إن الخمر مَخْبَـــثةٌ * قال حاشاها من الخَبث
قُلت منهـا القيء، قال أَجَلْ * طَهُرت عن مخـرج الحَدَثِ
قلتُ فالأرفاث تتبعهـا * قال طِيبُ العيش فى الرفثِ
وسأســـلوها فقلت متى * قال عنـد الكونِ فى الجدثِ

وقال آخر :

ثقُلت زجاجاتٌ أُنتنـا فُـرَّغا * حتى اذا مُلِئت بصرفِ الراحِ
خفَّتْ فكادت أن تطيرَ بما حوت * وكذا الجسوم تَخِفُّ بالأرواحِ

[وقريب من المعنى قول الآخر :

وزنَّا الكأس فارغةً وملأْى * فكان الوزنُ بينهما سواء (١)]

وقال أبو نواس :

قهـــوةٌ أُعْمِيَ عنهـا * ناظرا ريْبِ المنـونِ
عُتِّقتْ فى الدنّ حتى * هى فى رقّـــة دينى
ثم شُجَّت فأدارت * فوقها مثـــلَ العيونِ
حَـــدَقاً ترنو الينـا * لم تُحَجَّـرْ بجفـــونِ
ذهبـا يُثمـــر دُرًّا * كلَّ إبَّانٍ وحينِ
من يَدىْ ساقٍ عليه * حلّةٌ من ياسمينِ
غايةٍ فى الظرف والشكـل وفردٍ فى المجـونِ

وقال :

ذُدْ بمـاء الكَرْمِ والعنبِ * خطراتِ الهمِّ والنُّوَبِ
قهوة لو أنهـا نطقَتْ * ذكَرَتْ ساماً أبا العربِ

(١) الزيادة التى بين هاتين العلامتين [ ] منقولة عن بعض النسخ .

وهى تكسو كفَّ شاربِها * دستباناتٍ (١) من الذهبِ

وقال تاج الملوك بن أيّوب :

وكم ليلةٍ فيها وصلنا غَبوقَنا * وكم من صباحٍ كان فيه صَبوحُ
تُدار علينا من أكفِّ سُقاتنا * عُقارٌ من الهمِّ الطويلِ تُريحُ
تلوحُ لنا كالشمسِ فى كفِّ أغيدٍ * يلوح لعينى البدرُ حين يلوحُ
مدامٌ تُحاكى خدّه ورُضابَه * ونكهتَه فى الطِّيبِ حين تفوحُ
ولكن لها أفعالُ عينيه فى الحشا * فكلٌّ حشًا فيها عليه جَريحُ

وقال أيضا :

والكأس أُعطاها عقيقا أحمرا * قانٍ . فأُعطيها لُجَيْنًا يَقَقَا (٢)
من قهوةٍ ما العيش إلا أن أُرَى * مصطبِحا فى شربها مغتبِقا
أشربها شُربًا هنيئا من يدَىْ * غصنٍ رشيقٍ وغزالٍ أرشقَا

ومما قيل فيها اذا مُزجت بالماء، فمن ذلك قول أبى نواس :

وصفراءُ قبل المزج بيضاء بعده * كأن شعاعَ الشمس يلقاك دونَها
ترى العين تستعفيك من لمعانها * وتحسُر حتى ما تُقِلّ جفونَها

ومنه أخذ ديك الجنّ فقال :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده * بدت بين ثوبَىْ نرجس وشقائقِ
حكت وجنةَ المعشوق صِرْفًا فسلّطوا * عليها مزاجا فاكتستْ لونَ عاشقِ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

راحٌ اذا ما الليل مدَّ رواقه * لاحت تُطرِّز حُلّةَ الظلماءِ

(١) الدستبانات : كلمة فارسية ومعناها الأساور . (٢) يقق : الأبيض .

حتى اذا مُزجتْ أراك حَبابُها * زهراتِ أرضٍ أو نجومَ سماءِ

وقال أيضا :

وكأس تمتطى أطرافَ كفٍّ * كأنَّ بنانها من أُرجوانِ
أنازعها على العلّات شَرْباً * لهنَّ مضاحكٌ من أقحوانِ
يلوح على مفارقها حَبابٌ * كأنصافِ الفرائد والجُمانِ
وطالعنى الغلامُ بها مُحَيّاً * فزاد على الكواكب كوكبان
ووافقها بخدٍّ أُرجوانٍ * وخالفها بفرعٍ أدجوانِ

قوله :

* كأنصافِ الفرائد والجمان

مأخوذ من قول ابن الرومىّ :

لها صَريحٌ كأنه ذهبٌ * ورغوةٌ كاللآلئ الفُلُق

وقال أبو نواس :

فإذا علاها الماءُ ألبسها * حبّاً[1] شبيهَ جَلاجِلِ الحِجْلِ
حتى اذا سكَنتْ جوانحُها[2] * كتبتْ بمثلِ أكارع النمل

وهو مأخوذ من قول الأوّل، ويقال : إنه ليزيد بن معاوية :

وكأسٍ سباها التّجْر من أرض بابلٍ * كرقّة ماء الحُزْنِ فى الأعينِ النُّجلِ
اذا شجّها الساقى حسبت حَبابَها * عيونَ الدَّبا[3] من تحت أجنحةِ النملِ

وقال أبو نواس أيضا :

قامت تُريني وأمرُ الليل مجتمعٌ * صبحا تولّد بين الماء واللّهبِ

(١) كذا فى ديوانه . وفى الأصول : « نمشا » . (٢) كذا بالأصل . وفى الديوان : «جوامحها» . (٣) الدبا : الجراد .

كأنّ صُغرَى وكُبرَى من فقاقعها * حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذهبِ

وقال ابن المعتز :

للماء فيها كتابةٌ عجبٌ * كمثل نقشٍ فى فَصِّ ياقوتِ

وقال العسكرىّ :

٥ ذاب فى الكأس عقيقٌ بجرى * وطفا الدُّرُّ عليه فسبَحْ

نصب الساقى على أقداحها * شَبَكَ الفِضّةِ تصطادُ الفرحْ

وقال ابن الساعاتىّ :

وليلةٍ بات بدرُ التمّ ساقِينَا * يُدير فى فَلَكٍ من شربها شُهُبا

بكر اذا فُرعتْ بالماء كان بنا * جِدًّا وإن كان فى كاساتها لَعِبا

١٠ حمراء من نجلٍ حتى اذا مُزجت * لم تدر ما خجلا تحمرُّ أم غضبا

تزيد بالبارد السلسال جذوتُها * وما سمعت بماء محدِثٍ لهبا

تكسو النديمَ إذا ما ذاقها وَضَحًا * حتى كأنّ شعاعَ الشمس قد شَرِبا

وقال آخر :

فنبّهتْنى وساقى القوم يمزُجها * فصار فى البيت للمصباح مصباحُ

١٥ قلنا على علمنا والشكُّ يغلبنا * أراحُنا نارُنا أم نارُنا الراحُ

وقال ابن وكيع التِّنّيسىّ :

وصفراء من ماء الكروم كأنها * فراقُ عدوٍّ أو لقاءُ صديقِ

كأنّ الحبابَ المستديرَ بطوقها * كواكبُ دُرّ فى سماءِ عقيقِ

صببت عليها الماءَ حتى تعوّضت * قميصَ بَهارٍ من قميص شقيقِ

٢٠ وقال آخر :

حمراء ما اعتصموا بالماء حين طفت * إلا وقد حسبوها أنها لهبُ

وقال الخالديّان :

فهاتها كالعروس محمـــرّة الـ * ـخدّين فى مِعْجرٍ(١) من الحبَبِ
كادت تكون الهواءَ فى أرج الـ * ـعنبر لو لم تكن من العنبِ
من كفِّ راضٍ عن الصدود وقد * غضِبتُ فى حبّه على الغضبِ
فلو ترى الكأسَ حين يمزُجها * رأيت شيئا من أعجب العجبِ
نار حواهـا المِـــزاج يُلهبها المـــاءُ ودُرٌّ يـــدور فى لهبِ

ذكر ما قيل فى مبادرة اللّذات ومجالس الشراب وطيّها

قال أحمد بن أبى فَنَن :

جدِّد اللّـــذّاتِ فاليومُ جديدُ * وآمض فيما تشتهى كيف تريدُ
وآلهُ ما أمكـنَ يومٌ صالحٌ * إن يومَ الشرِّ ـ لا كان ـ عتيدُ

وقال ديك الجنّ :

تمتّع من الدنيـا فإنك فانى * [illegible] فى أيدى [illegible] حادث عانى
ولا تُنْظِرنّ اليومَ لهواً إلى غدٍ * [illegible] لغـدٍ من حادثٍ بأمانِ
فإنى رأيتُ الدهرَ يُسرع بالفتى * وينقـــله حالين مختلفان(٢)
فأمّا الذى يمضى فأحلامُ نائمٍ * وأمّا الذى يبـــقى له فأمانى

وقال ابن المعتزّ من أبيات :

وبادِرْ بأيام السرور فإنهـا * سِراعٌ وأيامُ الهمـــوم بِطـــاءُ
وخلِّ عتاب الحادثاتِ لوجهها * فإن عتـــابَ الحادثاتِ عناءُ
تعالَوْا فسقّوا أنفسا قبل موتها * ليأتِىَ ما يأتى وهنّ رِواءُ

(١) المعجر : ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها . (٢) كذا بالأصل . ولعلها "تختلفان" .

وقال أحمد المـارداني :

عاقرِ الراحَ ودَعْ نعتَ الطلَلْ * وٱعْصِ من لامك فيها وعذَلْ
غادِها واسعَ لهـا وٱغْرَ بهـا * وإذا قيل : تصابَى، قل أجَلْ
إنمـا دنياك ــ فٱعلم ــ ساعةٌ * أنت فيهـا وسوى ذاك أمَلْ

٥ وقال ٱبن بسّام :

واصـلْ خليلك إنما الـ * ـدنيا مواصلةُ الخليـلِ
وٱنعَـمْ ولا تتعجّل الـ * ـمكروهَ من قبل النزول
بادِرْ بمـا تهـوى فـا * تدرى متى وقت الرحيل
وٱرفُضْ مقـالةَ لائم * إن الملامَ من الفُضـولِ

١٠ ومـمـا وَصفتْ به مجالس الشرب، فمن ذلك قول أبى نواس :

فى مجلسٍ ضحك السرورُ به * عن ناجذيه وحُلّت الخُمُرُ

وقال ديك الجنّ :

كأنمـا البيتُ بريحانة * ثوبٌ من السندس مشقوقُ

وقال السرىّ :

١٥ ألستَ ترى ركبَ الغمامِ يُساقُ * وأدمعُهُ بين الرياض تُراقُ
وقدرقّ جِلبابُ النسيم على الثرى * ولكن جلابيبُ الغيوم صفـاقُ
وعندى من الرَّيحانِ نوعٌ تجسّه * وكأسُ كَرْفراق الخَـلُوقِ(١) دِهاقُ
وذو أدبٍ جلّتْ صنائعُ كفّـه * ولكن معانى الشعر منه دِقاقُ
له أبدًا من نثره ونظـامه * بدائعُ حَلْيٍ ما لهنّ حِقـاقُ

٢٠ (١) الخلوق : ضرب من الطيب مائع فيه صفرة لأن غالب أجزائه من الزعفران .

وأغيـدُ مهتزٌّ، على صحن خدّه * غلائلُ من صِبغ الحيـاءِ رِقاقُ
أحاطت عيونُ العاشقين بخصره * فهنّ له دون النِّطاق نطاقُ
وقد نظـم المنثور فهـو قلائد * علينا، وعقدٌ مُذْهَبٌ وخنـاقُ
وغرفتنا بين السحائب تلتـقِي * لهنّ علينا كِلّةٌ ورِواقُ
تقسَّم زُوّارٌ من الهند سَقفَها * خِفافٌ على قلبَ الكريم رِشاقُ
أعاجمُ تلتـذُّ الخصامَ كأنها * كواعبُ زَنْج راعهنّ طَلاقُ
أنِسنَ بنـا أنسَ الإماءِ تحبَّبتْ * وشيمتها غَـدْرٌ بنـا وإباقُ
مُواصِـلةٌ والورد فى شجـراته * مفارقةٌ إن حان منـه فراقُ
فزُرْ فتيةً، بَرْدُ الشرابِ لديهمُ * حميمٌ اذا فارقتهـم وغَسَاقُ(١)

قـــوله :

أحاطت عيون العاشقين بخصره * فهن له دون النطاق نطاقُ

مأخوذ من قول المتنبّى :

وخصرٍ تثبُت الأحداق فيه * كأنّ عليه من حَدَقٍ نطاقا

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وليـــل ابتعتُ به لذّةً * وبعتُ فيه العقـلَ والدّينـا
أصاب فيه الوصلُ قلبَ الجوى * وبات فيـــه الهمُّ مسكينا
وقد خلطنا بنســيم الصَّبا * نسـيم راحٍ ورياحينـا
وأكؤس الراح نجومٌ اذا * لاحت بأيدينـا هوتْ فينـا
تضحك فى الكأس أباريقُنا * وحسبما تضحَك تبكينا

(١) الغساق : المنتن الشديد البرد الذى يحرق من برده كإحراق الحميم .

ومما قيل فى طىّ مجالس الشراب، فمن ذلك قول بعض الشعراء :

حُكم العُقارِ اذا قصدتَ لشربها * فى لذّةٍ من مُسمِع[1] وقيانِ
ألّا تعود لذكر ما أبصرتَ من * أُحدوثةٍ من شاربٍ سكرانِ

وقال آخر :

إذا ذُكر النبيذُ فليس حقًّا * إعادة مايكون على النبيذِ
إعادة مايكون من السّكارى * يكدّر صفوةَ العيش اللذيذِ

وقال آخر :

تنازعوا لذّة الصهباء بينهُمُ * وأوجبوا لرضيع الكأسِ مايجب
لايحفظون على السكران زلّتَهُ * ولا يُريبك من أخلاقهم رِيَبُ

ذكر ماقيل فى وصف آلات الشراب وأوانيها

من ذلك ماقيل فى وصف مَعصرة الخمر :

قال أبو الفرج الببّغاء :

ومَعصرة أنختُ بها * وقَرنُ الشمس لم يَغِبِ
نخِلْتُ قرارها بالرا * ح بعضَ معادنِ الذهبِ
وقد ذَرَفت لفقد الكَرْ * م فيها أعينُ العنبِ
وجاش عُبابُ واديها * بمنهلٍّ ومُنسَكِبِ
وياقوت العصير بها * يلاعبُ لؤلؤ الحببِ
فياعجبا لعاصرها * وما يفنَى به عجبى
وكيف يعيش وهو يخو * ض فى بحرٍ من اللّهب

---

(١) المسمع : المغنى .

وقال ٱبن المعتزّ يصف الدِّنان :

ودنانٍ كمثلِ صفِّ رجال * قد أقيموا ليرقصوا دَسْتَبَنْدَا (١)

وقال القُطامىّ يصف جِرارَ الخمر :

وٱسْتَوْدَعَتْها رَواقيـــدُ (٢) مقـيرةٌ (٣) * دُكْنُ الظواهرِ قد بُرْنِسن بالطّينِ

مكافِحـاتٌ لحرِّ الشمس قائمةٌ * كأنهنّ نَبِيـطٌ (٤) فى تبابِينِ

وقال العلوىّ الأصفهانىّ :

مخـدَّرةٌ مكنونةٌ قد تَقَشَّفتْ * كراهبةٍ بين الحسـانِ الأوانسِ

وأترابُهـا يلبَسن بيضَ غلائلٍ * هى العُرْىُ مغرورٌ بها كلُّ لابسِ

مشـعَّثةٌ مَرْهاء (٥) ماخِلتُ أننى * أرى مثلَها عذراءَ فى زِىّ عانسِ

ومما قيل فى الراووق، قال بعض الشعراء :

كأنما الراووقُ وٱنتصـابُه * خُرطومُ فيلٍ سقطتْ أنيابُهُ

والبيت منـــه عَطِرٌ ترابُهُ * كأنَّ مسكًا فُتِّقَتْ عِيـابُهُ

وقال آخر :

سماء لاذٍ (٦)، قَطْرُها رحيـقُ * رحب الذّرى يخطّ فيه الضِّيقُ

ماءُ عقيقٍ لو جرى العقيقُ * حتى اذا ألهبها التّصـفيقُ

* صِحْنا الى جيراننـا : الحريقُ *

---

(١) الدستبند : نوع من أنواع رقص المجوس : يأخذ بعضهم بيد بعض و يدورون و يرقصون .

(٢) رواقيد : جمع راقود وهو الدنّ الكبير .

(٣) مقيرة : أى مسيعة بالقار وهو "الزفت" .

(٤) التبابين : جمع تبان وهو سراويل صغير يستر العورة .

(٥) المرهاء : التى أبيضت حماليقها من تركها الكحل .

(٦) اللاذ : جمع لاذة وهى ثوب حرير أحمر صينى .

ومما وُصفت به زقاق الخمر ، فمن ذلك قول الأخطل :

أناخوا بخمرٍ شاصياتٍ[1] كأنها * رجالٌ من السودان لم يتسربلوا

وقال أبو الهندىّ وأجاد فى شعره :

أتلفَ المالَ وما جمعتُه * طلبُ اللذاتِ من ماء العنبْ

٥ واستباءُ الزقّ من حانوتها * شائل الرجلين مَعْضوب[2] الذنبْ

كلما كُبّ لشرب خلتَه * حبشيًا قُطعتْ منه الرُّكَبْ

وقال ابن المعتزّ :

وتراها وهى صَرْعَى * فُرَّغًا بين الندامَى

مثلَ أبطالِ حروب * قُتِلوا فيها كِرامَا

١٠ وقال العلوىّ الأصفهانىّ :

عجبتُ من حبشىّ لا حَراكَ به * لا يُدرك الثأر إلا وهو مذبوحُ

طَوْرًا يُرَى وهو بين الشَّرب مضطجعٌ * رخو الصِّفاقِ[3] وطَوْرًا وهو مشبوحُ

ومما وُصفت به الأباريقُ ، فمن ذلك قول شُبرمة بن الطفيل :

كأنّ أباريقَ الشّمول عشيّةً * إوَزٌّ بأعلى الطفِّ عُوجُ الحناجر

١٥ وقال آخر :

يا رُبَّ مجلس فتيةٍ نادمتُهم * من عبد شمسٍ فى ذرى العلياءِ

وكأنما إبريقُهم من حُسنهِ * ظبيٌ على شَرَفٍ أمامَ ظباءِ

وقال ابن المعتزّ :

وكأنّ إبريقَ المدام لديهمُ * ظبيٌ على شَرَفٍ أنافَ مدلَّهَا

٢٠ (١) الشاصيات : القرب اذا كانت مملوءة أو نفخ فيها فارتفعت قوائمها .

(٢) المعضوب : المقطوع . (٣) الصفاق : جلد البطن .

لمـا استحثّته السُّقاة جثى لها * فبكى على قدح النـديم وقهقها

وقال إسحاق الموصلىّ :

كأن أباريقَ المدام لديهـمُ * ظبـاءٌ بأعلى الرَّقْمتين قِيامُ

وقد شربوا حتى كأنّ رقابَهم * من اللّين لم يُخلَقْ لهنّ عِظـامُ

وكلّهم نظروا الى قول عَلْقمة بن عَبَدَة : ٥

كأنّ إبريقهم ظبيٌ على شَرَفٍ * مُفَدَّمٌ بسَبا(١) الكتّان ملثومُ

وقال محمد بن هانئ من أبيات :

والأباريقُ كالظبـاء العواطى * أوجستْ نبأةَ الخيولِ العتـاقِ

مُصغياتٌ إلى الغناءِ مُطـلّا * تٌ عليـه كثيرةُ الإطراقِ

وهى شُمُّ الأنوفِ يشمخن كبرًا * ثم يَرْعُفن بالدّمِ المُهـراق ١٠

وقال أبو نواس عفا الله عنه :

والكوب يضحك كالغزال مسبّحًا * عنـد الركوع بلثغـةِ الفَأْفاءِ

وكأنّ أقداح الرحيـق إذا جرت * وسط الظلامِ كواكبُ الجوزاءِ

وقال بشّار بن بُرْد :

كأنّ إبريقَنا والقَطْرُ من فمه * طـيرٌ تنـاول ياقوتًا بمنقارِ ١٥

ومما وُصفت به الكاساتُ والأقداحُ ، فمن ذلك قول ٱبن المعتزّ :

غدا بها صـفراء كُرْخيّة * تخالهـا فى كأسهـا تتقـدْ

وتحسب المـاءَ زجاجًا لها * وتحسب الأقداحَ ماءً جَمَدْ

وقال ٱبن المعتزّ أيضا عفا الله عنه :

وكأسٍ تُحجَبُ الأبصـارُ عنها * فليس لنـاظرٍ فيهـا طريقُ ٢٠

(١) السب والسبيبة : الشقة ، وخص بعضهم به الشقة البيضاء . كذا فى اللسان ، وقد ٱستشهد بهذا البيت وعقب عليه قائلا : « إنما أراد بسبائب فحذف » .

كأن غمامةً بيضاءَ بيني * وبين الكأس تخرِقها البروقُ

وقال أبو الفرج الببّغاء :

من كلّ جسم كأنه عَرَضٌ * يكاد لُطفًا بالحظ يُنْتَهَبُ
كأنما صاغه النِّفاق فما * يخلُص منه صدقٌ ولا كذبُ

٥ وقال الرفّاء :

كأنّ الكئوسَ بفضلاتها * متوّجةً بأكاليل نورِ
جيوبٌ من الوشي مَزْروزةٌ * يلوح عليها بياضُ النحورِ

وقال آخر :

وكأنما الأقداحُ مترعة الحشا * بين الشروب كواكبُ الجوزاءِ
١٠ وكأنها ياقوتةٌ فضلاتها * مخروطةٌ من دُرّة بيضاءِ

وقال المعوّج :

يعاطيك كأسًا غير ملأى كأنها * إذا مُزجتْ أحداقُ درعٍ مُزرَّدِ
كأنّ أعاليها بياضُ سوالف * يلوح على توريدِ خدّ مورَّدِ

وقال أبو نواس :

١٥ وكأنما الروضُ السماءُ ونهرُه * فيه المجرّةُ والكئوسُ الأنجمُ

وقال الثعالبيّ :

ياواصف الكأس بتشبيهها * دونك وصفًا عالِيَ القَدْر
كأنّ عينَ الشمس قد أُفرِغتْ * في قالَبٍ صِيغ من البدر

وقال آخر :

٢٠ أقول للكأس إذ تبدّتْ * بكفِّ أحْوى أغنّ أحورْ
أخربتِ بيتي وبيتَ غيري * وأصلُ ذا كعبُك المدوّرْ

البـاب الخـامس

من القسم الثـالث من الفنّ الثـانى

فى النُّدمان والسُّقاة

قال سهل بن هارون : ينبغى للنـديم أن يكون كأنما خُلق من قلب الملك يتصرّف بشهواته ويتقلّب بإرادته، لايَمَلّ المعاشرة، ولا يسأم المسامرة؛ إذا آنتشى يحفظ، وإذا صحا يَيقَظ، ويكون كاتما لسرّه، ناشرا لبزّه . قالوا :

فاخَرَ كاتبٌ نديما، فقال الكاتب : أنا معونة، وأنت مؤونة؛ وأنا للجدّ، وأنت للهزل؛ وأنا للشـدّة، وأنت للرخاء؛ وأنا للحرب، وأنت للسِّـلم . فقال النديم : أنا للنعمة، وأنت للخدمة؛ وأنا للحُظوة، وأنت للهنة؛ تقوم وأنا قاعد، وتحتشم وأنا مؤانِس؛ تدأب لراحتى، وتشقى لمـا فيه سعادتى؛ فأنا شريك وأنت مُعِين، كما أنك تابع وأنا قرين . فلم يُحِر الكاتبُ جوابا . والله أعلم .

وسئل إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ رحمه الله عن الندماء، فقال :

واحدٌ غَمٌّ، وآثنان هَمٌّ، وثلاثةٌ قِوَامٌ، وأربعةٌ تَمَـامٌ، وخمسةٌ مجلِسٌ، وسـتّةٌ زحامٌ، وسـبعةٌ جَيْشٌ، وثمـانيةٌ عَسْكرٌ، وتسعةٌ آضربْ طبلَك، وعشرة آلقَ بهم مَن شئتَ .

وقال الجمّـاز : النبيـذ حرام على آثنى عشر نفسا، مَن غَنّى الخطأ، واتكأ على اليمينِ، وأكثرَ من أكل البقل، وكسر الزجاجَ، وسرق الريحانَ، وبل مابين يديه، وطلب العَشاء، وقطع البَمّ(١)، وحبس أوّلَ قدحٍ، وأكثر الحديثَ، وآمتخط فى منديل الشراب، وبات فى موضع لايُحْتَمَلُ المبيتُ فيه .

(١) البم : الوتر الغليظ من أوتار العود .

قال أبو هلال العسكرى :

ما أعافُ النبيذَ خيفةَ إثم * إنما عفتُه لفقدِ النّديم

ليس فى اللهو والمدامةِ حظٌّ * لكريم دون النديم الكريم

فتخيَّرْ قبلَ النبيذ نديمًا * ذاخلالٍ معطَّراتِ النسيم

وجمال إذا نظرتَ بديعٍ * وضميرٍ إذا آختبرتَ سليم

وقال آخر :

أرى للكأس حقًّا لا أراه * لغير الكأسِ إلا للنديم

هو القطبُ الذى دارتْ عليه * رحَى اللّذاتِ فى الزمنِ القديم

وقال آخر :

ونَدْمانٍ أخى ثقةٍ * كأنَّ حديثَه حِبَرهْ (١)

يسرُّك حسنُ ظاهرِهِ * وتَحمَد منه مُخْتَبَرهْ

ويستر عيبَ صاحِبِه * ويستُرُ أنه سَتَرَهْ

وقال آخر :

ونديم حلو الحديث يجاريـ * ـك بما تشتهيه فى مَيدانِكْ

أَلمعىّ كأنّ قلبَك فى أضـ * ـلاعه أو كلامَهُ فى لسانِكْ

وقال يحيى بن زياد :

ولستُ له فى فضلة الكأسِ قائلا * لأصرفه عنها (٢) : تحسَّ وقد أبَى

ولكن أُحيِّيه وأُكرم وجهَهُ * وأشربُ ما أَبقَى وأسقيه ما آشتهى

ولستُ إذا مانام عندى بموقظٍ * ولا مُسمِعٍ يقظانَ شيئا من الأذَى

وقال آخر :

ليس من شأنه إذادارتِ الكأ * س فأزرى إدمانُها بالحلومِ

(١) الحبرة : ضرب من برود اليمن منمر . (٢) هذه رواية الأصل وهى غير مستقيمة ويحتمل أن تكون محرّفة عن « لأصرفها عنى » أو « لأصرعه سكرا » أو نحو ذلك .

قولُ مايُسخط النديمَ وإن أسـ * ـخطَه عند ذاك قولُ النـديم

وقال عبد الرحمن العَطَوىّ رحمه الله :

أُخْطُبْ لكأسك نَدمانًا تُسَرُّ به * أو لا فنادِمْ عليها حكمةَ الكتب

أخطُبْه حرًّا كريمـا ذا محافظة * ترى مودّتَه من أقرب النسب

وقال أبو نُوَاس :

٥٧

ونَدْمانٍ يَرَى عيبًـا عليـه * بأن يمشى وليس به آنتشاءُ

إذا نبّهته من نوم سكرٍ * كفاه مرّةً منـك النداءُ

فليس بقائل لك : إيهِ دعنى * ولا مسـتخبرا لك ما تشاءُ

ولكن سَقِّنى ويقول أيضا * عليك الصِّرْف إن أعياك ماءُ

اذا ما أدركته الظهرُ صـلّى * ولا عصرٌ عليـه ولا عِشاءُ

يصلّى هذه فى وقت هذى * وكلّ صـلاته أبدًا قضاءُ

وقال آخر :

نبهت نُدْمانى فهبّـوا * بعد المنام لمـا آستحبّوا

هـذا أجاب وذا أنا * ب وذا يسير وذاك يحبو

أنشـدتهم بيتا يعـلِّم * ذا الصبابةِ كيف يصبو

«ما العيش إلا أن تُحِبّ * وأن يحبّـك من تحبّ»

فتطـربوا والأريحيـة * شأنهـا طَرَبٌ وشربُ

وقال أبو عُبَادة البحترىّ عفا الله تعالى عنه :

ونديم نبهتُـه ودجى الليـ * ـل وضوءُ الصباح يعتلجانِ

قم نبادرْ بها الصيامَ فقد أقـ * ـمر ذاك الهلالُ من شعبانِ

وقال أيضا :

بات نديمًا لِيَ حتى الصباح * أغيدُ مجدولُ مكانِ الوشاح
كأنما يبسِم عن لؤلؤ * مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح
يساقط الوردَ علينا وقد * تبلّج الصبحُ، نسيمُ الرياح
إن لان عِطْفاه قسَا قلبُه * أو ثَبّت الخلخال جال الوشاح (١)
أمزُجُ كأسى بجَنَى ريقه * وإنما أمزُجُ راحًا براح

ومنهم من كره النديم وآثر الانفراد . قال إبراهيم الموصلىّ عفا الله تعالى عنه ورحمه :

دخلت يوما على الفضل بن يحيي فصادفته يشرب وعنده كلب، فقلت له : تنادم كلبا ! قال : نعم، يمنعنى أذاه، ويكُفّ عنّى أذى سواه، ويشكر قليلى، ويحفظ مَبيتى ومَقيلى . وأنشد :

وأشرب وحدى من كراهتِيَ الأذى * مخافةَ شرّ أو سِبَابِ لئيم

انتهى وأستغفر الله العظيم .

ومما قيل فى السُّقاة، فمن ذلك قول الصنوبرىّ عفا الله عنه :

ومُوَرّد الخدّين يخـ * ـطِر حين يخطر فى مورّدْ
يسقيك من جفن اللّجيـ * ـن اذا سقاك دموعَ عَسْجَدْ
حتى تظنّ النجم ينـ * ـزلُ أو تظنّ الأرض تصعَدْ
فإذا سقاك بعينه * وبفيه ثم سقاك باليدْ
حيّاك بالياقوت ثم الدُّرّ من تحت الزَّبَرجدْ

(١) هذا البيت ساقط من أبيات هذه القصيدة فى ديوان البحترى .

وقال ديك الجنّ :

ومُزْرٍ بالقضيب اذا تثنّى * ومزهاةٍ على القمـــر التمامِ
ســـقانى ثم قبّلنى وأوما * بطرفٍ سُقْمُه يشفى سَقامِى
فبِتّ له على الندمان أُسقَى * مُداماً فى مُدامٍ فى مدامِ

وقال ابن المعتزّ : ٥

(٥٨) تدور علينا الراحُ من كفِّ شادنٍ * له لحظُ عين يشتكى السقمَ مُدنَفُ
كأنّ سـلافَ الخمر من ماء خدّه * وعنقودها من شعره الجعدِ يُقطَفُ

وقال أيضا :

بين أقداحهم حديثٌ قصيرٌ * هو سحرٌ وما سـواه الكلامُ
فكأنّ السُّقاةَ بين النـدامَى * ألِفـاتٌ بين السطور قيامُ ١٠

وقال أحمد بن أبى فنَن :

بكفّ مُقَرْطَقٍ خَنِثٍ * تطيب بطيبه الرِّيَبُ
تراهـا وهى فى كفّيـ * ـه من خَدّيه تلتهبُ

وقال الصنوبرىّ :

وساقٍ اذا هم نَدْماننـا * بأن يُزْجِىَ الكأسَ لم يُزْجِهِ ١٥
كلعبة عاج على فرشـه * وليثِ عَرِينٍ على سَرْجِهِ
لطيفِ المنطق مهـــذّره * ثقيـــلِ المؤزَّرِ مرتجّه
سقانى بعينيه أضعافَ ما * سقانى بكفّيه من غُنْجِه

وقال آخر :

ياساقىَ القوم إن دارت إلىّ فلا * تمزُجْ فإنى بدمعى مازجٌ كاسى ٢٠
و ياقتى الحىّ إن غنّيتَ من طَرَبٍ * فغنِّ : واحَرَبا مِن قلبه القاسى

وقال ابن المعتز :

وعاقدِ زُنّارٍ على غُصُنِ الآسِ * دقيق المعانى مُخْطَفِ الخصرِ مِيّاسِ
سقانى عُقَارًا صَبَّ فيها مِزاجَها * فأضحك عن ثغر الحَباب فَمَ الكاسِ

وقال أيضا :

قام كالغصن فى النقا * يمزُج الشمس بالقمر
وسقانى المدام والليلُ بالصبح مؤتزر
والثريّا كنَوْرِ غصنٍ على الغرب قد نُثِرْ

وقال البحترى :

وفى القهوة أشكالٌ * من الساق وألوانُ
حَبابٌ مثلُ ما يَضحَـ * ـكُ عنه وهو جذلانُ
ويُسْكِر مثل ما يُسْكـ * ـرُ طَرْفٌ منه وَسْنانُ
وطعمُ الريق إن جاد * به والصبّ هَيمانُ
لنا من كفّه راحٌ * ومن ريّاه ريحانُ

وقال أبو القاسم الهُبيرىّ الكاتب رحمة الله تعالى عليه :

سقانا الراح ساقٍ، كلُّ راحٍ * سوى ألحاظ عينيه سرابُ
يدير الكأسَ مبتسما علينا * فما ندرى أثغرٌ أم حَبابُ؟
وقد سَفَر الدجى عن ثوب فجر * منير مثل ما سفر النقابُ
فخلتُ الصبح فى أثر الثريّا * بشيرًا جاء فى يده كتابُ

وقال أبو الشّيص :

يطوف علينا به أحورٌ * يداه من الكأس مخضوبتانِ
غزالٌ تميل بأعطافه * قناةٌ تعطّف كالخَيْزُران

وقال أبو بكر محمد بن عمّار :

وهَوِيتـه يســقى المُدامَ كأنه * قمرٌ يطوف بكوكبٍ فى حِنْدِسِ

متأرّج الحركات تنـدَى ريحُهُ * كالغصن هزّته الصَّبا بتنفّسِ

يسعى بكأسٍ فى أنامل سَوْسَنٍ * ويُدير أخرى فى محاجر نَرْجِسِ

وقال المعوّج يصف ساقية : ٥

لاعيش إلا من كفّ سـاقيةٍ * ذاتِ دلال فى طرفها مَرَضُ

كأنما الكأسُ حين تمزُجها * نجومُ ليـلٍ تعـلو وتخفضُ

وقال آخر يصف آمرأةً ساقيةً : ٥٩

وساقيةٍ كأنّ بمَفرِقيها * أكاليلًا على طبقاتِ ورد

لها طِيبُ المنى وصفاءُ لونٍ * وحمرةُ وجنـةٍ ومَذاقُ شَهدِ ١٠

وقال ديك الجنّ يصف ساقيا وساقيةً :

أفـديكما من حاملَىْ قَـدَحَيْنِ * قمرين فى غصنين فى دِعصَينِ

رُودٌ منعّمةٌ ومهضوم الحشا * للناظرين مُنًى وقُرّة عَينِ

قامت مؤنّثـةً وقام مؤنّثـا * فتناهبا الألحـاظَ بالنظرينِ

صُبّا علىّ الراحَ إن هلالَنا * قـد صبّ نعمته على الثقلين ١٥

وإلىّ كأسـكما على ماخيّلت * بالتـبر معجوناً بمـاء لُجين

الباب السادس

من القسم الثالث من الفنّ الثانى

فى الغناء والسماع، وما ورد فى ذلك من الحَظْر والإباحة، وما آستدلّ به من رأى ذلك؛ ومن سمع الغناء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومن التابعين ومن الأئمة والعبّاد والزّهاد، ومن غنّى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقُوّاد والأكابر، وأخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة الى العربيّة، ومن أخذ عنهم، ومن آشتهر بالغناء وأخبار القيان .

ذكر ما ورد فى الغناء من الحَظْر والإباحة

قد تكلم الناس فى الغناء فى التحريم والإباحة وآختلفت أقوالهم وتباعدت مذاهبهم وتباينت آستدلالاتهم؛ فمنهم من رأى كراهته وأنكر آستماعه، وآستدلّ على تحريمه؛ ومنهم من رأى خلافَ ذلك مطلقا وأباحه وصمّم على إباحته؛ ومنهم من فرّق بين أن يكون الغناء مجرّدا أو أضيف اليه آلة كالعود والطنبور وغيرهما من الالات ذوات الأوتار والدفوف والمعازف والقصب، فأباحه على آنفراده وكرهه إذا آنضاف إلى غيره وحرّم سماع الالات مطلقا . ولكل طائفة من أرباب هذه المقالات أدلّة آستدلّت بها . وقد رأينا أن نثبت فى هذا الموضع نبذة من أقوالهم على سبيل الآختصار وحذف النظائر المطوّلة فنقول وبالله التوفيق .

* * *

أما ما قيل فى تحريم الغناء وما آستدلَّ به مَن رأى ذلك، فإنهم آستدلّوا على التحريم بالكتاب والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من علماء

المسلمين . أما دليلهم من الكتاب العزيز فقول الله عزّ وجلّ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ . ٥
وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ . قال ابن عباس : (سَامِدُونَ) هو الغناء بلغة حِمْير ، وقال مجاهد : هو الغناء بقول أهل اليمن ، سَمَد فلان اذا غنّى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ : إنه الغناء ، ومن طريق آخر : إنه الغناء وأشباهه . ١٠
وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : هو — والذى لا إله إلا هو — الغناء . وعن مجاهد رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قال : صوته الغناء والمزامير . وعنه فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ قال : الغناء .

وأمّا دليلهم من السنّة ، فما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن الله عزّ وجلّ حرّم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع اليها ، ثم قرأت ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ الآية . وروى أبو أُمامة رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ما رفع أحدٌ صوته بغناء إلّا بعث الله عزّ وجلّ اليه شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يُمسك» . وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٢٠
"كان إبليس أوّل من ناح وأوّل من تغنّى" . وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله

عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة".

وأمّا أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم، فقد روى عن عثمان بن عفّان رضى الله عنه أنه قال: ما تغنّيت قطّ. فتبرّأ من الغناء وتبجّح بتركه. ورُوى عن ٥ ٱبن مسعود رضى الله عنه أنه قال: الغناء يُنبت النفاق فى القلب كما ينبت الماءُ البقلَ. ورُوى أنّ ٱبن عمر رضى الله عنهما مرّ على قوم محرمين ومعهم قوم ورجل يغنّى فقال: الا لا أسمع والله لكم، ألا لا أسمع والله لكم. ورُوى عن عبد الله ابن دينار قال: مرّ ٱبن عمر رضى الله عنهما بجارية صغيرة تغنّى، فقال: لو ترك الشيطان أحدًا ترك هذه. وعن إسحاق بن عيسى قال: سألت مالك بن أنس رضى ١٠ الله عنه عما ترخّص فيه بعض أهل المدينة من الغناء فقال: ما يفعله عندنا إلا الفُسّاق. وقال الشعبىّ: لُعِن المغنّى والمغنّى له. وقال الحكم بن عتيبة: حبُّ السماع ينبت النفاق فى القلب. ورُوى أن رجلا سأل القاسم بن محمد فقال: ما تقول فى الغناء، أحرام هو؟ فأعاد عليه، فقال له فى الثالثة: اذا كان يوم القيامة فأُتى بالحق والباطل أين يكون الغناء؟ قال: مع الباطل. قال القاسم: فأَفتِ نفسك. وقال ١٥ الفُضَيل بن عياض: الغناء رُقْية الزنا. وقال بعضهم: الغناء رائد من رواد الفجور. وقال الضحّاك: الغناء مَفْسَدة للقلب، مَسْخَطة للرب. وقال يزيد ابن الوليد مع ٱشتهاره بما ٱشتهر به: يا بنى أُميّة، إيّاكم والغناء، فإنه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر، فإن كنتم لا شكّ فاعلين فجنّبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا. وإنى لأقول ذلك فيه على ٢٠ أنه أحبّ إلىّ من كلّ لذّة، وأشهى الى نفسى من الماء الى ذى الغُلّة الصادى، ولكن الحقّ أحقّ أن يقال.

وأمّا أقوال الأئمة رحمهـم الله تعالى فقـد قال الإمام الشافعىّ رضى الله عنـه فى كتاب أدب القضاة : الغناء لهوٌ مكروه يشبه الباطل . وقال : من آستكثر منـه فهو سفيه تُرَدّ شهـادته . قال القاضى حسين بن محمد : وأمّا سمـاعُه من المرأة التى ليست بمَحْـرم ، فإن أصحاب الشافعىّ قالوا : لا يجوز بحال سواء كانت بارزة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرّة أو مملوكة . وقال الشافعىّ : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تُرَدّ شهادته . ثم غلّظ القول فيه وقال : هو دِيَاثَةٌ . قال : وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعَا الناس إلى الباطل، ومن دعا الى باطل كان سفيهـا فاسقا . وقال مالك بن أنس : اذا آشـترى جارية فوجدها مغنّية كان له ردّها بالعيب،قال : وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده.وكره أبوحنيفة ذلك وجعل سماع الغناء من الذنوب. قال: وذلك مذهب سائر أهل الكوفة وسفيان الثورىّ، وحمّاد بن سَلَمة، وإبراهيم النّخعىّ، والشعبىّ وغيرهم لا خلاف بينهم فى ذلك . قال : ولا يُعْرَف أيضا بين أهل البصرة خلاف فى كراهة ذلك والمنع منـه . وقال بعض الزهّاد : والغناء يورث العنـاد فى قوم، ويورث التكذيب فى قوم، ويورث القساوة فى قوم .

وقال بعضهم عن حاله عند السماع :

(٦١) أتذكُر وقتنا وقـد آجتمعنا * على طِيبِ الغناءِ الى الصباح
ودارت بيننا كأْسُ الأغانى * فأسكرتِ النفوسَ بغير راح
فـلم ترفيهـمُ إلا نشاوَى * سروراً والسرور هناك صاحى
إذا لبّى أخو اللذّاتِ فيـه * منادى اللهوِ حىّ على السماح
ولم يملك سوى المُهجاتِ شيئا * أرقنـاها لألحـاظٍ مِـلاح

هـذا ملخص ما ذكروه فى تحريم الغناء . وقـد آستدلّ مَن أباحه بما يناقض ما تقدّم على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى إباحة الغناء .

ذكر ما ورد فى إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة

وقد تكلم الناسُ فى إباحة الغناء وسماع الأصوات والنغمات والآلات، وهى الدفّ
٥ واليراع والقصب والأوتار على آختلافها من العود والطُّنبور وغيره ، وأباحوا ذلك وآستدلّوا عليه وضعّفوا الأحاديث الواردة فى تحريمه، وتكلّموا على رجالها وجرّحوهم وبسطوا فى ذلك المصنّفات ووسّعوا القول وشرحوا الأدلّة . وطالعت من ذلك عدّة تصانيف فى هذا الفنّ مجرّدة له ومضافة الى غيره من العلوم . وكان ممّن تكلّم فى ذلك وجرّد له تصنيفا الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمـد بن طاهر بن على
١٠ المقدسىّ رحمه الله تعالى، فقال فى ذلك ما نذكر مختصره ومعناه :

اِعلم أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة الى الكافّة . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
١٥ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. فبلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وسنّ وشرع، وأمر ونهى، كما أُمر صلى الله عليه وسلم . فليس لأحد بعده وبعد الخلفاء الراشدين الذين أمر رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم بالآقتداء بهم والآتباع لسنّتهم أن يحرّم ما أحلّ الله عزّ وجلّ ورسوله صلّى الله عليـه وسلّم إلا بدليل ناطق من آية محكمة، أو سنّة
٢٠ ماضية صحيحة ، أو إجماع من الأمة على مقالته .

وأما الاستدلال بالموضوعات والغرائب والأفراد من رواية المكذَّبين والمجرحين الذين لا تقوم بروايتهم حجّة ، وبأقاويل مَنْ فسّر القرآن على حسب مراده ورأيه ، فلا يُرْجَع إلى قولهم ولا يُسلك طريقُهم ؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن قول أحد من الناس أولى من قول غيره ، وإنما يُلْزم بقول من أُيّد بالوحى والتنزيل ، وعُصم من التغيير والتبديل . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ . فعلمنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر ولم ينهَ عن أمر إلا بوحى من الله تعالى . وكذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا سئل عن أمر لم ينزل فيه وحىٌ توقّف حتى يأتيه الوحى ، وليست هذه المنزلة لغيره فيلزم قبول قوله .

ذكر ما استدلّوا به على إباحة الغناء من الأحاديث النبوية

قد استدلّوا على إباحة الغناء بأحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . منها ما رُوى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخل عَلَىَّ أبو بكر رضى الله عنه وعندى جاريتان من جوارى الأنصار تغنّيان بما تقاولتْ به الأنصارُ يوم بُعاثٍ وليستا بمغنّيتين ، فقال أبو بكر : أمِزْمارُ الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وذلك يوم عيد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا " . ومن طريق آخر عنها رضى الله عنها قالت : دخل عَلَىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنّيان بغناء بُعاثٍ ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال : مِزْمَارَةُ الشيطان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ! فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "دعهما" . فلما غفَل غمزتُهما فخرجتا ، وكان يومُ عيدٍ يلعب فيه السودانُ بالدَّرَق والحِرَاب ، فإمّا سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإمّا قال : "تَشتهين تَنظُرِينَ" فقلت نعم .

فأقامني وراءه، خدّى على خدّه وهو يقول : "دونكم يابنى أَرْفِدَةَ"(١) حتى اذا مَلِلت قال . "حسبُكِ؟" قلت نعم . قال : "فاذهبي" . ومن طريق آخر عنها رضى الله عنها: أنّ أبا بكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام مِنًى تُدَفِّفان وتضربان والنبيّ صلى الله عليه وسلم متغشٍّ بثوبه ؛ فانتهرهما أبو بكر؛ فكشف النبيّ صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : "دعهما يا أبا بكر فإنها أيامُ عيد" . وتلك الأيام أيامُ مِنًى . وقالت عائشة : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يسترنى وأنا أنظر الى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد فزجرهم عمر، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "دعهم أَمْنًا بنى أَرْفِدَة" (يعنى من الأمن) . قال أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد ابن حزم رحمه الله عند ذكر هذه الأحاديث : أين يقع إنكار مَنْ أنكر مِنْ إنكار سَيِّدَىْ هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم : أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ! وقد أنكر عليه الصلاة والسلام عليهما إنكارهما ، فرجعا عن رأيهما إلى قوله صلى الله عليه وسلم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت جاريةٌ من الأنصار فى حِجْرِى فَزَفَفْتُها ؛ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمع غناء ، فقال : "ياعائشة ألَا تبعثين معها مَنْ يُغَنِّى فإن هذا الحىَّ من الأنصار يحبّون الغناء" . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : نكح بعضُ الأنصار بعضَ أهل عائشة فأهدتها إلى قُبَاءَ؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أهديتِ عروسَكِ"؟ قالت نعم . قال : "فأرسلتِ معها بغناء فإن الأنصار يُحبّونه"؟ قالت لا . قال: "وأدركيها يازينب" (امرأة كانت تغنّى بالمدينة) رواه أبو الزبير محمد بن الزبير بن مسلم المكىّ عن جابر . وعنه أيضا قال : أنكحَتْ عائشةُ رضى الله عنها ذاتَ قرابة لها رجلا من الأنصار ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أهديتُم الفتاةَ"؟

(١) بنو أرفدة : جنس من الحبشة يرقصون .

قالوا نعم. قال: "أرسلتم معها"؟ . — قال أبو طلحة راوى الحديث : ذهب عنى — فقالت لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأنصار قوم فيهـم غَزَلٌ فلو بعثتم معها من يقول :

أتينا كم أتينا كم * فحيّـانا وحيّـاكم"(١)

ورُوى عن فَضَالة بن عُبَيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لله أشدُّ أَذَنًا إلى الرجل الحَسَن الصوت بالقرآن يَجْهَر به من صاحب القَيْنة الى قَيْنته" . قال أبو عبـد الله الحاكم فى كتابه المستدرك : هـذا حديث صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه؛ وقد خرّجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينىّ فى سننه . قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ رحمه الله تعالى : ووجه الاحتجاج من هذا الحديث هو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبت أن الله تعالى يستمع الى حَسَنِ الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القَيْنة الى قَيْنته، فأثبت دليل السماع إذ لا يجوز أن يقيس على استماع(٢) محرّم . قال : ولهذا الحديث أصـل فى الصحيحين أخرجاه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صـلى الله عليه وسلم قال : " ما أَذِنَ اللهُ لشىء ما أَذِنَ(٣) لنبىّ يتغنّى بالقرآن" . هذا ما ورد فى السماع .

* * *

وأمّا ما ورد فى الضرب بالآلة، فمن ذلك ما ورد فى الدُّفّ . رُوى عن محمد ابن حاطب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فصل ما بين الحلال والحرام

(١) الذى فى العقد الفريد : "فحيونا نحييكم" وترجمه القافية إذ روى البيت الثانى :
ولولا الحبة السمرا * ما نحلل بواديكم

(٢) فى الأصل هكذا : «الاستماع محرّم» وهو إما محرف عن «استماع محرم» أو «الاستماع المحرم» بتعريفهما معا أو تنكيرهما معا .

(٣) فى نهاية ابن الأثير : « ما أذن الله لشىء كأذنه لنبىّ يتغنى بالقـرآن . أى ما استمع الله لشىء كاستماعه لنبىّ يتغنى بالقرآن، أى تلوه : يجهر به » .

الدُّفّ والصوت فى النكاح" . قال الحافظ أبو الفضل رحمه الله تعالى : هذا حديث صحيح ألزم أبو الحسن الدارقطنىّ مسلماً إخراجه فى الصحيح، وقال : قد روى عنه (يعنى محمد بن حاطب) أبو مالك الأشجعىّ وسِمَاك بن حرب وابن عون ويوسف بن سعد وغيرهم . قال : وأخرج هذا الحديث أبو عبد الرحمن النسائىّ وأبو عبد الله ابن ماجه فى سُنَنهما . ورَوى الحافظ أبو الفضل بسند رفعه إلى جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت دفّ فقال : "ماهذا" ؟ فقيل : فلان تزوّج . فقال : "هذا نكاح ليس بالسِّفاح" . وقد ضعّف أبو الفضل إسناد هذا الحديث، وقال : إنما أخرجته على ضعف إسناده لأنه شاهد الحديث الصحيح المتقدّم . وروى أبو الفضل أيضا بسنده إلى خالد بن ذَكْوان عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل علىّ صبيحة بُنِىَ علىّ[1] ، فجلس على فراشى كمجلسك منّى ، فجعلتْ جُوَيْرِياتٌ يَضرِبْنَ بدُفّ لهنّ ويندُبن مَن قُتِل من آبائى يوم بدر إلى أن قالت إحداهن : وفينا نبىٌّ يعلم ما فى غد، فقال : "دَعِى[2] هذا وقولى الذى كنتِ تقولين قبله" . وهذا حديث صحيح أخرجه البخارىّ قال : وقد رواه حمّاد بن سلمة عن خالد بن ذكوان أتمّ من هذا، قال : كنّا بالمدينة يوم عاشوراء وكان الجوارى يضربن بالدُّفّ ويغنّين ، فدخلنا على الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ ، فذكرنا لها ذلك، فقالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحةَ عُرْسى وعندى جاريتان تُغنّيان وتندُبان آبائى الذين قُتلوا يوم بدر ، وتقولان فيما تقولان : وفينا نبىٌّ يعلم ما فى غد، فقال : "أمّا هذا فلا تقولوه لا يعلم ما فى غدٍ إلا اللهُ عزّ وجلّ". وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر سفرا، فنَذَرت

(١) الذى فى البخارى : «فدخل حين بنى على» .

(٢) الذى فى البخارى : «دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين» .

جارية من قريش لئن ردّه الله تعالى أن تضرب فى بيت عائشة بُدُف . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت الجارية فقالت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فلانة آبنة فلان نذرت لئن ردّك الله تعالى أن تضرب فى بيتى بُدُف؛ قال: "فَلْتَضرِب" . قال أبو الفضل : وهذا إسناد مُتّصـل ورجاله ثِقات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا نذر فى معصية الله" . فلو كان ضربُ الدف معصيةً لأمر بالتكفير عن نذرها أو مَنَعَها من فعله . وروى عن الشعبىّ قال : مرّ عياض الأشعرىّ فى يومِ عيـد فقال : مالى لا أراهم يُفَلِّسون فإنه من السـنّة ! . والتفليس : الضرب بالدفّ . قاله هُشَيم .

٥

* * *

وأمّا ماورد فى اليَرَاع، فقد آحتجّ بعضهم بحديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وهو ما خرّجه أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتانى فى سُنَنه قال : حدّثنا أحمد بن عبد الله الغُدَانىّ، حدّثنا مسلم، حدّثنا سَعِيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى عن نافع، قال : سمع آبن عمر رضى الله عنهما مزماراً، فوضـع إصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق، وقال لى : يا نافع، هل تسمع شيئا ؟ قلت لا . قال : فرفع إصبعيه من أذنيه وقال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا فصنع مثلَ هـذا . قال أبو عبد الله اللؤلئىّ : سمعت أبا داود يقول : هـذا الحديث منكر . وقال الحافظ محمد بن طاهر : هذا حديث خرّجه أبو داود فى سُنَنه هكذا وقد أنكره . وقد ورد من غير هذا الطريق أن آبن عمر رضى الله عنهما سمع راعيا وذكره . وفساد هـذا الحديث من وجهين : أحدهما فساد طريق الإسناد؛ فإن سليمان هذا هو الأشدق الدمشقىّ تكلم فيه أهل النقل وتفرّد بهذا الحديث عن نافع ولم يَرْوِه عنه غيرُه . وقال البخارىّ : سليمانُ بن موسى عنـده مناكيرُ . والثانى

١٠ ١٥ ٢٠

قول عبد الله بن عمر لنافع رضى الله عنهم : أتسمع؟ ولو كان ذلك منهيًّا عنه لم يأمره بالاستماع . وقوله : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا . ولو كان حرامًا لنهاه عنه وصرح بتحريمه ؛ لأنه الشارع المأمور بالبيان . قالت عائشة رضى الله عنها : عَلَّقتُ على سَهْوةٍ[1] لى سِتْرًا فيه تصاوير، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَلَوَّن وجهه وهَتكه . وسمع النبيُّ صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحلف بآبائه فنهاه عن ذلك . ورأى يزيدَ بنَ طَخْفة مضطجعا على بطنه فنهاه وقال : "هذه ضِجْعة يُبْغِضُها الله عزّ وجلّ" . وسمع صلى الله عليه وسلم رجلا يلعن ناقته، فوقف فقال : "لا يَتْبَعُنا ملعون"؛ فنزل عنها وأرسلها . قال الحافظ المقدسىّ : وتأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال، فثبت فساد هذا الحديث إسنادا ومتنا .

✦✦✦

وأمّا ما ورد فى القصب والأوتار . ويقال له التغبير، ويقال له القطقطة أيضا . ولا فرق بينه وبين الأوتار؛ إذ لم يوجد فى إباحته وتحريمه أثر لا صحيح[2] ولا سقيم؛ وإنما استباح المتقدّمون استماعه لأنه مما لم يرد الشرع بتحريمه، وكان أصله الإباحة .

وأمّا الأوتار، فالقولُ فيها القولُ فى القصب، لم يرد الشرع بتحليلها ولا تحريمها . قال : وكل ما أوردوه فى التحريم فغير ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا خلاف بين أهل المدينة فى إباحة سماعه . ومن الدليل على إباحته أن إبراهيم بن

(١) السهوة : سترة تكون قدام فناء البيت ربما أحاطت بالبيت شبه سور حول البيت . وقيل هو شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشىء . (عن لسان العرب) .

(٢) فى الأصل : « لا صحيحا ولا سقيما » .

سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مع جلالته وفقهه وثقته كان يُفتى بحِلّه ، وقد ضرب بالعود - وسنذكر خبره فى ذلك بعد هذا إن شاء الله تعالى - ولم تسقط عدالته بفعله عنـد أهل العلم ، فكيف تسقط عدالة المستمع ! وكان يبالغ فى هـذا الأمر أتمّ مبالغة . وقد أجمعت الأئمة على عدالته وآتفق البخاريّ ومسلم على إخراج حديثه فى الصحيح ؛ وقد عُلِمَ من مذهبه إباحةُ سماع الأوتار . والأئمة الذين رووا عنه أهلُ الحلّ والعقد فى الآفاق إنمـا سمعوا منه ورووا عنه بعـد آستماعهم غناءه وعلمِهم أنه يُبيحه ، ومنهم الإمام أحمـد بن حنبل ، سمع منه ببغداد بعـد حلفه أنه لا يحدّث حديثا إلا بعـد أن يُغنّى على عود ، وذلك أنه لا شك سمع غناءه ثم سمع حديثه . قال : وهـذا أمر لم يرد عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى تحليله ولا تحريمه نصّ يُرجع إليه ، فكان حكمه كحكم الإباحة . وإنمـا تركه مَن تركه من المتقدّمين تورّعا كما تركوا لُبْسَ اللّين وأكلَ الطيّب وشربَ البارد والآجتماع بالنسوان الحسان ؛ ومعلوم أن هذا كلّه حلالٌ . وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلَ الضبّ وسئل عنـه أحرام هو ؟ قال : " لا ولكن لم يكن بأرضِ قومى فأجـدنى أعافه " وأُكِلَ على مائدته صـلى الله عليه وسـلم . وقـد رُوى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال : إذا رأيتَ أهلَ المدينة آجتمعوا على شىء فاعلم أنه سنّة . وقد رُوى عن محمـد بن سِيرِين رحمه الله أنّ رجلا قدِم المدينـة بجَوَارٍ ، فنزل على آبن عمـر وفيهنّ جارية تضرِب ؛ فجاء رجل فساومه فلم يهوَ منهنّ شيئا . فقال : انطلق إلى رجل هو أمثل لك بيعا من هـذا ؛ فأتى إلى عبد الله بن جعفر فعرضهنّ عليه ؛ فأمر جارية قال : خذى ، فأخذت العود حتى ظنّ آبن عمر أنه قد نظر الى ذلك ؛ فقال آبن عمر : حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان ، قال : فبايعه . ثم جاء الرجل إلى آبن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى غُبنت بسبعمائة درهم . فأتى

ابن عمر إلى ابن جعفر فقال : إنه قد غُبن بسبعمائة درهم، فإما أن تُعطيها إياه وإمّا أن تردّ عليه بيعه ؛ فقال : بل نعطيها إياه . وهذه الحكاية ذكرها أبو محمد بن حَزْم واستدلّ بها على إباحته فقال : فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود، وإن كان ابن عمر كره ما ليس من الجِدّ فلم ينْهَ عنه، وقد سفر[1] فى بيع مغنّية كما ترى، ولو كان حراما ما استجاز ذلك أصلا .

٥

✦
✦ ✦

وأما ما ورد فى المزامير والملاهى ، قال الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ : وأما القول فى المزامير والملاهى، فقد وردت الأحاديث الصحيحة بجواز استماعها . فمن ذلك ما رواه بسند رفعه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ماهممتُ بشىء مما كان أهل الجاهليّة يفعلونه غير مرّتين كلّ ذلك يحول الله عز وجلّ بينى وبين ما أريده من ذلك ثم ما هممتُ بعدها بشىء حتى أكرمنى الله برسالته فإنى قلت لغلام من قريش ليلةً وكان يرعى معى فى أعلى مكة لو أنك أبصرت غنمى حتى أدخل مكة فأَسْمُرَ بها كما يَسْمُرُ الشباب قال أفعل . فخرجت أريد ذلك حتى جئت أوّل دار من ديار مكة سمعت عَزْفاً بالدفوف والمزامير فقلت ما هذا فقالوا فلان تزوّج فلانة بنت فلان فجلست أنظر إليهم فضرب الله عز وجلّ على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مسّ الشمس فرجعت إلى صاحبى فقال ماذا فعلت قلت ما صنعت شيئا ثم خبّرته الخبر [فقال][2] ثم قلت له ليلة أخرى مثل

١٠

١٥

(١) سفر : سعى وتوسط ، ومنه السفير وهو الرسول المصلح بين القوم . وفى باب البيوع من كتاب المحلى لابن حزم : وسعى فى بيع مغنية .

٢٠

(٢) هذه الكلمة وردت هكذا بالأصل ، وسياق الكلام لا يقتضيها .

ذلك فقـال أفعل فخـرجت حتى دخلت مكة فسمعت حين دخلت مكة مثـل ما سمعت تلك الليـلة فسألت عنـه فقالوا فلان نكح فلانة فجلست أنظـر فضرب الله على أذنى فمـا أيقظنى إلا مسّ الشمس فخرجت إلى صاحبى فأخبرته الخـبر ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله تعـالى برسالته " . قال الحافظ أبو الفضـل : وكان هـذا قبل النبوّة والرسالة ونزول الأحكام والفرق بين الحـلال والحرام؛ فإن الشرع لمّـا ورد أمره الله تعالى بالإبلاغ والإنذار فأقره على ما كان عليه فى الجاهلية ولم يحرّمه كما حرّم غيره . قال: والدليل على أنه باقٍ على الإباحة قول الله عز وجلّ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ . ثم بيّن الدليل على ذلك بما رواه بسنده إلى جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائمـا، ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمـا، يخطب خطبتين . فكانت الجوارى إذا أنكحوهنّ يمرّون فيضربون بالدفّ والمزامير فيتسـلّل[1] الناسُ ويَدَعُونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمـا، فعاتبهم الله عز وجل بقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾. وقال : هذا حديث صحيح أخرجه مسلم فى كتابه عن عبد الله بن حُمَيد عن خالد بن مَخْلَد عن سليمان بن بلال . والله عز وجلّ عطف اللهوَ على التجارة وحُكْم المعطوف حُكْم ماعطف عليه ، والإجماع على تحليل التجارة، فثبت أن هـذا الحكم مما أقره الشرع على ما كان عليـه فى الجاهليّة لأنه غير محتمَل أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّمه، ثم يُمَرّ به على باب المسجد يوم الجمعة ثم يعاتب الله عزوجلّ مَن ترك رسوله صلى الله عليه وسلم قائما ثم خرج ينظر إليه ويستمع . ولم ينزل فى تحريمه آية ولا سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّة، فعلمنا بذلك بقاءه على حاله .

(١) أى ينطلقون فى استخفاء .

قال: ويزيد ذلك بيانا ووضوحا حديث عائشة رضى الله عنها فى المرأة التى زفّتها وقد تقدّم ذكر الحديث . وروى أيضا بسند رفعه عن زوج دُرّة بنت أبى لَهَب قال : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوّجتُ درّةَ فقال : "هل من لهو".

---

٥ ذكر ما ورد فى توهين ما ٱستدلّوا به على تحريم الغناء والسماع

(٦٥) قد ذكر الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله تعالى الأحاديث التى ٱستدلوا بها على تحريمه وفسّروا بها الآيات والأحاديث التى ٱستدلّوا بها على تحريمه ممّا قدّمنا ذكر ذلك فى حججهم ومما لم نذكره مما يُستدلّ به على تحريمه وكراهته وضعف رجالها . وتكلم الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله أيضا فى ذلك ووهّن ٱحتجاجهم إذا ثبت ١٠ الحديث على ما نذكر ذلك .

قال الحافظ أبو الفضل :

أمّا ما ٱحتجّوا به من الآيات فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية . وما أوردوه فى ذلك من الأسانيد إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم ، ١٥ فنظرت فى جميعها فلم أر فيها طريقا يثبت إلا واحدا منها رواه يوسف بن موسى القطّان عن جرير بن عبد الحميد عن عَطَاء بن السائب عن سَعيد بن جُبَير عن ابن عباس رضى الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال : الغناء وأشباهُه . وسائرها لا يخلو من رواية ضعيف لا تقوم بروايته حجّة .

قال : ورأيت فى بعضها رواية عطيّة العَوْفىّ عن ٱبن عباس من حديث غير ثابت ٢٠ أصلا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال : باطل الحديث وهو الغناء

ونحوه ؛ وهو أن رجلا من قريش آشترى جارية مغنّية فنزلت فيـه . قال : وهذا وإن لم يصحّ عنـدى الآحتجاج بسـندهم فيَلْزمهم قَبُولُه لأنهم آحتجّوا به فيكون فى حقّ هذا الرجل بعينه .

وقد ورد فى الآية تفسير ثالث يلزمهم قبوله على أصلهم، وذكر حديثا رفعه إلى نافع عن آبن عمر رضى الله عنهما : أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله عز وجلّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ "اللعب والباطل وتَشِحّ نفسه أن يتصَدّق بدرهم" . قال : وهـذا أيضا غير ثابت عندى وإنمـا أوردت هذين التفسيرين مناقضةً لمـا أوردوه فيما تمسّكوا به .

قال : ولن أركن إلى هذا أبدا ولا أقنع به ولا أحتجّ عليه ولا أُلزمهم إياه، بل أقول صحّ عن عبد الله بن عبـاس رضى الله عنهما إجماع أهل السنّة على أن السنّة تقضى على الكتاب، وأن الكتاب لا يقضى على السنة، وقد جاءت السنّة الصحيحة : أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم آستمع للغناء وأمر بآستماعه ، وقد أوردنا فى ذلك من الأحاديث ماتقدّم إيراده . قال : وجواب ثانٍ يقال لهؤلاء القوم المحتجين بهذه التفاسير : هل علم هؤلاء الصحابة الذين أوردتم أقاويلهم من هـذه الآية ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يعلمه؟ فإن قالوا : لم يعلمه وعلِمه هؤلاء، كان جهلا عظيما بل كفرا . وإن قالوا : علمه، قلنا : نُقِلَ إلينا عنه فى تفسير هذه الآية مثلُ ما نُقِلَ عن هؤلاء من الصحابة ، وتأخيرُ البيـان عن وقت الحـاجة لا يجوز بحال . ومن المحال أن يكون تفسـير قوله عز وجلّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ هو الغناء، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أما كان معكنّ لهو فإن الأنصار يعجبهم اللّهوُ» .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : ثلاثة ليس لها أصل : المَغازى ، والملاحم ، والتفسير .

وقال أبو حاتم محمد بن حسان فى كتاب الضعفاء : الله عز وجلّ يؤتى رسوله صلى الله عليه وسلم تفسير كلامه وتأويل ما أنزل عليه حيث قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

ومن المحال أن يأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يبيّن لخلقه مراده حيث جعله موضع الإبانة عن كلامه ومفسّرا لهم حتى يفهموا مراد الله عز وجلّ فلا يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل أبان مراد الله عز وجلّ من الآى وفسّر لأمّته ، ما تهمّ الحاجة إليه ، وبيّن سنّته صلى الله عليه وسلم . فمن تتبّع السنن وحفظها وأحكمها فقد عرف تفسير كتاب الله عز وجلّ وأغناه الله تعالى عن الكلبىّ وذويه ، وما لم يُبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمّته فى معانى الآى التى أنزلت عليه مع أمر الله عز وجلّ له بذلك وجاز ذلك كان لمن بعده من أمّته أجوز ، وترك التفسير لما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرى .

قال : ومن أعظم الدلائل على أن الله تعالى لم يرد بقوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ القرآن كله أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نزل عليه من الكتاب متشابه من الآى . فالآيات التى ليس فيها أحكام لم يبين كيفيتها لأمته . فلما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم دلّ ذلك على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ كان بعض القرآن لا الكلّ .

وقال الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله فى هذه الآية : وأمّا شراء لهو الحديث بالدّين استبدالا به ليضلّ به عن سبيل الله فهو حرام مذموم ، وليس النزاع فيه .

وليس كل غناء بدلا عن الدِّين مشترى به ومضِلاًّ عن سبيل الله وهو المراد فى الآية، ولو قرأ القرآن : ليضل بِهِ عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المنافقين : أنه كان يؤمّ الناس ولا يقرأ إلا سورة " عَبَسَ " لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهمّ عمر بقتله [و رأى فعله حراما لما فيه من الإضلال(١)] فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم . ٥

وقال الثعلبىّ فى أحد أقواله عن تفسير هذه الآية عن الكلبىّ ومُقاتِل : نزلت فى النَّضير بن الحارث بن عَلْقمة بن كَلَدَة بن عبد الدار بن قُصَىّ؛ كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها و يُحدِّث بها قريشا و يقول : إن محمدًا يحدّثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه و يتركون استماع القرآن . ١٠

(٦٦)

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿أَفَمِنْ هَذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال ابن عباس : هو الغناء بلغة حمير، يعنى ــ السمود ــ قال الغزالىّ رحمه الله : فنقول ينبغى أن يحرُم الضحك وعدم البكاء أيضا ، لأن الآية تشتمل عليه، فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم فى معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى : ﴿وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ﴾ وأراد به شعراء الكفّار ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر فى نفسه . ١٥

واحتجّوا بقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ . قال الثعلبىّ : قال الحسن، عن المعاصِى . وقال ابن عباس : الحَلِف الكاذب . وقال مُقاتِل :

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء للغزالى . ٢٠

الشتم والأذى . وقال غيرهم : مالا يحلّ من القول والفعل . قال : وقيل اللغو الذى لا فائدة فيه .

واحتجّوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ . قال الثعلبىّ : أى القبيح من القول . وبقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . قال مقاتل : إذا سمعوا من الكفّار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا ، وبقوله : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ . قال ابن عباس ومُجاهد وقَتَادَة : بدعائك إلى معصية الله تعالى . وكلّ داع إلى معصية الله تعالى فهو من جنود إبليس .

وأما ما احتجّوا به من الحديث فإنهم احتجّوا بحديث رُوى عن أبى أُمامة الباهلىّ رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحلّ بيع المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا تحلّ التجارة فيهنّ وأثمانهنّ حرام والاستماع إليهنّ حرام » . قال الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله : هذا حديث رواه عُبَيد الله بن زَحْر عن علىّ ابن يزيد عن القاسم عن أبى أُمامة ، قال : والصحابة كلهم عدول . وأما عُبَيد الله ابن زَحْر وعلىّ والقاسم فهم فى الرواية سواء لا يُحتجّ بحديث واحد منهم إذا انفرد بالرواية عن ثقة فكيف إذا روى عن مثله . أما عُبَيد الله بن زَحْر فيقال : إنه من أهل مصر . قال أبو مُسْهِر الغسّانى : عُبَيد الله بن زَحْر صاحب كلّ معضلة ليس على حديثه اعتماد . وقال عثمان بن سعيد الدارمىّ : قلت ليَحيَى بن مَعين : عبيد الله ابن زحر كيف حديثه؟ قال : كل حديثه ضعيف ، قلت : عن على بن يزيد وغيره؟ قال نعم . وقال عباس الدُّورِىّ عن يحيى : عبيد الله بن زحر ليس بشىء . وقال أبو حاتم فى كتاب الضعفاء والمتروكين : عبيد الله بن زحر مُنكَر الحديث جدّا ، روى الموضوعات عن الثّقات وإذا روى عن علىّ بن يزيد أتى بالظلمات ، وإذا اجتمع

فى إسنادِ عُبَيدُ الله بن زَحْر وعلىُّ بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لا يكون متنُ ذلك الحديث إلا ممّا عملت أيديهم فلا يحلّ الاحتجاج بهذه الصحيفة .

قال المقدسىّ : وهذا الحديث قد اجتمعوا فى إسناده، قال : وأما علىّ بن يزيد فهو من أهل دمشق يكنى بأبى عبـد الملك روى عن القاسم قال النّسائىّ فى كتاب الضعفاء : علىّ بن يزيد متروك الحديث. وقال أبو عبد الرحمن بن حيّان: علىّ بن يزيد مطروح منكر الحديث جدّا . وأما القاسم بن عبـد الرحمن ويكنى بأبى عبد الرحمن فقال يحيى بن مَعين : القاسم بن عبد الرحمن لا يَسْوَى شيئا . وقال أحمد بن حنبل، وذكر القاسم مولى يزيد بن معاوية فقال : منكر الحديث . وقال أبو حاتم بن حَبّان : القاسم يروى عنه أهل الشأم، كان يروى عن الصحابة المعضلات ويأتى عن الثقات بالأسانيد المقلوبات، حتى كان يَسْبِق إلى القلب أنه المتعمِدُ لها .

قال المقدسىّ : فهذا شرح أحوال رواة الحديث الذى احتجّوا به فى التحريم، هل تجوز روايته كما ذكره الأئمةُ حتى يستدلّ به فى التحليل والتحريم .

واحتجّوا بمـا روى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : «أمرنى ربى عز وجلّ بنفى الطنبور والمزمار» وهو حديث رواه إبراهيم بن اليَسَع بن الأشعث المكىّ وإسماعيل بن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها . وإبراهيم هذا — قال البخارىّ — : منكر الحديث. وقال النسائىّ : المكىّ ضعيف .

واحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب الدُّفّ ولعب الصَّنْج وصـوت الزمّارة، وهو حديث رواه عبد الله بن ميمون عن مَطَر بن سالم عن علىّ قال : وعبـد الله هو القـدّاح ذاهب الحديث، ومطر هذا شبه المجهول .

وٱحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغنّيات والنوّاحات وعن شرائهنّ وبيعهنّ والتجارة فيهنّ وقال : "كسبهنّ حرام" . قال : وهذا حديث رواه علىّ بن يزيد الصُّدَائىّ عن الحارث بن نَبْهان عن أبى إسحاق السَّبِيعىّ عن الحارث عن علىّ رضى الله عنه قال : والحارث بن نَبْهان ليس بشىء ولا يُكتبُ حديثه قاله يحيى بن مَعِين . وقال البخارىّ : الحارث منكر الحديث . وقال أحمد بن حنبل : الحارث رجل صالح ولم يكن يَعرِفُ الحديثَ ولا يحفظ، منكر الحديث . وقال النسائىّ : الحارث بن نَبْهان متروك الحديث . لم يروه عن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبيعى وغيره ولا رواه عنه غير علىّ بن يزيد الصُّدائىّ . وعلى هذا قال أحمد بن عدىّ : أحاديثه لا تشبه أحاديثَ الثقات .

والحارث الذى روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه هو الحارث بن عبد الله أبو زهير الخارفى[1] الأعور ، أجمع أهل النقل على كذبه ، والحمل فى هذا الحديث على الحارث بن نبهان و إن كان فى الإسناد من الضعفاء غيره .

وٱحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة صَوتُ مِزمارٍ عند نعمة وصَوتُ نُدبة[2] عند مصيبة" وهذا حديث رواه محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ٱبن عباس رضى الله عنهما ، ومحمد بن زياد هذا هو الطحّان اليَشْكُرِىّ . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سألت أبى عنه فقال : أعورُ كذّاب خبيث يضع الحديث . وقال يحيى بن معين :

(١) كذا فى أنساب السمعانى وتهذيب التهذيب لأبن حجر العسقلانى . والخارفى بكسر الراء وبعدها فاء : نسبة الى خارف بطن من همدان . وفى الأصل : «الخارجى» وهو خطأ .

(٢) فى الجامع الصغير : « رنة » .

أجمع الناس على طرح هؤلاء النفر لا يعتدّ بهم، منهم محمد بن زياد . وكان أبو يوسف الصَّيْدلانىّ يقول : قدم محمد بن زياد الرَّقَّةَ بعد موت ميمون بن مهران .

وٱحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر خسفا ومسخا وقذفا يكون فى هـذه الأمة، قالوا : يارسول الله إنهم يقولون : لا إله إلا الله، قال : " نعم إذا أَظْهَروا الرَّدَ والمعازِفَ وشربَ الخمور ولبس الحرير" قال : وهذا حديث رواه عثمان بن مَطَر عن عبد الغفور عن عبد العزيز بن سَعِيد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وعثمان هو الشيبانىّ من أهل البصرة وكان ضريرًا . قال يحيى بن معين : ليس بشىء . وقال البخارىّ : متروك الحـــديث .

وٱحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بعثنى ربّى عز وجلّ بمحق المزامير والمعازف والأوثان التى كانت تُعبَدُ فى الجاهلية والخمر وأقسم ربى عز وجلّ بعزّته ألا يشربها عبد فى الدنيا" الحديث . قال : وهذا حديث رواه محمد بن الفُرات عن أبى إسحاق السَّبِيعىّ عن الحارث الأعور عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، ومحمد بن الفُرات هذا من أهل الكوفة . قال أبو بكر بن أبى شَيْبة : هـذا شيخ كذّاب . وقال يحيى بن معين : ليس بشىء . وقال النسائىّ : متروك . وقد تقدّم ذكر السبيعىّ والحارث الأعور، ومضى الكلام عليه .

وٱحتجّوا بما رُوى عن أبى هريرة رضى الله عنه مسندا : " إن الغِناءَ يُنبِتُ النفاقَ فى القلب" وهو حديث عبد الرحمن بن عبد الله العُمَرىّ ٱبن أخى عُبَيد الله ٱبن عمر عن أبيه عن سَعِيد بن أبى سَعِيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعبد الرحمن هذا قال أحمد بن حنبل : ليس يَسْوَى حديثه شيئا،

سمعت منه ثم تركناه وكان وَلِيَ قضاء المدينة ، أحاديثه مناكير وكان كذّاباً . قال النسائيّ : وهو متروك الحديث .

واحتجّوا بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَن استمع إلى قِيَانٍ صُبَّ فى أذنيه الآنُكُ"(١) وهو حديث رواه أبو نُعَيم الحلبيّ عن عبد الله بن المنذر عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك . وأبو نعيم اسمه عُبَيد بن هشام(٢) من أهل حلب ضعيف ولم يبلغ(٣) عن ابن المبارك . مرسل .

واحتجّوا بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لعن الله النائحةَ والمُسْتَمِعَةَ والمغنِّى والمغنَّى له" وهو حديث رواه عمرو بن يزيد المدائنيّ عن الحسن البصريّ عن أبى هريرة ، وعمرو هذا قال أبو أحمد(٤) بن عديّ : منكر الحديث ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة شيئا . وقال ابن عديّ : هذا الحديث غير محفوظ .

واحتجّوا بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "النظرُ إلى المغنّية حرام وغِناؤها حرام وثمنها حرام" وهو حديث يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل النوفليّ المدنى(٥) عن يزيد بن خُصَيفة عن السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب رضى

(١) الآنك : الرصاص ، ولم يجئ على أفعل مفردا غير هذا .

(٢) كذا فى تهذيب التهذيب وتقريب التهذيب وتذهيب التهذيب . وفى الأصل : «عبيد بن محمد» .

(٣) فى تهذيب التهذيب : أن أبا نعيم حدث عن ابن المبارك عن مالك بن أنس أحاديث لا يتابع عليها ثم قال بعد أن أورد الحديث المروى عنه بالأصل : قال الدارقطنى : تفرد به أبو نعيم ولا يثبت هذا عن مالك ولا عن ابن المنكدر .

(٤) هو أبو أحمد عبد الله بن عديّ بن عبد الله بن محمد المعروف بابن عديّ الجرجانيّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ ، مؤلف كتاب « الكامل فى معرفة ضعفاء المحدّثين وعلل الحديث » فى ستين جزءا وهو أكمل كتب الجرح والتعديل وعليه اعتماد الأئمة . ويوجد منه أجزاء محفوظة بدار الكتب المصرية .

(٥) كذا فى تهذيب التهذيب لابن حجر . وفى الأصل : «المدينى» .

الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويزيد الأوّل قال النسائىّ : متروك الحديث . وقال أحمـد بن حنبل : عنده مناكير . وقال يحيي بن معين : يزيد بن عبد الملك ليس بذاك .

وٱحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إذا عملت أمتى خمسَ عشرةَ خَصـلة حلّ فيها البـلاء " وذكرها وقال فى جملتها : "وٱتخذت القيانَ والمعازفَ"، وهو حديث رواه فرج بن فَضالة الشيبانىّ من أهل حِمْص عن يحيي بن سعيد الأنصارىّ عن محمد بن علىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه . قال عبد الرحمن بن مهدى : أحاديث الفرج عن يحيي بن سعيد منكرة . وقال يحيي بن معـين : فرج ضعيف . وقال أبو حاتم بن حَسّان[1] : فرج بن فَضالة كان يَقلِبُ الأحاديث الصحيحة ويلصق المتونَ الواهيةَ بالأسانيد الصحيحة، لا يحلّ الٱحتجاج به .

وٱحتجّوا بحديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عبد الرحمن فذكر حديثا قال فيه : "نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين صوتٍ عند مصيبة وصوتٍ عنـد نعمة لعب ولهو ومزامير الشيطان" وهذا حديث رواه محمد ٱبن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عطاء عن جابر، وأنكر عليـه هذا الحديث وضُعِّف لأجله . قال أبو حاتم بن حَسّان[1] : كان ردىء الحفظ كثير الوهم فاحش الخطأ يروى الشيء على وجه الوهم ويسـتحق الترك . وتركه أحمـد بن حنبـل ويحيي ابن معين .

(١) هو أبو حاتم محمـد بن حسان مؤلف كتاب الضعفاء والمتروكين وقد مرّ ذكره فى ص ١٧٦ و ١٧٨ من هذا الجزء .

واحتجّوا بأنه صلى الله عليه وسلم سمع صوتا فقال: "انظروا مَن هذا" فنظرتُ فإذا معاوية وعمرو يتغنّيان . الحديث ، وفيه : " اللهمّ ارْكُسْهما فى الفتنة رَكْسا " وهو حديث رواه يزيد بن أبى زياد[1] عن سليمان عن عمرو بن الأحوص عن أبى بَرْزة الأسلمى . ويزيدُ هذا من أهل الكوفة ، وكان الكَذَبة يلقّنونه على وَفْق اعتقادهم فيتلقّاها ويُحَدِّثُ بها ضَعَفَةَ أهل النقل ، وقد رُوى هـذا الحديث من طريق آخر ليس فيه معاوية هذا، وأنه ابن التابوت[2] .

(٦٨)

قال المقدسىّ : ولم يصحّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر أحداً من أصحابه إلّا بخـير .

واحتجّوا بما رُوى عن أبى سَعِيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه رفع الحديث، أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : « يكون فى آخر هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ فى مُتّخِذِى القِيانِ وشاربى الخمور ولابسى الحرير» وهو حديث رواه زياد بن أبى زياد الجَصّاص عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخـدرىّ رضى الله عنه . وزياد هذا متروك الحديث .

واحتجّوا بحديث رُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من مات وله قَيْنَةٌ فلا تصلّوا عليه» وهو حـديث روى بإسناد مجهول عن خارجة بن مصعب عن داود بن أبى هنـد عن الشعبىّ عن علىّ. وخارجة متروك الحديث من أهل سَرْخَس .

---

(١) فى الأصل : «زياد» . وهو تحريف والتصويب عن تهذيب التهذيب .

(٢) كذا بالأصل ولم نعثر عليه فيما بين أيدينا من كتب التراجم .

واحتجّوا بما روى عبد الرحمن بن الجَنَدىّ قال: قال عبد الله بن بُسْر[1] صاحب النبىّ صلى الله عليه وسلم: يا ابن الجندىّ، فقلت: لبّيك ياأبا صفوان، قال: والله ليُمسَخَنَّ قوم وإنهم لفى شرب الخمور وضرب المعازِف حتى يكونوا قردة أو خنازير. والحديث موقوف وابن الجندىّ مجهول. والنبىّ صلى الله عليه وسلم سأل ربه ألّا يعذّب أمّته بما عذّب به الأمم قبلها فأعطاه ذلك.

واحتجّوا بما رُوى عن أبى أمامة رضى الله عنه وقد تقدّم بعضه، وفيه زيادة أخرى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا يَحِلّ بيع المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا الجلوسُ إليهنّ" ثم قال: "والذى نفسى بيده مارَفع رجلٌ عقيرته بغناءٍ إلا ارتدف على ذلك[2] شيطانٌ على عاتقه هذا وشيطانٌ على عاتقه هذا حتى يسكتَ" وهذا حديث قد تقدّم أوّله من حديث عُبَيد الله بن زَحْر، وهذه الزيادة من رواية مَسْلَمَةَ بن علىّ الدمشقىّ عن يحيى بن الحارث عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة. ومسلمة هـذا، قال ابن معين: ليس بشىء. وقال البخارىّ: منكر الحديث. وقد تقدّم القول فى القاسم بن عبد الرحمن.

واحتجّوا بحـديث رُوى عن عبد الله بن مسعود من رواية سَلّامِ بنِ مِسكين قال: حدّثنى شيخٌ سمعَ أبا وائل يقول: سمعت ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الغِناءُ يُنبِتُ النفاقَ فى القلب" هكذا رواه سَلّامٌ عن شيخ مجهول لا يُعرفُ. ورواه جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبى سليم عن محمد ابن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود وقوله[3]، ولم يذكر النبىّ صلى

(١) كذا فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة. وفى الأصل: «بشر» وهو خطأ لأنه ليس فى الصحابة من اسمه عبد الله بن بشر بالشين المعجمة.

(٢) كذا فى شرح الإحياء للسيد مرتضى. وفى الأصول: «إلا ارتدف على ذلك جلوس شيطان على عاتقه».

(٣) كذا فى الأصول. ولعل الأصل: «من قوله».

الله عليه وسلم . ورواه الثقات عن شعبة بن الحجاج عن مغيرة عن إبراهيم ، قوله[1] ، ولم يذكر أحدا تقدمه فيه وهذا أصح الأقاويل[2] فيه من قول إبراهيم . قال الغزالى رحمه الله تعالى : قول ابن مسعود : يُنبِتُ النفاقَ أراد به فى حقّ المغنّى فإنه فى حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروّج صوته عليه ، ولا يزال ينافق ويتودّد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه ، وذلك أيضا لا يوجب تحريما ، فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المُهَمْلَجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع يُنبِت الرياءَ والنفاقَ فى القلب ولا يُطلَقُ القول بتحريم ذلك كله . فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط . بل المباحات التى هى مواقع نظر الخلق أكثرُ تأثيرا . ولذلك نزل ابن عمر[3] رضى الله عنهما عن فرس هَملجَ تحته وقطع ذَنَبه لأنه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشْيَته ، فهذا النفاق من المباحات .

واحتجّوا بحديث رُوى عن صفوان بن أمية قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عمرو بن قُرَّةَ فقال : يا نبىّ الله إن الله عز وجلّ كتب علىّ الشَّقوةَ ولا أَرَانِى أُرْزَقُ إلّا مِن دُفِّى[4] بكفّى أفتأذن لى فى الغناء من غير فاحشة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا إذنَ ولا كرامةَ ولا نُعْمَةَ" وذكر حديثا طويلا ، وهو حديث رواه عبد الرزاق بن همّام الصَّنْعانى عن يحيى بن العَلَاء عن بشر بن نُمَير عن مكحول قال : حدّثنى يزيد بن عبد الملك عن صفوان بن أمية . ويحيى بن العلاء هذا مدنىّ الأصل رازىّ . قال يحيى بن معين : يكنى ابا عمرو ليس بثقة . وقال عمرو بن على الصيرفىّ : يحيى بن العلاء متروك الحديث والله أعلم .

(١) كذا فى الأصول . ولعل الأصل : «من قوله» . (٢) فى نسخة : «الأسانيد» .

(٣) كذا بالأصول والمعروف أن عمر رضى الله عنه عند ما ذهب الى الشام ركب برذونا فهملج به فنزل عنه وضرب وجهه وقال له : لعن الله من علمك ذلك .

(٤) فى الأصل : «إلا دفى» بدون من . والتصويب عن شرح الإحياء للسيد مرتضى .

وٱحتجّوا بمـا رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمّارة ، وهو حديث نقله سليمان بن أبى سليمان الداودىّ البصرىّ عن محمد ٱبن بشر عن أبى هريرة . وسليمان هذا متروك الحديث غير ثقة .

وٱحتجّوا بقول عثمان رضى الله عنـه : ما تغنّيتُ ولا تمنّيتُ[1] ولا مَسستُ ذكرى بيمينى منـذ بايعتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهـذا حديث رواه صقر بن عبد الرحمن عن أبيه عن مالك بن مِغْوَلٍ عن عبد الله بن إدريس عن المختار بن فُلْفُلٍ عن أنس بن مالك فى حديث القُفّ والصيد .

قال المقدسىّ : هـذا حديث لم أر فيه تحاملا ، ورأيته ذكر من هذا أشـياء لم يأت بها غيره تُوجبُ تركَ حديثـه والله أعلم . وقال الغزالىّ رحمه الله تعالى وذكر هذا الحديث : قلنا فليكن التمنّى ومَسّ الذكر باليمين حراما إن كان هذا دليلَ تحريم الغناء ، فمن أين ثبت أن عثمان كان لا يترك إلا الحرام .

قال الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله تعـالى : فهذه الأحاديث وأمثالها ٱحتجّ بها من أنكر السماع جهلا منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته ، فترى الواحدَ منهم إذا رأى حديثا مكتوبا فى كتاب جعله لنفسه مذهبا واحتجّ به على مخالفه ، وهذا غلط عظيم بل جهل جسيم . هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى وفيه من الزيادات ماهو منسوب الى الثعلبىّ والغزالىّ على ما بيّناه فى مواضعه .

وقد تكلم الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالىّ الطوسىّ رحمه الله تعالى على السماع فى كتابه المترجم بـ "إحيـاء علوم الدين" وبيّن دليل الإباحة وذكر بعـد ذلك آداب السماع وآثاره فى القلب والجوارح فقال :

(١) أى ما كذبت . والتمنى : الكذب من منى يمنى اذا قدر لأن الكاذب يقـدّر فى نفسه الحديث ثم يقوله (انظر اللسان مادّة منى) .

اعلم أن السماع هو أول الأمر، ويُثمر السماع حالةً فى القلب تسمّى الوجدَ ويُثمر الوجد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وإمّا موزونة فتسمّى التصفيق والرقص. ثم بدأ بحكم السماع وبيّن الدليلَ على إباحته ثم ذكر ما تمسّك به القائلون بتحريمه وأجاب عن ذلك بما نذكره أو مختصره إن شاء الله تعالى.

٥ قال رحمه الله تعالى: نقل أبو طالب المكىّ إباحةَ السماع عن جماعة وقال: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وابن الزُّبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم. وقد فعل ذلك كثير من السلف صحابىّ وتابعىّ. قال: ولم يزل الحجازيّون عندنا بمكة يسمعون السماعَ فى أفضل أيام السنة وهى الأيام المعدودات التى أمر الله عز وجلّ عباده فيها بذكره كأيام التشريق. ولم يزل أهل المدينة ومكة مواظبين على

١٠ السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوارٍ يُسْمِعْنَ [النّاسَ](١) التلحينَ قد أعدّهنّ للصوفية. قال: وكان لعطاء جاريتان تُلَحِّنَانِ وكان إخوانه يستمعون إليهما. قال: وقيل لأبى الحسن بن سالم: كيف تُنكر السماعَ وقد كان الجُنيد وسَرِىّ السَّقَطِىّ وذو النون يسمعون! فقال: كيف أُنكِرُ السماعَ وأجازه وسمعه مَنْ هو خير منّى. وقد كان عبد الله بن جعفر الطّيار يسمع. وإنما أُنكِر اللهوَ واللعِبَ

١٥ فى السماع.

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فلا نراها ولا أراها تزداد إلا قِلّة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

قال الغزالىّ: ورأيت فى بعض الكتب هذا بعينه محكيا عن المحاسبىّ وفيه

٢٠ مايدلّ على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجدّه فى الدّين وتشميره.

(١) الزيادة عن الإحياء.

وحكى عن مِمْشاد الدِّينَوَرِىّ أنه قال : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت : يا رسول الله ، هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال : "ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن" . قال الغزالىّ : وعن ٱبن جُرَيج أنه كان يرخص فى السماع فقيل له : تقدّمه يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات لأنه شبيه باللغو ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾؛ ثم بيّن الغزالىّ رحمه الله الدليل على إباحة السماع فقال : اعلم أن قول القائل : السماع حرام، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه وهذا أمر لا يُعرفُ بمجرّد العقل بل بالسمع ،ومعرفة الشرعيّات محصورة فى النصّ أو القياس على المنصوص . قال : وأعنى بٱلنصّ ما أظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله ، فإن لم يكن فيه نصّ ولم يستقم فيـه قياس على منصوص بطَل القولُ بتحريمه ويبقى فعـلا لا حرج فيه كسائر المباحات، ولا يدلّ على تحريم السماع نصّ ولا قياس . قال : وقد دلّ القياس والنصّ جميعا على إباحة السماع .

أما القياس فهو أن الغناء ٱجتمع فيـه معانٍ ينبغى أن يُبحثَ عن أفرادها ثم عن مجموعها فإن فيه سماعَ صوتٍ طيّبٍ موزون مفهوم المعنى محرِّك للقلب . فالوصف الأعمّ أنه صوتٌ طيّب، ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وأصوات سائر الحيوانات .

أما سماع الصّوتِ الطيّب من حيث إنه طيّب فلا ينبغى أن يُحرَّمَ بل هو حلال بالنصّ والقياس .

أمّا القياس فإنه يَرجِع إلى تلذّذ حاسّـة السمع بإدراك ما هو مخصوص به . وللإنسان عقل وخمس حواس ولكلّ حاسّة إدراك . وفى مُدركَات تلك الحاسـة

ما يُستلذّ . فلذّة البصر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن وسائر الألوان الجميلة وهى فى مقابلة ما يُكره من الألوان الكدرة القبيحة . وللشمّ الروائح الطيّبة وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة . وللذّوق الطعوم اللذيذة كالدُّسُومة والحلاوة والحموضة وهى فى مقابلة المرارة والمَرازة المستبشعة . وللمسّ لذّة اللين والنعومة والملاسة وهى فى مقابلة الخشونة والضَّراسة . وللعقل لذّة العلم والمعرفة وهى فى مقابلة الجهل والبلادة . فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذّة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحُمُر وغيرها، فما أظهرَ قياسَ هذه الحاسّة ولذّتها على سائر الحواس ولذّاتها .

وأما النصّ فيدلّ على إباحة سماع الصوت الحسن آمتنان الله على عباده به إذ قال تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ فقيل : هو حسن الصوت . وفى الحديث : " ما بعث الله نبيًّا إلا حسنَ الصوت " . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَلّهُ أشدُّ أَذَنًا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنَةِ إلى قَيْنَتِهِ " وفى الحديث فى معرض المدح لداود عليه السلام : " أنه كان حسنَ الصوت فى النياحة على نفسه وفى تلاوة الزَّبُور حتى كان يجتمع الإنس والجنّ والوحش والطير لسماع صوته ،وكان يُحمَلُ من مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب من ذلك فى الأوقات " . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدح أبى موسى الأشعرىّ : " لقد أُعطى مزمارًا من مزامير آل داود " وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال : إنما أُبيحَ ذلك بشرط أن يكون فى القرآن للزمه أن يُحَرِّمَ سماعَ صوت العندليب لأنه ليس بقرآن . وإذا جاز سماع صوتٍ غُفْلٍ لا معنى له ،فلم لا يجوز سماعُ صوتٍ يُفهم منه الحكمةُ والمعانى الصحيحةُ! وإن من الشعر لحكمة . قال : فهذا نظر فى الصوت من حيث إنه طيّبٌ حسن .

الدرجة الثانية : النظر فى الصوت الطيّب الموزون فإنّ الوزن وراء الحسن ، فكم من صوت حسن خارجٌ عن الوزن، وكم من صوت موزون غيرُ مستطاب . والأصوات الموزونة بٱعتبار مخارجها ثلاثة ، فإنهـا إمّا أن تكون من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره. وإمّا أن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيوان إما إنسانٌ وإما غيره . فصوتُ العَنَادل والقَمَارىّ وذوات السـجع من الطيور مع طيبها موزونةٌ متناسبةُ المَطَالع والمقاطع فلذلك يُستلذّ سَمَاعُها . والأصل فى الأصوات حناجر الحيوانات . وإنما وُضعت المزامير على صـورة الحناجر وهى[(١)] تشبيه الصَّنْعة بالخِلْقة . وما من شىء تَوصّل أهلُ الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال فى الخلقة التى ٱستأثر الله تعالى بٱختراعها، منه تعلَّم الصُّنَّاع وبه قصدوا الٱقتداء. فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يَحْرُمَ لكونها طيّبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور . ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان . فينبغى أن يُقاس على صوت العندليب الأصواتُ الخارجة من سائر الأجسام بٱختيار الآدمىّ كالذى يخـرج من حلْقه أو من القضيب والطبل والدُّفّ وغيره . ولا يستثنى من هـذا إلا الملاهى والأوتار والمزامير، إذ ورد الشرع بالمنع منها لا للذّتها إذ لو كان للذّة لقيس عليها كل ما يلتذّ به الإنسان ولكن حُرِّمت الخمور وٱقتضت ضراوة[(٢)] الناس بها المبالغة فى الفِطام عنها حتى انتهى الأمر فى الٱبتداء الى كسر الدِّنان، فحُرِّم معها ما هو شعار أهل الشرب وهى الأوتار والمزامير فقط. وكان تحريمه من قبيل الإتباع كما حُرِّمت الخلوة[(٣)] لأنها مقدّمة الجماع . وحُرِّم النظر الى الفخذ

(١) فى نسخة من كتاب الإحياء : «على صوت» .

(٢) الضراوة : الاعتياد لها والاجتراء عليها .

(٣) كذا بالأصل . وفى الإحياء للغزالى : «الخلوة بالأجنبية» .

لاتصاله بالسوأتين . وحُرِّم قليل الخمر و إن كان لا يُسْكِرُ لأنه يدعو إلى المسكر . وما من حرام إلا وله حَرَم يُطِيفُ به . وحكم الحُرْمة ينسحب على حريمه ليكون حِمًى للحرام ووِقايةً له وحِظَارًا[1] مانعًا حوله كما قال صلى الله عليه وسلم : "إن لِكُلِّ مِلكٍ حِمًى وإنّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ" فهى محرّمة تبعا لتحريم الخمر.

٥ الدرجة الثالثة : الموزون المفهوم وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيُقطَعُ بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوما . والكلام المفهوم غير حرام . والصوت الطيّب الموزون غير حرام . فإذا لم يَحْرُم الآحادُ فمن أين يَحرُم المجموعُ؛ نعم يُنظر فيما يُفهم منه، إن كان فيه أمر محظور حَرُم نثره ونظمُه وحَرُم التصويت[2] به سواء كان بألحان أو لم يكن .

١٠ والحقّ فيه ما قاله الشافعىّ رحمه الله إذ قال : الشعرُ كلامٌ فحَسَنه حسنٌ وقبيحُه قبيح . ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز مع الألحان . فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان مباحًا، ومهما انضمّ مباحٌ الى مباح لم يحرم إلا إذا تضمّن المجموعُ محظورًا لا تتضمّنه الآحاد، ولا محظور هاهنا . وكيف يُنكر إنشادُ الشعر وقد أُنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال صلى الله عليه وسلم : «إنّ

١٥ من الشِّعرِ لَحِكْمَةً» وساق رحمه الله فى هذا الموضع الأحاديث الصحيحة التى تضمّنت إنشادَ الشعر والحُدَاء به وهى أشهر من أن يُحتاجَ إلى سردها . ثم قال بعد سياق الأحاديث: ولم يزل الحُدَاء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة ، وما هو إلا أشعار تُؤدَّى بأصواتٍ طيّبة وألحانٍ موزونةٍ . ولم يُنقلْ عن أحد من الصحابة إنكارُه . بل ربما كانوا يلتمسون ذلك

(٧١)

٢٠ (١) الحظار : الحائط وكل ما حال بينك وبين شىء .

(٢) كذا بالأصل . وفى إحياء الغزالى : «النطق به» .

تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ، فلا يجوز أن يُحَرَّم من حيث إنه كلام مفهوم مؤدًّى بأصواتٍ طيِّبة وألحانٍ موزونةٍ .

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه محرِّك للقلب ومُهيِّج لما هو الغالب عليه، قال أبو حامد : فأقول : لله سبحانه وتعالى سرٌّ فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا . فمن الأصوات مايُفرِحُ ومنها مايُحزِنُ ومنها مايُنَوِّم ومنها ما يُضْحِكُ ويُطرِبَ ومنها ما يَسْتخرِجُ من الأعضاء حركاتٍ على وزنها باليد والرجل والرأس . ولا ينبغى أن يُظنّ أن ذلك لفهم معانى الشعر بل هذا جارٍ فى الأوتار حتى قيل : من لم يُحرِّكه الربيعُ وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المِزَاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك بفهم المعنى، وتأثيرُه مشاهدٌ فى الصبىّ فى مهده فإنه يُسكته الصوتُ الطيِّبُ عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يُبكيه الى الإصغاء إليه . والجملُ مع بلادة طبعه يتأثر بالحُدَاءِ تأثيرًا يَستخِفُّ معه الأحمالَ الثقيلةَ ويَستقصِرُ لقوّة نشاطه فى سماعه المسافاتِ الطويلةَ ، وينبعث فيه من النشاط ما يُسكره ويُولِهه ؛ فتراها إذا طالت عليها البوادى واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال اذا سمعت مُنادِى الحداء تَمدّ أعناقَها وتُصْغِى إلى الحادى ناصبةً آذانها وتُسرِعُ فى سيرها حتى تتزعزعَ عليها أحمالُها ومحاملها، وربما تُتلِفُ أنفسَها فى شدّة السير وثقل الحمل وهى لا تَشعُر به لنشاطها

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدِّينَورى المعروف بالرَّقّى، قال :

كنت فى البادية فوافيتُ قبيلةً من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباء فرأيت فى الخباء عبدًا أسودَ مقيّدا بقيد، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت (١) وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزعُ رُوحَه . فقال لى الغلام :

(١) فى الرسالة القشيرية : «بفناء البيت» .

أنت ضيفٌ ولك حقّ فتشفّعْ فى حقّى إلى مولاى فإنه مُكرِمٌ لضيفه فلا يردّ شفاعتك فعساه يحلّ القيدَ عنّى . فلما أحضروا الطعام آمتنعت وقلت : لاآكل ما لم أُشَفَّعْ فى هـذا العبد ، فقال : إن هذا العبدَ قد أفقرنى وأهلك جميع مالى ؛ فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : إن له صوتا طيّبا ، وإنى كنت اعيش من ظهور هذه الجمال فحمّلها أحمالا ثِقالا وكان يَحدُو بها حتى قطعتْ مسيرةَ ثلاثِ ليال فى ليلةٍ من طِيبِ نغمته فلما حُطَّت أحمالُها مَوَّتَتْ كُلُّها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبتُه لك قال : فأحببت أن أسمعَ صوته ، فلما أصبحنا أمره أن يَحدُوَ على جمل يَستقى المـاء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجملُ وقطع حباله و وقعتُ أنا على وجهى ، فما أظنّ أنى قط سمعتُ صوتا أطيبَ منه .

قال : فإذًا تأثيرُ السماع فى القلب محسوسٌ . ومن لم يحرّكه السماع فهو ناقص مائل عن الآعتدال بعيـد عن الروحانية ، زائد فى غِلَظِ الطبع وكثافته على الجمـال والطيور بل على سـائر البهائم فإن جميعها تتأثّر بالنغمات الموزونة . ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلوب لم يجز أن يُحكَمَ فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم ، بل يختلفُ ذلك بالأحوال والأشخاص وآختلاف طرق النغمات ، فحكمه حكم ما فى القلب .

قال أبو سليمان : السماع لايجعل فى القلب ما ليس فيه ، ولكن يُحرّك ماهو فيه .

ذكر أقسام السماع وبواعثه

وأقسام السماع تختلف بآختلاف الأحوال : فإن منه ما هو مستحبّ وما هو مباح وما هو مكروه وما هو حرام . أما المستحبّ فهو لمن غلب عليه حبُّ الله تعالى ولم يُحرّك السماع منـه إلا الصفاتِ المحمودةَ . وأما المبـاح فهو لمن لاحظّ له من السماع إلا التلذّذ بالصوت الحسن ، وأما المكروه فهو لمن لاينزله على صورة المخلوقين

ولكن يتخذه عادة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو . وأما الحـرام فهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليـه شهوة الدنيا فلا يُحرك السماعُ منهـم إلا ماهو الغالب على قلوبهـم من الصفات المذمومة . وقد تكلم على هذه الأقسـام الإمام أبو حامد الغزالىّ فقال رحمه الله ما مختصره ومعناه : (٧٢)

الكلمات المسجعة الموزونة تُعتادُ فى مواضعَ لأغراض مخصوصة تَرتبطُ بها آثارٌ فى القلب وهى سبعة مواضع :

الأول : غِناء الحَجيج فإنهـم يدورون أولا فى البلاد بالطبل والغناء وذلك مباح لمـا فيه من التشويق إلى الحجّ وأداء الفريضة وشهود المشاعر .

الثانى : ما يعتاده الغُزاة لتحريض الناس على الغزو وهو مباح أيضا لمـا فيه من آستثارة النفس وتحريكها على الغزو وإثارة الغضب على الكفّار وتحسين الشجاعة وتقبيح الفرار .

الثالث : ما يرتجزه الشُّجعانُ عند اللقاء فى الحرب وهو مباحٌ ومندوب لمـا فيه من تشجيع النفس وتحريك النشاط للقتال والتمدّح بالشجاعة والنجدة وقد فعله غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهـم ، منهم علىّ بن أبى طالب وخالد بن الوليد وغيرهما .

الرابع : أصوات النِّيَاحة ونغماتها وتأثيرها فى تهييج البكاء وملازمة الحزن والكآبة وهذا قسمان : محمود ومذموم .

فأمّا المذموم فالحزن على ما فات . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ (١) . والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه يُغْضِبُ اللهَ جلّ جلاله وتأسُّفٌ على ما لا تدارك فيه .

(١) فى الإحياء : «فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف الخ» .

وأمّا المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه و بكاؤه على خطاياه. والبكاء والتباكى والحزن والتحازن على ذلك محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك . ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودةً، فقد كان يَحْزَنُ ويُحْزِنُ ويَبكِى ويُبكِى حتى كانت الجنائز تُرفَع من مجالس نياحته وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه، وذلك محمود لأن المُفضى إلى المحمود محمود . وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيِّب الصوتِ أن يُنشِدَ على المنبر بألحانه الأشعارَ المحزِنةَ المرقِّقَة للقلب ولا أن يَبكِى ويتباكى لِيَتوصَّل به الى بكاء غيره و إثارة حزنه .

الخامس : السماع فى أوقات السرور تأكيدًا للسرور وتهييجًا له إن كان ذلك السرورُ مباحا كالغِناء فى أيام العيد وفى العُرْس وفى وقت قدوم الغائب و وقت الوليمة والعقيقة وعند الولادة والختان وعند حفظ القرآن، وكل ذلك معتاد لأجل إظهار السرور . قال: ووجه جوازه أنّ من الألحان ما يُثير الفرحَ والسرورَ والطربَ وكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه ، ويدلّ على هذا إنشادهم بالدفّ والألحان عند مَقْدَم النبىّ صلى الله عليه وسلم يقولون :

طلع البدرُ علينا * من ثَنِيَّاتِ الوداع
وجب الشكر علينا * ما دعا لله داعى

فإظهارُ هذا السرور بالنغمات والشعر والرقص والحركات محمودٌ . فقد نُقل عن جماعة من الصحابه أنهم تجلّوا فى سرور أصابهم كما سيأتى فى أحكام الرقص وهو جائز فى قدوم كل غائب وكل ما يجوز الفرح به شرعا . ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم وآجتماعهم فى موضع واحد على طعام أو كلام .

السادس : سماع العُشّاق تحريكا للشوق وتهييجًا للعشق وتسليةً للنفس؛ فإن كان فى حال مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذّة، وإن كان مع المفارقة فالغرض

تهييج الشوق . والشوق و إن كان مؤلما ففيه نوعُ لذّة إذا انضاف اليه رجاء الوصال؛ فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم، وقوّة لذّة الرجاء بحسب قوّة الشوق والحبّ للشيء المرجوّ ، ففى هذا السماع تهييج للعشق وتحريك للشوق وتحصيل للذة الرجاء المقدّر فى الوصال مع الإطناب فى وصف حسن المحبوب . قال :

وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يُباحُ وِصالُه كمن يَعشق زوجتَه أو سُرِّيتَه فَيُصْغِي إلى غِنائها لتتضاعفَ لذّتُه فى لقائها، فيحظى بالمشاهدة البصرُ و بالسماع الأذُنُ و يَفهمُ لطائفَ معانى الوصال والفراق القلبُ، فتترادف أسباب اللذّة . فهذا نوع تَمتُّع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها، وما متاع الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وهذا منه . وكذلك إن غُصِبت منه جاريةٌ أوحِيلَ بينه و بينها بسبب من الأسباب فله أن يُحرِّكَ بالسماع شوقَه وأن يَستثيرَ به لذّةَ رجاء الوصال . فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لايجوز تحقيقه بالوصل واللقاء. وأما من يتمثّل فى نفسه صورةَ صبيّ أو امرأة لا يجوز له النظر إليها وكان يُنزّل ما يسمع على ما يتمثّل فى نفسه فهو حرام لأنه محرّك للفكر فى الأفعال المحظورة ومهيّج للداعية إلى مالا يباح الوصول إليه لا لأمر يرجع إلى نفس السماع . وقد سئل بعض الحكماء عن العشق فقال : دخان يصعد الى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيّجه السماع .

(٧٣) السابع : سماع من أحبّ الله سبحانه وتعالى وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلّا رآه فيه، ولا يقرعُ سمعَه قارعٌ إلّا سمعه منه أو فيه؛ فالسماع فى حقه مهيِّج لشوقه ، ومؤكِّد لعشقه وحبِّه، ومُورٍ زنادَ قلبه، ومُستخرجٌ منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لايحيط الوصف بها يعرفها مَنْ ذاقها ويُنكِرُها مَنْ كَلَّ حِسُّه عن ذَوَاقها؛ وتسمّى تلك الأحوال بلسان الصوفيّة وَجْدًا — مأخوذ من الوجود — وللصوفية على هذا كلامٌ يطول شرحه ليس هذا موضعَ إيراده. والله أعلم.

ذكر العوارض التى يحرُم معها السماع

قال أبو حامد رحمه الله تعالى: والسماعُ يحرُم بخمسة عوارض: عارض فى المُسْمِع وعارض فى آلة السماع، وعارض فى نظم الصوت، وعارض فى نفس المُستمِع أو فى مواطنه، لأن أركان السماع هى المُسْمِعُ والمستَمِعُ وآلة السماع.

٥ العارض الأوّل: أن يكون المُسْمِعُ امرأةً لا يَحِلّ النظر إليها وتُخْشى الفتنةُ من سماعها، وفى معناها الصبىّ الذى تُخْشى فتنتُه، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأة بحيث تَفْتِنُ بصوتها فى المحاورة فى غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماعُ صوتها فى القرآن أيضا، وكذلك الصبىّ الذى تُخَافُ فتنتُه. فإن قلت: فهل تقول: إن ذلك حرام بكل حال حسما ١٠ للباب، أو لا يحرم إلا حيث تُخافُ الفتنةُ. فأقول: هذه مسئلة محتملة من حيثُ الفقه يتجاذبها أصلان:

أحدهما: أن الخلوةَ بالأجنبيّة والنظرَ إلى وجهها حرامٌ سواء خيفت منها الفتنة أو لم تُخَفْ لأنها مَظِنّةُ الفتنة على الجملة. فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصورة.

١٥ والثانى: أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يُلحقُ الصبيانُ بالنساء فى عموم الحَسْم بل يَنبغى أن يُفَصَّلَ فيه الحالُ. وصوتُ المرأة دائرٌ بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر فى أوّل هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت. وليس تحريك النظر لشهوة المماسّة كتحريك السماع بل هو أشد.

٢٠ وصوتُ المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ولكن للغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة،

فقياسُ هــذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنّهم لم يؤمروا بالأحتجاب كما لم تُؤمر النساءُ بسَتْر الأصوات، فينبغى أن يُتَّبَع مَثَارُ الفتن ويُقصَرَ التحريمُ عليه، هذا هو الأقيس عندى . قال : ويتأيّد بحديث الجاريتين المغنّيتين فى بيت عائشة رضى الله عنها إذ يُعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَسمعُ صوتَهما ولم يحترز عنه ولكن لم تكن الفتنةُ مخوفةً عليه فلذلك لم يَحترِزْ . فإذًا يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل فى كونه شابا وشيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر فى مثل هــذا بالأحوال . فإنا نقول : للشيخ أن يُقَبِّلَ زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك . والقُبلةُ تدعو إلى الوِقَاع فى الصوم وهو محظور . والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيَختلِفُ ذلك أيضا بالأشخاص .

العارض الثانى فى الآلة — بأن تكون من شعائر أهل الشرب أو المخنّثين وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدُّفّ وإن كان فيه الجلاجلُ وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث فى نظم الصوت — وهو الشــعر فإن كان فيــه شىء من الخَنا والفحش والهجاء أو هو كذبٌ على الله عز وجلّ أو على رسوله أو على الصحابة كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستَمِعُ شريكُ القائل وكذلك مافيه وصف آمرأة بعينها فإنه لايجوز وصف المرأة بين يدى الرجال . وأمّا هجاء الكفّار وأهل البدع فذلك جائز .

فقــد كان حسان بن ثابت يُنافِحُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُهاجِى الكفارَ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلّم بذلك .

فأمّا النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القَدّ والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر . والصحيحُ أنه لايحرم نظمُه وإنشاده بلَحْن وغير لَحْن[1]، وعلى المستمع ألّا يُنَزِّلَه على آمرأة معيّنة إلّا على من تحلّ له من زوجة أو جارية ، فإن نزّله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل وإحالة الفكر فيه . ومَنْ هذا وَصْفُه فينبغى أن يَجتنِبَ السماعَ رأسا فإن مَنْ غلب عليه عشقٌ نزّل كلَّ مايسمعه عليه سواء كان اللفظ مناسبا أو لم يكن ، إذ مامِن لفظٍ إلا ويُمكن تنزيلُه على معانٍ بطريق الآستعارة فالذى غلب عليه عِشقُ مخلوقٍ ينبغى أن يَحترِز من السماع بأىّ لفظ كان، والذى غلب عليه حبّ الله تعالى فلا تَضرّه الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعانى اللطيفة المتعلّقة بمجارى همته الشريفة .

العارض الرابع فى المستَمِع — وهو أن تكون الشهوةُ غالبةً عليه وكان فى غِرّة الشباب وكانت هذه الصفةُ أغلبَ مِن غيرها عليه، فالسماعُ حرامٌ عليه سواء غلب على قلبه حبّ شخصٍ معيّنٍ أو لم يغلب . فإنه كيفما كان فلا يسمعُ وصفَ الصُّدْغ والخدّ والوصال والفراق إلا ويُحرّكُ ذلك شهوَتَه ويُنزِّله على صورة معيّنة ينفخ الشيطان بها فى قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتدّ بواعثُ الشرّ . وذلك هو النُّصرةُ لحزب الشيطان والتخذيلُ للعقل المانع منه الذى هو حزب الله تعالى . والقتال فى القلب دائم بين جنود الشيطان وهى الشهواتُ، وبين حزب الله وهو نورُ العقل إلا فى قلب قد فتحه أحد الجُنْدين وآستولى عليه بالكلّية . وغالبُ القلوب قد فتحها جندُ الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ الى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجه فكيف يجوز تكثير أسلحته وتشحيذ سيوفه وأسنّته ، والسماع مُشَحِّذ

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «بصوت وبغير صوت» .

لأسلحة جند الشيطان فى حقّ مثل هــذا الشخص . فليخرج مثل هــذا عن جميع السماع فإنه يَسْتَضِريه والله أعلم .

العارض الخامس — أن يكون الشخص من عوامّ الخلق ولم يغلب عليــه حبّ الله فيكون السماع له محبوبا ولا غلبت عليــه الشهوة فيكون فى حقّه محظورا، ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذّات المباحة إلا أنه اتخذه دَيْدَنه وهِجِّيراه وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السفيه الذى تُرَدّ شهادته فإن المواظبة على اللهو جناية. وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تَصير كبيرةً ؛ فبعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة وهو كالمواظبة على متابعــة الزنوج والحبشــة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا القبيل اللَّعِبُ بالشِّطْرَنْج فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة، ومهما كان الغرضُ اللعبَ والتلذّذَ باللهو فذلك إنمــا يباح لمــا فيه من ترويح القلب؛ إذ راحة القلب معالجةٌ له فى بعض الأوقات لتنبعث دواعيه. هذا ملخص ما أورده فى أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، ثم ذكر بعد ذلك آثار السماع وآدابه .

ذكر آثار السماع وآدابه

قال أبو حامد رحمه الله : اِعلم أن أوّل درجة السماع فهمُ المسموع وتنزيلُه على معنى يقع للمستمِع ثم يُثِمُر الفهمُ الوجدَ . ويُثمر الوجدُ الحركةَ بالجوارح . فلينُظر إلى هذه المقامات الثلاثة :

المقام الأوّل — فى الفهم، وهو مختلفٌ باختلاف أحول المُستَمِع. وللمستمِع أربعة أحوالٍ :

إحداها — أن يكون سماعه بمجرد الطبع أى لاحظّ له فى السماع إلا آستلذاذ الألحان والنغمات فهذا مباح وهو أخسّ رُتَبِ السماع؛ إذ الإبل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم . ولكل حيوان نوع تلذّذ بالأصوات الطيّبة .

الحالة الثانية — أن يسمع بفهم ولكن يُنَزِّله على صورة إما معيّنةٍ أوغيرمعيّنة وهو سماع الشباب وأربابِ الشهوة ويكون تَنزيلُهم المسموعَ على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم . وهذه الحالة أخسّ من أن يُتَكَلَّم فيها إلا ببيان خِسّتها والنهى عنها .

الحالة الثالثة — أن يُنَزِّلَ ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملة الله تعالى وتقلّب أحواله فى التمكّن منه[1] مرّة وبُعْدِه منه أخرى، وهذا سماع المُريدين لا سيّما المبتدئين . فإن للمريد لا محالة مرادًا هو مَقْصدُه، ومَقْصدُه معرفةُ الله تعالى ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسرّ وكشف الغطاء؛ وله فى مَقْصدِه طريقٌ هو سالكه، ومعاملاتٌ هو مثابرٌ عليها، وحالاتٌ تستقبله فى معاملاته . فإذا سمع ذكرَ عتاب أو خطاب أو قبول أو ردّ أو وصلٍ أو هجر أو قُرْب أو بُعْد أو تلهُّفٍ على فائت أو تعطّشٍ إلى مُنتظَرٍ أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو آستئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصال أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو هموم العبَرات أو تَرادُف الحَسرات أو طول الفراق أو عِدة الوصال[2] أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار؛ فلا بدّ أن يوافق بعضُها حالَ المريد فى طلبه، فيجرى ذلك مَجْرَى القَدّاح الذى يُورى زنادَ قلبه، فتشتعلُ به نيرانُه، ويقوَى به آنبعاثُ الشوق وهيجانه، وتَهجُمُ عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته،

(١) فى الإحياء : « وتعذره أخرى » .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « عزة الوصال » .

ويكون له مجالٌ رَحْبٌ فى تنزيل الألفاظ على أحواله . وليس على المستمع مراعاةُ مراد الشاعر من كلامه؛ بل لِكلّ كلام وجوهٌ ولكلّ ذى فهـم فى ٱقتباس المعنى منه حظٌّ . وضرب الإمام الغزالىّ لذلك أمثلة يطول شرحها .

الحالة الرابعـة — سمـاعُ مَنْ جاوز الأحوالَ والمقاماتِ فعَزَب عن فهم ما سـوى الله تعالى حتى عَزَبَ عن نفسه وأحوالهـا ومعاملاتها وكان كالمدهوش الغائص فى عين الشهود الذى يُضاهى حالهُ حال النِّسْـوة اللاتى قَطّعْنَ أيديهنّ فى مشاهدة جمال يُوسُفَ حتى بُهِتْنَ وسقط إحساسُهنَّ . وعن مثل هذه الحالة تُعبِّر الصوفية بأنه فنِي عن نفسه . ومهما فَنِيَ عن نفسه فهو عن غيره أفنى ؛ فكأنه فَنِيَ عن كلّ شىء إلا عن الواحد المشهود، وفَنِيَ أيضا عن الشهود فإنّ القلب إن ٱلتفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مُشاهِدٌ فقد غَفَل عن المشهود . فالمستهتر بالمرئىّ لا ٱلتفات له فى حال ٱستغراقه إلى رؤيته و[لا](١) إلى عينه التى بها رؤيتـه ولا إلى قلبه الذى به لذّته . فالسكران لا خُبْر له فى سكره(٢) ، والملتـذّ لا خُبْر له فى ٱلتذاذه(٢) ، إنمـا خُبْره من الملتذّ به فقط ، ولكن هذا فى الغالب يكون كالبرق الخاطف الذى لا يثبت ولا يدوم وإن دام لم تُطقه القوّة البشريّة فربمـا يضـطرب تحت أعبائه ٱضطرابا تهلك فيه نفسُه كما رُوِىَ عن أبى الحسن النورِى أنه سمع هذا البيت :

مازِلتُ أَنزِل من ودادك منزلًا * تتحيَّرُ الألباب دون نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ووقع فى أَجَمَة قَصَبٍ قد قُطِعت وبقيت أصولها مثل السيوف فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يجرى من رجليه حتى ورِمت قدماه وساقاه ومات بعد أيام رحمه الله .(٣)

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء . (٢) فى الإحياء « من » فى الموضعين بدل « فى » .

(٣) عبارة الإحياء : «فكان يغدو فيها ويروح» .

قال أبو حامد : وهذه درجة الصدّيقين فى الفهم والوجد وهى أعلى الدرجات، لأن السماع على الأحوال وهى ممتزجة بصفات البشرية نوع قُصُور، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله . أعنى أنه ينساها فلا يبقى له ٱلتفاتٌ إليها كما لم يكن للنِّسْوَة ٱلتفاتٌ الى اليد والسِّكِّين . فيسمع بالله، ولله، وفى الله، ومن الله ؛ وهذه رتبة مَنْ خاض لُجَّة الحقائق وعَبَر ساحل الأحوال والأعمال وٱتّحد بصفاء التوحيد وتحقّق بمحض الإخلاص فلم يبق فيه منه شىء أصلا، بل خَمَدت بالكلّية بَشَرِيَّته وفَنِىَ ٱلتفاته إلى صفات البشرية رأسا . قال : ولستُ أعنى بفنائه فناءَ جسده بل فناء قلبه، ولستُ أعنى بالقلب اللحم والدم بل سِرٌّ لطيفٌ له إلى القلب الظاهر نسبةٌ خفيّة وراءها سرُّ الرُّوح الذى هو من أمر الله عَرَفها مَنْ عَرَفها وجَهِلها من جَهِلها ولذلك السرّ وجودٌ . وصورة ذلك الوجود ما يحضُرُ فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر . ومثاله المرآة المجلُوّة، إذ ليس لها لَوْنٌ فى نفسها بل لونها لَوْن الحاضر فيها . وكذلك الزجاجة فإنها تحكى لَوْن قرارها ولونها لَوْن الحاضر فيها وليس لها فى نفسها صورةٌ بل صورتها قَبُول الصُّوَر ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان . قال : وهذه مَغَاصَةٌ من مغاصات علوم المكاشَفَة منها نشأ خَيَالُ من ٱدّعى الحلول والاتحاد . هذا مُلَخّص ما أورده فى مقام الفهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

المقام الثانى — بعد الفهم والتنزيل الوجدُ .

قال الإمام الغزالىّ رحمه الله تعالى :

وللناس كلامٌ طويلٌ فى حقيقة الوجد أعنى الصوفيّة والحكماء الناظرين فى وجه مناسبة السّماع للأرواح فلننقل من أقوالهم ألفاظا ثم لنكشف عن الحقيقة فيه .

أما الصوفيّة، فقد قال ذو النون المصرىّ رحمه الله فى السماع : إنه واردُ حقّ جاء يُزعج القلوبَ إلى الحقّ ، فمن أصغى إليــه بحقّ تحقّق ، ومن أصغى إليه بنفسٍ تزندق . فكأنه عبّر عن الوجد بأنزعاج القلوب إلى الحق وهو الذى يجده عند ورود وارد السماع، إذ سمّى السماعَ واردَ حقّ . وقال أبو الحسين الدرّاج مُخْبِراً عمّا وَجَده فى السماع : (٧٦)

والوجدُ عبارةٌ عما يُوجَد عند السماع،وقال : جال بِى السماع فى ميادين البهاء، فأوجدنى وجود الحقّ عنــد العطاء ، فسقانى بكأس الصفاء، فأدركت به منــازل الرِضاء، وأخرجنى إلى رياض النزهة والفضاء .

وقال الشِّــبْلِىُّ : السماع ظاهره فِتْنة وباطنه عِبْرة ، فمن عَرَف الإشارة حلّ له آستماع العِبْرة وإلا فقد آستدعى الفتنة وتعرّض للبليّة . وأقوال الصوفيّة فى هــذا النوع كثيرة .

وأما الحكماء ، فقال بعضهم :

فى القلب فَضِيــلةٌ شريفةٌ لم تقــدِر قوّة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظَهَرت سُرّت وطَرِبت إليها ، فآستمَعوا من النفس وناجُوها ودَعُوا مُناجاة الظواهر . وقال بعضهم :

نتائجُ السماع آستنهاضُ العاجز من الرأى وآستجلابُ العازب من الفكر وحِدّة الكالّ من الأفهام والآراء حتى يثوبَ ما عَزَب وينْهَض ما عَجَز ويَصْفو ما كَدَر ويَمْرَح فى كل رأيٍ ونيّــة فيصيب ولا يخطئ ويأتى ولا يبطئ . ثم ذكر المعنى الذى الوجد عبارة عنه فقال : هو عبارةٌ عن حالةٍ يُثمرها السماع وهو واردُ [حقّ](٢) جديد عقيب السماع

(١) فى بعض نسخ الإحياء : «ويخرج من» . (٢) الزيادة عن كتاب الإحياء، وفسره الزبيدى شارح الإحياء بقوله : «أى وارد ورد من الحق تعالى وهو وارد قوى لا يشوبه الباطل» .

يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو من قسمين : فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفاتٍ ومشاهداتٍ هى من قبيل العلوم والتنبيهات؛ و إما أن ترجع إلى تغيرات وأحـوالٍ ليست من العلوم والتنبيهات بل هى كالشوق والخوف والحزن والقـلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض. وهذه الأحوال يهيّجها السماع ويقويها فإن ضعفت بحيث لم تؤثّر فى تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرّك على خلاف عادته أو يطرُق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يُسَمّ وجدا . وإن ظهر على الظـاهر سُمِّىَ وجدا إما ضعيفا وإما قويّا بحسب ظهوره وتغييره الظاهر وتحريكه بحسب قوّة وروده وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوّة الواجد وقدرته على حفظ جوارحه، فقد يقوَى الوجد فى الباطن ولا يتغيّر الظاهر لقوّة صاحبه وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحلّ عُقَد التماسك. وإلى المعنى الأوّل أشار أبو سعيد بن الأعرابىّ حيث قال فى الوجد : إنه مشاهدَة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ولا يبعد أن يكون السماع منشأ لكشف ما لم يكن مكشوفا قبله؛ فإنّ الكشف يحصل بأسباب: منها التنبيه، والسماع منبّه. ومنها تغيّر الأحوال ومشاهدتها وإدراكها، فإنّ إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمورٍ لم تكن معلومة قبل الورود .

ومنها صفاء القلب، والسماع مؤثّر فى تصفية القلوب، والصفاء سبب المكاشفة.

ومنها انبعاث نشاط القلب بقوّة السماع فيقوَى على مشاهدة ما كان تقصر عنه [قبل ذلك(١)] قوّته كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله، وهـذا الاستكشاف من ملاحظة أسرار الملكوت . وكما أنّ حمـل الجمل يكون بواسطة، فبواسطة هـذه الأسباب يكون سبب الكشف؛ بل القلب إذا صفا تمثّل له الحقّ

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء .

فى صورةٍ مشاهدةٍ أو فى لفظٍ منظومٍ يَقرَعُ سَمعه يعبّر عنه بصوت الهاتف إذا كان فى اليَقَظَة و بالرؤيا إذا كان فى المنام وذلك جزء من النبوّة؛ وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة . وذلك كما روى عن محمد بن مسروقٍ[(١)] البغدادىّ أنه قال: خرجت يوما فى أيام جهلى وأنا نشوانُ وكنت أُغنّى هذا البيتَ :

بِطِـــيزَناباذَ[(٢)] كَرْمٌ ما مررتُ به * إلا تعجّبتُ ممن يشرب المـاءَ

فسمعت قائلا يقول :

وفى جهـــنّم ماءٌ ما تجـــرّعهُ * خَلْقٌ فأبقى له فى الجوف أمعاءَ

فقال : وكان ذلك سبب توبتى وآشتغالى بالعلم .

قال أبو حامد: فانظر كيف أثّر الغناء فى تصفية قلبه حتى تمثّل له حقيقة الحقّ فى صفة جهنم وفى لفظٍ منظومٍ موزونٍ وقرع ذلك سمعه الظاهر. وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب . ويشاهد أيضا بالبصر صورة الخَضِر عليه السلام فإنه يخيّل لأرباب القلوب بصورٍ مختلفةٍ، وفى مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اِتّقُوا فِراسةَ المؤمنِ فإنه يَنْظر بنور الله تعالى" . قال : فحاصل الوجد يَرْجِع إلى مكاشفاتٍ و إلى حالاتٍ ينقسم كل واحدٍ منهما إلى ما لا يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلا . وضرب لذلك أمثلة، منها أن الفقيه قد تعرض عليـه مسألتان متشابهتان فى الصورة ويُدرِك بذوقه أن بينهما فَرْقا فى الحُكْم، فإذا كُلِّف ذكرَ وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير عنه وإن كان من أفصح الناس ، فيُدرِك بذوقه

(١) فى معجم ياقوت : «محمد بن عبد الله الكاتب» .

(٢) طيزناباذ : موضع بين الكوفة والقادسـية على حافة الطريق على جادّة الحاج وبينها وبين القادسية ميل ، كانت إقطاعا للأشعث بن قيس من عمر بن الخطاب وكانت من أنزه المواضع محفوفة بالكروم والشجر والحانات والمعاصر وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة «عن معجم البلدان لياقوت» .

الفرق ولا يمكنه التعبير عنه . وإدراكه الفرق عِلمٌ يصادفه فى قلبه بالذوق . ولا شك أنّ لوقوعه فى قلبه سببا ، وله عند الله تعالى حقيقة ، ولا يمكنه الإخبار عنه لقصورٍ فى لسانه بل لدقة المعنى أن تناله العبارة .

وأمّا الحال فكم من إنسانٍ يُدرِك فى قلبه فى الوقت [الذى يصبح فيه](١) قبضا أو بسطا ولا يعلم سببه ، وقد يتفكر فى شىء فيؤثّر فى نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر فى نفسه وهو يَحُسّ به . وقد تكون الحالة التى يُحسّها سرورا يثبت فى نفسه بتفكره فى سبب موجب للسرور ؛ أو حُزْنا فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقِيبه . وقد تكون تلك الحال حالة غريبة لا يُعرِب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مُفصِحةً عن المقصود ؛ بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختصّ به بعض الناس دون بعضٍ ، وهى حالة يُدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها (أعنى التفرقة بين الموزون والمنزحف) ولا يمكنه التعبير عنها بما يَتّضِح به مقصوده لمن لا ذوق له . وفى النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعانى المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصُل فى السماع عن غناء مفهومٍ . فأمّا الأوتار وسائر النغماتِ التى ليست مفهومة فإنها تؤثّر فى النفس تأثيرا عجيبا ، ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الأوتار ، وقد يعبرّ عنها بالشوق ، ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه ، فهذا عجيب . والذى اضطربت نفسه بسماع الأوتار والشاهين وما أشبهه ليس يدرى إلى ماذا يشتاق ، ويجد فى نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس يدرى ما هو ، حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لا حبّ آدمىٍّ ولا حبّ الله تعالى . وهذا له سِرّ ، وهو أنّ كل شوقٍ فله ركنان : أحدهما صفة المشتاق وهو نوع مناسبةٍ مع المشتاق إليه . والثانى معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة

(١) الزيادة عن الإحياء .

الوصول إليه . فإن وُجِدت الصفة التى بها الشوق ووُجِد العـلم بالمشتاق ووُجِدت الصفة المشوّقة وحركت قلبك الصفة وٱشتعلت نارها ، أورث ذلك دهشـة وحيرة لا محالة . ولو نشأ آدمىّ وحده حيث لم ير صورة النساءِ ولا عرف صورة الوِقاعِ ثم راهق الحُلُمَ وغلبت عليه الشهوة لكان يُحِسّ من نفسه بنار الشهوة ولا يدرِى أنه يشتاق إلى الوِقاع لأنه ليس يدرى صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء ؛ فكذلك فى نفس الآدمىّ مناسبة مع العالَم الأعلى واللذّاتِ التى وُعِد بهـا فى سِدرة المنتهى والفراديس العُلا ، إلا أنه لم يتخيّل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء كالذى يسمع [لفظ] الوقاع و [ٱسم](١) النساء ولم يشاهِد صورة ٱمرأةٍ قط ولا صورة رجلٍ ولا صورة نفسِه فى المرآة ليعرف بالمقايسة . فالسماع يحرّك منه الشوق ؛ والجهـل المفرط والٱشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقرّه الذى إليه حنينه وٱشتياقه بالطبع ، فيتقاضاه قلبه أمرًا ليس يدرى ما هو فيدهش ويضطرب ويتحيّر ويكون كالمختنق(٢) الذى لا يعرِف طريق الخلاص . فهذا وأمثاله من الأحوال التى لا يُدرَك تمام حقائقها ، ولا يمكن المتّصِفُ بها أن يعبّر عنها . فقد ظهر ٱنقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره . قال :

وٱعلم أيضا أنّ الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلّف يسمى التواجد . وهذا التواجد المتكلف ، فمنه مذموم وهو الذى يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ؛ ومنه ما هو محمود وهو التوصّل الى الٱستدعاء للأحوال الشريفة وٱكتسابها وٱجتلابها بالحيلة ؛ فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة ؛ ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء فى قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازنَ ،

(١) الزيادة فى كليهما عن الإحياء .

(٢) فى الأصل : « كالمنجنيق » والتصويب عن الإحياء .

فإن هذه الأحوال قد تُتَكلّف مباديها ثم تحقق أواخرها . وكيف لا يكون التكلّف سببا فى أن يصير المتكلّف بالآخرة طبعا ، وكل من يتعلّم القرآن أوّلا يحفظه تكلّفا ويقرؤه تكلّفا مع تمام التأمّل وإحضار الذهن ثم يصير ذلك دَيْدَنا للسان مُطّرِدا حتى يجرى به لسانه فى الصلاة وغيرها وهو غافل فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه الى آخرها ويعلم أنه قرأها فى حال غفلته . وذكر أبو حامد أمثلة نحو ذلك ثم قال : وكذلك الأحوالُ الشريفة لا ينبغى أن يقع اليأس منها عند فقدها، بل ينبغى أن يُتكلّف اجتلابها بالسماع وغيره ؛ فلقد شُوهِد فى العادات مَن اشتهى أن يعشَق شخصا ولم يكن يعشَقه فلم يزل يردّد ذكره على نفسِه ويديم النظر إليه ويقرّر على نفسه الأوصافَ المحبوبة إليه والأخلاقَ المحمودة فيه حتى عَشِقه ورسخ ذلك فى قلبه رسوخا خرج عن حدّ اختياره، واشتهى بعد ذلك الخلاصَ منه فلم يتخلّص ، فكذلك حبُّ الله تعالى والشوقُ إلى لقائه والخوفُ من سخطِه وغير ذلك من الأحوال الشريفة إذا فقدها الإنسان فينبغى أن يتكلّف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ، ومشاهدةِ أحوالهم، وتحسينِ صفاتهم فى النفس، وبالجلوسِ معهم فى السماع، وبالدعاء والتضرّع إلى الله تعالى فى أن يرزقه تلك الحالةَ بأن يُيسّر له أسبابها ؛ ومن أسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحبّين والمشتاقين والخاشعين؛ فمن جالس شخصا سَرَت إليه صفاته من حيث لا يدرى . ويدلّ على إمكان تحصيل الحبّ وغيره من الأحوال بالأسباب قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه : "اللهمّ ارزقنى حبّك وحبّ من أحبّك وحبّ مَن يُقرّبنى إلى حبّك" . فقد فزع[1] إلى الدعاء فى طلب الحبّ . قال : فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفاتٍ وإلى أحوالٍ، وانقسامه الى ما يمكن الإيضاح عنه وإلى ما لا يمكن، وانقسامه إلى المتكلّف وإلى المطبوع .

(١) فى الأصل : «نزع» والتصويب عن الإحياء .

المقام الثالث — فى آداب السماع ظاهرًا و باطنا ، وما يُحمد من آثار الوجد ويُذمّ .

قال الإمام أبو حامد رحمه الله تعالى : فأما الآداب فهى خمس جمل :

الأوّل — مراعاة الزمانِ والمكانِ والإخوانِ . قال الجُنَيد : السماع يحتاج الى ثلاثة أشياء و إلا فلا تسمع : الزمان والمكان والإخوان . قال الغزالىّ : ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور طعامٍ أو خصامٍ أوصلاةٍ أو صارفٍ من الصوارف مع آضطراب القلب لا فائدة فيه ، فهذا معنى مراعاة الزمان ، فيراعى فراغ القلب . والمكان قد يكون شارعا مطروقا أو موضعا كريه الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيُتجنّب ذلك . وأما الإخوان فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكِر السماع مترهّدِ الظاهر مفلِس من لطائف القلوب كان مستثقَلًا فى المجلس وآشتغل القلب به ، وكذا إذا حضر متكبّر من أهل الدنيا فيحتاج إلى مراقبتِه ومراعاتِه ، أو متكلّف متواجِد من أهل التصوّف يرائى بالوجد والرقصِ وتمزيقِ الثوب ، فكل ذلك مشوّشات ، فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى .

الثـانى — وهو نظر للحاضرين ، أن الشيخ إذا كان حوله مُريدون يضرّهم السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم ؛ فإن سمِـع فليشغلهم بشغل آخر . والمريد الذى لا يستفيد بالسماع أحدُ ثلاثةٍ : أقلّهم درجة هو الذى لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع ؛ فآشتغاله بالسماع آشتغال بما لا يعنِيه ؛ فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ، ولا من أهل الذوق فيتنعّم بذوق السماع ؛ فليشتغل بذكرٍ أو خدمةٍ و إلا فهو مضيّع لزمانه . الثـانى : هو الذى له ذوق ولكن فيـه بقية من الحظوظ والآلتفات إلى الشهوات والصفات البشريّة ولم ينكسِر بعدُ آنكسارًا تُؤمَنُ غوائله ، فربما يُهيّج السماع منه داعيةَ اللّهو والشهوة فينقطع طريقه ويصدّه عن الآستكمال .

الثالث : أن يكون قد انكسرت شهوته وأُمِنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حبّ الله تعالى ، ولكنه لم يُحكِمْ ظاهرَ العلم ولم يعرِف أسماء الله وصفاتِه وما يجوز عليه وما يستحيل، وإذا فُتِح له باب السماع نزل المسموع فى حقّ الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز ، فيكون ضرره من تلك الخواطر التى هى كفر أعظم عليه من نفع السماع . قال سهل : كلُّ وجدٍ لا يشهد له الكتاب والسنّة فهو باطل . فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعدُ ملوّث بحبّ الدنيا وشهوةِ المحمدةِ والثناءِ، ولا من يسمع لأجل التلذّذ والاستطابة بالطبع ، فيصير ذلك عادة له ويشغله عن عبادتِه ومراعاةِ قلبِه وتنقطع عليه طريقة الأدب ؛ فالسماع مَزِلّة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه .

الأدب الثالث — أن يكون مُصغيا إلى ما يقوله القائل ، حاضرَ القلب ، قليلَ الالتفات إلى الجوانب ، متحرزًا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد ، مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبِه ومراقبةِ ما يفتح الله له من رحمته فى سِرِّه ، متحفّظا عن حركةٍ تُشوّش على أصحابه قلوبهم ؛ بل يكون ساكنَ الظاهر ، هادئَ الأطراف متحرزا عن التنحنح والتثاؤب ، يجلس مُطرِقًا رأسَه بجلوسِه فى فكرٍ مستغرقٍ لقلبه ، متماسكا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجهِ التصنّع والتكلّف والمراءاة ، ساكتا عن النطق فى أثناء القول بكل ما عنه بدّ . فإن غلبه الوجد وحرّكه بغير اختيار فهو فيه معذور وغير ملوم ؛ ومهما رجع إليه اختياره فليعُد إلى هدوه وسكونه . ولا ينبغى أن يستديمه حياء من أن يقال : انقطع وجده على القرب ، ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال : هو قاسِى القلب عديم الصفاء والرقّة . قال : وقوّة الوجد تحرّك ، وقوّة العقل والتماسُك تضبط الظواهرَ . وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدّة قوّته ، وإما لضعف ما يقابله ، ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك . فلا

تظنن أن الذى يضطرب بنفسه على الأرض أتمّ وجدا من الساكن بٱضطرابه، بل ربّ ساكنٍ أتمّ وجدا من المضطرب؛ فقد كان الجنيـد يتحرّك فى السماع فى بدايته ثم صار لا يتحرّك فقيل له فى ذلك فقال : (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل فى الملكوت، والجوارح متأدّبة فى الظاهر ساكنة . ٥

الأدب الرابع — ألّا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه؛ ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة؛ لأن التباكى ٱستجلاب للحزن، والرقص سبب فى تحريك السرور والنشاط، وكل سرور مباح فيجوز تحريكه؛ ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضى الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون[1] . وقد رُوِىَ عن جماعةٍ من الصحابة أنهم هجلوا لمّا ورد ١٠ عليهم سرور أوجب ذلك [وذلك[2]] فى قصة ٱبنة حمزة بن عبدالمطلب لما ٱختصم فيها علىّ بن أبى طالب وأخوه جعفر و زيد بن حارثة رضى الله عنهم، فتشاحّوا فى تربيتها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "أنتَ مِنّى وأنا منك" فهجل علىّ . وقال لجعفـر : "أشبهتَ خَلْقِى وخُلُقِى" فهجل . وقال لزيد : "أنت أخونا ومولانا" فهجل . الحديث . قال : والهجل[3] : الرقص، ويكون لفرحٍ أو شوقٍ، فحكمه حُكْم ١٥ مهيِّجه إن كان فرحه محمودا؛ والرقصُ يزيده ويؤكده فهو محمود، فإن كان مباحا فهو مباح، وإن كان مذموما فهو مذموم. نعم لا يليق ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة لأنه فى الأكثر يكون عن لهو ولعبٍ ، وما له صورة اللعب فى أعين الناس

(٧٩)

(١) يزفنون : يرقصون . (٢) الزيادة عن الإحياء .

(٣) فى النهاية لابن الأثير : الهجل أن يرفع رجلا ويقفز على الأخرى من الفرح وقد يكون بالرجلين إلا أنه قفز . ٢٠

فينبغى أن يجتنبه المقتدَى به لئلا يصغُر فى أعين الخلق فيُترَكَ الاقتداءُ به . وأما تخريق الثياب فلا رُخْصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار . ولا يبعُدُ أن يغلب الوجد بحيث يمزّق ثوبه وهو لا يدرِى لغلبة سكر الوجدِ عليه أو يدرِى ولكن يكون كالمضطر الذى لا يقدر على ضبط نفسه، وتكون صورته صورة المكرهِ ، إذ يكون له فى الحركة أو التمزيق متنفّس فيضطرّ إليه اضطرار المريض الى الأنين؛ ولو كلّف الصبرَ عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختيارىّ؛ فليس كلّ فعلٍ حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه؛ فالتنفّس فعلٌ يحصُل بالإرادة، ولو كلّف الإنسان نفسه أن يمسك النفس ساعة اضطر من باطنه إلى أن يختار التنفّس، فكذلك الزعقة وتخريق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم .

الأدب الخامس — موافقةُ القوم فى القيام إذا قام واحد منهم فى وجدٍ صادق من غير رِياءٍ وتكلّفٍ، أوقام باختيارٍ من غير إظهار وجدٍ وقام له الجماعة فلا بدّ من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة . وكذلك إن جرت عادة طائفةٍ بتنحيةِ العمامة على موافقةِ صاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتخريق[1] . فالموافقة فى هذه الأمور من حُسْن الصحبة والعِشرة، إذ المخالفة موحشة . ولكلّ قومٍ رسمٌ؛ ولا بدّ من مخالقةِ الناسِ بأخلاقهم كما ورد فى الخبرِ لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن المعاشرة والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة . وقول القائل : إنّ ذلك بدعة لم تكن فى الصحابة، فليس كلّ ما يحكم بإباحتهِ منقولا عن الصحابة ولم ينقل النهىُ عن شىء من هذا . والقيامُ عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب، بل كان الصحابةُ لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحوال كما رواه أنس رضى الله عنه ، وإن كان لم يثبت فيه نَهْىٌ عامٌّ، فلا نرى

(١) فى الإحياء . «بالتمزيق» .

به بأسا فى البلاد التى جرت العادةُ فيها بإكرام الداخل بالقيام؛ فإنّ القصد منه الآحترام والإكرام وتطييب القلب به؛ كذلك سائرُ أنواعِ المساعدة إذا قُصِدَ بها طيبةُ القلب وآصطلح عليها جماعةٌ فلا بأس بمساعدتهم عليها؛ بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نَهْىٌ لا يقبل التأويل . ومن الأدب ألّا يقوم للرقص[1] مع القوم إن كان يُستثقل رقصه ويشوّش عليهم أحوالهم؛ إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذى يلوح للجمع منه أثر التكلّف؛ ومن يقوم عن صدقٍ لا تستثقِله الطباع؛ فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محكٌّ للصدق والتكلُّف . سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال: صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضدادٍ . هذا ملخّص ما أورده الغزالىّ رحمه الله تعالى فى معنى السماع وقسمه الى هذه الأقسام التى ذكرناها .

وأما أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم فقد ذكر مسألة السماع وبيّن إباحته، فبدأ بذكر الأحاديث التى آحتجّوا بها وضَعَّف رُوَاتها نحو ما تقدّم وذكر الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وأنه قيل : إنه الغناء، فليس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ثَبَتَ عن أحد من أصحابه رضى الله عنهم، فإنما هو قول بعض المفسّرين ممن لا يقوم بقوله حُجّة؛ وما كان هكذا فلا يجوز القول به . ثم لو صحّ لما كان فيه متعلَّق؛ لأنّ الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وكلّ شىءٍ آقتُنِىَ ليُضَل به عن سبيل الله فهو إثم وحرام ولو أنه شِراء مصحف أو تعليم قرآن . فإذًا لم يصحّ فى هذا شىء فقد قال الله عز وجلّ : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ

(١) كذا فى الإحياء . وعبارة الأصل : « ومن الأدب ألا يقوم المرقص مع القوم للرقص اذا كان ... الخ» .

لَكُمْ مَافِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعظم الناس جُرْمًا في الإسلام مَنْ سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّم فحُرِّم من أجل مسألته"، فصحّ أن كل شيءٍ حرّمه الله عزّ وجلّ علينا فقد فصّله لنا، وكل مالم يُفصّل تحريمه لنا فهو حلال .

وٱستدلّ رحمه الله على إباحته بالأحاديث التي ذكرناها، حديث عائشة عن خبر أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما في غناءِ الجاريتين، وٱستدلّ أيضا بحديث نافع أن ٱبن عمر سَمِع مزمارا فوضع إصبعيه في أذنيه ونأى عن الطريق وقال : يا نافع، هل تسمع شيئا؟ قلت لا، فرفع إصبعيه عن أذنيه وقال : كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسَمِع مثل هذا وصنع مثل هذا . قال : فلو كان حراما ما أباح عليه الصلاة والسلام لٱبن عمر سماعه ولا أباحَ ٱبن عمر لنافع سماعه؛ ولكنّه عليه الصلاة والسلام كرِه لنفسه كلّ شيء ليس من التقرّب إلى الله عز وجلّ، كما كَرِه الأكل مُتّكئا، والتنشّف بعد الغسل في ثوبٍ يعدّ لذلك، والستر الموشّى على سَهْوة عائشة وعلى باب فاطمة رضي الله عنهما، وكما كرِه صلى الله عليه وسلم أشدّ الكراهة أن يبيت عنده دينار أو درهم . وإنما بُعث عليه الصلاة والسلام مُنكِرا للمنكَر، آمرا بالمعروف . فلو كان ذلك حرامًا لما ٱقتصر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يسدّ أذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه، ولم يفعل عليه الصلاة والسلام شيئا من ذلك بل أقرّه وتنزّه عنه، فصحّ أنه مباح وأن الترك له أفضل كسائر فضول الدنيا المباحة .

قال : فإن قال قائل: قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ﴾ ففي أيّ ذلك يقع الغناء ؟ قيل له : حيث يقع الترويح في البساتين وصباغ ألوان الثياب، ولِكُلِّ ٱمْرِئٍ مَا نَوَى فإذا نوى المرء ترويح نفسه وإجمامَها لتقوى على طاعة الله فما أتى ضلالا . قال : ولا يحلّ تحريم شيءٍ ولا إباحته إلا بنص من الله عز وجلّ أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه إخبار عن الله عز وجلّ، ولا يجوز

عنه تعالى إلا بالنصّ الذى لا شكّ فيه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ كَذَبَ علىّ مُتعمِّدًا فليتبوّأ مقعدَهُ من النـار" . وقد تكلّم على إباحةِ السماعِ جماعة من العلماء . وفيما أوردناه من هذا الفصل كفاية . فلنذكر من سَمِـع الغناء من الصحابة رضى الله عنهم .

ذكر من سمع الغناء من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم

قد رُوِى أن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم سمعوا الغناء .

منهـم النعمان بن بَشير الأنصارىّ الخزرجىّ رضى الله عنه . روى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتابه المترجم : «بالأغانى» بسَنَدٍ رفعه إلى أبى السائب المخزومىّ وغيره ، قال : دخل النعمان بن بَشِير المدينة فى أيام يَزِيد بن معاوية وٱبن الزُّبَير فقال : والله لقد أخفقت أذناىَ [من](١) الغناء فٱسمعونى . فقيل له : لو وَجّهت إلى عَزّة المَيْلاء . فإنها مَن قَد عرفت ، فقال : إى وربِّ هذه البَنِيّة(٢) ! إنها لمن(٣) يَزِيد النفس طِيبا والعقل شَحْذا ، اِبعثوا إليها عن رسالتى ، فإن أبت صرتُ إليها . فقال له بعض القوم : إنّ الثُّقْلة تشتدّ عليها لثقل بدنها ، وما بالمدينة دابّة تحملها . فقال النعمان : وأين النجائب عليها الهوادج ؟ فوجّه إليهـا بنجيبة فذكرت علّة ؛ فلما عاد الرسـول إلى النعمان قال لجليسِهِ : أنت كنت أخبرَ بهـا ، قوموا بنا(٤) . فقام هو مع خواصّ أصحابه حتى طرقوها ، فأذنت وأكرمت وٱعتذرت ، فقبل النعمان عذرها وقال لها : غَنِّى ، فغنّت :

---

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١ طبع بولاق) .

(٢) فى الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١) : «ورب الكعبة» .

(٣) فى الأصل : «لمن» والتصويب عن الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١) .

(٤) كذا بالأصل . وفى الأغانى : «إليها» .

أَجَدَّ بعَمْرةَ غُنْيانُها[1] * فتهجُرَ أم شأنُها[2] شانُها؟
وعَمْرةُ من سَرَوَاتِ النسا * ء تَتَفَحُ بالمسكِ أردانُها[3]

قال : وهذا الشعر هو لقَيْس بنِ الخطِيم فى أمّ النعمان بن بشير، وهى عَمْرة بنت رَوَاحة أخت عبدالله بن رواحة؛ قال : فأُشِير الى عَزَّة أنها أمه فأمسكت ؛ فقال : غنّنِي فوالله ما ذكر إلا كرما وطِيبا ولا تغنّى سائر اليوم غيرَه؛ فلم تزل تغنّيه هذا اللحن حتى آنصرف .

ومنهم حسان بن ثابت الأنصاريّ رضى الله عنه . روى أبو الفرج الأصفهانىّ بسنده الى محرز بن جعفر قال : خَتَن زَيْد بن ثابت بنيهِ وأولم وآجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامّة أهل المدينة، وحضر حسان بن ثابت وقد كُفّ بصره يومئذ وثقُل سمعه فوُضِع بين يديهِ خِوَانٌ ليس عليه غيره إلا عبد الرحمن آبنه، وكان يسأله كلما وُضِعت صحفة أطعام يد أم يدينِ[4] ؟ فلم يزل يأكل حتى جِىء بشِواءٍ، فقال : أطعام يد أم يدينِ؟ فقال : بل طعام يدين، فأمسك يده؛ حتى إذا فُرِغ من الطعام ثُنِيت وِسادة وأقبلت عَزّة المَيْلاء وهى إذًا شابّة، فوُضع فى حجرها مِزْهَرٌ فضربت به وتغنّت، فكان أوّل ما آبتدأت به شِعر حسان :

فلا زال قَصْرٌ بين بُصْرَى وجِلّقٍ[5] * عليه من الوَسْمِىّ جَوْدٌ ووابلُ

فطَرِب حسان وجعلت عيناه تنضحان على خدّيه وهو مُصغٍ لها .

(١) غنيانها : أى آستغناؤها . وفى الأصل : « عينانها » والتصويب عن الأغانى واللسان وديوان قيس بن الخطيم المطبوع فى ليبسيك سنة ١٩١٤ م . (٢) كذا فى الأصل . وفى الأغانى واللسان والديوان : « أم شأننا شانها » وكلاهما ذو معنى ، والأول أوجه .

(٣) جمع ردن بضم فسكون وهو مقدّم كم القميص أو القميص كله وهو أيضا ضرب من الخز الأحمر .

(٤) فى الأصل : « قال : أطعام يد أم يدين » وظاهر أن « قال » لا معنى لها .

(٥) جلق هى دمشق أو غوطتها وزنتها كحمص وقنب .

وروى أيضا بسنده إلى خارجة بن زيد أنه قال : دُعِينا الى مأدُبة فى آل بُيَيط، فحضرنا وحضر حسان بن ثابت، فجلسنا جميعا على مائدة واحدة وهو يومئذ قد ذهب بصره ومعه ٱبنه عبد الرحمن ، وكان إذا أُتِى بطعام سأل ٱبنه عبد الرحمن أطعام يد أم طعام يدين؟ (يعنى بطعام اليد الثريد، وطعام اليدين الشواء لأنه ينهش نهشا) فإذا قال: طعام يد أكل، واذا قال : طعام يدينِ أمسك يده . فلمـا فرغوا من الطعام أُتوْا بجاريتين مغنّيتين إحداهما "رائقة" والأخرى "عَزّة" فجلستا وأخذتا مِزْهَريهما وضربتا ضربا عجيبا وغنّتا بقول حسان بن ثابت :

أُنظر خليلى بابِ جِلّقَ هل * تُؤْنِس دون البلقاءِ من أَحَدِ

قال : فأسمعُ حسانَ يقول : قد أرانِى هناك[1] سميعًا بصيرًا، وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا سكن عنه البكاء واذا غنّتا يبكى . قال : وكنت أرى عبـد الرحمن ٱبنـه إذا سكتتا يشير إليهما أن غنّيا، فيبكى أبوه، فيقال : ماحاجته إلى بكاء أبيه ! . (٨١)

وروى أيضا بسندهِ الى عَبّاد بن عبد الله بن الزُّبَير عن شيخ من قريش قال : إنى وفِتْية من قريش عنـد قَيْنة ومعنا عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت إذ ٱستأذن حسان، فكرِهنا دخوله وشقّ علينا، فقال لنا عبد الرحمن ٱبنه : أيسرّكم ألّا يجلس ؟ قلنا نعم . قال : فمُرُوا هذه إذا نظرت اليه أن تُغنّى :

أولادُ جَفْنةَ حَوْل قبرِ أَبِيهِمُ * قبرِ ٱبنِ مارِيَةَ الكريم المُفْضِلِ

يُغْشَوْن حتى ما تَهِرُّ كلابُهـم * لايسألون عن السواد المقبِلِ

قال : فغنّته، فوالله لقـد بكى حتى ظنّنا أنه سيلفظ نفسـه . ثم قال : أفيكم الفاسِقُ؟ لعَمْرى لقد كَرِهتم مجلسى اليوم . وقام فٱنصرف . وهذا الشعر لحسان بن

(١) فى الأغانى (ج ١٦ ص ١٥) : « بها » .

ثابت وهو مما آمتدح به جَبَلَة بن الأَيْهم، وهو من قصيدة طويلة منها قوله فى مدح آلِ جفنة :

بِيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم * شمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

وروَى أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى الحارث بن عبد الله بن العباس : أنه بينما هو يسير مع عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه بطريق مكة فى خلافته ومعه من معه من المهاجرين والأنصار، ترنّم عمر ببيت فقال له رجل من أهل العراق — ليس معه عراقىّ غيره — : غيرك فليقلها يا أمير المؤمنين ! قال : فآستحيا عمر وضرب راحلته حتى آنقطعتْ مِنَ الرَّكْب . قال المقدسى : ويزيد ذلك وضوحا — وساق حديثا بسند رفعه الى يحيى بن عبد الرحمن — قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الحجّ الأكبر، حتى اذا كان عمرُ بالرَّوحاء[1] كلّم الناسُ رَبَاحَ بنَ المعترِف[2]، وكان حسنَ الصوت بغناءِ الأعراب، فقالوا : أَسْمِعْنا وقَصِّر عنّا الطريق؛ فقال : إنّى أَفْرَقُ من عمرَ . قال : فكلّم القومُ عمرَ . إنا كلّمنا رباحا أن يُسمِعَنا ويُقصِّر عنا طريقَ المسير فأبى إلّا أن تأذن له . فقال له : يارباح، أسْمِعهم وقصِّر عنهم المسير، فإذا أسْحرت فآرفع وآحْدُهم بشعر ضِرار بن الخطّاب؛ فرفع عقيرتَه يتغنّى وهم محرمون .

وروى أيضا بسنده الى يَزِيدَ بن أسلم عن أبيهِ : أن عمر رضى الله عنه مرّ برجل يتغنّى فقال : إن الغناءَ زادُ المسافرِ .

وروى سُفْيان الثَّوْرِىّ وشُعْبة كلاهما عن أبى إسحاق السَّبِيعِىّ عن عامر بن سعد البَجَلِىّ : أن أبا مسعود البدرِىّ، وقَرَظَةَ بن كعبٍ، وثابتَ بن يزيد، وهم فى عُرْس

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

(٢) فى الأصل : « المعرف » . والتصويب عن أسد الغابة .

وعندهم غناء ، فقلت : هــذا وأنتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ! فقالوا : إنه رُخِّص لنا فى الغناء فى العرس والبكاء على الميّت فى غير نوح . إلا أن شعبة قال : ثابت بن وديعة مكان ثابت بن يزيد، ولم يذكر أبا مسعود .

وقال الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله تعالى عن أبى طالب المكىّ : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شُعْبة، ومعاوية وغيرهم، وقال : قد فعل ذلك كثير من السَّلَف صحابىّ وتابعىّ بإحسان .

وروى الحافظ أبو الفضل المقدسىّ بسند رفعــه إلى عمر بن أبى زائدة قال : حدّثتنى آمرأة عمر بن الأصمّ[(١)] قالت : مررنا ونحن جَوَارٍ بمجلس سَعِيد بن جُبَير ومعنا جارية تغنّى ومعها دُفّ وهىّ تقول :

لئن فَتَنَتْنى فهى بالأمس أَفْتَنَتْ * سَعِيدًا فأمسَى قد قَلَى كلّ مسلِم
وألقَى مفاتيحَ القِراءةِ وآشــترى * وِصال الغوانِى بالكتاب المُنَمْنَم

فقال سعيد : تكذِبين تكذِبين .

ذكر من سمع الغناء من الأئمة والعُبّاد والزّهاد

قالوا : وقد سمِــع الغناء من الأئمة الإمام الشافعىّ ، وأحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى، وغيرهما من أصحابهما . روى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علىّ المقدسىّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى المَرِيسِىّ ، قال: مررنا مع الشافعى وإبراهيم آبن إسماعيل على دار قوم وجارية تغنّيهم :

خليــلىّ ما بالُ المطايا كأنهــا * نراها على الأعقاب بالقوم تَنْكُصُ[(٢)]

(١) الذى فى شرح الإحياء (ج ٦ ص ٤٦١) : « عمرو » .

(٢) تنكص : ترجع . وقد ورد هذا البيت فى الأغانى (ج ٤ ص ١٦٤) هكذا :
خليــلى ما بال المطايا كأنما * نراها على الأدبار بالقوم تنكص

فقال الشافعيّ: مِيلُوا بنا نسمع . فلما فرَغت قال الشافعيّ لإبراهيم : أيُطرِبك هذا ؟ قال لا . قال : فما لك حِسّ !

وروى أيضا بسندٍ رفعه إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال: كنتُ أُحبّ السماع وكان أبي يكره ذلك، فواعدتُ ليلةً ابنَ الخبّازة، فمكث عندى إلى أن عَلِمتُ أنّ أبي قد نام، فأخذ يُغنّي، فسمعتُ خشْفةً فوق السطح، فصَعِدتُ، فرأيتُ أبي فوق السطح يسمع ما يغنّي وذيله تحت إبطِه وهو يتبختر كأنه يرقص. قال: وقد رويتْ هذه الحكاية أيضا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل — وساق سندا إليه — قال: كنت أدعو ابنَ الخبّازة وكان أبي ينهانا عن الغناء، وكنت إذا كان عندى كتمته من أبي لئلا يسمع. فكان ذات ليلةٍ عندى وهو يقول، فعرَضَتْ لأبي عندنا حاجةٌ — وكانوا في زقاق — فجاء وسَمِعه يقول، فوقع في سَمْعه شيء من قولِه، فخرجتُ لأنظر فإذا بأبي يترجح (١) ذاهبا وجائيا، فرددتُ الباب ودخلت. فلما كان من الغد قال أبي: يابنيّ، إذا كان مثل هذا فنعم الكلام، أو معناه . قال أبو الفضل: وابن الخبّازة هذا هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيي بن زكريا الشاعر، وكان عاصَرَ أحمد ورثاه حين مات .

وروى أبو الفضل أيضا بسَند رفعه الى [أبي] مُصْعَب (٢) الزُّهْرِيّ أنه قال: حضرتُ مجلس مالك بن أنَس فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال مالك: ماأدرى، أهلُ العلم ببلدنا لا يُنكرون ذلك ولا يقعدون عنه ولا ينكره إلا غبيٌّ جاهل أو ناسك عِراقي غليظ الطبع . وقال أيضا : أخبرنا أبو محمد التميميّ ببغداد قال : سألتُ الشريف أبا عليّ محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشميّ عن السماع فقال : ما أدرى ما أقول فيه، غير أني حضرت دار شيخنا أبي الحسن عبدالعزيز بن الحارث التميمي سنة سبعين وثلثمائة

(١) يترجح : يتمايل .

(٢) أبو مصعب : كنية أحمد بن أبي بكر الزهري المدني أحد رواة الموطأ عن الامام مالك .

فى دعوة عَمِلها لأصحابه ؛ حضرها أبو بكر الأَبْهَرِىّ شيخ المالكية ، وأبو القاسم الدّارِكى شيخ الشافعية ، وأبو الحسن طاهر بن الحسن شيخ أصحاب الحديث ، وأبو الحسن ابن سمعون شيخ الوعّاظ والزهّاد ، وأبو عبد الله محمد بن مجاهد شيخ المتكلّمين ، وصاحبه أبو بكر الباقلّانى فى دار شيخنا أبى الحسن التميمىّ شيخ الحنابلة ؛ فقال أبو علىّ : لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق مَنْ يُفتِى فى حادثة يشبه واحدا منهم ، ومعهم أبو عبد الله غلام تامٌّ ، وكان هذا يقرأ القرآن بصوت حَسَن ، و ربما قال شيئا . فقيل له : قل لنا شيئا ؛ فقال لهم وهم يسمعون :

خَطَّتْ أناملُها فى بطن قرطاس * رسالةً بعَبِير لا بأنقاس (١)

أن زُرْ فَدَيتك لى من غير مُحتَشِمٍ (٢) * فإنّ حبّك لى قد شاع فى الناس

فكان قولى لمن أدّى رسالتها * قف لى لأمشى على العينين والراس

قال أبو على : فبعد أن رأيت هذا لا يمكننى أن أُفتِىَ فى هذه المسألة بحَظْر ولا إباحة .

وممن أحبّ السماع والغناء وسمعه من الزهّاد والعبّاد والعلماء أبو السائب المخزومىّ . روى أبو الفرج الأصبهانىّ بسنده الى صفيّة بنت الزُّبير بن هشام قالت : كان أبو السائب المخزومىّ رجلا صالحا زاهدا مُتقلِّلا يصوم الدهر . وكان أرقّ خلق الله قلبا وأشدّهم غَزَلا . فوجّه غلامه (٣) يوما يأتيه بما يُفطِر عليه ، فأبطأ الغلام الى العَتَمة . فلما جاء قال له : ياعدوَّ نفسه ، ما أخرك إلى هذا الوقت ؟ قال : اجتزت بباب فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته . فقال : هاته يا بُنىّ ، فوالله لئن كنتَ أحسنتَ لأَحْبُوَنّك ، وإن كنت أسأت لأضربنّك . فاندفع يُغنّى بشعر كُثَيِّر :

(١) بأنقاس : جمع نقس وهو المداد . (٢) الذى فى شرح الإحياء مسيد مرتضى :
* أن زر فديتك قف لى غير محتشم *
(٣) فى الأغانى (ج ٧ ص ٣٠ طبع بولاق) : «ابنه» .

ولمّا علَوْا شَغْبًا[1] تبيّنتُ أنه * تقطّعُ من أهل الحجاز علائقِ
فلا زِلنَ حَسْرَى ظُلّعًا لم حملْنها * الى بلد ناءٍ قليلِ الأصادقِ

فلم يزل يغنّيه ويستعيده الى نصف الليل . فقالت له زوجته : يا هذا، قد انتصف الليل وما أفطرتَ . فقال لها : أنتِ الطلاقُ إن أفطرنا على غيره . فلم يزل يغنّيه ويستعيده حتى أسحر . فقالت له : هذا السَّحَر وما أفطرنا . فقال لها : أنت الطلاق إن كان سَحُورنا غيرَه . ثم قال لابنه : يابُنيّ، خذ جُبّتي هذه وأعطني خَلَقَك ليكون الحِباءُ فضلَ ما بينهما . فقال له : يا أبتِ، أنت شيخ وأنا شابّ وأنا أقوى على البرد منك، فقال له : يابُنيّ، ما ترك هذا الصوتُ للبرد عليّ سبيلا ما حييتُ .

ويؤيّد هذه الحكاية ماحكاه أبو طالب المكيّ في كتابه، قال : كان بعض السامعين يقتات بالسماع ليقوَى به على زيادة طَيّه ، كان يَطْوِى اليوم واليومين والثلاثة، فإذا تاقت نفسه الى القوت عدل بها الى السماع، فأثار تواجدَه، فاستغنى بذلك عن الطعام .

وروى أبو الفرج بسندِهِ إلى عبد الله بن أبي مُلَيكة عن أبيه عن جدّه قال : كان بالمدينة رجل ناسك من أهل العلم والعفّة، وكان يَغْشَى عبدَ الله بن جعفر، فسمع جاريةً مُغَنِّية لبعض النخّاسين تُغنّي :

بانت سعادُ وأمسى حَبْلُها انقطعا * واحتلّت الغَوْرَ فالجَدَّينِ فالفَرَعا
وأنكرتْني وما كان الذى نَكِرت * من الحوادثِ إلا الشَّيبَ والصَّلَعا

فهام الناسك وترك ما كان عليه، حتى مشى إليه عطاء وطاوُس ولاماه؛ فكان جوابُه لهما أن تمثّل :

يلومني فيك أقوامٌ أُجالسهم * فما أبالى أطارَ اللّومُ أم وَقَعا

(١) شغب : منهل بين طريق مصر والشام . (عن معجم ما استعجم للبكرى) .

فبلغ عبـدَ الله بن جعفر خبرُه، فبعث إلى النخاس، فٱعترض الجاريةَ وسمع غِناءها بهذا الصوت وقال: ممن أخذتيه؟ قالت: مِن عَزَّةَ المَيْـلاء؛ فٱبتاعها بأربعين ألف درهم. ثم بعث إلى الرجل فسأله عن خبرها فأعلمـه إياه؛ فقال: أتحبّ أن تسمع هذا الصوتَ ممن أخذتْه عنه تلك الجاريةُ؟ قال نعم. فدعا عَزَّة المَيْلاء فقال: غنِّيه إياه. فغنّته، فصَعِق الرجل [وخرّ](١) مَغْشِيًّا عليه. فقال ٱبن جعفر: أَثْمِنَا فيه، المـاءَ المـاءَ! فنُضح على وجهِه. فلمـا أفاق قال له: أكلُّ هذا بلغ بك عشقُها؟ قال: وما خَفِيَ عليك أكثر. قال: أفتحبّ أن تسمعه منها؟ قال: قد رأيتَ ما نالنى حين سمعتُه من غيرها وأنا لا أحبّها، فكيف يكون حالى إن سمعتُه منهـا وأنا لا أقدِر على مِلْكها! فأخرجها إليـه وقال: خذها فهى لك؛ ووالله ما نظرتُ إليها إلا عن عُرُض. فقبّـل الرجل يديهِ ورجليـهِ وقال: أَنَمْتَ عَيْنِى، وأحييتَ نفسى، وتركتنى أعيش بين قومى، ورددتَ إلىّ عقلى، ودعا له دعاء كثيرا. فقال عبد الله: ما أرضى أن أُعطِيكَها هكذا، ياغلام، ٱحمِلْ معه مثل ثمنها، ففعل.

قال الغزالىّ رحمه الله فى «إحياء علوم الدين»: كان ٱبن مجاهد لا يُجيب دعوةً إلا أن يكون فيها سماع. قال: وكان أبو الخير العسقلانىّ الأسود من الأولياء يسمع ويَوْلَهُ عند السماع، وصنّف فيه كتابا وردّ فيه على مُنكِريهِ. وحُكى عن بعض الشيوخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام، فقلت: ما تقول فى هذا السماع الذى ٱختلف فيه أصحابنا؟ قال: هو الصَّـفَا(٢) الزَّلَّال الذى لا تثبُت عليهِ إلا أقدامُ العلمـاء.

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ١٦ ص ١٩ طبع بولاق).

(٢) الصفا: العريض من الحجارة الأملس.

وروى الأصفهانىّ بسند رفعه إلى ابن كُنَاسة قال : اصطحب شيخ مع شابّ فى سفينة فى الفُرَات ومعهم مغنّية . فلما صاروا فى بعض الطريق قالوا للشيخ : معنا جاريةٌ وهى تغنّى، فأحببنا أن نَسمع غناءها فهِبْناكَ، فإن أَذِنتَ فَعلْنا . فقال: أنا أصعَدُ على أطلال السفينة[1]، فاصنعوا أنتم ماشئتم؛ فصَعِد وأخذت المغنّيةُ عودَها وغنّت :

حتى إذا الصبح بدا ضوءُهُ * وغابت الجـوزاءُ والمِرْزَمُ
أقبلتُ والوطءُ خَـفِيٌّ كما * ينسـابُ من مَكْمَنه الأَرْقَمُ[2]

فطرِب الشـيخ وصاح ، ثم رمى بنفسِهِ وبثيابِهِ فى الفُرَات وجعـل يغوص و يطفو و يقول : أنا الأرقم أنا الأرقم ! فألقَوْا أنفسهـم خلفه، فبعد لَأْيٍ مّا استخرجوه ، وقالوا : ياشيخ، ماحملك على ما فعلت؟ فقال : إليكم عنّى، فإنى أَعرِف من معانى الشعر ما لا تعرِفون . فقالوا له : ما أصابك؟ قال : دبّ من قدمى شىء إلى رأسى كدبيب النَّمْل ونزل من رأسى مثلُه ، فلمـا اجتمعا على قلبى عَمِلتُ ماعَمِلتُ .

وقال أحمد بن أبى دُواد : كنتُ أُعِيبُ الغناءَ وأطعَنُ على أهله ؛ فخرج المعتصم يوماً إلى الشَّمَّاسِيّة فى حَرّاقة، ووجّه فى طلبى فصِرتُ إليه . فلما قَرُبتُ منـه سمعتُ غناء حيَّرنى وشَغَلنى عن كلّ شىء، فسقط سَـوْطى عن يدى ، فالتفتّ إلى غلامى أطلب منه سوطا ؛ فقال لى : قد والله سقط منّى سوطى . فقلت له : أىّ شىء كان سببَ سقوطه؟ قال : صـوت سمعته فحيّرنى، فما علمتُ كيف سـقط ، فإذا قِصّـتُه قِصّتى . قال : وكنتُ أُنكر أمر الطرب على الغناء وما يستفزّ الناسَ منـه

(١) فى الأصل : « فى ظلال السفية » والتصويب عن الأغانى (ج ٤ ص ٤١٨ طبع دار الكتب المصرية) والأطلال : جمع طلل ، وطلل السفينة : شراعها .

(٢) كذا فى الأغانى (ج ٨ ص ١٧١ طبع بولاق) وفى الأصل : « فى » .

فيغلب على عقولهم، وأناظر المعتصمَ عليه . فلما دخلتُ عليــه يومئذ أعلمته بالخبر، فضحك وقال : هذا عمّى كان يغنّينى :

إنّ هذا الطويل من آل حَفْصٍ * أَنْشَرَ المجدَ بعد ما كان ماتا

فإن تُبتَ ممـا كنتَ تناظر عليه من ذمّ الغناء سألته أن يُعيده ، ففعلتُ وفعل، فبلغ بى الطربُ أكثر ممـا يبلغه من غيرى ، ورجعتُ عن رأيى منذ ذلك اليوم . ٥ وعمّه الذى أشار إليه هو إبراهيم بن المهدىّ .

ذكر مَنْ غنّى من الخلفاء وأبنائهم ونُسِبت له أصواتٌ من الغناء نُقِلَتْ عنه

كان مَنْ غَنّى من الخلفاء — على ما أورده أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتابه المترجم «بالأغانى» — ونسِبت له أصواتٌ جماعةٌ، منهم عمر بن عبد العزيز قد نُسِبَتْ له ١٠ أصواتٌ، ومنهم من أنكر ذلك . ولعلّ مانُقل عنــه كان منه قبل الخلافة . وكان رحمه الله من أحسن الناس صوتا . فكان ممـا نسب إليه من الغناء :

عَلِقَ القلبُ سُــعَادا * عادت القلبَ فعــادا
كُلّمـا عُوتب فيهـا * أو نُهِى عنهـا تمـادى
وهو مشغوفٌ بسُعْدَى * وعَصَى فيهـا وزادا ١٥

وممـا نُسِب إليه من الغناء ماقيل إنه غنّاه من شعر جرير :

قِفا يا صاحِبىّ نَزُرْ سُعَادَا * لِوَشْك فِراقها ودَعَا البِعادا (١)

(١) ورد هذا البيت فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١ أدب ش هكذا :
ألمـا صاحبى نزر سـعادا * لقرب مزارها وذرا البعادا
وورد هكذا أيضا فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥٠) عدا الشطر الثانى فانه هكذا : ٢٠
* لوشك فراقها وذرا البعادا *

لعَمْرُكَ إنّ نفع سعاد عنّي * لمصروف ونفعي عن سعادا
إلى الفاروق ينْتسب آبنُ ليلى[1] * ومَرْوان الذى رفع العمادا

ومن ذلك ما قيل إنه غنّاه من شعر الأشهب بن رُميلة[2] :

ألا يا دِينَ قلبُك من سلَيمى * كما قد دِينَ قلبُك من سعادَا
همـا سَبَتا الفـؤاد وهاضتاه[3] * ولم يُدرِك بذلك مـا أرادَا
قِفا نَعرِف منازلَ من سُليمى * دَوارِسَ بين حَوْمَل أو عُرَادَا
ذكرتُ لها الشباب وآل ليلى * فلم يزد الشبابُ بها مَزَادَا
فإن تَشِب الذوائبُ أمّ عمرو * فقد لاقيتُ أياما شدادَا

وممّن غنّى من خلفاء الدولة العباسية، ممن دُوِّنت له صنعة، الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم بالله بن الرشيد. حكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ قال : دخلتُ يوما دار الواثق بالله بغير إذن إلى موضع أمَر أن أدخله إذا كان جالسا، فسمعت صوت عود من بيت وترنُّما لم أسمع أحسن منه . فأطْلع خادم رأسه ثم ردّه وصاح بى، فدخلت و إذا أنا بالواثق بالله . فقال: أىّ شىء سمعتَ ؟ فقلت : الطلاق كامل لازمٌ له وكلّ مملوك له حرّ، لقد سمعتُ ما لم أسمع مثله قطُّ حُسْنا ! فضحك وقال : وما هو ؟ إنما هذه فَضْلة أدب وعلم مدحه الأوائل وآشتهاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم وكَثُر فى حَرَم الله عز وجلّ ومُهَاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتحبّ أن تسمعه ؟ قلت : إى والله الذى شرّفنى بخطابك وجميل رأيك. فقال : ياغلام، هات العود وأعط

(١) فى الأصل : "لبنى". والتصويب عن الأغانى والديوان .
(٢) فى الأصل : رسلة . والتصويب عن الأغانى (ج ٨ ص ١٥٨) .
(٣) فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥٨) : «وأصبتاه» .

إسحاق رطلا، فدفع الرطل إلىّ وضرب وغنّى فى شعر لأبى العتاهية بلحن صنعه فيه :

أضحتْ قبـــورُهُمُ من بعـــدِ عِزّتهم * تَسْفِى عليها الصَّبا والحَرْجَفُ الشَّمِلُ
لا يَدفعون هـــوامًّا عن وُجُوهِهِـــمُ * كأنهـــم خَشَبٌ بالقاعِ مُنْجَـــدِلُ

فشربتُ الرطل ثم قمتُ . فدعوتُ له ، فاحتبسنى وقال : أتشتهى أن تسمعه بالله ؟ فقلتُ : إى والله، فغنّانِيه ثانية وثالثة، وصاح ببعض خدمه وقال : اِحمِل إلى إسحاق الساعةَ ثلاثمائة ألف درهم . قال : يا إسحاق، قد سَمِعتَ ثلاثة أصوات وشربتَ ثلاثة أرطال وأخذتَ ثلاثمـائة ألف درهم، فانصرف إلى أهلك مسرورًا ليُسرُّوا معـك ، فانصرفتُ بالمـال . وقال أبو الفرج بسنده إلى عَرِيب المأمونيّة قالت : صنع الواثق بالله مائة صوت ما فيها صوت ساقط . ولقد صـنع فىّ هذا الشـــعرَ :

هل تَعلَمين وراءَ الحبِّ منزلةً * تُدنِى إليكِ فإن الحبّ أقصانى
هـــذا كتابُ فتًى طالت بليّتُه * يقـول بامُشـتَكَى بثّى وأحزانى

قال : وكان الواثق بالله إذا أراد أن يَعرض صنعته على إسحاق نسبها الى غيره فقال: وقع إلينا صوتٌ قديمٌ من بعض العجائز فاسمعه، وأمر مَن يغنّيه إياه . وكان إسحاق يأخذُ نفسه بقول الحقّ فى ذلك أشدّ أخذ، فإن كان جيّدا رَضِيَهُ واستحسنه وإن كان فاسدًا أو مُطَّرَحًا أو متوسّطًا ذكر ما فيه . فإن كان للواثق فيه هوًى سأله تقويمَه وإصلاحَ فاسدِهِ وإلّا اطّرحه . وقال إسحاق بن إبراهيم : كان الواثق أعلم الناس بالغناءِ، وبلغت صنعته مائة صوت، وكان أحذقَ مَنْ غنّى بضرب العود، ثم ذكر أغانيَه . وذكر أبو الفرج الأصفهانىّ منها أصواتا، منها :

ولم أرَ لَيْـــلَى غيرَ مَوْقِفِ لَيْـــلةٍ * بخَيْفِ مِنًى تَرْمِى جِمارَ المُحَصَّبِ
ويُبْدِى الحصى منها إذا خَذَفَتْ به * مِن الـبُرْدِ أطرافَ البنانِ المُخَضَّبِ

ألا إنما غادَرْتِ يا أمّ مالكٍ * صدًى أيْنَمَا تَذْهَبْ به الريحُ يَذْهَبِ
وأصبحتُ مِن لَيْلَى الغَدَاةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعجاز نَجْمٍ مُغَرِّبِ

وذكر أصواتا كثيرة غير هذا تركنا ذكرها آختصارا .

قال : ولما خرج المعتصم إلى عَمُّورِيَّةَ آستخلف الواثقَ . فوجّه الواثقُ إلى الجلساء والمغنّين أن يُبَكِّروا إليه يوما حدّه لهم ، ووجّه إلى إسحاق ، فحضر الجميع . فقال لهم الواثق : إنى عزمتُ على الصُّبوح ، ولستُ أجلس على سريرٍ حتى أختلط بكم ونكون كالشىء الواحد ، فآجلسوا معى حَلْقة ، وليكن إلى جانبِ كلّ جليسٍ مُغنٍّ ، فجلسوا كذلك . فقال الواثق : أنا أبدأ ، فأخذ العود فغنّى وشربوا وغنّى مَن بعده ، حتى آنتهى إلى إسحاق وأُعطِى العودَ فلم يأخذه ، فقال : دعوه . ثم غنّوا دورا آخر ، فلما بلغَ الغناءُ إلى إسحاق لم يُغنّ وفعل ذلك ثلاث مرّات . فوثب الواثق فجلس على سريره وأمر بالناس فأُدخلوا ، فما قال لأحد منهم : اجلس . ثم قال : علىّ بإسحاق . فلما رآه قال : ياخُوزِىّ[(٢)] يا كلبُ ، أتبَذّل لك وأُغنّى فترفّع علىّ ! أتُرانى لو قتلتك كان المعتصم يُقِيدنى بك ! اِبطَحوه ، فبُطِح وضُرِب ثلاثين مِقْرعة ضربًا خفيفا وحلف لايُغنّى سائر يومه سِواه ، فآعتذر وتكلّمت الجماعةُ فيه ، فأخذ العود ، وما زال يغنّى حتى آنقضى مجلسه . وللواثق بالله فى الغناء أخبار وحكايات يطول بذكرها الشرح .

ومنهم المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل على الله أبو الفضل جعفر . (٨٥)
قال يَزِيد المهلّبىّ : كان المنتصر حَسَنَ العلم بالغناء ، وكان إذا قال الشعر صَنَع فيه

(١) الخوزىّ : نسبة الى الخوز ، وهى بلاد خوزستان ، وأهلها ألأم الناس وأسقطهم نفسا ، كما جاء فى معجم البلدان لياقوت .

وأمر المغنّين بإظهاره . فلما وَلِيَ الخلافةَ قطع ذلك وأمر بستر ماتقدّم منه؛ فلذلك لم تظهر أغانيه .

ومنهـم المعتزّ بالله أبو عبد الله محمد بن جعفر المتوكل . ذُكر أيضا أنه كان يغنّى أصواتا . فما غنّى به فى شعر عدىّ بن الرِّقَاع :

لَعَمْرى لقد أَصْحَرتْ[1] خَيْلُنا * بأكنافِ دِجْـلةَ للمُصْعَبِ ٥

فمَن يك منّا يَبِتْ آمنا * ومَن يك من غيرنا يَهْـرُبِ

وهـذه الأبيات من قصيدة لعدىّ بن الرِّقاع قالها فى الوقعة التى كانت بين عبد الملك بن مروان ومُصْعَب بن الزُّبَير وقُتِل فيها مصعب بن الزبير، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار عبد الله بن الزبير .

ومنهـم المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله . هو ممن له ١٠ يدٌ فى الغناء وصنعةٌ حسنة . ومما نُقِل من أغانيه أنه غنّى فى شعر الفرزدق :

ليس الشفيعُ الذى يأتيك مؤتزِرًا * مِثلَ الشفيع الذى يأتيك عُرْيانَا

وقال[2] عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر : إن المعتضِد جمع النغم العشر فى صوت صنعه فى شعر دُرَيد بن الصِّمّة وهو :

ياليتنى فيهـا جَذَعْ * أَخُبّ فيهـا وأَضَعْ ١٥

قال : واستعلمنى هـل هو صحيح القسمة والأجزاء أم لا ، فعرفتـه صحّته ودللته على ذلك حتى تيقّنه فسرّ به . قال عبيد الله : وهو لَعَمْرى من جيّد الصنعة ونادرها . قال : وقد صنع ألحانًا فى عدّة أشعار قد[3] صنع فيهـا الفحول من القدماء والمُحْدَثِين

(١) أصحرت : برزت إلى الصحراء .

(٢) من هنا ابتدأ المؤلف فى الحديث عن المعتضد الذى هو ابن المعتمد ولم يترجم له كما فعل فى سابقه ٢٠

(٣) كذا فى كتاب الأغانى (ج ٩ ص ٢٠) وفى الأصل : « فى هذه الأشعار صنع » الخ .

وعارضهم بصنعتِهِ فأحسن وشاكل وضاهى فلم يعجز ولا قصّر، ولا أتى بشىءٍ يُعتذر منه . قال : فمن ذلك أنه صنع فى قول الشاعر :

أما القَطاةُ فإنى سوفَ أنعتُها * نعتًا يوافق نعتِى بعضَ مافيها

فجاء فى نهاية الجَوْدة وهو أحسن ما صُنِع فى هذا الشعر على كثرة الصنعة فيه واشتراك القدماء والمُحْدَثين فى صنعته مثل مَعْبد ونَشِيط ومالك وابن مُحْرِز وسِنَان وعُمَر الوادى وابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاق وعلّويه .

قال : وصنع فى :

تَشَكَّى الكُمَيتُ الجَرْىَ لمّا جَهَدْتُهُ * وبيّن لو يَسْطِيع أن يَتَكَلَّما

فما قَصّر فى صنعته ولا عَجَز عن بلوغ الغاية فيها مع أصوات له صنعها تُناهِز مائة صوت ما فيها ساقط ولا مرذول . فهؤلاء الذين لهم صنعة فى الغناء من الخلفاء .

* * *

وأما أبناء الخلفاء الذين لهم صنعة بدٌّ فى هذا الفنّ .

فمنهم إبراهيم بن المهدىّ وأخته عُلَيّة بنت المهدىّ رحمهما الله تعالى، وإبراهيم يكنى أبا إسحاق أمّه شَكْلَة أَمَةٌ مولّدة كان أبوها من أصحاب المازيار يقال له : شاه أفرند[1] قتل مع المازيار وسُبِيَت شكلة فحُمِلت إلى المنصور فوهبها لمُحَيّاة أمّ ولدِهِ فربّتها وبعثت بها إلى الطائف فنشأت هناك، فلما كَبِرَت رُدّت إليها. فرآها المهدىّ فأعجبته فطلبها من مُحَيّاة فأعطته إياها فولدت له إبراهيم .

(١) كذا بالأصل والأغانى (ج ٩ ص ٤٩) وفى الطبرى : شكلة أم إبراهيم بن المهدى وهى بنت خرشان قهرمان المصمغان ؛ وكتب مصححه : خربداد ، (أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب القسم الثالث ص ١٤٠ طبع أوربا) .

قال أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم قال :

كان إبراهيم بن المهدىّ أشـدَّ خَلْق الله إعظاما للغناء وأحرصَهم عليه وأشدّهم منافسةً فيه . قال : وكانت صنعته ليّنة فكان إذا صنع شيئا نسبه إلى غيره لئلا يقع عليـه طعن أو تقريع فَقَلَّتْ صنعته فى أيدى النـاس مع كثرتها . وكان إذا قيل له فيها شىء يقول : إنما أصنع تطرّبا لا تكسّبا وأُغنّى لنفسى لا للناس فأعملُ ماأشتهى. ٥
قال : وكان حُسْن صوته يستر عَوَارَ ذلك . وكان الناس يقولون : لم يُرَ فى جاهليّة ولا إسلامٍ أخٌ وأخت أحسن غناءً من إبراهيم بن المهدىّ وأخته عُلَيّة . وكان إبراهيم يجادِل إسحاقَ ويأخذ عليـه فى مواطن كثيرة إلّا أنه كان لا يقوم له[1] ويُظهِر إسحاقُ خطأه . ووقع بينهما فى ذلك بين يدى الرشيد وفى مجلسه كلامٌ كثير أفضى إلى أمور نذكرها إن شاء الله تعالى فى أخبار إسحاق بن إبراهيم . ١٠

وكان إبراهيم بن المهدىّ فى أوّل أمرِه يتستّر فى الغناء بعض التستّر إلا أنه يذكره فى مجلس الرشيد أخيه . فلما كان من أمره فى الوثوب على الخلافة ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة العباسيّة عند ذكرنا لخلافة المأمون بن الرشيد ، ثم [لما][2] أمّنه المأمون بعـد هربه منه تَهتّك بالغناء ومشى مع المغنّين ليلا إذا خرجوا من عند المأمون، وإنما أراد المأمون بذلك ليظهِر للناس أنه قد خلع رِبقةَ الخلافة من عنقه وأنه تهتّك فلا يصلح للخلافة. وكان من أعلم الناس بالنغم والوَتَرِ والإيقاعاتِ وأطبعِهم فى الغناء وأحسنهم صوتا . وكان مع علمـه وطبعه ومعرفته يقصّر عن الغناء القديم وعن أن يَنْحُوَه فى صنعته . فكان يحـذِف نغم الأغانى الكثيرةَ العمل حذفا شديدا ١٥

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «لا يقوم به» وهو تصحيف .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . ٢٠

ويحقّقها على قدر ما يصلح له ويفي بأدائه فاذا عيب ذلك عليه قال : أنا ملِكٌ ابن ملِكٍ وإنما أغنّى على ما أشتهي وكما ألتذّ . فهو أوّل من أفسد الغناء القديم .

ورُوِى عن حمدون بن إسماعيل قال : قال إبراهيم بن المهدىّ : لولا أنّى أرفع نفسى عن هذه الصناعة لأظهرتُ منها ما يعلم الناسُ معه أنهم لم يروْا قبلى مثلى .

٥ وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن جعفر بن سليمان الهاشمىّ قال : حدّثنا إبراهيم ابن المهدىّ قال :

دخلت يوما على الرشيد وبى فَضْلَةُ خُمارٍ[1] وبين يديه ابن جامع وإبراهيم الموصلىّ فقال : بحياتى يا إبراهيم غنّ ، فأخذتُ العود ولم ألتفتْ إليهما لما فى رأسى من الفَضْلَة فغنّيْتُ : (٨٦)

١٠ أَسْرَى بخالِدَةَ[2] الخيالُ ولا أرَى * شيئا ألذّ من الخيال الطارقِ
إن البليّةَ من تَمَلّ حديثَه * فانْفَعْ فؤادَك من حديث الوامق
أهْواكِ فوق هَوَى النفوس ولم يزل * مذ بِنتِ قلبى كالجَناح الخافقِ
شوقًا إليك ولم تجازِ مودّتى * ليس المكذّب كالحبيب الصادقِ

فسمعتُ إبراهيم يقول لابن جامع : لو طلَب هذا بهذا الغناء ما نطلب لما

١٥ أكلنا خبزًا أبدا فقال ابن جامع : صدقتَ ، فلما فرغتُ من غنائى وضعتُ العود ثم قلت : خذا فى حقّكما ودعا باطلَنا .

ورُوِىَ عن إبراهيم قال :

كان الرشيد يحبّ أن يَسمَعنى فخلا بى مرّات إلى أن سَمِعنى ، ثم حضرتُه مرّةً

(١) كذا فى الأغانى (ج ٩ ص ٥٠) وفى الأصل : « طربة خمار » .

٢٠ (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « لخالدة » باللام .

وعنده سليمان بن أبي جعفر فقال لي : عمُّك وسيِّدُ ولد المنصور بعد أبيك وقد أحبَّ أن يَسمعك، فلم يتركني حتى غنّيتُ بين يديه :

سَقْيًا لربعِكِ مِن رَبْعٍ بذى سَلَمٍ * وللزمانِ بهِ إذ ذاك من زمَنِ
إذ أنتِ فينا لمن يَنهَاكِ عاصِيةٌ * وإذ أجُرُّ إليكم سادِرًا رَسَنى (١)

فأمر لي بألف ألف درهم ، ثم قال لي ليلةً ولم يَبق في المجلس عنده إلا جعفر ابن يحيى : أنا أحبّ أن تُشرّف جعفرًا بأن تُغنّيَه صوتًا فغنّيتُه لحنا صنعتُه في شعر الدّارِميّ :

كأنّ صورتها في الوصفِ إذ وُصِفت * دينارُ عَيْنٍ من المضروبةِ العُتُقِ

فأمر لي الرشيد بألف ألف درهم .

وحُكِيَ عن إسحاق بن ابراهيم قال : لما صنعت صوتي الذي هو :

قُلْ لمَنْ صدّ عاتِبًا * ونأى عنك جانِبًا
قد بلغتَ الذي أرد * تَ وإن كنتَ لاعِبًا
واعترفنا بما ادّعيـ * ـتَ وإن كنتَ كاذبا
فافعل الآن ما أرد * تَ فقد جئتُ تائبًا

اتصل خبرُه بإبراهيم بن المهدي فكتب إليّ يسألني عنه ، فكتبتُ إليه الشعر وإيقاعَه وبسيطَه (٢) ومجْراه وإصبعَه وتجزئتَه وأقسامَه ومخارجَ نغمه ومواضعَ مقاطعه ومقاديرَ أدواره وأوزانه فغنّاه ثم لقيني فغنّانيه ، ففضّلني فيه بحسن صوته .

وقال ابن أبي طيبة : كنت أسمع إبراهيم بن المهدي يتنحنح فأطرب .

---

(١) السادر : المتحير، والرسن : الحبل .

(٢) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « وبساطه » وهو تحريف .

وعن محمد بن حير عن عبد الله بن العباس الرَّبيعيّ قال :

كنّا عند إبراهيم بن المهدىّ ذاتَ يوم وقد دعا كلَّ محسِن من المغنّين يومئذ وهو جالس يُلاعب أحدَهم بالشِّطْرَنج فترنّم إبراهيم بصوت فريدةَ فى شعر أبى العتاهية :

قال لى أحمدُ ولم يَدْرِ ما بِى * أتحِبُّ الغداةَ عُتْبَةَ حقّا

٥ فتنفّستُ ثم قلتُ نعم حبًّا * جرى فى العروق عِرْقًا فعِرقًا

وهو متكِئ[1]، فلما فرغ ترنّم به مخارق فأحسن فيه وأطربنا[2] وزاد على إبراهيم، فغنّاه إبراهيم وزاد فى صوته على غِناءِ مخارِق . فلما فرغ ردّه مخارِقٌ وغنّاه بصوته كلّه وتحفّظ فيه وكِدنا نطير سرورًا . فاستوى إبراهيم جالسًا وكان مُتّكئًا وغنّاه بصوته كلّه ووقّاه نغمه وشذوره ونظرتُ إلى كتفيه تهتزّان وبدنه أجمَع يتحرّك إلى أن فرغ منه

١٠ ومخارِقٌ شاخِص نحوه يُرْعَد وقد آنتُقِع لونه وأصابُعه تختلِج فخُيِّل إلىّ أن الإيوان يسير بنا، فلما فرغ منه تقدّم إليه مخارق فقبّل يده وقال : جعلنى الله فِداك أين أنا منك ! ثم لم يَنتفع مخارق بنفسه بقيّة يومه فى شىء من غنائه، والله لكأنما كان يتحدّث .

ورُوِى عن منصور بن المهدىّ قال :

كنت عند أخى إبراهيم فى يوم كانت عليه فيه نَوْبة لمحمد الأمين، فتشاغل بالشرب

١٥ فى بيته ولم يمض، وأرسل إليه الأمين عدّةَ رسل فتأخّر . قال منصور : فلمّا كان من غَدٍ قال لى : ينبغى أن نعمل على الرواح إلى أمير المؤمنين فنترضّاه ، فما أشُكّ فى غضبه علينا . فمضينا فسألنا عن خبره فأُعلِمنا أنه مشرف على حير[3] الوحش وهو مخمور ، وكان من عادته ألّا يشرب إذا لحِقه الخُمار . فدخلنا ، وكان طريقنا على

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « يبكى » وهو تحريف .

٢٠ (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فأطربه » .

(٣) كذا فى الأغانى . والحير : شبه الحظيرة . وفى الأصل : « حاشر الوحش » وهو تحريف .

حُجْرة تُصنع فيها الملاهى ، فقال لى : اذهب فاختر منها عودا ترضاه وأَصْلِحه غايةَ الإصـلاح حتى لا يُحتاجَ إلى إصلاحه وتغييره عنـد الضرب به ؛ ففعلتُ وجعلته فى كُمِّى . ودخلنا على الأمين وظَهْرُه إلينا . فلمـا بَصُرْنا به من بُعْـدٍ قال : أَخْرِج عودك فأخرجته، فاندفع يُغَنِّى :

وكأسٍ شَرِبتُ على لَذَّةٍ * وأُخرى تداويتُ منها بها ٥
لِكى يعلَمَ الناسُ أنى آمرؤٌ * آتيتُ الفُتُوَّةَ من بابها
وشاهـدُنا الوردُ والياسَمِيـ * ـنُ والمُسْـمِعات بقُصَّابها (١) (٢)
وبِرْبِطُنا دائمٌ مُعْـمَلٌ * فأىّ الثلاثةِ أزرَى بها (٣)

(٨٧)

فاستوى الأمين جالسـا وطَرِب طَرَبًا شـديدا وقال : أحسنتَ والله يا عم وأحييتَ لى طربا . ودعا برطل فشربه على الريق وابتدأ شربه (٤) . قال منصور : ١٠ وغَنّى إبراهيم يومئـذ على أشَـدّ طبقة يُتناهَى إليهـا فى العود ، وما سَمِعت مثـل غنائه يومئـذ قط . ولقـد رأيتُ منـه شيئًا عجيبـا لو حُدِّثْتُ به ما صَدَّقْتُ : كان إذا ابتدأ يغنّى صَغَتِ الوحوشُ إليه ومدّت أعناقها، ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رءوسها على الدُّكّان الذى كنّا عليه، فإذا سَكَت نَفَرتْ وبَعُدتْ عنّا حتى تنتهى إلى أبعدِ غاية يمكنها التباعدُ عنّا فيها، وجعل الأمين يَعْجَب من ذلك. وانصرفنا من ١٥ الجوائز بمـا لم يُنْصَرف بمثله قطّ .

وعن الحسن بن إبراهيم بن رَبَاح قال :

كنتُ أسأل مُخَارِقًا : أىّ الناس أحسنُ غناء؟ فكان يجيبنى جوابا مجملا، حتى

(١) فى الأغانى واللسان : « وشاهدنا الجل » . وقال صاحب اللسان : والجل الذى فى شعر الأعشى هو الورد، فارسىّ معرب . (٢) القصاب : الأوتار التى سوّيت من الأمعاء . وقيل : ٢٠ جمع قاصب وهو الزامر . (٣) البربط : العود .

(٤) فى الأغانى (ج ٩ ص ٥٦ طبع بولاق) : « وامتدّ فى شربه » .

حققت عليه يوما فقال : كان إبراهيم الموصلىّ أحسن غناءً من ابن جامع بعشر طبقات ، و إبراهيم بن المهدىّ أحسن غناءً منى بعشر طبقات . ثم قال لى : أحسنُ الناسِ غناءً أحسنُهم صوتا . و إبراهيم بن المهدىّ أحسن الإنسِ والجنّ والوحشِ والطيرِ صوتًا، وحسبُك هذا! .

٥ وعن إسحاق بن إبراهيم قال :

غنّى إبراهيم بن المهدىّ ليلةً محمدا الأمينَ صوتا لم أرضَه فى شعر لأبى نُوَاس ، وهو :

يا كثيرَ النّوح فى الدِّمَنِ * لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنّةُ العشّاقِ واحدةٌ * فإذا أحببتَ فاستَنِنِ (١)
١٠ ظنّ بى مَن قد كَلِفتُ به * فهو يحفونى على الظِّنَنِ
رَشَأٌ لولا ملاحتُه * خَلَتِ الدُّنيا من الفِتَنِ

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار . فقال له إبراهيم : يا أمير المؤمنين . أجزتَنى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم! فقال: وهل هى إلا خراج بعض الكُور (٢). هكذا رواه إسحاق، وقد حُكيت هذه الحكايةُ عن محمد بن الحارث، وفيها أن إبراهيم
١٥ لما أراد الانصراف قال : أوقِروا زورق عمّى دنانير فأوقروه، فانصرف بمال جليل. قال : وكان محمد بن موسى المنجّم يقول : حكمت أنّ إبراهيم بن المهدىّ أحسنُ الناسِ كلهم غناء ببرهان ، وذلك أنّى كنتُ أراه فى مجالس الخلفاء مثل المأمون والمُعتَصِم يغنّى المغنّون ويُغنّى، فإذا ابتدأ بالصوت لم يبق من الغلمان أحد إلا ترك ما فى يديه وقرُب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه فلا يزال مُصْغيا إليه لاهيا عما

٢٠ (١) فى الأغانى : "فاستكن" .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «بعض الكوفة» وهو تحريف .

كان فيه ما دام يغنّى ، حتى إذا أمسك وتغنّى غيرُه رجعوا إلى التّشاغُلِ بما كانوا فيه ولم ينبعثوا إلى شيءٍ . فلا برهان أقوى من هذا [فى مثل هذا من](١) شهادة الفِطَن به وآتفاق الطبائع مع آختلافها وتشعُّب طرقها على الميل اليه والانقياد نحوه .

ولإبراهيم بن المهدىّ أصوات معروفة . منها ما غنّاه بشعر مَرْوان بن أبى حَفْصة :

هل تَطْمِسون من السماءِ نجومَها * بأَكُفِّكم أو تستُرون هِلالَها ٥

أو تدفَعون مقالةً من ربكم * جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالها

طرقتْك زائرةٌ فحَيِّ خيالَها * زهراء تخلِط بالدَّلال جمالَها

وأمّا عليّة بنت المهدىّ . فقد قيل : ما آجتمع فى جاهليّةٍ ولا إسلامٍ أخٌ وأخت أحسنُ غناء من إبراهيم بن المهدىّ وأخته عليّة . ورُوى عن أبى أحمد ابن الرشيد قال : كنت يوما بحَضْرة المأمون وهو يشرَب ، ثم قام وقال لى : قم ؛ فدخل دار الحُرَم ودخلت معه ، فسمِعت غناءً أذهل عقلى ولم أقدِر أن أتقدّم ولا أتأخّر ؛ وفَطِن المأمون لما بى فضحك وقال : هذه عمّتك عليّة تُطارِح عمّك إبراهيم . ١٠

قال أبو الفرج : وأمّ عليّة أمّ ولدٍ مغنّية يقال لها مكنونة ، كانت من جوارِى المَرْوانيّة المغنّية . والمروانيّة هذه ليست من آل مروان بن الحكم ، وإنما هى زوجة الحسن بن عبد الله بن عُبَيد الله بن العباس . وكانت مكنونة من أحسن جوارِى المدينة وجهًا ، وكانت رسحاء(٢) ، وكانت حسنة البطن والصدر . فاشتُرِيت للمهدىّ فى حياة أبيه بمائة ألف درهم ؛ فغلبتْ عليه حتى كانت الخَيْزُرانُ تقول : ما مَلَك ١٥

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٩ ص ٧٢ طبع بولاق) .

(٢) رسحاء : قليلة لحم العجيزة

أَمَةً أغلَظ علىّ منها . ولما آشتُرِيتْ للمهدىّ ستَر أمْرَها عن أبيه المنصور حتى مات ، وولدتْ للمهدىّ عليّة هذه .

وكانت عليّة بنت المهدىّ من أجمل الناس وأظرفهم ، تقول الشعر الجيِّد وتصوغ فيه الألحان الحسنة . وكان فى جبينها فضلُ سَعة ، فاتّخذت العصائب المكلّلة بالجوهر لتستُرَ بها جبينَها ؛ فهى أوّل من أحدث ذلك .

قال : وكانت عليّة حسنةَ الدِّين ، وكانت لا تغنّى ولا تشرب النبيذَ إلّا إذا كانت مُعتزلة الصلاة ؛ فإذا طَهُرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن وقراءة الكتب . ولم تَلْهُ بشىءٍ غير قول الشعر فى الأحيان ، إلّا أن يدعوها الخليفة إلى شىءٍ فلا تَقدِر على خلافه . وكانت رحمها الله تقول : ما حرّم الله شيئا إلا وقد جعل فيما حلّل منه عِوَضا ، فبأىِّ شىءٍ يحتجّ عاصِيه والمُنتهِك لحُرُماته ! . وكانت تقول : لا غَفَر الله لى فاحشةً آرتكبتها قطُّ ، وما أقول فى شعرى إلّا عبثا .

(٨٨)

وعن سَعِيد بن هُرَيم قال : كانت عليّة بنت المهدِىّ تحبّ أن تراسل بالأشعار من تختصّه ، فآختصّت خادمًا يقال له طَلٌّ من خدم الرشيد ، تُراسله بالشعر . فلم تره أيّاما ؛ فمشت على مِيزاب وحدّثته ثم قالت فى ذلك :

قد كان ما كُلِّفْتُه زمنا * ياطلُّ من وَجْدٍ بكم يكفى
حتى أتيتُك زائرا عَجِلا * أَمشِى على حَتْفٍ إلى حَتْفى (١)

فحلف عليها الرشيد ألّا تُكلِّم طَلًّا ولا تُسَمِّيه بآسمه ، فضَمِنت له ذلك . وآستمع عليها يومًا وهى تقرأ آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ فأرادت أن تقول : (فَطَلٌّ) فقالت : فالذى نهى عنه أمير المؤمنين . فدخل

(١) فى الأصل : "أمشى على حتفى الى حتفى" .

الرشيد فقبّل رأسها وقال : قد وهبتُ لكِ طَلًّا ولا أمنعكِ بعدها من شيءٍ تُرِيدينَه. ولها فى طلّ هذا عدّة أشعار صنعت فيها ألحانا، وكانت فى بعضها تصحّف آسمه وتَكْنِي عنه بغيره. وكانت أيضا تقول الشعر فى خادم لها يقال له : رَشَا وتَكْنِي عنه بزينبَ. فمن شعرها فيه :

وَجَدَ الفؤادُ بزينبَـا * وَجْدًا شـديدًا مُتْعِبَا ٥
أصبحتُ مِن كَلَفٍ بها * أُدْعَى شَـقِيًّا مُنْصَبا
ولقد كَنَيتُ عن آسمها * عمـدًا لكى لا تَغْضَبا
وجعلتُ زينبَ سُـتْرَةً * وكَتَمتُ أمرًا مُعْجِبا
قالت وقد عَزّ الوِصا * لُ ولم أجِدْ لى مَذْهَبا
واللهِ لا نِلتَ المـودّةَ أو تنالَ الكوكبا ١٠

فصحّفت آسمه فى قولها : "زينبا"، وهذا من الجناس الخطىّ . قال : وكانت لأمّ جعفر جارية يقال لهـا طُغْيان ، فوشتْ بعليّـة إلى رَشَا وحكت عنها ما لم تقل . فقالت عليّة :

لِطُغيانَ خُفٌّ مُذْ ثلاثين حِجّةً * جديدٌ فلا يَبْـلَى ولا يَتَخَـرّقُ
وكيف يِلَى خُفٌّ هو الدهرَ كلَّه * على قدميهـا فى السماءِ(١) معلّق ١٥
فما خَرِقتْ خُفًّا ولم تُبْلِ جَوْرَبًا * وأمّا سَـراوِيلاتها فتُمَـزّق

ورُوِى عن أبى هَفّان قال :

أُهديت للرشيد جاريةٌ فى غاية الجمال، فخلا معها يوما وأخرج كلَّ قَيْنة فى داره وآصطبح. وكان مَنْ حضر من جواريه الغناءَ والخدمةَ فى الشراب زُهَاء ألفى جارية فى أحسن زِىٍّ من كل نوعٍ من أنواع الثياب والجوهر . وآتّصل الخبر بأمّ جعفر ٢٠

(١) رواية الأغانى (ج ٩ ص ٨٥ طبع بولاق) : "فى اهواء" .

فعظم عليها ذلك؛ فأرسلت إلى عليّة تشكو إليها . فأرسلت إليها عليّة : لا يهولنّك هذا، والله لأردّنّه إليك . قد عزمتُ أن أضع شعرًا وأصوغ فيه لحنًا وأطرحه على جَوارِيّ، فلا تُبْقِي عندكِ جاريةً إلّا بعثتِ بها إلىّ وألبسيهنّ أنواعَ الثِّيابِ ليأخذن الصوت مع جواريّ؛ ففعلت أمّ جعفر ما أمرتها به . فلما جاء وقت صلاةِ العصرِ لم يشعر الرشيد إلا وعليّة وأمّ جعفر قد خَرجتا إليه من حُجْرتيهما معهما زُهاء ألفى جارية من جوازيهما وسائر جوارى القصر عليهنّ غرائب اللِّباس وكلهنّ فى لحن واحد هَزَج صنعته عليّة وهو :

مُنْفصِلٌ عنّى وما * قلبىَ عنه مُنْفصِلْ
يا هاجرِى اليومَ لمن * نَوَيْتَ بعدِى أن تَصِلْ

فطَرِب الرشيد وقام على رجليه حتى آستقبل أمّ جعفر وعليّة وهو على غاية السرور، وقال : لم أر كاليوم قطّ . يا مسرور، لا تُبْقينّ فى بيت المال دِرْهمًا إلا نثرته . فكان ما نُثِر يومئذ ستة آلاف ألف درهم، وما سُمِع بمثل ذلك اليوم .

ورُوِى عن عَريب أنها قالت : أحسنُ يوم رأيتُه فى الدنيا وأطيبه يوم آجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهدىّ عند أخته عليّة وعندها أخوهما يعقوب بن المهدىّ، وكان أحذق الناسِ بالزَّمْر . فبدأت عليّة فغنّت من صنعتها وأخوها يعقوب يزمُر عليها :

تَحبَّبْ فإنّ الحبّ داعيةُ الحبِّ * وكم من بعيدِ الدارِ مُستوجِبُ القربِ
تَبَصَّرْ فإنْ حُدِّثْتَ أنّ أخا هوًى * نجا سالمًا فارْجُ النجاةَ من الحبّ
إذا لم يكن فى الحبّ سُخْطٌ ولا رِضًا * فأين حلاواتُ الرسائلِ والكُتْب

وغنّى إبراهيم فى صنعته وزمَر عليه يعقوب :

لم يُنْسِنِيكِ سرورٌ لا ولا حَزَنُ * وكيف لا، كيف يُنْسَى وَجْهُكِ الحَسَنُ
ولا خلَا منك قلبى لا ولا جَسَدِى * كُلِّى بكُلِّكِ مشغولٌ ومُرْتَهَنُ

يافردةَ الحُسْنِ مالى منكِ مذ كَلِفَتْ * نفسى بحُبِّكِ إلّا الهمُّ والحَزَنُ
نُورٌ تَوَلَّد من شمسٍ ومن قَمَرٍ * حتى تكامل فيكِ الروحُ والبَدَنُ (١)

قالت عَرِيب : فما سَمِعتُ مثل ما سَمِعتُ منها قط وأعلم أنى لا أسمع مثله أبدا .

(٨٩) ورُوِى عن خَشْف الواضحيّة قالت : تَمَارَيْتُ أنا وعَرِيب فى غِناء عُلَيّة بحَضْرة المتوكل أو غيره من الخلفاء . فقلت أنا : هى ثلاثة وسبعون صوتا ، وقالت عَرِيب : هى آثنان وسبعون صوتا . فقال المتوكل : غنّيا غناءها ، فلم أزَلْ أُغَنّى غناءها حتى مضى آثنان وسبعون صوتا ، ولم أدرِ الثالثَ والسبعين . قالت : فقُطِع بى وآستعلتْ عَرِيب وآنكسرتُ . قالت خَشْف : فلما كان الليل رأيت عُلَيّة فيما يرى النائم ، فقالت : ياخَشْف خالفتكِ عَرِيب فى غنائى . قلت : نعم يا سيِّدتى . قالت : الصواب معكِ ، أفتدرِين ما الصوت الذى أُنْسِيتِيه ؟ قلت : لا والله ، ولَوددتُ أنّى فَدَيتُ ما جرى بجميع ما أملك . قالت : هو :

بُنِى الحُبُّ على الجَوْرِ فلو * أنصف المعشوقُ فيه لَسَمُجْ
ليس يُسْتَحسَن فى وصف الهوى * عاشقٌ يَعْرِف تأليفَ الحُجَجْ
وقليلُ الحبِّ صِرْفًا خالصًا * لك خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِجْ

وكأنها قد آندفعت تغنّى به ، فما سَمِعتُ أحسن مما غنّته ، وقد زادتنى فيه أشياء فى نومى لم أكن أعرفها ، فآنتبهتُ وأنا لا أعقِل فَرَحًا به . فباكرتُ الخليفة وذكرت له القِصّة . فقالت عَرِيب : هذا شىء صَنعتِه أنتِ لِما جَرَى أمس ، وأمّا الصوت فصحيح . فحلفتُ للخليفة بما رَضِىَ به أنّ القِصّة كما حكيتُ . فقال : رؤياكِ والله أعجب ، رحِم الله عُلَيّة ! فما تركتْ ظَرْفَها حيّة ولا ميّتة . وأجازنى جائزة سَنِيّة .

(١) فى الأغانى (ج ٩ ص ٨٩ طبع بولاق) : « منه » .

وروى أبو الفرج أيضا بسنده إلى محمد بن جعفر بن يحيي بن خالد قال :

شَهِدتُ أبى جعفرًا وأنا صغير وهو يحدّث جَدّى يحيي بن خالد فى بعض ما كان يُخبره به من خَلْوته مع هارون الرشيد، قال: يا أبتِ، أخذ بيدى أمير المؤمنين وأقبل فى حُجَرِهِ يخترِقها حتى آنتهى إلى حُجْرةٍ مُغْلَقة، ففتحها بيده ودخلها ودخلت وأغلق بابها من داخلٍ بيده، ثم صِرْنا إلى رِوَاق ففتحه، وفى صدره مجلس مُغْلَق فقعد على باب المجلس، ونَقَر الباب بيده نَقَرات فسمعنا حِسًّا، ثم أعاد النَّقْرَ ثانيةً فسمِعنا صوت عود، ثم أعاد النقر ثالثةً فغنّت جارية ما ظننتُ واللهِ أنّ الله جلّ وعزّ خلق مثلها فى حسن الغناء وجودة الضرب . فقال [لها](١) أمير المؤمنين بعد أن غنّت أصواتا : غَنِّى صوتى؛ فغنت صوته، وهو :

ومُخَنَّثٍ شهِد الزِّفافَ وقبلَه * غَنَّى الجَوَارِى حاسِرًا ومُنَقَّبَا
لَبِس الدَّلَالَ وقام ينقُر دُفَّه * نَقْرًا أقرّ به العيونَ وأطربا
إنّ النساءَ رأينه فعَشِقْنَه * فشَكَوْنَ شِدّة ما بهنّ فأكذبا

قال : فطَرِبتُ واللهِ طَرَبًا هَمَمتُ معه أنْ أنطَح برأسى الحائط . ثم قال : غَنِّى :

* طال تكذيبى وتصديق *

فغنّت :

طال تكذِيبى وتصدِيقِى * لم أجِدْ عهدًا لمخلوقِ
إنّ ناسًا فى الهوى غَدَرُوا * حَسَّنُوا نقضَ المواثيقِ
لاتَرَانِى بعدهمْ أبدًا * أشتكِى عِشْقًا لمعشوقِ

قال : فرَقَص الرشيدُ ورقصتُ معه ؛ ثم قال : آمِض بنا ، فإنى أخشى أن يبدو منّا ما هو أكثر من هذا، فمَضَينا . فلمّا صِرْنا إلى الدِّهْليز قال وهو قابضٌ على يدى :

(١) زيادة عن الأغانى .

هل عرفتَ هذه المرأة؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : فإنّى أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا أُخبرك بهـا ، هذه علية بنت المهدىّ . ووالله لئن لفظتَ به بين يدى أحد و بلَغنى لأقتلنّك . قال : فسمعت جَدّى يقول لأبى : فقد والله لفظتَ به ؛ ووالله ليقتلنّك، فاصنَعْ ما أنت صانع .

وأخبار عُلَيّة وأغانيها كثيرة، وقد ذكرنا منها ما يُكْتَفَى به . ٥

قال أبو الفرج : وكان مولد عليّة سنة ستين ومائة ، وتوفّيت سـنة عشرة ومائتين، وقيل: سنة تسع ومائتين، ولها خمسون سنة .وكانت عند موسى بن عيسى ابن موسى بن محمد بن على بن عبـد الله بن عبّاس رضى الله عنهـما . وكان سبب وفاتهـا أنّ المأمون ضمّها اليه وجعل يقبّل رأسها ووجهها مُغَطًّى، فشَرِقت من ذلك وسَعَلَتْ ثم حُمّت بعقب هذا أيامًا يسيرةً وماتت . رحمها الله . ١٠

ومنهم أبو عيسى بن الرشيد . هو أبو عيسى أحمد ، وقيل : بل اسمه صالح[1] بن هارون الرشيد . وأمّه أم ولد بربريّة. كان من أحسنِ الناسِ وجها ومجالسة وعِشْرةً وأمْجَنِهم وأحَدِّهم نادرةً وأشدِّهم عبثًا. وكان أبو عيسى جميلَ الوجه جِدّا؛ فكان إذا عزَم على الركوب جلس الناسُ له حتى يروه أكثر ممـا كانوا يجلسون للخلفاء . وكانت عَرِيب المأمونيـة تقول : ما سَمِعتُ غِناءً أحسنَ من غِنـاء أبى عيسى بن الرشيد، ولا رأيتُ وجهًا أحسنَ من وجهه . ١٥

ورُوِى أنّ الرشـيد قال يوما لأبى عيسى وهو صبىٌّ : ليت جمالَك لعبد الله ! (يعـنى المأمون) فقال له : يا أمير المؤمنين، على أنّ حظّه منك لى . فعجِب الرشيد من جوابه على صِباه وضمّه إليه وقبّله .

(١) للرشيد عدّة أولاد منهم أبو عيسى وصالح وغيرهما . (انظر كتاب المعارف لابن قتيبة) . ٢٠

قال أبو الفرج : وكان أبو عيسى جيِّد الصَّنعة، وله أغانٍ منسوبةٌ إليه ومعروفةٌ به . منها :

رَقَدت عنكَ سَلْوتِى * والهـوَى ليس يَرْقُدُ
وأطار السهـادُ نَـوْ * مِى فنـومى مُشَرَّدُ
أنتَ بالحُسْنِ منك يا * حَسَنَ الوجهِ يُشْهَدُ
وفُـؤادِى بحُسْنِ وجـ * ـهِك يَشْـقَى ويَكْمَدُ

وله غير هـذا من الأصواتِ . قال : وكان كثير البَسْـط والمُجُونِ والعَبَثِ . وكان المأمون أشدّ الناس حبًّا له ، وكان يُعِدّه للأمر بعـده ويذكر ذلك كثيرا . حتى لقد حُكِىَ عنه أنه قال يوما : إنه ليسهُل علىّ أمرُ الموتِ وفَقْدُ المُلْكِ، ولا يسهل شىء منهما على أحد؛ وذلك لمحبّتِى أن يَلِى أبو عيسى الأمرَ بعدِى لِشدّة حبِّى إياه . وكانت وفاة أبى عيسى فى سنة سبع ومائتين .

رُوِىَ عن عبد الله بن طاهر قال : حدّثنى من شَهِد المأمون ليلةً وهم يتراءون هِلالَ شهر رمضان وأبو عيسى أخوه معـه وهو مُسـتلقٍ على قفاه، فرأوه وجعلوا يدعون . فقال أبو عيسى قولا أُنْكِرَ عليـه ؛ كأنه يسخَط لورود الشهر، فـما صام بعده . ونُقِل عنه أنه قال :

دهانِى[1] شهرُ الصـوم لا كان من شهرِ * ولا صمتُ شهرًا بعـدَه آخر الدهرِ
فلو كان يُعْـدِينى الإمامُ بقُدْرةٍ * على الشهر لاستَعْدَيتُ[2] جُهْدِى على الشهرِ

فناله بعقب هـذا القول صَرْعٌ ، فكان يُصْرَع فى اليوم مرّات حتى مات . ولمّا مات وَجَدَ المأمون عليه وجدا شديدا .

(١) كذا فى الأغانى (ج ٩ ص ٩٦ طبع بولاق) . وفى الأصل : «دعانى» .
(٢) يقال : استعديت على فلان الأمر فأعدانى أى استعنت به عليه فأعاننى .

رُوى عن محمد بن عبّاد المُهَلَّبِىّ قال :

لمّـا مات أبو عيسى بن الرشـيد دخلتُ على المأمون فخلعتُ عمامتى ونبذتهـا ورائى — والخلفاءُ لاتُعَزّى فى العمائم — فقال لى : يا محمد، حالَ القَدَرُ، دون الوَطَر. فقلت : يا أمير المؤمنين، كلُّ مُصيبة أخطأتْك شَوًى[1]، فجعل الله الحزنَ لك لاعليك ! .

قال : فركب المأمون إلى دار أبى عيسى فحضر جِهازه وصلّى عليـه ونزل فى قبره . وآمتنع من الطعام أياما حتى خِيف أن يَضُرّ ذلك به . قال : وما رأيت مصابا حزينا قطُّ أجمل أثرًا فى مُصيبته ولا أحرق وجدًا منـه ، صامتٌ ودموعُه تهمى على خَدّيه من غير كلح[2] ولا آستئثار .

ورُوى عن أحمد بن أبى دُوَاد قال : دخلتُ على المأمون وقد تُوُفِّىَ أخوه أبوعيسى وهو يبكى و يمسَح عينيه بِمِنْدِيل، فقعدتُ الى جنب عمرو بن مَسْعَدة وتمثّلت قولَ الشاعر :

نقصٌ من الدُّنيا وأسبابها * نقصُ المنايا من بنى هاشم

فلم يزل على تلك الحال يبكى ثم يمسَح عينيه، وتمثّل :

سأَبكيك مافاضتْ دُمُوعِى فإنْ تَغِض * فحَسْبُكَ مِنّى ما تُجِنّ الجَـوَانِحُ[3]

كأنْ لم يَمُتْ حَىٌّ سِـواكَ ولم تَقُمْ * على أحَـدٍ إلا عليـكَ النـوائحُ

ثم آلتفت إلىّ وقال : هِيه يا أحمد ! فتمثّلتُ بقول عَبْدَةَ بن الطبيب :

عليكَ سلامُ اللهِ قَيْسَ بنَ عاصِمٍ * ورحمتُه ما شاء أن يترحَّما

تَحِيّةَ من أوليتَه منـك نعمةً * إذا زار عن شَحْطٍ بلادَكَ سَلَّما

---

(١) شوى : هينـة . يقال : كل شىء شوى ، سـلم لك دينك ، أى هين . (٢) كذا فى الأصـل والأغانى . والذى فى معاجم اللغة : كلح (وزان منع) كلوحا وكلاحا (بضمهما) : تكشر فى عبوس . (٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «الجوارح» .

فما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْكُ واحدٍ * ولكنّه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّما

فبكى ساعة ، ثم ٱلتفت إلى عمرو بن مَسْعَدة فقال : هِيه يا عمرو ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين :

بَكُوا حُذَيْفَةَ لم تُبَكُّوا مثلَه * حتى تعودَ قبائلٌ لم تُخْلَقِ

٥ قال : فإذا عَرِيب وجوارٍ معها يسمعن ما يدور بيننا ؛ فقالت : اجعلوا لنا معكم فى القول نصيبا . فقال المأمون : قولى ، فرُبَّ صوابٍ منك كثير . فقالت :

كَذَا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمرُ * فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

كأنّ بنى العبّاسِ يومَ وفاتِه * نجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البدرُ[1]

فبكى وبكينا . ثم قال لها المأمون : نُوحى ، فناحت وردّ عليها الجوارى . فبكى

١٠ المأمون حتى قلت : قد فاضت نفسه وبكينا معه أحَرَّ بكاء ، ثم أمسكتْ . فقال المأمون : ٱصنعى فيه لحنًا على مذهب النَّوْح وغنّى به ؛ ففعلت وغنّته إياه على العود . فوالذى لا يُحْلَف بأعظمَ منه لقد بكينا عليه غِناءً أكثرَ مما بكينا عليه نَوْحا .

ومنهم عبد الله بن موسى الهادى . قال أبو الفرج : كان له فى الغناء صنعة حسنة ، وله أصوات مذكورة ، منها قوله :

١٥ تقاضاكَ دهرُكَ ماأسلفا * وكَدَّر عيشَك بعد الصَّفا

فلا تَجْزَعَنّ فإن الزمان * رهينٌ بتشتيتِ ما ألَّفا

ولما رآك قليلَ الهمومِ * كثيرَ الهوى ناعمًا مُتْرَفا

ألحّ عليك بروْعاته * وأقبل يرميك مُستهدِفا

(١) هذان البيتان من قصيدة لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى يرثى بها محمدا وخطبة وأبا نصر بنى حميد

٢٠ الطوسى . وقد غيرت فيهما عريب « بنى نبهان » بـ « بنى العباس » .

قال : وكان عبد الله هذا من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء . وكان له غلام أسود يقال له «قَلَم» ، فعلّمه الضربَ فحذق فيه ، فاشترته منه أم جعفر بثلاثمائة ألف درهم .

ورُوى عن سليمان بن داود كاتب أم جعفر قال :

كنت جالسا مع عبد الله بن موسى الهادى ، فمر به خادم لصالح بن الرشيد ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : اسمى لاتَسَلْ . فأعجبه حسنُه وحسن منطقه ، فقال لى : قم بنا حتى نشرب اليوم ونذكر هذا البدر ، فقمتُ معه . فأنشدنى فى ذلك اليوم :

وشادِنٍ مَرّ بنا * يجرَح باللَّحظ المُقَلْ
مظلومُ خَصْرٍ ظالمٌ * منه إذا يمشى الكَفَل
اعتدلت قامتُه * والطرف منه ماعَدَل
بدرٌ تراه أبدًا * طالعَ سعد ما أفَل
سألتُه عن اسمه * فقال : إسمى لاتَسَلْ
وطلعتْ فى وَجْنَتَيـ * ـه وردتان من خَجَل
فقلت ما أخطأ الذى * سمّاك بل قال المَثَل
لا تسألنْ عن شادنٍ * فاقَ جمالًا وكَمَل

وقال فيه :

عزّ الذى تهوَى وذَلّ * صبّ الفؤاد مُختبَلْ
جدّ به الهجرُ وذا آل * هجرُ اذا جَدّ قتل
من شادن مُمَنْطَق * فاق جمالًا وكَمَل
تناصف الحسنُ به * فلا تَسَلْ عن لاتَسَلْ

وعن أحمد بن المكىّ قال : دعانى عبد الله بن موسى يوما فقال لى : أتقوّم غلامًا ضاربا مغنّيا قيمةَ عَدْل لا حَيْفَ فيها على البائع ولا على المشترى ؟ فقلت نعم . فأخرج إلىّ ابنه القاسم ، وكنت قد عرفت خبره وهو أحسن من القمر ليلة البدر ، فأخذ عودا يضرب به ، فأكببت على يديه أُقَبِّلهما فقال لى عبد الله : أتقبّل يد غلام مملوك ! فقلت : بأبى وأمى هو مِنْ مملوكٍ ! وقبّلت رجله أيضا . فقال : أمّا إذ عرفتَه فأحِبُّ أن تُضاربه ، ففعلت . فلما رأى الغلام زيادتى فى الضرب عليه اغتمّ وأقبل على أبيه فقال له كالمعتذر إليه : يا أبت ، أنا متلذّذ وهذا متكسّب . فضحكت وقلت : هو كذلك يا سيّدى . وعجبت من حدّة جوابه معتذرًا على صغر سنه .

قال عبد الله بن حبيب :

كان عبد الله بن موسى الهادى مُعَرْبِدا ، وكان قد أعضل[1] المأمون مما يُعربد عليه إذا شرب معه ؛ فأمر به أن يُحْبَس فى منزله فلا يخرج منه ، وأقعد على بابه حرسا ؛ ثم تذمّم من ذلك فأظهر له الرضا وصرَف الحرسَ عن بابه . ثم نادمه فعربد عليه أيضا وكلّمه بكلام أحفظه . وكان عبد الله مُغْرَما بالصيد ؛ فأمر المأمون خادما من خواصّ خدمه يقال له حسن[2] فسَمّه فى دُرّاج ؛ فلما أكله أحسّ بالسمّ ، فركب فى الليل وقال لأصحابه : هو آخر ما ترونى ، ومات بعد أيام . وأكل معه خادمان ، فمات أحدهما لوقته ، وضَنِى الآخر ثم مات بعد مدّة .

ومنهم عبد الله بن محمد الأمين . قال أبو الفرج الأصفهانىّ :

كان عبد الله بن محمد الأمين ظريفا غَزِلا يقول شعرًا ليّنا ويصنعه صنعةً صالحة . وكان بينه وبين أبى نَهْشَل بن حُمَيْد مودّة ؛ فاعترض عبد الله جاريةً مغنّية

(١) كذا فى الأغانى . وأعضل : أعيا . وفى الأصل : « أحفظ » .
(٢) فى الأغانى : « حسين » .

لبعض نساء بنى هاشم وأعطى بها مالا عظيما. وعَرَفت مولاتها منه رغبةً فيها فزادت عليـه فى السَّوْم فتركها ؛ فاشتراها أخ لأبى نهشل ، فتبعتْها نفسُ عبد الله ، فسأل أبا نهشل أن يسأل أخاه النزولَ عنها؛ فسأله ذلك فوعده ودافعه . فكتب عبد الله إلى أبى نهشل :

يا ابنَ حُمَيْـــدٍ يا أبا نَهْشَلِ * مفتاح باب الحَدَثِ المُقْفَلِ ٥
يا أكرمَ النـاسِ ودادًا وأر * عاهم لحـــقٍّ ضائع مُهْمَلِ
أحسنتَ فى ودِّى وأجملتَ بل * جُزْتَ فعالَ المحسن المُجْمِلِ
بيتُـك فى ذى يَمَنٍ شـامخٌ * تَقْصُر عنـــه قُنَّـا يَذْبُلِ
خَلَفتَ فينا حاتمًا ذا النَّدى * وجُدْتَ جودَ العارض المُسبِلِ
أىّ أخ أنت لذى وَحْـدةٍ * تركته بالعـــزِّ فى جَحْفَـلِ ١٠
نجومُ حظِّى منك مسعودةٌ * فـيما أُرَجِّى ليس بالأَفَّـــلِ
فصَـدِّقِ الظنّ بمـا قلتَـه * وسَهِّلِ الأمرَ به يَسْهُلِ
لا تَحْـــرِمَنِّى ولديك المُنَى * بالله صـيد الرَّشا الأكحَـلِ
رُمِيتُ منه بسهام الهـــوَى * وما دَرَى ما الرَّمْىُ فى مَقْتَلى
أدنيتَنى بالوعد فى صـيدِه * إدناءَ عَطْشانٍ من المَنْهَلِ (١) ١٥
ثم تناسـيتَ وأسلمتَـــنى * إلى مِطَالٍ مُوحِشِ المـنزِلِ
تركتَنى فى لُجَّـة عائمـا * لا أعرِف المُدْبِرَ من مُقْبِلِ
صَرِّحْ بأمرٍ واضح بيِّنٍ (٢) * لاخيرَ فى ذى لَبَسٍ مُشْكِلِ

قال : فلم يزل أبو نهشل بأخيه حتى نزل له عنها . ولعبد الله هذا صنعةٌ منها قوله :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «اذ أنا» .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «بينا» .

أَلَا يادِيَرَ حنظلةَ المُفَدَّى * لقد أورثتنى سُقمًا وكَدًّا
أزفّ من الفُرات اليك زِقًّا * وأجعل حوله الوردَ المُنَدَّى (١)

ومنهم أبو عيسى بن المتوكل . قال عبد الله بن المعتز :

جُمِع لأبى عيسى بن المتوكل صنعةٌ مقدارها أكثر من ثلثمائة صوت ، منها الجيِّد الصنعة ومنها المتوسّط . وقال النُّميرىّ : سمعت أبا عيسى بن المتوكل يقول: إذا أتممت صنعة ثلثمائة وستين صوتا عدد أيام السنة تركت الصنعة. فلما أتمها ترك الصنعة . فمنها قوله فى شعر علىّ بن الجَهْم :

هى النفسُ ما حَمَّلتَها تتحمّلُ * ولِلدهرِ أيامٌ تجور وتَعدِلُ
وعاقبةُ الصبر الجميل جميلةٌ * وأفضلُ أخلاقِ الرجال التجمُّلُ

قال أبو الفرج الأصفهانى : وهو لَعَمْرى من جيِّد الغناء وفاخِر الصنعة ، ولو لم يصنع غيره لكفى . (٢)

ومنهم عبد الله بن المعتز . هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله العباسىّ . قد وصفه أبو الفرج الأصفهانى فقال : وأمره مع قُرب عهده بعصرنا مشهورٌ فى فضائله وأدبه شهرةٌ يشترك فى أكثرها الخاصّ والعامّ ، وشعره و إن كان فيه رقّة الملوكية وغَزَل الظرفاء وهلهلة المُحْدَثين ، فإنّ فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصُر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية . وأطنب فى وصفه وتقريظه، وهو فوق ما قال . ثم قال :

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وفى الأصل : «تحته» . ورواية الأغانى (ج ٩ ص ١٠٢):
أزف من العقار اليك دنا * وأجعل تحته الورق المندّى

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وما لو لم يصنع» .

وكان عبـد الله حسن العلم بصناعة الموسـيقى والكلام على النَّغَم وعِلَلها ؛ وله فى ذلك و فى غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر و بين بنى حمدون وغيرهم تدلّ على فضله وغزارة أدبه . وذكر منها شيئا ليس هذا موضع إيراده . ثم قال : ومن صنعة عبد الله بن المعتز فى شعره :

هل تَرْجعنّ ليالٍ قد مَضَيْنَ لنا * واندارْ جامعـــةٌ أزمان أزمانا ٥

قال أبو الفرَج : ومن صنعته الظريفة الشكل مع جودتها :

وا بَلَائى مِنْ مَحْضِرٍ ومَغِيبٍ * وحبيبٍ منّى بعيـــدٍ قـريبِ
لم تَرِدْ ماءَ وجهـــه العينَ إلّا * شَرِقتْ قبـــلَ ريِّهـا برقيب

قال : ومن صَنْعته التى تَظَارف فيها ومَلُح :

زاحـــمَ كُمِّى كُمَّـه فالتَوَيَا * وافقَ قلبى قلبَه فاسـتَوَيَا ١٠
وطالمـا ذاقا الهوى فاكتَوَيَا * يا قرّةَ العين ويا هَمِّى وَيَا

وحُكِى عن جعفر بن قُدَامة قال : كان لعبد الله بن المعتز غلام يحبّه ، فغضب الغلام عليه ، فجَهَد أن يترضّاه ، فلم يكن له فيه حيلة . ودخلت عليه فأنشدنى فيه :

بأبى أنتَ قـــد تَمَـا * دَيتَ فى الهجر والغَضَبْ
واصطبارى على صدو * دِكَ يومًا من العَجَبْ ١٥
ليس لى إن فَقَدتُ وجـ * ـهَكَ فى العيش من أرَبْ
رحِم الله مَنْ أعا * نَ على الصُّلْح واحتسبْ

قال : فمضيت إلى الغـلام ، فلم أزل أداريه وأرفُق به حتى ترضّيته له وجئته به ؛ فمرّ لنا يومئذ أطيب يوم وأحسنه .

ذكر مَن غنّى من الأشراف والعلماء رحمهم الله

كان ممن غنى من الأشراف والعلماء على ما نُقل إلينا من أخبارهم :

عبد العزيز بن المطلب[(١)] . روى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن على المقدسىّ رحمه الله بسند رفعه إلى محمد بن مَسْلَمَة قال حدّثنى أبى قال : أتيتُ عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجنّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها ، فوجدته مستلقيًا وهو يغنّى :

فما روضةٌ بالحَزْنِ طيّبةُ الثَّرَى * يَمُجّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وعَرَارُها[(٢)]
بأطيبَ من أردانِ عَزَّةَ مَوْهِنًا * وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها
من الخفِراتِ البِيضِ لم تلقَ شِقْوَةً * وبالحَسَبِ المكنونِ صافٍ نِجارُها
فإن برزتْ كانت لعينيك قُرَّةً * وإن غِبتَ عنها لم يَغُمَّك عارُها[(٣)]

فقلت له : تغنّى أصلحك الله وأنت فى جلالتك وشرفك ! أمَا والله لأحدُوَنّ بها رُكبانَ نجد . قال : فوالله ما أكترثُ وعاد يتغنّى :

فما ظبيةٌ أدماءُ خفّاقةُ الحشى * تجوب بظِلْفيها بطونَ الخمائلِ
بأحسن منها إذ تقول تدلُّلًا * وأدمُعُها يُذرين حَشْوَ المكاحلِ
تَمَتَّعْ بذا اليوم القصيرِ فإنه * رهينٌ بأيّام الشهور الأطاولِ

---

(١) فى الأصل «عبد العزيز بن عبد المطلب» والتصويب عن كتب التراجم والأغانى (ج ١٥ ص ٦٨ طبع بولاق) . وهو عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب ولى قضاء المدينة لعهد المنصور ثم المهدى وولى قضاء مكة .

(٢) الجثجاث : شجر له زهر أصفر طيب الرائحة . والعرار : النرجس البرى .

(٣) رواية الأغانى (ج ١٤ ص ٥٩ طبع بولاق) :

فإن خفيت كانت لعينيك قرّة * وإن تبد يوما لم يعمك عارها

قال : فندمت على قولى له ، فقلت : أصلحك الله، أتحدّثنى فى هذا بشىء! فقال: نعم، حدّثنى أبى قال : دخلتُ على سالم بن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهم — وأشعب يغنّيه :

مُعَقَّرَبةٌ كالبدر سُـــنَّةُ وَجْهِها (١) * مُطَهَّرةُ الأثوابِ والعِرْضُ وافرُ
لها نَسَبٌ زَاكٍ وعِرْضٌ مُهَذَّبٌ * وعن كل مكروهٍ من الأمر زاجرُ
مِنَ الخَفِرات البِيضِ لم تلقَ رِيبةً * ولم يَستِمْلها عن تُقَى الله شاعرُ

فقال له سالم رضى الله عنه : زدنى . فقال :

ألمّتْ بنا والليـــلُ داجٍ كأنه * جَناحُ غُرابٍ عنه قد نَفَضَ القَطْرا
فقلتُ أعطّـارٌ ثَوَى فى رِحالنـا * وما احتملتْ ليلى سوى رِيحها عِطْرا

فقال سالم : أمَا والله لولا أن تَداوله الرُّواةُ لأجزلتُ جائزتَك، فلك من هـذا الأمر مكانٌ .

ومنهم ابراهيم بن سعد (٢) . هو أبو إسحـاق إبراهيم بن سـعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهْرىّ . كان من العلماء الثِّقات المحدّثين . سمع أباه وابنَ شِهاب الزهرىّ وهشام بن عُرْوة وصالح بن كَيْسان ومحمـد بن إسحـاق بن يسـار . روى عنه يزيد بن عبد الله بن الهـاد وشعبة بن الحجاج والليث بن سعد، وابناه يعقوب وسعد (٢) ابنا إبراهيم وعبد الرحمن بن مهدىّ ويزيد بن هارون ويونس المؤدّب وأبو داود الطيالسىّ وسليمان بن داود الهاشمى وعبد العزيز الآدمىّ وعلىّ بن الجعـد ومحمد بن جعفر الوَرَكانىّ وأحمد بن حنبل وغيرهم . كان يُبيح السماع

(١) فى الأصل : « يشبه وجهها » . وظاهر أنه محرف عما أثبتناه . وسنة الوجه : صورته .
(٢) فى الأصول : « سعيد » . والتصويب عن تهذيب التهذيب والخلاصة فى أسماء الرجال .

ويضرب بالعود ويغنّى عليه . وله فى ذلك قصّة رواها أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ بسند رفعه إلى سعيد بن كثير بن عُفَير قال :

قدِم إبراهيم بن سعد الزهرىّ العراق سنة أربع وثمانين ومائة ، فأكرمه الرشيد وأظهر بِرّه . وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله ؛ فأتاه بعض أهل الحديث ليسمع منه أحاديث الزهرىّ ، فسمعه يتغنّى ، فقال : لقد كنتُ حريصًا على أن أسمع منك ، فأمّا الآن فلا سمعتُ منك حديثا أبدا . قال : إذًا لا أفقِد إلّا شخصك . علىّ وعلىّ ألّا أُحدِّث ببغداد ما أقمتُ حديثًا واحدًا حتى أغنّى قبله . وشاعت هذه الحكاية ببغداد ؛ فبلغت الرشيد ، فدعا به فسأله عن حديث المخزوميّة التى قطعها النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سرقة الحلىّ ؛ فدعا بعود . فقال الرشيد : أعود المِجْمَر؟ قال : لا ولكن عود الطَّرَب ، فتبسّم . ففهِمها إبراهيم بن سعد فقال : لعلك بلغك يا أمير المؤمنين حديث السّفِيه الذى آذانى بالأمس وألجأنى إلى أن حلفتُ . قال نعم . فدعا له الرشيد بعود فأخذه وغنّى :

يا أمّ طلحةَ إنّ البينَ قد أَفِدَا * مُلَّ الثَّواءُ لِأن كان الرحيلُ غدا

فقال له الرشيد : من كان من فقهائكم يُنكر السماع ؟ قال : مَنْ رَبَط الله على قلبه . قال : فهل بلغك عن مالك فى هذا شىء؟ فقال : لا والله ، إلا أن أبى أخبرنى أنهم اجتمعوا فى مَدْعاة كانت فى بنى يربوع وهم يومئذ جِلّة[1] ، ومالكٌ أقلّهم فى فِقه وقَدْر ، ومعهم دفوف ومَعَازف وعِيدان يغنّون ويلعبون . ومع مالك دُفّ مربّع وهو يغنيهم :

سُلَيْمَى أزمعتْ بَيْنَا * وأينَ لقاؤها أينا
وقد قالت لأترابٍ * لها زُهْرٍ تَلاقَيْنَا
تَعالَيْنَ فقد طاب * لنا العيشُ تَعالَيْنَا

(١) الجلة : العظام والسادة .

فضحك الرشيد ووصله بمـال عظيم . ومات إبراهيم فى هذه السنة وهو ٱبن خمس وسبعين سنة . قال : وكان ابراهيم بن سعد يبالـغ فيه إلى هذا الحدّ . وقد أجمعت الأئمة على ثقتـه وعدالته والرواية عنه . وٱتفق البخارىّ ومسـلم على إخراج حديثه فى الصحيح . ولم تسـقط عدالته بفعله عنـد أهل العلم ؛ بل قُلِّد قضاءَ بغداد على جلالتها ، وقُلِّد أبوه القضاءَ بالمدينة على شرفها .

وروى أبو الفرج الأصفهانى بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : شَهِدتُ إبراهيم بن سعد يحلف للرشيد وقد سأله عمن بالمدينة يُنكر الغناء ، فقال : مَنْ قَنَّعه الله خِزْيَه : مالك بن أنس ؛ ثم حلف أنه سمع مالكا يغنّى :

سليمى أزمعت بينا * فأين لقـاؤها أينـا

فى عُرْس لرجل من أهل المدينة يُكْنَى أبا حَنْظَلة .

وروى أيضا بسنده إلى الحسين بن دَحْمان الأشقر قال :

كنت بالمدينة ، فخلا لى الطريق فى نصف النهار ، فجعلت أتغنّى :

مابالُ أهلكِ يا رَبَابُ * خُزْرًا كأنهـمُ غِضابُ

قال : فإذا خَوْخةٌ قـد فُتحت وإذا وجهٌ قد بدا تتبعـه لِحيـةٌ حمراء ، فقـال : يا فاسق ! أسأتَ التأديةَ ، ومنعتَ القائلة ، وأذعتَ الفاحشـة ؛ ثم ٱندفع يغنّيه ؛ فظننتُ أنّ طُوَيسا قد نُشر يغنّيه ، فقلتُ : أصلحك الله ! من أين لك هذا الغناء ؟ قال : نشأتُ وأنا غلام أتبع المغنّـين وآخذ عنهـم ؛ فقالت لى أُمّى : يا بنىّ ، إن المغنّى إذا كان قبيح الوجه لم يُلتفَت إلى غنائه ، فدع الغناء وٱطلب الفقه فإنه لا يَضُرّ معه قبح الوجه . فتركتُ المغنّـين وٱتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى ما ترى . فقلت : فأعِدْ جُعِلتُ فداءك . فقال : لا ولا كرامة ! أتريد أن تقول أخذتُه عن مالك بن أنس ! وإذا هو مالك ولم أعلم .

ومنهم محمد بن إسماعيل بن علىّ بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما. كان عالما بالفقه والغناء جميعا . وكان يحيى بن أكثم وصفه للمأمون بالفقه ، ووصفه أحمد بن يوسف بالغناء. فقال المأمون : ما أعجب ما اجتمع فيه العلم بالعلم والغناء ! .

ذكر مَنْ غنّى من الأعيان والأكابر والقوّاد ممن نُسِبت له صَنعةٌ فى الغناء

منهم أبو دُلَف العِجْلىّ . هو أبو دُلَف القاسم بن عيسى بن إدريس أحد بنى عِجْل بن لُجَيم بن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل . كان محلّه من الشجاعة وبُعد الهمة وعلوّ المحلّ عند الخلفاء وعظم الغَنَاء فى المشاهد وحُسْن الأدب وجَوْدة الشعر محلا كبيرا ليس لكثير من أمثاله .

قال أبو الفرج الأصبهانىّ : وله صنعة حَسَنة . فمن جيّد صنعته قوله — والشعر له أيضا — :

بنفسى يا جِنَانُ وأنتِ منّى * مكانَ الرُّوح من جَسَد الجَبَانِ
ولو أنى أقول مكانَ نفسى * خَشِيتُ عليك بادرةَ الزمانِ
لإقدامى إذا ما الخيل حامت * وهاب كُمَاتُها حَرَّ الطِّعانِ

قال : وكان أحمد بن أبى دُواد يُنكر أمر الغِناء إنكارًا شديدًا، فأعلمه المعتصم أن أبا دُلَف صديقه يغنّى . فقال : ما أُراه مع عقله يفعل ذلك ! فستر المعتصم أحمد بن أبى دواد فى موضع وأحضر أبا دُلَف وأمره أن يغنّى ففعل ذلك وأطال، ثم أخرج أحمد بن أبى دواد عليه، فخرج والكراهة ظاهرة فى وجهه . فلما رآه أحمد

قال: سَوْءَةٌ لهذا مِن فعل ! أبعد [هذه][1] السنّ وهذا المحلّ تصنع[2] بنفسك ما أرى ! فخجِل أبو دلف وتشوّر[3] وقال : إنهم لَيُكْرِهونى على ذلك . فقال : هبهم أكرهوك على الغِناء أهم أكرهوك على الإحسان فيه والإصابة ! .

قال: وكان أبو دلف يُنادم الواثق . فوُصِف للمعتصم فأحبّ أن يسمَعه، وسأل الواثق عنه فقال له : يا أميرالمؤمنين، أنا على نيّة الفَصْد غدًا وهو عندى . وفُصِد الواثق فأتاه أبودُلَف وأتته رسل الخليفة بالهدايا؛ فأعلمهم الواثق حصولَ أبى دُلَف عنده. فلم يلبث أن أقبل الخدم يقولون : قد جاء الخليفة . فقام الواثق وكلّ مَن كان عنده حتى تَلَقّوه؛ وجاء حتى جلس، وأمر بندماء الواثق فرُدّوا إلى مجالسهم. وأقبل الواثق على أبى دُلَف فقال : يا قاسم، غَنّ أمير المؤمنين . فقال : صوتًا بعينه أو ما آخترتُ ؟ قال: بل من صَنْعتك فى شعر جرير . فغنّى :

بانَ الخَلِيطُ برامَتَينِ فَوَدّعوا * أوَكلّما آعتزموا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ
كيف العزاءُ ولم أجِدْ مذ غِبتُمُ * قلبًا يَقِرّ ولا شرابًا يَنْقَع

فقال المعتصم : أحسن أحسن — ثلاثا — وشرب رطلًا . ولم يزل يستعيده حتى شرب تسعة أرطال . ثم دعا بحمار فركبه، وأمر أبا دُلَف أن ينصرف معه؛ فخرج معه فثُبِّتَ فى ندمائه، وأمر له بعشرين ألف دينار .

قال : وكان أبو دُلف جوادا ممدَّحا . وفيه يقول علىّ بن جَبَلة من قصيدة يقول فيها :

ذادَ وِرْدَ الغَىِّ عن صَدَرِهْ * وآرعوَى واللّهوُ من وَطَرِهْ
نَدَمِى أنّ الشبابَ مضى * لم أُبَلِّغْه مدى أشَرِهْ

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٧ ص ١٥٥ طبع بولاق). (٢) فى الأغانى : « تضع نفسك كما أرى » . (٣) يقال : شوّرت الرجل وبالرجل فتشوّر، اذا نجّلته فخجل .

حَسَرتْ عنّى بشاشتُه * وذوى المحمودُ من ثَمَرِهْ
ودَمٍ أهدرتُ من رَشَأ * لم يُرِدْ عَقْلًا على هَدَرِهْ

جاء منها :

دَعْ جَدَا قَحْطانَ أو مُضَرٍ * فى يَمَانِيهِ وفى مُضَرِهْ
وامتدحْ من وائلٍ رجلًا * عَصَرُ[1] الآفاقِ مِن عَصَرِهْ

ومنها :

المنايا فى مَقَانبه * والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ
مَلِكٌ تندَى أنامله * كانبلاج النَّوْءِ عن مَطَرِهْ
مُستهِلٌّ عن مواهبه * كابتسام الرَّوْض عن زَهَرِهْ

ومنها :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ * بين باديه ومُحْتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دُلَفٍ * وَلَّتِ الدنيا على أَثَرِهْ
كلُّ مَنْ فى الأرض من عَرَبٍ * بين بادِيهِ إلى حَضَرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمةً * يكتسيها يوم مُفْتَخَرِهْ

وهذان البيتان اللذان أحفظا المأمون على علىّ بن جبلة حتى سلّ لسانَه من قفاه.

وقوله فيه :

أنت الذى تُنزِل الأيامَ منزِلَها * وتنقُلُ الدهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مَدَدتَ مدَى طَرْفٍ إلى أحدٍ * إلّا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ
تَزورُ سُخْطًا فتُضْحِى البِيضُ ضاحكةً * وتَستهِلّ فتبكى أعينُ المالِ

وكان سبب مدح علىّ بن جبلة أبا دُلَف بقوله :

* إنما الدنيا أبو دلفٍ *

(١) العصر : الحمى والملجأ .

ما رواه أبو الفرج الأصفهانى بسنده عن علىّ بن جبلة قال : زرتُ أبا دُلف بالجبل، فكان يُظهر من بِرّى و إكرامى والتحفّى بى أمرًا عظيما مُفرِطا حتى تأخرت عنه حياء. فبعث إلىّ مَعْقِلا وقال : يقول لك الأمير : قد انقطعتَ عنّى، وأظنّك قد استقللتَ بِرّى، فلا يُغضبنك ذلك فإنى سأزيد فيه حتى ترضى . فقلت : والله ما قطعنى إلا الإفراط فى البرّ، وكتبت إليه : ٥

هجرتُكَ لم أهجُرْكَ من كفرِ نعمةٍ * وهل يُرْتَجَى نيلُ الزيادة بالكفرِ
ولكننى لمّا أتيتُـــك زائرًا * فأفرطتَ فى بِرّى عجزتُ عن الشكر
فَمِ الآن لا آتيكَ إلّا مسلّمًا * أزورك فى الشهرين يومًا وفى الشهر
فإن زدتَنى بِرًّا تزايَدتُ جفوةً * ولم تلقَنى طولَ الحياة إلى الحشر

فلما قرأها مَعْقِل استحسنها وقال : أحسنت والله ! أمَا إن الأمير يُعجبه ١٠ هذا من المعانى . فلما أوصلها إلى أبى دُلَف قال : قاتله الله ! ما أشعره وأرقّ معانيه ! وأجابنى لوقته — وكان حسن البديهة حاضر الجواب — :

ألا ربّ طيفٍ طارقٍ قد بسطتُه * وآنستُه قبل الضّيافة بالبِشْرِ
أتانى يُرَجّينى فما حال دونه * ودون القِرَى والعُرْف من نائلى سترى
وجدتُ له فضلًا علىّ بقصده * إلىّ وبِرًّا زاد فيه على بِرّى ١٥
فزوّدته مالا يدوم بقاؤه * وزوّدنى مدحًا يدوم على الدهر

قال : وبعث بالأبيات وصيفا وبعث إلىّ معه بألف دينار . فقلت حينئذ :

* إنما الدنيا أبو دلف *

الأبيات .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن عبيد الله بن عمّار قال : كنا عند أبى العبّاس المبرّد يوما وعنده فتى من ولد أبى البَخْتَرِىّ وهب بن وهب، أمرد حسن الوجه، ٢٠

وفتًى من ولد أبى دُلَف اليَعْلِىّ شبيه به فى الجمال . فقال المبرّد لابن أبى البَخْتَرِىّ : أعرف لجَدّك قصّة ظريفة من الكرم حَسَنة لم يُسْبَق إليها . قال : وما هى؟ قال : دُعِىَ رجل من أهل الأدب إلى بعض المواضع فسقَوْه نبيذا غير الذى يشربون منه ؛ فقال فيهم :

٥ نَبِيذانِ فى مجلسٍ واحدٍ * لإيثار مُثْرٍ على مُقْتِرِ
فلو كان فعلُك ذا فى الطعام * لزمتَ قياسَك فى المسكرِ
ولو كنتَ تفعل فعلَ الكرام * صنعتَ صنيعَ أبى البَخْتَرِى
تتبّع إخوانَه فى البلاد * فأغنَى المُقِلَّ عن المُكْثِرِ

فبلغت الأبيات أبا البخترىّ فبعث إليه ثلثمائة دينار . قال ابن عمار : فقلت

١٠ وقد فعل جَدّ هذا الفتى فى هذا المعنى ما هو أحسن من هذا . قال : وما فعل ؟ قلت : بلغه أنّ رجلا افتقر من ثروة ، فقالت له امرأته ، افترِضْ فى الجند ، فقال :

إليكِ عنّى فقد كلّفتِنى شَطَطًا * حملَ السلاح وقولَ الدّارعين قِفِ
تمشى المنايا إلى قومٍ فأكرهها * فكيف أمشى إليها عارِىَ الكتِفِ
١٥ حَسِبتِ أنّ نفادَ المال غيّرنى * أو أنّ رُوحِىَ فى جنبَىْ أبى دُلَفِ

فأحضره أبو دلف وقال : كم أمّلتِ امرأتك أن يكون رزقك؟ قال : مائة دينار ، قال : كم أمّلتَ أن تعيش ؟ قال : عشرين سنة . قال : فذلك لك على ما أمّلت وأمّلتِ امرأتك فى مالنا دون مال السلطان ، وأمر بإعطائه إياه . قال : فرأيت وجه ابن أبى دُلَف يتهلّل وانكسر ابن أبى البخترىّ . وهذه الأبيات رُويت

٢٠ لابن أبى فنن .

ومنهـم أخوه مَعْقِـل بن عيسى . كان فارسا شاعرا جـوادا مغنّيا فهِمًا بالنَّغَم والوَتَر، ذكره الجاحظ مع ذكر أخيه أبى دُلَف . وهو القائل لمخارق — وقد كان زار أبا دلف بالجبل ثم رجع الى العراق، وله فى ذلك غناء — :

لعمرى لئن قَرَّتْ بقُربك أعينٌ * لقـد سَخِنت بالبُعـد عنك عيون
فسِرْ أو أقِمْ، وقفٌ عليك مودّتى * مكانُك من قلبى عليك مصونُ
فما أوحشَ الدنيا إذا كنتَ نازحًا * وما أحسنَ الدنيا بحيث تكونُ

ومنهم عبـد الله بن طاهر بن الحسين وآبنه عبيد الله . فأمّا عبد الله فكان محلُّه من علوّ المنزلة وعظم القدر والتمكّن عنـد الخلفاء ما هو مشهور مذكور فى أخبارهم . وتقلّد الولايات الكبيرة مثل مصر والجزيرة وما يلى ذلك، ثم نُقل إلى خُراسان. وله عطايا وهِبات وصِلات لا يُنكرها أحد . ومحلّه من الشجاعة والإقدام معروف . وكان يعتنى بالغناء ويصنعه ، إلا أنه كان يترفّع عن ذكره والاعتراف به ونسبته إليه .

قال أبو الفرج : والأصوات التى غَنّى فيها عبـد الله بن طاهر كثيرة . وكان آبنه عُبَيد الله إذا ذكر شيئا منهـا من صَنْعته قال : الغناء للدار الكبيرة، وإذا ذكر شـيئا من صنعة نفسه قال : الغناء للدار الصغيرة . فمن الأصوات التى صنع فيهـا عبد الله بن طاهر قوله :

هَـلّا سَـقَيتم بنى حزم[1] أسـيركُم * نفسى فداؤك من ذى غُلّةٍ صادى
الطاعنِ الطَّعْنةَ النجلاءَ يتبعُها * مُضَرَّجٌ بعـد ما جادت بإزباد

قال : فقد جاء به عبـد الله صحيح العمـل مزدوج النغم [بين][2] لِين وشدّة على رسم

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٤ طبع بولاق) : «بنى سهم» ثم قال : «وهم بطن من هذيل» . وذكر فى موضع آخر بلفظ «بنى جرم» . (٢) الزيادة عن الأغانى .

الحذّاق القدماء . قال عبيد الله — وذكر صوتا من أصواته — : لمّا صنع أبي هذا الصوت لم يحبّ أن يُسْمَع عنه شيء من الغناء ولا ينسب إليه ؛ لأنه كان يترفّع[1] عن ذلك ، وما جسّ بيده وترًا قطّ ولا تعاطاه، ولكنه كان يعلم من هذا الشأن بطول الدُّرْبة وحُسْن الثقافة ما لا يعرفه كثير . قال : وبلغ من علم ذلك إلى أن صنَع في أبيات أصواتا كثيرة ، فألقاها على جواريه ، فأخذنها عنه وغنّين بها وسمعها النـاس منهنّ [وممن أخذ عنهنّ . فلما أن صنَع هذا الصوت :

هـلّا سقيتُم بني سهيم أسـيركُم * نفسي فداؤك من ذي غُلّةٍ صادي[2]]

نسبه إلى مالك بن أبي السـمح . وكانت لآل الفضل بن الربيع جارية يقال لهـا راحة[3]، وكانت ترغَب إلى عبد الله لمّـا ندَبه المأمون إلى مصر، وكانت تغنّيه؛ وأخذت هـذا الصوت عن جواريه ، وأخذه المغنون عنهـا، ورُوِي لمـالك بن أبي السمح مدّة . ثم قدِم عبـد الله العراق، فحضر مجلس المأمون وغُنِّي الصوت بحضرته ونسِب إلى مالك؛ فضحك عبد الله ضحكا كثيرا؛ فسُئِل عن القصة فصدَق فيهـا[4] واعترف بصنعة الصوت. وكشَف المأمون عن القصة؛ فلم يزل كلُّ من سُئل عنه يُخبر عمن[5] أخذه، فينتهي بالقصة إلى راحة ويقف فلا يعدوها. فأُحضِرت راحة وسُئلت فأخبرت بقصته؛ فعلم أنه من صنعته حينئذ بعد أن جاز على إسحاق وطبقته أنه لمـالك . ويقال : إنه لم يعجَب من شيء عَجَبَـه من حِذْق عبـد الله بمذاهب الأوائل وحكاياتهم .

وأمّا عُبَيد الله ، ويكنى أبا أحمـد . قال أبو الفرج الأصبهـاني : له محلّ من الأدب والتصرّف في فنونه ورواية الشـعر وقوله والعلم باللغـة وأيام النـاس

(١) كذا في الأغاني : وفي الأصل . «يرتفع» . (٢) التكملة عن الأغاني .
(٣) في الاغاني : «داحة» . (٤) كذا بالأغاني . وفي الأصل : «عنها» .
(٥) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « من سئل عنه عن أخذه » .

وعلوم الأوائل من الفلاسفة[1] فى الموسيقى والهندسة وغير ذلك [مما][2] يجلّ عن الوصف ويكثر ذكره . وله صنعةٌ فى الغناء حسنة مُتقنة عجيبة [تدلّ على ما ذكرناه هاهنا من توصّله[3]] إلى ما عجز عنه الأوائل من جمع النَّغَم كلها فى صوت واحد تتبّعه هو[4] وأتى به على ما فصّله فيها وطلبه منها .

وكان المعتضد بالله ربما أراد أن يصنع فى بعض الأشعار غناء ويحضُره أكابر المغنّين فيعدِل عنهم إليه فيصنع فيه أحسن صَنْعة، ويترفّع عن إظهار نفسه بذلك فيومئ إلى أنه من صنعة جاريته ساجى[5] . وسنذكر ساجى[5] إن شاء الله تعالى فى أخبار القِيان، وكانت تخريجَ عبيد الله وتأديبه .

قال : ولمّا اختلّت حال عُبَيد الله كان المعتضد بالله يتفقّده بالصِّلات . ومن أصوات عبيد الله التى جمع فيها النَّغَم العشر قوله فى شعر إبراهيم بن علىّ بن هَرْمة :

وإنك إذ أطمعتَنى منك بالرِّضا * وأيأستَنى من بعد ذلك بالغضب

كُمُكِنةٍ مِن دَرّها كفَّ حالب * ودافقةٍ من بعد ذلك ما حَلَبْ

وأخبار عُبيد الله كثيرة سنذكر منها فى هذا الباب فى أخبار ساجى طَرَفا، ونورد منها إن شاء الله تعالى فى فنّ التاريخ ما يناسب . وأستغفر الله العظيم .

---

(١) كذا بالأغانى (ج ٨ ص ٤٤ طبع بولاق) . وفى الأصل : «الطبقة» .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

(٣) فى الأصل : « متقنة عجيبة الى ما يعجز عنه ... » . والتكملة والتصويب من الأغانى (ج ٨ ص ٤٤ طبع بولاق) .

(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فى صوت واحد حتى بلغه هو » .

(٥) فى الأغانى : « شاجى » .

ذكر أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة إلى العربيّة ومن أخذ عنهم ومَنِ اشتهر بالغناء

والغناء قديم فى الفرس والروم، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحُدَاء والنشيد، وكانوا يُسمّونه «الركبانية». وأوّل من نقل الغناء العجمىّ إلى العربىّ من أهل مكة "سَعِيد بن مِسْجَح" ومن أهل المدينة "سائب خاثِر". وأوّل من صنع الهَزَج "طُوَيس". ولنبدأ بذكر أخبار هؤلاء ثم نذكر مَنْ أخذ عنهم إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار سعيد بن مِسْجَح

هو أبو عثمان سَعِيد بن مِسْجَح، مولى بنى جُمَح، وقيل: مَوْلى بنى مخزوم، وقيل: مولى بنى نَوْفل بن الحارث بن عبد المطّلب. مكىّ أسود — وقيل: أصفر — حسن اللّون. وقيل: كان مولّدا، يُكْنَى أبا عيسى. وقيل: كان هو وابن سُرَيج لرجل واحد. مغنّ متقدّم من فحول المغنّين وأكابرهم. وهو أوّل مَنْ وضع الغناء منهم؛ وأوّل مَنْ غنّى الغناء العربىّ بمكة؛ وذلك أنه مرّ بالفُرْس وهم يبنون المسجد الحرام فى أيام عبدالله بن الزُّبَير، فسمع غناءهم بالفارسيّة فقلبه فى شعر عربىّ؛ ثم رحل إلى الشام فأخذ ألحان الرُّوم والبربطية والأسطوخوسيّة[1]، وانقلب

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «الأسطرخوسية». وقد رأى العلامة الأب أنستاس مارى الكرملى أن تكون كلمة «البربطية» مصحفة عن «البزنطية» (بضم البـاء الموحدة وفتح الزاى يليها نون ساكنة بعدها طاء مكسورة ثم ياء مثناة مشدّدة وفى الآخر هاء): نسبة الى بزنطية وهى مدينة القسطنطينية قبل أن تبنى. ويراد بالبزنطية قوم من الروم الشرقيين عرفوا بهـذا الاسم منذ عهد قسطنطين الكبير الى سقوط القسطنطينية بيد الترك.

ثم قال: وأما الأسطوخوسية فيراد بهـم قوم آخرون من أسطوخوس أو أسطوخادس، وهى جزيرة فى جنوبى فرنسا، كان أهلها معروفين بالقصف والغناء والأنس، كما هم عليه الى هذا العهد، وكان سكانها خليطا من الروم واليونانيين والقطلنيين وبقايا الفلسطينيين. (انظر المجلد الثانى من مجلة الزهراء ص ٣٥٨ — ٣٦١).

إلى فارس فأخذ غناءً كثيرا وتعلّم الضرب، ثم قدِم إلى الحجاز وقد أخذ محاسنَ تلك النَّغَم وألقى منها ما آستقبحه من النَّبرَات والنَّغَم؛ وكان أوّل مَنْ فعل ذلك، وتبِعه الناس بعدُ؛ وعلّم آبنَ سُرَيج، وعلّم آبنُ سريج الغَرِيضَ. قالوا: وكان فى صِباه فَطِنا ذكيًّا، وكان مولاه مُعْجَبا به، فكان يقول: لَيكونن لهذا الغلام شأن، وما يمنعنى من عِتْقه إلّا حُسْنُ فِراستى فيه، ولئن عشتُ لأتعرّفنّ ذلك، وإن مُتُّ قبله فهو حرّ. فسمعه مولاه يومًا يتغنّى بشعر آبن الرِّقَاع يقول: ٥

أَلِمْ على طَلَلٍ عفا مُتقادِمِ * بين الذُّوَيْبِ(١) وبين غَيْب النَّاعم

لولا الحياءُ وأنّ رأسى قد عَسَا * فيه المشِيبُ لزرتُ أُمَّ القاسِم

فدعاه مولاه فقال: أعِدْ يا بنىّ؛ فأعاده فإذا هو أحسن مما آبتدأ به، وقال: إنّ هذا لَبعضُ ما كنتُ أقول. ثم قال له: أنّى لك هذا؟ قال: سمعتُ هذه الأعاجم تتغنّى بالفارسيّة فقلبتُها فى هذا الشعر. قال: فأنت حرٌّ لوجه الله. فلزم مولاه وكثُر أدبه وآتّسع فى غنائه وشُهِر بمكة وأُعْجِبوا به. فدفع إليه مولاه عُبَيْدَ بن سُرَيج وقال: يابنىّ علّمه وآجتهِدْ فيه. وكان آبن سُرَيج أحسنَ الناس صوتا، فتعلّم منه ثم بَرَز عليه. وقد قيل: إنه إنما سمع الغناء من الفُرْس لمّا أمر معاويةُ ببناء دُوره بمكة التى يقال لها «الرُّقْط»، وكان قد حمل إليها بَنّائين من الفُرس الذين كانوا بالعراق فكانوا يبنونها، وكان سَعِيد بن مِسْجَح يأتيهم فيسمع غناءهم على بنائهم؛ فما آستحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربىّ، ثم صاغ على نحو ذلك. وكان من قديم غنائه الذى صنعه على تلك الألحان شعر الأحْوَص، وهو: ١٠ ١٥

أسلامَ إنك قد ملكتِ فأسْجِحى * قد يملك الحرُّ الكريم فيُسْجِحُ

مُنِّى على عانٍ أطلتِ عَناءَه * فى الغُلِّ عندك والعُناةُ تُسَرَّحُ ٢٠

(١) فى الأصل: «الديك». والتصويب عن معجم ياقوت (ج ٢ ص ٧٢٥ طبع أوربا).

إنى لَأنصحكم وأعلم أنّه * سيّانِ عندكِ من يَغُشُّ ويَنصَحُ
وإذا شكوتُ إلى سَلَامةَ حبَّها * قالت أجِدٌّ منك ذا أم تَمزَحُ

وهذا من أقدم الغناء العربىّ المنقول عن الفارسىّ . قال : وعاش سَعِيد بن مسجح حتى لقيه مَعْبَد وأخذ عنه فى أيام الوليد بن عبد الملك .

٥ ومن أخبار سعيد مارواه أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه قال : كتب عامل لعبد الملك بن مروان بمكة إليه أنّ رجلا أسود يقال له سعيد بن مسجح قد أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم . فكتب إليه : أن ٱقبض ماله وسيِّره إلىّ . فتوجّه ٱبن مسجح الى الشأم ؛ فصحبه رجل له جوارٍ مغنِّيات فى الطريق . فقال له : أين تريد؟ فأخبره الخبر وقال : أُريد الشأم ؛ فصحبه حتى بلغا دمشق ، فدخلا مسجدها

١٠ فسألا : مَنْ أخصُّ الناس بأمير المؤمنين؟ فقالوا : هؤلاء النفر من قريش وبنو عمّه . فوقف ٱبن مسجح عليهم فسلّم ، ثم قال : يا فتيانُ ، هل فيكم مَنْ يُضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز ؟ فنظر بعضهم إلى بعض وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى

٠ قَيْنة يقال لها «برق الأُفُق» ، فتثاقلوا به إلّا فتًى منهم تَذَمَّم[1] فقال له : أنا أُضيفك ، وقال لأصحابه : ٱنطلقوا أنتم وأنا أذهب مع ضيفى . فقالوا : لا ، بل تجىء معنا

١٥ أنت وضيفك . فذهبوا جميعا الى بيت القَيْنة . فلما أُتُوا بالغَداء قال لهم سَعِيد : إنى رجل أسود ، ولعل فيكم من يَقْذَرنى ، فأنا أجلس وآكل ناحيةً وقام ؛ فٱستحيوا منه وبعثوا له بما أكل . فلما صاروا إلى الشَّراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا . ثم أخرجوا جاريتين ، فجلستا على سرير قد وُضِع لهما فغنّتا إلى العشاء ثم دخلتا ؛ وخرجت جارية حسنة الوجه والهيئة وهما معها فجلستا أسفل السرير عن يمينه

٢٠ وشماله وجلست هى على السرير . قال ٱبن مسجح : فتمثلت هذا البيت :

(١) تذمم : خشى الذم واللوم .

فقلتُ أشمسٌ أم مصابيحُ بيعةٍ * بدتْ لك خَلْفَ السِّجْفِ أم أنتَ حالمُ

فغَضِبتْ الجارية وقالت : أيضرب مثلُ هذا الأسـود بى الأمثال ! فنظروا إلىّ نظـرًا منكرا ، ولم يزالوا يُسَكِّنونها . ثم غنّت صوتا . قال ابن مسجح : فقلت : أحسنتِ والله ! فغضِب مولاها وقال : أمثـلُ هذا الأسود يُقْدِم على جاريتى ! فقال لى الرجل الذى أنزلنى عنده : قُمْ فانصرف إلى منزلى، فقد ثَقُلْتَ على القوم . فذهبت أقوم . فتذمّم القوم وقالوا : بل أقِمْ وأحسِنْ أدبك : فأقمتُ . فغنّت ، فقلتُ : أخطأتِ والله وأسأتِ ! ثم اندفعتُ فغنّيت الصـوت ؛ فوثبت الجـاريةُ فقالت لمولاها : هذا أبو عثمان سعيد بن مسجح . فقلت : إى والله ، أنا هو ، والله لا أُقيم عندكم و وثبت ؛ فوثب القرشيون : فقال هذا : تكون عندى ، وقال هذا : تكون عنـدى ، [وقال هذا : بل عنـدى][1] . فقلت : والله لا أُقيم إلا عنـد سيّدكم ! (يعنى الرجل الذى أنزله منهـم) وسألوه عما أقدمه . فأخبرهم . فقال له صاحبه : إنى أسمرُ الليلة عند أمير المؤمنين ، فهل تُحسِن أن تحدو؟ فقال : لا والله ، ولكنى أ[illegible] حُداءً . فقال له : إنّ منزلى بحذاء منزل أمير المؤمنين ، فإذا وافقتُ منه طِيبَ نفس أرسلتُ إليك . ومضى إلى عبد الملك . فلما رآه طيِّب النفس أرسل إلى ابن مسجح ؛ فأخرج رأسه من وراء شُرَف القصر ثم حدا :

إنك يا مُعاذُ يا ابنَ الفُضَّلِ[2] * إن زُلْزِل الأقـدامُ لم تُزَلْزَلِ

عن دين موسى والكتابِ المُنْزَلِ * تُقيم أصداغَ[3] القرون المُيَّلِ

* للحق حتى ينتحوا للأعدَلِ *

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٣ ص ٢٨٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) فى الأصل : * إنك يا معاوى المفضل * والتصويب عن الأغانى .

(٣) فى الأصل : « أضراع » . وفى الأغانى : « أصداع » ، وظاهر أن كليهما محرّف عما أثبتناه ، لأنه من صدغ يصدغ صدوغا وصدغا بمعنى مال ، ومنه لأقيمن صدغك أى ميلك .

فقال عبد الملك للقرشيّ : مَنْ هذا ؟ فقال : رجل حجازيّ قدِم عليّ . قال : أحضِره، فأحضره . ثم قال له : [هل](١) تغنّى غناء الرُّكبان ؟ فغنّى . فقال له : هل تغنّى الغناء المتقَن؟ قال نعم . قال: هِيه، فغنّى؛ فاهتزّ عبد الملك طربًا، ثم قال: أُقسم بالله إنّ لك فى القوم اسما كبيرا، مَنْ أنت ؟ ويلك ! قال : أنا المظلوم المقبوض مالُه المسيَّر عن وطنه «سَعِيد بن مِسْجَح»، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى . فتبسّم عبد الملك ثم قال : قد وَضَح عُذْر فِتيان قريش فى أن يُنفِقوا عليك أموالهم ؛ وأمّنه ووصَله وكتب إلى عامله بالحجاز أن اردُدْ إليه ماله، ولا تتعرّض اليه بسوء . والله أعلم .

ذكر أخبار سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب خاثِر بن يَسَار، مولى لبنى ليث . وأصله من فَىْء كسرى، واشتراه عبد الله بن جعفر فأعتقه . وقيل : بل كان على ولائه لبنى ليث، ولكنه انقطع إلى عبد الله بن جعفر ولزِمه وعُرِف به . وهو أوّل مَنْ عمل العود بالمدينة وغنّى به . قال : وكان عبد الله بن عامر بن كُرَيز سبى(٢) إماءً صَنّاجات(٣) فأتى بهنّ المدينة . فكنّ يلعبن فى يوم الجمعة ويسمع الناس منهنّ، فأخذ عنهنّ . وقدِم رجل فارسىّ يُعْرَف بنَشِيط، فغنّى، فعجِب عبد الله بن جعفر منه . فقال له سائب خاثِر : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسىّ بالعربيّة . ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد عمل فى :

(١) الزيادة عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى (ج ٧ ص ١٨٨ (طبع بولاق) : «اشترى» .

(٣) هنّ اللاعبات بالصنج، وهو صفيحة مستديرة من نحاس تضرب بأخرى مثلها، وقيل : الصنج ذو الأوتار الذى يلعب به .

لِمَنِ الديارُ رسومُها قَفْـرُ * لعبتْ بها الأرواحُ والقَطْرُ
وخلا لها من بعد ساكنها * حِجَجٌ مَضَينَ ثمانٍ أوْ عَشْرُ
والزعفرانُ على ترائبها * شَرِقٌ به اللَّبّـات والنحرُ

(٩٨) قال ٱبن الكلبيّ : وهو أوّل صوت غُنِّيَ به فى الإسلام من الغناء العربيّ المتقن الصّنعة . قال : ثم ٱشترى عبد الله بن جعفر نشيطا بعد ذلك ؛ فأخذ عنـه سائب خاثر الغناء العربيّ ، وأخذ عنه ٱبن سُرَيج وجميلة ومَعْبَد وعَزّة المَيْلاء وغيرهم . وقيل : إنه لم يكن يضرب بالعود وإنما كان يقرع بالقضيب ويغنّى مرتجلا . قال ٱبن الكلبي : وكان [سائب تاجرا](١) موسِرا يبيع الطعام بالمدينة ، وكان تحتـه أربع نسوة . وكان ٱنقطاعه إلى عبد الله بن جعفر ، وهو مع ذلك يُخالط سَرَواتِ الناس وأشرافهم لظَرْفه وحلاوته وحُسْن صوته . وكان قد آلى على نفسه ألّا يغنّى أحدا سوى عبد الله بن جعفر إلا أن يكون خليفةً أو ولىَّ عهد أو ٱبن خليفة ؛ فكان على ذلك الى أن قُتل ، على ما نذكره . وأخذ عنه مَعْبَد غناء كثيرا . قال : وسمع معاوية غناء سائب خاثر مرارا ، فالمرّة الأولى لمّـا وفَد عبد الله بن جعفر إلى معاوية وهو معه ، فسأل عنه معاوية ، فأخبره عبد الله خبره وٱستأذنه فى دخوله عليه ، فأذِن له . فلما دخل قام على الباب ثم رفَع صوته فغنّى :

* لمن الديارُ رسومُها قَفْرُ * الأبيات

فالتفت معاوية إلى عبـد الله وقال : أشهد لقد حسّـنه . وقضى معاوية حوائجه وأحسن اليه ووصله . وقيل : أشرف معاوية ليلةً على منزل يزيد ، فسمع صوتا أعجبـه ، وٱستخفّه السماع فٱستمع حتى ملّ ؛ ثم دعا بكرسيّ فجلس عليـه وٱشتهى الٱستزادة ، فاستمع بقيّة ليلته . فلما أصبح غدا عليه يزيد ؛ فقال : يا بنىّ ، مَنْ كان

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٧ ص ١٨٨ طبع بولاق) .

جليسك البارحة؟ قال : أىّ جليس ياأمير المؤمنين؟ وآستعجم عليه . فقال : عرّفنى به فإنه لم يخفَ علىّ شىء من أمرك . قال : هو سائب خاثر. قال معاوية : فأكثِرْ له يا بنىّ من بِرّك وصِلتك، فما رأيتُ بمجالسته بأسا .

قال آبن الكلبىّ : وقدِم معاوية المدينة فى بعض ما كان يَقْدَمُ، فأمر حاجبه بالإذن للنّاس؛ فخرج ثم رجع فقال: ما بالباب أحد. فقال معاوية: وأين الناس؟ قال: عند عبد الله بن جعفر . فركب معاوية بغلته ثم توجّه اليهم . فلما جلس قال بعض القرشيّين لسائب خاثر : مِطْرَفِى هذا لك إن آندفعتَ تغنّى (وكان المطرف من خز)؛ فقام بين السِّماطين وغنّى فقال :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعن بالضحى (١) * وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا

فسمع منه معاوية وَطرِب وأصغى اليه حتى سكت وهو مُستحسِن لذلك ، ثم آنصرف، وأخذ سائب خاثر المِطْرَف (٢) .

وكان مقتل سائب خاثر بالمدينة يوم الحَرّة . قال : وكان يخشى على نفسه من أهل الشأم . فخرج اليهم وجعل يقول : أنا مغنٍّ، ومن حالى ومن قصتى كَيْتَ وكَيْتَ ، وقد خدمتُ أمير المؤمنين يزيد وأباه قبله . فقالوا له : غنِّ لنا، ففعل . فقام أحدهم فقال: أحسنت والله، ثم ضربه بالسيف فقتله . وبلغ يزيد خبره ومرّ به آسمه فى أسماء من قُتِل فلم يعرفه وقال : من سائب خاثر؟ فعُرِّف به، فقال : ويله ما له وما لنا! ألم نُحْسِن إليه ونَصِله ونخلطه بأنفسنا! فما الذى حمله على عداوتنا! لا جَرَمَ أنّ بَغْيَه علينا صَرَعه . وقيل : إنه لمّا بلغه قتله قال : إنا لله! أوَ بلغ

(١) كذا فى الأغانى (ج ٧ ص ١٩٠ طبع بولاق) وكامل المبرد وديوان قائله سيدنا حسان بن ثابت المطبوع فى أوربا . وفى الأصل : «فى الدجى» .

(٢) روى المبرد فى الكامل حكاية لمعاوية مع عبد الله بن جعفر تشبه هذه من بعض الوجوه (انظر صفحة ٣٩٠ طبع أوربا) .

القتـلُ إلى سائب خاثر وطبقته ! ما أرى أنه بقى بالمدينة أحد، وقال . قبحكم الله يأهل الشأم ! تجدهم وجدوه فى حائط أو حديقة مستترا فقتلوه . وقد قيل : إنه تقدّم يوم الحَرّة وقاتل حتى قُتِل . والله أعلم .

ذكر أخبـار طُوَيس

هو عيسى بن عبـد الله . وكنيته أبو عبد المنعم، وغيّرها المخنّثون فقالوا : أبو عبد النعيم . وطُوَيس لقبٌ غلب عليه، وقيل : آسمه طاُوس، مولى بنى مخزوم. وكان أيضا يلقّب بالذائب؛ لأنه غَنّى :

قـــد برانى الحبُّ حتى * كِدتُ من وجدى أذوبُ

وهـذا أوّل غناء غنّاه وهَزَج هَزَجه . وقد ضُرب المثـل به فى الشـؤم فقالوا : "أشأم من طُوَيس" لأنه وُلِد يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفُطِم يوم مات أبو بكر رضى الله عنه ، وخُتِن يوم مات عمر رضى الله عنه، وتزوّج يوم قُتِل عثمان، ووُلِد له يوم مات علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وكان مخنّثا أحول طويلا؛ وقيـل : إنه وُلد ذاهبَ العين اليمنى . قالوا : وكانت أمّه تمشى بين نساء الأنصار بالنمائم . وطُوَيس أوّل مَنْ صَنَع الهَزَج والرَمَل فى الإسلام ، وكان الناس يضربون به المثـل فيقولون : « أهْزَج من طُوَيس » . وكان لا يضرب بالعـود وإنمـا ينقُر بالدُّفّ . وكان ظريفا عالمـا بأمر المدينة وأنساب أهلها .

حكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسنده إلى المدائنىّ قال: قدِم آبن سُرَيج المدينة ، فجلس يوما فى جماعة وهم يقولون له : أنت والله أحسن الناس غناء ، إذ مرّ بهم طُوَيس فسمعهم وما يقولون ، فآستلّ دُفّه من حِضْنه ونَقره وغنّى؛ فلما سمعه

ٱبن سُرَيج قال : هذا والله أحسنُ الناس غناءً لا أنا . وقال المدائنىّ، قال مسلمة[(١)] ٱبن محارب : حدّثنى رجل من أصحابنا قال : خرجنا فى سفر ومعنا رجلٌ من أصحابنا فانتهينا إلى واد، فدعونا بالغداء، فمدّ الرجل يده إلى الطعام فلم يَقدِر عليه، وكان قبل ذلك يأكل معنا ؛ فخرجنا نسأل عن حاله فنلقى[(٢)] رجلا طويلا أحول مضطرب الخَلْق فى زِىّ الأعراب ؛ فقال لنا : مالكم؟ فأنكرنا سؤاله لنا؛ فأخبرناه خبر الرجل فقال : ما ٱسم صاحبكم؟ فقلنا : أُسَيْد؛ فقال: هذا واد قد أُخِذَتْ[(٣)] سِباعُه فارتحلوا، فلو قد جاوزتم الوادى ٱستمرّ[(٤)] صاحبكم وأَسِد[(٥)] وأكَل . قلنا فى أنفسنا: هو من الجنّ، ودخلتنا فَزْعة . ففهم ذلك وقال : لِيُفرِخْ رَوْعُكم فأنا طُوَيس . فقال له رجل منّا: مرحبًا بك أبا عبد النعيم، ما هذا الزِّىّ؟! فقال: دعانى بعض أوِدّائى من الأعراب فخرجتُ إليهم وأحببتُ أن أتخطّى الأحياء فلا يُنكرونى. فسأله رجل منّا أن يغنّينا؛ فٱندفع ونقر بدُفّ كان معه مربّع ، فلقد خُيِّل لى أنّ الوادى ينطق معه حسنًا . وتَعجّبنا من علمه وما أخبرنا به من أمر صاحبنا .

قال المدائنىّ : وكان طُوَيس وَلِعًا بالشعر الذى قالته الأَوْس والخَزْرَج فى حروبهم، وكان يريد بذلك الإغراء ؛ فقلّ مجلسٌ ٱجتمع فيه هذان الحيّان فغنّى فيه طُوَيس إلا وقع فيه شىء . فنُهِىَ عن ذلك، فقال : والله لا تركتُ الغناءَ بشعر الأنصار حتى يُوَسِّدونى الترابَ؛ وذلك لكثرة تولُّع القوم به، وكان يُبْدِى السرائر ويُخرِج الضغائن؛ وغناؤه يُستحسن ولا يُصْبَر عن حديثه .

(١) كذا فى الطبرى والأغانى (ج ٣ ص ٣٦ طبع دار الكتب المصرية) وهو مسلمة بن محارب بن سلم بن زياد الراوى . وفى الأصول : « مسلم » وهو تحريف .

(٢) عبارة الأغانى : « فلقينا رجلا ... » . (٣) أخذت سباعه : سحرت .

(٤) استمر : قوى واستقام أمره .

(٥) كذا فى الأصل . والذى فى الأغانى : « استمر صاحبكم وأكل » بدون « أسد » .

وحكى الأصبهانىّ عفا الله عنـه قال : كان بالمدينـة مخنّث يقال له النُّغاشى. فقيل لمروان بن الحَكَم : إنه لايقرأ من كتاب الله تعالى شيئا . فبعث إليه فاستقرأه أُمّ الكتاب، فقال : والله ما معى بناتُهـا ، أوَ ما أقرأ البناتِ فكيف أقرأ أُمّهنّ ! فقال : أتهزأ لا أُمّ لك ! فأمر به فقُتِـل ببُطْحان[1]، وقال : من جاءنى بمخنّث فله عشرة دنانير . فأُتِى طُوَيْس وهو فى بنى الحارث بن الخزرج فأُخبِر بمقالة مروان ؛ فقال: أمَا فَضّلنى الأميرُ عليهم بفضلٍ حتى جعل فىّ وفيهم شيئا واحدا ! . ثم خرج حتى نزل السويداء (على ليلتين من المدينة فى طريق الشأم) فنزلها ، فلم يزلْ بها بقيّةَ عمره . وعُمِّر حتى مات فى ولاية الوليد بن عبد الملك . ثم ساق الأصفهانىّ هـذه القصة فى موضع آخر بسند آخر قال : خرج يحيى بن الحَكَم وهو أمير على المدينـة، فبَصُر بشخص فى السَّبَخة ممـا يلى مسجد الأحزاب ؛ فلما نظـر إلى يحيى جلس ؛ فاستراب به ، فوجّه إليه أعوانَه ، فأُتِى به كأنه آمرأة فى ثيـاب مُصَبَّغة مصقولة وهو ممتشط مُختضِب. فقال له أعوانه : هذا ابنُ نُغاشٍ المخنث . فقال : ما أحسبك تقرأ من كتاب الله تعالى شيئا ! اِقرأ أُمّ القرآن ؛ فقال : لو عَرَفتُ أُمّهن عرفتُ البناتِ. فأمَر به فضُرِبتْ عنقُه. وساق نحو ما تقدّم، إلا أنه قال : جعل فى كل مخنّث ثلثمائة درهم .

وحكى أيضا بسند رفعـه إلى صالح بن كَيْسان وغيره : أنّ أبان بن عثمان لمّـا أمّره عبد الملك على الحجاز أقبل ، حتى [اذا][2] دنا من المدينـة تلقّاه أهلهـا وخرج إليه أشرافها، فخرج معهم طُوَيس . فلما رآه سلّم عليه ، ثم قال له : أيها الأمير،

(١) بطحان (بفتح الباء ، وأكثرهم يضمها . قال ابن الأثير : ولعـله الأصح) : اسم وادى المدينة ، واليه ينسب البطحانيون . (انظر اللسان مادة « بطح ») .

(٢) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٢١٩ طبع دار الكتب المصرية) .

إنى كنتُ قد أعطيتُ الله تعالى عهدًا إن رأيتُك أميرًا لأخضبن يدى إلى المِرْفَقين ثم أزْدُو[1] بالنَّف بين يديك. ثم أبدِى عن دَفه وتغنَّى [بشعر ذى جَدَنٍ الحِميرىّ][2] :

ما بالُ أهلك يا رَبَابُ * خُزْرًا كأنهمُ غِضابُ

فطرِب أبَان حتى كاد يطير، ثم جعل يقول : حَسْبُك يا طاوُس ! — ولم يقل له طويس لنبله فى عينه — ثم قال له : آجلس، فجلس. فقال له أبَان : قد زعموا أنك كافر. فقال له : جُعِلتُ فِداءك! والله إنى لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله [صلى الله عليه وسلم] وأصلِّى الخمس وأصوم رمضان وأحجّ البيت. قال: أفانت أكبر أم عمرو بن عثمان ؟ — وكان عمرو أخا أبان لأبيه وأمه — فقال طويس : جُعلت فداءك ! أنا والله مع جلائل نساء قومى أُمسِك بذيولهن يوم زُفَّت أمّك المباركة إلى أبيك[3] الطيب. فاستحيا أبَان ورمى بطَرْفه الى الأرض.

ذكر أخبار عبد الله[4] بن سريج

هو أبو يحيى عبد الله بن سُرَيْج، مولى بنى نَوْفَل بن عبد مَنَاف. وقال ابن الكلبى: إنه مولى لبنى الحارث بن عبد المطلب. وقيل: إنه مولى لبنى ليث، ومنزله بمكة. وقال الحسن بن عُتْبة اللَّهبىّ : إنه مولى لبنى عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. وحكى أبو الفرج الأصبهانىّ أنه كان آدَمَ أحمرَ ظاهرَ الدم سُنَاطا[5]، فى عينيه قَبَلٌ[6]، وبلغ خمسا وثمانين سنة، وكان منقطعا إلى عبد الله بن جعفر.

(١) أزدو : أضرب.

(٢) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٢١٩ طبع دار الكتب المصرية).

(٣) فى الأصول : « على أبيك ». والتصويب عن الأغانى.

(٤) هكذا بالأصول. وسيأتى قريبا أنه يسمى « عبيد بن سريج ». واضطربت فيه أصول الأغانى، فورد فى بعضها : « عيد ». وفى بعضها : « عبيد الله ». وفى بعضها : « عبد الله ».

(٥) السناط : الذى لا لحية له أصلا أو الخفيف العارض أو من له لحية وليس فى عارضيه شىء.

(٦) القبل : مثل الحول فى العين أو هو أحسن منه.

ونقل أيضا عن ٱبن الكلبيّ أنه كان مخنّثا أحول أعمش، يلقّب وجهَ الباب. وكان لا يغنّى إلا متنقّبا، مُسْبِلَ القِنَاع على وجهه. قال: وكان أحسن الناس غناء، وكان يغنّى مُرْتجِلا ويُوقِع بقضيب، وقيل: كان يضرب بالعود. وغنّى فى زمن عثمان بن عفّان، ومات فى خلافة هشام بن عبد الملك. وقيل: كان ٱسمه عُبَيد بن سريج من أهل مكة. وقال ٱبن جُرَيْج: كان عُبَيد بن سُرَيْج مولى آل خالد بن أَسِيد، وقيل: كان أبوه تركيّا. وقيل: كان عُودُه على صنعة عيدان الفُرْس، وهو أوّل مَنْ ضرب به على الغناء العربىّ بمكة؛ وذلك أنه رآه مع العجم الذين قدِم بهم ٱبن الزبير لبناء الكعبة، فأعجَبَ أهلَ مكة غناؤهم. فقال ٱبن سُرَيج: أنا أضرب به على غنائى، فضرب به فكان أحذقَ الناس. وأخذ الغناء عن سَعِيد بن مِسْجَح، وقد تقدّم ذكر ذلك. وأوّل ما ٱشتهر بالغناء فى خِتان ٱبن مولاه عبدِ الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسَين. قال ٱبن سُرَيْج لأمّ الغلام: خَفِّضى عليك بعضَ المغرَم والكُلْفة، فوالله لأُلْهِيَنّ نساءك حتى لا يدرين ما جئتِ به. وكان مَعْبَد إذا أعجبه غناء نفسه قال: أنا اليوم سُرَيْجِىّ.

ومن أخباره أيضا أن عَطَاء بن أبى رَبَاح لقِيه بذى طُوًى وعليه ثياب مُصَبَّغة وفى يده جَرادة مشدودة الرِّجل بخيط يُطِيرها ويَجذبها كلما تخلّفت؛ فقال له عطاء: يا فتّان، ألَا تَكُفّ عما أنت فيه! كفى الله الناسَ مئونتك. فقال له ٱبن سُرَيج: وما على الناس من تلوينى ثيابى ولَعِبى بجرادتى! فقال: تُغَنّيهم أغانيَك الخبيثة. فقال له ٱبن سُرَيج: بحقّ من تَبِعته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحق رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك إلّا سمعتَ منّى بيتا من الشعر، فإن سمعتَ منكرًا أمرتَنى بالإمساك عما أنا عليه، وأنا أقسم بالله وبحقّ هذه البَنِيّة إن أمرتَنى

بعد استماعك منّى بالإمساك عما أنا عليه لأفعلنّ . فأطمع ذلك عطاءً فى ابن سُرَيج وقال له : قل . فاندفع يغنّى بشعر جرير :

إنّ الذين غَدَوْا بلُبِّكَ غادروا * وَشَلًا بعينكَ لا يزال مَعِينَا

غَيَّضْنَ مِنْ عَبَراتِهِنّ وقلن لى * ماذا لَقِيتَ من الهوى ولَقِينا

(١٠١) قال : فلما سمعه عطاء اضطرب اضطرابا شديدا وداخلته أَرْيَحِيَّةٌ ، فحلف ألّا يكلّم أحدًا بقيّة يومه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كل من يأتيه يسأل عن حلال أو حرام أو خبر لا يُجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى ويُنشِد هذا الشعر حتى صلّى المغرب ، ولم يُعاوِد ابنَ سريج بعدها ولا تعرّض له .

وحُكِىَ عنه أيضا أنّ عمر بن أبى ربيعة حجّ فى عام من الأعوام ومعه ابن سُرَيج، فلما رَمَوُا الجمراتِ تقدّما الحاجّ إلى كثيب على خمسة أميال من مكة مشرف على طريق المدينة وطريق الشأم والعراق ، وهو كثيب شامخ مُفْرَد عن الكُثْبان، فصارا إليه فأكلا وشربا . فلما انتشيا أخذ ابن سريج الدفّ فنقّره وجعل يتغنّى وهم ينظرون إلى الحاجّ. فلما أمسيا رفع ابن سُرَيج صوتَه وتغنّى بشعر لعمر بن أبى ربيعة ؛ فسمعه الرُّكبانُ، فجعلوا يَصيحون به : يا صاحب الصوت، أمَا تتّقى الله ! قد حبست الناس عن مناسكهم، فيسكت قليلا حتى إذا مضوْا رفع صوتَه فيقف آخرون؛ إلى أن وقف عليه فى الليل رجل حسن الهيئة على فرس عتيق حتى وقف بأصل الكَثِيب ، ثم نادى : يا صاحب الصوت، أيسهُل عليك أن تردّد شيئا مما سمعتُه منك ؟ قال : نعم ونِعمة عينٍ، فأيّها تريد؟ فاقترح صوتا فغنّاه . ثم قال له ابن سريج : اِزْدَدْ إن شئتَ ؛ فاقترح صوتًا آخر فغنّاه ، فقال له : والثالث ولا أستزيدك ، فغناه الثالث . وقال له ابن سريج : أبَقِيتْ[1] لك حاجة ؟ قال نعم ، تنزِل لأُخاطبَك؛ فنزل إليه فإذا هو يزيد

(١) فى الأصول هكذا : (أتعبت الزجاجة) . والتصويب عن الأغانى (ج ١ ص ١٠٣) .

ابن عبد الملك، فأعطاه حُلّته وخاتمه وقال : خذهما ولا تُخْدَع فيهما فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار؛ فعاد ٱبن سريج بهما فأعطاهما لعمر بن أبى ربيعة وقال : هما بك أشبهُ منهما بى، فأخذهما وعوّضه عنهما ثلثمائة دينار؛ وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناسُ وجعلوا يتعجّبون ويسألون عمرَ عنهما؛ فيُخبرهم أن يزيد بن عبدالملك كساه ذلك . وقيل : إن عمر بن عبد العزيز مرّ به فسمع ٱبنَ سريج وهو يغنّى، فقال : لله درّ هذا الصوت لو كان بالقرآن ! .

قال إبراهيم بن المهدىّ : كان ٱبن سريج رجلا عاقلا أديبا، وكان يعاشر الناس بما يشتهون فلا يغنّيهم بما مُدِح به أعداؤهم ولا بما فيه عارٌ عليهم أو غَضاضة منهم .

ومن أخباره ما حكاه أبو الفرج الأصبهانى بإسناده، قال : كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامل مكة أن أَشْخِص إلىّ ٱبنَ سريج، فأشخصه إليه . فلما قدِم مكث أياما لا يدعوه ولا يلتفت إليه، ثم ذكره فٱستحضره، فدخل عليه وسلّم فأذِن له بالجلوس وٱستدناه حتى كان قريبا منه؛ فقال : وَيْحَك يا عُبَيْد ! لقد بلغنى عنك ما حملنى على الوِفادة بك من كثرة أدبك وجودة ٱختيارك مع ظرف لسانك وحلاوة مجلسك . قال : جُعِلت فِداءك يا أمير المؤمنين ! « تسمع بالمُعَيْدِىّ لا أن تراه »(١)، قال الوليد : إنى لأرجو ألا تكونَ أنتَ ذاك، ثم قال : هاتِ ما عندك؛ فٱندفع يغنّى بشعر الأحوص :

وإنّى إذا حَلّت بَيْشٍ(٢) مقيمة * وحَلّ بوَجٍّ(٣) جالسًا أو تَتَهّما

(١) هذى إحدى روايات المثل، حكاها الميدانى فى مجمع الأمثال، والرواية المشهورة وهى التى صدّرت بها هذه الروايات (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) .

(٢) بيش (بالفتح) : أحد مخاليف اليمن . وبيش (بالكسر) : من بلاد اليمن أيضا قرب دهلك .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٢٩٨ طبع دار الكتب المصرية) ووج : اسم واد بالطائف بالبادية وفى الأصول : «بوح» بالحاء المهملة . ووج : قيل إنها ناحية بيمان . وجالسا : أتى الجلس وهو نجد . وتتهم : أتى تهامة .

يمانيةٌ شَطّت وأصبح نفعُها * رجاءً وظنًّا بالمَغيب مرجَّما
أُحِبّ دنوَّ الدّار منها وقد أبى * بها صَدْعُ شَعْبِ الدار إلّا تَثَلُّما
بكاها ومايَدْرِى سوى الظنّ مابكى * أحيًّا يُبَكّى أم ترابًا وأَعْظُما
فدَعْها وأخلِفْ للخليفة مِدْحةً * تُزِلْ عنك بُؤْسَى أو تفيدُك مَغْنَما (١)
فإن بكفَّيه مفاتيح رحمةٍ * وغيثَ حيًا يحيا به الناسُ مُرْهِما (٢)
إمامٌ أتاه الملكُ عفوًا ولم يُثِب * على ملكه مالا حرامًا ولا دَما
تخيَّره ربُّ العباد لخَلْقه * وليًّا وكان اللهُ بالناس أعلما
ينال الغِنى والعزَّ مَنْ نال ودَّه * ويَرْهب موتًا عاجلا من تَشَأْما (٣)

فقال الوليد : أحسنتَ والله وأحسن الأحوصُ . ثم قال : يا عُبَيْد هِيهِ ! فغنّاه بشعر عَدِى بن الرِّقاع العامِلىّ يمدح الوليد :

طار الكرى وأَلَمّ الهَمُّ فآكتنعا (٤) * وحِيل بينى وبين النوم فآمتنعا
كان الشبابُ قِناعًا أستكِنُّ به * وأستظِلُّ زمانًا ثُمّت آنقشعا
وآستبدل الرأسُ شيبًا بعد داجيةٍ * فَيْنانةٍ ما ترى فى صُدْغها نَزَعا (٥)
فإن تكن مَيْعةٌ من باطل ذهبتْ * وأعقب الله بعد الصَّبْوة الوَرَعا
فقد أبِيتُ أُراعِى الخَوْدَ رابيةً (٦) * على الوسائد مسرورًا بها ولِعا

(١) فى الأغانى : «أنبا» . ورفع الفعل هنا على توهم أن الأول مرفوع ، كأنه قيل : تزيل عنك بؤسى أو تفيدك مغنما ، أو على أنه مستأنف كأنه قيل : أو هى تفيدك مغنما .

(٢) يقال : أرهمت السماء إذا أتت بالرهام ، جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم .

(٣) فى الأصول : « تشا » . والتصويب عن الأغانى .

(٤) ألم : نزل . واكتنع : دنا وحضر .

(٥) فينانة : حسنة الشعر طويله . والنزع : انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبى الجبهة .

(٦) فى الأغانى : « راقدة » .

بَرّاقةَ الثغر يشفِي القلبَ لذّتُهـا * إذا مُقَبِّلها فى ريقها كَرَعا
كالأُقْحُوانِ بضاحِى الروض صبّحه * غيثٌ أَرَشّ بتَنْضاحٍ وما نقعـا
صلى الذى الصلواتُ الطيِّبات له * والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمَعـا
على الذى سـبق الأقوام ضاحيةً * بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذى جمع الرحمنُ أمّتَـه (١) * على يديه وكانوا قبـله شِـيَعا
عُذْنا بذى العرش أن نحيا ونَفْقِدَه * وأن نكون لراعٍ بعـده تبعا
إن الوليـد أمير المؤمنين له * مُلْك أعان عليـه الله فارتفعا
لا يمنـع الله (٢) ما أعطى الذين هُمُ * له عباد ولا يُعْطَوْن ما منعا

فقال الوليـد : صدقت يا عُبَيْد ، أنّى لك هـذا ؟ قال : (هو مِن عِنْـدِ اللهِ) . قال الوليد : لو غيرَ هذا قلتَ لأحسنتُ أدبك . قال ٱبن سريج : (ذَلِك فضل اللهِ يؤتيهِ من يشاء) قال الوليد : (يزِيد فِي ٱلخلقِ مايشاء) . قال ٱبن سريج : (هذا مِن فضلِ ربى لِيبلُوَنِى أأشكر أم أكفر). قال الوليد : لِعلمُك والله أكثر وأعجبُ إلىّ من غنائك! غنّنى ؛ فغنّاه بشعر عَدِىّ بن الرّقاع يمدح الوليد (٣) فقال :

عرَف الدّيارَ توهمـا فٱعتـادهَا * من بعـد ما شَمِل البِـلى أبلادها (٤)

(١) كذا فى الاغانى (ج ١ ص ٢٩٩ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصول : « صـلى الذى ... الخ » .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « لا يمنع الناس » .

(٣) رأينا أن نثبت هـذه القصيدة كاملة ، وقد نقلناها عن مجلة الآثار السنة الثانية ص ٤٤٤ وقد نشرها فيها المرحوم أحمد تيمور باشا وقال : إنه لا يوجد منها فى كتب اللغة والأدب إلا أبيات متفرقة و إنه عثر عليها تامة فى مجموع مخطوط قديم بخزانة المرحوم أحمد زكى باشا مكتوب عليه بخط حديث أنه للثعالبى . والأبيات الموضوعة بين قوسين مربعين غير موجودة بالأصل .

(٤) أبلادها : آثارها . وفى رواية أخرى « درس » بدل « شمل » .

[إلا رواسِىَ كلهنّ قد ٱصطلى * جمـرًا وأشعل أهلُها إيقادَها (١)
كانت رواحلَ للقدور فعُرِّيت * منهنّ وٱستلب الزمانُ رمادَها
وتنكّرتْ كلَّ التنكُّر بعـدنا * وٱلأرض تعرف بعلَها وجمادَها (٢)]
ولربّ واضحةِ العـوارض حُرّة (٣) * كالرِّيم قـد ضربت به أوتادها
تصطاد بهجتُها المعلَّل بالصبا * عَرَضًا فتُقصِده ولن يَصطادها (٤)
كالظبيـة البكر الفريدة تَرْتعِى * من أرضها قُفّاتِها وعِهادها (٥)
خضبت لهـا عقد البِراق جبينها * من عَرْكها عَلَجانها وعَرَادها (٦)
كالزَّيْن فى وجه العروس تبذّلت * بعـد الحياء فلاعبتْ أرْآدَها
تُزجِى أغنَّ كأن إبرةَ رَوْقه * قلمٌ أصاب من الدّواة مِدادها
ركبتْ به من عالج متحيِّرا * قفـرًا تُرِيْتُ وحشُـه أولادَها (٧) ١٠
فترى محانِيَـه التى تَسِقُ الثرى * والهَـبْرُ يُونِق نبتُهـا رقّادَها (٨)
بانت سـعاد وأخلفت ميعادَها * وتبـاعَدَتْ عنـا لِتمنع زادَها

(١) رواية الأغانى « رواكد » بدل «رواسى» ، و«حمراء أشعل» بدل « جمرا وأشعل » .

(٢) البعل : الأرض المرتفعة التى لا يصيبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة ، والجماد : اليابسة التى لم يصبها مطر ولا شىء فيها . ١٥

(٣) فى الأغانى (ج ١ ص ١١٩) : « طفلة » .

(٤) المعلل بالصبا : المشغول به المتلهى . وأقصده : رماه بسهم فقتله .

(٥) القفات : جمع قفة ، وهى — كما قال الأزهرى — : شجرة مستديرة ترتفع عن الأرض قدر شبر وتيبس . والعهاد : جمع عهد بالفتح وعهدة (بالفتح والكسر) وهى مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله .

(٦) فى الأصل : ٢٠

خضبت لها عقد البراق جنينها * عن عكرها علجانها وعرادها

والبراق : جمع برقة وهى أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل . والعلجان والعراد نباتان .

(٧) عالج : اسم موضع .

(٨) محانيه : معاطفه وثناياه ، وسق : من الوسق وهو الجمع ، والهبر : المطمئن من الأرض .

إنى إذا ما لم تَصِـلْنى خُلّتى * وتباعدت عنّى اغتفرتُ بِعادها (١)

[إمّا تَرَىْ شَيْبى تَقَشّـع لِمّتِى * حتى علا وضَحٌ يلوح (٢) سوادَها

فلقـد ثنيتُ يَدَ الفتـاة وِسادةً * لى جاعلا يُسرى يَدَىّ وِسادَها

وأُصاحِب الجيشَ العَرَمْرم فارسًا * فى الخيـل أُشهِد كَرّها وطِرادها

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينهـا * حتى أقـوِّم ميلَها وسِـنادَها (٣) ٥

نَظَـرَ المثقِّف فى كُعوب قَناتِه * حتى يُقِـيمَ ثِقافُـه مُنآدَها (٤)

فسترتُ عيبَ معيشتى بتكرّمٍ * وأتيتُ فى سَعَةِ النعيم سِدادَها (٥)

وعلِمتُ حتى ما أُسائل واحدًا * عن عـلمِ واحدةٍ لكى أزدادَها]

صـلّى الإلٰهُ على امرئٍ ودّعتُه * وأتمّ نعمتَـه عليـه وزادها

وإذا الربيعُ تتابعت أنواؤه * فسقى خُناصِرةَ الأحَصّ (٦) فجادها ١٠

نزل الوليد بها فكان لأهلها * غيثًا أغاث أنيسَها وبـلادَها

أوَلَا ترى أن البريّة كلّها * ألقتْ خزائمها إليـه فقادها

ولقـد أراد الله إذ ولّاكها * مِن أمّـةٍ إصلاحَها ورشادها

أعمرتَ أرضَ المسلمين فأقبلت * وكففتَ عنها من يروم فسادها

وأصبتَ فى أرض العدوّ مصيبةً * عمّت أقاصىَ غَـوْرها ونِجادَها ١٥

ظفَـرًا ونصرًا ما تناول مثـلَه * أحـدٌ من الخلفـاء كان أرادها

---

(١) الخلة بالضم : الخليلة . (٢) يلوح سوادها : يغيره .

(٣) السناد : هو اختلاف الحركات التى تلى الأرداف فى الروى .

(٤) منآدها : معوجها . (٥) السداد : ما تسدّ به الخلة . (٦) الأحص : كورة كبيرة مشهورة ذات قرى ومزارع بين القبلة وبين الشمال من مدينة حلب قصبتها « خناصرة » مدينة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز وهى صغيرة وقد خربت الآن إلا اليسير منها كذا فى ياقوت ، وقد أورد البيت هكذا : ٢٠

وإذا الربيـع تتابعت أنواؤه * فسقى خناصرة الأحص وزادها

فإذا نشرتَ له الثناءَ وجدتَه * جمع المكارِمَ طِرْفَها وتِلادَها
[غَلب المساميحَ الوليدُ سَماحةً * وكفى قريشَ المُعْضِلاتِ وسادَها
تأتيه أسلابُ الاعِزّة عَنْوةً * قَسْرًا ويجمع للحروب عَتادَها
وإذا رأى نارَ العدوّ تضرّمت * سامى جماعةَ أهلها فأقتادها
بِعَرَمْرَمٍ تبدو الرَّوابى ذى وَعًى * كالحَرّةِ احتمل الضحى أطوادَها (١)
أطفأتَ نارًا للحروب وأُوقِدت * نارٌ قدحت براحتيك زِنادَها
فبدت بصيرتُها لمن يَبغى الهدى * وأصاب حرُّ شديدها حُسّادَها
وإذا غدا يومًا بنَفْحة نائل * عرضت له الغدَ مثلُها فأعادها
وإذا عدت خيلٌ تُبادِر غايةً * فالسابق الجالى يقود جِيادَها]

فأشار الوليدُ إلى بعض الخدم فغطّوه بالخِلَع، ووضعوا بين يديه كيس الدنانير (١٠٣)
وبِدَر الدراهم، ثم قال الوليد: يا مولى بنى نَوْفَل بن الحارث لقد أُوتيتَ أمرًا جليلا فقال ابن سريج: وأنت يا أمير المؤمنين لقد آتاك الله ملكا عظيما وشرفًا عاليا وعزا بسط يدك فيه فلم يَقْبِضه عنك ولا يفعل إن شاء الله، فأدام الله لك ما وَلّاك وحفظك فيما استرعاك، فإنك أهل لما أعطاك، ولا ينزِعه منك إذ رآك له مَوْضعا.

قال: يا نوفلىّ، وخَطِيبٌ أيضا! قال ابن سريج: عنك نطقت، وبلسانك تكلّمت، وبعزّك بيّنت، وكان قد أمر بإحضار الأحوص بن محمد الأنصارىّ وعِدىّ بن الرِّقاع العامِلىّ، فلما قدِما عليه أمر بإنزالهما حيث ابن سريج فأنزِلا منزلا بجوار منزله. فقالا: والله لَقربُ أمير المؤمنين كان أحبَّ إلينا من قربك يا مولى بنى نوفل، وإن فى قربك لما يَلذّنا ويشغلنا عن كثير مما نريد. فقال لهما ابن سريج: أوقِلّة شكر!

(١) الوعى: الجلبة، والحرة بالفتح الأرض الصلبة الغليظة. والمعنى أن الروابى التى يحارب فيها هذا الجيش تبدو للناظر كأنها حرة حمل سراب الضحى أطوادها وجبالها العالية.

فقال له عدىّ : كأنك يابن الغناء تَمُنّ علينا ، [علىّ وعلىّ] (١) إن جمعنا وإياك سقفُ بيت أو صحنُ دار عنـد أمير المؤمنين ، فقال الأحوص : أولا تحتـمل لأبى يحيى الزّلّة والهفـوة ، وكفّارةُ يمينٍ خيرٌ من لَجاج فى غير منفعة . فتحوّل عدىّ وبقى الأحوصُ . وبلغ الوليدَ ما جرى بينهم ، فدعا ٱبنَ سريج فأدخله بيتًا وأرخى دونه سِترًا ثم أمره إذا فرغ الأحوصُ وعدىٌّ مِن كلمتيهما أن يغنّى ، فلما دخلا وأنشداه مدائحَ لهما فيـه ، رفع ٱبنُ سريج صـوتَه من حيث لا يَرَوْنه وضرب بعود . فقـال عَدِىّ : يا أمير المؤمنين ، أتأذَن لى أن أتكلّم ؟ قال : قل يا عامِلىّ ، قال : مثلُ هذا عنـد أمير المؤمنين ويبعث إلى ٱبن سريج يتخطّى رقابَ قريش والعرب من تهامة إلى الشأم ترفعه أرضٌ وتخفضه أخرى ليسمع غناءه ! قال : ويحك ياعدىّ ! أولا تعرف هـذا الصوتَ ؟ قال : لا والله ما سمعتُـه قط ولا سمعتُ مثـلَه ، ولولا أنه فى مجلس أمير المؤمنين لقُلْت طائفةٌ من الجنّ يتغنّون ، فقال : ٱخرج عليهم ، فخرج فإذا ٱبن سريج . فقال عدىّ : حَقٌّ لهـذا أن يُحمل ! حقٌّ لهذا أن يحمل ! ثلاثا ، ثم أمر لهما بمثل ما أمر به لٱبن سريج وٱرتحل القومُ .

وروى أبو الفرج أيضا عن سهل بن بركة وكان يحمل عودَ ٱبن سريج قال :

كان على مكة نافعُ بن عَلْقمة الكِنانىّ فشـدّد فى الغناء والمغنّين والنبيذ ونادَى فى المخنّثين . فخرج فِتيـةٌ من قريش إلى بطن مُحسّر (٢) وبعثـوا برسـول لهم ، فجاءهم براوِيةٍ من شراب الطائف ، فلما شربوا وطـربوا قالوا : لو كان معنا ٱبنُ سريج تم سرورُنا ، فقلت : هو علىّ لكم ، فقال لى بعضُهم : دونَك هذه البغلة فاركبها وٱمض إليه ، فأتيتُه فأخبرتُه بمكان القوم وطلبهم إيّاه ، فقال لى : ويحك ! وكيف لى بذلك

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ١ ص ١١٩) .

(٢) بطن محسر : موضع بين مكة وعرفة ، وقيل : بين منى وعرفة .

مع شدّة السلطان فى الغناء وندائه فيه . فقلت له : أتردّهم؟ قال : لا والله! فكيف لى بالعود؛ فقلت : أنا أخبؤه لك فشأنَك . فركِب وسترتُ العودَ فأردفنى . فلما كنّا ببعض الطريق إذا بنافع بن عَلْقمة قد أقبل ؛ فقال لى : يابن بركة ، هذا الأمير . فقلت له : لا بأس عليك! أرسِل عِنانَ البغلةِ وآمِض ولا تَخَفْ ، ففعل . فلما حاذيناه عرفنى ولم يعرف ابنَ سريج ، فقال لى . يابن بركة ، من هذا أمامك ؟ قلت : من ينبغى أن يكون ! هذا ابنُ سريج؛ فتبسّم ثم تمثّل :

فإن تَنْجُ منها يا أبانُ مُسَلَّمًا * فقد أفلت الحجّاجُ خيلَ شبيبِ

ثم مضى ومضينا . فلما كنّا قريبا من القوم نزل إلى شجرة يستريح . فقلتُ له : غنّنى مرتجِلا؛ فرفع صوته فخيّل إلىّ أن الشجرة تنطِق معه، فغنّى وقال :

كيف الثّواءُ ببطن مكة بعد ما * هَمّ الذين تُحِبّ بالإنجاد

أم كيف قلبُك إذ ثَوَيتَ مخمّرا * سَقِمًا خِلافَهمُ وكُرْبُك بادِى (١)

هل أنتْ إن ظعن الأحبّةُ غادِى * أم قبل ذلك مُدْلِجٌ بسوادِ (٢)

قال : فقلت : أحسنتَ والذى فلق الحبّةَ و برأ النَّسَمةَ ! ولو أن كنانة كلّها سمعتك لاستحسنتْك (٣)، فكيف بنافع بن علقمة! المغرورُ من غرّه نافع . ثم قلت : زِدْنى و إن كان القوم متعلّقة قلوبهم بك؛ فغنّى وتناول عودا من الشجرة فوقّع به على الشجرة؛ فكان صوتُ الشجرة أحسنَ من خفق بطون الضّأن على العيدان إذا أخذتها عيدان الدِّفْلَى (٤)، وغنّى :

لا تجمِعى هَجْرًا علىّ وغُربةً * فالهجرُ فى تَلَفِ المحبّ سريعُ

(١) كذا فى الأغانى (ج ١١ ص ٢٠ طبع بولاق) . وفى الأصل : « ولونك » .

(٢) فى الأصل : « من قبل ذلك » . والتصويب عن الأغانى .

(٣) فى الأصل : « لاستحسنت » والتصحيح عن الأغانى .

(٤) الدفلى : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية .

مَنْ ذا فديتُكِ يستطيع لحبه * دَفْعًا إذا آشتملت عليه ضلوعُ

فقلت : بنفسى أنت والله، من لا يُكَلّ ولا يُمَلّ! والله ما جهِل مَنْ فَهِمَك، اِركب بنا فَدتْك نفسى . قال : أمهِلنى كما أمهلتُك أقضِ بعض شأنى . فقلت : وهل عما تريد مَدْفعٌ! . فقام فصلّى ركعتين ثم ضرب بيده إلى الشجرة وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . ثم مضينا والقوم مستشرِفون . فلما دنونا منهم إذا الغرِيضُ يغنّيهم :

مِن خَيْل حَىٍّ لا تَزال مُغِيرةً * سَمِعتْ على شَرَف صَهِيلَ حِصانِ

فبكى آبن سريج حتى ظننت أن نفسه قد خرجت . فقلت : ما يُبكيكَ يا أبا يحيى ؟ جُعِلتُ فِداك لا يسوءك الله ولا يُرِيك سوءًا[1]! قال : أبكانى هذا المخنَّثُ بحسن غنائه وشجا صوته، والله ما ينبغى لأحد أن يغنّى وهذا الصبىّ حىٌّ؛ ثم نزل وآستراح وركِب . فلما سرنا هُنيهةً آندفع الغرِيضُ يغنّى لهم بلحنه :

يا خليلىَّ قـد مِللتُ تَوائى * بالمُصَـلّى وقد سئمتُ البَقِيعا

بلّغانى ديارَ هندٍ وسُـعدَى * وآرجِعانى فقد هَوِيتُ الرجوعا

قال : ولصوته دوىٌّ فى تلك الجبال. فقال آبن سريج : يآبن بركة، أسمِعتَ مثل هذا الغناء قط؟! قال: ونظروا إلينا فأقبلوا نَشَاوَى يسحَبون أعطافَهم وجعلوا يقبِّلون وجه آبن سريج. فنزل فأقام عندهم ثلاثًا، والغرِيض لا ينطِق بحرف، وأخذوا فى شرابهم وقالوا: ياحبيب النفس وشقيقها، أَعْطِها بعضَ شأنها[2]. فضرب بيده إلى جيبه[3] فأخرج منه مِضرابًا ثم أخذه بيده ووضع العود فى حجره — فما رأيتُ [يدًا][4] أحسنَ من يده

(١) فى الأصول : « والله لا يسومك هذا ولا يريك سوءا » . والتصويب عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى : «بعض مناها» .

(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «الى جنبه» .

(٤) الزيادة عن الأغانى .

ولا خشبةً تخيّلتْ لى أنها جوهرةٌ إلّا هى — ثم ضرب فلقد ضجّ[1] القومُ جميعا، ثم غنّى فكلٌّ قال : لبّيْك لبّيْك! فكان ممّا غنّى به [والملحن له][2] هزجٌ :

لبّيك يا سيّدتى * لبّيك ألفا عدّدا
لبّيك من ظالمةٍ * أحببتُها مجتهدا
قُومى إلى ملعبنا * نحكِ الجوارى الخُرّدا
وضْعَ يدٍ فوق يدٍ * نرفعها يدًا يدا

فكلٌّ قال : نفعل ذاك، فلقد رأيتنا نستبق أيّنا تقع يده على يده . ثم غنّى :

ما هاج شوقَك بالصّرائمْ * رَبْعٌ أحال لآل[3] عاصِمْ
ربعٌ تقادَم عهده * هاج المحبَّ على التقادم
فيه النواعمُ والشبا * بُ النّاعمون مع النواعم
مِن كل واضحة الجبيـ * ـن عميمةٍ ريّا المعاصِم

ثم غنّى بقوله :

شجانى مغانى الحىّ وانشقّتِ العصا * وصاح غرابُ البين أنتَ مريضُ
ففاضت دموعى عند ذاك صبابةً * وفيهنّ خَوْدٌ كالمهاة غَضِيضُ
وولّيت محزونَ الفؤادِ مُرَوَّعًا * كئيبًا ودمعى فى الرداء يَفِيض

قال : فلقد رأيتُ جماعةً من الطير وقَعْن بقربنا وما نُحِسّ من قبل ذلك منها شيئا . فقالت الجماعة : ياتمام السرور وكمالَ المجالس ، لقد سعِد من أخذ بحظّه[4] منك وخاب من حُرِمك ، ياحياةَ القلوب ونسيمَ النفوس جعلنا الله فداءَك ، غنّنا . فغنّى :

(١) فى الأغانى : « سبح » . (٢) زيادة عن الأغانى . (٣) فى الأغانى : « لأم عاصم » . (٤) فى الأصول : « بحظك » . والتصويب من الاغانى .

ياهند إنك لو علمـ * ـتِ بعَاذِلَيْن تتابعا

قال : فبدَرْتُ من بينهم فقبَّلت عينيه، فتهافت القومُ عليــه يقبِّلونه ، ولقد رأيتُنى وأنا أرفعهم عنه شفقةً عليه .

وكانت وفاةُ ٱبن سريج بالعــلّة التى أصــابته من الجُذام بمكة فى خلافة سليمان ابن عبد الملك أو فى خلافة الوليد، ودُفن فى موضع يقال له «دَسْم»[1] . رحمة الله عليه وعفا عنه وغفر له . والحمد لله ربّ العالمين .

(١٠٠) حُكِى أنه لمــا ٱحتُضِر نظر إلى ٱبنته تبكى فبكى وقال : إنه مِن أكبر همّى أنتِ وأخشى أن تضيعى بعدى . فقالت : لا تَخَفْ فما غنّيتَ شيئا إلا وأنَا أغنّيه . فقال : هاتى، فٱندفعت فغنّت وهو مصغ إليهــا . فقال : قد أصبتِ ما فى نفسى وهوّنتِ علىَّ أمرَكِ . ثم دعا سعيدَ بن مسعود الهُذَلِى فزوّجه إيّاها ؛ فأخذ أكثرَ غناء أبيها وٱنتحله .

ذكر أخبار معبــد

هو معْبَد بن وهب، وقيل : ٱبن قَطَنىّ مولى ٱبن قَطَن ؛ وقيل : إن قَطَنا مولى العاص بن واقِصة[2] المخزومىّ، وقيل : مولى معاوية بن أبى سفيان . غنّى معبد فى أيام بنى أميّة فى أوائلها، ومات فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق .

قال أبو الفرج الأصفهانى :

إنه لمــّا مات خرجت سَــلامة جاريةُ الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأخذت بعمود السرير والناسُ ينظرون إليها وهى تَنْدُبه وتقول شعرَ الأحوص :

(١) دسم : موضع قرب مكة .

(٢) فى الأغانى (ج ١ ص ٣٦ طبع دار الكتب المصرية) : « رابصة » بالباء الموحدة .

قد لَعَمْرِى بتُّ لِيلِى * كأخِى الداءِ الوَجِيعِ
ونجِىُّ الهمّ مِنّى * بات أدنى من نَجِيعِى
كلما أبصرتُ ربعًا * خالياً فاضت دموعِى
قد خلا من سيِّدِ كا * ن لنا غيرَ مُضِيعِ
لاتَلُمْنا إن خشعنا * أو همَمْنا بخشوعِ

وكان معبد قد علّمها هذا الصوت فندَبته به . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ: كان معبد من أحسن الناس غِناءً ، وأجودهم صنعة ، وأحسنهم حلْقًا[1] ؛ وهو إمام أهل المدينة فى الغناء، وأخذ عن سائب خاثِرٍ ونَشِيط الفارسىّ مولى عبدالله بن جعفر، وعن جَميلة مولاة بَهْز (بطن من بنى سليم) . وفى معبدٍ يقول الشاعر :

أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِىُّ بعده * وما قصَبَاتُ السَّبْق إلا لمعبدِ

وحكى أبو الفرج أيضا :

أن الوليد بن يزيد اشتاق إلى معبد، فوجّه اليه البريدَ إلى المدينة فأحضره . فلما بلغ الوليدَ قدومُه أمر ببركة مُلِئتْ ماء وَرد وخُلِط بمسك وزعفران، ثم جلس الوليد على حافَة البركة وفُرِش لمعبدٍ مُقابِلَه وضُرِب بينهما سِترٌ ليس معهما ثالث . وجىء بمعبد فقيل له : سلِّم على أمير المؤمنين واجلس فى هذا الموضع؛ فسلَّم فردّ عليه من خَلْف السِّجف، ثم قال له : أتدرى لم وجّهتُ إليك؟ قال : الله أعلم وأمير المؤمنين . قال : ذكرتُك فأحببتُ أن أسمع منك . فقال له معبد : أأُغنِّى ماحضر أو مايقترحه أميرُ المؤمنين ؟ قال : [بل][2] غَنِّ :

مازال يعدو عليهم رَيْبُ دهرهمُ * حتى تفانَوْا وريبُ الدهر عَدّاء

(١) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٣٨ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصل : «خلقا» بالخاء المعجمة وهو تصحيف . (٢) الزيادة عن الأغانى .

فغنّاه . فرفع الجوارى السِّجَف ، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها، ثم خرج منها، فأستقبله الجوارى بثياب غيرِ الثياب التى كانت عليه، ثم شرب وسقى معبدًا ثم قال له : غنِّنى يا معبد :

يا رَبْعُ مالك لا تُجيبُ متيَّما * قـد عاج نحوَك زائرًا ومسلِّما
جادتك كلُّ سحـابةٍ هطَّالةٍ * حتى تُرى عن زَهْرةٍ(١) متبسِّما
لو كنتَ تدرى من دعاك أجبتَه * و بكيتَ مِن حُرَقٍ عليه إذًا دما

قال : فغنّاه . وأقبـل الجوارى فرفعن السِّـتر، وخرج الوليد فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها ثم خرج ، فلبِس ثياباً غير تلك الثياب ، ثم شرِب وسقى معبدًا وقال له : غنِّنى يا معبد :

عَجِبتْ لمّـا رأتنِى * أندُب الربع المُحِيـلا
واقفًا فى الدار أبكِى * لا أرى إلّا الطلولا
كيف تبـكى لأناسٍ * لا يَمَلُّون الذَّميلا(٢)
كلما قلتُ اطمأنتْ * دارُهم جَدّوا(٣) الرحيلا

قال : فلما غنّاه ألقى نفسه فى البركة ثم خرج فردّوا عليه ثيابَه، ثم شرب وسقى معبدا وقال له : يا معبد، من أراد أن يزداد حُظوةً عند الملوك فليكتم أسرارَهم . فقال : ذلك ممّا لا يَحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصائى به . فقـال الوليد : يا غلام احمل إلى معبد عشرةَ آلاف دينـار تَحَصَّل(٤) له فى بلده وألفىْ دينـار لنفقة طريقه ؛ فحُمِلت إليه كلّها، وحُمِل على البريد من وقته إلى المدينة . وقـد قيل : إنه أعطاه فى ذلك المجلس خمسة عشر ألف دينار .

(١) كذا فى الأغانى . والزهرة : البهجة والنضارة والحسن . وفى الأصل : «ترى عن زهره» . وصححه المرحوم الأستاذ الشنقيطى فى نسخته من الأغانى : « يرى عن زهره » . (٢) الذميل : ضرب من السير . (٣) فى الأغانى (ج ١ ص ٥٤) : «قالوا» . (٤) أى تدفع وتسلم .

وقال أبو الفرج بسند رفعه :

إن معبدا كان قد علّم جارية من جوارى الحجاز الغناء تدعى "طيبة"[(١)] وعُنِى بتخريجها، فاشتراها رجل من أهل العراق وأخرجها إلى البصرة وباعها هناك، فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأُعجب بها وذهبت به كلّ مذهبٍ وغلبت عليه، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهةً من الزمان، فأخذ جواريه أكثرَ غنائها عنها. فكان لمحبّته إيّاها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقرُّه، ويُظهر التعصّبَ له والميلَ إليه والتقديمَ لغنائه على سائر الأغانى من أهل عصره، إلى أن عُرِف ذلك منه وبلغ معبدًا خبرُه. فخرج من مكة حتى أتى البصرةَ، فلما وردها صادَف الرجلَ قد خرج عنها فى ذلك الوقت واليوم إلى الأهواز. فجاء معبدٌ فى طلب سفينة تحمله إلى الأهواز، فلم يجد غيرَ سفينة الرجل، فركب فيها وكلاهما لا يعرف الآخرَ، وانحدرت السفينةُ. فلما صاروا بفمِ نهر الأُبُلّة[(٢)]، أمر الرجلُ جواريَه بالغناء فغنّين، إلى أن غنّت إحداهنّ صوتا من غناء معبد فلم تُجِدْ أداءه، فصاح بها معبد: يا جارية، إن غناءَك هذا ليس بمستقيم. فقال مولاها وقد غضِب: وأنت ما يُدريك الغناء ما هو! ألا تُمسِكُ[(٣)] وتلزمُ شأنَك! فأمسك. ثم غنّت أصواتا من غناء غيره وهو ساكتٌ لا يتكلّم حتى غنّت من غنائه فأخلّت ببعضه، فقال لها معبد: ياجارية، قد أخللتِ بهذا الصوت إخلالا كثيرا. فغضب الرجل وقال له: ويلك! ما أنتَ والغناءَ! ألا تكُفّ عن هذا الفضول! فأمسك معبدٌ. وغنّى الجوارى

(١) فى أكثر أصول الأغانى المخطوطة والمطبوعة: «ظبية».

(٢) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها): اسم بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة، كما فى معجم البلدان لياقوت.

(٣) كذا فى أكثر أصول الأغانى. وفى بعض أصوله: «لم لا تمسك ...» وفى الأصل هنا: «... وأنت مايدريك ما الغناء ماهو إلا أن تمسك ...».

مليًّا، ثم غنّت إحداهنّ صوتًا من غنائه فلم تَصْنَع فيـه شيئًا . فقال لها معبد: يا هذه، أمَا تَقُومين[(١)] على أداء صوتٍ واحد! فغضب الرجلُ وقال له : ما أراك تَدَعُ هـذا الفضولَ بوجهٍ ولا حيلةٍ! فأُقسِم بالله إن عاودتَ لأُخرِجنّك من السفينة . فأمسك معبدٌ، حتى سكتت الجوارى سَكْتةً، فاندفع يغنّى الصوت الأوّل حتى فرغ منه . فصاح الجوارى: أحسنتَ والله يارجل، فأَعِده . قال : لا والله ولا كرامةَ . ثم آندفع يغنّى الثانى، فقلن لسيّدهن: ويحك ! هذا والله أحسن الناس غناءً، فسَلْه أن يُعيده علينا ولو مرّة واحدةً لعلنا نأخذه منـه، فإنه إن فاتنا لم نَجِدْ مثلَه أبدا . قال : قد سمعتنّ سوءَ ردّه عليكنّ وأنا خائف مثلَه منه، وقد آستقبلناه بالإساءة، فآصْبِرْن حتى نُداريَه . قال : ثم غنّى الثالثَ فزلزل عليهم الأرضَ . فوثب الرجل فقبّل رأسَه، وقال : يا سـيّدى أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك . فقال له : وهَبْك لم تعرِف موضعى، قد كان ينبغى لك أن تتثبّت ولا تُسرِعَ إلى سوء العِشرة وجفاءِ القول . فلم يزل يرفُق به حتى نزل إليه، وكان معبدٌ قـد أُجلس فى مؤخّر السفينة . فقال له الرجل : ممن أخذتَ هـذا الغناء ؟ قال : من بعض أهـل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك ؟ قال : أخذنه من جارية كانت لى، كانت قد أخذت الغناءَ عن أبى عَبّاد معبد وكانت تَحُلّ منى مكانَ الروح من الجسد، ثم آستأثر اللهُ بها وبقى هؤلاء الجوارى وهنّ [من][(٢)] تعليمها، فأنا إلى الآن أتعصّب لمعبد وأفضّله على المغنّين جميعا، وأفضِّل صنعَته على كل صنعة . فقال له معبـد : وإنك لأنت هو ! أفتعرِفنى ؟ قال لا . قال : فصَكّ معبد بيـده صلعَته ثم قال : فأنا[(٣)] والله معبدٌ وإليك قدِمتُ من الحجاز ووافيتُ البصرةَ ساعةَ نزلتُ السفينةَ لأقصدك بالأهواز، ووالله لا قصّرتُ فى جواريك

(١٠٧)

(١) فى بعض أصول الأغانى : « أما تقوين » . (٢) الزيادة عن الأغانى .

(٣) فى الأصول : « فانه » والتصويب عن الأغانى .

هؤلاء ولأجعلنّ لك فى كل واحدة خَلَفًا من الماضية . فأكبّ الرجلُ والجوارى على يده ورجليه يقبّلونها ويقولون : كتمتنا نفسك حتى جفوناك فى المخاطبة وأسأنا عشرتك وأنت سيّدُنا ومن نتمنّى أن نلقاه . ثم غيّر الرجلُ أثواب معبد وخلع عليه عدّة خِلَع وأعطاه فى ذلك الوقت ثلثمائة دينار وطِيبًا وهدايا مثلها ، وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضِى حِذْقَ جواريه ، ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز .

ذكر أخبار الغريض

وما يتّصل بها من أخبار عائشة بنت طلحة

هو عبد الملك ، وكنيتُه أبو زيد[1] ، وقيل : أبو مروان . والغَرِيض لقبٌ لقب به ؛ لأنه [كان][2] طَرِىّ الوجه نَضِرًا غَضّ الشباب حسن المنظر ، فلُقّب بذلك . والغريض : الطّرىّ من كل شىء . وقال ابن الكلبى : شُبِّه بالإغريض وهو الجُمّار ثم ثقُل ذلك على الألسنة فحذفت الألف فقيل : الغَرِيض . وهو من مُوَلَّدِى البَرْبَر . وولاؤه للثريّا (صاحبةِ عمر بن أبى ربيعة) وأخواتها الرُّضَيّا وقُرَيبة وأم عثمان بنات علىّ بن عبد الله بن الحارث بن أميّة الأصغر . قالوا : وكان يضرب بالعود وينقر بالدّف ويُوقِع بالقضيب . وكان قبل الغناء خيّاطا . وأخذ الغناءَ فى أوّل أمره عن عُبيد بن سُرَيج ، لأنه كان قد خدمه ؛ فلما رأى ابن سريج طبعَه وظَرْفَه وحلاوةَ منطقه ، خشِى أن يأخذ غناءَه فيغلبَه عليه ويفوقَه بحسن وجهه ، وحسّده ، فاعتلّ عليه وشكاه الى مَوْلياته ، وكنّ دفعنَه اليه ليعلّمه الغناءَ ، وجعل يتجنّى عليه ثم طرده . فعرّف مَوْلَياته غرضَ ابن سريج فيه وأنه حسَدَه ؛ فقلن له : هل لك أن تسمع

(١) الذى فى الأغانى (ج ٢ ص ٣٥٩ طبع دار الكتب المصرية) : « أبو يزيد » .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

نَوْحَنا على قتلانا فتأخذه وتغنّى عليــه ؟ قال نعم . فأسمعنه المراثى فآحتذاها وخرَّج غناءه عليها . وكان ينوح مع ذلك فيدخل المآتِمَ وتُضْرَب دونه الحُجُب ثم ينوح فيفتِن كلَّ من سمعه . فلما كثر غناؤُه عدَل الناسُ إليه لمـا كان فيه من الشَّجا[1]، فكان آبن سريج لا يغنّى صوتا إلا عارضَه فيه فيغنّى فيه لحنا آخر . فلما رأى آبنُ سريج موقع الغَرِيض اشتدّ عليه وحسده، فغنّى الأرمالَ والأهزاجَ ، فآشتهاها الناسُ . فقال له الغَرِيض : يا أبا يحيى قصّرتَ الغناء وحذفتَــه . قال : نعم يا مخنَثُ حين جعلتَ تنوح على أبيــك وأمك . قال : ولم يُفَضَّل آبنُ سريج عليــه إلا بالسَّبْق، وأما غير ذلك فلا .

وقال بعضُهم : كان الغرِيضُ أشجى غناءً ، وآبن سريج أحكم صَنعةً . وحكى أبو الفرج الأصفهانى بسند رفعه إلى أيّوب بن عَبَاية عن مولى لآل الغَرِيض قال : حدّثنى بعضُ مولياتى وقد ذَكَرْن الغَرِيضَ فترحَّمْن عليه وقلن : جاءنا يوما فحدّثنا بحديث أنكرناه عليه ثم عرفناه بعد ذلك حقيقةً . قالت : وكان آبنُ سُرَيج بجوارنا فدفعناه إليــه ولُقِّن الغناء، وكان من أحسن الناس صوتًا ، ففتَن أهــلَ مكة بحسن وجهه مع حسن صوته . فلما رأى ذلك آبنُ سريج نحّاه[2] عنــه . فكان بعضُ مولياته تعلّمه النِّياحة فبرَّز فيهــا . فجاءنى يوما فقال : نَهَتْنى الجنّ أن أنوح وأسمعتنى صوتا عجيبا، فقد آبتنيتُ عليه لحنًا فآسمعيه منى، فآندفع فغنّى بصوتٍ عجيبٍ فى شعرِ لمَرَّار الأسدىّ :

حلَفتُ لها بالله ما بين ذى الغَضَا ٭ وهَضْبِ القَنَان[3] من عَوَانٍ ومن بِكْرِ

(١) كذا فى الاغانى . وفى الأصول : « عدل الناس اليه لشجائه » .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « جلاه عنه » . (٣) كذا فى الأغانى . والقنان : جبل لبنى أسد فيه ماء يدعى العسيلة . وفى الاصل : « هضب العنان » وهو تحريف .

أحبُّ إلينا منكِ دَلّا وما نرى * به عند ليلى من ثواب ولا أجرِ

قالت : فكذّبناه وقلنا : شيءٌ فكّر فيه وأخرجه على هذا الجنس . فكان فى كل يوم يأتينا فيقول : سمعت البارحةَ صوتًا من الجنّ بترجيع وتقطيع، فقد بنيتُ عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان، فلم يزل على ذلك ونحن نُنكر عليه . فإنا لكذلك ليلةً وقد آجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكة فى جمع لنا سَمَرْنا فيه ليلتَنا والغريضُ يغنّينا بشعر عمر بن أبى ربيعة حيث يقول :

أمِن آل زينب جدّ البكورُ * نَعَمْ فَلأَىّ هواها تَصيرُ

إذ سمعنا فى بعض الليل عَزِيفًا عجيبا وأصواتا ذعَرتْنَا وأفزعتْنا . فقال لنا الغريضُ: إن فى هذه الأصوات صوتًا إذا نِمتُ سمعتُه وأُصبِح أبنى عليه غِنائى، فأصغينا إليه فإذا نغمتُه نغمةُ الغَرِيض بعينها، فصدّقناه تلك الليلة .

(١٠٨)

وكانت وفاةُ الغريض باليمن فى خلافة سليمان بن عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز، وكان قد هرَب من نافع بن عَلْقمة لمّا ولِى مكةَ من مكة إلى اليمن وآستوطنها ومات بها .

وللغريض أخبارٌ مستظرفة وحكايات مستحسنة قد رأينا أن نُثبِت فى هذا الموضع ماستقف عليه إن شاء الله تعالى .

فمن ذلك ما حكاه أبو الفرج الأصبهانىّ فى كتابه المترجم بالأغانى فى أخبار الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المُغيرة المَخزومىّ، بعد أن ساق قطعة من أخباره مع عائشة بنت طلحة بن عُبيد الله، وأنه كان يهواها ويشبِّب بها فى شعره، ثم قال فى أثناء ذلك : لمّا قدِمتْ عائشةُ بنت طلحة مكة أرسل إليها الحارثُ وهو أمير مكة يومئذ ، وكان وَلِيها مِن قِبَل عبد الملك بن مروان ، فأرسل إليها : إنى أريد السلام عليك ، فإذا خفّ ذلك عليكِ أذِنتِ، وكان الرسولُ الغريضَ .

فأرسلت إليه : إنّا حُرُمٌ، فإذا أحللنا أذنّاك . فلما أحلّت خرجت سرًّا على بغلتها ، ولحقها الغَريضُ بعُسْفانَ أو قريب منه ومعه كتاب الحارث إليها، وفيه :

ما ضَرّكم لو قلتُمُ سَدَدًا * إنّ المطايا عاجلٌ غَدُها
ولها علينا نعمةٌ سلَفت * لسنا على الأيام نجحَدُها
لو أتممتْ أسبابَ نِعمتها * تَمّتْ بذلك عندنا يَدُها

فلما قرأت الكتابَ قالت : ما يَدَع الحارثُ باطلَه ! . ثم قالت للغريض : هل أحدثتَ شيئا ؟ قال : نعم فاسمعى ، ثم اندفع يغنّى فى هـذا الشعر . فقالت عائشةُ : والله ما قلنا إلا سَـدَدًا[1] ولا أردنا إلا أن نشترىَ لسانَه ، واستحسنت الشعرَ، وأمرت للغَريض بخمسة آلاف درهم وأثوابٍ ، [وقالت][2] : زِدْنى . فغنّى فى قول الحارث أيضا حيث يقول :

زعَمـوا بأنّ البَيْن بعـد غَدٍ * فالقلبُ ممّـا أحدثوا يَجِفُ
والعينُ مُنْذ أُجِدَّ بينُهمُ * مثلَ الجُمَان دموعُها تَكِف
نشكو وتشكو ما أشَتّ بنا * كلٌّ بوَشْـك البين مُعْترِف
ومقالهـا ودموعُها سُجُـمٌ * أَقْلِلْ حنينَك حين تنصرف

فقالت عائشـة : يا غريضُ ، بحقّ عليك أهو أمرك أن تغنّينى فى هـذا الشعر ؟ قال : لا وحَياتِك يا سيّدتى ، فأمرت له بخمسـة آلاف درهم ، ثم قالت : غنّنى فى [غير][2] شعره ، فغنّاها بشعر عمر بن أبى ربيعة — وكان عمرُ قد سأله ذلك — فقال :

أَجمعتْ خُلّتى مع الهجر بَيْنَا * جَلّل اللهُ ذلك الوجهَ زَيْنـا
أجمعتْ بَيْنَها ولم نَكُ منهـا * لذّةَ العيشِ والشبابِ قَضَيْنا

(١) فى الأصل : « والله ما قال » . والتصويب عن الأغانى (ج ٣ ص ٣٢٠ طبع دار الكتب المصرية) . (٢) التكملة عن الأغانى .

فتولّت حُمولُها واستقلّت * لم تُنِلْ طائلًا ولم تَقْضِ دينا
ولقد قلتُ يوم مكّة لمّا * أرسلتْ تقرأ السلام علينا
أنعم اللهُ بالرسول الذى أُر * سِل والمُرْسِلِ الرسالةَ عَيْنا

قال: فضحكت ثم قالت: وأنت يا غريضُ فأنعم الله بك عينًا وأنعم بابن أبى ربيعة عينا، لقد تلطّفتَ[1] حتى أدّيتَ إلينا رسالتَه، وإن وفاءك له لمما يزيدنا رغبةً فيك وثقةً بك. وكان عمر سأل الغريضَ أن يغنّيها بشعره هذا لأنه كان قد ترك ذكرها لمّا غضِبت بنو تَيْم من ذلك، فلم يُحِبّ التصريحَ بها وكرِه إغفالَ ذكرها. فقال له عمرُ بن أبى ربيعة: إنْ أبلغتَها هذه الأبيات فى غناءٍ فلك خمسة آلاف درهم، فوفّى له، وأمرتْ له عائشةُ بخمسة آلاف درهم. ثم انصرف الغريض من عندها، فلقِى عاتكةَ بنتَ يزيد بن معاوية امرأةَ عبد الملك بن مروان وقد كانت حجّت فى تلك السنة؛ فقال لها جواريها: هذا الغريضُ. فقالت لهنّ: علىّ به؛ فجِئْن به إليها. قال الغريض: فلما دخلتُ سلّمتُ فردّت علىّ وسألتنى عن الخبر، فقصصته[2] عليها. فقالت: غنّنى بما غنّيتَها به، ففعلتُ؛ فلم أرها تَهَشّ لذلك؛ فغنيتُها معرِّضا ومذكِّرا بنفسى فى شعر مُرّة بن مَحْكان السَّعْدىّ يخاطب امرأته وقد نزل به أضياف: (١٠٩)

أقول والضيفُ مخشىٌّ ذِمامَتُه[3] * على الكريم وحقُّ الضيف قد وجبا
يا ربّة البيت قُومِى غيرَ صاغرةٍ * ضُمّى إليكِ رِحالَ القوم والقِرَبا
فى ليلةٍ من جُمادى ذات أنديةٍ * لا يُبصِر الكلبُ فى ظَلْمائها الطُّنُبا
لا ينبَح الكلبُ فيها غيرَ واحدة * حتى يَلُفّ على خَيْشُومه الذَّنَبا

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «بم لطفت».
(٢) كذا فى الأغانى (طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل: «فأقصصته».
(٣) الذمامة (بفتح الذال وكسرها): الذمة والعهد.

فقالت وهى مبتسمة : نعم وقد وجب حقّك يا غريض، فغنّنى؛ فغنّيتها :

يادهرُ قد أكثرتَ فجعتنا[1] * بسَـــرَاتنا ووقرتَ[2] فى العَظْم

وسلبتنا ما لستَ[3] مُخْلِفَـــه * يادهر ما أنصفتَ فى الحُكْم

لو كان لى قِرنٌ أناضـــله * ما طاش عند حَفيظةٍ سَهْمى

لو كان يُعْطِى النَّصْفَ[4] قلتُ له * أحرزتَ قِسمك فاَلْهُ عن قِسْمى

فقالت : نُعطيك النَّصْفَ فلا يضيع سهمكُ عنـدنا ونُجزل لك قِسْمك، وأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عَدَنيّة وغير ذلك من الألطاف . قال الغريض: فأتيتُ الحارث بن خالد فأخبرتُه الخبرَ وقصَصْتُ عليه القصة؛ فأمر لى بمثـل ما أمرتا لى جميعا؛ وأتيتُ ابن أبى ربيعة فأعلمتُه بما جرى، فأمر لى بمثل ذلك . فما انصرف أحدٌ من ذلك الموسِم بمثل ما انصرفتُ به : نظرة من عائشة، ونظرة من عاتكة — وهما أجمل نساء عالَمِهما — وبما أمرتا لى به، والمنزلةُ عند الحارث — وهو أمير مكة — وابنِ أبى ربيعة وما أجازانى به جميعا من المـال .

ولنَصِل هـذا الفصلَ بشىء من أخبار عائشة بنت طلحة؛ لأن الشىء بالشىء يذكر .

هى عائشـةُ بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم . وأمها أمّ كلثوم بنت أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه . وكانت عائشةُ لا تسـتر وجهَها من أحد . فعاتبها مُصْعَب فى ذلك فقالت : إن الله تبارك وتعالى وَسَمَنى بميسَم جمال أحببتُ أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم فما كنتُ لأستره ، ووالله ما فِىَّ وَصْمةٌ يقدِر أن يذكرنى بها أحد .

(١) فى الأصول : « كثرت فجيعتنا » . والتصويب عن الأغانى ولسان العرب (مادة «وقر») .
(٢) وقر العظم : صدعه . (٣) فى الأصل : « ما كنت » والتصويب عن الأغانى .
(٤) النصف (مثلثة) : اسم بمعنى الانتصاف .

قال أبو الفرج الأصبهانىّ : وكانت شِرسةَ الخُلُق، وكذلك نساءُ بنى تيم، هنّ أشرسُ خلق الله خُلُقا وأحظاهنّ عند أزواجهنّ . قال : وآلت عائشةُ من زوجها مصعب بن الزبير، فقالت : أنتَ علىّ كظهر أمّى، وقعدتْ فى غرفةٍ وهيّأت ما يُصلِحها . فجهد مصعبٌ أن تكلّمه فأبت . فبعث إليها ٱبنَ قيس الرُّقيّات فسألها كلامَه . فقالت : كيف يمينى؟ فقال: ها هنا الشَّعْبىّ فقيه أهل العراق فٱستفتِيه . فدخل الشّعبىّ عليها فأخبرتْه؛ فقال: ليس هذا بشىء؛ فأمرت له بأربعة آلاف درهم .

وحكى أبو الفرج أنّ مصعب بن الزبير لمّا عزَم على زواج عائشة بنت طلحة، جاء هو وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وسَعيد بن العاص إلى عزّة المَيْلاء — وكانت عزّة هذه يألفها الأشرافُ وغيرُهم من أهل المرُوءات، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء — فقالوا لها : إنّا خطبنا فٱنظرى لنا . فقالت لمصعب : يٱبن أبى عبد الله، ومَنْ خطبتَ ؟ قال : عائشة بنت طلحة . قالت : فأنت يٱبن أبى أُحَيْحَة ؟ قال : عائشة بنت عثمان بن عفّان . قالت : فأنت يٱبن الصّدّيق ؟ قال : أمّ الهيثم بنت زكريا بن طلحة . فقالت : ياجارية، هاتى مِنْقَلًا (تعنى خفّيها)، فلبستهما وخرجت ومعها خادمٌ لها، فبدأت بعائشة بنت طلحة، فقالت : فديتُك، كنّا فى مأدبة أو مأتم لقريش، فتذاكروا جمالَ النساء وخَلْقَهن فذكروكِ فلم أدرِ كيف أصِفُك، فديتك، فالبِسِى ثيابك؛ ففعلت فأقبلت وأدبرت فأرتجّ كلُّ شىء منها . فقالت لها عزّة : خُذِى ثوبك . فقالت عائشة : قد قضيتِ حاجتكِ وبقيت حاجتى . فقالت عزّة : وما هى ؟ فديتُك ! قالت : تغنّينى صوتا . فٱندفعت تغنّى لحنها فى شعرِ لجميل بن عبد الله بن معمَر العُذْرِىّ :

خَلِيلىّ عُوجَا بالمحلّة من جُمْلِ * وأترابها بين الأُصَيْفِرِ فٱلحَبْل
نَقِفْ بمَغَانٍ قد عفا رسمَها البِلَى * تعاقُبُها الأيامُ بالرّيح والوَبْل

(١١٠) فلو دَرَج النَّمـلُ الصـغار بجلدها * لأَنْدَب أعلى جلدها مَدْرَجُ النَّمل
وأحسن خلق الله جِيدًا ومُقْـلةً * تُشَبَّه [فى النسوان بالشادِن الطَّفل] (١)

فقبّلت عائشةُ ما بين عينيها ودعت لهـا بعشرة أثواب وطرائف من أنواع الفضّة، فدفعته إلى مولاتها . وأتت النِّسوةَ على مثـل ذلك تقول ذلك لهنّ . ثم أتت القومَ فى السقيفة . فقالوا : ماصنعتِ ؟ فقالت : يآبن أبى عبد الله ، أمّا عائشةُ فلا والله ما رأيتُ مثلها مُقْبِـلةً ولا مُدْبرة ، محطوطةَ المتنين (٢) ، عظيمةَ العجيزة ، ممتلئةَ الترائب ، نقيّـةَ الثغر وصفحة الوجه ، فرعاءَ الشعر ، ممتلئةَ الصدر ، خميصةَ البطن ذات عُكَنٍ ، ضخمةَ السُّرّة ، مُسَرْولةَ الساق ، يرتجّ ما بين أعلاها إلى قدميها ، وفيها عيبان ، أمّا أحدُهما فيواريه الخِمارُ ، وأما الآخرُ فيواريه الخُفّ : عِظمُ الأُذن والقدم . وكانت عائشة بنت طلحة كذلك . ثم قالت عزّة : وأمّا أنت يآبن أبى أُحَيْحة فإنى والله ما رأيتُ مثل خَلْق عائشـة بنت عثمان لآمرأةٍ قط ! ليس فيها عيب والله لكأنمـا أفرِغتْ إفراغًا ولكن فى الوجه رَدَّةٌ ، و إن آستشَرتَنى أشرتُ عليك . قال : هاتِ . قالت : عليك بوجه تستأنس به . وأمّا أنت يآبن الصدِّيق : فو الله ما رأيتُ مثل أمّ الهيثم ، كأنها خُوط بانة تنثنى ، أو كأنها جانٌّ يتثنّى على رمل ، لو شئتَ أن تعقِد طَرَفيها لفعلتَ ، ولكنها شَخْتَةُ الصـدر (٣) وأنت عريض الصـدر ، فاذا كان كذلك كان قبيحًا ، لا والله حتى يملأ كلُّ شىء مثلَه . قال : فوصلها الرجال والنساء وتزوّجوهنّ .

وحكى أبو الفرج أيضا : أنّ مصعبَ بن الزبير إنمـا تزوّجها بعد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . وقال : وكانت عائشةُ بنت طلحة تُشَبّه بخالتها عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ، فزوّجتها عائشةُ من آبن أخيها عبدِ الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، وهو

(١) التكملة عن الأغانى (ج ١٠ ص ٥٥ طبع بولاق) .

(٢) محطوطة المتنين : ممدودتهما . (٣) شختة الصدر : دقيقته .

أوّل من تزوّجها . ولم تَلِد عائشةُ بنت طلحة من أحد من أزواجها غيره، ولدت له عِمران وبه كانت تُكْنَى[1]، وعبدَ الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة، ولكلّ من هؤلاء عَقِبٌ . وأنا من عقِب طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر من ولده ليث ابن طلحة . وليس هذا موضع سرد نسبي فأسرده .

٥ قال أبو الفرج : وصارمت عائشةُ بنت طلحة زوجَها عبد الله بن عبد الرحمن وخرجت من داره مُغْضَبة تريد عائشةَ أمّ المؤمنين رضى الله عنها . فرآها أبو هريرة فسبّح الله تعالى وقال : كأنها من الحُور العِين . فمكثت عند عائشة قريبا من أربعة أشهر . وكان عبد الله قد آلى منها ؛ فأرسلت عائشة إليه : إنى أخاف عليك الإيلاءَ ؛ فضمّها إليه وكان مُوليًا منها[2] . فقيل له : طلّقها ؛ فقال :

١٠ يقولون طَلِّقْها لِأُصبِح ثاوِيًا * مُقيمًا علىّ الهمُّ ، أحلامُ نائِم
وإنّ فِراقى أهلَ بيت أُحِبّهم * لهم زُلْفةٌ عندى لإحدى العظائم

وتُوفِّى عبد الله بعد ذلك وهى عنده ، فما فتحتْ فاهَا عليه ؛ وكانت عائشةُ أمّ المؤمنين رضى الله عنها تَعُدّ هذا عليها فى ذنوبها التى تعدّدها . ثم تزوّجها بعده مصعب بن الزبير، فمهرَها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك .

١٥ وكانت عائشة تمتنع على مصعب فى غالب الأوقات. فحُكى أنه دخل عليها يوما وهى نائمة ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ فى حجرها. فقالت : نومتى كانت أحبّ الىّ من هذا اللؤلؤ . ولم تزل حالُها معه على مثل ذلك (١١١) حتى شكا ذلك الى كاتبه ابن أبى فَرْوة . فقال له : أنا أكفيك هذا إن أذِنتَ لى . قال : نعم ! افعلْ ما شئتَ . فأتاها ليلًا ومعه أسودانِ فاستأذن عليها . فقالت : أفى

٢٠ (١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وبه كان يكنى » .
(٢) فى الأصول : «ملق فيها» . والتصويب عن الأغانى .

مثل هــذه الساعة ؟ قال نعم ؛ فأذنت له فدخل . فقال للأسودين : آحفِرا هاهنا بئرًا . فقالت له جاريتُها : وما تصنع بالبئر؟ قال: شُؤمُ مولاتك، أمرنى هذا الظالمُ أن أدفنها حيّة ، وهو أسْفَكُ خلقِ الله لدَمٍ حرام . قالت عائشــة : فأنظِرْنى أذهبْ اليه ؛ قال : هيهات لاسبيلَ إلى ذلك، وقال للأسودين: آحفِرا . فلمــا رأت الجِدَّ منه بكت وقالت : يآبن أبى فروة، إنك لقاتلى ما منه بدّ ؟ قال : نعم، وإنى لأعلم أن الله عزّ وجلّ سيُخْزيه بعدكِ ، ولكنّه قد غَضِب وهو كافرُ الغضب . قالت: وفى أى شىء غضبُه؟ قال : مِن آمتناعكِ عليه وقد ظنّ أنك تُبْغِضينه وتَتَطلّعين إلى غيره، فقد جُنّ . فقالت: أنشُدُك اللهَ إلّا عاودتَه . قال : أخاف أن يقتلنى؛ فبكت وبكى جواريها . فقال لها : قد رَقَقْتُ لك وحلَف لها إنه يغترر بنفسه، وقال لها : فما أقول؟ قالت: تضمَن له عنّى أنى لا أعود أبدًا . قال: فمالى عندك؟ قالت: قيامٌ بحقّك ماعِشت . قال: فأعطينى المواثيق فأعطته . فقال للأسودين : مكانَكما. وأتى مصعبًا فأخبره . فقال : آستوثِق منها بالأيمان؛ فآستوثق منها ففعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب .

قال: وكان مصعب من أشدّ الناس إعجابًا بها. ولم يكن لها شبيه فى زمانها حُسْنا ودِيانةً(١) وجمالا وهيئةً وشارةً وعِفّة. وإنها دعت يومًا نِسوةً من قريش، فلمــا جِئْنها أجلستهن فى مجلس قد نُضد فيه الريحان والفواكه والطِّيب والمجامرُ، وخلعت على كلّ آمرأة منهن خلعة من الوَشْى والخزّ ونحو ذلك، ودعت عَزّةَ المَيْلاء ففعلت بها مثــل ذلك وأضعفته ؛ ثم قالت لعزّة : هاتِ ياعزّةُ فغنّينا . فغنّتهن فى شــعر آمرئ القيس فقالت :

وثغر أغرّ شَنِيب اللّثــاتِ * لذِيذ المُقَبَّــل والمُبْتَسَمْ

(١) فى الأغانى : « دمانة » .

وما ذقتُــه غيرَ ظنٍّ به * وبالظنِّ يَقضِى عليك الحَكَمَ

وكان مصعب قريبًا منهن ومعــه إخوانٌ له ، فقام فانتقل حتى دنا منهنّ والســتور مُسْبَلَةٌ ، فصاح بها : ياهذه ، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفتِ ، فبارك الله فيك ياعزة . ثم أرسل إلى عائشة : أمّا أنت فلا سبيل لنا اليك مع من عندكِ ، وأمّا عزّةُ فتأذنين لها أن تغنّينا هذا الصوتَ ثم تعود إليك ، ففعلت وخرجت عزّة اليهم فغنّتهم هذا الصوتَ مرارًا ، وكاد مصعب أن يذهب عقلُه فرحا . ثم قال لها : ياعزّة ، إنك لتُحسِنين القول والوصفَ ، وأمرها بالعَوْد إلى مجلسها .

قال : ولم تزل عند مصعب حتى قُتِل عنها . فخطبها بِشر بن مروان ، وقدِم عمر ابن عبيد الله بن مَعْمَر التَّيْمى من الشأم فنزل الكوفةَ ، فبلَغه أن بشرًا خطبها ، فأرسل إليها جارية لها وقال : قُولى لابنــة عمّى : ابنُ عمك يُقرئك السلام و يقول لكِ : أنا خير لك من هذا المَبْســور المَطْحول ، وأنا ابن عمك أحقّ بك ، و إن تزوجتُ بك ملأتُ بيتــك خيرًا . فتزوّجته فبنى عليهــا بالحِيرة ، فمَهّدت له ســبعة أفرِشة عَرْضُها أربع أذرع ؛ فأصبح ليلةَ بنى بهــا عن تسعة . فلقيته مولاة لها فقالت : أبا حفص ، فديتُك ! قد كَلّتَ فى كلّ شىء حتى فى هذا . وقيل إنه لمــّا تزوّجها حمل إليها ألف ألف درهم ، خُمسمائة ألف مهر ، وخمسمائة ألف هديّة ، وقال لمولاتها : لك علىّ ألف دينار إن دخلتُ بها الليلة ، وأمر بالمــال فحُمِل فأُلقِى فى الدار وغُطّى بالثياب ؛ وخرجت عائشة فقالت لمولاتها : ما هــذا ؟ أفرشٌ أم ثيابٌ ؟ قالت : أُنظرى إليه ؛ فنظرت فاذا هو مال ، فتبسّمت . فقالت الجارية : أجزاءُ من حمل هذا المــال أن يبيت عَزَبا ! قالت : لا والله ، ولكن لا يجوز دخولُه إلا بعد أن أتزيّن له وأستعدّ . قالت : وماذا ؟ فوالله لَوَجْهُك أحسنُ من كلّ زينة وما تَمُدّين يديك إلى طِيب أو ثوب أو مال أو فراش إلا وهو عندك ، وقد عزَمتُ عليك أن تأذنى له .

فقالت : أفعلى . فذهبت إليه فقالت له : بِتْ بنا الليلةَ . فجاءهم عند العِشاء الآخرة فأُدنِى إليه طعام فأكل الطعام كلَّه حتى أعرى الخوانَ وغسل يده وسأل عن المُتَوَضَّأ فأُخبر به ، فقام فتوضّأ وقام يصلّى حتى ضاق صدرى ونمتُ ، ثم قال : أعليكم آذَن؟ قلت : نعم فأدخُل ، فأدخلتُهُ وأسبلتُ السِّتر عليهما . فلما أصبحنا وقفتُ على رأسه فقال : أتقولين شيئا ؟ قلتُ : نعم والله ما رأيت مثلك ! فضحك وضرب بيده على منكِب عائشة وقال لها : كيف رأيتِ ابنَ عمّك؟ فضحكت وغطّت وجهها وقالت :

قد رأيناك فلم تَحْلُ لنا * وبلوناك فلم نَرْضَ الخَبَرْ

ومكثت عائشةُ عند عمر بن عبيد الله ثمانىَ سنين حتى مات سنة اثنتين وثمانين . ولما مات ندبته قائمةً ، ولم تندُب أحدًا قبله من أزواجها إلا جالسة . فقيل لها فى ذلك فقالت : إنه كان أكرَمهم علىّ وأمسّهم بى رَحِمًا ، فأردتُ ألّا أتزوّج بعده . وكانت المرأةُ إذا ندبت زوجَها قائمةً لا تَتزوّج بعده أبدا . ولم تتزوّج عائشةُ بنت طلحة بعد زوجها عمر بن عبيد الله .

ومن أخبار عائشة بنت طلحة أيضا ما رواه أبو الفرج الأصبهانىّ بسنده إلى يزيد ابن عِياض ، قال :

استأذنت عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية عبدَ الملك فى الحجّ ، فأذن لها وقال : ارفعى حوائجَك واستَظهِرى ، فإن عائشة بنت طلحة تُحجّ ، ففعلت وتجهزت بهيئة جَهَدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكِبٌ قد جاء فضَغَطها[1] وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشةَ بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جاريتُها[2] . ثم جاء موكِب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة عائشة ، فضَغَطهم فسألت عنها ،

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٠ ص ٦٠ طبع بولاق) . وفى الأصل : «فضغضها» .

(٢) فى الأغانى : « خازنتها » .

فقالوا : هذه ما شِطتُها . ثم جاءت مواكبُ على هذا لحاشيتها، ثم أقبلت فى ثلثمائة راحلة عليها القِباب والهوادج؛ فقالت عاتكةُ: ما عند الله خير وأبقى . قال: ووفَدَت عائشةُ بنت طلحة على هشام بن عبد الملك، فقال لها : ما أوفدك؟ قالت: حبَسَتِ السماء مطرَها ومنع السلطان الحقَّ. قال : فأنا أصِل رحمك وأعرف حقَّك. ثم بعث إلى مشايخ بنى أميّة فقال: إن عائشة عندى فأسمُروا عندى الليلة فحضروا؛ فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وآثارها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجمٌ ولا غار إلا أسمَتْه . فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت : أخذتُه[1] عن خالتى عائشة رضى الله عنها؛ فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة .

قال: ولما تأيّمت عائشة كانت تُقيم[2] بمكة سنة وبالمدينة سنة، وتخرج إلى مال لها بالطائف عظيم وقصرٍ لها هناك فتتنزه وتجلس فيه بالعشيّات ، فتتناضل بين [يديها][3] الرُّماةُ. فمرّ بها النُّمَيْرىّ الشاعر، فسألت عنه فانتسب لها؛ فقالت: ائتونى به، فجىء به. فقالت له : أنشِدنى مما قلتَ فى زينب ؛ فامتنع وقال : بنتُ عمّى وقد صارت عظاما بالية . قالت : أقسمتُ عليك لمّا فعلت؛ فأنشدها قوله :

نَزَلْنَ بفَخٍّ[4] ثم رُحْنَ عشيّةً * يُلبِّين للرحمن مُعْتَمِرات
يُخَمِّرن أطرافَ الأكفّ من التّقى * ويَخرجن جُنْحَ الليل مُعْتَجِرات[5]
ولما رأت رَكْبَ النُّمَيْرىّ راعها * وكنّ مِنَ أنْ يَلْقَيْنه حَذِرات
تضوّع مِسْكا بطنُ نَعْمانَ أنْ مَشَتْ * به زينبٌ فى نِسوةٍ خفِرات

(١) هكذا بالأصول . وفى الأغانى : «أخذتها» .
(٢) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «مقيمة» . (٣) زيادة يقتضيها السياق .
(٤) اسم واد بمكة . (٥) فى الكامل للبرد (ص ٢٩٠ طبع أوربا) ورد هذا البيت هكذا :
يخبّئن أطراف البنان من التقى * ويخرجن شطر الليل معتجرات

— وزينبُ هذه هى زينب بنت يوسف الثَّقفىّ أختُ الحجّاج، وكان النميرىُّ يهواها ويُشبّب بها، وله معها أخبارٌ يطول شرحُها ليس هذا موضع إيرادها — قال : فقالت له عائشـة لمـا أنشدها هـذا الشـعر : والله ما قلتَ إلا جميـلا، ولا وصفتَ إلا كرما وطِيبًا ودينا وتُقًى، أعْطُوه ألف درهم . فلما كانت الجمعةُ الأخرى تعرّض لهـا، فقالت : علىّ به ؛ فجاء فقالت له : أنشدنى من شعرك فى زينب ؛ قال : فأُنْشِدُكِ من قول الحارث فيك . فوثب مواليها إليه ، فقالت : دعوه فإنه أراد أن يَستقيد لابنة عمّه، هاتِ؛ فأنشدها :

(١١٣)

ظَعَن الأميرُ بأحسنِ الخَلْقِ * وغدا بلبّـــك مَطْلَعَ الشرقِ
وتَنُـــوء تُثقِلها عجِـــيزتُها * نهضَ الضعيف ينوء بالوَسْق
ما صبّحت زوجًا بطلعتهـا * إلا غدا بكواكب الطَّلْقِ
بيضاءُ من تَيْمٍ كَلِفتُ بهـا * هذا الجنونُ وليس بالعِشْقِ

فقالت : والله ما ذكـر إلا جميـلا ، ذكر أنى إذا صبّحتُ زوجا بوجهى غدا بكواكب الطَّلْق ، وأنى غدوتُ مع أمير تزوّجنى الى الشرق ، أعطوه ألف درهم وأكسوه حُلّتين ولا تَعُد لإتْيَاننا يانميرىّ؛ والله أعلم [ولنرجع إلى أخبار المغنّين](١) .

ذكر أخبار محمد بن عائشة

يكنى أبا جعفر ولم يكن له أبٌ يعرف فنُسِب الى أمه ؛ وكان يزعم أن اسم أبيه جعفر . وعائشة أمه مولاةٌ لكَثِير بن الصَّلْت الكِندىّ حليف قريش، وقيل: هى مولاة لآل المطلب بن [أبى](٢) وَداعة السَّهْمى . وقال ابن عائشـة — وقد سأله

(١) هذه الزيادة فى إحدى النسخ .

(٢) الزيادة عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٣ طبع دار الكتب المصرية) .

الوليد بن يزيد فقال : يا محمد البِغْيَةِ أنت؟ (١) — : كانت أمى يا أمير المؤمنين ماشطةً وكنت غلاما، وكانت إذا دخلت إلى موضع قالت (٢): ٱرفعوا هذا لٱبن عائشة، فغلبت على نسبي . قالوا : وكان ٱبن عائشة يفتِن كلَّ من سمعه ، وكان فتيان [من] (٣) المدينة قد فسدوا فى زمانه بمحادثته ومجالسته . وأخذ عن معبد ومالك بن أبى السَّمْح، ولم يموتا حتى ساواهما على تقديمه لهما وٱعترافه بفضلهما . وكان تيّاهًا سيئ الخُلُق ، إن قال له إنسان : تغنَّ قال : ألمثلى يقال هذا ! فإن غنّى وقال له إنسان : أحسنت، سكت ، فكان قليلا ما يُنتفع به .

وكان ٱبن عائشة مُنْقطِعًا إلى الحسن بن الحسن، وكان الحسن مُكْرِما له . فسأله الحسن أن يخرج معه إلى البُغَيْبِغة (٤) ، فٱمتنع ٱبنُ عائشة؛ فأقسم عليه وأظهر الجِدّ . فلما عاين ما ظهر عليه قال : أَخرُج طائعا لا كارِها؛ فأمر له ببغلة فركِبها ومَضَيا الى البُغَيْبِغة، فنزلا الشِّعبَ ثم أكلوا. وقال له : غنِّى، فٱندفع فغنّاه صوتا فٱستحسنه . فقال ابن عائشة : والله لا غنّيتُك فى يومى هذا شيئا . فأقسم الحسنُ ألّا يفارقَ البغيبغةَ ثلاثةَ أيام . فٱغتمّ ٱبن عائشة ليمينه ونَدِم . فلما كان فى اليوم الثانى قال له : غَنِّ فقد برّت يمينُك؛ فنظر إلى ناقةٍ تَقْدُم جماعةَ إبلٍ فٱندفع يغنّى :

تَمُرّ بكَنْدلةِ ٱلمِنجنِيـ * ـقِ يُرْمى بها السُّورُ يوم القتال

وهى أبيات لأميّة بن أبى عائذ الهذلىّ يصف حمارا وحشيًّا؛ والبيت «يمر» بالياء.

وقيل: سال العقيق مرّةً فدخل عَرْصَةَ سعيد بن العاص [الماء] (٥) حتى ملأها،

(١) فى الأصل بعد هذه العبارة : «قال» وهى مكررة مع قوله : «وقال ابن عائشة» .

(٢) رواية الأغانى (ج ٢ ص ٦٢) «قالوا» .

(٣) الزيادة عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) ضيعة بالمدينة أو عين غزيرة كثيرة النخل لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما فى القاموس .

(٥) الزيادة عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٥ طبع دار الكتب المصرية) .

فخرج الناس إليها ، وخرج آبن عائشة فجلس على قرن البئر . فبينا هم كذلك إذ طلع الحسن على بغلة ومعه غلامانِ أسودانِ، فقال لهما : امضيا رويدا حتى تقفا بأصل القَرْن الذى عليه آبنُ عائشة، ففعلا ذلك. ثم ناداه الحسن: كيف أصبحْتَ يابن عائشة قال : بخير . قال : آنظر مَنْ تحتك، فنظر فإذا العَبْدانِ. قال : أتعـرفهما ؟ قال نعم. قال : فهما حُرّانِ لئن لم تُغَنِّنى مائة صوت لآمرنّهما بطَرْحك فى البئر، وهما حُرّان لئن لم يفعلا لأقطعنّ أيديهما[1]. فآندفع آبن عائشة وغنّى بشعر الهُذَلىّ :

ألَا للهِ دَرّك مِنْ * فتًى قـومٍ إذا رَهِبـوا
وقالوا مَنْ فتًى للحر * ب يَرْقُبنا ويَرْتَقِب[2]
فكنتَ فتاهمُ فيها * إذا تُـدْعَى لها تَثِبُ
ذكرتُ أخى فعاودنى * صُداعُ الرأس والوَصَبُ
كما يَعتادُ ذاتَ البـوّ بعد سلوها الطَّربُ
على عبـد بن زُهْرةَ بتُّ طول الليـل أنتحبُ

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفيه إلى حمّاد الراوية :

أن الوليد بن يزيد آستقدمه من العراق إلى الشام على دَوابّ البريد . وكان ممّا حكاه عنه قال : قدِمتُ عليه فأذِن لى، فدخلتُ فإذا هو على سريرٍ مُمهّد وعليه ثوبانِ أصفرانِ وعنده معبدٌ ومالك بن أبى السَّمْح وأبو كامل مولاه، فآستنشدنى :

* أمِن المنونِ وريبِها[3] تتوجّعُ *

(١) كذا فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٦) وفى الأصل : « فهما أحرار إن لم تغن مائة صوت لآمرهما بطرحك فى البئر وهما حران ان لم يفعلا إن لم أقطع أيديهما » .

(٢) فى الأصل : « فترتقب » والتصحيح عن الأغانى وديوان الهذليين .

(٣) ويروى : « وريبه » وكلاهما صحيح، لأن المنون يذكر ويؤنث .

فأنشدتُه حتى أتيتُ على آخرها . ثم قال : يا مالك، غنّنى :

ألا هل هاجك الأظعا * نُ إذ جاوزن مُطّلَحا

فغنّاه . ثم قال : غنّنى :

جَـلَا أميّـةُ عنّى كلَّ مَظْلِمةٍ * سهلَ الحجاب وأوفى بالذى وعَدَا

٥ فغنّاه . ثم قال : غنّنى :

أتَنْسَى[1] إذ تُودِّعُنا سُلَيْمى * بِفرعِ بَشَامةٍ، سُقِيَ البَشامُ !

فغنّاه، ثم أتاه الحاجبُ فقال : يا أمير المؤمنين، الرجلُ الذى طلبت بالباب، فأذِن له فدخل شابٌّ لم أرَ أحسنَ وجهًا منه . فقال له : غنّنى :

وهى إذ ذاك عليها مِئْزَرٌ * ولها بيتُ جَوارٍ مِن لُعَب

١٠ فغنّاه، فنبذ إليه الثوبين، ثم قال : غنّنى :

طاف الخيالُ فمرحبا * ألفًا برؤية زينبا

فغضِب معبدٌ وقال : يا أمير المؤمنين، إنّا مُقْبِلون عليك بأقْدارنا وأسناننا وإنك تركتنا بمَزْجَر الكلب وأقبلتَ على هذا الصبىّ . فقال : يا أبا عبّاد، ما جهِلتُ قدرَك ولا سنَّك، ولكن هذا الغلام طَرَحنى فى مثل الطَّناجير من حَرارة غِنائه . قال حمّاد :

١٥ فسألت عن الغلام فقيل لى : هو ابن عائشة .

وحُكِى عن شيخ من تَنُوخ قال : كنتُ صاحبَ سِتْر الوليد بن يزيد، فرأيت ابن عائشة عنده وقد غنّاه :

إنى رأيتُ صبيحةَ النَّفْـر * حُورًا تَفَيْن عزيمةَ الصبرِ

مثلَ الكواكب فى مطالعها * بعد العِشاء أطفن بالبـدرِ

---

٢٠ (١) رواية اللسان : «أتذكر» بدل «أتنسى» . وروى بوجه آخر والشعر لجرير :

* أتذكر يوم تصقل عارضيها *

وخرجتُ أبغي الأجرَ مُحتسِبا * فرجَعتُ موفورًا من الوِزْرِ

فطرب الوليد حتى كفر وألحد، وقال : ياغلام، آسقِنا بالسماء السابعة[1]، ثم قال : أحسنتَ والله يا أميرى، أعِد بحقّ عبد الشمس فأعاد، ثم قال : أحسنت يا أميرى والله، أعِد بحق أميّة فأعاد، ثم قال : أعِد بحق فلان حتى بلغ من الملوك نفسَـه، فقال : أعِدْ بحياتى فأعاده ؛ فقام فأكبّ عليه ، فلم يَبْق عضوٌ من أعضائه إلّا قبّله؛ ثم نزَع ثيابه فألقاها عليـه وبقى مجرّدا إلى أن أتوْه بمثلها ، ووهب له ألف دينـار وحمَـله على بغلة وقال : آركبها بأبى أنتَ وآنصرِفْ، فقد تركتنى على مثل المِقْلَى من حرارة غنائك . فركِبها على بساطه وآنصرف .

وحُكِى أيضا أن آبن عائشة آنصرف من عند الوليد وقد غنّاه :

أبعـدَكَ مَعقِلًا أرجو وحِصنًا * قَدَ آعيتنى[2] المعـاقلُ والحصونُ

فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثـل كارَةِ القصّار[3] كسوةً . فبينا آبن عائشة يسير إذ نظر إليه رجلٌ من أهل وادى القُرى، وكان يَشتهى الغناءَ ويشرب النبيذَ، فقال لغلامه : مَن هـذا الراكب ؟ قال : آبنُ عائشة المغنّى ، فدنا منه فقـال : جُعلت فِداءك ! أنتَ آبن عائشة أمّ المؤمنين؟ قال : لا أنا مولًى لقريش وعائشةُ أمى، وحسبُك هذا. قال : وما هذا الذى أراه بين يديك من المـال والكُسْوة؟ قال : غنّيتُ أمير المؤمنين صوتا فأطربه فكفَر وترك الصـلاةَ وأمر لى بهذا المـال وهذه الكسوة . قال : جُعلتُ فداءك ! فهل تَمُـنّ علىّ أن تُسمِعَنى ما أسمعتَهُ إيّاه ؟ فقال : ويلك !

(١) فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٢٦ طبع دار الكتب المصرية) : « الرابعة » .

(٢) كذا فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٢٧) . وفى الأصل : « وراعنى » .

(٣) القصار هو الذى يحوّر الثياب ويدقها . والكارة : ما يحمله من الثياب . قال صاحب اللسان : وسميت بذلك لأنه يكوّر ثيابه فى ثوب واحد ويحملها فيكون بعضها على بعض .

أمثلى يُكلّم بهذا فى الطريق! قال: فما أصنع؟ قال: ألحقنى بالباب. وحرّك ابنُ عائشة بغلته لينقطعَ عنه، فعدا معه حتى وافيا الباب كفَرَسَىْ رِهانٍ. ودخل ابنُ عائشةَ فمكث طويلا طمعًا ان يضجَرَ فينصرفَ، فلم يفعل حتى أعياه. فقال لغلامه: أدخِله، فلما دخل، قال له: ويلك! مِن أين صبّك اللهُ علىّ! قال: أنا رجل من أهل وادى القُرى أشتهى هذا الغناءَ. فقال له: هل لك فيما هو أنفع لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرفُ بها الى أهلك. فقال له: جُعِلتُ فداءك! والله إن لى بُنيّةً ما فى أُذنها — علم الله — حَلْقةٌ من الوَرِق فضلا عن الذهب، وإن لى زوجةً ما عليها — شهد الله — قميصٌ، ولو أعطيتَنى جميعَ ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الحالة والفقر اللّذين عَرَّفْتُكهما وأضعفتَ لى هذا لكان الصوتُ أعجبَ إلىّ. فتعجّب ابن عائشة وغناه الصوت، فجعل يحرّك رأسه ويطرَب له طربًا شديدا حتى ظنّ أن عنقَه ستَنْقصف؛ ثم خرج من عنده ولم يَرْزَأه شيئا. وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد، فسأل ابنَ عائشة عنه، فجعل يغيب عن الحديث؛ فلم يزل به حتى صدَقَه الحديثَ، فطلب الرجلَ، فطُلِب حتى أُحضِر إليه ووصله صِلةً سنيّةً وجعله من ندمائه ووكّله بالسَّقْى؛ فلم يزل معه حتى قُتل رحمه الله.

وعن علىّ بن الجهم الشاعر قال: حدّثنى رجل أن ابن عائشة كان واقفا بالموسِم مُهَجِّرًا[1]. فمرّ به بعضُ أصحابه فقال: ما يُقيمك هاهنا؟ قال: إنى أعرف رجلا لو تكلم لحبس الناسَ هاهنا فلم يذهب أحدٌ ولم يجئ. فقال له الرجل: ومن ذاك؟ قال: أنا؛ ثم اندفع يغنّى:

جَرَتْ سُنُحًا فقلت لها أجيزِى * نوًى مشمولةً فمتى اللّقاءُ
بنفسى مَن تَذَكّره سَقامٌ * أُعانِيه ومَطْلَبُه عناءُ

(١) فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٨ طبع دار الكتب المصرية): «متحيرا».

قال : فحبس النـاسَ وٱضـطربت المحاملُ ومدّت الإبلُ أعناقَها ، فكادت الفتنة أن تقع . فأُتِى به هِشام بن عبد الملك ، فقال له : ياعدوّ الله ! أردتَ أن تَفتِنَ الناسَ ! قال : فأمسك عنـه وكان تيّاهًا ؛ فقال له هشام : أُرفُقْ بتِيهِك . فقال : يَحِقّ لمن كانت هذه مقدرتَه على القلوب أن يكون تيّاها ! فضحك هِشامٌ وخلّى سبيله .

وٱختُلِف فى وفاة ٱبن عائشة وسببها . فقيـل : كانت وفاتُه فى أيام هشام بن عبد الملك ، وقيل : فى أيام الوليد بن يزيد وهو أشبه ، لأنه قد تقدّم أنه نادم الوليدَ وغنّاه . والذى يقـول : إنه تُوفّى فى أيام هشام يزعُم أنه نادمَ الوليدَ فى أيام ولايته العهدَ . وكانت وفاتُه بذى خُشُبٍ ، وهو على أميال من المدينة . قيل : كان سببُ وفاته أن الغمر بن يزيد خرج إلى الشأم ؛ فلما نزل قصرَ ذى خشبٍ جلس على سطحه ، فغنّى ٱبنُ عائشـة صوتًا طرِب له الغمر ، فقال : أعِدْه فأبَى ، وكان لا يردّد صـوتا لسوء خُلُقه . فأمر به فطُرِح من أعلى السطح فمات . وقيل : بل قام من الليل يبول وهو سكرانُ فسقط من السطح فمات . وقيل : بل كان قد رجع من عند الوليد بن يزيد ، فلما قَرُب من المدينة نزل بذى خُشُب ، وكان والى المدينة إبراهيم بن هشام ٱلمخزومىّ وكان فى قصره هناك ، فدعاه فأقام عنده ذلك اليوم . فلما أخذوا فى الشّرب أخرج المخزومىّ جوارِيَه ، فنظر إلى ٱبن عائشة وهو يغمِز جاريةً منهنّ ؛ فقال لخادمه : إذا خرج ٱبن عائشة يريد حاجتَه فٱرْمِ به من القصر ، وكانوا يشربون فى سطح القصر . فلما قام رماه الخادم فمات . وقيل : بل أقبل من الشأم فنزل بقصر ذى خُشُب فشرب فيه ثم صعِد إلى أعلى القصر فنظر إلى نسوة يمشين فى ناحية الوادى ، فقال لأصحابه : هل لكم فيهنّ ؟ فقالوا : وكيف لنا بهنّ ! فلبس مُلاءةً مدلوكةً ثم قام على شُرْفة من شُرُفات القصر وتغنّى بشعر ٱبن أُذَيْنة :

وقد قالت لأترابٍ * لهـا زُهْـــرٍ تلاقَيْنا

تعالَيْن فقد طاب * لنا العيشُ تعالَيْنا

فأقبلن عليه، فطرِب واستدار فسقط فمات، عفا الله تعالى عنه ورحمه. وقيل: بل مات بالمدينة. وأوّل هذه الأبيات:

سُلَيْمَى أزمعت بَيْنا * وأين لقاؤُها أيْنا (١٦)

وقد قالت لأتْرابٍ * لها زُهْرٍ تلاقينا ٥

تعالَيْن فقد طاب * لنا العيش تعالينا

فأقبلن إليها مُسْـ * ـرِعات يتهادينا

إلى مثل مَهَاة الرمـ * ـل تكسو المجلس الزَّيْنا

إلى خَوْدٍ مُنعَّمة * حَفَفْنَ بها وفَدَّينا

تمنَّين (١) مُنَاهنّ * فكلّا ما تمنّينا ١٠

ذكر أخبار ابن مُحْرِز

هو مسلم، وقيل: عبد الله بن مُحرز. ويُكْنى أبا الخطاب. مولى عبد الدار بن قُصَيّ. وكان أبوه من سَدَنة الكعبة، وأصلُه من الفرس. وكان يسكن المدينةَ مرّةً ومكة مرّةً. فكان إذا أتى المدينةَ أقام بها ثلاثة أشهر يتعلّم الضربَ من عَزَّة الميلاء ثم يرجع إلى مكة فيُقيم بها ثلاثةَ أشهر. ثم شخَص إلى فارس فتعلّم ألحانَ الفرس ١٥ وأخذ غناءَهم، ثم صار إلى الشام فتعلّم ألحان الروم (٢) وأخذ غناءهم. وأسْقَط من ذلك مالا يُستحسن من غناء الفريقين ونغمهم وأخذ محاسنَها، فمزَج بعضَها ببعض وألّف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب، فأتى بما لم يُسْمع مثلُه. وكان يقال له صَنّاج العرب.

(١) فى الأصل: «فنين». والتصويب عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٣٧ طبع دار الكتب المصرية).

(٢) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٣٧٨ طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل: «ألحان الشأم».

وقيـل : إنه أوّل من أخذ الغناء عن ٱبن مِسْجَح . وهو أوّل من غنّى بالرَّمَل وما غُنّى قبله . وكان ٱبنُ محرز قليلَ المُلَابَسة للناس، فأحمل ذلك ذكرَه . وأخذ أكثرَ غِنائه جاريةٌ كانت لصـديق له من أهل مكة كانت تألفه فأخذه الناسُ عنهـا . ومات بعلّة الجُذام ، وكان ذلك سببَ ٱمتناعه من معاشرة الخلفاء ومخالطةِ الناس .

وحُكِى أنه رحل إلى العراق، فلما بلغ القادسيّةَ لَقِيه حُنَيْنٌ فقال له : كم مئّتك نفسُك من العراق ؟ قال : ألف دينار؛ قال : هذه خمسمائة دينار فخذها وٱنصرِف وٱحلِف ألّا تعود، ففعل . فلما شاع ما فعل حنينٌ لامه أصحابُه : فقال : والله لو دخل العراق ما كان لى معه خبزٌ آكله ولأُطْرِحتُ ثم سقطتُ إلى آخر الدهر . ولم أقف من أخبار ٱبن محرز على أكثر من هذا فأُورِده . والسلام .

ذكر أخبار مالك بن أبى السَّمْح

هو أبو الوليد مالك بن أبى السَّمْح . وٱسم أبى السمح جابر بن ثعلبة الطائى، وأمّه قرشيّةٌ من بنى مَخْزوم؛ وقيل : بل أمّ أبيه [منهم](١)؛ وقيل فيه : مالك بن أبى السمح بن سليمان . وكان أبوه منقطعًا إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ويتيمًا فى حِجْره أوصى به أبوه إليه . وكان مالكٌ أحولَ طويلا . وأخذ الغناءَ عن جميلة ومعبد وعمر، وأدرك الدولة العباسيّة . وكان منقطِعًا إلى بنى سليمان بن علىّ، ومات فى خلافة أبى جعفر المنصـــور .

وروى الأصفهانىّ بسنده إلى الوَرْدانىّ، قال :

كان مالك بن أبى السمح المغنّى من طيئ، فأصابتهم حُطْمة(٢) فى بلادهم بالجبلين،

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠١ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) الحطمة : السنة الشديدة .

فقدِمت به أمّه و بإخوة له وأخواتٍ أيتامٍ لا شيء لهم . وكان يسأل الناسَ على باب حمزة بن الزبير . وكان معبدٌ منقطعا إلى حمزة يكون عنده فى كل يوم . فسمع مالكٌ غناءَه فأعجبه وٱشتهاه . وكان لا يفارق باب حمزة يسمع غناءَ معبد إلى الليل ولا يطوف بالمدينة ولا يطلب من أحد شيئا ولا يَرِيم موضعَه[1]، فينصرف إلى أمه ولم (١١٧) يكسب شيئا فتضربه ، وهو مع ذلك يترنّم بألحان معبد فيؤدّيها نغمًا بغير لفظ . وجعل حمزةُ كلما غدا أو راح رآه ملازِما لبابه؛ فقال لغلامه يوما : أدخِل هذا الغلامَ إلىّ فأدخله الغلام اليه؛ فقال له حمزة : من أنت ؟ قال : غلام مِن طيئ أصابتنا خُطْمة بالجبلين فهبطنا إليكم ومعى أمٌّ لى و إخوةٌ، و إنى لزِمتُ بابَك فسمعت من دارك صوتًا أعجبنى ولزِمت بابك من أجله . قال : فهل تعرف منه شيئا ؟ قال : أعرف لحنه كلّه ولا أعرف الشعر . فقال : إن كنت صادقًا إنك لَفَهِمٌ . ودعا بمعبد فأمره أن يغنّى صوتا فغنّاه ، ثم قال لمالك : هل تستطيع أن تقوله؟ قال نعم . قال : هاته ؛ فٱندفع فغنّاه فأدّى نغمه بغير شعر[2]، يُؤدّى مَدّاتِه ولَيّاتِه وعَطَفاتِه ونَبَراته ومتعلقاته لايَخْرِم منه حرفا . فقال لمعبد : خذ هذا الغلام إليك وخرِّجه فَلَيَكونَنّ له شأنٌ . قال معبد : ولِمَ أفعل ذلك؟ قال : لِتكونَ محاسنُه منسوبة إليك وإلّا عَدَاك إلى غيرك فكانت محاسنُه منسوبةً إليه . فقال معبد : صدق الأمير، وأنا أفعل ما أمرتنى به . قال حمزة لمالك : كيف [وجدتَ][3] مُلازمتَك لبابنا؟ قال : أرأيتَ إن قلتُ فيك غير الذى أنتَ له مستحقّ من الباطل أكنتَ ترضى بذلك ؟ قال لا . قال : وكذلك لا يسرّك أن تُحمَد بما لم تفعل ؛ قال نعم . قال : فوالله ما شبِعت على بابك شَبْعةً قط ، ولا ٱنقلبتُ إلى أهلى منه بخير . فأمر له ولأُمّه ولإخوتِه بمنزل

(١) لا يريم : لا يبرح . (٢) فى الأصول : « شىء » والتصحيح عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٣ طبع دار الكتب المصرية) . (٣) الزيادة عن الأغانى .

وأجرى عليهـم رِزقًا وكُسوةً وأمر لهم بخادم يخدُمهم وعبدٍ يسقِيهم المـاء، وأجلس مالكا معه فى مجالسه، وأمر معبدًا أن يطارِحه فلم يَنْشَب أن مهر . فخرج مالك يوما فسمع آمرأة تنوح على زيادةَ الذى قتله هُدْبَةُ بن خَشْرم ـ والشعرُ لأخى زيادة ـ :

أبعدالذى بالنَّعف نعفِ كُوَيكب * رهينـةَ رمسٍ ذى تُرابٍ وجَندلِ
أُذَكِّر بالبُقيا على من أصابنى * وذلك أنّى جاهِـدٌ غـيرُ مؤتَلِي (١)
فـلا يَدْعُنِي قومِى لزيدِ بن مالكٍ * لئن لم أُعجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ
وإلّا أنَلْ ثارى من اليوم أو غدٍ * بنِى عمّنـا فالدهرُ ذو مُتطـوَّلِ
أنَخْتُمْ علينـا كَلْكَلَ الحرب مرّةً (٢) * فنحن مُنِيخُوها (٣) عليـكم بكَلْكَلِ

فغنّى فى هـذا الشعر لحنَين، أحدُهما نَحا فيـه نحو المرأة فى نَوْحها ورقّقه وأصلحه، والآخرُ نحا فيه نحو معبد فى غنائه . ثم دخل على حمزة فقال له : أيها الأمير، إنى قد صنعتُ غناءً فى شعر سمعتُ أهلَ المدينة يُنشِدونه وقد أعجبنى، فإن أذِن الأميرُ غنّيتُه . قال : هاتِ، فغنّى اللحنَ الذى نحا فيه نحو معبـدٍ، فطرب حمزة وقال : أحسنتَ ياغلام، هـذا الغِناءُ غناءُ معبـدٍ بطريقته . قال : لا تَعْجَلْ أيها الأمير وآسمع مِنّى شيئا ليس من غناء معبد ولا طريقته، فغنّاه اللحنَ الذى تشبّه فيه بنوح المرأة . فطرِب حمزةُ حتى ألقى عليه حُلّةً كانت عليه قيمتُها مائتا دينار . ودخل معبدٌ فرأى حُلّة حمزة على مالكٍ فأنكرها . وعلِم حمزةُ بذلك فأخبر معبدًا بالسبب، وأمر مالكا فغنّاه الصوتين . فغضب معبد لمـا سمـع الصوت الأوّل وقال : قد كرهت أن آخُذ هذا الغلام فيتعلّم غنائى فيدّعِيه

(١) فى الأغانى : « وبقياى أنى ... » وورد البيت فى اللسان (مادة « بق ») منسوبا الى أبى القمقام الأسدى هكذا :

أذكر بالبقوى على ما أصابنى * وبقواى أنى جاهد غير مؤتلى

(٢) فى الأصول : « الدهر » . والتصويب عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٤) .

(٣) فى الأصول : «سننخوها» . والتصويب عن الأغانى .

لنفسه . فقال حمزة : لا تَعْجَلْ وٱسمع غِناءً [صنعه](١) ليس من شأنك ولا غنائك ، وأمرَه أن يغنّى الصوتَ الآخر فغنّاه ، فأطرق معبدٌ . فقال له حمزة : والله لو ٱنفرد بهذا لضاهاك ثم تزايد على الأيام ؛ وكلما كبِر وزاد شِخْتَ أنت وٱنتقصتَ ، فلأن يكون منسوبًا إليك أجملُ . فقال له معبدٌ وهو مُنْكَسِر : صدق الأمير . فأمر حمزةُ لمعبدٍ بخلعة من ثيابه وجائزة حتى سكَن وطابت نفسُه . فقام مالكٌ على رجليه وقبّل رأس معبد وقال له : ياأبا عبّاد ، أساءك ما سمعتَ منى؟ والله لا أُغنّى لنفسى شيئا أبدًا ما دمتَ حيًّا ! وإن غلبتنى نفسى فغنّيتُ فى شعر ٱستحسنتُه لا نسبتُه إلا إليك ، فطِبْ نفسا وٱرْضَ عنّى . فقال له معبد : أتفعل هـذا وتفى به؟ قال : إى والله وأزيد . فكان مالك إذا غنّى صوتًا وسُئِل عنه قال : هذا لمعبد ، ماغنّيتُ لنفسى شيئًا قط ، وإنما آخذ غناءَ معبـد فأنقُله إلى الأشعار وأحسّنه وأزيد فيه وأنقص منه . وحضر مالكُ بن أبى السَّمْح عند يزيد بن عبد الملك مع معبد وٱبن عائشة فغنّوْه ، فأمر لكلّ واحد منهم بألف دينار .

(١١٨)

وحكى عن ٱبن الكلبىّ قال : قال الوليد بن يزيد لمعبد :

قد آذَتْنِي وَلْوَلَتُك هذه ، وقال لٱبن عائشة : قد آذانى ٱستهلالُك هذا ، فٱطلُبا لى رجلا يكون مذهبُه متوسِّطا بين مَذْهَبَيْكما . فقالا له : مالك بن أبى السمح ؛ فكتب فى إشخاصه إليـه وسائرِ من بالحجاز من المغنّين . فلما قدِم مالك على الوليـد بن يزيد فيمن معه نزَل على الغَمْر بن يزيد ، فأدخله على الوليد فغنّاه فلم يُعْجِبه . فلما ٱنصرف قال له الغمر : إنّ أمير المؤمنين لم يُعْجِبه شىءٌ من غنائك ، فقـال له : جعلنى الله فِدَاك ! اطلُبْ لى الإذن عليه مرّة أخرى ، فإن أعجبه شىءٌ ممّـا أغنّيه وإلا ٱنصرفتُ إلى بلادى . فلما جلس الوليد فى مجلس اللهو ذكره الغمرُ له ؛ فأذن له فشرب مالكٌ

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٥) .

ثلاث صُرَاحيّات[1] صِرْفا، ودخل على الوليـد وهو يَخْطِـر فى مشيته، فلما بلغ بابَ المجلس وقف ولم يُسَلِّم وأخذ بحَلْقة الباب ثم رفع صوتَه فغنّى :

لا عيشَ إلا بمـالك بن أبى السَّمْح فـلا تَلْحَـنى ولا تَـلُمِ
أبيضُ كالبـدر أو كما يلمع الـ * ـبارق فى حالِك من الظُّلَمِ
فليس يَعصِيك إن رشَدتَ ولا * يَهْتِك حقّ الإسـلامِ والحُرَمِ
يُصيبُ مِن لذّة الكرام ولا * يجهل آىَ الترخيص فى اللَّمَمِ
يارُبّ ليلٍ لنـا كحاشـيةِ الـ * ـبُرْدِ ويومٍ كذاك لم يَدُمِ
نَعِمتُ فيـه ومالكَ بن أبى السَّمحِ الكريمَ الأخلاقِ والشِّيَمِ

فطرِب الوليد ورفع يديه حتى بان إبطاه وقام فاعتنقه، ثم أخذ فى صوته ذلك فلم يزالوا فيه أياما، وأجزل له العطيّةَ حين أراد الانصرافَ . قال : ولما أتى مالكٌ على قوله : « أبيض كالبدر » قال الوليد :

أحولُ كالقِـرد أو كما يَرْقُب السّارقُ فى حالكٍ مِن الظُّـلَمِ

قالوا : وكان مالكُ بن أبى السمح مع الوليد بن يزيد يوم قُتِل هو وابنُ عائشةَ. قال ابن عائشة : وكان مالكٌ من أحمق الخَلْق، فلما قُتِل الوليد قال : اهْرُبْ بنا؛ قلت : وما يُريدون منّا؟ قال : وما يؤمِّنك أن يأخذوا رأسينا فيجعلوا رأسَه بينهما ليحسِّنوا أمرهم بذلك! .

ذكر أخبار يونس الكاتب

هو يونس بن سليمان بن كُرْد بن شَهْرِيار من ولد هُرْمُز، مولًى[2] لعمرو بن الزبير، ومنشؤه ومنزلُه بالمدينة، وكان أبوه فقيهاً فأسْلَمه فى الديوان وكان من كُتّابه . وأخذ

(١) جمع صراحية وهى آنية للخمر .

(٢) فى الأغانى (ج ٤ ص ٣٩٨ طبع دار الكتب المصرية) : « وقيل : إنه مولى ... » الخ .

الغناءَ عن معبد وابن سريج وآبن مُحْرِز والغريض، وكان أكثرُ روايته عن معبد. ولم يكن فى أصحاب معبد أحذقُ منه ولا أقومُ بما أُخِذ عنه منه. وله غناءٌ حسن، وصنعة كثيرة، وشعر جيِّدٌ. وهو أوّل من دوّن الغناءَ. وله كتاب فى الأغانى نسبها إلى من غنّى فيها. وخرج إلى الشأم فى تجارة، فبلغ الوليدَ بن يزيد مكانُه فأحضره والوليدُ إذ ذاك ولىُّ العهد. قال: فلما وصلتُ إليه سلّمتُ عليه، فأمرنى بالجلوس، ثم دعا بالشراب والجوارى. قال يونس: فمكثنا يومَنا وليلتَنا فى أمر عجيب، وغنّيتُه فأُعْجِب بغنائى إلى أن غنّيتُه:

إن يَعِشْ مُصْعَبٌ فنحن بخير * قد أتانا مِن عيشنا ما نُرَجِّى

ثم تنبهتُ فقطعتُ الصوتَ وأخذتُ أعتذر من غنائى بشعرٍ فى مصعب، فضحك ثم قال: إن مُصْعَبًا قد مضى وآنقطع أثرُه ولا عداوة بينى وبينه وإنما أُريد الغناء، فأمضِ الصوتَ؛ فعُدْتُ فيه فغنّيته ولم يَزل يَستعيده حتى أصبح فشرب مُصْطَبِحًا وهو يَستعيدنى هذا الصوت ولا يَتجاوزه. فلما مضت ثلاثةُ أيام قلت: جعلنى الله فداك إنى رجل تاجر خرجتُ مع تُجّارٍ وأخاف أن يرتحلوا فيضيع مالى، فقال: أنت تغدو غدًا، وشرب باقى ليلته وأمر لى بثلاثة آلاف دينار. فحُمِلَتْ إلىّ وغدوتُ إلى أصحابى. فلما آستُخلِف بعث إلىّ فأتيتُه فلم أزَلْ معه حتى قُتِل.

(١١٩)

ذكر أخبار حُنَيْن

هو حنين بن بَلْوَعَ الحِيرِى. وآختُلف فى نسبه، فقيل: هو من العِبادِيّين من تَميم، وقيل: إنه مِن بنى الحارث بن كعب، وقيل: إنه من قوم بَقُوا من طَسْمٍ وجَدِيس، فنزلوا فى بنى الحارث بن كعب فعُدّوا فيهم. ويُكنى أبا كعب. وكان شاعرًا مُغنّيًا من فحول المُغنّين، وكان يَسكن الحِيرةَ ويُكْرِى الجمال إلى الشأم، وكان

نَصْرانيًّا. وعن المدائنىّ قال: كان حُنينٌ غلاما يَحمِل الفاكهةَ بالحِيرة، وكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيانِ[(١)] ومياسيرِ أهل الكوفة وأصحاب القِيان والمُتَطَرِّبين ورأوا رشاقته وحسنَ قدّه وحلاوتَه وخِفّةَ رُوحه آستحلوه وأقام عندهم، فكان يَسمع الغناءَ ويُصْغِي له، حتى شدا منه أصواتًا فآستمعه الناسُ، وكان مطبوعًا حسنَ الصوت. وآشتهر غناؤه وشُهِر بالغناء ومهَرَ فيه وبلَغ فيه مبلغا كبيرا. ثم رحل إلى عمر بن داود[(٢)] الوَادِىّ وإلى حكَم الوَادِىّ وأخذ منهما وغنّى لنفسه وآستولى على الغناء فى عصره، وهو الذى بذل لآبن مُحْرِزٍ خمسمائة دينار حتى رجع عن العراق، كما قدّمناه فى أخبار آبن محرز. وبلغ من الناس بالغناء مبلغًا عظيما، حتى قيل له فيما حُكى: إنك تغنّى منذ خمسين سنة فما تركتَ لكريم مالا ولا دارا ولا عَقارا إلا أتيتَ عليه. فقال: بأبى أنتم! إنما هى أنفاسِى أقسِمها بين الناس، أفتلومونِى أن أُغلِى بها الثمن.

وحكى المدائنىّ قال: حجّ هشام بن عبد الملك وعديلُه الأبرش الكلبىّ؛ فوقَف له حنينٌ بظهر الكوفة ومعه عودٌ وزامِر له. فلما مرّ به هشام عرَض له فقال: من هذا؟ قيـل: حنين؛ فأمر به هشام فحُمِل فى مَحْمِلٍ على جمل وعديلُه زامِرُه وسيّره أمامه، فغنّاه:

أمِن سَلْمى بِظهرِ الكو * فةِ الآياتُ والطَّلَـلُ
تلوح كما تلوح عـلى * جفون الصَّيْقَلِ الخِلَـلُ

فأمر له هشام بمـائتى دينار وللزّامر بمـائة دينار.

وحُكى أن خالد بن عبد الله القَسْرىّ حرّم الغناءَ بالعراق فى أيامه ثم أذِن للناس يوما فى الدخول عليه عامّةً؛ فدخل عليه حنين فى جملة الناس ومعه عودٌ تحت ثيابه

(١) كذا فى الأغانى (ج ٢ ص ٣٤٥ طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل: «بيوت القيان».
(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «عمرو» وهو تحريف.

فقال : أصلح الله الأمير! كانت لى صِناعةٌ أعود بها على عيالى فحرمها الأميرُ فأضرّ ذلك بى وبهم . فقال : وما كانت صِناعتُك ؟ فكشف عن عوده وقال : هذا . فقال له خالد : غَنِّ؛ فعرك[1] أوتارَه وغنّى :

أيّها الشّامتُ المُعَيِّر بالدهـ * ـر أأنتَ المُبَرَّأُ الموفُورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيـ * ـام بل أنتَ جاهلٌ مغرورُ
من رأيتَ المنونَ خَلّدن أم مَنْ * ذا عليه مِن أن يُضامَ خَفيرُ

قال : فبكى خالد وقال : قد أذِنتُ لك وحدك خاصّةً ، ولا تجالِس سفيهًا ولا مُعَربِدًا . فكان إذا دُعِى قال : أفيكم سفيه أو معربِدٌ ؟ فإذا قالوا لا ، دخل .

وقال بشر بن الحسين بن سليمان بن سَمُرة بن جُنْدب : عاش حنين بن بَلْوَع مائة سنة وسبع سنين .

ذكر أخبار سياط

هو عبد الله بن وهب ويُكْنى أبا وهب ، وسياطٌ لقب غلَب عليه . وهو مَكىٌّ مولى خزاعة . كان مقدّمًا فى الغناء رِوايةً وصنعةً ، مقدّمًا فى الطرب . وهو أستاذ ٱبن جامع وإبراهيم الموصلىّ وعنه أخذا، وأخذ هو عن يونس الكاتبِ . وكان سياط زوج أمّ ٱبن جامع . قيل : وإنما لُقِّب سِياطٌ بهذا اللقبِ لأنه كان كثيرا ما يغنّى :

كأنّ مزاحفَ الحيّاتِ فيها[2] * قُبيلَ الصبح آثارُ السّياطِ

حُكى أن إبراهيم الموصلىّ غنّى صوتا لسياط ، فقال ٱبنه إسحاق : لِمَنْ هذا الغناء يا أبت ؟ قال : لِمن لو عاش ما وجد أبوك خبزا يأكله ، سياط .

(١) فى الأغانى : « فحرك » .

(٢) فى الأغانى (ج ٦ ص ١٥٢ طبع دار الكتب المصرية) : « فيه » .

وحكى أن سِياطا مرّ بأبى رَيْحانةَ فى يوم بارد وهو جالسٌ فى الشمس وعليه سَمَلُ ثوبٍ رقيق رثّ؛ فوثب إليه أبو ريحانة المدنىّ وقال : بأبى أنت ياأبا وهب! غَنِّنِي صوتك فى شعر ابن جُندَب :

فؤادِى رهينٌ فى هواك ومُهجتِى * تَذوبُ وأجفانى عليك هُمولُ

فغنّاه إياه، فشقّ قميصَه ورجع إلى موضعه من الشمس وقد ازداد بردا وجَهْدا . ٥ فقال له رجل : ما أغنى عنك هذا مِن شقّ قميصك؟! فقال: يابن أخى، إن الشعر الحسن من المغنّى المحسِنِ ذى الصوت المطرِبِ أدفأ للقرور من حمّام مُحْمًى . فقال له رجل : أنت عندى من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فقال : بل أنا مِمّن قال الله تعالى فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ . وقد حكيت هذه الحكاية أيضا من طريق آخر : أنّه لمّا غنّاه هذا ١٠ الصوت شقّ قميصَه حتى خرج منه وبَقِى عَارِيًا وغُشِى عليه واجتمع الناسُ حوله، وسِياطُ واقف يتعجّب ممّا فعل، ثم أفاق فقام إليه . فقال له سياطٌ : مالك[1] يامشئوم! أىَّ شىء تريد؟ قال : غنِّنِي بالله عليك ياسيدى :

وَدِّع أُمامةَ حان منك رحيلُ * إنّ الوداع لمن تُحِبّ قليل

مِثل القضيب تمايَلَتْ أعطافُه * فالريح تَجْذِب مَتْنَه فيميل[2] ١٥

إن كان شأنكم الدّلال فإنه * حسنٌ دلالكِ يا أُمَيم جميلُ

فغنّاه، فلطَم وجهه حتى خرج الدَّمُ مِن أنفه ووقع صريعًا . ومضى سياطٌ وحمل الناسُ أبا ريحانة إلى الشمس . فلما أفاق قيل له فى ذلك فقال نحو ماتقدّم . قال: ووجّه إليه سياطٌ بقميص وسراويل وجبّةٍ وعمامة .

(١) فى الأصل : « مالك أيضا » . ولا معنى لكلمة « أيضا » وهى غير موجودة فى الأغانى . ٢٠

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل :

... ... أعطافها * والريح تجذب متنها فتميل

وكانت وفاةُ سياط فى أيام موسى الهادى . ودخل عليه ٱبن جامع وقد نَزَل به الموت فقال له : ألك حاجة؟ قال: نعم لا تَزِدْ فى غنائى شيئا ولا تَنْقُص منه، فإنما هو ثمانية عشر صوتًا دَعْه رأسا برأس . وقيل : بل كانت وفاتُه فجأةً، وذلك أنه دعاه بعض إخوانه فأتاهم وأقام عندهم وبات ؛ فأصبحوا فوجدوه ميتًا فى منزلهم ؛ فجاءوا إلى أمه وقالوا : ياهذه إنا دعونا ٱبنكِ لِنُكرمه ونُسَرّ به ونأنَس بقربه فمات فجأة ، وها نحن بين يديكِ ، فٱحكى ما شِئتِ ، وناشَدْناكِ الله أن [لا][1] تُعرِّضينا للسلطان أو تدّعِى علينا ما لم نفعله . قالت: ما كنتُ لأفعل، وقد صدَقتم، وهكذا مات أبوه فجأةً، وتوجّهتْ معهم فحملَته إلى منزله ودفنته .

ذكر أخبار الأبجر

هو عبيد الله بن القاسم بن مُنبِّه[2]، ويكنى أبا طالب . وقيل: ٱسمه محمد بن القاسم، والأَبْجر لقب غلَب عليه . وهو مولى لكنانة ثم لبنى ليث بن بكر[3] . وكان يلقّب بالحَسْحَاس . وكان مَدنيًّا منشؤه مكة أو مكيًّا منشؤه المدينة . قال عَوْرَك اللَّهبىّ :

لم يكن بمكة أحدٌ أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأبجر ؛ كانت حُلّته بمائة دينار وفرسُه بمائة دينار ومركبُه بمائة دينار ؛ وكان يقف بين المأزِمين ويرفع عقيرته، فيقف الناسُ له فيركب بعضُهم بعضًا . وروى الأصفهانىّ بسنده إلى اسحاق ابن إبراهيم الموصلىّ قال :

---

(١) التكلة عن الأغانى .

(٢) فى ترجمته فى الأغانى (ج ٣ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية) : « ضبة » . وورد فى بعض أصول الأغانى : « ضية » و « ضيبة » .

(٣) الذى فى الأغانى «وهو مولى لكنانة ثم لبنى بكر» ويقال : إنه مولى لبنى ليث » .

جلس الأبجر فى ليلة اليوم السابع من أيام الحجّ على قريب من التَّنعيم فإذا عسكر جرّار [قد أقبل](١) فى آخر الليل وفيه دوابُّ تُجْنَبُ ومنها فرس أدهمُ عليه سرجٌ حليته ذهَب، فاندفع يغنّى :

عرَفتُ ديارَ الحىّ خاليةً قَفْرا * كأن بهـا لمّـا توهّمتُها سطرا

فلمـا سمعه من فى القِباب والمحامل أمسكوا وصاح صائحٌ : ويحك أعِد الصوتَ ! فقال : لا والله إلا بالفرس الأدهم بسَرْجه ولجامه وأربعمائة دينار، وإذا الوليد بن يزيد صاحبُ العسكر . فنُودِى : أين منزلُك؟ ومن أنتَ؟ فقال : أنا الأبجرُ، ومنزلى على زُقاق باب الخرّازين(٢) . فغدا عليه رسولُ الوليد بذلك الفرس وأربعمائة دينار وتخت ثياب وَشْىٍ وغير ذلك، ثم أُتِى به الوليـدُ، فأقام وراح مع أصحابه عشـيّةَ التَّرْوية وهو أحسنُهم هيئة، وخرج معه أو بعده إلى الشأم .

(١٢١)

وحكى عن عمرو بن حفص بن أُمّ كلابٍ(٣)، قال :

كان الأبجرُ مولانا وكان مكيًّا، وكان إذا قدِم من مكة نزل علينا . فقال لنا يوما : أسمِعونا غِناء آبن عائشتكم هذا ؛ فأرسلنا إليه فجمعنا بينهما فى بيت آبن هبّار . فغنّى آبن عائشـة ؛ فقال الأبجرُ : كلُّ مملوكٍ له حرّ إن غنّيت معك إلّا بنصف صوتى، ثم أدخل إصبعه فى شِـدْقِهِ وغنّى فسمِع صوتَه من فى السوق، فحشر الناس علينا، فلم يفترِقا حتى تشاتَمـا .

ذكر أخبار أبى زيد الدَّلَال

هو أبو زيد ناقِدٌ مَدَنِىٌّ، مولى عائشة بنت سعيد بن العاص، وكان مُخَنَّثًا .

قال إسحـاق :

(١) الزيادة عن الأغانى . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « الجزارين » . وهو تصحيف . (٣) الذى فى الأغانى : « عن عمر بن حفص بن أبى كلاب » .

لم يكن فى المخنّثين أحسن وجهًا ولا أنظف ثوبًا ولا أظرف من الدَّلَال . قالوا : ولم يكن بعد طُوَيْس أظرف منه ولا أكثر مُلَحًا . وكان كثيرَ النوادر نَزْرَ الحديث ، فإذا تكلم أضحك الثكالى ، وكان ضاحكَ السنّ ، ولم يكن يغنّى إلّا غناءً مُضَعَّفًا (يعنى كثير العمل) .

٥ وقال أيوب بن عَبَاية :

شهِدتُ أهلَ المدينة إذا ذكروا الدَّلَال وأحاديثَه طوّلوا رقابَهم وفخروا به ، فعلمتُ أن ذلك لفضيلةٍ كانت عنده . قالوا : وكان مُبْتَلًى بالنِّساء والكونِ معهنّ ، فكان يُطلَب فلا يُقْدَر عليه . وكان صحيحَ الغِناء حسنَ الحِرْم . قالوا : وإنما لُقِّب بالدّلال لشكله وحسن ظَرْفِه ودلّه وحلاوةِ مَنْطِقه وحسنِ وجهه . وكان مشغوفًا

١٠ بمخالطة النساء يُكثر وصفهنّ للرجال . وكان يُشاغِل كلَّ من يجالسه عن الغناء بأحاديث النساء كراهةً منه للغناء . وكان إذا غنّى أجاد ، كما حكاه ابن المَاجِشُون عن أبيه قال : غنّانى الدّلالُ يوما بشعر مجنون بنى عامر ، فلقد خِفْتُ الفتنةَ على نفسى . واستحضره سليمانُ بن عبد الملك من المدينة سرًّا وغنّاه وأقام عنده شهرا ثم صرفه إلى الحجاز مكرما .

١٥ قال الأصمعىّ :

حجّ هشامُ بن عبدالملك ، فلما قدِم المدينة نزل رجلٌ من أشراف أهل الشام وقوّادِهم بجَنْب دارِ الدَّلال ، فكان الشامىُّ يَسمع غناءَ الدلال ويُصغى إليه ويصعَد فوق السطح لِيقرب من الصوت ، ثم بعث إلى الدّلال : إمّا أن تزورنا وإمّا أن نزورَك . فبعث إليه الدّلالُ بل تزورنا . فبعث الشامىّ ما يَصْلُح ومضى إليه بغلامين من غِلمانه

٢٠ كأنهما دُرّتان مكنونتان . فغنّاه الدّلالُ ، فاستحسن الشامىُّ غناءَه فقال : زِدْنى ؛ قال : أوَ ما يكفيك ما سمعتَ ! قال : لا والله ما يَكفينى . قال : فإنّ لى حاجة .

قال : وما هِى ؟ قال : تَبيعنى أحدَ هذين الغلامين أوكليهما ، فقـال : ٱختَرْ أيَّهما شئت ، فٱختار أحدهما ، فقال له الشامىّ : هو لك ؛ فقبِله منه الدّلالُ ، ثم غنّاه وغـنّى :

دَعَتْنى دَواعٍ مِن أَرَيّا فهيّجتْ * هوًى كان قِدْمًا مِن فؤاد طَروبِ
لعل زمانًا قد مضى أن يعـودَ لى * فتغفِـرَ أَرْوَى عنـد ذاك ذنوبى (١)
سَبَتْنِى أُرَيّا يوم نَعْفِ مُحَسِّرٍ * بوجهٍ جميـلٍ للقلوب سَلُوبِ

فقال له الشامىّ : أحسنتَ . ثم قال له : أيّها الرجل الجميلُ ، إن لى [إليك] (١) حاجةً ، قال الدّلال : وما هى ؟ قال : أُريد وصيفةً ولِدتْ فى حِجْر صالح ونشأت فى خير ، جميلةَ الوجه مجدولةً وضيئةً جَعْدةً فى بياض مُشْرَبةً حُمْرةً حسنةَ الهامةِ سَبْطةً أسيلةَ الخدّ عذبةَ اللّسان لها شِكْلٌ [ودلٌّ] (١) تملأ العين والنفس . فقال له الدّلال : قد أصبتُها لك ، فما لى عندك إن دللتُك عليها ؟ قال : غلامى هذا . قال : إذا رأيتَها وقبِلتها فالغلام لى ؟ قال نعم . قال : فأتى ٱمرأةً كَنّى عن ٱسمها ، فقال لهـا : جُعِلتُ فِداءكِ ! نزل بقربى رجلٌ مِن قوّاد هشام ، له ظرْف وسخاءٌ ، وجاءنى زائرا فأكرمتُه ، ورأيتُ معه غلامين كأنهما الشمسُ الطالعة المنيرة والكواكب الزاهرة ما وقعتْ عينِى على مثلِهما ولا يطول لسانى بوصفهما ، فوهب لى أحدَهما والآخرُ عنده ، وإن لم يَصِرْ إلىّ فنفسِى ذاهبـةٌ . قالت : وتُريد ما ذا ؟ قال : طلب منى وصيفةً على صِفـةٍ لا أعلمها إلا فى ٱبنتِك ، فهل لك أن تُريه إيّاها ؟ قالت : وكيف لك بأن يَدْفـع الغلام إليك إذا رآها ؟ قال : إنى قد شرطتُ عليه ذلك عند النظر لا عند البيع . (١٢٢)
قالت : شأنَك ، لا يعلم هذا أحد . فمضى الدّلال وأتى بالشامىّ . فلما صار إلى المرأة وُضِع له كرسىٌّ وجلس . فقالت له المرأة : أمِن العرب أنتَ ؟ قال نعم . قالت :

(١) كذا فى الأغانى (ج ٤ ص ٢٨٧ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصل : «لعل زمانا للرضا» .

مِن أيّهم ؟ قال : مِن خُزَاعة . قالت : مرحبا بك وأهلا ! أىّ شىء طلبتَ ؟ فوصف لها الصِّفةَ . قالت : قد أصبتَها ؛ وأسرّت إلى جارية لها فدخلتْ فمكثت هنيهة ثم خرجت فنظرت فقالت : آخرجى ، فخرجت وصيفةٌ ما رأى [الراءون](١) مثلَها . فقالت لها : أقبِلى فأقبلتْ ، ثم قالت : أدبِرى فأدبرت تملأ العينَ والنفسَ ، فما بَقِى منها شىء إلا وضَع يدَه عليه . فقالت له : أتحبّ أن نؤزّرَها لك؟ قال نعم . قالت : آئْتزِرى ؛ فضمّها الإزارُ وظهرت محاسنها الخفيّة ؛ فضرب بيده إلى عَجِيزتها وصدرِها . ثم قالت : أتحب أن نجرّدها لك ؟ قال نعم . قالت : [أى حبيبتى](١) وضَحِّى ؛ فألقت الإزارَ فإذا أحسنُ خَلْق الله كأنها سبيكةٌ . فقالت : يا أخا العرب ، كيف رأيتَ ؟ قال : منيةُ المتمنّى . قال : بِكم تقولين ؟ قالت : ليس يوم النظر يوم البيع ، ولكن تعود غدًا حتى نُبايعك فلا تَنْصرف إلا عن رضًا ، فآنصرف من عندها . فقال له الدَّلالُ : أرضِيتَ؟ قال : نعم ، ما كنتُ أحسب أن مثل هذه فى الدنيا ، وإن الصفة لتَقْصُر دونها ، ثم دفع إليه الغلامَ الثانى . فلما كان من الغَدِ قال له الشامىّ : آمض بنا . فمضيَا حتى قرعا البابَ ، فأُذِن لهما فدخلا فسلّما ، فرحّبت المرأة بهما ثم قالت للشامىّ : أعْطِنا ما تَبْذُل ؛ فقال : ما لها عندى ثمنٌ إلا وهى أكثرُ منه ، فقولى أنت يا أمَةَ الله . قالت : بل قل أنتَ ، فإنا لم نُوطِئك أعقابَنا ونحن نُريد خِلافَك وأنت لها رِضًا . قال : ثلاثة آلاف [دينار](١) . قالت : والله لقبلةٌ منها خيرٌ من ثلاثة آلاف [دينار](١) . قال : أربعة آلاف [دينار](١) . قالت : غفر الله لك أعْطِنا أيّها الرجل . قال : والله مامعى غيرها — ولو كان لزدتُك — إلا رقيقٌ ودوابّ . قالت : ما أراك إلا صادقًا ، أتدرى مَنْ هذه ؟ قال : تُخبِرينى . قالت : هذه

(١) الزيادة عن الأغانى .

أبنتى فلانة بنت فلان وأنا فلانة بنت فلان، قم راشدًا . فقال للدلال : خدعتنى . قال : أوَ ما ترضى أن ترى ما رأيتَ من مثلها وتهبُ مائة غلام مثل غلامك ؟ قال : أمّا هذا فنعم . وخرجا من عندها .

والدّلال أحدُ من خُصِيَ من المخنّثين بالمدينة لمّا أمر سليمانُ بن عبد الملك عامله على المدينة أبا بكر بن عمرو بن حزم بخصيهم .

ذكر أخبار عَطَرَّد

(١٣٣)

هو أبو هارون[1] عطرّد، مولى الأنصار [ثم مولى[2]] بنى عمرو بن عوف، وقيل : إنه مولى مُزَيْنَة . مدنىٌّ كان ينزل قُباء . وكان جميلَ الوجه حسنَ الغناء طيِّبَ الصوت جيِّد الصنعة حسنَ الزىّ والمروءة فقيهًا قارئا للقرآن . وقيل : إنه كان مُعَدَّل الشهادة بالمدينة . وأدرك دولةَ بنى أميّة وبقِى إلى أوّل أيام الرشيد . وكان يُغنّى مرتجلا .

وحكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه قال :

لمّا استُخْلِف الوليدُ بن يزيد كتب إلى عامله بالمدينة فأمره بإشخاص عَطَرّدٍ المغنّى إليه، ففعل . قال عَطَرّدُ : فدخلتُ على الوليد وهو جالسٌ فى قصره على شَفِير بركة مُرَصَّصَةٍ مملوءةٍ خمرا ليست بالكبيرة ولكنّها يدور الرجلُ فيها [سِباحةً[2]] . قال : فوالله ما تركنى أسلِّم حتى قال : أعَطَرّد؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : مازلتُ إليك مشتاقًا يا أبا هارون، غنِّنى :

(١) كذا فى الأغانى (ج ٣ ص ٣٠٣ طبع دار الكتب المصرية) وسيأتى قريبا . وفى الأصل هنا : «أبو مروان» وهو تحريف .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

حَيِّ الحُمُولَ بجانب العَزْلِ[1] * إذ لا يشاكل شكلُها شكلي
الله أنجحُ ما طلبت به * والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحْلِ
إنى بحبلكِ واصلٌ حبلى * وبريش نَبْلِكِ رائشٌ نَبْلِي
وشمائلى ما قد علِمتِ وما * نبحتْ كلابُكِ طارقًا مِثْلِي

قال : فغنّيتُه إياه ، فوالله ما أتممتُه حتى شقّ حُلّة وَشْى كانت عليه لا أدرى كم قيمتُها ، فتجرّد منها كما ولدته أُمّه ، وألقى نفسه فى البركة فنَهِل منها حتى تبيّنتُ أنها قد نقصت نقصانًا بيّنًا ، وأُخرِج منها وهو كالميت سكرا ، فأُضجِع وغُطّى ، فأخذت الحُلّة وقمتُ وانصرفتُ إلى منزلى متعجّبًا من فعله . فلما كان فى غد ، جاءنى رسولُه فى مثل الوقت فأحضرنى . فلما دخلتُ عليه قال : يا عَطَرَّد ! قلت : لبّيك يا أمير المؤمنين ! قال : غنِّنى :

أيذهب عمرِى هكذا لم أَنَلْ به * مجالسَ تَشْفِى قَرْحَ قلبى من الوجدِ
وقالوا تَدَاوَ إنّ فى الطبّ راحةً * فعلّلتُ نفسى بالدواء فلم يُجْدِ

فغنّيتُه إيّاه ، فشقّ حُلّة وَشْى كانت تلمع عليه بالذهب احتقرتُ والله الأولى عندها ، ثم ألقى نفسه فى البركة فنَهِل منها حتى تبيّنتُ نُقصانها وأُخرِج كالميت سكرا ، فأُلقِىَ وغُطّى ونام ، وأخذتُ الحُلّة وانصرفت . فلما كان اليوم الثالث ، جاءنى رسولُه فدخلت إليه وهو فى بَهْوٍ قد أُلقِيتْ ستورُه ، فكلّمنى من وراء الستور وقال : يا عطَرّد ! قلت : لبّيك يا أمير المؤمنين ! قال : كأنى بك الآن قد أتيتَ إلى المدينة فقمتَ فى مجالسها وقعدتَ وقلتَ : دعانى أميرُ المؤمنين فدخلتُ عليه فاقترح علىّ فغنّيتُه فأطربتُه فشقّ ثيابَه وأخذتُ سَلَبه وفعل وفعل ! ووالله يابن الزّانية إن تحرّكت شَفَتاك بشىءٍ مما جرى لأَضرِبنّ عُنُقَك يا غلام أعطِه ألف دينار ، خذها

(١) هو ماء بين البصرة واليمامة .

وانصرِف إلى المدينـــة . فقلتُ : إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذَن لى فى تقبيل يده ويزوّدنى نظرة منه وأغنّيه صوتًا ! فقال : لاحاجةَ بى ولا بك إلى ذلك ، فٱنصرِفْ . قال عطَرَّد : فخرجتُ من عنده وما علم الله أنّى ذكرتُ شيئا ممـا جرى حتى مضت من دولة بنى هاشم مدّةٌ . ودخل عطرّد على المهدىّ وغنّاه . قيـل : ودخل على الرشيد وغنّاه . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . ٥

ذكر أخبـار عمر الوادىّ

هو عمر بن داود بن زَاذَان . وجَدُّه زاذان مولى عمرو بن عثمان بن عفّـان . وأخذ الغناءَ عن حكم ، وقيل : بل أخذ حكمٌ عنـه . وهو من أهل وادى القُرى . قدِم الحَرَم وأخذ من غناء أهله فحذِق وصنع فأجاد . وكان طيِّبَ الصـوت شجِيًّا مُطْرِبا . وهو أوّل من غنّى من أهل وادى القُرى ، وٱتصل بالوليد بن يزيد فى أيام إمارته فتقدّم عنده جدّا ، وكان يسمّيه « جامع لذّاتى ومُحْيِي طربى » . وقُتِل الوليدُ وهو يغنّيه ، وكان آخرَ الناس به عهدًا . قال : وكان يجتمع مع معبد ومالك بن أبى السَّمْح وغيرهما من المُغنّين عند الوليد بن يزيد ، فلا يمنعه حضورُهم من تقديمه والإصغاءِ إليه والٱختصاص به . وفى عمر هذا يقول الوليدُ بن يزيد : ١٠

إنمـا فكّرتُ فى عُمَـــرٍ * حين قال القولَ واختلجا ١٥

إنه للمُسْتَنِـــير بـــه * قمرٌ قـد طمّس السُّرُجا

ويغنّى الشـــعرَ يَنْظِمه * سـيّدُ القوم الذى فَلَجا

أكمل الوادِىُّ صـــنعته * فى كتاب الشـعر فاندمجا

أراد الوليد بن يزيد بقوله : « سيّدَ القوم » نفسَه .

ذكر أخبار حكم الوادىّ

هو أبو يحيى الحكم بن ميمون، وقيل : الحكم بن يحيى بن ميمون. مولى الوليد بن عبد الملك، كان أبوه حلّاقا[1] يحلق رأس الوليد، فاشتراه فأعتقه . وكان حكمٌ طويلا أحولَ، يُكرى الجمال ينقل [عليها][2] الزيت من الشأم إلى المدينة. وقيل : كان أصلُه من الفُرس . وكان واحدَ عصره فى الحِذْق، وكان يغنّى بالدُّفّ ويغنّى مرتجلا. وعُمِّر عمرا طويلا، غنّى الوليدَ بن عبد الملك، وغنّى الرشيدَ، ومات فى الشَّطر من خلافته. وأخذ الغناء عن عمر الوادىّ، وقد قيل : إن عمر أخذ عنه . قال حمّاد بن إسحاق قال لى أبى: أربعةٌ بلغت فى أربعة أجناس من الغناء مبلغًا قصّر عنه غيرهم : «معبدٌ» فى الثقيل، و«ابن سريج» فى الرَّمَل، و«حكم» فى الهَزَج، و «إبراهيم» فى الماخُورىّ. (١٢٤)

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : وزار حكمٌ الوادىّ الرشيدَ، فبرّه ووصله بثلثمائة ألف درهم، وخيّره فيمن يكتُب له بها عليه؛ فقال: اكتب لى بها على إبراهيم بن المهدىّ — وكان إبراهيم إذ ذاك عاملا له بالشأم — فقدِم عليه حكمٌ بكتاب الرشيد؛ فأعطاه ما كتَب له به، ووصلَه بمثل ذلك، إلّا أنه نقَصه ألف درهم من الثلثمائة ألف، وقال له : لا أَصِلُك بمثل ما وصلَك أمير المؤمنين . قال إبراهيم بن المهدىّ : وأقام عندى ثلاثين يومًا أخذت عنه فيها ثلثمائة صوت، كلُّ صوت أحبُّ إلى من الثلثمائة ألف التى وهبتُها له . وقيل: إنه لم يَشتهِر بالغناء حتى صار إلى بنى العبّاس، فانقطع إلى محمد بن أبى العباس، وذلك فى خلافة المنصور، فأُعْجِب به واختاره على المغنّين وأعجبته أهزاجُه. وكان يقال: إنه أهزجُ الناس . ويقال: إنه غنّى الأهزاجَ فى آخر عمره؛ فلامه ابنُه على ذلك وقال : أبعدَ الكِبَر تغنّى غناءَ المخنّثين! فقال له : اسكت

(١) كذا فى الأغانى (ج ٦ ص ٢٨٠ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصلين : «غلاما» .
(٢) الزيادة عن الأغانى .

فإنّك جاهل، غنّيتُ [الثقيل][1] ستين سنة فلم أَنَلْ إلا القوت، وغنّيتُ الأهزاجَ منذ سنتين فكَسَبتُك ما لم تر مثله قطّ . والله أعلم .

ذكر أخبار ابن جامع

هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع بن عبد الله بن المطلب بن أبى وَدَاعَة ابن صُبَيْرة بن سهم بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤَىّ . قالوا : وكان ابنُ جامع من أحفظِ خلق الله لكتاب الله تعالى، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلّى الصبح ثم يَصُفُّ قدميْه حتى تَطْلُعَ الشمس، فلا يصلّى الناسُ الجمعةَ حتى يختم القرآنَ ثم ينصرف إلى منزله. وكان حسنَ السَّمْت، كثيرَ الصلاة . وكان يعتمّ بعمامة سوداء على قَلَنْسُوة ويلبس لباسَ الفقهاء ويركب حمارًا مَرِّيسيًّا[2] فى زىّ أهل الحجاز . ورُوى عنه أنه قال : لولا أن القِمارَ وحبَّ الكلاب قد شغَلانى لتركتُ المغنّين لا يأكلون الخبزَ . قال ابن جامع : أخذتُ من الرشيد بيتين غنّيتُه إياهما عشرةَ آلاف دينار . قالوا : وكان إبراهيمُ بن المهدىّ يفضّل ابنَ جامع فلا يقدّم عليه أحدا. قال: وكان ابن جامع مُنقطِعًا إلى موسى الهادى فى أيام أبيه، فضربه المهدىّ وطردَه. فلما مات المهدىّ بعث الفضلُ بن الربيع إلى مكة فأحضر ابنَ جامع فى قُبّة ولم يُعْلِم به أحدا. فذكره موسى الهادى ذاتَ ليلةٍ فقال لجلسائه : أمَا فيكم أحدٌ يُرسل إلى ابن جامع وقد عرفتم مَوْقِعَه منى؟ فقال الفضل بن الربيع : هو والله عندى ياأمير المؤمنين وأحضره إليه . فوَصَل الفضلَ فى تلك الليلة بعشرة آلاف دينار وولّاه حِجابتَه .

(١) التكملة عن الأغانى .

(٢) فى الأصول: «مرسا» والتصويب عن الأغانى (ج ٦ ص ٢٩١ طبع دار الكتب المصرية).
والمريسىّ : نسبة الى مريس وهى أدنى بلاد النوبة التى تلى أرض أسوان ، وهى معروفة بجودة الحمير .

وحُكى أنه دخل على الهادى فغنّاه فلم يُعجِبه ؛ فقال له الفضلُ : تركتَ الخفيفَ وغنّيتَ الثقيل . قال : فأَدْخِلنى عليه أُخرى فأدخله ؛ فغنّاه الخفيفَ ، فأعطاه ثلاثين ألف دينار . قال أحمد بن يحيى المكىّ : كان ٱبن جامع أحسنَ ما يكون غناءً إذا حزِن . وأحبّ الرشيدُ أن يَسمع ذلك ، فقال للفضل بن الربيع : ابْعَثْ بخَرِيطة فيها نَعْىُ أمّ ٱبن جامع — وكان بَرًّا بأمّه — ففعل . فقال الرشيد : يٰابن جامع ، فى هذه الخريطة نَعْىُ أمّك ؛ فٱندفع ٱبن جامع يغنّى بتلك الحُرْقة والحزنِ الذى فى قلبه :

كم بالدروب وأرضِ السِّنْدِ من قَدَم (١) * ومن جَماجِم صَرْعى ما بها قُبِروا
بُقُنْدُهارَ (٢) ومن تُكْتَبْ منيّتُه * بُقُنْدهارَ يُرَجَّمْ دونه الخبرُ

قال : فوالله ما ملكنا أنفسنا ، ورأيت الغِلمانَ يضرِبون برءوسهم الحيطانَ والأساطين ، وأمر له الرشيدُ بعشرة آلاف دينار .

وروى أبو الفرج بسنده إلى عبد الله بن علىّ بن عيسى بن مَاهَان قال : سمعتُ يزيد يحدِّث عن أمّ جعفر أنه بلغها أنّ الرشيد جالسٌ وحده وليس معه أحد من الندماء ولا المسامرين ، فأرسلت إليه : يا أميرَ المؤمنين ، إنّى لم أَرَكَ منذ ثلاث وهذا اليومُ الرابع . فأرسل إليها : عندى ٱبنُ جامع . فأرسلتْ إليه : أنتَ تعلم أنى لا أتهنّأ بشرب ولا سماعٍ ولا غيرهما إلا أن تَشركَنى فيه ، ما كان عليك أن أشركَك فى هذا الذى أنتَ فيه ! فأرسل إليها : إنى صائرٌ إليك الساعة . ثم قام وأخذ بيد ٱبن جامع وقال للخادم : امضِ إليها وأعلِمها أنّى قد جئت . وأقبل الرشيد ؛ فلما نظر

(١) فى الأغانى : « وأرض الروم » . وورد هذا البيت فى معجم البلدان لياقوت عند الكلام على « قندهار » هكذا :

كم بالجروم وأرض الهند من قدم * ومن سرابيل قتلى ليتهم قبروا

(٢) جاء فى معجم البلدان : أنها مدينة من بلاد السند أو الهند مشهورة فى الفتوح .

إلى الخدم والوصائف قد ٱستقبلوه علم أنّها قد قامت تستقبله؛ فوجّه إليها : إن معى ٱبن جامع، فعدَلت إلى بعض المقاصير . وجاء الرشيدُ وصيّر ٱبنَ جامع فى بعض المواضع التى يُسمع منه فيها، ثم أمر ٱبن جامع فٱندفع يغنّى :

ما رَعَدَتْ رَعْدَةً ولا بَرَقَتْ * لكنها أَنشِئت لنا خَلِقَهْ[1]

اَلمـاءُ يَجْرى ولا نِظامَ له[2] * لو يجد المـاءُ مَخْرقًا خَرَقَهْ

بِتنـا وباتت على نَمارِقِها * حتى بدا الصبح عينُها أرِقَهْ

أنْ قيل إن الرحيل بعد غدٍ * والدّار بعـد الجميع مُفْتَرِقه

فقالت أمّ جعفر للرشيد : ما أحسنَ ما ٱشتهيتَ والله يا أمير المؤمنـين ! ثم قالت لمسلم خادمها : اِدْفع إلى ٱبن جامع بكل بيت مائة ألف درهم . فقـال الرّشيد : غَلَبتِينا يٱبنة أبى الفضل وسبقتِينا إلى برّ ضيفنا وجليسنا . فلما خرج حمَل الرشيدُ إليها مكان كل درهم دينارا .

ذكر أخبار عمرو بن أبى الكَتّات[3]

(١٢٥)

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو أبو عثمان، وقيـل : أبو معاذ عمرو بن أبى الكَتّات، مولى بنى جُمَح . وهو مكىٌّ مُغَنّ حسنُ الصوت، من طبقة ٱبن جامع وأصحابه . وفيه يقول الشاعر :

أحسنُ الناسِ فٱعلموه غناءً * رجلٌ من بنى أبى الكَتّاتِ

---

(١) يقال : نشأت لهم سحابة خلقة وخليقة أى فيها أثر المطر .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : «على نظام له» .

(٣) فى الأصول : «الكبات» بالباء الموحدة بدل النون وهكذا ورد فى هذا الفصل كله . والمثبت هنا هو ما ورد فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٦ طبع بولاق وما بعدها الى آخر الترجمة) .

قال محمد بن عبد الله بن قَرْوة : قلت لإسماعيل بن جامع يومًا : هل غلَبك أحدٌ من المغنّين قط؟ قال : نعم، كنتُ ليلة ببغداد إذ جاءنى رسولُ أمير المؤمنين هارون الرشيد فأمرنى بالرّكوب، فركِبتُ حتى صرتُ إلى الدار، فإذا أنا بالفضل بن الربيع ومعه زَلْزَل العوّاد وبَرْصوما؛ فسلّمت وجلست يسيرا . فطلع خادمٌ فقال للفضل : هل جاء؟ قال لا . قال : فابعث إليه . ولم يزل المغنّون يدخلون واحدًا واحدًا حتى كنّا ستةً أو سبعةً . ثم طلَع الخادم فقال : هل جاء ؟ فقال لا ؛ فقال : قم فابعثْ فى طلبه؛ فقام فغاب غيرَ طويلٍ فإذا هو قد جاء بعمرو بن أبى الكنّات . فسلّم وجلس إلى جَنْبى، فقال لى : مَنْ هؤلاء ؟ قلتُ: مُغَنّون، هذا «زلزلٌ» وهذا «برصوما» . فقال : لأُغَنِّيَنّك غناءً يخرِق هذا السقف وتجيبه الحيطانُ . ثم طلع الخَصِىّ فدعا بكراسىّ، وخرج الجَوارى. فلما جلسن قال الخادم : شُدّوا فشدّوا عيدانَهم؛ ثم قال: يغنّى ٱبنُ جامع ، فغنّيت سبعة أو ثمانية أصوات؛ قال : ٱسكت ، وليغنِّ إبراهيم الموصلىّ؛ فغنّى مثل ذلك أو دونه ثم سكتَ، وغنّى القوم كلُّهم واحدا بعد واحد حتى فَرَغوا . ثم قال لٱبن أبى الكنّات : غَنّ ؛ فقال لزلزل : شُدّ طبقتك فشَدّ ؛ ثم قال له : شُدّ فشَدّ ، ثم أخذ العودَ من يَده فجسّه حتى وقف على الموضع الذى يريده ، ثم قال : على هذا . وٱبتدأ الصوت الذى أوّلُه «ألالا»؛ فوالله لقد خُيِّل إلىّ أن الحيطان تجاوبه؛ ثم رجّع النّغمةَ فيه؛ فطلع الخصىّ فقال : ٱسكت لا تُتِمّ الصوتَ فسكت . ثم قال : يجلس عمرو بن أبى الكنّات وينصرف سائرُ المغنّين ؛ فقمنا بأسوأ حال وأكسف بال ، ولا والله ما زال كلُّ واحد منّا يسأل صاحبَه عن كلّ ما يرويه من الغناء الذى أوّلُه « ألالا » طمَعًا فى أن يعرفه وأن يوافقَ غناءَه فما عرَفه منا أحدٌ . وبات عمرو عند الرشيد ليلتَه وٱنصرف من عنده بجوائز وصِلاتٍ وطُرَفٍ سنيّة .

وقال موسى بن أبى المهاجر: خرج ٱبن جامع وٱبن أبى الكَّات حين دفَع الإمامُ[(١)] من عرفة ، حتى إذا كانوا بين المأزِمَيْن جلس عمرو على طَرَف الجبل ثم ٱندفع يغنّى، فركب الناسُ بعضُهم بعضًا حتى صاحوا به وٱستغاثوا : يا هذا ، اللهَ اللهَ ! أُسكُتْ عنا يَجُزِ الناسُ ؛ فضبط ٱبن جامع بيده على فِيه حتى مضى الناسُ إلى مُزْدَلِفة .

قال علىّ بن الجهم : حدّثنى من أثِق به قال : واقفتُ ٱبنَ أبى الكَّات على جسر بغداد أيام الرشيد فحدّثتُه بحديث ٱتصل بى عن ٱبن عائشة أنه وقف فى الموسم فى أيام هشام، فمرّ به بعضُ أصحابه فقال : ما تصنع؟ فقال : إنى لأعرف رجلا لو تكلم لحبَس الناسَ فلم يَذْهَب منهم أحدٌ ولم يَجِئْ. فقلت له[(٢)] : من هذا الرجل؟ قال: أنا، ثم ٱندفع فغنّى فحبَس الناسَ، فٱضطربت المحامل ومدّت الإبلُ أعناقَها . فقال ٱبن أبى الكَّات وكان مُعْجَبا بنفسه : أنا أفعل كما فعل وقدرتى على القلوب أكثرُ من قدرته . ثم ٱندفع فغنّى الصوت الذى غنّى فيه ٱبن عائشة، وهو :

جَرَتْ سُنُحًا فقلت لها أَجِيزِى * نَوًى مشمولةً فمتى اللقاءُ
بنفسى مَنْ تذكّره سَقَامٌ * أُعالجه ومطلبُه عناءُ

قال : فغنّاه، وكنا إذ ذاك على جسر بغداد، وكان على دجلة ثلاثةُ جسور ، فٱنقطعت الطُّرقُ وٱمتلأت الجسورُ بالناس فٱزدحموا عليها وٱضطربت حتى خيف عليها أن تنقطع لِثقَل من عليها من الناس . فأُخِذ فأُتِى به الرشيد ؛ فقال له : ياعدوّ الله ، أردت أن تَفْتِن الناس ! قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكنّه بلغنى أن ٱبن عائشة فعل مثل هذا فى أيام هشام، فأحببتُ أن يكون فى أيامك مثله . فأعجبه ذلك،

(١) فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٧ طبع بولاق) : « حين دفعا من عرفة حتى اذا كانا » .

(٢) كذا فى الأصل والأغانى . وكان مقتضى السياق أن يكون : « فقال له » : اذ مرجع الضمير بعض أصحابه الذى مرّ به .

وأمر له بمال وأمره أن يغنّى فغنّى؛ فسمع شيئا لم يَسْمَع مثله، فاحتبسه عنده شهرا يَستزيده، وكلّ يوم يُستأذَن له فى الانصراف فلا يأذَن له حتى تمّم شهرا، وانصرف بأموال جسيمة.

وقال عثمان بن موسى: كنّا على شَراب يوما ومعنا عمرو بن أبى الكنّات إذ قال لنا قبل طلوع الشمس: مَنْ تحبّون أن يَجيئكم؟ قلنا: منصور الحَجبىّ. فقال: أمهلوا حتى يكون الوقتُ الذى يَنْحدِر فيه إلى سوق البقر. فمكثنا ساعةً ثم اندفع يغنّى:

أحسنُ الناسِ فاعلموه غِناءً * رجلٌ من بنى أبى الكنّاتِ
عَفَتِ الدّارُ فالهِضابُ اللّواتى * بين ثَوْرٍ فملتقى عَرَفاتِ (١)

فلم نلبث أن رأينا منصوراً من بُعْد قد أقبل يركُضُ دابّته نحونا. فلما جلس إلينا قلت له: من أين علِمتَ بنا؟ قال: سمعتُ صوت عمرو وأنا فى سوق البقر، فخرجت أركض دابّتى حتى صِرتُ إليكم. قال: وبيننا وبين ذلك الموضع ثلاثةُ أميال.

وقال يحيى بن يَعْلَى بن سعيد: بينا أنا ليلةً فى منزلى فى الرَّمْضَة بأسفل مكة، إذ سمعتُ صوت عمرو بن أبى الكنّات كأنّه معى، فأمرتُ الغلامَ فأسرج لى دابّتى وخرجت أُريده، فلم أزل أتبع الصوتَ حتى وجدتُه جالسًا على الكثيب العارِض ببطن عرفة يغنّى:

خُذِى العَفْوَ منّى تَسْتديمى مَوَدّتى * ولا تَنْطِقى فى سَوْرَتى حين أغضَبُ

(١) فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٧ طبع بولاق): * بسوار فملتقى عرفات *
وثور: جبل بمكة فيه الغار الذى اختفى فيه النبى صلى الله عليه وسلم. وأما سوار فمن قرى البحرين. (انظر ياقوت ج ١ ص ٩٣٨ وج ٣ ص ١٨٠).

ولا تَنْقُرِينِي نَقْـــرةَ الدَّفِّ مرّةً * فإنّكِ لا تَدْرِين كيف المُغَيَّبُ
فإنى رأيتُ الحبَّ فى الصدرِ والأذى * إذا آجتمعا لم يَلْبثِ الحب يذهب

ذكر أخبـار أبى المُهَنَّأ مُخارِق

هو أبو المُهَنَّا مخارِق بن يحيى بن ناووس الجزّار مولى الرشـيد . وقيـل : بل ناووس لقبُ أبيه يحيى؛ وإنما لُقّب بناووس لأنه بايع رجلا أنه يمضى إلى ناووس الكوفة فيطبخ فيه قِدْرا بالليل حتى تَنْضَجَ، فطرح رهنَه بذلك؛ فدسّ الرجل الذى راهنَه رجلا فألقى نفسَه فى الناووس بين الموتى . فلما فرغ ناووس من الطبخ مدّ الرجلُ يدَه من بين الموتى وقال له : أطْعِمنى؛ فغرف بالمِغرفة من المَرَق وصبّها فى يد الرجل فأحرقها وضربها بالمغرفة وقال له : اصْـبِر حتى نُطْعِمَ الأحياء أوّلا ثم نتفرّغ للموتى؛ فلُقِّب ناووسًا لذلك .

قال : وكان مخارِقٌ لعاتكة بنت شهدة، وهى من المغنّيات المُحْسنات المتقدّمات فى الضرب . نشأ مخارِقٌ بالمدينة؛ وقيل : كان منشؤه بالكوفة . وكان أبوه جزّارًا مملوكا ، وكان مخارِقٌ وهو صبىّ ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم . فلما بان طِيبُ صوته علّمته مولاتُه طَرَفًا من الغناء ، ثم أرادت بيعَه، فآشتراه إبراهيم الموصلىّ منها وأهداه للفضل بن يحيى ، فأخذه الرشيد منه ثم أعتقه . وقيل : آشتراه إبراهيم من مولاته بثلاثين ألف درهم وزادها ثلاثة آلاف درهم . قال : ولما آشتراه قال له الفضل بن يحيى : ما خبرُ غلام بلغنى أنك آشتريتَه ؟ فقال : هو ما بَلَغك . قال: فأَرِنيه ، فأحضره ، فغنّى بين يديه؛ فقال له : ما أرى فيه الذى رأيتَ. قال: تريد أن يكون فى الغناء مثلى فى ساعةٍ واحدةٍ ! فقال : بكم تَبِيعُه؟ قال : آشتريتُه بثلاثين ألف درهم، وهو حرّ لوجه الله تعالى إن بعتُه إلا بثلاثة وثلاثين ألف دينار . فغضب

الفضل وقال : إنما أردتَ ألّا تبيعَه أو تجعلَه سببا لأن تأخذ منّى ثلاثة وثلاثين ألف دينار . فقال إبراهيم : أنا أصنع بك خَصْلة واحدة، أبيعك نصفه بنصف هذا المال وأكون شريكَك فى نصفه [وأُعلّمه](١)، فإن أعجبك إذا علمتُه أتممتَ لى باقى المال و إلا بعتُه بعدُ، وكان الرِّبحُ بينى و بينك . فقال الفضلُ : إنما أردتَ أن تأخذ منّى المالَ الذى قدّمتَ ذكرَه، فلما لم تَقْدِرْ على ذلك أردتَ أن تأخذ نصفَه، وغضِب . فقال إبراهيم له : فأنا أَهَبُه لك على أنه يساوى ثلاثة وثلاثين ألف دينار ؛ قال : قد قبلتُه ؛ قال : وقد وهبتُه لك . وغدا إبراهيم على الرشيد ؛ فقال له : يا إبراهيم، ما غلامٌ بلغنى أنك وهبتَه للفضل ؟ قال : غلام يا أمير المؤمنين لم تَمْلِك العربُ ولا العجمُ مثلَه ، ولا يكون مثلُه أبدا . قال : فوجّه إلى الفضل يأمره بإحضاره . فوجّه به إليه، فغنّى بين يديه ؛ فقال له : كم يُساوِى ؟ قال إبراهيم : يساوى خراجَ مصر وضِياعَها . قال : ويحك ! أتدرى ما تقول ! مبلغُ هذا المال كذا وكذا ! قال : وما مِقدارُ هذا المال فى غلام لم يَمْلِك أحدٌ مثلَه قطُّ ! قال : فالتفت الرشيدُ إلى مسرور الكبير وقال : قد عرفتَ يمينى أنى لا أسأل أحدًا من البرامكة شيئا . فقال مسرور : فأنا أمضى إلى الفضل فأستَوْهِبه منه، فإذا كان عندى فهو عندك . فقال له : شأنَك . فمضى مسرور إلى الفضل وآستوهَبه منه، فوهَبه له . وقيل : بل إبراهيمُ هو الذى أهداه للرشيد ؛ فأمره الرشيدُ بتعليمه فعلّمه حتى بَلغ ما بلَغه . قال : وكان مخارقٌ يقف بين يدَى الرشيد مع الغِلمان لا يجلس و يغنّى وهو واقف . فغنّى ابنُ جامع ذاتَ يوم بين يدى الرشيد :

كأنّ نِيرانَنا(٢) فى جَنْبِ قَلْعتِهِم * مُصَبَّغات على أرْسانِ قَصّار(٣)

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٢) . (٢) فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٣) : «نيرانها» . (٣) القصار (كالقصر) : المحتور للثياب .

هَوَتْ هِرَقْلَةُ لمّا أن رأتْ عجبًا * جوانمًا[1] تَرْتمى بالنَّفط والنّار

فطرِب الرشيد وٱستعاده مرارًا ؛ وهو شعر مُدِح به الرشيدُ فى فتح هِرَقْلة . فأقبل الرشيد على ٱبن جامع دون غيره . فغمز مخارِقٌ إبراهيمَ بعينه وتقدّمه إلى الخلاء، فلما جاء قال له : مالى أراك مُنكسِرًا ؟ فقال له : أمَا ترى إقبالَ أمير المؤمنين على ٱبن جامع بسبب هذا الصوت ! فقال مخارقٌ : قد والله أخذتُه. فقال : ويحك ! إنه الرشيد ، وٱبنُ جامعٍ من تَعْلَم، ولا يُمكن معارضته إلا بما يزيد على غنائه وإلا فهو الموت ! فقال : دعنى وخَلَاك ذَمٌّ ،وعَرِّفه أنّى أُغَنّى به ، فإن أحسنتُ فإليك يُنْسَب ، وإن أسأتُ فإلىّ يعود . فقال إبراهيم للرشيد : يا أمير المؤمنين، أراك مُتعجّبًا من هذا الصوت بغير ما يستحقّه وأكثر مما يستوجبه ! فقال : لقد أحسن فيه ٱبن جامع ما شاء . قال : أَوَ لٱبنِ جامع هو؟ قال : نعم، كذا ذكَر . قال : فإنّ عبدَك مخارقًا يغنّيه . فنظر إلى مخارق، فقال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : هاتِه، فغنّاه وتحفّظ فيه فأتى بالعجائب ، وطرِب الرشيدُ حتى كاد يطير، ثم أقبل على ٱبن جامع فقال : ويلك ! ما هذا ؟ فٱبتدأ يحلِف بالطلاق وكلِّ مُحْرِجة أنه لم يسمع ذلك الصوتَ قطّ من غيره وأنه صنَعه وأنها حيلةٌ جَرَتْ عليه . فأقبل على إبراهيم وقال : أُصْدُقْنى بحياتى ؛ فصدَقَه عن قصّة مخارق . فقال لمخارق : اجلس إذًا مع أصحابك ، فقد تجاوزتَ مرتبةَ من يقوم. وأعتَقه ووصلَه بثلاثة آلاف دينار وأقطعه ضَيْعةً ومنزلا.

(١٢٧)

وقد روى أبو الفرج الأصفهانىّ عن هارون بن مخارق ، قال : كان أبى إذا غنّى هذا الصوت :

يا رَبْعَ سلمى لقد هيَّجْتَ لى طَرَبا * زدتَ الفؤادَ على عِلّاته وَصَبا

رَبْعٌ تبدّل ممن كان يسكنه * عُفْرَ الظباء وظُلمانًا به عُصَبا

(١) فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٣) : «حوائما» .

يبكى ويقول : أنا مولى هذا الصوت . فقلت له : كيف يا أبتِ؟ فقال : غنّيتُه مولاى الرشيد ، فبكى وشرب عليه رطلا ثم قال : أحسنتَ يا مخارق ! فسَلْنى حاجتَك؛ فقلت : تُعْتِقُنى يا أمير المؤمنين أعتَقَك الله من النار؛ فقال : أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، فأعِدِ الصوتَ فأعدتُه؛ فبكى وشرِب رطلا، ثم قال : أحسنتَ يا مخارق! فسلنى حاجتَك؛ فقلتُ : ضَيْعَةٌ تُقيمنى غَلّتُها[1]؛ فقال : قد أمرتُ لك بها، أعِدِ الصوتَ فأعدتُه ؛ فبكى وقال : سل حاجتَك ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين، تأمر لى بمنزل وفرسٍ وخادمٍ؛ فقال: ذلك لك، أعِدِ الصوت فأعدتُه ؛فبكى وقال: سل حاجتَك؛ فقبّلتُ الأرضَ بين يديه وقلت : حاجتى أن يُطيل اللهُ بقاءَك ويُديم عزَّك ويجعلنى من كل سوءٍ فداءك؛ فأنا مولى هذا الصوت بعد مولاى .

ويُروى أيضا عن الحسين بن الضحّاك عن مُخارق أنّ الرشيد قال يوما للمغنّين وهو مصطبح : مَن منكم يغنّى :

* ياربعَ سَلْمَى لقد هيَّجت لى طربا *

فقمتُ وقلت: أنا يا أمير المؤمنين . فقال : هاتِه؛ فغنّيتُه فطرِب وشرب ثم قال : علىّ بِهَرْثَمَةَ؛ فقلت فى نفسى : ماذا يريد منه! فجاء هرثمةُ فقال له : مخارق الشّارىّ الذى قتلناه بنواحى المَوْصِل ما كانت كنيتُه؟ فقال : أبو المُهَنّأ؛ فقال : انصرِفْ فانصرف؛ ثم أقبل الرشيد علىّ فقال : قد كنّيتُك أبا المهنّأ لإحسانك ؛ وأمر لى بمائة ألف درهم؛ فانصرفتُ بها وبالكُنْية .

قال أبو عبد الله بن حمدون : كنّا عند الواثق وأمّه عليلةٌ . فلما صلّى المغربَ دخل إليها وأمر ألا نبرحَ ،فجلسنا فى صَحْن الدار ، وكانت ليلةً مقمِرةً وأبطأ الواثقُ علينا ؛ فاندفع مخارق يغنّى، فاجتمع علينا الغِلْمان،وخرج الواثقُ فصاح : يا غلام،فلم يُجِبْه

(١) كذا فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٤) . وفى الأصل : «عليها» وهو تصحيف .

أحد، ومشى فى المجلس الى أن توسّط الدارَ؛ فلمـا رأيتُه بادرتُ إليه؛ فقال لى : ويلك ! هل حدَث فى دارى شىءٌ؟ فقلتُ : لا ياسيِّدى . قال : فما بالى أَصِيح فلا أُجاب ؟ فقلت : مخارق يغنّى والغِلْمان قد آجتمعوا اليـه فليس فيهم فَضْلٌ لسماع غير ما يسمعونه . فقال : عذرٌ والله لهم يآبن حمدون وأىّ عذر! ثم جلس وجلسنا بين يديه الى السَّحَر . وقد رُوى نحو هـذه الحكاية فى أمر الغِلْمان مع مخارق عند ٥ المعتصم . وقال محمد بن عبد الملك الزيّات : قال لى الواثق : ما غنّانى مخارق قط إلا قَدّرت أنه من قلبى خُلِق . وكان يقول : أتُريدون أن تنظروا فضلَ مخارق على جميع أصحابه؟ أُنظروا الى هؤلاء الغِلْمان الذين يقفون فى السِّماط، فكانوا يتفقّدونهم وهم وقوفٌ فكلّهم يسمع الغناء من المغنّين جميعا وهو واقفٌ مكانه ضابطٌ لنفسه، فاذا تغنّى مخارق خرجوا عن صُوَرِهم فتحرّكت أرجلُهم ومناكبهُم و بانت أسـبابُ ١٠ الطرب فيهم، وآزدحموا على الحبل الذى يقفونَ من ورائه .

وحكى أنّه خرج مرّة الى باب الكُناسة بمدينة السلام والناسُ يرحلون الى مكة؛ فنظر إلى كثرتهم وآزدحامهم ، فقـال لأصحابه الذين معـه : قد جاء فى الخبر أنّ آبن سريج كان يغنّى فى أيام الحجّ والناسُ يمشون فيستوقفهم بغِنائه، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهيهم جميعًا لتعلموا أنّه لم يكن لِيَفْضُلَنى إلّا بصنعته دون صوته؛ ١٥ ثم اندفع يؤذّن، فآستوقف أولئـك الخلَق واستلهاهم، حتى جعلت المحـامِلُ يَغْشَى بعضُها بعضًا .

قالوا : وجاء أبو العتاهية الى باب مخارق وطَرَقه فخرج اليه؛ فقال له : ياحُسّان هذا الإقليم، ياحكيمَ أرض بابل، أُصْبُبْ فى أذنى شيئا يفرَح به قلبى وتتنعّم به نفسى — وكان فى جماعة منهم محمد بن سعيد اليَزيدىّ — فقال : أنْزِلوا ، فنزلوا ، فغنّاهم . ٢٠ (١٢٨) فقال محمد بن سعيد : فكدتُ أسعى على وجهى طربًا . قال : وجعل أبو العتاهية

يبكى، ثم قال : يادواءَ المجانين، لقد رقَقْتَ حتى كِدتُ أن أحْسُوَك، فلو كان الغناء طعامًا لكان غناؤك أُدْما، ولو كان شرابًا لكان ماءَ الحياة .

وقال أبو الفرج عن عمر بن شبّة قال : حدّثنى بعض آل نُوبَخْت قال : كان أبى وعبد الله بن أبى سهل وجماعةٌ من آل نوبخت وغيرُهم وقوفا بكُناسة الدّوابّ فى الجانب الغربىّ ببغداد يتحدّثون، وإنهم لكذلك إذ أقبل مخارقٌ على حمار أسود وعليه قميصٌ رقيقٌ ورداءٌ مُسَهَّم؛ فقال : فيم كنتم ؟ فأخبروه. فقال : دعونا من وَسْواسِكم هذا، أىُّ شىء لى عليكم إن رميتُ بنفسى بين قبرين من هذه القبور وغطّيتُ وجهى وغنّيت صوتا فلم يَبْقَ أحد بهذه الكُناسة ولا فى الطريق من مُشْتَرٍ ولا بائع ولا صادرٍ ولا وارد إلا ترك عملَه وقَرُب منّى واتّبع صوتى؟ فقال عبد الله : إنى لأُحِبّ أن أرى هذا، فقل ماشئتَ. فقال مخارق: فرسَك الأشقرَ الذى طلبتُه منك فمنعتنيه. قال : هو لك إن فعلتَ ماقلتَ . قال : فرمى بنفسه بين قبرين وتغطّى بردائه، ثم اندفع يغنّى بشعر أبى العتاهية :

نادَتْ بوَشْك رحيلِكَ الأيّامُ * أفلستَ تسمَعُ أم بك اسْتِصْمامُ
ومضى أمامك مَنْ رأيتَ وأنتَ لا * باقين حتى يلحقوك أمامُ
مالى أراك كأنّ عيْنَك لا ترى * عِبَرًا تمرّ كأنهنّ سِهام
تمضى الخطوبُ وأنتَ منتبهٌ لها * فإذا مضت فكأنها أحلامُ

قال : فرأيتُ الناس يأتون إلى المَقْبُرة أرسالا بين راكبٍ وراجل وصاحب شغل ومارّ فى الطريق حتى لم يَبْقَ أحد. ثم قال لنا من تحت ردائه : هل بقى أحدٌ؟ قلنا : لا، وقد وجَب الرّهن . فقام فركِب حماره، وعاد الناسُ إلى صنائعهم؛ وقال لعبد الله : أحضِرِ الفرس؛ قال : على أن تُقيم عندى؛ قال نعم ! فسلّم الفرس إليه وبرّه وأحسن رِفْدَه .

ورُوِى عن يحيى المكىّ قال: خرج مخارِقٌ مع بعض إخوانه إلى بعض المُتنزَّهات، فنظر إلى قوس مُذْهَبة مع بعض من خرج معـه، فسأله إيّاها، وكان المسئولُ ضَنّ بها، وسنحت ظِباءٌ بالقرب منه؛ فقال لصاحب القوس: أرأيتَ إن تغنّيتُ صوتا فعطَفتْ علىّ به خدودُ هـذه الظباء أتدفع إلىّ القوسَ؟ قال نعم! فاندفع يغنّى:

ماذا تقول الظبـاءُ * أفُـرْقَةٌ أم لِقاءُ ٥
أم عهدُها بسُلَيْمَى * وفى البيـان شِـفاء
مرّت بنا سانِحاتٍ * وقد دنا الإمساءُ
فـما أحارَتْ جوابا * وطال فيهـا العَناءُ

قال: فعطَفتِ الظباءُ راجعةً إليـه حتى وقفت بالقرب منـه تنظر إليه مُصْغِيةً إلى صوته. فعجِب من حضَر من رجوعها ووقوفها؛ وناولَه الرجلُ القوسَ، فأخذها وقطع الغناء [فعاودت الظباء نِفارَها ومضت راجعةً على سَنَنِها](١). ١٠

ورُوِى عن إسحـاق بن إبراهيم قال: دخلت على أبى وهو جالسٌ بين بابين له ومخارقٌ بين يديه وهو يغنّيه:

يا ربعَ بِشْرةَ إن أضرّ بك البِلَى * فلقد رأيتُـك آهِلًا معمورا

قال: فرأيتُ أبى ودموعُه تجرى على خدّيه من أربعةِ أماكن وهو يَنْشِج أحرَّ نشيج. فلمـا رآنى قال: يا إسحاق، هذا والله صاحبُ اللّواء غدًا إن مات أبوك. ١٥

ورُوى عن مخارق قال: رأيتُ وأنا حَدَثٌ كأنّ شيخا جالسا على سرير فى روضة حسنة، فدعانى فقال لى: غنِّنى يامخارق؛ فقلت: أصوتًا تقترحه أو ماحضَر؟ فقال: ماحضَر. فغنّيتُه:

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٣٧). ٢٠

دَعِي القلبَ لا يَزْدَدْ خَبالًا مع الذى * به منكِ أو داوِى جَوَاهُ المُكَتَّما

وليس بترويق اللسان وصَوْغه * ولكنّه قد خالط اللحمَ والدّما

فقال لى : أحسنتَ يا مخارق ! ثم أخذ وترًا من أوتار العود فلفّه على المِضْراب ودفعه الىّ ، فجعل المِضرابُ يطول و يغلُظ والوتر ينتشر و يَعْرُض حتى صار المِضرابُ كالرمح والوتر كالعَذَبة [عليه] (١) وصار فى يدى علماً ، ثم انتبهت فحدّثت برؤياى إبراهيم الموصلىّ ؛ فقال لى : الشيخ بلا شك إبليسُ ، وقد عقد لواء صنعتك فأنتَ ما حييتَ رئيسُ أهلها .

وقال أحمد بن حمدون : غضِب المعتصمُ على مخارق فأمر أن يُجْعَل فى المؤذّنين ويَلْزمهم ففُعل ذلك ؛ وأَمْهل حتى علِم أن المعتصم يشرب ، فأُذِّنت العصر ، فدخل الى السِّتر حيث يقف المؤذِّنُ للسلام ، ثم رفع صوته جهدَه وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين و رحمةُ الله و بركاته ، الصلاةَ يرحمك الله . فبكى حتى جرت دموعُه وبكى كلُّ من حضر ، ثم قال : أدْخِلوه علىّ وأقبل علينا ؛ ثم قال : سمعتم هكذا قط ! هذا الشيطانُ لا يترك أحدًا يغضب عليه ! . فدخل اليه فقبّل الأرض بين يديه ؛ فدعاه المعتصم اليه فأعطاه يدَه فقبّلها وأمَره بإحضار عوده فأَحْضره ، وأعاده الى مَرْتَبته . وأخباره كثيرة ، وفيما أوردناه منها كفاية . وكانت وفاتُه فى أوّل خلافة المتوكّل ؛ وقيل : بل فى آخر خلافة الواثق . وغنّى خمسةً من الخلفاء : الرشيدَ والأمينَ والمأمونَ والمعتصمَ والواثقَ . رحمهم الله تعالى .

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٣٣) .

(١٢٩)

ذكر أخبار يحيى بن مَرْزوق المَكّىّ

هو أبو عثمان يحيى بن مرزوق المكىّ، مولى بنى أميّة، وكان يكتُم ذلك لخدمته للخلفاء من بنى العبّاس؛ وكان إذا سُئِل عن ولائه آنتمى الى قريش، ولم يذكر البطنَ الذى ولاؤه له، ويَستعفِى من يسأله عن ذلك .

قال الأصفهانىّ :

وعُمِّر يحيى المكىّ مائة وعشرين سنة، وأصاب بالغناء مالم يُصِبْه أحدٌ من نظرائه ومات وهو صحيحُ العقل والسمع والبصر . وكان قدِم مع الحجازيّين الذين قدِموا على المهدىّ فى أوّل خلافته فبَقِى بالعراق . وكان آبن جامع و إبراهيم الموصلىّ وفُلَيْح يفزَعون اليه فى الغناء القديم فيأخذونه عنه، ويُعَانِى بعضُهم بعضا بما يأخذونه منه . فإذا خرجت لهم الجوائزُ أحذَوْه[1] منها و وفّروا نصيبَه . وله صنعة عجيبةٌ نادرة متقدِّمة . قال : وله كتاب فى الأغانى ونِسَبها وأجناسِها كبير جليل مشهور، إلّا أنّه كالمطروح عند الرواة لكثرة تخليطه فى رواياته؛ والعمل على كتاب آبنه أحمد، فإنه صحّح كثيرا ممـا أفسده وأزال ماعرفه من تخاليط أبيه، وحقّق مانسبه من الأغانى الى صانعه . قال : وهو يشتمل على نحو ثلاثة آلاف صوت .

قال أحمد بن سعيد :

كانت صنعةُ يحيى ثلاثةَ آلاف صوت ، منها زُهاءَ ألف صوت لم يُقارِبْه فيها أحدٌ . وسُئِل آبنه أحمد عن صنعة أبيه فقال : الذى صحّ عندى منها ألفُ صوت وثلثمائة صوت، منها مائة وسبعون صوتا، غَلَب[2] فيها على الناس جميعا من تَقدّم منهم و[من][3] تأخّر، فلم يَقُم له أحد فيها .

(١) أحذاه : أعطاه ممـا أصاب من غنيمة أو جائزة . (٢) فى الأصل : «خطب»، والتصويب عن الأغانى (ج ٦ ص ١٧٨) . (٣) الزيادة عن الأغانى .

قال أحمد بن يحيى قال لى إسحاق : يا أبا جعفر لأبيك مائة وسبعون صوتًا من أخذها عنه بمائة وسبعين ألف درهم فهو الرّابح . والله أعلم .

ذكر أخبار أحمد بن يحيى المكىّ المُلقّب بطَنِين[1]

هو أبو جعفر أحمد بن يحيى المكىّ، وكان يُلقّب طنينا[1] . وهو أحد المحسنين المُبَرِّزين الرّواةِ للغناء المُحْكِمِى الصنعة . كان إسحاقُ يقدّمه ويُؤْثِره ويَشْدُو[2] بذكره ويَجْهَر بتفضيله .

قال أبو الفرج : وكتابُه المجرَّد فى الأغانى ونِسَبها أصلٌ من الأصول المعوّل عليها . قال : وكان مع جودة غنائه وحسنِ صنعته أحدَ الضُّرّاب الموصوفين المتقدّمين .

قال علىّ بن يحيى : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ — وقد جرى ذكر أحمد ابن يحيى المكىّ — : ياأبا محمد لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى مملوكًا كم كان يُساوِى؟ قال : أخبرك عن ذلك، انصرفتُ ليلةً من دار الواثق فآجتزتُ بدار الحسن بن وهب فدخلتُ اليه فإذا أحمدُ عنده. فلما قاموا لصلاة العِشاء الآخرةِ قال لى الحسن بن وهب : كم يُساوى أحمد لو كان مملوكًا؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنّى صوتًا، فقال لى الحسن : كم يساوى أحمد لو كان مملوكًا؟ قلتُ : يساوى ثلاثين ألف دينار. ثم تغنّى صوتا آخر، فقلت للحسن : يا أبا علىّ أضْعِفها . ثم أردتُ الأنصرافَ فقلت لأحمد : غنِّى

لولا الحياءُ وأنّ السِّتْرَ[3] من خُلُقى * إذًا قعدتُ إليك الدهرَ لم أَقُم

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ٦٥ طبع بولاق) : « ظنين » بالظاء المعجمة .

(٢) الذى فى الأغانى : « ويشيد » .

(٣) الذى فى الأغانى (ج ١٥ ص ٦٥ طبع بولاق) : « السير » .

أليس عنـدك سكرٌ[1] للتى جعلتْ * ما أبيضَ من قادمات الرأس كالحُمَمِ

فغنّاه فأحسن فيه كلّ الإحسان . فلما قمتُ للانصراف قلتُ : يا أبا علىّ، أضْعِف الجميع . فقال له أحمد : ما هذا الذى أسمعكما تقولانه ولستُ أدرى ما معناه؟ فقال: نحن نَبيعك ونَشتريك منذ الليلة وأنتَ لا تدرى . وقال محمد بن عبد الله بن مالك : سألنى إسحاقُ بن إبراهيم الموصلىّ يوما : مَنْ بَقِىَ من المغنّين؟ قلت : وجْهُ القَرْعة محمد بن عيسى. فقال: صالح كَيِّسٌ ؛ ومَنْ أيضا ؟ قلت : أحمـد بن يحيى المكىّ. قال : بَخٍ بَخٍ ! ذاك المحسنُ المُجْمِل الضارب المغنّى ، القائمُ بمجلسه لا يُحْوِج أهلَ المجلس الى غيره . وكانت وفاتُه فى أوّل خلافة المستعين .

ذكر أخبار هاشم بن سليمان مولى بنى أميّة

يُكْنَى أبا العباس . وكان موسى الهادى يسمّيه أبا الغريض . قال أبو الفرج : وهو حسنُ الصنعة غزيرُها ؛ وفيه يقول الشاعر :

يا وَحْشتى بعـدك يا هاشمُ * غِبتَ فشَجْوِى بكَ لِى لازِمُ[2]

اللّهـــوُ واللّـــذّةُ يا هاشم * ما لم تكن حاضرَهُ ماتَمُ

وقال الأصبهانىّ بسند رفعه إلى هاشم :

أصبح موسى أمير المؤمنين يوما وعنده جماعةٌ فقال : يا هاشمُ غنِّنى :

* أبَهارُ قد هيّجتِ لى أوجاعا *

فإن أصبتَ مرادى فيه فلك حاجةٌ مقضية. قال : فغنّيتُه، وهو :

أبَهارُ قـد هيّجتِ لى أوجاعا * وتركتِنى عبـدًا لكم مِطْـواعا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « شكر » .

(٢) فى الأغانى (ج ١٤ ص ٤٤ طبع بولاق) : « دائم » .

بحديثك الحسن الذى لو كُلِّمتْ * وحشُ الفلاة به لِحنَّ مِراعا
و إذا مررتُ على البَهارِ مُنَضَّدًا * فى السوق هيّج لى إليك نِزاعا
والله لو علِم البهارُ بأنها * أضحتْ سمَّيته لصار ذراعا

فقال : أصبتَ وأحسنتَ ، سَلْ حاجتَك ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، تأمر بأن يُملأ هذا الكانون دراهم — وكان بين يدَيه كانون عظيم — فأمر به فمُلئ فوسِع ثلاثين ألف درهم . فلمّا حصّلتُها قال لى : يا ناقص الهمة ، والله لو سألتَ أن أملأه لك دنانير لفعلتُ . فقلت : أقِلْنى يا أمير المؤمنين . قال : لا سبيلَ الى ذلك ولم يُسْعِدك الجَدّ به . وقد رُويتْ هذه الحكايةُ فى موضع آخر ، وذُكِر أنّ الذى غنّاه غيرُ هذا الشعر ، وأن الكانون وَسِع ستّ بِدَر ، فدفعها اليه .

(١٣٠)

ذكر أخبار يزيد حَوْراء

هو رجل من أهل المدينة من موالى بنى ليث بن بكر بن عبد مَناة بن كِنانة ؛ ويُكنى أبا خالد . مُغنّ محسنٌ كثيرُ الصنعة ، من طبقة ابن جامع و إبراهيم الموصلىّ . وكان ممن قدِم على المهدىّ فى خلافته فغنّاه . وكان حسنَ الصوت حلوَ الشمائل . فحسده إبراهيمُ الموصلىّ على شمائله و إشاراته فى الغناء ، فاشترى عدّة جوار وشارَكه [فيهنّ][1] ، وقال له : علِّمهنّ ، فما رزق اللهُ تعالى من ربح فيهنّ فهو بيننا . وأمرهنّ أن يجعلن وَكْدَهنّ[2] أخذَ إشاراته ففعلن ذلك . فكان إبراهيم يأخذها عنهنّ هو وابنُه ويأمرهنّ بتعليم كل من يعرِفنه ذلك حتى شهَرها فى الناس ، فأبْطَل عليه ما كان منفرِدًا به من ذلك .

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٣ ص ٢٥١ طبع دار الكتب المصرية) .
(٢) الوكد : الهم والقصد .

قال عبد الله بن العباس الرَّبيعىّ :

كان يزيد حَوْراء نظيفًا ظريفًا حسنَ الوجه شَكِلًا ، لم يقـدَم علينا من الحجاز أنظفُ منه ولا أشكلُ، وما كنتَ تَشاءُ أن ترى خَصْلةً جميلة لا تَراها فى أحد منهم إلا رأيتَها فيه . وكان يتعصّب لإبراهيم الموصلىّ على آبن جامع ، فكان إبراهيمُ يرفع منه ويُشيع ذكره بالجميل وينبِّه على مواضع تقدُّمه [و إحسانه](١)، ويبعث بآبنه إسحاق [إليه](١) يأخذ عنه . ٥

وحكى أبو الفرج بسَنَدٍ رفعه الى يزيد حوراء قال :

كلّمنى أبو العتاهية فى أن أكلِّم المهدى فى عُتْبَة؛ فقلت : إن الكلام لا يُمكننى، ولكن قل شعرًا أُغنّيه به؛ فقال :

نفسى بشىء من الدنيا معلّقةٌ * اَللهُ والقـائمُ المهـدىُّ يكفيها ١٠
إنى لَأيأسُ منهـا ثم يُطْمِعُنِى * فيها آحتقارُك للدّنيا وما فيها

قال : فعملتُ فيـه لحنًا وغنّيتُـه . فقال : ما هـذا ؟ فأخبرتُه خبر أبى العتاهية؛ فقال : ننظرُ فيما سأل؛ فأخبرتُ بذلك أبا العتاهية . ثم مضى شهر فجاءنى فقال : هل حدَث خبرٌ ؟ قلت لا . قال : فآذكُرْنى للمهدىّ . فقلتُ : إن أحببتَ ذلك فقل شعرا تحرِّكه به وتذكّره وعدَه حتى أغنّيه به؛ فقال : ١٥

ليتَ شعرى ما عندكم ليتَ شعرى * فلقـــد أُخِّر الجـــوابُ لأَمْر
ما جوابٌ أولى بكـل جميلٍ * مِن جـــوابٍ يُرَدّ مِن بعـدِ شهر

قال يزيد : فغنّيت المهدىّ، فقال : علىّ بعتبة فأُحضِرت؛ فقال : إن أبا العتاهية كلّمنى فيكِ، فما تقولين ولك عندى وله ما تُحِبّان ممـا [لا](١) تبلُغه أمانيكما ؟ فقالت :

(١) الزيادة عن الأغانى . ٢٠

قد علِم أميرُ المؤمنين ما أوجب الله عليّ من حقّ مولاتى، وأريد أن أذكر هذا لها . قال : فأفعلى . قال : فأعلمتُ أبا العتاهية . ومضت أيام فسألنى معاودةَ المهدىّ؛ فقلتُ : قد عرفتَ الطريق، فقل ما شئتَ حتى أغنّيه به؛ فقال :

أَشْرَبتُ قلبي مِن رجائك ما له * عَنَقٌ يَحُبّ إليك بى ورَسِيم
وأَمَلْتُ نحو سماء جَوْدك ناظرى * أَرْعَى مخايِلَ بَرْقها[1] وأَشِيم
ولقد تنسّمتُ الرّياحَ لحاجتى * فإذا لها مِن راحتيك نَسِيم
ولربما آستيأستُ ثم أقول لا * إن الذى وعدَ النّجاحَ كريم

قال يزيد : فغنّيتُه الشعر، فقال : علىّ بعتبة فجاءت؛ فقال : ما صنعت؟ فقالت : ذكرتُ ذلك لمولاتى فكرِهَتْه وأبتْ أن تفعل، فليفعل أميرُ المؤمنين ما يريد . قال : ما كنتُ لأفعل شيئا تكرهه . فأعلمتُ أبا العتاهية بذلك، فقال :

قطّعتُ منك حبائلَ الآمالِ * وأرَحْتُ مِن حِلّ ومن تَرْحالِ
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلى * وبناتُ وعدك يَعْتَلِجن ببالى
ولئن طَمِعتُ لربّ بَرْقةِ خُلّبٍ * مالت بذى طمع ولَمْعةِ آلِ

وقد حكى أبو الفرج أيضا هذه الحكايةَ وآختصرها، ولم يذكر الأبيات التى منها

* أشرَبْت قلبي من رجائك ما له *

إلا أنّه غيّر قولَه : "أشربت قلبي" بقوله : "أعلمتُ نفسى من رجائك" . وقال : فصنع فيه يزيد لحنًا وغنّاه المهدىّ . فدعا بأبى العتاهية وقال له : أما عُتْبةُ فلا سبيلَ إليها، لأن مولاتها قد مَنعتْ منها، ولكن هذه خمسون ألف درهم فآشْتَرِ ببعضها خيرًا من عتبة فحُمِلت إليه، فأخذها وآنصرف .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « قربها » .

وحُكى عن حماد بن إسحاق قال :

قال يزيد حوراء : كنتُ أجلِس بالمدينـة على أبواب قريش، وكانت تمرّ بى جاريةٌ تختلف الى الزرقاء تتعلّم منهـا الغناء . فقلت لها يوما : اِفهمى قولى وردّى جوابى وكونى عند ظنّى ؛ فقالت : هاتِ ما عندك . فقلتُ : بالله ما آسمك؟ فقالت : مُمنّعة . فأطرقتُ طِيرَةً من آسمها مع طمعى فيهـا، ثم قلتُ : بل باذِلةٌ ومبـذولةٌ إن شاء الله فآسمعى منّى . فقالت وهى تتبسّم : إن كان عندك شىء فقُلْ . فقلت :

لِيَهْنِـك منّى أنّنى لستُ مُفْشِيًا * هواك إلى غيرى ولو مُتّ من كربى
ولا مانحًا خَلْقًا سـواك محبّـةً * ولا قائلًا ما عشتُ من حبكم حسبى

فنظـرت إلىّ طويلا ثم قالت : أنْشُـدُك الله ، أعن فَرْط محبّـة أم آهتياج غُلْمةٍ [تكلمت](1) ؟ فقلتُ : لا والله إلا عن فرط محبّة . فقالت :

فوالله ربّ الناس لا خُنْتُك الهوى * ولا زلتَ مخصوصَ المحبّة من قلبى
فثِقْ بى فإنى قـد وَثِقْتُ ولا تكن * على غير ما أظهرتَ لى يا أخا الحبّ (١٣١)

قال : فوالله لكأنمـا أضرمتْ فى قلبى نارًا . فكانت تلقانى فى الطريق الذى كانت تسلُكه فتحدّثنى فأتفرّج بهـا ؛ ثم آشتراها بعضُ أولاد الخلفاء، وكانت تكاتبُنى وتلاطفنى دهرا طويلا .

ذكر أخبار فُلَيْح بن أبى العَوْراء

هو رجل من أهل مكّة مولى لبنى مخزوم، وهو أحد مُغَنِّى الدولة العبّاسية ؛ له محلٌّ كبير من صناعته، وهو أحد الثلاثة الذين آختاروا المـائة الصوت للرشيد التى بنى أبو الفرج الأصفهانى كتابَه المترجَم بالأغانى عليهـا . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : ما سمعتُ أحسنَ من غناء فليح وآبن جامع . وكان المهدى لا يُغنّيه مُغَنٍّ

(1) الزيادة عن الأغانى .

إلا من وراء الستارة إلا فليح فإن الستارة كانت تُرفع بينه وبين المهدىّ . وهو أوّل مُغَنّ نظر وجهَ المهدىّ .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن يوسف بن إبراهيم عن إبراهيم بن المهدىّ قال : كتب إلىّ جعفر بن يحيى وأنا عامل الرشيد على [جُنْد](١) دمشق : قد قدم علينا فُلَيْح بن أبى العوراء ، فأفسد علينا بأهزاجه وخفيفه كلَّ غناء سمعناه قبله . وأنا محتال لك فى تخليصه إليك لتسمع منه كما أسمعنا . فلم ألبث أن ورد علىّ فليحٌ بكتاب الرشيد يأمر له بثلاثة آلاف دينار ؛ فورد علىّ منه رجلٌ أذكرنى لقاؤه الناسَ وأخبرنى أنه قد ناهز المائة . فأقام عندى ثلاث سنين ، وأخذ جوارى عنه كلَّ ما كان معه من الغناء ، وانتشر بعضُ غنائه بدمشق .

وروى أيضا بسنده إلى أحمد بن يحيى المكّىّ عن فُلَيْح بن أبى العوراء قال : كان بالمدينة فتًى يعشَق ابنةَ عمّ له ، فوعدتْه أنها تزوره ؛ وشكا إلىّ أنها تأتيه ولا شىء عنده ؛ فأعطيتُه دينارا للنفقة . فلما زارتْه قالت له : من يُلْهِينا ؟ قال : صديقٌ لى ، ووصفنى لها ؛ ودعانى فأتيتُه ؛ وكان أوّل ما غنّيتُه :

مِن الخَفِراتِ لم تَفْضَحْ أخاها * ولم تَرْفَعْ لوالدها شَنارا

فقامت إلى ثوبها فلبِسَتْه لتنصرف . فتعلّق بها وجَهِد كلَّ الجهد فى أن تُقيم فلم تفعل وانصرفتْ . فأقبل يلومنى فى أن غنّيتُها ذلك الصوتَ . فقلت : والله ما هو شىءٌ اعتمدتُ به مساءَتك ولكنّه شىء اتّفق . قال : فلم نَبْرَح حتى عاد رسولُها ومعه صُرّة فيها ألف دينار ، فدفعها إلى الفتى وقال : تقول لك ابنةُ عمّك : هذا مَهْرى ، فادفعه إلى أبى واخطُبْنى ، ففعل وتزوّجها .

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٣٦٥ طبع دار الكتب المصرية) . والجند : المدينة وخص به أبو عبيدة مدن الشام . وأجناد الشام خمس كور : دمشق وحمص وقنسرين والأردن وفلسطين .

ذكر أخبار إبراهيم الموصلىّ عفا الله عنه

هو إبراهيم بن مَاهان بن ميمون، وأصلُه من فارس، ومولِدُه فى سنة خمس وعشرين ومائة بالكوفة، ووفاتُه ببغداد فى سنة ثمان وثمانين ومائة . قالوا : ومات ماهان وترك إبراهيمَ صغيرًا، فكَفَله آلُ خزيمة بن خازم، فكان ولاؤُه لبنى تميم . وكان السببُ فى نسبه إلى المَوْصِل أنه لما كبِر واشتدّ وأدرك صَحِب الفِتيانَ واشتهى الغناءَ وطلبَه؛ فاشتدّ أخوالُه بنو عبد الله بن دارم عليه فى ذلك وبلغوا منه، فهرب منهم إلى الموصِل فأقام بها سنة؛ فلما رَجع إلى الكوفة قال له إخوانُه من الفتيان : مَرْحبًا بالفتى الموصلىّ، فغلب عليه[1] ثم ارتحل إلى الرّىّ فى طلب الغناء، فطال مقامه هناك، وأخذ الغناء الفارسى والعربى .

قال إسحاق : حدّثنى أبى قال :

أوّل شىء أُعطِيته بالغناء أنى كنت بالرىّ أنادِم أهلها بالسويّة لا أرزؤهم شيئا ولا أُنفِق إلا من بقيــة مال كان معى . فمرّ بنا خادم أبو جعفر المنصور إلى بعض عُمّاله برسالة، فسمعنى عند رجل من أهل الرّىّ فشُغِف بى وخلَع علىّ دُوَّاجَ سَمُّورٍ[2] له قيمة، ومضى بالرسالة فرجع وقد وصله العامل بسبعة آلاف درهم وكُسوةٍ كثيرةٍ، فجاءنى إلى منزلى الذى كنت أسكنه، فأقام عنــدى ثلاثة أيام ووهب لى نصف الكسوة [التى معه][3] وألفى درهم . وكان ذلك أوّل مالٍ كسبته من الغناء . فقلت : والله لا أنفق هذه الدراهم إلّا على الصناعة التى أفادتْنِيها . ووُصِف لى رجلٌ بالأُبُلّة[4]

(١) فى الأغانى (ج ٥ ص ١٥٦ طبع دار الكتب المصرية) : « فلقب به » .

(٢) ضرب من الثياب . والسمور : دابة معروفة تسوّى من جلودها فراء غالية الأثمان .

(٣) الزيادة عن الأغانى .

(٤) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة .

اسمه : "جُوانُويَه"[(١)] وكان حاذقا، فخرجت إليه، وصحبت فتيانها وأخذت عنهم وغنّيتهم فشُغِفوا بى .

قال إبراهيم : ولما أتيت "جُوانُويَه" لم أُصادِفه فى منزله فأقمت حتى جاء. فلما رآنى آحتشمنى وكان مجوسيا، فأخبرته بصناعتى والحال التى قصدتُه فيها، فرحّب بى وأفرد لى جَناحًا فى داره ووكّل بى جاريةً[(٢)]، فقدّمتْ لى ما أحتاج إليه . فلما كان العِشاء عاد إلى منزله ومعه جماعة من الفرس ممن يغنّى، فنزلت إليه فجلسنا وأخذوا فى شأنهم وضربوا وغنّوا، فلم أجِدْ فى غناء أحد منهم فائدة، وبلغت النَّوْبة إلىّ فضربتُ وغنّيت، فقاموا جميعا إلى فقبّلوا رأسى وقالوا : سَخِرتَ بنا، نحن إلى تعليمك إيّانا أحوج منك إلينا. فأقمت على تلك الحال أياما حتى بلغ [محمد بن][(٣)] سليمان بن علىّ خبرى، فوجّه إلىّ فأحضرنى وأمرنى بملازمته . فقلتُ : أيها الأمير، لستُ أتكسّب بهذه الصناعةِ وإنما ألتذّ بالغناء فلذلك تعلّمتُه، وأريد العَوْد الى الكوفة، فلم أنتفِعْ بذلك عنده وأخذنى بملازمته وسألنى : من أين أنا؟ فآنتسبتُ الى المَوْصِل، فلزِمتنى وعُرِفتُ بها . ولم أزل عنده مُكَرَّمًا، حتى قدِم عليه خادمُ المهدىّ. فلما رآنى عنده قال له : أميرُ المؤمنين أحوجُ إلى هذا منك، فدافعه عنّى . فلما قدِم الخادمُ على المهدىّ سأله عمّا رأى فى طريقه ومَقْصِده، فأخبره بما رأى، حتى آنتهى إلى ذكرى فوصَفَنى له . فأمره المهدىّ بالرجوع وإشخاصى إليه، فجاء وأشخصنى إلى المهدىّ، وحَظِيتُ عنده وقدّمنى .

قال : وما سمِع المهدىُّ قبلى أحدًا من المُغَنّين سوى فُلَيْح بن أبى العوراء وسِياط، فإن الفضل بن الربيع وصفهما له .

(١) جوانويه : مغن مجوسى . (٢) فى الأغانى « أخته » .
(٣) الزيادة عن الأغانى .

قال : وكان المهدىّ لا يَشرب ، فأرادنى على ملازمته وترك الشُّرب، فأبيتُ عليه . وكنتُ أغيب عنه الأيام، فاذا جئتُه جئتُه مُنْتَشيا ؛ فغاظَه ذلك منّى وضرَبنى وحبَسنى؛ فحَـذِقت القراءةَ والكتابة فى الحبس . ثم دعانى يوما فعاتبنى على شربى فى منازل الناس والتبذّل معهم . فقلت : يا أمير المؤمنين، إنما تعلّمتُ[1] هذه الصناعةَ للذّتى وعشرةِ إخوانى ولو أمكننى تركُها تركتُها وجميعَ ما أنا فيه لله تعالى . فغضب غضبًا شديدا وقال : لا تَدْخل على موسى وهارون، فوالله لئن دخلتَ عليهما لأفعلنّ وأصنعنّ . فقلت نعم . ثم بلغـه أنّى دخلتُ عليهما وشربتُ معهما وكانا مشتهِرين[2] بالنّبيذ، فضربنى ثلاثمائة سوط وستين سوطا . فقلتُ له وأنا أُضْرَب : إن جُرمى ليس من الأجرام التى يَحِلّ بها سفك دمى ، ووالله لو كان سرُّ ابنيـك تحت قدمىّ ما رفعتُهما عنه ولو قُطِعتا، ولو فعلتُ ذلك كنت فى حالة أبانِ العبدِ[3] الساعى . فلما قلتُ ذلك ضربنى بالسيف فى جفنه[4] فشجّنى، فسقطت مَغْشيًّا علىّ . وقال لعبد الله ابن مالك : خُذْه إليك واجعله فى مثل القبر . فدعا عبدُ الله بكبش فذبَحه وسَلخه وألبَسنى جلدَه ليسكن الضّربُ عنى، ودَفعنى الى خادم له يقال له أبو عثمان سـعيد التركىّ، فجعلنى فى قبر ووكّل بى جارية . فتأذّيت بنَزّ كان فى القبر وبِقّ[5] . فقلت للجارية : أصْلِحى لى مِجْمرةً وكُنْدُرا[6] ليذهب عنى هـذا البقّ ففعلتْ . فلمـا دخّنت أظلم القبرُ وكادت نفسى تذهب، ثم خفّ ذلك وزال البقّ، وإذا حيّتان مُقْبِلتان نحوى من شَقّ فى القـبر تَدُوران حولى، فهمَمْتُ أن آخُذَ واحدةً بيدى اليمنى

(١) فى الأصل « فعلت » . والتصويب عن الأغانى (ج ٥ ص ١٦٠ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) فى الأغانى : «مستهترين» .

(٣) هو العبد الذى سعى به ربموسى وهارون إلى المهدى وحدثه بما كانوا فيه .

(٤) جفن السيف : غمده .

(٥) المراد بالبق هنا ما يسميه أهل مصر الناموس، وأهل العراق يسمونه البق، ويطلقون الناموس على ما يسميه أهل مصر بالبق .

(٦) الكندر : اللبان .

والأخرى بيدى اليسرى، فإمّا علىّ وإمّا لِى، ثم كُفِيتُهما، فدَخَلتا فى الثَّقْب الذى خرجتا منه. فمكثتُ فى ذلك القبر ما شاء الله، ثم أُخرِجتُ منه. وأحْلَفنى المهدىّ بالطّلاق والعِتاق وكلّ يمينٍ لا فسحةَ لى فيها ألّا أدخلَ على ٱبنيه موسى وهارون أبدا ولا أغنّيهما، وخلّى سبيلى. قال إبراهيم: وقلتُ وأنا فى الحبس:

٥ ألَا طال ليلى أُراعِى النجوم * أُعالج فى السّاقِ كَبْلًا ثقيلا
بدارِ الهوانِ وشرّ الديارِ * أسامُ بها الخَسْفَ صَبْراً جميلا
كثيرُ الأخِلّاء عند الرخاء * فلما حُبِستُ أراهم قليلا
لطول بلائىَ مَلَّ الصديق * فلا يأمَنَنّ خليلٌ خليلا

قال: فلمّا ولِى موسى الهادى الخلافةَ ٱستتر إبراهيم منه ولم يَظْهر له بسبب
١٠ الأيمان التى حلَف بها للمهدىّ. فلم يزل يطلبه حتى أُتِى به فلما عاينه قال: يا سيّدى، [فارقتُ](١) أمّ ولدى أعزّ الخلق علىّ؛ ثم غنّاه:

يٱبنَ خيرِ الملوك لا تَتْرُكنّى * غَرَضًا للعدوّ يَرْمِى حِيَالِى
فلقد فى هواك فارقتُ أهلى * ثم عرّضتُ مهجتى للزوال
ولقد عِفْتُ فى هواك حياتى * وتغرّبت بين أهلى ومالى

١٥ قال إسحاق بن إبراهيم: فمَوّله الهادى وخوّله؛ وبحَسْبِك أنه أخذ منه مائة ألف وخمسين ألف دينار فى يوم واحد، ولو عاش لنا لبنيْنا حيطانَ دُورنا بالذهب والفضّة.

قال حمّاد بن إسحاق قال لى أبى:

والله ما رأيتُ أكمَلَ مروءةً من جدّك، وكان له طعام يُعَدّ أبدًا فى كل وقت.
٢٠ فقلت لأبى: كيف كان يُمكنه ذلك؟ قال: كان له فى كل يوم ثلاثُ شِيَاهٍ،

(١) الزيادة عن الأغانى.

واحدةٌ مقطّعة فى القـدور، وأخرى مسلوخةٌ معلّقة، وأخرى قائمة فى المطبخ؛ فإذا أتاه قوم طَعِموا ممّا فى القدور، فإذا فرغت القـدورُ قُطِّعَت الشّاةُ المعلّقةُ ووُضِعَتْ فى القدور وذُبِحَتِ القائمة وأُتى بأُخرى فأُقيمت فى المطبخ . وكانت وظيفتُه لطعامه وطِيبـه وما يتّخـذ له فى كل شهر ثلاثين ألف درهم سـوى ما كان يُجرِى وسوى كُسوته . ولقد كان مرّةً عندنا من الجوارى الودائع لإخوانه ثمانون جارية، ما فيهنّ واحدة إلا ويُجرِى عليها من الطعام والكُسوة والطِّيب مثل ما يُجرِى لأخصّ جواريه، فإذا رُدّت الواحدةُ الى مولاها وصلَها وكساها . ومات وما فى ملكه إلا ثلاثة آلاف دينار وعليه من الدّين سبعمائة دينار قُضِيَتْ منها .

وروى عن إسحاق بن إبراهيم قال :

اِشترى الرشيد من أبى جاريةً بستة وثلاثين ألف دينار، فأقامت عنده ليلة ثم أرسل الى الفضل بن الربيع وقال له : إنا اشترينا هذه الجاريةَ من إبراهيم ونحن نحسَب أنها على صفةٍ وليست كما ظنّنا وما قَرِبْتُها، وقد ثَقُلَ علىّ الثمنُ و بينك و بينه ما بينكما؛ فاذهب اليه فسَله أن يَحُطَّنا من ثمنها ستة آلاف دينار . قال : فأتاه الفضل، فخرج اليه وتلقّاه؛ فقال له : دعنى من هذه الكرامة التى لا مَـؤونة فيها، قـد جئتُك فى أمر، ثم أخبره الخبر . فقال له إبراهيم : إنما أراد أن يبلُوَ قدْرَكَ عندى . قال : هو ذاكَ؟ قال : فمالى فى المساكين صدقةٌ إن لم أُضعِفْه لك، قد حططتُك اثنى عشرَ ألف دينار . فرجع الفضل اليه بالخبر، فقال : ويحك! اِحمل اليه المـالَ بجملته، فما رأيت سُوقةً أنبل(١) منه نفسا . قال إسحاق : وكنتُ قد أتيت أبى فقلت : ما كان لحطيطة هذا المـال معنًى ولا هو قليل يُتغافل عنه، قال لى : يا أحمقُ، أنا أعرف الناس به، والله لو أخذتُ المـالَ منه كَمَلًا ما أخذته إلا وهو كاره ولحَقَدَ ذلك، وكنت أكون

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «أمثل» .

عنده صغيرَ القدر ، وقد مَنَنتُ عليه وعلى الفضل وانبسطتْ نفسُه وعَظُمَ قدرى عنده، وإنما اشتريتُ الجاريةَ بأربعين ألف درهم وقد أخذت بها أربعة وعشرين ألف دينار . فلما حُمِلَ اليه المالُ بكماله دعانى وقال : كيف رأيتَ يا إسحاقُ، مَنِ البصيرُ أنا أم أنتَ؟ (١) فقلت : أنت، جعلنى الله فداك . قال : وإبراهيمُ أوّل من علّم الجوارى المثمّنات الغناء فإنه بلغ بالقيان كلّ مبلغ ورفع من أقدارهنّ .

ومن أخباره مع الرشيد ما رُوى عن إسحاق قال حدّثنى أبى قال :

إنّ الرشيد غضب علىّ فقيّدنى وحبسنى بالرَّقّة وجلس للشرب يوما فى مجلس قد زينه وحسّنه . فقال لعيسى بن جعفر : هل لمجلسنا عيبٌ؟ قال : نعم، غيبةُ إبراهيم الموصلىّ عنه . فأمره باحضارى، فأحضِرتُ فى قيودى، ففُكّت عنّى بين يديه، وأمرهم فناوَلونى عودا، ثم قال : غنِّ يا إبراهيم ، فغنّيته :

تَضَوَّعَ مِسكًا بطنُ نَعمانَ أن مَشَتْ * بـه زينبٌ فى نسـوةٍ عَطِـرَاتِ

فاستعاده وشرب وطرِب وقال : هَنَأْتَنِى وسأهنئك بالصلة، وقد وهبت لك الهنىء والمرئ، (٢) فانصرفتُ، فلما أصبحتُ عُوِّضتُ منهما مائتى ألف درهم .

قال إبراهيم : دخلت على موسى الهادى فقال لى : يا إبراهيم، غنّ من الغناء ما ألَذُّ وأطرَب عليه ولك حكمُكَ . فقلت : يا أمير المؤمنين، إن لم يقابلنى زُحَلُ ببرده رجوتُ ذلك، فغنّيته :

وإنى لَتعـرُونى لذِكراكِ هِزة * كما انتفض العُصفورُ بلّله القطرُ

(١) فى الأصل «أو» .

(٢) الهنىء والمرىء : نهران بازاء الرقة والرافقة حفرهما هشام بن عبد الملك وأحدث فيهما «واسط الرقة» . يريد أنه أقطعه ضيعتهما (أنظر معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩٩٤ طبع أوروبا) .

فضرب بيده إلى جيب دُرّاعته[1] فخطّه ذراعا، ثم قال: أحسنتَ والله! زدنى، فغنّيتُ:

فيا حُبَّها زِدْنى جَوًى كلَّ ليـلةٍ * ويا سَلوةَ الأيام مَوعِدُكِ الحشرُ

فضرب بيـده الى دُرّاعتـه فخطها ذراعا آخر وقال: زدنى ويلك! أحسنتَ والله ووجب حكمك، فغنّيتُ:

هجرتُكِ حتى قيل ما يعرف الهوى * وزُرتُكِ حتى قيل ليس له صبرُ

فرفع صوته وقال: أحسنت والله! لله أبوك! هات ما تريد. فقلت: يا سيِّدى عَيْن مروان بالمدينـة. فدارت عيناه فى رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان وقال: يابن الخناء! أردت أن تَشْهَرنى بهذا المجلس فيقول الناس: أطربه فحكم عليه فتجعلنى سَمْرًا وحديثا! يا إبراهيم الحرّانى[2]، خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت مال الخاصة، فإن أخذ كلَّ ما فيه نَخَّله وإياه. فدخلت فأخذت خمسين ألف دينار. وهـذا الشعر لأبى صخر الهذلىّ، وأوّلُه:

عَجِبتُ لسـعى الدّهر بينى وبينهـا * فلمـا انقضى ما بيننا سَكَن الدّهرُ

فيا حبَّهـا زِدْنى جَوًى كلَّ ليـلةٍ * ويا سَـلْوةَ الأيام مَوْعِدُكِ الحشرُ

ويا هجرَ ليلى قـد بلغتَ بىَ المَـدَى[3] * وزدتَ على ما ليس يبلغـه الهجرُ

وإنى لتعرونى لذكـراكِ هِـزّةٌ * كما انتفض العصفورُ بلّله القطـرُ

هجرتُكِ حتى قيل لا يعرفُ الهـوى * وزرتُكِ حتى قيل ليس له صـبرُ

---

(١) الدراعة: جبة مشقوقة المقدّم ولا تكون إلا من صوف.

(٢) فى نسخة من الأصـل: «الجدانى». وفى أخرى: «الحدانى» والتصويب عن الأغانى. وهو من ندماء الهـادى وكان قيما على خزائن الأموال فى أيامه.

(٣) ورد هذا الشطر هكذا فى الأغانى وأمالى القالى (ج ١ ص ١٥٠ طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل: * وردت على ما لم يكن بلغ الهجر *

أمَا والذى أبكى وأضحك والذى * أمات وأحيا والذى أمره الأمرُ
لقد تركتْنى أحسُدُ الوحشَ أن أرَى * أليفَيْنِ منها لا يروعُهما الذُّعْرُ

ذكر نبذة من أخبار إبراهيم الموصلى مع البرامكة رحمهم الله تعالى

كان لإبراهيم الموصلىّ مع البرامكة أخبار مستحسنة، سنُورد منها طرفا . منها ما حكى عن مُخَارِق قال :

أذِن لنا أمير المؤمنين الرشيدُ أن نُقيمَ فى منازلنا ثلاثة أيام وأعلمنا أنه يشتغل فيها مع الحُرَم . فمضى الجلساء أجمعون الى منازلهم وقد أصحبت السماء مُتَغيّمةً تطِشّ طشيشا خفيفا . فقلت : والله لأذهبنّ الى أستاذى إبراهيم فأعرف خبره ثم أعود، وأمرتُ مَنْ عندى أن يسوّوا لنا مجلسا الى وقت رجوعى . فجئتُ الى إبراهيم، فدخلت اليه، فإذا هو جالس فى رِواق له والستارةُ منصوبةٌ والجوارى خلفها؛ فدخلت أترنّم ببعض الأصوات وقلت له : ما بالُ السّتارةِ لست أسمع من ورائها صوتا؟ فقال : اقعد ويحك! إنى أصبحت فجاءنى خبرُ ضَيعةٍ تُجاورنى قد والله طلبتها زمانًا وتمنّيتُها ولم أملكها، وقد أُعطى بها مائةَ ألف درهم . فقلت له : ما يمنعك منها؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعافَ هذا المال وأكثر . قال : صدقت، ولكن لستُ أطِيبُ نفسا بأن أُخرِجَ هذا المال . فقلت : فمن يُعطيك الساعةَ مائة ألف درهم؟ قال[1] : والله ما أطمع فى ذلك من الرشيد، فكيف بمن دونه! ثم قال : اجلس، خذ هذا الصوت . ثم نقَر بقضيب على الدّواة وألقى علىّ هذا الصوتَ :

نام الخليّونَ من هَمٍّ[2] ومن سَقَمِ * وبِتُّ من كثرة الأحزان لم أنَم

(١) كلمة «قال» غير موجودة فى الأغانى، وسياق كلامه أن ما بعدها من كلام مخارق .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «من همى ومن حزنى» .

يا طالبَ الجودِ والمعروف مجتهـداً * اِعْمِدْ ليحيي حليفِ الجود والكرم

قال : فأخذت الصوت وأحكمتُـه . ثم قال لى : آنصرف الى الوزير يحيي بن خالد فإنك تجد الناس على بابه قبل أن يُفتح البابُ، ثم تجد الباب قد فُتح ولم يجلس بعدُ، فآستأذِنْ عليـه قبل أن يصل اليه أحدٌ، فإنه يُنكر مجيئكَ ويقول : مِن أين أقبلتَ فى هذا الوقت؟ فحدِّثه بقصدك إيّاى وما ألقيتُ إليك من خبر الضيعة وأعلمه أنى قد صنعت هذا الصوت وأعجبنى ولم أر أحداً يستحقه إلا جاريته فلانة، وأنى ألقيتُه عليك [حتى أحكمته](١) لتطرحه عليها؛ فسيدعوها ويأمر بالستارة فتُنصبُ ويوضع لها كرسىّ ويقول لك : اِطْرَحْه عليها بحضرتى؛ فآفعل وأْتِنى بما يكون بعد ذلك من الخبر . قال مخارق : فجئت الى باب يحيي بن خالد فوجدته كما وصف . وسألنى فأعلمته بما أمرنى به؛ ففعل كل شىء قاله لى إبراهيمُ وأحضر الجارية فألقيتُه عليها . ثم قال لى : تُقيم عندنا يا أبا المهنّأ أو تنصرف؟ فقلت : بل أنصرف، أطال الله بقاءك، فقد علمتَ ما أُذِنَ لنا فيـه . فقال يا غلام، اِحْمِل مع أبى المهنّأ عشرة آلاف درهم واحمل الى أبى إسحاق مائة ألف درهم ثمنَ هذه الضيعة . فحملت عشرة الآلاف معى، وأتيتُ منزلى وقلت : أُسَرُّ يومى هـذا وأُسُرُّ مَنْ عندى . ومضى الرسول بالمـال الى إبراهيم؛ فدخلتُ منزلى ونثرتُ على مَنْ عندى دراهم من تلك البَدْرة وتوسَّدتُها وأكلتُ وشربت وطربت وسُررتُ يومى كلّه . فلمـا أصبحت قلت : والله لآتِينّ أستاذى ولأعرفنّ خبره؛ فأتيته فوجدته كهيئته بالأمس على مثـل ما كان عليـه، فترنّمت وطربت فـلم يتلقَّ ذلك بمـا يجب؛ فقلت : ما الخبر؟ ألم يأتك المـال بالأمس؟ ! فقال : بلى، فما كان خبرك أمس؟ فأخبرتُه بما كان وقلت : ما تنتظر؟ فقال : ارفع السِّجف، فرفعتُه فإذا عشر بِدَر؛ فقلت : فأىّ شىء بقى عليك فى أمر

(١) الزيادة عن الأغانى .

الضيعة ؟ فقال : ويحك ! ما هو والله إلا أن دخلتُ منزلى حتى شَحَحتُ عليها وصارت مثل ماحويتُ قديما . فقلت : سبحان الله ! فتصنع ماذا؟ قال : قم حتى ألقِيَ عليك صوتا صنعتُه يفوق ذاك . فقمت فجلست بين يديه ؛ فألقى علىّ :

ويَفرَحُ بالمولود من آل بَرْمَكٍ * بُغَاةُ النَّدَى، والسيفُ والرمحُ والنصلُ
وتنبسِطُ الآمالُ فيه لفضله * ولا سيما إن كان والدَه الفضلُ

قال مخارق : فلما ألقى علىّ الصوتَ سمعتُ ما لم أسمع مثلَه قطّ وصَغُر فى عينى الأوّل، فأحكمته . ثم قال : امض الساعة إلى الفضل بن يحيى، فإنك تجده لم يأذن لأحد بَعْدُ وهو يريد الخلوةَ مع جواريه اليوم؛ فاستأذِن عليه وحدِّثه بحديثنا وما كان من أبيه إلينا، وأعلمه أنى صنعتُ هذا الصوت وكان عندى أرفعَ منزلةً من الصوت الأوّل الذى صنعته بالأمس، وأنى ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه ووجّهتُ بك قاصدًا لِتُلْقِيَه على فلانة جاريتِه . فصرتُ إلى باب الفضل فوجدتُ الأمر على ما ذكر، فاستأذنتُ فوصلت إليه؛ وسألنى عن الخبر، فأعلمتُه بخبرى وماوصل إلىّ وإليه من المال؛ فقال : أخزى الله إبراهيم ! ما أبخله على نفسه ! ثم دعا خادما فقال له : اِضرب السِّتارةَ، فضربها؛ فقال لى : ألقِه . فلما ألقيته وغنّته الجاريةُ لم أُتِمّه حتى أقبل يجرّ مِطْرَفه ، ثم قعد على وِسادة دون الستارة وقال : أحسنَ واللهِ أستاذُك وأحسنتَ أنتَ يا مخارق . ولم أبرح حتى أحكمَتْه الجاريةُ؛ فسُرَّ بذلك سرورا عظيما وقال : أقِم عندى اليومَ . فقلت : يا سيِّدى إنما بقى لنا يوم واحد، ولولا أنّى أحِبّ سرورَكَ لم أخرج من منزلى . فقال : يا غلام، اِحمل مع أبى المهنّأ عشرين ألف درهم وإلى أبى إسحاق مائتى ألف درهم . فانصرفتُ إلى منزلى بالمال ، وفتحتُ بَدرةً ونثرت منها على الجوارى وشربت وسُرِرتُ أنا ومَنْ عندى يومنا . فلما أصبحت بكّرت إلى إبراهيم أتعرّف خبره وأعرّفه خبرى، فوجدته على الحال

التى كان عليها أوّلا وآخرا، فدخلت أترنّم وأصفّق . فقال لى : أُدنُ، فقلت : ما بقى عليك؟ فقال : اجلس وارفع سَجْفَ هـذا الباب، فرفعته فاذا عشرون بدرةً مع تلك العشر . فقلت : ما تنتظر الآن ؟ فقال : ويحك! ما هو إلا أن حَصلتْ حتى جرت مَجْـرى ما تقدّم . فقلت : والله ما أظن أحدًا نال من هذه الدولة ما نلتَ ! فلِمَ تبخل على نفسك بشىء تمنيتَه دهرًا وقد ملّكك الله أضعافه! ثم قال : اجلس فخذ هذا الصوت . فألقى علىّ صوتا أنسانى صوتى الأوّلين وهو :

أفى كلّ يومٍ أنتَ صَبٌّ وليلةٍ * إلى أمِّ بكرٍ لا تُفيـق فتُقصِرُ
أُحِبُّ على الهِجرانِ أكنافَ بيتها * فيالكَ مِن بيت يُحَبُّ ويُهْجَـرُ
إلى جعفر سارتْ بنا كلُّ جَسْرةٍ * طواها سُراهـا نحـوَه والتهجُّرُ
إلى واسـع للجندين فِناؤهُ * تروح عطاياه عليهـم وتَبْـكُرُ

— وهو شعر مروان بن أبى حفصة يمدح جعفر [بن يحيى](1) — قال مخارق : ثم قال لى إبراهيم : هل سمعتَ مثلَ هـذا قطّ ؟ فقلتُ : ما سمعتُ قط مثـله ! فلم يزل يردّده علىّ حتى أخذته، ثم قال لى : اِمض إلى جعفر فافعـل به كما فعلتَ بأبيـه وأخيه . قال : فمضيت ففعلت مثل ذلك وأخبرته بما كان وعرضت عليه الصوت؛ فسُرَّ به ودعا خادمًا فأمره أن يضرب السِّتارةَ، وأحضر الجاريةَ وقعد على كرسىّ؛ ثم قال : هاتِ يا مخارقُ، فألقيتُ الصوتَ عليهـا حتى أخذته، فقـال : أحسنتَ يا مخارق وأحسن أُستاذُك، فهل لك فى المُقام عندنا اليوم؟ فقلت : يا سيّدى، هذا آخرُ أيامنا، وإنما جئتُ لموقع الصوت منّى حتى ألقيته على الجارية . فقال : يا غلام، اِحمِل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلىّ ثلثمائة ألف درهم . فصرتُ إلى منزلى بالمـال وأقمتُ ومَن عندى مسرورين نشرب طولَ يومنا ونطرَب . ثم بكّرتُ إلى إبراهيم

(1) زيادة عن الأغانى .

(١٣٥)

فتلقّانى قائما، ثم قال لى : أحسنتَ يامخارق! فقلتُ : ما الخبر؟ قال : اِجْلِس فجلستُ؛ فقال لمن خلف الستارة : خذوا فيما أنتم عليه[1] ثم رفع السَّجفَ فإذا المالُ. فقلت ماخبر الضَّيْعة؟ فأدخل يده تحت مِسْوَرة[2] وهو متكئ عليها فقال : هذا صَكُّ الضَّيْعة اشتراها يحيى بن خالد وكتب إلىّ : "قد علمتُ أنك لا تسخو نفسُك بشراء هذه الضَّيْعة من مال يحصُل لك ولو حويتَ الدنيا كلَّها، وقد ابتعتها من مالى". ووجّه إلىّ بصكها، وهذا المال كما ترى، ثم بكى وقال : يا مخارقُ، إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثلَ هؤلاء، وإذا خنكرت[3] فخَنْكِرْ لمثل هؤلاء، ستمائة ألف، وضيعة بمائة ألف، وستون ألف درهم لك، حَصّلنا ذلك أجمع وأنا جالس فى مجلسى لم أبرح منه، متى يُدْرَك مثلُ هؤلاء! .

ورُوِى عنه قال : أتيتُ الفضلَ بن يحيى يوما فقلت له : يا أبا العبّاس، جُعِلتُ فداك! هَبْ لى دراهم فإن الخليفة قد حبس بِرّه . فقال : ويحك يا أبا إسحاق ماعندى ما أرضاه لك . ثم قال : هاه! إلا أنّ هاهنا خَصْلةً ، أتانا رسولُ صاحب اليمن فقضينا حوائجَه، ووجّه [الينا][4] بخمسين ألف دينار يَشترى لنا بها محبّتنا . فما فعلتْ ضياءُ جاريتُك ؟ قلت : عندى جعلتُ فداك . قال : فهو ذا، أقول لهم يَشْتَرُونها[5] منك فلا تَنْقُصْها من خمسين ألف دينار، فقبّلتُ رأسه ثم انصرفتُ . فبكّر علىّ رسول صاحب اليمن ومعه صديقٌ له ولى، فقال : جاريتُك فلانة [عندك][6]؟ قلتُ : عندى. قال : اعْرِضها علىّ فعرضتُها عليه، فقال : بكم؟ فقلت : بخمسين ألف دينار ولا أنْقُصُ منها دينارا واحدا، وقد أعطانى الفضلُ بن يحيى أمس هذه العطيّةَ،

(١) فى الأغانى : «فيما أنتم فيه» . (٢) المسورة : الوسادة من الجلد .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ٥ ص ١٨٤ طبع دار الكتب المصرية) ومعناها : إذا أردت أن تغنى فغن لمثل هؤلاء . وفى الأصل : «واذا احتكرت فاحتكر» وهو تحريف . (٤) الزيادة عن الأغانى . (٥) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «حتى يشترونها» . (٦) الزيادة عن الأغانى .

فقال : هل لك فى ثلاثين ألف دينار مُسَلَّمة؟ وكان مشترى الجارية أربعمائة دينار، فلما وقع فى أُذُنى ذكرُ ثلاثين ألف دينار أُرتِج علىّ ولَحِقنى زَمَعٌ[1]، وأشار علىّ صديق الذى معه بالبيع، وخِفْت والله أن يَحْدُث بالجارية حَدَثٌ أو بى أو بالفضل بن يحيى[2]، فسلّمتُها وأخذتُ المـال . ثم بكّرت على الفضل، فإذا هو جالسٌ وحده . فلما نظر إلىّ ضَحِك وقال لى : ياضيّق العَطَنِ والحَوْصلة، حَرَمْتَ نفسَك عشرين ألف دينار. فقلت له : جُعِلتُ فِداك ، دَعْ ذا عنك، فوالله لقد دخلنى شىء أَعْجَز عن وصـفه وخِفتُ أن تحدُث بى حادثةٌ أو بالجارية أو بالمشترِى أو بك أعاذك الله من كل سوء، فبادرتُ بقَبول الثلاثين ألف دينار. فقال : لاضَيْر، ياغلام جِئْ بجاريته، فجِىء بها، فقال : خُذْ بيدها وانصرِف بارك الله لك فيها، ما أردنا إلّا منفعتك ولم نُرِد الجَارِيةَ. فلمـا نهضتُ قال لى : مكانَك، إن رسول صاحب أَرْمِينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ونَفَّذْنا كُتُبَه، وقد ذكر أنه قد جاء بثلاثين ألف دينار يشترى لنا بها ما نُحِبّ، فاعْرِض عليـه جاريَتك هـذه ولا تَنْقُصْها من ثلاثين ألف دينار، فانصرفتُ بالجارية. وبكّر علىّ رسولُ صاحب أَرْمِينية ومعه صديقٌ لى آخَرُ، فقاولنى بالجارية، فقلت : لن أنقصها من ثلاثين ألف دينـار . فقال لى : معى عشرون ألف دينار مُسَلَّمَـة خذها بارك الله لك فيها . فدَخَلنى والله مثـلُ الذى دخلنى فى المرّة الأولى وخِفْتُ مثلَ خوفى الأوّل، فسلّمتُها وأخذت المـال. وبكّرتُ على الفضل، فإذا هو وحده. فلما رآنى ضحك وضرب برجله ثم قال : ويحك، حَرَمْتَ نفسَك عشرةَ آلاف دينار . فقلتُ : أصلحك الله، خِفْت والله مثلَ ما خِفْتُ فى المرّة الأولى . فقال : لا ضيرَ، [أَخْرِجْ][3] يا غلام جاريتَه فجِىء بها، فقال : خُذْها، ما أردناها وما أردنا إلا

(١) كذا فى الأغانى . والزمع : شبه الرعدة تأخذ الانسان . وفى الأصل : « جزع » .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «أن يحدث بالجارية حدث أو فى أمر الفضل» .
(٣) الزيادة عن الأغانى .

منفعتَك. فلما ولّت الجارية صِحْتُ بها: ارْجِعى فرجَعتْ؛ فقلت: أشْهِدكَ جُعِلتُ فداكَ هى حرّة لوجه الله تعالى، وإنى قد تزوّجتُها على عشرة آلاف درهم، كسبَتْ لى فى يومين خمسين ألف دينار فما جزاؤها إلا هذا. فقال: وُفّقت إن شاء الله تعالى.

وأخبارُه مع البرامكة كثيرةٌ وصِلاتُهم له وافرةٌ. وقد ذكرنا منها ما فيه غُنْيةٌ عن زيادة. فَلْنذكر وفاةَ إبراهيم. كانت وفاتُه ببغداد فى سنة ثمان وثمانين ومائة، ومات فى يوم وفاته العباسُ بن الأحنف الشاعر، وهُشَيْمةُ الخمّارة؛ فَرُفع ذلك إلى الرشيد فأمر المأمونَ أن يصلّى عليهم، فخرج وصلّى عليهم.

قال إسحاق: لمّا مَرِض إبراهيم مرضَ موْته ركب الرشيد حمارا ودخل على إبراهيم يعودُه وهو جالس فى الأَبْزَن(١)، فقال له: كيف انتَ يا إبراهيم؟ فقال: أنا والله يا سيّدى كما قال الشاعر:

سَقِيمٌ مَلَّ منه أقْرَبوه * وأسْلَمه المُدوِاى والحميمُ

فقال الرشيد: إنّا لله! فخرج، فما بَعُدَ حتى سَمِعَ الواعيةَ(٢) عليه.

(١) الأبزن مثلثة الأول: حوض يغتسل فيه، وقد يتخذ من نحاس، معرب آب زن.

(٢) الواعية: الصراخ على الميت ونعيه.

صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع فى أحد الأصلين الفتوغرافيين :

هـذا آخر الجزء الرابع من نهـاية الأرب فى فنون الأدب .
والحمد لله وحده، وصلى الله على سـيّدنا محمد وآله وصحبه وسـلم؛
وحسبنا الله ونعم الوكيل .

صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع فى الأصل الآخر الفتوغرافى :

كمل الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب على يد
مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم
البكرىّ التيمىّ القرشىّ المعروف بالنويرى عفا الله عنهم .

تمّ الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب،
يتلوه إن شاء الله تعـالى الجـزء الخامس وأوّله
ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ

تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النُّوَيرىّ

٦٧٧ - ٧٣٢ هـ

السِّفر الرابع

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

فهرس

السفر الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

الباب الثالث

فى المجون والنوادر والفكاهات والملح ١

ذكر مزاحات رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣ — ذكر من اشتهر بالمزاح من الصحابة رضوان الله عليهم ٣ — ذكر شىء من مجون الأعراب ٧ — من نوادر القضاة ٩ — من نوادر النحاة ١٣ — من نوادر المتنبئين ١٤ — من نوادر المغفلين والحمق ١٦ — من نوار النبيذيين ١٧ — من نوادر النساء والجوارى ١٨ — من نوادر العميان ٢٢ — من نوادر السؤال ٢٣ — من نوادر من اشتهر بالمجون ٢٣ — من نوادر أشعب وأخباره ٢٤ — من نوادر أبى دلامة ٣٦ — من نوادر أبى صدقة ٤٨ — من نوادر الأقيشر ٥٢ — من نوادر ابن سيابة ٥٦ — من نوادر مطيع بن إياس الكنانى وأخباره ٥٧ — من نوادر أبى الشبل ٦٣ — من نوادر حمزة بن بيض الحنفى ٦٥ — من نوادر أبى العيناء عفا الله عنه ٦٨ — ذكر ما ورد فى كراهة المزح ٧٢ — من الشعر المناسب لهذا الباب والداخل فيه ٧٤

الباب الرابع

فى الخمر وتحريمها، وآفاتها، وجناياتها، وأسمائها، وأخبار من تنزّه عنها فى الجاهلية، ومن حدّ فيها من الأشراف، ومن اشتهر بها، ولبس ثوب الخلاعة بسببها، وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل فى وصف آلاتها وآنيتها، وما قيل فى مبادرة اللذات، وما وصفت به المجالس، وما يجرى هذا المجرى ١٠٢

ذكر ما قيل فى الخمر وتحريمها ٧٦ — ما ورد فى تحريمها فى كتاب الله وبينه السنة ٨١ — ما قيل فى إباحة المطبوخ ٨٢ — آفات الخمر وجناياتها ٨٣ — أسماء الخمر من حيث تعصر الى أن تشرب ٨٦ — أخبار من تنزه عنها فى الجاهلية وتركها ترفعا عنها ٨٨

صفحة

ذكر من حدّ فيها من الأشراف ومن شربها منهم ومن اشتهر بها ولبس فيها ثوب الخلاعة ومن افتخر بشربها : ٩٠

من حدّ فيها من الأشراف ٩٠ — من شربها منهم واشتهر بها ٩٢ — من افتخر بشربها وسبائها ١٠٣

ذكر شيء مما قيل فيها من جيّد الشعر : ١٠٧

ما قيل فيها على سبيل المدح لها ١٠٧ — ما قيل فى وصفها وتشبيهها ١٠٨ — ما قيل فى أفعالها ١١٢ — ما وصفت به غير ما قدّمناه ١١٣ — ما قيل فيها اذا مزجت بالماء ١١٥

ذكر ما قيل فى مبادرة اللذات ومجالس الشراب وطيها : ١١٨

ما وصفت به مجالس الشرب ١١٩ — ما قيل فى طيّ مجالس الشراب ١٢١

ذكر ما قيل فى وصف آلات الشراب وأوانيها : ١٢١

ما قيل فى الراووق ١٢٢ — ما وصفت به زقاق الخمر ١٢٣ — ما وصفت به الأباريق ١٢٣ — ما وصفت به الكاسات والأقداح ١٢٤

الباب الخامس

فى الندمان والسقاة ١٢٦

ما قيل فى السقاة ١٢٩

الباب السادس

فى الغناء والسماع وما ورد فى ذلك من الحظر والإباحة وما استدل به مَن رأى ذلك ومن سمع الغناء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ومن التابعين ومن الأئمة والعبّاد والزهّاد ، ومن غنّى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقوّاد والأكابر، وأخبار المغنين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية، ومن أخذ عنهم، ومن اشتهر بالغناء وأخبار القيان ١٦٠

ذكر ما ورد فى الغناء من الحظر والاباحة ١٣٣ — ما قيل فى تحريم الغناء وما استدل به من رأى ذلك ١٣٣ — دليلهم من الكتاب العزيز ١٣٤ — دليلهم من السنة ١٣٤ — أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ١٣٥ — أقوال الأئمة رحمهم الله تعالى ١٣٦ — ما ورد فى إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة ١٣٧ — ما استدلوا به على إباحة الغناء من الأحاديث النبوية ١٣٨ — ما ورد فى الضرب بالآلة ١٤٠ — فى اليراع ١٤٢ — فى القصب والأوتار ١٤٣ — فى المزامير والملاهى ١٤٥ — ذكر ما ورد فى توهين

صفحة

ما استدلوا به على تحريم الغناء والسماع ١٤٧ — ما احتجوا به من الآيات ١٤٧ — ما احتجوا به من الحديث ١٥١ — ذكر أقسام السماع وبواعثه ١٦٧ — ذكر العوارض التى يحرم معها السماع ١٧١ — العارض الأول ١٧١ — الثانى فى الآلة ١٧٢ — الثالث فى نظم الصوت ١٧٢ — الرابع فى المستمع ١٧٣ — العارض الخامس ١٧٤ — ذكر آثار السماع وآدابه ١٧٤ — من سمع الغناء من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ١٩٠ — من سمع الغناء من الأئمة والعباد والزهاد ١٩٤ — من غنى من الخلفاء وأبنائهم ونسبت له أصوات من الغناء نقلت عنه ٢٠٠ — من غنى من الخلفاء ٢٠٠ — وممن غنى من خلفاء الدولة العباسية ٢٠١ — أبناء الخلفاء الذين لهم صنعة ويد فى هذا الفن ٢٠٥ — من غنى من الأشراف والعلماء رحمهم الله ٢٢٧ — من غنى من الأعيان والأكابر والقوّاد ممن نسبت له صنعة فى الغناء ٢٣١

ذكر أخبار المغنين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية ومن أخذ عنهم ومن اشتهر بالغناء : ٢٣٩

أخبار سعيد بن مسجح ٢٣٩ — أخبار سائب خاثر ٢٤٣ — أخبار طويس ٢٤٦ — أخبار عبد الله بن سريج ٢٤٩ — أخبار معبد ٢٦٢ — أخبار الغريض وما يتصل بها من أخبار عائشة بنت طلحة ٢٦٧ — أخبار محمد ابن عائشة ٢٨٠ — أخبار ابن محرز ٢٨٧ — أخبار مالك بن أبى السمح ٢٨٨ — أخبار يونس الكاتب ٢٩٢ — أخبار حنين ٢٩٣ — أخبار سياط ٢٩٥ — أخبار الأبجر ٢٩٧ — أخبار أبى زيد الدلال ٢٩٨ — أخبار عطرد ٣٠٢ — أخبار عمر الوادى ٣٠٤ — أخبار حكم الوادى ٣٠٥ — أخبار ابن جامع ٣٠٦ — أخبار عمرو بن أبى الكلت ٣٠٨ — أخبار أبى المهنأ مخارق ٣١٢ — أخبار يحيى بن مرزوق المكىّ ٣٢٠ — أخبار أحمد بن يحيى المكى الملقب بطنين ٣٢١ — أخبار هاشم بن سليمان مولى بنى أمية ٣٢٢ — أخبار يزيد حوراء ٣٢٣ — أخبار فليح بن أبى العوراء ٣٢٦ — أخبار إبراهيم الموصلى عفا الله عنه ٣٢٨ — نبذة من أخبار إبراهيم الموصلى مع البرامكة رحمهم الله تعالى ٣٣٥

السفر الرابع

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيق

ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ، وقد تقدّم نسبه فى أخبار أبيه . وكان الرشيد يولَع به فيكنيه أبا صَفْوان . قال أبو الفرج الأصفهانى فى ترجمة إسحاق : وموضعه من العلم، ومكانه من الأدب، ومحلّه من الرواية، وتقدّمه فى الشعر، ومنزلته فى سائر المحاسن[1] أشهر من أن يُدَلّ عليها بوصف . قال : فأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالبَ عليه وعلى ما كان يحسنه، فإنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له فى هذا نظير . لَحِق بمن مضى فيه وسبق من قد بقى، وسهّل طريق الغناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا وقُدوتهم ورأسهم ومعلّمهم؛ يعرف ذلك منه الخاصّ والعامّ، ويشهد له به الموافق والمفارق . على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدّهم بغضا له لئلا يدعَى اليه ويسمّى به[2] . وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لولّيته القضاء بحضرتى، فإنه أولى به وأعفّ وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة . وقد روى الحديث ولقى أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عُيَينةَ [وهشيم بن بشير][3] وإبراهيم بن سعد وأبى معاوية الضرير ورَوْح

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «المجالس» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «لولا ما سبق إسحاق على ألسنة الناس وشهرته ... الخ» .

(٣) زيادة عن الأغانى .

ابن عُبَادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز . وكان مع كراهته للغناء أضنّ خلق الله به وأشحّهم بخلا على كل أحد حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسبا إليه ومتعصّبا له فضـلا عن غيرهم . قال : وهو صحّح أجناس الغناء وطرائقـه وميّزها تميزا لم يقدِر عليه أحد قبله .

وقال محمد بن عِمران الجُرْجانى : كان والله إسحاق غُرّةً فى زمانه ، وواحدا فى عصره علمـا وفهما وأدبا ووقارا وجَوْدةَ رأى وصحّةَ مودّة . وكان والله يُخرس الناطق إذا نطق ، ويُحيّر السامع إذا تحدّث ، لا يَمَـلّ جليسُه مجلسَه ، ولا تمُجّ الآذان حديثَه ، ولا تنبو النفس عن مُطاولته . إن حدّثك ألهاك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غنّاك أطربك . وما كانت خَصْلة من الأدب ، ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق فيُقدِم أحد على مساجلته أو مناوأته فيه .

حكى أبو الفرج عن إسحاق قال : دعانى المأمون وعنده إبراهيم بن المهدىّ وفى مجلسه عشرون جارية قد أُجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن شماله . فلما دخلتُ سمعتُ من الناحية اليسرى خطأً فأنكرتُه . فقال المأمون : أسمعت خطأ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال لإبراهيم بن المهدىّ : هـل تسمع خطأ ؟ قال لا . قال : فأعاد علىّ السؤال ، فقلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وإنه لفى الجانب الأيسر . فأعاد إبراهيم سَمْعه إلى الناحية اليسرى ثم قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما فى هذه الناحيـة خطأ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، مُر الجوارىَ اللاتى على اليمين يُمسِكْنَ ، فأمرهنّ فأمسَكْن ، ثم قلت لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمّع ثم قال : ما هاهنا خطأ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، يُمسكن وتضرب الثانية[1] ، فأمسكن وضربت الثانية[1] ، فعرف إبراهيم الخطأ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، هاهنا خطأ . فقال المأمون عند ذلك

(١) فى الأغانى : «الثامنة» .

لإبراهيم بن المهدىّ : لا تُمارِ إسحاق بعدها ، فإن رجلا عرف الخطأ بين ثمانين وترا وعشرين حَلْقا لجدير ألّا تمارِيَه ؛ قال : صدقت .

وقال ابن حمدون : سمعتُ الواثق يقول : ما غنّانى إسحاق قطّ إلا ظننتُ أنه قد زِيد فى مُلْكى ، ولا سمعتــه قط يغنّى غناء ابن سُرَيج إلا ظننتُ أنّ ابن سريج قد نُشِر ، وإنى ليحضُرنى غيرُه إذا لم يكن حاضرا ، فيتقدّمه عندى بطيب الصوت ، حتى إذا اجتمعا عندى رأيت إسحاق يعلو ورأيت من ظننتُ أنه يتقدّمه ينقص . وإن إسحاق لنعمةٌ من نعم الملوك التى لم يُحْظَ أحد بمثلها . ولو أن العمر والشــباب والنشاط ممــا يُشْتَرَى لاشتريتهنّ له بشطر مُلكى .

وحكى عن أحمــد بن المكّى عن أبيه قال : كان المغنُّون يجتمعون مع إسحاق وكلهم أحسن صــوتا منه ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه ، ولا يزال بلُطفه وحِذقه ومعرفته حتى يغلبهم جميعا ويفضُلَهم ويتقدّم عليهم . قال : وهو أوّل من أحدث المجَنّبَ ليوافق صوته ويشاكله فجاء معه عجبا من العجب ، وكان فى حلقه نُبُوّ عن الوتر .

وحكى قال : سأل إسحاق الموصلىّ المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرُّواة لا مع المُغنّين ، فإذا أراد الغناء غنّاه ، فأجابه إلى ذلك . ثم سأله بعــد مدّة طويلة أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء فأذن له ؛ قال : فكان يدخل ويده فى يد قاضى القضاة يحيى بن أكثم . ثم سأل إسحاق المأمون فى لُبس السواد يوم الجمعــة والصلاة معه فى المقصورة ؛ قال : فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق ! وقد اشتريت منك هذه المسئلة بمــائة ألف دينار[1] وأمر له بها .

(١) فى الأغانى : «درهم» .

وكان لإسحاق مع إبراهيم بن المهـدىّ مخاطبات ومنازعات ومحاورات بسبب الغناء، وكان الرشيد ينصر إسحاق على إبراهيم أخيه. من ذلك ما حكاه إسحاق قال: كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماؤه وخاصّته وفيهم إبراهيم بن المهدىّ؛ فقال لى الرشيد: غنِّ:

شربتُ مُدامةً وسُقيتُ أُخرى ● وراح المُنتشون وما آنتشَيْتُ

فغنيته. فأقبـل علىّ إبراهيم بن المهـدىّ فقـال لى: ما أصبتَ يا إسحـاق ولا أحسنت. فقلت له: ليس هذا ممـا تعرفه ولا تُحسـنه، وإن شئت فغنّـه فإن لم أجدك أنك تخطئ فيه منذُ آبتدائك إلى آنتهائك فدَمِى حلال. ثم أقبلت على الرشيد فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه صناعتى وصناعة أبى، وهى التى قربتْنا منك وآستخدمتْنا لك فأوطأتْنا بساطَك، فإذا نازَعنا أحدٌ بغير علم لم نجِد بُدّا من الإفصاح والذبّ؛ فقال: لا غَرْوَ ولا لوم عليك. وقام الرشيد ليبول؛ فأقبل إبراهيم بن المهدىّ علىّ وقال: ويحك يا إسحاق! أتجترئ علىّ وتقول لى ما قلتَ يا آبن الفاعلة! لا يكْفِنى. فداخلنى ما لم أملك نفسى معه، فقلت له: أنت تشتُمنى ولا أقدِر على إجابتك وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلت لك: يا آبن الزانية كما قلت لى يا آبن الزانيـة. أوَ ترانى كنت لا أحسن أن أقول: يا آبن الزانية! ولكن قولى فى ذمّك ينصرف كله إلى خالك الأعلم[1]، ولولاك لذكرتُ صناعتَه ومذهبه — قال إسحاق: وكان بَيْطارا — قال: ثم سكتّ، وعلمتُ أن إبراهيم سوف يشكونى إلى الرشيد، وسوف يسأل مَنْ حضر عما جرى فيخبرونه، فتلافيتُ ذلك بأن قلت: إنك تظن أن الخلافة[2] تصير اليك، فلا تزال تتهدّدنى بذلك وتُعادينى كما تُعادِى سائرَ أولياء أخيك حسدا

(١) الأعلم: الذى بشفته العليا أو فى جانبيها شق. (٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: « أن الخلافة لك ... »

له ولولده على الأمر! وأنت تضعُف عنه وعنهم، وتستخِفّ بأوليائهم تشفّيًا، وأرجو ألا يُخرجها الله من الرشيد وولده، وأن يقتلك دونها. فإن صارت إليك — والعياذ بالله تعالى من ذلك — فحرامٌ عليّ حينئذ العيش! والموت أطيب من الحياة معك، فاصنع حينئذ ما بدا لك! قال: فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم فجلس بين يديه وقال: ٥ يا أمير المؤمنين، شتمنى إسحاق وذكر أمّى واستخفّ بى. فغضب وقال لى: ويلك! ما تقول؟ قلت: لا أعلم، فسَلْ من حضر. فأقبل على مسرورٍ وحسين فسألهما عن القصة فجعلا يُخبرانه ووجهه يَرْبَدّ الى أن انتهيا إلى ذكر الخلافة فسُرّى عنه ورجع لونه، وقال لإبراهيم: لا ذنب له، شتمته فعرّفك أنه لا يقدِر على جوابك، ارجع إلى موضعك وأمسك عن هذا. فلما انفضّ المجلس وانصرف الناس أمر الرشيد بألّا أبرح. وخرج ١٠ كل من حضر حتى لم يبق غيرى، فساء ظنّى وهمّتْنى نفسى. فأقبل علىّ وقال: يا إسحاق، أترانى لم أفهم قولك ومرادك! قد والله زنّيتَه ثلاث مرات! أترانى لا أعرف وقائعك وأقدامك وأين ذهبت! ويلك لا تَعُدْ! حدّثنى عنك لو ضربك إبراهيم أكنتُ أقتصّ لك منه فأضربه وهو أخى يا جاهل! أتُراه لو أمر غلمانه فقتلوك أكنتُ أقتله بك! فقلت: والله يا أمير المؤمنين، قد قتلنى هذا الكلام، وإن بلغه ١٥ ليقتلنّى، وما أشك أنه قد بلغه الآن. فصاح بمسرور وقال له: علىّ بإبراهيم فأُحضِر، وقال لى: قم فانصرف. فقلت لجماعة من الخَدَم — وكلهم كان لى محبًا وإلىّ مائلا ولى مطيعا —: أخبرونى بما يجرى، فأخبرونى من غد أنه لمّا دخل عليه وبّخه وجهّله وقال له: أتستخفّ بخادمى وصنيعتى وابن خادمى وصنيعتى وصنيعة أبى فى مجلسى! وتُقدِم علىّ وتستخِفّ بمجلسى وحضرتى! هاه هاه هاه! وتُقْدِم على هذا ٢٠ وأمثاله! وأنت مالك وللغناء! وما يدريك ما هو! ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهّم أنك تبلغ منه مبلغ إسحاق الذى غُذّى به وعلّمه وهو من صناعته! ثم تظن أنك

تُخَطِّئه فيما لاتدريه، ويدعوك الى إقامة الحجة عليه[1] فلا تثبُت لذلك وتعتصم بشتمه! هذا مما يدلّ على السقوط وضعف العقل وسوء الأدب من دخولك فيما لا يشبهك، وغلبـةِ لذّتك على مروءتك[2] وشرفك، ثم إظهـارِك إياه ولم تُحكمه، وآدّعائك ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل. ألا تعلم، ويحك، أن هـذا سوء أدب وقلّة معرفة وقلة مُبَـالاة بالخطأ والتكذيب والردّ القبيح! ثم قال: والله العظيم وحق رسوله و إلا فأنا برىءٌ من المهدىّ إن أصابه أحد بسوء أو سقط عليه حجر من السماء أو سقط من دابّته أو سقط عليه سقفه أو مات بفجأة لأقتلنك به. والله! والله! والله! فلا تعرِض له وأنت أعلم![3] قم الآن فآخرجْ، فخرج وقد كاد يموت. فلما كان بعـد ذلك دخلت على الرشـيد و إبراهيم عنده [فأعرضت عن إبراهيم][4] فجعل ينظر إلىّ مرة و إليه مرة و يضحك، ثم قال: إنى لأعلم محبّتك لإسحاق وميلَك إليه و إلى الأخذ عنه، و إن هذا لا يجيئك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى، والرضا لايكون بمكروه، ولكن أحسِنْ إليه وأكرمه وآعرف حقَّه و بِرَّه وصِلْه، فإذا فعلتَ ذلك ثم خالف ماتهواه عاقبتَه بيد مستطيلة منبسطة ولسانٍ منطلق. ثم قال لى: قم إلى مولاك وآبن مولاك فقبّل رأسه، فقمت إليه وقام إلىّ وأصلح الرشيدُ بيننا.

قال أبو الفرج: وكان إسحاق جيّد الشعر، كان يقول الشعر و ينسِبُه للعرب. فمن ذلك قوله:

لفَظ الخدورُ إليك حُورًا عِينًا * أنسَيْن ما جمـع الكناسُ قَطِينَا
فإذا بسَمْنَ فعَنْ كمثل غَمـامةٍ * أو أُقْحُوان الرمل بات مَعِينـا
وأصحُّ ما رأت العيـونُ محاجرًا[5] * ولَهُنّ أمراضُ ما رأيت عيونا

(١) فى الأغانى: عليك. (٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «من دخولك فيما لايشبهك ثم إظهارك إياه وغلبت لذتك الخ». (٣) كذا فى الأغانى. وفى الأصـل: «وأنت أعلم ولا تعرض له». (٤) زيادة عن الأغانى. (٥) كذا بالأغانى، وفى الأصل: «جوارحا».

فكأنما تلك الوجوهُ أهِلَّةٌ * أقرنَ بين العشر والعشرينا
وكأنهنّ إذا نهضْنَ لحاجةٍ * ينهضْنَ بالعَقَدَاتِ من يَبْرِينا

وأشعاره فى هذا النوع كثيرة .

روى عن الأصمعىّ قال : دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ يوما على الرشيد فرأيناه لَقِسَ النفس(١)، فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبخل قلتُ لها أقْصِرى * فذلك شيءٌ ما إليه سبيلُ
أرى الناس خُلّان الكرامِ ولا أرى * بخيلا له حتى الممات خليل
وإنى رأيتُ البخل يُزْرِى بأهله * فأكرمتُ نفسى أن يقال بخيل
ومن خيرِ حالاتِ التى لو علمته * إذا نال خيرًا أن يكون يُنيل(٢)
فعالِى فعالُ المكثرين تجمُّلًا * ومالى كما قد تعلمين قليل
وكيف أخافُ الفقر أو أحرمُ الغِنَى * ورأىُ أمير المؤمنين جميل !

قال : فقال الرشيد : لاتخف(٣) إن شاء الله ، ثم قال : لله درّ أبياتٍ تأتينا بها ماأشدّ أصولَها ، وأحسنَ فصولَها ، وأقلّ فُضُولَها ! وأمر له بخمسين ألف درهم . فقال له إسحاق : وصفُك والله يا أمير المؤمنين لشعرى أحسنُ منه ، فعلامَ آخذ الجائزة ! فضحك الرشيد وقال : اجعلوها مائة ألف درهم . قال الأصمعىّ : فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم منّى .

قال أبو عبد الله بن حمدون : سأل المتوكل عن إسحاق ، فعُرِّف أنه كُفّ وأنه بمنزله ببغداد ، فكتب فى إحضاره . فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قُدّام السرير وأعطاه

(١) لقست نفسه (من باب فرح) : غثت وخبثت . (٢) كذا فى الأغانى وكتب الأدب . وفى الأصل :

ومن خير خلات الفتى قد علمته * إذا نال خيرا أن يقال نبيل

(٣) كذا فى الأغانى : وفى الأصل : «لا كيف ان شاء الله» .

مخـدّة وقال : بلغنى أن المعتصم دفع إليـك فى أوّل يوم جلست بين يديه مخدّة ، وقال : إنه لا يستجلب ما عند حرّ مثلُ إكرامه . ثم سأله : هل أكل ؟ فقال نعم ؛ فأمر أن يُسـقَى . فلما شرب أقداحا قال : هاتوا لأبى محمد عُودا ؛ فجىء به فاندفع يغنّى بشعره :

ما علّة الشيخ عيناه بأربعةٍ * تغرَوْرِقانِ بدمع ثم ينسكب ٥

قال ابن حَمْدون : فما بقى غلامٌ من الغلمان الوقوف [على الحَيْر](١) إلا وجدتُه يرقُص طرباً وهو لا يعلم بما يفعل ؛ فأمر له بمائة ألف دينار(٢) . ثم انحدر المتوكل الى الرّقّة وكان يستطيبها لكثرة تغريد الطير فيها ؛ فغنّاه إسحاق :

أأن هَتَفت وَرْقاءُ فى رَوْنق الضُّحَى * على فنن غضّ النبات من الرَّنْدِ

بكيتَ كما يبكى الوليـدُ ولم تزل * جليـدًا وأبديت الذى لم تكن تُبْدِى ١٠

فضحك المتـوكل ثم قال : يا إسحاق ، هـذه أخت فَعلتك بالواثق لمّا غنّيته بالصالحيّـة :

طَرِبتُ إلى أُصَيْبِيَةٍ صِـغارِ * وذكّرنى الهوى قربُ المزارِ

فكم أعطاك لمّا أذِن لك فى الانصراف ؟ قال : مائـة ألف دينـار(٢) ؛ فأمر له بمـائة ألف دينار وأذن له بالانصراف(٣) . وكان آخر عهده بإسحاق . توفى بعد ذلك ١٥ بشهرين . وكانت وفاته فى شهر رمضان سـنة خمس وثلاثين ومائتـين . وكان يسأل الله تعـالى ألا يبتليه بالقُولَنج(٤) لِمـا رأى من صعوبته على أبيـه ، فرأى فى منامه كأنّ قائلا يقول له : قد أُجيبت دعوتُك ولست تمـوت بالقُولَنج ولكنّك

(١) زيادة عن الأغانى . والحير : اسم قصر بسرّ من رأى بناه المتوكل وأنفق على عمارته أربعة آلاف ألف درهم . (٢) فى الأغانى : "درهم" . ٢٠

(٣) عبارة الأغانى : «وأذن له بالانصراف الى بغداد . وكان هذا آخر عهدنا به لأن إسحاق الخ»

(٤) مرض يصيب المعدة يعسر معه خروج الثفل والريح .

تموت بضـدّه ، فأصابه ذَرَب فى شهر رمضان ، فكان يتصدّق فى كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم ، ثم ضعُف عن الصوم فلم يُطِقه ومات فى الشهر . ولما نُعِى إلى المتوكل غمّـه وحزِن عليه وقال : ذهب صـدر عظيم من جمـال الملك وبهائه وزينته . رحمه الله تعالى .

ذكر أخبار عَلُّويَه

هو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف . وجدّه سيف من الصُّغْد الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفّان وآسترق منهم جماعة آختصهم لخدمته وأعتق بعضهم ولم يُعتِق الباقين فقتلوه . قال أبو الفرج الأصفهانى : وكان علىٌّ هـذا مغنّيا حاذقا ، ومؤدّيا مُحسِـنا ، وصانعا متقنا ، وضاربا متقدّما ، مع خفّة رُوح وطيب مجالسة وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصلىّ علّمه وخرّجه وعُنى بتحـذيقه جدًّا ، فبرع وغنّى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكّل ومات بعد إسحاق الموصلى بيسير . وكان سبب وفاته أنه خرج عليه جَرَبٌ ، فشكاه إلى يحيى بن ماسَوَيْه ، فبعث إليه بدواء مُسهل وطِلاء ، فشرب الطلاء وآطّلى بالدواء ، فقتله ذلك . قال : وكان عَلُّويَه أعسر ، فكان عوده مقلوب الأوتار : البَمّ أسفل الأوتار كلها ثم المِثْلَث فوقه ثم المَثْنَى ثم الزِّير ، فكان عوده إذا كان فى يد غيره يكون مقـلوبا ، وإذا أخذه كان فى يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستويا . وكان إسحـاق يتعصّب له فى أكثر أوقاته على مُخَارِق . وقال حماد آبن إسحاق : قلت لأبى : أيّمـا أفضل عندك مُخَارِق أم عَلُّويه[1] ؟ فقال : يابنىّ ، عَلُّويه أعرقهما فهمًا بما يخرج من رأسه ، وأعلمُهما بما يغنّيه ويؤدّيه ، ولو خُيِّرت[2] بينهما من يطارح جوارىّ ، أو شاورنى من يستنصحنى لمـا أشرت إلا بعَلُّويه ؛ لأنه يؤدّى

---

(١) فى الأصل : «أو» . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « خيرنى » .

الغناء، [و][1] إذا صنع شيئا صنعه صَنعةً مُحكمة، ومخارق لتمكُّنه من حَلقه وكثرة نَغَمه لا يُقْنَع بالأخذ منـه، لأنه لا يؤدّى صـوتا واحدا كما أخذه ولا يغنّيه مرّتين غناءً واحدا لكثرة زوائده فيه، ولكنهما إذا آجتمعا عند خليفة أو سُـوقةٍ غلب مُخارق على المجلس والجائزةِ بطيب صوته وكثرة نغمه.

وقال أبو عبـد الله بن حمدون: حدّثنى أبى قال: اِجتمعت مع إسحاق يوما فى بعض دُور بنى هاشم، وحضر علُّويه فغنّى أصواتا ثم غنّى من صنعته:

ونُبِّئْتُ ليلى أرسلتْ بشفاعةٍ * إلىّ فهلّا نفسُ ليلى شفيعُها!

فقال له إسحاق: أحسنت أحسنت والله يا أبا الحسن! أحسنت ما شئت! فقام علُّويه من مجلِسه فقبّل رأس إسحاق وعينيه وجلس[2] بين يديه وسُرّ بقوله سرورا كثيرا؛ ثم قال: أنت سيدى وآبن سـيدى [وأستاذى][3] وآبن أستاذى، ولى إليك حاجة. قال: قل، فوالله إنى أبلُغ فيها ما تُحبّ. قال: أيّـا أفضلُ أنا عندك أم مُخارق؟ فإنى أُحبّ أن أسمع منك فى هذا المعنى قولا يُؤثَر ويحكيه عنك من حضر، فشرِّفنى به. فقال إسحاق: ما منكما إلا مُحسِنٌ مُجمِل، فلا تُرِد أن يجرى فى هذا شىء. قال: سألتك بحقّى عليك وبتُربة أبيك وبكل حقّ تُعظِّمه إلا حكمت! فقال: ويحك! والله لو كنت أستجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب، فأمّا إذ أبيتَ إلا ذكر ما عندى، فلو خُيّرت أنا من يطارح جـوارىّ ويُغنّينى لمـا آخترت غيرك، ولكنكما إذا غنّيتما بين يدى خليفـةٍ أو أمير غلبك على إطـرابه وآستبدّ عليك بجائزته. فغضب علُّويه وقام وقال: أُفّ من رضاك وغضبك!

وكان الواثق بالله يقول: علُّويه أصحّ الناس صنعة بعد إسحاق، وأطيب الناس صوتا بعد مُخارق، وأضربُ الناس بعد زَلْزَل وملاحظ، فهو مُصَلٍّ كلَّ سابق نادر

(١) زيادة نراها لازمة. (٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: "وصلى". (٣) زيادة من الأغانى.

وثانى كل أوّل، وأصل كل متقدّم . وكان يقول : [غناء](١) علّويه مثل نقر الطست يبقى ساعة فى السمع بعد سكوته .

وقال عبد الله بن طاهر: لو اقتصرت على رجل واحد يغنّينى لما اخترت سوى علّويه؛ لأنه إن حدّثنى ألهانى، وإن غنّانى أشجانى، وإن رجعت إلى رأيه كفانى.

٥ وقال محمد بن عبد الله بن مالك: كان علّويه يغنّى بين يدى الأمين، فغنّى فى بعض غنائه :

ليتَ هندًا أنجزتنا ما تعِدْ * وشفَت أنفسَنا مما تجِدْ

وكان الفضل بن الربيع يضطغن عليه شيئا ، فقال للأمين : إنما يعرّض بك ويستبطئ المأمون فى محاربته إياك؛ فأمر به فضُرِب خمسين سوطا وجُرّ برجله حتى ١٠ أُخرِج، وجفاه مدّة؛ حتى سأل كوثرا أن يترضّاه له فترضّاه له وردّه إلى الخدمة وأمر له بخمسة آلاف درهم(٢) . فلما قدِم المأمون تقرّب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحبّ، وقال : إن الملك بمنزلة الأسد أو النار فلا تتعرّض لما يُغضبه، فإنه ربما جرى منه ما يُتلفك ثم لا يَقدِر بعد ذلك على تلافى مافَرَط منه؛ ثم قرُب من المأمون بعد ذلك.

قال علّويه : أمرنا المأمون أن نباكره لنصطبح، فلقينى عبدالله بن إسماعيل المراكبى ١٥ مولى عَرِيب فقال: أيها الظالم المعتدى، أمَا ترحم ولا ترِقّ ! عَرِيب هائمة من الشوق إليك تدعو الله وتستحكمه عليك وتحلُم بك فى نومها فى كل ليلة ثلاث مرات . قال [علّويه : فقلت أمّ الخلافة زانية](١) ومضيت معه . فحين دخلت قلت : أستوثق من الباب فإنى أعرَفُ الناس بفضول الحُجّاب؛ وإذا عَرِيب جالسة على كرسىّ تطبخ ثلاث قدور من دَجاج . فلما رأتنى قامت فعانقتنى وقبّلتنى وقالت: أىّ شىء تشتهى؟

٢٠ (١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى : « دينار » .

فقلت : قِدْرا من هذه القدور، فأفرغت قِدْرا بيني و بينها فأكلنا ، ودعت بالنبيذ فصبّت رِطلا فشربَتْ نصفه وسقتني نصفه، فما زلتُ أشرب حتى كدت أن أسكر. ثم قالت : يا أبا الحسن ، غنّيتُ البارحة فى شـعر لأبى العتاهية أعجبنى، أفتسمعه[1] وتُصلحه ؟ فغنّت :

عَذِيرى من الإنسان لا إن جَفَوتُه * صفا لى ولا إن صرتُ طوْعَ يديه ٥

وإنّى لمشتاقٌ إلى ظِـلّ صاحبٍ * يروقُ و يصـفُو إن كَدِرت عليـه

فصـيّرناه مجلسنا . وقالت : قد بقى فيـه شىء ، فلم أزل أنا وهى حتى أصلحناه . ثم قالت : أُحبّ أن تغنّى أنت أيضـا فيه لحنًا ففعلتُ، وجعلنا نشرب على اللحنين ثلاثا[2] . ثم جاء الحُجّاب فكسروا الباب وٱستخرجونى، فدخلت على المأمون فأقبلت أرقُص من أقصى الإيوان وأُصفّق وأُغنّى بالصوت ، فسمع المأمون والمغنّون ما لم ١٠ يعرفوه فٱستطرفوه، وقال المأمون : ٱدنُ ياعلُّويه وردّده ،فردّدته عليه سبع مرات . فقال لى فى آخرها عنـد قولى : "يروق و يصفو إن كدرت عليـه" : ياعلويه خذ الخلافة وأعطنى هذا الصاحب .

وقال علُّويه : قال إبراهيم الموصلىّ يوما : إنى قد صنعت صوتا وما سمعه منى أحد بعدُ، وقد أحببت أن أنفعك به وأرفع منك بأن أُلقيه عليك وأَهَبَه لك ،ووالله ١٥ ما فعلت هذا بإسحاق قطّ ، وقد خصَصْتك به ، فٱنتحله وٱدّعِه ، فلست أنسبه إلى نفسى، وستكسِب به مالا . فألقى علىّ :

إذا كان لى شيئان يا أمّ مالكٍ * فإنّ لجـارِى منهما ما تخيّرا

فأخذتُه عنـه وٱدّعيته ، وسـترته طول أيام الرشـيد خوفا من أن أُتّهم فيه وطولَ أيام الأمين ، حتى حدث عليه ماحدث وقدِم المأمون من خُراسان ، وكان يخرج ٢٠

(١) كذا بالأغانى ؛ وليس فى الأصل همزة الاستفهام . (٢) فى الأغانى : « ملبا » .

إلى الشَّمّاسيّة فيتنزّه، فركبت يوما فى زُلَالِى (١) وجئت أتبعه، فرأيت حرّاقة علىّ بن هشام، فقلت للملّاح : أطرح زُلَالى على الحرّاقة ففعل ، وآستؤذِن لى فدخلت وهو يشرب مع الجوارى، وما كانوا يحجبون جواريهم، فغنّيته الصوت فآستحسنه جدًّا وطرِب عليه، وقال : لمن هذا؟ فقلت : هذا صوت صنعته وأهديته لك ولم يسمعه أحد قبلك؛ فآزداد به عجبًا وطربًا، وقال للجارية : خُذِيه عنه، فألقيته عليها حتى أخذته، فسُرّ بذلك وطرِب، وقال لى : ما أجد لك مكافأة على هذه الهديّة إلا أن أتحوّل عن هذه الحرّاقة بما فيها وأسلمه إليك؛ فتحوّل إلى أخرى وسُلّمت لى بخزانتها وجميع آلاتها وكل شىء فيها؛ فبعت ذلك بمائة ألف وخمسين ألف درهم، وآشتريت ضيعتى الصالحيّة .

وقال عَلُّويه : خرج المأمون يوما ومعه أبيات قد قالها وكتبها فى رُقعة بخطّه وهى :

خرجتُ إلى صيد الظِّباء فصادنى * هناك غزالٌ أدعج العَيْن أحورُ
غزالٌ كأنّ البدرَ حلّ جبينَه * وفى خدّه الشِّعْرَى المنيرة تَزْهَرُ
فصاد فُؤادى إذ رمانى بسهمه * وسهم غزالِ الإنس طرف ومِحْجَرُ
فيامن رأى ظبيًا يصيد، ومن رأى * أخا قَنَصٍ يُصطادُ قهرًا ويُقْسَرُ

قال : فغنّيته فأمر لى بعشرين (٢) ألف درهم .

ذكر أخبار معبَد اليَقْطينى

قال أبو الفرج : كان معبد هذا غلاما مولّدا من مولّدى المدينة، أخذ الغناء عن جماعة من أهلها، وآشتراه بعض ولد علىّ بن يَقْطين . وأخذ الغناء بالعراق عن إسحاق وآبن جامع وطبقتهما، وخدم الرشيدَ ولم يخدم غيره من الخلفاء، ومات فى أيامه .

(١) زلال (على وزن غراب مضاف الى ياء المتكلم) : ضرب من سفن دجلة كالحرّاقة والطيار .
(٢) فى الأغانى : « عشرة آلاف » .

وكان أكثر انقطاعه إلى البرامكة . وروى أبو الفرج الأصفهانىّ حكاية عنه أحببت أن أذكرها فى هـذا الموضع ، وهى ما رواه بسنده إلى محمد بن عبد الله بن مالك الخُزَاعىّ، قال حدّثنى معبَد الصغير المغنّى مولى على بن يَقْطين قال : كنت منقطعا إلى البرامكة أُحدّثهم وأُلازمهم . فبينا أنا ذات يوم فى منزلى إذ أتانى آت فدقّ بابى، فخرج غلامى ثم رجع إلىّ فقال لى : على الباب فتى ظاهر المُروءة يستأذن عليك؛ فأذنت له ، فدخل شابّ ما رأيت أحسنَ وجهًا منه ولا أنظف ثوبا ولا أجمل زِيًّا منه من رجل دَنِف عليه آثار السّقم [ظاهرة](١) . فقال لى : إنى أُحاول لقاءك منذ مدّة ولا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإن لى حاجة . فقلت : وما هى؟ فأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ فقال : أسألك أن تقبلها وتصنع فى بيتين قلتُهما لحنا تغنّينى به . فقلت : هاتِهما؛ فأنشدنى :

والله يا طَرْفَىَ الجانى على بَدَنِى * لتُطفِئَنّ بدمعى لوعَةَ الحَزَنِ
أو لأبوحنّ(٢) حتى يحجُبوا سَكَنِى * فلا أراه وقد أُدرِجتُ فى كَفَنِى

قال : فصنعت فيه لحنًا ثم غنّيته إياه ، وأُغمِى عليه حتى ظننته قد مات ، ثم أفاق فقال : أعِدْ ، فديتُك! فناشدته الله فى نفسه وقلت : أخشى أن تموت؛ فقال : هيهات! أنا أشقى من ذلك . وما زال يخضع لى ويتضرّع حتى أعدته ، فصعِق صعقة أشدّ من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت . فلما أفاق رددت عليه الدنانير فوضعتها بين يديه ، وقلت : يا هذا ، خذ دنانيرك وانصرف عنى ، قد قضيت حاجتك وبلغت وطرًا مما أردته ، ولست أُحبّ أن أُشرك فى دمك . فقال : [يا](١) هذا ، لا حاجة لى فى الدنانير ، وهذه مثلها لك ، ثم أخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ وقال : أعِد الصوت علىّ مرةً أُخرى وحِلٌّ لك دمى ! فشرِهَتْ نفسى فى الدنانير ،

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) كذا فى الاغانى ، وفى الأصل : «أو لاتوجن» ولا معنى له .

وقلت : لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط . قال : وما هى؟ قلت : أولاهن أن تقيم عندى وتحترم بطعامى . والثانية أن تشرب أقداحا من النبيذ تُطَيِّبُ[1] قلبك وتسكّن ما بك . والثالثة أن تحدّثنى بقصّتك . قال : أفعلُ ما تريد . فأخذت الدنانير ودعوتُ بطعامٍ فأصاب منه إصابة مُعَذِّر، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحا، وغنّيته بشعر غيره فى معناه وهو يشرب ويبكى، ثم قال : الشرطَ أعزّك الله! فغنّيته صوته بفعل يبكى أحرّ بُكاءٍ وينْشج أشدّ نَشيج وينتحب . فلما رأيت ما به قد خفّ عما كان يلحقه ورأيت النبيذ قد شدّ قلبه، كررت عليه صوته مرارا . ثم قلت : حدّثنى حديثك، فقال : أنا رجل من أهل المدينة خرجت متنزّها فى ظاهرها وقد سال العقيق فى فتية من أقرانى وأخدانى، فبصُرنا بفتَيات قد خرجن لمثل ما خرجنا له ، فجلسن حَجرةً[2] منا، وبصُرت منهن بفتاة كأنها قضيب قد طلّه الندى، تنظر بعينين ما ارتد طرفهما إلا بنفس من يلاحظهما . فأطلنا وأطلن حتى تفرّق الناس، وانصرفن وانصرفنا وقد أبقت بقلبى جُرحًا بطيئا اندماله ؛ فعدت إلى منزلى وأنا وَقِيذ، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحبها أثرا، ثم جعلت أتتبّعها فى طرق[3] المدينة وأسواقها، وكأنّ الأرض أضمرتها فلم أحسّ لها بعين ولا أثر، وسقمت حتى أيِس منى أهلى . وخَلَتْ بى ظِئْرى فاستعلمتنى حالى وضمنت لى كتمانَها والسعى فيما أحبّه منها، فأخبرتها بقصتى؛ فقالت : لا بأس عليك، هذه أيام الربيع وهى سنة خِصْب وأنواء وليس يبعد عنك المطر، ثم هذا العقيق فتخرج حينئذ وأخرج معك فإن النسوة سيجئن ؛ فإذا فعلن ورأيتُها أتبعُها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك وبينها وأسعى لك فى تزويجها . فكأنّ نفسى اطمأنت إلى ذلك ووثقت به وسكنت إليه، فقويتُ وطمِعت وتراجعتْ إلىّ نفسى . وجاء مطر بعقب ذلك وسال العقيق

(١) فى الأغانى : «تشد» . (٢) ناحية . (٣) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «طريق المدينة» .

وخرج الناس وخرجت مع إخوانى اليه، فجلسنا مجلسنا الأوّل بعينه، فما كنا والنسوةَ إلا كفَرَسَىْ رِهان؛ فأومأتُ إلى ظِئرى فجلستْ، وأقبلتُ على إخوانى فقلت : لقد أحسن القائل :

رمتنى بسهم أقصدَ القلبَ وآنثنَتْ * وقـــد غادرتْ جُرْحًا به ونُدُوبا

فأقبلتْ على صواحباتها وقالت : أحسن والله القـائل ، وأحسن من أجابه حيث يقـــول :

بنـا مثلُ ما تشكو فصبْرًا لعلّنا * نرى فَرَجًا يَشفِى السَّقامَ قَرِيبًا

فسكتُّ عن الجواب خوفًا من أن يظهـر منى ما يفضحنى وإياها ، وعرفت ما أرادت . ثم تفرّق الناس وآنصرفنا، وتبعتْها ظئرى حتى عرفت منزلها، وصارت إلىّ فأخذت بيدى ومضينا إليها، فلم نزل نتلطّف حتى وصلتُ إليها، فتلاقينا وتزاورنا على حال مخالسةٍ ومُراقبةٍ، حتى شاع حديثى وحديثُها وظهر ما بينى وبينها، فحجبها أهلها وسدّوا أبوابها؛ فما زلت أجهد فى لقائها فلا أقدِر عليه، وشكوت ذلك إلى أبى لشدّة ما نالنى وسألته خِطْبَتَها لى . فمضى أبى ومَشْيَخة أهلى إلى أبيها فخطبوها؛ فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضَحها ويشهَرها لأسعفته بما آلتمس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقّق قول الناس فيها بتزويجه إياها؛ فآنصرفتُ على يأسٍ منها ومن نفسى. قال معبد : فسألته أن ينزل بجوارى، وصارت بيننا عِشرة . ثم جلس جعفر بن يحيى ليشرب فأتيته، فكان أوّل صوت غنّيته صوتى فى شعر الفتى، فشرِب وطرِب عليه طربًا شديدا، وقال : ويحـك! إن لهذا الصوت حديثا فمـا هو ؟ فحدّثته، فأمر بإحضار الفتى فأُحضِر من وقتـه، وآستعاده الحديث فأعاده؛ فقال : هى فى ذمتى حتى أزوّجك إياها؛ فطابت نفسه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح، وغدا جعفر إلى الرشيد فحدّثه الحديث، فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعا فأُحضِرنا، وأمر بأن أغنّيه الصوت

فغنيته إياه وشرب عليه وسمع حديث الفتى؛ فأمر من وقته بكتاب الى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وابنته وجميع أهله إلى حضرته؛ فلم تمض إلا مسافة الطريق حتى أُحضروا . فأمر الرشيد بإحضار أبي الجارية إليه فأُحضر، وخطب إليه الجارية للفتى وأقسم عليه ألّا يخالف أمره؛ فأجابه وزوّجها إياه؛ وحمل الرشيد إليه ألف دينار لجهازها وألف دينار لنفقة طريقه، وأمر للفتى بألف دينار ولى بألف دينار، وأمر جعفرٌ لى وللفتى بألف دينار . وكان المدينيّ بعد ذلك من نُدماء جعفر بن يحيى .

ذكر أخبار محمد الرف

هو محمد بن عمرو مولى بنى تميم، كوفيّ المولد والمنشأ . والرفّ[1] لقب غلب عليه . وكان مُغنّيا ضاربا صالح الصّنعة مليح النادرة . وكان أسرع خلق الله أخذًا للغناء وأصحّهم أداءً له وأذكاهم . وكان اذا سمع الصوت مرتين أو ثلاثا أدّاه لا يكون بينه وبين من أخذه عنه فرقٌ فيه . وكان متعصّبًا على ابن جامع مائلًا إلى إبراهيم الموصلىّ وابنه إسحاق، وكانا يرفعان منه ويقدّمانه ويأخذان له الصّلات من الخلفاء. وكانت فيه عربدةٌ إذا سكر. فعربد بحضرة الرشيد مرةً، فأمر بإخراجه ومنعه من الدخول إليه وجفاه وتناساه . قال أبو الفرج : وأحسبه مات فى خلافته أو خلافة الأمين .

ومن أخباره فى جودة الأخذ وسرعة الحفظ ما رواه حماد بن إسحاق عن أبيه قال : غنّى ابن جامع يوما بحضرة الرشيد :

جَسورٌ على هجرى جبانٌ عن الوصلِ * كذوبُ عِدَاتٍ يُتْبِعُ الوعدَ بالمَطْلِ
مُقَدِّمُ رِجلٍ فى الوصال مؤخّرٌ * لأُخرى يشوب الجِدّ فى ذاك بالهَزْلِ

(١) ورد فى أكثر أصول الأغانى المخطوطة والمطبوعة «الرف» بالراء المهملة، وورد فى بعض المواضع من أصول الأغانى «الزف» بالزاى المعجمة .

يَهُمّ بنا حتى إذا قلت قد دنا * وجاذبنى عطفاه مال إلى البُخْلِ
يزيد ٱمتناعًا كلما زدتُ صبوةً * وأزداد حِرْصًا كلما ضَنّ بالبَذْل

فأحسن فيه ما شاء وأجمل ، فغمزت عليه محمد الرفّ وفَطِن لما أردت ، وٱستحسنه الرشيد وشرب عليه وٱستعاده مرتين أو ثلاثا . ثم قمتُ إلى الصلاة وغمزت الرف بجاءنى، وأومأت إلى مُخارق وعلويّه وعقيد بجاءونى؛ فأمرته بإعادة الصوت فأعاده وأدّاه كأنه لم يزل يرويه ؛ ولم يزل يكرره على الجماعة حتى غنّوه . ثم عدت إلى المجلس؛ فلما ٱنتهى الدور إلىّ ٱبتدأت فغنيّته قبل كل شىء غنيّته . فنظر إلى ٱبن جامع محدّدا طَرْفه ؛ وأقبل علىّ الرشيد وقال : أكنت تَرْوِى هذا الصوت؟ قلت : نعم ياسيّدى . فقال ٱبن جامع : كذب والله ما أخذه إلا منى الساعة . فقلت : هذا صوت أرويه قديما ، وما فيمن حضر [أحد](١) إلا وقد أخذه منّى . وأقبلت عليهم فقلت لهم : غنّوه ؛ فغنّاه علّويه ثم عقيد ثم مُخارِق . فوثب ٱبن جامع بجلس بين يديه فحلف بحياته وبطلاق ٱمرأته أنّ اللحن صنعه منذ ثلاث ليال وما سُمِع به قبل ذلك الوقت . فأقبل الرشيد علىّ وقال : بحياتى ٱصدُقنى عن القِصّة ، فصدّقته ، فجعل يضحك ويصفّق ويقول : لكل شىء آفة ، وآفة ٱبن جامع الرفُّ .

قال إسحاق بن إبراهيم : كان محمد الرفّ أروَى خلقِ الله تعالى للغناء وأسرعَهم أخذًا لما سمعه ، ليست عليه فى ذلك كُلْفة ، إنما يسمع الصوت مرة واحدة وقد أخذه . وكنا معه فى بلاء إذا حضر ، فكان(٢) كل من غنّى منّا صوتا فسأله عدو له أو صديق بأن يُلقِيه عليه فبخِل ومنعه إياه وسأل محمد الرفّ أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرّةً واحدةً حتى أخذه وألقاه على من سأله . قال : وكان أبى يبِرّه ويصله ويُجْدِيه من

(١) زيادة من الأغانى .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وكل من غنى الخ » .

كل جائزة وفائدة تصل إليه . وكان محمد الرفّ مُغْرًى بابن جامع خاصّةً من بين المغنّين لبخله ، وكان لا يفتح ابن جامع فاه بصوت إلا وضع عينَه عليه وصغَى بسمعه إليه حتى يحكِيَه . وكان فى ابن جامع بخلٌ شديد لا يقدِر معه على أن يُسْعِفه ببرّ ورِفْد . وساق نحو ما تقدّم إلا أنه قال : إن الرفّ أخذ الصوت لأوّل مرة وألقاه على إسحاق فأخذه عنه فى ثلاث مرار . قال حماد : وللرفّ صَنعة يسيرة ، وذكر منها أصواتا .

ذكر أخبار محمد بن الأشعث

قال أبو الفرج : كان محمد بن الأشعث القرشىّ ثم الزُّهْرىّ كاتبا ، وكان من فِتيان أهل الكوفة وظُرفائهم ، وكان يقول الشعر ويُغنّى فيه . فمن ذلك قوله فى سَلّامة زرقاء ابن رامين :

أمسَى لسلّامةَ الزرقاءِ فى كَبِدِى * صَدْعٌ يُقيم طَوَالَ الدهر والأبَدِ
لا يستطيع صَنَاعُ القومِ يَشْعَبُه * وكيف يُشْعَب صدعُ الحبِّ فى الكبِدِ
إلّا بوصل التى من حبّها انصدعتْ * تلك الصدوعُ من الأسقام والكَمَدِ

وكان ملازمًا لابن رامين وجاريته سلّامة الزرقاء ، فشُهِر بذلك ، فلامه قومه فى فعله فلم يَحْفِل بمقالتهم ، وطال ذلك منه ومنهم ، حتى رأى بعضَ ما يكره فى منزل ابن رامين ، فمال الى سحيقة جارية زُرَيق ابن مَنِيح مولى عيسى بن موسى ، وكان زُرَيْق شيخا كريما نبيلا ، يجتمع إليه أشراف أهل الكوفة من كل حىّ ، وكان الغالبُ على منزله رجلًا من ولد القاسم بن عبد الغفار العِجْلىّ كغلبة محمد بن الأشعث على منزل ابن رامين ، فتلازما على ملازمة زُرَيق . وفى ذلك يقول محمد بن الأشعث :

يا ابنَ رامينَ بحتُ بالتصريح * فى هواى سحيقةَ ابنِ منيـــح
قينةٌ عفّـــةٌ ومولًى كريمٌ * ونديمٌ من اللُّبـاب الصريح
ربعيٌّ مُهَـــذَّبٌ أريحيٌّ * يشترى الحمـدَ بالفعَـالِ الرّبيح
نحن منه فى كل ما تشتهى الأنـ * ـفسُ من لذّةٍ وعيشٍ نجيح
عنـد قومٍ من هاشم فى ذُراهـا * وغِنـاءٍ من الغزال المليـــح
فى سُرورٍ وفى نعـيم مُقِـيم * قـد أمِنّـا من كل أمرٍ قبيـح
فاسـألُ عنّـا كما سـلوناك إنّى * غير سالٍ عن ذاتِ نفسى ورُوحى
حافظٌ منك كل ما كنت قد ضـ * ـيّعت ممـا عَصَيتُ فيه نَصيحى
فالقِلَى ما حييتُ منى لك الدهـ * ـرَ بـــودٌّ لمنيّـــتى ممنـــوح
يابن رامين فالزَمَنْ مَسْجِدَ الحـ * ـىّ بطـــول الصـــلاة والتسبيح

قال عمر بن نوفل وهو راوى هذه الأبيات: فلم يَدع ابنُ رامين شريفا بالكوفة إلا تحمّل به على ابن الأشعث وهو يأبى أن يرضَى عنه وأن يعاود زيارته، حتى تحمّل عليه بالجَحْوانىّ، وهو محمد بن بشر بن جَحْوان الأسدىّ وكان يومئذ على الكوفة، فكلّمه فرضِى عنه وعاد إلى زيارته، ولم يقطع منزل زُرَيق. وقال فى سحيقة:

سحيقـةُ أنتِ واحدة القِيان * فما لكِ مُشـبِهٌ فيهنّ ثانِى
فَضَلتِ على القِيان بفضلِ حِذْقٍ * فحُزْتِ على المَدَى قَصَبَ الرِّهانِ
سجـدْنَ لكِ القِيـانُ مُكَفِّراتٍ * كما سجـد المجوس لِمَرْزُبان
ولا سِيَمـا إذا غنّتْ بصـــوتٍ * وحرّكتِ المَثَالِثَ والمثـانى
شَرِبتُ الخمـــرَ حتى خِلْتُ أنى * أبو قابوسَ أو عبـدُ المَدَان
فإعمـال اليسار على المـــلاوى * ومن يمنـاكِ ترجمـةُ البيان

ولمحمد بن الأشعث أصوات له فيها غناء . منها :

رَحُبتْ بلادُك يا أمامَهْ * وسَلِمْتِ ما سَجَعتْ حمامَهْ
وسقى دِيارَكِ كلما * حَنَتْ الى السُّقْيَا غمامه
إنّى وإن أقصيتِنى * شَفِقٌ[1] أُحِبّ لكِ الكرامه
وأرى أمورَكِ طاعةً * مفروضةً حتى القيامه

وله غير ذلك من الأصوات .

ذكر أخبار عمرو بن بانة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد مولى ثقيف . وكان أبوه صاحب ديوان ووجها من وجوه الكتّاب ، ونُسِب إلى أمه . وكان مغنّيا محسنا ، وشاعرا صالح الشعر ، وصنعته صنعة متوسّطة ، وكان مرتجلا . قال : وكتابه فى الأغانى أصل من الأصول . وكان يذهب مذهبَ إبراهيم بن المهدىّ فى الغناء ، ويخالف إسحاق ويتعصّب عليه تعصُّبا شديدا ويواجهه بنفسه . وهو معدود فى ندماء الخلفاء ومغنّيهم ، على ما كان به من الوَضَح . وفيه يقول الشاعر :

أقول لعمرٍو وقد مرّ بى * فسلّمَ تسليمةً جافيَهْ
لئن فَضَّلوك بفضلِ الغنا * ءِ فقد فضّل الله بالعافيه

وقال أحمد بن حمدون : كان عمرو حسن الحكاية لمن أخذ عنه الغناء ، حتى كان من يسمعه لو توارى عن عينه [عمرو][2] لم يشكّ فى أنه هو الذى أخذ عنه ، لحسن حكايته . وكان محظوظًا ممن يعلّمه ، ما علّم أحدًا قطّ إلا خرج نادرا مبرّزا . وله أخبار مع الخلفاء وإنعام منهم عليه ، منهم المتوكل على الله . رحمه الله .

---

(١) فى الأغانى : "سفها" . (٢) زيادة عن الأغانى .

ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعىّ

هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع . والربيع ، على ما يدّعيه أهله ، ابن يونس بن أبى فروة . وآل أبى فروة يدفعون ذلك ويزعمون أنه لَقِيط وجد منبوذًا كَفَله يونس ، فلما خدَم المنصور ادّعى إليه . قال أبو الفرج الأصفهانى : وكان شاعرا مطبوعا ومغنّيا مُحسنا جيِّدَ الصنعة نادرَها . قال : وهو أوّل مَنْ غنّى بالكنكلة فى الإسلام .

وكان سبب دخوله فى الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه قال : كان سبب دخولى فى الغنـاء وتعلُّمى إياه أنّى كنت أهوَى جاريةً لعمّتى رُقَيّـةَ بنت الفضـل ابن الربيع ، وكنت لا أقدِر على مُلازمتهـا والجلوس معها خوفاً من أن يظهـر ما لهـا عندى ، فيكون ذلك سببَ منعى منهـا ؛ فأظهرت لعمّتى أنى أشتهى أن أتعلّم الغناء ويكون ذلك فى سِترٍ عن جدّى — وكان جدّى وعمّتى على حال من الرقّة علىّ والمحبّة لى لا نهاية وراءها ، لأن أبى تُوُفِّى فى حياة جَدّى الفضل — فقالت : يا بُنَىّ ، وما دعاك إلى ذلك ؟ فقلت : شهوةٌ غَلبتْ على قلبى ، إن مُنِعتُ منها مُتّ غمًّا — قال : وكان لى فى الغناء طبع قوىّ — فقالت لى : أنت أعلم وما تختاره ، والله ما أحبّ منعك من شىء ، وإنى كارهةٌ أن تحذق فى ذلك وتشتهر فتسقُط ويفتضح أبوك وجدّك . فقلت : لا تخافى من ذلك ، فإنما آخذ منه مقدار ما ألهو به . ولازمت الجارية لمحبتى إياها بعلّة الغناء ، فكنتُ آخذ عنهـا وعن صواحباتها حتى تقدّمتُ الجماعةَ حذْقًا وأقرّت لى بذلك ، وبلغت ما كنت أريد من الجارية ، وصرت ألازم مجلس جدّى . ثم لم يكن يمرّ لإسحاق ولا لابن جامع ولا للزُّبير بن دَحْمان ولا لغيرهم صوت إلا أخذته ، وكنت سريع الأخذ ، إنما كنت أسمعه مرّتين أو ثلاثًا

وقد صحّ لى . وأحسست فى نفسى قوّة فى الصناعة، فصنعت أوّل صوت صنعته فى شعر العَرْجىّ :

أماطتْ كِساءَ الخزّ عن حُرّ وجهِها * وأدنتْ على الخدّينِ بُرْدًا مُهَلْهَلا

ثم صنعتُ :

٥ أَقفَرَ من بعد خَلّةٍ شَرَفُ * فالمُنْحَنَى فالعَقِيقُ فالجُرُف

وعرضتهما على الجارية التى كنت أهواها وسألتها عما عندها فيهما ؛ فقالت : لا يجوز أن يكون فى الصنعة فوق هذا . وكان جوارى الحارث بن بُسْخُنّر وجوارى أبيه يدخلن إلى دارنا فيَطْرَحْنَ على جوارى عمّتى وجوارى جدّى و يأخذن أيضا ماليس عندهن، فأخَذْنَهما منّى، وسألن الجارية عنهما فأخبرتهن أنهما من صَنعتى. ثم آشتهرا حتى غُنّى الرشيدُ بهما يومًا فآستظرفهما، وسأل إسحاق : هل تعرفهما؟ ١٠ فقال : لا ، و إنهما لمن أحسن الصنعة وجيِّدها ومُتْقَنها . ثم سأل الجارية عنهما فوقفت خوفًا من عمّتى وحَذَرًا أن يبلُغ جدّى أنها ذكرتنى ؛ فآنتهرها الرشيد فأخبرته القصّة؛ فوجّه من وقته فدعا بجدّى فقال له : يا فضل، أيكون لك آبن يغنّى ثم يبلُغ فى الغِناء المبلغ الذى يمكنه أن يصنع صوتين يستحسنهما إسحاق وسائر المغنين ١٥ ويتداولهما جوارى القِيان فلا تُعلِمنى بذلك، كأنك رفعت قدره عن خِدمتى فى هذا الشأن ! فقال له جدّى : وحقّ ولائك يا أمير المؤمنين ونعمتِك و إلا فأنا برئ من بيعتك وعلىّ العهد والميثاق والعِتْق(١) والطلاق إن كنت علمت بشىء من هذا قط إلا منك الساعة . [فمن هذا من ولدى ؟ قال : عبد الله بن العباس هو(٢)، فأحضِرْنيه الساعة](٣) . فجاء جدّى وهو يكاد أن ينشق غيظًا، فدعانى؛ فلما خرجت إليه شتمنى

٢٠ (١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : "والبيان" . (٢) لعل العبارة : « هو عبد الله ابن العباس » . (٣) زيادة عن الأغانى .

وقال : [يا كلب](١) بلغ من أمرك أنك تجسُر على أن تتعلّم الغناء بغير إذنى! ثم زاد ذلك حتى صنعت ، ولم تَقنَع بهـذا حتى ألقيت صنعتك على الجوارى فى دارى، ثم تجاوزهن إلى جوارى الحارث بن بُسْخُنَّر، فاشتُهِرتَ، و بلغ أميرَ المؤمنين فتنكّر لى ولامنى، وفضحت آباءك فى قبورهم وسقطت للأبد إلا من المغنّين! فبكيت مما جرى علىّ وعلمت أنه صدَقنى، فرحمنى وضمّنى إليه وقال: قد صارت الآن مصيبتى فى أبيك مصيبتين ، إحداهمـا به وقد مضى وفات ، والأخرى بك وهى موصولة بحياتى ، ومصيبة(٢) باقية العار علىّ وعلى أهلى بعدى ، و بكى وقال : عزّ علىّ يا بُنَىّ أنّى أراك أبدًا ما بقيت على غير ما أُحبّ، وليست لى فى هذا الأمر حيلة لإنه أمر قد خرج عن يدى . وقال : جئنى بعود حتى أسمعك وأنظـر كيف أنت، فإن كنت تصلُح للخدمة فى هـذه الفضيحة و إلا جئتُ بك منفردًا وعرّفتـه خبرك وآستعفيته لك . فأتيتُ بعود وغنّيته غناءً قديمـا، فقال : لا، بل صوتيك اللذين صنعتهما ، فغنّيته إياهما، فاستحسنهما و بكى، ثم قال : بَطَلَتَ والله يا بنىّ وخاب أملى فيك . فواحزنا عليك وعلى أبيك ! فقلت : ليتنى مِتّ قبـل ما أنكرته أو أُخرست ! ومالى حيلة ! لكنى وحياتك يا سيّدى — و إلا فعلىّ عهد الله وميثاقه والعتق والطلاق وكل يمين يحلف بها [حالف](٣) لازمة [لى](٣) — لا غنّيتُ أبدًا إلا لخليفة أو ولىّ عهد . فقال : قد أحسنتَ فيما نبهت(٤) عليه من هذا . فركب وأمَر بى فأُحضِرتُ، ووقفتُ بين يدى الرشيد وأنا أُرعَد ، فآستدعانى وآستدنانى حتى صرتُ أقربَ الجماعة إليه، ومازحنى

(١) زيادة عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى : مصيبته ، ولعلها : مصيبتك .

(٣) زيادة عن الأغانى .

(٤) الذى فى أساس البلاغة : «تنبهت على الأمر : تفطنت له» .

وأقبل علىّ وسكّن منى[1]، وأمر جَدَى بالانصراف ؛ وأومأ إلى الجماعة فحدّثونى وسُقيت أقداحًا[2] وغنّى المغنون جميعا ؛ وأومأ إلىّ إسحاق بعينه أن أبدأ فغنّ إذا بلغت النوبة إليك قبل أن تُؤمر بذلك ليكون ذلك أملح وأجمل بك . فلما جاءت النّوْبة إلىّ أخذتُ عودًا ممن كان إلى جنبي وقمتُ قائما واستأذنت فى الغناء ؛ فضحك الرشيد وقال : غَنّ جالسا ؛ فغنّيت لحنى الأوّل ، فطرِب واستعاده ثلاث مرّات وشرِب عليه ثلاثة أنصاف . ثم غنّيت الثانى فكانت هذه حاله ، فسكِر ودعا بمسرور وقال : احمل الساعة مع عبد الله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوبا من فاخر ثيابى وعيبةً مملوءة طِيبا ، فحُمل ذلك كله معى . قال عبد الله : ولم أزل كلما أراد ولىّ عهد أن يعلم مَنِ الخليفةُ بعد الخليفة هو أم غيره دعانى وأمرنى أن أغنّى ، فأُعرِّفه يمينى فيستأذن الخليفة فى ذلك ، فإن أذِن لى فى الغناء علم أنه ولىّ عهد وإلا عرَف أنه غيره ، حتى كان آخرهم الواثق فدعانى فى أيام المعتصم وسأله أن يأذَن لى فى الغناء ، فأذِن لى ثم دعانى من الغد فقال : ما كان غِناؤك إلا سببًا لظهور سِرّى وأسرار الخلفاء قبلى ! والله لقد هَمَمتُ أن آمر بضرب رقبتك ! لا يبلُغنى أنك امتنعت من الغناء عند أحد ، فوالله لئن امتنعت لأضربن عنقك ! فأعتِق من كنت تملكه يوم حلفت ، وطلِّق من كان عندك يومئذ ، وأرِحنا من يمينك هذه المشئومة . فقمت وأنا لا أعقِل جزَعًا منه ؛ فأعتقت جميع ما كان بقى عندى من مماليكى الذين حلفت يومئذ وهم فى ملكى ثم تصدّقت بجملة ، واستفتيت فى يمينى أبا يوسف القاضى حتى خرجت منها ؛ وغنّيت بعد ذلك إخوانى جميعا حتى اشتُهِر أمرى ، وبلغ المعتصم خبرى فتخلّصت منه .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وأقبل على الجماعة وشكر منى الخ» .

(٢) فى الأغانى : «وسقيت الجماعة وغنى الخ» .

وروى أبو الفرج أيضا عن الصُّولىّ عن الحسين بن يحيى قال : قلت لعبد الله ابن العباس : إنه بلغنى لك خبرٌ مع الرشيد أوّل ماشُهِرتَ بالغناء فحدّثنى به؛ فقال : نعم! أوّل صوت صنعته :

أتانى يُؤَامِرنى فى الصَّبُو * ح ليـلًا فقلتُ له غَادِها

فلما دار لى (١) وضربت عليه بالكنكلة، عرضْتُه على جاريةٍ (٢) لنا يقال لهـا راحة، فاستحسنته، وأخذته عنى . وكانت تختلف إلى إبراهيم الموصلى، فسمعها يوما تغنّيه وتتاغى (٣) به جارية من جواريه، فاستعادها إياه فأعادته؛ فقال : لمن هذا الصوت؟ قالت : صوت قديم . قال : كذبتِ، لو كان قديما لعرفته . وما زال يداريها ويتغاضب عليها حتى اعترفت له أنه من صنعتى ، فعجب من ذلك . ثم غناه يومًا بحضرة الرشيد ليُغْرِب به على المغنّين؛ فاستحسنه الرشيد، فقال له : لمن هذا يا إبراهيم؟ فأمسك عن الجواب وخشِى أن يكذِبه فينمِى إليه الخبر من غيره، وخاف من جدّى إن يصدُقْه؛ فقال له : مالك لاتجيبنى؟ قال : ما يمكننى يا أمير المؤمنين . فاستراب بالقصّة، فأقسم الرشيدُ أنه إن لم يعرّفه عاقَبه عقوبةً تُوجعه، وتوهّم أنه لُعُلَيّة بنت المهدىّ أو لبعض حُرَمه فاستطير غضبًا . فلما رأى إبراهيم الجدّ منه صدَقه فيما بينه وبينه سرّا . فدعا لوقته بالفضل بن الربيع وقال له : أيصنع ولدك غناءً يرويه الناس ولا تعرّفنى! فجزِع وحلف بحياته وبيعته أنه ما عرَف ذلك قط ولا سمع به إلا فى وقته ذلك . وساق باقى الخبر نحو ما تقدّم .

قال عبد الله بن العباس : دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أُغنّيه وقد استعادنى صوتًا فأعدته، فاستحسنه محمد بن عبد الملك [وقال (٤) :] هذا والله

(١) فى الأغانى : «تأتى لى» . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «على جارة» .
(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «تغانى» . (٤) زيادة نراها لازمة .

يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه وإصغائك إليه؛ فقال : أجل! هذا والله مولاى وآبن موالىّ لا يعرفون غير ذلك . فقال : ليس كل مولى يا أمير المؤمنين مولى لمواليه ، ولا كل مولى يُتَجَمَّل بولائه يجمع ما جمعه عبد الله من ظَرْفٍ وأدب وصحّةِ عقل وفضل علم وجودة شعر . فقال له : صدَقت يا محمد . فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا لحسن مَحْضَره، فقلت فى أضعاف كلامى : وأفرط الوزير، أعزّه الله تعالى، فى وصفى وتقريظى بكل شىء حتى وصفنى بجودة الشعر، وليس ذلك عندى، وإنما أعبث بالبيتين والثلاثة . ولو كان عندى أيضا شىء من ذلك لصَغُر عن أن يصفه الوزير ويحكيه فى هذا المجلس الرفيع المشهور[1] . فقال : والله يا أخى لو عرفتَ مقدار قولك :

(١٣)

يا شادناً رام إذ مـ * ـرّ فى الشّعانينِ[2] قتلى
يقول لى : كيف أصبحـ * ـت؟ كيف يُصبِح مِثلِى

لَمَا قلت هذا القول . والله لو لم يكن لك شعر فى عمرك إلا قولك : «كيف يصبح مثلى» لكنت شاعرا مُجيدا . وهذا الشعر قاله عبد الله بن العباس فى نصرانية كان يهواها ولا يصل إليها إلا إذا خرجت إلى البِيعة . وله معها أخبار وأشعار له فيها أصوات . منها قوله :

إنّ فِى القلبِ مِن الظّبْيِ كُلومْ * فدَعِ اللّومَ فإنّ اللّوْمَ لوم
حبذا يومُ الشّعانِينِ وما * نِلتُ فيه من نعيم لو يدوم
إن أكن أعظمتُ أنْ هِمتُ به * فالذى تركب من عَذْلِى عظيم
لم أكن أوّل من سنّ الهوى * فدَعِ العذل فذا داء قديم

(١) لعله «المشهود» .
(٢) الشعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

وروى أبو الفرج بسنده إلى محمد بن جُبَيْر قال : كنا عند أبى عيسى بن الرشيد فى زمن ربيع وعنـدنا مُخارق وعلّويه وعبد الله بن العباس الربيعىّ وعبـد الله بن الحارث بن بُسْخُنّر ونحن مصطبحون فى طارمة مضروبة على بستانه وقد تَفَتّح فيه ورد وياسَمين وشـقائق والسماء متغيّمة غيماً مطبقاً وقـد بدأت تَرُشّ رشّاً ساكبا ، فنحن فى أكمل نشاطٍ وأحسن يومٍ ، إذ خرجت قَيِّمة دار أبى عيسى فقالت : ياسيِّدى ، قد جاءت عَسَاليج ؛ قال : تخرجُ إلينا فليس بحضرتنا من تحتشمه . قال : فخرجت إلينا جارية شَكِلة حُلْوة حسنة العقل والهيئة والأدب فى يدها عود فسلّمت ، وأمرها أبو عيسى بالجلوس فجلست . وغنّى القوم حتى انتهى الدّور إليها ، وظننا أنها لا تصنع شيئا وخِفْنا أن تهابَنا فتَحْصَر ، فغنّت غناءً حسنا مُطرِباً مُتْقَنا ، لم تدع أحدًا ممن حضر إلا غنّت صـوتا من صَـنْعته فأدّته على غاية الإحكام ؛ فطربنا واستحسنّا غناءها وخاطبناها بالاستحسان ؛ وألح عبـد الله بن العباس من بيننا بالاقتراح عليها والمِزاح معها والنظر اليها . فقال أبو عيسى : عَشِقْتَها وحياتى يا عبد الله ! فقال : لا والله يا سيّدى وحياتك ما عشِقتُها ، ولكن استملحت كل ما شاهدته منها من مَنْظَر وشَكْل وعقل وعشرة وغناء . فقال له : ويحك ! فهذا والله هو العشق وسببه . ورب جدّ جرّه اللعب . قال : وشربنا ؛ فلما غلب النبيـذ على عبـد الله غنّى أهزاجاً قديمة وحديثة ، وغنّى فيما بينها هزجاً فى شعر قاله فيها لوقته ، فما فطِن له إلا أبو عيسى ، وهو :

نَطَق المكتومُ مـنّى فبَـدَا * كم ترى المكتومَ منّى لا يَضِحْ
سحـرُ عينيـك إذا ما رَنَتَـا * لم يدع ذا صَبْوةٍ أو يفتضح
ملكتْ قلبًـا فأمسى غَلِقًـا * عنـدها صَبًّا بهـا لم يسترح (١)

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل :
ملكت نفسى وأمسى علقا * عنـدنا صابها لم يسـترح

بجمالٍ وغناءٍ حَسَنٍ * جلَّ عن أن ينتقيه[1] المقترح
أورث القلب هموماً ولقد * كنتُ مسرورًا بمرآه فَرِح
ولكم مُغْتَبِقٍ همًّا وقد * باكر اللهوَ بكُورَ المُصْطَبِح

فقال له أبو عيسى : فعلتَها والله يا عبد الله، صح والله قولى لك فى عساليج وأنت تُكابر حتى فضَحك السُّكْر. فجحد وقال : هذا غناءُ كنت أرويه . فحلف أبو عيسى أنه ما قاله وما غنّاه إلا فى يومه؛ وقال له : أحلف بحياتى أنّ الأمر ليس هو كذلك! فلم يفعل . فقال أبو عيسى : والله لو كانت لى لوهبتُها لك ، ولكنها لآل يحيى ابن معاذ، ووالله إن باعوها لأُمَلِّكَنَّك إياها ولو بكل ما أملك! ووحياتى لتَنْصَرِفنّ قبلك إلى منزلك . ثم دعا بحافظتها وخادمًا من خدمه فوجّه بها معهما إلى منزله . وانتوى عبد الله قليلًا وتجلّد ثم انصرف . واتصل الأمر بينهما بعد ذلك فاشترتها عمته رُقَيّة بنت الفضل بن الربيع من آل يحيى بن معاذ، وكانت عندهم حتى ماتت. قال : وقالت بذل الكبيرة لعبد الله بن العباس : قد بلغنى أنك عشقتَ جارية اسمها عساليج، فاعرِضها علىّ، فإما أن عذرتُك أو عَذَلْتُك؛ فوجّه إليها فحضرتَ، وقال لبذل : هذه هى يا سيدّتى، فاسمعى وانظرى ثم مُرِينى بما شئتِ أُطِعْك . فأقبلت عليه عساليج وقالت : يا عبد الله، أتشاور فىّ! فوالله ما شاورت فيك لمّا محبتك. فقالت بذل : أحسنتِ والله ياصبيّة! ولو لم تُحسنى شيئا و[لا][2] كانت فيك خَصلة تُحمَد لوجب أن تُعْشَق لهذه الكلمة . ثم قالت لعبد الله : ما ضيّعت، احتفظ بصاحبتك هذه .

وقال حمدون بن إسماعيل : دخلت يوما على عبد الله بن العباس الربيعىّ وخادم له يسقيه، و بيده عودٌ وهو يغنّى :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «أن يقتفيه» . (٢) التكملة عن الأغانى .

إذا أصطبحتُ ثـلاثًا * وكان عـودى نَدِيمى
والكأس تضحك[1] ضحكًا * من كفّ ظبيٍ رخـيم
فما عـلىّ طـريقٌ * لطارقاتِ الهـموم

فما رأيت أحسن مما حكى حالهُ فى غنائه ولا سمعت أحسن مما غنّى . ومن صنعته وشعره قوله :

صَـدَع البينُ الفـؤادا * إذ به الصـائحُ نادَى
بينما الأحبـابُ مجمـو * عون إذ صاروا فُرَادَى
فأتى بعـضٌ بـلادًا * وأتى بعـضٌ بِـلادا
كلما قلت تَنَـاهَى * حَدَثانُ[2] الدّهرِ زادا

ذكر أخبـار وجه القَرْعة

هو أبو جعفر محمد بن حمزة بن نصـير الوصيف مولى المنصور ، ويُلَقَّب وجهَ القَرْعة ، أحد المغنِّين الحُذَّاق الضُّرَّاب الرواة . أخذ الغناء عن إبراهيم الموصلىّ وطبقته . وكان حسن الأداء طيِّب الصوت لا علّة فيه ، إلا أنه كان إذا غنّى الهزج خاصّة خرج لا لسبب يُعْرَف ، إلا أنه [إن][3] تعرّض للحنين فى جِنس من الأجناس فلا يصح له البتة .

وروى أبو الفرج بسـنده عن محمد الهاشمىّ أنه شهد إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ عند عمه هارون بن عيسى وعنده محمد بن الحسن بن مصعب ، قال : فأتانا محمد بن

(١) فى الأغانى : « تغرب » .

(٢) هذه رواية الأغانى . وفى الأصل :

كلما قلت تناهت * حادثات الدهر زادا

(٣) زيادة عن الاغانى .

حمزة وجه القَرْعة، وكان شِرِّيرَ الأخلاق أبيّ النفس، وكان إذا سئل الغناء أباه، فإذا أُمسِك عنه كان هو المبتدئ به؛ فأمسكا عنه حتى طلب العود فأُتِى به فغنّى :

مَرّ بى سِرْبُ ظِباءِ * رائحاتٍ من قُبَاء
زُمَرًا نحو المُصَلّى * يتمشّينَ حِذَائى
فتجاسرتُ وألقيـ * ـتُ سرابيلَ الحياءِ
وقديمًا كان لَهْوِى * وفنونى بالنساءِ

قال : وكان يُحسنه ويُجيده، فجعل إسحاق يشرب ويستعيده حتى شرِب ثلاثة أرطال، ثم قال : أحسنت يا غلام ! هذا الغناء لى وأنت تتقدّمنى فيه ! ولا يَخْلُق الغناء ما دام مثلك ينشأ فيه .

وقال أيضا : كنا فى البستان المعروف ببستان خالص النصرانىّ ببغداد، ومعنا محمد ابن حمزة وجه القَرْعة وهو يغنينا :

يا دارُ أقفَرَ رَسْمُها * بين المُحَصَّب والحَجُونِ
يا بِشرُ إنى فآعلَمِى * والله مجتهِدًا يمينى
ما إن صرمتُ حبالَكم * فصِلِى حِبالِى أو ذَرِينى

فإذا برجل راكب على حمار يؤُمّنا وهو يصيح : أحسنت والله ! فقلنا : آصعَدْ إلينا كائنا من كنت؛ فصعِد وقال: لو منعتمونى من الصعود لما آمتنعت؛ ثم سَفَر اللثام عن وجهه فإذا هو مُخارق. فقال : يا أبا جعفر، أعِدْ علىّ صوتك فأعاده، وشرب رطلًا من شرابنا وقال : لولا أنى مدعوّ الخليفة لأقمت عندكم وآستمعت هذا الغناء الذى هو أحسن من النزْهة غِبَّ المطر .

وله مع إسحاق بن إبراهيم ومخارق أخبار شهدا له فيها بحسن الصنعة؛ وكفاه ذلك فضلا فى صناعته .

ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر (١)

(١٤) قال أبو الفرج الأصفهانى : هو من أهل الرَّىّ ، مولى المنصور ، من ولد بَهْرام شوبين مَرْزُبان الرىّ . قال : وهو مرتجل قليل الصَّـنعة حسن الغناء والنغم بقوّة وشجًا واقتدار شديد على الغناء ، وكان فى زمانه أحد المعدودين فى حسن الأدب وتمام المروءة وحسن الزِّىّ والآلة ، وكان عظيم التِّيـه رفيع الهمة ، وكانت له منزلة عنـد المأمون . قال محمد بن الحارث : كنت مع المأمون وهو يريد بلاد الروم ومعه عدّة من المغنِّين ، فجلس يومًا والمعتصم والعباس معه من حيث لا نراهم وهم يسمعون غناءنا ؛ فغنّى المغنُّون جميعا وغنّيت هَزَجًا لإسماعيل بن جامع ، فبعث إلىّ المـأمون بأصل شاهشفرم (٢) وقد لُفّ أصله بمنـديل حرير ، فجاءنى به الغلام وقال : أعِد الصوت ؛ فأخذته وشممته ووثبت فأعدته قائمـا ، ووضعت الأصـل بين يدى وشربت رطلا وقلت للمغنّين : حكم لى أمير المؤمنين بالحِذْق والغِناء . فقالوا : وكيف ؟ قلت : دفع إلىّ لواء الغناء من بينكم . فقالوا : ليس كما ذكرت ، ولكن حيّـاك إذ أطربته ؛ والرسول قائم فانصرف بالخبر ، فما لبث أن رجع إلىّ فقال : هو كما ذكرت .

قال أبو العَنْبَس بن حمـدون : كان محمد بن الحارث أحسن خلق الله شمائل وإشارةً إذا غنّى . وقال أحمد بن حمدون : صنع محمد بن الحارث [هزجًا فى هذا الشعـــر] (٣) :

أمسَيْتُ عبـــدًا مُسـترَقًا * أبكى الألى سكنوا دِمَشْـقا

أعطيتُهـــم قلبى فمَنْ * يبـــقَ بلا قلبٍ فأبـــقى !

---

(١) كذا فى تصحيح كتاب الأغانى للأستاذ الشنقيطى المطبوع بمصر سنة ١٣٣٤ هـ . وبسخنر هو أحد الأعاجم من مرازبة الرى موالى المنصور الخليفة العباسىّ الثانى . وفى الأصل : «بشخير» وهو تحريف .

(٢) فى مفردات ابن البيطار : «شاهسفرم» وهو ضرب من النبات عطر الرائحة .

(٣) التكملة من الأغانى .

وطرحه على المسدود الطُّنبورىّ فوقع له موقعا حسنا؛ وآستحسنه محمد منه فقال : أتحبّ أن أَهَبَه لك ؟ قال : نعم؛ قال : قد فعلت . فكان المسدود يُغنّيه ويدّعيه، وإنما هو لمحمد بن الحارث .

قال محمد : لمّا قدِم المأمون من خُراسان لم يَشتَقْ مغنّيا بمدينة السلام غيرى . فبعث إلىّ فكنت أُنادمه سرّا ، ولم يظهر للندماء حتى ظفِر بإبراهيم بن المهدىّ؛ فلما عفا عنه ظهر للندماء .

ولمحمد بن الحارث شعر، منه قوله :

ومن ظنّ أنّ التِّيهَ من فضلِ قَدْرِهِ (١) * فإنى رأيت التيهَ من صِغَر القَدْرِ
ولو كان ذَا عزٍّ ونفسٍ أبيّةٍ * لغَضَّ الغنى منه وعزّ عن الفقرِ
رأى نفسَه لا تَستقِلُّ بحقِّها * فتاهَ لنقصِ النفس أو قلّةِ الشكر

ذكر أخبار أحمد بن صَدَقة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو أحمد بن صدقة بن أبى صدقة . كان أبوه حجازيّا مغنّيا، قدِم على الرشيد وغنّى له . وقد ذكرنا أخباره فى النوادر من كتابنا هذا، فلا حاجة بنا إلى إعادتها . وكان أحمد طُنبوريًّا مُحسِنا مُقدَّمًا حاذِقا حسَنَ الغناء مُحكَم الصَّنعة . قال : وله غناء كثير فى الأرمال والأهزاج وما يجرى مجراها من غناء الطُّنبوريّين . وكان ينزل الشام . ووُصِف للمتوكل فأمر بإحضاره ، فقدِم عليه فغنّاه، فآستحسن غناءه وأجزل صِلته . وآشتهاه الناس وكثُر من يدعوه؛ فكسب بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافا .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن صدقة قال : اِجتزت بخالد بن يزيد الكاتب فقلت له : أنشِدْنى بيتين من شعرك حتى أغنّى فيهما . فقال : وأىّ حظّ لى فى ذلك !

(١) فى الأصل : « من فضل قدرة » .

تأخذ أنت الجائزة وأحصُـل أنا على الإثم ! فحلفت أنى إن أخذت بشـعره فائدة جعلت له فيها حظّا، وأذكرت به الخليفة وسألته فيه. فقال: أمّا الحظُّ من جهتك فأنت أنذل من ذلك، ولكن عسى أن تُفْلِح فى مسئلة الخليفة؛ وأنشدنى :

تقـول سَلَا، فَمِنِ المُدْنَفُ * ومَنْ عينُـه أبدًا تَذْرِف!
ومَنْ قلبُـه قَلِقٌ خافقٌ * عليـك وأحشاؤه تَرْجُف!

فلمـا جلس المأمون للشرب دعانى، وكان قد غضِب على حظِيّةٍ له، فحضرتُ مع المغنّين. فلما طابت نفسه وَجّهتْ إليه بتُفّاحةٍ من عَنْبَر عليها مكتوبٌ بالذهب : « يا سيِّدى سلوت »، وما علِم الله أنى عرفت شـيئا مِن خبرهما . وآنتهى الدَّور إلىّ فغنّيت البيتين؛ فآحمرّ وجه المأمون وآنقلبت عيناه وقال: يآبن الفاعلة، لك علىّ وعلى حُرَمى صاحب خبر! فوثبت وقلت : يا سيّدى، ما السبب؟ قال : من أين عرفتَ قِصّتى مع جاريتى حتى غنّيت فى معنى ما بيننا ؟ فحلفت أنى لم أعرف شيئا من ذلك، وحدّثته بحديثى مع خالد، فلما آنتهيت إلى قوله : «أنت أنذل من ذلك» ضحك وقال : صدَق، وعجِب من هذا الاتّفاق؛ وأمر لى بخمسة آلاف درهم ولخالد بمثلهـا .

وروى عنه أيضا قال: دخلت على المأمون فى يوم الشعانين (١) وبين يديه عشرون وصيفةً جَلَبٌ روميّات مُزَنَّرات قد تزيّنّ بالديباج الرومىّ، وعلّقن فى أعناقهن صُلبانا من الذهب، وفى أيديهن الخوص والزيتون . فقال لى المأمون : ويلك يا أحمد ! قد قلتُ فى هؤلاء أبياتا فغَنِّ بها، ثم أنشدنى :

(١) الشعانين : عيد من أعياد النصارى ويسمى : «الزيتونة» يعملونه فى سابع أحد من صومهم . ومعنى الشعانين : التسبيح .

ظباءٌ كالدّنانيرِ * مِلَاحٌ فى المقاصيرِ
جلاهنّ الشّعانينُ * علينا فى الزّنانيرِ
وقد زَرْفَنَّ(١) أصداغًا * كأذنابِ الزرازيرِ
وأقبلْنَ بأوساطٍ * كأوساط الزّنابيرِ

٥ فحفظته وغنّيته ؛ فلم يزل يشرب والوصائف يرقُصن بين يديه بأنواع الرقص من الدّستبندا(٢) إلى الإيلىّ حتى سكر، وأمر لى بألف دينار، وأمر بأن ينثر على الجوارى ثلاثة آلاف دينار ، فقبضت الألف ونُثِرتْ ثلاثةُ آلاف الدينار فانتهبتها معهنّ .

قال : ولم يزل أحمد بالعراق حتى بلغه موت بُنَيَّة له بالشأم، فشخص نحو منزله ، وخرج عليه الأعراب فأخذوا ما معه وقتلوه .

ذكر أخبار أبى حَشِيشة

١٠

قال أبو الفرج : أبو حشيشة لَقَب غلب عليه، وهو محمد بن أبى أميّة، ويكنى أبا جعفر . وكان أهله جميعا متّصلين بإبراهيم بن المهدىّ، وكان هو من بينهم يغنّى بالطُّنبور أحسن الناس غناء . وخدم جماعة من الخلفاء، أوّلهم المأمون ومن بعده إلى المعتمد . قال : وكان أكثر انقطاعه إلى أبى أحمد بن الرشيد أيام حياته . وكان أبوه وجَدُّه وأخواله كُتّابا .

١٥

قال أحمد بن جعفر جحظة فى ترجمة أبى حشيشة : وكان له صنعةٌ تقدّم فيها كلَّ طُنبورىٍّ لا أُحاشى أحدًا فى ذلك . قال : فمنها :

---

(١) زرفن صدغيه : جعلهما كالزرفين، وهو حلقة الباب .

(٢) الدستبندا : نوع من أنواع رقص المجوس يأخذ بعضهم بيد بعض و يدورون و يرقصون .

كأنّ همومَ الناسِ فى الأرض كلّها * علىّ وقلـــبى بينهـم قلبُ واحدِ
ولى شاهـدَا عـدلٍ مُهَادٌ وعَبْرةٌ * وكم مُدّعٍ للحبّ من غـير شاهـدِ

قال جحظة : ورأيته بين يدى المعتمد على الله وقد غنّاه من شعر علىّ بن محمد ابن نصر :

حُرِمتُ بَذْلَ نوالِكْ * واسَوْءتَا من فِعالكْ!
لمّا ملكتَ وِصالى * آيستنى من وِصالِكْ

فوهب له مائتى دينار . قال : وغنّى يومًا عنـد ابن المدبّر بحضرة عَريب ؛ فقالت له : أحسنت يا أبا جعفر! ولو عاش الشيخان ما قلتُ لهما هذا (تعنى علّويه ومُخَارقا) .

وقال أبو الفرج : إنّ أبا حشيشة ألّف كتابًا جمع فيه أخباره مع من عاشر وخدم من الخلفاء؛ قال : وهو تاب مشهور . قال : أوّل من سمعنى من الخلفاء المأمون، وصَفَنى له مُخارق، فأمر بإشخاصى إليه، وأمر لى بألف درهم أتجهّز بها . فلما وصلت إليه أدنانى وأُعجِب بى ؛ وقال للمعتصم : هـذا أثر خَدَمك وخَدَم آبائك وأجدادك يا أبا إسحاق . وذكر ما كان يشتهيه عليه كلُّ خليفـة، فقال : كان المأمون يشتهى من غِنـائى :

كان يَنْهَى فَنُهِى حتى [سلا](١) * وانجلتْ عنـه غَيَاياتُ الصِّبا
خَلع اللهوَ وأضحى مُسْـبِلًا * للنُّهى فضـلَ قميصٍ ورِدَا

قال : وكان المعتصم يشتهى علىّ :

أسرفتَ فى سوء الصَّنيع * وفتكتَ بى فَتْـكَ الخَليع

(١) آخر الشطر الأوّل من البيت مفقود من الأصل، ولم نوفق اليه حين التصحيح . فلعل الكلمة التى وضعناها تكون قريبة من الأصل .

وَوَلِعتَ بى متمـرِّدًا * والعُذْرُ فى طـرق الوَلُوعِ
صَـيّرتُ حبَّـك شافعًـا * فأُبيتُ من قِبَـلِ الشَّفيعِ

قال : وكان الواثق يختار من غِنائى :

يا تارِكى مُتَـلَذِّذَ الـ * ـعُذَّالِ جَذْلانَ العُداةِ
أُنظُـرْ إلىّ بعـينِ را * ضٍ نظرةً قبل المـاتِ
خَلَّيتَنى بين الوعيـ * ـدِ وبين ألسِنَةِ الوُشاةِ !
ماذا يُرَجّى بالحيـا * ةِ مُنَغَّصٌ رُوحَ الحياةِ !

قال : وكان المتوكل يحبّنى ويستخفُّنى، وكانت أغانيه التى يشتهيها علىّ كثيرة. منهـا :

أطعتَ الهوى وخَلَعتَ العِذَارَا * وباكرتَ بعـد المراح العُقَارَا
ونازعـك الكأسَ من هاشمٍ * كـريمٌ يُحِبُّ عليهـا الوَقارا
فتًى فـرّق الحمـدُ أمـوالَه * يَجُـرُّ القميصَ ويُرْخِى الإزارا
رأى اللهُ جعفـرَ خـيرَ الأنامِ * فملَّكه ووَقَاهُ الحِـذارا

قال : وكان المستعين يشتهى علىّ :

وما أنسَ لا أنسَ منها الخُشوع * وفَيْضَ الدّموع وغَمْزَ اليـدِ
وخَدِّى مُضـافٌ إلى خَـدِّها * قيامًا الى الصـبح لم نَرْقُـدِ

قال : وأشتهى علىّ المعتمد :

قلـبى يُحِبُّـكِ يا مُـنَى * قلـبى ويُبْغِضُ مَن يُحِبُّـكْ
لِأكونَ فـردًا فى هـوا * كِ، فليت شعرى كيفَ قلبُكْ؟

قال جحظة : وكانت وفاة أبى حشيشة بسُرّ مَن رأى . وسببها أنه آصطبح عند قَلَم غلام الفضـل بن كَاوُش فى يوم بارد ؛ فقال له : أنا لا آكل إلا طعاما حارّا ، فأتاه بفُجْلِيّة باردة وقال : تُساعدنى وتأكل معى ، فأكل منها فحمِد قلبه فمات .

ذكر أخبار القيان

وأوّل من غنّى من النساء ومن آشتهر بالغناء منهنّ فى الإسـلام

قالوا : أوّل من غنّى الغناء العربىّ جَرَادَتا آبنِ جُدْعان . قال أبو الفرج الأصفهانىّ : قال آبن الكلبىّ : كان لآبن جُدْعان أمتان يُسَـمَّيان الجرادتين يُغَنِّيان فى الجاهليّة ، وسمّاهما جرادتى عباد (١) ؛ ووهبهما عبدُ الله بن جُدْعان لأُمَيّـة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفىّ وكان قد آمتدحه . وآبن جُدْعان هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مُرّة بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب . كان سَيِّدا جوادا ؛ فرأى أُمَيّةَ ينظر الى الجرادتين وهو عنـده فأعطاه إياهما . وقد قيل فى سبب إعطائه إياهما : إن أُمَيّة بن أبى الصَّلْت قدِم عليه ؛ فقال له عبد الله : أمرٌ ما أتى بك ! فقال أُمَيّة : كلاب غرماء قد نبحتنى ونهشتنى . فقال له عبد الله : قَدِمتَ علىّ وأنا عليل وحقوقٌ لحقتنى ولزمتنى ، فأَنْظِرْنى قليلًا وقد ضَمِنتُ قضاءَ دينك فلا أسألك عن مبلغه ، قال : فأقام أمّية أياما ثم أتاه فقال :

أ أذكر حاجتى أم قد كفانى * حياؤك إنّ شِيمتَـك الحياءُ
وعلْمُك بالأمورِ وأنت قَرْمٌ * لك الحسبُ المهذَّب والسَّناءُ
كريمٌ لا يُغَـيِّره صـباحٌ * عن الخُلُقِ الكريم ولا مَساءُ
تُبارِى الريحَ مَكْرُمةً ومجـدًا * إذا ما الكلب أجْحره الشّتاءُ

(١) فى الأغانى : « جرادتى عاد » .

إذا أثنى عليك المرءُ يومًا * كفاه من تعرُّضه[1] الثناءُ
إذا خلّفتَ عبدَ الله فاعلَمْ * بأنّ القومَ ليس لهم جزاءُ
فأرضُك كلّ مكرُمةٍ بنتها * بنو تيم وأنت لهم سماءُ
وهل تخفَى السماءُ على بصيرٍ! * وهل بالشمسِ طالعةً خفاءُ!

٥ فلمّا أنشده أُميّة هذا الشعر كانت عنده قينتان، فقال لأميّة: خذ أيّتهما شئت، فأخذ إحداهما وانصرف[2]؛ فمرّ بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها، وقالوا له: لقد ألفيتَه عليلًا، فلو رددتها عليه، فإن الشيخ محتاج إلى خدمتها، كان[3] ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حقّ ضمنه. فوقع الكلام من أميّة موقعًا ونَدِم؛ فرجع إليه ليردّها عليه. فلما أتاه بها، قال ابن جُدْعان: لعلك إنما رددتها لأن قريشا لاموك

١٠ على أخذها؛ وذكر لأميّة ما قال القوم. فقال أميّة: والله ما أخطأتَ يا أبا زهير. قال: فما الذى قلتَ فى ذلك؟ فقال:

عطاؤكَ زَيْنٌ لامرئٍ إن حَبَوْتَه * ببَذْلٍ وما كلُّ العطاءِ يَزِينُ (١٧)
وليس بشَيْنٍ لامرئٍ بذلُ وجهِهِ * إليك كما بعضُ السؤالِ يَشِينُ

فقال عبد الله لأميّة: خذ الأخرى؛ فأخذهما جميعا وخرج. فلما أن صار إلى القوم

١٥ بهما أنشأ يقول:

ومالى لا أحَيِّيهِ وعندى * مَواهِبُ قد طلعنَ من النِّجادِ
لأبيضَ من بنى عَمْرِو بنِ تَيْمٍ * وهم كالمَشْرَفِيّاتِ الحِدَادِ
لِكلّ قبيلةٍ هادٍ ورأسٌ * وأنت الرأسُ تقدُم كلَّ هادِ

(١) فى الأصل: «تعرّضه».

٢٠ (٢) كذا بالأغانى. وفى الأصل: «قال لأمية: خذ إحداهما أيهما شئت فأخذها وانصرف الخ».

(٣) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «فكان ...» بزيادة الفاء.

عِمادُ الخَيْفِ قد علمت مَعَدٌّ * وإنّ البيتَ يُرْفَع بالعماد
له داعٍ بمكّةَ مُشْـــمَعِلٌّ * وآخرُ فوق دَارته يُنـادِى
إلى رُدُحٍ من الشِّـــيزَى مِلَاءٍ * لُبَـابَ البُرِّ يُلْبَـــكُ بالشِّهادِ

وكان سبب قول أميّة بن أبى الصلت هذا الشعر أنّ عبد الله بن جُدْعان وفد على كِسْرَى فأكل عنده الفالُوذَ، فسأل عنه فقيل له : هذا الفالوذ . قال : وبم يصنع؟ قيل : لُبابُ البُرِّ يُلبك مع عسل النحل . قال : أبغونى غلامًا يصنعه، فأتوه بغلام يصنعه فابتاعه، ثم قدِم به مكة، فأمره أن يصنع الفالُوذ ففعل، ثم وضع الموائد من الأبطح إلى باب المسجد، ثم نادى مناديه : ألَا من أراد الفالُوذَ فليحضُرْ، فحضره الناس . وكان فيمن حضر أميّة بن أبى الصلت فقال الأبيات . وقال فيه أيضا :

ذُكِر ٱبنُ جُدْعانٍ بخيـ * ـرٍ كلّمـا ذُكِـر الكِرامُ
من لا يخونُ ولا يَعُقّ ولا يُخَـــلّه الأنامُ
يَهَبُ النجيبـــةَ والنجيـ * ـبَ له الرِّحالة والزِّمامُ

وٱبن جُدْعان ممن ترك شربَ الخمر فى الجاهليّة . وقد تقدّم ذكره . وهجاه دُرَيْد ابن الصِّمّة بشعر، فلقيه بعد ذلك عبدُ الله بسُوق عُكَاظ، فحيّاه وقال : هل تعرِفنى يا دُرَيد ؟ قال لا . قال : فلِمَ هجـوتَنى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : عبـدُ الله بن جُدْعان . قال : هجوتُك لأنك كنت أثِرًا كريما فأحببتُ أن أضع شعرى موضعه . فقال له عبد الله : لئن كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ ؛ وكساه وحمله على ناقة برحلها ، فقال دُرَيد :

إليـك ٱبنَ جُدْعانَ أعملتُهـا * مُخَفَّفَـــةً للسُّرَى والنَّصَبْ
فلا خفضَ حتى تلاقى ٱمرأً * جوادَ الرِّضا وحليمَ الغَضَبْ
وجلدًا إذا الحربُ مَرَّتْ به * يُعِين عليها بجَـــزْلِ الحطبْ

وجُلْتُ البــلادَ فما إن أرى * شبيهَ ابنِ جُدْعان وَسْط العرب
ســوى ملكٍ شامخٍ مُلْكُهُ * له البحرُ يجرى وعَيْنُ الذهب

وأخبار ابن جُدعان كثيرة وسيادته فى الجاهليّة مشهورة ، ليس هذا موضع إيرادها ، وإنما أوردنا ما أوردنا منها فى هذا الموضع على سبيل الاستطراد ، فالشىء بالشىء يذكر . فلنرجع إلى أخبار القِيان .

ذكر أخبار جميــلة

هى جميلة مولاة بنى سُلَيم ، ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بَهْز ، وكان لها زوج من موالى بنى الحارث بن الخزرج ، وكان ينزل فيهم ، فغلب عليها ولاء زوجها فقيل لها : مولاة الأنصار . وقد قيل : إنها كانت لرجل من الأنصار ينزل بالسُّنْح . وقيل : كانت مولاة الحجّاج بن عِلَاط السُّلَمىّ . قال أبو الفرج الأصفهانىّ : وهى أصل من أصول الغنــاء ، أخذ عنها مَعْبَد وابن عائشــة وحَبَابة وســلّامة وعقيلة والعتيقة وغيرهم . وفيها يقول عبد الرحمن بن أرْطاة :

إنّ الدّلالَ وحسنَ الغنــا * ءِ وَسْطَ بُيوتِ بنى الخزْرَج
وتِلكم جميــلةُ زَيْنُ النســاء * إذا هى تزدانــ للمَخْرَج
إذا جئتَهــا بذلَتْ وُدَّهــا * بوجــهٍ مُنــيرٍ لهــا أبلج

قال : وكانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء . وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنّين . قال : وسئلت جميلة : أنّى لك هذا الغناء؟ قالت : والله ما هو إلهام ولا تعليم ، ولكنّ أبا جعفر سائب خاثر كان جارنا ، وكنت أسمعه يغنّى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمات وبنيت عليها غِنائى ، فجاءت أجود من تأليف ذلك الغناء ، فعَلِمتُ وألقيت ؛ فسمعنى مَوْلَياتى يومًا وأنا

(١٨)

أُغَنِّى سرًّا ، ففهِمننِي ودخلن علىّ وقلن : قـد علِمنا ما تكتمين وأقسمن علىّ ؛ فرفعت صوتى وغنّيتهن بشعر زُهَيْر بن أبى سُلْمَى :

وما ذَكَرْتُكِ إلا هِجْتِ لى طَرَبًا * إنّ المحبَّ ببعض الأمرِ معذورُ
ليس المحبُّ كمن إن شَطَّ غيرُه * هجرُ الحبيب، وفى الهِجرانِ تغييرُ

فينئذ شاع أمرى وظهر ذكرى وقصدنى الناس وجلست للتعليم ؛ فكان الجوارى يكثُرْنَ عندى ، وربما آنصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئا سوى ما سمعنى[1] أُطارح غيرهن ، وقد كسَبت لموالىّ ما لم يَخْطُر لهم ببال ، وأهل[2] ذلك كانوا وكنت . وقد أقرّ لجميلة كلُّ مكىٍّ ومدنىّ من المغنّين . قال : ولما قدِم آبن سريج والغَرِيض وآبن مِسْجَح وسَلْم بن مُحْرِز المدينةَ وآجتمعوا هم ومَعْبَد وآبن عائشة حكّموها بينهم ؛ وآجتمعوا عندها ، وصنع كل منهم صوتا وغناه بحضرتها — وقد ذكر الأصفهانىّ الأصوات — فلما سمعت الأصوات قالت : كلّكم مُحسِنٌ مُجيدٌ فى غنائه ومذهبه . قال ابن عائشة : ليس هذا بمُقْنِع . قالت : أمّا أنت يا أبا يحيى فتُضْحِك الثّكلى بحسن صوتك ومشاكلته النفوسَ . وأمّا أنت يا أبا عَبّاد فنسيجُ وَحْدِه بتأليفك[3] وحسن نظمك وعذوبة غنائك . وأمّا أنت يا أبا عثمان فلك أوّليّةُ هذا الأمر وفضلُه . وأمّا أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلُح . وأمّا أنت يا أبا الخَطّاب فلو قدّمتُ أحدًا على نفسى لقدّمتك . وأمّا أنت يا مولى العَبَلات فلو ابتدأتَ قدّمتُك عليهم . ثم سألوها جميعا أن تغنّيهم لحنًا كما غنّوْا ، فغنّتهم ، فكلهم أقرّوا لها وفضّلوها .

وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغنّى أحدًا إلا فى منزلها . فكان عبد الله بن جعفر

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ولم يأخذن شيئا مما سمعنى» .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وأصل» .
(٣) فى الأغانى : «بجودة تأليفك» .

يأتيها فى مجلسها فيجلس عنـدها وتغنّيه . فأرادت أن تكفّر عن يمينها وتأتيه فتغنّيه فى بيته؛ فقال : لا أكلّفك ذلك .

وروى الأصفهانىّ أنّ ابن أبى عَتِيق وآبنَ أبى ربيعة والأحوص بن محمد الأنصارىّ أتوا منزلَ جميلة واستأذنوا عليها فأذِنت لهم . فلما جلسوا سألت عن عمر، فقال لهـا : إنى قصـدتُك من مكة للسلام عليك؛ فقالت : أهلُ الفضل أنت . قال : وقد أحببتُ أن تُفرّغى لنا نفسَك اليوم وتُخْلِى مجلسَك؛ قالت : أفعل . فقال لها الأحوص : أحبّ ألّا تغنّى إلا بما نسألك ؛ فقالت : ليس المجلس لك، القوم شركاؤك ؛ فقال : أجل . قال عمر : فإنى أرى أن نجعل الخيـار إليها . قال ابن أبى عتيق : وفّقك الله . فدعت بعود فغنّت :

تَمشِى الهُوَيْنَى إذا مشتْ فُضُلًا * مَشْىَ النَّزِيفِ[1] المخمورِ فى الصُّعُدِ
تَظَلُّ من بعـدِ بيتِ جارتِهـا * واضـعةً كفَّها على الكَبِدِ
يا مَنْ لِقلبٍ مُتَـيَّمٍ سَـدِمٍ * عانٍ رهـينٍ مُكَلَّمٍ كَبِـدِ
أزجُرُه وهـو غـيرُ مُنْزَجِرٍ * عنهـا بطَرْفٍ مُكَحَّلِ السَّهَـدِ

قال راوى هذه الحكاية : فلقد سمعتُ للبيت زَلزلةً وللدار هَمْهمةً . فقال عمر : لله دَرُّكِ يا جميلة ! ماذا أُعطيتِ ! أنت أوّل الغناء وآخره ! ثم سكتت ساعةً وأخذت العود فغنّت، فطرب القوم وصفّقوا بأيديهـم وخصوا بأرجلهم وحرّكوا رءوسهم، وقالوا : نحن فِداؤك من المكروه، ما أحسنَ ما غنّيتِ وأجملَ ما قلتِ ! . وأُحضِر الغداء فتغدّى القوم بأنواع من الأطعمة ومن الفواكه، ثم دعتْ بأنواع الأشربة؛ فقال عمر : لا أشرب ، وقال آبن أبى عَتِيق مثل ذلك ؛ فقال الأحوص : لكنّى

(١) النزيف : السكران .

أشْرَب، وما جزاء جميلة أن يُمتنَعَ من شرابها ! فقال عمر : ليس ذاك كما ظننت. فقالت جميلة : من شاء أن يحلني بنفسه ويخلِط رُوحه بروحى فعل، ومن أبى ذلك عذَرناه ، ولم يمنعه ذلك عنـدنا ما يريد من قضـاء حوائجه والأُنْس بمحادثته . قال ٱبن أبى عتيق : ما يَحسُنُ بنا إلا مساعدتُك . فقال عمـر : إنى لا أكون أخسَّكم، افعلوا ما شئتم تجدونى سامعاً مطيعا. فشرب القوم أجمع، فغنّت بشعر ٱبن أبى ربيعة: ٥

ولقد قالت لجـاراتٍ لها * كالمهَـا يلعَبْن فى حُجْرتِهـا
خُذْنَ عنى الظلَّ لا يتبَعنى * ومضتْ تسعَى إلى قُبّتِها
لم تُعَلِّق رَجُلًا فيما مَضى * طَفْلةٌ غيـداءُ فى حُلّتِهـا
لم يَطِشْ قطُّ لها سهمٌ ومَنْ * تَرْمِهِ لا ينجُ من رَمْيتِها

فصاح عمر ثم شقّ جيبَ قميصه إلى أسفله ، ثم ثاب اليه عقلُه فنـدِم واعتذر ١٠ وقال : لم أملك من نفسى شيئا . وقال القوم : قد أصابنا الذى أصابك وأُغْمِيَ علينا غير أننا قد فارقناك فى تخريق الثّياب . فدعتْ جميلة بثياب فجعلتها على عمر فقبِلها ولبِسها ، وٱنصرف القوم إلى منازلهم . وكان عمر نازلًا على ٱبن أبى عتيق، فوجّه إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب كانت معـه فقبِلتها جميلة ، وٱنصرف عمر إلى مكة جذلانَ مسرورا . ١٥

وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب والزبير بن بكّار عن عمـه مُصْعَب قالا : حجّتْ جميلة فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ ذكرهم أبو الفرج، منهم من المغنّين هِنْب وطُوَيْس والدَّلَال ومَعْبَد ومالك بن أبى السَّمْح وٱبن عائشة ونافع الخير ونافع بن طُنْبورة وغير هؤلاء ممن ذكرهم ؛ ومن النساء المغنّيات جمـاعة ذكرهنّ : منهن الفَرِهة وعزّة الميلاء وحَبَابة وسلّامة وخُلَيْدة ٢٠ وعَقِيلة والشّماسـيّة وفَرعة ونَبِيلة ولذّة العيش وسعِيدة والزَّرْقاء؛ ومن غير المغنّين من

الأشراف ابن أبي عتيق والأحوص وكُثَيِّر عَزّة ونُصَيْب ؛ و جماعة من الأشراف الرجال والنساء . وحج معها من القِيان مُشيِّعات لها ومعظِّمات لقدرها خمسون قينة وجّه بهنّ مواليهنّ معها وأعطوهنّ النفقات وحملوهنّ على الإبل فى الهوادج والقِباب وغيرذلك ؛ فأبت جميلة أن تنفق واحدةٌ منهنّ درهما فما فوقه حتى يرجعن . قال : وتخايرن خرج معها فى اتخاذ أنواع اللِّباس العجيب والهوادج والقِباب . قال : ولما قاربوا مكة تلقّاهم سَعِيد بن مِسْجَح وابن سُرَيج والغَرِيض وابن مُحْرِز والهُذَلِيّون و جماعة من المغنّين من أهل مكة وفتيانٌ كثير(١) ؛ ومن غير المغنّين عمر بن أبي ربيعة والحارث ابن خالد المخزومىّ والعَرْجىّ و جماعة من الأشراف . فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغنٍّ حاذق ولا مغنِّية إلا وهو معها و جماعة من الأشراف [ممن سَمّينا وغيرهم من الرجال والنساء ، وخرج أبناء أهل مكة من(٢)] الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسنِ هيئتهم . فلما قضت حجّها سألها المكّيون أن تجعل لهم مَجْلِسا ؛ فقالت : للغناء أم للحديث ؟ فقالوا : لهما جميعا . قالت : ما كنت لأخلِط جِدًّا بهَزْل ، وأبتْ أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبي ربيعة : أقسمتُ على من كان فى قلبه حبٌّ لسماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة ، فإنى خارج معها . فخرجتْ فى جمع كثير من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة . فلما قدِمت المدينة تلقّاها الناس والأشرافُ من الرجال والنساء ، فدخلت بأحسنَ مما خرجت منها ، وخرج الرجال والنساء فوقفوا على أبواب دُورهم ينظرون إلى جمعها و إلى القادمين معها . فلما دخلت إلى منزلها وتفرّق الناس إلى منازلهم ونزل أهلُ مكة على أقاربهم و إخوانهم ، أتاها الناس مسلِّمين ، وما استنكف من ذلك صغير ولا كبير . فلما مضى لمَقْدَمها عشرة أيام جلست للغناء ، وقالت لعمر بن أبي ربيعة : إنى جالسة لك ولأصحابك ، فإذا شئتَ فعِدِ الناس .

(١) فى الأغانى : «وفيان كثيرة لم يسمين» . (٢) زيادة عن «الأغانى» .

فغصّت الدار بالأشراف من الرجال والنساء، وآبتدأت جميلةُ فغنّت بشعر لعمر بن أبي ربيعة :

هيهـاتَ من أَمَةِ الرّحمنِ منزلُنـا[1] * إذا حَلَلنا بسيفِ البَحْرِ من عَدَنِ
وآحتـلّ أهلُك أجياداً فليس لنا[2] * إلا التّذَكُّرُ أو حظٌّ[3] من الحَزَنِ
لو أنهـا أبصرتْ بالخزْعِ عَبْرَتَه * وقـد تَغَـرَّد قُمْـرِىٌّ على فَنَنِ
إذًا رأتْ غيرَ ما ظنّتْ بصاحبها * وأيقنَتْ أنّ لَجّاً ليس من وطنِي
ما أنسَ لا أنسَ يوم الخَيْفِ مَوْقِفَها * وموقفى وكِلانا ثَمّ ذو شَجَنِ
وقولَهـا للـثُّرَيّا وهى باكيـةٌ * والدمعُ منها على الخَدّينِ ذو سُنَنِ
بآللهِ قـولى له من غيرِ مَعْتَبَـةٍ * ماذا أردتَ بطول المُكْثِ فى اليمنِ
إن كنتَ حاولتَ دنيا أو ظفِرتَ بها[4] * فمـا أصبتَ بترك الحج من ثمنِ

فكلهم آستحسن الغنـاء ، وضجّ القوم لحسن ما سمعوا، وبكى عمر حتى جرت دموعه على ثيابه ولِحيته. ثم أقبلت على آبن سريج فقـالت : هاتِ، فغنّى صـوته بشعر لعمر :

أليستْ بالتّى قالت * لمولاةٍ لهـا ظُهُـرَا
أشيرِى بالسّـلامِ له * إذا ما نَحْـوَنا نَظَـرا
وقُولِى فى مُلاَطَفَـةٍ * لزينبَ نَوّلى عُمَـرا
وهذا سِحرُكَ النِّسوا * نَ قد خَبّرْنى الخبرَا

(١) كذا فى الأغانى وديوان عمر بن أبي ربيعة . وفى الأصل : «منزلها» .
(٢) كذا فى الأغانى والديوان . وفى الأصل : «فليس لهم» . (٣) كذا فى الأغانى والديوان . وفى الأصل : «هم» . (٤) فى الأصل :
* إن كنت حاولت دينا أو نعمت به *

ثم قالت لسعيد بن مسجح : هاتِ ياأبا عثمان، فاندفع فغنّى. ثم قالت : يامعبد هات، فاندفع فغنّى فاستحسنته. ثم قالت: هاتِ يابنَ محرز، فإنى لم أؤخّرك لخساسة بك ولا جهلاً بالذى يجب فى الصناعة[1]، ولكنى رأيتُك تحبّ من الأمورِ كلّها أوسطَها وأعدلَها. فجعلتك حيث تحب واسطةً بين المكيّين والمدنيّين، فغنّى. ثم قالت للغريض: هاتِ يامولى العبلات، فغنّى بشعر عمرو بن شاس الأبياتَ، وفى آخرها:

أرادتْ عِرَارًا بالهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ * عِرَارًا لَعَمْرِى بالهَوانِ فقد ظَلَمْ

فقالت : أحسن عمرو بن شاس ولم تُحسِن، إذ أفسدتَ غناءك بالتعريض، ووالله ما وضعناك إلا موضعَك ولا نقصناك من حظّك، فبماذا أهنّاك! ثم أقبلت على الجماعة فقالت : ياهؤلاء اصدُقوه وعرّفوه نفسَه ليقنع[2] بمكانه. فأقبل القوم عليه وقالوا: ياأبا زيد، قد أخطأتَ إن كنتَ عرّضت. فقال: قد كان ذلك، ولست بعائد، وقام إلى جميلة فقبّل طَرَف ثوبها واعتذر، فقبلتْ عذره وقالت : لاتعد، وأقبلت على ابن عائشة فقالت: ياأبا جعفر، هات، فغنّى، فقالت: حَسَنٌ ماقلت. ثم أقبلت على نافع وبُدَيْح فقالت : أُحِبّ أن تغنّيا جميعا بصوت ولحنٍ واحد، فغنيا. ثم أقبلت على الهُذَليّين الثلاثة فقالت : غنّوا صوتًا واحدا، فاندفعوا فغنّوْا. ثم أقبلت على نافع بن طُنْبورة فقالت : هاتِ يانَقْش الغَضَارة وياحَسَنَ اللسان؛ فاندفع فغنّى، فقالت : حَسَنٌ والله. ثم قالت : يامالك هاتِ، فإنى لم أؤخّرك لأنك فى طبقة آخرهم، ولكن أردتُ أن أختِمَ بك، يومَنا تبرّكًا بك، وكى يكون أوّلُ مجلسنا كآخره ووسطُه كطَرَفه؛ فإنك عندى ومَعْبَدًا فى طريقةٍ واحدة ومَذْهبٍ واحد،

(١) هذا فى الأغانى. وفى الأصل : «من الصناعة».

(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل : «ليقع».

لا يدفع ذلك إلا ظالمٌ ولا يُنكره إلا عاضِلٌ للحق، والحقّ أقول، فمن شاء أن ينكر؛ فسكت القوم كلهم إقرارًا بما قالت . فٱندفع فغنّى :

عَدُوٌّ لمن عادتْ وسِلْمٌ لِسِلْمِها * ومَنْ قرّبت سلمى أَحِبَّ وقُرِّبَا
هَبِينى ٱمرأً إمَّا بريئًا ظَلمتِهِ * وإمّا مُسِيئًا تَاب بعدُ وأَعْتَبَا
أقولُ ٱلتماسَ العُذْرِ لمّا ظَلَمتِنِي * وحَمَّلتِنى ذنبًا وما كنتُ مُذْنِبا
لِيَهْنِكِ إشماتُ العدوِّ بهَجْرِنا * وقَطْعُك حبلَ الودّ حتى تَقَضَّبا

فقالت جميلة : يا مالك، ليت صوتك قد دام لنا ودُمنا له ! وقطعت المجلس، وٱنصرف عامّة الناس وبقى خواصّهم . قال : ولما كان فى اليوم الثانى حضر القوم جميعا . فقالت لطُوَيْس : هاتِ يا أبا عبد النّعيم، فغنّى :

قد طال ليلِي وعادنى طَرَبِي * من حُبِّ خَوْدٍ كريمةِ الحَسَبِ
غَرّاء مثل الهلالِ آنِسةٍ * أو مثل تِمثالِ صُورةِ الذَّهَبِ
صادتْ فؤادِى بجِيدِ مُغْزِلةٍ * ترعَى رِياضا مُلْتَفَّةَ العُشُبِ

فقالت جميلة : حسنٌ والله ياأبا عبد النعيم . ثم قالت للدلال : هاتِ ياأبا يزيد، فغنّى، فٱستحسنت غناءه . ثم قالت لهِنْب : إنا نُجِلُّك اليوم لِكِبَرِ سِنّك ورِقّةِ عظمك؛ فقال : أجل . ثم قالت لبَرْد الفؤاد ونَوْمة الضُّحَى : هاتِيَا جميعًا لحنًا واحدا، فغنّيا، فقالت : أحسنتما. ثم قالت لِفند وزجة وهِبة الله[1] : هاتوا جميعا صوتًا واحدا، إنكم متفقون فى الأصوات؛ فاندفعوا فغنّوْا . ثم غنّت جميلة بشعر الأعشى :

بانت سعادُ وأمسى حبلُها ٱنقطعا * وٱحتلّت الغَوْرَ فٱلجَدَّيْنِ فٱلفَرَعا
وٱستنكرتنى وما كان الذى نَكِرتْ * من الحوادث إلا الشَّيبَ والصَّلَعا

(١) فى الأغانى : «رحمة» .

تقولُ بنتى وقد قَرِبتُ مُرْتَحِلًا * يارَبِّ جَنِّبْ أبِى الأوصابَ والوَجَعا
وكان شىءٌ إلى شىءٍ فغَيَّره * دهرٌ مُلِحٌّ على تفريقِ ما جمعا

قال: فلم يُسْمَع شىءٌ أحسنُ من ابتدائها بالأمس وخَتْمِها فى اليوم، وقطعت المجلس وانصرف قوم وأقام آخرون. فلما كان فى اليوم الثالث اجتمع الناس فضربت ستارة (٢١) وأجلست الجوارى، فضربْنَ كلُّهنّ، وضربت هى فضربت على خمسين وَتَرًا فزُلْزِلت الدار. ثم غنّت على عودها وهنّ يضربن على ضربها:

فإن خَفِيتْ كانت لعينِكَ قُرَّةً * وإن تَبْدُ يومًا لم يُعَمِّمْك عارُها
من الخَفِراتِ البِيضِ لم تَرَ غِلْظَةً * وفى الحَسَبِ الضَّخْمِ الرفيعِ نِجارُها
فما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طيِّبةُ الثَّرَى * يَمُجّ النَّدَى جَثْجاثُها وعَرارُها
بأطيبَ مِنْ فِيها إذا جئتَ مَوْهِنًا * وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

فدَمَعتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بَلُّوا ثيابهم وتنفَّسوا الصُّعَدَاء، وقالوا: بأنفسنا أنتِ يا جميلة! ثم قالت للجوارى: اكففن فكففْن، وقالت: ياعَزّ غَنِّى، فغنّت بشعر لعمر:

تَذَكَّرتَ هِندًا وأعصارَها * ولم تَقْضِ نفسُك أوطارَها
تَذَكَّرتِ النفسُ ما قد مضى * وهاجتْ على العينِ عُوَّارَها
لتمنَحَ رامةَ مِنّا الهوى * وتَرْعَى لرامةَ أسرارَها
إذا لم تَزُرْها حِذارَ العِدَا * حَسَدنا على الزَّوْرِ زُوّارَها

فقالت جميلة: يا عزّ، إنك لباقية على الدهر، فهنيئا لك حسنُ هذا الصوت مع جودة هذا الغناء. ثم قالت لحَبَابة وسَلّامة: هاتيا لحنًا واحدا، فغنّتا فاستُحسِن غناؤهما. ثم أقبلت على خُلَيْدة فقالت: بنفسى أنت! غنّى فغنّت، فاستُحسِن منها

ما غنّت . ثم قالت لعقيلة والشّمّاسيّة : هاتيا ، فغنّتا . ثم قالت لفرعة ونَبيلة ونديمة ولذة العيش هاتِينَ ، فغنّين ، فقالت : أحسنتُنّ . وقالت لسعيدة والزّرقاء : غنيا ، فغنّتا . ثم قالت للجماعة فغنّوا ؛ وانقضى المجلس وعاد كل إنسان إلى وطنه . فما رُئى مجلسٌ ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام الثلاثة . وقد ذكر أبو الفرج ما غنّى به كل واحد منهم فأوردنا بعضــه وتركنا بعضه اختصارا . وأخبار جميلة كثيرة ، قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهانىّ جملةً تدلّ على أنها كانت مُبَجّلة عند الأشراف معظّمة عند المغنّين ؛ يأخذون عنها ويأتمرون بأمرها ، ويسعَوْن إليها ، وينطقون إذا استنطقتْهم ، ويكُفّون إذا استكفّتْهم ؛ وفيما قدّمناه دلالة على ذلك والله أعلم .

ذكر أخبـار عَزّةَ المَيْلَاء

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت عَزّة مولاةً للأنصار ، ومسكنها المدينة ، وهى أقدم من غنّى الغِناء المُوقَعَ من نساء الحجاز ، وماتت قبـل جميلة . قال : وقد أخذ عنها مَعْبَدٌ ومالك بن أبى السَّمْح وابن مُحْرِز وغيرُهم من المكّيين والمدنيّين . وكانت من أجمل النساء وجها وأحسنِهنّ جسما . وسُمّيت الميلاء لتمايُلها فى مِشْيتها .

وقال معبد : كانت من أحسن النساء ضَرْباً[1] بعود ، مطبوعةً على الغناء ، لا يُعْيِيها أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه ، وكانت تُغَنّى أغانىَ القِيَانِ القُدَماء[2] مثل شِيرِين وزِرْياب وخَوْلَة والرَّباب وسلمى ورائقة[3] ؛ وكانت رائقة أستاذتها . فلما قَدِم نَشِيط وسائب ؛

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «صوتا بعود» .

(٢) فى الأغانى : «من القدائم» .

(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ورائعة» بالعين المهملة .

خاثر المدينةَ غَنيًا أغانى بالفارسيّة[1]، فأخذت عَزّة عنهما نَغَماً وألّفت[2] عليها ألحاناً عجيبة؛ فهى أوّل مَنْ فَتَنَ أهل المدينة بالغِناء وحرّض رجالَهم ونساءهم عليه .

وقال الزُّبَيْرىّ : وجدتُ مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عَزّة قالوا : لله دَرُّها! ما كان أحسن غِناءها، وأطَلّ صوتَها، وأندَى حَلْقَها، وأحسنَ ضَرْبَها بالمزاهر والمعازف وسائر الملاهى، وأجملَ وجهَها، وأظرفَ لسانَها، وأقربَ مَجلِسَها، وأكرمَ خُلُقَها، وأسخى نفسَها، وأحسنَ مُساعدتَها! . وكانت جميلة تقول مثل ذلك فيها .

وكان ٱبن سُرَيج فى حَداثة سنّه يأتى المدينةَ فيأخذ عنها ويتعلّم منها؛ وكان بها مُعْجَبا، وكان إذا سئل : مَنْ أحسنُ الناس غناء؟ قال : مولاة الأنصار المُتَفَضِّلة على كل مَنْ غَنّى وضرب بالمعازف والعِيدان من الرجال والنساء .

وكان ٱبنُ مُحْرِز يُقيم بمكة ثلاثة أشهر ثم يأتى المدينة فيقيم بها ثلاثة أشهر من أجل عَزّة، وكان يأخذ عنها . وقد تقدّم ذلك فى أخباره .

وكان طُوَيْس أكثر ما يأوِى إلى منزل عَزّة، وكان فى جِوارها، وكان إذا ذكرها يقول : هى سيِّدة من غَنّى من النساء، مع جمالٍ بارع، وخُلُقٍ فاضل، وإسلامٍ لا يشوبه دَنَس؛ تأمر بالخير وهى من أهله، وتنهى عن الشرّ وهى تُجانبه، فناهيك بها! ما كان أنبلَها وأنبل مَجْلِسَها! . ثم قال : كانت إذا جلست جلوسا عامًّا فكأنّ الطيرَ على رءوس أهل مجلِسها، فمن تكلّم أو تحرّك نقرَ رأسه .

وقال صالح بن حسّان الأنصارىّ : كانت عَزّة مولاةً لنا، وكانت عفيفة جميلة. وكان عبد الله بن جعفر وٱبن أبى عتيق وعمر بن عبد الله بن أبى ربيعة يَغْشَوْنها

(١) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «أغانى الفارسية» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وألقت عليهما» الخ .

فى منزلها فتغنّيهم . وغنّت عمر بن أبى ربيعة لحنًا لها فى شىء من شعره ، فشقّ ثيابه وصاح صيحة عظيمةً صَعِق معها . فلما أفاق قال له القوم : لغـيرِك الجهلُ يا أبا الخطّاب؛ قال : إنى سمعت والله مالم أملِك معه نفسى ولا عقلى .

وكان حسّان بن ثابت مُعْجَبا بها، وكان يقدّمها على سائر قِيان المدينـة . وقد ذكرنا خبرها مع النعمان بن بشير وحسّان بن ثابت، وأن كلّ واحد منهما سمع غناءها، فبكى حسّان بن ثابت وآستعاد النعمان بن بشير صوتها مرارا ؛ وتقدّم أيضـا من أخبارها فى خبر عائشة بنت طلحة وأخبار جميلة ما يُسْتغنَى عن إعادته فى هـذا الموضع . فلنذكر مَنْ سواها .

ذكر أخبـار سَلّامة القَسّ

كانت سلّامة القَسّ هذه مولَّدة من مولَّدات المدينة، وبها نشأت، وأخذت الغناء عن معبَد وآبن عائشة وجميلة ومالك بن أبى السَّمْح ومن دونهم، فمهرت فيه. وإنما سُمِّيت سَلّامة القَسّ لأنّ رجلا يُعرف بعبد الرحمن بن أبى عَمّـار بن جُشَم بن معاوية — وكان منزله بمكة، وهو من قُرّاء أهل المدينة، كان يُلَقَّب بالقسّ لعبادته — شُغِف بها وشُهِر بحبها . وكان سبب ذلك أنه سمع غناءها على غير تَعَمُّدٍ منه فبلغ منه كلّ مبلغ . فرآه مولاها فقال : هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى. فقال له مولاها: أنا أُقعِـدها حيث تسمع غناءها ولا تراها . فلم يزل به حتى دخل ، فأسمعه غناءها فأعجبـه . فقال : هـل لك أن أخرجها إليك؟ قال لا . فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه، فغنّت فشُغِف بها وشُغِفت به وعرَف ذلك أهلُ مكة . فقالت له يوما : أنا والله أحبُّك . فقال : وأنا والله الذى لا إله إلا هو أُحبّك . فقالت : والله أشتهى أن أُعانقك وأقبّلك . فقال : والله وأنا أشتهى مثـل ذلك . قالت :

وأشتهى والله أن أُضاجعك وأضع بطنى على بطنك وصدرى على صدرك قال : وأنا والله كذلك . قالت : فما يمنعك من ذلك ؟ والله إنّ المكان لخال . قال : يمنعنى منه قول الله عزّ وجل : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾، فأنا أكره أن تحول مودّتى إياكِ عداوةً يوم القيامة . ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُّسك، ولم يعد إليها بعد ذلك . وكان يُشَبَّه بعطَاء بن أبى رَبَاح . وله فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله :

إنّ التى طرقَتْكَ بين ركائبٍ * تَمْشِى بِمِزْهَرِها وأنت حَرامُ
لَتَصِيدُ قلبَك أو جزاءَ مودّةٍ * إنّ الرفيق له عليك ذِمامُ
باتت تُعَلِّلنا وتحسَب أننا * فى ذاك أيقاظٌ ونحن نيامُ
حتى إذا سطَع الضياء لناظرٍ * فإذا وذلك (١) بيننا أحلامُ
قد كنتُ أعذُل فى السَّفاهةِ أهلَها * فأعجَبْ لِما تأتى به الأيامُ
فاليوم أعذُرهم وأعلَمُ أنما * سُبُلُ الضَّلالةِ والهدَى أقسامُ

وقوله أيضا فيها :

ألم ترها — لا يُبعِدُ اللهُ دارَها — * إذا رَجَعتْ فى صوتِها كيف تَصْنَعُ !
تَمُدّ نِظامَ القولِ ثم تَرُدُّه * إلى صَلْصَلٍ من صوتها يَتَرَجَّعُ

وقوله فيها :

ألَا قُلْ لهذا القلبِ هل أنت مبصرُ * وهل أنت عن سَلَّامة اليوم مُقْصِرُ
ألَا ليتَ أنّى حيث صارتْ بِىَ النَّوَى * جليسٌ لسَلْمَى كُلّما عَجّ مِزْهَرُ

(١) كذا فى الأصل . ولعلها : «فاذا بذلك» .

(٢٣) وله من قصيدة طويلة أوّلها :

سَـــلّام هل لى منكمُ ناصِرُ * أم هـــل لِقلبي عنـكمُ زاجر
قد سَمِـع الناسُ بوجدِى بكم * فمنهـــمُ اللائم والعـاذِرُ

فى أشـعار كثيرة يطول الشرح بذكرها . ومدحها الأحوص أيضا بشـعر كثير . وقال فيها أيضا ٱبن قيس الرُّقيّات . ٥

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ قال : كانت سَلّامة وريّا أُختين ، وكانتا من أجملِ النساء وأحسنهنّ غناءً؛ فاجتمع الأحوص وٱبن قيس الرقيّات عندهما . فقال لهما ٱبن قيس الرقيّات : إنى أريد أن أمدحكما بأبيات فأصدُقَ فيها و[لا](١) أكذِب . فإن أنتما غنّيتمانى بذلك وإلّا هجوتُكما ولم أقرَبْكما أبدًا . قالتا : فما قلت؟ قال : قلت :

لقـد فَتنتْ رَيّا وسَلّامةُ القَسّا * فلم يتركا لِلقسّ عقـلًا ولا نَفْسا ١٠
فتاتانِ أمّا منهما فشبيهةُ الـ * ـهِلالِ وأخرى منهما تُشْبِه الشمسَا
تَكُنّانِ أبشـارًا رِقَاقًا وأوجُهًا * عِتاقًا وأطـــرافًا مُخَضّـبةً مُلْسا

فغنّته سـلّامة فاستحسنه . وقال ٱبن قيس الرقيّـات للأحوص : يا أخا الأنصار، ما قلت ؟ قال قلت :

سَـــلّامُ هل لمُتَيَّمٍ تَنْـــوِيلُ * أم قد صَرَمتِ وغال وُدَّكِ غُولُ ١٥
لا تَصْـرِمِى عـنّى ولاءكِ إنه * حَسَنٌ لدىّ وإن بَخِلتِ جميلُ
أزَعمتِ أنّ مودّتى وصبابتى * كَذِبٌ وأنّ زيارتِى تقليل(٢)

فغنّت الأبيات . فقال ٱبن قيس الرقيّات : أحسنتِ والله ! ما أظنك إلا عاشـقةً لهذا الحِلْف . فقال له الأحوص : وما الذى أخرجك إلى هذا؟ قال : حُسْنُ غِنائها

(١) التكملة عن الأغانى . ٢٠
(٢) فى الأغانى : «تعليل» .

بشعرك، فلولا أنّ لك فى قلبها محبّة مُفْرِطةً ما جاء هكذا[1] حسنًا على هـذه البديهة . فقال الأحوص : على قدر حُسْنِ شعرى على شعرك هكذا حَسُن الغناء به . وما هذا [منك][2] إلا حسدٌ، وليس ذلك إلا ما حسدت عليه. فقالت سلّامة: لولا أنّ الدخول بينكما يُوجِب بِغْضةً لحكمتُ بينكما حكومةً لا يَرُدُّها أحد . قال الأحوص : فأنتِ [من ذلك][2] آمنـة . قال ابن قيس الرقيّات : كلّا ! قد أمِنتَ أن تكون الحكومة عليك، فلذلك سبقتَ بالأمان لها. فتفرّقا على ذلك . ثم مشى ابن قيس الرقيّات إلى الأحوص فاعتذر إليه فقبِل عُذْرَه . ومن شعر الأحوص فيها :

سَلّام إنّكِ قد مَلَكتِ فأَسْجِحى * قد يملكُ الحُرَّ الكريمُ فيُسْجِحُ
مُنِّى على عانٍ أطلْتِ عناءَه * فى الغُـلِّ عندكِ والعُناةُ تُسَرَّحُ
إنّى لأنصَحُكُمْ وأعلَمُ أنه * سِيّانِ عندكِ من يَغُشُّ ويَنْصَحُ
وإذا شكوتُ إلى سَلَامةَ حُبَّها * قالت أجِدٌّ منـك ذا أم تَمزَحُ

وحكى أبو الفرج قال: لمّـا قدِم عثمان بن حَيّان المُرّى المدينة واليا عليها، قال له قوم من وجوه الناس : إنك قد وَلِيت المدينة على كثرةٍ من الفساد، فإن كنت تريد أن تُصلح فطَهِّرْها من الغناء والزِّناء[3] . فصاح فى ذلك وأجّل أهلَه ثلاثًا يخرجون فيها من المدينة، وكان ابن أبى عتيق غائبا، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح. فلما كان آخر ليلة من الأجل قدِم فقال: لا أدخل منزلى حتى أدخل على سَلّامة القَسّ. فدخل عليها فقال : ما دخلتُ منزلى حتى جئتُكم لأُسَلِّم عليكم. فقالوا : ما أغفلك عن أمرنا! وأخبروه الخبر. فقال: اصبروا علىّ الليلة . فقالوا : نخاف ألّا يُمكِنَك شىء.

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « ما جاء هذا ... » .

(٢) زيادة عن الأغانى .

(٣) فى الأغانى : «والزنا» .

قال : إن خفتم شـيئا فأخرجوا فى السـحر . ثم خرج فأستأذن على عثمان بن حيّان (٢٣)
فأذن له ، فسلّم عليه وذكر غيبته وأنه جاء ليقضى حقّه ، ثم جزاه خيراً على ما فعل من
إخراج أهل الغناء والرّثاء ، وقال : أرجو ألّا تكون [مَلِت](١) عمـلًا هو خير لك من
ذلك . قال عثمان : قد فعلتُ ذلك وأشار علىّ به أصحابك . فقال : قد أصبتَ ،
ولكن ما تقول فى أمرأة كانت هذه صناعتها وكانت تُكْرَه على ذلك ، ثم تركته وأقبلت ٥
على الصلاة والصيام والخـير ، وأنا رسولها إليك تقول : أتوجه إليك وأعوذُ بك أن (٢٤)
تُخرِجنى من جِوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده ؛ قال قال : فإنى أدَعُها لك
ولكلامك . فقال ٱبن أبى عتيق : لا يدعك الناس ، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها
وتنظر إليها ، فإن رأيت أن مثلها ينبغى أن يُترك تركتَها ؛ قال نعم فجاءه بها . وقال :
احملى معك سُبْحةً وتَخَشَّعى ففعلت . فلمـا دخلت على عثمان سلّمت عليه وجلست ١٠
وحدّثته ، فإذا هى من أعلم الناس بأمور الناس ، فأُعْجِب بها ؛ وحدّثته عن آبائه وأمورهم
ففَكِهَ لذلك فقال ابن أبى عتيق : اقرئى للأمير . فقرأت ؛ فقال لها : احدِى ففعلت .
وكثُر عَجَبُه منها . فقال : كيف لو سمعتها فى صناعتها ! فلم يزل يُنْزِله شيئا فشيئا حتى
أمرها بالغناء فغنّته . فقام عثمان من مجلسه وقعد بين يديها ، ثم قال : لا والله ما مثل
هذه تخرج . فقال ٱبن أبى عتيق : لا يدعك الناس تُقِرّ سلّامة وتُخرِج غيرها . قال : ١٥
فدعوهم جميعا . فتركهم جميعا وأصبح الناس يتحدّثون بذلك .

ثم ٱشترى يزيد بن عبـد الملك سلّامة ، وكانت لمُصْعَب بن سُهَيْل الزُّهرىّ ،
وقيل : لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف . وكانت حَبَابة جاريةَ آل لاحِق ؛ فاشتراهما
جميعا ؛ فاشترى سلّامة بعشرين ألف درهم ، وتسلّمها رُسُل يزيد فخرجوا بها وشيّعها

(١) زيادة عن الأغانى . ٢٠

الناس . فلما نزلتْ سِقايةَ سليمان بن عبد الملك قالت للرسل : إنّ لى قوماً كانوا يَغْشَوْنَنى ويُسَلِّمون علىّ، ولا بدّ لى من وَدَاعهم والسلام عليهم؛ فأذِن للناس عليها، فأتوا حتى ملئوا رَحبة القصر والفِناء؛ ووقفت هى بينهم بارزةً ومعها العودُ فغنّت :

فارقُونى وقد علمتُ يقيناً * ما لمن ذاق مِيتةً من إيابِ
إنّ أهلَ الحِصَابِ قد تركونى * مُوزَعاً مُولَعاً بأهلِ الحِصَابِ
أهلِ بيتٍ تتابعوا(١) للمنايا * ما على الدّهرِ بعدهم من عِتابِ
كم بذاك المَجُونِ من حَىٍّ صِدْقٍ * من كُهُولٍ أعِفّةٍ وشَبَابِ
سكنوا الجِزْعَ جِزْعَ بيت أبى مو * سى إلى النخل من صُفِىِّ السِّبابِ
فلِىَ الويلُ بعدَهم وعليهم * صرتُ فرْدًا وملّنى أصحابِى

قال : فلم تزل تردّد هذا الصوت حتى راحت ، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها؛ فما شئتَ أن ترى باكيًا نبيلاً إلا رأيته .

قالوا : وكانت حَبَابة عند يزيد متقدّمة على سلّامة ، وكانت حبابة تنظر الى سلّامة بتلك العين الجليلة المتقدّمة وتعرف فضلَها عليها ؛ فلما رأت أثرةَ يزيد لها ومحبّتَه إيّاها استخفّت بها . فقالت لها سلّامة : أى أُخَيّة ، نَسِيتِ فضلى عليك ! ويلك ! أين تأديب الغناء ! أين حق التعليم ! أنسيتِ قولَ جميلة لك وهى تطارحنا : خُذى إحكام ما أُطارحك من أُختك سلّامة ، فلا تزالين بخيرٍ ما بَقِيتْ لك وكان أمرُكما مؤتلفا ! . فقالت : صَدَقْتِ والله لا عدتُ لشىء تكرهينه أبدا . وماتت حَبَابة وعاشت سلّامة بعدها دهرا .

---

(١) كذا فى ديوانه والأغانى ج ١ ص ٣٢١ طبع دار الكتب المصرية . وفى الأصول : «تتابعوا» بالباء الموحدة .

ولمـا مات يزيد أحضرها آبنهُ الوليد وأمرها بالغناء، فتنغّصتْ من ذلك وبكت، ثم غنّته . فقال : رحِم الله أبى وأطال عمرى وأمتعنى بحُسْنِ غِنائك! . ياسلّامة، بم كان أبى يُقدِّم حَبَابة عليك؟ قالت : لا أدرى والله . قال : لكننى أدرى ذلك، بما قسم الله عزّ وجلّ لهـا . قالت : يا سيِّدى أجَلْ . وهى إحدى من آتُهِم بهنّ الوليد من جوارى أبيه .

ذكر أخبـار حَبَـابة

كانت حَبَابة جاريةً مولَّدة من مولّدات المدينة لرجل من أهلها يعرف بآبن دبابة[(١)]، وقيـل : بل كانت لآل لاحِق المكّيين ، وقيل : كانت لرجل يعرف بابن مينا . وكانت تسمّى العالية[(٢)]، فسماها يزيدُ بن عبد الملك لمـا آشتراها حَبَابة . وكانت حُلوةً جميلةَ الوجه ظريفةً حسنةَ الغناء طيِّبةَ الصوت ضاربةً بالعود . أخذت الغناء عن ابن سُرَيْج وابن مُحْرِز ومالك بن أبى السَّمْح ومَعْبَد وعن جميلة وعَزّة الميلاء .

وكان يزيد بن عبـد الملك يقول : ما تَقَرّ عينى بمـا أُوتيتُ[(٣)] من الخلافة حتى أشترِىَ سلّامة جارية مُصْعَب بن سُلَيم وحبَابَة جارية آبن لاحِق المكيّة . فأرسل فآشتُرِيتا له . فلما آجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال الأوّل :

فألقت عصاها وآستقرّ بها النَّوَى * كما قَرّ عينًـا بالإيابِ المسـافِرُ

وكان يزيد بن عبد الملك فى خلافة أخيه سليمان قد قَدِم المدينـة فتزوّج سَعْدَةَ بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورُبَيْحَةَ بنت محمد بن على ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب على مثل ذلك ، وآشترى العاليةَ[(٢)] بأربعة آلاف

(١) فى الأغانى : « يعرف بابن رمانة وقيل : ابن مينا وهو خرجها وأدّبها » .

(٢) كذا فى الأغانى طبع بولاق والطبرى طبع ألمـانيا . وفى الأصل : «الغالية» بالغين المعجمة .

(٣) كذا فى الأغانى، وفى الأصل : «لم يقر عينى ما أوتيت الخ» .

دينار . فبلغ ذلك سليمان فقال : لأحجُرَنّ عليه . فبلغ يزيد ذلك فاستقال مولى حَبَابة ؛ ثم آشتراها بعد ذلك رجل من أهل إفريقية . فلما وَلِي يزيد آشترتها سَعْدة آمرأته وعلمت أنه لا بدّ طالبها ومشتريها . فلما حصلت عندها قالت له : هل بقى عليك شيء من الدنيا لم تنله ؟ قال : نعم ، العالية . قالت : أوَرأيتها ؟ قال نعم . قالت : أفتعرفها ؟ قال نعم . فرفعت الستر فرآها ، فقالت : هذه هى ؟ قال نعم ؛ قالت : هى لك ، وخرجت عنهما . فسمّاها حبابة وعظُم قدرُ سَعْدة عنده . ويقال : إنها أخذت عليها قبل أن تَهَبَها له أن تُوَطِّئ لآبنها عنده فى ولاية العهد .

قال : وآرتفع قدر حَبَابة عند يزيد وتمكّن حبُّها فى قلبه تمكنا عظيما . وكان أوّل ذلك أنه أقبل يوما الى البيت الذى هى فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترنّم وتغنّى :

كان لى يا يزيدُ حُبُّك حَيْنا * كاد يَقْضِى علىّ لمّا آلتقينا

فرفع الستر فوجدها مضطجعةً مقبلةً على الجدار ، فعلم أنها لم تعلَم به ولم يكن ذلك لمكانه ؛ فألقى نفسه عليها وحرّكت منه .

قال : وأراد يزيد بن عبد الملك أن يتشبّه بعُمر بن عبد العزيز ، وقال : بماذا صار عمر أرْجَى لربه منى ! . وقيل : بل لَامَه مَسْلَمة بن عبد الملك على الإلحاح على الغناء والشرب ، وقال له : إنك وَلِيتَ بعقب عمر بن عبد العزيز وعَدْلِه ، وقد تشاغلتَ بهذه الإماء عن النظر فى الأمور ، والوفودُ ببابك وأصحابُ الظُّلَامات يصيحون وأنت غافل ! قال : صدقتَ والله ، وهمّ أن يترك الشرب ، ولم يدخل على حبابة أياما ، فشقّ ذلك عليها فأرسلت الى الأحْوَص أن يقول أبياتا فى ذلك ، فقال :

أَلَا لا تَلُمْهُ اليوم أن يَتَبَلَّدا * فقد غُلِبَ المحزونُ أن يتجلّدا

بَكَيْتُ الصِّبَا جُهْدِى فمن شاء لَامَنِى * ومن شاء آسَى فى البكاء وأَسْعَدَا

وإنّى وإن فُنِّدْتُ فى طلب الصِّبَا * لأعلَمُ أنّى لستُ فى الحبِّ أوحدَا
إذا أنت لم تَعشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى * فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْرِ جَلْمَدَا
فما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتَشْتَهِى * وإن لامَ فيه ذو الشَّنَانِ وفَنَّدَا

قال : فلما كان فى يوم الجمعة تعرّضتْ له حَبَابة عند خروجه الى الصلاة، فلقيته والعودُ فى يدها، فغنّت البيت الأوّل، فغطى وجهه وقال : مَهْ لا تفعلى. ثم غنّت « وما العيش إلا ما تَلَذّ وتشتهى » فعدل إليها وقال : صَدَقتِ، قبّح الله من لَامنى فيكِ ! يا غلام، مُرْ مَسْلَمة فلْيُصَلِّ بالناس . وأقام معها يشرب وهى تغنّيه وعاد الى حاله، وقال لها : من يقول هذا الشعر؟ قالت : الأحوص . فاستدعاه وآستنشده الشعر فأنشده الأبيات . ثم أنشده قصيدتَه التى أوّلها :

يا مُوقِدَ النَّارِ بالعَلْياءِ من إضَمِ * أَوْقِدْ فقد هِجتَ شوقًا غيرَ مُنْصَرِمِ

وهى قصيدة طويلة ، فقال له يزيد : آرفع حوائجك ؛ فكتب إليه فى نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره فأمر له بها . وقد قيل فى أمر هذه الأبيات : إن حَبَابة لمّا بعثتْ الى الأحوص فى عمل الشعر قالت له : إن رددتَ أميرَ المؤمنين عن رأيه فلك ألفُ دينار، فدخل الأحوص عليه وآستأذنه فى الإنشاد ؛ فقال : ليس هذا وقتك . فلم يزل به حتى أذِن له فأنشده الأبيات . فلما سمعها وثب حتى دخل على حَبَابة وهو يتمثّل :

وما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتشتَهِى * وإن لام فيه ذو الشَّنَانِ وفنّدا

قالت : ما ذاك[1] يا أمير المؤمنين؟ فقال : أبيات أنشدنيها الأحوص ، فسَلِى ما شئتِ . قالت : ألف دينار تعطيها الأحوص؛ فأعطاه ألف دينار .

(١) فى الأغانى : « فقالت ماردّك يا أمير المؤمنين » .

قال : وقال يزيد يوماً لسَلّامة وحَبَابة : أيُّكما غنّتني ما في نفسي فلها حُكمها . فغنّت سلّامة فلم تُصِب ما في نفسه، وغنّت حَبَابة بشعر ابن قيس الرُّقيّات :

حِلَقٌ من بني كِنانةَ حَوْلِي * بِفِلَسْطِين يُسْرِعون الرُّكوبا
جَزِعتْ[1] أنْ رأت مَشيبي عِرْسي * لا تَلُومي ذوائبي أنْ تَشيبا

(٢٦)

٥ فأصابت ما في نفسه، فقال : احتكمي . قالت : تَهَبُ لي سلّامة ومالها . قال : اطلُبي غيرها، فأبت غيرها، فقال : أنت أولَى بها ومالها، فلَقِيتْ سلّامة من ذلك أمراً عظيما . فقالت حَبَابة : لا تَرَيْنَ إلا خيرا . فجاءها يزيدُ فسألها أن تَبيعه إيّاها بحكمها . فقالت : أُشهِدك الآن أنها حُرّة، فاخْطُبْها الآن أُزَوِّجْك مولاتي .

قال : وغنّت حَبَابة يوماً يزيد :

١٠ ما أحسَنَ الجِيدَ من مُلَيْكةَ والـ * ـلبّاتِ إذ زانها تَرائبُها
يا ليتني ليلةً — إذا هَجَع النا * سُ ونام الكلابُ — صاحِبُها
في ليلةٍ لا يُرَى بها أحدٌ * يسعَى علينا إلّا كَواكِبُها

فطرِب يزيد، وقال : هل رأيتِ قطُّ أطربَ منّي؟ قالت : نعم، ابن الطيار مُعاوية ابن عبد الرحمن بن جعفر . فكتب يزيد الى عبد الرحمن بن الضحّاك فحمله إليه .

١٥ فلما قدِم أرسلت إليه حَبَابة : إنما بعث إليك لكذا وكذا وأخبرته بالقصة، فإذا أُدخِلْتَ عليه وتَغَنّيتُ فلا تُظهِرنّ طَرَباً حتى أُغَنّي الصوت الذي غنّيتُه، فقال : سَوْءَةً على كِبَر السنّ ! فدعاه يزيد وهو على طنفسة خَزٍّ، ووضع لمعاوية مثلَها، وجاءوا بجامَيْنِ فيهما مِسْكٌ، فوُضِع أحدُهما بين يدي يزيد والآخرُ بين يدي مُعاوية . قال معاوية : فلم أدر كيف أصنَع، فقلتُ : أَنْظُرُ كيف يصنع فأصنع مثلَه، فكان يُقلِّبه فتفوح

٢٠ (١) في الأغاني : «هزئت» .

ريحه وأفعل مثـلَ ذلك . فلما جىءَ بحَبَابة وغنّت ، فلما غنّت ذلك الصوت أخذ معاوية الوِسادةَ فوضَعها على رأسه وقام يدور ويقول : الدُّخْنُ بالنَّوَى يعنى اللُّوبيا! وأمر له يزيد بصِلَاتٍ فى دَفَعات مبلغُها ثمانيةُ آلاف دينار .

وحكى أيضا أنها غنّتْ يومًا يزيدَ فطرِب ، ثم قال : هل رأيتِ أطـرَبَ منّى؟ قالت : نعم ، مولاى الذى باعنى . فغاظه ذلك ، فكتب فى حَمْله مُقَيَّدا . فلما وصل أمر يزيد بإدخاله عليه فأُدخِل يَرسُفُ فى قيوده ، وأمر يزيدُ حَبَابةَ أن تغنّى فغنّت :

تَشُـطُّ بنا دارُ جِيرَانِنا * ولَلدَّار بعـدَ غدٍ أبعدُ

فوثب حتى ألقَى نفسَه على الشمعة فاحترقتْ لِحيته ، وجعل يصيح : الحريق ياأولاد الزنا ! فضحِك يزيد وقال : لَعَمْـرى إن هذا لأطـرب الناس (١) ! وأمر بحلّ قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حَبَابة ، وردّه الى المدينة .

وروى أبو الفـرج الأصفهانىّ بسـنده الى غانم الأزدىّ قال : نزل يزيد بن عبد الملك ببيت رأس بالشام ومعه حَبَابة ، فقال : زعموا أنه لايصـفو لأحدٍ يوماً عيشُه الى الليل لا يُكَدِّره شىء عليه ، وسأُجَرِّب ذلك ؛ ثم قال لمن معه : إذا كان غدٌ لا تُخْبِرونى بشىء ولا تأتونى بكتاب . وخلا هو وحَبَابة ، فأُتِيا بما يأكلان ، فأكلت رُمّانة فشَرِقتْ بحَبّة منها فماتت ، فأقام لايدفنها ثلاثًا حتى تغيّرت وأنتنت وهو يشَمُّها ويرشُفها . فعاتبه على ذلك ذووه وأقرباؤه وصَدِيقُه وعابوا عليه ما يصنع ، وقالوا : قد صارت جيفةً بين يديك ، فأَذِن لهم فى غَسْلها ودفنها ، فأُخرِجتْ فى نِطْع ، وخرج معها لا يتكلّم حتى جلس على قـبرها . فلمـا دُفِنت قال : أصبحتُ والله كما قال كُثَيِّر :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «إن مثل هذا يطرب الناس» .

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهَوَى * فبأليأسِ تسلُو عنكِ لا بِالتَّجَلُّدِ
وكلُّ خليلٍ راءنِي فهو قائلٌ * مِنَ أجْلِكِ هذا هامةُ اليومِ أو غدِ

فما بقى إلا خمسَ عشرة ليلة ومات، فدُفِن الى جنبها .

وروى أيضا عن مَسْلَمة بن عبد الملك قال: لمّا ماتت حَبَابة جزع عليها يزيد، فجعلتُ أُسَكِّنه وأُعَزِّيه وهو ضاربٌ بذَقَنه على صدره ما يكلّمنى حتى دفنها . فلمّا بلغ إلى بابه التفتَ إلىّ وقال : فإن تَسْلُ عنك النفس ... البيت ، ثم دخل بيته فمكث أربعين يومًا ثم هَلَك .

قال : وروى المدائنىّ أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إيّاها ؛ فقال : لا بُدّ أن تُنْبَش حتى أنظر إليها ، فنُبِشت وكُشِف له عن وجهها وقد تغيّرت تَغيُّرا قبيحا ، فقيل له : يا أمير المؤمنين، اتّقِ الله تعالى ! ألَا تراها كيف صارت ! فقال : ما رأيتُ قطّ أحسنَ منها اليوم ،أخرِجوها . فجاء مَسْلَمة ووجوهُ أهله[1] ، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها، وانصرف ، وكِد كَمَدًا شديدًا حتى مات، فدُفِن إلى جانبها .

وروى عن عبد الله بن عُرْوة بن الزُّبير قال : خرجتُ مع أبى إلى الشام زمن يزيد بن عبد الملك . فلما ماتت حَبَابة وأُخرِجتْ، لم يستطع يزيد الركوبَ من الجَزَع ولا المشىَ، فحُمِل على مِنبر على رِقاب الرجال . فلمّا دُفنت قال : لم أُصَلِّ عليها، انبشوا عنها . فقال له مَسْلَمة : نَنْشُدك اللهَ يا أمير المؤمنين، إنما هى أَمَةٌ من الإماء وقد واراها الثرى . فلم يأذَنْ للناس بعد حَبَابة إلا مرّةً واحدة؛ قال : فوالله ما استتمّ دخول الناس حتى قال الحاجب : اخرجوا رحمكم الله . ولم يَنْشَبْ يزيدُ أن مات كَمَدا .

(٢٧)

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وركبه أهله» .

ذكر أخبار خُلَيْدة المكّيّة

قال أبو الفرج : هى مولاة لآبن شَمّـاس، كانت هى وعَقِيلة ورُبَيْحة يُعرَفْن بالشّمّاسيّات . وقد أخذت الغناء عن آبن سُرَيْج ومالك ومَعْبَد .

وروى أبو الفرج بسنده إلى الفضـل بن الربيع أنه قال : مارأيتُ آبنَ جامع يطرَب لغناء كما يطرَب لغناء خُلَيْدة المكّيّة . وكانت سوداء، وفيها يقول الشاعر : ٥

فَتَنَتْ كاتبَ الأمير رَبَاحٍ * يا لَقَوْمِى خُلَيْدةُ المَكِّيه

وغنّت هشام بن عُرْوة يومًا، فلما سمعها قال : اكتُبى على صَدْرِكِ (قُلْ هُوَ آللهُ أَحَدٌ) وبين يديك المُعَوِّذتينِ لا تُصيبُك العين .

وقال عُمَـر بن شَبّة : بلغنى أنّ محمد بن عبـد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان أرسل إلى خُلَيْدة المكّيّة أبا عَوْنٍ مولاه يخطُبها عليـه . فآستأذن فأذِنتْ له وعليهـا ١٠ ثيابٌ رِقَاق لا تسـتُرها ، ثم وثبتْ فقالت : إنمـا ظننتُك بعضَ سُفَهائنا، ولكنّى ألبَس لك ثيابَ مثلك ففعلت . وقال : قد أرسلنى إليك مولاى، وهو من تعلمين من رسول الله صـلى الله عليه وسلم ومن عثمان بن عفّان ومن علىّ وهو ابن عمّ أمير المؤمنين، يخطُبك . قالت : قد نَسَبتَ فأبلغتَ، فآسمع نسبى أنا بأبى [أنت](١) ! إن أبى بِيعَ على غير عَقْد الإسلام ولا عَهْده، فعاش عبدًا ومات فى رجله قيدٌ وفى عُنقه ١٥ سِلْسِلةٌ على الإباق والسَّرِقة ، وولدتنى أمى على غير رِشْدةٍ وماتت وهى آبقة ، فأنا مَنْ تعلَم . فإن أراد صاحبُك نكاحًا مباحًا أو زِنًا صُرَاحا فهَلُمّ الينا فنحن له . فقال : إنه لا يدخل فى الحرام . فقالت : لا ينبغى أن يستحيي من الحلال ، فأمّا نكاح السرّ فلا والله لا فعلتُه ولا كنتُ عارًا على القِيان . قال : فأتيتُ محمـدا فأخبرته؛ فقال :

(١) التكملة عن الأغانى . ٢٠

ويحك ! أتزوّجها مغنّية وعندى بنتُ طلحة بن عبيد الله ! لا ! ولكن ٱرجع إليها فقل لها : تختلف إلىّ أُرَدّد بصَرى فيها لعلّى أسلو، فرجعتُ إليها فأبلغتها الرسالة فضحكت وقالت : أمّا هذا فنعَمْ، لسنا نمنعه .

ذكر أخبار مُتَيَّم الهشاميّة

قال أبو الفرج : كانت متيّم مولّدة صفراء من مولّدات البَصْرة ، وبها نشأتْ وتدرّبت (١) وغنّت . وأخذت عن إسحاق وأبيه قبله وعن طبقتهما من المغنّين . وكانت من تخريج بَذْل وتعليمها . وٱشتراها علىّ بن هشام بعد ذلك فٱزدادت أخذًا ممن كان يغشاه من أكابر المغنّين . وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناءً وأدبا . وكانت تقول : الشعر ليس ممـا يُستجاد ولكنه يُستَحْسَن من مثلها . وحَظِيتْ عند علىّ بن هشام حُظْوةً شديدةً، وتقدّمت جواريَه جُمَعَ عنده، وهى أمّ ولده كلهم .

حكى أبو الفرج قال : كان عند علىّ بن هشام بِرذَوْنٌ أشهب قِرْطاسىّ فى نهاية الحسن والفَرَاهة وكان به مُعْجَبا، وكان إسحاق بن إبراهيم يَشتهيه شهوةً شديدةً ويُعَرِّض لعلىّ مرارًا فى طلبه فلم يَسمَحْ به . فسار إسحاق إلى علىّ يومًا وقد صنعتْ متيم :

فلا زِلن حَسْرَى ظُلَّعًا، لِمَ حَمَلْنها * إلى بَلَدٍ ناءٍ قليـلِ الأصـادقِ

فاحتبسـه علىٌّ وبعث إلى متيّم يأمرها أن تجعل صوتَها فى صـدر غنائها ففعلت ، فأطربت إسحاقَ إطرابًا شديدا، وجعل يستعيده ويستوفيه ليزيدَ فى طَرَبه (٢) وهو يُصغِى إليه ويتفهّمه حتى صحّ له . ثم قال لعلىّ : ما فعـل البِرذَوْنُ الأشهب ؟ قال : على مَا عهدتَ من حُسْنه وفَرَاهته . قال : ٱختر الآن منّى خَلّةً من ٱثنتين : إمّا أن

(١) فى الأغانى : «وتأدّبت» .

(٢) عبارة الأغانى : « وجعل يسترده فترده وتستوفيه ليزيد فى إطرابه إسحاق وهو يصغى ... » .

طِبْتَ لى نفسًا [به][1] وحملتَنى عليه ، وإمّا أن أبيت فأدّعى والله هذا الصوت [لى][1] وقد أخذته ، أفتراك تقول : إنه لمتيّم وأقول : إنه لى ، فيؤخذ قولُك ويُترك قولى؟ فقال : لا والله ما أظنّ هذا ولا أراه ، ياغلام ، قُدِ البرذونَ إلى منزل إسحاق ، لا بارك الله لك فيه ! .

(٢٨)

وحكى أن علىّ بن هشام مولاها كلّمها بشىء فأجابته جوابًا لم يُرضه ، فدفع [يده] فى صدرها ، فغضِبتْ ونهضت وتثاقلت عن الخروج إليه . فكتب إليها :

فليتَ يدى بانتْ غداةَ مددتُها * إليكِ ولم تَرجِعْ بكَفٍّ وساعدِ
فإن يرجِعِ الرحمنُ ما كان بيننا * فلستُ إلى يوم التّنادى بعائد

قال : وعتَبت عليه مرّةً فتمادَى عتبُها ، فترضّاها فلم ترضَ ، فكتب إليها : الإدلال يدعو إلى الملال ، وربّ هجرٍ دعا إلى صبر ، وإنما سُمّى القلبُ قلبًا لتقلُّبه ؛ وقد صدق عندى العباس بن الأحنف حيث يقول :

ما أُرانى إلا سأهجُـــرُ مَنْ ليـــس يرانى أقوى على الهِجْرانِ
مَلِّنى[2] واثقًا بحسن وفائى * ما أضرَّ الوفاءَ بالإنسان

قال : فخرجتْ إليه من وقتها ورضيت .

وروى عن يحيى المكىّ قال : قال لى علىّ بن هشام : لمّا قَدِمتْ جَدّتى شاهك من خُراسان ، قالت : اعرِض جواريَك علىّ ؛ فعرضتهن عليها . ثم جلسنا على الشراب وغنّتنا مُتَيّم ، فأطالت جَدّتى الجلوسَ ، فلم أنبسط إلى جوارى كما كنت أفعل ، فقلت هذين البيتين :

أنبقَى على هذا وأنتِ قريبةٌ * وقد مَنَع الزُّوّارُ بعضَ التكلُّم
سلامٌ عليكم لا سـلامَ مُودِّعٍ * ولكن سلامٌ من حبيب متيّم

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى : * قد حدا بى إلى الجفاء وفائى *

وكتبت بهما فى رقعة ورميتها إلى متيّم؛ فأخذتها ونهضت لصلاة الظهر، ثم عادت وقد صنعت فيه لحنًا فغنّته . فقالت شاهك : ما أرانا إلا قد ثقّلنا عليكم اليوم؛ وأمرت الجوارى فحملوا مِحَفّتها، وأمرت للجوارى بجوائز ساوت بينهن، وأمرت لمتيّم بمائة ألف درهم .

٥ قال : ومرّت متيّم فى نسوةٍ وهى مُتَخَفِّية بقصر على بن هشام بعد أن قتله المأمون . فلما رأت بابَه مُغلقًا لا أنيس به وقد علاه التراب والغُبْرة وطُرِحتْ فى أفنيته المزابلُ وقفتْ عليه وتمثّلت :

يا مَنْزِلًا لم تَبْلَ أطْلالُهُ * حاشى لأطلالِكَ أن تَبْلَى
لم أبك أطلالَك لكنّنى * بكيتُ عيشى فيك إذ ولّى
١٠ قد كان لى فيك هوًى مَرّةً * غيّبه الترب وما مُلّا
فصِرْتُ أبكى بعدَه جاهِدًا[1] * عند آذكارى حيث قد حلّا
والعيشُ أوْلَى مابكاه الفتى * لا بُدّ للمحزونِ أن يَسْلَى

قال : ثم بكت حتى سقطت من قامتها ، وجعل النسوة يناشدنها [ويقلن[2]] : اللهَ اللهَ فى نفسك! فإنك الآن تؤخَذين . فبعد لأيٍ ما احْتُمِلَتْ تتهادى بين امرأتين

١٥ حتى جاوزت الموضع .

وحُكِى عنها قالت : بعث إلىّ المعتصم بعد قدومه بغداد؛ فلما دخلتُ أمر بالعُود فوُضِع فى حجرى، وأمرنى بالغناء فغنّيتُ :

هل مُسْعِدٌ لبكائى * بعَبْرةٍ أو دِمَاءِ
وذاك شىءٌ قليلٌ * لسادتى النُّجَباءِ

---

٢٠ (١) فى الأغانى : « فصرت أبكى جاهدا فقده » .

(٢) زيادة عن «الأغانى» .

ـ وهذا الشعر لمراد جارية علىّ بن هشام ترثيه ـ فقال : اعدِلى عن هذا الصوت؛ فغنّيتُ :

* ذهبتُ عن الدنيا وقد ذهبتْ عنّى *

فدمَعتْ عيناه وقال : غَنِّى غيرَ هذا؛ فغنّيت :

أولئك قومى بعـد عِزٍّ وثَرْوةٍ[1] * تَفَانَوْا فإلّا تَذْرِفِ العينُ أكمَدِ ٥

فبكى بكاء شديدا، ثم قال : ويحك! لا تُغَنِّى فى هذا المعنى شيئا . فغنّيتُه :

لا تأمَنِ الموتَ فى حِـلٍّ وفى حَرَمٍ * إنّ المنايا بجَنْبَى[2] كلِّ إنسـانِ

وٱسلُكْ طريقَك هَوْنًا غيرَ مُكترِثٍ * فسوف يأتيك ما يَمْنِى لك ٱلمـانِى

فقال : والله إنى لأعلم أنك إنما أردتِ بما غنّيتِ ما فى قلبك لصاحبك [وأنّك] لم تريدينى، ولو أعلم أنك تُريدينى لقتلتُك، ولكن خذوها! فأخذوا بيدى فأُخرِجتُ. ١٠

(٢٩) وهذه متيّم هى التى كان يهواها عبد الصمد بن المُعَذّل، وأظنّ ذلك قبل ٱتصالها بعلىّ بن هشام، وهى إذ ذاك عند رجل من وجوه البصرة .

قال : وكانت لا تخرُج إلا متنقِّبة. فحكى المبرّد وغيره : أنها قَدِمتْ يومًا إلى ٱبن عبيد الله بن الحسين العنبرىّ القاضى ، فٱحتاج إلى أن يُشْهِد عليها، فأمَر بها أن تَسْفِر ففعلت . فقيل لعبد الصمد : لو رأيتَ متيّم وقد أسفرها القاضى لرأيت ١٥ شيئا عجيبا ! فقال :

ولمّا سَرَتْ عنها القِناعَ مُتَيَّمٌ * تروّح منها العَنْبرِىُّ متيّما

رأى ٱبنُ عُبَيدِ الله وهو مُحَكَّمٌ * عليها لها طَرْفًا عليه محكّما

(١) فى الأغانى : «ومنعة» .

(٢) فى الأغانى : « تغشى » . ٢٠

وكان قَدِيمًا كالحَ الوجهِ عابسًا * فلما رأى منها السفورَ تبسّما
فإن يَصْبُ قلبُ العنبرىّ فقبله * صبا باليتامى قلبُ يحيى بنِ أكثما

فبلغ قولُه يحيى بن أكثم ؛ فكتب إليه : عليك لعنة الله ! أىّ شىء أردتَ منّى حتى أتانى شَرُّكَ من البَصْرة ! فقال لرسوله : قل له : متيّم أقْعَدتْك على طريق القافية .

ذكر أخبار ساجى جارية عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر

قال أبو الفرج : كانت ساجى إحدى المُحسنات المبرّزات المتقدّمات، وهى تخريج مولاها عبيد الله ، وكان مهما صنع من الغِناء نسبه إليها، وكان قد بلغ من ذلك الغاية، ولكنه كان يترفّع عن ذكره ويكره أن يُنْسَب إليه .

حكى أبو الفرج عن أحمد بن جعفر جحظة قال : كتب المعتضدُ إلى عُبَيد الله ابن عبد الله بقُمّ[1] أن يأمر جاريتَه ساجى بزيارته ففعل . قال جحظة : فحدّثنى من حضر ذلك المجلس من المغنّيات قالت : دخلتْ علينا وما فينا إلا من تَرْفُلُ فى الحُلِىّ والحُلَل وهى فى أثواب ليست كأثوابنا فٱحتقرناها ؛ فلما غنّت ٱحتقرنا أنفسنا ؛ ولم تزل تلك حالنا حتى صارت فى أعيننا كالجبل وصِرنا كلا شىء . ولمّا ٱنصرفت أمر لها المعتضِد بمال وكُسوة . ودخلت إلى مولاها فجعل يسألها عن خبرها وما رأت مما ٱستظرفت وسمعت وٱستغربت؛ فقالت : ما ٱستحسنتُ هناك شيئا ولا ٱستغربته من غناء ولا غيره إلّا عُودًا من عود محفورًا فإنى ٱستظرفته . قال جحظة : فما قولُك فيمن تدخل إلى دار الخليفة ولا تمُدّ عينَها إلى شىء تستظرفه وتستحسنه إلّا عودا !

---

(١) قم : مدينة كبيرة بين أصبهان وساوة .

قالوا : وكان المعتَضِد إذا آستحسن شيئاً بعث به إلى ساجى فتُغنِّى فيه . وكانت صنعتها فى عصره تُسـمَّى غناءَ الدار . وماتت ساجى فى حياة مولاها وكان عليلاً، فرثاها ببيتين فقال :

يَمِينًـا يقينًا لو بُلِيتُ بفَقْـدِها * وبى نَبْضُ عِرْقٍ للحياةِ وللنُّكْسِ
لأوشكتُ قتْلَ النفسِ قبل فِراقِها * ولكنها ماتت وقد ذهبَتْ نَفْسِى

ذكر أخبار دُقَاق

قال أبو الفرج : كانت دقاق مغنِّيةً محسِنةً مُتْقِنة الأداء والصنعة جميلة الوجه . أخذت الغناء عن أكابر مغنِّى الدَّولةِ العبّاسية . وكانت ليحيى بن الربيع، فولدت له آبنه أحمد . ومات يحيى فتزوّجت بعـده بعِدَّة من القوّاد والكتّاب فماتوا وورِثتْهم، ثم آنقطعت إلى حَمْدونةَ بنت الرشـيد ثم إلى غَضِيض . وكانت مشهورةً بالظَّرْف والمُجُون .

قال هِبة الله بن إبراهيم بن المهـدىّ : وكانت تُواصِل جماعةً كانوا يميلون إليها وتُرِى كلَّ واحد منهم أنهـا تهواه . وكانت أحسنَ أهل عصرها وجهًا وأشأمهم على من تزوّجها أو رابطها . فقال فيها إبراهيم بن المهدىّ :

عَدِمتُكِ يا صَدِيقةَ كلِّ خَلْقٍ * أكُلَّ الناسِ وَيْحَكِ تَعْشَقِينا
وكيف إذا خَلَطتِ الغثَّ منهم * بِلَحْـمِ سَمِينِهـم لا تَبْشَمِينا

قال أبو هفّان : خرج يحيى بن الربيع إلى بعض النواحى وترك جاريتـه دُقاق فى داره، فعمِلت [بعده](١) الأوابد . فقال موسى(٢) الأعمى [فيه](١) :

(١) زيادة عن الأغانى .
(٢) فى الأغانى : « أبو موسى » .

قل لِيحيي نعـمْ صَبَرْتَ على المو * ت ولم تخشَ ريبَ سَهْـمِ المَنُونِ
كيف قل لى أطَقْتَ ويحكَ يا يحـ * ـيَ على الضَّعْفِ منك حَمْلَ القُرون

يشير بقوله : « سهم ريب المنون » إلى شُؤْمها .

ذكر أخبار قَلَم الصالحيّة

٥ قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت قَلَم الصالحيّة مُوَلَّدة صفراء حُلْوَةً حَسَنَةَ الغِناء والضَّرْبِ حاذقةً، قد أخذت عن إبراهيم وآبنه إسحاق ويحيى المكىّ وزُبَير بن دحمان. وكانت لصالح بن عبـد الوهاب [أخى أحمـد بن عبد الوهاب[1]] كاتب صـالح بن الرشيد، وقيل : بل كانت لآبنه[2] . قال : وكانت لهـا صَنْعَةٌ يسيرة نحو عشرين صوتا، فاشتراها الواثق بعشرة آلاف دينار .

١٠ قال أحمد بن الحسين بن هشام : كانت قَلَم إحدى المغنّيات المُحسِنات المتقدّمات، فغُنِّى بين يدى الواثق لحنٌ لها فى شعر محمد بن كناسة، وهو :

فىّ آنقباضٌ وحِشْمةٌ فإذا * صادفتُ أهل الوفاءِ والكرمِ
أرسلتُ نفسى على سَجِيّتِها * وقلتُ ما قلتُ غيرَ مُحْتَشِمِ

فسأل : لمن الصنعة ؟ فقيل : لقلم الصالحيّة جارية صالح بن عبد الوهاب . فبعث ١٥ إلى محمد بن عبد الملك الزّيات فأحضره وسأله : مَنْ صالحُ بن عبد الوهاب ؟ فأخبره . قال : وأين هو ؟ قال : ببغداد . قال : اِبعث وأشخِصه وليُحْضِرْ معه جاريته قَلَم . فكتب فى إشخاصهما، فقدِما على الواثق، فدخلت عليه، فأمرها بالجلوس والغناء، فغنّت فاستحسن غِناءها وأمر بآبتياعها . فقال صالح : أبيعها بمائة ألف دينار وولاية مصر . فغَضِب الواثق من ذلك وردّها اليه . ثم غنّى بعد ذلك زرزر الكبير فى مجلس

٢٠ (١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى «لأبيه» .

الواثق بشعرٍ الغِناءُ فيه لها ؛ فقال الواثق : لمن هذا الغناء ؟ فقال : لقلم الصالحيّة ؛ فبعث إلى ٱبن الزيّات بإشخاصها ففعل ، فدخلتْ على الواثق فأمرها بالغناء ، فغنّته من صنعتها فأعجبه غناؤها ، وبعث الى صالح فأحضره وقال له : إنّى قد رَغِبتُ فى هذه الجارية فٱسْتَمْ فى ثمنها سَوْماً يجوز أن تُعْطاه . فقال : أمّا إذ وقعت الرغبة فيها من أمير المؤمنين فما يجوز أن أملِك شيئاً له فيه رغبة ، وقد أهديتُها الى أمير المؤمنين ، فإنّ من حقها علىّ إذا تَناهَيْتُ فى قَضَائه أن أُصَيِّرها ملكه ، فبارك الله له فيها . فقال الواثق : قدقَبِلتُها ، وأمر ٱبن الزيّات أن يدفع إليه خمسة آلاف دينار ، وسمّاها ٱعتباطا . فلم يُعْطِه ٱبن الزيّات المال ومَطَله به ؛ فوَجّه إلى قلم مَنْ أعلمها بذلك ؛ فغنّت الواثقَ صوتًا وقد ٱصطبح ؛ فقال لها : بارك الله فيك وفيمن ربّاك . فقالت : يا سيِّدى وما نَفْعُ مَنْ ربّانى منّى إلّا التعب والغُرْم والخروج منّى صِفْرا ! فقال : أوَلم نأمر له بخمسة آلاف دينار ؟ قالت : بلى ! ولكنّ ٱبنَ الزيّات لم يُعْطِه شيئا . فدعا بخادم من خاصّة الخدم ووقّع إلى ٱبن الزيّات بحمل خمسة آلاف الدينار إليه وبخمسة آلاف أخرى معها . قال صالح : فصِرْتُ مع الخادم إليه فقرّبنى وقال : أمّا خمسةُ الالاف الأولى فقد حضرتْ ، وخمسةُ الآلاف الأخرى أنا أدفعها اليك بعد جمعة . قال : فقمت ، ثم تناسانى كأنه لم يعرفنِى . فكتبت إليه أقتضيه ؛ فبعث إلىّ : ٱكتُبْ لى قبضًا بها وخذها بعد جمعة . فكرِهتُ أن أكتب إليه قبضًا فلا يحصُل لى شىء . (٣١) قال : فاستترت فى منزل صديق لى . فلما بلغه ٱستتارى خاف أن أشكوه إلى الواثق ، فبعث إلىّ بالمال وأخذ كتابى بالقبض . قال : فابتعتُ بالمال ضَيْعةً وتعلّقت بها وجعلتها معاشى ، وقَعَدتُ عن عمل السلطان ، فما تعرّضْت لشىء بعدها .

ذكر أخبار بَصْبَص جارية ابن نَفِيس

قال أبو الفرج : كانت جاريةً من مولَّدات المدينة حُلوة الوجه حسنة الغِناء، قد أخذت عن الطبقة الأولى من المغنّين . وكان يحيى بن نَفِيس مولاها صاحب قِيَان، يغشاه الأشراف ويسمعون غناء جواريه . ثم اشتُرِيت للمهدىّ، وهو ولىّ عهد، بسبعة عشر ألف دينار . وقيل : إنها ولدت له عليّة بنت المهدىّ وقيل : أمّ عليّة غيرها . قال : وكان عبد الله بن مُصْعَب بن ثابت بن عبد الله بن الزُّبَير يأتيها فيسمع منها، وكان يأتيها فتيان قريش فيسمعون منها . فقال عبد الله بن مُصْعَب حين قدِم المنصور مُنْصرِفًا إلى الحجّ ومرّ بالمدينة يذكر بَصْبَص :

أرَاحِلٌ أنت أبا جَعْفَرٍ * من قبلِ أن تسمَع من بَصْبَصَا
هيهاتَ أن تسمع منها إذا * جاوزتِ العِيسُ بك الأعْوَصا
نَفُذْ عليها مَجْلِسَىْ لَذّةٍ * ومَجلِسًا من قبلِ أن تَشْخَصا
أحلِفُ بالله يمينًا ومَنْ * يَحلِفُ بالله فقد أخلصا
لو أنها تدعو إلى بَيْعَةٍ * بايعتُها ثم شَقَقتُ العصا

فبلغ الشعرُ أبا جعفر المنصور، فغضِب ودعاه، ثم قال : أمَا إنكم يا آل الزبير قديمًا ما قادتكم[1] النساء وشققتم معهنّ العصا ، حتى صرت أنت آخر الحُمْقَى تُبايع المغنّيات ! فدونكم يا آل الزبير هذا المرتَعَ الوخيم .

وقال هارون بن محمد بن عبد الملك وهو ابن ذى الزوائد فيها :

بَصْبَصُ أنتِ الشمسُ مُزْدانةً * فإنْ تبدّلْتِ فأنتِ الهِلالُ
سبحانَك اللّهمّ ما هكذا * فيما مضَى كان يكون الجَمَالُ

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « كادتكم » .

إذا دعتْ بالعـــودِ فى مَشْهَدٍ * وعاونتْ يُمْنَى يديهـا الشِّمالُ
غنّتْ غنـاءً يَسـتفِزُّ الفـتى * حِذْقًا وزان الحذقَ منها الدَّلالُ

قال : وهَوِىَ محمـد بن عيسى الجعفرىّ بصبص فهام بها وطال ذلك عليه ؛ فقـال لصديق له : قد شغلتنى هـذه عن صَنْعتى وكلِّ أمرى ، وقد وجدتُ مَسّ السُّلُوّ عنها ، فاذهب بنا إليها حتى أُكاشفها ذلك وأسـتريح . فأتياها ؛ فلما غنّتهما قال لها محمد بن عيسى : أتغنّين :

وكنتُ أُحِبُّكُمْ فسلَوْتُ عنكمْ * عليكم فى ديارِكُمُ السَّـلامُ

فقالت : لا ، ولكنى أُغَنِّى :

تَحَمَّـلَ أهلُها عنها فبانوا * على آثارِ مَنْ ذهب العَفَـاءُ

قال : فاستحيا وازداد بها كَلَفًا ولها عِشقا ؛ فأطرق ساعة ثم قال لها : أتغنّين :

وأخضَعُ بالعُتْبَى إذا كنتُ مُذْنِبًا * وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصَّلُ

قالت : نعم ، وأغنّى أحسن منه :

فإن تُقْبِلوا بالوُدّ نُقْبِلْ بمثله * ونُنْزِلكم منّا بأقرب منزلِ

فتقاطعا فى بيتين وتواصلا فى بيتين ، وما شعر بهما أحد .

(٣٢) قال : وحضر أبو السائب المخزومىّ مَجلِسًا فيه بَصْبَص ، فغنّت :

قلبى حبيسٌ عليـــك موقوفُ * والعينُ عَبْرَى والدمعُ مذروفُ
والنفسُ فى حَسْرةٍ بغُصّتهـا * قد شَـفّ أرجاءَها التساويفُ
إن كنتِ بالحُسْنِ قد وُصِفْتِ لنا * فإننى بالهـــوى لَموصـــوفُ
يا حَسْرتَا حسرةً أموتُ بهـا * إنْ لم يكن لى إليـك معروفُ

قال : فطَرِب أبو السائب ونَعَـر وقال : لا عَرَف الله مـن لا يعرِف لك معروفَك ، ثم أخذ قِناعها عن رأسها ووضـعه على رأسه وجعل يبكى ويَلْطِم ويقول

لها : بأبى أنت ! والله إنى لأرجو أن تكونى عند الله أفضلَ من الشُّهداء لِما تُولِيناه من السرور، وجعل يصيح : وا غَوْثاه ! يالله ما يلقَى العاشقون ! .

وقال عثمان بن محمد الليثىّ: كنت يوماً فى منزل آبن نَفيس، فخرجتْ إلينا جاريته بَصْبَص، وكان فى القوم فتًى يحبها ، فسألته حاجةً فقام لياتِيَها بها ، فنسِى أن يلبس نعله ومضى حافيا . فقالت له : يافلان، نسيتَ نعلك؛ فرجع فلبِسها وقال : أنا والله كما قال الأوّل :

وحُبُّكِ يُنْسِينِي عن الشىء فى يَدِى * ويَشْغَلُنى عن كلّ شىءٍ أُحاولُهْ

فأجابته فقالت :

وبى مثلُ ما تشكوه مِنّى وإنّنى * لأُشْفِق من حبٍّ لذاك تُزايِلُهْ

ذكر أخبار جوارى آبن رامين

وهنّ سلّامة الزَّرْقاء ، وربيحة ، وسَعْدَة

قال أبو الفرج : وآبن رامين هو عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بِشْر آبن مروان . وكان له جوارٍ مُغَنِّيات مُجيدات ، وهنّ سلّامة الزرقاء ، وربيحة ، وسَعْدَة . وفيهنّ يقول إسماعيل بن عمّار قصيدته التى أوّلها :

هل مِن شِفَاءٍ لقلبٍ لجّ مَحْزُونِ * صَبَا وصَبّ إلى رئم آبن رامين
إلى ربيحة إن الله فَضَّلها * بحُسْنِها وسماعٍ ذى أفانينِ
نَعَمْ شِفاؤكَ منها أن تقولَ لها * قَتَلْتِنى يومَ دَيْرِ اللُّجِّ(١) فآحيينى
أنتِ الطبيبُ لداءٍ قد تَلَبَّس بى * من الجَوَى فآنفُثِى فى فىَّ وآرقِينى
نَفْسِىَ تأبَى لكم إلّا طَوَاعِيةً * وأنتِ تَحْمِينَ أنفًا أن تُطيعينى

(١) دير اللج : هو بالحيرة مما بناه النعمان بن المنذر .

ومنهـا :

لم أنس سَعْدةَ والزَّرقاءَ يومَهما * باللُّجِّ شَرْقيّـــه فوق الدكاكين
يُغَنِّيان ٱبنَ رامينٍ صُحَاءَهما * بالمِسْـــجَحِيِّ وتشبيب المحبِّينِ
فـا دعوت به فى عيشِ مملكةٍ * ولم نَعِشْ يومَنا عيشَ المساكين

وهى أبيات طويلة، وله فيهنّ غيرها .

قال : وٱشترى جعفر بن سـليمان بن علىّ سلّامة الزرقاء بثمانين ألف درهم ؛ وقيل : إنه اشترى ربيحة بمائة ألف درهم، والأوّل أصح . وقيل : إنّ الذى ٱشترى ربيحة محمد بن سليمان، وٱشترى صالح بن علىّ سَعْدة بتسعين ألف درهم . وقيل : ٱشترى مَعْن بن زائدة إحداهنّ . قال : وكانت سلّامة الزرقاء عاقلة شَكِلة . قال : ولمّـا ٱشتراها جعفر ومضتْ لها مدّة عنده، سألها يومًا : هل ظَفِر منـك أحَدٌ قطُّ ممن كان يهواكِ بخَلْوة أو قُبْـلة ؟ فخشِيتْ أن يبلُغه شىء كانت فعلتْه بحضرة جماعة أو يكون قد بلغه شىء، فقالت : لاوالله إلا يزيد بن عَوْن العبادىّ الصيرفى ، فإنه قبّلنى قُبْـلة وقذف فى فىّ لؤلؤةً بعتُها بثلاثين ألف درهم . فـلم يزل جعفر بن سليمان يحتال له حتى وقع به فضربه بالسِّياط حتى مات .

وقد روى أبو الفرج الأصـفهانىّ فى خبر يزيد بن عون هذا بسـند رفعه إلى عبد الرحمن بن مقرون أنه ٱجتمع هو وروْح بن حاتم عند ٱبن رامين، وأن الزرقاء خرجتْ عليهـم فى إزارٍ ورداء [قَهْوِيين](1) مُوَرَّدين ، كأنّ الشمس طالعةٌ بين رأسها وكعبها . قال : فغنّتنا ساعة ؛ ثم جاء الخادم الذى كان يأذَن لها — وكان الإذنُ عليها دون مولاها — فقام على الباب وهى تغنّى، حتى إذا قطعت الغناءَ نظرتْ إليه فقالت : مَه ! قال : يزيد بن عَوْن العبادىّ الصيرفىّ الملقّب بالمـاجن على الباب . قالت :

(١) زيادة عن الأغانى.

ائذن له . فلما ٱستقبلها طَفَر ثم أقعى بين يديها ، فوَجِدتْ والله له ، ورأيتُ أثر فلك ، وتنوّقتْ تَنَوُّقًا[1] خلافَ ما كانت تفعل بنا . فأدخل يده فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين فقال : انظرى يا زرقاء ، جُعِلتُ فداك ! ثم حلف أنه نَقَد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بك؟ قال : أردتُ أن تعلّمى . فغنّت صوتًا ثم قالت : ياماجن هَبْهما لى ! قال : إن شئتِ والله فعلتُ . قالت : قد شئتُ . قال : فاليمينُ التى حلفتُ بها لازمةٌ [لى][2] إن أخذتِهما إلا بشَفَتَيْكِ من شَفَتىّ . فقال ٱبن رامين للغلام : ضَع لى ماءً ثم خرج عنا ، فقالت : هاتِهما . فمشى على رُكبتيه وكفّيه وهما بين شفتيه وقال : هاكِ ، فلما ذهبتْ تتناولها جعل يَصُدّ عنها يمينًا وشمالًا ليستكثر منها ، فغمزتْ جاريةٌ على رأسها ، فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليه ، فلما دنا وذهب ليروغ دفعتْ مَنْكِبيه وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيها من فمه ورَشَح جبينها عرقًا حياءً منا . ثم تجلّدتْ علينا فأقبلت عليه[3] وقالت : المغبونُ فى ٱسته عود . فقال : فأمّا أنا فلا أُبالى ، والله لا يزال طيبُ هذه الرائحة فى أنفى وفمى ما حَيِيت .

قال : وٱجتمع عند ٱبن رامين مَعْن بن زائدة ورَوْح بن حاتم وٱبن المُقَفَّع . فلما تغنّت الزَّرقاء وسَعْدة بعث مَعْن بجِىء ببَدْرةٍ فصبّها بين يديها ، وبعث رَوْح بجِىء ببَدْرة فصبّها بين يديها ، ولم تكن عند ٱبن المقفّع دراهم ، فبعث بجاء بصَكّ ضيعة ، وقال : هذه عُهْدَةُ ضَيْعتى خذيها ، فأمّا الدراهم فما عندى منها شىء . وشربت زَرْقاء دواءً فأهدى لها ٱبن المقفّع ألفَ دُرّاجة[4] .

وعن إسحاق بن إبراهيم قال : كان رَوْح بن حاتم بن المُهَلَّب كثيرَ الغِشْيان لمنزل ابن رامين ، وكان يختلف إلى الزَّرقاء ، وكان محمد بن جميل يهواها وتهواه ، فقال لها :

(١) تنوق فى الأمر : تأنق فيه . (٢) زيادة عن الأغانى .
(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « علينا » . (٤) نوع من الطيور .

إنّ رَوْح بن حاتم قد ثَقُل علينا . قالت : فما أصنع وقد غَمَر مولاى ببِرّه ! قال : احتالِي له . فبات عندهم رَوْح ليلةً ، فأخذت سراويلَه وهو نائم فغسلته . فلما أصبح سأل عنه ، فقالت : غسلناه . فظنّ أنه أحدَثَ فيه فاحتيج إلى غَسْله فاستحيا من ذلك فانقطع عنهم ؛ وخلا وجهُها لابن جميل .

ذكر أخبار عِنَان جارية الناطفىّ

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت عِنَانُ مولَّدة من مولَّدات اليمامة ، وبها نشأت وتأدّبت ، واشتراها الناطفىّ وربّاها . وكانت صفراءَ جميلةَ الوجهِ شَكِلةً مليحةَ الأدبِ والشعرِ سريعة البَدِيهةِ ، وكان فحول الشعراء يُساجلونها ويُعارضونها فتنتصف منهم . ولها مع أبى نُوَاس الحسن بن هانئ وغيره من الشعراء والفضلاء مُعَاياةٌ ومُرَاجَعات ، نذكر منها طَرَفا .

قال أبو حَبَش : قال لى النّاطِفىّ : لو جئتَ إلى عِنَان فطارحتَها ! فعزمتُ على الغُدُوّ إليها ، وبِتُّ ليلتى أحوك بيتين ، ثم غدوتُ عليها فأنشدتها :

أُحِبّ المِلَاحَ البِيضَ قلبى وربّما * أُحِبّ المِلاحَ الصُّفْرَ من وَلَدِ الحَبَشْ
بَكَيتُ على صفراءَ منهنّ مَرّةً * بكاءً أصابَ العينَ منّى بالعَمَشْ

فقالت عِنان :

بكيتُ عليها إنّ قلبى يُحِبُّها * وإنّ فُؤادى كالجَنَاحَيْنِ ذو رَعَشْ
تَغَنَّيْتَنا بالشعرِ لمّا أتيتَنا * فدونَك خذه مُحْكَمًا يا أبا حَبَشْ

وقال مَرْوَان بن أبى حَفْصَة : لقينى الناطفىّ فدعانى إلى عِنَان ، فانطلقت معه . فدخل إليها قبلى فقال : جئتكِ بأشعر الناس مروان بن أبى حفصة ؛ فوجدها

عليلة فقالت : إنى عن مروان لفى شغل . فأهوى إليها بسوط فضربها، وقال لى: أُدخل؛ فدخلت وهى تبكى، فرأيت الدموع تحدّر من عينيها؛ فقلت :

بكتْ عِنَانُ فجـرى دمعُها * كالدُّرّ إذ يَنْسِقُ من خَيْطِهِ

فقالت مُسرِعة :

٥ فليتَ مَنْ يضربها ظالمًا * تَيْبَسُ يُمْنـاهُ على سَوْطِهِ

قال مروان : فقلت : أُعْتِق ما أملك إن كان فى الجنّ والإنس أشعرُ منها .

وقال أحمد بن مُعَاوية قال لى رجل : تَصَفَّحتُ كُتُبًا فوجدتُ فيها بيتًا جَهَدت جهدى أن أجد من يُجيزه فلم أجِد . فقال لى صديق لى : عليك بعِنَان جارية الناطفىّ؛ فأتيتها فأنشدتها البيت وهو :

١٠ وما زال يشكو الحبَّ حتى رأيتُه * تَنَفَّس من أحشائه وتَكَلَّما

فلم تلبث أن قالت :

ويَبْكِى فأبكِى رحمةً لبكائِهِ، * إذا ما بَكَى دمعًا بكيتُ له دما

وقال موسى بن عبد الله التيمىّ : دخل أبو نُوَاس على الناطفىّ وعِنان جالسةٌ تبكى ، وقد كان الناطفىّ ضربها، فأومأ إلى أبى نُوَاس أن حَرِّكْها بشىء؛ فقال

١٥ أبو نُوَاس :

عِنَانُ لو جدْتِ لى فإنِّىَ مِنْ * عُمْرِىَ فى (آمن الرَّسُولُ بِمَا)[1]

فقالت :

فإن تمادى ولا تَمَاديتَ فى * قَطْعِكَ حَبْلى أكُنْ كمن خَتَما

فقال أبو نواس :

٢٠ عُلِّقتُ مَنْ لو أتَى على أنفُس الـ * ـماضين والغابرين ما نَدِما

(١) لعله يريد من اقتباس هذه الآية ، وهى قبيل آخر سورة البقرة ، أن يدل على أنه فى آخر مرحلة من حياته وأنه لم يبق من عمره إلا بمقدار ما تقع هذه الآية من السورة المذكورة .

فقالت :

لو نَظَرتْ عينُهـا إلى حَجَـرٍ * وَلَّدَ فيــه فُتُورُها سَــقَما

وقال أبو جعفر النَّخَعِيّ : كان العبَّاس بن الأحْنَف يهوَى عِنان جارية الناطفيّ . فجاءنى يوماً فقال لى : امِضْ بنا إلى عِنان. فمضينا إليها، فرأيتها كالمُهَاجِرة له ؛ فجلسنا قليلا ؛ ثم ٱبتدأ العبّاس فقال :

قال عبّاسٌ وقـد أُجْـ * ـهِدَ من وجْدٍ شَـدِيدِ
ليس لى صَبْرٌ على الهَجْـ * ـرِ ولا لِلَذْعِ الصُّـدودِ
لَا ولَا يَصْـبِرِ للهَجْـ * ـرِ فؤادٌ من حَدِيدِ

فقالت عِنان :

مَنْ تراه كان أغـنَى * منكَ عن هذا الصُّدودِ
بعدَ وَصْـلٍ لك مِنِّى * فيـه إرغامُ الحَسُودِ!
فٱتَّخِذْ للهَجْرِ إن شئـ * ـتَ فـؤاداً من حَدِيدِ
ما رأيناك على ما * كنتَ تَجْنِى بِجَلِيـدِ

فقال عبّاس :

لو تجُودِينَ لصَبٍّ * راحَ ذا وَجْدٍ شَـدِيدِ
وأخِى جَهْلٍ بمـا قد * كان يجنى بالصُّـدودِ
ليس مَنْ أحدث هجراً * لِصَـدِيقٍ بِسَـدِيدِ
ليس منه الموتُ إن لم * تَصِليـه بِبَعِيـدِ

قال : فقلت للعبّاس : ويحك ! ما هذا الأمر ؟ قال : أنا جَنَيتُ على نفسى بتتايُهِى عليها . فلم أبرَحْ حتى تَرَضَّيتها له .

وقال الأصمعىّ : بعثت الىّ أمّ جعفـر أنّ امير المؤمنين قد لَهِج بذكر هـذه الجارية عِنان، فإنْ صَرَفتَه عنها فلك حكمُك . قال : فكنت أرْبَعُ لأنْ أجِد للقول

فيها موضِعًا فلا أجده ولا أُقدِم عليه هيبةً له ؛ إذ دخلتُ يومًا فرأيتُ فى وجهه أثر الغَضَبِ فانخزلتُ . فقال : مالك يا أصمعىّ؟ قلت : رأيتُ فى وجه أمير المؤمنين أثر الغضب ، فلعن الله من أغضبه ! فقال : هذا الناطفىّ ، والله لولا أنّى لم أجُرْ فى حكمٍ قطُّ متعمِّدا لجعلتُ على كل جبل منه قِطعة ! ومالى فى جاريته من أرب غيرَ الشعر . قال الأصمعىّ : فذكرتُ رسالةَ أمّ جعفر فقلت : أجَلْ ، والله ما فيها غيرُ الشعر ، أفيَسُرّ أميرَ المؤمنين أن يُجامع الفرزدق ! فضحِك حتى استلقى . واتّصل قولى بأمّ جعفر فأجزلتْ لى الجائزة .

وقال يعقوب بن إبراهيم : طلب الرشيدُ من الناطفىّ جاريته ، فأبى أن يَبيعها بأقلّ من مائة ألف دينار . فقال الرشيد : أعطيك مائة ألف دينار على أن تأخذ الدينار بسبعة دراهم ، فامتنع عليه ، فأمر أن تحمل إليه . فذكروا أنها دخلتْ مَجْلِسَه فى هيئتها ؛ فقال لها الرشيد ويلك ! إن هذا قد اعتاص علىّ فى أمرك . فقالت : ما مَنَعك أن تُوفِيه وتُرْضِيه؟ فقال : ليس يقنَع بما أُعطيه ، وأمرها بالانصراف . فتصدّق الناطفىّ حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم . فلم تزل فى قلب الرشيد حتى مات مولاها . فلما مات بعث الرشيد مسرورًا الخادم ، فأخرجها الى باب الكَرْخ وأقامها على سرير وعليها رداءٌ سِنْدِىّ قد جَلّلها ، فنُودى عليها فيمن يزيد بعد أن شاور الفقهاءَ فيها ، فقالوا : هذه كَبِدٌ رَطْبَة وعلى الرجل دَين ، فأشاروا ببيعها . وكانت تقول وهى على المصطبة : أهان الله من أهاننى وأرذل من أرذلنى ! فوكّرَها مسرور بيده . وبلغ بها مسرورٌ مائتى ألف درهم ؛ فجاء رجل فقال : علىّ زيادة خمسة وعشرين ألف درهم ؛ فوكره مسرور وقال : أتَزيد على أمير المؤمنين ! فبلَغ بها مائتين وخمسين ألف درهم وأخذ مالها . قال : ولم يكن فيها عيبٌ يعاب ، فطلبوا

لها عيبا لا تُصيبها العينُ، فأوقعوا بخِنْصَر رِجْلها فى ظُفره شيئا. قال: وأولدها الرجل الذى آشتراها ولدين، ثم خرج بها الى خُرَاسان فمات هناك وماتت بعده .

ذكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدىّ

قال أبو الفـرج : كانت شارية مولَّدة من مولّدات البَصْرة . يقال : إنّ أباها كان من بنى سامة بن لُؤىّ المعروفين ببنى ناجية، وإنه جحدها . وكانت أمّها أمَة، فدخلت فى الرقّ . وقيل : إن أمّها كانت تدّعى أنها بنت محمد بن زيد من بنى سامة ابن لؤىّ، وقيل: إنها كانت تدّعى أنها من بنى زُهْرة، وقيل : بل سُرِقت فبيعت، فآشترتها آمرأة من بنى هاشم فأدّبتها وعلّمتها الغناء ، ثم اشتراها إبراهيم بن المهدىّ، فأخذت عنه غناءه كلّه أو أكثره . وبذلك يحتجّ من يُقَدّمها على عَرِيب ويقول : إنّ إبراهيم خرّجهـا ، وكان يأخذها بصحة الأداء لنفسه وبمعـرفةِ ما يأخذها به ؛ ولم تلق عَريب ذلك، لأن المراكبىّ لم يكن يُقارب إبراهيم فى العـلم ولا يقاس به فى بعضه فضـلًا عن سائره .

قال : ولمـا عَرَضتها مولاتها الهاشميّة للبيع ببغـداد عُرِضت على إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ فأعطى فيها ثلثمائة دينار، ثم آستغلاها بذلك ولم يُرِدها . فجىء بها الى ابراهيم بن المهدىّ فساوم بها ؛ فقالت له مولاتها : إن إسحاق بن إبراهيم أعطى بها ثلثمائة دينار وأنت أحقّ بها . فقال : زنوا لها ما قالت فوُزِن لهـا . ثم دعا بقيّمته فقال : خُذى هذه الجاريةَ ولا تُزَيّنيها سنةً، وقولى للجوارى يطرحن عليها . فلما كان بعد سنة أُخرِجَتْ إليه، فنظر إليها وسمع منها؛ فأرسل إلى إسحاق بن إبراهيم ؛ فلما أتاه أراه إيّاها وأسمعه غناءها، وقال : هـذه جارية تباع، فبكم تأخذها لنفسك ؟ قال إسحاق: آخذها بثلاثة آلاف دينار وهى رخيصة بها . فقال له إبراهيم : أتعرفها؟

قال لا . قال : هذه الجارية التى عرضتْها الهاشميّة بثلثمائة دينار فلم تقبلها . فعجِب إسحاقُ من حالها وما صارت إليه .

وقد حُكى عن هبة الله بن إبراهيم بن المهدىّ أنها عُرِضت ببغداد على إبراهيم فأُعجِبَ بها إعجاباً كبيرا ، [فلم يزل يُعْطِى بها حتى](١) بلغت ثمانية آلاف درهم . قال : ولم يكن عند أبى درهم ولا دانق ؛ فقال لى : ويحك ! قد والله أعجبتنى هذه الجارية إعجاباً شديدا، وليس عندنا شىء . فقلت له : بِع ماتملكه حتى الخزف وتجمع ثمنها . فقال لى : [قد تذكّرتُ فى شىء](١)، اذهب إلى علىّ بن هشام فاقرئه منّى السلام، وقل له : قد عُرِضتْ علىّ جاريةٌ وقد أخذتْ بمجامع قلبى، وليس عندى شىء ، فأُحِبّ أن تُقْرِضَنى عشرة آلاف درهم . فقلت : إن ثمنها ثمانية آلاف درهم، فلِمَ نُكثِر على الرجل بعشرة آلاف درهم ! فقال : إذا اشتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بدٌّ من أن نكسوها ونقيم لها ما تحتاج إليه . قال : فصِرتُ إلى علىّ بن هشام وأبلغته الرسالة ؛ فدعا بوكيل له وقال : اِدفع إلى خادمه عشرين ألف درهم ، وقل له : أنا لا أصلك ، ولكن هى لك حلال فى الدنيا والآخرة . قال : فصرتُ إلى أبى بالدراهم ، فلو طلعتُ عليه بالخلافة لم تكن تَعدِل عنده تلك الدراهم . قال : وكانت أمّها خبيثة، وكانت كلما لم يُعْطِ إبراهيم ابنتها ما تشتهى ذهبتْ إلى عبد الوهاب بن علىّ ، ودفعت إليه رُقعةً يُوصلها إلى المعتصم تسأله أن تأخذ ابنتها من إبراهيم .

وحُكى عن يوسف بن إبراهيم المِصرىّ صاحب إبراهيم بن المهدىّ أنّ إبراهيم وجّه به إلى عبد الوهاب بن علىّ فى حاجةٍ كانتْ له . قال : فلقِيته وانصرفت من عنده ؛ فلم أخرج من دِهليز عبدِ الوهاب حتى استقبلتنى امرأة ؛ فلما نظرتْ فى وجهى

(١) زيادة عن الأغانى . وفى الأصل : «إعجابا كبيرا فبلغت» .

سترتْ وجهها، فأخبرنى شاكرىٌّ أن المرأة أمُّ شارية جارية إبراهيم. فبادرت إلى إبراهيم وقلت له : إنى رأيت أمَّ شارية فى دار عبد الوهاب ، وهى من تعلم، وما يفجَؤك إلا حِيلةٌ قد أوقعتها . فقال لى : اشهدك أنّ جاريتى شارية صَدَقةٌ على ميمونة بنت إبراهيم بن المهدىّ، ثم أشهد ٱبنه هبة الله على مثل ما أشهدنى ، وأمرنى بالركوب إلى ٱبن أبى دواد وإحضار من قَدَر عليه من الشهود المعدّلين عنده ؛ فأحضر أكثر من عشرين شاهدا . وأمر بإخراج شارية فاخرِجت . فقال لها : ٱستُرى وجهك؛ فجزِعتْ من ذلك ، فأعلمها أنما أمرها بذلك لخير يريده لها ففعلت . فقال لها : تَسَمَّىْ ؛ فقالت : أنا أمَتُك . فقال لهم : تأمّلوا وجهها ففعلوا . ثم قال : فإنى أُشهِدكم أنها حرّة لوجه الله تعالى، وأنى قد تزوّجتها وأصدقتُها عشرة آلاف درهم؛ ياشارية أرضِيتِ ؟ قالت : نعم ياسيّدى ، قد رضيت ، والحمد لله تعالى على ما أنعم به علىّ . فأمرها بالدخول ، وأطعم الشهود وطيّبهم وٱنصرفوا . قال : فما أحسبهم تجاوزوا دار ٱبن أبى دواد حتى دخل علينا عبد الوهاب بن علىّ، فأقرأ عمّه سلامَ المعتصم، ثم قال له : يقول لك أمير المؤمنين : مِنَ المفترَض علىّ طاعتُك وصِيانتُك عن كلّ ما يسوءك، إذ كنت عمّى وصِنو أبى . وقد رفعت [ٱمرأة](1) إلىّ قِصّة ذكرَت فيها أن شارية ٱبنتها، وأنها ٱمرأة من قريش من بنى زُهْرة، وٱحتجّت بأنه لا تكون بنت ٱمرأة من قريش أَمة . فإن كانت هذه المرأة صادقة فى أنّ شارية بنتها ، وأنها من بنى زهرة، فمن المحال أن تكون شارية أمَة . والأشبهُ بك والأصلح إخراج شارية من دارك وتُصيِّرها عند من تثق به من أهلك ، حتى يُكْشَف عما قالته هذه المرأة . فإن ثبت ذلك أمرتَ مَنْ جعلتَها عنده بإطلاقها، وكان فى ذلك الحظ لك فى دِينك ومروءتك . وإن لم يصح ذلك

(١) التكملة عن الأغانى (ج ١٤ ص ١١٠ طبع بولاق) .

أُعيدت الجارية إليك وقد زال عنك القول الذى لا يليق بك ولا يحسن . فقال إبراهيم : فديتك، هَبْ شاريةَ بنت زهرة بن كلاب، أيُنكَرُ على [ابن][1] العباس بن عبدالمطلب أن يكون بعلا لها؟! فقال عبدالوهاب لا . فقال : أبلِغْ أمير المؤمنين — أبقاه الله — السلام، وأخبره أنّ شارية حرّة ، وأنى قد تزوّجتها بشهادة جماعة من العدول . وقد كان الشهود أعلموا ابن أبى دواد بالقصة ، فركب إلى المعتصم وحدّثه بالحديث معجبا له منه ؛فقال: ضَلَّ سَعْىُ عبد الوهاب . ثم دخل عبد الوهاب على المعتصم . فلما رآه يمشى فى صحن الدار سدّ المعتصم أنفه وقال : ياعبدالوهاب، أنا أشَمّ رائحة صُوف مُحْرَق، وأحسب عمّى لم يُقْنِعه ردُّك على أُذنك صوفةٌ حتى أحرقها ، فشَمَمْتُ رائحتها منك . فقال : الأمر على ما ظنّ أمير المؤمنين وأسمج . قال : ثم ابتاع إبراهيم من بنته ميمونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر ذلك عنها ؛ فكان عتقه إياها وهى فى ملك غيره ، ثم ابتاعها من ميمونة فخلّت له ، فكان يطؤها بملك اليمين وهى تتوهّم أنها زوجته . فلما تُوُفِّى طلبت شاريةُ مشاركةَ أمّ محمد بنت خالد زوجة إبراهيم فى الثّمن، فأظهرت خبرها؛ فأمر المعتصم بابتياعها من ميمونة بخمسة آلاف وخمسمائة دينار فحُوِّلت الى داره ، وكانت فى مِلْكه حتى تُوُفِّى . وقال ابن المعتز : وقد قيل : إنّ المعتصم ابتاعها بثلثمائة دينار ؛ وملكها إبراهيم ولها سبع سنين وربّاها تربية الولد .

(٣٧)

قال : وحدّثت شارية أنها كانت مع إبراهيم فى حرّاقة قد توسّط بها دجلة فى ليلة مُقْمِرة، فاندفعتْ فغنّت :

لقد حَثُّوا الجِمالَ لِيهِ * مرُّوا منّا فلم يَئِلُوا

(١) زيادة عن الأغانى .

فوثب إليها فأمسك فاها فقال : أنتِ والله أحسنُ من الغَرِيض وجهًا وغناءً ، فما يُؤْمِنُنى عليك ! أمسكى .

ويقال : إنها لم تضرِب بالعود إلا فى أيام المتوكل لمّا آتصل الشرُّ بينها وبين عَرِيب، فصارت تقعد بها عند الضرب، فضربتْ بعد ذلك .

قال آبن المعتز : وحدّث محمد بن سهل بن عبد الكريم المعروف بسهل الأحول، وكان قاضى الكتّاب فى زمانه، كان يكتب لإبراهيم وكان ثقةً، قال: أعطى المعتصم إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار، فآمتنع من بيعها. قال : فعاتبتُه على ذلك ، فلم يجبنى بشىء . ثم دعانى بعد أيام وبين يديه مائدة لطيفة، فأحضر الغلام سَفُّودًا فيه ثلاثة فَرَاريج ، فرمى إلىّ بواحدة فأكلتها وأكل آثنتين ، ثم شرب رطلًا وسقانى؛ ثم أُتِى بسَفُّود آخر ففعل كما فعل وشرب [كما شرب](١) وسقانى ؛ ثم ضُرِب سِتْرٌ إلى جانبه فسمعتُ حركة العيدان؛ ثم قال : يا شارية تغنّى، فسمعتُ شيئا ذهب بعقلى. فقال : يا سهل، هى التى عاتبتَنى فى أن أبيعها بسبعين ألف دينار، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار !

وحُكى عن عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : أمرنى المعتز بالله ذات يوم بالمُقام عنده فأقمت، ومُدّت الستارة وخرج من كان يغنّى وراءها وفيهنّ شاريةُ، ولم أكن سمعتها قبل ذلك فآستحسنتُ ما سمعتُ منها؛ وقال لى المعتز : يا عبيد الله، كيف ما تسمع منها عندك ؟ فقلت : حظُّ العَجَب من هذا الغناء أكثر من حظ الطرَب؛ فآستحسن ذلك، وأخبرها به فآستحسنته .

قالوا : وكانت شارية أحسن الناس غِناءً منذ تُوُفِّى المعتصم إلى آخر خلافة الواثق . وقيل : إن إبراهيم بن المهدىّ لم يطأ شارية، وإن الذى آقتضّها المعتصم . وكان إبراهيم يُسمّى شاريةَ بنتى .

(١) زيادة عن الأغانى .

وقال يعقوب بن بيان : كانت شاريةُ لصالح بن وصيف . فلما بلغه رحيل موسى بن بُغا من الجبل يريده بسبب قتل المعتز، أودع شارية جوهره، فظهر لها جوهر كثير بعد ذلك . فلما أوقع موسى بصالح آستترت شارية عند هارون بن شعيب العُكْبَرىّ، وكان أنظف خلقِ الله طعاماً وأسراهم مائدة، وأوسخهم كلَّ شيء بعد ذلك، وكان له بسُرَّ مَنْ رأى منزل وفيه بستان كبير، وكانت شارية تُسمّيه أبى، وتزوره فى منزله فتحمل معها كل شيء تحتاج إليه حتى الحصير تقعد عليه . وكانت من أكرم الناس . عاشرها أبو الحسن علىّ بن الحسين عند هارون هذا، ثم أضاق[1] فى وقت فآقترض منها على غير رهن عشرة آلاف دينار فأقرضته، ومكثت أكثر من سنة ما أذكرته بها ولا طالبته بردّها .

قال يعقوب بن بيان : وكان الناس بسُرّ مَنْ رَأى متحازين، فقوم مع شاريةَ، وقوم مع عَرِيب، لا يدخل أصحاب هذه فى هؤلاء، ولا أصحاب هذه فى هؤلاء . وكان [أبو الصقر][2] إسماعيل بن بلبل عَرِيبيّاً ؛ فدعا علىّ بن الحسين يوم جمعة أبا الصقر وعنده عريب وجواريها . فآتصل الخبر بشارية فبعثت بجواريها إلى علىّ آبن الحسين بعد يوم أو يومين، وأمرت إحداهنّ — قال : وما أدرى [من][2] هى : مهرجان أو مطرِب أو قمرية، إلا أنها إحدى الثلاث — أن تُغنّيه :

لا تعودَنّ بعدَها * فترى كيف أصْنَعُ

فلما سمع الغناء ضحِك وقال : لستُ أعود . (٣٨)

قال : وكان المعتمد قد وَثِق بشاريةَ فلم يكن يأكل إلا طعامَها، فمكثت دهرًا تُعِدّ له كلَّ يوم جَوْنَتين، فكان طعامه منهما فى أيام المتوكل .

(١) يقال : أضاق الرجل اذا ذهب ماله وافتقر .
(٢) زيادة عن الأغانى .

وقال أبو الفرج : حدّثنى جحظة قال : كنت عنـد المعتمد يومًا فغنّتْ شاريةُ بشعر مولاها إبراهيم بن المهدىّ ولحنِه :

يا طـــولَ عِلّةِ قلبىَ المعتادِ * إلْفَ الكِرامِ وصُحْبةَ الأمجادِ
ما زِلتُ آلَفُ كلَّ قَرْمٍ ماجدٍ * متقـــدِّم الآباء والأجداد

فقال لها : أحسنت والله ! فقالت : هذا غنائى وأنا عارية ، فكيف لو كنتُ كاسيةً ! فأمَر لها بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصّة، فحُمِل ذلك إليها. فقال لى علىّ بن الحسين بن يحيى المنجم : اِجعل آنصرافك معى، ففعلتُ. فقال لى: هل بلغك أنّ خليفة أمر لمغنّية بمثـل ما أمر به أمير المؤمنين اليوم لشارية ؟ قلت لا . فأمر بإخراج سِيَر الخلفاء، فأقبل بها الغلمان فى دَفَاتِرَ عِظام، فتصفّحناها كلها فـا وجدنا أحدًا قبله فعَل مثل ذلك . اِنقضت أخبار شارية .

ذكر أخبار بَذْل

قال أبو الفرج : كانت بذل صفراء مولَّدة من مولّدات المدينة ورُبِّيتْ بالبصرة، وهى إحدى المحسنات المتقدّمات الموصوفات بكثرة الرواية . يقال : إنها كانت تغنّى ثلاثين ألف صوت . قال : ولها كتاب فى الأغانى منسوب الأصوات [غير مجنّس](١) يشتمل على آثنى عشر ألف صـوت ، يقال : إنهـا عملته لعلىّ بن هشام . قال : وكانت حُلْوَةَ الوجه ظريفـةً ضاربةً متقدّمة . وابتاعها جعفر بن موسى الهـادى؛ فأخذها منه محمـد الأمين وأعطاه مالًا جزيلا . وأخذت بذل عن أبى سعيد مولى فائد ودحمان وفليح وآبن جامع و إبراهيم وطبقتهم .

---

(١) زيادة عن الأغانى .

وقال جحظة عن أبي حشيشة : وكانت أحسن الناس غناءً فى دهرها ،وكانت أستاذة كل مُحْسِنٍ ومحسنةٍ، وكانت أرْوَى خلق الله للغناء . وكانت لجعفر بن موسى الهادى؛ فوُصِفت لمحمد الأمين، فبعث إلى جعفر فسأله أن يُزِيره إياها فأبى؛ فأتاه الأمين إلى منزله فسمع ما لم يسمع مثلَه قطّ؛ فقال لجعفر: يا أخى، بِعْنِى هذه الجارية.
٥ فقال له : يا سيِّدى، مثلى لا يبيع جارية . قال : هَبْها لى. قال : هى مُدَبَّرة(١). فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بَذْل إلى الحَرّاقة وانصرف بها . فلما أفاق جعفر سأل عنها ، فأُخبر بالخبر، فسكت . فبعث إليه محمد من الغد، فجاء وبَذْل جالسةٌ فلم يقل شيئا. فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين : أوْقِروا حَرّاقةَ ابن عمىّ دراهم فأُوقِرتْ، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم . وبقيت بذل عند الأمين
١٠ إلى أن قُتِل؛ ثم خرجت فكان ولد جعفر وولد الأمين يدّعون ولاءها ؛ فلما ماتت ورثها ولد الأمين .

وقال محمد بن الحسن الكاتب : إن الأمين وَهَبها من الجوهر ما لم يملك أحدٌ مثلَه ، فسُلِّم لها بعد مقتل الأمين، فكانت تبيع منه الشىء بعد الشىء بالمال العظيم؛ فكانت على ذلك مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقية عظيمة.
١٥ قال : ورغِب إليها وجوه القُوّاد والكُتّاب والهاشميّين فى التزويج فأبَتْه، وأقامت على حالها حتى ماتت .

وحكى أبو حشيشة قال: كنت يومًا عند بَذْل وأنا غلام، وذلك فى أيّام المأمون وهو ببغداد، وهى فى طارمة(٢) لها تمتشط؛ فخرجتُ إلى الباب فرأيتُ الموكِبَ فظننتُ أنّ الخليفة يمرّ على ذلك الموضع؛ فرجعتُ إليها فقلت : يا سيّدتى، الخليفةُ يمرّ على

٢٠ (١) دبر العبد اذا قال له : أنت حر بعد موتى .

(٢) الطارمة : بناء من خشب كالقبة . معرب .

بابك . فقالت : انظُروا أىّ شىء هذا، إذ دخل بوابها فقال : علىّ بن هشام بالباب . فقالت : وما أصنع به ! فقامت إليها جاريتها وشـيك[1]، وكانت ترسلها إلى الخليفة وغيره فى حوائجها ، فأكبّت على رجلها وقالت : اللهَ ! اللهَ ! أتحتجبين على علىّ بن هشام! فدعتْ بمنديل فطرَحته على رأسها ولم تقم إليه . فقال: إنى جئتك بأمر سيّدى أمير المؤمنين، وذلك أنه سألنى عنك فقلت له : لم أرها منذ أيام؛ فقال : هى عليك غَضْبى ، فبحياتى لا تدخلُ منزلك حتى تدخلَ إليها فتسترضيها ! . فقالت : إن كنتَ جئتنا بأمر الخليفة فأنا أقوم، فقامت فقبّلَت رأسه ويديه؛ وقعد ساعة وٱنصرف . فقالت : يا وَشِيك، هاتى الدواةَ وقرطاسًا ففعلت ، فجعلتْ تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت آثنى عشر ألف صوت — وقيل : سبعة آلاف صوت — ثم كتبت إليه : يا علىّ بن هشام، تقول : استغنيتُ عن بَذْل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها! وقد كتبتُ هذا وأنا ضَجِرة، فكيف لو فرغتُ لك قلبى كلّه ! . وختمت الكتاب وقالت لهـا : امضِى به إليه . فما كان أسرَعَ من أن جاء رسوله (خادم أسود يقال له مُخَارق) بالجواب يقول فيـه : يا سيِّدتى ، لا والله ما قلتُ الذى بلَغك، ولقد كُذِب علىّ عندك ، إنمـا قلتُ : لا ينبغى أن يكون فى الدنيا أكثر من أربعة آلاف صوت ، وقد بعثتِ إلىّ بديوان لا أُؤدّى شكرك عليه أبدا؛ وبعث إليها بعشرة آلاف درهم وتخوت فيها بَزّ[2] ووَشْى ومُلَح وتختا مطبقا فيه أنواع الطيب .

وقيل : إن إبراهيم بن المهدىّ كان يعظّمها، ثم يرى أنه يستغنى عنها بنفسه . فصارت إليه، فدعت بعود فغنّت فى طريقة واحدة وٱنقطاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف إبراهيم منهـا صوتاً واحدا، ثم وضعت العود وٱنصرفت، ولم تدخل دارَه حتى طال طلبه لها وتضرُّعه إليها فى الرجوع إليه .

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ١٤٥ طبع بلاق) : «وشيكة» . (٢) فى الأغانى : خز .

وقال أحمد بن سعيد المالكىّ : إن إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ خالف بَذْلًا فى نسبة صوت غنّته بحضرة المأمون ؛ فأمسكت عنه ساعةً ثم غنّت ثلاثة أصوات فى الثقيل الثانى واحدًا بعد واحد، وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه. فقالت للمأمون: هى والله لأبيه أخذتُها من فيه، فإذا كان لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره ! فاشتدّ ذلك على إسحاق حتى رُئى ذلك فيه .

وقال حمادُ بن إسحاق : غنّت بذلُ بين يدى أبى :

إن تَرَيْنِي ناحلَ البَدَنِ * فلِطُولِ الهمّ والحَزَنِ
كان ماأخشَى بواحدتِى * ليتَه واللهِ لم يَكُنِ

قال : فطرِب أبى طربًا شديدا وشرِب رِطلًا وقال لها : أحسنتِ يابنتى، والله لأُغنّين صوتًا إلا شربتُ عليه رطلا .

انتهت أخبار بذل .

ذكر أخبار ذَاتِ الخالِ

قال أبو الفرج الأصبهانىّ : واسم ذات الخال خِشْف، وكانت لأبى الخطّاب النحاس المعروف بقرين مولى العبّاسة بنت المهدىّ . وكانت ذات الخال من أجمل النساء وأكملهنّ، وكان لها خال فوق شفتها العُليا، وقيل : على خدّها . وكان إبراهيم الموصلى يتعشّقها ، وله فيها أشعار كثيرة كان يقولها ويغنّى فيها حتى شَهَرها بشعره وغنائه . واتصل خبرها بالرشيد، فاشتراها بسبعين ألف درهم. فقال لها ذات يوم: أسألك عن شىء، فإن صَدَقتِنى وإلا صَدَقنى غيرُك وكَذّبتُك . قالت : أصدُقك . قال : هل كان بينك وبين إبراهيم الموصلىّ شىءٌ قط ؟ وأنا أُحَلّفه أن يَصْدُقَنى . قال: فسكتت ساعة ثم قالت : نعم! مرّة واحدة؛ فأبغضها. وقال يومًا فى مجلسه :

(٤٠) أيكم لا يبالى أن يكون كَشْخانًا[1] حتى أهَبَه ذات الخال؟ فبدَر حَمويه الوصيف فقال: أنا؛ فوهَبَها له. ثم آشتاقها الرشيد يومًا فقال: ويلك ياحَمَوَيه! وَهَبْنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك! فقال: يا أمير المؤمنين، مُرْ فيها بأمرك. قال: نحن عندك غدا. فمضى فآستعدّ لذلك وآستعار لها من بعض الجوهريين بَدَنةً[2] وعقودًا ثمنُها آثنا عشر ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد وهى عليها. فلما رآه أنكره وقال: ٥ ويلك يا حمويه! من أين لك هذا؟! ما وَلّيتك عملًا تكسب فيه مثلَه ولا وَصَل إليك منى هذا القـدر! فصدَقه عن أمره، فبعث الرشيدُ إلى أصحاب الجوهر، فأحضرهم وآشترى الجوهر منهم ووهبه لها، وحلف ألّا تسأله فى يومه ذلك حاجةً إلّا قضاها؛ فسألته أن يُوَلِّى حمَوَيْهِ الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل ذلك وكتب له عهده بذلك، وشرط على ولىّ العهد أن يتممها له إن لم تتمّ فى حياته. ١٠

قال الأصفهانىّ: ولإبراهيم الموصلىّ فى ذات الخـال شعر كثير غنّى فيـه. فمنه قوله:

أذاتَ الخالِ قـد طالَ * بمن أسْقَمْتِهِ الوَجَـعُ
وليس إلى سواكُمْ فى الـ * ـذى يلـقَى له فَـزَعُ
أمَا يَمْنَعُـكِ الإسـلا * مُ من قتـلِى ولا الورَعُ ١٥
وما ينفـكّ لى فِيـكِ * هـوًى تَغْـتَرُّهُ خُدَعُ

ومنهـا:

جزى الله خيرًا من كَلِفْتُ بحبّـه * وليس به إلا التّمـوّهُ[1] من حُـبِّى
وقالوا قلوبُ الغانياتِ رقيقـةٌ * فما بالُ ذاتِ الخال قاسيةَ القلبِ

(١) الكشخان: الديوث. (٢) البدنة: قميص لا كمين له تلبسه النساء. ٢٠

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ٨٣ طبع بولاق): «المتوه».

وقالوا لها هذا حبيبُك مُعْرِضًا * فقالت لهم إعراضُه أيسرُ الخَطْبِ
فما هى إلا نظرةٌ بتبسُّمٍ * فتنشَب رجلاه ويسقُطُ للجَنْب

وله فيها أشعارٌ كثيرة غير ما أوردناه .

ذكر أخبار دنانير البرمكيّة

٥ قال أبو الفرج : كانت دَنَانِيرُ مولاة يحيى بن خالد البرمكىّ ، وكانت صفراء مولّدة ، من أحسن الناس وجها ، وأظرفهم وأكملهم أدبًا ، وأكثرهم رِوايةً للغناء والشعر ، ولها كتاب مجرّد فى الأغانى مشهور . وكان اعتمادها فى غِنائها على ما أخذته من بَذْل ، وهى خرّجتها ؛ وقد أخذتْ أيضا عن الأكابر الذين أخذت بَذْل عنهم مثل فُلَيْح وإبراهيم وابن جامع و إسحاق ونُظَرائهم . وكانت تغنّى غناء إبراهيم فتَحْكِيه فيه حتى ١٠ لا يكون بينهما فرق ؛ فكان يقول ليحيى : متى فقدتنى ودنانيرُ باقيةٌ فما فقدتنى .

وقال أحمد بن المكىّ : كانت دنانير لرجل من أهل المدينة ، كان قد خرّجها وأدّبها ، وكانت أروَى الناس للغناء القديم ، وكانت صفراءَ صادقة الملاحَة . فلما رآها يحيى وقعت من قلبه مَوْقِعًا فاشتراها . وشُغِف بها الرشيدُ حتى كان يصير إلى منزل مولاها فيسمعها ، فألِفها واشتدّ إعجابُه بها ، ووهَب لها هِبَاتٍ سنِيّة . منها أنه وهب ١٥ لها فى ليلةٍ عِقدًا قيمتُه ثلاثون ألف دينار ، فردّته عليه فى مصادرة البرامكة بعد ذلك . وعرفت أمُّ جعفر الخبر فشكته إلى عُمومته وأهله ، فصاروا جميعا اليه فعاتبوه ؛ فقال : مالى فى هذه الجارية أرَبٌ فى نفسها ، وإنما أَرَبى فى غِنائها ؛ فاسمعوها ، فإن استحقّت أن تُؤْلَف لغنائها وإلّا فقولوا ما شئتم . فلمّا سمعوها عَذَروه ؛ وعادوا إلى أمّ جعفر وأشاروا عليها ألّا تُلِحّ فى أمرها ؛ فقبلت ذلك ، وأهدت إلى الرشيد عشر ٢٠ جوارٍ منهنّ أمُّ المأمون وأمّ المعتصم وأمّ صالح .

وقال عمر بن شَبّة : إنّ دنانير أصابتها العلّة الكلبية فكانت لا تصبر عن الطعام ساعةً واحدة ، وكان يحيي يتصدّق عنها فى كل يوم من شهر رمضان بألف دينـارٍ لأنها كانت لا تصومه . وبقيت عند البرامكة مدّة طويلة .

وقال إسحاق وأحمد بن الطيّب : إنّ الرشيد دعا بدنانير بعد البرامكة ، فأمرها أن تغنّى . فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنى آليتُ ألّا أُغنّى بعـد سيّدى أبدا . فغضب وأمر بصَفْعها فصُفِعت ، وأُقيمت على رجليها وأُعطيت العودَ ؛ فأخذته وهى تبكى أحرّ بكاء ، وآندفعت فغنّت :

يا دارَ سَلْمَى بنازح السَّنَدِ * من الثّنايا ومَسْقَط اللِّبَدِ
لمّا رأيتُ الديارَ قد دَرَسَتْ * أيقنتُ أنّ النعيمَ لم يَعُـدِ

قال : فَرِقّ لها الرشيد ، وأمر بإطلاقها ، فانصرفت .

وقال أبو عبـد الله بن حمدون : إنّ عَقِيدًا مولى صالح بن الرشيد خطَب دنانير وشُغِف بها فردّته ؛ فآستشفع إليها بمولاه صالح بن الرشيد وببَذْل والحسن بن مُحْرِز فلم تُجب ، وأقامت على الوفاء لمولاها . فكتب اليها عَقِيد :

يا دنانيرُ قـد تَنكّر عقـلى * وتَحيّرتُ بين وَعْدٍ ومَطْـلِ
شَغَفِى شافعِى إليـكِ وإلّا * فآقتُلِينى إن كنتِ تَهْوَيْنَ قتلِى
أنا بالله والأمـيرِ وما آ * مُلُ من مَوْعِدِ الحسين وبَذْلِ
ما أُحِبّ الحياةَ يا حِبّ إن لم * يجمع الله عاجلًا بك شملِى

فلم يَعْطِفها ذلك عليـه ، ولم تزل على حالهـا حتى ماتت . ولعَقِيدٍ هـذا فيها أشعار فيها غناء . وكان عقيد حسن الغناء ، وله فيها أصوات ؛ منها قوله :

هـذى دنانـيرُ تنسانى وأذكُرُها * وكيف تنسَى مُحِبًّـا ليس ينساهـا
أعـوذُ بالله من هِجْـرانِ جاريةٍ * أصبحتُ مِنْ حُبِّها أهذى بذكراها

قد أكمل الحُسْنُ فى تركيب صُورتِها * فارتجّ أسْفَلُها واهتزّ أعلاها
قامتْ لتمشِى فليت اللهَ صوّرنى * ذاك الترابَ الذى مَسّته رِجلاها
والله والله لو كانت ، إذا برزت ، * نفسُ المتيّم فى كَفَّيْهِ ألقاها

ذكر أخبار عَرِيبَ المأمونيّة (١)

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت عَريب مغنِّية مُحسنة ، وشاعرة صالحة الشعر ، وكانت مليحة الخطّ والمذهبِ فى الكلام ، ونهايةً فى الحسن والجمال والظَّرْف وحُسْن الصوت وجودة الضَّرْب وإتقان الصَّنْعة والمعرفة بالنَّغَم والأوتار والرواية للشعر ؛ لم يتعلّق بها أحد من نُظَرائها ، ولا رُئى فى النساء — بعد القِيان المجازيّات مثل جميلة وعزّة الميلاء وسلّامة الزرقاء ومن جرى مجراهنّ على قِلّة عددهنّ — نظيرٌ لها .

قال : وكان فيها من الفضائل التى وصفناها ما ليس لهنّ مما يكون فى مثلها من جوارى الخلفاء ومن نشأ فى قصور الخلفاء وغُذِى برقيق العيش الذى لا يُدانيه عيش المجاز والمَنْشأ بين العامّة والعرب الجُفَاة . قال : وقد شهِد لها من لا تحتاج مع شهادته الى غيره ؛ فرُوِى عن حمّاد بن إسحاق قال قال أبى : ما رأيتُ امرأةً أضربَ من عريب ، ولا أحسنَ صنعةً ووجهًا ، ولا أخفَّ روحًا ، ولا أحسنَ خطابًا بارعا ، ولا أسرعَ جوابًا ، ولا ألعبَ بالشِّطْرَنْج والنَّرْد ، ولا أجمعَ لخَصْلة (٤٢)

(١) ورد هذا الاسم مضبوطا فى الأغانى ج ٢١ ص ١٨٤ طبع ليدن والمحاسن والأضداد للجاحظ ص ١٩٩ طبع ليدن (بضم أوّله وفتح ثانيه) . ولكن رأينا فى الأغانى من الشعر ما يؤيد أن ضبطه بفتح أوّله وكسر ثانيه ؛ ومن هذا الشعر :

لقد ظلموك يا مظلوم لما * أقاموك الرقيب على عريب
ولو أولوك إنصافا وعدلا * لما أخلوك أنت من الرقيب

ومن هذا الشعر أيضا :

قاتل الله عريبا * فعلت فعلا عجيبا

حسنةٍ لم أرَها فى ٱمرأة غيرها قطُّ . قال حماد : فذكرتُ ذلك ليحيي بن أكثم ، فقال : صدَق أبو محمد ، هى كذلك . قلت : أفسمعتَها ؟ قال : نعم ، هناك (يعنى فى دار المأمون) . قلت : أفكانتْ كما ذكر أبو محمـد فى الحِذق؟ قال يحيي : هذه مسـئلةٌ الجوابُ فيها على أبيك ، هو أعلم منِّى بهـا . فأخبرتُ أبى بذلك ، فضحِك ثم قال : أمَا ٱستحييتَ من قاضى القضاة أن تسأله عن مثل هذا ! ٥

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ : إسـتدعانى المأمون يومًا فدخلت عليـه ، فسألنى عن صوت وقال لى : أتدرى لمن هو؟ فقلت : أسمعه ثم أُخبر أمير المؤمنين إن شاء الله بذلك . فأمر جاريةً من وراء السِّـتارة أن تُغنِّيـه ، فضربت فإذا هى قد شبّهته بالقديم ؛ فقلت : زِدْنى معها عودًا آخر ، فإنه أثبَتُ لى ؛ فزادنى عودًا آخر . فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا صوتٌ مُحْدَث لٱمرأة ضاربة . قال : من أين قلت ذلك؟ فقلت : إنى لمـّا سمعتُ لِينَه عرفتُ أنه مُحْدَث من غناء النساء ، ولمـّا رأيت جودة مَقَاطعه علمتُ أنّ صاحبتـه ضاربة حفِظتْ مقاطعَـه وأجزاءه ، ثم طلبتُ عودًا آخر فلم أشكّ . قال : صدَقت ، الغناءُ لِعَرِيبَ . ١٠

وقال ٱبن المعـتزّ : قال علىّ بن يحيي : أمرنى المعتمد على الله أن أجمـع غِناء عريب الذى صنعته ، فأخذتُ منها دفاترَها وصُحُفَها التى كانت قد جمعتْ فيها غِناءها ، فكتبتُه فكان ألفَ صوت ، وقد قيـل أكثر من ذلك . وقد وصفها أبو الفرج الأصفهانىّ وأطنب فى وصفها وتفضيلها ، وٱستدلّ على ذلك وبسط القولَ فيه . ١٥

وأمّا ما قيل فى نسبها وسنّها وكيف تنقّلت بها الحال إلى أن ٱتصلت بالمأمون ، فقد رُوِى عن إسماعيل بن الحسين خال المعتصم أنها ٱبنة جعفر بن يحيي ، وأنّ البرامكة لمـا نُهِبوا سُرِقتْ وهى صغيرة فبِيعتْ . قال أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المَرَاكبىّ : ٢٠

إن أمّ عريب كانت تُسَمّى فاطمة، وكانت يتيمة؛ فتزوّجها جعفر بن يحيى بن خالد؛ فأنكر عليه أبوه، وقال له: تتزوّج بمن لا يُعرف لها أمّ ولا أب! اشْترِ مكانها ألف جارية. فأخرجها جعفر وأسكنها فى دار فى ناحية باب الأنبار سِرًّا من أبيه، ووكّل بها من يحفَظها، وكان يتردّد إليها؛ فولدت عريب فى سنة إحدى وثمانين ومائة. وكانت سِنُوها إلى أن ماتت ستًّا وتسعين سنة. قال: وماتت أمّ عريب فى حياة جعفر، فدفعها إلى امرأة نَصْرانيّة وجعلها دايةً[1] لها. فلما حدثت بالبرامكة تلك الحادثة باعتها من سنبس النخّاس، فباعها من المراكبىّ.

قال ابن المعتزّ: وأخبرنى يوسف بن يعقوب قال: كنت إذا نظرتُ قَدَمَىْ عَرِيب شَبّهتُهما بقدمى جعفر بن يحيى. قال: وسمعت من يحكى أنّ بلاغتها فى كتبها ذُكِرتْ لبعض الكتّاب، فقال: وما يمنعها من ذلك وهى بنت جعفر بن يحيى! هذا ملخص ما حكاه أبو الفرج فى نسبها.

وأمّا أخبارها مع مَنْ مَلَكها وكيف تنقّلت بها الحال، فقد حكَى ابن المعتزّ عن الهشامىّ أنّ مولاها خرج بها إلى البَصْرة فأدّبها وخرّجها وعلّمها الخطّ والنحو والشعر والغِناء، فبرَعَت فى ذلك أجمع، وتزايدت حتى قالت الشعر. وكان لمولاها صديقٌ يقال له حاتم بن عدىّ من قوّاد خُراسان، وقد قيل: إنه كان يكتب لعجيف على ديوان العرض؛ فكان مولاها يدعوه كثيرا ويُخالطه. فركِبه دَيْن فاستتر عنده؛ فمدّ عينَه الى عَرِيب وكاتبها فأجابته، ودامت المواصلة بينهما وعَشِقته؛ ثم انتقل من منزل مولاها. فلم تزل تحتال حتى اتّخذت سُلّمًا من سِبّ[2]، وقيل: من خيوط غِلاظ، وكان قد اتّخذ لها موضعا، ثم لفّت ثيابها وجعلتها فى فِراشها بالليل ودَرّتها

(١) الداية: الظئر المرضعة والمربية. (٢) السب: شقة كتان رقيقة. وفى الأصل: «سقب». وفى الأغانى: «عقب». فلعلهما محرفان عما أثبتناه.

بدثارها، ثم تسوّرت الحائط وهرّبت، وأتته فمكثت عنده؛ ومولاها لا يتهمه بشيء من أمرها . فقال عيسى بن عبد الله بن إسماعيل المراكبيّ يهجو أباه ويعيّره بها — وكان كثيرا ما يهجوه — :

قاتل اللهُ عَرِيبَا * فعلتْ فِعلًا عَجِيبا
رَكِبتْ والليلُ دَاجٍ * مَرْكَبًا صَعْبًا مَهِيبا
فَارتقتْ مُتَّصِلًا بالـ * ـنَّجمِ أو مِنه قريبا
صَبَرَتْ حتى إذا ما * أقصَدَ النومُ الرَّقِيبا
مَثَلتْ بين حَشَايا * ها، لِكَيْ لا تَسْتَرِيبا
خَلَفًا منها إذا نُو * دِى لم يُلْفَ[1] مُجِيبا
ومضتْ يحملها الخَوْ * فُ قَضِيبًا وكَثِيبا
مُحَةً لو حُرِّكتْ خِفْ * ـتَ عليها أن تَذُوبا
فتدلّتْ لِمُحِبٍّ * فتلقّاها حَبِيبا
جَذِلًا قد نال فى الدُّنْـ * ـيَا من الدُّنيا نَصِيبا
أيّها الظبيُ الذى تَسْـ * ـحَرُ عيناه القلوبا
والذى يأكُلُ بعضًا * بعضُه حُسْنًا وطِيبا
كنتَ نَهْبًا لِذِئابٍ * فلقد أطمعتَ ذِيبا
وكذا الشاةُ إذا لم * يَكُ راعِيها لبيبا
لا يُبالِى وَبَأَ المَرْ * عَى إذا كان خَصِيبا
ولقد أصبح عبد اللّـ * ـه كَشَخَانًا جَرِيبا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « لم تلق » .

قَـدْ لَعَمْرِى لَطَم الخَـدُّ وقد شَـقَّ الجيوبا
وجرت منـه دموعٌ * بَلَّتِ الذَّقْنَ الخَضِيبا

قال ٱبن المعتزّ : وحدّثنى محمـد بن موسى بن يونس : أنها ملّته بعـد ذلك فهرَبت منه ، فكانت تغنّى عند أقوام عرفتهم ببغداد وهى مستترة متخفّية . فلمّا كان يومٌ من الأيام ٱجتاز ٱبنُ أخى المَرَاكبىّ ببُسـتانٍ كانت فيه مع قوم تغنّى، فسمع غِناءها فعرفه؛ فبعث إلى عمّـه وأقام هو مكانه، فلم يبرَح حتى جاء عمّه وكَبَسها، فأخذها وضربها مائةَ مِقْرَعة وهى تصيح: يا هذا، لِم تقتلنى ! لست أصبِر عليك، أنا ٱمرأة حُرّة، فإن كنتُ مملوكةً فبِعْنى، لستُ أصبِر على الضّيق . فلما كان من الغد نَدِم على فعله وصار إليها فقبّل رأسَها و يدها ورجلها ووَهَب لها عشرةَ آلاف درهم . ثم بلغ محمدًا الأمينَ خبرُها فأخذها . قال : وكان الأمينُ فى حياة أبيه طلبها منه فلم يُجِبه إلى ذلك . فلما أفضتْ إليه الخلافةُ جاء المراكبىّ ومحمدٌ راكب ليقبّل يده؛ فأمر بمنعِهِ ودفعه ، ففعل ذلك الشاكرىّ(١)؛ فضربه المراكبىّ وقال: أتمنعنى من تقبيل يد مولاى ! فجاء الشاكرىّ لمـّا نزل محمد الأمين فشكاه؛ فأمر بإحضار المراكبىّ فأمر بضرب عنقه، فسئل فى أمره فعفا عنه وحبسه، وطالبه بخمسمائة ألف درهم مما ٱقتطعه من نفقات الكراع؛ و بعث فأخذ عريب من منزله مع خَدَم كانوا له . فلمّا قُتـل محمد الأمين هَربتْ عريب الى المراكبىّ فكانت عنده .

قال ٱبن المعتزّ: وأمّا رواية إسماعيل بن الحسن خال المعتصم فإنها تخالف هذا، وذكر أنها إنما هربت من دار مولاها المراكبىّ إلى محمد بن حامد الخاقانىّ المعروف بالخَشِن أحد قوّاد خُراسان، وكان أشقر أصهب أزرق العين . وفيه تقول عَرِيب ولها فيه غناء :

(١) الشاكرىّ : الأجير والمستخدم، وهو معرب جاكر . (عن القاموس) .

بأبى كلّ أصْهَبٍ * أزرقِ العينِ أشقرِ
جُنَّ قلبى به وليـ * ـس جُنُونى بمُنْكَرِ

وقال إسحاق بن إبراهيم : لمّا نُمى إلى الأمين خبرُ عَرِيب بعث فى إحضارها وإحضار مولاها فأحضرا، فغنّت بحضرة إبراهيم بن المهدىّ، فطرِب الأمين وآستعادها، وقال لإبراهيم : كيف سمعت ؟ قال : سمعت يا سيِّدى حسنًا، وإن تطاولتْ بها الأيام وسَكَن رَوْعُها آزداد غِناؤها حُسْنًا وطِيبا . فقال للفضل بن الربيع : خذها إليك وسَاوِمْ بهـا ففعل، فآشتطّ مولاها فى السَّوْم ثم أوجبها له بمـائة ألف درهم. وآنتقض أمر الأمين وشُغِل عنها فلم يأمُرْ لمولاها بشىء حتى قُتل بعد أن آقتضّها؛ فرجعت إلى مولاها، ثم هَرَبت منه إلى آبن حامد؛ فلم تزل عنده حتى قدِم المأمون بغداد فتظلم المراكبىّ من محمد بن حامد، فأمر المأمون بإحضاره وسُئل عنها فأنكرها. فقال له المأمون : كذَبتَ، وقد سقَط إلىَّ خبرُك، وأمر صاحبَ الشُّرَط أن يجرّده فى مجلس الشُّرط ويضع عليه السِّياطَ حتى يردّها فأخذه. فبلغها الخبرُ، فركبت حمار مُكَارٍ وجاءت وقد جُرِّد ليُضْرَب، وهى مكشوفة الوجه وهى تصيح : إن كنتُ مملوكةً فليبِعْنى، وإن كنتُ حُرّةً فلا سبيلَ علىّ. فرُفع خبرُها إلى المـأمون، فأمر بتعديلها عند قُتَيبة بن زياد القاضى فعُدِّلت عنده. وتقدّم إليه المَرَاكبىّ مطالبًا بها، فسأله البيِّنَة على ملكه إياها فعـاد متظلّما إلى المأمون وقال : قد طولبتُ بمـا لم يُطالَبْ به أحدٌ فى رقيق . وتظلمت زُبَيدة بنـتُ جعفر إليه وقالت : مِنْ أغلظِ ماجَرَى علىّ، بعـد قتل آبنى، هجومُ المَرَاكبىّ على دارى (١) وأخذُ عَرِيب منها. فقال المراكبىّ : إنما أخذتُ مِلْكى، لأنه لم يَنْقُدْنى الثمن. فأمر المأمون بدفعها إلى محمد آبن عمر الواقدىّ، وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرقىّ، فأخذها من قُتَيبة بن زياد

(١) فى الأصل : «داره» وهو تحريف .

وأمر ببيعها ساذَجةً؛ فاشتراها المأمون بخمسين ألف درهم، وقيل : اشتراها بخمسة آلاف درهم . ودعا عبد الله بن إسماعيل وقال له : لولا أنّى حلفت ألّا أشترى مملوكا بأكثر من هذا لزدتك، ولكنى سأُوَلِّيك عملًا تَكسِب فيه أضعافَ هذا الثمن، و رمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتُهما ألف دينار، وخلع عليه خِلَعاً سنيّة. فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ينتفع بهذا الأحياء، وأمّا أنا فإنى لا محالة ميّت؛ لأن هذه الجارية كانت حياتى . وخرج فاختلط وتغيّر عقله ومات بعد أربعين يوما . وذهبت بالمأمون كلّ مذهب ميلًا إليها ومحبّةً لها، حتى قيل : إن المأمون قبّل رجلها فى بعض الأيام وإنها قالت أثر ذلك: وألله ياأمير المؤمنين، لولا ما شرّفها الله به من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها! ولكن لله علىّ ألّا أغسِلها لغير وضوء أو طُهْر إلا بماء الورد ما عِشْتُ . فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت .

وحَكى علىّ بن يحيى المنجّم أنّ المأمون لمّا مات بِيعتْ فى ميراثه — ولم يُبَعْ له عبدٌ ولا أمةٌ غيرُها — فاشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهى مولاته . وقيل : إنه لمّا مات محمد الأمين تدلّت عَرِيب من قصر الخُلْد بحبل إلى الطريق وهَربت إلى حاتم بن عدىّ .

وحكى إبراهيم بن رَبَاح قال : كنت أتولّى نفقاتِ المأمون، فوَصَف له إسحاق ابن إبراهيم الموصلىّ عَرِيب، فأمره أن يشتريها له، فاشتراها بمائة ألف درهم؛ فأمرنى المأمون بحملها، وأن أحمل إلى إسحاق مائة ألف درهم، ففعلت ذلك؛ فلم أدر كيف أثبِتها، فكتبتُ فى الدِّيوان أنّ مائة الألف خرجتْ فى ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودَلّالها. فجاء الفضل بن مروان الى المأمون وقد رأى ذلك وأنكره، وسألنى عنه فقلت : نعم، هو ما رأيت . فسأل المأمونَ عن ذلك فقال : وهبتَ لدلّال وصائغ مائةَ ألف درهم ! وغلّظ القِصّة؛ فأنكرها

المأمون، ودعانى فدنوتُ وأخبرته أنّ المـال الذى خرج فى ثمن عَرِيب وصِلَةِ إسحاق، وقلت : أيّما أصْوَبُ يا أمير المؤمنين : ما فعلتُ، أم أُثْبت فى الديوان أنها خرجتْ ثَمَنَ مُغَنِّية وصلةَ مُغَنّ. فضحك المأمون وقال : الذى فعلتَ أصوَبُ . ثم قال للفضل ابن مروان : يا نَبَطِىّ، لا تعترض على كاتبى هذا فى شىء .

ولعَرِيب أخبار قد بسَط أبو الفـرج الأصبهانىّ القولَ بها فى كتابه الذى ترْجَمه "تحف الوسائد فى أخبـار الولائد"، وذكر أيضا نُتَفا من أخبارها فى كتابه المترجم "بالأغانى". منها خبرها مع محمد بن حامد المعـروف بابن الخَشِن، وأخبار لها مع المأمون، وأخبار مع صالح المنـذرىّ الخادم، وإبراهيم بن المـدبّر، وغير ذلك من أخبارها . وقد رأينا أن نُثْبِت لُمَعا من ذلك .

٥

١٠

أما أخبارها مع محمد بن حامد — وهو أحد من كانت تعشقه وتهواه وتخاطر بنفسها فى الاجتماع به — فمنها ما رُوى عن ابن عبد الملك الضرير أنها لمّا صارت فى دار المأمون احتالت حتى وصلت إليه، وكانت تلقاه فى الوقت بعد الوقت حتى حَمَلَتْ منه وولَدتْ بنتا، فبلغ ذلك المأمون فزوّجه إياها . وقال محمد بن موسى : اصطبح المأمون يومًا ومعه نُدَماؤه وفيهم محمد بن حامد وجماعة من المغنّين وعَرِيب معه على مصلاة، فأومأ إليها محمد بن حامد بقُبْلة، فاندفعت فغنّت ابتداء :

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فاستمرّ بطَعْنةٍ * كحاشـية البُرْدِ اليمَـانِى المُسَهّمِ

تريد بغنائها جوابَ محمد بن حامد بأن تقول له : طعنة . فقال المأمون للندماء : أيُّكم أومأ إلى عَرِيب بقُبْلة؟ والله لئن لم يَصْدُقنى لأضربنّ عُنُقَه! فقال محمد بن حامد : أنا يا أمير المؤمنين أومأتُ إليها، والعفوُ أقرب للتقوى . فقال : قد عفوتُ عنك. فقال : كيف استدلّ أميرُ المؤمنين على ذلك؟ فقال : ابتدأتْ صوتا، وهى لا تغنّى

١٥

٢٠

ٱبتداء إلا لمغنٍّ ، فعلمتُ أنها لم تبتدئ هذا الصوت إلا لشيء أُومِئ إليها به ، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلا إيماءٌ بقُبلة ، فعلمتُ أنها أجابته بطعنة . وقد حُكى أنّ المأمون قال فى هذه الواقعة عن محمد بن حامد : نُكَشْخِنه قبل أن يُكَشْخِننا؛ (١) فزوّجه إياها ، وٱشترط عليه أن يُحْضِرها إلى مجلسه فى أوقات عيّنها له المأمون .

٥ وقال حمدون : كنت ليلةً فى مجلس المأمون ببلاد الروم بعد العشاءِ الآخرة فى ليلة ظلماء ذات رُعُود و بُروق ؛ فقال لى المأمون : اركَبِ الساعةَ فرسَ النَّوبة وسِرْ إلى عسكر أبى إسحاق ، (يعنى المعتصم) ، فأدِّ إليه رسالتى وهى كيت وكيت . فركبت فلم تَثْبُت معى شمعة ، وسمعتُ وقْع حافر دابّة فرَهِبتُ ذلك فجعلت أتوقّاه حتى صَكّ ركابى تلك الدابّة ، و برقت بارقة فأبصرتُ وجه الراكب فإذا عَرِيب ؛ فقلت : عَرِيب؟

١٠ قالت : نعم ، حمدون ؟ قلت نعم . ثم قلت لها : مِنْ أين أقبلتِ فى هذا الوقت ؟ قالت : من عند محمد بن حامد . قلت : وما صنعتِ عنده ؟ قالت : يانِكْس ، عَرِيب تجىء فى هذا الوقت من عند محمد بن حامد خارجةً من مَضْرِب الخليفة راجعةً إليه تقول لها : أىّ شئ عملتِ معه ! صَلّيتُ معه التراويح ، أو قرأتُ عليه أجزاء من القرآن ، أو دارسته شيئا من الفقه ! يا أحمق ، تحادثنا وتعاتبنا وٱصطلحنا

١٥ ولعبنا وشربنا وَغنّينا وٱنصرفنا . قال : فأخجلتنى وغاظتنى وٱفترقنا . ومضيتُ فأدّيت الرسالة ؛ ثم عدت إلى المأمون وأخذنا فى الحديث وتناشدنا الأشعار ، فهممتُ أن أُحدّثه بحديثها ثم هِبْتُه ، فقلت : أُقدّم قبل ذلك تعريضا بشىء من الشعر فأنشدته :

أَلَا حَىِّ أطلالًا لقاطعة الحَبْلِ * أَلُوفٍ تُساوِى صالحَ القوم بالرَّذْلِ

٢٠ فلو أنّ من أمسَى بجانب تَلْعَةٍ * الى جَبَلَىْ طَىٍّ فساقطة النعلِ

(١) كشخنه وكشخه : شتمه بالكشخنة وهى الدِّيانة وعدم الغيرة .

جُلُوسٌ إلى أنْ يَقْصُرَ الظِّلُّ عندها * لراحوا وكلّ القومِ منها على وَصْلِ

فقال لى المأمون : اخفِضْ صوتَك لا تسمع عريب فتغضَب وتظنّ أنّا فى حديثها؛ فأمسكت عما أردت أن أُخبره به، وخار الله لى فى ذلك .

وقال محمد بن عيسى الواثقىّ : قال لى محمد بن حامد ليلةً : أُحِبّ أن تُفَرِّغَ لى مَضْرِبك، فإنى أريد أن أجيئك فأُقيم عندك؛ ففعلت وأتانى . فلما جلس جاءت عَرِيب فدخلتْ وجلسنا؛ فجعل محمد يعاتبها ويقول : فعلتِ كذا وفعلتِ كذا ! فقالت لى: يامحمد، هذا عندك رأى! ثم أقبلتْ عليه فقالت : يا عاجز، خُذْ بنا فيما نحن فيه، واجعل سراويلى مِخْنَقَتى وألْصِقْ خَلْخالِى بقُرْطى، فإذا كان غدٌ فاكتب بعتابك فى طُومار حتى أكتب اليك بعُذْرى فى مثله، ودع عنك هذا الفضول؛ فقد قال الشاعر :

دَعِى عَدَّ الذنوبِ إذا التقينا * تَعَالَىْ لا نَعُـدُّ ولا تَعُـدِّى
فأُقسمُ لو هَمَمْتِ بمدّ شَعْرِى * إلى باب الجحيم(١) لقلتُ مُدِّى

وقال أحمد بن حمدون : وقع بين عريب وبين محمد بن حامد شرٌّ حتى كادا يخرجان إلى القطيعة، وكان فى قلبها منه أكثر مما فى قلبه منها . فلقيته يومًا فقالت : كيف قلبك يامحمد ؟ قال : أشقَى ما كان وأقرحَه . فقالت : اسْتَبْدِلْ تَسْلُ. فقال لها : لو كانت البلوَى باختيار لفعلتُ! فقالت : لقد طال إذًا تَعَبُك. فقال : وما يكون! أصبِرْ مُكْرَهًا! أمَا سمعتِ قول العبّاس بن الأحنف :

تَعَبٌ يطولُ مع الرَّجاء لِذِى الهوى * خيرٌ له من راحةٍ فى الياس
لولا كرامتُكم لَمَا عاتبتُكمْ * ولكنتُمْ عندى كبعض النّاس

قال : فذرَفَت عيناها، واعتذرت اليه واعتنقته، واصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه .

(١) فى الأغانى : « الى نار الجحيم » .

وحكى أحمد بن جعفر بن حامد قال: لمّا تُوُفِّى عمّى محمد بن حامد، صار جَدِّى إلى منزله، فنظر إلى تركته وجعل يقلّب ما خَلَّف، ويُخْرَج إليه منها الشىءُ بعد الشىء، إلى أن أُخرِج إليه سَفَطٌ مختوم؛ ففَضّ الخاتَم وفتحه، فاذا فيه رِقاع عَرِيب إليه؛ فجعل يتصفّحها ويبتسم، فوقعتْ فى يده رُقْعةٌ فقرأها ووضعها بين يديه، وقام لحاجته؛ فقرأتها فإذا فيها :

وَيْلِى عليكَ ومنكا! * أوقعتَ فى الحقّ شكّا
زعمتَ أنّى خَؤونٌ * جَوْرًا علىّ وإفكا
إن كان ماقلتَ حَقّا * أوكنتُ أزمعتُ تَرْكا
فأبـــدل الله ما بى * من ذِلّة الحُبّ نُسْكا

قال : وهذا الشعر لعَرِيب .

وامّا أخبارها مع المأمون وإخوته وغير ذلك من أخبارها — قال صالح ابن علىّ بن الرشيد المعروف بزعفرانة : تمارَى خالى أبو علىّ والمأمون فى صوت، فقال المأمون : أين عَرِيب؟ فجاءت وهى محمومة، فسألها عن الصوت؛ فقالت فيه بعلمها . فقال لها : غَنِّيه . فولّت لتجىء بالعود؛ فقال: غَنِّيه بلا عُود . فاعتمدتْ من الحُمّى على الحائط وغنّت، وأقبلت عقربٌ فرأيتها وقد لَسَبَتْ يدَها مرّتين أو ثلاثا، فما نحّتْ يدها ولا سكتت حتى فرغت من الصوت؛ ثم سقطت وقد غُشى عليها .

قال عثمان بن العَلَاء عن أبيه: عَتَب المأمون على عَرِيب فهجرها[1] أياما؛ ثم اعتلّت فعادها فقال : كيف وجدتِ طعمَ الهجر؟ فقالت : ياأمير المؤمنين، لولا مرارةُ

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فهجرته » .

الهجر ما عُرِفتْ حلاوةُ الوصل، ومن ذمّ بدءَ الغضب حَمِد عاقبةَ الرضا . فخرج المأمون إلى جلسائه فحدّثهم بالقِصة ؛ ثم قال : أتُرَى لو كان هذا من كلام النَّظّام لم يكن كثيرا !

وقال أحمد بن أبى دُواد : جرى بين المأمون وبين عريب كلام، فكلّمها المأمون بشىء غضِبت منه فهجرته أياما . فدخلتُ على المأمون، فقال : يا أحمد، اقضِ بيننا . فقالت عريب : لاحاجةَ لى فى قضائه ودخوله بيننا، وأنشأت تقول :

ونخلِط الهجرَ بالوصال ولا * يدخل فى الصُّلْح بيننا أَحَـــدُ (١)

وكانت قد تمكّنتْ من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبُّها كلَّ مَذْهَبٍ ؛ وقد قدّمنا أنه قبّل رجلها .

وكانت عريب تهوَى أبا عيسى بن الرشـيد أخا المأمون، وكان المثـلُ يُضرب بحسنه وحسن غِنائه، وكانت تزعم أنها ما عشِقتْ أحدًا من بنى هاشم وأصْفَتْه من الخلفـاء وأولادهم سواه . ولم تزل عَرِيب مبجّلة عنـد الخلفاء محبوبة اليهم مُكَرَّمةً لديهم إلى أن غضب عليهـا المعتصم والواثق وانحرفا عنهـا . وكان سبب ذلك أن المعتصم وجد لها كتابًا إلى العبّاس بن المأمون ببلد الروم تقول فيه : أُقتل أنت العِلْج حتى أقتل أنا الأعور الليلىّ هاهنا (تعنى الواثق، وكان المعتصم آستخلفه ببغداد) . ولَعَمْرِى إنّ هـذا من الأمور العظيمة التى لا تُحْتَـمَل من الأولاد والإخوة فكيف من أمَة مغنِّية ! ولو لم تكن لها عندهم المكانة العظمى والمحلّ الكبير لمـا أبقَوْها بعد الاطّلاع من باطن حالها على هذه الطّوِيّة . وكانت عَريب تُكايد الواثق فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ فى ذلك الشعر تغنّيه لحنًا فيكون أجود من لحنه .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ولا يصلح» .

قال : وكانت عَرِيب تُعشّق صالحًا المنذرىّ الخادم، فتزوّجته سرًّا . فحُكِى عنها أنّ بعض الجوارى دخلتْ عليها يومًا، فقالت لها عريب : ويحك! تعالىْ إلىّ! فجاءت، فقالت : قَبِّلى هذا الموضع منّى، فإنك تَجِدين ريح الجنّة ، وأومأت إلى سالفتها، ففعلت ثم قالت لها : ما السبب فى هذا؟ قالت : قَبّلنى الساعةَ صالح المنذرىّ فى هذا الموضع . قال : ووجّهه المتوكل إلى مكان بعيد فى حاجةٍ، فقالت عريب فيه :

أمّا الحبيبُ فقد مَضَى * بالرَّغْم منّى لا الرِّضا
أخطأتُ فى تَرْكى لِمَنْ * لم أَلْقَ[1] منه عِوَضا

وكانت عَرِيب تهوَى إبراهيم بن المدبّر ويهواها، ولها معه أخبار وحكايات، وبينهما أشعار وفُكاهات . فمن مُكاتباتها إليه ما رُوِى عن ابن المعتز قال : كتبتْ إليه تدعو له فى شهر رمضان : أفديك بسمعى وبصرى، وأهَلّ الله عليك هذا الشهر باليُمن والمغفرة، وأعانك على المُفْتَرَض منه والمُتنفَّل، وبلّغك مثلَه أعواما، وفرّج عنك وعنّى فيه[2] . وكتبتْ فى شىء بلغها عنه : وَهَب الله لنا بقاءك مُمَتَّعا بالنِّعَم . ما زلتُ أمسِ فى ذكرك، فمرّةً بمدحك، ومرّةً بأكلك وبذكرك بما فيك لَوْنًا لونا . اِجْحَدْ ذنبَك الآن، وهاتِ حُجَج الكُذّاب ونِفاقَهم . فأمّا خبرُنا أمسِ فإنا شَرِبنا من فضل نبيذك على تَذْكارك رِطْلا، وقد رفعنا حسابنا إليك، فارفَعْ حسابك إلينا، وخبِّرنا مَنْ زارك أمسِ وألهاك، وأىّ شىء كانت القِصّة على جهتها . [ولا تُخَطْرِف[3] فتُحْوِجَنا إلى كَشْفك والبحث عليك وعن حالك]، وقل الحق، فمن صدق [نجا][4]. وما أحوجك إلى تأديب، فإنك لا تُحْسِن أن تَوَدّ[5] . [والحقّ أقول إنه يعتريك كُزاز[6]

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٨٤ طبع بلاق) . وفى الأصل * لم ألف عنه معرضا *

(٢) فى الأصل : «فيك» . (٣) تخطرف الشىء : جاوزه . (٤) التكملة عن الأغانى .

(٥) كذا فى الأغانى (ج ١٩ ص ١٢٢ طبع بلاق) . وعبارة الاصل : « وما أحوجك الى تأديب فانك لاتحسن أن تؤدبه » . (٦) الكزاز : تشنج يصيب الإنسان من البرد الشديد .

شـديد يجوز حدّ البَرْد . وكفاك بهذا من قولى عقوبةً . و إن عُدْتَ سمعتَ أكثر منه[1]] . والسلام .

ولما نَكَب عبـد الله بن يحيى بن خاقان ٱبنَ المدبّر وحبسه ، كتبتْ إليه كتاباً تتشوّقه وتُخبره ٱستيحاشها له وٱهتمامها بأمره ، وأنها قد سألت الخليفة فى أمره فوعدها ما تحبّ . فأجابها عن كتابها ، وكتب فى آخر الجواب :

لَعَمْرُكَ ما صـوتٌ بديعٌ لمَعْبَدٍ * بأحسنَ عندى من كتاب عَرِيب
تأمّلتُ فى أثنـائه خطّ كاتبٍ * ورِقّةَ مُشْـتاقٍ ولفظَ خَطِيب
وراجعنى من وَصْلها ما ٱستفزّنى * وزهّدنى فى وصل كلّ حبيب
فصِرتُ لها عبـدًا مُقِرًّا بملْكِها * ومُسْتَمْسكًا من وُدّها بنصيب

وقال أبو عبد الله بن حمـدون : اجتمعتُ أنا و إبراهيم بن المدبّر وٱبن مَيّادة والقـاسم بن زرزر فى بستان بالمَطِيرة فى يوم غَيْم ورَذَاذ يقطـر أحسن قَطْر ونحن فى أطيب عيش وأحسن يوم ، فلم نشعُر إلا بعَرِيب قد أقبلتْ من بعيـد ؛ فوثب إبراهيم من بيننا فخرج حافياً حتى تلقاها ، وأخذ برِكابها حتى نزلت ، وقبّل الأرض بين يديها . وكانت قد هجرته مدّةً لشىء أنكرته عليه . فجاءت وجلستْ وأقبلت عليه متبسمة ، ثم قالت : إنما جئتُ إلى مَنْ هاهنا لا إليك . فٱعتذر وشفَعنا له فرضِيت . وأقامت عندنا يومئذ و باتت ، وٱصطبحنا من غد وأقامت عندنا . فقال إبراهيم :

بأبِى مَنْ حَقّق الظنّ به * وأتانا زائرًا مُبْتَـديَا
كان كالغيث تَرَاخَى مُدّةً * وأتى بعد قُنُوط مُرْوِيَا
طاب يومانِ لنا فى قُرْبِهِ * بعد شهرينِ لهجرٍ مَضَيَا
فأقرّ الله عينى و ـــفى * سَقَمًا كان لجسمى مُبْلِيَا

(١) التكملة عن الأغانى .

وقال فيها أيضا :

أَلَا يا عَرِيبُ وُقِيتِ الرَّدَى * وجَنَّبكِ اللهُ صَرْفَ الزَّمَنْ
فإنّكِ أصبحتِ زَيْنَ النساء * وواحدةَ النّاسِ فى كلّ فَنّْ
فَقُرْبُكِ يُدْنِي لذيذَ الحياةِ * وبُعْدُكِ يَنْفِي لذيذَ الوَسَنْ
فنِعْمَ الأنيسُ ونعم الجليسُ * ونعم السميرُ ونعم السَّكَنْ

وقال أيضا فيها وفى جاريتَيْنِ بِدْعة وتُحْفة :

إنّ عَرِيبًا خُلِقتْ وَحْدَها * فى كلّ ما يَحْسُنُ من أمرها
ونعمةً لِلهِ فى خَلْقِهِ * يُقَصِّرُ العالَمُ فى شُكرها
أشهدنى جاريتاها على * أنّهما مُحسنتَا دهرِها
فبِدْعةٌ تُبْدِعُ فى شَجْوِها * وتُحْفةٌ تُتْحِف فى زَمْرِها
ياربّ أمْتِعْها بما خُوِّلتْ * وآمدُدْ لها ياربّ فى عمرها

وقال علىّ بن العباس بن أبى طلحة الكاتب : كنت عند إبراهيم بن المدبّر، فزارته بِدْعة وتُحْفة ، وأخرجتا رقعة من عَرِيبْ، فقرأها فإذا فيها : بنفسى أنت وسمعى وبصرى ،وقَلّ ذلك لك. أصبح يومنا هذا طيبا — طيّب الله عيشَك — قد احتجبت سماؤه ، ورق هواؤه، وتكامل صفاؤه ، وكأنه أنت فى رِقّة شمائلك وطِيب مَحْضرك ومَخْبَرِك ،لا فقدت ذلك أبدًا منك! ولم يُصادِف حسنُه وطِيبُه منّا نشاطًا ولا طَرَبًا لأمور صدّتنى عن ذلك ،أكره تنغيصَ ما أشتهيه لك من السرور بشرحها. وقد بعثتُ إليكَ ببِدْعة وتُحْفة ليؤنِساك وتُسَرّ بهما، سرّك الله وسرّنى بك! . فكتب إليها :

كيف السرورُ وأنتِ نازحةٌ * عَنِّى! وكيف يسوغُ لى الطربُ!
إن غبتِ غاب العيشُ وانقطعتْ * أسبابُه وألحّتِ الكُرَبُ

وأنفذ الجواب [اليها] (١) . فلم تلبث أن جاءت على حمار مِصْرىّ، فبادر إليها وتلقاها حافيًا حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأ الحمارُ بِساطَه وما عليه، حتى أخذ بِركابها فأجلسها فى مَجْلِسه وجلس بين يديها. ثم قال :

أَلَا رُبَّ يومٍ قَصَّرَ اللهُ طُولَهُ * بقُرْبِ عَرِيبٍ، حَبَّذا هو من قُرْبِ
بها تحسُنُ الدّنيا ويَنْعَمُ عيشُها * وتجتمع السَّرّاء للعين والقلبِ ٥

وقال إبراهيم بن اليزيدىّ : كنتُ مع المأمون فى بلد الروم. فبينما أنا أسير فى ليلة مظلمة شاتية ذات غَيْم وريح وإلى جانبى قُبّة، إذ بَرَقَتْ بَرْقةٌ فإذا فى القُبّة عَرِيب. فقالت : يا إبراهيم بن اليزيدىّ . فقلت : لَبَّيْك ! قالت : قل فى هذا البرق أبياتا مِلَاحًا لأُغَنِّى فيها . فقلت :

ماذا بقلبى من أليم الخَفْقِ * إذا رأيتُ لَمَعانَ البَرْقِ ١٠
من قِبَلِ الأُرْدُنِّ أو دِمَشْقِ * لأن مَنْ أهوَى بذاك الأُفْقِ
فارقتُــه وهو أعزُّ الخَلْقِ * علىّ والزُّورُ خِلافُ الحقّ
ذاك الذى يَمْلِكُ منّى رِقِّى * ولستُ أبغِى ما حَيِيتُ عِتْقِ

فتنفَّستْ نَفَسًا ظننتُــه قد قطَع حَيَازِيمَها، فقلت : وَيْحَــكِ ! على مَنْ هــذا التنفس ؟ فضحِكت ثم قالت : على الوطن . فقلت : هيهات ! ليس هذا كله على الوطن . فقالت : ويلك ! أظننتَ أنك تَسْتَفِزّنى ! والله لقد نظرتُ نظرةً مُرِيبةً فى مجلسٍ فأدّعاها أكثرُ من ثلاثين رئيسا، والله ما علم أحدٌ منهم لمن كانت إلى هذا الوقت . ١٥

(١) فى الأصــل : « وابتــدأ الجواب فلم تلبث » . والتصويب والزيادة عن الأغانى (ج ١٩ ص ١٢٥ طبع بلاق) . ٢٠

وقال أبو العُبَيْس بن حمدون: غضِبتْ عريب على بعض جواريها، فجئتُ إليها وسألتها أن تعفو عنها؛ فقالتْ — فى بعض ماتقوله مما تعتدّ به عليها من ذنوبها —: يا أبا العباس، إن كنتَ تشتهى أن ترى زِنَاىَ وصَفَاقةَ وجهى وجُرْأتى على كلّ عظيمةٍ أيّام شبابى، فانظُرْ إليها واعرِفْ أخبارها. قال: وكانت فى شبابها يُقدَّم إليها البرذونُ فتَطْفِر عليه بلا رِكاب.

وقال أبو العبّاس بن الفُرات: حدّثتنى بِدْعة جارية عريب: أنّ عريب كانت تجد فى رأسها بَرْدًا وكانت تُغَلِّف رأسها بستين مِثقالًا مِسكا وعنبرا، وتغسِله من جمعة إلى جمعة، فإذا غسلته جدّدت غيره، وتقتسم الجوارى غُسَالةَ رأسها.

وقال علىّ بن المنجّم: دخلت يومًا على عريب مُسَلِّما عليها، فلما جلستُ هطلت السماء بمطر عظيم. فقالت: أقِم عندى اليوم حتى أُغَنِّيك أنا وجوارىّ، وابعَثْ إلى من أحببتَ من إخوانك، فأمرتُ بدوابّى فرُدّت، وجلسنا نتحدّث. فسألتنى عن خبرنا بالأمس فى مجلس الخليفة ومن كان يُغَنِّينا، وأىّ شىء استحسنّاه من الغناء. فأخبرتها أنّ صوت الخليفة كان لَحْنًا صنعه بنان من الماخورىّ. فقالت: وما هو؟ فقلت:

تَجَافَى ثم تَنْطِيقُ * جُفُونٌ حَشْوُها الأرَق
وذِى كَلَفٍ بكى جَزَعًا * وسَفْرُ القومِ مُنْطَلِق
به قَلَقٌ يُمَلْمِلُهُ * وكان وما به قَلَق
جوانحُه على خَطَرٍ * بنار الشَّوقِ تَحْتَرِقُ

فوجّهت رسولًا إلى بنان، فحضر وقد بلّته السماء؛ فأمرت بخِلَع فاخرة فخُلِعتْ عليه، وقُدِّم له طعام فأكل، وجلس يشرب معنا. فسألته عن الصوت فغنّاها إياه. فأخذتْ دواةً ورُقْعةً وكتبت:

أجاب الوابلُ الغَـدِقُ * وصاح النَّرجِسُ الغَـرِقُ
وقـد غَنّى بنانُ لنـا : * "جُفُونٌ حشوُها الأرَقُ"
فهـاك الكأسَ مُتْرَعةً * كأنّ خِتَـامَها حَـدَقُ

قال : فما شربنا بقيّة يومنا إلا على هذه الأبيات .

وأخبار عريب كثيرة، قد وضع عبد الله بن المعتز فيهـا ديواناً . وفيما أوردناه من أخبارها كفايةٌ لا تحتمل المختصرات أكثر منها . والله تعالى أعلم .

ذكر أخبار محبـوبة

قال أبو الفرج : كانت مولَّدة من مولدات البَصْرة، شاعرة، سريعة الخاطر، مطبوعة، لا تكاد فَضْلُ الشاعرة اليمانية تتقدّمها، وكانت أجمل من فضل وأعفّ، وكانت تغنّي غناءً غير فاخر .

وقال عليّ بن الجَهْم : كانت محبوبةُ لعبـد الله بن طاهر أهداها إلى المتوكّل فى جملة أربعمائة جارية . وكانت بارعة الحسن والظَّرْف والأدب، مغنّيةً محسنة، فحَظِيتْ عند المتوكل حتى كان يُجْلِسها خلف السِّتارة وراء ظهره إذا جلس للشُّرب، فيُدْخِل رأسَه إليها فيراها ويحدِّثها فى كل ساعة .

وقال عليّ بن يحيي المنجِّم : كان عليّ بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جِدًّا، فلا يكتُمه شيئا من سِرّه مع حُرَمه وأحاديث خَلَواته . فقال له يوماً : إنّى دخلتُ على قبيحة فوجدتُها قد كتبت اسمى على خدّها بغالية، فلا والله ما رأيت شيئا أحسنَ من سواد تلك الغاليةِ على بياض ذاك الخـدّ، فقل فى هذا شيئا — قال : وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء الستارة — فدعا عليّ بن الجَهْم بدواة، فإلى أن أُتِى بها وابتدأ يفكّر قالت محبوبة على البَدِيهة من غير فِكرة ولا رَوِيّة :

وكاتبةٍ فى الخدّ بالمِسْكِ جعفرًا * بنفسى مَخَطّ المِسك من حيثُ أثّرا
لئن كتبتْ فى الخدّ سَطْرًا بكَفِّها * لقد أودعتْ قلبى من الحبّ أسطُرا
فيامَنْ لمملوكٍ لِمِلْكِ يَمِينِهِ * مُطِيعٍ له فيما أسرّ وأظهرا!
ويا مَنْ هواها فى السريرة جعفرٌ * سَقَى اللهُ من سُقْيَا ثَنَاياكِ جعفرا

٥ قال : فبقى علىّ بن الجَهْم واجمًا لا ينطق بحرف ، وأمر المتوكّل بالأبيات فبُعِثتْ إلى عَرِيب وأمرها أن تغنّى فيها . قال علىّ بن الجهم : فتحيّرتُ والله وتقلّبت خواطرى ، فوالله ما قَدَرتُ على حَرْف واحدٍ أقوله .

وقال أيضا : غاضب المتوكل يوما محبوبة وهجرها ومنع جواريها جميعا من كلامها ؛ ثم نازعته نفسُه إليها وأراد ذلك ، ثم نازعته العِزّة منها وامتنع من ابتدائها ،
١٠ وامتنعت من ابتدائه دَلَالًا عليه لمَحَلّها منه . قال علىّ : فبكّرت إليه يوماً ؛ فقال لى : يا علىّ ، إنى رأيت البارحةَ فى نومى كأنّى صالحتُ محبوبة . فقلت : أقرّ الله عينَك يا أمير المؤمنين وأنامك على خير وأيقظك على سرور ! أرجو أن يكون هذا الصلح فى اليقظة . فبينا هو يحدّثنى وأحدّثه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرّت إليه شيئا ، فقال : (٥٠)
أتدرى ما أسرّت إلىّ هذه؟ قلت لا . قال : حدّثتنى أنها اجتازت بمحبوبة الساعة وهى
١٥ فى حجرتها تغنّى ، أفلا تعجب من هذا ؟ أنا مُغَاضِبها وهى متهاونةٌ بذلك ، لا تبدؤنى بصلح ثم لا ترضى حتى تغنّى فى حُجرتها ؛ فقُمْ بنا حتى نسمع ما تغنّى . ثم قام وتبعته حتى انتهى إلى حجرتها ، وإذا هى تغنّى :

أدورُ فى القَصْر لا أرى أحدًا * أشكو إليه ولا يكلّمنى
حتى كأنّى أتيتُ مَعْصِيةً * ليست لها توبةٌ تُخَلّصنى
٢٠ فهل لنا شافعٌ إلى مَلِكٍ * قد زارنى فى الكَرَى وصالحنى
حتى إذا ما الصّباحُ لاح لنا * عاد إلى هجره فصارَمنى

فعجب المتوكل ، وأحسّتْ بمكانه فأمرَتْ بخدمها فخرجوا وتنحّينا ، وخرجت إليه فحدّثته أنها رأته فى منامها فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنّت فيها ؛ فحدّثها هو أيضا رؤياه واصطلحا . فلما قُتل المتوكل سَلَاه جميع جواريه غيرها ؛ فإنها لم تزل حزينةً هاجرة لكل لذّة حتى ماتت . ولها فيه مَراثٍ .

حكى أبو الفرج : أنّ وَصِيفاً بعد قتل المتوكل أحضرها يوماً وأحضر الجوارى ، ٥ بفئن وعليهن الثياب الملوّنة المُذْهَبة والحُلِىّ وقد تزيّنّ وتعطّرن ، وجاءت محبوبةُ وعليها ثيابٌ بِيض غير فاخرة حزنًا على المتوكل . فغنّى الجوارى جميعًا وشَرِبن ، وطَرِب وصيف وشَرِب . ثم قال : يامحبوبة ، غَنّى ؛ فأخذت العود وغنّت وهى تبكى :

أىُّ عيشٍ يَطِيبُ لى * لا أرى فيه جعفرا
مَلِكًا قد رأته عيـ * ـنى قَتِيلًا مُعَفَّرا ١٠
كلُّ من كان ذا هُيا * مٍ وحُزن فقد بَرَا
غير محبوبة التى * لو ترى الموتَ يُشْتَرى
لاشترته بملكها * كلّ هذا لِتُقْبَرَا
إنّ موت الكئيبِ أصـ * ـلحُ مِنْ أن يُعَمَّرا

فاشتدّ ذلك على وصيف وأمر بقتلها ؛ فاستوهبها بُغَا منه فوهبها له . فأعتقها ١٥ وأمر بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد . فخرجت إلى بغداد من سُرَّ مَنْ رَأَى ، وأنحلت ذكرها طول عمرها ؛ وما طمِع فيها أحد . رحمها الله تعالى .

ذكر أخبار عُبَيْدة الطُّنْبوريّة

قال أبو الفرج الأصفهانى : كانت عُبَيدة الطُّنْبوريّة من المحسنات المتقدّمات فى الصَّنْعة والأدب ، شهد لها بذلك إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ ؛ قال : وحسْبُها ٢٠

بشهادته . قال : وكان أبو حشيشة يعظّمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذيّة . وكانت من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم صوتا، وكانت لا تخلو من عشق . قال : ولم يُعْرَف فى الدنيا آمرأةٌ أعظم صنعةً منها فى الطُّنبور . وكانت لها صنعة عجيبة . فمنها فى الرمل :

٥ كُنْ لى شفيعًا إليكا * إن خَفَّ ذاك عليكا
وأعفِنِي من سُؤالى * سواك ما فى يديكا
يا مَنْ أُعِزُّ وأهوَى * مالِي أهونُ لديكا

قال : وحضرت يومًا عند علىّ بن الهيثم اليزيدىّ وعنده عمرو بن مَسْعَدة وهارون بن أحمد بن هشام ؛ فجاءه إسحاق بن إبراهيم الموصلى فأخبره خبرهم . فقال ١٠ له إسحاق : إنى كنتُ أشتهى أن أسمع عُبَيْدة، ولكنها إن عرفتْنى وسألتمونى أن أغنِّى بحضرتها آنقطعتْ ولم تصنع شيئا، فدعوها على جِبِلّتها[1]؛ فوافقوه على ذلك ، ودخل وكتموها أمره، وكانت لا تعرف إسحاق . وقُدِّم النبيذ، فغنّت لحنًا لها :

قَريبٌ غير مُقْتَرِبِ * ومُؤْتَلِفٌ كَمُجْتَنِبِ
له ودِّى ولِى منهُ * دَوَاعى الهَمِّ والكرَبِ
١٥ أُواصِلُه على سَبَبٍ * ويهجُرنِى بِلا سببِ
ويظلمنى على ثقةٍ * بأنّ إليه مُنْقَلَبِى

(٥١)

قال : فطرِب إسحاق وشرب نِصْفا ،ثم تغنّت وشرب ،حتى وَالَى بين عشرة أنصاف ؛ قال علىّ بن الهيثم : وشربنا معه . وقام إسحاق ليصلّى ؛ فقال لها هارون : ويحك يا عُبَيدة ! ما تُبالين والله مَتَى مُتِّ ! قالت : ولم ؟ قال : أتدرين مَن المستحسِنُ ٢٠ غناءك والشاربُ عليه ما شرِب؟ قالت : لا والله . قال : إسحاق بن إبراهيم ، فلا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «فدعوها على حلتها» .

تُعرِّفيه أنك قد عَرَفتيه . فلما جاء إسحاق ابتدأت تغنّى فلَحِقتها هيبةٌ له واختلاط، فنقصتْ قصاناً بيّناً . قال: أعرفتموها من أنا؟ فقلت: نعم، عرفها هارون . فقال إسحاق : تقوم إذاً فننصرف؛ فإنه لا خير فى عِشرتكم الليلة ولا فائدةَ لى ولا لكم؛ وقام فانصرف .

وقال مُلَاحظ غلام أبى العبّاس: اجتمع الطُّنْبوريّون عند أبى العباس بن الرشيد يومًا وفيهم المَسْدُود وعبيدة . فقالوا للمسدود : غَنّ؛ فقال : لا والله، لا تقدّمتُ على عبيدة وهى الأستاذ، فما غنّى حتى غنّت . وقال محمد بن عبد الله بن مالك الخُزَاعىّ : سمعت إسحاق يقول : الطنبور إذا تجاوز عُبَيدة هَذَيان .

✦
✦ ✦

هذا ما أمكن إيراده فى هذا الباب من أخبار مَن اشتهر بالغناء، وأخبار القيان، وهو مختصر مما أورده أبو الفرج الأصفهانى — رحمه الله تعالى — فى كتابه المترجم بالأغانى من أخبارهم . ولم نلتزم استيعابهم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء، وذكرنا من أخبارهم ما فيه كفاية . فلنذكر خلاف ذلك .

الباب السابع

من القسم الثالث من الفنّ الثانى

فيما يحتاج إليه المغنّى ويُضطرّ إلى معرفته، وما قيل فى الغناء، وما وُصفت به القِيان، ووصف آلات الطَّرَب

ذكر ما يحتاج إليه المغنّى ويضطرّ إلى معرفته وما قيل فى الغناء والقيان من جيّد الشعر

قال مالك بن أبى السَّمْح : سألت ابن أبى إسرائيل عن المُحْسِن المصيب من المغنّين، فقال : هو الذى يُشبع الألحان، ويملا الأنفاس، ويُعدّل الأوزان، ويفخّم الألفاظ، ويعرِف الصواب، ويُقيم الإعراب، ويستوفى النَّغَم الطِّوال، ويُحسن مقاطع النَّغَم القصار، ويُصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواضع النَّبَرات، ويستوفى ما يشاكلها من النَّقَرات . فعرضتُ ما قال على مَعْبَد، فاستحسنه وقال: ما يقال فيه أكثر من هذا . وقد رُوِيتْ هذه المقالة عن ابن سُرَيج . وقال إبراهيم الموصلىّ : الغناء على ثلاثة أضرب : فضربٌ مُلْهٍ مطربٌ يحرِّك ويَستخِفّ، وضربٌ ثانٍ له شَجًى ورقّة، وضربٌ ثالث حكمة وإتقان صنعة . وقال : كان هذا كله مجموعا فى غناء ابن سُرَيج . وقال أبو عثمان الناجم : بُحُوحة الحَلْق الطيِّب تُشبه مَرَض الأجفان الفاترة .

* * *

وأمّا ما قيل فى الغناء وما وصفت به القِيان .

حكى أنّ بعض المُحْدَثين سمع غناءً بخُراسان بالفارسيّة، فلم يَدْرِ ما هو غير أنه شوقه لشجاه وحُسْنه؛ فقال فى ذلك، وقيل إنه لأبى تمّام :

حَمِدْتُكِ ليلةً شَرُفَتْ وطابت * أقام سُـــهادُها ومضى كَرَاها
سمعتُ بها غِنـاءً كان أولَى * بأن يقتـادَ نفسى مِن عَنَاها
ومُسمِعةٍ بحـارُ السَّمْعُ فيهـا * ولم تُصْمِمْهُ، لا يَصْمَمْ صَدَاها
مَرَتْ أوتارَها فشفَتْ وشاقتْ * فلو يَسـطِيع حاسـدُها فَدَاها
ولم أفهمْ مَعَانِيَها ولكن * ورتْ كَبِدى فلم أجهَل شجاها
فكنتُ كأننى أعمَى مُغَنًّى * بِحبّ الغـانياتِ وما رآهـا

وقال كُشَاجم فى بُحّة حَلْق المغنِّى :

أشتهى فى الغناء بُحّـةَ حَلْقٍ * ناعِمِ الصوتِ مُتْعَبٍ مَكدودِ
كأنين المُحِبِّ أضعفه الشو * قُ فضاهَى به أنينَ العُـودِ
لا أُحِبُّ الأوتار تعلو كما لا * أشتهِى الضربَ لازِمًا للعمودِ
وأُحِبّ المحنـبات[1] كحـبِّى * للبـادِى موصولةً بالنَّشِيدِ
كهُبوب الصَّبا توسّط حالًا * بين حالَينِ شِـدّةٍ ورُكود

وقال الناجم :

شَذْوٌ ألَذُّ من ٱبتدا * ء العَـيْنِ فى إغفائها
أحلَى وأشهَى من مُنًى * نَفْسٍ وصِدْقِ رجائها

وقال محمد بن بشير :

وصوتٍ لبنى الأحرا * رِ أهلِ السِّيرةِ الحُسْنَى
شَجٍ يستغرق الأوتا * رَ حتى كلُّها تفنَى
فما أدرى اليدُ اليُسْرَى * به أشْقَى أم اليُمْنَى؟

(١) فى ديوان كشاجم طبع بيروت وفى نسختين مخطوطتين منه أيضا محفوظتين بدار الكتب المصرية : « وأحب المجنبات » .

وقلنـــا لمغنِّيـــه * وقـد غنَّى على المَثْنَى
ألَا يا ليتَ هذا الصو * تَ حتى الصُّبْحِ لا يَفْنَى
فقـد أيقظَتِ اللذّا * تُ عينًا لم تزل وَسْنَى
وما أفهـم ما يعـنِي * مُغَنِّيـــهِ إذا غَـنَّى
ولكنّى من حُبِّى * له أستحسن المعنَى

وقال الثّعالبىّ :

غِناؤك يَهْزِم جيشَ الكُرُوبِ * وعيناك للناس عُذْرُ الذنوبِ
فويلُ القُلوبِ إذا ما رَنَوْت * وإمّا شَدَوْت فويلُ الجُيوب

وقال أيضا :

وسائلةٍ تسائل عنـك قلنـا * لها فى وصفك العَجَبَ العَجِيبَا
رَنَا ظَبْيًا وغَـنَّى عَنْبَـدَلِيبًا * ولاحَ شَـقَائقًا ومَشَى قَضِيبا

وقال عُكاشة يصف قَيْنة :

مِنْ كَفِّ جاريةٍ كأنّ بَنانَهـا * من فِضّـةٍ قد طُـرِّفتْ عُنَّابا
وكأنّ يُمْنـاها إذا نطقتْ به * تُلْقِى على يدها الشِّمالِ حِسَابا

وقال ابن الرومىّ :

وقيانٍ كأنهـا أمّهاتٌ * عاطفاتٌ على بَنِيهـا حَوَانِى
مُطْفِلات وما حَمَلْن جَنِينًا * مُرْضِعات ولسن ذاتَ لِبَانِ
كلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بأسماء شَتَّى * بين عُـودٍ ومِزْهَرٍ وكِرَان (١)
أُمُّهُ دهرَها تُتَرْجِـمُ عنـه * وهو بادى الغِنَى عن التَّرْجُمانِ

(١) فى الأصل : « ذكران » وهو تحريف .

وقال أيضا :

كأنما رِقـــةُ مســموعِها * رِقّةُ شكوَى سبقتْ دَمْعَهْ
غنّتْ فلم تَحْتَجْ إلى زامرٍ * هل تُحْوِجُ الشمسُ إلى شَمْعَهْ
كأنما غنّت لشمسِ الضُّحَى * فألبستها حُسْنَهـا خلْعَـــه

وقال الناجم :

ما صدحتْ عاتِبٌ ومِزْهَرُها * إلّا وثِقْنا باللّهـــو والفَـــرَحِ
لهـا غِناءٌ كالبُرْءِ فى جَسَـــدٍ * أضناه طولُ السّـــقَامِ والتَّرَحِ
تعبُدها الرّاحُ فهى ما صَدَحتْ * إبريقُنـا ساجدٌ على القَـــدَحِ

وقال أيضا :

ما تغنّت إلّا تكشّـفَ همٌّ * عن فُؤادٍ وأقشعتْ أحـــزانُ
تفضُلُ المُسْمِعِين طِيباً وحُسْنًا * مثـلَ ما يفضُلُ السّماعَ العِيانُ

وقال أبو عُبَادة البُحْتُرِىّ : (٥٣)

وأشارتْ عـــلى الغِناءِ بألحـا * ظِ مِرَاضٍ من التّصابِى، صِحَاحِ
فطَرِبْنـا لهنّ قبـــلَ المَثَـانِى * وسَـــكرنا لهنّ قبـــل الراح

وقال كشاجم وهو أبو الفتح محمود :

أفدِى التى أهـدتْ لنـا * شمسَ الضُّحَى والليلُ حَالِكْ
ممـــلوكةٌ جلّتْ فليـ * ـس تَفِى بقِيمتِها الممَـالِكْ
عرضتْ فأعطتْ عُودَها * ضَرْباً يُعَـــرِّض للهـالِكْ
وتبِعتُهـــا فتصـــرّفتْ * بالضَّرْبِ فى كلّ المسـالِكْ
ويئستُ من إدراكِهـا * فجعلتُ صَوْتى عنـد ذلك :
قَصُرَتْ يدِى عنـك الغدا * ةَ ، فكيف لى بِيَـدٍ تنالكْ

وقال أيضا :

بدتْ فى نِسوةٍ مثل آل * مَهَا أُدْمِجْنَ إدماجا
يُحَاذِبْنَ من الأردا * ف كُثْبانًا وأمواجا
ويسترن من الأبشا * رِ فى الدِّيباج دِيباجا
وقُضْبانًا من الفِضّـ * ـةِ قد أثمرت العاجا
وقد لاثَتْ من الكور * على مَفْرِقها تاجا
فلما طُفْنَ بالمجلـ * ـس أفرادًا وأزواجا
تجاوَبْن فغنَّينـ * ـك أرْمالًا وأهْزاجا
وحرّكن من الأوتا * رِ إمساكا وإدماجا
فلا لومَ على قلبـ * ـك إن هُيِّج فاهتاجا

وقال علىّ بن عبد الرحمن بن يونس المنجّم فى عوّادة :

غنّتْ فأخفتْ صوتَها فى عُودِها * فكأنما الصوتانِ صوتُ العود
غيداءُ تأمر عودَها فيُطيعُها * أبدا ويَتْبَعُها اتِّباعَ وَدُودِ
أنْدَى من النُّوّارِ صُبْحًا صوتُها * وأرقُّ من نَشْرِ الثَّنا المعهودِ
فكأنما الصوتانِ حين تمازَجا * ماءُ الغمامةِ وابنةُ العُنْقُودِ

وقال أبو عَوْن الكاتب :

تشدو فيُرْقِصُ بالرءو * سِ لها ويُزْمِرُ بالكئوس

وقال الناجم :

طفقتْ تُغَنِّينا فخِلْنا أنّها * لسرورنا بغنائها تَغْنِينا

وقال أبو هِلَال العسكرىّ :

وهَيَّجَتْ لِىَ من شَجْوٍ ومن فَرَحٍ * أيْدٍ نَثَرْنَ على الأوتارِ عُنَّابا
لاعيبَ فى العيش إلّا خَوْفَ غَيْبتكم * إنّ السرورَ إذا ما غِبتمو غابا

وقال هارون بن علىّ المنجّم :

غُصْنٌ على دِعْصٍ نَقًا مُنْهالِ * سعَى بكأسٍ مثـل لمعِ الآل
وفاتنات الطَّـرْفِ والدَّلالِ * هِيفِ الخُصورِ رُجَّحِ الأكفالِ
يأخُذْنَ من طرائف الأرْمالِ * ومُحْكَمِ الخِفافِ والثِّقالِ
تجرِى مع النّاس بلا انفصالِ * مثلَ اختلاط الخمـر بالزُّلالِ
تدعو إلى الصَّـبْوةِ كلَّ سالِ * تَصْرَعُ كلَّ فاتِكٍ بَطّالِ
بين حَـرَامِ اللَّهوِ والحلالِ * أكرمُ من مَصَارِعِ الأبطالِ

وقال شاعر يذمّ مُغنّيا :

ومُغَنٍّ باردِ النَّغْـ * ـمةِ مُخْتَلِّ اليَـدَيْنِ
ما رآه أحـــدٌ فى * دار قـومٍ مرّتينِ
صـــوتُه أقطع لِلـذّات * من سَطْوةِ بَيْنِ

وقال ابن الرومىّ :

فظِلْتُ أشربُ بالأرطالِ لا طَرَبًا * عليـــه بل طَلَبًا للسُّكْرِ والنَّوْمِ

ذكر ما قيل فى وصف آلات الطرب

فمن ذلك ما وُصِف به العود . نظم أبو الفتح محمود المعروف بكُشاجم قول الحكماء : إنّ العود مُرَكّب على الطبائع الأربع ، فقال :

شَدَتْ فجَلَتْ أسماعَنا بمُخَفَّفٍ * يُحَدِّثها عن سِرِّها وتُحَـدِّثُهْ
مُشـاكِلةٌ أوتارُه فى طِبَـاعها * عَنَاصِرَ منها أحدث الخَلْقَ مُحْدِثُهْ (١)
فللنار منه الزِّيرُ والبَمّ أرضُـه * وللـريح مَثْناه وللماءِ مَثْلَثُـهْ

(١) فى ديوان كشاجم : « ألف الخلق » .

وكلُّ آمرئٍ يرتاح منه لِنَغْمةٍ * على حَسَبِ الطَّبْعِ الذى منه يبعثُهْ
شكا ضَرْبَ يُمْنَاها فظَلَّتْ يَسارُها * تُطَوِّقه طورًا وطورًا تُرَعِّثُهْ
فما بَرِحتْ حتى أرَتْنا مُخَارِقًا * يُجَاوِبُه فى أحسن النَّقْر عَثْعَثُهْ
وحتى حسبت البابِلِيَّيْنِ (٢) أَلْقَيَا * على لَفْظِها السِّحْرَ الذى فيه تَنْفُثُهْ

٥ وقال آخر :

جاءتْ بعُودٍ تُنَاغِيه فيُسْعِدُها * أُنْظُرْ بدائعَ ما تأتى به الشَّجَرُ
غَنَّتْ على عُودِهِ الأطيارُ من طَرَبٍ * رَطْبًا، فلما ذَوَى غنّت به البَشَرُ
فلا يزال عليه أو به طَرَبٌ * يَهِيجُه الأعجمانِ : الطيرُ والوَتَرُ

وقال آخر :

١٠ سقى الله أرضًا أنبتت عودَك الذى * ذكتْ منه أنفاسٌ وطابت مَغَارِسُ
تغنّت عليه الوُرْقُ والعُودُ أخضرٌ * وغنّت عليه الغِيدُ والعودُ يابِسُ

وقال آخر :

لا تحسَبِ العودَ إن غنّتك شادنةٌ * جاءتك بالطَّيْفِ فيه نَغْمةُ الوَتَرِ
وإنما الطيرُ ألقتْ عنده خَبَرًا * فعذّبوه فنمّ العودُ بالخبر

١٥ وقال آخر :

فكأنه فى حِجْرها ولدٌ لها * ضَمّته بين تَرَائبٍ ولَبَانِ
طَوْرًا تُدَغْدِغُ بطنَه فإذا هفا * عَرَكتْ له أُذُنًا من الآذان

وقال الناجم :

إذا آحتضنت عودَها عابث * وناغته أحسنَ أن يُعْرِبا
٢٠ تُدَغْدِغُ فى مَهَلٍ بطنَهُ * فيُسْمِعُنا مُضْحِكًا مُعْجِبا

(١) يريد هاروت وماروت اللذين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم .

وقال الحمدونى :

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ له * كأنه نَخَذٌ نِيطتْ إلى قَدَم
يُبْدِى ضميرَ سواه فى الحديث كما * يُبْدِى ضمير سواه الخطُّ بالقلم

وقال كشاجم :

جاءت بعـودٍ كأنَّ نَغْمَتَهُ * صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فتَى ٥
مُخَفَّفٌ خَفَّتِ النفوسُ بِهِ * كأنما الزَّهْرُ حـولَه نَبَتَا
دارتْ مَلَاوِيهِ فيه وٱختلفت * مثلَ ٱختلاف الكَفَّيْنِ شُبِّكَا
لو حَرَّكتْه وراء مُنْهَـزِمٍ * على بَرِيدٍ لَعَـاجَ وٱلتفتا
ياحسنَ صَوْتَيْهما كأنّهما * أُختان فى صَنْعةٍ تَرَاسلتا
وهو على ذا ينوبُ إن سَكَتَتْ * عنها ، وعنه تنوب إن سكتا ١٠

وقال أيضا :

وجاريةٍ مثـل شمسِ النَّهـارِ * أو البَدْرِ بين النجوم الدَّرارى
أتتك تَمِيسُ بقَـدّ القَضيبِ * وترنو بعينِ مَهَاةِ القِفَـار
وتَرْفُـلُ فى مُصْمَتٍ أبيضٍ * تلوّن من خَدّها الجُلَّنَارِى
وتحمـلُ عودًا فصيحَ الجواب * يُشارك أرواحَنا فى المَجَارى ١٥
له عُنُـقٌ كذراع الفتـاةِ * ودَسْـتانةٌ بمكان السِّـوَارِ
فجـادتْ عليـه وجادتْ له * بعَسْفِ اليمين ولُطْفِ اليَسَـارِ
فـا أمهلتْـه ولا نَهْنَهَتْـه * من الظُّهْرِ حتى تَقَضَّى النهار
ولمّـا تغنّتْ غِنـاءَ الوَدَاع * بكيتُ وقلتُ لبعض الجوارى :
لئن عِشْتُ عند هزار اللِّقـاء * لقد مُتُّ عنـد هزار الإزار ٢٠

وقال أيضا :

وكثيرةِ النَّغَماتِ تحسَبها * فى كلّ عُضْوٍ أوتيَتْ حَلقا
غنّتْ فظلتُ إخالُنى طَربًا * أسمو إلى الأملاك أو أرقَى
وتكلّمتْ أوتارُها فأنا * فيها أُخَبِّرُ بالذى ألقى
٥ تحكِى أنينى وهى شاكيةٌ * مما أُجِنّ وتشتكى عِشقا
وترى لها عودًا تُعانِقُهُ * وكلامه وكلامها وَفْقا
لو لم تُحَرِّكْهُ أنامِلُها * كان الهواء يُفيده نُطْقا
جَسّته عالمةً بحالته * جَسَّ الطبيب لمُدْنَفٍ عِرْقا
فحسِبت يمناها تحرّكه * رَعْدًا، وخلتُ يسارَها بَرْقا

١٠ وقال أيضا :

تَميسُ من الوَشْى فى حُلّةٍ * تُجرّر من فضل أذيالها
وتحمل عودًا فصيحَ الجواب * يُضاهِى الثُّونَ بأشكالها
له عُنُقٌ مثلُ ساق الفتاةِ * ودَستانةٌ مثلُ خَلْخالها
فظلّتْ تُطارح أوتارَهُ * بأهزاجها وبأرمالها
١٥ وتعمَل جَسًّا لجسّ العروق * وتلوِى المَلاوِى بأمثالها

وقال آخر يصف الطُّنبور :

مُخْطَفُ الخَصْرِ أجوفُ * جِيدُه نصفُ سائرِهْ
أنطقتْه يَدَا فتًى * فاترِ اللَّحْظِ ساحرِهْ
فجَلَا عن ضميره * ما حَوَى فى خواطرِهْ

وقال سيف الدين المشدّ فى دُفّ :

وطاريّةٍ قَـرَعتْ طارَهـا * وغنّت عليه بصوتٍ عجيبِ
فعاينت شمس الضُّحَى أقبلتْ * وبَدْرٌ تقَـدّمها عن قريبِ

وقال أيضا يصف شبّابة :

وعاريةٍ من كلّ عيب ، حبيبةٍ * إلى كل قلب بات بالبين مجـروحا
لهـا جسـدٌ ميْتٌ يعيش بنفـخةٍ * متى داخلتْه الريحُ صارت به رُوحا
تُعيـــد الذى يُلْقَى عليهـا بـلذّةٍ * تَزِيد فـؤادَ الصّبّ وجدًا وتبريحا
وتنطق بالسحر الحلال عن الهوى * وتُوحى إلى الأسماع أطيَبَ ما يُوحَى

القسم الرابع من الفنّ الثانى

فى التهانى والبشائر والمراثى والنوادب والزهد والتوكل والأدعية

وفيه أربعة أبواب

الباب الأوّل

من هذا القسم فى التهانى والبشائر

٥ والتهانى تنقسم إلى قسمين وتحاز فى جهتين : خصوص وعموم . فالخصوص هو ما يتعلّق بالرجل من مَنْصِب يليه ، ونعمةٍ تواليه ؛ وولد رُزِقه ، وشفاء من مرض أقلقه وأزقه ؛ وقدوم من سَفَر، وزواج قضى به الأرَبَ والوَطَر . والعموم هو ما يتعلّق بالجمهور، ويتساوى فيه الملك والمملوك والآمر والمأمور : من انصباب (٥٦) غيث عمّ الرُّبا والوِهاد، وجَرَيانِ نيل شمِل بريِّه البلاد وآمن العباد؛ وهزيمة عدوّ زاد ١٠ فى عُدْوانه وتمادى فى طُغْيانه،وفتوح حِصْن أمِن أهلُه بتشييد أركانه وإتقان بنيانه .

ذكر شىء مما هُنِّئ به وُلاة المناصب

كتب بعض الفضلاء تهنئة بخلافة فقال :

أمّا بعد ، فإن أولى النعم بالدوام ، وأرجاها للبقاء والتمام ، وأجْدرها بالخلود ، ١٥ وأقربها إلى المزيد ، وأحراها بالسلامة على نوب الأيام وتصاريف الأحداث ، نعمة نشأت بفِنائه ، وسكنت ذَرَاه فحمِدتْ مثواه ، وساسها أولياؤها بحسنِ المجاورة وكرم المصاحبة سياسةَ الحانى الشفيق ، وكَفَلوها كفالةَ الحَدِب الرفيق ؛ فنمَتْ وتمّتْ ، وخَصُبتْ وعَمّتْ ؛ ثم اعترضها من ريب الزمان ما هاج سَوَاكِنَها ، وأزعج كَوَامنَها ؛

وأصارها إلى الوحشة بعد الأنس، والنُّفْرة بعـد الإلف، تتقلقل تقلقلَ العوادِى، وتَشْرُد شرودَ الضوالّ، لافظةً لها الأقطار ونابيةً بها المحالّ؛ إلى أن أعادها الله تعالى بلُطفه إلى مَغْناها المعروف، ورَبْعِها المألوف؛ وٱستقرت بعد الٱضطراب، وفاءت بعد الٱغتراب . وتلك نعمة الله عند سيِّدنا أمير المؤمنين، لمـا جدّد له من كرامته، وٱصطفاه له من خِلافتـه، وطوّقه إياه من إمامته؛ وردّه إليـه من تدبير الملك، وٱعتمد عليه من سياسة الأنام؛ فأحيا به السُّنَن القاصرة، وأزال به الرسوم الجائرة؛ ونَهج به سبيل العدل، وأقام به منار الفضل .

وقال طُرَيح بن إسماعيل الثَّقَفىّ فى المنصور لمّـا أفضت الخلافة إليه :

لمّـا أتى النـاسَ أنّ مُلْكَهُمُ * إليـك قد صار أمرُه سجـدوا
وٱستبشروا بالرضـا تبَـاشُرَهم * بالخُلْد لو قيـل إنهـم خَلَدوا
كنتُ أرى أنّ ما وجدتُ من الفَرْ * حةِ لم يـلقَ مثـلَه أَحَـدُ
حتى رأيتُ العبـادَ كلَّهُـمُ * قد وجدوا فيك مثـلَ ما أجِد
قد طلب النـاسُ ما بلغتَ فما * نالوا ولا قاربوا ولا جَهَـدوا
يرفعـك الله بالتَّكَرُّم والتقـ * ـوى فتعـلو وأنت تقتصـد

وقال زيد السِّنْدِىّ يهنئ الوزير يعقوب بن كِلِّس بوزارة العزيز بمصر :

إنّ الوزارةَ لم تَزَلْ بك صَـبَّةً * تهواك لم يخطُر سـواك ببالهـا
خُطِبتْ فلم تُعْطِ القِيادَ لطالبٍ * وأبَتْ على طُلّابهـا بِوِصالهـا

وقال ٱبن بشر الصِّقِلّىّ الكاتب يهنّئ الحسن بن إبراهيم التُّسْتَرِىّ بوزارة مصر، وقد وَزَر للمستنصر فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة :

بيومِك طارتْ فى البـلاد البشائرُ * وطابتْ بمرجوع الحديثِ المَحاضِرُ
وأصبحتِ الأمصارُ أمْنًا وغِبْطةً * أسِرّتهـا مُهْـتَزّة والمنـابرُ
وقام خطيبُ الحمدِ فى كل مَوْقِفٍ * يُعَـدّد ما تُمْـلِى عليـه المـآثرُ

ومنها :

لقد عاشرتْ منك الوزارةُ ما جداً * له كَنَفٌ لا يَحتـويه المُعَاشِرُ
فسيحُ آمتـدادِ الظِّلِّ بين رِحَابِهِ * وبين المعالى آهـلُ الرَّبْعِ عامرُ
"فألقتْ عَصَاها وآستقرّ بها النَّوَى * كما قَـرّ عَيْنًا بالإيابِ المسافرُ"
٥ وما زلتَ ملحوظًا لها ومُؤَهَّلًا * لِذا الأمرِ مذ شُدّتْ عليك المآزر

وقال آخر :

كُلَّما رمتُ أن أُهَنِّيك وقتًا * بمَحَلٍّ من العُلَا ترتقيهِ
شِمتُ مقدارك الذى أعجز الوا * صفَ أعلى من الذى أنت فيهِ

وكتب الحمدونى أخو صاحب التَّذكِرة يُهَنِّئ بالسلامة من حريق وقع فى دار الخلافة :

١٠ الدّنيا — أعزّ الله أنصارَ الخدمة الشريفة — دارُ الامتحان والاختبار، ومجاز الابتلاء والاعتبار؛ ولله فيما نَزَّله فيها إلى عباده من نِعَمه، وتخوّلهم من مَوَاهبه وقِسَمه، عاداتٌ يقتضيها بالغُ حِكمتِه، وماضى إرادته ومشيئته؛ ليستيقظ الذاهل، ويعترف الجاهل؛ ويزداد العالم اللبيب آعتبارا، ويستفيد العاقل الأريب تفكُّرا وآستبصارا؛ فلا يغفُل عن واجب الشكر إذا سِيقتْ النعمةُ إليه، ولا يلهو عن آستدعاء المزيد منها
١٥ بالاعتراف إذا أُسبِغتْ عليه؛ وهو أن البارى سبحانه إذا تابع آلاءه إلى عبد ووالاها، [وجرّدها](١) له من الشوائب وأخلاها؛ أماط عن مَشَاربها أكدارَ الدنيا المطبوعة على الكَدَر، وغَمَر مساربها بالأمْن من طوارق الغِيَر؛ خِيف عليها الآنتقاض والزوال، وتُوُقِّع لها الآنتهاء والآنتقال . ومن ذلك الخبر المروىّ : أنه لما أنزل الله تعالى (اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) آبتهج
٢٠ الصحابة رضى الله تعالى عنهم إلا عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فإنه بكى . فقالوا:

(١) زيادة يقتضيها سياق الكلام . ولعل هذه الكلمة أو ما فى معناها سقطت من الناسخ .

ما يُبْكِيك وقد أكمل الله لنا ديننا برحمته ، وأتمّ لنا سابغ نعمته ؟ فقال : يُبكيني أنه ماتمّ أمرٌ إلا بدا نقصُه . فقُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريب . وإذا كانت مشوبة برائع يتخلّل صَفْوَها ، وطارقٍ يجْهَم فى بعض الأوقات عَفْوَها (١) ؛ كان ذلك صارفًا عنها عينَ الكمال ، مُؤذِنًا بطول الآجال ؛ حاكمًا لها بتراخى عمر البقاء ، دالًّا على الصعود بها إلى دَرَج المُكْث الطويل والارتقاء ؛ وحكمه حكمُ المرض الذى تَصِحّ به الأجساد ، وتُمَحّص ذنوبُ من يُسَلَّط عليه من العباد :

فلا يُبْهِج الأعداءَ سوءُ ظنونهم * فلله صُنْعٌ فى الذى ساء ظاهرُ
فكم طالب شيئًا به الشرُّ كامنٌ * وكم كارهٍ أمرًا به الخيرُ وافرُ

فلله الحمد الذى جعل ما جرت به الأقدار من الألم الواقع ظاهرُه ، الوجِل لوقعِه ناظرُه ؛ لعنايته جلّت عظمته عُنْوانا ، وعلى دوام نعمته دليلًا واضحًا وبرهانا . وإليه الرغبة فى أن يجعل الديارَ وساكنيها ، والناس فى أقاصى الدّنيا وأدانيها ؛ لشريف الحوزة التى بها صلاحُ العالم فداء ، وعنها للمكروه وِقاء . فكل حادثٍ مع دوام هذه الأيام الزاهرة جَلَل ، وكل غَمْرٍ (٢) من نوائب الدهر مادافع لطفُ الله عنها وَشَل .

وقال أبو عُبَادة البُحْتُرِىّ يهنّئ الفتح بن خَاقَان بسلامته من الغَرَق :

بعدُوك الحَدَثُ الجليلُ الواقعُ * ولمن يُكايدك الحِمامُ الفاجعُ
قلنا : لعلّ لمّا عَثَرْتَ ولا تزلْ * نُوَبُ الليالى وهى عنك رواجعُ
ولربما عثَر الجوادُ وشأوُه * متقدّمٌ ونبا الحُسَامُ القاطعُ
لن تظفَرَ الأعداءُ منك بزَلّةٍ (٣) * واللهُ دونك حاجزٌ ومُدَافِعُ
إحدى الحوادثِ شارفتْك فردّها * صُنْعُ الإلهِ ولطفُه المتتابع

(١) العفو : الفضل والمعروف وخيار الشىء وأجوده .
(٢) الغمر : الماء الكثير . وفى الأصل : «وكل غم» وهو تحريف ، لأنه يريد المقابلة بينه وبين «وشل» بعده .
(٣) كذا فى ديوان البحترى . وفى الأصل : «إن تظفر» .

حتى برزتَ لنا وجأشُك ساكنٌ * من نجدة وضياءُ وجهِك ساطعُ
ماحال لونٌ عنـد ذاك ولا هفَا * عزمٌ ولا راع الجـوانح رائع

وقال المتنبّي يهنّئ بعافية :

المجدُ عُوفِيَ إذ عُوفيتَ والكَرَمُ * وزال عنك إلى أعدائك الألَمُ
وما أُخصُّـك فى بُرءٍ بتهنئـةٍ[1] * إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سَلِموا

ومما هنّئ به مَن اتّصل بزوجة ذات جمال وحسب، وأصالة وأدب . وقلما تقع التهنئة بذلك إلا بين صديقين صَحّ بينهما الآلتئام، وسقَطت بينهما مئونة الاحتشام؛ وتساويا فى الرتبة، وآتّحدا فى الصحبة .

فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامرىّ إلى بعض إخوانه وقد آبتنى بأهْل :

بأيْمَنِ طائرٍ وأتمِّ سَـعْدٍ * يكون من الكريمينِ آجتماعُ

أمَا إنّه المجد اليَفَاع، والحسن المُطاع، تعارفت الطباع، فآلتأمت الأنفس الشّـعَاع؛ كما آلتقى الثُّرَيّان، وآقترن النيِّرانِ؛ كما حاصر الرئمَ الضيغم، وهاصر النسيمُ الغصنَ المُنَعّم؛ كما راق فوق المِعْطَف الصارم العَضْب، كما آلتقت الصهباء والبـارد العَذْب؛ بل كما فازت القِدَاح، ونُظِم الوِشاح؛ وآعتنق شَنٌّ طَبَقه، وآعتلق الرَّوض عَبَقه . فحبّـذا النَّسَب شَابَكَه الصِّهْر، والحَسَب عاقَده التُّقَى والبِرّ؛ على حين جرت الأيامِن، وآكتُنِف الحَرَم الآمن . وبالبنين والرِّفاء، والنعيم والصَّفاء، والثروة والنماء والزمن الرَّغْد والعِـزّة القعساء الشمّاء؛ على الوِفاق، والوِئام والآتّساق؛ والحظـوظ والجـدود، والفُسْطاط الممدود، وهَصْر العيش الأُملود، والآلتئـام وتتابُع البشرى بالفارس المولود. ومالى تأوّدتُ أعطافا، وتأنّقتُ أوصافا! وتهلّلت جَذَلا، وبسطتُ فى الدعاء مَذِلا[2]! أهَنانى الأرَب، أم صَفَا لى المَشْرَب! وقد غِبت عن اليوم المشهود،

(١) كذا فى ديوان المتنبي . وفى الأصل : «وما أخصك فى قول» . (٢) كذا فى الأصل .

وعطّلت سُـدّةَ الإذن للوفود، ولم أقُمْ فى السِّماط، سافرًا عن وجه الاغتباط؛ أتلقّى الوالج بمبرور التحيّة، وأُفدّى الخارج بحكم السرور والأريحيّة؛ وأتخذم رفعَ الوحى والإيمـاء، وأتقدّم من المصافاة والموالاة فى الغفير الجمّـاء، كلا! ولا شهدت ليلة الزِّفاف، وما حلت من محاسـنها الأفواف؛ حيث دارت المنى سُـلّافا؛ وصارت العُلَا دَوْحةً ألفافا؛ وأبدى رَوْنَق السيف جِلَاء، وأبرز عقيلةَ الحىّ هِدَاء؛ هنالك حلّت النعماء، ونهلت الأظماء؛ فياله منظرًا، ووعدًا منتظرا؛ لو ناجيته من كثَب، وكرعت منه فى المنهل الأعذب! بلى! إنه وَقَع[1]، فشفى ونَفَع؛ والرّكب سَنَح، فنعم مامنح؛ أهداها حَمَلَا، فكأنما أسداها أمَلا؛ أثلج الفؤاد، وأورى الزّناد، ووَفَى بالنفس أوكاد؛ وفلتْ[2] عن قِراه، نفس جذِلت بسراه، وأرجت لذكراه. ولله ما أحظاه مَقْـدَما وأعلاه فى الإحسان قَدَما، لو وهبت لمقتضاه من الكرامة دما. وقد كان فى الحق أن أهاجر، وأعصِى الناهىَ والزاجر؛ فابْسُطْ لى عُذْرا، وأعِدّنى لك ذخرا، وطِبْ مَدَى الدهر خَبَرًا وخُبْرا.

ومما هنئ به مَنْ رزقه الله ولدا وزاده به قوّة وعددا. فمن ذلك ما كتب به الأستاذ ابن العميد فى فصل يهنئ عضد الدولة بن بُوَيْه وقد وُلد له ابنان توءمان:

وصـل كتابُ الأمير بالبشرى التى أبت النعمةُ بهـا أن تقع مُفردة، وامتنعت العارفة فيها أن تَسْنَح مُوحدة، حتى تيسّرت مِنْحَتانِ فى وَطَن، وانتظمت مَوْهِبتانِ فى قَرَن، وطلع من النجيبينِ أبى القاسم وأبى كاليجار — أدام الله عِزّهما — طالعَا مُلْك، ونجما سعد، وشهابا عِزّ، وكوكبا مجد؛ فتأهلت بهما رِباع المحاسن، ووُطّئت لهما أكناف المكارم، واستشرفت إليهما صدورُ الأسِرّة والمنابر. وفهمته وشكرت

(١) فى الأصل: «ان» وهو غير واضح. (٢) وردت هذه الكلمة هكذا بالأصل؟

الله تعالى شُكْرَ مَنْ نادى الامالَ فأجابته مُكَتِّبة،ودعا الأمانى فجاءته مُصْحِبة،وحمِدته حمدًا مكافِئا جسيم ما أتاح وعظيم ما أفاد؛ وآكتنفنى من السرور ما فَسَح مناهج الغِبطة، وسهّل موارد البهجة؛ وأشعْتُ ما ورد إشاعةً شرحتْ صدور الأولياء بمَسَارّها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مَقَارّها؛ وسألت الله إتمام ما آذن به الأميران السيِّدان من سعادة لا يهتدى إليها الاختيار علوّا، ولا ترتقى اليها الأفكار سموّا؛ وسلطانٍ تضيق البحار عن اتساعه،وتخفض الأفلاك عن آرتفاعه؛ ويُبَلِّغهما أفضلَ ما تقسِمه السعود، وتعلو به الجدود، حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما مساعِى الفضل، ويَشِيدا قواعد الفخر، ويَرْجُما صروف الدهر، ويَضْبِطا أطرافَ الأرض، وهو تعالى قريب مجيب.

ومن كلام الوزير الفقيه أبى القاسم محمد بن الجدّ الأندلسىّ:

إنّ أحقّ ما آنبسط فيه للتهنئة لسان، وتصرّف فى ميادين معانيه بيان وبنان؛ أملٌ رُجِّى فتأبّى زمانا، وآستُدْعِى فلَوَى عِنَانا؛ وطاردته الأمانىّ فأتعبها حِينا، وغازلته الهمم فأشعرها حنينا؛ ثم طلع غيرَ مُرْتَقَب،ووَرَد من صحبة المناجح فى عسكر لَجِب؛وكان كالمشير إلى ما بعده من مواكب الآمال، والدليلِ على ماوراءه من كواكب الإقبال؛ أو كالصُّبْح آفترّتْ عن أنوار الشمس مَبَاسمه،والبَرْقِ تتابعت إثرَ وميضه غمائمه.وفى هذه الجملة مادلّ على المولود، المؤذِن بترادف الحظوظ وتضاعف السعود. فياله نجمَ سعادة، طلع فى أُفق سِيادة؛وغُصْنَ سَنَاء، تفرّع عن دَوْحة عَلَاء. لقد تهلّلت وجوه المحاسن باستهلاله، وأقبلت وفود الميامن لآستقباله؛ ونُظمت له قلائدُ آلتمائم، من جواهر المكارم؛ وخُصّ بالثُّدِىّ الحَوَافل، بِلبان الفضائل. وما كان مَنْبِت الشرف بإفراد

(١) فى الأصل: «فجعلته».
(٢) مصحبة: منقادة.
(٣) فى الأصل: «ما أدنا».

تلك الأرومة الكريمة إلا مُقْشَعِرّ الرُّبا، مُغْبَرّ الثرى، متهافت أغصان الرضا. فأمّا وقد آهتزّ فى أيكة السِّيادة قضيب، ونشأ من نِبْتة النَّجابة نجيب، فأَخْلِقْ بذلك المَنْبِت أن تعاوده نَضْرتُه، وتَرِفّ عليه حَبْرته، ويُراجعه رَوْنَقُه وبهاؤه، وتضاحكه أرضه وسماؤه. فآلحمد لله على ما أتاحه من آنثناء الأمل من جِماحه، وآختيال الجَذَل فى حَلْبة غُرَره وأوضاحه. وهو المسئول أن يهبك منه صَنَعا يحسُنُ فى مثله الحسد، ويُتَمَنَّى لفضله النسلُ والولد، بعزّته.

وقال أبو هِلَال العسكرىّ:

قـد زاد فى عدد الكرام كريمُ * مَحْضٌ صريحٌ فى الكرامِ صَمِيمُ
عَالِى المَحَـلَّةِ لا يزال كأنه * للفَرْقَدين وللسِّماكِ نديمُ
فلِأمره التتميمُ كيف تَصَرّفتْ * حالاته، ولشأنه التفخيمُ
فآبشِرْ فقـد وافاك يومَ رُزِقْتَهُ * حظٌّ بتخليـد السرور زعيمُ
فَرْعٌ تكفَّلَ دهرُه بتمامه * حتى يكرّ الدهرُ وهو أَرُومُ
إنّ الهلال يصير بدرًا كاملًا * ويَهُدُّ سـدّ اللّيل وهو بهيمُ
وهو الوجيه إذا تبدّى وجهُهُ * وغـدًا إذا نزل العظيمُ عظيم
فلِأهـله شَرَفٌ به مُتَوَطِّدٌ * ولهـم به شرفٌ أشمُّ عميم
فآقْـرَرْ به عينًا فإنّ خِلالَه * تصفو وتَسْلَسُ أو يُقال نسيم
ولحَذْه التصميمُ حيث تَلَاحقتْ * أقـرانُه ولشأوِهِ التَّقْـدِيم

ومن كلام الصاحب بن عَبّاد تهنئة ببنت:

أهلًا وسهلًا بعَقِيلة النساء، وأُمّ الأبناء، وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهار، والمبشَّرة بإخوة يتنافسون، ونُجَباء يتلاحقون.

فلو كان النِّسـاءُ كمثلِ هـذى * لفُضِّلَت النِّسـاءُ عـلى الرِّجال

وما التأنيثُ لاسم الشمسِ عيبٌ * ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلالِ

فادّرِعْ يا سيِّدى اغتباطا، واستأنف نشاطا؛ فالدنيا مؤنّثة والرجال يخدُمونها، والذكور يعبدونها؛ والأرضُ مؤنّثة ومنها خُلقت البرية؛ وفيها كثُرت الذُّرِّيّة؛ والسماء مؤنّثة وقد تزيّنت بالكواكب، وحَلِيَتْ بالنجم الثاقب؛ والنّفس مؤنّثة وهى قِوام الأبدان، ومِلاك الحيوان؛ والجنّة مؤنّثة وبها وُعِد المتّقون، وفيها ينعَم المرسلون. فهنيئًا هنيئًا ما أُوليت، وأوزعك الله شكرَ ما أُعْطيت؛ وأطال بقاءك ما عُرِف النسلُ والولد، وما بَقِيَ الأبد، وكما عُمِّر لُبَد.

ومن كلام أبى المكارم بن عبد السلام من شعراء الخريدة:

هذا شُعَيبٌ النبيّ بابنته صَفُوراء استأجر موسى كليم الله. وهذا سيِّد المرسلين، أبقى الله بفاطمة ابنته نسلَه إلى يوم الدِّين. وهذه أُمّ الكِتاب سُمِّيت الفاتحةَ، وهى لأبواب مُناجاة الرحمن فاتحة. وهذه مُحْكَمات القرآن، بها ثبتت شرائع الإيمان. وهذه سورة النساء وسُمِّيت بهنّ وهى من الطِّوال، ولا سورةَ من القِصار سُمِّيت بالرجال. على أنّ الدّنيا بأسْرها مؤنّثة والملوكُ من خُدّامها، والشّمسُ مؤنّثة والضِّياءُ والبهاءُ من تمامها؛ والنفس تؤنّث وبها فُضِّل الناس، والحياة تؤنّث وهى أساس الحواس؛ والعين تؤنّث وبها يُتَوسّل الى علم الدقائق؛ واليد تؤنّث وهى المتصدّية لتحبير الأشياء، والعَضُد تؤنّث وبها استعانة سائر الأعضاء؛ والسماء تؤنّث وهى تُزْجِى الأمطار، والأرض تؤنّث وهى مجمع أطايب الثّمار، والجنّة تؤنّث وبها وُعِد الأبرارُ الأخيار؛ والعين (أعنى الذهب) تؤنّث وبها يُدْفَع الهُلْك، والقَوْسُ تؤنّث وبها عِزُّ المُلْك.

ومما هُنِّئ به فى المَوَاسم والقدوم — قال ابن الرومى تهنئة بعيد الفطر:

قد مضى الصَّوْمُ صاحبًا محمودا * وأتى الفِطْرُ صاحبًا مَوْدُودا

ذهب الصَّوْمُ وهو يَحْكِيك نُسْكًا * وأتى الفطرُ وهو يَحكيك جودا

وقال آخر :

رأى العِيدُ وجهَك عِيدًا له * وإن كنتَ زِدتَ عليه جَمَالَا
وكَبَّر حين رآك الهلالُ * كفِعْلِكَ حين رأيتَ الهِلَالَا
رأى منكَ ما منـه أبصرتَه * هِـلالًا أضاء ووجهًا تَلَالَا

وقال ابن الرومىّ يُهَنِّئ بعيد أضحى وهو يوم نَوْرُوز : ٥

عِيدَانِ : أضحى ونَوْرُوزٌ كأنهما * يومَا فِعَالِك من بُؤْسٍ وإنعامِ
كذاك يَوْمَاكَ : يومٌ سَيْبُهُ دِيَمٌ * على العُفَاةِ ، ويومٌ سيفُه دامِي

وقال أبو إسحاق الصّابى :

يا سيِّدًا أضحى الزما * نُ بأُنْسِه منه رَبِيعا
أيَّامُ دَهْرِكَ لم تَزَلْ * للنّاس أعيادًا جميعا ١٠
حتى لأوشـك بينَها * عِيدُ الحقيقةأن يضيعا

وقال الشّريف الرَّضِىّ تهنئةً بقُدوم :

(٦١) قَدِم السّرورُ بقَدْمةٍ لك بَشَّرتْ * غُرَرَ العـلا وعَوَالِىَ التِّيجانِ
قَلِقَتْ ظُبَا الأسياف منك بفرحةٍ * فتكاد تُنْهِضها من الأجفانِ
قد كان هذا الدهرُ يَلْحَظ جانبى * عن طَرْفِ لَيْثٍ ساغِبٍ ظمآنِ ١٥
فالآن حين قَدِمتَ عُذْنَ صُروفُهُ * يَرْمُقْنَنى بنواظـر الغِزْلانِ

ومما قيل من شَوَاذّ التهانى وهى الجمع بين التهنئة والتعزية ، والبِشارة والتسلية — فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن صالح للرشيد ، وكان من يحسُـده قد قال للرشيد عنه : إنه يُعِدّ كلامه . فأنكر الرشيد ذلك وقال : بل هو طبع . وجلس فى بعض الأيام ودخل عبد الملك ، فقال الرشيد للفضل : قل له : وُلِد لأمير المؤمنين ٢٠

فى هذه الليلة ٱبنٌ ومات له ٱبن . فقال الفضل له ذلك . فدنا عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين، سَرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سَرّك، وجعلها واحدةً بواحدة، ثوابَ الشاكر وأجرَ الصابر . فقال الرشيد : أهذا الذى زعموا أنه يتصنّع الكلام ! ما رأى الناس أطبع من عبد الملك فى الفصاحة .

٥ ومن ذلك ما حكاه ثُمَامة بن أشْرَس قال : لمّا دخل المأمون بغداد بعد قتل الأمين دخلت عليه زُبَيْدة بنت جعفر أمّ الأمين، فجلست بين يديه وقالت : الحمد لله ! إن أهنّئك بالخلافة فقد هنّأتُ بها نفسى قبل أن أراك، وإن كنتُ فقدتُ ٱبنًا خليفةً لقد ٱعتضتُ ٱبنًا خليفة . وما خَسِر من ٱعتاض مثلك، ولا ثَكِلتْ أمٌّ ملأتْ عينَها منك . وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، وإمتاعًا بما وَهَب . فقال المأمون :

١٠ ما تَلِد النساء مثلَ هذه، ما تراها أبقت فى الكلام لبلغاء الرجال !

وقال عبد الله بن الحسن الجعفرىّ السمرقندىّ يُهَنِّئ العزيز بخلافة مصر ويرثى أباه المُعِزّ :

قد أصبح الجَوْهَرُ العُلْوِىّ منتقِلا * فى خيرِ مَنْ كان مِنْ خير الوَرَى بَدَلَا
يا مِنحةً كملتْ فى مِحْنةٍ عَظُمتْ * لولاكَ فى الدّهر ما نال ٱمرؤٌ أَمَلَا
١٥ صُنْعٌ من الله فى خَطْبٍ أُتِيحَ لنا * عمّ البلادَ وعمّ السَّهْلَ والجَبَلا
كان الزمانُ بمن أبقَى ومَنْ أخذتْ * صُروفُهُ مُذْنِبًا طورًا ومُتّصِلا
قام العزيزُ بما أفضى المُعِزّ به * إليه مُضْطَلِعًا بالعِبْء مُحْتَمِلا
فقام أحفظَ مُسْتَرْعًى رَعَى فكَفَى * من بعد خيرِ إمامٍ قَوّم المَيَلا
كالسيف مُنْصَلِتًا والبحرِ مُنْدَفِقًا * والبدرِ مُؤْتَلِقًا والغَيْثِ مُحْتَفِلا

٢٠ ومنها :

فى طلعة البدرِ من شمس الضُّحَى عِوَضٌ * وظُلْمةُ اللّيلِ يحلو جُنْحَها ٱبنُ جَلَا

وما الأئمّـــةُ إلا أنجـــمٌ زُهُـــرٌ * يبـــدو لنـا كوكبٌ إنْ كوكبٌ أفَلا
إنّ المُعِـــزَّ الذى لا خَلْقَ يُشْـبِهُه * إلّا العزيز ابنه إنْ قال أو فعلا
مَلْكٌ وجدنا التُّـقَى والعَـــدْلَ عُدَّتَه * إذا الملوكُ آستعدّوا الكيدَ وآلحِيَلا
سَمَتْ الى العـالَمِ النُّـورِىّ هِمَّتُـــهُ * ففارَق القَـــتَمَ الأرضىَّ وآنتقـــلا (٦٢)
وراجعت نفسُه فى القُدْس عُنْصُرَها * ولم يـــزل بحبـال الله مُتَّصِـــلا
لم يَرْضَ خَلْقًـا من الدُّنيـا يُجاوِرُه * إلّا الملائكَ فى الفِرْدَوْس والرُّسُـلا
لولا نِزارٌ وعينُ الله تَحـــرُسُهُ * كنّا بفقـــد مَعَـــدٍّ أُمّةً هَمَـــلا
فإنْ مَضَى كافِلُ الدُّنْيـا وما ضَمِنَت * فَذَا آبنُـــه كافلٌ عنـه بمـا كَفَلا (١)
وإن هَوَى الجبلُ الراسى فذا جَبَلٌ * رَاسٍ لنـا بعـده، أَعْظِمْ به جَبَـلا!
عمّتْ خِلافتُـــه الدُّنيـا برَوْنَقِها * كأنه الشَّمسُ فيهـا حَلّتِ الحَمَـلا
مُلْكٌ أغَـــــرُّ وأيّامٌ مُحَجَّـــلةٌ * ودولةٌ كلَّ وقتٍ تَقْهَـرُ الدُّوَلا
أضحتْ ملوك بنى الدُّنيـا له خَوَلًا * وما حَوَتْ كلُّ دارٍ منهـــمُ نَفَـلا
يأيّهـا الملك المأمـــولُ نائـــلُه * ومَنْ هو الغاية القُصْـوَى لنـا أملا
كان السريرُ سريرُ المِلك منخفضًا * حتى آرتقيتَ ذُرَاه فآرتقى وعَـــلَا

ومن ذلك ما كتب به عامل الى المصروف به :

قد قُلِّدتُ العملَ بناحيتـك ، فهنأك الله بتجـدّد (٢) ولايتك ، فأنفـذتُ خليفتى لخلافتك ، فلا تُخْلِه من هِدَايتك ، إلى أن يَمُنّ الله بزيارتك .

فأجابه : ما آنتقلت عنّى نعمةٌ صارت إليـك ، ولا خلوتُ من كرامة آشتملت عليـك . وإنى لأجد صَرْفى بك ولايةً ثانية وصلة وافية ؛ لمـا أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومحمود العاقبة . والسلام .

(١) فى الأصل : "كامل الدنيا" . (٢) فى الأصل : «تجدد» من غير حرف الجر .

وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يُهَنِّئُ إبراهيم بن المدبِّر بالعَزْل عن عمل : (٦٣)

لِيَهْنِئْ أبا إسحاق أسبابُ نِعْمةٍ * مُجَدَّدةٍ بالعَزْلِ ، والعزلُ أنبل
شَهِدتُ لقد مَنُّوا عليك وأحسنوا * لأنك بعد العَزْلِ أعلى وأفضل

آخـــر :

إنّ الأميرَ هو الّذى * يُضْحِى أميرًا عند عَزْلِهْ
إن زال سـلطانُ الوِلا * يَةِ فهو فى سُلطان فَضْلِهْ

وكتب أبو إسحاق الصّابى الى رجل زوّج أمّه :

قد جعلك الله — وله الحمد — من أهل التحصيل، والرأى الأصيل ؛ وصِحّة الدِّين، وخُلُق ذى اليقين . فكما أنّك لا تتّبِـع الشهوةَ فى محظور تُحِـلُّه ، فكذلك لا تُطيع الأنَفَـة فى مُباح تحظُره . وتأدّى إلىّ من اتّصال الوالدة — يسّر الله لهـا فى مُدّتك ، وأحسن بالبقيّة منها إمتاعَك — بأبى فلان، أعزّه الله ، ما علمتُ فيه أنّك بين طاعة للدِّيانة توخَّيْتَها، ومَشَقّةٍ تجَشَّمْتَها ؛ وأنّك جَدَعتَ أنفَ الغَيْرةِ بها ، وأضْرعتَ خَدّ الحَمِيَّة فيها ، وأسخطت نفسَـك بإرضائها ، وعَصَيت هواك لرأيها . فنحن نُهَنِّيك بعزيمة صـبرِك، ونُعَزِّيك عن فائت مُرادك ؛ ونسأل الله الخِـيَرَةَ لك فيه، وأن يجعلَها أبدًا معك فيما شِئتَ وأبَيتَ، وتجنَّبت وأتيتَ .

وقال كاتب مُتَقَدِّم فى مثل ذلك :

الرضا بمـا يُبيحه حكم الله أولى من الامتعاض فيما تحظُره أَنَفَةُ الحَمِيّة . ولا قُبْحَ فيما أحلّ الله، كما لا جمالَ فيما حرّم الله . فعرّفك الله الخِـيَرَةَ فيما اختارته من طهـارة العَفَاف ونُبْـل الحَصَانة، وعطفك مَنّ بِرِّها على ما تُؤَدِّى به حقَّها ، وما لزمك من المعروف فى مُصاحبتها .

وكتب الصّاحب بن عَبّاد تهنئةً بزواج أُم وتعزيةً بموت أب، فقال :

الأيّام — أطال الله بقاءك — تجـرى على أنحاء مختلفـة ، وشُعَب متفرّقة ؛ وأحكامها تتفاوت بيننا بمـا يسوء ويَسُرّ، وينفع ويَضُرّ. وبلغنى من نفوذ قضاء الله فى شيخك — رحمه الله — ما أزعجنى، وأبْهم طُرُقَ السـلوةِ دونى ، وإن كان مَنْ خَلَّفك غيرَ خارج عن مَزِيّة الأحياء، ولا حاصلٍ فى زُمْرة الأموات . والله يأسو كَلْمَك ، ويَسُـدّ ثَلْمَك . وقد فعل ذلك بأن أتاح الله لك بعـد أبيك أبًا لا يَقْصُر عنه شفقةً عليك وحُنُوًا، وإيثارًا لك وبِرًّا . وقد لعمرى وُفِّقتَ حين وصلتَ بحبلك حبـلَه، وأسكنت الكبيرةَ — حَرَسها الله تعالى — ظِلَّه ؛ لِئلا تَفْقِد من المـاضى — عفا الله عنه — إلّا شخصَه . فالحمد لله الذى أرشدك لمـا يُعيد الشَّمْلَ مُجْتمِعًا بعد فِراقه، والعَدَدَ موفورًا بعد انتقاصه ؛ حمدًا يقضِى لك بالمَسَرّة ، ويَحْسِم دونك مَرَادَ الوَحْشة ، ويُلَقِّيك ثوابَ ما قَضَيتَه من الحق ، وتحمّلتَه فيـه من الأَوْق[1]؛ إنه فَعّال لمـا يريد .

فهذه نبذة كافية فى التهانى الخاصة؛ فلنذكر العامّة .

ذكر نبذة من التهانى العامّة والبشائر التامّة

ولنبدأ من ذلك بمـا قيل فى البِشارة بوفاء النيل، لمـا فيه من عموم المنافع الشاملة ، وشُمول النِّعم الكاملة ، والخِصْب الذى يتساوَى فى الانتفـاع به الغَنِىّ والفقير، والمأمور والأمير .

فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضل، الصدر الكبير الكامل، ذو المناقب والمآثر، والفضائل وللمفاخر، شهاب الدين محمود الحلبىّ :

(١) الأوق : الثقل .

وسَرّه بنبأ النيـل الذى عَمّ نَيْلا، وجرّ على وجه الأرض مُلَاءة مِلْأته ، فشمّر المَحْـل للرِّحْلة ذَيْلا ، وجرّد على الجـدب سيفَ خِصْبِه فسال مُحْمَـرُّ دَمِه على وجه الصَّعِيدِ سَـيْلا ، وجَرَى وسَرَى فى ضـياء إشراقه وظُلْمَـةِ تَرَاكُمه إلى الأرض التى بارك به حولَهـا ، فجَلّ من أجراه نهـارًا وسبحانَ من أسْرَى به ليلا . صَـدَرتْ هذه المكاتبةُ إليه — أعزّه الله تعـالى — ونِعَمُ الله قد عَمّتْ ، وآلاؤه مع تحقّق المزيدِ قد تَمّتْ، ومَوَادّ فضلِه قد أمّت الأقطارَ فقامت صَلاة الصّلات إذ أمّتْ؛ وكلمـة الخِصب قد نَمَتْ فى الآفاق، فوَشَتْ بمكنون حديثها للأرض ونَمّتْ؛ والخِصْبُ قد أقبل على الجَدْب فلم يكن له بمقاومته قِبَل ، وطُوفان الرَّحْمة قد طَبق الوِهَاد، فلم يُغْنِ المَحْلَ أن قال : سآوى منه إلى جبل . والسيلُ قد بلغ فى تَتَبُّع بقايا القَحْطِ الزُّبَى ، والنِّيل قد عمّ بنَيْـله الأرضَ حتى كَلَّل مَفَارِقَ الآكام وعَمّم رءوسَ الرُّبَا ؛ وحَمَى الأرضَ من تَطَرُّق المُحولِ إليهـا فأصبحت منه فى حَرَم ، وظهرت به عجائب القدرة، ومنها أنّ ابنَ الستة عشرَ بلغ إلى الهرَم، وبثّ جُودَه فى الوجود فلو صوّر نفسَه لم يزِدها على مافيه من كَرَم؛ وتَلَقّت منه النفوسُ أبهج محبوبٍ طَرَدَ ممقوتا، ووَثِقت من حُمْرته بالغِنَى والمُنَى إذ لم تَدْرِ أياقوتًا تُشاهد منه أم قُوتا . وجرى فى الوفاء على أكمل ما أَلِف من عادته ، وظهر بإشراقه وعمومِ نَفْعه ظهورَ الشّمس فألقَى على الأرض أشِـعّةَ سعادته؛ وأقبلت به على الخَلْق بوادرُ الإقبال ، وركِب الناسُ منه فى سُفن النجاح والنجاةِ فهى تجرِى بهم فى مَوْج كالجبالِ. وبلّغ الله به المنافع فزعزعَ الشُّمّ ولم يتجاسر على الجسور، وأمن الناس به طروقَ المَحْل المطرود به عنهم فضُرِب بينهم بِسُـور، وأقطع الخِصْب الأرض كلهـا فله فى كل بُقْعة مِثالٌ مَرْئِىّ ومنشور منشور ، وبعث إلى كل عمل من سَرَايا جُوده عارضًا مُغْضَبا على المَحْل ما يخطر إلّا وسيفُه مشهور؛ وأودع بطن الثَّرَى مَوَادّ تُرَاثه ، واستقبل الورَى بوجه ما تأمّله آمرؤٌ

(٦٤)

صادى الجوانح إلا آرتَوَى من مائه، وأظهر الله به مثال ما سَلَف من كرامة أصفيائه؛ إذ جعل تحت كل نخلةٍ من سراه سرِيًا، وجَلَا به عن الأُمّة ظُلَمَ الغُمَّة إذ أطلع منه فى أوّل مَطالعه المرتَقَبة مُحَيًّا بَدْرِيًا . وذلك أنه لما كان فى اليوم الفلانىّ وَفَى النِّيلُ المباركُ ستةعشر ذراعا، ومدّ بحُسْن صُنْع الله إلى مَصَالح البلاد يدًا صَنَاعا؛ وركبنا إلى المِقياس الذى تُعْلَمَ به مواقعُ الرحمة فى كلّ يوم، وتُهْدَى منه واردات السرور إلى كلّ قوم؛ ووقفنا به لابسين من رحمة الله تعالى أحسن لِباس، آنسين من أنوار رحمة الله التى أزالت اليأْس وأذهبت الباس، ناظرين إلى أثر رحمة الله التى أحيت الأرضَ بعد موتها، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . وجرى الأمر فى التخليق على أجمل عادات البدور، وعُلِّقت سِتارةُ المِقْيَاس لا للإخفاء على عادة الأستار، بل للإشاعة والظهور؛ وآستقرّ حكم المَسَرّة على السَّنَن المعهود، وعاد للناس عيدُ سرورهم إذ ذاك يومٌ مجموعٌ له النـاس وذلك يومٌ مشهود . وركب مولانا السلطان إلى سدّ الخليج والمـاء قد آستطال عليه، وسَرَتْ سرايا أمواجه إليه، وصَدَمه بقوّة فاندفع منكسرًا بين يديه؛ فآنجبرت القلوبُ بكسَره، واستوفت الأنفُس السُّرورَ بأسره، وأيقن كل ذى عُسْر بحصول يُسْره؛ وساق الله به المـاء إلى الأرض الجُرُز فأحياها وحيّاها، ورقّ لوجهها المُغْـبَرّ فستر بردائه المحمرّ صفحةَ مُحَيّاها . كل ذلك وهو — بحمد الله تعـالى — آخذٌ فى الآزدياد، جارٍ على وَفْق المُراد إلى حَدّه المعتاد، سالكٌ ببلَاغه سبيلَ أهـل البلاغة إذ يَهِيمُون فى كلّ واد . وها هو الآن يرتفع إلى كلّ رَبْوة على جَنَاح النَّجاح، ويُخِيفُ السُّـبُلَ وما عليه حَرَجٌ ويَقْطَع الطُّرُقَ وليس عليه جُنَاح . فليأخذ مولانا حظَّه من هذه البُشْرَى التى عمّ بِشْرُها، ووجب على كل مؤمن شُكْرُها؛ ويتحقق أنّ هذه بوادرُ خير تَسْرى إليه على ركائب السّحائب، وطلائعُ خِصْب هى لديه أقرب غائب وأسرع آئب . والله تعالى يُعِزّ أنصاره، ويُوَالى مَبَارّه، بمحمد وآله .

وكتب أيضا فى مثل ذلك :

ضاعف الله نعمة المجلس العالى، وبشّره بما أجرى الأُمّة عليه من عوائد كَرَمه، وسَرّه بما يَسَّره من خصوص بِرّه وعموم نِعَمه، وهنّاه بما ستّاه[1] من هَرَب جيش المَحْل بعد قِدَم وثَباته وثَبَاتِ قَدَمه، وأورد على سمعه من أنباء نُصْرة الخِصْب ما يتحقّق به أنْ لم يبقَ فى الأرض عَلَمٌ إلا تحت عَلَمِه، وأنه ذَبح الجَدْب بسيف مَدَده الذى أنبأ بحُمرة عَنْدَمِه عن دمه، وبثّ سراياه فى الأقطار، على مُتون القِطَار، مُرهِفًا على بقايا المَحْل سيوفَ بُرُوقه ونِبالَ دِيَمه؛ وضرب قِبابَ موجه على المسالك، فلو هَبَّت بينها عاصفةُ جَدْبٍ تَعَثّرتْ بأطناب خِيَمه، ولَعِب على ما شَمَخ من الرُّبا، فعَجَبٌ له من كاملٍ يلعَب وقد بلَغ إلى هَرَمِه! صدرتْ هذه المكاتبةُ تَقُصّ عليه من نِعَم الله أحسنَ القَصَص، وتُهْدِى إليه من مَوَادّ فَضْله ما يَخُصّ الشأم وأهلَه منه بأوفى الأقسام وأوفر الحِصَص، وتَحُثّه على شكر الله تعالى الذى به ينتهز من مزيد بِرّه أعظم الحظوظ وأفضل الفُرَص، وتُعْلِم أنّ الله نصَر جيش الرخاء بمَدَد لُطْفه على اليأس الذى تولّى الشيطانُ أمْرَه فلمّا تراءتِ الفِئتانِ نَكَص، وأنعم على خَلْقه بما أرخصتْه عزائم كَرَمه بهم، فوجب أن تُقابَلَ نِعَمُه بعزائم الشكر دون الرُّخَص؛ وذلك أن الله تعالى أجاب دعوة المضطرّ، وأفاض بِرّه العميمَ على الغنىّ والفقير والقانع والمعترّ؛ وأحيا الأرض بعد موتها، وتداركَ برحمته دنيا الدَّهْماء بعد أن أشرفت على فَوْتها؛ وأجرى الخَلْقَ على عوائد كَرَمه، وأجرى لهم بقدرته من حُجُب الغيب مَوَادّ نِعَمه، وأعلى لديهم مواردَ نيلهم حتى كاد ما يَشْرَب بفُرُوق ساقِه يتناول الماءَ بفَمِه؛ وأمَرَ البحرَ فأقبل بانفراج القريب من الأمد البعيد، وأذِن له فى الترفّع من مَحَلّه فسجَد على التُّرْب شكرًا وتَيَمّم الصعيدَ وإن لم يبقَ به الآن على وجه

(١) ستاه : سره وسهله .

الأرض صـعيد؛ وأسرى منه ركائب السرور إلى الأقطار ففى كلّ نادٍ من هَـديره حاد وفى كل برٍّ من بروره بَريد، وذكّر بإحياء الأرض بعد موتها إحياء أمواتها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، ونشر ألويته على الثَّرى لأهل الأرض بُشْرًا بين يَدَىْ رَحْمته، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾؛ وأقبل بعد نقص عامه المـاضى بوجه عليه حُمرةُ الخَجَل، ٥
وعَزْمٍ سَبَق سَيفُه إلى المَحْل العَـذَلَ بل الأجَل، وحَزْمٍ أدرك الجَدْبَ بوجه قبـل أن يقول: سآوِى إلى جبل، وآستظهارٍ على كلّ ما علَا من الأرض حتى إن الهَرَمَيْن باتا منـه على وَجَل؛ ومَهّـد الأرضَ التى كانت تَرْقُبه فهو لهـا المنتظَر على الحقيقـه، ووَطِئ بطنَ القُرى فنتج الخِصْبُ بينهما وذُبح المَحْلُ فى العقِيقه؛ وقَطَع الطُّرُق فآمن بذلك كلَّ حاضر وباد ورائح وغاد، وآتّبعـه الرِّىّ لا الرَّوِىّ حتى ١٠
أضحى كالشعراء يهيم فى كـل واد؛ وعمت بركاته على الأرض "فتركن كل قَرارة كالدرهم" من الخصب مرتعا، وأربى على رِيّه فيما سلف من السنين[1]، فأضحى كهوى آبن أبى ربيعة "يقيس ذراعا كلما قسن إصبعا"؛ وتجعّد على الآكام فخُيِّل للعيون أنها تسـيل، وشَيَّب مفارقَ الرُّبا ببياض زَبَده، وعادةُ بيـاض الشيب أن يُخْضَب بورق النيل. وكأنّ ما بقى من المَحْل قد جعل بينه وبينه سَدّا، وتستّر منه ورآه وهو يُملى ويَعُـدّ له عَدّا؛ فصدَمه بقلبه وجعـله دكّا إذ جاء أمرُ ربه وأدركه ١٥
وملَكه، وسفَك دمَه بجرى مستطيلا إذ سفكه؛ ووفَى بمـا وَعَد من ظَفَره، وأتى لنُصْرة الخِصْب من مكانٍ بعيدٍ فأسفر عن النُّجْح وجهُ سَـفَره، وأسبل على مقياسه سـتر السرور لإخفاره ذمّةَ الجَدْب لا لِخَفَره، وبشّر مصره بنُصْرة سَرَايا السحائب

(١) فى الأصل: «وأربى على ريه ما سلف من السنين» وظاهر أنه غير مستقيم. ويجوز أن يكون الأصل: «وأربى ريه على ما سلف» فحدث فيه تقديم وتأخير من الناسخ. ٢٠

فى أقطار الممالك لأنها من أشياعه ونفَره . ولما كان اليوم الفلانى عُلِّق الستر وخُلِّق المقياس ، وكُسِر الخليجُ فكان فى كسْره جَبْرٌ للخليقة ومنافعُ للناس ؛ وذلك بعد أن وفّى النيل المبارك ستة عشر ذراعا ، وصرف فى مصالح البلاد يدا تَضِنّ بالبذل خُرْقا وتكفى بحُسْن التدبير ضِياعا ، [وبثّ فى أرجاء الأعمال بحارا تحسب بتلاطم الأمواج ركاما و بمضاعفة الفجاج سراعا](١) . وهو بحمد الله آخذٌ فى ازدياده إلى حدّه ، جارٍ على اعتياده فى المشى على وجه الثرى وخدّه ؛ يتتبّع أدواء المَحْل تتبُّعَ طبيبٍ خبير ، و يعكس بيت أبى الطَّيِّب فتُمْسِى وبُسطها تراب ، ويُصَبِّحها وبُسطها حرير . وقد وثِقت الأنفس بفضل الله العَميم ، وأصبح الناس بعد قطوب اليأس تعرف فى وجوههم نَضْرةَ النَّعيم ؛ تَيَمَّنًا ببركة أيّامنا التى أعادت إليهم الهجوع ، وأعاذتهم مما ابْتُلِى به غيرُهم من الخوف والجوع . فليأخذ المجلس العالى حظَّه من هذه البشرى التى خَصّت وعَمّت ، ووَثِقت النفوس بمزيد النعمة إذ قيل : تَمّت ؛ ويُذيعها فى الأقطار ، و يعرّفهم قدر ما منح الله جيوش الإسلام من فضله الذى يُعْجِب الزُّرّاع ليغيظ بهم الكُفّار ؛ ويستقبل نعم الله التى سَيَسِم الأرضَ وَسْمِيُّها ويُولى النعم وَلِيُّها ويأتى بالبركات أَتِيُّها حتى تَغَصّ بالنعم تلك الرِّحاب ، ويُظَنّ لعموم رِىّ البلاد الشاميّة أنّ نيل مصر وصل إليها على السَّحاب ؛ ويقيم منارَ العَدْل الذى هو خير بالأرض من أن تُمْطَر ، ويُعَفِّى آثارَ الظلم حتى لا تكاد تَظْهَر .

ومما قيل فى التهانى بالفتوحات ، وهزيمة جيوش الأعداء .

فمن ذلك ما كتب به المُهَلَّب بن أبى صُفْرة إلى الحجّاج بن يوسف الثقفىّ فى حرب الأزارقة :

(١) وردت هذه الجملة هكذا بالأصل !

أمّا بعـدُ، فالحمـد لله الذى لا تنقطع موادّ نعمته من خلقه حتى تنقطع موادّ التنكر . وإنّا وعدوّنا كنّا على حالتين : يَسُرُّنا منهم أكثرُ ممـا يسوءنا، ويَسوءهم منّا أكثرُ مما يَسُرُّهم؛ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا وينقُصهم، ويُعِزُّنا ويُذِلُّهم، ويُؤيِّدنا ويخذُلهم، ويمحَصُنا ويمحَقُهم؛ حتى بلغ الكتابُ أجلَه، فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

(٦٦) وكتب الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة حين وُلِّى العراق من قِبَـل عبد الله ابن الزبير إليـه يُخْبره بهزيمة الخوارج : أمّا بعـد، فإنا مذ خرجنا نؤُمّ هـذا العدوّ فى نعم من الله متّصلة علينا، ونقمةٍ من الله متتابعة عليهم؛ نُقْدِم ويُحْجمون، ونَجِدّ ويرحَلون، إلى أن حللنا بسوق الأهواز . والحمد لله رب العالمين .

ثم كتب إليه بعد هذا الكتاب[1] : أمّا بعد، فإنا لقينا الأزارقة بجِدّ وحَدّ، وكانت فى الناس جولةٌ ثم ثاب أهلُ الحِفاظ والصبر بنيّاتٍ صادقة وأبدان شـداد وسيوف حِداد؛ فأعقب الله خير عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دَرِيئةَ رماحنا وضَرِيبةَ سيوفنا، وقتل الله أميرهم ابن المـاحُوز؛ وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها . والسلام .

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لمّـا فتح بغداد وقتل محمدا الأمين : أمّا بعد، فإن المخلوع وإن كان قسيمَ أمير المؤمنين فى النسب واللُّحمة، لقد فرّق الله بينهما فى الولاية والحُرْمة؛ لمفارقته عصمةَ الدين، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين . قال الله عز وجل : ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ . ولا صلة لأحد فى معصية الله، ولا قطيعةَ فى ذات الله . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وقد قُتِل المخلوع

(١) فى الكامل للمبرد (ص ٦٤٠ طبع أوربا) أن هذا الكتاب من المهلب الى الحارث .

وردّاه الله رداءَ نَكْبة، وأحمدَ لأمير المؤمنين أمرَه، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده . والحمد لله المتولّى لأمير المؤمنين بنعمته، والراجع إليه بمعلوم حقّه، والكائد له ممن ختَر عهده ونكَث عقده، حتى ردّ له الألفة بعد تفريقها، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها، ومكّن له فى الأرض بعد شتات أهلها .

٥ ولمّا فتح المعتصم عَمُّورِيّة أكثر الشعراءُ من ذكر هذا الفتح؛ فمن ذلك قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى من قصيدته التى يقول فى أوّلها :

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ * فى حَدّه الحدُّ بين الجِدّ واللَّعِبِ
بِيضُ الصفائح لا سود الصحائف فى * متونهنّ جَلاءُ الشكّ والرِّيَبِ
والعلمُ فى شُهُب الأرماح لامعةً * بين الخَمِيسَيْنِ لا فى السبعة الشُّهُبِ

١٠ جاء منها :

فتحُ الفتوح تعالى أن يُحِيطَ به * نظمٌ من الشِّعر أو نثرٌ من الخُطَبِ
فتحٌ تفتَّح أبوابُ السماء له * وتبرُزُ الأرضُ فى أثوابها القُشُبِ

ومنها :

وبرزةُ الوجه قد أعيَتْ رياضتُها * كسرى وصدّت صدوداً عن أبى كَرِبِ
١٥ بِكرٌ فما افترعتها كفُّ حادثة * ولا ترَقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ
من عهد إسكَنْدرٍ أو قبل ذاك فقد * شابت نواصِى اللَّيالى وهْىَ لم تَشِبِ
حتى إذا مَخَضَ اللهُ السنين لها * مَخْض الحليبة كانت زُبْدَةَ الحِقَبِ
أتتهُمُ الكُرْبَةُ السوداءُ سادرةً * منها وكان اسمُها فَرَاجةَ الكُرَبِ
لمّا رأت أُختَها بالأمس قد خَرِبَتْ * كان الخرابُ لها أعْدَى من الجَرَبِ

٢٠ أشار فى هذا البيت إلى فتح أنقِرة .

ومنهـا :

لَبَّيْتَ صـــوتًا زِبَطْـرِيًّا هَرَقتَ له * كأسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُـرَّدِ العُرُبِ

(٦٧) قيـل : كانت الروم لمّـا فتحت زِبَطْرة صاحت آمرأة من المسلمين : وامحمداه ! وامعتصماه ! فلما بلغه الخبر ركب لوقته يؤمّ الشأم، وصاح : لبّيْك ! لبّيك ! ولم يرجع إلى أن فتح أنقِرة وعمُورِيّة . ومنها :

خليفـــةَ الله جازى الله سَعْيَكَ عن * جُرثومة الدِّين والإسلام والحَسَبِ

إن كان بين صُروف الدهر مِن رَحِمٍ * موصـــولةٍ أو ذِمَامٍ غـــير مُنْقَضِبِ

فبين أيّامِكَ اللّاتى نُصِرتَ بهـا * وبين أيام بَدْرٍ أقْـــربُ النّسب

وكتب أبو عبيد [عبـد] الله البكرى إلى المعتمد على الله المؤيَّد بنصر الله يهنِّئه بالفتح الذى كان فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة :

أطال الله بقاء سيّدى ومولاى الجليل القدر، الجميل الذكر، ذى الأيادى الغرّ، والنعم الزُّهْر، وهنأه ما مُنِحَه من فتح ونصر، وآعتلاءٍ وقهر . بطالع السعد يا مولاى أُبْت، وبسانح اليُمن عُدْت، وبكَنَف الحرْز عُذْت، وفى سبيل الظَّفَر سِرْت، وبقدم البِرّ سَعَيْت، وبجُنَّة العصمة أتَيْت، وبسهم السَّداد رميتَ فأصميت . صَدَرٌ عن أكرم المقاصد وأشرف المشاهد، وعود بأجلّ ما ناله عائد وآب به وارد ؛ فتوح أضحكت مَبْسِم الدهر، وسَـفَرت عن صفحة البشر، وردّت ماضىَ العُمْر، وأكْبَتْ[1] وارىَ الكُفْر، وهزّت أعطاف الأيام طربا ، وسقت أقداحَ السرور نَخبا ، وثَنَتْ آمال الشرك كَذِبا، وطوت أحشاء الطاغية رَهَبا ؛ فذكرُها زادُ الراكب، وراحة اللّاغب ؛ ومُتْعة الحاضر، ونُقْلة المسافر .

(١) أكبت : جعلته لا يورى . وفى الأصل : « أكفت » . ولعله تحريف من الناسخ .

بها تُنْقَضُ الأحلاسُ فى كلِّ منزل * وتُعْقَد اطرافُ الحبال وتُطْلَقُ

شملت النعمة وجبرت الأمة ، وجلت الغُمَّة ، وشفت المِلّة ، وبردت الغُلّة ، وكشفت العِلّة .

كان داءَ الإشراك سيفُك وآشتـ * ـدت شَكاةُ الهُدى وكان طبيبا

فغدا الدِّينُ جديدا ، والإسلام سعيدا ، والزمانُ حَميدا ، وعَمود الدين قائما ، وكتابُ الله حاكما ، ودعوة الإيمان منصورة ، وعَين الملك قريرة . فهنأ الله مولانا وهَنانا هذه المِنَح البهيّة مطالعُها ، الشَّهيّة مواقعُها ، المشهورةَ آثارُها ، المأثورةَ أخبارُها ، ونصر الله أعلامَه ففى البِرّ تُحَلّ وتُعْقَد ، وعَضَد حُسَامه فبالقِسط يُسَلّ ويُغْمد ، وأيّد مذاهبه فبالتَّحزُّم تُسْدَى وتُلْحَم ، وأمرَ كتائبه ففى الله تُسْرَجُ وتُلْجم . فكم فادحٍ خَطْب كفاه ، وظلامٍ كَرْبٍ جَلاه ، وميّتٍ حقّ أحياه ، وحىٍّ باطلٍ أرداه ! وكم جاحم ضلالةٍ أطفأ نارَه ، وناجمِ فتنةٍ قلّم أظفارَه ، ومفلول سُنّة أرهَفَ شِفَارَه ، ومستباحِ حُرْمة حَمَى ذِمارَه . فلله هذه المساعى الكريمة والمنازع القويمة ، المتبلِّجة عن ميمون النّقيبة ومحمود العزيمة ؛ فقد تمثّل بها العهد الأوّل والقرن الأفضل الذى أُخْرِج للناس يأمُرون بالمعروف وينْهَوْن عن المنكر ، والذى سطع هذا السّراج ، وآنتهج هذا المنهاج ؛ فلا زالت الفتوح تتوالى عليه ، وصنائع الله تتّصل لديه ، إدالةً من مشاقّيه وإذالةً لمحاربيه ، وإبادةً لمناوئيه . وإن أجلّ هذه النعم فى الصدور ، وأحقّها بالشكر الموفور ؛ ما منّ الله به من سلامة مولاى التى هى جامعةٌ لعزّ الدّين وصلاح كافّة المسلمين ، بعد أن صَلِى من الحرب نِيرانَها ، فكان أثبتَ أركانها وأصبرَ أقرانها :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ * كأنّك فى جفن الردى وَهْوَ نائمُ

تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هَزِيمةً * ووجهُكَ وَضّاحٌ وثغرُك باسمُ

هنيئًا لضرب الهَامِ والمَجْدِ والعُلَا * ووجهِك والإسلامِ أنّك سالمُ

فلله الحمـد والإبداعُ والإلهام، وله المِنّة وعلينا متابعة الشكر والدوام. وقد فازت الكفّ الكليم، بأعلى قـداح المكلوم لدى المَقام الكريم؛ وإنها لهى التالية للإصبع الدامية فى المنزلة العالية.

بَصُرْتَ بالراحة العُلْيا[1] فلم تَرَهـا * تُنَـال إلا على جِسْرٍ من التّعب

ومن كلام القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ جواب كتاب ورد عليه يُخْبَر فيه بانتصار المسلمين. ابتدأه بقوله عز وجل: (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ). وصلت بُشرى المجلس السامى — أعلاه الله وشـيّده، وأسعده وأصعده، وشكر مشهَده وأنجح مقصِـدَه، وملأ بالحسنات أمسَه ويومَه وغده، وأهلك وعادى أعداءه وحُسَّدَه، وأجتبّ بسيفه زرع الكفّار وذَراه وحصده — بما منّ الله سبحانه من نُصْرة المسلمين عند لقاء عدوّهم؛ وما وَلِيهم الله من القوّة والإظهار، وما قذف فى قلوب الكفر من الخوف والحِـذار؛ وشرح القضيّة شرحًا شَرَح الصدور، وآستوى فيهـا الغُيّاب مع الحضور؛ فكانت البِشارةُ منـه وكانت المباشَرةُ له، وما كلّ من بَشّر باشر، ولا كلُّ من غار غاوَرَ؛ ولا كلّ من خبّر عن السيوف لقيها بوجهه، ولا كلّ من حدّث عن الرماح عانقها بصـدره. فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلام به، وأتمّ النعمةَ عليه كما أتمّها فيه؛ وتقبّل جهاده الذى جلا فيه الكُرُبات، وآبتغى فيه القُرُبات. ويُتوقّع إن هان العدوّ فى العيون، وظهرمنه غيرُ ما كان فى الظنون، أن يكسر الله بكم مَصَافّه، ويفتح عليكم بلاده، ويُطهّر بسيوفكم الشام، ويسرّ بنصركم الإسلام، ويشرّف بيوم نصركم الأيّام. والخير يُغْتَنَم إذا عَنَتْ فُرَصُه، ويُصاد إذا أمكن الصائدَ قنصُه، والجهاد فرض على المُطِيق تقتضيه عزائمه ولا تقتضيه رُخَصُه. وقد حضر المولى وحضر كلّ خير، وحضر من رأيه ما يكفى

(١) فى ديوان أبى تمام: «الكبرى».

أمرَ العدوّ ولو لم يكن إلا رأيه لا غير؛ فكيف وفى يده من العَضْب، مثل ما فى صدره من القلب؛ كلاهما حديدٌ لا تَكِلّ مضاربه، ولا تخونه ضرائبه، ولا تفنَى إذا عُدِّدت عجائبه. فكم له من يوم أغرّ محجّل الأطراف، وليلةٍ فى سبيل الله دهماء الأهوال بيضاء الأوصاف؛ والنفوس واثقة بأن الظَّفَر على يده يجرى، والمبشِّر من جهته يسرّ ويَسْرِى. وَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين.

وكتب أيضا فى مثل ذلك: ورد كتاب المجلس — نصر الله عَزْمَته، وشكر هِمّته، وأتمّ عليه نعمته، وصَرَف به وعنه صَرْفَ كلّ دهرٍ ومُلِمّته ومؤلمته، وأعان أولياءه على أن يُؤَدّوا خدمته، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته، وأجزل قِسْمه من الخير الذى يُحْسِن بين محبّيه قِسْمتَه — سافراً عن مثل الصباح السافر، متحدِّثا عن روض أفعاله بلسان النسيم السَّحَرِىّ الساحر، حاملًا حديثَ بِيضه وسُمْره حديث السامر. وهنّأ بالفتح وهو المهنّأ به، وكيف لا يُهَنَّأُ بالفتح من هو فاتحُه! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كلّ صدر وشارحُه! ولقد دعا له لسان كلّ مسلم وساعدت لسانَه جوارحُه؛ وعلم أنه باشر الحربَ وتولّى كِبرها، وأخمد جمرها، ولقى أقرانها، وافترس فُرسانها، وجَبّن شجعانها، وشجّع جبانها؛ وأنفق الكريمين على النفس: النَّفْس والمال، وحفظ على الإسلام الطَّرَفَيْنِ: الفاتحةَ والمآل. وإذا تأمل المجلس الدنيا علم أن الذى يبقى بها أحاديث، وإذا نظر إلى المال علم أن الذى فى الأيدى منه مَوَاريث؛ فالحازم من ورِث ماله ولم يُورثه لغيره، والسعيد من لم يرض لنفسه من الحديث إلا بخيره. وما يخفى عن أحد ما فعله، ولا ما بذَله، ولا ما هان عليه، ولا ما أهان اللهُ كرائمَ المال بيديه؛ ولقد حلّت نعمة الله فى محلّها لديه، وكان كفأها الكريمَ الذى أصدقها ما فى كفّيْه.

هـذا ثنائى وهاتيكم مَنَاقِبُكم * يا أعيُنَ النّاسِ ما أبعدت إسهادى

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)، بل هو سبحانه يُوفى عباده مثاقيل الذّر، وللصابرين عنـده الأجر بغير حساب لجلالة قدْر الصبر. والمجلس صبّر نفسه على المشقّات فليُبْشِر بثوابهـا، وكثّر أعمال البِرّ فهو يدخل الجنّة بفضل الله من جميع أبوابها. وكما يُهنّأ المجلس بالافتتاح فهو يُهنّأ بالجراح؛ ولا يَغْسِل ثوبَ العمل إلا الدمُ المسفوح، وكل جُرْح إنما هو باب إلى الجنة مفتوح. والحمد لله على أن أمتع الأمّة بنفسه التى بذلها، وقد باعها له وأبقاها لنا وقَبِلها. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) ﴿٦٩﴾.

وكتب المرحوم علاء الدين علىّ بن القـاضى محيي الدين بن الزكىّ إلى أخيه بهاء الدين مُبَشّرا بفتح صَفَد، وكان هذا الفتح فى يوم الجمعة ثامن عشر شوّال سنة أربع وستين وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار دولة الترك فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس:

يقبّل اليد الكريمة، ويبُثّ ما يعالجه من لواعج الأشواق التى تركته بين الأصحاب مُدَلّها، وسلبت لُبّه فلا أعلم عليه مَنْ دَلّها؛ وينْهى أن المملوك فارق كريم جنابه وتوجّه إلى صَـفَد المحروسة فوصل إليها فى تاريخ كذا، ووافاها والحِصنُ قـد تزعزعت أركانُه، والكفرُ قد انهدم بُنيانُه، وشمّر عن ساق الهزيمة شـيطانُه؛ وحُمَاةُ الحرب قد وقفت فى مراكزها، وكُمَاة الهيجاء قد آستعدّت لأخذ فُرَص النصر ومناهزها؛ والرماحُ قد آهتزّت شوقا الى لقائهم، والسيوفُ قد آلت أنها لا توافق على مُقامهم، والمَجانِيقُ تزور حِماهم وتلك الزيارة لشقائهم؛ وتُدَمّر بحجارتها عليهم تدميرا، وتُرِيهم من بأسها يوما عبوسًا قَمْطرِيرا، وتصير بهم إلى الهَلاك وتعِدُهم جهنّم وساءت مصيرا؛ والقِسِىّ تُرسل اليهم المنايا فى أجنحة السهام، وقد أحدقت بهم كماةُ الترك كأنها ظِباءٌ

بأعلى الرقمتين قِيام؛ فمِنْ نازعٍ بقوسه وهو لمُهَج الكافرين مُنازع، ومن متدرِّع بنحره نحو المنايا يسارع، ومن واردٍ مَنْهَلَ المنيّـة وآخر فى إثْره كارع، ومن متدرِّع وحاسرٍ عَلِما أن ليس لقضاء الله دافع؛ وما زادهم إلا إيماناً وتسليما، وما سلك بهم إلا صِراطًا مستقيما، وما آشـترى أنفسهم وأموالهم إلا بالجنّة وأعدّ لهم أجرا كريمـا. والسلطان ٥ —عزّ نصره— قد شحَذ شبَوَات عزمه، وفوّق سديد سهمه ليفوز بجزيل سهمه؛ وهو يرتّب عساكره، ويُهيِّئ ميامنه ومياسره، ويُنفذ أوائله ويقدّم أواخره، ويَحُثّ صناديده، ويُثبّت رعاديده؛ ويُسعِر هِمّة مَساعره، ويُذْكى نارَ الحرب فى مَجامره؛ ويقـابل الأبراج ببروج يَهدمونها، ويَكلُ بالنُّقوب نُقباء يحفِرونها، ويَعِـد للمؤمنين مغانمَ كثيرةً يأخذونها؛ ويُعِدّ لكل مقامٍ رجالا، ويرتّب لكل مُقاتلٍ من المسلمين ١٠ قِتالا، ويبسُط لهم بقتـل الكافرين آمالا؛ حتى قامت الحـربُ على ساق، وضاق بأهل الشقاق الخِناق؛ وبلغت الأرواح منهم التّراق، ودارت عليهم كؤوسُ المنـايا فآنتشى المَسْقِيّ والساق؛ وأحدقت بهـم الجياد تَصْهِل، وسُحُب القِسِيّ تَهْطِل، وكواذب الآمال تَعِدهم وتُمْطِل؛ وخرَصوا لأنفسهم الفرَجَ فكذّبتهم أسنّة الخُرْصان، ونظـروا إلى الحياة بعين الطمع فكحّلتهم بنات الحَنِيّة المِرْنان؛ فلمـا أُشرِب (١) العجز ١٥ نفوسُهم، وآستوى فى الشُّورَى مرءوسهم ورئيسُهم؛ ومُنُوا بالمنايا من كل جانب، وسمَح كلٌّ منهم بالمـال والذهب مذ عَلِم أنّه ذاهب؛ وتحقّقوا أن لا ملجأ من السيف إلا إليه، ولا مُعَوّل بعد المعوّل إلا عليـه، وتيقّنوا أن لا مُقامَ لهم ولا مَقَرّ، وقال الكافر يومئذ أين المَفَرّ. والمسلمون مثابرون على العمل الصالح يرفعونه، ومبادرون أجَلَ عدوّهم يمزّقون منـه كل ما يرقَعونه؛ وإذا بصَيْحة كالصيحة التى تأخذهم وهم ٢٠ ينظرونها، أو الصعقة التى ينتظرونها، إذ أُمِرّت السيوفُ على رِقابهم وهم يُبصرونها؛

(١) فى الأصل: «اشراب» وهو غير واضح.

فٱرتجّت أرجاء الحِصن بالٱصطخاب، ووقع الٱختلاف بينهم والٱضطراب؛ وقيل: إن الكافرَ قد طلب الأمان، وإنه ركب ظهر المَذَلّة مذ ناوله الجَزَعُ العِنان، وإن الكفر قد ذلّ للإيمان، وإن شـيطانه قد نكَص على عَقِبه لما تراءت الفئتان؛ فأمسكت المجانيق عن ضربها، وكفّت الحَنَايا عن إرسال شُهبها، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وَثْبها. فما كان إلّا هُنَيهة وقد خرج رسول منهم حيث لا تنفع الرسائل، وٱخترق وشِـيجَ القنا وشوك النّصال وظُبَا المَناصل، ورأى كثرةً هالتـه فكادت تنقدّ تحت الذعر منـه المفاصل، ومشى إلى السلطان خاضـعا وأعيا على السِّماطين يقوم كلما عوّجته الأفاكل.

وقبّـل كُمًّا قبّـل التُّربَ قبلَه * وكلُّ كَمِيٍّ واقفٌ مُتَضائِـلُ

وأدّى الرسالة وإذا هى كما قال أبو الطيب دروع، ورجع إلى أهـله وفى قلبه من جيش الإسلام — كثره الله — صدوع.

فأقبلَ من أصحابه وهو مُرْسَلٌ * وعاد إلى أصحـابه وهـو عَاذِلُ

فأبَوْا لنصيحته قَبُـولا، وقالوا: قاتلك الله رسـولا؛ لقد خرجتَ عن سُـنّة إخوانك، وألقيتَ إلى المسلمين فاضلَ عِنانك، ولم ترقُب رِضا أقِسّتِك[1] ورهبانك. والرعب قد خرج به عن قومه وآله، وهو يُناشدهم اللهَ فى أموالهم وأنفسهم ويُنشدهم بلسان حاله:

أمرْتُهُم أمرى بمُنعَـرَج اللّوى * فلم يَستبِينوا الرُّشدَ إلا ضُحَى الغدِ

فلمـا ٱستحكمت مِرّة عِصـيانهم، وأبَوْا إلا مغالاةً فى طُغيانهـم؛ ولم يسمَحوا بتسليم ذلك الحِصن الحصين، وقالوا: إنه على حفظ أرواحنا لقوِىٌّ أمين؛ أُرسِلت عليهم من المجانيق حجارةٌ كالمطر، إلا أنها ترمى بشَرَرٍ كالقصر فتهدِم قصوراً كالشرر؛

(١) فى الأصول: «أقسائك» وهو تحريف.

فزعزعت منها بُرُوجًا و بُدنا، وقالت : هذا جزاؤكم و إن عُدْتم عدنا، ولنُتْبِعنّ بعدها آثاركم ونقلعَ منكم قِلاعًا ومُدنا . فلما أكذبهم الحِصنُ فى آمالهم، وأراهم الله قُرْب آجالهم ؛ وكان ذلك فى اليوم الأغرّ يوم الجمعة والفتح ، سلكوا فى التسليم عادةً لم يسلُكوها، ورأوا من الجزَع خُطّةً ملكتهم ولم يملِكوها؛ فأجمعوا أمرهم وشركاءهم إلا أنه كان عليهم غُمّة، وطلبوا الذِّمام ومن قبلها كانوا لا يرقبون فى مؤمنٍ إلًّا ولا ذِمّة؛ فألقَوْا إلى الإسلامِ يومئذ السلَم، ورأَوْا نور الله الظاهرَ أشهرَ من نار على علَم؛ فخرجوا من الحصن زَرَافاتٍ وأوْزاعا، مُهْطِعين إلى الداعى كيوم يخرجون من الأجداث سِراعا. فلو تراهم نحو المنايا يركُضون، ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

جرت الرياحُ على مَقَرِّ ديارِهِمْ * فكأنما كانوا على مِيعادِ

وصدق الله المؤمنين وعده ، وكان بصدق وعده حقيقا، ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ . فلما كان يوم السبت نادى فيهم السيفُ بالرحيل ، ولم يتزوّدوا من متاع الدنيا إلا القليل ؛ وقام النصر على منابر الهامات خطيبا ، وكثُر القتل فصار المهنّد الصقيل خَضِيبا ؛ وأجرى أوديةً من دِمائهم ، ولم يغادر بقيّةً من ذَمَائهم؛ وآستوى العبيد منهم والأرباب، وصار فُرسانهم فرائسَ الذئاب، وآستمرءوا المَرْعَى الوخيم فرعاهم الذُّباب ؛ ووجدوا غِبَّ البغى علينا، وقلنا : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾؛ وآب المسلمون بخير عميم ، وفتح عظيم وأجر كريم ؛ وجعل الله الجنّة جزاء للسالمين منهم والذاهبين ، ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . فليأخذ حظّه من هذه البشرى فإن لها من النصر العزيز ما بعدها، ومن المغانم الكثيرة ما يُنجز للأمّة المحمديّة وعدها؛ و يثق بأن

له إن شاء الله من ثواب هـذه الغزوة أوفرَ نصيب، وأن سهـم عزمه فى نحور الأعداء إن شاء الله مصيب؛ فقـد رُوى عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنه قال: "إن بالمدينة قوما ما سِرْتم مَسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم". والله لا يُخليـه من أجرها، ولا يَحرِمه وافرَ بِرّها؛ ويُتحفه من مقربات التهانى بمـا تكون له هـذه بمنزلة العنوان فى الكتاب، والآحاد فى الحساب؛ وركعةِ النافلة بالنسبة إلى الخمس، والفجرِ الأوّل قبـل طلوع طلعة الشمس؛ وأن يُديم على الإسـلام والمسلمين حياةَ مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين، ويؤيّده بالملائكة المقربين، ما دامت السموات والأرضون، إن شاء الله تعالى.

ومن إنشاء المولى المرحوم محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب كتبه عن السلطان الملك الأشرف خليل إلى الملك المظفّر يوسف بن عمر صاحب اليمن قرين كتاب السلطان الملك المنصور المسيّر إليه بالهناء بفتح طرابلس الشأم:

(٧١) أعز الله نُصرة المقـام وأوفد عليه كلّ بشرى أحسن من أختهـا، وكل تهنئة لا يُحَلّيها إلا هو لوقتها، وكل مُبْهِجة يعجِز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها، وتتبلّج فتودُّ الدُّرَر والدرارى لو زُفّت هذه إلى تَرَاقيها وسَمَتْ هذه إلى سَمْتها؛ وصبّحه منها بكل هاتفةٍ أسجعَ من هواتف الحمائم، وبكلّ عارفة أسرعَ من عَوارف الزّهر عند عزائم النسائم، وبكل عاطفةٍ أعنّـةَ الإتحاف بالإيجاف الذى شكرت الصِّفَاحُ منه أعظمَ قادرٍ والصحائفُ أكرمَ قادم، والغزو الذى لا تُخَصّ تهامةُ ببُشراه بل جميع النجود والتهائم، وذوو الصوارم والصرائم، وأولو القُوى والقوائم، وكلّ ثغر عن ابتهاج أهل الإسلام باسم، وكلّ بَرّ بتوصيل ما ترتّب عليه من ملاحم، وكلّ بحر عَذْبٍ يَمُونُ كلّ غاز لا يحبس عن جهاد الكفار فى عُقْر الدار الشـكائم، وكلّ بحر مِلْح كم تغيّظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم. المملوك يحذد

خدمةً يقتفى فيها أثرَ والدِه ، ويجرى فى تبليغها على أجمل عوائده ، ويستفتح فيها آستفتاحًا تَحُفّ به من هنا ومن هنا تُحَفُ محامده ؛ ويَصِف ولاءً قد جعله أجمل عقوده وأكمل عقائده ، ويشفعهما بإخلاص قد جعله ميلُه أحسن وسائله وقلبُه أزين وسائده ؛ ويُطلع العِلم الكريم أن من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله فى كلّ ما يعرِض للمسلمين من نَصْر، ويُفرَض لهم من أجر غزوٍ كم قعد عنه مَلِكٌ فيما مضى من عصر؛ أن يقدُروا تلك النعمةَ حقّ قدرها من التحدّث بنعمتها ، والتنبيه لسماع نَغْمتها؛ وإرسال أعِنّة الأقلام فى ميادين الطروس، وإدارة حِرْباء وصف خير حربٍ إلى مُواجهة خير الشموس. ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد — خلّد الله سلطانه — قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفُه للنصر فكم جاءت هى والقدرُ على قَدَر ؛ وقد صارت سِيَرُها وسيرُها هذه شَذْو الأسمار، وهذه جادّةٌ يستطيب منها حسنَ الحَذْو السُّفّار، فكم قاتلت من يليها من الكفّار، وكم جعلت من يُواليها وهو منصورها منصورا بالمهاجرين والأنصار . ولما أذلّ الله ببأسها طوائف التتار فى أقاصى بلاد العجم ، وجعل حظّ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيبَ وجوههم الوجَمَ ، وأخلى الله من نسورهم الأوكارَ ومن أُسودهم الأَجَم، وقصُرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم والظن اذا رجَم، وصارت رؤيةُ الدماء تُفزعهم فلو آحتاج أحدهم لتنقيص دم لمرضٍ لأحجم من خوفه وما آحتجم. وأباد الله الأرمن فحل بالنَّيْل منهم الويل، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلا وشمّر هو من الذُّل الذَّيْل، ولا أثارت الجياد من الخيل عِثْيَرًا منعقِدًا إلا وظنّوه مساءً قد أقبل أو ليل. وآنتهت نوبة القتل بهم والإسار إلى «التَّكْفُور ليفون» ملك الأرمن الذى كان يحمى سَرْحَهم ويمرّد صَرْحَهم ، ويستنطق هَتْفَ التتار ويسترجع صَدْحهم ؛ وتعتزّ طرابُلس الشام بأنه خال إبرنسها الكافر، ولسان مشورته السفير ووجه تدبيره

السافر؛ وطالمـا غرّ وأغرى، وجرّ وأجرى، وضرّ وأضرى؛ فلمـا توكّل مولانا السلطان وعزم وعزم فتوكّل، وتحقّق أن البلاء به قد نزل، وما تشكّك أن ذلك فى ذهن القَـدَر قد تصوّر وتشـكّل؛ وأنّ يومه فى الفتك سيكون أعظم من أمسه وأعظم منهما معاداة غدِه، وأن نصر الله لن يُخلفه صادقُ موعده، أكل يده ندامةً على ما فرّط فى جَنْب الله؛ وساق الحَتْف لنفسه بيده فعمّر الله بروحه الخبيثة الدَّرَكَ الأسفل من النار، وسقاه الحَتْف كأسا بعد كأس لم يكن لهـا غيرَ الهُلْك من خُمار. ٥

وكانت طرابلس هى ضالّة الإسلام الشريدة، وإحدى آبقاته من الأعوام العديدة؛ وكلمـا مرّت شمخت بأنفها، وتأنّقت فى تحسين منازه منازهها وتزيين رَيْحانها وعَصْفها، ومرّتْ وهى لا تُغازل مَلِكا بطرْفها وكلما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها؛ إذ البحر لها جِلْباب والسحاب لها خِمار، وليس بها من البَرّ إلا بمقـدار ساحة الباب من الدار؛ كأنها فى سِيف ذلك البحر جبلٌ قد آنحطّ، أو مَيْل آستواء قـد خرج عن الخط؛ وما قصد أحدٌ شطّها بنكاية إلا شطّ وآشتط؛ قدّر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العِنان، وسبق جيشه اليها كلّ خبر وليس الخبر كالعِيان، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادةُ قد أحرسته عيونَها وتلك المخاوف كلُّهن أمان، وقد آتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجأته لهـا أمدّ عِنان؛ ١٠ ١٥

(٧٢)

وفى خدمته جنود لا تستبعد مَفَازة، وكم راحت وغدتْ وفى نفوسها للأعداء حَزَازة؛ فآمتطَوْا بخيولهم من جبال لُبنان تيجانًا لهـا صاغتها الثّلوج، ومعارجَ لا تُرافق بها غير الرياح الهُوج؛ وآنحطّت تلك الجيوش من تلك الجنادل، آنحطاط الأجادل، وآندفعوا فى تلك الأوعار آندفاع الأوعال، ولم يَحفِل أحد منهم بسَرَبٍ لاصق ولا بجبل شاهق فقال: هذا منخفضٌ أو عال؛ وشرعوا فى التحصيل لما يُوهى ذلك التحصين، وآبتناءِ كلِّ سُور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأى الرصين؛ فما لبثوا إلا مقدار ما قيل ٢٠

لهم : دونكم والاحتطاب . ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب ؛ حتى جرُّوها بأسرعَ من جرّ النَّفَس . وأجْرَوْها على الأرض سفائنَ وكم قالوا : السفينةُ لاتَجْرى على يَبَس . وفى الحال نقلت إليها فرأوا من مُتَوَقَّلها (١) من يمشى بها على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، ووجّهت سهامُها وجوهَها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان قُدّامها منها إصبع ؛ وأُلقِيت العداوة بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار ، فكم نَقَبت ونقّبت من فِلْذة كَبِدها عن أسرار ؛ وأُوْقِدت نِيرانُ المكايد ثمّ فكم حولها من صافن ومن صافر . وكم رمتهم بشرر كالقصر فوقع الحافر كما يقال على الحافر . وما برحت سُوق أهل الإيمان فى نَفَاق على أهل النِّفاق ، وأكابرهم تساقُ أرواحهم الخبيثة إلى السِّياق . وكان أهل عَكّاء قد أنجدوهم من البحر بكلّ بَرّ ، ورموا الإسلام بكل شَرَرٍ وكل شرّ ؛ فكان السهم الذى يخرج منها لا يخرج إلا مقترنا بسهام . وشُرُفات ذلك الثغر كالثنايا ولكنها لكثرة من بها لا تفترّ عن ابتسام ؛ وما زالت جنود الإسلام كذلك ، ومولانا السلطان لا تُرَى جماعةٌ مُقْدِمَةٌ ولا متقدّمةٌ إلا وهو يُرَى بين أولئك . واستمرّ ذلك من مُستهلّ شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر ، فزحف عليها فى بُكْرة ذلك النهار زَحْفًا يقتحم كلَّ هَضْبة ووَهْده ، وكلّ صُلْبة وصَلْده ، حتى أنجز الله وعدَه ، وفتحها المسلمون مجازا وفى الحقيقة فتحها وحدَه . وطلعت سناجق الإسلام الصُّفْر على اسوارها ، ودخلت عليهم من أقطارها ، وجاست الكتّابة خِلال ديارها ؛ فاحتازها مولانا السلطان لنفسه مِلْكا ، وما كان يكون له فى فتحها شريك وقد نفى عنها شِرْكا ؛ وكلما قيل : هذه طرابُلُس فُتِحت قال النصر بمن قتل فيها من النُّجُد الواصلة وأكثر عكا (٢) وأهل عكا ؛ وأعاد الله قوة الكفر بها أنكاثا ،

(١) توقل فى الجبل : صعد .

(٢) كذا وردت هذه الكلمات بالأصل ، وهى كما يظهر قلقة غير واضحة .

وكان أخذُها من مائة سنة وثمانين سنة فى يوم ثلاثاء وآستُرِدّتْ فى يوم الثلاثا . ولما عمّت هـذه البشائر [و] وَكَل بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلى حسان هـذه العرائس، ويستحلِى نفيس هذه النفائس؛ سيّر مولانا السلطان إلى مولانا بُشْرى فقعقع بهـا البريد، لتُتْلَى بأمر مولانا على كل من ألقى السمع وهو شهيد ، وكما عمّ السرور بذلك كلّ قريب قصد أن يعُمّ الهناءُ كل بعيد . وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجّب بين يدى نجواها، ويتوثّب بعد هذه المفاتحة لكلّ سانحةٍ يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها . لا برح المقـام يستبشر لكُماة الإسلام بكل فضل وبكلّ نُعْمَى، ويفرَح لسَرْح الكفر إذا آنتُهِك ولسفح المُلْك إذا يُحْمَى، ولسمع الشِّرك إذا يُصَمّ ولقلبه إذا يُصْمَى .

وكتب المولى محيي الدين أيضا عن نفسـه مطالعةً إلى السلطان الملك المنصور يهنّئه بهذا الفتح :

هُنِّئْتَ يا مـلكَ البَسِـيطةْ * فتحًا به النُّعْمَى مُحِيطـه
وبَقِيتَ يا خـير المـلو * ك بسيفِك الدّنيا مَحُوطَـه

يقبِّل الأرض ويبتهل إلى دُعاءٍ صالح يقدِّمـه بين يدى بِشْره وبُشْراه، وكلّ مقام محمود من الإجابة يحوّله فى سِرّه ونجواه؛ ويُهَنّىء بهـذا الفتح الذى كم مضى مَلِكٌ وفى قلبه منه حَسْره ، وما آدّخر الله إلا لمولانا السلطان أجرَه وفخرَه . فالحمد لله على هذا النصر العزيز وهذا الفتح المبين، والظفر الذى أعطاه الله إيّاه فى شهر وقد أقامت جموعُ الكفر حتى حازت بعضَه فى مُدّة سبع سنين . وله الشكر على أن جعل الكفر من بعد قوةٍ أنكاثًا ، وجعل أخذ مدينة طرابُلس من الكفّار فى يوم الثلاثاء وكان أخْذُها من المسلمين فى يوم الثلاثاء؛ وله المِنّة فى ردّ هـذه الأخِيذة ، وجعلها بين يدى مولانا السلطان مَنْبوذة . ثم المنّة لله على أن سطر فى سيرة مولانا السلطان هذه

(٧٣)

السِّنَة، وجعلها ما بين نومة عين وانتباهتها فى أقرب من سِنَة، وردّ إباقها على المسلمين بعد أن أقامت هاربة عند الكفار مائةَ سنة وستًّا وثمانين سنة؛ والله يلحق بها فى الفتح أخواتِها من المدن، ولا يلبث إن شاء الله هاديا بها بعدها مثل عَكّاء وصُور وصَيْدَا حتى يراهنّ الى قبضته قد عُدْن، إن شاء الله تعالى .

٥ وكتب إلى الأمير حسام الدين طرنطاى عن الأمير بدر الدين بيدرا فى ذلك :

المملوك يهنئ بهذا الفتح الذى كادت به هذه الغزوة تزهو على غيرها من الغزوات وتتيه، وأشرقت الأرضُ بنور ربها ابتهاجًا بما أمضاه الله منه وما سيُمضيه، وبما سيُعطيه حتى يُرضيه، وذلك أن فتح طرابُلُس التى طالما شمَخت بأنفها على الملوك، وكم أبتْ على مستفتِح فما قال لغيره إباؤها : لله أبوك ؛ وأخّر الله مدّتها إلى خير ١٠ الأزمان، وفتحها على يدى سلطاننا الذى حقّق الله به آمالًا تنفُذ إلا منه بسلطان. فالحمد لله الذى عضَد هذا الملك من مولانا بخير من دبّره، وحماه منه بأقطع حُسامٍ جرّده الله لنقض ما أَمَرّه؛ وما من فُتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا مُنَضِّد عقودِه، ومجهِّز بَرِيدِه، ومطلع سعودِه؛ ورافع علمه، ومُمْضى سيفه ومُرضى قلمه . فأمتع الله الأمة من مولانا السلطان بسلطان يستردّ لهم الحقوق ويتقاضى الديون ، وأمتع الله ١٥ سلطانها من مولانا بمن آراؤه أقفال الممالك وسيوفه مفاتيح الحصون .

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبى ما كتب به عن الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبل عند كسرة التتار بمَرْج الصُّفَّر فى شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائة :

وبشّره بالفتح الذى أعاد الله به الأمة خَلْقًا جديدا ، والنصرِ الذى أنزل الله فيه ٢ من الملائكة أنصارا للملّة وجنودا، والظفَرِ الذى أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن

يَرْهَب نُحُودا ، والغزوةِ التى زلزل الله بها جبالَ أهل الشرك وقد تدفّقت على الأرض أمثال البحار عددا وعديدا . المملوك يقبّل اليد العالية التى لها من هذه النُّصرة و إن لم تبلغها أجرُ الرامى المسدِّدِ سهمَه ، المعجِّلِ من التهانى غُنْمَه ، الموفَّرِ من المحامد الجزيلة قِسمَه ؛ ويهنّىء المولى بهـذا الفتح الذى مدّ الله به على الأمة جناح رحمته وفضله ، ومنّ على أيّامنا الزاهرة فيه بالشأم وأهله ، وبَرز فيـه الإسلامُ كلّه للشرك كلّه . ولله الحمد الذى أعزّ دينَه ونَصَره ، وحصَد بسيوف الإسلام عدوَّ دينه بعد أن حَصَره ؛ وأباد جيوشَ الشِّرك وهم مائة ألف أو يزيدون ، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثالَ الرمال لا يُعَدّون ؛ ويُنْهِى أنّ علمه الكريم قد أحاط بمـا كان من أمر هذا العـدوّ المخذول ودخولِه إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكتائبـه وجُموعه وجُنوده من أشياع أهـل الكفر وأحزاب الشرك . ولمـا تواصلت الأخبارُ بقُربه ، وٱستعدادِه بحزبه ، ومهاجمتِه البلاد ، وإيقاعِ الرُّعب فى قلوب أهلها بالتنوّع فى الفساد ؛ ساق الرّكابُ الشريف فى طلبه يَطْوِى المَرَاحل ، ويقطَع فى كلّ يوم منزلتين بل منازل . ولمـا حَلّ الركاب الشريفُ بمَـرْج الصُّفَّر على مَرْحلة من دمشق المحروسة فى يوم السبت مستهلّ شهر رمضان المعظَّم زُيِّنَتِ العساكرُ المنصورة لِلقاء حال وصولهـا ، وٱستعدّت للحرب دون تشاغُلٍ بأسباب نُزولها ؛ فوافى العدوّ المخذولُ فى مائة ألف من جيوش تسيل كالرمال ، وتعلو الجبالَ بأشدّ من الجبال ؛ وحين وصلوا حَملوا على الميمنة بجُملتهم ، وقصـدوا إزاحتَها عن موقفها بجملتهم ؛ فتلقّتهـم الجيوشُ المنصورة بنفوس قد بايعت اللهَ على لقاء عدوّ الله وعدوِّها ، ووثِقت بمـا أعد الله لهـا من الجزاء فى رواحها فى سبيله وغُدُوِّها ؛ وصَدَمتهم صدمةً كسرت حدَّهم ، وأوهنت شِدّتهم وشَدَّهم ؛ وأزالت طمَعَهم ، وأبانت ظَلَعهم ؛ وسالت[1] عليهم الجيوشُ المنصورةُ من

(١) فى الأصل . « وأسالت » .

كلّ جانب، وحَمِيت الحرب بين الكتائب الإسلاميّة وبين تلك الكتائب؛ ودخل الليل ونار الحرب تشتعل، والجياد من المحاجر تحفى وبالجماجم تنتعل؛ فأووا إلى جبال اعتصموا بهضابها، واحتموا بتوعّر مسالكها وضيق عقابها؛ وأحاطت بهم الجيوش المنصورة لحوسهم[1] لا لحفظهم، وتضمّ أطرافهم لا لحبهم بل لبغضهم؛ فكانوا — بعد كثرة من قتل منهم فى المعركة الأولى أو فرّ من أوّل الليل — جمعًا يناهز الأربعين ألف فارس، فأصبحوا يعاودون القتال، وينزلون إلى أطراف الجبال للنّزال؛ والجيوش المنصورة تلزمهم من كل جانب، وتحكّم فى أبطالهم القنا والقواضب. وجرت فى أثناء ذلك حملاتٌ ظهر فى كلّ منها خسارهم، وشهد عندهم بما يكابدون قتلهم وإسارهم؛ وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يطلبون الفرار، ويتوقّعون القتل إن تعذّر الإسار؛ فساقت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطّفهم رماحها، وتتلقّفهم صفاحها؛ وتقاذفت بمن نجا منهم الفلوات، وغرّقتهم أمواج السّراب قبل أمواج الفرات؛ فأخذوا قنصا باليد من بطون الأودية ورءوس الشّعاب، ولم يحصل أحد منهم على الغنيمة بالإياب؛ وقتل أكثر مقدّمى التمانات[2] وفرّ كبيرهم وأنّى له الفرار، وبين يديه مفاوز إن سلك منها تناولته بأرماح من العطش القفار. فليأخذ المولى حظّه من هذه البشرى التى تنبىء عن الفتح العظيم والفضل العميم، والنّصرة التى حفظ الله بها على الإسلام البلادَ والثغورَ والأموالَ والحريمَ؛ ويكتبْ إلى البلاد بمضمونها، ويسرّ قلوب أهل الثغور بمكنونها؛ ويستنهض المولى الأمّة لشكر الله عليها، ومن ذا الذى يقوم بشكر ذلك! ويعرّفهم مواقع هذه النّصرة التى أنجد الله فيها الإسلام بالملائك؛ ويتقدّم أمره بضرب البشائر بكلّ مكان، ويشهر فى جميع الثغور أن عدوّ

(١) فى الأصل: «لحرسهم» بالراء. والحوس: القتل.

(٢) فى أحد الأصول: «التومانات».

الله وعدوّ الإسلام دخل فى خبرِ كان؛ وأن الله تعالى كسرَ جيوش التتار كسْراً لا يُجْبَر صَدْعُه، ولا يتأتّى إن شاء الله تعالى جَمْعُه. والله تعالى يُسمعه من التهانى كلّ ما يَسُرّ الإسلامَ وأهلَه، ويشكر قولَه فى مصالح الإسلام وفعلَه؛ إن شاء الله تعالى.

البـاب الثـانى

من القسم الرابع من الفن الثـانى

فى المـــراثى والنـــوادب

والمراثى إنما جُعلت تسليةً لمن عضّته النوائب بأنيابها، وفرّقت الحوادث بين نفسه وأحبابها؛ وتأسيةً لمن سبق الى هذا المَصْرَع، ونهِل من هذا المَشْرَع؛ ووثُوقا بالّلحاق بالمـاضى، وعلمًا أنّ حادثة الموت من الديونِ التى لا بدّ لها من التقاضى؛ وأنه لا سبيل إلى الخلود والبقاء، ولا بدّ لكلّ نفس من الذّهاب ولكلّ جسد من الفناء. قال الله تعالى فى محكم تنزيله مخاطبة لرسوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَائِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. فليَرُضْ من لَفَع بخليله وشقيقه، وصاحبه وصديقه؛ وأهله وولده، وجمعه وعَدَده، وماله ومدده؛ نفسَه الجـامحة فى ميادين أسفها وبكائها، الجانحةَ إلى طلب دوائها من مَظَانّ أدوائها؛ بزِمام الصبر الجميل، لينال الأجرَ الكريم والثوابَ الجزيل؛ فقد أثنى الله تعالى على قومٍ بقوله: (وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ)؛ وقال تعالى إخبارا عن لُقمان فى وصيّته لابنه: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ). وليسترجع مَنْ أصابته مصيبة أو نزلت به بليّة، وطَرقته حادثةٌ أو ألمّتْ به رزيّة؛ لمـا جعل الله تعالى للمسترجِع بفضله ومنّته، من صَلاته عليه ورحمتـه؛ قال الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ . وليتأسَّ الفاقد برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جعل الله فيه أُسوةً حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليَقْتَدِ بأصحابه رضى الله عنهم ليفوز بثواب الصابر ويحوز أجر الشاكر .

٥ و باب الرِّثاء فهو باب فسيح الرِّحاب والنوادى، فصيح اللسان فى إجابة المنادى (٧٥) ذى القلب الصادى؛ متباين الأُسلوب، مختلف الأطراف متباعد الشعوب؛ منه ما يُصْمِى القلوب بنِباله، ومنه ما يُسَلّيها بلطيف مَقاله؛ ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يَصرِفها عن موارد التلَف . وقد أكثر الشعراء القول فى هذا الباب، وآرتقَوْا الذِّروة العلياء من هذه الهِضاب؛ ووجدوا مكان القول ذا سعةٍ فقالوا، وأصابهم

١٠ هجير اللوعة فمالوا إلى ظِلّه وقالوا . قال الأصمعىّ : قلت لأعرابىّ : ما بالُ المراثى أشرف أشعاركم؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة . وعلى الجملة فالموت هو المصيبة التى لا تُدْفَع، والرزيّة التى لا تُرَدّ بكثرة الجموع ولا تُمنع؛ والحادثةُ التى لا تنصرف بالفِداء وإن جلّ مقدارُه، والنازلةُ التى لا تتأخر عن وقتها بالدعاء وإن عظُمت فى غيرها آثاره؛ وهو أحد الأربعة التى فُرِغ منها، وصُرِفت وجوهُ المطامع عنها .

١٥ وقد قالت الحكماء : أعظم المصائب كلّها آنقطاع الرجاء . وقالوا : كل شىء يبدو صغيرا ثم يعظُم إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمةً ثم تصغُر . وقالوا : لا يكون البكاء إلا من فضل، فإذا آشتدّ الحزن ذهب البكاء . قال شاعر :

فلئن بَكَيْناه لَحُقّ لنا * ولئن تركنا ذاك للصَّبْر
فلمثله جَرَتِ العيونُ دَمًا * ولمثله جَمُدَت فلم تَجْرِ

٢٠ وقيل : مرّ الأحنف بآمرأة تبكى ميّتا ورجلٌ ينهاها؛ فقال : دعها فإنها تندُب عهدًا وسفرًا بعيدا . قيل لأعرابيّة مات آبنها : ما أحسنَ عزاءَك؟ قالت :

إنّ فقدى إيّاه آمننى كلَّ فقدٍ سواه، وإنّ مُصيبتى به هوّنتْ علىّ المصائبَ بعـده؛ ثم أنشأت تقول :

كنتَ السوادَ لمُقْلتِى * فعَمِى عليكَ النّـاظرُ
مَنْ شاء بعدَك فَلْيَمُتْ * فعليـك كنتُ أحاذرُ
ليتَ المنـازلَ والدّيا * رَ حفـائرٌ ومَقَـابِرُ
إنّى وغـيرى لا محـا * لةَ حيثُ صِرتَ لصائر

وقد نقل أبو الفرج الأصفهانى : أن بعض هذا الشعر لإبراهيم بن العباس بن محمد بن صُولٍ يرثى ابنًا له فقال :

أنت السوادُ لمقـلةٍ * تَبْكِى عليـك وناظرُ
مَنْ شاء بعدكَ فليَمُتْ * فعليـكَ كنتُ أُحاذِر

ولم يزد على هـذين البيتين شيئا . أخذ الحسن بن هانىء معنى البيت الأوّل فقـال فى الأمين :

طوى الموتُ ما بينى وبين محمدٍ * وليس لمـا تطوى المنيّةُ ناشرُ
وكنت عليه أحذَرُ الموتَ وحدَهُ * فـلم يبقَ لى شىء عليـه أُحَاذِرُ
لئن عَمَرَتْ دورٌ بمن لا نُحِبّه * لقـد عَمَرت ممّن نُحِبّ المقـابر

وقيل : من أحسن ما قيل فى التّعازى أنّ أعرابيًّا مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد فدفنهم وعاد إلى مجلِسه، فجعـل يتحدّث كأن لم يفقِد أحدا؛ فَلِيم على ذلك، فقال : ليسوا فى الموت ببديع، ولا أنا فى المصيبة بأوحد، ولا جَدْوَى للجَزع، فعَلَامَ تلومونى، وهذه ثلاثة الأقسام لا رابع لها! . وعزّى أعرابىّ رجلا فقال : لا أراك الله بعـد مصيبتك ما يُنْسِيكَها . وقيل : لمّـا دفن على بن أبى طالب رضى الله عنه فاطمةَ رضى الله عنها تمثّل على قبرها بهذين البيتين :

لكل اجتماعٍ من خليلين فُرْقـة * وكلُّ الذى دون الممات قليلُ
وإن افتقادى واحدًا بعد واحد * دليـلٌ على ألّا يدومَ خليـلُ

(٧٦) وعزّى علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنـه الأشعثَ بن قيس عن ابنه فقال : إن تحزَنْ فقد استحقَّتْ ذلك منك الرَّحِم، وإن تصْبِر ففى الله خَلَفٌ من كلِّ هالك، مع أنك إن صبَرت جرى عليـك القدرُ وأنت مأجور، وإن جَزِعت جرى عليـك القدر وأنت موزور، سرّك الله وهو بلاءٌ وفتنة، وحزَنَك وهو ثواب ورحمة .

وعزّى أكثم بن صَيْفِىّ حكيمُ العرب عَمرو بن هند الملك عن أخيه فقال : أيها الملك، إنّ أهل هذه الدار سَفْر لا يحلُّون عُقَدَ الرحال إلا فى غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك مَنْ سَيَظْعَن ويدعُك؛ فـا أحسنَ الشكرَ للمنعم والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد أصـله! واعلم أن أعظم من المصيبة سوءُ الخَلَف منها، وخيرٌ من الخير مُعطيه، وشرٌّ من الشر فاعلُه .

وقال ابن السِّماك : المصيبة واحدة، فإن كان فيهـا جَزَعٌ فهى اثنتان . وقال أبو على الرّازى : صَحِبتُ الفُضَيْل بن عِيَاض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا متبسّما إلا يوم مات ابنـه علىّ؛ فقلت له فى ذلك؛ فقال : إنّ الله أحبّ أمرًا فأحببتُ ما أحبّ الله . وقال صالح المُرِّىّ : إن تكن مصيبتُك فى أخيك أحدثتْ لك خشيةً فنعم المصيبةُ مصيبتُك، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جزَعاً فبئست المصيبةُ مصيبتُكَ . وقال علىّ بن موسى للفضـل بن سهل يعزّيه : التهنئـةُ بآجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المُصيبة . وعزّى الرشيدَ رجلٌ فقال : كان لك الأجرُ يا أمير المؤمنين لا بك، وكان العزاءُ لك لا عنك . أخذه الآخر فقال :

كُنِ المُعَـزَّى لا المُعَزَّى به * إن كان لا بُدَّ من الواحد

وقال عمر بن عبـد العزيز لابنه عبـد الملك وقد اشتدّ به الألمُ : كيف تجِدُك يا بُنىّ؟ قال : أجدنى فى الموت، فاحتسِبْنى، فإنّ ثواب الله خير لك منى . قال : والله يابُنىّ لأن تكون فى ميزانى أحبُّ إلىّ من أن أكون فى ميزانك . قال : وأنا والله لأن يكون ما تُحِبُّ أحب إلىّ من أن يكون ما أُحِبُّ .

وعزّى شبيب بن شبّة أبا جعفر المنصور بأخيـه أبى العباس السفّاح فقال : جعـل الله ثواب ما رُزِئْتَ لك أجرا ، وأعقبك عليه صَبْرا ، وختم لك بعافيةٍ تامّة، ونعمة عامّة؛ فثوابُ الله خيرٌ لك منه ، وأحقُّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.

ودخل البَلَاذُرِىّ على علىّ بن موسى الرِّضَا يعزّيه بآبنه فقـال : أنت تَجِلّ عن وصفنا ، ونحن نقصُر عن عِظَتِك، وفى علمك ما كفاك ، وفى ثواب الله ما عزّاك .

فهذه نُبذة فى التعازى كافية، وجُنّة لمن تحصّن بها من ذوى الفجائع واقيـة . فلنذكر المراثى .

ذكر شىء من المراثى والنوادب

(٧٧) ولنبدأ من ذلك بمـا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، و بشىء ممـا قيل عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ولده إبراهيم عليه السلام : "يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حَقٌّ ووعدٌ صِدْقٌ وأن آخِرَنا سيَلْحَقُ أوّلَنا لَحَزِنّا عليك حزنا هو أشدّ من هذا و إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون تَبْكى العينُ و يحزَن القلب ولا نقول ما يُسْخِط الربّ" . ذكره الجوّانىّ النسّابة فى شجرة الأنساب، وذكره غيره مختصرا .

ومنه ماروى أن فاطمة رضى الله عنها وقفت على قبره صلى الله عليه وسلم وقالت :

إنّا فقدناك فَقْدَ الأرضِ وابلَها * وغاب مذ غِبْتَ عنّا الوحى والكُتُبُ
فليت قبلك كان الموتُ صادفَنا * لمّا نُعيتَ وحالت دونك الكُثُبُ

ووقف علىّ رضى الله عنه على قبره صلى الله عليه وسلم ساعة دُفن وقال : إنّ الصبر لجميلٌ إلّا عنك، و إن الجَزَع لَقبيحٌ إلا عليك؛ و إنّ المصاب بك لجليل، و إنه قبلك و بعدك لَجَلَل . وقد ألمّ الشعراء بهذا المعنى؛ فقال إبراهيم بن إسماعيل فى علىّ ابن موسى الرِّضا :

إنّ الرزيّةَ يابن موسى لم تَدَعْ * فى العين بعدك للمصائب مَدْمَعا
والصبرُ يُحْمَدُ فى المواطن كلّها * والصبرُ أن نبكى عليك ونَجْزَعا

ووقف أعرابىّ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قلتَ فقبلنا، وأمرت فحفظنا؛ وقلتَ عن ربّك فسمعنا : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا؛ فما بقيت عينٌ إلا سالت .

ودخل عمر بن الخطاب على أبى بكر الصِّدّيق رضى الله عنهما فى مرض موته، فقال : يا خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لقد كلّفتَ القوم بعدك تَعَبا، وولّيتهم نَصَبا؛ فهيهات مَنْ شقّ غُبارَك! وكيف باللّحاق بك! .

وقالت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها وأبوها يُغمَض :

وأبيض يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهه * ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فنظرَ إليها وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أُغْمِى عليه، فقالت :

لَعَمْرُك ما يُغْنِى الثَّرَاءُ عن الفتى * إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصدرُ

فنظر إليها كالغضبان وقال : قولى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ

مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . ثم قال : أنظروا مُلاءتَىّ فاغسلوهما وكفّنونى فيهما، فإن الحىّ أحوجُ إلى الجـديد من الميّت . ووقفتْ رضى الله عنها على قبره رضى الله عنه فقالت : نضّر اللهُ وجهك، وشكر لك صالح سَعيك ؛ فقد كنتَ للدنيا مُذِلاًّ بإدبارك عنها ، وكنتَ للآخرة مُعِزاً بإقبالك عليها ؛ ولئن كان أجلُّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليـه وسلم رُزءك ، وأعظمُ المصائب بعـده فقدك ؛ إن كتاب الله لَيَعِدُ بحسن الصبر فيك وحسن العِوَض منك ؛ فإنا لنتنجّز موعودَ الله بحسن العَزَاء عليك، وأستعيضه منك بالاستغفار لك . أمَا لئن كانوا أقاموا بأمور الدنيا لقد قمتَ بأمر الدِّين حين وَهَى شَعْبُه، وتفاقم صَدْعُه، ورَجَفت جوانبه . فعليك السلام ورحمة الله توديعَ غير قاليةٍ لك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك . ثم انصرفت .

ولمـا قُبض رضى الله عنه سُجّى عليـه بالثوب ، فارتجّت المدينة بالبكاء ودَهِش القوم كيومَ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؛ وجاء علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه باكيًا مسرعا مُسْترجعا حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمك الله أبا بكر، كنتَ والله أوّلَ القوم إسلاما ، وأخلصَهم إيمانا ، وأشدَّهم يقينا ، وأعظمَهم غَناء ، وأحفظَهم على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأحدبَهم على الإسلام ، وأحناهم على أهـله ، وأشبَهَهم برسول الله صلى الله عليه وسـلم خُلُقًا وفضلًا وهَدْيًا وسَمْتا ؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، صدّقتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين كذّبه الناس ، وواسيتَه حين بَخِلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صِدّيقا فقال : ﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ، يريد محمدا ويريدك . كنت والله للإسلام حصنا وعلى الكافرين عذابا ، لم تُفْلَلْ حُجّتُكَ ، ولم تضعُف بصيرتُك ؛ ولم تجبُن نفسُك . كنت كالجبل الذى لا تحرّكه العواصف ولا تُزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفًا فى بدنك ،

(٧٨)

قويًّا فى أمر الله، متواضعًا فى نفسك، عظيمًا عند الله، جليلًا فى الأرض، كبيرًا عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مَطْمَعٌ ولا لأحد عندك هَوَادة؛ فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذَ الحقَّ منه، والضعيفُ عندك قوىٌّ حتى تأخذ الحقَّ له. فلا حرمَنا اللهُ أجرك، ولا أضلّنا بعدك.

٥ فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب، وتأمل هذا النمط الغريب؛ الذى جمع بين سلاسة الألفاظ وإيجازها، وإصابة المعانى وإعجازها. ولا يُستكثر على من أُنزِل القرآن بلغتهم، أن يكون هذا القول من بَدِيهتهم.

* * *

ولنذكر لُمْعةً من رسائل البلغاء والفضلاء، ولَمْحةً من أشعار الأدباء والشعراء.

١٠ فمن ذلك رسالة كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدّ، إلى الوزير الفقيه أبى القاسم الهُوريّ يعزّيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال:

لا بُدّ مِن فقدٍ ومن فاقدِ * هيهات ما فى الناس من خالدِ
كُن المُعَزَّى لا المعزَّى به * إن كان لا بُدَّ من الواحد

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحِمام، وتشتُّتِ النِّظام، وانصداع شَمْل الكرام؛ فمن ١٥ الاتفاق السعيد والقدَر الحميد أن يرث أعمارَ البِنْيَةِ الكريمةِ مُشَيِّد عُلَاها، وتسلَم من القِلادة وُسْطاها، فمدار الكنانة على مُعَلَّاها، ونخارُ الحَلْبة بمُحْرِز مَداها. وفى هذه النُّبذة إشارة إلى من فرَط من الإخوة النبلاء، ودرَج من السادة النُّجَباء؛ فإنهم وإن كانوا فى رتبة الفضل صُدورا، وغَدَوا فى سماء النُّبل بدورا؛ فإنّ شمس عَلائك أبهرُ أضواءً وأزهرُ أنوارًا، وظِلّ جنابك على بنيهم ومُخَلَّفيهم أندى آصالا وأبردُ أسحارا.

٢٠ نُعِي إلىّ — أوشك الله سلوانك، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك! — الوزيرُ

أبو فلان، بَرّد الله ثراه، وكرّم مثواه؛ فكأنّما طَعَن ناعِيه فى كبِدى، وظَعَن باكيه بذخيرة جَلَدى. لا جَرَمَ أنّى دُفِعتُ إلى غمرة من التَّلَدُّد لو صُدِم بها النجمُ لحار، أو دُهِم بها الحَزْم لحار؛ ثم ثابتْ إلىّ نفسى وقد وقَذَها الجَزَع، وعضّها الوجَع؛ فأطلتُ الاسترجاع، وجمعت الجَلَد الشَّعاع؛ وها أنا عند الله أحتسبه جِمَاعَ فضائل، وجمالَ محافل؛ وحديقةَ مكارم صَوَّحتْ، وصحيفةَ محاسن دَرَست وأمحت. وما اقتصرت من رسم التعزية المألوف، على القليل المحذوف؛ إلا لعلمى بأن المعزِّى لا يُورد عليك غريبا، ولا يُسمعك من مواعظه عجيبا؛ فبك يقتدِى اللّبيب، وعلى مثالك يحتذِى الأديب، وإلى غَرَضك فى كل موطن يُوفِى[1] المُصِيب؛ وفى تجافى الأقدار عن حَوْبائك، وسقوطها دون فِنائك؛ ما يدعو إلى حسن التعزية. لا صدَع الله جمعَك، ولا قرَع بنبأة المكروه سمعَك.

(٧٩) ومن إنشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى:

ورد الخبر بمصرَع فلان الذى عزّ على المعالى، وعُزِّيت به الليالى؛ وسقط به نجمُ الشرف وهَوَى، وجفّ به روض الكَرَم وذَوَى؛ وتقصت الأرض من أطرافها، ورَجَفت الجبال من أعرافها؛ وبكت عليه السماء فإنّ يده كانت من سُحبها، وتناثرت له النجوم فإنّ عزمه كان من شُهُبها؛ واظلمت فى عينى الدنيا الظالمة، وتجرّعتُ منها كأسا لا تُسيغها النفسُ كاظمة؛ وتقسّمت الأيامُ فريقين فى مودّتى وعداوتى، فآهًا على السالفة ولا مرحبًا بالقادمة؛ وأصبحت أخوض الماء وأحشائى تتقطّع غليلا، وأرى الناس كثيرا بعينى وبقلبى قليلا.

وما النّاسُ فى عَيْنىَّ إلّا حجارةٌ * لبينك والأعراسُ إلا مآتِمُ

(١) كذا بالأصول. ولعله محرف عن: «يرمى».

فقد آستوحشت الدنيا لفقده، وآرتابت بنفسها مِنْ بعده، وعلمتْ حلاوةَ قربه بمرارة بُعده؛ وآنصرف ذوو الأبواب عن بابه، وآجتنبت الآمال مَغْنَى جنابه، وبكت الرياض على آثار سحابه.

فإنْ يُمْسِ وَحْشًا بابُه فَلَرُبَّمَا * تناطح أفواجًا عليه المواكبُ

٥ ومن إنشائه أيضا رحمه الله تعالى: ما شككتُ — أطال الله بقاءك — حين ورد النعى بالمصائب التى قَصَمت الظهورَ بمكروهها، وحَسَرت فيها الحسراتُ عن وجوهها؛ أنّ السماءَ على الأرض قد آنطبقت، وأنّ الأيّامَ ما أبْقتْ والسعادةَ قد أَبِقَتْ؛ والحياةَ لم يبق فى طولها طائل، والصبرَ بهجير اللوعة ظِلٌّ منسوخٌ زائل؛ وشمسَ الفضائل قد غرَبت وكيف بطلوعها، ونفسَ المكارم قد نُزِعت من بين

١٠ ضلوعها؛ وغابَ الإسلامِ قد غاب منه أىُّ لَيْث، ورياضَ الآمال قد أقلع عن سُقياها أىُّ غيث. فإنّا لله وإنا اليه راجعون، رضًا بحكمه، وتجلُّدًا على مارمى به الحادث من سهمه، وطِبًّا للقلوب على مَضَض البلاء وكَلْمه، وفِرارًا من الجمع بين مصيبة الفاقد وإثمه. وسقى الله ذاك الضريحَ ما شاء أن يسقيه من سحاب كصَوْب يديه، ورحمه رحمةً تُحَفّ بجانبيه. وآهًا للماء العَذْب كيف آرتشفته النوازل وأبقت المِلْح، ثم آهًا

١٥ للصباح الطَّلْق كيف آغتالته الأصائل وأطلقت الجُنْح؛ ووا أسفا لتلك الذخيرة التى فذلكت بها الأيّام ذخائرى، والسريرةِ التى طالما صُنتها أن تمرّ بسرائرى؛ شَفَقًا عليها من سهام دهر بالذخائر مُولَعة، وسَتْرًا لها من عين زمان على السرائر مُوقَعة. ولئن صحب قلبى بعده أضلعى، وتحمّلتُ بعد فقده على ظَلَعى؛ فإنّا غدًا على أثره، وإن كنّا اليوم على خبره. وقَصْرُ الحياة الى قُصور، كما أن محصول غرورها غرور. والتأدّبُ بأدب الله

٢٠ أولى ما خفّف به المسلوب عن مَنكِبه، وطريقُ السّلوان لابدّ أن يُراجعه عَزْم مُنكِّبه. فأنشُدها الله إلا جعلتْ مصيبتها مصيبةً على الشامت بما تلبَسه من صبر يَلْبِس عليه

المصيبةَ فيشُبِّهها بنِعْمة، وبما تستشعره من تجلُّد فى النازلة يُنْزِل عليها صلواتٍ من ربِّها ورَحْمة. ولن ترى أعجب من مُصاب لا ترى به إلا مُصابا، وساكِنِ تُرْبٍ لم يبق بعده إلا من سقى بدمعه تُرابا، اشترك فيه الأُمَّتان العربُ والعجَم، وعُزِّى به العزيزان المجدُ والكرم، واستباح الدهرُ به الصيدَ فى الحَرَم.

وتَشَابَهَ الباكُون فيه فلم يَبِنْ * دمعُ المُحِقّ لنا من المُتَعَمِّلِ ٥

وكتب أيضا فى مثل ذلك: أخّرت مكاتبة الحضرة — مدّ الله فى عمرها وفى صبرها وفى أجرها، وألهمها التسليم لحكم من هو غالب على أمرها — إلى أن تنقضى نَبْوة الخَطْب، وتضعَ الأنفاسُ أوزارها للحرب، ويُخرِجَ ماءُ الجفن نارَ القلب؛ وتَراجَعَ الخواطرُ إلى عاداتها، وتنظرَ فى الدنيا التى ما صُحِبت إلا على عادياتها ومُعاداتها؛ فتكون الحضرة عرَفت من غير تعريف، ووقَفتْ على الحزم من غير توقيف؛ وتوفَّر ١٠ (٨٠) عليها الثواب بغير مُشارِك، ورجعتْ إلى فهمٍ مُدْرِك وصوابٍ مدارِك. وتأخير التعزية عن البادرة خلافُ ما شُرع فيها، ولكن إنما يحتاج أن يُثَبِّت مَنْ صَبْرُه هاف، ويُرَمَّ مَنْ تَجَلُّده عاف. وقد علم الله اهتمامى واغتمامى بفقد شيخها رحمه الله وعدَمها منه من لا عِوَض عنه إلا ثواب الله الذى يُهَوِّن الوقائع، ويُوطِّن على الروائع. وأسباب التعزية غير واحدة، منها أنه إنما دَرَج فى السنّ التى هى مُعْتَرَك المنايا، ومنها أنه ما ١٥ خرج عن الدنيا الى أن رأى منها خَلَفًا يهوِّن الرزايا، ومنها أنه لقِى الله بعملٍ صالح هو بمشيئة الله نجاته، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها ويكفيها مرضاتُه، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجُنَن دعواته.

ولكن للألّاف لا بدّ حسرةً * إذا جعلتْ أقرانُها تنقطع

ومنها أن الحزن لو أُطِيع والحزم لو أُضِيع لما أفضى إلى مُراد، ولا أعاد ٢٠ ميّتًا قبل المَعاد. وأحقُّ متروك ما يأثم طالبه، ويُؤْجَرُ مُجانبه.

عن الدهر فأصفح إنه غيرُ مُعتِب * وفى غيرِ مَنْ قد وارت التُّربُ فأطمع

والحضرة تُعلِمنى من لاحقةِ رجوعها إلى الله بعد الأسترجاع ، ومن تسليم خاطِر الحزن إلى حكم الله ما يُسرّ خاطر الأستطلاع ؛ وحسبه — أبقاه الله تعالى — من كل هالك ، ولا يجزَع المحاسَب مِنْ فَذَالك ، ومثلُه مَنْ أخذ بعزائم الله فيما هو آخذٌ وتارك . جبرَ الله مُصابَه ، وعظَّم ثوابه ، وسقى الماضى وروَى ترابه ، ولا تذهب النفس حسرةً لما شهدت العينُ ذهابَه .

وتخطّفتْه يدُ الرَّدَى فى غَيْبتى * هَبْنِى حضرتُ فكنتُ ماذا أصنعُ

ومن إنشاء الشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القُرْطُبىّ ما كتب به الى الصاحب شرف الدين الفائزىّ يعزّيه فى مملوك تُوفِّى له ، وكان الصاحب قد جزِع لفقده . إبتدأ كتابه بأن قال :

فِدًى لك من يُقَصِّرُ عن مَداكا * فلا أحدٌ إذًا إلا فِداكا

إنا لله و إنا إليه راجعون . لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوةٌ حَسَنة ، وسُنّة فى الأسى مُسْتَحْسنة ؛ و إنما الأنفُس ودائعُ مُستودَعة ، وعَوارٍ مُسترجَعة ، ومواهبُ بيد الفناء مُستنزَعة .

فالعمر نومٌ والمنيّة يقظةٌ * والمرءُ بينهما خيالٌ سارِى

وما برِح ذوو العزَمات يتلقّون وارداتِ المصائب بصبرهم ، وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمِنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرِهم . وإنّ يد الله لمليّة بفيض المواهب ، وفى الله عوضٌ من كل بائن وخلفٌ من كل ذاهب . و إذا سلم مولانا فى نفسه وولده ، فلا بأس إذا تطرّقت يد الردى إلى مِلك يده .

فأنت جوهرة الأعناق ، ما مَلَكت * كفّاك من طارفٍ أو تالد عَرَضُ

والحمد لله الذى جعل المصيبةَ عندك لا بك، والرزيّةَ لك لا فيك .

* إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سلموا *

واذا تخطّتكما المنيّـة فلها فى سـواكما الخِيار، ولنـا القِدْحُ المُعَلّى إذا أورى زَنْد هذا الاختيار . ولا بدّ فى مَشْرَع المنيّة من مفقودٍ وفاقد .

كن المُعَـزَّى لا المعـزَّى به * إن كان لا بـدّ من الواحد ٥

وهذا فقـد وهبه الله لمولانا من حيثُ إنه أخذه منه، وأبقاه له من حيث رآه ذاهبًا عنه؛ فهو بالأمس عاريَةٌ مردودة، واليوم ذخيرة موجودة؛ وكان عطيّةً مسلوبة وهو الآن نعمةٌ موهوبة؛ كنتَ له وهو الآن لك، وفزتَ به والسعيدُ من فاز بما ملك . وهذه دارٌ دواؤها دَاؤها، وبقاؤها فَناؤها؛ طالبها مطلوب، وسالبها مسلوب؛ وإن لنا فيمن سَلَف لعزاء، ولنا برسول الله صلى الله عليه وسلم اقتداء؛ ولا بدّ من ١٠ ورُود هذا المشرع، ومُلاقاة هذا المصرع . (٨١)

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن بعض النوّاب إلى الأمير عزّ الدّين الحموىّ النائب — كان بدِمَشْق — تعزيةً بولده :

أعزّ الله أنصار المقرّ الكريم العالى، ولا هدمت له الخطوب ركنا، ولا لجأت له الحوادث حِمًى ولا طلبت عليـه إذنًا، ولا هصرت أيدى الأقـدار من عروشه ١٥ الناضرة غُصْنا، ولا أذاقته الأيّام بعد ما مرّ أسفًا على من يحبّ ولا حُزنا، ولا سلَبه الجزَع رداء الصّبر الذى يخصّه بجزيل الأجر وإن شَرِكه فى الأسى والأسف كلٌّ منا .

المملوك يقبّل اليد الكريمة، ويُنْهِى أنه اتّصل به النبأ الذى صدَع قلبَه، وشغَل بالبكاء طَرْفه وبالأسف لسانَه وبالحزن لُبَّه؛ وهو ما قـدّره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر — تغمده الله برضوانه — الذى اختار الله له ما لديه، وارتضى له البقاءَ ٢٠

الدائم على الفانى فنقله إليه ؛ على أن الدين فقد منه رُكناً شديدا، ورأياً سديدا، وعزماً وحزماً مُعيناً مفيدا، وأميراً أردنا أن يعيش سعيدا، فأبى الله إلا أن يموت شهيدا؛ فإنا لله و إنا إليه راجعون . لقد كان للرجاء فى آعتضاد الدولة القاهرة به أىُّ مجال، وللآمال فى الآنتظار بباسه ظنونٌ تُحقِّق أن الغلبة للدِّين دائما مع أن الحروب ٥ سِجال؛ وللواكب بطلوع طَلْعته أىُّ إشراق، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله أىُّ إغضاء وأىّ إطراق . ولله أىّ بدر هوى من أُفُق بروجه[1] عن فَلَك، وأىّ شمس ما رأته الجوارى الكُنَّس إلا قلن : حاش لله ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلا ملك؛ وأىّ حِصن كانت منه ثمار الشجاعة تُجتَنَى، وأىّ أسد براثنُه الصوارم وأجَماته القَنَا . لقد فَتَّ فى عَضُد الدين مُصابُه، وأذهب صحّةَ الأنْس به وحلاوةَ وجوده أوصابُ ١٠ فقده وصابه؛ وكادت الصوارمُ أن تَشُقّ عليه غُمودَها، والرّاياتُ أن تقطّع عليه ذوائبَها وتغيِّر بنودَها، والرماحُ أن تَعرِض على النار لتَقْصِف لا لتُثَقِّف قدودَها؛ والجيادُ أن تتعثّر للحزن بذُيُولها، وتعتاض بالنَّوح عن صهيلها . ولو أُنْصِف لأَكنّته القلوب فى ضمائرها، ولو قُبِل الفِداءُ لسمَحَتْ فيه النفوسُ بالنفائس ولو كانت الحياةُ من ذخائرها؛ أو لو كان الحتف مما يُدَافَعُ بالجنود تحطّمت دونه القنا فى دروع ١٥ عساكرها، ولكنه السبيل الذى لا مَحِيدَ عن طريقه، والمُعَرَّسُ الذى لا بدّ لكل حىّ من النزول على فَرِيقه؛ وهو الغاية التى تستنّ إليها النفوس آستنان الجياد، والحَلْبة التى كنّا نحن وهذا الدارجُ نَرْكُض إليها ولكنّ السابق كان الجواد؛ على أن المتأخِّر لا بدّ له من اللّحاق، وماذا عسى يسرّ البدر بكماله وهو يعلم أن وراءه المَحَاق! وفى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كلَّ رُزءٍ بعده جَلَل، و إذا آنتقل العبد إلى الله تعالى ٢٠ غيرَ مفتون فى دينه ولا مُثْقَل الظهر من الأوزار حمِد فى غَدٍ ما فعل؛ وغُبِط بقدومه

(١) فى الأصل : « من أفق سروجه » .

على أكرم الأكرمين مسرورا، ولقى الله وقد جعل فى قلبه نورا وفى سمعه نورا وفى بصره نورا . والمولى أعزه الله تعالى أولى مَنْ تَلَقَّى أمر الله بالتسليم والرضا، وقابل أقدارَه بأن الخِيَرَةَ فيما قدّر وقضى ؛ وحمد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظمُ خَلَف، وأجملُ عوض يقال به للدّهر الذى آعتذر بدوام المسَرّة فيهم : عفا الله عمّا سلف ؛ وعلم أنّ الخطب الذى هدّ ركن الدين بآحترابه وآجتراحه، قد صرفه إلى الأمد عن الإلمام بساحة شهابه والتعرُّض إلى حِمَى فخره والنظرِ إلى حيّ صلاحه ؛ ففى بقائهم ما يُرْغم العدا، ويُعِزّ حزب الهدى ؛ ويُقيم كلًّا منهم فى خدمة الدولة القاهرة بين يدى المولى مقامَ الشِّبل المنتمِى للأسد، ويُنْهِضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثَّبات من الوالد وسُرعةِ الوَثَبات من الولد . والله تعالى يُجزِل له من الأجر أوفاه، ويحفظ عليه — وقد فعل — أخْراه ؛ ويجعله للإسلام ذُخْرا، ولا يُسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةً أخرى . (٨٣)

ومن أحسن الرثاء وأشجاه مانطقت به الخَنْساء فى رِثائها لأخيها صَخْر، فمن ذلك قولها :

أَلَا يا صخرُ إن أبكيتَ عينى * لقد أضحكتنى دهرًا طَويلَا
دفعتُ بك الجليلَ وأنت حَىٌّ * فمن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجليلا
إذَا قَبُح البكاءُ على قتيلٍ * رأيتُ بكاءَك الحَسَنَ الجميلَا

وقالت أيضا فيه :

أَلَا هَبِلَتْ أمُّ الذين غَدَوْا به * إلى القبر، ما ذا يحملون إلى القبر!
وما ذا يُوارِى القبرُ تحت تُرابِه * من الجُود! يا بؤسَ الحوادثِ والدهرِ!
فشأنَ المنايا إذ أصابك رَيْبُها * لِتَغْدُ على الفِتْيانِ بعدَك أو تَسْرِى

وقالت :

يُذَكِّرُنى طلوعُ الشمسِ صَخْرًا * وأبكيه لكُلِّ غروبِ شمسِ
ولـولا كـثرةُ الباكِينَ حَوْلِى * على إخوانهـم لقتلتُ نفسى
وما يَبْكُون مثـلَ أخى ولكنْ * أُسَـلِّى النفسَ عنـه بالتأسِّى

٥ وقالوا : أرثى بيت قالته العرب قول مُتَمِّم بن نُوَيرة فى أخيه مالك ، وكان قد قتله خالد بن الوليد فى الرِّدَّة . وكان متمم قدِم العراق ، فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى ؛ فقيل له : يموت أخوك بالمَلَا وتبكى على قبر بالعراق ! فقال :

لقد لامَنى عند القبور على البُكا * رفيقى لتَذْرافِ الدموعِ السَّوافِكِ
أمن أجل قبرٍ بالمَلَا أنت نائحٌ * على كلِّ قـبرٍ أو على كلِّ هالك

١٠ وقال : أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَـهُ * لقبرٍ ثَوَى بين اللِّوى فالدَّكادكِ
فقلت له : إن الشَّجا يبعث الشجا * فدعنى فهـذا كلُّه قـبرُ مالكِ

معناه قد ملأ الأرض مُصابُه عِظَماً ، فكأنه مدفونٌ بكلِّ مكان . وهو أبلغ ما قيـل فى تعظيم ميّت . وقيل أرثى بيتٍ قالته العرب قول المُحْدَث :

على قبره بين القبور مهـابةٌ * كما قبلها كانت على صاحب القبر

١٥ وقيل : بل قول الآخر :

أرادوا لِيُخْفُوا قبرَه عن عدوِّهِ * فطِيبُ تراب القبرِ دَلَّ على القبرِ

وقالوا : بل بيت غيره :

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ * ولكنّه بُنْيانُ قومٍ تهـدَّما

وقال الأصمعى : أرثى بيت قالته العرب قول الشاعر :

٢٠ ومن عَجَبٍ أَنّ بِتُّ مُستشعرَ الثَّرَى * وبِتُّ بمـا زوَّدتَنى مُمتَّعـا
ولو أننى أنصفتُكَ الودَّ لم أبِتْ * خلافَكَ حتى ننطوى فى الثرى معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطَير الأسدىّ :

أَلِمَّا بمَعْنٍ ثم قُولَا لقبره : * سقتْك الغوادِى مَرْبعًا ثم مَرْبعا
فَتًى عِيشَ فى معروفه بعد موته * كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
أيا قبرَ معن كنتَ أوّلَ حُفْرةٍ * من الأرض خُطّتْ للسماحة مَضْجَعا
ويا قبرَ معن كيف واريتَ جُودَهُ * وقد كان منه البرُّ والبحر مُتْرَعا!
بلى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ مَيِّتٌ * ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدّعا
ولمّا مضى معنٌ مضى الجُود والنَّدى * وأصبح عِرْنينُ المكارمِ أجْدَعا

قال أبو هلال العسكرىّ : هذه الأبيات أرثى ما قيل فى الجاهلية والإسلام .

وقال بكر بن النّطّاح يَرْثى معقل بن عيسى :

وحدّثنى عن بعض ما قال أنه * رأت عينُه فيما ترى عينُ نائم
كأن النّدَى يبكى على قبر مَعْقِلٍ * ولم تَرَهُ يبكى على قبرِ حاتم
ولا قبرِ كَعْب إذ يجود بنفسه * ولا قبرِ حِلْف الجود قَيْسِ بن عاصِم
فأيقنتُ أن الله فضّل معقلًا * على كل مذكور بفضل المكارمِ

وقال آخر :

لعَمْرُك ماوارى الترابُ فعالَه * ولكنما وارى ثيابًا وأعظُما

ومثله لمنصور النَّمَرِىّ :

فإن تَكُ أفنته الليالى وأوشكت * فإن له ذكرًا سيَبْقَى الليالِيَا

وقال التميمىّ فى منصور بن زياد :

أمّا القبورُ فإنّهنّ أوانسٌ * بفِناء قبرك والدّيارُ قبورُ
عمّت صنائعُه فعمّ مُصابُه * فالناسُ فيه كلُّهم مأجور
يُثنى عليك لسانُ من لم تُولِهِ * خيرًا لأنك بالثناء جدير

رَدّتْ صنائعُه إليـه حياتَهُ * فكأنه من نشرها منشـورُ
فالناس مأتمهم عليـه واحدٌ * فى كل دار رَنّةٌ وزفـيرُ

وقال ابن القزّاز المغربىّ :

سأبكيك لا أن البكا عِدْلُ لوعتى * ولا أنّ وجدى فيك كُفْء تَنَدُّمى
وقَلّ لعيـنى أن تَفيضَ دموعُهـا * عليك ولو أنّ الذى فاض من دمى

وقال الخُرَيْمِىّ

وأعددتُه ذُخْرًا لكلّ مُلِمّـةٍ * وسهـمُ الرّزايا بالذخائر مُـولَعُ
وإنى وإن اظهرتُ منّى جَلَادةً * وصانعتُ أعدائى عليه لَمُـوجَعُ
ولو شئتُ أن أبكى دما لبكيتُه * عليه ولكن ساحةُ الصبر أوسعُ

وقال أبو هِلال العسكرىّ :

على الرغم من أنف المكارمِ والعُلَا * غدتْ دارُه قَفْـرًا ومَغْناه بَلْقعـا
ألم تر أنّ البأسَ أصبح بعـده * أشـلّ وأن الجودَ أصبح أجْدَعا
قُـرًّا على قـبر المُسَوَّدِ وانظُرا * إلى المجد والعليـاء كيف تخشّعـا
فإن يك واراه الـترابُ فكَبِّرا * على الجودِ والمعروفِ والفضلِ أربعا
ولا تَسْأما نَوْحًا عليـه مُكَرَّرًا * ونَوْحًا لفقـد العارفات مُرَجَّعـا
فـما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْك واحد * ولكنّه بُنيان قوم تَضَعْضَعـا
ولا تحسَبا أنّى أُواريه وحـده * ولكنّنى واريتُـه والنّدَى معـا

وقال أيضا :

ألستَ ترى موتَ العُلا والفضائلِ * وكيف غروبُ النجم بين الجنادلِ !
فـما للمنايا أغفلت كلَّ ناقص * ونقّبن فى الآفاق عن كلِّ فاضل !
على الرغم من أنف العُلا سِيقَ للرّدى * بكل كريم الفعـل حر الشمائل

على أنّ من أبقتـه ليس بخـالدٍ * وليس آمرؤ يرجو الخلودَ بعاقـل
رأيت المنـايا بين غاد ورائح * فـما للبرايا بين ساهٍ وغافـلِ!
ولم أر كالدنيـا حبيبًا مُضِرّةً * ولم أر مثـل الموت حقًّا كباطل

وقال الرَّقاشيّ في البرامكة :

أَلَآنَ آسترحْنا وآستراحت ركابُنـا * وقَلَّ الذى يُحْدَى ومن كانَ يَحْتدى
فقل للطايا : قد أمِنْتِ من السُّرَى * وطَىِّ الفيافى فَـدْفَدًا بعـد فَدْفدِ
وقل للنـايا : قـد ظفِرْتِ بجعفرٍ * ولن تظفَرِى من بعـده بمُسَوَّد
وقل للعطايا بعد فَضْـل : تَعطَّلى * وقل للرزايا كل يوم : تَجدّدى
ودونَكَ سـيفًا بَرْمكيًّا مُهَنّـدًا * أصيب بسـيفٍ هاشمىٍّ مهنّـدِ

وقال آخر :

سأبكيك للـدّنيـا وللـدّين، إننى * رأيتُ يدَ المعروف بعـدك شَلّتِ
ربيـعٌ إذا ضَـنّ الغمامُ بمـائه * وليثٌ إذا ما المَشْرفيّـةُ سُـلّتِ

وقال عبد الله بن المعتزّ :

ألستَ ترى مـوت العُلَا والمحامدِ * وكيف دفنّا الخَلْقَ فى قـبر واحدِ
وللـدّهرِ أيّامٌ يُسِـئْنَ عَوامِدًا * ويُحسِـنّ إن أحسـنّ غيرَ عوامِدِ

وقال أبو الطيّب المتنبّي :

إنى لأعلم — واللبيب خبـيرُ — * أن الحيـاة وإن حَرصت غُرور
ما كنتُ أعلم قبلَ دفنك فى الثرى (١) * أن الكواكب فى التُّراب تَغـورُ
خرجـوا به ولكلّ باكٍ حـوله * صَعَقـاتُ مـوسى يوم دُكّ الطُّورُ

(١) كذا فى ديوان المتنبي طبع مطبعة هندية سنة ١٨٩٨ . وفى الأصل : « قبل تنزل فى الثرى » على حذف أن المصدرية .

حتى أتَـوْا جَدَثًا كأنّ ضريحَـه * فى قلب كلِّ مُوَحِّدٍ محفـورُ
نبكى عليـه وما آسـتقرّ قراره * فى اللحـدِ حتى صافحتـه الحُـورُ

ومنهـا :

صـبرًا على المكروه فيه تَكَرُّمًا[1] * إنّ العظيم على العظيم صَـبورُ
٥ ولكلّ مفجوعٍ سواكم مُشـبِهٌ * ولكـلِّ مفقود سـواه نظـيرُ

وقال آخر :

كفى حَزَنًا أنّى تخلّفتُ بعـده * أدورُ مع الباكين فى عَرَصاته
وصارت يمينى ما حلَفتُ بقـبره * وكانت يمـينى قبلهـا بحياتهِ

وقال آخر :

١٠ وكنتُ أخاف الدّهرَ ما كان باقيًا * فلما تولّى مات خوفى على الدّهر

وقال آخر :

ولمـا دعوتُ الصبرَ بعدك والبُكَا * أجاب البكا طوعًا ولم يُجِب الصبرُ
وإن يَنْقطِعْ منك الرجاءُ فإنه * سيَبْقَى عليـك الحزنُ ما بَقِيَ الدهرُ

وقال آخر :

١٥ فوالله لو أسطيعُ قاسمتُـه الرّدَى * فُمُتْنَـا جميعًـا أو يُقاسِمُنى عمـرى
ولكنما أرواحُنـا مِـلكُ غـيرنا * فمالِيَ فى نفسى ولا فيـه من أمر
أحَمِّـلُه ثِقْـلَ التّراب وإننى * لأخشى عليه الثقل من مَوْطِئ الذّرّ
وما انا بالوافى وقد عشتُ بعـده * وربَّ آعـتراف كان أبلغَ من عُذر

وقال آخر :

٢٠ يا راحـلًا لم يُبْـقِ لى * من بعـده فى العيش نَفْعا

(١) فى الديوان : «صبرا بنى إسحاق فيه تكرما» .

ضـاقت علىّ الأرضُ فيـ * ـك وضِقْت بالإخوان ذَرْعَا
ورعَيْتُ فيـــك النَّجمَ يا * من كان يحفَظُنى ويَرْعى
أبْكيـــك بالشـــعر الذى * قد رقّ حتى صـار دمعـا

وقال تاج الملوك بن أيّوب يَرْثِى أخاه :

لو كان يَشفِى الدمعُ غُلّةَ واجدٍ * لشَفَى غليلى فيضُ دمعى الهامرِ ٥
هيهاتَ لا بردَ الغليلُ وقد ثوى * من كان من عُدَدى وخير ذخائرى
يا للرّجالِ لِنَكْبةٍ قد أذهبت * جَلَدَ الجليدِ وحُسْنَ صَبْرِ الصابرِ
طرَقَتْ فتى المُلْك المعظّم فانثنى * من بعد بَهجته كرَبْع داثرِ

ومنهـا :

جَبَلٌ هوَى فارتجّت الدنيـا لهُ * فكأنمـا رَكِبتْ جَنـاحَىْ طائرِ ١٠

ومنهـا :

مَنْ للنّوائب يوم تفترس الورى * قَسْرًا بأنيـاب لهـا وأظـافر
أضحى وحيـدًا فى التراب كأنّه * ما سار بين مواكب وعساكرِ
قد كان لا تَعْصِى البريّةُ أمرَه * فانقـاد ممتثِـلًا لأمر الآمرِ
مـولاى دعـوةُ والهٍ غادرتَه * وَقْفًا على نُوَب الزمان الغـادرِ ١٥
هل من سبيل للزيارة عنـدها * هيهاتَ حال الموتُ دون الزائرِ
لو كان خَصْمُك غيرَ حادثة الرّدى * لرددتُه بذوابِـلٍ وبواتـر
أو كان يُدْرَك ثأرُ من أودى به * رَيْبُ المنون لكنتُ أوّلَ ثائرِ
لكنّه الموت الذى قهر الورَى * من حيث لا تَثْنيه قدرةُ قادرِ

وقال كمال الدين بن النبيه يرثى الأمير على ابن الخليفة الناصر لدين الله : ٢٠

النـاس للموت نَكيـــل الطِّرادْ * فالسابقُ السابقُ منهـا الجـوادْ

والله لا يدعو إلى داره * إلا مَنْ آستصلح من ذى العبادْ
والموت نقّاد، على كفه * جواهرٌ يختار منها الجيادْ
والمرء كالظلّ ولا بدّ أن * يزولَ ذاك الظلُّ بعد آمتدادْ
لا تصلُحُ الأرواحُ إلّا إذا * سرى إلى الأجسام هذا الفسادْ
أرغمتَ ياموتُ أنوفَ القنا * ودُسْتَ أعناقَ السيوف الحِدادْ
كيف تخرّمتَ أميرًا وما * أنجده كلُّ طويلِ النِّجادْ
مُصيبةٌ أذكت قلوبَ الورى * كأنما فى كلّ قلبٍ زِنَادْ
نازلةٌ عمّت فمِنْ أجلها * سنَّ بنو العباس لُبْسَ السَّوادْ
مأتمةٌ فى الأرض لكن لها * عُرْسٌ على السبع الطِّباق الشِّداد
طرقتَ ياموتُ كريمًا فلم * يقنَعْ بغير النفس للضيف زَادْ
قصمتَه من سِدْرة المُنْتَهى * غُصْنًا فشلّت يدُ أهل العنادْ
يا ثالثَ السِّبطَيْن خلّفتنى * أهيم من همِّىَ فى كلِّ وادْ
يا نائمًا فى غَمَرات الرّدَى * كَحَلْتَ اجفانى بميلِ السُّهادْ
ويا ضجيعَ التُّرب أسقمتنى * كأنما فَرْشِىَ شوكُ القَتَادْ
دُفِنتَ فى الترب ولو أنصفُوا * ما كنتَ إلا فى صميم الفؤادْ
خليفةَ الله آصطبرْ وآحتسِبْ * فما وَهَى البيتُ وأنت العِمادْ
فى العلم والحلم بكم يُقْتَدَى (١) * إذا دجا الخطبُ وضَلَّ الرشادْ
وأنت لُجُّ البحر لا ضرّه * أن سال من بعض نواحيه وادْ

ولما مات الإخشيد محمد بن طُغْج رثاه جماعة من الشعراء منهم محمد بن الحسن آبن زكريا فقال :

(١) كذا فى ديوان ابن النبيه طبع مصر . وفى الأصلين : « فالعلم والحلم » .

فى الرزايا روائـــعُ الأوجالِ * والـــبرايا دَرِيئـــةُ الآجال
وكـذا الليلُ والنهارُ آعتبـارٌ * للورى فى تفكُّر الأحوالِ
كلُّ شىء وإن تمـادَى مداه * قَصْـــرُهُ للفَـــناء أو للزَّوال
وأرى كلَّ عِيشـــةٍ لأناسٍ * كونُها مُؤذِنٌ بوَشْـك آنتقالِ
كل ذى جِدّة — إذا ما الجديدا * ن ألحّـا عليـــه — مُودٍ بالِ
ما لخَلْقٍ من المنون مَفَـــرٌّ * لا ولا دون بطشِهـا من مآلِ
كان(١) غيث الأيّام إن أخلف الغيـ * ـثُ أطلّتْ سحـابُه بآنهـمال
فجَعَتْـــنا بواهب لا نـــراه * يَخْلُق الوجهُ عنـده بآبتـذالِ
فجعتنا ببهجة الأرض فى الأر * ض وشمسِ الضُّحَى وبدرِ الليالى
فجعتنـا بمن حَمَى حُرْمـةَ الإسـ * ـلام من حادث ومن خَتّـال
فجعتنا بالباســل البَطَـل السا * مى غداةَ الوغَى إلى الأبطـالِ
فجعتنا بالواهب المُجـــزِلِ المـر * تاح حين السؤال للسّؤّالِ
عَجَبٌ إذ دنتْ إليـــه المنـايا * وحِمَى عِزِّه المنيـــعُ العـالى
أين من يشترى المدائحَ والشكـ * ـر بأسْنى وَفْـــرٍ وأوفى نَوالِ
قطع الموتُ وَصْلَنا منه كرهًـا * والردَى قاطعٌ لكل آتّصالِ
رحمـــة الله والسلام عليـــه * فى الضُّـحَى والعِشاء والاصال
وسـقى الله حُفـــرةً ضُمِّنَتْـــهُ * شكرَ واهٍ من الحَيَـا هطّالِ

ثم خرج من الرثاء إلى مدح آبنه فقال :

إنْ خبا بدرُه فقد لاح للأمـ * ـة لمّـا خَبَا طلوعُ الهـــلالِ
نُوره مُشرِقٌ مضىءٌ مدى الدهـ * ـر منـــيرٌ وليس ذا آضمحلالِ

(١) فى الأصول : « كل » .

وقال أبو الطيب المتنبّي يرثيه :

هو الزمانُ مُشِتٌّ بالذى جمعا * فى كل يوم نرى من صَرْفه بدَعا
لو كان مُمْتَنِعٌ تُغْنيه مَنْعَتُه * لم يصنع الدهرُ بالإخشيد ماصنَعا
ذاق الحِمامَ فلم تَدْفَع كتائبُه * عنه القضاءَ ولا أغْناه ما جمعا
٥ لقد نَعَى من نعاه كلَّ مفتخَرٍ * وكلَّ جُود لأهل الأرض حين نعى
لله ما حلّ بالإسلام حين تَوَى ! * لقد وهى شَعْبُ هذا الدّين فانصدعا
فمن تراه يقود الخيلَ ساهمةً * سدَّ الفضاءِ ومِلْءَ الأرض ما وَسعا
ترى الحُتُوفَ غُلوقًا فى أسِنّته * لدى الوغى وشهابَ الموت قد لَمَعا
لو كان يسطيع قبرٌ ضمّه لسعى * إليه شوقًا ليلقاه وإن شَسَعا
١٠ فليَعْجب الناسُ من لحدٍ تضمّن مَنْ * تضمّن الرزقَ بعد الله فاضْطلَعا
لو يعلم اللحدُ ما قد ضَمّ من كرمٍ * ومن فخارٍ ومن نَعْماء لاتّسعا
يا لحْدَه إن تَضِقْ عنه فلا عجبٌ * فيه الحِجا والنُّهى والبأسُ قد جُمِعا
يا لحدُ طُلْ إنّ فيك البحرَ مُحتبِسًا * واللّيثَ منهصِرًا والجُودَ مجتمِعا
يا يومَهُ لم تُخَصّ الفجعَ أُسْرَتُه * كلُّ الورى بِرَدَى الإخشيد قد فُجِعا
١٥ يا يومه لم تَدَعْ صبرًا لمصطبرٍ * ولم تدعْ مَدْمَعًا إلا وقد دَمَعا
اردَى الرِّفاقَ رَدَى الإخشيد فانقرضُوا * فما ترى منهُمُ فى الأرض متجعا
يأيها الملك المُخْلِي مجالسَه * أحْميتَ أعيُنَنا الإغماضَ فامتنعا

ومنها :

لئن مضيتَ حميدَ الأمر مُفْتَقَدًا * لقد تركتَ حميدَ الأمر مُتَّبَعا

٢٠ ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد :

ثَبْتُ الجَنان فلا نَكْسٌ ولا وَرَعٌ * تلقاه مؤتزرًا بالحزم مُدَّرعا

أعطت أبا القاسم الأملاكُ بيعتَها * ولو أبت أخذت أسـيافُه البِيعَا
وانقـاد أعـــداؤه ذُلًّا لهيبـــته * وظَلّ متبوعُهم من خوفه تَبعا
أضحت به هِمَمُ الغِلْمان عاليـــةً * كأنّ مولاهُمُ الإخشيدُ قد رَجَعا

وقال مُهَلْهِل بن يموت يرثيه أيضا :

أيّ عزٍّ مضى من الإسـلام! * أيّ ركن أضحى حديثَ انهدامِ! ٥
ذاق موتًا محمد بن طُغـــج * هو ليثُ الشّرى وغيثُ الغَمام
فَقَـــدَ النـاسُ مُولِيَ الإنعـامِ * فهُـمُ سائمـون كالأنعـامِ
مات ربُّ العُـلَا وراعى الرعايا * والســرايا وكافل الأيتـامِ
أين ما كنتَ فيه من عزّك البا * ذخ والمُـرْتقَى عزيزِ المُـرامِ!
أين ذاك الحجابُ والمُلك والهيـ * ـبة أين الزِّحامُ وقت الزّحام! ١٠
من أميرٍ وقائدٍ وخطـيرٍ * ورئيسٍ وماجـدٍ وهُمـام
كلّهم مطرِقٌ لديك من الهيـ * ـبة خوف الإجلال والإعظـام
أين تلك الخيـامُ حَوْلَك إن عرّ * ست والأسـدُ حول تلك الخيام
من عديد وعُدّة لك ما بيـ * ـن قُعود فيهـا وبين قِيـامِ
لم يُطِقْ جمعُهم دفاعَ الرّدى عنـ * ـك ولم يمنعوك منـعَ اعتصامِ ١٥
أسلمتك الخيولُ قَسْرًا وقـد كنـ * ـتَ عليهـا سُورًا على الإسـلام
خانك السيفُ وهو يصدرُ عن أمـ * ـرك مُستعديا بغـير احتجام
خـذل الرمحُ وهو عونُك لو حا * ن لقـاءٌ وثار نَقْـعُ قتَـامِ
لم تَرُدّ القِسِيّ عنـــك سـهامَ الـ * ـحتفِ والحتفُ عندها فى السهام
ما وقتك الحـرابُ حربَ المنـايا * حين وافاك جيشُها من أمام ٢٠

لم يُحَصِّنك ما ٱقتنيتَ من الآ * لات من جَوْشَن ولا من لأمِ[1]
حكَمَ الموتُ فيك من بعد ما كنـ * ـتَ تُرى حاكما على الحُكَّام
فقدَتْك الفُسطاط وجدًّا مدى الدهـ * ـر ومن بعدها بلادُ الشامِ
فجُعَتْ يَثْرِبُ ومكَّةُ والبيـ * ـتُ إلى زمزمٍ أجَلّ والمَقَامِ
عمّ فيك المصابُ فٱشترك العا * لَمُ فى الرُّزْء منه والآلام
حَسْبُنَا الله عزّ من حَكَمٍ يجـ * ـرى على الحاكمين بالأحكام
كلّ شىء إلى زوال ، ومن ذا * نال ملك الدنيا بغير ٱحترام
أين أين الملوك فى سالف الدهـ * ـر دَهَتْهم حوادث الأيّام
أين من قد كانوا يُخافون فى البأ * سِ ويُرْجَون للعطايا الجِسام
ليس يَبْقى إلا الإله تعالى * من له الملك ثابتًا بالدّوام
أيّهذا ٱلأمير بل يا أبا القا * سم يا ابن السَّمَيْدَع القَمْقام
ارض حكم الإله فى المَلِك الما * ضى وسلِّم لنافذ الأحكامِ
وهناك الذى بلغتَ من الأمـ * ـر وما حزتَه بحسن ٱنتظامِ
ما كمثل الذى رُزِئْت ولا مثـ * ـل الذى قد مَلكتَ فى ذا العام
أنت مثل الإخشيد فٱنهض بما مُلِّـ * ـكتَ بالجِدّ منك والإعتزام

وقال بعض الشعراء يَرْثى الوزير يعقوب بن كِلِّس وزير العزيز بن المُعِزّ خليفة مصر :

إن التصبر فى الأمور جميلُ * إلا عليك فما إليه سبيلُ
ياحاملًا ثِقَلَ العُلَا وكأنه * لعُلُوّ همّتِه بها محمولُ
يا واهبًا فوق المُنَى وكأنه * لسخائه مما يجود بخيلُ

(١) لام : مخفف "لأم" جمع "لأمة" وهى الدرع .

جاء منهـا :

يا تُرْبُ لا تأكُل لسانًا طالمـا * والَى به التحميـدُ والتهليـــلُ
يا تُرْبُ لا تَعْنُفْ بكفٍّ طالمـا * قد كان يُؤْلم ظهرَها التقبيـــلُ

ومنهـا :

يادهر تعلم ما جنيتَ على الورى؟! * خَطْبٌ لعمرُك إن علمتَ جليلُ
ما كان ضرَّك لو مَهَلت بمثله * يادهرُ إنك بعـــدها لعَجُـول

ومن المراثى المشهورة التى عُنى بها، واتصلت أسباب الشارحين بسببها، المرثيَة العَبْدونيّة التى نظمهـا الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون يرثى بهـا بنى مسلمة المعروفين ببنى الأفطس، وهى من أمهات القصائد ووسائط القلائد؛ فإنه ذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جُنَّةً تقيهم من وثباته؛ ودبّت [عليهم](١) الأيام بصروفها، وسقتهم المنيّة بكأس حُتوفها . وها نحن نذكرها ونزيدها تبيانا بشرح من استبهمت أخباره، وخَفِيت على المُطالع آثارُه .

وأوّل القصيدة :

الدهرُ يفجَعُ بعـــد العَيْن بالأثَرَ * فما البكاءُ على الأشـباح والصُّورِ
أنهـاك أنهاك لا آلُوك مَعْـــذِرةً * عن وقفةٍ بين ناب الليثِ والظُّفُرِ
فالدهرُ حربٌ وإن أبدى مُسالَمة * فالبِيضُ والسُّمْرُ مثلُ البيض والسُّمُرِ
ولا هَـوادةَ بيـن الرأس تأخذه * يدُ الضِّراب وبين الصـارم الذَّكَرِ
فلا تغُرَّنْك من دنيـاك نومتُها * فما صناعةُ عينيها سـوى السَّهرِ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ما للّيالى — أقال الله عثرتنا * من اللّيالى وخاتنها يُد الغِير —
فى كلّ حينٍ لها فى كلّ جارحةٍ * منّا جِراحٌ وإن زاغت عن البصرِ
تُسرّ بالشىء لكن كى تَغُرّ به * كالأيْم(١) ثار إلى الجانى من الثمرِ
كم دولةٍ وَلِيتْ بالنصر خدمتَها * لم تُبْقِ منها! وسَلْ ذكراك من خَبَرِ
هوت «بدارا» وفلّت غَرْبَ قاتله * وكان عَضْبًا على الأملاك ذا أُثُرِ

٥

«دارا» الذى ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس ؛ وقاتله الإسكندر . وسنذكر إن شاء الله أخبارهما فى فنّ التاريخ .

وآسترجعت من بنى ساسانَ ما وهبت * ولم تَدَعْ لبنى يونانَ من أَثَرِ

«بنو ساسان» هم الفرس الأُخَر ولهم دولة مشهورة آنقرضت فى الإسلام . (٩٠)
و "بنو يونان" أيضا من الملوك أرباب الدول المشهورة ، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر بن فيلبس . وسترد إن شاء الله أخبارهم .

١٠

وأتبعتْ أُختَها طَسْمًا، وعاد على * عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ

أخت «طسم» جَدِيس، وهما أبناء عمّ كثر نسلهما وهم العرب العاربة . وسنذكر أخبارهما إن شاء الله فى وقائع العرب . و «عاد» هم قوم هود . و «جرهم» هو آبن عوف بن زُهَير بن أنس بن الهَمَيْسَع بن حِمْيَر بن سَبَأ الأكبر بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قَحْطان، وقيل : إن العمالقة من ولد جرهم . أراد بذكرهم أنهم كلّهم أبادهم الموت .

١٥

وما أقالت ذوى الهيئاتِ من يَمَنٍ * ولا أجارتْ ذوى الغايات من مُضَرِ

---

(١) الأيم : الأفعى .

«اليمن» كلّهم باتفاق العلماء بالأنساب من ولد قَحْطان، ومنهم ملوك نذكرهم إن شاء الله فى التاريخ . و «مضر» بن نزار بن معدّ بن عَدْنان . وقد تقدم ذكرهم فى الأنساب .

ومزّقت سَـبأٌ فى كلّ قاصـيةٍ فما ألتـقى رائحٌ منهـم بمُبْتَكِرِ

«سبأ» الذى أشار إليه هو سبأ بن يَشْجُب بن يعرُب بن قحطان، واسمه عبد شمس، وإنما قيل فيه سبأ لأنه أوّل من أدخل بلادَ اليمن السَّبْى . وكان له عشرة أولاد سكن الشام منهم أربعة وهم : لَخْم وغَسّان وجُذَام وعاملة، وسكن اليمن منهم ستة : كِنْدة ومَذْحِج والأزْد وأنْمار [والأشعر وعمرو][1] ؛ وقد ذكر الله عزّ وجل تمزيقهم بقوله : (وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) . وسنذكر أخبار سيل العَرِم وسدّ مأرب .

وأنفذتْ فى كُلَيب حكمَها ورَمَتْ * مُهَلْهِلا بين سمع الأرض والبصرِ

"كليب" الذى ذكر هو كليب بن ربيعة بن الحارث الذى ضرب به المثل فقيل : "أعزّ من كُلَيْب وائل" . وأشار ابن عبدون فى هذا البيت إلى ما كان من قتل جسّاس بن مرّة كليبًا وما وقع بين بكر وتَغْلِب من الحروب التى نشرحها إن شاء الله فى وقائع العرب . وقوله : "ورمت مهلهلا بين سمع الأرض والبصر" كأنه أراد ما حكى أنه قتل فى موضع لم يطّلع عليه أحد، وهو مثل؛ يقال : فعل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خاليا .

ولم تَرُدّ على الضِّلِّيل صِحّتَه * ولا ثَنَت أسدًا عن ربّها حُجُرِ

"الضِّلِّيل" الذى أشار إليه هو امرؤ القيس بن حُجْر بن عمرو، والحارث هو آكل المُرَار؛ وسُمّى امرؤ القيس بالضلّيل لأنه ترك ملكه وتوجّه إلى قيصر يطلب منه

(١) التكملة عن قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان للعلامة القلقشندى مؤلف كتاب صبح الأعشى . وفى الأصل بيان .

جيشا يأخذ به ثار أبيه من بنى أسد . وإشارته إلى الصحّة لقول آمرئ القيس فى قصيدته السينيّة :

وبُدِّلْتُ قُرْحًا داميًا بعد صحّةٍ * لعلّ منايانا تحوّلْنَ أبْؤُسا

لقد طمَح الطِّمَاحُ من بُعد أرضه * لِيُلْبِسنى من دائه ما تلبّسا

٥ و « الطّماح » رجل من بنى أسد أرسله قيصر إلى آمرئ القيس بحُلّة مسمومة ، فلما لبِسها تقطّع ومات بأنقِرة . وإشارته إلى أسد لأن بنى أسد كانوا قتلوا حُجْر ابن الحارث يوم ماقِط .

ودوّخت آلَ ذُبْيانٍ وإخوتَهم * عَبْسًا وعضّت بنى بَدْر على النَّهَرِ

أشار إلى ما كان بين عبس وذبيان من الحروب بسبب داحس والغبراء .

١٠ وسيرد ذلك فى وقائع العرب إن شاء الله تعالى .

وألحقت بعَدىٍّ بالعراق على * يد آبنه أحْمَرَ العينَين والشَّعَرِ

أراد عدىّ بن أيوب بن زيد مَنَاة بن تميم الشاعر . وأحمر العينين والشعر هو النّعمان بن المُنذر . وكان عدىّ هذا ترجمانا لأبْرَويز وكاتبه بالعربيّة ، فلما مات قابوس بن المنذر تلطّف عدىّ وتحيّل على أبرويز حتى ولّى النعمان إمْرة العرب وقدّمه

١٥ على إخوته وكان أدمتهم ، ثم آتهمه النعمان أنه وشى به فآحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق ؛ فتلطّف آبنه زيد بن عدىّ وتوصّل حتى خدَم أبرويز على عادة أبيه ، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز ، على ما يرد إن شاء الله تعالى فى التاريخ . والله أعلم .

وأشرفت بخُبَيْبٍ فوق فارعةٍ * وألصقت طَلْحَةَ الفيّاضَ بالعَفَرِ (٩١)

٢٠ أشار إلى خبيب بن عدىّ الأنصارىّ وهو بَدْرِىّ وأسِر فى السريّة التى خرج فيها مَرْثَد بن أبى مَرْثَد فانطلق به المشركون إلى مكّة وآشتراه حجر بن إهاب التميمىّ

حليف بنى نَوفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه، وكان خبيب قتل الحارث أبا عقبة يوم بَدْر، فصلبه عقبة على خشبة بالتَّنْعيم وقتله . وطلحة الفيّاض هو طلحة ٱبن عبـد الله التيميّ أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم، قتل يوم الجَمل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ومزّقت جعفرًا بالبِيض، وٱختلست * من غِيله حَمْـزَةَ الظّلام للجُـزُرِ ٥

«جعفر» الذى ذكره هو جعفـر بن أبى طالب أخو علىّ رضى الله عنهما قُتل فى غَزْوة مُؤْتة . «حمزة» هو ٱبن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل يوم أُحُد قتله وحشىّ غلام جُبَيْر بن مُطْعِم، وجعله ظلّاما للجزر وصَفَه بالكرم .

وبلّغتْ يَزْدَ جِرْدَ الصّينَ وٱختزلتْ * عنه سوى الفُرْس جمعَ التُّرك والخَزَرِ

ولم تَرُدّ مواضى رُسْـتَمٍ وَقَنَـا * ذى حاجبٍ عنه سَعْدًا فى ٱبنة الغِيَرِ ١٠

«يزد جرد» الذى ذكر هو ٱبن شهريار آخر الملوك الساسانيّة . ورُستُم هو الأرمينىّ وهو الذى قاتل سعد بن أبى وقّاص وقُتِل يوم القادسـيّة ، على ما يأتى شرح ذلك فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وخَضّبت شيبَ عثمانٍ دَمًا، وخَطَت * إلى الزبير، ولم تَسْتَحْيِ من عُمَـرِ

أشار فى هـذا البيت إلى مقتل عمـر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن العوّام رضى الله عنهم . وسترد إن شاء الله أخبارهم . ١٥

وما رَعَتْ لأبى اليَقْظانِ صُحْبَتَـه * ولم تُزَوِّده إلا الضَّـيْحَ فى الغُمَـرِ

«أبو اليقظان» هو عمّار بن ياسر العَنْسىّ قُتل بصِفّين وكان مع علىّ؛ وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تَقْتل عمّارًا الفِئةُ الباغية" . ولمـا قتل كانت الراية يومئذ بيـده فعطِش فدعا بشربة من المـاء فأُتِى بضَيْحة[1] فشربها ثم قال : أخبرنى ٢٠

(١) الضيحة : الشربة من الضياح أو الضيح بالفتح فيهما وهو اللبن الرقيق الممزوج بالماء .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللبن آخِرُ شَرْبَةٍ أشربها فى الدنيا ؛ فقُتل يومئذ رضى الله عنه .

وأجْزَرت سيفَ أشقاها أبا حسنٍ * وأمكنتْ من حسين راحتَىْ شَمِرِ

أشقاها هو عبد الرحمن بن مُلْجَم المُرادِىّ قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقوله صلى الله عليه وسلم : "ياعلىّ، أشقاها الذى يَخْضِب هذه من هذه" وأشار إلى لحية علىّ ورأسه . والحسين الذى ذكره هو الحسين بن علىّ . وشمر هو شمر ٱبن ذى الجَوْشَن وهو الذى أرسله عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد يحرّضه على قتل الحسين؛ وقيل : إن شَمِرًا لم يباشر قتلَ الحسين ، والذى قتله سِنان بن أَنَس[1] النَّخَعى، وشَمِرٌ فهو المُجْهِز والمُحَرِّض على قتله ، فلذلك ذكره .

وليتَها إذ فَدَتْ عمرًا بخارجةٍ * فدَتْ عليًّا بمن شاءت من البشر

عمرو الذى أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سَهْم ٱبن عمرو بن هُصَيْص بن كعب، أمير مصر لمعاوية بن أبى سفيان. وخارجة رجل من سهم بن عمرو. وكان من خبره أن الخوارج كانت قد ٱجتمعت على قتل علىّ ومعاوية وعمرو، فكان الذى ٱنتدب لقتل عمرٍو زادويه مولى بنى العَنْبر، ورَصَده إلى ليلة المعاد التى ٱتفقوا على الفتك بهم فيها ؛ فٱشتكى عمرو تلك الليلةَ من بطنه ولم يخرج للصلاة وٱستخلف خارجةَ ليُصلّى بالناس ؛ فلما قام فى المحراب وثب عليه زادويه وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله ؛ وأُخِذَ زادويه وأُدْخِل على عمرو، فسمع الناسَ

(١) كذا فى الطبرى طبع أوربا (ق ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧) وابن الأثير طبع أوربا (ج ٤ ص ٦٦ — ٦٨) . وفى الأصل : « ابن أبى أنس » .

يخاطبونه بالإمرة، فقال: أوَ ماقتلتُ عمرا؟ قيل له: [لا](١) إنما قتلت خارجة؛ فقال: "أردتُ عمرا وأراد الله خارجة". فلذلك قال:

* وليتها إذ فدت عمرا بخارجة *

وفى ٱبن هند وفى ٱبن المصطفى حسنٍ * أتت بمُعْضِـلة الألبـابِ والفِكَرِ

فبعضُنا قائلٌ ما ٱغتـاله أحـــدٌ * وبعضُنا ساكِتٌ لم يُؤْتَ من حَصَرِ ٥

(٩٢)

ابن هنـد الذى أشار إليه هو معاوية بن أبى سفيان، أراد ما كان بينه و بين الحسن بن علىّ فى أمر الخلافة. وأراد بالبيت الثانى ما وقع الٱختلاف فيه من أن الحسن مات مسمومًا وأنّ معاوية وعدَ زوجة الحسن جَعْدة بنت قيس الكِندىّ بمـائة ألف درهم و يزوّجها لٱبنه يزيد إن قتلت الحسن، ففعلت وسمّته. ولمـا مات الحسن وفّى لهـا بالمـال وقال: حبٌّ حياة يزيد منعنى تزويجه منك؛ وقيل: مات الحسن حَتْفَ أنفه. والله أعلم. ١٠

وعَمَمْتَ بالرَّدى فَوْدَىْ أبى أنَسٍ * ولم تَرُدّ الردى عنـــه قنـا زُفَـرِ

أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفِهْرى. يُشير إلى ما وقع بينه و بين مروان ٱبن الحكم بمَرْج راهط، وكان الضحاك يدعو لٱبن الزبير فقُتل الضحّاك، على ماذكره إن شاء الله فى أخبار مروان. وكان زُفَر بن الحارث الكلابىّ مع الضحّاك ففرّ عنه. ١٥

وأرْدَتِ ٱبنَ زياد بالحسـين فَـلَمْ * يَبُؤْ بشِسْعٍ له قـد طاح أو ظُفُـرِ

أشار إلى عبيد الله بن زياد ٱبن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق، وهو الذى جهّز عمر بن سعد لحرب الحسين بن علىّ رضى الله عنهما. وقوله "يبؤ بشسع له" أخذه من قول مهلهل حين قتل بُجَيْر بن الحارث وقال: بُؤْ بِشِسْع نعل كُلَيْب.

(١) زيادة من شرح القصيدة العبدونية لابن بدرون، طبع ليدن سنة ١٨٤٦ م. ٢٠

وأنزلتْ مُصْعبًا من رأس شاهقـةٍ * كانت به مهجةُ المُختـار فى وَزَرِ[1]

أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوّام وقتله . والشاهقةُ هى الكوفة . جعلها شاهقة لَمَنَعتها وكثرة رجالها . وأراد ما كان بين مصعب وعبد الملك بن مروان من الحرب التى قُتِـل فيها مصعب . والمختار الذى ذكره هو المختار بن أبى عُبَيْد بن مسعود ٥ ابن عمرو الثقفىّ . أشار إلى ما كان بينـه وبين مصعب من الحرب وقَتْل المختار . وسنُورد كلّ هذه الوقائع إن شاء الله فى التاريخ .

ولم تُراقِبْ مكان ابن الزبير ولا * راعت عِياذَتَهُ بالبيت والحَجَـرِ

أراد عبدَ الله بن الزبير، وكان يُسَمّى العائذ لأنه كان يقول : أنا العائذ بالبيت، وقتله الحجّاج بن يوسف الثقفىّ لمـا وجّهه عبد الملك لحربه .

١٠ ولم تَدَعْ لأبى الذِّبّان قاضـيَهُ * ليس اللَّطِيمُ لهـا عمـرٌو بمُنْتَصِرِ

أبو الذِّبّان هو عبـد الملك بن مروان بن الحكم ، سمّى بذلك لبَخَـره . وقوله "قاضيه" لأنه كان مُظَفَّرًا على أعدائه فإنه غلَب من كان يناوئه فى سلطانه مثل عبـد الله ومصعب ابنىْ الزبير ، وعمرو بن سـعيد ، وعبـد الرحمن بن الأشعث ، ما منهم إلا من قُتِل وحكَم فيه قاضيه وهو سيفه ، ولم يُغْنِ ذلك عنه لمـا أتته منيّتُه .

١٥ وأما اللَّطِيم فهو عمرو بن سـعيد الأشْدَق ، سمّى بذلك لمَيْلٍ كان فى فمه فقيل له من أجله لَطِيمُ الشيطان ، وقتله عبد الملك بن مروان .

وأظْفَرتْ بالوليـد بن اليزيد ولم * تُبْقِ الخـلافةَ بين الكأس والوتر

الوليد هـذا هو الوليد بن يزيد بن عبـد الملك ، وهو الذى يقال له الجبّـار العنيد . أشار إلى ظفر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتلِه . و[قوله][2] :

٢٠ (١) الوزر : الملجأ والمعتصم .

(٢) من عادته أن يذكر هذه الكلمة . فلعلها سقطت من الناسخ .

... ... ولم * تُبْقِ الخـلافة بين الكأس والوتر

أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللّهو واللّعب .

ولم تُعِدْ قُضَبَ السفّاح نابيـةً * عن رأس مروان أو أشياعه الفُجُرِ

السفّاح هو أبو العباس عبـد الله بن محمـد بن علىّ بن عبـد الله بن عباس ، وهو أوّل خلفاء الدولة العباسـيّة . يُشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله ، وٱنقراض دولة بنى أميّة وقتلهم على يديه . ٥

وأسبلتْ عَبَراتٍ للعيون على * دَمٍ بفَخٍّ[1] لآل المصطفى هَـدَرِ

أشار فى هـذا البيت إلى ذكر من قُتل بفَخّ وهم الحسين بن علىّ بن حسن بن حسن بن على ، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علىّ ، وعبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، على ما نذكره فى التاريخ إن شاء الله تعالى . ١٠

(٩٣) وأشرقَتْ جعفرًا والفضـلُ ينظره * والشيخُ يحيى بِرِيق الصارمِ الذَّكَرِ

أشار فى هـذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ونكبة البرامكة فى أيام الرشيد .

وأخْفَرتْ فى الأمين العهدَ، وٱنتدبت[2] * لجعفـر بٱبنـه والأعْبُـدِ الغُـدُرِ

الأمين هو محمـد بن هارون الرشيد . يُشير إلى ما كان بينه و بين أخيه المأمون وإلى العهد الذى كان الرشيدُ كتبه بينهما . وجعفر الذى أشار إليه هاهنا هو المتوكل ٱبن المعتصم . أراد ما كان من قتل باغِر التركى له بمواطأةٍ من ٱبنه المُنْتَصر ، على ما نُورده فى أخباره . ١٥

وروَّعَتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ * وأسلمت كلَّ منصـور ومُنْتَصِرِ

(١) فخ : واد بمكة . ٢٠

(٢) كذا فى شرح القصيدة العبدونية لأبن بدرون . وفى الأصل : «وٱنتبدت» .

المأمون هو عبد الله بن الرشيد وهو أوّل من لُقِّب بالمأمون، ولُقّب به بعد ذلك ولَدٌ من أولاد المعتمد بن عبّاد ويحيى بن ذى النون صاحبُ طُلَيْطُلة . والمؤتَمَن فأوّلُ من لقب به مروان بن الحكم على قول من يقول إنه كان لبنى أميّة ألقاب ، ثم لُقّب به القاسم بن الرشيد . وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون جعل ٱبنه المؤتَمَن بعد المأمون، وجعل أمرَ المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه وإن شاء خلَعه ؛ فلما أفضت الخلافةُ إلى المأمون أزال المؤتَمَن فارتاع لذلك . وتلقّب بالمؤتَمَن محمد بن ياقوت مولى ٱلمُعْتَضد صاحب فارس . وتلقّب به سلامة الطُّولُونى ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ثم تسمّى بالمنصور . وأما المنصور فأوّلُ من لُقّب به هشام بن عبد الملك بن مروان على تلك الرواية، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن علىّ العباسى، ثم أبو طاهر إسماعيل ٱبن القائم بن المهدى صاحب إفريقيّة ، ثم محمد بن أبى عامر بالأندلس، وتلقّب به ٱبن زيرى الصِّنْهاجى ، وتلقّب به سابور صاحبُ بَطَلْيُوس ، وعبد الله بن محمد ٱبن مسلمة التُّجيبىّ، وحفيده يحيى بن محمد بن عبد الله، وعبد العزيز بن أبى عامر؛ ثم تلقّب به جماعةٌ من الملوك بعد نظم هذه المَرْثِيَة . وأما المنتصر فهو محمد ٱبن المتوكّل ؛ وممّن تَلقّب بالمنتصر مِدْرار بن اليَسَع صاحب سِجِلْماسَة . وكلُّ هؤلاء أبادهم الموت .

وأعثرتْ آلَ عبّاسٍ ــ لَعًا لَهُمُ ــ * بذَيْل زَبّاء[1] من بِيضٍ ومن سُمُرِ

أشار فى هذا البيت إلى ما كان من تغلُّب الأتراك والدَّيلم على خلفاء الدولة العباسيّة حتى لم يبق لهم إلا ٱسم الخلافة، على ما سيَرِد فى أخبارهم . وقوله :

(١) الزباء : الداهية الشديدة .

* بذيل زباء من بيض ومن سمر *

تنبيها على كثرة عدد المتغلّبين على الأمر وقدرتهم على السِّلاح .

ولا وَفَتْ بعهـود المُستعينِ ولا * بما تأكّد للعـتّر من مِرَر

المستعين هو أحمـد بن المعتصم العَبّاسى . أشار إلى ما كان من قيام المُعـتّز على المستعين وهرب المستعين من سَامُرّا إلى بغـداد . والمعتّز هو أبو عبد الله محمد بن المتوكّل، وستَرِد أخبارُهم إن شاء الله تعالى :

وأوثقتْ فى عُرَاها كلَّ معتمـدٍ * وأشرقتْ بقَـذَاها كلَّ مُقْتَـدِرِ

المعتمد هو أبو العباس بن المتوكّل، وهو أوّل من لُقِّب بهذا اللقب، وتلقّب به محمد بن عبّاد بإشبيلية . والمقتدِر هو أبو الفضل جعفر بن المعتضِد، وهو أوّل من لُقِّب بالمقتدر، ثم لُقِّب به أحمـد بن سليمان بن هود الجُذامىّ بِسَرَقُسْطَة . ثم أخذ ابن عبدون فى رثاء بنى الأَفْطَس فقال :

بَنِي المُظَفَّـر والأيّامُ ما بَرِحتْ * مَراحِلًا والورى منها على سَـفَرِ

سُحْقًا ليـومكمُ يومًا ولا حمَلَتْ * بمثـله ليـلةٌ فى مُقْبِـل العُمُر (٩٤)

مَنْ للأسِرّة أو مَنْ للأعنّة أو * من للأسِـنّة يُهديهـا إلى الثُّغَـرِ

مَنْ للبراعة أو من للبَراعةِ أو * من للسماحة أو للنفع والضَّرَرِ

أو رفـعِ كارثة أو دفعِ آزفـةٍ * أو قمعِ حادثةٍ تَعْيًا على القـدر

من للظُّبى(١) وعوالى الخطّ قد عُقِدَتْ * أطـرافُ ألْسُنها بالعِىّ والحَصَر

وطُوِّقتْ بالثنايا(٢) السُّـود بِيضُهم * أعْجِبْ بذاك وما منها سوى ذَكَرِ

(١) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "من للعدى ..." . (٢) كذا فى شرح ابن بدرون طبع ليدن سنة ١٨٤٦ . وفى الأصلين : "فطوّقت بالثنايا ..." . ولعل المراد بالثنايا ما يعلو السيوف من الصدأ لإهمالها بعد موت أصحابها . وفى هامش شرح ابن بدرون إشارة الى أنه فى نسخة أخرى "وطوّقت بالمنايا السود ..." الخ .

ويح السّماح وويح الجود لو سَلِما * وحسرةَ الدّين والدّنيا على عمر
سقَتْ ثرى الفضل والعبّاس هامية * تُعْزَى إليهم سَماحًا لا إلى المطر
ثلاثةٌ ما ارتقى النّسران حيث رقُوا (١) * وكلّ ما طار من نَسْرٍ ولم يَطِرِ
ثلاثةٌ ما رأى العصران مثلَهمُ * فضلًا ولو عُزِّزا بالشمس والقمر
٥ ومرّ من كل شيء فيه أطيبُه * حتى التمتع بالآصال والبُكَرِ
مَنْ للجلال الذى عمّتْ مهابتُهُ (٢) * قلوبَنا وعيونَ الأنجم الزُّهُرِ
أين الإباءُ الذى أرسَوْا قواعدَه * على دعائمَ من عزٍّ ومن ظَفَرِ
أين الوفاء الذى أصفَوْا مشاربَه * فلم يَرِدْ أحدٌ منها على كَدَرِ
كانوا رواسيَ أرض الله منذ نأوا * عنها استطارت بمن فيها ولم تَقِرِ
١٠ كانوا مصابيحَها فمذ خَبَوْا غبَرَتْ * هذى الخليقةُ يالله فى سَدَرِ
كانوا شجا الدهر فاستهوتهمُ خُدَعٌ * منه بأحلام عادٍ فى خُطا الخَضِرِ
مَنْ لى ولا مَنْ بهم إن أطبقَتْ مِحَنٌ * ولم يكن وِرْدُها يُفضى إلى صَدَرِ
مَنْ لى ولا من بهم إن أظلمت نُوَبٌ * ولم يكن ليلُها يُفضى إلى سَحَرِ
مَنْ لى ولا من بهم إن عُطِّلت سُنَنٌ * وأُخْفِتَتْ ألسُن الأيام والسِّيَرِ
١٥ على الفضائل إلّا الصبرَ بعدهمُ * سلامُ مُرْتَقِبٍ للأجر (٣) منتظِرِ
يرجو عسى ، وله فى أختها طمعٌ * والدّهر ذو عُقُبٍ شتّى وذو غِيَرِ
قَرِّظْتُ آذانَ من فيها بفاضحةٍ * على الحسان (٤) حصى الياقوت والدُّرَرِ

---

(١) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "رقا" .
(٢) فى شرح ابن بدرون : "غضت مهابته" .
٢٠ (٣) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "مرتقب للأمر ..." .
(٤) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "من الحسان ..." .

ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنـه وأبدعه مراثى أبى تمـام حبيب بن أوس الطائى؛ فمن ذلك ماقاله يرثى به غالبَ بن السَّعْدىّ :

هـــو الدّهر لا يُشْوِى وهنّ المصائبُ * وأكثر آمال الرّجال كواذبُ
فيـا غالبًـا لا غالبٌ لرزيّةٍ * بل الموتُ لا شك الذى هـــو غالبُ
وقلت : أخى، قالوا : أخٌ من قرابة؟ * فقلت لهـــم إن الشُّكول أقاربُ ٥
نســبيَ فى رأيٍ وعزْمٍ ومَنْصِبٍ (١) * وإن باعدتنا فى الأصـــول المناسبُ
كأن لم يقل يوما : كأنّ، فتنثنى * إلى قـــوله الأسماعُ وهى رَواغِبُ (٢)
ولم يَصْـــدَع النادى بلفظة فَيْصـلٍ * سِـنانيّـــةٍ فى صـــفحتيها التّجارِبُ (٣)

ومنهـا :

مضى صاحبى وآستخلف البثّ والأسى * علىّ، فلى من ذا وهذاك صاحبُ ١٠
عجِبتُ لصـــبرى بعـــده وهو ميّتٌ * وكنت آمرأً أبكى دمًا وهـــو غائب
على أنّهـا الأيام قـد صِرْن كلُّها * عجـائبَ حتى ليس فيهـا عجـائبُ

وقال يرثى محمد بن الفضل الحِمْيَرىّ :

ريْبُ دهر أصمّ دون العتـابِ * مُرْصَـــدٌ بالأوجال والأوْصـابِ
جفّ دَرّ الدنيا فقـــد أصبحت تَكـ * ـتَال أرواحَنا بغـــير حسـابِ ١٥
لو بدَتْ سافـــرًا أُهِينَتْ ولكن * شغَفَ الخـــلقَ أنّهـا فى النِّقـاب
إن ريب الزمان يُحْسن أن يُهـ * ـدى الرَّزايا إلى ذوى الأحسـاب
فلهـــذا يجِفّ بعـــد آخضـــرارٍ * قبـــل روض الوِهاد روضُ الرَّوابى

(١) فى ديوان أبى تمـام : "ومذهب" .
(٢) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "وهى لواعب" . (٣) فى الديوان : ٢٠
ولم يصـــدع النادى بخطبة فيصل * ســـنانية قـــد دربتها التجارب
وقال فى الأصل : و يروى، ثم وضع تحت بعض الكلمات ماهو مذكور فى رواية الديوان .

جاء منها :

ذهبتْ يامحمد الغُرُّ من أيّـ * ـامك الواضحاتِ أىَّ ذَهابِ
عبَّس اللحدُ والثرى منك وجهًا * غيرَ ما عابسٍ ولا قطَّابِ
أطفأ اللحدُ والثرَى لُبَّك المَسْـ * ـروجَ فى وقت ظُلمة الألبابِ
وتبدّلتَ منزلًا ظاهرَ الجَدْ * ب يُسَمَّى مُقَطِّعَ الأسباب
منزلًا مُوحِشًا وإن كان معمو * رًا بجُلّ الصديق والأحباب
يا شِهابًا خبا لآل عبيد الله * أعزِزْ بفقد هذا الشِّهاب

ومنها :

أنزلته الأيّامُ عن ظهرها من * بعد إثبات رِجْلِه فى الرِّكاب
حين تمّ الشّبابُ(١) واغتدت الدنـ * ـيا إليه مفتوحةَ الأبوابِ
وحكى الصارمَ المُحَلَّى سوى أنّ * حُلاه جواهرُ الآدابِ
قصدتْ نحوه المنيّة حتى * وهبت حسنَ وجهه للتراب

وقال يرثى إسحاق بن أبى رِبْعىّ :

أىُّ ندًى بين الثرى والجُيوبِ(٢) * وسُؤدُدٍ لَدْنٍ ورأيٍ صليب
يا بن أبى رِبْعِىٍّ استُقِيلَتْ * من يومك الدنيا بيومٍ عصيب
شقّ جيوبًا من أناسٍ لو استـ * ـطاعوا لشقّوا ما وراء الجيوبِ
كنتَ على البعد قريبًا فقد * صرتَ على قربك غيرَ القريب
راحت وفودُ الأرض عن قبره * فارغةَ الأيدى مِلاءَ القلوب
قد علِمتْ ما رُزِئتْ ، إنما * يُعْرَف فقدُ الشّمس بعد المَغِيب

(١) فى الديوان : « سامى الشباب » .
(٢) كذا فى الأصل . وفى بعض نسخ الديوان : "الجنوب" وفى بعض آخر : "الجبوب" . والجبوب : الأرض الغليظة .

إذا البعيـدُ الوطن ٱنتـابه * حَـلّ إلى نَهْيٍ ووادٍ خصيب
أدنته أيدى العيس من ساحةٍ * كأنها مَسْقِطُ رأس الغـريب
أظلمتِ الآمالُ من بعـده * وعُرِّيتْ من كل حسن وطِيب
كانت خـدودًا صُقِلتْ برهـةً[1] * واليوم صارت مالفًا للشّحوب
كم حاجةٍ صـارت رَكُوبًا به * ولم تكن من قبله بالرَّكُوب
حـلّ عِقالَيهـا كما أُطْلقت * من عُقَد المُزْنَة ريحُ الجنُـوب
إذا تيمّمـناه فى مَطْلبٍ * كان قَلِيبًا ورشاءَ القليب
ونعمـة منـه تسربلتُهـا * كأنهـا طُـرّةُ بُـرْدٍ قَشِيب
من اللّواتى إن ونَى شاكرٌ * قامت لمُسْدِيها مَقامُ الخطيب
متى تُنَـخْ تُرْحَـلْ بتفضـيله * أو غاب يوما حضرتْ بالمَغِيب
فما لنا اليـوم ولا للعُـلا * من بعده غيرُ الأسى والنّحيب

وقال يرثى أحمد بن هارون القرشىّ :

دأبُ عينى البكاء، والحزنُ دابى * فاتركينى — وُقيتِ مابى — لمابى
سأُجَزّى بقـاء أيام عمـرى * بين بَثّى وعَبْرتى وٱكتئابى
فيك يا أحمد بن هارون خَصّت * ثم عمّت رزيّتى ومُصـابى
لجمعتنى الأيّامُ فى الصادق النُّطـ * ـق فـتى المَكْرُمات والآدابِ
بخليـلٍ دون الأخلّاءِ [لا][2] بل * صاحبى المُصْطَفى على أصحابى
أفلَمّـا تَسَربل المجـدَ وٱجتـا * ب من الحمد أيّمـا مُجْتاب
وتراءته أعينُ النّاظـريه * قمـرًا باهـرًا ورِئْبـالَ غاب

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "صقلت مرة" .
(٢) التكملة عن الديوان

وعلا عارضَيْه ماء النَّدى الجا * رى وماءُ الحِجَا وماءُ الشباب
أرسلتْ نحوه المنيّةُ عينًا * قطّعت منه أوثق الأسباب

وقال يرثى أبا الصقر :

لو صُحِّح الدمعُ لى أو ناصَحَ الكمدُ * لقلّما صَحِبانى الرُّوح والجسدُ
٥ خانَ الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ له * أخًا فلم يتخوَّنْ جسمَه الكَمَدُ
تساقُطُ الدمع أدنى ما بُلِيتُ به * للوجد إذ لم تَسَاقَطْ مهجةٌ ويدُ
فوالذى رَتَكت[1] تَطْوِى الفِجاجَ له * سفائنُ البرّ فى خَدّ الثرى تَخِد
لأنفَدَنّ أسًى إن لم أمتْ أسفًا * وينفَد العمر بى أو ينفَدَ الأَمَد
عنّى إليكِ فإنى عنك فى شُغُلٍ * لى منه يومٌ سيُبْلِى مهجتى وغَدُ
١٠ وإن بُجْرِيّة[2] نابت جارتُ لها * إلى ذَرَى جَلَدى فاستؤهل الجَلَدُ
هى النوائبُ فاشْجَىْ أوفَعِى عِظةً * فإنها شجرٌ[3] أثمارُها رَشَدُ
هُبِّى تَرَىْ قلقًا من تحته أرقٌ * يحدوهما كمدٌ يَعْنُو[4] له الجسدُ
صمّاءُ سمُّ العِدا فى جنبها ضَرَبٌ * وشربُ كأس الردَى فى ظلّها شَهَدُ
هناك أُمّ النُّهَى لم تُودِ من حَزَن * ولم تَجُدْ لبنى الدنيا بما تَجِدُ
١٥ لو يعلم الناسُ علمى بالزمان وما * عاثت يداه لما ربَّوْا ولا وَلَدُوا
لا يُبْعِد الله ملحودًا أقام به * شخصُ الحجا وسقاه الواحد الصَّمَدُ
يا صاحب القبر، دعوى غيرُ مُتَّئِبٍ[5] * إن قال أودى النَّدى والبدرُ والأسدُ

(١) رتك (من باب ضرب) : عدا فى مقاربة خطو .
(٢) فى الديوان : "وإن بجيرية" بالتصغير، والبجرية : الداهية .
٢٠ (٣) فى الديوان : "فانها فرض" : جمع فرضة وهى موضع الاستقاء .
(٤) كذا فى الديوان . ويعنو : يذل ويخضع . وفى الأصل : "يحنو له الجسد" .
(٥) متئب : مستح أو منخذل .

بات الـثرى بأخى جذلانَ مبتهجًا * وبِتُّ يحـكم فى أجفانىَ السَّهَـد
لهفى عليـــك وما لهفى بمُجْـدِيةٍ * ما لم يَزُرك بنفسى حَـــرُّ ما أجِدُ
أمسى أبو الصقر يعفو التربُ أحسنَه * دونى ودَلْـــوُ الرَّدى فى مائه يَرِدُ
ويْـــلٌ لأُمّك أقصِرْ إنه حَدَثٌ * لم يَعْتقِدْ مثـلَه قلبٌ ولا خَـلَدُ (١)
غال الزمانُ شقيقَ (٢) الجود لم يَقِـه * أهـــلٌ ولم يَفْـدِه مالٌ ولا ولدُ
حين ٱرتوى المـاءَ وٱفترّت شبيبتُه * عن مَضْحَكٍ للمعـالى ثغرُه بَرَدُ
وقيل : أحمدُها ، بل قيل : أمجَدُها * بل قيل : أنجدُها إن فترت النُّجُد
رُؤْدُ الشباب كنصل السيف لا جَعَدٌ * فى راحتيـه ولا فى عـــوده أَوَدُ
ســـقى الحبيسَ ومحبوسًا ببَرْزَخِه * من السَّمِىّ كغيث الوَدْقِ يَطَّـرِدُ
بحيث حـــلَّ أبو صـــقر فودَّعه * صفوُ الحياة ومن لذّاتها الرَّغَدُ
بحيث حلّ فقيـــدُ المجـد مُغْـتَرِبًا * ومُورِثًا حسرات ليس تُفْتَقَـــد

وقال يَرثى عُمَيْر بن الوليد :

أعِيدى النَّـوحَ مُعْوِلَةً أعِيدى * وزيدى فى بكائك ثم زِيدِى
وقُـــومِى حاسِرًا فى حاسرات * خَوَامِشَ للنُّحـــور وللخُـدودِ
هو الخطبُ الذى ٱبتدأ الرَّزايا * وقال لأعين الثَّقَلَيْنِ جُودى
ألَا رُزِئَتْ خُرَاسانُ فتاها * غَداةَ ثوى عُمَـــيْرُ بن الوليـــد
ألَا رُزِئَتْ بمسئول مُنِيـــلٍ * ألَا رُزِئَتْ بمِتـــلافٍ مُفِيـد
ألَا إنّ النَّـــدى والجودَ حلَّا * بحيث حلَلْتَ من حُفَر الصَّعِيد
بنفسى أنت من ملكٍ رمتْه * منيّتُه بسهـــم رَدّى ســـديد

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل "حلد"
(٢) فى الديوان : "رضيع الجود" .

تجلّتْ غَمْـرةُ الهيجاء عنـــه * خَضيبَ الوجه من دمه الجَسيدِ
فيابحر المَنُون ذهبتَ منه * بحر الجـود فى السَّـنَة الصَّلُودِ
ويا أسـدَ المنون فرَسْتَ منـه * غَداةَ فرسـتَه أسـدَ الأسـودِ
أبالبطل النَّجيـد فتكتَ[1] منـه * نعم وبقاتل البطـــل النَّجيـدِ
٥ تَراءَى للطِّعان وقـــد تَراءَتْ * وجوه المـوت من حُمْـرٍ وسُود
فيـالَكِ وقعـــةً جَلَّا أعادت * أسًى وصـبابةً جلَدَ الجليـــدِ
ويالكِ ساعةً أهـدتْ غَليـلًا * الى أكبادنا أبَدَ الأبيـدِ
ألا أبْلِـغْ مقـالتىَ الإمامَ آلَ * خليفة والأمينَ بنَ الرشـيدِ
بأن أمـيرَنا لم يَأْلُ عدلًا * ونُصْـحًا فى الرَّعايا والجنـود
١٠ أفاض نوالَ راحـته عليهـم * وسامح بالطَّـريف وبالتَّليـد
وأضحى دونهـم للموت حتى * سقاه الموتُ من مَقِرٍ هَبيدِ[2]
وما ظفِـروا به حـتى قَرَاهم * قَشاعِمَ أنْسُر وضِـباعَ بيـد
بطعنٍ فى نحـورهمُ رشيـقٍ * وضربٍ فى رءوسهـمُ عتيـدِ
فيا يومَ الثـلاثاء آصطبحنـا * غداةً منـك هائـلةَ الورود
١٥ ويايوم الثـلاثاء آعتَمَـدْنا * بفقدٍ فيـك للسَّنَد العَميـدِ
وكم أسخَنْتَ فينا من عيونٍ * وكم أعثرتَ فينا من جُدودِ
فما زُجِرتْ طيورُك عن سَنيحٍ * ولا طَلعتْ نجـومُك بالسُّعود
ألَا يايهـا المـلكُ المُـرَدّى * رداءَ المـوت فى جَدَثٍ جديدِ
حضرتُ فِناءَ بابك وآعـترانى * شجًى بين المُخَنَّـق والوَريدِ

٢٠ (١) فى الديوان : "فتكت منا".

(٢) المقر : السم أو الصبر أو شبهه . والهبيد : الحنظل .

رأيتُ به مطايا مُهْـمَلَاتٍ * وأفراسًا صَـوافِنَ بالوَصِـيد
فكنتَ عَتَادَ إما فَـكٍّ عانٍ * وإما قتـلِ طاغيـةٍ عَنُـود
رأيتُ مؤمِّلِيـك عدتْ عليهم * عـوادٍ صعَّدَتْهم فى كَؤودِ
وأضحت عنـد غيرك فى هبوطٍ * حظوظٌ كنّ عندك فى صُعُود
وأصبحتِ الوفودُ إليـك وقفًا * على أن لا مُفَادَ لمُسْتَفِيـدِ
فكلُّهمُ أعـدّ اليأسَ وقْفًـا * عليك ونصَّ راحلةَ القُعـود
لقد سَخِنتْ عيـونُ الجود لمّـا * ثويتَ وأُقْصِدتْ غُرَرُ القصيد

وقال يرثى محمد بن حُمَيد الطُّوسىّ :

كذا فَلْيَجِلّ الخطبُ وليَفْدَحِ الأمرُ * فليس لعـينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذرُ
تُوُفِّيتِ الآمالُ بعـد محمـدٍ * وأصبح فى شغلٍ عن السَّفَر السَّفْر
وما كان إلا مالَ من قلّ مالُه * وذُخرًا لمن أمسى وليس له ذُخر
وما كان يَدْرى المُجْتدى جودَ كفّه * إذا ما آستهلّت أنه خُـلِق العُسرُ
ألَا فى سـبيل الله من عُطِّلت له * فِجاجُ سبيـل الله وآثَّغر الثغـرُ (١)
فتًى كلمـا فاضَت عيونُ قبيلةٍ * دمًا ضَحِكت عنه الأحاديثُ والذِّكرُ
[فتًى دهرُه شطران فيما يَنُوبه * ففى بأسه شطرٌ وفى جوده شطر] (٢)
فتًى مات بين الضرب والطعن مِيتةً * تقوم مَقـام النَّصر إذ فاته النَّصر
وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه * من الشَّلّ (٣) وآعتلّت عليه القنا السُّمْر
وقد كان فوتُ الموت سهلًا فردّه * عليه الحِفاظُ المرُّ والخُـلُقُ الوَعْر
ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأنه * هو الكفرُ يوم الرَّوع أودونه الكُفر

(١) الإثغار : أن يلقى الصبى ثغره على أسنانه . (٢) زيادة من الديوان .
(٣) شل الأعداء بسيفه : طردهم بين يديه . وفى الديوان : " من الضرب " .

فأثبتَ فى مُسْتَنقع الموت رِجْلَه * وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ
غدا غُدوةً والجدُّ نسجُ ردائه * فلم ينصرف إلا وأكفانُه الأجرُ
تردّى ثيابَ الموت حُمْرًا فما أتى * لها الليل إلا وهى من سندسٍ خُضْر
كأنّ بَنى نَبْهان يوم وفاته * نجومُ سماء خرَّ من بينها البدر
يُعزَّون عن ثاوٍ تُعزَّى به العُلَا * ويَبْكى عليه الجُود والبأس والشعر
وأنّى لهم صبرٌ عليه وقد مشى * إلى الموت حتى استُشْهِدا هو والصَّبر!
فتىً كان عذبَ الروح لا عن غَضاضةٍ * ولكنّ كِبرًا أن يكون له كِبْر (١)
فتىً سلبته الخيلُ وهو حِمًى لها * وبزّته نارُ الحرب وهو لها جَمْرُ
وقد كانت البِيضُ المآثِير فى الوغى * بَواتِرَ فهى الآن من بعده بُتْر
أمن بعد طىِّ الحادثات محمَّدًا * يكون لأثواب العلا أبدا نَشْرُ!
[إذا شَجَرات العرف جُذَّتْ أصولُها * ففى أىّ فرع يُوجد الورقُ النَّضْر! (٢)]
لئن أبغضَ الدهرُ الخئونُ لفقده * لَعَهْدى به ممّن يُحَبُّ له الدهر
لئن غدرتْ فى الرَّوع أيامُه به * لَمَا زالت الأيامُ شيمتها الغدر
لئن أَلْبَسَتْ فيه المصيبةَ طيئٌ * لَمَا عُرِّيَتْ منها تميمٌ ولا بَكْر
كذلك ما ننفكّ نفقِد هالكًا * يُشاركنا فى فقده البدو والحَضْر
سقى الغيثُ غيثًا وارتِ الأرضُ شخصَه * وإن لم يكن فيها سحاب ولا قَطْر
وكيف احتمالى للسَّحاب صنيعةً * بإسقائها قبرًا وفى لحده البحرُ
ثوى فى الثَّرَى من كان يحيا به الثرى * ويَغْمُرُ صرفَ الدهر نائلُه الغَمْرُ

---

(١) رواية الديوان :

فتىً كان عذب الروح لا من غضاضة * ولكن كبرا أن يقال به كبر

(٢) زيادة من الديوان .

مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ رَوضةٌ * غَداةَ ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ
عليك سلامُ الله وقْفًا فإننى * رأيتُ الكريم الحرَّ ليس له عمر

وقال يرثى إدريس بن بدر السَّامىّ :

دموعٌ أجابت داعىَ الحزن هُمَّعُ * تَوَصَّلُ منا عن قلوب تَقطَّعُ
عَفاءٌ على الدنيا طويلٌ فإنها * تَفَرَّقُ من حيث ابتدت تتجمّع
تبدَّلَتِ الأشياء حتى لِخَلَّتُها * ستَنْفِى غروبَ الشمس من حيث تَطْلُع
لها صَيْحةٌ فى كل رُوح ومهجةٍ * وليست لشىء ما خلا القلبَ تُسْمِعُ
أإدريسُ ضاع المجدُ بعدَك كلُّه * ورأىُ الذى يرجوه بعدك أضْيَعُ
وغُودِر وجهُ العُرْف أسودَ بعد ما * يُرَى وهو كالبِكر الكَعاب تَصَنّع
وأصبحتِ الأحزانُ لا لمبرّةٍ * تُسَلِّم شَزْرًا والمعالى تُودِّعُ
وضلّ بك المُرْتاد من حيث يَهْتدى * وضرّتْ بك الأيامُ من حيث تنفع
وأضحت قَرِيحات القلوب من الجَوى * تَقيظ(1) ولكن المدامعَ تَرْبَع(2)
عيونٌ حفِظن الليلَ فيك محرَّمًا * وأعطينك الدمعَ الذى كان يُمْنَع
وقد كان يدعى لابِسُ الصبر حازمًا * فأصبح يُدْعَى حازمًا حين يَجْزَع
وقالوا عزاءً : ليس للموت مَدْفَعٌ * فقلت : ولا للحزن للمرء مَدْفعُ
لإدريسَ يومٌ ما تزال لذكره * دموعى وإن سكّنتُها تتفرّع
ولما نضا ثوبَ الحياة وأوقَعت * به نائباتُ الدهر ما يُتوقَّعُ
غدا ليس يَدْرى كيف يَصنَع مُعْدِمٌ * درَى دمعُه من وجده كيف يَصنع
وماتت نفوس الغالبيّين كلهم * وإلا فصبرُ الغالبيّين أجمعُ

(١) تقيظ : يشتد حرها . وفى الأصل والديوان : "تقاظ" .
(٢) تربع : تخصب .

غَـدَوْا فى زوايا نعشــه وكأنمـا * قريشٌ قريشٌ حين مات مُجمِّع[1]
ولم أنْسَ سَعْىَ الجود خلفَ سريره * بأكسفِ بالٍ يَستقيم ويَظْلَـع
وتكبيرَه خَمْسًا عليــه مُعالِنًا * وإن كان تكبير المصلِّين أربَـعُ
وما كنت أدري يعــلم الله قبلهـا * بأن النَّـدى فى أهله يتشيَّع
وقمنا فقلنا بعد أن أفرِد الثرى * به ما يُقـال فى السَّـحابة تُقْلِـع

— هذا مأخوذ من قول مسلم :

فاذهبْ كما ذهبتْ غَـوادى مُزْنَةٍ * أثــنى عليهـا السهلُ والأوعارَ —
ألم تك تَرْعانا من الدَّهر إن سـطا * وتحفَظُ من أموالنا ما نُضَـيِّع
وتبسُطُ كفًّـا فى الحـقوق كأنمـا * أناملُهـا فى البأس والجـود أذْرُعُ
وتَلْبَسُ أخلاقًا كِرامًـا كأنهـا * على العِرْض من فرط الحَصانة أَدْرُعُ
وتربِطُ جأشًا والكُماةُ قلوبُهــم * تَزَعْزَع خوفًا من قَنًا تتزَعْزَع
وأمنيَّـةُ المـرتاد يحضُرك النَّـدى * فيَشْـفَع فى مثــل الفـلا فيُشَـفَّع[2]
فأنطِق فيـه حامـدٌ وهـو مُفحَمٌ * وأُفحِم فيـه حاسـدٌ وهو مِصْـقَع
ألا إنّ فى ظُفْـر المنيّـة مُهجـةً * تَظَلّ لهـا عينُ العُـلا وهى تدمَعُ
هى النفس إن تبْكِ المكارمُ فقدَها * فمن بين أحشـاء المكارمِ تُـنْزَعُ
ألا إنّ أنفًـا لم يَعُـدْ وهو أجدع * لفقـدك عنـد المكرمات لأجدَعُ
وإن امرأً لم يُمْسِ فيك مُفجَّعًا * بملحـوده، فى عقـله لمُفجَّـعُ

وقال يرثى القاسم بن طَوْق بن مالك :

جوًى ساور الأحشاءَ والقلبَ واغلُهْ * ودمعٌ يَضِيم[3] العينَ والجفنَ هامـلُهْ

(١) مجمع : لقب قصى بن كلاب بن مرة وهو الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقب بذلك لجمعه قريشا للرحلتين : رحلة الصيف ورحلة الشتاء . (٢) فى ديوان أبى تمام : * فيشفع فى ملء الملا فيشفع * (٣) كذا بالأصل . ولعله محرّف عن «يطم» بمعنى يملأ .

وفاجـعُ موت لا عدوٌّ يخافـــه * فيُبْقِي ، ولا يُبْقِي صـــديقًا يُحَامِلُهْ
وأيُّ أخي عِزٍّ وذي جَـــبَرِيَة[1] * ينـابذه أو أيُّ رامٍ يناضـــلُهْ
إذا ما جرى مَجْرى دم المرء حُكْمُه * وبُثَّت على طُرق النفوس حَبَائلُهْ!
فـلو شاء هـذا الدهرُ أقْصَرَ شرُّه * كما أقصرتْ عنّا لُهَـاهُ ونائـــلُهْ ٥
سنشكوه إعلانًا وسرًّا ونيّـــةً * شكيّةَ من لا يستطيع يُقاتلُهْ
فمن مبلغٌ عنّي ربيعـــةَ أنّه * تقشّعَ طَلُّ الجُـود عنهـا ووابلُهْ
وأنّ الحِجَا منها آستطارت صُدوعه * وأنّ الندى منهـا أُصيبت مَقَاتلُهْ
مضى للزِّيالِ القاسمُ الواهبُ اللُّهَى * ولـــو لم يُزَايلنـا لكنّا نُزَايلُهْ
ولم يعلموا أنّ الزمان يريده * بفجع ولا أنّ المنايا تُراسِـــلُهْ
ومنهـا : ١٠
طـواه الرّدى طَيَّ الرِّداء وغُيِّبت * فضائلُه عن قومه وفَوَاضـلُهْ
طوى شِيَمًا كانت تروحُ وتغتـدِي * وسائلَ من أعيتْ عليـــه وَسَائلُهْ
فيا عارضًا للعُـرْف أقلَـــعَ مُزْنُهُ * ويا واديًا للجُـــود[2] جَفَّت مَسايلُه
وقال يرثي محمد بن حُميد[3] وأخاه قحطبة :
بأبي وغيرِ أبي — وذاك قليلُ — * ثاوٍ عليـــه ثرى النُّبَـاج مَهِيلُ ١٥

(١) في الديوان : «وأي أخي عزاء أو جبرية» .
(٢) كذا في الديوان . وفي الأصل : «ويا واديا للعرف» .
(٣) كذا في الجزء الثالث من شرح ديوانه لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٧٣ أدب) وكان محمد هو الأكبر والآخر قحطبة . وفي الأصل : «وقال يرثي محمد بن حميد ويسمى قحطبة» وقيل : قحطبة أخوه» والصحيح ما أثبتناه وهو أن قحطبة أخوه ويؤيد هذا قول أبي تمام من مرثية أخرى يرثي بها بني حميد الطوسي : ٢٠
ذكرت أبا نصر بفقد محمـــد * وقحطبة ذكرى طويل البلابل
ومنهـا :
لعمـرك ما كانوا ثلاثة إخوة * ولكنهـم كانوا ثلاث قبائل

خَذَلتْـه أسرته كأنّ سَراتَهـم * جهِلوا بأن الخـاذلَ المخـذولُ
أكَّالُ أشـلاءِ الفوارس بالقَنا * أضحى بهنّ وشِـلْوُهُ ماكول
كُفِّى، فقتلُ محمـدٍ لِىَ شاهدٌ * أن العـزيزَ مع القضـاء ذليلُ

ومنهـا :

٥ هيهـات لا يأتى الزمانُ بمثـله * إنّ الزمانَ بمثـله لَبخيلُ
ما أنتَ بالمقتولِ صـبرًا إنّمـا * أَمَلِى غداةَ نَعِيِّـك المقتولُ

ومنهـا :

من ذا يحـدّث بالبقاء ضميره! * هيهات ! أنت على الفَناء دليلُ
ياليت شعرى بالمكارم كلِّهـا * ماذا، وقد فقدت نداك، تقول؟

١٠ ومنهـا :

يا يومَ قطبةِ لقـد أبقيتَ لى * حُرَقًا أرى أيّامهـا سـتطولُ
ليثٌ لو آنّ الليث قام مَقامـه * لأنصـاع[1] وهو يَرَاعةٌ إجْفيلُ
لمّـا رأى جمعًا قليلا فى الوغَى * وأولو الحِفاظ من القليل قليلُ
لاقى الكريهةَ وهو مُغْمِدُ رَوْعه * فيهـا ولكنْ بأسُـه[2] مسلولُ
١٥ ومشى إلى الموت الزُّؤام كأنمـا * هو من محبّته إليه خليـل

ومنهـا :

أضحتْ عِراصُ محمـدٍ ومحمـدٍ * وأخيهما وكأنهنّ طُـلولُ
أبنى حُمَيـدٍ ليس أوّلَ ما عفـا * بعد الأسود من الأسود الغِيلُ
مازال ذاك الصبرُ وهو عليكُمُ * بالموت فى ظلّ السيوف كفيلُ
٢٠ ستبسلون كأنّمـا مُهُجاتُهُـمْ * ليسـت لهم إلا غداةَ تسـيلُ

(١) انصاع : انفتل راجعا مسرعا. (٢) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "ولكن سيفه".

أَلِفوا المنايا فالقتيلُ لديهـــمُ * من لم يُخَلِّ[1] العيشَ وهو قتيـلُ
إن كان ريبُ الدهر أنكلنيكُمُ * فالموتُ أيضـا ميِّتٌ مثـكولُ

وقال يعزِّى مالك بن طَوْق :

أمالكُ إنّ الحزنَ أحلام حالِمِ * ومهما تدُمْ فالحزنُ ليس بدائِمِ
أمالكُ إفراطُ الصـبابة تاركٌ * حِنًا واعوجاجًا فى قناة المكارم
تأمّلْ رُوَيْدًا هل تَعُدّنَ سالمًـا * إلى آدمٍ أم هل تعدُّ ابنَ سالم!
متى تُرْعِ هذا الموتَ عينًا بصيرةً * تَجِدْ عادلًا منـــه شبيهًا بظالِمِ
فإن تكُ مفجوعًا بأبيضَ لم تكن * تشُـــدُّ على جدواه عقدَ التمائِمِ
بفارس دُغْمِيٍّ وهَضْـبةِ وائلٍ * وكوكبِ عتّابٍ وحمزةِ هاشِمِ
شَجَا الريحَ فازدادتْ حنينًا لفقده * وأحدثَ شَجْوًا فى بُكاء الحمـائِمِ
فمن قبـله ما قد أصيب نبيُّنا * أبو القاسم النورُ المبينُ بقاسِمِ
وخُبِّرَ قَيْسٌ بالحليّـــةِ فى ابنـه * فلم يتـغيّر وجهُ قيس بن عاصِمِ
وقال علىٌّ فى التعازى لأشعثٍ * وخاف عليه بعض تلك المآثم :
أتصـبر للبلوى عزاءً وحِسبةً * فتُؤْجَرَ، أم تسلو سلوَ البهائم؟
خُلِقنا رجالًا للتجلُّد والأسَى * وتلك الغوَانِى للبُكَا والمآتِمِ
وأىُّ فتًى فى الناس أحرضُ[2] من فتًى * غدافى خِفَارات الدموع السَّواجِمِ
وهل من حكيم ضيّع الصبرَ بعدما * رأى الحكماءُ الصبرَ ضربةَ لازِمِ
فلا بَرِحت تسطو ربيعةُ منكم * بأرقَمَ عطّافٍ وراء الأراقِمِ

(١) فى نسخة من الديوان : "من لا تجلى الحرب وهو قتيل" وفى نسخة أخرى منه : "من لم يخل الحـــرب ..." .

(٢) من حرض ككرم : طال همه وسقمه وفسد .

فأنت وصِنواك الشقيقانِ إخوة * خُلقتم سَعُوطًا للا نوف الرواغم (١٠٢)
ثلاثة أركان، وما آنهدّ سؤدُدٌ * إذا ثبتت فيـــه ثلاثُ دعائم

وقال يرثى عُمَيْر بن الوليد :

كفُّ الندى أمستْ بغير بَنانِ * وقناتُه أضحت بغير سِـــنانِ
٥ جبلُ الجبال غدتْ عليـه مُلمّةٌ * تركته وهو مهـــدَّم الأركانِ
أَنْعَى عُمَـيْرَ بن الوليـــد لغارةٍ * بِكْرٍ من الغارات أو لَعوانِ
أنعَى فتى الفِتْيانِ غيرَ مكذَّبٍ * قولى، وأنعَى فارس الفُرسانِ
عَثَر الزمانُ ونائبـاتُ صروفِه * بمُقيلنا عـــثراتِ كلِّ زمانِ
لم يترك الحَدَثانُ يوم سـطا به * أحَدًا نَصُول به على الحَدَثانِ
١٠ قدكنتَ حَشْوَ الدرع ثم أراك قد * أصبحتَ حشوَ اللحدوالأكفانِ
شُغِلت قلوبُ الناس ثم عيونُهم * مذ مُتَّ بالخفَقانِ والهَمَلانِ
وآستعذبوا الأحزانَ حتى إنّهم * يتحاسدون مَضَاضـة الأحزان
ما يرعَـوِى أحدٌ الى أحدٍ ولا * يشـــتاق إنسانٌ الى إنســانِ
أأصاب منك الموتُ فرصةَ ساعةٍ * فعَـــدَا عليك وأنتمـا أخَوانِ!
١٥ فمَنِ الذى أبْقَى ليـومِ تكرُّمٍ * ومن الذى أبقى ليوم طِعانِ!(١)

وقال يرثى آبنا له :

كان الذى خِفتُ أن يكونا * إنّا إلى الله راجعـــونا
أمسى المُرَجَّى أبو عـــلىٍّ * مُوسَّدًا فى الثرى يمينَـا
حين آستوى وآنتهى شباباً * وحقَّـــق الرأىَ والظنـونا

(١) كذا بالأصل . والذى بالديوان :
فمن الذى يُبْقَى ليوم كريهة * ومن الذى يُدعَى ليوم طعان

أُصِبْتُ فيـه وكان عندى * على المصيبـاتِ لى مُعينـا
كنتُ كثيرًا به عزيزًا * وكنتُ صَـبًّا به ضَـنينا
دافعتُ إلا المَنُونَ عنـــه * والمـرءُ لا يدفع المنـــونا
آخِرُ عهـــدى به صريعًـا * للـوت بالداء مُسـتكينا
إذا شَـكَا غُصَّـةً وكَرْبًا * لاحَظَ أو راجَـعَ الأنينا ٥
يُدير فى رَجْعـــه لسـانًا * يمنعـــه الموتُ أن يُبينا
يشـخصُ طورًا بنـاظرَيْهِ * وتارةً يُطْبِـق الجُفُـونا
ثم قضَى نَحْبَـــه وأمسَى * فى جَـــدَثٍ للثرى دفينـا
باشَرَ بَرْدَ الـــثرى بوجهٍ * قد كان من قبـــله مَصُونا
بَعِيـــد دارٍ قريب جارٍ * قـد فارق الإلف والقَرينا ١٠
بُنَىَّ يا واحـــدَ البنينـا * غادرتَنى مُفْـــردًا حزينـا
هوّن رُزْئى بـــكَ الرزايا * علىّ فى النـاسِ أجمعينا
آليتُ أنسـاك ما تجَـــلَّى * صـــبحُ نهـارٍ لمُصْبِحينا (١) ١٠٣
وما دعا طـائرٌ هَـــدِيلًا * ورجَّعتْ والهٌ حَنينـا
تصرَّف الدهرُ بى صُروفًا * وعاد لى شأنُه شُـــؤونا ١٥
وحـزّ فى اللحم بـــل بَراه * وآجتثّ من طلحتى فُنُـونا
أصاب مـــنّى صميمَ قلبى * وخِفتُ أن يقطع الوَتينـــا
والمـرء رهنٌ بحالتيه * فشـــدّةً مرّةً ولِينـــا

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "شمس نهار" .

ومما قيل فى شواذّ المراثى :

من ذلك ما قالته جَلِيلة بنت مُرّة أخت جَسّاس زوج كُلَيْب لما قتل أخوها جسّاس زوجها كليبا ؛ وكان نساء الحىّ لما آجتمعن للمأتم قلن لأخت كليب : رَحِّلى جليلة عنك فإن قيامها فيه شماتةٌ وعار علينا عند العرب ، فقالت لها : أخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، فخرجتْ وهى تجرّ أعطافها ؛ فلقيها أبوها مُرّة فقال لها : ما وراءكِ ياجليلة؟ فقالت : ثُكْل العَدَد ، وحزن الأبد ، وفقدُ حليل ، وقتل أخ عن قليل ؛ و بين ذلك غَرْس الأحقاد ، وتفتّت الأكباد . فقال لها : أَوَ يَكُفُّ ذلك كَرَمُ الصَّفح وإغلاء الدِّيات ؟ فقالت جليلة : أُمنيّةُ مخدوع وربِّ الكعبة ، ابالبُدْن تَدَعُ لك وائل[1] دم ربِّها ! قال : ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رِحلَةَ المعتدى وفراقَ الشامت ! ويلٌ [غداً][2] لآل مُرّة ، من الكَرّة بعد الكَرّة ! وبلغ قولُها جليلةَ فقالت : وكيف تشمّت الحُرّة بهتك سِتْرها وترقُّب وتْرها ! [أسعد الله أختى ، ألا قالت : نَفْرةَ الحياء وخوفَ الأعداء][3] ثم أنشأتْ تقول :

يابنةَ الأقوام إن لمتِ فلا * تَعْجَلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنتِ تبينتِ الذى * يُوجب اللوم فلُومى وآعذُلِى
إن تكن أخت آمرئٍ لِمتْ على * جزَع منها عليه فافعلى
جلّ عندى فعلُ جَسّاس فيا * حسرتا عما آنجلت أو تنجلى
فعل جسّاس على ضَنًى به * قاطعٌ ظهرى ومُدنٍ أَجَلى

(١) كذا فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٢١٦ طبعة بلاق) . وفى الأصل : « وبين رزأين : غرس الأحقاد ... » .

(٢) فى الكامل لابن الأثير : « تدع لك تغلب ... » .

(٣) زيادة من الكامل لابن الأثير .

لو بعين فقئت عينٌ سوى * أختها وانفقأت لم أحفِل (١)
تحمِلُ العينُ قَذَى العين كما * تحمِلُ الأمّ أذَى ما تفتَلى (٢)
إنّنى قاتلةٌ مقتولةٌ * فلعلّ الله أن يرتاحَ لى
يا قتيلًا قوّض الدهرُ به * سقفَ بيتَىّ جميعًا من عَلِ
ورمانى فقده من كثَبٍ * رَميةَ المُصْمَى به المُستأصَلِ (٣)
هدم البيتَ الذى استحدثتُهُ * وبدا فى هَدْم بيتى الأوّلِ (٤)
يا نسائى دونَكنّ اليوم قد * خصّنى الدهرُ برُزءٍ مُعضِلِ
مسّنى فقدُ كُلَيْب بلظًى * من ورائى ولظًى مُستقبلى
ليس من يبكى ليومين كمن * إنما يبكى ليوم ينجَلى
دَرَكُ الثائر شافيه وفى * دَرَكى ثارِىَ ثُكْلُ المُثْكِلِ (٥)
ليتَه كان دَمِى فاحتَلَبوا * دِرَرًا منه دما من أكحَلِى

(١٠٤) ولما مات معاوية بن أبى سفيان اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدروا على الجمع بين التهنئة والتعزية، حتى أتى عبد الله بن هَمّام فقال : يا أمير المؤمنين، أجزل الله أجرك على الرزّية . وبارك لك فى العطيّة، وأعانك على الرعية؛ فقد رُزئت عظيما، وأُعطيتَ جسيما؛ فاشكر الله على ما أُعطيت، واصبر على ما رُزيت؛ فقد فقدت خليفة الله، وأُعطيت خلافة الله؛ ففارقت جليلا، وأُعطيت جزيلا؛ إذ قضى معاوية نحبه؛ ووليت الرياسة، وأُعطيت السياسة؛ فأورده الله موارد السرور، ووفّقك فى جميع الأمور :

(١) فى رواية أخرى أشار اليها هامش الأصل : « فديت عين سوى » .
(٢) افتلى الصغير : رباه . (٣) فى رواية أشير اليها فى هامش الأصل : « ورمانى قتله... » .
(٤) فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٣٨٩ طبع أوربا) : « وانثنى فى هدم ... » .
(٥) فى الكامل لابن الأثير : « يشتفى المدرك بالثأر وفى ... » .

فاشكر يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ * واشكر حِباءَ الذى بالملك حَابَاكَا (١)
[أصبحت تملك هذا الخلق كلَّهمُ * فأنت ترعاهـمُ والله يرعاكا] (٢)
لارُزْءَ أعظمُ فى الأقوام قد علموا * مما رُزِئتَ، ولا عُقْبَى كَعُقباكَا
وفى معاوية البـاقى لنـا خَلَفٌ * إذا نُعِيتَ ولا نسـمعْ بمَنْعاكا

٥ ففتح للناس باب الرثاء وجَرَوْا على منواله .

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانىء يعزِّى الفضل بن الربيع عن الرشـيد ويهنِّئه بالأمين :

تَعَزَّ أبا العبّاس عن خير هالكٍ * بأكرمِ حىٍّ كان أو هـو كائنُ
حوادثُ أيام تدور صروفُهـا * لهنّ مَسَاوٍ مرَّةً ومَحَاسِنُ
١٠ وَفَى الحىّ بالميْتِ الذى غيّب الثرى * فلا أنت مغبونٌ ولا الموت غابِنُ

وقال أبو تمـام يرثى المعتصم ويهنىء الواثق :

ما للدموع تروم كلّ مَرَامِ * والجفنِ ثاكلَ هَجْعةٍ ومَنـامِ
يا حُفرةَ المعصوم تربُكِ مُودَعٌ * ماءَ الحيـاةِ وقاتـلَ الإعدام
إن الصفائح منكِ قد نُضِدت على * ملقى عظام لو علمتِ عظامِ
١٥ فَتَقَ المدامع أنّ لحدك حلّه * سكنُ الزمان وممْسك الأيامِ
ومصرِّفُ المُلْك الجَمُوح كأنه * قـد زُمّ مُصْعَبُهُ له بزِمامِ
هدمتْ صروفُ الدهر أرفعَ حائطٍ * ضُرِبت دعائمه على الإسـلامِ
دخلتْ على مَلِك الملوك رُواقَه * وتسرّبتْ لمُقَـوِّم القُـوّامِ

(١) رواية الكامل للمبرد : (ص ٧٨٥ طبع ليبزج سنة ١٨٦٤) :
٢٠ اصـبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة * واشكر بلاء الذى بالملك أصفاكا
(٢) زيادة من الكامل .

مفتاحُ كلِّ مدينـةٍ قد أُبهِمت * غَلَقًا ومُخْلى كلِّ دارِ مُقَـامِ
ومُعرِّف الخلفاء أنّ حظوظها * فى حـــيِّز الإسراج والإلجامِ
أخذ الخلافةَ عن أسِـنّته التى * منعتْ حِمَى الآباء والأعمـامِ
فلسُورة الأنفال فى مِـيراثه * آثارُهـا ولسُـــورة الأنعـامِ
ما دام هارونُ الخليفةَ فالهُدَى * فى غِبْطة موصـــولةٍ بدوامِ
إنّا رحَلنا واثقين بواثقٍ * بالله شمس ضُحًى وبدر تَمَامِ
لله أىّ حياةٍ آنبعثت لنـا * يوم الخميس وبعـد أىّ حِمـامِ
أودى بخير إمامٍ آضطربت به * شُعَب الرجال وقام خـيرُ إمامِ
تـــلك الرزيّةُ لا رزيّةَ مثلُهـا * والقِسْـــمُ ليس كسائر الأقسامِ

جاء منها :

نقضٌ كَرَجْع الطَّرْف قد أبرمتَه * يآبن الخـلائف أيّمـا إبرامِ
ما إن رأى الأقوامُ شمسًا قبلها * أَفَلَتْ فـــلم تُعقبْهُمُ بظَـلامِ
أكرِمْ بيـومِهِمُ الذى مُلِّكْتَهُمْ * فى صـدره وبعامهم من عامِ

ثم أخذ فى مدح الواثق .

وفى هذه الواقعة يقول آبن الزيّات :

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطَفَقتْ * عليـك أيدٍ بالتُّرب والطينِ
اِذهب فنعم المعينُ كنتَ على الدنيـا ونعـــم الظهير للدينِ
لن يجبُرَ الله أمّـةً فقـدتْ * مثلَك إلا بمثـل هارونِ

ومن أشدّ الرثاء صعوبةً على الشاعر وأضيقه مجالًا أن يرثى آمرأة أو طفلا .

وقد أُخِذ على المتنبّى فى قوله يَرثى أمّ سيف الدولة بن حَمْدان :

سـلامُ الله خالقِنا حَنُـوطٌ * على الوجه المُكَفَّن بالجمالِ

وقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها! ووبّخه الصاحب بن عبّاد فى قوله فيها :

رواق العز فوقك مُسْبَطِرّ * ومُلْكُ علىّ ابنك فى كَمَال

قال أبو الحسن علىّ بن رَشيق الأزدى فى كتابه المترجم بالعمدة و بالأغانى (١) أيضا : أشدُّ ماهجّن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها "بفوقك" فجاء عملا تاما لم يبق فيه إلا الإفضاء . و إن يكن المتنبى أخطأ فى هذا فلقد أجاد فى غيره؛ والفاضل من عُدّت سَقَطاته ، وحُفِظت هَفَواته وفَلَتاته؛ وانظر إلى قوله فى أخت سيف الدولة :

يا أخت خير أخٍ يابنتَ خير أب * كنايةً بهما عن أشرف النسَب
أجِلُّ قدرَكِ أن تُدْعَىْ مُؤَنَّثَةً * ومن يَصِفْكِ فقد سمّاكِ للعَرَب

وقوله أيضا :

ولو كان النساء كمن فقدْنَا * لفُضِّلت النساء على الرجالِ
مَشَى الأُمراءُ حولَيْها حُفَاةً * كأن المَرْو من زِفّ (٢) الرئال

ومن جيّد ما رُثِى النساء به وأشدّه تأثيراً فى القلب و إثارةً للحزن قول ابن عبد الملك ابن الزيّات فى أمّ ولده :

ألَا مَن رأى الطفل المفارِقَ أمَّه * بُعَيدَ الكَرَى عيناه تبتدرانِ
رأى كلَّ أمٍّ وابنَها غيرَ أمِّه * يبيتانِ تحت الليل يَنْتجيانِ
وبات وحيدًا فى الفراش تحثُّه * بلابلُ قلب دائمِ الخَفَقانِ

(١) لم يذكر أبو الفرج فى النسخ التى تحت أيدينا من كتابه الأغانى شيئا عن المتنبى مع أنه كان من معاصريه .

(٢) الزف : ريش النعام . والرئال : جمع رأل ، وهو ولد النعام .

ومنها بعد أبيات :

ألا إنّ سَجْلًا واحدًا قد أرقتُه * من الدمع أو سَجْلين قـد شَـفَيانِي
فلا تَلْحَيانِي إن بكيتُ فإنمـا * أُداوى بهـــذا الدمـع ما تَرَيان
وإنّ مكاناً فى الثَّرَى خُطَّ لحـدُه * لمن كان من قلبي بكلّ مكان
أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهـــوى، * فهـل أنتمـا إن عُجْتُ منتظران؟ ٥
فهَبْنى عزمتُ الصـبْرَ عنها لأنّنى * جَلِيـدٌ فمن بالصـــبر لابن ثمَـان
ضعيف القُوَى لايعرف الأجرَ حِسبةً * ولا يأتَسِى بالنـاس فى الحَدَثانِ
ألا مَنْ أُمَنِّيـــه المُنَى وأَعِدُّهُ * لعَـــثْرة أيّامٍ وصَرْفِ زَمانِ
ألا مَن إذا ما جئتُ أكرمَ مجلِسى * وإن غبتُ عنـه حَاطَنى ورعانى
فـــلم أر كالأقدار كيف تُصيبنى * ولامثلَ هـذا الدهرِ كيف رمانى ١٠

وقال أبو تمّـام يرثى جارية له :

ألم ترنى خلَّيْتُ عينى وشانَهَـا * ولم أحفِلِ الدنيا ولا حَدَثانَهـا
لقد خوّفتْنى النائباتُ صروفَهـا * ولو أمّنتـــنى ما قبِلتُ أمانَهـا
وكيف على نار الليالى مُعَرِّسِى * إذا كان شيبُ العارضَيْنِ دُخانَها
أُصِبتُ بخَوْد سوف أغبرُ بعدها * حليفَ أسًى أبكِى زمانى زمانَها ١٥
عِنانٌ من اللذّات قد كان فى يدى * فلما مضى الإلفُ استردّتْ عِنانها
منحتُ الدُّمَى هجرى فلا مُحْسِناتِها * أَوَدُّ ولا يهوَى فؤادى حِسانَهـا
يقولون: هل يبكى الفتى لحريدةٍ * متى ما أراد اعتاض عشْرًا مكانَها!
وهل يستعيضُ المرء من خَمس كَفّه * ولو صاغ من حُرّ اللُّجَين بنانَها!

وقال أبو الفتح كُشاجم يعزّى بابنة : ٢٠

تأسّ يا أبا بكرٍ * لموت الحُـرّة البِكْرِ

فقـــد زوّجتها القبرَ * وما كالقبر من صِهْرِ
وعُوِّضت بها الأجرَ * وما كالأجر من مَهرِ
زِفافٌ أُهديت فيـه * من الخِدْر إلى القبرِ
فتـاةٌ أسـبغ الله * عليها أفضـل السِّترِ
ورزءٌ أشبهَ النعمـ * ـة فى الموقِع والقَدْرِ
وقد يُختار فى المكرو * هِ للمـرء وما يدرى
فقابِلْ نعـمةَ الله * وما أولاك من شكرِ
وعَزِّ النفسَ عمّا فا * ت بالتسليم والصبر

وقال أبو مروان بن أبى الخصال الأندلسىّ فى مثل ذلك :

ألا ياموتُ كنت بنا رَءوفاً * فجدّدت الحياة لنـا بزَوْرَهْ (١٠٧)
حمِدتُ لفعلك المأثور لمّـا * كفيتَ مؤونةوسترتَ عَورهْ
فانكَحْنا الضريحَ بغـير مَهْر * وجهّزْنا الفتاةَ بغير شَـوْرهْ

وقال أبو تمّام حبيب بن أوس الطائىّ فى آبنين لعبد الله بن طاهر ماتا صغيرين فى يوم واحد من قصيدة :

نجمـان شـاء الله ألّا يطلُعا * إلا آرتدادَ الطَّرْف حتى يأفُلَا
إنّ الفجيعةَ بالرياض نواضراً * لأجَلُّ منهـا بالرياض ذوابِلَا
لو يُنْسَآنِ لكان هـذا غارباً * للكرُمات وكان هـذا كاهِلَا
لَهْفى على تلك الشواهد فيهما * لو أُمْهِلتْ حتى تكونَ شمائلَا
لَغَـدا سكونهما حِجًا وصِباهما * حِلْمًا وتلك الأرْيَحيَّـةُ نائلَا
إنّ الهلالَ إذا رأيتَ نُموّه * أيقنتَ أن سيكونُ بدراً كاملَا

وقال أبو الحسن الأنبارى فى محمد بن بقيّة وزير عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة آبن بُوَيْهِ لما صلبه عَضُدُ الدولة بن رُكن الدولة بن بُوَيْهِ عند خلع بختيار، وهى من نوادر المراثى :

عُلُوٌّ فى الحياةِ وفى المماتِ * لَحَقٌّ أنت إحدى المُعجزات
كأنّ الناسَ حولك حين قاموا * وفودُ نَدَاكَ أيّامَ الصِّلاتِ ٥
كأنّك قائمٌ فيهمْ خطيبًا * وكُلُّهمُ قِيامٌ للصَّلاةِ
مَدَدْتَ يديْك نحوَهُمُ جميعًا[1] * كمُدِّهما إليهمْ بالهِباتِ
ولما ضاق بطنُ الأرض عن أنْ * يَضُمَّ عُلَاك من بعد المَماتِ
أصاروا الجوَّ قبرَك وآستنابوا * عن الأكفانِ ثوبَ السافياتِ
لعُظْمِك فى النفوس بَقِيتَ تُرْعَى * بحُرّاس وحُفّاظ ثِقاتِ ١٠
وتُشْعَلُ عندك النيرانُ ليلًا * كذلك كنتَ أيّامَ الحياةِ
ولم أرَ قبلَ جذْعك قطُّ جذعًا * تمكّنَ من عِناقِ المكْرُماتِ
ركبتَ مطيّةً من قبلُ زيدٌ * عَلَاها فى السنين الذاهباتِ

أشار فى هذا البيت إلى زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب لمّا قُتِلَ وصُلِب فى أيّام هشام بن عبد الملك . ١٥

ومما يدخل فى هذا الباب ويلتحق به ما يطرأ من الحوادث التى تعُمّ بها البلّية، وتشمَل بسببها الرزيّة ؛ كآستيلاء أهل الكفر على بلد من بلاد الإسلام، وهزيمتهم لجيشه اللُّهام؛ فمن ذلك ما كتب به القاضى الفاضل عبد الرحيم البَيْسانى إلى الأمير عزّ الدين سامة لما آستعاد الفِرِنْج — خذلهم الله تعالى — مدينة بيروت : ١٠٨

ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة : قال الله سبحانه فى كتابه العزيز مُسلّيًا لنبيّه الكريم ٢٠

(١) كذا بالأصل . وفى احدى النسخ : "اقتفاء" وهو محرف عن "احتفاء" .

صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، فإذا كان من الناس من خان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فكيف لا يخون الناسُ الناس ! وأين المُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرون فى البأساء والضرّاء وحين الباس :

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا * فقد صاروا أقلَّ من القليل

٥ والمولى — أعزّه الله بنصره ، وعوّضه أحسن العِوَض من أجره ، وكتب له ثوابَ تسليمه إليه وصبره — ليس بأوّل من وَثِق بمن خان ، وقضيّةُ بيروت بأوّل مقدور قال الله له : كن فكان ؛ والقدر السابق لا يدفعه الهمّ اللاحق ، ومن الخَجَلات المستعارة خَجْلة الواثق ، والموثوقُ به لائقٌ به الخجلُ الصادق ؛ ومعاذ الله أن ينكّس المجلس رأسَه حياء ، أو أن يَسْخَط لله قضاء ؛ أو أن يأسَف على مال

١٠ نقله من مُودَعه الذى لا يُؤمَن من الآفات عليه ، إلى مُودَع الله الذى يحفظه إلى أن يأتيَه به أحوجَ ما كان إليه ؛ والحمد لله الذى جعل مصائبَنا فى الدنيا فوائدَنا فى الأُخرى ، ثم الحمد لله الذى جعل البادرةَ للعُدوان والعاقبةَ للتقوى . وقد علم الله أنى مُقَاسِمه ومُساهِمه ، ومُضمِرٌ من الهمّ بما أتفق من هذا المقدور ما مُقَدّره عالمه ؛ غير أنه لا حيلةَ لمن لا حيلة له إلا الصبر ، وإن صبَر جرى عليه القدَر

١٥ وجرى له الأجْر ، وإن لم يصبر جرى عليه القدَر وكُتِب عليه الوِزْر ؛ وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبُه فقد أنعم الله عليه ، حيث أخرج ما فى يديه وأبقى يديه ؛ والمال غاد ورائح ، والمال بالحقيقة هو العمل الصالح ؛ وإن آجتمع مُوصلها بحضرته فهو يُنْهِى ما عندى ، ويُؤَدِّى حقيقةَ ودّى ؛ ورأيه الموفَّق .

وقال أبو المظفّر الأَبِيوَرْدِىّ[1] لما آستولى الفِرِنْج على البيت المقدّس فى سنة آثنتين

٢٠ وتسعين وأربعمائة قصيدة منها :

(١) وتنسب هذه الأبيات أيضا فى النجوم الزاهرة (ج ٥ ص ١٥١ طبع دار الكتب المصرية) للقاضى زين الدين أبى سعد الهروىّ .

مَزَجنا دماءً بالدموع السـواجِم * فـلم يبقَ منـا عُرضـة للمَراجم
وشرّ سـلاحِ المـرءِ دمعٌ يُفيضُهُ * إذا الحربُ شبّت نارُها بالصوارِم
فيا بنى الإسـلام ! إن وراءكم * وقائعَ يُلحِقْنَ الذُّرَى بالمَناسِـم
أتهويمةً فى ظِـلِّ أمـن وغِبطة * وعيشٍ كنُوّار الخميـلةِ ناعـم !
وكيف تنام العينُ مِـلْءَ جُفونها * عـلى هَبَوات أيقظتْ كلَّ نائم
وإخوانُكم بالشام يُضحِى مَقيلُهـمْ * ظهورَ المَـذاكى أو بطونَ القَشاعِم
يسومُهُـمُ الرومُ الهوانَ وأنتُمُ * تجـرُّون ذيلَ الخَفْضِ فعلَ المُسالِم
وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ، ومن دُمًى * تُوارِى حياءً حُسْـنَها بالمعـاصِم
بحيث السيوفُ البيضُ مُحمَّرةُ الظُّبى * وسُمْـرُ العَوالِى داميـاتُ اللَّهاذِم
وبين اختلاسِ الطعنِ والضربِ وقفةٌ * تَظَلُّ لهـا الوِلْدانُ شيبَ القَوادِم
وتلك حروبٌ مَن يَغِبْ عن غِمارها * ليسـلم يَقرَعْ بعـدها سِنَّ نادِم
سَلَلْنَ بأيدى المسلمين قَواضِبًا * ستُغْمَد منهـم فى الطُّلَى والجماجِم
يكادُ بهنّ المُستجِنّ بطَيْبـة * ينادى بأعلى الصوت : يا آل هاشم
أرى أمّتى لا يشرعون إلى العِـدا * رماحَهُمُ والدِّينُ واهى الدعائم
ويحتنبون النـارَ خوفًا من العِـدا * ولا يحسـبون العـارَ ضربةَ لازِم
أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذى * وتُغضِى عـلى ذُلٍّ كُماةُ الأعاجم !
فليتهـمُ إذ لم يَذُودوا حميّـةً * عن الدين ضنُّوا غَيْرةً بالمحارِم
وإن زَهِدوا فى الأجر إذ حَمِىَ الوَغى[1] * فهـلّا أتَوْه رغبـةً فى المغـانم !

(١) فى الأصـل : "جش" ولعلها محرفة عن "حمس" بالحاء والسين المهملتين وهو (بالتخفيف والتشديد) بمعنى اشتداد الأمر واضطرام النار، وهى رواية ابن الأثير. وما أثبتناه رواية النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى * فلا عَطَسوا إلا بأجدعَ راغم
دعوناكُمُ والحربُ ترنُو مُلِحّةً * إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تُراقِبُ فينا غارةً عربيّةً * تُطِيل عليها الرومُ عضّ الأباهم
فإن أنتُمُ لم تغضبوا عند هذه * رمتنا إلى أعدائنا بالجرائم

٥ وقال علاء الدين علىّ الأوتارىّ الدمشقىّ فى مثل ذلك لما استولى التتار على دِمشق فى سنة تسع وتسعين وستمائة :

لك عِلْمٌ بما جرى يا سُهَادى * من جفونى على افتقاد رُقادى
لم أجد عند شِدّتى مُؤنِساً لى * غير سُهْدى مُلازماً لسَوَادِى
وحبيبُ العين الرقادُ جفاها * مُذ رآها خليفةَ الأنكادِ
١٠ أحسن الله يا دِمَشْقُ عزاكِ * فى مَغانيك يا عمادَ البلادِ
وبُرْتاق نَيْرَبيكَ مع المِزْ * ة مع رَوْنَقٍ بذاك الوادى
وبأُنْس بقاسيُونَ وناسٍ * أصبحوا مَغْنَماً لأهل الفسادِ
طَرَقتهمْ حوادثُ الدهر بالقتـ * ـلِ ونَهْبِ الأموال والأولادِ
وبنات مُحَجّبات عن الشمـ * ـسِ تناءت بهنّ أيدى الأعادى
١٥ وقُصُور مُشَيّدات تَقَضّتْ * فى ذَراها الأيام كالأعيادِ
وبيوت فيها التّلاوةُ والذكـ * ـرُ وعالى الحديثِ بالإسنادِ
حَرّقُوها وخرّبوها وبادَتْ * بقضاء الإله ربِّ العبادِ
وكذا شارعُ العُقَيْبة والقصـ * ـرِ وشاغُورُها وذاك النادى
أصبحوا اليومَ مثلَ أمسِ تَقَضّى * وبكَتهم سماؤهم والغَوادِى
٢٠ ولَكَمْ سُورُها حَوَى مِن مُعَنّى * مُقْرَحِ القلبِ والحشى والفُؤادِ
إن بكى لا يُفِيده أو تَشَكّى * وَجَد المُشْتَكى حليفَ سُهادِ

يشتكي فوق ما اشتكاه بأضعا * ف فيغـــدو وهمـــه في ازديادِ
فالغلا والجلا مع الجوع والعُرْ * يِ ونهبِ الأقواتِ والأزوادِ
والحصارُ الشديدُ والحبسُ والخو * فُ مع السادة العُراة المكادى (١)
وبوزنِ الأموالِ من غير وُجْدٍ * بأعتساف الغُتْم (٢) الغلاظِ الشداد
كاتُرْ آچقا كَبْرخوار أنت ياغيه * لمحمود غازان قاآن البـــلاد (٣) ٥
يا تُرى هل لكَرْبنا من مُجيرٍ * أم لتشديد أَسْرنا من مُفادِى
لهفَ نفسى على جُيوش تولّت * ثم ولّت جريحـــةَ الأكبادِ
كلّ نَـدْبٍ عَضْب حَمِىٍّ كَمِىٍّ * أمجدٍ أصـــيدٍ شجاعٍ جوادِ
إن سطا فى هِبَاته كان بحـــرًا * أو سطا خلته من الآساد
أو بَدَا حاملاً تَخَـــلْ عَنْـتريًّا * أو غدا سابقِ الجوادِ فغـادى ١٠
إنْ أتانى مبشِّرٌ بلقـاهم * حاز رُوحى ومُهْجتى وقِيـادِى
ولثمت التراب شُـــكْرًا وعفّـــر * ت خدودى على بلوغ مُرادى
لست أرجو غير البشير شفيعاً * عنـــد ربِّى فى المنّ بالإنجـادِ
فهـــو الصادق الذى وعد الدي * نَ بنصـــرٍ جارٍ عـلى الاباد
غيرَ أنّ الفسادَ يكسب ذُلًّا * ويُعمّى الفســادُ طُرْقَ السّدادِ ١٥
وارتكاب الفسادِ يُورث فقرًا * وخرابُ البيوتِ عُقْبَى الفســادِ
ياحبيبَ الإلهِ لا تَتَخَـــلَّ * عن عُصاة غمرتهم بالأيادى

(١) المكادى : جمع "مكدى" اسم مفعول من كداه بمعنى حبسه . (٢) الغتم : جمع أغتم وهو من لا يفصح . (٣) عرضنا هذا البيت على العالم الجليل موسى افندى جار الله نزيل القاهرة الآن لشرحه بما يأتى : كاتر : هات . آچقا : النقود . كبرخوار : كافر حقير غير كتابىّ . باغيه : العدوّ الباغى . قاآن : كبير الملوك . ومعنى البيت : هات أيها الكافر الحقير الخراج أنت عدوّ لقاآن (خاقان) البلاد محمود غازان . وهذا البيت لا تتفق أوزانه مع التفاعيل الشعرية . ٢٠

يا حبيبَ الإلهِ قد مسّنا الضـ * ـرّ فجُدْ بالإسعاف والإسعادِ
يا حبيب الإلهِ تُبْنا إلى اللـ * ـه وأنت العِمادُ حتّى المَعادِ
مَنْ لأسْرَى كَسْرَى حَيَارى دَهَتْهم * دَهْمتهم جِيادُ أهلِ العِنَادِ
واضع اللقط فى الحساب عناه * ـ لو يعِشْ ـ حصرُ كثرةِ الأعدادِ
منهُمُ الطفلُ والصبيّةُ والشا * بُّ يُنَادى، فمن يجيب المنادى! ٥
ويُنَادَى عليهم برغيفٍ * وبتَمْرٍ بَخْس بسُوق الكَسَادِ
عُوِّضوا عن سرورهم بغرور * وقصورِ البلاد سُكْنى البَوادى
وبأهل الوداد شرّ أناس * وبِلينِ المِهادِ شوكَ القَتَادِ
أىُّ عين عليهمُ ليس تبكى * أىُّ قلب عليهمُ غيرُ صادى!
فلأنت الرحيم قلبًا ولُبًّا * ولأنت الهادى لسُبْل الرَّشادِ ١٠
ولأنت البديعُ خَلْقا وخُلْقا * ولأنت السميع للإنشاد
ولأنت الطِّرازُ فى كلِّ معنًى * ولسيفِ المقال شبهُ النِّجاد
ولأنت الحاوى فُنُونَ صِفاتٍ * دون حصرٍ لها فَنَاءُ المِدَادِ
ولأنت الممدوح من فوق عرشٍ * بعدُ ماذا يقول قُسُّ الإيادى
جُلُّ قَصْدِ الفصيح بالنظم معنًى * نَشْرُ فضل الممدوح بين العبادِ ١٥
فإذا كان مُنشئ المدح ربّى * عاد مدحُ الفصيح جمعَ سَوَادِ
فعليكَ الصلاةُ يرجو بها الأمـ * ـنَ علىٌّ من سائر الأنكاد

وحيث انتهينا من المراثى والنوادب إلى هذه الغاية، فلنذكر نُبْذة من الزهد والتوكُّل .

البـاب الثـالث

من القسم الرابع من الفن الثانى فى الزهد والتوكل

وهذا البـاب — وفّقنا الله وإياك لقصـدنا، وألهمنا سلوكَ سبيل رشـدنا؛ وٱستعمَلَنا فى مَرَاضيـه، وجنّبنا عن الالتفات بالقول والفعل إلى معاصيه — من هذا الفنّ هو واسطة عِقْده، وعضُد زَنْده، وقائم مُرْهَفه وحَدّ فِرِنْده، وشَبَا سِنَانه، ومَثْنَى عِنانه، وإنسانُ حَدَقته، وحدقة إنسانه؛ وكيف لا وهو للنفس دُرّة تاجِها، وطبيبُ عِلاجها، وواضح مِنْهاجها؛ ودليلها المُرشـد إذا ضلّ الدليل، ومُنْجيها من الهول الأعظم إذا فرّ المرء من الأخ والأمّ والأب والابن والصاحبة والخليل. فتأمله أيها المُطالع بعين قلبك قبل ناظرك، وٱتخذه من أحصن جُنّتك وأعدّ عُدَدك وأنفس ذخائرك؛ ورُضْ به نفسـك إذا جَمحتْ، وسكّن به آمالك إذا مالت إلى المطامع وجَنَحتْ. وٱعلم أن الدنيا ظلٌّ زائل، وعدوٌّ قد نَصب لك الشِّباك ومدّ الحبائل، وأنك لا بدّ مسئول عما ٱكتسبتَه منها، فليت شعرى ما أعددتَ لجواب المُسَائل؟ فهى العـدوّ الذى أشبه بالصديق، والغـادر المـاكر الذى ما أخوفنى أنّ مَكْرَه بى وبك سيَحيق. فٱقتصر على القليل منها، وٱعلم أنك سترحل فى غد عنها؛ وأن الموت نازلٌ بك فلا ينفعك ما جمعته من مال وخَوَل، ولا يصحبك من الدنيا إلا ما قدّمته لآخرتك من صالح العمل؛ وأنّ مالك سيقتسمه من لعـلّه لا يشكرك عليـه، وماذا ينفعك شكره أن لو فعل! وغاية ما ينالك من دنياك، وإن بلغتَ منها مُناك، وطال بها مَدَاك؛ أن تَمتّع بزَهْرتهـا، وتنال من لذّتها؛ وقد علمتَ بالمشاهـدة من حالك وحال غيرك ما يؤول أمر مَلاذّها إليه فى العاجل، وما يُتَوَقّع لمن ٱقتصر من دنياه عليها فى الآجل؛ فالمأكل والمَشْرب صائران إلى ما علمته وإنمـا تحصل اللذّة

بهما قبل الازدراد ؛ والمَنْكح والمركب فأنت وهما فى الموت والفَنَاءِ على مِيعاد ، والملابس فستُخْلِقها الأيام بعد الجِدّة ، والمساكن فستُعَفِّى الليالى آثارَها ولو بعد مُدّة . فإذا علمت أن مآل الدنيا إلى الزوال ، وقُصَاراها إلى الانتقال ؛ وملاذّها إلى هذه الغاية ، والعمر فيها وإن طال سريعُ النهاية ؛ فتقلّل منها حسب طاقتك ، واقتصر على ما تسُدّ به بعض خَلّتك وفاقتك ؛ واعمل لآخرتك التى لا ينقضى أَمَدُها ، ولا يفنَى من النعيم الدائمِ مَدَدُها . وقد أمرتك الخير وليتنى به لو ائتمرت ، وأوضحتُ لك سبيل الرشاد وليتنى به لو مَرَرت .

أمرتُكَ الخيرَ لكن ما ائتَمَرْتُ به * وما استقمتُ فما قولى لك : استقم !

وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسّكت به كان سببا لإرشادك ، وذخيرةً تجدها فى يوم مَعَادِك .

ذكر بيان حقيقة الزهد

قال الإمام الأوحد العالم زين الدين حجّة المتكلّمين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالىّ الطُّوسىّ رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بإحياء علوم الدين : إعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ؛ لأن أبواب الإيمان كلّها كما قال السلف ترجع إلى عَقْد وقول وعمل . وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن ، وإلا فليس القول مرادًا بعينه ؛ وإذا لم يكن صادرا عن حال سُمّى إسلاما ولم يسمّ إيمانا . والعلم هو السبب فى الحال يجرى مَجْرى المُثْمر ، والعمل يجرى مجرى الثمرة .

فأما الحال فنعنى بها ما يُسمّى زهدا ، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ إلى ما هو خير منه ؛ فكلّ من عدل عن شئ إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنّما عدل

عنه لرغبته عنه، وإنمـا عدل إلى غيره لرغبته فيه . فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسَمَّى [زهدا، وبالإضافة إلى المعدول إليـه يسمّى][1] رغبةً وحبّا . فإذًا يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبًا فيه[2] هو خير من المرغوب عنه . وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه؛ فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمّى زاهدا، فتارك التراب والحجارة والحشرات لا يسمّى زاهدا، لأن ذلك ليس في مَظِنَّـة الرغبة، وإنما يسمّى زاهـدا تاركُ الدراهم والدنانير . وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة؛ فالبائع لا يُقْـدِم على البيع إلا والمُشْتَرِى عنـده خيرٌ من المَبِيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدًا فيه، وبالإضافة إلى العِوَض رغبةً وحبًّا؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وشَرَوْه بمعنى باعوه، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمعوا أن يخلُوَ لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحبّ إليهم من يوسف فباعوه طَمَعًا في العِوَض. فإذًا كلُّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكلُّ من باع الآخرةَ بالدنيا فهو أيضا زاهـدٌ ولكن في الآخرة؛ ولكنّ العادة جارية بتخصيص آسم الزهد بمن زهد في الدنيا؛ كما خُصِّص آسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصّـة، وإن كان هو الميل في وضع اللسان . قال : ولمـا كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يُتَصوَّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحبّ منه، وإلا فتركُ المحبوب بغير الأحبّ محال . والذى يرغب عن كلّ ما سـوى الله تعالى حتى الفِرْدَوس ولا يحبّ إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق . والذى يرغب عن كل حظٍّ يُنَال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمِـع في الحُور العِين

(١) زيادة عن الإحياء .

(٢) كذا في الإحياء . وفي الأصل : «إليه» .

والقُصور والفواكه والأنهار فهو أيضا زاهد ولٰكنّه دون الأوّل . والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذى يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسُّعَ فى الأكل ولا يترك التجمُّل فى الزينة، فلا يستحقّ آسم الزهد مطلقا؛ ودرجته فى الزّهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين ، وهو زهدٌ صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة ؛ فإنّ التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظّ النفس . والمُقتصر على ترك المحظورات لا يسمَّى زاهدا، وإن كان زهد فى المحظور وآنصرف عنه، ولٰكنّ العادة تخصّص هذا الآسم بتارك المباحات . فإذًا الزهد عبارةٌ عن رغبةٍ عن الدنيا عُدُولًا إلى الآخرة أو عن غير الله عدولًا إلى الله، وهى الدرجة العليا . وكما يُشْتَرط فى المرغوب فيه[1] أن يكون خيرًا عنده؛ فيُشْتَرط فى المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، فإنّ ترك ما لا يُقْدَر عليه محال ، وبالترك يتبيّن زوال الرغبة ؛ ولذلك قيل لآبن المبارك : يا زاهد؛ فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمةً فتركها، وأما أنا ففيم زهِدتُ !

✦ ✦ ✦

وأمّا العلم الذى هو المُثْمِر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ، كعلم التاجر بأن العِوَض خيرٌ من المَبِيع فيرغب فيه؛ وما لم يتحقّق هذا العلم لا يُتَصَوَّر أن تزول الرغبة عن المَبِيع ، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خيرٌ وأبقى، أى لذّتها خيرٌ فى نفسها وأبقى . فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوَى الرغبةُ فى البيع والمعاملة؛ حتّى إنّ من قوِىَ يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «المرغوب اليه» .

وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...) الآية، ثم بيّن أن صَفْقتهم رابحة فقال تعالى: (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ) . فليس يُحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدْر وهو أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى ؛ وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إمّا لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الدنيا والشهوة فى الحال عليه ولكونه مقهورًا فى يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يومًا فيومًا إلى أن يختطفه الموتُ ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفَوْت . قال : وإلى تعريف خَسَاسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وإلى تعريف نَفَاسة الآخرة الإشارة بقوله عزّ وجل : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾؛ فنبّه على أنّ العلم بنفاسته هو المُرَغِّب عن عِوَضه . قال: ولمّا لم يُتَصَور الزهد إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عن محبوب فى أحبّ منه قال رجل : اللّهمّ أَرِنِى الدنيا كما تراها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا تَقُلْ هذا ولٰكنْ قل اللّهمّ أَرِنى الدنيا كما أَرَيْتَها الصالحين من عبادك" . وهذا لأن الله يراها حقيرةً كما هى، وكلّ مخلوق فهو بالإضافة إلى جَلاله حقير، والعبد يراها حقيرةً فى حقّ نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له[1]، ولا يُتَصَوَّر أن يرى بائعُ الفرس وإن رغب عن فرسه كما يرى حشرات الأرض [مثلا][2]، لأنّه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيًا عن الفرس ؛ والله تعالى غنىٌّ بذاته عن كلِّ ما سواه، فيرى الكلّ فى درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذى يرى تفاوُتها بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره .

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : "الى ما هو خير منه" .

(٢) زيادة عن الاحياء .

* * *

وأمّا العمل الصادر عن حال الزهد فهو تَرْكٌ وأَخْذ، لأنه بيعٌ ومعاملة واستبدالُ الذى هو خير بالذى هو أدنى. فكما أنّ العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع[1] و إخراجه عن اليد وأخْذ العِوَض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكُلِّية وهى الدنيا بأسرها مع أسبابها ومُقَدماتها وعلائقها، فيُخْرِج من القلب حبّها ويُدخل حبَّ الطاعات ويُخرج من اليد والعين ما أخرجه مِن القلب، ويُوَظّف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف من الطاعات، وإلّا كان كمن سلّم المَبِيع ولم يأخذ الثمن. فإذا وفّى شرطَ الحالتين فى الأخْذ والترك فليَسْتبشر ببيعه الذى بايع به، فإن الذى بايعه بهذا البيع وَفِىٌّ بالعهد؛ فمن سلّم حاضرا فى غائب وسلّم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سُلِّم إليه الغائبُ حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يُوثَق بصدقه وقُدْرته ووفائه بالعهد. وما دام مُمْسِكا للدّنيا فلا يصح زهده أصلا، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فى بنيامين وإن كانوا قد قالوا: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾، وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتى شفع فيه أحدهم فتُرِكَ، ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على إخراجه إلا عند التسليم والبيع. فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج. فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهدٌ فيما أخرجت فقط، ولست زاهدا مطلقا؛ وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يُتَصَوَّر منك الزهد، لإنّ ما لا تقدر عليه لا تقدر على تركه. وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل [إليك][2] أنّ الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهدٌ فيها، فلا ينبغى أن تتدلّى بحبل

(١) كذا بالإحياء. وفى الأصل: «هو بدل البيع».

(٢) زيادة عن الإحياء.

غروره دون أن [تستوثق و](١) تستظهر بموثق غليظ(٢) من الله تعالى؛ فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها؛ فكم من ظانٍّ بنفسه كراهةَ المعاصى عند تعذُّرها فلما تيسَّرت له أسبابها من غير مُكَدِّر ولا مخوف من الخلق وقع فيها . وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات فإيَّاكَ أن تثق بوعدها فى المباحات . والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجرّبها مرّة بعد مرّة فى حال القدرة، فاذا وفَتْ بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرًا وباطنًا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما، ولكن تكون من تغيُّرها على حذَر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبةُ الرجوع إلى مُقتضَى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ماتركت فقط وذلك عند القدرة . قال: وليس مِنَ الزهد بذل المال على سبيل السخاء والفُتُوّة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع، فذلك كلّه من محاسن العادات ولا مدخل له فى العبادات، إنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة. [فأمّا كل نوع من الترك فإنه يُتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة](١) فذلك قد يكون مُروءة وفتوّة وسخاء وحسن خُلُق، وحسنُ الذكر وميْل القلوب من حظوظ العاجلة، وهى ألذّ وأهنأ من المال؛ بل الزاهد من آثره الدنيا راغمةً عفوًا وصفوًا وهو قادرٌ على التنعُّم بها من غير نقصانِ جاه وقبح اسم وفوات حظٍّ للنفس، فتركها خوفًا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبًّا لما سوى الله، ويكون مُشركا فى حبِّ الله غيرَ الله؛ أو تركها طمعًا فى ثواب آخر فترك التمتُّع بأشربة الدنيا طمعًا فى أشربة الجنّة، وترك التمتُّع بالسرارى والنسوان طمعًا فى الحُور العِين، وترك التفرُّج فى البساتين طمعًا فى بساتين الجنّة وأشجارها، وترك التزيُّن والتجمُّل بزينة الدنيا طمعًا فى زينة الجنّة، وترك المطاعم اللذيذة طمعًا

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « بموثق عليك » .

فى فواكه الجنّة وخوفًا من أن يقال له : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ فآثر فى جميع ذلك ما وُعِد به فى الجنّة على ما تيسّر له فى الدنيا عفوًا صفوًا، لعلمه بأن ما فى الآخرة خيرٌ وأبقى؛ وما سوى هذه فمعاملات دُنيويّة لا جَدْوَى لها فى الآخرة أصلا . وحيث قدّمنا هذه المقدّمة من أحوال الزهد فى الحال والعلم فلنذكر بيان فضيلة الزهد وذم الدنيا .

ذكر فضيلة الزهد وبغض الدنيا

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ، فنسب الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم، وذلك غاية الثناء. وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ جاء فى التفسير : على الزهد فى الدنيا . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . قيل : معناه أيّهم أزهد فى الدنيا ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن أصبح وهمّه الدُّنيا شتّت الله عليه أمره وفرّق عليه ضَيْعته وجعل فقره بين عينَيْه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له ومن أصبح وهمّه الآخرةُ جمع اللهُ له أمره وحفظ عليه ضَيْعَته وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة" . وقال صلى الله عليه وسلم : "إذا رأيتم العبدَ قد أُوتِيَ[1] مَنْطقًا وزهدًا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة" . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ؛ ولذلك

(١) الذى فى الإحياء : «اذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة» .

قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يومًا اجرى الله ينابيعَ الحكمةِ فى قلبـه وأطلق بها لسانه . وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أردت أن يحبّـك الله فازهدْ فى الدنيا" فجعـل الزهد سببًا للمحبّة؛ فمن أحبّه الله فهو فى أعلى الدرجات، فينبغى أن يكون الزهد فى أفضل المقامات . ولمـا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال : "إن النُّور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح" . قيـل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة ؟ قال : "نَعَمْ التجافى عن دار الغرور والإنابةُ إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اِستَحْيُوا من الله حقَّ الحياء" قالوا : إنا نستحيي من الله، فقال : "[ليس كذلك](١) تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون" . فبيّن أن ذلك يناقض الحياء من الله . وقدم وفدٌ على رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنّا مؤمنون . قال : "وما علامة إيمـانكم ؟" فذكروا الصبرَ على البـلاء، والشكر على الرخاء، والرِّضا بمواقع القضـاء ، وتَرْكَ الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . قال : "إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تَنَافَسُوا فيما عنـه ترحلون"؛ فجعل الزهد تكملةَ إيمانهم . ورُوِى أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم مرّ فى أصحابه بإبلٍ عِشار حُفَّل وهى الحوامل ، وكانت من أحبّ أموالهم إليهـم وأنفسها عندهم، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظَّهْر، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغضّ بصرَه . فقيل له : يارسول الله ، هـذه أنفَسُ أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال : قد نهانى الله عن ذلك، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ

(١) التكملة من الإحياء .

خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ . وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت : يارسول الله، ألا تستطعم اللهَ فيُطْعِمك ؟ قالت : وبكيت لِمَا رأيت به من الجوع. فقال : "ياعائشة والذى نفسى بيده لو سألت ربِّى أن يُجْرِىَ معى جبالَ الدنيا ذَهَبًا لأجراها حيثُ شئتُ من الأرض ولكن آخترتُ جُوع الدنيا على شِبَعها وفقر الدنيا على غِناها وحزن الدنيا على فرحها ياعائشة إنّ الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ياعائشة إن الله لم يرضَ لأُولى العزم من الرسل إلا الصبرَ على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يُكلِّفنى ما كلَّفهم فقال ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ واللهِ مالى بُدٌّ من طاعته وإنّى والله لأصبِرَنَّ كما صَبَرُوا جهدى ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله" .

وروى عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنه حين فُتِحَ عليه الفتوحاتُ قالت له آبنته حفصة : اِلْبَسْ لَيِّنَ الثياب إذا وفَدَت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصَنْعة طعام تَطْعَمُه وتُطعم مَنْ حضر . فقال : ياحفصة، ألستِ تعلمين أنّ أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ قالت بلى . قال : ناشدتُكِ الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لبِث فى النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشبَع هو ولا أهل بيته غُدْوَةً إلّا جاعوا عشيَّة، ولا شبِعوا عشيَّةً إلا جاعوا غُدْوة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لبِث فى النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشبَعْ من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّبتم إليه [يوما](١) طعامًا على مائدة فيها آرتفاع فشقّ ذلك عليه حتى تغيّر لونُه ثم أمر بالمائدة فرُفِعت ووُضِع الطعامُ على دون ذلك أو وُضِع على الأرض؟ ناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عَبَاءة مَثْنِيّة فثُنِيَت له ليلةً أربعَ

(١) زيادة عن الإحياء .

طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال: "منعتمُونى قيام الليلة بهذه العبَاءة اثنوها باثنتين كما كنتم تَثْنُونها" ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَضَعُ ثيابه لتُغْسَل فيأتيه بِلَالٌ فيُؤْذِنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرُجُ به إلى الصلاة حتى تجِفّ ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صَنَعَتْ له امرأةٌ من بنى ظَفَر كِساءَيْنِ إزاراً ورِداء وبعثتْ إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مُشتمل به ليس عليه غيرُه قد عَقَد طَرَفيه إلى عُنُقه فصلّى كذلك ؟ فما زال [يقول](١) حتى أبكاها ، وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظَنَنّا أنّ نفسه ستخرُج . وفى بعض الروايات زيادةٌ من قول عمر وهو أنّه قال : كان لى صاحبانِ سَلَكا طريقًا، فإن سلكتُ غير طريقهما سُلِكَ بى طريقٌ غيرُ طريقهما ، وإنّى والله سأصبِر على عَيْشهما الشديد لَعَلّى أُدرك معهما عيشهما الرَّغيد . وعن أبى سَعِيد الخُدْرىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لقد كان الأنبياء قبلى يُبْتَلَى أحدُهم بالفقر فلا يَلْبَس إلا العباءة وإن كان أحدهم لَيُبْتَلَى بالقَمْل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحبَّ إليهم من العطاء إليكم". وعن ابن عبّاس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لما ورد موسى عليه السلام ماء مَدْيَنَ كانت خُضْرة البَقْل تُرَى فى بطنه من الهُزَال" . وفى حديث عمر رضى الله عنه أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تبًّا للدُّنيا ! تبًّا للدِّينار والدرهم ! " فقلنا : نهانا الله عن كَنْز الذهب والفِضّة فأىّ شىءٍ نَدَّخر؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "ليتَّخِذْ أحدُكم لسانًا ذاكرا وقلبًا شاكرا وزوجةً صالحةً تُعِينه على أمر آخرته" . وفى حديث حُذَيفة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "مَنْ آثر

(١) زيادة من الإحياء .

الدنيا على الآخرة ابتلاه الله تعالى بثلاث : همًّا لا يُفارق قلبَه أبدًا وفقرًا لا يَسْتَغْنِي أبدا وحِرْصًا لا يشبَعُ أبدا" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتّى يكون ألّا يُعْرَفَ أَحَبَّ إليه مِن أن يُعْرَفَ وحتى تكون قِلةُ الشيء أحبَّ إليه من كثرته" . وقال المسيح عليه السلام : الدنيا قَنْطرةٌ فاعْبُرُوها ولا تعمُرُوها . وقيل له : يانبيَّ الله، لو أمرتنا أن نبتنى بيتًا نعبُدُ الله فيه ! قال : اذهبوا فابنُوا بيتًا على الماء. فقالوا : كيف يستقيم بُنْيانٌ على الماء ! قال: وكيف تستقيم عِبادةٌ مع حُبّ الدنيا ! . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ ربِّى عَرَض علىّ أن يجعل لى بَطْحاء مكة ذهبا فقلت لا يا ربّ ولكن أجُوع يوما وأشبَعُ يوما فأمّا اليوم الذى أجوع فيه فأتضرَّعُ إليك وأدعوك وأمّا اليوم الذى أشبع فيه فأحمَدُكَ وأُثْنِي عليك" .

وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريلُ معه فصعِد على الصَّفا، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحقّ ما أَمْسَى لآل محمد كفُّ سَوِيق ولا سَفَّةُ دقيق . فلم يكن كلامه بأسرَعَ من أن سمِع هدَّةً من السماء أفظعتْه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم ؟ قال : لا ، ولكن هذا إسرافيلُ قد نزل إليك حين سمع كلامك . فأتاه إسرافيلُ فقال : إنّ الله عز وجلّ سمِع ما ذكرتَ، فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أَعْرِض عليك إنْ أحببتَ أن أُسِير[1] معك جبالَ تهامة زُمُرُّدًا وياقوتًا وذهبا وفِضّة فعلتُ، وإن شئتَ نبيًّا ملِكًا وإن شئتَ نبيًّا عبدًا . فأومأ إليه جبريلُ أن تواضَعْ لله . فقال: "نَبِيًّا عبدا" ثلاثا . وقال صلى الله عليه وسلم: "اذا أراد الله بعبد خيرًا زَهَّده فى الدنيا ورَغَّبه فى الآخرة وبَصَّره بعيوب نفسه". وقال صلى الله عليه وسلم: "من أراد أن يُؤْتيه الله علما بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هِدَاية فليَزْهَدْ فى الدنيا".

(١) كذا فى الإحياء، وفى الأصل : « أن تسير ... » .

وقال صلى الله عليه وسـلم : "من اشتاق إلى الجنّة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لَهَـا عن الشهوات ومن ترقّب الموت ترك اللذّات ومن زَهِد فى الدنيا هانت عليه المصائب" . والأحاديث فى ذلك كثيرة وفيما ذكرناه منها كفاية . فلنذكر ما جاء من ذلك فى الأثر .

قيل : جاء فى الأثر : لا تزال لا إله إلّا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يَسْألوا ما نقص من دُنياهم . وفى لفظ آخر : ما لم يُؤْثِروا صفقة دنياهم على دِينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمالَ كلّها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زُهد الدنيا . وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالاً وأجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذاك؟ قال : كانوا أزهدَ فى الدنيـا منكم . وقال عمر رضى الله عنه : الزهادة فى الدنيـا راحةُ القلب والجسد . والآثار أيضا فى ذلك كثيرة فلا نُطوِّل بسردها .

ذكر بيان ذمّ الدنيا وشىء من المواعظ والرقائق الداخلة فى هذا الباب

وقد ورد فى كتاب الله عز وجلّ كثيرٌ فى ذمّ الدنيا وصَرْف الخلق عنها ودَعْوتهم إلى الآخرة؛ وهـو أيضا مقصود الأنبيـاء، ولذلك بُعِثُوا، فلا حاجةَ إلى الاستشهاد بالآيات لظهورها . فلنذكر نُبْـذة من الأخبار والآثار الواردة فى ذلك، وذلك من جملة ما اختاره الغزالىّ رحمه الله فى كتابه المترجم بإحياء علوم الدين. فمن ذلك ما رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه مرّ على شاة ميّتة فقال : "أتَرَوْنَ أن الشاة هيّنةٌ على أهلها" ؟ قالوا : مِن هَوَانِها عليهم أَلْقَوْها . قال : "والذى نفسى بيده للدنيا أهون على

(١١٧)

الله من هـذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جَناح بَعُوضة ما سَقَى كافراً منها شربة [ماء][1]" . وقال صلى الله عليه وسلم : "الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان لله منها" . وقال صلى الله عليه وسلم : "حُبُّ الدنيا أُسُّ كلِّ خَطِيئة". وقال صلى الله عليـه وسلم : " يا عَجَباً كلَّ العَجَب لِمُصَدِّق بدار الخُلود وهو يسعَى لدار الغرور! " .

ورُوِى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقف على مَزْبَلَة فقـال : "هَلُمُّوا إلى الدنيا وأخذ خِرَقاً قد بَلِيَتْ على تلك المزبلة وعظاماً قد نَخِرت فقال هذه الدنيا" وهـذه إشارةٌ إلى أن زينتها ستخلق مثل تلك الخِرَق، وأن الأجسام التى تُرَى بها ستصير عظاما باليـة . وقال عيسى بن مريم عليـه السلام : لا تتخـذوا الدنيا رَبًّا فتتخِذَكم عبيدا، اِكنِزُوا كَنْزَكم عند من لا يُضيِّعه، فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة . وقال أيضا : يا معشر الحَوَارِيِّين، إنى قـد كَبَبْتُ لكم الدنيا على وجهها فلا تُنْعِشوها بعـدى، فإنّ من خبث الدنيا أن الله عُصِى فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تُدْرَكُ إلا بتركها. أَلَا فَاعبُرُوا الدنيا ولا تعمرُوها، وٱعلموا أن أصلَ كلِّ خَطِيئة حبُّ الدنيا. وربَّ شهوة أورثتْ حُزْناً طويلا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله جلّ ثناؤه لم يخلُقْ خلقاً أبغضَ اليه من الدنيا وإنه منذ خَلَقها لم ينظر اليها" . وقال صلى الله عليه وسلم : " ألهاكم التكاثُر يقول ٱبن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبستَ فأبليت أو تصدّقت فأبقيتَ!" . وقال صلى الله عليـه وسلم : "الدنيا دارُ من لا دارَ له ومالُ من لا مالَ له ولها يجمع من لا عقلَ له وعليها يُعادِى من لا علمَ له وعليها يَحْسُد من لا فِقْهَ له ولها يسعى من لا يَقِينَ له". وقال صلى الله

(١) التكملة عن الإحياء .

عليه وسلم : "من أصبح والدنيا أكبرُ هَمِّه فليس من الله فى شئ وألزم الله قلبه أربعَ خِصال همًّا لا ينقطع عنه أبدا وشُغلًا لا يتفرغ منه أبدا وفقرًا لا يبلغ غناه أبدا وأملًا لا يبلغ منتهاه أبدا" . وقال أبو هُريرة رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا هُريرة ألَا أريك الدنيا جميعا بما فيها"؟ قلت : بلى يارسول الله . فأخذ بيدى وأتَى بى وادياً من أودية المدينة، فإذا مَزْبَلة فيها رءوس ناس وعَذِرات وخِرَقٌ وعظام، ثم قال : "يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرِصُ كحِرْصِكم وتأمُلُ آمالَكم هى اليوم عظامٌ بلا جِلْد ثم هى صائرة رمادًا وهذه العَذِرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قَذَفُوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامَوْنَها وهذه الخِرَق البالية كانت رِياشَهم ولباسَهم فأصبحت الرياح تُصَفِّقها وهذه العظام عظام دَوَابِّهم التى كانوا ينتجعون عليها أطرافَ البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبكِ" . قال : فما بَرِحْنا حتى اشتدّ بكاؤنا . وقال صلى الله عليه وسلم : "الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لا ينظر إليها وتقول يوم القيامة : ياربّ اجعلنى لأدنى أوليائك نصيباً اليوم فيقول اسكُتى يالا شئ إنى لم أرْضَكِ لهم فى الدنيا أأرضاك لهم اليوم"! وقال صلى الله عليه وسلم: "لَيَجِيئَنَّ أقوامٌ يوم القيامة وأعمالهم كجبال تِهامة فيُؤْمَرُ بهم إلى النار". قالوا: يارسول الله، مصلين؟ قال: "نعم [كانوا](١) يُصَلُّون ويصومون ويأخذون هَنَةً من الليل فإذا عرض لهم من الدنيا شئ وَثَبُوا عليه" . وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خُطَبه : "المؤمن بين مخافتين بين أَجَلٍ قد مضى لا يدرى ما الله صانعٌ فيه وبين أجلٍ قد بَقِى لايدرى ما الله قاضٍ فيه فليَتَزَوَّد العبدُ من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لِمَوْته ومن شبابه

(١) التكملة عن الإحياء .

لهرَمَه فإنّ الدنيـا خُلِقَتْ لكم وأنتم خُلِقْتم للآخرة والذى نفسى بيـده ما بعد الموت مُسْتَعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار" .

قال صلى الله عليه وسلم: "اِحذروا الدنيا فإنها أسحرُ من هَارُوتَ ومَارُوتَ" .

وقال عليـه السلام لأصحابه : "هل منكم مَن يريد أن يُذْهِب الله عنـه العَمَى ويجعله بصيرا أَلَا إنه من رغِب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبَه على قَدرِ ذلك ومن زَهِد فى الدنيا وقَصُر أملُه فيها أعطاه الله علمًا بغير تَعلُّم وهُدًى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم المُلْك إلا بالقتل والتَّجبُّر ولا الغنى إلا بالفَخْر والبُخْل ولا المحبَّة إلا باتِّباع الهوى أَلَا فمن أدرك ذلك الزمانَ منكم فصَبَرَ للفقر وهو يقدِر على الغِنَى وصَبَرَ على البَغْضَاء وهو يقدِر على المحبَّة وصَبَرَ للذُّلّ وهو يقدِر على العِزّ لا يريد بذلك إلا وجهَ الله تعـالى أعطاه الله ثواب خمسين صِدِّيقا" .

(١١٨)

وقال عيسى بن مريم عليـه السـلام : وَيْلٌ لصاحب الدنيـا! كيف يموت ويتركها، ويأمَنُها وتَغُرُّه، ويَثِقُ بها وتخذله ! ؛ وويلٌ للمغترّين! كيف أرتْهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبُّون ، وجاءهم مَا يُوعَدون ! وويلٌ لمن الدنيا هَمُّه ، والخطايا عمـلُه كيف يفتضح غداً بذنبه ! . وقيل له : علِّمنا علماً واحداً يحبّنا الله عليه ، قال : أَبغِضوا الدنيا يحبّكم الله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضَحِكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة" .

ومن الآثار فى ذلك ما حكاه داود بن هلال قال : مكتوبٌ فى صحف إبراهيم عليه السلام : يادنيا، ما أهونَك على الأبرار الذين تصنَّعتِ وتزيَّنتِ لهم! إنى قذفتُ فى قلوبهم بغضَك والصدودَ عنك ، وما خلقتُ خَلْقاً أهونَ علىّ منك ، كلُّ شأنك صغير، وإلى الفناء تصيرين ، قضيتُ عليك يوم خلقتُك ألّا تدومى لأحد ولا يدوم أحدٌ لك

وإن بخل بك صاحبُك وشحّ عليك. طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهـم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والأستقامة! طوبى لهم! مالهم عندى من الخير إذا وفدوا إلىّ من قبورهم [إلا](١) النورُ يسعى أمامهم والملائكةُ حافُّون بهم حتى أُبلّغهم ما يرجُون من رحمتى .

وقال عمّار بن سعيد : مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقرية فإذا أهلُها موتى فى الأفنية والطرق ، فقال : يا معشر الحواريّين، إن هؤلاء ماتوا عن سَخْطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لَتَدافنُوا . فقالوا : يارُوح الله، وَدِدْنا أنّا علمنا خبرهم، فسأل اللهَ تعالى فأوحى اليه : إذا كان الليل فنادِهم يُجيبوك . فلما كان الليل أشرف على نَشَز، ثم نادى يأهلَ القرية،فأجابه مُجيب:لَبَّيْكَ يارُوح الله. فقال : ما حالكم وما قِصّتكم؟ قال : بِتْنا فى عافية وأصبحنا فى الهاوية. قال : وكيف ذلك؟ قال(٢) : لُحُبّنا الدنيا وطاعتِنا أهل المعاصى . قال : وكيف كان حبُّكم للدنيا؟ قال : حُبّ الصبىّ لأمّه، إذا أقبلت فرح بها، وإذا أدبرت حزِن وبكى عليها . قال : فما بال أصحابك لايُجيبونى ؟ قال : لأنهم مُلْجَمون بلُجُم من نار بأيدى ملائكةٍ غِلاظٍ شِداد. قال : فكيف أجبتنى من بينهـم ؟ قال : لأنّى كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم، فأنا مُعَلّق على شَفِير جهنّم لا أدرى أنجو منها أم أُكَبُّ فيها . فقال المسيح للحواريّين : لَأَكْلُ الخبز الشعير بالملح الجَرِيش ولُبْس المُسُوح والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة .

قيل : وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى لاتركَنّ إلى حبّ الدنيا فلن تأتينى بكبيرة هى أشدُّ منها .

(١) زيادة عن الإحياء (ج ٢ ص ١٨٨)

(٢) فى الأصل وفى الإحياء : «قالوا» والسياق يقتضى الإفراد .

وقال لُقْمان لابنه : يا بُنَىّ، إن الدنيا بحـر عميق وقد غرِق فيـه ناسٌ كثير، فلتكن سفينتُك فيهـا تَقْوى الله عز وجل، وحَشْوُها الإيمان بالله تعالى ، وشِراعُها التوكُّل على الله عز وجل، لعلك تنجو وما أراك ناجيا .

وقال بعض الحكماء : إنك لن تُصبح فى شىء من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك ؛ وليس لك من الدنيا إلا عَشَاءُ ليلةٍ وغَدَاءُ يوم ، فلا تهلِكْ فى أَكْلة، وصُم [عن](١) الدنيا وأَفْطِر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى ورِبْحها النار .

وقيل لبعضهم : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخْلِق الأبدان، ويُجَـدِّد الآمال، ويُقَرِّب المنيّة، ويُبْعد الأُمْنيّة . قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفِر به تَعِب، ومن فاته نَصِب . وفى ذلك قيل :

ومَنْ يَحْمِدِ الدنيا لعيش يَسُرُّهُ * فسوف لعمرى عن قريب يَلُومُها
إذا أَدْبرتْ كانت على المرءِ حَسْرَةً * وإن أقبلتْ كانتْ كثيرًا هُمُومُها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيهـا ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها، فإنّ عيشَها نكَد ، وصفوها كَدَر، وأهلَها منهـا على وَجَل، إمّا بنعمة زائلة، أو بليّة نازلة، أو منيّة قاضية . (١١٩)

وقال أبو حازم : إيّاكم والدنيـا، فإنّه بلغنى أنه يُوقف العبدُ يوم القيامة إذا كان مُعَظِّمًا للدنيا فيقال : هذا عظَّم ما حقَّره الله .

وقال ابن مسعود : ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضَيْفٌ ومالُه عارية ، فالضيف يرتحل والعارية مردودة . وفى ذلك قيل :

وما المـالُ والأهلون إلّا وديعةٌ * ولا بُدّ يومًا أن تُرَدَّ الودائعُ

(١) الزيادة عن الإحياء .

وزار رابعةَ العدويةَ أصحابُها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمّها، فقالت : أمسكوا عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألَا من أحبّ شيئا أكثر من ذكره .

وقال رجل لعليّ رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا، فقال : وما أصِفُ لكم مِنْ دار مَنْ صَحّ فيها ما أَمِنَ ، ومن سَقِم فيها نَدِم[1] ، ومن افتقر فيها حزِن، ومن استغنى فيها فُتِن، فى حَلالها الحِسابُ، وفى حرامها العذاب . ٥

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ : من قال ذا ؟ مَنْ خلقها مَن هو أعلم بها . إيّاكم وما شَغَل من الدنيا فإنّ الدنيا كثيرةُ الأشغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه بابَ شغل إلا أوشك ذلك البابُ أن يفتح عليه عَشْرةَ أبواب . وقال أيضا : مسكينٌ ابنُ آدم رَضِى بدار حلالُها حساب، وحرامُها عذاب، إن أخذه من حلّه حُوسب به، و إن أخذه من حرامٍ عُذِّب به. ابن آدم يستقلّ ما له ولا يستقلّ عمله، يفرح بمصيبته فى دِينه و يجزَع من مصيبته فى دنياه . ١٠

وقال داود الطائىّ : يابن آدم ، فرِحتَ ببلوغ أملك، و إنّما بلغتَه بانقضاء أجلك، ثم سوّفتَ بعملك، كأنّ منفعته لغيرك .

وقال بِشْر : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . ١٥

وقال أبو حازم : ما فى الدنيا شىء يَسُرُّك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك

وقال الحسن : أَهِينوا الدنيا، فوالله ما هى لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها . وقال أيضا : إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أعطاه عطيّةً من الدنيا ثم يُمسك، فإذا نفِد أعاد عليه، و إذا هان عليه عبدٌ بَسَطَ له الدنيا بَسْطا .

(١) كذا فى الأصلين . وفى الإحياء (ج ٣ ص ١٩٢) : «من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم». ٢٠

قال الجُنَيْد : كان الشافعىّ رحمه الله من المُريدين الناطقين بلسان الحقّ فى الدين ، وَعَظ أخًا له فى الله تعالى وخوّفه بالله فقال : يا أخى ، إنّ الدنيا دَحْضُ مَزِلّة ، ودار مذلّة ، عُمْرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفُرقة موقوف ، وغِناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يَسَار ، فافزَع إلى الله وأرضَ برزق الله . لا تَسْتسلف من دار بقائك فى دار فَنَائك ، فإن عيشك فَىءٌ زائل ، وجِدارٌ مائل ، أكثِرْ من عملك ، وقَصِّرْ من أملك . وهذا من أبلغ المواعظ والترغيب .

ومن المواعظ ما قاله أبو الدرداء رضى الله عنه : والله لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعُدات [تجأرون و](١) تبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لا حارسَ لها ولا راجعَ إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل ، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون ، فبعضكم شرٌّ من البهائم التى لا تدع هواها مخافةً مما فى عاقبته . ما لكم لا تَحَابُّون ولا تَنَاصحون وأنتم إخوان على دين [الله](١) ، ما فرق بين أهوائكم إلا خُبْث سرائركم ، ولو اجتمعتم على البِرّ لتحابيتم . ما لكم تَنَاصحون(٢) فى أمر الدنيا ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يُحِبّه ويُعينه على أمر آخرته ! ما هذا إلا من قلّة الإيمان فى قلوبكم . لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرّها كما تُوقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك بأموركم . فإن قلتم : حبُّ العاجلة غالب ، فإنّا نراكم تَدَعون العاجل من الدنيا للآجل مما تكدُّون أنفسكم بالمشقّة والاحتراف فى طلب أمرٍ لعلكم لا تُدركونه .

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) فى الأصلين : «ما لكم لا تناصحون فى أمر الدنيا» بدخول لا النافية والسياق يقتضى حذفها . وفى الإحياء : «ما لكم تناصحون فى أمر الدنيا ولا تناصحون فى أمر الآخرة ولا يملك أحدكم ...» .

فبئس القومُ أنتم ! ما حققتم إيمانكم بما يُعرَف به الإيمان البالغ فيكم . فإن كنتم فى شكٍّ مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتونا لنبيِّن لكم ولنريكم من النور ما تطمئنّ اليه قلوبكم . والله ما أنتم بالمنقوصة عقولُكم فنعذركم؛ إنكم لَتَبَيَّنُون صواب الرأى فى دنياكم وتأخذون بالحزم فى أموركم . ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تُصيبونه وتحزَنون على اليسير منها يفوتكم ، يتبين ذلك فى وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمُّونها المصائب وتُقيمون فيها المآتم ، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبيّن ذلك فى وجوهكم[1] ولا يتغيّر حالٌ بكم ! . إنى لأرى الله قد تبرّأ منكم . يلقى بعضكم بعضًا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبَه بما يكره مخافةَ أن يستقبله صاحبُه بمثله ، فاصطحبتم[2] على الغِلّ ، ونبتت مراعيكم على الدِّمَن ، وتصافيتم على رفض الأجل . ولَوَدِدْتُ أن الله أراحنى منكم وألحقنى بمن أُحبّ رؤيته ، ولو كان حيًّا لم يصابركم . فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم ؛ وإنْ تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا . واللهَ أستعين على نفسى وعليكم .

وكتب الحسن البصرىّ إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالى :

أمّا بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أُنزل آدمُ عليه السلام من الجَنّة إليها عقوبة ؛ فاحذَرْها يا أمير المؤمنين ؛ فإنّ الزاد منها تركُها ، والغنَى منها فقرها ؛ لها فى كلّ حين قتيل ؛ تُذِلّ من أعزّها ، وتُفقر من جمعها ؛ هى كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه . فكن فيها كالمُداوِى جراحتَه ، يحتمى قليلا مخافةَ ما يكره طويلا ، ويصبر على شدّة الدواء مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدّارة الختّالة الخدّاعة التى قد تزيّنت بخُدَعها وفتنت بغرورها ، وحَلَت بآمالها ، وسوّفت بخطّابها ؛

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : « ثم لا يتبين ذلك فى وجوههم » .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « فأصبحتم على الغل ... » .

فأصبحت كالعروس المجلوّة[1]، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهى لأزواجها كلّهم قالية؛ فلا الباقى بالماضى معتبر، ولا الآخر بالأوّل مزدجر، والعارف بالله عز وجلّ حين أخبره عنها مذكر؛ فعاشقٌ لها قد ظفر منها بحاجته فاغترّ وطغى ونَسِىَ المعاد، فشغل لبّه حتى زلّت [به][2] قدمه، فعظُمت ندامته، وكثُرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألّمه، وحسرات الفوت بغُصّته؛ وراغبٌ[3] فيها لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروّح نفسه من التعب؛ فخرج بغير زاد، وقدِم على غير مِهاد. فاحذَرْها يا أمير المؤمنين، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأنّ فيها إلى سرورٍ أشخصته إلى مكروه؛ السارّ فيها أهلَها غارّ، والنافع فيها غدّار[4] ضارّ؛ وقد وُصل الرخاءُ فيها بالبلاء، وجُعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوبٌ بالأحزان. لا يرجع منها ما ولّى وأدبر، ولا يُدْرَى ما هو آتٍ فينتظر؛ أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعيشُها نكد، وابن آدم فيها على خطر، ومن البلاء على حَذَر. فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خَبَرًا، ولم يضرب لها مثلا، لكانت الدنيا أيقظت النائم ونبّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجلّ عنها زاجر وفيها واعظ! فما لها عند الله جل ثناؤه قَدْر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عُرضت على نبيّك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جَناحَ بَعُوضة فأبى أن يقبلها إذ كَرِه أن يُخالف على الله أمره، أو يُحِبّ ما أبغض خالقُه، أو يرفع ما وَضع مليكُه. فزَوَاها[5] عن الصالحين اختبارا. وبَسطها

(١) فى الأصل: «المجلية» والفعل واوى كما فى القاموس. (٢) زيادة عن الإحياء.

(٣) كذا فى الإحياء. وفى الأصلين: «ومن راغب بزيادة «من» والسياق يأباها.

(٤) كذا فى الإحياء. وفى الأصلين: «والنافع فيها غدا ضارّ».

(٥) زواه زَيًّا وزُوِيًّا: نحّاه.

لأعدائه اغترارا، فيظنّ المغرور المقتدر عليها أنه أُكْرِم بها، ونسِيَ ماصنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شدّ الحجر على بطنه . ولقد جاءت الرواية عنه عن ربّه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغِنَى مُقبلًا فقل: ذَنْبٌ عُجِّلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل : مرحبًا بشِعار الصالحين . فإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فإنه كان يقول : إدامى الجوع، وشِعارى الخوف، ولباسى الصوف، وصِلائى فى الشتاء مشارق الشمس، وسراجى القمر، ودابّتى رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما تُنبت الأرض، أبيت ليس لى شيءٌ وأُصبح وليس لى شيءٌ وليس على الأرض أغنى منّى .

وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها مَن بُسِط له فيها وأُعطى حاجته منها، لأنه يتوقّع آفةً تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جَمْعه فتفرّقه، أو تأتى سلطانَه فتهدمه من القواعد، أو تدِبّ إلى جسمه فتُسْقمه، أو تَفْجَعه بشيء هو ضنين به من أحبابه . فالدنيا أحقّ بالذمّ، هى الآخذة لما تُعطى، الراجعة فيما تَهَب . بينا هى تُضْحِك صاحبَها إذ أضحكت منه غيرَه ، وبينا هى تبكى له إذ بكت عليه، وبينا هى تبسُط كفّه بالإعطاء إذ بَسَطتها بالاسترداد . تعقِد التاج على رأس صاحبها اليوم وتُعَفِّره فى التراب غدا، سواء عليها ذَهاب ما ذهب وبقاء ما بقى، تجد فى الباقى من الذاهب خَلَفا، وتَرْضَى بكُلٍّ من كلٍّ بدلًا .

وعن وهب بن مُنَبِّه أنه قال :

لمّا بعث الله عز وجلّ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يَرُوعنّكما لباسُه الذى لبِس من الدنيا ، فإنّ ناصيته بيدى ليس ينطِق ولا يطرِف ولا يتنفّس إلا بإذنى ، ولا يُعجبنّكما ما مُتِّع به منها فإنما هى زَهْرة الدنيا وزينة المُتْرَفين . فلو شئتُ أن أُزَيِّنكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ قدرته

تعجزُ عمّا أُوتيتما لفعلت ، ولكنّى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائى، إنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهَلَكة ؛ وما ذاك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالمًا موفّرا . إنما يتزيّن لى أولياءى بالذُّلّ والخضوع والخوف والتقوى تَنْبُت فى قلوبهم فتظهر على أجسادهم، فهى ثيابهم التى يلبَسون، ودِثارهم الذى يُظهرون، وضميرُهم الذى يستشعرون، ونجاتُهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إيّاه يأمُلون، ومجدهم الذى به يفخَرون، وسيماهم التى بها يُعرَفون . فإذا لقيتَهم فاخفِضْ لهم جَناحك وذلّل لهم قلبك ولسانك . واعلم أنّ من أخاف لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوما [خطبة](١) فقال فيها :

اِعلموا أنكم ميّتون، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيّون بها، فلا تَغُرّنكم الحياة الدنيا؛ فإنّها بالبلاء محفوفة، وبالفَناء معروفة ، وبالغَدْر موصوفة؛ وكلّ ما فيها إلى زوال، وهى بين أهلها دُوَلٌ وسِجَال؛ لاتدوم أحوالها، ولا يسلَم من شرها نُزّالها؛ بينا أهلُها فى رخاءٍ وسرور، إذا هم منها فى بلاءٍ وغرور ؛ أحوال مختلفة، وتارات متصرّفة؛ العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم. وإنما أهلها فيها أغراضٌ مُستهدَفةٌ ترميهم بسهامها، وتُقْصيهم بحِمامها؛ وكلُّ حتفُه فيها مقدور، وحظُّه فيها موفور . واعلموا عبادَ الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيلِ مَنْ قد مضى ممن كان أطولَ منكم أعمارا، وأشدّ منكم بَطْشًا وأعمر دِيارا، وأبعد آثارا؛ فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد طُول تقلُّبها، وأجسادُهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية؛ استبدلوا بالقصور المشيَّدة، والسُّرُر والنمارق الممهَّدة، الصخورَ

(١) زيادة من الإحياء .

والأحجارَ المُسْنَدة، فى القبور اللاطئة المُلْحَدَة؛ فمحلُّها مُقترِب، وساكنُها مُغترِب، بين أهل عِمارةٍ مُوحشين، وأهل محلّة مُتشاغلين؛ لايستأنسون بالعُمْران، ولايَتَواصلون تواصُلَ الجِيران والإخوان؛ على ما بينهـم من قرب المكان والجوار، ودنوّ الدار. وكيف يكون بينهم تواصلٌ وقـد طحنهم بكَلْكَله البِلَى، وأكلتهم الجنادل والثرى؛ وأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد غَضَارة العيش رُفاتا؛ فجُع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات! كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يومِ يُبْعَثون؛ فكأنْ قد صِرْتم إلى ما صاروا إليه من البِلى والوحدةِ فى دار المثوى، وارتُهِنتم فى ذلك المَضْجَع، وضمّكم ذلك المُستودَع؛ فكيف بكم لو قد عاينتم الأمور، وبُعْثِرت القبور، وحُصِّل ما فى الصدور؛ ووُقِفتم للتحصيل، بين يدى الملك الجليل؛ فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب؛ وهُتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؛ هنالك تُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كسبت. إن الله عز وجلّ يقول: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾؛ وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾. جعلنا اللهُ وإيّاكم عاملين بكتابه، متّبعين لأوليائه، حتّى يُحِلّنا وإيّاكم دارَ المُقامة من فضله، إنه حميد مجيد.

ومما يلتحق بهذا الفصل ويدخل فيه، خطبة قَطَرِىّ بن الفجاءة وسترد فى كلام البلغاء فى باب الكتابة.

وقال بعضهم: يأيها الناس، اعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وَجَل، ولا تغترّوا بالأمَل ونسيان الأجل؛ ولا تركَنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خدّاعة،

قد تزخرفتْ لكم بغُرورها ، وفَتنتكم بأمانيها، وتزينت لُخطّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة؛ العيونُ اليها ناظرة، والقلوبُ عليها عاكفة، والنفوسُ لها عاشقة . فكم من عاشقٍ لها قتلتْ، ومطمئنٍّ إليها خَذلتْ . فأنظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دار كثرت بوائقُها ، وذمّها خالقها ؛ جديدها يبلَى، وملكها يفنَى؛ وعزيزُها يَذِلّ، وكثيرها يقِلّ؛ وحيّها يموت، وخيرها يفوت . فأستيقظوا من غفلتكم، وأنتبهوا من رقدتكم؛ قبل أن يقال : فلانٌ عليل، أو مُدْنَفٌ ثقيل، فهل على الدواء من دليل، أو على الطبيب من سبيل؛ فيُدْعَى لك الأطبّاء، ولا يُرْجَى لك الشفاء؛ ثم يقال : فلان أوصَى، ولماله أحصَى؛ ثم يقال : قد ثقُل لسانه فما يكلّم إخوانه، ولا يعرف جيرانه؛ وعرِق عند ذلك جبينُك، وتتابع أنينُك ، وثبت يقينك(١)، وطَمَحت جُفونك، وصدَقت ظنونك؛ وتلجلج لسانُك، وبكى إخوانك؛ وقيل لك : هذا أبنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومُنِعْتَ الكلام فلا تنطق؛ ثم حلّ بك القضاء، وأنتُزِعت نفسُك من الأعضاء، ثم عُرِج بها الى السماء؛ فأجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك؛ فغسّلوك وكَفّنوك؛ فأنقطع عُوادك، وأستراح حُسّادك؛ وأنصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مُرْتَهَنًا بأعمالك .

وقال بعض الحكماء : الأيام سِهام، والناسُ أغراض، والدهر يرميك كلّ يوم بسهامه، ويتخرمك بلياليه وأيّامه، حتّى يستغرق جميع أجزائك؛ فكم بقاءُ سلامتك مع وقوع الأيّام بك، وسرعةِ الليالى فى بدَنك! لو كُشِف لك(٢) عما أحدثت الأيامُ فيك من النقص لأستوحشتَ من كلّ يوم يأتى عليك، وأستثقلت ممرّ الساعات بك؛ ولكنّ تدبير الله فوق تدبير الأعتبار؛ وبالسلوّ عن غوائل الدنيا وُجِد طعمُ لذّاتها ، وإنّها (١٢٣)

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : «وثبت نفسك ... » .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « لو كشفت عما ... » .

لأمرٍ من العَلْقَم إذا عَجَمها الحكيم؛ وقد أعيت الواصفَ لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتى به من العجائب أكثر مما يُحيط به الواعظ . اللهم أرشدنا للصواب .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال: أيها الناس، إنكم خُلِقتم لأمرٍ إن كنتم تصدِّقون [به][1] فإنكم حُمْقَى، وإن كنتم تكذِّبون به إنكم لهَلْكَى[2]، إنما خُلِقتم للأبد، ولكنكم من دارٍ الى دارٍ تُنْقَلون. عباد الله، إنكم فى دارٍ لكم فيها من طعامكم غَصَص، ومن شرابكم شَرَق، لا تصفو نعمةٌ تُسَرُّون بها إلا بفراق أُخرى تكرهون فِراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه خالدون فيه . ثم غلبه البكاء ونزل .

ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه

فأمّا درجاته فقد قال الغزالىّ رحمه الله : إنها تتفاوت بحسب تفاوت قوّته على درجات ثلاث :

الأولى وهى السفلى منها : أن يزهدَ فى الدنيا وهو لها مُشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتةٌ ولكنّه يجاهدها ويَكُفّها، وهذا يسمّى التزهُّد، وهو مبدأ الزهد فى حقّ من يصل الى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والمتزهِّد يُذيب أوّلا نفسَه ثم كسبه، والزاهد يُذيب أوّلا كسبَه ثم يُذيب نفسه فى الطاعة لا فى الصبر على ما فارقه . والمتزهِّد على خَطَر، فإنه ربما تغلبه نفسُه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير .

الثانية : الذى يترك الدنيا طوعاً[3] لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذى يترك درهمًا لأجل درهمين فإنّه لا يشُقّ عليه ذلك وإن كان يحتاج

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) الذى فى الإحياء : «وان كنتم تكذبون به فإنكم هلكى» .
(٣) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «طاعة» .

إلى انتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه ، فيكاد يكون مُعْجَبًا بنفسه وبزهده ، ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرًا منه ؛ وهذا أيضا نقصان .

الثالثة وهى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنّه ترك شيئًا إذ عرَف أن الدنيا لا شىء ، فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جوهرةً فلا يرى ذلك معاوضةً ولا يرى نفسه تاركا شيئا . [والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خزفة بالإضافة إلى جوهرة][1] ؛ فهذا هو الكمال فى الزهد ، وسببه كمال المعرفة . وأما أقسامه فمنها ما هو مضاف إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه ؛ فأما المرغوب فيه فهو على ثلاث درجات :

الأولى وهى السفلى : أن يكون المرغوبُ فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدى العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار . وفى الخبر : "إن الرجل لَيُوقَف فى الحساب حتى لو وردتْ مائةُ بعيرٍ عِطاشًا على عَرَقه لصَدَرَتْ رِوَاء" ؛ فهذا زهد الخائفين وكأنّهم رَضُوا بالعدم لو أُعْدِموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم .

الدرجة الثانية : أن يزهد رغبةً فى ثواب الله ونعيمه واللّذّات الموعودة فى جنّته من الحُور والقصور وغيره ، وهذا زهد الراجين ، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من الألم بل طمِعوا فى وجودٍ دائم ونعيم سَرْمَدٍ لا آخر له .

الدرجة الثالثة وهى العليا : ألا يكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الالام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذّات ليقصِد نَيْلَها والظفرَ بها ،

(١) زيادة من الإحياء .

بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى، وهو الموحّد الحقيقىّ الذى لا يطلب غير الله تعالى، لأنّ من طلب غير الله فقد عبده؛ وكلّ مطلوب معبود، وكلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلبُ غير الله من الشرك الخفىّ؛ وهذا زهـد المحبّين وهم العارفون، لأنه لا يحبّ الله تعالى خاصّة إلا من عرفه؛ وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنّه لا يقدِر على الجمع بينهما لم يحبّ إلا الدينار، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف لذّة النظر الى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذّة وبين لذّة التنعُّم بالحُور العِين والنظر الى نقش القصور وخضرة الأشجار غـير ممكن، فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولا يُؤْثر غيره. قال: ولا تَظُنّنّ أن أهل الجنّة عنـد النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحُور والقُصور مُتّسعٌ فى قلوبهم، بل تلك اللذّة بالإضافة إلى لذّة نعيم الجنّـة كلذّة مُلْك الدنيـا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخَلْق بالإضافـة إلى الاستيلاء على عُصفور واللعب به؛ والطالبون لنعيم الجنـة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبىّ الطالب للّعب بالعصفور التارك للّذة الملك، وذلك لقصـوره عن إدراك لذّة الملك لا لأن اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأمّا المرغوب عنه، فقد كثرت فيه الأقاويل.

قال الغزالىّ رحمـه الله: لعلها تزيد على مائة قـول، وأشار إلى كلام محيـط بالتفاصيل فقال: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل.

أما الإجمال فى الدرجة الأولى: فهو كلّ ما سوى الله فينبغى أن يزهد فيه حتّى يزهد فى نفسه أيضا.

والإجمال فى الدرجة الثانية : أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها مُتعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكِبْر والرياسة والمال والجاه وغير ذلك .

وفى الدرجة الثالثة : أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس .

وفى الدرجة الرابعة : أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم [والجاه[1]]، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثُرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة . قال : وأعنى به كلّ علم وقدرة مقصودهما ملك القلوب؛ إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها . قال : فإن جاوزتَ هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فتكاد تُخْرِج ما فيه الزهدُ عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . ثم ردّه فى آية أخرى إلى خمسة فقال : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ ﴾ . ثم ردّه فى موضع آخر إلى اثنين فقال : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ . ثم ردّ الكلّ فى موضع آخر إلى واحد فقال : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾؛ فالهوى لفظٌ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا، فينبغى أن يكون الزهد فيه .

قال : فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها .

---

(١) زيادة عن الإحياء .

وقال أبو سليمان الدارانىّ : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا، والزهد عندنا ترك كلّ شى يشغلك عن الله عز وجلّ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، قال : هو القلب الذى ليس فيه غير الله . فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه .

وأما أحكامه فتنقسم إلى فرض ونفل وسلامة . فالفرض هو الزهد فى الحرام، والنفل هو الزهد فى الحلال ، والسلامة هو الزهد فى الشبهات . فهذه درجاته وأقسامه وأحكامه على سبيل الاختصار .

ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

(١٢٥) قال الغزالىّ رحمه الله : اِعلم أنّ ما الناسُ منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهمّ؛ فالفضول كالخيل المسوّمة — إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفُّه بركوبها وهو قادر على المشى — وغيرِ ذلك مما لا ينحصر . ثم حصَر المهمّ الضرورىّ فتميّز ما عداه أنّه فضُول . قال : والمهمّ أيضا يتطرّق إليه فضول فى مقداره وجنسه[(١)] وأوقاته على ما يشرحه من قوله . قال : والمهمّات ستّة أمور، وهى: المطعم، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمنكح، والمـال، والجاه يطلب لأغراض .

فالمهمّ الأوّل المطعم . ولا بدّ للإنسان من قوتٍ حلالٍ يُقيم صُلبه، ولكن له طول وعرض ووقت . فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد لا يقنع به ، وهو لا يقصُر إلا بقصر الأمل، وأقلّ درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّته وخوف المرض . ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر[(٢)] من غدائه لعشائه؛ وهذه الدرجة العليا .

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « وجنسه ... » .
(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « ولم يدخر » بالواو .

والثانية : أن يدّخر لشهر أو أربعين يوما .

والثالثة : أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهّاد . ومن ٱدّخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال؛ لأنّ من أمّل بقاءً أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًا فلا يتمّ منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدى الناس، كداود الطائىّ فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها عشرين سنة، فهذا لا يضادّ الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد .

وأمّا عَرْضه فبالإضافة الى المقدار، وأقل درجاته فى اليوم والليله نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُدّ — وهو ما قدّره الله تعالى فى إطعام المساكين فى الكفّارة — وما وراء ذلك فهو ٱتساع وٱشتغال بالبطن . ومن لم يقدِر على الٱقتصار على مُدّ لم يكن له من الزهد فى البطن نصيب .

وأمّا بالإضافة إلى الجنس فأقلّه ما يَقوت وهو الخبز من النُّخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البُرّ غير منخول؛ فاذا مُيّزت النُّخالة منه وصار حُوّارَى فقد دخل فى التنعُّم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله .

وأمّا الأُدْم، فأقلّه المِلح أو البقل والخلّ، وأوسطة الزيت أو يسيرٌ من الأدهان، وأعلاه اللحم وذلك فى الأسبوع مرّة أو مرّتين؛ فإن صار دائما أو أكثر من مرّتين فى الأسبوع خرج من آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا فى البطن أصلا .

وأمّا بالإضافة إلى الوقت فأقلّه فى اليوم والليلة مرّة وهو أن يكون صائما ثم يُفطر فى وقت الإفطار؛ وأوسطه أن يصوم و يشرب ليلةً ولا يأكل، و يأكل ليلة ولا يشرب؛ وأعلاه أن ينتهى إلى أن يَطْوِىَ ثلاثة أيام وأسبوعا وما زاد عليه .

وٱنظر الى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى كيفيّة زهدهم فى المطاعم وتركهم الأُدم وٱقتصارهم على ما يُمسك الرمَق . قالت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله

عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليـلة وما يُوقَد فى بيت رسول الله صـلى الله عليه وسلم مصباحٌ ولا نار . قيل لها : فبم كنتم تعيشون؟ قالت : بالأسودَين التمر والماء. وجاء أهل قُبَاء إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم بشربة من لبن مَشُوبةٍ بعسل، فوضع القـدحَ من يده وقال : "أمَا إنِّى لست أُحرِّمه ولكنّى أتركه تواضعاً لله تعالى" . وأُتِى عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يومٍ صائف فقال: اعزِلوا عنِّى حسابها . وقال يحيى بن مُعاذ الرازىّ . الزاهد الصـادق قوتُه ما وجَد، ولباسـه ما سَتر، ومسكنه حيث أدرك؛ الدنيا سجنه، والقـبر مضجَعه، والخلوة مجلِسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والربّ أنيسه، والذكر رفيقه، والزهـد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شِـعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشـه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصـبرُ معتمده، والتوكّل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حِرفته، والجنّة مَبلغُه إن شاء الله تعالى .

المهم الثانى الملبس. وأقلّ درجاته ما يدفع الحرّ والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطّى به؛ وأوسطه قميصٌ وقَلَنْسُوة ونعلان؛ وأعلاه أن يكون معه مِنديل وسَراويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مُجاوِز حدّ الزهد . وشرط الزهد ألّا يكون له ثوبٌ يلبسه اذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود فى البيت؛ فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد . هذا من حيث المقـدار . وأما الجنس، فأقلّه المُسُوح الخشنة، وأوسطه الصوف الخشن، وأعلاه القطن الغليظ .

وأما من حيث الوقت، فأقصاه ما يستُر سـنَةً، وأقلُّه ما يبقَى يوما، وقد رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر [وإن كان يتسارع الجفاف إليه][1]؛ وأوسطه ما يتماسك

(١) زيادة من الإحياء .

عليه شهرا وما يقاربه . فطلبُ ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل، وهو مُضادّ للزهد إلا إذا كان المطلوب خشونته وقد يتبع ذلك قوّته ودوامُه . فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدّق به؛ فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبًّا للدنيا . ولينظر إلى أحوال الأنبياء صلى الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم كيف تركوا الملابس. قال أبو بُردة : أخرجتْ لنا عائشة رضى الله عنها كِساءً مُلَبَّدًا وإزارًا غليظا فقالت : قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين . وقال صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى يُحبّ المُتَبَذِّل الذى لا يُبَالِى مالبِس" . وفى الخبر : "ما من عبدٍ لبِس ثوب شُهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزِعه وإن كان عنده حبيبا" . واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبًا بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا، واشترى سراويل بثلاثة دراهم ، وكان يلبَس شَمْلتين بَيْضاوَينِ من صوف وكانت تسمَّى حُلَّةً لأنهما ثوبان من جنس واحد. وربما كان يلبس بُردين يمانِيَيْنِ أو سَحُولِيَّين . ولبس صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سِيَراء[1] من سُندس قيمته مائتا درهم، فكان أصحابه يلمِسُونه ويقولون : يا رسول الله، أَنزَلَ هذا عليك من الجنّة! تعجُّبا، وكان قد أهداه إليه المُقَوْقِس ملك الإسكندرية، فأراد أن يُكرمه بلُبسه ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصَلَه به ، ثم حرّم لُبسَ الحرير والديباج . وقد صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى خَمِيصة[2] لها علم فلمّا سلّم قال : "شَغَلنى النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبى جَهْم وأْتونى بأَنْبجانِيّته[3]" (يعنى كساءه) فاختار لبس الكِساء على الثوب الناعم. وكان شِراك نعله قد أَخْلَق فأُبْدِل بسَيْرٍ جديد فصلّى

(١) السيراء (بكسر السين وفتح التحتية ممدودا) : ضرب من البرود فيه خطوط صفر .

(٢) الخميصة : ثوب خز أو صوف معلم .

(٣) الأنبجانىّ : نسبة الى منبج (كمجلس) موضع بالشام، يقال فى النسبة اليه منبجانى وأنبجانى بفتح بائهما على غير قياس .

فيه؛ فلما سلّم قال : "أعيدوا الشّراك الخَلَق وآنزِعوا هـذا الجديد فإنّى نظرت إليه فى الصلاة" . وعن جابر رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليـه وسلم على فاطمة رضى الله عنها وهى تطحَن بالرحا وعليها كساء من وبر الإبل(١)، فلما نظر إليها بكى وقال: "يافاطمة تجرّعى مرارةَ الدنيا لنعيم الأبد" . فأنزل الله عليه (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . [وقد أوْصى أمته عامّة باتباعه إذ قال: "من أحبنى فَلْيَسْتَنَّ بسُنّتى" . وقال : "عليكم بسُنتى وسُنّة الخلفاء الراشدين من بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ" . وقال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ)(٢)] . وأوصى رسول صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خاصة وقال لها : "إنْ أردتِ اللّحوق بى فإيّاك ومجالسة الأغنياء ولا تَنْزِعى ثوبا حتى تَرْقَعيه". وعُدَّ على قميص عمر رضى الله عنـه اثنتان وعشرون(٣) رقعة بعضها من أَدَم . وفى الخبر : "من ترك ثوب جَمال وهو يقدِر عليه تواضعًا لله تعالى وابتغاءً لوجهه كان حقًّا على الله أن يدّخر له من عبقرىّ الجنّـة فى أتخات الياقوت" . وقال عمر رضى الله عنه : اخلَوْلِقُوا واخشوشنوا ، وإيّاكم وزِىّ العجم كسرى وقيصر . وقال الثورىّ وغيره : اِلْبَسْ من الثياب مالا يُشَهِّرك عند العلماء ولا يُحقِّرك عند الجهّال . وقال بعضهم: قوّمت ثوبى سُفْيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانيق . والأخبار فى التقلّل من اللباس كثيرة فلا نطوّل بسردها .

١٣٧

المهم الثالث المسكن . وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات، أعلاها ألّا يطلب موضـعا خاصًا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصُّفّة، وأوسطها أن يطلب

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : « من أجلة الابل ... » .

(٢) زيادة عن الإحياء .

(٣) كذا بالأصل . وفى الإحياء (ج ٤ ص ٢٢٣ طبع بلاق) : « اثنا عشرة رقعة » .

موضعا خاصًا لنفسه مثل كُوخ مبنىّ من سَعَف أو خُصّ أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حُجرة مبنيّة إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدرُ سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم تكن فيه زينةٌ لم يُخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإنْ طلب التشييد والتجصيص والسعة وآرتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكليّة حدّ الزهد فى المسكن . قال : والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى . وأقلّ الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو من الفضول، والفضول كله من الدنيا، وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا أراد الله بعبدٍ شرًّا أهلك ماله فى الماء والطين" . وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لَبِنة على لبنة ولا قَصَبة على قصبة . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خُصًّا فقال : "ما هذا" قلنا : خصٌّ لنا قد وَهَى، قال : "أرى الأمر أعجل من ذلك" . وآتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قَصَب، فقيل له : لو بنَيت! فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن : دخلنا على صَفْوان بن مُحرِز[1] وهو فى بيت من قَصَب قد مال عليه، فقيل له : لو أصلحته! فقال : كم من رجلٍ قد مات وهذا قائم على حاله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بنى فوق ما يكفيه كُلِّف أن يحمله يوم القيامة" . وفى الخبر : "كلّ نفقةٍ للعبد يؤْجَر عليها إلا ما أنفقه فى الماء والطين" . وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ أنه الرياسة والتطاول فى البُنيان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلُّ بناءٍ وبالٌ على صاحبه يوم القيامة إلا ما أَكَنَّ من حرّ وبرد" . ونظر عمر رضى الله عنه

(١) كذا فى كتابى الخلاصة والتهذيب فى أسماء الرجال . وفى الأصلين : « محيريز » .

فى طريق الشأم الى صَرْح قـد بُنى بجَصّ وآجُرّ، فكَبّر وقال : ما كنت أظنّ أن يكون فى هذه الأمّة من يبنى بنيان هامان لفرعون . وكان ٱرتفاع بناء السلف قامةً وبَسْطة . قال الحسن : كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صـلى الله عليـه وسلم ضربت بيدى الى السقف . وقال عمرو بن دينار : اذا علّى العبـد البناء فوق ستة أذرع ناداه مَلَك : الى أين يا أفسق الفاسقين . وقال الفُضَيل : إنّى لا أعجب ممن بنى وترك ولكنّى أعجب ممن نظر اليـه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود : يأتى قومٌ يرفعون الطين، و يَضَعون الدين، و يستعملون البراذين، يصلّون الى قِبْلتكم، و يموتون على غير دينكم .

المهم الرابع أثاث البيت . وللزهد فيه أيضا درجات، أعلاها حال عيسى عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكُوز؛ فرأى إنسانا يمشِطُ لِحيتَه بأصابعه؛ فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفّيه فرمى بالكوز . وهـذا حكم كلّ أثاث فإنه إنمـا يراد لمقصودٍ فإذا ٱستغنى عنه فهو و بالٌ فى الدنيا والآخرة . وما لا يُستغنى عنه فيُقتصر فيه على أقلّ الدرجات وهو الخَزَف فى كلّ ما يكفى فيه الخزف، ولا يُبَـالَى أن يكون مكسور الطَرَف اذا كان المقصود يحصـل به . وأوسطها أن يكون له أثاثٌ بقدر الحاجة صحيحٌ فى نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد كالذى معه قَصْعة يأكل فيها و يشرب فيها ويحفظ المتاع فيها . وكان السلف يستحسّون ٱستعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف . وأعلاها أن يكون له بعـدد كلّ حاجةٍ آلةٌ من الجنس النازل الخسيس؛ فإنْ زاد فى العدد أو فى نَفاسة الجنس خرج من جميع أبواب الزهد و ركن الى طلب الفضول . ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسـيرة أصحابه رضى الله عنهم . قالت عائشة رضى الله عنها : كان

ضجاع[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وِسادةٌ من أَدَم حَشْوُها لِيف . وقال الفُضَيل : ما كان فِراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا عَباءةً مَثْنِيّة ووسادة حشوها ليف . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مَرْمُولٍ[2] بشريط ، فجلس فرأى أثر السرير فى جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمرَ . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما الذى أبكاك يابن الخطاب" ؟ قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من المُلْك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيّه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ! فقال صلى الله عليه وسلم : "أمَا ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة"! قال : بلى يا رسول الله . قال : "فذلك كذلك" . ودخل رجل على أبى ذَرٍّ فجعل يقلّب بصره فى بيته فقال : يا أبا ذرّ ، ما أرى فى بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجّه إليه صالح متاعنا . فقال : إنه لا بدّ لك من متاع ما دمتَ هاهنا . فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدِم عُمَيْر بن سعد أمير حِمْص على عمر قال له : ما معك من الدنيا؟ فقال : معى عصاى أتوكّأ عليها وأقتل بها حيّةً إن لقيتها ، ومعى جِرابى أحمل فيه طعامى ، ومعى قَصْعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ، ومعى مِطْهَرتى أحمل فيها شرابى ووَضُوئى للصلاة ، فما كان بعد هذا من

(١) كذا فى الأصلين والإحياء ، ولم نجده فى كتب اللغة التى بين أيدينا . وفى لسان العرب ونهاية ابن الأثير «ضجعة» وقالا فى تفسيره : «الضجعة بالكسر من الاضطجاع وهو النوم كالجلسة من الجلوس وبفتحها المرة الواحدة ، والمراد ما كان يضطجع عليه فيكون فى الكلام مضاف محذوف تقديره كانت ذات ضجعة أو ذات اضطجاعه فراش أدم ... » .

(٢) الرمل : النسج ، والسرير المرمول هو الذى ينسج له شريط ويجعل ظهرا له (عن القاموس) . وقد ورد الحديث فى نهاية ابن الأثير وفى لسان العرب : «واذا هو جالس على رمال سرير» وفى رواية أخرى «على رمال حصير» . والرمال كحطام وركام ما رمل أى نسج . والمراد أن هذا السرير قد نسج وجهه بالسعف ولم يكن عليه وطاء سوى الحصير .

الدنيا فهو تَبَعٌ لما معى . فقال عمر : صدقتَ ، رحمك الله . وقدِم رسول الله صلى الله وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سِتْرًا وفى يديها قُلْبَيْن من فضّة فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسأله أبو رافع فقال: "من أجل الستر والسِّوارين": فأرسلت بهما بِلالًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : قد تصدّقت بهما فضَعْهما حيث ترى . فقال: " اذهب فبعه وٱدفعه إلى أهل الصُّفّة". فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم . فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " بأبى أنتِ قد أحسنتِ " . وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قطّ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

المهم الخامس المنكح . قال الغزالىّ : وقد قال قائلون : لا معنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته؛ وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال : قد حُبِّب إلى سيِّد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهنّ! ووافقه ٱبن عُيَينة، وقال : كان أزهد الصحابة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربعُ نسوة وبضْعَ عشرةَ سُرِّيَّة. قال الغزالىّ : والصحيح ما قاله أبو سليمان الدارانىّ إذ قال : كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم . والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . قال : وكَشْفُ الحقّ فيه أنّه قد تكون العُزُوبة أفضل فى بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد! وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فعلِه ولكن ترك النكاح ٱحترازًا عن مَيْل القلب إليهنّ والأنس بهنّ بحيث يشتغل عن ذكر الله فتركُ ذلك من الزهد . وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك ٱحترازًا من لذّة النظر والمضاجعة

والمواقعة فليس هـذا من الزهد أصلا؛ فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثيرُ أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القُربات . واللذّة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضرّه إذا لم تكن هى المقصد والمطلَب؛ وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازاً من لذّة الأكل والشرب، وليس ذلك من الزهد فى شئ؛ لأنّ فى ترك ذلك فواتَ بدنه، فكذلك فى ترك النكاح انقطاعُ نسله ؛ فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا فى لذّته من غير آفةٍ أُخرى . قال: وأكثر الناس تشغَلهم كثرة النسوان، فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمالُ المرأة فلينكح واحدةً غير جميلة وليراعِ قلبه فى ذلك . قال أبو سليمان : الزهـد فى النساء أن تختار المرأةَ الدُّون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة . وقال الجُنَيْد: أُحِبّ للمريد المبتدى ألّا يشغل قلبه بثلاث و إلّا تغيّر حالُه : التكسّب، وطلب الحديث ، والتزوج. فقد ظهر أن لذّة النكاح كلذّة الأكل والشرب، فما شغل عن الله تعالى فهو محذور فيهما جميعا . (١٢٩)

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه. [أمّا الجاه[1]] فمعناه ملك القلوب بطلب محلّ فيها ليُتَوَصّل به إلى الاستعانة فى الأغراض والأعمال. وكلّ من لا يقدِر على القيام بنفسه فى جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدُمه افتقر إلى جاه لا محالة فى قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محلٌّ وقدْرلم يقم بخدمته . وقيام القدر والمحلّ فى القلوب هو الجاه . قال: و إنما يُحتاج إلى المحلّ فى القلوب إما لجلْب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم . فأمّا النفع فيُغنى عنه المـال؛ فإنّ من يخدُم بأجرة خدم و إن لم يكن عنده للمستأجر قدر، و إنما يُحتاج إلى الجاه فى قلب من يخدم

(١) الزيادة عن الإحياء .

بغير أُجرة . وأما دفع الضرر فيُحتاج لأجله إلى الجاه فى بلد لا يكمُلُ فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدِر على دفع شرِّهم إلا بمحلٍّ له فى قلوبهم أو محلّ له عند السلطان . وقدر الجاه فيه لا ينضبط . والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك . بل حق الزاهد ألّا يسعى لطلب المحل فى القلوب أصلا ؛ فإن آشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحلّ فى القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلمين . ٥

وأمّا التوهُّمات والتقديرات التى تُحُوِّج[1] إلى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب فهى أوهام كاذبة ؛ إذ مَن طلب الجاه لم يخلُ عن أذى فى بعض الأحوال ؛ فعِلاج ذلك بالآحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه . فإذاً طلبُ المحلّ فى القلوب لا رخصة فيه أصلا ، واليسير منه داعٍ إلى الكثير ، وضراوتُه أشدّ من ضراوة الخمر ، فليُحترز من قليله وكثيره . ١٠

* * *

وأمّا المـال ، فهو ضرورىّ فى المعيشة أعنى القليل منه . فإن كان كسوبا ، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك الكسب ، هذا شرط الزهد ؛ وإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهّاد وأقوياتهم جميعا . وإن كانت له ضيعة ولم تكن له قوّة يقين فى التوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفى ريعه لسنةٍ واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضُل عن كفاية سنة ؛ ولكن يكون من ضعفاء الزهّاد . ١٥

قال : وأمر المنفرد فى جميع ذلك أخف من أمر المُعْيِل . وقد قال أبو سليمان : لا ينبغى أن يُرهق الرجل أهـلَه إلى الزهد بل يدعوهم إليه ؛ فإن أجابوا وإلّا تركهم ٢٠

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «تخرج ...» .

وفعل بنفسه ما شاء . قال : والذى يُضطر الإنسان إليه من الجاه والمال ليس بمحدود؛ فالزائد منه على الحاجة سمٌّ قاتل، والاقتصار على قدْر الضرورة دواءٌ نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًّا قاتلا فهو مضرّ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعا لكنّه قليل الضرر . والسمّ محظور شُربه، والدواء فَرْض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره . فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يَرِيبه إلى ما لا يريبه وردّ نفسه إلى مَضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة . والمقتصر على [قدر](١) الضرورة والمهمّ لا يجوز أن يُنْسَب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرطُ الدين، والشرط من جملة المشروط .

وقد رُوى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجةٌ فذهب إلى صديقٍ له يستقرضه شيئا فلم يُقرضه فرجع مهموما . فأوحى الله تعالى إليه : لو سألتَ خليلك لأعطاك . فقال : يا ربّ، عرفتُ مَقْتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا . فأوحى الله إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فعلى هذا يكون قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبالٌ فى الآخرة؛ وهو أيضا فى الدنيا كذلك، يعرفه من يخبُرُ أحوال الأغنياء وما عليهم من المِحْنة فى كسب المال وجَمْعه وحفظه واحتمال الذُّلّ فيه؛ وغايةُ سعادته به أن يسلَم لورثته فيأكلوه، وربما يكونون أعداءً له، وقد يستعينون به على المعاصى فيكون هو مُعينا لهم عليها . ولذلك شُبِّه جامع الدنيا ومتّبع الشهوات بدود القَزّ إذ لا يزال ينسُج على نفسه حيًّا(٢) ثم يروم الخروج فلا يجد مَخْلَصاً فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمِله بنفسه؛ فكذلك كلّ من اتبع شهوات الدنيا . قال الشاعر :

(١) الزيادة عن الإحياء . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «ينسج على نفسه حتى يقتلها ثم يروم» .

(١٣٠) كَدُودٌ كدودِ القَزِّ ينسِجُ دائما * ويَهْلِكُ غَمًّا وَسْطَ ما هو نَاسِجُهْ

قال : ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مُهْلِكٌ نفسه بأعماله واتّباعه هوى نفسه إهلاكَ دود القَزّ نفسَه رفضوا الدنيا بالكلّيّة؛ حتى قال الحسن : رأيت سبعين بَدْرِيًّا كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم . وفى لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشدّ فرَحا منكم بالخِصْب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم : مجانين، ولو رأوا خِياركم قالوا : ما لهؤلاء من خَلَاق، ولو رأوا شِراركم قالوا : ما يُؤْمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المالُ الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يُفسد علىّ قلبى . فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حُبّ الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم فقال : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾؛ وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾؛ فأحال ذلك كلّه على الغفلة وعدم الفكر . وقال بعضهم : ما من يوم ذَرّ شارقُه إلا وأربعة أملاكٍ يُنادون فى الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق : يا باغى الخير هلّم، ويا باغى الشرّ أَقْصِرْ . ويقول الآخر : اللّهمّ أَعْطِ مُنفقا خَلَفا، وأَعط مُمسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب أحدهما : لِدُوا للموت وابنوا للخراب؛ ويقول الآخر : كُلُوا وتمتّعوا لطول الحساب .

ذكر بيان علامات الزهد

قال الغزالىّ رحمه الله تعالى : اعلم أنه قد يُظَنّ أنّ تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد . فكم

من الرَّهَابين[1] من ردّوا أنفسهم كل يوم الى نَزْرٍ يسير من الطعام ولازموا ديراً لا باب له ، وإنما مسرّة أحدهم معرفةُ الناس حالَه ونظرُهم إليه ومدحُهم له ؛ فذلك لا يدلّ على الزهد دلالةً قاطعة ؛ بل لا بدّ من الزهد فى المال والجاه جميعا حتى يكمُلَ الزهد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا ؛ بل قد يدّعى جماعةٌ الزهد مع لُبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخوّاص فى وصف المدّعين إذ قال : وقوم ادّعَوُا الزهد ولبِسوا الفاخر من الثياب يُموِّهُون بذلك على الناس ليُهْدَى إليهم مثل لباسهم لئلّا يُنْظَرَ إليهم بالعين التى يُنْظَرَ بها الى الفقراء فيُحقروا فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين ويحتجّون لأنفسهم باتّباع العلم وأنّهم على السنّة وأنّ الأشياء داخلةٌ إليهم وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون [ما يأخذون][3] بعِلّة غيرهم ؛ هذا إذا طُولبوا بالحقائق وأُلجئوا إلى المضايق . وكلّ هؤلاء أَكَلَة الدنيا بالدين لم يُعْنَوْا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فأدّعَوْها حالًا لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا متّبعون للهوى . هذا كلام الخوّاص .

قال الغزالىّ رحمه الله : فإذًا معرفة الزهد أمرٌ مُشكل ، [بل حال الزهد على الزاهد مشكل][2] ؛ فينبغى أن يعوّل فى باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأولى : ألّا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال الله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، بل ينبغى أن يكون بالضدّ من ذلك وهو أن يحزن لوجود المال ويفرَح لفقده .

العلامة الثانية : أن يستوى عنده ذامّه ومادحه ؛ فالأولى علامة الزهد فى المال ، والثانية علامة الزهد فى الجاه .

(١) الرهابين : جمع رهبان وهو الكثير الخوف . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « حتى يكمل الزهد بل فى جميع ... الخ » . (٣) زيادة من الإحياء .

العلامة الثالثة: أن يكون أُنسه بالله عز وجل، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبّة، إما محبّة الدنيا و إما محبّة الله، وهما فى القلب كالمـاء والهواء فى القَدَح؛ فالمـاء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان؛ وكلّ من أَنِس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره. وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلّق الإيمـان بظاهر القلب أحبّ الدنيا والآخرة جميعًا وعمِل لهما، وإذا بَطَن الإيمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها. وقـد ورد فى دعاء آدم عليه السلام: اللّهمّ إنّى أسألك إيمـانًا يُباشر قلبى. وقال أبو سليمان: من شُغِل بنفسه شُغِل عن الناس، وهذا مقام العاملين. ومن شُغِل بربّه شُغِل عن نفسه، وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ أن يكون فى أحد هٰذين المقامين.

(١٢١) وبالجملة فعلامة الزهد آستواء الفقر والغنى والعزّ والذُّلّ والمدح والذمّ، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علاماتَ أُخَر مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى مَنْ أخذها. وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول: أَبنى رباطًا أو أَعمُرُ مسجدا؛ وهذا من كلام الأستاذ أبى علىّ الدقّاق. وقال آبن خفيف: علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك. وقال الجُنَيد: علامته خلوّ القلب عمّا خلت منه اليد. وقال أحمد بن حنبل وسُفيان: علامة الزهد قِصَر الأَمل. وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكّل وألبَسُ بُرد الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرتَ من رياضتك لنفسك فى السرّ إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعُف فى نفسك؛ فأمّا مالم تبلُغ هـذه الدرجة فجلوسك على بسـاط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح. قالوا: ولا يتمّ الزهـدُ إلا بالتوكّل؛ فلنذكر التوكّل.

ذكر ما ورد فى التوكل من فضيلته وحقيقته

أمّا فضيلته فقد قال الله تعالى : ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال الله تعالى : ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ . وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ؛ وناهيك بذلك مقاما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُرِيتُ الأُمم فى الموسم فرأيت أمّتى قد ملئوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم فقيل لى أرضيت قلت نعم قال ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتوون ولا يتطيّرون ولا يَسْتَرْقُون وعلى ربّهم يتوكّلون" . وقال صلى الله عليه وسلم : "من انقطع إلى الله عز وجلّ كفاه الله تعالى مئونة رزقه[(١)] من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها" .

* * *

وأمّا حقيقة التوكل فقد قال الغزالىّ رحمه الله : التوكّل مشتق من الوِكالة يقال : وَكَل أمرَه إلى فلان أى فوّضه إليه وٱعتمد عليه [فيه][(٢)]. ويسمّى الموكول[(٣)] إليه وكيلا، ويسمّى المفوّض اليه مُتّكلا عليه ومُتَوَكَّلا عليه مهما[(٤)] ٱطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتّهمه فيه [بتقصيره ولم يعتقد فيه عجزًا ولا قصورا][(٥)]. ثم قال بعد أن ضرب لذلك أمثلة يطول شرحها : وٱعلم أن حالة التوكّل فى القوّة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون حاله فى حقّ الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل .

---

(١) فى الإحياء (ج ٤ ص ٢٤٢) : « كفاه الله كل مئونة ورزقه ... » .

(٢) الزيادة عن الإحياء . (٣) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « الموكل اليه ... » .

(٤) كذا فى الأصل والإحياء . ولعلها : « ما اطمأنت ... » . (٥) زيادة عن الإحياء .

الثانية وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل فى حق أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سـواها ولا يعتمد[(١)] إلا إياها ؛ فإن رآها تعلّق فى كلّ حال بها ، و إن نابه أمرٌ فى غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه : يا أماه ، وأوّل خاطر يخطر على قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكِفايتها وشفقتها .

الثالثة وهى أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميّت بين يدى الغاسل يقلّبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير . قال : وهذا المقام فى التوكل يُثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقةً بكرمه وعنايته ، وأنه يُعطِى ٱبتداء أفضلَ ممـا يُسأل . وقد تكلّم المشايخ فى التوكّل و بيان حدّه وٱختلفت عباراتهم وتكلّم كلّ واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه .

قال أبو موسى الدِّيلى : قلت لأبى يزيد : ما التوكل؟ فقال : ما تقول أنت؟ قلت : إن أصحابنـا يقولون : لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرّك . فقال أبو يزيد : نعم هـذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنّة يتنعّمون ، وأهل النار فى النار يُعَـذبون ، ثم وقع بك تمييزٌ عليهما خرجت من جملة التوكّل . وسُئل أبو عبـد الله القرشىّ عن التوكّل فقال : التعلّق بالله تعالى فى كلّ حال . فقال السائل : زِدْنى ؛ فقال : ترك كلّ سبب يُوَصِّل إلى سبب حتى يكون [الحق][(٢)] هو المتولّى لذلك . وهذا مثل توكّل إبراهيم الخليل عليه السـلام إذ قال له جبريل : ألك حاجةٌ؟ فقال : أمّا إليك فلا ؛ إذ كان سؤاله يُفضى الى سبب فترك ذلك ثقةً بأن الله يتولّى ذلك .

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « يغتنم » .

(٢) زيادة عن الإحياء .

قال أبو سعيد الخراز : التوكّل اضطراب بلا سكون، وسكونٌ بلا اضطراب. أشار بالأوّل إلى فزعه إلى الله تعالى وابتهاله وتضرّعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمّه ؛ وبالثانى إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به[1] . وقال أبو علىّ الدقّاق : التوكّل على ثلاث درجات : التوكّل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكّل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصاحب التفويض يرضَى بحكمه. وقال : التوكّل بداية، والتسليم وسائط ، والتفويض نهاية . وقال : التوكّل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحّدين .

وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكّل فقال : ألّا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدّة فاقتك إليها، ولا تزولَ عن حقيقة السكون إلى الحقّ مع وقوفك عليها .

وقال أبو نصر السرّاج : شرط التوكّل ما قاله أبو تُراب النَّخْشَبِيّ وهو طرح البدن فى العبودية وتعلّق القلب بالربوبيّة والطّمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعْطِى شكر[2]، وإن مُنِع صبرَ . وكما قال ذو النُّون : التوكّل تركُ تدبير النفس والانخلاعُ من الحول والقوّة . وقال أبو بكر الدقّاق : التوكّل ردّ العيش إلى يومٍ واحد وإسقاطُ همّ غد .

وسئل ذو النون : ما التوكّل ؟ فقال : خلع الأرباب، وقطع الأسباب . فقال السائل : زدنى؛ فقال : إلقاءُ النفس فى العُبودية وإخراجُها من الرُّبوبيّة . وقال مَسْروق : التوكّل الاستسلام لجَرَيان[3] القضاء والأحكام . وقال أبو عثمان : التوكّل الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه . وقيل : التوكل الثقة بما فى يد الله واليأس مما فى يد الناس . وقيل : التوكّل فراغ السرّ عن التفكّر فى التقاضى فى طلب الرزق .

---

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «وبالثانى الى سكون القلب الى التوكل وثقة به» .

(٢) فى الأصلين : «سكن» والسياق يقتضى ما أثبتناه . (٣) فى الأصل : «بجريان» بالباء ولم نجد هذا الفعل يتعدى بالباء.

ذكر بيـان أعمـال المتوكلين

قال الغزالىّ رحمه الله : قد يُظَنّ أن معنى التوكُّل تركُ الكسب [بالبدن](١) وترك التدبير بالقلب، والسقوطُ على الأرض كالخِرْقة المُلقاة وكاللحم على الوَضَم؛ وهذا ظنّ الجهّال، فإنّ ذلك حرامٌ فى الشرع؛ والشرع قد أثنى على المتوكّلين فكيف يُنال مقامٌ من مقامات الدِّين بمحظورات الدِّين! بل إنما يظهر تأثير التوكّل فى حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده . وسعىُ العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود(٢) عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار، أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوى من المرض . فمقصود حركات العبد لا يعدو هذه الحالات الأربع التى هى جلبُ النافع أو حفظه أو دفعُ الضارّ أو قطعه . ثم ذكر شرط التوكّل ودرجاته فى كل واحد منها، وقرن ذلك بشواهد الشرع، فقال ما مختصره ومعناه :

* * *

امّا جلب النافع، فالأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به، ومظنون ظنًّا يوثق به، وموهوم وهمًا لا تثق النفس به ثقةً تامّة ولا تطمئنّ إليه.

فالدرجة الأولى : المقطوع به كالطعام إذا وُضع بين يدى الرجل وهو جائع محتاج إلى تناوله فامتنع من مدّ يده إليـه وقال : أنا متوكّل، وشرط التوكل ترك السعى، ومدُّ اليد إليه سعىٌ وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسفله؛ فهذا جنون وليس من التوكّل فى شىء، فإنه إن انتظر أنّ الله تعالى يخلق فيه شِبَعًا دون الخبز أو يسخّر مَلَكًا يمضغه ويُوصله الى معدته فهذا رجلٌ جهل سنّة الله

(١) الزيادة عن الإحياء. (ج ٤ ص ٢٥٣ طبعة بلاق) . (٢) كذا فى الإحياء. وفى الأصل : «معبود عنه» .

تعالى؛ وكذلك لو لم يزرع الأرض وطمع أنّ الله تعالى يخلق نباتاً من غير بَذْر أو تلد زوجه من غير مباضعةٍ كَرْيم، فكلّ ذلك جنون ؛ بل يجب عليه أن يعلم أن الله تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة، وأنّه الذى يُطعمه ويَسقيه ، وأن يكون قلبه وٱعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام ، فليمدّ يده ويأكل فإنه مُتوكّل .

والدرجة الثانية : الأسباب التى ليست متعيِّنة ، ولكن الغالب أن المسبَّبات لا تحصل دونها وٱحتمالُ حصولها دونها بعيدٌ كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادى التى لا يطرُقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير ٱستصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا فى التوكّل، بل ٱستصحاب الزاد فى البوادى سنّة الأوّلين مع الٱعتماد على فضل الله عز وجل لا على الزاد؛ ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل وهو فعل الخواصّ . قال الغزالىّ : فإن قلت : فهذا سعىٌ فى الهلاك وإلقاء النفس إلى التَّهْلُكة ، فٱعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسَه وجاهدها حتى صبرَت عن الطعام أسبوعا أو ما يقاربه بحيث إنه لا يناله ضيق قلب ولا تشويش خاطر . والثانى أن يكون بحيث يقوى على التقوُّت بالحشيش وما يَتّفق من الأشياء الخسيسة ، فإنه لا يخلو غالبَ الأمر فى البوادى فى كلِّ أسبوع أن يلقاه آدمى أو ينتهى إلى مَحَلّة أو قرية أو الى حشيش يتقوّت به ؛ وعلى هذا كان يُعوّل الخَوّاص ونظراؤه من المتوكّلين . وقد كان الخوّاص مع توكُّله لا تفارقه الإبرة والمِقْراض والحبل والركوة ، ويقول : هذا لا يقدح فى التوكّل .

وأمّا لو ٱنحاز الى شِعب من شِعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرُقه طارق فيه وجلس متوكّلا فهو آثم به ساع فى إهلاك نفسه .

وأمّا القاعد فى البلد بغير كسب فليس ذلك حراما، لأنه لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخّر عنه . فإن أغلق بابَ البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليـه ففعلُه ذلك حرام . فإن فتح باب البيت وهو بطّال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى ، ولكن ليس فعله حراما إلّا أن يُشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وإن كان مشغول القلب بالله غير متطلّع إلى الناس ولا إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزق، بل تطلّعه إلى فضل الله تعالى وٱشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكّل، فإن الرزق يأتيه لا محالة . فلو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه .

قال ابن عبـاس رضى الله عنهما : اِختلف النـاس فى كلّ شىء إلا فى الرزق والأجل [فإنّهم](١) أجمعوا أن لا رازق ولا مُميت إلا الله تعالى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو توكّلتم على الله تعالى حقّ توكّله لرزقكم(٢) كما يرزقُ الطيرَ تغدو خماصًا وتروح بِطانا ولزالت بدعائكم الجبال" . وقال عيسى عليه السلام : اُنظروا إلى الطير لا تزرَع ولا تحصُد ولا تدّخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم، فإن قلتم نحن أكبر بطونا، فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله تعالى لها هذا الخلق [للرزق](١). وقال أبو يعقوب السوسى: المتوكّلون تجرى أرزاقُهم على أيدى العباد بلا تعبٍ منهم وغيرُهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلّهم فى رزق الله تعـالى ، لكن بعضهم يأكل بذلّ كالسؤّال، وبعضهم يأكل بتعب كالتجّار، وبعضهم بامتهانٍ كالصنّاع، وبعضهم بعزّ كالصوفيّة، يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة .

والدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التى يُتوهّم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقةٍ ظاهرة، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه،

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : «لرزقتم .....» .

وذلك يُخرج بالكلّية عن درجات التوكّل كلّها، وهو الذى الناسُ كلّهم فيه من التكسُّب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحا لمالٍ مباح . هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى فى جلب النافع، وذكر لذلك أمثلة ونظائر تركناها اختصارا .

✦

٥ وأمّا حفظ النافع فهو التعرض لأسباب الادّخار، فمن حصل له مال بإرثٍ أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله فى الادّخار ثلاث أحوال :

الأولى : أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكلَ إن كان جائعا، ويلبس إن كان عاريا، ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويُفرّق الباقى فى الحال ولا يدّخر منه إلا ما أرصده لمحتاج؛ فهذا هو المُوفى بموجب التوكّل تحقيقًا، وهى الدرجة العليا .

١٠ الحالة الثانية المقابِلةُ لهذه المُخرِجة له عن حدود التوكّل : أن يدّخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكّلين أصلا .

الحالة الثالثة : أن يدّخر لأربعين يوما فما دونها، فهذا يُوجب حرمانَه من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكّلين . وقال الخوّاص : لا يخرج بأربعين يومًا ويخرج بما زاد عليها .

١٥ ✦

وامّا دفع الضارّ عن النفس والمال فقد قال الغزالىّ رحمه الله : ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر . أمّا فى النفس فكالنوم فى الأرض المَسْبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل أو السقف المتكسّر، فإنّ ذلك مَنهىّ عنه وصاحبُه قد عرّض نفسه إلى الهلاك بغير فائدة . وأمّا فى المال

٢٠ فلا ينقص التوكّلَ إغلاق باب البيت عند الخروج منه ولا أن يُعقّل البعيرُ . فهذه أسباب عُرفت بسنّة الله تعالى، فقد رُوى عن أنَس بن مالك رضى الله عنه أنه

قال : جاء رجل على ناقة فقال : يا رسول الله، أدَعُها وأتوكل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اِعقِلْها وتوكّل" .

❖

وأمّا إزالة الضرر فقد قال الغزالىّ رحمه الله تعـالى : إن الأسـباب المزيلة للضرر تنقسم إلى مقطوع به كالمـاء المزيل لضرر العطش والخـبز المزيل لضرر الجوع؛ وإلى مظنون كالفَصْد والحِجامة وشرب الدواء وسائر أبواب الطبّ؛ وإلى موهوم كالكىّ والرُّقْية . ٥

أمّا المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرامٌ عند خوف الموت .

وأمّا الموهوم، فشرط التوكل تركه، إذ بتركه وَصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المتوكّلين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم يتوكّل من آسترقَى وآكتوى" . ١٠ وقال سعيد بن جُبَير : لدغتنى عقربٌ فأقسمتْ علىّ أُمّى لتَسْتَرْقِيَنّ، فناولتُ الراقى يدى التى لم تُلدغ .

وأمّا الدرجة الوسطى وهى المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطبّاء ففعلُ ذلك لايُناقض التوكّل بخلاف الموهوم، وتركُه ليس بمحظور بخلاف المقطوع به . وقد تداوى رسـولُ الله صلى الله عليه وسـلم وأمر بالتداوى وقال : "ما من داءٍ إلا وله دواءٌ عَرَفه من عرفه وجهِله من جهله إلّا السامَ" يعنى الموت؛ وتضافرت الأحاديث بالأمر بالدواء . ١٥

ومنهم من رأى أن ترك التداوى قد يُحمد فى بعض الأحيان إذا اقترن به أحد أسباب ستة :

الأوّل : أن يكون المريض من المكاشَفين وقـد كُوشف بأنه آنتهى أجله وأن الدواء لا ينفعـه، وتحقّق ذلك إما برُؤْيا صادقةٍ أو بحَدْس وظنّ أو بكشف محقّق ٢٠

كحال أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه لمّا قيل له فى مرض موته : لو دعَوْنا لك طبيبا ! فقال : الطبيب نظر إلىّ وقال إنّى فعّال لما أُريد . وكان رضى الله عنه من المكاشَفين ؛ والدليل على ذلك أنّه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث : إنما هنّ أُختاك ؛ وما كان لها إلا أُختٌ واحدة وكانت آمرأته حاملا فولدت أنثى ؛ فلا يبعد أن يكون كوشف بانتهاء أجله ؛ ومحال أن يُنكر التداوى وقد رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فعَله .

الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته وآطّلاع الله تعالى عليه ، فيُنسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرّغ قلبه للتداوى شُغلاً بحاله ، كحال أبى ذرّ لمّا رَمِدتْ عيناه ، فقيل له : لو داويتَهما ! فقال : إنّى عنهما مشغول . فقيل له : لو سألت الله أن يعافيك ! فقال : أسأل فيما هو أهمّ علىّ منهما . وكحال أبى الدرداء فإنه قيل له فى مرضه : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى . قيل : فما تشتهى ؟ قال : مغفرة ربى . قالوا : ألَا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى . ويكون حال هذا كالمصاب بموت عزيز من أحبابه أو كالخائف من ملِك فيشغَله ذلك عن ألم الجوع . (١٣٥)

الثالث : أن تكون العلّة مزمنة والدواء الذى يُؤمر به بالإضافة إلى علّته موهوم كالكىّ والرقية ، فتَرَكه للتوكّل كالربيع بن خيثَم فإنه أصابه فالج ، فقيل له : لو تداويت ! فقال : لقد هَمَمت ثم ذكرت عادًا وثمود وقروناً بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطِبّاء فهلَك المُداوِى والمداوَى ولم تُغْنِ الرُّقَى شيئا . أى إن الدواء غير موثوق به .

الرابع : أن يقصد العبد ترك التداوى استيفاءً للمرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى وليجرِّب نفسه فى القدرة على الصبر .

الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوبٌ وهو خائفٌ منها عاجزٌ عن تكفيرها فيرى المرضَ إذا طال تكفيرا ، وتَرَك التداوى خوفا من أن يُسرع زوالُ

المرض ورغب فى مضاعفة الأجر . فقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حُمّى يوم كفّارة سنة" .

السادس: أن يستشعر العبد فى نفسه مبادئ البَطَر والطُّغيان بطول مدّة الصحّة، فيترك التداوى خوفاً من أن يُعاجله زوال المرض فتعاودَه الغفلة والبطر والطغيان أو طولُ الأمل والتسويفُ فى تدارك الفائت وتأخيرِ الخيرات ؛ فإن الصحة تُحرّك الهـوى وتبعث على الشهوات وتدعو إلى المعاصى، وأقلّها أنْ تدعو إلى التنعّم فى المباحات وهو تضييع الأوقات و إهمال الربح العظيم فى مخالفـة النفس وملازمةِ الطاعات . و إذا أراد الله بعبدٍ خيراً لم يُخلِه عن التنبيه بالأمراض والمصائب ؛ ولذلك قيل : لا يخلو المؤمنون من عِلّة أو قِلّة أو ذِلّة . قال : فلما أن كثُرت فوائد المرض رأى جماعة تركَ الحيلة فى زوالهـا، إذ رأَوْا لأنفسهم مَزِيداً فيها لا من حيث رأوا التداوى نُقصانا، وكيف يكون ذلك نقصانا وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

فهذه نُبذة كافية فى مقامى الزهد والتوكل . فلنذكر الأدعية .

البـاب الرابع

من القسم الرابع من الفن الثـانى

فى الأدعيـــة

وهذا الباب — يقبل الله منا ومنك وفينا وفيك صالح الدعوات، وجعلنا و إيّاك ممن اعتمد على كرمه ومنّته فى الحركات والسكنات ؛ و وفّقنا للتضرع والسكون إلى فضله ، وعاملنا بما هو من أهله لا ما نحن من أهله — هو مَشْرَع الظمآن إلى موارد الكرم العذبة ، ومَفْزَع الحـيران إذا ألمّتْ به الضائقة وحصرته الكُربة ؛ فبه يُتَوَسّل الى الله تعالى فى مطالب الدنيا والآخرة ، ويُتَوَصّل إلى النعم الوافية والخيرات الوافرة ؛ كيف لا وقد

أمرنا الرب العظيم بالدعاء والإنابة ، ووعدنا وهو الوفيّ الكريم بالقبول والإجابة ؛ وترادفت بفضله الأخبار الصحيحة ، وجاءت بشرفه الآثار الصريحة ؛ على ماستقف على ذلك إن شاء الله تعالى واضحا ، وتعوّل عليه مقيما وظاعنا وغاديا ورائحا . فلازمه فى سائر أحوالك ، وتعاهده فى بُكَرك وآصالك ؛ فستجنى إن شاء الله منه ثمار غَرْسك ، وتجد حلاوة ذلك فى قلبك وأنسه فى نفسك .

وأعلم أن للدعاء ، كما قال ابن عطاء ، أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا . قال : فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار فى السموات ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه أنجح . فأركانه حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب . وأجنحته الصدق . ومواقيته الأسحار . وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه فيقول نعم فيقول له أمَا إنك مادعوتنى بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها أليس دعوتنى يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة فيقول نعم ويقول ودعوتنى يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة فيقول نعم فيقول فإنى ادّخرتها لك فى الجنة فلا يُبقى له دعوة إلا بيّنها له حتى يتمنّى المؤمن أن دعواته كلها كانت ذخائره فى الآخرة" . وعن النعمان بن بَشِير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الدعاء هو العبادة" قال : وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء" . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الدعاء ينفع

مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عبادَ الله بالدعاء" . وعن أنس رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله عز وجل حيٌّ كريم يستحيي إذا بَسَط الرجلُ إليه يديه أن يردَّهما صِفْرًا ليس فيهما شيء" . وعن أبى سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "دعوة المسلم لا تُرَدُّ إلا بإحدى ثلاث ما لم يدعُ بإثم أو قطيعةِ رَحِم إما أن يستجيبَ الله له فيما دعا أو يدّخر له فى الآخرة أو يَصرِف عنه من السوء بقدر ما دعا" . وعن أنس رضى الله عنه قال: قيل يارسول الله : إنا ندعو بدعاء كثيرٍ منه مانرى إجابتَه ومنه مالا نرى إجابتـه فقال : "والذى نفسى بيده مامن أحدٍ يدعو بدعوة إلا آستُجِيب له أو صُرِف عنه مثلُها شرًا". قالوا : يارسول الله، إذًا نُكثر؟ قال: "الله أكثر وأكثر" ثلاث مرات . وعنه رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "دعوة فى السر تَعدِل سبعين دعوةً فى العَلَانِيَة" . وعن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لله عز وجل فى الليل والنهار عُتَقاءَ من النار ولكلّ مسلمٍ ومسلمةٍ فى كلّ يومٍ وليلة دعوة مستجابة" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تعالى يقول من ذا الذى دعانى فلم أُجِبْه وسألنى فلم أُعْطِه وآستغفرنى فلم أَغْفِر له وأنا أرحم الراحمين" . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا فتح الله على عبدٍ بابَ الدعاء فليُكثر فإنّ الله يَستجيب له" . وعن آبن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : "من فُتِح له بابٌ فى الدعاء فُتِحت له أبواب الإجابة" . وعن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من لم يسألِ الله يغضَبْ عليه" . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية فقال صلى الله عليه وسلم : "اللّهم إنّك

أمرتَ بالدعاء وتوكّلت بالإجابة لبّيك اللهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك أشهد أنّك فردٌ أحد صَمَدٌ لم يَلِد ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحد وأشهد أنّ وعدك حق ولقاءك حقّ والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنّك تبعث من فى القبور" . هذا مما ورد فى الحثّ على الدعاء .

وأمّا ما ورد فى نفع الدعاء ودفعه للبلاء، رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أنواع البِرّ كلّها نصفُ العبادة والنصف الآخر الدعاء". وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ينفع حَذَرٌ من قَدَر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاءَ لَيَلْقَى البلاءَ فيعتلجان إلى يوم القيامة" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم لا ينزل وإن الدعاء لَيَرُدّ القضاء المُبْرَم وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدُهما يدفع صاحبَه إلى يوم القيامة" . وعن سَلْمان الفارسىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ ولا يزيد فى العمر إلا البِرّ". وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدعاء سِلاحُ المؤمن وعِمادُ الدِّين ونورُ السموات والأرض" .

وأمّا ما ورد فى الإلحاح فى الدعاء وهيئة الذِّلّة والإنابة، قال الله تعالى : ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ الله يحبّ المُلِحّين فى الدعاء". وعن أبى هريرة

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُدعوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة وآعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاءً من قلب ساهٍ لاهٍ" . وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه فى الدعاء حتى يُرَى بياضُ[1] إبطيه . وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا جعل باطن كفّيه إلى وجهه . وعنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سلوا الله ببطون أكفّكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فآمسحوا بها وجوهكم" وعن آبن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن ربكم عز وجل حيٌّ كريم يستحيي أن يرفع العبد يديه فيردّهما صِفْرا لا خير فيهما فإذا رفع أحدكم يده فليقل يا حىّ لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين ثلاث مرات ثم إذا ردّ يده فليُفرغ ذلك الخير على وجهه" . وعن عمر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مدّ يديه فى الدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الإخلاص هكذا ورفع إصبعا واحدا من اليد اليمنى والدعاء هكذا وجعل بطونهما مما يلى السماء والآبتهال هكذا ومدّ يديه شيئًا وجعل ظهر الكفّ مما يلى السماء" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد فأكثِروا الدعاء" .

(١٣٧)

* * *

وأمّا ماورد من كراهية آستعجال الإجابة ورفع البصر والسجع فى الدعاء قال تعالى : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يستجابُ لأحدكم ما لم يعجَل

(١) فى الأصلين هكذا : «بيان» والتصحيح عن الإحياء (ج ١ ص ٢٨٧) .

فيقول قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لى" . وعنه صلى الله عليه وسلم: "لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل". قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: "يقول قد دعوت الله مرارا فلا أراه يستجيب لى" . وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن رفع أبصارهم عند الدعاء فى الصلاة إلى السماء أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهم" . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : إيّاك والسجْعَ فى الدعاء فإنّى شهدت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك .

* * *

وأمّا ما ورد فيمن تجاب دعواتهم. قال الله عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : "خمسُ دَعَواتٍ لا تُرَدّ دعوةُ الحاجّ حتّى يصدُر ودعوة الغازى حتى يرجع ودعوة المظلوم حتى يَنتصِر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بالغيب وأسرعُ هؤلاء الدعوات إجابةً دعوةُ الأخ لأخيه بالغيب" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكّ فيهنّ دعوةُ الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم" . وفى حديث آخر : "دعوة الصائم بدل دعوة الوالد" . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ حين بعثه إلى اليمن : "إنّك تأتى قوماً أهلَ كتابٍ فاتّق دعوة المظلوم" . وعنه صلى الله وسلم : "الإمام العادل لا تُرَدُّ دعوته". وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا تردّ دعوتهم إمامٌ مُقْسِط ودعوة الصائم ودعوة المظلوم تُفتح لها أبواب السماء و يقول الله عز وجل لأنصرنّك ولو بعد حين". وعنه صلى الله عليه وسلم : "دعاء الوالد لولده مثل دعاء النبي لأمته". وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أسرعُ الدعاء إجابةً دعوةُ غائب لغائب". وعن أبي الدرداء، رضى الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "دعوةُ الرجل لأخيه بظهر الغيب تعدِل سبعين دعوةً مستجابةً ويُوَكَّل الله عز وجل ملَكا يقول آمين ولك مثل ما دعوت". وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب إلّا قال له ملَك عن يمينه وملَك عن شِماله ولك مثله". وعن أبي أُمَامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حامل القرآن له دعوة مستجابة". وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا دخلت على المريض فسَلْه يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة". وعن أنس رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أُلهم الدعاء لم يُحْرَم الإجابةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومن أُلهم التوبةَ لم يحرم القبولَ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ومن أُلهم الشكر لم يحرَم الزيادةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن أُلهم الاستغفارَ لم يحرم المغفرةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ومن أُلهم النفقةَ لم يحرم الخَلَف لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾".

ذكر الأوقات التي تُرجى فيها إجابةُ الدعاء

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَنزِل الله حين يبقى ثُلثُ الليل إلى السماء الدُّنيا فيقول من يسألني فأُعطيَه ومن يدعوني فأَستجيبَ له ومن يستغفرني فأغفرَ له". وعنه صلى الله عليه وسلم: "تُفتح أبوابُ السماء ويُستجاب دعاءُ المسلم عند إقامة الصلاة وعند

نزول الغيث وعند زَحْف الصفوف فى سبيل الله وعند رُؤية الكعبة" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا فاءت الأفياء وهبّت الرياح فآرفعوا إلى الله حوائجكم فإنّها ساعة الأوّابين إنه كان للأوّابين غفورا" . وعن أبى أُمامة قال قلت : يا رسول الله، أىّ الدعاء أسمع ؟ قال : "جوفَ الليل وأدبارَ المكتوبات". وعن ٥ آبن عمر قال : أفضلُ الساعات مواقيت الصّلاة فآدعوا فيها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم: "خيرُ يومٍ طلعت فيه الشمس يوم الجمعة إن فيه لساعةً لا يوافقها عبدٌ يصلّى يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إيّاه". وقد آختلف فى ابتداء وقت هذه الساعة فقيل : أوّلُ ساعة من طلوع الشمس، وقيل : آخرُ ساعة من غروبها، وقيل : عند جلوس الإمام على المنبر، وقيل : من الزوال إلى ١٠ ابتداء الصلاة، وقيل : من بعد العصر إلى الغروب، وقيل: إنها تنتقل فى ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القَدْر فى شهر رمضان . رُوى عن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال لى عبد الله بن عمر رضى الله عنهم : أَسمعتَ أباك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ساعة الجمعة؟ قال: نعم، سمعته يقول : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ساعة الجمعة يقول : "هى ما بين أن يجلس ١٥ الإمام إلى أن تُقضى الصلاةُ" . وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها عن أبيها صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن فى الجمعة لساعةً لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه" . فقلت : يا أبت، أىّ ساعة هى؟ قال: "إذا تدلّى نصف الشمس للغروب" . فكانت فاطمة رضى الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلاما لها يقال له زيد يرصُد لها الشمس ، فإذا تدلّى نصف الشمس ٢٠ للغروب أعلمها، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس وتصلّى .

وحيث ذكرنا هذه المراتب فلنذكر الأدعية المنصوص عليها .

ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

قد أورد الشيخ أبو العباس أحمد بن علىّ بن يوسف القرشىّ البُونِى رحمه الله تعـالى دعوات الساعات فى اللُّعة النورانية[(١)] فبدأ بيوم الأحد وذكر دعاء كل ساعة منه، ثم ذكر يوم الاثنين فقال: ساعة كذا يُدعَى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الأحد، ثم ذكر يوم الثـلاثاء فقال : ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الاثنين وكذلك فى بقيّة ساعات الأيام والليالى، يذكر كلّ ساعة ويُحيل فى دعائها على ساعة من اليوم أو الليلة التى قبلها . فرأيت أن الراغب فى الدعاء يحتاج فى معرفته إلى كشف طويل وتحقيق إلى أن يصل إلى تلك الساعة من يوم الأحد، وربما تعذّر ذلك على كثير من الناس، فرتّبت الأدعيـة على ما ستقف إن شاء الله تعـالى عليه ليسهُل على المتناول طريقها ويدنو من المحاول تحقيقُها؛ فقلت وبالله التوفيق :

(١٣٩)

دعاء يُدْعَى به فى الساعة الأولى من يوم الأحد، وفى الثامنة من ليلة الاثنين، وفى العاشرة من يوم الاثنين ، وفى الخامسة من ليلة الثلاثاء ، وفى السابعة من يوم الثلاثاء،وفى الثانية من ليلة الأربعاء وفى الرابعة من يوم الأربعاء، وفى الحادية عشرة من ليلة الخميس وفى الأولى من يوم الخميس ، والحادية عشرة من ليـلة الجمعة والعاشرة من يوم الجمعة، وفى الثامنة من ليلة السبت وفى السابعة من يوم السبت ، وفى الخامسة من ليلة الأحد، وهو :

"ربّ أغمسنى فى بحر[من][(٢)] نور هيبتك حتى أخرجَ منه وفى وجهى شعاعات هيبةٍ تخطَف أبصار الحاسدين من الجنّ والإنس فتُعمِيهم عن رمى سهام الحسد فى قرطاس

(١) فى الأصلين : "اللعة النورانية" وصحة الاسم ماذكرناه . وفى دار الكتب المصرية منه نسختان خطيتان تحت رقمى (١٩٩٣ و ٨٥ م تصوّف) .

(٢) زيادة عن اللعة النورانية .

نعمتى، واحجُبنى عنهم بحجاب النور الذى باطنُه النورُ وظاهرُه النار . أسألك باسمك النور وبوجهك النور يانور النور أن تحجُبنى فى نور اسمك بنور اسمك حجاباً يمنعنى من كلّ نقص يُمازج منّى جوهرًا أو عَرَضا إنّك نُور الكلّ ومنوّر الكل بنورك » .

قال البُونى : تدعو بهذا الدعاء ثمانيا وأربعين مرّة فى هـذه الساعة على وضوء بعد صلاة ركعتين فيما يتعلق بسؤال الهيبة وإقامة الكلمة وقهر العدوّ . ويناسب هذا الدعاء من القرآن قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، قال : من قرأ هذه الآية هذا العدد المتقدّم فى بيت مظلم وعيناه مغلقتان شاهد أنوارا عجيبة تملا قلبه، وإن استدام ذلك تشكّلت له فى عالم الحسّ . وهو ذكر يصلح لأرباب الهمم وأهل الخلوات، وكاتبه وحامله تظهر له زيادات فى قوى نفسه وقهر عدوّه وخَصْمه لم يكن يعهدها من قبل؛ ومن أمكنه أن يداوى به العلل الكائنة فى الرأس خصوصا من البرودة وجد تأثير ذلك لوقته .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانيـة من يوم الأحد والتاسعة من ليلة الاثنين وفى الحادية عشرة من يوم الاثنين، وفى السادسة من ليلة الثلاثاء وفى الثامنة من يوم الثلاثاء، وفى الثالثة من ليلة الأربعاء وفى الخامسة من يوم الأربعاء، وفى الثانية عشرة من ليلة الخميس وفى الثانية من يوم الخميس ، وفى الحادية عشرة من يوم الجمعـة ، وفى التاسـعة من ليلة السبت وفى الثامنة من يوم السبت، وفى السادسة من ليـلة الأحد وهو :

« ربّ فرّحنى بما ترضى به عنّى فرحًا يُبهجنى بجميل المَسَارّ، حتى لا ينبسط شىء من وجودى إلا بما بسطه جودك العلىّ . ربّ فرّحنى بنيل المراد منك بفناء إرادتى منّى حتى لا يكون فى كَوْنِى إرادةٌ إلا إرادتُك محفوظةً من عوارض التكوين، وأبهج

بذلك فى سرّ سماء الأفراح فى الوجودَيْن برزق الباطن والظاهر ، إنك باسطُ الرزق والرحمة يا ذا الجودِ الباسطِ يا ذا البسط والجود » .

هذا الذكر من ذكره فى ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة أذهب الله تعالى عن قلبه الحزن وعن صدره الحَرَج والضّيق، ونفى عنه كل همّ وغمّ، وبه يدعو المسجونون والمأسورون والمحزونون فيفرّج الله تعالى عنهم، وذلك بعد صلاة تسليمتين ؛ والآيات[1] المناسبة لهذا القسم ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الآية ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ الآية . قال البُونى : ويقدّم على ذكر هذه الآيات[1]: اَللّٰهُمَّ اجعلنى من الفَرِحين بما آتاهم الله من فضله ، يقول ذلك[2] بعد الذكر الأوّل مثل العدد المذكور ، فيرى المهموم من فضل الله تعالى به عجبا ، ويزداد [به][3] ذو السرور سرورا لا يعرف سببه . ويصلح هذا الذكر لأرباب الفيض من أهل الخَلَوات فإنّهم يَسْتَرْوِحون منه أُنسا فى خَلَواتهم ومخاطبات بألفاظ مختلفة بقدر الفيض والمقام والسبب، يعرف ذلك من كانت له إحاطةٌ بكشف أسرار الدعوات والأسماء.

(١٤٠)

دعاء يُدْعَى به فى الساعة الثالثة من يوم الأحد ، والعاشرة من ليلة الاثنين وفى الثانية عشرة من يوم الاثنين، وفى السابعة من ليلة الثلاثاء وفى التاسعة من يوم الثلاثاء، وفى الرابعة من ليلة الأربعاء وفى السادسة من يوم الأربعاء، وفى الأولى من ليلة الخميس وفى الثالثة من يوم الخميس، وفى الأولى من ليلة الجمعة وفى الثانية عشرة من يوم الجمعة، وفى العاشرة من ليلة السبت وفى التاسعة من يوم السبت، وفى السابعة من ليلة الأحد . وهو :

(١) كذا فى اللمة النورانية . وفى الأصل : «والآية» .

(٢) الذى فى اللمة النورانية : « يضاف بعد الذكر الأوّل مثل هذا العدد المذكور » .

(٣) زيادة من اللمة النورانية .

«ربّ قَلِّبْنى فى أطوار معارف أسمائك تقليبا تُشْهِدنى به فى ذَرَّات وُجودِى ما أودعته ذرّات[1] وجودَى المُلْكِ والمَلَكُوت حتّى أعاين سَرَيان سرّ قدرك[2] فى معالم المعلومات، فلا يبقى معلوم إلا و بيدى سِرّ دقيقةٍ منه مجذوبةٍ بيد الكمال ونور الطوع؛ وأذهِبْ[3] ظلمة الإكراه حتى أتصرّف فى المُهَج بمُبهجات المحبّة إنك أنت المحبّ المحبوب يا مقلّب القلوب» .

قال : من دعا بهذا الأسم والذكر ستّ عشرةَ مرة بعد صلاة ثلاث تسليمات قلب الله قلبه عن كل خاطر فيه نقصٌ[4] إلى كلّ خاطر فيه كمالٌ [فى حقّه][5]، و يصلح لأرباب الأستخارات، وفيه لسرعة قضاء الحاجات معنى بديع . والآيات[6] المناسبة له ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ [وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾، وقوله[5] تعالى] : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ إلى آخر الآية، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ الآية؛ وما يناسب ذلك من القرآن .

وهو ذكر يصلح لأرباب القلوب من تكرار الخواطر والوساوس، وله فى تقلّب الأحوال أمور عجيبة عظيمة لمن فهم ذلك؛ وكذلك من كتب الذكر كله وعلّقه عليه عصمه الله فى تقلّباته من الآفات حتى فى أمور دنياه وآخرته .

---

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى أحد الأصلين : «ما أودعته فى دورات» وفى الأصل الآخر: «ما أودعته من ذوات ...» .

(٢) فى إحدى نسخ اللمعة المخطوطة : «سر قدرتك ... » .

(٣) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصلين : «مجذوبة بيد كمال يبدو الكمال و نور الطلوع أذهب» الخ

(٤) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصلين : « قلب الله قلب كل من خاطره فيه نقص ... » .

(٥) زيادة من اللمعة النورانية .

(٦) كذا فى اللمعة النورانية : وفى الأصلين : « والآية ... » .

دعاء يدعى به فى الساعة الرابعة من يوم الأحد، وفى الحادية عشرة من ليلة الاثنين وفى الأولى من يوم الاثنين، وفى الثامنة من ليلة الثلاثاء وفى العاشرة من يوم الثلاثاء، وفى الخامسة من ليلة الأربعاء وفى السابعة من يوم الأربعاء، وفى الثانية من ليلة الخميس وفى الرابعة من يوم الخميس، وفى الثانية من ليلة الجمعة والأولى من يوم الجمعة، وفى الحادية عشرة من ليلة السبت وفى العاشرة من يوم السبت، وفى الثامنة من ليلة الأحد . وهو :

«ربّ قابلنى بنور اسمك مقابلة تملأ وجودى ظاهرا و باطنا حتى تمحو منّى حظوظ الأشكال كلها فيبدو لى فى وجودى ومن وجودى سرّ ما كتبه قلم تقديرك من كل مُستودَع فى مُستَقَرّ ومستقرّ فى مستودع فلا يخفى علىّ ما غاب عنّى فأَنْظِرْنى بك وأَنْظِر مَنْ سواى بنور اسمك[1] فأرى الكمال المطلق فى المُلْك المطلق، يا مُودِع الأنوار قلوبَ عباده الأبرار يا سريعُ يا قريبُ» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات ست عشرة مرة ثم قصد أىّ حاجة أراد، أسرع اللهُ تعالى قضاءها ونمّى له ما يملكه من مال أو جاه أو حال أو مقام . ومن خاصّة هذا الذكر وضع البركة فى أىّ شىء وُضع عليه . ويصلح هذا الذكر لطالبى المكاشفات من أرباب الخَلَوات فإنهم اذا داوموا هذا الذكر أُلْقِى اليهم الخاطر الصحيح . قال : وإن أضيف له يا سريعُ يا قريبُ يامُبين ظهر له ما يريد من كشف العواقب فى الأفعال المرتبطة بعالَم الغيب والشهادة .

دعاء يدعى به فى الساعة الخامسة من يوم الأحد، وفى الثانية عشرة من ليلة الاثنين وفى الثانية من يوم الاثنين، وفى التاسعة من ليلة الثلاثاء وفى الحادية عشرة

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصل : «أنيتك» .

من يوم الثلاثاء، وفى السادسة من ليلة الأربعاء وفى الثامنة من يوم الأربعاء ، (١٤١)
وفى الثالثة من ليلة الخميس وفى الخامسة من يوم الخميس، وفى الثالثة من ليلة الجمعة وفى الثانية من يوم الجمعة، وفى الثانية عشرة من ليلة السبت وفى الحادية عشرة من يوم السبت، وفى التاسعة من ليلة الأحد . وهو :

٥ «ربّ أسألك مددا رُوحانيًا تقوَى به قُواى الكلّية والجزئيّة حتى أقهر بمبادئ نفسى كلّ نفسٍ قاهرة فتنقبض لى رِقابُها انقباضًا تسقُطُ به قُواها ، فلا يبقى فى الكون ذو رُوح إلّا ونارُ القهر أخمدت ظهورَه ، يا شديدُ يا ذا البطش يا قهّارُ يا جبّارُ أسألك بما أودعته عزرائيل من قُوى أسمائك القهريّة فانفعلت له النفوسُ بالقهر أن تكسونى ذلك السرّ[1] فى هذ الساعة حتى أُلَيِّن به كلّ صعب، وأُذِلّ به كلّ ١٠ منيع بقوّتك ياذا القوّة المتين» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات تسعا وثمانين مرة، ثم دعا على ظالم أُخِذ لوقته ، وذلك بعد صلاة خمس تسليمات بالفاتحة لا غير . ويناسب هذا الدعاء من آى القرآن العظيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ . قال : فى هذا الذكر قمع الجبابرة، وقطع دابر الظالمين، وخراب ١٥ ديار الماردين ، وما شابه ذلك . وهو ذكر يليق بالسالكين فى مبادئ الرياضات والمنتهين فى مقامات التجلّى إلى الخلوة ؛ وهو من الأسرار العجيبة، ولا يذكره من غلبته الشيخوخة إلّا وجد فى قلبه خفقانا بالخاصيّة ، ولا يذكره محمومٌ إلا برئ من حُمّاه لوقته، وإن كتبه وعلّقه عليه دامت صحّته .

دعاء يدعى به فى الساعة السادسة من يوم الأحد، وفى الأولى من ليلة الاثنين ٢٠ وفى الثالثة من يوم الاثنين، وفى العاشرة من ليلة الثلاثاء وفى الثانية عشرة من يوم

(١) كذا فى إحدى نسخ اللمعة النورانية . وفى الأصلين : "واكسني ..." .

الثلاثاء ، وفى السابعة من ليلة الأربعاء وفى التاسعة من يوم الأربعاء، وفى الرابعة من ليلة الخميس وفى السادسة من يوم الخميس، وفى الرابعة من ليلة الجمعة وفى الثالثة من يوم الجمعة، وفى الأولى من ليلة السبت وفى الثانية عشرة من يوم السبت، وفى العاشرة من ليلة الأحد . وهو :

"رب صَفِّنى [من كدرات الأغيار](١) صفاء من صفّته يدُ عنايتك من نقص التكوين(٢) حتى ينجلى فى مرآة قلبى ومستوى نفسى كلُّ آسم آنطبع فى قُوّة جبرائيل فقوِى به على كشف ما فى اللوح من أسرار أسمائك ومجامع رسائلك ، فكلّ نفس منفوسة آمتدّت لها من دقائقه(٣) دقيقةٌ(٣) طرفها منه والثانى لمن هو به ، ومجامع هذه الدقائق(٣) فى دقيقة(٣) الأسم الجبرائيلى العالم العليم العلّام، ياذا الكرم الذى علّم بالقلم، فمواد الوحى والإلهام والتحديث والفهم تسرى بنفحة منه فى هذه الساعة إلى مثلها . إلٰهى مَنْطِقْنِى بالدقيقة العظمى منه حتى أتلقّى عنك بما به تلقّى [عنك جبرائيل](١) مما أملأُ به وجودى بلا ميلٍ لغلبة حتى أتلذّذ بمصافاتك تلذُّذ جبريل برسائلك ، إنكَ علّام الغيوب" .

قال : من دعا به خمسا وعشرين مرة فى ساعة من هذه الساعات ألهم رشده فى عواقب أموره . والأسم اللائق بهذا الدعاء يا علّام الغيوب يا عالم الخفيّات وما شاكل هذا النمط من الأسماء، ومن القرآن العظيم ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ الآية . قال : وهو من الكبريت الأحمر و بعضه من الدِّرياق الأكبر . وهذا الذكر للذى فُتِح عليه بابٌ من المعارف فإنّه مهما آستدامه أُلهم قلبُه إلى علوم جليلة، ويُخاطب

(١) زيادة من اللمة النورانية .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى الأصلين : «من نقص التلوين ...» .

(٣) كذا فى الأصلين بالدال فى هذه الكلمات . وفى اللمة النورانية بالراء فيها جميعا .

فى نفسه بإلقاءات[1] من وحى الإلهام ، ويخاطبه الحيوان بمعنى يفهمه فيستفيد علوما عظيمة، يعرف ذلك أرباب المنازلات لفهم الحديث .

دعاء يدعى به فى الساعة السابعة من يوم الأحد، وفى الثانية من ليلة الاثنين وفى الرابعة من يوم الاثنين، وفى الحادية عشرة من ليلة الثلاثاء وفى الأولى من يوم الثلاثاء، وفى الثامنة من ليلة الأربعاء وفى العاشرة من يوم الأربعاء ، وفى الخامسة من ليلة الخميس وفى السابعة من يوم الخميس،وفى الخامسة من ليلة الجمعة وفى الرابعة من يوم الجمعة،وفى الثانية من ليلة السبت وفى الأولى من يوم السبت، وفى الحادية عشرة من ليلة الأحد . وهو : (١٤٣)

«ربّ أوقفنى موقف العزّ حتّى لا أجد فىّ ذرّةً ولا رقيقةً ولا دقيقة إلا وقد غشّاها من عزّ عزّتك ما منعها من الذُّلّ لغيرك ، حتى لا أشهدَ ذلّ مَنْ سواى لعزّتى بك مُؤيّدا برقيقة من الرعب يخضع لها[2] كلّ شيطان مَرِيد، وجبّارٍ عَنِيد، وأبقِ علىّ ذلّ العبوديّة فى العزّة بقاءً يبسط لسانَ الاعتراف، ويقبِض لسانَ الدعوى، إنّك العزيز الجبّار المتكبّر القهّار» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى هذه الساعة أو فى ساعة من هذه الساعات ستّ عشرة مرة بعد صلاة[3] وحضور قلب نُصِر على أىّ عدوٍّ قصده ظاهرا وباطنا .

دعاء يدعى به فى الساعة الثامنة من يوم الأحد ، وفى الثالثة من ليلة الاثنين وفى الخامسة من يوم الاثنين، وفى الثانية عشرة من ليلة الثلاثاء، وفى الثانية من يوم

(١) كذا فى اللمة النورانية . وفى الأصل : «بألقاب» .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى نسخة أخرى منها : «حتى يخضع له ...» . وفى الأصلين : «حتى يخضع به ...» .

(٣) فى هامش إحدى نسخ اللمة النورانية : «ثلاث تسليمات ...» وكتب عليها كلمة «صح» وأشار الى موضعها بعد كلمة «صلاة» .

الثلاثاء ، وفى التاسـعة من ليلة الأربعاء وفى الحـادية عشرة من يوم الأربعـاء، وفى السادسة من ليلة الخميس وفى الثامنـة من يوم الخميس، وفى السادسة من ليلة الجمعة وفى الخامسة من يوم الجمعة ، وفى الثالثة من ليلة السبت وفى الثانية من يوم السبت ، وفى الثانية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

«إلهى أطلع على وجودى شمس شهودى منك فى الأكوان والألوان حتى أمشىَ بمـا أشهدتنى فى آفاق الملكوت فأكشفَ منـه معنى كلمةِ التكوين فينفعلَ لى كلُّ مكوَّنٍ آنفعاله للكلمة بإذنك الذى سخّرت به ما فى الوجودين بلا ظلمةِ وَضْع ولا ظلمة طبع، إنك منوِّر الكلّ بكلّك ومنوِّر الأنوار بنورك الذى صـدورُه عن آسمك النورِ والظاهر والحى والقيُّوم، كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» الآية .

قال البُونى : لا يذكر أحدٌ هذا الذكر فى ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة إلا كساه اللهُ نورا يجد ذلك فى نفسه، ويُيسّر عليه المقسوم من الرزق، وتسرى كلمته فى الأسباب سَرَيانا عجيبا . وهو ذكر يصلح لأرباب المكاشفات يُثبت لهم ما يكاشفون .

دعاء يدعى به فى الساعة التاسعة من يوم الأحد ، وفى الرابعة من ليلة الاثنين وفى السادسة من يوم الاثنين ، وفى الأولى من ليـلة الثلاثاء وفى الثالثـة من يوم الثلاثاء، وفى العاشرة من ليلة الأربعاء وفى الثانية عشرة من يوم الأربعاء، وفى السابعة من ليلة الخميس وفى التاسـعة من يوم الخميس ، وفى السابعـة من ليلة الجمعة وفى السادسة من يوم الجمعة، وفى الرابعة من ليلة السبت وفى الثالثة من يوم السبت، وفى الأولى من ليلة الأحد . وهو :

«سيِّدى أدخلنى فى بواطن رياض آسمك من الباب الخاصّ الذى لا يُحْجَب بنورٍ ولا بظلمة ولا بشىء منه ولا بشىء خارجٍ عنـه، وأطلق يد قُوَاىَ فى نيل النعمة،

وألهمني تحقيق ذوق كلّ مَذُوق منه حتى أكونَ بك فيه وأكونَ فيه بك مبتهجاً منك وبك، ربّ إنك لطيفٌ عَطُوف رحيم رحمن » .

قال : هذا الذكر بخاصيّة فيه يجلب الفرح ويُذهب الحزن ويُطيب الوقت ويجلو الكرب ؛ ومن دعا به أربعين مرة فى ساعة من هذه الساعات على طهارة[1] واستقبال فُرِّج به كربُه وانجلى غمُّه .

دعاء يدعى به فى الساعة العاشرة من يوم الأحد، وفى الخامسة من ليلة الاثنين وفى السابعة من يوم الاثنين ، وفى الثانية من ليلة الثلاثاء وفى الرابعة من يوم الثلاثاء، وفى الحادية عشرة من ليلة الأربعاء وفى الأولى من يوم الأربعاء، وفى الثامنة من ليلة الخميس وفى العاشرة من يوم الخميس، وفى الثامنة من ليلة الجمعة وفى السابعة من يوم الجمعة، وفى الخامسة من ليلة السبت وفى الرابعة من يوم السبت، وفى الثانية من ليلة الأحد . وهو :

« يامَن نسبةُ العلوم إلى علمه نسبةُ لاشيء لشيء لا يتناهى، أظهرت الحروفَ بالقلم فكان لها صريف فى ألواح الملكوت قام لها مقام مخارج الحروف من الحلق والصدر واللّها واللسان، كلّ جنس صدر عنه اسمٌ لا يعلم تركيبه سوى مَلَك قلمك؛ وكلّ نوع صدر عنه مركّبا، فلوح إسرافيل أظهره بقوّة ما فى آحاد كلّياته من جزئيّات تراكيبه، أسألك بهذا السرّ الخفىّ الذى وقف العقل دونه وتقدّم إليك السرّ بسرّ أودعته فيه يوم إمكان وجوده ، أسألك كشف حجاب الغيب حتى أُعاينَ الغيب[2] بما به حَىَّ الرُّوح الباقى ، يا حىّ، ياهْ يا هو، يا أنت يا مهيمنُ يا خالقُ يا بارىء أنت هو » .

(١) فى هامش إحدى نسختى اللغة النورانيـة : «وصلاة ثلاث تسليمات» وكتب عليها كلمة «صح» وموضعها بعد كلمة «طهارة» .

(٢) فى اللغة النورانية : «المغيب» .

قال البُونى: هذا الذكر من ذكره فى ساعة من هذه الساعات مائةَ مرة يُسِّر له قضاءُ أىّ حاجة قصدها بغير مشقّة .

دعاء يدعى به فى الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد، وفى السادسة من ليلة الاثنين وفى الثامنة من يوم الاثنين، وفى الثالثة من ليلة الثلاثاء وفى الخامسة من يوم الثلاثاء، وفى الثانية عشرة من ليلة الأربعاء وفى الثانية من يوم الأربعاء، وفى التاسعة من ليلة الخميس وفى الحادية عشرة من يوم الخميس، وفى التاسعة من من ليلة الجمعة وفى الثامنة من يوم الجمعة، وفى السادسة من ليلة السبت وفى الخامسة من يوم السبت، وفى الثالثة من ليلة الأحد . وهو :

«يامن لوجوده العلىّ باعتبار حكمته إلى كلّ موجود حصل من وجوده[1] اسم يليق به هو مفتاحه الخاصّ، ومعناه المغيّب، وحقيقته الوجودية وسرّه القابل، فما فى الأكوان جوهر فرد من جواهر آحاد العالم العُلوىّ والسُّفلىّ إلا ومقاليد أحكامه متعلّقة باسم من أسمائه، واجتماعُها برقائقها بيد اسمك الذى استأثرتَ به عن جميع خلقك فلم يظهر لهم إلا ما ناسب الأفعال، فأسماؤك إلهى لا تُحْصَى، ومعلوماتك لا نهايةَ لها، أسألك غمسةً فى بحر هذا النور حتى أعود إلى الكمال الأوّل فأتصرّف فى الكون باسم الكمال تصرُّفًا ينفى النقص بالوقوف على عبوديّة النقص، إنّك المُعِزّ المُذِلّ اللطيف الخبير العَدْل المُجيب» .

قال : من ذكر هذا الذكر ستّ عشرة مرة فى ساعة من هذه الساعات ثم سأل الله تعالى فيها رزقا[2]، وتيسير أسباب، وسكونَ بحر هائج[3]، وسلطان غاصب، ونفيس

(١) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى الأصلين : « من جوده ... » .

(١) كذا فى اللمة النورانية . وفى الأصل : «ثم سأل الله تعالى فمن سأله فيها رزقا ...» .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى الأصلين : «بحر هائل» .

متمردة من شيطانى الإنس والجنّ وما ناسب ذلك إلاّ أُجيب له لوقته، وذلك على طهارة وصلاة[1] وجمع همة فى موضع خال من الأصوات .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانية عشرة من يوم الأحد، والسابعة من ليلة الاثنين والتاسعة من يوم الاثنين، وفى الرابعة من ليلة الثلاثاء وفى السادسة من يوم الثلاثاء، وفى الأولى من ليلة الأربعاء وفى الثالثة من يوم الأربعاء، وفى العاشرة من ليلة الخميس وفى الثانية عشرة من يوم الخميس، وفى العاشرة من ليلة الجمعة وفى التاسعة من يوم الجمعة، وفى السابعة من ليلة السبت وفى السادسة من يوم السبت، وفى الرابعة من ليلة الأحد . وهو :

«تعاليتَ يا من تقاصر كلُّ فكرٍ عن حصر معنًى من معانى أسمائه، فكل علو ورفعة فمن ذلك العلو[2] والرفعة صدورُه ظاهرا وباطنا، تقدس مجدك يا من أستارُ عرشه أظهر فيها كبرياءه ومجده، أسألك بالصفات التى لا تعلُّق لها بموجود، ياذا العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء، أسألك الأُنس بمقابلات سرّ القَدَر أُنسا يمحو آثار وحشة الفكر حتى يطيب وقتى بك فأطيب بوقتى لك، فلا يتحرك ذو طبع لمخالفتى إلا صَغُر لعظمتك وقُصِم بكبريائك، إنك جبّار الأرض والسماء، وقاهر الكلّ بقهرك يا مجيب» .

قال البُونى : من ذكر هذا الذكر سبعا وعشرين مرة فى ساعة من هذه الساعات ودعا [بما يريد][3] كُفِى لوقته [شرّ ما يحاذره][3] . فهذه دعوات ساعات الأيّام واللّيالى .

(١) فى إحدى نسخ اللمعة بعد كلمة «صلاة» بين الأسطر : «ثلاث تسليمات» .

(٢) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصلين : «فمن دون ذلك العلو» الخ .

(٣) الزيادة عن إحدى نسختى اللمعة النورانية .

ذكر ما يدعى به فى المساء والصباح، والغدوّ والرواح، والصلاة والصوم، والجماع والنوم؛ والوِرْد والصدَر، والسفر والحضر؛ وغير ذلك .

فأمّا ما يقال عند المساء والصباح؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه وقد سأله فقال : يا رسول الله مُرْنى بشىء أقوله إذا أصبحتُ و إذا أمسيتُ . فقال : "قل اللهمّ عالم الغيب والشهادة فاطرَ السمٰوات والأرض ربَّ كلّ شىء ومليكَه أشهد أن لا إله إلّا أنت أعوذُ بك من شرّ نفسى وشرّ الشيطان وشِرْكه قُلْه إذا أصبحتَ و إذا أمسيتَ و إذا أخذتَ مَضْجَعَك" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح يقول : "أصبحنا على فِطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبيّنا (٢) محمد صلى الله عليه وسلم وملّةِ أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : "أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمةُ والخَلْق والأمر واللّيل والنهار وما سَكَن فيهما من شىء لله وحده لا شريكَ له اللّٰهم اجعل أوّلَ هذا النهار لنا صَلاحا وأوسطَه فَلاحا وآخرَه نَجاحا أسألك خيرَ الدنيا وخير الآخرة يا أرحم الراحمين". وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح : "اللّهمّ بك أصبحنا و بك أمسينا و بك نحيا و بك نموت و إليك النشور". و إذا أمسى قال: "اللّٰهم بك أمسينا و بك نحيا و بك نموت". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال حين يصبح أو يمسى اللّٰهم أنت ربِّى لا إله إلّا أنت خلقتَنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوءُ

(٢) فى كتاب الأذكار للنووى (ص ٣٩) : «كذا وقع فى كتاب ابن السنى، ثم قال هو غير متبع . ولعله صلى الله عليه وسلم قال ذلك جهرا ليسمعه غيره فيتعلمه» اهـ .

[لك](١) بنعمتك [عليك](١) وأبوءُ بذنبي فاغفرلى إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت فمات من يومه أو من ليلته دخل الجنة" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال لا إله إلّا الله وحده لا شريكَ له له الملكُ وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير بعد ما يصلّى الغداة عشر مرّات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيّئات و رفع له عشر درَجات وكنّ له عِدْل رقبتين من ولد إسماعيل وكنّ له حجاباً من الشيطان حتّى يُمسى فإن قالها حين يُمسى كان له مثلُ ذلك وكنّ له حجاباً من الشيطان حتى يُصبح"، وفى رواية : "من قالها فى يوم مائةَ مرّة كانت له عِدْل عشر رقاب و كُتِبت له مائة حسنة ومُحِيت عنه مائةُ سيّئة و كانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذٰلكَ حتّى يُمسى ولم يأت أحد بأفضلَ مما جاء به إلا رجلٌ عمِل أكثر منه ومن قال سبحانَ الله وبحمده فى اليوم مائةَ مرة حُطّت خَطَاياه و إن كانت مثل زَبَد البحر" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال حين يُمسى أعوذ بكلمات الله التامّات كلّها من شرّ ما خلق لم تضرّه لَدْغة عقرب حتى يُصبح" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يُصبح فى أوّل يومه أو فى أوّل ليلته بآسم الله الذى لا يَضُرّ مع آسمه شيءٌ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاثا لم يضرّه شيءٌ فى ذلك اليوم أو تلك الليلة" . وعنه صلى الله عليه وسلم . "من قال إذا أصبح باسم الله العلىّ الأعْلى الذى لا ولدَ له ولا صاحبةَ ولا شريكَ أشهد أنّ نوحا رسولُ الله وأنّ إبراهيم خليلُ الله وأنّ موسى نَجِيُّ الله وأنّ داود خليفةُ الله وأنّ عيسى روحُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وأنّ محمدا رسول الله وخاتَمُ النبيّين لا نبيَّ بعده لم تلسعه حيّة ولا عقرب ولم يخف من سلطان ولا كاهن ولا ساحر حتى يُمسى و إذا قالها إذا أمسى لم يخف شيئا من ذلك حتى يُصبح" .

(١) زيادة عن صحيح البخارى .

* * *

وأمّا ما يقال عند النوم؛ رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وإذا أخذتَ مضجَعك فتوضّأ وضوءَك للصّلاة ثم اضطجع على شِقّك الأيمن ثم قُلْ أسلمتُ وجهى إليك وفوّضتُ أمرى اليك وألجأت ظهرى إليك رهبةً ورغبةً إليك لا ملجأ ولا منجى منـك إلا إليك اللّهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ ونبيِّـك الذى أرسلتَ فإن متّ من ليلتك متّ على فِطرة الإسلام واجعلهنّ آخر ما تتكلّم به". قال البَرَاء بن عازِب: فردّدتها على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلما بلغتُ اللهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلت قلت: ورسولِك قال: "ونبيك الذى أرسلتَ". وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من اللّيل يقول: "اللهم لك الحمدُ أنت نورُ السمٰوات والأرض ولك الحمدُ أنت قيّام السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنّة حق والنار حق والساعة حق اللّهم لك أسلمتُ وبك آمنت وعليك توكّلت وإليـك أنَبْتُ وبك خاصمتُ وإليـك حاكمت فاغفـر لى ما قدّمتُ وما أخّرت[1] وما أسرَرْت وما أعلنت أنت إلٰهى لا إلٰه إلا أنت".

* * *

وأمّا ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما؛ رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا وَلَجَ الرجلُ بيتَه فليقُلْ باسم الله اللّهم إنّى أسالك خيرَ المَوْلِج وخيرَ المَخْرَج باسم الله وَلَجْنا وباسم الله خرجْنا وعلى الله توكّلنا ثم ليسلِّمْ على أهله". وعنه صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل الرجلُ بيته فقال بأسم الله قعد الشيطانُ على الباب وقال مامِنْ مَقِيلٍ فهل من غَدَاء فاذا أُتِى بغَدَائه فقال بأسم الله

(١) كذا فى رواية الأذكار للنووى من رواية الصحيحين. وقد ورد فى الأصل بدون ما الموصولة إلا فى الفعل الأوّل دون الأفعال الباقية.

قال ما مِنْ غَدَاء ولا مَقِيل " . وعنه صلى الله عليه وسلم : " إذا خرج الرجلُ من بيته فقال سبحان الله قال المَلك هُدِيتَ واذا قال لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله قال الملك وُقِيتَ فإذا قال توكّلت على الله يقول الملك كُفِيت يقول الشيطان عند ذلك كيف أعمَل بمن كُفِي وهُدِي ووُقِي " . وعن أُمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته صباحًا قطّ إلا قال : " اللّهم إنّى أعوذ بك أن أَزِلّ أو أضِلّ أو أظلم أو أَجهل أو يُجْهَل علىّ " . وعنه صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم خرج من بيته يريد سفرًا أو غيره فقال حين يخرج باسم الله آمنتُ بالله اعتصمتُ بالله توكّلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله إلا رُزِق خيرَ ذلك المَخْرَج وصُرِف عنه شرُّ ذلك المخرج" . وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال فُضَيل بن مرزوق — أحسبه رفعه — قال : "من قال حين يخرج إلى الصّلاة اللّهم إنى أسألك بحقّ السائلين عليك وبحقّ مَمْشاى هـذا إنى لم أَخرج أشَرًا ولا بطَرًا ولا رياءً ولا سُمْعة خرجتُ خوفَ سخطك وابتغاءَ مَرْضاتِك أسألك أنْ تُنقذنى من النّار وأن تغفر ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل اللهُ عليه بوجهه حتى يفرُغَ من صَلاته" . وعن فاطمة[1] رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال : "باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم اغفر لى وافتح لى أبوابَ رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبوابَ فضلك" . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللّهم افتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللّهم إنى أسألك من فضلك " .

(١) وضع على حاشية إحدى النسخ « لعلها بنت قيس » ووضعت هـذه الزيادة فى نسخة أخرى فى صلب الكتاب . والظاهر أنها فاطمة الزهراء رضى الله عنها ؛ فقد روى هذا الحديث الإمام النووى فى كتاب الأذكار عن عبد الله بن الحسن عن أمه عن جدّته اهـ وجدته هى فاطمة الزهراء .

❖

وأمّا ما يقال عند النداء، فقد رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان عند الأذان فُتِحت أبوابُ السماء وٱستُجِيب الدعاءُ و إذا كان عند الإقامة لم تُرَدّ دعوة" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يسمع المؤذِّن وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدا عبده و رسوله رضيتُ بالله ربًّا و بمحمد رسولًا و بالإسلام دينًا غُفِر له ذنبُه" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سمع المؤذِّن فقال اللّهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدا الوسيلةَ والفضيلةَ وٱبعثه مَقَامًا محمودا الذى وعدتَه حلّت له شفاعتى يوم القيامة" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثلَ ما يقول ثم صلُّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ مرّةً صلى الله عليه بها عشرا" .

❖

وأمّا ما يقال عند دخول الخلاء، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخَلاء قال : "اللّهم إنى أعوذ بك من الخُبْث والخبائث" و إذا خرج قال "غفرانَك" . وفى لفظ إذا خرج قال : "الحمدُ لله الذى أذْهب عنِّى الأذَى وعافانى" . وعن أَنَس رضى الله عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال : "اللّهم إنِّى أعوذ بك من الرِّجس النجس الخبيث المُخْبِث الشيطان الرجيم"، و إذا خرج قال : "الحمد لله الذى أذهب عنّى الأذى وعافانى" .

❖

وأمّا ما يقال عند الوضوء وغَسْل الأعضاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاةَ لمن لا وُضُوء له ولا وضوءَ لمن لم يذكر ٱسم الله عليه" . وعن علىّ ٱبن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ

إذا توضّأتَ فقل بآسم الله والصلاة على رسول الله" . وعن محمد بن الحَنَفيّة قال: دخلتُ على والدى علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنهما — و إذا عن يمينه إناءٌ من ماءٍ، فسمّى ثم سَكَب على يمينه ثم تَمَضْمض فقال : اللّهم حَصِّنْ فَرْجى وآستُرْ عورتى ولا تُشْمِت بى الأعداء؛ ثم تمضمض وآستنشق وقال : اللّهم لَقِّنِّى حُجّتى ولا تحرِمنى رائحةَ الجنّة. ثم غسل وجهَه وقال: اللّهم بَيِّضْ وجهى يوم تَسْوَدُّ الوجوه ولا تُسَوِّدْ وجهى يوم تبيضّ الوجوه . ثم سكب على يمينه فقال: اللّهم أعْطِنى كتابى بيمينى والخلدَ بشمالى. ثم سكب على شماله وقال : اللّهم لا تُعْطِنى كتابى بشمالى ولا تجعلها مغلولةً إلى عُنُقى. ثم مسح برأسه وقال : اللّهم غَشِّنا برحمتك فإنّا نخشى عذابك، اللّهم لا تجمع بين نواصينا وأقدامنا . ثم مَسَح عنقه فقال : اللّهم نَجِّنا من مُقَطَّعات النيران (١) وأغلالها. ثم غسل قدميه فقال : اللّهم ثَبِّتْ قَدَمىّ على الصراط المستقيم يوم تَزِلّ فيه الأقدام. ثم آستوى قائما فقال : اللّهم كما طَهّرتنا بالماء فطهِّرنا من الذنوب، ثم قال بيده هكذا، يقطُرُ الماء من أنامله، ثم قال: يا بُنَىّ، آفعل كفعلى هذا فإنه مامن قَطْرةٍ تقطر من أناملك إلا خلق اللهُ منها مَلَكًا يستغفر لك إلى يوم القيامة . يا بُنَىّ؛ من فعل كفعلى هذا تساقطت عنه الذنوب كما يتساقط الورق عن الشجر يوم الريح العاصف.

وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا توضّأتَ فقل اللّهم إنى أسألك تمامَ الوضوء وتمامَ مغفرتك ورضوانك" . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من توضّأ فأحسن وضوءه ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صادقا من قلبه فتح الله له ثمانية أبواب الجنّة يدخل من أيّها شاء" . وعن

(١) المقطعات من الثياب : شبه الجباب، وفى التنزيل : (قطعت لهم ثياب من نار) أى قطعت وخيطت وجعلت لبوسالهم . (عن لسان العرب) .

علىّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى عليه وسـلم : "يا علىّ إذا فرغتَ من وُضوئك فقل أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله اللّهم ٱجعلنى من التوابين وٱجعلنى من المتطهِّرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمّك وتُفتح لك ثمانيةُ أبواب الجنة فيقال ٱدخل من أيِّها شئت" .

٥

✦ ✦ ✦

وأمّا ادعية الصلاة، فهى إمّا أن تقع قبلها أوفيها أو بعدها . فأمّا ما يقال قبلها فقد رُوى عن أبى سَلَمة بن عبـد الرحمن قال : سألتُ عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها بأىّ شىء كان نبىّ الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصـلاةَ إذا قام من الليل ؟ قالت : إذا قام يفتتح صـلاته يقول : "اللهم ربَّ جِبريل وميكائيل وإسرافيـل فاطرَ السمٰوات والأرض عالمَ الغيب والشهـادة أنت تحكُمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اِهدنى لمـا ٱختلفتُ فيه من الحقّ بإذنك إنك تَهْدى من تشاء إلى صراط مســتقيم" .

١٠

وأمّا ما يدعى به فى نفس الصلاة، فقد روى عن عائشـة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتح الصلاة رفع يديه حذو مَنْكِبيه ثم يقول : "سبحانَك اللّهمّ وبحمـدك تبارك ٱسمُك وتعالى جَدُّك ولا إلٰهَ غيرُك" .

١٥

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيَّةً قبل أن يقرأ . فقلت : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، ما تقول فى سكوتك بين التكبير والقراءة ؟ قال : "أقول اللّهم باعِدْ بينى وبين خَطَاياى كما باعدتَ بين المشرق والمغرب اللّهم نَقِّنِى من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس وٱغسِلنى من خطاياى بالثلج والمـاء والبَرَد" . وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضى الله عنـه أنه رأى

٢٠

النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّى قال : فكبّر فقال " الله أكبر كبيرا ثلاث مرات والحمد لله كثيرا ثلاث مرات وسبحان الله بكرةً وأصيلا ثلاث مرات اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثه " . قال راويه عمرو بن مُرّة : نفخه : الكبر، ونفثه : السحر، وهَمْزه : المُوتة، وهى الجنون . وعن علىّ ٥ ابن أبى طالب رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة كبّر ثم قال : " وجّهت وجهى للّذى فطر السمٰوات والأرضَ حنيفًا مُسلما وما أنا من المشركين إن صَلاتى ونُسُكى ومَحْياى ومماتى لله ربّ العالمين لا شريك له و بذلك أُمِرْتُ وأنا أوّل المسلمين اللّهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربّى وأنا عبدك ظلمتُ نفسى واعترفتُ بذنبى فاغفرلى ذنوبى جميعا لا يغفر الذنوبَ إلا أنت واهْدِنى لأحسنِ ١٠ الأخلاق لا يَهدى لأحسنها إلا أنت واصرِف عنى سيّئها لا يصرِف سيّئها إلا أنت لَبّيْكَ وسَعْدَيْكَ والخير كلّه فى يديك [والشرّ ليس إليك](١) وأنا بك و إليك تباركتَ وتعاليتَ أستغفرك وأتوب إليك". فإذا ركع قال : " اللّهم لك ركعتُ و بك آمنتُ ولك أسلمتُ خشَع لك سمعى و بصرى ومُخّى وعظمى وعَصَبى". فإذا رفع رأسه قال: "سمع الله لمن حمِده ربّنا ولك الحمد مِلْءَ السمٰوات والأرض وما بينهما وملءَ ما شئت ١٥ من شىء بعد" . فإذا سجد قال : " اللّهم لك سجدتُ و بك آمنتُ ولك أسلمتُ سجد وجهى للّذى خلقه وصوّره فأحسن صُوره وشقّ سمعه و بصره فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين". فإذا فرغ من الصلاة وسلّم قال : " اللهم اغفرلى ما قدّمتُ وما أخرتُ وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منّى أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلا أنت" . وقد ورد فى لفظ آخر أنه يقول : اللهم اغفرلى إلى آخر الدعاء ٢٠ بين التشهّد والتسليم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : صلّيت مع رسول الله

(١) زيادة من كتاب الأذكار للنووى (ص ٢١) .

صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول فى ركوعه : "سبحانَ ربّى العظيم"، وفى سجوده : "سبحانَ ربّى الأعلى" . وفى لفظ أنه كان يقول ذلك ثلاث مرات . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده وركوعه: "سُبُّوح قُدُّوس ربّ الملائكة والروح" . وعن أبى سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : "ربّنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شىء بعدُ أهل الثناء والمجد أحقّ ما قال العبد وكلّنا لك عبد اللّهم لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعطى لما منعتَ ولاينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قال وهو ساجدٌ ثلاث مرّات ربّ اغفرلى لم يرفع رأسه حتّى يُغْفَرَ له" . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهّد كما يعلّمنا السُّورة من القرآن، وكان يقول : "التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله سلامٌ عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته سلامٌ علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأشهد أن محمدا رسولُ الله" . وروى : "السلامُ" فى الموضعين . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: كنّا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم: السلام على الله السلام على فلان . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم: "إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّاتُ لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قالها أصابت كلّ عبد صالح فى السماء والأرض أشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخيّر فى المسألة ما شاء" . وقد علّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الصلاة عليه . وقد سأله كعب بن عُجْرة عنها فقال : "قولوا اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآلِ إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد وبارِكْ

(١٤٨)

على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد " . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فرغ أحدكم من التشهّد فليتعوّذ بالله من أربع : من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المَحْيا والممات وشرّ المسيح الدجّال " . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : علّمنى دعاءً أدعو به فى الصلاة وفى بيتى قال : " قل اللّهم إنى ظلمتُ نفسى ظلمًا كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلى مغفرةً من عندك إنّك أنت الغفور الرحيم " . وروى بعد قوله من عندك : " وارحمنى إنك أنت التوّاب الرحيم " .

* * *

وأمّا ما يدعى به بعد التسليم؛ فقد روى عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دُبُرَ كلّ صلاة : "لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمد يحيي ويُميت وهو على كلّ شيء قدير اللّهم لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما منعت ولا ينفع ذَا الجَدّ منك الجَدّ " . وعن عبد الله ابن الزُّبَير رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلّم من صلاته يقول بصوته الأعلى : "لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حولَ ولا قوّة إلا بالله ولا نعبد إلا إيّاه له النعمةُ وله الفضلُ وله الثناء الحسن لا إلٰه إلا الله مُخلصين له الدينَ ولو كره الكافرون" . وفى طريق آخر : "له الدينَ وهو على كل شيء قدير" . وعن أمّ سلَمة رضى عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلّى الصبح قال : "اللّهم إنى أسألك علمًا نافعا ورزقا طيّبا وعملا مُتَقَبَّلا" . وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم :

"من قال حين ينصرف من صلاته سبحانَ الله العظيم و بحمده لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العليّ العظيم ثلاث مرات فإنه مغفور له" . وعن أبي أُمامة الباهليّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ آية الكرسيّ دُبُرَ كلّ صلاة لم يمنعه من دخول الجنـة إلا أن يموت" . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "ما من عبدٍ بَسَط كفّيه فى دبر صـلاته ثم يقول إلٰهى إلٰهَ إبراهيم و إسحـاق و يعقوب إله جبريلَ وميكائيل و إسرافيـل أسألك أن تسـتجيبَ دعوتى وتَعْصِمَنى فى دِينى فإنى مبتلًى وتنالَنى برحمتـك فإنّى مذنبٌ وتنفىَ عنى الفقرَ فإنى مُستمسك إلّا كان حقًّا على الله ألّا يردّ يديه خائبتين" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قال دبر كلّ صلاة الحمدُ لله ثلاثًا وثلاثين مرّة وسبحانَ الله ثلاثًا وثلاثين مرة واللهُ أكبرُ ثلاثًا وثلاثين مرّةً وتمامَ المـائة لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير غُفِرَتْ ذنوبُه ولو كانت أكثر من زَبَد البحر" . وعن عليّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى آخر وَتْره : "اللّٰهم إنى أعوذ برضاك من سَخَطِك وأعوذُ بمُعافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحْصِى ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك" . وعن الحسن بن عليّ رضى الله عنهما قال : علّمنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كَلِماتٍ أقولهنّ فى الوَتْر، وفى لفظ : فى قُنوت الوتر : "اللّٰهـم اهْدِنى فيمن هديتَ وعافِنِي فيمن عافيتَ وتولّنى فيمن تَوَلّيت وبارك لى فيما أعطيتَ وقِنِي شرّ ما قضيتَ إنك تَقْضِى ولا يُقْضَى عليك وإنّه لا يَذِلُّ من واليت تباركت ربّنا وتعاليت" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسـلم على جنازةٍ فقال : "اللّٰهـم اغفر لحيّنا وميّتنا وصغيرنا وكبيرنا وذَكَرنا وأُنثانا وشاهدنا وغائبِنا اللّٰهم من أَحْيَيته منّا فأَحْيِه على الإيمـان ومن توفّيْتَه منا فتوفّه على

(١٤٩)

الإسلام اللّهم لا تحرِمْنا أجرَه ولا تُضِلّنا بعده". وعن عليّ رضى الله عنه قال: دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا عليّ اذا صلّيت على جنازة رجلٍ فقل اللّهم هٰذا عبدُك ٱبن عبدِك ٱبنُ أمتك ماضٍ فيه حكمُك خلقتَه ولم يكن شيئاً مذكورا نزل بك وأنت خيرُ منزولٍ به اللّهم لَقِّنْه حُجّته وألحِقْه بنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وثبّته بالقول الثابت فإنه ٱفتقر إليك وٱستغنيتَ عنه كان يشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا الله فاغفر له وٱرحمه ولا تحرِمْنا أجرَه ولا تفتِنّا بعده اللّهم إن كان زاكياً فزكِّه وإن كان خاطئا فاغفرْ له. وإذا صلّيتَ على جنازة ٱمرأةٍ فقل اللّهم أنتَ خلقتها وأنت أحْيَيتها وأنت أمتّها تعلم سرّها وعلانيتَها جئناك شفعاءَ لها فٱغفر لها وٱرحمها ولا تحرِمنا أجرها ولا تفتِنّا بعدها. وإذا صلّيتَ على جنازة طفل فقل اللّهم ٱجعله لوالديه سَلَفا وٱجعله لهما ذُخرا وٱجعله لهما رَشَدا وٱجعله لهما نُورا وٱجعله لهما فَرَطا وأَعْقِب لوالديه الجنّة ولا تحرِمنا أجره ولا تفتِنّا بعده". وعن عَوْف بن مالك رضى الله عنه قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم وصلّى على جنازة يقول: "اللّهم ٱغفر له وٱرحمه وٱعفُ عنه وعافِه وأَكرِم نُزُلَه ووسِّع مَدْخله وٱغسِله بماءٍ وثلج وبَرَد ونَقِّه من الخَطَايا كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدنَس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلًا خيرا من أهله وزوجًا خيرا من زوجه وقِه فتنةَ القبر وعذابَ القبر وعذابَ النار". قال عوف رضى الله عنه: فتمنّيتُ لو كنت أنا الميّت لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

***

وأمّا ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقينِ والدفن، وما فى ذلك من الأجر؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من رأى جنازةً فقال اللهُ أكبرُ صدَق الله ورسولُه هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه اللّهم زِدْنا إيمانًا وتسليما كُتِبَ له عشرون

حسنةً فى كلّ يومٍ من يومٍ يقولهـا إلى يوم القيامة " . وقال صلى الله عليه وسلم : " لَقِّنوا موتاكم لا إلٰهَ إلا الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا وضعتم مَوْتاكم فى القبر فقولوا باسم الله وعلى مِلّة رسول الله " . وعن ٱبن عمر رضى الله عنهما أنه كان اذا سُوِّىَ على الميّت الترابُ قال : " اللّٰهم أَسْلَمَه إليك الأهلُ والـمالُ والعشيرةُ وذنبُه عظيم فاغفرْ له " . وعن سعيد بن عبد الله الأَوْدىّ قال : شهدت أبا أُمامة وهو فى النَّزْع فقال : إذا أنا مُتُّ فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصنع بموتانا ، أمرنا فقال : " إذا مات أحد من إخوانكم فسوَّيتم الترابَ على قبره فليقُمْ أحدكم على رأس قبره فليقل يا فلان بن فلانة فإنه يسمعه ولا يُجيبـه ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنّه يستوى قاعدًا ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنه يقول أَرْشِـدنا رحمك الله ولكن لا تشعرون فليقُل اُذْكُرْ ما خرجتَ عليه من الدنيا شهادة أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمدا عبدُه ورسولُه وأنّك رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دِينًا وبمحمد نبيًّا وبالقرآنِ إماما فإن مُنْكَرًا ونكيرا يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما بيدِ صاحبـه ويقول ٱنطلِقْ بنا ما نقعد عند من لُقِّن حُجّته فيكون الله حجيجَه دونهما" . فقال رجل : يارسول الله فإن لم يعرف أُمّه ؟ قال : " فينسبه إلى حوّاء يا فلان ٱبن حوّاء " .

٥ ١٠ ١٥

* * *

وأمّا ما يقال عند زيارة القبور ، عن عائشة رضى الله عنها أنّها تبِعت النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى زيارة البَقِيع فقال لهـا : " قولى السّلامُ على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات ويرحمُ اللهُ المُستقدِمين منّا والمُستأْخِرين وإنّا إن شاء اللهُ بكم لاحقون" . وكان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إذا أتى المقابر قال : " السلامُ عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنا فَرَطٌ ونحن لكم تَبَعٌ أسأل الله العافيةَ لنا ولكم " .

(١٥٠)

٢٠

وأمّا ما يقال عند الإفطار من الصوم، والأكل والشرب؛ روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أفطر قال: "اللّهم لك صُمْنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبّلْ منّا إنك أنت السميع العليم". وعنه صلى الله عليه وسلم: "من قال اللّهم لك صُمتُ وعلى رزقك أفطرتُ وعليك توكّلت كُتِبَ له من الأجْر بعدد من صام ذلك اليوم". وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ أحدكم لَتُوضَعُ مائدةٌ بين يديه فما تكاد أن تُرْفَعَ حتى يُغْفَرَ له". قيل يارسول الله وكيف ذلك؟ قال: "لأنه يُسَمّى الله إذا وُضِعت المائدةُ وأكل ويحمَدُ الله إذا رُفِعت". وعن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا نَسِيَ أحدُكم أن يذكر اسم الله فى أوّل طَعامه فليقل باسم الله أوّلَه وآخِرَه". وعنه صلى الله عليه وسلم: "من أكل طعاماً ثم قال الحمدُ لله الذى أطْعمنى هذا الطعامَ ورزقَنِيه بغير حول منّى ولا قُوّة غُفِر له ما تقدّم من ذنبه". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل قال: "الحمد لله الذى أطعم وسَقَى وسوّغه وجعل له مَخْرَجا". ومن رواية أنس: "الحمد لله الذى أطْعمنى وسقانى وهدانى وكلّ بلاء حسن أبلانى الحمدُ لله الرازقِ ذِى القوّة اللّهم لا تَنْزِعْ منّا صالحا أعطيتَناهُ ولا صالحاً رَزَقْتناهُ واجعلنا لك من الشاكرين". وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل قال: "الحمد لله الذى أطعمَنا وسقَانا وأشْبَعَنا وآوانا وكفانا". وعن علىّ رضى الله عنه قال: دعانى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ياعلىّ إذا شربتَ ماءً فقل الحمدُ لله الذى سقانا ماءً عَذْباً فُراتا برحمته ولم يجعله مِلْحًا أُجَاجا بذنوبنا تُكْتَب شاكرا". وكان صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند أهل بيتٍ قال لهم: "أفْطَرَ عندكم

الصائمون وأكل طعامكم الأبرارُ ونزلت عليكم الملائكة"؛ ورُوى : "وصلّت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده" .

✦ ✦ ✦

وأمّا ما يقال عند لباس الثوب و إلباسه؛ وعند النظر فى المرآة والتسريح وفى المجلس ؛ روى أبو سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استجدّ ثوبا — سمّاه باسمه قميصًا أو إزارا أو عمامةً — يقول : "اللّهم لك الحمدُ أنت كَسَوْتَنِيه اللّهم إنى أسألك من خيره[1] وخيرِ ما صُنِع له وأعوذُ بك من شرّه وشرِّ ما صُنِع له" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ إذا لَبِست ثوبًا فقل باسم الله الحمدُ لله الذى كسانى ما أُوَارِى به عَوْرَتى وأستغنى به عن الناس لم يبلغ الثوبُ رقبَتك حتى يُغْفَرَ لك يا علىّ من لبِس ثوبًا جديدًا وكَسَا أسماله[2] عُرْيانا أو مسكينا كان فى جِوار الله وأَمْنِه وحفظِه ما دام عليه منه سِلْك[3]" . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن لَبِس ثوبًا فقال الحمدُ لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حولٍ منّى ولا قوة غُفِر له[4] ما تقدّم من ذنبه وما تأخر[5]" . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا نظر فى المرآة يقول : "الحمد لله رب العالمين الذى خلقنى وسوّى خَلْقِى وجعلنى بَشَرًا سَوِيًّا ولا حول ولا قوة إلا بالله" . قال ابن عباس رضى الله عنهما : فما تركتُها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لا يَمَسّ

(١) الذى فى أذكار النووى ؛ «أسألك خيره ...» بدون كلمة «من» .

(٢) فى الأصول : «أو كسا أسماله ...» وظاهر أن السياق يقتضى الواو دون «أو» . وقد ورد ما يشبه هذا الحديث فى أذكار النووى (ص ١١) وأداة العطف فيه «ثم» .

(٣) السلك : الخيط .

(٤) فى الأصل : «إلا غفر له» بزيادة «إلا» وهى غير موجودة فى أذكار النووى .

(٥) كلمة «وما تأخر» غير موجودة فى أذكار النووى .

وجهَ من قالها سوءٌ أبدا . وعن عليّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا عليّ إذا نظرت فى المرآة فقل اللهم كما حسّنتَ خَلْقى فأَحْسِنْ خُلُقى وآرزقنى " . وعن الرِّضَى عليّ بن موسى عن أبيه عن آبائه أبًا فأبًا رضى الله عنهم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من أَمَرّ المشط على رأسه ولِحيته فى كل يوم سبعَ مرّات وقال فى كلّ مرة سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم لم يقارنه ذنب". وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من جلس فى مجلس كثُر لَغَطه فيه فقال قبل أن يقوم سبحانَك اللّهم ربّنا وبحمدك لا إلهَ إلّا أنت أستغفرُك وأتوبُ إليك غَفَر الله له ما كان فى مجلسه ذلك" .

٥

١٠

✦ ✦ ✦

وأمّا ما يقال فى المرض والرُّقَى والوَسْواس والحَرِيق؛ عن عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول للمريض : "بآسم الله تربةُ أرضِنا وريقةُ بعضِنا يُشْفَى سقيمُنا بإذْن ربّنا"(١) . وعن عثمان بن أبى العاص الثقفىّ رضى الله عنه قال : قدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبى وَجَعٌ قد كاد يُبْطِلنى فقال لى صلى الله عليه وسلم : "آجعل يدك اليمنى عليه ثم قل بآسم الله أعوذُ بعزة الله وقدرته من شرّ ما أَجِد سبعَ مرات"(٢)، ففعلت ذلك فشفانى الله تعالى . وعنه صلى

(١٥١)

١٥

(١) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : «باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى به سقيمنا باذن ربنا وقال ابن أبى شيبة : يشفى وقال زهير : ليشفى به سقيمنا » . وفى أذكار النووى (ص ٦١) : « وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم وسنن أبى داود وغيرها ، إلى أن قال : باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا باذن ربنا ، وفى رواية تربة أرضنا وريقة بعضنا » اهـ . فما فى الأصول هنا يوافق بعض الروايات .

٢٠

(٢) الذى فى صحيح مسلم : « عن عثمان بن أبى العاصى الثقفى أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده فى جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضع يدك على الذى تألم من وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

الله عليه وسلم : "مَن عاد مريضًا لم يحضُرْ أجلهُ فقال عنده سبعَ مرات أسألُ الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يَشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض وضع يده اليمنى على خَدّه وقال : "أذْهِب البَاس، ربَّ النَاس وٱشفِ أنت الشافى شِفاءً لا يغادر سَقَما" . وعن عبـد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قرأ فى أُذُن مبتلًى فأفاق، فقال له النبيّ صـلى الله عليه وسلم : "ما قرأت فى أذنه"؛ قال : قرأت (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) إلى آخر السورة . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو أنّ رجلًا مُوقِنًا قَرَأ بها على جبلٍ لزال" . وعن ٱبن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من رأى صاحب بَلَاءٍ فقال الحمد الذى عافانى ممـا ٱبتلاكَ به وفضّلنى عليك وعلى كثيرٍ ممن خَلَق الله عافاه الله من ذلك البلاء كائنًا ما كان أبدا ما عاش" . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أَرْقِى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العَين فأضعُ يدى على صدره وأقول : أَذْهِب البَاس، ربّ الناس؛ بيدك الشفاءُ ولا كاشِف له إلا أنت . وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما رفع الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "هٰذه الكلمات دواءٌ من كلّ داء أعوذُ بكلمات الله التامّة وأسمائه كلها عامّة من السامّة والهـامّة وشرِّ العين اللّامّة ومن شرِّ حاسـدٍ إذا حَسَـد ومن شرِّ أبى قِتْرَة[1] وما وَلَد ثلاثون من الملائكة أَتَوْا ربَّهم عز وجل فقالوا وَصَبٌ بأرضنا فقال خُذُوا تربةً من أرضكم وٱمسحوا بوَصَبكم رُقْيَةُ محمد صلى الله عليه وسلم من أخذ عليها صَفَدًا[2] أو كَتَمَها أحدًا فلا أَفْلح أبدا" . وعن عليّ رضى الله عنـه قال : من ٱشتكى ضِرْسـه فليأخذ الترابَ من موضع سجوده ثم يمسح يده على الموضع الذى يشتكى، ثم يقول : بٱسم الله ، والشافى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وعن أبى الدرداء رضى الله عنـه أنه أتاه رجل فذكر له أن

(١) أبو قترة : إبليس . (٢) الصفد (بفتحتين) : العطاء .

أباه احتبس بولُه وأصابته حَصَاةٌ منعته البول فعلّمه رُقْيـة سمعها من النبيّ صلى الله عليه وسلم وهى : "ربّنا الله الذى فى السماء تقدّس اسمك أمرُك فى السماء والأرض كما رَحْمَتُك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض واغفِرْ لنا حُوبَنا[1] وخطايانا أنت ربّ الطيّبين فأنزِلْ شفاءً من شفائك و رحمةً من رحمتك على الوَجَع فيبرأ"؛ فأمره برقْيه بها فرقاه بهـا فبرئ . وعن علىّ رضى الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقه مُغْتَمًّا، فقال : يا محمد، ما هذا الغمّ الذى أراه فى وجهك؟ قال : "الحسن والحسين أصابتهما عَيْن" . فقال : يا محمد، صدِّق العينَ فإن العَيْنَ حقّ . ثم قال : أفلا عوّذتَهما بهؤلاء الكلمات؟ فقال : "وما هنّ ياجبريل"؛ فقال: "قل اللّهمّ ذا السلطان العظيم، ذا المَنّ القديم، ذا الوجهِ الكريم، والكلمات التامّات، والدعوات المُستجابات عافِ الحسنَ والحسينَ من أنفُس الجِنّ وأعْيُن الإنس" . فقالهـا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقاما يلعبانِ بين يديه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "عوِّذُوا أنفسكم بهذا التعوُّذ فإنّه لم يتعوّذ المتعوِّذون بمثله" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أَمَانٌ لك من الحَرَق أن تقول سبحانَك ربّى لا إلهَ إلّا أنت عليك توكّلتُ وأنت ربّ العرش العظيم" . وعنه أيضا رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ياعلىّ أمانٌ لك من الوَسْواس أن تقـرأ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾" .

✦
✦ ✦

وأمّا ما يقال عنـد دخول السوق وشراء الجارية والدابّة؛ رُوى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل السوق قال : "اللّهم إنّى أسألُك من خير

(١) الحوب : الإثم .

(١٥٢) هذه السوق وأعوذُ بك من الكفر والفُسوق" . وعن عليّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عليّ إذا دخلت السوق فقـل حينَ تدخل بآسم الله وبالله أشهـدُ أن لا إلٰهَ إلّا الله وأشهدُ أنّ محمّدًا عبـدُه ورسوله يقول الله عز وجل عبدى هذا ذَكَرنى والناسُ غافلون اشهَدوا أنّى قد غفرتُ له" . وعن عمر آبن الخطاب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من دخل السوق فقال لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو حىٌّ لا يموت بيده الخيرُ وهو على كل شيء قدير كتب اللهُ له ألفَ ألفِ حسنة ورفع له ألفَ ألفِ درجة" أو قال : "وبنى له بيتًا فى الجنّة" . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أفاد أحدُكم الجـاريةَ أو المرأةَ أو الدابّة فليأخذْ بناصيتها وليَدْعُ بالبركة وليقُل اللّهم إنّى أسألك خيرَها وخيرَ ما جُبِلْتَ عليه وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما جُبِلت عليه فإن كان بعيرًا فليأخذ بذروة سَنَامه" .

٥ ١٠

✦
✦ ✦

وأمّا ما يقال عند هبوب الرياح وفى الرعد والمطر؛ عن أُبَيّ بن كعب رضى الله عنه أن الريح هاجت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبّها رجلٌ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تسبّها فإنها مأمورة ولكن قل اللّهم إنى أسألك خيرَها وخيرَ مافيها وخيرَ ما أُمِرَتْ به وأعوذُ بك من شرّها وشر مافيها وشرّ ماأُمِرت به" . وعن آبن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمِـع الرعْد أو البرْق قال . "اللّهم لا تقتلنا غَضَبًا ولا تقتلنا بغتةً وعافِنا قبل ذلك" . وعن عائشة رضى الله عنهـا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : "اللّهم لا تُهْلِكنا بغضبك ولا تقتلنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك" . وعن أَنَس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه فى شيء من الدعاء إلا فى الآستسقاء

١٥ ٢٠

حتى يُرى بياضُ إبطيه . وعن كعب بن مُرّة السلمىّ رضى الله عنه قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل فقال : يا رسول الله، آستسق اللهَ لمُضَر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال: "اللّهم آسقِنا غَيْثًا مُغِيثا مَرِيعا مريئا عاجلًا غيرَ رائثٍ نافعًا غيرَ ضارّ" . قال : فما جَمعوا[1] حتى أَحْيَوا[2] . فأَتَوه فشكَوْا إليه المطرَ فقالوا : يا رسول الله قد تهدّمت البيوتُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه : "اللّهم حَوَالَيْنا ولا علينا"، فجعل السحاب يتقطّع يمينًا وشِمالا . وعن عائشة رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى ناشئًا فى أُفُق السماء ترك العمل وإن كان فى صلاة، ثم يقول : "اللّهم إنى أعوذُ بك من شرِّها"، فإن رأى مطرا قال : "اللّهم صَيِّبًا هَنِيئا" . وعنها رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى المطرَ قال : "اللّهم صيِّبًا نافعا" .

❖

وأمّا ما يقال فى الخوف والشدائد، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا تخوّف الرجلُ من السلطان فليقل اللّهم ربّ السمٰوات السبع وربَّ العرش العظيم كن لى جارًا من فلان بن فلان يسمّى الذى يريد وشرِّ الجنّ والإنس وأحزابهم وأتباعهم أن يفرُط علىّ أحدٌ منهم أو يَطْغَى عَزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلٰهَ غيرُك" . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من خاف من السلطان أو غيره فليفزَعْ إلى هذه الدعوةِ اللهُ أكبرُ وأعزُّ من خَلْقه جميعا اللهُ أكبرُ وأعزُّ مما أخافُ وأحذَر وأعوذ بالله الذى لا إلٰهَ إلّا هو مُمْسِك السمٰوات السبع أن يَقَعْنَ على الأرض إلّا بإذنه من شرّ فلان

(١) جمعوا : شهدوا الجمعة .

(٢) أحيوا : حيت ما شيتهم وحسن حالها أو صاروا فى الخصب (عن القاموس) .

ابن فلان يا ربّ كن لى جارًا من شرّه عزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلهَ إلا أنت العلىّ العظيم يقولهنّ ثلاثَ مرات إلّا أعاذه الله من شرّ ذلك" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا اشتدّ بك أمرٌ فكبّرْ ثلاثًا وقل اللهُ أكبرُ وأعزّ من كل شىء واللهُ أكبرُ أعزّ من خَلقه وأقدر وأعزّ مما أخاف وأحذر اللّهم أدرأ بك فى نَحْره وأعوذُ بك من شرّه فإنك تُكْفَى بإذن الله عز وجل" .

٥

✦ ✦ ✦

(١٥٣) وأمّا ما يقال فى الغضب والفزع؛ عن سليمان بن صُرَد رضى الله عنه قال : استَبّ رجلان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فجعل أحدُهما تحمَرّ عيناه وتنتفخ أوداجهُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّى لأعرف كلمةً لو قالها لَذَهَب عنه الذى يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا فزع أحدكم فليقُلْ أعوذُ بكلمات الله التامّة من غضبه وعذابه[1] ومن شرّ عباده ومن هَمَزات الشياطين وأن يحضرونِ فإنّها لم تضرّه" . قال فكان عبد الله يعلّمها من بلغ من ولده، ومن لم يبلُغْ منهم كَتَبها فى صَكّ وعلّقها عليه . وفى لفظ : "إذا فزع أحدكم فى النوم فليقل..." يعنى الكلمات ؛ وفى طريق : كان خالد بن الوليد رجلا يفزع فى نومه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : "إذا اضطجعت للنوم فقل..." يعنى الكلمات، فقالها فذهب ذلك عنه .

١٠

١٥

✦ ✦ ✦

وأمّا ما يقال فى السفر وركوب الدابّة والسفينة ودخول القرية؛ عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا توصّأ

٢٠

(١) ذكر هذا الحديث فى أذكار النووى مرات ولم تذكر فيه كلمة «وعذابه» .

فأسبغ وضوءه وصلّى ركعتين، ويقول وهو فى مجلسه مستقبِلَ القبلة: "الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا ربِّ أَعِنِّى على أهوال الدنيا والآخرة ومن مصيبات الليالى والأيّام فى سفرى فاحفظنى وفى أهلى فاخلُفنى". وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم: "ما استخلف العبد فى أهله إذا هو شدّ عليه ثيابَ سفره خيرًا من أربع ركعاتٍ يُصَلِّيهِنّ[1] فى بيته يقرأ فى كل واحدة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول اللّهم إنّى أتقرّب بهنّ اليك فاجعلهُنّ خليفتى فى أهلى ومالى قال فهو[2] خليفته فى أهله وماله وولده ودُورٍ حولَ داره حتى يرجِعَ إلى داره". وعن أنس رضى الله عنه قال: لم يُرِد النبىّ صلى الله عليه وسلم سفرًا قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه: "بك انتشرتُ إليك وَجَّهت[3] وبك اعتصمت أنت ثِقتى ورجائى اللّهم اكفِنِى ما يهمّنى وما لا أهتمّ به وما أنت أعلم به منّى اللّهم زوّدنى التقوى واغفر لى ذنبى ووجّهنى إلى الخير أينما توجّهتُ". وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا ركبتم الإبل فتعوّذوا بالله واذكروا اسم الله عليه فإنّ على سَنَام كلّ بعيرٍ شيطانا". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استوى على بعيره يريد السفر كبّر ثلاثا ثم قال: "سبحانَ الذى سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنِين وإنا إلى ربِّنا لَمُنْقَلِبُون اللّهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البِرَّ والتقوى ومِن العمل ما ترضَى اللّهم هَوِّنْ لنا سفرنا هذا واطْوِ عنّا بُعْدَه اللّهم أنت

(١) كذا فى شرح الإحياء طبع المطبعة الميمنية (ج ٦ ص ٤٠٣). وفى الأصل «يضعهن».

(٢) ورد هذا الحديث فى كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال الموضوع بهامش الجزء الثالث من مسند الامام أحمد بن حنبل طبع مصر سنة ١٣١٣ هـ (ج ٣ ص ٣٩) مع شىء يسير جدًا من النقص أو الزيادة. وفيه «فاجعلهن خليفتى فى أهلى ومالى فهن خليفة» الخ.

(٣) كذا فى الأصلين. وقد روى هذا الحديث فى منتخب كنز العمال: «اللهم لك انتشرت واليك توجهت وبك اعتصمت اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتم له وما أنت أعلم به اللهم زودنى التقوى» الخ.

الصاحبُ فى السفر والخليفةُ فى الأهل والمـال والولد" ، وإذا رجع صلى الله عليه وسلم قالهن وزاد فيهن : "آئبون تائبون لربّنا حامدون" . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قفَل من حجّ أو عُمرة فأشرفَ على شَرَف كبّر ثلاثا ثم قال : "لا إلٰهَ إلّا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شىء قدير آئبون تائبون لربّنا حامدون صدق اللهُ وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأحزاب وحدَه وكلُّ شىء هـالكٌ إلّا وجهَه له الحكمُ وإليـه تُرجعون اللّٰهـم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفَر وكآبة المُنْقَلَب وسوءِ المنظَر فى الأهل والمـال" . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَمَانٌ لأُمّتى من الغَـرَق إذا ركِبوا السُّـفُن أن يقولوا بسم الله الرحمٰن الرحيم وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعًا قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سبحانَهُ وتعالَى عَمّا يُشْرِكون باسم الله مَجْريها ومُرْساها إن رَبّى لَغَفُورٌ رَحِيم" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل اللّيلُ قال : "يا أرضُ ربّى وربُّكِ اللهُ أعوذُ بالله من شرّك وشرّ ما فيـك وشرّ ما يدِبّ عليكِ أعوذُ بالله من أَسَدٍ وأَسْوَدَ ومن الحيّة والعقرب ومن ساكنِ البلد ومن والد وما وَلَد" . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال لى رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ إذا نزلتَ منزلًا فقـل باسم الله اللّٰهم أَنْزِلْنا منزلًا مباركا وأنت خيرُ المُنْزِلين تُرْزَقْ خيرَه ويُدْفَعْ عنك شرُّه" . وقال صلى الله عليه وسـلم : "مَنْ نزل منزلًا ثم قال أعوذُ بكلماتِ الله التامّات كلّها من شرّ ما خلق لم يضرّه شىءٌ حتى يرتحل من منزله ذلك" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إذا أردتَ الدخول إلى مدينةٍ أو قريةٍ فقـل حين تُعاينها اللّٰهم إنّى أسألك خيرَ هـذه القريةِ وخيرَ ما كتبتَ فيها وأعوذُ بك من شرّها وشرّ ما كتبت فيها اللّٰهـم ارزُقْنى خيرَها وأعوذُ بك من شرّها

وحَبِّبْنا إلى أهلها وحَبِّبْ أهلَها إلينا" . وعن صُهَيب رضى الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يرقريةً يُريدُ دخولَها إلّا قال: "اللّهم ربَّ السمٰوات السبع وما أَظْلَلْنَ وربَّ الأَرَضِينَ السبع وما أَقْلَلنَ وربَّ الرياحِ وما ذَرَيْنَ وربَّ الشياطينِ وما أَضْلَلنَ أسألك خيرَ هـذه القـريةِ وخير ما فيها وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها" . وعن أبى هُريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأراد أن ينزل قريةً عدَل إليها وقال : "اللهُ أكبرُ ثلاثا اللّهم آرزُقْنا خيرَها وآصرِفْ عنّا وَبَاءَها وحَبِّبْنا إلى صالح أهلها وحَبِّبْهم إلينا" .

٥

✦
✦ ✦

وأمّا ما يقال فى الزواج والجماع؛ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "إذا تزوّج أحدُكم ثم دخل على أهله فليقُـل اللّهمّ بارك لى فى أَهْلى و بارك لأهلى فىّ وآرزُقْنى منها وآرزقها منى وآجْمَع بيننا ما جمعتَ فى خيرٍ و إذا فرّقتَ بيننا ففرّق فى خير" . وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى صـلى الله عليه وسلم : "لو أن أحدكم إذا أتى أهلَه قال اللّهم جنّبْنِى الشيطانَ وجَنِّب الشيطانَ ما رزقتَنى فإنْ قُضِى بينهما وَلَدٌ لم يضرّه الشيطان"[(١)]، أو قال: "لم يُسَلَّط عليه" .

١٠

١٥

✦
✦ ✦

وأمّا ما يقال فى قضاء الدَّين ونجاح الحوائج؛ عن أبى سَعيد رضى الله عنه قال : دخل رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ذات يوم المسجدَ فإذا هو برجل من

(١) كذا فى الأصلين . وفى أذكار النووى (ص ١٢٥) عن رواية صحيحى البخارى ومسلم : «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره» وفى رواية للبخارى : « ... لم يضره شيطان أبدا» .

٢٠

الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقـال : " يا أبا أمامة مالى أراك جالساً فى المسـجد فى غير وقت صلاة"؟ قال : همومٌ لزِمتنى وديونٌ يارسول الله . قال : "أفلا أُعلِّمك كلاماً إذا قلتَه أذهب اللهُ همَّك عنك وقضى عنك دَيْنَك"! قال : بلى يارسول الله. قال : "قل إذا أصبحتَ وأمسيتَ اللّهم إنى أعوذ بك من الهمِّ[1] والحَزَن وأعوذُ بك من العجز والكَسَل وأعوذ بك من الجبن والبُخْل وأعوذُ بك من غَلَبـة الدَّين وقَهْرِ الرجال"؛ قال : ففعلت ذلك فأذهب الله همِّى وقضى عنِّى دَيْنى . وعن مُعاذ ابن جَبَل رضى الله عنه أنّه تخلّف عن صـلاة من الصلوات ففقده النبيّ صلى الله عليه وسلم. فلما جاءه قال: "ما خلّفك عن الصلاة يامعاذ" ؟ قال : ليُوحَنّا اليهودىّ علىّ دَيْنٌ فخشِيتُ إن خرجتُ أن يلزَمَنى فلا أنا وصلتُ إليك ولا أنا كنتُ فى أهلى. فقال صلى الله عليه وسلم : " ألَا أُعلِّمك[2] كلماتٍ إذا قلتَهنّ قضى الله عنك دينَك ولو كان مثـلَ الأرض أو مثل صـبِرٍ[3] ذهباً أو وَرِقاً قضاه الله عنـك"! قلت : بلى يا رسول الله قال : " قل اللّهُمّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ الملكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وتُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. رَحْمَنَ الدنيا والاخرةِ ورحيمَهما تُعطِى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء أسألك بعِزّتك ورحمتك أن تقضىَ عنِّى دَينى" . وعن عبد الله بن أبى أَوْفَى الأسلمىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " من كانت له

(١) كذا فى أذكار النووى (ص ٣٩) . وفى الأصلين : «... من الجبن والحزن...» .

(٢) كذا فى نزل الأبرار بالعلم المأثور من الأدعية والأذكار طبع مطبعة الجوائب (ص ٢٦٤). وفى الأصلين : «ألا أكلمك ...» .

(٣) صبر (بفتح فكسر): جبل من جبال اليمن مطل على قلعة «تعز» المدينة المشهورة بها . (عن تاج العروس) .

(١٥٥) حاجةٌ إلى الله أو إلى أحد من بنى آدم فليتوضّأ وليُحسِنِ الوضوءَ وليصلِّ ركعتين ثم لْيُثْنِ على الله عز وجل ويصلِّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ليقُلْ لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحانَ الله ربِّ العرش العظيم والحمدُ لله ربّ العالمين أسألك مُوجباتِ رحمتك وعزائمَ مغفرتِك والغنيمةَ من كلِّ برّ والسلامةَ من كلِّ ذنب لا تدع لى ذنباً إلا غفرتَه ولا همًّا إلا فرّجتَه ولا حاجةً هى لك رِضًا إلا قضيتَها". وعن علىّ رضى الله عنه قال: دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا علىّ إذا خرجتَ من منزلك تريدُ حاجةً فاقرأْ آيةَ الكُرْسىّ فإنّ حاجتَك تُقْضَى إن شاء الله تعالى". وعنه رضى الله عنه قال: "إذا أراد أحدُكم الحاجةَ فليُبَكِّرْ فى طلبها يوم الخميس وليقرأْ إذا خرج من بيته آخر سورةِ آلِ عِمْرانَ وآيةَ الكرسىّ وإنّا أنزلناه فى ليلة القدر وأمّ الكتاب فإنّ فيها قضاءَ حوائج الدنيا والآخرة".

* * *

وأمّا ما يقال فى ردّ الضالّة؛ عن مكحول رضى الله عنه أنه كان يدعو فى الضالّة: اللّهم هادىَ ورادَّ الضَّوالِّ اردُدْ علىّ ضالّتى ولا تُعَنِّنِى بطلبها ولا تَفْجَعْنى بمُصيبتها فإنها من رزقك وعطائك. وكان يقول فى الآبق: اللّهم ضَيِّق عليه البلادَ وآجعلْه فى أضيقَ من ضرورة الحمل[1] حتى تَرُدَّه.

* * *

دعاء الاستخارة؛ عن أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أراد الأمرَ: "اللّهم خِرْلِى وآخْتَرْ لى". وعن جابر

(١) كذا فى الأصل. وقد راجعنا كثيرا من كتب الحديث والأدعية فلم نوفق له. وفى كتاب الفوائد فى الصلات والعوائد المطبوع بالمطبعة الكاستلية سنة ١٢٩٦هـ (ص ٢٨) وردت العبارة الآتية فى عزيمة العبد الآبق وهى: «اللهم إنى أسألك يامالك السموات والأرض ومن فيهن أن تجعل اللهم السماء والأرض وما فيهما على عبد فلان بن فلانة أضيق من حلقة حتى يرجع الى مولاه برحمتك يا أرحم الراحمين».

ابن عبد الله رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا الاستخارةَ فى الأمور كما يعلِّمنا السورةَ من القرآن، يقول: "إذا همّ أحدكم بالأمر فليركَعْ ركعتين من غير الفريضة ثم ليقُلْ اللّهم إنِّى أستخيرُكَ بعلمك وأستَقْدِرُك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدِر ولا أقدِر وتعلَم ولا أعلَم وأنت علّامُ الغيوب اللّهم إنْ كنت تعلم أن هذا الأمرَ خيرٌ لى فى دِينى ومَعاشى وعاقبةِ أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فاقدُرْهُ لى [ويسّره لى ثم بارك لى فيه](١) وإن كنتَ تعلم أن هـذا الأمرَ شرٌّ لى فى دِينى ومعاشى وعاقبةِ أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فا[صرفه عنّى واصرفْنى](١) عنه واقدُرْ لى الخيرَ حيث كان ثم رَضِّنى به ويُسَمِّى حاجتَـه".

ذكر ما ورد فى أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم

قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا). وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله عز وجل تسعةً وتسعين اسمًا مائةً غيرَ واحدٍ إنّه وِتْرٌ يُحبّ الوترَ مَن أحصاها دخل الجنـة هو الله الذى لا إلهَ إلّا هُوَ الرحمن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السَّـلَام، المُؤمِن، المُهَيْمِن، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلىّ، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المَجِيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القوىّ، المتين، الولىّ، الحميد،

(١) زيادة عن كتاب الأذكار للنووى (ص ٦٥).

المُحْصِى ، المُبْدِئ ، المُعيد ، المُحيِى ، المُميت ، الحىّ ، القَيُّوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصَّمَد ، القادر ، المقتدِر ، المقدِّم ، المُؤَخِّر ، الأوّل ، الآخِر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعال ، البرّ ، التوّاب ، المنتقم ، العفوّ ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المُقْسِط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضارّ ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصَّبُور .

وقد نبّه البُونى رحمه الله فى اللُّمعة النورانية على كيفية العلم والعمل بأسماء الله الحسنى وخاصيّة كل آسم منها ، ورتّب ذلك وجعله عشرة أنماط فقال :

النمط الأوّل

مِنْ نَظْمِ الأسماء آسمُه الله ، والإلٰه ، والربّ ، والخالق ، والبارىء ، والمصوّر ، والمبدئ والمُعيد ، والمُحيِى ، والمُميت . قال البونى : هذا النمط عشرة أسماء لا تكون إلّا أذكارا للذاكرين [على آختلاف] (١) أحوالهم . فاللهُ والإلٰه ذِكْرُ الأكابر والمُوَلَّهين فى الغالب . والربُّ ، والخالقُ ، والبارئ ذكر الأكابر من السالكين المُرِيدين (٢) . والمصوّر ، والمبدئ ، والمعيد ، والمُحيِى ، والمُميت ذكر عباد الله المتعبِّدين والمتبصّرين (٣) .

النمط الثانى

الأحد ، الواحد ، الصمد ، الفعّال ، البصير ، السميع ، القادر ، المقتدر ، القوىّ ، القائم . قال : هذه الأسماء العشرة سِلْكٌ واحدٌ فى تقارب الأذكار ؛ وهذا القسم فيه أذكار السالكين المتعلّقين بأسرار التوحيد ذكرهُم الأحد والواحد . وأمّا الصمد

(١) الزيادة عن اللمعة النورانية .

(٢) فى إحدى نسختى اللمعة النورانية : من المسلكين المربين :

(٣) فى إحدى نسختى اللمعة : "المعتبرين والمتبصرين" .

فذكر يصلح للمرتاضين بالجوع[(١)]، فذاكره لا يُحِسّ بألم الجوع البتّـة ما لم يُدخل عليه ذكرا غيره[(٢)]. والفعّال آسم للمغلوبين بالخواطر والوساوس وكثرة الأفكار وآغتمام القلب [بهذا السبب][(٣)]؛ فهما ذكره مَنْ هذه صفتُه تقلّبت[(٤)] أفكاره إلى ما يقع له به سرور وفرح. وأما السميع والبصير فتنزيه جليل، وهو ذكر يصلح للملحّين فى الدعاء فإنه ربما أسرعت لهم الإجابة. وأمّا القـادر، والمقتـدر، والقوىّ، والقائم فذكر يصلح لأصحـاب الإعياء والحِرَف الثقيلة؛ ولو علم سرّه من يعانى الأثقال وآستدامه لم يحسّ بثِقلٍ فيما يتعاطاه البتّة؛ ومن نقشهـا[(٥)] فى فص خاتم وتختّم به أدرك ذلك لوقته؛ ومن ضعُف عن شىء ما وعلّقه عليه وذَكَره قوِى لوقته.

النمـــط الثـالث

الحىّ[(٦)]، القيُّوم، الرحمن، الرحيم، الملك القـدير[(٧)]، العلىّ، العظيم، الكبير، المتعال. قال: هذا القسم من الأسمـاء يحتوى على أذكار المراقبين، وفيه أعمـال جليـلة البرهان. فالحىّ القيُّوم اسمان جليلان، ذكرٌ لأهل الحضرة، وهو من أذكار إسرافيل وملائكة الصُّور أجمعين، يصلُح أن يُذكر من مبـادئ الفجر إلى طلوع الشمس، يجد ذاكره من الزيادة والحشـية والتطلّع إلى طلب الفضائل ما لم

(١) فى نسختى اللمة النورانية: "للتريضين".

(٢) كذا فى إحدى نسخى اللمة. وفى الأخرى والأصلين: "ما لم يدخل عليه ذكر غيره".

(٣) الزيادة عن اللمة النورانية.

(٤) فى نسختى اللمة النورانية: "نقلت".

(٥) فى الأصلين ونسختى اللمة النورانية: "ومن نقشهم" بميم الجمع. وظاهر أن قواعد اللغة لا تقتضيها

(٦) كذا فى إحدى نسختى اللمة. وفى الأصلين وفى نسخة أخرى من اللمة: "ياحى ياقيوم الرحمن" الخ

(٧) كذا فى إحدى نسختى اللمة. وفى نسخة أخرى منها وفى الأصلين: "القدوس" ووجد بأحد الأصلين كلمة "القدير" فوق كلمة القدوس.

يعهَدْه قبلُ؛ ومن نقش الاسمين عند طلوع الشمس [من يوم الجمعة](١) مستقبلَ القِبلة على ذِكْرٍ وأمسكه عنده أحيا الله ذِكْرَه إنْ كان خَاملا(٢)، وأحيا رزقَه إنْ كان قليلا . وأمّا الرحمن الرحيم فأذكارٌ شريفة للمضطرين وأمانٌ للخائفين لا ينقُشه أحدٌ فى خاتم فى يوم جمعة آخر النهار فيرى ما يكرهه مادام عليه . ومن أكثر من ذكره كان مَلْطوفًا به فى كل أموره . وأمّا الملك والقدير فـ[ذكر](٣) يذكر عند كل ذى ملك وقدرة فإنه ما من مَلِك يستديم هذا الذِّكرَ فى عموم أوقاته إلّا ثبت مُلْكه وانبسطت قدرته؛ ويصلح للسالك الذى تغلبه شهواتُ نفسه؛ فإنه ما يستديم ذكره مَنْ هذا مقامُه إلا بعث الله إليه قوّةً مَلَكِيّة تؤيّده وتنصره على من يخالفه من عوالمه . وأما العلىّ العظيم فللتنزيه . والكبير المتعال مناسب للتنزيه أيضا ، وهما اسمان لائقان(٤) بأهل التعظيم من أرباب الأحوال ليس للعامّة فى الذكر بهما(٥) قسم .

(١٥٧)

النمط الرابع

المهيمن، المُقيت، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، المحيط ، الحفيظ ، الفاطر، المجيد ذو الجلال . قال البونى : أمّا المهيمن ، والمُقيت فللعلم والاستيلاء(٦) والمراقبة فى الجزئيات والكليات . والعزيز ، والجبّار ، والمتكبِّر فمن أسماء صفات الذات اللازمة للخوف والرهبة والعظمة، لا يذكرها(٧) ذليل إلا عزّ، ولا حقير إلا ارتفع، ولا بين يدى جبّار إلا ذلّ وخضَع ، ولا يذكرها(٧) ملك من ملوك الأرض إلا وجد

(١) هذه الكلمة ساقطة من نسختى اللمة .

(٢) كذا فى نسختى اللمة . وفى الأصلين : "أحيا الله ذكره وإن كان خاملا وأحيا رزقه وإن كان قليلا" .

(٣) زيادة عن نسختى اللمة النورانية .

(٤) كذا فى نسختى اللمة النورانية . وفى الأصلين : « وهما اسمان يليق » .

(٥) فى الأصلين : «بهم» . (٦) فى نسختى اللمة النورانية : «فللعلم بالأشياء» .

(٧) فى الأصلين ونسختى اللمة بميم الجمع ، وقواعد اللغة تقتضى ما وضعناه .

فى نفســه ذِلّةً وآنكسارا . وأما الحفيظ فإنه آسم سريع الإجابة للخائفين فى الأسفار. وأما المحيط، والمجيد، والفاطر، وذو الجلال، فأسماء التنزيه وزيادات فى التوحيـــد .

النمـــــط الخـامس

العليم، الحكيم، البديع، النور، القابض، الباسط، الأوّل الآخر، الظاهر، الباطن . قال : هذا القسم من الأسماء جليل القدر عظيم الشأن. فأمّا العليم، والحكيم فللتوحيد الخاص، لا يصلحان إلا لمَنْ أُبْهِمَ عليه أمرٌ من كشف سرٍّ من أسرار الله تعالى يعسُرُ على الفكر إدراكُه، فإنه إذا آستدام ذِكْرَ العليم الحكيم يسّر الله عليه علم ما سأل[1] وعرّفه الحكمة فيه، ومنه آسمه البديع أيضا [مثل ذلك] . وأمّا النُّور، والباسط، والظاهر، فذكر أرباب المكاشفات. ومن أراد أن ينظر شيئا فى منامه فليذكر هذه الأسماءَ على طهارة وهو فى فراشه إلى أن ينام على هذا الذكر، ويُعْمِلْ همّتَه فيما يريده فإنه يُمَثَّـلُ له فى نومه كشف ذلك . وأمّا القابض، والأوّل، والآخر، والباطن، فكلها أسماء للتعظيم والتوحيد .

النمـــــط السادس

الحليم، الرءوف، المنّان، الكريم، ذو الطَّوْل، الوهّاب، الغفُور، الغافر، العفُوّ، المُجيب . قال : هذا النَّمَطُ من الأسماء عليه مدار إبقاءِ الوجود ودفع الأضداد وجمع المتفرّق . أما الحليم، والرءوف، والمنّان، فذكر للخائفين ؛ ما داومه مَنْ يخاف شيئا إلا أوجده الله تعـالى بَرْدَ الطُّمَأْنِينة وسكّن رَوْعَه . قال البونى : وذكر [لى][2] من له

(١) هكذا فى الأصلين . والذى فى نسختى اللمة : "علمه فيما يناله، وعرفه الحكمة فيما سأل" .

(٢) زيادة عن اللمة النورانية .

اطلاع أنه من استدام هذا الذكر إلى أن يغلب عليه حال منه على خلق معدّة ثم أمسك النارَ لم تعدُ عليه، ولو تنفس حينئذ على قِدْر تغلي سكن غليانُها بإذن الله تعالى، ولا يكتبها[1] أحد ويقابل بها من يخاف منه إلّا أطفأ الله شرّه عند رؤيته، ولا يستديم هذا الذكر مَنْ غلبته شهوتُه إلا نزع اللهُ منه النزوعَ إليها فى أثناء ذكره. وأما الكريم، الوهّاب، وذو الطّول؛ فلا يستديم على هذا الذكر مَنْ قُدِر عليه رِزْقُه ومسّته حاجةٌ إلا يسّر الله عليه من حيث لا يشعر، ومن نقش هـذه الأسماءَ وعلّقها عليه لم يدر كيف يُيسّر الله عليه المطالب من غير عُسْر. وأما الغفور، والغافر، والعفوّ، فنظمٌ متقارِبٌ لسؤال دفع المُؤْلِم خصوصا من آلام الدين والدنيا. وأمّا المجيب، فيذكر فى آخر الدعوات.

النمـــط السابع

(١٥٨)

الكافى، الغنىّ، الفتاح، الرزاق، الوَدُود، اللطيف، الواسع، الشهيد، نِعْم المولى ونعم النصير. قال: هذا النمطُ من الأسماء جليلِ القدر، به يُنزِّل الله الرغائب من كل مفضول به على أحد من عباده. فأسمه الكافِى، والغنىّ، والفتاح، والرزّاق لا يذكرُ أحدٌ هـذه الأسماءَ الأربعةَ وهو يتمنّى شيئا لم تبلغه أمنيّته إلا بلغه بإذن الله تعالى من جهةٍ لا يعتمد عليها لم تخطر بباله. لا يذكر أحد هـذا الذكر على القليل إلا كثّره الله ولا على طعام إلا ظهرت فيه زيادة، ولا يذكره مَنْ هو فى رتبة وهِمّتُه طالبةٌ أعلى منها إلا يسّر الله له الوصولَ إليها. وأمّا الوَدُود، واللطيف، والواسع، والشهيد، فنمطٌ جليل النظم لأرباب الهجوع والخلْوة؛ واللطيف خصوصا لتفريج الكرب فى أوقات الشـدائد لا يضاف إليه غيره؛ لا يذكره من يُؤْلِمه شىء فى نفسه وبدنه إلا أزاله الله عنه أثناء الذكر.

---

(١) فى الأصلين ونسختى اللغة: «ولا يكتبهم أحد ويقابل بهم الخ».

النمـــط الثامن

الشديد، ذو القوة، المتين، السريع، الرقيب، المقتدر، القـاهر، الوارث، الباعث، القوىّ[(١)] . هذا النمط من الأسماء عظيم الشأن . فأمّا الشديد، وذو القوة، والقاهر، والمقتدر، فهى أسماء القهر لا يذكرها[(٢)] ضعيف الهِمّة إلا قَويت نفسه، ولا يدعو بها[(١)] أحد على ظالم فى احتراق[(٣)] الشهر فى السابعة من الليل فى بيت مظلم حاسرَ الرأس على الأرض لا حائل بينه وبينهـا مائة مرة[(٤)] يقول فى آخرها : يا شـديد خُذْ لى بحقّى من فلان[(٥)]، ولا يشخّص[(٦)] شيئا فالله أعلم بما يعمل . قال : وقد جُرّب مِئين من المرّات . ولا ينقشها[(٢)] أحد فى خاتم ويتختّم به إلا ألبسه الله تعالى مهابة يُدْرِكها مِن نفسه ويُدْركها غيره منه ، ويرتاع منه كل جبّار عَنِيد عند رؤيته، حتى كأن الجبال على كاهله ما دام ينظر إلى من هو معـه . وأمّا السريع، والرقيب، والمتين، فذكر لأرباب المراقبة فى الأفعال تنفتح لهـم بذلك مكاشفات وأسرار . وأمّا الوارث، والباعث، فلحكمة الاعتبار والتصديق بآثار القدرة .

---

(١) فى إحدى نسختى اللمة النورانية بدل اسم القوي بين السطور اسم « الشكور » . ولم يرد فى نسخة اللمة الثانية شىء بعد كلمة الباعث .

(٢) فى الأصلين ونسختى اللمة : «لا يذكرهم ... ولا يدعو بهم» ، وكذلك ما عليه رقم (٢) .

(٣) فى المخصص (ج ٩ ص ٣١) : وامتحاق القمر احتراقه يوم المحاق آخر الشهر لأن الشمس تمحق الهـلال فيه ولا تبينه .

(٤) كذا فى إحدى نسختى اللمة . وفى نسخة أخرى والأصلين : «لا حائل بينه وبينها يقول فى آخرها مائة مرة : يا شديد خذ لى الخ» .

(٥) فى الكلام حذف يدل عليه السياق بأن يقدر : «إلا استجيب له» .

(٦) كذا فى الأصلين وإحدى نسختى اللمة . وفى أخرى : «ولا تجسّى» .

النمـــــط التـاسع

التوّاب، الشاكر، الولىّ، الحسيب، الوكيل، القريب، الصادق، البرّ، الباقى، الخلّاق. قال: هذا القسم مرتّب على سلوك مقامات السالكين؛ فالتوّاب للتائبين، والشاكر للشاكرين، والولىّ للأولياء، والحسيب لأهل الكفاية، والوكيل للمتوكّلين، والقريب من أهل القرب، والصادق مع الصادقين، والبرّ مع أهل البرّ، والباقى مع الشهداء، والخلّاق لذوى الاعتبار. وللمشايخ فى هـذا الميدان مجالٌ رَحْب بحسب اختلاف أحوالهم.

النمـــــط العـاشر

الهـادى، الخبير، المبين، علّام الغيوب، ذو الجلال والإكرام، القُـدُّوس، السلام، المُؤْمِن، وينتظم فى ذلك المُعِزّ، والمُذِلّ، وما فى آخر سورة الإخلاص. قال: فالهادى، والخبير، والمبين، لمن أراد كشف عواقب الأمور بجُوع وسهَر؛ ويَذْكُر هـذه الأسماء وعلى رأس مائة من أعداد الذكر يقول: اهـدنى يا هادى، وخبِّرنى يا خبير، وبيِّن لى يا مُبين؛ ويسمِّى ما يريده وذلك فى جوف الليل، فإذا أدركه النوم مُثِّل له كشفُ ما أراده من أىّ نوع شاء. هذا مختصر ماقاله البونى فى ترتيب أسماء الله الحسنى.

وأمّا ما ورد فى الاسم الأعظم؛ فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يقول: اللّهـم إنى أسألك أنى أشهَدُ أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد، الصمد، الّذى لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكنْ له كُفُوًا أحد؛ فقال: "لقد سألتَ اللهَ بالاسم الذى إذا سُئِل به أعطى وإذا دُعِى به أجاب". وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا رجل من

الأنصار يقال له أبو عَيَّاش[1] الزُّرَقِيّ يصلِّى، فدنوت منه، فدعا فى صلاته: اللّهم إنى أسألك — بأن لك الحمدَ لا إلهَ إلا أنت المنّان بديعُ السمٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام — أن تغفرَ لى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد دعا اللهَ بآسمه الأعظم الذى إذا دُعِى به أجاب وإذا سُئِل به أعطى". وعن أسمـاء بنت يزيد رضى الله عنهـا أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال: "آسم الله الأعظم فى هاتين الايتين وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ" وفاتحة سورة آل عمران ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وعن أبى أُمَامة وآسمه صُدَىّ بن عَجْلَان الباهِلِىّ رضى الله عنـه قال: قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم: "إن آسم الله الأعظم لفى ثلاث سور من القرآن فى البقرة وآل عمران وطه". قال فآلتمستها فوجدت فى البقرة آية الكرسى ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وفاتحة آل عمران ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وفى طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

والأدعية المختارة كثيرة وقد أتينا منها بما فيه كفاية لمن توجّه إلى الله تعالى وسأله. ولنختم هذا الباب بمـا ختم به البخارىّ كتابه: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله وبحمده سبحانَ الله العظيم.

---

(١) فى أحد الأصلين: «أبو العباس» وفى الآخر: «أبوعياس» بالسين المهملة وهو محرف عن أبى «عياش» الزرقىّ الأنصارى وهو صحابى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث صلاة الخوف بعسفان كما فى تهذيب التهذيب.

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى أحد الأصلين الفتوغرافيين :

تمّ الجزء الخامس من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرىّ ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبىّ بعده محمد وآله وسلم
يتلوه إن شاء الله الجزء السادس

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى الأصل الثانى الفتوغرافى :

كمل السفر الخامس من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب، على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهّاب بن محمد بن عبد الدائم البكرىّ التّيمىّ القرشىّ، عُرِف بالنُّوَيْرِىّ، عفا الله عنهم .

ووافق الفراغ من كتابته فى يوم الأحد المبارك لثمان بقين من شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المُعِزِّيّة .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء السادس القسم الخامس من الفن الثانى فى الملك وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعية وما يجب للرعيّة عليه إن شاء الله تعالى .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيّه وآله وصحبه ، وسلّم تسليما كثيرا، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧هـ - ٧٣٢هـ

السفر الخامس

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

فهرس

السفر الخامس

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

للنويرى

(تابع) أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية
ومن أخذ عنهم ومن اشتهر بالغناء

صفحة

ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم ١

ذكر أخبار عَلُّويَه ٩

ذكر أخبار مَعْبَد اليقطينى (صوابه : القطنى) ١٣

ذكر أخبار محمد الرقّ ١٧

ذكر أخبار محمد بن الأشعث ١٩

ذكر أخبار عمرو بن بانَة ٢١

ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعى ٢٢

ذكر أخبار وجه القرعة ٣٠

ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر ٣٢

ذكر أخبار أحمد بن صدقة ٣٣

ذكر أخبار أبى حشيشة ٣٥

ذكر أخبار القيان وأول من غنّى من النساء ومن اشتهر بالغناء منهن
فى الإسلام ٣٨

صفحة

ذكر أخبار جميلة (مولاة بنى سُلَيم) ٤١
ذكر أخبار عَزَّة المَيْلاء ٥٠
ذكر أخبار سلّامة القَسّ ٥٢
ذكر أخبار حَبَابة ٥٨
ذكر أخبار خُلَيْدة المكية ٦٤
ذكر أخبار مُتَيّم الهاشمية ٦٥
ذكر أخبار ساجى جارية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (فى الأغانى طبع بُلَاق : شاجى) ٦٩
ذكر أخبار دُقَاق ٧٠
ذكر أخبار قلم الصالحية ٧١
ذكر أخبار بصبص جارية ابن نفيس ٧٣
ذكر أخبار جوارى ابن رامين (وهن سلّامة الزرقاء، ورُيَّحة، وسُعْدَة) ٧٥
ذكر أخبار عنان جارية الناطفىّ ٧٨
ذكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدىّ ٨٢
ذكر أخبار بَذْل ٨٨
ذكر أخبار ذات الخال ٩١
ذكر أخبار دنانير البرمكية ٩٣
ذكر أخبار عَرِيب المأمونية ٩٥
ذكر أخبار محبوبة ١١٢
ذكر أخبار عُبَيْدة الطُّنْبورية ١١٤

الباب السابع :

فيما يحتاج إليه المغنّى ويضطرّ الى معرفته، وما قيل فى الغناء وما وصفت به القيان، ووصف آلات الطرب ١١٧

صفحة

ذكر ما يحتاج اليه المغنّى ويضطر الى معرفته وما قيل فى الغناء والقيان من جيّد الشعر ١١٧
ذكر ما قيل فى وصف آلات الطرب ١٢٢

القسم الرابع :

فى التهانى والبشائر والمراثى والنوادب والزهد والتوكل والأدعية وفيه أربعة أبواب ١٢٧

الباب الأوّل :

فى التهانى والبشائر ١٢٧
ذكر شىء مما هُنِّئ به ولاة المناصب ١٢٧
ومما هُنِّئ به من اتصل بزوجة ذات جمال وحسب وأصالة وأدب... ١٣١
ومما هُنِّئ به من رزقه الله ولدا وزاده به قوّة وعددا ١٣٢
ومما هُنِّئ به فى المواسم والقُدوم ١٣٥
ومما قيل من شواذّ التهانى وهى الجمع بين التهنئة والتعزية، والبشارة والتسلية ١٣٦
ذكر نبذة من التهانى العامة والبشائر التامة ١٤٠
ومما قيل فى التهانى بالفتوحات وهزيمة جيوش الأعداء ١٤٥

الباب الثانى :

فى المراثى والنوادب ١٦٤
ذكر شىء من المراثى والنوادب ١٦٨
ومما قيل فى شواذّ المراثى ٢١٧

الباب الثالث :

فى الزهد والتوكل ٢٣٠
ذكر بيان حقيقة الزهد ٢٣١

صفحة
وأما العلم الذى هو المثمر لهذا الحال ٢٣٣
وأما العمل الصادر عن حال الزهد ٢٣٥
ذكر فضيلة الزهد وبغض الدنيا ٢٣٧
ذكر بيان ذم الدنيا وشىء من المواعظ والرقائق الداخلة فى هذا الباب ... ٢٤٢
ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه ٢٥٦
ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريّات الحياة ٢٦٠
ذكر بيان علامات الزهد ٢٧٢
ذكر ما ورد فى التوكل من فضيلته وحقيقته ٢٧٥
أما فضيلته ٢٧٥
وأما حقيقته ٢٧٥
ذكر بيان أعمال المتوكلين ٢٧٨
أما جلب النافع ٢٧٨
وأما حفظ النافع ٢٨١
وأما دفع الضار عن النفس والمال ٢٨١
وأما إزالة الضرر ٢٨٢

الباب الرابع :

فى الأدعية ٢٨٤
وأما ما ورد فى نفع الدعاء ودفعه للبلاء ٢٨٧
وأما ما ورد فى الإلحاح فى الدعاء وهيئة الذِّلة والإنابة ٢٨٧
وأما ما ورد من كراهية آستعجال الإجابة ورفع البصر والسجع فى الدعاء ٢٨٨
وأما ما ورد فيمن تجاب دعواتهم ٢٨٩
ذكر الأوقات التى تُرجى فيها إجابة الدعاء ٢٩٠
ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها... ... ... ٢٩٢

صفحة

ذكر ما يدعى به فى المساء والصباح والغدو والرواح والصلاة والصوم والجماع والنوم والورْد والصدَر والسفر والحضر وغير ذلك... ... ... ٣٠٤
فأما ما يقال عند المساء والصباح ٣٠٤
وأما ما يقال عند النوم ٣٠٦
وأما ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما ٣٠٦
وأما ما يقال عند النداء ٣٠٨
وأما ما يقال عند الدخول الخلَاء ٣٠٨
وأما ما يقال عند الوضوء وغَسْل الأعضاء ٣٠٨
وأما أدعية الصلاة ٣١٠
وأما ما يدعى به فى نفس الصلاة ٣١٠
وأما ما يدعى به بعد التسليم ٣١٣
وأما ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقين والدفن ٣١٥
وأما ما يقال عند زيارة القبور ٣١٦
وأما ما يقال عند الإفطار من الصوم والأكل والشرب ٣١٧
وأما ما يقال عند لباس الثوب وإلباسه وعند النظر فى المرآة والتسريح وفى المجلس ٣١٨
وأما ما يقال فى المرض والرُّقَى والوَسْواس والحريق ٣١٩
وأما ما يقال عند دخول السوق وشراء الجارية والدابة ٣٢١
وأما ما يقال عند هبوب الرياح وفى الرعد والمطر ٣٢٢
وأما ما يقال فى الخوف والشدائد ٣٢٣
وأما ما يقال فى الغضب والفزع ٣٢٤
وأما ما يقال فى السفر وركوب الدابّة والسفينة ودخول القرية ٣٢٤
وأما ما يقال فى الزواج والجماع ٣٢٧
وأما ما يقال فى قضاء الدَّيْن ونجاح الحوائج ٣٢٧

صفحة
وأما ما يقال فى ردّ الضالّة ٣٢٩
ذكر ما ورد فى أسماء الله الحسنى والأسم الأعظم ٣٣٠
كيفية العلم والعمل بأسماء الله الحسنى وخاصية كل آسم منها وترتيب
ذلك إلى عشرة أنماط ٣٣١
النمط الأوّل ٣٣١
النمط الثانى ٣٣١
النمط الثالث ٣٣٢
النمط الرابع ٣٣٣
النمط الخامس ٣٣٤
النمط السادس... ... ... ٣٣٤
النمط السابع ٣٣٥
النمط الثامن... ... ... ٣٣٦
النمط التاسع ٣٣٧
النمط العاشر... ... ... ٣٣٧
وأما ما ورد فى الأسم الأعظم ٣٣٧
صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى الأصلين الفتوغرافيين ٣٣٩

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الخامس

فى المَلِك وما يشترط فيه وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعيّة وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به ذِكر الوزراء وقادة الجيوش وأوصاف السلاح ووُلاة المناصب الدينية والكُتّاب والبلغاء

وفيه أربعة عشر بابا

الباب الأوّل

من هذا القسم فى شروط الإمامة الشرعيَّة والعُرفيّة

أما الشروط الشرعية، فقد ذكر منها الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين
١ ابن الحسن بن محمد بن الحليم الحَلِيمىّ الجُرْجانى الشافعىّ (١) — رحمه الله — فى كتابه المترجم بـ"المنهاج" لُمْعة واضحةَ البيان، حسنةَ التِّبيان، اكتفينا بإيرادها عما سواها، واقتصرنا عليها دون ما عداها، لجمعها أكثر الشروط مع إيجاز اللفظ وإصابة الغرض، على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى .

قال الحَلِيمىّ : إذا أراد أهل الاجتهاد نَصْبَ إمام حين لا إمام لهم، فأول شرائطه أن يكون من قريش . والثانية أن يكون عالما بأحكام الدين من الصلاة وأَخْذ

---

(١) توفى سنة ٤٠٣ هـ وكتابه المنهاج يقع فى نحو ثلاثة مجلدات فيه أحكام كثيرة ومسائل فقهية وغيرها مما يتعلق بأصول الإيمان وآيات الساعة وأحوال القيامة . عن كشف الظنون .

الصدقات ومصارفها والقضايا والجهاد بالمسلمين وقَسْم الغنـائم والنظر فى حدود الله تعالى إذا رُفِعَت إليه فيقيمَها أو يدرأها وغير ذلك . والثالثة أن يكون عَدْلا فى دينه وتعاطيه ومعاملاته .

فأما آشتراط النسب ؛ فلِما رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الأئمـة من قريش ..." وأنه صلى الله عليه وسلم قال: "قدّموا قريشا ولا تَقَدَّموها ولولا أن تَبْطَرَ قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى" .

وأما آشتراط العلم بأحكام الصلاة والزكاة والجهاد والقضاء والحدود والأموال التى يتولّاها الأئمة ، فإنه لا يُمكنه أن يقوم بحقِّها والواجبِ فيها إلا بعد العلم ، لتكون معالم الدنيا قائمة ، وأحكام الله تعالى بين عباده جارية . فإذا لم [يكن](١) عنده من العلم ما يتوصّل به إلى ما يحتاج الإمام إليـه فوجودُه وعدمه بمنزلة واحدة . وينبغى أن يكون شجاعا شَهْما ، لأن رأس أمور الناس الجهاد ؛ فإذا كان من يتولّى أمورهم جبانًا فَشِلا منعه ذلك من مجاهدة المشركين وحَمَله على أن يترك كثيرا من حقوق المسلمين فكان ضررهم به أكثر من نفعهم .

وأما اشتراط العَدالة ، فلأن الإمام إذا كان يتولّى حقوقَ الله تعالى وحقوق المسلمين فَمَنْصَبُه منصِبَ الأمانة ائتمانٌ له على الحقوق ؛ ولا يجوز أن يُؤْتَمَنَ على حقوق الله تعالى مَن ظهرت خيانتُه لله ولعباده ، ولأن الفاسق ناقصُ الإيمان فلا يجوز أن يُشْرِف بالتّولية على المسلمين الذين فيهم مَنْ هو كامل الإيمـان وأقربُ إلى كماله منه ، كما لا يجوز أن يُوَلَّى شيئا من أمور المسلمين كافر ، ولأن الفاسق لا يُرْضَى للشهادة فكان بألّا يُرْضَى للحُـكم وهو أرفع منزلةً من الشهادة أولى ، وإذا لم يُرْضَ للحكم كان بألّا يُرْضَى للإمامة التى هى أجمعُ من الحكم أولى ، والله أعلم ، ولأنه إذا لم يكن يُصلح

(١) زيادة يقتضيها السياق .

نفسَه، إما تضييعا لها أو عجزا عن إصلاحها، فهو فى حقّ غيره أكثرُ تضييعا ولإصلاحه أشدُّ عجزا، ومَن كان بهذه المنزلة فهو أبعدُ الناس من موقف الأئمة .

فصل — وإذا آجتمعت هذه الشرائط التى ذكرناها فى رجل، فإن كان الإمام الذى تقدّمه ولّاه فى حياته ما يتولّاه إما آستخلافًا عند عجزه عن القيام بما عليه فيه، وإما آنخلاعا إليه منه فلا آعتراض فى ذلك عليه، وإن كان أوصى له بالولاية بعد موته فالأظهر جواز ذلك . قال : فإن لم يكن لمن جمع شرائط الإمامة عهدٌ من إمام قبله وآحتيج إلى نصب إمام للمسلمين فآجتمع أربعون عدلا من المسلمين أحدُهم عالم يصلُح للقضاء بين الناس، فعقَدُوا لرجل جَمَع الشرائط التى تقدّم ذكرها بعد إمعان النظر والمبالغة بالآجتهاد، ثبتت له الإمامة ووجبت طاعته . وينبغى أن يبدأ العالم الذى بينهم بالعقد ثم الذين ليسوا فى العلم والرأى مثله .

فصل — قال: وإذا لم يجدوا من قريش من توجد فيه شرائطُ الإمامة — وهذا بعيد جدّا وإنما هى مسائل توضع لآحتمال الوقوع — فعند ذلك يكون الإمام من أقرب القبائل إلى قريش، فيكون من كِنانة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله آصطفى كنانةَ من العرب وآصطفى قريشا من كنانة"؛ فإن لم يوجد فيهم كان من أقرب العرب من كنانة، حتى إذا آستُوفِى بنو إسماعيل لم يُعْدَل إلى بنى إسحاق، وإن كانوا أقرب لأنهما آبنا إبراهيم، ولكن الى جدّهم من العرب، ثم الأقرب فالأقرب .

فصل — وإذا وُجد قرشىّ عالم غير عدل وقرشىٌّ عدلٌ غير عالم وكنانىٌّ عالم عدل، قال الحليمىّ : الأشبه عندى أن يُقَدَّم القرشىّ العدل، فإن أَشْكَل عليه شىء عَمِل فيه برأى أهل العلم .

فصل — وإذا خَلَعَ الإمامُ نفسَه ولم يُوَلِّ أحدا مكانه، فإن كان الإمام صالحا للإمامة بالإطلاق فذلك منه غير نافذ، لأنه نُصِب ناظرًا للمسلمين، وخَلْعُه نفسَه فى هذه

الحـالة ضررٌ عليهم، لأنه يدعهم بلا إمام ويعرّضهم للاجتهاد فى نصب غيره، وقد يُصيبون فى ذلك أو يُخطئون .

فصـــل — وإذا أَمَّرَ الإمامُ أُمراءَ واستقضَى قضاةً ثم مات، كان أُمراؤه وقضاته على أعمـالهم كما كانوا فى حياته ولا ينعزلون، وليسوا كالوكيل ينعزل بموت الموكِّل، لأن الوكالة نيابة، والولاية شركة. هذا ما قاله الحَلِيمىّ، والله تعالى أعلم. فهذه الشرعية التى لا بدّ منها فى حقّ الإمام .

٥

✦
✦ ✦

وأما الشروط العرفية والاصطلاحية، وهى ما ينبغى أن يأتيه المَلِك من جميل الفِعَال، ويَذَرُه من قبيح الخِصال .

قال معاوية بن أبى سفيان : مهما كان فى الملك فلا ينبغى أن تكون فيه خمسُ خصال : لا ينبغى أن يكون كذّابا، فإنه إذا كان كذّابا فوعد بخير لم يُرْجَ، وإن وعد بشرٍّ لم يُخَفْ؛ ولا ينبغى أن يكون بخيلا، فإنه إذا كان بخيلا لم يناصحه أحد، ولا تصلُح الولاية إلا بالمُنَاصَحة؛ ولا ينبغى أن يكون حديدا، فإنه إذا كان حديدا مع القـدرة هَلَكت الرعيّة؛ ولا ينبغى أن يكون حسودا، فإنه إذا كان حسودا لم يُشَرِّف أحدا، ولا يصلُح الناس إلا على أشرافهم؛ ولا ينبغى أن يكون جبانا، فإنه إذا كان جبانا اجترأ عليه عدوّه .

١٠

١٥

وقال ابن المُقَفَّع : ليس للملك أن يغضَب، لأن القدرة من وراء حاجته؛ وليس له أن يَكْذِب، لأنه لا يُقْدَر على استكراهه على غير ما يريد؛ وليس له أن يبخَل، لأنه أقلّ النـاس عذرا فى خوف الفقر؛ وليس له أن يكون حقودا، لأن خطره أعظم من المجـازاة .

٢٠

وقالت الحكماء : يجب على المَلِك أن يتلبّس بثلاث خِصال : تأخيره العقوبة فى سلطان الغضب، وتعجيل مكافأة المحسن، والعمل بالأَنَاة فيما يَحْدُث ؛ فإن له فى تأخير العقوبة إمكانا، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة فى الطاعة من الرعية، وفى الأناة انفساح الرأى وإيضاح الصواب .

٥ وقالوا : ينبغى للملك أن يأنَف أن يكون فى رعيّته مَن هو أفضل منه دِينا، كما يأنف من أن يكون منهم مَن هو أنفذ منه أمرا .

وقيل : لا ينبغى للملك أن يُسرع إلى حبس من يُكْتَفَى له بالجفاء والوعيد .

وقالوا : ينبغى للملك أن تَعرِفه رعيّته بالأمانة، ولا يُعَجِّل بالعقاب ولا بالثواب، فإن ذلك أَدْوم لخوف الخائف ورجاء الراجى .

١٠ وقال بعض حكماء الفرس : أحزم الملوك مَن غلب جِدُّه هَزْلَه، وقهر رأيُه هواه، وعبّر عن ضميره فعلُه، ولم يخدَعْه رضاه عن حظّه، ولا غضبُه عن كيده .

الباب الثانى

من القسم الخامس من الفن الثانى

فى صفات الملك وأخلاقه وما يُفَضَّل به على غيره، وذِكْر ما نُقِل من أقوال الخلفاء والملوك الدالّة على علوّ هِمَمهم وكرم شِيَمهم

١٥

قال أحمد بن محمد بن عبد ربّه : السلطان زِمام الأمور، ونِظام الحقوق، وقِوَام الحدود، والقطب الذى عليه مَدار الدِّين والدنيا؛ وهو حِمَى الله فى بلاده، وظلُّه الممدود على عباده، به يُمنَع حريمُهم، ويُنتَصَر مظلومُهم، ويُقمَع ظالمهم، ويؤمَّن خائفُهم .

وقال بعض البلغاء : المَلِك من تَبْيَضُّ آثار أياديه ، وتسودّ أيّام أعاديه ؛ وتخضَرُّ مواقع سَيْبِه ، وتحمرّ مواضع سيفه ؛ وتصفرّ وجوه حُسّاده[1] ، وتروق أعينُ أنداده .

وقال سهل بن هارون : المَلِك صبيّ الرضا ، كَهْل الغضب ؛ يأمر بالقتل وهو يضحك ، ويستأصل شَأْفة القوم وهو يَمْزَح ، يخلِط الجِدَّ بالهزل ، ويتجاوز فى العقوبة قَدْر الذنب ، وربما أحفظه الذنب اليسير ، وربما أعرض صفحا عن الخَطْب الكبير ؛ أسباب الموت والحياة متعلّقة بطَرَف لسانه ، لا يعرف أَلَمَ العقوبة فيُبْقِى ، ولا يُؤَنِّب على بادرة فينتهى ، يُخطئ فيُصَوَّب ويُصيب فيُفْتَرَض ، مفتون الهوى فظُّ الخليقة أخرَقُ العقوبة ، لا يمنعه من ذى الخاصّة به ما يعلم من عنايته[2] وطول صحبته أن يقتله بخَطْرة من خَطَرات مَوْجِدته ، ثم لا ينفكّ ان يُخْطَبَ إليه موضعُه ، فلا الثانى بالأوّل يعتَبِر ، ولا الملك عن مثل ما فَرَط منه يزدجِر .

قال عمرو بن هند : الملوك يَشْتُمون بالأفعال لا بالأقوال ، ويُسَفِّهون بالأيدى لا بالألسُن . قال مَعْبَد بن عَلْقمة :

وتجهلُ أيدينا ويحلُمُ رأينا * ونَشْتُمُ بالأفعال لا بالتَّكَلُّمِ

وأما ما يُفَضَّل به المَلِك على غيره ، فقد قيل : تميُّز الملك على غيره إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات . وفضل ذات الملك بخمس خصال : رحمة تشمل رعيّته ، ويَقظة تَحوطُهم ، وصَوْلة تذُبُّ عنهم ، ولِين يَكِيد به الأعداء ، وحزم ينتهز به الفُرَص ، فهذه فضيلة الذات .

---

(١) الذى بالأصل : وجوده ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) بالأصل "عناية" وأضفناه الى الضمير ليشاكل تاليه .

وأما فضيلة الآلات، فاتخاذُ المبانى الوثيقة العليّة، والملابسِ الأنيقة السنيّة، والذخائر النفيسة، والمطاعم الشهيّة، والمراكب البهيّة .

وقالت أمّ مَلِك طَخَارِسْتَان لنَصْر بن سَيّار : ينبغى للملك أن يكون على ستة أشياء خاصّة به : وزير يثق به ويُفْضِى إليه بسرّه، وحِصْن إذا فَزِع يأوى إليه، وسيف إذا نَزَل به أمرٌ لم يَخَف أن يخونه، وذخيرة خفيفة إذا نابته نائبة آستعان بها، وآمرأة جميلة إذا دخل عليها أذهبت همّه، وطبّاخ إذا لم يَشْتَهِ الطعام عَمِل له ما يشتهيه .

ذكر شىء من الأقوال الصادرة عن الخلفاء والملوك الدالّة على عظم هممهم، وكرم أخلاقهم وشيمهم، وشدّة كيدهم، وقوّة أيدهم

قيل للإسكندر وهو يحارب دَارَا : إن دارا فى ثمانين ألفا؛ فقال : إن القَصّاب لا يهولُه كثرةُ الغنم .

وآصطنع أَنُوشِرْوَانُ رجلا؛ فقيل له : إنه لا قديم له؛ فقال : آصطناعُنا إيّاه بيتُه وشرفُه . ولما رَهَن حاجب آبن زُرَارة قوسَه عند كِسْرى [قال](1) : لولا أنهم عندى أقلّ من القوس لم أقبلها .

قال النُّعمان بن المُنذِر

يعفو الملوك عن الكثير من الذنوب لفضلها
ولقد تُعاقب فى اليسير وليس ذاك لجهلها
لكنْ ليُرْجَى عفوُها * ويُخَافَ شدّةُ نَكْلِها

ومن كلام معاوية : نحن الزمان، من رفعناه آرتفع، ومن وضعناه آتّضع . وكان يقول : إنى لآنَفُ أن يكون فى الأرض جهلٌ لا يسعه حلمى، وذنبٌ لا يسعه

(1) زيادة يقتضيها سياق الكلام .

عفوى، وحاجةٌ لا يسعها جُودى . وقال معاوية أيضا : إنى لأرفع نفسى أن يكون ذنب أوسعَ من حلمى، وما غضبي على من أملِك ، أو ما غضبي على من لا أملِك! يريد: إنى إذا كنت مالكا للذنب فإنى قادر على الانتقام منه، فلِمَ أُلزم نفسى الغضب! وإن لم أكن أملكه فليس يضرّه غضبي ، فلِمَ أغضب عليه فأضرّ نفسى ولا أضرّه!

ومن كلام السَّفّاح : ما أقبحَ بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالُون من حسن آثارنا! . ومن كلام المأمون: إنما تُطْلَبُ الدنيا لتُملك، فإذا مُلِكت فَلْتُوهَب . وكان يقول : إنمـا يَستكثر من الذهب والفضّة من يَقِلّان عنده .

ومن كلام العبّاس بن محمد للرشيد : إنما هو درهمك وسيفك ، فآزرَعْ بهذا مَنْ شكرك، وآحصُدْ بهذا مَن كفرك، فقال : ياعمّ، والله ما للملك غيرُ هذا . كما قيل :

لم أرَ شـيئا صادقًا نفعُه * للمـــرء كالدرهم والسيفِ
يَقْضِى له الدرهمُ حاجاتِه * والسيفُ يَحْمِيه من الحَيْفِ

قيل : لمّـا أُشير على الإسكندر بتبييت الفرس قال : لا أجعل غَلَبتى سَرقة. وقيل [له](١) : لو تزوجتَ ببنت دارا! فقال : لا تغلِبْنى آمرأةٌ غلبتُ أباها .

ومن كلام أنوشِرْوان : إن الملِك إذا كثُرت أمواله مما يأخذ من رعيّته كان كمن يَعْمُر سَطحَ بيته مما يقتلِـع من قواعد بُنيانه . وكان يقول: وجدنا للذّة العفو ما لم نجد للذّة العقوبة .

ومن كلام المنصور : يحتمل الملوكُ كلَّ شيء إلا ثلاثة : القَـدْح فى الملك ، وإفشاء السرّ، والتعرّض للحُرَم .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

الباب الثالث من الفن الثانى

فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة والنصيحة والتعظيم والتوقير

وأما الطاعة فواجبة على سائر الرعيّة ، لأن الله تعالى قَرَن طاعة أولى الأمر بطاعته وطاعة رسوله ، ونصّ على ذلك فى مُحكم تنزيله فقال تعالى : (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ)، فبأمره تبارك وتعالى وجبت ، وبسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم تأكّدت وترتّبت . رُوِى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أطاعنى فقد أطاع الله ومن يَعْصِنى فقد عصى الله ومن يُطِع الأميرَ فقد أطاعنى ومن يَعْصِ الأميرَ فقد عصانى" وهذا الحديث ثابت فى صحيح مسلم . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اسمعوا وأطيعوا ولو أُمِّر عليكم عبدٌ حبشىّ كأنّ رأسه زَبِيبة". فقد تبيّن بكتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وجوبُ طاعة الإمام على كلّ مسلم .

وأما النصيحة، فلِمَا رُوى عن تَميم الدّارىّ رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدِّينَ النصيحةُ إن الدين النصيحةُ إن الدين النصيحة"؛ قالوا : لمن يا رسول الله؟ قال : "لله ولكتابه ورسوله وأئمة المؤمنين" أو قال: "أئمة المسلمين وعامّتهم". وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل رَضِى لكم ثلاثًا وسَخِط لكم ثلاثًا رَضِى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تَفَرَّقوا وأن تُناصِحُوا من ولّاهُ الله عز وجل أمركم". وقال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الخيرىّ رحمه الله : فانْصَحْ للسلطان وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد فى القول والعمل ، فإنهم إذا صَلَحُوا صَلَحَ العباد والبلاد بصَلاحهم، وإيّاك أن تدعوَ عليهم فيزدادوا شرًّا ويزدادَ البلاء بالمسلمين ،

وإيّاك أن تأتيَهم أو تتصنّعَ لإتيانهم أو تُحِبَّ أن يأتوك ، وآهرُبْ منهم ما آستطعت .

وفى كتاب للهند أن رجلًا دخل على بعض ملوكهم فقال : أيها الملك ، إنّ نصيحتك واجبة فى الصغير الحقير والكبير الخطير ، ولولا الثقةُ بفضيلة رأيك وآحتمالِ ما يسوء موقِعُه منك فى جَنْب صَلاح العامّة وتَلافِى الخاصّة لكان خُرْقًا منّى أن أقول ، ولكنّا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا مشمولٌ ببقائك ، وأنفسَنا معلّقةٌ بنفسك لم نجد بُدًّا من أداء الحقّ إليـك وإن أنت لم تَسَلْنِى ذلك ؛ فإنه يقال : من كتم السلطانَ نصيحتَه والأطباءَ مرضَه والإخوانَ بَثَّه فقد أخلّ بنفسه . وأنا أعلم أنّ كلّ ما كان من كلام يكرهه سامعه ، لم يتشجّع عليه قائلُه إلا أن يثِق بعقل المقول له ، فإنه إذا كان عاقلا آحتمل ذلك ، لأنه ما كان فيـه من نفع فإنمـا هو للسامع دون القائل . وإنك أيها الملك ذو فضيلة فى الرأى وتصرُّف فى العلم ، وإنما يُشجّعنى ذلك على أن أُخبِرَك بمـا تكره واثقًا بمعرفتك بنُصْحى لك وإيثارى إيّاك على نفسى .

وقال عمرو بن عُتْبة للوليد بن يزيد حين تغـيّر الناسُ له : يا أمير المؤمنين ، إنه يُنْطِقنى الأمن منك ، وتُسكتنى الهيبة لك ، وأراك تأمَن أشياءَ أخافُها عليك ، أفأسكُتُ مطيعا ، أم أقول مشفِقا؟ قال : قل ، مقبولٌ منك ، ولله فينا علمُ غَيبٍ نحن صائرون إليه ؛ فقُتِل بعد ذلك بأيام .

وقالوا : ينبغى لمن صَحِب السلطان ألّا يكتم عنه نصيحته وإن آستقلّها ، وليكن كلامه له كلامَ رِفْق لا كلامَ خُرْق ، حتى يُخـبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك ، ولكن يضرب له الأمثال ويُعرّفه بعيب غيره ، ليَعرِف به عيب نفسه .

دخل الزُّهرىّ على الوليد بن عبد الملك فقال له : ما حديثٌ يحدِّثنـا به أهل الشام؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : يحدّثوننا أن الله إذا آسترعى عبـدا

رعيّة كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات؛ قال: باطلٌ يا أمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفةٌ أكرمُ على الله، أم خليفةٌ غيرُ نبيّ؟ قال: نبيّ خليفة؛ قال: فإن الله تعالى يقول لنبيّه داود عليه السلام: (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ)؛ فهذا يا أمير المؤمنين وعيده لنبيٍّ خليفة، فما ظنّك بخليفةٍ غير نبيّ! قال: إن الناس لَيُعَرُّونَنَا من ديننا.

خطب المنصور فقال فى خطبته ما كأنّه تفسيرُ ما أدمجه فيثاغورث وإيضاحُه، وهو: معشر النـاس، لا تُضمِروا غِشّ الأئمـة فإنه من أضمر ذلك أظهره الله على سَقَطات لسانه، وقَلَبَات أحواله وسَحْنَة وجهه.

قال: خرج الزُّهرىّ يوما من مجلس هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيتُ كاليوم ولا سمعت كأربع كلمات تكلّم بهنّ رجل عند هشام بن عبد الملك، دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، ٱحفظ عنّى أربع كلمات فيهن صلاحُ مُلكك، وٱستقامةُ رعيّتك، قال: هاتهن؛ فقال: لا تعِدَنّ عِدةً لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغُرَّنّك المُرْتَقَى وإن كان سهلا إذا كان المُنْحَدَرُ وَعْرا، وٱعلم أن الأعمـال جزاء فٱتّق العواقب، وأن الأمور بَغَتاتٌ فكن على حَذَر؛ قال عيسى بن دَأْبٍ: فحدّثت الهـادى بها وفى يده لُقْمة قد رفعها إلى فِيـه فأمسكها، وقال: ويحك! أعِدْ علىّ؛ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أسِغْ لقمتك؛ فقال: حديثك أعجب إلىّ.

وقال ٱبن المقفّع: ٱعلم أن السلطان يقبل من الوزراء التّبخيل[1] ويَعُدُّه منهم شفقةً ويحمَدُهم عليه وإن كان جَوادا، فإن كنت مبخّلا[2] غَشَشْت صاحبك بفساد مُرُوءته،

(١) كذا فى الأدب الكبير ورسائل البلغاء لابن المقفع وفى الأصل "التبخل". والتبخيل: المطالبة بالبخل.

(٢) كذا فى الأدب الكبير ورسائل البلغاء لابن المقفع وفى الأصل: "كان ...".

وإن كنت مُسَخِّيًا لم تأمن إضرار ذلك بمنزلتك ؛ فالرأى تصحيحُ النصيحة على وجهها ، والتماسُ المَخْرَج [من العيب واللائمة فيما تترك](١) من تخيل صاحبك ، فلا يعرف منك فيما تدعوه إليه مَيلا إلى شيء من هواك ، ولا طلبًا لغير ما ترجو أن يَزِينَه وينفَعَه .

* * *

وأما تعظيمه وتوقيره والأدبُ فى خدمته والتمسّكُ بجماعته ، فلما روى عن أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "السلطان ظِلُّ الله فى الأرض فمن أكرمه أكرمه الله ومن أهانه أهانه الله". وعن أبى عُبَيدة بن الجَرّاح رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تسُبُّوا السلطان فإنه فىءُ الله(٢) فى أرضه". وعن أبى ذَرّ رضى الله عنه قال : خطبَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إنه كائنٌ بعدى سلطانٌ فلا تُذِلُّوه فمن أراد أن يُذِلّه فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه وليس بمقبول توبتُه حتى يسُدّ الثُّلْمَةَ التى ثَلَم ثم يعودَ فيكونَ فيمن يُعِزّه". وقد رُوِى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا مررتَ ببلدٍ ليس فيه سلطانٌ فلا تدخلْه فإنما السلطانُ ظلُّ الله ورُمْحُه(٣) فى الأرض". وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات مِيتَةً جاهليّة" وعن أبى رَجَاء العُطَارِدِىّ قال : سمعت ابن عبّاس يَرويه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة عن الأدب الكبير .

(٢) فى الأصل : "فانهم فىء الله..." بميم الجمع وماذكرناه عن الجامع الصغير .

(٣) فى الأصل «السلطان ظل وريحه فى الأرض» والتصويب عن الجامع الصغير والنهاية لابن الأثير ، ثم شرحه صاحب النهاية بكلام طويل ملخصه : أن الظل يلجأ اليه عند الحر ، والرمح يدفع به شر العدو وأذاه .

قال: "من رأى من أميره ما يكرَهه فليصبرْ فإنه ليس أحدٌ يُفارق الجماعة شِبرا فيموتُ إلا مات مِيتةً جاهليّة"[(١)] رواه البخاريّ. فقد تبيّن لك من سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوب تعظيم السلطان وتوقيرِه . .

وقال بُزُرْجِمِهْر : من جالس الملوك بغير أدب فقد خاطر بنفسه . وقال آبن المقفّع : من خَدَم السلطانَ فعليه بالملازمة من غير معاتبة . وقال : إن سأل السلطانُ غيرَك فلا تكن المجيبَ عنه ، فإن آستلابك الكلام خِفّةٌ منك وآستخفافٌ بالسائل والمسئول ؛ وما أنت قائل إن قال لك : ما إيّاك سألت ! أو قال لك المسئول عند المسئلة [يُعادُ له بها][(٢)] : يا هذا، دونَك فأجب؟ وإذا لم يقصِد الملك بمسئلته رجلا بعينه وعمّ بها جميع من عنده فلا تُبادرنّ بالجواب ، ولا تُسابق الجلساء ولا تُواثِبْ بالكلام مواثبة، فإنك إن سَبقْتَ القوم الى الجواب صاروا لكلامك خصوما فتعقّبوه بالعيب له والطعن فيه ، وإذا أنت لم تعجَل بالجواب وخلّيتَه للقوم عرضت قولهم على عينك، ثم تدبّرته وفكّرت فيه وفيما عندك، ثم هيّأت من تفكيرك ومما سمعت جوابا مَرْضِيا، ثم آستدبرتَ به أقاويلهم حتى[(٣)] تصغى إليك الأسماع ، ويهدأ عنك الخصوم. فإن لم يبلغك الكلام وآكْتُفِي بغيرك وآنقطع الحديث فلا يكونَنّ من الغَبْن عند نفسك فوتُ ما فاتك من الجواب، فإن صيانة القول خيرٌ من سوء موضعه. وقال: إذا كلّمك السلطان فاستمع لكلامه وآصغَ إليه، ولا تشغَلْ طَرْفك بنظر ، ولا أطرافك بعمل،

(١) نص ما فى البخارى : « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فانه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية » .

(٢) الزيادة عن الأدب الكبير ، والمراد من الجملة : ما ذا أنت قائل اذا أعاد السائل السؤال على المسئول الأول دون التفات الى جوابك .

(٣) فى الأدب الكبير "حين" بدل "حتى" .

ولا قلبك بحديث نفس، وٱحذَرْ هـذا من نفسك وتعهّدْها به . وقال : لا تشكوَنّ إلى وزراء السلطان ودُخَلائه ما ٱطّلعت عليه منه من رأى أنت تكرَهه، فإنك تكون قد فَطَّنتهم لهواه والميلِ عليك معه . وقال : لا تكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم فى المكروه عندك ، وموافقتِهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهـم دون هواك، وعلى[1] ألّا تكتُمَهم سرَّك ولا تستطلعَهم ما كتموك، وتُخفىَ ما أطلعوك عليه عن الناس كلهم [حتى تخفِيَ نفسك الحديثَ به][2]، وعلى الٱجتهاد فى طلب رضاهم، والتلطُّف لحاجاتهم ، والتثبيت لحجتهم[3] ، والتصـديق لمقالتهم ، [والتزيين لرأيهم][2] ، وقلّة الٱمتعاض لمـا فعلوا إذا أساءوا، وترك الانتحال لمـا فعلوا اذا أحسنوا[4]، وكثرةِ النشر لمحاسنهم ، وحسنِ السَّتر لمساوئهم ، والمقاربةِ لمن قاربوا وإن كان بعيدا ، والمباعدةِ لمن باعدوا وإن كان قريبا ، والٱهتمامِ بأمورهم وإن لم يهتمُّوا ، والحفظِ لأمورهم وإن ضيّعوا، والذكرِ لأمورهم وإن نَسُوا ، والتخفيف بمئونتك عنهم ، والٱحتمال لكل مئونة لهم ، والرضا منهم بالعفو ، وقلةِ الرضا من نفسك بالمجهود . فإن كنت حافظا إذا ولَّوك، حَذِرا إذا قربوك، أمينا إذا ٱئتمنوك، ذليلا إذا صرموك، راضـيا إذا أسخطوك ، تُعَلِّمهم وكأنك تتعلَّم منهم ، وتُؤَدِّبهم وكأنك تتأدّب منهم ، وتشكرهم ولا تُحَمِّلهم الشكر، وإلّا فالبعدَ منهم كلّ البعد .

ومن الآداب العرفية فى صحبة الملوك وخدمتهم، ألّا يُسَلَّم على قادم بين أيديهم، وإنمـا ٱستَسنّ ذلك زيادُ بن أبيه، وذلك أن عبد الله بن عبّاس قدِم على

(١) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل : "وعلم" بدل "وعلى ..." وهو تحريف .

(٢) زيادة عن الأدب الكبير . (٣) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل : "والتثبت بحجتهم" .

(٤) الجملة من "وقلة الآمتعاض... اذا أحسنوا" منقولة عن الأدب الكبير، وهى فى الأصل : "وقلة الآنتحال لما فعلوا إذا أساءوا" ففيه تحريف شوّه المعنى وأضاعه .

مُعاوية بن أبي سفيان وعنده زياد ، فرحّب به معاوية وألطفه وقرّبه ولم يكلّمه زياد بكلمة، فٱبتدأه ٱبن عبّاس وقال: ما حالك يا أبا المُغيرة! كأنك أردت أن تُحْدِث بيننا وبينك هِجرة؛ قال: لا، ولكنه لايُسَلَّم على قادم بين يدى أمير المؤمنين؛ فقال له ٱبن عبّاس : ماترك الناسُ التحيّة بينهم عند أمرائهم ؛ فقال له معاوية : كُفّ عنه يٱبن عبّاس، فإنك لا تشاء أن تَغْلِب إلا غَلَبتَ .

وقالوا : كن على ٱلتماس الخطإ بالسكوت بين يدى السلطان أحرصَ منك على ٱلتماسه بالكلام .

وقالوا : مُساءلةُ الملوك عن أحوالهم من تحيّة النَّوْكَى .

وقالوا: لا تُسَلِّم على الملك، فإنه إن أجابك شقّ عليه، وإن لم يُجبك شقّ عليك.

وقال الفضل بن الربيع : سُنّتان مُهْمَلتان عند الملوك : السلام والتشميت، لأنهم يُصانون عن كلّ ما يقتضى جوابا .

وقيل : لا يقدِر على صحبة السلطان إلا من يستقِلّ بما حَمّلوه، ولا يُجْحِف إذا سألهم ، ولا يغترّ بهم إذا رَضُوا عنه، ولا يتغيّرُ لهم إذا سخِطوا عليه، ولا يَطْغَى إذا سلّطوه، ولا يَبْطَرُ إذا أكرموه .

وقال فيلسوف : إذا قرّبك السلطان فكن منه على حدّ السِّنان، وإن ٱسترسَل إليك فلا تأمن ٱنقلابَه عليك ، وٱرْفُق به رِفْقك بالصبيّ، وكلّمه بما يشتهى . قال الصاحب بن عبّاد

إذا ولّاك سلطانٌ فزِدْهُ * من التعظيم وٱحذَرْهُ وراقِبْ
فما السلطان إلا البحرُ عُظْمًا * وقُرْبُ البحر محذور العواقِبْ

وقال أبو الفتح البُسْتيّ : أجهل الناس من كان مُدِلّا على السلطان مُذِلّا للإخوان.

قال الشَّعْبِيّ : قال لى ٱبن عبّاس قال لى أبى : إنى أرى هـذا الرجل — يعنى عمر بن الخطاب — يَستفهمك ويُقدّمك على الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنى مُوصيك بخلالٍ أربع : لا تُفْشِيَنّ له سِرّا، ولا يُجَرِّبنّ عليك كذِبا، ولا تَطْوِ عنه نصيحة، ولا تغتابَنّ عنده أحدا ؛ قال الشَّعْبِيّ فقلت لٱبن عبـاس : كلُّ واحدةٍ خيرٌ من ألف ؛ قال : إِى واللهِ ومن عشرة آلاف ! .

البـاب الرابع

من القسم الخامس من الفن الثـانى فى وصايا الملوك

كتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر: أن ٱملِك الرعيّة بالإحسان إليها تظفَرْ بالمحبّة منها ، فإنّ طَلَبَك الناسَ بإحسانك هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك ؛ [وٱعلم أنك إنمـا تَمْلِك الأبدان فاجمع لها القلوب](١) ؛ وٱعلم أن الرعيّة إذا قَدَرت أن تقول قدَرت أن تفعل . وهـذا مخالف لمـا حُكِى عن معاوية أن رجلا أغلظ عليـه فحلُم عنه ؛ قيل له : أتحلُم عن مثل هذا؟ فقال : إنا لا نحولُ بين الناس وبين ألسنتهم مالم يحُولوا بيننا وبين سلطاننا . وكتب إلى الإسكندر : اعلم أنك غير مستصلح رعيّتك وأنت مُفسد، ولا مُرْشِدُهم وأنت غاوٍ، ولا هاديهم وأنت ضالّ؛ وكيف يقدر الأعمى على الهُدى، والفقيرُ على الغنى، والذليل على العزّ ! .

وقال أنوشِرْوَان : ثمانية أشياء هى أساس الملك، يأتى بأربعة، ويحذَرُ أربعة؛ فالذى يأتى به : النصحُ فى الدين ، وكِفاءُ(٢) الأمين، وتقديمُ الحَزْم ، وإمضاءُ العَزْم . والذى يحذره : غِشّ الوزير، وسوء التدبير، وخُبث النيّة، وظلم الرّعية .

وقال أرْدَشِـير لأصحابه : إنى إنمـا أملِك الأجسادَ لا النيّات، وأَحكُم بالعدل لا بالرضا، وأفحَص عن الأعمال لاعن السرائر .

(١) زيادة عن العقد الفريد . (٢) مصدر كافأه : جازاه .

وقال أَبَرْوِيز لابنه شِيرَوَيْهِ : لا تُوسعنّ على جُندك سَعةً يستغنُون بها عنك فيَطْغَوْا، ولا تضيِّق عليهم ضيقًا يَضجّون به منك ، ولكنْ أَعْطِهم عطاءً قَصْدا وآمنَعْهم منعًا جميلا ، وآبسُط لهم فى الرجاء، ولا تَبسط لهم فى العطاء. وكتب إليه أيضا من الحبس : اعلم أن كلمةً منك تَسْفِك دمًا وأُخرى تَحْقِن دما، وأن سُخْطَ سيفك مسلول على مَن سَخِطتَ عليه، وأن رضاك بركةٌ مستفادة على من رَضِيت عنه، وأنّ نفاذَ أمرك مع ظهور كلامك، فاحترس فى غضبك من قولك أن يُخطئ، ومن لونك أن يتغيّر، ومن جسدك أن يخفّ؛ فإنّ الملوك تُعاقِب حَزْما وتعفو حِلْما . واعلم أنك تَجِلُّ عن الغضب، وأن مُلكك يصغُر عن رضاك، فقدِّر لسخطك من العقاب كما تُقدِّر لرضاك من الثواب . وكتب إليه أيضا من الحبس : اختر لولايتك آمرأً كان فى وضيعةٍ فرفعتَه، وذا شرف كان مُهْمَلًا فاصطنعته ، ولا تجعله آمرأً أصبته بعقوبة فاتّضع لها، ولا آمرأً أطاعك بعد ما أذْلته، ولا أحدا ممن يقع فى خَلَدك[1] أنّ إزالة سلطانك أحبّ إليه من ثبوته؛ وإيّاك أن تستعمله ضَرَعًا غُمْرًا، كثيرا إعجابُه بنفسه ، قليلا تجرِبتُه فى غيره ، ولا كبيرًا مُدْبِرا قد أخذ الدهر من عقله كما أخذتِ السِّنّ من جسمه .

قال لَقِيط الإيادىّ :

فقلِّدوا أمرَكم لله دَرُّكُمُ * رَحْبَ الذِّراع بأمر الحرب مُضْطَلِعا
لا مُتْرَفًا إنْ رَخاءُ العيش ساعَدَه * ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعا
مازال يحلُب دَرّ الدهر أَشْطُرَه * يكون مُتَّبِعًا طورا ومتَّبَعا
حتّى آستمرّت على شَزْرٍ[2] مَرِيرتُه[3] * مُستَحْصِدَ الرأى لا قَحْمًا[4] ولا ضَرَعا[5]

(١) الخلد : البال والقلب والنفس . (٢) الشزر : الصعوبة والشدّة . (٣) المريرة : العزيمة . (٤) القحم : الكبير السن جدّا . (٥) الضرع : الصغير السن .

وكتب سابور بن أَرْدَشِير فى عهده إلى ولده : ليكن وزيرُك مقبولَ القول عندك، قوىّ المنزلة لديك، يمنعه مكانه منك وما يثق به من لطافة منزلته، من الخشوع لأحدٍ أو الضراعة أو المداهنة لأحد فى شىء مما تحت يده، لتبعثَه الثِّقةُ بك على محْض النصيحة لك، والمنابذةِ لمن أراد غِشّك وآنتقاصَك حقَّك. وإنْ أوْرد عليك رأياً يخالفُك ولا يوافق الصواب عندك، فلا تَجْبَهْهُ جَبْه الظَّنِين، ولا تَرُدّه عليه بالتجهُّم فيفُتّ ذلك فى عَضُدِه، ويَقْبِضَه عن إبثاثك كلَّ رأى يلوح صوابُه، بل آقبَل ما آرتضيت من قوله، وعرِّفه ماتخوّفت من ضرر الرأى الذى آنصرفت عنه، لينتفع بأدبك فيما يستقبِل الرأىَ فيه. وآحذر كلّ الحذر أن تُنْزِلَ هذه المنزلةَ سواه ممن يُطيف بك من خَدَمك وخاصّتك، وأن تسهِّل لأحد منهم سبيلَ الآنبساط بالنطق عندك والإفاضة فى أمور ولايتك ورعيّتك، فإنه لا يُوثَق بصحّة رأيهم، ولا يُؤمَن الآنتشارُ فيما أُفضِى من السرّ إليهم.

وقال آبن المقفّع: عوِّد نفسك الصبرَ على مَن خالفك من ذوى النصيحة[1]، والتجرُّعَ لمرارة قولهم وعذْلهم، ولا تسهِّلن سبيل ذلك إلا لأهل الفضل والعقل[والسن][2] والمروءة فى سِتْر، لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيهٌ أو يستخفّ به شانئٌ. وآعلم أن رأيك لا يتّسع لكل شىء ففرِّغه لمهمّ ما يَعْنِيك، وأن مالك لا يتّسع للناس فاخصُص به أهل الحق[3]، وأن كرامتك لا تُطيق العامّة فتوخَّ بها أهل الفضل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتِك وإن دأَبتَ فيهما، فأحسِنْ قسمتهما[4] بين عملك ودَعَتِك. وآعلم أن ما شغلتَ[5] من رأيك بغير المهمّ أَزْرَى بك، وما صرفت من مالِك فى الباطل

(١) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل: «من رأى ذوى النصيحة» وظاهر أن كلمة «رأى» مقحمة لغير فائدة. (٢) الزيادة عن الأدب الكبير ورسائل البلغاء. (٣) فى رسائل البلغاء: «وأن مالك لا يفى الناس كلهم فآختصّ به ذوى الحقوق». (٤) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل «فأحسن قسمتك ...». (٥) فى الأصل: "ما شغلت به الخ" وظاهر أن كلمة "به" مقحمة.

فقدْتَه حين تريدُه للحقّ، وما عَدَلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرّ بك فى العجز عن أهل الفضل .

وكتب عبد الله بن عبّاس إلى الحسن بن علىّ لمّا ولّاه الناس أمرهم بعد علىّ رضى الله عنهما: أنْ شَمِّرْ للحرب، وجاهدْ عدوَّك، وٱشْتَرِ من الضِّنِين[1] دِينَه بما لا يَثْلِمُ دينك، ووَالِ[2] أهلَ البيوتات تستصلحْ به عشائرَهم .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: يجب على الوالى أن يتعهّد أموره ويتفقّد أعوانه حتى لا يَخْفى عليه إحسانُ مُحْسن ولا إساءةُ مسىء، ثم لا يترك أحدَهما بغير جزاء، فإنه إذا ترك ذلك تهاوَنَ المحسن وٱجترأ المسىء، وفسد الأمرُ وضاع العمل.

وقال بعض الحكماء: الملك المُنعم إذا أفاض المكارم[3] وٱغتفر الجرائم ٱرتبط بذلك خلوصُ نيّة من قَرُب منه وهم الأقل، وٱنفساحُ الأمل ممن بَعُد عنه وهم الأكثر، فيَستخلص حينئذ ضمائرَ الكلّ من حيث لم يَصِل معروفُه إلا إلى البعض .

ولم أرَ فيما طالعتُه من هذا المعنى أجمعَ للوصايا ولا أشملَ من عهدٍ كتبه علىّ ٱبن أبى طالب رضى الله عنه إلى مالك بن الحارث الأَشْتر حينَ ولّاه مصر، فأحببت أن أُورده على طوله وآتىَ على جُملته وتفصيله، لأن مثل هذا العهدِ لا يُهمَل، وسبيلَ فضله لا يُجْهل؛ وهو :

هذا ما أمر [به][4] عبد الله علىٌّ أميرُ المؤمنين إلى مالك بن الحارث الأشتر فى عهده إليه حين ولاه مصر: جِبايةَ خراجها، وجِهاد عدوّها، وٱستصلاح أهلها، وعِمارة بلادها، أمره بتقوى الله وإيثارِ طاعته وٱتّباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسُنَنه التى

(١) فى الأصل هكذا : «وٱستر الصين» وهو محرف عما أثبتناه عن عيون الأخبار والعقد الفريد .
(٢) والى : ناصر وصادق . (٣) فى الأصل «المكاره» وسياق الكلام يقتضى ما وضعنا .
(٤) زيادة عن نهج البلاغة (طبع بيروت ج ٢ ص ٥٠ – ٦٨) ، وكذلك كل ماوضع بين هذين القوسين [ ] فى ثنايا هذا الكتاب .

لا يَسْعَد أحد إلا بٱتّباعها، ولا يَشقى إلا بالعدول عنها؛ وأن ينصرَ اللهَ تعـالى بيده وقلبه ولسانه، فإنه جلّ ٱسمُه قد تكفّل بنصر من نَصَره وإعزاز من أعزّه؛ وأمره أن يَكسِر نفسه عند الشهوات ويزعها[1] عنـد الجَمَحات، فإن النفس لأمّارة بالسوء.

ثم ٱعلم يا مالكُ أنى قد وجّهتك إلى بلاد قد جَرَتْ عليهـا دُول قبلك من عدل وجَوْر، وأن الناس ينظُرون من أمورك فى مثل ما كنتَ تنظر فيه من أمر الوُلاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يُستدَلّ على الصالحين بما يُجْرِى الله لهم على ألسن عباده. فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فٱملِكْ هواك وشُحَّ بنفسك عما لا يَحِلّ لك؛ فإن الشُّحَّ بالنفس الإنصافُ منها فيما أحَبّت [أ]و كرِهت. وأشعِر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبّة لهم؛ وٱلطُف بهم، ولا تكونَنّ عليهم سَبُعا ضاريا تغتَنِم أكْلَهم[2]؛ فإنهم صنفان: إما أخٌ فى الدِّين، وإما نظير لك فى الخُلُق، يَفْرُط منهم الزَّلَلُ وتعرِض لهم العِلَل ويُؤْتَى على أيديهم فى العَمْد والخطأ؛ فأعطهم من صَفْحك وعفوك مثلَ الذى تُحِبّ أن يُعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالى الأمرِ عليك فوقك؛ والله فوق من ولّاك؛ وقد ٱستكفاك أمرهم[3] وٱبتلاك [بهم]. فلا تنصِبَنّ نفسك لحرب الله، فإنه لا قوّة لك بنِقْمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندَمنّ على عفو، ولا تَبْجَحَنّ[4] بعقوبة، ولا تُسرِعَنّ إلى بادرة وجدتَ منها مندوحة، ولا تقولَنّ: إنى مُؤَمَّر آمُرُ فأُطاع، فإن ذلك إدغالٌ فى القلب ومَنْهَكةٌ للدِّين وتقرّب من الغِيَر. فإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبّهةً أو مَخِيـلَةً، فانظر إلى عِظَم مُلك الله تعالى فوقك وقدرته [منك] على ما لا تقدر عليه من نفسك[5]، فإن ذلك يُطامِن إليـك من

(١) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصـل: "ويزعها ..." . (٢) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل: "وتغتنم أكلها" . (٣) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل: "استكفاك أمره" .
(٤) بجح: كفرح لفظا ومعنى . (٥) فى الأصل: "... وقدرته على مالا يقدر عليك من نفسه" ولعل فيه تحريفا جعله غير واضح، وما وضعناه عن نهج البلاغة .

طِلَاحك، ويكُفّ عنك من غَرْبك ويَفِيء إليك بما عَزَب عنك من عقلك. وإياك ومساماةَ[1] الله فى عظمته والتشبّهَ به فى جَبَرُوته، فإن الله يُذِلّ كلّ جبّار ويُهِين كلّ مُختال. أَنْصِف اللهَ وأنصف الناس من نفسك ومن خاصّة أهلك وممن لك فيه هوًى من رعيّتك، فإنك إلّا تفعلْ تَظْلِمْ، ومن ظلم عباد الله كان خَصْمَه دون عباده، ومن خاصمه الله أَدْحض حُجّته وكان لله حَرْباً حتى يَنْزِع ويتوبَ. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نِقْمته من إقامةٍ على ظلم [فإن الله سميعٌ دعوةَ المضطَهَدين وهو للظالمين بالمِرْصاد]. وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها فى الحق وأعمّها فى العدل وأجمَعها لرضا الرعيّة، فإنّ سُخْطَ العامّة يُجحف برضا الخاصّة، وإن سخط الخاصة يُغْتَفَر برضا العامة. وليس أحد من الرعيّة أثقلَ على الوالى مئونةً فى الرخاء، وأقلَّ مَعُونةً فى البلاء، وأكرَهَ للإنصاف، وأسألَ بالإلحاف، وأقلَّ شكرا عند الإعطاء، وأبطأَ عُذْرا عند المنع، وأضعفَ صبرا عند مُلِمّات الدهر من أهل الخاصة، وإن عمود الدين وجِمَاعَ المسلمين والعُدّة للأعداء العامّةُ من الأمة؛ فليكن صَغْوك لهم وميلك معهم. وليكن أبعدُ رعيّتك منك وأشْنَؤهم عندك أطلَبَهم لعيوب الناس، فإن فى الناس عيوبًا الوالى أحقُّ بسَتْرها، فلا تكشِفَنّ عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهيرُ ما ظهر لك، والله حَكَمٌ على ما غاب عنك منها. فاسْتُرِ العورة ما استطعت يَسْتُرِ الله ما تحبّ سَتْرَه من عيبك. أطلِقْ عن الناس عُقْدَةَ كلّ حِقْد، واقطَعْ عنهم سبب كل وِتْر، وتَغَابَ عن كل ما لا يصحّ لك. ولا تعجَلَنّ إلى تصديق ساعٍ، فإن الساعىَ غاشّ وإن تشبّه بالناصحين. ولا تُدْخِلَنّ فى مَشُورتك بخيلا فيعدِلَ بك عن الفضل ويعِدَك الفقرَ، ولا جبانا فيُضْعِفَك عن الأمور، ولا حريصا فيُزَيِّنَ لك الشرَهَ بالجَور؛ فإن البخل والجبن والحِرْص غرائزُ شتّى يجمعها سوءُ الظنّ بالله. واعلم أن شرّ وزرائك من كان

(١) فى الأصل: «مساومة الله» وما هنا عن نهج البلاغة.

للأشرار قبلك وزيرا ومن شَرِكهم فى الآثام ، فلا يكونَنّ لك بطانةً ، فإنهـم أعوان الأَثَمة وإخوان الظَّلَمَة . [وأنت واجد منهم خيرَ الخَلَف] ممن له مثلُ آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثلُ آصارهم وأوزارهم ، ممن لم يُعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على إثمه ، أولئك أخفُّ عليـك مَـؤونةً وأحسن لك مَعُونة[1] ، وأحنى عليـك عِطْفا وأقلّ لغيرك إِلْفا ، فاتخِـذْ أولئك خاصّـة لخَلَواتك وحَفَلاتك . ثم ليكن آثَرُهم عنـدك أقولَهم للحق ، وأقلّهم مساعدةً فيما يكون منك ممـا كَرِه الله تعالى لأوليائه واقعا من هواك [حيث وقع] . ثم رُضْهـم على ألّا يُطْرُوك ولا يُبَجِّحوك بباطل لم تفعـله ، فإن كثرة الإطراء تُحدِث الزَّهْوَ وتُدنى إلى العِزّة . ولا يكونَنّ المُحسِـن والمسيء عندك بمنزلة واحدة ، فإن فى ذلك تزهيدا لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزِمْ كلًّا منهم ما أَلْزَم نفسَه . وآعلم أنه ليس شىء أدعى إلى حسن ظن والٍ برعيّته من إحسانه إليهم وتخفيفِ المئونات عنهـم وترك آستكراهه إياهم على ما ليس له قِبَلَهم . وليكن منـك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسنُ الظنّ برعيّتك ، فإنّ حسن الظنّ يقطع عنك نَصَبًا طويلا . وإن أحقّ من حَسُن ظنُّك به من حسن بلاؤك عنـده ، [وإن أحقّ من ساء ظنّك به لَمَنْ ساء بلاؤك عنـده] . ولا تَنْقُضْ سُـنّةً صالحة عَمِل بها صدورُ هذه الأمة وآجتمعت بها الأُلفة وصلَحت عليها الرعيّة ، ولا تُحدِثَنّ سُـنّة تضرّ بشىء من ماضى تلك السنن ، فيكونَ الأجرُ لمن سنّها ، والوِزْرُ عليك بمـا نقضت منها . وأَكْثِرْ[3] مُدَارسـة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامةِ ما آستقام به الناس قَبْلك . وآعلم أنّ الرعيّة طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض ، [ولا غنى ببعضها عن بعض] ، فمنها جنود

(١) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل «معاونة» .

(٢) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل «مما كره الله لأولئك ...» وهو تحريف .

(٣) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل «ولكن ...» وهو تحريف .

[الله]، ومنها كتّاب العامّة والخاصّة، ومنها قُضاة العدل، ومنها عمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزْية والخَراج من [أهل] الذِّمّة ومَسْلَمَة[1] الناس، ومنها التجّار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السُّفْلى من ذوى الحاجة والمَسْكَنة، وكلٌّ قد سمّى اللهُ سهمَه، ووضع على حدّه فريضته فى كتابه وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم عهدًا منه محفوظا. فالجنود بإذن الله حصونُ الرعيّة وزَيْن[2] الولاة وعزّ الدِّين وسُبُل الأمن، وليس تقوم الرعيّة إلا بهم. [ثم لا قِوام للجنود إلا بما يُخرج الله لهم من الخَراج الذى يَقْوَوْن به فى جهاد عدُوّهم ويعتمدون عليه فيما يُصلحهم ويكون من وراء حاجتهم]. ثم لا قِوام لهذين الصِّنفين إلا بالصِّنف الثالث من القضاة والعُمّال والكُتّاب لما يُحْكِمون من المعاقد، ويَجْمعون من المنافع، ويُؤْتَمَنون عليه من خواصّ الأمور وعوامّها. ولا قِوام لهم جميعا إلا بالتجّار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقومون به فى أسواقهم، ويَكْفُونهم من الرِّفق[3] بأيديهم ما لا يبلغه رَفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمَسْكَنة الذين يحِقّ رِفْدُهم ومعونتهم؛ وفى الله لكلٍّ سَعَة؛ ولكلٍّ على الوالى حقٌّ بقدر ما يُصلحه. [وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحقّ والصبر عليه فيما خفّ عليه أو ثَقُلَ]. فولِّ من جنودك أنصَحَهم فى نفسك لله تعالى ولرسوله ولإمامك، [وأنقاهم]، جيبا، وأفضلهم حِلْما، ممن يُبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرفُق بالضعفاء وينْبُو[4] عن الأقوياء، [و]ممن لا يثيره العُنْف ولا يقعُد به الضعف. ثم ألحق بذوى الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة أهلَ النَّجْدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جِماعُ الكَرَم وشُعَب العُرْف؛ ثم تفقّد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما. ولا يتفاقمَنّ فى نفسك شىء قوّيتَهم به، ولا تَحْقِرنّ

(١) مسلمة الناس: المسلمون منهم. (٢) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل: «زى الولاة...» وهو تحريف (٣) الرفق بالفتح: النفع. (٤) يقال نبا عنه وعليه: اذا لم ينقد له.

لُطفا تَعاهدُهم به و إن قلّ، فإنه داعيةٌ لهم إلى بَذْل النصيحة لك، وحسن الظن بك. ولا تَدَعْ تفقُّد لطيف أمورهم آتكالا على جسيمها، فإن لليسير من لطفك مَوْضِعا ينتفعون به، وللجسيم موقعا لا يستغنُون عنه. وليكن آثرُ رءوس جندك عندك مَن واساهم فى معونته وأَفْضَلَ عليهم من جِدَته بما يسعهم و يَسَعُ مَنْ وراءهم من خُلوف أهليهم حتى يكونَ همّهم همًّا واحدا فى جِهاد العدوّ، فإنّ عطفك عليهم يُعَطِّف عليك قلوبهم، [و إنّ أفضل قُرّة عين الولاة آستقامة العدل فى البلاد وظهورُ مودّة الرعيّة، و إنه لا تظهر مودّتهم إلا بسلامة صدورهم]، ولا تَصِحّ نصيحتهم إلا بحيطتهم على وُلاة أمورهم وقِلّةِ آستثقال دُوَلهم وترك آستبطاء آنقطاع مدّتهم، فآفسح فى آمالهم وواصِلْ فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذِّكر لحسن فَعالهم تَهُزّ الشجاع وتحرِّض الجَبان إن شاء الله. ثم آعرف لكل آمرئ منهم ما أبلى. ولا تَضُمّنّ [بلاء] آمرئ الى غيره، ولا تُقَصِّرنّ به دون غاية بلائه. ولا يدعونّك شرف آمرئ الى أن تُعظِّم من بلائه ما كان صغيرا، ولا ضَعَةُ آمرئ الى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما. وآرْدُدْ الى الله ورسوله ما يُضلعك من الخطوب و يشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ إرشادهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)؛ فالرادّ الى الله هو الآخذُ بمُحْكَم كتابه، والرادّ الى الرسول الآخذ بسنّته الجامعة غير المتفرّقة.

ثم آختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك فى نفسك ممن لا تَضِيق به الأمور، ولا تُمْحِكُه[2] الخصوم، ولا يتمادى فى الزَّلّة، ولا يَحْصَرُ[3] من الفَيْء الى الحق إذا عَرَفه، ولا تُشْرِف [نفسه] على طمع، ولا يَكْتفى بأدنى فهم دون أقصاه، أَوْقَفَهم فى الشُّبُهات،

(١) كذا فى نهج البلاغة، وفى الأصل «وآفسح فى أموالهم ...».

(٢) أمحكه: أغضبه أو جعله محكان كسكران: عسر الخلق. (٣) يحصر: يضيق صدره.

وآخذهم بالحُجج، وأقلهم تبرُّما بمراجعة الخَصْم، وأصبرهم على تكشُّف الأمور، وأصرمهم عند إيضاح الحكم، ممن لا يَزْدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل. ثم أكثِر تعاهُدَ قضائه، وأفسح له فى البَذْل ما يُزيح علّته وتَقِلّ معه حاجتُه الى الناس، وأعطه من المنزلة لديك مالا يَطمع فيه غيره من خاصّتك، ليأمَنَ بذلك آغتيالَ الرجال له عندك. فانظر فى ذلك نظرا بليغا؛ فإن هذا [الدِّين] قد كان أسيرا فى أيدى الأشرار يُعمَل فيه بالهوى وتُطلَب به الدنيا[1].

ثم آنظر فى أمور عُمّالك فاستعمِلْهم آختبارا ولا تُوَلِّهم مُحاباة وأَثَرَة، فإنهما جُمّاعٌ من شُعَب الجَوْر والخيانة. وتوخَّ منهم أهلَ التجرِبة والحَياء من أهل البيوتات الصالحة والقَدَم فى الإسلام المتقدّمة، فإنهم أكرم أخلاقًا، وأصحّ أعراضا، وأقلّ فى المطامع إسرافا، وأبلغ فى عواقب الأمور نَظَرا. ثم أَسْبِغْ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوّةٌ لهم على آستصلاح أنفسهم، وغِنًى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجّةٌ عليهم إن خالفوا أمرك أو ثَلَموا أمانتك. ثم تفقّد أعمالهم، وآبعث العُيون من أهل الصدق والوَفاء عليهم، فإنّ تعاهُدَك فى السرّ لأمورهم حَدْوةٌ[2] لهم على آستعمال الأمانة والرِّفق بالرعيّة. وتحفَّظْ من الأعوان، فإنْ أحدٌ منهم بَسَط يده الى خيانة آجتمعتْ بها عليه عندك أخبارُ عيونك آكتفيتَ بذلك شاهدا، فبسطتَ عليه العقوبةَ فى بدنه، وأخذتَه بما أصاب من عمله، ثم نصبتَه بمُقام الذِّلّة، ووسَمْتَه بالخيانة، وقلّدتَه عَار التُّهمة.

وتفقّدْ أمر الخَراج بما يُصلح أهلَه، فإنّ صلاحهم وصلاحه صلاح لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأنّ الناس كلّهم عِيَالٌ على الخَراج وأهله. وليكن نظرُك فى عِمارة الأرض أبلغَ من نظرك فى آستجلاب الخَراج، لأن ذلك لا يُدْرَك إلا بالعِمارة؛ ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد

(١) كذا فى نهج البلاغة، وفى الأصل: «وتطلب منه الدنيا».
(٢) حدوة لهم أى سوق لهم وحثّ.

ولم يستقم أمره إلا قليلا . فإن شكَوْا ثِقَلا أو عِلّةً أو ٱنقطاع شِرْب [أو بالّةٍ] (١) أو إحالة أرض ٱغتمرها غَرَق أو أجحف بها عَطَش، خفّفتَ عنهم بما ترجو أن يَصْلُح به أمرهم، ولا يثقُلنّ عليك شيء خفّفتَ به المـؤنة عنهم، فإنه ذُخْرٌ يعودون به عليك في عِمـارة بلادك وتزيين ولايتك، مع ٱستجلابك حُسْنَ ثنائهم وتَبَجُّحك (٢) باستفاضة العدل فيهم، معتمدًا فضلَ قُوّتهم بما ذَخَرتَ عندهم من إجمامك (٣) لهم والثِّقَةَ منهم بمـا عوّدتَهم من عدلك عليهـم ورِفْقك بهم . فربما حدث من الأمور ما إذا عوّلت [فيه] عليهم من بعدُ، ٱحتملوه طَيِّبةً أنفسُهم به، فإن العُمْرانَ يَحْتمِل ما حمّلتَه، وإنمـا يُؤْتَى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنمـا يُعْوِزُ أهلُها لإشراف أنفس الوُلاة على الجمع وسوء ظنّهم بالبقاء وقلّةِ ٱنتفاعهم بالعِبَر . وٱستعمل مَن يُحِبّ أن يَدَّخِر حسنَ الثناء من الرعيّة والمثوبةَ من الله عزّ وجلّ والرضا من الإمام .

ثم ٱنظر في حال الكُتّاب فولِّ أمورَك خَيْرَهم . وٱخصُصْ رسائلك التي تُدْخِل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجود (٤) صالح الأخلاق ممن لا تُبْطِره الكرامة فيجترئ بها عليـك في خِلَافٍ لك بحضرة مَلَأٍ، ولا تُقَصِّر (٥) به الغَفْلة عن إيراد مكاتبات عُمّالك [عليك] وإصدار جوابها على الصواب منها عنك، وفيما يأخذ لك ويُعطى منك، ولا يُضْعِف عَقْدا ٱعتقده لك، ولا يَعجِز عن إطلاق ما عُقِد عليك، ولا يجهَل مبلغَ قَدْر نفسه (٦) في الأمور، فإن الجاهل بقَدْر نفسه يكون بقَدْر غيره أجهلَ . ثم لا يكن

(١) أي شكوا ثقل المضروب عليهم من مال الخراج، أو نزول علة سماوية، أو ٱنقطاع شرب (الشرب بالكسر: الماء) فيما يسقى بالأنهار، أو بالّة وهو ما يبل الأرض من مطر وندى فيما يسقى بالمطر، وإحالة الأرض: تحولها وتغيرها . (٢) التبجح: الفرح والسرور . (٣) إجمامك لهم: تركك إياهم حتى اذا ما استراحوا تقووا على معونتك . (٤) كذا في الأصل ولعله محرف عن «وجوه» . (٥) كذا في نهج البلاغة وفي الأصـل: «ولا تقصر بك ...» . (٦) في الأصـل: «قدر نفسك ...» وكذلك فعلا يعجز ويجهل بتاء الخطاب، والسياق يقتضي ما وضعناه عن نهج البلاغة .

آختيارُك إيّاهم على فِراستك وآستنامتك وحسن الظّن منك ، فإن الرجال يَتَعَرَّفون[1] لِفراسات الوُلاة بتصنّعهم وحسن خدمتهم؛ وليس وراءَ ذلك من النصيحة والأمانة شيء؛ ولكن آختبرهم بما وَلُوا للصالحين[2] قبلك، فآعمِدْ لأحسنهم كان فى العامّة أثَرا، وأعرِفهم بالأمانة وجها، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وَلِيتَ أمرَه .

٥ وآجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسًا منهم لا يقْهَره كبيرُها ولا يتشتّت عليه كثيرُها. ومهما كان فى كُتّابك من عيبٍ فتغابيت عنه أُلْزِمتَه .

ثم آستوص بالتجّار وذوى الصناعات، وأوص بهم خيرا المقيم [منهم و]المضطرب بماله والمترفّق ببدنه، فإنهم موادّ المنافع وأسباب المَرَافق وجُلّابُها من المَبَاعد والمطَارح فى برّك وبحْرك وسَهْلك وجَبَلك وحيث لا يلتئِم الناسُ لمواضعها ولا يجترئون عليها، فإنّهم

١٠ سِلْمٌ لا تُخاف بائقته، وصلحٌ لا تُخشى غائلته . وتفقّد أمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك . وآعلم أن [فى] كثير منهم ضِيقًا فاحشا وشُحًّا قبيحا وآحتكارا للمنافع فى المبايعات، وذلك باب مضرّة للعامّة، وعيبٌ على الوُلاة . فامنع [من] الآحتكار، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه . وليكن البيعُ بيعا سَمْحا بموازين عدل وأسعار لا تُجحِف بالفريقين البائع والمبتاع، فمن قارفَ حُكْرَة بعد نهيك إيّاه فنكِّلْ به

١٥ وعاقِبْه من غير إسراف .

ثم اللهَ اللهَ فى الطبقة السُّفلى من الذين لا حيلةَ لهم والمساكين والمحتاجين و[أهل] البُؤْسَى والزَّمْنَى ، فإن [فى] هذه الطبقة قانِعا ومُعْتَرًّا ، فآحفظ لله ما آستحفظك من حقّه فيهم، وآجعل لهم قِسْما من بيت مالك، وقِسْما من غَلّات صَوافِى[3] الإسلام فى كل بلد، فإن للأقصى منهم مثلَ الذى للأدنى . وكلٌّ قد آستُرْعِيتَ حقّه فلا يشغلنّك

(١١)

٢٠ (١) قال الأستاذ الإمام : أى يتوسلون إليها لتعرفهم . (٢) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل : «ولكن اختبرهم بهؤلاء الصالحين» . (٣) صوافى جمع صافية : أرض الغنيمة .

عنهم بطَر[1] فإنك لا تُعذَر بتضييعك التافِهَ لإحكامك الكثير المُهمّ، فلا تُشْخِص همَّك عنهم ولا تُصَعِّر خدّك لهم؛ وتفقّدْ أمور من لا يصل إليك [منهم] ممن تقتَحِمه العيونُ وتَحقِره الرجال، ففرِّغ لأولئك ثِقَتَك من أهل الخَشْية والتواضع، فليَرْفَعْ إليك أمورهم؛ ثم اعْمَل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه وتعالى يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعيّة أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم. وكلٌّ فأَعْذِرْ إلى الله تعالى فى تأدية حقّه إليه[2]. وتعهّدْ أهل اليُتْم وذوى الرِّقّة فى السنّ ممن لا حيلة له ولا يَنْصِب للمسئلة نفسَه. وذلك على الولاة ثقيل؛ [والحق كله ثقيل] وقد يُخفّفه الله على أقوام طلبُوا العاقبة فصبَّروا أنفسهم ووثِقُوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوى الحاجات منك قِسما تُفَرِّغُ لهم [فيه شخصَك] وتجلسُ لهم فيه مجلسا عامّا فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتُبعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك حتى يُكَلِّمَك متكلِّمهم غيرَ مُتَعْتَع[3] فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى غير موطن: "لن تُقدَّس أُمّةٌ لا يُؤخذ للضعيف فيها[4] [حقّه] من القوىّ غير مُتَعْتَع". ثم احتمِل الخُرْق منهم والعِىّ، ونَحِّ عنك الضِّيق والأَنَف يبسُط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجِبْ لك ثواب طاعتـه، وأَعْطِ ما أعطيت هنيئا، وامنَعْ فى إجمال وإعذار.

ثم أمورٌ من أمورك لا بدّ [لك] من مباشرتها: منها إجابة عُمّالك بما لا يُعْيِى عنه كُتّابك، ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك مما تَحْرَجُ به صدور أعوانك. وأَمْضِ لكلّ يوم عمَلَه فإن لكلّ يوم ما فيه. واجعـل لنفسك فيما بينك وبين الله

(١) كذا فى نهج البلاغة؛ وفى الأصل: "فلا يشغلنك عنهم نظر ...".
(٢) كذا فى نهج البلاغة؛ وفى الأصل: "فى تأدية حقه اليك...". (٣) التعتعة فى الكلام: التردد فيه من عجز وعىّ والمراد أنه غير خائف، تعبيرا باللازم. (٤) كذا فى نهج البلاغة؛ وفى الأصل: "لم يؤخذ للضعيف منها ..." الخ.

أفضلَ تلك المواقيت وأجزَلَ تلك الأقسام، وإن كانت كلُّها لله إذا صَلَحت فيها النِّيّة وسَلِمت منها الرعيّة .

وليكن فى خاصّة ما تُخْلِص لله به [دينك] إقامةُ فرائضه التى هى له خاصّة، فأَعطِ الله من بدنك فى ليلك ونهارك، ووفّ ما تقرّبت به إلى الله تعالى من ذلك كاملا غيرَ مَثْلوم (١) ولا منقوص بالغًا من بدنك ما بلغ . وإذا قمتَ فى صلاتك للناس فلا تكونَنَّ منفِّرا ولا مضيِّعا؛ فإن فى الناس من به العِلّة وله الحاجة؛ وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجّهنى إلى اليمن كيف أُصلِّى بهم؟ قال: "كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما" .

وأما بعد هذا فلا يَطولَنّ احتجابُك عن رعيّتك، فإن احتجاب الوُلاة عن الرعيّة شُعْبة من الضِّيق وقلّةُ علمٍ بالأمور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علمَ ما احتجبوا دونه، فيَصْغُر عندهم الكبير ويعظُم الصغير ويقبُح الحسن ويحْسُن القبيح ويُشاب الحقّ بالباطل. وإنما الوالى بَشَر لا يعرِف ما يُوارى عنه الناسُ من الأمور؛ وليست على الحق سِمَاتٌ تُعْرَف بها ضروبُ الصّدق من الكذب . وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سَخَتْ نفسُك بالبَذْل فى الحقّ، ففيم احتجابُك من واجب حقّ تُعطيه أو فعل كريم تُسديه؟ وإما امرؤ مُبْتَلًى بالمنع، فما أسرعَ كفَّ الناس عن مسألتك إذا يئسوا من ذلك! مع أنّ أكثرَ حاجات الناس إليك مما لا مئونة فيه عليك من شَكاة مَظْلَمَةٍ أو طلبِ إنصافٍ فى معاملة .

ثم إن للوالى خاصةً وبِطانة فيهم استئثارٌ وتطاوُل [وقلة إنصاف فى معاملة]، فاحْسِم مادّة ذلك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تُقْطِعنّ لأحد من حاشيتك وخاصّتك

(١) كذا فى نهج البلاغة، وفى الأصل: "من ذلك ..." .

قطيعة، ولا يُطْمَعَنّ [منـ]ـك [فى] ٱعتقاد عُقْدة تضرّ[1] بمَن يليها من [الناس فى] شِرْب أو عمل مشترَك يحملون مـؤنته على غيرهم، فيكون مَهْنَأ ذلك لهم دونك، وعَيْبُه عليك فى الدنيا والآخرة .

وأَلْزِم الحقّ مَن لَزِمه من القريب والبعيـد، وكن فى ذلك صابرا مُحتسِبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصّتك حيث وقع؛ وٱبتغِ[2] عاقبتَه بما يثقُل عليك منه، فإن مَغَبّة ذلك محمودة . وإن ظنّت الرعيّـة بك حَيْفا فأَصْحِر[3] لهم بعُذْرك وٱعْدِل عنك ظنونهم بإصحارك، فإن فى ذلك إعذاراً تبلُغ به حاجتك من تقويمهم على الحقّ .

ولا تدفعَنّ صلحا دعاك إليه عدوّك [و]لله فيه رِضًا، فإن فى الصلح دَعَةً لجنودك وراحةً من همومك وأمْنًا لبلادك . ولكن ٱحذَر كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه، فإن العدوّ ربما قارب ليتغفّل، فخذ بالحزم وٱتّهِمْ فى ذلك حسنَ الظن . فإن عقدتَ بينك وبين عدوّك عُقْدة وألبستَه منك ذِمّة فحُطْ عهدك بالوَفاء وٱرْعَ ذِمّتك بالأمانة وٱجعل نفسك جُنّة دون ما أعطيتَ، فإنه ليس من فرائض الله شىء الناسُ[4] أشـدّ عليـه ٱجتماعا مع تفرّق أهوائهم وتشتّت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود؛ وقد لَزِم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لِمَا ٱستوبلوا[5] من عواقب الغدر . فلا تغدُرنّ بذمّتك ولا تَخِيسَنّ بعهدك ولا تَختِلَنّ عدوّك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقىّ . وقد جعل الله عهده وذمّته أَمْنًا قضاه بين العباد برحمته، وحَرَمًا يسكنون إلى مَنَعَته ويستفيضون إلى جِوَاره، فلا إدغال ولا مدالسـة[6] ولا خِداع فيه . ولا تَعْقِد عَقْدا

(١) كذا فى نهج البلاغة : وفى الأصل : «ولا تطمعَنّ فيك اعتقاد عقدة فيضر...» وهى مضطربة النسج ولا تؤدى المعنى المراد . والعقدة : الضَّيعة، واعتقادها : امتلاكها واقتناؤها . (٢) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصـل : « واتبع ... » وهو تحريف . (٣) الإصحار بالأمر : إظهاره .
(٤) كذا فى نهج البـلاغة وفى الأصل : « فانه ليس من فرائض الله شىء إلا الناس ... الخ » .
(٥) كذا فى نهج البلاغة . واستوبل الشىء اذا تركه لوخامته وان كان محبّبا له، وفى الأصـل «لما استولوا عليه...» . (٦) كذا فى نهج البلاغة « والمدالسة » : الخيانة، وفى الأصل «مخالسة» .

تجوز فيه العِلَل . ولا تُعَوِّلَنّ على لَحْنِ قول بعد التأكيد والتوثقة . ولا يدعُوَنَّك ضيق أمرٍ لزِمك فيه عهدُ الله إلى طلب ٱنفساخه بغير الحقّ ، فإنّ صبرك على ضِيقٍ ترجو ٱنفراجه وفضلَ عاقبته خير من غدر تخاف تَبِعَتَه وأن تُحيطَ بك من الله طِلْبَة فلا تستقيل فيها[1] دنياك ولا آخرتَك .

٥ إيّاك والدماءَ وسَفْكَها بغير حِلِّها، فإنه ليس شيء أدعى لِنقْمةٍ ولا أعظم تَبِعةً ولا أحرى بزوال نعمةٍ وٱنقطاعِ مُدّة من سفك الدماء بغير حقّها، والله سبحانه مبتدئ بالحكم [بين العباد] فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة؛ فلا تُقَوِّيَنّ[2] سلطانك بسفك دَم حرام، فإن ذلك مما يُضعفه ويُوهنه بل يُزيله ويَنْقُله. فلا عُذرَ لك عند الله ولا عندى فى قتل العَمْد، لإن فيه قَوَدَ البدن . فإن ٱبتُليت بخطأ وأفرط عليك سوطُك

١٠ [أو سيفك] أو يدك بعقوبة ؛ فإن فى الوَكْزَة فما فوقها مَقْتَلة، فلا تطمَحَنّ بك نَخْوةُ سلطانك عن أن تُؤَدِّى إلى أولياء المقتول حقّهم .

وإيّاك والإعجابَ بنفسك والثقةَ بما يُعجبك منها وحُبَّ الإطراء، فإن ذلك من أوثق فُرَص الشيطان فى نفسه ليَمْحَق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإيّاك والمَنَّ على رعيتك بإحسانك، والتريّدَ فيما كان [من فعلك]، وأن تَعِدهم

١٥ فتُتْبِع مَوْعِدك بخلف، فإن المَنّ يبطل الإحسان، والتريّد يذهب بنور الحق، والخُلْف يُوجب المقت عند الله والناس . قال الله تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

---

(١) كذا فى نهج البلاغة وعليه يكون معنى الجملة : لا تطلب أن تقال منها لا فى دنياك ولا فى آخرتك . وفى الأصل : لاتستقلّ دنياك ولا آخرتُك . وهذه العبارة غير واضحة المعنى الا اذا زيدت عليها كلمة بها ، والمراد لاتقوم بحلها دنياك ولا آخرتُك . والطلبة اسم من المطالبة .

٢٠

(٢) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل « فلا تقومن » .

وإياك والعَجَلَةَ بالأمور قبل أوانها، أو التسقُّط[1] فيها عند إمكانها، أو اللَّجَاجَةَ فيها إذا تنكَّرت، أو الوَهَنَ عنها إذا آستوضحت؛ فضع كلَّ أمر موضعَه وأوقع كلَّ عمل مَوْقِعَه.

وإياك والاستئثارَ بما الناسُ فيه أُسوة[2]، والتغابيَ عما يُعْنَى به مما قد وضح لعيون الناظرين، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليلٍ تنكشف عنك أغطية الأمور ويُنْتَصف منك للمظلوم. ٥

آملِكْ حَمِيَّةَ أَنْفك وسَوْرة حَدِّك وسَطْوة يدك وغَرْبَ لسانك، وآحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرة وتأخير السطوة حتى يسكُنَ غضبك فتملِكَ الآختيار، ولن تُحْكِم ذلك من نفسك[3] حتى تكثُرَ همومُك بذكر المَعَاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكّر ما مضى لمن تقدّمك من حكومة عادلة، أو سُنّة فاضلة، أو أثَرٍ عن نبيّنا صلى الله عليه وسلم، أو فريضة فى كتاب الله، فتقتدى بما شاهدت ١٠ مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك فى آتّباع ما عَهِدتُ إليك فى عهدى هذا، وآستوثقتُ به من الحُجّة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علّة عند تسرّع نفسك إلى هواها.

وأنا أسأل الله بسَعَة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كلّ ذى رغبة: أن يوفّقنى[4] وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء فى العباد وجميل الأثَر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة، وأن يَخْتِمَ لى ولك ١٥ بالسعادة والشهادة. إِنَّا لِلّه وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. تمّ العهد بعون الله تعالى.

وقيل: ينبغى للملك أن يسوق العُنْف باللطف، والتوفير بالتوقير، ولا يتخذَ أعوانا إلا أعيانا، ولا أخِلّاء إلا أَجِلّاء، ولا نُدَماء إلا كرماء، ولا جلساء إلا ظُرَفاء.

(١) كذا فى نهج البلاغة. وفى الأصل: "التثبت" والمراد بالتسقّط: التهاون.

(٢) أسوة بمعنى سواء، قال فى اللسان: القوم أسوة فى هذا الأمر أى حالهم فيه واحدة. ٢٠

(٣) كذا فى نهج البلاغة، وفى الأصل "وأن تحكم بذلك فى نفسك".

(٤) أن يوفقنى، مفعول "أسأل" وفى الأصل: "وتوفيق ..." وما هنا نقلناه عن نهج البلاغة.

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفن الثانى

فيما يجب على المَلِك للرعايا

ويجب على الملك أن يبسُط لرعيّته من العدل بساطا، ويَبنِى لهم من الأمن فُسْطاطا، وينشُرَ عليهم أَلْوِية حِلْمٍ خفقت ذوائبها، ويُسلسِل لهم أنهارَ بِرٍّ امتدّت دوائبها[1]؛ ويكُفّ عنهم أكُفّ المظالم، ويُوكِف عليهم سحائب المكارم. وأهمّ ما قدّم من ذلك "العدل".

ذكر ما قيل فى العدل وثمرته وصفة الإمام العادل

والعدل واجب على كل من ٱسْتُرْعِى رعيّةً من إمام وغيره؛ قال الله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ)، وقال تعالى: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) وقال تعالى (وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) وقال تعالى (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَى) وقال تعالى (ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عدلُ ساعة فى حكومة خيرٌ من عبادة ستين سنة" وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا[2] كلّكم راعٍ وكلّكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راعٍ عليهم وهو مسئول عنهم والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت بَعْلِها وولده وهى

---

(١) لعله «ذنائبها» جمع ذِنَاب وهو مسيل ما بين اللعتين.

(٢) نصه فى البخارى ومسلم يختلف عن الأصل فى بعض ألفاظ لا تخرجه عن معناه.

مسئولة عنهم والعبد راع على مال سيّده وهو مسئول عنه فكلّكم راع وكلكم مسئول عن رعيّته" قال بعض الشعراء :

فكلُّكُمُ راعٍ ونحن رعيّـة * وكلُّ سيَلْقَى ربَّه فيُحاسبُهْ

وقالت الحكماء : إمام عادل خير من مَطَر وابِل ، و إمام غَشُوم خير من فتنة تدوم .

يقال : إنّ جَمْشِيد[1] أحدَ ملوك الفرس الأُول ، لما ملَك الأقاليم عَمِل أربعة خواتيم : خاتَما للحرب والشُّرْطة وكتب عليه الأَناة، وخاتما للخراج وكتب عليه العِمارة، وخاتما للبريد وكتب عليه الوحا[2]، وخاتما للظالم وكتب عليه العدل، فبقِيتْ هذه الرسومُ فى ملوك الفرس إلى أن جاء الإسلام .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : إذا كان الإمام عادلا فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان جائرا فله الوِزْر وعليك الصبر .

وقال أَرْدَشِير لابنه : يا بُنَىّ إن المُلك والعدل أخَوَان لا غِنى لأحدهما عن صاحبه، فالمُلك أُسٌّ والعدل حارس، فما لم يكن له أُس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع، يا بُنَىّ اجعل حديثك مع أهل المراتب، وعطيّتك لأهل الجِهَاد، وبِشْرَك لأهل الدِّين، وبِرَّك لمن عناه ما عناك من ذوى العقول .

وقال بعض الحكماء : يجب على السلطان أن يلتزِم العدل فى ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفى باطن ضميره لإقامة أمر دينه، فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان، ومدارُ السياسة كلّها على العدل والإنصاف ، فلا يقوم السلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما، ولا يدور إلا عليهما .

(١) فى الأصل : «حمشيد» بالحاء المهملة، وصوابه جمشيد بالجيم المعجمة، ومعناه : شعاع القمر.

(٢) الوحا : العجلة والإسراع، ويمد .

وقال عبد الملك بن مَرْوان لبنيه : كلّكم يترشّح لهذا الأمر، ولا يصلُح له منكم إلا من له سيفٌ مسلول، ومالٌ مبذول، وعدلٌ تطمئنّ إليه القلوب .

وخطب سعيد بن سُوَيد بحِمْص، فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس، إن للإسلام حائطا مَنِيعا وبابا وثيقا، فحائطُ الإسلام الحقّ وبابُه العدل، ولا يزال الإسلام مَنِيعا ما آشتدّ السلطان، وليس شدّة السلطان قتلًا بالسيف ولا ضربا بالسَّوْط، ولكنْ قَضَاءٌ بالحقّ وأخذٌ بالعدل .

وكتب إلى عُمَرَ بن عبد العزيز بعضُ عُمّاله يستأذِنه فى تحصين مدينة، فكتب إليه : حصِّنها بالعدل ونقِّ طريقها من الظلم .

وقال معاوية : إنّى لأستحيي أن أَظلِم من لا يجد علىّ ناصرًا إلا الله .

وقال المهدىّ للربيع بن الجَهْم[1] وهو والٍ على أرض فارس : يا ربيع، آنشُر الحقّ وآلزَم القَصْد وآبسُط العدل وآرفُق بالرعيّة، وآعلم أن أعدل الناس مَن أنصف من نفسه، وأَجْوَرهم من ظلم الناس لغيره .

وقال جعفر بن يحيى : الخراجُ عَمود المُلْك، وما آستُغزِر بمثل العدل، ولا آستُترِر بمثل الظلم .

وقال عمرو بن العاص : لا سلطانَ إلا برجال، ولا رجالَ إلا بمال، ولا مال إلا بعِمارة، ولا عِمارة إلا بعدل .

وقيل : سأل الإسكندر حكماء بَابِل، فقال : أيُّما أبلغ عندكم، الشجاعة أم[2] العدل ؟ فقالوا : إذا آستعملنا العدل آستغنينا عن الشجاعة .

---

(١) فى العقد الفريد ج ١ ص ١٣ : «ابن أبى الجهم» . (٢) فى الأصل «أو» والمقام يقتضى «أم» .

ولما جىء بالهُرْمُزَان ملكِ خُوزِسْتان أسيرا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لم يزل الموكَّل به يقتفى أثَر عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى وجده بالمسجد نائما متوسّدا دِرّته، فلما رآه الهُرْمُزَان قال : هذا هو الملك؟ قيل : نعم؛ فقال له : عدَلتَ فأَمِنت فنِمت ، والله إنى قد خدمت أربعـة من ملوك الأكاسرة أصحاب التِّيجان فما هِبْتُ أحدا منهم هَيْبتى لصاحب هذه الدِّرّة . ٥

وقالوا : إذا عَدَل الإمام خَصِب الزمان .

وقال ٱبن عبّاس رضى الله عنهما : إن الأرض لتَزَيَّنُ فى أعيُن الناس إذا كان عليها إمامٌ عادل، وتَقْبُح إذا كان عليها إمام جائر .

وحُكى أن كسرى أبْرَوِيز نزل متنكِّرا بامرأة، فحلَبت له بقرة فرأى لها لبنا كثيرا، فقال لها : كم يلزمُك فى السنة على هذه البقرة للسلطان؟ فقالت : درهم واحد؛ فقال: ١٠ وأين تَرتع وبكم منها يُنتَفع ؟ فقالت : ترتع فى أراضى السلطان ، ولى منها قُوتى وقُوتُ عِيَالى؛ فقال فى نفسه : إن الواجب أن أجعـل إتَاوة على البقور(١) فلأصحابها نفعٌ عظيم؛ فما لَبِث أن قالت المرأة : أوَّهْ! إن سلطاننا همّ بجَوْر؛ فقال أبْرَوِيز : لِمَهْ؟ فقالت: لأن دَرّ البقرة ٱنقطع، وإن جَوْر السلطان مُقْتَضٍ لجَدْب الزمان؛ فأقلع عما كان همّ به . وكان يقول بعد ذلك : إذا همّ الإمام بجور ٱرتفعت البَرَكة . ١٥

وقال سُقْراط : يَنْبُوع فَرَح العالَم الملكُ العادل، ويَنْبوع حُزْنهم الملكُ الجائر .

---

(١) هكذا فى الأصل . والذى فى كتب اللغة التى تحت أيدينا من جموع هـذا الاسم : بقر وأبقر وأبقار وأباقر وبُقَّار وأبقور، وله أسماء جمع وهى باقر وبقير وبيقور وباقور وباقورة، ولعل ما فى الأصل جمع لبقر والقياس لا يأباه فإن من النحويين من ذهب الى أن فَعَلا يجمع قياسا على فعول كأسد وأسود وذكر وذكور . ٢٠

(١٤) وقال الفضل : لو كان عندى دعوةٌ مستجابة لم أجعلها إلا فى الإمام، فإنه إذا صلُح أخصبت البلاد وأَمِنت العباد ؛ فقبّل ٱبن المبارك رأسه وقال : لا يحسبَنَّ هذا غـيرُك .

وقال قُدَامة : حسبكم دلالةً على فضيلة العدل أن الجَوْر الذى هو ضـدّه لا يقوم إلا به ؛ وذلك أن اللصوص إذا أخذوا الأموال وٱقتسموها بينهم ٱحتاجوا إلى ٱستعمال العدل فى ٱقتسامهم و إلا أضرّ ذلك بهم .

صفة الإمام العادل — كتب عمر بن عبد العزيز لما وَلِى الخلافة إلى الحسن ٱبن أبى الحسن البَصرىّ أن يكتب له بصفة الإمام العادل ؛ (١) فكتب إليه الحسن : اِعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ كلّ مائل، وقَصْدَ كل جائر، وصلاحَ كلّ فاسد، وقوّة كلّ ضعيف، ونَصَفة كلّ مظلوم، ومَفْزَع كلّ ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق [على إبله] (١) والحـازم الرفيق الذى يرتاد لهـا أطيب المراعى، ويذُودها عن مراتع الهَلَكَة، ويَحْميها من السباع، ويكْنِفها من أذى الحرّ والقُرّ. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على وَلَده، يسعى لهم صِغارا، ويعلّمهم كبارا، يكسِب لهم فى حياته، ويدّخر لهم بعد وفاته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأمّ الشفيقة البَرَّة الرفيقة بولدها، حملَتْه كُرْها، ووضعتْه كُرْها، وربّته طفلا، تسْهَر لسهره وتسكن لسكونه، وتُرْضِعه تارة وتَفْطِمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشِكَايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصىّ اليتامى، وخازن المساكين، يربّى صغيرَهم، ويمُون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلُح الجوارح بصلاحه، وتفسُد بفساده . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله و بين عبـاده، يَسْمع كلام الله ويُسمعهم، وينظُر إلى الله ويُريهم، وينقاد لله ويَقُودهم . فلا تكن

(١) زيادة عن العقد الفريد (جزء أوّل ص ١٤) .

يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ٱئتمنـه سـيّده وٱستحفظه مالَه وعيالَه ، فبدّد المـال وشرّد العِيال فأفقر أهله وأهلك مالَه .

وٱعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحـدود ليزجُرها عن الخبائث والفواحش ، فكيف [إذا أتاها من يليها ! وأن الله أنزل القِصاص حياة لعباده ، فكيف] (١) إذا قتلهم من يقتصّ لهم ! وٱذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلّة أشـياعك (٢) عنده وأنصارِك عليه ؛ فتزوّد له وما بعده من الفزع الأكبر .

وٱعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت به ، يطول [فيـه] (١) ثَوَاؤُك ، ويفارقك أحبّاؤك ، ويُسلمونك فى قَعْره فريدا وحيدا ؛ فتزوّد له ما يصحَبك يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . وٱذكر يا أمير المؤمنين إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ، وحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ؛ فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ؛ فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مَهَل ، قبل حلول الأَجل ، وٱنقطاع الأَمَل ؛ لا تَحْكُمْ يا أمير المؤمنين فى عبـاد الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلُكْ بهـم سبيلَ الظالمين ، ولا تُسَلِّطْ المستكبرين على المستضْعَفين ، فإنهـم لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، فتبوءَ بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتَحْمِلَ أثقالك وأثقالا مع أثقالك . ولا يَغُرَّنَّك الذين ينعَمون بمـا فيه بُؤْسك ، ويأكلون الطيّبات من دنيـاهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . ولا تنظُرَنّ إلى قدرك (٣) اليوم ، ولكن ٱنظر الى قدرك (٣) غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله تعالى فى مَجْمع الملائكة والمُرْسَلين ، وقد عَنَتِ الوُجُوهُ للحىّ القيُّوم . إنى يا أمير المؤمنين إن لم أبلُغ فى عِظَتى ما بلغه أولو النُّهى قبلى ، فلم آلُك شَفَقةً ونُصْحا ؛ فأَنْزِلْ كتابى هـذا إليك كمُداوى حبيبه يَسْقيه

(١) زيادة عن العقد الفريد ، جزء أول ص ١٤ (٢) كذا فى العقد الفريد ، وفى الأصل «أمتاعك»

(٣) كذا فى الأصل . وفى العقد الفريد : قدرتك .

الأدوية الكريهة لما يرجو له بذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وحيثما ذكرنا العدل وصفة الإمام العادل فلنذكر الظلم وسوء عاقبته.

ذكر ما قيل فى الظلم وسوء عاقبته

٥ قال الله تعالى: (أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ). وقال تعالى: (وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا). وقال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ)؛ قيل: هذا تعزية للمظلوم ووعيد للظالم. وقال تعالى: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا). وقال تعالى: (وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ). وقال تعالى: (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ). وقال تعالى: (فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة إمامٌ جائر" وفى لفظ آخر: "أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدُّهم عذابا إمام جائر". وقال صلى الله عليه وسلم: "اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"(١) وفى لفظ: "فإنها مستجابة".

١٥ ويقال: ما أنعم الله على عبد نِعمةً فظَلَم بها إلا كان حقيقا على الله أن يُزيلها.

وقال الأحنف: إذا دعتْك نفسك إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله على عقوبتك، وانتقام الله لهم، وذهاب ما آتيتَ إليهم عنهم(٢). وقال يوسف بن أَسْبَاط: من دَعَا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يُعْصَى الله.

(١) فى الجامع الصغير: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنه ليس دونها حجاب».

٢٠ (٢) أى ما سقته إليهم من الظلم.

وروى فى الحديث : "إن الله تعالى يقول وعِزّتى لَأُجِيبَنّ دعوة المظلوم و إن كان كافرا" . وقال : "ما من عبد ظُلِم فشَخَص ببصره إلى السماء ثم قال : يا ربِّ ؛ عبدك ، ظُلِمتُ فلم أنتصِرْ إلا بك إلا قال الله لَبَّيك عبدى لَأَنْصُرَنّك ولو بعد حين" .

وقيل : الظلم أدعى شىء إلى تغيير نِعْمةٍ وتعجيل نِقْمة .

وقال ٱبن عبّاس : ليس للظالم عهد ، فإن عاهدته فانقُضه ، فإن الله تعالى يقول : (لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ) . وأجمعوا على أن المظلوم موقوف على النُّصْرة لقوله تعالى : (ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ) . والظالم مَدْرجة العقوبة و إن تنفّست مدّته .

وقيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنـه : كان الرجل يُظْلَمُ فى الجاهلية فيدعو على مَن ظلمه فيُجاب عاجلا ولا يُرَى ذلك فى الإسـلام ؛ فقال : هـذا حاجز بينهم وبين الظلم ، وإن مَوْعِدَكم الآن الساعةُ ، وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ .

وقيل : تندمِل من المظلوم جِرَاحُه ، إذا ٱنكسر من الظالم جَنَاحُه . وقالوا : الجَوْر آفة الزمان ، ومُحدث الحَدَثَان ؛ وجالب الإِحَن ، ومسبِّب المِحَن ؛ ومُحيل الأحوال ، ومُمْحق الأموال ؛ ومُخْلى الديار ، ومُحيي البَـوَار . وهو مأخوذ من قولهم (١) : جار عن الطريق إذا نَكب عنها ، فكأنه عَدَل عن طريق العدل وحاد عن سبيله .

وفى الإسرائيليّـات أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى عليه السلام : ياموسى ، قل لبنى إسرائيل : تجنّبوا الظلم ؛ وعزّتى وجلالى إن له عندى مَغَبّة ؛ قال : يارب وما مغبته ؟ قال : يُتْم الولد ، وتقليل العَدَد ، وٱنقطاع الأَمَد ، والثَّوَاء فى النار .

وقد أوردنا فى ذلك ما يَكتفى به من يعلم أن الله تعالى مُسَائِله ومُحاسبه ، ومُناقشه غدا ومُطالبه ؛ وجامع الناس ليوم لاريب فيـه ، ومُوقِف المظلوم لطلب حقّه ممن

(١) فى الأصل : «وهو مأخوذ به ... الخ» وظاهر أن كلمة «به» هنا مقحمة لغير حاجة .

ظلمه بمِلْء فِيه، ورُبما يُعجِّل له العقوبةَ فى دنياه، ويضاعف عليه العذاب فى أُخراه، ويُريه عاقبة بَغْيه فى يوم ينظُر المرء ما قدّمت يداه . نسأل الله تعالى أن يَحْمِينا أن نظْلِم أو نُظلَم، وأن يجعلَنا ممن فوّض أمرَه إليه وسلّم، ولا يمتحنَنا بمكروهٍ، فهو بضَعْفنا عن حَمْله أدرى، وبعجزنا أعلم، بمَنّه وكرمه .

ذكر ما قيل فى حسن السِّيرة والرِّفق بالرعيّة

قال الله تعالى : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ). ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أُعْطِىَ حظَّه من الرفق فقد أُعْطِىَ حظَّه من الخير كلِّه، ومن حُرِم حظَّه من الرِّفق فقد حُرِم حظَّه من الخير كلِّه" .

ولما وَلِى عمر بن عبد العزيز الخلافة أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب فقال لهما : أَشِيرا علىّ، فقال له سالم : ٱجعل الناس أباً وأخا وٱبنا، فبِرّ أباك، وٱحفظ أخاك، وٱرحم ٱبنك . وقال محمد بن كعب : أَحبب للناس ما تُحبّ لنفسك، وٱكْرَهْ لهم ما تكْرَهُ لنفسك، وٱعلم أنك أوّلُ خليفة يموت .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِىّ بن أَرْطَاةَ : أما بعد، فإذا أمكنتْك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، وٱعلم أن ما لَك عند الله مثلُ ما للرعيّة عندك .

وقال المنصور لٱبنه المهدىّ : يا بنىّ لا تُبْرِم أمرا حتى تفكّر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تُريه حسناته وسيئاته، وٱعلم أن الخليفة لا يُصلِحه إلا التقوى، والسلطانَ لا يُصلِحه إلا الطاعة، والرعية لا يُصلحها إلا العدل، وأَولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا مَن ظلم مَن هو دونه .

(١) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٧) وفى الأصل : «والطاعة» .

وقال خالد بن عبد الله القَسْرىّ[1] لبـلال بن أبى بُرْدَة : لا يحملَنّك فضلُ المقدرة على شدّة السَّطْوة، ولا تطلب من رعيّتك إلا ما تبذُلُه لها، فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

وقيـل : لمـا ٱنصرف مَرْوان بن الحَكَم من مصر إلى الشام، ٱستعمل ٱبنه عبد العزيز على مصر، وقال له حين ودّعه : أرسـل حكيما ولا تُوصِـه؛ ٱنظر أىْ بُنىّ[2] إلى أهل عملك؛ فإن كان لهم عندك حقُّ غُدْوَةٍ فلا تُؤخّره إلى عَشِيّة، وإن كان لهم عشِيّةٌ فلا تُؤخّره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند مَحلّها تستوجبْ بذلك الطاعة منهم. وإيّاك أن يظهر لرعيّتك منك كَذِب، فإنهم إن ظَهَر لهم منك كَذِب لم يصدّقوك فى الحق . وٱستشرْ جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستَبِنْ لك فٱكتب إلىّ يأتِك رأيى فيه إن شاء الله . وإن كان بك غَضَب على أحد من رعيّتك فلا تُؤاخِذه به عند سَوْرَة الغضب، وٱحبِس عقوبتَـك حتى يسكُنَ غضبُك ثم يكون منـك ما يكون وأنت ساكن الغضب مُطفأُ الجمرة، فإنّ أوّلَ من جعل السجن كان حليما ذا أناة؛ ثم ٱنظر إلى أهل الحسب والدِّين والمروءة، فليكونوا أصحابَك وجلساءك، ثم ٱرفع منازلهم منك على غيرهم على غير ٱسترسال ولا ٱنقباض . أقول هذا وأستخلف الله عليك .

(١) فى الأصل : «خالد البصرى»، والتصويب عن العقد الفريد .

(٢) كذا فى العقد الفريد (ج ص ١٧)، وفى الأصل : «أى شىء» وهو تحريف .

الباب السادس

من القسم الخامس من الفن الثانى

فى حسن السياسة، وإقامة المملكة، ويتّصل به الحزم، والعزم، وآنتهاز الفرصة، والحلم، والعفو، والعقوبة، والآنتقام

٥ فأما ما قيل فى حسن السياسة وإقامة المملكة؛ قالوا: مَن طلب الرياسةَ فليصبِرْ على مَضَض السياسة. ويقال: إذا صحّت السياسة تمّت الرياسة.

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجّاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه [بسيرته](١) فكتب إليه: إنّى أيقظتُ رأيى وأنمتُ هواى، وأدنيتُ السيّدَ المُطاعَ فى قومه، وولّيت الحربَ الحازمَ فى أمره، وقلّدت الخَراجَ الموفّرَ لأمانته، وقسمتُ ١٠ لكلّ خَصْمٍ من نفسى قِسْمًا، أعطيته حظًّا من لطيف عنايتى ونظرى، وصرَفت السيفَ إلى النِّطف(٢) المسىء، [والثواب الى المحسن البرىء](١)؛ فخاف المُريب صولةَ العقاب، وتمسّك المُحسن بحظّه [من](١) الثواب. وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت، ما السياسة؟ فقال: هيبةُ الخاصّة مع صدق مَوَدّتها، وآقتياد قلوب العامّة مع الإنصاف لها، وآحتمال هَفَوات الصنائع(٣).

١٥ وقيل: بلغ بعضَ الملوك سياسةُ ملكٍ آخر فكتب اليه: قد بلغتَ من حسن السياسة مبلغًا لم يبلُغْه ملك فى زمانك، فأفِدْنى الذى بلغتَ به ذلك؛ فكتب إليه: لم أهزِلْ فى أمرٍ و[لا](٤) نَهى ولا وعدٍ ولا وعيد، وآستكفيتُ أهل الكِفاية وأثبتُّ على

(١) زيادة عن العقد الفريد، ج ١ ص ١٠ (٢) النطف: المريب. (٣) فى الأصل: «أهل الصناعات» والتصويب عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ١٠) والصنائع جمع صنيعة، يقال: فلان صنيعة فلان إذا آصطنعه وخرّجه وأدّبه ورباه. (٤) زيادة عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ١٠ طبع دار الكتب المصرية).

العَنَاء لا على الهوى ، وأودعتُ القلوبَ هيبةً لم يَشُبْها مَقْت ، ووُدًّا لم يَشُبْه كذِب ، وعمّمت القُوت ، ومنعت الفضول . وقيل : إن أَنُوشِرْوان كان يُوَقِّع فى عهود الولاة : سُسْ خيارَ الناس بالمحبّـة ، وآمزُجْ للعامّة الرغبةَ بالرهبة . ولما قدِم سعدُ العشـيرةِ فى مائة من أولاده على مَلك حِمْيَر سأله عن صـلاح المُلك ؛ فقال : مَعْدَلَةٌ شائعة ، وهَيبةٌ وازعة ، ورعيّة طائعة ؛ ففى المعدلة حياة الإمام ، وفى الهيبة نفىٌ للظُّلّام وفى طاعة الرعية حسن آلتئام . وقال أبو مُعاذ للمتوكّل : إذا كنتم للناس أهلَ سياسة فسوسوا كرامَ الناس بالرفق والبذْل ، وسوسوا لئام الناس بالذُّلّ يَصْلُحوا على الذلّ ، إن الذلّ يُصلح النَّـذْل . وقال أنوشِرْوانَ : الناس ثلاث طبقات ، تسوسهم[1] ثلاث سياسات ، طبقة هم خاصّة الأشراف ، تسوسهم باللين والعطف ، وطبقة هم خاصّة الأشرار ، تسوسهم بالغِلْظة والعنف ، وطبقة هم العامّة ، تسوسهم بالشدّة واللين .

وقال مُعاوية بن أبى سُـفْيان : إنى لا أَضَع سـيفى حيث يكفينى سوطى ، [ولا أضع][2] سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى و بين العامّة شعرةً ما[3] آنقطعت ؛ قيـل له : وكيف ذلك؟ قال : كنت إذا جذبُوها أرخيتها و إذا أرخَوْها جذبتها . وقال المأمون : أسْوَسُ الملوك من ساس نفســه لرعيّته ، فأسقطَ مواقعَ حُجّتها عنه وقطع مواقع حجّته عنها .

(١) فى الأصل « يسوسهم » بالياء ، وكذلك بقية الأفعال فى هذه الجملة ، وظاهر أن الخطاب هو الذى يستقيم معه اللفظ والمعنى .

(٢) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ١٠) .

(٣) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٠) وعيون الأخبار (مجلد ١ ص ٩) . والكثير فى جواب « لم » المنفى بما عدم آقترانه باللام .

❖

وأما ما قيل فى الحزم والعزم وآنتهاز الفُرصة، قالت الحكماء: أحزمُ الملوك من قَهَر جدُّه هَزْلَه، وغلَب رأيُه هواه، وأعربَ عن ضميره فعلُه، ولم يختدعه رضاه عن سخطه، ولا غضبُه عن كيده. وقيل لبعضهم: ما الحزم؟ فقال: التفكُّر فى العواقب.

٥ وقال عبد الملك بن مروان لآبنه الوليد: يابُنَىّ، آعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملِكَ الرعيَّةَ أو تملكه الرعيَّةُ إلّا حزمٌ أو تَوان. وقالوا: ينبغى للعاقل ألّا يستصغر شيئا من الخطأ والزَّلَل، فإنّ من آستصغر الصغيرَ يُوشك أن يقع فى الكبير، فقد رأينا المُلْك يُؤْتَى من العدوّ المحتَقَر، ورأينا الصِّحّة تُؤْتَى من الداء اليسير، ورأينا الأنهارَ تنبثق من الجداول الصغار. وقال مَسْلَمة بن عبد الملك: ما أخذتُ أمرًا قطُّ بحزمٍ فلُمْتُ نفسى فيه وإن كانت العاقبةُ علىّ، ولا أخذت أمرًا قطّ وضيّعت الحزم فيه فحمِدْتُ نفسى وإن كانت العاقبة لى. وقال عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: ما العزيمة فى الأمر؟ فقال: إصدارُه إذا أُورد بالحزم؛ قال: وهل بينهما فرق؟ قال: نعم، أمَا سمعتَ قول الشاعر:

(١٧)

ليستْ تكونُ عزيمةٌ ما لم يَكُنْ * معها من الحزم المشيِّد رافدُ

١٥ وقيل لملك سُلِبَ ملكَه: ما الذى سَلَبك ملكَك؟ فقال: [دفعُ شغلِ][1] اليومِ إلى غد، والتماسُ عُدّة بتضييع عُدَد، وآستكفاءُ كلِّ مخدوعٍ عن عقله[2]. والمخدوع [عن عقله][1]: من بلغ قدرًا لا يستحقّه أو أُثيب ثوابًا لا يستوجبه. وفى كُتُب للهند: الحازم يحذَر عدوَّه على كل حال، يحذر المُوَاثبَة إن قرُب، والمغارة[3] إن بعُد، والكمينَ

(١) زيادة من العقد الفريد (ج ١ ص ١٨). (٢) فى الأصل: «من عقله».

٢٠ (٣) كذا فى الأصل، ولعله «المغاورة» بمعنى الإغارة.

إن آنكشف ، والآستطرادَ إن ولّى . وقال صاحب كتاب كليلة ودمنة : إذا عرَف الملك أنّ رجلًا يُساوَى به فى المنزلة والرأى والهِمّة والمال وآتَّبع فليصْرَعْه، فإن لم يفعلْ فهو المصروع . وقيل : من لم يُقَدِّمْه حزمُه أخّره عجزُه . وقيل : من آستقبل وجوهَ الآراء عرف مواقع الخطأ .

قال البُحْتُرِىّ : ٥

فَتًى لم يُضَيِّعْ وجهَ حزمٍ ولم يَبِتْ * يُلَاحِظ أعجازَ الأُمورِ تَعقُّبا

ومثله قول آخر :

وخيرُ الأمرِ ما آستقبلتَ منه * وليس بأن تَتَبَّعَه آتِّباعا

وقيل : من لم ينظر فى العواقب فقد تعرّض لحادثات النوائب . قال الشاعر:

وَمَنْ ترك العواقِبَ مُهْمَلاتٍ * فأيسرُ سَعْيِهِ أبدًا تَبَارُ ١٠

وقال صاحب كتاب كليلة ودمنة : رأسُ الحزمِ للملك معرفتُه بأصحابه وإنزالُهم منازلهم وآتهامُ بعضهم على بعض، فإنه إنْ وجد بعضُهم إلى هلاك بعضٍ سبيلًا أو إلى تهجين بَلَاءِ المُبلين وإحسانِ المُحسنين والتغطيةِ على إساءة المُسيئين، سارَعوا الى ذلك، وآستحالوا[1] محاسنَ أمور المملكة، وهجّنوا محاسن رأيه؛ ولم يَبْرَح منهم حاسد قد أفسد ناصحا ، وكاذبٌ قد آتّهم أمينا ، ومحتالٌ قد أغضب بريئا . وليس ١٥ ينبغى للملك أن يُفسد أهلَ الثقة فى نفسه بغير أمرٍ يعرفه، بل ينبغى فى فضل حلمه وبَسْطَة علمه الحِيْطَةُ على رأيه فيهم، والمحاماةُ على حُرمتهم وذِمامهم، وألّا يرتاحَ[2] إلى إفسادهم ، فلم يزل جُهّال الناس يحسُدون علماءهم ، وجبناؤُهم شجعانَهم ، ولئامُهم كرماءهم، وبخّارُهم أبرارَهم، وشِرارُهم خيارَهم .

(١) كذا فى الأصل . ولعله : « أحالوا » بمعنى غيّروا .

(٢) فى الأصل «ألا يريح» ولعل الصواب ما وضعناه .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : انتهزوا هذه الفُرَص فإنها تمرّ مرّ السَّحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عَيْن .

وكتب يزيد بن الوليد إلى مَرْوان بن محمد، وقد بلغه عنه تلكّؤ في بَيْعته : أما بعد، فإني أراك تُقدّم رِجلا وتؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابي فاعتمد أيّهما شئت والسلام .

وكتب عبد الله بن طاهر الخُراسانيّ إلى الحسن بن عمر التَّغْلِبيّ[1] : أما بعد، فإنه بلغني من قَطْع الفَسَقة الطريقَ [ما بلغني][2] ، فلا الطريقَ تحمي ، ولا اللصوصَ تَكْفي ،ولا الرعيةَ تُرضي ، وتطمع بعد هذا في الزيادة! إنك لمتفسح الأمل! وأيم الله لتكفينّ مَنْ قِبَلك أو لأُوجّهنّ إليك رجالا لا تعرف مُرّة من جُشَم ، ولا عَدِيًّا من رُهْم[3] . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قُتَيْبة بن مُسْلِم والي خُراسان : أما بعد، فإن وَكيع ابن حسّانٍ[4] كان بالبصرة [منه][5] ما كان، ثم صار لِصّاً بسِجِسْتَانَ، ثم صار إلى خُراسانَ، فإذا أتاك كتابي هذا فأهدِم بناءه وأحلُلْ لواءه . وكان على شُرْطة قُتَيْبة فعزله وولّى الضَّبيّ .

(١) في الأصل : الثعلبي وهو تحريف إذ هو الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوى التغلبي . انظر ابن الأثير طبع أوربا ج ٧ ص ١٢٧ و ١٧٢ .

(٢) زيادة يقتضيها السياق وفي العقد الفريد «ما بلغ» (ج ١ ص ٢٠) .

(٣) كذا في العقد الفريد «رهم» بالراء وهو بطن من بطون العرب وفي الأصل : «دهم» .

(٤) في الأصل : «حيّان» والتصويب عن العقد الفريد والطبريّ .

(٥) زيادة يقتضيها المقام .

ذكر ما قيـــل فى الحلم

الحلم دفع السيئة بالحسنة . وقيل : تجرُّع الغيظ[(١)] . وقيل : الحلم دِعَامة العقل ، وقال الله تعالى : (وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) . ٥

وقال علىّ رضى الله عنه : حلمُك عن السفيه يُكثر أنصارَك عليه .

وقيل : ليس الحليم من إذا ظُلِم حَلُمَ حتى إذا قَدَر انتصر ، ولكن الحليم من ظُلِم فإذا قدَر غفر[(٢)] .

(١٨) وقيل : الحليم من لم يكن حِلْمه لفقد النُّصرة أو لعدم القـدرة . وهو جوهر فى الإنسان يَصْـدُر عن صدْر سالم من الغوائل والأذى ، صافٍ[(٣)] من شوائب الكَدَر والقَذَى ، لا يُستطاع تعلّما ، ولا يُدرك تبصُّرا وتفهّما ، كما قال أبو الطيّب : ١٠

وإذا الحلمُ لم يكن فى طِباع * لم يُحـلِّم تقادمُ الميـلادِ[(٤)]

ويدلّ على ذلك أنه غريزة فى الإنسان . وقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأشجّ عبد القَيْس : "ياأبا المنذر إن فيك خَصْلتين[(٥)] يرضاهما الله ورسوله الحلم والأناة" فقال : يارسول الله ، أشىء جَبَلَنى الله عليـه أم شىء اخترعتُه من قِبَل ١٥

---

(١) فى الأصل : «الغليظ» .

(٢) عبارة الإحياء فى شطر هذه الجملة الأخيرة «ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا» .

(٣) فى الأصل : «صاف عن شوائب ...الخ» واللغة تقتضى «من» .

(٤) ورد هذا البيت فى ديوان المتنبي هكذا :

وإذا الحلم لم يكن عن طباع * لم يكن عن تقادم الميـلاد ٢٠

(٥) فى الإحياء للغزالىّ «خلقين يحبهما ...» (ج ٣ ص ١٢٢) طبع المطبعة الميمنية .

نفسى؟ قال: "بل شىء جَبَلَك الله عليه"؛ قال: الحمد لله الذى جبلنى على خُلُق يرضاه الله ورسوله.

ومن الناس من يقول: إن الحلم ليس غريزة ولا طبيعة بل مكتسَب مستفاد، تمترن النفس الأبيّة عليه، وتنقاد حُبًّا فى المحمَدة إليه.

٥ وقالوا: الحلم بالتحلُّم كما أن العلم بالتعلّم. ويدلّ على ذلك ما حُكى عن جعفر الصادق أنه كان عنده عبد سيّئ الخُلُق، فقيل له: أما تأنف [من] (١) مثل هذا عندك وأنت قادر على الاستبدال به؟ فقال: إنما أتركه لأتعلّم عليه الحلم. ويحكى عنه أنه كان إذا أذنب إليه عبد أعتقه؛ فقيل له فى ذلك؛ فقال: أريد بفعلى هذا تعلّم الحلم. قال الشاعر:

وليس يتمّ الحلم للمرء راضيا * إذا هو عند السُّخط لم يتحلّم

١٠ كما لا يتمّ الجُودُ للمرء مُوسرًا * إذا هو عند القَتْر لم يتحشّم (٢)

ورُوى عن سَرِىّ السَّقَطِىّ أنه قال: الحلم على خمسة أوجه: حلم غريزىّ، وهو هِبة من الله للعبد، يعفو عمّن ظلمه، ويَصِل من قطعه، ويُعطى مَن حرمه، ويُحسن لمن أساء إليه؛ وحلُم تحالُم، يَكْظِم غيظه رجاءَ الثواب وفى القلب كراهيَة؛ وحلم كِبْر، لا يرى المسيءَ أهلا أن يُجاريه؛ وحلم مذموم، رِياء وسُمعة وهو حاقد ساكت يُرائى به

١٥ جلساءه؛ وحلم مَهانة وذِلّة وعجز وضعف نفس وصِغَر هِمّة.

وقال أبو هلال العسكرىّ: أجمع كلمةٍ سمعناها فى الحلم ما سمعتُ عَمّ أبى يقول: الحليم ذليل عزيز؛ وذلك أن صورة الحليم صُورة الذليل الذى لا انتصارَ له، واحتمال السفيه والتغافل عنه فى ظاهر الحال ذلّ وإن لم يكن به. وقيل: "[الحليم] (٣) مطيّة الجهول" لاحتماله جهلَه وتركه الانتصافَ منه. وقال الأول البيتين وقد تقدّما.

٢٠ (١) زيادة يقتضيها استعمال اللغة، ولعلها سقطت من الناسخ. (٢) يتحشم: يتذمّم ويستحى.
(٣) زيادة عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرىّ (ج ١ ص ١٠٨ مخطوط ومحفوظ بدار الكتب المصرية).

[ولهذا](١) قال شيخ من الأعراب وقد قيل له : ما الحلم؟ فقال : الذى تصبرُ عليه. وقال : الحلم عِقال الشرّ، وذلك أن من سمع مَكروهة فسكت عنها آنقطعت عنه أسبابها، وإن أجاب آتصلت بأمثالها(٢) .

وقالوا : الحلم والأناة توءمان ينتجهما علوّ الهمة .

ومن كلام النبوّة : "كاد الحليم أن يكون نبيّا" .

ورأى حكيمٌ رِقّة من ملِك فقال : أيها الملك! ليس التاج الذى يفتَخر به عظماء الملوك فضّةً ولا ذَهَبا، ولكنه الوَقار المكلّل بجواهر الحلم، وأحق الملوك بالبَسْطة، مَن حَلُم عند ظهور السَّقطة .

وقال معاوية لأبنه يزيد : عليك بالحلم والأحتمال حتى تُمكّنك الفُرصة ، فإذا أمكنتك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك مُعضِلات الأمور، ويَقيك مصارع المحذور.

وقال أيضا : أفضل ما أُعطِىَ الرجُلُ الحلمُ . وقال : ما وجدتُ لذّة هى عندى ألذّ من غيظ أتجرّعه وسَفَهٍ بحلم أقمَعه .

وقالوا : الحلم مطيّة وطِيئة تبلّغ راكبَها قاصية المَجْد، وتملّكه ناصيةَ الحمد .

وقال أبو هلال : ومن أشرف نُعوت الإنسان أن يُدعى حليمًا، لأنه لا يُدعاه حتى يكون عاقلا وعالما ومُصْطَبِرًا مُحتسِبا وعَفُوًا وصالحا ومُحتمِلا وكاظما . وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخِصال .

ذكر أخبار من آشتهر بالحلم وآتصف به

كان ممن آشتهر بالحلم الأَحْنَف بن قيس . قيل له : ممّن تعلّمت الحلم؟ قال : من قيس بن عاصم المِنْقَرىّ ، رأيته قاعدا بفِنَاء داره مُحتَبِيا بحمائل سيفه يحدّث قومه، حتى أُتِى بمكتوف ورجلٍ مقتول، فقيل له : هذا آبن أخيك قتل آبنَك،

(١) زيادة عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى . (٢) زيادة عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرىّ وفى الأصل : «بأسبابها» .

قال : فوالله ما حَلّ حُبْوته ولا قطع كلامه ، ثم ٱلتفت إلى ٱبن أخيه فقال : يابن أخى أثِمت بربّك ، ورَمَيت نفسك بسَهْمك ، وقتلت ٱبن عمك ؛ ثم قال لٱبن له آخر : قم يا بُنَىّ فوَارِ أخاك وحُلّ كِتَاف ٱبن عمك وسُق إلى أمّك مائة ناقة دِيَة ٱبنها فإنها غَرِيبةٌ . وقد ساق أبو هلال هذه القصة بسند وزاد فيها زيادة حسنة نذكرها ، فقال : (١٩)

إن قيس بن عاصم لما فرغ من حديثه ٱلتفت إلى بعض بَنِيه ، فقال : قم إلى ٱبن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفِنْه . فبدأ بإطلاق القاتل قبل دفن المقتول .

وقال فى خبره : ثم ٱتكأ على شِقّه الأيسر وقال :

إنى ٱمرؤ لا يَعْترِى خُلُقِى[1] * دَنَس يُفَنِّده ولا أَفَنُ[1]
من مِنْقَرٍ فى بيت مَكْرُمةٍ * والفرع ينبُت فوقه الغُصُنُ
خُطَبَاءُ حين يقول قائلهم * بيضُ الوجوه مَصَاقِعُ[2] لُسُنُ
لا يَفْطِنون لعيب جارِهِمُ * وَهُمُو لحِفْظ جِوَارِهِ فُطُنُ

وقيل : قُتِل للأحنف بن قيس ولد وكان الذى قتله أخ للأحنف ، فجىء به مكتوفا لِيُقِيدَه ؛ فلما رآه الأحنف بكى ، وأنشد :

أقول للنفس تَأْسَاءً وتعزِيةً * إحدى يَدَىّ أصابتنى ولم تُرِدِ
كلاهما خَلَفٌ من فَقْد صاحبه * هذا أخى حين أدعوه وذا وَلَدى

وممن ٱشتهر بالحلم "معاوية بن أبى سفيان" . حكى أن رجلا خاطر[3] رجلا أن يقوم إلى معاوية إذا سَجَد فيضع يده على كَفَله ويقول : سبحانَ الله يا أمير المؤمنين !

(١) رواه فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٧) :

إنى ٱمرؤ لا يَطَّبى حسبى * دَنَس يُهجّنه ولا أفن

وفى عيون الأخبار لٱبن قتيبة (مجلّد ١ ص ٢٨٦ طبع دار الكتب المصرية) :

إنى ٱمرؤ لا شائنٌ حَسَبى * دنس يُغيّره ولا أفن

(١) الأفَنُ : النقص . (٢) فى العقد الفريد ، وعيون الأخبار "أعفّة" . (٣) يقال : خاطره على الأمر : راهنه عليه .

ما أشبَهَ عجيزَتَك بعجيزة أُمّك هند! ففعل ذلك ؛ فلما آنفتل معاوية عن صلاته[(١)] قال له : يا أخى ، إن أبا سفيان كان محتاجا إلى ذلك منها ؛ نخذ ما جعلوه لك . فأخذه ؛ ثم خاطره آخر بعد ذلك أن يقوم إلى زِياد وهو فى الخطبة فيقول : أيها الأمير ، مَن أُمّك ، ففعل ؛ فقال زياد : هذا يُخبرك ، وأشار إلى صاحب الشُّرْطَة ، فقدّمه وضرب عُنقه ؛ فلما بلغ ذلك معاويةَ قال : ما قتله غيرى ، ولو أدّبتُه على الأولى ما عاد إلى الثانيـــة .

قيل : ودخل خُرَيْم الناعم على معاوية بن أبى سفيان فنظر معاوية إلى ساقَيْه ، فقال : أىُّ ساقَيْن ! لو أنهما على جارية ! فقال له خُرَيم : فى مثل عَجِيزتك يا أمير المؤمنين ؛ فقال : واحدةٌ بواحدة والبادئُ أظلم .

وقيـــل : خاطر رجل على أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو فى الخطبة فيقول له : أيها الأمير ، مَن أُمّك ؛ ففعل ؛ فقال عمرو : النابغةُ بنت عبد الله أصابَتْها رماح العرب فبِيعت بعُكَاظ ؛ فاشتراها عبد الله بن جُدْعان فوهبها للعاصى بن وائل فولدت له فأنجبت ، فإن كانوا جعلوا لك شيئا نخذه .

وقيـــل : أسمعَ رجل عمرَ بن عبد العزيز بعضَ ما يَكْره ؛ فقال : لا عليك ، إنمـــا أردتَ أن يستفزّنى الشيطان بعزّ السلطان فأنالَ منك اليومَ ما تنالُه منّى غدًا ، آنصرف إذا شئت .

حكى صاحب العِقْد عن آبن عائشـــة أن رجلا من أهل الشأم دخل المدينة ، قال : فرأيتُ رجلا راكبًا على بغـــلة لم أَرَ أحسنَ وجهًا ولا سَمْتا ولا ثوبًا ولا دابّةً منه ، قال : فمال قلبى إليه ، فسألت عنه . فقيل : هذا الحسن بن علىّ بن أبى طالب ، فامتلأ قلبى بُغْضًا له وحسدت عليًّا أن يكون له ولدٌ مثلُه ، فصرت إليه فقلت : أنت

(١) فى الأصل : « من » وهذا يخالف الاستعمال اللغوى ، فإنه يقال : انفتل عن كذا إذا آنصرف عنه .

ٱبن أبي طالب ؟ قال : أنا ٱبن ٱبنه ، قلتُ : قلتُ فيك وفي أبيك أشمُّهما ، فلما ٱنقضى كلامي ، قال : أحسَبكَ غريبا ، فقلت : أجل ، قال : فإن ٱحتجتَ إلى منزل أنزلناك أو إلى مالٍ آسيناك أو إلى حاجةٍ عاونّاك ، فانصرفت وما على الأرض أحبُّ إليَّ منه .

٥ حدّث زياد عن مالك بن أنس قال : بعث إليّ أبو جعفر المنصور وإلى ٱبن طاوس ، فأتينا فدخلنا عليه ، فإذا هو جالس على فُرُش قد نُضِدت ، وبين يديه أَنْطَاعٌ قد بُسِطت ، وجلاوِزَةٌ[1] بأيديهم السيوف يضربون بها الأعناق ، فأومأ إلينا أن ٱجلسا فجلسنا ، ثم أطرق عنا طويلا ، ثم رفع رأسه وٱلتفت إلى ٱبن طَاوُس فقال : حدّثني عن أبيك ، قال : نعم ، سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ١٠ "إنّ أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجورَ في عدله" ، فأمسك ساعة ، قال مالك : فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافةَ أن يملأني من دمه ، ثم ٱلتفت إليه أبو جعفر فقال : عِظْني يابن طاوس ، قال : نعم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١٥ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) ، قال مالك : فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني دمه ، فأمسك ساعة حتى ٱسودَّ ما بيننا وبيته ، ثم قال : يٱبن طاوس ناولني هذه الدواة ، فأمسك ، فقال : ما يمنعك أن تُناوِلَنيها ؟ قال : أخشى أن تكتب بها معصيةً لله فأكونَ شريكَك فيها ، فلما سمع ذلك قال : قُوما عنّي ، فقال ٱبن طاوس : ذلك ما كنّا نبغي منذ اليوم . قال ٢٠ مالك : فما زلتُ أعرف لٱبن طاوس فضلَه .

(١) الجلاوزة جمع جلواز بكسر الجيم : الشُّرَطِي .

وقيل : دخل الحارث بن مِسكين على المأمون فسأله عن مسألة؛ فقال : أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك الرشيد؛ وذكر قوله فلم يُعجِب المأمونَ، فقال : لقد تَيَّستَ فيها وتَيَّس مالك؛ فقال الحارث بن مسكين : فالسامع يا أمير المؤمنين من التيسين أَتْيس؛ فتغيّر وجه المأمون، وقام الحارث وندم على ما كان منه؛ فلم يستقرّ فى منزله حتى أتاه رسول المأمون، فأيقن بالشرّ ولبِس ثيابَ أكفانه، ثم أقبل حتى دخل عليه، فقرّبه المأمون من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه وقال له : يا هذا، إنّ الله تبارك وتعالى قد أمر مَنْ هو خيرٌ منك بإلآنة القول لمن هو شرٌّ منّى، قال لنبيّه موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)؛ فقال الحارث بن مسكين : يا أمير المؤمنين، أَبُوءُ بالذنب وأستغفر الربّ؛ فقال : عفا الله عنك، أنصرِف إذا شئت .

وقد مدح الشعراء ذوى الحلم، فمن ذلك قولُ بعضهم :

لن يُدْرِكَ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمُوا * حتّى يذِلُّوا — وإن عَزُّوا — لأقوامِ
ويُشْتَمُوا فترى الألوانَ مُسْفِرَةً[1] * لَا ذلَّ عجزٍ ولكنْ ذُلَّ أحلامِ

وقال آخر :

لقد أَسمعُ القولَ الذى هو كلّما * تُذَكِّرُنِيهِ النفسُ قلبِي يُصَدَّعِ
فأُبْدِى لمن أبداه منِّى بشاشةً * كأنِّىَ مسرورٌ بما منه أسمعُ
وما ذاك من عجزٍ به غير أنّنى * أَرَى أَنَّ تَرْكَ الشرِّ للشرّ أدفعُ

وقال مِهْيَار :

وإذا الإباءُ المُرُّ قال لك : انتقِمْ * قالت خلائقُك الكرامُ : بل احلُمِ

(١) مسفرة : مشرقة سرورا .

شَرْعٌ من العفو[1] انفردتَ بدينِهِ * وفضيلةٌ لسواك لم تتقدَّمِ
حتّى لقد وَدَّ البَرِىء لو أنَّهُ * أدلى إليك بفضل جاه المُجرِمِ

وقال آخر :

فدهرُهُ يَصْفَحُ عن قدرةٍ * ويَغفِر الذنبَ على علمِهِ
كأنّه يَأنَفُ من أنْ يَرَى * ذنبَ امرئٍ أعظمَ من حلمِهِ

وقال آخر :

أَسَدٌ على أعدائهِ * ما إن يَذِلُّ ولا يَهُون
فإذا تمكّن منهمُ * فهناك أحلمُ ما يكون

وقال محمود الورّاق :

إنّى وهبتُ لظالمى ظُلْمِى * وغفرتُ زَلّتَهُ على علمى
ورأيتُهُ أسْدَى إلىّ يدًا * لمّا أبَانَ بجهله حلمى
فكأنّما الإحسانُ كان لَهُ * وأنا المسيءُ إليه فى الحكم
ما زال يظلِمُنِى وأرحَمُهُ * حتّى بَكَيْتُ لهُ من الظلم

وقال آخر :

وذِى رَحِمٍ قَلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِهِ * بحلمِىَ عنهُ حين[2] ليس له حلمُ
إذا سُمْتُهُ وصلَ القرابةِ سَامَنِى * قطيعتَها، تلك السفاهةُ والإثمُ
فداويتُهُ بالحلم، والمرءُ قادرٌ * على سهمه ما كان فى كفِّه السهمُ
لأستلَّ منه الضِّغْنَ حتّى سللتُهُ * وإن كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحزمُ

(١) كذا فى ديوان مهيار . وفى الأصل : « المجد » . (٢) كذا فى الأصل ، ورواية الأمالى (ج ٢ ص ١٠٣ طبع بولاق) : « وهو ليس ..... » والأبيات من قصيدة طويلة لمعن بن أوس .

(٢١) وقد كرِه بعضهم الحلمَ فى كل الأمور، فمن ذلك ما أنشد المبرّد :

أبا حَسَنٍ ما أقبحَ الجهـلَ بالفَتَى * ولَلْحِلْمُ أحيانا من الجهـل أقبحُ
إذا كان حلمُ المـــرءِ عونَ عدوِّهِ * عليـه فإنّ الجهـلَ أَعْفَى وأروحُ

وقال آخر :

ترفّعتُ عن شتم العشيرةِ إنّنى * رأيتُ أبى قد عفّ عن شتمهم قبلى
حليمٌ إذا ما الحـــلم كان جلالةً[1] * وأجهلُ أحيـانًا إذا آلتمسوا جهلى

وقال آخر :

* إذا الحلم لم ينفعك فالجهل أحزم *

وقال الأحنف : آفة الحلم الذُّلّ . وقال : لاحلم لمن لاسفيه له . وقال : ماقلّ سفهاء قومٍ إلا ذَلُّوا . وقال النابغة الجَعْدىّ :

ولا خيرَ فى حلم إذا لم تكن لَهُ * بوادرُ تَحْمِى صفوَهُ أن يُكَدَّرا
ولا خيرَ فى جهلٍ إذا لم يكن له * حليمٌ إذا ما أوْرد[2] الأمرَ أصدرا

ولمـا أنشد هذين البيتين النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "أجدت لا يفْضُض[3] اللهُ فاك" ؛ قال : فعاش مائةً وثلاثين سنة لم تنفضّ له ثَنِيّة .

وقال كعب بن زُهَيْر :

إذا أنت لم تُعْرِض عن الجهلِ والخَنَا * أصبتَ حليماً أو أصابك جاهـلُ

(١) كذا فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرىّ ؛ وفى الأصـل : "إذا ما الجهل كان جلالة"، ورواية الأغانى (ج ١٣ ص ٥٦ طبع بولاق) : "حليما إذا ما الحلم كان مروءة".

(٢) كذا فى جمهرة أشعار العرب (طبع مطبعة بولاق الأميرية) وفى الأغانى أيضا (ج ٤ ص ١٣١). وفى الأصل : "حليم اذا هاجه الأمر أصدرا".

(٣) كذا فى الأغانى (ج ٤ ص ١٣١ طبع بولاق) وفى الأصل : « لاتفضض » ونصه فى العقد الفريد (ج ١ ص ٢١٨) ، كما فى الأغانى ولم يذكر لفظ : « أجدت » .

ذكر ما قيل فى العفو

قال الله تعالى : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وقال تعالى : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ) . وقال تعالى : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) . وقال تعالى : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) . وقال : (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) . وقال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ العفوَ لا يزيدُ العبدَ إلا عزّا فاعفُوا يُعِزّكم الله". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان يومُ القيامة وجمع الله الخلقَ فى صعيدٍ واحدٍ حيث يُسمعهم الداعى وينفُذُهم البصر[1] يُنادِى مُنادٍ من تحت العرش أَلَا مَنْ كان له على الله حقٌّ فليقُمْ فلا يقوم إلا مَنْ عفا عن مُجرم". وفى لفظٍ "ينادى منادٍ يوم القيامة أَلَا من كان له أجر على الله فليقم، فيقوم العافون عن الناس". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مامن إمامٍ عفا بعد قُدرة إلا قيل له يوم القيامة ادخل الجنّة بغير حساب" . وقال مُعَاذ بن جبل : لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال لى : "يا مُعَاذ مازال جبريلُ يُوصينى بالعفو فلولا عِلْمى بالله لظننت أنه يُوصينى بترك الحدود" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من عفا عن مَظْلِمةٍ صغيرة أو كبيرةٍ فأجرُه على الله ومن كان أجره على الله فهو من المقرّبين يوم القيامة" .

وعن علىّ بن الحسين أنه قال : إذا كان[2] يومُ القيامة نادى منادٍ : ليقُمْ أهلُ الفضل فيقوم ناس، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة، فتتلقّاهم الملائكةُ وهم سائرون فيقولون لهم :

(١) فى الأصل : "وينفدهم الصبر" والتصويب عن الإحياء (ج ٣ ص ١٢٦ طبع المطبعة الميمنية) .

(٢) فى الإحياء أن هذا حديث رواه البيهقىّ فى الشعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه . قال البيهقىّ : فى إسناده ضعف . انظر (ج ٨ ص ٣٢) من شرح الإحياء (طبع المطبعة الميمنية) .

أين تريدون؟ فيقولون : الجنة، فيقولون لهم : قبل الحساب؟ فيقولون : نعم، فيقولون : من أنتم؟ فيقولون : نحن أهل الفضـل، فيقولون : وما فضلكم؟ فيقولون : كنا إذا جُهِل علينا حَلُمْنا، وإذا ظُلِمنا صَـبَرْنَا، وإذا أُسيء إلينا عفونا، فيقولون : يحِقّ لكم أن تكونوا من أهل الجنّة فنعم أجر العاملين .

وقيل لأبى الدَّرْدَاء : مَن أعزُّ الناس؟ فقال : الذين يعفُون إذا قَدَرُوا، فٱعفوا يُعزّكم الله تعالى . ٥

قيل : حدُّ العفو تركُ المكافأة عند القدرة قولا وفعلا . وقيـل : هو السكون عند الأحوال المهيِّجة للانتقام .

قال الأحنف : إياك وحَمِيَّةَ الأوغاد، قيل : وما هى؟ قال : يَرَوْن العفو مَغْرما والتحمُّلَ مَغْنما . ١٠

وقيل لبعضهم : هل لك فى الإنصاف، أو ما هو خير من الإنصاف؟ فقال : وما هو خير من الإنصاف؟ فقال : العفو .

وقيـل : العفو زكاة النفس . وقيـل : لذّة العفو أطيب من لذّة التّشفّى، لأن لذة العفو يلحقها حَمْدُ العاقبة، ولذة التشفّى يلحقها ذمّ الندم .

وقيل للإسكندر : أىُّ شىء أنت أسرّ به مما ملكت؟ فقـال : مكافأةُ مَن أحسن إلىّ بأكثرَ من إحسانه، وعفوى عمّن أساء بعد قدرتى عليه . ١٥ (٢٢)

قال أشجع :

يعفُو عن الذنب العظيـم * وليس يُعجِزُه ٱنتصارُهْ
صـفحًا عن الجـانى عليـه * وليس حاط به ٱقتدارُهْ

وقال المتنبّي :

فَتًى لا تَسْلُبُ القَتْلى يداهُ * ويسلُب عفوُه الأَسْرى الوَثَاقا

وقال قابوس وشمكير[(١)] : العفو عن المذنب من واجبات الكرم .

وقالوا : العفو يَزين حالات مَن قَدَر، كما يزين الحَلْى قَبيحات الصُّوَر .

وقال المنصور لولده المهدىّ : لذّة العفو أطيب من لذّة التشفّى، وقد تقدّم ذكر الدليل . وقال الشاعر :

لذّةُ العفو إن نظرت بعين العدلِ أشفى من لَذّة الإنتقامِ

هذه تكسِب المحامدَ والأجرَ وهذى تجىء بالآثام

قال عمر بن حبيب العَدَوىّ[(٢)] : كنت فى وفد أهل البَصرة لما قَدِموا على المنصور يسألونه أن يُولِّىَ عليهم قاضيا، فبينا نحن عنده إذ جىء برجل مُصَفَّد بالحديد، يدُه مغلولة فى عنقه، فوقف بين يديه فساءله طويلا، ثم بُسِط له نِطْع وأَمَر بضرب عنقه، والرجل يَحْلِف وهو يُكذِّبه، ولم يتكلّم أحد من الجمع، فقمت وكنت أحدَثَهم سِنًّا فقلت : يا أمير المؤمنين، أتأذن لى فى الكلام؟ فقال : قل، قلتُ : يُروى عن ٱبن عمِّك رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من ٱعتذر إليه أخوه المسلم فلم يقبل لم يَرِد على الحوض"، وقد ٱعتذر إليك فاقبَل منه عُذْرَه، فقال : ياغلام ٱضرِب عنقَه، قلت : إن أباك حدَّثنى عن جَدِّك عن ٱبن عبّاس أنه قال : قال رسول الله صلى الله

(١) فى ٱبن خلكان (ج ١ ص ٦٠٦) ما نصه : "الأمير قابوس : الأمير شمس المعالى أبو الحسن قابوس بن أبى طاهر وشمكير بن زيار بن وردان شاه الجيلىّ أمير جرجان وبلاد الجيل وطبرستان . وهذا موافق تماما لما جاء فى "قاموس الأعلام التركى" لصاحبه "شمس الدين سامى بك" فقد قال تحت عنوان "قابوس : إنه هو الأمير شمس المعالى أبو الحسن بن أبى طاهر وشمكير الجيلى" . وفى الأصل : «وشمكرى» . وفى اليتيمة للثعالبى (ج ٣ ص ٢٨٨) : «قابوس بن وشمكير .....» . (٢) فى الأصل : العدى، بدون واو . والتصويب عن الطبرىّ .

عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من تحت العرش ليقم كل من كان له عند الله يدٌ فلا يقوم إلا من عفا عن أخيـه المسلم"، فقال: آللهِ[1] أبى حدّثك؟ فقلت: آللهِ إن أباك حدّثنى عن جدّك عن ٱبن عباس عن النبي صلى الله عليـه وسلم؛ فقال أبو جعفر: صدق، حدّثنى أبى عن جدّى عن ٱبن عباس بهذا؛ [فقال][2]: ياغلام خَلِّ له السبيل، وأمر له بجائزة وولّانى قضاء البصرة.

وقيل: أتى المأمونُ برجل يريد أن يقتله وعلىّ بن موسى الرِّضَا جالس، فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: أقول: إن الله تعالى لا يزيدك بحسن العفو إلا عِزًّا؛ فعفا عنه. وكان المأمونُ مُؤْثِرًا للعفو كأنّه غريزة له؛ وهو الذى يقول: لقد حُبِّب إلىّ العفوُ حتى إنى أظُنّ أنى لا أُثاب عليه. وأُحضِر إلى المأمون رجل قد أذنب، فقال له المأمون: أنت الذى فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أنا الذى أَسْرف على نفسه وٱتكل على عفوك؛ فعفا عنه.

قال: ولمـا ظَفِر المأمون بإبراهيم بن المهدىّ أمر بإدخاله عليه، فلما مَثُل بين يديه قال: وَلِىُّ الثأْر مُحَكَّم فى القِصاص، والعفو أقرب للتقوى، والقـدرة تُذهب الحَفِيظة، ومن مَدّ له الٱعتذارُ فى الأمل هجمت به الأَنَاةُ على التلف، وقد جعل الله كلّ ذنب دون عفوك، فإن صفَحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقّك؛ قال المأمون: إنى شاورت أبا إسحاقَ والعبّاسَ فى قتلك فأشارا علىّ به؛ قال: أمّا أن يكونا قد نصحاك فى عِظَم قدْر الملك ولمـا جرت عليه السياسة فقـد فعلا، ولكن أبيتَ أن تستجلب النصر[3] إلا من حيث عوّدك الله، ثم ٱستعبرَ باكيا؛ فقال له المأمون:

(١) فى حاشية الأمير على المغنى: (ج ١ ص ١٨ طبع مصر): أن من معانى الهمزة القسم مثل «آلله لأفعلنّ» نظرا الى أنها الهاء المبدلة من التاء. (٢) زيادة يقتضيها السياق. (٣) كذا فى عيون الأخبار ص ١٠٠ طبع دار الكتب المصرية. وفى الأصل: "أبيت أن لا تستجلب من حيث الخ".

مايُبكيك ؟ قال : جَذَلا إذ كان ذنبي إلى مَن هـذه صفتُه ، ثم قال : إنه وإن كان جُرْمى بلغ سَـفْكَ دمى فحِلْمُ أمير المؤمنين وفضلُه يُبلِّغانى عفْوَه ، ولى بعـد هذا شُفْعةُ الإقرار بالذنب وحُرمة الأَب بعد الأَب ؛ قال المأمون : لو لم يكن فى حق نسبك ما يُبلِّغ الصفحَ عن جُرْمك لبلّغك إليه حسن تنصُّلك . فكان تصويب إبراهيم لرأى أبى إسحاق والعباس ألطفَ فى طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما . ثم قال المأمون لإسحـاق بن العبّاس : لا تحسَبنّى أغفلت إجلابك مع ٱبن المهدىّ وتأييدَك لرأيه وإيقادَك لناره ؛ فقال : والله لإجرامُ قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من جُرمى إليك ، ولَرَحِمى أمسّ من أرحامهم ، وقد قال [لهم] (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال يوسف لإخوته (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ) ، وأنت يا أمير المؤمنين أحقُّ وارث لهـذه المِنّة ومتمثِّل بها ؛ قال : هيهات ! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسـلام ، وجُرْمك جرمٌ فى إسلامك فى دار خلافتك ؛ قال يا أمير المؤمنين ، فوالله لَلمسلمُ أحقُّ بإقالة العَثْرة وغُفْران الذنب من الكافر ، هذا كتاب الله بينى وبينك ، يقول الله تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) الآية [إلى] (٢) (وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) ، فهى للناس يا أمير المؤمنين سُـنّة دخل فيها المسـلم والكافر والشريف والمشروف ؛ قال : صدقتَ ، ٱجلس وَرِيَتْ بك زِنَادى ، وعفا عنه .

وقال أحمد بن أبى دُواد : ما رأيت رجلا نزل به الموت فما شَغَله ذلك ولا أذهله عمـا كان يجب أن يفعله إلا تميم ٱبن جَميل ، فإنه كان تغلّب على شاطئ الفرات فظُفِر به ، وَوافَى به الرسول بابَ المعتصم فى يوم المَوْكب فى حين جلوسه للعامّة

(١) زيادة يقتضيها حسن السياق ولعلها سقطت سهوا من الناسخ .

(٢) هذه الزيادة موجودة فى العقد الفريد .

فأُدخِل عليه، فلما مَثُل بين يديه دعا بالنِّطع والسيف فأُحضِرا، وجعل تَميمُ بن جَميل يُصعِّد النظر إلى ذلك ولا يقول شيئا، وجعل المعتصم يُصعِّد النظر فيه ويصوِّبه، وكان جسيما وَسِيما، فرأى أن يستنطقه لِيَنظُرَ أين جَنَانُه ولسانُه من منْظَره، فقال: يا تميم، إن كان لك عذر فأْتِ به أو حُجَّةٌ فأَدْلِ بها؛ فقال: أَمَّا إذ قد أَذِنت لى يا أمير المؤمنين بالكلام فإنى أقول: الحمد لله الذى أحسن كلّ شىء خَلَقه وبدأ خَلْق الإنسانِ من طين، [ثم جعل نَسْلَه[1] من سُلَالة من ماء مَهِين]، يا أمير المؤمنين جبرَ الله بك صَدْعَ الدِّين، ولَأَمَ بك شَعَث الأُمّة، وأخمد بك شِهاب الباطل، وأوضح بك سِرَاج الحقّ؛ يا أمير المؤمنين، إن الذنوب تُخرس الألسنة، وتَصدَع الأفئدة، ولقد عظُمت الجريرة وكبُر الذنب وساء الظنّ، ولم يبق إلا عفوُك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربُهما منك وأسرعهما إليك أَوْلاهما بإمامتك وأشبَهَهما بخلافتك، ثم أنشد:

أرى الموتَ بين السيف والنِّطْعِ كامنًا * يُلاحِظُنى من حيثُما أتلفَّتُ[2]
وأكبرُ ظنِّى أنك اليومَ قاتلى * وأىُّ آمرئٍ مما قضى اللهُ يُفْلِتُ!
ومن ذا الذى يُدْلِى بعُذرٍ وحُجَّةٍ * وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يعِزّ على أبناء تغلِبَ موقِفٌ * يُسَلّ علىّ السيفُ فيه وأسكُتُ
وما جزعى من أن أموت وإننى * لأعلم أنّ الموتَ شىء مُؤَقَّتُ
ولكنّ خَلْفى صِبْيَةً قد تركتُهم * وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتّت
كأنى أراهم حين أُنْعَى إليهِمُ * وقد خَمَشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغِبْطةٍ * أَذود الردى عنهم وإن مُتُّ مُوِّتوا
وكم قائلٍ: لا يُبعِدِ اللهُ دارَه * وآخرَ جذلانٍ يُسَرُّ ويَشْمَتُ

(١) هذه الزيادة موجودة فى العقد الفريد.

(٢) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٢٣٨. وفى الأصل: من حيث لا ...).

قال : فتبسّم المعتصم وقال : كاد والله ياتميم أن يَسبِق السيفُ العَذَل! اذهب فقد غفرتُ لك الهفوة وتركتك للصِّبْية .

وحُكِي : أن عبد الملك بن مَرْوان غضِب على رجل فهرَب منه، فلما ظفِر به أمر بقتله؛ فقال له الرجل : إن الله قد فعل ما أحببتَ من الظفَر فافعل ما يُحبّه من العفو، فإن الانتقام عدل والتجاوزَ فضل، والله يُحِبّ المحسِنين؛ فعفا عنه .

وحُكى عن محمد بن حُمَيد الطُّوسىّ أنه كان يومًا على غَدائه مع جلسائه إذا بصيحة عظيمة على باب داره، فرفع رأسه وقال لبعض غِلمانه : ما هذه الضجّة ؟ من كان على الباب فليدخل؛ فخرج الغلام ثم عاد إليه وقال : إن فلانا أُخِذ وقد أُوثِق بالحديد والغِلمانُ ينتظرون أمرَك فيه؛ فرفع يده من الطعام؛ فقال رجل من جلسائه : الحمد لله الذى أمكنك من عدوّك، فسبيلُه أن تسقِىَ الأرضَ من دمه؛ وأشار كلٌّ من جلسائه عليه بقتله على صفة اختارها، وهو ساكت؛ ثم قال: ياغلام، فُكَّ عنه وَثاقه ويدخلَ إلينا مكرّما، فأُدخِل عليه رجل لادمَ فيه؛ فلما رآه هشّ إليه ورفع مجلِسَه وأمر بتجديد الطعام، وبسَطه بالكلام ولَقّمه حتى انتهى الطعام، ثم أمر له بكُسوة حسنة وصِلة، وأمر بردّه إلى أهله مكرَّما ولم يعاتبه على جُرْم ولا جناية، ثم التفت إلى جلسائه وقال لهم: إنّ أفضل الأصحاب من حضّ الصاحب على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم؛ وحسّن لصاحبه أن يجازى الإحسانَ بِضعْفه، والإساءةَ بصفحه؛ إنا إذا جازينا مَن أساء الينا بمثل ما أساء فأين موقعُ الشكر على النعمة فيما أُتيح من الظفَر! إنه ينبغى لمن حضر مجالِسَ الملوك أن يُمسك إلا عن قولٍ سديد وأمرٍ رشيد، فإنّ ذاك أدْوَم للنعمة وأجمعُ للأُلْفة؛ إن الله تعالى يقول : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) الآية .

وقيـل : بعث بعض الملوك فى رجلٍ وَجَد عليه فظفِر به ، فلما مَثُل بين يديه قال : أيهـا الأمير ، إنّ الغضب شيطانٌ فاستعذ بالله منه ، وإنمـا خُلِق العفوُ للذنب والتجاوُزُ للسيء ، فلا يَضِيق علىّ مايسع الرعيّةَ من حلمك وعفوك ، فعفا عنه وأطلق سبيله .

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وَجَد عليه : يا أمير المؤمنين ، إنّ القـدرةَ تُذْهِب الحَفِيظة ، وأنت تَجِلُّ عن العقوبة ، ونحن مُقِرُّون بالذنب ، فإن تعفُ عنّى فأهلُ ذلك أنت ، وإن تعاقِبْنى فأهلُ ذلك أنا ، فعفا عنه .

وقيل : أُتِى الحجاج بأَسْرى من الخوارج ، فأمر بضرب أعناقهم فقُتِلوا ، حتى قُدِّم شابّ منهم فقال : والله ياحجّاج إن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو ، فقال الحجاج : أُفًّا لهذه الجِيَف ! أما كان فيهم من يقول مثلَ هذا ! وأمسك عن القتل . وأُتى الحجاج بأسرى فأمر بقتلهـم ، فقال له رجل منهم : لاجزاك الله ياحجّـاج عن السُّـنّة خيرا ، فإنّ الله تعالى يقول : (فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) ، فهذا قول الله تعالى فى كتابه ، وقال شاعركم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق :

وما نقتلُ الأَسْرَى ولكن نَفُكُّهم * إذا أثقلَ الأعناقَ حمـلُ القلائدِ

فقال الحجّاج : ويحكم ! أَعَجَزْتم أن تخبرونى ما أخبرنى به هذا المنافق ! وأمسك عمن بقى .

ذكر ماقيل فى العقوبة والانتقام

ومن الناس من يرجّح عقوبة المذنب على ذنبه، ومقابلةَ المسىء بما يستحقه من نَكاله وضربه؛ ورأى أن العفو عن المجرم موجب لتكراره، والإحسانَ إلى المسىء مقتضٍ لإصراره؛ وقال : إنّ طِباع اللؤم التى حملته على ذلك لا ترتدع بالإحسان، ومرارة الذنب التى استحلاها لاتغيّرها حلاوةُ الغفران . وأخذ فى ذلك بالكتاب والحديث، وقابل على الذنب القديم بالعذاب الحديث؛ قال الله تعالى : (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) . وقال تعالى : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أبى عزّة، لما كان يتعرّض له من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلَب عُقْبة بن أبى مُعَيْط يوم بَدْر إلى شجرة؛ فقال : يارسول الله، أنا من بين قريش! قال : "نعم"؛ قال : فمن للصبية؟ قال : "النار" . وقيل : إنه أوّل مصلوبٍ صُلِب فى الإسلام . وكان النَّضْرُ بن الحارث بن كَلَدَة شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأُخذ أسيرا يوم بدر، فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بقتله، فقُتل صبرا بيد علىّ بن أبى طالب. وقال علىّ رضى الله عنه : الخيرُ بالخير والبادئ أفضل، والشرّ بالشرّ والبادئُ أظلم. وقال : «ردّ الحَجَر[1] من حيث جاءك» فالشرّ لايُدْفَعُ إلا بالشرّ؛ وأنشد :

لئن كنتُ محتاجًا إلى الحِلم إنّنى * إلى الجهل فى بعض الأحايين أَحْوَجُ
ولِى فرسٌ للخيرِ بالخيرِ مُلْجَمٌ * ولى فرسٌ للشرّ بالشرّ مُسْرَجُ
فمَنْ رام تقويمى فإنّى مُقَوَّمٌ * ومن رام تعويجى فإنّى مُعَوَّجُ

وقال الجاحظ : من قابل الإساءةَ بالإحسان فقد خالف اللهَ فى تدبيره، وظنّ أن رحمة الله دون رحمته، فإنّ الله تعالى يقول : (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) وقال :

(١) ورد هذا المثل فى مجمع الأمثال للميدانى ومعناه : لا تقبل الضيم وأرم من رماك .

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)، وقال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وقال أَكْثَمُ بن صَيْفِيّ : من تعمّد الذنب فلا ترحمه دون العقوبة، فإنّ الأدب رِفق، والرفق يُمْن . قال أبو الطيّب المتنبّي :

مِنَ الحِلمِ أن تستعمِلَ الجهلَ دونه * إذا اتّسعت فى الحلمِ طُرْقُ المَظَالِمِ

وقالوا : تواضعْ للمحسن إليك وإن كان عبدا حبشيّا، وانتصِف ممن أساء إليك وإن كان حرّا قرشيّا .

وقال الشعبيّ : يُعجبنى الرجل إذا سِيم هوانًا دَعته الأَنَفَة[1] إلى المكافأة، وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها . ورُفع كلامُه إلى الحجّاج بن يوسف الثقفىّ فقال : لله درّه ! أىّ رجلٍ بين جنبيه ! وتمثّل بقول الشاعر :

ولاخيرَ فى عِرض امرئٍ لايصونُه * ولا خيرَ فى حلم امرئٍ ذَلّ جانبُه

وقال رجل لابن سِيرين : إنّى وقعتُ فيك فاجعلنى فى حِلّ؛ قال : ما أُحِبّ أن أُحِلّ لك ماحرّم الله عليك . وقالوا : مَن ترك العقوبةَ أغرى بالذنب، ولولا السيف كثُر الحيف . قال الشاعر :

إذا المرءُ أولاك الهوانَ فأَوْلِهِ * هوانًا وإن كانت قريبًا أَواصِرُهْ
وإنْ أنت لم تقدِرْ على أن تُهِينَه * فدَعْه إلى اليوم الذى أنت قادِرُهْ
وقارِبْ إذا ما لم تكن لك حِيلةٌ[2] * وصَمِّمْ إذا أيقنتَ أنّك عاقِرُهْ

وقيل : استُؤْمِرَ عبدُ الله بن طاهر بن الحسين فى رجلين كانا فى السجن، أحدهما ضعيف والآخر عليل، فوقّع : الضعيفُ يَقْوَى والعليلُ يبرأ، فإن يكن

(١) فى الأصل : "اذا سيم هوانا ودعته إلى الأنفة ..." ولعله تحريف من الناسخ .

(٢) فى الاصل : "وقارب اذا لم تكن له حيلة" وهو تحريف .

فى الحبس ممن يُؤْمَن شرُّه غيرُهما فليُفْرَجْ عنه ودَعْهما فى موضعهما، فإنه مَن أطلق مثلَهما على الناس فهو شرٌّ منهما وشريكُهما فى فعلهما .

وكتب رجل إلى المأمون — وكان قد طال حبسه — : أغفلتَ يا أمير المؤمنين أمرى، وتناسيتَ ذكرى، ولم تتأمل حُجّتى وعذرى، وقد مَلّ من صبرى الصبر، ومسّنى فى حبسك الضُّرّ. فأجابه المأمون: ركوبُك مطيّةَ الجهل، صيّرك أهلًا للقتل، وبَغْيُك علىّ وعلى نفسك نَقَلك من سَعة الدنيا إلى قبرٍ من قبور الأحياء، ومَن جَهِل الشكرَ على المِنَن قلّ صبره على المِحَن، فاصبِرْ على عواقب هفَواتك ومُوبِقات زَلّاتك، على قدر صبرك على كثيرِ جناياتك؛ فإن حصل فى نفسك كَفٌّ عن معْصيتى، وعزمٌ على طاعتى، وندمٌ على مخالفتى، فلن تعدَم مع ذلك جميلًا من بيتى (١) والسلام .

وقيل لأعرابىّ : أيسرّك أن تدخلَ الجنّة ولا تُسيئَ إلى من أساء إليك؟ قال: بل يسرّنى أن أُدرِكَ الثأر وأَدخُلَ النار . قال البُحْتُرِىّ :

تَذُمُّ الفتاةُ الرُّؤْدُ شِيمةَ بَعْلِها * إذا بات دون الثأرِ وهو ضَجِيعُها

ويقال : إنما هو مالُك وسيفُك، فازرع بمالك من شَكَرك، واحصُدْ بسيفك من كَفَرك . قال الشاعر :

قُطَّ العِدَا قَطَّ اليَراعةِ وانتهِزْ * بظُبَا السيوفِ سوائمَ الأضغانِ

إنّ البيادِقَ إنْ تَوسّع خَطْوُها * أخذتْ إليك مآخِذَ الفِرْزانِ

وقالوا : العفوُ يُفْسِد من اللئيم، بقدر ما يُصْلِح من الكريم . وقال مُعاوية ابن يزيد بن معاوية لأبيه : هل ذَمَمْتَ عاقبةَ حلم قطّ ؟ قال : ما حلُمت عن لئيم وإن كان وليّا إلا أعقبنى نَدَمًا على مافعلت . قال بعض الشعراء :

متى تَضَعِ الكرامةَ من لئيمٍ * فإنّك قد أسأتَ إلى الكَرامهْ

(١) كذا فى الأصل ولعله : « بِنِّى » .

وقالوا : جَنِّب كرامتك اللئامَ، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن أساءوا لم يشعروا .

ومن رسالة لأبى إسحاق الصابى فى حقّ من نزع يده من الطاعة (١) :

وكان الذى أثمره الجهاد، ودلّ عليه الارتياد، اليأسَ من صلاح هذه الطوائف الناشئةَ على اعتياد المعاصى والاستئناسِ بالدواهى ، والثقةَ بأنّ أَوَدَها لا يتقوّم ، وزيغَها لا يتسدّد، وخلائقَها لا تنصرف عمّا ضَرَبت العادةُ عليه بسِياجها، واستمرّت به على اعوِجاجها، إذ كانت العادة طبيعةً ثانية، وسجيّة لازمة؛ كذلك زعمت الحكماء، وبرهنت عليه العلماء . قال بعض الشعراء :

ما كلُّ يومٍ ينالُ المرءُ ما طلبَا * ولا يُسَوِّغُه المِقْدَار ما وهبَا (٢)
وأَنْصفُ الناسِ فى كلِّ المواطن مَنْ * سَقَى الأعادىَ بالكأسِ التى شَرِبَا
وليس يَظلمهم من بات يَضربهم * [بحدِّ] (٣) سيفٍ به مِنْ قبلهم ضُرِبا
فالعفوُ إلّا عن الأعداءِ مَكْرُمةٌ * من قال غيرَ الذى قد قلتُه كَذَبا
قتلتَ عمرًا وتستبقى يزيدَ لقد * رأيتَ رأْيًا يجُرّ الويلَ والحَرَبا
لا تقطعَنْ ذَنَبَ الأفعَى وتتركَها * إن كنتَ شَهْمًا فأَتْبِعْ رأْسَها الذنبا
هم جرّدوا السيفَ فاجعلْهم به جَزَرًا (٤) * هم أوقدوا النارَ فاجعلْهم لها حَطَبَا

(١) فى الأصل : « من نزع يده من الطاعة منها » وظاهر أن كلمة « منها » مقحمة لغير حاجة .

(٢) كذا فى تاريخ أبى الفدا طبع دار الطباعة العامرة الشاهانية بالقسطنطينية وفى الأصل "ما طلبا" وقائل هذه القصيدة أبو أُذَيْنة يحرّض ابن عمه الأسود بن المنذر على قتل جماعة من ملوك الشام كان قد أسرهم وأراد أن يعفو عنهم .

(٣) زيادة عن تاريخ أبى الفدا . (٤) الجزر بالتحريك : ما يذبح من الشاء واحدتها جزرة بالتحريك أيضا . وفى أبى الفدا : "فاجعلهم له جزرا" .

ومنها :

لا عفوَ عن مِثلهم فى مثلِ ما طَلَبوا * لكنّ ذلك كان الهُلْكَ والعَطَبَا
علامَ تقبلُ منهم فِدْيةً وهُمُ * لا فِضَّةً قبِلُوا مِنّا ولا ذَهَبَا

الباب السابع

من الفن الثانى

فى المشورة وإعمال الرأى والآستبداد ومن يعتمد على رأيه وذكر من كره أن يستشير

ذكر ما قيل فى المشورة وإعمال الرأى

قد امر الله عز وجل نبيّه صلى الله عليه وسلم بمشاورة مَن هو دونه من أصحابه فقال تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)؛ ذهب المفسّرون إلى أن الله تعالى لم يأمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه لحاجةٍ منه إلى رأيهم ولكن لِيُعْلَمَ ما فى المشاورة من البركة . وقيل: أمره بذلك تألُّفًا لهم وتطييبا لنفوسهم. وقيل : ليستنّ بذلك المسلمون .

ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما نَدِم مَن آستشار ولا خاب مَن آستخار " .

وقيل : الخطأُ مع الآستشارة أحمدُ من الإصابة مع الآستبداد . وقيل : مَن استشار فيما نَزَل به صديقَه وآستخار ربّه وآجتهد رأيه ، فقد قضى ما عليه ، وأَمِن من رجوع الملامة إليه ؛ ويفعل الله فى أمره ما يشاء . وقيل : ما هَلَك آمرؤ عن مشورة .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نِعْم المؤازرةُ المشاورةُ ، وبئس الآستعدادُ الآستبدادُ . وقيل : الأحمق مَن قطعه العُجْب عن الآستشارة ، والآستبدادُ عن

الآستخارة . وقيل : لما همّت ثقيف بالآرتداد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، آستشاروا عثمان بن [أبي][1] العاصي وكان مُطاعًا فيهم ؛ فقال : لا تكونوا آخرَ العرب إسلاما وأوّلهم آرتدادا؛ فنفعهم الله تعالى برأيه .

وقال العُتْبيّ لرجل من عَبْس : ما أكثرَ صوابَكم[2] ! فقال : نحن ألفُ رجل وفينا حازمٌ واحد، فنحن نُشاوره فكأنّا ألفُ حازم . وسُئل بعض الحكماء : أيُّ الأمور أشد تأبيدا للعقل، وأيها أشدّ إضرارا به؟ فقال : أشـدُّها تأييدا له ثلاثةُ أشياء : مشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن التثبُّت . وأشدُّها إضرارا به ثلاثة أشياء: الآستبداد، والتهاون، والعَجَلة .

وقال بعض الحكماء : إذا آستبدّ الرجل برأيه عَمِيت عليه المَرَاشد .

وقال الفَضْل بن سَهْل : الرأى يَسُدّ ثُلَمَ السيف، والسيفُ لا يَسُدّ ثُلَمَ الرأى .

وقالوا : من آستغنى برأيه فقد خاطر بنفسه . وقال بعض البلغاء : إذا أشكلت عليـك [الأمور][3]، وتغيّر لك الجمهور؛ فارجِعْ إلى رأى العقلاء، وآفزَعْ إلى آستشارة العلماء؛ ولا تأنَفْ من الآسترشاد، ولا تستنكف من الآستمداد[4]؛ فلأن تسأَلَ وتسلَمَ خيرٌ من أن تستبِدَّ وتندَم .

وقال حكيم لآبنه : يا بُنَيّ، إنّ رأْيك إذا آحتجتَ إليه وجدتَه نائمـا ووجدتَ هواك يَقْظان، فإيّاك أن تستبِدّ برأيك ، فإنّه حينئـذ هواك . ويقال : تعوَّذْ من سَكَرَات الآستبداد بصحَوَات الآستشارة، ومن عَثَرات البَغْى باستقالة الآستخارة .

(١) الزيادة عن الكامل لآبن الأثير، والطبرى، ومعجم ياقوت .

(٢) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٢٥) وأدب الدنيا والدين (ص ٣٠٤) وفى الأصل "صوابك".

(٣) زيادة عن «أدب الدنيا والدين» ص ٣٠٦ .

(٤) فى الأصل «ولا تستنكف من الاستبداد ... الخ» والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٣٠٦ .

وقال ٱبن المقفّع : لا يُقْذَفَنَّ فى رُوعك[1] أنّك إذا ٱستشرتَ الرجال ظهر للناس منك الحاجةُ [إلى رأى غيرك][2] فتنقطعَ بذلك عن المشورة، فإنك لا تريد الفخر ولكن الٱنتفاع .

قال بشّار :

إذا بَلَغَ الرأْىُ المشورةَ فاستعِنْ * برأْيِ نَصِيحٍ أو نصيحةِ حازِمِ
ولا تحسَبِ الشُّورى عليك غَضاضةً * فإنّ الخوافِى[3] رافداتُ القَوادِمِ

قال الأصمعىّ : قلت لبشار : إن الناس يَعْجَبون من أبياتك فى المشورة؛ فقال : يا أبا سعيد، إن المُشاوِرَ بين صوابٍ يفوزُ بثمرته، وخطإٍ يُشارَكُ فى مكروهه؛ فقلت : أنت والله فى قولك أشعر منك فى شعرك . وهذان البيتان من قصيدة كان بشّار بن بُرْد قد كتب بها إلى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ويُحَرِّضه على أبى جعفر المنصور، فمات إبراهيم قبل وصول القصيدة إليه، فخاف بشار من ٱشتهارها فقلبها[4] وجعل التحريض على أبى مُسلم[5] الخراسانىّ فقال :

أَبا مسلمٍ ما طِيبُ عَيْشٍ بدائمٍ * ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالِمِ

وإنما كان قال :

* أبا جعفرٍ ما طيبُ عيشٍ بدائمِ *

قال فيها بعد هذين البيتين المُقَدَّمين :

وخَلِّ الهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكنْ * نَؤُوماً فإنّ الحزم ليس بنائمِ

(١) كذا فى عيون الأخبار (مجلد ٢ ص ٣١ طبع دار الكتب المصرية) وفى الأصل : " لا تنفذن فى روعائك... " . (٢) زيادة عن عيون الأخبار . (٣) الخوافى : ريشات فى جناح الطائر اذا ضم جناحيه خفيت . والقوادم : ريشات فى مقدم جناح الطائر . يريد : أن الضعيف قد يمد القوى بالمعونة . (٤) فى الأغانى : " فقلب الكنية " . (٥) فى الأصل : « وجعل التحريض فيها على أبى موسى ... » والصواب عن الأغانى ج ٣ ص ٥٦ طبع بولاق .

وما خيرُ كفٍّ امسك الغُلُّ أُختها * وما خيرُ سيف لم يُؤَيَّدْ بقـائم
وحارِبْ إذا لم تُعْـطَ إلّا ظُلامةً * شَبَا الحربِ خيرٌ من قَبول المَظَالِم
وأدنِ على (١) القُرْبَى المقرِّبَ نفسه * ولا تُشْهِد الشُّورَى آمرأً غير كاتم
فإنّك لا تسـتطردُ الهَمَّ بالمُنَى * ولا تبلُغُ العَلْيَـا بغير المكارِم
إذا كنت فردا هرَّك (٢) القومُ مُقْبِلًا * وإن كنتَ أدنى لَم تَفُزْ بالعـزائم
وما قرع (٣) الأقوامَ مثـلُ مُشَـيِّعٍ (٤) * أريبٍ ولا جَلّى العَمَى مثـلُ عالِم

وقال الهَيْثم : ما رأيت آبنَ شُبْرُمة قطّ إلا وهو متهيئ كأنه يريد الركوب، فذُكِر ذلك له وأنا حاضر، فقال : إنّ الرجل لا يَسْتَجْمِع له رأيُه حتى يجمَعَ عليه ثيابَه، ثم قال : أتى رجلٌ من الحيّ فقال لدِهْقان : يا هـذا، إنه ربمـا آنتشر عليّ أمرى فى الرأى فهل عندك مشورة؟ فقال: تهيَّأْ وآلبَسْ ثيابك ثم آهمُمْ بمـا تريد، فهو أجمعُ لرأيك، فليس من أحدٍ يفعل ذلك إلا آجتمَعَ له رأيُه .

وقال أفلاطون : إذا آستشـارك عدوّك فجرّد له النصيحة، لأنه بالآستشارة قد خرج من عداوتك إلى مُوالاتك . وقيل : إذا أردتَ أن تعرِف الرجل فشاوِره، فإنك تقف من مشورته على جَوْره وعدله، وحبّه وبُغضه، وخيره وشرّه .

وقيل : لمـا سار رسول الله صـلى الله عليه وسلم إلى قريش فى غَزاة بَدْر نزل صلى الله عليه وسلم أدنى ماء من مياه بدر، فقال له الحُبَاب بن المُنْذِر : يارسول الله،

(١) فى عيون الأخبار (المجلد الأول ص ٣٢) : "وأدن من القربى ..." . (٢) يقال : فلان هرّه الناس اذا كرهوا ناحيته . والعزائم : الحاجات التى يعتزم المرء فعلها . يريد أنك اذا آنفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذوى التجارب باعدك الناس وأصغروا من شأنك، وان كنت أدنى القوم شأنا لم تفز بحاجاتك التى اعتزمت عليها . (٣) كذا فى الأغانى (ج ٣ ص ٥٦) وفى الأصل : "وما قارب ..." . (٤) المشيّع : الشجاع كأنه شيع بغيره أو بقوة قلبه .

أرايتَ هذا المنزل [أمنزلٌ][1] أنزلكه الله عز وجل ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال : "بل هو الرأى والحرب والمكيدة"؛ فقال: يارسول الله، فإنّ هذا ليس [لك][1] بمنزل فارحل[2] بالناس حتى نأتى أدنى ماء من مياه القوم فننزِلَه، ثم نُعَوِّر[3] ما سواه من القُلُب، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء، ثم نقاتل [القوم][1] فنشربَ ولا يشربوا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد أشرت بالرأى"؛ وفَعَل ما أشار به الحُبَاب .

وقال بُزُرْجِمِهْر : أفرهُ ما يكون من الدوابّ لا غِنَى به عن السوط، وأعقل ما يكون من النساء لا غِنى بها عن الزوج، وأدهى ما يكون من الرجال لا غنى به عن المشورة .

وقيل : كانت اليونان والفرس لا يَجمعون وزراءهم على الأمر يستشيرون فيه، وإنما يستشيرون الواحدَ منهم من غير أن يعلم الآخرُ به، لمعانٍ شتّى : منها لئلا يقع بين المشاوَرِين منافسة تُذْهِب أصالةَ الرأى وصحّةَ النظر، لأن من طباع المشترِكين فى الأمر التنافسَ والتغالُبَ والطعنَ من بعضهم على بعض، وربما أشار أحدهم بالرأى الصواب وسَبَق إليه فحسده الآخرون فتعقّبوه بالإعراض والتأويل والتهجين وكدّروه وأفسدوه . ومنها أنّ فى اجتماعهم على المشورة تعريضَ السرّ للإضاعة والشناعة والإذاعة؛ ولذلك قالت الفرس : إنما يُراد الاجتماعُ والكثرةُ والتناصرُ فى الأمور التى يُحتاج فيها إلى القوّة، فأمّا الآراء والأمور الغامضة فإنّ الاجتماع يُفسدها ويُولِّد فيها التضاغُن والتنافس .

(١) الزيادة عن الطبرى جزء خامس ص ١٣٠٩ من القسم الأول طبع ليدن .

(٢) فى الطبرى وسيرة ابن هشام : "فانهض" .

(٣) نعوّر : نطمّه ونردمه بالتراب حتى ينضب الماء .

ذكر ما قيل فيمن يُعْتَمد على مَشورته وبديهته، ويُعْتَضد بفكرته ورويّته

قال بعض الحكماء : عليـك بمشورة من حلَب أشطُرَ دهره ، ومرّت عليـه ضروبُ خيره وشرّه؛ وبلغ من العمر أَشُدَّه، وأَوْرت التجربةُ زَنْدَه . وقيل : آستشار زِياد رجلا؛ فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون ذا عقل وافر، وآختبارٍ متظاهر، ولا أرانى كذلك . قال إبراهيم بن العبّاس :

يُمْضِى الأمورَ على بديهَتِـهِ * وتُرِيه فكرتُه عواقبَهـا
فيَظَلُّ يُصدرها ويُوردهـا * فيعُمُّ حاضرَهـا وغائبَـها
وإذا الحروبُ عَلَتْ بعثتَ لها * رأْيًا تَفُـلُّ به كتائبَها
رأْيًا إذا نَبَتِ السيوفُ مَضَى * قُدُمًا بهـا فسَقَى مَضَارِبَهـا

وقال آخر :

أَلْمَعِىٌّ يَرَى بأوَّلِ رَأْيٍ[1] * آخرَ الأمرِ من وراء المَغِيبِ
لا يُرَوِّى ولا يقلِّبُ كَفًّا * وأَكُفُّ الرجالِ فى تقليبِ

وقال آخر[2] .

الألمعىُّ الذى يَظُنُّ بك الظَّنَّ * كأَنْ قد رَأَى وقد سَمِعا

وكانت العرب تحمَدُ آراء الشـيوخ لتقدُّمها فى السن ، ولأنها لا تُتْبِـع حسناتها بالأذى[3] والمنّ، ولِمـا مرّ عليها من التجارِب التى عرَفت بها عواقبَ الأُمور، حتى

(١) فى ديوان ابن الرومىّ : بأول ظنّ .

(٢) القائل هو أوس بن حجر؛ وهذا البيت من قصيدة له فى الرثاء ذكرها القالى فى أماليه (ج ٣ ص ٣٥) مطلعها : أيّتُها النفس أجملى جَزَعا * إن الذى تحذرين قد وقعا

(٣) فى الأصل : "إلا بالأذى ..." والسياق يقتضى حذف "إلا" .

كأنّها تنظرها عِيانا، وطرأ عليها من الحوادث التى أوضحتْ لها طريقَ الصواب وبيّنته تِبيانا؛ ولما مُنِحَتْه من أَصالة رأْيها، واستفادَتْه بجميل سَعْيها. ولذلك قال علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه: رَأْىُ الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام[1].

ومن أمثالهم «زاحِمْ بعَوْدٍ أو دعْ»[2]. قال بعض الشعراء:

لئن فقدوا الشبابَ فرُبّ عقلٍ * أفادُوه على مَرّ الليالِى
خبَتْ نارُ الذكاء فأَجّجُوها * بآراءٍ أحدَّ من النِّصالِ

وقد عدَل قوم عن ذلك، وسلكوا فى خِلافه أوضحَ الطُّرُق وأنهجَ المَسالك؛ وقالوا: بل رأىُ الشباب هو الرأى الصائب، وفهمُهم الفهمُ الثاقب؛ ونجمُ سعدهم الطالع، وسحابُ جَدّهم الهامع؛ وإن لهم من الفِطْنة أوفرَ نَصيب، وإنّ سَهْم رأيهم الرائش[3] المُصيب؛ وإن عقولَهم سليمةٌ من العوارض، وأذهانَهم آخِذَةٌ بحظ وافر من الغوامض. ولذلك قالت الحكماء: عليكم بآراء الأحداث ومَشُورة الشبّان، فإن لهم أذهانا تَفُلّ القواصل[4]، وتُحطِّم الذوابل.

وقالوا: آراءُ الشَّباب خَضِرة نَضِرة لم يَهتصر[5] غُصنَها هَرَم، ولا أذوى زَهْرتَها قِدَم، ولا خَبَا من ذَكائها بطول المدّة ضَرَم. قال شاعر:

عليكم بآراء الشَّباب فإنّها * نتائجُ ما لم يُبْلِه قِدَمُ العهد
فُروعُ ذَكاءٍ تستمدّ من النُّهى * بأنورَ فى اللّأْواءِ[6] من قَمَر السعدِ

(١) كذا فى عيون الأخبار، وفى الأصل: "من جلد الغلام". (٢) كذا فى مجمع الأمثال للميدانى، وفى الأصل: "أو فدَعْ" بزيادة الفاء. والعود: المسنّ من الإبل، أى لاتستعن إلا بأهل السن والتجربة فى الأمور. (٣) الرّائش: السهمُ ذو الريش. (٤) قواصل جمع قاصل، والقاصل: السيف القطاع. (٥) يهتصر الغصن: يعطفه ويكسره من غير انفصال. (٦) اللأْواء: الشدة.

وقال آخر :

رأيتُ العقلَ لم يكن آنتهاباً * ولم يُقْسَمْ على عَدَد السِّنينـا
ولو أنّ السنين تَقَسَّمتْهُ * حوى الآباءُ أنْصِبَة البنينـا

وقال آخر :

أدركتَ ما فات الكُهُولَ من الحِجَا * فى عُنْفُوَان شَبابِك المُسْتقبـلِ
فإذا أمرتَ فلا يُقـالُ لك : آتَئِدْ * وإذا قضيتَ فلا يُقالُ لك : آعْدِلِ

ذكر ما قيل فيمن نُهِىَ عن مشاورته ومعاضدته وأُمِر بالآمتناع من مشايعته ومتابعتـه

وقد كَرِهت العربُ والحكماءُ مشاورةَ من آعترتْه الشواغل، وأَلَمّت به النوازل؛ مع وفُور عقله وحَزْمه، والتمسُّك بنُصْحه وفهمه .

قال قُسُّ بنُ ساعدةَ الإيادىّ لآبنـه : لا تُشـاوِرْ مشغولًا وإن كان حازما، ولا جائعـا وإن كان فَهِما، ولا مذعورا وإن كان ناصحا، ولا مهموما وإن كان عاقلا، فالهمُّ يَعقِل العقلَ فلا يتولَّدُ منه رأىٌ ولا تَصْدُق به رِوِيّة .

وقال الأحنف بن قَيْس : لا تُشاور الجائعَ حتّى يَشبَعَ، ولا العطشان حتى يَرْوَى، ولا الأسيرَ حتّى يُطلَقَ، ولا المُقِلَّ حتى يَجِد، ولا الراغبَ حتّى يَنجح .

وقالوا : لا تُشاور المعزول، فإنّ رأيَهُ مفلول .

وقيل : لا تُدخِلْ فى مَشُورتك بخيلا فيُقَصِّرَ بفعلك، ولا جَبَانًا فيُخَوِّفَك، ولا حريصًا فيَعِـدَك ما لا يُرْجَى؛ فإنّ البخلَ والجُبْنَ والحِرْصَ طبيعـةٌ واحدةٌ يَجمعها سوءُ الظنّ بالله . قال الشاعر

وأنفعُ مَن شاورتَ مَن كان ناصحًا * شفيقًا فَأَبْصِرْ بعدَهَا مَن تُشاوِرُ
وليس بشافيـكَ الشفيقُ ورأيُهُ * عَزِيبٌ ولا ذُو الرأى والصدرُ واغِرُ

ذكر ما قيل فى الأناة والروية

كانت العرب تحمد الأناة فى الرأى وإجالة الفكرة فيه وعدم التسرع .

وكان عبد الله بن وهب الراسبى[1] يقول : إياى والرأى الفطير[2]! وكان يستعيذ [بالله][3] من الرأى الدبرى ؛ وهو الذى يسنح بعد الفوت .

٥ وأوصى إبراهيم بن هبيرة ولده فقال : لا تكن أول مشير، وإياك والرأى الفطير؛ ولا تشيرن على مستبد، فإن التماس موافقته لؤم والاستماع منه خيانة .

وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول : دعوا الرأى يغب حتى يختمر، وإياكم والرأى الفطير! يريد الأناة فى الرأى والتثبت فيه . قال شاعر :

تأن وشاور فإن الأمو * ر منها مضىء ومستغمض

١٠ فرأيان أفضل من واحد * ورأى الثلاثة لا ينقض

وقال آخر :

الرأى كالليل مسود جوانبه * والليل لا ينجلى إلا بإصباح

فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى * مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وقال المتنبى :

١٥ الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى

فإذا هما اجتمعا لنفس حرة[4] * بلغت من العلياء كل مكان

وقال طاهر بن الحسين :

اعمل صواباً تنل بالحزم مأثرة * فلن يذم لأهل الحزم تدبير

---

(١) فى الأصل "الرياشى" والتصويب عن الطبرى (ص ٢٤٧٨ من القسم الأول)، والكامل للمبرد (ص ٥٤٣)؛ والعقد الفريد (ج ١ ص ٢٥) . (٢) الرأى الفطير : الذى أعجل به قبل أن يختمر.

٢٠ (٣) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٥). (٤) كذا فى ديوان المتنبى وفى الأصل "لنفس مرة".

فإنْ هَلَكتَ برأْيٍ أو ظَفِرتَ به * فأنت عند ذوى الألبـاب معذُورُ
وإن ظَفِرتَ على جهلٍ وفُزْتَ به * قالوا : جَهُـول أعانتْـهُ المقـادِيرُ

ومن أحسن ماقيـل فيمن أُشير عليه فلم يَقْبـل، قول السُّبَيْع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بن الوليد بهم : يا بَنِي حَنِيفة بُعْدًا كما بَعِدتْ عادٌ وثمود، والله لقد أنبأتُكم بالأمر قبل وقوعه، كأنِّى أسمع جَرْسَه وأُبْصِر غِبَّه، ولكنّكم أبيتم النصيحةَ فاجتنيتُم الندامة، وإنِّى لمّـا رأيتُكم تَتَّهِمون النصيحَ، وتُسفِّهون الحليمَ، استشعرتُ منكم اليأْسَ وخِفتُ عليكم البَـلاءَ . والله ما منعكم [الله](1) التوبةَ ولا أخذَكم [على](1) غِرّة، ولقد أمهلكم حتّى ملّ الواعظُ وهرأَ(2) الموعوظ، وكنتم كأنّما يُعْنَى بما أنتم فيه غيرُكم، فأصبحتُم وفى أيديكم من تكذيبى التصديقُ ومن نُصْحى الندامةُ، وأصبح فى يدى من هلاككم البكاءُ ومن ذُلّكم الجَزَعُ، وأصبح ما كان غيرَ مردود، وما بقى غيرَ مأمون .

ذكر ما قيل فى الاستبداد وترك الاستشارة وكراهة الإشارة

ومن الناس من آثر الاستبداد برأيه وكَرِه أن يَستشير . قال عبدُ الملك بن صالح : ما استشرتُ أحدا قطُّ إلا تكبَّر علىّ وتصاغرتُ له، ودخلته العِزّةُ ودخلتْنى الذِّلّةُ . فعليك بالاستبداد، فإن صاحبَه جليلٌ فى العيون مَهِيبٌ فى الصدور . واعلم أنك متى استشرتَ تضعضع شأْنُك، ورَجَفَت بك أركانُك . وماعزّ سلطانٌ لم يُغْنِه عقلُه عن عقول وُزرائه، وآراءِ نُصحائه . فإياكَ والمشورةَ وإن ضاقت عليك المذاهب، واستبهمتْ لديك المسالك، وأنشد :

فما كلُّ ذى نُصْح بمُؤْتيكَ نُصْحَهُ * ولا كلُّ مُؤْتٍ نُصْحَه بلبيب

(1) زيادة عن عيون الأخبار والعقد الفريد . (2) هرأ فى منطقه كنع : أكثر فى خطأ، أوقال الخنا والقبيح . وفى الأصل والعقد الفريد : "وهرى الموعوظ" .

وقال المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرَةَ : لو لم يكن فى الآستبداد بالرأى إلّا صَوْنُ السِّرّ وتوفيرُ العقل لوجب التمسُّكُ به .

وقال بُزُرْجِمْهر : أردتُ نصيحا أثِقُ به فما وجدتُ غيرَ فكرى ، وآستضأتُ بنور الشمس والقمر فلم أستضِئْ بشىء أَضْوأَ من نور قلبى .

وقال علىُّ بن الحُسَين : الفِكْرَةُ مِرآة تُرِى المؤمنَ سيئاتِه فيُقْلِعُ عنها ، وحسناتِه فيُكثِرُ منها ، فلا تقع مِقْرَعَةُ التقريع عليه ، ولا تنظُرُ عيونُ العواقب شَزْرًا إليه .

وما زال المنصورُ يستشير أهلَ بيته حتّى مَدحه آبنُ هَرْمَةَ بقوله :

يَزُرْنَ آمرأً لا يُصلِح القومُ أمرَهُ * ولا يَنْتَجِى[1] الأَدْنَيْنَ فيما يُحاوِلُ

فاستوى جالسا وقال : أصبتَ واللهِ ! وآستعاده ، وما آستشار بعدها .

قالوا : وعلى المستَبِدّ أن يَتَرَوَّى فى رأيه ، فكلُّ رأىٍ لم تُمخَّض به الفِكْرَةُ ليلةً فهو مولُودٌ لغير تَمامٍ . قال شاعر :

إذا كنت ذَا رأْىٍ فكن ذَا أناءةٍ * فإنّ فسادَ الرأْىِ أن تَتَعَجَّلَا

وما العجزُ إلّا أن تُشاوِرَ عاجزًا * وما الحَزْمُ إلا أن تَهُمَّ فتفعلا

قال بعضُ جلساء هارونَ الرشيد : أنا قتلتُ جعفرَ بنَ يحيى ، وذلك أنّى رأيتُ الرشيد يوما وقد تنفَّس تنفُّسا مُنْكَرًا فأنشدتُ فى إثْر تنفُّسه :

وآستبدَّتْ[2] مَرَّةً واحدةً * إنما العاجزُ من لا يستبِدُّ

وممّا مُدح به ذو الرأْى قولُ بعض الشعراء :

بَصيرٌ بأعقاب الأمور كأنّما * يُخاطبه من كلّ أمرٍ عواقِبُهْ

وأين مَفَرُّ الحزم منه وإنما * مَرَائِى الأمورِ المُشكِلاتِ تَجارِبُهْ

(١) يقال : انتجاه إذا أفضى اليه بسره وخصه به .

(٢) كذا فى ديوان عمر بن أبى ربيعة المطبوع بليبزج . وفى الأصل «فاستبدت» بالفاء .

وقال البُحترىّ فى سليمان بن عبد الله :

كأنّ آراءَهُ والحـــزمُ يَتبَعُها * تُرِيهِ كلّ خَـفِيٍّ وهْو إعلانُ
ما غاب عن عَيْنِه فالقلبُ يَكْلَؤُهُ * وإن تَنَمْ عينُه فالقلبُ يَقْظانُ

وقال أيضا :

كأنّه وزِمامُ الدّهرِ فى يده * يَرَى عواقِبَ ما يأتى وما يَذَرُ ٥

وقال آخر :

يَرى العواقبَ فى أثنـاء فِكْرَتِهِ * كأنَّ أفكارَهُ بالغَيْب كُهّـانُ

وقال آخر :

بَدِيهَتُـــهُ وفِكْرَتُهُ سَـــواءٌ * إذا ما نابَهُ الخَطْبُ الخَطِيرُ
وأحزَمُ ما يكونُ الدهرَ يومًا * إذا عَجَـــزَ المُشاوِرُ والمُشِيرُ ١٠

ومن الناس من كَرِه أن يُشيرَ، فمنهم عبد الله بن المُقَفَّع؛ وذلك أنّ عبد الله ٱبن علِيّ ٱستشاره فيما كان بينه و بين المنصور؛ فقال : لستُ أَقُودُ جيشا، ولا أتقلّد حَرْبًا، ولا أُشير بسفك دَمٍ، وعَثْرَةُ الحرب لا تُستقال، وغيرى أولى بالمشورة فى هذا المكان .

وٱجتمع رؤساء بنى سعد إلى أَكْثَم بن صَيْفِيّ يَستشيرونه فيما دَهَمَهم يومَ الكُلَاب؛ ١٥ فقال : إنّ وَهْنَ الكِبَرِ قد فشا فى بَدَنى ، وليس معى من حِدَّة الذِّهن ما أبتدئ به الرأى، ولكن ٱجتمِعُوا وقولوا، فإنّى إذا مرّ بى الصوابُ عرفتُه. وسيأتى خبرُ كلامه فى وقائع العرب؛ وإنمـا أوردناه فى هذا الموضع لدخوله فيه وٱلتئامه به، ومناسبته له، لا على سبيل السهو والتَّكْرار لغير فائدة .

الباب الثامن

من الفن الثانى فى حفظ الأسرار والإذن والحجاب

ذكر ما قيل فى حفظ الأسرار

قال الله تعالى إخبارًا عن نبيّه يعقوبَ بنِ إسحاق حين أوصى يوسفَ آبنَهُ عليهم السلام : (يَا بُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) . ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إستعينوا على قضاء حوائجكم بالكِتْمان" .

وقالت الحكماء : صدرُك أوسعُ لسرِّك . وقالوا : سِرُّك من دَمِك . يعنُون أنه ربما كان فى إفشاء السرِّ سَفْكُ الدَّم .

وقالوا : أَصْبَرُ الناس مَن صَبَرَ على كِتْمان سِرِّه ، فلم يُبدِه لصديق فيُوشِكَ أن يصيرَ عدُوًّا فيُذيعَهُ .

وقالوا : ما كنتَ كاتِمَهُ عن عدوّك فلا تُظهر عليه صديقَكَ .

وقال عمرو بن العاص : ما آستودعتُ رجلا سِرًّا فأفشاه فلُمْتُه ، لأنّى كنتُ أَضْيَقَ صدرًا حين آستَوْدعتُه منه حين أفشاه .

قال عُبَيدُ الله بن عبد الله بن عُتْبَة بن مسعود الفقيهُ :

إذا كان لى سِرٌّ فحدّثتُه العِدا * وضاق به صدرى فَلَلنّاسُ أعذَرُ
هو السِّرُّ ما آستُودِعْتُهُ وكتمتَهُ * وليس بسِرٍّ حين يَفْشُو ويَظْهَرُ

وقال آخر :

فلا تُودِعَنّ الدهرَ سِرَّك أحمقًا * فإنّك إن أودعْتَه منه أحمَقُ
إذا ضاق صدرُ المرء عن كَتْم سرِّه * فصدرُ الذى يُستَودَعُ السِّرَّ أضيقُ

وكتب عبدُ الملك بنُ مَرْوان إلى الحجّاج :

لَا تُفْشِ سِرَّك إلا إليك * فإنَّ لكل نصيحٍ نَصِيحا
فإنِّى رأيتُ غُـواةَ الرجا * لِ لَا يَتركون أَدِيمًا صحيحا

وقال الوليدُ بن عُتْبة لأبيه : إنّ أمير المؤمنين أسرَّ إلىّ حديثا [ولا[1] أراه يَطْوِى عنك ما يَبْسُطه لغيرك] أفلا أخبرك به؟ فقال : [لا![1]]، يا بُنىّ إنّه مَن كَتَم سِرًّا كان الخِيارُ له ، ومن أظهره كان الخِيار عليه ، فلا تكن مملوكا بعد أن كنتَ مالكا .

وفى كتاب التاج : أن بعضَ ملوك العَجَم آستشار وزيرَيْه ، فقال أحدهما : إنّه لا ينبغى للملك أن يَستشير منّا أحدًا إلا خاليا به ، فإنّه أَمْوَتُ للسرّ وأحزمُ للرأى وأجدرُ بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض ؛ فإن إفشاء السِّرّ إلى رجل واحد أوثقُ من إفشائه إلى آثنين ، و إفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ؛ لأنّ الواحد رَهْنٌ بما أُفشِى إليه ، والثانى[2] مُطْلَقٌ عنه ذلك الرهنَ ، والثالث[3] عِلَاوةٌ فيه . فإذا كان السرّ عند واحد كان أَحْرَى أَلّا يُظهِره رَهْبةً ورَغْبة . و إن كان عند آثنين كان الملك على شُبهة ، وآتسعت على الرجلين المَعاريض . فإن عاقبهما عاقَبَ آثنين بذنبٍ واحدٍ ، و إن آتّهمهما آتّهم بريئا بجنايةِ مُجرِم . و إن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حُجّة عليه .

وقال علىٌّ رضى الله عنه : الظَّفَرُ بالحَزْم ، والحزمُ بأَصَالة الرأى ، والرأى بتحصين السرّ .

وقيل : مَن حصَّن سِرَّه فله من تحصينه إيّاه خَلّتان : إمّا الظفرُ بما يريد ، و إما السلامةُ من العيب والضرَرِ إن أخطأه الظفر .

وقيل : كلّما كَثُرَ خُزّان السرّ آزداد ضَيَاعا .

(١) زيادة عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ٤٠ ؛ طبع دار الكتب المصرية) . (٢) فى العقد الفريد "والآثنان مطلق عنهما" . (٣) فى العقد الفريد "والثلاثة" (ج ١ ص ٢٦) .

ويقال : إذا انتهى السرّ من الجَنَان إلى عَذَبة اللسان، فالإذاعةُ مستوليةٌ عليه .

وقال عمرو بن العاص[1] : القلوب أوعيةٌ للأسرار ، والشِّفاهُ أقفالُها، والألسنُ مفاتيحُها، فليَحْفَظْ كلُّ امرئٍ مِفتاحَ سرِّه . قال شاعر :

صُنِ السرَّ عن كلّ مُسْتَخبِرٍ * وحاذِرْ فما الحزمُ إلا الحَذَرْ
أَسِيرُك سِرُّك إن صُنْتَهُ * وأنتَ أسيرٌ له إن ظَهَرْ

وكان يقال : الكاتمُ سرَّه بين إحدى فَضيلتَيْن : الظَّفَر بحاجته ، والسلامة من شرّ إذاعته .

ويقال : أصبرُ الناس مَن صَبَرَ على كِتْمان سرّه .

وقال آخر : كِتمانك سرّك يُعقِبُك السلامة، وإفشاؤه يعقبك الندامة ، والصبرُ على كِتْمان السرِّ أيسرُ من الندامة[2] على إفشائه . قال شاعر :

إذا أنتَ لم تَحفَظْ لنفسك سِرَّها * فسرُّك عند الناس أَفْشَى وأضيَعُ

وقال آخر :

تَبُوح بسرِّك ضِيقًا به * وتَحسَبُ كلَّ أخٍ يَكْتُمُ
وكِتمانُك السرَّ ممن تخاف * ومَن لا تخافَنَّه أحزَمُ
إذا ذاع سرُّك من مُخْبَرٍ * فأنت متى لُمْتَهُ أَلْوَمُ

(٣٣)

وكان يقال : لا تُظهر كوامنَ صدرك بإذاعة سِرِّك ، فيمكُرَ بك حاسدُك ، ويَظهرَ عليك مُعاندُك . قال عمر بن أبي ربيعة :

فقالت وأرخَتْ جانبَ السِّترِ إنّما * معى فتحدَّثْ غيرَ ذى رِقْبَةٍ أهلى
فقلتُ لها ما بى لَهُمْ من تَرَقُّبٍ * ولكنّ سِرِّى ليس يحمِلُه مِثْلى

(١) فى كتاب أدب الدنيا والدين (ص ٣١١) تنسب هذه الكلمة الى عمر بن عبد العزيز .
(٢) كذا فى المحاسن والأضداد . وفى الأصل : "من التبذل به على إفشائه" .

ومما قيل فى آستراحة الرجُل بمكنون سرّه إلى صديقه — قال الله تعالى: (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ) . وقالت الحكماء : لكل سِرٍّ مُسْتَوْدَعٌ . قال بعض الشعراء :

وأبثثتُ عَمْرًا بعضَ ما فى جوانحى * وجرّعتُه من مُرّ ما أتجرّعُ
فلا بُدَّ من شَكْوى إلى ذى حفيظةٍ (١) * إذا جَعَلتْ أســـرارُ نفسى تَطَلَّعُ

وقال حَبِيب :

شكوتُ وما الشكوى لمثلِىَ عادة * ولكنْ تفيض الكأس (٢) عندآمتلائها

وقال أبو الحسن بن محمد البصرىّ :

تعبَ الهـــوى بمَعَالمى ورُسُومى * ودُفِنتُ حيًّا تحت رَدْم همـــومى
وشكوتُ همّى حين ضِقتُ، ومَنْ شكا * همًّا يَضِـــيق به فغـــيرُ مَلُومِ

+ + +

ومما وصف به كتمان السرّ — قيل: أسَرَّ رجلٌ إلى صديق له حديثا، فلما آستقصاه قال : أفهمتَ ؟ قال : بل نسيتُ . وقيل لآخر : كيف كِتمانُكَ للسرّ؟ فقال : أجحَدُ الخبرَ، وأحلِف للمُستخبِر .

ومن جيّد ما قيل فى كِتمان السرّ قولُ الأوّل :

تلاقتْ حَيَازِيمى على قلب حازمٍ * كَتُومٍ لِمـا ضُمَّتْ عليه أضالِعُهْ (٣)
أُؤَاخِى رجالًا لستُ أُطلِـعُ بعضَهم * على سرّ بعضٍ، إنّ قلبىَ واسِعُهْ

(١) الحفيظة : اسم من المحافظة والحفاظ .

(٢) هذه هى الرواية المشهورة فى البيت ، وفى الأصل "تفيض النفس" .

(٣) فى الأصل : «أصابعه» والسياق يقتضى ما وضعنا .

قال قَيس بن الخَطِيم :

إذا جاوز الإثنين سِرٌّ فإنّه * بِنَثٍّ[1] وتكثيرِ الحديثِ قَمِينُ
وإن ضيّع الإخوانُ سِرًّا فإنّنِي * كَتُومٌ لأسرار العَشِيرِ أَمِينُ
يكون له عندى إذا ماضَمَمْتُهُ * مكانٌ بسوْدَاءِ الفُؤاد مَكِينُ

٥ وقال أبو إسحاق الصابى :

لِسِرٍّ صديقٍ مَكْمَنٌ[2] فى جوانِحِى * تَمَنَّعَ أن تدنو إليه المباحِثُ
تَغَلْغَلَ منّى حيث لا تستطيعهُ * كُؤوسُ النَّدَامَى والأنيسُ المُحَادِثُ
إذا الفَحْصُ آلَى جاهدًا أن يَنالَهُ * تَرَاجَعَ عنه وهو خَزْيَانُ حانِثُ
فقل لصديقٍ اذا لم[3] السِّر آمِنًا * إذا لم يكن ما بيننا فيه ثالثُ

١٠ وهذا البيت مأخوذ من قول جَمِيل :

ولا يَسْمَعَنْ سِرِّى وسِرَّك ثالثٌ * ألا كلُّ سرٍّ جاوز آثنين ضائعُ[4]

وقال الصابى أيضا :

وللسرِّ فيما بين جَنْبَىَّ مَكْمَنٌ * خَفِىَ قَصِىٌّ عن مَدَارج أنفاسِى
أَضِنُّ به ضَنِّى بموضِعِ حِفْظِهِ * فأُجِيبه عن إحساس غيرى وإحساسى
١٥ فقد صار كالمعدوم لا يستطيعهُ * يقِينٌ ولا ظَنٌّ لخَلْقٍ من الناس
كأنّى من فَرْط آحتياطى أَضعتُهُ * فبَعْضِى له واعٍ وبعضى له ناسِى

(١) النَّثُّ : الإفشاء. (٢) فى الأصل «ممكن» وهو تحريف. (٣) كذا فى الأصل، وفيه تحريف واضح، ولم نوفق الى أصل هذا الشعر فى مصدر آخر. ولو قيل :

* فقل لصديق كن على السر آمنا *

٢٠ لآستقام به الوزن والمعنى. (٤) فى حماسة البحترى طبع «ليدن» ص ٢١٧. «ذائع» وفيها ينسب الشعر الى قيس بن منقلة الخزاعىّ.

وقال كُثَيِّر :

كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنَّه * إذا آستنطقُوه عن حديثك جاهلُهْ
رَعى سِرَّكم مستودَع القلب والحشا * شفيقٌ عليكم لا تُخافُ غوائلُهْ
وأكتُمُ نفسي بعضَ سرِّي تكرُّمًا * إذا ما أضاع السرَّ في الناس حامِلُهْ

ذكر ما قيل في الإذن والآستئذان

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) الآية . وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) الآية .

وقيل : آستأذن رجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في بيت فقال : أألج؟ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم [لخادمه][1] : "أُخرُج إلى هـذا وعلِّمْهُ الآستئذانَ وقل له يقول السلام عليكم أأدخُل" . وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "الآستئذانُ ثلاثٌ فإن أُذِن لك وإلّا فارجِعْ" .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : الأولى إذْنٌ والثانية مُؤامرةٌ والثالثة عَزْمة ، إما أن يأذَنُوا وإما أن يرجِعَ[2] .

وقال زيادُ بن أبيه لِمَجْلانَ حاجبه : كيف تأذَنُ للناس؟ قال : على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الأدب ، قال : فمن تُؤخِّر؟ قال : الذين لا يَعْبَأُ اللهُ بهم ، قال : ومَن هم؟ قال : الذين يَلبَسُون كُسوةَ الشتاء في الصيف وكُسوةَ الصيف في الشتاء .

(١) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٧)

(٢) كذا في العقد الفريد ، وفي الأصل : «إما تأذنوا وإما رجع» .

وكان سعيد بن عُتْبة بن حُصَين إذا حضر باب أحدٍ من السلاطين جلس جانبا ؛ فقيل له : إنّك لَتتباعد من الآذن جُهْدك ؛ فقال : لَأَن أُدْعَى من بعيد خيرٌ من أن أُقْصَى من قريب . قال بعض الشعراء :

رأيتُ أُناسا يُسرِعون تبادُراً * إذا فتحَ البوّابُ بابَكَ إصبَعا
ونحن جُلوسٌ ساكنون رَزَانةً * وحِلْما إلى أن يَفْتَح البابَ أجمعا

وقيل لمعاوية : إنّ آذِنَك لَيُقَدِّم معارفَه فى الإذن على وجوه النـاس ؛ قال : وما عليه ! إنّ المعرفة لَتنفَعُ فى الكَلْب العَقُور والجَمَل الصَّؤُول ، فكيف رجلٌ حسيبٌ ذو كرمٍ ودِين !

ونظر رجل إلى رَوْح بن حاتم وهو واقف فى الشمس عند باب المنصور ، فقال له : لقد طال وقوفك فى الشمس ؛ فقـال : ذلك لِيطُولَ جلوسى فى الظلّ .

ذكر ما قيل فى الحجاب

قال خالد بن عبـد الله القَسْرىّ أميرُ العراق لحاجبه : إذا أخذتُ مجلسى فلا تَحْجُبَنّ عنى أحدا ، فإنّ الوالى يَحْتجب عن الرعيّة لإحْدَى ثلاث : إمّا لِعِىٍّ يكره أن يُطَّلَع عليه ، وإما لبُخلٍ يَكْره أن يُسأل شيئا ، وإما لرِيبـة لا يُحبّ أن تَظْهَر منه .

وقال زِياد لحاجبه : وَلَّيتُـك حِجَابَتى وعزلْتُك عن أربع : المنادى إلى الصلاة والفلاح ، [لا تُفَرِّجَنّه عنّى فلا سُلطانَ لك عليه](١) ، وطارقِ الليل [لا تحجُبه فشرٌّ ما جاء به ، ولو كان خيرًا ماجاء به تلك الساعة](١) ، ورسولِ الثَّغر فإنّه إن أبطأ ساعةً فَسَد عملُ سـنة فأَدْخِله علىّ وإن كنتُ فى لِحَافى ، وصاحبِ الطعام فإن الطعام إذا أُعِيـد تسخينُه فَسَد .

(١) زيادة عن العقد الفريد ج ١ ص ٢٧

وقف أبو سُفْيان بباب عثمان بن عَفَّان رضى الله عنه وقد آشتغل بمصلحةٍ للمسلمين فحجبه ؛ فقال له رجل وأراد إغراءَه : يا أبا سفيان ، ما كنتُ أرى أن تقف بباب مُضَرِىّ فيحجُبَك ! فقال أبو سفيان : لا عدِمتُ مِن قومى مَن أقِف ببابه فيحجُبُنى .

وآستأذن أبو الدَّرْدَاء على مُعاوية بن أبى سُفيان فحَجَبَهُ ؛ فقال : مَن يَغْشَ أبواب الملوك يَقُمْ و يقعدْ ، ومن يَجِد بابا مُغْلَقا يَجِدْ إلى جانبه بابا مفتوحا إن دعا أُجيب و إن سأل أُعطِى . قال محمود الورّاق :

شاد الملوكُ قُصورَهم فتحصَّنُوا * مِن كل طالبِ حاجةٍ أو راغبِ
غَالَوْا بأبواب الحديد لعِزِّها * وتنوّقُوا(١) فى قُبْح وجه الحاجبِ
فإذا تلَطَّفَ فى الدخول إليهمُ * راجٍ تَلَقَّوْه بوعدٍ كاذبِ
فآطلُبْ إلى مَلِكِ الملوك ولا تكن * ياذا الضَّراعةِ طالبا من طالبِ

(٢٤)

قال أبو مُسْهِر : أتيتُ إلى باب أبى جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان ، فحجَبنى فكتبتُ إليه :

إنى أتيتُك للتسليم أمسِ فلَمْ * تأذَنْ عليكَ لِىَ الأستارُ والحُجُبُ
وقد علمتَ بأنى لم أُردَّ ولا * واللهِ ماردَّ إلّا العلمُ والأدبُ

فأجابه آبنُ عبدكان :

لو كنتَ كافأْتَ بالحُسْنَى لقلتَ كما * قال آبنُ أَوْسٍ وفيما قاله أدبُ
ليس الحجابُ بمُقْصٍ عنك لى أملا * إنّ السماءَ تُرَجَّى حين تحتَجِبُ

وقف إلى باب محمد بن منصور رجلٌ من خاصّته فحُجِب عنه ، فكتب إليه :

على أىِّ بابٍ أطلُب الإذنَ بعد ما * حُجِبتُ عن الباب الذى أنا حاجبُهْ

(١) تنوّقوا : جوّدوا و بالغوا .

وقف أبو العَتَاهِيَة إلى باب بعض الهاشميّين، فطلَب الإذن، فقيل له : تكون لك عودة[1]، فقال :

لئن عُدْتُ بعـد اليوم إنِّى لظـالمٌ * سأَصرِف وجهى حين تُبْغَى المكارِمُ
متى يَظْفَرُ الغادى إليـك بحاجةٍ * ونصـفُك محجوب ونصفك نائمُ

ونظيره قولُ العُمَانِىّ[2] :

قد أتيناك للسلام مِرَارًا * غـيرَ مَنٍّ بنـا[3] بتلك المِرَارِ[4]
فإذا أنت فى ٱستتارك بالليـــل [على][5] مِثْل حالِنا بالنَّهارِ

وقال أبو تمّـام :

سأترُك هـذا البابَ مادام إِذْنُهُ * على ما أرى حتّى يَلِينَ قليـلا
فما خاب مَن لم يأْتِهِ مُتعمِّدًا * ولا فاز مَن قد نال منه وُصولا
ولا جُعِلتْ أرزاقُنا بيد ٱمرئٍ * حَمَى بابَه من أن يُنَـالَ دُخولا
إذا لم أَجِد للإذن عندك موضِعًا * وجدتُ إلى ترك المَجِىء سَبِيلا

وقال آخر :

أتيتُـك للتسليم لا أَنى ٱمرؤٌ * أردتُ بإتيانيك أسبابَ نائلِكْ
فألفيتُ بوَّابًا ببـابك مُغْـرَمًا * بهذم الذى وطّدْتَهُ من فضائلِكْ

وقال العُمَانِىّ :

إذا ما أتينـاهُ فى حاجةٍ * رفعنـا الرِّقاعَ له بالقَصَبْ
له حاجبٌ دونه حاجبٌ * وحاجبُ حاجبِه مُحتَجِبْ

وقال آخر :

يا أبا موسى وأنت فَتًى * ماجِدٌ حُلْوٌ ضرائِبُـهُ[6]

(١) فى الأصل : "يكون له دعوة" وهو تحريف والتصويب عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٨)
(٢) فى العقد الفريد : « العتابى » . (٣) لعله « منا » ويؤيد هذا رواية العقد الفريد .
(٤) فى العقد الفريد : "غير من منا بذاك المزار" . (٥) زيادة من العقد الفريد ج ١ ص ٢٨
(٦) ضرائب : جمع ضريبة، وهى الطبيعة والسجية .

كُن على مِنْهـاجِ معرفةٍ * إنَّ وجهَ المرء حاجِبُهُ
فيـه تبـدُو محاسـنُهُ * وبه تبـدُو معايبُـهُ

وقف عبد الله بن العباس بن الحسين العلوىّ على باب المأمون يوما، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق؛ فقال عبد الله لقوم معـه : إنه لو أَذِن لنا لدخلنا، ولو صَرَفَنا لأنصرفنا، ولو آعتذر إلينا لقبِلنا، فأمّا الفَتْرة بعد النَّظْرة، والتوقُّف بعد التعرُّف، فلا أفهمه، ثم تمثّل : ٥

وما عن رِضًا كان الحِمَارُ مَطِيَّتِى * ولكنّ مَن يمشِى سَيَرْضَى بما رَكِبْ

وآنصرف؛ فبلغ المأمون كلامُهُ، فصرَف الحاجبَ وأمر لعبد الله بصلَة جزيلة وعشر دوابّ. وحُجِب بعضُ الهـاشميّين فرجع مُغْضَـباً فرُدَّ فلم يرجِع، وقال : ليس بعد الحجاب إلا العذاب، لأن الله تعالى يقول : (كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٠ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ) . ﴿١٥﴾

ذكر ما قيل فى النهى عن شدّة الحجاب

قيـل : لا شىءَ أضيعُ للملكة وأهلَكُ للرعيّة من شِدّة الحِجاب، لأنّ الرعيّة إذا وثِقت بسهولة الحجاب أحجمتْ عن الظلم، وإذا وَثِقت بصعوبته هجَمتْ على الظلم. وهذا مخالف لوصيّة زياد لآبنه : عليك بالحجاب، فإنّما تجرّأت الرُّعاةُ على السِّباع لكثرة ١٥ نظرها إليها. قال سعيد بن المُسَيَّب : نِعْم الرجلُ عبدُ العزيز لولا حِجَابه! وعن علىّ رضى الله عنه : إنمـا أُمهِل فرعونُ مع دعواه ما آدّعاه لسهولة إذنه وبَذْل طعامه. وقال ميمون بن مِهْران : كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لآبنه : مَن بالباب؟ فقال : رجل أناخ الآن يَزْعُم أنه آبن بِلال مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من وَلِىَ شيئًا من أمور المسلمين ثم حَجَب عنـه حَجَبَه الله يوم القيامة؛ فقال لحاجبه : ٢٠ آلزَمْ بيتك. فمـا رُئِىَ على بابه بعده حاجبٌ.

وقال عمرو بن العاص لابنه وقد وُلِّيَ ولاية : أُنظر حاجبك فإنّه لحمُك ودمُك. ولقد رأيتُنا بصِفّين وقد أشرع قومٌ رِمَاحَهم فى وجوهنا يريدون نفوسَنا مالنا ذَنْبٌ إليهم إلا الحجاب .

وقيل : وَلّى المنصورُ حِجابَتَه الخَصِيب[1] فقال : إنّك بِوِلايتى عظيم القَدْر، و بحِجابتى عظيم الجاه ، فبَقِّها على نفسك، أُبسُطْ وجهك للمستأذِنين ، وصُنْ عِرْضك عن تناول المحجوبين، فما شيءٌ أوقعُ بقلوبهم من سهولة الإذن وطَلاقة الوجه .

قال سليمان بن زيد النابُلسىّ :

سأهجُركم حتى يَلِينَ حِجابُكم * على أنّه لابدّ أن سَيلِينُ
خُذوا حِذْرَكم من نَبْوَة الدّهر إنّها * وإن لم تكن حانت فسوف تَحِين

وقال آخر :

كم من فتًى تُحْمَدُ أخلاقُهُ * وتَسكُنُ الأحرارُ فى ذِمّتِهْ
قد كثَّر الحاجبُ أعداءَهُ * وسلَّطَ الذمَّ[2] على نِعْمَتِهْ

وقال أعرابىّ :

لَعَمْرِىَ إن حَجَبْتِنِى العبيدُ * ببابك ما تُحجَب القافِيهْ
سأَرمِى بها من وراء الحِجابِ * فتعدُو عليك بها داهِيهْ
تُصِمُّ السميعَ وتُعمِى البصيرَ * وتُسأَلُ من مثلها العافِيهْ

وقال جعفر المصرىّ :

[و] تفضّلْ علىّ بالإذن إن جئـ * ـتُ فإنّى مُخفِّفٌ فى اللقاءِ
ليس لى حاجةٌ سوى الحمد والشُّكـ * ـرِ فدعنى أُقرِيكَ حُسْنَ الثناء

(١) فى الأصل : «للخصيب» ولعله تحريف ، فان الفعل ينصب المفعولين بنفسه .

(٢) كذا فى عيون الأخبار (مجلد ١ ص ٨٥) وهو الأنسب بالسياق ، وفى الأصل : "وسلط الدهر"

الباب التاسع

من القسم الخامس من الفن الثانى

فى الوزراء وأصحاب الملك

ذكر ما قيل فى الوِزارة وشروطها واشتقاقها وما يحتاج الوزير إليه

قال الله عزّ وجلّ إخبارا عن موسى عليه السلام: (وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) . ورُوى عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "ما من أحد أعظم أجرا من وزير صالح يكون مع إمامٍ فيأمر بذات الله تعالى"(١) .

قالت الحكماء : أعْرَفُ الملوك يَحتاج إلى الوزير ، وأشجعُ الرجال يحتاج إلى السلاح ، وأجودُ الخيل يحتاج الى السَّوْط ، وأحدُّ الشِّفار يحتاج الى المِسَنّ .

وقالوا : صَلاَحُ الدنيا بصلاح الملوك ، وصلاحُ الملوك بصلاح الوُزَرَاء ، ولا يَصْلُح المُلْكُ إلا لأهله ، ولا تَصْلُحُ الوِزارةُ إلا لمستحقِّها .

وقالوا : أفضل عُدَد الملوك صلاحُ الوُزراء الكُفَاة ، لأن فى صلاحهم صَلاَحَ قلوب عوامّهم لهم . (٣٦)

وقالوا : خيرُ الوزراء أصلحُهم للرعيّة ، وأصدقُهم نِيّةً فى النصيحة ، وأشدُّهم ذَبّاً عن المملكة ، وأسدُّهم بصيرةً فى الطاعة ، وآخَذُهم لحقوق الرعيّة من نفسه وسلطانه .

وقالوا : الوزير الخيِّر لا يَرَى أنّ صلاحه فى نفسه وسلطانه كائن صلاحا حتى يتّصِل بصلاح المَلِك ورعيّته ، وتكونَ عنايتُه فيما عطَّف الملِك على عامّته ، وفيما

(١) ورد هذا الحديث فى "قوانين الوزارة" للاوردى هكذا : "ما من رجل من المسلمين أعظم أجرا من وزير صالح مع إمام يطيعه و يأمره بذات الله تعالى" .

ٱستعطف قلوبَ العامّة على الطاعةِ لملِكه، وفيما قَوَّم أمرَ الملك والمملكة من تدبير، حتى يَجمَعَ إلى أخذ الحق وتقديمه عمومَ الأمن والسلامة، ويجمع إلى صلاح المَلِك صَلَاح أتباعه. وإذا تطرّقت الحوادثُ ودَهِمَت العظائم كان للمَلِك عُدَّةً وعَتَاداً، وللرعيّة كافياً محتاطاً، ومن ورائها ذَاباً ناصراً، يَعنيه من صلاحِها ما لا يَعنيه[1] من صلاح نفسه دونها.

ذكر ما قيل فى ٱشتقاق الوزارة وصفة الوزير وما يحتاج إليه

أما ٱشتقاقها فقد ٱختُلِف فى معناه على ثلاثة أوجه: أحدها أنه مشتَقٌّ من الوِزْر وهو الثِّقْلُ، لأنه يَحمِل عن الملك أثقالَه. والثانى أنّه مشتَقٌّ من الأَزْر وهو الظَّهْر، لأن المَلِك يَقْوَى بوزيره كقوّة البَدَن بِظَهْره. والثالث أنه مشتَقٌّ من الوَزَر — وهو الملجأ — ومنه قوله تعالى: (كَلَّا لَا وَزَرَ) أى لا ملجأ؛ لأن المَلِك يَلجأ الى وزيره ومعُونَتِه.

وأما صفة الوزير وما يحتاج إليه، فقد قال أَقْضى القُضاة أبو الحَسَن على ٱبن محمد بن محمد بن حَبيب الماوردىّ فى كتابه المترجَم بـ"قوانين الوزارة" ما معناه: إن الوزير فى مَنْصِب مختلف الأطراف، يُدَبِّر غيرَه من الرعايا ويَتَدبَّر بغيره من الملوك، فهو سائس ومَسُوس يقوم بسياسة رعيَّته وينقاد لطاعة سلطانه، فيجمعُ بين سَطْوة مُطاعٍ وٱنقياد مُطِيع، فشطرُ فِكْره جاذبٌ لمن يَسُوسه، وشطرُه مجذوبٌ بمن يُطيعه؛ لأن الناس بين سائس، ومسوس، وجامعٍ بينهما، و[له][2] هذه المرتبة الجامعة؛ فهو يَجمعُ ما ٱختَلَف من أحكامها، ويَستكمِلُ ماتباينَ من أقسامها؛ وبيده تدبيرُ مَملكةٍ صلاحُها

---

(١) فى الأصل: "يعنيه فى صلاحها ما لا يعنيه من ..." وظاهر أنه تحريف.

(٢) زيادة أصلها فى قوانين الوزارة: "ولك هذه الرتبة الجامعة" والكلام هناك لمخاطب وهاهنا لغائب.

[مستحقٌّ] عليــه، وفسادُها منسوبٌ إليه؛ يُؤاخَذُ بالإساءة ولا يُعتَدّ له بالإحسان، تُلان له المبادئُ [بالإرغاب] وتُشَدَّد عليه الغايات بالإعتاب، مستظهرا ليُكْفَى آعتِدادَ الإحسان إليه، ويَسْلَمَ من غِبِّ المؤاخذة له، ويلزمه ضدّها فى حقّ سلطانه ألّا يَعتَدَّ عليه بصلاح مُلْكه، لأنّه للصلاح مندوب، ولا يَعتَذِر إليه من آختلاله، لأن الاختلال إليه منسوب.

والوزير مُباشر لتدبير مُلْكٍ له أُسٌّ هو الدِّين المشروع، ونظامٌ هو الحقّ المتبوع. فإن جعل الدِّينَ قائدَه، والحقَّ رائدَه؛ تذلّل له كلُّ صَعْب، وسَهُلَ عليه كلُّ خَطْب؛ لأن للدِّين أنصارا وأعوانا، إن قعدت عنه أجسادُهم لم تقعُد عنه قلوبهم. وحسبه أن [تكون] القلوبُ معه، فإن للدِّين سلطانا قد آنقادت اليه إمامتُهُ، وآستقرّت عليه زَعامَتُــه. فإن جعله ظهيرا له فى أموره، وعَوْنا له على تدبيره، يَجِدْ من القلوب خشوعا، ومن النفوس خضوعا؛ فما آعتَزَت مملكة إليه إلا صالت، ولا آلتحفت بشِعاره إلا طالت. ولن يَستَغزِرَ الوزير مَوادَّه إلا بالعدل والإحسان، ولن يَستَزِرها بمثل الجَوْر والإساءة؛ لأن العدل آستثمارٌ دائم، والجَوْرَ آستئصالٌ منقطِع. وليس يختصّ بالأموال دون الأقوال والأفعال؛ فعدلُه فى الأموال أن تُؤْخذَ بحقّها وتُدفعَ إلى مُستحِقِّها؛ لأنه فى الحقوق سفير مُؤْتَمَن، وكفيلٌ مُرْتَهَن؛ عليــه غُرْمُها، ولغيره غُنْمُها. وعدله فى الأقوال ألّا يُخاطِب الفاضِلَ بخطاب المفضول، ولا العالمَ بخطاب الجَهُول؛ ويَقِفَ فى الحمد والذَّمّ على حسب الإحسان والإساءة، ليكون

(١) الزيادة عن "قوانين الوزارة". (٢) فى الأصل "تشد" وما أثبتناه عن قوانين الوزارة.

(٣) كذا فى قوانين الوزارة وهو ما يقتضيه السجع. وفى الأصل: "بالإعنات".

(٤) فى هذه الجملة كلها شىء من الغموض.

(٥) كذا فى "قوانين الوزارة" وفى الأصل: "ولا يعتذر إليه من إضلاله لأن الإضلال ... الخ"

(٦) فى قوانين الوزارة: «دعامته». (٧) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل «ظهرا».

إرغابُه و إرهابُه وَفْقَ أسبابهما من غير سَرَف ولا تقصير؛ فلسانُه ميزانه، فليحفظْهُ من رُجْحَان أو نقصان . وعدلُه فى الأفعال ألّا يعاقِبَ إلا على ذَنْب ، ولا يعفوَ إلا عن إنابة، ولا يبعثه السُّخْط على آطّراح المَحَاسن، ولا يَحمِله الرضا على العفو عن المَسَاوئ. وليكن وَفاؤُه بالوعد حَتْمًا[1]، وبالوعيد حَزْمًا ؛ لأن الوعد حقٌّ عليه لغيره يسقط فيه آختياره، والوعيدَ حقّ له على غيره فهو فيه على خياره. فمن أجل ذلك لم يَجُز إخلافُ الوعد و إن جاز إخلافُ الوعيد . قال بعض الشعراء :

و إنى إذا أوعدتُه أووعدْتُهُ * لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ مَوْعِدى

لكن ينبغى أن يَقرِن بُخْلف الوعيد عُذْرًا حتى لا يهونَ وعيدُه ؛ ليكون نظام (٣٧) الهيبة محفوظا، وقانونُ السياسة فيه مضبوطا ؛ وليُظهِره إن خَفِىَ ليكون بإخلاف وعيده معذورا ، و بعفوه عنه مشكورا . ولتكن أفعاله أكثرَ من أقواله ؛ فإن زيادة القول على الفعل دناءةٌ وشَيْنٌ، وزيادةَ الفعل على القول مَكْرُمةٌ وزَيْنٌ . ولا يجعل لغضبه سلطانا على نفسه يُخرجه عن الآعتدال الى الآختلال ؛ فلن يَسْلَمَ بالغضب رأىٌ من زَلَل، ولا كلامٌ من خَطَل؛ لأن ثورتَه طَيْشٌ مُعِرّ، ونَفْرَتَه بطشٌ مُضِرٌّ؛ لأنه يُخرج عن التأديب الى الآنتقام، وعن التقويم الى الآصطلام[2] .

قال آبن عبّاس : لم يَمِلْ إلى الغضب إلّا مَن أعياه سُلطان الحُجّة . وقال بعض السَّلَف : إيّاك وعِزّةَ الغضب، فإنها تُفْضِى بك الى ذُلّ الآعتذار . وقال بعض الحكماء : من كَثُر شطَطُه، كَثُرَ غلَطُه . قال بعض الشعراء :

ولم أَرَ فى الأعداء حين آختبرتُهم * عَدُوًّا لعقل المرء أَعدى من الغَضَبْ

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل : "جسيا" .

(٢) الاصطلام : القطع والاستئصال .

وليكن غضبُه تغاضُبا يَمْلِك به عزمَه، ويُقوِّم به خَصْمَه، فيسلَمَ من جَوْر غَضَبه ويقِفَ على ٱعتـدال تغاضُبه . فقد قيل فى بعض صُحُف بنى إسرائيـل : إذا كان الرجل ذَا غَضَبٍ تواترتْ عليه الوضائع[1]، فكلّما ٱشتدّ غضبُه ٱزداد بلاءً . وقد يقترن بالغضب لَجَاجٌ يساويه فى مَعَرَّتِه، ويُشارِكه فى مَضَرَّته؛ لأن فى اللَّجَاج التزامَ الخطأ وٱطِّراح الصواب. فليَدَعْ عنه لَجاج الخَصْم الألَدّ، وليَتجنّبْ عواقب المدلّ الفَدْم[2]. ٥ وليُتابِـع الرأْىَ فيما ٱقتضاه؛ فلأَنْ يَنْتَفِعَ بالرأى خيرٌ من أن يَسْتَضِرّ باللَّجَاج . فقد قال بعض الحكماء : مَن ٱستعان بالرأى مَلَك، ومن كابر الأمور هلك . وقال ٱبن المقفَّع : دع اللَّجاج فإنه يَكسِر عزائمَ العقول . وقيل : الظَّفَرُ لمن ٱحتَجّ، لا لمن لَجّ .

وليأْخذ الوزيرُ أمورَه بالجِدّ دون الهَزْل . فالجِدُّ والهزل ضِدّان متنافران؛ لأن الجدّ من قواعد الحقّ الباعثِ على الصـلاح، والهزلَ من مَرَح الباطل الداعى إلى ١٠ الفســاد؛ فصار فرقُ ما بين الجِـدّ والهزل هو فرقَ ما بين الحقّ والباطل . وتنافُر الأضداد يمنَعُ من الجمع بينهما[3]؛ فمتى ٱنفرد بأحدهما كان للآخر تاركا .

وقد رُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : العقلُ حُسامٌ قاطعٌ، والحِلمُ غِطاء ساتر، فقابِلْ هواك[4] بعقلك، وٱستُرْ خَلَل خُلُقك بحلمك، وٱستعمل الجِدّ يَنْقَدْ إليك الحقّ ويفارِقْك الباطل . ولَا تَعْدِل إلى الهَزْل فيتبعَك الباطل ويُنافِرَك ١٥ الحقّ . وقلّما ٱنثلمت هَيْبةُ الجِدّ أو تكاملت هَيْبَة الهزل. والهيبة أُسُّ السلطنة .

---

(١) الوضائع : الأثقال . (٢) الفدم : الغليظ الأحمق الجافى وفى الأصل "المدل الندم" وفى قوانين الوزارة : "النذل الفدم" . وما أثبتناه مختارا من الأصل ومن قوانين الوزارة هو المناسب للسياق .

(٣) كان الظاهر أن تكون الجملة : وتنافر الضدين يمنع من الجمع بينهما، أو : وتنافر الأضداد يمنع من الجمـع بينها، ليوافق الضمير مرجعه . (٤) فى قوانين الوزارة : « فقاتل هواك ... » وكلتا الكلمتين يستقيم بها المعنى . ٢٠

حُكى عن عمرو بن مُرَّة أن رجلا من قريش قال لعمر بن الخطّاب رضى الله عنه : لِنْ لنا فقد ملأتَ قلوبنا مهابة؛ فقال عمر : أفى ذلك ظلمٌ؟ قال: لا؛ قال : فزادنى الله فى صدوركم مَهابةً . وقال حكيم الهند : ليكن [فيك](١) مع طلاقتك تشدُّدٌ، لئلّا يُجترأَ عليك بالطلاقة ويُنفَر منك بالتشدُّد . والهَزْلُ إنما يكون من سُخْفٍ أو بَطَر يجلّ عنهما مَن ساس الرعايا ودبّر الممالك . وسأل ملكُ الهند الإسكندرَ [وقد دخل بلاده](١) : ما علامةُ [دوام](١) الملك؟ قال : الجِدُّ فى كلّ الأمور؛ قال : فما علامة زواله؟ قال : الهَزْلُ فيها . وليس الكِبْرُ والعُنْفُ جِدّا، ولا التواضعُ واللطفُ هزلًا.

قالوا : وإن ٱستكدّ الجِدّ خاطرَه فلا بأسَ أن يَسْتَرِوحَ ببعض الهزل ليستعينَ به على مُصابرة الجدّ ، لكن يكون فى زمان راحته وأوقاتِ خَلْوَته بمقدار دَوائه من دائه، فإن الكَلَال مَلال(٢) . وليكن ذلك كما قال بعض الشعراء :

أَفِدْ طبعَك المكدُودَ بالجِدِّ راحةً * يَجُمُّ وعَلِّلْه بشىءٍ من المَزْحِ
ولكن إذا أعطيتَه المَزْحَ فليكنْ * بمقدار ماتُعطِى الطعامَ من المِلْحِ

وكذلك فليتحرَّ الصدقَ ويتجنّب الكذِب، فإنّهما ضدّان متنافران تختلف عِلَلُهما وتفترق نتائجُهما؛ فالصدق من لوازم العقل وهو أُسُّ الدِّين وقِوَام الحقّ؛ والكذِبُ من غرائز الجهل وهو زُورٌ يقترِن بغرور، إن ٱلتبست أوائله ٱنهتكت(٣) أواخرُه، وإن جرّ ٱلتباسه نفعا عاد ٱنهتاكه ضررا، فلن يَسلَمَ من مَعَرَّة زُوره، ومضرّة غُروره .

وقد قدّمنا من مدح الصدق فى باب المدح، وذمّ الكذب فى باب الهجاء، مافيه غُنْيَةٌ عن تكراره . وحيث ذكرنا هذه المقدّمة فى ٱشتقاق الوزارة وما يحتاج الوزير إليه فلنذكر صفةَ الوزارة وشروطها .

(١) زيادة عن "قوانين الوزارة" . (٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل «ملول» .
(٣) كذا فى قوانين الوزارة، والمصدر الآتى بعينه، وفى الأصل «انتهكت» .

ذكر صفة الوزارة وشروطها

قال أقضى القضاة أبو الحسن علىّ بن محمد بن حبيب الماوردىّ : والوزارة ضربان : وزارة تفويضٍ تجمع بين كِفايتى السيف والقلم، ووزارة تنفيذ تختصّ بالرأى والحزم . ولكل واحدةٍ منهما حقوقٌ وشروط . (٣٨)

فأما وزارة التفويض فهى: الاستيلاء على التدبير بالعَقْد، والحَلّ، والتقليد والعزل . فأما العقد فيشتمل على شرطين : تنفيذ[1] وإقدام . [وأما الحلّ][2] فيشتمل على شرطين : دفاع وحذَر . وكلّ شرط من هذه الأربعة الشروط يشتمل على فصول .

فأما الشرط الأول، وهو التنفيذ، فهو أُسّ[3] الوزارة وقاعدةُ النيابة، وهو الأخصّ بكفاية القلم فى مصالح المُلْك واستقامة الأعمال . ويشتمل على أربعة أقسام :

الأوّل — تنفيذ ما صدرت به أوامرُ الملك . وعلى الوزير فيها حَقّانِ: أحدهما أن يتصفّحها من زَلَلٍ فى ابتدائها، ويحرُسَها من خَلَلٍ فى أثنائها[4]، ليردَّه عن زَلَلها باللطف، ويُقَوِّىَ عزمه على صوابها بالإحماد . وقد قال أفلاطون : أوّلُ رياضة الوزير أن يتأمّل أخلاقَ الملك ومُعَامَلَتَهُ، فإن كانت شديدةً فظّةً عامل الناس بدونها، وإن كانت لَيِّنة مُطلَقة عاملهم بأقوى منها، ليقرُبَ من العدل فى سعيه . والثانى :

(١) كذا يؤخذ من « قوانين الوزارة » وهو ما يقتضيه سياق التقسيم الآتى . وفى الأصل : «دفاع وإقدام» . (٢) التكملة عن قوانين الوزارة، ومكانها فى الأصل بياض .

(٣) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل «فالشرط الأول وهو التنفيذ وهو أس ... الخ» .

(٤) فى الأصل : "فى انتهائها" وما أثبتناه هنا عن قوانين الوزارة، وهو ما يقتضيه المعنى، إذ لا معنى لحراسة فى الانتهاء .

تعجيل إمضائها للوقت المقدَّر لها حتى لا يقف فيُوحِش ، [لأن وقوف أوامره يُوحش][1] وهو مندوب للتنفيذ دون الوقوف . وقد قال حكيم الهند : العَجَلةُ فى الأمر خُرْقٌ ، وأخرقُ منه التفريطُ فى الأمر بعد القُدرة عليه . ودَرْكُ[2] هذا التنفيذ عائدٌ على الملك دون الوزير .

٥ القسم الثانى — تنفيذ ما آقتضاه رأى الوزير من تدبير المملكة . فعليه فى إمضائه حَقّانِ : أحدهما أن يُراعِىَ[3] أَوْلَى الأُمور فى آجتهاده ، وأصوبَها فى رأيه ، لأنه مندوبٌ لأصلحها ومأخوذٌ بأصوبِها . والثانى أن يُطالِعَ الملك به إن جلّ ، ويجوز أن يَطْوِيَه إن قلّ ، ليخرُج عن الآستبداد المنفِّر ، ويسلَم من الحِقد المؤثِّر . وقال حكيم الهند : الأحقاد مُؤَثِّرة حيث كانت ، وأخوفُها ما كان فى أنفس الملوك ، لأنهم يَدِينون ١٠ بالآنتقام ويَرَوْنَ التطلُّب بالوِتْر مكْرُمَةً وفخراً . فإن عارضه الملكُ فى رأيه بعد المطالعة به لم يَستوحِش من معارضته ، لأنه مالك مُستنيب ، وظانٌّ مستريب ؛ وقابَلَ بين رأيه ومُعارضته ، وآستوضَح من الملك أسباب المعارضة بلطفٍ إن خَفِيت ، فإن وَضَح صوابُها توقَّف عن رأيه وشكَرَهُ على آستدراك زَلَلِه وتلافِى خَلَلِه وقد منّ عليه ولم يُؤنِّب . وإن كان الصواب مع الوزير تلطَّف فى إيضاح صوابه ، وكَشْفِ عِلله وأسبابه . فإن ١٥ ساعده على إمضائه أمضاه ؛ وكان دَرْكُ تنفيذه عائداً على الوزير دون الملك . وإن لم يساعده عليه توقَّف آنقيادا لطاعته ؛ وكان دَرْكُ وقوفه عائدا على الملك دون الوزير .

والقسم الثالث — تنفيذُ ما صدر عن خلفائه على الأعمال التى فوّضها إلى آرائهم ووَكَلَها إلى آجتهادهم . فإن تفرّدوا بتنفيذها أمضاها لهم ولم يَتَعَقَّبها عليهم ما لم

(١) زيادة عن قوانين الوزارة .

٢٠ (٢) الدَّرْك : التبعة .

(٣) كذا فى قوانين الوزارة ، وفى الأصل : "أن يكون" .

يتحقّق زَلَلَهم فيها، وكان دَرْكُ تنفيذها عائدا على العمّال دون الوزير . وإن وقفوها على تنفيذ الوزير فعليه فى تنفيذها حقّان : أحدهما أن يستكشف عن أسبابها، ليعْلَم خطأها من صوابها . والثانى تقويةُ أيديهم ونفى الآرتياب عنهم، فإن ظهور الآرتياب مجشّة[1] للقلوب . فإن نفّذها لهم حين لم يتحقّق زللَهم فيها كان دركُ تنفيذها عائدا على الوزير دون العمّال . ٥

والقسم الرابع — تنفيذُ أمور الرعايا على ما أَلِفُوه من عادات ومُعاملات آختلفوا فيها حين آئتلفوا بها، لأنّ الناس مجبولون على الحاجة إلى أنواع لا يقدِر الواحد أن يقوم بجميعها، فخُولِف بين هممهم لينفردَ كلُّ قومٍ بنوع منها فيأتلفوا بها، فيقومَ الزرّاع بمزارعهم، ويتشاغلَ الصنّاع بصنائعهم، ويتوفّرَ التجّارُ على متاجرهم . وعليه فى تنفيذها لهم حقّانِ : أحدهما ألّا يُعارض صِنْفًا منهم فى مَطْلبه، والثانى ألّا يُشاركه فى مَكْسَبه . وربما كان للسلطان رأىٌ فى الآستكثار من أحد الأصناف فيَنْقُل إليه من لم يألفه فيختلّ النظام بهم فيما نُقلوا عنه وفيما نُقِلوا إليه . وربما ضَنَّ السلطانُ عليهم بمكاسبهم فتعرّض لها أو شاركهم فيها فآتّجر مع التجار وزَرَع مع الزرّاع . وهذا وَهْنٌ فى حقوق السياسة وقَدْحٌ فى شروط الرياسة من وجهين : أحدهما أنه إذا تعرّض لأمر، قَصُرَتْ فيه يَدُ مَن عداه، فإن تُورِك عليه لم ينهَضْ به، وإن شُورِك فيه ضاق على أهله . وقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "ما عَدَل والٍ آتّجر فى رعيّته" . والثانى أن الملوك أشرفُ الناس مَنْصبا فخُصُّوا بموادّ السلطنة، لأنها أشرف الموادّ مَكْسبا . فإن زاحموا العامّةَ فى رَذْل[2] مكاسبهم أَوْهَنُوا الرعايا ودنّسُوا

(١) كذا فى الأصل، والمجشة بكسر الميم : الرحا، من جش الشىء : دقه وكسره، وفى «قوانين الوزارة» : «فإن ظهور الآرتياب لخيبة» .

(٢) فى قوانين الوزارة : « فى درك مكاسبهم » .

الممالك، وعاد وَهْنُهم عليها فاختلّ نظامُها، وٱعتلّ مرامها. وقد رُوى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال " إذا ٱتَّجَرَ الراعى هلَكَت الرعيّة ". وكتب حكيم الروم إلى الإسكندر: أىُّ مَلِك تَطَنَّف[1] نفسُه إلى المُحَقَّرات فالموت أكرم له.

فهذا ما ٱشتمل عليه الشرط الأوّل.

وأما الشرط الثانى من شروط وزارة التفويض، فهو الدفاع. وهو أُسّ السلطنة وقانونُ السياسة والأخصّ بكفايةِ السيف فى تدبير المُلْك وضروب المصالح. ويشتمل على أربعة أقسام: أحدها الدفاع عن المَلِك من الأولياء، والثانى الدفاع عن المملكة من الأعداء، والثالث دفاع الوزير عن نفسه من الأكفاء، والرابع دفاعه عن الرعية من خوف[2] وٱختلال.

فالقسم الأول فى دفاعه عن المَلِك من أوليائه — ويكون بثلاثة أسباب: أحدها أن يَقُودَهم إلى طاعته بالرغبة، ويَكُفَّهم عن معصيته بالرهبة؛ فإن الرغبة والرهبة إذا تَوَاليا على النفس ذَلَّت لهما وٱنقادت خَوْفا وطَمَعًا، وبهما تَعَبَّد الله الخَلْق فى وعده ووعيده. والثانى أن يقوم بكفايتهم حتى لا يَنْفِروا بالقوّة أو يتفرّقوا بالضعف؛ وكلاهما قَدْحٌ فى الملك. والثالث أن يحفَظَهم من الإغواء، ويحرُسَهم من الإغراء؛ وذلك بأمرين: أحدهما البحث عن أخبارهم حتى يعلم سليمَهم من سقيمهم. والثانى بإبعاد المُفسدين عنهم حتى لا يتعدّى إليهم فسادُهم؛ فإن الكَفّ بحسب الكشف.

(١) تطنفت نفسه الى الشىء: أشفت وأشرفت عليه. وفى قوانين الوزارة «تطلعت» بدل «تطنفت».

(٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل: «من حزف ...». وهو تحريف.

والقسم الثانى فى دفاعه عن المملكة من أعدائها — وأعداءُ الممالك[(١)] من انفرد بمُلك أو امتنع بقوّة. وهم ثلاثة أصناف: أكفاء مماثلون، وعظماء متقدّمون، وناجمة مُنافسون. فأما الأكفاء المماثلون فيُدْفَعُون بالمقاربة والمسالمة. وأما العظماء المتقدّمون فيُدفَعُون بالمُلاطفة والمُلاينة. وأما الناجمة المنافسون فيُدفعون بالسوط والمخاشنة.

والقسم الثالث فى دفاع الوزير عن نفسه من أكفائه — ويكون بعد استصلاح الطَرَفين: الأعلى وهو المَلِك، والأدنى وهم الأعوان. وأكفاؤه ثلاثة: وَاتِرٌ، وموتورٌ، ومُنافس.

فأما الواتر — فقد بدأ بشرّه وجاهرَ بعداوته؛ وكلاهما بَغْىٌ[(٢)] مؤنسٌ بالنصر عليه. وللوزير فى تِرَته حقّان: حقٌّ فى مقابلته على ما قدّم من ترته، وحق فى استدفاع ما جاهر به من عداوته. فأما حقه فى المقابلة، فإن عفا الوزيرُ عنها كان بالفضل جديرا، وإن قابل كان فى المقابلة معذورا. وقد قيل: لذّةُ العفو أطيبُ من لذّة التشفى [لأن لذّةَ العفو يَتبعها الحمد ولذة التشفى يَعقبها الندم][(٣)]. قال الشاعر:

فإنّك تَلْقَى فاعلَ الشَّرِّ نادِمًا * عليه ولم يَنْدَمْ على الخير فاعِلُهْ

وأما حقّه فى استدفاع شرّه، فقد أيقظته مجاهرته، وأَوْهَن كيدَه مُظاهرتُه. وقد قيل فى منثور الحِكَم: أوهنُ الأعداء كيدًا أظهرُهم بعداوته. فاحذر بادِرَته وادفع[(٤)] عداوتَه. ودَفْعُها مختلِفٌ باختلاف طِباعه فى انثنائه بالرغبة وتقويمه بالرهبة.

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وهو ما يقتضيه السياق، فان الكلام فى أعداء المملكة. وفى الأصل: «وأعداء الملك». (٢) مؤنس: يوقع فى القلب أنسا وطمأنينة بالظفر به. (٣) زيادة عن قوانين الوزارة. (٤) كان ينبغى أن تكون الجملة «فليحذر... وليدفع...» لأن الكلام هنا لغائب هو الوزير. لكنها منقولة من قوانين الوزارة — والكلام فيه لمخاطب — من غير تغيير.

وأما الموتور — فقد بُودِئَ بالإساءة فصَبَرَ عليها، وجُوهِرَ بالعداوة فأخفاها؛ فله تِرَةُ مظلوم وَوَثْبَةُ مُختَلِس، فَتُوَقِّ تِرَةَ ظُلامته بالاستعطاف، ووَثْبَةَ مُخالسته بالاحتراز:

وأما المنافس — فهو طالب رتبة إن نال منها سِدَادًا من عَوَزٍ يَاسَر، وإن ضُويِق فيها نافر. فليُرْخِ[1] الوزيرُ له عِنانَ الأمل، وليَخْفِضْ[1] له جَناح منافسته بالاستنابة والعمل؛ ليندفعَ بالمُياسرة عن المنافرة. وليُغالِطْ[1] به الأيام، فإن الساعاتِ تَهدِم الأعمار، ولا يجعلْ له فَرَاغا يتشاغلُ فيه بمَساءَته، ويجعلُه عُذْرا فى السعى على منزلته. فإن ساق القضاءُ إليه حَظًّا كان له مُصطَنِعا، يَرْعى له حقوقَ الاصطناع. فقد قيل: [من][2] علامة الإقبال، اصطناعُ الرجال. فإن صدّه القضاءُ عن إرادته وعجّزه القدر عن طِلْبته كُفِيَ الوزيرُ منه ما خافه [وقد أحسن][3]، ووصل إلى ما أراده [وقد أجمّ][3]، وأوجب بإحسانه شُكرا، وأقام بإجمامه عُذْرًا، اجتذب بهما قِيادَ مُنافسه إلى طاعته، وصَرَفه بهما عن التعرّض لمنافسته. فهنالك يجعله قِبْلَةَ رَجائه؛ إذ لم يَحْظَ بخير إلّا منه، ولم يَقْضِ من زمان وَطَرًا إلّا به. وقد قيل فى منثور الحِكَم: مَن استصلح الأضدادَ، بلغ المراد.

(١) الفعل فى الأصل بصيغة الإخبار ووضعناه بصيغة الطلب للغائب لأن سياق الكلام يقتضى ذلك، ولأنه فى قوانين الوزارة المنقول عنه ماهنا بصيغة الطلب، الا أنه لمخاطب.

(٢) زيادة عن قوانين الوزارة.

(٣) زيادة عن "قوانين الوزارة" مع تغيير من الخطاب الى الغيبة لمناسبة السياق، أثبتناها هنا ليتضح بها الكلام. فان قوله: «وأوجب باحسانه الخ» يزداد وضوحا بذكر هذه الزيادة.

وربما تعرض لعداوة الوزير مَن قَصَّر عن رُتبة مُنافسته . فليُعطِه[1] من رجائه طَرَفا ، وليَقْبِض[1] من زِمامه طَرَفا ، وليختبرْه[1] فيهما ، فسيقفُ على صلاحه أو فساده . فإن صَلَحَ سُوعد ، وإن فَسَد بُوعد . فقد قال أَرْدَشِير بن بَابَك : اِحذروا صولةَ الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شَبِـع . وقد قيل فى منثور الحكم : عِلَّةُ المُعاداة ، قِلَّة المبالاة .

والقسم الرابع فى الدفاع عن الرعية من خوف[2] وآختلال — فالخوف من نتائج الخرق[3] ، والآختلال من نتائج الإهمال ، وكلاهما من سوء السِّيرة وفساد السياسة ، [لتردّدهما بين تفريط وإفراط ، وخُروجهما عن العَـدْل إلى تقصير أو إسراف[4]] . وهم قِوَام المُلْك المستَمَدّ ، وذَخِيرةُ المستعِدّ . وليس يستقيمُ ولن يَستقِيمَ مُلْك فسَدت فيه أحوالُ الرعايا ، لأنّه منهم بمنزلة الرأس من الجسد لا يَنْهَض إلا بقوّته ولا يستقِلّ إلا بمعونته . وعلى الوزير لهم ثلاثة حقوق :

أحدها أن يُعينهم على صلاح معايشهم ووُفورِ مَكاسبهم ، لتتوفَّرَ بهم موادُّه ، وتَعمُرَ بهم بلادُه .

والثـانى أن يَقْتَصِر منهم على حقوقه ، ويحملَهم فيها على إنصافه ، ليكونوا على الآستكثار أحرص ، وفى الطاعة أخلص ، ولا يكلهم فى مقادير الحقوق الى غيره ، ليكونوا له أَرْجَى وعليه أَحْنَى .

(١) فى الأصل : بصيغة المضارع من غير لام الطلب ، وحسن السياق يقتضى الطلب كما هو فى قوانين الوزارة . (٢) كذا فى قوانين الوزارة ، وفى الأصل : «من حزف ...» .

(٣) فى الأصل : « فالحزف من نتائج الخوف » . وبما أثبتناه يستقيم الكلام ، فان الخرق يلزمه مجاوزة الحد والخروج عما يقضى به العدل ، وهو بهذا المعنى إفراط وإسراف يقابله الاهمال الذى هو التفريط والتقصير . وفى الحق أن خوف الرعية نتيجة لازمة للخرق بهذا المعنى . على أن صورة ما أثبتناه أقرب شىء لصورة الأصل . (٤) زيادة عن قوانين الوزارة .

والثالث أن يَحُوطَهم بكفّ الأذى عنهم، ومنع الأيدى الغالبة منهم؛ ليكون لهم كالأَب الرءوف ويكونوا له كالأولاد البَرَرة؛ فإنّه كافلٌ مُسترْعًى ومسئولٌ مُؤاخَذٌ. ولله عليه فيهم حَقٌّ، وللسلطان عليه فيهم تَبِعة[1]. فليغتنِم الوزيرُ بهم شكرَ إحسانه، ويُجَمِّل بِعَدْله فيهم آثارَ سُلطانه.

٥ وأما الشرط الثالث من شروط وزارة التفويض وهو الإقدام، فهو فى السياسة أَوْفَى شطريها[2]، وفى الوزارة أكفى نَظَرَيْها[3]؛ لظفر الإقدام، وخَيبة الإحجام. وقد قيل فى منثور الحكم: بالإقدام تثبت الأَقدام. وإنما يجب الإقدام إذا ظهرت أسبابُه، وقُصِدت أبوابُه. قال الشاعر:

إذا ما أتيتَ الأمرَ من غير بابِهِ * ضَلَلْتَ وإن تَقصِدْ إلى الباب تَهتدِى

١٠ ثم يَجْمع بعدهما بين حَزْمه وعَزْمه. فالحزْمُ تدبير الأمور بموجب الرأى، والعزم تنفيذُها للوقت المقدَّر لها. فإذا تكاملت شروطُ الإقدام من هذه الوجوه الأربعة — وهى: ظهور أسبابه، وقصد أبوابه، والحزم، والعزم — لم يَمْنع من الظَّفَر، إلا عوائقُ القَدَر.

والإقدامُ ينقسم إلى قسمين: أحدهما الإقدام على ٱجتلاب المنافع، والثانى على دفع المضارّ. فأما الإقدامُ على ٱجتلاب المنافع فضربان: أحدُهما ٱستضافة ١٥ مُلْك، والثانى ٱستزادة موَادّ. فأما ٱستضافة المُلك فتكون بالحزم والعزم إذا ٱقترنا برَغْبة أو رَهْبة. ولأَن تكون بالٱغتيال والٱحتيال، أولى من أن تكون بالقتال. وأما ٱستزادةُ الموَادّ فتكون بالعدل والإحسان إذا ٱقترنا برِفْق ومُياسرة لتكْثُرَ بهما العِمارة وتتوفّر بهما الزراعة؛ فإنّ الأرض كُنوزُ الملك يستخرجها أعوانٌ متطوِّعون يُقْنِعهم

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل "منهم تبعة".

٢٠ (٢) فى قوانين الوزارة: "أو فى شرطيها".

(٣) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الاصل "أوفى نظريها".

الكَفُّ عنهم ويَقْطعهم العَسْفُ بهم. وأما الإقدامُ على دفع المضارّ فضربان: أحدُهما. دفعُ ما آختلّ من المُلْك. وله سببان: إهمالٌ أو عَجْزٌ. والثانى دفع مانقَص من الموادّ. وله سببان: نُفورٌ أو جَوْرٌ. فيحتاج الوزير أن يَدفعَ ضَرَر كلّ واحدٍ منهما بالضدّ [من سببه، فإن علاج كل داء بضده](١) من الدواء. فإن كان آختلالُ المُلْك من الإهمال أيقظ له عَزْمَه، وإن كان من العجز آستعمل فيه حزمَه. وإن كان نقصُ الموادّ من النفور آستنجد فيه رهبتَه، وإن كان من الجَوْر أظهر فيه مَعْدلَتَه. فإن كان حدوثُ ذلك فى المُلْك صدَر عن الوزير كان مُؤاخَذًا بتفريطه فى الابتداء، ومستدرِكًا لتقصيره فى الآنتهاء، فيَجْبُرُ إساءَتَه بإحسانه، ويمحو قبيحَه بجميله. وإن كان حدوثُه من غيره كانت جريرةُ الإساءة على مَن أحدثه، وكان حمدُ الإحسان للوزير.

وأما الشرط الرابع من شروط وزارة التفويض وهو الحَذَرُ — فيتعيّن على الوزير أن يكون حَذِرا، لأنّ الدهر ثائرٌ بطوارقه، ومُنافر بنوائبه، يَغدُر إن وَفَى، ويَفتِك إن هفا. قال عبد الحميد: أصاب الدنيا مَن حَذِرَها، وأصابت الدنيا مَنْ أمِنَها. وقال عبدُ الملك بن مروان: اِحذَروا الجَدِيدَين، فللأقدار أوقاتٌ تُغضِى عنها الأبصار. فإذا صادفت طوارقُ الدهر غِرًّا مُسترسِلا صار هَدَفا لسهامه الصوائب، وغَرَضًا لمنافرة الحوادث والنوائب. وقد قال بعضُ الحكماء: من أعرض عن الحَذَر والآحتراس، وبَنَى أمرَه على غير أساس، زال عنه العِزّ وآستولى عليه العجز، وإن قدّم لطوارقه حَذَرَ المتيقِّظ، وتلقّاها بعُدّة المتحفِّظ، ردّ بادرتَها بعزمِ ذى حَزْم قد حلَبَ أشْطُرَ دهره، وقام بواضح عُذْره. قال بعض الشعراء:

إنّ للدهرِ صَوْلَةً فاحذَرَنْهَا * لا تَبِيتَنَّ قد أَمِنْتَ الدُّهورَا

(١) التكملة عن "قوانين الوزارة".

ثم هو بعد حَذَرِه مستسلِمٌ لقضاءٍ لا يُرَدّ، وقَدَرٍ لا يُصَدّ. وقد رُوى عن أبى الدَّرْدَاء رضى الله عنه عن رسول الله عليه وسلم أنه قال: "اِحذَرُوا الدنيا فإنّها أسحرُ من هَارُوتَ ومَارُوتَ". وقيل لبعض الحكماء: مَن السعيدُ؟ قال: من آعتبرَ بأَمْسه، وآستظهر لنفسه. قال بعض الشعراء:

٥ وحَذِرْتُ من أمرٍ فمرّ بجانبى * لم يُبكِنِى ولَقِيتُ مالم أحْذَرِ

وللحَذَر حدٌّ يقِف عنده إن زاد [عليه](١) صار خَوَرًا، كما أن للإقدام حَدًّا إن زاد عليه صار تَهَوُّرًا. والزيادة على الحدود، نقصٌ فى المحدود. ولهما زمان إن خرجا عنه صار الحذَرُ فَشَلًا، والإقدامُ خُرْقًا. وعِيارُهما معتبَرٌ بحزمِ العاقل ويَقَظةِ الفَطِن. قال بعض الحكماء: ليَعرِفْكَ السلطان عند آفتتاح التدبير بالحذر، وعند وقوع الأمر بالجِدّ.

١٠ والحذر يلزم من أربعة أوجه: أحدها الحذر من الله تعالى فيما فَرَض. والثانى [الحذر](١) من السلطان فيما فَوَّض. والثالث الحذر من الزمان فيما آعترَض. والرابع الحذر من [غلبة](١) الأعداء ومكرِ الدُّهاة.

فأما الحذر من الله تعالى — فهو عِمادُ الدِّين الباعثُ على الطاعة. والحذرُ منه هو الوقوف عند أوامره، والآنتهاءُ عن زواجره؛ فيعمل بطاعته فيما أَمَر، وينتهى ١٥ عن معصيته فيما حَظَر. فلن يُرَى قليلُ الحذر إلا متجوِّزا فى دينه طائحا فى غُلُوائه، لا يَرَى رُشْدا فى العاجل، وهو على وعيدٍ فى الآجل؛ مع نفور النفوس منه وسِراية الذّم فيه. وقد قيل فى بعض الصحف الأُولى: العِزَّة والقوَّةُ يعظمان القلب، وأفضل منهما خوفُ الله تعالى؛ لأن من لزم خشيةَ الله لم يَخَفِ الوضيعة ولم يَحتَجْ إلى ناصر. وقال علىّ رضى الله عنه: من حاول أمرًا بمعصية الله كان أبعدَ لما رجا، وأقربَ ٢٠ لمجىء ما آتَّقَى.

(١) زيادة عن "قوانين الوزارة".

وأما الحذر من السلطان، فهو وثّابٌ بقُدرته، مُتحكّمٌ بسَطْوَته، يَميل به الهوى فيَقطَعُ بالظنّ ويُؤاخِذ بالارتياب، فالثقةُ به عجزٌ، والاسترسالُ معه خَطَر. والحذر منه فى حالَتَي السُّخْط والرضا أسلمُ؛ لأنّه يستَذْنِب إذا ملّ حتى يَصيرَ المحسنُ عنده كالمسيء. فيَستَخْلِصْ[1] رأيه بالنصح، ويَستَدْفِعْ تنكُّرَه بالحَذَر. وقال بعض الحكماء: اِصحَب السلطانَ بثلاث: الحذر، ورفض الدولة، والاجتهاد فى النصح. والحذر منه يكون بثلاثة أمور: أحدها ألّا يُعوِّلَ على الثقة به فى الإدلال والاسترسال، فما جرّت الثقةُ إلا نَدَمًا. وقد قيل: الحُرَقُ الدالّة على السلطان، والوَثْبةُ قبل الإمكان. [فاقبِضْ نفسَك إذا قدّمك، وتواضعْ له إذا عظّمك، واحتَشِمْه[2] إذا آنسك، ولِنْ له إذا خاشنك، واصبِرْ على تجنّيه [إذا غالظك][3]؛ فهو على التّجنى أقدر، فكن على احتماله أصبر؛ فربّما كانت مُجاملتُه لك مَكْرًا، وتجنّيه عليك غدرا][4]. فقد قيل فى بعض الصحف الأولى: حبُّ المَلِك وهواه يُشبه الطَّلَّ على العُشب. فلا تجعلْ له فى إظهار تنكُّره عُذْرا؛ فربما اعترف بالحق فوَفّى، ورَقّ بالصبر فكفّ. وقد قيل فى أمثال كَليلة ودِمْنة: صاحبُ السلطان كراكب الأسد يَخافُه الناسُ وهو لمركوبه أشَدُّ خوفًا.

والثانى من حذره منه أن يُساعده على مَطالبه، ويُوافقه على مَحابّه [ومآربه][3]، ولا يَصُدَّه عن غَرَض إذا لم يَقْدَح فى دِين ولا عِرْض، ولا يتوقّف عن إجابته

(١) فى الأصل: "فيستخلص ..." والسياق يقتضى الأمر كما فى "قوانين الوزارة".

(٢) ورد فى الأساس: «أنا أحتشمك واحتشم منك أى أستحيي» وفى اللسان وشرح القاموس أحتشم منه وعنه ولا يقال: احتشمه. فعبارة الأصل هاهنا صحيحة على ما فى الأساس.

(٣) زيادة عن "قوانين الوزارة". (٤) هذه الجملة التى بين القوسين المربعين نقلها صاحب الأصل عن قوانين الوزارة من غير تغيير فى الضمائر، وعادته فى النقل عنه أن يغير الضمير من الخطاب الى الغيبة، لأن قوانين الوزارة يوجه الكلام لمخاطب، والأصل هنا يوجهه لغائب، كما هو واضح.

وإن شغَلَه ما هو أهمُّ ؛ فإن المَلِك لا يُقِيم لوزيره عُذْرا إذا وجده فى أغراضه مُقَصِّرا ، وإن كان على مصالح مُلْكه مُتَوَفِّرا ؛ فإنّه آتخذه لنفسه ثم لمُلْكه ؛ وقد يُقَدِّم حظَّ نفسه على مصلحة مُلكه ، لغَلَبَة الهوى ونَازِع الشهوة . فليكنْ مُتَوَفِّرا على مُراده ليسلَم آعتقادُه له . فإن قدَحَتْ أغراضُه فى دِين أو عِرْض سَلَّ الوزيرُ نفسَه من وِزْرِها وتحفَّظَ من شَيْنِها[1] بالتلطُّف فى كَفِّه عنها بما يعتاضُه بَدَلًا منها ، ليَسْهُلَ عليه إقلاعُه عنها . فإن ساعده المَلِك عليها سَلِم دِينُهما ، وزال شَيْنُهما . فقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "إن لله خزائنَ للخير والشرّ مفاتيحُها الرجالُ فَطُوبَى لمن جعله الله مِفْتاحًا للخير مِغْلاقًا للشرّ وَوَيْلٌ لمن جعله اللهُ مِفْتاحًا للشر مِغْلاقًا للخير" . (٤٢)

وقال الشاعر :

سَتَلْقَى الذى قدّمتَ للشَّرِّ مُحْضَرًا * وأنتَ بما تأْتِى من الخير أَسْعَدُ

وإن أَصَرّ المَلِك عليها فليَلِن[2] الوزيرُ فى متاركته ، ويُحْجِم عن مساعدته ؛ وهو خِدَاعٌ يَتَدَلّس بالمغالطة ويَخْفَى بالحزم ؛ فليستنجِد فيه عقلَه ، ويستعمِلْ فيه حزمَه ؛ ليسلم من تنكُّره ، ويخلُص من وِزره . فقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "إنّ من شِرَار الناس عند الله يومَ القيامة عبدًا أذهب آخرتَه بدُنْيا غيرِه" . والثالث من حذره منه أن يَذُبَّ عن نفسه ومُلْكه بما آستطاع من مال ونَفْس ؛ فإنّه [عن نفسه][3] يَذُبُّ ، ولها يَرُبُّ[4] ؛ فإنّه لا يصلُح حالُه مع فساد حال مَلِكه وهو فرع من أصله . وهو[5] يسترسِل لثقته به ، ويستسلم لتعويله عليه ؛ فليُقابِلْ ثقتَه بأمانته ، وآستسلامَه بكفايته ، ولا

(١) كذا فى «قوانين الوزارة» ويرجحه ما يأتى من قوله «سلم دينهما وزال شينهما» وفى الأصل «من شيتها» . (٢) كذا يؤخذ من «قوانين الوزارة» ، وفى الأصل « فليكن ... » .

(٣) زيادة من قوانين الوزارة يقتضيها السياق . (٤) يرب : يصلح .

(٥) الضمير فى « وهو يسترسل ... » يرجع الى الملك .

يُلجِئه أن يُباشر دَفْع الخوفِ والحذر، فيُلجِئه إلى ما هو أخوف وأحذر؛ لأن الوزير يخاف المَلِك ويخاف ما يَخافُه، فيتوالى عليه خوفان، ويتمالأ عليه خَطَران. قال شاعر:

إنّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ * فإذا تضاعفَ صار غيرَ مُطاقِ

وأما حذره من زمانه، فلأنّه يتقلّب بألوانه، ويخشُنُ بعد لِيَانه، فيسلُب ما أعطى ويُفرِّق ما جمع. وقد رُوى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "أنظروا دُورَ مَن تسكُنون وأرضَ من تَزْرَعُون وفى طُرُق مَن تَمشُون". وقال بعض الحكماء: الدنيا إن بَقِيتْ لك لم تَبْقَ لها. وقال بعض البلغاء: إن الدنيا تُقبِل إقبالَ الطالب، وتُدبِر إدبار الهارب؛ لا تَبْقَى على حالة، ولا تخلُو من استحالة؛ تُصلِح جانبا بإفساد جانب، وتَسُرُّ صاحبا بمَسَاءَة صاحب؛ فالكونُ فيها على خَطَر، والثِّقةُ بها على غَرَر. وقال قَيْس بن الخَطِيم:

ومن عادةِ الأيّامِ أنّ خُطوبَها * إذا سَرَّ منها جانبٌ ساء جانبُ

[والحَذَر](١) من الزمان يكون من أربعة أوجه:

أحدها: ألّا يثِقَ بمساعدته، ولا يركَنَ إلى مُياسرته، فيغفُلَ عن الحذر والاستعداد، فربّما انعكس فافترس، وغَافَصَ(٢) فاختَلَس. وقد قيل: للدهر صُرُوف، لست عنها بمصروف. قال أبو العَتاهِيَة:

إنّ الزمانَ وإن ألا * نَ لأهْلِه لمُخاشِن
فخُطُوبُه(٣) المتحرِّكا * تُ كأنّهنّ سواكِنُ

(١) فى الأصل بياض، والتكملة عن «قوانين الوزارة».

(٢) غافصه: فاجأه وأخذه على غِرّة منه.

(٣) كذا فى «قوانين الوزارة». وفى الأصل: «بخطوبه».

والثـانى : أن يتهز فُرصة مَكنته[1] بفعل الجميل، وغَرْس الصنائع، وإسداء العوارف؛ ليكون ذلك ذخيرةً له فى النوائب، وخَلَفًا فى العواقب؛ ولا يُلهيه آستكفاؤه عن الآستظهار، ولا يَمْنَعُهُ آستغناؤه عن الآستكثار . فقد قيل: المرء آبنُ يومه، فلينتَبِهْ من نومه . وقد رُوى عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "إغتنِمْ خمسا قبل خمس شَبَابَك قبل هَرَمك وصِحَّتَكَ قبل سَقَمك وغِنَاكَ قبل فَقْرك وفَرَاغَكَ قبل شُغْلك وحياتَك قبل موتِك" . قال سعيدُ بنُ سَلْم :

إنّما الدنيا هِبَاتٌ * وعَوَارٍ مُسْتَرَدَّهْ
شِدَّةٌ بعدَ رَخَاءٍ * ورَخَاءٌ بعد شِدَّهْ

والثالث: أن يَكُفَّ نفسَه عن القبيح ويَقْبِضَ يدَه عن الإساءة، ليُكْفَى رَصْدَ التِّرات، وغوائلَ الهَفَوات؛ فيأمَنَ من وَجَلِه، ويسلَمَ من زَلَلِه؛ ولا يتطاوَلَ بالقُدْرة فيغفُلَ وهو مطلوب، ويأمَنَ وهو مسلوب .

والرابع: أن يستَعِدَّ لآخرته، ويَستظهِرَ لمعَاده، ولا يغترّ بالأمل فيخُونَهُ الفَوْت، ولا تُلهِيَهُ الدنيا فتَصُدَّه عن الآخرة . فقلَّ مَن لَابَسَهَا فَسَلِمَ من تَبِعاتها؛ لهَفَوات غُرورها، [وعواقب[2] شُرورها] . رُوى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "ياعجباً كل العَجَب للمُصَدِّق بدار الخُلُود وهو يسعى لدار الغُرور" . وقيل فى منثور الحِكَم: طلاقُ الدنيا مَهْرُ الجَنّة .

وأما حذرُه من أهل الزمان — فلأن الإنسانَ محسود بالنعمة، مغبوط بالسلامة . والناس على أربعة أطوار متباينة :

(١) المكنة بفتح فكسر : التمكن .

(٢) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

[أحدها[(١)]] خيِّرٌ عاقل يُسالِم بخيره ، ويُساعِد بعقله ؛ فالظَّفَرُ به سعادةٌ ، والاستعانةُ به توفيقٌ . فَلْيَجتهِد[(٢)] ألّا يفُوتَه وإن كان قليلَ الوجود ، ليَحْظَى بخيره ويَسْعدَ بعقله . وقلّ أن يكون الخيِّرُ العاقلُ إلا متحلِّيًا بالعلم متزيِّنًا بالأدب . فإذا أظفره الزمانُ بمن تكاملت فضائلُه ، وتهذّبت خصائلُه ، فليَتَّخِذْه[(٢)] ذخيرةَ نوائبه ، وعُدَّةَ شدائده ، يَجِدْه كفيلَ صَلَاحِها ، وزعيمَ نَجَاحِها .

والطور الثانى : شِرِّيرٌ جاهل يَضُرُّ بشرِّه ، ويُضِلُّ بجهله . فليحذَر مخالطته ، فهى أضر من السَّمّ ، وأنفذ من السهم . وشرُّه بجهله مُنتشِرٌ يَضعُفُ إن تُورِك ، ويَقْوَى إن شُورِك ؛ فَلْيَكْفُف شرَّه بالإبعاد ، ولا يُعِزَّهُ بالتقريب ، فيُلحِقه ضَرَرَىْ شرِّه وجهله . وضَرَرُ الجهل أعمّ من ضرر الشر ؛ لأن قانونَ الشر معلوم ، وقانونَ الجهل غيرُ معلوم .

والطور الثالث : خَيِّرٌ جاهلٌ يُسالِم بخيره ، ويُضِل بجهله ؛ فَلْيُقَارِبْه[(٢)] ، إن شاء ، لخيره ، ولا يَستعمِلْه لجهله ؛ ليكون بخيره موسوما ، ومن جهله سليما .

والطور الرابع : شِرِّيرٌ عاقل وهو الداهيةُ المَكِر ، يُستعمَل للخطوب إذا حَزَبت[(٣)] . فليكن على حَذَرٍ من مَكْره ، ويُتَارِكْه فى الدَّعَة على استدفاعٍ لشره . وقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "إن الله يُؤَيِّد هذا الدِّينَ بالرجل الفاجر" . ومِثْلُ هذا يُستكَفُّ بمَعُونةٍ تمُدُّه ، ومُراعاةٍ تُرضيه ؛ فإنّه كالسَّبُع الضارى إن أجعْتَه هاج ، وإن أشبعتَه سكن ؛ ليكون مذخورا للحاجة ؛ فإن للزمان خُطوبا لا تُدْفَع إلا بشرار أهله ؛ كما قال حُذَيفَةُ بنُ اليَمَان لرجل : أيَسُرُّك أن تَغلِب شَرَّ الناس ؟ قال : نعم ؛ قال :

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) السياق يقتضى صيغة الأمر كما فى «قوانين الوزارة» . والفعل فى الأصل مجرد من لام الأمر .

(٣) حزبه الأمر : نابه واشتدّ عليه .

إنك لن تَغلِبَه حتى تكونَ شراً منه . فَيُعَدُّ لخطوب الشرِّ إن طَرَقَت ؛ فإنّه بها أخبر، وعلى دفعها أقدر، ولأهلها أقهر؛ فـ « إنّ الحَدِيدَ بالحديد يُفْلَحُ » . فيُستَكَفُّ إلى حينها بما يَدْفَعُ عادِيَةَ شرِّه ، ويقطعُ غائلةَ مكره ، وإن كانت ضَرَاوَةُ الشر أجذب ، وطِباعُ النفوس أغلب . فإن وجد الوزيرُ من هذا الداهيةِ فُتورا فى همّته ، وقصورا فى مُنّته[1] كانت سِرايَةُ مكره أنزر، وتأثيرُه فى الخطوب أيسر . وإن كان عَالِىَ الهِمَّة قوِىَّ المُنَّة يتطاول إلى معالى الأمور، كانت سرايةُ مكره أوفر، وتأثيرُه فى الخطوب أكثر. فَلْيُعطِه[2] فى كل حال من أمرَيْه من الحَذَر والسكون بحسب ما تقتضيه هِمَّتُه، وتبعَثُ عليه مُنَّتُه؛ ليكون قانونُه معه مستقيما، [ومن دهاء مَكْرِه[3] سليما] ؛ لا ينالُه خَوَرٌ من سَرَف، ولا آسترسالٌ من تقصير؛ فقد جعل الله تعالى لكل شيءٍ قَدْرًا .

فهذا تفصيلُ ما آشتمل عليه العَقْدُ والحلّ .

وأما التقليد والعزل، وهو الشطر الثانى من شروط وزارة التفويض ،

فالتقليد على ضربين : تقليد تقرير، وتقليد تدبير .

فأما تقليد التقرير، فهو فيما يُستأنفُ إنشاءُ قواعده، ويُبتدأ تقريرُ رسومه . وهو على ثلاثة أقسام :

أحدها: أن يكون فى حاضر يَقدِر الوزير على مباشرته ، فالوزير أخصُّ بتقريره، وأحقُّ بتنفيذه؛ لأنها أصول مُؤَبَّدة وهى من خواصّ نظره . فإن قَلَّد عليها وآستناب

(١) المنة : القوة .

(٢) السياق يقتضى صيغة الأمر كما فى «قوانين الوزارة» . والفعل فى الأصل مجرد من لام الأمر .

(٣) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

فيها، كان تقصيرا منه إن جَلّ، ومعذورا فيه إن قلّ. ولم يكن لمن قلّده تنفيذُ تقريره إلا عن إذنه، وإلا كان عزلا خَفِيًّا؛ لأنه يصير مُلتزمًا وقد كان مُلزِما، ومُحكَّمًا[1] وقد كان حاكما.

والثـانى: أن يكون التقليد فيما بَعُدَ عنه ويمكن آستئمارُه[2] فيه، فيجوز أن يَستنيب فى تقريره، ويكون موقوفا على إمضاء الوزير وتنفيذه. ولا يجمع المستنابُ بين الأمرين، ليكونَ التقليدُ مقصورا على التقرير، والوزيرُ مختصا بالتنفيذ. فإن جَمَع المستنابُ بين التقرير والتنفيذ كان فيه مُتَجَوِّزًا، إلا أن يُؤْمَرَ به فيصير الآمرُ مُتَجَوِّزا، إلا أن يكونَ آضطرارا يزول معه حكمُ الآختيار.

والثالث: أن يكون التقليدُ[3] فيما بَعُدَ عنه ويتعذّر آستئماره فيه، فيجوز أن [يَستَنِيبَ[4] فيـه مَن] يَجمعُ بين تقريره وتنفيذه إذا تكاملت فى المُستناب ثلاثةُ شروط: أحدها الكفاية التى ينهَضُ بها فى التقرير. والثانى الهيبةُ التى يُطاع بها فى التنفيذ. والثالث الأمانةُ التى يَكُفُّ بها عن الآسترشاء والخيانة، بعد تكامُل الشروط المعتَبَرة فى جميع الولايات، وهى ثلاثة: العقل، والديانة، والمُرُوءَة. فلا فُسحةَ فى تقليد مَن أخَلّ ببعضها، لقصوره عن حقها، وخروجه من أهلها؛ وإنما يختلف ما سواها باختلاف الولايات، وإن كانت هذه مستَحَقّةً فى جميعها. وقد قال كسرى أبْرَوِيزُ: مَن آعتمد على كُفَاة السوء لم يَخْلُ من رأيٍ فاسـدٍ وَظَنٍّ كاذِبٍ وعدوٍّ غالب. وقد قال بعض الحكماء:

---

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل: «لأنه ملزم وقد كان ملزما، ومحكم ... الخ».

(٢) الاستئمار: المشاورة.

(٣) كذا فى قوانين الوزارة، والتقليد هو موضوع الكلام، وفى الأصل: «التنفيذ ...».

(٤) التكملة عن «قوانين الوزارة».

لا تَسْتَكْفِيَنّ مخدوعا عن عقله ؛ والمخدوع[1] مَن بُلِغ به قَدْرًا لا يستحقه ، أو أُثيب ثوابا لا يستوجِبُه .

(٤٤)

وأما تقليدُ التدبير ، فهو النظر فيما آستقرّت رسومُه ، وتمهّدتْ قواعدُه . وهو مشترَكٌ بين الوزير وبين الناظر فيه ؛ لكن[2] يختصّ الوزير بمراعاته ، والناظرُ بمباشرته ؛ ليستظهِر[3] الوزيرُ بالمراعاة ، ولا يتبذّل[4] بالمباشرة . وهو ضربان : أحدهما تدبير الأجناد . والثانى تدبيرُ الأموال .

فأما تدبير الأجناد ، فلا يَستغنِي الوزيرُ عن تقليد سفيرٍ فيه وإن كانوا يُلاقونه ؛ ليحفَظَ بالسفير حِشْمة وِزارته ولا يَقِفَ أغراضَ أجنادِه ، وقد آنصان عن لَغَط كلامِهم ، وجَفْوة طِباعهم . والأغلبُ على تدبيرهم الرأْىُ والسياسةُ . فيعتبَرُ فى هذا المختار لهذا التقليد ستةُ شروط :

أحدها : الهَيْبَةُ التى تَقودُهم إلى طاعتــه ، لأنه يقوم بتــدبيرِ ذَوِى سَطْوةٍ ، فيحتاج إلى قوّة الهيبة .

والثــانى : أن يكون من ذَوِى الرأى والسياسة ، ليقودَهُم برأيه إلى الصواب ويَقِفَهم بسياسته على الآستقامة .

والثالث : أن يكون مُتوصِّلا إلى آستعطاف القلوب ، وآجتماع الكلمة ، ليسلموا من آختلاف أو منافرة .

(١) كذا فى قوانين الوزارة ، وفى الأصــل : « فالمخــدوع ... » بالفاء . وظاهر أن حسن السياق يقتضى الواو .

(٢) كذا فى «قوانين الوزارة» . وفى الأصل : « لكى يختص ... » .

(٣) يستظهر : يحتاط ويستوثق .

(٤) فى الأصل «يتبدّل» بالدال . والسياق يقتضى ما وضعناه .

والرابع: أن يكون بينه وبين الأجناد مناسبةٌ فى الطباع ومشاكَلَةٌ فى الأخلاق يمتَزِجُون [بها](١) فى الموافقة و[لا](١) يَختلفون [فيها](١) فى المباينة(٢) .

والخامس: أن يكون سليم الباطن صحيحَ المُعْتَقَد؛ لأنه يصير أَخَصَّ بهم، ويصيرون أطوَعَ له .

والسادس: ما ٱختَلَفَ بٱختلاف الحال، فإن كان فى زمان السِّلم ٱعتُبِر فيه الأَناةُ والسكونُ؛ وإن كان فى زمان الحرب ٱعْتُبِر فيه الإقدامُ والسَّطْوَةُ، ليكون مطبوعا على ما يُضاهِى حالَ زمانه . فإذا ظَفِر بمَن ٱستكملها — وبعيدٌ أن يَظْفَرَ به إلا أن يُعَانَ بالتوفيق — وجب تقليدُه، ولَزِمت مُناصفَتُه فى الحقوق التى له وعليه، ليدُومَ ويَستقيمَ . فقد قيل فى منثور الحكَم: مَن قَضَيتَ واجبَه، أمِنتَ جانِبَه .

وأما تدبيرُ الأموال، فالوزيرُ مَصُون عن مباشرتها، وإنما يَحْفَظُ دَخْلَها بالهيبة والٱستظهار، ويَضْبُطُ خَرْجَها بالحاجة والٱضطرار(٣) . وللتقليد على كل حال منهما شروط .

فشروط التقليد على مباشرة دَخْلِها خمسة:

أحدها: أن يكون مطبوعا على العَدْل، لِيُنْصِفَ ويَنْتَصِف .

والثانى: أن يكون متديِّنا بالأمانة، لِيَستوفىَ ويُوَفِّى .

والثالث: أن يكون كافيا، لِيَضْبُطَ بكفايته، ولا يُضيعَ بعجزه .

والرابع: أن يكون خَبِيرا بعمله يَعرِف وجوهَ موادّه، وأسبابَ زيادته .

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) فى «قوانين الوزارة»: «...فيها بالمباينة» .

(٣) فى قوانين الوزارة: "على كل واحد منهما" .

والخامس: أن يكون رَفيقا بمُعامليه غيرَ عَسُوف ولا أَخْرَق . حُكِي ان الإسكندرَ كتب إلى مُعَلِّمه أرسطاطاليس ليستشِيرَه فى عُمَّاله؛ فكَتَبَ إليه : إنّ مَن كان له عبيدٌ فأحسنَ فى سياستهم فَوَلِّهِ الجُنْد، ومن كان له ضَيْعةٌ فأحسنَ تدبيرَها فَوَلِّهِ الخَرَاج .

٥ وأما شروط التقليد على مباشرة خَرْجِها، بعد الأمانة التى هى مشروطة فى كلّ وِلاية، فمعتَبَرةٌ بأحوال الخَرْج . وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

أحدها: ما كان راتبا عن رُسُوم مستقِرَّة كأرزاق الجيوش والحواشى، فالتقليد عليه شرطان : مَعرفةُ مقاديرِها، ومعرِفة مُستحِقِّيها .

والثانى : ما كان عارضا عن أوامرَ تقدّمتْها والناظرُ مأمورٌ بها كالصِّلات

١٠ وحوادث النَّفَقَات، فالتقليد عليه شرطان : وقوفها على الأوامر، ومعرفةُ أغراض[1] الآمر .

والثالث : ما كان عارضا فُوِّض إلى رأى الناظر ووُكِلَ إلى تقريره كالمصالح والنَّفَقَات، فالتقليد عليه أَوْفَى شروطا لوقوفها على اجتهاده وتقديره ، فيحتاج مع الأمانة إلى ثلاثة شروط :

١٥ أحدها : معرفةُ وجوه الخَرْج، حتى لا يتصرف فى غير حقّ .

والثانى : الاقتصاد فيه، حتى لا يُفْضِيَ إلى سَرف ولا تقصير .

والثالث : اِستصلاح الأثمان والأجور من غير تَحَيُّف[2] ولا غَبْن .

---

(١) كذا فى "قوانين الوزارة" . وفى الأصل : "ومعرفة أغراض الأوامر" .

(٢) التَّحَيُّف : التنقُّص .

وأما العزل فضربان :

أحدهما : ما كان عن غير سبب فهو خارجٌ عن السياسة ؛ لأن للأفعال والأقوال أسبابا إذا تجرّدت عنها[1] صار الفِعلُ عَبَثًا والكلامُ لَغْوًا لا يقتضيه رأْىُ حصيف، ولا تُوجِبه سياسةُ لبيب . وقد قيل : العزلُ أحدُ الطَّلاقَيْن . فكما أنه لا يَحْسُنُ الطلاقُ بغير سبب، كذلك لا يحسُن العزل بغير سبب . وإذا لم يَثِق الناظر باستدامة نَظَرِه مع الاستقامة، عَدَل عنها إلى النظر لنفسه ، فعاد الوَهْنُ على عمله . وما يكون هذا العزلُ إلا عن فَشَلٍ أو مَلَل .

والضرب الثانى : أن يكون العزلُ لسبب دعا إليه . وأسبابه تكون من ثمانية أوجه :

أحدها : أن يكون سببُه خِيانةً ظهرت منه، فالعزلُ لها من حقوق السياسة مع استرجاع الخِيانة والمقابلةِ عليها بالزواجر المُقوِّمة . ولا يُؤاخَذ فيها بالظنون والتُّهَم . فقد قيل : من يَخُنْ يَهُنْ .

والوجه الثانى : أن يكون سببُه عَجْزَهُ وقصورَ كفايته ، فالعمل بالعجز [مُضاع][2]؛ وهو نقص فى العاجز وإن لم يكن ذنبا له ؛ فلا يجوز فى السياسة إقرارُه على العمل الذى عَجَزَ عنه . ثم رُوعِى عجزُه بعد عَزْله ، فإن كان لِثِقَل ما تقلّده من العمل جاز أن يُقَلَّدَ ما هو أسهل، وإن كان لقصور مُنَّته وضعف حَزْمِه لم يكن أهلا لتقليدٍ ولا عمل .

(١) كذا فى الأصل . والذى يؤخذ من كتب اللغة أن «تجرّد» يتعدّى بـ «من» .

(٢) التكملة عن «قوانين الوزارة» .

والوجه الثالث : أن يكون سببُه آختلالَ العمل من عَسْفه أو خُرْقه . فهذا السبب زائدٌ على الكفاية، وخارجٌ عن السياسة . والوزير المُقَلَّد فيه بين خِيارين : إما أن يَعزِله بغيره، وإما أن يَكُفَّه عَنْ عَسْفه وخُرْقه . ويجوز أن يكون مُرْصَدًا لتقليد ما تدعو السياسة فيه الى العَسْف لمن شَاقّ ونافر[1] . فقد قيل : لكلّ بِناء أساس، ولكلّ تُرْبة غِراس .

والوجه الرابع : أن يكون سببُه آنتشارَ العملِ به من لِينه وقِلّة هَيْبته . فهذا السببُ مُوهِنٌ للسياسة . والوزير فيه بين خِيارَين : إما أن يَعزِلَه بمَنْ هو أقوى وأهيب، وإما أن يَضُمَّ إليه مَن تتكامل به القوّةُ والهيبةُ . وخيارُه فيه معتَبَرٌ بالأصلح . ويجوز أن يُقَلَّد بعد صَرْفه مالا يُستَضَرُّ فيه بضعفه .

والوجه الخامس : أن يكون سببُه فَضْلَ كفايته وظهورَ الحاجة إليه فيما هو أكبرُ من عمله . فهذا أحمدُ وجوه العزل وليس بعزل فى الحقيقة، وإنما هو نَقْلٌ من عمل إلى ما هو أجلُّ منه، فصار بهذا العزل زائدَ الرتبة . وقد قال بعض البلغاء : الناسُ فى العمل رجلان : رجل يَجِلُّ به العملُ لفضله ورياسته؛ ورجل يَجِلُّ بالعمل لتقصيره ودناءته، فمَن جَلَّ به العملُ آزداد تَواضُعًا وبِشْرًا، ومَن جَلَّ بالعمل آزداد تَرَفُّعًا وكِبْرًا .

والوجه السادس : أن يكون سببُه وجودَ مَن هو أكفأُ[2] منه . فيُراعَى حالُ الأكفأ، فإن كان فضلُ كفايته مُؤثِّرًا فى زيادة العمل به كان عزلُ الناظر به من لوازم

(١) كذا فى قوانين الوزارة . وفى الأصل : « ما تدعو إليه السياسة فيه ... الخ » وظاهر أن كلمة « إليه » مقحمة لغير حاجة . (٢) استعمال « أكفأ » بمعنى أكثر اضطلاعا بالأمر، من الخطأ المشهور، وكذلك كف، وأكفاء فى هذا المعنى، وانما الصواب لغة فى كل هذا : أكفى، وكاف، وكفاة، من الكفاية التى هى الاضطلاع بالأمر وحسن القيام به .

السياسة ولم يَسُغْ فيها إقرارُه على عمله ، وإن لم يُؤَثِّر فى زيادة العمل كان عزلُ الناظر من طريق الأولى فى تقـديم الأكفاء وتخيُّر الأعوان ، وإن جاز فى السياسة إقرارُ الناظر على عمله لنهوضه به .

والوجه السابع : أن يكون سببُه أن يَخْطُبَ عَمَلَه من الكُفاة مَن يبذُل زيادةً فيه . فلا يجوز عزلُه ببذل الزيادة حتى يَكشِف عن سببها ، فربما تَخَرَّص[1] بها الباذلُ لرغبة فى العمل ، أو لعداوة فى العامل . فإن لم يَظْهَر لها بعدَ الكشفِ مُوجِبٌ لم يَجُزْ فى السياسة عزلُه بهذا البذل الكاذب ، وكان الباذل جديرا بالإبعاد لابتدائه بالإدغال[2] . فإن ظَهَرَ مُوجِبُ الزيادة لم يَخْلُ من ثلاثة أقسام : أحدها أن يكون لتقصير الناظر ، فيجب عزلُه . والوزير بعـد عزله بين خِيارَين : إما أن يُقَلِّد الباذلَ أو غيره من الكُفاة . والثانى أن يكون مُوجِبُها فضلَ كفاية الباذل ، فَيجِبُ عزلُه بالباذل دون غيره . والثالث أن يكون سببُها عَسْفَ الباذلِ وخُرْقَه ، فلا يجوز فى السياســة عزلُ الناظر ولا تقريبُ الباذل ، فربما مال إلى الزيادة مَن تَغاضَى عن العدل ، فَعَزَل وقَلَّد فصار هو العاسِفَ المُجازِف .

والوجه الثامن : أن يكون سببُه أن الناظر مُؤْتَمَنٌ ، فيخْطُب عَمَلَه ضامنٌ . فتضمينُ الأعمال خارجٌ عن قوانين السياسة العادلة ، لأن المُؤْتَمَنَ عليها إذا كان كافيا آستَوْفَى ما وَجَبَ ، وكَفَّ عما لم يَجِب ، وهذا هو العدل . والضامنُ إن ضَمِنَها بمثل آرتفاعها لم يُؤْثِر ، وإن ضَمِنَها بأكثَرَ منه تَحَكَّمَ فى عمله ، وكان بين عَسْفٍ أو هَرَب ، لأنه ضَمِن لِيَغْنَمَ لا لِيَغْرَمَ . وحُـكِى أن المأمون عَزَم على تضمين السُّوَّاد ، وعنـده عُبَيدُ الله

(١) تخرص : افترى وكذب . وفى الأصل «فربما تحرص ...» ، وفى قوانين الوزارة «فربما يخرجه ...» . وما وضعناه يظهر أنه المناسب للسياق . فلعل ما فى الأصل يكون محرفا عنه .

(٢) الإدغال هنا : الوشاية والخيانة .

ابن الحسن العَنْبَرِىّ القاضى ؛ فقال له : [يا أمير المؤمنين](١) إن الله قد دَفَعها إليك أمانة، فلا تُخْرِجْها من يدك قَبَالَة(٢) . فَعَدَل عن الضَّمان .

فهذا تفصيلُ ما تَعَلَّق بوزارة التفويض من عَقْدٍ وحَلٍ وتقليدٍ وعَزْلٍ . فلنذكر حُقُوقَ المَلِك على وزِيره وحقوقَ الوزير على مَلِكه .

ذِكر حقوق المَلِك على وزيره وحقوقِ الوزيرِ على مَلِكه

فأما حقوق السلطان على وزيره فهى ثلاثة :

أحدها : قِيامُه بمصالح مُلْكه، وهى أربع : عِمارةُ بلادِه، وتقويمُ أجناده، وتثميرُ أمواله، وحِياطةُ رعيّته .

٤٦

والثانى : قيامُه بمصالح نَفسِه، وهى أربع : إدرارُ(٣) كفايتِه، وتحمُّلُ عَوارِضه، وتهذيبُ حاشيته، وإعدادُ ما يستدفِع به النوائب .

والثالث : قيامُه بمقاومة أعدائه، وذلك بأربعة أشياء : تحصين الثُّغور، واستكمال العُدّة، وترتيب العساكر، وتقدير الحدود . فيجب على الوزير أن يؤدِّىَ حقوقَ سلطانه، ويُوَفِّىَ شروط ائتمانه ؛ ويحذَرَ بادِرةَ مُؤاخَذَته إن قصَّر، وسَطْوَةَ انتقامه إن فَرَّطَ ؛ لأن بادِرَةَ الانتقام، أسرعُ من ظهور الإنعام ؛ [لأن الانتقام يَصْدُر عن طَيْش الغضب، والإنعامَ يَصْدُر عن أَناةِ الكرم](١) . وقد قيل فى حِكَم الفُرس : ما أضعفَ طَمَعَ صاحبِ

---

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) القبالة : الكفالة . من قبل (من باب نصر وضرب وسمع) بمعنى كفل . ومعناها هنا : أن يعطى السلطان عاملا أو أن يقبل العامل عملا من أعمال السلطان يستغله فى مقابل مقدار معين من المال يتكفل بأدائه إليه .

(٣) كذا بالاصل، وفى قوانين الوزارة "إدراك" .

السلطان فى السلامة . وذلك أنّه إن عفّ جَنَى عليه العَفافُ عداوةَ الخاصة ، وإن بَسَطَ يدَه جنى عليه البَسْطُ ألسنة المُتَنَصِّحين. فلَزِم لذلك أن يكونَ حَذَرُه أغلب من رجائه، وخوفُه أكثرَ من أَمْنه . ولئن تكدّرَ بهما العيش فهما إلى السلامة أدعى .

وأما حقوقُ الوزير على السلطان فثلاثةٌ : أحدُها : معونتُهُ على نظره . وذلك بأربعة أشـياء : تقوية يدِه، وتنفيذ أمرِه، وإطلاق كِفايتِه، وألّا يجعَل لغيره عليه أمْرًا . وقد قال سَابُورُ بن أردَشيرَ فى عهده إلى ابنه هُرْمُزَ : ينبغى للوزير أن يكون قَوِىَّ الأمر، مقبولَ القول، يمنَعُه مكانُه منك، من الضراعة لغيرك، وتبعَثُه الثِّقةُ بك، على بَذْل النصيحة لك، ويُشجِّعه مَا يَعْرِف من رأيك، على مقاومة أعدائك، وأُحذِّرُك أن تُنْزِل بهذه المَنْزِلة مَن سِواه مِن خَدَمك .

والثـانى : أن يَثِقَ منـه بأربعة أشياء : ألّا يُؤاخِذَه بغير ذَنْب، وألّا يَطْمَعَ فى مالِه من غير خِيانة، وألّا يُقدِّم عليه مَن هو دونه ، وألّا يُمَكِّنَ منه عَدُوًّا . وقد عَهِد مَلِكٌ إلى ابنه فقال : يَا بُنَىَّ ، إنّك لن تَصِل إلى إحكام ما تريده من تدبير مُلْكِك إلا بمعونة وزرائِك وأعوانك ، فأعِنْهـم على طاعتك بمُيَاسرتك ، وعلى معونتـك بمساعدتك .

والثالث: أن يحفَظَ منزلتَه من أربعة أشياء: [الأوّل](١) ألّا يَرْتابَ بباطنه وظاهِرُه سليمٌ، فيُؤاخِذَ بالظن، ويَعجِزَ عن دفعه باليقين ؛ فليس يُؤاخِذُ بضمائر القلوب، إلّا علّام الغيوب. قيل لِكِسْرَى قُبَاذ: إنّ قوما من خواصِّك قد فَسَدَت سرائرُهم؛ فوَقَّعَ: أنا أَمْلِكُ الأجسادَ دون النيّات، وأحْكُمُ بالعدل لا بالرضا ، وأفْحَصُ عن الأعمـال لا عن السرائر. والثـانى : ألّا يستبدِل به ونظرُه مستقيم، فيقلّ نفعُه، ويضعُفَ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

نشاطُه ، ولا يُجهِد نفسَه فى النهوض بمـا كلّفه ؛ فإن داعِىَ الطبع أبلغُ من مصنوع التكلُّف . وقد اتّخذه لاستقامةٍ وجدها به . فإذا أضاع حَقَّه بالاستبدال ظلَم نفسه ، وكان من غيره على خَطَر . وقد قال كِسْرَى : الوزارةُ أبعدُ الأمور من أن تَحْتَمِل غيرَ أهلِها . لأن الوزير من المَلِك بمنزلة سَمْعِه وبصرِه ولِسانِه وقلبِه ، لأنه مغلق الأبواب ، مستور عن الأبصار ؛ ليحفَظَه فى أمواله ، ويستُرَ خَلَلَه فى أفعاله ؛ وحقيقٌ بمن كان بهذه المنزلة[1] أن يكون محفوظا . والثالث : ألّا يؤاخِذه بدَرْك ما جرّه القضاءُ وساقه القَدَرُ ، فيجعلَه غَرَضا فى معارضة خالقه . وهل الوزيرُ فيه إلا كالمَلِك ! فأفعال الله عزّ وجلّ لا تكون ذُنُوبا لعباده . وقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " إذا أراد اللهُ إنفاذَ قضائه وقَدَرِه سَلَبَ ذوِى العقولِ عُقُولَهم حتى يَنْفُذَ فيهم قضاؤُه وقَدَرُه"[2] . والرابع : ألّا يُحمِّلَه ما ليس فى قُدرته ، ولا يُكلِّفَه ما ليس فى طاقتـه ، فلا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلّا وُسْعَها . وما ذاك إلّا من دواعى التَّجَنِّى ، ومبادئ التنكُّر .

فهذه حقوقُ الوزير على سلطانه . وهى مُقابِلة لحقوق السلطان على وزيره . لكنّ حقوقَ الوزير موضوعةٌ على المسامحة فى أكثرها ، وحقوقَ السلطان موضوعةٌ على المؤاخَذة بأقلها ؛ لاستطالته عليه بالقُدرة وقصورِه عنه بالنيابة .

وحيث ذكرنا هـذه الحقوقَ الداخلةَ فى وزارة التفويض فلنذكُرْ وزارة التنفيـذ .

---

(١) فى الأصل « وحقيق على من ... » .

(٢) هكذا فى الأصـل وفى قوانين الوزارة وفى مسند الفردوس للديلمىّ . وفى الجامع الصغير زيادة نصها : "فإذا مضى أمره ردّ إليهم عقولهم ووقعت الندامة" .

ذكر وزارة التنفيـــذ

قال المـاوردىّ ما معناه : إنّ لوزارة التنفيذ أربعةَ قوانين :

فالأوّل من قوانينها : السِّفَارةُ بين المَلِك وأهـلِ مَمْلكتِه ، لأنّ المَلِك مُعَظَّمٌ بالحِجاب ، مَصُون عن المباشرة بالخِطَاب ؛ فاقتضى ذلك آختصاصَهُ بسَفِيرٍ مُحْتَشِمٍ ووزيرٍ معظَّم مُطاعٍ فيما يُورِده عنـه من الأوامر والنواهى ، ويُهاب فيما يتحمله إليه من المطالِب والمباغِى . ليكون للملك لسانا ناطِقا ، وأُذُنا واعِية . وهـذه السِّفارة مختصّة بخمسة أصناف : ٥ (٤٧)

أحدها : السِّفارة بين المَلِك وأجناده ، فيَحْمِلُهم على أوامره ونواهيه ، ويَتَنَجَّزُ لهم من المَلِك[1] ما آستوجبوه أو سألوه . ويحتاج فى سِفَارته معهم أن يَجْمَعَ بين اللِّين والعُنف ، والخشونة واللُّطف ؛ ليقتادَهم[2] إلى طاعته بالرغبة والرهبة . ١٠

والثانى : السفارة بين المَلِك وعُمَّاله ، فيَستوفِى مُنَاظرةَ العُمّال ويتصفّح أحوالَ الأعمال ؛ لِيَسْتَدرك خَلَلًا إن كان ، ويَستدِيمَ صلاحا إن وُجد . ويحتاج فى هـذه السفارة إلى آستعمال الرَّهبة خاصّةً ؛ ليَكُفَّهم عن الخيانة ، ويَبْعَثَهم على الأمانة .

والثالث : السّفارة بين المَلِك ورعيَّته ، ليَتَصَدَّى لإنصافهم ، ويُصغِىَ إلى ظُلاماتِهم ؛ فيُمضِى ما تَيَسّر له ، ويُنْهِى ما تعسّر عليه . ويحتاج فى هذه السفارة إلى آستعمال اللِّين واللُّطف ؛ ليصِلوا إلى آستيفاء الظُّلامة ، ويَستدْفِعوا ذُلّ الآستِضَامة . ١٥

---

(١) فى الأصل « عن الملك » .

(٢) فى الأصل : « لايقتادهم ... » وظاهر أنه تحريف . وفى « قوانين الوزارة » لاقيادهم ... » وهذا أيضا لايتفق مع السياق .

والرابع: السفارة فى آستيفاء حقوقِ السُّلطنة التى لِلمَلِك وعليه، من غير مباشرةِ قبض ولا إقباض[(١)]. ويحتاج فى هـذه السفارة إلى الرهبـة فيما يَستَوْفيه للمَلِك، وإلى اللُّطف فيما يَتَنَجّزه منه.

والخامس السفارة فى آختيار العُمّال، ومُشارفة الأعمال؛ لِيُنْهِىَ حالَ مَن يَرَى تقليدَه وعزلَه من غير أن يُباشر تقليدا ولا عزلا؛ لانّ التقليدَ والعزل داخل فى وزارة التفويض خارج عن وزارة التنفيذ. وشروطُ هذه السفارة: أن يكون جَيِّدَ الحَدْس، صحيحَ الآختيار، قليلَ الآغترار، عارفا بكُفاة[(٢)] العُمّال ومقاديرِ الأعمال، ليُحْمَدَ آختيارُه، ويَقِلَّ عِثارُه.

والثانى من قوانينها: أن يُمِدّ المَلِك برأيه ومَشورتِه؛ فإن المَلِكَ مع جزالة رأيه وصِحّةِ رويّتـه محجوبُ الشخص عن مباشرة الأمور، فصار محجوبَ الرأيِ عن الخبرة بها. فاحتاج إلى بارِزِ الشخص بالمباشرة، ليكون بارِزَ الرأى بالخِبْرة؛ فليس الشاهد كالغائب، ولا المُخـبَرَ كالمعاينِ. والوزير أَحَقُّ بهذه المرتبة. وله فى المشورة حالتان:

إحداهما: أن يَبتدِئه المَلِكُ بالآستشارة، فيلزَمه أن يُشيرَ فيها برأيه سواء آختصّت بمُلْكه أو تعدّت إلى غيره. وعلى الوزير فيها حقّان: أحدهما: اِجتهاد رأيه فى إيضاح الصواب. والثانى: إبانةِ صِحّتِه بتعليل الجوا بكون مُجيبا ومحتجًّا؛ فيُكْفَى توهُّمَ الزَّلَل ويَسْلَم من ظِنّة الآرتياب.

---

(١) قبض وإقباض: أى تسلم وتسليم. والموجود فى كتب اللغة التى بين أيدينا متعديا من هذه المادة «قبّض» بالتضعيف. ويصح «إقباض» على القول بأن تعدية الفعل بالهمزة قياسية.

(٢) كفاة: جمع كاف، من الكفاية وهى الاضطلاع بالأمر.

والحالة الثانية : أن يَبتدئ الوزيرُ بالمشورة على المَلِك، فله فيها حالتان :

إحداهما: أَلّا يَقَعَ بمشورته آجتلابُ نفعٍ ولا آستدفاعُ ضرر. فهذا تجوُّز من الوزير، وتبسُّطٌ على المَلِك؛ إن أنكره فبحقه، وإن آحتمله فبفضله .

والثانية: أن يتعلّق بمشورته آجتلابُ نفع، أو آستدفاعُ ضرر . فإن آختصّ بالمَملكة كان من حقوق الوزارة، وإن تجاوزها كان من نُصح الوزير. وعليه أن يذكُرَ سبب آبتدائه، ويُوضِّحَ صوابَ رأيه . ويلزمه فيما يُؤَدِّى به من الآستشارة ويبدأ به من المشورة، أن يَكْتُمَه عن كل خاصّ وعامّ؛ لأمرين :

أحدهما : أن الرأى لا يجب أن يَظْهر إلا بالأفعال دون الأقوال؛ لأن ظهورَهُ بالفعل ظَفَر، وظهورَه بالقول خَطَر . وقد قيل: من وَهْنِ الأمرِ إعلانُهُ قبل إحكامِه .

والثانى: أنه من أسرار المَلِك التى يَجِب أن تُكْتَمَ فى الصدور، وتُصانَ عن الظهور؛ ليَجْمعَ بين تأديةِ الأمانة وطلبِ السلامة؛ فإن فى إفشاء سِرِّ المَلِك خطرا به وبمن أفشاه . وقلّما تعفو الملوكُ عن مُفشِى أسرارِها؛ لتردُّده بين خِيانة وجِناية .

والثالث من قوانينها: أن يكون عينا للملك ناظرة، وأُذُنًا سامعة، يُنْهِى ما شاهد على حَقِّه، ويُخبِر بما سَمِع على صدقه؛ لأنه قد سُوهِم فى الملكِ ومُيِّزَ بالآختصاص، ونُدِب للمصالح؛ فهو القائم مقام الملك فى مشاهدة ما غاب، وسماعِ ما بَعُد . وعليه فى ذلك ثلاثة حقوق :

أحدها : أن يُديم الفحصَ عن أحوال المملكة حتى يَعْلَمَ ما غاب كعلمه بما حضر، وما خَفِىَ كعلمه بما ظهر؛ فلا يَتَدَلَّسُ عليه حَقُّ أمرٍ[1] من باطله، ولا يَشْتبهُ

(١) كذا فى قوانين الوزاره . وفى الاصل : «حق امرئ ...» .

عليه صِدْقُ قوبٍ من كَذِبه. فإن قَصَّرَ فيها حتى خَفِيت، أو آسترسل فيها حتى تدلّست كان مُؤاخَذًا بجُرْم التقصيرِ، وجريرةِ الضرر.

والثانى: أن يُعَجِّلَ مطالعة المَلِك بها ولا يُؤَخِّرَهَا، وإن جاز تأخيرُ العمل بها؛ لأن عليه الإنهاءَ، وليس عليه العمل. وإذ كان من المَلِك بمنزلة عينِـه وأذُنه اللتين يتعجّل [العلم](١) بهما، وجب أن يَجرِىَ معه على حكمِهما؛ لِيَستدْرِك المَلِكُ ما يجب تعجيلُه، ويُقدِّم الرَّوِيَّة فيما يجوز تأخيره. فإن أخّر الوزيرُ إعلامَ المَلِك بها وقد حَسَم ضررَها، كان للنصيحة مؤدِّيا، ومن المَلِك على وَجَل.

والثالث: أن يُوَضِّح له حقائقَ الأمور، ويُساوِىَ فيهـا بين الصغير والكبير، فلا يُمـايِل(٢) قريبا، ولا يتحيّف بعيدا، ولا يُعظِّم من الأمور صغيرا، ولا يُصغِّر منها عظيما. فإن خاف من صِغار الأمور أن تصير كِبارا، أو كِبارها أن تَعُودَ صِغارا، أخبر بحقائقها فى المبادئ، وذكر ما تؤول إليه فى العواقب؛ ليكون بالمبادئ مُخْبِرا، وفى الغايات مُشيرا. فإن أخبر بالغايات وأعرض عن ذكر المبـادئ، كان تدليسا، وكان بالإنكار حقيقا وبالذمّ جديرا. (٤٨)

والرابع من قوانينها: أن يَفْتـدِىَ راحةَ الملك بتعبه، ويَقِىَ دَعَتَه بنَصَبِه؛ ولا يَغِيب إذا أُريد، ولا يَسأَم إذا أُعيد؛ لأنه لِسانُ المَلِك إذا نَطَق، وعينُه إذا رَمَق، ويدُه إذا بَطَش؛ فلا يَبعُدُ عن دعائه، ولا يَضْجَر من ندائه؛ لأن عوارِضَ المَلِك من هواجِس أفكاره وتقلُّبِ خاطره. وقد يتجدّد مع الأوقات مالا(٣) تُعرف أسبابُه، ولا تتعيّن

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة».

(٢) مايله: مالأه وساعده.

(٣) كذا فى قوانين الوزارة. وهو الذى ينسجم به الكلام. وفى الأصل: مالم تعرف ...».

أوقاته ؛ فليكن هذا الوزيرُ[(١)] على رَصدٍ منها . وربما مَلّ الوزير الملازمة فأعقبته أسفا إذا فارقها ، لأن فى ملازمته للمَلِك نَصَبًا يقترن بعزٍّ ، وفى متاركته راحة تؤول إلى ذُلّ . فليختر لنفسه ما وافقها من عز يجتذبه بالكدّ ، أو ذلٍّ يؤول إليه بالدَّعَة . فإنه إن صَبَرَ على ما أراده المَلِك ظَفِر بإرادته من المَلِك ، وهو على الضدّ إن خالفها . وقد قال أنوشِرْوَانُ : ما آسْتُنْجِحت الأمورُ بمثل الصبر ، ولا آكْتُسِبت البغضاءُ بمثل الكِبر . وقيل : من خَدَمَ السلطانَ خدمه الإخوانُ . فيَطَّرِد على هـذا التعليل أنّ من تنكَّر له السلطان ، تنكَّر له الإخوان . هذه قوانينُ وزارةِ التنفيذ .

ذكر ما تتميز به وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وما تختلف فيه .

وتتميز وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وتختلف من ستة أوجه :

أحدها : أن الملِك يُقَلِّد وزير التفويض فى حقوقه وحقوقِ رعيتِه ، ويقلّد وزير التنفيذ فى حقوقه خاصة دون حقوق رعيته ؛ لأنّ وزيرَ التفويض تُنَفَّذ الأمورُ برأيه ، ووزيرَ التنفيذ يُمضِيها بأمر الملِك وعن رأيه .

والثانى : أن وزارة التفويض تَفتقِرُ إلى عَقد يصح به نُفوذُ أفعاله ، ووزارة التنفيذ لا تفتقِر إلى عقد ، لأنه فيها مأمورٌ بتنفيذ ما صدر عن أمر الملِك .

والثالث : أن وزيرَ التفويض مأخوذٌ بدَرْك ما أمضاه ، ووزيرَ التنفيـذ غيرُ مُؤَاخذٍ بدركه .

والرابع : أن وزيرَ التفويض لا ينعزل إلا بالقول أو ما فى معناه دُونَ المتارَكة ، [لأنه قد تَمَلَّك بها مباشرةَ الأمورِ][(٢)] ، ووزيرَ التنفيذ ينعزل بالمتارَكة لأنه مأمورٌ .

---

(١) ظاهر أن كلمة « هذا » هنا قلقة فى مكانها إلا أذا أريد الإشارة الى الوزير الذى سبق الكلام فيه وهو وزير التنفيذ دون وزير التقليد .

(٢) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

والخامس: أن وزير التفويض لا ينعزل إن كفّ وترك، حتى يَستعفِيَ ويُعفِيَه الملِكُ منها، لأنه مستودَع الأعمال فلزِمه ردُّها إلى مستحِقّها، ووزير التنفيذ يجوز أن ينعزِل بعزل نفسِه بالكفّ والمتاركة، لأنه لا شيء بيده فيؤخذ بردِّه.

والسادس: أن وزيرَ التفويض يفتقِرُ إلى كِفاية بالسيفِ والقلمِ، لنُهوضه بما أوجبَهُما، ووزارة التنفيذ غير مفتقِرة إليهما لقصورها عنهما.

ويُعتبر في وزير التنفيذ ستة أوصاف: وهي الأُبّهة والمُنّةُ والهِمّة والعفّة والمروءة وجزالة الرأي. وهذه الأوصاف معتبرة في كل مُدبِّر ذي رِياسة.

ذكر حقوق الوزارة وعهودها ووصايا الوزراء

أما حقوق الوزارة — فهي أن تُقلَّد لمن آجتمعت فيه ثمانيةُ أوصاف، وهي التي ذكرها الماورديّ في قوانين الوزارة، وبيّنها بالنص والتعيين لا بالتعريض والإشارة:

فأحدها: أن يكون بأعباء الوزارة ناهضا، وفي مصالح المملكة راكِضا؛ يقدِّم حظّ الملِك على حظ نفسِه ويعلم أن صلاحه مقترِن بصلاحه؛ فلن تستقيم أحوال الوزير مع آختلال أحوال الملك، لأن الفروع إنما تستمدّ من أصولها.

والثاني: أن يكون على الكدّ والتعب قادرا، وفي السخط والرضا صابرا؛ لا ينفِر ان أُوحش، فإن نفوره عَطَب. وليتوصّل إلى راحته بالتعب، والى دَعَته بالنصَب. وقد قيل: عِلّة الراحة قِلّة الآستراحة. وقال عبد الحميد: أَتعِب قدمَك، فكم تعِب قَدَمك! . فإن تشاغل الوزير براحته، ومال إلى لَذّته، سُلِبهما بالتنكُّر، وعَدِمهما بالتغيُّر.

والثالث: أن يكون لإحسان الملك شاكرا، ولإساءته عاذرا، يشكر على يسير الإحسان، ويعذر على كثير الإساءة، ليستمدّ بالشكر إحسانَه، ويستدفع بالعذر إساءَته. فإن عدل عنهما، كان منه على ضدّهما. فقد قيل: أحق الناس بالمنع الكَفور، وبالصنيعة الشَّكور.

(٤٩) والرابع: أن يُظهِر محاسنه إن خفيت، ويستر مساويه إن ظهرت، لأنه بمحاسنه موسوم وبمساويه مقروف، يشاركه في حمد محاسنه، ويُؤاخَذ بذمّ مساويه. وربما آسترسل الملك لثقته بالاحتجاب، فآرتكب بالهوى مايصان عن إذاعته، فكان الوزير أحقَّ بستره عليه، لأنه الباب المسلوكُ منه إليه.

والخامس: أن تخلُص نيّتُه في طاعته، ويكونَ سِرُّه كعلانيته، فإن القلوب جاذبة تملك أعنة الأجساد؛ فإن آتفقا، وإلا فالقلب أغلب، وإلى مراده أجذب. والقلوب تَنُمّ على الضمائر فتَهتِكُ أستارها وتُذيع أسرارها. وقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "في آبن آدم مُضْغَةٌ[1] إذا صلَحتْ صلَح الجسدُ وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب".

والسادس: ألّا يعارِض الملك فيمن قرّب وآستبطن، ولا يمارِيَه فيمن حَطَّ ورفَع؛ فإنه يتحكّم بقدرته ويأنَف من معارضته. فربما آنقلب بسَطْوته إذا عورِض، ومال بانتقامه إذا خولِف. فبَوادر الملك تسبِق نذيرَها، وتُدْحِض أسيرها؛ فإن سلِم من الخطر لم يسلَم من الضجر.

(١) كذا في الأصل وفي قوانين الوزارة. غير أن الأصل لم تذكر به كلمة "الجسد" في الموضعين، ونصه في البخاري من حديث طويل "ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" وفي النهاية لابن الأثير "إنّ في آبن آدم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله".

والسابع : أن يتقاصر عن مُشاكلة الملِك فى رتبته ، ويقبِض نفسه عن مثل هيئتِه ، فلا يَلبَس مِثل ملابِسه ، ولا يركبَ مِثل مراكبِه ، ولا يَستخدِمَ مثل خدمه ؛ فإن الملِك يأنَف إن مُوثِل ، وينتقِم إن شُوكِل ، ويرى أن ذلك من أمواله المُجتاحة ، وحِشمتِه المستباحة . وليُقتصِرْ على نظافة لباسِه وجسدِه من غير تصنُّع ، فإن النظافة من المُروءة ، والتَّصَنُّع للنساء ؛ ليكون بالسلامة محفوظا ، وبالحشمة ملحوظا .

والثامن : أن يستوفِيَ للملِك ولا يستوفِيَ عليه ، ويتأوّل له ولا يتأولَ عليه ؛ فإن الملِك إذا أراد الإنصاف كان عليه أقدرَ ، وإن لم يُرِده فيَدُ الوزير معه أقصرُ ؛ وإنما أراد الوزيرَ عونا لنفسه ولم يرده عونا عليها . فإن وجد إلى مساعدته سبيلا سارع إليها ، وإن خاف ضررَها وانتشارَ الفسادِ بها تلطّف فى كفّه عنها إن قَدَر . فإن تعذّر عليه تلطّف فى الخلاص منها ؛ ولا يَجهر بالمخالفة . سئل بعض حكماء الروم عن أصلح ما عوشِر به الملوكُ ، فقال : قِلة الخِلاف وتخفيفُ المُؤنة . والملوك لا يُصْحَبون[1] إلا على اختيارِهم ، ولا يتمسّكون إلا بمن وافقهم على آرائهم . وإذا روعِيت أحوالُ الناس وُجِدوا لا يأتلِفون إلا بالمُوافقة ، فكيف الملوكُ ! قال شاعر :

النـاس إن وافقتهم عَذُبوا * أَوْ لا فإنّ جَناهُمُ مُرُّ
كم من رِياضٍ لا أنيسَ بها * تُرِكتْ لأنّ طريقها وَعْرُ

✣
✣ ✣

وأما عهودها ووصاياها — فلم أَرَ فيما طالعتُه فى هذا المعنى أشملَ ولا أكمل ولا أنفع ولا أجمعَ من كلامٍ لأبى الحسن الماوَرْدىّ ؛ فلذلك أوردتُه بفَصّه ، وأتيت على أكثرِ نصّه .

(١) فى الأصل : «لا تصحب» وهو وإن صح الا أنه لا يتناسب مع الضمائر التى بعده .

قال الماوردى : فأما العهود الموقظة فسأقول، وأرجو أن يقترن بالقبول : اجعل أيها الوزير رُقبة تعالى على سرّك رقيبا يلاحظُك من زَيْغ فى حقه، واجعل لسلطانك على خَلوتك رقيبا يكفُّك عن تقصير فى أمره ؛ ليَسلم دينك فى حقوق الله تعالى، وتسلمَ دنياك فى حقوق سلطانك، فتسعدَ فى عاجلتك وآجلتك. فإن تَنافى اجتماعُهما لك فقدِّم حقَّ الله تعالى على حق الملك . فلا طاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق . وقد ٥ رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَن أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بآخرته ومَن أَحَبَّ آخرتَه أَضرَّ بدنياه [فآثِروا ما يَبقى على ما يَفنى](١)" وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من ٱلتَمَسَ رِضَا الله بسَخَط الناسِ رَضِى الله عنهُ وأَرْضَى عنه الناسَ" . قال : حقّ(٢) عليك أيها الوزير أن تكون بأمور الناس خبيرا ، و إلى أحوالهم مُتطلِّعًا، وبهم على نفسك وعليهم مُستظهِرا ، لأنهم مِن بين مَن تسوسه أو تستعين به، لتعلم ١٠ ما فيهم من فضل ونقص وعِلم وجهل وخير وشرّ، وتتحرّز من غرور المُتشبه(٣) وتدليس المُتصنّع ؛ فتعطِىَ كل واحد حقَّه، ولا تقصِّرَ بذى فضل، ولا تعتمد على ذى جهل. فقد قيل : من الجهل صُحبةُ ذوِى الجهل، ومن المُحال مجادلة ذوى المِحال. وٱفرِق بين الأخيار والأشرار، فإنّ ذا الخيرِ يبنى، وذا الشرِّ يهدِم . وٱحذر الكذوب فلن ينصحَك مَن غَشَّ نفسَه ؛ ولن ينفعَك مَنْ ضَرَّها . ولا تستكفِين عاجزا فيضيِّعَ ١٥ العمل، ولا شَرِهًا فيضرَّك باحتِجانه(٤) . ولا تعبأ بمن لا يحافظ على المروءة، فقلما تجِد فيه خيرا ؛ لزهده فى صيانة النفس وميلِه إلى خمول القدر . وبعيدٌ ممن أَسقط حق

(١) تتمة الحديث عن قوانين الوزارة وعن الجامع الصغير .

(٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل «حقيق» وهو غير ملائم لما هنا .

(٣) كذا فى قوانين الوزارة، ولعل المتشبه : من يظهر بغير ما فطر عليه من صفات ومواهب، بأن يظهر ٢٠ مظهر ذى الكفاية والفضل وليس به . وفى الأصل : «المشبه» وهو تحريف .

(٤) احتجن المال : ضمه لنفسه وٱحتواه .

نفسه أن يقوم بحق غيره، وصعبٌ على من أَلِف إسقاط التكلف أن يَحُول عنه . وقد قيل فى حِكم الهند : ذو المروءة يرتفع بها ، وتارِكها يهبط ؛ والآرتقاء صعب والآنحطاط هين، كالحجر الثقيل الذى رفعُه عسير وحطُّه يسير . (٥٠)

وقال بعض البلغاء : أَحْسِنْ رِعايةَ ذوِى الحُرُمات، وأقبِل على أهل المُروءات؛ فإن رِعاية [ذوى][1] الحرمة تدلّ على كرم الشيمة، والإقبال على ذوى المروءة يُعرِب عن شرف الهِمة[2] . إختبِر أحوال من آستكفيته لتعلم عجزه من كِفايته، وإحسانَه من إساءته؛ فتعملَ بما علمت من إقرار الكافى وصرف العاجز، وحمدِ المحسن وذمّ المسيء . فقد قيل: من آستكفى الكُفاة، كُفِيَ العُداة. فإن آلتبست عليك [أمورهم][1] أوهنت الكافِيَ وسلّطت العاجز، وأضعت المحسن وأغريت المسيء . ولأن يكون العمل خاليا فتصرِفَ إليه فِكرك أولى من أن يباشره عاجز أو خائن فيقبُحَ بهما أثرك. فآحذر العاجز فإنه مضيِّع، وتوقَّ الخائن فإنه يَكْدَح لنفسه . قال شاعر :

إذا أنت حَمّلت الخؤونَ أمانةً * فإنك قد أسندتها شرّ مُسنِدِ

اِقتصِر فى أعوانك بحسب حاجتِك إليهم . ولا تستكثِر منهم لتكثُرَ بهم . فلن يخلو الآستكثارُ من تنافرٍ يقع به الخللُ، أو آتفاقٍ يُستأْكَلُ به العمل. وليكن أعوانُك وَفْقَ أعمالِك، فإنه أنظم للشَّمْلِ وأجمعُ للعمل وأبلغُ فى الآجتهاد وأبعثُ على النصح . قال آبن الرومى :

عدوُّك من صديقِك مستفادٌ * فلا تَسْتكثِرنّ من الصِّحَابِ

فإنّ الداءَ أكثرُ ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب (٥١)

---

(١) التكملة عن قوانين الوزارة .

(٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل : «والإقبال على ذوى المروءة يعرف من شرف المروءة» .

فدعْ عنك الكثيرَ فكم كثيرٍ * يعُاف وكم قليـلٍ مُستطابِ
فمـا اللُّجَجُ المِلاحُ بِمُرويات * وتلق الرِّىَّ فى النُّطَفِ العِذاب

هَذِّبْ نفسك من الدنَس تتهذبْ جميعُ أتباعِك . ونَزِّهْ نفسَك عن الطمع تتنزهْ جميع خلفائِك . وتوقَّ الشرَهَ فلن يزيدَك إلا حِرصا إن أَجْديت[1]، ونقصا إن أَكْديت، وهما مَعرّة ذى الفضل ومَضَرّة أولى الحزم . رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اقتربت[2] الساعة ولا يزدادُ الناسُ فى الدنيا إلا حِرصا ولا تزداد منهم إلا بُعدا".

رُضْ نفسك عن الطمع يتنزهْ جميعُ عمّالك، وتنتظِمْ بك جميع أعمالِك[3]. ولا تَكِلْ إلى غيرك ما تختصّ بمباشرته[4] طلبا للدَّعة ، فتعزِلَ عنه نفسَك وتؤثِرَ به غيرَك؛ فتكونَ من وفائه على غَدْر، ومن نفسِك على تقصير. قال بُزُرْجمِهْر: إن يكن الشغل مجْهَدَة، فإن الفراغ مَفْسَدَة . وقال عبد الحميـد : ما زانَك ما أضاع زمانَك، ولا شانك ما أصلح شانك .

اِجعل زمان فراغِك مصروفا إلى حالتين : إحداهما راحةُ جسـدِك وإجمامُ خاطرِك، ليكونا عونا لك على نظرِك . والثانية أن تفكر بعـد راحةِ جسدِك وإجْمامِ خاطرِك فيما قدّمته من أفعالك ، وتصرّفت فيه من أعمالك : هل وافقتَ الصواب

(١) أجدى : أصاب الجدوى وظفر بمـا يريد . والجدوى : العطية . وأكدى : أخفق ولم يظفر بحاجته ، أى ان الشرَهَ يزيد صاحبه مع الفوز حرصا ، ومع الإخفاق نقصا .

(٢) نصه فى الجامع الصغير : " اِقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصا ولا يزدادون من الله إلا بعدا " . وفى مسند الفردوس للديلمىّ كرواية الاصل إلا أنه يتفق مع رواية الجامع الصغير فى " على الدنيا " بدل " فى الدنيا " .

(٣) كذا فى الاصل والذى فى قوانين الوزارة : "رض نفسك بمشارفة الأعمال يرهبك جميع عمالك وينتظم به جميع أعمالك" .

(٤) فى قوانين الوزارة : « ما يختص بمباشرتك ... » .

فيه فتقوّيَه وتجعلَه مِثالا تحتذيه، أو نالك فيها زَلَلٌ فتستدركَ منه ما أمكن، وتنتهِى عن مثله فى المستقبل. فقد قيل: من فكّر أبصر. وقال بعض البلغاء: من لم يكن له من نفسه واعظ، لم تنفعه المواعظ.

اِخفِض جَناحك لمن علا، ووطّئ كَنَفَك لمن دنا، وتجافَ [عن](١) الكِبر تملِكْ من القلوب مودّتها، ومن النفوس مساعدتَها. فقد قيل لحكيم الروم: مَن أضيقُ الناس طريقا، وأقلُّهم صديقا؟ قال: مَن عاشر الناس بعُبوس وجهِه، وآستطال عليهم بنفسه. ولذلك قيل: التواضع فى الشرف، أشرف من الشرف.

كن شكورا فى النعمة، صبورا فى الشدّة، لاتُبطِرُك السراء، ولاتُدهِشُك الضراء؛ لتكافأ أحوالك، وتعتدِل خِصالك؛ فتسلمَ من طيش البطر وحيرة الدَّهَش. فقد قال بعض الحكماء: اِشتغِلْ بشكر النعمة عن البطر بها. وقيل فى أمثال الهند: العاقل لايَبْطَر بمنزِلةٍ أصابها ولاشرفٍ وإن عظم، كالجبل الذى لايتزلزل وإن آشتدّت الرياح، والسخيف تُبطِره أدنى منزِلةٍ كالحشيش الذى تحرّكه أدنى رِيح.

اِستدِمْ مودّةوليِّك بالإحسان [إليه](١)، وآستسِلَّ سخِيمة عدوّك بعد الاحتراز منه، وداهِن من يجاهِرك بعداوتك. فقد قيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: مُداجاة الأعداء، ومؤاخاة الأكْفاء. ولا تعوّل على التهم والظنون [وآطّرح الشك باليقين](١). فقد قيل: لا يُفسِدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له. قال شاعر:

إذا أنت لم تبرح تظنّ وتقتضِى * على الظن أرْدَتْك الظنونُ الكواذِبُ

وآختبِر من آشتبهتْ حاله عليك، لتعلمَ معتقدَه فيك، فتدرِىَ أن تضعه منك؛ فإن الألسن لاتَصْدُق عن القلوب؛ لما يتصنّعه المداجى ويتكلّفه المداهن. وشهادات

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة».

القلوب أصدق، ودلائل النفوس أوثق. فإن وقفتْ بك الحال على الأرتياب، آعتقدتَ المودّة فى ظاهره، وأخذت بالحزم فى باطنه. و إذا أقنعك الإغضاء عن الآختبار فلا تتخطّه، فأكثر الأمور تمشى على التغافل والإغضاء. فقد قال أكثم بن صَيْفِىّ: من تشدّد نفّر، ومن تراخى تألّف، والسَّرْوُ[1] فى التغافل. ولقلما جُوهِر المغضى وقُوطِع المتغافل، مع آنعطاف القلوب عليه، وميل النفوس إليه. وهذا من أسباب السعادة وحسن التوفيق.

شـاوِرْ فى أمورك من تثق منه بثلاث خِصال: صواب الرأى، وخلوص النية، وكتمان السرّ. فلا عار عليك أن تستشير مَنْ هو دونك إذا كان بالشورى خبيرا؛ فإن لكل ذى عقل ذخيرةً من الرأى وحظًّا من الصواب، فتزدادَ برأى غيرِك [و إن كان رأيك[2]] جَزْلا، كما يزداد البحر بمَوادّه من الأنهار و إن كان غزيرا. وقد يُفْضِل المستشِير على المشِير، و يَظفَرُ المُشير بالرأى، لأنها ضالّة يظفَر بها من وجدها من فاضل ومفضول. وعوِّلْ على آستشارة من جرَّب الأمور وخبرَها، وتقلّب فيها و باشرها، حتى عرف موارِدها ومصادِرَها، فلن يخفى عليه خيرها وشرها، ما لم يوهنه ضعف الهَرَم.

وآعدِل عن آستشارة من قَصَـد موافقتك متابعـةً لهواك، أو آعتمد مخالفتك آنحرافا عنك، وعوِّلْ على من توخّى الحق لك وعليك. فقد قيل فى قديم الحِكَم: من التمس الرُّخَص من الإخوان فى الرأى، ومن الأطبّاء فى المرض، ومن الفقهاء فى الشّبه، أخطأ الرأى، وزاد فى المرض، وآحتمل الوزر. ولا تؤاخِذ من آستشرت بدَرْك[3] الرأى

(١) فى الأصل «والسرور فى التغافل» وفى «كتاب التاج فى أخلاق الملوك» طبع المطبعة الأميرية ص ٥٧ و ١٠٣: «السرو التغافل» فكلمة «السرور» فى الأصل محرفة عن السرو. والسرو: السخاء فى مروءة.

(٢) التكملة عن قوانين الوزارة.

(٣) الدرك: التبعة.

إن زَلّ، فما عليه إلا الاجتهاد وإن حجزته الأقدار عن الظَّفَر . فقد قيل فى منثور الحِكم : من كَثُر صوابه لم يُطَّرَحْ لقليل الخطأ .

اِختَرْ لأسرارك من تثق بدينه وكِتمانه، وتسلم من إذاعته وإدْلاله، ولو قَدَرت ألّا تودِع سرك غيرَك، كان أولى بك وأسلمَ لك؛ لأنك فيها بين خطر أو حَذَر . وقد قيل فى منثور الحكم : اِنفردْ بسرك ولا تودعْه حازما فيزلّ، ولا جاهلا فيخون .

تثبّتْ فيما لا تقدِر على استدراكه؛ فقلّما تُعقِب العَجلة إلا ندما . رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من تأنّى أصاب أو كاد ومن عَجِل أخطأ أو كاد" . وقيل فى حِكمة آل داود : من كان ذا تُؤَدَة وصف بالحكمة .

وقدِّم ما قدرت عليه من المعروف، فقلما يُعقب الريثُ إلا فواتا؛ فإن للقدرة غايةً، ولنفوذ الأمر نِهاية[1]، فاغتنِمها فى مَكنتك تسعَدْ بما قدّمته، ويسعدْ بك من أعنْته . قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : اِنتهزوا الفرصة فإنها تمر مَرَّ السحاب . وقال بعض الحكماء : من أخّر الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فَوْتها .

واحذر قبول المدح من المتملّقين، فإن النِّفاق مركوز فى طِباعهم، ويداجونك بهيِّن عليهم[2]؛ فإن نَفَّقوا عليك غَشَشْتَ نفسك، وداهنْت حسّك؛ وأنت أعْرَف بنفسك من غيرك فيما تستحق به حمدا أو ذمّا . فناصِح نفسك بما فيها، فإنك أعلم بمحاسنها ومساويها . فقد قيل فيما أنزل الله تعالى من الكتب السالفة : «عَجَبٌ لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل : « ولنفوذ القدر...» .

(٢) كذا فى قوانين الوزارة . ولعل المراد بالهين عليهم : المدح الذى لا يكلفهم شيئا . وفى الأصل : «ويداخونك تهون عليهم» وهو ظاهر التحريف .

يغضب! » . وقال بعض البلغاء : من أظهَرَ شكرك فيما لم تأت إليــه فآحذره أن يكفُر نِعمك فيما أسديتَ إليه . ففَوِّضْ مدحك إلى أفعالك ، فإنها تمدحك بصِدقٍ إن أحسنت ، وتذمُّك بحقٍّ إن أسأت . ولا تغترّ بمخادعة اللسانِ الكذوبِ . فقــد قيل : أَبصَرُ الناس من أحاط بذنوبه ، ووقَف على عيوبه . وكتب حكيم الروم إلى الإسكندر : لا ترغب فى الكرامة التى تنالها من الناس كَرها ، ولكن فى التى تستحقّها بحسن الأَثر وصواب التدبير .

اِعتمِد بنظرك إحماد سلطانِك وشكرَ رعيتك ، تكنْ أيَّامُك سعيدة ، وأفعالُك محمودة ، والناس بك مسرورين ، ولك أعوانا مساعدين ؛ ويبقى بعدك [فى الدنيا](١) جميل أثرك ، وفى الآخرة جزيلُ أجرِك . وآستعِذ بالله من صَدّها فتعدِلَ بك إلى ضِدّها ، فإن الوِلاياتِ كالمِحَكّ تُظهِر جواهرَ أربابها ، فمنهم نازلٌ مرذول ومنهم صاعِد مقبول . فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أحسِنوا جِوارَ نِعَم الله فقلما زالَتْ عن قوم فعَادَتْ إليهم" . وتعرّض رجلٌ ليحيي بن خالد وهو على الجِسر بكتاب وسأله أن يختِمه ، فقال : ياغلام آختِم كتابَه ما دام الطين رطبا ، ثم أنشد :

إذا هبّت رِياحُك فاغتنِمها * وجد فلكلِّ(٢) خافقــةٍ سكون
ولا تغفُلْ عن الإحسان فيها * فما تدرِى السكونُ متى يكون

(٥٢)

إذا نِلت من سلطانك حظًّا ، وأوجبت عليه بخدمتِك حقّا ، فلا تستوفِه ، ودعْ لنفسِك بقيّةً يدّخرُها لك ويراها حقا من حقوقِك ، ويكون كفِيلَ أدائها إليك . فإن آستوفيتها برِئ وصرت إلى غايةٍ ليس بعدها إلا النقصان . قال الشاعر :

إذا تمّ أمرٌ بدا نقصُهُ * تَوَقّعْ زوالًا إذا قيل تمّ

(١) زيادة من قوانين الوزارة .
(٢) فى قوانين الوزارة : "فإن لكل..." .

وٱعلم أنك مُرصَد لحوائج الناس، لأنّ بيدك أزِمّةَ الأمور وإليك غايةَ الطلب، فكن عليها صبورا، تكنْ بقضائها مشكورا؛ ولا تضجَرْ على طالبها وقد أمّلَك، ولا تنفِرْ عليه إذا راجعك؛ فما يجِد الناس من سؤالك بُدّا. ولَخَيرُ دهرِك أن تُرى مرجُوّا. قال أبو بكر بن دُرَيْد:

لا تدخلنّك ضَجرةٌ من سائلٍ * فلَخيرُ دهرِك أن تُرى مسئولا
لا تَجْبَهَنْ بالردّ وجهَ مُؤمِّلٍ * فبقاءُ عِزّك أن تُرى مأمولا
وٱعلم بأنك عن قليلٍ صائرٌ * خَبَرًا فكن خبرا يَرُوق جميلا

وقد قيل فى الصحف الأولى: القلب الضيق لا تحسن به الرياسة، والرجل اللئيم لا يحسن به الغنَى. ولئن كانت الحوائج كالمغارِم لمن ٱستثقلها فهى مغانم لمن وُفّق لها. رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما عظُمت[1] نعمةُ الله على عبدٍ إلا عظمت مئونةُ الناس عليه فمن لم يحتمِل مئونة الناس عرّض تلك النعمةَ للزوال".

واذا جَعَلَتِ الوزارةُ غاياتِ الأمورِ إليك، وحوائجَ الناس واقفةً عليك، والقدرةُ لك مساعِدةٌ، لانبساط يدك ونفوذ أمرك، صرت بالتوقُّف والإعراض مُخِلًّا بحقوق نظرك، وآسِفا على فوات مَكِنَتِك. فقد قال بَهْرام جُور فى عهده الى ملوك فارس: إنكم بمكانٍ لا مَصْرِف للناس عن حوائجهم إليكم، فلتتّسِعْ صدوركم كاتّساع سلطانكم. قال علىّ بن الجهم:

إذا جـدّد الله لى نِعـمةً * شكرتُ ولم يَرَنِى جاحـدا

(١) كذا فى الأصل وقوانين الوزارة. ونصه فى الجامع الصغير: "ماعظمت نعمة الله على عبد إلا ٱشتدّت عليه مئونة الناس فمن لم يحتمل تلك المئونة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال"

ولم يزلِ الله بالعـــائدات * على من يَعُـــود[1] بها عائدا
أيا جامِع المـالِ وَفَّـــرْتَه * لغـــيرك إذ لم تكن خالدا!
فإن قلت أَجمَعُـــه للبنـــين * فقـــد يســـبِق الولدُ الوالِدا
وإن قلت أخشى صروف الزمانِ * فكن فى تصـــاريفه واحدا

فاجعل يومك أسعدَ من أمسك، وصلاحَ الناس عندك كصلاح نفسِك. ومِلْ إلى ٱجتذاب القلوب بالٱستعطاف، وإلى ٱستمالة النفوس بالإنصاف، تجِدْهم كنزا فى شدائدك، وحرزا فى نوائبك.

اِحذر دعوة المظلوم وتوقَّها، ورِقَّ لها إن واجهَك بها، ولا تبعثْك العِزّة على البطش فتزدادَ ببطشك ظلما، وبعزتك بغيا. وحسبُك بمنصور عليك اللهُ ناصِرُه منك.

كن عن الشهوات[2] عَزُوفًا تنفكَّ من أسرها، فإنّ من قهرته الشهوة كان لها عبدا، ومن ٱستعبدتْه ذَلّ بها. وقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من ٱشتاقَ إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن أشْفَق من النار لَهَا عن الشهوات". وقيل لبعض حكماء الروم: ما المُلك الأعظم؟ قال: أن يغلِب الإنسان شهوتَه.

وكن بالزمان خبيرا تسلَمْ من عثرته؛ فإنّ الٱغترار به مُرْدٍ. وقدم لمعادك ليبقى عليك ما ذَخَرته، فلن تجِد إلا ما قدّمته؛ وإنك لتُجازَى بما صنعتَ. وٱستقِلَّ الدنيا تجِدْ فى نفسك عِزّا، فترضى اذا سخِطتْ، وتُسرّ اذا حزِنت؛ فلن يذِلَّ إلا طالبها، ولن يحزَن إلا صاحبُها. فقد قال بعض الحكماء: ليكن طلبك الدنيا ٱضطرارا،

(١) فى قوانين الوزارة: "على من يجود بها عائدا".

(٢) فى الأصل وقوانين الوزارة: «كن للشهوات عزوفا» وعزف وما اشتق منه يتعدى الى المعمول بالحرف «عن».

وفكرُك فيها ٱعتبارا، وسعيُك لمعادِك ٱبتدارا. وقال عبد الحميد: طالب الدنيا عليل، ليس يُرْوَى له غليل.

اِجعل صالحَ عملِك ذُخْرا لك عند ربك، وجميلَ سيرتِك أثرا مشكورا فى الناس بعدَك، ليقتدِىَ بك الأخيار، ويزدجِرَ بك الأشرارُ، تكنْ بالثواب حقيقا، وبالحمد جديرا. فقد قيل: الأغترار بالأعمار من شِيَم الأغمار. فلن يبقى بعدك إلا ذكرُك فى الدنيا، وثوابُك فى ٱلآخرة؛ فٱظفَرْ بهما تكنْ سعيدا فيهما؛ فإنّ الدنيا كأحلامِ النائم يستحليها فى غَفْوتِه، ويلفِظُها بعد يَقَظَتِه. وقد قيل فى بعض الصحف الأولى: اِحرِصْ على العمل الصالح لأنه لا يصحَبُكَ غيرُه.

اِنتهى كلام الماوردىّ. وقد بالغ — رحمه الله — فى عَهْده، وجاد بعظيم بِرّه وجزيل رِفْده؛ وأوضح ما إن ٱستمسك به الوزيرُ كفاه، وإن حذا على مثالِه كان ذخيرةً لدينه ومعونةً لدنياه. فليتمسّكْ به من رَفَل من الوزارة فى حُلَلِها، وٱرتقى من الرياسة الى شواهقها المنيعةِ وقُلَلِها؛ وأفاضت عليه السياسة بُرودَها، وطوّقتْه السعادة عقودَها. وليأخذْ نفسه به ويَرُضْها عليه؛ وليجعلْه نُصْب عينِه فيما فُوّض من أمور العالَم اليه؛ ليفوزَ بسعادة الدنيا وثوابِ الآخرة، ويلتحق غدا بذوى الوجوه الناضرة، التى هى إلى ربها ناظرة. وإن عَدَل عنه وعمِل بضدّه فوا خيبةَ مسعاه، وسوءَ مُنقَلَبِه ومثواه، (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَدَاهُ).

ذكر ما قيل فى وصايا أصحاب السلطان وصفاتهم

أما صفاتهم فقد ذكر «الحَمدونىّ» فى «تَذْكرته» ما لا بدّ منه لصاحب السلطان وجليسه، ومُحادثه وأنيسه؛ ولا يستغنى عنه وزراؤه وندماؤه، وخواصُّه وأولياؤه؛ فقال: من صحِب الملوك وقَرُب منهم فينبغى أن يكون جامعا للخِلال المحمودة. فأوّلها العقل،

فإنه رأسُ الفضائل . والعلمُ، فإنه من ثِمار العقلِ ولا تليق صحبةُ الملوكِ بأهل الجهلِ . والوُدُّ، فإنه خُلق من أخلاق الناس يولّده العقل فى الإنسان لذوى ودّه . والنصيحةُ، وهى تابعة للودّ وهو الذى يبعث عليها . والوفاءُ، فلا تتم الصحبةُ إلا به . وحفظُ السرّ، وهو من صِدق الوفاءِ . والعفّةُ عن الشهوات والأموال . والصرامةُ، وهى شدّةُ القلب فإن الملوك لا يجوز أن يصحبَهم أولو النُّكول، ولا ينال الجسيمَ من الأمور إلا الشجاعُ النَّدْب[1] النجد . والصدقُ، فإنه من لا يَصْدُق يكذِب، ومضرّة الكذبِ لا تُتَلافى . وحُسْنُ الزِىّ والهيئة، فإن ذلك يَزيدُ فى بهاء الملك . والبِشرُ فى اللقاء، فإنه يَتألّف به قلبَ من يلاقيه، وفى الكُلُوح تنفيرٌ عن غير ريبة . والأمانةُ فيما يُستحفَظ . ورعايةُ الحق فيما يُستَوْدَع . والعدلُ والإنصافُ، فإن العدل يُصلح السرائر ويُجَلّى الظواهر، وبه يُخاصِم الإنسانُ نفسَه اذا دعتْه الى أمرٍ لا يَحسُنُ رُكوبُه . وينبغى له أن يجانبَ أضدادَ هذه الخِلالِ ؛ وألّا يكونَ حسودا فإنّ الحســد يُفسد ما بينه وبين الناس ؛ وليفرّق بين الحسد والمُنافسةِ فإنهما يشتبهان على من لا يعقِل ؛ وأن يَخْلُو من اللَّجَاج والمِحَال فإن ذلك يضرُّ بالأفعال اذا وقع فيها آشتراك ؛ وألّا يكون بَذَّاخا ولا مُتكبرا، فإن البَذَخ من دلائِل سقوط النفس، والكِبْر من دواعى المقتِ ؛ وألّا يكونَ حريصا، فإن الحرصَ من ضِيق النفْسِ وشــدّة البطش والبعدِ عن الصبر . وينبغى ألّا يكون فَدْما[2] وَخِما[3] ولا ثقيل الروح، فإنها صفة لا تليق بمن يلاقِى الملوك، وأَبَدًا تكون صفةً للمقت من غير جُرم . وينبغى لمن صحِب السلطانَ أن يَأخُذ لعمله من جميع شغله، فيأخذَ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه، لا كما يفعل الأغْمار الجُهّال بخدمة الملوكِ، فإن

(١) الندب : الخفيف فى الحاجة . والنجد (بفتح أوله وتثليث ثانيه) الشجاع المضى فيما يُعجز غيره .

(٢) الفدم : العيّ عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم . أو الأحمق الجافى .

(٣) الوخم : الرجل الثقيل .

أحدَهم كلما ازداد عملًا نَقَص من ساعات نَصَبه[1] وعمله فزادها فى ساعات شهوته وعبثه .

فهذه الصفات، فلنذكر الوصايا .

٥ وأما وصايا أصحاب السلطان — فهى متقاربة من وصايا الوزراء غيرُ متفاوتة . وفيها مايُضطر الوزيرُ إليه، على ماتقف إن شاء الله تعالى عليه .

قالتِ الحكماء : إذا نَزَلْتَ من الملك بمنزلة الثقةِ فاعزِل عنه كلامَ المَلَق، ولا تُكثِرْ من الدعاء له فى كلّ كلمة، فإن ذلك يشبهُ حال الوَحْشة والغُربة، إلا أن تكلّمه على رءوس الناس فلا تَألُ عما وقّره وعظّمه . وإذا أردت أن يُقْبَل قولُك فصحِّحْ ١٠ رأيَك ولا تشوبَنّه بشىء من الهوى، فإن الرأى يقبَلُه منك العدوُّ، والهوى يردّه عليك الصديقُ .

وتبصَّرْ ما فى الملك من الأخلاق التى يُحِبّ ويَكْرَه، ثم لا تكابره بالتحويل له عما يُحِبّ ويكره إلى ما تحب وتكره[2]، فإنها رياضة صعبةٌ قد تحمِل على التنائى[3] والقِلى . فقلما تقدِر على ردّ رجلٍ عن المكابرة والمناقضة وإن لم يكن جَمَح به عِزُّ السلطان، ١٥ فكيف إذا جمح به! ولكن تُعينُه على أحسن رأيِه وتزيِّنُه له وتُقوّيه عليه؛ فإذا قويت المحاسنُ كانت هى التى تَكفيك المساوى . وإذا استحكمتْ منه ناحية[4] من الصواب

(١) فى الأصل : «نصيبه» وما وضعناه هو المناسب للسياق . فلعل ما فى الأصل تحريف .

(٢) وردت هذه الجملة فى الأصل هكذا : «وتبصر فان فى الملك من الأخلاق التى يحب ويكره، ثم لا تكابره بالتحول عما ...» وفيها تحريف . وقد أثبتنا ماترى استنادا الى ما فى الأدب الكبير .

(٣) كذا فى الأدب الكبير، وهو المناسب للسياق، وفى الأصل : «... على الإباء ...» . ٢٠

(٤) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل «واذا استحكمت منه ما أحب من ...» .

كان ذلك الصوابُ هو الذى يُبصِّره [مواقعَ الخطإ](١) بألطفَ من تبصيرِك وأعدلَ من حكمك فى نفسه ؛ فإنّ الصواب يؤيِّدُ بعضُه بعضا ويدعو بعضُه إلى بعض . وإذا كنتَ له مكابرا لحِقك الخطرُ ولم تبلُغْ ما تريد .

ولا يكونن طَلَبُك ما عنـد السلطانِ بالمسألة! ولا تستبطِئْه وإن أبطأ، ولكن ٱطلب ما عنده بالٱستحقاق له والٱستيناء به وإن طالت الأناة، فإنك إذا ٱستحققْته أتاك من غير طلب، وإذا لم تستبطئْه كان أعجَل له . ٥

ولا تخـبرنّ الملك أنّ لك عليه حقا، وأنك تعتدّ(٢) عليـه بلاء . وإن ٱستطعت ألّا ينسى حقك وبلاءك فٱفعل. وليكن ما تذكّره به تجديدَك له النصيحة والٱجتهاد، وألّا يزال ينظر منك إلى آخِر ذكره الأوّل؛ فإنّ السلطان إذا ٱنقطع عنه الآخِر نسِى الأوّل؛ فإنّ أرحامهم منقطعة وحِبالهم منصرمة إلا عمن رَضُوا عنه فى يومهم وساعتِهم. ١٠

وٱعلم أن أكثر الناسِ عدوّ لصاحب السلطانِ ووزيرِه وذوى المكانةِ عنـده، لأنه منفوس عليه مكانه كما يُنفَس(٣) على الملِك ملكُه، ومحسود كما يُحسَد عليه؛ غير أنه يُجترَأُ عليـه ولا يجترأُ على الملِك، لأن حسّاده أحباء(٤) الملِك الذين يشاركونه فى المنزلة والدخولِ، وهم حضور، وليسوا كعدوّ الملِك النائى عنه الكاتِم لعداوتِه؛ فهم لا يغفُلون عن نصب الحبائلِ له . فٱلبس لهؤلاء الاعداءِ كلهم سلاح الصحّةِ والٱستقامةِ ولزومِ المحجّة(٥) فيما تُسِرّ وتُعلن . ثم روِّح عن قلبِك حتى كأنك لاعدوّ لك ولا حاسد . جانِب ١٥

(١) زيادة عن الأدب الكبير .

(٢) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل : « وأن تعتدّ عليه بلاء » .

(٣) نفس عليه مكانه من باب «فرح» لم يره أهلا له .

(٤) أحباء (جمع حبأ كسبب) : جلساء الملك وخاصته . ٢٠

(٥) كذا فى بعض نسخ الأدب الكبير . والمحجة : جادّة الطريق أى معظمه ووسطه . وفى الأصل : « ولزوم الحجة » والسياق يعين ما اخترناه .

المسخوطَ عليه والمظنون به عند السلطانِ، ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل، ولا تُظهرنّ له عذرا ولا تُثنِيَنّ عليه خيرا . فإذا رأيته قد بلغ فى الإعتابِ مما[1] سُخِط عليه [فيه][2] ما ترجو أن يلين له الملك ، وآستيقنت أن الملك قد تحقق مباعدتك إياه وشِدّتك عليه، فضَعْ عند ذلك عذره عند الملك، وآعمل فى إرضائه بالرفقِ واللطف.

٥ وإذا أصبت الجاه عند الملك وكانت لك خاصة منزلة، فلا يُحْدِثن لك ذلك تغيرًا على أهلِه وأعوانِه وآستغناءً عنهم ، فإنك لا تدرى متى ترى[3] أدنى جفوةٍ فتذِلّ لهم[4] . وإن آستطعت أن يعرف صاحبك أنك تحلُه صواب رأيك فضلا عن صوابه فتُسنِدَ ذلك إليه وتزينه به، فإن الذى أنت بذلك آخذٌ أفضلُ من الذى أنت به معطٍ.

(وآعلم أن السلطان يقبل من الوزراءِ التبخيل ويعدّه منهم شفقة ونظرا ويحمدهم ١٠ عليه وإن كان جوادا. فإن كنت مُبَخِّلا فقد غششت[5] صاحبك بفساد مروءته، وإن كنت مُسَخِّيا لم تأمن إضرار ذلك بمنزلتك . فالرأىُ لك تصحيح النصيحةِ وآلتماسُ المخرج، بألا يعرِف منك ميلا إلى شىء من هواك[6]) .

فهذه نبذة من وصايا أصحابِ السلطان يكتفى بها اللبيب، ويتمسك بها الأريب. وقد قدّمنا فى شروط الوزارة مايحتاج صاحب السلطان إلى آستعمالِه فى خدمته . ١٥ فلنذكر ما يحتاج إليه نديم الملك ومؤاكله .

(١) كذا فى الأدب الكبير . والإعتاب : رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العاتب، كالعتبى، وفى الأصل : « ... فى الإعتاب فيا ... » .

(٢) زيادة من الأدب الكبير .

(٣) كذا فى الأدب الكبير . وفى الأصل : « فانك لا تدرى حتى ترى ... » .

٢٠ (٤) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل : «فتذل له» .

(٥) فى الأدب الكبير : « شنت صاحبك ... » .

(٦) وردت هذه الجملة التى بين القوسين فى صفحة ١١ من هذا الجزء بتغيير يسير عما هنا .

ذكر ما يحتاج إليه نديم الملك، وما يأخذ به نفسه، وما يلزمه .

قالوا : مما يزيد النديم فى المحلّ تقدّما، وعند ملِكه تمكُّنا، أن يكون عالما بكل ما يتنافس الملوك ويتغالَون فيه، من الرقيق المثمّن، وقيمةِ الجوهرِ النفيسِ، والآلات المحكمةِ، وأنواعِ الطيب والفُرُش، إلى غير ذلك من معرفة الخيل والسلاح . ولذلك قال الواصف نفسه[(١)] للفضل بن يحيى بن خالدٍ يرغّبه فى اختصاصِه بمنادمته فى شعر طويل :

لستُ بالناسكِ المشمِّرِ ثوبيـــه ولا الفاتِكِ الخليعِ الوَقاحِ
أبصر الناسِ بالجواهرِ[(٢)] والخيـــلِ وبالخُرَّدِ الحِسانِ المِلاحِ

قالوا : ومَنْ أبردُ من النديم مجلسا وأكسفُ منه بالًا إذا عُرِض على الملوك شيء من هذه الأعلاقِ فلم يُحِرْ جوابا ولا وجد عنده منه عِلما ! .

ويُستظرف من نديم السلطانِ أن يصِف اللون الغريب من الطعام، والصوت البديع من الشعر، واللحن الشجِىّ من الغِناء . وقالوا : من لم يدرِ عشرة أصواتٍ من الغِناء ويُحسِن من[(٣)] غرائبِ الطبيخِ عشرة ألوان، لم يكن عندهم ظريفا كاملا، ولا نديما[(٤)] جامعا .

* * *

(٥٥) وأما ما يأخذ به نفسه — فقد قالوا : ينبغى أن يكون نديم السلطان معتدِل الأخلاقِ، سليم الجوارِح، طيّب المفاكهةِ والمحادثةِ، عالما بأيام الناسِ ومكارِم

(١) الواصف نفسه : هو أبان بن عبد الحميد اللاحقىّ .
(٢) فى ديوان أبى نواس (طبع المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨م) : «أبصر الناس بالجوارح...» .
(٣) فى الأصل : «ظرفا» .
(٤) فى الأصل «خائعا» وهو تحريف .

أخلاقِهم، راوِية للنادرِ من الشعر والمثلِ السائرِ، متصرِّفا فى كل فنّ، قد أخذ من الخير والشر بنصيب؛ فإن مالت شهوة الملِك إلى ضربٍ مّا وجد عنده منه علما.

ويلزمه أيضا أن يحضُر فى الزىّ الظاهرِ الذى يُعرف به، ويشهد فيه المجالس الحافِلة من غير أن يتشهر[1]. فإن شاء الملِك أن يغيّر حاله وزِيَّه ويُكرِمَه بشىء من ثيابِه، حسُن أن يلبَس ذلك من وقتِه حتى ينقضِىَ المجلس، ولم يحسن أن يجلس فيه ظاهرا فى مجلسٍ ثانٍ؛ لأنه شىء اختاره الملِك فى ساعة بعينِها لا فى كل أوقاتِه. وأما العِمامة والخُفّ فلا يخلو منهما. والغرض من ذلك إجلال السلطان عن مشاركته فيما اتسع له من التبدّلِ والتخيّرِ فى الزىّ الذى لا ثِقل عليه منه، والانفرادِ به عمن هو دونه. وهذه كانت عادة ملوكِ الأعاجم؛ لأنهم رسموا لكل طبقةٍ من طبقات أهلِ مملكتِهم برسم من الزىّ ليتميزوا به، ولا يتشبه سُوقة بملك، ولا مشروف بذى الشرفِ، ولا تابع برئيس[2].

ومما يجب أن يأخذ به نفسه الإسراع فى الخطو إذا كان بحيث يراه الملك، ليكون مشيه إرقالا ولا يكون اختيالا.

ومما يلزمه أن يتحفّظ منه ويروضَ به نفسه ألّا يُصَبِّحَه ولا يُمَسِّيَه ولا يشمّته ولا يستخبِره. وإنما تُرِك ذلك كله لما فيه من تكلّفِ الجواب. وأوّل من سنّ ذلك وحمل الناسَ عليه الفضل بن الربيع.

---

(١) يتشهر: من الشهرة وهى ظهور الشىء فى شنعة. ولم نجد هذا الفعل الذى ورد بالأصل فى كتب اللغة التى بين أيدينا، فلعله تحريف عن «يشتهر» أو «يشهر».

(٢) الذى فى الأصل: «ولا يتشبه سوقة بملك ولا مشروف بذى الشرف ولا تابع بذى الشرف ولا تابع برئيس» والذى ظهر لنا أن «ولا تابع بذى الشرف» زيادة وقعت سهوا من الناسخ.

***

وأما الآداب فى محادثة السلطان ــ فقد قالوا : مِن حق الملك إذا حضر سُمّاره ومحدّثوه ألّا يبتدئه أحد حديثا . فإن بدأ هو بالحديث صرف مَنْ حضره ذِهنَه وفكره نحوه. فإن كان يعرِف الحديثَ الذى حدّث به الملكُ استمعه استماع من لم يدرِه (١) ولم يعرِفه ، وأظهر السرور بفائدة الملك والاستبشار بحديثه ؛ فإن فى ذلك أمرين : أحدهما ما يظهر من حسنِ أدبه . والآخر أن يعطِىَ الملك حقه بحسن الاستماع . وإن كان لم يعرفه فالنفس إلى فوائدِ الملوك والحديثِ عنهم أتوق منها (٢) إلى فوائدِ السُّوقةِ ومن أشبهها . وقد كان رَوْح بن زِنْباع يقول : إذا أردت أن يُمكّك الملك من أُذنِه فأمكِنْ أُذنك من الإصغاءِ إليــه إذا حدّث . وكان أسماء بن خارِجة يقول : ما غلبنى أحد قطُّ غلبةَ رجلٍ يُصغى إلى حديثى .

ومن حق الملك إذا قرّب إنسانا أو أنِس به حتى يهازِله ويضاحِكه ، ثم دخل عليه ، أن يدخل دخولَ من لم يجرِ بينهما أُنس قط ، وأن يُظْهِر من الإجلالِ والتعظيم أكثر مما كان عليه ؛ فإن أخلاق الملوكِ ليست على نظام . ومجالستهم ومحادثتهم تحتاج إلى سياسةٍ وتحفُّظٍ من (٣) وضعِ الحديثِ والمثلِ والشعرِ فى موضعه . وإذا حدّث الملك بحديث وفرغ منه فنظر إلى بعضِ جلسائه ، فقد أذِن له أن يحدّثه بنظيرِ ذلك الجنس من الحديث ، وليس له أن يأخذ فى غيرِ جنس حديثِه . فإذا فرغ من ذلك الحديثِ فليس له أن يَصِله بحديث آخر وإن كان شبيها للحديثِ الأوّل . فإن رأى الملكَ قد

(١) الذى فى التاج (طبعة المطبعة الأميرية ص ٥٣) : «استماع من لم يدر فى حاسة سمعه قط ولم يعرفه» .

(٢) فى «التاج» : «أقرم وأشهى منها ...» .

(٣) من وضع الحديث ... الخ : « من » بيانيــة ، وليست متعلقة بـ « تحفظ » فان ذلك يؤدى الى خطأ فى المعنى .

أقبل عليه بوجهِه وأصغى إلى حديثِه فليَمْضِ فيه حتى يكمله و يأتِيَ على آخره . وليس له — إن قطع الملكُ آستماعَ حديثِه بشغل يَعْرِض له — أن يمرّ على كلامِه، ولكن يُنْصِت مطرقا. فإن آتصل شغل الملِكِ، ترك الحديث. فإن فرغ ونظر إليه، فقد أذِن له فى إتمـامه و إعادتِه، و إلّا فلا .

ومن حق الملِك ألّا يُضْحَكَ بحضرته، لأن الضحك جُرْأة عليه، وألّا يعاد عليه الحديثُ مرتين و إن طال بينهما الدهر، إلا أن يذكره الملِك، فإن ذكره فقد أذِن له فى إعادتِه . وكان رَوْح بن زِنْبَـاع يقول : أقمتُ مع عبد الملِكِ بنِ مروان سبع عشرة سنة من أيامِه ما أعدتُ عليه حديثا . وكان الشَّعْبِيّ يقول : ما حَدّثت بحديث مرتين لرجل بعينِه قط . وكان أبو العبّاس السفّاح يقول : ما رأيت رجلا أغزر علما من أبى بكر الهُذَلِيّ لم يُعِد علىّ حديثا قط . وكان أبو بكر الهذلِيّ يقول : حدّثت المنصور بأكثر من عشرة آلاف حديث، فقال لى ليلة — وقد حدّثته عن يومِ ذى قارٍ وقد آضطرِرت إلى التكرار — : أتُعِيد الحديث؟ فقلت : ما هذا ممـا مر يا أمير المؤمنين؛ فقال : أما تذكر ليـلة الرعدِ والأمطارِ وأنت تحدّث بحـديث يومِ ذِى قار فقلت لك : ما يومُ ذى قارٍ بأصعب من هذه الليلةِ ؟

ومن حق المحادثةِ وواجبِ المؤانسةِ تركُ المِراءِ ؛ هـذا مع الأكفاء فكيف مع الملوكِ والرؤساء ! وقالوا : المـاراة تُفْسِد الصداقةَ القديمة، وتحلّ العقدة الوثيقة وتكسِب الإِحْنَة والبغضاء . وقال الصاحب بن عَبّاد : للمحدّث على السامع ثلاث : كتمان السر، و إصغاء الذهن، وترك التحفُّظ . هذا ما يلزم نديم الملِك .

وأما مؤاكله، فقد آصطلح الناس على إجلال رؤسائِهم وملوكِهم عن غسلِ أيديهم بحضورهم، وآستجازوا ذلك مع نُظَرائِهم ومن يسقط التحفُّظُ بينهم و بينهم .

(٥٦)

وربما تجمّل الرئيس فقال لمؤاكله : اغسل يدك مكانك ولا تبرح . فالغبيّ يغتنم ذلك ويفعل، والفَطِن يأباه ويسلك سبيلَ الأدبِ، فيخفّ على القلبِ. هذا بعد الطعامِ . وأما قبله فجائز أن يغسل اليد بحضرةِ الرئيس . وأما الخلال فلا يستعمل بحضرته ألبتـــة .

وأما آداب الأكل بين يدى الرئيس — ألّا يخلِط طعاما بطعـام، ولا يغمِس اللقمة بالخل ثم يضعها فى الطعام، ونحو ذلك . هذا ما يلزم نديم الملِك ومؤاكِلَه . وقد ذكرنا مما يجب للملِك على رعيتِه من المناصحة والأدبِ والتوقيرِ والتعظيم فيما تقدّم ما يدخل فى هـذا البابِ، فلا فائدة فى تكراره . فلنذكر ماورد فى النهى عن صحبة الملوك .

ذكر ماورد فى النهى عن صحبة الملوك والقرب منهم

قد نَهَتِ الحكماء عن صحبة الملوكِ وقالوا : إن الملوك إذا خدمتهم مَلُّوك، وإن لم تخدِمهم أذلُّوك . وإنهم يستعظِمون فى الثواب ردّ الجوابِ، ويستقِلّون فى العِقاب ضربَ الرقابِ . وإنهم ليعثُرون على العَثْرة اليسيرة من خَدَمِهم فيبنُون لهـا مَنَارا، ثم يوقِدون لهـا نارا، ويعتقِدونها ثارا . وقال ابن المقفَّع : إن وجدْتَ عن السلطان وصُحبتِه غِنًى فصُنْ عنه نفسك، واعتزِلْه جهدك؛ فإنه من يأخُذْه السلطان بحقه يَحُلْ بينه وبين لَذّةِ الدنيا وعملِ الآخرةِ . وقال العتّابىّ وقد قيـل له : لم لا تَقْصِد الأمير فتخدُمه ؟ فقال : لأنى أراه يعطى الواحد لغير حسنةٍ ولا يدٍ، ويقتل الآخر بلا سيئةٍ ولا ذنبٍ، ولست أدرى أىّ الرجلين أكون، ولست[1] أرجو منه مقـدار ما أُخاطِر به . وقال لامرأته :

---

(١) فى الأصل : «وليس» .

أَسَرَّكِ أنى نِلْتُ ما نال جعفرٌ * من الملك أو ما نال يحيى بنُ خالدِ

فقالت : بلى والله! فقال :

وأن أميرَ المؤمنين أَغَصَّنِى * مَغَصّهما بالمُرْهَفاتِ البوارِدِ

فقالت : لا والله ! فقال :

٥ ذَرِينى تَجِئْنى مِيتتى مطمئنّة * ولم أتجشَّمْ هولَ تلك الموارِدِ

فإنّ جسيماتِ الأمورِ منوطةٌ * بمستَوْدَعاتٍ فى بُطُونِ الأساوِدِ

الباب العاشر

من القسم الخامس من الفن الثانى

فى قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروبِ، ووصف الوقائع، والرباط،

١٠ وما قيل فى أوصاف السلاح .

ذكر ما قيل فى قادة الجيوش وشروطهم وأوصافهم ووصاياهم وما يلزمهم

قال الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسينُ بنُ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ حليم الحَلِيمىّ الجُرجانىُّ الشافعىّ فى كتابه المُترجم بـ"المِنهاج" ما مختصرُه ومعناه: إذا أنفذ الإمامُ جيشًا

١٥ أو سَرِيّةً فينبغى أن يؤمِّر عليهم رجلا صالحا أمينا مُحتسِبا، لأن القومَ إليه ينظرون. فإذا لم يكن خيِّرا فى نفسه كانت أعمالُه بحسَب سريرته وكانت أعمالُ القوم بحسبها مُضاهيةً لها، فإن رَأَوْا منه كَسَلًا كَسِلوا، وإن رَأَوْا منه فَشَلًا فَشِلوا، وإن ثبت ثبتوا، وإن رجع رَجَعُوا، وإن جَنَح إلى السِّلم جنحوا، وإن جَدّ جدّوا؛ فهم

فى تَبَعِه كالمأموم مع الإمام. والعدوُّ إنما يَفرَقُ من رئيس القوم، فإذا سَمِـع بذى ذكر كان ذلك أهْيَبَ له من أن يَسمع بخامل لا صِيتَ له . واذا سمع بشُجاع غيرِ فَرّار كان آيَسَ من مقاومته، منه إذا سمع بفَشِلٍ جَبَان . وإذا سمع بلَيِّنٍ يُطْمَع فى خِداع مثله كان أجرأ[1] على آستقباله، منه إذا سمع بصُلْب فى الدِّين شديدٍ فى البأْس . فيكون[2] ما يكون من العدوّ من الإقدام والإحجامِ بحسب ما يبلغُه من حال رأسِ المسلمين. فلهذين السببين وجب أن يكون الرأسُ مستصلَحا جامعا لأسباب الغَناء والكِفَاية . والله تعالى أعلم .

وآما ما يلزم قائد الجيش — قال أبو الحسن المـاوردىُّ فى كتابه المترجم بـ"الأحكام السلطانية" ما معناه : إن أمير الجيش يلزمه ستة أحكام :

الأوّل منها — مسيره بالجيش . وعليه فى السير بهم سبعةُ حقوق : أحدها الرِّفقُ بهم فى السير الذى يقدر عليه أضعفُهم وتُحفظ به قوّةُ أقواهم . ولا يجدّ السير فيُهلِكَ الضعيفَ و يستفرغَ جَلَدَ القوىِّ. فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: "إن هذا الدينَ متين فأَوْغِلوا[3] فيه برِفق فإنّ المُنبَتَّ لا أرضًا قَطَع ولا ظَهْرا أَبْقَى". والثانى أن يتفقّدَ خيلَهم التى يجاهدون عليها وظهورَهم التى يمتطونها، فلا يُدخِل فى خيل الجهاد قَحْما[4] كبيرا، ولا ضَرِعا[5] صغيرا، ولا حَطِما[6] كسيرا، ولا أَعْجَفَ رَازِحا[7] هَزيلا؛ لأنها لا تُغنى، وربما

(١) فى الأصل : «أحرى» والمعنى يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : « ليكون » باللام ، ولكن الفاء هى المناسبة للسياق .

(٣) فى الجامع الصغير «فأوغل ... » وبقية الحديث كما هنا .

(٤) القحم (بالفتح) : الكبير السن جدا .

(٥) الضرع : المهر الذى لا يقوى على العدو .

(٦) الحطم : الفرس الذى تهدّم لطول عمره .

(٧) الرازح : الساقط من الإعياء .

كان ضعفُها وَهْنا. ويتفقّد ظهورَ المطايا والركوب، فيُخرج منها ما لايقدر على المسير ويَمنع من أن تُحمَّل زيادةً على طاقتها. والثالث أن يُراعِيَ من معه من المُقاتِلة. وهم صِنفان: مُسترزِقة، وهم أصحابُ الديوانِ من أهل الفيءِ بحسب الغَنَاء والحاجة؛ ومُتَطوِّعة، وهم الخارجون عن الديوانِ من البوادى والأعرابِ وسكّانِ القُرى والأمصارِ الذين خرجوا فى النَّفير الذى نَدَبَ اللهُ اليه بقوله: (اِنْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالًا) قيل معناه: شبّانا وشيوخا، وقيل أغنياءَ وفقراءَ، وقيل رُكبانا ومُشاةً، وقيل ذا عيال وغير [ذى] عيال[1]. وهؤلاء يُعطَوْن من الصدقات دون الفَيْءِ. والرابع أن يُعرِّفَ على الفريقين العُرَفاء ويُنقِّب عليهم النقباءَ، ليَعرِفَ من عُرفائِهم ونُقبائِهم أحوالَهم ويقرُبوا[2] عليه اذا دعاهم. وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فى مَغازيه. والخامس أن يجعلَ لكل طائفة شِعارا يَتداعَون به ليصيروا به مُميَّزين. فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شِعارَ المهاجرين: "يابنى عبدِ الرحمن" وشعارَ الخزرج: "يابنى عبد الله" وشعارَ الأوسِ: "يابنى عُبيد الله" وسمّى خيلَه: "خيلَ الله". والسادس أن يتصفّح الجيشَ ومن فيه، فيُخرجَ منهم من كان فيه تَخذيلٌ للمجاهدين وإرْجافٌ بالمسلمين أو عَيْنًا عليهم للمشركين. فقد ردّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَالله بنَ أُبَىّ بنَ سَلُولَ فى بعض غزواته لتخذيله المسلمين. قال الله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ) أى لا يَفتِن بعضُكم بعضا[3]. والسابع ألّا يُمايل[4] من ناسبه

(١) التكملة عن الأحكام السلطانية.

(٢) فى الأصل والأحكام السلطانية «و يقربون» والظاهر أنه معطوف على «ليعرف ...».

(٣) كذا فى الأحكام السلطانية، وهو المتعين، لأنه تفسير لقوله «وقاتلوا ...» وهو لمخاطب، فيكون مفسره كذلك. وفى الأصل «بعضهم».

(٤) يمايل: يمالئ.

أو وافق رأيَه ومذهبَه على من باينه فى النسبِ أو خالفَه فى رأى ومذهبٍ ، فيظهرَ من المباينـة ما تفترقُ به الكلمة الجامعةُ تشاغلًا بالتقاطع والاختلافِ . فقـد أغضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين وهم أضدادٌ فى الدين، وأجرَى عليهم حكم الظاهرِ حتى قَوِيتْ بهم الشوكةُ وكثُر بهم العددُ وتكاملت بهم العُـدّة، ووَكَلَهم فيما أضمروه من النفاق إلى الله تعالى . قال الله تعالى : (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) قيل فيه : الدولةُ ، وقيل : القوّةُ .

والثـانى — تدبير الحرب . قال المـاوردىّ : والمشركون فى دار الحربِ صِنفان ، صِنفٌ منهم بلغتهم دعوةُ الإسلامِ فامتنعوا منها وتَأَبَّوْا[1] عليها . فأمير الجيش مُخيّر فى قتالهم بين أن يُبيّتهم ليـلا ونهارا بالقتل والتحريقِ، و بين أن يُنذرَهم الحربَ ويُصافّهم فى القتال . والصنفُ الثانى لم تبلغهم دعوةُ الإسلام وهم قليلٌ جدّا، إلا أن يكونوا وراءَ من يلى هـذه البلادَ الإسلاميةَ من الترك والرومِ فى مَبادئ بلادِ المشرقِ وأقاصى المغربِ، فيحرُم عليه الإقدامُ على قتالهم غِرّةً و بَياتا ، وأن يبدأَهم بالقتال قبل إظهارِ دعوة الإسلامِ لهم و إعلامِهم من معجزات النبوّةِ وظهور الحجةِ ما يقودُهم إلى الإجابة . فإن أقاموا على الكفر بعد ظهورِها لهم، حارَبهم وصاروا فيـه كمن بلغتهم الدعوةُ. قال الله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) معنـاه إلى دين ربِّك بالنبوّة والقرآنِ . فإن بدأ بقتالهم قبل دعائهم إلى الإسلام و إنذارِهم بحُججه وقَتلهم غِرّةً و بَياتا، ضمِنَ دِيَاتِ نفوسِهم. وهى على الأصح من مذهب الشافعى كديات المسلمين . وقيـل : بل تكون كديات الكفار على اختلافها . و إذا تقابلت الصفوفُ فى الحرب جاز لمن قاتَل من المسلمين أن يُعلِّم بما

(١) كذا فى الاحكام السلطانية، وفى الأصل : «وقاتلوا عليها» .

يشتهرُ به فى الصفوف ويتميّزُ به من بين الجيش، وأن يركبَ الأبلقَ إن كانت خيولُ الناس دُهْما أو شُقْرا . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم بدر: "سَوِّمُوا فَإِنَّ المَلَائِكَةَ قَدْ سَوَّمَتْ"(١) . ويجوز أن يُجيبَ إلى البِراز إذا دُعى إليه؛ فقد دعا أُبَيُّ بنُ خَلَف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلى البِراز يوم أُحُد فبرز اليه فقتله النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أيضا للمقاتل من المسلمين أن يدعوَ إلى البراز(٢) لما فيه من إظهار القوّةِ فى دين اللهِ تعالى بعد أن يَعلمَ من نفسه أن لن يَعْجِزَ عن مقاومة خَصمه ويقدرَ على دفع عدوّه . ولا يجوز ذلك لزعيم الجيشِ، فإنه إذا طَلَب البِرازَ وفُقِد، أثّر ذلك فى المسلمين؛ وربما يُفضى بهم عدمُه إلى الهزيمة. ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم إنما برز لثقتِه بنصر الله وإنجازِ وعدِه، وليس ذلك لغيره. ويجوز لأمير الجيش إذا حضّ على الجهاد أن يُعَرِّضَ للشهادة من الراغبين فيها من يعلم أنّ قتلَه فى المعركة مما يحرّض المسلمين على القتال حميّةً له .

حكى موسى بنُ إسحاق أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج من العَرِيش يوم بَدْر فحرّض الناس على الجهاد ونَفّل كلَّ آمرئ [منهم](٣) ما أصاب، وقال: "والذى نفسى بيده لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ فَيُقتل صابرا محتسبا مُقبلا غير مُدبر إلا أدخلَه اللهُ الجنةَ"، فقال عُمَيْر بنُ الحُمام من بنى سَلَمة وفى يده تمراتٌ يأكلهن: بَخٍ بَخٍ! ما بقىَ

(١) اِعلموا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضا . وفى الأصل «تسوّموا ...» وما أثبتناه رواية النهاية لابن الأثير واللسان .

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية، وفى الأصل: «إلى البراز يوم أحد لما فيه ... الخ» وظاهر أن كلمة «يوم أحد» زيدت ها هنا سهوا من الناسخ .

(٣) الزيادة عن الطبرى قسم أوّل ج ٥ ص ١٣٢١ طبع أوربا . ونفل الإمام الجند: جعل لهم ما غنموا .

بيني وبين أن أدخلَ الجنـةَ إلا أن يقتلَني هؤلاء القومُ، ثم قَذف التمـراتِ من يده وأخذ سيفَه وتقدّم وقاتلَ القومَ حتى قُتل — رحمه الله — وهو يقول :

رَكْضًا إلى الله بغـير زادِ * إلا التُّقَى[1] وعمـلَ المعادِ
والصبرَ فى الله على الجهادِ * وكلُّ زاد عرضـةُ النَّفادِ
* غيرَ التُّقَى والبِرِّ والرشادِ *

ويجوز للمسلم أن يقتـلَ من ظفِر به من مُقاتِلة المشركين مُحارباً وغيرَ محارب. واختُلف فى قتـل شيوخهم ورُهبانِهم من سكان الصوامع والديارات. فمن منع من قتلهم قال : إنهم مُوادِعون. ومن قال بقتلهم وإن لم يقاتِلوا [قال][2] : لأنهم ربما أشاروا برأى يكون فيه إنكاءٌ للمسلمين. وقد قُتِل دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ فى حرب هوازنَ — وهو يوم حُنَيْن — وقد جاوز مائةَ سنة، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يراه فلم يُنكر قتلَه، وكان يقول حين قُتِل :

أمرتُهُـمُ أمرى بمُنْعَـرَجِ اللِّوَى * فلم يستبينوا الرشدَ إلا ضُحَى الغـدِ
فلمّا عَصَوْنى كنتُ منهم وقد أرى * غَوايتَهم لا أننى غـيرُ مهتـدى[3]

ولا يجوز قتل النساء والولدانِ فى حرب ولا غيرِها ما لم يُقاتِلوا؛ لنهى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم . وقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العُسَفاء والوُصَفاء — والعسفاء : المُستخدَمون، والوُصفاء : المماليكُ — . فإن قاتل النساءُ والولدان قُوتِلوا مُقبلين ولم يُقتلوا مُدبرين. وإذا تترّسوا فى الحرب بنسائهم وأطفالِهم عُمِدَ قتلُهم

(١) فى الأصل : «الى» والتصويب عن الأحكام السلطانية والطبرى .

(٢) زيادة يقتضيها سياق الكلام .

(٣) فى ديوان الحماسة لأبى تمام، شرح التبريزى طبع مدينة "بن" بأوربا : « ... وقد أرى * غوايتهم وأننى غير مهتدى » .

وتُوُقِّيَ قتلُ النساء والأطفال ، [فان لم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل النّساء والأطفال](١) جاز ، ولو تترّسوا بأسرى المسلمين ولم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل الأسارى لم يجز قتلُهم ، فإن أفضى الكفّ عنهم إلى الإحاطة بالمسلمين ، توصّلوا إلى الخلاص منهم كيف أمكنهم وتحرّزوا أن يعمِدوا قتلَ مسلم ؛ ويجوز عَقْرُ خيلهم من تحتهم إذا قاتلوا عليها ؛ ومنع بعض الفقهاءِ من عقرها . وليس لأحد من المسلمين أن يعقِر فرس نفسه ، لأن الخيل من القوّة التى أمر الله تعالى بإعدادها فى جهاد عدوّه . قال الله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) . ولا ٱحتجاجَ بعقر جعفر بن أبى طالب فرسه يوم مُؤْتة ، فإنه ٱقتحم بفرس له شقراء حتى ٱلتحم القتال ثم نزل عنها وعقرها وقاتل حتى قُتل رضى الله عنه ، وهو أوّل رجل من المسلمين عقر فرسه فى الإسلام ، وهو إنما عقر فرسه بعد أن أُحيط به ، فعقرُه لها خشية أن يتقوّى بها المشركون على المسلمين ، فصار عقرها كعقر خيولهم .

والثالث — ما يلزم أميرَ الجيش فى سياستهم . والذى يلزمه فيها عشرةُ أشياءَ : أحدها : حِراسُتهم من غِرّة يظفَر بها العدوّ منهم ، وذلك بأن يتتبّع المكامنَ فيحفَظها عليهم ويُحوط سوادهم بحرس يَأمنون به على نفوسهم ورحالهم(٢) ، ليسكنوا فى وقت الدَّعةِ ويأمنوا ما وراءهم فى وقت المحاربة . والثانى : أن يتخيّر لهم موضعَ نزولهم(٣) لمحاربة العدوّ ، وذلك أن يكون أَوْطأ الأرض مكانا وأكثرَها مرعى وماء وأحرسَها أكنافا وأطرافا ، ليكون أعونَ لهم على المنازَلة وأقوى لهم على المرابَطة . والثالث : إعدادُ ما يحتاج الجيش [إليه](١) من زاد وعُلُوفَة تُفرّق عليهم فى وقت الحاجة ، لتسكن نفوسُهم

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

(٢) فى الأصل «رجالهم» والتصويب عن الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأصل «ردماء» وهو تحريف ، والتصحيح عن الأحكام السلطانية .

إلى مادة يستغنُون بها عن السعى فى تحصيلها، وتتوفّرَ دواعيهم على منازلة العدوّ. والرابع: أن يعرف أخبار عدوّه حتى يقف عليها، و يتصفّح أحوالهم [حتى يَخْبُرَها](١) ليسلم من مكرهم ويلتمس الغِرَّةَ فى الهجوم عليهم. والخامس: ترتيبُ الجيش فى مصافّ الحرب، والتعويلُ فى كل جهة على من يراه كفئا [لها، و يتفقدَ الصفوف من الخلل فيها، و يراعىَ كل جهة](٢) يميل العدوّ عليها بمدد يكون عونا لهـا. والسادس: أن يقوّى نفوسهم بما يُشْعِرُهُمْ من الظفـر ويُخَيِّلُ إليهم من أسباب النصر، ليقلَّ العدوّ فى أعينهم فيكونوا عليه أجرأَ. قال الله عز وجل: (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ). والسابع: أن يعِدَ أهلَ الصبر والبلاء منهم بثواب الله إن كانوا من أهل الآخرة، و بالجزاء والنَّفَل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيـا. والثـامن: أن يشاوِرَ ذوى الرأى فيما أعْضَلَ، و يرجِعَ إلى أهل الحزم فيما أَشْكَلَ؛ ليأمن الخطأ و يسلمَ من الزلل. وقد تقـدّم ذكر ما فى المَشُورة من البركة والخـير. والتاسع: أن يأخذ جيشه بمـا أوجب الله تعالى من حقوقه وأمر به من حدوده، حتى لا يكون منهم تجوّز فى دين الله [ولا تحيفٌ(٢) فى حق]، فإن من جاهـد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اِنْهَوْا جيوشَكم عن الفساد فإنه ما فسد جيشٌ قطُّ إلا قذف الله فى قلوبهم الرُّعْبَ وانْهَوْا جيوشكم عن الزنا فإنه ما زنى جيش قط إلا سلّط الله عليهـم المُوتَان(٣)

(١) الزيادة عن الأحكام السلطانية ص ٤١.

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية.

(٣) فى الأصل: «... إلا سلط الله عليهم الوتان والموتان» ولعل كلمة «الوتان» زيدت سهوا من الناسخ، فإنها كلمة مهملة. وقد ورد الحديث فى الأحكام السلطانية خاليا منها كما أوردناه. والموتان (بالضم و يفتح): الموت الكثير الوقوع.

وأنهوا جيوشكم عن الغُلُول[1] فإنه ما غَلّ جيشٌ قطُّ إلا قذف الله الرعبَ فى قلوبهم".
وقال أبو الدرداء : يأيها الناس، عَمَلٌ صالحٌ قبل الغَزْو فإنما تُقاتلون بأعمالكم.
والعاشر : ألّا يُمكّن أحدا من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة ليصرفه[2] الاهتمام بها عن مصابرة العدوّ وصدقِ الجهاد . رُوى عن نبىّ من أنبياء الله تعالى أنه قال :
٥ "لا يغزونّ معى من بَنَى بناءً لم يُكمله ولا رجلٌ تزوّج امرأةً لم يدخل بها ولا رجلٌ زرع زرعا لم يحصده[3]".

والرابع — ما يلزم المجاهدين معه من حقوق الجهاد . وهو ضربان : أحدهما ما يلزمهم فى حق الله تعالى ؛ والثانى ما يلزمهم فى حق الأمير عليهم .

فأما اللازم لهم فى حق الله تعالى فأربعة أشياء. أحدها: مصابرة العدوّ عند التقاء
١٠ الجمعين بألّا ينهزم عنه مِنْ مثليْه فما دون ذلك . وقد كان الله عز وجل فرض فى أوّل الإسلام على كل مسلم أن يقاتِل عشرةً من المشركين ، فقال تعالى : (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا). ثم خفّف الله عنهم عند قوّة الإسلام وكثرة أهله فأوجب على كل مسلم لاقى العدوّ أن يقاتِل رجلين منهم ، فقال تعالى :
١٥ (الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) فحتم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لإحدى حالتين : إما أن يَتحرّف لقتال فيُولّى لاستراحة أو لمكيدة ويعود الى قتالهم ؛ وإما أن يتحيّز الى فئة أخرى يجتمع معها على قتالهم . قال الله تعالى :

(١) الغلول : الخيانة فى المغنم .
٢٠ (٢) كذا بالأصل ، ويظهر أن سياق الكلام يقتضى "فيصرفه" بالفاء .
(٣) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : «ولا رجل زرع زرعا ليحصده» .

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) قال : وسواء قُربت الفئة التى يتحيز إليها أو بعُدت . فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لِفَلّ[1] القَادِسِيّة حين آنهزموا اليه : أنا فِئةُ كل مسلم . ويجوز اذا زادوا على مثليه ولم يجد الى المصابرة سبيلًا أن يُوَلِّىَ عنهم غيرَ متحرف لقتال ولامتحيزٍ الى فئة. هـذا مذهب الإمام الشافعى رحمـه الله . وآختلف أصحابه فيمن عجز عن مقاومة مثليه وأشرف على القتل هل يجوز آنهزامه، فقالت طائفة: لا يجوز آنهزامه عنهم وإن قتل، للنص . وقالت طائفة أخرى : يجوز أن يولِّىَ ناويًا أن يتحرف لقتالٍ أو يتحيز الى فئة ليسلم من القتل ومن إثم الخلاف ؛ فإنه إن عجز عن المصابرة فلا يعجِز عن هذه النية. وقال أبو حنيفة: لا آعتبارَ بهذا التفصيل، والنصّ فيه منسوخ، وعليه أن يقاتل ما أمكنه وينهزم إذا عجز وخاف القتل. والثانى من حقوق اللهِ تعالى: أن يقصِد بقتاله نصرة دين الله تعالى وإبطالَ ما خالفه من الأديان، ليظهره على الدين كله ولو كرِه المشركون . فيكون بهذا الآعتقاد حائزا لثواب الله تعالى ومطيعا له فى أوامره ونصرةِ دينه ومستنصِرا على عدوّه [ليستسهل مالاقى[2]] فيكون أكثر ثباتا وأبلغ نِكاية. ولا يقصِد بجهاده آستفادة المغنم فيصير من المتكسّبين لا من المجاهدين . والثالث من حقوق الله تعالى : أن يؤدّى الأمانة فيما حازه من الغنائم ولا يغُلّ منها شيئا حتى تُقسَم بين جميع الغـانمين ممن شهِد الوقعة وكانوا على العدوّ يدا، لأن لكل واحدٍ منهم فيها حقا. قال الله تعالى : (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . والرابع من حقوق الله تعالى : ألّا يمايل من المشركين ذا قربى ولا يحابى فى نصرة الله تعالى [ذا مودّة[3]]، فإن حق الله

(١) قوم فَلّ : منهزمون .

(٢) زيادة من الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأصل فى مكان الكلمة غير واضح، وهى عن "الأحكام السلطانية" .

أوجب ونصرة دينه ألزم . قال الله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) . نزلت الآية فى حاطِبِ بنِ أبى بَلْتَعَةَ وقد كتب كتابا إلى أهل مكة حين همّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم يُعْلِمهم فيه بالخبر وأنفذه مع سارَةَ — مولاةٍ لبنى المطلب — فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فأنفذ علياً والزبير فى أثرها ، فأدركاها وأخذا الكتاب من قرون رأسها ، فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم حاطباً فقال : "ماحملك على ما صنعت" ؛ فقال : والله يارسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما كفرتُ ولا بدّلت ولكنى آمرؤ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهُرِهم أهلٌ وولد فصانعتهم عليهم (١) ؛ فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه . على مانذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبيّنا فى أثناء السيرة النبوية عند ذكرنا لغزوة الفتح ، فتأمله هناك تجده .

وأما مايلزمهم فى حق الأمير عليهم فأربعة أشياء . أحدها : التزام طاعتِه والدخول فى ولايتِه ؛ لأن ولايته عليهم آنعقدت ، وطاعته بالولاية وجبت . والثانى : أن يفوّضوا الأمر إلى رأيه ويَكِلوه إلى تدبيره ، حتى لاتختلف آراؤهم فتختلف كلمتهم ويفترق جمعهم . قال الله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) فجعل تفويض الأمر إلى وليّه سبباً إلى حصول العلم وسَداد الأمر . فإن ظهر لهم صوابٌ خَفِىَ عليه بيّنوه له وأشاروا به عليه . والثالث : أن يسارعوا إلى آمتثال أمرِه ، والوقوفِ عند نهيه وزجرِه ، لأنهما من لوازم طاعتِه . فإن توقّفوا عما أمرهم به أو أقدموا على ما نهاهم عنه ورأى تأديبَهم على المخالفة بحسب أفعالهم ، فعل .

(١) فى الأصل «فطالعتهم بذلك» وما أثبتناه عن تاريخ الكامل لابن الأثير (ج ٣ ص ١٨٤ طبع مدينة "ليدن") وعن الطبرى (القسم الأول ص ١٦٢٧ طبع أوربا) وعن السيرة النبوية لابن هشام (ص ٨١٠ طبع أوربا) وعن شرح القسطلانى فانه بعد أن شرح رواية البخارى للحديث فى كتاب الجهاد قال « وفى رواية ابن إسحاق : وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم » .

ولا يُغَلِّظْ فينفِّر . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) . والرابع : ألّا ينازعوه فى الغنائم إذا قسَمَها فيهم ، ويتراضَوْا به بعد القسمة . والخامس من أحكامها : مصابرة الأميرِ على قتال العدوّ ما صَبَر وإن تطاولت به المدّة . ولا يولّى عنهم وفيه قوّة . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . قيل فى تأويل هذه الآية : اصبروا على الجهاد ، وصابِروا العدوّ ، ورابِطوا بملازمة[1] الثغر . فإذا كانت مصابرة القتـال من حقوق الجهاد فهى لازمة حتى يظفَرَ بخَصلة من أربع خصال :

إحداهن — أن يُسْلِموا فيصيرَ لهم بالإسلام مالنا وعليهم ما علينا ، ويُقَرُّوا على ما ملكوا من بلاد وأموال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمِرتُ أن أُقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا منى دماءهم وأموالَهم إلا بحقّها" . وتصير بلادهم إذا أَسْلموا دار إسلام يجرِى عليها حكم الإسـلام . ولو أَسْلم منهم فى معركة الحرب طائفةٌ ، قلّت أو كثرت ، أحرزوا بالإسلام ما ملكوا فى دار الحرب من أرض ومال . فإن ظُهِر على دار الحرب لم تُغنم أموالُ من أسلم . وقال أبو حنيفة : يُغنم ما لا يُنقل من أرض ودار ، ولا يُغنم ما ينقل من مال ومتاع .

والخصلة الثانية — أن يُظَفِّره[2] الله تعالى بهم مع مُقامِهم على شِركهم ، فيسبى دراريهم ويغنم أموالهم ويقتل من لم يحصل فى الأسرِ[3] منهم . ويكون مخيَّراً فى الأَسْرَى

(١) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : « ورابطوا ملازمة الثغر » .

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية ، وهو الذى يستقيم به الكلام . وفى الأصل : « ان ظفره الله ... » .

(٣) كذا فى الأحكام السلطانية ، وهو الذى يلتئم مع ما بعده . وفى الأصل : « من لم يحصل فى القتل ... » .

فى آستعمال الأصلح من أربعة أمور. أحدها: أن يقتلهم صَبْراً بضرب العُنُق. والثانى: أن يسترقّهم ويُجْرِى عليهم أحكام الرِّقّ من بيع أو عتق. والثالث: أن يُفادِىَ بهم على مال أو أسرى. والرابع: أن يُمَنّ عليهم ويعفوَ عنهم. قال الله تعالى: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) معناه الأسر[1]. ثم قال: (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا).

والخصلة الثالثة — أن يبذُلوا مالًا على المسالمة والموادعةِ، فيجوز أن يقبله منهم ويوادعَهم عليه. وهو على ضربين. أحدهما: أن يبذلوه لوقتهم ولا يجعلوه خَرَاجًا مستمرًا. فهذا المال غنيمة لأنه مأخوذ بإيجافِ خيلٍ ورِكَاب، فيُقْسَم بين الغانمين، ويكون ذلك أماناً لهم فى الآنكفاف[2] عن قتالهم فى هذا الجهاد، ولا يمنع من جهادهم فيما بعد. والضرب الثانى: أن يبذلوه فى كل عام، فيكون خراجا مستمرًا، ويكون الأمان به مستقرًا. والمأخوذ منهم فى العام الأوّل غنيمة تُقسم بين الغانمين، وما يؤخذ فى الأعوام المستقبلة يُقسم فى أهل الفىءِ. ولا يجوز أن يعاود جهادهم ما كانوا مقيمين على بَذْل المال، لآستقرار الموادَعة عليه. وإذا دخل أحدهم إلى دار الإسلام، كان له بعقدِ الموادعة الأمان على نفسه وماله. فإن منعوا المال زالت الموادعة وآرتفع الأمان ولزم[3] الجهاد كغيرهم من أهل الحرب. وقال أبو حنيفة: لايكون منعهم من مال الجزية والصلح نقضا لأمانهم، لأنه حق عليهم فلا ينتقض العهد بمنعهم منه كالديون.

(٦١)

(١) فى الأصل: «معناه بالأسر» بزيادة الباء.

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية. وفى الأصل: «فى الانكفاء ...».

(٣) فى الأصل: «ولزوم الجهاد ...» وهو تحريف، والتصويب عن الأحكام السلطانية.

والخصلة الرابعة — أن يسألوا الأمان والمهادنة؛ فيجوز اذا تعذّر الظفر بهم وأخذُ المـالِ منهم أن يهادنهم على المسالمة فى مدّة مقدّرة تعقد الهدنة [عليها اذا كان الامام قد أذن له فى الهدنة](١) أو فوّض اليه الأمر . فقـد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا عام الحُدَيْبِيَةِ عشرَ سنين . ويقتصر فى مدّة الهدنة على أقلّ ما يمكن، ولا يجاوز بأكثرها عشرَ سنين . فإن هادنهم أكثر منها بطلت الهدنة فيما زاد عليها، ولهم الأمان فيهـا الى انقضاء مدّتها لا يُجَاهَدون فيها من غير إنذار . [فإن نقضوه صاروا حَرْبًا يُجَاهَدون من غير إنذار](١) فقد نقضت قريش صلح الحديبية، فسار اليهم رسول الله صلى الله عليـه وسلم عام الفتح محاربا . واذا نقضوا عهدهم فلا يجوز قتل مَن فى أيدينـا من رهائنهم . وقد نقض الرومُ عهـدهم فى زمان مُعاوِية وفى يده رهائن فامتنع المسلمون جميعا من قتلهم وخلّوا سبيلهم وقالوا: وَفَاءٌ بغَدْرٍ خيرٌ من غدر بغدر . وإذا لم يجز قتل الرهائن لم يجب إطلاقهم(٢) ما لم يحاربوا . فإن حاربونا وجب إطلاقُ رهائنهم وإبلاغُ الرجلِ منهم مَأْمنهم وإيصالُ النساء والأطفال والذرارى الى أهليهم . ويجوز أن يشترط لهم فى عقد الهدنة ردّ من أسلم من رجالهم اليهم . فإذا أسلم أحدهم رُدّ اليهم إن كانوا مأمونين على دمه، ولم يُردَّ إليهم(٣) إن لم يُؤْمَنُوا عليه . ولا يشترط ردُّ من أسلم من نسائهم، لأنهنّ ذوات فروج محرّمة . فإن شُرِط ردّهن لم يجز أن يُرْدَدْنَ(٤)؛ ودُفع الى أزواجِهنّ مهورُهنّ اذا طُلِبْنَ .

ولا تجوز المهادنة لغير ضرورة تدعو الى عقدها ، وتجوز الموادعة أربعـة أشهر فمـا دونها ولا يزيد عليها .

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .
(٢) فى الأحكام السلطانية « لم يجز إطلاقهم ... » .
(٣) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل : « ولم يردّ عليهم ... » .
(٤) فى الأصل : « لم يجز أن يردوا » ومرجع الضمير مؤنث .

وأما الأمان الخاصّ فيصح أن يبذُله كل مسلم من رجل وآمرأة وحرّ وعبد؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " المسلمون تتكافأ دِماؤهم وهم يَدٌ على من سِواهم يَسْعَى بذمّتهم أدناهم " يعنى عبيدَهم . وقال أبو حنيفة : لا يصحّ أمانُ العبدِ إلا أن يكون مأذونا له فى القتال .

٥ والسادس من أحكامها — السيرة فى نزال العدوّ وقتاله . يجوز لأمير الجيش فى حِصار العدوّ أن ينصِب عليهم العَرَّادات[1] والمَجَانِيقَ . فقد نصَب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الطائف مَنْجَنِيقًا . ويجوز أن يهدِم عليهم منازلَهم ، ويضع عليهم البيات والتحريق . واذا رَأى فى قطع نخلهم وشجرهم صلاحًا ليظفر بهم عنوةً أو يدخلوا فى السلم صلحا لِما ينالهم من الضعف ، فَعَل . ولا يفعل إن لم ير فيه صلاحا . فقد قطع ١٠ النبي صلى الله عليه وسلم كروم أهلِ الطائف فكان سببًا لإسلامهم ، وأَمَر فى حرب بنى النَّضِير بقطع نوع من النخل يقال له الأصفر يُرَى نَوَاه من وراء اللِّحاء ، وكانت النخلة منها أحبَّ اليهم من الوَصِيف[2] ، فحزِنوا لقطعها ، وجاء المسلمون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وِزر؟ فأنزل الله تعالى : (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ[3] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا ١٥ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) . ويجوز أن يعوِّر[4] عليهم المياه ويقطعها عنهم وإن كان فيهم النساء والأطفال ؛ لأنه من أقوى أسبابِ ضعفهم والظفَرِ بهم . واذا آستسقى منهم عطشان فالأمير مخيَّر فى سَقْيِه أو منعه . ومن قُتل منهم واراه عن الأبصار ولم يلزم[5] تكفينه . ولا يجوز أن يحرق بالنار منهم حيًّا ولا ميتا . رُوى عن النبيّ صلى الله عليه

(١) العرادات : واحدها : عرّادة وهى أصغر من المنجنيق ترمى بالحجارة المرمى البعيد .

٢٠ (٢) الوصيف : العبد . (٣) اللينة : واحدة اللين وهو كل شىء من النخل سوى العجوة .

(٤) عوّر الماء : سدّه . (٥) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل « ولم يكره » .

وسلم أنه قال : "لا تُعَذِّبوا عبادَ الله بعذابِ الله" وقد أحرق أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه قوما من أهل الرِّدّة . قال الماوردى : ولعل ذلك كان منه والخبرُ لم يبلغه . ومَن قُتِل من شهداء المسلمين زُمِّل فى ثيابه ودُفِنَ ولم يُغَسَّل ولم يُصَلَّ عليــه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهداء أُحُدٍ : "زَمِّلُوهم بكُلُومِهم فإنهم يُبْعَثُون يومَ القيامة وأوداجُهم تشخُبُ دمًا اللونُ لونُ الدَّمِ والريحُ رِيحُ المِسْكِ". وإنما فُعل ذلك بهم مكرُمَةً لهم وإجراءً لحكم الحياة عليهم . قال الله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) . ولا يمنع الجيشَ فى دار الحربِ من أكل طعامِهم وعُلوفة دوابِّهم غيرَ محتَسِبٍ به عليهم . ولا يتعدَّوا القُوت والعُلوفة الى ما سواهما من ملبوس ومركوب . فإن دعتهم الضرورةُ الى ذلك ، كان ما لَبِسوه أو رَكِبوه أو استعملوه ، مُسْتَرْجَعًا منهم فى المَغْنَم إن كان باقيا ، ومُحْتَسَباً عليهم من سهمهم إن كان مستهلَكا . ولا يجوز لأحد منهم أن يطأ جاريةً من السَّبْيِ إلا بعد أن يُعْطَاها بسهمه فيطأها بعد الاستبراء . فإن وطِئها قبل القسمة عُزِّر ولا يُحَدّ ، لأنّ له فيها سهما ؛ ووجب عليــه مهرُ مثلها يُضاف الى الغنيمة . فإن أحبلها لَحِق به ولدُها وصارتْ أمَّ وَلَدٍ له إن مَلَكها . وإن وَطِئ من لم تدخل فى السبى حُدّ ، لأن وَطْأها زِنًا ؛ ولم يَلْحق به ولدُها إن علِقتْ .

(٦٢)

وإذا عُقِدت هذه الإمارة على غَزَاة واحدة ، لم يكن لأميرها أن يغزو غيرها سواء غَنِم فيها أو لم يغنَم . واذا عُقِدت عموماً عاماً بعد عامٍ لزِمه معاودةُ الغزو فى كل وقت يقــدِر على الغزو فيه ، ولا يَفْتُرُ عنه مع ارتفاع الموانع إلا قدرَ الاستراحة . و [أقل ما يجزيه أن][1] لا يعطِّل عاماً من جهاد .

(١) زيادة من الأحكام السلطانية .

ولهذا الأمير، اذا فُوِّضتْ اليه الإمارة على المجاهدين، أن ينظر فى أحكامهم ويُقيم الحدودَ عليهم وسواء من آرتزق منهم أو تطوّع . ولا ينظر فى أحكام غيرهم ما كان سائرا الى ثغره . فإذا آستقرّ فى الثغر الذى تقلّده، جاز أن ينظر فى أحكام جميع أهله من مُقَاتِلة ورعيّة . وإن كانت إمارته خاصة أُجرِىَ عليها حكمُ الخصوص .

٥

* * *

وأما وصايا أمير الجيش — قال الحليمىّ : ويُوصِى الإمامُ أمير السريّة والجند بتقوى الله وطاعته والآحتياطِ والتيقُّظ، ويحذِّرُهم الشَّتَاتَ والفُرقة والإهمال والغفلة، ويأخذ على الجند أن يسمعوا ويُطيعوا أميرهم ولا يختلفوا عليه وينصحوا له، ولا يخذل (١) بعضهم بعضا، وإن أظفرهم الله على العدوّ لا يَغُلُّوا ولا يخونوا، ولا يَعقِروا من دوابّ المشركين التى لا تكون تحتهم، ولا يقتلوا آمرأةً لا تقاتلهم ولا وليدا، وأنهم إن وصلوا إلى قرية لا يدرون حالها، أمسكوا عنها وعن أهلها ولا يُبيِّتونهم ولا يَشُنُّون الغارةَ عليهم حتى يَعلموا حالهم، إلى غير ذلك من الآداب التى يحتاجون إلى معرفتها مما يلزم ويحِلّ أو يحرُم من أمر القتل والأسر والمغنم والقَسْم وعَزْل الخُمُس ومن يُسْهَمُ له أولا يُسْهَم ومن يُرْضَخ [له] (٢)، والفرقِ بين الفارس والراجل ونحو ذلك .

١٠

١٥

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الجَرَّاح أنه بلغنى أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا أو سريّةً قال : "باسم الله وفى سبيل الله تقاتلون مَنْ كفر بالله لا تَغُلُّوا ولا تغدِروا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتُلوا آمرأةً ولا وليدا". فإذا بعثت جيشا أو سريّة فَمُرْهم بذلك .

(١) يخذل : يجوز أن يقرأ بتخفيف الذال فيكون من الخذلان، وبتشديدها فيكون من التخذيل . والخذلان : ترك النصرة . والتخذيل : التثبيط والحمل على ترك النصرة .

٢٠

(٢) يقال : رضخ له من ماله اذا أعطاه عطية قليلة . فالزيادة التى وضعناها تقتضيها اللغة .

وقال أبو بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه لخالد بن الوليد حين وجّهه لقتال أهل الرِّدّة: سِرْ على بركة الله، فإذا دخلت أرض العـدوّ فكن بعيدًا من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة، وٱستظهر بالزاد، وسر بالأدِلّاء، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، وٱحترس من البَيَات فإنّ فى العرب غِرَّة، وأقْلِلْ من الكلام فإنما لك ماوُعِىَ عنك، واقبل من الناس عَلَانِيَتهم وكِلْهم إلى الله فى سريرتهم؛ وأسـتودعُك الله الذى لا تضيع ودائعه. ٥

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عنـد عَقْد الألوية: باسم الله وبالله وعلى عون الله، أُمضوا بتأييد الله والنصر ولزومِ الحق والصبرِ، فقاتِلوا فى سبيل الله مَنْ كفر بالله، ولا تعتدُوا إن الله لا يحبّ المعتدين. ولا تجبُنُوا عند اللِّقاء، ولا تُمَثِّلُوا عند القدرة، ولا تُسْرِفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هَرِمًا ولا ٱمرأةً ولا وليدا، وتَوَقَّوْا قتلَهم إذا ٱلتقى الزَّحْفان وعند شَنِّ الغارات. ١٠

وكتب عمر الى سعد بن أبى وَقَّاص ومن معه من الأجناد: أما بعد فإنى آمرُك ومَنْ معك بتقوى الله على كلِّ حال، فإن تقوى الله أفضلُ العُدَّة على العدوّ وأقوى المَكِيدة فى الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ ٱحتراسًا من المعاصى منكم من عدوّكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنما يُنْصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا قوّةٌ بهم؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتُنا كعدّتهم. فإن ٱستَوَيْنا فى المعصية كان لهم الفضلُ علينا فى القوّة. وإلّا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلِبْهم بقوّتنا. وٱعلموا أن عليكم فى مَسِيركم حَفَظَةً [من][1] الله يعلمون ماتفعلون، فاستَحْيُوا منهم. ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله. ولا تقولوا إن عدوّنا شرٌّ منا فلن يُسلَّطَ علينـا وإن أسأنا؛ فرب قومٍ قد سُلِّطَ عليهم شرٌّ منهـم كما سُلِّطَ على بنى ١٥ ٢٠

(١) زيادة من العقد الفريد.

إسرائيل لمّا عملوا بمساخط الله كَفَرَةُ المجوس (فجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) . وآسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصرَ على عدوّكم . أسألُ الله ذلك لنا ولكم . وترفّقْ بالمسلمين فى مَسيرهم ، ولا تُجَشِّمْهم مسيرًا يُتعبهم ، ولا تُقَصِّرْ بهم عن منزل يَرْفُق بهم ، حتى يبلغوا عدوّهم والسفرُ لم يَنْقُصْ قوّتَهم (١) ؛ فإنهم سائرون الى عدوّ مُقيم حامى الأنفس والكُراع (٢) . وأقِم بمن معك فى كل جمعة يومًا وليلة حتى تكون لهم راحة يُجِمّون (٣) فيها أنفسَهم ويَرِمُّون (٤) أسلحتهم وأمتعتهم . ونَحِّ منازلَهم عن قُرَى أهل الصلح والذمّة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ (٥) أحدًا من أهلها شيئا ، فإن لهم حرمةً وذمّةً آبتُلِيتُم بالوفاء بها كما آبتُلُوا بالصبر عليها ؛ فما صَبَرُوا لكم ففُوا لهم (٦) . ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطِئتَ أدنى أرضِ العدوّ فأذِكِ (٧) العيون بينك وبينهم ، ولا يخفَ عليك أمرُهم . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكَذوبَ لا ينفعك خبره وإن صدق فى بعضه ، والغاشّ عينٌ عليك وليس عينًا لك . وليكن منك عند دنوّك من أرض العدوّ أن تُكثِر الطلائعَ وتُبثّ السَّرَايَا بينك وبينهم [فتقطع السرايا أمدادَهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائعُ عوراتِهم (٨)] . وآنتقِ للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ،

(١) كذا فى العقد الفريد ، وفى الأصل : «لا ينقص» . (٢) الكراع : الخيل .

(٣) يجمون أنفسهم : يتركونها لترتاح وتقوى . (٤) يرمون : يصلحون .

(٥) «ولا يرزأ» فى الأصل غير معجمة ، وأثبتناها بالياء طبقا لما فى العقد الفريد ، على أن تكون معطوفة على صلة الموصول قبلها . ويحتمل أن تكون بتاء الخطاب .

(٦) فى العقد الفريد : «فما صبروا لكم فتولوهم خيرا» .

(٧) إذكاء العيون والطلائع : بثها .

(٨) هذه الجملة التى بين القوسين وردت فى الأصل هكذا : «فتنقطع للسرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع بالطلائع عوراتهم» وفى بعض هذه الكلمات تحريف جعل الجملة غير مستقيمة ، فأثبتناها كما وردت فى العقد الفريد (ج ١ ص ٥٠) .

وتخيَّرْ لهم سوابقَ الخيل، فإن لقُوا عدوًا كان أوّل ما تلقاهم القوّة من رأيك (١). وآجعل أمرَ السَّرَايا (٢) الى أهل الجهاد والصبرِ على الجِلاد، ولا تخُصَّ بها أحدًا بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر ممـا حابيت به أهـل خاصّتك. ولا تبعَثْ طليعةً ولا سريَّةً فى وجهٍ تخوَفُ عليها فيـه ضيعةً ونِكاية. فإذا عاينتَ العدوّ فاضمُمْ اليـك أقاصِيَك وطلائعك وسراياك، وآجمـع إليك مَكِيدتك وقوّتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، مالم يستكرهك قتـال (٣)، حتى تُبصِر عورةَ عدوّك ومَقَاتله، وتعـرِفَ الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنعَ بعدوّك كصنيعه بك. ثم أذكِ أحراسك على عسكرك، وتحفَّظْ من البيات جهدك. ولا تُؤْتَى بأسير ليس له عهدٌ إلا ضربت عنقه، لِتُرْهِب بذلك عدوّك وعدوَّ الله. والله ولىّ أمرك ومن معك، وولىّ النصر لكم على عدوّكم؛ والله المستعان.

وأوصى عبد الملك بن مروان أميرًا سيَّره الى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكَيِّس الذى إن وَجَد ربحا تَجَرَ، وإلّا تحفّظ برأس المال؛ ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة؛ وكن من آحتيالك على عدوّك أشـد حذرا من آحتيال عدوّك عليك.

وكان زِيَاد بن أبيه يقول لقوّاده: تجنَّبُوا آثنتين لا تقاتلوا فيهما العدوّ: الشتاء، وبطون الأودية.

وكان قُتَيْبـة بن مسلم يقول لأصحابه: اذا غَزَوْتم فأطيلوا الأظفار، وقصِّروا الشعور، وآلحظُوا الناسَ شَزْرا، وكَلِّموهم رَمْزا، وآطعَنُوهم وَخْزًا.

---

(١) كذا فى العقد الفريد، وفى الأصل: «وإن لقوا...».

(٢) فى الأصل: «أهل السرايا...» والتصويب عن العقد الفريد

(٣) كذا فى العقد الفريد، وفى الأصل: «مالم يستكرهوك القتال»

وكان أبو مسلم الخُراسانىّ صاحبُ الدعوة يقول لقوّاده : أَشْعِروا قلوبَكم الجُرْأة فإنها من أسباب الظَّفَر، وأَكْثِرُوا ذكر الضغائن فإنهـا تبعث على الإقدام، وآلْزَمُوا الطاعةَ فإنها حِصْنُ المحارب .

وقالت الحكماء : لا تستصغِرَنّ أمرَ عدوّك اذا حاربتـه، لأنك إن ظَفِرت به لم تُحْمَد وإن ظَفِر بك لم تُعْذَر، والضعيفُ المحترِس من العدوّ القوىّ أقربُ الى السلامة من القوىّ المغترّ بالضعيف .

ذكر ما يقوله قائد الجيش وجنده
من حين يُشاهَدُ العدوُّ[1] الى آنفصال الحرب والظفر بعدوّهم

قال الشيخ أبو عبد الله الحسين الحَلِيمىّ فى منهاجه : اذا مضى الجيش باسم الله فلَقُوا العدوّ فليتعوّذوا بالله تعالى، وليقولوا : اللّهم إنا ندرأ بك[2] فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم . فإذا قاتلوا فليقولوا : اللهم بك نصول ونجول . وليقولوا : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . وليقولوا : اللّهم مُنْزِلَ الكتابِ وسريعَ الحِساب هازمَ الأحزاب، اللهم آهزِمْهم وزلزِلهم . وإن حَصَبُوهم فليقولوا : "شاهتِ الوُجُوه" . وإن رَمَوْهم فليقولوا : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا) . وإن بيّتهم العدوّ فليكن شعارُهم (حمٓ) لا يُنْصَرون (حمٓ عٓسٓقٓ) يفرّق أعداء الله، وبلغتْ حجة الله، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلا بالله . وليقولوا إذا دخل العدوّ ديارَهم : (ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) . وليقولوا اذا صافُّوهم : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) . وليقولوا :

(١) فى الأصل : «من حيث» وظاهر أن السياق يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل «انا ندرؤك ...» وهو تحريف . ومنه الحديث — كما فى نهاية ابن الأثير فى مادة (درأ) — : «اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم» .

(فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). وليقولوا: (جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ). وليقولوا: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ). وليقولوا: (فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (إِذِ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ). وإن صَبَحُوا دارَهم فليقولوا: الله أكبر، هزم العسكر، إذا نزلنا ساحة قوم (فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ). وإن بيّتوهم فليقولوا: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ). وإن جاءوهم نهارًا فليقولوا: (أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ). وليقولوا فى عامة أحوالهم وأوقاتهم: (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ). وليقولوا: (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا). (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا). وإن كان العدوّ يهودًا فليقل المسلمون فى وجوههم: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا). وليقولوا: (فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ). وليقرءوا المعوّذتين غُدوةً وعَشيًّا. وإن وقعت هزيمةٌ فتبعهم العدوّ فليتحصّنوا منهم بقراءة قوله تعالى: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا). (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ). وإن هزموا العدوَّ فليقولوا على آثارهم: (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). وليقولوا: (مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ). وإن لجّ العدوّ وثبتوا فليقولوا: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ). وليقولوا: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ). وليقولوا: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ

(٦٤)

الْبَعِيدُ) . وليقولوا : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا). وليقولوا : (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) وليقولوا : (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) . وليقولوا : (مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ). وليقولوا : (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ). وليقولوا إذا حملوا على العدو : (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) . (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) . وليقولوا : (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) . وليقولوا : (أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) . وليقولوا : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) . وليقولوا : (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) . وليقولوا : (فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) . وإن حمل العدوُّ عليهم فليقولوا لأنفسهم : (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ). وليقولوا : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ). وإذا دنوا منهم فليقولوا : (انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ). وليقولوا: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) . وليقولوا : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ) . وليقولوا : (اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا) . وإذا لحق العدوَّ مددٌ فليقل المسلمون: (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ) . وليقولوا:

(وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ) . وإن لحق المسلمين مدد فليقولوا : (وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) . وإذا تحصنوا من العدو بموضع فليقولوا إن قصدوهم : (فَأْوُا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا) . وليقولوا : (فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) . وإن تحصن العدو منهم بموضع فليقولوا إن قصدوه : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) . وليقولوا : (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . وليقولوا إذا خافوهم : (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . وليقولوا : (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) . وليقولوا : (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) . وليقولوا : (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) . وليقولوا : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . وليقولوا : (وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) . وإن حاصروا العدو وأحدقوا بهم فليقولوا : (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) . وليقولوا : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ) . وإن حاصرهم العدو وأحاط بهم فليقولوا : (قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ) . وليقولوا : (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) . وليقولوا : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ). وإن رماهم العدوّ بالنار فليقولوا : (يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) . (فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ). وليقولوا: الله أكبر، الله ربنا، ومحمد نبينا، وأنت يانار لغيرنا . وليقولوا : (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ). وإن رموا العدوّ بالنار فليقولوا معها : (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) . وليقولوا: (ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) . وليقولوا: (فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) . (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) . وليقولوا: (إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى). وليقولوا : (وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) . وإن رموا العدوّ بالمنجنيق فليقولوا : (جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) . وإن رماهم العدوّ بالمنجنيق فليقولوا : (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) . وليقولوا: (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ). وليقولوا: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) . وإذا دخلوا أرض العدوّ فليقولوا : بأسم الله (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) . (وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا). ويقولوا إذا كانت الريح تصفق فى وجوه العدوّ: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ) . وإن كانت الريح تهبّ على وجوه المسلمين فليقولوا : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) . (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ)،

ويقولوا: "اللهم اجْعَلْها رِيَاحًا ولا تجعَلْها رِيحًا"، ويقولوا: اللهم إنا نسألك من خير ما تأتِي به الرياح، ونعوذ بك من شر المساءِ والصباحِ. وإن بارز مسلم مشركا فليقرأ عليه: (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ). وليقل: (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ). وليقل: (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا). وإذا التقى الصفَّانِ فليدْعُ أميرُ السرِيَّةِ ويسأَلِ اللهَ النصرَ والفتحَ ويُؤَمِّنِ الناسُ على دعائِه؛ فإنها من ساعات الإجابة.

ذكر ماقيل فى المكيدة والخداع فى الحروب وغيرها

رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الْحَرْبُ خَدْعَةٌ"[1]. وكان صلى الله عليه وسلم إذا غزا أخذ طريقًا وهو يريد أُخرى، ويقول: "الحرب خدعة".

وكان مالك بن عبد الله الخَثْعَمِيّ وهو على الصائفة[2] يقوم فى الناس، اذا أراد أن يرحل، فيحمَدُ الله ويُثنى عليــه، ثم يقول: إنى داربٌ بالغداة دَرْبَ كذا؛ فتتفرق الجواسيس عنه بذلك، فإذا أصبح سَلَك بالناس طريقًا غيرَها. فكانت الروم تسمِّيه الثعلب.

وقال المُهَلَّب لبنيه: عليكم فى الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة.

وسئل بعضُ أهل التمرُّس بالحروب: أىُّ المكايِدِ فيهـا أحزم؟ فقال: إذكاءُ العيون[3]، وإفشاءُ الغَلَبــة، واستطلاعُ الأخبار، وإظهارُ السرور، وإماتة الفَرَق،

(١) فى النهاية لابن الأثير «... يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال، وبضمها مع فتح الدال فالأول معناه أن الحرب ينقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع أى أن المقاتل اذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة، وهى أفصح الروايات وأصحها، ومعنى الثانى هو الاسم من الخداع، ومعنى الثالث أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفى لهم كما يقال: فلان رجل لعبة وضحكة أى كثير اللعب والضحك».

(٢) الصائفة: الجماعة تقام وتصف للحرب. (٣) إذكاء العيون: بث الجواسيس.

والاحتراسُ من البِطَانة، من غير إقصاءٍ[1] لمستنصِحٍ ولا استنصاحٍ لمستغِشٍّ، وإشغالُ[2] الناس عما هم فيه من الحرب بغيره .

وقال حكيم : اللُّطْفُ فى الحِيلة، أجدى للوسيلة . وقيل : من لم يتأمَّل الأمر بعين عقله لم يقع سيفُ حيلته إلا على مَقَاتله، والتَّثَبُّتُ يسهِّل طريق الرأى إلى الإصابة، والعجلة تضمن العَثْرة .

ويقال : إن سعيد بن العاص صالَحَ أهلَ حِصْن من حصون فارس على ألَّا يقتل منهم رجلًا واحدا، فقتلهم كلَّهم إلا رجلًا واحدا .

وقيل : لما أُتِى بالهُرْمُزَان أسيرًا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قيل له : يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العجم وصاحب رُسْتُم[3]، فقال له عمر رضى الله عنه : أَعرِضُ عليك الإسلام نُصْحًا لك فى عاجلك وآجلك، فقال : إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب فى الإسلام رهبة، فدعا عمر بالسيف، فلما همّ بقتله، قال : ياأمير المؤمنين، شربةٌ من ماءٍ هى أفضل من قتلى على الظمأ، فأمر له بشربة من ماء، فلما أخذها الهرمزان قال : يا أمير المؤمنين، أنا آمِنٌ حتى أشربها؟ قال : نعم، فرمى بها وقال : الوفاءُ يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج، قال : صدقتَ، لك التوقُّف عنك والنظرُ فيك، ارفعا عنه السيف، فقال : يا أمير المؤمنين، الآن أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وما جاء به حق من عنده، فقال عمر : أسلمت خير إسلام، فما أخَّرك ؟ قال : كرِهت أن يُظَنَّ بى أنى إنما أسلمت خوفًا من السيف، فقال عمر : ألَا إنّ لأهل فارس عقولًا استحقّوا بها ما كانوا فيه من الملك، ثم أمر ببِرِّه وإكرامه .

(١) فى الأصل : «من غير إقضاء .. » . (٢) فى الأصل : «واشتغال الناس ...» .

(٣) هو رستم بن فرخزاد، كان من أعظم رجال فارس وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان فى وقعة القادسية التى انتصر فيها المسلمون حينما أرسل سعد بن أبى وقاص لفتح ايران فى خلافة عمر رضى الله عنه . وقد قتل رستم فى هذه الوقعة .

(٦٦) ونظير هذه القصة ما فعل الأسير الذى أُتى به الى مَعْن بن زائدة فى جملة الأَسْرَى فأَمر بقتلهم؛ فقال : أتقتل الأسرى عِطاشًا يامعن؟ فأمر بهم فسُقُوا، فلما شربوا قال : أتقتل أضيافك يامعن؟ فخلّى عنهم .

ومن المكايد المشهورة حكاية قَصِيرٍ مع الزَّبَّاء، وسنذكرها إن شاء الله فى التاريخ فى أخبار ملوك العرب، وواقعةُ ملك الهياطلة مع فَيْرُوزَ بن يَزْدَجِرْد، ونذكرها أيضا فى أخبار ملوك الفرس . ٥

ومن المكايد خبر عمرو بن العاص والمُغِيرة بن شُعْبة مع مُعَاوية بن أبى سُفْيان، وكان معاوية قد كتب اليهما وٱستقدم عمرًا من مصر والمغيرةَ من الكوفة؛ فقال عمرو للمغيرة : ما جمعَنا إلا ليعزِلنا، فإذا دخلتَ عليه فٱشكُ الضعفَ وٱستأذنه أن تأتى الطائف أو المدينـة، وأنا اذا دخلتُ عليه سأسأله ذلك فإنه يظن أنّا نريد أن نُفسد عليـه . فدخل المغيرة على معاوية فسأله أن يُعفيه فأذن له؛ ودخل عليه عمرو وسأله ذلك؛ فقال معاوية : قد تواطأتما على أمر وإنكما لتريدان شرًّا، ارجعا الى عمليكما. ١٠

وكتب المغيرةُ بن شُعبة إلى معاوية حين كَبِر وخاف العزل : أما بعد، فإنه قد كَبِرت سِنِّى، ودَقَّ عظمى، وقرُب أجلى، وسفَّهنى رجالُ قُرَيش، فرأىُ أمير المؤمنين فى عمله مُوَفَّق . فكتب اليه معاويةُ: أمّا ما ذكرتَ من كِبَر سنّك، فإن سنّك أكلت عمرك . وأما ٱقترابُ أجلك، فإنى لو كنتُ أستطيع أن أدفع المنيَّةَ عن أحد لدفعتها عن آل أبى سُفيان . وأما ما ذكرتَ من العمل فـ * ضَحِّ قليلًا يُدْرِكِ الهيجا حَمَلْ * (١) وأمّا ما ذكرتَ من سفهاء قريش، فإنّ حلماء قريش أنزلوك هذا المنزل. فاستأذنَ معاويةَ ١٥

(١) وكذا فى اللسان . وضح قليلا : تأنَّ قليلا ولا تعجل . وهو شطر بيت ورد فى شرح القاموس هكذا :

لبِّث قليـلا يلحق الهيجا حمـل * ما أحسن الموت اذا حان الأجل

وقائل البيت حمل بن بدر، وقيل حمل بن سعدانة الصحابى .

فى القدوم فأذن له ؛ فلما وصل اليه قال له معاوية : كَبِرت سنك، وٱقترب أجلك، ولم يبق منك شىء، ولا أظنُّنى إلا مستبدلاً بك. قال : فٱنصرَف والكآبةُ تُعرَف فى وجهه ؛ فقيل له : ما تريد أن تفعل ؟ (١) فقال : ستعلمون ذلك . ثم أتى معاويةَ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الأنفس يُغْدَى عليها ويُرَاح، ولستَ فى زمن أبى بكر ولا عمر، وقد ٱجترح الناس، ولو نصبْتَ لنا عَلَماً من بعدك نصيرُ اليه! مع أنى كنت قد دعوتُ أهلَ العراق الى يزيد فركَنُوا اليه حتى جاءنى كتابك؛ قال : يا أبا محمد، انصرف الى عملك فأَحْكِمْ هذا الأمر لٱبن أخيك، وأعاده على البريد يركُض .

وقيل : جاء بأزيارٍ (٢) لعبد الله بن طاهر فأعلمه أن بازياً له أنحط على عُقَاب له فقتلها؛ فقال : اِذْهَبْ فٱقطِفْ رأسَه، فإنى لا أُحبّ الشىء أن يجترئ على ما فوقه. وأراد أن يبلغ ذلك المأمون فيسكُنَ الى جانبه .

قال الشعبىّ : وجّهنى عبد الملك بن مَرْوان الى ملك الروم، فلما قَدِمتُ عليه ودفعت اليه كتاب عبد الملك، جعل يسألنى عن أشياء فأُخبره بها، فأقمتُ عنده أياما، ثم كتب جواب كتابى، فلما ٱنصرفتُ دفعتُه الى عبد الملك، فجعل يقرؤه ويتغيّر لونه، ثم قال: ياشعبىّ، علمتَ ما كتب به إلىّ الطاغية؟ قلت : يا أمير المؤمنين، كانت الكتب مختومة ما قرأتها وهى اليك؛ فقال : إنه كتب إلىّ : إنّ العجب من قوم يكون فيهم مثلُ من أرسلتَ به إلىّ فيملّكون غيره ؛ فقال : قلت يا أمير المؤمنين لأنه لم يرك؛ قال : فسُرّىَ عنه، ثم قال : إنه حسدنى عليك فأراد أن أقتلك .

قال: ولمّا ظَفِرَ الجُنَيْد بن عبد الرحمن — وهو يَلِى خُراسان فى أيام هشَام — بصبيح الخارجىّ وبعدّة من أصحابه فقتلهم جميعا إلا رجلاً أعمى [قال هذا الرجل] (٣) أنا أدلّك

(١) تكررت فى الأصل جملة "فقيل له ما تريد أن تفعل" سهوا من الناسخ .

(٢) البازيار : القيم على البزاة أو المتجر بها .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

على أصحاب صبيح وأجازيك على ما صنعتَ ، وكتب له قوما ؛ فأمر الجنيد بقتلهم حتى قُتِـلَ مائة ؛ فقال الأعمى عند ذلك : لعنك الله باجنيد ! أتزعم أنه يَحِلُّ لك دَمِي وأنِّى ضالٌّ ثم تَقْبَـلُ قولى فى مائة قتلتَهم ! لا ! والله ما كتبتُ لك من أصحاب صبيح رجلا ، وما هم إلا منكم . فقدّمه الجنيد وقتله .

وكان مُعاوية بن أبى سُفيان من الدُّهاة ؛ وله أخبار فى الدَّهَاء تدُلّ على بُعْد غَوْره وحِدّة ذهنه . فمنها أن يزيد ابنه سمع بجمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سَلَّام القرشىّ[1] ، وكانت من أجمل النساء فى وقتها وأحسنهنّ أدباً وأكثرهنّ مالا ، ففتُنَ بها يزيد ؛ فلما عِيلَ صبرُه ذكر ذلك لبعضِ خِصْيان أبيه ، وكان ذلك الخَصِىّ خاصًّا بمعاوية واسمه رفيق ، فذكر رفيق ذلك لمعاوية وقال له : إنّ يزيد قد ضاق ذَرْعه بها . فبعث معاوية الى يزيد فاستفسره عن أمره ؛ فبثّ له شأنه ؛ فقال : مهلا يايزيد ؛ فقال له : عَلَامَ تأمرنى بالمهل وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين مُرُوءتك وحِجَاك [وتُقَاك] ؟ فقال : قد عِيلَ الصبرُ ، ولو كان أحدٌ [ينتفع فيما يُبْتَلَى] به من الهوى [بتقاه ، أو يَدْفَعُ ما أَقْصَدَه بحجاه] لكان أَوْلَى الناس به داود حين ابْتُلِى به ؛ فقال : أُكْتُمْ يابُنَىّ أمرك ، فإن البَوْح به غيرُ نافعك ، والله بالغُ أمرِه فيك ، ولا بدّ مما هو كائن .

وأخذ معاوية فى الاحتيال فى تبليغ يزيد مُنَاه ، فكتب الى زوجها عبد الله بن سَلَّام ، وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر كتابى لأمر[2] فيه حظُّك إن شاء الله تعالى فلا تتأخر عنه . فأغذّ السيرَ وقَدِم ، فأنزله مُعاوية منزِلًا كان قد هُيِّئ له وأُعِدّ فيه نُزُلُه ؛ وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هُرَيرة وأبو الدَّرْدَاء ، فقال لهما معاوية : إنّ الله قد قَسَم بين عباده قِسَماً [ووهبهم نعما] أوجب عليهم فيها شكره وحتّم عليهم حفظَها ، فجَبَانى

(١) أورد صاحب « كتاب الإمامة والسياسة » هذه القصة بزيادات كثيرة واختلاف فى العبارات عما هنا . وقد أثبتنا من هذه الزيادات ما يستقيم به الكلام ، وهو ما وضعناه بين القوسين .

(٢) فى الأصل : « والأمر ... » وما أثبتناه عن كتاب الامامة والسياسة .

منها عز وجل بأتمّ الشرف وأفضلِ الذكر، وأوسَعَ عليّ الرزقَ، وجعلنى راعِىَ خَلْقه، وأمينَه فى بلاده، والحاكمَ فى أمر عباده، ليبلُوَنى أأشكر أم أكفر. وأوّل ما ينبغى للمرء أن يتفقّد وينظرَ من آسترعاه الله أمرَه، ومن لاغِنَى به عنه. وقد بلغت لى آبنة أُريد إنكاحَها والنظرَ فى آختيار من يُبَاعلها، لعل مَنْ يكون بعدى يقتدى فيه بهَدْيِى ويتبع فيه أثرى* فإنه قد يَلِى(١) هذا الملكَ بعدى مَن يغلب عليه الشيطان ويرقيه الى تعضيل(٢) بناتهم فلا يرون لهم كُفُؤًا ولا نظيرا، وقد رَضِيتُ لها آبنَ سَلَّام القرشىّ، لدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه؛ فقالا له: إن أَوْلَى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطَلَب مرضاته فيما آختصّه منها لأنت؛ فقال لهما معاوية: فاذكرا له ذلك عنى، وقد كنت جعلت لها فى نفسها شُورَى، غير أنى أرجو ألّا تخرج من رأيى إن شاء الله. فخرجا من عنده وأَتَيَا عبد الله بن سَلَّام وذكرا له القصة. ثم دخل معاوية على آبنته وقال لها: اذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعَرَضا عليك أمر عبد الله بن سَلَّام وحَضَّاك على المسارعة الى آتباع رأيى فيه، فقولى لهما: إنه كفء كريم وقريب حميم، غير أنّ تحته زينبَ بنت إسحاق، وأخاف أن يَعْرِضَ لى من الغَيْرة ما يعرِض للنساء فأتناول منه ما يَسخَط اللهُ تعالى فيه فيعذّبنى عليه، ولستُ بفاعلةٍ حتى يفارقَها. فلما آجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله وأعلماه بقول مُعاوية، ردّهما اليه يخطُبان له منه، فأتياه؛ فقال: قد علمتما رِضائى به وحِرْصى عليه، وكنتُ قد أعلمتكما الذى جعلتُ لها فى نفسها من الشُّورَى، فادخلا عليها وآعرِضا عليها الذى رأيتُ لها. فدخلا عليها وأعلماها؛ فقالت لهما ما قاله معاوية لها. فرجعا الى آبن سَلَّام وأعلماه بما قالته. فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراقُ زينب أشهدهما بطلاقها وأعادهما الى آبنة معاوية.

(١) عبارة الإمامة والسياسة: «فانى قد تخوّفت أن يدعو من يلى هذا الأمر من بعدى زهو السلطان وسرفه الى عضل نسائهم ... الخ».

(٢) تعضيل البنات: حبسهنّ عن الزواج ظلما. وفى الأصل: «الى تعطيل بناتهم».

فأتيَا معاوية وأعلماه بمـا كان من فِراق عبـد الله زوجتَه رغبةً فى الآتصال بابنته؛ فأظهر معاوية كراهةَ فعله وفراقه لزينب وقال : ما آستحسنتُ له طلاقَ آمرأته ولا أحببته، فانصرِفَا فى عافية ثم عُودَا إليها وخُذَا رضاها . فقاما ثم عادا اليه، فأمرهمـا بالدخول على آبنته وسؤالها[1] عن رضاها تَبَرِّيًا من الأمر، وقال : لم يكن لى أن أُكرهها وقد جعلتُ لهـا الشورى فى نفسها . فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سَلَّام آمرأته ليسرّها ، وذكرا من فضـله وكمال مُروءته وكرم مَحْتِده ؛ فقـالت لهما : إنه فى قريش لرفيع القَدْر، وقد تعرفان أن الأناة فى الأمور أرفقُ لمـا يخاف من المحذور، وإنى سائلةٌ عنـه حتى أعرف دَخْلة أمره وأُعلمكما بالذى يُزَيِّنـه الله لى، ولا قوّة إلا بالله؛ فقالا : وَفّقكِ الله وخَارَ لك . وآنصرفا عنها، وأعلما عبد الله بقولها؛ فأنشد :

فإن يَكُ صَدْرُ هذا اليوم وَلَّى * فإنّ غدًا لناظره قريبُ

وتحـدّث الناس بمـا كان من طلاق عبد الله زينبَ وخِطْبتِه آبنةَ معاوية، ولاموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه . ثم آستحثّ عبـدُ الله أبا هريرة وأبا الدرداء؛ فأتيَاها وقالا لها : اِصنعى ما أنت صانعة وآستخيرى الله، فإنه يَهدى من آستهداه؛ فقالت : أرجو، والحمدُ لله، أن يكون[2] الله قد خار [لى]، وقد آستبرأت[3] أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لمـا أريد لنفسى، ولقد آختلف من آستشرته فيه، فمنهم الناهى عنه و [منهم] الآمر به، وآختـلافهم أوّل ما كَرِهت . فلمـا بلّغاه كلامها علم أنه مخدوع ، وقال : ليس لأمر الله رادّ، ولا لمـا لا بدّ منه[4]

(١) فى الأصل : « ... وسؤالها ... » . (٢) فى كتاب الامامة والسياسة : « الحمد لله أرجو أن يكون ... » . (٣) فى الأساس : « استبرأت الشىء : طلبت آخره لأقطع الشبهة عنى » . والمعنى هنا أنها استقصت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة . (٤) فى الأصل : «ولا لما لا يدنيه صاد » ولعله تحريف عما وضعناه، وأن الياء والدال من «يدنيه» محرّفتان عن «بد» وبقية الكلمة محرّفة عن « منه » . ويؤيد هذا أن عبارة «الامامة والسياسة» « ولا لما لا بد أن يكون منه صاد » .

صادٌ؛ فإن المرء وإن كَمُل له حلمه واجتمع له عقله واستدّ رأيه ليس بدافع عن نفسه قَدَرًا برأى ولا كيد * ولعل ما سُرُّوا به واستجذلوا[1] [له] لا يدوم لهم سروره، ولا يُصْرَفُ عنهم محذوره . وذاع أمره وفشا فى الناس، وقالوا : خَدَعه مُعاوية حتى طلّق امرأته، وإنما أرادها لابنه، وقَبَّحوا فعله . فتمّت مَكِيدته هذه؛ لكن المقادير أنت بخلاف تدبيره وبضدّ تقديره . وذلك أنه لما انقضت أقْراء زينب، وَجّه معاوية أبا الدرداء الى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد؛ فخرج حتى قَدِم الكوفة، وبها يومئذ الحسين بن علىّ رضى الله عنهما، فبدأ أبو الدرداء بزيارته، فسلم عليه الحسين وسأله عن سبب مَقْدَمه؛ فقال : وَجّهنى معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينبَ بنت إسحاق؛ فقال له الحسين : لقد كنتُ أردتُ نكاحها وقصدت الإرسال اليها اذا انقضت أقراؤها، فلم يمنعنى من ذلك إلا تخيُّرٌ[2] مثلك، فقد أتى الله بك، فاخطُبْ — رحمك الله — علىّ وعليه، لتتخيَّرَ من اختاره الله لها، وهى أمانةٌ فى عُنُقك حتى تؤدّيها اليها، وأَعْطِها من المهر مثل ما بَذَل معاوية عن ابنه؛ فقال : أفعلُ إن شاء الله . فلما دخل عليها أبو الدرداء قال : أيتها المرأة، إنّ الله خلق الأمور بقدرته، وكوّنها بعزته، فجعل لكل أمر قَدَرا، ولكل قَدَر سببا، فليس لأحد عن قدر الله مُسْتحاصٌ، ولا للخروج عن أمره مُستناص؛ فكان مما[3] سبق لكِ وقُدِّر عليك الذى كان من فراق عبد الله بن سَلّام إيّاك، ولعل ذلك لا يضرّك ويجعلُ الله فيه خيرا كثيرا؛ وقد خطبك أميرُ هذه الأمة وابنُ مَلِكها وولىُّ عهده والخليفةُ من بعده

(١) كذا فى « كتاب الامامة والسياسة » وفى الأصل : «ما سوّلوا به واستخذلوا» .

(٢) فى الأصل وفى « كتاب الامامة والسياسة » : «فلم يمنعنى من ذلك الا تخيير مثلك...» وظاهر أن الذى يلتئم مع السياق انما هو التخير وهو الانتقاء، اذ المراد هنا انتقاء الرسول الذى يحسن القيام بهذه السفارة .

(٣) كذا فى كتاب الامامة والسياسة . وفى الأصل : «فكان ماسبق لك ... » .

يزيدُ بن معاوية، والحسينُ ٱبن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيِّدُ شَبَابِ أهل الجنة، وقد بلغك شأنُهما وسناؤهما وفضلُهما، وقد جئتُـك خاطباً عليهما، فٱختارى أيَّهما شئت؛ فسكتتْ طويلا ثم قالت: يا أبا الدرداء، لو أن هـذا الأمر جاءنى وأنت غائب لأشخصت فيه الرسلَ إليك وٱتّبعتُ فيه رأيك ولم أقتطعه دونك، فأمّا إذ كنت أنت المرسَل فقد فوّضتُ أمرى بعد الله إليك وجعلته فى يديك، فاختَرْ لى أرضاهما لديك، والله شاهدٌ عليك، فٱقض فى أمرى بالتحرِّى ولا يَصُدّنَّك عن ذلك ٱتباعُ هوى، فليس أمرهما عليك خفيًّا، ولا أنت عما طوّقتُك غبيًّا؛ فقال: أيتهـا المرأة، إنمـا علىّ إعلامُك وعليك الٱختيار لنفسك؛ قالت: عفا الله عنك! إنما أنا ٱبنة أخيك، ولا غنى لى عنك، فلا تمنعْك رهبةُ أحدٍ عن قول الحق فيما طوّقتك، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حمّلتك؛ والله خيرُ من رُوعِى وخِيف، إنه بنا خبير لطيف. فلما لم يجد بُدًّا من القول والإشارة قال: أى بُنَيّة، إن ٱبنَ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلىّ وأرضى عندى، والله أعلم بخيرهما لك، وقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقد وضع شَفَتيه على شفتَىْ حسين، فضَعِى شَفَتَيْك حيث وضع رسـول الله صلى الله عليه وسلم شـفتيه؛ قالت: قد ٱخترته وأردته ورَضِيته. فتزوّجها الحسين وساق لها مهرا عظيما. فبلغ ذلك معاوية فتعاظَمه ولَامَ أبا الدرداء شديدًا، وقال: من يرسل ذا بَلَهٍ وعَمًى يركب خلافَ مايهوى. وأما عبدالله ٱبن سَلَّام فإنّ معاوية ٱطّرحه وقطع عنه جميع روافده، لسوء قوله فيه وتُهْمتِه أنه خدعه، ولم يزل يجفوه حتى عِيل صبره وقلّ مافى يديه. فرجع الى العراق، وكان قد ٱستودع زينب قبل طلاقه لهـا مالا عظيما ودُرًّا كثيرا، فظن أنها تجحده لسوء فعله بها وطلاقها من غير شىء كان منها، فلقى حُسَيْنًا فسلّم عليه، ثم قال: قد علمتَ ما كان من خبرى وخبر زينب، وكنتُ قد ٱستودعتها مالًا ولم أَقبضه، وأثنى عليها وقال له:

ذاكرها أمرى وآحضُضْها على ردّ مالى . فلما آنصرف الحسين إليها قال لها : قد قَدِم عبد الله بن سَلَّام وهو يحسن الثناء عليك ويجمل النشرَ عنك فى حسن صُحْبتك وما آنسه قديمًا من أمانتك ، فسرّنى ذلك وأعجبنى ، وذكر أنه كان قد آستودعك مالا ، فأدِّى إليه أمانته ورُدِّى عليه مالَه ، فإنه لم يقل إلا صدقا ولم يطلب إلا حقا ، فقالت : صدق ، إستودعنى مالًا لا أدرى ما هو ، فادفَعْه اليه بطابَعه ، فأثنى عليها حسينٌ خيرًا وقال : أَلَا أُدْخله عليك حتى تتبرَّئى إليه منه كما دفعه اليك؟ ثم لقِىَ عبد الله وقال : ما أنكرتْ مالَك ، وإنها زعمتْ أنه بطابعك ، فادخل اليها وتسلَّم مالك منها ، فقال : أَوَ ماتأمر من يدفعه إلىّ ؟ قال : لا ! بل تقبِضه منها كما دفعتَه إليها . ودخل عليها حسين وقال : هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته ، فأخرجتْ اليه البِدَر فوضعتها بين يديه وقالت : هذا مالُك ، فشكر وأثنى . وخرج حسين عنهما ، وفَضّ عبد الله آبن سَلَّام خواتم بدْرة[1] وحَثَى لها من ذلك وقال : خُذِى فهو قليل منى ، فاستعبرا جميعا حتى عَلَتْ أصواتهما بالبكاء أسفًا على ما آبتُلِيا به ، فدخل الحسين عليهما وقد رقّ لهما فقال : أُشهد اللهَ أنها طالقٌ ثلاثا ، آللهم قد تعلَم أنى لم أستنكحها رغبةً فى مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت إحلالها لبَعْلها . فسألها عبد الله أن تصرف الى حسين ما كان قد ساق إليها من مَهْر ، فأجابته الى ذلك ، فلم يقبله الحسين وقال : الذى أرجو إليه من الثواب خيرٌ لى . فلما آنقضَتْ أقراؤها تزوّجها عبد الله ، وحَرَمها اللهُ تعالى يزيدَ بن معاوية .

ومن مكايد معاوية أن رجلًا من قريش أُسِر فحُمِل الى صاحب القسطنطينية ، فكلّمه ملك الروم ، فجاوبه القرشىّ بجواب لم يوافقه ، فقام اليه رجل من بطارقة صاحب القسطنطينية فوكَزه ، فقال القرشىّ : وَامُعاوِيَاهْ! لقد أغفلتَ أمورنا وأضعتنا . فوصل

(١) كذا فى كتاب الامامة والسياسة . وفى الأصل : « ... خواتم برده ... » وهو تحريف من الناسخ .

الخبر الى معاوية فطَوَى عليه وٱحتال فى فِداء الرجل . فلما وصل اليه سأله عن أمره مع صاحب القسطنطينية وعن ٱسم البِطْريق الذى وكّره؛ فلما عرفه أرسل الى رجل من قوّاد صُور[1] الذين كانوا قوّاد البحر ممن عُرِف بالنَّجْدة وغزو الروم، وقال له : أَنْشِئْ مركبا يكون له مجاديف فى جوفه ، وٱستعمِل السفر الى بلاد الروم، وأَظْهِرْ أنك إنما تسافر لبلادهم على وجه السرّ والٱستتار منا، وتوصَّلْ إلى صاحب القسطنطينية ومَكِّنْه من المـال وٱحمِلْ إليه الهدايا والى جميع أصحابه، ولا تَعْرِضْ لفلان (يعنى الذى لَطَم الرجل القرشىّ) وٱعْمَل كأنك لا تعرفه، فإذا كلّمك وقال لك : لأىّ معنًى تُهـادى أصحابى وتتركنى ، فٱعتذِرْ إليـه وقل له : أنا رجل أدخل الى هذه المواضع مستترا ولا أعرف [إلا][2] من عُرِّفْتُ به، فلو عَرَفتُ أنك من وزراء الملك لهاديتُك كما هاديت أصحابك، ولكنى اذا ٱنصرفت إليكم مرةً أخرى سأعرف حقك. ففعل القائد ذلك. ولمـا ٱنصرف إليهم ثانية هاداه وألطفه[3] وأربى فى هديته على أصحابه، ولم يزل حتى ٱطمأن إليه العِلْج . فلما كان فى إحدى سَفَرَاته قال له البطريق : كنت أُحِبّ أن تجلِب إلىّ من بلاد المسلمين وِطاء ديباج يكون على ألوان الزهر؛ قال : نعم . فلما ٱنصرف أخبر معاويةَ بما طلبه البطريق؛ فأمر له ببساط على ما وَصَف، وقال: اذا دخلت وادى القسطنطينية فأَخْرِجه وٱبسُطه على ظهر المركب وتربّصْ فى الوادى حتى يصل الخبر الى ذلك العِلْج، وٱبعَثْ له فى السرّ وتحيَّنْ خروجه الى ضَيْعته التى له على ضَفّة وادى القسطنطينية، فإذا وصلتَ الى حدّ ضيعته فٱبتدئْ بها، لعلّ يحمله الشره على الدخول إليك؛ فاذا حصل عندك فى المركب فَمُرِ الرجالَ بإشارة تكون بينك

(١) صور : مدينة عظيمة وكانت ثغرا من ثغور بحر الشام .

(٢) تكملة نرى أن استقامة الكلام تتوقف عليها .

(٣) يقال : ألطفه بكذا اذا برّه به .

وبينهم أن يستعملوا المجاديف التى فى جوف المركب ، وكُرّ به راجعا الى الشأم . ففعل ما أمره به معاوية . وصادف وصولُ ذلك القائد وجودَ البطريق[1] فى ضيعته ، فبسَط ذلك البساطَ على ظهر المركب ووصل الى عُرْض ضَيعة العلج ، فلما عاين البساطَ حَمَله الشَّرَهُ والحرص الى أن دخل المركب ، فلما صار فى المركب أشار [القائد] الى رجاله فرجعوا بالمركب بعد أن أوثق البطريقَ ومن معه ، وسار بهم حتى قَدِم على معاوية . فأحضر معاوية البطريق ووَقَفه بين يديه ، وأحضر القرشىّ وقال : هذا صاحبك ؟ قال : نعم ، قال : قم فاصنع به ما صنع بك ولا تزد ، فقام القرشىّ فوكزه كما كان فعل به العلج . ثم قال معاوية للبطريق : اِرجع الى مَلِكك وقل له : تركتُ ملك الإسلام يقتصّ من أصحاب بِساطك ، وقال للذى ساقه : اِنصرف به الى أوّل أرض الروم وأخرجه ، وآترك له البساط وكل ما سألك أن تحمله اليه من هديّة . فآنصرف به الى فم وادى القسطنطينية ، فوجد ملكَ الروم قد صَنَع سلسلةً على فم الوادى ووَكَّل بها الرجال ، فلا يدخل أحد الى الوادى إلا بإذنه ، فأخرج العلج ومن معه وما معه . فلما وصل الى مَلِكه ووصف له ما صنع به معاوية قال : هذا ملك كبير الحِيلة . فعَظُم معاوية فى أعينهم وفى نفوسهم فوق ما كان . وهذه الواقعة محاسنها تستُر مساوى ما تقدّمها .

وهذا الباب متّسع ، ستقف إن شاء الله فى التاريخ الذى أوردناه فى كتابنا هذا [على][2] ما تكتفى به وتَطّلع منه على المكايد .

وحيث آنتهينا الى هذه الغاية فى أوصاف قادة الجيوش ، فلنذكر الآن فضيلة الجهاد ووصف الجيوش والوقائع .

---

(١) فى الأصل : «وصادف وصول ذلك القائد والبطريق ...» .

(٢) زيادة يقتضيها الكلام .

ذكر ما ورد فى الجهاد وفضله

وترتيب الجيوش وأسمائها فى القلة والكثرة، وأسماء مواضع القتال، وما قيل فى الحروب والوقائع، وما وُصِفت به

فأما ما ورد فى الجهاد وفضله . قال الله عز وجل : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) . وقال تعالى: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ) . وقال تعالى: (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . وأثنى الله تعالى على المجاهدين ووعدهم الجنة فى آيٍ كثير . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل جاءه فقال له يا رسول الله : دُلَّنى على عمل يعدل الجهاد قال : "لَا أَجِده" . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ فى طِوَلِه فيُكْتَبُ له حَسَناتٍ (١) . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن فى الجنة مائةَ درجةٍ أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها". وفى لفظة: "الرَّوْحَةُ والغَدْوَةُ فى سبيل الله أفضلُ من الدنيا وما فيها". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من عبدٍ يموت له عند الله خيرٌ يسرّه أن يرجعَ الى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لِمَا يَرَى من فضل الشهادة فإنه يَسُرُّه أن يرجعَ

(١) يستن : يعدو من المرح والنشاط من غير أن يكون عليه أحد . والطول : حبل طويل جدا تشد به قائمة الدابة ويمسك صاحبه بطرفه ويرسلها ترعى .

الى الدنيا فيُقْتَلَ مرةً أخرى" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "والذى نفسى بيده لولا أنّ رجالًا من المؤمنين لا تَطِيبُ أنفسهم أن يتخلّفوا عنى ولا أجِدُ ما أحمِلُهم عليه ما تخلّفتُ عن سَرِيَّةٍ تغزو فى سبيل الله والذى نفسى بيده لَوَدِدْتُ أنّى أُقْتَلُ فى سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما اغْبَرَّتا[1] قَدَمَا عبدٍ فى سبيل الله فتَمَسَّه النارُ" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الجنّة تحت ظِلَال السيوف" . والأحاديث الصحيحة متضافرة بفضيلة الجهاد وما أعدّ الله للمجاهدين والشهداء . وقد ترجم على ذلك البخارىّ وغيره .

* * *

وأما ماقيل فى أسماء العساكر فى القلة والكثرة وأسماء مواضع القتال —

قالوا : الكَتِيبة : ما جُمِع فلم ينتشر . والحَضِيرة : العشرة فمن دونهم . والمِقْنَب والمَنْسِر من الثلاثين الى الأربعين . والهَيْضَلة : جماعة غير كثيرة . والرَّمَازة : التى تموج من نواحيها . والجَحْفَل : الجيش الكثير . والمَجْر : أكثر ما يكون .

وقال الثعالبىّ فى فقه اللغة عن أبى بكر الخُوَارَزْمىّ عن ابن خَالَوَيْهِ : أقلُّ العساكر الجَرِيدة ، ثم السريّة وهى من الأربعين الى الخمسين ، ثم الكتيبة وهى من مائة الى ألف[2] ، ثم الجيش وهو من ألف إلى أربعة آلاف ، وكذلك الفيلق والجحفل ، ثم الخميس وهو من أربعة آلاف الى اثنى عشر ألفا ، والعسكر يجمعها .

(١) كذا ورد بالأصل بعلامة التثنية فى الفعل وهى رواية أبى ذر عن الحموى والمستملى ، وهى لغة . وفى صحيح البخارى : «ما اغبرت قدما عبد ...» بدون ألف التثنية فى الفعل وهى أفصح . أنظر شرح البخارى للقسطلانى ج ٥ ص ٥٨ طبع بولاق سنة ١٢٩٣ هـ .

(٢) الذى فى فقه اللغة طبع بيروت سنة ١٨٨٥ : «أقل العساكر الجريدة وهى قطعة جردت من سائرها لوجه . ثم السرية وهى من خمسين الى أربعمائة . ثم الكتيبة وهى من أربعمائة الى الألف ...) .

ولأسماء العساكر نعوت فى الكثرة وشدّة الشوكة .

فأما نعوتها فى الكثرة — فانه يقال : كتيبة رَجْرَاجة ؛ جيشٌ لِجَب ؛ عسكر جَرَّار ؛ جحفل لُهَام ؛ خميسٌ عَرَمْرَم .

وأما نعوتها فى شدّة الشوكة مع الكثرة — فإنه يقال : كتيبةٌ شهباءُ اذا كانت بيضاء من الحديد ؛ وخضراءُ إذا كانت سوداء من صَدَإ الحديد ؛ ومُلَمْلَمة إذا كانت مجتمعة ؛ ورَمّازة إذا كانت تموج من نواحيها ؛ و رَجْرَاجة إذا كانت تتمخّض ولا تكاد تسير ؛ [و جَرَّارة إذا كانت لا تقدر على السير](١) إلا رُوَيْدًا من كثرتها .

وأما أسماء مواضع القتال — فمنها : الحَوْمة ؛ والمَعْرَكة ؛ والمُعْتَرَك ؛ والمَأْقِط ؛ والمـأْزِم ، والمأْزِق .

وأما أسماء غُبار الحرب — النَّقْع والعَكُوب : هو الغبار الذى يثور من حوافر الخيل وأخفاف الإبل . الرَّهَج والقَسْطَل : غبار الحرب . الخَيْضَعَة : غُبار المعركة .

* * *

وأما ماقيل فى الحروب والوقائع ، وشىء مما وُصِفت به — قالوا : أبلغ ما قيل فى صفة الحرب قول الأوّل :

كأنّ الأُفقَ محفوفٌ بنارٍ * وتحتَ النـارِ آسادٌ تَزِيرُ

وقول الآخر :

ويومٍ كأنّ المُصْطلين بحرّه * وإن لم يكن حمرٌ وقُوفٌ على جمرِ
صَـبَرْنَا له حتّى تجلّى ، وإنمـا * تُفَرَّجُ أيامُ الكريهـة بالصـبر

(١) التكملة من فقه اللغة .

وقال البُحْتُرِىّ يصف جيشا اتّبع مقدّمه :

حُمْرِ السيوفِ كأنما ضَرَبتْ لهم * أيدِى القُيُون صفائحاً من عَسْجَدِ
فى فِتْيَةٍ طلبوا غُبارَكَ إنه * رَهَجٌ تَرَفَّعَ عن طريق السُّودَدِ
كالرمح فيه بِضْعَ عَشْرَةَ فِقْرَةً * مُنقادةً خلف السِّنان[1] الأَصْيَدِ

(٧١)

٥ وقول النابغة الجَعْدِىّ :

تبدُو كوا كبُه والشمسُ طالعةٌ * لا النُّورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

وقال أبو الفَرَج البَبَّغاء :

ومَوْشِيّةٍ بالبِيضِ والزُّغْفِ والقَنَا * مُجَبَّرَةِ الأعطافِ بالضُّمَّرِ القُبِّ
بعيدةِ ما بين الجَنَاحينِ فى السُّرَى * قريبةِ ما بين الكِينَيْنِ[2] فى الضربِ
١٠ من السالباتِ الشمسَ ثوبَ ضيائِها * بثوبٍ تَوَلَّى نَسْجَه عِثْيَرُ التُّرْبِ
يُعاتب نشوانُ القَنَا صاحِىَ الظُّبَا * إذا التقيا فيها على قِلَّةِ الشُّرْبِ
أعادتْ علينا الليلَ بالنَّقْعِ فى الضُّحَى * وردَّتْ علينا الصبحَ فى الليل بالشهب
تَبَلَّجُ عن شمسَىْ نِزَارٍ ويَعْرُبٍ * وتَفْتَرُّ عن طَوْدَىْ[3] عُلًا تَغْلِبَ الغُلْبِ
مُوَقَّرةٍ يقتاد ثِنْىَ زِمامِها * بصيرٌ بأدواء الكريهة فى الحرب
١٥ أَصَحَّ اعتراماً من خَؤُونٍ على قِلًى * وأنفذ حكما من غرامٍ على صَبِّ

وقال محمد بن أحمد بن عبد ربه :

ومعتَرَكٍ تَهُزُّ به المنايا * ذكورَ الهند فى أيدى ذكورِ
لوامع يُبصر الأعمى سَنَاها * ويَعْمَى دونها طَرْفُ البصيرِ

(١) فى الأصل : « فرقة ... خلف اللسان » وهو تحريف . والتصويب من ديوان البحترى .
(٢) فى يتيمة الدهر : « ما بين الكينين ... » .
٢٠ (٣) فى الأصل : « تبلج ... ويقتر ... » .

وخافقـةِ الذوائبِ قد أنافتْ * على حمـراء ذاتِ شـبا طريرِ (١)
تُحَوِّم حولها عِقْبانُ موتٍ * تخطَّفَتِ القلوبَ من الصدورِ
بيومٍ راحَ فى سِرْبالِ ليـلٍ * فـا عُرِف الأصيلُ من البُكورِ
وعينُ الشمسِ ترنُو فى قَتامٍ * رُنُوَّ البِكرِ من خلف الستـور
فكم قَصَّرت من عمـرٍ طويلٍ * وكم طَوَّلت من عمـر قصـير

وقال أيضـا :

ومُعـترِكٍ ضَنْكٍ تعاطتْ كُماتُه * كُؤوسَ دِماءٍ من كُلًى ومَفَاصِلِ
يُديرونهـا رَاحًا من الرُّوح بينهمْ * بِبِيضٍ رِقاقٍ أو بسُمْرٍ ذوابلِ
وتُسمعهم أمُّ المنيّـةِ وسطهـا * غِناءَ صَلِيلِ البِيضِ تحتَ المَنَاصِلِ

وقال التَّنُوخىّ شاعر اليتيمة :

فى موقفٍ وقف الحِمامُ ولم يَزُغْ * عن ساحتيه و زاغتِ الأبصارُ
فَقَنًا تسـيل من الدماء على قَنًا (٢) * بِطَوالهن تُقَصَّـرُ الأعمـارُ
ورءوسُ أبطـالٍ تَطَايَرُ بالظُّبَا * فكأنهـا تحت الغُبَـار غُبـارُ

وقال ابن الخَيَّاط الأندَلُسىّ :

سيوفٌ اذا اعتلَّتْ جهاتُ بغورةٍ (٣) * فمنهنّ فى أعنـاقهن تمـائمُ
وكلُّ خميسٍ طَبَّقَ الجوَّ نَقْعُه * وضَيَّق مَسْراه الجيادُ الصلادم

(١) المراد بالحمراء : القناة . والشبا : جمع شباة، وشباة كل شىء : حده . والطرير : المحدّد .

(٢) القنا الأولى : حفائر الماء . والقنا الثانية : الرماح .

(٣) كذا بالأصل : وفى كلمـة « بغورة » تحريف لم نوفق الى تصحيحه . ولعله : جهات ثغوره، أو جهات بثورة، أو جهات بغارة .

كأنّ نهارَ النقع إثمدُ عينه * وأشفارَ عينيه الشّفارُ الصوارمُ
تَعُدّ عليه الوحشُ والطيرُ قُوتها * اذا سار والتفّتْ عليه القَشَاعِمُ

والبيت الأوّل مأخوذ من قول المتنبي :

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ * ومن جُثَثِ القَتْلَى عليها تمائمُ

٥ وقال الحِمّانيّ :

وإنا لَتُصبِحُ أسيافُنا * إذا ما انْتُضِينَ ليوم سَفُوكِ
منابرهُن بطونُ الأكُفّ * وأغمادُهن رءوسُ الملوكِ

(٧٢)

وقال حَسّان :

إذا ما غَضِبنا بأسيافنا * جعلنا الجماجِمَ أغمادَها

١٠ قال رجل من بنى تميم لرجل عِبَادِيّ : لم يكن لآل نَصْر بن ربيعة صولةٌ فى الحرب. فقال : لقد قلتَ بُطْلا، ونطقت خَطَلا؛ كانوا والله إذا أَطْلقوا[1] عُقُلَ الحرب رأيت فرسانا تَمُور كرِجْل الجَرَاد[2]، وتَدَافَعُ كتدافع الأمداد، فى فيلق حَافَتاه الأسَل، يضطرب عليها الأجل؛ إذا هاجت لم تتناهَ دون إرادتها[3]، ومنتهى غايات طَلِباتها؛ لايدفعها دافع، ولا يقوم لها جَمْعٌ جامع؛ وقد وَثِقت بالظفر لعِزّ أنفسها، وأيقنت بالغَلَبة لضراوة
١٥ عادتها؛ خُصَّتْ بذلك على العرب أجمعين .

قال جرير :

لَقَوْمِيَ أحمى للحقيقة منكمُ * وأضربُ للجَبّارِ والنقعُ ساطعُ
وأوثقُ عند المردَفاتِ عَشِيّة * لَحَاقًا إذا ما جَرّد السيفَ لامع[4]

(١) فى الأصل : « انطلقوا » . (٢) رجل الجراد : الجماعة منه .
٢٠ (٣) فى الأصل : «دون إدارتها» وظاهر أنه تحريف .
(٤) لامع : من لمع بالسيف : أشار به ولوّح .

ومن رسالة للفقيه الوزير أبى حفص عمر بن الحسن الهوزنى[1] قال فيها : وكتابى على حالة يشيب[2] لشهودها مَفْـرِق الوليد ، كما تغـيّر[3] لورودها وجه الصعيد؛ بدؤها يَنْسِف الطريف والتالد ، ويستأصل الولد والوالد؛ تَذَرُ النساء أَيَامَى ، والأطفـالَ يَتَـامى؛ فلا أَيِّمَةَ إذ لم تبق أنثى، ولا يتيم والأطفالُ فى قَيْد الأَسْرى؛ بل تعُمّ الجميع جَمًّا جَمًّـا فلا تَخُصّ، وتزدلف إليهم قُدُمًا قُدُمًا فلا تَنْكُص؛ طَمَتْ حتى خِيفَ على عُرْوة الإيمـان الانفضاض، وطَمّت حتى خُشِى على عمود الإسلام الانقِضاض ، وسَمَتْ حتى تُوُقِّع لجَناح الدين الانهياض .

وفى فصل منهـا : وكأن الجمعَ فى رَقْـدة أهل الكهف ، أو على وعدٍ صادقٍ من الصَّرْف والكشف .

ومنها : وإن هـذا الأمرَ له ما بعده، إلا أن يُسَنّى[4] الله على يديك دفعه وصـدّه .

وكم مثلِها شوهـاء نهنهتُ فانثنتْ * وناظرُهـا من شـدّة النَّقْـع أرمدُ
فمرّت تنادى : الويلُ للقادح الصَّفَا * لَبَعْضُ القلوب الصخرُ أو هى أجلدُ![5]

(١) فى الذخيرة لابن بسام ج ٢ ص ٤٨ (نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٨ أدب) : «هو أبو حفص عمر بن الحسن بن عبد الرحمن أبى سعيد الداخل بجزيرة الأندلس وهو كان صاحب صلاة الجماعة بقرطبة على عهد عبد الرحمن بن معاوية وهشام الرضى ابنـه ، وهوزن الذى نسب اليه وغلب اسمه عليه بطن من ذى الكلاع الأصغر» . وفى الأصل «الهونى» وهو تحريف .

(٢) كذا فى الذخيرة، وفى الأصل شيب .

(٣) كذا فى الأصل : وفى الذخيرة : «كما يقتّ» .

(٤) كذا فى الذخيرة، ويسنى : يسهل . وفى الأصل : «ينشى» .

(٥) فى هامش الذخيرة «لعلها أصلد» .

وأبقتْ ثناءً كاللطائم[1] نُشِّرتْ ، * تَبيد الليالى وهو غَضٌّ يُجَدَّدُ[2]

وفى فصل منها فى الحرب : والحربُ فى آجتلائها حسناءُ عروس تَطْبِى[3] الأغمارَ بِزَّتُها ، وفى بنائها شمطاءُ عَبُوسٌ تختلى[4] الأعمارَ غِرَّتُها ؛ فالأقلُّ للَهَبِها وارد ، والأكثرُ عن شُهُبِها حائد ؛ فأَخْلِقْ بمجيدٍ عن مكانها ، وعُزْلةٍ فى ميدانها ؛ فوقودها شِكَّةُ السلاح ، وقُتارها متصاعد الأرواح ؛ فإن عسعس ليلها مرّةً لآنصرام ، أو آنبجس وَبْلُها ساعةً لآنسجام ؛ فيومُها غسق يردّ الطَّرْفَ كليلا ، ونَبْلُها صَيِّبٌ[5] يزيد الخوفَ غليلا .

وقال فيها :

أعَبّاد ضاق الذَّرْعُ وآتّسع الخَرْقُ * ولا غربَ للدنيا إذا لم يكن شرقُ

ودُونَكَ قولًا طالَ وهو مقصِّرٌ * وللعين معنًى لا يُعَبِّره النطقُ

إليك آنتهت آمالنا فارم ما دهى * بعزمك يَدْمَغْ هامةَ الباطل الحق[6]

وما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها ، ولا أرجأ الدليل من ناط الأمور بأربابها ؛ ولربّ أملٍ بين أثناء المحاذير مُدْمَج ، ومحبوبٍ فى طَىّ المكاره مُدْرَج ؛ فآنتهز فُرصتها فقد بان من غيرك العجز ، وطَبِّقْ مَضارِبَها فكأنْ قد أمكنك الحَزّ ؛ ولا غرو أن يُسْتَمْطَرَ الغَمامُ فى الجَدْب ، ويُستصحبَ الحُسامُ فى الحَرْب ! .

---

(١) اللطائم : جمع لطيمة ، وهى وعاء المسك .

(٢) كذا فى الذخيرة ، وفى الأصل : «وهو غض مجرّد» وهو تحريف .

(٣) تطبى الأغمار : تستميلهم .

(٤) تختلى : تقطع . والغرة : الغرور .

(٥) كذا فى الذخيرة ، وفى الأصل : «وليلها صب»

(٦) كذا ورد هذا البيت فى الذخيرة ، وورد فى الأصل هكذا :

اليك انتهت أيامنا فارم ما دهى * بعزمك يدفع هامة الباطل الحق

ومن إنشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ من جواب كتبه وصف فيه وقعة، كتب : ورد على المملوك كتابُ المولى يذكر الرَّجْفة التى سَرَى منها الى أسماع الأولياء قِبَـله ما سرى الى عيون الأوليـاء بحضرته ؛ وتعاظَمهم الفـادحُ الذى هم راسبون فى غِمـاره ساهون فى غَمْرته ؛ ووصف عِظَمَ أثرها ورائعَ مَنْظَرها ومطعن هدّتهـا[1]، ومزعج واقعتها وفظيع رَوْعتها ؛ وٱضطرابَ الجبال وخشوعها، وٱنشقاقَ الأبنية وصدوعَها ؛ وسجودَ الحصون الشُّمّ، وخضوعَ الصخور الصُّمّ ؛ وجَأْرَ العبـاد إلى ربهم لِمَـا مسّهم من الضرّ، ولِياذَهم بقصـده لِمَـا دهاهم من الأمر ؛ فوصَفَ عظيمًا بعظيم، ومثّل مَقامًا ما عليه صبرٌ مقيم ؛ وأنذرَ بٱنتقام قائم إلا أنه كريم، وجبّارٍ إلا أنه حليم ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون نقولها واضعين الخدودَ تذلّلا، وإنا فى سبيل الله وإنا إليه نائبون تخلُّصًا ونُضَمِّنها بالقلوب إخلاصا وتَبَتُّلا ؛ وعرف المملوك ما وَسِعَ الخلق من معروفه وإرفاقه، وجبر الحصونَ من عمـارته منازلَ التوحيـد وأوكارَه، بأمواله التى وَقَفها فى سبيل الله وهانت عليه إذ كان على يد البِرِّ إخراجُها، وكرُمَتْ لديه إذ طالبت بها خطراتُ الشهوات وٱعتلاجُها ؛ وٱستقرضها من الأرض خراجًا ثم وَفَّاها ما ٱقترض بعُمْرانها، وٱستخرجها من بُطْنانها ثم أعادها الى ظُهْرانها ؛ وأرساها للإسلام بقواعد حُصُونها، وأَسْناها فى يد المسلمين بوثائقِ رُهُونها ؛ ولم يزل الله يختصُّه بكل حسنة متوضحة، ويُوَفِّقه لكل صالحة مُصلحة ؛ ويُنعم عليـه بالنية الصادقة، ويُنعم منه بالموهبة السابغة السابقة ؛ فإن نزلت نازلةٌ من وقائع الأقدار، وإن عرضت[1] عارضة من عوارض الأيام، تلقّاها حامداً، وأسَا جرحها جاهدا، وعوّل على ربه قاصدا، وأنفق فيما أصبح منه عادما ما أمسى له واجدا .

(١) كذا فى الأصل .

ذكر ما ورد فى الغزو فى البحر

عن أَنَس بن مالك رضى الله عنه، قال: حدّثتنى أمُّ حَرَام أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قَالَ يومًا فى بيتها، فاستيقظ وهو يضحك؛ قالت: يارسول الله، ما يُضحكك؟ قال: "عَجِبتُ من قومٍ من أمتى يركَبُون البحرَ كالملوكِ على الأسِرَّة"؛ فقلت: يارسول الله، أُدْعُ الله أن يجعلنى منهم؛ قال: "أنتِ منهم"، ثم نام فاستيقظ وهو يَضْحك فقال مثلَ ذلك مرتين أو ثلاثا؛ قالت: يا رسول الله، أُدع الله أن يجعلنى منهم، فيقول: "أنتِ من الأوّلين"، فتزوج بها عُبَادةُ بن الصَّامِت فخرج بها الى الغزو، فلما رجعتْ قُرِّبَتْ دابّةٌ لتركبها فوقعت فاندقّتْ عنقُها. وفى حديثٍ آخر: "يركبون البحرَ الأخضرَ فى سبيل الله مثلُهم كمثل الملوك على الأسِرَّة"، قالت: يا رسولَ الله، أُدع اللهَ أن يجعلنى منهم؛ فقال: "اللّهم اجْعَلْها منهم" وأنه قال مثل ذلك ثانيةً؛ فقالت: أدع الله أن يجعلنى منهم؛ قال: "أنتِ من الأوّلين ولستِ من الآخرين". وساق نحـــوه.

ومما قيل فى القتال فى البحر — قال العسكرى فى ديوان المعانى: لم يصف أحدٌ من المتقدمين والمتأخرين القتالَ فى المراكب إلا البُحْتُرِىّ، وعدُّوا قصيدته هذه من عيون قصائده وفضّلوها على كثير من الشعر، وهى:

غَدَوْتَ على "الميمونِ" صُبْحًا وإنما * غدا المركبُ الميمونُ تحت المظَفَّرِ

[أَطَـلَّ بعِطْفَيْـــهِ ومرَّ كأنمـا * تشرّف من هَادِى حصان مشهـر] (١)

إذا زَمْجَـرَ النّـــوتِىّ فوق علَاته * رأيتَ خطيبًا فى ذُؤابةَ مِنْـبَرِ

(١) زيادة من ديوان البحترى.

إذا عَصَفَتْ[1] فيه الجَنُوبُ ٱعتلى له * جَنَاحَا عُقَـاب فى السماء مُهَجَّـر
إذا ما ٱنكفَا فى هَبْوة المـاء خِلتَه * تَلَفَّـعَ فى أَثْنَـاء بُرْد مُحَـبَّرِ
وحولك رَكّابون للهول عاقرُوا * كُؤوسَ الرَّدَى من دارعين وحُسَّرِ
تَميل المنـايا حيث مالتْ أكُفُّهم * إذا أصلتوا حَدّ الحديد المذكَّر
إذا رَشَقوا بالنـار لم يكُ رَشْقُهـم * لِيُقْلِـعَ إلا عن شِواء مُقَـتَّرِ
صَدَمْتَ بهم صُهْبَ العثانينِ دونهم * ضِرابٌ كإيقـادِ اللَّظَى المتسـعِّر
[يسوقون أُسطولًا كأنَّ سفينَه * سحائبُ صـيفٍ من جَهَامٍ ومُمْطِر][2]
كأنَّ ضجيجَ البحر بين رِماحهم * إذ ٱختلفتْ ترجيعُ عَـوْدٍ مُجرجِرِ
تقـاربُ من زحفيهـمُ فكأنما * تُؤلَّف من أعنـاق وحشٍ مُنَفَّـرِ
فما رِمْتَ[3] حتى أجلتِ الحربُ عن طُلًى * مُقَطَّعَـةٍ فيهـم وهـامٍ مطـيَّرِ
على حين لا نقعٌ يطـرّحه الصَّبَـا[4] * ولا أرضَ تُلْفَى للصريع المقطَّـرِ
وكنت ابنَ "كِسْرَى" قبل ذاك وبعده * مليئًا[5] بأن تُوهِى صَفاةَ ٱبنِ "قَيْصَرِ"
جَدَحت له الموتَ الذُّعافَ فعافه * وطـارَ على ألواح شَطْبٍ مسـمر[6]
مَضَى وهو مَوْلَى الريح يشكر فضلَها * عليه ومن يُولَ الصَّنيعةَ يَشْكُرِ

وحيث ذكرنا الجهاد وفضله والوقائع والحروب ، فلنذكر ما قيـل فى المرابطة فى سبيل الله .

(١) كذا فى ديوان البحترى ، وفى الأصل : « اذا ما علت » .
(٢) زيادة من الديوان .
(٣) فـا رمت : لم تبرح مكانك .
(٤) رواية الديوان : «... تطوحه الصبا» .
(٥) المليء بالأمر : المضطلع به القدير عليه .
(٦) كذا فى الديوان . وفى الأصل : « مشمر » بالشين المعجمة وهو تحريف .

ذكر ما رود فى المرابطة

قال الله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . والمُرابطة فى سبيل الله تعالى تنزل[1] من الجهاد والقتال منزلة الاعتكاف فى المساجد من الصلاة، لأنّ المرابط يُقيم فى وجه العدوّ متأهّبا مستعدّا، حتى اذا أحسّ من العدوّ بحركة أو غفلة نَهَض فلا يفوته ولا يتعذّر عليه، كما أن المعتكف يكون فى موضع الصلاة مستعدّا، فإذا دخل الوقت وحضر الإمام قام الى الصلاة . قال الحَلِيمىّ : ولا شك أن المرابطة أشقّ من الاعتكاف . على أن صرف الهمة إلى انتظار الصلاة قد سُمّى رِباطا لما جاء فى الحديث فيما يكفّر الخطايا "وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرِّبَاطُ" . وقد ورد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أحاديثُ تَحُثُّ على الرباط، فمنها أنه قال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ مات مُرَابِطاً فى سبيل الله أُومِنَ من عذاب القبر ونَمَا له أجرُه الى يومِ القيامة". وعنه صلى الله عليه وسلم : "رِبَاطُ يومٍ وليلةٍ فى سبيل الله خيرٌ من صِيامِ شهرٍ وقِيامه فإن مات جَرَى عليه أجرُ المُرَابطة ويُؤْمَنُ من الفَتَّان ويُقْطَعُ له برزق الجنة". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من مات مرابطا فى سبيلِ الله مات شهيدًا ووَقَاه الله فَتَّانَى القبر وأُجْرِىَ عليه أحسنُ عمله وغُدِىَ عليه ورِيحَ برزقٍ من الجنة". وعنه صلى الله عليه وسلم : "إذا استشاط العدوّ فخير جهادكم الرباط" .

وسُنّةُ المرابطة فى سبيل الله أن يُعَدّ من الخيل والسلاح ما يُحتاج إليه، إذا كان انتظار الوقعة من غير استعدادٍ لها يُعرِّض للهلاك . قال الله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ). وجاء فى الحديث :

(١) فى الأصل «تنتزل» .

" إن القوّة الحِصْن ومن رِباط الخيل المجُورة[1] " الإناث. وروى عُقْبَة بن عامر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ألا هو الرمى[2] " ؛ وقد يجوز أن يكون اللفظ جامعا للحِصْن والرمى لأن كليهما قوّة . والله تعالى أعلم .

ذكر ما قيل فى السلاح وأوصافه

والسِّـلاح ما قُوتِل به . والجُنَّة اسم لما اتُّقِىَ به، كالدِّرْع والتُّرْس ونحوهما . ٥

وقال العُتْبىّ : بعَث عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن مَعْديكَرِب أن يبعث إليه بسيفه المعروف "بالصَّمْصَامة" فبعث اليه به؛ فلما ضَرَب به وجده دون ما بلغه عنه، فكتب اليه فى ذلك؛ فأجابه يقول : إنما بعثتُ الى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث له بالساعد الذى يضرب به .

وسأله عمر يوما عن السـلاح فقال : ما تقول فى الرمح؟ قال : أخوك وربما خانك فانقصَف؛ قال : فما تقول فى التُّرس؟ قال : هو المِجَنّ وعليه تدور الدوائر؛ قال : فالنَّبْـل؟ قال : مَنَايَا تُخطئ وتُصيب؛ قال : فما تقول فى الدِّرْع؟ قال : مَثْقَلَةٌ للراجل مَشْغَلة للراكب وإنها لحِصْنٌ حَصِين؛ قال : فما تقول فى السيف؟ ١٠

(١) المجورة : جمع حجر بالكسر، وهى الأنثى من الخيل . فذكر «الإناث» تفسير من المؤلف أو ممن نقل عنه المؤلف . ١٥

(٢) كذا فى الأصل ، وفى صحيح مسلم بإسناده الى عقبة بن عامر أنه كان يقول : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى» .

قال : هنالك قارعتك أمك عن الثُّكْل[(١)]، قال : [بل][(٢)] أُمُّك ! [قال[(٣)] :] بل أمك يا أمير المؤمنين ! فعَلَاه أميرُ المؤمنين بالدِّرَّة . وقيل : بل قال له — لما قال عمر بل أمك — قال : أمى يا أمير المؤمنين « والحُمَّى أَضْرعتنى لك » أراد أن الإسلام قيدنى، ولو كنتُ فى الجاهليّة لم تكلمنى بهذا الكلام . وهو مثل تضربه العرب إذا اضطُرّت للخضوع .

ومثل ذلك قول الأغرّ النهشلىّ لابنه لما بعثه لحضور ماوقع بين قومه فقال: يا بُنَىّ، كن يدًا لأصحابك على من قاتلهم ، و إياك والسيفَ فإنه ظِلُّ الموت ، واتّقِ الرمح فإنه رِشَاءُ المنيّة، ولا تقرَبِ السهام فإنها رُسُل تَعْصِى وتُطِيع . قال : فبم أقاتل؟ قال : بما قال الشاعر : (٧٥)

جلاميدُ أملاء[(٤)] الأكُفّ كأنها * رُءوسُ رجالٍ حُلِّقَتْ فى المواسم

فعليكَ بها وألْصِقْها بالأعقاب والسُّوق .

---

(١) رواية عيون الأخبار (المجلد الأول ص ١٣٠) كرواية الأصل ، غير أن اسم الإشارة فيه «ثم» وفى الأغانى (ج ١٤ ص ١٣٧ طبع بولاق) : «قال : عنه قارعتك لأمك الهبل.. » . ولعله يريد — على رواية الأصل وعيون الأخبار — أن يصف السيف بأنه أفتك أنواع السلاح وأروعها ، فسلك الى هذا سبيل الكناية فعبر بجملة لا زمها يدل على ما يريد أبلغ دلالة إذ يقول : هنالك ، أى اذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف ، قارعته أمه ودافعته عن الثكل والهلاك إشفاقا عليه ، فإن الاشفاق أعظم ما يكون على المنازل اذا كان السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة وقاتلة .

(٢) زيادة عن عيون الأخبار طبع دار الكتب المصرية المجلد الأول ص ١٣٠

(٣) زيادة يقتضيها سياق الكلام .

(٤) فى الأصل : «جلاميد ملء للأكف...» وفيه تحريف . وما أثبتناه عن الكامل للمبرد طبع أوربا ص ٣٣٣ وأساس البلاغة مادة « ملأ » وفيه يقال : «حجر ملء الكف وأحجار أملاء الأكف» ثم استشهد على ذلك بهذا البيت . وفى عيون الأخبار : «جلاميد يملأن الأكف ...» .

ما قيل فى السيف من الأسماء والنعوت والأوصاف

وقد أوردتها على حروف المعجم على ما أورده صاحب كتاب خزائن السلاح . فمن ذلك "إبريق" وهو الشديد البريق "أَبْيَض". "أَذُوذ" وهو القاطع. "إصْلِيت" وهو الصقيل . "أَغْلَف" إذا كان فى غُلافه . "أَنِيث" وهو الذى يُتَّخَذ من حديد غير ذكر . "بَاتر" أى قاطع . "بَتَّار" وهو اسم لسيف كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم . "بُصْرَوِى"(١) منسوب لبُصْرَى . قال الشاعر :

صفائحُ بُصْرَى أخلصتْها قُيُونُها * ومُطَّرِدًا من نسج داود مُحْكَما

"بَوادِر"(٢) أى قواتل. "بَارِقة" وهى السيوف التى تبرق. "جُنْثِىّ"؛ قال الشاعر :

ولكنها سُوقٌ يكون بِيَاعها * بِجُنْثِيَّةٍ قد أخلصتها الصَّيَاقِلُ

"جُرَاز" أى قاطع . "جَمَّاد" بمعناه؛ وفيه يقول الأزهرىّ :

لَسَمِعتُمُ من حَرّ وَقْعِ سيوفنا * ضربًا بكلّ مُهَنَّدٍ جَمَّادِ

"حُسَام" أى قاطع. "حُدَّاد" من الحديد. "حداد" من الحِدَاد كأنه أشار الى لونه. "خَشِيب" أى صَقِيل، و [هو](٣) من أسماء الأضداد. "خَشِيف" أى ماض. "خَذِيم" أى قاطع . "خَضَعَةٌ" وهى السيوف القواطع . "دَدَان" أى لا يقطع(٤) . "ذَالِق" أى سَلِس الخروج من غِمْده . "ذَلُوق" مثله . "ذَكَر" أى ذو ماء . "ذُو الكَرِيهة" وهو الماضى فى الضَّرِيبة . "ذو الفَقَار" سيف رسول الله صلى الله

---

(١) يجوز فى النسبة لمثل « بصرى » قلب ألفها واوا ، كما ورد بالأصل ، وحذفها كما فى اللسان . ومن الحذف قول الشاعر : * يفلون بالقلع البصرىّ هامهم *

(٢) البوادر : جمع بادرة وهى شباة السيف .

(٣) زيادة يقتضيها حسن السياق .

(٤) و يطلق على القطاع أيضا .

عليه وسلم . "ذو هِبَّة" اى ذو هِزَّة ومَضَاء . "ذَرِب" أى محدَّد . "ذو النُّون" [سيف مالكُ بن زُهَير] (١) . "ذو ذُكْرَة" وهو الصارِم . "رَسُوب" وهو الذى يغيب فى الضَّرِيبة "رِداء" (٢) . "سيف" وجمعه أسياف وسيوف وأَسْيُف . قال الشاعر :

كأنهم أَسْيُفٌ بِيضٌ يَمَانِيَةٌ * عَضْبٌ مَضَارِبُها باقٍ بها الأَثَرُ (٣)

"سُرَاط" و"سُرَاطِى" أى قاطع . "سَقَّاط" وهو الذى يسقط من وراء الضريبة . "سُرَيْجِى" منسوب الى قَيْن يقال له سُرَيْج . "شَلْحاء" . "صَقِيل" . "صَارِم" أى قاطع . "صَفِيحة" وهو العريض . "صَمْصَام" وهو الذى لا ينثنى . "صَمْصَامة" مثله ، وهو سيف عمرو بن مَعْدِيكَرِب ؛ وفيه يقول (٤) :

خَلِيلٌ لم أخنْهُ ولم يَخُنِّى * على الصَّمصامة السيفِ السلامُ

وقال أيضا :

خليلٌ لم أهبه على قِلَاه (٥) * ولكنّ المواهبَ للكرامِ

---

(١) الزيادة عن لسان العرب .

(٢) ومنه قول الشاعر :

لقد كفن المنهال تحت ردائه * فتى غير مبطان العشيات أروعا

(٣) كذا فى اللسان (مادة أثر) وغيره من كتب الأدب واللغة ، وفى الأصل :

* بيض مضاربها يبقى بها الأثر *

(٤) فى الأصل «وفيه يقول الشاعر» ولعل كلمة «الشاعر» زيدت سهوا من الناسخ ، فان قائل هذا الشعر هو عمرو بن معديكرب الذى يرجع اليه الضمير فى « يقول » قاله حين وهب سيفه . قال فى اللسان مادة (صمم) بعد أن ذكر البيت الأول : قال ابن برى صواب إنشاده :

* على الصمصامة أم سيفى سلامى *

وبعده... ثم ذكر البيتين . وعلى تصويب ابن برى لا يكون فى الشعر اقواء . والإقواء : اختلاف حركة الروى .

(٥) فى اللسان «لم أهبه من قلاه» وكتب بهامشه : «قوله من قلاه الذى فى التكملة عن قلاه ... » .

حَبَوْتُ به كريماً من قريش * فسُرَّ به وصِينَ عن اللئـام

"صَنِيع" [مجرب مجلو](١)؛ قال الشاعر(٢) :

بأبيضَ من أُمَيَّةَ مَضْرَحِيٍّ * كأنّ جبينَه سـيفٌ صَنِيعُ

"طَبِـعٌ" وهو الصَّدِئ قال جرير :

وإذا هُزِزْتَ قطعتَ كلَّ ضَرِيبةٍ * وخرجتَ لا طَبِعًـا ولا مبهوزا ٥

"عَضْب" أى قاطع . "عَقِيقَة" أى صقيل؛ قال الشاعر(٣) :

حُسَامٌ كالعَقِيقـة فهو كَمِعِي(٤) * سِـلَاحى لا أَفَلَّ ولا فُطَارا

"عَجُوز" . "عُرَاض" أى لَدْن المَهَزّة "عِطَاف"؛ قال الشاعر : (٧٦)

ولا مالَ لى إلا عِطَافٌ ومِـدْرَعٌ * لكم طَرَفٌ منه حديدٌ ولِى طَرَفْ

وجمعه عُطُف . "فُطَار" أى مشقّق . "فَلُوع" أى قاطع . "فَسْفَاس"(٥) أى كَهَام . ١٠

"قَصّال" أى قطّاع . "قاطع" . "قَرْن" . "قضيب" أي قاطع وجمعه قُضُب .

"قَاضِب" مثله . "قِرْضَاب" أى يقطع العظام . "قُرْضُوب" مثله . "قَشِيب" قريب

---

(١) الزيادة عن لسان العرب .

(٢) هو عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاصى يمدح معاوية ؛ كما فى لسان العرب .

(٣) هو عنترة ؛ كما فى اللسان . ١٥

(٤) الكمع : الضجيع . والعقيقة : شعاع البرق أو البرق اذا رأيته وسط السحاب كأنه سيف مسلول . وقد تطلق على السيف تشبيها له بالبرق أو شعاعه . أما العقيقة فى البيت فلا يمكن أن يراد بها السيف لأن السيف مشبه بها . والأفل : وصف مدح لما ضرب به كثيرا ، وذمّ لما به من الخلل وهو المراد هنا . والفطار : المتشقق الذى لا يقطع .

(٥) ومثل الفسفاس : القَسْقَاس . ٢٠

عهد بالجلاء . "قَلَعِيّ" منسوب الى قَلَعة[1] موضع بالبادية . "قُسَاسِيّ" منسوب الى معدن بأرمينية يقال له قُسَاس . قال الشاعر :

إنّ القُسَاسِيَّ الذى يُعْصَى[2] بِهِ * يختضِمُ الدارعَ فى أثوابِهِ

"قَضِمٌ" وهو الذى طال عليه الدهر فتكسّر حدّه . "كَهَام" أى كليل . "كَلِيل" أى كَلَّ حدّه . "لَهْذَم" هو السيف الحادّ ، ويسمى به السنان أيضا . "لَحِيفٌ" وكان من أسياف[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم "لُحّ" . "مُرْهَف" أى محدود رقيق . "مُصَمَّم" وهو الذى يمرّ فى العظام . "مِقْطَع" . "مِخْذَم" أى قاطع "مِجْذَر" . "مأثور" وهو الذى له أثَرٌ "مُذَكَّر" مثل ذَكَر . "مُحْتَفِد" سريع القطع . "مِخْصَل" . "مِخْضَل" أى مُصْلَت من غمده . "مِقْصَل" أى قاطع . "مِخْفَق" أى عريض . "مُذَهَّبٌ" المطلىّ بالذهب . "مِهْذَم" قاطع . "مَعْلوب" وهو سيف الحارث بن ظالم ؛ وفيه يقول الكُمَيت :

وسيفُ الحارثِ المَعْلُوبُ أَرْدَى * حُصَيْنًا فى الجَبَابرة الرَّدِينَا

"مِشْمَل" أى صغير . "مِغْوَل" سيف رقيق يكون غمده كالسوط وهو الذى يُتَّخذ كالعُكّاز . "مَهْوٌ" . وهو الرقيق أيضا ؛ قال صَخْر الغىّ :

---

(١) فى المخصص : «ابن دريد : قلعىّ منسوب الى حديد أو معدن ، غيره : هو منسوب الى قلعة — وهو موضع» . وفى اللسان : «وفى الحديث وسيوفنا قلعية . قال ابن الأثير : منسوبة الى القلعة بفتح القاف واللام وهى موضع بالبادية تنسب السيوف إليه» . وقد ورد بالأصل «قلع» .

(٢) كذا فى اللسان فى مادتى «قسس» و «خضم» . وفى الأصل : «... يقضى به» .

(٣) لم نجد فى مصدر آخر ما يؤيد ما هنا بل الذى فى البخارى وكتب اللغة أن «الخيف» (كأمير وزبير) اسم فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وعبارة ابن الأثير فى النهاية — ونقلها عنه صاحب اللسان وغيره — «كان اسم فرسه عليه الصلاة والسلام الخيف ، كذا رواه البخارى ولم يحققه والمعروف بالحاء المهملة وروى بالجيم» .

وصارمٌ أُخْلِصَتْ خَشِيبَتُه * أبيضُ مَهْوٌ فى مَتْنِـه رُبَدُ

"مُفَقَّر"(١) أى الذى فيه حزوز مطمئنة عن متنه . "مُهَنَّد" وهو الذى طُبع من حديد الهند . "مَشْرَفِىّ" منسوب الى المشارف ، وهى قُرًى من أرض العرب تدنو من الرِّيف . "مُطَبَّق" الذى يقطع المفاصل ؛ قال الشاعر :

* يُصَمِّم أحياناً وحِيناً يُطَبِّقُ *

"مُنْصُل" . "مُشَطَّب" أى الذى فى متنه طرائق . "مُصْلَت" المسلول من غمده . "مِفْلَع" أى قاطع . "مِعْضَد" هو المُمْتَهن فى قطع الشجر وغيره . "مِعْضاد" وهو الممتهن أيضا . "مَذَاهِب" سيوف مُمَوَّه بالذهب . "نَصْل" . "نَهِيك" أى قاطع . "نُون" هو آسم سيف بعض العرب ؛ قال الشاعر :

سأجعلُه مكانَ النُّونِ منِّى * وما اعطيتُـه عُرَقَ الخِلالِ(٢)

معناه : سأجعل هذا السيفَ الذى آستفدته مكان ذلك السيف ، وما أُعطيتُه عن مودّة بل أخذته عنوةً . "نَوَاحِل" السيوف التى رَقَّت ظُبَـاتها قِدَمًا من كثرة المضاربة . "هُذَام" السيف القاطع . "هَزْهَاز" هو الكثير الآهتزاز . "هِنْدُوَانِىّ" هو المطبوع من حديد الهند . "هِنْدِىّ" منسوب الى الهند . "وَقِيع" الذى شُحِذ بالحجر . "يَمَـانِى" منسوب الى اليمن .

(١) كذا فى المخصص وغيره من كتب اللغة . وفى الأصل «مفقم» . وهو تحريف .

(٢) الخلال : المصادقة والمودة مصدر خاله خلالا ومخالة . والعرق الجزاء . قال صاحب اللسان فى مادة (عرق) بعد كلام فى تفسير مفردات البيت ونسبته الى الحارث بن زهير : «والنون اسم سيف مالك بن زهير ، وكان حمل بن بدر أخذه من مالك يوم قتله ، وأخذه الحارث من حمل بن بدر يوم قتله ، وظاهر بيت الحارث يقضى بأنه أخذ من مالك سيفا غير «النون» بدلالة قوله : «سأجعله مكان النون» أى سأجعل هذا السيف الذى استفدته مكان النون . والصحيح فى إنشاده : «ويخبرهم مكان النون منى» لأن قبله :

سيخبر قومه حنش بن عمرو * اذا لاقاهم وآبنا بلال

*
* *

ومن أسماء أجزاء السيف — "أَثْر" أَثْره : إفرنده وما يُرَى عليه مما يشبه الغُبار أو مَدَبّ النمل؛ قال عيسى بن عمر[1] :

جلاها الصَّيْقلُون فأخلصوها * خفافاً كُلُّها يَتَّقِي بأَثْرِ

٥ "إفرِنْد" وَشْيُه وأثره . "جُرْبَان" هو حَدّه . "حَرْف" مثله . "ذُبَاب" حدّ طَرَفه وقيل : حدّه مطلقا . "رِئاس" قائمه؛ قال الشاعر :

* ومِرْفَقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفَا *

"رُبَدٌ" ماتراه عليه شبه غُبَار أو مَدَب نمل؛ قال الشاعر :

* أبيضُ مَهْوٌ فى متنه رُبَدُ *

١٠ "زِرٌّ" قال مُجَرِّس[2] بن كليب فى بعض كلامه : أَمَا وسَيْفى وزِرِّيه ، ورُمْحى (٧٧) ونَصْلَيْه . والزرّ : الحدّ . "سِطَام" : حدّه . "مِيلَان" : هو مايدخل منه فى النِّصاب[3] . "سَفَن" : جِلْدة قائمه . "شُطَبٌ" : طرائق فى إحدى مَتْنيه . "شَفْرَة" : حدّه ، وشَفْرَتاه : حدّاه . "صُفْح" : عرضه . "ظُبَة" : حدّه . وظُبَتاه : حدّاه . "عَجُوز" : نَصْل السيف؛ قال أبو المِقْدَام :

١٥ وعجوز رأيتُ فى فم كَلْبٍ * جُعِلَ الكلبُ للأمير جَمالا

والكَلْب من أجزاء السيف وهو البرجق[4] . "عَيْر" هو الناشز فى وسط السيف . "غِرَار" : مابين ظُبَتيه وبين العَيْر من وجهي السيف جميعا ، وجمعه : أغِرّة . وقيل :

(١) فى اللسان أن هـذا البيت لخفاف بن ندبة وأنشـده عيسى ، وفسره بقوله : أى كلها يستقبلك بفرنده . ويتق مخفف من يتق أى اذا نظر الناظر اليها اتصل شعاعها بعينه فلم يتمكن من النظر اليها .

(٢) فى الأصل : «قال هجرى ...» وهو تحريف . والتصويب من اللسان مادة «زر» .

٢٠ (٣) نصاب السيف : مقبضه .

(٤) كذا بالأصـل ، ولم نوفق الى تفسيره أو صحته . وفى المخصص : « الكلب : المسمار فى قائم السيف الذى فيه الذؤابة» . وفى اللسان : «والكلب : مسمار مقبض السيف ومعه آخر يقال له العجوز» .

الغراران : شَفْرتا السيف . "غَرْبٌ" غربه : حدّه . "فِرِنْد" : مثل "إفْرند". "فُلُول" الفلول فى حدّه، والواحد منها فَلّ . "قَبِعة" هى التى على طرف قائمه من حديد أو فضة . "مَضْرِب" : الذى يُضرب به منـه، وهو نحو شبر من طَرَفه . "مَقْبِض" المقبض : حيث تقبض عليه الأكف. "نون" والنونُ: شَفْرة السيف.

قال الشاعر : ٥

* بذى نُونَيْنِ قَصَّالٍ مِقَطّ *

"وَشْى" وهو فرنده وأثره، وقد تقدّم بيانه .

✦
✦ ✦

ومما يضاف الى السيف — فاما اذا احتاج الى الشَّحْذ — يقال : "اِسْتَوْقَع" واذا ضُرِب به فلم يعمَل يقال : "أَحاكَ" . واذا سُلّ من قِرَابه يقال: "أُسْتُلّ" . ١٠ "أُصْلِتَ" . "أُمْتُشِن" . "أُمْتُعِط" . "أُمْتُحِط"[1] . "أُنْتُضِى" . "أُخْتُرِط" "جُلِط" . "جُرِّد" . "سُـلّ" . "شُهِر" "مُعِطَ" . "نُضِىَ" . "شِمْتُ" : اذا سَلَلْتَ وأغمدتَ[2] . واذا خرج السيفُ من غير سَلٍّ يقال : "اِنْدَلَق" . واذا أُغْمِض السيفُ من غير سَلٍّ[3] يقال: "أغمدتُ" السيفَ . "أَقْرَبت" . "شِمْت" "قَرَبت".

وأما اذا تَقَلّد به الرجلُ يقال : اِعْتَطَف؛ وفيه يقول الشاعر : ١٥

مَنْ يَعْتَطِفْهُ على مِئْزرٍ * فنعمَ الرِّداءُ على المئْزرِ

ويقال : "تَقَلَّد" .

---

(١) ومثل «امتحط» «امتخط» بالخاء المعجمة .

(٢) أى أنه يستعمل فى الضدّين .

(٣) كذا بالأصل ، ويظهر أن فيه تحريفا وسهوا من الناسخ، ولعل صوابه : «وأما اذا أغمد السيف يقال... الخ» فوقع تحريف فى «أغمد» وزيدت "من غير سل" سهوا . ٢٠

***

ومن أسماء قِرابه وآلته — يقال: "جَفْن". "جُرُبَّان". "جُلُبَّان" "خِلَّ" وهى بطائن كانت تُغَشَّى بها أجفانُ السيوف. "غِمْد".

حمائله — يقال فيها "حمائل" واحدتها "حَمِيلة". "قِرَابٌ" "مِحْمَل". "نِجَاد".

حِلْيتــه — يقال "رَصَائع" وهى حَلَق مستديرات تُحَلَّى بها السيوفُ. "قَبِيعة" وقد تقدّم ذكرها. "نَعْل" وهو مايكون أسفلَ القِرَاب من فضّة أو حديد.(١) والنعل مؤنثة؛ قال الشاعر:

ترى سيفَه لا تَنْصُفُ الساقَ نعلُه * أَجَلْ لا وإن كانت طِوالًا محامِلُهْ

***

وأما ما وصفته به الشعراء — فمن ذلك ما قاله أبو عُبَادة البُحْتُرِىّ:

يتناولُ الرُّوحَ(٢) البعيدَ مَنَالُهُ * عَفْوًا، ويفتحُ فى القضاء المُقْفَلِ
ماضٍ وإن لم تُمْضِه يدُ فارسٍ * بَطَلٍ، ومَصقولٌ وإن لم يُصْقَلِ
يَغْشَى الوَغَى(٣) فالتُّرْسُ ليس بجُنَّةٍ * من حَدِّه والدِّرعُ ليس بمَعْقِلِ
مُصْغٍ الى حُكْمِ الرَّدَى، فاذا مَضَى * لم يلتفت، واذا قَضَى لم يَعْدِلِ
متوقِّدٌ يَبْرِى(٤) بأوّلِ ضربةٍ * ما أدركتْ ولَوَ انّها فى يَذْبُلِ

(١) فى الأصل: "من فضة أو حرير" وقد أثبتنا ما فى كتب اللغة.

(٢) كذا فى ديوان البحترى (طبع مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ) وفى الأصل "تتناول الرمح ...".

(٣) كذا فى الديوان. وفى الأصل: "يغشى الورى ...".

(٤) فى الديوان: «متألق يفرى ...».

(٧٨) واذا أصاب فكلُّ شيء مَقْتَـــلٌ * واذا أُصيب فما له من مقتلِ

وقال أبو الهول :

حُسَـامٌ غداةَ الرَّوْعِ ماضٍ كانه * من الله فى قَبْض النفوس رســولُ
كأنّ جنودَ الذَّرِّ كسّرنَ فوقه * عيـــون جرادٍ بينهنّ ذُحولُ
كأنّ على إفرِنْده موجَ لُجَّـــةٍ * تَقَـاصَرُ فى صَحْصَـاحه وتَطُـولُ ٥
اذا ما تَمَطّى الموتُ فى يَقَظاتِهِ * فلا بدّ مِن نفسٍ هناك تسِيلُ
وإنْ لاحَظَ الأبطالَ أو صَاخَ الطُّلَى * تَشَـحّطَ يوماً بينهن قتيـلُ

وقال عبد الله بن المعتزّ :

وَلِى صارمٌ فيه المنايا كَوَامِنٌ * فما يُنْتَضَى إلا لسَـفْكِ دِماءِ
تَرى فوقَ متنيه الفِرِنْدَ كأنه * بقيّـةُ غَيْمٍ رَقَّ دون سمـاء ١٠

وقال أيضا :

وَسْطَ الخميسِ بكفِّه ذَكَرٌ * عَضْبٌ كأنّ بمتنـه نَمَشَا
ضَافِى الحديدِ كأنّ صَيْقَلَهُ * كَتَبَ الفِرِندَ عليه أو نَقَشا

وقال آبن الرومىّ :

خيرُ ما آستعصمَتْ به الكفُّ عَضْبٌ * ذَكَرٌ هَزُّهُ أنيثُ المَهَـزِّ ١٥
ما تأمّلتَـــهُ بعينـــك إلّا * أُرعدتْ صَفْحتاه من غيرِ هَزّ
مثـلُه أفـزَعَ الشُّجَاعَ الى الدِّر * عِ فغَـالَى بها عـلى كلِّ بَزِّ
ما يُبَـالِى أصمَّتْ شَـــفْرتاهُ * فى مَحَـزٍّ أم حادتا عن محـزِّ

وقال آبن المعتزّ :

ولقـد هزَزْتُ مُهَـنَّدًا * عَضْبَ المضاربِ مُرْهَفا ٢٠

واذا تَـوَجَّ هامـةَ الْـجَبَّار سـارَ فأَوْجفـا
عَضْب المضارب كالغديـر نَفَى القَـذَى حتَّى صَفَا

وقال أيضا :

فى كفِّه عَضْبٌ اذا هزَّهُ * حَسِبْتَهُ من خوفه يرتعِـدْ

٥ وقال آخر :

جرّدوها فألبسـوها المنايا * عِوَضًا عُوِّضَتْ من الأغمادِ
وكأنّ الآجالَ ممن أرادوا * وظُبَاها كانت على مِيعادِ

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

وذى شُطَب تَقْضى المنايا بحُكمه * وليس لمـا تَقْضِى المنيَّـةُ دافعُ
١٠ فِرِنْدٌ اذا ما اعتَنَّ[1] للعـين راكدٌ * وبَرْقٌ اذا ما اهتزّ بالكفِّ لامعُ
يُسلِّل أرواحَ الكُماة انسـلالُهُ * ويرتاع منه الموتُ والموتُ رائعُ
اذا ما التقتْ أمثالُه[2] فى وَقيعـةٍ * هنالك ظَنُّ النفس بالنفس واقعُ

وقال أيضا :

بكلِّ مأثورٍ عـلى متنـه * مثلُ مَدَبِّ النمل فى القاعِ
١٥ يرتدُّ طَرْفُ العين عن حَدِّهِ * عن كوكبٍ للموت لمَّاعِ

وقال أبو مروان بن أبى الخصال :

وصَقِيلٍ مدارجُ النمـلِ فيه * وهو مذ كان ما دَرَجْنَ عليهِ
أخلصَ القَيْنُ صقلَه فهو ماءٌ * يتلظَّى السـعيرُ فى صَفْحَتيه

(١) اعتن : ظهر .

٢٠ (٢) هذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٦٨) وفى الأصل : «اذا ما التقت أرواحه ...» .

وقال أحمد بن الأعمى الأندلسىّ :

مَوْتى فان خلعتْ أكفانها علمتْ * أنّ الدروعَ على الأبطال أكفانُ
نفسِى فداؤُك لا كُفْئًا ولا ثَمَنًا * ولو غدا المُشْتَرِى منها وكِيوانُ
والتِّبرُ قد وَزَنُوه بالحـديد فما * سَاوَى، ولكن مقاديرٌ وأوزان

وقال عبد العزيز بن يوسف شاعر اليتيمة :

بيضٌ تُصَافِحُ بالأيدى مَقَابِضُها * وحَدُّها صَافَحَ الأعناقَ والقِمَما
ضَحِكْنَ من خِلَل الأغماد مُصْلتةً * حتى اذا اختلفتْ ضَرْبًا بَكَيْنَ دما

وقال الشريف المُوسَوِىُّ شاعرها :

ونصلُ السيف تسلَمُ شَفْرتاهُ * ويُخْلِق كلَّ أيام قِـرَابا

وقال مؤيّد الدين الطغرائى :

وأبيضَ طاغى الحَـدِّ يُرْعَدُ متنُـه * مخافةَ عزم منك أمضى من النَّصلِ
عليمٌ بأسـرار المَنُون كأنما * على مَضْرَبيـه أُنْزِلتْ آيةُ القتـل
تَفِيضُ نفوسُ الصِّيدِ دون غِرَاره * وتطفَحُ[1] عن متنيه فى مدرج النمل
خَلعتَ عليـه نُورَ وجهك فارتدى * بنورٍ كَفَاه أن يُحَـادَثَ[2] بالصَّـقْلِ

وقد أكثر الشعراء تشبيه الفِرند بالنمل، وأصل ذلك من قول امرئ القيس :

متوسِّدًا عَضْبًا مَضارِبُه * فى متنـه كدبَّة النمـلِ

وقال الطغرائى :

وأبيضَ لولا المـاءُ فى جَنَباته * تَلَسَّنَ من حَدَّيه نارُ الحُبَاحِبِ
أَضَرَّ به حبُّ الجماجم والطُّـلَى * فغادره نِضْوًا نحيـلَ المضاربِ

(١) كذا فى ديوان الطغـرائى (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٢٨ أدب) وفى الأصل : «وتصفح ...» . (٢) يحادث : يجلى .

وقال إسحاق بن خلف :

ألـقى بجانبِ خَصْرِهِ * أمضى من الأجل المُتَاحِ
وكأنما ذَرُّ الهَبَا * ءِ عليه أنفاسُ الرياحِ

وقال ابن المعتز :

٥ وجرَّدَ من أغماده كلَّ مُرْهَفٍ * اذا ما انتضته الكفُّ كاد يسيلُ
ترى فوق متنيه الفِرِنْدَ كأنما * تَنَفَّسَ فيه القَيْنُ وهو صقيل

وقال منصور النمرى يصف سَيْفًا :

ذَكَرٌ برونقه الفرندُ كأنما * يعلو الرجالَ بأُرْجُوانٍ ناقعِ
وترى مضاربَ شَفْرتيه كأنها * مِلْحٌ تناثَرَ من وراء الدارع

١٠ ولما صار الصَّمْصامة (سيفُ عمرو بن مَعْدِيكَرِب) الى موسى الهادى أذِن للشعراء أن يَصِفوه، فبدأهم ابنُ يامين[1] فقال :

حاز صَمْصامةَ الزُّبَيْدِىِّ من دو * ن جميع الأنام موسى الامينُ
سيفَ عمرو وكان فيما سمعنا * خيرَ ما أُغمدت عليه الجُفون
أخضر المتن بين حَدَّيه نُورٌ * من فرندٍ تمتدُّ فيه العيون
١٥ أوقدتْ فوقه الصواعقُ نارًا * ثم شابتْ به الذُّعافَ القُيونُ
فاذا ما سللته بَهَرَ الشمـ * ـسَ ضِياءً فلم تكد تستبين
وكأنّ الفرندَ والرَّوْنَق الجا * رِىَ فى صَفْحتيه ماءٌ مَعِين
وكأنّ المَنونَ نِيطَتْ إليه * فهو من كل جانبيه مَنون
ما يبالى مَنِ انتضاه لضربٍ * أشِمالٌ سَطَتْ به أم يمينُ

٢٠ فأمر له ببَدْرة، وأخرج الشعراء .

(١) فى العقد الفريد : "ابن أنيس" .

ومن الإفراط فى وصف السيف قول النابغة :

يَقُدُّ السَّلُوقىَّ المضاعَفَ نسجُه * ويُوقد بالصُّفَّاح نارَ الحُبَاحب

فذكر أنه يقدّ الدرع المضاعف والفارسَ والفرسَ ويصل الى الأرض فيقدَح النـار .

وقال النَّمِر بن تَوْلَب :

تَظَلُّ تحفِرُ عنه إن ضربتَ به * بعدَ الذِّراعين والقَيْدينِ والهادِى

ومن رسالة لأبى محمد بن مالك القُرْطُبىّ جاء منها فى وصف السيوف، قال :

وكأنما باضت على رءوسهم نعائم الدَّوْ، وبَرَقت فى أكُفِّهم بوارق الجَوْ، ولكنها اذا ما هُزَّتْ فبَوَارق ، واذا صُبَّت فصواعق؛ من كل ذى شُطَبٍ كأنما قُرِى نمل، عَلَوْن منه قِرَى نَصْل؛ فإذا أصاب فكلُّ شىء مقتَل، واذا حَزّ فكلّ عُضْو مَفْصِل؛ أمضى فى الأشباح، من الأجل المُتاح؛ عَضْب المتنِ صقيل، يكاد اذا آنْتُضِى يسيل؛ ويكاد مبصره يَغْنَى عن الوِرْد، اذا اختُرِط من الغِمْد؛ ما لم يَخَـلْه رَيَعان سَرَاب ، فى صَحْصَحان يَباب، لآشتباه فِرِندِه بحَبَاب فى شراب، أو حُبَابٍ[1] فى سَراب؛ فلما رأيت جفنه قد آنطوى على جمر الغَضَى ، وماء الأضَى[2]؛ وانتظم على خَصْره الجُنح، ورَوْنق الصُّبح؛ قلت سبحانَ مكورِ الليل على النهار، والجامعِ بين المـاء والنار .

وأما ماقيل فى الرمح، من الحديث، والأسماء، والنعوت، والأوصاف .

عن آبن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : "جُعِل رزقى تحت ظِلِّ رُمْحِى وجُعل الذِّلَّةُ والصَّغارُ على من خالَفَ أمرى" . هذا ما ورد فيه من الحديث .

(١) الحباب (بالفتح) : الفقاقيع التى تعلو المـاء، والحباب (بالضم) جمع حبابة ، وهى دويبة سوداء مائية .

(٢) الأضى : جمع لأضاة ، وهى مستنقع المـاء .

وأما الأسماء، والنعوت، والأوصاف — فمن ذلك: "أَسمر" وهو الدقيق "أَلَّة" وهو أصغر من الحَرْبة، وفي سِنانها عِرَض. وجمعها الإلّال. "أم اللواء". "أَزَنِيّ" منسوب الى ذي يَزَن. "أَقْصَاد" وهو المكسر. "ثَلِبٌ" وهو المثلَّم. "حادر" أي غليظ. "حَرْبة". "خرصانة"[1]. "خُرْص". "خَطَّار" أي ذو اهتزاز "خَالٌ" أي لواء الجيش. "خَطِّيّ" هو ما يُنسب من الرماح الى الخَطّ، وهو موضع باليمامة. "خَطِل" وهو المضطرب. "خَوّار" وهو الخفيف. "رُمْح" "رَعّاش" وهو الشديد الاضطراب. "رُدَيْنِيّ" منسوب الى امرأة اسمها رُدَيْنة "رَاشٌ" أي خوّار. "زَاعِبِيّ"[2] وهو الذي اذا هَزّ تدافع كلّه. "رَوَاعِف". "زاعبيّة" منسوبة الى زاعب: رجل، وقيل بلد. "سَمْهَرِيّة" هي القنا الصُّلْبة منسوبة الى سَمْهَر، كان رجلا يُقوِّم الرماح. "شِرَاعِيّ" هو الرمح الطويل. "شِطَاط"[3] القناة المعتدلة. "صَدْق" هو الصُّلب من الرماح. "صَعْدَة" وهي القناة المستوية من أصل نَبْتها التي لاتحتاج الى تثقيف، والجمع صِعَاد. "صُمْع" هي الصلبة اللطيفة العُقَد. "ضَلِع" هو الرمح المعوّج. "ضَلِيع" هو الرمح المائل. "ضَب"[4] اعوجاج

(١) كذا بالأصل. ولم نجد في المصادر التي بأيدينا مايؤيده وانما الموجود «خرصان» جمع «خرص».

(٢) في الأصل «راعبيّ» ومقتضى وضعه قبل «رواعف» يدل على انه من حرف الراء. غير أنا لم نجد في كتب اللغة ما يؤيده. وفي اللسان: «والزاعبيّ من الرماح الذي اذا هز تدافع كله كأن آخره يجري في مقدّمه، والزاعبية رماح منسوبة الى زاعب: رجل أو بلد ... الى أن قال: وقال الأصمعيّ: الزاعبيّ الذي اذا هز كأن كعوبه يجري بعضها في بعض للينه وهو من قولك: مر يزعب بحمله اذا مر مرا سهلا...» وفي الأساس: «رمح زاعبي ورماح زاعبية نسبت الى رجل من الخزرج كان يعمل الأسنة، عن المبرد؛ وقيل: هي العسالة التي اذا هزت تدافعت كالسيل الزاعب يزعب بعضه بعضا أي يدفعه، وياء النسبة للنسبة الى الزاعب لمعنى التشبيه به أو للتأكيد كياء الأحمري». كل هذا يدل على أن ما في الأصل محرّف وأن موضعه بعد «رواعف» ليكون من حرف الزاي. (٣) شطاط (وزان سحاب وقتال): الطول واعتدال القامة أو حسن القوام، ويقال: امرأة شطّة وشاطّة بينة الشطاط. أما ما ذكره المؤلف من اطلاق المصدر على القناة فلم نجد في كتب اللغة التي بأيدينا ما يؤيده. (٤) كذا في الأصل ولم نجد في مصدر آخر ما يؤيده. والذي في كتب اللغة «والطنب بفتحتين: اعوجاج في الرمح» فلعل ما في الأصل محرّف عنه.

فى الرمح. "عَنَزَة" وهى أطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زُجّ كزجّ الرمح. "عُكَّازة" نحوها. "عَاسِل" هو الرمح الشديد الاضطراب. "عَسَّال". "عَسُول". "عَرَّات": مثل عاسل. "عَشَوْزَنَة" القناة الصُّلبة. "عَرَّاص" هو الرمح المضطرب. "عُتُلّ" هو الرمح الغليظ. "قَنَاة" وجمعها قَنًى وقَنَوات وقُنِيّ وقِنَاء. "قَصِدٌ" أى مكسّر. "لَدْن" اذا هو تدافع كله. "مُثَنًّى" كان من رماح سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. "مِدْعَس"(١). "مِطْرَد" أى صغير. "مِنْجَل" أى واسع الطعن. "مِزَجّ" هو صغير كالمزراق. "مِزْرَاق" هو أخفّ من العنَزَة. "مِتَلّ" رمح قوىّ يُصْرَعُ به؛ قال لبيد:

* أَعْطِفُ الجَوْنَ بمَرْبوعٍ مِتَلّ *

"مُسَمَّح" هو الذى ثُقِّف. "مَخْمُوس" هو الذى طولُه خمسة أذرع؛ قال عبيد [يذكر ناقته](٢):

هاتِيكَ تحمِلُنى وأبيضَ صارمًا * ومُذَرَّبًا فى مارنٍ مخمـوسِ

"مربوع" هو الذى طوله أربعة، وقيل الذى ليس بطويل ولا قصير. "مُعَرَّن" هو الرمح المسمَّر السنان بالعِرَان وهو المسمار. "مُرَّانة". "مثقَّفة" وهى الرماح التى ثُقِّفت أى سُوِّيت. "مَدَرِيّة" وهى التى كانت تركب فيها القرون [المحدّدة](٢) مكان الأسنة، وقيل: إنها نسبت الى قرية باليمن يقال لها مَدَر. "نَيْزَك" وهو رمح قصير، يقال: إنه فارسىّ وعُرِّب. "هُزَعٌ" أى مضطرب. "وَشِيج" وهى شجرة الرماح. وشَجٌ(٣) نوع منه ينبت فى الأرض معترضا. "يَزَنِىّ" مثل "أَزَنِىّ".

(١) السنان المدعس: الغليظ الشديد الذى لا ينثنى. (٢) الزيادة عن اللسان.

(٣) لعل أصل العبارة: وشيج وهو شجر الرماح، أو الوشيج نوع منه ينبت فى الأرض معترضا. فوقع فيها حذف وتحريف، وإلا فان ما فى الأصل لا يتفق مع شىء مما فى كتب اللغة. قال فى القاموس وشرحه: «ومن المجاز تطاعنوا بالوشيج أى بالرماح، والوشيج شجر الرماح، وقيل هو ما نبت من القنا والقصب معترضا ... الخ».

* * *

ومن أسماء السنان — "أَعْجَف" وهو الرقيق . "أشهب" اذا جُلى "أَذْلق" وهو الحادّ . "حَرِب"[1] يقال حَرَّبْت السنانَ اذا حددتَه . "خُرْص" وهو آسم للسنان وللرمح أيضا . "خزق"[2] . و"خَازِق" يقال فى أمثال العرب : "أمضى من خازق" . "ذَرِبٌ" يقال : ذَرَبته أى حددته . "ذَلِقٌ" مثله . "رغب"[3] . "زُرْقٌ" . "مَيْحَف" هى نصال قِصَار عِرَاض ؛ قال الشَّنْفَرَى :

لهـا وَفْضَـةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً * اذا آنست أُولَى العَدِىّ آقشعرّتِ[4]

"سِنَان" وجمعه أسِنَّة . "صُلَّبِيٌّ" سنان مَسْنون . "عامِلٌ" . "عذَارٌ" وعذار السنان شَفْرَتاه "عَيْرٌ" الناتئ فى وَسَطه . "قَارِيَةٌ" حَدّ السنان . "لَهْـذَم" هو السنان الحادّ القاطع . "مُصَلَّبٌ" أى مسنون . و"مُطْحَرٌ"[5] و"مُحَـدَّد" و"مَطْرُور" مثلُه . "مُذَرَّب" أى محدّد ؛ قال كَعْب :

بمُذَرَّبَاتٍ بالأكُفِّ نَوَاهِلٍ * وبكلِّ أبيضَ كالغديرِ مُهَنَّدِ

"نَصْل" وجمعه نُصُول ونِصال . "نَحِيض"[6] يقال : نحضتُه اذا رققته .

(١) كذا فى الأصل ولم نجد فى مصدر آخر «حربا» وصفا كما يقتضيه السياق هنا .

(٢) لم نجد فى كتب اللغة اسماء أو وصفا للرمح يقرب من هذه الصيغة ، وإنما الموجود : «خزقه اذا طعنه طعنا خفيفا» فلعله من اطلاق المصدر على آلته .

(٣) كذا بالأصل ، ولم نوفق اليها فى مصدر آخر .

(٤) كذا فى اللسان (مادة سحف) والمخصص ، وفى الأصل :

هى وصفة فيها ثمانون سيخفا * اذا آنست أولى العدا اقشعرت

ويكاد التحريف ينال — كما هو ظاهر — كل كلمات البيت . الوفضة : الجعبة من الأدم . وفى اللسان : «أولى العدىّ : أوّل من يحمل من الرجالة» .

(٥) سياق الكلام هنا يدل على أن «مطحر» : مسنون . وفى القاموس : «ونصل مطحر كمكرم : مطوّل» .

(٦) فى الأصل «نحض» وهو تحريف وانما هو فعيل بمعنى مفعول ، كما فى القاموس .

ومن أسماء ما يعقد عليها — "أمّ" الأمّ : العَلَم الذى يتبعه الجيش. "بَنْدٌ" هو العلم الكبير، وهو فارسىّ معرّب. "حَقِيقة" هى الراية؛ قال عامر بن الطُّفَيْل :

* أنا الفارسُ الحامِى حقيقةَ جعفرٍ *

"خفق"(١) خَفَقت الراية اذا اضطربت . "عَلَمٌ" الراية، وقيل : الذى يُعقد على الرمح . "عُقَابٌ" العُقاب : العلم الضخم . "غَايَةٌ" وهى الراية . "لِواء" وهو دون الأعلام والبنود . "عَذَبَةٌ" خِرْقَة تُعقد على رأس الرمح .

وأما اذا حمله الرجل وطَعَن به — يقال : "اِعتقلَ الرمحَ" اذا جعله بين رِكَابه وسَاقِه . "أَقْرن" اذا رفع رأس رُمْحه . "اِقتلع" اذا أخذ الرمح ليحمِلَ به . "اِمتعط" و"انتزع" مثل اقتلع . "أشرع" اذا قابلَ به خَصْمَه "بَوَّأ" يقال : بوّأت الرمح اذا سَدَّدته "تَيَمَّمَ" تيممه اذا قَصَده دون غيره؛ قال الخليل بن أحمد :

يَمَّمْتُه الرمحَ شَزْرًا ثم قلتُ له : * خُذْهَا حُذَيْفُ فأنت السيِّدُ الصَّمَدُ(٢)

ومثل "تيمم" "جَعَبَ". "جَحَلَ" "جَحْدَل". "جَعْفَلَ"؛ قال الشاعر :

* جعفلتها لما أبتْ أن تخضعا *

"جَوَّرَ" مثله "جَدَّل" يقال : طعنه فجدّله أى رماه الى الأرض. "جَرْجَمَ" يقال : جرجمه اذا صَرَعه . "حَفَزَ" أى طَعَنَ . "خَطَّارٌ" هو الطعّان بالرمح؛ قال الشاعر :

* مَصَالِيتُ خَطّارون بالرمح فى الوَغَى *

(١) لعله أراد أن يذكر الفعل، فان الوصف منه «خفّاق» و «خافق» .

(٢) فى الأمالى لأبى على القالى و اللسان (مادة صمد) :

علوته بحسام ثم قلت له * ... ... الخ :

"خار" يقال طعنه فخَارَ، أى أصاب خَوْرَانَه وهو مَجْرى الرَّوْث. "دَعَسَ" اذا طعن. "دَسَرَ" أى طعن طعنة قويّة. "رَامِحٌ" أى ذو رمح، لا فعل له. "رَصَعَ" اذا طعن. "رَمَحَ" مثله. "رَكَزَ" اذا غرز رمحه فى الأرض. "زَجَّ" اذا طعن بالزُّجّ "سَلَقَ" اذا طعنه فوقع على ظهره. "سَرَّ" اذا طعنه فى سُرَّته؛ قال الشاعر:

٥ نَسُرُّهُمْ إن هُمُو أقبلوا * وإن أدبَرُوا فهُمُو مَنْ نَسُبّ

أى نطعنهم فى سَبَّاتهم[1]. "شَجَرَ" اذا طعن. "شَكَّ" اذا طَعَنه فخَرَقَه. "طَعَنَ". "قَرْطَبَ" اذا طَعَنَ فصَرَعَ. "قَعَفَ" اذا طعنه فقعفه. "قَعَرَ" مثله. "قَطَّرَ" أى طعنه فألقاه على قُطْرَيْه وهما جانباه؛ قال الهُذَلىّ:

مُجَدَّلًا يتَسَقَّى جلدُه دمَه * كما يُقَطَّرُ جِذْعُ الدَّوْمةِ القُطُلُ

١٠ والقطل المقطوع. "قدع" يقال: تقادعوا اذا تطاعنوا. "لَهَزَ" اذا طعنه فى صدره. "لَزَّه" اذا طعنه. "مُدَاعَسة" وهى المطاعَنة. "مُسَامحة" وهى الملاينة والمساهلة. "مُنَادَسة" المنادسة: المطاعنة. و"رماح نوادس"؛ قال الكميت:

ونحن صَبَحْنَا آلَ نَجْرَانَ غارةً * تميمَ بن مُرٍّ والرماحَ النَّوَادِسَا

"مِدْعَسٌ" أى طَعَّان. "مُدَاعِس" مثله. "مَزْجُوج" الذى طُعِنَ بالزُّجّ.

١٥ "مُكَوَّر" هو الذى طُعِن بالرمح؛ قال الفرزدق:

حَمَلتُ عليه حملةً فطعنتُه * فغادرتُه فوق الفِرَاش مُكَوَّرا

"جائفة"[2] يقال طعنه طعنة جائفة اذا وصلت الى جوفه. "نَجْلَاء" هى الطعنة الواسعة. "نَكَتَ" يقال: طعنه فنكته إذا وقع على رأسه. "هَرَّعَ" يقال: هَرَّع

(١) السبات: جمع سبة، وهى الدبر.

٢٠ (٢) كذا فى المخصص وسائر كتب اللغة التى بين أيدينا. وفى الأصل: «مجيفة».

القومُ الرماحَ اذا شَرَعوها ومَضَوْا بها . "وَخَضَ" يقال : وَخَضَه إذا طعنه طعنا لا ينفُذُ؛ قال الشاعر :

* وَخْضًا الى النِّصف وطَعْنًا أرصَعَا *

✦✦✦

وأما ما وصفته به الشعراء — فمن ذلك ما قاله أبو تمّام حَبيب بن أَوْس الطائيّ :

أَنْهبتَ أرواحَه الأرماحَ إذ شُرِعَتْ * فما تُرَدُّ لريب الدهر عنه يَدُ
كأنها وهى فى الأوداج والغَـةُ[1] * وفى الكُلَى تجدُ الغيظَ الذى تجِدُ
من كلِّ أزرقَ نَظَّارٍ بلا نَظَرٍ * الى المَقَاتِلِ ما فى متنه أَوَدُ
كأنه كان خِدْنَ الحُبِّ مذ زمنٍ * فليس يُعجِزه قلبٌ ولا كَبِدُ

وقال مؤيّد الدين الطغرائى :

وخفّاقةٍ طوع الرياح كأنها * كواسِرُ دَجْنٍ أَلْقَتْها[2] الأهاضِيبُ
تَمِيدُ بها نَشْوَى القدود كأنها * قدودُ العذارى يزدهيهنّ تطريب
يُرَنِّحها سُقْيَا الدماء[3] كأنها * مُدَامٌ وآثارُ الطِّعانِ أكاويبُ

(١) كذا فى ديوان أبى تمام (طبع الآستانة) وفى الأصل : « فى الأرواح » .

(٢) ألقتها : بللتها وندتها . والأهاضيب : جمع أهضوبة وهى المطرة . قال الركاض الدبيرى يخاطب دارين :

ولا زال يجرى السيل فى عرصتيكما * اذا جف نَدّته أهاضيب هيدب

والهيدب : السحاب المتدلى الذى يدنو مثل هدب القطيفة . يريد الطغرائى أن يشبه الرايات فى خفوقها واضطرابها بانتفاض الكواسر فى يوم دجن وقد بللها القطر .

(٣) كذا فى ديوان الطغرائى ، نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٢٨ أدب ، وفى الأصل « سقيا الماء » وهو تحريف .

بها هِزَّةٌ بين ارتياحٍ ورهبةٍ * وللنصر مُرتاحٌ وللهول مرهوب
لها العَذَباتُ الحمرُ تهفُو كأنها * ضِرَامٌ بمستَنِّ العواصف مشبوب
اذا نُشِرتْ فى الرَّوع لاحتْ صحائفٌ * عليهن عُنوانٌ من النصر مكتوب
طوالعُ ، طرفُ الجوّ منهن خاسئٌ * حسيرٌ وقلبُ الأرض منهن مرعوبُ

٥ وقال آخر :

ومُطَّرِدٍ لَدْنِ الكعوبِ كأنما * تَغَشَّاهُ مُنْباعٌ[1] من الزيت سائلُ
أَصَمّ اذا ما هُزَّ مارَتْ سَرَاتُه * كما مار ثُعبانُ الرمال المُوائلُ[2]
له رائدٌ ماضِى الغِرَارِ كأنه * هلالٌ بَدَا فى ظُلمة الليل ناحِلُ

(٨٣)

وقال حوبة[3] بن حُوَيّة يصف السنان :

١٠ فأعَدّ أزرقَ فى القَنَاةِ كأنه * فى طَخْيَة الظلماء ضوءُ شِهَابِ

وقال دِعْبِل :

وأَسْمَر فى رأسه أزرق * مثلُ لسان الحيّة الصادى

وقال آخر :

جمعت رُدَيْنِيًّا كأنّ سِنَانَه * سَنَا لَهَبٍ لم يَسْتَعِرْ بِدُخَانِ

١٥ وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

بكلّ رُدَيْنِيٍّ كأن سنانَه * شِهابٌ بَدَا فى ظُلمة الليل ساطعُ

---

(١) منباع : سائل .

(٢) رمح أصم : مكتنز . ومارت سراته : اضطرب أعلاه . وفى الأصل : «مالت سراته» وهو غير مناسب للسياق ولا للتشبيه فى الشطر الثانى ؛ فلعله تحريف . الموائل : الطالب للنجاة خشية أن يصيبه مكروه .

(٣) كذا بالأصل .

تَقَاصرتِ الآجالُ فى طُول متنـــه * وعادت به الآمالُ وهى جَـائع
وساءتْ ظنونُ الحرب فى حسن ظَنِّه[1] * فهن لحبَّات القـــلوب قوارع

وقال أبو محمد بن مالك القرطبيّ من رسالة جاء منها فى وصف الرمح : ومِنْ كل مثقَّف الكُعوب، أصمّ الأُنبوب، كأنمـا سَلَبَ من الروم زُرْقتهـا، وٱجتلب من العرب سُمْرتها، وأخذ من الذئب عَسَلَانَه، ومن قلب الجَبَان خَفَقانَه، ومن رَقْرَاق السَّراب لَمَعَانه، وٱستعار من العاشق نُحولَه، ومن العليل ذُبولَه . قال أبو تمـام :

مُثَقَّفات سَلَبْنَ الرومَ زُرْقَتَها * والعُربَ أُدْمتَها والعاشقَ القِضَفَا[2]

* * *

واما ماقيل فى القوس العربية — رُوى أن علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه دخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو متقلّد قَوْسًا عربية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هكذا جاءنى جبريلُ اللهم مَنْ ٱستطعمك بهـا فأَطْعِمْه ومن ٱستنصرك بها فأَنْصُرْه ومن ٱسترزقك بها فٱرزُقْه" . وقال : "مامَدَّ الناسُ أيديَهم الى شىء من السلاح إلا وللقوس عليه فَضْل" .

والقوس[3] مؤنثة . وتصغيرها قُوَيْس . وجمعها أَقْوُس وأقواس وقِيَاس وقِسِيّ . ولها أجزاء وأسماء .

فأما أجزاؤها — فكَبِدها : ما بين طَرَفى العِلَاقة . ويليه الكُلْية . ويلِي الكُلْية : الأَبْهر . ثم الطائف، وهما طائفان : الأعلى والأسفل . والسِّيَة : ماعُطِف من طَرَفيها .

(١) كذا فى العقد الفريد، وفى الأصل : « ... فى كل ظنة» .
(٢) القضف هنب : النحافة .
(٣) وقد تذكر، وسيأتى المؤلف ينص على هذا .

ويدُها : أعلاها . ورجلها : أسفلها . والعَجْسُ والمَعْجِسُ : مَقْبِضها . وإنسيُّها : ما أقبل على الرامى . ووَحْشِيّها ما كان الى الصَّيْد . والفَرْض والفُرْضة : الحَزّة التى يقع فيها طرف الوَتَر المعقود وهو السية (١) . وما فوق الفُرْضة : الظُّفْر والكُظْر .

* * *

٥ وأما أسماء القوس ونعوتها — فمنها : "بَانِيَة" (٢) أى بانية على وَتَرها اذا آلتصقت به . "جَشْوٌ" (٣) هى القوس الغليظة وقيل الخفيفة ؛ قال أبو ذُؤيب :

وَنَمِيمَةً من قانِصٍ مُتَلَبِّبٍ * فى كفه جَشْوٌ أجَشُّ وأقْطَعُ

"جلهق" (٤) وجمعها جَلاهق ، وهى قِسِىّ البُنْدُق . "حَنَّانَةٌ" التى تحِنّ عند الإنباض ؛ قال الشاعر :

١٠ وفى مَنْكِبِى حَنَّانَةٌ عُودُ نَبْعَةٍ * تَخَيَّرَها لى سُوقَ بَكَّةَ بائعُ (٥)

"حَاشِكَة" وهى القوس البعيدة الرمى . "حَنِيرة" وهى القوس بغير وتر ، وفى الحديث : "لو صَلَّيتم حتى تكونوا كالحَنَائر [ما تَفَعكم حتى تُحِبُّوا آلَ رسول الله صلى الله عليه

(١) فى الأصل : «وهو السيسرة» وهو تحريف . قال فى أساس البلاغة : «وأوقع الوتر فى فرض قوسك وفرضتها ، وهو الحزفى سيتها» .

١٥ (٢) فى اللسان (مادة بين) : «الجوهرى : البائنة القوس التى بانت عن وترها كثيرا ، وأما التى قد قربت من وترها حتى كادت تلصق به فهى البانية بتقديم النون ، قال : وكلاهما عيب ...» وظاهر من تفسير المؤلف هنا أن المراد «البانية» بتقديم النون . وفى الأصل : «بايتة» وهو تحريف .

(٣) الذى فى كتب اللغة «قوس جشء» بالهمز و «الجشو» بالواو لغة فيه .

(٤) ظاهر كلام المؤلف أن «جلهق» مفرد جمعه «جلاهق» والذى فى كتب اللغة : الجلاهق بضم ٢٠ الجيم : القوس ، ولم يذكروا له هذا المفرد الذى ذكره .

(٥) ضبط هذا البيت فى اللسان (مادة حنّ) باضافة «منكبى» الى حنانة على أنه تثنية منكب وعلى أن المراد بـ «عود نبعة» السهم . وإذ كنا لم نوفق الى القصيدة التى منها هذا البيت لنعرف موضعه من السياق ، وإذ كان ضبطه على ما فى اللسان غير واضح . وإذ كان العود يطلق على القوس كما يطلق على السهم ، رأينا أن نضبطه كما ترى ، على أن يكون «عود نبعة» بدلا من حنانة .

وسلم]"[1] . "حَدْلَاء" هى القوس التى تَطَامَنَتْ[2] [سِيَتَها] . "حَصُوبٌ" وهى التى اذا رُمِىَ عنها آنقلب وَتَرُها . "رَهِيش" التى اذا رُمى عنها آهتزّت وضرب وترُها أبهرَها . "زَفَيَان"[3] هى السريعة الإرسال للسهم . "زَوْرَاء" سُمِّيت بذلك لميلها . "شَسِيب" وهو من أسمائها . "شَرِيحَة" . "شَدْفَاء" سُمِّيت بذلك لأعوجاجها . "صَفْرَاء" . "صَرِيعٌ" "ضَرُوحٌ" وهى الشديدة الحفز والدفع للسهم . "طَحُورٌ" البعيدة الرمى . "طَرُوح" مثل ضروح . "طِلَاع الكف" اذا كان مَقْبِضها يملأ الكفّ . "عَاتِكٌ" هى القوس التى آحمرّت من القِدَم ، ومثله العاتكة . "عَاتِقٌ"[4] هى التى تغيّر لونها . "عَطْوَى" هى المُؤَاتِية السهلة ؛ قال الشاعر :

له نَبْعَـةٌ عَطْوَى كأنّ رنينَهـا * بالْوَى تَعَاطَتْه[5] الأكُفُّ المَوَاسِحُ

"عُرَاضَةٌ" وهى العَرِيضة . "عَبْهَرٌ" هى القوس الممتلئـة العَجْس "عِطَافَةٌ" "عَطِيفة" . "عَطْفَى" القوس المعطوفة ؛ قال أُسَامة الهُذَلِىّ :

فمـــدّ ذِرَاعيه وأَجْنأ[6] صُلْبه * وفرّجها عَطْفَى مَرِيرٌ مُلَاكِدُ

(١) تتمة الحديث من نهاية ابن الأثير .

(٢) تطامنت سيتها : انخفضت أى مع ارتفاع الســية الأخرى . والزيادة التى وضعناها ضرورية وسيذكرها المصنف فى تفسير «محدلة» التى معناها معنى «حدلاء» . فلعل هذه الزيادة التى أثبتناها سقطت هنا سهوا من الناسخ . ومثل محدلة وحدلاء أيضا حدال كغراب .

(٣) كذا فى المخصص وكتب اللغة . وفى الأصل «زفنان» وهو تحريف .

(٤) ومثل عاتق : عاتقة .

(٥) كذا فى اللسان (مادة عطا) وفى الأصل : «تعاطيه» ولعله تحريف من الناسخ . قال فى اللسان : «وأراد بالألوى الوتر» . وتعاطته : تنازعته .

(٦) أجنأ صلبه : أحنى ظهره . ومرير : ذو مرة أى قوىّ . والملاكد : المعالج الملازم من قولهم : بات يلاكد الفل : أى يعالجه .

"عَطُوفٌ" هى المعطوفة السِّيَتين إحداهما على الأخرى . "عَتَلَةٌ"[(١)] والعتلة : القوس الفارسية، و جمعها عَتَلٌ . "عَوْجَاء" وهو من أسمائها . "عَثُوثٌ" وهى القوس المُرِنَة .

قال كُثَيِّر :

هَتُوفًا اذا ذَاقَها النَّازِعُونَ * سمعتَ لها بعدَ حَبْضٍ عِثَاثَا[(٢)]

"عُطُلٌ" هى التى لاوترعليها . "غَلْفَاء" التى فى غلافها : "فَرْعٌ" و "فَرْعَةٌ" وهما من جِيَاد القسىّ . "فَجَّاء" تُوصف بذلك اذا بَان وترها عن كَبِدها . "فَجْوَاء" مثلها . "فِلْقٌ" اذا كانت مشقوقةً[(٣)] ولم تكن قَضِيبا . "فُرُجٌ" اذا تنفّجتْ سِياتها[(٤)] . "قوس قَعْساء"[(٥)] والقَعَسُ هو نتوء باطن القوس من وسطها ودخول ظاهرها . "قَؤُود" وهى السَّلِسة المنقادة . "كبداء"[(٦)] هى التى يملأ كَبِدُها الكفّ . "كَزَّة" وهى القصيرة . "مُسْحِنَةٌ" وهى الحسنة المنظَر . "مِطْحَرٌ" التى ترمى بسهمها صُعُدًا . "مُحْدَلَةٌ" التى تطامنتْ سِيَتها مثل الحَدْلاء . "مَرُوحٌ" وهى القوس الحسنة التى يمرح من رآها عَجَبًا بها . ويقال مِمْرَاحٌ ومِمْرَحٌ أى نَشِيطٌ . "مَهُوك" القوس اللّيّنة . "مَسِيحة"[(٧)] وهو من أسمائها . "مُعَطَّفة" هى القوس المعطوفة السِّيَتين . "مُطْعَمَةٌ" ؛ قال الشاعر :

---

(١) كذا فى المخصص واللسان، ومنه قول أمية :

يرمون عن عتل كأنها غُبُطٌ * بزمخر يُعجل المرىّ إعجالا

وفى الأصل : «عتكة» بالكاف . وهو تحريف .

(٢) ذاق القوس : جذب وترها لينظر ما شدتها . والنازعون : الرماة . والحبض : الصوت الضعيف وعثاث : مصدر عاث فى غنائه اذا رجّع وترنّم .

(٣) مشقوقة : أى أن تكون أحد شقى قضيب .

(٤) تنفجت سياتها : ارتفعت . يريد سيتيها إذ ليس للقوس إلا سيتان .

(٥) فى الأصل : «قوس قعس» .

(٦) فى الأصل : «كبد» .

(٧) كذا فى المخصص واللسان (مادة مسح) وفى الأصل : «مسيح» .

وفى الشِّمالِ من الشِّرْيانِ مُطْعَمَةٌ * كَبْدَاءُ فى عَجْسِها[1] عَطْفٌ وتقويمُ

وقيل سُمِّيت بذلك لأنها تُطْعِم . "مَعْطُوفة" . "ماسِخِيّات" هى أقواس تُنْسَب الى مَاسِخَةَ[2] رجلٍ من الأزد كان قوّاسا ؛ قال الشَّمَّاخ بن ضِرَار :

فَقَرَّبتُ مُبراةً تخالُ ضُلوعَها * من الماسِخِيّاتِ القِسىِّ المُوَتَّرا[3]

"نَاتِرَة" وهى التى تقطع الوتر لصلابتها ، وجمعها نَوَاتِر . "نَفُوحٌ" هى الشديدة الدفع للسهم . "هَمَزَى"[4] مثلها .

* * *

وأما الوتر — فمن أسمائه : "حِبَجْرٌ" وهو الوتر الغليظ ، وكل غليظ كذلك ؛ قال الشاعر :

أرمِى عليها وهى شىءٌ بُجْرُ[5] * والقوسُ فيها وَتَرٌ حِبَجْرُ

* وهى ثلاثُ أذرُعٍ وشِبْرُ *

"سَرَعَان" وهو الوتر القوىّ ؛ قال الشاعر :

وعَطَّلْتُ قوسَ اللّهوِ من سَرَعَانِها * وعادتْ سِهامِى بين أَحْنَى وَنَاصِلِ[6]

"شِرْعَةٌ" الشرعة : الوتر الرقيق ، وقيل مادام مشدودا . "فرو"[7] . "هِجَار" . "وَتَرٌ" .

---

(١) قال فى اللسان ، بعد أن ذكر البيت وشرح «كبداء» ، : «وصواب إنشاده : فى عودها عطف يعنى موضع السيتين وسائره مقوّم» . يريد أن العطف والتقويم فى عود القوس لا فى عجسها ، وأن المعطوف من عودها هو موضع السيتين .

(٢) كذا فى اللسان والقاموس وأساس البلاغة . وفى الأصل «ماسخ» .

(٣) المبراة : النافة فى أنفها برة ، وهى حلقة من فضة أو صفر تجعل فى أنفها . والموتر : المشدود الوتر .

(٤) كذا فى كتب اللغة ، وفى الأصل : «همزاء» وهو تحريف . (٥) بجر : عجب .

(٦) فى الأصل «بين أحنى ونواضل» وهو تحريف ، والتصويب عن لسان العرب مادة «سرع» . والأحنى : الأحدب . والناصل : السهم ذو النصل ، والذى خرج منه نصله ، وهذا هو المراد هنا .

(٧) كذا بالأصل . ولم نجد فى المصادر التى بأيدينا ما يؤيده .

* * *

وأما أصوات القوس — يقال : "أَرَنَّت" اذا رمى عنها فصوّتت . "أَنْبَضَ" . "أَنْضَب"[1] . "حُضْبٌ" وجمعه أَحْضاب . "رَجَّعَتْ" . "زَجُومٌ" . الزَّجُوم التى ليست شديدةَ الإرْنان . "سَجَعَتْ" اذا مدّتْ حنينَها على جهة واحدة . "عَجّاجة" . "عَزَفَتْ" . "عِدَادٌ" هو صوت الوتر . "عَوَلت"[2] مثل أرنّت . "كَتُوم" وهى التى لا تُرِنّ "مِرْنَان" وهى التى اذا رمى عنها صَوّتت ؛ قال الشنفرى :

اذا زلّ عنها السهمُ رَنَّت كأنها * مُرَزَّأَةٌ ثَكْلَى تَحِنّ وتُعْوِلُ

"نَأَمَتْ" أى صوّتت . "هَتَفَى" . "هَتَّافة" . "هَزِجٌ" و "هَزَّجَتْ" اذا صوّتت عند إنباض الرمى عنها ؛ قال الكُمَيْت :

لم يَعِبْ رَبَّها ولا الناسُ منها * غيرَ إنذارِها عليها الحميرَا
بأهازيجَ من أغانيِّها الجُشْ[3] وإتباعِها النحيبَ[4] الزفيرَا

وقال الشمّاخ :

اذا أنبض الرامُون عنها ترنّمتْ * ترنُّمَ ثَكْلَى أوجعتها الجَنائزُ

وقال آخر :

وَهْيَ اذا أنبضتَ عنها تسجَعُ * ترنُّمَ الثَّكْلَى أبتْ لا تهجَعِ

وقال آخر :

تسمَعُ عندَ النَّزْعِ والتوتيرِ[5] * فى سِيَتَيْها رَنَّةَ الطُّنْبُورِ

(١) أنبض القوس وأنضبها اذا جذبها لتصوّت . (٢) فى الأصل : «عوّكت» وهو تحريف .
(٣) الجش : جمع جشاء من الجشة وهى غلظ الصوت .
(٤) فى أساس البلاغة : * وإتباعها الحنين الزفيرا *
(٥) النزع : رمى السهم عن القوس . والتوتير : شدّ وتر القوس . وفى الأصل : «عند النزع والوتير» .

***

واذا وَتَرَ القوسَ أو أخذ عنها وَتَرها — يقال : "حَظْرَبَ قوسه" اذا شدّ تَوْتِيرها . "طَحْمَرَ" اذا وَتَرها . "مَتَّنَ" مثله . "وَتَرَ" . "عَطَّلَ" يقال : عطّل القوسَ اذا أخَذَ عنها الوَتَر .

٥

***

وأما اذا حَمَل القوسَ أو اتّكأ عليها — يقال: "تَنَكَّبَ القوسَ" اذا ألقاها على مَنْكِبه . "تَأَتَّبَ" يقال : تأتّب قوسه اذا جعلها على ظهره . "مُتَقَوِّس" اذا كان معه قوس . "انْكَبُ" والأنكب الذى لاقوس معه . "ارتكز" إذا وضعها بالأرض واعتمد عليها .

هذا ما قيل فى القوس من الأسماء والصفات اللغوية ؛ فلنذكر تركيب القوس ومبدأ عملها . ١٠

ذكر ما قيل فى تركيب القوس، ومبدإ عملها ومَن رَمَى عنها، ومعنى الرمى

أما تركيب القوس — فقد أجمع الرُّماة أنها مبنية على طبائع الإنسان الأربع وهى : العظمُ، ونظيره فى القوس الخشب . واللحمُ ، ونظيره فى القوس القرون . والعروق والعَصَب، ونظيرها فى القوس العَقَب . والدمُ، ونظيره فى القوس الغِرَاء. ١٥

***

وأما مبدأ عملها ومن رمى بها — اختلف الناس فى القوس ومبدإ عملها ومن رمى عنها، فقال بعض أهل العلم : إن القوس جاء بها جبريلُ الى آدم عليه السلام

وعلّمه الرمى عنها، وتوارثه ولده الى زمن نوح عليه السلام. وذكرت الفرس فى كتاب الطبقات الأربع : أنّ أوّل من رمى عنها جمشيد الملك الفارسىّ، وقيل إنه كان فى زمن نوح عليه السلام، وتوارثه بعده ولده طبقة بعد طبقة. وقال آخرون : إن أوّل من رمى عنها النّمرود، وخبره مشهور فى رميه نحو السماء وعَوْد سهمه اليه وقد غُمِس من الدم . وسنذكر ذلك ان شاء الله تعالى مبيّنا فى قصة إبراهيم عليه السلام . ورمى عنها بعد النمرود سامن اليمانى ثم كُند بن سامن ثم رستم من المجوس ثم اسفنديار وغيرهم . وقيل إن أوّل من وضعها بَهْرَام جُور بن سابور ذى الأكتاف ، وهو من الملوك الساسانيّة، وإنه عملها من الحديد والنُّحاس والذهب، ولم يكن رآها قبل ذلك، فلم تطاوعه فى المدّ فعملها من القرون والخشب والعَقَب[1] . وهذا القول مردود على قائله، لأن الفرس الأُوَل لم تزل تفتخر بالرمى فى الحروب والصيد، ولم يُنْقَلْ أن الرمى انقطع فى دولة ملك منهم . والله تعالى أعلم .

(٨٦)

* * *

وأما معنى الرمى — ومعنى الرمى عند العرب هو القصد، وذلك أنهم يقولون : رميت ببصرى الشىء، أى قصدت اليه به؛ قال ابن الرومى :

نظرتْ فأقْصَدَتِ الفؤادَ بسهمها * ثم انثنتْ عنه فكاد يَهِيمُ
وَيْلاه إن نظرتْ وإن هى أعرضتْ ! * وقعُ السّهامِ ونَزْعُهن أليمُ

وقال العبّاس بن الأحنف :

قالت ظَلُومُ سَمِيّة الظلم * مالى رأيتُك ناحلَ الجسم
يامَنْ رَمَى قلبى فأقصدَهُ * أنت العليمُ بموضع السهم

(١) العقب : عصب المتنين والساقين والوظيفين .

وأما معناه عند العجم ، فقد حُكِى عن بَهْرام أنه قال : معنى رميتُ الشيءَ أى[(١)] رُمْته فوصلت اليه . وهو مقارب لمعناه عند العرب ، لأنه إنما أراد بمارامه القَصْدَ له .

هذا ما قيل فى القوس . فلنذكر ماقيل فى السهم ، ثم نذكر بعد ذلك ما قيل فيهما من النظم والنثر .

٥

* * *

وأما ماقيل فى السهم — رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله عز وجل لَيُدْخِلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ [نفرٍ][(٢)] الجنة صانعَه يحتسب فى صَنْعته الخيرَ والرامىَ به والممِدّ به[(٣)]" . وقال صلى الله عليه وسلم : "اِرْمُوا وارْكَبُوا وأن ترمُوا أحبُّ إلىّ من أن تركبوا" . وعنه صلى الله عليه وسلم وقد مرّ على نفر من أَسْلَمَ[(٤)] ينتضلون فقال : "اِرمُوا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا وأنا مع بنى فلان" ، فأمسك أحدُ الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالكم لا ترمُون" ، فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ! قال : "اِرموا وأنا معكم كلِّكم" . وعن حمزة بن أبى أُسَيْد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْرٍ حين صَفَفْنَا لقريش وصَفُّوا لنا : "اذا أَكْثبوكم[(٥)] فعليكم بالنَّبْل" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ تعلَّم الرمىَ ثم تركه فهو نعمةٌ تركها" .

١٠

١٥

(١) كذا بالأصل ، وظاهر أن الكلمة «أى» التفسيرية هاهنا لامعنى لها بل وجودها مخل بالتركيب .

(٢) زيادة من هذا الجزء (صفحة ٢٣٨ من خطبة القاضى شهاب الدين محمود الحلبى) ومن الجامع الصغير .

(٣) الممد به : من أمده بالشىء : أعطاه إياه . وفيما يأتى فى خطبة الحلبى وفى الجامع الصغير . «ومنبله» بدل «الممدبه» والمنبل : من أنبله الشىء أعطاه إياه وناوله .

(٤) أسلم : قبيلة مشهورة .

(٥) أكثبوكم : قاربوكم ودنوا منكم فكنوكم منهم .

٢٠

ومما يدلّ على تعظيم قدر الرامى ما رُوِى عن عبد الله بن شَدَّاد قال : سمعت عليًّا يقول : ما رأيتُ النبي صلىّ الله عليه وسلم يُفَدِّى رجلا بعد سَعْد، سمعتُه يقول : "إرم فِدَاكَ أبي وأُمِّى" . وسَعْد هذا هو سعد بن مالك . وكلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم له كان فى يوم أُحُدٍ .

٥ وللسهم أسماء وصفات ونعوت نَطَقت بها العرب — منها : "أَقَدُّ"، والأقدّ : الذى لاريش عليه . "أَهْزَعُ" وهو السهم الذى يبقى فى الكِنَانة وحده لأنه أردأ ما فيها، و يقال هو أجودُها وأفضلُها؛ و يقال : ما فى جَفِيره أهزَعُ، قال العَجّاج :

* لا تك كالرامى بغير أهزعا[1] *

وقال آخر :

فأرسَلَ سهمًا له أهزعا * فشَكَّ نَوَاهِقَه[2] والفما

١٠ "أَفْوَق" هو المكسور الفُوق[3] . "أمرط" هو الذى سَقَط قُذَذُه . "أَغْضَفُ"[4] وهو الغليظ [الريش] . "أصمع"[5] وهو الرقيق . "نُجْرٌ" وهى سِهَام غِلَاظ . "ثُلُثٌ" وهو سهم من ثلاثة، ومثله ثَلِيثٌ وثَمِين وسَبِيع وسَدِيس وخَمِيس . "جُبَّاعٌ" وهو الذى بغير نصل . "جُمَاع" سهم مدوّر الرأس يتعلم به الصبىّ الرمى . "حَشْرٌ" يقال : سهم حَشْرٌ، وسهام حَشْرٌ أى دِقاق . "حَابٍ" وهو الذى يزحف فى [الأرض ثم يُصِيب][6] الهدَف . "حَابِضٌ" وهو الذى يقع بين يَدَىْ رامِيه . "حِظَاءٌ" هى سِهام صِغار، والواحدة : حُظْوَةٌ، وتُجمع على حَظَوَات، وتصغيرها : حُظَيَّات . "حُسْبَانٌ" سِهام

(١) فى المخصص : «يأيها الرامى بغير أهزعا» .

(٢) النواهق : مخارج النهاق من ذى الحافر، أو العظام الناتئة فى مجرى دمعه من الخدّ .

(٣) الفوق : موضع الوتر . (٤) فى الأصل : «أعضف» وهو تحريف .

(٥) زيادة عن القاموس . (٦) التكملة من كتب اللغة .

(٨٧) صغار يُرْمَى بها عن القسىّ الفارسيّة، والواحدة حُسْبَانة . "خَازِقٌ" وهو السهم الذى يُصيب القِرْطاس . "خَشِيبٌ" وهو حين يُبْرَى البَرْىَ الأوّل . "خِلْطٌ" وهو السهم الذى ينبت عُوده على عَوَجٍ فلا يزال يَتَعَوَّج وإن قُوِّم . "دَالِفٌ" وهو الذى يصيب ما دون الغَرَض ثم ينبُو عن موضعه ، والجمع دُلَّف . "دَابِرٌ" وهو الذى يخرج من الهدف . "رَقِيَّات" سِهام تُنْسَب الى موضع بالمدينة . "زَالِجٌ" وهو الذى يتزلَّج من القوس أى يُسرع ، وكلُّ سريع زالج . "زَاحِفٌ" وهو الذى يقع دون الغَرَض ثم يَزْحَف اليه . "زَمْخَرٌ" وهو النُّشَّاب واحدته زَمْخَرة، ويقال : هو الطويل منه . "سهم سَنْدَرِىٌّ" نوع من السهام منسوب الى السَّنْدَرة وهى شجرة . "سُرْوَة" سهم صغير، والجمع سِرَاء . "شَارِفٌ" سهم طويل دقيق، وقيل الذى طال عهده . "شَاخِصٌ" أى جاز الغَرَض من أعلاه . "شَارِمٌ" وهو الذى يَشْرِم جانبَ الغرض . "صَادِرٌ" هو النافذ . "صَنِيعٌ" . "عَبِرٌ" هو الموفور الريش . "عَمُوجٌ" هو الذى يتلوّى فى ذَهَابه وهو الاعوجاج فى السير . "عُصْلٌ" السهام المعوَجّة . "عفر"(١) . "عَائِرٌ" وهو السهم الذى لا يُدْرَى من أين أَقْبل . "غَرْبٌ" يقال : سهمٌ غَرْبٌ(٢) ، وهو الذى يأتى ولا يعلم المصابُ به من أين يأتى . "فَالِجٌ" هو السهم الفائز . "قِطْع" هو السهم العريض . "قِدْحٌ" قبل أن يُرَاش ويُركّب نَصْلُه . "قُطْبَةٌ" سهم صغير يُرْمَى به . "قَطِيعٌ" قبل أن يُبْرَى حين يكون قَضِيبا، والجمع قُطُعٌ . "قِتْرَةٌ" سهم صغير لا حديدَ فيه . "كُتَّابٌ" سهم صغير مدوّر الرأس مثل "جُمَاح" . "كُتَّاب" سهم صغير؛ قال الشاعر :

رَمَتْ عن كَثَبٍ قلبى * ولم تَرْمِ بكُتَّابِ

(١) كذا فى الأصل ، ولم نوفق اليه فى مصدر آخر .

(٢) يصح فى «سهم غرب» الإضافة والوصفية .

"لَامٌ" وهو السهم . "مُعْبَرٌ" وهو السهم الموفور الريش . "مِنْزَعٌ" هو السهم مطلقا، ويقال : المِنْزَع : الذى يرمى أبعدَ ما يكون؛ قال الأَعْشى :

فهو كالمِنْزَع المَرِيشِ من الشَّوْ * حَطِ غالتْ به يمينُ المُغالِي

"مَرِيشٌ" ذو الريش . "مُخَلَّقٌ" هو المُصلح . "مِصْرَادٌ" هو النافذ . "مُقْتَعَلٌ" هو الذى لم يُبْرَ بريًا جيِّدا؛ قال لَبِيد :

فرَمَيْت القومَ رِشْقًا ضائبًا * ليس بالعُصْلِ ولا بالمُقْتَعَلْ

"مِطْحَرٌ" هو البعيد الذَّهاب؛ قال أبو ذُؤَيْب :

فَرَمَى فألحقَ صاعِدِيًّا مِطْحَرًا[1] * بالكَشْح فاشتملتْ عليه الأضلُعُ

"مِرْمَاةٌ" سهم صغير . "مِنْجَابٌ" هو الذى لا ريشَ عليه ولا نَصْل . "مِغْلَقٌ" اسم لكل سهم . "مِرِّيخٌ" سهم طويل له أربع قُذَذٍ . "مَنْجُوفٌ" هو السهم العريض . "مِرَاطٌ"[2] التى تمرط ريشها . "مُقَزَّعٌ" الذى رِيشَ بريش صِغار . "مُرْتَدِعٌ" الذى اذا أصاب الهدفَ انفضخ[3] عُوده . "مِعْرَاضٌ" ذو ريش يمشى عَرْضًا، وقيل سهم طويل له أربع قُذَذ دِقاق فاذا رُمِىَ به اعترض . "مُتَصَمِّعٌ" هو المنضمّ الريش من الدم، وقيل الملطَّخ بالدم . "مِشْقَصٌ" سهم له نصل عريض . "مِعْقَصٌ" الذى ينكسر نَصْلُه ويبقى سِنْخُه فى السهم . "نِكْسٌ" هو الذى انكسر فُوقه فجُعِل أسفلُه أعلاه . "نواقر" هى السهام التى تُصِيب . "نُشَّاب" . "نَجِيفٌ" هو العريض النصل، والجمع نُجُف؛ قال الهُذَلىّ :

نُجُفٌ بذلتُ لها خَوافِيَ نَاهض * حَشْرِ القوادمِ كالِّلفاع الأطحل

"هِزَاع" هو الذى يبقى فى الكِنانة وحده مثل الأهْزَع .

(١) فى اللسان (مادة طحر) : "فأنفذ" . (٢) هذا على أن «مراطا» جمع «مرط» بضمتين، ويقال أيضا : سهم مراط، كما يقال : سهم مرط . (٣) انفضخ عوده : انكسر .

* * *

وأما أسماء النصل — فمنها : "رَهْبٌ" وهو النصل الرقيق، والجمع رِهَابٌ . "رَهِيشٌ" مثله . "قِطْعٌ" هو النصل العريض، وجمعه أَقْطَاع، وقيل : نصلٌ صغير، وقيل : السهم القصير . "قُطْبَة" نصل الهدف . "مِرْمَاة" هو النصل المدوَّر . "مِعْبَلَةٌ" نصلٌ طويل عريض، وقيل حديدة مصفّحة لا عيرَ لها(١) . "نَضِيٌّ" هو نصل السهم . "وَقِيعٌ" هو النصل المحدَّد، قال عنترة :

وآخَرُ منهم أَجْرَرْتُ رُمْحِي * وفى البَجْلِيِّ مِعْبَلَةٌ وَقِيـــعُ

فهذه أسماء السهم والنصل .

* * *

واذا أصاب السهمُ يقال — "اِرْتَزَّ السهم" اذا ثبت فى القرطاس "أَصَابَ" . "أَقْصَدَ" اذا قَتَل مكانَه، قال الأخطل :

فإن كنتِ قد أقصَدْتِنى إذ رَمَيْتِنِى * بسهميك فالرامى يُصِيبُ ولا يَدْرِى(٢)

"بَصَّرَ" اذا طَلَى رأسَه بالبَصِيرة وهى الدم . "تَازَ" يقال : تَازَ السهمُ اذا أصاب الرمِيَّةَ فاهتزّ فيها . "خَزَقَ" اذا أصاب . "خَسَقَ" مثله . "خَصَلَ" اذا وقع بِلَزِقِ القِرْطاس، وقيل : [الخصل] الإصابة(٣)، ويقال : تَخَاصل القومُ اذا تَرَاهنوا فى الرمى، وأحرز فلان خَصْـلَ فلان اذا غَلَبَ . "دَبَرَ" اذا خرج عن الهَدَف . "زَهَقَ" اذا جاوز الهدفَ . "شَظَفَ" اذا دخل بين الجلد واللحم . "صَرَدَ" يقال : صَرَدَ السهمُ

(١) العير فى النصل : الناتئ منه فى وسطه .

(٢) فى الأصل : « ... أقصـدتنى فرمينى * بسهمك ... » . وقد أثبتنا ما فى اللسان مادة «قصد» . ومعنى لا يدرى : لا يختل . يقال : درى الظباء وادّراها وتدرّاها اذا ختلها أى تخفى لها .

(٣) فى المخصص : « ومن قال : الخصل : الإصابة فقد أخطأ » .

من الرميّة اذا نَفَذ منها . "صَافَ" مثل "ضَافَ" [و][1] "طاش" اذا لم يصب . "عَصَّل" اذا ٱلتوى فى الرمى . "عظعظ"[2] اذا لم يقصد الرميّة . "قَزَّ" اذا وقع بين يدى الرامى . "مَرَقَ" اذا نَفَذَ من الرميّة . "نَصَلَ" اذا ثَبَت نصلُه فى الشىء فلم يخرج . "نَضَا" بمعنى ذَهَب . "نَفَذَ" أى من الرميّة .

٥

وأما ما يضاف الى الرامى — يقال : "أَذْلَقَ" عبارة عن سُرعة الرمى . "أَشْخَصَ" اذا مرّ سهمه برأس الغَرَض . "اِنْتَضَلَ" يقال : اِنْتضل القومُ وتَنَاضَلُوا اذا تَرَامَوْا للسَّبَق . "تَيَمَّم" اذا قَصَدَ نحو جهةٍ بالسهم . "تَنْعِير" اذا أدار السهم على ظفره ليعرف قوامه من عَوَجه . "تَنْفِيز" مثله . "رمى" معروف . "رِشْقٌ" اذا رمى القومُ بأجمعهم فى جهةٍ واحدة . "زَنَخَ" الزَّنْخ رفع اليد فى السهم الى أقصى ما يقدر عليه . "سَعَرَ" اذا رَمَى . "عَقَّ"[3] بالسهم اذا رَمَى به فى الهواء وٱرتفع فى طيرانه . "غَلَا" اذا رَمَى أقصى الغاية . "لَعَطَ" اذا رمى فأصاب . "لَتَأَ" يقال : لَتَأَ بالسهم اذا رمى به . "نَاشِبٌ" والناشب هو الرامى . "نَدَبَ" اذا رَمَى فى جهة واحدة . "نَجَفَ" اذا بَرَى السهمَ .

١٠

١٥

وأما أوعية السهام — "جَعْبَةٌ" وجمعها جِعَاب . "جَفِيرٌ" وهو أوسع من "الكِنَانة" . "ظَفْرَة"[4] اذا كانت ممتلئة . "عَيْبَةٌ" مثل جَعْبَة . "قَرَنٌ" . "نَثَلَ" يقال : نَثَلْتُ كِنانتى اذا ٱستخرجتَ ما فيها .

---

(١) معنى «صاف» و«ضاف» لم يصب ، فزدنا الواو العاطفة ليشركا «طاش» فى تفسيره .

(٢) فى الأصل : «غطغط» وهو تحريف . (٣) ومثل عق : عق .

٢٠

(٤) كذا بالأصل ، ولم نوفق اليها أو الى ما يقرب منها فى مصدر آخر .

* * *

وأما ماوُصِفَ به القوسُ والسهمُ من النظم والنثر — قال عَتَّاب بن وَرْقاء

وحَطَّ عن مَنْكِبِهِ شِرْيَانَةً * مما آصطفى بَارِى القِسِيِّ وآنتقى
أُمّ بنـاتٍ عَـدَّها صـانعُها * سِتِّينَ فى كِتابه مما بَرَى
ذات رُءُوسٍ كالمصابيح لها * أسافلٌ مثلُ عَرَاقيبِ القَطَا
إنْ حُرِّكَتْ حَنَّتْ الى أولادها * كَحَنَّـةِ الوالِهِ من فَقْـدِ الطَّلَا
حتى اذا ما قُـرِنَتْ ببعضها * لانتْ ومَالَ طَـرَفاها وآنثنى

وقالوا : أجودُ ماشُبِّه به فُوقُ السهم قول الشاعر :

أفواقُها حَشْوُ الجَفِيرِ كأنها * أفواهُ أَفْرِخَةٍ من النِّغْرَانِ (١)

ومن إنشاء المولى القاضى شهاب الدين محمود الحلبىّ الكاتب : خطبةٌ عَمِلها لرامى نُشَّاب، وهى :

الحمدُ لله الذى جَعَلَ سهمَ الجهادِ الى مَقَاتِلِ أعداء دِينِهِ مُسَدَّدا ، وحُكْمَ الجِلَادِ بإصابة الغَرَض فى سبيله مُؤيَّدا، وسَيْفَ الآجتهاد فى نِكَاية مَنْ كفر به و برسوله على الأَمَدِ مُجَرَّدا ، و رُكْنَ الإيمان بإعداد القوّة — وهى الرمْىُ فيما و رد عن نبيّه — على كَرِّ الجَدِيدَيْنِ مُجَدَّدا ، الذى أعاد رِدَاءَ الجِهاد فى مَوَاطِنِ الصَّبْرِ بالنصر مُعْلَمَا ، وأبَادَ أهـلَ الإلحاد بأن جَعَلَ لُحَاةَ دينـه فى أرواحهم أقساماً وفى مَقَاتلهم أَسْهُما ، وأزال بأيدى القِسِيِّ من مَعَاقِلِ أهـلِ الكفر (٢) حكمَ كُمَاتِهم الذين آرتقَوْا منها خَشْـيَةَ الموتِ سُلَّما ، وأفَاءَ على الإسلام من النصر مافَاءَ به كلُّ دينٍ له خاضعاً وآلَ اليه مُسْتَسلما ، وأبَانَ حكمَ الأدَب فى تجرّد العبد من القوّة إلا به بقوله عز من قائل : (وَمَا رَمَيْتَ

(١) النغران : طير كالعصافير حمر المناقير . (٢) فى الأصل « أهل الكف » وهو تحريف .

إذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ رَمَى) . نحمده على نِعَمه التى لم يَزَلْ بها قِدْحُ الدين فائزًا وسهمُه مُصيبا ، ومِنَنِه التى ما بَرِح بها جدّ الكفر مُدْبِرًا (١) فلا يجد له فى إصابة نَصْلٍ أو نَصْرٍ نَصِيبا ، وآلائه التى لا تَنْفَكّ بها سَوَامُ السِّهام تَرِدُ من وريد (٢) الشرك مَنْهَلًا (٣) عَذْبًا وتَرُودُ من حَبّ القلوب مَرْعًى خَصِيبا ؛ ونشهَدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً تُدْنِى النصرَ وإن بَعُدَ مَدَاه ، وتُدْمِى النَّصْلَ الذى على رامِيه إرسالُه الى المقاتل وعلى الله هُدَاه ، وتُسْمِى القَدْرَ لمن نَاضَلَ عليها فيفوزُ فى الدنيا والآخرة بما قَدَّمتْ يَدَاه ؛ ونشهد أن محمّدًا عبدُه الذى نُصِرَ بالرُّعْب على مَنْ كفر ، ورسولُه الذى رَمَى جيشَ الشِّرْك بقَبْضَةٍ من تُرابٍ فكان فيها الظَّفَر ، ونبيُّه الذى نَفَرَ الى أهل بَدْرٍ بنَفَرٍ من أصحابه فجَمَعَ الله النصرَ والفَخْرَ لأولئك النَّفَر ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آمنوا بما أُنْزِلَ عليه وجَاهَدُوا بين يَدَيْه ، واختَصُّوا بالذبّ عنه بمَزَايَا القُرْبِ حتى سَعِدَ سَعْدٌ بما جمع له ، حين أَمَره بالرمى ، فى التفدية بين أبوَيْه ، وخُصّ بعموم الرِّضْوان عمّه العبّاسُ الذى أقرّ الله بإسلامه ناظرَيْه ، وبشَّره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم باستخلاف بَنِيه فى الأرض فيما أَسَرّ به اليه .

وبعد ، فإنّ الرَّمْى أفضلُ ما أُعِدّ للعِدَا ، وأكملُ ما أُفِيضَ به على أهل الكفر رداءُ الرَّدى ؛ وأبلغُ ما يُبْعَثُ الى المقاتل من رُسُل المَنُون ، وأنفعُ ما يُقْتَضَى به فى الوغى (٤) من أعداء الدِّين الدُّيُون ، وأسرعُ ما تُبَلَّغُ به المقاصدُ فيما يُرَى قريبًا وهو أبعدُ ما يكون ؛ وأنكى ما تُقْذَفُ به عن الأهِلّة شُهُبُ الحُتوف ، وأسبقُ ما تُدْرَكُ به الأغراضُ قبل

(١) فى الأصل : « جد الفكر » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « رويد الشرك » .

(٣) فى الأصل : « منها ... » وهو تحريف .

(٤) فى الأصل « من الوغى » .

أن تعرِف بها الرماحُ أو تشـعُرَ[1] بمكانها السيوف، ما طَلَعَ فى سماء النَّقْع قوسُه إلّا سَحّ وَبْلُ النَّبل، ولا ٱستَبَقَتِ الآجالُ وسهمُه إلّا كان له فى بُلُوغها السَّبَقُ من بعد والسَّبَقُ من قبل. ومِنْ شَرَف قدره الذى دلّ عليـه كلامُ النبوّة، أن النبيّ صـلى الله عليه وسلم نَبّه على أنه المرادُ بقوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ). ومِنْ أسباب فضله الذى أصبح بها قدرُه ساميا، وفخرُه ناميا، وقَطْرُه فى أُفق النصر هاميا، ما ورد من قوله صلى الله عليه وسـلم لِفِتْيَةٍ ممن أسلم من أَسْلَم: "اِرْمُوا يا بنِي إسماعيل فإنّ أباكم كان راميا". ومما عَظُمَتْ به على الأُمة المِنّة، وغَدَتْ فيه نفوس أرباب الجهاد بالفوز فى الدنيا والآخرة مُطْمَئِنّة، قوله صلى الله عليه وسلم: "تَعَلَّمُوا الرمى فإنّ مابين الغَرَضَيْنِ رَوْضَةٌ من رِيَاض الجَنّة"[2]. ومِنْ فضل الرمى الذى لا يعرِف التأويل، ما نُقِلَ من قوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ رَمَى بِسَهْم فى سبيل الله أخطأ أو أصاب فكأنمـا أَعْتَقَ رَقَبَةً من وَلَد إسماعيل". ومما يَرْفَعُ قَدْرَ السهم [ما رُوِىَ عنـه صلى الله عليه وسـلم من قوله: "إن الله يُدْخِل بالسهم[3] الواحِدِ ثلاثةَ نَفَرٍ الجَنَّةَ صانِعَه يَحْتَسِب فى صَنْعَته الخيرَ ورامِيَه ومُنْبِلَه". ومما حَضّهم به على الرمى ليجتهدوا فيه ويدْأَبوا: قوله صلى الله عليه وسلم: "اِرْمُوا وٱرْكَبُوا وأَنْ تَرْمُوا أحبُّ إلىّ من أَنْ تَرْكَبُوا". ومِنْ خَصائص السَّهْمِ أنه ذُو خَطْوة فى الهواء وحُكْمٍ نافِذٍ فى المـاء، وتَصَرُّفٍ حتّى فى الوَحْشِ السانح فى الأرض والطيرِ المُحَلِّق فى السماء؛ يُكَلِّم بلسانٍ من حَدِيد، ويبطُشُ عن باعٍ مَدِيد؛ إن رَامَ غَرَضًا طار إليه بأجنحة النُّسُور، وإن حَمَى مُعلما أصابَ الحَدَقَ وصانَ الثُّغور؛ يُوجد بَصَرُه حيثُ فُقِد، واذا ٱنفصل عن أُمّه لم يَسِر من كَبِدٍ إلا الى كَبِد؛ أنجز[4] فعله على ما فيه من إخلاف الطباع، وشَرُفَتْ

(١) فى الأصل: «أو ما تشعر...». (٢) فى الأصل: «الذى لا يصرف».
(٣) تكلة للكلام فلعلها، أو شيئا بمعناها، سقطت سهوا من الناسخ. (٤) فى الأصل: «أنجد فعله».

أجناسُه بكونها أُولِى أجنحةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاع . ومن خصائص القوس أنها عَقِيمٌ ذاتُ بَنِين، صامِتَةٌ وهى ظاهرةُ الأَنِين ؛ لها كَبِدٌ وهى غيرُ مُجَوَّفة، ويَدٌ لا تملك شيئا وهى فى الأرواح مُتَصرِّفة ؛ ورِجْلٌ ما نَقَلَتْ قَدَما، وقَبْضةٌ ماعَرَفتْ إثراءً ولا عَدَما ؛ فهى نُونٌ ما أَلِفَ الماء، وهِلَالٌ ما سَكَنَ السماء، وقاتلةٌ ما بَاشَرَت الدِّماء .

٥ ولما كان أهل هذه الفضيلة يتفاوتون فى مَوَاهبها ، ويَتَبَايَنون فى مَذَاهبها ؛ ويبلُغُ أحدُهم بصَنْعته ما يبلغُهُ الآخَرُ بقُواه، ويَصِل بإتْقانه إلى مالا يُدْرِكُه من وجود التساوى سواه ؛ وكان فلان ممن له فى هذا الشأن الباعُ المَدِيدُ والساعدُ الشديد، والإتقانُ الذى يَتَصَرَّف به فى الرمى كيف يشاء ويَضَع به السَّهْم حيثُ يُريد؛ كأنما سهمُه بذَرْعِ الفَضَاء مُوَكَّل ، أو للجَمْع بين طَرَفَى الأرض مُؤَهَّل ، أو لسَبْق البروق ١٠ مُعَدٌّ اذا لَمَعَتْ فى حَوَاشى السَّحاب المَفَوَّفة وخطرت فى هُدَّاب الدِّمَقْس المفَتَّل . وله المواقفُ التى تشقُّ سهامُه فيها الشَّعَر، وتبلغُ بها من الأغراض المتباعدةِ ما يَشُقُّ إدراكُه على النَّظَر؛ فمنها أنه لما كان فى اليوم الفلانى فعل كذا وكذا . ووصف ما فعله .

هذا شىء مما قيل فى السلاح فلنذكر الجنن .

ذكر ما قيل فى الجُنَّة

١٥ والجُنَّة : ما اتُّقِى بها كالتُّرْس، والبَيْضَة، والدِّرْع .

فأما التُّرس — فمن أسمائه : "بَصِيرَةٌ" . "تُرْسٌ" . "جَوْبٌ" . "جُنَّة" . "حَجَفَةٌ" وهى الترس الصغير، وجمعها حَجَفٌ . "دَرَقَةٌ" وجمعها دَرَقٌ . "عَنْبَرٌ"[1] وهو الترس . "فَرْضٌ" وهو الخفيف؛ قال الهذلىّ :

٢٠ (١) فى الأصل : « عنتر » وهو تحريف »

أَرِقْتُ له مثـــلَ لَمْـعِ البشيرِ * يُقَلِّب بالكفِّ فَرْضًا خَفِيفا

"قَفْعٌ" والقَفْع جُنَنٌ كالمَكَابِّ تُتَّخذ من الخَشب يدخل الرجالُ تحتها إذا زَحَفُوا على الحصون ، ويُسَمُّونها فى زماننـا الحنويّات . "قَرَّاعٌ"(١) وهو الترس الصُّلْب . "كَنِيفٌ" وهو الساتر لأنه مشتقّ من الاكتناف . "لاى"(٢) . "مِجَنٌّ" . "مُجْنَأٌ" . "مِجْوَلٌ" . "مُطْرَقٌ" . "مِجْنَبٌ" . "يَلَبٌ" . قال الشاعر : ٥

عليهمْ كلُّ سابغةٍ دِلَاصٍ * وفى أيديهـمُ اليَلَبُ المُدَارُ

ويسمى مَقْبِض الترس صِنَارَةً .

* * *

وأما ما وُصِف به حاملُ الترس — يقال : "تَارِسٌ" و "تَرَّاس" إذا كان معه التُّرْس . "ومُحَاجِفٌ" وهو صاحب الحَجَفَة فى القتال . ١٠

* * *

وأما البيضة — فمن أسمائها : "بَيْضَـة" وهى واحدة البَيْض من الحديد . "جَمَّاء غَفِير" وهو البَيْضة من الحديد والجماعةُ من الناس . "خَيْضَعَةٌ" . قال لَبِيد :

* والضاربونَ الهـامَ تحت الخَيْضَعَه *

"دَوْمَصٌ"(٣) . "رَبِيعَةٌ" . "عِمَامَةٌ" وجمعها عَمَائم وعِمَامٌ . "عَرْمَةٌ" . "مِغْفَرٌ" وهو زَرَدٌ على قَدْر الرأس . ١٥

---

(١) فى الأصل « فراع » وهو تحريف .

(٢) كذا بالأصل ، ولم نوفق الى ما يؤيدها أو الى ما قد تكون محرّفة عنه .

(٣) كذا فى كتب اللغة ، وفى الأصل : « دمص » .

ومن أسماء أجزائها — "سَابِغٌ" وهو الذى يستُر العُنُق . "قَوْنَسٌ" وهو أعلى البَيْضة من الحديد . قال حُسَيْن بن الضَّحاك[1] :

بمطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحَاحٍ كعوبُه * وذِى رَوْنَقٍ عَضْبٍ[2] يَقُدُّ القَوانِسَا

وأمّا ما يُوصف به لابسُها — يقال : "مُقَنَّعٌ" والمقنّع هو الذى يلبس بَيْضَةً ومِغْفَرًا . هذا ماقاله صاحب كتاب خزائن السلاح . وقال غيره : من أسمائها "التَّرْكَةُ" وهى المستديرة ، وجمعها التَّرْكُ[3] والترائك .

وأما ما قيل فى الدرع — وهو يؤنّث ويذكّر . وله أسماء : منها "بَصِيرَةٌ" ، "جَارِنٌ" وجمعه جَوَارِن . "جَوْشَنٌ" . "حَلْقَةٌ" وهى الدروع . "خَدْباء" وهى الدرع اللَّيِّنة ، قال الأصمعىّ :

* خَدْبَاءَ يَحْفِزُها نِجَادُ مُهَنَّدِ *

"دِرْعٌ" . "دِلَاصٌ" . "دُلَامِصٌ" . وهو الدرع البرّاق . "دِخَاسٌ" أى مُتقاربة الحَلَق . "دَرِمَةٌ" . "ذَائِلَةٌ" وهى الطويلة الذَّيْل ، "زَغْفَةٌ" . "سَلُوقِيَّةٌ" . "سَابِرِيَّةٌ"

(١) فى شرح القاموس واللسان (مادة قنس) ينسب هذا البيت الى حُسَيل بن سُجَيح الضبىّ ، وقد ذكر اللسان قبله :

وأرهبت أولَى القوم حتى تنهنهوا * كما ذدت يوم الورد هيما خوامسا

(٢) كذا فى اللسان ، وفى الأصل : « عذب »

(٣) ظاهر كلام المؤلف أن التركة والترائك جمعان لتركة ، وليس الأمر كذلك بل الترائك جمع لتريكة ، وهى من أسماء البيضة أيضا .

وجمعها سابِرِيّات ، وهى الرقيقة النَّسْج . "سَابِغَةٌ" وهى الواسعة . "سُكٌّ" ضيِّقة الحَلَق ، "سَرْدٌ" اِسمٌ جامع للدروع . "سَنَوَّرٌ" ؛ قال لَبِيد يرثى قَتْلَى هَوَازِن :

وجاءُوا به فى هَوْدَجٍ ووراءَه * كَتَائِبُ خُضْرٌ فى نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

"صَمُوتٌ" التى إذا صُبَّت لم يُسْمَعْ لها صوت . "فَضْفَاضَة" أى واسعة . "قَضَّاء" أى خشنة المس ؛ قال النابغة :

* ونَسْجُ سُلَيْمٍ كُلَّ قَضَّاءَ ذَائِلِ *

"لَأْمَةٌ" وجمعها لُؤَمٌ . "لَبُوسٌ" . "مَاذِيَّة" . "مُضَاعَفَةٌ" وهى التى نُسِجَت حَلْقتين حَلْقتين . "مَوْضُونة" أى منسوجة . "مُسَرَّدَةٌ" و"مَسْرُودة" أى مثقوبة . "نَثْرة" وهى الواسعة . "نَثْلَةٌ" . "يَلَبٌ" وهى الدرع اليمانية تُتَّخذ من الجلود ؛ قال عَمْرو بن كُلْثوم :

* علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليَمَانِى *

* * *

ومن أسماء أجزاء الدرع — "الحِرْباء" وهى مسامير الدروع ؛ قال لبيد :

أَحْكَمَ الجُنْثِيُّ من عَوْرَاتِها * كُلَّ حِرْبَاءٍ إذا أُكرِهَ صَلّ

"رَيْعٌ" رَيْع الدرع : فُضُول كُمَّيْها على أطراف الأنامل ؛ قال قَيْسُ بن الخطيم الأنصارىّ :

مُضَاعَفة يَغْشَى الأناملَ رَيْعُها * كأنّ قَتِيرَها عُيُونُ الجَنَادِبِ

"قَتِير" : رءوس المسامير فى الدروع .

* * *

وأمّا ما يُوصف به لابس الدرع — يقال : "خَشْخَاشٌ" : جماعة عليهم سِلاح ودروع ؛ قال الكميت :

فى حَوْمةِ الفَيْلَقِ الجَأْواء إذ رَكِبَتْ * قَيْسٌ وهَيْضَلُها الخَشْخَاشُ إذ نزلوا (١)

"خَرْسَاء" يقال : كَتِيبةٌ خَرْساء، التى لا يُسْمَع لها صوت من وقارهم (٢) فى الحرب، وقيل التى صَمَتَتْ من كثرة الدروع . "دَارِعٌ" هو لابسُ الدرع، "كَافِرٌ"، يقال : قد كَفَر فوق دِرعه أى سَتَره إذا لَبِسَ فوقه [ثوبا] (٣). "مُسْبِغٌ" يقال : رَجلٌ مُسْبِغ : عليه درعٌ سَابِغة .

٥

* * *

وأمّا اذا لم يكن عليه درعٌ ولا مِغْفَر — "نَثَرَ" أى نَثَر درعَه عنه إذا ألقاها، ولا يقال : "نَثَلَها" . ويقال : "أَحْمَرُ" أى لا سلاح معه . "أَعْزَلُ" . "حَرَضٌ" . "عُطُلٌ" وجمعه أَعْطال .

١٠

* * *

وقد وَصَف الشعراء الدروع فى أشعارهم، فمن ذلك ما قاله آمرؤ القيس :

ومَسْرودةِ النَّسْجِ مَوْضُونةٍ * تَضَاءلُ فى الطَّىِّ كالمِبْرَدِ
تَفِيضُ على المرء أردانُها * كَفَيْضِ الأَتِىِّ على الجُدْجُدِ (٤)

قال ثَعْلَب :

فَنَهْنَهْته حتّى لِبست مُفاضةً * دِلَاصًا كلون النَّهْى رِيحَ وأُمْطِرَا

١٥

وقال البحترىّ :

يَمْشُون فى زَرَدٍ (٥) كأنّ متونَها * فى كل مَعْرَكةٍ مُتُونُ نِهَاءِ (٦)

---

(١) الفيلق الجأواء : بينة الجأى، وهى التى يعلوها لون السواد لكثرة ما عليها من الدروع . والهيضل : الجيش العظيم . (٢) ظاهر أن مرجع الضمير هاهنا الكتيبة مرادا بها الأفراد .

٢٠

(٣) زيادة يقتضيها السياق . (٤) الأتىّ : السيل . والجدجد : الأرض الصلبة المستوية .

(٥) فى ديوان البحترى : «يمشون فى زغف ...» .

(٦) نهاء : جمع نهى، والنهى : الغدير .

بيض تسيل على الكماة فضولها * سيل السراب بقفرة بيداء
وإذا الأسنة خالطتها خلتها * فيها خيال كواكب فى ماء

قال محمد بن عبد الله السلامىّ :

يا ربّ سابغة حبتنى نعمة * كافأتها بالسوء غير مفند
أضحت تصون عن المنايا مهجتى * وظللت أبذلها لكل مهند

وقال عبد الله بن المعتزّ :

كم بطل بارزنى فى الوغى * عليه درع خلتها تطّرد
كأنها ماء عليه جرى * حتى إذا ما غاب فيه جمد

وقال آخر : (٩٢)

وأرعن(١) ملموم الكتائب خيله * مضرّجة أعرافها ونحورها
عليها مذالات(٢) القيون كأنها * عيون الأفاعى سردها وقتيرها

وقال آخر :

وزنت كتائبها الجبال وسربلت * حلق الحديد فأظهرته عتادها
فتخال موج البحر فى جنباتها * والبرق لمع قتيرها وسرادها

وقال سلم الخاسر :

كأن حباب الغدر مار عليهم(٣) * وما هو إلّا السابغات الموائر

وقال ابن المعتز :

بحيث لا غوث إلّا صارم ذكر * وجنة كحباب الماء تغشانى

---

(١) الأرعن : الجيش المضطرب لكثرته .

(٢) المذالات : الدروع الطويلة ، من أذال الرجل ثوبه أو درعه أطال ذيلها .

(٣) الغدر : جمع غدير . مار عليهم : ماج واضطرب .

وقال محمد بن عبد الملك :

نهنهتُ أُولَاهَا بضَرْبٍ صادقٍ * هَتِنٍ كما شُقَّ الرداءُ المُعْلَمُ
وعليّ سابغةُ الذيولِ كأنها * سِلْخٌ كَسَانِيهِ الشجاعُ الأرقمُ

وقال المتنبّي :

تَخُطّ فيها العوالِي ليس تنفُذُها * كأنّ كلَّ سِنَانٍ فوقها قَلَمُ

وقال كُلْثوم :

كأن سَنَا المـاذِيِّ فوق مُتُونِهِمْ * مَوَاقِـدُ نارٍ لَمْ تُشَبْ بدُخَانِ

* * *

ومن الرسائل الشاملة لأوصاف السلاح — فمن ذلك ما أجابنى به المولى الفاضل تاج الدين بن عبـد المجيد اليمانى، وقد كتبتُ إليه ألتمس رسالة من كلامه فى أوصاف السلاح، وذلك فى شهور سنة سبع وسبعمائة . كتب :

أمرتنى — أعزك الله، وأعلى فى مراتب السعود جدودَك — أن أبعث اليك بشىء من كلامى يتضمّن وصف سلاحٍ متنوّع الأجناس، مرهوبٍ بالسطو والبَاس (١)؛ فامتثلت مرسومك وبادرت الى ذلك، لِمـا يتّجه علىّ من حقوقك الواجبة، ومن مُفْتَرَضات خِدَمك اللازبة، وأنشأت لك هذه النُّبذة مرتجلا فيها، ورتّبتها على التهيُّؤ لمراتب القتال، وقدّمتُ الدرع، وتلوتُه بالقوس وأعقبته بالرمح، وختمته بالسيف .

فمن ذلك فى وصف درع :

خليقٌ بمثله أن يُفَاضَ عليه مثلُ هذه الفَضْفَاضه، وأن يبلغ بها من نيل الأعداء أمانيَه وأغراضَه، وأن يتّخذها جُنَّة تَقِيه سوءَ المَزَاريق فى حَوْمة القتال، وأن

(١) فى الأصل : «مرهوب بالسطا» . ولم نجد فى كتب اللغة التى بأيدينا أن سطوة تجمع على سطا، وانما تجمع على سطوات .

يتدرّعها فتُخال عليه غديرًا صافحت صفحتَه يدُ الشّمالِ؛ إن نُشِرَتْ على الجسد غطّت الكَعْبين، وإن طُوِيتْ فكالمِبْرد فى يد القَيْن؛ حَمِيدة المَلْبَس مَيْمونة المساعى، مسرودة النسـج فى عيون الأفاعى؛ دَاوُودِيّة النَّسَب تُبَّعِيّـة المَعْزَى، قد تقاربت فى الحَلَق وتناسبت فى الأجزا.

وأعددت للحرب فضفاضةً * تَضَاءلُ فى الطىّ كالمِـبْرَدِ ٥

دِلَاصٌ ولكن كظهر النُّون لايستطيعها سِنَان، وموضونةٌ ولكن يُحَيِّرُ البصرُ فيها عند العِيَان: أَمَوْجُ بحرٍ يَتَلاطمُ فى جوانبها أم حَبابُ غُدْران. مشفوعةٌ بقَوْس طَلَعت هلالًا فى سماء المَعَارك، ومَجَرّةً تنقضّ منها نجومُ المَهَالك؛ ووَكْرًا تسرَحُ منـه نسورُ المَعَاطب، وأمًّا تُفَرِّق أولادَها لإحراز الغَرَض من كلّ جانب؛ تصرَعُ بسهامها كلَّ رامح ونَابل، وتَبْكى ومن العجب أن يَبْكى القتيلَ القاتل؛ تُطيعك فى أوّل النَّزْع وتَعْصِيك فى آخره، وتُرْسِل سهمًا فلا يَقْنَعُ من العدوّ إلا بسَوَاد ناظره؛ ١٠

إذا أَنْبَض الرامُون عنها تَرَنَّمَتْ * تَرَنُّمَ ثَكْلَى قد أُصيبَ وحيدُها

تَهَابُها الأقران، وتتحاماها الشجعان، ويؤمن بمرسلها كلُّ شيطان من الإنس والجان.

ووصف الرمح فقال: وإنّ أولى ما اعتقـل مولانا من الخَطّىّ ما سَلَبَ الرُّومَ زُرْقَتها، والعربُ سُمرتَها؛ وأشبه العاشقَ ذُبولا واصفرارا، وخَالَطَ الضِّرغامَ فى غِيله فهو يُلْقِى من بأسه عند المطاعنة أخبارا؛ وهَزّه الفارسُ فالتقى طَرَفَاه، وخُيِّل لرائيـه أنّ ثَعْلَبَه(١) قد فَغَرَ فاه؛ إن حَمَله الدارع قلتَ غصنا على غدير، وإن هَزَّه الفارسُ وألقاه قلتَ حيّة على وجه الأرض تسير؛ فهو كالرِّشاء لكن لايَرْضَى قَلِيبًا غيرَ القَلْب، أو كالعدوّ الذى لا يَهْوَى إلّا إزالةَ ما فى شُغُف(٢) القلوب من حُبّ. ١٥ (٨٣)

(١) الثعلب: طرف الرمح الداخل فى جبة السنان. والجبة: رأس الرمح فى أسفل السنان. ٢٠

(٢) فى الأصل «شغوف القلوب» والشغاف، وهو سويداء القلب أو غشاؤه، انما يجمع على شغف.

له رائدٌ مَاضِى الغِرَارِ كأنّه * هِلالٌ بَدَا فى ظُلمة الليل ناحلُ

طالما رجَعَ سَوْسَنُه عند المُطاعنة شَقِيقا، ومزّق نجمُه (١) جلابيبَ ظُلمة القَسْطَل والعِثْيَر تمزيقا؛ له النَّسَبُ العالى فى المَعَالى والمُرَّان، لأن سِنَانَه سَنَا لَهَبٍ لم يَتَّصِلْ بدُخَان؛ مقروناً بسيف ماتأمّله الرائى إلا وأُرْعِدَت صَفْحَتاه من غير هَزّ، أو صَمَّمت شَفْرَتاه فى مَحَزّ فلا ينبُو حتى يَفْرِىَ ذلك المَحَزّ؛ يُرَى فوق مَتْنَيْه بقيّةُ غَيْمٍ يُسْتَشَفُّ منها لونُ السماء، وفى صَفْحة فِرِنْده نارٌ تتأجّج فى خَلال لُجّةٍ من الماء؛ كأنّ صَيْقله كَتَب على فِرِنْده أو نَقَش، أو كأنّ آلَقَيْن تَنَفَّس فيه وهو صَقِيلٌ فألبسه حُلّةً من نَمَش؛ حلّت بساحته المنايا فهى فيه كَوَامن، وتبوّأتْ مقاعدَه الأمانى فلا إدراكها من فعله قوائن؛ إذا تَوَغَّلَ [فى] هَامة الجَبّار سَارَ وأَوْجَفَ، ومَتَى آستوطن جثة الجرم (٢) أَوْهَى مَبَانيها وأشرف.

مَاضٍ وإن لم تُمْضِه يدُ فارسٍ * بَطَلٍ ومصقولٌ وإن لم يُصْقَلِ

يغشَى الوَغَى فالتُّرْسُ ليس بجُنَّةٍ * من حَدّه والدِّرْعُ ليس بمَعْقِلِ

مُتوقِّدٌ يَفْرِى بأوّل ضَرْبةٍ * ما أدركتْ ولَوَ آنّها فى يَذْبُلِ

وإذا أصابَ فكلُّ شىءٍ مَقْتَلٌ * وإذا أُصِيبَ فماله من مقتلِ

---

(١) فى الأصل: «مجمه».

(٢) كذا بالأصل. ولعلها جثة الجريم، والجريم: ذو الجرم الضخم.

البـاب الحادى عشر

من القسم الخـامس من الفن الثـانى

فى القضاة والحكام

وحيث ذكرنا الإمام ومايجب له وعليه وقواعد المملكة، فلنذكر القُضاة والحكّام.

قال الله عز وجل: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)، وقال تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا). وقال تعالى: (فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ). وقال: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ)، الى غير ذلك من الآى.

ولا يجوز أن يُقَلَّدَ القضاءَ إلا من اجتمع فيه ثمانية شروط، وهى: الذكوريّة، والبلوغ، والعقل، والحرّيّة، والإسلام، والعدالة، وسلامة السمع والبصر، والعلم بأحكام الشريعة. ولكل شرط من هـذه الشروط فوائد نشرح ما تلخّص منها إن شاء الله.

أما الذكورية — فلقوله عز وجل: (ٱلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) قيل: المراد بالتفضيل هنا العقلُ والرأى، ولما رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "النِّسَاءُ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ ودينٍ"، ولنقص النساء عن [رتب](1) الولايات.

وقال أبو حنيفة: يجوز أن تقضِىَ المرأةُ فيما تصحّ فيه شهادتُها دون ما لا تصحّ فيه. وجوّز الطبرىّ قضاءَها فى جميع الأحكام. والإجماعُ يردّ ذلك.

(1) الزيادة عن «الأحكام السلطانية».

وأما البلوغ — فلأن غير البالغ لا يجرى عليه قَلَم، ولا يتعلّق بقوله على نفسه حُكم، فكان أولى ألّا يتعلّق به على غيره .

وأما العقل — [فهو مُجْمَعٌ على آعتباره، و][1] لا يُكتفى فيه بالعقل الذى يصحّ معه التكليف من العلم بالمُدْرَكات الضروريّة، حتى يكونَ صحيحَ التمييز جيِّد الفِطْنة بعيدًا من السهو والغفلة، ليتوصّل بذكائه الى وضوح ما أشكل، وحلّ ما أبهم وأعضل .

(٩٤)

وأما الحرّيّة — فنقصُ العبد عن ولاية نفسه يمنَع من آنعقاد ولايته على غيره، ولأن الرِّقّ لمّا منع من قبول الشهادة كان أولى أن يمنع من نفوذ الحكم وآنعقاد الولاية . وكذلك الحكم فيمن لم تكمل حُرِّيته كالمُدَبَّر والمُكاتَب[2] ومن رَقّ بعضه . ولا يمنع الرِّقُّ من الفُتْيَا والرواية .

وأما الإسلام — فلقوله عز وجل: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) . وهو شرط فى قبول الشهادة . ولا يجوز أن يُقَلَّد الكافرُ القضاءَ على المسلمين ولا على الكفار . ورأى أبو حنيفة جواز تقليده القضاء بين أهل دينه . وقد جرى العرف فى تقليد الكافر، وهو تقليد زعامة ورياسة لا تدخل تحته الأحكام والإلزام بقضائه، ولا يَقبل الإمامُ قوله فيما حكَم به بينهم . واذا آمتنعوا من تحاكمهم إليه لم يُجْبَرُوا عليه، وكان حكم الإسلام عليهم أنفذ .

وأما العدالة — فهى معتبَرة فى كل ولاية . ومعناها أن يكون الرجل صادق اللّهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، متوقّيًا للمآثم، بعيدًا من الرِّيب، مأمونًا

(١) لم يظهر الخطأ فى الأصل الفتوغرافى، وهذه التكملة من كتاب الأحكام السلطانية .

(٢) المدبر : العبد الذى يعلق سيده عتقه على موته بأن يقول له : أنت حر بعد موتى . والمكاتب : العبد الذى يكاتب على نفسه بثمنه فاذا أدّاه عتق .

فى حالتى الرضا والغضب، مستعملا لمُرُوءة مثله فى دينه ودُنياه . فإذا تكاملت هذه الأوصاف فيه، فهى العدالة التى تجوز بها شهادته وولايتــه . وإذا لم يكن كذلك فلا تُسْمَع شهادته و[لا](١) تنفذ أحكامه .

وأما سلامة السمع والبصر — فَلِيصحَّ بها إثباتُ الحقوق، ويُفَرَّق بها بين الطالب والمطلوب، ويميِّز المقرَّ من المنكر، ليظهَرَ له الحق من الباطل، والمُحِقّ من المبطِل . ٥

وأما العلم بأحكام الشريعة — فالعلم بها يشتمل على معرفة أصولها وفروعها . وأصول الأحكام فى الشرع أربعة :

أحدها — علمه بكتاب الله عز وجل على الوجه الذى يصح به معرفةُ ما تضمّنه من الأحكام ناسخا ومنسوخا، ومُحْكَماً ومُتشابها، وعموما وخصوصا، ومُجْمَلا ومفسّرا . ١٠

والثانى — علمه بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة من أقواله وأفعاله، وطُرقِ مجيئها فى التواتُر والآحاد، والصحّةِ والفساد، وما كان على سبب أو إطلاق .

والثالث — علمه بأقاويل السلف فيما أجمعوا عليه واختلفوا فيه، ليتّبع الإجماعَ ويجتهد رأيَه مع الاختلاف .

والرابع — علمه بالقياس الموجِب لردّ الفروع المسكوتِ عنها الى الأصول المنطوقِ بها والمُجْمَعِ عليها، حتى يجدَ طريقا الى العلم بأحكام النوازل ويُمَيِّزَ الحقَّ من الباطل . ١٥ فاذا أحاط علمُه بهذه الأصول الأربعة فى أحكام الشريعة، صار بها من أهل الاجتهاد فى الدين، وجاز له أن يُفْتِى ويَقْضِى . وإن أخَلّ بها أو بشىءٍ منها، خرج من أن

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

يكون من أهـل الاجتهاد ، ولم يجُزْ أن يُفتى ولا أن يَقضى . فان قُلِّدَ القضاء فحكم بصواب أو خطإ كان تقليدُه باطلا ، وحكمُه وإن وافق الصوابَ مردودا ، وتَوَجَّه الحَرَجُ عليه وعلى من قلّده . وجوّز أبو حنيفة تقليدَ القضاء من ليس من أهل الاجتهاد ، ويَسْتفتى فى أحكامه وقضاياه .

هذا معنى ما قاله أقضى القُضاة أبو الحسن على الماوردىّ .

وقال الحسين الحَلِيمىّ فى كتابه المترجم بـ"المنهاج" : وينبغى للإمام ألّا يُوَلِّى الحكم بين الناس إلا من جمع إلى العلم السكينةَ والتثبُّت ، والى الفهم الصبرَ والحِلْمَ ، وكان عَدْلا أمينا نَزِهًا عن المَطَاعم الدنيّة ، وَرِعًا عن المطامع الرديّة ، شديدًا قويًّا فى ذات الله ، متيقِّظا متخوّفا من سَخَط الله ، ليس بالنِّكْس الخَوّار فلا يُهَاب ، ولا المتعظِّم الجَبَّار فلا يُنْتاب ، لكن وَسَطًا خِيَارا . ولا يدع الإمام مع ذلك أن يُديم الفَحْص عن سِيرته ، والتعرُّفَ بحالته وطريقته ، ويقابلَ منه مايجب تغييرُه بعاجل التغيير ، ومايجب تقريرُه بأحسن التقرير ، ويرزقه من بيت المال — إن لم يجدْ من يعمَلُ بغير رزق — ما يعلم أنه يكفيه ، ولا يُقصِّر به عن كِفَايته ، فيتطلّع الى أموال الناس ويشتغل عن أمورهم بطَرَف من الاكتساب يجبُر به ما نَقَصه الإمام من كِفَايته ، فتختلّ بذلك القواعد . وإذا رزق [الإمامُ] القاضىَ فلا يُصيب وراء ذلك من رعيّته شيئا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "مَنِ استعمَلْناه على عَمَل من أعمالنا ورزَقْناه شيئا فما أصابَ بعد ذلك — أو مما سوى ذلك — فهو سُحْت" . وإن أُهْدِىَ إليه شىءٌ ، لم يكن له قبوله . فإن كان للمُهدى قِبَلَه خصومةٌ فأهْدَى ليَحكم له أو لئلّا يحكم عليه ، فهذا هو الرِّشوة ، وهو سُحْت . وقد لَعَن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرَّاشىَ والمُرتَشِىَ والرائش ؛ وهو الذى يمشى بينهما . وإن أَهْدى اليه المحكوم له بعد الحكم تشكُّرا ، لا يقبَلْه ؛ لأنّ ما فعل كان واجبا عليه .

(٩٥)

قال : ويقوّى الامامُ يَده ويشُـدّ أَزْرَه، ويكُفّ العمال وغيرهم عن معارضته ومزاحمته، ويأمرهم جميعا بطاعته، ولا يُرَخص لأحد منهـم فى الآمتناع عليه اذا دعاه، والخروج عن أحكامه إن أمره أو نهاه، فيما يتصل بالآنقياد للحكم .

ويتوقّى أن يُقال فى مجلسه : هذا حكم الله، وهذا حكم الديوان؛ فإن هـذا من قائله إشراك بالله؛ إذ لاحكم إلا لله. قال الله عز وجل : (فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ). وقال تعالى : (أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَاسِبِينَ) . وقال تعالى : (وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا) . وقال : (لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) .

قال : وإن سَمِـع بذلك وَالِيه فأقرّه عليه كان مثلَه؛ قال الله عز وجل : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) . فاذا كان هـذا فى القعود معهم فكيف بإقرارهم والآستحسان لهم .

ذكر الألفاظ التى تنعقد بها ولاية القضاء، والشروط

قال المـاوردىّ : وولايةُ القضاء تنعقد بما تنعقد به الولاياتُ : من آنعقادها مع الحضور باللفظ مشافهةً، ومع الغيبة بمراسلةٍ أو مكاتبة . لكن لابدّ مع المكاتبة أن يَقترن بها من شواهد الحال ما يدُلّ عليها عند المُوَلَّى وأهل عمله .

والألفاظ التى تنعقد بها الولاية ضربان : صريح وكناية .

فالصريح أربعة ألفاظ وهى : قد ولّيتك، وقلّدتك، وآستخلفتك، وآستنبتك . فاذا أتى المُوَلَّى بأحد هـذه الألفاظ آنعقدت الولاية بالقضاء وغيره من الولايات، ولا يحتاج مع هذا الصريح إلى قرينة أخرى، إلا أن يكون تأكيدا لا شرطا .

وأما الكناية فهى سبعة ألفاظ . وهى : قد ٱعتمدت عليك، وعوّلت عليك، ورَدَدْت إليك، وجعلت إليك، وفوّضت اليك، ووَكَلْت اليك، وأسندت اليك. فهذه الألفاظ [لما تضمّنته من الٱحتمال (١)] تضعُف عن حكم الصريح حتى يقترنَ بها فى عقد الولاية ما ينفى عنها الاحتمال (٢) وتصير فى حكم الصريح، مثل قوله : فانظر فيما وَكَلْتُه اليك، وٱحكم فيما ٱعتمدتُ فيه عليك . فتصير الولاية بهذه القرينة مع ما تقدّم من الكناية منعقدة . ثم تمامها موقوف على قبول المُوَلَّى، فإن كان التقليد مشافهةً فقبولُه على الفور لفظا، وإن كان بمراسلة أو مكاتبة، جاز أن يكون على التراخى. وٱختُلِف فى صحة القبول بالشروع فى النظر، فجوّزه بعضهم وجعله كالنطق، ومنعه آخرون حتى يكون نطقا؛ لأن الشروع فى النظر فرع لعقد الولاية، فلم ينعقد قبولُها به.

فهذه الألفاظ التى تنعقد بها الولاية .

وأما شروطها فأربعة

أحدها — معرفةُ المُوَلِّى للولَّى أنه على الصفة التى [يجوز أن يولَّى معها ، فان لم يعلم أنه على الصفة التى (١)] تجوز معها تلك الولاية لم يصحّ تقليدُه؛ فلو عَرَفها بعد التقليد ٱستأنفها، ولا يعوِّل على ما تقدّمها .

والثانى — معرفة المولَّى بما عليه المُوَلِّى من ٱستحقاق تلك الولاية بصفاته التى يصير بها مستحِقًّا لها ، وأنه قد تقلّدها وصار مستَحِقًّا للاستنابة فيها . إلا أنّ هذا الشرط معتبر فى قبول المولَّى وجواز نظره، وليس بشرط فى عقد تقليده وولايته، بخلاف الشرط المتقدّم . وليس يُراعَى فى هذه المعرفة المشاهدةُ بالنظر، وانما يراعَى انتشارها بالخبر الشائع .

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل : «حتى يقترن بها عقد الولاية فينفى عنها الاحتمال» .

والثالث — ذكر ما تضمّنه التقليد من ولاية القضاء بصريح التسمية .

والرابـع — ذكر تقليد البلد الذى عُقدت الولايةُ عليه ليُعْرَف به العملُ الذى يستحقّ النظرَ فيه، ولا تصحّ الولاية مع الجهل به .

فاذا ٱنعقد التقليـد تمّت الولاية بهذه الشروط والألفاظ . وٱحتاج المولَّى الى شرط زائد على شروط العقد، وهو إشاعة تقليده فى أهل عمله ليُذعنوا بطاعته وينقادوا الى حكمه . وهو شرط فى لزوم الطاعة وليس بشرط فى نفوذ الحكم .

فاذا صحّت عقدًا ولزومًا بما وصفناه، صحّ فيها نظر المولِّى والمولَّى [كالوكالة، لأنهما معا ٱستنابة . ولم يلزَم المقامُ عليها من جهة المولِّى ولا من جهة المولَّى . وكان للمولِّى عزله] (١) عنها متى شاء، وللمولَّى عزلُ نفسه متى شاء؛ غير أنّ الأوْلى بالمولِّى ألّا يعزِلَه إلا بعُذْر، وألّا يعتزل المولَّى إلا من عذر؛ لما فى الولاية من حقوق المسلمين. واذا عُزِلَ أو ٱعتزل وجب إظهارُ العزل كما وجب إظهار التقليد، حتى لا يُقْدِم على إنفاذ حكم ولا يغترّ بالترافُع اليه خَصْم . فإن حكم بعد العلم بعزله لم ينفُذْ حكمه، وإن حكم غيرَ عالم بعزله كان فى نفوذ حكمه وجهان، كاختلافهما فى عقود التوكيل .

وحيث ذكرنا ما تصـح به الولاية وتنعقد به من الألفاظ والشروط ، فلنذكر مايشتمل عليه النظر فى الأحكام .

ذكر ما يشتمل عليه نظر الحاكم المطلق التصرّف من الأحكام

قال المـاوردىّ : اذا كانت ولاية القاضى عامة وهو مطلق التصرّف فى جميع ما تضمّنته، فنظره يشتمل على عشرة أحكام :

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

أحدها — فصلُ المنازعات وقطع التشاجرُ والخصومات، إمّا صلحاً عن تَرَاضٍ يُرَاعَى فيه الجوازُ، أو إجباراً بحكم باتٍّ يُعتبر فيه الوجوب .

والثانى — اِستيفاء الحقوق ممن آمتنع من القيام بها و إيصالها الى مستحقّها من أحد وجهين : إقرارٍ أو بينة . وآختُلِف فى جواز حكمه فيها بعلمه، فجوّزه مالك والشافعىّ فى أصحّ قولَيْه، وقال أبو حنيفة : يجوز أن يحكم بعلمه فيما علمه فى ولايته، ولا يحكم بما علمه قبلها .

والثالث — ثبوتُ الولاية على من كان ممنوعَ التصرُّف بجنون أو صِغَر، والحجر على من يرى الحجرَ عليه لسَفَهٍ أو فَلَس، حفظًا للأموال على مستحقّيها، وتصحيحًا لأحكام العقود فيها .

والرابع — النظر فى الوقوف بحفظ أصولها وتثمير فروعها وقبض غَلّتها وصَرْفها فى سبلها . فإن كان عليها مستحِقٌّ للنظر فيها راعاه، و إن لم يكن تَوَلّاه .

والخامس — تنفيذُ الوَصَايا على شروط المُوصِى فيما أباحه الشرع ولم يحظُرْه . فان كانت لمعيَّنين كان تنفيذُها بالإقباض، و إن كانت فى موصوفين كان تنفيذُها أن يتعيّن مستحقُّوها بالاجتهاد و يملكوا بالإقباض . فان كان فيها وَصِىّ راعاه، و إن لم يكن تولّاه .

والسادس — تزويج الأيَامى بالأكفَاء اذا عُدِمَ الأولياءُ ودُعِينَ[1] الى النكاح . ولم يجعله أبو حنيفة — رحمه الله — من حقوق ولاية القاضى، لتجويزه تفرّدَ الأيّم بعقد النكاح .

(١) كذا فى الأحكام السلطانية طبع مدينة « بن » وهو الذى يناسب المقام . وفى الأصل «ودعون ...» .

والسابع — إقامة الحدود على مستحقِّيها، فإن كان من حقوق الله تعالى تفرّد باستيفائه من غير طالبٍ اذا ثبت بإقرار أو بيّنـة ؛ وإن كان من حقوق الآدميين كان موقوفا على طلبِ مستحقّه . وقال أبو حنيفة : لا يستوفيهما معًا إلا بخصمٍ مُطالِبٍ .

والثامن — النظر فى مصالح عمله من الكَفّ عن التَّعدّى فى الطُّرُقات والأَفْنِيَة، وإخراج ما لا يُستَحَقّ من الأجنحة والأبنية؛ وله أن يتفرّد بالنظر فيها وإن لم يحضره خَصْم . وقال أبو حنيفة : لا يجوز له النظر فيها إلا بحضور خصم مُستَعْدٍ . وهى من حقوق الله تعالى التى يستوى فيها المُستَعْدِى والمستَعْدَى إليه، فكان تفرُّد الوُلاة بها أخصّ .

التاسع — تصفُّح شهوده وأُمَنائه، واختيارُ النائبين عنه من خلفائه فى إقرارهم والتعويل عليهم مع ظهور السَّلامة والاستقامة، وصَرْفِهم والاستبدالِ بهم مع ظهور الجَرْح والخيانة[1] . ومَنْ ضَعُف منهم عمّا يُعانيه، كان مُولِّيه بين خيارين يأتى أصلحهما : إما أن يستبدل به مَنْ هو أقوى منه وأكفى، وإما أن يَضُمّ اليه من يكون اجتماعهما عليه أنفذ وأمضى .

(٩٧)

والعاشر — التسويةُ فى الحكم بين القوىّ والضعيف، والعدلُ فى القضاء بين المشروف والشريف؛ ولا يتّبع هواه فى تقصيرٍ بحق أو مُمايَلَةٍ لمُبْطِلٍ . قال الله تعالى : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) .

(١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل : «والجناية» .

وقد استوفى عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه فى عهده الى أبى موسى الأشعرىّ شروط القضاء وبيّن أحكام التقليد حين ولّاه القضاء، قال :

أما بعد، فإنّ القضاء فريضةٌ مُحْكَمَة وسُنَّةٌ مُتَّبَعَة. فافهم إذا أُدْلِىَ اليك. [وأَنْفِذْ اذا تَبَيَّنَ لك][1] فإنه لا ينفع تكلُّم بحقٍّ لا نفاذ له. وآسِ[2] بين الناس فى وجهك وعَدْلك ومجلسك، حتّى لا يطمَعَ شريف فى حَيْفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البيّنة على من ادّعى، واليمينُ على من أنكر. والصُّلْح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أَحَلّ حرامًا أو حَرّم حلالا. ولا يمنعك قضاءٌ قَضَيْتَه أمسِ فراجعتَ اليومَ فيه عقلَك وهُدِيتَ فيه لرُشْدِك أن ترجع الى الحق؛ فإنّ الحق قديم، ومراجعةُ الحقّ خيرٌ من التمادى فى الباطل. الفَهْمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سُنّة. ثم اعرِف الأمثال والأشباه، وقِسِ الأمور بنظائرها. واجعل لمن ادّعى حقًّا غائبا أو بيّنةً أمدًا ينتهى اليه؛ فإنْ أحضَرَ بيّنةً أخذتَ له بحقّه، وإلّا استحلَلْتَ القضيّةَ عليه؛ فان ذلك أنفى للشكّ وأجْلَى للعمى. المسلمون عُدُولٌ بعضُهم على بعض، إلا مجلودًا فى حدّ، أو مجرَّبًا عليه شهادةُ زور، أو ظَنينًا فى وَلَاءٍ أو نَسَب. فإن الله قد تَوَلّى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان[3]، وإياك والغَلَقَ[4] والضَّجَرَ والتأفُّف بالخصوم، فإنّ استقرار الحق فى مواطن الحق يُعظِم اللهُ به الأجرَ ويحسن به الذكر. والسلام.

(١) التكملة من صبح الأعشى (ج ١٠ ص ١٩٣ طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة).

(٢) آس بين الناس : أى سوّ بينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه، أى حاله مثل حاله.

(٣) كذا فى صبح الأعشى. وفى الأصل «فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان ورد البينات». وفيه تحريف. وورد فى المصدر الذى نقل عنه الأصل وهو الأحكام السلطانية : «فإن الله عفا عن الأيمان ودرأ بالبينات». وفى البيان والتبيين للجاحظ (ج ٢ ص ٢٤ طبع مطبعة الفتوح الأدبية بمصر) : «وإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات».

(٤) الغلق : ضيق الصدر وقلة الصبر.

ذكر ما يأتيه القاضى ويَذَره فى حقّ نفسه

اذا دُعى الى الولاية أو خطبها ، وما يلزم النـاس من آمتثال أمره وطاعته ، وما يعتمده فى أمر كاتبه وبطانته وأعوانه وجلوسه لفصل المحاكمات والأقضية

قال الحليمىّ : واذا دعا الإمامُ رجلا الى القضاء ، فينبغى له أن ينظر فى حال ٥ نفسه وحال الناس الذين يُدْعَى الى النظر فى مظالمهم . فإن وَثِق من نفسه بالآستقلال والكِفَاية والآقتدار على أداء الأمانة ، وعَلِم أنه إن لم يقبَلْ صار الأمرُ الى من لا يكون للمسلمين مثـله ، فأولى به أن يجيب الى ما يُدْعَى اليه ويقبلَه ويحسنَ النية فى قبوله ؛ ليكون عمله لوجه الله تعالى . وإن وجد من يقوم مقامه ويسُدّ مَسَدَّه فهو بالخيار ؛ والتمسُّك أفضل . فأمّا إن لم يعلم من نفسه الآستقلال ، أو لم يأمَنْ أن يكون منه سوءُ ١٠ التمسّك وقلة التمـالُك ، فلا ينبغى له أن يجيب . وهكذا إن كان هنالك من هو خير منه علمًـا وعقلًا وخُلُقًا . وإن عُرِض الأمر عليه فلا ينبغى له أن يتسارع الى ما يُدْعَى اليه ، لينظر ما الذى يكون من الآخَر .

قال : واذا دعا الإمام رجلًا الى عمل من أعماله ، قضاءٍ أو غيره ، والرجلُ ممن يصلح له ، فأبى ، فإن وَجَد الإمامُ من يقوم مقامه فى ذلك أعفاه ، وإن لم يجد من ١٥ يقوم مقامه أجبره عليه آقتداءً بعُمَر بن الخطّاب رضى الله عنـه ؛ فإنه دعا سعيدَ بن عامر الجمحىّ فقال : إنى مُستعملُكَ على أرض كذا وكذا ؛ فقال : لا تَفْتِنِّى ؛ فقال عمر : والله لا أدعُك ، قَلَّدتموها[1] عُنُقى وتتركونى !

قال : واذا كان عند الرجل أنه يصلُح للقضاء فأراد أن يطلُبَه ، أو دعاه الإمامُ إليه فأراد أن يُجيبه ، فلا ينبغى له أن يُبادر بمـا فى نفسه من طَلَبٍ أو إجابة حتى يسألَ ٢٠

(١) فى الأصل : "تقلدتموها" .

أهلَ العلم والفَضْل والأمانة ممن خَبَره وعلم حاله، ويقول : إنى أُريد القضاء، فما ترون فى أمرى؟ وهل تعرِفون صَلَاحى لذلك أولا؟ فإن ذلك من المَشُورة التى أَمَر اللهُ تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بها، فقال تعالى : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) .

٥ وقد قَدَّمنا فى باب المشورة من فضيلتها مافيه غُنْيَةٌ عن تكراره .

قال : وإذا سأل عن نفسه فينبغى للسئول أن يَنْصَحَ له ويَصْدُقَه، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَلَا إنّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ" قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : "لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" ولأن المستشارَ مُؤتمَنٌ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ غَشَّنا فليس مِنّا" . (٩٨)

١٠ وإذا أراد تَقَلُّدَ القضاء فليستخِرِ الله تعالى ويسألْه التوفيقَ والتسديد . فإذا تقلَّد فينبغى أن يُوَكِّل المتميِّزين الثِّقات الأُمناء من إخوانه وأهل العناية بنفسه، ويسألهم أن يتفقَّدوا أحوالَه وأُموره، فإن رأَوا منه عَثْرةً نبّهوه عليها ليتداركها .

قال : وأيُّما حاكِم نُصِبَ بين ظَهْرانَىْ قومٍ فينبغى لهم أن يسمَعُوا له ويُطِيعوا، ويترافعوا اليه اذا آختلفوا وتنازعوا، ليَفْصِلَ بينهم ؛ فإذا فَصَل آنقادوا لفَصْله

١٥ وآستسلموا لحكمه . قال الله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . وقال تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) . وذمّ الله تعالى قوماً آمتنعوا من الحكم فقال : (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ

٢٠ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

قال : وإذا ٱرتفع أحدُ الخَصْمَيْنِ الى حاكمٍ وسأله إحضارَ خَصْمِه فدعاه الحاكم فعليه أن يُجيبه ؛ فإذا حَضَرَا فلا يخرُجَا عن أمر الحاكم ؛ فأيُّهما خَرَج فهو عاصٍ ؛ فإنما يقضى الحاكم بحكم الله . وللحاكم أن يؤدِّبه بما يؤدّيه ٱجتهاده . وأيُّما حاكمٍ أو وَالٍ دعا رجلًا من رعيَّته ولم يعلم لِمَ يدعُوه ، فعليه إجابتُه ؛ وإن عَلِم أنه لدَعْوَى رُفِعَتْ عليه من مدّعٍ ، فإن كان ذلك المدَّعى حضر مع رسول الحاكم فأرضاه ، سَقَطَ عنه الذَّهابُ الى الحاكم ، وإن كان لم يحضر [هو] ولا وكيلٌ له ، فليذهب ليجيب ؛ ولا يَسَعُه التخلُّف مع ترك الدّفع إلا فى حالة واحدة وهى أن يكون المدَّعِى كاذبا وقد أَعَدّ شهودا زُورًا لا يقدِر على دفع شهادتهم ، فخشِيَ إن حضر أُقيمت الشهادةُ عليه فحُبِسَ وأُخِذ منه المالُ قهرا ، أو يُفَرَّق بينه وبين ٱمرأته ، فله أن يهرُبَ أو يتَوَارَى ؛ فهذا موضع عُذْرٍ وضَرورةٍ فلا يُقاس عليه غيرُه . والله تعالى أعلم .

* * *

وأما كاتب القاضى وبطانته — قال الحَلِيمِىّ : وإذا ٱفتتح القاضى عَمَلَه وٱحتاج الى أعوانٍ يعمَلون له من كاتبٍ وأصحاب مسائل وقاسمٍ ، فلا يتّخذنّ إلا كاتبا مُسلما عَدْلًا أمينًا فَطِنًا متيقِّظا ؛ لأنه بِطانته ولا يَغِيب عنه من أمره وأمر المترافعين اليه شيء ، وأمينُه وأمينُ المتخاصمين على مايُثبته ويَخُطُّه . ولا يجوز أن يكون من غير أهل الدين ، لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) . وكذلك القاسم ينبغى أن يكون أمينًا بصيرا بالفرائض والحساب ، لأنّ القاسمَ شُعْبَةٌ

من شُعَب الحُكْم، فينبغى أن يكون من يَتَوَلَّاه فى العَدَالة والأمانة والعلم الذى يحتاج اليه كمن يتولّى جميع شُعَبه . وكذلك أصحاب المسائل هم أُمَناء القاضى على الشهادات التى تَتَعَلّق بها حقوقُ المسلمين، فلا ينبغى أن يَأْمَنَ عليها إلا المستحِقّ لأنْ يُؤْتَمَن، ولا يَثِقَ فيها إلا بمن يَسْتَوْجِبُ بحسن أحواله الثقةَ به .

٥ وينبغى للقاضى أن يُنَزِّه نفسه ومَنْ حوله ويُشَدِّدَ عليهم ولا يُرَخِّصَ لهم فى أمر يَنْقِمُه منهم أو يخشى أن يَتَطَرَّقوا به الى غيره ويرتَقُوا الى ما فوقه . وقد كان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه إذا صَعِدَ المِنْبَرَ فنَهَى النـاسَ عن شىء، جَمَعَ أهلَه فقال: إنى نَهَيْتُ الناسَ عن كذا وكذا، وإنّ الناسَ ينظرون اليكم نَظَرَ الطير الى اللحم النِّىء، وأُقسم بالله لا أَجِدُ أحدًا منكم فَعَلَه إلا أضعفتُ عليه العقوبةَ .

(٩٩)

١٠ قال : ولا ينبغى للإمام ولا القاضى أن يُقَدِّم أقاربَه على عامّة المسلمين، ولا يُسَوِّغَهم مالا يسوِّغُ غيرَهم، ولا ينظُرَ لهم بمـا لا ينظرُ به لغيرهم، ولا يَسْتَعمِلَهم ويُوَلِّيهم .

✦
✦ ✦

وأما ما يعتمده فى جلوسه — فقد قال الحَلِيمِىّ أيضا : واذا أراد الحاكم ١٥ الجلوسَ للحُكم فليجلِسْ وهو فارغُ القلب لا يَهُمُّه إلا النظرُ فى أمور المتظلِّمين . وإن تغيّرت حالُه بغَضَب أو غمّ أو سرورٍ مُفْرِط أو وَجَع أو مَلَالَةٍ[1] أو اعتراء نوم أو جوعٍ فليَقُمْ الى أن يزولَ ما به ويتمكّن من رأيه وعقله ثم يجلس . فقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقضى القاضِى[2] بين اثنين وهو غَضْبَانُ"؛ وعنـه

(١) فى الأصل : «أو ملامة» .

٢٠ (٢) فى صحيح البخارى : «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» .

صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يقضِى القاضِى إلّا وهو شَبْعَانُ رَيّانُ". هكذا نقل الحليمىُّ فى "منهاجه"، وهذه سُنّة السلف .

قال: والقاضى فى جلوسه بالخِيَار: إن شاء أن يَخْرُجَ بالغَداة اذا طَلَعتِ الشمس فيَقْضِى حوائجَ الناس أوّلًا فأوّلًا حتى لا يزدحموا على بابه، فعل؛ و إن شاء أقام فى بيته[(١)] يتأهّب ويستعِدّ بمطالعة بعض الكتب أو بالاجتهاد والتأمّل الى أن يجتمع الخصومُ ثم يَخْرُج، فعل . و ينبغى أن يكون عند الحاكم من يحفَظُ نُوَبَ الناس فيُقَدِّم الأوّل فالأوّل، ويُجْلِسُهم مَجَالسهم .

و إن رأى القاضى أن يُحْضِرَ مَجْلِسَــه دِرّةً تُطْرَحُ على أعيُن الناس لينتَهُوا بها فإن استوجب أحدٌ من الخصوم تعزيرًا أُقِيم عليه بها، فعل . رُوِى عن عمر بن الخَطّاب رضى الله عنه أنّ دِرّته كانت تكون معه، وكذلك جماعة من قُضَاة السَّلَف رحمهم الله . وأمّا فى عصرنا هذا فقد كان شيخُنا الإمامُ العَلّامة القُدْوَةُ مُفْتى الفِرَق بَقِيّةُ المجتهدين تَقِىُّ الدِّين أبو الفَتْح محمد ابن الشيخ الإمام مَجْد الدِّين أبى الحُسَين علِىّ بن وَهْب ابن مُطِيع القُشَيْرِىّ المعروفُ بابن دَقِيق العِيد — رحمه الله — مَنَعَ نُوّابَه من أن يضرِبُوا بالدِّرّة فى أثناء وِلايته قاضِىَ القُضَاة بالديار المصريّة، وقال: إنه عارٌ يَلْحَقُ وَلَدَ الولد . وكان سببُ مَنْعِه — رحمه الله و رضِى عنه — لذلك أن بعض نُوّابه بالأعمال عَزَّرَ بعضَ أعيان البلاد التى هو ينوبُ بها بالدِّرّة فى المسجد الجامع وقال له عَقِيبَ ضَرْبِه و إسقاطه: قد ألحقتُكَ بأبيك وجَدّك، وكانت هذه الحادثة فى سنة سبع وتسعين وستمائة أو ما يقاربها، ففارق ذلك الرجل بلادَه ووَطَنَه؛ فلما اتّصل الخَبَرُ بقاضى القُضاة شَقّ عليه ومَنَعَ نُوّابَه من الضرب بها .

(١) كذا بالأصل، والمناسب «أن يقيم» بدل «أقام» فإن «أقام» ليست جواب الشرط بل هى متعلق المشيئة .

نعودُ الى حال القاضى . قال : و ينبغى للقاضى أن يَعْـدِلَ بين الخَصْمَيْنِ من حين يَقْدَمَانِ عليـه الى أن تنقضِىَ خُصُومَتُهما فى مَدْخَلِهما عليه وجلوسِهما عنـده وقيامِهما بين يديه ، سواء كانا فاضلين فى أنفسِهما أو ناقصين ، أو أحدهما فاضلا والآخر ناقصا ؛ لقوله عز وجل : (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا) ، ولمـا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنِ ابْتُلِيَ بالقَضَاء بين المسلمين[1] فليَعْدِلْ بينهم فى لَحْظِه ولفظه و إشارته ومَقْعَدِه ولا يرفَعْ صوتَه على أحد الخَصْمين ما لا يرفعُ على الآخَر" . وفى رواية : "مَنْ وَلِيَ قضاءَ المسلمين فليَعْدِلْ بينهم فى مَجلِسـه وكلامه ولَحْظه" . وفى رواية : "اذا ابْتُلِى أحدُكم بالقضاء [بين المسلمين][2] فليُسَوِّ بينهم فى المجلس والإشارة والنظرِ ولا يَرْفَعْ صـوته على أحد الخَصْمين أكثر من الآخر" . قال : واذا اختصم اثنان الى القاضى فينبغى أن يأمرَهما بالاصطلاح .

وشروط القضاء كثيرة يعرفها العلماء ، فلا حاجةَ الى الزيادة والإسهاب فى ذلك ؛ و إنمـا أوردنا ما قدّمناه فى هـذا الباب منها حتى لا يُخْلِى كتابنا منه . ولْنَخْتِمْ هـذا الباب بمـا ورد من التزهيد فى القضاء .

ذكر شىء مما ورد من التزهيد فى تقلد القضاء والترغيب عنه

قد ورد فى تَقَلُّد القضاء أحاديثُ وآثار تُزَهِّد فيه ، بل تكاد تُوجب الفِرارَ منه : من ذلك ما رُوى عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أنه قال : "مَنْ وَلِيَ القضاء فقد ذُبِحَ بغير سِكِّينٍ" ؛ وعنه صلى الله عليه وسلم : "مَا مِنْ أحدٍ حَكَمَ بين النـاس إلّا جِىءَ به يومَ القيامةِ ومَلَكٌ آخذٌ بقَفَاه حتى يقِفَ به على شَفِيرِ جهنّم فإنْ أُمِرَ به

(١) كذا فى الجامع الصغير . وفى الأصل : «من ابتلى بالقضاء بالمسلمين» .

(٢) سقطت هذه الكلمة فى الأصل سهوا من الناسخ .

هوى به فى النار سبعين خَرِيفًا" . وعن أبى ذَرّ قال : قال لى رسول الله صـلى الله عليه وسلم ستَّةَ أيامٍ : "اعقِـلْ أبا ذَرٍّ ما أقول لك" فلمـا كان اليوم السابع[(١)] قال : "أُوصيكَ بتَقْوَى الله فى سِرِّ أمرك وعَلَانِيَته واذا أسأْتَ فأحْسِنْ ولا تسألْ أحدًا شيئا وإن سقط سَوْطُكَ[(٢)] ولا تُؤَمَّنْ أمانةً ولا تَوَلَّيَنّ يَتَامَى وَلَا تَقْضِيَنّ بين آثنين" .

وقال عثمان بن عَفّان رضى الله عنه لابن عمر : اِذهبْ فكن قاضيا ، قال : أو يعفينى أمير المؤمنين؟ قال : فإنى أعزم عليك ، قال : لا تعجَلْ علىّ ، [قال :][(٣)] هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ عَاذَ بالله فقد عَاذَ مَعَاذًا" . قال : نعم ، قال : فما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقْضِى ؟ قال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ كان قاضياً يقضى بجَوْرٍ كان من أهل النار ومَنْ كان قاضياً يقضِى بجهلٍ كان من أهل النار ومن كان قاضيًا عالمًا يقضِى بالعَدْلِ فبالحَرِى أن يَنْقلِبَ كَفَافًا" فما أصنعُ بهذا !

وقال بعضهم : ذكرنا أمر القضاء عند عائشة رضى الله عنها ، فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يُجَاءُ بالقاضى العَدْلِ يوم القيامة فيَلْقَى من شِدّة الحساب ما يَتَمَنَّى أنه لم يَقْضِ بين آثنين فى تَمْرةٍ قطّ" . وقال صَعْصَعَةُ بن صُوحانَ : خَطَبَنا علىّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه بذى قَارٍ وعليـه عِمامةٌ سوداء فقال : يأيها الناسُ ، إنى سمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس من وَالٍ ولا قاضٍ إلّا يُؤْتَى به يومَ القيامة حتّى يُوقَفَ بين يدَىِ الله تعـالى على الصراط ثم ينشُرُ المَلَكُ

(١) كذا «فى مسند أحمد» (ج ٥ ص ١٨١ طبعة المطبعة الميمنية بمصر) . وفى الأصل : «ثم كان فى اليوم ...» . (٢) فى الأصل «وان سقط سقوطك» والتصويب عن «مسند أحمد» . ورواية آخر الحديث هنا تختلف عن رواية «مسند أحمد» بزيادة ونقص وتغيير فى بعض الكلمات . غير أن ماهنا من زيادة أو تغيير وارد متفرقا فى أحاديث أخرى لأبى ذر فى مسند أحمد . (٣) زيادة نرى أن الكلام يتوقف عليها .

سيرَتَه فيقرَؤُها على رُءوس الأشهاد - الخلائق - فإن كان عادلًا نجّاه الله بعَدْله وإن كان غيرَ ذلك انتفض به الصراطُ انتفاضةً صارَ بين كلّ عُضْوٍ من أعضائه مَسيرةُ مائةِ سنة ثم يتخرق به الصراطُ فما يلتقى قعر جهنم إلّا بوجهه وحُرِّ جَبِينِه " . وجاء فى الآثار عن الصحابة رضى الله عنهم مثلُ ذلك .

٥ وفيما ذكرنا مَقْنَعٌ وغُنْيَة عن بَسْط الكلام فيه . فلنذكر ولاية المظالم .

الباب الثانى عشر من القسم الخامس

من الفن الثانى

فى ولاية المظالم وهى نيابة دار العدل

وللناظر فيها شروط ذكرها الماوَرْدِىّ فقال : من شروط الناظر فى المظالم أن ١٠ يكون جليلَ القَدْرِ، نافذَ الأمر، عظيمَ الهَيْبَة، ظاهرَ العِفّة، قليلَ الطَّمَع، كثيرَ الوَرَع؛ لأنه يحتاج فى نظره الى سَطْوَةِ الحُمَاة، وتَثَبُّت القُضاة، فاحتاج الى الجمع بين صفَتَى الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذَ الأمر فى الجهتين . فان كان ممن يَمْلِكُ الأُمور العامّة، كالخُلَفاء أو ممن فوّض اليه الخلفاءُ النظرَ فى الأمور العامّة كالوزراء والأمراء، لم يحتَجْ للنَّظَرِ فيها الى تقليد وتَوْلِية وكان له بعموم ولايته النظرِ فيها . وإن ١٥ كان ممن لم يُفَوَّضْ اليه عمومُ النظر، احتاج الى تقليد وتولية اذا اجتمعت فيه الشروط المتقدّمة . وهذا إنما يصحّ فيمن يَجُوز أن يُخْتارَ لولاية العهد، أو لوزارة التفويض اذا كان نظره فى المصالح عامّا . فإن اقتصر على تنفيذ ما عَجَز القُضَاة عن تنفيذه، وإمضاءِ ماقَصُرَتْ يدُهم عن إمضائه، جاز أن يكون دون هذه الرُّتْبة فى القَدْر والخَطَر، بعد ألّا يأخُذَه فى الحقّ لومةُ لائم، ولا يستشفّه الطمعُ الى الرِّشْوة .

ذِكر مَنْ نظر فى المظالم فى الجاهليّة والإسلام

والنظر فى المظالم قديم، كان الفرس يرون ذلك من قواعد الملك وقوانين العدل الذى لا يَعُمّ الصَّلاحُ إلا بمراعاته، ولا يتمّ التناصُفُ إلا بمباشرته؛ وكانوا يَنْتَصِبون لذلك بأنفسهم فى أيّامٍ معلومة لا يُمْنَعُ عنهم من يَقْصِدهم فيها من ذوى الحاجات وأرباب الضرورات .

(١٠١) وسبب تمسكهم بذلك أنّ أَصْلَ قيام دولتهم ردُّ المظالم . وذلك أن كيُومَرْث أوّلَ ملوكهم — وقيل : إنه أوّلُ مَلِكٍ مُلِّكَ من بنى آدم — كان سببُ ملكه أنه لمّا كَثُر البغى فى الناس وأَكَل القوىُّ الضعيفَ وفشا الظلمُ بينهم ، آجتمع أكابرهم ورأوا أنه لا يُقِيم أمرَهم إلا ملِكٌ يرجِعون إليه ، ومَلَّكوه؛ على ما نورده — إن شاء الله — فى [فنّ] التاريخ فى أخبار ملوك الفرس .

وكانت قريش فى الجاهلية، حين كَثُر فيهم الزعماء وآنتشرت الرياسات وشاهدوا من التَّغَالُب والتجاذُب ما لم يَكُفَّهم عنه سلطان قاهر، عَقَدُوا بينهم حِلْفًا على ردّ المَظَالم، وإنصاف المظلوم من الظالم . وكان سببُ ذلك أنّ رجلًا من اليَمَن من بنى زَبِيدٍ قَدِمَ مكة مُعْتَمِرًا ومعه بِضاعةٌ، فاشتراها منه رجلٌ من بنى سَهْم، قيل : إنه العاصُ بن وائل ، فلَوَاه بحقّه؛ فسأله مالَه أو مَتَاعَه، فامتنع عليه؛ فقام على الحَجَر وأنشد بأعْلَى صوته :

يالَ قُصَىٍّ لمظلوم بِضاعَتُه * ببطن مكةَ نائى الدار والنَّفَر
وأشعثٍ مُحْرِمٍ لم تُقْضَ حُرْمَتُه * بين المقام (١) وبين الحِجْر والحَجَر
أقائمٌ من بنى سَهْمٍ بذِمَّتهم * أو ذاهبٌ فى ضَلَالٍ مالُ مُعْتَمِرِ

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٦ ص ٦٤ طبع بولاق) وفى الأصل : «بين الاله ...» .

وأن قَيْس بن شيبة[1] السلمى باع متاعا من أُبَىّ[2] بن خَلَف فلَوَاه وذهب بحقه، فاستجار برجل من بنى جُمَح فلم يُجِرْه؛ فقال قيس :

يالَ قُصَىٍّ كيف هٰذا فى الحَرَمْ * وحُرْمةِ البيت وأخلاق[3] الكَرَمْ

* أُظْلَمُ لا يُمْنَعُ منّى مَنْ ظَلَمْ *

٥ فأجابه العَبّاس بن مِرْدَاس :

إن كان جارُك لم تنفعْك[4] ذِمّتُه * وقد شَرِبْتَ بكأس الذُّلِّ أنفاسا

فَأْتِ البيوتَ وكن من أهلها صَدَدًا[5] * لا تَلْقَ ناديَهم فُحْشًا ولا باسا

وثَمَّ كُنْ[6] بِفِناء البيت مُعْتَصِماً * تلقَ ابنَ حَرْبٍ وتلقَ المرءَ عبّاسا

قَرْمَىْ قُرَيْشٍ وحلّا فى ذَوائبها * بالمَجْدِ والحَزْمِ ما عاشا وما ساسا

١٠ سَاقِى الحَجِيجِ، وهذا ياسِرٌ فَلَجٌ[7] * والمجدُ يُورَثُ أَنْماسا وأسداسا

فقام العَبّاس وأبو سُفيان حتى رَدّا عليه مالَه. واجتمعت بطون قُرَيش فتحالفوا فى بيت عبد الله بن جُدْعان على رَدّ المظالم بمكة، وألّا يَظْلِمَ أحدٌ إلا منعوه وأخذوا للمظلوم بحقه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم قبل النبوّة وهو ابن خمس وعشرين سنة، فعقدوا حِلْفَ الفضول؛ فقال رسول الله صلى الله عليه

١٥ (١) كذا فى الأغانى والأحكام السلطانية، وفى الأصل. «قيس بن نشبة ...».

(٢) فى الأصل : «على أبىّ ...» ولكن بقية الكلام تقتضى أن يكون كما أثبتناه نقلا عن الأغانى.

(٣) فى الأحكام السلطانية : «وأحلاف الكرم».

(٤) فى الأغانى : «لم تنفك ذمته ...».

(٥) صددا : قريبا.

٢٠ (٦) كذا فى الأغانى وفى الأصل «ولا تكن ...» وهو لا يستقيم به المعنى، وفى الأحكام السلطانية : «ومن يكن ...» وآثرنا ما فى الأغانى، لمناسبة تاء الخطاب فى «تلق» كما ورد فى الأصل.

(٧) الفلج بالفتح كالفالج : الفائز، ولعله حرك هاهنا للضرورة.

وسلم ذاكرا للحال : "لقد شَهِدْتُ فى دار عبد الله بن جُدْعان حِلْفَ الفُضُول أمَا لو دُعِيتُ اليه [فى الإسلام] (١) لأجبتُ وما أُحِبّ أنّ لى به حُمْرَ النَّعَم وأنِّى نَقَضْتُه وما يزيده الإسلامُ إلا شدّة" .

وقال بعض قريش فى هذا الحِلْف :

تيم بن مرة إن سألت وهاشم * وزُهْرةُ الخير فى دار ٱبن جُدْعان ٥
متحالفين على النَّدى ما غَرّدتْ * ورقاءُ فى فَنَنٍ من الأفنان (٢)

فهذا كان أصل ذلك وسببه فى الجاهلية .

* * *

وأمّا فى الإسلام — فقد نظر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم فى الشِّرْب الذى تنازعه الزُّبَيْرُ بنُ العَوّام ورجلٌ من الأنصار فى شِراج (٣) الحَرَّة فحضره رسول الله ١٠ صلى الله عليه وسلم بنفسه، وقال : "اِسْقِ يا زُبَيْرُ ثم أَرْسِلْ الى جارِك"، فقال له الأنصارىّ : أن كان ٱبنَ عمتك ! فتلوّن وجهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال : "ٱسْقِ ثم ٱحتبِس حتى يرجع الماء الى الجُدُر" (٤)، فقال الزُّبَيْر : والله إنّ هذه الآيةَ

(١) زيادة من الكامل لابن الأثير ونهاية ابن الأثير وغيرهما ، وفى الأغانى وكتاب « ما يعوّل عليه فى المضاف والمضاف اليه » (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٧٨ أدب م) : «اليوم» . ١٥

(٢) فى الأغانى : «ورقاء فى فنن من جزع كتمان» وسياق الأغانى للبيتين يدل على أنهما موضوعان من غير خبير بالشعر . قال : «قال وحدّثنى محمد بن الحسن عن عيسى بن يزيد بن دأب قال : أهل حلف الفضول : هاشم وزهرة وتيم ، قال فقيل له : فهل لذلك شاهد من الشعر ؟ قال نعم ، قال أنشدنى بعض أهل العلم قول بعض الشعراء — ثم ذكر البيتين على ما ذكرنا من روايته فى البيت الثانى ، ثم قال — فقيل له وأين كتمان ؟ فقال : واد بنجران . فجاء ببيتين مضطربين مختلفى النصفين ...» . ٢٠

(٣) الشراج : جمع شرج بالفتح ، وهو مسيل الماء من الحرة الى السهل .

(٤) فى اللسان (مادة شرج) : «... فقال يا زبير ٱحبس الماء حتى يبلغ الجدر» .

أنزلت فى ذلك (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ). وقد قيل فى هذا الحديث إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نَدَبَ الزبيرَ أوّلًا الى الاقتصار على بعض حقّه على طريق التوسُّط والصُّلح، فلمّا لم يَرْضَ الأنصاريُّ بذلك وقال ما قال، استوفى النبيّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقّه. ويُصَحِّح هذا القولَ ما جاء فى آخر الحديث: ٥ "فاستوعى له حقّه"(١) يعنى للزبير.

ثم لم يَنْتَدِب للظالم من الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم أحد، وإنما كانت المنازعات تَجْرِى بين الناس فيَفْصِلها حُكم القضاء. فإن تجوّز من جُفَاة الأعراب متجوّز، شَنَاه الوَعْظ إن تَدَبَّره، وقَادَه العُنْف إن أَبَى وامتنع، فاقتصروا على حكم القضاء، لانقياد الناس اليه والتزامهم بأحكامه. ثم انتشر الأمرُ بعد ذلك وتجاهر (١٠٢) ١٠ الناسُ بالظلم والتغالُب، ولم يَكُفّهم زواجرُ المواعظ، فاحتاجوا فى رَدْع(٢) المتغلِّبين وإنصاف المظلومين من الظالمين الى النظر فى المظالم؛ فكان أوّلُ من انفرد للظالم وجعل لها يومًا مخصوصا يجلِسُ فيه للناس وينظُرُ فى قِصَصهم ويتأمّلُها عبدَ الملك ابن مروان، فكان اذا وَقَف فيها على مُشْكِل ردّه الى قاضيه أبى إدريس الأودىّ فنَفّذ فيها أحكامَه، فكان عبدُ الملك هو الآمر وأبو إدريس هو المباشر. ثم زاد ١٥ جَوْرُ الوُلاة وظلمُ العُتَاة واغتصابُ الأموال فى دولة بنى أُميّة، الى أن أفضتْ الخلافةُ الى عمر بن عبد العزيز — رحمه الله — فانتصَبَ بنفسه للنظر فى المظالم، ورَاعَى السننَ العادلة، وردّ مظالم بنى أُميّة على أهلها؛ فقيل له — وقد شَدَّد عليهم فيها وأَغْلَظ — : إنا نخاف عليك، من ردّها، العواقبَ؛ فقال : كل ما أتّقيه وأخافُه دون

(١) إستوعى له حقه : استوفاه له كله.

٢٠ (٢) كذا فى الأحكام السلطانية. وفى الاصل «الى ردّ المتغلبين».

يوم القيامة لا وُقِيتُه . ثم جَلَس لها جماعةٌ من خُلفاء الدولة العبّاسيّة، فكان أوّل من جلس منهم المهدىّ، ثم الهادى، ثم الرشيد، ثم المأمون؛ وآخر من جَلَس لها منهم المهتدى. ثم آنتصب لذلك جماعةٌ من ملوك الإسلام أرباب الدول المشهورة بأنفسهم وأقاموا لها نوّابا، ومنهم من بَنَى لهـا مكاناً مخصوصًا بها سَمّـاه "دارَ العَدْل" على ما نورد ذلك — إن شاء الله — فى فنّ التاريخ . ٥

ذكر ما يحتاج اليه وُلاة المظالم فى جلوسهم لها

ومن يجتمع عندهم و يحضر مجلسهم، وما يختص بنظرهم وتشمَله ولايتهم

قال المـاوردىّ : فإذا نظر فى المظالم من آنتُدِبَ لهـا جعل لنظره يومًا معروفا يقصِده فيه المتظلّمون، ويُراجعه فيه المتنازعون؛ ليكون ما سواه من الأيام لِمَـا هو موكولٌ اليـه من السياسة والتدبير؛ إلا أن يكون من عُمّال المظالم المتفرّدين بهـا، ١٠ فيكون مندوباً للنظر فى جميع الأيام . وليكن سهلَ الحجاب، نَزِهَ الأصحاب .

ويستكمل مجلس نظره بحضور خمسة أصناف لا يستَغْنِي عنهم، ولا ينتظمُ أمرُه إلا بهم؛ وهم الحُمَاة والأعوان، لجذب القوىّ وتقويم الجرىء . والصنف الثانى : القُضاة والحُكّام، لآستعلام ما يثبُتُ عندهم من الحقوق، ومعرفةِ ما يَجْرِى فى مجالسهم بين الخُصُوم . والصنف الثالث : الفقهاء، ليرجِعَ إليهـم فيما أَشْكَل، ويسألهم عما ١٥ آشتبه وأَعْضل . والصنف الرابع : الكُتّاب، ليُثْبِتوا ما جَرَى بين الخصوم وما تَوَجّه لهم أو عليهم من الحقوق . والصنف الخامس : الشهود، ليُشْهِدَهم على ما أوجبـه من حَقّ وأمضاه من حكم . فاذا آستكمل مجلس المظالم بهذه الأصناف الخمسة، شَرَعَ حينئذ فى نَظَرِه .

وأما ما يختص بنظر متولى المظالم وتشتمل عليه ولايته فعشرة أقسام :

الأوّل — النظرُ فى تَعَدِّى الوُلاة على الرعيّة وأَخْذِهم بالعَسف فى السِّيرة، فهذا من لوازم النظر فى المظالم، فيكون لسَيْر الوُلاة متصفِّحا، وعن أحوالهم مُستكشفا، ليقوّيَهم إن أنصفوا، ويُكَفِّهم إن عَسَفوا .

والثانى — جورُ العمال فيما يجبُونه من الأموال؛ فيرجع فيه الى القوانين العادلة فى الدواوين، فيحمل الناسَ عليها ويأخذ العمال بها . وينظُرُ فيما آستزادُوه، فإن رَفَعوه الى بيت المال أَمَر بردّه، وإن أخذُوه لأنفسهم آسترجعه منهم لأربابه .

والثالث — كُتّاب الدواوين، لأنهم أُمَناء المسلمين على بيوت أموالهم فيما يستوفونه ويوفونه منها؛ فيَتَصَفَّح أحوال ما وُكِّل اليهم، فإن عَدَلُوا عن حق فى دَخْلٍ أو خَرْجٍ الى زيادة أو نقصان، أعاده الى قوانينه، وقَابَلَ على تَجَاوُزه . وهذه الأقسام الثلاثة لا يَحْتاجُ وَالِى المظالم فى تصفُّحها الى متظلِّم .

والرابع — تَظَلُّم المُسْتَرزِقَة من نقص أرزاقهم أو تأخيرها عنهم وإجحاف النُّظّار بهم؛ فيرجع الى ديوانه فى فرض العَطَاء العادل فيُجْرِيهم عليه . وينظر فيما نُقِصُوه أو مُنِعُوه، فإن أخذه وُلاة أُمورهم آسترجعه لهم، وإن لم يأخذوه قَضَاه من بيت المال .

كَتَبَ بعضُ وُلاةِ الأجناد الى المأمون أنّ الجند شَغَبُوا ونَهَبُوا . فكتب اليه : لو عَدَلْتَ لم يَشْغَبُوا، ولو قَوِيتَ لم يَنْهَبُوا . وعَزَلَه عنهم وأَدَرّ عليهم أرزاقهم . (١٠٣)

والخامس — ردّ الغصوبات . وهى على ضربين : أحدها غُصُوبٌ سلطانية قد تَغَلَّب عليها وُلاة الجَوْر، كالأملاك المقبوضة عن أربابها، إما لرغبةٍ فيها أو غير ذلك. ويجوز أن يرجعَ فى ذلك عند تَظَلُّمهم الى ديوان السلطنة، فإذا وجد فيه ذكرَ قبضها عن مالكها عَمِلَ بمقتضاه وأَمَرَ بردّها اليه، ولم يحتجْ فيه الى بيِّنة تشهدُ به، وكان ما وجده فى الديوان كافيا، كالذى حُكِى عن عُمَر بن عبد العزيز أنَّه خرج ذات يومٍ الى الصلاة فصادفه رجلٌ وَرَدَ من اليمن متظلِّما، فقال :

تدعُون حَيْرانَ مظلومًا ببابكُمُ * فقد أتاكم بعيدُ الدارِ مظلومُ

فقال له : وما ظُلَامتُك؟ قال : غَصَبَنى الوليدُ بنُ عبد الملك ضَيْعَتى، فقال يامُزَاحم ائتنى بدفتر الصَّوَافى، فوجد فيه : أَصْفَى عبدُ الله الوليدُ بنُ عبد الملك ضَيْعة فلان، فقال : أَخْرِجْها من الدفتر، ولْيُكْتَبْ بردّ ضَيعته اليه ويُطْلَق له ضعفُ نَفَقَته .

والضرب الثانى، ما تغلَّب عليه ذوو الأيدى القويَّة وتَصَرَّفوا فيه تصرُّفَ المُلَّاك بالقهر والغَلَبة، فهذا موقوف على تظلُّم أربابه . ولا يُنْتَزَعُ من غُصَّابه إلا بأحد أربعة أمور : إما باعتراف الغاصب وإقراره، وإما بعلم وَالِى المَظَالم، فيجوز أن يحكم عليه بعلمه، وإما ببينة تشهد على الغاصب بغَصبه أو تشهد للمغصوبِ منه بمِلْكه، وإما بتظاهر الأخبار التى ينتفى عنها التواطؤ ولا تختلج فيها الشكوك، لأنه لمَّا جاز للشهود أن يشهَدوا فى الأملاك بتظاهُر الأخبار، كان حكم وُلاة المظالم بذلك أحقّ .

والسادس — مشارفة الوقوف . وهى ضربان : عامة وخاصة . فأما العامة فيَبْدَأ بتَصَفُّحها وإن لم يكن لها متظلِّم، ليُجْرِيَها على سُبُلها ويُمْضِيَها على شروط واقفها اذا عرفها من أحد ثلاثة أوجه : إمّا من دواوين الحُكّام المندوبين لحِراستها، وإما من دواوين السلطنة على ما جَرَى فيها من معاملة أو ثَبَتَ لها من ذكر وتسمية،

وإما من كُتُبٍ قديمة تقع فى النفس صِحّتُها وإن لم يشهَدِ الشهودُ بها، لأنه ليس يتعيَّنُ الخَصْم فيها، فكان الحكمُ فيها أوسَعَ منه فى الوقوف الخاصّة .

وأما الوقوف الخاصة، فإنّ نظره فيها موقوف على تَظَلُّم أهلها عند التنازُع فيها، لوقُوفها على خصوم متعيِّنين . فيَعْمَل عند التشاجُر فيها على ما تَثْبُت به الحقوقُ عند الحاكم، ولا يجوز أن يرجِعَ فيها الى ديوان السلطنة ولا إلى ما يَثْبُت من ذكرها فى الكتب القديمة إذا لم يشهَدْ بها شهودٌ مُعَدَّلُون .

والسابع — تنفيذ ما وُقِفَ من أحكام القُضَاة، لضَعْفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المحكوم عليه، لتعزُّزه وقوّة يده أو عُلُوّ قَدْره وعظم خَطَره، لكون[1] ناظرِ المظالم أقوى يدًا وأنفذَ أمرا، فينفِّذ الحكم على ما يُوجبه عليه الحاكم[2] بانتزاع ما فى يده، أو بإلزامه الخروجَ مما فى ذِمّته .

والثامن — النظر فيما عجز عنه الناظرون فى الحِسْبَة من المصالح العامّة كالمجاهَرَة بمُنْكرٍ ضُعِفَ عن دَفْعه، والتعدِّى فى طريق عُجِزَ عن مَنْعه، [والتَّحيُّف فى حَقٍّ لم يُقْدَرْ على رَدِّه][3]، فيأخُذهم بحق الله تعالى فى ذلك، ويأمر بحملهم على موجبه[4] .

والتاسع — مراعاة العبادات الظاهرة كالجُمَع والأعياد والحَجّ والجِهاد من تقصير فيها أو إخلال بشروطها؛ فإنّ حقوقَ الله تعالى أَوْلَى أن تُسْتَوفى، وفروضَه أحقُّ أن تُؤَدَّى .

(١) فى الأصل : «ليكون ...» وفى الأحكام السلطانية : «فيكون ...» ، وظاهر أن ما أثبتناه هو المناسب للسياق . (٢) فى الأحكام السلطانية : «فينفذ الحكم على من توجه اليه بانتزاع ...» .

(٣) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٤) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل . «عن واجبه» .

والعاشر — النظر بين المتشاجرين، والحكم بين المتنازعين. ولا يخرج فى النظر بينهم عن مُوجَب الحق ومُقْتضاه، ولا يَسُوغ أن يحكم بينهم بما لا يحكم به الحكّام والقُضـاة .

ذكر الفرق بين نظر ولاة المظالم ونظر القضاة

قال المـاوردىّ : والفرقُ بين نظر المظالم ونظر القضاة من عشرة أوجه :

أحدها — أنّ لناظر المظالم[1] من فَضْل الهَيْبة وقوّة اليد ما ليس للقُضاة بكف الخصوم عن التجاحُد ومَنْعِ الظَّلَمَة من التغالُبِ والتجاذب .

والثـانى — أنّ نَظَرَ المظالم يخرج من ضيق الوجوب الى سعة الجواز، فيكون الناظر فيه أفسحَ مجالًا وأوسعَ مقالا .

والثالث — أنّه يَسْتعمِل من فَضْل الإرهاب وكَشْف الأسباب، بالآثار الدالّة أو شواهد الحال اللّائحة ما يَضِيق على الحُكّام، فيصِلُ به الى ظهور الحقّ، ومعرفةِ المُبْطِل من المُحِقّ .

والرابع — أنه يُقابِلُ مَنْ ظهر ظُلْمُـه بالتأديب، ويأخُذُ من بَان عُدْوانُه[2] بالتقويم والتهذيب .

والخامس — أنّ له من التأنّى فى تَرْداد الخصوم عند آشتباه أمورهم واستِبهامِ حُقوقهم، ليُمعِنَ فى الكَشْفِ عن أسبابهم وأحوالهم، ما ليس للحكّام، اذا سألهم أحدُ الخَصمين فصلَ الحُكم، فلا يَسُوغ أن يؤخّره الحاكم، ويَسُوغ أن يؤخّره مُتَـوَلّى المظـالم .

(١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل : «لنظر المظالم ...» .

(٢) فى الأصل : «من بان عداوته» وهو تحريف، والتصويب عن الأحكام السلطانية .

والسادس — أنّ له ردّ الخصوم اذا أعضلوا[1] الى وَسَاطة الأُمناء، ليَفْصِلوا التنازُعَ بينهم صُلْحًا عن تَرَاضٍ، وليس للقاضى ذلك إلا عن رِضَا الخَصْمين بالرَّدّ .

والسابع — أنه يُفسح فى مُلازَمــة الخَصْمين اذا وَضَحت أَمارات التجاحُد، ويَأْذَنُ فى إلزام الكَفَالة فيما يَسُوغ فيه التكفيل، لتَنْقَاد الخصومُ الى التناصُف ويَعْدِلوا عن التجاحُد والتكاذُب .

والثامن — أنه يَسْمَعُ من شهادات المستُورِين ما يخرُج عن عُرْف القُضَاة فى شهادة المُعَدَّلِين .

والتاسع — أنه يجوزُ له إحلافُ الشهودِ عند آرتيابه بهم اذا بَذَلُوا أيْمانهم طوعًا، ويَسْتكثِرَ من عَدَدهم، لتزولَ عنه الشُّبْهَةُ وينتفى الآرتيابُ، وليس ذلك للحاكم .

والعاشر — أنه يجوز له أن يبتدئ بآستدعاء الشهود ويسألَهم عما عندهم فى تَنَازع الخصوم؛ وعادةُ القُضاةِ تكليفُ المدَّعِى إحضارَ بيِّنةٍ ولا يسمعُونها إلا بعد مَسْألته .

فهذه عشرة أوجه يَقَعُ بهــا الفَرْقُ بيْنَ نَظَر المظالم ونَظَر القَضَاء فى التشاجُر والتنازُع؛ وهما فيما عداهما متساويان .

ذكر ما ينبغى أن يعتمده ولاة المظالم عند رفعها إليهم، وما يسلكونه من الأحكام فيها، وما ورد فى مثل ذلك من أخبارهم وأحكامهم فيما سلف من الزمان

قال المــاوردىّ : لم تَخْلُ حالُ الدَّعْوى عند الترافُع فيها إلى وَالِى المَظَالم من ثلاثة أحوال : إمّا أن يَقْترِن بها ما يُقَوّيها، أو يقترن بها ما يُضعفها، أو تخلُو من

(١) أعضلوا : ضاقت عليه الحيل فيهم .

الأمرين . فإن آقترن بها ما يُقوّيها ، فَلِمَا يقترِنُ بها من القُوّة ستّةُ أحوال تختلف بها قوّةُ الدّعْوى على التدريج .

فأوّل أحوالها — أن يَظْهر معَها كِتَابٌ فيه شهودٌ مُعَدَّلون حُضُورٌ . والذى يختص به نظرُ المظالم فى مثل هذه الدعوى شيئان . أحدهما : أن يبتدئ الناظرُ فيها بآستدعاء الشهود للشهادة . والثانى : الإنكار على الجاحد بحسب حاله وشَوَاهد أحواله . فاذا حَضَر الشهودُ ، فإن كان الناظرُ فى المظالم ممن يَجِلّ قَدْرُه ، كالخليفة أو وزيرِ التفويض أو أمير الإقليم ، رَاعى من أحوال المتنازِعَيْنِ ما تقتضيه السياسةُ : من مباشرَته النَّظَرَ بينهما إن جَلَّ قدرُهما ، أو ردّ ذلك الى قاضيه بمَشْهَدٍ منه إن كانا متوسِّطَين ، أو على بعدٍ منه إن كانا خاملين .

حُكِيَ أنَّ المأمونَ كان يجلِسُ للظالم فى يوم الأحد ، فنَهَض ذاتَ يومٍ من مَجْلِسه فتَلَقَّته آمرأةٌ فى ثيابٍ رَثَّة ، فقالت :

يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَدُ * ويا إمَّاما به قد أَشْرَق البَلَدُ
تشكُو إليك عميدَ المُلْكِ أرملةٌ (١) * عَدَا عليها فما تَقْوى به أسَدُ
فآبْتَزَّ منها ضِيَاعًا بعد مَنْعَتِها * لَمَّا تَفَرَّق عنها الأهلُ والوَلَدُ

فأطرق المأمونُ يسيرًا ثم رَفَع رأسَه وقال :

مِنْ دونِ ما قُلتِ عِيلَ الصَّبْرُ والجَلَدُ * وأَقْرَحَ القلبَ هذا الحزنُ والكَمَدُ
هذا أَوَانُ صلاةِ الظُّهر فآنصرِفِى * وأَحْضِرِى الخَصْمَ فى اليوم الذى أَعِدُ
آلمجلسُ السبتُ إن يُقْضَ الجُلُوسُ لنا * أُنْصِفْكِ منه وإلّا المجلِسُ الأَحَدُ

(١) كذا فى الأحكام السلطانية وفى الأصل : «عقيد الملك» وورد هذا البيت فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٢) هكذا :

تشكو اليك عميد القوم أرملة * عدا عليها فلم يُترك لها سبد

فانصرفتْ، وحضرت فى يوم الأحد أوّل الناس، فقال لها المأمون : مَنْ خَصْمُك ؟ فقالت : القائمُ على رأسك العبّاسُ بنُ أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى ٱبن أَكْثَم، وقيل بل قال لوزيره أحمد بن أبى خالد : أَجْلِسْها معه وٱنْظُرْ بينهما، فأجلَسَها معه ونَظَرَ بينهما بحَضْرة المأمون، فجَعَلَ كلامُها يَعْلُو، فزَجَرَها بعضُ حُجّابه، فقال المأمون : دعها فإنّ الحَقَّ أَنْطَقها والباطل أَخْرَسه . وأمر بردّ ضِيَاعها اليها . (١٠٥)

والحال الثانية فى قوّة الدعوى — أن يقترن بها كتاب فيه من الشهود المُعَدَّلين من هو غائب. فالذى يختصّ بنظر المظالم فى مثل هذه الدَّعْوى أربعةُ أشياء[1]. أحدُها : إرهابُ المُدَّعَى عليه [فرَ][2] بما يُعَجِّلُ من إقراره بقُوّة الهَيْبة ما يُغْنِى عن سَمَاع البيِّنة . والثانى : التَقَدُّمُ[3] بإحضار الشُّهُود اذا عُرِفَ مكانُهم ولم يَدْخُل الضَّرَرُ الشاقُّ عليهم . والثالث : التقدُّمُ بملازمة المدَّعَى عليه ثلاثاً، ويجتهد رَأْيَه فى الزيادة عليها بحسب الحال من قُوّة الأمارة ودلائل الصحّة . والرابع : أن ينظُرَ فى الدعْوى، فإن كانت مالًا فى الذمة كَلَّفَه إقامةَ كَفِيل، وإن كانت عَيْناً قائمةً كالعَقَار، حَجَرَ عليه فيها حَجْرًا لا يَرْفَع به حكمَ يده، ورَدَّ ٱستغلَالها الى أمين[4] يحفَظُه على مستحِقِّه منهما . فإن تَطَاوَلت المدّة ووقع اليأسُ من حُضور الشهود، جاز لمتولّى المظالم أن يسأل المدَّعَى عليه عن دخول يده مع تجديد إرهابه، فإن أجاب بما يَقْطَعُ التنازُعَ أمضَاه، وإلّا فَصَلَ بينهما بمُوجب الشَّرْع ومُقْتضاه .

(١) وردت هذه الجملة فى الأصل هكذا : « فالدعوى تختص بنظر المظالم فى هذه الدعوى باربعة أشياء» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية . وتوجد من الأحكام السلطانية نسخة أخرى، يشير اليها هامش النسخة التى بين أيدينا، بها ما بالأصل، فلعل المؤلف نقل عنها . (٣) تقدم إليه بكذا : أمره به .

(٤) كذا فى الأحكام السلطانية، وفى الأصل وفى نسخة أخرى من الأحكام السلطانية يشير اليها هامش النسخة التى بأيدينا « الى أمين الشهود » .

والحال الثالثة فى قوة الدعوى — أن يكون فى الكتاب المقترن بها شهود حضور لكنهم غير مُعَدَّلين عند الحاكم، فيتقدّم ناظرُ المظالم بإحضارهم وسَبْرِ أحوالهم؛ فإن كانوا من ذوى الهَيْئات وأهلِ الصِّيانات، فالثقةُ بشهادتهم أقوى؛ وإن كانوا أرذالًا فلا يعوّل عليهم لكن يقوى إرهابَ الخَصْم بهـم؛ وإن كانوا أوساطًا فيجوز له أن يَسْتَظْهِر بإحلافهم، إن رأى ذلك، قبل الشهادة أو بعدها . ثم هو فى سماع شهادة هذين الصِّنفين بين ثلاثة أمور : إما أن يسمَعَها بنفســه فيحكُم بها، وإما أن يَرُدّ [الى](١) القاضى سَمَاعَها ويؤدّيها القاضى اليه، وإما أن يَرُدّ سماعها الى الشهود المعدَّلين وهم يُخبرونه بما وَضَحَ عندهم .

والحال الرابعة من قوة الدعوى — أن يكون فى الكتاب المقترن بها شُهُودٌ موتى مُعَدَّلون، فالذى يختصّ بنظر المظالم فيها ثلاثةُ أشياء . أحدها : إرهاب المدَّعى عليه بما يضطرّه الى الصِّدق والاعتراف [بالحق](١) . والثانى : سؤاله عن دخول يده، لجواز أن يكون من جوابه ما يَتَّضِح به الحقّ(٢) . والثالث : أن يكشِفَ عن الحال من جِيرَان المِلْك ومن جِيران المتنازعين فيه، ليتوصّل بهم الى وُضوح الحقّ ومعرفة المحِقّ . فإن لم يَصِلْ اليه بواحد من هذه الثلاثة، ردَّها الى وَسَاطةِ مُحْتَشَم مُطَاع، له بهما معرفةٌ وبمـا يتنازعانه خِبْرة . فإن حَصَـل تَصَادُقُهما أو صُلْحُهما بوَسَاطته، وإلّا فَصَلَ الحكم بينهما على ما يُوجِبه حكم القضاء .

والحال الخامسة فى قوة الدعوى — أن يكون مع المُدَّعِى خَطُّ المدَّعى عليـه [بما تَضَمّنته الدعوى، فنَظَرُ المظالم فيه يقتضِى سؤالَ المدَّعى عليه](١) عن الخطّ وأن

(١) التكملة عن الأحكام السلطانية .

(٢) الجملة فى الأصل هكذا : «لجواز أن يكون جوابه بما يتضح به الحق» وعبارة الأحكام السلطانية التى أثبتناها أوضح .

يُقال له[(١)] : هذا خطُّك؟ فإن ٱعترف به ، سئل بعد ٱعترافه به عن صحة ما تضمّنه ، فإن ٱعترف بصحته ، صار مُقِرًّا وأُلْزِمَ حكمَ إقراره. وإن لم يعترف بصحته [فمِنْ وُلاة المَظَالم مَنْ حَكَم عليه بخَطِّه اذا ٱعترف به وإن لم يعترف بصحته][(٢)] ، وجعل ذلك من شواهد الحقوق اعتبارًا بالعرف . والذى عليه محقّقوهم وما يَرَاه الفقهاء أنه لا يجوز للناظر منهم أن يحكُمَ بمجرد الخطّ حتى يعترف بصحّة ما فيه ؛ فإن قال : كتبته ليُقْرِضَنى وما أقرضنى ، أو ليَدْفَع إلىَّ ثَمَنَ ما بِعته وما دفَع ، فهذا مما قد يفعله الناس أحيانا . فنَظَرُ المظالم فى مثله أن يُسْتَعْمَلَ الإرهابُ بحسب الحال ثم يُرَدّ الى الوَسَاطة ؛ فإن أفضت الى الصلح ، وإلا بَتَّ الحاكم[(٣)] بينهما بالتحالف .

وإن أنكر الخطَّ ، فمِنْ وُلاة المظالِم من يختبر الخطّ بخطوطه التى يكتُبها ويُكلِّفه من كثرة الكتابة ما يمنَعُ من التصنُّع فيها ، ثم يجمع بين الخطين ، فإذا تَشَابَها حَكَم به عليه . والذى عليه المحقّقون منهم أنهم لا يفعلون ذلك للحكم به ولكن للإرهاب . [وتكون الشُّبْهة مع إنكاره للخط أضعفَ منها مع ٱعترافه به ، وترتفع الشبهة إن كان الخط منافيًا لخطه ويعود الإرهاب على المدّعى ، ثم يُرَدّان الى الوَسَاطة][(٤)] فإن أفضتْ الى الصلح وإلّا بَتّ القاضى [الحكم][(٢)] بينهما بالأيمان .

والحال السادسة من قوّة الدعوى — إظهارُ الحساب بما تَضَمّنته الدعوى ، وهذا يكون فى المعاملات . ولا يخلو حال الحساب من أحد أمرين :

---

(١) فى الأصل « يقول » وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأحكام السلطانية : « وإلا بت القاضى الحكم بينهما بالتحالف » .

(٤) وردت هذه الجملة التى بين القوسين والتى نقلناها عن الأحكام السلطانية فى الأصل هكذا : « وترتفع الشبهة وإن كان منافيا فيعود الإرهاب على المدعى ثم يرد الى الوساطة » .

إمّا أن يكون حسابَ المدّعِى أو المدّعى عليه . فإن كان حسابَ المدّعِى فالشُّبهة فيه أضعف . ونَظَرُ المظالم فى مثله أن يُراعى نَظْمُ الحساب ، فإن كان مختلاًّ يُحْتَمَلُ فيه[1] الإدغالُ كان مُطَّرَحًا ، وهو بضعف الدعوى أشبهُ منه بقوّتها . وإن كان نَظْمُه مُتَّسِقا ونَقْلُه صحيحا ، فالثقةُ به أقوى ، فيقتضى من الإرهاب بحسب شواهده ، ثم يردّان الى الوَسَاطة ، ثم الى الحكم البـاتّ . وإن كان الحساب للمدّعَى عليه ، كانت الدعوى به أقوى ، فلا يخـلو أن يكون منسوبا الى خطه [أو خط كاتبه ، فإن كان منسوبا الى خطّه[2]] فلناظر المظالم أن يسأله عنه : أهو خطه ؟ فإن اعترف به ، قيل : أتعلم ما هو ؟ فإن أقرّ بمعرفته ، قيـل : أتعلم صحته ؟ فإن أقرّ بصحته ، صار بهـذه الثلاثة مقرًّا بمضمون الحساب ، فيؤخذ بما فيه . وإن اعترف أنه خطّه وأنه يعـلم ما فيه ولم يعترف بصحته ، فمن حَكَم بالخطّ من ولاة المظالم ، حكم عليه بموجَب حسابه وإن لم يعترف بصحته ، وجعل الثقةَ بهذا أقوى من الثقة بالخط المُرْسَل ، لأن الحساب لا يُثبت فيه قبضٌ ما لم يقبض[3] ، وقد تُكْتَبُ الخطوط المرْسَلة بقَبْض . والذى عليه المحققون منهم — وهو قول الفقهاء — أنه لا يحكم عليه بالحساب الذى لم يعـترف بصحته ، لكن يقتضى من فضل الإرهاب به أكثر ممـا اقتضاه الخط المرسـل . ثم يُرَدّان الى الوَسَاطة ثم الى الحكم البات .

وإن كان الخط منسوباً الى كاتبه ، سُئل المدّعى عليـه قبل سؤال كاتبه ، فإن اعترف بما فيه أُخِذَ به ، وإن لم يعترف ، سُئل عنه كاتبُه وأُرْهِب . فإن أنكر ضَعُفت

(١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل «فان كان مما يحمل الإدغال ...» . والإدغال : من أدغل فى الامر : أدخل فيه ما يفسده ويخالفه .

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية .

(٣) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : «لأن الحساب لا يكتب قبض ولم يقبض» .

الشُّبهة[(١)] ، و إن ٱعترف بصحته صار شهادةً على المدّعى عليه ، فيحكم عليه بشهادته إن كان عَدْلًا ، و يقضى بالشاهد واليمين . فهذه حال الدعوى إذا ٱقترن بها ما يُقوّيها .

* * *

وأما إن ٱقترن بالدعوى ما يُضعفها — فلِمَا ٱقترَنَ بها من الضعف ستةُ أحوال تنافى أحوال القوّة ، فيُنقَلُ الإرهابُ بها من جَنْبَة المدَّعَى عليه الى جنبة المدّعِى .

فالحال الأولى — أن يُقابِل الدعوى بكتابٍ شهودُه حُضُورٌ مُعَدَّلون يشهدون بما يُوجب بُطْلانَ الدعوى ، وذلك من أربعة أوجه . أحدها : أن يشهَدُوا على المدّعِى ببيع ما ٱدّعاه . والثانى : أن يشهدوا على إقرار الذى ٱنتقل الملك عنه للمدّعِى قبل إقراره له[(٢)] . والثالث : أن يشهدوا على المدّعى[(٣)] أنه لا حقّ له فيما ٱدّعاه . والرابع : أن يشهدوا للمدّعى عليه بأنه مالكٌ لما ٱدّعاه عليه . فتبطل دعواه بهذه الشهادة ، و يؤدّبه متولّى المظالم بحسب حاله . فإن ذَكَرَ أنّ الشهادة عليه بٱبتياع كانت على سبيل الرهن ؛ فهذا قد يفعله النـاسُ أحيانًا و يسمُّونه بينهم بيع الأمانة[(٤)] ؛ و يقتضى ذلك الإرهابَ

(١) عبارة الأحكام السلطانية فى هذه المسألة وردت هكذا : « وان لم يعترف يسأل عنه كاتبه ، فان أنكره ضعفت الشبهة بإنكاره ، وأرهب إن كان متهما ولم يرهب إن كان مأمونا . و إن اعترف به و بصحته ... » .

(٢) ماذكره المؤلف هاهنا منقول عن نسخة من الأحكام السلطانيـة يشير اليها هامش النسخة المطبوعة فى مدينـة "بن" و بين النسختين اختـلاف فى الترتيب و بعض الكلمات . وقد ذكر الوجه الثانى هنا فى الأحكام السلطانية هكذا «والثالث أن يشهدوا على اقرار أبيه الذى ذكر انتقال الملك عنه أن لاحق له فيما ٱدعاه» .

(٣) فى الأحكام السلطانية : «أن يشهدوا على إقراره (المدعى) بأن لاحق له ...» .

(٤) إختصار المؤلف هنا جعل الكلام غير واضح الارتباط . وعبارة الأحكام السلطانية — على مافيها من مخالفة فى بعض الكلمات لما فى الأصل ، وقد يكون ما فى الأصل هو الصواب — وردت هكذا : « فان ذكر أن الشهادة عليه بالابتياع كانت على سبيل رهب و إلجاء ، وهذا قد يفعله الناس أحيانا ، فينظر فى كتاب الابتياع : فان ذكر فيه أنه من غير رهب ولا إلجاء ضعفت شبهة هذه الدعوى ، و إن لم يذكر ذلك فيه قويت شبهة الدعوى ، و كان الارهاب فى الجهتين بمقتضى شواهد الحالين » .

فى الجهتين . و يرجع الى الكَشْف من الحِيرة ؛ فإن ظَهَر له ما يُوجِب العدولَ عن ظاهر الكتاب عَمِل بمقتضاه ، و إن لم يتبيَّن وأبهم الأمر أمضى الحكم بما شَهِد به شهودُ الابتياع . فإن سأل إحلافَ المدّعى عليــه أن ابتياعه كان حقًّا ولم يكن على سبيل الرهن ،فقد اختلف الفقهاءُ فى جواز إحلافه : فمنهم من أجازه ومنهم من منعه . ولوَالِى المظالم أن يعمَلَ من القولين بمـا تقتضيه شواهدُ الحال . وكذلك لو كانت الدعوى بدَيْنٍ فى الذمّة فأظهر المدّعَى [عليه] كتابَ براءة [منه ، فذكر المدّعى أنه أشهد على نفسه] قبل القبض ولم يقبض ، كان إحلاف المدّعى عليه على ما تقدّم ذكره .

والحال الثانيــة — أن يكون شهود الكتاب عدولا غُيَّبًا ، فهذا على ضربين : أحدهما : أن يتضمّن إنكارُه اعترافا بالسبب كقوله : لاحَقَّ له فى هذا الملك ، لأنى ابتعتُه منه ودفعتُ اليه الثمن ، وهذا كتاب عهدتى بالإشهاد عليه . فيصير المدَّعَى عليه مدّعيا . وله [زيادة] يَدٍ وتصرُّف ، فتكون الأمارة أقوى وشاهدُ الحال أظهر . [فإن لم يَثْبُتْ بها المِلْك] فيرهبهما وَالِى المظالم بحسب ما تقتضيه شواهد أحوالهما . ويأمُرُ بإحضار الشهود إن أمكن ، و يضرب لحضورهم أَجَلًا يَرُدُّهما فيــه إلى الوَسَاطة ، فإن أفضَتْ الى صُلْح عن تَرَاضٍ ، استقرّ به الحكم وعُدِلَ عن سَمَاع الشهادة إن حضَرتْ . و إن لم يَنْبرِمْ بينهما الصلحُ ، أمعن فى الكَشْف من جِيرانهما وجِيران الملك . وكان لمتولّى نَظَرِ المظالم رأيُه ، فى زمن الكشف ، فى خَصْلة من ثلاث ، على ما يؤدّى اليه اجتهادُه بحسب الأمارات وشواهد الأحوال : إمّا أن يرى انتزاع الضَّــيْعة من يد المدّعى عليه و يُسَلِّمها الى المدّعِى الى أن تقوم البيّنة عليه بالبيع ؛ و إما أن يسلِّمها الى أمين تكون فى يده ويحفَظُ استغلالها على مستَحِقّه ؛ و إما أن يُقِرّها فى يد المدّعى عليه

(١) ظاهر أن مرجع الضمير هاهنا المدعى .

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية .

ويحجُرَ عليه فيها وينصِبَ أميناً لحفظ آستغلالها . فإن وقع الإياس من حضور الشهود وظهورِ الحقّ بالكشف ، فصل الحكم بينهما على ما تقتضيه أحكامُ القضاء . فلو سأل المدّعى عليه إحلاف المدّعِى ، أحلفه له ، وكان ذلك بتًّا للحكم بينهما .

والضرب الثانى : أن [لا][1] يتضمّنَ إنكارُه آعترافا بالسبب ويقول : هذا الملكُ أو الضيعةُ لا حق له فيها . وتكون شهادة الكتّاب على المدّعى على أحد وجهين : إما على إقراره أنه لا حق له فيها ، وإما على إقراره أنها ملك للمدّعى عليه ؛ فالضَّيْعةُ مُقَرٌّ فى يد المدّعى عليه لا يجوز آنتزاعها منه . فأمّا الحجرُ عليه فيها وحفظُ آستغلالها مدّة الكشف والوَسَاطة فمعتبرٌ بشواهد الحال وآجتهاد وَالِى المظالم فيما يراه بينهما ، الى أن يثبُت الحقُّ لأحدهما . (١٠٧)

والحال الثالثة — أنّ شهود الكتّاب المقابِلِ لهذه الدعوى حُضُورٌ غير مُعَدَّلين ، فيُراعِى والى المظالم فيهم ما قدّمناه فى جَنَبَةِ المدّعِى من أحوالهم الثلاث ، ويُراعى حال إنكاره هل تَضَمّن آعترافًا بالسبب أم لا ؛ فيعمل [وَالِى المظالم فى ذلك بـ][1]ما قدّمناه ، تعويلًا على اجتهاد رأيه فى شواهد الأحوال .

والحال الرابعة — أن يكون شهودُ الكتّاب مَوْتى معدَّلين ، فليس يتعلّق به حكم إلا فى الإرهاب المجرّد ، ثم يعمَلُ فى بَتّ الحكم على ما تضمّنه الإنكارُ من الآعتراف بالسبب أم لا .

والحال الخامسة — أن يُقابِل المدّعى عليه بخط المدّعى بما يوجب إكذابه[2] فى الدعوى ، فيعمل فيه بما قدّمناه فى ذلك . وكذلك أيضا فى الحال السادسة من إظهار الحساب ، فالعملُ فيه على ما قدّمناه .

(١) زيادة من الأحكام السلطانية .

(٢) فى الأصل «بما وجب ...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

***

وأما إن تجرّدت الدعوى من أسباب القوّة والضعف، فلم يقترن بها ما يُقَوّيها ولا ما يُضعفها، فنظرُ والِى المظالم فى ذلك أن يُراعِىَ أحوال المتنازِعَيْن فى غَلَبة الظن. ولا يخلو حالُهما فيه من ثلاثة أحوال. أحدها: أن تكون غلبتُه فى جَنَبة المدّعى. والثانى: أن تكون فى جَنَبة المدّعَى عليه. والثالث: أن يعتدِلَا فيه. فإن كانت غلبةُ الظن فى جَنَبة المدّعى وكانت الرِّيبة متوجِّهةً الى المدّعى عليه، فقد تكون من ثلاثة أوجه. أحدها: أن يكون المدّعِى مع خُلُوّه من حُجّة مضعوفَ اليد مستلانَ الجانب والمدّعَى عليه ذَا بأسٍ وقُدْرة. فاذا ٱدّعى عليه غَصْبَ مِلْك أو ضَيْعَة، غَلَبَ فى الظنّ أنّ مثلَه مع لِينه وٱستضعافه لا يتجوّز فى دعواه على مَنْ كان ذَا بأسٍ وسَطْوة. والثانى: أن يكون ممن ٱشتهر بالصدق والأمانة والمدّعَى عليه ممن ٱشتهر بالكذب والخيانة، فيَغْلِبُ [فى الظن][1] صدقُ المدّعِى فى دعواه. والثالث: أن تتساوى أحوالهما، غيرَ أنه عُرِف للمدّعى يد متقدّمة وليس يُعْرَفُ لدخول يد المدّعَى عليه سببٌ، فالذى يقتضيه نظر المظالم فى هذه الأحوال شيئان. أحدهما: إرهابُ المدّعى عليه لتوجُّه الريبة. والثانى: سؤالُه عن سبب دخول يده وحدوثِ مِلْكه.

وأما إن كانت غَلَبة الظنّ فى جَنَبة المدّعى عليه بٱنعكاس ما قدّمناه وٱنتقالِه من جانب المدّعى الى المدّعى عليه، فمذهب مالك — رحمه الله — أنه إن كانت دعواه فى مثل هذه الحال لعينٍ قائمةٍ، لم يسمعها إلا بعد ذكر السبب الموجِبِ لها، وإن كانت فى مالٍ فى الذمة، لم يسمعها إلا أن تقوم البيّنة للمدّعى أنه كان بينه وبين المدّعى عليه مُعاملة. والشافعىّ وأبو حنيفة — رحمهما الله — لا يَرَيان ذلك[2]. ونظر المظالم

(١) النكتة من الأحكام السلطانية.

(٢) فى الأحكام السلطانية «والشافعىّ وأبو حنيفة رضى الله عنهما لا يريان ذلك فى حكم القضاة، فاما نظر المظالم الموضوع على الأصلح فعلى الجائز دون الواجب فيسوغ فيه مثل ...».

موضوعٌ على فعل الجائز دون الواجب، فيسوغ فيه مثل هـذا عند ظهور الريبة . فان وُقِفَ الأمرُ على التحالُف فهو غايةُ الحكم البات الذى لا يجوز دَفْعُ طالبٍ عنه فى نَظَر القضاء ولا نظر المظالم. فإن فَرّق المدّعى دعاويَه وأراد أن يُحلف المدّعى عليه فى كل مَجْلِس على بعضها قَصْدًا لإعناته وبذلته، فالذى يُوجبه حكم القضاء ألّا يُمْنَعَ من تبعيض الدعاوى وتَفْريق الأيمـان، والذى يُنتجه نَظَرُ المظالم أن يُؤمَرَ المدّعى بجَمْع دعاويه عند ظهور الإعنات منه وإحلافِ الخَصْم على جميعها يميناً واحدة .

فأمّا اذا آعتـدلت حالةُ المتنازِعَيْنِ وتقابلتْ شُبْهةُ[1] المتشاجرين ولم يترجّح أحدُهما بأَمارة ولا ظِنّـة، فينبغى أن يُسَاوى بينهما فى العِظَة، وهذا ممـا يتّفق عليه القُضَاة ووُلاة المظالم . ثم يختصّ وُلاة المظالم، بعد العِظة، بالإرهاب لهما معًا لتساويهما، ثم بالكشف عن أصل الدعوى وآنتقال الملك. فإن ظَهَر بالكشف مايُعْرَفُ به المحِقُّ منهما من المبطِل عَمِل بمقتضاه، وإن لم يظهر بالكشف ماينفصل به تنازُعهما ردّهما الى وَسَاطةٍ من وُجوه الجيران وأكابر العشائر[2]، فان تحرّر ما بينهما، وإلا كان فصلُ القضاء بينهما هو خاتمة أمرهما .

وربمـا ترافع[3] الى وُلاة المظالم فى غوامض الأحكام ومُشْكلات الخصام ما يُرشده اليه الجلساءُ ويفتحه[4] عليه العلماء، فلا يُنْكِر عليهم الآبتداءَ به، ولا بأس بردّ الحكم فيه الى من يعلمه منهم . (١٠٨)

(١) فى الأحكام السلطانية : «بينة المتشاجرين ...» .

(٢) فى الأحكام السلطانية : «فإن تجزيها ما بينهما» .

(٣) كذا فى الأصل والأحكام السلطانية، ولعلها «رفع» .

(٤) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل، «ويقبحه ...» وهو تحريف .

فقد حكى أنّ امرأةً أتتْ عمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه فقالت: ياأمير المؤمنين، إن زوجى يصومُ النهارَ ويقوم الليلَ، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله؛ فقال لها عمر: نِعْمَ الزوجُ زوجُك! فجعلت تكرّر عليه القول، وهو يكرّر عليها الجواب؛ فقال له كَعْبُ بن سُور الأزدِىّ[1]: ياأمير المؤمنين، هذه امرأة تشكو زوجَها فى مُبَاعَدته إياها عن فراشه؛ فقال له عمر رضى الله عنه: كما فَهِمتَ كلامها فاقْضِ بينهما؛ فقال كعبٌ: علىّ بزوجها، فأُتِىَ به؛ فقال له: امرأتُك هذه تشكوك؛ فقال الزوجُ: أفى طعام أو شراب؟ قال كعب: لا فى واحد منهما؛ فقالت المرأة:

يأيُّها القاضِى الحكيمُ أَرْشِدُهْ * أَلْهَى حَلِيلِى عن فِرَاشِى مَسْجِدُهْ
زَهَّدَهُ فى مَضْجَعِى تَعَبُّدُهْ * نَهَارَه ولَيْلَه ما يرقُدُهْ
فلستُ من أمر النِّسَاء أحمَدُهْ * فاقْضِ القَضَا يا كعبُ لا تُرَدِّدُهْ

فقال الزوج:

زَهَّدنى فى قُرْبها وفى الحَجَلْ * أَنِّى امرُؤٌ أَذْهَلنى ما قد نَزَلْ
فى سُورة النَّحْل وفى السَّبْع الطُّوَلْ * وفى كتاب الله تخويفٌ جَلَلْ

فقال كعب:

إنّ لها حَقًّا عليك يارَجُلْ * نصيبَها فى أربع لمن عَقَلْ
* فأعْطِها ذاك ودَعْ عنك العِلَلْ *

ثم قال: إنّ الله سبحانه وتعالى قد أحَلّ لك من النساء مَثْنَى وثُلَاثَ ورُبَاعَ، فلَكَ ثلاثةُ أيّام ولياليهنّ تَعْبُد فيهن رَبَّك، ولها يومٌ وليلةٌ. فقال عمر رضى الله عنه

(١) كذا فى الكامل لابن الأثير (ج ٢ ص ٤٤٠ طبع مدينه ليدن) والطبرى فى غير موضع (طبع ليدن أيضا) والكامل للمبرد (طبع ليبسج). وفى الأصل: «كعب بن سور الأسدى».

لكعب : ما أدرى من أى أمْرَيْك أعجبُ! أمِنْ فَهْمِك أمرَهما، أم من حُكمك بينهما! [اِذهب](١) فقد وَلَّيتك القضاءَ بالبصرة . وهذا القضاء من كَعْب والإمضاءُ من عمر إنما كان حكماً بالجائز دون الواجب ؛ لأن الزوج لا يلزَمه أن يَقْسِم للزوجة الواحدة ولا يُجيبها الى الفراش اذا أصابَها دَفْعةً واحدة . فدَلَّ هذا على أن لِوَالى المَظَالم أن يحكُمَ بالجائز دون الواجب .

ذكر توقيعات متولى المظالم وما يترتّب عليها من الأحكام

قال الماوردىّ : اذا وَقَّع ناظرُ المظالم فى قصص المتظلِّمين اليه بالنظرِ بينهم، لم يخلُ حالُ المُوَقَّع اليه من أحد أمرين : إما أن يكون والياً على ماوُقِّع به اليه أو غير والٍ عليه . فان كان والياً عليه، كتوقيعه الى القاضى بالنظر بينهما، فلا يخلو حال ما تضمّنه التوقيع من أحد أمرين : إمّا أن يكون إذنا بالحكم، أو إذنا بالكشف والوَسَاطة . فإن كان إذنا بالحكم، جاز له الحكم بينهما بِأصل الولاية، ويكون التوقيع تأكيدًا لا يؤثِّر فيه قصورُ معانيه . وإن كان إذنا بالكشْف للصُّورة أو التوسّط بين الخَصْمين [فإن كان فى التوقيع بذلك نَهْيُه عن الحكم فيه لم يكن له أن يحكم بينهما](٢) وكان هذا النهى عزلا عن الحكم بينهما، وكان على عموم ولايته فيمن عداهما(٣) . وإن لم يَنْهَه فى التوقيع عن الحكم بينهما غيرَ أنّه أمره بالكشف، فقد قيل : يكون(٤) نظره على عمومه فى جواز حكمه بينهما ؛ لأن أمرَه ببعض ما اليه لا يكون منعا من غيره ؛

(١) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٢) وردت هذه الجملة التى بين القوسين فى الأصل هكذا : «فقد نهاه عن الحكم فيه ولم يكن له أن يحكم بينهما» وهو لا يستقيم مع سياق الكلام . وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأصل : «فيما عداهما» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٤) فى الأصل : «يكون وطره ...» وهو تحريف ، والتصويب عن الأحكام السلطانية .

وقيل بل يكون ممنوعا من الحكم بينهما مقصورا على ما تضمّنه التوقيع من الكشف والوَسَاطة ؛ لأنّ فَحْوَى التَّوْقيع دليلٌ عليه . ثم ينظر . فإن كان التوقيع بالوَسَاطة ، لم يَلْزَمْه إنهاء الحال اليه بعـد الوَسَاطة ، و إن كان بكشف الصورة ، لزمه إنهاء حالها اليه ؛ لأنه آستِخْبار منه فيلزمُه إجابته عنه . فهذا حكم توقيعه الى مَنْ اليه الوِلاية .

(١٠٩) وأما إن وَقَع الى مَنْ لا وِلَايةَ له ، كتوقيعه الى فقيهٍ أو شاهد ، فلا يخلو حال توقيعه من ثلاثة أحوال : أحدها أن [يكون بكشف الصورة ، والثـانى أن يكون بالوَسَاطة ، والثالث أن يكون بالحكم . فإن كان التوقيع (١)] بكشف الصورة ، فعليه أن يَكْشِفها ويُنْهِى منها ما يصحّ أن يشهَدَ به ، ليجوز لناظر المظالم الحكمُ به . فإن أنْهى ما يجوز أن يَشهد به ، كان خَبَرًا لايجوز أن يُحْكَمَ به ، ولكن يجعله ناظر المظالم من الأمارات التى يُغَلِّب بها [حال (١)] أحد الخَصْمين فى الإرهاب وفَضْل الكَشْف .

فإن كان التوقيع بالوساطة ، تَوَسَّطَ بينهما . فإن أفضت الوساطة الى صُلْح الخَصْمين لم يلزَمْه إنهاؤها ، وكان شاهدًا فيها ، مَتَى آستُدْعِىَ للشهادة أدَّاها . وإن لم تُفْضِ الوَسَاطة الى صُلْحهما ، كان شاهدًا عليهما فيما آعترفا به عنـده ، يؤدّيه الى الناظر فى المظالم اذا طُلِبَ للشّهادة .

و إن كان التوقيع بالحكم بينهما ، فهـذه ولايةٌ يُراعى فيها معانى التوقيع ، ليكون نظرُه محمولًا على مُوجَبه . واذا كان كذلك فللتوقيع حالتان :

إحداهمـا — أن يحالَ فيـه الى إجابة الخَصْم الى مُلْتَمسه ، فيعتَبَرُ حينئذٍ فيه ما سأل الخَصْمُ فى قِصّته و يصير النظرُ مقصورًا عليه ، فان سأل الوَسَاطةَ أو كشفَ الصورة ، كان التوقيع [مُوجِبا له ، وكان النظرُ مقصورًا عليه . وسواء خَرَجَ التوقيع (١)]

(١) عن الأحكام السلطانية .

مَخْرَجَ الأمر كقوله: "أجبه الى ملتمسه"، أو خَرَجَ مخرج الحكاية كقوله: "رأيك فى إجابته الى ملتمسه مُوَفَّقًا"، لأنه لا يقتضى ولاية يلزم حُكمها، فكان[(١)] أمرُها أخف. وإن سأل المتظلِّم فى قصته الحُكْمَ بينهما، فلا بدّ أن يكون الخَصْم فى القصّة مُسَمًّى والخُصومة مذكورة، لتصِحّ الولاية عليها. فإن لم يُسَمَّ الخصمُ ولم تُذْكَر الخُصومة، لم تصِح [الولاية][(٢)]، لأنها ليست ولاية عامّة فيُحْمَلُ[(٣)] على عمومها، ولا خاصة للجهل بها. وإن سَمّى رافعُ القِصّة خَصْمَه وذكر خُصومتَه، نظر فى التوقيع بإجابته الى ملتمسه: فإن خَرَجَ مَخْرَجَ الأمر فوقّع "أَجِبْه الى مُلْتَمَسِه وٱعْمَلْ بما ٱلتَمَسه" صحّت ولايتُه فى الحكم بينهما، وإن خَرَجَ مَخْرَجَ الحكاية للحال فوقّع "رَأْيك فى إجابته الى مُلْتَمَسه مُوَفَّقًا"، فهذا التوقيع خارجٌ فى الأعمال السُّلطانية مَخْرَجَ الأمر، والعُرْفُ باستعماله فيها معتاد. وأمّا فى الأحكام الدينيّة، فقد جوّزته طائفة من الفقهاء اعتبارًا بٱلعُرْف، ومنعَتْ طائفة أخرى من جَوَازه وٱنعقادِ الولاية به حتى يقترن به أمرٌ تنعقد ولايته به[(٤)]، اعتبارا بمعانى الألفاظ. فلو كان رافعُ القصّة سأل التوقيع بالحكم بينهما فوُقِّع بإجابته الى مُلْتمسه، فمَنْ يَعْتَبِرُ العُرْفَ المعتاد، صحّت الولايةُ [عنده][(٥)] بهذا التوقيع، ومن ٱعتبر معانى الألفاظ لم تَصِحّ [عنده][(٥)] به.

والحالة الثانيــة من التوقيعات — ألّا[(٦)] يُقْتَصَرَ فيه على إجابة الخَصْم الى ماسأل، ويُسْتَأْنَفَ فيه الأمرُ بما تضمنه، فيصير ما تضمنه التوقيع هو المعتبر فى الولاية.

(١) فى الأصل: «وكان ...» ولكن حسن السياق يقتضى ما أثبتناه عن الأحكام السلطانية.

(٢) الزيادة عن الأحكام السلطانية.

(٣) فى الأصل «فيحتمل عمومها» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية.

(٤) كذا فى الأحكام السلطانية. وفى الأصل: «حتى يقترن به أمر ينعقد بولايته».

(٥) زيادة وضعناها لٱستقامة الكلام.

(٦) فى الأصل: «ان لم ...».

وإذا كان كذلك، فله ثلاثةُ أحوال : حال كمالٍ، وحال جَوَازٍ، وحال يخـرُجُ عن الأمرين .

فأما الحال التى يكون التوقيع فيها كاملا فى صحة الولاية، فهو أن يتضمَّن شيئين : أحدهما الأمرُ بالنظر، والثانى الأمرُ بالحُكْم، فيذكر فيه : "أُنْظُرْ بين رافع هذه القِصّة وبين خَصْمه، وٱحكم بينهما بالحقّ ومُوجَب الشرع" . [فاذا كانت كذلك(١)] جاز، لأن الحكم لا يكون إلا بالحقّ الذى يُوجبه حكمُ الشرع . وإنما يُذْكَرُ ذلك فى التوقيعات وصفًا لا شرطًا . فإن كان التوقيع جامعا لهذين الأمرين من النظر والحكم، فهو النظر الكامل، ويَصِحُّ به التقليد والولاية .

وأمّا الحال التى يكون بها التوقيع جائزًا مع قُصُوره عن حال الكمال، فهو أن يتضمّن الأمرَ بالحُكم دون النّظَر، فيَذْكُر فى توقيعه : "أُحكُمْ بين رافع هذه[القصّة(١)] وبين خَصْمه"، أو يقول : "اِقض بينهما"، فتصِحّ الولاية بذلك؛ لأن الحكم بينهما لا يكون الا بعد تَقَدُّم النّظَر، فصار الأمرُ به مُتَضَمِّنًا للنظر، لأنه لا يخلو منه .

وأمّا الحالُ التى يكون التوقيع بها خاليًا من كَمَالٍ وجَوَاز، فهو أن يَذكر فيه : "أُنظر بينهما"؛ فلا تنعقد بهذا التوقيع ولاية، لأن النظر بينهما قد يَحْتَمِلُ الوَسَاطةَ الجائزةَ ويحتملُ الحُكْمَ اللازمَ؛ وهما فى الاحتمال سواء، فلم تنعقد به مع الاحتمال وِلَاية . فإن ذكر فيه : "أُنظر بينهما بالحق" فقد قيل : إنّ الولايةَ به منعقدة، لأنّ الحق مالزم؛ وقيل لا تنعقد به، لأن الصلحَ والوَسَاطة حَقٌّ وإن لم يَلزم .

فهـذه نُبْذَةٌ كافيةٌ فيما يتعلّق بنَظر المظالم . وقد يَقَعُ لهم من الوَقَائع والمُخَاصَمات والقَرَائن مالم نَذْكُرْه، فيُجْرَى الحالُ فيها بحسب الوقائع والقرائن؛ وانمـا هذه أصول سـياسية وقواعد فِقْهيّة فيُحْمَلُ الأمرُ من أشباهها على مِنْوَالها، ويُحْذَى فى أمثالها على مِثَالها . والله المُوَفّق .

(١) التكملة عن الأحكام السلطانية .

الباب الثالث عشر

من القسم الخامس من الفن الثانى فى نظر الحسبة وأحكامها

(١١٠)

قال أبو الحسن الماوردىّ — رحمه الله — : والحِسْبةُ هى أمرٌ بالمعروف اذا ظَهَر تركُه ، ونَهْىٌ عن المنكر اذا ظهر فعلُه . قال الله عز وجل : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) .

ومن شروط ناظر الحسبة أن يكونَ حُرًّا ، عَدْلًا ، ذَا رَأْيٍ وصَرَامةٍ وخُشُونة فى الدِّين ، وعِلْمٍ[1] بالمُنْكرات الظاهرة . واختَلَف الفقهاءُ [من][2] أصحاب الشافعىّ : هل يجوز له أن يحمِلَ الناسَ ، فيما يُنكره من الأمور التى اختَلَف الفقهاءُ فيها ، على رأيه واجتهادِه ، أم لا ، على وجهين :

أحدُهما — وهو قولُ أبى سَعِيدٍ الإصْطَخْرِىّ — أنّ له أن يحمِلَ ذلك[3] على رايه واجتهادِه ؛ فعلى هذا يجب أن يكون المحتَسِبُ عالمًا من أهل الاجتهاد فى أحكام الدين ، ليَجْتَهِدَ رأيَه فيما اختُلِفَ فيه .

والوجه الثانى — أنه ليس له أن يَحْمِلَ الناس على رأيه ولا يقودَهم الى مَذْهبه ، لتسويغ[4] اجتهاد الكافّة فيما اختُلِفَ فيه . فعلى هذا يجوز أن يكون المحتسب من غير أهل الاجتهاد اذا كان عارفًا بالمُنْكَرات المتّفَق عليها .

(١) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : «وعالم ...» .

(٢) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٣) المناسب أن يكون بدل «ذلك» «الناس» .

(٤) فى الأصل : «بتسويغ ...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

ذكر الفرق بين المحتسب والمتطوّع

قال : والفرقُ بين المحتسب والمتطوِّع من تسعة أوجه :

أحدها — أنّ فَرْضَه متعيِّن على المحتسِب بحكم الوِلاية، وفَرْضه على غيره داخلٌ فى فرض الكِفَاية .

والثـانى — أنّ قيام المحتسِبِ به من حُقوق تَصَرُّفه الذى لا يجوز أن يَتَشاغَلَ عنه بغيره؛ وقيام المتطوِّع به من نَوَافل عَمَله الذى يجوز أن يَتَشاغَلَ عنه بغيره . ٥

والثـالث — أنه منسوبٌ الى الآستعداء اليه فيما يجب إنكارُه؛ وليس المتطوّع منسوباً الى الآستعداء .

والرابع — أنّ على المحتسب إجابةَ مَنِ آستعداه؛ وليس على المتطوّع إجابته .

والخامس — أنّ عليه أن يبحَثَ عن المنكَرَات الظاهرة ليصِـلَ الى إنكارها، ويَفْحَصَ عما تُرِكَ من المعروف الظاهرِ ليأمُرَ بإقامته ؛ وليس على المتطوّع بحثٌ ولا فَحْص . ١٠

والسادس — أنّ له أنّ يتّخذ على الإنكار أعوانا ، لأنه عَمَلٌ هو له منصوب، واليه مندوب، ليكونَ له أَقْهر، وعليه أَقْدَر؛ وليس للمتطوِّع أن يَنْدُبَ لذلك عونا .

والسابع — أنّ له أن يُعَزِّرَ فى المنكرات الظاهرة ولا يَتَجَاوَزَ بها الحُدُودَ؛ وليس للمتطوّع أن يُعَزِّرَ عليها . ١٥

والثـامن — أنّ له أن يُرْزَقَ على حِسْبته من بيت المـال؛ ولا يجوز للمتطوّعِ أن يُرْزَقَ على إنكار مُنْكَر .

والتاسع — أنّ له آجتهادَ رأيه فيما تَعلّق بالعُرْف دون الشَّرْع، كالمَقاعد فى الأسواق وإخراج الأجنحة، فيُقرّ ويُنكر من ذلك ما أدّاه اليه آجتهادُه؛ وليس هذا للتطوّع.

فهذا هو الفرق بين متولّى الحِسْبة وبين المتطوّعة، وإن آتّفقَا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ذكر أوضاع الحسبة وموافقتها للقضاء وقصورها عنه وزيادتها عليه، وموافقتها لنظر المظالم وقصورها عنه

قال: وآعلم أنّ الحِسْبة واسطة بين أحكام القَضَاء وأحكام المَظَالم. فأمّا ما بينها وبين القضاء، فهى مُوافِقةٌ للقَضَاء من وجهين، ومُقَصِّرةٌ عنه من وجهين، وزائدةٌ عليه من وجهين.

أما الوجهان فى موافقتها أحكام القضاء — فأحدهُما جوازُ الآستعداء اليه. وسَمَاعُه دَعْوَى المُسْتَعْدِى على المستعدَى عليه[1] من حُقوق الآدميين، وليس فى عموم الدعاوى. وإنما يَخْتَصّ بثلاثة أنواع من الدعوى:

أحدها: أن يكون فيما تَعلّق بتَخْسِيس وتَطْفِيف فى كَيْلٍ أو وَزْن.

والثانى: فيما تعلّق بغِشٍّ أو تَدْلِيس فى مَبِيع أو ثَمَنٍ.

والثالث: فيما تعلّق بمَطْل وتأخيرٍ لدَيْنٍ مُسْتَحِقٍّ مع المَكِنَة. وإنما جاز نظرُه فى هذه الأنواع الثلاثة من الدعاوى دون ما عداها، لتعلّقها بمنكرٍ ظاهر هو منصوبٌ لإزالته، وآختصاصِها بمعروفٍ بيّنٍ هو مندوبٌ الى إقامته. وليس له أن يتجاوزَ ذلك الى الحكم الناجز والفَصْل البات. فهذا أحدُ وَجْهَى الموافقة.

(١) كذا فى الأحكام السلطانية. وفى الأصل: «وسماعه دعوى المستعدى عليه على المستعدى» وهو تحريف.

والوجه الثانى — أنّ له إلزامَ المُدَّعَى عليـه الخُرُوجَ من الحقّ الذى عليـه . وليس هذا على العموم فى كل الحُقوق، وإنما هو خاصٌّ فى الحقوق التى جَازَ له سماعُ الدعوى فيهـا اذا وَجَبتْ بٱعترافٍ وإقرارٍ مع الإمكان واليَسَار، فيُلْزِم المُقِرّ المُوسِرَ الخرُوجَ منها ودَفْعَها الى مُستَحِقِّها، لأنّ فى تأخيره لها مُنكَرًا هو منصوبٌ لإزالته .

وأما الوجهان فى قصورها عن أحكامه :

فأحدهما — قُصُورُها عن سَمَـاع الدعاوى الخارجةِ عن ظَوَاهر المُنْكَرات من الدعاوى فى العقود والمعاملات وسائر الحقوق والمطالبات ، فلا يجوزُ أن يَنْتَـدِبَ لسَمَاع الدعوى ولا أن يَتَعَرَّض للحكم فيها لا فى كثير الحقوق ولا قليلها من دِرْهَمٍ فما دونه، إلا أن يُرَدَّ ذلك اليـه بنَصٍّ صَرِيح [يَزِيد على إطلاق الحِسْـبة (١)] فيجوزُ له . ويصـير بهذه الزيادة جامعًا بين القَضَاء والحِسْبة ، فيُرَاعَى فيه أن يكون من أهـل الٱجتهاد . وإن ٱقْتَصَرَ به على مُطْلَق الحِسْبة، فالقُضَاةُ والحُكّام أحقُّ بالنظر فى قليل ذلك وكثيره .

والوجه الثـانى — أنها مقصورةٌ على الحقوق المُعْتَرَف بها . فأمّا ما تَدَاخَلَه جَحْدٌ وإنكارٌ، فلا يجوز له النظرُ فيها، لأن الحكم فيها يَقِفُ على سَمَاع بَيِّنةٍ وإحلافِ يمين، ولا يجوز للمحتَسِبِ أن يسمعَ بيّنةً على إثبـات حَقٍّ ، ولا أن يُحْلِفَ يَمينا على نَفْيه؛ والقُضاةُ والحُكّام لسماع البينات وإحلافِ الخُصوم أحقُّ .

وأما الوجهان فى زيادتها على أحكام القضاء — فأحدهمـا : أنه يجوز للناظر فيها أن يَتَعَرَّض لتَصَفُّح ما يأمُرُ به من المعروف ويَنْهى عنه من المنكر، وإن لم يَحْضُرْهُ خَصْمٌ مُسْتَعْدٍ؛ وليس للقـاضى أن يتعرض لذلك إلا بعـد حضور خَصْم

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

يجوز له سماعُ الدعوى منه. فإن تعرّض القاضى لذلك فقد خرج عن مَنْصِب وِلايته وصار متجوّزًا فى قاعدة نَظَره .

والثانى — أنّ للناظر فى الحِسْبة من سَلَاطة السُّلْطَنة واسْتِطَالة الحُمَاة فيما تَعَلّق بالمُنْكَرات ماليس للقُضاة؛ لأنّ الحِسْبة موضوعةٌ على الرَّهْبة، فلا يكون خُروجُ المحتسب إليها بالسَّلَاطة والغِلْظة تجوُّزًا فيهـا ولا خُرْقا. والقَضَاء موضوعٌ لمُنَاصَـفَة فهو بالأناة والوَقَار أخصّ، وخُرُوجُه عنهما الى السَّلاطة تجوُّزٌ وخُرْق، لأنّ موضوعَ كلّ واحدٍ من المَنْصِبَين مختلفٌ، فالتجاوُزُ فيه خُروجٌ عن حدّه .

* * *

وأمّا ما بين الحسبة والمظالم — فبينهما شَبَهٌ مُؤْتَلِف، وفَرْقٌ مُخْتَلِف . فأما الشَّبَهُ الجامع بينهما فمن وجهين :

أحدهما — أنّ موضوعَهما على الرَّهْبة المختصّة بسَلاطة السُّلْطنة وقُوّة الصَّرَامة .

والثانى — جوازُ التعرُّض فيهما لأسباب المصالح والتَّطَلُّع الى إنكار العُـدْوان الظّاهر .

وأمّا الفرق بينهما فمن وجهين :

أحدهما — أنّ النَّظَر فى المظالم موضوعٌ لمـا عَجَزَ عنه القُضاة، والنظرَ فى الحِسْبة موضوعٌ لمـا رُفِّهَ عنه القُضاة؛ ولذلك كانت رتبةُ المظالم أعلى، ورتبة الحِسْبة أخفض، وجاز لِوَالِى المظالم أن يُوَقِّع الى القُضاة والمُحْتَسِبَة، ولم يَجُزْ للقاضى أن يُوَقِّعَ الى وَالِى المَظَالم وجاز له أن يُوَقِّع الى المحتسِب، ولم يَجُزْ للمحتسِب أن يُوَقِّعَ الى واحدٍ منهما . فهذا فرق .

والثانى — أنه يجوز لوَالى المظالم أن يحكُمَ، ولا يجوزُ ذلك للمحتسِب .

وحيث قدّمنا هذه المقدّمة فى أوضاع الحِسبة، فلنذكر ماتشتمل عليه ولايتها.

ذكر ما تشتمل عليـــه ولاية نظر الحســـبة وما يختص بها من الأحكام

(١١٢) ونَظَرُ الحسبة يَشتمِلُ على فَصْلين : أحدهما أمرٌ بمعروف، والثـانى نَهْىٌ عن منكر . فأمّا الأمرُ بالمعـروف فينقسم الى ثلاثة أقسام : أحدها ما تَعَلّق بحقوق الله عز وجل . والثانى ما تعلّق بحقوق الآدميّين . والثالث ما كان مشتركا بينهما، على ما سنوضح ذلك .

فأما المتعلق بحقوق الله تعـالى فضربان :

أحدهما ــ ما يلزم الأمر به فى الجَمَاعة دون الانفراد ، كتَرْك الجمعة فى وَطَنٍ مسكون ؛ فإن كانوا عددًا قد اتُّفِقَ على انعقاد الجُمعة بهم كالأربعين فما زاد، فواجبٌ أن يأخُذَهم بإقامتها ويأمرَهم بفِعْلها ويؤدّبَ على الإخلال بها . وإن كانوا عددًا قد اخْتُلِفَ فى انعقاد الجمعة بهم، فله ولهم أربعة أحوال :

إحداها ــ أنْ يَتّفق رأيُه ورأْىُ القوم على انعقاد الجمعة بذلك العدد، فواجبٌ عليه أن يأْمُرَهم بإقامتها، وعليهم أن يُسارعوا الى أمره بها ، ويكون فى تأديبهم على تركها ألْيَنَ منه فى تأديبهم على ترك ما انعَقَدَ الإجماعُ عليه .

والحال الثانية ــ أنْ يَتّفق رأيُه ورأىُ القوم على أنّ الجمعـة لا تَنْعقد بهم، فلا يجوز أن يأمُرَهم بإقامتها ولا بالنهى عنها لو أُقيمتْ .

والحال الثالثة ــ أنْ يرى القومُ انعقادَ الجمعة بهم ولا يراه المُحْتَسب، فلا يجوز له أن يُعارضهم فيها : فلا يأمُرَ بإقامتها لأنه لا يراه، ولا يَنْهى عنها ويمنَعهم مما يرونه فرضًا عليهم .

والحال الرابعة — أن يَرَى المحتسِبُ ٱنعقادَ الجمعة بهم ولا يراه القومُ، فهذا مما فى ٱستمرارِ تركه تعطيل الجمعة مع تَطَاوُل الزمان وبُعْده وكَثْرة العَدَد وزيادته، فهل للمحتسب أن يأمُرَهم بإقامتها اعتباراً بهذا المعنى، أم لا ؟ فقد ٱختلف الفقهاء فى ذلك على وجهين :

٥ أحدهما — وهو قول أبى سَعِيدٍ الإصْطَخْرِىّ — أنه يجوز له أن يأمُرَهم بإقامتها ٱعتباراً بالمصلحة، لئلا ينشأَ الصغيرُ على تَرْكها فيَظُنَّ أنها تَسقُطُ مع زيادة العدد كما تسقُطُ بنُقْصانه ؛ فقد رَاعى زِيَادُ بن أبيه مثلَ هذا فى صَلاة الناس فى جامِعَى البَصْرَة والكُوفة، فإنهم كانوا اذا صَلَّوا فى صَحْنِه فرفعُوا من السُّجُود مَسَحُوا جِبَاهَهم من التُّراب، فأمَرَ بإلقاء الحَصى فى صَحْن المَسْجِد، وقال: لستُ آمَنُ أن يَطُول الزمانُ
١٠ فيَظُنّ الصغيرُ اذا نَشَأ أنَّ مَسْحَ الجَبْهَة من أثر السجود سُنَّةٌ فى الصلاة .

والوجه الثانى — أنه لا يَتَعَرّض لأمرهم بها، لأنه ليس له حَمْلُ الناسِ على ٱعتقاده[1]، ولا أن يأخُذَهم فى الدين برأيه، مع تَسويغ الاجتهادِ فيه، وأنَّهم يعتقدون أنّ نُقْصانَ العدد يمنَعُ من إجزاء الجمعة. فأمّا أمرُهم بصلاة العِيد فله أن يأمُرَهم بها. وهل يكون الأمرُ بها من الحقوق اللازمة أو من الحقوق الجائزة ؟ على وجهين من
١٥ ٱختلاف أصحاب الشافعى فيها : هل هى مسنونةٌ أو من فروض الكِفَاية. فإن قيل: إنها مسنونةٌ، كان الأمرُ بها ندبا ؛ وإن قيل: إنها من فروض الكفاية، كان الأمر بها حتما. فأمّا صَلاةُ الجَمَاعة فى المساجد وإقامةُ الأذان فيها للصلوات، فمن شعائر الإسلام وعلامات مُتَعَبَّداته التى فرق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين دار الإسلام ودار الشِّرْك . فإذا أَجْمَع أهل مَحِلَّة أو بلد على تعطيل الجماعات فى مساجدهم وترك الأذان

٢٠ (١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل «على ٱنعقاده» وهو تحريف .

فى أوقات صَلَوَاتهم، كان المحتسبُ مندوباً الى أمرِهم بالأذان والجماعة فى الصلوات. وهل ذلك واجبٌ عليــه يأثَمُ بتركه، أو مُسْتَحَبٌّ له يُثَابُ على فعله. فأمّا مَنْ ترك صلاةَ الجماعة من آحاد الناس أو تَرَكَ الأذان والإقامة لصلاة، فلا آعتراضَ للمُحْتسب عليه اذا لم يجعله عادةً وإلْفاً، لأنها من النَّدْب الذى يسقُط بالأعذار، إلا أن يَقْتَرِن به آسترابة أو يجعَلَه إلْفاً وعادةً، ويُخَاف تَعَدِّى ذلك الى غيره فى الآقتداء به، فيُرَاعى حكم المَصْلحة فى زَجْره عمّــا آستهان به من سُنَن عبادته. ويكونُ وعيدُه على تَرْكِ الجَمَــاعة معتبَراً بشواهد حاله، كالذى رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لقد هَمَمْتُ أن آمُرَ أصحابى أن يجمَعُوا حَطَباً وآمُرَ بالصــلاة فيُؤَذَّنَ لهــا وتُقامَ ثم أُخالِفَ الى مَنَازل قومٍ لا يحضُرُون الصلاةَ فأُحَرِّقَها عليهم".

* * *

(١١٣) وأما ما يأمُرُ به آحادَ الناس وأفرادَهم، فكتأخير الصــلاة حتى يخرُجَ وقتُها، فيُذَكِّرُ بها ويُؤْمَرُ بفعلها[1]. ويُرَاعِى جواب المأمور عنها، فإن قال: تركتُها لنسيان، حثّه على فعلها بعد ذكره ولم يؤدّبه. وإن تركها لتَوَانٍ أدّبه زَجْرًا وأخذه بفعلها جَبْرًا. ولا آعتراض على من أخّرها والوقتُ باق، لآختلاف الفقهاء فى فضل التأخير. ولكن لو آتّفق أهلُ بلدٍ على تأخير صلاة الجماعات الى آخرِ وقتها والمحتسبُ يرى فضلَ تعجيلها، فهل له أن يأمرَهم بالتعجيل أو لا. فمن رأى أنه يأمرُهم بذلك، راعَى أنّ آعتياد تأخيرها وإطباقَ جميع الناس عليــه مُفْضٍ الى أن الصغير يَنشأ وهو يعتقد أن هذا هو الوقت دون ما قبله؛ ولو عجّلها بعضُهم ترك من أخّرها منهم وما يراه من التأخير.

(١) مرجع الضمير «الفرد».

فأمّا الأذانُ والقُنُوت فى الصَّلَوات اذا خالف فيه رأىَ المحتسب فلا آعتراض له فيه بأمرٍ ولا نهى و إن كان يرى خلافه، اذا كان ما يفعل مُسَوَّغًا فى الآجتهاد. وكذلك الطهارة اذا فَعَلها على وجه سائغ يُخالف فيه[1] رأىَ المحتسب : من إزالة النجاسة بالمائعات، والوضوءِ بماءٍ تَغَيَّر بالمذرورات الطاهرات، أو الآقتصارِ على مَسْح أقلّ الرأس، والعفوِ عن قَدْر الدرهم من النَّجاسة، فلا آعتراضَ له فى شىء من ذلك بأمرٍ ولا نهى . وفى آعتراضه عليهم فى الوضوء بالنبيذ عند عدم الماء وجهان، لما فيه من الإفضاء الى آستباحته على كل الأحوال، وأنه ربما آل الى السكر من شربه . ثم على نظائر هذا المثال تكون أوامرُه بالعُرْف فى حقوق الله تعالى .

* * *

وأما الأمر بالمعروف فى حقوق الآدميين فضربان : عام وخاص .

فأمّا العام ـ فكالبلد اذا تَعَطَّل شِرْبه، أو آستهدم سُوره، أو كان يَطْرُقُه بنو السبيل من ذوى الحاجات فكَفُّوا عن معونتهم، فإن كان فى بيت المال مالٌ، لم يَتَوَجَّهْ عليهم فيه أمرٌ بإصلاح شِرْبهم وبناءِ سُورهم ولا بمعونة بنى السبيل فى الآجتياز بهم، لأنها حقوق تَلزم بيتَ المال دونهم، وكذلك لو آستَهْدَمتْ مساجدُهم وجَوامعُهم. فأما اذا أَعْوَزَ بيتُ المال، كان الأمرُ ببناء سُورهم، وإصلاحِ شِرْبهم، وعِمارة مساجدهم وجوامعهم، ومراعاةِ بنى السبيل فيهم متوجِّهًا الى كافَّة ذوى المَكِنَة منهم ولا يتعيّن أحدُهم فى الأمر به . فإن شَرَع ذوو المَكِنَة فى عمله ومُراعاة بنى السبيل، وباشروا القيامَ به، سَقَط عن المحتسب حقُّ الأمر به . ولا يلزَمُهم الآستئذانُ فى مراعاة بنى السبيل، ولا فى بناء ما كان مهدوما . ولكن لو أرادوا هَدْم ما يريدون بناءه من

(١) فى الأصل : «على وجه سائغ مخالف فيها» وقد أثبتنا ما فى الأحكام السلطانية لوضوح استقامته .

المُسْـتَرِمّ والمُسْتَهْدِم[1] ، لم يكن لهم الإقدام على هدمه إلا باستئذان ولىّ الأمر دون المحتسب، ليأذنَ لهم فى هَدْمه بعد تضمينهم القيامَ بعمارته. هذا فى السُّور والجوامع . وأمّا المساجد المختصرة فلا يَسْتأذِنون فيها. وعلى المحتسب أن يأخذَهم ببناء ما هَدَموه، وليس له أن يأخذهم بإتمام ما آستأنفوه. فأمّا اذا كَفَّ ذَوُو المَكنة عن بناء ما آستَهْدَم، فإن كان المُقام فى البـلد ممكنًا وكان الشِّرْب وإن فَسَد مُقنعا، تَاركَهم وإيّاه . وإن تعذَّر المُقامُ فيه، لتعطُّل شِرْبه وآندحاض سُوره، نُظِرَ : فإن كان البلد ثغرا يَضُرّ بدار الإسلام تعطيلُه، لم يجز لولىّ الأمر أن يُفسِح فى الآنتقال عنه، [وكان حكمه حكم النوازل اذا حَدَثت : فى قيام كافّة ذوى المكنة به][2]، وكان تأثيرُ المحتسب فى مثل هذا إعلامَ السلطانِ به وترغيب أهل المكنة فى عمله . وإن لم يكن البلد ثغرا مُضِرًّا بدار الإسلام، كان أمره أيسر وحكمه أخفّ. ولم يكن للمحتسب أن يأخذ أهله جبرا بعمارته، لأن السـلطان أحقّ أن يقوم بعمارته . وإن أعوزه المـال، فيقول لهم المحتسب : ما دامَ عَجْزُ السلطان عنه أنتم مخيَّرون بين الآنتقال عنه أو آلتزام ماينصرف فى مصالحه التى يمكن معها دوام آستيطانه . فإن أجابوا الى آلتزام ذلك، كلَّف جماعتهم ماتَسْمَح به نفوسهم من غير إجبار، ويقول : ليُخْرِجْ كلّ واحد منكم مايسهُل عليه وتطيب به نفسه ، ومن أعوزه المـالُ أعان بالعمل. حتى اذا اجتمعت كِفَاية المصلحة أو تعين[3] آجتماعها بضَمَان كل واحد من أهل المَكنة قَدْرًا طاب به نفسًا، شَرَعَ حينئذ فى عمل المصلحة وأَخَذَ كلَّ واحد من الجماعة بما آلْتَزَمَ به . وإن عَمّت هذه المصلحة،

(١) المسترم : ما دعا الى رمّته وإصلاحه من البناء . والمستهدم : ما يريد أن يتهدم وينقض .

(٢) وردت هذه الجملة التى بين القوسين فى الأصل هكذا : «وان كان حكمه حكم النوازل اذا حدثت فى قيامه وكافة ذوى المكنة به» وقد أثبتنا ما ورد فى الأحكام السلطانية لآستقامته .

(٣) فى الأحكام السلطانية : «أو ينوح ...» .

لم يكن للمحتسب أن يتقدّم بالقيام بها حتى يستأذِن السلطانَ فيها، لئلا يصير بالتفرُّد مُفْتاتا [عليه](١)، اذ ليست هذه المصلحة من معهود حِسْبته. فإن قلّت وشَقّ آستئذان السلطان فيها أو خِيفَ زيادةُ الضَّرَر لبعد آستئذانه، جاز شروعه فيها من غير آستئذان. هذا أمر العامّ. (١١٤)

٥ فأمّا الخاص — فكالحقوق اذا مُطِلتْ والديون اذا أُخِّرت، فللمحتسب أن يأمُرَ بالخروج منها مع المَكِنة اذا آستَعْداه أصحابُ الحقوق. وليس له أن يَحْبِس عليها، لأن الحبس حكم. وله أن يُلازِم عليها، لأنّ لصاحب الحقّ أن يلازِم. وليس له الأخذُ بنفقات الأقارب، لآفتقار ذلك الى آجتهاد شرعىّ فيمن يجب له وعليه، الا أن يكون الحاكم قد فَرَضها فيجوز أن يأخُذَ بأدائها، وكذلك كَفَالة من تجب كَفالته

١٠ من الصغار لا آعتراض له فيها حتى يحكم بها الحاكم، ويجوز حينئذ للمحتسب أن يأمر بالقيام بها على الشروط المستحقّة فيها.

فأمّا قبول الوصايا والودائع، فليس له أن يأمرَ بها أعيانَ الناس وآحادَهم، ويجوز أن يأمر بها على العموم، حَثًّا على التعاوُن بالبِرّ والتقوى. ثم على هذا المثال تكون أوامره بالمعروف فى حقوق الآدميين.

١٥ ✣ ✣ ✣

وأما الأمر بالمعروف — فيما كان مشتركا بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين كأخذ الأولياء بإنكاح الأيامى من أكفائهن اذا طُلِبْن. وإلزام النساء أحكامَ العِدَد اذا فُورِقْن. وله تأديب مَن خَالَف فى العِدَّة من النساء. وليس له تأديب من آمتنع من الأولياء. ومن نَفَى ولدًا قد ثبت فِراشُ أمّه ولُحُوق نَسَبه، أخَذَه بأحكام الآباء جبرا

٢٠ (١) زيادة عن الأحكام السلطانية.

وعَزّره على النفى أدبا. ويأخذ السَّادةَ بحقوق العبيد والإمَاء، وألّا يُكلَّفوا من الأعمال مالا يُطيقون. وكذلك أربابُ البهائم يأخذُهم بعلُوفتها اذا قَصَّروا فيها، وألا يستعملوها فيما لاتُطيق. ومن أَخَذَ لَقِيطًا فقَصَّر فى كَفَالته، أمرَه أن يقوم بحقوق ٱلتقاطه: من ٱلتزام كفالته أو تسليمه الى من يلتزمها ويقوم بها. وكذلك واجدُ الضَّوَالِّ اذا قَصَّرَ فيها أخَذَه بمثل ذلك من القيام بها أو تسليمها الى من يقوم بها، ويكون ضامناً للضالّة بالتقصير ولا يكون به ضامنا للّقيط. واذا سلّم الضالّةَ الى غيره ضَمِنها، ولا يَضْمَن اللقيطَ بالتسليم. ثم على نظائر هذا المثال يكون أمرُه بالمعروف فى الحقوق المشتركة.

***

وأما النهى عن المنكرات — فينقسم الى ثلاثة أقسام: أحدها ما كان من حقوق الله تعالى. والثانى ما كان من حقوق الآدميين. والثالث ما كان مشتركا بين الحقّين.

فأما النهى عنها فى حقوق الله تعالى — فعلى ثلاثة أقسام: أحدها ما تعلّق بالعبادات. والثانى ما تعلّق بالمحظورات. والثالث ما تعلّق بالمعاملات.

فأما المتعلق بالعبادات — فكالقاصد مخالفةَ هيئتها المشروعة، والمتعمِّد تغييرَ أوصافها المسنونة، مثل من يقصِد الجَهْرَ فى صلاة الإسرار والإسرارَ فى صلاة الجهر، أو يزيد فى الصلاة أو فى الأذان أذكارًا غيرَ مسنونة، فللمحتسب إنكارُها وتأديبُ المعاندِ فيها اذا لم يقُلْ بما ٱرتكبه إمامٌ متبوع. وكذلك اذا أخَلّ بتطهير جَسَده أو ثَوْبه أو موضع صَلاته، أنكره عليه اذا تحقّق ذلك منه، ولا يُؤاخذه بالتُّهَم والظنون. وكذلك لو ظَنّ برجل أنه يترُك الغُسْل من الجَنَابة أو يترُك الصلاةَ والصيامَ، لم يؤاخذه بالتُّهَم ولم يقابله بالإنكار. لكن يجوز له بالتهمة أن يَعِظَ ويُحذِّر من عذاب الله تعالى على

إسقاط حقوقه والإخلال بمفروضاته . فإن رآه يأكل فى شهر رمضان لم يُقْدِمْ على تأديبه إلا بعد سؤاله عن سبب أكله اذا التبست أحواله ؛ فربما كان مريضا أو مسافرًا . ويلزمه السؤالُ اذا ظَهَرت منه أماراتُ الرِّيَب . فإن ذَكَر من الأعذار ما تحتمله حاله ، كَفّ عن زَجْره وأمره بإخفاء أكله ، لئلا يُعَرّض نفسَه للتُّهمة . ولا يلزمه إحلافه عند الاستراية بقوله ، لأنه موكول الى أمانته . وإن لم يذكر عذرًا ، جَاهَرَ بالإنكار عليه وأدّبه أدَبَ زَجْر . واذا عَلِمَ عذرَه فى الأكل ، أنْكَر عليه المجاهرةَ به ، لتعريض نفسه للتُّهمة ولئلا يَقْتَدِىَ به من ذوى الجَهَالة مَنْ لا يميِّز حالَ عُذْره من غيره .

(١١٥)

وأمّا الممتنع من إخراج زكاته ، فإن كان من الأموال الظاهرة ، فعامِلُ الصَّدَقة يأخذها[1] منه جَبْرًا أخَصّ من المُحْتسِب . وإن كان من الأموال الباطنة ، فيُحْتَمَلُ أن يكون المحتسبُ أخَصَّ بالإنكار عليه من عامل الصدقة ، لأنه لا اعتراضَ للعامل[2] فى الأموال الباطنة ؛ ويُحتمل أن يكون العامل بالإنكار عليه أخَصّ ، لأنه لو دَفَعها اليه أجزأه . ويكون تأديبُه مُعتَبَرًا بشواهد حاله فى الامتناع من إخراج زكاته . وإن ذكر أنه يُخْرِجها ، سِرًّا وُكِلَ الى أمانته فيها . وإن رأى رجلًا يتعرّض لمسألة الناس وطَلَبِ الصَّدَقة وعلم أنه غنىّ إما بمال أو عَمَلٍ ، أنكره عليه وأدّبه . ولو رأى عليه آثارَ الغِنى وهو يسألُ الناسَ ، أعْلمه تحريمَها على المستَغْنِى عنها ، ولم يُنْكِرْ عليه ، لجواز أن يكون فى الباطن فقيرا . واذا تعرّض للمسألة ذُو جَلَدٍ وقُوّة على العمل ، زَجَرَه وأمره أن يتعرّض للاحتراف بعَمَله ؛ فإن أقام على المسألة عَزَّره حتى يُقْلِعَ عنها . واذا دَعَت

(١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل « يأخذ منه » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « فانه لا اعتراض على العامل ... » وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

الحالُ، عند إلحاح من حُرِمَتْ عليه [المسألةُ][1] بمالٍ أو عمل، أن يُنْفق على ذى المال جزءًا من ماله، و يؤاجِرَ ذَا العَمَل و يُنفق عليه من أجرته، لم يكن للمحتَسِب أن يفعل ذلك بنفسه؛ لأن هذا حكم، والحُكّامُ به أحقّ، فيرفع أمره الى الحاكم ليتولّى ذلك أو يأذَنَ فيه. واذا وَجَدَ فيمن يَتَصَدَّى للعلوم الشرعيّة من ليس مِنْ أهلها من فقيهٍ أو واعظٍ ولم يأمَنِ ٱغترارَ الناسِ به فى سوء تأويلٍ أو تحريف، أنكر عليه التَّصَدّى لما ليس [هو][1] من أهله، وأَظْهَرَ أمْرَه لئلا يُغْتَرَّ به. و إن أَشْكَلَ عليه أمرُه، لم يُقْدِمْ عليه بالإنكار إلا بعد الٱختبار. وكذلك لو ٱبْتَدَعَ بعضُ المنتسِبين الى العلم قولاً خَرَقَ به الإجماعَ وخَالَفَ النصَّ وردَّ قولَه علماءُ عَصْره[2]، أنكره عليه وزَجَره فإن أَقْلع وتاب، و إلّا فالسلطانُ بتهذيب الدِّين أحقّ. و إذا تفرّد[3] بعض المفسرين لكتاب الله عز وجل بتأويلٍ عَدَل فيه عن ظاهر التنزيل الى باطن بِدْعة بتكلُّفٍ له أَغْمَضَ مَعَانيه، أو ٱنفرد بعضُ الرُّواة بأحاديثَ مَنَاكِيرَ تَنْفِرُ منها النفوسُ أو يَفْسُدُ بها التأويل، كان على المحتسِب إنكارُ ذلك والمنعُ منه. وهذا إنما يصحّ منه إنكارُه اذا تَمَيَّز عنده الصحيحُ من الفاسد والحقُّ من الباطل. وذلك بأحد وجهين: إما أن يكون بقُوّته فى العلم وٱجتهاده فيه، فلا يخفى ذلك عليه؛ و إمّا باتّفاق علماء الوقت على إنكاره وٱبتداعه، فيَسْتَعْدُونَه فيه، فيُعَوِّلُ فى الإنكار على أقاويلهم، وفى المنع منه على ٱتّفاقهم.

✦
✦ ✦

وأمّا ما تعلّق بالمحظورات — فهو أن يمنع الناس من مواقف الرِّيَب ومظانّ التُّهم. فقد رُوِىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "دَعْ مَا يَرِيبُكَ الى

(١) زيادة عن الأحكام السلطانية.

(٢) فى الأصل: «ورد قول علماء عصره أنكر ...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية.

(٣) فى الأحكام السلطانية: «واذا تعرض ...».

مالا يُرِيبك". فيقدّم الإنكارَ، ولا يُعجِّل بالتأديب قبل الإنذار. وإذا رأى وَقْفَةَ رجل مع آمرأة فى طريقٍ سابلٍ لم تَظْهَرْ منهما أماراتُ الرِّيَب، لم يعترضْ عليهما بزَجْرٍ ولا إنكار، فما يجد الناس بُدًّا من هذا. وإن كانت الوقفةُ فى طريقٍ خانٍ، فخُلُوّ المكان ريبةٌ، فينكرها، ولا يُعجِّل فى التأديب عليهما حَذَرًا من أن تكون ذاتَ مَحْرَمٍ. وليُقْلْ: إن كانتْ ذاتَ محرم فَصُنْها عن مواقف الرِّيب، وإن كانت أجنبيةً فخَفِ الله تعالى من خَلْوةٍ تؤدِّيك الى مَعْصِيَةِ الله. وليكن زَجْرُه بحسب الأمارات. وليَسْتَخْبِرْ. فقد حُكِي أنّ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه بينا هو يَطُوف بالبيت اذ رأى رجلًا يطوفُ وعلى عُنُقه آمرأةٌ مثلُ المَهَاة حسناءُ جميلة، وهو يقول:

عُدْتُ لهذى جَمَلًا ذَلُولَا * مُوَطَّأً أَتْبَعُ السُّهُولَا

أَعْدِلُها بالكَفِّ أَنْ تَمِيلَا * أحذَرُ أن تسقُطَ أو تَزُولَا

* أرجو بذاك نائلًا جزيلا *

فقال له عمر: يا عبد الله، مَنْ هذه التى وَهَبْتَ لها حَجَّك؟ فقال: امرأتى يا أمير المؤمنين! وإنها حَمْقاءُ مِرْغامَه، أكُولٌ قامَّه، لا يَبْقَى لها خامَّه(١)، فقال له: مالَكَ لا تطلّقها؟ فقال: إنها حسناءُ لا تُفْرَك، وأُمُّ صِبْيان فلا تُتْرَك، قال: فشأنَكَ بها. فلم يُقْدِمْ عمر رضى الله عنه بالإنكار حتى آستخبره، فلما آنتفت عنه الرِّيبة أقرّه على فعله. (١١٦)

واذا جاهر رجل بإظهار الخمر، فإن كان من المسلمين، أراقها وأدّبه، وإن كان ذِمّيًّا أُدّب على إظهارها، وآختلف فى إراقتها عليه، فذهب أبو حنيفة الى

(١) المرغامة: المغضبة لبعلها. وقامّة: من قمّ ما على الخوان اذا لم يدع عليه شيئا. وخامّة: من خمّ اللحم وغيره اذا تغير وفسد.

أنها [لا][1] تُراق عليه، لأنها عنده من أموالهم المضمونة فى حقوقهم. وذهب الشافعىّ الى إراقتها عليهم، لأنها لا تُضْمَنُ عنده فى حقّ المسلم ولا الكافر.

وأما المجاهرةُ بإظهار النبيذ، فعند أبى حنيفة أنه من الأموال التى يُقَرُّ المسلمون عليها، فمَنَعَ من إراقته[2] ومن التأديب على إظهاره. وعند الشافعىّ أنه ليس بمال كالخمر وليس فى إراقته غُرْم. فيَعتبر ناظرُ الحِسْبة شواهدَ الحال فيه فيَنْهى فيه[3] عن المجاهرة، ويزجُرُ عليه إن كان لمعاقَرة، ولا يُريقه عليه، إلا أن يأمُرَ بإراقته حاكمٌ من أهل الاجتهاد، لئلا يتوجّه عليه غُرْمٌ إن حُوكم فيه.

وأما السكران اذا تظاهر بسُكْره وسَخُفَ بهُجْره، ادّبه على السكر والهجر، تعزيراً لا حدًّا، لقلة مُراقَبته وظهور سُخْفه.

وأما المجاهرة بإظهار المَلاهى المحرَّمة، فعلى المحتَسِب أن يَفْصِلَها حتى تصير خشباً لتخرُج[4] عن حكم الملاهِى، ويؤدّبَ على المجاهرة بها، ولا يَكسِرها إن كان خشبها يصلُح لغير الملاهى.

وأما اللُّعَبُ فليس يُقْصَدُ بها المَعاصى، وإنما يُقْصَد بها إلْفُ البنات لتربية الأولاد، ففيها وجهٌ من وجوه التدبير [تقارنه معصية، بتصوير ذوات الأزواج ومشابهة الأصنام؛ فللتمكين منها وجهٌ، وللمنع منها وجهٌ][1]؛ وبحسب ما تقتضيه

(١) التكملة عن الأحكام السلطانية.

(٢) فى الأصل «اراقتها».

(٣) فى الأصل: «فينهى منه» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية.

(٤) فى الأصل: «تخرج ...» من غير لام، وقد أثبتناها استنادا على الأحكام السلطانية الذى فيه: «لتزول» بدل «تخرج».

شواهد الأحوال يكون إنكاره وإقراره . وقد كانت عائشة رضى الله عنها فى صِغَرها تلعب بالبنات بمَشْهدٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يُنكره عليها .

وأمّا ما لم يظهر من المحظورات[1] ، فليس للمحتسب أن يبحَثَ عنها ولا أن يَهتِكَ الأستار فيها ؛ فقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ أتى من هذه القاذورات شيئا فليَسْتَتِرْ بستْر الله فإنه مَنْ يُبْدِ لنا صَفْحتَه نُقِمْ حَدَّ الله عليه" . فإن آستتر أقوام لآرتكاب محظورٍ يُخْشَى فواتُه مثل أن يُخبره من يثق بصِدْقه أنّ رجلا خَلا برجل ليقتلَه أو آمرأةٍ ليَزْنِىَ بها، فيجوز له فى مثل هذه الحال أن يتجسّس ويُقْدِمَ على الكشف والبحث، حذرًا من فوات ما لا يُستَدْرَك من آنتهاك المحارم وآرتكاب المحظورات . وهكذا لو عَرَف ذلك قومٌ من المتطوِّعة جاز لهم الإقدامُ على الكشف والإنكار . وأمّا ما هو دون هذه الرتبة، فلا يجوز التجسُّس عليه ولا كشفُ الأستار عنه . وإن سَمِعَ أصواتَ مَلَاهٍ مُنكرة من دار تَظَاهَر أهلُها بأصواتهم، أنكرها خارجَ الدار ولم يَهْجُم عليها بالدخول .

وأمّا ما تَعَلَّق بالمعاملات المُنكرة، كالرِّبا والبيوع الفاسدة وما مَنَع الشرعُ منه مع تَرَاضِى المتعاقدين به اذا كان مُتّفقًا على حَظْره، فعلى وَالِى الحِسْبة إنكارُه والمنعُ منه والزجر عليه . وامرُه بالتأديب مُختلِفٌ بحسب الأحوال وشدّة الحَظْر .

فأما ما آختلف الفقهاء فى حَظْره وإباحته، فلا مَدْخَلَ له فى إنكاره، إلا أن يكون مما يَضْعُفُ الخلافُ فيه وكان ذَرِيعةً إلى محظور مُتّفقٍ عليه — كرِبَا النَّقْدَين : الخلافُ فيه ضعيف، وهو ذريعةٌ الى ربا النَّسَاء المتّفق على تحريمه — فهل يدخل فى إنكاره، أم لا . وكذلك فى عقود الأنكحة يُنكر منها ما آتّفق الفقهاء على حَظْرها،

(١) كذا فى الأحكام السلطانية، وفى الأصل : « وأما مالم يظهر بالمحظورات » .

ولا يتعرض لما آختُلف فيه، إلا أن يكون مما ضَعُف الخلافُ فيه وكان ذريعةً الى محظور متفق عليه، كالمُتْعَة فربما صارت ذريعةً الى آستباحة الزنا، ففى إنكاره لها وجهان .

ومما يتعلّق بالمعاملات غِشّ المبيعات وتدليسُ الأثمان، فيُنكره ويمنعُ منه ويؤدّبُ عليه بحسب الحال فيه؛ فقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليس منّا مَنْ غَشّ" وفى لفظ: "مَنْ غَشّنا فليس منّا". فإن كان هذا الغِشّ تدليسًا على المشترى وهو مما يخفَى عليه، فهو أغلظُ الغُبشوش تحريمًا وأعظمُها مأثمًا، والإنكار عليه أغلظ والتأديب أشدّ . وإن كان مما لا يَخْفَى على المشترى، كان أخفّ مأثما وألين إنكارا. وينظر فى المشترى: فإن كان آشتراه لِيَبِيعه من غيره[1]، توجه الإنكار على البائع لغشّه، وعلى المشترى لآبتياعه؛ لأنه قد يبيعه من لم يعلم بغشه[2]؛ وإن كان المشترى اشتراه ليستعمله، خرج من جملة الإنكار، وآختص الإنكار بالبائع وحده . وكذلك فى تدليس الأثمان .

(١١٧)

ويمنَع من تَصْرِية[3] المواشى وتحفيل ضُروعها عند البيع، للنّهْى عنه وأنه نوع من التدليس .

ومما هو عمدة نظره المنعُ من التطفيف والبَخْس فى المكاييل والموازين والصَّنْجات[4]، لوعيد الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا آكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ

(١) فى الأصل وفى نسخة من الأحكام السلطانية يشير اليها هامش التى بأيدينا: «ليبيعه على غيره» . وقد أثبتنا ما فى النسخة التى بأيدينا لأنه هو الذى يقتضيه المقام .

(٢) فى الأصل: «قد يبيعه على من ...» .

(٣) مصدر صرّى الناقة أو الشاة اذا حبس اللبن فى ضرعها ليكثر .

(٤) الصنجة والسنجة والسين أفصح: ما يوزن به كالأوقية والرطل، وجمعها صنجات كما أثبتنا استنادا الى ما فى الأحكام السلطانية وهو الوارد فى كتب اللغة، وفى الأصل: «الصنوج» .

يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) . وليكن الأدبُ عليه أظهر، والمعاقبة فيه أكثر . ويجوز له اذا آستراب بموازين السُّوقة ومَكَاييلهم أن يختبرها ويعايرها[1] . ولو كان على ما عَايَره منها طابعٌ معروفٌ بين العامّة لا يتعاملون إلا به، كان أَحْوطَ وأسلم . فإن فعل ذلك وتعامل قومٌ بغير ما طُبع عليه طابَعُه، تَوَجّه الإنكار عليهم إن كان مبخوسًا، من وجهين : أحدهما مخالفتُه فى العدول عن مطبوعه، وإنكاره لذلك من الحقوق السلطانية . والثانى للبخس والتطفيف، وإنكاره من الحقوق الشرعية . وإن كان ما تَعَاملوا به من غير المطبوع سليماً من بَخْس ونَقْص، فإنكارُه لمجـرَّد حق السلطنة للمخالفة . وإن زوّر قومٌ على طابَعه، كالبَهْرَج على طابع الدنانير والدراهم، فإن قُرن التزويرُ بغشّ، كان التأديبُ مستحقًّا من الوجهين، وهو أغلظ وأشدّ، وإن سلم من الغش كان الإنكار لحق السلطنة خاصّة .

واذا آتّسع البلد حتى آحتاج أهله الى عِدّة من الكيّالين والوزّانين والنُّقّاد، تَخيَّرهم ناظر الحِسبة، ومنع أن يَنْتدِب لذلك إلا من آرتضاه من الأُمناء الثِّقات . وكانت أجورُهم من بيت المـال إن آتّسع لهـا، فإن ضاق عنها قدّرها لهم، حتى لا تجرى [بينهم فيها][2] آستزادةٌ أو نقصان، فيكون ذلك ذريعةً الى المماطلة أو التحيُّف فى مَكيل أو موزون . فإن ظهر من أحدٍ ممن آختاره للكيل والوزن تحيُّفٌ فى تطفيف أو مماطلةٌ فى زيادة، أُدِّبَ وأُخْرِج منهم ومُنِـعَ من أن يَتعرّض للوَسَاطة بين الناس . وكذلك القول فى آختيار الدلّالين، يُقَرّ منهم الأُمناء ويُمنع الخَوَنَةُ .

واذا وقع فى تطفيف تَخَاصُمٌ، جاز أن ينظر المحتسبُ فيه إن لم يقترن به تَجاحُدٌ وتناكُر، فإن أفضى الى تجاحدٍ وتناكر، كان القضاة أحق بالنظر فيه من وُلاة الحِسْبة،

(١) فى الأصل : « ويعتبرها » ، والتصويب عن الأحكام السلطانية .

(٢) زيادة عن الأحكام السلطانية .

لأنهم أحق بالأحكام، وكان التأديبُ فيه الى المحتسب . فإن وَلّاه الحاكم جاز، لاتّصاله بحكمه .

ومما يُنكره المحتسب فى العموم ولا ينكره فى الخصوص والآحاد، التَّبايُعُ بما لم يألفه أهـلُ البلد من المكاييل والأوزان التى لا تُعْرَف فيـه وإن كانت معروفة فى غيره . فإن تَرَاضى بذلك آثنان، لم يعترض عليهما بالإنكار والمنْع، ويمنـع من عموم التعامل بها، لأنه قد يعاملهم فيها من لا يعرِفها فيصير مغرورا .

هذا ما يتعلّق بالنهى فى حقوق الله تعالى .

* * *

وأما النهى فى حقوق الآدميين المحضة — مثل أن يتعدّى رجل فى حد لجاره، أو حريم لداره، أو وَضْع أجذاعٍ على جِداره، فلا آعتراضَ للمحتسب فيه ما لم يَسْتَعْدِه الجار، لأنه حقٌّ يخُصّه يصحّ منه العفو عنه والمطالبةُ به؛ فإن خاصمه فيـه الى المحتسب، نظر فيـه، ما لم يكن بينهما تنازُعٌ وتناكر، وأخَذَ المتعـدَّى بإزالة تعدّيه؛ وكان تأديبه عليه بحسب شواهد الحال . فإنْ تنازعا كان الحاكمُ بالنظر فيه أحقَّ . ولو أقرّ الجارُ جاره على تعدّيه وعفا عن مطالبته بهدم ما تَعَـدَّى فيه ثم عاد وطالب بذلك، كان ذلك له، وأُخِذَ المتعدّى بعد العفو عنه بهدم ما بناه . وإن كان قد آبتدأ البناءَ ووَضَع الأجذاعَ بإذن الجار ثم رَجَع الجار فى إذنه، لم يؤخذ البـانى بهدمه . وإن انتشرت أغصان شجرة الى دار جاره، كان للجار أن يَسْتعدِىَ المحتسبَ حتى يُعـديه على صاحب الشجرة، ليأخذه بإزالة ما آنتشر من أغصانها فى داره؛ ولا تأديبَ عليه لأن آنتشارها ليس من فعله . ولو انتشرت عروق الشجرة تحت الارض حتى دخلت فى قرار أرض الجار، لم يُؤْخَذْ بقَلْعها ولم يُمْنَع الجارُ من التصرُّف

فى قرار أرضه وإن قطعها . واذا نَصَب المالك تَنُّورًا فى داره فتأذَّى الجارُ بدُخَانه، (١١٨)
لم يُعترَض عليه ولم يُمنع منه . وكذلك لو نَصَب فى داره رحًى أو وَضَع فيها حَدَّادِين
أو قَصَّارين، لم يُمنع منه . واذا تَعَدَّى مستأجر على أجير فى نُقْصان أجره أو زيادة
عمل، كَفّه عن تعدّيه؛ وكان الإنكار عليه معتبرا بشواهد حاله . ولو قَصَّر الأجير
٥ فى حق المستأجر فنَقَصَه من العمل أو آستزاده فى الأجرة، منعه منه وأنكره عليه اذا
تخاصما اليه؛ فإن آختلفا وتناكرا، كان الحاكم بالنظر بينهما أحقّ .

ومما يُؤخذ وُلاةُ الحِسْبة بمراعاته من أهل الصنائع فى الأسواق ثلاثةُ أصناف:
منهم من يُرَاعَى عمله فى الوُفور والتقصير، ومنهم من يُرَاعَى حاله فى الأمانة والخِيانة،
ومنهم من يُراعَى عملُه فى الجَوْدة والرَّداءة .

١٠ فأمّا من يُراعَى عمله فى الوفور والتقصير فكالطبّ والتعليم، لأن الطب إقدام على
النفوس يُفضى التقصير فيه الى تَلَف أو سَقَم . وللمعلمين من الطرائق التى يَنشأ الصغار
عليها ما يكون نقلُهم عنه بعد الكِبَر عسيرا (١)، فيقرّ منهم من تَوَفَّر علمه وحَسُنت طريقته،
ويمنع من قَصَّر وأساء من التَّصَدِّى لما تَفْسُد به النفوس وتَخْبُثُ به الآداب .

وأما من يُرَاعى حاله فى الأمانة والخيانة، فمثل الصّاغَة والحاكَة والقَصّارين
١٥ والصبّاغين، لأنهم ربما هَرَبوا بأموال الناس، فيُراعى أهلَ الثقة والأمانة منهم فيُقرّهم
ويُبعد من ظهرت خيانته، ويُشهر أمرَه، لئلا يغترّ به من لا يعرفه . وقد قيل : إن
الحُمَاةَ ووُلاة المَعَاون أخصُّ بالنظر فى أحوال هؤلاء من وُلاة الحسبة؛ وهو الأشبه،
لأن الخيانة تابعة للسَّرِقة .

---

(١) عبارة الأصل : « والمعلمين من الطرائق التى ينشأ الصغار عليها فيكون نقلهم عنه ... » وفيها
٢٠ تحريف واضح . والتصويب عن الأحكام السلطانية .

وأمّا من يراعى عمله فى الجودة والرداءة فهو مما ينفرد بالنظر فيه وُلاة الحسبة. ولهم أن يُنكروا عليهم فى العموم فسادَ العمل ورداءته وان لم يكن فيه مُستَعْدٍ، وأما فى عمل مخصوص آعتمد الصانع فيه الفسادَ والتدليسَ، فاذا آستعداه الخَصْم، قَابَلَ عليه بالإنكار والزجر، وإن تَعَلَّق بذلك غُرْم رُوعِى حال الغرم، فإن آفتقر الى تقدير أو تقويم، لم يكن للمحتسب أن ينظر فيه، لآفتقاره الى آجتهاد حكمىّ، وكان القاضى بالنظر فيه أحقّ. وإن لم يفتقر الى تقـدير ولا تقويم وآستُحِقّ فيه المِثْلُ الذى لا آجتهاد فيـه ولا تنازع، فللمحتسب أن ينظر فيه بإلزام الغُرْم والتأديب.

ولا يجوز أن يُسعَّر على الناس الأقواتَ ولا غيرها فى رُخْصٍ ولا غَلاء، وأجازه مالك — رحمه الله — فى الأقوات مع الغلاء.

***

وأما النهى فى الحقوق المشتركة بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين، فكالمنع من الإشراف على منازل الناس. ولا يَلْزَم مَنْ عَلَّى بناءَه أن يَستُرَ سَطْحه، وإنما يلزمه ألّا يُشرف على غيره. ويُمنع أهلُ الذمة من تعلية أبنيتهم على أبنية المسلمين. فإن ملَكوا أبنية عالية أُقِرُّوا عليها ومُنِعوا من الإشراف منها على المسلمين وأهل الذمة.

ويأخذ أهلَ الذمة بمـا شرط فى ذمتهم[1] من لُبْس الغِيَار والمُخالفة فى الهيئة وترك المجاهرة بقولهم فى عُزَير والمسيح. ويَمنع عنهم من تَعَرَّض لهم من المسـلمين بسبٍّ أو أذى، ويؤدِّب عليه من خالف فيه.

(١) كذا فى الأحكام السلطانية، وفى الأصل: «من ذمتهم».

وإذا كان فى أئمة المساجد السَّابلة والجوامع الحافلة[1] من يُطيل الصلاة حتى يعجزَ الضعفاء وينقطعَ بها ذوو الحاجات، أنكر ذلك؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعَاذٍ حين أطال الصلاة بقومه: "أفَتَّانٌ أنت يامُعاذُ". فإن أقام على الإطالة ولم يمتنع منها، لم يَجُزْ أن يؤدِّبه عليها، ولكن يَستبدل به مَنْ يخفّفها.

٥ وإذا كان فى القُضاة من يَحجُبُ الخصومَ اذا قَصَدوه، ويمتنع من النظر بينهم اذا تحاكموا اليه، حتى تقف الاحكام ويتضرّر الخصوم، فللمحتسب أن يأخذه، مع آرتفاع الأعذار، بما نُدِبَ له من النظر بين المتحاكمين وفَصْلِ القضاء بين المتنازعين، ولا يمنع علوُّ رتبته من إنكار ما قَصَّر فيه.

واذا كان فى سادة العبيد من يستعملهم فيما لا يُطيقون الدوامَ عليه، كان منعُهم

١٠ والانكارُ عليهم موقوفًا على آستعداء العبيد، فاذا آستعدَوْه مَنَعَ حينئذ وزَجَرَ.

وان كان فى أرباب المواشى من يَستعملها فيما لا تُطيق الدوامَ عليه، أنكره المحتسب عليهم ومنعهم منه وإن لم يكن فيه مُستَعْدٍ اليه. فإن آدّعى المالك آحتمالَ البهيمة لما يَستعملها فيه، جاز للمحتسب أن ينظر فيه، لأنه وإن آفتقر الى آجتهاد فهو عُرْفٌ يُرْجَع فيه الى عُرف الناس، وليس باجتهاد شرعىّ. وللمحتسب الآجتهاد

١٥ فى العرف.

وإذا استَعْداه العبد من آمتناع سيِّده من كُسْوته ونَفَقته[2]، جاز له أن يأمره بهما ويأخذه بالتزامهما. ولو استعداه من تقصير سيّده فيهما، لم يكن له فى ذلك نظر ولا إلزام؛ [لأنه يحتاج فى التقدير الى آجتهاد شرعىّ، ولا يحتاج فى الزام[3]] الأصل الى آجتهاد شرعىّ، لأن التقدير غير منصوص عليه [ولزومه منصوص عليه[3]].

٢٠ (١) فى الأصل «والجوامع الحفلة». (٢) فى الأصل «بها» بضمير المفرد.

(٣) التكملة من الأحكام السلطانية.

وللمحتسب أن يمنع أربابَ السفن من حمل ما لا تَسَعه ويُخاف منه غَرَقُهـا . وكذلك يمنعهم من المسير عند اشتداد الريح . واذا حُمِلَ فيها الرجالُ والنساء، حُجِزَ بينهم بحائل . واذا آتّسعت السفن، نُصِبَ للنساء مخارج للبَرَاز لئلا يتبرَّجْن عند الحاجة .

واذا كان فى أهـل الأسواق من يختصّ بمعاملة النساء، رَاعَى المحتسبُ سِيرَته وأمانته، فإذا تَحَقَّقها منه، أقرّه على معاملتهن . وإن ظهرت منه الرِّيبـة وبَانَ عليه الفجور، منعه من معاملتهن، وأدّبه على التعرّض لهن . وقد قيل : إن الحُمَاة وولاة المَعَاون أخصُّ بإنكار هذا والمنع منه من وُلاة الحِسْبة، لأنه من توابع الزنا . وينظُر والى الحسبة فى مقاعد الأسواق، فيُقِرّ منها مالا ضَرَرَ على المارّة فيه، ويمنع ما آستَضَرُّوا به . ولايقف منعُه على الآستعداء اليه .

واذا بنى قوم فى طريقٍ سابلٍ، مَنَعَ منه وإن آتّسع له الطريق، ويأخذُهم بهدم ما بَنَوْه ولو كان المبنىّ مسجدا؛ لأن مَرَافق الطُّرُق للسلوك لا للأبنية . واذا وضع الناس الأمتعة وآلات الأبنية فى مسالك الشوارع والأسواق آرتفاقا لينقُلُوه حالا بعد حال، مُكِّنوا منه إن لم يَستَضِرّ به المـارّة، ومُنِعُوا منه إن آستَضَرُّوا به . وكذلك القول فى إخراج الأجنحة والسوابيط[1] ومجارى المياه وآبار الحشوش[2]، يقرّ مالم يضرّ، ويمنع ما ضرّ . ويجتهد المحتسب رأيَه فيما ضرّ ومالم يضر، لأنه من الآجتهاد العرفىّ [دون الشرعىّ . والفرق بين الآجتهادين أنّ الآجتهاد الشرعىّ ما رُوعى فيـه أصلٌ ثبتَ حكمه بالشرع، والآجتهاد العرفىّ ماروعى فيه أصل ثبت حكمه بالعرف . ويوضح الفرق بينهما بتميز ما يسُوغ فيه آجتهاد المحتسب مما هو ممنوع من الآجتهاد فيه][3] .

(١) السوابيط : جمع ساباط، والساباط : سقيفة بين دارين .

(٢) الحشوش : جمع حش مثلث الحاء، والحش : البستان . يطلق على بيت الخلاء كما هنا لما كان من عادتهم من التغوط فى البساتين .

(٣) زيادة عن الأحكام السلطانية .

ولناظر الحسبة أن يمنع من ينقل الموتى من قبورهم إذا دُفنوا فى ملك أو مباح، إلا من أرض مغصوبة، فيكون لمالكها أن يأخذ مَنْ دَفَنهم فيها بنقلهم منها. وٱختُلف فى جواز نقلهم من أرض قد لَحِقها سَيْلٌ أو نَدًى، فجوّزه الزُّبَيْرِىُّ وأباه غيره. ويمنع من خِصَاء الآدميين وغيرهم. ويؤدّب عليه، وإن ٱستُحِقّ فيه قَوَدٌ أو دِيَةٌ ٱستوفاه لمستحقّه ما لم يكن فيه تناكر وتنازع. ويمنع من خِضَاب الشَّيْب بالسواد إلا لمجاهد فى سبيل الله تعالى. ويؤدّب من يصبغ به[للنساء](٤). ولا يمنع من الخِضَاب بالحِنّاء والكَتَمَ(٥). ويمنع من التكسُّب بالكِهَانة، ويؤدّب عليه الآخِذ والمُعطى.

وهذا فصل يطول شرحُه، لأن المنكرات لا ينحصر عددها فتُسْتَوْفى. وفيما تقدّم منها كِفاية، والأحوال تؤخذ بنظائرها وأشباهها، فلا نطوِّل بسردها.

وفقنا الله وإياك لصالح العمل، وجنّبنا مواردَ الخطأ ومصادر الزلل، وأعان كلَّ والٍ على ما وَلّاه، وكلَّ راعٍ على ما ٱسترعاه، بمَنّه وكَرَمه ولُطْفه.

(١) فى الأصل: «تصنع به» وهو تحريف، والتصويب والزيادة عن الأحكام السلطانية.

(٢) الكتم بالتحريك: من نبات الجبال، ورقه كورق الآس يخضب به مدقوقا وله ثمر كثمر الفلفل.

كمل الجزء السادس من كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب"
يتلوه — إن شاء الله تعالى — فى الجزء السابع الباب الرابع عشر من القسم
الخامس من الفنّ الثانى فى الكتابة وما تفرّع منها

تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ هـ - ٧٣٢ هـ

السفر السادس

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع إستدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

فهرس

السفر السادس

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

القسم الخامس

صفحة

فى الملك وما يشترط فيه وما يحتاج اليه وفيه أربعة عشر بابا

الباب الأول — فى شروط الإمامة الشرعية والعرفية ١

الباب الثانى — فى صفات الملك وأخلاقه وما يفضل به على غيره ... ٥

ذكر شىء من الأقوال الصادرة عن الخلفاء والملوك الدالّة على عظم هممهم وكرم أخلاقهم ٧

الباب الثالث — فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة والنصيحة والتعظيم والتوقير ٩

الباب الرابع — فى وصايا الملوك ١٦

الباب الخامس — فيما يجب على الملك للرعايا ٣٣

ذكر ما قيل فى العدل وثمرته وصفة الامام العادل ٣٣

ذكر ما قيل فى الظلم وسوء عاقبته ٣٩

ذكر ما قيل فى حسن السّيرة والرفق بالرعيّة ٤١

الباب السادس — فى حسن السياسة وإقامة المملكة، ويتصل به الحزم والعزم الخ ٤٣

صفحة

فأما ما قيل فى حسن السياسة أو اقامة المملكة ٤٣

وأما ماقيل فى الحزم والعزم وانتهاز الفرصة... ... ... ٤٥

ذكر ما قيل فى الحلم ٤٨

ذكر أخبار من آشتهر بالحلم وآتصف به ٥٠

ذكر ما قيل فى العفو... ... ... ٥٧

ذكر ما قيل فى العقوبة والآنتقام ٦٥

الباب السابع — فى المشورة وإعمال الرأى والآستبداد الخ ٦٩

ذكر ما قيل فى المشورة وإعمال الرأى ٦٩

ذكر ما قيل فيمن يُعْتَمَدُ على مشورته وبديهته ٧٤

ذكر ما قيل فيمن نُهِىَ عن مشاورته ومعاضدته ٧٦

ذكر ما قيل فى الأناة والرويّة ٧٧

ذكر ما قيل فى الآستبداد وترك الآستشارة وكراهة الإشارة ٧٨

الباب الثامن — فى حفظ الأسرار والحجاب ٨١

ذكر ما قيل فى حفظ الأسرار... ... ... ٨١

ومما قيل فى آستراحة الرجل بمكنون سرّه الى صديقه ٨٤

ومما وُصِف به كتمان السرّ... ... ... ٨٤

ذكر ما قيل فى الإذن والآستئذان... ... ... ٨٦

ذكر ما قيل فى الحجاب ٨٧

ذكر ما قيل فى النهى عن شدّة الحجاب ٩٠

الباب التاسع — فى الوزراء وأصحاب الملك... ... ... ٩٢

ذكر ما قيل فى الوزارة وشروطها وآشتقاقها وما يحتاج الوزير اليه... ... ٩٢

ذكر ما قيل فى آشتقاق الوزارة وصفة الوزير وما يحتاج اليه ٩٣

ذكر صفة الوزارة وشروطها وأقسامها ٩٨

صفحة

ذكر حقوق الملك على وزيره وحقوق الوزير على ملكه ١٢١
فأما حقوق الملك على وزيره فهى ثلاثة ١٢١
وأما حقوق الوزير على سلطانه فثلاثة ١٢٢
ذكر وزارة التنفيذ ١٢٤
ذكر ما تميز به وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وما تختلف فيه ١٢٨
ذكر حقوق الوزارة وعهودها ووصايا الوزراء ١٢٩
أما حقوق الوزارة ١٢٩
وأما عهودها ووصاياها ١٣١
ذكر ما قيل فى وصايا أصحاب السلطان وصفاتهم ١٤١
أما صفاتهم ١٤١
وأما وصايا أصحاب السلطان ١٤٣
ذكر ما يحتاج اليه نديم الملك وما يأخذ به نفسه وما يلزمه ١٤٦
وأما الآداب فى محادثة السلطان ١٤٨
وأما آداب الأكل بين يدى الرئيس ١٥٠
ذكر ماورد فى النهى عن صحبة الملوك والقرب منهم... ... ... ١٥٠
الباب العاشر — فى قادة الجيوش والجهاد ومكايد الحروب ووصف الوقائع
والرباط وما قيل فى أوصاف السلاح ١٥١
ذكر ما قيل فى قادة الجيوش وشروطهم وأوصافهم ووصاياهم وما يلزمهم ١٥١
وأما ما يلزم قائد الجيش ١٥٢
وأما وصايا أمير الجيش ١٦٧
ذكر ما يقوله قائد الجيش وجنده ١٧١
ذكر ما قيل فى المكيدة والخداع فى الحروب وغيرها ١٧٦
ذكر ما ورد فى الجهاد وفضله وترتيب الجيوش وأسمائها الخ ١٨٨
فأما ما ورد فى الجهاد وفضله ١٨٨

صفحة

وأما ما قيل فى أسماء العساكر فى القلة والكثرة وأسماء مواضع القتال ... ١٨٩
وأما أسماء غبار الحرب ١٩٠
وأما ما قيل فى الحروب والوقائع ١٩٠
ذكر ماورد فى الغزو فى البحر... ... ... ١٩٧
ذكر ماورد فى المرابطة ١٩٩
ما ذكر قيل فى السلاح وأوصافه ٢٠٠
ما قيل فى السيف من الأسماء والنعوت والأوصاف... ... ... ٢٠٢
ومن أسماء أجزاء السيف ٢٠٧
ومما يضاف الى السيف... ... ... ٢٠٨
ومن أسماء قِرَابه وآلته ٢٠٩
وأما ما وصفته به الشعراء... ... ... ٢٠٩
وأما ما قيل فى الرمح من الحديث والأسماء والنعوت والأوصاف ٢١٤
أسماء الرمح ونعوته ٢١٥
ومن أسماء ما يعقد عليه ٢١٨
وأما اذا حمله الرجل وطعن به ٢١٨
وأما ما وصفته به الشعراء ٢٢٠
وأما ما قيل فى القوس العربية ٢٢٢
وأما أسماء القوس ونعوتها ٢٢٣
وأما الوتر فمن أسمائه الخ ٢٢٦
وأما أصوات القوس ٢٢٧
ذكر ما قيل فى تركيب القوس ومبدإ عملها الخ... ... ... ٢٢٨
وأما ما قيل فى السهم ٢٣٠
وأما أسماء النصل ٢٣٤
وأما أوعية السهام ٢٣٥

صحيفة

وأما ما وصف به القوس والسهم من النظم والنثر ٢٣٦
ذكر ما قيل فى الجُنَّة ٢٣٩
فأما الترس ٢٣٩
وأما ما وُصِف به حامل الترس ٢٤٠
وأما البيضة وأسماؤها ٢٤٠
وأما ما قيل فى الدرع ٢٤١
الباب الحادى عشر — فى القضاة والحكام ٤٨
الشروط التى تلزم فيمن يتولّى القضاء ٢٤٨
ذكر الألفاظ التى تنعقد بها ولاية القضاء والشروط ٢٥٢
ذكر ما يشتمل عليه نظر الحاكم المطلق التصرّف من الأحكام ٣٥٤
ذكر ما يأتيه القاضى ويذره فى حق نفسه اذا دُعِى للولاية أو خطبها ... ٢٥٨
وأما كاتب القاضى وبطانته ٢٦٠
وأما ما يعتمده فى جلوسه ٢٦١
ذكر شىء مما ورد من الترهيد فى تقلد القضاء ٢٦٣
الباب الثانى عشر — فى ولاية المظالم وهى نيابة دار العدل ٢٦٥
ذكر من نظر فى المظالم فى الجاهلية والإسلام ٢٦٦
ذكر ما يحتاج اليه ولاة المظالم فى جلوسهم لها ٢٧٠
وأما ما يختص بنظر متولى المظالم وتشتمل عليه ولايته فعشرة أقسام ... ٢٧١
ذكر الفرق بين نظر ولاة المظالم ونظر القضاة ٢٧٤
ذكر ما ينبغى أن يعتمده ولاة المظالم عند رفعها اليهم الخ ٢٧٥
بيان أصول الدعوى وما يتخذ فيها : فإن اقترن بالدعوى ما يقوّيها ٢٧٦
وأما إن اقترن بالدعوى ما يضعفها ٢٨١

صفحة

وأما إن تجردت الدعوى من أسباب القوة والضعف ٢٨٤
ذكر توقيعات متولى المظالم وما يترتب عليها من الأحكام ٢٨٧
الباب الثالث عشر — فى نظر الحسبة وأحكامها ٢٩١
شروط ناظر الحسبة ٢٩١
ذكر الفرق بين المحتسب والمتطوع وفيه تسعة أوجه ٢٩٢
ذكر أوضاع الحسبة وموافقتها للقضاء وقصورها عنه وزيادتها عليه الخ ٢٩٣
وأما ما بين الحسبة والمظالم من موافقة ومخالفة ٢٩٥
ذكر ماتشتمل عليه ولاية نظر الحسبة وما يختص بها من الأحكام ... ٢٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع عشر من القسم الخامس من الفن الثانى

فى الكتابة وما تفرع من أصناف الكُتّاب

ولنبدأ باشتقاق الكتابة ، ولم سُمّيت الكتابة كتابة ، ثم نذكر شرفها وفوائدها ، ثم نذكر ما عدا ذلك من أخبار المحترفين بها ، وما يحتاج كلٌّ منهم إليه ، فنقولُ وبالله التوفيق والإعانة :

أصل الكتابة مشتقٌّ من الْكَتْبِ وهو الجمع ، ومنه سُمِّىَ الكتاب كتابا ، لأنه يجمع الحروف ، وسُمِّيت الكَتِيبَةُ كتيبة ، لأنها تجمع الجيش ، وقد ورد فى المعارف : أن حروف المُعْجَمِ أُنزلت على آدم عليه السلام فى إحدَى وعشرين صحيفة ، وسنذكر من ذلك طَرَفا عند ذكرنا لأخبار آدم عليه السلام فى فنّ التاريخ ، فهذا اشتقاقها .

وأما شرفها — فقد نص الكتاب العزيز عليه ، فقال تعالى — وهو أوّلُ ما أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن بغار حِراءٍ[1] فى شهر رمضانَ المعظَّمِ — : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وقال تعالى فى وَصفِ الملائكةِ : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ، الى غير ذلك مِن الآى .

(١) حراء ككتاب وكرحى ، والأخيرة ضعيفة أنكرها بعضهم ، ويؤنث فيمنع من الصرف : جبل بمكة فيه غار تحنث أى تعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى صحيح البخارى أن الذى أنزل من هذه الآى فى حراء الى قوله تعالى : (إقرأ وربك الأكرم) وما هنا موافق لرواية الحافظ أبى عمر الدانى من حديث ابن عباس كما فى إرشاد السارى . ج ١ ص ٨٥ ط بولاق باب كيف كان بدء الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن شرف الكتابة نزولُ الكتبِ المتقدّمة مسطورةً فى الصُّحف كما ورد فى الصحف المنزلة على شيثٍ و إدريسَ ونوحٍ وابراهيمَ وموسى وداودَ وغيرهم صلى الله عليهم كما أخبر به القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ ، وما ورد فى الأخبار الصحيحة والأحاديث الصريحة أنه مكتوب على العرش وعلى أبواب الجنة ما صورته : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وكفى بذلك شرفا . ٥

وأمّا فوائدُها : فمنها رسم المصحف الكريم الموجود بين الدَّفّتين فى أيدِى الناس ، ولولا ذلك لاختُلف فيه ودخل الغلط وتداخل الوهم قلوبَ الناس .

ومنها رَقْمُ الأحاديث المرويَّةِ عن النبى صلى الله عليه وسلم التى عليها بُنِيَت الأحكام ، وتَميِّز الحلال من الحرام ، وضبطُ كتب العلوم المنقولةِ عن أعلام الإسلام وتواريخ مَن انقرض مِن الأنام فيما سَلَف مِن الأيام . ١٠

ومنها حفظُ الحقوق ، ومنعُ تمرُّد ذوى العقوقِ ، بما يقعُ عليهم من الشّهادات ويُسَطَّرُ عليهم من السِجلّات التى أمر اللهُ تعالى بضبطها بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ .

ومنها المكاتَبةُ بين الناس بحوائجهم من المسافات البعيدة ، إذ لا ينضبطُ مثلُ ذلك برسول[1] ، ولا تُنالُ الحاجةُ به بمشافَهةِ[2] قاصدٍ ، ولو كان على ما عساه عليه يكون مِن البلاغة والحفظ لوجود المشَقَّةِ ، وبُعْد الشُّقَّةِ . ١٥

---

(١) فى الأصل : «لرسول» باللام ، ولعل الظاهر ما أثبتنا .

(٢) بعد قوله : «به» زيادة من النسخ اد قوله بعد : بمشافهة قاصد ، يغنى عنه . أو لعلها فيه .

ومنها ضبطُ أحوال الناس، كمناشير الجند، وتواقيع العمّال، وإدرارات أرباب الصِّلات فى سائر الأعمال، إلى ما يجرِى هذا المجرَى، فكان وجودُها فى سائر الناس فضيلةً، وعدمها نقيصةً إلا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانها إحدى معجزاته لأنه صلى الله عليه وسلم أمّىٌّ [أُتى][1] بما أعجز البلغاءَ، وأخرس الفُصحاءَ، وفَلّ حَدّ المؤرّخين من غير مدارَسةِ كتب ولا ممارَسةِ تعليم، ولا مراجَعةٍ لمن عُرف بذلك واشتهر به.

والكتابةُ العربيةُ أشرفُ الكتابات لأن الكتاب العزيز لم يُرْقَم بغيرها خلافا لسائر الكتب المنزَّلة. وهذه الكتابة العربية أوّلُ[2] من اخترعها على الوضع الكوفىّ سكّان مدينة الأنْبَارِ[3]، ثم نُقل هذا القلمُ إلى مكة فعُرف بها، وتعلّمه من تعلّمه، وكثُر فى الناس وتداولوه، ولم تزل الكتابةُ به على تلك الصورة الكوفيّةِ إلى أيام الوزير أبى علىّ بن مُقلةَ[4]، فعرّبها تعريبا غير كافٍ، ونقلها نقلا غيرَ شافٍ، فكانت كذلك إلى أن ظهر علىّ بن هلال الكاتبُ المعروفُ بابن البوّاب[5]، فكمّل تعريبَها، وأحسن تبويبَها، وأبدع نظامَها، وأكمل التئامَها، وحلّاها بهجةً وجمالا، وأولاها بل أولى بها مِنّةً وإفضالا، وألبسها من رَقْم أنامله حُللا، وجلاها للعيون فكان أوّلَ من أحسن فى ترصيعها وترصيفها عملا، ولا زال يتنوّع فى محاسنها، ويتنوّع[6] فى ترصيع عقود

(١) هذه الزيادة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٢) فى الأصل: «فأوّل» والقواعد تقتضى حذف الفاء، ولعلها زيادة من الناسخ.

(٣) هى مدينة على الفرات غربىّ بغداد، بينهما عشرة فراسخ، وكانت الفرس تسميها فيروز سابور، وأوّل من عمرها سابور بن هرمز، ثم جدّدها أبو العباس السفاح أوّل خلفاء بنى العباس.

(٤) هو محمد بن على بن الحسين بن مقلة، وأبو على كنيته.

(٥) ويقال له: ابن السترى أيضا لأن أباه كان بوابا، والبواب يلازم ستر الباب، فلذلك نسب اليه.

(٦) لعله: «ويتنوق» بالقاف المثناة، أى يجوّد ويبالغ.

مَيَامنها ؛ حتى تقرّرت على أجمل قاعدة ، وتحرّرت على أكملِ فائدة ؛ وستزيد ما قدّمناه من هذه الفصول وضوحا وتبيانا ، ونُقيم على تفصيل مُجْمَلِها و بسط مُدْمَجِهَا أدلّةً و برهانا .

[ثم الكتابة بحسب من](١) يحترفون بها على أقسام : وهى كتابةُ الإنشاء ، وكتابةُ الديوان والتصرّف ، وكتابةُ الحُكم والشروط ، وكتابةُ النَّسخ ، وكتابةُ التعليم ؛ ومنهم من عَدّ فى الكتابةِ كتابةَ الشُّرطِ(٢) ، ولم نُرِدْ ذكرَها تنزيها لكتابنا عنها ، ولا حكمةَ فى إيرادها . ٥

ولنبدأْ بذكر كتابة الإنشاء وما يتعلّق بها .

ذكر كتابة الإنشاء وما اشتملت عليه من البلاغة والإيجاز والجمع فى المعنى الواحد بين الحقيقة والمجاز ، والتلعبِ بالألفاظ والمعانى والتوصّل إلى بلوغ الأغراض والأمانى

ولنبدأ من ذلك بوصف البلاغة وحَدِّها والفصاحةِ : ١٠

فأما البلاغة — فهى أن يَبْلُغ الرجل بعبارته كُنهَ ما فى نفســه . ولا يسمَّى البليغ بليغا إلا إذا جمع المعنى الكثيرَ فى اللفظ القليلِ ، وهو المسمَّى إيجازا .

وينقسم الإيجاز إلى قسمين : إيجاز حذف ، وهو أن يُحذَف شىء من الكلام وتدلُّ عليه القرينة ، كقوله تعالى : ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ والمراد أهلَ القرية وكقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ والمراد ولكن البرَّ برُّ من اتقى ، وكقوله تعالى : ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ والمراد من قومه ، وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ والمراد لا يطيقونه ؛ ونظائر هذا وأشباهُه كثير . ١٥

(١) مكان هذه العبارة مطموس بالأصل تتعذر قراءته ، ولعل ما أثبتناه يلائم الغرض المقصود ويصح به التقسيم الآتى .

(٢) الشرط بضم أوّله وفتح ثانيه : جمع شرطىّ كتركىّ وبجهنىّ : طائفة من أعوان الولاة سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها . ٢٠

وإيجاز قَصْرٍ ، وهو تكثيرُ المعنى وتقليلُ الالفاظ ، كقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مما جُمع فيه شرائطُ الرسالة : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ وسَمِع أعرابيّ رجلا يتلوها فسجد وقال : سجدتُ لفصاحته ، ذكره أبو عُبَيْد . وقوله تعالى مما جُمع فيه مكارمُ الأخلاق : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فجمع في ثلاث كلمات بين العُنوانِ والكتابِ والحاجةِ ، وقوله تعالى : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فجمع في هذا على لسان النملة بين النداءِ والتنبيهِ والأمرِ والنهي[1] والتحذير والتخصيص والعموم والإشارة والإعذار ؛ ونظير ذلك ما حُكِي عن الأصمعيّ أنه سمع جاريةً تتكلّم فقال لها : قاتلك الله ، ما أفصحكِ ! فقالت : أَوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

ولما سمع الوليدُ بنُ المُغيرةِ من النبي صلى الله عليه وسلم قولَه تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال : والله إنّ له لحلاوةً[2] ، وإن عليه لطُلَاوة ، وإن أسفله لمُغْدِق[3] ، وإن أعلاه لمُثْمِرٌ ، ما يقول هذا بَشَرٌ .

(١) في الأصل : «والنص» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يستفاد من الكشاف ، والنهي في هذه الآية قوله تعالى : (لا يحطمنكم) .

(٢) في الأصل : (إن له حلاوة) بدون لام ، وما أثبتناه عن الشفاء ج ١ ص ٢٢٠ ط الآستانه والطلاوة بضم الطاء وفتحها : الرونق والحسن .

(٣) كذا في الأصل وفي بعض كتب التفسير ، ومعناه الكثير الماء ، وفي رواية : (لغدق) كما في سيرة ابن هشام . والغدق بكسر الدال : الريان النديّ .

وسمع آخرُ رجلا يقرأ : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْأَسُوا مِنْـهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ فقال : أشهد أنّ مخلوقا لا يقدِر على مثل هذا الكلام .

وقال أبو عثمانَ عمرُو بنُ بحر الجاحـظُ : البيان آسم جامعٌ لكل ما كَشَفَ لك من قِناع المعنى، وهَتَك الحجابَ عن الضمير، حتى يُفضِيَ السامع إلى حقيقة اللفظ ويَهْجُمَ على محصوله كائنا ما كان .

وقيـل لجعفر بن يحيي : ما البيان ؟ فقـال : أن يكون اللّفظ مُحيطا بمعناك كاشِفا عن مَغزاك، وتخرجَه من الشِّرْكة، ولا تسـتعينَ عليه بطول الفكرة، ويكونَ سليما من التّكلّف، بعيـدا من سوء الصنعة، بريئا من التعقيد، غَنيًّا عن التأمّل .

وقال آخرُ: خير البيان ما كان مصرِّحا عن المعنى ليُسرعَ إلى الفهم تلقِّيه، ومُوجَزا ليخِفَّ على اللسان تَعاهدُه .

وقال أعرابيٌّ : البلاغة التقـرُّب من معنى البُغيةِ، والتَّبعُّدُ من وحشيِّ الكلام وقربُ المأخذِ، وإيجازٌ فى صوابٍ، وقصدٌ إلى الحجة، وحُسنُ الآستعارة. قال على رضى الله عنه : البلاغة الإفصاحُ عن حكمة مُستَغْلِقةٍ[1]، وإبانةُ علمٍ مُشكِلٍ .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : البلاغة إيضاح الملتبِسات، وكشفُ عورات الجهالا ـ ، بأحسنِ ما يمكن من العبارات .

* * *

وأما الفصاحة — فهى مأخوذةٌ من قولهم : أَفصح اللبَنُ إذا أُخِذت عنـه الرِّغْوة . وقالوا : لا يسمَّى الفصيح فصيحا حتى تخلُص لغتـه عن اللُّكْنة الأعجميّة ولا توجد الفصاحة إلا فى العـرب . وعلمـاء العرب يزعمون أن الفصاحةَ فى الألفاظ، والبلاغةَ فى المعانى، ويستدلّون بقولهم : لفظ فصيح، ومعنى بليغ .

(١) فى الاصل : « متغلقه » ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة .

ومن الناس من استعمل الفصاحةَ والبلاغةَ بمعنى واحدٍ فى الألفاظ والمعانى والأكثرون عليه .

ذكر صفة البلاغة

قيل لعمرو بن عُبَيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلّغك الجنّة، وعدَل بك عن النار؛ قال السائل[1] : ليس هذا أريد؛ قال : فما بصّرك مَواقعَ رُشدك وعواقبَ غيّك؛ قال : ليس هذا أريد؛ قال : من لم يُحسنْ أن يسكتَ لم يُحسنْ أن يَسْمَعَ، ومن لم يُحسنْ أن يَسمعَ لم يُحسنْ أن يَسألَ ، ومن لم يُحسنْ أن يَسألَ لم يُحسنْ أن يقُولَ؛ قال : ليس هذا أريد؛ قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنّا[2] معشر النبيّين بِكاءٌ » — أى قليلو الكلامِ، وهو جمعَ بكيءٍ — وكانوا يكرهون أن يزيدَ منطقُ الرجل على عقله؛ قال السائل : ليس هذا أريد؛ قال : فكأنك تريد تَخيُّرَ اللفظ فى حُسن إفهام؛ قال : نعم؛ قال : إنّك إن أردت تقريرَ حجّةِ الله فى عقول المتكلمين، وتخفيفَ المؤونة على المستمعين ، وتزيينَ المعانى فى قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسَنة رغبةً فى سُرعة استجابتهم ، ونفِى الشَّواغِلِ عن قلوبهم بالمواعظ الناطقة عن الكتاب والسُّنة كنتَ قد أُوتيت فصلَ الخطاب .

وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال : معرفةُ الوصلِ من الفصلِ . وقيل لآخر : ما البلاغة ؟ قال : ألّا يؤتَى القائلُ من سُوء فهم السامع، ولا يؤتَى السامعُ من سوء بيانِ القائلِ .

(١) هو حفص بن سالم كما فى زهر الآداب . ج ١ ص ٩٤ ط المطبعة الرحمانية .

(٢) كذا فى الأصل . ولم نقف على هذه الرواية فيما لدينا من كتب الحديث ولا غيرها ، ونصه فى كتاب النهاية لابن الأثير " نحن معاشر الانبياء فينا بكاء " وقال فى تفسير البكء بفتح الباء : أى قلة الكلام إلا فيما يحتاج اليه ، يقال : بكأت الناقة والشاة إذا قل لبنها فهى بكء وبكيئة .

وقيل للخليل بن أحمدَ : ما البلاغة ؟ فقال : ما قرُب طَرَفَاه ، وبعُـد منتهاه .

وقيـل لبعض البلغاء : من البليغ ؟ قال : الذى إذا قال أسرَع ، وإذا أسرَع أبدَع وإذا أبدع حرّك كلَّ نفس بمـا أودَع .

وقالوا : لا يستحقّ الكلامُ آسمَ البلاغةِ حتى يكونَ معناه الى قلبك أسبقَ من لفظه إلى سمعك .

وسأل معاويةُ صُحارًا[1] العَبدِىَّ : ما هـذه البلاغة ؟ قال : أن تجيبَ فلا تبطئ وتصيبَ فلا تخطئ[2] .

وقال الفضـل : قلت لأعرابىّ : ما البـلاغة ؟ قال : الإيجـازُ فى غير عجز والإطنابُ فى غير خَطَل .

وقال قُدَامَةُ : البلاغةُ ثلاثةُ مذاهبَ : المساواةُ وهو مطابَقةُ اللفظ المعنى لا زائدا ولا ناقصـا ؛ والإشارةُ وهـو أن يكون اللفظ كاللَّمْحَة الدالّة ؛ والدليـلُ وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، ليظهَرَ لمن لم يَفهمْه ، ويتأكدَ عند من فهِمه .

قال بعض الشعراء :

يَكفى قليـلَ كلامِه وكثيرَه * بيتٌ إذا طال النّضالُ مصيبُ

وقال أحمـد بنُ محمد بنِ عبدِ رَبِّهِ صاحب العقد : البلاغة تكون على أربعة أوجه : تكون باللفظ والخط والإشارة والدِّلالة ، وكل وجه منها له حظ من البلاغة والبيان ، وموضعٌ لا يجوز فيه غيره ، ورُبّ إشارة أبلغ من لفظ .

(١) فى الأصل : (لطحار العدى) وهو خطأ من الناسخ ، والتصويب عن العقد الفريد . ج ١ ص ٢١٤ ط المطبعة العثمانية . (٢) كذا فى الأصل ؛ وقد وردت هذه القصـة فى البيان والتبيين ج ١ ص ٤٤ ط مطبعـة الفتوح الأدبية أكمل مما هنا وأكثر تفصيلا ؛ ولعل المؤلف اختصرها تبعا للعقد الفريد لابن عبد ربه وجريا على عادته فى هـذا الكتاب من اختصار القصص والرسائل بقـدر المسـتطاع ، ولم نرد إيرادها في حواشي الكتاب لطولها .

وقال رجل للعَتّابىّ : ما البلاغة ؟ قال : كلُّ ما أبلغك حاجتك، وأفهمك معناه بلا إعادةٍ ولا حُبْسةٍ ولا آستعانةٍ فهو بليغ؛ قالوا: قد فهمنا الإعادةَ والحُبسة، فما معنى الآستعانة ؟ قال : أن يقول عند مَقاطع الكلام : إسمع منّى، وآفهم عنّى، أو يمسحَ عُثنونه[1]، أو يفتلَ أصابعه، أو يكثرَ التفاتَه، أو يَسعُلَ من غير سُعلة[2]، أو ينبهرَ فى كلامه

قال بعض الشعراء :

مليءَ بِبُهْر والتفاتٍ وسُعلةٍ * ومَسحةِ عُثنونٍ وفتلِ الأصابع

ومن كلام أحمدَ بنِ اسماعيلَ الكاتبِ المعروف بنِطاحة[3]، قال : البليغ من عرف السقيم من المعتلّ، والمقيَّدَ من المطلقِ، والمشتركَ من المفردِ، والمنصوصَ من المتأوَّل، والإيماءَ من الإيحاء، والفصلَ من الوصل، والتلويحَ من التصريح .

ومن أمثالهم فى البلاغة قولهُم : يُقِلّ الحزَّ[4] ويطبِّق المَفْصل . وذلك أنهم شبهوا البليغ الموجِزَ الذى يُقلّ الكلامَ ويصيب نصوصَ المعانى[5] بالجزّار الرفيق الذى يقلُّ حزَّ اللحم ويصيب مفاصله؛ وقولهم : يضع الهِناء مواضع النُّقْبِ، أى لا يتكلّم إلا فيما يجب الكلام فيه[6] . والهِناء : القِطران . والنُّقْب : الجَرَب . وقولهم : قَرطس فلان فأصاب الغـرّةَ، وأصاب عين القرطاس[7] . كلُّ هذه أمثال للمصيب فى كلامه الموجِز فى لفظه .

(١) هو ما نبت على الذقن من الشعر وتحته سفلا، أو هو ما فضل من اللحية بعد العارضين من باطنهما .

(٢) فى الأصل : (يبتهر) بباء موحدة بعدها تاء مثناة؛ ولم نجد فيما بين أيدينا من كتب اللغة من معانيه ما يناسب المقام، ولعله تحريف صوابه ما اثبتنا كما فى العقد الفريد . وينبهر : مطاوع بهره الحمل يبهره : أوقع عليه البهر بضم، الباء وهو تتابع النفس من الإعياء .

(٣) فى الأصل : (ناطحة) بنون بعدها ألف، وهو خطأ من الناسخ؛ والتصويب عن كتاب الوافى، ومعجم الأدباء ج ١ ص ٣٧٧ ط مطبعة هندية وهو أحمد ابن اسماعيل بن ابراهيم بن الخصيب أبو على الكاتب الانبارى .

(٤) فى البيان والتبيين : (ألحز) .

(٥) فى الأصل : « من » والمقام يقتضى الباء كما اثبتنا .

(٦) يقال : قرطس فلان اذا رمى فأصاب القرطاس، ويقال للرمية : مقرطسة .

(٧) هو كل أديم ينصب للنضال؛ وفيه خمس لغات : تثليث القاف، وبكعفر، وكدرهم .

فصول من البلاغة

قيل : لما قدم قُتَيبةُ بن مسلم خُراسانَ واليا عليها، قال : من كان فى يده شىء من مال عبد الله بن حازم فلينبِذْه، ومن كان فى فيه فليلفِظْه، ومن كان فى صدره فلينفُثْه . فعجِب الناس من حُسن ما فصّل .

وكتب المعتصم إلى ملك الروم جوابا عن كتاب تهدّده فيه : الجواب ما ترى لا ما تسمع ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1] . ٥

وقيل لأبى السَّمّال[2] الأسدىّ أيام معاوية: كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف، وظالم لا ينتهى . وقيل لشبِيب بن شبّةَ عند باب الرشيد : كيف رأيت الناس ؟ قال : رأيت الداخل راجيا، والخارجَ راضيا .

وقال حسّانُ بن ثابت فى عبد الله بن عباس رضى الله عنهم : ١٠

إذا قال لم يـــترك مقـالا لقائل * بملتقَطات لا ترى بينها فضـــلا[3]

كَفَى وشَفَى ما فى النفوس فلم يَدع * لذى إربة فى القول جِدًّا ولا هَزلا

قال سهل بن هارون : البيان تَرجُمـان العقول ، وروض القلوب ؛ البـلاغةُ ما فهمته العامّةُ، ورضيَته الخاصّةُ؛ أبلغ الكلام ما سابق معناه لفظَه ؛ خير الكلام ما قلّ وجلّ، ودلّ ولم يُمَلّ؛ خير الكلام ما كان لفظه فحلا، ومعناه بِكرا . ١٥

(١) الكافر بالإفراد قراءة الحرمين وأبى عمرو كما فى تفسير الألوسىّ .

(٢) فى الأصل : «ابن السماك الأسدى» ولم نقف عليه فيما بين أيدينا من المظان ، ولعله تحريف صوابه ما اثبتناه كما فى شرح القاموس والشعر والشعراء فى ترجمة النجاشى؛ وفى المشتبه للذهبى : (أبو سمال) بدون تعريف .

(٣) كذا فى الأصل بالضاد المعجمة . وفى رواية(فصلا) بالصاد المهملة كما فى ديوان الشاعر والبيان والتبيين؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . ٢٠

وقال ٱبن المعتزّ : البلاغة أن تبلُغ المعنى ولم تُطِل سَفَرَ الكلام ؛ خير الكلام ما أسفر عن الحاجة ؛ أبلغُ الكلام ما يؤنِس مَسمَعَه ، و يوئس[1] مضيَّعُه ؛ أبلغ الكلام ما حسُن إيجازُه ، وقلّ مجازُه ، وكثر إعجازُه ، وتناسبت صدورُه وأعجازه ؛ البلاغة ما أشار اليه البحترىُّ حيث قال :

٥ وركِبن اللّفظَ القريب فأدرَكن* به غاية المرادِ البعيدِ

جمل من بلاغات العجم وحِكمها

قال أبْرويزُ لكاتبه : إذا فكّرت فلا تَعجل ، و إذا كتبت فلا تستعِنْ بالفضول فإنها عِلاوةٌ على الكفاية ، ولا تقصِّرن عن التحقيق فإنها هُجْنة فى المقالة ، ولا تُلبسن كلاما بكلام ، ولا تباعدنّ معنى عن معنى ، وٱجمع الكثير مما تريد فى القليل مما

١٠ تقول . ووافق كلامه قولَ ٱبن المعتزّ : ما رأيت بليغا إلا رأيت له فى المعانى إطالةً وفى الألفاظ تقصيرا . وهذا حثٌّ على الإيجاز . وقال أبرويزُ أيضا لكاتبه : اعلم أن دعائم المقالات أربع إن التُمِس إليها[2] خامسةٌ لم توجد ، و إن نقص منها واحدةٌ لم تتمّ وهى : سؤالك الشىءَ ، وسؤالُك عن الشىءِ ، وأمرك بالشىء ، وخَبَرُك عن الشىء ؛ فإذا طلبتَ فأنجِح . و إذا سألتَ فأوضِح ، و إذا أمرتَ فأحكِم ، و إذا أخبرتَ فحقّق .

١٥ وقال بَهرام جُور : الحُكْم ميزان الله فى الأرض . ووافق ذلك قولَ الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ وقال أنو شِروانُ لٱبنه هُرْمُز : لا يكون عندك لعمل البِرّ غايةٌ فى الكثرة ، ولا لعمل الإثم غايةٌ فى القلّة . ووافق من كلام العرب قولَ الأفوه :

والخير تزداد منه ما لقيتَ به * والشر يكفيك منه قلّما زادَ

(١) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا : «و يونس مصيغه» وهو تحريف ، والتصويب عن زهر الآداب . يريد وصف الكلام بأنه عزيز نادر ، فالذى يضيع منه و يفوت يوئس طالبه من أن يجد مثله .

(٢) كذا فى الأصل . وكأنه يريد : إن التمس ضمّ خامسة إليها . وفى رواية : «لها» .

وقال أَزْدَشِير بن بابِكَ : من لم يرض بمـا قسم الله له طالت مَعتبتُـه، وفحُش حِرصُه، ومن فحَش حِرصه ذلّت نفسُه، وغَلب عليه الحسد، ومن غَلب عليه الحسدُ لم يزل مغموما فيما لا ينفعه، حزينا على ما لا ينـالُه . وقال : من شغل نفسه بالمنى لم يَخْلُ قلبه من الأسى .

وقال بعضهم : الحقوق أربعة : حقٌّ لله ، وقضاؤه الرضا بقضائه، والعـملُ بطاعته، وإكرامُ أوليائه؛ وحقٌّ لنفسك ، وقضاؤه تعهُّدها بمـا يُصلحها ويُصحُّها ويَحسِم موادَّ الأذى عنها؛ وحقّ للنّـاس ، وقضاؤه عمومُهـم بالمودّة، ثم تخصيصُ كلِّ آمرئ منهم بالتوقير والتفضيل والصِّلة؛ وحقّ للسلطان، وقضاؤه تعريفُه بمـا خَفِيَ عليه من منفعة رعِيَّةٍ، وجِهادِ عدوٍّ، وعمارةِ بلد، وسدِّ ثغر . وقال بُزُرْجِمِهْر: إلزام الجهول الحجّةَ يسير، وإقراره بها عسير .

[صفة الكاتب(١)] وما ينبغى أن يأخذ به نفسه

قال إبراهيم بن محمد الشيبانىُّ : من صفة الكاتب آعتدالُ القامة، وصغرُ الهـامة وخفةُ اللّهازِم(٢)، وكافةُ اللحية، وصـدقُ الحسّ، ولطفُ المذهب، وحلاوةُ الشمائل وخطفُ الإشارة، وملاحةُ الزِّىّ . وقال : من كمال آلة الكاتب أن يكون بهىَّ الملبس، نظيفَ المجلس، ظاهرَ المروءة، عَطِرَ الرائحة، دقيقَ الذهن، صادقَ الحِسّ حسَنَ البيان، رقيقَ حواشى اللسان، حلوَ الإشارة، مليحَ الآستعارة، لطيفَ المسـلك مُستفْرِهَ(٣) المركَب، ولا يكون مع ذلك فَضْفاضَ الجُثَّة، متفاوتَ الأجزاء، طويلَ اللحيـة

(١) موضع هذه العبارة مطموس بالأصل، ولعل ما أثبتناه يطابق ما يأتى فى أول الفصل .

(٢) اللهازم : أصول الحنك، واحده لهزمة . يريد بخفتها قلة الشعر النابت عليها بدليل ما بعده .

(٣) اسم مفعول من قولهم : فلان يستفره الأفراس، أى يستكرمها .

عظيمَ الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورةَ لا يليق بصاحبها الذكاءُ والفطنةُ .

قال بعض الشعراء :

وشَمول كأنما ٱعتصروها * من معانى شمائلِ الكُتَّاب

هذا ما قيل فى صفة الكاتب .

٥

* * *

وأما ما ينبغى للكاتب أن يأخذ به نفسه، فقد قال إبراهيم الشيبانىّ : أوّل ذلك حسنُ الخط الذى هو لسان اليد، وبهجةُ الضمير، وسفيرُ العقول، ووحىُ الفكر، وسلاحُ المعْرفة، وأنسُ الإخوان عند الفُرقة، ومحادَثتهم[1] على بُعد المسافة ومستودَعُ السرّ، وديوانُ الأمور .

١٠ وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ : إنه الخطّ الحسن .

وقد ٱختلف الكتّاب فى نَقْطِ الخطّ وشكْلِه، فمنهم من كرِهه

قال سعيد بن حُمَيْد الكاتب :

لَأن يُشْكِلَ الحرفُ على القارئ أحبُّ إلىّ من أن يعابَ الكاتب بالشكل .

وعُرِض خطٌّ علَى عبد الله بن طاهر فقال : ما أحسنه لولا أنه أكثر شُونيزه[2]

١٥ ونظر محمد بن عبّاد إلى أبى عُبَيْدٍ وهو يقيِّد البسملة فقال: لو عَرفتَه ما شكَلْتَه .

ومنهم من حمِده فقال : حلُّوا عواطلَ الكتب بالتقييد، وحصِّنوها من شُبَهِ التصحيف والتحريف .

وقيل : إعجامُ الكتب يَمنع من ٱستعجامها[3]، وشكلُها يصونها عن إشكالها .

(١) فى الأصل : (محاز يتهم) وهو تحريف، والتصويب عن صبح الأعشى ج ٣ ص ٦ ط دار الكتب المصرية .

٢٠ (٢) الشونيز والشينيز : الحبة السوداء، وقيل هو فارسى الأصل . شبه نقط الحروف به .

(٣) فى الأصل : (استعجابها) بالباء، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه المقام .

قال الشاعر[١] :

وكأنّ أحرُفَ خطّه شجرٌ * والشكلُ فى أغصانه ثمرُه[٢].[٣]

* * *

وأما ماقيل فى حسن الخطّ وجَودةِ الكتابة ومدح الكُتّاب والكِتاب .

قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الخط الحسَن يزيد الحقَّ وضوحا . ٥

وقال : حُسن الخطّ إحدى البلاغتين .

وقال عُبيد الله بنُ العباس : الخط لسان اليـدِ . وقال جعفر بن يحيى : الخطّ سِمْطُ[٤] الحكمة ، به تُفصَّل شذورُها ، ويَنتظم منثورُها ؛ وقال أبو هلال العسكرىُّ :

الكَتْبُ عَقْلُ شوارد الكلم * والخطّ خيْـط فى يد الحِكَم

والخطّ نظَّم كلَّ منتـثر * منها وفَصَّل كلَّ منتظم ١٠

والسيفُ وهو بحيث تعرفه * فرضٌ عليـه عبادةُ القـلم .

وقد آختلف الناس فى الخطّ واللفظ ، فقال بعضهم : الخطّ أفضلُ من اللفظ لأن اللفظ يُفْهِم الحاضرَ ، والخطُّ يُفْهِم الحاضرَ والغائبَ .

قالوا : ومن أعاجيب الخطّ كثرةُ آختلافه والأصلُ فيه واحدٌ ، كاختلاف صور الناس مع آجتماعهم فى الصِبغة . قال الصُّولى[٥] : سئل بعض الكتّاب عن الخطّ متى ١٥

(١) هو أحمد بن اسماعيل نطاحة ، كما فى أدب الكتّاب .

(٢) فى أدب الكتّاب : «أضعافها» .

(٣) فى الأصل : (ثمر) بدون هاء الضمير ، والصواب اثباتها كما فى أدب الكتّاب ليوافق البيت قبله وهو : مستودع قرطاسـه حكما * كالروض ميز بينه زهره

(٤) السمط بالكسر : خيط النظم ، وجمعه سموط . ٢٠

(٥) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول ؛ وصول هذا رجل من الأتراك اليه ينسب أبو بكر المتقدّم لا الى صول البلد المعروف .

يستحقّ أن يوصف بالجَودةِ ؟ قال : اذا آعتدلت أقسامُه ، وطالت ألفه ولامُه ؛ وآستقامت سطورُه ، وضاهى صعودَه حدورُه ؛ وتفتّحت عيونُه ، ولم تشتبه راؤه ونونُه ؛ وأشرق قرطاسُه ، وأظلمت أنقاسُه[1] ، ولم تختلف أجناسُه ؛ وأسرع الى العيون تصوّرُه ، والى القلوب ثمرُه[2] ؛ وقُدّرت فصولُه ، [وآندمجت وُصولُه[3] ، وتناسَبَ دقيقُه وجليلُه] ؛ وتساوت أطنابُه ، وآستدارت أهدابُه ؛ وخرج عن [نَمَطِ[4] الورّاقين] ، وبعُد عن تصنُّع المحرّرين ؛ [وقام لكاتبه[5] مقام النِسبة والحِلية] وكان حينئذ كما قلتُ فى صفة الخطّ :

اذا ما تَخلَّل قرطاسَه * وساوره القلمُ الأرقَشُ[6]

تَضمَّن من خطِّه حُلّةً * كمثل الدنانير أو أنقَشُ

حروف تكون لعين الكَليلِ * نشاطا ويقرؤها الأخفَشُ[7]

وقال آبن المعتزّ :

إذا أَخذ القرطاسَ خِلتَ يمينَه * تُفَتِّح نَوْرا أو تنظِّم جوهرا

وقيل لبعضهم : كيف رأيت ابراهيمَ الصُّولىَّ؟ فقال :

يؤلِّف اللُّؤلؤَ المنثورَ مَنْطِقُه * وينظِم الدرَّ بالأقلام فى الكتب

---

(١) جمع نِقس بالكسر، وهو المداد .

(٢) فى الأصل : (ثمره) ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة بالمعنى المناسب لما هنا ، وما أثبتناه عن أدب الكتّاب ص ٥٠ ط المطبعة السلفية .

(٣) موضع هذين الفقرتين مطموس بالأصل ، وما نقلناه عن أدب الكتّاب .

(٤) موضع هذه العبارة مطموس بالأصل تتعذر قراءته ، وما نقلناه عن أدب الكتّاب .

(٥) الزيادة عن أدب الكتّاب .

(٦) الأرقش من الأفاعى : ما فيه نقط سواد و بياض ، شبه به القلم فى قوّة فعله و بلوغ أثره ؛ أو هو من رقش الكتاب اذا كتبه وزينه .

(٧) الأخفش : الضعيف البصر، وهو من باب فرح .

وقال آخرُ[1] :

أضحكْتَ قرطاسَك عن جَنَّةٍ * أشجارها من حكَم مثمره
مسودَّة سطحا ومبيضَّة * أرضا[2] كمثل الليلة المقمره

وقال آخرُ :

كتبتَ فلَوْلَا أنَّ هذا مُحلَّلٌ * وذاك حرامٌ قستُ خطَّك بالسحر
فوالله ما أدرى أزهرُ خميلةٍ * بِطِرْسِكَ أم درّ يلوح على نحر
فان كان زهرا فهو صنع سحابة * وإن كان درّا فهو من لُجج البحر

وقال آخرُ :

وكاتبٍ يرقُم فى طِرسِه * روضا به ترتع ألحاظُه
فلدرّ ما تنظِم أقلامُه * والسحر ما تنثُرُ ألفاظُه

وقال آخرُ :

وشادنٍ من بنى الكُتَّاب مقتدر * على البلاغة أحلى الناسِ إنشاءَ
فلا يجاريه فى مَيْدانه أحد * يريك سَحبانَ فى الإنشاء إنشاءَ

وقال آخرُ :

إن هزَّ أقلامَه يوما لِيُعْمِلَهَا * أنساك كلَّ كمىٍّ هزَّ عاملَه[3]
وإن أمرَّ على رَقٍّ[4] أنامله * أقرّ بالرِقّ كتَّاب الأنام له

(١) هو أحمد بن اسماعيل المعروف بنطاحة كما فى أدب الكتاب .

(٢) فى أدب الكتب : «أيضا» .

(٣) عامل الرمح وعاملته : صدره .

(٤) الصحيفة البيضاء ، وجلد رقيق يكتب فيه .

وقال أبو الفتح كُشاجِمُ :

وإذا تمنمت بنانُك خطًّا * مُعْرِبًا عن بلاغة وسَدادِ

عَجِب الناسُ من بياض معانٍ * تُجتنَى من سواد ذاك المِدادِ

وقال الممشوق الشامىّ[1] شاعر اليتيمة :

لا يُخْطِر الفكرَ فى كتابته * كأنّ أقلامَه لها خاطر

القولُ والفعل يجريان معا * لا أوّلٌ فيهما ولا آخر

قال أبو عثمانَ عمرو بن بحر الجاحظ : الكتاب نعم الذُّخر والعُقْدة[2]، ونعم الجليس والعمدة، ونعم النُّشْرة[3] والنُّزْهة، ونعم المستغَلُّ والحِرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوُحدة ونعم المعرفة ببلاد الغُرْبة ، ونعم القَرين والدَّخيل، والوزيرُ والنَّزيل ؛ والكتاب وِعاء مُلِئ علما، وظَرْف حُشِيَ ظَرْفا، وإناء شُحِنَ مُزاحا وجِدّا ، إن شئتَ كان أبْيَنَ من سحبانِ وائل، وإن شئتَ كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ ضحكتَ من نوادره وعجِبتَ من غرائب فوائده، وإن شئت أَلْهَتْكَ نوادرُه، وإن شئت شَجَتْك مواعظُه ومَنْ لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجر مُغْرٍ، وبناسك فاتك، وناطقٍ أخرسَ، وبارد حارّ ومن لك بطبيب أعرابىّ، وبرومىّ[4] هندىّ، وفارسىّ يونانىّ، وبقديم مُوَلَّد، وبميت مُمتِع، ومن لك بشىء يجمع لك الأوّلَ والآخرَ، والناقصَ والوافرَ، والشاهدَ والغائبَ

(١) كذا فى يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٢١ ط المطبعة الحفنية . وفى الأصل : «المشوق» ، وهو لقب الشاعر ، قال فى اليتيمة : ولم أتحقق اسمه . والصواب فى نسبة هذين البيتين أنهما لعبد المحسن بن محمد الصورى كما فى اليتيمة ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) هى كل ما يستوثق الانسان به لنفسه ويعتمد عليه ، وأصله من العقدة بمعنى الحائط الكثير النخل وكأن الرجل اذا جمع ذلك فقد أحكم أمره عند نفسه واستوثق منه .

(٣) النشرة بالضم : الرقية التى يعالج به المجنون والمريض ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما كان خامره من الداء ، أى يكشف ويزال .

(٤) فى المحاسن والأضداد : (وروى) باسقاط الباء ، ولعله أظهر .

والرفيعَ والوضِيع، والغثّ والسمين، والشكلَ وخلافَه، والجنس وضدّه؛ وبعد: فمتى رأيت بستانا يُحمَلُ فى رُدْن[(١)]؟ وروضةً تُقلَّب فى حِجر؟ ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحيا، ومن لك بمؤنس لا ينام إلّا بنومك، ولا ينطق إلّا بما تهوَى، «آمن من الأرض» وأكتمُ للسر من صاحب السرّ، وأضبطُ لحفظ الوديعة من أرباب الوديعة، وأحضر لما آستُحفِظ من الأمّيين، ومن الأعراب المعْرِبين، بل من الصِّبيان قبل آعتراض الأشغال، ومن العُميان قبل التمتُّع بتمييز الأشخاص، حِينَ العنايةُ تامة لم تُنتقَصْ والأذهانُ فارغة لم تُقتَسَمْ، والإراداتُ وافرة لم تستعتب[(٢)]، والطينةُ لينة فهى أَقْبَلُ ما تكون للطابَع، والقضيبُ رَطْب فهو أقرب ما يكون للعُلُوق، حينَ هذه الخصالُ لم يُلبَس جديدُها، ولم تتفرّقْ قواها، وكانت كقول الشاعر:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلبى فارغا فتمكّنا

وقال ذو الرُّمّة لعيسى بن عمرَ: أُكتُبْ شعرى، فالكتاب أعجب إلىّ من الحفظ لأن الأعرابىّ يَنسَى الكلمةَ قد تعب فى طلبها يوما أو ليلةً، فيضع موضعَها كلمة فى وزنها لم يُنشِدْها[(٣)] الناس، والكتّابُ لا يَنسى ولا يبدِّل كلاما بكلام. قال: ولا أعلم جارا أبرَّ، ولا خليطا أنصَفَ، ولا رفيقا أطوعَ، ولا معلّما أخضَعَ، ولا صاحبا أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ خيانةً، ولا أقلّ إبراما وإملالا، ولا أقل خلافا وإجراما ولا أقلّ غِيبةً، ولا أكثرَ أُعجوبةً وتصرّفا، ولا أقلَّ صَلَفاً وتكلُّفا، ولا أبعدَ من مِراء، ولا أتركَ لشَغْب، ولا أزهدَ فى جدال، ولا أكَفَّ عن قتال من كتاب؛ ولا أعلمُ شجرةً أطولَ عمرا، ولا أجمعَ[(٤)] أمرا، ولا أطيبَ ثمرةً، ولا أقربَ مُجتَنًى

(١) الردن بالضم: أصل الكم جمعه أردان. (٢) كذا فى الأصل. ولعله: «تتشعب».

(٣) لم ينشدها الناس، يريد أن الكلمة التى يضعها لم تسر فى الناس ولم يرووها، ولم يكن قبل قد أنشدها إياهم. وفى رواية: "ثم ينشدها" بالثاء المثلثة.

(٤) كذا فى الأصل. ولم ترد هذه العبارة ضمن كلام الجاحظ فى كتابه المحاسن والأضداد.

ولا أسرعَ إدراكا، ولا أوجَدَ فى كل إبَّانٍ[1] من كتاب؛ ولا أعلمُ نَتاجا فى حداثة سنّه وقربِ ميلاده، وحضورِ ذهنه، و إمكانِ موجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلومِ الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلادِ المتراخية، والأمثالِ السائرة، والأممِ البائدة ما يجمع الكتاب؛ وقد قال الله تبارك آسمه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فوصف نفسه تعالى جَدّه بأن علّم بالقلم، كما وصف به نفسه بالكرم، وآعتدّ بذلك من نعمه العظام، وفى أياديه الجِسام.

ذكر شىء مما قيل فى آلات الكتابة

قال ابراهيم بن محمد الشَّيبانىُّ فيما يحتاج إليه الكاتب:

من ذلك أن يصلح الكاتب آلته التى لا بدّ منها، وأداتَه التى لا تتمّ صناعتُه إلا بها، وهى دواته، فليُنعِم[2] رَبَّها و إصلاحها، ثم يتخير من أنابيب[3] القصب أقلّه عُقَدًا وأكثفَه لحما، وأصلَبَه قشرا، وأعدلَه آستواءا، ويجعل لقرطاسه سكّينا حادّا لتكون عونا له على برى أقلامه، ويَبريها من جهة نبات القصبة، فانّ محلّ القلم من الكاتب كمحلّ الرمح من الفارس. وقد خَصَّ الفضلاءُ القلمَ بأوصاف كثيرة، ومزايا خطيرة فلنذكر منها طَرَفا.

(١) إبان كل شىء: وقته وحينه الذى يكون فيه.

(٢) أنعم العمل: أجاده، يقال: اذا عملت عملا فأنعمه.

(٣) فى الأصل: من (الأنابيب) بزيادة «ال» والصواب حذفها كما تقتضيه القواعد.

ذكر شيء مما قيل فى القلم

قال الله تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وقال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ .

وقال الحكماء : القلم أحد اللسانين، وهو المخاطِب للعيون بسرّ القلوب .

وقالوا : عقول الرجال تحت أسنّة أقلامها . بِنُوءِ[1] الأقلام يصُوب غيث الحكمة . ٥

القلم صائغ الكلام، يُفرِغ ما يجمعه القلب، ويصُوغ ما يسبِكه[2] اللُّبّ .

وقال جعفر بن يحيى : لم أر باكيا أحسنَ تبسما من القلم .

وقال المأمون : لله درّ القلم كيف يَحُوك وَشْى المملكة ! .

وقال ثُمامة بن أَشْرَس : ما أثَّرته الأقلامُ، لم تطمع فى دَرسه الأيام . بالأقلام تُدَبَّرُ الأقاليمُ . كتاب المرء عُنوان عقله، ولسان فضله . عقل الكاتب فى قلمه . ١٠

وقال ابن المعتزّ : القلم مُجَهَّزٌ لجيوش الكلام، يخدُم الإرادة كأنه يقبِّل بِساط سلطان، أو يفتِّح نُوَّار بستان .

وقال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خلال : منها جَودةُ برى القلم وإطالةُ جِلْفَته[3]، وتحريفُ قطّته، وحُسْن التأتِّى لامتطاء الأنامل، وإرسالُ المَدّة بعد إشباع الحروف، والتحرُّزُ عند فراغها من الكسوف، وتركُ الشكل على الخطإ والإعجامِ على التصحيف . ١٥

(١) النوء : النجم اذا مال للغيب، جمعه أنواء ونوآن كعبد وعبدان . أو هو سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه، وهو نجم آخر يقابله من ساعته فى المشرق، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى ذلك .

(٢) فى الأصل : «يسيله»، وهو تحريف، والتصويب عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٧ ط دار الكتب المصرية؛ وقائل هذه الكلمة أبو دلف العجلىّ . ٢٠

(٣) الجلفة بكسر الجيم وتفتح وسكون اللام من القلم : ما بين مبراه إلى سنه .

وقال العتّابىّ : سألنى الأصمعىّ فى دار الرشيد : أىّ الأنابيب للكتابة أصلحُ وعليها أصبرُ؟ فقلت له : ما نَشِف[1] بالهجير ماؤه ، وستره من تلويحه غِشاؤه ؛ من التِّبْرِيَّة القشور ، الدُّرِّيَّة الظهور ، الفضّيّة الكسور ؛ قال : فأى نوع من البرى أصوبُ وأكتبُ؟ فقلت : البِرية المستوية القَطّة التى عن يمين سنها برية تؤمن معها المَجّة عند المدة والمطّة ، للهواء فى شقّها فتيق ، والريحُ فى جوفها خَرِيقٌ[2] ، والمداد فى خُرطومها رقيق . قال العتابىّ : فبقىَ الأصمعىّ شاخصا إلىّ ضاحكا ، لا يُحير مسألة ولا جوابا .

وكتب علىّ بن الأزهر إلى صديق له يستدعى منه أقلاما : أما بعد : فإنا على طول الممارَسة لهذه الكتابة التى غَلبت على الأسم ، ولزمت لزومَ الوَسم[3] ؛ فحلّت محل الأنساب ، وجرت مَجرى الألقاب ؛ وجدنا الأقلام الصُّحْرِيّة[4] أجرى فى الكواغد وأمرّ فى الجلود ، كما أنّ البحريّة منها أسلسُ فى القراطيس ، وألينُ فى المعاطف وأشد لتعريف[6] الخط فيها ، ونحن فى بلد قليلِ القصب رديئه ، وقد أحببتُ فى أن نتقدّم فى اختيار[7] أقلام صُحْرِيّة ، ونتنوّق[8] فى اقتنائها قِبلك ، وتطلبَها من مظانّها ومنابتها من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ، وأن نتيمّن[9] باختيارك منها الشديدةَ الصُّلبةَ

(١) فى الأصل : (يشف) وهو تحريف ، والتصويب عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤١ ط دار الكتب المصرية . (٢) يريد أنها تنفذ فيها وتخرقها .

(٣) الوسم : أثر الكىّ .

(٤) الصُّحْرية بالضم نسبة الى الصُّحْرة ، وهى جَوبة تجاب وسط الحرة ، وتكون أرضا لينة تطيف بها حجارة ، والجمع صحر .

(٥) واحده كاغَد بفتح الغين المعجمة : القرطاس ، وهو فارسى معرَّب .

(٦) فى العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٣ ط بولاق : (لتصريف) وكلاهما يستقيم به الكلام وإن اختلف المراد فى كل من الروايتين . (٧) فى الأصل : (تخيير) والمقام يقتضى ما أثبتنا كما فى صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤١ والعقد الفريد . (٨) فى العقد الفريد : (نتأنق) ومؤداهما واحد . (٩) فى العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٣ : (نتيمم فى اختيارك) الخ ، وهى أقرب بقرينة قوله بعد : « وان تقصد » .

النقيّةَ الجلود، القليلةَ الشحوم، الكثيرةَ اللحوم، الضيقةَ الأجواف[(١)]، الرزينةَ المَحْمِل فإنها أبقى على الكتابة، وأبعدُ من الحَفَا، وأن تقصد بانتقائك للرِقاق القُضبان المقوّماتِ المتون، المُلْسِ المَعاقد[(٢)]، الصافيةِ القشور، الطويلةِ الأنابيب، البعيدةِ ما بين الكعوب، الكريمةِ الجواهر، المعتدلةِ القوام، المستحكمةِ يَبَسا وهى قائمةٌ على أصولها، لم تُعجَل عن إبّان ينعها، ولم تؤخَّر إلى الأوقات المخُوفة عليها من خَصَر[(٣)] الشتاء وعَفَن الأنداء؛ فإذا استجمعتْ عندك أمرت بقطعها ذراعا ذراعا قَطْعا رقيقا، ثم عبأت منها حُزَما فيما يصونها من الأوعية، [ووجّهتها مع من يؤدّى الأمانة فى حراستها وحفظها وإيصالها[(٤)]] وتكتب معها بعدّتها وأصنافها بغير تأخير ولا توان، إن شاء الله تعالى.

وأهدى ابن الحَرُون[(٥)] إلى بعض إخوانه أقلاما وكتب إليه:

إنه لما كانت الكتابة — أبقاك الله — أعظمَ الأمور، وقِوامَ الخلافة، وعمودَ المملكة أتحفتك من آلتها بما يخف حَمله، وتثقُل قيمتُه، ويعظُم نفعُه، ويجلّ خطرُه، وهى أقلام من القصب النابت فى الصحراء الذى نَشِف بحرّ الهجير [فى قشره[(٦)]] ماؤه، وستره من تلويحه غِشاؤه؛ فهى كاللآلئ المكنونة فى الصدف، والأنوار المحجوبة فى السَدَف[(٧)]؛ تِبريّة القشور، دُرّية الظهور، فضية الكسور؛ قد كستها الطبيعة جوهرا كالوَشْى المحبَّر[(٨)]، ورونقا كالديباج المنيَّر[(٩)].

(١) فى الأصل: (الاحراف) وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا كما فى صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤١.

(٢) فى الأصل: (المعاقب) وفيه نقص وتحريف، والتصويب عن صبح الأعشى.

(٣) الخصر: البرد. (٤) الزيادة عن العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٤ ط بولاق.

(٥) هو محمد بن أحمد بن الحسين بن الأصبغ بن الحرون من أهل بغداد.

(٦) التكملة عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٤٢ ط دار الكتب المصرية. (٧) السدف محركة: ظلمة الليل. (٨) فى الأصل: (وفرند الديباج) الخ. وهو تحريف إذ لم نجد من معانى الفرند ما يناسب السياق؛ وما أثبتناه عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٢ (٩) المنير كمعظم: المعلم الملحم.

ومن كتاب لأبى الخطاب الصابى — يصف فيه أقلاما أهداها فى جملة أصناف — جاء منه :

وأضفتُ إليها أقلاما سليمةً من المعايب، مبرّأةً من المثالب ؛ جَمّةَ المحاسن بعيدةً عن المطاعن ؛ لم يُرَبها طول ولا قصر، ولم يَنقُصها ضعف ولا خَور ؛ ولم يَشِنْهَا لِينٌ ولا رَخاوة، ولم يعبها كَزازة[1] ولا قساوة ؛ فهذه[2] آخذةٌ بالفضائل من جميع جهاتها، مستوفيةٌ للمادح بسائر صفاتها ؛ صُلْبةُ المعاجم، لَيِّنةُ المَقاطع ؛ مُوفيةُ القدود والألوان، محمودةُ المَخْبَر والعِيان ؛ قد آستوى فى الملاسة خارجُها وداخلُها، وتَناسَب فى السلاسة عاليها وسافلُها ؛ نبتت بين الشمس والظلّ، وآختلف عليها الحرّ والقُر ؛ فلَفحها[3] وَقَدَانُ الهواجر، وسفعتها [سمائم][4] شهر ناجر[5] ؛ ووقذها[6] الشَّفَّانُ بصَرْده، وقذفها الغمام بِبَرْده ؛ وصابتها الأنواء بصَيِّبها، وآستهلّت عليها السحائب بشآبيبها[7] ؛ فاستمرّت مرائرها[8] على إحكام، وآستحصد سَحْلُها[9] بالإبرام ؛ جاءت شَتّى[10] الشيات، متغايرةَ الهيئات، متباينةَ المحالّ والبُلدان ؛ تختلف بتباعد ديارها، وتأتلف بكرم نِجارها ؛ فمن أنابيبَ ناسبت رماحَ الخَطّ فى أجناسها، وشاكلت الذهب فى ألوانها، وضاهت

(١) الكزازة والكزوزة بضم الكاف فى الأخيرة : اليبس والانقباض .

(٢) فى صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٢ : (وهى آخذة) ولعله أنسب .

(٣) فى الأصل : (فلاحفها) والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه اللغة .

(٤) التكملة عن صبح الأعشى .

(٥) كل شهر فى صميم الحر اسمه ناجر، لأن الابل تنجر فيه، أى يشتد عطشها حتى تيبس جلودها .

(٦) الشفان : الريح الباردة مع المطر . والصرد : البرد، وهو فارسى معرّب .

(٧) واحده شؤبوب : وهو الدفعة من المطر .

(٨) الحبال المفتولة على أكثر من طاقة، واحده مريرة ومريرة . شبه بها القصبة فى استحكامها وقوتها .

(٩) هو الحبل الذى يفتل على قوة واحدة . والابرام : فتله على طاقتين .

(١٠) مختلفة الألوان والنقوش .

الحرير فى لمعانها ؛ بطيئةُ[(١)] الحفا ، نمرةُ[(٢)] القُوَى ؛ لا يُشظيها[(٣)] القطّ ، ولا يُشعّث[(٤)] بها الخط ؛ ومن مصريّةٍ بيض ، كأنها [قُباطىّ[(٥)] مصر نقاء ، وغِرْقِئُ البَيض صفاء ؛ غذاها الصعيد من ثراه بلبّه] وسقاها النيل من نميره وعذبه ؛ فجاءت ملتئمةَ الأجزاء ، سليمةً من الالتواء ؛ تستقيم شقوقُها فى أطوالها ، ولا تنكّب عن يمينها ولا شِمالها ؛ تقترن بها صفراءُ كأنها معها عِقْيانٌ[(٦)] قُرن بلُجَين ، أو ورقٌ خلط بعَيْن ؛ تختال فى صُفر مَلاحفها ، وتميس فى مُذهب مَطارفها[(٧)] ؛ بلون غياب الشمس ، وصِبغ ثياب الوَرْس[(٨)] ، ومن منقوشة تَرُوق العين ، وتُونق النّفس ؛ ويهدى حسنُها الأرْيَحيّةَ إلى القلوب ، ويُحلّ الطرب لها حَبْوةَ الحكيم اللبيب ؛ كأنها اختلافُ الزهر اللامع ، وأصنافُ الثمر اليانع ؛ [ومن بحريّة مَوْشيّةِ اللِيط[(٩)]] رائقةِ التخليط[(١٠)] ؛ كأنّ داخِلَها قطرةُ دم ، أو حاشيةُ رداء

(١) فى الأصل وفى صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٣ : (مضابطة) وهو خطأ من الناسخ ولا معنى له والتصويب عن زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠٧ ط الرحمانية . (٢) فى زهر الآداب : «قوية» .
(٣) فى الأصل : «يشيطها» وهو تحريف ، ولم نر من معانيه ما يناسب المقام . والتصويب عن زهر الآداب . (٤) يشعث : يفرق وينتشر . وعبارة زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠٧ ط الرحمانية « ولا يتشعب » بالباء الموحدة ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . (٥) الزيادة عن صبح الأعشى . والقباطى بضم القاف وفتحها : ثياب رقاق بيضاء تصنع فى مصر . واحده قبطية بضم القاف . والغرقئ كزبرج والغرقيئ : القشرة الملتزقة ببياض البيض ، أو هو البياض الذى يؤكل . (٦) العقيان بالكسر : ذهب ينبت فى الأرض وليس مما يستذاب من الحجارة ، أو هو الذهب الخالص . واللجين بفتح الجيم : الفضة مادامت فى تراب معدنها ، وهو مصغر لامكبر له كالثريا . والورق : الدراهم المضروبة ، وفيه لغات : تثليث الراء ، وكجمل وكقفل . والعين : الدينار . (٧) المطارف : الأردية من الخز ذوات الأعلام ، واحده مطرف . (٨) الورس : شىء أصفر يخرج على الرمث بين آخر الصيف وأول الشتاء اذا أصاب الثوب لونه . أو هو نبات كالسمسم يزرع فيبقى عشر سنين فى الأرض ، فاذا جف عند إدراكه تفتقت خرائطه فينفض فينتفض منه الورس .
(٩) الزيادة عن صبح الأعشى . واللِيط بالكسر : قشر القصبة ، واحده ليطة ، أو هو اللون .
(١٠) فى صبح الأعشى : «التخطيط» والمعنى يستقيم على كل من الروايتين .

مُعَلم، وكأنّ خارجهَا أرْقَم، أو متنُ واد مُفْعم، نَثرت ألوانا تُزرى بورد الخدود، وأبدت قامات تُفْصِح بأوَد القُدود .

وقد أكثر الشعراء القول فى وصف القلم، فمن ذلك قول أبى تمّام الطائىّ :

لك القلم الأعلى الذى بشَباته * تصاب من الأمر الكُلَى والمفاصلُ
لُعاب الأفاعى القاتلاتِ لُعابُه * وأَرْىُ[1] الجنَى آشتارته أيدٍ عواسل
له ريقةٌ طَلٌّ ولكنّ وَقعَها * بآثاره فى الشرق والغرب وابل
فصيح إذا آستنطقتَه وهو راكب * وأعجمُ إن خاطبتَه وهو راجل
إذاما آمتطى الخمسَ اللطافَ وأُفرِغت * عليه شِعابُ[2] الفكر وهى حوافل
أطاعته أطرافُ القنا وتقوّضت * لنجواه تقويضَ الخيام المجافل
إذا آستَغزر الذهنَ الجلىَّ[3] وأقبلت * أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رفدته الخنصران وسَدَّدت * ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامل
رأيت جليلا شأنُه وهو مرهَف * ضنًى وسمينا خَطبُه وهو ناحل

وقال آخر :

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب * ثم آستمدّوا بها ماءَ المنيّات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعُدوا * ما لم ينالوا بحدّ المَشْرَفيّات

وقال آبن المعتزّ :

قلم ما أراه أم فَلَك يَجرى* بما شاء قاسم ويَسير[4]
خاشع فى يديه يلثِمُ قرطا * سًّا كما قبّل البساط شكور

(١) الأرى : عسل النحل، وأصله عمل النحل العسل، وسمى به الشهد كما سمى المكسوب كسبا . واشتارته : استخرجته من الوقبة . (٢) هى ما عظم من سواق الأودية، واحده شعبة .
(٣) كذا فى الأصل . وفى رواية : (الذكى) والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .
(٤) فى أدب الكتاب ص ٨٥ ط السلفية : «ويدور» .

ولطيفُ المعنى جليل نحيف * وكبير الأفعـال وهو صـغير
كم منايا وكم عطايا وكم حتفٍ وعيشٍ تَضُم تلك السطور
نَقشتْ بالدجى نهـارا فـا أدرى أخـطٌّ فيهن أم تصـوير

وقال محمد بن علىّ[1] :

فى كفه صارمٌ لانَتْ مَضاربه * يسوسـنا رَغَبا إن شاء أو رَهَبا ٥
السـيف والرمح خُدّام له أبدا * لا يَبلغان له جِـدّا ولا لعبـا
تجرى دماءُ الأعادى بين أسطره * ولا يُحَس له صوت إذا ضَربا
فما رأيت مدادا قبل ذاك دما * ولا رأيت حساما قبل ذا قَصبا

وقال ابن الرومىّ :

لعمرك ما السيفُ سيفُ الكمىّ * بأخوفَ من قلم الكاتب ١٠
له شـاهد إن تأمّلتَـه * ظهرتَ على سـره الغـائب
أداةُ المنيّـة فى جانبيـه * فمن مثله رهبـةُ الراهب
ألم تر فى صـدره كالسنان * وفى الرِدف كالمرهَف القاضب؟

وقال الرفّاء[2] :

أخرسُ ينبيك بإطراقـه * عن كل ما شئتَ من الأمر ١٥
يُذرى على قرطاسـه دمعَه * يُبـدى لنا السرّ وما يدرى
كعاشق أخفى هواه وقـد * نمّت عليـه عَبرةٌ تجـرى
تبصِره فى كل أحـواله * عُريانَ يكسو الناس أو يُعرِى
يُرَى أسـيرا فى دواة وقد * أطلق أقواما من الأسْر

(١) صوابه، نسبة هذه الأبيات إلى أبى بكر محمد بن يحيى الصولى، وهى من قصيدة وجه بها إلى أبى على محمد بن على كما فى أدب الكتّاب ص ٨٠ ط سلفية . ٢٠

(٢) هو أبو الحسن السرىّ بن أحمد بن سرىّ الكندىّ الرفاء الموصلىّ الشاعر المعروف .

وقال آخر :

وذى عفاف راكع ساجد * أخو صلاح دمعه جارى
ملازم الخمس لأوقاتها * مجتهد فى خدمة البارى

وقال ابن الرومىّ :

إن يخدُم القلمَ السيفُ الذى خضعت[1] * له الرقابُ ودانت خوفَه الأمم
فالموت والموت لا شىءٌ يغالبه * مازال يَتبع ما يجرى به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيَت * أن السيوف لها مذ أرهِفت خَدم

وقال أبو الطيّب الأزْدىّ :

قلَم قلَّم أظفار العدى * وهو كالإصبع مقصوصَ الظُّفُر
أشبه الحيّة حتى أنه * كلما عُمِّر فى الأيدى قَصُر

وقال أبو الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمىّ :

وأسمرَ طاوى الكَشح أخرسَ ناطق * له زَمَلان[2] فى بطون المَهارق.

[ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته من الأمور الكلية[3]

قال شهاب الدين أبو الثناء محمودُ بنُ سليمانَ الحلبىُّ فى كتابه «حسن التوسل» فأوّل مايبدأ به من ذلك حفظُ كتاب الله تعالى، ومداومةُ قراءته، وملازمةُ درسه

(١) فى الأصل : (إن يخدم السيف القلم) وهو غير مستقيم الوزن .

(٢) الزملان بفتح أوّله وثانيه : مشى الدابة أو عدوها كأنها تظلع من النشاط ، استعاره للقلم . والمهارق : الصحف ، واحده مهرق بضم الميم ، وهو معرّب .

(٣) هذه التكلة المحصورة بين مربعين لم ترد بالأصل ، وبعد مراجعة هذا الكلام فى مظانه رأينا أنه منقول عن كتاب «حسن التوسل» فأثبتنا عنه هنا ما لايستقيم الكلام بدونه ، والظاهر من قوله فيما سيأتى : قال فهذه أمور كلية الخ ، وقوله : وذكر فى كتابه جملا الخ أنه نبه على هذا النقل فى أوّله .

وتدبُّرُ معانيه حتى لا يزال مصوّرا فى فكره ، دائرا على لسانه ، ممثّلا فى قلبه ، ذاكرا له فى كل ما يرِد عليــه من الوقائع التى يحتاج الى الآستشهاد به فيها ، ويَفتقِر الى اقامة الأدلّة القاطعة به عليها ؛ وكفى بذلك معينا له فى قصده ، ومغْنيًا له عن غيره ، قال الله تعالى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ؛

وقد أُخرج من الكتاب العزيز شواهدُ لكل ما يدور بين الناس فى محاوراتهم ومخاطَباتهم مع قصور كل لفظ ومعنى عنه ، وعجزِ الإنس والجنّ عن الاتيان بسورة من مثـــله ؛ ٥

ومن ذلك أن سائلا قال لبعض العلماء : أين تجد فى كتاب الله تعالى قولَهم : الجار قبل الدار؟ قال : فى قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فطَلبَت الجـارَ قبل الدار ، ونظائرُ ذلك كثيرة . وأين قول العرب : «القتلُ أنفَى للقتلِ» لمن أراد الآستشهاد فى هذا المعنى من قوله عزّ وجلّ : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . وأكثر الناس على جواز الآستشهاد بذلك ما لم يحوَّلْ عن لفظه ، ولم يغيَّرْ معناه . ١٠

فمن ذلك ما رُوِى فى عهد أبى بكر رضى الله عنــه : هذا ما عهد أبو بكر خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخرَ عهدِه بالدنيا ، وأوّلَ عهدِه بالآخرة ، إنى استخلفت عليكم عمرَ بنَ الخطّـاب ، فإن بَرّ وعَدَل فذلك ظنّى به ، وان جار وبدّل فلا علم لى بالغيب ، والخيرَ أردتُ بكم ، ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ . ١٥

ورُوى أن عليا رضى الله عنه قال لِلمُغيرة بنِ شُعْبَةَ لمـا أشار عليه بتولية معاوية : ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ . ٢٠

وكتب فى آخر كتاب الى معاوية : وقد علمتَ مواقع سيوفنا فى جدّك وخالك وأخيك ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

وقول الحسن بن على عليه السلام لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ ورُوى مثلُ ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما . —

٥ وكتب الحسن الى معاويةَ : أما بعد ، فان الله بعث محمدا صلّى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ورسولا الى الناس أجمعين ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

وكتب محمد بنُ عبد الله بنِ الحسن بنِ الحسن بنِ على الى المنصور فى صدر كتاب لمّا حاربه : ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ ١٠ الى قوله : ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ . ونقَضَ عليه المنصور فى جوابه عن قوله : «إنه ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم» بقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ .

ونُقِل عن الحسن البصرىّ رحمه الله مايدل على كراهية ذلك، فقال حين بلغه أن الحجاج أنكر على رجل استشهد بآية : أنسِيَ نفسه حين كتب الى عبد الملك ابن مرْوان : بلغنى أن أمير المؤمنين عطِس فشمَّتَهُ من حضر فرَدَّ عليهم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ١٥ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؟ واذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون انكارُه على الحجاج لأنه أنكر على غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم الى أن كل ما أراد الله به نفسَه لا يجوز أن يُستشهَد به إلا فيما يضاف الى الله سبحانه وتعالى مثل قوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. وقوله تعالى : ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله سبحانه وتعالى .

٢٠ ومن شرف الاستشهاد بالكتاب العزيز إقامةُ الحجة، وقطعُ النزاع، وارغامُ الخصم كما رُوى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين رضى الله عنه من ذرية

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى على ذلك بشاهد من كتاب الله عز وجل، وإلا قتلتك؛ فقرأ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ وعيسى هو ابنُ بنته؛ فأسكت الحجاج. وقد تقوم الآيةُ الواحدةُ المشتشهَدُ بها فى بلوغ الغرض وتوفيةِ المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطوّلة، والأدلّةُ القاطعةُ؛ ٥

وأقرب ما اتفق من ذلك أن صلاح الدين رحمه الله كتب الى بغداد كتابا يعدّد فيه مواقفه فى إقامة دعوة بنى العباس بمصر، فكُتب جوابُه بهذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وكتب أمير المسلمين يعقوبُ بنُ عبد المؤمن الى الأَذْفُونِش[1] مَلِكِ الفرنج جوابا ١٠ عن كتابه اليه — وكان قد أبرق وأرعد فكتب فى أعلاه —:

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

ومما جوّزوا الاستشهاد به ما لا يقصد به إلا التلويحُ الى الآية دون اطّراد الكلام نحو قول القاضى الفاضل مما كتب به الى الخليفة عن الملك الناصر صلاح الدين فى الاستصراخ [وتهويل أمر[2] الفرنج]: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ وهاهى فى سبيلك ١٥ مبذوله، وأخى وقد هاجر اليك هجرة يرجوها مقبوله. وأما تغيير شىء من اللفظ أو إحالةُ معنى عما أريدَ به فلا يجوز، وينبغى العدل عنه ما أمكن.

ويتلو ذلك الاستكثارُ من حفظ الأحاديث النبوية — صلوات الله وسلامه على قائلها — وخصوصا فى السير والمغازى والأحكام، والنظر فى معانيها وغريبها وفصاحتها

(١) فى الأصل: «الأدفونس» وهو تصحيف، والتصويب عن وفيات الأعيان. ٢٠

(٢) الزيادة عن حسن التوسل ص ٤ ط المطبعة الوهابية.

وفقهُ ما لا بدّ من معرفته من أحكامها، ليحتج بها فى مكان الحجة[(١)]، ويستدل بموضع الدليل، فإن الدليل على المقصد إذا استند الى النص سُلِّم له، والفصاحةُ اذا طُلبت غايتُها فإنها بعد كتاب الله فى كلام من أوتى جوامعَ الكَلِم. وينبغى أن يراعى فى الحَلِّ لفظ الحديث ما أمكن، وإلا فمعناه.

٥ ويتلو ذلك قراءةُ ما يتفق من كتب النحو التى يحصل بها المقصود من معرفته العربيةَ، فإنه لو أتى الكاتب من البلاغة بأتمّ ما يكون ولحَن ذهبت محاسن ما أتَى به وانهدمت طبقةُ كلامه، وألغِيَ جميعُ [ما حسّنه][(٢)]، ووُقِف به عند ماجهِله.

ويتعلق بذلك [قراءة][(٣)] ما يتهيأ من مختصرات اللغة، كالفصيح، وكفاية المتحفظ وغيرِ ذلك من كتب الألفاظ ليتسعَ عليه مجال العبارة، وينفتحَ له باب الأوصاف ١٠ فيما[(٤)] يحتاج الى وصفه، ويضطر الى نعته.

ويتصل بذلك حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم، ومخاطباتِهم ومحاوراتِهم ومراجعاتِهم ومكاتباتِهم، وما ادّعاه كلّ منهم لنفسه أو لقومه، وما نقضه عليه خَصمُه، لما فى ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها، وتلقِّى الحوادث بما شاكلها والاقتداءِ بطريقة من فَلَج[(٥)] على خصمه، واقتفاءِ آثار من اضطُر الى عذر، أو إبطال ١٥ دعوى أو اثباتها، والأجوبَةِ الدامغةِ، فتأمله فى موضعه فإنك ستقف منه على ما آستغنى به عن ذلك.

(١) كذا فى الأصل. وعبارة حسن التوسل ص ٤ ط المطبعة الوهابيه: «بمكان» الخ مع إسقاط قوله: «بها»، ولعلها أقرب بقرينة ما بعدها.

(٢) موضع هذه العبارة مطموس بالأصل تتعذر قراءته، وما نقلناه عن حسن التوسل.

٢٠ (٣) الزيادة عن حسن التوسل.

(٤) فى الأصل: «مما» وما أثبتناه عن حسن التوسل.

(٥) فلج: ظفر، وبابه نصر وضرب.

ثم النظرُ فى أيام العـرب ووقائعهم وحروبهـم ، وتسميةُ الأيام التى كانت بينهم ، ومعرفةُ يوم كل قبيلة على الأخرى ، وما جرى بينهم فى ذلك من الأشعار والمنافَسات ، لمـا فى ذلك من العلم بما يُستشهَد به من واقعةٍ قديمةٍ ، أو يَرِد عليه فى مكاتبةِ مَنْ ذَكَرَ يوما مشهورا ، أو فارسا معيَّنا . وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى فنّ التاريخ على ما ستقف عليه ؛ فإن صاحب هذه الصناعة إذا لم يكن عارفا بأيام العرب ، عالمـا بما جرى فيها لم يدر كيف يجيب عمّـا يَرِد[1] عليه من مثلها ، ولا مايقول إذا سئل عنها ، وحسبه ذلك نقصا فى صناعته وقصورا .

ثم النظر فى التواريخ ومعرفة أخبارِ الدول ، لمـا فى ذلك من الاطلاع على سِيَر الملوك وسياساتهم ، وذكر وقائعهم ومكايدهم فى حروبهم ، وما اتفق لهم من التجارِب ؛ فإن الكاتب قد يُضطرّ إلى السؤال عن أحوال من سلف ، أو يَرِد عليه فى كتاب ذكرُ واقعة بعينها ، أو يُحتجّ عليه بصورة قديمة فلا يَعرِف حقيقتها من مجازها ؛ وقد أوردنا فى فن التاريخ مالا يحتاج الكاتب معه إلى غيره من هذا الفن .

ثم حِفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها ، واستكشافُ غوامضها والتوفُّرُ على ما اختاره العلماء بها[2] منها ، كالحماسة ، والمُفَضَّليّات ، والأصمعيّات ، وديوانِ الهُذَليِّين ، وما أشبه ذلك ، لمـا فى ذلك من غزارةِ الموادِّ ، وصحّةِ الاستشهاد ، والاطلاعِ على أصول اللغة ، ونوادر العربيّـة ؛ وقد كان الصدر الأول يعتنون بذلك غاية الاعتناء ، وقد حكى أن الإمام الشافعىّ رحمه الله كان يحفظ ديوان هُذَيل ؛ فإذا أكثر المترشّح للكتابة من حفظ ذلك وتدبّر معانيـه سهُل عليه حلّه ، وظهرت له مواضع

(١) فى الأصل : (بما) وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما تقتضيه اللغة .

(٢) كذا فى الأصل وفى حسن التوسل . ولعل قوله : «بها» زيادة من الناسخ . وعبارة صبح الأعشى ج ١ ص ٢٧١ ط دار الكتب المصرية : (وما توفرت دواعى العلماء بها على اختياره) ولعلها أظهر .

الاستشهاد به، وساقه الكلام إلى إبراز ما فى ذخيرةِ حِفظه منه ، ووضعه فى مكانه ونقلِه فى الاستشهاد والتضمين الى ما كأنه وضِع له ، كما اتفق للقاضى أبى بكر الأرجانى[(١)] فى تضمين أنصاف أبيات العربِ فى بعض قصائده، فقال :

وأَهـدِ الى الوزيرِ المدح يجعل * «لك المِـرباعَ[(٢)] منهـا والصفايا»

٥ ورافِق رُفقـــة حلّوا إليـــه * «فآبـــوا[(٣)] بالنهاب وبالسبايا».

وقـــل للراحلين الى ذراه * «ألستم[(٤)] خيرَ من ركِب المطـايا»

ولا تسلُكْ ســوى طرقى فإنّى * «أنا ابنُ[(٥)] جلا وطلّاع الثنـايا»

وقال بديع الزمان الهمذانىّ :

أنا لِقربِ دار مولاى "كما طرِبَ النشوان مالت به الخمر" ومن الارتياح إلى

١٠ لقائه "كما انتفض العصفور بلله القطر" ومن الامتزاج بولائه "كما التقت الصهباء والبارد العذبُ" ومن الابتهاج بمزاره "كما اهتزّت تحت البارحِ[(٦)] الغصُن الرطبُ" .

وكما قال ابن القرطبىّ وغيرُه فى رسائلهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) هذه كنيته ، واسمه أحمد بن محمد بن الحسين .

(٢) فى الأصل : «الرباع» بدون ميم ، وفيه نقص ، والتصويب عن اللسان . والمرباع : ما يأخذه

١٥ الرئيس ، وهو ربع الغنيمة . والصفايا : ما يصطفيه الرئيس منها . وقوله : لك المرباع الخ صدر بيت ، وتمامه : «وحكمك والنشيطة والفضول» . والنشيطة : ما أصاب الرئيس من الغنيمة قبل أن يصير إلى مجتمع الحى .

(٣) قوله : فآبوا الخ هو صدر بيت لعمرو بن كلثوم ، وتمامه : «وأبنا بالملوك مصفدينا» .

(٤) هو صدر بيت لجرير من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ، وتمامه : «وأندى العالمين بطون راح» .

٢٠ (٥) قوله : أنا ابن جلا الخ ، تمام البيت : «متى أضع العمامة تعرفونى» ، وقائله سحيم بن وثيل . انظر شرح شواهد المبانى المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩ م .

(٦) البارح : الريح الشديدة .

وكذلك حفظُ جانب جيّد من شعر المحدَثين ، كأبى تمّام ومسلِم ابنِ الوليـد والبُحترىّ وابنِ الرومىّ والمتنبىّ ، للطف مَأخذِهم ، ودَوَرانِ الصـناعة فى كلامهم ، ودِقّةِ توليـد المعانى فى أشعارهم ، وقربِ أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة .

وكذلك النظرُ فى رسائل المتقـدّمين دون حِفظها لمـا فى النظر فيها من تنقيحِ القريحةِ ، و إرشادِ الخاطرِ ، وتسهيلِ الطرقِ ، والنسجِ على مِنوال المُجيد ، والاقتداءِ بطريقةِ المحسنِ ، واستدراكِ ما فات القاصرَ[1] ، والاحترازِ مما أظهره النقدُ ، وردِّ ما بهرجه السبكُ ؛ فأمّا النهى عن حفظ ذلك فلئـلا يتّكل الخاطرُ على ما فى حاصلِه ، ويستند الفكرُ إلى ما فى مودَعه ، ويكتفى بما ليس له ، ويتلبّس بما لم يُعطَ "كلابس ثوبَىْ زور" ؛ وأمّا من قصد المحاضرةَ بذلك دون الإنشاءِ فالأحسنُ به حِفظُ ذلك وأمثالِه .

وكذلك النّظرُ فى كتبِ الأمثالِ الواردةِ عن العـرب نظما ونثرا كأمثال المَيدانىّ والمفضَّلِ بنِ سلَمةَ الضبىّ وحمزةَ الأصبهانىّ وغيرِهم ، وأمثالِ المحْدَثين الواردةِ فى أشعارهم ، كأبى العتاهيةِ وأبى تمّام والمتنبىّ ، وأمثالِ المُولَّدين ؛ وقد أوردنا من ذلك فى باب الأمثال جُملا .

وكذلك النّظرُ فى الأحكامِ السّلطانيّـةِ ، فإنه قد يأمر بأمر فيعرفُ منها كيف يخلُص قلمه على حكم الشريعةِ المطهّرةِ من توليةِ القضاءِ والحِسبةِ وغيرِ ذلك ؛ وقد قدّمنا فى هذا الكتابِ من ذلك طرَفا جيّدا . قال : فهذه أمور كلّيّة لا بدّ للترشّح لهذه الصناعةِ من التصدّى للاطلاع عليها ، والإكبابِ على مطالعتها ، والاستكثارِ منها

(١) فى الأصل : «قال» وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

لِينفِق من تلك الموادّ، وليسلُكَ فى الوصول إلى صناعته تلك الجوادّ[(١)]، وإلا فليعلم أنه فى وادٍ والكتابةُ فى واد .

قال : وأمّا الأمور الخاصّةُ التى تزيد معرفتُها قدرَه، ويزين العلمَ بها نظمَه ونثرَه، فإنّها من المكمِّلاتِ لهذا الفنّ وإن لم يُضطرَّ إليها ذو الذهن الثاقبِ ، والطبع السليم، والقريحةِ المطاوِعةِ، والفِكرةِ المنقّحةِ، والبديهةِ المُجيبةِ، والرويّةِ المتصرّفةِ، لكنّ العالمَ بها متمكّن من أزِمّة المعانى، يقول عن عِلْم، ويتصرّفُ عن معرفة ، وينتقِدُ بحجّة، ويتخيّرُ بدليل، ويستحسِنُ ببرهانٍ، ويصوغُ الكلامَ بترتيبٍ ؛ فمن ذلك علم المعانى والبيان والبديع، والكُتبُ المؤلّفةُ فى إعجازِ الكتابِ العزيزِ، ككتب الجرْجَانِىِّ والرُّمّانِىِّ والإمامِ فخرِ الدينِ السكّاكىّ والخفاجىّ وابنِ الأثير وغيرِهم؛ وذكر فى كتابه جُملا بهذه المعانى [وأورد أيضا أمورا أخرى تتصل بذلك من خصائص[(٢)]] الكتابة (١٣) وهى الاقتباس والاستشهاد والحلّ، وأتى على ذلك بشواهدَ وأمثلة، وسأذكر فى هذا الكتاب ملخّصَ ما أورده فى ذلك باختصارٍ[(٣)] وزيادةٍ عليه .

فأمّا علوم المعانى والبيانِ والبديع ، فمنها : ذكر الفصاحةِ، والبلاغةِ والحقيقةِ والمجازِ، والتشبيهِ، والاستعارةِ، والكنايةِ، والخبرِ وأحكامِه، والتقديم والتأخيرِ، والفصلِ والوصلِ، والحذفِ والإضمارِ، ومباحث إنّ وإنّما، والنظم والتجنيسِ، والطباقِ، والمقابلةِ، والسجعِ، وردّ العجزِ على[(٤)] الصدر، والإعناتِ[(٥)]

(١) واحده جادّة، وهى وسط الطريق ومعظمه .

(٢) موضع هذه العبارة مطموس بالأصل تتعذر قراءته، ولعل ما أثبتناه مكانها يوافق الغرض الذى أراده ويتناسب مع سابق الكلام ولاحقه .

(٣) فى الأصل : «واختصار» والسياق يقتضى الباء إذ لا يستقيم العطف هنا .

(٤) فى الأصل : «عن» وما أثبتناه هو المعروف فى كتب البلاغة .

(٥) فى الأصل : «والإعناق» بالقاف . وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل .

والمذهبِ الكلامىّ، وحسنِ التعليلِ، والالتفاتِ، والتمامِ، والاستطرادِ، وتأكيدِ المدحِ بما يشبه الذّم، وتأكيدِ الذّم بما يشبه المدحَ، وتجاهلِ العارفِ، والهزلِ الذى يراد به الجدّ، والكناياتِ، والمبالغةِ، وإعتابِ المرء نفسَه، وحسنِ التضمينِ والتلميحِ، وإرسالِ المثلِ، وإرسالِ مثلين، والكلامِ الجامعِ، واللّفّ والنشرِ والتفسيرِ، والتعديدِ — ويسمّى سياقةَ الأعدادِ — وتنسيقِ الصفاتِ، والإيهامِ — ويقال له: التورية — والتخييل، وحسنِ الابتداءات، وبراعةِ التخليص، وبراعةِ الطلب وبراعةِ المقطعِ، والسؤالِ والجوابِ، وصحةِ الأقسامِ، والتوشيحِ، والإيغالِ، والإشارةِ والتذييلِ، والترديدِ، والتفويفِ، والتسهيمِ، والاستخدامِ، والعكسِ، والتبديلِ والرجوعِ، والتغايرِ، والطاعةِ والعصيانِ، والتسميطِ، والتشطيرِ، والتطريزِ، والتوشيعِ والإغراقِ، والغلوّ، والقسمِ، والاستدراكِ، والمؤتلفةِ والمختلفةِ، والتفريقِ المفردِ والجمعِ مع التفريقِ، والتقسيمِ المفردِ، والجمعِ مع التقسيمِ، والتزاوجِ، والسّلبِ والإيجابِ والاطّرادِ، والتجريدِ، والتكميلِ، والمناسبةِ، والتفريعِ، ونفى الشىء بإيجابِه والإيداعِ[1]، والإدماجِ، وسلامةِ الاختراعِ، وحسنِ الاتّباعِ، والذّمِ فى معرِضِ المدحِ والعنوانِ، والإيضاحِ، والتشكيكِ، والقولِ بالموجِبِ، والقلبِ، والتنديدِ، والإسجالِ بعدَ المغالطةِ، والافتنانِ، والإبهامِ، وحصرِ الجزئى وإلحاقِه بالكلّى، والمقارنةِ والإبداعِ، والانفصالِ، والتصرّفِ، والاشتراكِ، والتهكّمِ، والتدبيجِ، والموجّهِ وتشابهِ الأطرافِ. هذا مجموعُ ما أورده منها، واستشهد[2] عليه بأدلّةٍ، وأورد أمثلة سنشرح منها ما يكتفى به اللّبيب، ويستغنى به اللّبيب[3].

(١) فى الأصل: «الابداع» بالباء الموحدة، والتصويب عن حسن التوسل.

(٢) فى الأصل: «والاستشهاد» وما أثبتناه أولى بالسياق.

(٣) كذا فى الأصل، وهو مكرر مع ما قبله، ولعل صوابه: «الأريب».

أما الفصاحة والبلاغة، فقد تقدّم الكلام فيهما فى أوّل الباب، فلا فائدة فى إعادته .

وأما الحقيقةُ والمجازُ — فالحقيقة فى اللّغة فعيلةٌ بمعنى مفعولة، من حقّ الأمر يُحِقّه بمعنى أثبتــه، أو من حققتُه إذا كنتَ منه على يقينٍ . والمجاز من جاز الشىء يجوزه إذا تعدّاه. فإذا عدِل باللّفظ عما يوجبه أصل اللّغة وُصف بأنه مجازٌ على أنهم قد جازوا به موضعَه الأصلىّ، أو جاز هو مكانَه الذى وُضع فيه أوّلا، لأنه ليس بموضع أصــلىّ لهذا اللّفظ ولكنّه مجازه ومتعدّاه يقع فيــه كالواقف بمكان غيرِه ثم يتعدّاه [إلى] مكانِه الأصلىّ. ولهما حدود فى المفرد والجملة، فحدّهما فى المفرد : أن كل كلمــة أريد بها ما وضعت له فهى حقيقة، كالأسد للحيوانِ المفترِس، واليدِ للجارحةِ ونحوِ ذلك . وإن أريد بها غيرُه لمناسبة بينهــما فهى مجاز، كالأسدِ للرّجلِ الشجاعِ واليدِ للنّعمة أو للقوّة، فإن النعمة تُعطَى باليدِ، والقوّةَ تظهر بكمالها فى اليد. وحدّهما فى الجملة : أن كلّ جملة كان الحكم الذى دلّت عليــه كما هو فى العقل فهى حقيقة[1] كقولنا : خلق الله الخلق؛ وكلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعِه فى العقل بضرب من التأويل فهى مجاز، كما إذا أضيف الفعل إلى شىء يضاهى الفاعل، كالمفعول به فى قوله عزّ وجلّ : ﴿فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ و ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾؛ أو المصدرِ، كقولهم : شِعرٌ شاعر؛ أو الزمانِ، كقول النعمان بن بشير لمعاوية :

* وليلُك عمّا ناب قومك نائم * ؛

أو المكان، كقولك : طريق سائر؛ أو المسبّبِ، كقولهم : بنى الأمير المدينة؛ أو السببِ، كقوله تعالى : ﴿وإِذَا تلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ . فمجاز المفردِ

(١) فى الأصل : « فهو » والصواب تأنيث الضمير لتأنيث مرجعه وليوافق ما سيأتى .

لغوىّ، ويسمّى مجازا فى المثبَت، ومجاز الجملة عقلىّ، ويسمّى مجازا فى الإثبـات.

قال : فالمجـاز قد يكون فى الإثبات وحده، وهو أن يُضيف الفعلَ إلى غير الفاعلِ الحقيقىّ كما ذكرناه، وقد يكون فى المثبَت وحده، كقوله تعالى : ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (١٤) جعل خُضرة الأرض ونَضرتها حياة، وقد يكون فيهما جميعا، كقولك : أحيتنى رؤيتـك، تريد سرّتنى، فقـد جَعلتَ المسرّة حياة[1] وهو مجـاز فى المثبَت وأسندتَها إلى الرؤية وهو مجاز فى الإثبات .

قال : وٱعلم أنهم تعرّضوا فى ٱعتبار كون اللّفظ مجازا إلى ٱعتبار شيئين :

الأوّل أن يكون منقولا عن معنى وُضِع اللّفـظ بإزائه ، وبهذا يتميّز عن اللّفظ المشـــترك .

الثـانى أن يكون هذا النقل لمناسبة بينهما، فلا توصف الأعلام المنقولة بأنّها مجاز إذ ليس نقلها لتعلّق نسبةٍ [بين][2] المنقولِ عنه ومن له العلم، وإذا تحقّق الشرطان سمى مجازا، وذلك مثل تسميةِ النعمةِ والقوّةِ باليدِ، لمـا بين اليد وبينهما من التعلّق وكما قالوا : رعَينا الغيثَ، يريدون النبت الذى الغيثُ سببه، وصابتنا السّماء، يريدون المطر، وأشباه ذلك ونظائره .

وأما التشبيه — فهو الدّلالة على ٱشتراك شيئين فى وصف هو من أوصاف الشىء فى نفســه، كالشجاعة فى الأســد، والنّورِ فى الشمس . وهو ركن من أركان البلاغة لإخراجِه الخفىّ الى الجلىّ، وإدنائِه البعيد من القريبِ . وهو حكم إضافىّ لا يوجد إلا بين الشيئين بخلاف الٱستعارة .

---

(١) فى الأصل : «حيلة» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

(٢) الزيادة عن حسن التوسل، والسياق يقتضيها .

ثم التّشبيه على أربعة أقسام: تشبيه محسوس [بمحسوس](١)، وتشبيه معقول [بمعقول](٢)، وتشبيه معقول بمحسوس، وتشبيه محسوس بمعقول.

فأما تشبيه محسوس بمحسوس فلاشتراكهما إمّا فى المحسوسات الأولى: وهى مدركات السمعِ والبصرِ والذّوقِ والشمّ واللّمسِ، كتشبيه الخدّ بالوردِ والوجهِ بالنهارِ، [وأطيطِ الرّحلِ بأصواتِ الفراريج](٣) والفواكهِ الحلوةِ بالسكّرِ والعسلِ ورائحةِ بعضِ الرياحينِ بالمسكِ والكافورِ، واللّينِ الناعمِ بالحريرِ، والخشنِ بالمسحِ(٤). أو فى المحسوسات الثانية(٥): وهى الأشكال المستقيمة والمستديرة، والمقادير، والحركات كتشبيه المستوى المنتصبِ بالرّمحِ، والقدّ اللّطيفِ بالغصنِ، والشّىءِ المستديرِ بالكرةِ والحَلَقةِ، والعظيمِ الجثّةِ بالجبلِ، والذاهبِ على الاستقامة بنفوذ السهمِ. أو فى الكيفيّاتِ الجُسمانيّةِ، كالصلابةِ والرخاوة. أو فى الكيفيّاتِ النفسانيّة، كالغرائزِ والأخلاقِ. أو فى حالةٍ إضافيةٍ، كقولك: هذه حجّة كالشّمس، وألفاظ كالماء فى السّلاسة وكالنّسيم فى الرقّة، وكالعسل فى الحلاوة. وربّما كان التشبيه بوجه عقلىّ، كقول فاطمة بنتِ الخُرْشُب الأنماريّةِ حين وصفت بنيها الكملة فقالت: هم كالحلقة المفْرغةِ لا يُدرَى أين طرفاها.

وأما تشبيه المعقولِ بالمعقولِ فهو كتشبيهِ الوجود العارى عن الفوائدِ بالعدمِ، وتشبيهِ الفوائد التى تبقى بعد عدم الشّىء بالوجود، كقول الشاعر:

رب حىّ كميّتٍ ليس فيه * أمل يرتجى لنفع وضرّ
وعظامٍ تحت الترابِ وفوق الأرضِ منها آثار(٦) حمدٍ وشكر

(١) التكملة عن حسن التوسل، وصحة التقسيم تقتضى إثباتها. (٢) التكملة عن حسن التوسل والمقام يقتضى إثباتها. (٣) التكملة عن حسن التوسل. (٤) المسح بالكسر: الكساء من الشعر، جمعه أمساح ومسوح. (٥) فى الأصل: «البانية» وهو تحريف. (٦) فى الأصل: «منها حمد» والتكملة عن حسن التوسل وبها يستقيم البيت.

وأمّا تشبيه المعقول بالمحسوس فهو كقوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ .

وأما تشبيه المحسوسِ بالمعقولِ فهو غير جائز ، لأن العلوم العقليّة مستفادةٌ من الحواسّ ومنتهيةٌ إليها ، ولذلك قيل : من فقد حِسّا فقد علما ، فإذا كان المحسوس أصلا للمعقولِ فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلا والأصلِ فرعا ولذلك لو حاول محاول المبالغةَ فى وصفِ الشمسِ بالظهور والمِسكِ بالثناءِ[(١)] فقال : الشمس كالحُجّةِ فى الظّهور ، والمسكُ كالثّناءِ فى الطِّيبِ ، كان ذلك سَخَفًا من القول

فأمّا ما جاء فى الشعر من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدَّر المعقولُ محسوسا ، ويُجعل كالأصل[(٢)] المحسوس على طريق المبالَغةِ ، فيصحّ التشبيه حينئذ وذلك كما قال الشاعر :

وكأنّ النجوم بين دجاها * سُنَنٌ لاح بينهنّ ٱبتداع

فإنّه لما شاع وصف السنّةِ بالبياضِ والإشراقِ ، وٱشتهرت البدعة وكلّ ما ليس بحقٍّ بالظلمةِ[(٣)] تخيّل الشاعر أن السنن كأنها من الأجناس التى لها إشراق ونور ، وأن البِدع نوع من الأنواع التى لها ٱختصاص بالسواد والظُلمة ، فصار ذلك كتشبيه محسوسٍ بمحسوسٍ ، فجاز له التشبيه ، وهو لا يتمّ إلا بتخييل ما ليس بمتلوّنٍ [متلوّنا][(٤)] ثم يتخيّله أصلا فيشبّه به ، وهذا هو الّذى تُؤوّل فى قول أبى طالب الرَّقّىّ :

(١) كذا فى الأصل وفى حسن التوسل . وهو غير مستقيم كما لا يخفى ، ولعل صواب العبارة : «والمسك بالطيب» فإن المسك إنما يوصف به لا بالثناء ، وفى الجملة قبلها وفى ما يأتى من التمثيل ما يؤيده .

(٢) فى الأصل : «ويجعل المعقول محسوسا» وهو مكرر مع ما قبله ، وتصويب العبارة عن حسن التوسل .

(٣) فى الأصل : «كالظلمة» وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

(٤) الزيادة عن حسن التوسل ، ولا يتم المعنى بدونها .

ولقد ذكرتكِ والظلام كأنّه * يومُ النّوى وفؤاد من لم يعشَقِ

فإنّه لمّا كانت الأوقات التى تحدُثُ فيها المكاره توصف بالسواد كما يقال : آسودّت الدنيا فى عينه ، جعل يومَ النوى كأنّه أشهرُ بالسواد من الظلام ، فعرّفه به وشبّهه ، ثم عطف عليه فؤادَ من لم يعشَق لأنّ من لم يعشَق عندهم قاسى القلبِ والقلب القاسى يوصَفُ بشدّة السواد ، فأقامه أصلا ، فقس على هذا المثال . قال : وآعلم أنّ ما به المشابهة قد يكون مقيّدا بالانتساب إلى شىء ، وذلك إما الى المفعول به كقولهم : "أخذ القوسَ باريها" وإلى ما يجرِى مجرى المفعول به وهو الجارّ والمجرور كقولهم لمن يفعل ما لا يفيد : "كناقِم على الماء" وإمّا الى الحال ، كقولهم : "كالحادى وليس له بعير" وإما الى المفعول والجارّ والمجرور معا ، كقولهم : "هو كمن يجمع السيفين فى غمد" و"كمبتغى الصيدِ فى عرينة الأسد" ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ فإنّ التشبيه لم يحصل من مجردِ الحملِ ، بل لأمرين آخرين ، لأن الغرض توجيهُ الذّم إلى من أتعب نفسه فى حمل ما يتضمّن المنافعَ العظيمةَ ثم لا ينتفع به لجهله ، وكقول لبيد :

وما النّاس إلا كالدّيار وأهلها * بها يوم حلّوها وغدوًا(١) بلاقع

فإنّه لم يشبِّه الناس بالديار ، وإنّما شبّه وجودهم فى الدنيا وسرعة زوالهم بحلولِ أهلِ الدّيار فيها ، ووَشْكِ رحيلهم منها . قال : وكلّما كانت التقييدات أكثرَ كان التشبيه أوغلَ فى كونه عقليًّا ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ . فإن التشبيه منتزَعٌ من مجموع هذه الجملِ من غير أن يمكن

(١) فى الأصل وفى حسن التوسل : «وغادروا» وهو تحريف ، والتصويب عن اللسان مادة غدا . وغدوا : لغة فى غدا .

فصـلُ بعضِها عن بعضٍ ، فإنّك لو حذفت منها جملة واحدة من أىّ موضع كان أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه . قال :

ثم ما به المشابهة إن كان مركّبا فإنّه على قسمين :

الأوّل ما لا يمكن إفراد أحدِ أجزائه بالذّكر، كقول القاضى التَنوخىّ :

كأنّمـا المِرّيخُ والمشـترِى * قدّامَه فى شـامخ الرِّفعـه ٥

منصرف باللّيل من دعوة * قد أُسرِجت قدّامه شمعه

فإنّك لو اقتصرت على قوله : كأنّ المِرّيخ منصرفٌ من دعوة، أو كأن المشترِى شمعةٌ لم يحصل ما قصـده الشاعر، فإنّه إنّما قصد الهيئة التى يلبَسُها المِرّيخ من كون المشترِى أمامه .

الثـانى ما يمكن إفرادُه بالذّكر ويكونُ إذا أزيل منـه التركيب صحيحَ التشبيهِ ١٠ فى طرفيه إلّا أن المعنى يتغيّر، كقول أبى طالب الرَقّىّ :

وكأنّ أجرامَ النجوم لوامعا * درر نُثِرن على بِساط أزرق

فلو قلت : كأن النجوم درٌر، وكأن السماء بساط أزرق، وجدتَ التشـبيه مقبولا ولكن المقصود من الهيئة المشبَّه بهـا قد زال . قال : وربّما كان التشبيه فى أمور كثيرة لا يتقيّد بعضها ببعض، وإنّمـا يكون مضموما بعضها إلى بعض وكلّ واحد ١٥ منها منفرد بنفســه، كقولك : زيد كالأسد بأسا، والبحرِ جُودا، والسيفِ مَضاءً والبـدرِ بهاءً؛ وله خاصيتان : إحداهما أنه لا يجب فيـه الترتيب، والثانية أنّه إذا سقط البعض لم يتغيّر حكم الباقى .

ومن المتأخّرين من ذكر فى التشبيه سبعة أنواع :

الأوّل التشبيه المطلق، وهو أن يشبّه شيئا بشىء من غير عكس ولا تبديل ٢٠ (١٦) كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.
وقول النبي صلّى الله عليه وسلم : "الناس كأسنان المُشْطِ".

الثّانى التّشبيه المشروط، وهو أن يشبّه شيئا بشيء لو كان بصفة كذا، ولولا أنّه بصفة كذا، كقوله : أُشَبِّهُ وجهَ مولانا بالعيدِ المقبلِ لو كان العيد تبقَى ميامنه وتدوم محاسنه، وكقوله : وجه هو كالشمسِ لولا كسوفها، والقمرِ لولا خسوفه

وكقول البديع :

قد كان يحكيك صَوبُ الغيثِ منسكبا * لو كان طَلقَ المحيّا يُمطِر الذهبا
والدهرُ لو لم يخُن والشمسُ لو نَطقت * والليثُ لو لم يُصَدْ والبحرُ لو عذُبا

وكقول الآخر[1] :

عَزَماته مثلُ النجوم ثواقبًا * لو لم يكن للثّاقبات أُفول.

الثالث تشبيه الكناية، وهو أن يشبّه شيئا بشيء من غير أداة التشبيه، كقول المتنبّي :

بدت قمرًا وماست خُوطَ بانٍ * وفاحت عنبرا ورَنَتْ غزالا

وقول الواوا[2] الدِّمَشقيّ :

فأمطرت لؤلؤا من نرجسٍ فسقت * وَردا وعَضَّت على العُنّاب بالبَرَدِ.

الرابع تشبيه التسوية، وهو أن يأخذ صفة من صفات نفسه، وصفة من الصفات المقصودة، ويشبّههما بشيء واحد، كقوله :

---

(١) هو رشيد الدين الوطواط.

(٢) فى الأصل : ألولو. وفى حسن التوسل : الواوا؛ وهو تحريف فى كليهما، والتصويب عن شرح القاموس. والواوا : لقبه، واسمه محمد بن أحمد النسائى، وكنيته أبو الفرج.

صُدغُ الحبيب وحالى * كلاهمـا كالليالى
وثغـــره فى صَـــفاء * وأدمُعى كاللآلى.

الخامس التشبيه المعكوس، وهو أن تشبِّه شيئين كلَّ واحد منهما بالآخر كقول الشاعر :

الخمر تفاح جرى ذائبـا * كذلك التفاح خمر جُمِّد
فاشرب على جامدٍ ذَوْبَهُ[2] * ولا تَبِعْ لذّة يومٍ بغـد

وكقول الصّاحب بن عبّاد :

رَقَّ الزّجاجُ وراقت الخمر * فتشابها فتشاكَلَ الأمر
فكأنّه خمـرٌ ولا قـدح * وكأنّه قـدحٌ ولا خمـر

وكقول بعضهم فى النثر : كم من دمٍ أهرقناه فى البَرّ، وشخصٍ أغرقناه فى البحر، فأصبح البرّ بحرا من دمائهم، والبحر برّا بأشلائهم .

السادس تشبيه الإضمار، وهو أن يكون مقصودَه التشبيهُ بشىء فدلّ ظاهر لفظه أنّ مقصودَه غيرُه، كقول المتنبّى :

ومن كنتَ جارا له يا علىّ * لم يقبـل الدرّ إلّا كِبارا

فيدلّ ظاهرُه على أنّ مقصودَه الدرّ، وإنّما غرضه تشبيهُ الممدوح بالبحر .

السابع تشبيه التفضيل، وهو أن يشبِّه شيئا بشىء ثمّ يرجع فيرجّح المشبَّه على المشبَّه به، كقوله :

حسبت جماله بدرا مضيئا * وأين البدر من ذاك الجمال

(١) فى الأصل : «ثغوره» والتصويب عن حسن التوسل .
(٢) فى الأصل : «ذا» وفيه نقص، والتصويب عن حسن التوسل .

وكقول ابن هندو[1] :

مَن قاس جَدواك بالغمام فما * أنصف فى الحكم بين شيئين

أنت إذا جدت ضاحك أبدا * وذاك إن[2] جاد دامع العين .

قال : وقد تقدّم تشبيه شىء بشىء .

فأمّا تشبيه شىء بشيئين فكقول امرئ القيس :

وتَعطو[3] برَخْص غيرِ شَثْنٍ كأنّه * أساريعُ رمل[4] أو مساويك إسْحِلِ .

وأمّا تشبيه شىء بثلاثة أشياءَ فكقول البحترىّ :

كأنّما يبسم عن لؤلؤ * منضّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح .

وأمّا تشبيه شىء بأربعة أشياءَ فكما قال المولى شهاب الدّين أبو الثناء محمود الحلبىُّ الكاتبُ :

يفتَرُّ طرسك عن سطور جادَها الـ * ـفكر السليم بصَوبِ مِسكٍ أذفرِ

فكأنّما هو روضةٌ أو جدول * أو سِمطُ درّ أو قلادةُ عنبرِ .

وأمّا تشبيه شىء بخمسة أشياءَ فكقول الحريرىّ :

يفترُّ عن لؤلؤ رطب وعن بَرَد * وعن أقاحٍ وعن طَلْعٍ وعن حَبَبِ .

وأمّا تشبيه شيئين بشيئين فكقول امرئ القيس :

كأنّ قلوب الطّير رَطبا ويابسا * لَدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالِي

(١) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٥ ص ١٦٨ ط مطبعة هندية . وفى الأصل : «بن هند» ولم نقف عليه فيما بين أيدينا من كتب اللغة ومعاجم الأعلام . (٢) فى الأصل : «اذا» والتصويب عن حسن التوسل . (٣) تعطو : تتناول . والرخص : اللين الناعم . والشثن : الغليظ الكف . والأساريع : دود أحمر يكون فى البقل والأماكن النـدية ، تشبه به أنامل النساء . والإسحل بكسر أوّله : شجر من شجر المساويك . (٤) المشهور فى روايته : (ظبى) كما فى معلقة الشاعر . وظبى بفتح فسكون : اسم بلد قريب من ذى قار ، وهو أحسن بلاد الله أساريع .

وأمّا تشبيه ثلاثة بثلاثة فكقول الآخر :

ليلٌ وبدرٌ وغصن * شعرٌ ووجهٌ وقـدُّ

خمـر ودرّ وورد * ريق وثغـر وخد .

وأمّا تشبيه أربعـة بأربعة فكقول امرئ القيس :

له أيْطَـلا ظَبْيٍ وساقا نعـامةٍ * وإرخاءُ سِرحان وتقريبُ تَتْفُلِ (١) ٥

وكقول أبي نواس :

تبكى فتُذرى الدرّ من نرجس * وتلطِـم الـورد بعُنـاب .

وأمّا تشبيه خمسة بخمسة فكقول أبي الفرج الواوا الدمَشقيّ (٢) :

قالت متى البين يا هٰذا فقلت لها * إمّا غدا زعمـوا أو لا فبعـد غد

فأمطرت لؤلؤا من نرجس فسقت * وردا وعضّت على العُنّاب بالبَرد ١٠

وشبّه قاضى القضاة نجم الدين بن البارزىّ سبعة أشياءَ بسبعةِ أشياءَ وهى :

يُقَطِّعُ بالسّكّين بِطّيخةً ضحى * على طبقٍ فى مجلسٍ لان صاحبه

كشمسٍ ببرق قَدَّ بدرا أهـلّةً * لدى هالة فى الأفق شتّى كواكبه .

قال : والغرض من التشبيه قد يكون بيانَ إمكان وجود الشىء عند ادّعاء ما لا يكون إمكانُه بيّنا ، كقول ابن الرّومىّ : ١٥

وكم أب قد علا بابن ذُرى شرفٍ * كما عَلَتْ برسول الله عدنانُ

وكقول المتنبّى :

فإن تفُق الأنام وأنت منهم * فإنّ المسك بعضُ دم الغزال

(١) واحده أيطل ، وهو الخاصرة . والإرخاء : شدّة العدو . والتقريب : وضع الرجلين مكان اليدين فى العدو . والتتفل : ولد الثعلب . ٢٠

(٢) موضع هذا الاسم مطموس بالاصل ، وما أثبتناه عن حسن التوسل .

أو بيـانَ مقداره ، كما إذا حاولْت نفى الفائدةِ عن فعل إنسان قلت : هـذا كالقابض على المـاء، لأن خلوّ الفعل عن الفائدة مراتبَ مختلفةٌ فى الإفراط والتفريط والوسط ، فإذا مُثِّل بالمحسوس عُرِفت مرتبته ، ولذلك لو أردت الإشارة إلى تنافى الشيئين فأشرْت إلى ماء ونار فقلت : هذا وذاك هل يجتمعان؟ كان تأثيره زائدا على قولك : هل يجتمع المـاء والنار؟ وكذلك إذا قلت فى وصف طول يوم : كأطول ما يُتوهّم ، أو لا آخر له ، أو أنشدت[1] قوله :

فى ليل[2] صُولٍ تناهَى العَرض والطول * كأنّمـا ليـله بالليـل موصول

لم تجد فيه[3] من الأنس ما تجده فى قوله :

ويومٍ كظـلّ الرمح قصَّر طُولَه * دمُ الزِقّ عنّا واصطفاقُ المزاهر

وما ذاك إلّا للتشبيه بالمحسوس، وإلّا فالأول أبلغ، لأن طول الرمح متناهٍ (١٨)
وفى الأول حَكمتَ أنّ ليـلَه موصول باللّيل، وكذلك لو قلت فى قِصر اليومِ : كأنّه ساعة، أوكلمح البصرِ، لوجدته دون قوله :

ظللنا عنـد دار أبى أنيسٍ * بيوم مثـل سالفةِ[4] الذُّباب

وقولِه :

ويومٍ كإبهام القطاةِ مُزيَّن * إلىّ صِـباه غالبٌ لِىَ باطله .

قال : وقد يكون غرض التشبيه عائدا على المشبه به ، وذلك أن تقصد على عادة التخييل أن توهِم فى الشىء القاصرِ عن نظيرِه أنه زائد، فتشبِّهَ الزائد به، كقوله :

(١) فى الأصل : «وأنشدت» والسياق يقتضى العطف بأو كما فى حسن التوسل .

(٢) البيت لحندج ابن حندج المرّى . وصول : مدينـة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب . أنظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٣٥ ط المدرسة المحروسة بمدينة غتنغة .

(٣) فى الأصل : «منه» وما أثبتناه عن حسن التوسل ، إذ هو المناسب لقوله بعد : (فى قوله) .

(٤) السالفة : صفحة العنق ، أراد هنا العنق كله .

وبدا الصـــباح كأنّ غرّتَه * وجه الخليفة حين يُمْتَـدَح (١)

وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيهِ الوجه بالصباح، لأن تشبيه الوجه بالصباح أصل متّفق عليه لا يُنكر ولا يُستكثَر، وإنما الذى يستكثر تشبيه الصباح بالوجه .

قال : ثم الغرض بالتشبيه إن كان إلحاقَ الناقِص بالزائدِ امتنع عكسه (٢) مع بقاء هـذا الغـرض، وإن كان الجمعَ بين شيئين فى مطلقِ الصورةِ والشكلِ واللونِ صحّ العكس ٥ كتشبيه الصبح بغرّة الفرس الأدهم لا للمبالغـة فى الضياء، بل لوقوع منيرٍ فى مظلم وحصولِ بياضٍ قليلٍ فى [سوادٍ] كثيرٍ .

قال : والتشبيه قد يجىء غريبا يحتاج فى إدراكه الى دقّة نظر، كقول ٱبن المعتزّ :

* والشمس كالمِرآة فى كفّ الأشلّ *

والجامع الٱستدارة والإشراق مع تواصل الحركة التى تراها للشمس إذا أنعمت ١٠ التأمّل فى ٱضطراب نورِ الشمس، ويقرب منه قول الآخر :

كأن شعاعَ الشمس فى كلّ غُدوة * على ورق الأشجـار أوّلَ طالعِ

دنانيرُ فى كفّ الأشـلّ يضمّها * لقبض (٣) وتهوى [من] (٤) فروجِ الأصابعِ

وكقول المتنبىّ :

الشمس من مشرقها قد بدت * مشرقةً ليس لهـا حاجب ١٥

كأنها بُودَقـةٌ (٥) أُمِيتْ * يحول فيهـا ذهب ذائب

(١) البيت لمحمد بن وهيب الحميرى من قصيدة يمدح بها المأمون .

(٢) فى الأصل : «مقنع» وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل .

(٣) كذا فى الأصل وفى حسن التوسل . ولعله «بقبض» بالباء .

(٤) الكلمة الموضوعة بين مربعين ساقطة من الأصل، وقد نقلناها عن حسن التوسل، وبها يستقيم ٢٠ الوزن والمعنى . (٥) فى الأصل : «بوطقة» وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل . والبودقة : مولد معرب بوته، وهى ما يصفى فيه الذهب والفضة معروفة عند الصاغة، ويقال فيه : بوتقة .

ومن لطيف ما جاء فى هـذا المعنى من التشبيه قول الأخطلِ فى مصلوب :

أو قائمٌ من نعاس فيه لُوثته[1] * مُواصِل لتمطّيه من الكسل

شبّهه بالمتمطّى[2]، لأنّ المتمطّى يمدّ يديه وظهرَه ثم يعود إلى حالته الأولى، فزاد فيه أنّه مواصل لذلك، وعلّله بالقيام من النعاس لما فى ذلك من اللُّوثة والكسل .

٥ قال : والتشبيه ليس من المجاز، لأنه معنى من المعانى، وله ألفاظ تدلّ عليه وضعا فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه ، وإنّما هو توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتمثيل، لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له ، والذى يقع منه فى حيّز المجاز عند أهل هذا الفنّ هو الذى يجىء على حدّ الاستعارة، كقولك لمن يتردّد فى الأمر [بين][3] أن يفعله أو يتركه : « أراك تقـدّم رجلا وتؤخّر أخرى » والأصل فيه أراك فى تردّدك

١٠ كمن يقدّم رجلا ويؤخر أخرى .

وأما الاستعارة — فهى ادّعاء معنى الحقيقة فى الشىء للمبالغة فى التشبيه مع طرح ذكر المشبّه من البين[4] لفظا وتقديرا . وإن شئت قلت : هو جعل الشّىءِ الشّىءَ [أو جعل الشىءِ للشىءِ][5]] لأجل المبالغةِ فى التشبيه .

فالأوّل كقولك : لقيت أسدا وأنت تعنى الرجل الشجاع .

١٥ والثانى كقول لبيد :

* إذ أصبحتْ بيد الشّمال زمامُها[6] *

أثبت اليد للشّمال مبالغةً فى تشبيهها بالقادر فى التصرف فيه على ما يأتى بيانُ ذلك .

(١) اللوثة بالضم : الاسترخاء . (٢) فى الأصل : (بالتمطى) وما أثبتناه عن حسن التوسل .
(٣) الزيادة عن حسن التوسل . (٤) كذا فى الاصل وحسن التوسل . وهو غير ظاهر، ولعل
٢٠ صوابه : «من الشيئين» ، يريد الطرفين . (٥) التكملة عن حسن التوسل ، والتمثيل الآتى يقتضى اثباتها .
(٦) فى معلقة الشاعر : « قد » والمعنى يستقيم على كل منهما . وصدر البيت : «وغداة ريح قد وزعت وقـرة» . يريد أنه رب غداة ريح وبرد قد دفعتها عن العفاة بنحر الجزر لهم والإطعام، وإذكاء النار لدفئهم وقراهم . وانما خص الشمال لأنها أبرد الرياح .

وحدّ الرمّانىّ الاستعارة فقال : هى تعليق العبارة على غير ما وُضعت له فى أصل اللّغة على سبيل النقل للإبانة .

وقال ابن المعتزّ : هى استعارة الكلمة من شىء قد عُرف بها إلى شىء لم يُعرف بها . وذكر الخفاجىّ كلامَ الرمّانىّ وقال : وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة ، لأن الاشتعال[1] للنار ، ولم يوضع فى أصل اللغة للشيب فلما نقِل اليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه ، لأن الشيب لما كان يأخذ فى الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله إلى غير لونه الأوّل كان بمنزلة النار التى تسرى فى الخشب حتى تحيلَه إلى غير [حالته][2] المتقدّمة ؛ فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة فى الوضع للبيان ، ولا بدّ من أن تكون أوضحَ من الحقيقة لأجل التشبيه العارِض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت أولى بها[3] ، لأنها الأصل ، وليس يخفى على المتأمّل أن قوله عزّ وجلّ : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أبلغ من كثُر شيبُ الرأس ، وهو حقيقة هذا المعنى .

ولا بدّ للاستعارة من حقيقة هى أصلها ، وهى مستعار منه ، ومستعار ، ومستعار له ، فالنار مستعار منها ، والاشتعال مستعار ، والشيب مستعار له . قال : وأمّا قولنا مع طرح ذكر المشبّه ، فاعلم أننا اذا طرحناه كقولنا : رأيت أسدا ، وأردنا الرجل الشجاع فهو استعارة بالاتفاق ، وإن ذكرنا معه الصيغةَ الدالّةَ على المشابَهة كقولنا : زيد كالأسد أو مِثلُه أو شِبهُه فليس باستعارة ؛ وإن لم نذكر الصيغة وقلنا : زيد أسد فالمختار أنه ليس باستعارة إذ فى اللفظ ما يدلّ على أنّه ليس بأسد فلم تحصل

(١) فى الأصل : (الاستعارة) وفيه تحريف وزيادة هاء ، والسياق يقتضى ما أثبتنا كما فى حسن التوسل .

(٢) الزيادة عن حسن التوسل ، ولا يستقيم الكلام بدونها . وعبارة الأصل : (كان بمنزلة النار التى تسرى فى الخشب حتى تحيله الى غير لونه الأوّل كان بمنزلة النار حتى تحيله الى غير لونه المتقدّمة) . وفيها تكرار ونقص .

(٣) بها أى بالعبارة .

المبالغة ، فاذا قلت : زيد الأسد فهو أبعد عن الاستعارة ، فإنّ الأوّل خرج بالتنكير عن أن يحسُن فيه كاف التشبيه ، فإنّ قولك : زيد كأسد كلامٌ نازل بخلاف الثانى .

قال ضياء الدين بنُ الأثير : وهـذا التشبيه المضمر الأداةِ قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرّقوا بينهما ، وذلك خطأ محض .

٥ قال : وسأوضح وجه الخطإ فيـه وأحقق القول فى الفرق بينهـما فأقول : أمّا التشبيه المظهَر الأداة فلا حاجة بنـا إلى ذكره لأنّه لا خلاف فيـه ، ولكن نذكر التشبيه المضمَرَ الأداة فنقول : إذا ذكر المنقول والمنقول اليه على أنّه تشبيهٌ مضمر الأداة قيل فيه : زيد أسد ، أى كالأسد ، فأداة التشبيه فيه مضمَرة مقدّرة ، وإذا أظهِرت حسُن ظهورها ، ولم تقـدح فى الكلام الذى أظهِرت فيه ، ولم تزُل عنـه ١٠ فصاحته ؛ وهـذا بخلاف ما إذا ذُكر المنقول اليه[1] دون المنقول فإنه لا يحسُن فيـه ظهور أداة التشبيه ، وإذا ظهرَت زال عن ذلك الكلام ما كان متّصفا به من الحسن والفصاحة .

قال : ولنضرب لذلك مثالا يوضحـه فنقول : قد ورد هـذا البيت لبعض الشعراء وهو :

١٥ فرعاءُ[2] إن نهضت لحاجتها * عجِل القضيب وأبطأ الدعص

وهذا لا يَحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، فلا يقـال : عجل [قدّ][3] كالقضـيب وأبطأ [رِدف][3] كالدِّعص ؛ فالفرق إذن بين التشـبيه المضمرِ أداةُ التشبيه فيه وبين

(١) كذا فى الأصـل وحسن التوسل والمثل السائر ص ٢١٥ ط بولاق ؛ وهو غير مستقيم ، فان الذى يذكر فى الاستعارة هو لفظ المشبه به ، وهو المنقول دون المنقول اليه ، ولعل صواب العبارة : «وهذا بخلاف ما اذا ذكر المنقول دون المنقول اليه» وفى التمثيل الآتى ما يؤيده .

(٢) الفرعاء : الطويلة الشعر . (٣) عبارة الأصـل : «عجل كالقضيب وأبطأ كالدعص» بدون هاتين الزيادتين ، وما أثبتناه عن حسن التوسل والمثل السائر .

الاستعارة أن التشـبيهَ المضمر الأداةِ يحسن إظهار أداة التشبيه فيــه ، والاستعارة لايحسن ذلك فيها . والاستعارة أخصّ من المجاز إذ قصد المبالغة شَرطٌ فى الاستعارة دون المجاز ، وأيضا فكلّ استعارة من البديع وليس كلّ مجاز منه . والحقّ أن المعنى يعار أوّلا ثم بواسطته يعار اللّفظ ؛ ولا تحسن الاستعارة إلا حيث كان التشبيه مقرّرا بينهما ظاهرا ، وإلا فلا بدّ من التصريح بالتشبيه ، فلو قلت : رأيت نخلة أو خامة وأنت تريد مؤمنا إشارة إلى قول النّبي صلّى الله عليه وسلم : «مثل المؤمن كمثل النخلة»[1] أو «كمثل الخامة»[2] لكنت كالملغِز التارك لمـا يُفهم[3] . وكلّما زاد التشبيه خفاء زادت الاستعارة حسنا بحيث تكون ألطفَ من التصريح بالتشبيه ، فإنّك لو رمت أن تظهر التشبيه فى قول ابن المعتزّ :

أثمرت أغصان راحتِه * لجُنـاةِ الحسن عُنّـابا

احتجت أن تقول : أثمرت أصابع راحتِه التى هى كالأغصان لطالب الحسن شِبهَ العُنّاب من أطرافها المخضوبة ، وهذا ممّـا لاخفاء بغَثاثته .

وربّمـا جُمع بين عدّة استعارات إلحاقا للشكل بالشكل لإتمـام التشبيه فتزيد الاستعارة به حُسنا ، كقول امرئ القَيْس فى صفة اللّيل :

فقلت له لمّـا تمطّى بصُلبه * وأردف أعجازا وناءَ بكَلكَل

فصل فيما تدخله الاستعارة ومالا تدخله

قال : الأعلام لا تدخلها الاستعارة لمـا تقدّم فى المجاز . وأما الفعل فالاستعارة تقع أوّلا فى المصدر ، ثم تقع بواسطة ذلك فى الفعل ، فإذا قلت : نطقت الحال بكذا

(١) فى رواية : (كمثل النحلة) بالحاء المهملة ، يريد نحلة العسل ، وما هنا هو المشهور .

(٢) نصه فى كتاب النهاية هكذا : "مثل المؤمن كمثـل الخامة من الزرع تفيئها الرياح" والخامة : الطاقة الغضة الناعمة من الزرع .

(٣) فى الأصل : «فلا» والتصويب عن حسن التوسل .

فهذا إنّما يصحّ لأنّك وجدت الحال مشابِهة للنطق فى الدِلالة على الشىء، فلا جَرَمَ [أنك](١) آستعرت النطق لتلك الحالة ثم نقلته إلى الفعل. والأسماء المشتقّة فى ذلك كالفعل ؛ فظهر أنّ الآستعارة إنّما تقع وقوعا أوّليّا فى أسماء الأجناس . ثم الفعل إذا كان مستعارا فآستعارته إمّا من جهة فاعله ، كقوله : نطقت الحال بكذا ولعبت بى الهموم، وقولِ جرير :

تحيي الروامسُ رَبْعَها فتُجِدّه(٢) * بَعد البِلى وتميته الأمطار

وقولِ أبى حيّة :

وليلةٍ مرضت من كل ناحية * فما تضىء لها شمس ولا قمر

أو من جهة مفعوله ، كقول آبن المعتز :

جُمِع الحقّ لنا فِى إمامٍ * قتل الجوع(٣) وأحيي السَماحا

أو من جِهة مفعوليه ، كقول الحريرى :

وأَقرِى المسامعَ إنّا نطقتُ * بيانا يُقود الحَرُون الشَموسا

أو من جهة أحد مفعوليه ، كقول الشاعر(٤) :

تَقْرِيهِمُ لَهذميّاتٍ تَقُدّ بها * ما كان خاطَ عليهم كلُّ زرّاد

أو من جهة الفاعل والمفعول، كقوله تعالى : ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾.

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، واللغة تقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «الروامن أرضها» وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل . والروامس : الرياح التى تنقل التراب من بلد الى بلد . يريد أن الرياح تكشف التراب المغطى لآثار الربع فتظهرها و يصوب المطر عليها فيعفوها وتخفى على الناظر .

(٣) فى حسن التوسل : (الجور) والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين ، وما هنا أقرب الى قوله : السماح .

(٤) هو القطامىّ .

قال : ويتصل بهذا ترشيح الاستعارة وتجريدُها، أما ترشيحها فهو أن يَنظُر فيها إلى المستعار، ويراعِىَ جانبَه، ويوليَه مايستدعيه، ويضمّ إليه ما يقتضيه، كقول كُثيّر :

رمتنى بسهم رِيشُه الهُدب لم يُصب * بظاهر جسمى وهو فى القلب جارح (١)

وكقول النابغة :

وصدرٍ أراح الليـلُ عازِبَ همِّـه * تَضاعَف فيه الحزن من كلّ جانب ٥

فالمستعار فى كل واحد منهما وهو الرمى والإراحة منظور اليهما فى لفظ السهم والعازب، وكما أنشد صاحب الكشّاف (٢) :

ينازعنى ردائى عند عمرو * رويدك ياأخا عمرِو بنِ بكر

لِىَ الشَطر الذى ملكت يمينى * ودونَك فاعتجر منه بشَطر

أراد بردائه سيفَه، ثم نظر إلى المستعار فى لفظ الاعتجار. وأما تجريدها فهو أن ١٠ يكون المستعار له منظورا إليه، كقوله تعالى : ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ فإن الإذاقة لمّا وقعت عبارة عما يدرَك من أثر الضرر (٣) والألم تشبيها له بما يدرَك من الطعم المرّ البشع، واللباسَ عبارة عما يَغشى منهما ويلابِس فكأنه قال : فأذاقها الله ما غشيها من ألم الجوع والخوف، وكقول زهير :

لدى أسدٍ شاكى السلاحِ مقذَّفٍ * له لِبـد أظفـاره لم تُقـلّم (٤) ١٥

فلو نظر الى المستعار لقال : أسـد دامى المخالب أو دامى البراثن، ونظر زهير فى آخر البيت الى المستعار أيضا، ومنه قول كُثيّر :

غَمْرُ الرِداءِ اذا تبسّم ضاحكا * غَلِقت لضحكته رقاب المال

(١) هذه الباء ساقطة من الأصل، وبها يستقيم الوزن. (٢) فى الأصل : (الكتاب) والتصويب عن حسن التوسل. (٣) فى الأصل : (الضرورة) وما أثبتناه عن حسن التوسل. (٤) شاكى السلاح وشائكه وشاكه : حديده. والمقذف : الذى يقذف به كثيرا فى الوقائع. مبالغة فى القذف. ٢٠

استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عِرض صاحبه صونَ الرداء لما يُلقَى عليه ووصفَه[1] بالغمر الذى هو وصف المعروف والنوال لاوصفُ الرداء .

قال : ويقرب من ذلك الاستعارة بالكناية، وهى أن لايصرّح بذكر المستعار بل بذكر بعض لوازمه تنبيها به عليه، كقولهم : شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس .

وكقول أبى ذؤيب :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارَها * ألفَيتَ كلّ تميمة لاتنفع

تنبيها على أنّ الشجاع أسد، والمنيّة سبع، والعالِم[2] بحر، وهذا وإن كان يشبِه الاستعارة المجرّدة إلّا أنّه أغرب وأعجب، ويقرب منه قول زهير :

ومن يعصِ أطراف الزِجاج[3] فإنه * يطيع العوالى رُكِّبت كلّ لَهذم

أراد أن يقول : من لم يرض بأحكام الصلح رضِىَ بأحكام الحرب، وذلك أنهم كانوا اذا طلبوا الصلح قلبوا زِجاج الرماح وجعلوها قدّامها مكانَ الأسنّة، واذا أرادوا الحرب أشرعوا الأسنّة، وقد يسمّى هذا النوع المماثلة أيضا .

قال : وقد ينزلون الاستعارة منزلة الحقيقة، وذلك أنهم يستعيرون الوصف المحسوس للشىء المعقول ويجعلون كأنّ تلك الصفةَ ثابتةٌ لذلك الشىء فى الحقيقة، وأنّ الاستعارة لم توجد أصلا، مثاله استعارتهم العلوّ لزيادة الرجل على غيره فى الفضل والقدر والسلطان ثم وضعُهم الكلام وضعَ من يذكر علوّا مكانيّا[4]، كقول أبى تمّام :

(١) فى الأصل : (ووصف) بدون هاء، وما أثبتناه عن حسن التوسل .

(٢) مقتضى ماسبق من التمثيل تقديم هذه العبارة على ماقبلها إن لوحظ الترتيب كما فى حسن التوسل .

(٣) واحده زج بالضم، وهو حديدة تكون فى أسفل الرمح .

(٤) فى الأصل : «مكانا» وما أثبتناه عن حسن التوسل .

ويَصعَد حتى يظنَّ الحسود * بأنّ له حاجةً فى السماء

وكقوله أيضا :

مكارم لجّت فى علوّ كأنّما * تحاول ثأرا[1] عند بعض الكواكب

ولذلك يستعيرون آسم شىء لشىء من نحو شمس أو بدر أو أسد ويَبلُغون الى حيث يُعتقد أنه ليس هناك آستعارة، كقول آبن العميد :

قامت تظلّلنِي من الشمس * نفس أعزّ علىّ من نفسى

قامت تظلّلنِي ومن عجبٍ * شمس تظللنى من الشمس

وكقول آخر :

أيا شمسا يضىء بلا آنطفاءٍ * ويابدرا يلوح بلا مُحاق

فأنت البدر ما معنى آنتقاصى[2]؟ * وأنت الشمع ما معنى آحتراقى[2]؟

[فلولا[3] أنه أنسى نفسه أن هاهنا آستعارةً لما كان لهذا التعجب معنى، ومدار هذا النوع على التعجب]

وقد يجئ على عكسه، كقول الشاعر[4] :

لا تعجبوا مِن بِلى غلالته * قد زرّ أزرارَه على القمر .

فصل فى أقسام الاستعارة

قال : وهى على نوعين :

الأوّل أن تعتمد نفسَ التشبيه ، وهو أن يشترك شيئان فى وصف وأحدهما أنقص من الآخر، فتعطِى الناقصَ آسم الزائدِ مبالغةً فى تحقّق ذلك الوصف له

(١) فى الأصل : «نارا» بالنون ؛ وهو تحريف . (٢) فى الأصل : (انتقاص) و(احتراق) بحذف ياء المتكلم فيهما ، والمقام يقتضى اثباتها كما فى حسن التوسل . (٣) الزيادة عن حسن التوسل ؛ والمقام يقتضيها . (٤) هو أبو الحسن بن طباطبا العلوى .

كقولك : رأيت أسدا وأنت تعنى رجلا شجاعا ، وعنّت لنا ظبيةٌ وأنت تريد آمرأةً .

والثانى أن تعتمد لوازمه عند ما تكون جهة الاشتراك وصفا ، وإنما ثبت كماله فى المستعار منه بواسطة شىء آخر فتثبت ذلك الشىء للمستعار له مبالغة فى إثبات المشترك ، كقول لبيد :

وغداةِ ريح قد كشفتُ وقِرّةٍ (١) * إذ أصبحت بيد الشَّمال زمامُها

وليس هناك مشار اليه يمكن أن يُجرِىَ آسمَ اليد عليه كما جرى الأسد على الرجل لكنّه خَيّل الى نفسه أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعة الإنسان المتصرّف فيما زمامُه ومَقادتُه بيده ، لأن تصرف الإنسان إنما يكون باليد فى أكثر الأمور فاليد كالآلة التى تَكمُل بها القوّة على التصرف ، ولما كان الغرض إثباتَ التصرف — وذلك مما لا يَكمُل إلا عند ثبوت اليد — أثبت اليد للشَّمال (٢) تحقيقا للغرض ، وحكم الزمام فى آستعارته للغداة حكم اليد فى آستعارتها للشَّمال ، وكذلك قول تأبّط شرّا :

اذا هزّه فى عظم قَرن تهلّلت * نواجذُ أفواهِ المنايا الضواحكِ (٣)

لمّا شبّه المنايا عند هزّة السيف بالمسرور — وكمال الفرح والسرور إنما يظهر بالضحك الذى تتهلّل فيه النواجذ — أثبته تحقيقا للوصف المقصود ، وإلّا فليس للمنايا ما يُنقل اليه آسمُ النواجذ ، وهكذا الكلام فى قول الحماسىّ :

سقاه الردى سيف إذا سُلّ أو مضت * إليه ثنايا الموت من كلّ مَرقَبِ

(١) فى الأصل : «وقوّة» بالواو ، وهو تحريف . والقرّة بالكسر : ما أصاب الإنسان من البرد .

(٢) هذه اللام ساقطة من الأصل ، والمقام يقتضى إثباتها .

(٣) فى الأصل : «نواجذه» والهاء زيادة من الناسخ .

ومن هذا الباب قولهم : فلان مُرخَى العِنان ، ومُلقَى الزمام .

قال : ويسمّى هـذا النوع استعارة تخييليّة ، وهو كإثبات الجناح للذلّ فى قوله تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ . قال : إذا عُرف هـذا فالنوع الأوّل على أربعة أقسام :

الأوّل — أن يستعار المحسوس للمحسوس ، وذلك إما بأن يشتركا فى الذات ويختلفا فى الصفات ، كاستعارة الطيران لغير ذى جناح فى السرعة ، فإن الطيران والعدو يشتركان فى [الحقيقة وهى](١) الحركة الكائنة(٢) إلّا أن الطيرانَ أسرعُ . أو بأن يختلفا فى الذات ويشتركا فى صفة إما محسوسة كقولهم : رأيت شمسا ويريدون إنسانا يتهلّل وجهه ، وكقوله تعالى : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فالمستعار منه النارُ ، والمستعار له الشيبُ ، والجامعُ الانبساطُ ، ولكنّه فى النار أقوى ؛ وإمّا غيرِ محسوسة كقوله تعالى : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ المستعار له الريحُ ، والمستعار منه المرءُ والجامعُ المنعُ من ظهور النتيجة .

الثانى — أن يستعار شىء معقولٌ لشىء معقولٍ لاشتراكهما فى وصف عدمىّ أو ثبوتىّ وأحدهما أكملُ فى ذلك الوصف ، فيتنزّل الناقص منزلة الكامل كاستعارة اسم العدم للوجود إذا اشتركا فى عدم الفائدة ، أو استعارة اسم الوجود للعدم اذا بقيت آثاره المطلوبة منه ، كتشبيه الجهل بالموت لاشتراك الموصوف(٣) بهما فى عدم الإدراك والعقل ، وكقولهم : فلان لقِىَ الموت اذا لقى الشدائد ، لاشتراكهما فى المكروهيّة ، وقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ والسكوت والزوال أمران معقولان .

(١) التكملة عن حسن التوسل . (٢) كذا فى الأصل . وفى حسن التوسل : (المكانية) ولعلها أظهر . (٣) فى الأصل : (الوصف) والسياق يقتضى ما أثبتنا كما فى حسن التوسل .

الثالث — أن يستعار المحسوسُ للعقولِ كاستعارة النور الذى هو محسوس للحجّة ، واستعارةِ القِسطاسِ للعدلِ ، وكقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ فالقذف والدمغ مستعاران ، وقولُه تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ استعارةٌ لبيانه عما أوحى اليه كظهور ما فى الزجاجة عند انصداعها ، وكلُّ خوضٍ فى القرآن العزيز فهو مستعار من الخوض فى الماء ، وقولُه تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ جعل لهما طاعة وقولا .

الرابع — أن يستعار اسمُ المعقولِ للمحسوسِ على ما تقدّم ذكره فى التشبيه كقوله تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ فالشهيق والغيظ مستعاران ، وقولِه تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ والأقوال فى الاستعارة كثيرة ، وقد أوردنا فيها ما يُستدلُّ به عليها .

وأما الكناية — قال : اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلىّ غيرَ معناها فلا يخلو : إما أن يكون معناها مقصودا أيضا ليكون دالّا على ذلك الغرضِ الأصلىّ وإما أن لا يكون كذلك .

فالأول هو الكناية ، ويقال له : الإرداف أيضا .

والثانى المجاز .

فالكناية عند علماء البيان أن يريد المتكلّم إثباتَ معنى من المعانى لا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء الى معنى هو تاليه (١) وردفُه فى الوجود فيُومِى به اليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولُهم : طويل النِجادِ وكثير رَمادِ القِدر ، يعنون به أنه طويلُ القامة ، كثيرُ القِرى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ كنى بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر .

(١) فى الأصل : (تأكيد) وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

وقول الشاعر[1] :

بعيدة مَهوَى الفُرطِ إما لنَوفلٍ * أبوها وإمّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ

أراد ذكر طُولَ جِيدها [فأتى بتابعه[2] وهو بُعد مهوى القرط]، وكقولِ ليلى الأخيَلِيّة :

ومخـــرَّقٍ عنه القميصُ تخاله * وسطَ البيوت من الحياء سقيما

كَنَتْ عن جـوده بخَرق القميص من جذب العُفاة له عند ازدحامهم لأخذ العطاء، وأمثالِ ذلك . قال :

والكناية تكون فى المثبتِ كما ذكرنا ، وقد تكون فى الإثبات وهى ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعانى لشىء فيتركون التصريح بإثباته له ، ويثبتونه لمـا له به تعلُّق ، كقولهم : المجدُ بين ثوبيه ، والكرم بين برديه ، وقولِ الشاعر[3] :

إن المـروءةَ والسماحةَ والندى * فى قُبّةٍ ضُربت على ابن الحَشْرَج .

قال : واعلم أن الكناية ليست من المجـاز لأنك تعتبر فى ألفاظ الكناية معانيها[4] الأصليةَ، وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود، فتريد بقولك : كثيرُ الرماد حقيقتـه[5] وتجعل ذلك دليلا على كونه جوادا ، فالكناية ذكر الرديف وإرادةُ المردوف .

وأما التعريض — فهو تضمين الكلام دِلالةً ليس لها ذكر، كقولك : ما أقبحَ البخلَ ! لمن تُعرِّض ببخله ، وكقولِ محمد بنِ عبد الله ابنِ الحسن : لم يُعرِق فى أمهات الأولاد، يعرّض بالمنصور بأنه ابن أمةٍ ، وأمثالِ ذلك .

وأما التمثيل — فإنمـا يكون من باب المجاز اذا جاء على حدّ الاستعارة ، مثاله قولك للمتحيِّر[6] : فلان يقـدّم رِجلا ويؤخّر أخرى ، فلو قلت : إنه فى تحيّره كمن يقدّم

(١) هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى . (٢) التكملة التى بين مربعين عن حسن التوسل .
(٣) هو زياد الأعجم . والبيت من قصيدة قالها فى عبد الله بن الحشرج وكان قد وفد عليه وهو أمير على نيسابور . (٤) فى الأصل : «معناها» والسياق يقتضى ما أثبتناه . (٥) فى الأصل : «حقيقة» بدون ه ، وما أثبتناه عن حسن التوسل . (٦) فى الأصل : «قول المخبر» وفيه نقص وتحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

رِجلا و يؤخر أخرى لم يكن من باب المجاز، وكذلك قولك لمن أخذ فى عمل لا يتحصّل منه مقصودٌ : أراك تنفخ فى غير ضَرَم، وتخُطّ على المـاء .

قال : وأجمعوا على أنّ للكناية مزيّةً على التصريح لأنك اذا أثبتّ كثرة القِرى بإثبات شاهدِها ودليلِها فهو كالدعوى التى [معها](١) شاهد ودليـل، وذلك أبلغ من إثباتها بنفسها .

* * *

وأما الخبر وأحكامه — فقد قال : الخبر هو القول المقتضِى تصريحُه نِسبةَ معلوم الى معلوم بالنفى أو الإثبات . وتسمية أحد جزئيه بالخبر مجازِيّة . ثم المقصود من الخبر إن كان هو الإثبات المطلق فيكون بالاسم، كقوله تعالى : ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وإن لم يتمّ ذلك إلا بإشعار زمانه فيكون بالفعل، كقوله تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإن المقصود لا يتمّ بكونه معطيا للرزق [بل بكونه معطيا للرزق](٢) فى كل حين وأوان، والإخبار بالفعلِ أخصّ من الإخبـارِ بالاسم، واذا أنعمت النظر وجدت الاسم موضوعا على أن تثبت به المعنى للشىء من غير إشعارٍ بتجدّدِه شيئا فشيئا، بل جعلِ الانطلاق أو البسط مثلا صفة ثابتة ثبوتَ(٣) الطول أو القِصر فى قولك : زيد طويل أو قصير، بخلاف ما إذا أخبرت بالفعل فإنه يشعِر بالتجدّد وأنه يقع جزءا فجزءا، واذا أردت شاهدا على ذلك فتأمّل هذا البيت :

لا يألَف(٤) الدرهم المضروب صُرّتنا * إلا(٥) يمـــرّ عليها وهو منطلق

---

(١) الزيادة عن حسن التوسل، وصحة العبارة تقتضيها . (٢) الزيادة عن حسن التوسل، والمقام يقتضى إثباتها . (٣) فى الأصل : «بثبوت» والباء زيادة من الناسخ . (٤) البيت للنضر ابن جؤبة بن النضر . (٥) فى تلخيص المفتاح ومعاهد التنصيص ص ٩٦ ط بولاق : «لكن» .

بجاء بالاسم، ولو أتى بالفعل لم يَحسن هـذا الحسنَ . والفعل المتعدى الى جميع مفعولاته خبر واحد، حتى اذا قلت : ضرب زيد عمرا يوم الجمعة خلف المسجد ضربا شـديدا تأديبا له كان الخبر[1] شيئا واحدا وهو إسـناد الضرب المقيَّد بهذه القيود الى زيد، فظهر من ذلك [أن][2] قولك : جاءنى رجل مغايرٍ لمـا دلّ عليه قولك : جاءنى رجل ظريف، وإنك لست فى ذلك [إلا][3] كمن يضمّ معنى الى معنى . وحكم المبتدإ[4] والخبر أيضا كذلك، فقول بشّار :

كأن مُثار النَّقع فوق رءوسنا * وأسيافَنا ليل تَهاوَى كواكبه

خبر واحد . واذا قلت : الرجل خير من المـرأة فاللام فيـه قد تكون للعموم أو للخصوص بأن ترجع الى معهودٍ، أو لتعريف الحقيقة مع قطع النظر عن عمومها وخصوصها . واذا قلت : زيد المنطلق، أو زيد هو المنطلق أفاد انحصار المخبَر به فى المخبَر عنه، فان أمكن الحصر تُرِك على حقيقته، وإلّا فعلى المبالغة . واذا قلت : المنطلق زيد فهو إخبار عما عُرِف بمـا لم يُعرَفْ، فكأن المخاطَب عَرَف أن انسانا انطلق ولم يعرف صاحبه، فقلتَ : الذى تعتقد أنه منطلق زيد .

وأما الذى — فهـو[5] للإشارة الى مفرد عنـد محاولة تعريفـه بقضية معلومة كقولك : ذهب الرجل الذى أبوه منطلق، وهو تحقيق قولهم : إنه يُستعمل لوصف المعارف بالجُمل . والتصديق والتكذيب يتوجهان الى خبر المبتدا لا إلى صفته، فاذا

(١) فى الأصل : (الجر) وفيه تحريف ونقص .

(٢) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها كما فى حسن التوسل .

(٣) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

(٤) فى الأصل : (الابتداء) وما أثبتناه عن حسن التوسل .

(٥) فى الأصل : «وأما الذى هو» بدون فاء، والصواب اثباتها كما تقتضيه القواعد .

كذّبت القائل فى قوله : زيد بنُ عَمرٍو كريم ، فالتكذيب لم يتوجه الى كونه آبنَ عَمرٍو بل الى كونه كريما .

وأما التقديم والتأخير — قال : اذا قُدّم الشىء على غيره فإما أن يكون فى نيّة التأخير، كما اذا قدّم الخبر على المبتدإ، وإما أن يكون فى نيـة التأخير ولكن آنتقل الشىء من حكم الى آخر، كما اذا جئت الى آسمين جاز أن يكون كلٌّ واحد منهما مبتدأً فجعلت أحدهما مبتدأ، كقولك : زيد المنطلق، والمنطلق زيد . قال الجرجانىّ : قال صاحب الكتاب : كأنهم يقـدّمون الذى بيانُه أهمّ لهم وهم بشأنه أعنَى ، وإن كانا جميعا يهمّانِهم ويعنيانهم ، مثاله : أن الناس اذا تعـلق غرضهم بقتلِ خارجىّ مفسدٍ ولا يبالون مَن صَدَرَ القتل منه، وأراد مريدُ الإخبار بذلك فإنه يقدّم ذكر الخارجىّ [فيقول](١) : قتل الخارجىُّ زيد، ولا يقول : قتل زيد الخارجىَّ لأنه يعلم أن قتل الخارجىِّ هو الذى يَعنيهم ، وإن كان قد وقع قتل من رجل يبعُد فى آعتقاد الناس وقوعُ القتل من مثله قَدّم المخبِرُ ذكرَ الفاعل فيقول : قتل زيدرجلا لآعتقادِ الناس فى المذكور خلافَ ذلك . آنتهى كلام الجرجانىّ .

قال : ولنذكر ثلاثة مواضعَ يُعرف بها ما(٢) لم يُذكر :

الأوّل الاستفهام — فإذا أدخلته على الفعل وقلت : أضربت زيدا ؟ كان الشكّ فى وجود الفعل، وإذا أدخلته على الآسم وقلت : أأنت ضربت زيدا؟ كان الفعل محقّقا والشكّ فى تعيين الفاعل . وهكذا حكم النكرة، فإذا قلت : أجاءك رجل؟ كان المقصود : هل وُجد المجىء من رجل؟ فإذا قلت : أرجل جاءك؟ كان ذلك سؤالا عن جنس من جاء بعـد الحكم بوجود المجىء من إنسان، وقس عليـه

(١) الزيادة عن حسن التوسل ، والمقام يقتضيها .

(٢) فى الأصل : « بها لم تذكر» باسقاط «ما» والمقام يقتضى اثباتها كما فى حسن التوسل .

الخبر فى قولك : ضربت زيدا، وزيدا ضربت، وجاءنى رجل، ورجل جاءنى؛ ثم الاستفهام قد يجىء للانكارِ، فإن كان [فى][1] الكلام فعل ماضٍ وأدخلت الاستفهام عليه كان لانكاره، كقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ وإن أدخلته على الاسم فإن لم يكن الفعل مترددا بينه و بين غيره كان لانكار أنه الفاعل، ويلزم منه نفىُ ذلك الفعلِ، كقوله تعالى: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أى لو كان إذنٌ لكان من الله، فلمّا لم يوجد منه دلّ على أن لا إذْنَ، كما تقول: متى كان هذا، فى ليلٍ أم[2] نهارٍ؟ أى لو كان لكان فى ليلٍ أو نهارٍ، فلما لم يوجد فى واحد منهما لم يوجد أصلا، وعليه قوله تعالى: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ﴾. وإن كان مردّدا بينه و بين غيره كان إما للتقرير والتوبيخ، وعليه قوله تعالى حكاية عن قول نُمْرُودَ: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾. وإمّا لانكار أنه الفاعلُ مع تحقيق الفعلِ، كقولك لمن انتحل شعرا: أأنت قلت هذا؟.

وان كان الفعل مضارعا، فإن أدخلت حرف الاستفهامِ عليه كان إمّا لانكار وجودِه، كقولِه تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾. أو لانكار أنه يقدِر على الفعل، كقول امرئ القيس:

أيقتلنى والمشرَفىُّ مُضاجعى * ومسنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغوال.

أو لإزالة طمَعِ من طَمِع فى أمر لا يكون، فيُجَهِّلُهُ فى طمعه، كقولك: أيرضى عنك فلان وأنت على مايكره؟. أو لتعنيف من يضيّع الحق، كقول الشاعر:

أتترك[3] إن قلّت دراهم خالد * زيارتَه إنى إذن للئيم

(١) فى الأصل: «فان كان الكلام» والزيادة عن حسن التوسل.

(٢) فى الأصل: «أو» والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه القواعد.

(٣) كذا فى الأصل. والذى فى حسن التوسل ودلائل الإعجاز ص ٨٧ ط المنار «أأ ترك» والبيت لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير فى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى.

أو لتنديم الفاعل، كما تقول لمن يركب الخطَرَ : أتخرج فى هذا الوقت ؟ .

وإن أدخلتَه على الاسم فهو لإنكار صدور الفعل من ذلك الفاعلِ إما للاستحقار كقولك : أأنت تمنعنى ؟ . أو للتعظيم كقولك : أهو يسأل النـاسَ؟ . أو للمبالغة إما فى كرمه، كقولك : أهو يمنع سائلَه ؟، وإما فى خساسته، كقولك : أهو يسمع بمثل هذا؟ . وقد يكون لبيان ٱستحالة فعلٍ ظُنَّ ممكنا، كقوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ وكذلك إذا أدخلته على المفعول ، كقوله تعالى : ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ و ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ و ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ .

الثانى فى التقديم والتأخير فى النفى — إذا أدخلتَ النفىَ على الفعلِ فقلتَ : ما ضربتُ زيدا فقـد نفَيت عن نفسِك ضربا واقعا بزيدٍ ، وهـذا لا يقتضِى كونَ زيدٍ مضروبا .

وإذا أدخلتَـه على الاسم فقلتَ : ما أنا ضربتُ زيدا ٱقتضى من باب دليـل الخطاب كونَ زيدٍ مضروبا، وعليه قول المتنبى :

وما أنا وحدى قلت ذا الشعرَ كلَّه * ولكن لِشعرى فيك من نفسه شِعرُ

ولهذا يصحّ أن تقولَ : ما ضربتُ إلا زيدا، وما ضربتُ زيدا ولا ضربه أحد من الناس، ولا يصح أن تقولَ : ما أنا ضربت إلا زيدا، وما أنا ضربت زيدا ولا ضربه أحد من الناس .

أما الأول فلأنّ نقضَ النفى بإلّا يقتضى أن تكون ضربته، [وتقديمُك[1] ضميرَك وإيلاءه حرفَ النفى يقتضى ألا[2] تكون ضربته] فيتدافعان .

(١) التكملة عن حسن التوسل . والمقام يقتضيها . (٢) فى حسن التوسل : «أن تكون» بحذف لا النافية، والسياق يقتضى اثباتها كما يستفاد من دلائل الإعجاز ص ٩٣ ط مطبعة المنار .

(٢٥) وأما الثانى فلأن أوّلَ الكلام يقتضى أن يكون زيدٌ مضروبا ، وآخرَه يقتضى ألا يكونَ مضروبا فيتناقضان . إذا عُرِف هذا فى جانب الفاعل فإنه مثلُه فى جانب المفعول، فإذا قلتَ : ما ضربتُ زيدا لم يقتضِ أن تكون ضاربا لغيره، وإذا قلتَ: ما زيدا ضربتُ اقتضى ذلك، ولهـذا صحّ ما ضربتُ زيدا ولا أحدا من الناس ولا يصح [ما](١) زيدا ضربتُ ولا أحدا من الناس . ٥

وحكمُ الجـار والمجرور حكمُ المفعول، فإذا قلتَ : ما أمرتُك بهذا لم يقتض أن تكون قد أمرته بشىء غيرِ هذا، وإذا قلت : ما بهذا أمرتك اقتضاه .

وإذا قدّمتَ صِيغةَ العموم على السلب وقلتَ : كلُّ ذا لم أفعلْه، برفع كلّ كان نفيا عامّا، ويناقضه الإثباتُ الخاصُّ، فلو فعلتَ بعضَه كنتَ كاذبا .

وإن قدّمتَ السلب وقلتَ : لم أفعـل كلَّ ذا كان نفيا للعموم ولا ينافى الإثباتَ الخاصَّ، فلو فعلت بعضه لم تكن كاذبا، ومن هذا ظهر الفرق بين رفع كلٍّ ونصبِه فى قول أبى النجْم : ١٠

قد أصبحت أمُّ الخيار تدّعى * علىّ ذنبـا كلُّه لم أصنع

فإن رفعتَه كان النفى عامّا، واستقام غرضُ الشاعر فى تبرئة نفسِـه من جملة الذنوب، وإن نصبتَه كان النفى نفيا للعموم، وهو لا ينـافى إتيانَ بعضِ الذنب فلا يتم غرضه . ١٥

الثالث فى التقـديم والتأخير فى الخبر المثبَت — ما تقدّم فى الاستفهام والنفى قائم هنا، فإذا قدّمتَ الاسم وقلتَ : زيد فعل وأنا فعلت فالقصد الى الفاعل، إما لتخصيص ذلك الفعل به، كقولك : أنا شفعت فى شأنه مدّعيا الانفرادَ بذلك

(١) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ وصحة التمثيل تقتضى اثباتها كما فى حسن التوسل . ٢٠

أو لتأكيد إثباتِ الفعل له لا للحصر، كقولك : هو يعطى الجزيل، لتمكّن فى نفس السامع أن ذلك دأبُه دون نفيه عن غيره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ فإنه ليس المراد تخصيصَ المخلوقية بهم، وقولُه تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾

٥ وكقول دُرْنَى بنتِ عَبعبة[1] :

هما يَلبَسان المجدَ أحسنَ لِبسةٍ * شحيحان ما أسطاعا عليه كِلاهما

وقولِ الآخر :

هموا يفرِشون اللِّبدَ كلَّ طِمِرَّةٍ[2] * وأجردَ سَبّاحٍ يبُذُّ[3] المُغَالبا

قال : والسبب فى هذا التأكيد أنك إذا قلت مثلا : زيد، فقد أشعرتَ بأنك

١٠ تريد الحديثَ عنه فيحصل للسامع تشوّق إلى معرفته ، فإذا ذكرتَه قبِلتْه النفس [قبول العاشق معشوقه][4] فيكون ذلك أبلغَ فى التحقيق ونفيِ الشكّ والشبهة ، ولهذا تقول لمن تَعِدُه : أنا أُعطيك أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك إذا كان من شأن من يَسبِقُ له وعدٌ أن يعترضَه الشك فى وفائه ، ولذلك يقال فى المدح : أنت تعطِى الجزيل ، أنت تجود حين لا يجود أحد ، ومن هاهنا تعرف الفخامة

١٥ فى الجمل التى فيها ضميرُ الشأن والقصّةِ كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ وأن فيها ما ليس فى قولك : فإن الأبصار لا تَعمَى ، وإن الكافرين لا يفلحون ؛ وهكذا

---

(١) فى الأصل وفى حسن التوسل : «عنعنة» بنونين مثلثتين؛ وهو تحريف ، والتصويب عن القاموس . (٢) هى الطويلة القوائم الخفيفة من الأفراس . (٣) فى الأصل : «يبد المعاليا»

٢٠ وفى حسن التوسل : «يبد المعاليا» وهو تحريف فى كليهما ، والتصويب عن دلائل الإعجاز ص ٩٥ ط المنار . ويبذ بالذال المعجمة : يغلب . (٤) التكملة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن حسن التوسل اذ بها يتم التعليل ، فإن مجرد قبول النفس لا يكفى فى تعليل هذا التأكيد.

فى الخبر المنفىّ، فإذا قلتَ : أنت لا تُحسِنُ هــذا ، كان أبلغَ من قولك لا تُحسِــن هذا، فالأوّل لمن هو أشدّ إعجابا بنفسه وأكثر دعوى بأنه يُحسن .

قال : واعلم أنه قد يكون تقديمُ الاسم كاللازم نحوُ قوله :

يا عاذلى دعنِىَ من عذلكا * مِثلىَ لا يَقبَــل من مثلكا

وقولِ المتنبى : ٥

مِثلُك يَثنى الحُزنَ عن صَوبه * ويســتردّ الدمعَ عن غَرْبه

وقولِ الناس[(١)] : مِثلُك يرعى الحق والحرمة، وما أشبه ذلك ممــا لا يُقصَد فيــه إلى إنسان سوى الذى أُضيف اليه وجىء به للمبالغة ، وقد عبّر المتنبى عن هذا المعنى فقــال :

ولم أقل مِثلُك أعنِى به * سواك يا فردًا بلا مُشبِه. ١٠

وكذلك حكم «غير» اذا سُلك فيه هذا المسلك، كقول المتنبى : (٢٦)

غيرى بأكثرِ هــذا الناسِ يخدع * إن قاتلوا جَبُنوا أو حَدّثوا شَجُعوا

أى لستُ ممن يخدع ويغترّ، ولو لم يقدّم[(٢)] مثلا وغيرا فى هــذه الصور لم يؤدِّ هذا المعنى .

قال : ويقرب من هذا المعنى تقديمُ بعض المفعولات على بعض فى نحو قوله ١٥ تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ٱلْجِنَّ ﴾ فإن تقــديمَ شركاءَ على الجن أفاد أنه ما ينبغى لله شركاءُ لا من الجنّ ولا من غيرهم ، لأن شركاءَ مفعولٌ ثان لجعــلوا، ولله متعلّق به والجنّ مفعوله الأوّل، فقد جعل الإنكار على جعل الشريك لله على الإطلاق من غير اختصاص بشىء دون شىء، لأن الصفة إذا ذكرت مجرّدة عن مَجراها على شىء كان

(١) فى الأصل : «الناى» . وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «يقل» . وهو تحريف صوابه ما اثبتنا كما فى حسن التوسل .

الذى تعلق بها من المنفىّ[1] عاما فى كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفةُ، فإذا قلتَ : ما فى الدار كريم، كنتَ نفيتَ الكينونةَ فى الدار عن كل شىء يكون الكرم صفةً له، وحكم الإنكار[2] أبدا حكم النفى، فأما إذا أخرتَ شركاءَ فقلت : وجعلوا الجنَّ شركاءَ [لله فيكونُ[3] جَعْلُ الشركاء مخصوصا غيرَ مطلق فيحتمل أن يكون المقصودَ بالإنكار جعلُ الجنّ شركاء] لا جعلُ غيرهم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فقدّم شركاء نفيا لهذا الاحتمال .

فصل فى مواضع التقديم والتأخير

قال : أما التقديم فيحسن فى مواضعَ :

الأول : أن تكون الحاجة إلى ذكره أشدَّ، كقولك : قطع اللِّصَّ الأميرُ .

الثانى : أن يكون ذلك أليقَ بما قبله من الكلام أو بما بعده، كقوله تعالى: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فإنه أشكَلُ بما بعده وهو قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وبما قبله وهو : ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ .

الثالث : أن يكون من الحروف التى لها صدر الكلام، كحروف الاستفهام والنفى، فإنّ الاستفهامَ طلبُ فهم الشىء، وهو حالة إضافية فلا تستقلُّ بالمفهومية فيشتدّ اتصاله بما بعده .

الرابع : تقديم الكلىّ على جزئياته، فإن الشىء كلما كان أكثرَ عموما كان أعرفَ فإن الوجود لما كان[4] أعمَّ الأمور كان أعرفَها عند العقل .

الخامس : تقديم الدليل على المدلول .

(١) فى حسن التوسل : «من النفى»، وهو أظهر .

(٢) فى الأصل : «الاكثار»؛ وهو تحريف .

(٣) التكملة عن حسن التوسل؛ ولا يستقيم المعنى بدونها .

(٤) فى الأصل : «كلما أعم»؛ وهو غير مستقيم، والتصويب عن حسن التوسل .

وأما التأخير فيحسُن[1] فى مواضعَ :

الأوّل : تمـام الاسم كالصلة والمضاف اليه .

الثـانى : توابع الأسماء .

الثالث : الفاعل .

الرابع : المضمَر، وهو أن يكون متأخرا لفظا وتقديرا، كقولك : ضرب زيدٌ غلامَه أو مؤخَّرا فى اللفظ مقدَّما فى المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ ﴾ أو بالعكس كقولك : ضرب غلامَه زيد ؛ وإن تقدّم لفظا ومعنى لم يجز كقولك : ضرب غلامُه زيدا .

الخامس : ما يُفضِى إلى اللَّبس، كقولك : ضرب موسى عيسى، أو أكرم هذا هذا، فيجب فيه تقديم الفاعل .

السادس : العامل الذى هو ضعيف عملُه، كالصفة المشبّهة والتمييز وما عمل فيه حرف أو معنى، كقولك : هو حسنٌ وجها، وكريم أبا، وتصبب عَرَقا، وخمسة وعشرون درهما، وإن زيدا قائم، وفى الدار سعد جالسا . ولا يجوز الفصـل بين العامل والمعمول بما ليس منه، فلا تقول : كانت زيدا الحمّى تأخذ إذا رفعتَ الحمّى بكانت[2] للفصل بين العامل وما عَمِل فيه، فإن أضمرت الحمّى فى كانت صحت المسألة .

وأما الفصل والوصل — فهو العلم بمواضع العطف والاستئناف، والتهدّى إلى كيفيّة إيقاع حروف العطف فى مواقعها، وهو من أعظم أركان البلاغة، حتى إن

(١) أراد بالحسن هنا ما يعم الوجوب .

(٢) فى الأصل : «فكانت» ؛ بالفاء، وهو تحريف .

بعضهم حدّ البلاغةَ بأنها معرفة الفصل والوصل . وقال عبد القاهر : إنه لا يكمُل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كَمُل لسائر معانى البلاغة .

قال : اعلم أن فائدة [العطف](١) التشريكُ بين المعطوف والمعطوف عليه، ثم من الحروف العاطفة مالا يفيد إلا هذا القدْرَ وهو الواو، ومنها ما يفيد(٢) فائدة زائدة كالفاء وثمّ وأو، وغرضنا ها هنا متعلق بما لا يفيد إلا الاشتراكَ فنقول : العطف إما أن يكون فى المفردات، وهو يقتضى التشريكَ فى الإعراب، وإما أن يكون فى الجمل، وتلك الجملة إن كانت فى قوّة المفرد كقولك : مررت برجل خَلْقه حَسَنٌ وخُلُقه قبيح ، فقد أشركتَ بينهما فى الإعراب [والمعنى](٣) لاشتراكهما فى كون كل واحد منهما تقييدا للموصوف ، ولا يُتصور أن يكون اشتراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشتراكُ فيه ، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حالَه الأوّلَ عساه يعرف حاله الثانىَ ، يدلك على ذلك أنك اذا عطفت على الأول شيئا ليس منه بسبب ولا هو مما يُذكَر بذكره لم يستقم، فلو قلتَ : خرجت اليوم من دارى ، وأحسنَ الذى [يقول](٤) بيتَ كذا قلتَ ما يُضحَك منه، ومن هاهنا عابوا على أبى تمّام قوله :

لا والذى هو عالم أن النوى * صَبِرٌ وأن أبا الحسين كريم .

وإن لم تكن فى قوّة المفرد فهى على قسمين :

الأوّل أن يكون معنى إحدى الجملتين لذاته متعلقا بمعنى الأخرى(٥) كما إذا كانت كالتوكيد لها أو كالصفة، فلا يجوز إدخال العاطف عليه ، لأنّ التوكيد والصفة

(١) الكلمة التى بين مربعين عن حسن التوسل ، واستقامة الكلام تقتضى اثباتها .

(٢) فى الأصل : «ما لا يفيد» وهو غير مستقيم ، والصواب حذف اللام كما فى حسن التوسل .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل ، والمقام يقتضيها . (٤) الزيادة عن حسن التوسل ، وصحة التمثيل تقتضيها . (٥) فى الأصل : «الآخر» وصوابه ما أثبتنا .

متعلقان بالمؤكَّد والموصوف لذاتهما، والتعلق الذاتىّ يغنى عن لفظ يدل على التعلق، فمثال التوكيد قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فلا ريب فيه توكيد لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كأنه قال: هو ذلك الكتاب، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ تأكيد ثان أبلغ من الأول، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: ويخادعون، لأن المخادعة ليست شيئا غيرَ قولهم: آمنّا مع أنهم غيرُ مؤمنين، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ولم يقل تعالى: وكأن، وأمثال [ذلك] فى القرآن العزيز كثيرة.

القسم الثانى ألا يكون بين الجملتين تعلق ذاتىّ، فإن لم يكن بينهما مناسَبة فيجب ترك العاطف أيضا، لأن العطف للتشريك ولا تشريكَ، ومن ها هنا أيضا عابوا على أبى تمّام البيتَ المتقدِّمَ، لا والذى هو عالم... ، إذ لا مناسبة بين مرارة النوى وبين كرم أبى الحسين، ولذلك لم يحسُن جوازُ العاطف.

وإن كان بينهما مناسَبة فيجب ذكر العاطف.

ثم إن كان المحدَّث عنه فى الجملتين شيئين فالمناسَبة بينهما إما أن تكون بالذى أخبر بهما، أو بالذى أخبر عنهما، أو بهِمَا كليهما؛ وهذا الأخير هو المعتبَر فى العطف. قال: ونعنى بالمناسَبة أن يكونا متشابهين، كقولك: زيد كاتب وعمرو [شاعر](١) [أو متضادّين تضادّا على الخصوص، كقولك زيد طويل وعمرو](٢) قصير، وكقولك: العلم حسن والجهل قبيح، فلو قلت: زيد طويل والخليفة قصير لا آختل معنى عند

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ومن حسن التوسل، وتمام التمثيل يقتضى إثباتها.

(٢) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها كما فى حسن التوسل.

ما لا يكون لزيد تعلق بحديث الخليفة، ولو قلتَ : زيد طويل وعمرو شاعر لاختل لفظا، إذ لا مناسَبة بين الطويل القامة والشاعر .

وإن كان المحدَّث عنه فى الجملتين شيئا واحدا، كقولك : فلان يقول ويفعل ويضرّ وينفع ، ويأمر وينهَى ، ويسيء ويحسِن ، فيجب إدخال العاطف فإن الغرض جعلُه فاعلا لأمرين، فلو قلتَ : يقول يفعل بلا عاطف لتُوهّم أن الثانىَ رجوع عن الأوّل .

وإذا أفاد العاطف الاجتماعَ ازداد الاشتراكُ[1]، كقولك : العجَب من أنك أحسنت وأسأت، والعجَب من أنك تنهىَ عن شيء وتأتى مثله، وكقوله :

لا تَطمَعوا أن تُهينونا ونكرَمكم * وأن نكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا

فإن المعنى جعلُ الفعلين فى حُكم واحد، أى لا تطمَعوا أن ترَوا إكرامنا إيّاكم يُوجَد مع إهانتكم إيّانا .

قال : وقد يجب إسقاط العاطف فى بعض المواضع لاختلال المعنى عند إثباته كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فقوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ كلام مستأنَف، وهو إخبار من الله تعالى، فلو أُتى بالواو لكان إخبارا عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسَهم بأنهم يُفسِدون فيختل المعنى، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ ٱلسُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ﴾ وأمثالُ ذلك كثيرة؛ واذا كان كذلك فلا حاجة الى العاطف بخلاف قولِه تعالى : ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ فإن كل واحدةٍ من الجملتين خبرٌ من الله تعالى .

(١) فى الأصل : «اشتباك» وهو تحريف .

قال : ومما يجب ذكره هاهنا الجملةُ اذا وقعت حالا فإنها تجىء مع الواو تارة وبدونها أخرى فنقول: الجملة اذا وقعت حالا فلا بدّ أن تكون خبريّة تحتمِل الصدقَ والكذبَ[(١)]، وهو على قسمين :

الأوّل وله أحوال :

الأولى : أن يُجمع لها بين الواو وضمير صاحب الحال، كقولك : جاء زيد ويدُه على غلامه، ولقِيتُ زيدا وفرسُه سابقُه، وهذه الواوُ تسمّى واوَ الحال . ٥

الثانية : أن تجىء بالضمير من غير واو، كقولك : كلمتُه فوه الى فىّ، وهو فى معنَى مُشَافِها ، والرابط الضمير ، فلو قلتَ : كلّمتُه الى فىّ فوه، ولقِيتُه عليه جبةٌ وشْيٍ لم يكن من باب وقوع الجملة حالا ، لأنه يمكننا أن نرفع فُوهُ وجبّةُ بالجارّ والمجرور فيرجع الكلام الى وقوع المفرد حالا ، والتقدير كلّمتُه كائنا الى فىّ فوه، ولقِيتُه مستقرّةً عليه جبّة وشيٍ، وعليه قول بشّار : ١٠

اذا أنكرتنى بَلدة أو نكِرتُها * غدوت مع البازى علىّ سوادُ.

الثالثة : أن تجىء الواو من غير ضمير وهو كثير، كقولك : لقِيتُك والجيشُ قادم وزرتَنا والشتاءُ خارج. ويجوز أن يُجمع بين حالين مفردٍ وجملةٍ اذا أجزنا وقوع حالين كقولك : لقِيتُك راكبا والجيشُ قادم، فالجملة حال من التاء أو من الكاف، والعامل فيها لَقِيتُ، أو من ضمير "راكبا" و"راكبا" هو العامل فيها . ١٥

القسم الثانى الجملة الفعلية ، ولا بدّ أن تكون ماضيا أو مضارعا أما الماضى فلابدّ معه من الإتيان بالواو وقد أو بأحدهما، كقولك : تكلمت وقد

(١) كذا فى الأصل وحسن التوصل بتذكير الضمير . وهو عائد على الحال لا على الجملة؛ والحال يذكر ويؤنث . أنظر المصباح مادة «حال» . ٢٠

عجلت، وجاء زيد قد ضرب عمرا، وجئت وأسرعت فى المجىء، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ ولم يُجز البصريّون خلوّه عنهما، وقالوا فى قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ وفى قول أبى صخر الهُذَلىّ:

وإنى لتعرونى لذكراكِ هِزّة * كما ٱنتفض العُصفور بلّله القَطر:

إنّ قد مقدّرةٌ فيهما، فإنّ الشىء اذا عُرف موضعُه جاز حذفه.

وأما المضارع فإن كان موجَبا فلا يؤتَى معه بالواو[1]، فتقول: جاءنى زيد يضحك، ويجىء عمرو يسرع، وٱجلس تحدّثُنا بالرفع أى محدِّثا لنا، لأنه بتجرده عما يغير معناه أشبهَ ٱسمَ الفاعل اذا وقع حالا.

وإن كان منفيا جاز حذف الواو مراعاةً لأصل الفعل الذى هو الإيجابُ وجاز إثباتها، لأن الفعلَ ليس هو الحالُ، فإن معنى قولك: جلس زيد ولم يتكلّم جلس زيد غيرَ متكلّم، فجرى مَجرى الجملة الإسمية، فالحذف كقولك: جاء زيد ما يَفُوهُ ببنت شَفة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ فقوله: لا يمسّنا فى موضع نصبٍ على الحال من ضمير المرفوع فى أحلّنا، والإثبات كقولك: جلس زيد ولم يتكلّم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾. قال: وشبهوا به الفعلَ الماضِىَ فقالوا: جاء زيد ما ضرب عمرا، وجاء زيد وما ضرب عمرا.

وأما الحذف والإضمار — فقد قال: الأفعالُ المتعدّيةُ التى تُرك ذكر مفعولاتها على قسمين:

الأوّل: ألا يكونَ له مفعول معيَّن، فقد يُترك مفعولُه لفظا وتقديرا ويُجعل حاله كحال غير المتعدّى، كقولهم: فلان يَحُلّ ويَعقِد، ويأمر وينهَى، ويضرّ وينفع

(١) فى الأصل: «إلا بالواو» وقوله: «إلا» زيادة من الناسخ، إذ هى تفيد خلاف المراد.

والمقصود إثباتُ المعنى فى نفســه للشىء من غير التعرّض لحديث المفعول، فكأنك قلت: بحيث يكون منه حَلّ وعَقد وأمر ونهى ونفع وضرّ، وعليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى هل يستوى من له علم ومن لا علم له من غير أن ينص على معلوم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ الى قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ وبا لجملة فمتى كان الغرض بيانَ حال الفاعل فقط فلا تُعدِّ الفعلَ، فإنّ تعديَته تنقُض الغرض. ألا ترى أنك اذا قلت: فلان يُعطِى الدنانيرَ كان المقصود بيانَ جنس ما يتناوله الإعطاءُ لا بيانَ حالِ كونِه معطيا؟.

الثانى: أن يكون له مفعول معلوم إلا أنه يُحذَف فى اللفظ لأغراض:

الأول: أن يكون المراد بيانَ حالِ الفاعلِ وأنّ ذلك الحالَ[1] دأبه لا بيانَ المفعول كقول طُفَيــل:

جزى الله عنا جعفرا حين أُزْلِقَتْ * بنــا نعلُنا فى الواطئين فَزَلَّتِ
أبَوا أن يَمَلُّونا ولو أنّ أمنا * تُلاقِى الّذى لاقَوْه منّا لَمَلَّتِ
هُمُ خلطــونا بالنفوس[2] وألجؤا * الى حُجُرات أدفأت وأظلّت

والأصل أن تقول: لَمَلَّتنا وألجؤونا وأدفأتنا وأظلّتنا، فحذَف المفعولَ المعيَّن من هذه المواضع الأربعة، وكأنه[3] قد أبهم ولم يَقصِد قصدَ شىء يقع عليه، كما تقول: قد ملّ فلان، تريد قد دخل عليــه المَلَالُ من غير أن تخصّ شيئا بل لا تزيد على أن تجعل

(١) فى حسن التوسل: «الفعل» والمعنى يستقيم على كليهما.

(٢) فى الاصل: «من النقوش» بقاف مثناة وشين معجمة، وهو تحريف، والتصويب عن دلائل الإعجاز وغيره من كتب البلاغة والأدب.

(٣) كذا فى الأصل وحسن التوســل. وعبارة دلائل الإعجاز ص ١١٥ ط المنار: «وكأن الفعل قد أبهم أمره ولم يقصد به قصد شىء يقع عليه» وهى أظهر.

المَلَال من صفته، فلذلك الشاعرُ جعل هذه الأوصافَ من دأبهم، ولو أضاف الى مفعول معيّن لبطَل هذا الغرض، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ الى قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فقد حذف المفعول فى أربعة مواضعَ، فإن ذكره ربما يُخلّ بالمقصود، فلو قال تعالى مثلا: تذودان غنمهما لتُوهِّمَ أنّ الإنكارَ إنما جاء من ذَوْدِهما الغَنَمَ لا من مطلق الذَّوْد، كقولك: مالك تمنع أخاك؟ فإنّ الإنكار من منع الأخ لا من مطلق المنع. ٥

الثانى: أن يكون المقصود ذكره إلا أنك لا تذكره إيهاما بأنك لا تقصد ذكره كقول البحترىّ:

شَجْوُ حسّاده وغيظُ عِداه * أن يرَى مبصر ويَسمعَ واع

المعنى أن يرى مبصرٌ محاسنَه، أو يَسمَعَ واعٍ أخبارَه، ولكنه تغافل عن ذلك إيذانا بأن فضائله يكفى فيها أن يقع عليها بصرٌ أو يَعِيَها سمع حتى يُعلَمَ أنه المتفرد بالفضائل، فليس لحسّاده وعِداه أشجى من عِلمٍ بأن هنا مبصرا وسامعا. ١٠

الثالث: أن يُحذَف لكونه بيّنا، كقولهم: أصغَيت اليك، أى أذنى، وأغضَيت عليك، أى جَفنى.

فصل فى حذف المبتدإ والخبر

قال: قد يحسُن حذف المبتدإ حيث يكون الغرضُ أنه قد بلغ فى استحقاق الوصف بما جُعِل وصفا له الى حيث يُعلَمُ بالضرورة أن ذلك الوصفَ ليس إلا له سواء كان فى نفسه كذلك، أم[1] بحسب دعوى الشاعر على طريق المبالغة، فذكره ١٥

(١) فى الأصل: «أو» والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه القواعد؛ قال فى مغنى اللبيب ص ٤٢ ط الحلبى: إذا عطفت بعد الهمزة بأو فان كانت همزة التسوية لم يجز قياسا، وقد أولع الفقهاء وغيرهم بأن يقولوا: سواء كان كذا أو كذا، وهو نظير قولهم: يجب أقل الأمرين من كذا أو كذا؛ والصواب العطف فى الأول بأم ... الخ. ٢٠

يُبطِل هـذا الغرضَ، ولهذا قال الإمام عبدُ القاهرِ : ما من آسم يُحذفُ فى الحالة التى ينبغى أن يُحـذفَ فيها إلا وحذفُه أحسن مِن ذِكره ، فمن حذف المبتـدإ قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ أى هذه سورة، وقول الشاعر :

لا يُبعِـــد الله التلبُّبَ(١) والـــغارات إذ قال الخميس نَعَمْ

أى هـذه نَعَم . قال عبدُ القاهرِ : ومن المواضع التى يَطَّرِد فيها حذف المبتدإ بالقطع(٢) والاستئناف أنهم يبـدءون بذكر الرجل و يقدّمون بعض أمره ، ثم يَدَعون الكلام الأوّلَ و يستأنفون كلاما [آخر](٣) واذا فعلوا ذلك(٤) أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدإ، مثال ذلك قوله :

وعلمتُ أنّى يوم ذا * ك مُنَازِلٌ كَعبا ونَهْدا
قوم إذا لبِسوا الحديـــد تمترّوا خُلُقًا(٥) وقِدا

وقال الحُطَيئة :

هُمُ حلَّوا من الشرف المعـــلّى * ومن حَسَبِ العشيرة حيث شاءوا
بُنَاة مكارم وأُسَاة كَلْمٍ * دماؤهمُ من الكَلَبِ(٦) الشفاء

وأمثلة ذلك كثيرة .

(١) تلبب : التحزم بالسلاح، يريد التهيؤ للحرب . (٢) كذا فى الاصل . وعبارة دلائل الإعجاز ص ١٠٦ ط المنار : «القطع والاستئناف يبدءون» الخ بسقوط الباء وقوله : «أنهم» ، والمعنى يستقيم على كلتا العبارتين . (٣) الزيادة عن دلائل الإعجاز . (٤) فى الأصل : «فى ذلك» وقوله « فى » زيادة من الناسخ . (٥) كذا فى الأصل بالخاء المعجمة . وفى دلائل الإعجاز ص ١٠٧ ط المنار : « حلقا » بالحاء المهملة، والمعنى يستقيم على كل من الروايتين، والقدّ بكسر القاف : الجلد . (٦) الكلب بالتحـريك : داء يعرض للانسان من عض الكلب الكلب فيصيبه شبـه الجنون فلا يعض أحدا إلا كلب، وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا . وأراد الحطيئة بهذه العبارة وصف من يمدحهم بالشرف والسيادة، قال الطحانى : إن الرجل الكلب يعض إنسانا فيأتون رجلا شريفا فيقطر لهم من دم أصبعه فيسقون الكلب فيبرأ .

ومن حذف الخبر قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أى لولا أنتم مضلونا وقولُ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه : لولا علىٌّ لهلكَ عمر ، أى لولا علىٌّ حاضر أو مُفْتٍ .

فصل

٥ الإضمار على شريطة التفسير كقولهم : أكرمنى وأكرمت عبدَ الله أى أكرمنى عبدُ الله وأكرمت عبدَالله ، ومما يشبه ذلك مفعول المشيئة اذا جاءت بعد لو ، فإن كان مفعولها أمرا عظيما أو غريبا فالأَولى ذكرُه ، كقوله :

ولو شئتُ أن أبكى دَما لبكَيتُه * عليه ولٰكن ساحةُ الصبر أَوسع (١)

فإن بكاءَ الإنسان دما عجيبٌ ، وإن لم يكن كذلك فالأَولى حذفه ، كقوله

١٠ تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ والتقدير لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ و ﴿مَنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

قال : واعلم أنه قد تُترك الكنايةُ الى التصريح لما فيه من زيادة الفخامة كقول البحترىّ :

١٥ قد طَلَبْنا فلم نَجد لك فى السُّو * دَدِ والمجد والمكارم مِثلا

المعنى قد طلبنا لك مِثلا ، ثم حُذف ، لأن هذا المدحَ إنما يتم بنفى المِثل ، فلو قال : قد طلبنا لك مِثلا فى السُّودَدِ والمجد فلم نجده لكان قد أوقع نَفْىَ الوجود على ضمير المِثل ، فلم يكن فيه من المبالغة ما اذا أوقعه على صريح المِثل ، فإن الكناية لا تبلُغ مَبلغ

(١) البيت للخزيمى ، وهو إسحاق بن حسان ، ويكنى بأبى يعقوب ، وكان من العجم ، وكان مولى ٢٠ ابن خزيم الذى يقال لأبيه خزيم الناعم . وهذا البيت من قصيدة يرثى بها أبا الهيذام ، وهو عامر بن عمارة الخزيمىّ ، وهو والد موسى بن عامر المحدّث . أنظر معاهد التنصيص ص ١١٣ و١١٦ ط بولاق .

الصريح ، ولهذا لوقلت : وبالحق أنزلناه وبه نزل، وقل هو الله أحد وهو الصمد لا تجدُ من الفَخامة ما تجدُه فى قولِه تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وعلى ذلك قول الشاعر :

لا أرى الموتَ يسبِق الموتَ شيءٌ * نَغَّصَ المـوتُ ذا الغنى والفقيرا.

وأما مباحث إنّ وإنما — فإنه قال : أما إنّ فلها فوائد : ٥

الأُولى أن تربِط الجملةَ الثانيةَ بالأُولى، وبسببها يحصل التأليف بينهما حتى كأن الكلامين أُفرِغا إفراغا واحدا ، ولو أسقطْتَها كان الثـانى نائيا عن الأوّل ، كقوله تعـالى : ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله تعـالى : ﴿أَقِمِ ٱلصَّـلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ . وقولِه تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وقد تتكرر فى كلام واحد، كقوله تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . ثم متى أسقطْتَ «إنّ» من الجملة التى أدخلتها عليها، فإن كانت الجملةُ الثانيةُ إنما تذكر لإظهار فائدةٍ ما قبلها كما فى الآيات المذكورة احتجتَ إلى الفـاء ، وإلا فلا ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ فلو قلت: فالمتقون لم يكن كلاما، وكذلك قوله تعـالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَى وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ فقوله تعـالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ فى موضع خبر إنّ، فدخول الفاء يوجب عطفَ الخبر على المبتدإ، وهو غير جائز عند أكثر النحويين .

١٠

١٥

الثانية : أنك ترى لضمير الشأنِ والقصةِ فى الجملة الشرطيّة مع «إنّ» من الحسن واللطف مالا تراه إذا هى لم تدخل عليها ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله تعالى : ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقوله تعالى : ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

الثالثة : أنها تهيِّئ النكرة وتُصلحها لأن يحدَّث عنها ، كقوله (١) :

إنّ شِوَاءً ونَشْوَةً * وخَبَبَ (٢) البازلِ الأَمُونِ

فلولا هى لم يكن كلاما ؛ وإن كانت النكرة موصوفةً جاز حذفها ولكن دخولُها أَصلَحُ ، كقول حسّانَ :

إنّ دهرا يُلُفُّ شملى بجُمْلٍ * لَزمانٌ يَهُمُّ بالإحسان .

(٣١)

الرابعة : أنها قد تُغنِي عن الخبر ، كما اذا قيل لك : الناس إِلْبٌ (٣) عليكم فهل لكم أحد؟ فقلتَ : إنّ زيدا وإنّ عمرا ، أى لنا ، قال الأعشى (٤) :

إنّ محلًّا وإنّ مُرتحَلا * وإنّ فى السَّفْرِ (٥) إذ مضَوا مَهَلا .

---

(١) البيت لسلمى بن ربيعة .

(٢) الخبب هو المراوحة بين اليدين والرجلين فى السير ، أو هو نقل الأيامن جميعا والأياسر جميعا فيه . والأمون : الناقة الوثيقة الخلق ، المأمونة العثار والإعياء ، جمعه أمن ككتب .

(٣) الإلب بكسر الهمزة ، وتفتح فى لغة : الجماعة .

(٤) هو الأعشى الأكبر واسمه ميمون بن قيس بن جندل بفتح الجيم .

(٥) كذا فى الأصل وحسن التوسل . والذى فى معاهد التنصيص ص ٩٢ ط بولاق : (وإن فى شعر من مضى مثلا) وكلتا الروايتين تؤدّى معنى صحيحا ؛ ورواية اللسان مادة «حلل» : «وإن فى السفر ما مضى مهلا» ، وقال فى تفسيره : أراد بالسفر الذين ماتوا فصاروا فى البرزخ ، والمهل : البقاء والانتظار .

الخامسة : قال المُبرّد : اذا قلت عبد الله قائم، فهو إخبار عن قيامه، فاذا قلتَ : إنّ عبـد الله قائم، فهو جواب عن إنكارِ مُنكِرٍ لقيامه، سواء كان المنكر هو السائل أو الحاضِرين؛ والدليل على أنّ إنّ إنما تذكر لجواب السائل أنهم ألزموها الجملةَ من المبتدإ والخبر، نحو : والله إنّ زيدا لمنطلق، فالحاجة إنمـا تدعو الى « إنّ » اذا كان للسامع ظنّ يخالف ذلك، ولذلك تراها تزداد حسنا اذا كان الخبر بأمر يَبعُد[2]، كقول أبى نواس :

عليك باليأس من الناس * إنّ غِنى نفسِك فى اليأسِ .

ومن لطيف مواقعها أن يُدّعَى على المخاطَب ظنٌّ لم يظنّه ولكن [صدر][3] منه فعل يقتضى ذلك الظنّ، فيقال له : حالك تقتضى أن تكون قـد ظننت ذلك، كقول الشـاعر[4] :

جاء شَقِيقٌ عارضا رمحَه * إنّ بنى عمّك فيهم رماح

أى مجيئك هـذا مُدِلًّا بنفسك مجيءُ من يَعتقِد أنه ليس مع أحد رمحٌ غيرِه . وقد تجيء اذا وُجد أمر كان المتكلّم يظنّ أنه لا يُوجد، كقولك للشيء الذى يراه المخاطَب ويسمعه : إنه كان من الأمر ما تَرى ، إنه كان منى إليه[5] إحسان فقابلنى بالسـوء كأنك تردّ على نفسك ظنّك الذى ظننتَ، وعليه قوله عز وجل حكايةً عن أمّ مريمَ : ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ وحكايةً عن نوح : ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ .

(١) فى الأصل : « بأن » ؛ والباء زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : « بيفد » ، وفى حسن التوسل : « متعد » وهو تحريف فى كليهما .

(٣) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ واستقامة الكلام تقتضى اثباتها . انظر حسن التوسل ص ٣٩ ط الوهابية .

(٤) هو جحل بن نضلة .

(٥) كذا فى حسن التوسل ص ٣٩ ط الوهابية . والذى فى الأصل : « له » .

وأما إنما — فتارة تجيء للحصر بمعنى أنّ هذا الحكم لا يوجد فى غير المذكور وهى بمنزلة ليس إلا، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وقوله : ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ .

وتارة تجيء لبيان أن هذا الأمرَ ظاهر عند كلّ حدّ، سواء كان كذلك أم فى زعم[1] المتكلّم، ومنه قول الشاعر[2] :

إنما مُصْعَب شِهاب من اللّـ*ـه تجلّت عن وجهه الظّلماء

مدّعيا أنّ ذلك مما لا يُنكِره أحد من الناس. قال : وٱعلم أنه يُستعمل للتخصيص ثلاثُ عبارات :

الأولى : إنما جاء زيد؛

الثانية : جاءنى زيد لا عمرو، والفرق أنّ فى الأولى يُفهَم إيجابُ الفعل من زيد ونفيُه عن غيره دَفعة واحدة، ومن الثانية دَفعتين، ثم إنهما كلتيهما[3] يُستعمَلان لإثبات التخصيص لا لنفى التشريك؛ وفيه نظر .

الثالثة : ما جاءنى إلا زيد، وهى بأصل الوضع تفيد نفىَ التشريك، ولهذا لا يصحّ ما زيد إلّا قائمٌ لا قاعد، لأنك بقولك : إلا قائم نَفيتَ عنه كلّ صفة تنافى القيامَ، فيندرج فيه نفىُ القعود، فاذا قلتَ بعده : لاقاعد كان تكرارا لأن لفظةَ «لا» موضوعةٌ لأن يُنفَى بها ما أَوجب الأوّلُ لا لأن يعاد[4] بها نفىُ ما نُفِىَ أوّلا، ويصح إنما زيد قاعد لا قائم، لأن صيغةَ «إنما» بأصل وضعها تدُلّ على تخصيص الحكم بالمذكور،

(١) فى الأصل : «أو» ؛ والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه القواعد، انظر مغنى اللبيب ص ٤٢ ط الحلبي .

(٢) هو عبد الله بن قيس الرقيات، قاله فى مصعب بن الزبير، وكان منقطعا اليه كثير المدح له .

(٣) فى الأصل : « كلاهما» بالالف، واللغة تقتضى ما أثبتنا .

(٤) فى حسن التوسل ص ٣٩ ط الوهابية : «يفاد» بالفاء الموحدة؛ والمعنى يستقيم على كلتيهما .

وأما نفى الشَّرِكة فهو لازمٌ من لوازمها، فليس له من القوّة مَا لمَـا يدلّ عليه بوضعه، ولهذا يصحّ : زيد هو الجانى[1] لا عمـرو، فثبت أنّ دَلالة الأوّليّين على التخصيص أقوى، ودَلالة الثالثة على نفى التشريك [أقوى][2]، لكن الثالثةُ قد تقام مُقامَ الأوّليّين فى إفادة التخصيص، كما اذا أدعى واحد أنك قلتَ قولاً ثم قلتَ بخلافه، فقلتَ له : ما قلتُ الآن إلا ما قلتُه قبلُ، وعليه قولُه تعالى حكايةً عن عيسى عليه السـلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ ليس المعنى أنى لم أَزِدْ على ما أمرتَنى به شيئا، ولكن المعنى أنّى لم أَدَعْ مما أمرتَنى به [أن][3] أقولَه شيئا .

قال : وحكم «غير» حكم «إلّا» فاذا قلتَ : ما جاءنى غيرُ زيد احتمل أن يكون المرادُ نفىَ أن يكون جاء معه إنسان آخرُ، وأن يكون المراد تخصيصَ الحكم بالمذكور لا نفيَه عما عداه .

فصـــل

إذا دخل ما و إلّا على الجملة المشتمِلة على المنصوب كان المقصـود بالذكر[4] ما اتصـل بإلّا متأخّرا عنها، فاذا قلتَ : ما ضرب عمرا إلا زيد، فالمقصود المرفوع، واذا قلتَ : ما ضرب زيد إلا عمرا، فالمقصود المنصوب، واذا قلتَ : ما ضرب [إلا][5] زيد عمرا، فالاختصاص للضارب، واذا قلتَ : ما ضرب إلا زيدا عمرو، فالاختصاص للمضروب، فاذا قلتَ : لم أَكْسُ إلا زيدا جبّةً، فالمعنى تخصيصُ

(١) فى الأصل : «الجافى» وهو تحريف .

(٢) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل، وقد نقلناها عن حسن التوسل، والمقام يقتضى إثباتها .

(٣) عبارة الأصل : «به أقوله» بسقوط لفظة «أن» ؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل من نسخته المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٧ أدب .

(٤) فى الأصل : «من الذكر» ؛ والسياق يقتضى الباء كما أثبتنا .

(٥) الكلمة الموضوعة بين مربعين عن حسن التوسل، وصحة التمثيل تقتضيها .

زيد من بين الناس بِكسوة الجبّة، وإن قلتَ : لم أَكْسُ إلا جبّةً زيدا، فالمعنى تختصّ كِسوةُ الجبّةِ من بين الناس بزيد، وكذلك الحكم حيث يكون بدلَ أحد المفعولين جارٌّ ومجرورٌ، كقول السيد الحِمْيَرِيّ :

لو خيَّرَ المِنبرَ فُرسانُه * ما آختار إلّا منكمُ فارسا .

٥ وكذلك حكم المبتدإ والخبر والفعل والفاعل، كقولك : ما زيد إلا قائم، وما قام إلا زيد .

وأما إنما فالاختصاص فيها يقع مع المتأخر، فاذا قلتَ : إنما ضرب زيدا عمرو فالاختصاص فى الضارب، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فالغرض بيانُ المرفوع وهو أن الخاشِين هم العلماءُ، ولو قُدّم المرفوعُ لصار المقصود بيانَ المخشيّ

١٠ منه، والأوّل أتمّ، ومنه قول الفرزدق :

أنا الذائد الحامى الذِّمارَ وإنما * يدافِع عن أحسابكم أنا أو مِثلى

فإن غرضه أن يحصر المدافِعَ بأنه هو لا المدافَعَ عنه، ولو قال : إنما أنا أدافع عن أحسابكم، تَوجّه التخصيص الى المدافَع عنه؛ [وحكم المبتدا والخبر](١) اذا أدخلتَ عليهما إنما، فإن قدّمت الخبر فالاختصاص للمبتدا، وإن لم تقدّمه فللخبر، فاذا

١٥ قلتَ : إنما هذا لك فالاختصاص فى "لك"(٢)، بدليل أنك بعده تقول : لا لغيرك، فاذا قلتَ إنما لك هذا فالاختصاص فى "هذا"، بدليل أنك بعده تقول: لا ذاك، وعليه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ فالاختصاص فى الآية الأولى للبلاغ والحساب، وفى الثانية فى الخبر الذى هو على الذين دون المبتدإ الذى هو السبيل .

---

٢٠ (١) هذه التكملة الموضوعة بين مربعين ساقطة من الأصل ومن حسن التوسل؛ وسياق الكلام يقتضيها .

(٢) فى الأصل : «ذلك» وهو تحريف .

وإذا وقع بعدها الفعل فالمعنى أن ذلك الفعلَ لا يصح إلا من المذكور، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ ثم قد يجتمع معه حرف النفى، إما متأخرا عنه كقولك، إنما يجىء زيد لاعمرو: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ وقال لَبِيـــد:

فإذا جوزيت قـرضا فاجزِه * إنمـا يَجزِى الفتى ليس الجَمَل (١)

وإما مقدَّما (٢) عليه، كقولك: ما جاءنى زيد وإنمـا جاءنى عمرو، فها هنا لو لم تقل: إنمـا، وقلت: ما جاءنى زيد وجاءنى عمرو لكان الكلام مع من ظَنّ أنهما جاءاك جميعا، وإذا أدخلتَها فإن الكلام مع من غلِط فى الجائى أنه زيد لا عمرو.

قال: واعلم أنّ أقوى ما تكون «إنّما» اذا كان لا يراد بالكلام الذى بعدها نفسُ معناه، ولكن التعريضُ بأمر هو مقتضاه، فإنا نعلم أنه ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذُمّ الكفّار ويقال لهم: إنهم من فرط العناد فى حكم من ليس بذى عقل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ و﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ والتقدير إنّ من لم تكن له هذه الخشيةُ، فهو كمن لم تكن له أذنٌ تَسمع وقلبٌ يَعقِل، فالإنذار معه كلا إنذار، وهذا الغرض لا يحصل دون «إنمـا» لأن من شأنها تضمينُ الكلام معنى النفى بعد الإثبات، فإذا أُسقطتْ لم يبق إلا إثبات الحكم للمذكورين، فلا يدلّ على نفيه [عن] (٣) غيرهم إلا أن يُذكَرَ فى مَعـرِض مدح الإنسان بالتيقّظ والكرم وأمثالها، كما يقـال: كذلك يفعل العاقل، هكذا يفعل الكريم.

---

(١) عجز هذا البيت يضرب مثلا فى المكافأة، والمراد: إنمـا يجزيك من فيه إنسانية لا بهيمية.

(٢) فى الأصل: «وما تقدّم» وهو تحريف. (٣) عبارة الأصل وحسن التوسل: «نفى غيرهم» وفيها نقص لا يستقيم به المعنى. وما أثبتناه تقتضيه صحة العبارة، ومن قبله يؤيده.

تنبيه — قال : كاد تقرّب الفعل من الوقوع ، فنفيُها يَنفِي القُربَ ، فإن لم يكن فى الكلام دليل على الوقوع فيفيد نفىَ الوقوع ونفىَ القرب منه ، كقوله تعالى : ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [أى لم يرَها](١) ولم يقارب رؤيتها ، وكقول ذى الرمّة :

إذا غَيّر النأىُ المحبِّين لم يَكَدْ(٢) * رَسيسُ الهوى من حب ميّةَ يبرحُ

المعنى أن بَراح حبها(٣) لم يقارب الكَونَ فضلا عن أن يكون .

وأما النظم — فهو عبارة عن توخى معانى النحو فيما بين الكَلِم ، وذلك أن تضَعَ كلامك الوضعَ الذى يقتضيه علم النحو بأن تنظر فى كل باب إلى قوانينه والفروقِ التى بين معانى آختلاف صِيَغِه(٤) ، وتضعَ الحروف مواضعَها وتراعىَ شرائط التقديم والتأخير ، ومواضعَ الفصل والوصل ، ومواضعَ حروف العطف على آختلاف معانيها ، وتعتبرَ الإصابة فى طريق التشبيه والتمثيل .

وقد أطبق العلماء على تعظيم شأن النظْم ، وأن لافضل مع عدمه ولو بلغ الكلام فى غرابة معناه إلى ما بلغ ، وأنّ سببَ فساده [ترْكُ](٥) العمل بقوانين النحو وآستعمالُ الشىء فى غير موضعه .

ثم قال : الجُمَلُ الكثيرة إذا نُظِمت نظما واحدا فهى على قسمين :

الأوّل : أن لا يتعلّقَ البعض بالبعض ولا يحتاج واضعه إلى فكر و رويّة فى آستخراجه ، بل هو كمن عَمَد إلى اللآلئ ينظمها فى سلك ، ومثاله قول الجاحظ

(١) التكملة الموضوعة بين مربعين عن حسن التوسل ؛ والمقام يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : « ما » والتصويب عن حسن التوسل وغيره . ورسيس الهوى : بقيته وأثره ، أو هو الثابت الذى قد لزم مكانه ولم يبرحه .

(٣) فى الأصل : « مقاربتها » وهو تحريف ؛ والتصويب عن حسن التوسل .

(٤) فى الأصل : « صنعته » ؛ وهو تحريف .

(٥) الكلمة الموضوعة بين مربعين عن حسن التوسل ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها .

فى مصنَّفاته : جَنّبك الله الشُبهةَ، وعصمك من الحيْرةِ، وجَعل بينك و بين المعروف نَسَبا، وبين الصدق سـببا ، وحَبَّب اليك التثبُّت، وزَيّن فى عينك الإنصاف وأذاقك حلاوةَ التقوى، وأَشعَر قلبَك عِزّ الحقّ، وأَودَع صدرك بَردَ اليقين، وطَرد عنك ذلَّ الطمع، وعرّفك مافى الباطل من الذِّلّه، وما فى الجهل من القِلّه . وكقول النابغـة للنُّعمان وتفضيلِه إياه على ذى فائش يزيدَ بنِ أبى جَفْنةَ[(١)]، وكقول حسّان ابن ثابت للحارث الجَفْنىّ يفضّله على النعمان بن المنذر، وكقول ضِرارِ بنِ ضَمْرةَ لمعاوية فى وصف علىّ؛ وقد تقدّم شرح أقوالهم فى الباب الأوّل من القسم الثالث من هذا الفن فى المدح، وهو فى السِفْر الثالث فلا حاجة بنا الى إعادته. وهذا النظْم لا يستحق الفضل إلا بسلامة معناه وسلامة[(٢)] ألفاظه، إذ ليس فيه معنًى دقيقٌ لايُدرَك إلا بثاقب الفكـر .

قال : ور بما ظُنّ بالكلام أنه من هذا الجنس ولا يكون منه، كقول الشاعر :

سالت عليه شِعابُ الحىّ حين دعا * أنصـارَه بوجوه كالدنانير

فإن الحسن فيه ليس مُجرّدَ الاستعارة، بل لمـا فى الكلام[(٣)] من التقديم والتأخير، ولهـذا لو أزلْتَ ذلك وقلتَ : سالت شِعابُ الحىّ بوجوه كالدنانير عليـه حين دعا أنصاره، فإنه يذهب بالحسن والحلاوة .

(١) كذا فى الأصل . وصوابه سلامة بن يزيد بن سلامة من ولد يعصب بن مالك، وكان النابغة منقطعا اليه قبل اتصاله بالنعمان، كما فى السفر الثالث من هذا الكتاب الذى أحال عليه . وفائش : موضع باليمن كان يحميـه سلامة بن يزيد كما فى شرح القاموس . وقال ياقوت فى معجم البلدان ج ٣ ص ٨٤٩ ط المدرسة المحروسة بمدينة غنغة : « وفائش واد فى أرض اليمن » ، و به سمى سلامة بن يزيد بن عريب بن تريم بن مرثد : ذا فائش .

(٢) فى حسن التوسل ص ٤١ ط الوهابية : «وسلاسة» بالسين المهملة، والمعنى يستقيم على كل منهما .

(٣) فى الأصل : «الكتاب» وهو تحريف .

الثانى : أن تكون الجمل المذكورة يتعلّق بعضها ببعض ، وهناك تَظْهَر قوّةُ الطبع ، وجَودةُ القريحة ، وٱستقامةُ الذِّهن .

ثم [ليس] (١) لهذا الباب قانون يُحفَظ ، فإنه يجىء على وجوه شتّى :

منها الإيجاز ، وهو العبارة عن الغرض بأقلّ ما يمكن من الحروف ، وهو على ضربين : إيجاز قَصر ، وإيجاز حَذف ، وقد تقدّم الكلام على ذلك وذكرُ أمثلته عند ذكر الفصاحة .

ومنها التأكيد — وهو تَقوِيَة المعنى وتقريرُه ، إما بإظهار البرهان ، كقول قابوس :

يا ذا الذى بصُروف الدهر عيَّرنا * هل عاند الدهرُ إلا من له خَطَر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيَف * وتَستقِرُّ بأقصى قعره الدّرر
وفى السماء نجوم ما لها عَدد (٢) * وليس يُخسَف إلا الشمس والقمر

وإما بالعزيمة ، كقوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وكقول الأَشْتَر النَّخَعىّ :

بَقِيتُ وَفْرِى وٱنحرفتُ عن العلا * ولقيتُ أضيافى بوجهِ عَبوس
إن لم أُشنّ على ٱبن حَرب غارةً * لم تَخلُ يوما من نهاب نفوس

يريد معاويةَ بنَ أبى سُفيانَ ، وكقول أبى نُواس :

لافرّج الله عنّى إن مدّدت يدى * إليه أسألُه من حبّك الفرجا

(٣٤)

(١) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ واستقامة العبارة تقتضى إثباتها . انظر حسن التوسل ص ٤١ ط الوهابية .

(٢) فى الأصل و فى حسن التوسل : « غير ذى عدد » ، وهو غير مستقيم ؛ والتصويب عن الذخيرة لابن بسام المحفوظ منها بعض أجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٨ أدب .

وكقول أبى تمّام :

حُرِمتُ مُنايَ منك إن كان ذا الذى * تقوّله الواشـــون حقًّا كما قالوا .

أو بالتّكرار، كقولهم : اللهَ اللهَ، والأسدَ الأسدَ، وكقول الحادِرة[1] :

أظاعنـــةٌ وما تودِّعنا هنـــدُ * وهند أتى من دونها النأىُ والبعد

وهذا فى التنزيل كثير، والعَلَم فيه سورة الرحمٰن . ٥

وأما التجنيس — فهو يتشعّب منه شُعب كثيرة :

فمنه المستوفِى التامّ — وهو أن يجىء المتكلّم بكلمتين متفقتين لفظا، مختلفتين معنى، لا تفاوتَ فى تركيبهما، ولا اختلافَ فى حركاتهما، كقول الغَزِّىّ :

لم يَبقَ غيرُك إنسان يلاذُبه * فلا بَرِحتَ لعين الدهر إنسانا

وقولِ عبدالله بن طاهر : ١٠

وإنّى للثّغر المخُوف لكالئٌ * وللثغر يَجرى ظَلمُه[2] لَرشـــوف

وكقول البُسْتىّ :

سما وحَمى بنى سامٍ وحامٍ * فليس كمثـــله سام وحامى

وذكر التّبريزىّ أن التجنيس المستوفِى كقول أبى تمّام :

ما مات من كرم الزمان فإنه * يحيا لدى يحيى بن عبد الله ١٥

وقال : وإنمـا عُدّ من هذا الباب لاختـلاف المعنيين، لأن احدَهما فعـل، والآخر اسم .

---

(١) هو قطبة بن أوس الثعلبىّ، والحادرة لقبه .

(٢) الظلم بفتح الظاء المعجمة : ماء الأسنان وبريقها .

ومنه المختلف — ويسمّى التجنيسَ الناقصَ — وهو مِثل الأوّل فى آتفاق حروف الكلمتين إلا أنه يخالفه : إما فى هيئة الحركة، كقوله صلى الله عليه وسلم "اللهم كما حسّنت خَلْقى فحسّن خُلُقى"؛ وكقول مُعاذ رضى الله عنه : الدِّين يهدم الدِّين؛ وكقولهم : جُبَّة البُرد جُنّة البَرد؛ وكقولهم : الصديق الصدوق أوّل العَقْد وواسطة العِقْد؛ وكقول المعرّى :

لغيرى زكاة من جِمال فإن تكن * زكاةُ جَمال فاذكرى آبنَ سبيل

أو بالحركة والسكون، كقولهم : البِدعة شَرَك الشِّرك. أو بالتخفيف والتشديد كقولهم : الجاهل إما مفرِط وإما مفرِّط .

ومنه المذيَّل — ويقال له : التجنيس الزائد والناقص أيضا — وهو أن تجىء بكلمتين متجانستَى اللفظ متّفقتَى الحركات، غيرَ أنهما يختلفان بحرف، إما فى آخرهما كقولك : فلان حامٍ حاملٌ لأعباء الأمور، كافٍ كافلٌ لمصالح الجمهور؛ وقولهم : أنا من زمانى فى زَمانه، ومن إخوانى فى خيانه (١)؛ وقولهم : فلان سالٍ عن إخوانه (٢)، سالم من زمانه؛ ومن النظم قول أبى تمّام :

يَمُدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ * تصول بأسياف قواضٍ قواضبِ

وقولُ البحترىّ :

لئن صَدفتْ عنّا فَرُبَّتَ أنفس * صَوادٍ إلى تلك النفوس الصوادف

وإما من أوّلها، كقوله تعالى : ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾

ومن النظم ما أنشده عبد القاهر :

وكم سَبقتْ منه إلىّ عوارف * ثنائىَ من تلك العوارف وارفُ

وكم غُررٍ من بِرّه ولطائفٍ * لَشكرى على تلك اللطائف طائف .

(١) كذا فى الأصل وحسن التوسل . ووجه التمثيل بها خفىّ، والظاهر أن محل التمثيل أوّل العبارة .

(٢) كذا فى الأصل وخزانة الأدب للحموى ص ٣٥ ط بولاق؛ والذى فى حسن التوسل : «من أحزانه» .

ومنه المركب وهو على ضربين :

الأول : ما هو متشابه لفظا وخطا، كقولهم : هِمّتك الهِمّة الفاتره ، وفى صميم قلبك ألفاتره، ومن النظم قول البُسْتىّ :

إذا ملِك لم يكن ذاهِبه * فدعه فدولته ذاهبـــه

وقولُ الآخر : ٥

عضّنا الدهر بنـابه * ليت ما حَلّ بنـابه (٣٥)

وقولُ طاهر البَصرى :

ناظِـراه فيما جنى ناظِـراه * أودَعانى رهنا بمـا أودَعانى.

الثـانى : ما هو متشابه لفظا لاخطا ويسمّى التجنيسَ [المفروق](١) ، كقوله :

كنت أطمع فى تجريبك، ومطايا الجهل تجرى بك؛ ١٠

ومن النظم قول الشاعر :

لا تَعرِضنّ على الرواة قصـــيدة * ما لم تكن بالغتَ فى تهذيبهـا

فإذا عرضتَ القَوْلَ غيرَ مهذَّب * عَدُّوه منك وساوسا تهذِى بهـا

وأمثالُ ذلك كثيرة .

ومن أنواع المركّب المرفُوّ، وهو أن تجمع بين كلمتين إحداهما أقصر من ١٥ الأخرى، فتضمّ الى القصيرة حرفا من حروف المعانى أو من حروف الكلمة المجاورة لها حتى يعتدلَ ركنا التجنيس، كقولهم :

يامغرور أمسِك، وقِس يومك بأمسك؛

ويقرُب منه قول الهمذانىّ :

إن لم يكن لنا حَظٌّ فى دَرَك دَرْك، فخلِّصنا من شَرَك شرْك؛ ٢٠

(١) الكلمة التى بين مربعين عن حسن التوسل ص ٤٤ ط الوهابية ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها .

وقول الحريرىّ :

إن أخليتَ منّا مبارِكَ مبارِك، فخلِّصنا من معارِكِ معارِك؛

ومن النظم قول البُستىّ :

فهِمتُ كتابك ياسيّدى * فهِمتُ ولا عَجَبٌ أن أهيما

٥ ومنه قول الآخر :

ذو راحة وكَفَتْ ندًى وكَفتْ ردًى * وقضت بهُلْك عُداته وعِداته

كالغيث فى إروائه ورُوائه * والليث فى وثَباته وثباته.

ومنه المزدوج — ويقال له التجنيس المردَّد والمكرر أيضا — وهو أن يأتى فى أواخر الأسجاع وقوافى الأبيات بلفظتين متجانستين إحداهما نميمة الأخرى

١٠ وبعضُها، كقولهم : الشراب بغير النَّغَم غمّ، وبغير الدَّسم سمّ؛

وقول البستىّ :

أبا العباس لا تحسَب لشَيْنى[1] * بأنّى من حُلَى الأشعار عارى

فلى طبع كسَلسال مَعين * زُلال من ذُرَى الأحجار جارى

اذا ما أكبت الأدوار زَندا * فلى زَند على الأدوار وارى.

١٥ ومن أجناس التجنيس المصحَّف — ويقال له تجنيس الخط أيضا — وهو أن تأتىَ بكلمتين متشابهتين خطّا لا لفظا، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالأبكار فإنهنّ أشدُّ حُبّا وأقلّ خِبّا » وقول [النبىّ صلى الله عليه وسلم][2] لعلىّ رضى الله عنه : قَصِّر من ثيابك فإنه أبقىٰ وأنقىٰ وأتقىٰ.

٢٠ (١) فى حسن التوسل : « لشيبى » بالباء، وهو تحريف . (٢) عبارة الأصل وحسن التوسل : « وقول علىّ » وفيها نقص ؛ والتكملة عن خزانة الأدب للحموى ص ٤٤ ط بولاق .

وكقول أبي فراس :

من بحر شـعرك أغترِف * وبفضل عِلمك أعترِف.

ومنه المضارِع — ويسـمَّى المطمِّعَ — وهو أن يُجاء بالكلمة ويُبدأ بأختها على مِثل أكثر حروفها، فتطمع فى أنها مِثلُها، فتخالفها بحرف؛ ويسـمى المُطرَّف وهو أن تجمع بين كلمتين متجانسـتين لا تَفاوتَ بينهما إلا بحرف واحد من الحروف المتقارِبة، سواء وقع آخرا أوحشوا، كقوله صـلى الله عليه وسلم : « الخيل معقود بنَواصيها الخير » ومنه قول الحطيئة :

مَطاعِينُ فى الهَيجا مَطاعيمُ فى الدّجى * بنى لهُم آباؤهـــم وبنَى الجَـــدّ

وقولُ البحترىّ :

ظَلِلتُ أرجّم فيك الظنون * أحاجمُهُ أنت أم حاجبُهُ؟

وإن كان التفاوت[1] بغيرالمتقارِبة سمّى التجنيسَ اللاحقَ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ ٱلْأَمْنِ﴾ وقولِه تعالى : ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وقولِ البحترىّ :

هل لمـا فات من تَلاقٍ تَلافِي * أم لشاك من الصبابة شافِي.

ومنـه المشوَّش — وهو كل تجنيس يتجاذبه طرَفان من الصنعة[2] فلا يمكن إطلاق آسم أحدهما عليه، كقولهم : فلان مليح البلاغة، صحيح البراعة[3]

(١) فى الأصل : « الالتفات » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه السياق .

(٢) فى الأصل وحسن التوسل : (الصيغة) بياء مثناة بعدها غين معجمة؛ وهو تحريف، والتصويب عن شرح الباعونية المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٨٣ بلاغة، وهو شرح على بديعيتها الموسومة بالفتح المبين فى مدح الأمين .

(٣) كذا ورد هـذا المثال فى الاصل وحسن التوسل . ووجه التمثيل به خفىّ، ولم نقف عليـه فيما لدينا من المراجع .

ومنه تجنيس الاشتقاق — ويسمّى الاقتضابَ أيضا، ومنهم من عدّه أصلا برأسه، ومنهم من عدّه أصلا فى التجنيس — وهو أن يجىء بألفاظ يجمعها أصل واحد فى اللغة، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ وقولِه تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ وقولِ النبى صلى الله عليه وسلم: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها» وقولِه: «الظلم ظُلُمات يوم القيامة» ومن النظم قول أبى تمّام:

عَمَّمْتَ الخلق بالنَّعماء حتى * غدا الثقلان منها مُثْقَلَين

وقولُ المُطرِّزى:

وإنى لأستحيِى من المجد أن أُرَى * حَلِيفَ غَوانٍ أو أليفَ أغانى (١)

وقولُ الصاحب بنِ عبّاد:

وقائلةٍ لِمْ عَرَتْكَ الهمومُ * وأمرك ممتثَل فى الأمم

فقلت ذرِينى على غُصّتى * فإن الهموم بقدْر الهمم

وقولُ آخرَ:

إن ترى الدنيا أغارت * ونجومَ السعد غارت

فصُروف الدهر شتّى * كلّما جارت أجارت

ومما يشبِه المشتقّ (٢) — ويسمّيه بعضهم المشابِه (٣)، وبعضهم المغايِر — قولُه تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ وقولُه تعالى: ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾

(١) فى الأصل: «غوانى»؛ وهو تحريف.

(٢) فى الأصل: «المشقق»؛ وهو تحريف.

(٣) فى الأصل: «المشابهة والمغايرة»، بتأنيث اللفظين؛ والتصويب عن حسن التوسل.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾

ومن النظم قول البحترىّ:

واذا ما رياح جُودك هبّت (١) * صار قول العذّال فيها هباءَ.

ومن أجناس التجنيس تجنيس التصريف — وهو ما كان كالمصحَّف [إلا] (٢) فى اتحاد الكتابة، ثم لا يخلو من أن تتقارب (٣) فيه الحروف باعتبار المخارج أو لا تتقارب فإن تقاربت سُمّىَ مضارعا، وإن لم تتقارب سُمّىَ لا حقا.

مثال الأوّل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ وقولُه تعالى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ وقولُ قُسّ بنِ ساعدةَ الإيادىّ: "من مات فات"

وقولُ الشاعر:

فيالك من حزم وعزم طواهما * جديدُ البِلى تحت الصفا والصفائح

وهذا البيت يشتمل على المضارع والمتمّم؛

ومثال الثانى قول على رضى الله عنه: الدنيا دار ممرّ، والآخرة دار مقرّ، وقولُ عبد الله بنِ صالح وقد وصف اليمنَ: ليس فيه إلا ناسج بُرد، أو سائس (٤) قرد.

---

(١) فى الأصل: «رماح» بالميم، وهو تحريف.

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد نقلناها عن حسن التوسل ليستقيم بها التعريف ويصح بها التمثيل الآتى، فإنه ليس بين قوله: «ينهون» و«ينئون» اتحاد فى الكتابة. وعبارة ابن أبى الإصبع فى تحرير التحبير المحفوظ منه نسخه مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٥ بلاغة فى تعريف هذا النوع: «وهو اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حرف إما من مخرجه أو من قريب منه.

(٣) عبارة الأصل: «من أن تتفاوت فيه الحروف باعتبار المخارج أو لا تتفاوت، فإن تفاوتت» الخ. بفاء موحدة فى الكلمات الثلاث وواو وتاء مثناة فوقية، وهو تصحيف لا يستقيم به المعنى.

(٤) فى الأصل: «سامر»، وما أثبتناه عن حسن التوسل.

ومنها التجنيس المخالِف — وهو أن تشتمل كلُّ واحدة من الكلمتين على حروف الأخرى دون ترتيبها، كقول أبى تمّام :

بِيضُ الصفائح لا سُودُ الصحائف فى * متونهنّ جَلاء الشـك والرِيَب

وقولِ البحترىّ :

٥ شَواجِرُ أرماح تُقطِّع بينهم * شواجِرَ أرحام مَلُومٍ قَطوعُها

وقولِ المتنبىّ :

ممنَّعةٌ منعَّمةٌ رَداحٌ * يكلِّف لفظُها الطيرَ الوُقوعا

فإن اشتملت كل كلمة على حروف الأخرى، وكان بعض هذه قلْبَ حروف هذه خُصّ باسم جناس العكس، كقول النبى صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن

١٠ يوم القيامة اقرأ وارقَ» وقولِ عبد الله بنِ رَواحةَ يمدح [النبى][1] صلى الله عليه وسلم :

تحمِله الناقة الأدْماءُ معتجِرا * بالبُرد كالبدر جلّى نُورُه الظُّلَما.

ومنها تجنيس المعنى — وهو أن تكون إحدى الكلمتين دالّةً على الجناس بمعناها دون لفظها، وسبب استعمال هذا النوع أن يقصد الشاعر المجانَسةَ لفظا ولا يوافقه الوزن على الإتيان باللفظ المجانِس فيعدل إلى مُرادِفه، كقول الشاعر يمدح المهلَّب

١٥ ويذكر فعله بقَطَرِىّ بن الفُجاءة، وكان قَطَرِىّ يُكنَى أبا نَعامةَ :

حدا بأبى أم الرِّئال فأجفلتْ * نَعامتُه من عارض متلبِّب[2]

أراد أن يقول : حدا بأبى نَعامةَ فأجفلتْ نعامته أى روحه، فلم يستقم له فقال : بأبى أمّ الرِّئال، وأمّ الرِّئال هى النعامة، وكقول الشّماخ :

(١) التكملة عن حسن التوسل. (٢) فى الأصل : «متهلب»، وما أثبتناه عن حسن التوسل إذ هو

٢٠ المناسب لما هنا، ولعل ما فى الأصل مقلوب عن متلهب، أى متوقّد غيرة وحمية. والمتلبّب : المتحزم بالسلاح، يريد المتهيئ للقتال.

وما أَرْوَى وإن كَرُمتْ علينا * بأدنى من موقَّفــة[1] حَرون

أَرْوَى : آسم امرأة . والموقَّفة الحرون من الوحش : أَرْوَى، وبها سميت المرأة فلم يمكنه أن يأتىَ باسمها فأتَى بصفتها، وقد صرح بذلك المَعرّى فى قوله :

أَرْوَى النِّياق كأَرْوَى النِّيق[2] يَعصِمها * ضرب يظــلّ له السِّرحان مبهوتا

وبعضهم لا يُدخل هذا فى باب التجنيس . قال : وإنما يحسُن التجنيس إذا قلّ، وأتَى فى الكلام عفوا من غير كَدّ[3] ولا آستكراه، ولا بُعد ولا مَيل إلى جانب الرِّكّة ولا يكون كقول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يَتبَعُنِي * شاوٍ[4] مِشَــلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

ولا كقول مسلم بن الوليد :

سُلَّت وسُلَّت ثم سُلّ سليلُها * فأتى ســليل سليلِها مســلولا

ولا كقول المتنبىّ :

فقَلْقلْتُ بالهمّ الذى قَلقل الحشا * قَلاقلَ عيش كلّهن قَلاقلُ .

وأما الطِّباق — قال : المطابقة أن تجمع بين ضدّين مختلفَين، كالإيراد والإصدار والليل والنهار، والسواد والبياض؛ قال الأخفش وقد سئل عنه : أجد قوما يختلفون

---

(١) الموقفة من الوقف، وهو الخلخال أو السوار من العاج وغيره، وأراد به هنا : الأروى التى فى رجليها أو يديها بياض تشبيها لها بلابسة الخلخال أو السوار .

(٢) النيق بالكسر : أرفع موضع فى الجبل، جمعه نياق وأنياق ونيوق .

(٣) فى الأصل : « كدر » براء زائدة فى آخره، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٤) قال فى اللســان مادة شل : الشاوى : الذى شوى . والشلول : الخفيف . والمشل : المطرد . والشلشل : الخفيف القليل . وكذلك الشول . والألفاظ متقاربة أريد بذكرها والجمع بينها المبالغة .

فيه، فطائفة — وهم الأكثر — يزعمون أنه الشيءُ وضدُّه، وطائفة تزعم أنه آشتراك المعنيين فى لفظ واحد، كقول زِياد الأعجم :

ونُبِّئْتُهم يَستنصِرون بكاهل * ولَلُّؤمُ فيهم كاهلٌ وسَنام

ثم قال : وهذا هو التجنيس بعينه، ومن آدعى أنه طباق فقد خالف الأصمعىّ والخليل، فقيل له : أوَ كانا يعرفان ذلك؟ فقال : سبحان الله ! وهل أعلم منهما بالشعر وتمييز خبيثه من طَيِّبه؟ . ويسمونه المطابَقةَ والطِّباقَ والتضادَّ والتكافؤَ وهو أن تجمَع بين المتضادَّين مع مراعاة التقابل، فلا تجىء بآسم مع فعل ولا بفعل مع آسم، مثاله قوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقولُه تعالى : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ وقولُه تعالى:﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلى قوله : ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم لَتكثُرون عند الفزع وتَقِلّون عند الطمع » ومن النظم قولُ جرير :

وباسط خير فيكمُ بيمينه * وقابض شرّ عنكمُ بشِماليا

وقولُ البحترىّ :

وأمّة كان قبح الجَور يُسخِطها * حِينا فأصبح حسن العدل يرضيها

وقولُه أيضا :

تبسّمٌ وقُطوبٌ فى ندًى ووغًى * كالبرق والرعد وَسْطَ العارض البرِدِ

وقولُ دِعبِل :

لا تَعجبي يا سَلْمُ من رجل * ضَحِكَ المَشيب برأسه فبكى

وقول آبن المعتز :

مَها الوحشِ إلا أنّ هاتا أوانس * قَنا الخَطّ إلا أنّ تلك ذوابل

فإنّ هاتا للحاضر، وتلك للغائب، فكانتا متقابلتين؛ وقد تجىء المطابقـة بالنفى [والإثبات](١) كقول البحترىّ :

تُقيِّض(٢) لى من حيث لا أعلم النـوى * ويَسرى إلىّ الشوق من حيث أعلم .

وقال الزكىّ بنُ أبى الإصبَع المصرىّ فى الطباق : وهو على ضربين : ضرب يأتى بألفاظ الحقيقة ، وضرب يأتى بألفاظ المجاز ، فما كان بلفظ [الحقيقة](٣) سمّىَ طباقا وما كان بلفظ المجاز سمّىَ تكافؤا ، فمثال التكافؤ قول أبى الأشعث العبسىّ من إنشادات قُـــدامةَ :

حلو الشمائل وهو مرّ باســل * يحمى الذِّمارَ صبيحة الإرهاق

لأن(٤) قوله : حلو ومرّ خارج مَخرجَ الاستعارة، إذ ليس الإنسانُ ولا شمائلُه ممـا يذاق بحاسّة الذوق .

ومن أمثلة التكافؤ قول ابن رَشِيق :

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا * نجـــومَ العـــوالى فى سمـاء عَجاج

وقد جَمع دِعبِل فى بيته المتقدّم بين الطباق والتكافؤ، وهو :

لا تَعجَبى يا سَـــلْم من رجل * ضَحِـــكَ المشيب برأســـه فبكى

لأن ضحكَ المشيب مجاز، وبكاءَ الشاعر حقيقة .

قال : هكذا قال ابن أبى الإصبَع، وفيه نظر، لأنه إذا كان الطباق عنده هو التضادّ من حقيقتين ، والتكافؤ التضادّ من مجازين، فليس فى البيت ما شرَطه .

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ومن حسن التوسل؛ والمقام يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «يقتص» وهو تحريف .

(٣) التكملة عن حسن التوسل ص ٤٨ ط الوهابية؛ واستقامة الكلام تقتضيها .

(٤) فى الأصل : «لما كان» وما أثبتناه عن حسن التوسل، إذ به يستقيم الكلام .

قال : ومما جمع بين طباق السلب والإيجاب قولُ الفرزدق من إنشادات ابن المعتز :

لعن الإله بنى كُليب إنّهم * لا يَغدِرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نهيق حميرهم * وتنام أعينهم عن الأوتار.

٥ وذكر فى آخر الباب طباق الترديد، وهو أن يردّ آخر الكلام المطابَق إلى أوّله فإن لم يكن الكلام مطابَقا فهو ردّ الأعجاز على الصدور، ومثاله قول الأعشى :

لا يَرقع الناس ما أَوهَوا وإن جَهَدوا * طُول الحياة ولا يُوهون ما رَقعوا.

وأما المقابلة[1] — وهى أعم من الطباق، وذكر بعضهم أنها أخص، وذلك أن تضع معانىَ تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو المخالفة، فتأتى فى الموافِق بما وافق،
١٠ وفى المخالِف بما خالف أو تشرُط شروطا وتعُدّ أحوالا فى أحد المعنيين فيجب أن تأتىَ فى الثانى بمثل ماشرطتَ وعددتَ [فى الأوّل][2]، كقوله عزّ وجلّ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ومثاله
١٥ من النظم قولُ الشاعر :

فيا عَجبا كيف اتفقنا فناصح * وفىٌّ ومطوىٌّ على الغِلّ غادر!

وقولُ آخر :

تَقاصرن واحلولَين لى ثم إنه * أتت بعدُ أيامٌ طِوالٌ أمرّتِ

---

(١) عنوان هذا الفصل ساقط من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباته .

٢٠ (٢) التكملة عن حسن التوسل .

وقولُ زهير بنِ أبى سُلْمى :

حُلَماءُ فى النـادى إذا ما جئتَهم * جُهـــلاءُ يومَ عَجاجةٍ ولقـاء.

ومن فساد ذلك أن يقابَل الشيءُ بمـا لا يوافقه ولا يخالفـه، كقول أبى عدىّ القـــرشىّ :

يا ٱبن خير الأخيار من عبد شمس * أنت زين الدنيـا وغيثٌ لجُـــود ٥

(٣٩) فليس قوله : غيث لجود موافقا لقوله : زين الدنيا ولا مخالفا له

وكقول الكُميت :

وقد رأينا بهـا حورا منعَّـمةً * بِيضا تَكامَل فيها الدَّلّ والشَّنَب

فالشنب لا يشاكل الدَّلّ .

وقولِ آخرَ : ١٠

رُحَمـاءُ بذى الصلاح وضـــرّابون قِـدما لهـامة الصِّـنديد.

قال : وقد ذكر بعض أئمة هذا الفن تفصيلا فى المقابلة فقال :

فمن مقابلة ٱثنين بٱثنين قوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾؛ وقولُ النـابغـــة :

فتًى تمّ فيـــه ما يَسُرّ صديقه * على أنّ فيـه ما يسـوء الأعاديا؛ ١٥

ومن مقابلة ثلاثة بثلاثة قول الشاعر[1] :

ما أحسن الدينَ وٱلدنيا إذا ٱجتَمعا * وأقبحَ ٱلكفرَ وٱلإفلاسَ بالرجل

وقولُ أبى نُواس :

أنا ٱستدعَيت عفوك من قريب * كما ٱستعفَيت سُخطَك من بعيـد؛

(١) يعزى هذا البيت لأبى دلامة . ٢٠

ومن مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ المقابَل بقوله تعالى : «ٱسْتَغْنَى» قوله تعالى : «وَٱتَّقَى» لأن معناه : زهِد فيما عند الله وٱستغنى بشهوات الدنيا عن نعم الآخرة، وذلك يتضمّن عدَمَ التقوى، ومنه قول النابغة :

إذا وَطئا سهلا أثارا عَجاجةً * وإن وَطئا حَزْنًا تَشَظَّى الجنادلُ؛

ومن مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبّي :

أزورهم وسواد ٱلليل يَشفَع لى * وأنثنى وبياض الصبح يُغرِى بى

قابَل أزور بأنثنى ، وسواد ببياض ، والليل بالصبح ، ويَشفع بيُغْرِى ، ولى بقوله : بى .

وأما السجع — فهوأن كلماتِ الأسجاع موضوعةٌ على أن تكون ساكنة[1] الأعجاز موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يجانِس بين قرائنَ ، ويزاوِج بينها، ولا يتمّ ذلك إلا بالوقف، ألا ترى الى قولهم : «ما أبعَد ما فات، وما أقربَ ما هو آت» فلو ذهبتَ تصل لم يكن بُدّ من إعطاء أواخر القرائن ما يقتضيه حكم الإعراب ، فتختلف أواخرُ القرائن، ويفوت الساجعَ غرضُه، واذ رأيناهم يخرجون الكلمة عن أوضاعها للازدواج فيقولون : أتينك بالغدايا والعشايا، وهنّانى الطعام ومَرّأنى، وأخذَه ما قدُم وما حدُث، « وٱنصرِفن مأزوراتٍ غيرَ مأجورات »، يريد الغَدَوات ، وأمرأنى وحدَث، وموزورات، مع أن فيه ٱرتكابا لمخالفة اللّغة [فما الظنّ بأواخر[2] الكلم المشبّهة بالقوافى] .

(١) فى الأصل : «سالفة» ؛ وهو تصحيف .

(٢) التكملة عن حسن التوسل ص ٤٩ ط الوهابية .

قال : والسجع أربعة أنواع وهى : الترصيع والمتوازى والمطرَّف والمتوازن .

أما الترصيع — فهو أن تكون الألفاظ مستويةَ الأوزان متّفقةَ الأعجاز، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ وقولِ النبي صلى الله عليه وسلم : "اللهم أقبل توبتى، وأغسل حَوبتى" وقولهم : فلان يَفتخر بالهمم العاليه، لا بالرمم الباليـه؛ وقولهم : عاد تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا ؛

ومن النظم قولُ الخنساء :

حامِى الحقيقة محمودُ الخليقة مهـــدىٌّ الطريقة نفّاعٌ وضرّار
جوّاب قاصية جزّاز ناصية * عقّاد ألوية للخيـــل جرّار

وقد يجىء مع التجنيس، كقولهم :

اذا قلّت الأنصار، كَلّت الأبصار؛ وما وراءَ الخَلْق الدّميم، إلا الخُلُقُ الذميم ؛

ومن النظم قولُ المطرِّزى[1] :

وزَنْدُ ندَى فواضلِه ورِىٌّ * ورَنْدُ رُبَا فضائلِه نَضير
ودُرّ جلاله أبدا ثمينٌ * ودَرّ نَواله أبدا غـــزير.

وأما المتوازى — فهو أن يراعَى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزنُ مع آتفاق الحرف الأخير منهما، كقوله عزّ وجلّ : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ .

(١) فى الأصل : « المطرز » بدون ياء، والتصويب عن حسن التوسل، وهو ناصر بن أبى المكارم عبد السيد بن على، ويكنى أبا الفتح ؛ وكانت وفاته سنة عشر وستمائة هـ . انظر وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٤ ط دار الطباعة المصرية .

وقولِ الحريرىّ : ألجانى حكمُ دهرٍ قاسط، الى أن أنتجعَ أرضَ واسط[(١)] .

وقوله : وأَودَى الناطق والصامت، ورثى لنا الحاسد والشامت .

وأما المطرّف — فهو أن يراعَى الحرفُ الأخيرُ فى كلمتى قرينتيه من غير مراعاة الوزن، كقوله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقولِهم : جنابه مَحطّ الرحال، ومُخيِّم الآمال .

وأما المتوازن — فهو أن يراعَى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزنُ مع اختلاف الحرف الأخير منهما، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ وقولِهم : اصبر على حَرّ القتال، ومَضَض النِّزال[(٢)]، وشدّةِ المِصاع، ومداوَمةِ المِراس؛ فإن راعى الوزنَ فى جميع كلمات القرائن أو أكثرِها، وقابَل الكلمة منها بما يعادِلها وزنا كان أحسنَ، كقوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقولِ الحريرىّ : اسودّ يومى الأبيض، وابيضّ فَوْدى الأسوَد؛ ويسمَّى هذا فى الشعر الموازَنة، كقول البحترىّ :

فقف مُسعِدا فيهنّ إن كنت عاذرا * وسِر مُبعِدا عنهنّ إن كنت عاذلا

---

(١) قال فى معجم البلدان ص ٨٨١ ج ٤ ط المدرسة المحروسة بمدينة غتنغه : واسط فى عدّة مواضع : نبدأ أوّلا بواسط الحجاج لأنه أعظمها وأشهرها ثم نتبعها الباقى . فأوّل ما نذكر لم سميت واسطا ولم صرفت ؟ فأما تسميتها فلأنها متوسطة بين البصرة والكوفة لأن منها الى كل واحدة منهما خمسين فرسخا الخ . ثم ذكر بعد ذلك نقلا عن أبى حاتم أنه مصروف لأنه مذكر، فإنهم أرادوا به بلدا واسطا أو مكانا واسطا؛ وأنه قد يذهب به مذهب البقعة أو المدينة فيمنع من الصرف للتأنيث حينئذ . وقد ابتدأ الحجاج فى عمارتها سنة أربع وثمانين وفرغ منها سنة ست وثمانين .

(٢) كذا فى الأصل وحسن التوسل . ومحل التمثيل هذه القرينة مع القرينتين اللتين بعدها دون التى قبلها لاتفاق الحرف الأخير فيهما .

قال : ومما هو شرطُ الحسْن فى هذا المحافظةُ على التشابه ، وهو آسم جامع للملاءمة والتناسب .

فالملاءمة : تأليف الألفاظ الموافيةِ بعضُها لبعض على ضرب من الأعتدال كقول لَبِيد :

وما آلمرء إلا كالشهاب وضَوئِه * يعود رَمادا بَعْدُ إذ هو ساطع ٥

وما آلمال والأهلون إلا وديعةٌ * ولا بدّ يوما أن تُرَدّ الودائع

وبعضهم يَعُدُّ التلفيق من باب الملاءمة ، وهو أن تضمّ الى ذكر الشىء مايليق به ويجرى مَجراه ، أى تجمع الأمورَ المناسِبة ، ويقال له : مُراعاة النظير أيضا ، كقول آبنِ سَمعُون للمهلّبىّ[1] :

أنت أيها الوزير إبراهيمىّ الجُود ، إسماعيلىّ الوعد ، شعَبىّ التوفيق ، يوسفىّ العفو ، محمدىّ الخلُق . ١٠

وكقول أبى الفوارس الحَمْدانىّ[2] :

أأخا الفوارس[3] لو رأيتَ مواقفى * والخيلُ من تحت الفوارس تَنحِط[4]

لقرأتَ منها ما تخُطّ يد الوغى * والبيض تَشكُل والأسنّة تَنقُط

(١) فى الأصل : «ابن شمعون المهلبى» بالشين المعجمة وسقوط اللام ؛ وفى حسن التوسل : «ابن سمعون المهلبى» بالمهملة ، ولم نقف على هذه النسبة لكلا الشخصين فيما بين أيدينا من كتب التراجم ومعاجم الأعلام ، ولعل صواب العبارة ما أثبتنا ؛ والمهلبى هو الوزير أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون يتصل نسبه بالمهلب بن أبى صفرة ؛ وكان وزيرا لمعز الدولة بن بويه . وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠١ ط دار الطباعة المصرية . وابن سمعون هو أبو الحسين محمد بن أحمد ابن اسماعيل الواعظ البغدادى ؛ وتوفى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ه وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٠١ ١٥ ٢٠

(٢) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل : (أبو العشائر) وكلاهما من آل حمدان ، ولم نعثر فيما بين أيدينا من المظان على ما يرجح إحدى الروايتين ، كما أننا لم نقف على هذين البيتين فى شعر أبى فراس الحمدانى كما يتوهم تحريف ما هنا عنه .

(٣) فى الأصل : « أأجاد » وهو تحريف .

(٤) تنحط : من النحط ، وهو صوت الخيل من الثقل والإعياء ، يكون بين الصدر الى الحلق . ٢٥

وكقول آخر :

وكم سائلٍ بالغيب عنك أجبتُه * هناك الأيادى الشُّفْعُ والسُّودُ والوِتر

عطاءٌ ولا منٌّ وحُكم ولا هوًى * وحِلم ولا عجز وعزٌّ ولا كِبْر

وقولِ ابن حَيُّوس[1] :

يقينُك والتقوى وجُودُك والغنى * ولفظُك والمعنى وسيفُك والنصر

والتناسب : هو ترتيب المعانى المتآخيةِ التى تتلاءم ولا تتنافر، كقول النابغة :

والرفق[2] يُمْن والأَناةُ سعادة * فاستأنِ فى رزق تنال نجاحا

واليأس عمّا فات يُعقِب راحةً * ولَرُبَّ مَطمَعة تعود ذُباحا

ويسمَّى التشابهَ أيضا، وقيل : التشابه أن تكون الألفاظ غيرَ متباينة بل متقاربة فى الجَزالة والرِّقّة والسَّلاسة، وتكونَ المعانى مناسِبة لألفاظها من غير أن يكسُو[3] اللفظَ الشريفَ المعنى السخيفَ، أو على الضدّ، بل يصاغان معا صياغةً تناسب وتلائم .

فصل فى الفِقَر المسجوعة ومقاديرها (٤١)

قال : قِصَر الفِقَرات يدلّ على قوة التمكّن وإحكام الصناعة ، وأقلّ ما تكون كلمتان، كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وأمثالُ ذلك فى الكتاب العزيز كثيرة، لكن الزائد على ذلك هو الأكثر، وكان بديع الزمان يُكثِر من

(١) هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس، ويكنى أبا الفتيان، ويلقب بصفىّ الدولة .

(٢) فى الأصل : «والرزق» بالزاى المعجمة، وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل .

(٣) فى الأصل : «يكثر» بالثاء المثلثة والراء المهملة، وهو تحريف .

ذلك فى رسائله ، كقوله : كُمَيْتٌ نَهْـد ، كأنّ راكبَه فى مَهْـد ، يَلطِم الأرضَ بزُبَر ويتزل من السماء بخبَر . قالوا : لكن التذاذُ السامع بما زاد على ذلك أكثرُ، لتشوّقه الى ما يَرِد متزايدا على سمعه .

فأما الفقَر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانيـة أزيَدَ من الأولى ولكن لا بقدر كثير لئلا يبعد على السامع وجودُ القافيـة فيقلّ الالتذاذُ بسماعها ، فإن زادت القرائن على اثنين فلا يضرّ تساوى القرينتين الأُولَيَيْن وزيادةُ الثالثـة عليهما وإن زادت الثانيـة عن الأولى يسيرا ، [والثالثةُ على الثانيـة] فلا بأسَ، لكن لا يكون أكثرَ من المثل، ولا بدّ من الزيادة فى آخر القرائن، مثاله فى القرينتين : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ ومثاله فى الثالثة قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ وأقصرُ الطّوال ما كان من إحدى عشرةَ لفظـةً وأكثرُها غيرُ مضبوط، مثاله من إحدى عشرةَ لفظةً : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ والتى بعدَها من ثلاث عشرةَ كلمةً ، ومثاله من عشرين لفظةً قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

---

(١) الكميت من الخيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ولونه الكمتة ، وهى سواد تشوبه حمرة تكون فى الإبل والخيل . والنهد من الخيل : الحسن الجسم المشرف .

(٢) التكملة عن حسن التوسل .

(٣) فى الأصل : «فى» وما أثبتناه عن حسن التوسل .

(٤) فى الأصل : «وأتى» وهو تحريف .

وأما ردّ العَجُز على الصدْر — فهو كل كلام منثور أو منظوم يلاقى آخرُه أوّلَه بوجه من الوجوه، كقوله تعالى : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ وقولهم: "القتل أنفى للقتل" و"الحيلة تركُ الحيلة" وقولهم : طَلَبَ مُلكَهم فسَلب ما طَلب، ونَهب مالَهم فوَهب ما نَهب .

وهو فى النَّظم على أربعة أنواع :

الأوّل : أن يَقَعا طَرَفين، إما متفقين صورة ومعنى، كقوله :

سريع إلى ابن العم يشتِم عِرضه * وليس إلى داعى الندى بسريع

وقوله :

سُكْران سُكرُ هوًى وسُكرُ مُدامة * أنّى يُفيق فتًى به سُكران؛

أو متفقين صورةً لا معنًى، وهو أحسن من الأوّل، كقول السَّرِىّ :

يَسارٌ من سجيّتها المنايا * ويُمْنى من عطيّتها اليسار

وقولِ الآخَرِ :

ذَوائبُ سُودٌ كالعناقيد أُرسلت * فمن أجلها منّا النفوسُ ذَوائبُ؛

أو معنًى لا صورة[1]، كقول عمرَ بنِ أبى ربيعةَ :

واستَبَدّت مرّة واحدة * إنما العاجز من لا يَستَبِد

وقولِ السَّرِىّ :

ضرائبُ أَبْدَعْتَها فى السَّماح * فلسنا نرى لك فيها ضريبا

(١) فى الأصل : «لا صورة له» وقوله : «له» زيادة من الناسخ .

وقولِ الآخَر :

ثلْبُك أهلَ الفضل قد دلَّنى * أنك منقوص ومثـــلوب

أو لا صورةً ولا معنًى ولكن بينهما مشابَهة اشتقاق، كقول الحِريرى :

ولاحَ يَلَحَى على جَرْى العِنان الى * مَلَهًـا فسُحقا له من لائح لاحِى

الثانى : أن يقعا فى حَشو المِصراع الأوّل وعَجُز الثانى، إما متفقين صورةً ومعنًى كقول أبى تمّـام :

ولم يَحفظ مُضاعَ المجد شىءٌ * من الأشياء كالمـال المُضَاع

وقولِ آخَرَ :

أمّا القبـور فإنهن أوانس * بجِوار قبرك والديارُ قبور

أو صورةً لا معنًى، كقول الثعالبىّ :

وإذا البلابل أفصحت بلُغاتها * فأنِف البلابل باحتساءِ بلابِلِ

فالأوّل جمعُ بُلبُل ، والثانى جمعُ بَلبَلة وهى الهمّ [والثالث[1] جمعُ بُلبُـلَة الإبريق]

وقولِ الزمخشرىّ :

وأخّرنى دَهرى وقدّم معشرا * لأنهـــمُ[2] لا يعلمون وأعلم

فمذ أفلح الجُهّال أعلم أننى[3] * أنا الميم والأيام أفلحُ[4] أعـلمُ

(١) التكملة عن حسن التوسل ، وتمام الكلام يقتضى إثباتها . والذى فى كتب اللغة : ان البلبلة بضم الباءين وسكون اللام بينهما : كوز فيه بلبل الى جنب رأسه .

(٢) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل ص ٥٣ ط الوهابية : «على أنهم» ؛ وكلتا الروايتين تؤدى معنى صحيحا .

(٣) فى حسن التوسل : «أيقنت» ؛ ولا شاهد فيه على هذه الرواية .

(٤) الأفلح : المشقوق الشفة السفلى . والأعلم : المشقوق الشفة العليا ، يريد تشبيه الأيام فى جهل قدره بالأفلح الأعلم الذى لا يستطيع النطق بالميم .

أو معنًى لا صورةً، كقول امرئ القيس :

إذا المرء لم يَخزُن عليه لسانَه * فليس على شيء سواه بخزّان

وقولِ أبي تمّام :

دِمَن أَلمّ بها فقال سلام * كم حَلّ عُقدةَ صبره الإلمام

وقولِ أبي فِراس :

وما إن شبتُ من كِبَرٍ ولكن * لقيتُ من الأحبّة ما أشابا؛

أو في الاشتقاق فقط، كقول أبي فِراس :

مَنحناها الحَرائبَ[1] غيرَ أنّا * إذا جُرنا مَنحناها الحِرابا؛

الثالث : أن يقعا في آخر المِصراع الأوّل وعَجُزِ الثاني، إما متّفقَين صورةً ومعنًى كقول أبي تمّام :

ومن كان بالبِيض الكواعب مغرما * فما زِلتَ بالبِيض القواضب مُغرما؛

أو صورةً لا معنًى، كقول الحِريريّ :

فمشغوف بآيات المثاني * ومفتون برنّات المثاني؛

أو معنًى لا صورةً، كقول البحتريّ :

ففعلُك إن سُئلتَ لنا مطيع * وقولُك إن سألتَ لنا مطاع؛

الرابع : أن[2] يقعا في أوّل المِصراع الثاني والعَجُز، إما متّفقَين صورةً ومعنًى كقول الحَماسيّ :

---

(١) واحده حريبة، وهو المال الذي يعاش به، أو هو المال المسلوب، يريد : رددنا عليها ما سلبته فرساننا من أموالها فيما سلف .

(٢) في الأصل : «يتفقا»؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل، وهو أنسب ليوافق ما قبله .

فإلّا يكُن إلا مُعلَّلُ ساعةٍ * قليـلا فإنى نافعٌ لى قليلُها (١)

أو صورةً لامعنًى، كقول أبى دؤاد :

عهِدتُ لها مَنزِلا دائرا * وآلًا على المـاء يَحملن آلا (٢)

فالأول الأتباع (٣)، والثانى أعمدة الخِيام، وكقول آخرَ :

رماك زمان السُّوء من حيث لاتَرى * فرامَى ولم يَظفَر بمـا هو راما ٥

أو معنًى لا صورةً، كقول أبى تمّام :

ثَوَى فى الثرى من كان يحيا به الثرى * ويغمُر (٤) صَرفَ الدهر نائلُه الغَمْر

وقد كانت البِيضُ البَواتِرُ فى الوغى * بَواتِرَ فهى الآن من بَعـده بُتْر

قال : ومن نوادر هذا الباب بيتا الحِرِيرىّ اللذان سمّاهما المطرَّفين، وهما : (٤٣)

سِمْ سِمَةً تحسُن آثارُها * وآشكر لمن أعطى ولو سِمسِمه ١٠

والمَكرُمهما آستطعتَ لا تأتِه * لتبتغى السُّودَد والمَكرُمَه.

قال : فإن لم يقع فى العَجُز فليس من هذا الباب، كقوله :

ونُبئتُهم يَستنصِرون بكاهل * ولَلُّؤمُ فيهـم كاهلٌ وسَنام

---

(١) فى ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٣٥ ط التوفيق : « معرّج » بفتح الراء المهملة مع التشـديد والمعنى يستقيم عل كلتا الروايتين . ١٥

(٢) فى اللسان مادة أول : « عرفت » وكلاهما يستقيم به المعنى . ودائر كدارص وزنا ومعنى، والأخيرة رواية اللسان . (٣) فسر فى اللسان آلآل الأول بأنه عيدان الخيمه، والثانى بأنه الشخص .

(٤) كذا فى الأصل وديوان أبى تمـام ص ٣٣١ ط الأدبية بيروت . والذى فى حسن التوسل :

* ويأمن صرف الدهر جاهله الغمر * ومؤدى الروايتين مختلف . والغمر بفتح الغين على رواية الأصل والديوان : الكثير . وبالضم على رواية حسن التوسل : من لا خير فيه ولا غناء عنده فى عقل ولا رأى ولا عمل . ٢٠

وكقول الأَفْوَه الأَوْدىّ :

وأَقطَع الهَوْجل مستأنِسا * بِهَوْجل عَيْرانةٍ عَنتريس (١)

فالهَوْجَل الأوّل : الفَلاة، والثانى : الناقة السريعة .

وأما الإعنات — ويقال له التضييقُ والتشديدُ ولزومُ مالا يلزم — فهو أن يُعْنِت نفسه فى ٱلتزام رِدْفٍ أو دَخيل أوحرف مخصوص قَبْلَ حرف الروىّ، أو حركةٍ مخصوصة ، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، وقولِ النبى صلى الله عليه وسلم : «اللهم بك أُحاول، وبك أُصاوِل» وقولِه عليه الصلاة والسلام « شرّ ما فى المرء شُحٌّ هالع، أو جُبْنٌ خالع (٢) » وقولِه عليه الصلاة والسلام : « زُرْ غِبّا تزدد حُبّا » وقولِ عمرَ رضى الله عنه : لا يكن حبُّك كَلَفا، ولا بُغضُك تَلَفا ؛ وقولِ المَعرّى :

ضحكنا وكان الضِّحك منا سفاهةً * وحَقّ لسُكّان البسيطة أن يَبْكوا

يُحطِّمنا صَرف الزمان كأننا * زُجاج ولكن لا يعادُ لَهُ السَّبك

وقولِ آخرَ :

يقولون فى البستان للعَين لذّة * وفى الخمر والماء الذى غيرُ آسن

إذا شئتَ أن تلقَى المحاسن كلَّها * ففى وجه من تهوَى جميعُ المحاسن

وقد ٱلتزم ٱبن الرومىّ الفتحَ قَبْلَ حرف الروىّ — وكان أَولعَ الناس بذلك — فقال :

لِمَا تؤذِن الدنيا به من صُروفها * يكون بُكاءُ الطفل ساعةَ يولد

(١) العيرانة من النياق : الناجية فى نشاط . والعنتريس : الغليظة الوثيقة .

(٢) قال فى النهاية مادة خلع فى تفسير هذه الكلمة : أى شديد، كأنه يخلع فؤاده من شدّة خوفه .

وإلا فما يُبكيه فيها وإنّها (١) * لأَوْسَعُ ممّا كان فيه وأَرغد
إذا أبصر الدنيا آستهلّ كأنه * بما سيلاقِى من أذاها يُهَدَّد

وأمثالُ ذلك فى الشعر كثيرة .

وأما المذهب الكلامىّ — فهو إيراد حُجّةٍ للطلوب على طريقة أهل الكلام نحو قوله عز وجل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ومنه قولُ النابغةِ يعتذر إلى النُّعمان :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وليس وراءَ الله للمرء مَذهَب
لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّى جناية * لَمبلغُك الواشى أغَشّ وأكذَب
ولكنّنى كنت امرءا لىَ جانب * من الأرض فيه مُستَراد ومذهب
ملوك وإخوان اذا ما مدحتُهم * أحكّم فى أموالهم وأقرّب
كفعلك فى قوم أراك آصطنعتَهم * فلم تَرَهُمْ فى مدحهم لك أذنبوا

يقول : أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك، وأنا أَحسن إلىّ قوم فمدحتُهم، فكما أنّ مدح من أحسنتَ إليه لا يُعَدّ ذنبا فكذا مدحى لمن أَحسن إلىّ لا يُعَدّ ذنبا .

قال آبن أبى الإصبعَ، ومن شواهد هذا الباب قولُ الفرزدق :

لكلّ آمرئ نفسان نفسٌ كريمةٌ * ونفس يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسُك من نفسَيْك تَشفَع للنّدى * إذا قلّ من أحرارهنّ شفيعها

يقول : لكلّ إنسان نفْسان : نفس مطمئنّة تأمره بالخير، ونفس أمّارة تأمره بالشرّ، والإنسان يعاصى الأمّارة مرّة ويطيعها أخرى، وأنت إذا أمرتْك الأمّارة

(١) فى رواية : « منها » .

بترك النّدى شفَعت المطمئنّة إليها فى النّدى فى الحالة التى يَقلّ فيها الشفيع فى النّدى (٤٤)
من النفوس، فأنت أكرم الناس .

وأما حسن التعليل — فهو أن يُدَّعَى لوصفٍ عِلّةٌ مناسِبةٌ له بآعتبارٍ لطيف وهو أربعة أضرب : لأنّ الصفة إمّا ثابتةٌ قُصِد بيانُ عِلّتها، أو غيرُ ثابتةٍ أريد إثباتُها

٥ فالأُولى إمّا لا يَظهر لها فى العادة علّة، كقوله :

لم يَحْـكِ نائلَك السحابُ وإنّما * حُمّتْ به فصبِيبُهـا الرُّحَضَـاءُ[1]

أو يَظهَر لها علّة، كقوله :

ما به قَتْـلُ أعاديه ولكن * يَتّقى إخلافَ ما ترجو الذئاب[2]

فإنّ قتلَ الأعداء فى العادة لدفع مضرّتهم لا لما ذكره .

١٠ والثانية إما مُمكنةٌ[3]، كقوله :

يا واشـيا حسُنت فينا إساءتُه * نَجّى حِذارُكَ[4] إنسانى من الغـرق

فإن آستحسان إساءةِ الواشى ممكن، لكن لمّا خالف الناس فيه عقّبه بما ذكر.

أو غيرُ مُمكِنة، كقوله :

لو لم تكن نيّـةُ الجوزاء خدمتَه * لما أتت وعليها عَقـد منتطِق[5].

---

١٥ (١) البيت لأبى الطيب المتنبّى ؛ والرحضاء بضم الراء وفتح الحاء المهملة : العرق أثر الحمى .

(٢) البيت لأبى الطيب المتنبّى كسابقه ؛ انظر معاهد التنصيص ص ٣٥٨ ط بولاق .

(٣) فى الأصل : «بركنة» ؛ وهو تحريف، ولا معنى له .

(٤) فى الأصل : «جدواك» وهو تحريف ؛ والتصويب عن معاهد التنصيص ص ٣٥٩، والبيت لمسلم بن الوليد .

٢٠ (٥) فى معاهد التنصيص ص ٣٦٧ ط بولاق أن هذا البيت مترجم من الفارسية ولم يسم قائله .

قال : وأُلحِقَ به ما بُنِىَ على الشكّ، كقول أبى تمّام :

رُبَّا شَفعت ريح الصَّبا لرياضها * إلى المُزْن حتى جادها وهو هامع
كأنّ السحابَ الغُرَّ غَيَّبن تحتها * حبيبا فما تَرقا لهنّ مدامع

وقد أحسن ٱبن رشيق فى قوله :

سألتُ الأرض لِمْ كانت مصلًّى * ولِمْ كانت لنا طُهرا وطِيبا
فقالت غيرَ ناطقةٍ لأنّى * حوَيتُ لكلّ إنسان حبيبا.

وأما الٱلتفات — فقد فسّره قدامة بأن قال : هو أن يكون المتكلّم[1] آخذا فى معنى فيعترضه إما شكٌّ فيه وإما ظنٌّ أنّ رادّا يردّه عليه، أو سائلا له عن سببه فيَلتفت إليه بعد فراغه منه، فإما أن يُجَلِّىَ الشكّ، أو يؤكّده، أو يَذكرَ سببه، كقول الرمّاح بن مَيّادة :

فلا صَرمُه يبدو ففى اليأس راحة * ولا وصلُه يصفو لنا فنكارمُه

كأنه توهّم أن فلانا يقول : ما تصنع بصَرمه ؟ فقال : لأن فى اليأس راحة . وأما ٱبن المعتزّ فقال : الٱلتفات ٱنصراف المتكلّم عن الإخبار إلى المخاطَبة ، ومثاله فى القرآن العزيز الإخبار بأنّ الحمدَ لله رب العالمين، [ثم قال][2] : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومثاله فى الشعر قول جرير :

متى كان الخيامُ بذى طُلوح[3] * سُقيتِ الغيث أيّتها الخيام ؛

(١) عبارة قدامة : « أن يكون الشاعر » ، كما فى كتابه نقد الشعر ص ٥٣ ط الجوائب ؛ وما هنا أعم .

(٢) التكملة عن حسن التوسل ص ٥٦ ط الوهابية .

(٣) ذو طلوح : موضع فى حزن بنى يربوع بين الكوفة وفيد .

أو انصراف المتكلّم عن المخاطبة [الى الإخبار](١)، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ومثال ذلك فى الشعر قول عنترة:

ولقد نزلتِ فلا تظنّى غيرَه * منّى بمنزلة المُحَبّ المكرَم

ثم قال مخبرا عنها:

٥ كيف المَزار وقد تربّع أهلها * بعُنَيزتين(٢) وأهلنا بالغَيلم؛

أو انصراف المتكلّم من الإخبار إلى التكلّم، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾؛

أو انصراف المتكلّم من التكلّم إلى الإخبار، كقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُذْهِبْكُمْ وَنَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾(٣) وقد جمع امرؤ القيس الالتفاتات

١٠ الثلاثة فى ثلاثة أبيات متواليات، وهى قوله:

تطاول ليلُكَ بالإثمِد(٤) * ونام الخلىّ ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة * كليلة ذى العائر(٥) الأرمد

وذلك من نبإ جاءنى * وخُبِّرتُه عن أبى الأسوَد

---

(١) الزيادة عن حسن التوسل. وصحة العبارة تقتضى إثباتها.

١٥ (٢) عنيزتين تثنية عنيزة، وهو بمعناه: موضع بين البصرة ومكة، أوهو من أودية اليمامة؛ والغيلم: موضع ذكره ياقوت ولم يعينه.

(٣) كذا وردت هذه الآية بالنون فى الكلمات الثلاث فى خزانة الأدب للحموى ص ٧٤ ط بولاق وعليه يستقيم التمثيل، وقال الحموى بعد إيراد الآية: «والقراءة فى الكلمات الثلاث بالنون شاذة نقلها صاحب البحر الزاخر». والذى فى الأصل وحسن التوسل وشرح الباعونية: «إن يشأ يذهبكم ويأت» بالياء المثناة فى الكلمات الثلاث؛ والتمثيل بها على هذه القراءة غير مستقيم.

٢٠ (٤) الإثمد: موضع ذكره ياقوت فى معجمه ولم يعينه.

(٥) العائر: كل ما أعل العين، أو هو بثر فى الجفن الأسفل منها.

(٤٥) يخاطِب فى البيت الأوّل ، وٱنصرف إلى الإخبار فى البيت الثـانى ، وٱنصرف عن الإخبار الى التكلّم فى البيت الثالث على الترتيب .

وأما التمّام — وهو الذى سماه الحاتمىّ التتميم ، وسمـاه ٱبن المعتزّ ٱعتراض كلام فى كلام لم يتم معناه، ثم يعود المتكلّم فيتمّمه،وشرَحَ حدَّه بأنه الكلمة التى إذا طُرحت من الكلام نقَص حُسنُ معناه ومبالغتُه ، مع أن لفظه يوهم بأنه تامّ ؛ وهو على ضربين : ضرب فى المعانى وضرب فى الألفاظ ، فالذى فى المعانى هو تتميم المعنى والذى فى الألفاظ هو تتميم الأوزان، والأوّل هو الذى قُدّم حدُّه، ومثاله قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فقوله تعالى: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [تتميم، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (١)] تتميم ثان فى غاية البلاغة،ومن هذا القسم قول النبى صلى الله عليه وسلم: « ما من عبد مسلم يصلى لله كل يوم ٱثنتى عشرة ركعة من غير الفريضة إلا ٱبتنى الله له بيتا فى الجنة » فوقع التتميم فى هذا الحديث فى ثلاثة مواضعَ: قوله عليه السلام : مسلم، ولله، ومن غير الفريضة،ومن أناشيد قدامة على هذا القسم قولُ الشاعر (٢) :

أناس إذا لم يُقبَـــل الحقّ منهـــمُ * ويعطَوْه عادوا (٣) بالسيوف القواضب.

وأما الذى فى الألفاظ فهو الذى يُؤتى به لإقامة الوزن بحيث لو طُرحت الكلمة ٱستقلّ معنى البيت بدونها ؛ وهو على ضربين : أحدهما مجىء الكلمة لا تفيد غير إقامة

(١) التكملة عن حسن التوسل . واستقامة الكلام تقتضيها .

(٢) هو نافع بن خليفة الغنوى ؛ انظر نقد الشعر لقدامة ص ٤٩ ط الجوائب .

(٣) كذا فى الأصل وحسن التوسل بالدال المهملة . وفى نقد الشعر لقدامة : « عاذوا » بالذال المعجمة ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

الوزن فقط، والثانى : مجيئها تفيد مع إقامة الوزن نوعا من الحسن، فالأوّل من العيوب والثانى من المحاسن؛ قال : والكلام هنا فى الثانى، ومثاله قول المتنبىّ :

وخُفوق قلبٍ لو رأيتِ لهيبه * يا جَنّتى لظننتِ فيه جهنّما

فإنه جاء بقوله يا جنتى لإقامة الوزن، وقصَدَ بها دون غيرها مما يسدّ مسدّها أن يكون بينها وبين قافية البيت مطابقةٌ لا تحصل بغيرها .

وأما الاستطراد — وهذه التسمية ذكر الحاتمىّ فى حلية المحاضرة أنه نقلها عن البحترىّ، وقيل : أن البحترىّ نقلها عن أبى تمّام، وسماه ابن المعتز : الخروج من معنى إلى معنى، وفسّره بأن قال : هو أن يكون المتكلّم فى معنى فيخرج منه بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبار أو غير ذلك إلى معنى آخَر يتضمّن مدحا أو قدحا أو وصفا ما، وغالب وقوعه فى الهجاء، ولا بد من [ذكر](١) المستطرَد به باسمه بشرط أن لا يكون تقدّم له ذكر .

فمن أوّل(٢) ما ورد فى ذلك من النظم قولُ السمَوءل بن عادياء :

وإنّا لَقوم ما نرى القتل سُبّةً * إذا ما رأته عامر وسَلول

ومنه قول حسّان :

إن كنتِ كاذبة الذى حدّثتِنى * فنجوتِ مَنجا الحارث بن هشام

تركَ الأحبّة لم يقاتل دونهم * ونجا برأس طِمِرّة(٣) ولجام

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن حسن التوسل إذ لا يستقيم الكلام بدونها .

(٢) فى الأصل : «فن أوّلها» والسياق يقتضى حذف الهاء .

(٣) الطمرّة من الأفراس : المستعدّة للعدو . وقد أشار حسان فى هذين البيتين الى فرار الحارث ابن هشام بن المغيرة يوم بدر : انظر سيرة ابن هشام وغيرها من كتب السيرة .

وقولُ أبى تمّـام فى وصف حافر الفرس بالصلابة (١) :

أيقنتَ (٢) إن لم تثبّت أنّ حافره * من صخر تَدْمُرَ أو من وجه عثمانِ

ومن أحسن ما قيـل فى ذلك قولُ ابنِ الزَّمَكْدَمِ أربعةَ استطرادات متواليـة :

وليـلٍ كوجه البَرْقَعِيدىّ (٣) ظُلمةً * وبَرْدِ أغانيـه وطولِ قـرونه

سَرَيت ونومى فيه نومٌ مشرَّدٌ * كعقل سليمانَ بن فَهْد (٤) وِدِينه

على أُولَق (٥) فيـــه التفاتٌ (٦) كأنه * أبو صالح (٧) فى خبطـه وجنونه

إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه * سنا وجهِ قِرْواش (٨) وضوءُ جبينه

وقولُ البحترىّ فى الفَرَس أيضا :

ما إن يَعَاف قذًى ولو أوردته * يوما خلائقَ حَمدَوَيهِ الأحول

ومما جمع المدح والهجاء قول بَكر بن النَّطّاح :

فتًى شَقِيَتْ أموالُه بنواله * كما شَقِيَتْ بكر بأرماح تَغلِب

(١) فى الأصل : «جاء فى الفرس» وما أثبتناه عن حسن التوسل وهو أنسب بقوله بعد : «بالصلابة» .

(٢) فى الأصـل : « انقيت » بالفاء الموحدة بعدها ياء مثناة ، وهو تصحيف . وتدمر : مدينة قديمة فى برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام ياقوت . ويريد بعثمان المذكور فى البيت : عثمان بن إدريس الشامى ؛ انظر ديوان أبى تمام ص ٢٠١ ط الوهبية .

(٣) البرقعيدى : نسبة الى برقعيد ، وهى بليدة فى طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين .

(٤) فى الأصـل : « وهب » وهو تحريف ؛ والتصويب عن معجم ياقوت ج ١ ص ٥٧٢ ط المحروسة بمدينة غتنغه والوافى بالوفيات للصفدى .

(٥) فى الأصل : «أوقل» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى المعجم ، والأولق : الجنون ، يريد : على فرس ذى أولق .

(٦) كذا فى الأصل . ولعله يريد وصف الفرس بأنه يلتفت فى سيره يمنة ويسرة فلا يستقيم فى وجهـة واحدة ، بل يخبط فى سيره كما يدل عليـه عجز البيت . وفى معجم البلدان : «الحباب» ؛ والحباب بكسر الحاء : النشاط والسرعة .

(٧) فى معجم ياقوت : « أبو جابر » .

(٨) هو قرواش بن حقلد أمير بنى عقيل .

ومما جاء به[1] على وجه المجون قولُ بعضهم :

اِكشفى وجهك الذى أوحلتنى * فيه من قبل كشفه عيناك

غلطى فى هواك يشبه عندى * غلطى فى أبى علىّ بن زاكى

ومما جاء فى النسيب[2] على وجه التشبيه قولُ امرئ القيس :

عُوجا على الطلل المُحِيل لعلّنا[3] * نبكى الديار كما بكى ابن حمام[3] .

وأما تأكيد المدح بما يشبه الذمّ — فهو ضربان : أفضلهما أن يستثنى من صفة ذمّ[4] منفيّة عن الشىء صفةَ مدح[4] بتقدير دخولها فيها، نحو قوله تعالى : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ فالتأكيد فيه من جهة أنه كدعوى الشىء بيّنة ، وأن الأصل فى الاستثناء الاتصال، فذكرُ أداته قبل ذكرِ ما بعدها يوهم إخراجَ الشىء ممّا قبلها، فإذا وليَها صفةُ مدح جاء التأكيد .

والثانى : أن يُثبت لشىء صفة مدح ويعقِّبَ بأداة استثناء تليها صفةُ مدح أخرى له، كقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب بَيْدَ أنّى من قريش » وأصل الاستثناء فى هذا الضرب أيضا أن يكون منقطعا، لكنه باق على حاله لم يقدَّر

---

(١) به، أى بالاستطراد . وعبارة حسن التوسل : « ومما جاء على وجه » الخ .

(٢) فى الأصل : «التشبيه» ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا فى الأصل وحسن التوسل ، والذى فى شرح ديوان امرئ القيس للوزير أبى بكر عاصم ابن أيوب ص ١٤٤ ط الخيرية : « لأننا » بهمز بعده نون، وهى لغة فى « لعلنا » حكى الخليل : أن بعض العرب يقول : إيت السوق أنك تشترى لنا سويقا، أى لعلك . وابن حمام : شاعر يقال له : امرؤ القيس أيضا كما فى الشرح ؛ ولم نقف على ضبطه ؛ ورواية الديوان « ابن حذام » بالذال المعجمة، ولم يسمه شارحه الوزير أبو بكر المتقدّم ؛ وروى أبو عبيدة : « ابن حزام » بالحاء المهملة والزاى المعجمة ؛ وليس هو عروة بن حزام العذرى كما يتوهم .

(٤) فى الأصل : « أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشىء صفة ذم » والصواب العكس كما يقتضيه التمثيل .

متصلا فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثـانى من الوجهين المذكورين، ولهذا كان الأوّل أفضل .

ومن أمثلة الأوّل قولُ النابغة الذُّبيانى :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم * بهنّ فُلول من قِراع الكتائب

ومن أحسن ما قيل فى ذلك قولُ حاتم الطائىّ : ٥

ولا تشتكينى جارتى غيرَ أننى * إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

ومن الثانى قولُ النابغةِ الجَعْدىّ :

فـتًى كَمُلت أخلاقه غـيرَ أنه * جواد فما يُبقِى من المـال باقيا

ومن أحسن ما ورد فى هذا الباب قولُ بعضهم[(١)] :

ولا عيب فينا غير أنّ سمـاحَنا * أضرّ بنا والبأسُ[(٢)] من كلّ جانب ١٠

فأفـنى الردى أعمـارنا غيرَ ظالم * وأفنى الندى أموالَنا غيرَ عاتب .

وأما تأكيد الذمّ بمـا يشبه المدح — فهو ضربان :

أحدهما أن يُستثنَى من صفة مدح منفيّةٍ عن الشىء صفةَ ذمّ بتقدير دخولها فيها كقولك : فلان لاخير فيه إلّا أنه يسىء[(٣)] إلى من أحسن اليه .

والثانى : أن تُثبت للشىء صفة ذمّ وتعقّب بأداة آستثناء تليه صفة ذمّ له أخرى ١٥ كقولك : فلان فاسق إلّا أنه جاهل، وتحقيق القول فيها على قياس ماتقدّم .

---

(١) هو أبو هفان . انظر معاهد التنصيص ص ٣٨٩ ط بولاق .

(٢) فى الأصـل وحسن التوسل ص ٥٨ ط الوهابيـة : « والناس » بالنون، وهو تحريف ؛ والتصويب عن معاهد التنصيص . وصدر البيت الثانى يدل عليه أيضا .

(٣) فى الأصل : « لا يسىء » ؛ وصحة التمثيل تقتضى حذف اللام . ٢٠

وأما تجاهل العارف — فهو سؤال المتكلّم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه ليُخرج كلامه مُخْرَج المدح أو الذمّ، أو ليدُلّ على شدّة التدلّه فى الحبّ ، أو لقصد التعجّب أو التوبيخ أو التقرير؛ وقال السكاكىّ : هو سَوق المعلوم مَساقَ غيره لنكتة[1] كالتوبيخ، كما فى قول الخارجيّة وهى ليلى بنت طَرِيف :

٥ أيا شجر الخابور[2] مالك مُورقا * كأنك لم تجزَع على ابن طَريف

والمبالغة فى المدح، كقول البحترىّ :

ألمعُ برق سرى أم ضوءُ مصباح * أم ابتسامتُها بالمَنظَر الضاحى

أو الذمّ، كما قال زُهير :

وما أدرِى ولست إخال أدرِى[3] * أقومٌ آلُ حِصن أم نساء (٤٧)

١٠ أو التدلّه فى الحبّ، كقوله :

بالله ياظَبياتِ القاع قلن لنا * ليلاى منكنّ أم ليلَى من البشر[4]

وقولِ البحترىّ :

بدا فراع فؤادى حسنُ صُورتِه * فقلت هل ملِكٌ ذا الشخصُ أم ملَك.

---

(١) فى الأصل : «لكنه» ؛ وهو تحريف .

١٥ (٢) الخابور : نهر كبير، بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة و بلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت اليه ، وأصل هذا النهر من العيون التى برأس عين ، و ينضاف اليه فاضل الهرماس ومدّ وهو نهر نصيبين فيصير نهرا كبيرا انظر معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٣ ط جوتنجن .

(٣) فى معاهد التنصيص ص ٤١٧ ط بولاق : «وسوف» والبيت يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) نسب هذا البيت الى ذى الرمة والمجنون والعرجى ، وأكثرهم على أنه للأخير ؛ انظر معاهد ٢٠ التنصيص الصفحة المتقدّمة الذكر .

وأما الهزل الذى يراد به الجِدّ — فهو أن يقصد المتكلّم ذمّ إنسان أو مدحَه فيُخرجَ ذلك مُخرَج المجون، كقول الشاعر[(١)] :

إذا ما تميمىٌّ أتاك مُفاخرا * فقُل عَدِّ عن ذا كيف أكلُك للضبّ.

وأما الكنايات — فهى أن يُعبِّر المتكلّم عن المعنى القبيح باللفظ الحسَن وعن الفاحش بالطاهر، وقد تَقدّم الكلام على ذلك فى باب الكناية والتعريض ٥ وهو الباب الرابع من القسم الثانى من هذا الفنّ، وهو فى السِّفر الثالث من كتابنا هذا.

وأما المبالغة — وتسمّى التبليغَ والإفراطَ فى الصفة — فقد حدّها قُدامةُ بأن قال : هى أن يذكر المتكلّم حالا من الأحوال لو وَقف عندها لأجزأت فلا يقف حتى يزيد فى معنى ما ذَكره ما يكون أبلغَ فى معنى قصْدِه، كقول عُمَير[(٢)] بن كريم التغلبىّ :

ونُكرِم جارنا ما دام فينا * ونُتبِعه الكرامة حيث مالا ١٠

ومن أمثلة المبالَغة المقبولة قولُ امرئ القيس يصف فَرَسًا :

فعادَى عِداءً[(٣)] بين ثور ونعجة * دِراكا ولم يُنضَح بماء فيُغسَلِ

يقول : إنه أدرك ثورا وبقرة فى مِضْمار واحد ولم يَعرَق .

وقولُ المتنبى :

وأَصرَع أىَّ الوحش قَفَّيتُه به * وأَنزِل عنه مِثلَه حين أركَب ١٥

(١) هو أبو نواس، والبيت من قصيدة يهجو بها تميما وأسدا و يفتخر بقحطان؛ انظر معاهد التنصيص ص ٤١٣ ط بولاق .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى الأصل وحسن التوسل ص ٥٩ وخزانة الأدب للحموى ص ٢٧٩ ط بولاق . والذى فى معاهد التنصيص ص ٣٤٤ ط بولاق عمرو بن الأهتم . قال : ولم أقف على ترجمة ابن الأهتم التغلبى قائل البيت . وفى الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٢٨٨ ط الأستانة : عميرة ابن الأهتم، ولم نقف فيما بين أيدينا من المراجع على ما يرجح إحدى هذه الروايات الثلاث . ٢٠

(٣) العداء : الطلق الواحد بكسر الطاء وسكون اللام، وهو الشوط .

ولا يعاب فى المبالَغة إلا ما خرج عن حدّ الإمكان، كقوله :

وأخَفْتَ أهلَ الشرك حتى إنه * لَتخافك النُّطَف التى لم تُخلَق[1]

وأما إذا كان كقول قيس بن الخطيم :

طعنتُ ٱبنَ عبد القيس طعنةَ ثائر * لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءها

٥ ملكتُ بها كَفِّى فأنهرتُ[2] فَتقَها * يُرَى قائما من دونها ماوراءها

فإنّ ذلك من جيّد المبالَغة إذ لم يكن قد خرج مَخرج الٱستحالة مع كونه قد بلغ النهاية فى وصف الطعنة، ومن أحسنِ ذلك وأبلغه قولُ أحد شعراء الحماسة :

رَهنتُ يدى بالعجز عن شكر بِرّه * وما بَعد[3] شكرى للشكور مَزيد

ولو كان مما يستطاع ٱستطعتُه * ولكنّ مالا يستطاع شديد.

١٠ وأما عتاب المرء نفسَه — فهو من أفراد ٱبن المعتزّ، ولم يُنشِد عليه سوى بيتين ذكر أن الآمدىّ[4] أنشدهما عن الجاحظ وهما :

عصانىَ قومى فى الرشاد الذى به * أَمرتُ ومن يعصِ المجرِّب يندم

فصبرا بنى بَكر على الموت إننى * أرى عارضا ينهلّ بالموت والدم

قال : ولا يصلح أن يكون شاهدا لهذا الباب إلا قولُ أحد شعراء الحماسة :

١٥ أقول لنفسى فى الخلاء ألومها * لكِ الويلُ ما هذا التجلّد والصبر

---

(١) البيت لأبى نواس من قصيدة يمدح بها الرشيد انظر معاهد التنصيص ص ٣٤٥ ط بولاق .

(٢) أنهرت : وسعت .

(٣) فى الحماسة : «وما فوق» ومعنى البيت يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) كذا فى الأصل وحسن التوسل . والذى فى تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المحفوظ منه

٢٠ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٥ بلاغة وخزانة الأدب للحموى ص ١٨٠ ط بولاق : « الأسدىّ » ولم نقف فيما بين أيدينا من المظان على ما يرجح إحدى الروايتين .

وقولُ الآخرِ :

فَقَـدتُكِ من نفس شَعاعٍ[1] فإننى * نَهيتُكِ عن هذا وأنتِ جميع

وما ناسب ذلك من الأمثلة .

وأما حُسن التضمين — فهو أن يضـمِّن المتكلّم كلامَه كلمـةً من آية أو حديث أو مَثلٍ سائر أو بيت شعر ؛

ومن إنشادات ابن المعتزّ عليه :

عَـوَّذَ لمـا بتّ ضيفا له * أقراصَـه منّى بياسينِ

فبِتُّ والأرض فراشى وقد * غَنّت قِفا نَبْكِ مَصـارينى

فضَمّن بيتَه الأوّلَ كلمةً من السورة بتوطئة حسَنة ، وبيتَه الثانىَ مَطلعَ قصيدة امرئ القيس .

ومما ضُمِّن معنى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم قولُ الآخرَ :

وأخٍ[2] مسّـه نزولى بقَـرْيٍ * مِثلَمـا مسّـنى من الجوع قَرْح

بتُّ ضـيفا له كما حـكم الدهـ * ـروفى حكمه على الحـر قبـح

قال لى مذ نزلتُ وهـو من السكـ * ـرة بالهـمّ طافح ليس يصـحو :

لِمْ تغرّبتَ؟ قلت : قال رسول اللـ * ـه والقولُ منـه نُصـحٌ ونُجْح :

« سافروا تغنموا » فقال : وقد قـ * ـال تمامَ الحديث : «صوموا تصِحّوا»

ومن تضمين الشعر قولُ بعضهم :

وقفنا بأنضاء حكَتنا[3] لَواغب * «على مِثلها من أربُعٍ ومَلاعب»

وهو مطلع قصيدة لأبى تمّام ،

(١) الشعاع من النفوس : ما تفرقت همومها . والجميع : المجتمعة . (٢) فى الأصل : «داح» وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل . (٣) فى الأصل : «حكينا» بالياء المثناة التحتية ، وفى حسن التوسل : «حنينا» بنون موحدة بعدها ياء مثناة ، وهو تحريف فى كليهما .

ومنه قولُ الغَزِّى :

طُولُ حياة ما لها طائل * نَغّص عندى كُلَّ ما يُشتهى
أصبحتُ مثلَ الطفل فى ضعفه * تَشابَه المبدأ والمنتهى
فلا تلم سمعى إذا خاننى * «إنّ الثمانين وبُلِّغتَها»

٥ المراد من التضمين هاهنا تمامُ البيت : * قد أحوجَتْ سمعى إلى تُرْجُمان *
وإنما تركه لأن أوّل البيت يدُلّ عليه لاشتهاره، وهذا قد أكثر المتأخرون من استعماله فى أشعارهم، وضمّنوا البيت الكامل بعد التوطئة له .

وأما التلميح — وهو من التضمين، وإنما بعضهم أفرده — فهو أن يشير فى فحوى الكلام إلى مَثَلٍ سائر، أو بيت مشهور، أو قضية معروفة من غير أن يذكُره،

١٠ كقول الشاعر :

المستغيثُ بعمرو عند كُربته * كالمستغيث من الرمضاء بالنار

أشار إلى قضيّة كُليب حين استغاث بعمرو بن الحارث ؛ ومنهم من يسمّى ذلك اقتباسا، وإيرادَ المثل كما هو تضمينا .

وأما إرسال المثَلِ — فهو كقول أبى فِراس :

١٥ تهُون علينا فى المعالى نفوسُنا * ومن يخطب العلياء لم يُغلِه المهر (١)

وكقول المتنبّى :

تُبكّى عليهنّ البطاريقُ فى الدجى * وهنّ لدينا مُلقَيات كواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلِها * مصائبُ قوم عند قوم فوائد.

(١) لم يغله المهر : أى أن مهرها لم يجعل من يخطبها غاليا عليها، يريد أن مهرها نفس خاطبها
٢٠ وفى حسن التوسل وغيره : «لم يغلها» بتأنيث الضمير ، والمعنى عليه أن المهر الذى يدفع لها لا يصيرها غالية عليه أيا كان نوعه وقيمته .

وأما إرسال مَثَلين — فهو الجمع بين مَثَلين، كقول لَبيد :

ألا كلُّ شيء ماخلاالله باطل * وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائـل

وابيات زهير بن أبى سُلمى التى فيها ومَن ومَن ، وقـد تقدّم ذكر ذلك مستوفًى فى باب الأمثال، وهو الباب الأوّل من القسم الثانى من هذا الفنّ، وهو فى السِّفر الثالث.

وأما الكلام الجامع — فهو أن يكون البيت كلُّه جاريا مَجرى مَثـل واحد ٥ كقول زهير :

ومن يك ذا فَضْلٍ ويَخْلُ بفضله * على قومه يُستغنَ عنـه ويُذمَم

ومن لا يصانِـع فى أمور كثيرة * يُضرَّس بأنيـاب ويُوطأ بمَنْسِمِ (١)

ومهما تكن عند امرئ من خَلِيقة * وإن خالها تَخفى على الناس تُعـلَم

وكقول أبى فراس : ١٠

إذا كان غيرُ الله فى عُدّة الفـتى * أتتـه الرزايا من وجوه الفوائد

وكقول المتنبيّ :

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفتُـه مِن الفهـم السـقيم

وقـولِه :

ومن نَكَد الدنيا على الحرّ أن يَرَى * عدوّا له ما من صداقته بـدّ ١٥

وقـولِه :

ومن البليّـة عَذلُ من لا يرعوِى * عن جهله وخطابُ من لا يَفهمُ

وقـولِ :

إنا لفى زمن تركُ القبيـح به * مِن أكثرِ الناس إحسانٌ وإجمال.

(١) المنسم : خف البعير. ٢٠

وأما اللّفّ والنشر — فهو أن يذكُر اثنين فصاعدا ثم يأتى[(١)] بتفسير ذلك جملة مع رعاية الترتيب ثقةً بأن السامع يردّ إلى كل واحد منها ما له، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛

ومن النظم قولُ الشاعر:

٥ ألستَ أنت الذى من وَرْد نعمته * ووِرْد راحتــه أَجنِي وأغترِف

وقد لا يراعَى فيه الترتيبُ ثقةً بأن السامع يردّ كل شىء إلى موضعه سواء تقدّم أو تأخر، كقول الشاعر:

كيف أسلو وأنتَ حِقْف[(٢)] وغصن * وغزال لحــظا وقَــدًّا ورِدفا.

وأما التفسير — وهو قريب منه — فهو أن يذكُر لفظا ويَتوهّم أنه يحتاج

١٠ إلى بيانه فيعيده مع التفسير، كقول أبى مُسْهِر:

غيثٌ وليثٌ [فغيث][(٣)] حين تسأله * عُرفا وليثٌ لدى الهيجاء ضِرغام

ومنه قول الشاعر:

يُحيِي ويُردِى بجَــدواه وصارمِه * يُحيِي العُفاةَ ويُردِى كلَّ من حَسدا

ومن ذلك أن يذكر معانىَ ويأتىَ بأحوالهـا من غير أن يزيد أو ينقُص

١٥ كقول الفرزدق:

لقد جئتَ قوما لو لجأتَ إليهمو * طريدَ دم أو حاملا ثقـل مَغْرَم

لألفيتَ فيهم معطيـا ومُطاعنا * وراءك شَزْرا بالوشِــيج[(٤)] المقوَّم

لكنه لم يراع شرط اللّفّ والنشر

(١) فى الأصل: «يرى تفسير» وفيه نقص وتحريف، والتصويب عن حسن التوسل.

٢٠ (٢) الحقف بالكسر: الرمل المعوجّ. (٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد نقلناها عن حسن التوسل إذ بها يستقيم الوزن والمعنى. (٤) أراد بالوشيج الرماح.

وقولِ آخر :

فوا حسرتا حتى متى القلبُ مُوجَعٌ * بفقد حبيب أو تعـذّرِ إفضال
فراقُ حبيب مِثلُه يورث الأسى * وخَـلّةَ حرّ لا يقـوم بهـا مالى (١)

ومنه قول ابن شَرَف :

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجدْ * مِلءَ المسامع والأفواه والمُقَـل

ومن احسن ما فى هذا الباب قول ابن الرومىّ :

آراؤكم ووجوهـكم وسـيوفكم * فى الحـادثات إذا دَجَون نجوم
منهـا مَعـالِمُ للهـدى ومصابح * تجـلو الدجى والأخرَياتُ رُجوم

وفسادُ ذلك أن يأتى بإزاء الشىء بما لا يكون مقابِلا له ، كقول الشاعر :

فيأيها الحـيران فى ظُـلَمِ الدجى * ومن خاف أن يلقاه بغىٌ من العدا
تعالَ إليـه تلَق من نور وجهه * ضياءً ومن كفّيْه بحرا من الندى

فأتى بالنـدى بإزاء بَغْى العدا ، وكان يجب أن يأتىَ بإزائه بالنصر أو العصمة أو الوَزَرِ وما جانسه ، أو يذكُرَ فى موضع البغى الفقْرَ والعُدْمَ وما جانس ذلك .

وأما التعديد — ويسمّى سـياقةَ الأعداد — فهو إيقاع أسماء مفردة على سـياق واحد ، فإن روعى فى ذلك ازدواج أو جناس أو تطبيـق أو نحو ذلك كان غايةً فى الحسْن ، كقولهم : وضع فى يده زمام الحَلّ والعَقْد ، والقبولِ والردّ ، والأمرِ والنهى ، والبَسْطِ والقبض ، والإبرامِ والنقض ، والإعطاءِ والمنع ؛ ومن النظم قول المتنبىّ :

الخيـلُ والليـلُ والبَيْداءُ تعرفنى * والضرب والطعن والقرطاس والقلم .

(١) فى الأصل : « يالى » بالياء المثناة ، وهو تحريف ؛ والخلّة : الحاجة .

وأما تنسيق الصفات — فهو أن يذكر الشيء بصفات متوالية، كقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بأحبّكم إلىّ وأقربكم منّى مجالسَ يوم القيامة؟ أحاسنُكم أخلاقا، الموطّئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون"؛

ومن النظم قولُ أبي طالب فى النبي صلى الله عليه وسلم:

وأبيضَ يُستسقَى الغمامُ بوجهه * ثِمال اليتامى عِصمةٌ للأرامل

وقولُ المتنبيّ:

دانٍ بعيدٌ محِبٌّ مبغضٌ بهِجٌ * أغرُّ حلوٌ مُرٌّ ليّنٌ شرِس.

وأما الإيهام — ويقال له التورية والتخييل — فهو أن يذكر ألفاظا لها معانٍ قريبة وبعيدة، فإذا سمعها الإنسان سبق إلى فهمه القريبُ، ومرادُ المتكلّم البعيدُ مثاله قول عمرَ بنِ أبي ربيعةَ:

أيها المنكح الثريّا سُهيلًا * عَمرَكَ اللهَ كيف يلتقيان

هى شاميّة إذا ما استقلّت * وسُهَيْلٌ إذا استقلّ يمانى

فذكر الثريا وسهيلا ليوهم السامعَ أنه يريد النجمين، ويقول: كيف يجتمعان والثريّا من منازل القمر الشاميّة، وسهيل من النجوم اليمانيّة؟ ومرادُه الثريّا التى كان يتغزّل بها لمّا زُوّجت بسهيل؛ ومن ذلك قولُ المعرّى:

إذا صدق الجَدّ افترى العمّ للفتى * مكارمَ لا تخفى وإن كذب الخال

فإنّ وهم السامع يذهب إلى الأقارب، ومراده بالجَدّ : الحظُّ، و بالعَمّ : الجماعةُ من الناس ، و بالخال : المَخيلةُ، ومن ذلك قولُ الحريرىّ فى [وصف الإبرة والمِيل فى] المقامة الثامنة :(١)

وقولُه أيضا :

يا قـــوم كم من عاتقٍ(٢) عانسٍ * ممدوحةِ الأوصاف فى الأنديه ٥

قتلتُهـا لا أتّـــقى وارثا * يَطلب منّى قَوَدا أو ديه

يريد بالعاتق العانس : الخمر، وبقتلها : مَزْجَها، كما قال حسّان :

إن التى عاطَيتَنِي فـــرددتُها * قُتلتْ قُتلتَ فهاتها لم تُقتَلِ

وأمثالُ ذلك كثيرة .

وعنـــد علماء البيان : التخييل تصوير حقيقة الشىء للتعظيم، كقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ والغرض منـــه تصوير عَظَمته والتوقيفُ(٣) على كُنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهةٍ حقيقةٍ أو مجاز، وكذلك قوله صـلّى الله عليـه وسلم : " إنمـا نحن حَفْنةٌ من حَفَنات ربّنـا " قال الزمخشرى : ولا يُرَى باب فى علم البيان أدقّ ولا ألطفَ من هذا الباب .

(١) هذه التكملة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن حسن التوسل لاقتضاء المقام إثباتها .

(٢) العاتق : الجارية التى أدركت و بلغت فى بيت أبيها فخدّرت فيه ولم تتزوّج ، سميت بذلك لأنها عتقت من الصبا ومن خدمة أبويها ولم يملكها زوج بعد، والجمع عواتق . والعانس التى كبرت فى بيت أبيها ولم تتزوج .

(٣) كذا فى حسن التوســل وغيره . والذى فى الأصــل : « والتوقف فى كنه » وما أثبتناه أظهر فى المراد وأدلّ على الغرض .

وأما حُسن الابتداءات — قال: هذه تسمية ابن المعتز، وأراد بها ابتداءات القصائد، وفزع المتأخرون من هذه التسمية براعةَ الاستهلال، وهو أن يأتيَ الناظم أو الناثر فى ابتداء كلامه ببيت أو قرينة تدلّ على مراده فى القصيدة أو الرسالة أو مُعظَم مراده؛ والكاتب أشدّ ضرورةً إلى ذلك من غيره ليَبتنيَ كلامه على نَسَق واحد دَلّ عليه من أوّل عِلْم بها مقصده[1]، إما فى خُطبة تقليد، أو دعاء كتاب، كما قيل لكاتب: اكتب إلى الأمير بأن بقرة ولدت حيوانا على شكل الإنسان، فكتب: أما بعد حمد الله خالق الإنسان فى بطون الأنعام

وكقول أبى الطيّب فى الصلح الذى وقع بين كافور وبين ابن مولاه:

حَسَم الصلحُ ما اشتهته الأعادى * وأذاعته ألسُنُ الحسّاد

وأمثال ذلك.

قال: وينبغى أن لا يَبتدئَ بشىء يُتطيَّر منه، كقول ذى الرّمة:

* ما بال عينك منها الماء ينسكب *

وقول البحترىّ:

* لكَ الويل من ليل تقاصَر آخِرُه *

وكقول المتنبىّ:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا * وحسبُ المنايا أن يكنّ أمانيا

وكقوله:

مُلِثّ[2] القَطْر أعطشْها رُبوعا * وإلّا فاسقها السّمّ النقيعا

(١) كذا فى الأصل. وهو غير ظاهر، والذى يلوح لنا أن فى هذه العبارة تقديما وتأخيرا وزيادة ها، والأصل فيها هكذا: «دل على مقصده من أول علم به» أخذا من عبارة حسن التوسل ص ٦٥ ط الوهابية، ونصها: «فيبنى كلامه على نسق يستدل منه على مقصده من أوّل وهلة».

(٢) الملث: من الالث، وهو دوام المطر.

قال : وينبغى أن يراعَى فى الأبتداءات ما يقرُب من المعنى إذا لم تتأتّ له براعةُ الأستهلال، وتسهيلَ اللفظ وعذوبتَه وسلاسةَ ألفاظِه، وقيل : إن أحسن ابتداء ابتدأت به العرب قولُ النابغة :

كِلينى لهمّ يا أُمَيمـــة ناصب * وليلٍ أقاسيه بطىء الكواكب

ومن أحسن ما ٱبتدأ به مولَّدٌ قول إسحاقَ بنِ إبراهيم المَوْصِلىّ : ٥

هل إلى أن تنام عينى سبيـل * إنّ عهدى بالنوم عهد طويل

ويحسن أن يبتدئ فى المديح بمثل قول أَبْزُون العُمانىّ :

على مِنبر العلياء[1] جَدُّك يَخطب * ولِلبَلدة العذراء سَـيفُك يَخطب

وقولِ المتنبىّ :

عدوّكَ مـــذموم بكلّ لسان * وإن كان من أعدائك القمَرَان ١٠

وقولِ التِّيفاشى :

ما هَزّ عِطفيه بين البِيض والأَسَل * مِثْل الخليفة عبـدِ المؤمن بنِ على

وفى التشبيب كقول أبى تمّام :

على مِثلِها من أربُع وملاعب * أُذيلت مصُوناتُ الدموع السواكب

وفى النسيب كقول المتنبىّ : ١٥

أتراها لكثرة العشّـاق * تَحسَب الدمع خِلْقةً فى المـآق

وفى المَراثى كقول أبى تمّام :

كذا فَلْيجِلّ الخطب وَلْيَفدَح الأمر * وليس لعين لم يَفض ماؤها عذر .

---

(١) فى الأصل : «العلماء» وهو تحريف .

وأما براعة التخليص — فهو أن يكون التشبيب أو النسيب ممزوجا بما بعده من مدح وغيره غيرَ منفصل عنه، كقول مسلم بن الوليد :

أجِدَّكِ هل تَدرِين أن ربّ ليـلةٍ * كأنّ دجاها من قرونكِ تُنشَر
نَصبتُ لها حتى تجلّت بغُـرّة * كغرّة يحيي حين يُذكَر جعفر

٥ وكقول المتنبّي :

نودّعهم والبين فينا كأنه * قَنا ابنِ أبي الهيْجاء في قلب فَيلَق.

وأما براعة الطلب — قال : وهو أن تكون ألفاظ الطلب مقترنة بتعظيم الممدوح، كقول أميّةَ بنِ أبي الصّلْت :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني * حياؤك إنّ شيمتَك الحياء
١٠ إذا أثنى عليك المرء يوما * كفاه مِن تعرّضه الثناء

وكقول المتنبيّ :

وفي النفس حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ * سكوتي بيانٌ عندها وخطاب.

وأما براعة المقطع — فهو أن يكون آخرُ الكلام الذي يقف عليه المترسِّل أو الخطيب أو الشاعر مستعذَبا حَسَنا، لتَبقَى لذّته في الأسماع، كقول أبي تمّام :

١٥ أبقت بني الأصفَر المصفرّ كاسمهِم * صُفرَ الوجوه وجلّت أوجهَ العرب

وكقول المتنبيّ :

وأُعطيتَ الذي لم يُعطَ خَلقٌ * عليك صلاة ربّك والسلام

وكقول الغزّي :

بقيتَ بقاءَ الدهر يا كهفَ أهله * وهذا دعاء للبريّة شامل .

وأما السؤال والجواب — فهو كقول أبي فِراس :

لك جسمي تُعِلّه * فدمي لِمْ تَطُلّه؟[1]

قال إن كنتُ مالكا * فلِيَ الأمر كلُّه

وأمثالِ ذلك . وقد أوردنا منه في باب الغزل ما فيه كفاية .

وأما صحة الأقسام — فهو عبارة عن استيفاء أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئا ؛

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وليس في رؤية البرق إلا الخوفُ من الصواعق ، والطمعُ في المطر ؛

وقولُه تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ فلم يُبقِ قسما من أقسام الهيئات حتى أتى به ؛

وقولُه تعالى : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾، ومن ذلك قولُه صلّى الله عليه وسلم: "ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت" ولا رابع لهذه الأقسام ؛

ووقف أعرابيّ على حَلْقة الحسن البَصريّ فقال : رحم الله من تصدّق من فَضل، أو واسى من كَفاف، أو آثر من قوت؛ فقال الحسن : ما ترك الأعرابيّ منكم أحدا حتى عمّه بالمسألة ؛

ومن أمثلة هذا الباب في الشعر قولُ بشّار :

فراح فريق في الإسار ومِثلُه * قتيل ومِثلٌ لاذ بالبحر هارِبه

(١) في حسن التوسل : «تحله» ومعنى البيت يستقيم على كلتا الروايتين، وتطله : من طل دمه إذا أهدر ولم يؤخذ بثأره .

وأصله قول عمرو بن الأهتم :

إشـــربا ما شربتما فهُـــذَيلٌ * من قتيـــل وهارب وأســـير

ومن جيد صحة الأقسام قولُ الحماسىّ :

وهبْها كشىء لم يكن أو كنازح * به الدار أو من غيّبتـــه المقابر

٥ فاستوفَى جميع أقسام المعدوم ؛

وقولُ أبى تمّـام فى الأَفْشِين لمّـا احترق بالنار :

صلّى لهـا حيًا وكان وَقودَها * ميـــتا ويَدخلها مـــع الفجّار

ومن قديم ما فى ذلك من الشعر قولُ زهير :

وأعلم ما فى اليوم والأمس قَبله * ولكننى عن علم ما فى غدٍ عَمِى

١٠ ومن النادر فى صحة الأقسام قولُ عمرَ بنِ أبى ربيعة :

تهيم إلى نُعْم فلا الشّـــمل جامعٌ * ولا الحبل موصول ولا أنت مُقصِر

ولا قُربُ نُعْم إن دنت لك نافعٌ * ولا بُعدها يُسلِى ولا أنت تصبر.

وأما التوشيح — فهو أن يكون معـنى الكلام يَدُلّ على لفظِ آخرِه، فيَتنزل المعنى منزلة الوِشاح ، ويَتنزّل أوّلُ الكلام وآخرُه منزلة العاتق والكشح اللذين يحول عليهما الوشاح . ١٥

وقال قُدامةُ : هو أن يكون فى أوّل البيت معنى إذا عُلم عُلمتْ منه قافية البيت بشرط أن يكون المعنى المقدَّمُ بلفظه من جنس معنى القافيـة بلفظه (١) ، كقول الراعى النُّمَيْرِىّ :

(١) كذا ورد هذا التعريف فى الأصل وحسن التوسل فى النسخة المخطوطة منه المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٧ أدب ؛ وعبارة قدامة فى كتابه نقد الشعر ص ٦٣ ط الجوائب : هو أن يكون أوّل البيت شاهدا بقافيته ومعناها متعلقا به حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة التى البيت منها إذا سمع أوّل البيت عرف آخره وبانت له قافيته . ٢٠

فإن وُزِن الحصى فوزنت قومى * وجدت حصى ضَرِيبتهم رزِينا (١)

فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى ، وعَرف القافيـة والروىّ ، عَلم آخر البيت ؛ ومن أمثلته ما حُكىَ عن عَمرِ بنِ أبى ربيعة أنه أنشد عبد الله ابنَ عباس رضى الله عنهما :

* تَشُطّ غدا دار أحبابنا * ٥

فقال له عبد الله :

* وللدارُ بعـد غد أبعَدُ *

فقال له عمر : هكذا والله قلتُ ، فقال له عبد الله : وهكذا يكون .

وأما الإيغال — فمعناه أن المتكلّم أو الشاعر إذا انتهى إلى آخر القرينة أو البيت آستخرج سجعةً أو قافيـةً تفيد معنى زائدا على معنى الكلام ، وأصـله من أَوغل فى السير إذا بلغ غاية قصده بسرعة . ١٠

وفسّره قُدامةُ بأن قال : هو أن يَستكمل الشاعر معنى بيته بتمـامه قبـل أن يأتىَ بقافيته ، فإذا أراد الإتيان بها أفاد معنى زائدا على معنى البيت ، كقول ذى الرُّمّة :

قِف العِيسَ فى آثار مَيّةَ واسألِ * رسوما كأخلاق الرداء المسلسَل (٢)

فتَمّم كلامه قبل القافية ، فلما آحتاج إليها أفاد بها معنى زائدا ، وكذلك صَنع فى البيت الثانى فقال : ١٥

أظُنّ الذى يُجدِى عليك سؤالُها * دموعا كتبذير الجمـان المفصّل

فإنه تَمّم كلامه بقوله : كتبذير الجمـان ، وآحتاج إلى القافيـة ، فأتى بهـا تفيد معنى زائدا لو لم يؤتَ بها لم يحصل .

(١) الضريبة : السجية والطبيعة ، يصفهم برجاحة الحلم وسكون الطبع . ٢٠

(٢) الثوب المسلسل : الردىء النسج .

وحكى عن الأصمعىّ أنه سئل عن أشعر الناس فقال : الذى يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كثيرا ، وينقضى كلامه قَبل القافية، فإن آحتاج إليها أفاد بها معنى ، فقيل له : نحوُ من ؟ فقال : نحوُ الفاتحِ لأبواب المعانى آمرئ القيس حيث قال :

٥ كأنّ عيونَ الوحش حول خبائنا * وأرحُلنا الجَزْعُ(١) الذى لم يثقّبِ

ونحوُ زُهير حيث يقول :

كأنّ فُتاتَ العِهن فى كلّ منزل * نزلن به حَبُّ الفَنا(٢) لم يحطّمِ

ومن أبلغ ماوقع فى هذا الباب قولُ الخنساء :

وإنّ صخرا لتأتمّ العُفاة(٣) به * كأنه عَلَمٌ فى رأسه نار

١٠ ومنه قول آبن المعتزّ لآبن طَباطَبا العَلَوى :

فأنتم بنوا بنته(٤) دوننا * ونحن بنوا عمّه المسلم

ومن أمثلة ذلك من شعر المتأخّرين قولُ الباخَرْزىّ :

أنا فى فؤادكَ فارم طرْفكَ نحوَه * ترنى فقلت لها وأين فؤادى

وقولُ آخرَ :

١٥ تعجّبتْ من ضنى جسمى فقلت لها * على هواكِ فقالت عندىَ الخبَر.

---

(١) الجزع بفتح الجيم وتكسر : الخرز اليمانىّ فيه سواد وبياض تشبّه به الأعين .

(٢) ألفنا بالقصر : عنب الثعلب، الواحد فناة . وفى الأصل : « القنا » بالقاف المثناة؛ وهو تحريف .

(٣) فى رواية : « الهداة » كما فى حسن التوسل وغيره ، ومعنى البيت يستقيم على كلتا الروايتين .

٢٠ (٤) فى الأصل : « فنحن بنوا بيته » وهو تحريف لايستقيم به معنى البيت، والتصويب عن حسن التوسل وغيره من كتب الأدب .

وأما الإشارة — فهى أن يشتمل اللفظ القليل على معان كثيرة بإيماء إليها، وذكرِ لمحة تدلّ عليها، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

وكقول امرئ القيس:

فإن تَهلِك شَنُوءة[1] أو تُبَدَّلْ * فسيرى إنّ فى غَسان خالا ٥

بعزّهمو عَزَزتِ وإن يَذِلّوا * فذلّهمـو أنالك ما أنالا

وكقوله أيضا:

فظـلّ لنا يوم لذيذ بنَعْمة * فقل فى نعيم نحسه متغيّب.

وأما التذييل — وهو ضـدّ الإشارة — فهو إعادة الألفـاظ المترادفة على المعنى الواحد حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكّد عند مَن فهمه، كقوله: ١٠

إذا ما عقـــدنا له ذمّـةً * شددنا العِناج[2] وعقد الكَرَب

وقول آخرَ:

ودَعَوا نَزالِ فكنتُ أوّل نازل * وعلام أركبـه إذا لم أنزِلِ

ويقرب منه التكرار، كقول عَبيد:

هل لا سألت جموع كِنْـدةَ يوم ولّوا أين أينـا؟ ١٥

(١) يريد أزد شنوءة؛ قال ياقوت: شنوءة بالفتح ثم الضم وواو ساكنة ثم همزة مفتوحة وهاء: مخلاف باليمن بينها وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخا، تنسب اليها قبائل من الأزد يقال لهم: أزد شنوءة. ثم قال: والنسبة اليهم شـنائىّ؛ قال ابن السكيت: ربما قالوا أزد شنوه بالتشديد بغير همزة، ينسب اليهم: شنوىّ.

(٢) العناج: حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة ثم يشد فى العراقىّ. والكرب بالتحريك حبـل يشد فى وسط العراقى ليلى المـاء فلا يعفن الحبل الكبير. ٢٠

وكقول آخر :

وكانت فزارةُ تَصلى بنا * فأَولى فَزَارةُ أَولى فزارا.

وأما الترديد — فهو أن تعلّق لفظة فى البيت بمعنى ، ثم تردّها فيه بعينها وتعلّقها بمعنى آخر ،

٥ كما قال زهير :

من يَلقَ يوما على عِلّاته هَرِما * يلقَ السماحة منه والندى خُلُقا

وكقول آخر :

وأَحفظ مالى فى الحقوق وإنه * لَجَمٌّ وإنّ الدهر جَمٌّ عجائبه

وكقول أبى نواس :

١٠ صفراء لا تَنزل الأحزان ساحتَها * لو مسّها حَجَر مسّته سرّاء.

وأما التفويف — فهو مشتقّ من الثوب المفوَّف، وهو الذى فيه خطوط بيض ، وهو فى الصناعة عبارة عن إتيان المتكلم بمعانٍ شتّى من المدح أو الغزل أو غير ذلك من الأغراض، كلُّ فنّ فى سجعة منفصلة عن أختها مع تساوى الجمل فى الوزنيّة، وتكون فى الجمل الطويلة والمتوسّطة والقصيرة ؛

١٥ فمثال ما جاء منه فى الجمل الطويلة قولُ النابغة الذُّبيانىّ :

فلله عينَا من رأى أهلَ قُبّةٍ * أضرَّ لمن عادى وأكثرَ نافعا

وأعظمَ أحلاما وأكبرَ سيّدا * وأفضَلَ مشفوعا إليه وشافعا

ومثال ما جاء منه بالجمل المتوسطة قولُ أبى الوليد بن زيدون :

تِهْ أَحتملْ، وٱستطلْ أصبِرْ، وعِزَّ أَهُنْ * وولِّ أُقبِلْ، وقُلْ أسمَعْ، ومُرْ أُطِعِ

٢٠ ومثال ما جاء منه بالجمل القصيرة قولُ المتنبىّ :

أَقِلْ أَنِلْ أَقطِعِ آصِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ * زِدْ هَشِّ بَشِّ تَفَضَّلْ أَدنِ سُرَّ صِلِ.

وأما التسهيم — فهو مأخوذ من البُرد المسهَّم، وهو المخطَّط الذى لا يتفاوت ولا يختلف، ومنهم من يجعل التسهيم والتوشيح شيئا واحدا، ويُشرك بينهما بالتسوية، والفرق بينهما أنّ التوشـيح لا يدلّك أوّله إلا على القافية فحَسْب، والتسهيم تارة يدلّ على عَجُز البيت، وتارة على ما دون العجز؛

وتعريفه أن يتقدّم من الكلام مايدلّ على ما يتأخر، تارة بالمعنى، وتارة باللفظ، كأبيات جَنوب أختِ عمرو ذى الكلْب، فإن الحذّاق بمعنى الشعر وتأليفه يعلمون أن معنى قولها :

* فأُقسم ياعمرو لو نبّهاك *

يقتضى أن يكون تمامه :

* إذن نبّها منكَداءً عُضالا *

دون غيره من القوافى، كما لو قالت مكانَ «داء عضالا» : ليثا غَضوبا، أوأفعَى قَتولا، أو سمّا وَحِيّا، أو ما يناسب ذلك، لأن الداء العضال أبلغُ من جميع هـذه الأشـياء وأشد، إذ كلٌّ منها يمكن مغالبته أو التوقّى منه، والداء العُضال لادواء له، فهذا مما يُعرَف بالمعنى؛

وأما ما يدلّ فيه الأوّل على الثانى دِلالة لفظيّة فهو قولها بعده[1] :

إذن نبّها ليثَ عِرِّيسة * حُفِيتا حُفيدا نفوسا ومالا

فإن الحاذق بصناعة الكلام إذا سمع قولهـا : «حفيتا حفيدا» تحقّق أن هذا اللفظ يقتضى أن يكون تمامه : «نفوسا ومالا»؛ وكذلك قولها :

* فكنتَ النهار به شمسه *

(١) فى الأصل : «من قولهـا»، وقوله «من» زيادة من الناسخ.

يقتضى أن يكون [بعده][1] :

* وكنتَ دجى اللّيل فيه الهلالا *

ومن ذلك قولُ البحترىّ :

* وإذا حاربوا أذلّوا عزيزا *

٥ يحكُم السامع بأن تمامه :

* وإذا سالموا[2] أعزّوا ذليلا *

وكذلك قوله :

أَحلّت دمى من غير جرم وحَرّمت * بلا سبب يوم اللقاء كلامى

* فليس الذى حلّلته بمحلَّل *

١٠ يعرف السامع أن تمامه :

* وليس الذى حَرّمتِه بحرام * .

وأما الاستخدام — فهو أن يأتىَ المتكلّم بلفظة لها معنيان، ثم يأتى بلفظتين يستخدم كلّ لفظة منهما فى معنى من معنيي تلك[3] اللفظة المتقدّمة، وربما ٱلتبس الٱستخدام بالتورية من كون كل واحد من البابين[4] مفتقرا إلى لفظة لها معنيان،

١٥ والفرق بينهما أن التورية ٱستعمالُ أحد المعنيين من اللفظة، وإهمالُ الآخَر، والٱستخدام ٱستعمالها معا، ومن أمثلته قولُ البحترىّ :

فسَقَى الغَضى والسّاكنِيه وإن همو * شَبّوه بين جوانح وقلوب

---

(١) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل، والسياق يقتضى إثباتها أخذا من عبارة حسن التوسل ص ٧١ ط الوهابية وغيره، فإن عبارته : « يقتضى أن يتلوه » .

٢٠ (٢) فى الأصل : «وان» وهو تحريف .

(٣) عبارة الأصل : « من معانى ذلك » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٤) فى الأصل : «الناس» ؛ وهو تحريف .

فإن لفظة الغضى محتملةٌ للموضع والشجر، والسُّقيا صالحة لهما، فلمّا قال: «والساكنيه» آستعمل أحد معنيي اللفظ، وهو دِلالته بالقرينة على الموضع، ولمّا قال: «شَبُّوه» آستعمل المعنى الآخر، وهو دِلالته بالقرينة على الشجر؛ ومن ذلك قولُ الشاعر[1]:

إذا نزل السماءُ بأرض قوم * رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

أراد بالسماء الغَيثَ، وبضميره النَّبتَ.

وأما العكس والتبديل — فهو أن يقدَّم فى الكلام أحدُ جزئيه ثم يؤخَّر، ويَقعُ على وجوه:

منها أن يقع بين طرَفَى الجملة، كقول بعضهم: عادات السادات، ساداتُ العادات؛

ومنها أن يَقع بين متعلَّقَى فعلين فى جملتين، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ ومنه بيت الحماسة:

فرَدّ شعورَهن السود بِيضا * وردّ وجوهَهن البِيض سُودا؛

ومنها أن يَقع بين كلمتين فى طرَفَى جملتين، كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وقولِه تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾

وقولِ أبى الطيّب:

ولا مجدَ فى الدنيا لمن قَلّ ماله * ولا مالَ فى الدنيا لمن قَلّ مجده.

وأما الرجوع — فهو أن يعود المتكلّم على[2] كلامه السابق بالنقض لنكتة كقول زهير:

قف بالديار التى لم يَعفُها القِدَم * بَلى وغيّرها الأرواحُ والدِّيَم

(١) هو جرير بن عطية الخَطَفى.

(٢) فى الأصل: «من» وما أثبتناه عن حسن التوسل.

كأنه لمّا وقف على الديار عَرته رَوعة ذَهَل بها عن رؤية ما حصل لها من التغيّر فقال : «لم يَعفُها القِدم» ثم ثاب إليه عقله وتحقّق ماهى عليه من الدروس، فقال: بلى عَفَتْ وغيّرها الأرواح والدِّيَمُ ؛

ومنه بيت الحماسة :

٥ أليس قليلا نظرةٌ إن نظرتُها (١) * إليكِ وكلّا ليس منكِ قليل.

وأما التغاير — فهو أن يغاير المتكلّم الناسَ فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمّه أو يذمّوه فيمدحَه ؛

فمن ذلك قولُ أبى تمّام يغاير جميع الناس فى تفضيل التكرّم على الكرم :

قد بلَونا أبا سَعِيدٍ حديثا * وبلَونا أبا سَعِيدٍ قديما
١٠ فوردناه سائحا وقَلِيبا * ورَعَيناه بارِضا وجَميما (٢)
فعلمنا أن ليس إلا بشِقّ النفس صار الكريم [يدعى] (٣) كريما

وهو مغاير لقوله على العادة المألوفة :

لا يُتعِب النائل المبذول هِمّتَه * وكيف يُتعِب عينَ الناظر النظر

ومنه قول ابن الرومىّ فى تفضيل القلم على السيف :

١٥ إن يخدُم القلمَ السيفُ الذى خَضَعت * له الرقابُ ودانت خوفَه الأمم
فالموتُ والموتُ لا شىءٌ يعادِله * ما زال يَتبَع ما يَجرِى به القلم

(١) البيت ليزيد بن الطثرية .

(٢) البارض : أوّل ما يظهر من نبات الأرض، والجميم : النبات الكثير، أو هو ما نهض وانتشر منه . وفى الأصل : «سنيا» وفى حسن التوسل : «هشيا»، وهو تحريف فى كليهما، والتصويب عن ديوان ٢٠ أبى تمام ص ٣٦٠ ط الأدبية .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن ديوان أبى تمام إذ بها يستقيم البيت .

كذا قضى الله للأقلام مـذ بُرِيَت * أنّ السيوف لهـا مذ أُرهِفت خَدَم

وغايره المتنبيّ على الطريق المـألوف فقال :

حتى رجعتُ وأقلامى قـوائلُ لى * المجـد للسيف ليس المجـد للقلم

اكتب بها أبدا قبل الكِتاب بنـا * فإنما نحن للأسـياف كالخَدَم.

وأما الطاعة والعصيان — فإنه قال : هذا النوع آستنبطه أبو العلاء المَعرّى عند نظره فى شعر أبى الطيّب، وسمّـاه بهـذه التسمية، وقال : هو أن يريد المتكلّم معنى من المعانى التى للبديع[1] فيَستعصِى عليه لتعذّر دخوله فى الوزن الذى هو آخذ فيـه فيأتى موضعَه بكلامٍ غيرِه يتضمّن معنى كلامه، ويقوم به وزنُه، ويحصل به معنى من البديع غير الذى قصَده[2]، كقول المتنبيّ :

يُرِدّ يدا عن ثـوبها وهو قادر * ويَعصِى الهوى فى طَيفها وهو راقد

فإنه أراد[3] أن يقول : يردّ يدا عن ثوبهـا وهو مستيقظ ، حتى إذا قال :

* ويَعصِى الهوى فى طَيفها وهو راقد *

يكون فى البيت مطابقة، فلم يطعه الوزن، فأتى بقادر فى مَوضـع مستيقظ لتضمّنه معناه، فإن القادر لا يكون إلا مستيقظا وزيادة، فقـد عصاه فى البيت الطباق وأطاعه الجناس بين قادر وراقد، وهو جناس العكس ؛

(١) كذا فى الأصل وحسن التوسـل وشرح الباعونية المحفوظ منـه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٨٣ بلاغة ؛ وعبـارة ابن أبى الإصبع فى تحرير التحبير المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٥ بلاغة : « أن يريد المتكلم معنى من معانى البديع » .

(٢) كذا فى تحرير التحبير وحسن التوسل . والذى فى الأصل : «عن» .

(٣) كذا فى حسن التوسل ص ٧٣ ط الوهبية وتحرير التحبير لابن أبى الإصبع . وعبارة الأصل : « فإنه لو أراد » ؛ وقوله : « لو » زيادة من الناسخ بدليل قوله فيما سيأتى « فلم يطعه » بإثبات الفـاء ؛ على أنه يؤخذ مما سبق فى تعريف هذا القسم من قوله : «أن يريد المتكلم» أن التمثيل لا يتم إلا بأن يكون الشاعر قد أراد ذلك بالفعل .

وأنكر ابن أبى الإصبع أن يكون هذا الشاهد من باب الطاعة والعصيان ، لأنه كان يمكنه أن يقول عوض قادر : ساهر ، وإنما المتنبيّ قصد أن يكون فى بيته طباقٌ معنوىّ ، لأن القادر ساهر وزيادة ، إذ ليس كلّ ساهر قادرا ، وأن يكون فيه جناس العكس .

٥ وقال : إن شاهد الطاعة والعصيان عنده أن تعصيَه إقامةُ الوزن مع إظهار مراده ، فتطيعه لفظة من البديع يتمّم بها المعنى وتزيده حسنا ، كقول عوف بن مُحلِّم :

إن الثمانين وبُلِّغتَها * قدأَحوجَت سمعى إلى تَرجُمان

فإنه أراد أن يقول : إن الثمانين قد أحوجت سمعى إلى تَرجمان ، فعصاه الوزن وأطاعه لفظة من البديع وهى التتميم ، فزادته حُسنا وكَمَّلَتْ مرادَه ، وكلّ التتميم

١٠ من هذا النوع .

وأما التسميط — فهو أن يجعل المتكلّم مقاطيعَ أجزاء البيت أو القرينة على سجع يخالِفُ قافيةَ البيت أو آخرَ القرينة ، كقول مروانَ بنِ أبى حفصة :

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا * أجابوا وإن أَعطَوا أطابوا وأَجزلوا

فإن أجزاء البيت مسجَّعة على خلاف قافيته فتكون القافية بمنزلة السمط ، والأجزاء

١٥ المسجَّعة بمنزلة حبّ العقد .

وأما التشطير — فهو أن يَقسِم الشاعر بيته شَطرين ، ثم يُصرِّع كلّ شَطر من الشطرين ، ولكنه يأتى بكلّ شَطر من بيته مخالفا لقافية الآخر ، كقول مسلم ابن الوَليد :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يومِ ذى رَهَجٍ * كأنّه أَجَلٌ يَسعى إلى أمل

٢٠ وكقول أبى تمّام :

تدبيرُ معتصِمٍ بالله منتقِمٍ * لِله مرتقِبٍ فى الله مرتغِب .

وأما التطريز — فهو أن يبتدئ الشاعر بذكر جُمَل من الذوات غير مفصَّلة ثم يُخبِر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررةٍ بحسب تَعدادِ جُمَل تلك الذوات تَعدادَ تَكرار واتحاد، لا تَعدادَ تغاير، كقول ابن الرومىّ :

أموركمو [بنى][1] خاقانَ عندى * عُجابٌ فى عُجابٍ فى عُجابِ
قُرونٌ فى رءوس فى وجوه * صِلابٌ فى صِلابٍ فى صِلابِ ٥

وكقوله :

وتَسقينى وتشرب من رَحيقٍ * خَليقٍ أن يُشبَّهَ بالخَلُوق
كأنّ الكأسَ فى يدها وفيها * عَقِيقٌ فى عقيقٍ فى عقيق.

وأما التوشيع — فهو مشتقّ من الوَشِيعة، وهى الطريقة فى البُرْد، وكأنّ الشاعر أَهمل البيت كلّه إلا آخره، فأتَى فيه بطريقة تُعدُّ من المحاسن؛ وهو عند ١٠ أهل هذه الصناعة أن يأتى المتكلّم أو الشاعر باسم مثنًّى فى حَشو العَجُز، ثم يأتى بعده باسمين مفردين هما عينُ ذلك المثنّى، يكون الآخِرُ منهما قافيةَ بيته، أو سجعَة كلامه كأنهما تفسيرٌ لما ثنّاه[2]، كقول النبى صلّى الله عليه وسلّم: "يَشيب ابن آدم وتَشِبّ فيه خَصلتان : الحرصُ وطُولُ الأمل"

ومن أمثلة ذلك فى النظم قولُ الشاعر : ١٥

أَمسِى وأُصبِح من تَذكاركم وصِبًا * يَرثِى لىَ المُشفِقان الأهلُ والولد
قد خَدّد الدمعُ خدّى مِن تذكُّركم * واعتادنى المُضنِيان الوجدُ والكَمَد
وغاب عن مقلتِى نومِى لغَيبتكم * وخانى المُسعِدان الصبرُ والجَلَد
لم يَبقَ غيرُ خفىِّ الرُّوح فى جسدى * فِدًى لك الباقيان الرُّوحُ والجَسَد.

(١) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل، وقد نقلناها عن حسن التوسل وغيره، إذ بها يستقيم الوزن والمعنى. ٢٠ (٢) فى الأصل : «بناه» بالباء الموحدة، وهو تحريف.

قال آبن أبى الإصبع : وما بما قلتُه فى هذا الباب من بأس، وهو :

بى محنتان مُلامٌ فى هَـوًى بهما (١) * رَثى لَى القاسيان الحُبُّ والحَجَر

لولا الشفيقان من أمنيّة وأُسًا (٢) * أَودَى بىَ المُردِيان الشوقُ والفِكَر

قال : ويحسن أن يسمّىَ ما فى بيتيـه مطرَّف التوشيع، إذ وقع المثنّى فى أوّل كلّ بيت وآخرِه .

وأما الإغراق — وهو فوق المبالَغة ودون الغُلوّ، ومن أمثلته قولُ آبن المعتزّ :

صَبَبنا عليهـا ظالمين سِياطَنا * فطارت بها أيدٍ سِراعٌ وأرجُل

فوضـع الإغراق من البيت قولُه : ظالمين، يعنى أنها آستفرَغتْ جُهدَها فى العَـدْو فما ضربناها إلا ظلما، فمن أجل ذلك خرجت من الوَحشيّة إلى الطَّيريّة؛ ولو لم يقل : « ظالمين » لمـا حسُن قوله : «فطارت» ولكنه بذكر الظلم صارت الآستعارة كأنها حقيقةٌ، وقد عُدّ من الإغراق لَا المبالَغة قولُ آمرئ القيس :

تنوّرتُها من أَذرِعاتٍ (٣) وأهلُها * بيثرِبَ أدنى دارِها نظرٌ عالى .

وأما الغُلوّ — فمنهم من يجعـلُه هو والإغراقَ شيئا واحدا ، ومن شواهده قولُ مُهلهِل :

فلولا الريحُ أَسمَـعَ من بَحجَر (٤) * صَليلُ البَيض تُقرَع بالذُّكور (٤)

(١) فى الأصل وحسن التوسل : «لى» باللام؛ وما أثبتناه عن تحرير التحبير لابن أبى الإصبع .

(٢) الأسى بضم الهمزة وكسرها : جمع أسوة بالضم والكسر أيضا، وهى القدوة، يريد اقتداءه بغيره ممن مسهم من المحن ما مسه، فهو يتأسى بهم فيما ناله منها .

(٣) أذرعات : بلد بأطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب إليه الخمر، والنسبة إليه أذرعىّ .

(٤) حجر بفتح الحاء : مدينـة اليمامة وأمّ قراها . والبيض بفتح الباء واحده بيضة، وهى الخوذة التى تلبس على الرأس فى الحرب، سميت بذلك لأنها تشبه بيضة النعامة . وأراد بالذكور : السيوف؛ والذكر من الحديد : أيبسه وأشدّه وأجوده .

ومِثلُه قولُ المتنبيّ فى وصف الأَسَد :

وَرْدٌ[1] إذا وَرَد البُحَيرة شاربا * بَلغ الفراتَ زئيرُه والنِّيـــلا

قالوا : ومن أمثلة الغُلوّ قولُ النَّمِر بن تَولَب فى صفة السيف :

تَظَلّ تَحفِر عنه إن ضَربتَ به * بُعدَ الذّراعَيْن والساقَيْن والهادى .

وأما القَسَم — فهو أن يريد الشاعر الحلِف على شىء فيأتى فى الحلِف بما يكون مدحا [له][2] وما يُكسِبه فخرا، أو يكون هجاءً لغيره، أو وعيدا، أو جاريا مجرى التغزّل والترقّق ؛

فمثال الأوّل قولُ[3] مالك بن الأَشتَر النَّخعىّ : * بقّيتُ وَفْرِى وانحرفتُ عن العُلا *

وقد تَقدّم الاستشهاد بهما فى النظْم ، فإنها تَضمّنت فخرا له ، ووعيدا لغيره ؛ وكقول أبى علىّ البصير يعرّض بعلىّ بن الجَهْم :

أَكذبتُ أحسنَ ما يَظنّ مؤمّلى * وعَدمتُ ما شادته لى أســـلافى

وعَدمتُ عاداتى التى عُوّدتُهـا * قِـــدْما من الإخلاف والإتلاف

وغَضضتُ من نارى ليَخفَى ضوءها * وقَرَيتُ عذرا كاذبا أضـــيافى

إن لم أَشُنّ عـــلى علىٍّ (غارةً)[4] * تُضحِى قـــذًى فى أعين الأشراف

وقد يُقسم الشاعر بما يزيد الممدوح مدحا، كقول القائل :

إن كان لى أملٌ سواك أَعُدّه * فكفرتُ نعمتـــك التى لا تُكفَر

(١) الورد من الأسود : ما أشبه لونه لون الورد .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن حسن التوسل إذ السياق يقتضى إثباتها .

(٣) فى الأصل : « كقول » ، والكاف زيادة من الناسخ .

(٤) كذا فى شرح الباعونية المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٨٣ بلاغة ؛ والذى فى الأصل وحسن التوسل : « خلة » بخاء معجمة بعدها لام ، ولم نجد من معانيه ما يلائم معنى البيت ، ولعله محرف عن « حملة » بحاء مهملة بعدها ميم .

ومما جاء من القَسَم فى النسيب قولُ الشاعر :

فإن لم تكن عندى كعينى ومسمَعى * فلا نَظَرَتْ عينى ولا سَمِعتْ أُذْنى

ومما جاء فى الغزل قولُ الآخَر :

لا والذى سَلّ من جفنيه سيفَ ردًى * قُدّت له من عذارَيه حمائلُه

ما صارمَت مقلتى دمعا ولا وَصلَت * غَمضا ولا سالَمَتْ قلبى بلابلُه .

وأما الاستدراك — فهو على قسمين : قِسم يتقدّم الاستدراكَ فيه تقريرٌ لما أُخبر به المتكلّمُ وتوكيدٌ، وقِسمٌ لا يتقدّمه ذلك؛ فمن أمثلة الأوّل قولُ القائل :

وإخوانٍ تخِذتُهمو دروعا * فكانوها ولكن للاعادى

وخِلتهمو سهاما صائباتٍ * فكانوها ولكن فى فؤادى

وقالوا قد صفت منّا قلوبٌ * لقد صدقوا ولكن من ودادى

وقولُ الأَرّجانىّ :

غالطتْنى إذ كست جسمِى ضَنًى * كُسوةً أعرت من الجلد العظاما

ثم قالت أنت عندى فى الهوى * مِثلَ عينى صدقتْ لكن سَقاما

وأما القسم الثانى الذى لا يتقدّم الاستدراكَ فيه تقرير ولا توكيد فكقول زهير :

أخو ثِقة لا يُهلِكُ الخمرُ مالَه * ولكنه قد يُهلك المالَ نائلُه .

وأما المؤتلِفة والمختلفة — فهو أن يريد الشاعر التسويةَ بين ممدوحَين فيأتى بمعان مؤتلِفة فى مدحهما ، ويروم بعد ذلك ترجيحَ أحدهما على الآخَر بزيادة لا يَنقُص بها الآخر ، فيأتى لأجل الترجيح بمعان تخالف التسوية ، كقول الخنساء فى أخيها وأبيها — وراعت حقّ الوالد بما لم يُنقص الولدَ —

جارَى أَباه فأقبَـــلا وهما * يتعاقبان مُلاءةَ الحُضْرِ[1]
وهُما وقـــد برَزا كأنهما * صَقران [قد][2] حَطّا الى وَكر
حتى اذا نَزت القلوب وقد * لُزّت هناك العُـــذرُ[3] بالعذر
وعَلا هتافُ الناس : أيُّهما * قال المجيب هناك : لا أدرى
بَرَقت صحيـــفة وجهِ والده * ومضي على غُلَوائه يَجـــرى
أَولى فأَولى أن يساويَه * لولا جلالُ السنّ والكبْر

وأوّل من سبق الى هذا المعنى زهير[4] حيث قال :

هو الجواد فإن يَلحَق بشأوهما * على تكاليفـــه فمِثـــلُه لَحِقـا
أو يسبِقاه على ما كان من مَهَل * فمِثلُ ما قَدّما من صالح سَبقا

وتداوله الناس، فقال أبو نواس :

ثم جرى الفضـــلُ فانثنَى قَدَمًا * دون مَداه بغـــير ترهيق
فقيـــل راشَا سهما تُراد به الـــغايةُ والنَّصْـــلُ سابقُ الفُوق.[5]

وأما التفريق المفرد — فهو كقول الشاعر :

ما نَوال الغمام يوم ربيع * كنوال الأمير يوم سخاء
فَنوال الأمير بَدرةُ عَين * ونَوالُ الغمام قَطـرةُ ماء.

(١) الحضر : الارتفاع فى العدو .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن كتب الأدب إذ بها يستقيم الوزن .
(٣) العذر : جمع عذار ، وهو السير الذى يكون على خدّ الدابة من اللجام .
(٤) عبارة الأصل : «قول زهير» ؛ وكلمة «قول» زيادة من الناسخ ، والصواب إسقاطها كما يقتضيه ما قبله وما بعـــده من الكلام . وعبارة حسن التوسل : وأول من سبق الى هذا المعنى زهير بقوله .
(٥) الفوق بضم الفاء ، موضع الوتر من السهم ، والجمع أفواق .

وأما الجمع مع التفريق[(١)] — فهو أن يشبِّه شيئين بشئ ثم يفرِّق بين وجهَىْ الأشتباه، كقول الشاعر :

فوجهُك كالنار فى ضوئها * وقلبىَ كالنار فى حرّها .

وأما التقسيم المفرد[(٢)] — فهو أن يَذكُرَ قسمة ذات جزأين أو أكثر، ثم يَضمّ الى كلّ واحد من الأقسام ما يليق به، كقول رَبيعة الرَّقّ :

يَزيدُ سُلَيم سالمُ المال والفتى * فتى الأَزْد للأموال غيرُ مسالِم
لَشتّان ما بين اليزيدَين فى الندى * يَزيدِ سُلَيم والأغَرّ بنِ حاتم
فهمُّ الفتى الأزدىّ إتلافُ ماله * وهمُّ الفتى القيسىّ جمعُ الدراهم
فلا يَحسَب التمتام[(٣)] أنّى هجوته * ولكننى فَضَّلت أهل المكارم

وكقول ابن حَيُّوس :

ثمانيــة لم تفــترق إذ جمعتَهــا * فلا افترقَت ماذَبّ عن ناظر شَفْر
يقينُك[(٤)] والتقوى، وجُودك والغنى * ولفظك والمعنى، وسيفك والنصر

---

(١) فى الأصــل : «بالتفريق» وما أثبتناه هو المعبر به فى جميع كتب البلاغة، كما أنه هو الموافق لما سيأتى من قوله : « وأما الجمع مع التقسيم . وقال صاحب التجريد ج ٢ ص ٢٣٨ ط الأميرية نقلا عن عبد الحكيم ما نصه : «أورد كلمة : «مع» إشارة الى أن المحسن اجتماعهما .

(٢) فى الأصل : «بالمفرد»، والباء زيادة من الناسخ اذ لا مقتضىَ لها فى هذه العبارة، فإن قوله : «المفرد» صفة للتقسيم، يريد التقسيم المنفرد الذى ليس معه جمع كما يدل عليه ما سبق من قوله : « وأما التفريق المفرد»، أى التفريق الذى ليس معه جمع أيضا . وعبارة حسن التوسل وغيره من كتب البلاغة : « التقسيم المفرد » بدون باء .

(٣) تمتم الرجل تمتمة اذا تردّد فى التاء فهو تمتام بالفتح . وقال أبو زيد : هو الذى يعجل فى الكلام ولا يفهمك .

(٤) فى الأصل : «يمينك»؛ وهو تحريف .

وقولِ آخَر :

لِلتمِسِى الحاجات جمعٌ ببابه * فهـذا له فنٌّ وهـذا له فنّ

فللخامل العَليا، ولِلمعدِم الغنى * ولِلذنب الرُّحمى، ولِلخائف الأمن

ويجوز أن يُعَدَّ هذا من الجمع مع التقسيم .

وأما الجمع مع التقسيم — فهو أن يَجمع أمورا كثيرة تحت حُكم، ثم يقسِّم بعد ذلك، أو يقسِّم[1] ثم يَجمع، مثال الأوّل قولُ المتنبيّ :

حتى أَقام على أَرباض خَرْشَنة[2] * تَشقَى به الروم والصُّلبانُ والبِيَعُ

لِلسَّبْيِ ما نَكحوا، والقتلِ ما وَلدوا * والنهبِ ما جمعوا، والنارِ ما زَرعوا

فجَمَع فى البيت الأوّل أرض العـدوّ وما فيها من معنى الشقاوة، وذكر التقسيم فى البيت الثانى .

ومثال الثانى قولُ حسّان :

قوم إذا حاربوا ضَرّوا عدوّهمو * أوحاولوا النفْعَ فى أشياعهم نَفَعوا

سجيّـةٌ تلك منهم غيرُ مُحـدَثة * إنّ الحوادث فاعلم شرُّها البِدَع .

وأما التزاوج — فهو أن يزاوِج بين معنيَيْن فى الشرط والجزاء، كقول البُحتُرىّ :

إذا ما نَهَى الناهى وَلَجَّ بِىَ الهوى * أصاخت إلى الواشى فَلَجَّ بها الهجر .

وأما السلب والإيجاب — فهو أن يُوقِع [الكلام][3] على نفيِ شئ وإثباته فى بيت واحد، كقوله :

---

(١) فى الأصل : «و يقسم» ، والمقام يقتضى العطف بأو .

(٢) خرشنة بفتح الخاء وسكون الراء : بلد قرب ملطية من بلاد الروم .

(٣) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

وتُنكِر إن شئنا على الناس قولَهم * ولا يُنكِرون القولَ حين نقول

وكقول الشَّمّاخ :

هَضيم الحشى لا يَملأ الكفَّ خَصرُها * ويُملأ منها كلُّ حِجْلٍ ودُمْلُج.(١)

وأما الاطّراد — فهو أن يَطرُد الشاعر أسماءً متتالية يَزيد الممدوحَ بها تعريفا، لأنها لا تكون إلا أسماءَ آبائه تأتى منسُوقةً غيرَ منقطعة من غير ظهور كُلْفة على النَّظْم كاطّراد الماء وانسجامه،(٢) وذلك كقول الأعشى :

أقيسُ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بنِ خالدٍ * وأنت الذى ترجو حِباءك وائلُ

وكقول دُرَيد :

قَتلنا بعبد الله خيرَ لِداته * ذؤابَ بنَ أسماءِ بنِ زيدِ بنِ قارِب

وهذا أحسنُ من الأول، لاطِّراد الأسماء فى عَجُز البيت . (٦٠)

وقال ابن أبى الإصبع : وقد أربَى على هؤلاء بعض القائلين حيث قال :

من يكن رام حاجة بعُدت عنـ * ـه وأعيتْ عليه كلَّ العياء

فلها أحمدُ المُرجَّى ابنُ يحيى بـ * ـنِ مُعاذِ بنِ مُسلِمِ بنِ رَجاء

لو لم يقعْ فيه الفصلُ بين الأسماء بلفظة المرجَّى .

ومنه ما كتب الشيخ مجدُ الدين بنُ الظَّهِير الحنفىّ على إجازة :

أجاز ما قد سألوا * بشرط أهل السَّنَد

محمد بن أحمدَ بـ * ـنِ عمرَ بنِ أحمد

فلم يفصل بين الأسماء فى البيت بلفظة أجنبيّة .(٣)

(١) الحجل : الخلخال . والدملج والدملوج : المعضد من الحلىّ .

(٢) فى الأصل : «واسحابه» ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : «يدخل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه ثبوت الباء فى قوله بعد : «بلفظه» وقوله فيما سبق : «لو لم يقع فيه الفصل» .

وأما التجريد — فهو أن يَنتزع الشاعر أو المتكلّم من أمر ذى صفة أمرا آخَرَ مِثلَه فى تلك الصفة مبالَغةً فى كمالها فيه؛ وهو أقسام: منها نحوُ قولهم: لى [مِن][1] فلان صديقٌ حميم، أى بَلَغ من الصداقة حدّا صحّ معه أن يُستخلَص منه صديقٌ آخَرَ؛

ومنها نحو قولهم: لئن سألتَ لتَسألَنّ به البحرَ، ومنه قولُ الشاعر:

وشَوهاءَ تعدو بى إلى صارخ الوغى * بمستلئم مِثـلِ الفَنِيق المُـرحَّل ٥

أى تعدو بى ومعى من آستعدادى للحرب لابِسُ لأُمة؛

ومنها نحوُ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ لأن جهنم — أعاذنا الله منها — هى دار الخلد، لكن آنتزع منها مثلها وجعل فيهـا مُعَدّا للكفار تهويلا لأمرها؛

ومنها نحوُ قولِ الحماسىّ:

فلئن بقيتُ لأرحلنّ بغَزوة * نحوَ الغنائم أو يموتَ كريم ١٠

وعليـه قراءة من قرأ: ﴿فَإِذَا ٱنْشَـقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ بالرفع، بمعنى فحصَلتْ سماءٌ وَردةٌ، وقيل: تقدير الأول أو يموتَ منّى كريم، والثـانى: فكانت منها وَردةٌ كالدِّهان، وفيه نظر؛

ومنها نحوُ قولِه:

ياخـيرَ من يَركَب المطِىّ ولا * يَشرب كأسا بكفّ مَن بخِلا ١٥

ونحوُ قولِ الآخَر:

إن تَلقَنى — لا تَرَى غيرى يناظره — * تَنِسْ[2] الـلاحَ وتَعرِف جَبهة الأَسَد

ومنها مخاطَبة الإنسان غيرَه وهو يريد نفسه، كقول الأعشى:

ودِّع هُرَيرةَ إنّ الرَّكْبَ مرتحِل * وهل تُطيق وَداعاً أيها الرجل

(١) الزيادة تقتضيها صحة التمثيل.

(٢) فى الاصل: «بين»، وهو تحريف؛ والتصويب عن حسن التوسل.

وقولِ المتنبيّ :

لاخيلَ عندك تُهديها ولا مالُ * فليُسعِد النُّطقُ إن لم تسعد الحالُ

ومنه قول الحَيْص بَيْص :

إلام يراك المجد فى زِىّ شاعر * وقد نَحَلَت شوقا فروع المنابر

كَتَمْتَ بِصيت الشِّعر علما وحكمة * ببعضهما ينقاد صعبُ المَفاخر

أما وأبيك الخير إنك فارس الـ * ـكلام ومُحيِى الدّارسات الغوابر.

وأما التكميل — فهو أن يأتىَ المتكلّم أو الشاعر بمعنًى من مدح أو غيرِه من فنون الكَلِم وأغراضه، ثم يَرَى مدحَه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غيرَ كامل، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة، ثم رأى الاقتصارَ عليها دون مدحه بالكرم مثلا غيرَ كامل أو بالبأس دون الحِلم، ومثال ذلك قولُ كعب بن سعد الغَنَوىّ :

حَليمٌ إذا ما الحلم زَيَّن أهلَه * مع الحِلم فى عين العدوّ مَهيب

قوله : " إذا ما الحِلم زَيّن أهلَه " احتراس لولاه لكان المدح مدخولا، إذ بعضُ التغاضى قد يكون عن عَجْزٍ، وإنما يزين الحِلمُ أهلَه اذا كان عن قدرة، ثم رأى أن يكون[1] مدحه بالحلم وحدَه غير كامل، لأنه اذا لم يُعرَف منه إلا الحِلمُ طَمِع فيه عدوّه فقال : «فى عين العدوّ مَهيب»؛ ومنه قول السَّموءل بنِ عادياء :

وما مات منّا سيّد فى فراشه * ولا طُلّ منّا حيث كان قتيل

لأنّ صدر البيت [وإن][2] تضمّن وصفَهم بالإقدام والصبر ربّما[3] أوهم العَجز

(١) كذا فى الأصل . يريد : ثم اعتقد كون مدحه الخ وعلى هذا التفسير لا يحتاج فعل « رأى » الى مفعول ثان . وعبارة حسن التوسل : «ثم رأى أن مدحه» الخ والمعنى عليه يستقيم أيضا .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، واستقامة العبارة تقتضى إثباتها؛ انظر حسن التوسل .

(٣) عبارة الأصل : « فيما أوهم الفخر » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

[لأن](١) قتـلَ الجميع يدلّ على الوَهن والقِلّة فكمّله بأخذهم للثأر، وكَمَّل حسنَه بقوله : "حيث كان" فإنه أبلغُ فى الشجاعة؛ ومن ذلك فى النسيب قولُ كُثَيِّر :

لو أن عَزَّةَ حاكمت شمسَ الضحى * فى الحسن عند مُوَفَّق لَقَضَى لهـا

لأن قوله : "عند موفَّق" تكميل للمعنى، إذ ليس كلّ من يحاكَم إليـه موفَّقا؛ ومنه قولُ المتنبّى :

أشَدُّ من الرياح الهُوج بطشا * وأسرَعُ فى الندى منها هُبوبا.

وأما المناسَبة — فهى على ضربين : مناسَبةٍ فى المعنى، ومناسَـبةٍ فى الألفاظ فالمعنويّة أن يَبتدئ المتكلّم بمعنًى، ثم يتمّم كلامه بما يناسبه معنًى دون لفظ، كقوله تعـالى : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فقال تعالى فى صدر الآية التى الموعظةُ فيها سمعيّةٌ : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، وقال بعد ذكر الموعظة : ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ وقال فى صـدر الآية التى موعظتُها مَرئيّـةٌ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وقال بعد الموعظة : ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ .

ومن أمثلة المناسَبة المعنويّة قولُ المتنبّى :

على سـابح مَوْجُ المنـايا بنحره * غَداةَ كأنّ النَّبْلَ فى صدره وَبْل

فإنّ بين لفظة السِّباحة ولفظتَى المَوْج والوَبْل تناسـبا صار البيت به متلاحما؛ وقولُ ابنِ رَشِيق :

أَصَحُّ وأَقوى ما رَوَيناه فى الندى * من الخَبَرِ المأثور منذ قديم

(١) التكملة عن حسن التوسل، واستقامة العبارة تقتضى إثباتها .

أحاديثُ ترويها السيولُ عن الحيي * عن البحر عن جُـود الأمير تميم

فإنه وَفَّى المناسَبةَ حقَّها فى صحة العَنعَنة برواية السيول عن الحيي عن البحر، وجَعَلَ الغاية فيها جُودَ الممدوح .

والمناسَبة اللفظيّة : تَوخِّى الإتيان بكلمات متّزِنات، وهى على ضربين : تامّة وغير تامّة

فالتامّة : أن تكون الكلمات مع الاتّزان مقفّاة، فمن شواهد التامّة قولُه تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ومن الحديث النبوىّ – صلاة الله وسلامه على قائله – قولُ النبى صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين – رضى الله عنهما – : "أعيذُكما بكلمات الله التامّه، من كل شيطان وهامّه، ومن كل عين لامّه" ولم يقل : «ملمّه» وهى القياس لمكان المناسَبة اللفظيّة التامّة ؛

ومن شواهد الناقصـة قولُه صلى الله عليـه وسلم : « ألا أُخبِركم بأحبِّكم إلىّ وأقربِكم منّى مَجالسَ يوم القيامة؟ أحاسنُكم أخلاقا، الموطَّئون أكنافا »

ومما جَمع بين المناسَبتين قولُه صلّى الله عليه وسلّم : «اللّهُم إنى أسألك رحمة تَهدِى بها قلبى، وتَجمع بها أمرى، وتَلُمّ بها شَعَثى، وتُصلِح بها غايتى، وتَرفَع بها شاهدى، وتزكّى بها عملى، وتُلهمنى بها رُشدى، وتَردُّ بها أُلفتى، وتَعصِمنى بها من كلّ سوء، اللهـم إنى أسألك العَونَ فى القضاء، ونُزُلَ الشهداء، وعَيشَ السعداء، والنصرَ على الأعداء" فناسب صلى الله عليه وسلم بين قلبى وأمرى، وغايتى وشاهدى مناسَبة غير تامّة، لأنها فى الزِّنة دون التقفِيَة ، وناسب بين القضاء والشهداء والسعداء والأعداء مناسَبة تامّة فى الزِّنة والتقفية ؛

ومن أمثلة المناسَبتين قولُ أبى تمّام :

مَهَا الوَحشِ إلّا أنّ هاتا أَوانسٌ * قَنا الخَطّ[1] إلا أنّ تلك ذوابل

فناسب بين مَهَا وقَنا مناسَبة تامّة ، وناسب بين الوحش والخطّ ، وأوانس وذوابل مناسَبة غيرَ تامّة .

وأما التفريع — فهو أن يُصدِّر المتكلّمُ أو الشاعر كلامَه باسم مَنفىٍّ بـ"ما" خاصّـة، ثم يصف الأسمَ المنفىّ بمُعظَم أو صافه اللائقةِ به فى الحسن أو القبح، ثم يجعله أصلا يُفرِّعُ منه جملةً من جارٍّ ومجرورٍ متعلّقةً [به][2] تعلّقَ مدحٍ أو هجاء أو فخرٍ أو نسيب أو غيرِ ذلك، يُفهِـم من ذلك مساواةَ المذكور بالاسم المنفىّ الموصوف كقول الأعشى :

ماروضةٌ من رياض الحَزْن مُعشِبةٌ * خضراءُ جادَ عليها مُسبِلٌ هطِـل

يضاحِك الشمس منها كوكبٌ شَرِقٌ[3] * مـؤزَّرٌ بعَميم النبت مكتهِل

يوما بأطْيَبَ منها طِيبَ رائحـةٍ * ولا بأَحسَنَ منها إذ دنا الأُصُـل

وقول عاتِكةَ المرّيّة :

وما طعـم ماء أىِّ ماء تقـوله[4] * تَحـدَّرَ من غُرٍّ طِوال الذوائب

بمنعـرَج مِن بطن وادٍ تقابلت * عليه رياحُ الصيف من كل جانب

(١) يريد خط عمان ، وهو الذى تنسب اليه الرماح الخطية ، قال ابن سيده : الخط سيف البحرين وعمان .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن حسن التوسل ص ٨٠ ط الوهبية .

(٣) كوكب الروضة : نورها . قال فى التهذيب : الكوكب معروف من كواكب السماء، ويشبه به النور فيسمى كوكبا . انظر اللسان مادة كوكب .

(٤) كذا فى الأصـل وزهر الآداب ج ١ ص ١٦٧ ط الرحمانيـة ؛ وعبارة حسن التوسل : « بمزلة » والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

نَفتْ جَرْيَةُ الماء القذى عن مُتونه * فليس بـه عيب تـراه لعائب
بأَطْيَبَ ممن يَقصِر الطرفَ دونه * تقى لله وٱستحياءُ بعض العواقب

وقد وقع الأصل والفرع لأبى تمّام فى بيت واحد، وهو :

مارَبع ميّةَ معمورا يُطيف بـه * غَيْلانُ أبهى ربًا من رَبعها الخَرِب
ولا الخدودُ وإن أُدمِين مِن خَجَل * أَشهى إلى ناظرِى من خدّها الترِب

ومما ورد فى النثر رسالةُ ٱبنِ القُمّىّ التى كتبها إلى سبإ بن أحمد صاحبِ صنعاءَ:

وأمّا حال عبده بعد فراقه فى الجَلَد، فما أمّ تسعة من الولد، ذكور، كأنهم عِقبانُ وُكور، اختُرِم منهم ثمانيه، فهى على التاسع حانيه، فنادى النذير فى الباديه، ياللعادية ياللعاديه ؛ فلما سَمعتْ الداعى (١)، ورأت الخيـل سَواعى، أقبلت تنـادى ولدها : الأَناة الأَناه، وهو يناديها : القَناة القَناه

بَطَـلٌ كأنّ ثيابـه فى سَرْحة (٢) * يُحذَى نعالَ السِّبْت (٣) ليس بتوأم

فلما رَمَقته يختال فى غُضون الزَّرَد المَوْضون (٤) أنشأت تقول :

أَسَـد أَضْبَطُ يمشى * بين طَرْفاءَ (٥) وغِيل
لِبسُـه من نسج داو * دَكضَحْضاح (٦) المَسِيل

(١) فى الأصل : «الكراعى» ؛ وهو تحريف .

(٢) السرحة : واحدة السرح، وهو ماعظم وطال من الشجر، يريد وصفه بطول القامة وضخامة الجسم والبيت لعنترة العبسى .

(٣) السبت بكسر السين : الجلد المدبوغ، وفى المصباح أنه يقال : نعل سبتية : أى لا شعر فيها .

(٤) الموضون : المنسوج حلقتين حلقتين، أو هو المقارب النسيج .

(٥) الطرفاء : من العضاه، وله هدب كهدب الأثل، وليس له خشب، وإنما يخرج عصيا سمحة فى السماء، وقد تخمض به الإبل اذا لم تجد حمضا غيره . والغيل بكسر الغين وتفتح : الشجر الكثير الملتف، أو هو جماعة القصب والحلفاء .

(٦) الضحضاح والضحضح : الماء الذى لا غرق فيه، شبه الدرع به فى بريقه واطراد متنه .

عَرَضَ له فى البادية أَسَدٌ هَصُور، كأنّ ذراعه مَسَدٌ معصور

فتَطاعَنا وتواقفتْ خَيْلاهما * وكلاهمـا بَطَلُ اللقاء مقنَّع

فلمـا سمعَت الرَّعيل، بَرزتْ من الصِّرْم[1] بصبر قد عِيـل؛ فسألت عن الواحد فقيل: لَحَدَه اللّاحد[2]

فكَرَّتْ تبتغيه فصادفَتْـهُ * على دمِه ومَصرَعِه السباعا

عَبَثن به فلم يَتْرُكن إلا * أَدِيما قد تمزق أو كُراعا

بأشدّ من عبده تأسّفا، ولا أعظم كمدا وتلهّفا.

قال: وذكر ابن أبى الإصبع فى التفريع قسما ذَكَره فى صدر الباب، وقال: إنه هو الذى استخرجه، وهو أن يبتدئ الشاعر بلفظة هى إما اسم أو صفة، ثم يكرّرُها فى البيت مضافة إلى أسماء وصفات تتفرع عليها جملةٌ من المعانى فى المدح وغيره، كقول المتنبىّ:

أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء * أنا ابن الضِّراب أنا ابن الطِّعان

أنا ابن الفيـافى أنا ابن القوافى * أنا ابن السُّروج أنا ابن الرِّعان[3]

طَويلُ النِّـجاد طَويلُ العماد * طَويلُ القناة طويل السِّـنان

حَديدُ اللّحاظ حديد الحِفـاظ * حَديدُ الحسام حديد الجَنان.

(١) الصرم بكسر الصاد: الجماعة.

(٢) فى الأصل: «الملاحد»، والميم زيادة من الناسخ.

(٣) الرعان: أنوف الجبال المتقدمة منها، واحده رعن؛ يريد أنه لكثرة قطعه للجبال وسلوكه فيها ومعرفته بشعابها كأنه ابن لها.

وأما نفى الشىء بإيجابه — فهو أن يُثبِت المتكلّم شيئا فى ظاهر كلامه ويَنفىَ ما هو [من][1] سببه مَجازا ، والمنفىّ فى باطن الكلام حقيقة هو الذى أثبته كقول آمرئ القيس :

على لاحب لا يُهتَدَى بمَناره * إذا سافَهُ[2] العَودُ النَّباطىّ جَرجَرا

فظاهر هذا الكلام يَقتضِى إثبات مَنار لهذه الطريق ، ونفىَ الهدايةِ[3] به مجازا وباطنه فى الحقيقة يَقتضِى نَفىَ المَنار جملة ، والمعنى أن هذه الطريقَ لو كان لها منار ما آهتُدِىَ به ، فكيف ولا مَنارَ لها ، كما تقول لمن تريد أن تَسلُبه الخير : ما أقلّ خيرك ! فظاهر كلامك يدلّ على إثبات خير قليل ، وباطنه نَفىُ الخير كثيرِه وقليلِه .

وقولِ الزبير بن عبد المطلب يمدح عُمَيلة بنَ عبد الدار[4] — وكان نديما له — :

صَحِبتُ بهم طَلْقا يَراح الى الندى * اذا ما آنتَشَى لم تَحتضِره مَفاقِرُه

ضعيف بحَثِّ الكأس قَبضُ بنانِه[5] * كَلِيل على وجه النديم أَظافِره

فظاهر هذا أنّ للممدوح مَفاقرَ لم تحتضره إذا انتشَى ، وأنّ له أظافرَ يَخمُش بها وجه نديمه خَمْشا ضعيفا ، وباطن الكلام فى الحقيقة نفىُ المفاقر جملة ، والأَظافرِ بتّة .

(١) فى الأصل : «ما هو سببه» بسقوط «من» وقد أثبتناها عن حسن التوسل وغيره .

(٢) فى الأصل : «ساقه» بالقاف المثناة ، وهو تحريف ، ولا معنى له يناسب السياق ، والتصويب عن شرح ديوان آمرئ القيس . وسافه : شمه . والعود : الجمل المسنّ . وجرجر : رغا ، وإنما يرغو الجمل لمعرفته ببعد الطريق .

(٣) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « ونفى يد الهداية » وفيها قلب وتحريف لا يستقيم بهما المعنى ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا . انظر تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٤٦٥ بلاغة .

(٤) هذه نسبة إلى جده ، أما أبوه فهو السباق بن عبد الدار . انظر المقتضب من جمهرة النسب لياقوت المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٨٥ تاريخ .

(٥) فى الأصل : « بحيث الكأس فضل » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ، والتصويب عن حسن التوسل . وفى تحرير التحبير : «فيض» بفاء موحدة بعدها ياء مثناة ؛ وهو تحريف .

وأما الإيداع — قال : وأكثرُ النـاس يجعلونه من باب التضمين ، وهو منـه إلّا أنه مخصوص بالنثر، وبأن يكون المُودَع نصفَ بيت، إما صدرا أو عَجُزا

فمنه قول عليّ رضى الله عنه فى جواب كتاب لمعاوية :

ثم زَعمتَ أنّى لكلّ الخلفاء حَسَدت، وعلى كلّهم بَغَيت، فإن يكن ذلك كذلك فلم تكن الجناية عليك، حتى تكون المعذِرة إليك * وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها *

وأما الإدماج — فهو أن يُدمِج المتكلم غرضا له فى جملةِ معنًى من المعانى قد نحاه ليُوهِم السامعَ أنه لم يقصـده ، وإنمـا عَرض فى كلامه لتتمّة معناه الذى قصده، كقول عبيد الله بن عبد الله لعبيد الله بن سليمانَ بنِ وهب حين وَزَرَ للمعتضـد — وكان ٱبن عُبَيد الله[1] قد ٱختلّت حاله — فكتب الى ٱبن سليمان :

أَبَى دهرُنا إسعافَنا فى نفوسنا * وأَسـعفنا فيمن نُحِبُّ ونكرِم

فقلتُ له نُعماك فيهـم أَتِمّهـا * ودع أمرَنا إن المهمّ المقـدَّم

فأَدمَج شكوى الزمان فى ضمن التهنئة، وتَلطّفَ فى المسألة مع صيانة نفسـه عن التصريح بالسؤال .

وأما سلامة الٱختراع — فهو أن يَخترِع الشاعر معنًى لم يُسبَق اليـه ولم يَتبعه أحد فيه، كقول عنترة فى الذباب :

هَزِجا يَحُـكُّ ذراعَه بذراعه * قَدْحَ[2] المُكِبّ على الزناد الأجذمِ

وكقول عدىّ بن الرِّقاع فى تشبيه ولد الظبية :

تُرجِى أَغَنَّ كأن إبرة رَوْقِه * قلمٌ أصاب من الدواة مدادَها

(١) عبارة الأصـل : « كقول عبد الله بن عبيد الله لعبد الله » الخ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر معاهد التنصيص ص ٤٠٢ ط بولاق، ووفيات الأعيان ترجمة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

(٢) فى الأصل : « كقدح » ، والكاف زيادة من الناسخ .

وكقول النابغة فى وصف النسور :

تَراهنّ خلف القوم زُورا عيونها (١) * جلوسَ الشيوخ فى مُسوك (٢) الأرانب

وكقول أبى تمّام :

لا تنكرى عَطَل الكريم من الغِنى * فالسَّيل حربٌ للمكان العالى

٥ وقــولِه :

ليس الحجاب بمُقْصٍ عنكَ لى أملا * إنّ السماء تُرجَّى حين تحتجِب

وقولِ ابن حجّاج :

وإنّى (٣) والمولى الذى أنا عبده * طَرِيفان (٤) فى أمر له طَرَفان

بعيدا ترانى منه أقربَ ما تَرَى * كأنّى يومُ العيد فى رمضان.

١٠ وأما حُسن الاتّباع — فهو أن يأتىَ المتكلّم إلى معنًى قد اخترعه غيره (٦٤)
فيتّبعه فيه اتباعا يوجب له استحقاقه ، إما باختصار لفظِه ، أو قِصَر وزنِه
أو عذوبة نَظْمِه ، أو سهولة سَبْكه (٥) ، أو إيضاح معناه ، أو تتميم نقصِه ، أو تحليتِه
بما توجبه الصناعة ، أو بغير ذلك من وجوه الاستحقاقات ؛

كقول شاعر جاهلىّ فى صفة جَمَل :

١٥ وعَوْدٍ قليلِ الذنْب عاودتُ ضربه * إذا هاج شوقى من مَعاهدها ذكر

(١) كذا فى تحرير التحبير لابن أبى الإصبع . وهو جمع أزور ، والأزور الناظر بمؤخر عينيه . والذى فى الأصل : « زرقا » ؛ وهو تحريف .

(٢) المسوك : الجلود ، واحده مسك بفتح الميم .

(٣) فى الأصل وحسن التوسل : «ترانى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد :

٢٠ «طريفان» بإثبات الألف ؛ وانظر تحرير التحبير لابن أبى الإصبع .

(٤) فى الأصل : «ظريفان» بالظاء المعجمة ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : «مسكه» ؛ وهو تحريف .

وقلت له ذلفـاءُ ويحكَ سَبَّبتْ * لك الضربَ فاصبر إنّ عادتك الصبر

فأحسن ابن المعتز اتّباعه حيث قال يصف خيلَه :

وخيلٍ طواها القَوْدُ[1] حتى كأنها * أنابيبُ سمرٌ من قنا الخَطّ ذُبَّلُ

صَبَبنا عليها ظالمين سِياطَنا * فطارت بها أيدٍ سِراعٌ وأرجل

واتّبع أبو نُواس جريرا فى قوله : ٥

إذا غضِبت عليك بنو تميم * حسِبتَ الناس كلَّهمُو غضابا

فقال أبو نواس — ونَقل المعنى من الفخر إلى المدح — :

وليس على الله بمستنكرٍ * أن يجمعَ العالَمَ فى واحد

وقول التُّميرىّ فى أخت الحجّاج :

فهنّ اللواتى إن برَزن قتلننى * وإن غِبن قطَّعن الحشى حَسَرات ١٠

فاتّبعه ابن الرومىّ فقال :

ويلاه إن نَظَرتْ وإن هى أعرضتْ * وَقْعُ السهام ونزعُهنّ أليم.

وأما الذمّ فى معرِض المدح — فهو أن يقصِد المتكلّم ذمّ إنسان فيأتى بألفاظ موجَّهة، ظاهرُها المدح، وباطنها القَدح، فيُوهِم أنه يمدحه وهو يهجوه كقول بعضهم فى الشريف بن الشَّجَرىّ : ١٥

يا سيّدى والذى يعيذك من * نَظْمِ قريض يَصْدا به الفكر

مافيك من جَدّك النبىّ سوى * أنك لا ينبغى لك الشعر.

وأما العُنوان — فهو أن يأخذ المتكلّم فى غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو هجاء أو غير ذلك، ثم يأتى لقصد تكميله بألفاظ تكُون عُنوانا لأخبار متقدِّمة، وقِصص سالفة؛ كقول أبى نُواس : ٢٠

(١) كذا فى الأصل . وفى حسن التوسل : «السير» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

يا هاشم بنَ حُدَيج ليس فخركمو * بقتلِ صِهر رسول الله بالسَّـدَد
أَدرجتمو فى إهاب العَير جُثّتَـه * لبئس ما قدّمت أيديكمو لغـد
إن تقتلوا ٱبنَ أبى بكر فقد قَتلتْ * حُجْرا بدارة مَلْحُوب(١) بنو أَسَد
ويوم قلتم لعمرو وهو يقتلكم * قتل الكلاب لقد أَبرحتَ من ولَد
وربّ كِندِيّة قالت لجارتها * والدمع ينهلّ من مَثْنَى(٢) ومن وَحَد
أَلهَى ٱمرأ القيس تشبيبٌ بغانية * عن ثأره وصفاتُ النُّؤيِ والوَتَد

فقد أتى أبو نواس فى هـذه الأبيـات بعِـدّة عُنوانات : منها قصة قتلِ محمد بن أبى بكر، وقتل حُجْرٍ أبى ٱمرئ القيس، وقتلِ عمرو بن هندٍ كِنْدَةَ فى ضمن هجو من أراد هجوَه، وعيّر(٣) المهجوّ بما أشار اليه من الأخبار الدالّة على هجاء قبيلته ؛

ومثل ذلك قولُ أبى تمام فى ٱستعطاف مالك بن طَوق على قومه :

رَفدوك فى يوم الكُلاب(٤) وشَقَّقوا * فيـه المَزاد بجحفـل غَلّاب(٥)
وهمو بعَين أُباغَ(٦) راشـوا للعِدا * سَهمَيك عند الحـارث الحَرّاب

(١) فى الأصل : «مكحون» ؛ وهو تحريف . وملحوب : اسم ماء لأسد بن خزيمة .
(٢) فى الأصل : «شتى» ؛ وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : « ومعرة الهجو » وهو غير مستقيم ؛ والتصويب عن حسن التوسل .
(٤) الكلاب بضم الكاف : واد يسلك بين ظهرى شهلان ، وفيه كان الكلاب الأوّل والكلاب الثانى من أيام العرب المشهورة ، فأما الكلاب الأوّل فقد كان بين شرحبيل بن الحارث وأخيه سلمة ، ومع شرحبيل بكر بن وائل وبنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، ومع أخيه سلمة بنو قيس . وأما الكلاب الثانى فكان بين بنى سعد والرباب وبين بنى الحارث بن كعب . وقال فى اللسان مادة « كلب » نقلا عن أبى عبيد : كلاب الأوّل وكلاب الثانى : يومان كانا بين ملوك كندة وبنى تميم . وأشار بقوله : «وشققوا فيه المزاد» الى ما فعله السفاح فى هذا اليوم ، وهو أنه ظمأ خيله وسفح ما فى أسقية أصحابه ، وقال : «لا ماء لكم دون الكلاب» ؛ والسفاح ، هو مسلمة بن خالد بن كعب من بنى حبيب بضم الحاء المهملة بن عمرو بن غنم بن تغلب .
(٥) فى الأصل : « كلاب » بالكاف ؛ وهو تحريف ، والتصويب عن ديوان أبى تمام .
(٦) عين أباغ بضم الهمزة وفتحها : واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشأم ، وكان عندها فى الجاهلية يوم لهم بين ملوك غسان ملوك الشام ، وملوك لخم ملوك الحيرة ، قتل فيه المنذر بن المنذر بن ٱمرئ القيس اللخمى .

وليـالىَ الثُّرثار[1] والحَشّاك قـــد * جَلبوا الجيـاد لواحقَ الأَقراب[2]

فمضت كُهولهمو ودَبّر أمرَهم * أحداثُهـــم تدبيرَ غيرِ صـواب

وقال بعد ذلك :

لك فى رسول الله أعظمُ أُسوة * وأَجلُّهـا فى سُـــنّة وكتاب

أَعطى المؤلَّفة القلوبِ رضاهمو * [كَلّا][3] وردَّ أَخائذَ الأحزاب[3]

والجعفريُّون آستقلَّت ظُعْنُهم * عن قومهم وهمو نجوم كِلاب

حتى إذا أَخذ الفراقُ بقسطه * منهم وشَطَّ بهم عن الأحباب

ورأوا بلاد الله قـد لفَظتهمو * أكنافُها رَجعوا إلى جَـوّاب

فأتَوا كريمَ الحِيم مِثلَك صافحا * عن ذكر أحقاد وذكر ضِباب[4]

فانظر الى ما أتى به أبو تمّام فى هـذه الأبيات من العُنوانات من السيرة النبوية وأيام العرب ، وأخبـار بنى جعفر بن كلاب ، ورجوعهم الى آبن عمهم جَوّاب ؛ وكقوله أيضا لأحمد بن أبى دؤاد :

---

(١) الثرثار : واد عظيم بالجزيرة يمتد اذا كثرت الأمطار ، فأما فى الصيف فليس فيه إلا مناقع ومياه حامية وعيون قليلة ، وهو فى البرية بين سنجار وتكريت ، وكان فى القديم منازل بكر بن وائل واختص بأكثره بنو تغلب . والحشاك : هو تل عبدة ، كانت فيه وقعة تغلب على قيس .

(٢) لواحق الأقراب : أى ضمر الخصور .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن ديوان أبى تمام ، وبها يستقيم الوزن . والأخائذ : جمع أخيذة ، وهو فعيلة بمعنى مفعولة ، ولم يرد بالأحزاب هنا من شهدوا غزوة الخندق من المشركين واليهود كما هو المعنى المشهور لهذا اللفظ ، فإنه لم يرو أن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم قد أخذ منهم أخائذ ثم ردها ولكنه ردّ أخائذ هوازن يوم حنين ، وإذن فراده بلفظ «الأحزاب» المعنى العام ، وهو كل من تحزّب على الإسلام ، كما يستفاد ذلك من شرح ديوان أبى تمـام للخطيب التبريزىّ وغيره من كتب السيرة .

(٤) فى الديوان : « مضت » ؛ ومعنى البيت يسـتقيم على كلتا الروايتين . والضباب : الأحقاد واحده ضب بفتح الضاد وتكسر .

تَثَبَّتْ إنّ قـولا كان زُورا * أتى النعمانَ قَبلَك عن زياد
وأَرَّثَ بين حىّ بنى جُلاح * لظى حرب وحىّ بنى مَصاد[1]
وغادَرَ فى صدور الدهر قتْلى * بنى بدر على ذات الإِصـاد[2]

فأتى بعنُوان يشير به الى قصة النابغـة حين وُشِىَ به الى النعمان، فجرّ ذلك من الحروب ما تَضمّنتْ أبياته .

وأما الإيضاح — وهو أن يذكر المتكلّم كلاما فى ظاهره لَبْسٌ، ثم يوضحه فى بقيّة كلامه، كقول الشاعر :

يذكّرُنيك الخـيرُ والشرُّ كلُّه * وقِيلُ الخنا والعلمُ والحلمُ والجهلُ

فإن الشاعر لو آقتصر على هذا البيت لأشكل مراده على السامع بجمعه بين ألفاظ المدح والهجاء، فلما قال بعد :

فألقـاكَ عن مكروهها متنزّها * وألقاكَ فى[3] محبوبها ولكَ الفضل

أَوضح المعنى المرادَ، وأزال اللّبس، ورَفع الإشكالَ والشك .

وأما التشكيك — فهو أن يأتىَ المتكلّم فى كلامه بلفظة تشـكّك المخاطَب هل هى فَضلةٌ أو أصليّة لا غِنى للكلام عنها؟ مِثلُ قوبه تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ فإن لفظة بِدَيْنٍ تشكّك السامعَ هل هى فَضلةٌ أو أصليّة ؟ فالضعيف النظر يظنّها فَضلةً لأن لفظةَ تداينتم تغنِى عنها ، والناظر فى علم البيان يعلم أنها أصليّة

(١) أرّث النار : أوقدها .

(٢) هو اسم ماء لطم عليه داحس فرس قيس بن زهير، فكان من ذلك حرب داحس والغبراء، أو هو ردهة فى ديار عبس وسط هضب القليب يا قوت .

(٣) فى الأصل : «عن» ؛ وهو تحريف .

لأن لفظة الدَّين لها محامل، تقول : داينتُ فلانا المودّةَ ، يعنى جازيتُـه ، ومنه : «كما تَدين تُدان » ومنه قولُ رُؤبة :

داينتُ أَروَى والدُّيون تُقضَى * فمَطَلتْ بعضا وأدّت بعضـا

وكلّ هـذا هو الدَّيـن المجازىّ الذى لا يُكتَب ولا يُشهَد عليه، ولمّـا كان المراد من الآية تمييزَ الدَّين المـالىّ الذى يُكتَب ويُشهَد عليه ، وتيسيرَ أحكامه[1]، أوجبت البلاغة أن يقول : «بدَين » ليُعلَم حُكمُه .

وأما القول بالموجِب — فهو ضربان :

أحدهما أن تقع صفةٌ فى كلامِ مدّعٍ شـيئًا يَعنِى به نفسَه ، فثبتت تلك الصفة لغيره من غير تصريح بثبوتها له ، ولا نفيها عنه[2]، كقولِه تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم كنَوْا بالأعزّ عن فريقهم، و بالأذلّ عن فريق المؤمنين، فأثبت الله عزّ وجلّ صفةَ العِزّةِ لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرّضٍ لثبوت حُكم الإخراج بصفة العزّة ولا لنفيه .

والثانى حَمْلُ كلام المتكلّم مع تقريره على خلاف مراده مما يَحتمِلُه بذكر متعلّقـه كقول الشاعر[3] :

---

(١) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل : « وتبين » ؛ والمعنى يستقيم على كليهما .

(٢) كذا ورد هذا التعريف فى الأصل وحسن التوسل . وهو غير ظاهر، إذ أن الذى لا يصرح بثبوته ولا بنفيه إنما هو الحكم الذى ثبتت بواسطته تلك الصفة، لا نفس الصفة، كما يفهم مما يأتى بعد الآية الكريمة . وعبارة التلخيص : « أحدهما أن تقع صفة فى كلام الغير كناية عن شىء أثبت له حكم فتثبتها لغيره من غير تعرض لثبوته له أو نفيه عنه » . وقال فى الإيضاح فى شرح قوله : « من غير تعرض لثبوته له » ما نصه : « أى ثبوت ذلك الحكم لذلك الغير » الخ .

(٣) هو ابن حجاج .

قلتُ[1] : ثَقُلتُ إذ أتيتُ مِرارا * قال[1] : ثَقُلتَ كاهلِي بالأيادى
قلتُ : طَوَلتُ قال : [لى][2] بل تَطوّلـــتَ : وأَبرَمتُ قال : حبلَ الوداد

(٦٦)

ومنه قولُ الأَرَّجانىّ : * غالطْتنى إذ كست جسمى ضنًى * البيتين، وقد تَقدّم الاستشهاد بهما فى الاستدراك .

٥ وللمولى شهاب الدين محمود الحلبىّ الكاتبِ فى ذلك :

رَأتنى وقد نال منّى النُّـــحول * وفاضت دموعى على الخدّ فيضا
فقـالت : بعينىّ هذا السّقام * فقلتُ : صدقتِ، وبالخصر أيضا

وقولُ محاسن الشّوّاء :

ولَمّـا أتانى العاذلون عدمتُهم * وما فيهمو إلا لِلحمىَ قارِض
١٠ وقد بُهتوا لمّـا رأونى شاحبـا * وقالوا : به عَينٌ فقلتُ : وعارِض .

وأما القلب — فهو أن يكون الكلم أو البيتُ كيفما انقلبَتْ حروفه كان بحاله لا يَتغيّر، ومنه فى التنزيل قولُه تعالى : ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وقولهُم : ساكبُ كاس ؛

ومنه قولُ العِماد الأَصْفهانىّ للقاضى الفاضل : سِرْ فلا كَبا بك الفَرَس، وجوابُ
١٥ القاضى الفاضل له : دام عُلا العماد، وهى أوّل قصيدة للأَرَّجانىّ، مَطلَعها : «دام عُلا العماد» ، ومن ذلك قولُ الأَرَّجانىّ :

مَودّتُه تدوم لكلّ هَول * وهـل كلُّ مَودّتُه تدوم

(١) كذا فى الأصل وحسن التوسل . والذى فى خزانة الأدب لابن حجة ص ١٤٥ ط بولاق : «قال ثقلت» فى صدر البيت الأول، وفى عجزه : «قلت» وكذلك فى البيت الثانى ؛ وكلتا الروايتين تؤدى
٢٠ معنى صحيحا .

(٢) فى الأصل : «قال بل» بإسقاط «لى» ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل إذ بها يستقيم الوزن .

وأما التنذير — فهو أن يأتىَ المتكلّم بنادرة حلوة ، أو نكتة مستظرَفة يُعرّض فيها بمن يريد ذمّه بأمر[(١)]، وغالب ما يقع فى الهَزْل، فمنه قول أبى تمام فيمن سَرق له شِعرا :

مَن بنُو بَجْدَلٍ، مَن ٱبْنُ الحُباب[(٢)] * مَن بنُو تَغلِب غَداة الكُلاب

مَن طُفَيلٌ، مَن عامرٌ، أم مَن الحا * رثُ ، أم مَن عُتَيبةُ بن شِهاب

إنما الضَّيغم الهَصُور أبو الأشـ * ـبال هَتّاكُ كلِّ خِيس[(٣)] وغاب

مَن عدت خيلُه على سَرْح شِعرى * وهو لِلحَين راتعٌ فى كتاب

ياعَذارى الكلام صرتنّ من بَعـ * ـدى سبايا تُبَعن فى الأعراب

لو تَرى مَنطِقى أسيرا لأصبحتَ أسيرا ذا عَبْرة وٱكتئاب

طال رَغْبى إليك مما أقاسيـ * ـه ورُهبى ياربّ فاحفظ ثيابى

ومن ذلك ما قاله شهاب الدين بنُ الخِيمىّ يُعرِّض بنجم الدين بنِ ٱسرائيلَ لمّا تنازعا فى القصيدة المعروفةِ لابن[(٤)] الخِيمىّ التى أوّلها :

* يامَطلَبا ليس لى من غيره أَرَب *

فقال من قطعة منها :

هُمُ العُرَيْبُ بنجـد مذ عرَفتُهمو * لم يَبقَ لى معهم مالٌ ولا نَشَب

فما أَلَمُّوا بحىٍّ أو أَلَمّ بهم * إلا أغاروا على الأبيات وٱنتَهَبوا

لم يُبقِ مَنطِقه قولا يروق لنا * لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب.

(١) أراد به محمد بن يزيد الأموىّ . انظر شرح ديوان أبى تمام للخطيب التبريزى المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش .

(٢) أراد عمير بن الحباب السلمىّ انظر شرح ديوان أبى تمام المتقدّم .

(٣) فى الأصل : «جيش» بجيم فوقية وشين معجمة ، وهو تصحيف . وخيس الأسد : عرينه .

(٤) فى الأصل « بابن » بالباء ؛ وهو تحريف ، والسياق يقتضى اللام .

وأما الإسجال بعد المغالَطة — فهو أن يقصد الشاعر غرضا من ممدوح فيَشترِط لحصوله شرطا، ثم يقدِّر وقوعَ ذلك الشرط مغالَطة ليُسجِّل به ٱستحقاقَ مقصوده، كقول بعضهم :

جاء الشتاء وما عندى لقِرْته * إلا ٱرتعادى وتصفيق بأسنانى

فإن هَلَكتُ فمولانا يكفّننى * هَبنى هَلَكتُ فهَبنى بعض أكفانى.

وأما الٱفتنان — فهو أن يأتىَ الشاعر بفنَّين متضادَّين من فنون الشعر فى بيت واحد، مِثلِ التشبيب والحماسة، [والمديح](١) والهجاء، والهناء والعزاء

فأما ماجُمِع فيه بين التشبيب والحماسة فكقول عنترة :

إن تُغْدِفى دونى القِناع فإننى * طَبٌّ(٢) بأخذ الفارس المستلئم

وكقول أبى دُلَف — ويُروَى لعبد الله بن طاهر — :

أُحبّكِ ياجِنان وأنتِ منّى * محَلَّ الرُّوح من جسد الجبان

ولو أنى أقول محَلَّ روحى * لخِفتُ عليكِ بادرةَ الطِّعان .

وأما ماجُمِع فيه بين تهنئةٍ وتعزيةٍ فقد تقدّم ذكر ذلك فى بابَى التهانى والتعازى ومنه فيما لم نورده هناك ما كتب به المولى شهاب الدين محمود الكاتبُ تهنئة وتعزية لمن رزق ولدا ذكرا فى يوم ماتت له فيه بنت :

ولا عَتْب على الدهر فيما ٱقترَف، فقد أحسن الخَلَف، واعتذرَ بما وَهَب عما سَلب، فعفا الله عمّا سلف .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وصحة التمثيل تقتضى إثباتها.

(٢) أغدفت المرأة قناعها : أرسلته على وجهها . والطب بفتح أوّله : الماهر الحاذق .

وأما الإبهام — بباء موحّدة فهو أن يقول المتكلّم كلاما مبهَمًا يَحتمِل معنيين متضادّين ، كقول بعضهم فى الحسن بن سَهل لما تزوّج المأمون ببنته بُوران :

بارك الله للحسَن * ولبُورانَ فى الخَتَن

يا إمام الهدى ظَفِر * تَ ولكن ببنت مَن

فلم يُعرَف مرادُه «ببنت من» هل أراد به الرفعة أو الضعة ؟

ومنه قولُ بشّار فى خياط أعورَ اسمه عمرو :

خاط عمرو لى قَباء * ليت عينيه سواء

فأبهم المعنى فى الدعاء له بالدعاء عليه .

وأما حصر الجزئىّ وإلحاقه بالكلىّ — فهو كقول السَّلامىّ :

إليك طوى عَرضَ البسيطة جاعلٌ * قُصارى المطايا أن يلوح لها القَصر

فكنتُ وعزمى فى الظلام وصارمى * ثلاثةَ أشباه[1] كما اجتَمَع النَّسر

وبَشّرتُ آمالى بمَلْك هو الورى * ودارٍ هى الدنيا، ويومٍ هو الدهر.

فأما حَصرُ أقسام الجزئىّ فإن العالَم عبارةٌ عن أجسامٍ وظروفِ زمانٍ وظروفِ مكانٍ، وقد حَصَر ذلك ؛

وأما جعلُه الجزئىّ كلّيًا فإن الممدوح جزء من الورى، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء من الدهر .

(١) كذا فى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٦٣ ط الحفنية ، وخزانة الأدب للحموى ص ٤٥٤ ط بولاق، وتحرير التحبير لابن أبى الإصبع المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٤٦٥ بلاغة . وفى الأصل : أشياء؛ وما أثبتناه أقرب الى معنى البيت، وأظهر فى المراد .

وأما المقارَنة — فهى أن يَقرِن الشاعر الاستعارةَ بالتشبيه أو المبالَغةِ أو غير ذلك بوَصل يَخفَى أثره إلّا على مُدْمِن النظر فى هذه الصناعة، وأكثرُ ما يقع ذلك بالجُمَل الشرطيّة، كقول بعض شعراء المَغرِب[1] :

وكنتَ إذا آستُزِلتَ من جانب الرضى * نزلتَ نزولَ الغيث فى البلد المَحْل

٥ وإن هَيّج الأعداء منك حَفيظةً * وقعتَ وُقوعَ النار فى الحطب الجَزْل

فإنه لاءم بين الاستعارة والتشبيه المنزوع الأداةِ[2] فى صدرَىْ بيتَيه وعَجُزيهما .

وأما ما قُرِنتْ به الاستعارةُ من المبالَغة فمثاله قولُ النابغةِ الذُّبيانىّ :

وأنتَ رَبيع يُنعِش الناسَ سَيبُه * وسيف أُعيرتْه المنيّة قاطِع

فإن فى كل من صدر البيت وعجزه آستعارة ومبالغة ، وإنما التى فى العجز أبلغ .

١٠ ومما آقترَن فيه الإرداف بالاستعارة قولُ تَميم بن مُقْبِل :

لدن غُدْوة حتى نَزَعنا عشيّة * وقدمات شَطر الشمس والشَّطرُ مُدْنَف

فإنه عَبّر بموت شَطر الشمس عن الغروب، وآستعار الدَّنَف للشطر الثانى .

وأما الإبداع — فهو أن يأتى فى البيت الواحد من الشِّعر، أو القرينةِ الواحدةِ من النثر بعِدّة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جُمَله ، وربما كان

١٥ فى الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع ، ومتى لم تكن كلّ كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع

قال آبن أبى الإصبَع : وما رأيتُ فيما آستقرَيتُ من الكلام كآية آستخرجْتُ منها أحدا وعشرين ضربا من المحاسن، وهى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ

(٦٨)

(١) هو إدريس بن اليمان كما فى تحرير التحبير لابن أبى الإصبع .

٢٠ (٢) فى الأصل : «الإرادة» ؛ وهو تحريف .

و ياسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ : وهى المناسَبة التامّة فى «ٱبْلَعِي» و «أَقْلِعِي» ؛ والمطابَقة بذكر الأرض والسماء ؛ والمَجاز فى قوله : «يَاسَمَاءُ» ، فإن المراد — والله أعلم — يامطرالسماء ؛ والاستعارة فى قوله تعالى : «أَقْلِعِي» ؛ والإشارة فى قوله تعالى : «وَغِيضَ الْمَاءُ» فإنه عبّر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة ؛ والتمثيل فى قوله تعالى : «وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ» فإنه عبّر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بغير لفظ المعنى الموضوع له ؛ والإرداف فى قوله : «وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ» فإنه عبّر عن ٱستقرارها بهذا المكان ٱستقرارا متمكّنا بلفظ قريب من لفظ المعنى ؛ والتعليل ، لأن غَيض الماء علّة الاستواء ؛ وصحة التقسيم إذ استوعب اللهُ تعالى أقسامَ أحوال الماء حالةَ نقْصه ، إذ ليس إلا ٱحتباسَ ماء السماء ، وٱحتقانَ الماء الذى ينبُع من الأرض ، وغَيضَ الماء الحاصل على ظهرها ؛ والاحتراسُ فى قوله تعالى : «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ» إذ الدعاء عليهم يُشعِر أنهم مستحقّو الهلاك ٱحتراسا من ضعيف العقل يَتوهّم أن العذاب شَمِل من يَستحقّ ومن لا يَستحقّ ، فتأكّد بالدعاء كونُهم مستحقّين ؛ والإيضاح فى قوله : «لِلْقَوْمِ» ليبيّن أن القوم الذين سبق ذكرهم فى الآية المتقدّمة حيث قال : ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ هم الذين وصَفَهم بالظلم ليُعلَم أن لفظة القوم ليست فضلة وأنه يحصل بسقوطها لَبسٌ فى الكلام ؛ والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها ؛ وحُسنُ النسق ، لأنه تعالى عطف القضايا بعضَها على بعض بحسن ترتيب ؛ وائتلاف اللفظ مع المعنى ، لأن كلّ لفظة لا يَصلُح موضعَها غيرُها ؛ والإيجاز ، لأنه سبحانه وتعالى ٱقتصّ القصّة بلفظها مُستوعَبة بحيث لم يُخِلّ منها بشىء فى أقصر عبارة ؛ والتسهيم ، لأن أوّل الآية الى قوله : «أَقْلِعِي»

يقتضى آخرها[(١)]؛ والتهذيب، لأنّ مفرداتِ الألفاظ موصوفةٌ بصفات الحسن، عليها رونق الفصاحة، سليمةٌ من التعقيد والتقديم والتأخير؛ والتمكّن، لأن الفاصلة مستقرّةٌ فى قرارها، مطمئنّةٌ فى مكانها؛ والانسجام، وهو تحدّر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء؛ وما فى [مجموع][(٢)] الآية من الإبداع، وهو الذى سُمّى به هذا الباب . فهذه سبع عشرة لفظةً تضمّنتْ أحدا وعشرين ضربا من البديع غيرَ ما تكرر من أنواعه فيها .

وأما الانفصال — فهو أن يقول المتكلّم كلاما يَتوجّه عليه فيه دَخَلٌ لو اقتصر عليه، فيأتى بما يفصله عن ذلك الدَّخَل، كقول أبى فِراس :

ولقد نُبِّئتُ إبليـ * ـس إذا راكَ يَصُدّ
ليس مِن تقوى ولكن * ثِقَل فيك و بَرْدُ

والفرقُ بين هذا و بين الاحتراس خلوُّ[(٣)] الاحتراس من الدَّخل عليه من كلّ وجه .

وأما التصرف — فهو أن يتصرّف المتكلّم فى المعنى الذى يقصِده، فيُبرزه فى عِدّة صور : تارة بلفظ الاستعارة، وطَورا بلفظ التشبيه، وآونة بلفظ الإرداف وحِينا بلفظ الحقيقة، كقول امرئ القيس يصف الليل :

وليلٍ كموج البحر مُرخٍ سُدُوله * علىّ بأنواع الهموم ليَبتلى
فقلتُ له لمّا تمطّى بصُلْبه * وأردَف أعجازا وناءَ بكَلكَل

فإنه أبرز المعنى بلفظ الاستعارة، ثم تَصرّف فيه فأتى بلفظ التشبيه فقال :

(١) فى الأصل : « نقيض » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . واستقامة الكلام تقتضى إثباتها . انظر تحرير التحبير لابن أبى الإصبع .

(٣) فى الأصل : « عموم » ؛ وهو تحريف .

فيالك من ليل كأنّ نجومَه * بكلّ مُغار الفتل شُدّت بيَذبُلِ[1]

ثم تَصرّف فيه فأخرَجه بلفظ الإرداف فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا آنجلى * بصبح وما الإصباح منك[2] بأمثَل.

وأما الآشتراك — فمنه ما ليس بحَسَن ولا قبيح، وهو الآشتراك فى الألفاظ مثل آشتراك الأُبَيْرِد وأبى نواس فى لفظة الآستعفاء، فإن الأُبَيْرِد قال فى مَرثية أخيـــه :

وقد كنتُ أَستعفى الإلهَ إذا آشتكى * من الأجر لى فيه وإن عَظُم الأجر

وقال أبو نواس :

ترى العين تستعفيك من لمعانها * وتَحسِر[3] حتى ما تُقِلّ جفونَها

ومنه الحسَن، وهو الآشتراك فى المعنى، كقول آمرئ القيس :

كبِكْر المُقاناة[4] البياضِ بصُفرة * غَذاها نَمير المـاء غيرُ المُحَلَّل[4]

وقولِ ذى الرُّمّة :

كَلاءُ فى بَرَجٍ[5] صفراء فى دَعَجٍ[5] * كأنها فضّة قد مسّها ذهب

(١) يذبل : جبل بنجد فى طريقها يا قوت .

(٢) فى الأصل : «فيك» ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : «وتحسن» ؛ بالنون ؛ وهو تحريف . وهذا البيت فى صفة الخمر ؛ يريد أن العين تكلّ عن النظر إليها من شدّة لمعان هـذه الخمر وبريقها حتى إن العين تستعفى الناظر من أن يكلفها النظر إليها، أى تطلب منه أن يعفيها من ذلك .

(٤) المقاناة من قانيت بين الشيئين : أى خلطت أحدهما بالآخر . والمحلل : الذى لم يكثر حلول الناس عليـه فيكدرونه بكثرة ورودهم ؛ يريد تشبيه محبوبته ببيضة النعامة التى يخالط بياضها صفرة ، وهو من الألوان التى تحمد عند العرب ؛ وأن غذاءها الماء العذب الصافى الذى لم يكدره الواردون .

(٥) البرج بفتح أوّله وثانيه فى العين : نقاء بياضها وصفاء سوادها ، أو هو اتساعها . والدعج : شدّة سواد العين .

فوقع[1] الاشتراك بينهما فى وصف المرأة بالصُّفرة ، غيرَ أنّ الأوّل شبّه الصفرة ببَيضة النعامة، والآخر وَصَفها بالفضّة المُموَّهة؛

ومن الاشتراك المعنوىّ ما ليس بحسَن ولا مَعيب، كقول كُثيّر :

وأنتِ التى حَبّبتِ كلّ قَصيرة * إلىّ وما تدرى بذاكِ القصائر

عَنَيتُ قَصيراتِ الحِجال ولم أُرِد * قِصارَ الخُطَا، شرُّ النساء البحاتر[2]

فإن لفظة قصيرة مشتركة ، فلو اقتصر على البيت الأوّل لكان الاشتراك مَعيبا لكنه لما أتى بالبيت الثانى زال العيب، ولم يَبلُغ رتبة الحسن لِما فيه من التضمين.

وأما التهكّم — فالفرق بينه و بين الهَزْل الذى يراد به الجِدُّ أن التهكّم ظاهره جِدٌّ و باطنه هَزْل، والهَزْل الذى يراد به الجِدُّ على العكس منه، فمن التهكّم قولُ الوَجيه الذرْوىّ فى ابن أبى حصينة من أبيات :

لا تَظنّنّ حَدْبة الظَّهر عيبا * فهى فى الحُسن من صفات الهلال

وكذاكَ القِسىّ مُحدَودِباتٌ * وهى أنكَى من الظُّبا والعَوالى

و إذا ما علا السَّنام ففيه * لقُروم الجِمال أىُّ جَمال

وأرَى الانحناء فى مِخلَب البا * زى ولم يَعْدُ مِخلَبَ الرئبال

كوّن الله حَدْبة فيك إن شئـ * ـتَ من الفضل أو من الإفضال

فأتت رَبْوةً على طَود علم * وأتت مَوْجةً بحر نوال

ما رأتها النساء إلا تمنّت * أنها حِليةٌ لكلّ الرجال

(١) فى الأصل : « فوقوع » ؛ والواو الثانية زيادة من الناسخ .

(٢) البحاتر : القصار من النساء، واحده بحترة .

ثم ختمها بقوله :

وإذا لم يكن من الهجر بُدٌّ * فعسى أن تزورنا[(١)] فى الخيال

وكقول ابن الرومىّ :

فيـاله مِن عمـل صالح * يرفعـه الله إلى أسـفل .

وأما التدبيج — وهو أن يَذكر الشاعر أو الناثر ألوانا يَقصِد بها الكنايةَ أو التوريةَ بذكرها عن أشياءَ من وصف أو مدح أو هجاء أو نَسِيب أو غيرِ ذلك من الفنون ، فمن ذلك قولُ الحِرِيرِىّ فى بعض مقاماته : فمذ آزوَرَّ المحبوبُ الأصفر وآغبرّ العيش الأخضر ، اسودّ يومى الأبيض ، وآبيضّ فَوْدِى[(٢)] الأسودَ ، حتى رَثَى لى العدوّ الأزرق ، فحبّذا الموتُ الأحمر .

وهذا التدبيج بطريق التورية . وقال بعض المتأخِّرين يصف موقف السلطان الملك الناصر بمَصاف شَقْحَب[(٣)] الكائن بينه وبين التتار فى شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائة :

وما زال بوجهه الأبيض ، تحت عَلَمه الأصفر ، يكابِد الموت الأحمر ، تجاه العدوّ الأزرق ، الى أن حال بينهما الليل الأسود ، وبَكَّر فى غُرّة نهار الأحد الأشعل وآمتطَى السبيل الأَحوَى الى أن حلّ بالأَبلَق . يريد بالأبلق : القصرَ الظاهرىَّ الذى بالمَيْدان الأخضر بظاهر مدينة دِمَشق ؛ ومن أمثلة هذا الباب[(٤)] قولُ ابن حَيُّوس الدِّمَشقى :

(١) فى الأصل : «تزورينى» ؛ والياء زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : «يومى» ، وهو تحريف .

(٣) قال فى القاموس شقحب كجعفر : موضع قرب دمشق . والذى يستفاد من تاريخ أبى الفداء ج ٤ ص ٥٠ ط القسطنطينية أن هذا الموضع فى طرف مرج الصُّفَّر .

(٤) فى الأصل : «البيت» ؛ وهو تحريف .

إن تُرد عِلْم حالهم عن يقين * فألقهم يوم نائل أو قتال
تلق بِيضَ الوجوه سُودَ مُثار النَّـ * ـقع خُضرَ الأكناف حُمرَ النِّصال .

وأما الموجّه — فهو الذى يَمدح[1] بشىء يَقتضى المدح بشىء آخَر، كقول المتنبّى :

نَهبتَ من الأعمار مالو حَويتَه * لهنّئت الدنيا بأنك خالد

وكقوله أيضا :

عُمْر العدوّ إذا لاقاه فى رَهَج * أقلُّ مِن عُمْر ما يَحوى إذا وَهَبا

فأوّل البيتين وصفٌ بفرط الشجاعة، وآخر الأوّل بعلوّ الدرجة ، وآخر الثانى بفرط الجـــود .

وأما تشابه الأطراف — فهو أن يَجعل الشاعر [قافيةَ][2] بيته الأوّلِ أوّلَ البيت الثانى، وقافيةَ الثانى أوّلَ الثالث، وهكذا إلى انتهاء كلامه، ومِن أحسنِ ما قيل فيه قولُ ليلى الأَخْيَلِيّة تمدح الحجّاج :

إذا نزل الحجّـاج أرضا مريضة * تَتَبَّـعَ أقصى دائهـا فشَفاها
شَفاها مِن الداء العُضال الذى بها * غلام اذا هَزّ القناة ســقاها
ســقاها فروّاها بشُرب سِجالهـا * دماءَ رجال يَحلُبون صَراها[3] .

هذا ما أَورده فى حسن التوسّل من علوم المعانى والبيان والبديع، وقد أَتينا على أكثره بنَصّه لِمَـا رأيناه من حسن تأليفه ، وبديع ترصيفه ، وأنّ اختصاره لا يمكن

(١) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل : « هو أن يمدح » ؛ وهو أظهر، فإن التعريف عليه يكون لنفس هـذا النوع من الكلام؛ ومقتضى عبارة الأصل أن التعريف لنفس المتكلم، وهو غير ما سار عليه فى تعريف سائر الأنواع .

(٢) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن حسن التوسل ، إذ بها يستقيم التعريف .

(٣) الصرى : اللبن الفاسد المتغير الطعم ، استعارته هنا للدماء .

إلا عند الإخلال بفائدة لا يُستغنَى [عنهـا](١) فلم نحذف منه إلا ما تكرّر من الأمثلة والشواهد ، لاستغنائنا بما أوردناه عمّا حذفناه ، فالنِّسبةُ فيه إلى فضائله وفضله والعُمدةُ على شواهـده ونقله ؛ فلقـد أحسن التأليف ، وأجاد التعريف ، واحتمل التوقيف ؛ وحرّر الشواهد ، وأوضح السبيل حتى صار الغائبُ عن هذه الصناعة إذا طالع كتابه كالشاهد ؛ وأبدع فى صـناعة البـديع ، وبيّن علم البيان بحسن الترصيف والترصيع ؛ واعتنى بألفاظ المعـانى فصرّف أعنّتهـا ببنانه ، وأبان مُشكلَها فأحسن فى بيانه ؛ وحلّ من التعقيد عِقالهـا الذى عجز غيرُه عن حلّه ، وسهّل للأفهام مقالها فأبرزته الألسنة من مُحرَّم اللفظ إلى حِلّه ؛ فله المِنّةُ فيما ألّف ، والفضلُ بما صنّف .

وأما ما يتصـل بذلك من خصائص الكتابة — فالاقتباس والاستشهاد والحل :

[فالاقتباس](١) هو أن يُضمّن الكلام(٢) شيئا من القرآن أو الحديث ، ولا يُنبّه عليه للعِلم به ، كما فى خُطَب ابن نُباتة ، كقوله : فيا أيهـا الغَفَلةُ المُطرِقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدِّقون ؟ مالكم لا تُشفِقون ؟ ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ . وكقوله أيضـا : يوم يبعث الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لجهنّم وَقُودا ، يوم تكونون "شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

ومن ذلك ما أورد المولى شهابُ الدين محمود فى تقليد عن الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بالسلطنة ، جاء منـه : وجمع بك شمل الأمة بعد أن "كَادَ يَزِيغُ

(١) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل . والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) كذا فى حسن التوسل . والذى فى الأصل : « الكاتب » .

قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ"، وعضدك لإقامة إمامته بأولياء دَوْلتك الذين رَضِىَ الله عنهم؛ وخصّك بأنصار دينه الذين نَهَضوا بما أُمِروا به من طاعتك وهم فارهون، وأظهرك على الذين "ابْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ" وأمثال ذلك . (٧١)

٥ وأما الاستشهاد بالآيات — فهو أن ينبّه عليها، كقول الحَرِيرىّ: فقلتَ وأنت أصدق القائلين: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ونحو ذلك .

وفى الأحاديث بالتنبيه عليها أيضا، كقول المولى شهاب الدين محمود فى خُطبة تقليدٍ حاكمىّ: ونصلى على سيدنا محمد الذى استخرجه الله من عُنْصُر أهله وذويه، وشَرَّف قدر جَدّه بقوله فيه: "إنّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيه" وسَرَّه بما أَسَرَّ إليه من أنّ

١٠ هذا الأمر فُتِح به ويُختَم ببنيه . وأمثالُ ذلك [لا تُحصَر](١) .

[وأما الحَلّ](١) — وهو باب مُتّسِع المجال، ومَلاك أمر المتصدّى له أن يكون كثير الحفظ [للأحاديث(١) النَّبَوِيّة والآثارِ والأمثالِ والأشعارِ ليُنفِقَ منها وقت الاحتياج اليها] .

قال: وكيفيّة الحَلّ أن يَتوخّى هَدمَ البيت المنظوم، وحَلَّ فرائده من سِلكه، ثم

١٥ يرتِّب تلك الفرائدَ وما شابهها ترتيبَ متمكّن لم يَحْصُرْه الوزن، ويُبرِزَها فى أحسنِ سلك، وأجملِ قالَب، وأصحّ سَبْك، ويكمّلها بما يناسبها من أنواع البديع إن أمكن ذلك من غير كُلْفةٍ، ويَتخيَّرَ لها القرائن، واذا تم معه المعنى المحلول فى قرينة واحدة يَغْرَم له من حاصل فِكْره، أو من ذخيرة حفظه ما يناسبه، وله أن يَنقُل المعنى إذا لم يُفسده إلى ما شاء، فإن كان نَسِيبا وتأتّى له أن يجعله مديحا فليفعل، وكذلك غيرُه

٢٠ (١) هذه التكملة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن حسن التوسل .

من الأنواع ؛ واذا أراد الحَلّ بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسِبةً لألفاظ البيت المحلول غيرَ قاصرة عنها، فمتى قَصُرت عنها ولو بلفظة واحدة فســد ذلك الحلّ وعُدّ معيبا ؛ واذا حَلّ باللفظ فلا يَتصرّف بتقديم ولا تأخير ولا تبديل إلا مع مُراعاة نظام الفصاحة فى ذلك ، واجتنابِ ما يَنقُص المعنى ويَحطّ رتبته ؛ وهذا الباب لا تنحصر المقاصد فيه، ولا حَجْرَ على المتصرِّف فيه . ٥

قال : ومما وقع التصرّف فيه بزيادة على المعنى قولُ ضياء الدين بنِ الأثير الجَزَرىّ فى ذكر العصا التى يَتوكّأ عليهـا الشـيخ الكبير : وهذه لمبتدا ضَعفى خَبَر، ولِقَوس ظهرى وَتَر، واذا كان إلقاؤها دليلا على الإقامة فإنّ حَمْلَها دليل على السَّفر .

والمحلول فى ذلك قولُ بعضهم :

١٠ * كأنّنى قَوسُ رامٍ وهى لى وَتَرُ *

وقولُ الآخر :

فألقت عصاها وٱستقرّت بها النوَى * كما قَرّ عَينـا بالإياب المسافرُ.

وأما ما يحتاج فيه الى مؤاخاة القرينة المحلولة بمثلِها أو ما يناسبها فكما قال المولى شهاب الدين محمود فى تقليد :

١٥ فكم مَلَّ ضَوءُ الصبح ممـا يُغيره، وظَلامُ النَّقْع مما يُثيره ؛ وحَديد الهند مما يلاطمه والأجَلُ مما يسابقه الى قَبْض الأرواح ويزاحمه .

والقَرينتان الأولَيان نِصْـفا بيتين للمتنبّى ، فأضـاف الى كل قرينة ماينـاسبها ، وهذا مِن أكثرِ ما يستعمل فى الكتابة، ولا يَنبغى للكاتب أن يعتمـد فى جميع كتابته على الحَلّ، فيتّكِلَ خاطره على ذلك، ويَذهب رَوْنقُ الطبع السليم، وتَقلّ مادّة الانسجام بل يكون ٱستعمال ذلك كاستعمال البديع اذا أتى عفْوا من غير تكلّف ليكون كالشاهد ٢٠

على صحة الكلام ، والدالّ على الاطلاع ، وكالرَّقم فى الثوب ، والشَّذْرة فى القِلادة والواسطةِ فى العِقد ، إذ لا ينبغى للكاتب أن يُخْلِىَ كلامه من نوع من أنواع المحاسن .

ويقرُب من هـذا النوع التلميح ، وقد تقدّم ذِكره فى بعض أبواب البديع ، والذى يقع فى بعض آستعماله فى مِثل ذلك مِثلُ قول الحَرِيرىّ : وإنّى والله لطالما لقِيت الشتاء بكافاته ، وأعددتُ الأُهْبَةَ له قَبْل مُوافاته . يشير الى بيتَى آبنِ سُكّرة :

* جاء الشتاء وعندى من حوائجه *

وهى مشهورة .

فإذا عرف الكاتب هـذه العلوم ، وأتى الصناعة من هذه الأبواب تعيَّن عليه أمورٌ أُخَرُ نذكرها الآن .

ذكر ما يتعين على الكاتب آستعماله والمحافظة عليه والتمسّك به وما يجوز فى الكتابة وما لا يجوز

قال إبراهيم بنُ محمد الشَّيْبَانىّ : فإن آحتجتَ الى مخاطَبة الملوكِ والوزراءِ والعلماءِ والكتّابِ والأدباءِ والخطباءِ والشعراءِ وأوساطِ الناس وسُوقتهم ، فخاطِبْ كلّا على قدر أُبّهته وجلالته ، وعلوّه وآرتفاعه ، وفطنتـه وآنتباهه ، ولِكلّ طبقة من هذه الطِّباق مَعانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن ترعاها فى مراسلتك إيّاهم فى كتبك ، وتزنَ كلامك فى مخاطَبتهم بميزانه ، وتعطيَه قِسمته ، وتُوفيَه نصيبه ، فإنك متى أهملتَ ذلك وأضعتَه لم آمن عليك أن تعدِل بهم عن طريقهم ، وتَسلُك بهم غير مَسلكهم ، وتُجرىَ شعاع بلاغتك فى غير مُجراه ، وتَنظمَ جوهر كلامِك فى غير سلكه ، فلا تَعتدّ بالمعنى الجَزْل ما لم تُلبِسه لفظا [لائقا بمن كاتبتَه ، وملامسا لمن راسلتَه] (١) ، فإن إلباسَك المعنى

---

(١) التكملة عن العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٦ ط العثمانيـة ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها وموضعها بالأصل جملة مكررة مع ما سيأتى ، وهى قوله : « مختلفا على قدر المكتوب اليه » .

ـ وإن صحّ وشَرُف ـ لفظا مختلفا عن قدر المكتوب اليه لم تجرِ به عادته تهجينٌ للمعنى وإخلالٌ بقدْره، وظلم يلحق (١) المكتوب اليه، ونقْصُ ما يجب له (٢)، كما أنّ فى آتباع تعارُفهم، وما آنتشرت به عادتهم، وجرت به سُنّتهم، قَطعا لعذرهم، وخروجا من حقوقهم، وبلوغا إلى غاية مُرادهم، وإسقاطا لحُجّة أدبهم .

وقال أحمد بنُ محمدِ بنِ عبد ربِّه : فآمتثلْ هـذه المذاهبَ، وآجر [على هـذا] (٣) القِوام، وتحفّظْ فى صـدور (٤) كتبك وفصولها وآفتتاحها وخواتمها، وضَع كل معنى فى موضع يليق به، وتخيّرْ لكلّ لفظـة معنى يشـاكلها، وليكن ما تختم به فصولك فى موضع ذكر البلوى بمثل : « نسأل الله دَفْعَ المحذور، وصَرْفَ المكروه » وأشباهِ ذلك؛ وفى موضع ذكرِ المصيبة : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ؛ وفى موضع ذكر النعمة : « الحمد لله خالصا، والشكر لله واجبا » وما يشاكل ذلك، فإن هذه المواضع ممـا يَتعيّن على الكاتب أن يتفقّده ويَتحفّظ منه، فإن الكاتب إنمـا يصير كاتبا بأن يضعَ كلّ معنى فى موضعه، ويعلّقَ كلّ لفظة على طَبَقتها فى المعنى .

قال : واعلم أنه لايجوز فى الرسائل آستعمال ما أتت به آىُ القرآن من الآختصار والحذف، ومخاطَبـةِ الخاصّ [بالعامّ] (٥) والعامِّ بالخاصّ، لأن الله تعالى إنمـا خاطب

(١) كذا فى الأصل . والذى فى العقد الفريد : «يحق المكتوب» الخ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) فى الأصل : « عليه » ؛ وهو تحريف، والتصويب عن العقد الفريد .

(٣) فى الأصل : « واجر عليها القوم » ؛ وفيه نقص، والزيادة عن العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٨ ط العثمانيـة، والذى فى العقد : « هذه » ؛ وهو غير مستقيم كما لا يخفى، والقوام بكسر القاف : نظام الأمر وملاكه وعماده .

(٤) كذا فى العقد الفريد . والذى فى الأصل : « فى صدرك » ؛ وهو تحريف .

(٥) الزيادة عن العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٨ ط العثمانية؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها .

بالقرآن قوما فُصَحاء فَهِموا عنه — جلّ ثناؤه — أمرَه ونهيَه ومراده، والرسائل إنما يخاطَب بها قوم دُخَلاءُ[(١)] على اللغة لاعِلم لهم بلسان العرب؛ وكذلك ينبغى للكاتب أن يتجنّب اللفظ المشترَك، والمعنى الملتبِس، فإنه إن ذهب ليكاتِب على معنى قول الله تعالى: ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وكقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ احتاج أن يبيِّن أن معناه: اسأل أهلَ القرية، وأهل العِير، وبل مكرُكم بالليل والنهار؛ قال: وكذلك لا يجوز أيضا فى الرسائل والبلاغات المنثورةِ ما يجوز فى الأشعار الموزونة، لأن الشاعر مضطرّ، والشعر مقصور مقيَّد بالوزن والقوافى، فلذلك أجازوا لهم صرْفَ ما لا ينصرف من الأسماء، وحذْفَ ما لا يُحذف منها، واغتَفروا[(٢)] فيه سوء النَّظم، وأجازوا فيه التقديم والتأخير، والإضمار فى موضع الإظهار، وذلك كله غيرُ سائغ فى الرسائل، ولا جائز فى البلاغات؛

فما أجيز فى الشعر من الحذف قولُ الشاعر:

* قَواطِنا مكّةَ من وُرْقِ الحَمَا *

يريد الحَمَام، وكقول الآخَر:

* صِفْرِ الوِشاحَين صَمُوت الخَلْخَلِ *

يريد الخَلْخَال، وكقول الحُطَيئة:

فيها الرماح وفيها كلُّ سابغة * جَدْلاءَ مَسرودةٍ من فِعْلِ[(٣)] سلّامِ

يريد سليمان، وكقول الآخَر:

وسائلةٍ بثَعلبةَ بنِ سَيرٍ * وقد عَلِقت بثعلبةَ العَلُوقُ[(٤)]

(١) كذا فى العقد الفريد. وعبارة الأصل: «جهلاء عن» الخ، وهو تحريف.

(٢) فى الأصل: «واعتبروا»؛ وهو تحريف.

(٣) كذا فى الأصل. والمشهور فى روايته: «من نسج».

(٤) العلوق بفتح العين: المنيّة.

يريد ثعلبة بن سيّار[(١)]، وكقول الآخر :

فلستُ بآتيــه ولا أســتطيعه * وَلاكِ ٱسقنى إن كان ماؤكَ ذا فَضْلِ

(٧٣)

[أراد ولكن][(٢)] قال : وكذلك لا ينبغى فى الرسائل أن يُصغَّر الأسمُ فى موضع التعظيم و إن كان ذلك جائزا، مِثلُ قولهم : دُوَيْهِيَةٌ تصغيرَ داهية، وجُذَيْلٌ وعُذَيْقٌ، تصغيرَ جِذْلٍ وعَذْقٍ[(٣)] . قال لبيد :

وكلُّ أُناس سوف تَدخُل بينهم * دُوَيْهِيَةٌ تصفرُّ منها الأناملُ

قال : فتَخيَّرْ فى الألفاظ أرجحَها وزنا ، وأَجزلَها معنى ، وأَشرفَها جوهرا وأَكرمَها حَسَبا ، وأَلْيَقَها فى مكانها ، وأَدِرِ الكلام فى أماكنه ، وقَلِّبْه على جميع وجوهه ، ولا تجعل اللفظة قَلِقة فى موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فإنك متى فعلت ذلك هَجَّنتَ الموضع الذى حاولتَ تحسينه ، وأَفسدتَ المكان الذى أردتَ إصلاحَه فإنّ وضعَ الألفاظ فى غير أماكنها ، والقصدَ بها إلى غير مَظانّها ، إنما هو كترقيع الثوب الذى إن لم تتشابهْ رِقاعُه ، ولم تتقارَبْ أجزاؤه ، خرج عن حدّ الجِدّة ، وتَغيَّر حسنه ، كما قال الشاعر :

إنّ الجديدَ إذا ما زيد فى خَلَق * يَبِين للناس أنّ الثوب مرقوعُ

ٱنتهى ما أورده ٱبنُ عبدِ ربِّه .

وقال المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبىّ : ومما يتعيّن على الكاتب ٱستعمالُه ، والمحافَظةُ عليه ، والتمسّكُ به ، إعطاءُ كلِّ مَقام حقَّه ، فإذا كَتب فى أوقات

(١) فى الأصل : «يسار» ؛ وفيه قلب، والتصويب عن شرح القاموس . و يدل عليه أيضا ما تقدم فى البيت .

(٢) التكملة عن العقد الفريد ج ٢ ص ١٥٢ ط الشرفية ؛ وقد أثبتناها ليوافق ما مر فى الأبيات التى قبله ، إذ أنه بعد إيراد البيت يعقبه بمراد قائله من الكلمة التى حذف بعض حروفها .

(٣) الجذل : عود ينصب للإبل الجربى تحتك به لتشفى ؛ أو هو ما عظم من أصول الشجر . والعذق : النخلة بحملها ؛ أشار بهذا الى قول الحباب بن المنذر يوم السقيفة : أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجّب .

الحروب إلى نُوّاب المَلِك عنه ، وإلى مقدَّمِي الجيوش والسَّرايا ، فليَتوخَّ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالّةَ على القصد من غير تطويل ولا بَسْط يضيِّع المَقصِد ، ويَفصلُ الكلام بعضه من بعض ، ولا تهويلٍ لأمر العدو يُضْعِف به القلوب ، ولا تهوينٍ لِأمر يحصُل به الاغترار . وذكر لذلك أمثلة من إنشائه .

٥ قال : فمن ذلك صُورةُ كِتاب أنشأتُه الى مقدَّم سَريّةٍ كَشْفٍ — ولم أكتُب به — وهو :

لا زال أَخَفَّ فى مقاصده من وَطْأَة ضيف ، وأَخفَى فى مطالبه من زَوْرة طَيف ، وأسرعَ فى تنقُّله من سحابة صيف ، وأَرْوَعَ للعدا فى تَطلُّعه من سَلّة سيف ، حتى يَعجَب عدوّ الدِّين فى الاطّلاع على عوراته مِن أين دُهِىَ وكَيف ؟ ويَعلم

١٠ [أنّ][1] مَن أوّلُ قِسمتِه اللّقاءُ حصل عليه فى مقاصده الحَيْف[2] ، أصدرناها إليه نَحُثُّه على الركوب بطائفة أعجلَ من السَّيل ، وأَهوَلَ من الليل ، وأَيمَنَ من نواصى الخيل ، وأَقدمَ من النَّمِر ، وأَوْقَعَ على المقاصد من الغيث المُنهمِر ، وأَرْوَغَ فى مُخاتَلة العُدا من الذئب الحَذِر ، على خيل تَجرى ما وَجدتْ فَلاه ، وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعةً أو أناه ، تَتَسَنَّم الجبالَ الصُّمَّ كالوَعِل[3] ، وإذا جارتها البُروق غدت وراءها

١٥ * تمشى الهُوَينا كما يمشى الوَجِى[4] الوَجِل * وليكن كالنجم فى سُراه ، وبُعدِ ذُراه ، إن جرى فكَسَهْم ، وإن خَطَر فكوَهْم ، وإن طَلَب فكالليل الذى هو مُدرِك ، وإن طُلِب فكالجنّة التى لا يجد رِيحَها مُشرِك ، حتى يأتى على عدوّ الدّين من كل شَرَف ،

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد نقلناها عن حسن التوسل .

(٢) فى الأصل : «بالحيف» ؛ والباء زيادة من الناسخ إذ لا مقتضى لها فى هذه العبارة .

٢٠ (٣) الوعل بكسر العين وسكونها : تيس الجبل .

(٤) الوجى بكسر الجيم : من الوَجَى بفتحها ، وهو الحفا أو أشد منه .

ويَرى جَمْعَـه من كل طَرَف ، ولا يُسرِف فى الإقامة عليه إلا إذا عَلِم أن الخير فى السَّرَف ؛ وليُحرِز جَمْعَهم ، ويَسبِق إلى التحرز منهم بَصَرَهم وسَمْعَهم ؛ ويَنظُرهم بعين منعها الحَزْم أن تَرى العَدد الكثير قليلا ، وصَدَّها العزم أن تَرى العـدوَّ الحقيرَ جليلا ؛ بل تَرى الأمر على فَصّه ، وتَروِى الخبرَ على نَصّه ؛ وإن وَجد مغرًّا فليأخذ خَبَره ، إن قَدَر على الإتيان بعَينـه وإلّا فليذهب أَثَره ؛ ولا يَهِيج فيما لديه نارَ حرب إلا بعد الثقة بإطفائها ، ولا يُوقظ [عليـه](١) عينَ عدوّ مهما ظهر له أن [المصلحة](٢) فى إغفائها](٣) ؛ وليَكشِف من أمورهم ما يُبدِى عند المُلتقَى عَورتَهم ، ويُخمِدُ فى حالة الزَّحْف فَورتَهم ؛ وليجعل قلبه فى ذلك رَبيئةَ طَرْفه ، وطَلِيعةَ طِرْفه ، وسَرِيّةَ كَشْـفِه والله تعالى يُمِدّه بلطفه ، ويحفظه بمعقِّبات مِن بين يديه ومِن خَلْفه .

٧٤

واذا كَتَب عن المَلِك فى أوقات حركات العدوّ الى أهل الثغور يُعلمهم بالحركة للقاء العدوّ ، فليبسُط القول فى وصف العزائم ، وقوّةِ الهِمم ، وشدّةِ الحَمِيّة للدين ، وكثرةِ العساكر والجيوش ، وسرعةِ الحركة ، وطىِّ المَراحل ، ومعالجةِ العدوّ ، وتخييلِ أسباب النصر ، والوُثوقِ بعوائد الله فى الظَّفَر ، وتقويةِ القلوب منهم ، وبَسْطِ آمالهم ، وحَثِّهم على التيقظ ، وحَضِّهم(٤) على حفظ ما بأيديهم ، وما أشبه ذلك ، ويُبرِزه فى أمتن كلام وأجلّه وأَمكَنِه ، وأقربِه من القوّة والبَسالة ، وأَبعـدِه من اللِّين والرِقّة ، ويبالغ فى وصف الإنابة إلى الله تعالى ، وآستنزالِ نصره وتأييده ، والرجوعِ إليه فى تثبيت

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل - وقد أثبتناها عن حسن التوسل -

(٢) مهما فى هذه العبارة إما حرف بمعنى إن الشرطية ، أو ظرف بمعنى متى ، وكلا الآستعمالين ضعيف . انظر مغنى اللبيب ج ٢ ص ١٩ و ٢٠ ط الحلبى .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن حسن التوسل إذ بها تستقيم العبارة ؛ وموضعها فى الأصل كلمتان مكررتان مع ما سيأتى ، وهما : «الزحف فورتهم» .

(٤) فى حسن التوسل : «أبين» ؛ وكلاهما يصح به المعنى .

الأقدام، والاعتصامِ به فى الصبر، والاستعانةِ به على العدوّ، والرغبةِ إليه فى خِذلانهم، و زلزلة أقدامهم، وجعلِ الدائرة عليهم، دون التصريح بسؤال بُطلان حركتهم، و رجاءِ تأخُّرهم، وانتظار العَرَضيّات فى خُلْفهم، لما فى ذلك من إيهام الضَّعف عن لقائهم واستشعارِ الوَهْن والخوف منهم، وليسلُك فى مثل ذلك كما سَلك المولى شهاب الدين محمود فى نحو ما كتب فى صدر كتاب سلطانىّ إلى بعض نُوّاب الثغور عند حركة العدوّ، فإنه قال :

أصدرناها ومنادى النَّفير قد أعلن : ياخيل الله[1] اركبى، و ياملائكة[2] الرحمن اصحبى و ياوفود الظَّفَر والتأييد اقرُبى؛ والعزائم قد رَكَضت على سوابق الرُّعب إلى العِدا والهِممُ قد نَهضت إلى عدوّ الإسلام فلو كان فى مَطلَع الشمس لاستقربتْ ما بينها و بينه من المدى؛ والسيوفُ قد أَنِفت من الغُمود فكادت تنفِر من قُربها، والأسنّةُ قد ظَمئت الى مَوارد القلوب فتشوقت الى الارتواء من قُلْبها[3]؛ والكُماةُ قد زَأرت كالليوث إذا دنت من فرائسها[4]، والجياد قد مَرِحت لِما عودتْها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسُها؛ والجيوشُ قد كاثرت النجومَ أعدادُها، وسايرتْها للهجوم على أعداء الله من ملائكته الكرام أمدادُها؛ والنفوسُ قد أَضرمت الحَمِيّةُ نارَ غضبها، وعداها[5] حَرُّ الإشفاق على ثغور المسلمين عن بَرْد الثغور وطِيب شَنَبِها؛ والنصرُ قد أشرقت

(١) أراد بالخيل هنا فرسانها .

(٢) فى الأصل : «وللائكة» ؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل إذ هو المناسب لسياق ما قبله وما بعده من الكلام .

(٣) القلب بضم القاف : الآبار، واحده قليب بفتحها .

(٤) عبارة حسن التوسل : «دنت فرائسها» بدون «من» ؛ وهو أظهر، إذ به يحصل السجع الذى توخاه الكاتب فى رسالته .

(٥) عداها : صرفها، يقال : عدته العوادى عن كذا، أى صرفته الصوارف .

فى الوجود دلائلُه ، والتأييـدُ قد ظهرت على الوجوه مخـايلُه ، وحُسْنُ اليقين بالله فى إعزاز دينـه قد أنبأت بحسن المآل أوائلُه ؛ والألسنُ باستنزال نصر الله لَهِجه والأرجاءُ بأرواح القبول أَرِجه ، والقـلوبُ بعوائد لطف الله بهـذه الأمة مبتهِجه والحُماةُ وما منهم إلا من استَظهَر بإمكان قوته وقوة إمكانه ، والأبطالُ وليس فيهم من يسأل عن عَدَد عدوٍّ بل عن مكانه ؛ والنيّات على طلب عدوّ الله حيث كان مجتمعه والخواطرُ مطمئنةٌ بكونها مع الله بصدقها ، ومن كان مع الله كان الله معه ؛ وما بقِىَ إلا طىُّ المَراحل ، والنزولُ على أطراف الثـغور نزولَ الغيث على البـلَد المـاحل ؛ والإحاطةُ بعـدوّ الله من كل جانب ، وإنزالُ نفوسهم على حكم الأمْرَين الأمَرَّين : مِن عذاب واصب ، وهمٍّ ناصب ؛ وإحالةُ وُجودهم إلى العَـدَم ، وإجالةُ السيوف التى [إن](١) أنكرتْها أعناقُهم فما بالعهد من قِدَم ؛ واصطلامُهم(٢) على أيدى العصابة المؤيَّدة بنصر الله فى حربها ، وابتلاؤهم من حَمَلاتها بريح عادٍ التى تدمِّر كل شىء بأمر ربها ؛ فليكن مرتقِبا لطُلوعِ طلائعها عليـه ، متيقِّنا من كرم الله استئصالَ عدوِّه الذى إن فر أدركتْه مِن ورائه ، وإن ثَبت أخذتْه مِن بين يديه ؛ وليجتهد فى حفظ ما قِبَـله من الأطراف وضَمِّها ، وجَمعِ سَوام الرعايا من الأماكن المتخوَّفة ولَمِّها ، وإصـلاحِ ما يُحتاج إلى إصـلاحه من مسالك الأرباض المتطرِّفة ورَمِّها ، فإنّ الاحتياط على كل حال مِن آكَدِ المصالح الإسلاميّة وأهمِّها ؛ فكأنه بالعدوّ وقد زال طمَعُه ، وزاد ظَلَعُه ؛ وذَمَّ عقبى مَسيرِه ، وتحقَّق سُوءَ منقلَبه ومصيرِه ، وتبرَّأ منـه الشيطان الذى دلّاه بغُروره ، وأصـبح لحمُهُ موزَّعا بين ذئاب الفلا وضباعها ، وبين عقبانِ الجوّ

(١) هـذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن حسن التوسـل ص ٩٤ ط الوهبية إذ بها يستقيم الكلام .

(٢) الاصطلام : الاستئصال .

ونُسوره؛ ثِقةً من وعد الله الذى تَمسَّكنا منه باليقين ، وتحقَّقنا أن الله ينصر من نصره وأن العاقبة للتقين .

قال : وزيادةُ البسط فى ذلك ونقصُها بحسب المكتوب إليه .

وإذا كَتب فى التهانى بالفُتوح، فليس إلّا بَسْطُ الكلام ، والإطنابُ فى شكر نِعَم الله، والتبرُّؤ من الحَول والقُوّة إلّا به، ووصْفُ ما أُعطَى من النصر، وذِكرُ ما مَنَح من الثَّبات، وتعظيمُ ما يَسَّر من الفتح؛ ثم ما وَصَف بعد ذلك مِن عزمٍ وإقدامٍ وصبرٍ وجَلَد عن المَلِك وعن جيشه حَسُن وصفُه، ولاقَ ذِكرُه، وراقَ التوسيع فيه ، وعَذُب بَسْط الكلام فيه؛ ثم كلّما اتّسع مجال الكلام فى ذكر الواقعة ووصفِها كان أحسنَ [وأَدَلَّ على البلاغة، وأَدعَى لسرور المكتوب إليه، وأحسن](١) لموقع المِنّة عنده، وأشهَى إلى سمعه، وأشفَى لغَليل تَشوُّقه إلى معرفة الحال على جَلِيّته، ولا بأس(٢) بتهويل [أمرِ](٣) العدوّ، ووصْفِ جَمْعِه وإقدامه، فإن تصغير أمره تحقيرٌ للظَّفَر به ؛ وقد ذَكرنا فى باب التهانى من ذلك ما تَقدَّم شرحُه ، فلنذكر فى هذا الموضع من كلامه فيه ما لم نُورده فى باب التهانى؛

قال : وإن كان المكتوب إليه مَلِكا صاحبَ مَمْلَكة منفردة تَعيَّن أن يكون البَسْط أكثرَ، والإطنابُ أمدَّ، والتهويلُ أبلَغ، والشرحُ أتمَّ؛ فمن ذلك فصلٌ كتبته فى جواب ابن الأحمرِ صاحبِ غَرْناطَةَ من جزيرة الأندلُس، قال :

أما بعد حمد الله الذى أيَّدنا بجنودِه ، وأنجَز لنا مِن نصرِ الأمّة صادقَ وُعودِه وخَصّنا من استدامة الفُتوح بمزايا مَزِيدِه، وأيَّدنا بنصره، ونَصرَنا بتأييده، والصّلاة

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل ص ٩٥ ط الوهبية .

(٢) فى الأصل : «ولا يأمن» ؛ وهو تحريف .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل إذ لا تستقيم العبارة بدونها .

والسلام على سيدنا محمد أشرف رسله ، وخاتَم أنبيائه ، وأكرمِ عبيدِه ، وأعزِّ من دَعا الأمم وقد أَنكرت خالقها الى الإقرار بتوحيـدِه ، وعلى آله وصحبه الذين أَشرَق أُفقُ الدين منهم بكواكب سعودِه ؛ فإنا أصدرناها ونِعَمُ الله تعالى بنا مُطِيفه ، ومَواقعُ نصره عنـدنا لطيفه ، وجنودُ تأييده لممالك الأعداء الى مَمَالكنا الشريفة مُضـيفه ، وثغورُ الإسلام بذَبّنا عن دين الله منيره ، وبإعلائنا مَنارَ الهدى مُنِيفه ؛ ونحن نحمد الله على ذلك حمدا نستَدِرّ به أخلافَ الظَّفَر ، ونستـدِيم به مَوادَّ التأييد على مَن كفر ؛ ونَستَمِدّ به عوائدَ النصر التى كم أَقدَمها علينا إقدام ، وأسفَر لنا عنها وجهُ سَفَر ؛ ونُهدِى إليه ثناءً تَعبَق بنَشْر الرياض خمائلُه ، وتَنطق بمَحض الوداد مخايلُه ، وتُشرِق على أُفق مَفاخره غَدَواتُه وأَصائلُه ؛ يُشافَه مجدُه بمَصُونه (١) ، ويُصارَح فخرُه بمكنونه ، ويجلو على حضرته العليّة عقائلَ الشَّرَف من أبكار الهَناء وعُونِه ؛ ونُبدِى لعلمه الكريم ورودَ كتابه الجليل مُسفِرا عن لوامع صـفائه ، منبئا بجوامع وُدّه ووفائه ؛ مُشرِقا بلآلئ فرائِده ، مُحدِقا برَوض كرمه الذى سَعِد رأىُ رائِده ؛ محتويا على سروره بما بَلَغه من أنباء النُّصْرة التى سارت بها إليـه سُرْعانُ الرُّكبان ، وذَلّت بعِزّ ما تُلِيَ منها عليـه عُبّاد الصلبان ؛ وطَبَّق ذِكرُها المشـارقَ والمغارب ، ومَزَّقتْ مَواكبَ أعداء الله التّتـارِ وهم فى رأىِ العين أعداد الكواكب ، وخَلَطَت التراب بدمائهم حتى لم يُبَح بها التيمُّم ، ومَزَجتْ بها الفُراتَ حتى ما تَحِـلّ لشارب ؛ وهى النُّصْرة التى لا يُدرِك الوصف كُنْهَها ، ولا تعرف لهـا البلاغة مُشبِها فتذكُر شِبهَها ؛ ولا يَتَّسع نِطاق النطق لِذكرِها ، ولا تَنهَض الألسـنة على طول الأَبَد بشكرها ؛ فإنّ التّتار المخـذولين أَقبلوا كالرِّمال ، وأَصطَفُّوا كالجبال ؛ وتَدفَّقوا كالبحار الزَّواخر ، وتَوالَوا كالأمواج التى لا يُعرَف لهـا الأوّلُ من الآخِر ؛ فصدَمتْهم جيوشنا المنصورةُ صدْمةً بَدَّدتْ شَملهم ، وعلّمت الطيرَ أَكْلَهم ؛ وحَصَرتْهم

(١) فى الأصل : «بمصونه» ؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل ، وهو ما يدل عليه سياق الكلام .

فى الفضاء، وطالبتْ أرواحَهم الكافرةَ بدَين دِينها وأَسرفتْ فى الاقتضاء؛ وحَصَدتْ منهم سيوفنا المنصورةُ ما يخرج عن وصفِ الواصف ، ومزّقتْ بقيّتهم فى الفلوات فكانوا كرَماد اشتدّت به الرّيحُ فى يوم عاصف ؛ وأحاطت بهم كتائبنا المنصورة فلم ينجُ إلا من لا يُؤبَه له من فريقِهم ، وقسمتهم جيوشنا المؤيَّدة من الفَلَوات الى الفُرات بين القتل والأسر، فلم يخرج عن تلك القسمة غيرُ غريقِهم؛ وأعقبتهم تلك الكسرةُ أن هَلَك طاغيتُهم أسفا وحسره، وحزنا على من قُتِل من تلك المُقاتِلة، وأُسِر من تلك الأسْره، وأماته الرُّعبُ من جيوشنا المنصورةِ بجُاءه، واستولَى عليه الوَجَل بجاءه مِن أمر الله ما جاءه؛ وقعد أخوه بعده مكانَه، والخوفُ من عساكرنا يضعضع أركانَه ، والفَرَقُ من جيوشنا يُفرِّق أعوانَه ، ويُمزِّق إخوانَه، ويُوهِى سلطانَه ويُبرِّئُ منه شيطانَه؛ فلاذ بالالتجاء الى سَلْمنا، وعاذ بإسناد الرجاء الى كَفِّنا عنه وَحِلمنا ؛ فكرّر رُسُلَه ورسائلَه مستعطِفا ، ووالَى كُتبَه ووسائلَه مستعفِيا من حربنا ومستسعِفا؛ وهاهو الآن وجنوده يَتوسّلون بالخضوع الى مَراحمنا، ويَتوصّلون ببَذل الطاعة الى مَكارمنا؛ ويسألون صَفْح الصِّفاح الإسلاميّة عن رقابهم ، ويُبدون ما أظهره الله عليهم من الذلّ الذى جعلته تلك النُّصْرة خالدا فى أعقابهم؛ وسيوفُنا تأبَى قَبولَ وسائلِهم، وتُصِرُّ على نَهْر سائلِهم، وتمنع من الكفّ عن مَقاتِلِهم، وتأنَف أن تُغمَد إلّا فى قِمَم مُحارِبِهم ومُقاتِلِهم؛ ونحن على ما نحن من الأُهْبَة لغَزوِهم فى عُقْر دارِهم، وانتزاعِ مَواطن الخلافة وغيرها من ممالك الإسلام من بين نُيوبهم وأظفارِهم؛ مستنصرين بالله على من بقِىَ فى خُطّ[1] المَشرِق منهم ، قائمين فيهم بفَرض الجهاد الذى لولا دِفاعُ الله به لم يَمتنع خُطّ المَغرِب عنهم ؛ "وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ"، ولو عَددنا نعمَ الله علينا حاولنا عَدَّ ما لا نُحصيه ولا نحصُره .

(١) الخط بالضم : موضع الحىّ .

وإن اضطُرّ أن يكتُب بمثل ذلك الى مَلِك غيرِ مسلم لكنّه غيرُ مُحارب، فالحُكْم فى ذلك أن يَذكُر من أسباب المَودّة ما يَقتضِى المشارَكة فى المَسار، وأنّ أمر هـذا العَدد مع كثرته أُخذ بأطراف الأنامل، وآلَ أمرُه الى ما آل، ويُعظِّم ذِكرَ ماجَرَى عليه من القتل والأسر، وتلك عوائدُ نصر الله، وانتقامِه[1] ممّن عادانا ؛

فمن ذلك ما أنشأه المُشار اليه لبعض ملوك البحر — ولم يكتب به — وهو : ٥

صَدرتْ هـذه المكاتَبةُ مبشِّرةً له بمـا منحنا الله من نُصْرة أَجزَل الصـفاءُ منها سهمَه ، وأَكمَل الوفاءُ من التهنئة بها قِسْمَه ؛ وخصّه الوِدادُ بأجلّ أجزائها ، وأَجلسه الاتحادُ على أسِرّة مَسَرّتها إذا أجلس العنادُ غيرَه على بِساط عَزائها ؛ عِلما بأنه الصديق الذى تُبهِجه مَسارُّ صديقِه ، والصاحبُ الذى يَرى مساهَمَة صاحبه فى بشرى الظَّفَر بأعدائه أدنى حقوقِه ؛ وذلك أنه قد عَلِم ما كان من أمر هؤلاء التَّتار فى حركاتهـم ١٠ الذميمه، وعَزَماتِهم التى ما احتفَلوا لها إلا وكان أحَدّ سلاحِهم فيها الهَزِيمه، وغاراتِهم التى ما حَشَدوا لهـا إلّا وقَنِعوا فيها بالإياب من الغَنِيمه ؛ وأنهم ما أقدموا علينا إلا وعُدِموا، ولا سَلكوا الينا إلّا وهَلَكوا ؛ حتى إنّ الأرض الى الآن لم تَجِفّ من دمائهم ، وإنّ الفُرات يكاد يَشِفّ[2] للتأمّل عن أشلائهم ؛ وأن الشيطان بعد ذلك جَدّد طَمَعَهم، وسَكّنَ هَلَعَهم ؛ وأنساهم مَصارع إخوانهم، وأسلاهم بما زَيّن لهم من بلوغ ١٥ أوطارهم عن أوطانهم ؛ وقال لهم : لا غالب لكم اليـوم من الناس ، وتلك الوقائعُ التى أُصِبتم فيهـا قد لا يَجرِى الأمر فيها على القياس ؛ وحَسّـن لهم المُحـال وغَرّهم وجرّأهم على قصـد البلاد المحروسـة ، وفى الحقيقة استَجرّهم ؛ فحَشَـدوا جموعهم

(١) فى الأصل : «وانتقامنا» بالنون ؛ وهو تحريف .

(٢) فى حسن التوسل : «يكشف» ؛ وكلا اللفظين يستقيم به المعنى . ٢٠

وجمعوا حُشودَهم، وٱستفرَغوا فى الٱستنفار والٱستظهار طاقتهم ومجهودَهم ؛ ومالأهم على ذلك من المجاورين من أبطَن شِقاقَه ، وكَتم نفاقَه ، وأنساه الشيطان ما سلف من تنفيسنا عنه وقد لازم الحَتْفُ خِناقَه ؛ ونحن فى ذلك نُوسعهم إمهالا ، ونَبسُط لهم فى التَّوغُّل آمالا ، ونَأخذ أمرهم بالأَناة ٱستدراجا لهم لا إهمالا ؛ الى أن بَعُدوا عن مَواطن الهرَب ، وحَصَل من ٱستدراجهم الأَرَب ؛ فوثبنا عليهم وُثوبَ الليث إذا ظَفِر بصَيده ، ونهَضنا نحوهم نُهوضَ الحازم إذا وقع [عدوّه](١) فى أُحبولة كَيده ؛ وصدمتهم جيوشنا المنصورةُ صَدمةً فَلَّت غَرْبَهم ، وأبطلتْ طَعْنهم وضرْبَهم ، وصَبَغت بدمائهم تُرْبَهم ؛ وحَكَّمت السيوفَ فى مَقاتِلهم ، [ومكَّنت الحُتوف من صاحب رأيهم ومُقاتِلهم](٢) ؛ وسَلَّطت العَدَم على وجودِهم ، وحطَّتهم عن سُروجهم الى مَصارعهم أو قُيودِهم ؛ "فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَاغِرِين" ، وعادُوا على عادتهم خاسئين ، ورَجَعُوا على أعقابهم خاسرين ؛ وما أغنَى عنهم جمعُهم ، وما أفادهم بصرُهم فيما شاهدوه من قبل ولا سمْعُهم ؛ فركَن من بَقِيَ منهم الى الفِرار ، وعاذ ببَرْد الهرَب مِن لَهَب تلك السيوف الحِرار وظَنّ من ٱنهزم منهم أنه فات الرماح ، فتناولتْه بأرماح من العطش القِفار ؛ فولَّوا والرعبُ يزلزِل أقدامهم ، والذُّعْرُ يقلِّل إقدامَهم ؛ والصِّفاحُ تَتخطَّفهم من ورائهم والجِراحُ تُطعِم الطَّير فى أكلهم حتى تقع على أحيائهم ؛ حتى أَصبحوا هَشيما تلعب بهم الصَّبا والدَّبور ، أو أحياءً يئس منهم أهلهم "كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُور" وصَفَحنا عمّن نافقَنا ووافقَهم ولولا ذلك لَما نجا ، ورجا عواطفَنا فى الإبقاء على نفسه ، فأجابه حِلمُنا — وعِلْمُنا أنه فى القَبضة — الى ما رَجا ؛ فليأخذ المَلِك حظّه من

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل ص ٩٧ ط الوهبية إذ لا يستقيم الكلام بدونها .

(٢) التكملة عن حسن التوسل ؛ وتمام السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته يقتضى إثباتها .

(٣) فى الأصل : «بلغت بهم» الخ وهو تحريف .

هذه البشرى التى تَسُرّ قلبَ الولىّ المُحِبّ بوادرُها، وتَشرح صدر الخَفِىّ[1] المُحِقّ مواردُها ومَصادرُها ؛ والله تعالى يُبهِجه عنا بسماع أمثالها ، ويديمُ سروره بما جلوناه عليه مِن مثالها[2] .

قال : فإن كان المكتوب إليه متّهما بمُالأة العدوّ كتب اليه بما يَدُلّ على التقريع والتهكُّم ، وإبرازِ التهديد فى مَعرِض الإخبار، كما كتب المشار اليـه عن السلطان الى متملّك سِيس[3] — وكان قد شَهِد الوقعة مع العدوّ — قال منه :

بصّره الله برشده ، وأراه مَواقع غَيّـه فى الإصرار على مخالَفته ونقض عهـده وأسلاه بسلامة نفسه عمّن روّعته السيوف الإسلاميّة بفقده ؛ صـدرتْ تُعرِّفه أنه قد تحقّق ما كان من أمر العـدوّ الذى دلّاه بغُروره ، وحَمَـلَه التمسّك بخداعه على مجانبـة الصواب فى أموره ؛ وأنهم آستَنجَدوا بكلّ طائفه ، وأقدموا على البـلاد الإسلاميّة بنفوس طامعة وقلوب خائفه ؛ وذلك بعد أن أقاموا مدّة يشترون[4] المُخادَعة بالموادَعه ، ويُسِرّون المصارَمة فى المسالَمه ؛ ويُظهرون فى الظاهر أمورا ، ويدبّرون فى الباطن أمورا ، ويَعِدون كل طائفة من أعداء الدين مِثلَه ويُمَنُّونهم "وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا" ؛ وكنّا بمَكْرهم عالِمين ، وعلى معالَجتهم عامِلين ؛ وحين تَبيَّن مرادُهم وتَكمَّل آحتشادُهم ؛ اِستدرجناهم الى مَصارعهم ، وآستَجرَيناهم[5] لِيَقرُبوا فى القتـل مِن مَضاجِعهم ، ويَبعُدوا فى الهَرَب عن مواضعهم ؛ وصدمناهم بقوة الصـدمة

(١) كذا فى الأصل ؛ والذى فى حسن التوسل : «الصفى» بالصاد ؛ وكلا اللفظين يستقيم به المعنى .

(٢) فى الأصل : «أمثالها» ؛ والألف الأولى زيادة من الناسخ .

(٣) قال ياقوت فى معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٧ ط جوتنجن : سيسية — وعامة أهلها يقولون : سيس — : بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة الخ .

(٤) فى الأصل : «يسرون» ؛ وهو تحريف . (٥) كذا فى الأصل وحسن التوسل ؛ ولم نقف عليه فى كتب اللغة بمعنى حملناهم على الجرى كما هو المعنى المتبادر من سياق العبارة ؛ ولعله : «وأجريناهم» .

لم يكن لهم بها قبل، وحملنا عليهم حملةً ألجأهم طُوفانُها الى ذلك الجبل ، وهل تعصم من أمر الله حِيَل؟ فحصرناهم فى ذلك الفضاء المتّسع ، وضايقناهم كما قد رأى ومزّقناهم كما قد سمع ، وأنزلناهم على حُكم السيف الذى نَهِل من دمائهم حتى رَوِىَ وأَكَل من لُحومهم حتى شَبِع ، وتبعتهم جيوشنا المنصورةُ تَتخطَّفُهم رماحُها ، وتَتلقَّفُهم صِفاحُها ، ويبدِّدهم فى الفَلَوات رُعبُها ، ويفرِّقهم فى القِفار طَعنُها المتدارِكُ وضربُها ؛ ويَقتُل من فات السيوفَ منهم العطشُ والجوع ، ويُخيَّل للحىّ منهم أنّ وطنه كالدنيا التى ليس للميت اليها رجوع ؛ ولعله قد رأى ذلك فوق ما وُصِف عِيانا ، وتحقّق من كل ما لا يحتاج أن نَزيدَه به علما ولا نُقيمَ له عليه برهانا ؛ وقد عَلِم أنّ أمر هذا العدوّ المخذول ما زال معنا على هذه الوَتيره ، وأنهم ما أقدموا إلا ونَصَر الله عليهم فى مَواطنَ كثيره ؛ وما ساقتهم الأطماع فى وقتٍ إلا الى حُتوفهم ، ولا عادَ منهم قَطُّ فى وقعة إلا آحادٌ تُخبِر عن مَصارع ألوفهم ؛ ولقد أضاع الحَزْمَ من حيث لم يَستدِم نِعمَ الله عليه بطاعتنا التى كان فى مِهادِ أَمْنِها ، ووِهادِ يُمْنِها ؛ وحِمايةِ عفوها ، وبَرْد رأفتها التى كدَّرها بالمخالَفة بَعْدَ صفوِها ؛ يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار ، ويحمِى أهل مِلّته بالحَذَر من الحركات التى ما نَهَضوا اليها إلا وجرّوا ذيول الخَسار ؛ ولقد عرَّض نفسه وأصحابَه لسيوفنا التى كان من سَطَواتِها فى أمان ، ووَثِق بما ضَمِن له التّتار من نصره وقد رأى ما آل اليه أمرُ ذلك الضّمان ؛ وجرّ لنفسه بموالاة التتار عَناءً كان عنه فى غِنى ، وأَوقع رُوحه بمظافَرة المغول فى حَومة السيوف التى تخطَّفت أولياءَه مِن هنا ومِن هنا ؛ واقتحم بنفسه مَواردَ هلاك سَلبت رداء الأمن عن مَنكِبَيه واغترّ هو وقومُه بما زيّن لهم الشيطان من غُروره "فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ" وما هو والوقوف فى هذه المَواطن التى تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسره وأنّى لِضعاف النّقاد قدرةٌ على الثّبات لوَثَبات الأُسُود الضارية واللّيوث الكاسره ؛

لقد ٱعترض بين السهم والهَدَف بنَحره ، وتَعرّض للوقوف بين ناب الأَسَد وظُفرِه ؛ وهو يعلم أننـا مع ذلك نرعى له حقوق أسـلافه التى ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التى بذلوا نفوسهم ونفائسهم فى الوصول اليها ؛ ونُجريه وأهلَ بلاده مُجرَى أهلِ ذمّتنا الذين لا نُؤيِسهم من عفونا مهما ٱستقاموا(١)، ونَسلُك بهم حُكمَ من فى أطراف البلاد من رعايانا الذين هم فى قَبضتنا نَزَحوا أو أقاموا ؛ ونحن نتحقّق أنه مابقِىَ يَنسى ملازَمةَ رِبْقةِ الحتف خِناقَه، ولا يَرجِع يُهوِّر(٢) نفســه فى مَوارد الهلاك ، وهل يَرجِع الى الموت [مَن](٣) ذاقه؟ فيَستدرِك بابَ الإنابة قَبل أن يُغلَق دونَه، ويصون نفسه وأهله قَبل أن تَبذُل السيوفُ الإسلاميّةُ مَصُونَه، ويبادِر الى الطاعة قبل أن يَبذُلها فلا تُقبَل، ويَتمسّك بأذيال العفو قبل أن تُرفَع دونه فلا تُسبَل؛ ويُعجِّل بحَمْل أموال القَطيعة وإلّا كان أهلُه وأولادُه فى جملة ما يُحمَل منها الينا، ويُسلِّم مَفاتح ما عدا عليه من فُتوحنا، وإلّا فهو يعلم أنها وجميعَ ما تأخّر فى بلاده بين يدَينا؛ ويكونُ هو السببَ فى تَمزُّق شَمْله، وتَفرُّق أهلِه، وقَلْع(٤) بيته من أصله ؛ وهَدمِ كَنائسه، وٱبتذالِ نفســه ونفائسه ؛ واسترقاق حَرَمه، وٱستخدام أولاده قَبْلَ خَدَمه ؛ وٱقتلاع(٥) قِلاعه، وإحراقِ

(١) كذا فى الأصل ؛ ومهما فى هذه العبارة حرف بمعنى إن الشرطية ، وهو مذهب ضعيف ؛ وقد سبق أن أوضحنا ذلك فى ت ٢ ص ١٩٠ من هذا الجزء .

(٣) يهوّر نفســه ، يريد يلقى بها ، وهو من هتوره اذا صرعه وألقاه . وعبارة حسن التوسل : « ولا يورد » .

(٣) عبارة الأصل : « المؤمنين فاقة » ؛ وفيه نقص وتحريف ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا وانظر حسن التوسل ص ٩٨ ط الوهبية .

(٤) فى الأصل : «وقد قلع» ؛ وقوله : «قد» زيادة من الناسخ .

(٥) فى الأصل : «واستقلاع» بسين وتاء ؛ ولم نقف عليه فيما لدينا من كتب اللغة .

رُبوعه ورِباعِه[1]، وتعجيلِ رؤية ما أُوعِدَ[2] به قبل سماعِه، ومن لقازان بأن يجابَ الى مثل ذلك، أو يُسمَحَ له مع الأمن من سيوفنا ببعض مافى يده من الممالك؛ ليَقْنع بما أبقت جيوشنا المؤيَّدةُ فى يده من الخيل والحَوَل، ويَعيشَ فى الأمن ببعض ماتَسمح له به، ومن للعُور[3] بالحَوَل؛ والسيوفُ الآن مُصغيَةٌ الى جوابه لتكُفَّ إن أَبصر سُبل الرشاد، أو تَتعوَّض برءوس حُماتِه وكُماته عن الأَغماد إن أَصرّ على العناد، والخير يكون.

وأما التقاليد والمناشير والتواقيع وما يتعلّق بذلك — فالأحسن فيها بَسطُ الكلام، وتُعتبَر كثرتُه وقلّتُه بحَسَب الرتَب، ويجب أن يراعَى فيها أمور:

منها بَراعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال، أو قدْرِ النعمة، أو لقبِ صاحب التقليد أو اسمِه بحيث لا يكون المَطْلَع أجنبيًا من هذه الأحوال، ولا بعيدا منها، ولا مباينا لها، ثم يَستصحِب ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من أوّل الخطبة

(١) الرباع بكسر الراء: جمع ربع بضم أوّله وفتح ثانيه، وهو الفصيل فى أوّل النتاج؛ والمراد ماشيته، يريد بهذه العبارة توعده بإحراق منازله وأمواله.

(٢) فى الأصل: «وعدبه» بإسقاط الهمزة؛ والمشهور عند أئمة اللغة وجوب إثباتها فى مثل هذا الموضع؛ قال الأزهرى: كلام العرب: وعدت الرجل خيرا، ووعدته شرا، وأوعدته خيرا وأوعدته شرا؛ فاذا لم يذكروا الخير قالوا: وعدته ولم يدخلوا ألفا، واذا لم يذكروا الشر قالوا: أوعدته ولم يسقطوا الألف؛ وأنشد لعامر بن الطفيل:

وإنى إن أوعدته أو وعدته * لأخلف إيعادى وأنجز موعدى اهـ.

انظر اللسان وشرح القاموس. والكاتب هنا لم يذكر الشر، فلزم إثبات الهمزة كما تقتضيه عبارة الأزهرىّ؛ والذى يفهم من كلام المصباح أنه يقال فى الخير والشر: وعده بدون ألف سواء أذكر الخير والشر أم لم يذكرا، والفارق بينهما المصدر، فانه فى الخير: الوعد، وفى الشر: الوعيد.

(٣) عبارة الأصل: «ومن العمور»؛ وهو تحريف.

الى آخرها؛ قال : ويَحسُن أن يكون الكلام فى التقليـد منقسما إلى أربعـة أقسام متقارِبةِ المقادير، فالرُّبعُ الأوّلُ الخُطبة ، والثانى ذِكرُ مَوقع الإنعام فى حقّ المقلَّد، وذِكرُ الرتبةِ وتفخيمُ أمرها ، والثالث فى أوصاف المقلَّد وذِكرِ ما يناسب تلك الرتبةَ ويناسب حاله من عدل وسـياسة ومَهابةٍ وبُعـدِ صِيت ، وسُمْعـةٍ وشجاعةٍ إن كان نائبا، وَوصفِ العـدل والرأى وحسنِ التدبير، والمعرفةِ بوجوه الأموال ، وعمـارةِ البـلاد، وصلاحِ الأحوال، وما يناسب ذلك إن كان وزيرا؛ وكذلك فى كلّ رتبة بحسبها، والرابع فى الوصايا ؛

ومنها [أن يُرَاعِىَ(١)] المناسَبة وما تقتضيه الحال، فلا يُعطِى أحدا فوق حقِّـه، ولا يصفه بأكثر ممـا يراد مِن مِثـله ، ويراعى أيضا مقدار النعمة والرتبة ، فيكون وصفُ المِنّة على مقدار ذلك .

ومنها أن لا يصف المتولِّىَ بمـا يكون فيه تعريضٌ بالمعزول وتنقُّصٌ له ، فإنّ ذلك ممـا يُوغر الصدور، ويؤرِّث الضغائن فى القلوب ، ويدُلّ على ضعف الآراء فى اختيـار الأوّل ، وله أن يصف الثانىَ بمـا يحصل به المقصود من غير تعريض بالأوّل ؛

ومنها أن يَتخيّر الكلام والمعانى، فإنه مما يَشِيع ويَذِيع ،ولا يُعذَر(٢) المقصِّرُ فى ذلك بعجلة ولا ضيق وقت ، فإنّ مَجـال الكلام عليه متّسِع ، والبلاغة تَظهَر فى القليل والكثير، والأمر الجارى فى ذلك على العادة معروف، لكن تقع أشياءُ خارجةٌ عن العادة، نادرةُ الوُقوع، فيَحتاج الكاتب فيها الى حسن التصرّف على ما تقتضيه الحال؛

(١) التكملة عن حسن التوسل ص ١١٠ ط الوهبية ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «ولا يعجل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر حسن التوسل .

فمن ذلك تقليدٌ [من](١) إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبىّ كتبه لمتملّك سِيس بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده، وهو :

الحمد لله الذى خَصّ أيامنا الزاهرةَ باصطناع ملوك الملل ، وفضّل دولتنا القاهرةَ بإجابة من سأل بعضَ ما أَحرزتْه لها البِيضُ والأَسَل ، وجعل من خصائص ملكنا إطلاقَ الممالك وإعطاءَ الدُّوَل ، والمَنَّ بالنفوس التى جعلها النصر لنا من جملة الخَوَل ، وأَغرى عواطفنا بتحقيق رجاء من مَدّ إلى عوارفنا كفَّ الأمل ، وأفاض بمَواهب نعمائنا على من أناب الى الطاعة حُلَلَ الأمن بَعد الوَجَل ، وٱنتزع بآلائنا [لمن تمسّك بولائنا](٢) أرواحَ رعاياه من قَبضة الأجل ، وجعل بَرْد العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجةَ ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب ، إذ ربما صَحّت الأجسام بالعِلل ؛ نحمَده على نعمه التى جعلت عفوَنا ممن رجاه قريبا ، وكرمَنا لمن دعاه بإخلاص الطاعة مُجيبا ، وبِرَّنا لمن أَقبل اليه منيبا بوجه الأمل مُثيبا ، وبأسَنا مصيبا لمن لم يجعل الله له فى التمسّك بمَراحمنا نصيبا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة تَعصِم دم من تَمسَّك بذمامها ، وتَحسِم مَوادَّ من عاندها بانتقام حسامها ، وتَفصِم عُرا الأعناق ممن أَطمعه الغُرور فى ٱنفصال أحكامها وٱنفصامها ، وتَقصِم مَن قصد إطفاءَ ما أظهره الله من نورها ، وانقطاعَ ما قضاه من دوامها ، وتَجعل كلمة حَمَلَتِها هى العليا ، فلا تَزال أعناقُ جاحِديها فى قبضة أوليائها وتحت أقدامها ؛ ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله المبعوثُ بالهدى ودين الحق الى كلّ أمّه ، المنعوتُ فى الكتب المنزّلة بالرأفة والرحمه ، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخَمس منهنّ الرعبُ الذى كان يتقدّمه الى مَن قصَده ، ويسبِقه مَسيرةَ شهر الى [من](١) أمّه ، المنصوصُ

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل السلبى ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) التكملة عن حسن التوسل .

فى الصحف المحكّمة على جهاد أمته، الذى لاحياة لمن لم يَتمسّك من طاعتــه بذمته؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا بدعوته الممالك، وأَوضحوا بشِرْعته الى الله المسالك، وجلَوا بنور سُنّته عن وجه الزمن كلَّ حال حالك، وأَوردوا من كفر بربهم ورســلِه مَوارد المهالك، ووثِقوا بما وعد اللهُ نبيَّــه حين زَوى له مَشارقَ الأرض ومَغاربَها من أنّ مُلكهم سيبلغ ما زوى الله له من ذلك؛ صلاةً لا تزال الأرض لها مســجدا، ولا يَبرَح ذكرُها مغيرا فى الآفاق ومنجِدا؛ ما آستَفتحتْ ألسنةُ الأسِــنّة النصر بإقامتها، وأبادت أعداءها باستدامتها، وسلم تسليما كثيرا؛

و بعد، فإنه لمّــا آتانا الله مُلكَ البَسيطه، وجَعلَ دعوتنا بأَعنّة ممــالك الأقطار محيطه؛ ومَكّنَ لنا فى الآفاق(١)، وأنهَضَنا من الجهاد فى سبيله بالسنّة والفرض، وجَعلَ كلَّ يوم تُعرَض [فيه](٢) جيوشُنا من أمثــلة يوم العَرْض؛ وأظلّتنا بوادرُ الفتوح، وأَظَلّت على الأعداء ســيوفُنا التى هى على من كفر بالله وكَفر النعمةَ دعوةُ نوح وأيّدنا بالملائكة والرُّوح، على من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً فانتَصر بالأب والآبن والرُّوح؛ وألقت إلينا ملوكُ الأقطار السَّلَم، وبَذلتْ كرائمَ بلادها رغبة فى الآلتجاء من عفونا الى ظل أعلى من علم؛ وتَوسّل من كان منهم يُظهِر الغِلظة بالذلّة والخضوع وتَوصّــل من كان منهم يُبــدى القوّةَ بالإخلاص الذى رأوه لهم أَقوَى الجُنَن وأَوقَى الدروع؛ عاهَدْنا اللهَ تعالى ألّا نردّ منهم آمِلا، ولا نصُدّ عن مَشارع كرمنا ناهلا؛ ولا نخيِّب من إحساننا راجيا، ولا نُجْــلِى عن ظلّ بِرّنا لاجيا؛ عِلمــا أنّ ذلك شكرٌ للقدرة التى جعلها الله لنا على ذلك الآمل، ووُثوقا بأنه حيث كان فى قبضتنا كما نشاء

(١) كذا فى الأصل السلبى . والذى فى حسن التوسل ص ١١١ : «الأرض»؛ وهو أظهر بدليل ما يأتى فى الفقرة بعده، لِيَمّ به السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل السلبى؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل .

نجمع عليه الأنامل ؛ اللهمّ إلّا أن يكون ذلك اللّاجئ للغِلّ مُسِرّا ، وعلى عداوة الإسلام مُصِرّا ؛ فيكون هو الجانى على نفسه ، والجانى على موضع رَمْسه ؛ ولمّا كان من تَقدّم بالمملكة الفلانية قد زَيّن له الشيطان أعماله ، وعَقَد بحبال الغرور آمالَه ؛ وحَسّن له التمسُّكَ بالتّتار الذين هم بمَهابتنا محصورون فى ديارهم ، مأسورون فى حَبائل إدبارهم ؛ عاجزون عن حفظ مالديهم ، قاصرون عن ضبط ما استَلبتْه سَرايانا المنصورةُ من يديهم ؛ ليس منهم إلا من له عند سيوفنا ثار ، ومن يَعلم أنه لا بدّ له عندنا من خُطّتَى خَسف : إما القتلِ أو الإسار ؛ وحين تمادى المذكور فى غَيّه ، وحمله الغُرور على ركوب جواد بغيه ؛ أَمَرْنا جيوشَنا المنصورةَ فجاست خِلالَ تلك الممالك وداست حوافرُ خيلِها ما هنالك ، وساوت فى عموم القتل والأسر بين العبدِ والحرِّ والمملوكِ والمالك ؛ وأَلحقت رَواسىَ جبالهم بالصَّعيد ، وجَعلتْ حُماتَهم كزُروع فَلاتِهم منها قائمٌ وحَصيد ؛ فأسلَمَهم الشيطان ومَرّ ، وتركَهم وفرّ ، وما كَرَهم وما كَرّ وأعلَمَهم أن الساعة موعدهم "وَالسَّاعَةُ أَدْهٰى وَأَمَرّ" وأَخلَفَهم ما ضَمِن لهم من العَوْن وقال لهم : "إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ" ، وكان الملكُ فلان ممّن يريد طُرُق النجاة فلم يرَ إليها بسوى الطاعة سبيلا ، ويأمُلُ أسبابَ النجاح فلم يجد عليها غيرَ صدق الانتماء دليلا ؛ فأبصرَ بالخدمة موضعَ رُشْده ، وأَدرَكَ بسعيه نافرَ سعده ؛ وأراه الإقبالُ كيف تثبُت قدمُه فى الملك الذى زَلّت عنه قَدمُ مَن سَلَف ، وأَظهَر له الإشفاقُ على رعاياه مَصارعَ من أَورَده سوءُ تدبير أخيه مَوارد التَّلَف ، وعرّفه التمسّكُ بإحساننا كيف احتوت يدُه على ما لم يُبْقِ غضبُنا فى يد أخيه منه إلا الأسى والأسف ؛ وحَسّنت له الثقةُ بكرمنا كيف يَجُل الطلب ، وعلّمتْه الطاعةُ كيف تُستنزَل عوارفُنا عن بعض ما غَلبتْ عليه سيوفُنا وإنما الدنيا لمن غَلب ؛ وانتمَى إلينا فصار مِن خَدَم أيّامنا ، وصنائع إنعامنا ، وقَطَع علائقَه مِن غيرنا ؛ فلجأ منا الى

ركن شديد، وظلّ مَديد، ونصرٍ عَتيد؛ وحَرَمٍ يأوِى آمِلُه إليـه، وكرمٍ تُقِرّ نضارتُه ناظريه، وإحسانٍ يُمتّعه بما أَقَرّه عطاؤنا فى يديه، وآمتنانٍ يَضَع عنه إِصْرَه والأغلالَ التى كانت عليه؛ اقتضى إحسانُنا أن نُغضىَ له عن بعض ما حَلّت جيوشُـنا ذراه وحَلّت سَطَواتُ عساكرنا عُراه؛ وأَضعفتْ عَزَماتُ سَرايانا قواه، ونَشرتْ طلائعُ جنودنا ما كان سَتَره صَفحُنا عنهـم من عَورات بلادهم وطواه؛ وأن نخوّله بعضَ ما وردت خيولُنا مَناهلَه، ووَطِئتْ جيادُنا غارِبَه وكاهلَه؛ وسَلَكتْ كُماتُنا فلَكتْ دارسَه وآهلَه؛ وأن نُبقِىَ مملكةَ البيت الذى مضى سَلَفُه فى الطاعة عليه، ويستمرّ مُلْكُ الأرمن الذى أُهْمِلَ[1] السعىُ فى مصالحه بيديه؛ ليَتيمَّن رعاياه به، ويَعلموا أنهم أَمِنوا على أرواحهم وأولادهم بسببه؛ ويَتحقّقوا أنّ أثقالهم بحُسن توصُّله الى طاعتنا قد خَفّت، وأنّ بوادرَ الأمن بلطف تَوسُّله الى مَراضينا قد أطافت بهـم وحَفّت وأنّ سيوفَنا التى كانت مجرّدة على مَقاتِلهم بجميلِ آستعطافِه قـد كفتهم بأسَنا وكَفّت وأنّ سَطَواتِنا آلحاكمةَ على أرواحهم قد عَفَت [عنهم بملاطفته وعَفّت][2]؛ فرسم أن يُقلَّد كيت وكيت من المملكة الفلانية، ويَستقرّ بيده آستقرارا لا ينازَع فى آستحقاقه ولا يُعارَض فيما سَبق من إعطائه وإطلاقِه؛ ولا يطالَب عنه بقَطِيعه[3]، [ولا يُطلَب منه بسببه غيرُ طَوِيّة مخلِصةٍ ونفسٍ مطيعه]؛ ولا يَخشى عليه يدا جائره، ولا سَرِيّةً فى طلب الغِـزّة سائره؛ ولا يَطرُق كِناسَه أُسْدُ جيوش مفترِسـه، ولا سباعُ نهابٍ مختلِسه؛ بل تستمرّ بلادُه المذكورةُ فى ذمام رعايتنا، وحَصانةِ عنايتنا؛ وكَنَف إحسانِنا، ووديعةِ بِرّنا وآمتنانِنا؛ لا تَطمَح اليها عينُ معانِد، ولا يَمتدّ اليها إلّا ساعدُ

(١) كذا فى النسخة السلية لهذا الكتاب، وحسن التوسل ص ١١٢ ط الوهبية؛ وفى بعض نسخ حسن التوسل: «أجمل» بالجيم؛ والمعنى يختلف فى كلتا الروايتين.

(٢) التكملة عن حسن التوسل؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها.

(٣) القطيعة: الضريبة.

مساعِد، وعضدُ مُعاضِد؛ فليقابِل هـذه النعمةَ بشكر الله ٱلذى هـداه الى الطـاعه وصان بإخلاص وَلائه نفسَـه ونفائسَ بلاده من الإضاعه؛ وليَقرن ذلك بإصـفاء مَوارد المَوَدّه، وإضفاءِ مَلابس الطاعة التى لا تَزداد بحُسن الوفاء إلا جِدّه؛ وٱستمرارِ المُناصَحة فى السِّرّ والعَلَن، وٱجتنابِ المخادَعة ما ظهر منهـا وما بَطَن، وأداءِ الأمانةِ فيما ٱستَقرّ معه ٱلحِلْف[1] عليـه، ومبايَنةِ ما يخشى أن يَتوجّه بسببه وجهُ عَتْب إليـه؛ وٱستدامةِ هـذه النعمة بحفظ أسبابِها، وٱستقامةِ أحوال هذه المِنّة برَفْض مُوجِبات الكَدَر وٱجتنابِها، وإخلاصِ النيّة التى لا تُعتبَر ظواهرُ الأحوال الصالحة إلّا بها.

ومن تقليـدٍ كتبه المُشارُ اليه أيضـا لسَـلامش بمملكة الروم حين ورد كتابُه يَسأل ذلك قَبلَ حضوره، أوّله:

الحمـد لله الذى أيّدنا بنصرِه، وأمدّنا من جنود الظَّفَر بمـا لم يُؤتَ مَلِكٌ فى عصرِه، وجَعـلَ مهابتنا قائمة فى جهاد عدوّ الدين، إن قَرُب مَقامُ كَسْرِه، وإن بَعُـد مَقامُ حَصْرِه، ونَشَر دعوة مَلِكنا فى الأقطار كلِّها اذا ٱقتصرت دعوةُ غيرِنا من ملوك الأمصـار على مصرِه، وأنجَـدَ من نادانا بلسان الإخلاص من جنود الله وجنودنا بالجيش الذى لم تزل أرواحُ العـدا بأَسْرِها فى أَسْرِه، وعَضَدَ من تَمسَّـك بطاعة الله وطاعتنا من إجابة عساكرنا بمـا هو أَقربُ الى مَقاتل عدوّه من بيضـه المرْهَفـةِ وسُمْرِه، وأعاد بنـا من حقـوق الدِّين كلّ ضـالّة مُلْكٍ ظَنّ العـدوُّ أنّ أمرِه غالبٌ عليهـا واللهُ غالبٌ على أَمرِه؛ فجنودنا إلى نُصْرةِ من دعاها بالإيمـان أَقربُ مِن رَجْع نَفَسِه اليه، وأَسرعُ مِن رَدّ[2] الصدى جوابَه عليه؛ وأَسبَقُ الى عدوّ

(١) الحلف بكسر أوله وسكون ثانيه: العهد.

(٢) فى الأصل: «ردى»؛ وهو تحريف.

الدين من مَواقع عِيانِه ، وأَقدَرُ على التصرّف فى أرواح أهــل الشِّرْك مِن تصرّف الكَمِىّ فى عِنــانِه ؛ وأَذَبُّ عن حمى الدين من الجفون عن نواظرها ، وأَضْرَى على نفوس المعتــدين من أُسُــود عَنَت الفَرائِسُ[1] لكواسرها ؛ قــد عَوّدها النصرُ الإلهىُّ أَلّا تَسُلّ ظُباها فتُغْمَد حتى تُستَباحَ مَمــالك ، وضَمِن لها الوعدُ المحمّدىُّ أنها الطائفةُ الذين لا يزالون ظاهرين الى يوم القيامة حتى يأتىَ أمر الله وهم على ذلك ؛ نحمــده على نعمه التى لم نزل نصون بها حمى الدين ونصول ، ونقلّد بيمنها من لجأ إلينا سيفَ نصر يَصدَع به ليلَ العِدا ولو أن النجوم نُصول ، ونُورِد بآسمها من آنتصر بنا مَورِدَ عزّ يُحرِّمه[2] لمعُ الأسنّة فوقه ، فليس لظمآنَ من العِدا إليه وُصول ؛ وبعد ، فإن أَولى من أَصْغت عزائمُنا الشريفة إلى نداء إخلاصِــه ، وأجابت مكارمُنا العَميمةُ دعاءَ تَميُّزِه بالوَلاء واختصاصِه ، وقابلتْ مَراسمُنا آنتصارَه فى الدين بالنَّفير لإعانتــه على ما ظَفِر باقتلاعه من يد الكفر واقتناصِه ، وتكفلت له مَهابتُنا بالأمن على مُلك مذ وسمه باسمنا الشريف يئس العدوُّ من آستخلاصه ؛ وأجيبت كُتبُه فى الآستنجاد بسَرَعان[3] الكَتائب ، ولَمَعان القواضب ، وتَتابُعِ أمداد جيوشِنا التى تنوء بحَملها كواهلُ المشارق والمغارب ، وتَدفّقِ أمواج عساكرنا التى تُنشِد طلائعُها ملوكَ العِدا :

« أين الفِرار ولا مَفرَّ لهارب »

وتَألُّقِ بُروقِ النصر مِن خفق ألويتنا الشاهدة بأن قبيلنا

« إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالب » .

---

(١) فى الأصل : « الفوارس » ؛ وهو تحريف ، وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا . والفرائس : جمع فريسة . (٢) فى الأصل : « يجزمه » بالجيم والزاى المعجمتين ؛ وهو تصحيف .

(٣) سرعان الناس بفتح الســين والراء : أوائلهم المستبقون إلى الأمر ، قاله الأصمعىّ فيمن يسرع من العسكر . انظر تاج العروس .

ومنـــه :

وفوّضتْ إليه مراسمُنا الحُكمَ فى الرعايا بالعدل والإحسان، وقلّدتْه[1] أوامرُنا من عُقود النظر فى تلك الممالك [ما تَوَدّ جِباهُ الملوك][2] لو حلّت[3] بدُرّها معاقدَ التيجان، وعلّقتْ[4] به من الأوامر ما بنا تَنفُذ مواقعُه، وكذا الأمور المعتبَرةُ لاتَنفُذ إلا بسلطان؛ من ألقى اللهُ الإيمانَ فى قلبه، وهداه إلى دين الإسلام فأصبح فيه على بيّنة من ربّه، وأراد به خيرا فنقَله من حِزْب الشيطان إلى حِزْبه، وأنقذه بطاعته من مَوارد الهلاك بعـد أن كان قد أذِن بحَرْب من الله و رسوله، ولقـد خَسِر الدين[5] والدنيا والآخرةَ من أذِن من الله بحربه؛ وأيقظـه من طاعتنا التى أوجبها على الأمم لما أبصر به رشْدَه، ورأى قصدَه، وعلِم به أن الذى كان فيه كسرابٍ بقِيعة[6] لم يجده شيئا، وأنّ الذى انتقَل إليه وجد اللهَ عنده؛ وأنهضه من مُوالاتنا بما حتّم به النُّهوض على كل من كان مسلما، وأخرجه بنور الهُدى من عِداد أعدائه الذين تركهم خوفُنا "كأنّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا"؛ وأراه الرشدُ ما علِم به أن الله تعالى أورثنا مُلْك الإسلام فبطاعتنا يتمّ الانتماءُ إليه، وأعطانا مَقاليدَ البسيطة فمن اغتصبَ منها شيئا انتزعه الله لنا بجنوده المسوَّمةِ من يديه؛ فلَجأ من أبوابنا العالية الى الظلّ الذى يلجأ اليـه كلُّ ذى مِنبَر وسرير، ورجا من كَرَمنا الاعتصامَ بجيوشنا التى ما رَمَينا بها

(١) فى الأصل : «وقدّرته»؛ وهو تحريف .

(٢) الزيادة عن حسن التوسل ص ١١٣ طبع الوهبية، واستقامة الكلام تقتضيها .

(٣) فى الأصل : «جلت» بالجيم المعجمة؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : «وعذقت» بالذال المعجمة، وهو تحريف .

(٥) لم يرد هذا اللفظ فى حسن التوسل .

(٦) القيعة بكسر القاف : المستوى من الأرض، أشار بهذه العبارة الى قوله تعالى : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا» .

عدوّا إلا ظَنّ أن الرمالَ تَسيل والجبالَ تَسير ؛ وتَحيّزَ منّا إلى فئة الإسلام، وانتصر بسيوفنا التى هو يعلم كيف تَسُلّها على العِدا الأحلام ؛ ومَتّ إلينا بذمّة الإسلام وهى عندنا أبرّ الذمم، وطَلبَ تقليدَه الحكم منا مَن عُرِف (١) بإعاذته (٢) النظراتِ الصادقةَ أنه كان يَحسَب الشحم فيمن شحمُه وَرَم ؛ وعَقَد بنا بناءَ رجائه، وهل لمسلم عن مَلِك الإسلام من مَعْدِل؟ وأنزل بنا ركائبَ آماله، وهل بَعدَ رامةَ لمَرَامٍ (٣) من مَنزل؟ فتلقّت نِعمُنا كرائمَ قصده بالترحيب، وأحلّت وِفادةَ انتمائه (٤) بالحَرَم الذى شأوُه بعيد ونصرُه قريب ؛ وتسارعتْ إلى نُصْرته جنودُنا التى أيّامُها مشهورةٌ فى عدوّها، وآثارُها مشكورةٌ فى رَواحها وغُدوّها، وأعلامُها منصورةٌ فى انتزاحها ودنوّها ؛ وتتابعتْ يتلو بعضُها بعضا تَتابُعَ الغمام المتراكم، والموجِ المتلاطم ؛ تَقْدَم عليه بالنصر القريب من الأَمَد البعيد، وتُعْلِم بوادرُها أنّ طلائعَها عنده وساقتها بالصعيد ؛ ولما كان فلان هو الذى أراد الله به من الخير ما أراد، ووطّد له بعنايته أركانَ الرشاد ؛ وجَعل له بعد الجهل به عِلْما، وتَدارَكه برحمته، فما أمسَى للإسلام عدوّا حتى أصبح هو ومن معه له سِلْما ؛ "قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا"، وبكرمه العَميم فليَفْسَحوا صدورهم ويَشرحوا، وبإرشاده الجلىّ وهدايته فليَدْعوا قومهم الى ذلك وينصحوا ؛ وحين وَضَحت له هذه الطرقُ أرشدتْه من خدمتنا الشريفة الى الطاعة، ودلّته على

(١) فى الأصل : «من معادنه» ؛ وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل .

(٢) فى الأصل وحسن التوسل : «بإدارته» ؛ وهو تحريف فى كليهما، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا إذ بقية الكلام تدل على أنه حل لبيت المتنبي وهو :

أعيذها نظرات منك صادقة * أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم .

(٣) كذا فى الأصل ؛ والذى فى حسن التوسل : «لمرتاد» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) فى الأصل : «أسمائه» ؛ وهو تحريف .

مُوالاةِ مَلِك الإسلام التى من لم يَتمسّك [بها](١) فقد فارق الجماعة ؛ فإن الله تعالى قَرَن طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بطاعة أُولى الأمر ، وحَثّ على ملازَمة الجماعة فى وقت يكون المتمسّك فيه بدينه كالقابض على الجمر ؛ وهذا فِعلُ من أراد الله به خيرا ، وسعىُ من يُحْسِن فى دين الله سِيرةً وسَيْرا ؛ ولذلك ٱقتضت آراؤنا الشريفةُ إمضاءَ عزمه على الجهاد بالإمجاد ، وإنفاذَ سهمه فى أهل العناد بالإسعاف والإسعاد ؛ وأرسلنا الجيوشَ الإسلاميّة كما تَقدّم شرحُه يَطئون الصَّحاصِح ، ويَستقرِبون المَدى النازح ، ويَأخذون كلَّ كَمِيٍّ فلو ٱستطاع السِّماكَ لم يتسمّ بالرامح ، ويَحتسبون الشُّقّةَ فى طلب عدوِّ الإسلام عِلما أنهم لا يُنفِقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون واديا إلا كُتِب لهم به عملٌ صالح ؛ فرُسِم بالأمر الشريف — لا زال يَهَبُ الدُّوَل ، ويقلِّد أجيادَ العظماء ماتَوَدّ لو تَحلّت ببعض فرائده تيجانُ الملوك الأُوَل — أن تُفوَّض إليه نيابةُ الممالك الفلانيّة تفويضا يصون به قِلاعَها ، [ويصُول(٢) بمَهابته على من حاول ٱنتزاعَها من يده وٱقتلاعَها] ؛ ويُجريها على [ما](٣) أَلِفت ممالكُها مِن أمْنٍ لا يُروِّع سِرْبُه ، ولا يكدِّر شِرْبُه ؛ ولا يُوجَد فيه باغ تُخاف السبيلُ بسببه ، ولا من يجرِّد سيفَ بغيٍ وإن جَرَّده قُتِل به ؛ وليَحفظْ من ٱلأطراف ما ٱستودعه ٱلله وهذا التقليدُ الشريفُ حِفظَه ، وليَعمَل فى قتال مُحاربيه من العِدا بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الاصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل ص ١١٤ طبع الوهبية .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل ليتم بها السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالتـــه .

(٣) فى الأصل : «على ألفت» بدون «ما» والسياق يقتضى إثباتها .

ومنه : وليَعلم أن جيوشَنا فى المَســير إليه متى قَصدتْ عدوًا سابقت خيولُهـا خَيالَهـا، وجارت جِيادُها ظلالَهـا ، وأنِفتْ سَنابكُها أن تجعل غيرَ جماجم الأعداء نعالَها، وهاهى قد تقدّمت ونَهضت لإنجادِه، فلو سامها أن تخُوض البحار فى سبيل الله لخاضت، أو تَصْدِم الجبالَ لصَدَمت .

ومنه : والشرعُ الشريفُ مُهِمُّه المقـدَّم، وأمرُه السابقُ على كلّ ما تقـدَّم؛ فليُعْلِ مَنارَه، ويَستشِفّ من أموره أنوارَه ؛ ويُنفِّذْ أحكامَه، ويعاضِـدْ حكّامَه؛ ومن عَدل عن حُكمِه معاندا، أو تَرَك شيئا من أحكامه جاحدا ؛ فقـد بَرِئت الذمّة من دمِه حتى يفِيءَ الى أمر الله، ويَرجِعَ عن عناده ويُنيبَ إلى الله؛ فإن الله يَهدى إليه من أناب "وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ" .

(٨١) وأما الرسائل التى تَتضمّن أوصافَ السلاح وآلاتِ الحرب وأوصافَ الخيـل والجوارح وأنواع الرياضات وما أشبه ذلك، فالكاتبُ فيه مطلَقُ العِنان، مُخَلًّى بينه وبين فصاحتـه، موكولٌ إلى اطّلاعه وبلاغته ؛ وقد تَقدّم من أوصاف السـلاح ما فيه كفايةٌ لمن يريد ذلك .

وأما الخيل والجوارح وما يَلتحِق بذلك من[(١)] الفهود والضّوارى فلا غُنْيَـةَ للكاتب عن معرفته جِيادَها، والأماراتِ الدالّةَ على فَراهتها، وكلّ طير من الجارح وأفعالَه واستطالَته، وكيفيّةَ فِعلِه، وتمكّنه من الطير والوحش؛ وسنُورد إن شاء الله تعالى فى فنّ الحيوان الصامتِ — وهو الفنّ الثالثُ من هذا الكتاب — ما يَقتدِى الكاتب بمثاله، ويَنْسِجُ على منواله .

(١) كذا فى الأصل . قال فى تاج العروس مادة « لحق » : وقولهم : "التحق به"، أى لحق، مولدة، قال الصاغانى : لم أجده فيما دون من كتب اللغة، فليجتنب ذلك اهـ .

وأما الرسائل التى تُعمَل رياضةً للخواطر وتَجرِبةً للقرائح، كالمفاخَرات بين الفواكه والأزهار، ووصفِ الرياحينِ والأنهارِ والغدرانِ والسَّواقى والجداولِ والبحارِ والمراكبِ وأمثالِ ذلك، فقد تَقدَّم منها فى الفنّ الأوّل من هذا الكتاب ما وقفتَ أو تقِف عليه، وسنُورد منها إن شاء الله تعالى فى الفن الرابع فى النبات ما تجدُه هناك.

وأما الرسائل الإخوانيّةُ وما يَتجدّد من الأمور ويَطرأُ من الحوادث وغير ذلك، فسنُورد إن شاء الله تعالى منها فى هذا الباب ما انتخبناه من رسائل الكُتّاب والبُلَغاء المَشارِقةِ والمَغارِبةِ على ما تقف عليه، ولنبدأ من ذلك بذكر شىء من كلام الصحابة والصدر الأوّل.

ذكر شىء من الرسائل المنسوبة إلى الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وشىء من كلام الصدر الأوّل وبلاغتهم

قَدَّمْنا أنّ الكاتب يَحتاج فى صناعته إلى حفظ مخاطَبات الصحابة رضى الله عنهم، ومحاوَراتهم ومراجَعاتهم، فأَحببنا أن نُورد من ذلك فى هذا الموضع ما ستقف إن شاء الله عليه؛

فمن ذلك الرسالة المنسوبةُ إلى أبى بكر الصّدّيق إلى علىّ، وما يَتّصل بها من كلامِ عمرَ بن الخطاب وجوابِ علىٍّ رضى الله عنهم، وهذه الرسالة قد اعتنى الناس بها وأوردوها [فى] المجاميع، ومنهم من أفردها فى جزء، وقطع بأنها من كلامهم رضى الله عنهم، ومنهم من أنكرها ونفاها عنهم، وقال: إنها موضوعةٌ، واختلف القائلون بوضعها، فمنهم من زعم أنّ فُضَلاء الشّيعةِ وضعوها، وأرادوا بذلك الاستنادَ إلى

[أن](١) عليًّا بنَ أبى طالب رضى ٱلله عنه إنما بايع أبا بكر الصِّدّيقَ بسبب ما تضمّنته؛ وهذا الٱستنادُ ضعيفٌ، وحجّةٌ واهيةٌ، والصحيح أن عليّا بن أبى طالب رضى الله عنه بايع بَيْعةً رضىً باطنُـه فيها كظاهره، والدليـل على ذلك أنه وطِئَ من السَّبْيِ الذى سُبِيَ فى خلافة أبى بكر، وٱستولد منه محمـدَ بنَ ٱلحنفيّة، ولا جواب لهم عن هـذا؛ ومنهم من زعم أن فضـلاء السنّة وضعوها، والله أعلم؛ وعلى ٱلجمـلة فهذه الرسالة لَم نُوردها فى هذا الكتاب إثباتا لها أنها من كلامهم رضى ٱلله عنهم ولا نفيا، وإنما أوردناها لمـا فيها من البلاغة، وٱتّساقِ الكلام، وجُودةِ الألفاظ، وها نحن نُوردها على نص ما وقفنا عليه

قال أبو حَيّانَ علىّ بنُ محمد التوحيدىُّ البغدادىُّ :

سَمَرنا ليـلةً عند القاضى أبى حامد بن بشر الْمَرْوَرُّوذىِّ ببغداد، فتصرّف فى الحديث كلَّ متصرَّف — وكان غزيرَ(٢) الروايه، لطيفَ الدرايه — فجرى حديث السَّقيفة، فركب كلَّ مَركَبا، وقال قَولا، وعَرَّض بشىء، ونَزَع إلى فنّ؛ فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبى بكر الصِّدّيق إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما وجوابَ علىّ عنها، ومبايعتَه إياه عقب تلك المناظرة؟ فقال الجماعة : لاوالله، فقال : هى والله من بنات الحقائق، ومخبّآتِ الصنادق، ومنذ حفظتُها ماروِيتُها إلا لأبى محمد المهلّبىّ فى وِزارته، فكتبها عنّى بيده، وقال : لا أعرف رسالة أعقلَ منها ولا أبينَ، وإنها لتـدُلّ على عِلم وحِلم وفصاحة ونباهة، وبُعـدِ غَور، وشدّةِ غَوص؛ فقال له

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضي إثباتها .

(٢) فى الأصل : «عزيز»؛ وهو تصحيف .

العَبَّادانىُّ[1] : أيها القاضى، لو أتممتَ المِنّة علينا بروايتها سمعناها[2]، فنحن أوعى لها عنك من المهلَّبىّ، وأوجبُ ذماما عليك؛ فاندفع وقال : حدّثنا الخُزاعىُّ بمكّة، عن أبى ميسرةَ[3] قال : حدّثنا محمد بن فُلَيح[4] عن عيسى بن دأب[5] [نبأ[6] صالحُ بنُ كَيْسان ويزيدُ بنُ رُومان، قالا : حدّثنا هِشام بن عُروةَ، نبأ[7]] أبو النفّاح قال : سمعت

(١) العبادانى : نسبة الى عبادان؛ وعبادان : موضع منسوب الى عباد بن حصين الحبطى لأنه أوّل من رابط به فنسب إليه بزيادة الالف والنون على طريقة أهل البصرة ونواحيها فى النسبة، فإنهم اذا سموا موضعا ونسبوه الى رجل أو صفة يزيدون فى آخره ألفا ونونا، كقولهم فى قرية عندهم منسوبة الى زياد بن أبيه : زيادان، وأخرى الى عبد الله : عبد اللبان، وأخرى الى بلال بن أبى برده : بلالان، وعبادان هذه تحت البصرة قرب البحر الملح، فإن دجلة اذا قاربت البحر انفرقت فرقتين عند قرية تسمى المحرزى : ففرقة يركب فيه الى ناحية البحرين نحو بر العرب، وهى اليمنى؛ فأما اليسرى فيركب فيها الى سيراف وجنابة فارس، فهى مثلثة الشكل . وعبادان فى هذه الجزيرة التى بين النهرين، وهى موضع ردىء سبخ لا خير فيه، وماؤه ملح، وفيه مشهد لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه . اهـ ملخصا من ياقوت ج ٣ ص ٥٩٨ طبع جوتنجن .

(٢) فى صبح الأعشى : «أسمعناها» بصيغة الأمر؛ والمعنى يستقيم على كليهما .

(٣) كذا فى صبح الأعشى؛ والذى فى الأصل : "ابن أبى ميسرة"؛ ولم نقف عليه فيما لدينا من الكتب المدوّنة فى أسماء الرواة .

(٤) فى الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٧ طبع المطبعة الأميرية : «ابن أبى فليح»؛ ولم نقف عليه فيما بين أيدينا من المظان؛ وما أثبتناه عن خلاصة تذهيب التهذيب للخزرجى وغيرها .

(٥) كذا فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٢ ص ٥٩٣ طبع مطبعة الحلبى، والمشتبه فى أسماء الرجال، وتاج العروس . دَدَ دأب، وغير ذلك من المصادر؛ والذى فى الأصل : "ابن ذؤاب" ولم نقف عليه فيما لدينا من المظان .

(٦) هذه التكملة ساقطة من الأصل؛ وبها يستقيم السند انظر محاضرة الأبرار لابن العربى ج ٢ ص ١٠٣ طبع السعادة .

(٧) كذا وردت هذه الكنية فى محاضرة الأبرار لابن العربى المحفوظ منها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٨ أدب م وكذلك فى النسخة المطبوعة طبع السعادة السالفة الذكر، ونص فيها على أن أبا النفاح مولى أبى عبيدة بالنون والفاء . والذى فى الأصل : «ابن المتاح»؛ ولم نقف عليه فيما لدينا من المظان .

مولاى أبا عُبَيدةَ يقول : لمـا استقامت الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار بَعد فتنة كاد الشيطانُ بها، فدفع الله شرَّها، ويَسَّر خيرَها، بَلَغ أبا بكر عن علىٍّ تلكُّؤٌ وشِماس، وتَهمم[1] ونفاس، فكَرِه أن يتمادى الحالُ فتبـدوَ العَوره، وتَشتعلَ الجمره، وتُفرَّقَ ذاتُ البين، فدعانى، فحضرته فى خَلوَة، وكان عنده عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه وحدَه، فقال : يا أبا عُبَيـدة، ما أَيمَنَ ناصيتَك، وأَبيَنَ الخـيرَ بين عينيك، وطالَمـا أَعزّ الله بك الإسلام، وأَصلَح شأنَه على يديك، ولقد كنتَ من رسول الله صـلى الله عليه وسلم بالمكان المَحُوط، والمَحلّ المغبوط، ولقـد قال فيك فى يومٍ مشهود : "لكلّ أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عُبَيدة" ولَم [تزل][2] للدِّين مُلتَجا، وللمؤمنين مُرتَجَى، ولِأهلِك ركنا، ولِإخوانِك رِدْءا؛ قد أردتك لأمر له خطر مَخُوف، وإصـلاحُه من أعظم المعروف؛ ولئن لم يَندمِل جُرحُه بيسارك[3] ورِفقِك، ولم تُجَبَّ حَيّتُه برُقيتك، فقد وقع اليأس، وأَعضَل البأس؛ واحتيج بعـد ذلك إلى ما هو أَمَرُّ منـه وأَعلَق، وأَعسَرُ منه وأَغلَق؛ والله أسأل تمـامَه بك، ونظامَه على يديك، فتأتَّ له يا أبا عُبَيدة، وتَلطَّف فيه، وانصَحْ لله عزّ وجلّ، ولرسوله صلى الله الله عليه وسلم، ولهذه العِصابة غيرَ آلٍ جُهْدا، و[لا] قالٍ حَمْدا؛ والله كالئك وناصرُك، وهاديك ومبصِّرُك، إن شاء الله؛ امض إلى علىٍّ واخفِض له جَناحَك، واغضُضْ

(١) يقال : تهمم فلان الشىء، اذا طلبه، والمراد هنا طلب الخلافة . وفى رواية : "تهمهم"، وهو الكلام الخفى؛ والمعنى يستقيم على ذلك أيضا . والنفاس : المنافسة .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصـل ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها انظر صـبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٨ طبع المطبعة الأميرية .

(٣) كذا فى الأصـل؛ وفى رواية : "بمسبارك" ؛ انظر محاضرة الأبرار ج ٢ ص ١١١ طبع السعادة فى تفسير هذه الرسالة . والمسبار : فتيل يدخل فى الجرح ليعرف كم عمقه؛ يقال : سبرت الجرح إذا اختبرته بالمسبار .

عنده صوتك ، واعلم أنه سُلالةُ أبي طالب ، ومكانُه ممّن فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانُه ، وقل له : البحرُ مَغرقه ، والبرُّ مَفرقه ، والجوُّ أكْلَف[1] ، والليلُ أغْدف[1] ، والسماءُ جَلْواء ، والأرضُ صَلْعاء ، والصُّعودُ متعذِّر ، والهبوطُ متعسِّر ، والحقُّ عَطوفٌ رءوف ، والباطلُ عنوف[2] عسوف ، والعُجْبُ قَدّاحةُ[3] الشرّ ، والضِّغنُ رائد البَوار ، والتعريضُ سِجالُ[4] الفتنة ، والقِحةُ ثَقوبُ[5] العداوة ، وهذا الشيطانُ متّكئٌ على شِماله ، مُتحبِّل[6] بيمينه ، نافِخٌ حِضْنَيه[7] لأهله ، يَنتظر الشَّتاتَ والفُرقة ، ويَدِبّ بين الأمة بالشَّحناء والعداوة ، عنادا لله عز وجلّ أوّلا ، ولآدمَ ثانيا ، ولنبيّه صلى الله عليه وسلم ودِينِه ثالثا ، يُوسوِس بالفجور ، ويُدْلى بالغُرور ، ويُمنّي أهلَ الشرور ، يُوحِي إلى أوليائه زُخرفَ القول غُرورا بالباطل ، دَأْبا له منذ كان على عهد أبينا آدمَ صلّى الله

(١) الأكلف من الكلف ، وهو لون بين السواد والحمرة . وأغدف الليل : أرخى سدوله وأظلم ، ولم نعثر عليه فيما بين أيدينا من كتب اللغة إلا فعلا . وفي محاضرة ابن العربي ج ٢ ص ١٠٤ طبع السعادة : « أغلف » باللام ، وذكر في تفسيره ص ١١١ أنه الشديد الظلمة اهـ كنى بهذا عن اشتباه الأمور وخفاء طرق الهداية .

(٢) كذا في الأصل وغيره من المصادر التي بين أيدينا لهذه الرسالة ، ولم نقف على هذه الصيغة فيما لدينا من كتب اللغة .

(٣) القدّاحة بتشديد الدال : حجر الزند .

(٤) السجال : جمع سجل بفتح أوّله وسكون ثانيه ، وهو الدلو العظيمة .

(٥) الثقوب بفتح الثاء : ما تشعل به النار من دقاق العيدان . والذي في الأصل : « ثقوف » بالفاء الموحدة ؛ وهو تحريف .

(٦) المتحبل بتشديد الباء الموحدة : المتصيد بالحبالة ؛ وفي الأصل : « متحيل » بالياء المثناة ، وهو تصحيف .

(٧) قال في اللسان مادة « نفخ » في تفسير هذه العبارة : أي منتفخ ، مستعد لأن يعمل عمله من الشر اهـ . وفي الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٨ : « خصيه » : وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ، والتصويب عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٥٩٣ طبع مطبعة الحلبي . وفي النهاية لابن الأثير : « ناخ حضنيه » بالجيم ؛ وقال في تفسيره : كنى به عن التعاظم والتكبر والخيلاء .

عليه ، وعادةٌ له منـذ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر ، لا مَنجَى منـه إلا بِعضِّ الناجِذ على ٱلحقّ ، وغَضِّ الطرف عن الباطل ، ووطْءِ هامَةِ عدوّ ٱلله بالأشدّ فالأشدّ ، والآكَدِ فالآكَد ، وإسـلامِ النفس لله عزّ وجلّ فى ٱبتغاء رضاه ؛ ولا بدّ الآن من قول ينفع اذا ضرّ السكوتُ وخِيف غِبُّه ، ولقد أرشدك من أفاء ضالّتك ، وصافاك مَن أحيا مَودّتَه بعتابك ، وأراد لك الخيرَ مَن آثر البقاء معك ، ما هـذا الذى تُسوِّل لك نفسُك ، ويَدْوِى[1] به قلبُك ، ويَلتوِى عليه رأيُك ، ويَتخاوص[2] دونه طَرْفُك ، ويَسْرِى فيه ظَعْنُك ، ويَترادف معه نَفَسُك ، وتَكثُر عنده صُعَداؤك ، ولا يفيض به لسانُك ؟ أعُجمةٌ بَعـد إفصاح ؟ أتلبيسٌ بَعـد إيضاح ؟ أدِينٌ غيرُ دينِ ٱلله ؟ أخُلُقٌ غيرُ خُلُقِ القرآن ؟ أهدى غيرُ هدى النبى صلى ٱلله عليه وسلّم ؟ أمِثلى تَمشى إليـه الضَّراءَ[3] وتَدبّ له الخَمر[3] ؟ أوَ مِثلُك ينقبض عليه الفضاءُ ويُكسَف[4] فى عينه القمر ؟ ما هذه القَعقَعةُ[5] بالشِّنان ؟ وما هـذه الوَعوَعةُ باللسان ؟ إنك وٱلله جِدُّ عارف باستجابتنا إلى الله عزّ وجلّ ولرسوله صلى ٱلله عليه وسـلّم ، وبخروجنا عن أوطانِنا وأموالِنا وأولادِنا وأحبّتِنا لله[6] عزّ وجلّ ولرسوله ونُصْرةً لدينـه ، فى زمان أنت فيـه فى كِنّ الصِّبا ،

(١) يدوى : من الدوى بفتح الواو ، وهو داء باطن فى الصدر .

(٢) التخاوص : غض البصر مع تحديق كمن يقوم سهما .

(٣) قال فى اللسان مادة ضرا : يقال للرجل اذا ختل صاحبه ومكر به : هو يدب له الضراء و يمشى له الخمر ، و يقال : لا أمشى له الضراء ولا الخمر ؛ أى أجاهره ولا أخاتله ؛ والضراء الاستخفاء . ثم قال بعد ذلك نقلا عن ابن شميل : ما وارلك من شىء وادرأت به فهو خمر .

(٤) نقل عن ثعلب أن الأجود أن يقال : كسفت الشمس ، وخسف القمر انظر اللسان والمصباح مادة «خسف» .

(٥) قال فى اللسان مادة قعع : وفى المثل فلان لا يقعقع له بالشنان ، أى لا يخدع ولا يروّع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع .

(٦) عبارة صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٩ «هجرة الى الله» الخ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

وخِدرِ الغَرارة، وعُنفُوانِ الشَّبِيبة [غافلا عما][1] يُشِيب ويُرِيب[2]، لا تَعِى ما يُراد ويُساد، ولا تُحصِّل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التى إليها عُدِل بك، وعندها حُطَّ رَحلُك، غيرَ مجهولِ القدر، ولا مجحودِ الفضل، ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالا تُزيل الرواسى، ونقاسى أهوالا تُشِيبُ النَّواصى؛ خائضين غِمارَها، راكِبين تَيّارَها؛ نتجرّع صابَها، ونُشرِج[3] عِيابَها؛ ونُحكِم أَساسَها، ونُبرِم أمراسَها؛ والعيونُ تحدِّج[4] بالحسد، والأُنوفُ تَعطُس بالكِبْر، والصدورُ تَستعِر بالغَيظ، والأعناقُ تَتطاول بالفخر، والشِّفارُ تُشحَذ بالمكر، والأرضُ تَميد بالخَوف، لا تَنتظِر عند المَساء صباحا، ولا عند الصباح مَساء، و[لا][5] نَدفع فى نحر أمر إلّا بعد أن نحسوَ الموت دونه، ولا نَبلُغ مُرادا إلى شىء إلّا بعد جَرْع العذاب معه، ولا نُقيم مَنارا إلا بعد الإياس من الحياة عنده، فادين فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأمّ، والخالِ والعمّ، والمالِ والنَّشَب، والسَّبَد[6] واللِّبَد، والهِلَّة[7] والبِلَّة، بطِيب أنفُس، وقُرّةِ أعيُن، ورُحْبِ أعطان، وثَباتِ عزائم، وصِحّةِ عقول، وطَلاقةِ أوجُه، وذَلاقةِ ألسُن؛ هذا مع خفيّاتِ أسرار، ومكنوناتِ أخبار كنتَ عنها غافلا،

(١) التكلة عن صبح الأعشى؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها .

(٢) عبارة الأصل : «تشب وتغيب» ، وهو تحريف؛ وقوله : «ويريب» ، هو من رابنى الأمر وأرابنى ، إذا رأيت منه ما تكره .

(٣) أشرج العيبة وشرجها بدون همز : شدّ عراها .

(٤) التحديج بالجيم : التحديق . وفى الأصل : «تخدع» بالخاء والعين؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : «وندفع» بدون «لا» ؛ واستقامة العبارة تقتضى إثباتها .

(٦) السبد واللبد : كناية عن القليل والكثير؛ وأصل السبد : الوبر، واللبد : الصوف المتلبد .

(٧) يريد بالهلّة والبلّة كل شىء؛ والعرب تقول : ما أصاب هلة ولا بلة : أى شيئا ، ويقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة؛ قال ابن السكيت : فالهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة من البلل والخير.

ولولا سِنُّك لم تكن عن شيء منها ناكلا؛ كيف وفؤادُك مَشهوم[1]، وعُودُك معجوم! والآن قـد بَلَغ ٱللهُ بك، وأنهض الخيرَ لك، وجَعَـلَ مرادَك بين يديك، وعن عِلْمٍ أقول ما تَسـمع؛ فٱرتقبْ زمانَك، وقلِّص[2] أرْدانَك؛ ودع التقعس[3] والتجسّس لمن لا يَظلَع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عَطا؛ فالأمرُ غَضّ، والنفوسُ فيها مَضّ[4]؛ وإنك أَدِيمُ هذه الأمة فلا تَحلَم[5] لجاجا، وسيفُها العَضبُ فلا تَنبُ ٱعوجاجا، وماؤها العَذبُ فلا تَحلْ أُجاجا؛ واللهِ لقـد سألتُ رسول الله صلّى ٱلله عليه وسلّم عن هـذا الأمر فقال لى: "يا أبا بكر، هو لِمن يَرغب عنه لا لِمن يجاحِش[6] عليه، ولِمن يَتضاءل عنه لا لمن يَنتفِجُ[7] إليه، هو لمن يقال: هُو لك، لا لمن يقول: هُو لى" ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصِّهْر، فذَكر فِتيانا من قريش، فقلتُ: أين أنت من علىّ؟ فقال صـلى الله عليه وسلم: إنى لأَكره لفاطمة مَيْعـةَ شَبابِه، وحَداثةَ سِنِّه، فقلتُ له: متى كَنَفتْه يدُك، ورعتـه عينُك، حَفّت بهما البركة، وأُسبِغتْ عليهما النعمة، مع كلام كثير خاطبتُه به رغبـةً فيك، وما كنتُ عَرَفتُ منـك فى ذلك حَوْجاءَ ولا لَوْجاء، فقلتُ ما قلتُ وأنا أَرى مكانَ غيرِك، وأَجِد

(١) المشهوم: الذكى الفؤاد المتوقد، كالشهم.

(٢) التقليص: التشمير.

(٣) القعس: التأخر، كالتقاعس.

(٤) المض: الألم والحزن.

(٥) حلم الجلد: وقع فيه الحلم بفتح اللام، وهو دود يقع فى الجلد فيأكله، فاذا دبغ وهى موضع الأكل منه؛ يريد أنه الذى يجتمع به شمل الأمة وتصان به أمورها، فاذا فسد تفرق ما كان مجتمعا منها كالأديم الذى يصان به سائر البدن.

(٦) يجاحش: يدافع.

(٧) الانتفاج: الارتفاع، أو هو مستعار هنا من قولهم: انتفجت الأرنب اذا وثبت، ومعنى العبارة يستقيم على كلا التفسيرين.

رائحةَ سواك، وكنتُ إذ ذاك خيرا لك منك الآنَ لى؛ ولئن كان عَرَّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر فلم يكن مُعْرِضا عن غيرك، وإن كان قال فيك لما سَكت عن سواك، وإن تَلجلَج فى نفسك شىءٌ فهلُمَّ فالحكم مَرضِىّ، والصوابُ مسموع، والحقُّ مُطاع؛ ولقد نُقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما عند الله عزّ وجلّ وهو عن هذه العِصابة راض، وعليها حَدِب، يَسُرّه ما يَسُرّها[1]، ويسوءه ما يسوءها[1]، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسخطه ما أسخطها، أما تعلم أنه لم يدَع أحدا من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه[2] إلا أبانه بفضيلة، وخصّه بمزيّة، وأفرده بحالة؟ أتظنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سدًى بَدَدا، عَباهِلَ[3] مَباهِل[3]، طَلاحى[4]، مفتونةً بالباطل، معنونةً[5] عن الحقّ، لا ذائد ولا رائد، ولا ضابطَ ولا حائطَ ولا رابط، ولا ساقَ ولا واقَ، ولا هادىَ ولا حادىَ[6]؛ كلا، والله ما اشتاق الى ربه تعالى، ولا سأله المَصيرَ الى رضوانه وقُرْبه إلّا بعد أن ضَرَب المَدَى[7]، وأوضح

(١) كذا ورد هذين الفعلين فى الأصل بصيغة المضارع، والذى فى صبح الأعشى ج١ ص ٢٤١: «ما سرها» و«ماساءها» بصيغة الماضى، وهو أظهر لمشاكلته لما بعده.

(٢) السجراء: الأصفياء، واحده سجير كأمير.

(٣) العباهل من الإبل: المهملة. والمباهل بمعناه؛ استعار ذلك للذين تفرقت كلمتهم وتشتت شملهم.

(٤) الطلاحى: الإبل التى تشتكى بطونها من أكل الطلح، أراد به هنا القوم الذين لا راعى لهم يصدّهم عما يضرهم، ولا قانون يمنعهم عن أن يردوا موارد تسوءهم، فهم يتبعون ما تقودهم اليه الشهوة كالإبل التى تأكل من الطلح الذى يؤذيها حتى تشتكى بطونها.

(٥) معنونة: من عنذت الفرس، أى حبسته بالعنان.

(٦) فى الأصل: «ذادى»؛ وهو تحريف.

(٧) ضرب المدى، يريد: بين الغاية.

الهدى ، وأبان الصُّوى[1] ؛ وأَمَّن المسالكَ والمطارح ، وسَهَّل المبَارِكَ والمَهايع[2] ، وإلا بعد أن شَدخَ يافُوخَ الشِّرك بإذن الله تعالى ، وشَرَم وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه ، وجَدَع أنف الفتنة فى ذات الله ، وتَفَل فى عين الشيطان بعَون الله ، وصَـدَع بِملءِ فيه ويدِه بأمر الله عزّ وجلّ ؛ وبعد ، فهؤلاء المهاجرون والأنصارُ عنـدك ومعك فى بقعة واحدة ، ودارٍ جامعة ، إن آستقالُونى[3] لك ، وأشاروا عندى بك ، فأنا واضعٌ يدى فى يدك ، وصائرٌ الى رأيهم فيك ، وإن تكن الأخرى فآدخل فى صالح ما دخل فيـه المسلمون ، وكن العونَ على مَصالحهم ، والفاتحَ لمَغالقهم[4] ، والمرشـدَ لضالّتهم ، والرادعَ لغَوايتهم ، فقـد أمر الله تعـالى بالتعاونِ على البِرّ والتقوى ، والتناصرِ على الحق ، ودعنا نَقضِ هـذه الحياة بصدور بريئةٍ من الغِلّ ، سليمةٍ من الضغائن[5] والحِقد ، ونَلقَ الله تعالى بقلوب سليمةٍ من الضغْن ؛ وبعد ، فالناس ثُمـامة[6] فارفُق بهم ، وآحنُ عليهم ، ولِنْ لهم ، ولا تُشْقِ[7] نفسك بنـا خاصّةً منهم ، وآترك ناجمَ الحقد

(١) فى الأصل : «الضوى» بالضاد المعجمة ، وهو تحريف . والصوى بضم الصاد المهملة : حجارة مركومة فى الطريق تجعل أعلاما .

(٢) فى الأصل : «المايح» ؛ وهو تحريف ، والتصويب عن صبح الأعشى .

(٣) فى الأصـل : «واستقادونى» ؛ ولم نقف عليـه فيما لدينا من كتب اللغـة الا فعلا لازما ، نقول : استقاد فلان لى اذا أعطاك مقادته ، أو متعـدّيا الى مفعول من القود بفتح القاف والواو ، وهو القصاص .

(٤) المغالق : جمع مغلق بكسر الميم ، والمغلق : ما يغلق به البـاب ، كالمغلاق ؛ كما فى شرح القاموس مادة «غلق» نقلا عن الراغب .

(٥) كذا فى الأصل ؛ وهذا اللفظ مكرر مع ما يأتى فى الفقرة التى بعده مع اختلاف بينهما بالإفراد والجمع ، ولم يرد فى المصادر التى بين أيدينا لهذه الرسالة .

(٦) الثمامة بضم الثاء : واحدة الثمام ، وهو نبت ضعيف له خوص ، وربما حشى به وسدّ به خصاص البيوت ، ويشبه به فى الضعف .

(٧) فى الأصل : «تتول» ولم نجد من معانيه ما يناسب المقام ، والتصويب عن صبح الأعشى .

حَصيدا ، وطائرَ الشرّ واقعا ، وبابَ الفتنة مُغلَقا ، فلا قالَ ولا قِيـل ، ولا لَومَ ولا تعنيف[(١)] ، واللهُ على ما تقول شهيد ، وبمـا نحن عليه بصير .

قال أبو عُبَيدة : فلما تأهّبتُ للنهوض قال عمرُ رضى الله عنه : كُنْ لدى الباب هُنَيْهَةً فلى معـك دور من القول ، فوقفتُ وما أدرى ما كان بعـدى إلّا أنه لحِقنى بوجه يُبدِى تَهلّلا ، وقال لى : قل لعلىّ : الرُّقادُ مَحْلَمَه ، والهوى مَقْحَمَه ؛ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ، وحقٌّ مُشاعٌ أو مقسوم ، ونَبأٌ ظاهرٌ أو مكتوم ؛ وإنّ أكيَسَ الكَيْسَى مَن مَنح الشاردَ تألُّفا ، وقارَبَ البعيدَ تلطُّفا ؛ ووَزنَ كلّ شىء بميزانه ، ولَم يَخلِط خَبَرَه بعِيانه ؛ ولم يجعل فِترَه مكانَ شِبره دِينا كان أو دنيا ، ضلالا كان أو هُدى ، ولا خير فى عِلم مستعمَلٍ فى جهل ، ولا خير فى معرفة مَشُوبةٍ بنُكر ، ولسنا كِجلدة رُفْغ[(٢)] البعير بين العِجان[(٣)] والذَّنَب ، وكلُّ صالٍ فبنارِه ، وكلُّ سيلٍ فإلى قَرارِه ؛ وما كان سكوتُ هذه العِصابة إلى هذه الغاية لِعِىٍّ وشِىٍّ[(٤)] ، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ أو رفق ، وقد جَدَعَ الله بمحمد صلى الله عليه وسلّم أنفَ كلِّ ذى كِبْر ، وقَصَم ظهرَ كلِّ جبّـار ، وقَطَع لسانَ كلِّ كذوب "فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَال" ما هذه الخُتْرُوانةُ[(٥)] [التى][(٦)] فى فَراش[(٧)]

(١) فى الأصل : «تتبع» وفى صبح الأعشى : «تبيع» وهو تحريف فى كليهما ؛ وما أثبتناه عن شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٢ ص ٥٩٤ طبع مطبعة الحلبى .

(٢) الرفغ بفتح الراء وضمها ، أصول الفخذين من باطن ؛ وكأن وجه التشبيه فى ذلك الخسة وضعة المنزلة .

(٣) فى الأصل : «الرأس» وما أثبتناه عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٢ إذ به يستقيم المعنى .

(٤) الشىّ بكسر الشين : إتباع للعىّ . وفى الأصل : «وى» بالميم ، وهو تحريف .

(٥) الخنزوانة : الكبر .

(٦) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها عن صبح الأعشى .

(٧) فراش الرأس : عظام دقاق تلى القحف .

رأسِك ؟ ما هـذا الشجا المعترِضُ فى مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القَذاةُ التى تغشّت ناظرَك ؟ وما هـذه الوَحرةُ[(١)] التى أكلتْ شَرا سِيفَك؟ وما هـذا الذى لَبِستَ بسببه جلدَ النَّمِر، واشتَمَلتَ عليه بالشّحناء والنُّكر، ولسنا فى كِسرويّة كسرى، ولا فى قَيصَرِيّة قَيصر، تأمّلْ لإخوان فارسَ وأبناء الأصفر؛ قد جعلهم الله جَزَرا لسيوفنا، ودَريئةً لرماحنا، ومَرعًى لِطعاننا، وتَبَعا لسلطاننا؛ بل نحن نُور نبوّة، وضياءُ رسالة، وثمرةُ حِكْمة، وأُثْرةُ رَحْمه، وعُنوانُ نِعمه، وظلُّ عِصْمه؛ بَيْن أمّة مَهديّةٍ بالحق والصدق، مأمونةٍ على الرَّتْق والفتق، لهـا من الله إباءُ أَبِىّ، وساعدٌ قَوِىّ؛ ويدٌ ناصره، وعَينٌ ناظره؛ أتظن ظنّا يا علىّ أن أبا بكر وَثَب على هـذا الأمر مُفْتاتا على الأمّة، خادعا لها، أو متسلّطا[(٢)] [عليها]؟ أتراه حَلّ عُقودَها [وأحال عقولَها][(٢)]؟ أتراه جَعلَ نهارَها ليلا، ووَزْنَها كَيلا؛ ويَقظتَها رُقادا، وصلاحَها فسادا؟ لا والله، سلا عنها فوَلِهَتْ له، وتطامن لها فَلَصِقتْ به، ومالَ عنها فمالت إليه، وٱستمازَ دونها فاشتَمَلتْ عليه، حَبوةً حباه الله بها، وعاقبةً بلّغه الله إليها، ونعمةً سَرْبَلَه جَمالها، ويدا أوجب عليه شكرَها وأمّةً نظر ٱللهُ به لهـا، والله تعـالى أعلمُ بخَلقـه، وأرأفُ بعباده، يَختار ما كان لهم الخِيَرة، وإنك بحيث لا يُجهَل موْضعُك من بيت النبوّة، ومعدِنِ الرسالة، ولا يُجحد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك من يزاحمك بمَنْكِب أَضخَم من مَنْكِبك، وقُرْبٍ أَمَسّ من قَرابتك، وسنٍّ أعلى من سنّك، وشَيبةٍ أَرْوَعَ من شيبتك، وسيادةٍ لهـا أصلٌ فى الجاهليّة وفرعٌ فى الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقه، ولا تُذكَر فيها

(١) الوحرة: ضرب من العظاء، وهى صغيرة حمراء، تعدو فى الجبابين لها ذنب دقيق تمصع به إذا عدت، وهى أخبث العظاء لا تضُ طعاما ولا شرابا إلا شمته ولا يأكله أحد إلا دق بطنـه، وربما هلك، شبه العـداوة والغل بها. قال فى اللسان مادة «وحر»: الوحر: غش الصدر وبلابله، ويقال: إن أصل هذا من الدويبة التى يقال لهـا الوحرة، ثم قال: شبهوا العداوة ولزوقها بالصدر بالتزاق الوحرة بالأرض.

(٢) التكملة عن صبح الاعشى.

فى مقـدِّمةٍ ولا ساقه ؛ ولا تَضرِب فيها بذراع ولا إِصبَع ، ولا تخرُج منها ببازِلٍ[(١)] ولا هُبع[(١)] ؛ ولم يزل أبو بكر حَبَّةَ قلب رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وعَلاقةَ نفْسه وعَيْبَةَ سرِّه ، ومَفزَعَ رأيه ، وراحةَ كفِّه ، ومَرْمَقَ طَرْفه ؛ وذلك كلُّه بمَحضَر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار شهرةً مغنيةً عن الدليل عليه ، ولعمرى إنك أَقْرَبُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم قَرَابة ، ولكنه أَقربُ منـك قُربة[(٢)] ، والقَرابةُ لحمٌ ودم ، والقُرْبةُ نفْسٌ ورُوح ، وهـذا فرقٌ عَرَفه المؤمنون ، ولذلك صـاروا إليـه أجمعون ؛ ومهما شَكَكتَ فى ذلك فلا تشُكَّ أن يدَ الله مع الجماعه ، ورِضوانه لأهل الطاعه ، فادخل فيما هو خيرٌ لك اليومَ وأنفعُ غدا ، والفِظْ من فيـك ما يَعلَق بلَهاتك ، وانفُثْ سَخيمةَ صدرِك عن ثُقاتِك ، فإن يك فى الأمَل طُول ، وفى الأجل فُسـحة ، فستأكله مَريئا[(٣)] أو غيرَ مَرىء ، وستشربه هَنيئا أو غيرَ هَنىء ، حينَ لا رادَّ لقولك إلا من كان منـك ، ولا تابعَ لك إلّا من كان طامعا فيـك ، يَمُصّ إهابَك ، ويَعرُك أديمَك ، ويَزرِى على هَدْيِك ، هنالك تَقرَع السنَّ من نَدَم ، وتَجْرَع المـاءَ ممزوجا بدم ، وحينئذ تأسَى على ما مضى من عمـرك ، ودارجِ قوّتِك ، فتودُّ أن لو سُقيتَ بالكأس التى أَبَيتَها ، ورُدِدْتَ إلى حالتك التى استَغوَيتَها ، ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالِغُه ، وغَيبٌ هو شاهِدُه ، وعاقبةٌ هو المرجوُّ لسَرّائها وضَرّائها ، وهو الولىّ الحميد ، الغفورُ الودود .

---

(١) البازل والبزول : الجمل والناقة فى التاسع من سنيه ، وليس بعـده سن تسمى . والهبع بضم الهاء وفتح الباء : الفصيل فى آخر النتاج .

(٢) القربة : الوسيلة .

(٣) فى الأصل : «هنيئا مريئ» وقوله : «هنيئا» زيادة من الناسخ كما يدل على ذلك سياق مابعده ، وانظر صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٣ .

قال أبو عُبَيـدة : فمشيت مترمّلا[(١)] أنوءُ كأنما أخطُو على رأسى فَرَقا من الفُرقة ، وشَفَقا على الأمّة، حتى وصلت إلى علىّ رضى الله عنـه فى خَلاء ، فأبثثته[(٢)] بثّى كلّه، وبَرِئتُ إليه منه،ورَفَقتُ به ؛ فلمّا سمعها ووعاها ، وسَرتْ فى مفاصله حُمّاها ؛ قال: حَلّتْ مُعلَوِّطة[(٣)]، وولّتْ مُخروِّطة[(٣)]، وأنشأ يقول :

إحدى لياليك فهِيسى هِيسى[(٤)] * لا تَنعَمى الليلةَ بالتعـريس

نَعم يا أبا عُبَيدة ، أ كلُّ هذا فى أنفُس القوم يُحسّون به، ويَضطَبِعون[(٥)] عليه؟ قال أبو عُبَيدة : فقلت : لا جوابَ لك عندى، إنما أنا قاض حقَّ الدِّين، وراتقٌ فَتْقَ المسلمين، وسادٌّ ثُلْمةَ الأمّة، يعلم الله ذلك من جُلْجلان[(٦)] قلبى، وقَرارةِ نَفْسى ؛ فقال علىٌّ رضى الله عنـه : والله ما كان قعودى فى كِسْر هذا البيت قصـدا للخلاف، ولا إنكارا للمعروف، ولا زِرايةً على مُسـلم، بل لمـا وقَذنى[(٧)] به رسولُ الله صـلى الله عليه وسـلم مِن فراقِه ، وأَودَعنى من الحُزن لفقدِه، وذلك أننى لم أَشهد بَعـده مَشهدا إلا جدّد علىّ حُزنا، وذكّرنى شجنا، وإن الشوق [إلى] اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره، وقد عَكَفتُ على عهـد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرّق [منـه]

(١) المترمل : المتلفف ؛ يريد أنه خرج مستخفيا .

(٢) يقال : أبثثته السر، اذا أطلعته عليه .

(٣) المعلوّطة : من الأعلواط ، وهو ركوب الرأس والتقحم على الأمور من غير رويّة ؛ والمخروّطة : السريعـــة .

(٤) هو مثل يضرب للرجل يأتى الأمر يحتاج فيه الى الجد والاجتهاد . والهيس بفتح الهاء: السير مطلقا .

(٥) أراد بالاضطباع هنا : الانطواء والاشتمال ؛ وقد استعاره من قولهم : اضطبع الشىء ، اذا جعله تحت ضبعيه ، وهما عضداه . وفى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد : «يضطغنون» ؛ والاضطغان : الاشتمال أيضا .

(٦) جلجلال القلب : سويداؤه .

(٧) وقذه : تركه عليلا .

رجاءَ ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عَمَلَه، وسَلّم لعلمه ومشيئته، وأمرِه ونهيه؛ على أنى ما علمت أن التظاهرَ علىّ واقع، ولِى عن الحقّ الذى سَبق لى دافع، و إذ قد أُفْعِم الوادى بِى، وحُشِد النادى من أجلى، فلا مَرحَبا بما ساء أحدا من المسلمين وسرّنى، وفى النفس كلامٌ لولا سابقُ عَقْد، وسالفُ عهد، لشَفَيتُ نفسى بخِنْصِرى و بِنْصِرى، وخُضتُ لُجّته بأخْمَصى ومَفْرِقى، ولكنى مُلْجَمٌ الى أن ألقى ربّى، وعنده أحتسِب ما نزل بى[1]، و إنى غاد إلى جماعتكم، مبايِعٌ لصاحبكم، صابرٌ على ما ساءنى وسرّكم، "لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا".

قال أبو عُبَيدة: فعدت الى أبى بكر رضى الله عنه، فقَصَصت القول على غَرِّه[2]، ولم أخترل شيئا من حُلوه ومُرِّه، وبَكَّرتُ غُدْوةً إلى المسجد، فلما كان صباحُ يومئذ إذا علىٌّ يخترِق الجماعة إلى أبى بكر رضى الله عنهما، فبايعَه، وقال خيرا، ووَصَف جميلا، وجلس زِمِّيتا[3]، واستأذن للقيام فمضى، وتبِعه عمر مكرِما له، مستثيرا لما عنده، فقال علىٌّ رضى الله عنه: ما قعدت عن صاحبكم كارها له، ولا أتيته فَرَقا، ولا أقول ما أقول تَعلّة، و إنّى لأعرف منتهَى طَرْفى، ومَحَطّ قَدَمى، ومَنْزَعَ قوسى، ومَوقِعَ سهمى، ولكن قد أَزَمتُ على فأسى[4] ثِقةً بربّى فى الدنيا والآخرة.

فقال له عمر رضى الله عنهما: كَفْكِفْ غَرْبَك، وٱستوقِفْ سرْبَك؛ ودع العصا بلِحائها، والدِّلاءَ على رِشائها، فإنّا مِن خَلْفِها ووراءها؛ إن قَدَحْنا أورَينا، وإن

(١) كذا فى صبح الأعشى؛ وفى الأصل: «ما ترك لى».

(٢) على غره، يريد: على أصله؛ وأصل الغر: الكسر المثنى فى جلد أو ثوب، يقال: اطو الثوب على غروره، أى على مكاسره.

(٣) الزمّيت بتشديد الميم: الوقور، وبابه كرم.

(٤) يقال: أزم الفرس على فأس اللجام، أى عض وأمسك؛ يريد أنه كتم ما فى نفسه من الشكوى، ولم يبح بما يعانيه من الألم.

مَتَحْنا أروَينا، وإن قَرَحْنا أدمَينا، ولقـد سمعتُ أماثيلَك التى لَغَزْتَ[1] فيها عن صدر أُكِل بالجوَى، ولو شئتُ لقلتُ [على][2] مقالتك ما إن سمعتَـه ندمتَ على ما قلتَ ؛ وزعمتَ أنك قعدتَ فى كسر بيتك لِمَا وَقَذك به رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن فقدِه، فهو وَقَذك ولم يَقِذْ غيرَك؟ بل مُصابُه أعَمُّ وأعظمُ من ذلك، وإنّ مِن حقِّ مُصابه ألا تَصْدَعَ شَمْلَ الجماعة بفُرقة لا عِصام لها، ولا يؤمَن كيدُ الشيطان فى بقائها، هذه العربُ حَولَنا، والله لو تداعت علينا فى صبح نهار لَم نَلتقِ فى مَسائه؛ وزعمتَ أن الشوق الى اللّحاق به كاف عن الطمع فى غيره، فمن علامة الشوق إليـه نُصرةُ دينـه، ومؤازَرةُ أوليائه ومعاوَنتُهم ؛ وزعمتَ أنك عكفت على عهـد الله تجمع ما تَفرّق منه، فمِن العُكوفِ على عهد الله النصيحةُ لعباد الله، والرأفةُ على خلق الله، وبَذْلُ ما يَصلُحون به، ويَرْشُـدون عليه ؛ وزعمتَ أنك لم تعـلم أن التظاهر وقع عليك، وأىُّ حَقّ لُطّ دونَك ؟ قـد سمعتَ وعلمتَ ما قالت الأنصار بالأمس سرّا وجهرا، وتقلّبت عليه بطنا وظهرا، فهل ذكرتْك، أو أشارت بك، أو وَجدتَ رضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم بلسانه : إنك تصلُح لهذا الأمر، أو أَومأ بعينه، أو هَمْهَم[3] فى نفْسه ؟ أتظنّ أن النـاس ضَلّوا من أجلك، وعادوا كفّارا زهدا فيك، وباعوا الله تعـالى تحامُلا عليك؟ لا والله، لقد جاءنى عَقيل بن زيادٍ الخزرَجىُّ [فى نَفَر من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيـلُ بن يعقوبَ الخَزرَجىُّ][4] وقالوا : إن عليّاً ينتظِر الإمامة، ويزعم أنه أولى بها من غيره، وينكر على من يَعقِد الخلافة، فأَنكرتُ عليهم،

(١) كذا ورد هذا الفعل بتشديد الغين فى أساس البلاغة .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن صبح الأعشى، إذ بها تستقيم العبارة .

(٣) الهمهمة : الكلام الذى لا يصرح به .

(٤) التكملة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٦ ؛ وما بعدها يقتضى إثباتها .

ورددتُ القول فى نحورهم حين قالوا : إنه يَنتظِر الوَحْىَ، ويَتوكّف[1] مناجاةَ المَلَك، فقلت : ذلك أمرٌ طواه الله تعالى بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أكان الأمر معقودا بأُنْشُوطة[2]، أو مشدودا بأطراف لِيطة[3]؟ كلّا والله، لا عَجْماءَ بحمد الله إلا وقد أَفصَحَت، ولا شَوكاء إلّا وقد تفتّحَت، ومِن أعجبِ شأنِك قولُك : لولا سالفُ عهد، وسابقُ عَقْد، لشَفَيتُ غيظى، وهل تَرَكَ الدِّينُ لأهله أن يَشفُوا غيظَهم بيد أو لسان؟ تلك جاهليّةٌ قد استأصل الله شأفتَها، واقتَلَع جرثومتَها، وهوّر[4] ليلَها، وغوّر سَيلَها، وأبدَل منها الرَّوحَ والرَّيحان، والهدى والبرهان، وزعمتَ أنك مُلجَم، ولَعمرى إنّ من اتقى الله، وآثَر رضاه، وطَلبَ ما عنده، أمسك لسانَه، وأَطْبَق فاه، وجَعل سعيَه لما وراه.

فقال علىٌّ رضى الله عنه : مهلا مهلا يا أبا حفص، والله ما بَذلتُ ما بَذلتُ وأنا أريد نَكْثَه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حِوَلًا عنه، وإن أخسرَ الناس صَفْقةً عند الله من آثَرَ النفاق، واحتَضن الشِّقاق، وفى الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكّل فى كلّ الحوادث، ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب، مَبرودَ الغَليل، فَسيحَ اللَّبان[5]، فَصيحَ اللسان. فليس وراء ما سَمعتَ وقلتُ إلا ما يَشُدّ الأَزْر، ويَحُطّ الوِزْر، ويَضَع الإصر، ويجمع الأُلفة بمشيئة الله وتوفيقه.

قال أبو عُبَيدة رضى الله عنه : فانصرف علىٌّ وعمرُ رضى الله عنهما، وهذا أصعب ما مرّ علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) يتوكف : ينتظر، ويقال : فلان يتوكف الأخبار، نحو يستقطر الأخبار.

(٢) الأنشوطة : عقدة تحل اذا جذب أحد طرفيها.

(٣) الليطة : واحد الليط، وهو قشر القصب.

(٤) هور : أذهب. (٥) اللبان : الصدر.

ومن كلام عائشةَ أمِّ المؤمنين بنتِ أبى بكر الصِّـدّيق رضى الله عنهما، وهو ممـا اتصل إلينا بالرواية الصحيحة، والأسانيد الصريحة، عن محمد بنِ أحمدَ ابنِ [أبى][1] المُثنَّى، عن جعفر بن عَون، عن هِشام بن عُروةَ، عن أبيه، عن عائشةَ رضى الله عنها: أنه بلغها أنّ أقواما يَتناولون أبا بكر رضى الله عنـه، فأرسلَتْ الى أَزْفَلَةٍ من الناس، فلمّا حضروا أَسدَلتْ أستارَها، وعلَت وِسادَها، ثم قالت: أبِى وما أَبِيه! أبِى والله لا تَعْطُوه الأَيْدى، ذاك طَوْدٌ مُنِيف، وظلٌّ مَدِيد، هيهاتَ، كَذبت الظُّنون، أَنْجَح[2] إذ أَكْدَيتم، وسَبَقَ إذ وَنَيتم "سَبْقَ الجَوادِ إذا استَوْلى على الأَمَدِ" فَتَى قريشٍ ناشئا، وكَهْفُها كَهلا، يَفُكّ عانيَها، ويَرِيش مُمْلِقَها، ويَرْأَب شَعْبَها، ويَلُمّ شَعَثَها، حتى حَلِيَته[3] قلوبُها، ثم آستَشرَى فى دين الله، فما بَرِحت شَكِيمتُه فى ذات الله عزّ وجلّ حتى اتّخذ بِفِنائه مسجدا يُحْيِى فيه ما أمات المبطلون، وكان رحمه الله غزيرَ الدَّمْعة، وَقِيذَ الجوانح، شجىَّ النَّشِيج، فانعطفتْ اليه نسوانُ مكّة وولدانُها يسخرون منه، ويستهزئون به، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فأَكبَرتْ ذلك رجالاتُ قريش، فحَنَت قِسيَّها، وفَوّقَتْ سهامَها، وامتثلوه[4] غَرَضا فما فَلّوا له صَفاة، ولا قَصَفوا له قَناة، ومَرّ على سِيسائه، حتى اذا ضَرَب الدِّينُ بجِرانه، وأَلْقَى بَرْكَه، ورَسَت أوتادُه، ودخل الناسُ فيه أفواجا، ومن كلّ فِرقة أرسالا

(١) كذا ورد هـذا الاسم فى تهذيب التهذيب لابن حجر أثناء الكلام على جعفر بن عون، والذى فى الأصل: «ابن المثنى»، ولم نقف عليه فيما لدينا من الكتب المدوّنة فى أسماء الرواة.

(٢) فى اللسان مادة «كدا» «ونجح» بدون همز.

(٣) حليته: استحلته.

(٤) فى الأصل وصبح الأعشى: «وانتثلوه» بالنون؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر اللسان مادة «مثل».

وأشتاتا، اختار الله لنبيّه ما عنده، فلمّا قبض الله نبيّه صلى الله عليه وسلم نَصَب[1] الشيطان رِواقَه، ومَدّ طُنُبَه، ونَصَب حبائلَه، وأَجلبَ بخَيلِه ورَجلِه، واضطرب حبلُ الإسلام، ومَرِج عهدُه، وماج أهلُه، وبُغِيَ الغوائلُ، وظَنّت رجال أن قد أَكْثَبَ[2] نَهْزُها، ولات حين الذى يَرجُون، وأنّى والصّدّيقُ بين أظهُرِهم؟ فقام حاسرا مشمِّرا، فجمع حاشيتيه، ورَفَع قُطريه، فردّ رَسَنَ الإسلام على غَرْبِه، ولَمّ شَعَثَه بطبِّه، وأقام أَوَدَه بثِقافه، فابذَعَرّ النفاقُ بوَطئه، وٱنتاش الدِّينَ فنَعَشه، فلمّا أراح الحقّ على أهله، وقرّر الرءوسَ على كواهلها، وحَقَن الدماء فى أُهُبها، أنته منيّته، فسَدّ ثُلْمتَه بنظيره فى الرحمة، وشَقيقه فى السِّيرة والمَعدِلَة، ذاك ٱبنُ الخطّاب، لله دَرّ أمٍّ حَفَلَت[3] له، ودَرّت عليه! لقد أَوحدتْ به، ففَنَّخَ الكفرةَ ودَيَّخَها، وشَرَّد الشِّركَ شَذرَ مَذر، وبَعَج الأرضَ وبَخَعها، فقاءت أُكُلَها، ولَفَظَت جَنِينَها[4]، تَرْأَمه ويَعدِف عنها، وتَصدَّى له ويأباها، ثم وَزَّعَ فيها فَيْئَها، ووَدَّعها كما صحبها، فأَرُونى ما ترتابون؟ وأىَّ يومَىْ أبى تَنْقِمون؟ أيومَ إقامتِه إذ عَدَل فيكم، أم يومَ ظَعْنِه وقد نَظَر لكم؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

ثم أقبلتْ على الناس بوجهها فقالت: أَنشُدكم اللهَ، هل أَنكرتم مما قلتُ شيئا؟ قالوا: اللهمّ لا.

(١) فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨: «ضرب»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

(٢) كذا فى الأصل؛ والذى فى اللسان مادة «كثب» «أكثبت أطماعهم»؛ وفى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨: «أكثبت أطماعهم نهزها»، والمعنى يستقيم على كل من هذه الروايات الثلاث.

(٣) فى الأصل: «حملت به»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما سيأتى فى شرحه لهذه الكلمة.

(٤) فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨: «خبأها»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

ذكر شرح غريب رسالتها رضى الله عنها

الأَزْفَلَة : الجماعةُ . وتَعْطُوه : تَناوَلُه . والطَّوْد : الجبلُ . والمُنِيف : المُشْرِفُ . وأَكْدَيْتم : خِبتم ويُئِسَ من خيركم . ووَنَيتم : فَتَرتم وضعفتم . والأَمَد : الغايةُ . ويَرِيش : يُعطِى ويُفْضِل . والمُمْلِق : الفقيرُ . ويَرْأَب : يَجمَعُ . والشَّعْبُ : المتفرِّقُ . ويَلُمّ : يَضُمّ . واستَشرَى : جَدَّ وانكمش . والشَّكِيمةُ : الأَنفةُ والحَمِيّةُ . والوَقِيذُ : العَليلُ . والجوانح : الضلوع القِصارُ التى تقرُب من الفؤاد . والشجىُّ : الحَزِينُ . والنَّشِيجُ : صوتُ البكاء . وانعطفتْ : انثنت . وامتثَلوه : مثلوه (١) . والغرض : الذى يُقصَد للرمْيِ . وفَلّوا : كَسَروا . والصَّفاةُ : الصخرة الملْساءُ . وقَصَفوا : كَسَروا . وسِيساؤه : شدّته ، والسِّيساءُ : عَظْم الظهرِ ، والعرب تضربه مَثَلا لشِدّة الأمر ، قال الشاعر (٢) :

لقد حَمَلت قيسُ بنُ عَيْلانَ حربنا (٣) * على يابِسِ السِّيساءِ مُحْدَوْدِبِ الظَّهرِ

والحِرانُ : الصَّدْرُ . ورَسَتْ : ثبتت . ومَرِجَ : اختَلَط . وماجَ أهلُه : اضطربوا وتنازعوا . وبُغِىَ الغوائلُ ، معناه وطُلِب البلايا . وأَكْثَبَ : قَرُبَ . والنَّهْزُ : اختلاسُ الشىء والظَّفَرُ به مبادَرةً . ولات حين الذى يطلبون (٤) ، معناه : وليست الساعةُ (٥) حينَ ظَفَرِهم . وقولها : فجمع (٦) حاشيتيه ورَفَع قُطْريه ، معناه تحزّمَ

(١) كذا فى الأصل ؛ وعبارة اللسان فى شرح هذه الجملة : أى نصبوه هدفا لسهام ملامهم وأقوالهم وهو افتعل ، من المثلة اه . (٢) هو الأخطل ، كما فى اللسان مادّة « سيس » .

(٣) فى الأصل : « زينا » ؛ وهو تحريف يختل به الوزن والمعنى ؛ والتصويب عن اللسان .

(٤) كذا فى الأصل ، والذى سبق فى الخطبة : « يرجون » .

(٥) فى الأصل : « الشجاعة » ؛ وهو تحريف .

(٦) عبارة الأصل : « وقولها : فرفع حاشيتيه ، وجمع قطريه » وفيه تقديم وتأخير ، والصواب العكس . ليوافق ما مر فى الخطبة ، ونصها فى اللسان مادّة « قطر » « قد جمع حاشيتيه ، وضم قطريه » وقال فى تفسير ذلك ، جمع جانبيه عن الانتشار والتبدد والتفرق .

للأمر وتأهّبَ له . والقُطْرُ : الناحيـةُ . والطبُّ : الدواء . والأَوَدُ : العِوَجُ . والثِّقافُ : تقويمُ الرماح وغيرِها . وابْذَعَرَّ : تفرّق . وانتاش الدِّينَ ، أى أزال عنه ما يُخاف عليـه . ونَعَشَه : رَفَعَه . وأراح الحقَّ على أهـله ، أى أعاد الزكاةَ التى مَنعتها العرب فقاتلَ عليها حتى رُدّت الى حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وقَرَّرَ الرءوسَ على كواهلها ، معناه وقَى المسلمين القتلَ . والكاهلُ : أعلى الظهر وما يتصل به . وحَقَنَ الدماءَ فى أُهُبها ، معناه أنه حقن دماءَ المسلمين فى أجسادهم . والأُهُب : جمعُ إهاب ، وأصـلُ الإهاب الجلد ، فكَنَتْ به عن الجسد . وقولها : لله دَرّ أمٍّ حَفَلت له ، أى جمعت له اللبن . وقولها : أوحدتْ به ، معنـاه جاءت به منفردا لا نظير له . وقولهـا : ففَنَّخَ الكفرةَ ، معناه أذلَّها . وديَّخَها : صَـغَّرَ بها[1] . وبَعَجَ الأرضَ وبَخَعها ، معناه شَقَّها واستقصى غلّتَها[2] . وشَذَرَ مَذَر ، معناه تفريقا ، يقال : شَذَرَ مَذَر ، وشَغَرَ بَغَر ، بمعنى واحد . وقولهـا : حتى قاءت أُكُلَها ، معناه أخرجت خبزَها . وتَرأَّمَه : تعطف عليه . وتَصدَّى له : تَعرَّضَ له .

ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه ما كَتَب به إلى معـاويةَ بنِ أبى سُـفيانَ جوابا عن كتابه — وهو من محاسن الكتب — كتب رضى الله عنه :

أما بعد ، فقد أتانى كتابك تذكُرُ فيه آصطفاءَ الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم لدِينه ، وتأييدَه إيّاه بمن أيّده به من أصحابه ، فلقد خَبَأَ[3] لنا الدهرُ منـك عَجَبا ،

(١) كذا فى الأصل ؛ ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على تعدية هذا الفعل بالباء .

(٢) فى الأصل : « عليها » وهو تحريف ؛ وذكر فى اللسان مادّة « بخع » فى تفسير هذه الكلمة أن المعنى قهر أهلها وأذلهم واستخرج ما فيها من الكنوز وأموال الملوك .

(٣) فى الأصل : « جاء » ؛ وهو تحريف لا تستقيم به العبارة ، والصواب ما أثبتنا كما فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٩ وغيره .

أفطَفِقت تُخبِرنا بآلاء الله عندنا؟ فكنتَ فى ذلك كناقِلِ التمر الى هَجَرَ، أو داعىَ مِدْرَهٍ الى النِّضال؛ وزعمتَ أنّ أفضـلَ الناس فى الإسلام فلانٌ وفلان، فذَكَرتَ أمرا إن تمّ اعتزلك كُلُّه، وإن نَقَص[1] لم يَلحَقْك قُلُّه؛ وما أنت والفاضـلَ والمفضول، والسائلَ والمسئول؟ وما الطُّلَقاءُ وأبناءُ الطُّلَقاءِ والتمييزَ[2] بين المهاجرين الأوّلين، وترتيبَ درجاتِهم، وتعريفَ طبقاتِهم؟ هيهاتَ لقـد «حنّ قِدْحٌ[3] ليس منها»، وطفِق يَحْكُمُ فيها من عليه الحُكمُ لها، ألا تَرْبَع على ظَلْعِك، وتَعرِف قُصورَ ذَرْعِك، وتتأخّر حيث أخّرك القدر، فما عليك غَلَبةُ المغلوب، ولا لك ظَفَرُ الظافر، وإنك لذَهّابٌ فى التِّيه، رَوّاغٌ عن الفضل[4]، ألا ترى — غيرَ مُخْبِرٍ لك، ولكن بنعمة الله أُحدِّث — أن قوما استُشهِدوا فى سبيل الله مِن المهاجرين — ولِكلٍّ فضل — حتى إذا استُشهِد شَهيدُنا (هو حمزة) قيل: سَيّد الشهداء، وخصّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرةً عند صلاته عليه؛ ألا ترى أن قوما قُطِّعتْ أيديهم فى سبيل الله — ولِكلٍّ فضل — حتى إذا فُعِل بأحدنا ما فُعِل بواحدهم قيـل: الطيّار فى الجنة، وذو الجناحين (هو جعفر) ولولا [ما][5] نهى الله عنه مِن تزكيةِ المرء نفسَه لَذَكَر ذاكرٌ فضائلَ جَمّة تعرفها قلوب المؤمنـين، ولا تَمُجّها آذانُ السامعين، فدع عنـك مَن مالت به الدّنيةُ[6] فإنا

(١) فى الأصل: «بفض»؛ وهو تصحيف.

(٢) فى الأصل: «والتيمين»؛ وهو تحريف لا تستقيم به المعنى.

(٣) هذا مثل يضرب لمن يفتخر بقبيلة ليس منها، أو يتمدح بما ليس فيه؛ والأصل فى ذلك أن الواحد من قداح الميسر اذا كان من غير جوهر أخواته وأجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها.

(٤) كذا فى الأصل، والذى فى نهج البلاغة ج٢ ص١٩ طبع بيروت: «القصد»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين. (٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها.

(٦) فى نهج البلاغة ج ٢ ص ١٩ طبع بيروت: "الرمية"؛ والرمية الصيد ترميه فتقصده، والمراد بها الدنيا؛ وقال شارح نهج البلاغة فى تفسير قوله «مالت به» ما نصـه: «ومالت به: خالفت قصده فاتبعها، مثل يضرب لمن اعوج غرضه فمال عن الاستقامة لطلبه.

صنائعُ ربنا، والناسُ بَعدُ صنائعُ لنا، لَم يمنعنا قديمُ عزِّنا، وعادىُّ[1] طَوْلِنا على قومك أن خلطناهم بأنفُسنا، فنكحنا وأنكحنا فِعْلَ الأكفاء ولستم هناك، وأنّى يكون ذلك كذلك؟ ومنّا النبيُّ ومنكم المكذِّب[2]، ومنّا أَسَدُ الله[2]، ومنكم أَسَدُ الأحلاف[2]، ومنا سيدا شباب أهل الجنة، ومنكم صِبْيَةُ النار[2]، ومنا خيرُ نساء العالمين[2]، ومنكم حَمّالةُ الحطب[2]؛ فإسلامُنا قد سُمِع، وجاهليّتُنا لا تُدْفَع، كتابُ الله يجمع لنا ما شَذّ عنّا و[هو][3] قوله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فنحن مرّةً أَولَى بالقرابة، وتارة أَولَى بالطاعة؛ ولما احتجّ المهاجرون على الأنصار يوم السَّقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فَلَجُوا عليهم، فإن يكن الفُلْجُ به فالحقُّ لنا دونكم، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم؛ وزعمتَ أنّي لكلِّ الخلفاء حَسَدتُ، وعلى كلِّهم بَغَيتُ، فإن يكن ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك، فتكون المَعذِرةُ إليك.

"وتلك شَكاةٌ[4] ظاهرٌ عنك عارُها"

---

(١) العادىّ: القديم.

(٢) المكذب: أبو جهل. وأسد الله: حمزة بن عبد المطلب. وأسد الأحلاف: أبو سفيان ابن حرب، لأنه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة الخندق. وسيدا شباب أهل الجنة: هما الحسن والحسين ولدا على كرم الله وجهه. وصبية النار هم أولاد مروان بن الحكم. وخير نساء العالمين: فاطمة. وحمالة الحطب: أم جميل بنت حرب عمة معاوية، وزوجة أبى لهب.

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل. وقد نقلناها عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٠.

(٤) يقال: ظهر عنه العار، إذا لم يعلق به ونبا عنه. وقوله: وتلك شكاة الخ عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلىّ؛ وصدره: * وعيرها الواشون أنى أحبها * انظر اللسان مادة «ظهر».

وقلتَ: إنى كنت أقادُ كما يقاد الجمَل المخشُوش[1] حتى أبايِعَ، ولعمر الله [لقد][2] أردتَ أن تذُمّ فحمِدتَ، وأن تفضَح فافتضحت، وما على المسلم من غَضاضةٍ فى ان يكون مظلوما مالم يكن شاكًّا فى دِينه، ولا مرتابا فى يقينه، وهذه حُجّتى إلى غيرك قَصْدُها، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سنح من ذِكْرِها؛

ثم ذكرتَ ما كان من أمرى وأمر عثمانَ، [فلك][3] أن تجاب عن هـذه لِرحِمه[4] منـك، فأيُّنا كان أعْدَى له، وأهْدَى الى مَقاتله؟ أمَن بَذَل له نُصرتَه فاستقعده واستكفّه، أمن استنصره فتراخى عنه، وبثّ المَنُونَ إليه، حتى [أتى][3] قَدَرُه عليه؟ كَلّا والله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وما كنتُ أعتذِر من أنّى كنتُ أنقِم عليه أحداثا، فإن كان الذنبُ إليـه إرشادى وهدايتى له "فرُبّ مَلُوم لا ذنبَ له"

* وقد يستفيد الظِّنّةَ[5] المتنصِّحُ *

وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ "وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ"؛ وذكرتَ أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف، فلقـد أضحكتَ بعْـد استعبار، متى ألفيتَ بنى عبد المطّلب عن الأعداء ناكِلين، وبالسيوف مخوَّفين؟ "لَبِّثْ[6] قليلا يَلحق الهَيجا

(١) المخشوش: الذى أدخل فى أنفه الخشاش بكسر الخاء، وهو ما يدخل فى عظم أنف البعير من خشب.

(٢) الزيادة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٠.

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل. وقد نقلناها عن نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١ طبع بيروت؛ إذ لا يستقيم الكلام بدونها.

(٤) هذه اللام ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها.

(٥) الظنة: التهمة. وصدر هذا البيت: * وكم سقت فى آثاركم من نصيحة *

(٦) لبث بتشديد الباء، من اللبث، وهو المكث. وحمل بفتح الحاء والميم هو ابن بدر، وهذا مثل يضرب للتهديد بالحرب، ورواية اللسان مادة حمل: «ضح قليلا يدرك» الخ.

حَمَلْ" فسيطلُبك من تَطلُب، ويقرُب منك ما تَستبعِد، وأنا مُرْقِلٌ نحوَك فى جَحفَل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديدٍ زحامُهم، ساطع قَتامُهم، متسربِلين سَرابيلَ الموت، أحبُّ اللقاء إليهم لقاءُ ربِّهم، قد صَحِبتْهم ذرّيّةٌ بَدْريّة، وسيوفٌ هاشميّة، قد عرفت مَواقعَ نِصالِها فى أخيك وخالِك وجدِّك(١) وأهلِك "وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ".

ومن كلام الأحنف بن قيس حين وَبّخه معاويةُ بنُ أبى سفيانَ بتخذيله عائشةَ رضى الله عنها، وأنه شَهِد صِفِّين، وقال له: فَعلتَ وفَعلتَ، فقال: ياأمير المؤمنين، لِمَ تَرُدُّ الأمورَ على أعقابِها؟ أما والله إنّ القلوبَ التى أبغضناك بها لَبين جوانِحنا، والسيوفَ التى قاتلناك بها لَعلَى عواتقِنا، ولئن مَدَدتَ بشِبرٍ من غَدر، لنَمُدَّنّ باعا من خَتْر(٢)، ولئن شئتَ لتَستصفِينّ كَدَرَ قلوبِنا بصفوِ حِلمك، قال معاوية: أفعلُ.

وجلس معاويةُ يوما وعنده وجوهُ الناس، وفيهم الأحنف، فدخل رجلٌ من أهل الشام، فقام خطيبا، فكان آخرَ كلامه أن لَعَن عليّا رضى الله عنه، فأطرق الناس، وتكلّم الأحنفُ فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل آنفًا ما قال لو عَلِم أن رضاك فى لعن المرسلين للَعَنهم، فاتّقِ الله، ودَع عليّا فقد لقِىَ الله، وأُفرد فى حُفرته، وخلا بعمله، وكان والله — ما عَلِمنا — المبرِّزَ بشِقّه، الطاهرَ فى خُلقه، المَيمونَ النَّقيبه، العظيمَ المصيبه. قال معاويةُ: يا أحنفُ، لقد أغضَيتَ العينَ على القَذى، وقلتَ بغير ما تَرى، وأيم الله لتَصْعَدَنّ المنبر فلتَلْعَنَنّه طائعا أو كارها، فقال الأحنف: إن تُعْفِنى فهو خير، وإن تُجبِرْنى على ذلك فوالله لا تجرى به شفتاى، فقال معاويةُ: قم فاصعَد، قال: أما والله لأُنصفنّك فى القول والفعل، قال معاويةُ: وما أنت

(١) أخوه: حنظلة. وخاله: الوليد بن عتبة. وجدّه: عتبة بن ربيعة.

(٢) الختر: أقبح الغدر.

قائلٌ إن أنصفتَنى؟ قال : أَصْعَدُ فأَحمَدُ الله وأُثنى عليه وأصلّى على نبيّه، ثم أقول : أيها الناس، إنّ معاويةَ أمرنى أن ألعن عليّا، ألا وإنّ عليّا ومعاويةَ اختلفا واقتتلا، وادّعى كلُّ واحد منهما أنه مبغىٌّ عليــه وعلى فِئتِه ، فإذا دعوتُ فأمّنوا رحمكم الله؛ ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكتُك وأنبياؤك ورسلُك وجميعُ خلقك الباغىَ منهما على صاحبه، والفِئةَ الباغيــةَ على المبغِىِّ عليها، آمينَ يارب العالمين؛ فقال معاويةُ : إذَنْ نُعْفيك يا أبا بَحر .

وأتَى الأحنفُ مُصْعَبَ بنَ الزبير يكلّمه فى قومٍ حبسهم فقال : أصلح الله الأميرَ، إن كانوا حُبِسوا فى باطلٍ فالحقُّ يُخرِجهم، وإن كانوا حُبسوا فى حقٍّ فالعفوُ يسَعُهم؛ فخلّاهم .

ولمــا قَدِم وفدُ العراق على معاويةَ وفيهــم الأحنفُ، خرج الآذنُ فقال : إنّ أمير المؤمنين يعزم عليــكم ألّا يتكلّم أحدٌ إلّا لنفسه، فلما وَصَلوا اليه قال الأحنف : لولا عَزْمةُ أمير المؤمنين لأَخبرتُه[1] أن دافّةً (أى الجماعةُ) دَفّت[2]، ونازلةً نَزلَتْ ، ونائبةً نابت، وكلُّهم بهم الحاجةُ إلى معروف أمير المؤمنين وبِرّه؛ فقال : حسبُك ياأبا بحر ، فقد كَفيتَ الغائبَ والشاهدَ .

ولمــا خطب زِيادُ بنُ أَبيه بالبَصْرة قام الأحنف فقال :

لله الأمير! قد قلتَ فأَسمَعتَ، ووَعَظتَ[3] فأَبلغتَ؛ أيها الأمير، إنمــا السّيفُ بحَدِّه، والقوسُ بشدِّه، والرجلُ بجِدِّه؛ وإنمــا الثناءُ بعد البلاء، والحمدُ بعد العطاء؛ ولن نُثْنِيَ حتى نَبتلِيَ، ولا نَحمَد حتّى نُعطَى .

(١) فى الأصل : «لأجزته» بالجيم والزاى المعجمتين؛ وهو تحريف .

(٢) دفت : أتت .

(٣) فى الأصل : «ودغطت»؛ وهو تصحيف .

ولما حُكِّم أبو موسى الأشعرىُّ أتاه الأحنف فقال له : ياأبا موسى، إنّ هذا مَسيرٌ له ما بعده مِن عزّ الدنيا أو ذلّها آخرَ الدهر، أُدعُ القوم إلى طاعة علىٍّ، فإن أبَوْا فادعُهم أن يختار أهلُ الشام مِن قريشِ العراقِ مَن أحبّوا، ويختارَ أهلُ العراقِ مِن قريشِ الشامِ من أحبّوا، وإياك إذا لقيتَ ابنَ العاص أن تصافحه بنيّة، وأن يُقعدك على صدر المجلس، فإنها خَديعةٌ، وأن يضُمَّك وإيّاه بيتٌ فيكمن لك فيه الرجال، ودعه فليتكلّم لتكون عليه بالخيار، فالبادئُ مُستغلَقٌ[1]، والمجيبُ ناطقٌ، فما عَمِل أبو موسى إلّا بخلاف ما قال الأحنفُ وأشارَ به، فكان من الأمر ما كان؛ فلقيَه الأحنف بعد ذلك فقال له : أدْخَلَ والله قدميك فى خُفٍّ واحدةٍ .

وقال بخراسان : يا بنى تميم، تحابّوا [تجتمعْ[2] كلمتُكم] وتباذَلوا[3] تعتدلْ أمورُكم، وابدءوا بجهادِ بطونِكم وفروجِكم يصلُحْ دينُكم، ولا تغُلّوا[4] يَسلَمْ لكم جهادُكم .

ولمّا قدِمت الوفود على عمر بنِ الخطّاب رضى الله عنه، قام هِلال بنُ بِشر[5] فقال : يا أمير المؤمنين : إنا غُرّةُ مَنْ خَلْفَنا مِن قومنا، وسادةُ مَنْ وراءنا مِن أهل مصرِنا؛ وإنك إن تَصرِفنا بالزيادة فى أعطياتنا، والفرائِض لعيالاتنا، يَزْدَدْ بذلك

---

(١) أراد بالمستغلق هنا : الذى ليس له الخيار فى رد ما قال، وهو استعارة من قولهم : استغلقنى فى بيعه، اذا لم يجعل لى خيارا فى رده .

(٢) هذه التكملة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن البيان والتبيين ج ١ قسم ٢ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٧٠ .

(٣) كذا فى البيان والتبيين فى النسخة السالفة الذكر، والذى فى الأصل : «وتنازلوا»؛ وهو تصحيف إذ لم نجد من معانيه ما يلائم السياق .

(٤) غل غلولا من باب قعد : خان فى المغنم .

(٥) كذا فى الأصل؛ والذى فى البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٣ طبع الرحمانية : «ابن وكيع» .

الشريفُ تأميلا، وتكن لهم[(١)] أبا وَصُولا ؛ وإن تكن مع ما تَمُتّ[(٢)] [به][(٣)] من وسائلك، وندلي [به][(٣)] من أسبابك كالجدل[(٤)] لا يَحُلّ ولا يَرتحِل، نَرجِعْ بأُنوفٍ مصلُومة[(٥)]، وجُدودٍ عاثِرة، فمُحنا[(٦)] وأهالينا بسَجْلٍ مُتْرَعٍ (أى الدَّلوُ الملآنة) من سِجالك المترَعة .

وقام زيد بنُ جَبَلَةَ فقال : يا أمير المؤمنين، سَوِّد الشريفَ، وأكرِم الحسيبَ، وازرع عندنا من أياديك ما تسدّ به الخَصاصة، وتطرد به الفاقة ؛ فإنا بِقُفٍّ[(٧)] من الأرض يابِسِ[(٨)] الأكناف، مقشعرِّ الذُّرْوَة، لا مُتّجَر[(٩)] ولا زرع، وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بمَرْأًى ومَسْمَع .

فقام الأحنف فقال : يا أمير المؤمنين، إن مفاتيحَ الخير بيد الله، والحِرص قائدُ الحِرْمان، فاتق الله فيما لا يغنى عنك يوم القيامة قِيلًا ولا قالا، واجعل بينك وبين رعيّتك من العدل والإنصاف شيئا يكفيك وِفادةَ الوُفود، واستماحةَ الممتاح، فإنّ كلَّ امرئ إنما يَجمع فى وِعائه إلا الأقلَّ ممن عسى أن تقتحِمه الأعينُ فلا يُوفد إليك .

(١) فى البيان والتبيين : «وتكن لذوى الأحساب» .

(٢) فى الأصل : «تمن» ؛ وهو تحريف، والتصويب عن البيان والتبيين .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، واللغة تقتضى إثباتها ؛ وانظر البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٣ طبع الرحمانية .

(٤) كذا فى الأصل ؛ والذى فى البيان والتبيين : كالجد الذى لا يحل» الخ وكلتا الروايتين غير واضحة المعنى، ولم نقف عليه فيما لدينا من المظان .

(٥) المصلومة : المقطوعة من أصلها .

(٦) فى الأصل : «فرحنا» ؛ وهو تحريف إذ لم نر من معانيه ما يناسب المقام، والتصويب عن البيان والتبيين ؛ «ومحنا» من الميح، وهو الإعطاء .

(٧) فى الأصل : «نقف» بالنون ؛ وهو تحريف، والقف : ما ارتفع من الأرض كالقفة .

(٨) فى الأصل : «نافس» وهو تحريف .

(٩) كذا فى الأصل ؛ والذى فى البيان والتبيين : «شجر» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

ومن كلام أمّ الخير بنتِ الحَرِيش البارِقيّة، — وكانت من الفصحاء —

حُكِي أنها لما وَفَدت على معاوية قال لها كيف كان كلامُك يوم قُتِل عمّار بنُ ياسِر؟ قالت: لم أكن والله زَوَّرتُه[1] قَبْلُ ولا رَوَيتُه بعد، وإنما كانت كلماتٌ نَفَثهن لسانى حين الصدمة، فإن شئتَ أن أُحدِث لك مقالا غيرَ ذلك فعلتُ، قال: لا أشاء ذلك، ثم ٱلتفت إلى أصحابه فقال: أيّكم حَفِظ كلامَ أمّ الخير؟ فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورةَ الحمد، قال: هاته، قال: نَعم، كأنّى بها يا أمير المؤمنين عليها بُرْدٌ زَبِيدىّ، كَثِيفُ الحاشية، وهى على جَمَل أَرْمَكَ[2]، وقد أحيطَ حَولَها وبيدها سوطٌ منتشرُ الضَّفَر[3]، وهى كالفحل يَهْدِر فى شِقْشِقَته تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إن الله قد أَوضح الحقّ، وأبان الدليل، ونَوّر السبيل، ورَفع العَلَم، فلم يَدَعْكم فى عَمْياءَ مبهَمة، ولا سوداءَ مدلهِمّة، فأنّى[4] تريدون رحمكم الله؟ أفِرارا عن أمير المؤمنين، أم فِرارا من الزَّحْف، أم رغبةً عن الإسلام، أم ٱرتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول: اللهمّ قد عِيلَ الصبر، وضَعُف اليقين، وٱنتشرت الرغبة، وبيدِك يارب أزِمّةُ القلوب، فٱجمع الكلمةَ على التقوى، وألِّف القلوبَ على الهدى، ورُدّ الحقَّ إلى أهله، هلُمّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل،

(١) كذا فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٩؛ وزوّرته: ثقفته وهذبته، وهو من قولهم: زوّر الحديث، اذا أزال زوره، أى عوجه. وفى الأصل: «رويته»؛ وما أثبتناه هو المناسب للسياق.

(٢) الأرمك: من الرمكة، وهى لون التراب.

(٣) الضفر: الفتل، والمراد به هنا أمم المفعول.

(٤) فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٠: «فإلى أين».

والوَصيِّ الوفيِّ، والصِّدّيقِ الأكبر؛ إنهـا إحَنٌ بَدْريّة، وأحقادٌ جاهليـة، وضغائنُ أُحُديّه، وَثَبَ بها معاويةُ حين الغَفلة ليُدرِك بها ثاراتِ بنى عبد شمس؛ ثم قالت : قاتِلوا أئمّةَ الكُفر إنهم لا أيمانَ لهم لعلهم ينتهون ؛ صبرا معشرَ المهاجرين والأنصار ، قاتِلوا على بصيرة من ربّكم، وثَباتٍ من دِينكم، وكأنّى بكم غدا قد لقِيتم أهـلَ الشام كُمُرٍ مستنفِرة، فَرّت من قَسْوَرة، لاتَدرِى أين يُسْلك بها من فِجاج الأرض، باعوا الآخرةَ بالدنيـا، واشتَروا الضَّلالةَ بالهـدى، وباعوا البصيرةَ بالعمى، و"عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ"، حين تَحُلّ بهم الندامة، فيَطلُبون الإقالة، إنه والله مَن ضَلّ عن الحقّ وقع فى الباطل، ومن لم يَسكُن الجنّـة نزل النار؛ أيهـا الناس، إنّ الأكياس استَقصَروا عمرالدنيا فرفضوها، واستبطَئوا(١) مدّةَ الآخرة فسعَوْا لها؛ والله أيها الناس، لولا أن تَبطُل الحقوقُ، وتعطَّل الحدودُ، ويَظهرَ الظالمون، وتَقوى كلمةُ الشيطان، لمـا(٢) آخترنا وُرودَ المنايا على خَفض العيش وطِيبِه، فإلى أين تريدون — رحمكم الله — ؟ عن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وزوج ابنتِه، وأبِى ابنيه ، خلق من طينته، وتَفرّع عن نَبْعتِه، وخصّه بِرّه، وجعلَه بابَ مدينته، وأعلَمَ بحبّه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين ؛ فلم يزَل كذلك يؤيّده الله بمعُونتِـه ، ويَمضِى على سَنَن استقامته ، لا يعرِّج لراحة اللذّات؛ وهو مفلِّقُ الهـامِ، ومكسِّرُ الأصنام؛ إذ صلّى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون؛ فلم يزل كذلك حتى قَتَل مبارِزى بَدْر، وأفنى أهل أُحُد، وفرّق جَمْعَ هَوازن، فيالها وقائعَ زَرعَتْ فى قلوب قومٍ نفاقا، وردّةً وشِـقاقا ! وقد اجتهدتُ فى القول ، وبالغتُ فى النصيحة، وبالله التوفيق؛ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

(١) فى العقد الفريد : « واستطابوا الآخرة » ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل بثبوت اللام؛ والذى فى كتب القواعد أن الأكثر فى الاستعمال عدم إثباتها فى جواب لولا المنفىّ .

فقال معاويةُ : والله يا أمّ الخير ما أردتِ بهذا إلا قتلِي ، والله لو قتلتك[(١)] ما حَرِجتُ فى ذلك؛ قالت : والله ما يسُوءنى يا ابنَ هند أن يُجرىَ الله ذلك على يدَىْ من يُسعِدُنى الله بشقائه؛ قال : هيهات يا كثيرة الفُضول، ماتقولين فى عثمان بن عفّان؟ قالت : وماعسَيتُ أن أقول فيه؟ اِستَخلفه الناس[(٢)] وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال : إيهًا[(٣)] يا أمّ الخير، هذا والله أصلُكِ الذى تَبنِين عليه ؛ قالت : لكن الله يشهد "وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا" ما أردتُ بعثمانَ نقصا ، ولقد كان سَبّاقا الى الخيرات، وإنه لرفيعُ الدّرجات؛ قال : فما تقولين فى طَلحةَ بنِ عُبَيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول فى طَلحةَ؟ اِغتِيل مِن مأمنِه، وأُتِىَ من حيث لم يَحذر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنّة؛ قال : فما تقولين فى الزُّبير؟ قالت : ياهذا لا تدَعْنى كَرَجيع الضَّبع يُعرَكُ فى المِركَن[(٤)]؛ قال : حقا لتقولِنّ ذلك، وقد عَزَمتُ عليكِ؛ قالت : وما عسَيتُ أن أقول فى الزُّبير ابنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوارِيِّه ، وقد شَهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنّة، ولقد كان سَبّاقا الى كلّ مَكْرُمةٍ فى الإسلام ؛ وإنى أسألك بحق الله يامعاوية — فإن قريشا تحدّث أنك مِن أحلمِها — أن تسَعَنى بفضل حِلمك ، وأن تُعفِيَنى من هذه المسائل ، وأمض الى ما شئتَ من غيرها ؛ قال : نَعم وكرامة، قد أعفَيتُكِ، ورَدّها مكرّمةً الى بلدها .

---

(١) عبارة الأصل : «لأقتلنك» ؛ وما أثبتناه عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٥١ والعقد الفريد ج ١ ص ١٦٤ طبع المطبعة العثمانية ؛ وهو الملائم لقوله بعد : «ماحرجت» .

(٢) كذا فى صبح الأعشى والعقد الفريد، وهو المناسب لسياق العبارة . وفى الأصل : «الله» .

(٣) إيها : كلمة زجر بمعنى حسبك .

(٤) المركن : شبه تور من أدم يتخذ للماء، أو شبه لقن ، أو هو الإجانة التى تغسل فيها الثياب ونحوها ؛ ولعلها تريد بهذه العبارة : لا تدعنى أدنس بالذم أهل الطهارة، وألصق العيوب بمن لاعيب فيه، يدل على ذلك قولها فيما سيأتى : وما عسيت أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله الخ .

وممن اشتهر بالفصاحة والبلاغة زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، وسنذكر نبذة من كلامهما في التاريخ عند ذكرنا لأخبارهما لما ولي كل منهما العراق، وما خطب الناس به، ولنذكر في هذا الموضع من كلام الحجاج ما لم نورده هناك

قيل: لما قدم الحجاج البصرة خطب فقال: أيها الناس، من أعياه داؤه، فعندي دواؤه، ومن استطال أجله، فعليّ أن أعجّله، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه، إن للشيطان طيفا. وللسلطان سيفا، فمن سقمت سريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه. رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عنه الهلكة، ومن سبقته بادرة فمه، سبق بدنه بسفك دمه، إني أنذر ثم [لا] أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو، إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم[1]، ومن استرخى لبه[2] ساء أدبه، إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني [به] سيفي، فقائمه في يدي، ونجاده في عنقي، وذنبه قلادة لمن عصاني، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه.

قال مالك بن دينار: ربما سمعت الحجاج يذكر ما صنع فيه أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه لبيانه وحسن تخليصه للحجج.

(١) الترنيق: الضعف في الأمر.

(٢) اللبب: ما يشد على صدر الدابة أو الناقة، يكون للرحل والسرج يمنعهما من الاستئخار، يريد أن الهوادة واللين إفساد لأدب الرعية.

وخطب الحجّاجُ بعد وقعة دَيْر الجماجِم[(١)] فقال : يا أهل العراق ، إنّ الشيطان قد آستبطنكم فخالَطَ اللحمَ والدّمَ والعَصَبَ والمسامعَ والأطرافَ والأعضاءَ[(٢)] والشَّغافَ[(٣)]، ثم أَفضَى الى المِخاخ والأصماخ[(٤)]، ثم آرتفع فعَشَّش ، ثم باض ففرَّخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا[(٥)]، وأَشعَركم خلافا، وآتخذتموه دليلا تتّبعونه ، وقائدا تُطيعونه ، ومؤامرا تستشيرونه ؛ فكيف تنفعكم تجرِبة، أو تعظكم وقعة ؛ أو يَحجُزكم إسلام، أو ينفعكم بيان[(٦)] ؟ ألستم أصحابى بالأَهْواز ؟ حيث رُمتم المكر[(٧)]، وسَعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر ، وظننتم أنّ الله خَذَل[(٨)] دِينَه وخلافتَه ، وأنا أرميكم بطَرْفى ، تَنسلّلون لِواذا، وتنهزمون سِراعا، ثم يوم الزاوية [وما يوم الزاوية][(٩)] ! بها كان[(١٠)] فَشَلُكم وتَنازُعكم وتَخاذُلكم وبراءةُ الله منكم ، ونُكوصُ وليّكم[(١١)] عنكم إذ ولّيتم كالإبل الشوارِدِ إلى أوطانها

(١) دير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ؛ على طرف البر السالك الى البصرة ، وسمى دير الجماجم لأنه كانت تصنع فيه الجماجم ، وهى الأقداح من الخشب ، وبهذا الموضع كانت الوقعة بين الحجاج بن يوسف الثقفى وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وانهزم فيها آبن الأشعث .

(٢) فى العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٥ طبع بولاق : « والأعضاد » والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . (٣) الشغاف : حجاب القلب أو حبته أو سويداؤه .

(٤) كذا ورد هذا الجمع فى الأصل وغيره من المصادر التى بين أيدينا لهذه الخطبة ؛ ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة والقواعد على ما يفيد أن صماخ يجمع على هذه الصيغة ؛ ولعله : «والأصاخ» بتقديم الألف على الميم ؛ أو لعله جمع لصمخ بضم الصاد والميم ، وهو جمع صماخ .

(٥) المؤامر : من قولهم : آمره مؤامرة اذا شاوره .

(٦) فى الأصل : « بالمكر » والباء زيادة من الناسخ .

(٧) كذا فى العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٥ طبع بولاق ؛ وعبارة الأصل : « واستجمعتم الكفر » بسقوط اللام ؛ واستجمعتم ، أى اجتمعتم . (٨) فى الأصل : «عدل» ؛ وهو تحريف .

(٩) هذه التكملة ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن العقد الفريد ؛ والزاوية : موضع قرب البصرة فيه كانت الواقعة المشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . (١٠) فى الأصل : « تهادون » ؛ وهو تحريف . (١١) يريد الشيطان . إشارة الى قوله تعالى فى سورة الأنفال : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم » الى قوله : «فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه» الآية .

[النوازعِ إلى أعطانها](١)؛ لا يَسأل المرءُ عن أخيه، ولا يَلوى الشيخ على بَنِيه؛ حتى عَظَّكم(٢) السلاح، وقصَمَتكم الرماح، ثم دَيرُ الجماجم، وما دَيرُ الجماجم! بها كانت المَعاركُ والمَلاحم؛ بضربٍ يُزيل الهامَ عن مَقيله، ويَصرِف الخليلَ عن خليله؛ يا أهلَ العراق، والكَفَراتِ بعد الفَجراتِ، والغَدَراتِ بَعد الخَتَراتِ، والثَّورةِ بَعد الثَّوراتِ؛ إن بعثتُكم إلى ثُغوركم غَلَلتم(٣) وجُبنتم، وإن أَمِنتم أَرجَفتم، وإن خِفتم نافقتم؛ لا تَذكُرون حسنةً، ولا تشكُرون نعمةً؛ [يا أهل العراق](١) هل آستخفّكم ناكثٌ، أو آستغواكم غاوٍ، أو آستفزّكم عاصٍ، أو استنصركم ظالمٌ، أو آستعضدكم خالعٌ، إلا اتّبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكّيتموه؟ يا أهل العراق، قلّما شَغَب شاغب، أو نَعَب ناعب، أو زَفَرَ كاذب(٤) إلا كنتم أتباعَه وأنصاره؛ يا أهل العراق، ألَمْ تَنهكم المواعظ، ولم تزجُركم الوقائع. ثم آلتفت الى أهل الشام فقال: يا أهل الشام، أنا لكم كالظَّليم(٥) الراعِ عن فراخِه(٦)، يَنفِي عنها المدر، ويباعِدُ عنها النَّفَر، ويَكُنُّها من المطر، ويحميها من الضِّباب، ويحرُسها من الذئاب؛ يا أهل الشام، أنتم الجُنّةُ والرِّداء، وأنتم العُدّةُ والحِذاء.

ومن مكاتباته الى المهلَّب بنِ أبى صُفرةَ وأجوبة المهلَّب له

كتب الحجاج إليه وهو فى وجه الخوارج: أما بعد، فإنه بلغنى أنك قد أقبلت على جباية الخَراج، وتركتَ قتال العدوّ، وإنى وَلّيتك وأنا أرى مكانَ عبد الله

(١) هذه العبارة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن العقد الفريد.

(٢) يقال: عظته الحرب كمضته وزنا ومعنى.

(٣) غللتم: من الغلول، وهو الخيانة فى الغنيمة.

(٤) فى البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٥ طبع الرحمانية: «زافر»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

(٥) الظليم: ذكر النعام؛ والراعِ: الضارب برجله.

(٦) فى الأصل: «عن مراحه»؛ وهو تحريف.

ابن حكيم الجُاشعيّ، وعَبّادِ بن حُصَين الحَبطيّ، وآخترتك وأنت رجل من الأَزْد، وأنا أُقسم إن لم تَلقَهم فى يوم كذا أَشرعتُ إليك صدرَ الرمح[1]. فأجابه المهلّب: ورد علىّ كتابُك تزعُم أنى أقبلت على جباية الخَراج، وتركتُ قتال العدوّ لعجز؛ وزعمتَ أنك وليتنى وأنت تَرى مكانَ عبد الله بن حكيم وعَبّادِ بنِ حُصَين، ولو وَلّيتَهما لكانا مستحقّين لذلك فى فضلهما وغَنائهما؛ وأنك آخترتنى وأنا رجل من الأَزْد، ولَعمرى إنّ شرّا من الأزْد لَقبيلةٌ تَنازَعُها ثلاثُ قبائل لم تَستقِرّ فى واحدة منهنّ؛ وزعمتَ أنّى إن لم أَلقَهم فى يوم كذا أشرَعتَ إلىّ صدرَ الرمح، فلو فعلتَ لقَلبتُ إليك ظَهرَ المِجَنّ[2].

ووَجّه إليه الحجّاجُ يستبطئه فى مناجَزة القوم، وكَتب إليه: أما بعد، فإنك جَبَيت الخَراج بالعِلل، وتحصّنتَ بالخَنادق، وطاولتَ القوم وأنت أعزُّ ناصرا وأكثرُ عددا، وما أظنّ بك مع هذا معصيةً ولا جبنا، ولكنك آتخذتهم أُكُلا، ولإبقائهم أيسرُ عليك من قتالهم، فناجِزْهم وإلّا أنكرتنى، والسلام.

فقال المهلّب للجرّاح: يا أبا عُقْبة، والله ما تركتُ حِيلةً إلّا آحتلتُها، ولا مَكيدةً إلّا عَمِلتُها، وليس العَجَبُ[3] من إبطاء النصر، وتَراخى الظَّفَر، ولكن العَجَب أن يكون الرأىُ لمن يَملِكه دون من يبصره[4]؛ ثم ناهَضَهم ثلاثةَ أيّام يغاديهم، ولا يزالون كذلك الى العصر حتى قال الجرّاح: قد آعتذرتَ؛ وكَتب الى الحجّاج: أتانى كتابك

(١) عبارة الأصل: «وإلا انتزعت»، وفيها زيادة من الناسخ وتحريف لا يستقيم بها المعنى؛ وما يأتى فى جواب المهلب يعين ما أثبتنا.

(٢) يقال: قلبت له ظهر المجن اذا تغيرت عليه وحلت عن العهد؛ والمجنّ: الترس.

(٣) فى الأصل: «ولا العجب»، والقواعد تقتضى ما أثبتنا، فان «لا» النافية اذا دخلت على المعرفة وجب تكرارها، ولم تتكرر هنا.

(٤) فى الأصل: «ينصره» بنون وصاد مضمومة؛ ومعناه لا يناسب ما هنا.

يستبطئ لقاءَ القوم، على أنك لا تظنّ بى معصيةً ولا جبنا ، وقد عاتبتنى معاتَبةَ الجبان، وأوعدتنى وعيدَ العاصى ، فسَل الجراحَ والسلام . فكَتب إليه الحجّاج : أما بعد، فإنك تَتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلى و يرجعون بعذرك ، وذاك أنك تُمسِك حتى تَبرَأ الجراحُ وتُنسَى القَتْلى[1] ، ويَجُمّ الناس ، ثم تلقاهم فتَحمِل منهم مِثل ما يَحمِلون منك من وَحْشة القتل وألم الجراح ، ولو كنتَ تلقاهم بذلك الجِدّ لكان الداء قد حُسِم ، والقِرْنُ قد قُصِم ، ولَعمرِى ما أنت والقومُ سواءٌ، لأنّ من ورائك رجالا ، وأمامك أموالا ، وليس للقوم إلّا ما معهم، ولا يُدرَك الوجِيفُ بالدَّبيبِ، ولا الظَّفَرُ بالتعذير[2] .

فكتب إليه المهلَّب : أمّا بعد، فإنى لم أُعطِ رسلَك على قول الحق أجرا، ولم أَحتجْ منهم مع المشاهَدة الى تلقين ؛ وذكرتَ أنّى أُجِمّ القوم، ولا بدّ من راحة يستريح فيها الغالبُ ويَحتالُ المغلوبُ ؛ وذكرتَ أن فى الإجمام[3] ما يُنسِى القَتْلى، ويُبْرِئُ الجِراحَ، وهيهات أن يُنسَى ما بيننا و بينهم، يأبى ذلك قتلُ مَن لَم يجن ، وقُروحٌ لَم تَتقرّف[4]؛ ونحن والقومَ على حالة ، وهم يرقُبون حالات ، إن طَمِعوا حارَبوا، و إن مَلُّوا وَقفوا، ونَطلُب اذا هَرَبوا، فإن تركْتَنى فالداءُ[5] بإذن الله محسوم، و إن أعجلتَنى لم أُطِعْكَ ولم أَعْصِ ، وجعلتُ وجهى الى بابك ، وأنا أعوذ بالله مِن سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس .

(١) فى الأصل : «المبتلى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه ما يأتى فى جواب المهلب .

(٢) التعذير : التقصير فى الأمر .

(٣) فى الأصل : «فى الجماجم» وهو تحريف .

(٤) تتقرف بقاف مثناة : تتقشر؛ يريد أنها لم تبرأ ؛ و فى الاصل : «تتفرق» ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى الأصل : «فالرأى» وهو تحريف .

وقال المهلّب لبنيه : يا بَنِيّ تَبَاذَلُوا[1] تَحابّوا، فإنّ بنى الأمّ يختلفون ، فكيف بَنِي العَلّاتِ[2]؛ إنّ البِرّ يَنسأ فى الأجَل، ويزيدُ فى العَدد، وإنّ القطيعةَ تُورِث القِلّة، وتعقب النارَ بعد الذِّلّة؛ واتقوا زَلّةَ اللسان، فإنّ الرجل تَزِلُّ رِجلُه فينتعش، ويَزِلُّ لسانُه فيَهلِك؛ وعليكم فى الحرب بالمَكِيدة، فإنّها أبلغ من النَّجْدة .

ولمّا استَخلف ٱبنَه المغيرة على حرب الخوارج، وعاد هو الى عند[3] مُصعَب ابن الزُّبير، جَمع الناسَ فقال لهم : إنى قد استخلفت عليكم المُغيرةَ، وهو أبو صغيرِكم رِقّةً ورحمة، وابنُ كبيرِكم طاعةً وتجبيلا وبِرّا، وأخو مِثله مواساةً ومناصَحة، فلتَحسُن له طاعتُكم، وليلِنْ له جانبُكم، فوالله ما أردتُ صوابا قطّ إلا سبقنى إليه .

وخطب عبد الملك بن مروان، فلما بَلَغ الغِلْظةَ قام إليه رجل من آل صُوحانَ فقال : مهلا مهلا يابنى مَرْوان، تَأمُرون ولا تأتمرون، وتَنهَون ولا تُنهَون، وتَعِظون ولا تَتّعِظون؛ أفنقتدى بسيرتكم فى أنفُسكم، أم نطيع أمرَكم بألسنتكم؟ فإن قلتم : اِقتدُوا بسيرتنا، فأنّى وكَيفَ، وما الحُجّةُ، وما المَصيرُ من الله؟ أنقتدى بسيرة الظَّلَمةِ الفَسَقةِ الجَوَرةِ الخَوَنةِ، الذين ٱتخذوا مالَ الله دُوَلا، وعَبيدَه خَوَلا؟ وإن قلتم : اِسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف يَنصَح لغيره من يَغُشّ نفسَه؟ أم كيف تَجِب الطاعةُ لمن لم تَثبُت عند الله عدالتُه ؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، وٱقبَلوا العِظةَ ممّن سمعتموها، فعلام ولّيناكم أمرَنا، وحكّمناكم فى دمائنا وأموالنا ؟ أما علمتم أنّ فينا من هو أنطَقُ منكم باللغات، وأفصَحُ بالعِظات؟ (٩٤)

(١) فى الأصل : «تنازلوا» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى البيان والتبيين .

(٢) بنو العلات : الأبناء من أمهات شتى والأب واحد .

(٣) كذا فى الأصل ، ولعل قوله : «عند» زيادة من الناسخ، فإن «عند» من الظروف التى لا تخرج عن الظرفية إلا الى الجر بمن ، وجرها بإلى لحن ، كما فى مغنى اللبيب .

فتخلّوا عنها ، وأطلقوا عِقالَها ، وخلّوا سبيلَها ، يَنتدِبُ إليها آلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شرّدتموهم فى البلاد ، ومزّقتموهم فى كل واد ، بل تَثبُت فى أيديكم لانقضاء المدّة ، وبلوغ المُهْلة ، وعِظَم المِحْنة ؛ إنّ لكلّ قائمٍ قَدرا[1] لا يَعدُوه ، ويَوما لا يَخطُوه ، وكتابا بَعدَه يتلوه ، " لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا " " وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ" . ثم التمِس الرجلُ فلم يوجَد .

ومن كلام قَطَرِىِّ بنِ الفُجاءةِ — وكان من البلغاء الأبطال ، فمن ذلك خطبته المشهورة التى قال فيها :

أما بعد ، فإنى أُحذّركم الدنيا فإنها حُلوةٌ خَضِرة ، حُفّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وتحبّبَتْ بالعاجلة ، وحَلِيَتْ بالآمال ، وتزيّنَتْ بالغُرور ؛ لا تَقُوم[2] نَضْرَتُها ، ولا تُؤمَن فجيعتُها ؛ غرّارةٌ ضرّارة ، وحائلةٌ زائلة ، ونافدةٌ بائدة[3] ، أكّالةٌ غوّالة ؛ لا تَعدو اذا تناهت الى أُمنيّة أهلِ الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى : ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ مع أن آمرأ لم يكن معها فى حَبْرة[4] (أى السرور) ، إلا أعقبته بَعدها حسرة ، ولم يَلقَ من سَرّائها بطنا إلا مَنحَتْه من ضَرّائها ظَهرا ، ولم تَصِلْه[5] غَيثةُ رَخاء ، إلّا هَطَلتْ عليه مُزْنةُ بلاء ؛ وحَرِيّةٌ اذا أصبحتْ له منتصِرة ، أن

(١) فى الأصل : «قديما» ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله بعد : «لا يعدوه» .

(٢) لا تقوم ، أى لا تثبت ؛ وفى صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٣ : «لاتدوم» .

(٣) فى الأصل : «زائدة» وهو تحريف .

(٤) فى صبح الأعشى : «منها» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٥) كذا فى الأصل وصبح الأعشى ؛ والذى فى العقد الفريد ج ٢ ص ١٩٥ طبع بولاق : «تطله» بالطاء ؛ وهو أقرب الى سياق العبارة مما هنا ؛ وتطله من الطل بتشديد اللام بمعنى المطر الضعيف .

تُمسِى [له](١) خاذلة متنكِّره؛ وإنْ جانبٌ منها آعذَوْذَبَ واحلَوْلَى، أَمَرّ عليه منها جانب وأَوْبا(٢)، فإن أتت آمرأ من غصونها(٣) وَرَقا أرهقته من نوائبها تَعَبا، ولم يُمسِ منها آمرؤ فى جَناح أمنٍ إلا أصبح منها(٤) فى قَوادم خوف، غَرّارةٌ غُرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ مَن عليها؛ لا خير فى شىء مِن زادِها إلا التقوى، مَن أَقَلّ منها آستكثر مما يؤمِّنه ومن استكثر منها استكثر مما يُوبقه ويطيل حزنَه، ويُبكى عينَه؛ كم واثقٍ بها قد فجَعَتْه، وذى حُلم تنبّهَ إليها قد صَرَعتْه، وذى آحتيالٍ فيها قد خَدَعتْه؛ وكم ذى أبّهة فيها قد صيّرتْه حقيرا، وذى نخوة قد ردّته ذليلا، ومن ذى تاج(٥) قد كبّته لليدين والفم؛ سلطانُها دُول، وعيشُها رَنِق (أى الماء الكدر) وعَذْبُها أُجاج، وحُلوها صَبِر، وغِذاؤها سِمام، وأسبابُها(٦) رِمام، وقِطافُها(٧) سَلَع؛ حيُّها بعَرَض موت، وصحيحُها(٨) بعَرَض سُقْم، ومنيعُها بعَرَض آهتضام؛ وملكُها مسلوب، وعزيزُها مغلوب، وسليمُها منكوب وجارُها محروب؛ مع أنّ وراء ذلك سَكَراتِ الموت، وهولَ المُطّلَع، والوقوفَ بين يدى الحكم العدل "لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى"

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٤

(٢) فى الأصل: «وأولى» باللام؛ وهو تحريف.

(٣) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل وصبح الأعشى؛ والذى فى العقد الفريد ج ٢ ص ١٩٥ طبع بولاق: «وإن لبس آمرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعما أرهقته من نوائبها غما».

(٤) فى صبح الأعشى: «على»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

(٥) كذا فى الأصل وصبح الأعشى؛ والذى فى العقد الفريد: «وذى تاج» بإسقاط «من»؛ وفى البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٤ طبع الرحمانية: «وكم من ذى تاج» الخ.

(٦) فى الأصل: «وأسنانها» بنونين؛ وهو تصحيف.

(٧) كذا فى العقد الفريد، والذى فى الأصل: «فطامها». والقطاف: جمع قطف بكسر القاف، وهو العنقود. والسلع محركة: ضرب من الصبر.

(٨) فى الأصل: «وصحتها» وما أثبتناه عن صبح الأعشى، إذ هو المناسب للسياق.

ألستم فى مساكن من كان قبلكم أطولَ منكم أعمـارا ، وأوضح منكم آثارا ؛ وأعدَّ عديدا ، وأكثف جنودا ، وأشـدَّ عُقودا ، تُعُبِّدوا[1] للدنيا أىَّ تَعَبُّد ، وآثروها أىَّ إيثـار ، وظَعَنوا[2] بالكُرْه والصَّغار ، فهل بلغكم أنّ الدنيا سَمحتْ لهم نفسا بفِـدْية ، أو أغنَتْ عنهـم فيما قد أهلَكتْهم بخَطْب[3] ؟ بل قد أرهقتْهم بالفَوادح ، وضَعضعتْهم بالنوائب ، وعَقرتْهم بالفجائع ؛ وقد رأيتم تَنكُّرَها لمن رادَها وآثَرها وأخْلَد إليها ، حين ظَعَنوا عنهـا لفراق الأَبَد ، الى آخر المُسْـند[4] ؛ هل زَوَّدتْهم إلا السَّغَب ، وأحلَّتْهم إلا الضَّنْك ، أو نَورتْ لهم إلا الظُّلمة ، أو أعقبتْهم إلّا الندامة ؟ أفهذه تؤثِرون ، أم على هذه تَحرِصون ، أم إليها تطمئنُّون ؟ يقول الله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ فبئست الدارُ لمن أقام فيها ، فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بدّ ، فإنمـا هى كما وصفها الله باللعب واللّهو ، وقد قال الله [تعالى] : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ .

وذَكَر الذين قالوا : من أشَد منـا قوة ثم قال : لِموا الى قبورهم فلا يُدعَون رُكبانا ، وأُنزِلوا فلا يُرعَون[5] ضيفانا ، وجَعلَ الله لهم من الضريح أَكْنانا[6] ، ومن الوَحْشة ألوانا ، ومن الرُّفات جيرانا[7] ؛ وهم فى جِيرة لا يجيبون داعيـا ، ولا يَمنعون ضَيما ، إن

(١) تعبدوا للدنيا : أى صيرتهم الدنيا عبيدا لهـا ، يقال : تعبـد فلان فلانا اذا اتخذه عبـدا ؛ وعبارة الأصل : « تعبدوا الدنيا » بإسقاط اللام ؛ واستقامة العبارة تقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «وطفقوا» وهو تحريف .

(٣) الخطب : الشأن والأمر .

(٤) المسند : الدهر

(٥) فى العقد الفريد : «يدعون» بالدال المهملة ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٦) فى الأصل : «أحيانا» بالحـاء والياء ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٧) فى الأصل : «حيوانا» وهو تصحيف .

أخصبوا[1] لم يفرحوا ، وإن قحطوا لم يقنطوا ؛ [جمع][2] وهم آحاد ، جيرةٌ وهم أبعاد ؛ مُتناءُون[3] ، لا يزورون ولا يُزارون ؛ حُلَماء قد ذهبتْ أضغانُهم ، وجُهَلاء قد ماتت أحقادُهم ؛ لا يُرجَى نفعُهم ، ولا يُخشَى دفعُهم ؛ وكما قال الله تعالى : ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ فاستبدلوا بظَهر الأرض بطنا ، وبالسَّعة ضِيقا ، وبالأهل غُربة ، وبالنُّور ظُلمة ، ففارَقوها كما دخلوها ، حُفاةً عُراةً فُرادى ، غيرَ أن ظَعَنوا بأعمالهم الى الحياة الدائمة ، وإلى خلود الأبد ، يقول الله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فاحذروا ما حذَّركم الله ، وانتفِعوا بمواعظه ، واعتصِموا بحبله ، عَصَمنا الله وإيّاكم بطاعته ، ورَزَقنا وإيّاكم أداء حقِّه .

ومن كلام أبي مُسلم الخُراسانيّ صاحب الدولة[4] ، قيل له : ما كان سببُ خروج الدولة عن بني أميّة ؟ فقال : لأنهم أبعدوا أولياءهم ثِقةً بهم ، وأدنَوا أعداءهم تألُّفا لهم ، فلم يَصِر العدوُّ بالدُّنوّ صديقا ، وصار الصديقُ بالبِعاد عدوّا .

وقيل له في حَداثته : إنا نراك تأرَق كثيرا ولا تنام ، كأنك موكَّل برَعْيِ الكواكب ، أو متوقِّعُ الوحيَ في[5] السماء ، فقال : والله ما هو ذاك ، ولكن لي رأيٌ جَوّال ، وغَريزةٌ

(١) كذا في البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٥ طبع الرحمانية ؛ وهو المناسب لما يأتي بعده ؛ والذي في الأصل : « جمعوا » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن البيان والتبيين .

(٣) في الأصل : « متساورون » وما أثبتناه هو المناسب لما قبله وما بعده ؛ وانظر البيان والتبيين والعقد الفريد .

(٤) يريد دولة بني العباس ؛ وفي البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٥ طبع الرحمانية : « صاحب الدعوة » .

(٥) لعله : « من » .

تامّة، وذهنٌ صافٍ، وهِمّةٌ بعيدةٌ، ونفسٌ تتُوق الى معالى الأمور، مع عيش كعيش الهَمَج والرِّعاع، وحالٍ متناهيةٍ من الاتّضاع، وإنى لأرى بعضَ هذا مصيبةً لا تُجبَر بسهر، ولا تُتَلافَى بأَرَق؛ قيل له: فما الذى يَبْرُدُ غليلَك، ويَشفِى إجاجَ(١) صدرِك؟ قال: الظَّفَرُ بالمُلك؛ قيل له: فاطلُب؛ قال: إن الملك لا يدرَك إلا بركوب الأهوال؛ قيل: فاركب الأهوال؛ قال: هيهات، العَقلُ مانعٌ من ركوب الأهوال؛ قيل: فما تصنع وأنت تَبلى حسرةً، وتذوبُ كَمَدا؟ قال: سأجعل من عقلى بعضه جهلا، وأحاول به خطرا، لأنالَ بالجهل ما لا يُنال إلّا به، وأدبِّرَ بالعقل ما لا يُحفظ إلا بقوّته، وأعيشَ عيشا يبين مكان حياتى فيه من مكان موتى عليه، فإن الخُمول أخو العَدم، والشهرة أبو الكَون.

وكتب إليه عبد الحميد بن يحيى كتابا عن مروانَ بنِ محمد، وقال لمروانَ: قد كتبتُ كتابا إن نَجَعَ فذاك، وإلّا فالهلاك، وكان لكبر حجمه يُحمَل على جَمل، نَفَثَ فيه حواشىَ صدره، وضمّنه غرائب عُجَرِه وبُجَرِه(٢)، فلمّا ورد على أبى مسلم دعا بنار فطرحه فيها إلّا قدر ذراع فإنه كَتب عليه:

مَحا السيفُ أسطارَ البلاغة وانتحَى * ليوث الوغى يقدمن من كلّ جانب
فإن يقدموا نُعمِلْ سيوفا شَحيذةً * يَهُون عليها العتْبُ من كلّ عاتب

ورَدّه، فأيِس الناسُ من معالجته.

وقيل: إنه شَجَر بينه وبين صاحب مَرْوٍ كلامٌ أَرْبَى فيه صاحبُ مَرْوٍ عليه، فاحتمله أبو مسلم وقال: مَهْ، لسانٌ سَبَق، ووهمٌ أخطأ، والغضب شيطان،

(١) الإجاج: جمع أجة، وهى شدّة الحر وتوهجه.

(٢) عجره وبجره، أى كل أموره، لم يستر عنه شيئا؛ وأصل العجر، العروق المتعقدة فى الجسد، والبجر، العروق المتعقدة فى البطن خاصة.

وأنا جرّأتُك عليّ باحتمالِك، فإن كنتَ للذنب متعمّدا فقد شاركتُك فيه، وإن كنتَ مغلوبا فالعفوُ يَسَعك؛ فقال له صاحب مرو: عِظَمُ ذنبي يَمنع قلبي من الهدوء؛ فقال ابو مسلم: يا عَجبا، أقابلك بإحسان وأنت تسيء، ثم أقابلك بإساءة وأنت تُحسِن! فقال صاحب مرو: الآن وثِقتُ بعفوك.

ومن كلام جماعة من أمراء الدولتين

(٩٦) خَطَب يوسف بن عمر فقال: اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمِّل أملا لا يَبلُغُه، وجامعٍ مالا لا يأكله، ومانعٍ ما سوف يتركه؛ ولعلّه من باطلٍ جَمَعه، ومن حقٍّ مَنَعه؛ أصابه حراما، وورّثه عدوّا؛ واحتَمَل إصْرَه، وباء بوِزره، ووَرَد على ربّه آسفا لاهفا "خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ".

وقام خالد بن عبد الله القَسْرىّ[1] على المنبر خطيبا، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي صلّى الله عليه وسلّم، ثم قال: أيها الناس، نافِسوا فى المكارم، وسارِعوا الى المغانم، واشتروا الحمد بالجُود، ولا تَكسِبوا بالمَطل ذمّا، ولا تَعتَدّوا[2] بالمعروف ما لم تعجّلوه، ومهما يكن لأحدكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلُغ شكرها فالله أحسَنُ لها جزاءً، وأجزل عليها عطاء؛ واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم نعمةٌ من الله عليكم؛ فلا تَمَلّوا النعم فتُحَوَّل نقما؛ واعلموا أنّ أفضل المال ما أكسب أجرا، وأَورث ذكرا؛ ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه حَسَنا جميلا يَسرّ الناظرين، ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوّها قبيحا، تَنفِر عنه القلوب، وتُغَضّ عنه الأبصار؛ أيها الناس، إنّ أجوَد الناس مَن أعطَى من لا يرجوه، وأعظمَ الناس عفوا من عفا عن

(١) فى الأصل: «القشيرى» بشين معجمة بعدها ياء مثناة، وهو تحريف.

(٢) فى الأصل: «تقعدوا»؛ وهو تحريف.

قدرة ، وأوصَـلَ الناس مَن وَصَل مَن قَطَعه ، ومن لم يَطِب حَرْثُه لَم يَزكُ نَبتُـه ؛ والأصولُ عن مَغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو ؛ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

قيل لمـا ولى أبو بكر بن عبد الله[1] المدينة وطال مكثه عليها كان يبلُغه عن قوم من أهلها أنهم يَنالون من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وإسعافٌ من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهلَ البيوتات ووجوهَ الناس فى يوم جمعة أن يقربوا من المنبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال : أيها الناس ، إنى قائل قولا ، فمن وعاه وأدّاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يَعِه فلا يعـدو[2] من ذمامها ، إن قصرتم عن تفصيله[3] ، فلن تَعجِزوا عن تحصيله ، فأرعوه أبصارَكم ، وأوعوه أسماعَكم ، وأشـعِروه قلوبَكم ؛ فالموعظة حياة ، والمؤمنون إخوة "وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ" "وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ" فأتوا الهدى تهتدوا ، واجتنبوا الغى تُرشُدوا ، "وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" والله جلّ ثنـاؤه ، وتقدّست أسماؤه ، أمركم بالجماعة ورضيها لكم ، ونهاكم عن الفُرقة وسَخِطَها منكم ، فـ"اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا" جعلَنا الله وإيّاكم ممّن تبع رضـوانه ، وتجنب سخطَه ، فإنمـا نحن به وله ؛ وإنّ الله بعث محمدا صلّى الله عليه وسلّم بالدِّين ، واختاره على العالمين ، واختار له أصحـابا على

(١) كذا فى الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٠ وقد راجعنا أسماء عمـال المدينة وولاتها فيما بين أيدينا من المظان فلم نقف على هذا الاسم فيمن تولاها ؛ والذى وقفنا عليه هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، تولى المدينة فى زمن سليمان بن عبد الملك انظر صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩٦ وغيره من كتب التـاريخ .

(٢) يريد : فلا يخرج ؛ وتأنيث الضمير فى قوله : «ذمامها» باعتبار الموعظة أو المقالة .

(٣) كذا فى صبح الأعشى ، وهو المناسب لمـا بعده فى الفقرة الثانية . وفى الأصل : «عنه بفضيلة» .

الحقّ ، ووزراء دون الخَلْق ، اختصّهم به ، وانتخبهم له ، فصدّقوه ونصروه ، وعزّروه ووقّروه ، فلم يُقدِموا إلّا بأمره ، ولم يُحجِموا إلّا عن رأيه ، وكانوا أعوانَه بعهده ، وخُلفاءه مِن بَعده ، فوصَفَهم فأحسنَ صِفتَهم ، وذكَرهم فأثنى عليهم ، فقال — وقولُه الحقّ — : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ الى قوله : ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فمن غاظوه[1] كفَر وخاب ، وفجَر وخَسِر ، وقال الله عزّ وجلّ : ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ الى قوله : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فمن خالف شَريطةَ الله عليه لهم ، وأمْرَه إيّاه فيهم ، فلا حقّ له فى الفَىء ، ولا سهمَ له فى الإسلام فى آيٍ كثيرة من القرآن ؛ فمَرَقتْ مارقةٌ من الدِّين ، وفارَقوا المسلمين ، وجعلوهم عِضين[2] ؛ وتشعّبوا أحزابا ، أشاباتٍ وأوشابا[3] ؛ فخالفوا كتاب الله فيهم ، وثناءه عليهم ، وآذَوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيهم ، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ؛ مالى أرى عيونا خُزْرا[4] ، ورِقابا صُعرا ، وبطونا بُجْرا[5] ؟ شجًى لا يُسيغُه الماء ، وداءً لا يُشرَب فيه الدواء ؛ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ كلّا والله ، بل هو

(١) فى الأصل : «عاطون» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله تعالى فى الآية السابقة : « يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » .

(٢) العضون جمع عضة ، وهى الفرقة .

(٣) يريد : أوباش الناس وأخلاطهم .

(٤) الخزر بضم الخاء : جمع أخزر ، من الخزر بفتح الخاء والزاى ، وهو النظر كأنه فى أحد الشقين .

(٥) البجر : العظيمة .

الهِناء[(١)] والطِّلاء حتى يَظهر[(٢)] العذرُ، ويَبُوحَ السرُّ، ويَضِحَ الغَيب، ويُسوَّس[(٣)] الجُنُب؛ فإنكم لَم تُخلَقوا عبثا، ولَم تُترَكوا سـدى؛ ويْحكم، إنى لست أتاويًّا[(٤)] أعلِّم، ولا بدَويًّا أفهِّم؛ قد حلبتُكم أشطرا، وقلبتكم أبطُنا وأظهُرا؛ فعَرَفتُ أنحاءكم وأهواءكم، وعلمتُ أنّ قوما أظهروا الإسـلام بألسنتهم، وأَسَرّوا الكفر فى قلوبهم، فضربوا بعضَ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [ببعض][(٥)]، وولَّدوا الروايات فيهم، وضربوا الأمثال، ووَجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانا يأذنون لهم، ويُصغُون إليهم؛ مهلا مهلا قبـل وقوع القوارع، وطُولِ الروائع، هـذا لهذا ومع هـذا[(٦)]، فلست أَعتَنِش[(٧)] آثبا ولا تائبا، ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ فأسِروا خيرا وأَظهِروه، وآجهروا به وأخلِصوا، فطالمـا مشَيتم القهقرى ناكِصين، وليَعلمْ من أدبر وأصَرّ أنهـا موعظة بين يدىْ نِقمة؛ ولستُ أدعوكم الى أهواء تُتَّبَـع، ولا الى رأيٍ يُبتدَع؛ إنمـا أدعوكم إلى الطريقة المُثْلى، التى فيهـا خيرُ الآخرة والأُولى؛ فمن أجاب فإلى رُشـدِه، ومن عَمِىَ فعن قصدِه؛ فهلُمّ إلى الشرائع الجدائع[(٨)]، ولا تُولّوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدِلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير،

(١) الهناء بكسر الهاء : القطران؛ يريد بهذه العبارة أنه سيأخذ فى معالجتهم بالموعظة أو العقوبة حتى يقلعوا عما نهاهم عنه .

(٢) عبارة الأصل : «حتى بطر الغمر» وهو تحريف؛ والتصويب عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٢

(٣) يسوّس بالبناء للمجهول : يروّض ويذلل؛ يقال : سوست له أمرا إذا روضته وذللته . انظر اللسان مادّة «سوس» . والجنب بضمتين الصعب الذى لا ينقاد .

(٤) الأتاوى : الغريب عن القوم .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى .

(٦) لعله يريد بهذه العبارة أنه قد أعدّ لكل عمل جزاء لا يتجاوزه؛ يدل على ذلك ماقبله وما بعده .

(٧) الاعتناش : الظلم؛ والذى فى الأصـل : «أنيش»؛ وهو تحريف .

(٨) كذا فى الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٢؛ ولم نقف عليه فى غيرهما؛ ولم نر من معانيه ما يناسب السياق؛ ولعله : «الجوامع»، أى التى تجمع الناس على اتباعها، كما يدل عليه ما بعده .

"بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا" إيّاكم وبُنيّاتِ[1] الطريق، فعندها الترنيقُ والرَّهق[2]، وعليكم بالجادّة، فهى أسَدُّ وأَورَدُ، ودَعوا الأمانىّ فقد أردَت من كان قبلكم، وليس للإنسان إلا ما سعى، ولله الآخرة والأولى، و"لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَى" ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ .

هذا ما ٱتفق إيراده من رسائل وخُطب بُلغاء الصحابة — رضى الله عنهم — وكلامِ التابعين وغيرِهم مما يحتاج الكاتب الى حفظه .

وأما رسائل المتقدّمين والمعاصِرين التى يحتاج الى النظر اليها دون حفظها — فهى كثيرة جدا، سنُورد من جيّدها ما تقِف عليه إن شاء الله .

ذكر شىء من رسائل وفصول الكتّاب والبلغاء المتقدّمين والمتأخّرين والمعاصِرين من المشارقة والمغاربة

وهذه الرسائل والفصول كثيرة جدّا ، وقد قدّمنا منها فيما مرّ من كتابنا هذا ما حلا ذِكرُه ، وفاح نَشْرُه، وأَنِس به سامعُه ، وأَيِس من الإتيان بمثله صانعُه، وأوردنا فى كل باب وفصلٍ منه ما يناسبه ، وسنُورد إن شاء الله فى فنّى الحيوان والنبات عند ذكر كلّ حيوان أو نبات يستحقّ الوصف ماسمعناه وطالعناه مِن وصفه نظما ونثرا ، مع ماينندرج فى فنّ التاريخ من الرسائل والفصول والأجوِبة والمحاورات

---

(١) بنيات الطريق : الطرق الصغار التى تتشعب من الجادّة، وهى الترهات ؛ يريد : إياكم وسلوك طريق غير طريق الجماعة .

(٢) الرهق : السفه، أو هو ركوب الشر . والذى فى صبح الأعشى : «الترهيق» .

عند ذكر الوقائع، وإنما نُورده ثَمّ وإن كان هذا موضعَه ليكون الكلام فيه سِياقةً، وتَرِدُ الوقائعُ يتلو بعضُها بعضا، فلا ينقطع الكلام على ما تقِف إن شاء الله تعالى عليه فى مواضعه، فلنُورِدْ فى هذا الموضع ما هو خارج عن ذلك النَّمط من كلامهم، ولنَبدأ بذكر شىء من المكاتَبات البليغة المُوجَزة؛

من ذلك ما كتب به عبدُ الحميد بنُ يحيى بالوَصاة على إنسانٍ فقال: حقُّ مُوصل هذا الكتاب عليك كحقّه علىّ إذ رآك مَوْضِعا لأَمله، ورآنى أهلا لحاجته، وقد أَنجزتُ حاجتَه، فحقِّق أَمَلَه.

ومنه ما حُكى أنّ المأمونَ قال لعمرو بن مَسعَدَةَ: أُكتب الى فلانٍ كتابَ عنايةٍ بفلان فى سطر واحد، فكتب: هذا كتابُ واثقٍ بمن كُتِب اليه، مُعْتَنٍ بمن كُتِب له[1]، ولن يضيع بين الثقةِ والعنايةِ حاملُه.

وكتب عمرو بنُ مَسعَدَةَ الى المأمون يستعطفه على الجند: كتابى الى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلى مِن أجنادِه وقُوّادِه فى الطاعة على أفضلِ ما تكون عليه طاعةُ جندٍ تأخّرتْ أرزاقُهم، واختلّتْ أحوالُهم. فأَمَرَ بإعطائهم رِزقَ ثمانية أشهر.

وكتب أحمدُ بنُ يوسفَ الى المأمون يذكّره بمن على بابِه من الوفود فقال: إنّ داعِىَ نَداك، ومنادِىَ جَدْواك، جمعا ببابك الوفود، يرجون نائلَك العَتِيد؛ فمنهم من يَمُتُّ بحُرمة، ومنهم من يُدْلِى[2] بخِدمة؛ وقد أجحَف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام؛ فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يَنعَشَهم بسَيْبِه[3]، ويَحتوِشَ ظُنونَهم بطَولِه فَعَل. فوقّع المأمون فى كتابه: الخيرُ متبَع، وأبوابُ الملوك مَواطنُ لذوى الحاجات،

(١) فى الأصل: «اليه»؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٢) يدلى: يتوسل. (٣) السيب: العطاء.

فأحصِ أسماءهم ، وآجُلْ مَوائنهم[1] ، ليصير الى كلِّ آمرئٍ منهم قدر آستحقاقِه ، ولا تكدّر معروفا بالمَطْل والمجاب ، فإنّ الأوّل يقول :

فإنك لن تَرَى طَرْدا لحُرٍّ * كإلصاقٍ به طَرَفَ الهوانِ
ولَمَ يَجلُب مودّةَ ذى وفاء * كمِثلِ البَذل أو بسطِ اللسانِ .

٥ وكتب محمدٌ[2] إلى يحيى بن هرمةَ[3] — وكان عامِلَه على أَصْفَهانَ ، وقد تظلّمَ منه أهلُها — : يا يحيى[4] ، قد كَثُرَ شاكُوك ، وقَلّ شاكروك ؛ فإمّا عَدَلتَ ، وإمّا آعتزَلتَ .

وكتب أبو بكر الخُوارَزْمىُّ جوابا عن هديّة : وصلَت التُّحْفة ، ولَم يكن لها عيب إلّا أنّ باذلَها[5] مسرِفٌ فى البِرّ ، وقابِلَها مقتصِدٌ فى الشكر ؛ والسَّرَفُ مذمومٌ ١٠ إلّا فى المجد ، والآقتصادُ محمودٌ إلّا فى الشكرِ والحمد .

وكتب مَلِكُ الروم إلى المعتصم يتوعّدُه ويتهدّدُه ، فأَمَرَ الكتّاب أن يكتبوا جوابَه ، فكَتبوا فلم يعجبه مما كتبوا شىءٌ ، فقال لبعضهم : أُكتب : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ،

(١) يريد بهذه العبارة أمره بأن يوضح ما فرض فى الديوان لكل واحد منهم ، ويبين ما يستحقه من العطاء .

١٥ (٢) كذا ورد هذا الاسم فى الأصل ؛ ولم يرد بعده من الكنى ما يعينه ؛ والذى فى المصادر التى بين أيدينا أن هذا التوقيع لجعفر بن يحيى البرمكىّ الى بعض عماله انظر شرح القاموس مادة « وقع » والعقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٢ طبع بولاق ووفيات الأعيان ترجمة جعفر بن يحى والوافى بالوفيات للصفدى المحفوظ منه نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩ تاريخ .

(٣) كذا فى الأصل ؛ ولم نقف على هذا الاسم فيمن تولى عمل أصفهان ؛ ولعل صوابه : « هرثمة » .

٢٠ (٤) فى الكتب التى بين أيدينا : « يا هذا » .

(٥) فى الأصل : « يأذن لها » ؛ وهو تحريف .

أمّا بعد ، فقـد قرأتُ كتابَك، وفَهمتُ خطابَك، والجوابُ ما تَرى لا ما تَسمَع، "وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ"[1] .

ومن كلام بديع الزّمانِ أبي الفضل أحمـدَ بنِ الحسين الهَمَذانيِّ ـ

قيل : ذُكِر الهَمَذانيُّ فى مجلس أبى الحسين بن فارس فقـال ما معناه : إنّ البديعَ قد نسِيَ حقَّ تعليمنا إيّاه، وعَقّنا وشمخ بأنفه عنّا، فالحمـد لله على فساد الزمان ، وتغـيُّرِ نوعِ الإنسان ؛ فبلغ ذلك البـديعَ ، فكتب الى أبى الحسين :

نَعم أطال الله بقاءَ الشـيخ الإمام ، إنّه الحَمَأُ[2] المسنُون ، وإن ظُنّت الظنـون ؛ والناسُ لِآدم، وإن كان العهـدُ قد تَقادَم ؛ وٱرتبكت[3] الأضْداد ، وٱختَلَط الميلاد ؛ والشيخ يقول : فَسَد الزمان، أفلا يقول: متى كان صالحا ؟ أفى الدّولة العبّاسيّة وقد رأينا آخرَها وسمعنا أوّلَها ؛ أم المدّةِ المَرْوانيّةِ وفى أخبارها «لا تَكْسَع الشَّولَ بأغبارِها»[4] ؛ أم السنين الحَرْبيّةِ[5]

(١) الكافر بالإفراد : قراءة الحـرميين وأبى عمرو كما سبق بيـان ذلك فى ص ١٠ ت ١ من هـذا الجـزء .

(٢) كذا فى يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٧٨ طبع دمشق وغيرها من المصادر التى بين أيدينا لهذه الرسالة ؛ والذى فى الأصل : « أنا » والحمأ : الطين الأسود . والمسنون : المتغير المنتن .

(٣) عبارة الأصل : «وتركيب الأصفاد» ؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى ، والتصويب عن يتيمة الدهر .

(٤) تكسع ، من الكسع وهو ترك بقية من اللبن فى خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها ، وهو أشد لها . والشول من النوق : ما مضى على حملها أو وضعها سـبعة أشهر فقل لبنها وخف ضرعها ، واحده شائل . والأغبار : جمع غبر بالضم ، وهو بقية اللبن ؛ وهذا صدر بيت للحارث بن حلزة ، وتمـامه : « إنك لا تدرى من الناتج» قال فى اللسان مادّة « كسع » فى تفسير هذا البيت : يقول : « لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوّة نسلها ، وٱحلبها لأضيافك ، فاعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك » . ولعل الكاتب أشار بهذا الى بخل بنى مروان وقلة الخير فى أيامهم .

(٥) الحربية : نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس ، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد ابنه .

والسيفُ يُعمَل[1] فى الطُّلَى * والرُّمْحُ يُرْكَز فى الكُلَى
ومَبيتُ حُجْرٍ[2] فى الفَلا * والحَرّتانِ[3] وكَرْبَلا[4]

أم البَيعةِ الهاشميّةِ [وعلىٌّ يقول[5] : ليت] العشرةَ [منكم[6]] براس ، مِن بَنى فِراس ؛ أم الأيّامِ الأمويّةِ[7] والنَّفيرُ إلى الحجاز ، [والعيونُ[5] إلى الأعجاز] ؛ أم الإمارةِ العَدَويّةِ[8] وصاحبُها يقول : هلمّوا[9] إلى النزول ؛ أم الخلافةِ التَّيميّةِ[10] وهو[11] يقول : طوبى لمن

(١) فى كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان ص ٤١٥ طبع بيروت : « يغمد » . والطلى : الأعناق . واحده طلية بضم الطاء .

(٢) هو حجر بن عدىّ الكندىّ من أهل العراق ، وقد قتله معاوية بن أبى سفيان فى سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علىّ ولعنه لمعاوية وأصحابه ، والبراءة منهم ، وكان يجتمع عليه كل من وافقه فى هذا الرأى من أهل المصرين ، حتى ولى زياد على العراق فكتب إلى معاوية فى أمر حجر وأكثر ، فأمر معاوية زيادا أن يبعث به إليه مشدودا بالحديد ففعل ، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه ؛ وكان حجر من أشراف العراق وخياره . انظر تاريخ الطبرى فى حوادث سنة إحدى وخمسين .

(٣) كذا فى يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٧٩ طبع دمشق وغيرها من المصادر التى بين أيدينا لهذه الرسالة ؛ وبه يستقيم الوزن ؛ وفى الأصل : « والحسين » . وأشار بهذا الى وقعة الحرة التى كانت بين جنود يزيد بن معاوية وأهل المدينة سنة ثلاث وستين ؛ وكانت هذه الوقعة فى حرة واقم وهى شرقى المدينة وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير . انظر تفصيل ذلك فى كتب التاريخ .

(٤) كربلاء : موضع فى طرف البرية عند الكوفة ، وهو الذى قتل فيه الحسين بن علىّ رضى الله عنهما فى خلافة يزيد بن معاوية .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٧٩

(٦) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر . (٧) يريد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه . (٨) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ؛ والعدوية نسبة إلى عدى بن كعب بن لؤىّ ، وهم رهط عمر . (٩) كذا فى الأصل ؛ والذى فى يتيمة الدهر وكشف المعانى والبيان : « وهل بعد البزول إلا النزول » ؛ والبزول : تشقق ناب البعير ، وذلك فى السنة التاسعة ؛ يريد بهذه العبارة : وهل بعد الوصول الى الغاية إلا الأخذ فى النقصان .

(١٠) يريد خلافة أبى بكر رضى الله عنه ؛ والتيمية : نسبة الى تيم بن مرة بن كعب بن لؤىّ ، وهم رهط أبى بكر . (١١) كذا فى الأصل ؛ والذى فى اليتيمة : «وصاحبها» .

(٩٩) مات فى نَأْنَأة[1] الإسلام، [أم[2]] على عهد الرسالة ويومَ الفتح قيل: أُسكنى[3] يا فلانة، فقد ذهبَت الأمانة، أم فى الجاهليّة ولَبِيدٌ يقول:

* [وبَقِيتُ[4] فى خَلْفٍ[5] كجلد الأجرب *

أم قَبل ذلك وأخو عادٍ يقول]:

بلادٌ بها كنّا وكنّا نحبّها * إذ الناس ناسٌ والزمانُ زمانُ ٥

أم قَبل ذلك ويُروَى لآدم عليه السلام:

تَغيّرت البلاد ومَن عليها * فوجهُ الأرض مغبرٌّ قَبيحُ

أم قَبل ذلك والملائكةُ تقول لبارئها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ما فسَدَ الناس، ولكن اطّرد القياس، ولا أظلمَت الأيام، إنما امتدّ الإظلام، وهل يَفسُد الشيءُ إلّا عن صلاح، ويمسى المرء إلّا عن صباح؟ ١٠ ولعمرى إن كان كرَمُ العهد كتابا يَرِد، وجوابا يَصدُر، إنّه لَقريبُ المَنال، وإنّى على توبيخه لى لَفقيرٌ إلى لقائه، شفيقٌ على بقائه، منتسِبٌ إلى وَلائه، شاكرٌ لالائه.

وكتب بديع الزمان يستعطفه: إنّى خدمت مولاى، والخدمةُ رِقٌّ بغير إشهاد، وناصحتُه. والمناصَحةُ للودِّ أوثقُ عِماد، ونادمتُه، والمنادَمةُ رَضاعٌ ثان، وطاعمته، والمطاعَمةُ [نَسَبٌ[6]] دان، وسافرتُ معه، والسَّفرُ والأخوّةُ رضيعَا لبان، وقمتُ بين ١٥

(١) وردت هذه العبارة فى اللسان والأساس هكذا: «طوبى لمن مات فى النأنأة»؛ والنأنأة: أوّل الإسلام؛ قال الزمخشرىّ: ومعناها الضعف قبل أن يقوى ويعز.

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها؛ انظر رسائل بديع الزمان.

(٣) فى المصادر التى بين أيدينا لهذه الرسالة: «اسكتى» بالتاء.

(٤) هذه التكملة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر. ٢٠

(٥) الخلف بفتح الخاء وسكون اللام: الأردياء الأخساء؛ وصدر البيت: «ذهب الذين يعاش فى أكنافهم».

(٦) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضى اثباتها؛ انظر كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان ص٣٠٣ طبع بيروت.

يديه، والقيامُ والصلاةُ شريكا عِنان (١)؛ وأثنيتُ عليه، والثناءُ عند الله بمكان؛ وأخلصتُ له، والإخلاصُ مشكورٌ بكلّ لسان.

ومن كلام أبي الفضل محمد بنِ الحسين بن العَميد — وكان وزيرا كاتبا — كَتب عن ركن الدّولة بنِ بويه كتابا لمن عَصى عليه:

٥ كتابي وأنا مترجِّحٌ بين طمع فيك، وإياسٍ منك، وإقبالٍ عليك، وإعراضٍ عنك (٢)؛ فإنك تُدْلِي بسابق خِدمة، وتُمُتّ بسالف حُرمة؛ أيسرُها يوجب رِعاية، ويَقتضِي محافَظةً وعناية؛ ثم تَشفَعُهما بحادثِ غُلولٍ وخيانة، وتُتبِعُهما بآنِف خلافٍ ومعصية؛ وأدنَى ذلك يُحبِط أعمالَك، ويَمحَق كلَّ ما يُرعَى لك؛ لا جَرَمَ أنّي وقفت بين مَيلٍ إليك، ومَيلٍ عليك؛ أقدِّم رِجلا لِصَمْدِك (٣)، [وأؤخِّر (٤)] أخرى عن قَصدِك؛

١٠ وأبسُط يدا لاصطلامِك واجتياحِك، وأَثني ثانيةً نحو استبقائك واستصلاحِك (٥)؛ وأتوقّف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنّاً بالنعمة عندك، ومنافَسةً في الصَّنيعة لديك؛ وتأميلا [لفَيئتِك (٤)] وانصرافِك، ورجاءً لمراجَعتِك وانعطافِك؛ فقد يَعزُب العقل ثم يؤوب، ويَغرُب اللبُّ ثم يَثُوب، ويذهب العزم ثم يعُود، ويَفسُد الحزم ثم يَصلُح، ويضاع الرأى ثم يستدرَك، ويَسكَر المرء ثم يصحو، ويَكْدَر الماء ثم يصفو؛

١٥ وكلُّ ضِيقةٍ فإلى رخاء، وكلُّ غمرةٍ فإلى انجلاء؛ وكما أنك أتيتَ من إساءتك ما لم تحتسبْه أولياؤك، فلا تدَعْ (٦) أن تأتيَ من إحسانك ما لم ترتقبْه أعداؤك؛ وكما

(١) يقال: بينهما شركة عنان، اذا اشتركا على السواء، لأن العنان طاقان مستويان.

(٢) في الأصل: «عليك»؛ وهو تحريف.

(٣) في يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠ طبع دمشق: «لصدمك»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

٢٠ (٤) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر.

(٥) في يتيمة الدهر: «لاستبقائك».

(٦) في اليتيمة: "فلا بدع" بالباء الموحدة؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

استمرّت بك الغفلةُ حتى رَكِبتَ ما رَكِبتَ، واخترتَ ما اخترتَ، فلا عجب أن تنتبهَ انتباهةً تبصر فيهـا قبيحَ ما صنعتَ، وسـوءَ ما آثرت؛ وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطَلةِ ما صَلَح، وعلى الاستِيناءِ والمطاوَلةِ ما أمكَن، طمعا فى إنابتـك، وتحكيما[(١)] لحُسن الظنّ بك؛ فلستُ أعدم فيما أظـاهره من إعذارك، وأُرادفُه من إنذارِك، احتجاجا عليك، واستدراجا لك؛ وإن يشإ اللهُ يُرشِـدْك، ويأخذ بك الى حظِّك ويسدِّدْك؛ فإنه على كلّ شىء قدير.

وفى فصل منه: وزعمتَ أنك فى طَرَفٍ من الطاعة بعد أن كنت متوسِّطَها، وإن كنتَ كذلك فقد عرفتَ حالتيها، وحلبتَ شَطْريها، فناشدتك اللهَ لَمـا صدقتَ عما أسألك: كيف وَجدتَ ما زُلتَ عنه، وتجِد ما صرتَ إليه؟ ألم تكن من الأوّلِ فى ظلٍّ ظَليل، ونسيمٍ عليل، وريحٍ بَليل؛ وهواءٍ ندىّ[(٢)]، وماءٍ رَوىّ، ومِهادٍ وَطِىّ؛ وكِنٍّ كَنِين، ومكانٍ مَكين، وحصنٍ حَصين؛ يَقِيك المتالف، ويؤمنك[(٣)] المخـاوف؛ ويَكنُفُك من نوائب الزمان، ويَحفظك من طوارق الحِدْثان؛ عَزَزتَ[(٤)] به بعد الذِّلّة، وكثرت بعد القِلّة؛ وارتفعتَ بعد الضَّعة، وأيسرتَ بعد العُسر، وأَثْرَيتَ بعد المَتْرَبة، وأتّسعتَ بعـد الضيق، وأطافت[(٥)] بك الوِلايات، وخَفَقت فوقك الرايات؛ ووَطِئ عَقِبَك الرجال، وتعلّقتْ بك الآمال؛ وصرت تكاثِرُ ويكاثَر بك، وتُشير ويشار اليك؛

(١) فى الأصل: "وتحكيمك بحسن" والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٢) فى الأصل: "غدى" بالغين المعجمة؛ وفى يتيمة الدهر "عدى"؛ وهو تحريف فى كليهما؛ وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا.

(٣) فى الأصل: "ويؤملك" باللام، وهو تحريف.

(٤) فى الأصل: "رمت" وهو تحريف.

(٥) فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١١ طبع دمشق: "وظفرت بالولايات"؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

ويذكر على المنابر اسمُك، وفى المحاضر ذِكرُك؛ ففيم أنت الآن من الأمر؟ وما العِوضُ مما ذكرتُ وعددت، والخَلَفُ عمّا وصفت؟ وما استفدتَ حين أخرجتَ من الطاعة نفسَك، ونفضتَ منها كفَّك، وغمستَ فى خلافها يدَك؟ وما الذى أظلّك بعد انحسار ظلّها عنك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شُعَب، لا ظَليل ولا يُغنِى من اللَّهَب؟ قل: نعم، فذاك والله أكنَفُ ظلالِك فى العاجلة، وأروَحُها فى الآجلة؛ إن أقمتَ على المُحادّة والعُنود[1]، ووقفت على المُشاقّة والجُحود.

ومنه: تأمّل حالَك وقد بلغتَ هذا الفصل مِن كلامى فستُنكِرها[2]، وآلمِس جسدك فانظر هل يحسّ، وآجسُسْ عرقك هل ينبِض، وفتِّش ما حُنِىَ عليه أضلاعُك هل تجد فى عرْضِها قلبَك؟ وهل حلا بصدرك أن تظفَر بفوتِ مُزيح[3] أو موتِ مُريح؟ ثم قِسْ غائبَ أمرِك بشاهِده، وآخرَ شأنِك بأوّله.

وكتب الصاحب أبو القاسم كافى الكُفاة فى وصف كتاب: ومن هو الذى لا يُحبّه وهو عَلَم الفضل، وواسطةُ الدهر؛ وقَرارةُ الأدب والعِلْم، ومَجمَعُ الدّراية والفهم؛ أمَن يرغب عن مكاثَرة بمن يُنسَب الربيعُ الى خُلقه، ويَكتسِب محاسنَه من طبعه، ويَتوشّح بأنواره، ويَتوضّح بآثار لسانه ويده؟ وصل كتابُه، فارتحتُ لعُنوانه قبل عِيانه، حتى اذا فَضضتُ ختامَه أقبلَت الفِقَرُ تتكاثر، والدُّررُ تتناثر؛ والغررُ تتزاكم، والنّكتُ تتزاحم؛ فإذا حكمتُ للفظة بالسَّبْق أتت أختُها تتنافس[5]،

(١) العنود: من عند عن الطريق إذا مال.

(٢) كذا فى اليتيمة؛ والذى، فى الأصل: "مستكرها".

(٣) كذا فى الأصل؛ والذى فى يتيمة الدهر: «سريح» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين والسريح: السريع المعجل. والمزيح: من الإزاحة، وهى الإبعاد.

(٤) هذه الباء ساقطة من الأصل، والسياق يقتضى إثباتها. (٥) لعله: «تتنافر»؛ إذ به يتم السجع الذى توخاه الكاتب فى أكثر رسالته؛ والتنافر، التحاكم فى الفخر.

وأقبلتْ لديهـا تتفاخر، حتى استعفَيتُ من الحُكومة، ونفضتُ يدى من غبار الخصومة، وأخذت أقول : كلُّكنّ صَـوادرُ عن أصلٍ واحدٍ فتسالَمْن، وأرفادٌ عن معدن رافد[1] فتصالَحن، وقـد ولّيتُ النظرَ بينهما مَن كَمل لِنَسْجِ بُرودِهما، ووَفّى بنَظْمِ عُقودِهما، على أننى يامولاى أنشأتُ هـذه الأحرفَ وحولى أعمالٌ وأشغالٌ لا يَسلَم معهما فِكر، ولا يَسلَم بينهما طبع، وتناولتُ قلما كالأبنِ العاقّ ، بل العدوِّ المُشاقّ ؛ اذا أردتُه استقال، واذا قوّمتُه مال، واذا حَثَثتُه وَقَف، واذا وقفتُه انحرف، أحدل[2] الشِّـقّ، متفاوت البَرْيِ ، معـدوم الجَرْى، محرَّف القَطّ ، مثبَّج[3] الخَطّ ، ثم رأيتُ العُدول عنه ضربا من الانقياد لأمرِه، والانخراطِ فى سِـلكه، فجهَدتُه على رَغْمِه، وكَدَدتُه على صَعَرِه، لا جَرَمَ أنّ جناية اللَّجاج باديةٌ على صفحات الحروف لا تخفى، وعاديةَ المَحْكِ[4] لائحةٌ على وجوه السطور تَتجلّى .

وكتب : واللهُ يعلم أنى أُخبِرتُ بورود كتابه واسـتفزّنى الفرحُ قبل رؤيتـه ، وهَزّ عِطْفى المَرَحُ أمامَ مشاهَدته ، فـا أدرى، أسمعتُ بورود كتاب، أم ظَفِرتُ برجوع شباب ؟ ثم وصل بعد انتظار له شديد، وتطلّع الى وصوله طويلٍ عريض، فتأمّلتُه فلم أدر ما تأمّلت ، أخطّا مسطورا ، أم روضا ممطورا ، أم كلاما منثورا ، أم وَشْيا منشورا؟ ولم أدر ما أبصرتُ فى أثنائه، أأبياتَ شِعر، أم عقودَ دُرّ؟ ولم أدر ما جُملتُه، أغيثٌ حَلّ بِوادى ظمآن، أم غَوثٌ سبَق إلى لَهْفان؟ .

وكتب : وصل كتاب القاضى فأعظمتُ قَدْرَ النعمة فى مَطْلِعه، وأجلَلت محلّ الموهبة بموقِعه، وفضضتُه عن السحر حلالا، والمـاءِ زُلالا، وسرّحتُ الطَّرْفَ منه

(١) فى الأصل : «وارد» ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٢) الأحدل : المـائل .

(٣) المثبج : المعمى الخفى . (٤) المحك : التمادى فى اللجاج والغضب .

فى رياض رقّت حواشيها، وحُلِلٍ تأنّق واشيها؛ فلم أتجاوزْ فصلا إلاّ إلى أخطَر[1] منه فضلا، ولم أتخطّ[2] سطرا إلا الى أحسَنَ منه نَظما ونثرا .

وكتب أيضا : وصل كتابك فجعلتُ وُصولَه عيدا أؤرِّخ به أيّامَ بهجتى، وأفتتح به مواقيتَ غِبطتى؛ وعرفتُ من خَبَر سلامتك ما سألتُ الله الكريم أن يصله بالدوام، ويرفعَه على أيدى الأيام .

وكتب أيضا : وصل كتابُه — أيّده الله — يَضحَك عن أخلاقه الأَرِجة، ويَتهلّل عن عِشْرته العَطِرة؛ ويُخبِر عن عافية الله لمن[3] رأيتُ شَمْلَ الحُرّية به منتظِما، وشَعْبَ المروءة له ملتئما؛ ويَحمِلُ من أنواع بِرِّه ما أَقصُر عن ذِكرِه، ولا أطمَع فى شكرِه؛ ويؤدِّى مِن لطيفِ اعتذارِه فى أثناء عَتْبِه، ما تَزداد أسبابُ المودّة تمهيدا به؛ وفهِمتُه، ورَغِبتُ إلى الله بأخلَص طَويّة، وأَمحَض نيّة[4] .

وقال أبو الفرج البَبْغاء من رسالة إلى عُدّة الدّولة أبى تغلب جاء منها : أصحُّ دلائلِ الإقبال، وأصدَقُ براهينِ السعادة — أطال الله بقاء سيّدنا — ما شَهِدت العقولُ بصحّتِه، ونَطقت البصائرُ بحقيقتِه، ونعمةُ الله على الدّنيا والدِّين بما أولاهما من اختيار سيّدنا لِحراستهما بناظِرِ فضلِه، وسِتْرِهما بظلِّ عدلِه؛ مُفصِحةٌ بتكامُلِ الإقبال، مُبشِّرةٌ بتصديق الامال

محروسةٌ ضَمِن الشكرُ الوفىُّ لها * على الزيادة نَيلَ السّؤل والدَّرَكِ

(١) فى الأصل : «أخصر» بالصاد، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «ولم ألحظ» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : «إلا إلى» .

(٣) فى الأصل : «عما»؛ وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا .

(٤) إلى هنا وردت هذه الرسالة فى الأصل؛ وللكلام بقية سقطت من الناسخ، ولم نقف عليه فيما بين أيدينا من المظان .

تحقّقَ العصرُ أنّ المُلكَ منذ نشا * له أبو تغلِبَ آسمٌ غيرُ مشـترك
واستَخلَف الفَلَكُ الدوّارُ هِمّتَه * فلوونَى أغنت الدنيا عن الفَلَكِ

مأمونُ الهفوات ، متناصِرُ الصفات[1] ؛ رِبعيُّ النّفاسـة[2]، حَمدانيُّ السياسـة ، ناصريُّ الرياسة ؛ عُطارِدى الذّكاء ، موفّقُ الآراء ؛ شمسيُّ التأثير ، قَمَرِيُّ التصوير ، فَلَكيُّ التدبير ؛ لِلصّدقِ كلامُه ، ولِلعدلِ أحكامُه ، ولِلوفاءِ ذمامُه ؛ ولِلحسامِ غَناؤه ، ولِلقَدَرِ مَضاؤه ، ولِلسحابِ عطاؤه ٥

دعوتُه فأجابتـــنى مكارمُـــه * ولو دعوتُ سوى نعماه لم تُجِبِ
وجدتُه الغيثَ مشغوفا بعادته[3] * والروضُ يحيا بما فى عادة السّحُبِ
لوْ فاته النسَبُ الوَضّاحُ كان له * من فضلِه نسبٌ يُغنِى عن النسَبِ
إذا دعته ملوكُ الأرض سيّدَها * طرّا دعته المعالى سيّدَ العَرَبِ . ١٠

وكتب أبو الحسن[4] علىّ بن القاسم القاشانىّ :

ما أرتضى نفسى لمخاطبـة مولاى إذا كنتُ منفىَّ الشواغل ، فارغَ الخواطر ، مُخلى الجوارح ، مطلقَ الإسار ، سليمَ الأفكار ، فكيف مع كَلالِ الحِدّة ، وانغـلاقِ الفهم ، واستبهامِ القريحة ، واستعجامِ الطبيعة ؛ والمعوَّلُ على النيّة ، وهى لمولاى بظَهر الغيب مكشوفة ، والمرجعُ إلى العقيدة ، وهى بالوَلاء المَحْض معروفة ؛ ولا مجال للعتب عن هذه الأحوال ، لِلعذرِ وراء هذه الخِلال . ١٥

(١) يقال : تناصرت الصفات ، إذا صدق بعضها بعضا .

(٢) الربعىّ : نسبة إلى الربيع على غير قياس .

(٣) عبارة الأصل : « مشفوعا بغادية » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ، والتصويب عن يتيمة الدهر ج ١ ص ١٨٧ طبع دمشق . ٢٠

(٤) كذا فى الأصل . والذى فى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠١ طبع دمشق : « أبو القاسم » .

وقال محمد بن العباس الخُوارَزمىّ : الحمد لله الذى جعل الشيخ يضرب فى المحاسن بالقِدح المُعَلَّى، ويسمو منها إلى الشرف الأعلى ، ولَمْ يَجعل فيه موضعا لِلَوْلا، ولا مجالًا لإلّا ؛ فإن الاستثناء إذا اعترض فى المدح انصبّ ماؤه، وكُدّر صفاؤه ، وانطلق فيه حسّادُه وأعداؤه؛ ولذلك قالوا : ما أحسنَ الظَّبىَ لولا خَنَسُ[1] أنفه! وما أحسنَ البدرَ لولا كَلَفُ وجهِه! وما أَطْيَبَ الخمرَ لولا الخُمَار! وما أشرفَ الجُودَ لولا الإقتار ! وما أحمَدَ مَغَبّةَ الصبر لولا فَناءُ العمر ! وما أَطْيَبَ الدنيا لو دامت

ما أَعلَمَ الناسَ أنّ الجُودَ مَكسَبَةٌ * للحمد لكنّه يأتى على النَّشَبِ.

ذكر شىء من رسائل فضلاء المغاربة ووزرائهم وكتّابهم ممن ذكرهم ابن بسام فى كتابه المترجم بالذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

منهم ذو الوزارتين أبو الوليد بنُ زَيدون ، فمن كلامه رسالةٌ كتبها على لسان محبوبته وَلّادةَ بنتِ محمد بنِ عبد الرحمن الناصرىّ الى إنسان استمالها إلى نفسه عنه، وهى :

أما بعد، أيها المصابُ بعقلِه ، المورَّطُ بجهلِه ؛ البيِّنُ سَقَطُه، الفاحشُ غلطُه ؛ العاثرُ فى ذيل اغترارِه، الأعمى عن شمس نهارِه؛ الساقطُ سقوط الذباب على الشراب، المتهافِتُ تهافُتَ الفَراش فى الشهاب[2]؛ فإنّ العُجْبَ أكْذَب، ومعرفة المرء نفسَه أصْوَب ؛ وإنك راسلتنى مستهديا من صِلتى ماصَفِرتْ منه أيدى أمثالِك، متصدّيا من

(١) الخنس بفتح الخاء ونون : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة .

(٢) كذا فى سرح العيون ص ١١ طبع بولاق، وفى الأصل : «الى» ؛ والتهافت : التساقط .

خُلّتى لما قُرِعتْ فيه[1] أُنوفُ أشكالِك ؛ مرسِلا خليلَتك مُرتادة ، مستعمِلا عشيقتَك قَوّادة ؛ كاذبا نفسَك [أنك][2] ستَنزِل عنها إلىّ ، وتَخلُف بعدها علىّ

ولستَ[3] بأوْبِ ذى هِمّةٍ * دعتــه لمــا ليس بالنائلِ

ولا شــكّ فى أنها قَلَتْك إذ لم تَضَنّ بك ، ومَلّتك إذ لم تَغَرْ عليك ، فإنهــا أعذَرتْ فى السِّفارة لك ، وما قَصّرتْ فى النيابة عنك ؛ زاعمــةً أنّ المروءة لفظٌ أنت معناه ، والإنسانيّةَ آسمٌ أنت جســمُه وهَيولاه ؛ قاطعةً أنّك آنفردت بالجمال ، وآســتأثرتَ بالكمال ، وآســتَعلَيتَ فى مراتب الجلال ، واســتَولَيتَ[4] على محاسن الخِلال ؛ حتى خَيّلتْ أنّ يوسف عليه السلام حاسَنَك فغَضضتَ منــه ، وأنّ آمرأةَ العزيز رأتك فسَلَت عنــه ؛ وأنّ قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزت ، والنَّطِفُ[5] عَثَر على فضل

(١) فى بعض نسخ هذه الرسالة : «دونه» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى ص ١٤ طبع بولاق .

(٣) البيت للنبىّ .

(٤) وردت هذه الفقرة فى الأصــل قبل قوله : «قاطعة» الخ والسياق يقتضى تأخيرها كما فى سرح العيون ص ٢١

(٥) النطف : هو آبن جبير بن حنظلة اليربوعى ؛ وكان مقيما بالبادية مع بنى تميم ؛ وكان من أمره أن عامل كسرى على اليمن كان يحمل ثيابا من ثياب اليمن وذهبا ومسكا وجوهرا ، ويرسله الى كسرى مع خفراء من بنى الجعد المرازبة الى أن يصل الى أرض بنى تميم ، فيبعث معها هوذة من يجاورها أرض بنى تميم ، فلما كان فى بعض السنين فى أرض بنى حنظلة تعرّض لها بنو يربوع فأغاروا عليها وقتلوا من بها من العرب والفرس ، وكان فيمن فعل ذلك ناجية بن عقال والحرث بن عقبة والنطف بن جبير هــذا ، وكانوا فرسان بنى تميم ، فنهبوا الأموال ، فحصل النطف على شىء كثير ، فضرب به المثل . انظر سرح العيون ص ٢٥ طبع المطبعة الأميرية . والذى فى اللسان مادة «نطف» نقلا عن ابن برّى أنه ابن الخيــبرىّ أحد بنى سليط ابن الحرث بن يربوع ؛ ونقل عن ابن دريد أيضا أن آسمه حطان .

ما ركزت[١]، وكسرى حمل غاشيتك[٢]، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا[٣] فى طاعتك، وأردشير[٤] جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك، والضحاك[٥] استدعى مسالمتك، وجذيمة[٦] الأبرش تمنى منادمتك، وشيرين[٧] نافست بوران[٨] فيك،

(١) هو من الركاز، وهو دفين مال الجاهلية .

(٢) أراد غاشية السرج، وهى غطاؤه .

(٣) هو دارا الأصغر ابن دارا الأكبر ابن أردشير ملك الفرس؛ وكان بينه وبين الإسكندر بن فيليب ملك الروم حرب بسبب إتاوة كان يدفعها أبو الإسكندر لملوك الفرس، فلما جاء الإسكندر منع هذه الإتاوة، فحاربه دارا، والتقى الجمعان بنصيبين الجزيرة، وانتهت الوقعة بقتل دارا وانهزام الفرس انظر مرج العيون وقد اعتمدنا عليه فى أكثر شرحنا لما ورد فى هذه الرسالة من الحوادث التاريخية والأبيات والأمثال .

(٤) أردشير : هو ابن بابك من ولد بهمن الملك؛ وأردشير هذا أول الفرس الثانية؛ وكان من أمره وأمر ملوك الطوائف أن الإسكندر لما قتل دارا آخر ملوك الفرس، وفرق من بقى منهم، وسماهم ملوك الطوائف صارت المملكة لليونان، فلما توفى الإسكندر وتقاصر ملك اليونان بعد مدة تحرك أردشير - وكان أحد أبناء ملوك الطوائف على اصطخر - ، وخرج طالبا للملك، وأوهم انه يطلب بثأر ابن عمه دارا، وجمع الجموع، وكاتب ملوك الطوائف فى ذلك، فمنهم من أطاعه ومنهم من تأخر عنه، فخرج بعساكره فقتل المتأخر، ثم عطف على بقيتهم فقتلهم، وتسمى بعد ذلك شاهنشاه الأعظم، ومعناه : ملك الملوك .

(٥) الضحاك : يزعم قوم أنه ابن الأهبوب بن عوج بن طهمورث بن آدم، وهو ابن أخت جمشيد بن أوشهنج . وقال قوم إنه من العرب من قحطان، واليمانية تدعيه . وملك بعد جمشيد، فطغى وتجبر وكثر ظلمه وفساده، وطالت مدته فى الملك حتى قتل .

(٦) هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخى، وقيل : الأزدى، أول من قاد العرب وملك على قضاعة وكانت منازله الحيرة والأنبار، وكان أبرص، فعدل عن هذا الاسم، فقيل : الأبرش بالشين المعجمة، والوضاح .

(٧) شيرين : هى زوجة أبرويز بن هرمز من ولد كسرى أنوشروان .

(٨) بوران : هى بنت أبرويز المتقدم . وقد ملكت بعد شهريار بن أبرويز .

وبِلْقِيس[1] غايرت الزَّبّاء[2] عليك، وأنّ مالكَ[3] بن نُوَيرةَ إنما ردف لك، وعُروةَ[4] بن جعفر إنما رحَل إليك، وكُلَيب[5] بنَ رَبيعة إنما حَمى المرعى بعِزّتك، وجسّاسا[6] إنما قتَله بأَنَفَتك، ومُهَلْهِلا[7] إنما طَلَب ثأره بهِمّتك، والسموءَل[8] إنما وَفَى عن عهدِك،

(١) بلقيس : هى ابنة الحرث بن سبأ، وقصتها فى القرآن معروفة فى سورة النمل .

(٢) الزباء ، هى ملكة الجزيرة؛ وتعـدّ من ملوك الطوائف؛ ولقبت الزباء لكثرة شعرها وطوله ، واسمها : بارعة، أو ميسون؛ وهى ابنـة عمرو بن الظرب . وقد قتله جذيمة الأبرش وأخذ ملكه وقامت هى بأخذ ثأره . انظر القاموس وشرحه .

(٣) هو مالك بن نويرة بن شدّاد اليربوعى التميمى، فارس ذى الخمار — وذو الخمار فرسه — وكان مالك من فرسان العـرب وشجعانهم ، وذوى الردافة فى الجاهليـة ، وكانت الردافة لبنى يربوع أيام آل المنذر؛ وأدرك مالك بن نويرة الإسلام وأسلم، وقتله خالد بن الوليد فى حروب أهل الردّة فى زمن أبى بكر رضى الله تعالى عنه . وفى اللسان مادة ردف أن أرداف الملوك فى الجاهلية : الذين كانوا يخلفونهم فى القيام بأمر المملكة بمنزلة الوزراء فى الإسلام .

(٤) هو عروة بن عتبة بن جعفر من بنى عامر بن صعصعة، وأهل بيته ينتسبون الى جعفر، فيقال : الجعفريون؛ وكان يعـرف بمروة الرحال لرحلتـه الى الملوك؛ وكان من ذوى العقل والشهامة ، وهو من أرداف الملوك .

(٥) هو كليب بن ربيعـة بن الحارث الوائلى؛ ويضرب به المثل فيقال : "أعز من حمى كليب" وكان يحمى مواقع السحاب فلا يرعاه أحد غيره، وكان اذا مرّ بمرعى قذف فيه جروا فيعوى، فلا يرعى أحد من ذلك الكلإ .

(٦) جساس : هو ابن مرّة بن ذهل، وهو قاتل كليب؛ وسبب ذلك أن كليبا رأى بين إبله ناقة كانت لخالة جساس فأنكرها ورماها بسهم فى ضرعها، فعظم ذلك على جساس وخالتـه ، فلم يزل جساس بكليب حتى قتله .

(٧) مهلهل : هو ابن ربيعة بن الحرث أخو كليب المتقدم ذكره، ومهلهل لقبـه ، واسمه عدىّ ، ولقب مهلهلا لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أى أرقه؛ وهو خال امرئ القيس بن حجر .

(٨) السموءل : هو ابن عادياء من يهود يثرب؛ وكان يضرب به المثل فى الوفاء فيقال : «أوفى من السموءل» .

والأحنف[١] إنما احتبى فى بُرْدِك، وحاتم[٢] إنما جاد بوَفْرِك، ولَقِىَ الأضيافَ بِبِشْرِك، وزيدُ[٣] بنَ مهلهل إنما ركب بفخذيك، والسُّلَيكُ[٤] بنَ السُّلَكة إنّما عدا على رِجليك، وعامرُ[٥] بنَ مالك [إنما لاعب الأسِنّةَ بيديك[٦]، وقيسَ بنَ زُهير] إنما استعان بدَهائك[٧]، وإياسُ[٨] بنَ معاوية إنما استضاء بمصباح ذَكائك، وسَحْبانُ[٩] إنما تكلّم بلسانك،

(١) الأحنف : هو الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصن السعدى، وكنيته : أبو بحر؛ وكان يضرب به المثل فى الحلم والسيادة ؛ وكانت وفاته بالكوفة سنة سبع وستين كما فى وفيات الأعيان والذى فى شذور العقود لابن الجوزى أن وفاته كانت سنة تسع وستين .

(٢) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى، وكنيته أبو سفانة بتشديد الفاء وأبو عدىّ؛ و يضرب به المثل فى الجود. (٣) هو زيد بن مهلهل بن زيدان الطائىّ؛ وكان فارسا مظفرا بعيد الصيت، أدرك الإسلام وأسلم، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير، وكان قبل ذلك يسمى زيد الخيل باللام، و إنما سمى بذلك لكثرة خيله. (٤) السليك : هو ابن عمرو بن يثربىّ، أحد بنى مقاعس؛ والسلكة أمه، وهو جاهلىّ؛ وكان من صعاليك العرب ولصوصهم العدّائين الذين كانوا لا يلحقون ولا تتعلق بهم الخيل .

(٥) هو عامر بن مالك بن جعفر من بنى صعصعة، و يعرف بملاعب الأسنة، و يكنى أبا براء، وأمه أم البنين أنجب امرأة فى العرب، وانما لقب بملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه :

يلاعب أطراف الأسنة عامر * فراح له حظ الكتائب أجمع

(٦) هذه التكملة ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها عن النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة . وقيس بن زهير الذى ذكره : هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسىّ صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين : داحس والغبراء، وكان فارسا شاعرا داهية، يضرب به المثل فيقال : "أدهى من قيس" .

(٧) فى الأصل : «بذهابك» بالذال والباء الموحدتين، وهو تحريف .

(٨) هو إياس بن معاوية بن قرّة المزنىّ؛ ولى قضاء البصرة فى زمن عمر بن عبد العزيز، وهو صاحب الفراسة والأجوبة البديعة، ويضرب به المثل فيقال : « أزكن من إياس » ؛ وتوفى فى سنة احدى وعشرين ومائة وهو ابن ست وتسعين سنة .

(٩) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلى، — وائل باهلة — وكان خطيبا مفصحا، يضرب به المثل فى البيان واللسن، أدرك الإسلام وأسلم، ومات سنة أربع وخمسين .

وعَمرو بنِ الأهتم[1] إنما سَحَر ببيانِك، وأنّ الصلحَ بين بكر وتغلبَ[2] تمّ برسالتِك، والحَمالاتِ[3] فى دماء عَبْس وذُبْيانَ أُسنِدت إلى كَفالتِك، وأنّ احتيالَ هَرِمٍ[4] لعامرٍ وعلقمةَ حتى رضيا كان عن رأيِك، وجوابَه لعمرَ وقد سأله عن أيّهما كان ينفرُ[5] وقع بعد مشُورتِك،

(١) هو عمرو بن سنان الأهتم التميمى المنقرى، وانما لقب أبوه بالأهتم لأنه هتمت ثنيته يوم الكلاب؛ وكان عمرو هـذا من أكابر سادات بنى تميم وشعرائهم وخطبائهم فى الجاهلية والإسلام، وقد وفد على رسـول الله صلى الله عليه وسلم هو والزبرقان بن بدر وأسلما؛ وتوفى عمرو فى سنة سبع وخمسين.

(٢) بكر وتغلب هما ابنى وائل؛ وأشار بهذه العبارة الى ما وقع بين الحيين من الحروب المسماة بحرب البسوس، وقد استمرت أعواما كثيرة الى أن تفانى الحيان، وسـببها قتل جساس بن مرة لكليب كما سبق ذكره، الى أن راسـلهم فى الصلح بينهم الحارث بن عمرو بن معاوية الكندى ملك كنـدة، وهو جدّ امرئ القيس الشاعر، فلكوه عليهم فتلافى بقيتهم.

(٣) الحمالات: جمع حمالة بفتح الحاء، وهى ما يتحمله الرجل عن القوم من دية أو غرامة. وأشار بهذه العبارة الى ما وقع بين عبس وذبيان من الحروب الكثيرة بسبب داحس والغبراء، وهما فرسان: أولهما لقيس ابن زهير من عبس، والثانى لحذيفة بن بدر من ذبيان؛ وذلك أن رجلين تراهنا على أى الفرسين أسبق، فلما سبق داحس وهو فرس قيس بن زهير أخذ قيس سبق فرسـه من حذيفة، ثم وقعت بعد ذلك الحروب التى سلف ذكرها بين الحيين، وكان أعظمها يوم الهباءة، الى أن أصلح بينهم هرم بن سنان والحارث بن عوف وحملا عن القوم المغارم والديات، وأدّيا ذلك للقوم من مالهما.

(٤) هو هرم بن قطبة بن سـيار من بنى فزارة كما فى اللسان مادة «هرم». والذى فى سرح العيون «ابن سنان»؛ وهو تحريف. وكان هرم هـذا حكما من حكام العرب يقضى بين ساداتهـم فلا يرد قضـاؤه. وعامر: هو ابن الطفيل بن مالك. وعلقمة: هو علقمة بن علاثة بن جعفر من بنى عامر بن صعصعة؛ وكان عامر وعلقمة قد تنافرا الى هرم بن سيار ليحكم أيهما أفضل وأكرم حسبا، فكره هرم أن يفضـل أحدهما على الآخر وسوّى بينهما، وخشى العـداوة التى تقع بينهما بسبب تفضـيل أحدهما على الآخر.

(٥) يقال: نافرته الى الحكم فنفرنى عليه، أى حاكمته فغلبنى عليه انظر الأساس؛ وأشار بهذه العبارة الى ما وقع بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهرم بن سيار المتقـدم ذكره، وذلك أن عمر سأله يوما، وقال له: يا أبا عمرو أيهم كنت تنفر؟ — يعنى علقمة وعامرا — ومن كان عنـدك الأفضل منهما؟ فقال هرم: لو قلت الآن فيهما كلمة لعادت جذعة، يعنى الحرب بين الحيين، فأعجب عمر بهذا القول من هرم، وقال: بحق حكمتك العرب.

وأنّ الحجّاج[1] تقلّد ولاية العراق بجدّك، وقُتيبة[2] فتح ماوراء النهر بسعدك، والمهلّب[3] أوهى شوكة الأزارقة بأيدك، وأفسد ذات بينهم بكيدك؛ وأنّ هرمس[4] أعطى بلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون[5] أورد على أرسطوطاليس ما حدّث عنك؛

(١) الحجاج: هو ابن يوسف بن أبي عقيل الثقفي؛ وكانت ولادته في سنة إحدى وأربعين، ونشأ بالطائف؛ وولي العراق من قبل عبد الملك بن مروان رابع خلفاء بني أمية، فأخمد الفتن به، وأوهى شوكة الخوارج هناك؛ وتوفي بواسط سنة خمس وتسعين.

(٢) قتيبة: هو ابن مسلم بن عمرو الباهليّ؛ نشأ في الدولة المروانية وترقى الى أن ولي الإمارات، وفتح الفتوحات الكثيرة؛ وكان واليا على خراسان من قبل عبد الملك بن مروان بعد يزيد بن المهلب، وهو الذي فتح بلاد ما وراء النهر؛ وفي وفيات الأعيان انه توفي سنة ست وتسعين. وما وراء النهر: يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له: بلاد الخياطلة، وفي الاسلام سموه: ما وراء النهر، وما كان في غربيه فهو: خراسان وولاية خوارزم.

(٣) المهلب: هو ابن أبي صفرة الأزدي العتكيّ البصري؛ وقد نشأ في دولة بني أمية، ثم أمره مصعب ابن الزبير على البصرة نيابة عنه في أيام أخيه عبد الله بن الزبير، ثم ولاه عبد الله خراسان؛ وهو الذي قاتل الخوارج وأوهى شوكتهم، وكانت وفاته في زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين. والأزارقة: هم الخوارج القائلون بمذهب نافع بن عبد الله بن الأزرق، فنسبوا اليه.

(٤) هرمس، ذكر ابن نباتة في سرح العيون ص ١٠٨ أن هرمس هو الذي يزعم قوم من الصابئة أنه نبيّ مرسل، وأنه إدريس عليه السلام ويستندون اليه شرائعهم. وبلينوس هو الذي تزعم الصابئة أيضا أن النبوّة له بعد هرمس؛ وكان بلينوس قد أخذ العلوم والأسرار عن هرمس هذا.

(٥) أفلاطون: هو ابن أرسطس، الالهيّ، معروف بالتوحيد والحكمة، تتلمذ لسقراط، وخلفه بعد موته؛ وهو أحد المشائين المشهورين، وهي فرقة ترى مدارسة الحكمة في حالة المشي لرياضة البدن. وأرسطوطاليس: هو ابن نيقوماخوس؛ وهو المعروف بالمعلّم الأوّل، وانما سمي بذلك لأنه أوّل من وضع التعاليم المنطقية، وقد تعلّم الحكمة من أفلاطون وهو الذي علم الإسكندر ابن فيليب.

وبطلميوس[1] سوّى الأُسْطُرلابَ بتدبيرِك، وصوّر الكرةَ على تقديرِك؛ وأُبقراطُ[2] علِمَ العللَ والأمراض بلطف حسّك، وجالينوس[3] عرَفَ طبائعَ الحشائش بدقّةِ نظرِك؛ وكلاهما قلّدك فى العِلاج، وسألك عن المِزاج؛ وآستوصفك تركيبَ الاعضاء، وآستشارك فى الداء والدواء؛ وأنك نَهَجتَ لأبى مَعشَرٍ[5] طريقَ القضاء، وأظهرتَ

(١) بطلميوس: هو صاحب كتاب المجسطى الكبير والجغرافيا والأسطرلاب وغير ذلك، قال جمال الدين بن نباتة فى سرح العيون ص ١١٣ إنه أوّل من شرح القول على هيئات الفلك، وأخرج علم الهندسة من القوة الى الفعل، وأكثر الرواة يقولون: إنه ثالث ملوك اليونان بعد الاسكندر. اهـ وأنكر ذلك القفطىّ فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٩٥ طبع ليبسك وقال ما نصه: وكثير من الناس ممن يدعى المعرفة بأخبار الأمم يخيله أحد البطالسة الذين ملكوا الاسكندرية وغيرها بعد الاسكندر، وذلك غلط بين وخطأ واضح الخ. وأما الأسطرلاب بفتح الهمزة وضم الطاء كما نص على ضبطه ابن خلكان فى ترجمة البديع الاسطرلابى: فقد قالوا: إنه باللغة اليونانية ميزان الشمس، وبه يعرف مقدار الساعات وأخذ الأرصاد ومطالع الكواكب.

(٢) أبقراط: هو سابع الأطباء الثمانية المشهورين الذين أوّلهم أسقنبلينوس وآخرهم جالينوس. قال فى سرح العيون: كان فى زمن بهمن بن اسفنديار وقال القفطى فى كتابه اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٩٠ طبع ليبسك أنه كان فى زمن اردشير من ملوك الفرس جد دارا بن دارا. وهو الذى بث صناعة الطب فى الناس، وعلم الغرباء بعد أن كانت هذه الصناعة مقصورة على طائفة يتوارثونها بالتلقين، ولم يكونوا يكتبون فيها شيئا؛ وهو أوّل من اتخذ البيمارستان، وذلك أنه عمل بالقرب من داره موضعا مفردا للمرضى، وجعل لهم خدما يقومون بمداواتهم، وسماه: إخشيد، أى مجمع المرضى، وكذلك لفظ البيمارستان بالفارسية.

(٣) جالينوس: هو آخر الحكماء المشهورين، ويسمى خاتم الأطباء والمعلمين، وذلك أنه عند ما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها أقوال الأطباء السوفسطائيين ومحيت محاسنها، فانتدب لذلك وأبطل آراءهم وشيد آراء أبقراط واتبعين له ونصرها، وساح وطلب الحشائش، وجرّبها، وقاس أمزجتها وطبائعها، وشرح الأعضاء، ووضع الكتب النفيسة فى هذه الصناعة. (٤) فى سرح العيون: «حدسك».

(٥) أبو معشر: هو جعفر بن محمد بن عمر البلخىّ المنجم المشهور؛ كان فى الأوّل من أصحاب الحديث ببغداد، وكان يشنع على الكندى الفيلسوف بعلوم الفلسفة، ويغرى به العامة، فدس له الكندى من حسن له النظر فى علم الحساب والهندسة، فدخل فى ذلك، ثم عدل الى أحكام النجوم، فمهر فيها، وانقطع شره عن الكندى لأن ذلك من جنس علومه، وكانت وفاته سنة اثنتين وسبعين ومائتين. والمراد بالقضاء هنا: حكم المنجمين بتأثير الكواكب أخذا من قول الشاعر: «يقضون بالأمر عنها وهى غافلة» أى عن النجوم.

جابر بن حيّان[1] على سرّ الكيمياء، وأعطيت النظّام[2] أصلا أدرك به الحقائق، وجعلت للكندىّ[3] رسما استخرج به الدقائق؛ وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار توليدك وابتداعك؛ وأن عبد الحميد[4] بن يحيى بارى أقلامك، وسهل[5] بن

(١) قال فى مرح العيون عند شرحه لهذه العبارة مانصه : « وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة فى كتاب يعتمد عليه، وهذا دليل على قول أكثر الناس : إنه اسم موضوع وضعه المصنفون فى هذا الفن، وزعموا أنه كان فى زمن جعفر الصادق . (٢) النظام : هو ابراهيم بن سيار ابن هانىء البصرى، وكنيته : أبو إسحاق؛ وهو شيخ من كبار المعتزلة وأئمتهم، متقدّم فى العلوم، شديد الغوص على المعانى؛ وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين ومائتين وهو ابن ست وثلاثين سنة، كما فى مرح العيون . وقال الصفدىّ فى كتاب الوافى بالوفيات إنه توفى سنة ثلاثين ومائتين تقريبا .

(٣) الكندى : هو يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس، وكنيته أبو يوسف؛ وكان الكندى متبحرا فى فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية، وهو فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها؛ وكان أبوه إسحاق بن الصباح أميرا على الكوفة للهدى والرشيد، وكان جدّه الأشعث بن قيس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، وللكندى هذا تآليف مشهورة من المصنفات الطوال، ومن الرسائل القصار جملة متعدّدة، قال فى كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣٦٨ طبع لبسك نقلا عن ابن جلجل الأندلسى فى كتابه : يعقوب بن الصباح الكندى كان شريف الأصل بصريا، وكان جدّه ولى الولايات لبنى هاشم، ونزل البصرة، وانتقل الى بغداد، وهنالك تأدّب، وكان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد والهيئة، وله تآليف كثيرة فى فنون من العلم الخ . (٤) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرى، أحد الكتّاب المجيدين الذين اشتهرت بلاغتهم حتى ضرب بها المثل، وكان كاتبا لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد حتى عثر به أصحاب أبى مسلم، فسلموه الى السفاح، فسلمه الى عبد الجبار صاحب شرطته فقتله سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

(٥) هو سهل بن هارون بن راهبون، وكنيته أبو عمرو، من أهل نيسابور، نزل البصرة فنسب اليها، ويقال : إنه كان شعوبيا — والشعوبية : فرقة تبغض العرب، وتتعصب عليها للفرس — وقد انفرد سهل فى زمانه بالبلاغة والحكمة، وصنف الكتب معارضا بها كتب الأوائل حتى قيل له : بزرجمهر الاسلام، وله اليد الطولى فى النظم والنثر؛ وكان فى أوّل أمره خصيصا بالفضل بن سهل، ثم قدّمه الى المأمون، فأعجب ببلاغته وعقله، وجعله كاتبا على خزانة الحكمة، وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص وفى معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٥٩ أنه توفى فى سنة مائتين وخمسة عشر .

هارون مدوِّنُ كلامِك ؛ وعَمرو بنَ[1] بحرٍ مستمليك ، ومالكَ[2] بنَ أنَسٍ مستفتيك ؛ وأنك الذى أقام البراهين ، ووضَعَ القوانين ؛ وحَدَّ الماهيّـة ، وبيَّن الكيفيّـةَ والكَمّيّة ؛ وناظَرَ فى الجوهرِ والعَرَض ، وبيَّن الصحّةَ من المرض ؛ وفكَّ المُعمَّى ، وفصل بين الاسم والمسمَّى ؛ وضَرب وقَسَّم ، وعَدل وقوَّم ؛ وصنَّف الأسماء والأفعال ، وبوَّب الظَّرفَ والحال ؛ وبنَى وأعرب ، ونفَى وتعجَّب ؛ ووَصل وقَطع ، وثنَّى وجَمع ؛ وأظهَرَ وأضمَر ، وٱبتدأ وأخبَر ؛ وٱستفهَم وأهمَل وقيَّـد ، وأرسَل وأسنَد ، وبَحث ونَظر ، وتصفَّحَ الأديان ، ورَجّح بين مذهبي مانى وغَيلان[3] ؛ وأشار بذَبْح الجَعْد[4] ، وقتْلِ بَشار[5]

(١) هو عمرو بن بحر بن محبوب ، ويكنى أبا عثمان ، وهو المعروف بالجاحظ ؛ وهو إمام الفصحاء والمتكلمين ؛ ولد بالبصرة ، ونشأ ببغـداد ، واشتغل على أبى إسحاق النظام بمذهب الاعتزال ، وتأمل كتب الفلاسفة ، ومال الى الطبيعيين منهم ، وساد على المتكلمين بفصاحته وحسن عبارته ؛ وتوفى بالفالج سنة خمس وخمسين ومائتين .

(٢) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر التيمى ، وكنيته أبو عبد الله ؛ إمام دار الهجرة وصاحب كتاب الموطأ . وذكر ابن خلكان فى ترجمته أنه ولد فى سنة خمس وتسعين ، وتوفى سنة تسع وسبعين ومائة .

(٣) مانى : هو الذى تنسب إليه الطائفة المانوية ؛ ظهر فى أيام سابور بن أردشير ، وتبعه خلق كثير من المجوس ، وٱدّعوا له النبوّة ، وكان يزعم أن صانع العالم اثنان : فاعل الخير ، وهو النور ، وفاعل الشر ، وهو الظلمة ؛ وقد قتل مانى فى زمن بهرام بن سابور . وأما غيلان : فهو ابن يونس القدرىّ الدمشقىّ ، كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ؛ وغيلان أوّل من تكلم فى القـدر وخلق القرآن ، وقد قتل غيلان فى زمن هشام ابن عبد الملك .

(٤) الجعد : هو ابن درهم مولى بنى الحكم ، كان يسكن دمشق ، ويعلم مروان بن محمـد آخر خلفاء بنى أمية ، فنسب إليه ، وقيل له : مروان الجعدىّ ؛ وكان الجعـد يقول بخلق القرآن ، ثم طلب فهرب ، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذى نسب إليه الجهمية ، ولم يزل الجعد بن درهم بالكوفة حتى قتله خالد بن عبد الله القسرىّ والى العراق من قبل هشام بن عبد الملك .

(٥) هو بشار بن برد الشاعر المعروف ، من مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية ؛ وكان جدّه من طخارستان من سبى المهلب ؛ وكان بشار يتهم بالزندقة ؛ فأمر المهدىّ أن يضرب بالسياط ضرب التلف ، فضرب حتى مات ، وكانت وفاته سنة ثمان وستين ومائة ، ودفن بالبصرة .

ابنِ بُرْد ؛ وأنك لوشئتَ خرقتَ العادات ، وخالفتَ المعهودات ؛ فأحلتَ البحارَ عذبة، وأعدتَ السِّلامَ[(١)] رَطْبة ؛ ونَقلتَ غدا فصار أمسا، وزدتَ فى العناصر فكانت خَمسا ؛ وأنك المقولُ فيه : "كُلُّ الصيد[(٢)] فى جوف الفَرا"

و : ليس على الله بمستنكرٍ * أن يجمع العالَمَ فى واحدِ[(٣)]

٥ والمعنىُّ بقول أبى تمّام :

فلو صوَّرتَ نفسَك لم تزدها * على ما فيك من كرم الطباعِ

والمرادُ بقول أبى الطيّب :

ذُكِر الأنامُ لنا فكان قصيدةً * كنتَ البديعَ الفردَ من أبياتها

فـ"كَدَمتَ غيرَ مَكْدَم"[(٤)] ونَفختَ فى غير فحم ؛ ولَم تَجِد لُرحٍ مَهزّا، ولا لشَفْرةٍ مَحزّا ؛

١٠ بل رضيتَ من الغنيمة بالإياب ، وتمنّيتَ الرجوع بخُفَّى حُنين، لأنى قلتُ لها : "لقد هان من بالت عليه الثعالبُ"[(٥)]

وأنشَدتُ :

على أنها[(٦)] الأيامُ قد صرن كلُّها * عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ

---

(١) السلام : الحجارة الصلبة ؛ واحده سلمه بفتح السين وكسر اللام .

١٥ (٢) هو مثل يضرب للشيء المربى على غيره . والفرا : حمار الوحش .

(٣) البيت لأبى نواس .

(٤) الكدم : العض بأدنى الفم ؛ والمكدم : موضع العض ؛ وهو مثل يضرب لمن يطلب شيئا فى غير مطلبه . وفى بعض نسخ الرسالة : « كدمت فى غير » .

(٥) فى مجمع الأمثال : « ذل » ؛ يريد : أنه بلغ فى الحقارة غايتها . وهذا عجز بيت لغاوى بن ظالم

٢٠ السلمىّ ؛ وقيل انه للعباس بن مرداس السلمىّ . وصدر البيت : « أرب يبول الثعلبان برأسه » والثعلبان بضم الثاء واللام : ذكر الثعالب . انظر اللسان .

(٦) البيت لأبى تمام .

ونَخَـرتُ[1] وكفرت، وعَبَستُ[2] و بَسَرت، وأبدأتُ وأعدت، [وأبرقتُ وأرعدت][3]
و«هَمَمتُ ولَم أفعل وكدتُ [وليتنى][4]» ولولا [أنّ] لِجوارِ ذمّة، ولِلضيافةِ حُرمة، لكان
ٱلجوابُ فى قَذال الدُّمُسْتُق[5]، ولكنّ النعـلَ حاضرةٌ إن عادت العقرب، والعقـوبة
ممكنةٌ إن أصرّ المذنب، وهَبْها لم تلاحظك بعينٍ كَليلةٍ عن عيوبك، ملؤها حبيبُهـا،
وحَسَنٌ فيها مِن تَوَدّ، وكانت إنمـا حلّتك بحُلاك[6]، ووسمتك بسيماك، ولم تُعرك ٥
شهاده، ولا تكلّفتْ لك زياده، بل صدَقتْك سنَّ بَكرِها[7] فيما ذكرته عنك، ووضعت
الهِنـاءَ[8] مواضعَ ٱلنُّقب فيما نسبته إليـك، ولم تكن (كاذبة فيما أثنت[9] به عليـك)،

(١) النخير: صوت من الأنف أكثر ما يكون عند الغضب، ومنه سمى المنخر.

(٢) بسرت، من البسر، وهو القطوب.

(٣) التكملة عن سرح العيون؛ وتمـام السجع يقتضى إثباتها. ١٠

(٤) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة. يشير إلى بيت ضابئ بن الحارث بن أرطاة البرجمىّ، وهو:

همت ولم أفعل وكدت وليتنى * تركت على عثمان تبـكى حلائله

يريد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه.

(٥) أشار بهذه العبارة إلى بيت أبى الطيب المتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وهو: ١٥

وكنت إذا كاتبته قبـل هذه * كتبت إليه فى قذال الدمستق

يريد أبو الطيب الإشارة بهذا البيت إلى ما وقع بين ملك الروم وسيف الدولة؛ وذلك أن ملك الروم جهز جيشا لمحاربة سيف الدولة وجعل أميره الدمستق، فهزمه سيف الدولة شرهزيمة، وولى الدمستق بجيشه هاربا. والدمستق: لقب عندهم للقدّمين من رجالهم، أو هو اسم رجل منهم.

(٦) فى الأصل: «لحلاك» باللام؛ وما أثبتناه عن نسخ الرسالة. ٢٠

(٧) هو مثل يضرب فى الصدق. والبكر بفتح البـاء: الفتىّ من الإبل، ونص المثل: «صدقنى» بالتذكير.

(٨) الهناء: القطران الذى يطلى به الجرب. وتقال هذه العبارة لمن يضع الأشياء فى مواضعها.

(٩) كذا فى سرح العيون وغيره من النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة. وعبارة الأصل: «ولم يكن أخترثقله» وهو تحريف لا معنى له. ٢٥

فالمُعَيدى[1] تسمع به لا أن تراه ، هَجِينُ[2] القَذال ، أَرعنُ السِّبال ، طويلُ العنق والعِلاوة[3] ، مُفرِطُ الحُمق والغباوة ، جافى الطبع ، سيِّئُ الجابةِ[4] والسَّمع ، بغيضُ الهيئة ، سخيفُ الذّهابِ والجَيئة ، ظاهرُ الوَسواس ، منتِنُ الأنفاس ، كثيرُ المعايب ، مشهورُ المثالب ، كلامُك تَمتَمة ، وحديثُك غَمغَمة ، وبيانُك فَهفَهة ، وضحكُك قَهقَهة ، ومشيُك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعِلمُك مَخرَقة

مَساوٍ[5] لو قُسمن على الغوانى * لما أُمهرن إلا بالطَّلاقِ

حتى إنّ باقلا[6] موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك ، وهبنقة[7] مستحقٌّ لاسم العقل إذا نُسِب منك[8] ، وأبا غَبْشانَ[9] محمودٌ منه سَدادُ الفعل إذا أضيف إليك ،

(١) نصه فى كتب الأمثال : "تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه" ؛ و يضرب لمن خبره خير من مرآه ؛ والمقول فيه هذا هو شقة بن ضمرة بن جابر من بنى نهشل .

(٢) يقال : فلان هجين القذال ، أى أنه إذا أدبر عرف لؤم نسبه من قذاله لما يبدو منه من الإطراق حياء . والهجين اللئيم ، أو هو العربىّ الذى يولد من أمة . والقذال : جماع مؤخر الرأس .

(٣) العلاوة : الرأس ما دام على العنق ؛ و يعدون طول الرأس والعنق من دلائل الحمق .

(٤) كذا فى الأساس للزمخشرى ؛ والذى فى الأصل : "والإجابة" باثبات الهمزة . والجابة والاجابة بمعنى واحد . يشير بهذا الى قولهم : "أساء سمعا فأساء جابة" . (٥) البيت لأبى تمام .

(٦) هو باقل بن عمرو بن ثعلبة الإيادىّ ؛ وفى شرح القاموس أنه من ربيعة ؛ و يضرب به المثل فى العىّ .

(٧) هبنقة : هو يزيد بن ثروان أحد بنى قيس بن ثعلبة ، و يلقب بذى الودعات لأنه جعل فى عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف مع طول لحيته ، فسئل فقال : لئلا أضل ؛ فضرب به المثل فى الحمق .

(٨) كذا فى الأصل ؛ ولم نقف على ما يفيد صحة هذا التعبير فيما راجعناه من كتب اللغة . وفى النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة : « إليك » ولم نثبتها مع صحتها لحصول التكرار بها مع ما يأتى بعدها .

(٩) فى الأصل : « عشان » بإهمال أوله وثانيه ؛ وما أثبتناه عن القاموس مادّة « الغبش » ، قال ما نصه : « وأبو غبشان و يضم : خزاعىّ كان يلى سدانة الكعبة قبل قريش ، فاجتمع مع قصى فى شرب بالطائف ، فأسكره قصى ، ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر ، وأشهد عليه ، ودفعها لابنه عبد الدار ، وطير به إلى مكة ، فأفاق أبو غبشان أندم من الكسعىّ ؛ فضربت به الأمثال فى الحمق والندم وخسارة الصفقة . قال فى شرحه : « وهو المحترش بن حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو .

وطُوَيسا[(١)] مأثورٌ عنه يُمْنُ الطائر إذا قيس عليك؛ فوجودُك عَدَم، والاغتباطُ بك ندم؛ والخيبةُ منك ظَفَر، والجنّةُ معك سقَر؛ كيف رأيتَ لؤمَك لكرمى كِفاء، وضَعتَك لشرفى وَفاء؟ وأنّى جهلتَ أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطيرَ إنّما تقع على أُلّافها؟ وهلّا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعُرت أن نادبى المؤمن والكافر لا يتراءيان، وقلت: الخبيثُ والطيّبُ لا يستويان[(٢)]، وتمثلتَ: ٥

أيها المنكِحُ الثريّا سُهيلا * عَمرَك الله كيف يلتقيان[(٣)]

وذكرتَ أنّى عِلق لا يباع ممن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرضٌ لا يصيبه إلا من أجاد؛ ما أحسَبك إلا كنت قد تهيّأتَ للتهنئة، وترشّحتَ للترفئة؛ أولى لك، لولا أنّ جرحَ العَجْماء[(٤)] جُبار، للقِيتَ ما لقِىَ من الكواعب يَسار[(٥)]؛ فما هَمّ إلا بدون

(١) طويس: هو مولى بنى مخزوم، وكنيته: أبو عبد النعيم؛ كان من المجان الظرفاء، وكان يسكن المدينة، وهو أوّل من غنى بها على الدف بالعربية، وكان يضرب به المثل فى الشؤم، لأنه ولد يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر. وفى القاموس أنه بلغ الحلم يوم قتل عمر، وتزوّج يوم قتل عثمان، وولد له يوم مات علىّ. ١٠

(٢) كذا فى بعض نسخ الرسالة؛ والذى فى الأصل: «لا يجتمعان»؛ وهو مكرر مع ما قبله.

(٣) الشطر الأوّل من هذا البيت ساقط من الأصل، وقد أثبتناه عن سرح العيون، والبيت لعمر بن عبد الله بن أبى ربيعة. والثريا هى بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر. وسهيل، هو ابن عبد العزيز بن مروان. ١٥

(٤) العجماء: البهيمة. والجبار بالضم: الهدر الذى لا قصاص فيه. يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "جرح العجماء جبار".

(٥) يسار: هو عبد أسود، كانت النساء اذا رأينه ضحكن من قبحه، فكان يظن أنهن يضحكن إعجابا منهن به، فدخل على امرأة مولاه يوما وأراد مغازلتها ظانا منه أنها قد أحبته، فقالت له: إن للحرائر طيبا أشمك إياه، فقال: هاتيه، فأتت بطيب وموسى، فأشمته الطيب ثم جدعت أنفه؛ وكان يلقب: «يسار الكواعب». ٢٠

ما هممتَ به ، ولا تَعرّض[1] إلا لأيسر ما تعرّضتَ له ؛ أين آدّعاؤك روايةَ الأشعار ، وتعاطيك حِفظَ السِّيَر والأخبار ؟

بنو دارِمٍ أكفاؤهم آلُ مِسمَعٍ * وتُنكح فى أكفائها الخَبِطاتُ[2]

وهلّا عَشّيتَ[3] ولم تَغترّ ، وما أمّنك[4] أن تكون وافدَ البراجِم ، أو ترجعَ بصحيفة المتلمِّس[5] ، وأفعلَ بك ما فعله عَقيلُ بن عُلّفةَ[6] بالجُهَنِىِّ إذ جاءه خاطبا فدهن آستَه بزيت وأدناه من قَرْيةِ النمل[7] ؟ ومتى كثُر تَلاقِينا ، واتصل تَرائينا ؛ فيدعونى اليك

(١) فى الأصل : «ولا تعرضت» ؛ والتاء زيادة من الناسخ . (٢) البيت للفرزدق .

(٣) يشير بهذه العبارة الى المثل القائل : "عش ولا تغتر" وهو مثل يضرب للاحتياط والأخذ بالثقة .

(٤) فى بعض نسخ الرسالة : « وما أشك أنك تكون » الخ ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

ووافد البراجم : رجل من تميم ؛ والبراجم : خمسة من أولاد حنظلة بن مالك ؛ وقد أشار بهذه العبارة الى قصة عمرو بن هند مع بنى تميم ، وذلك أنه أحرق منهم تسعة وتسعين رجلا لثأر له عندهم ، وكان قد حلف أن يحرق منهم مائة رجل ، فبينا هو يطلب رجلا منهم يتم به المائة ، إذ مرّ رجل يسمى عمارا ، فشم رائحة القتار ، فظن أن الملك اتخذ طعاما ، فعدل اليه ، فقيل له : ممن أنت ؟ فقال : من البراجم ، فألقى فى النار ؛ فضرب به المثل وقيل : " إن الشقىّ وافد البراجم " .

(٥) صحيفة المتلمس : تضرب مثلا لمن يحصل له الضرر من حيث يتوقع النفع . والمتلمس : هو جرير ابن عبد المسيح أحد بنى صعصعة ، شاعر مجيد من شعراء الجاهلية ، وقد وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة ، فحنق عمرو عليهما يوما وأراد قتلهما ، فكتب معهما كتابين الى عامله بالبحرين ، وقال لهما : إنى كتبت لكما بصلة من عاملى بالبحرين ، فاقبضاها منه ، فلما كانا فى بعض الطريق فتح المتلمس صحيفته فاذا الملك يأمر عامله بقتله ، فألقاها فى اليمّ ، ومضى طرفة بكتابه الى عامل البحرين فقتله .

(٦) فى الأصل : « علقمة » وهو تحريف ، والتصويب عن تاج العروس مادة علق بالقاف ؛ وعقيل بن علفة هذا شاعر من شعراء الدولة الأموية ؛ وكان أهوج جافيا شديد الغيرة والعجرفة والبذخ بنسبه ، وكان لا يرى أن له كفئا ، وقد خطب اليه عبد الملك بن مروان إحدى بناته فأبى عليه ، وكان له جارجهنىّ ، فخطب الجهنىّ إحدى بناته ، ففعل به ما ذكره ابن زيدون .

(٧) قرية النمل : مسكنها وبيتها .

ما دعا ابنةَ الخُسّ[1] الى عبـدها مِن طُول السواد ، وقربِ الوِساد ؟ وهـل فقدتُ الأراقمَ[2] فأُنكَح فى جَنْب[2] ، أو عَضَلنى[3] همّام بنُ مرّة فأقول : "زوجٌ من عُود ، خيرٌ من قُعود"؟ ولعمرى لو بلغتُ هذا المبلغ لارتفعتُ عن[4] هـذه الحِطّة ، وما رضيتُ بهـذه الخُطّة ؛ فـ"النارُ ولا العار" و"المنيّةُ ولا الدَّنيّة" والحُرّة تجوع ولا تأكل بثديهـا :

فكيف وفى أبناء قومىَ منكَحٌ * وفتيانِ هَزّانَ[5] الطوالِ الغَرانقة

ما كنتُ لأتخطّى المسـكَ الى الرَّماد ، ولا لأمتطىَ الثَّورَ دون الجواد ؛ فإنمـا يتيمّم من لا يجد ماء ، ويَرعى الهشـيمَ مَن عَدِم الجَميم[6] ، ويَركب الصّعبَ من لا ذَلولَ

(١) ابنة الخس : هى هند بنت الخس الإيادى ، قديمة فى الجاهلية ، وذكروا أنها زنت بعبـدها ، فلامها النـاس فى ذلك ، وقالوا : ما حملك على الزنى ؟ فقالت : قرب الوساد ، وطول السـواد ؛ والسواد : المسارّة .

(٢) الأراقم : حىّ من تغلب . وجنب : حىّ من اليمن ؛ وقد أشار بهـذه العبارة الى قول مهلهل ابن ربيعـة حين هرب من حرب البسوس لما طالت مدتها ، فنزل فى طريقه على حىّ من اليمن ، فخطبوا اليه ابنته وساقوا له مهرها جلودا ، وغصبوه على الزواج فقال :

أعـــزز على تغلب بمـا لقيت * أخت بنى الأكرمين من جشم

أنكحها فقـدها الأراقم من * جنب وكان الحباء من أدم .

(٣) عضل الولىّ المرأة : منعها من النكاح . وزوج من عود الخ : قول إحدى بنات همام بن مرة وكان له أربع بنات ، وكن يخطبن اليه فيأبى أن يزوجهن .

(٤) فى الأصل : « بهذه » ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٥) هزان : بطن من العرب ؛ والغرانقة ، جمع غرنوق وغرنيق ، وهو الشاب الأبيض الجميل . والبيت للأعشى الأكبر . وقد ورد الشطر الأول منه فى تاج العروس هكذا : « فقد كان فى شبان قومك منكح » وذكر أن الأعشى يخاطب به امرأة .

(٦) الجميم : النبات الناهض المنتشر الذى طال ولم يبلغ النهاية .

له ؛ ولعلك[1] إنما غرّك من علمتَ صبوتى اليه ، وشهدتَ مساعفتى له ، مِن أقمارِ العصر ، ورياحينِ المصر ؛ الذين هم الكواكبُ علوًّهمم ، والرياضُ طِيبَ شِيَمَ

من تَلَقَ منهم تقل : لاقيتُ سيّدَهم * مثل النجوم التى يَسرى بها السارى[2]

فَيحِنّ[3] قِدْحٌ ليس منها ؛ ما أنت وهُم ؟ وأين تقع منهم ؟ وهل أنت إلّا واوُ عمرٍو فيهم ، وكالوَشيظة[4] فى العَظْم بينهم ؟ وان كنتَ إنما بلغتَ قعرَ تابوتك[5] ، وتجافيتَ لِقميصك عن بعض قُوتِك ؛ وعَطّرتَ أَرْدانَك ، وجَررتَ هِمْيانَك ؛ واختلتَ فى مشيتِك ، وحذفتَ فُضولَ لحيتِك ؛ وأصلحت شاربَك ، ومَططت حاجبَك ؛ ودققت خَطَّ عِذارِك ، واستأنفت عَقْدَ إزارِك ؛ رجاء الاكتتابِ[6] فيهم ، وطمعا فى الاعتدادِ منهم ؛ فظننتَ عَجزا ، وأخطأت آستُك الحُفرة ؛ والله لو كساك مُحرِّقٌ[7]

(١) فى الأصل : «وهلك» ؛ وهو تحريف . (٢) الشطر الثانى من هذا البيت لم يرد فى الأصل . وقد أثبتناه عن النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة وفى سرح العيون أن هذا البيت من جملة أبيات منسوبة الى رجل اسمه العرندس من بنى بكر بن كلاب يمدح بها بنى بدر الغنويين .

(٣) فى الأصل : "فنحن" ؛ وهو تحريف ؛ يشير بهذه العبارة الى المثل القائل : "حن قدح ليس منها" يضرب لمن يتشبه بالقوم وليس منهم .

(٤) الوشيظة : قطعة عظم تكون زيادة فى العظم الصميم . ويقال : فلان وشيظة فى قومه ، إذا كان دخيلا فيهم وليس منهم . (٥) قال فى سرح العيون فى تفسير هذه العبارة : يعنى لازمت منزلك .

(٦) يريد : رجاء أن تعد فيهم وتكتب منهم .

(٧) محرّق : هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، وهو المعروف بعمرو بن هند ؛ وأشار بهذه العبارة الى ما ذكروا من أن الوفود اجتمعت مرة عند عمرو بن هند ، فأخرج بردين من لباسه وقال : ليقم أعز العرب فليأخذهما ، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فقال له عمرو : أنت أعز العرب قبيلة ؟ فقال : العز كله فى معدّ ، والعدد فى معدّ ، ثم فى نزار ، ثم فى مضر ، ثم فى خندف ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى كعب ، ثم فى بهدلة فمن أنكر هذا فلينافرنى ؛ فسكت الناس ، فقال : هذه عشيرتك كما تزعم ، فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك ؟ فقال : أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، وخال عشرة ؛ ثم أخذ البردين وانصرف (سرح العيون) ؛ وتاج العروس مادة « برد » .

البُردين، وحلّتك ماريةُ[1] بالقرطين، وقلّدك عمرو[2] بالصّمصامة، وحملك الحارثُ[3] على النّعامة؛ ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك؛ ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك؛ وهبك ساميتهم فى ذُرْوة المجد والحسب، وجاريتَهم فى غاية الظرف والأدب؛ ألست تأوى الى بيتٍ قَعيدتُه لَكاع؟ اذ كلُّهم عَزَبٌ خالى الذراع؛ وأين من أنفرد به، ممن لا أُغلِب إلا على الأقلّ الأخسّ منـه؟ وكم بين من يعتمدنى بالقوّة الظاهرة، والشهوةِ الوافرة؛ والنفسِ المصروفةِ الىّ، واللذةِ الموقوفةِ علىّ؛ وبين آخر قد نَزَحتْ بيرُه، ونَضَب غديرُه؛ وذهب نشاطُه، ولم يَبقَ إلا ضُراطُه؛ وهل كان يُجمَع لى فيك إلا الحَشَفُ[4] وسُوءُ الكِيلة. ويقترن علىّ بك إلا الغُدّةُ والموتُ فى بيت سَلُولِيّة[5]؟

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرو * أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرجالِ

(وهذا الشعر لأبى العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو، ويلومه على حرصه، ويتلوه):

هَب الدنيا تصير اليك عفوا * أليس مصيرُ ذاك الى زوالِ

ما كان أحقّك بأن تَقْدِر بذَرْعك، وتَربَعَ على ظَلْعِك؛ ولا تكون براقشُ[6] الدالّةَ

---

(١) مارية: هى ابنة ظالم بن وهب الكندىّ، وزوجة الحارث الأكبر الغسانى أحد ملوك العرب بالشام، وكان فى قرطيها لؤلؤتان كبيرتان يتوارثهما الملوك، وقد وصلتا الى عبد الملك بن مروان، فأهداهما الى ابنه لما زوّجها لعمر بن عبد العزيز، وروى أن مارية أهدتهما الى الكعبة.

(٢) عمرو: هو ابن معد يكرب. والصمصامة: اسم سيفه.

(٣) هو الحارث بن عباد التغلبى. والنعامة اسم فرسه.

(٤) الحشف: اليابس الردىء من التمر. يضرب للشيئين المتجانسين يجتمعان فى شخص؛ ونص المثل: "أحشفا وسوء كيلة".

(٥) أشار بهذه العبارة الى قول عامر بن الطفيل: حين ظهرت فى رقبته الغدّة التى مات بها، وكان فى بيت امرأة سلولية، فقال: أغدّة كغدّة البعير، وموت فى بيت سلولية.

(٦) براقش: اسم كلبة نبحت قوما قصدوا الغارة على قوم فخفى عليهم مكانهم، فلما نبحت عرفوهم فاجتاحوهم فقالت العرب: "أشأم من براقش".

على أهلها[(١)]، وعنزَ السوء المستثيرةَ لحَتْفها؛ فما أراك إلا قد سَقط العشاءُ بك على السِّرحان[(٢)]، وبك لا بظبي أَعْفَر[(٣)]، قد أعذرتُ إن أغنيتُ شيّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيّا؛ وقرعتُ عصا العِتاب، وحَذّرتُ سوءَ العقاب. "إنّ العصا قُرِعتْ لذى الحِلم" "والشيء تحقِره وقد يَنمِي"[(٤)]. فإن بادرتَ بالندامة، ورجعتَ على نفسك بالملامة؛ [كنتَ[(٥)]] قد اشتريتَ العافية لك بالعافية منك؛ وإن قلتَ: "جَعجَعةً ولا طِحْنا" و"رُبّ صَلَفٍ تحت الراعدة"[(٦)] وأنشدتَ:

لا يُؤْيِسنّك من مخبَّأةٍ * قولٌ تُغلّظه وإن جَرَحا

فُعدتَ لما نُهيتَ عنه، وراجعتَ ما استعفَيت منه؛ بعثتُ من يُزعجكَ إلى الخضراء[(٧)] دَفْعًا، ويَستحِثُّكَ نحوها وَكْزًا وصَفْعا؛ فاذا صِرتَ بها[(٨)] عَبِث أكّاروها[(٩)]

(١) يشير بهذه العبارة الى ما ذكروا من أن رجلا وجد عنزا فأراد ذبحها، فلم يجد سكينا، فبينا هو كذلك، إذ بحثت الشاة بظلفها فى الأرض، فاستثارت سكينا فذبحها بها؛ فضربت مثلا لمن يعين على ضرر نفسه. (٢) فى سرح العيون: «سرحان» بدون تعريف، وهو الذئب؛ يشير بهذه العبارة الى المثل القائل "سقط به العشاء على سرحان" يضرب لمن يريد أمرا فيقع على المكروه.

(٣) نص المثل: «به» الخ ويضرب لمشتبة بالرجل؛ يريدون نزل به المكروه ولا نزل بظبي أعفر.

(٤) قال ابن نباتة فى سرح العيون عند شرحه هذين العبارتين: هما مثلان يضربان فى التحذير، منظومان فى قول الحارث بن وعلة اليشكرى وقد قتل بعض سادات قومه أخاه. ثم أورد أبياتا جاء منها:

وزعمت أنا لا حلوم لنا * إن العصا الخ البيت. وبعده:

لا تأمنن قوما ظلمتهم * وبدأتهم بالشر والغشم

ان يأبروا نخلا لغيرهمو * والشيء تحقره الخ البيت

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن سرح العيون.

(٦) جعجعة الخ أى أسمع جعجعة ولا أرى طحنا؛ قال فى سرح العيون فى شرح هذا المثل والذى بعده: هما مثلان يضربان لمن يتوعد ولا يفعل. والجعجعة: صوت الرحى. والطحن: الدقيق. فعل بمعنى مفعول، كذبح وفرق؛ والصلف: قلة البركة والخير. وسحاب صلف: إذا كان قليل الماء، كثير الرعد.

(٧) فى الأصل: «الحضرا» بالحاء المهملة؛ وهو تحريف؛ والخضراء: المزرعة؛ أو لعله اسم ضيعة انظر سرح العيون. (٨) فى سرح العيون: «اليها». (٩) الأكارون: الزراعون.

بك، وتَسلّط نواطيرُها[1] عليك؛ فمن قَرعةٍ معْوجّةٍ تُقوّم فى قفاك، وجُلْةٍ منْتِنة يُرمى بها تحت خُصاك؛ لكى تذوق وبال أمرِك، وترى ميزانَ قدرِك .

فمن جهلتْ نفسُه قدْرَه * رأى غيرُه منه مالا يرى[2].

(١٠٥) وقال أيضا فى رُقْعةٍ خاطب بها ابنَ جَهْوَر — وهى من رسائله المشهورة — أولهـا :

يا مولاى وسـيّدى الذى ودادى له ، واعتـدادى به ، واعتمادى عليـه — أبقاك الله ما ضىَ حدّ العزم ، وارىَ زَنْد الأمل ، ثابتَ عهـدِ النعمة — إن سلبتَنى أعزّك الله لبـاسَ إنعامِك ، وعطّلتَنى من حَلْىِ إيناسِـك ، وغَضَضتَ عنى طَرْفَ حمايتِك ؛ بعـد أن نَظر الأعمى الى تأميلى لك، وسمع الأصمُّ ثنائى[3] عليـك ، وأحسَّ الجمادُ باستنادى اليـك ؛ فلا غَرْوَ قد يَغَصُّ بالمـاء شارِبُه، ويقتُل الدواءُ المستشفىَ به، ويُؤتَى الحَـذِرُ من مأمنِه ، وتكون منيّةُ المتمنِّى فى أمنيّته "والحَـين[4] قد يَسبق جَهْدَ الحَرِيص" وإنّى لأتجلّد، وأُرِى الشامتِين[5] أنّى لا أتضعضع، وأقول :

(١) النواطير : جمع ناطور، وهو حافظ الكرم والنخل .

(٢) البيت للتنبي .

(٣) كذا فى النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة . والذى فى الأصل : «إنشادى» ؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : «والحرص» ؛ وهو تحريف . وهذا عجز بيت لعدى بن زيد ؛ وصدره : «قد يدرك المبطئ من حظه» . انظر تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون للصـفدى ص ٤٠ طبع بغداد ؛ وقد اعتمدنا على هـذا الكتاب فى أكثر شرحنا لما ورد فى هـذه الرسالة من الأبيات والأمثال والأخبار فلا حاجة الى التنبيه عليه بعد هذا فيما ننقله عنه .

(٥) كذا فى الأصل ؛ والذى فى نسخ الرسالة : «أنى لريب الدهر لا أتضعضع» . وهـذا عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلىّ، وصدره : «وتجلدى للشامتين أريهمو» انظر المفضليات .

هـل أنا إلّا يدٌ أدماها سِوارُها، وجبينٌ عضّه[1] إكليلُه، ومشْرَفيٌّ[2] ألصَقه بالأرض صاقلُه، وسَمهريٌّ[3] عرَضه على النار مثقّفُه، وعبدٌ ذهب[4] سيّدُه مَذهبَ الذى يقول :

فقَسا ليَزدجِرُوا ومن يك حازما * فليَقسُ أحيانا على من يَرحَمُ[5]

والعَتْبُ[6] محمودٌ عواقبُه، والنَّبْوَةُ[7] غمرةٌ ثم تنجلى، والنكبةُ "سحابةُ صيف عن قريب تَقشَّعُ"[8] وسيّدى إن أبطأ معذور[9].

فإن يكن الفعلُ الذى ساء واحدا * فأفعالُه اللاتى سَرَرنَ أُلوفُ[10]

فليت شعرى ما الذنب الذى أذنبتُ ولم يسعْه العفو ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل ؟ أو مُسيئا فأين الفضل ؟ وما أرانى إلا لو أُمرتُ بالسجود لآدم فأبَيتُ واستكبرت، وقال لى نوحٌ: "اركب معنا" فقلتُ: "سآوِى إلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى

(١) فى بعض نسخ الرسالة : « عض به » .

(٢) المشرفىّ : نسبة الى المشارف ، وهى قرى باليمن ؛ أو هى من أرض العرب تدنو من الريف تنسب اليها السيوف المشرفية .

(٣) السمهرى : الرمح الصليب العود، و يقال إنه منسوب الى سمهر، وهو رجل كان يقوم الرماح فنسبت اليه . والمثقف : المقوّم .

(٤) فى نسخ الرسالة : "ذهب به سيده" .

(٥) فى الأصل : «له ذخروا» وهو تحريف . والبيت لأبى تمام من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق .

(٦) فى تمام المتون : « هذا العتب » .

(٧) فى تمام المتون : «وهذه النبوة» .

(٨) تقشعت السحابة : أقلعت . وفى كتب الأمثال : "عن قليل" . وهو مثل يضرب لانقضاء الشىء بسرعة .

(٩) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل ؛ والذى فى النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة : «ولن يرينى من سيدى أن أبطأ سحابه ، وتأخر غير ضنين غناؤه» و بعد هاتين العبارتين كلام طويل لم يرد فى الأصل ، فانظره .

(١٠) البيت لأبى الطيب المتنبى من أبيات كتب بها الى أبى العشائر الحسين بن حمدان يعاتبه فى سبب جرى عليه من غلمانه .

مِنَ الْمَـاءِ"وتعاطَيتُ فعقَرت[1]، وأمرتُ ببناء صَرح لعلّى أَطّلعُ إلى إله موسى[1]، وعَكفتُ على العِجل[1]، واعتدَيتُ فى السَّبْت[1]، وشربتُ من النهر الذى ٱبتُلِىَ به جنودُ طالوت[1]، وقُدتُ الفيلَ لأَبْرهةَ[1]، وعاهدتُ قريشا على مافى الصحيفة[2]، وتأوّلتُ فى بَيعة العَقَبة[3]،

(١) يشـير بهذه العبارات الست إلى قصص ورد ذكرها فى الكتاب العزيز : فيشير بالعبـارة الأولى الى قصة ناقة صالح التى ورد ذكرها فى قوله تعالى فى سورة القمر : (إنا مرسلو الناقة فتنة لهم) الى قوله : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) . ويشير بالثانيـة الى قوله تعالى فى سورة القصص حكاية عن فرعون : (وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) الى قوله : (لعلى أطلع الى إله موسى) . ويشير بالثالثة الى قوم موسى حين اتخذوا العجل وفتنوا به وقد وردت هذه القصة فى قوله تعالى فى سورة طه : (قال فإنا قد فتنا قومك من بعـدك وأضلهم السامرى) إلى قوله حكاية عنهم (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينـا موسى) . ويشير بالرابعة الى قصـة بنى اسرائيل واعتدائهم فى السبت ؛ قال تعالى فى سورة البقرة : (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) الآية . ويشير بالخامسة إلى قوله تعالى فى سورة البقرة : (فلما فصل طالوت بالجنود) إلى قوله تعالى : (فشربوا منه إلا قليلا منهم) . ويشير بالسادسة الى قصة أصحاب الفيـل التى ذكرها الله تعالى فى سورة الفيل حين ساروا الى الكعبة وأرادوا هدمها وعلى رأسهم أبرهة ابن الصباح أمير اليمن من قبل النجاشى . انظر تفصيل هذه القصص فى كتب التفسير .

(٢) يشير بهذه العبارة إلى صحيفة قريش التى تعاهد فيها كفارها على بنى هاشم ؛ وذلك أن قريشا لما رأت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا الى الحبشة قد أصابوا فى هجرتهم أمنا ورخاء وعزا ومنعة من النجاشى ملك الحبشة ، ورأت فشو الإسلام فى القبائل واسلام عمر بن الخطاب وغيره من أشرافهم اجتمعوا وتعاهدوا فيما بينهم على ألا ينكحوا من بنى هاشم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم ، ولا يبتاعوا منهم ، وكتبوا ذلك فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توثيقا وتوكيدا ، فانحازت بنو هاشم و بنو المطلب إلى شعب أبى طالب ، وظلوا كذلك سنتين أو ثلاث حتى أجهدهم الضيق ، وكان لا يصل اليهم شىء الا سرا يستخفى به من أراد صلتهم من قريش ، حتى قام فى نقض ما فى الصحيفة نفر منهم اجتمعوا على ذلك . انظر تفصيل القصة فى كتب السيرة .

(٣) أشار بهذه العبارة الى بيعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليـه وسلم بالعقبة التى بين منى ومكة ، ومنها ترمى جمرة العقبة ؛ وهى ثلاث بيعات : بايعه فى الأولى ستة نفر من الأوس ، وبايعه فى البيعة الثانية اثنا عشر ، منهم السـتة الذين بايعوه فى الأولى ، وبايعه فى البيعة الثالثة ، سبعون وامرأتان ، انظر معجم البلدان ج ٣ ص ٦٩٣ طبع جوتنجن . وذكر الصفدى فى تمـام المتون أن الذين بايعوه فى البيعة الثالثـة ثلاثة وتسعون وامرأتان .

ونَفَرتُ الى العِير ببَدْر[١]، وانخذلتُ[٢] بثلث الناس يوم أُحُد، وتخلّفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيظة[٣]، وجئتُ بالإفك على عائشة[٤]، وأبيتُ[٥] من إمارة أُسامة،

(١) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادى الصفراء، بينه و بين الجار — وهو ساحل البحر — ليلة . وأشار بهذه العبارة إلى وقعة بدر الكبرى، وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع أن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام فى عير لقريش عظيمة، فندب الناس إلى الخروج اليها، فسمع أبو سفيان من بعض الركبان باستنفار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس له، فاستأجر رجلا ليذهب إلى مكة فيخبر قريشا بذلك ويستنفرهم إلى أموالهم، فخرج الرجل إلى مكة وأعلمهم الخبر، فتجهز الناس سراعا؛ ثم كانت وقعة بدر التى نصر الله فيها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

(٢) كذا فى نسخ الرسالة التى بين أيدينا . وفى الأصل : «وانجزأت» ولم نقف عليه فيما راجعناه من كتب اللغة . وأحد : جبل أحمر ليس بذى شناخيب — والشناخيب : رءوس الجبال — بينه وبين المدينة قرابة ميل شماليها؛ وعنده كانت وقعة أحد التى قتل فيها كثير من المسلمين، وقتل فيها حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم . وقد أشار ابن زيدون بهذه العبارة إلى انخذال عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين بثلث الناس فى هذا اليوم، وتركه لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه . انظر تفصيل ذلك فى كتب السيرة .

(٣) أشار بهذه العبارة إلى غزوه صلى الله عليه وسلم لبنى قريظة؛ وذلك أنه لما انصرف من غزوة الخندق ووضع المسلمون سلاحهم، أمره الله تعالى بغزو بنى قريظة، فقال لأصحابه : «لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة» وسار ومعه أصحابه، فجاء وقت العصر وهم فى الطريق، فصلاه جماعة منهم حملا لأمره صلى الله عليه وسلم على قصد السرعة، وصلاه الباقون بعد مضى وقتها فى بنى قريظة حملا للأمر على حقيقته، فلم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم احدا منهم على عمله، ثم حاصروا عدوهم خمسة وعشرين يوما حتى نزلوا على حكمه صلى الله عليه وسلم .

(٤) أشار بهذه العبارة إلى حديث الإفك الذى رميت به أم المؤمنين عائشة الصديقية رضى الله تعالى عنها من بعض المنافقين، وقد ذكره الله تعالى فى سورة النور فقال : "إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم" الآية .

(٥) كذا فى الأصل؛ وفى اللسان مادة «أبى» ما يفيد صحة تعدية هذا الفعل بـ«من» حكى ابن سيدة عن الفارسىّ أنه يقال «أبى زيد من شرب الماء» والذى فى نسخ الرسالة «وأنفت» . وأشار بهذه العبارة إلى ما كان قبل وفاته صلى الله عليه وسلم من تأميره أسامة بن زيد بن حارثة على جيش لقتال الروم، وكان فى هذا الجيش كبار المهاجرين الأولين كأبى بكر وعمر وأبى عبيدة، فانتقد جماعة إمرة أسامة على هذا الجيش وفيه أمثال هؤلاء، وهو شاب لم يبلغ سبع عشرة من عمره، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قول هؤلاء، فغضب غضبا شديدا وخرج فقال : أيها الناس فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة، ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طعنتم فى تأميرى أباه من قبله، وايم الله إنه كان لخليقا بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق بها .

وزعمتُ أن خلافة أبى بكر كانت فَلتة (١) * ورَوَّيتُ رمحى من كَتِيبة خالد (٢) * ومَزَّقتُ الأديمَ الذى باركت يدُ الله فيه (٣)، وضحَّيتُ بالأَشْمَط الذى عُنوان السجود به (٤)، وكتبت الى عمرَ بنِ سَعدٍ [أن] جَعْجِعْ (٥) بالحسين، وبَذَلتُ لقَطامِ .

(١) يشير بهذه العبارة الى ما ورد فى كلام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه — وقد بلغه فى آخر حجة حجها أن قوما يقولون : لو مات أمير المؤمنين لنبايعن فلانا ، فخشى عمر أن يكون فى هذا إضعاف لبيعة الناس ، فلما قدم المدينـة خطب فى الناس وجاء فى خطبته قوله : وقد بلغنى أن قائلا يقول لو مات عمر بايعت فلانا ، فلا يغـترن امرؤ منكم أن يقول : كانت بيعة أبى بكر فلتة ؛ وليس فيكم من يقطع الأعناق مثـل أبى بكر ؛ وإنه كان من خبرنا الخ ما أورده الصفدى فى تمام المتون من هذه الخطبة . رواه يونس ابن يزيد عن الزهرى مطولا وزاد فيه : قال عمر فلا يغترن امرؤ منكم أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة فتمت فإنها قد كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها . (٢) هذا صدر بيت لأبى شجرة السلمى ، وتمامه : * وانى لأرجو بعدها أن أعمرا * وسبب هذا الشعر أن خالد بن الوليد رضى الله عنه لما فرغ من قتال بنى حنيفة فى حرب الردة انحدر بمن معه الى بنى سليم ، وسمعت بنو سليم بذلك فاجتمعوا لقتاله ، واستجلبوا من بقى من العرب مرتدا ، وكان الذى يجمعهم أبو شجرة بن عبد العزى المتقدم ؛ فقاتلهم خالد حتى هزمهم ، وكان أبو شجرة هذا قد أصاب فى هذا اليوم من المسلمين ؛ فقال هذا الشعر الذى منه البيت السابق .

(٣) يشير بهذه العبارة الى قول الشاعر فى رثاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

جزى الله خيرا من امام وباركت * يد الله فى ذاك الأديم الممزق .

(٤) يشير بهذه العبارة الى قول حسان بن ثابت يرثى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به * يقطع الليـل تسـبيحا وقرآنا

(٥) جعجع من الجعجعة : وهى الحبس والتضييق . يشـير بهذه العبارة الى قصة قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وذلك أنه لما خرج الحسين رضى الله تعـالى عنه الى الكوفة باشارة من أهلهـا ليبايعوه بالخلافة فى مدة يزيد بن معاوية ندب ابن زياد لقتاله عمر بن سـعد بن أبى وقاص ، فقال الحسين لعمر : إختر منى إحدى ثلاث : إما تركتنى أرجع ، أو سـيرتنى الى يزيد فأضع يدى فى يده فيحكم فى ما يرى ، فإن أبيت فسيرنى الى الترك أقاتلهم حتى أموت ؛ فأرسل عمر بذلك الى ابن زياد ، فهم أن يسيره الى يزيد فقال بعض من حضر : لا أيها الأمير حتى ينزل على حكمك ، فأبى الحسين ذلك ، فكتب عبيدالله بن زياد الى عمر : أن جعجع بالحسين انظر تفصيل ذلك فى كتب التاريخ ؛ وكان قتل الحسين رضى الله تعالى عنه فى سنة إحدى وستين كما فى شذور العقود لابن الجوزى المحفوظ منه فى دار الكتب المصرية نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى تحت رقم ٩٩٤ تاريخ .

ثلاثةَ آلافٍ وعبـدا وقَينةً * وضَرْبَ عليٍّ بالحسام المخذَّمِ (١)

وتَمثّلتُ عند ما بلغنى من وقعة الحَرّة (٢) :

ليت أشياخى ببدرٍ شَهِدوا * جَزَعَ الخزرج مِن وَقْعِ الأَسَلْ (٣)

قد قتلنا القَرْنَ (٤) من أشياخهم * وعدلنـاه ببَـدرٍ فاعتدَلْ (٥)

٥ ورَجمتُ الكعبةَ (٦)، وصَلبتُ العائذَ بها على الثنيّة؛ لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يُسمَّى نكالا، ويدعى ولو على المجزِ عقابا .

وحسْبُك من حادثٍ بامرئٍ * يَرى حاسـديه له راحِمينـا

(١) المخذم : اسم فاعل من خذمه بتشديد الذال أى قطعه . وفى تمام المتون : «المسمم»، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . وقائل هذا البيت عبد الرحمن بن ملجم قاتل على كرم الله وجهه . وقطام التى ١٠ أرادها : امرأة بالكوفة كانت جميلة رائقة، وأراد ابن ملجم التزوج منها، فشرطت عليه أن يكون صداقها ثلاثة آلاف وعبدا وجارية وقتل على بن أبى طالب، فقبل ذلك ابن ملجم وقال الشعر الذى منه هذا البيت، وبعـده :

فلا مهر أغلى من علىّ وإن غلا * ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم .

(٢) أراد حرة واقم، إحدى حرتى المدينة، وهى الشرقية، وبها كانت وقعة الحرة المشهورة فى سنة ١٥ ثلاث وستين؛ وذلك أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية وطردوا عامله، وحاصروا بنى أمية بالمدينة، فبعث اليهم يزيد بالجنود بقيادة مسلم بن عقبة . فقتل رجالهم، واستباح أموالهم وأعراضهم، ثم أخذ البيعة منهـم ليزيد .

(٣) الأسل : الرماح . وقائل هذا الشعر عبد الله بن الزبعرى .

(٤) القرن من القوم : سيدهم .

٢٠ (٥) عدلناه ببدر فاعتدل، أى قومناه به واستقام انظر تاج العروس مادة « عدل » .

(٦) أشار بهـذه العبارة والتى بعدها الى ما صنعه الحجاج بعبد الله بن الزبير وأصحابه؛ وذلك أنه فى سنة أربع وستين بويع ابن الزبير بالخلافة وانتظم فى بيعته الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان، فضاق بذلك عبدالملك بن مروان فندب الحجاج بن يوسف لقتاله، فسار اليه بمكة، ونصب المجانيق على أبى قبيس، وظل الحصار ستة أشهر وسبعة عشر ليلة، وقتل عبـدالله بن الزبير فى هذه الوقعة بحجر من هـذه المجانيق ٢٥ وكان قتله فى سنة ثلاث وسبعين ثم صلبه الحجاج بعد قتله على الثنية، وظل مصلوبا سنة كاملة ثم أنزله .

فكيف ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أهداها كاشح، ونبأٌ جاء به فاسق؛ والله ما غَشَشْتُك بعد النصيحة، ولا انحرفتُ عنك بعد الصاغية(١)، ولا نَصَبتُ(٢) لك بَعد التشيّع فيك، ففيم عَبِث الجفاءُ بأذمّتي، وعاثَ في مودّتي(٣)؟ وأنّى غلبني المغلَّب، وتَخَرّ عليّ الضعيف(٤)، ولَطَمتْني غيرُ ذات سوار(٥)؟ ومالك لم تَمنعْ مني قبل أن أُفترَس، وتُدركْني ولمّا أُمزَّق(٦)، [أم كيف لا تَتضرّم(٧) جوانح الأكفاء حسدا لي على الخصوص بك، وتَتقطّعُ أنفاسُ ٥

(١) قال الصـــفدى فى تمـام المتون ص ١٨٣ ما نصه : والصاغية كأنها مصدر صغى يصغو صغوا وصاغية . ولم نقف على هذا المصدر فيما راجعناه من كتب اللغة . والمراد بالصاغية هنا : الميل .

(٢) نصب له : عاداه . وأشار بهذه العبارة الى فرقة الناصبة : وهم المنحرفون عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، وإلى الشيعة، وهم المنتمون اليه .

(٣) كذا فى الأصل . وعبارة نسخ الرسالة : «وعاث العقوق فى مواتى» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . والموات بتشديد التاء : جمع ماتة : وهى الحرمة والوسيلة . ١٠

(٤) عبارة نسخ الرسالة : "وتخر على العاجز الضعيف" . وأشار بهذه العبارة والتى قبلها الى بيت امرئ القيس، وهو :

وإنك لم يفخر عليـــك كفاخر * ضعيف ولم يغلبك مثـــل مغلب

يريد أن أشدّ ما على الانسان أن يفخر عليه ضعيف ويغلبه مغلوب . ١٥

(٥) يشير بهذه العبارة الى المثل القائل : "لو ذات سوار لطمتنى" ويعنون بذات السوار، الحرّة، لأن العرب كانت قلما تلبس الإماء السوار؛ ويروى : «لو غير ذات سوار» . ويريد ابن زيدون بهذه العبارة : لو أنى أهنت ممن هو كفء لى فى الشرف والمنزلة لهان علىّ، ولكن سعى بى من هو دونى، ونال منى من لا يناظرنى فى شرف ولا منزلة .

(٦) يشير بهذا إلى قول الشاعر : ٢٠

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل * وإلا فأدركنى ولما امزق

وقد تمثل به عثمان بن عفـان رضى الله عنه يوم الدار فى كتاب بعث به الى على بن أبى طالب يستنجده على من حاصره .

(٧) هاتان العبارتان لم تردا فى الأصل؛ وقد نقلناهما عن نسخ الرسالة .

النُّظَراءِ منافَسةً فى الكرامة عليك] وقد زانني آسمُ خِدمتِك، [وزهانى وَسْمُ نعمتِك](١) وأَبلَيتُ [البلاء](٢) الجميل فى سِماطِك(٣)، وقمتُ المَقام المحمودَ على بِساطِك.

أَلستُ المُوالى فيــك نَظمَ قصائدٍ * هى الأنجُمُ اقتادت مع الليل أنجُما(٤)

وهل لَبِس الصــباحُ إلا بُردا طرّزتُه بمَحامِدِك، وتَقلّدتْ الجَوزاءُ إلا عقــدا فصّلتُه بمآثرِك، وبَثَّ المسكُ إلا حديثا أذعتُه(٥) بمَفاخرِك؛ "ما يومُ حَليمةَ(٦) بسِرّ" وحاشَ لله أن أُعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكونَ كالذُّبالة المنصوبة تُضىء للناس وهى تحترِق.

وفى فصــل منه: ولَعَمرى ما جهلتُ [أن](٧) الرأىَ فى أن أتحوّلَ إذا بلغتْنى الشــمسُ، ونبا بى المنزل، وأُضرِبَ عن المطامع التى تَقطع أعناقَ الرجال، ولا أَستَوطِئ العجْزَ فيُضرَب بى المَثَل: "خامِرى(٨) أمَّ عامر" وإنى مع المعرفة بأن الجَلَاء

(١) لم ترد هذه العبارة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن نسخ الرسالة.

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن نسخ الرسالة.

(٣) فى الأصل: «من» والسياق يقتضى ما أثبتنا كما فى نسخ الرسالة. والسماط: الصف.

(٤) البيت للبحترى من قصيدة يعاتب فيها الفتح بن خاقان.

(٥) كذا فى النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة. والذى فى الأصل: «أضعته» بالضاد المعجمة، وهو تحريف.

(٦) هو مثل يضرب لكل أمر متعارف مشهور، ويضرب أيضا للشريف النابه الذكر؛ والمراد هنا الأول، وحليمة: هى بنت الحارث بن أبى شمر؛ وكان أبوها قد وجه جيشا الى المنذر بن ماء السماء، فأخرجت لهم طيبا من مركن فطيبتهم؛ وهذا اليوم من أشهر أيام العرب.

(٧) كذا فى الذخيرة لابن بسام المحفوظ منها بعض أجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٧ أدب؛ والذى فى الأصل: «ما جهلت الرأى» بدون «أن». ويشير بهذه العبارة إلى قول أبى تمام من قصيدة وجه بها إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم:

وإن صريح الرأى والحزم لامرئ * إذا بلغته الشمس أن يتحولا

(٨) أم عامر: كنية الضبع، ويقال لها: أم عمرو أيضا. وهذا المثل يضرب لمن عرف الدنيا فى نقضها عقود الأمور بإيراد البلاء عقيب الرخاء، ثم يسكن اليها مع ما علم من عاداتها، كما تغتر الضبع بقول القائل: "خامرى أم عامر" وهى عبارة يقولها من أراد أن يصيدها لتطمئن اليه؛ ومعناها: استترى والجئى الى أقصى مغارك.

سِباءٌ[1]، والنُّقلةَ مُثْلَةٌ، لَعارفٌ أن الأدبَ الوطنُ الذى لا يُخشَى[2] فراقُه، والخَليطُ الذى لا يُتوقَّع زوالُه[3]؛ والنَّسبُ[4] الذى لا يُخفَى، [والجمالُ [الذى] لا يَخفَى؛ ثم ما قِرانُ السَّعدِ للكواكب أبهى أثَرا، ولا أسنَى خَطَرا، مِن اقترانِ غِنى النفسِ به، وانتظامِها نَسَقا معه؛ فإنّ الحائزَ لهما، الضاربَ بسهمٍ فيهما — وقَليلٌ مَا هُمْ[5] —] أينما توجَّه وَرَد مَنهَلَ بِرّ، وحطَّ[6] فى جَناب قَبول، وضُوحكَ قَبل إنزالِ رَحْلِه[7]، وأُعطِىَ حُكمَ الصبىِّ على أهلِه

وقيل له : أهلا وسهلا ومرحبا * فهـذا مَبيتٌ صالحٌ وصديقُ

غيرَ أنّ المَوطنَ محبوب، والمَنشَأَ مألوف؛ واللبيبُ يَحِنّ إلى وطنه، [حنينَ النجيبِ[8] إلى عَطَنِه]؛ والكريمُ لا يجفو أرضا فيها قوابلُه، ولا يَنسى بلدا فيه مَراضعُه؛ وأنشد قولَ الأوّل :

أَحَبُّ بلادِ الله ما بين مَنْعِجٍ[9] * إلىّ وسَلْمَى[9] أن يصُوب سحابُها

(١) الجلاء : الخروج عن الموطن . والسباء : الأسر .

(٢) فى الأصل : «لا يجتنى» وهو تحريف، والتصويب عن نسخ الرسالة .

(٣) فى تمام المتون : «زياله» والزيال بكسر أوله : الفراق .

(٤) فى بعض النسخ : «والنسيب» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٥) لم ترد هـذه التكملة فى الأصل ولا فى الذخيرة لابن بسام؛ وقد أثبتناها عن بعض نسخ الرسالة .

(٦) كذا فى نسخ الرسالة؛ والذى فى الأصل : «وحق» بالقاف .

(٧) يشير بهذا إلى قول عمرو بن الأهتم، وقيل حاتم الطائى :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله * ويخصب عندى والزمان جديب

(٨) لم ترد هذه العبارة فى الأصل، وقد أثبتناها عن نسخ الرسالة .

(٩) منعج : هو واد يأخذ بين حفر أبى موسى والنباج؛ ويدفع فى بطن فلج . (يا قوت) وسلمى : جبـل لطىء شرقىّ المدينـة، وغربيه واد يقال له : « رك » به نخل وآبار مطوية بالصخر، وبحافتيه جبلان أحمران، وأعلاه برقة انظر تاج العروس مادة « سلم » .

بلادٌ بها عَقَّ الشَّبابُ تمائمى (١) * وأوّلُ أرضٍ مَسّ جِلدى ترابُها

هـذا إلى مُغالاتى فى تعلّقِ جِوارِك (٢)، ومنافَستى فى الحظّ من قُربك، وٱعتقادى أنّ الطمعَ فى غيرك طَبع (٣)، والغِنى من سواك عَناء، والبدَلَ منك أعوَر (٤)، والعِوضَ لَفاء (٥).

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى * ضنًّا به نظـرى إلى الأمراءِ (٦)

٥ "كلُّ الصَّيدِ فى جوف الفَرا" و"فى كلِّ شجرٍ نار، وٱستَمجَد المَرْخُ (٧) والعَفار"؛ فما هذه البراءةُ ممن تولّاك، والمَيلُ عمّن يميل إليك؟ وهلّا كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاه لك؟

---

(١) كذا فى الأصل والذخيرة لابن بسام وغيرهما من نسخ الرسالة؛ ورواه ياقوت فى معجمه: «حل»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين. وذكر ياقوت ان هاتين البيتين لبعض الأعراب ولم يعينه.

١٠ (٢) فى بعض نسخ الرسالة «إلى مغالاتى بعقد» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين؛ والمغالاة فى الشىء: إغلاؤه.

(٣) الطبع: الدنس.

(٤) ذكر الصفدى فى تمام المتون ان أصل هـذه العبارة أن يزيد بن المهلب لما صرف عن ولاية خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلىّ وكان شحيحا وشيخا أعور، قال الناس: هذا بدل أعور. وفى الأصل:

١٥ «اعواز»؛ وهو تحريف.

(٥) فى الأصل: «لقاء» بالقاف المثناة، وهو تصحيف. واللفاء بالفاء الموحدة: التراب أو الشىء القليل، أو هو ما دون الحق.

(٦) ذكر الصفدىّ أن هذا البيت لعدىّ بن الرقاع.

(٧) المرخ: من العضاه، وهو ينفرش ويطول فى السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك،

٢٠ ومنه يكون الزناد الذى يقتدح به؛ والواحد مرخة. والعفار: شجرة تشبه شجرة الغبيراء الصغيرة، ونورها كنورها، وهو شجر خوار، ولذلك جاد للزناد، والعـرب تضرب بالمرخ والعفار المثـل فى الشرف وعلو المنزلة، فيقولون: «فى كل شجر نار، وٱستمجد المرخ والعفار». وفى القاموس مادة «مجد» ان معنى قولهم: «استمجد المرخ والعفار» ٱستكثرا من النار.

يا من يَعِزّ علينا أن نفارقَهـم * وِجدانُنا كلَّ شيءٍ بَعدكم عَدَمُ (١)

أُعيذُك ونفسى من أن أَشِيمَ (٢) خُلّبا ، وأَستمطِرَ (٣) جَهاما ، وأَكدُمَ غيرَ مَكْدَم ، وأشكوَ شكوى الجريح إلى العِقبان والرَّخَم ؛ وإنما أَبسستُ (٤) لك لتَدِرّ ، وحرّكتُ (٥) لك الحُوارَ لتَحِنّ ؛ وسَرَيتُ (٦) لك ليُحمَد المَسْرَى (٧) إليك ؛ بَعد اليقين من أنك إن شئتَ عَقْدَ أمرى تَيسّر ، ومتى أَعذَرتَ فى فكِّ أَسْرِى (٨) لَم يَتعـذّر ؛ وعِلمُك يُحيط بأنّ المعـروفَ ثمرةُ النعمة ، والشفاعةَ زَكاةُ المروءة ، وفَضْلَ الجاه تَعُود به صَدَقَةٌ .

وإذا امرؤٌ (٩) أَسْدَى إليك صَنيعةً * مِن جاهِه فكأنّهـا مِن مالِه

لعلّى أُلقِى العصا بذَراك (١٠) ، وتَستقِرُّ بِىَ النوى فى ظلّك ، فتسـتَلذّ جنَى شكرى مِن غَرْسِ عارفتِك ، وتَستطِيبَ عَرْفَ ثنائى مِن رَوضِ صَنيعتِك ؛ وأستأنفَ التأدّبَ

(١) فى الأصـل : « يا من لا يعز » و « لا » زيادة من الناسخ يختل بها الوزن والمعنى ؛ وهذا البيت لأبى الطيب المتنبى .

(٢) فى الأصل : « ممن » ؛ وهو تحريف .

(٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(٤) الإبساس : ان يقال للناقة عند حلبها : بس بس بضم الباء وتشديد السين تسكينا لها . والمراد بهذه العبارة والتى بعدها انه قد إستعطفه بالكلام ولاينه فى الخطاب ليعطف عليه و يلين له .

(٥) يشير بهـذه العبارة الى قولهم فى المثـل : " حرك لها حوارها تحن " والحوار : ولد النـاقة ، ولا يزال حوارا حتى يفصل ؛ و يضرب هذا المثل فى تذكيرك المرء بعض أشجانه ليهتاج .

(٦) كذا فى تمـام المتون ؛ والذى فى الأصل : « اليك » ولم نثبتها مع صحتها لحصول التكرار بها مع ما بعـــدها .

(٧) يشير بهذه العبـارة الى قولهم : " عند الصباح يحمد القوم السرى " وهو مثـل يضرب للرجل يحتمل المشقة لأجل الراحة .

(٨) فى الأصل : « أمرى » بالميم ؛ وهو تحريف .

(٩) البيت لأبى تمـام من قصيدة كتب بها الى إسحاق بن ربعى كاتب أبى دلف .

(١٠) بذراك : أى بظلك ؛ يقال : فلان فى ذرا فلان أى فى كنفه وظله .

بأدبك[1]، والاحتمال على مذهبك؛ فلا أوجد للحاسد مجال لحظة، ولا أدع للقادح مساغ لفظة؛ والله ميسرك[2] من إطلابى هذه الطلبة[3]، وإشكائى[4] من هذه الشكوى لصنيعة تصيب بها طريق المصنع، ويد تستودعها أحفظ مستودع؛ حسبما أنت خليق له، وأنا منك حرى به؛ فذلك بيده، وهين[5] عليه. وشفعها بأبيات فقال:

الهوى فى طلوع تلك النجوم * والمنى فى هبوب ذاك النسيم

سرنا عيشنا الرقيق الحواشى * لو يدوم السرور للمستديم

وطر ما انقضى إلى أن تقضى * زمن ما ذمامه بالذميم

زار مستخفيا وهيهات أن يخـ * ـتفى البدر فى الظلام البهيم

فوشى الحلى إذ مشى وهفا الطيـ * ـب إلى حيث كاشح بالنميم

أيها المؤذنى بظلم الليالى * ليس يومى بواحد[6] من ظلوم

(١) كذا فى بعض نسخ الرسالة. وفى الأصل: «التأدب بك».

(٢) فى الأصل: «مسيرك» بتقديم السين على الياء؛ وما أثبتناه هو المناسب لقوله فيما يأتى: «لصنيعة».

(٣) الإطلاب: مصدر أطلبه إذا أعطاه ما يطلب؛ يقال طلبت منه كذا فأطلبنى إياه، أى أسعفنى بقضائه. والطلبة بكسر اللام: الحاجة. وعبارة الأصل: «من هذه الطلبة»؛ وقوله: «من» زيادة من الناسخ؛ فإن «أطلب» من الأفعال التى تتعدى بنفسها؛ ولم نقف على تعديته بالحرف انظر اللسان وغيره من كتب اللغة.

(٤) الإشكاء: مصدر أشكيته اذا أزلت شكايته.

(٥) فى الأصل: «وجرى»؛ والتصويب عن الذخيرة لابن بسام المحفوظ منها بعض أجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٧ أدب.

(٦) فى الأصل: «بواجد» بالجيم المعجمة؛ وهو تحريف؛ يريد أن اليوم الذى أوذى فيه ونكب ليس هو الوحيد من دهر ظلوم.

ما ترى البدرَ إن تأملتَ والشمـ * ـسَ هما[1] يكتفان دون النجومِ

وهـو الدهرُ ليس ينفكُّ ينحـو * بالمُصاب العظيمِ نحو العظيمِ

بوّأ الله جَهْـوَرا أشرفَ السُّؤ * دُدِ[2] فى السِّرِّ واللّبابِ الصميمِ

واحدٌ سَلّمَ الجميعُ له الفضـ * ـلَ وكان الخصوصُ وَفْقَ العمومِ

قَلّدَ الغُمْرُ[3] ذا التجاربِ[3] فيه * واكتفى جاهلٌ بعلمِ عليمِ ٥

(١٠٧)

ومنها فى ذكر اعتقاله :

سَقَمٌ لا أُعاد منه وفى العـ * ـائدِ أُنسٌ يفى ببُرء السقيمِ

نارُ بغيٍ سَرتْ إلى جَنّة الأر * ض بَياتا فأصبحت كالصريمِ

بأبى أنت إن[4] تشأْتَكُ بَردًا * وسلامًا كنار إبراهيمِ

للشفيعِ الثناء[5]، والحمدُ فى صَو * بِ الحيا للرياحِ لا للغُيومِ ١٠

ثم قال : هاكها أعزّك الله يبسُطها الأمل، ويَقبِضها الخجَل؛ لها ذنْبُ التقصير، وحرمةُ الإخلاص، فهَبْ ذنْبا لحُرمة، واشفَعْ نعمةً بنعمة؛ لتأتىَ الإحسانَ من جهاته، وتسلُكَ الفضلَ من طرقاته؛ إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « كما » وهو تحريف .

(٢) الغمر بفتح أوّله وضمه : الجاهل الذى لم يجرب الأمور. ١٥

(٣) فى الأصل : « والتجارب » ؛ والتصويب عن بعض نسخ الرسالة إذ به يستقيم المعنى .

(٤) فى الأصل : « نشابك » ؛ وفى نسخ الرسالة : « أن لشانك » ؛ وكلاهما تحريف لا يظهر له معنى ؛ ولم يرد هذا البيت فى الذخيرة ضمن هذه القصيدة .

(٥) فى الأصل : « العنى » وهو تحريف، والتصويب عن بعض نسخ الرسالة .

ومن كلام أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال من جواب لابن بسّام — وكان قد كتب إليه يسأله إنفاذَ بعض رسائله ليضمّنها كتابَه الذى ترجمه بالذخيرة، فكتب :

وَصل من السيّد المسترِق ، والمالك المستحقّ — وَصَل الله أنعُمَه لديه ، كما قَصر الفضلَ عليه — كتابُه البليغ، وآستدراجُه المريغ(١)؛ فلولا أن يَصْلِدَ(٢) زندُ آقتداحه ، ويُرَدَّ طرفُ افتتاحه؛ وتُقبَضَ يدُ آنبساطه ، وتُغبَنَ صفقةُ آغتباطه؛ للزمتُ معه قدْرى ،وضَنّ بسرّه صدرى؛ لكنه بنَفْثة سِحرِه يَستنزِل العُصَمَ فتُجْنَب(٣)، ويقتادُ الصّعبَ فيُصْحب، ويَستدِرُّ الصخورَ فتُحْلَب؛ ولما جاءنى كتاب آبتداه، وَقَرَعَ سمعى نداه؛ فزِعتُ(٤) إلى الفِكَر، وخفَقَ القلبُ بين الأمن والحَذَر؛ فطاردتُ من الفقَر أوابدَ قَفْر، وشواردَ عُفْر، تُغْبِرُ(٥) فى وجه سائقها، ولا يتوجّه اللّحاق إلى وَجيهها ولاحقِها(٦)؛ فعلمت أنها الإهابةُ والمَهابة، والإجابةُ والآسترابة؛ حتى أيأستْنى الخواطر،

(١) فى الأصل : "المريع" بالعين المهملة؛ وهو تحريف؛ والمريغ : المخادع .

(٢) صلد الزند يصلد بكسر اللام : صوت ولم يخرج نارا .

(٣) العصم : جمع أعصم، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض؛ يقال : هو يستنزل العصم بلفظه، أى يذلل الصعاب بسحر منطقه وحسن حديثه . وتجنب : أى تنقاد؛ يقال : جنبت الفرس اذا قدته الى جنبك فهو جنيب ومجنوب .

(٤) فى كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : «فرغت» بالغين المعجمة والراء؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٥) كذا فى كتاب المعجب ص ١٢٥ طبع ليدن . وتغبر من الاغبار، وهو إثارة الغبار . وفى الأصل : «تعز»؛ وفيه نقص وتصحيف .

(٦) الوجيه ولاحق : اسما فرسين نجيبين من خيل العرب؛ ونقل صاحب تاج العروس عن ابن الكلبيّ مادة «وجه» أنهما كانا لغنىّ بن أعصر .

وأخلفتْنى المَواطر، إلا زبرجا[1] يَعقُب جوادا، وبَهرَجا لا يَحتمِل انتقـادا؛ [وأنى لِمثلى والقريحةُ مُرْجاة[2]] والبضاعة مُزْجاة؛ ببراعة الخطاب، وبراعة الكتّاب، ولولا دروسُ مَعالِم البيان، واستيلاءُ العَفاء على هـذا اللسان؛ ما فاز لِمثلى فيه قِدْح، ولا تحصّـل لى فى سوقه رِبْح؛ ولكنه جوٌّ خال، ومِضمارُ جُهّال؛ وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة، عن هذه التُّحَف الأخيرة؛ وأرى أنها قد بلغت مَداها، واستوفت حُلاها؛ وإنمـا أخشى القدْحَ فى اختيارِك، والإخلالَ[3] بمختارِك؛ وعذرا اليـك — أيدك الله — فإنى خطّطتُ والنومُ مغـازِل، والقُرُّ نازل؛ والريحُ تلعب بالسراج، وتصول عليه صَولةَ الحَجّاج.

ثم أخذ فى وصف السراج كما ذكرناه فى الباب الرابع من القسم الثانى من الفن الأول فى السِّفر الأول من هذا الكتاب.

ومن كلام الوزير الفقيه أبى القاسم محمد بن عبد الله بن الجَـدّ[4]، من رسالة خاطب بها ذا الوزارتين أبا بكر المعـروفَ بابن القَصِـيرة — وقد قربت بينهما المسافةُ ولم يتفق اجتماعُهما — :

لم أزل — أعزك الله — استنزل قربَك براحة الوهم، عن ساحة النجم؛ وأنصِب لك شَرَكَ المنى، فى خُلَس الكرى[5]، وأعلِّل فيـه نفْسَ الأمل، بضرب سابقِ المَثل :

(١) المراد بالزبرج هنا : السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه.

(٢) لم ترد هذه العبارة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن كتاب المعجب ص ١٢٥ طبع ليدن. ومرجاة: من الإرجاء، وهو التأخير.

(٣) كذا فى المعجب؛ والذى فى الأصل : «والاختلا»؛ وهو تحريف.

(٤) كذا ضبط هذا الاسم بالقلم فى المعجب ص ١٢٤ طبع ليدن.

(٥) فى الأصل : «الكرم»؛ وهو تحريف.

ما أقدرَ اللهَ أن يُدنى على شَحَطٍ * مَن دارُه الحَزْنُ[1] ممن دارُه صُولُ[1]

فما ظنُّك به وقد نزل على مسافة يوم [وطالما نفر عن حِبالة نوم][2] ، ودنا حتى هَمّ بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام، وناهيك[3] من ظمئى وقد حُمتُ حول المَورد الخَصِر، وذَمَمتُ الرِّشاءَ[4] بالقِصَر، ووقف بى ناهضُ القَدَر، وقفةَ العَيْر بين الوِرْد والصَّدَر؛ فهلّا وُصِل ذلك الأملُ بباع، وسمح الزمنُ باجتماع؛ وطُوِيَت بيننا رقعةُ الأميال، كما زُوِيَت مراحلُ[5] أيّامٍ وليال؛ وما كان على الأيّام لو غفلتْ قليلا، حتى أَشفىَ بلقائك غليلا، وأَتنسّم من رَوح مشاهدتك نفَسا بَليلا؛ ولئن أقعدَتْنى بعوائقها عن لقاءِ حُرّ، وقضاءِ بِرّ؛ وسَفَرٍ قريب، وظفَرٍ غريب؛ فما تَحيّفَتْ[6] ودادى، ولا ارتَشفَتْ مِدادى؛ ولا غاضت كلامى، ولا أَحْفتْ[7] أقلامى؛ وحسبى بلسان النُّبْلِ[8] رسولا، وكفى بوصوله أملا وسُولا؛ ففى الكتاب بُلْغةُ الوَطَر، ويُستَدلّ على العين بالأثَر؛ على أنى إنما وحَيتُ[9] وَحْىَ المُشير باليسير، وأَحلتُ فهمَك على المسطور فى الضمير؛ وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف، أو لَمحةِ طَرْف؛ وصلتَ صديقا، وبَلّلتَ رِيقا؛ وأَسدَيتَ يدا، وشَفَيتَ صدى؛ لا زالت أياديك بيضا، وجاهُك عريضا؛ ولياليك أسحارا، ومساعيك أنوارا .

(١) الحزن : بلاد بنى يربوع، وهى أطيب البادية مرعى . وصول : مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب . (٢) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن الذخيرة ليتم بها السجع الذى التزمه الكاتب فيما أثبت هنا من رسالته . (٣) يقال : ناهيك من كذا بمعنى حسبك، أى أنه غاية تنهاك عن طلب غيره . (٤) الرشاء : الحبل؛ يريد بهذه العبارة تشبيه حاله فى المقاربة وعدم استطاعة اللقاء بحبل الدلو الذى يقارب الماء ولا يصل اليه لقصره . (٥) عبارة الأصل : «على رويت مراحم» وهو تحريف . (٦) يقال : تحيفت الشىء، أى تنقصته من نواحيه .
(٧) فى الأصل : « اقدامى » بالدال؛ وهو تحريف . (٨) يريد بلسان النبل، كتابه اليه .
(٩) الوحى : الكتابة أو الإشارة .

ومن كلام أبي عبـد الله محمـد بن الخيّـاط من رُقعةٍ طويلةٍ الى الحاجب المظفّرِ، أوّلهـا :

حجَب الله عن الحاجب المظفّرِ أعينَ النائبات، وقَبض دونه أيدىَ الحادثات.

وجاء منها : وَرَد له كتابٌ كريمٌ جعلتُـه عِوضَ يدِه البيضاءِ فَقبّلتُه، ولمحتُه بدل غُرّتِه الغرّاءِ فأجللتُه ؛ كتاب ألقَى عليه الحِبْرُ(١) حِبَرَه، وأهدَى اليه السحرُ فِقَرَه ؛ أنْذَر(٢) ببلوغ المنى، وبشّر بحصول الغنى ؛ تُخيِّر له البيانُ فطَبّق مَفصِلَه، ورماه البنانُ(٣) فصادفَ مَقتَلَه ؛ ووصـل معه المملوكُ والمملوكةُ اللذان سمّاهما هديّة، وتنزّه كرما أن يقول عطيّة ؛ هِمّة تَرجُم السِّماكين، ونعمةٌ تملأ الأذنَ والعين ؛ وما حرّك — أيده الله — بكتابه ساكنا بحمده، ولا نبّه نائمـا عن قصده ؛ كيف وقد طلعت الشمسُ التى صار بها المَغرِب شرقا، وهبّت الريح التى صار بها الحِرمانُ رزقا ؛ صاحبُ لواء الحمد، وفارسُ مَيْدانِ المجد.

وهى رُقعةٌ طويلة قد ذكرنا منها فى المديح فصلا لا فائدة فى إعادته.

ومن كلام أبي حفص عمر بن برد الأصـغر الأندلسى،

فمن ذلك أمانٌ كتَبه لمن عصَى وعاود الطاعةَ :

أما بعـد، فإن الغلَبةَ لنا والظهور عليك جلباك(٤) إلينا على قدمِك، دون عهـدٍ(٥) ولا عَقْـدٍ يَمنعان من إراقة دمِك ؛ ولكنّا بمـا وهب الله لنا من الإشراف على سرائر

(١) الحـبر بكسر الحاء وفتحها : العالم. والحـبر بكسر الحاء وفتح الباء : برود يمنية، واحده حبرة كعنبة ؛ يريد تشبيه الكلام فى الحسن والرونق بحسن تلك البرود ووشيها.

(٢) يستعمل الإنذار بمعنى الإعلام مطلقا سواء أكان بخير أم بشر ؛ والمراد هنا الاوّل.

(٣) فى الأصل : «اليان» بالياء المثناة ؛ وهو تحريف.

(٤) كذا فى الذخيرة لابن بسام ؛ والذى فى الاصـل : «جلبابك» ؛ والباء زيادة من الناسخ إذ لم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على تعدية هذا الفعل بالباء.

(٥) فى الذخيرة : «أسرار».

الرِّياسة، والحفظِ لشرائع السياسة؛ تأمَّلْنا مَن ساس جهتك قبلنا فوجدنا يدَ سياستِه خرقاء، وعينَ حراستِه عَوراء، وقدَمَ مداراتِه شَلّاء، لأنه غاب عن ترغيبِك فلَم ترجُه، وعن ترهيبِك فلَم تَخشَه؛ فأدّتك حاجتُك إلى طلاب المطامع الدنيّة، وقِلّةُ مَهابتِك الى التهالك على المعاصى الوبيّة؛ وقد رأينا أن تُظهِرَ فضلَ سيرتنا فيك، وتَعتبِرَ بالنظر فى أمرك، فمهّدنا لك الترغيبَ لتأنَس إليه، وظلّلنا لك الترهيبَ لتفرَق منه، فإن سوّت الحالتان طبعَك، وداوى الثِّقافُ والنارُ عُودَك، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهارِه حُسْنَ السياسة فيك؛ وأمانُ الله تعالى مبسوطٌ منّا، ومواثيقُه بالوفاء معقودةٌ علينا؛ وأنت الى جهتِك مصروف، وبعفوِنا والعافيةِ منا مكنوف، إلّا أن تَطيشَ الصَّنيعةُ عندك فتخلعَ الرِّبقة، وتمرق من الطاعة، فلسنا بأوّل من بُغِىَ عليه، ولستَ بأوّل مَن تراءت لنا مَقاتلُه من أشكالك إن بغيت، وانفتحت لنا أبوابُ استئصالِه من أمثالك إن طُلِبت.

ومن كلامه يعاتب بعض إخوانه :

أَظلَم لى جوُّ صفائك، وتوعَّرتْ علىّ طُرقُ إخائك؛ وأراك جَلدَ الضمير على العتاب، غيرَ ناقع الغُلّة من الجفاء؛ فليت شعرى ما الذى أَقصى بهجة ذلك الوُدّ، وأَذبَل زهرةَ ذلك العهد؛ عهدى بك وصِلتُنا تَفرَق مِن اسم القطيعة، ومودّتُنا تَسأل عن صفة العتاب ونسبة الجفاء، واليومَ هى آنسُ بذلك مِن الرضيع بالثدى، والخَليع بالكأس؛ وهذه ثُغْرةٌ إن لم تحرسها المراجعة، وتَذْكُ فيها عيونُ الاستبصار[1] توجّهتْ منها الحِيَلُ على هدمِ ما بَنَينا، ونَقْضِ ما اقتنَينا؛ وتلك نائحةُ الصفاء، والصارخةُ[2] بموتِ الإخاء؛ لا أَستنِد[3] أعزك الله من الكتاب إليك — وان رَغِمَ أنفُ

(١) فى الأصل : «الاشبيطر» ؛ وهو تحريف. (٢) فى الذخيرة : «والصائحة» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا. (٣) كذا فى الذخيرة لابن بسام ؛ والذى فى الأصل : «لا أستبد» بالباء الموحدة.

القلم، وانزوت أحشاءُ القرطاس، وأُجِرَّ فمُ الفِكْر، فلم يَبقَ فى أحدها إسعادٌ لى على مكاتَبتِك، ولا بشاشةٌ عند محاولة مخاطَبتِك — لِقَوارِص عتابِك، وقوارعِ ملامِك [التى أكلَتْ أقلامَك] (٣)، وأغصَّت (٤) كُتبَك، وأضجرتْ رُسلَك، وضميرى طاوٍ لم يَطْعَم تجنّيا عليك، ونفسى وادعةٌ لم تحرِّك ذنبًا إليك، وعَقْدى مستحكِمٌ (٥) لم يمسسْه وَهْنٌ فيك؛ وأنا الآن على طَرَف الإخاء معك، فإما أن تبهرنى بحُجّة فأتنصّل (٦) عندك، وإما أن تَفِىَ بحقيقةٍ فأستديم خُلّتَك (٧)، وإما أن تأزِمَ (٨) على يأسِك فأقطع حبلى منك؛ كثيرا ما يكون عتابُ المتصافِين حِيلةً تُسْبَر المودّةُ بها، وتُستثار دفائنُ (٩) الأخوةِ عنها، كما يُعرَض الذهب على اللَّهَب، ويصفَّى المدامُ بالفِدام (١٠)، وقد يخلُص الوُدُّ على العَتْب خلوصَ الذهب على السبك، فأما إذا أُعيدَ وأبدىَ ورُدّد وتوالى فإنه يُفسد غرسَ الإخاء، كما يفسد الزرعَ توالى الماء.

ومن كلام أبى الوليد بن طريف من جواب عن المعتمِد الى ذى الوزارتين ابنِ يحفور صاحبِ شاطبةَ بسبب أبى بكر بن عَمّار:

(١) فى الأصل: «وأحر» بالحاء المهملة. وفى الذخيرة لابن بسام: «وأحدّ» وهو تحريف فى كليهما، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق، وأجرّ بالجيم: من الاجرار، وهو أن يشق لسان الفصيل لئلا يرضع؛ ويستعار الاجرار كما هنا للاسكات والمنع من النطق، قال عمرو بن معد يكرب:

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم * نطقت ولكن الرماح أجرّت

يريد أن رماح قومه أسكتته ومنعته عن الكلام. (٢) كذا فى هامش الذخيرة قسم أول ترجمة أبى حفص المذكور، وهو المناسب لقوله بعد «وقوارع»؛ والذى فى الأصل: «ومصاولة»؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى. (٣) هذه العبارة ساقطة من الأصل؛ وقد اثبتناها عن الذخيرة إذ لا يستقيم الكلام بدونها. (٤) فى الأصل: «وأعصت» بالعين المهملة؛ وهو تصحيف. (٥) فى الذخيرة: «مستوثق»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين. (٦) يقال: تنصل اليه من الجناية، أى خرج وتبرأ. (٧) الخلة بضم الخاء: المحبة والصداقة لا خلل فيهما. (٨) تأزم بكسر الزاى المعجمة، أى تواظب وتدأب. (٩) فى الذخيرة: «دقائق»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين. (١٠) الفدام بكسر الفاء: المصفاة للكوز والابريق ونحوهما.

وقفتُ[1] على الإشارة الموضوعةِ من قِبَلِك[2] على إخلاصٍ دَلّ[3] على وجوه السلامة، المستنامِ فيها الى شرفِ تحتِدك وصفاءِ مُعتَقَدِك أكرَمَ استنامة؛ بالشفاعة فيمن أساء لنفسِه حظَّ الاختيار، وسَبّبَ لها سببَ النكبةِ والعثار؛ بغَمْطِه لعظيمِ النعمة، وقطعِه لعلائقِ العصمة؛ وتخبُّطِه فى سَنَنِ غَيِّه واستهدافِه، وتجاوُزِه[4] فى ارتكاب الجرائم وإسرافِه؛ حتى لم يدعْ للصلح موضعا، وخرق سِتْرَ الإبقاء بينه وبين مُولى النعمة عنده فلم يَترُك فيه مَرْقَعا؛ وقد كان قَبل استشراءِ رأيِه، وكشفِه لصفحة المعاندة، وإبدائه غدْرَه فى جميع جناياته مقبولا، وجانبُ الصفح له معرَّضا مبذولا؛ لكن عَدَتْه جوانبُ الغواية، عن طُرقِ الهداية؛ فاستمرّ على ضلالِه، وزاغ عن سَنَنِ اعتدالِه؛ وأظهَرَ المناقضة، وتعرَّض بزعمه الى المساوَرةِ والمعارَضة؛ فلم يزل يُرِيغ[5] الغوائل، وينصِب الحبائل؛ ويركب فى العناد أصعبَ المراكب، ويذهب منه فى أوعرِ المذاهب؛ حتى عَلِقتْه تلك الأشراكُ التى نصبها، وتشبَّثتْ به مساوى المقدّمات التى جرّها وسبَّبها؛ فذاق وبالَ فعلِه، "وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ" ولم يَحصُل فى الأُنشوطةِ التى تورّطها، والمحنةِ التى اشتمَلتْ عليه وتوسَّطها؛ إلا ووجهُ العفوِ له قد أظلَم؛ وبابُ الشفاعةِ فيه قد ابهِم[6]؛ ومَن تأمّل أفعاله الذميمة، ومذاهبَه اللئيمة؛ رأى أنّ الصفحَ عنه بعيد، والإبقاءَ عليه داءٌ حاضرٌ عتيد.

وفى فصل منه: ففوّق لمناضَلة الدولة نبالَه، وأعمَل فى مكايدها جُهْدَه واحتيالَه؛ ثم لم يَقتصِر على ذلك بل تجاوَزَه الى إطلاق لسانه بالذمّ الذى صدَر عن

(١) أورد ابن بسام هذه الرسالة فى ترجمة الوزير أبى بكر بن عمار.

(٢) كذا فى الأصل؛ ولعله: «من».

(٣) عبارة الذخيرة: «على أخلص وجوه» الخ.

(٤) فى الأصل: «عن» وهو تحريف؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٥) يريغ: يطلب ويريد.

(٦) أبهم الباب، أغلق.

لؤم نجاره ، والطعنِ الشاهدِ بخبثِ طويّته وإضماره ؛ ومَن فسَد هذا الفسادَ كيف يُرجى استصلاحُه ، ومَن استبطَن مثلَ غِلّه كيف يؤمَّل فلاحُه ؛ ومن لك بسلامة الأديمِ النَّغِل[1]، وصفاءِ القلبِ الدَّغِل ؛ وعلى ذلك فلا أعتقد عليك فيما عرضتَ به من وجه الشفاعة غيرَ الجميل، ولا أتعدّى فيه حُسنَ التأويل؛ ولو وفَدتْ شفاعتُك فى غير هـذا الأمر الذى سَبَق فيه السيفُ العَذَل، وأبطَل عاقلُ[2] الأقدار فيه الإلطافَ والحِيَل؛ لَتُلُقِّيَتْ بالإجلال، وقوبلتْ ببالغ المَبرّةِ والاهتبال[3] .

ومن كلام ذى الوزارتين أبى[4] المغيرةِ بن حَزْم من رسالة .

لَم أزل أزجُر للقاء سيّدى السانح ، وأستمطر الغادىَ والرائح[5] ؛ وأروم اقتناصَه ولو بشَرَك المنام، وأحاول اختلاسَه ولو بأيدى الأوهام؛ وأعاتب الأيّامَ فيه فلا تُعْتِب، وأقودها اليـه فلا تُصحِب؛ حتى إذا غَلب الياس ، وشمِت الناس ؛ وضُرِبت بىَ الأمثال، فقيل : أكثرُ الآمال ضلال؛ تَنبّه الدهرُ من رَقدته، وحلّ من عقدته؛ وقَبِـل منّى، وأظهَر الرضى عنّى؛ وقال : دونك ما طَمَح[6] فقد سَمح[7]، وإليك فقد دنا ما قد جَمَـح؛ فطرتُ بجَناح الارتياح، وركبتُ الى الغمام كواهلَ الرِّياح؛ وقلتُ : فرصةٌ تُغتَنَم، وركنٌ يُستلَم؛ وطرقتُ روضةَ [العِلم][8] عَميمةَ الأزهار، فصيحةَ الأطيار؛

(١) الأديم : الجلد . والنغل : الفاسد فى الدباغ؛ وبابه فرح . (٢) لعله «عاجل» بالجيم كما يدل عليه سياق ما قبله . (٣) الاهتبال : الاغتنام؛ والمراد اغتنام العمل بها .

(٤) فى الأصل : «ابن» والتصويب عن الذخيرة قسم أول ترجمة أبى المغيرة بن حزم .

(٥) فى الأصل : «الذابح» بالذال المعجمة والباء الموحدة؛ وهو تصحيف .

(٦) طمح، من الطماح بكسر الطاء، وهو الجماح .

(٧) فى الذخيرة : «فقد سنح» بالنون؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٨) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن الذخيرة .

رَيّا الجداول، باردةَ الضحى والأصائل؛ وطفتُ بكعبةِ الفضلِ مصونةَ الحِبر[١]، ملثومةَ الحَجَر؛ عزيزةَ المقام، معمورةَ المَشعَرِ الحرام؛ فما شئنا من محاضرة، تجمع بين الدنيا والآخرة؛ بين يدى نثرٍ يُدنِى الإعجاز، ونَظْمٍ ما أشبهَ الصدورَ بالأعجاز؛ وحديثٍ تُثَقَّف العقولُ بآرائه[٢]، وتُروَّى بصافى مائه؛ فحين شَمَخ بالظَّفَر أنفى، واهتزَّ لنَيلِ الأملِ عِطفى — والدهر يضحك سِرّا، ويَتأبّط شرّا؛ وقد أذهلنى الجَذَلُ عن سوء ظنِّى به، وأوهَمَنى نُزوعَه[٣] عن ذميم مذهبِه — أتت ألوانُه، وفسا[٤] ظَرِبانُه؛ ونادى: لِيقم مَن قعد، ويَنتبِهْ مَن رقد؛ إنما فَتَرتُ تلك الفَتْرة، ليكون ما رأيتَ عليك حسرة؛ وسمحتُ لك مَرّة، لتذوق من الأسف عليها كأسامُرّة؛ فرأيتُ وقد غطّى على بصرى، وعَقَلتُ وكنت فى عمياءَ من خبرى؛ وقلتُ: هو الذى أعهده من لؤمِه، وأعرفه من شؤمِه؛ فما وَهَب، إلا وسَلَب؛ ولا أعطى، إلا ساعاتٍ كإبهام القَطا؛ فياله من قادرٍ ما ألأمَ قدرتَه، وذابحٍ ما أحَدَّ شَفْرتَه! ولو تَسلّط علينا، من يُظهِر شخصَه إلينا، لأدركتْه رماحُنا، [وعصفتْ به رياحُنا][٥]؛ لكنه أميرٌ من وراء سَجْف، يسعى بلا رِجلٍ ويصول بلا كَفّ.

ومن كلام الوزير الكاتب أبى محمد بن عبد الغفور الى بعض إخوانه — وكان قد وصف له امرأةً ومدَحَها وحضّه على زواجها، وكان لذلك الصديق امرأةٌ سوداءُ — فأجابه ابنُ عبد الغفور:

(١) كذا فى الأصل؛ والحبر: البرود اليمنية؛ ولعل المراد بحبر الكعبة: أستارها. والذى فى الذخيرة لابن بسام: «الحرم»، والمعنى يستقيم عليه أيضا. (٢) عبارة الذخيرة: «تقف العقول بازائه».

(٣) فى الأصل: «بزوغه» بالباء الموحدة والغين المعجمة؛ وهو تصحيف.

(٤) فى الأصل: «وفشى طربانه» بالشين المعجمة والطاء المهملة وهو تصحيف. والظربان بفتح الظاء المعجمة وكسر الراء دويبة كالهرة منتنة الريح؛ ويقال: فسا بينهم الظربان، أى تفرقوا.

(٥) الزيادة عن الذخيرة؛ وبها يتم السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته.

بينما كنت ناظرا من المرآة فى شَعرٍ أَحَمّ[1]، ورأسٍ أَجَمّ، لا أخاف معه الذم؛ إذ تَقدّم رسولُك إلىّ، يخطُب بنتَ فلانٍ علىّ؛ ويُرغِّب منها فى سَعةِ مال، وبراعة جمال؛ ويقسِم إنها لَبَرَّةٌ بالزوج بَرِيكة، لا تحوجه عند النوم الى أَرِيكة؛ ولو يُسّرتُ — وعياذا بالله — لهذا النكاح، لرُزِقتُ قَبل الولدِ منها آلةَ النِّطاح[2]؛ ولا حاجة لى بعد الدَّعَة والسكون، [الى حربٍ زبون، وقِراعٍ بالقُرون[3]]، ولو حَملتْ الىّ تاجَ كسرى وكنوزَ قارون؛ فاطلب لهذه السِّلْعة المباركة مشتريا غيرى، ولا تَسُقها ولو فى النوم الى . . .[4]؛ وآبتعْها ولو بأرفع الأثمان إلى نفسِك، وأضِفْ عاجَها النفيسَ الى أَبْنُوس[5] عِرْسِك؛ ولا عذرَ لها فى النُّشوزِ والإعراض، فإنما يَحسُن السوادُ الحالكُ بالبياض؛ والله يمدّك بقَرنين قَبل الحَين، ويَضَعُ لك صِنْعَين[6] وبِيلَين، فيُسقِطَك بهذا النكاح الثانى للفم كما أُسقِطتَ بالأوّل لليَدين .

(١) الأحم: الأسود. (٢) فى الاصل: «النكاح» وهو تحريف. (٣) التكملة عن الذخيرة لابن بسام. (٤) الكلمة المحذوفة هنا لا تخفى على فطنة القارئ (٥) كذا ضبط هذا اللفظ بالعبارة فى تاج العروس، فنص على أنه بكسر الموحدة. (٦) الصنعين: تثنية صنع بالكسر، وهو سفود الشواء.

كمل السفر السابع من كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى رحمه الله تعالى — ويليه الجزء الثامن منه، وأوّله:

ذكر نبذة من كلام القاضى الفاضل

إصـــلاح خطـــأ

عثرنا بعـد طبع هـذا الجزء على يسير من الأغلاط المطبعية فرأينا أن نثبتها هنا ليستدركها القرّاء .

ص	س	خطأ	صـــواب
٩	٦	ملِءَ	ملءٌ (بضمتين)
٣٦	١٤	التنديد	التنـــدير
٦٧	٨	همـــوا	همـــو
١٣٦	٧	يريكم	يريكمُ (بضم الميم)
١٣٩	١١	بنـــوا	بنـــو
١٣٩	٥ ت	بنـــوا	بنـــو
١٥٩	١ ، ٢	الحيي	الحيـا
١٦١	١	جَرية	جِرية (بكسر الجيم)
١٦٦	٨	وليس	ليس (بدون واو)
١٧٨	٣	انجـلى	انجـــلِ
٢٣٧	١٥	بِشـقّه	بســـبقِه

(مطبعة دار الكتب المصرية ٤٤٥/١٩٢٦/٢٥٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر السابع

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد تم بمعونة الله وحسن توفيقه تصحيح السفر السابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب .

وقد بذلنا وسعنا ، وغاية جهدنا ، فى سبيل إظهاره للقراء سليما من التحريف والتصحيف ، اللذين ملئت بهما أصوله التى بين أيدينا ، وهى نسخة واحدة ، مأخوذة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٧٠ تاريخ — فلم ندع فيه — بحسب الطاقة — لفظا محرفا إلا أصلحناه ، ولا كلاما ناقصا غير متصل الأجزاء إلا رجعنا اليه فى مظانه وأكملناه ولا علما من الأعلام إلا عنينا بتحقيقه وضبطه ، ولا لفظا غريبا إلا فسرناه ، ولا عبارة غامضة المعنى إلا أوضحنا الغرض منها ، ولا بيتا يستغلق فهمه على القارئ إلا شرحناه ونسبناه إلى قائله ، ولا اسم مكان أو بلد إلا نقلنا باختصار ما كتبه العلماء عنه ، ولا لفظا يلتبس على القارئ إلا ضبطناه بما يزيل التباسه .

ومما هو جدير بالذكر والشكر هذه العناية الكبيرة التى كان يبذلها عن طيب نفس ذلك المدير الحازم ، والمربى الفاضل ، حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد أسعد بك برادة مدير دار الكتب المصرية ، فقد كان حفظه الله يختلف إلينا

فى أكثر الأيام، ويبذل لنا من نصائحه الغالية وارشاداته القويمة ما يبعث فى نفوسنا الجدّ فى العمل، والسعى فى إتقانه، ولا يفوتنا فى هـذه الكلمة أن نشكر أيضا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد على البيلاوى مراقب إحياء الآداب العربية بالدار لما كان يبذله لنا من الإعانة على عملنا بمعلوماته الثمينة عن البحوث ومراجعها ، والكتب وأغراضها ومكان الفائدة منها ، والله نسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه إنه قريب مجيب ؟

مصححه

أحمد الزين

فهرس

السفر السابع

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

يتضمن ما يشتمل عليه من الأبواب والفصول ورسائل الكتاب وخطب البلغاء

الباب الرابع عشر

صفحة

من القسم الخامس من الفن الثانى فى الكتابة وما تفرع من أصناف الكتاب

أصل الكتابة ١

وأما شرفها ١

وأما فوائدها ٢

ثم الكتابة بحسب من يحترفون بها على أقسام ٤

ذكر كتابة الإنشاء وما اشتملت عليه من البلاغة والايجاز الخ ٤

فأما البلاغة ٤

وأما الفصاحة ٦

ذكر صفة البلاغة ٧

ومن أمثالهم فى البلاغة ٩

فصول من البلاغة ١٠

جمل من بلاغات العجم وحكمها ١١

صفة الكاتب وما ينبغى أن يأخذ به نفسه ١٢

وأما ما ينبغي للكاتب أن يأخذ به نفسه ١٣

صفحة

وأما ما قيل فى حسن الخط وجودة الكتابة ومدح الكتّاب والكتاب... ١٤
ذكر شىء مما قيل فى آلات الكتابة ١٩
ذكر شىء مما قيل فى القلم ٢٠
ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته من الأمور الكلية ٢٧
وأما الأمور الخاصة التى تزيد معرفتها قدره الخ ٣٥
فأما علوم المعانى والبيان والبديع ٣٥
وأما الحقيقة والمجاز ٣٧
وأما التشبيه ٣٨
وأما الاستعارة ٤٩
فصل فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله ٥٢
فصل فى أقسام الاستعارة ٥٦
وأما الكناية ٥٩
وأما التعريض ٦٠
وأما التمثيل ٦٠
وأما الخبر وأحكامه ٦١
وأما التقديم والتأخير ٦٣
فصل فى مواضع التقديم والتأخير — أما التقديم ٦٩
وأما التأخير ٧٠
وأما الفصل والوصل ٧٠
وأما الحذف والاضمار ٧٥
فصل فى حذف المبتدا والخبر... ... ... ٧٧
فصل — الإضمار على شريطة التفسير الخ ٧٩
وأما مباحث إن وإنما . أما إنّ ٨٠
وأما إنما ٨٣

صفحة

فصل — اذا دخل ما وإلا على الجملة المشتملة على المنصوب الخ... ... ٨٤
وأما النظم ٨٧
وأما التجنيس — فمنه المستوفى التام... ... ... ٩٠
ومنه المختلف ٩١
ومنه المذيّل ٩١
ومنه المركّب ٩٢
ومن أنواع المركب المرفو ٩٢
ومنه المزدوج ٩٣
ومن أجناس التجنيس المصحف... ... ... ٩٣
ومنه المضارع ٩٤
ومنه المشوّش ٩٤
ومنه تجنيس الاشتقاق ٩٥
ومما يشبه المشتق ٩٥
ومن أجناس التجنيس تجنيس التصريف ٩٦
ومنها التجنيس المخالف ٩٧
ومنها تجنيس المعنى ٩٧
وأما الطباق ٩٨
وأما المقابلة ١٠١
وأما السجع ١٠٣
وأما الترصيع... ... ... ١٠٤
وأما المتوازى ١٠٤
وأما المطرّف ١٠٥
وأما المتوازن ١٠٥
فصل فى الفقر المسجوعة ومقاديرها ١٠٧

صفحة
وأما رد العجز على الصدر ١٠٩
وأما الإعنات ١١٣
وأما المذهب الكلامى ١١٤
وأما حسن التعليل ١١٥
وأما الالتفات ١١٦
وأما التمام ١١٨
وأما الاستطراد ١١٩
وأما تأكيد المدح بما يشبه الذم ١٢١
وأما تأكيد الذم بما يشبه المدح ١٢٢
وأما تجاهل العارف ١٢٣
وأما الهزل الذى يراد به الجد ١٢٤
وأما الكنايات ١٢٤
وأما المبالغة ١٢٤
وأما عتاب المرء نفسه ١٢٥
وأما حسن التضمين ١٢٦
وأما التلميح ١٢٧
وأما إرسال المثل ١٢٧
وأما ارسال مثلين ١٢٨
وأما الكلام الجامع ١٢٨
وأما اللف والنشر ١٢٩
وأما التفسير ١٢٩
وأما التعديد ١٣٠
وأما تنسيق الصفات ١٣١
وأما الإيهام ١٣١

صفحة
وأما حسن الابتداءات ١٣٣
وأما براعة التخليص ١٣٥
وأما براعة الطلب ١٣٥
وأما براعة المقطع ١٣٥
وأما السؤال والجواب ١٣٦
وأما صحة الأقسام ١٣٦
وأما التوشيح ١٣٧
وأما الإيغال ١٣٨
وأما الإشارة ١٤٠
وأما التذييل ١٤٠
وأما الترديد ١٤١
وأما التفويف ١٤١
وأما التسهيم ١٤٢
وأما الاستخدام ١٤٣
وأما العكس والتبديل ١٤٤
وأما الرجوع... ... ... ١٤٤
وأما التغاير ١٤٥
وأما الطاعة والعصيان ١٤٦
وأما التسميط ١٤٧
وأما التشطير... ... ... ١٤٧
وأما التطريز... ... ... ١٤٨
وأما التوشيع... ... ... ١٤٨
وأما الاغراق ١٤٩
وأما الغلو ١٤٩

صفحة

وأما القسم ١٥٠
وأما الاستدراك ١٥١
وأما المؤتلفة والمختلفة... ... ... ١٥١
وأما التفريق المفرد ١٥٢
وأما الجمع مع التفريق ١٥٣
وأما التقسيم المفرد ١٥٣
وأما الجمع مع التقسيم... ... ... ١٥٤
وأما التزاوج... ... ... ١٥٤
وأما السلب والإيجاب ١٥٤
وأما الاطراد... ... ... ١٥٥
وأما التجريد ١٥٦
وأما التكميل ١٥٧
وأما المناسبة... ... ... ١٥٨
وأما التفريع... ... ... ١٦٠
وأما نفى الشىء بإيجابه ١٦٣
وأما الإيداع ١٦٤
وأما الإدماج ١٦٤
وأما سلامة الاختراع... ... ... ١٦٤
وأما حسن الاتباع ١٦٥
وأما الذم فى معرض المدح ١٦٦
وأما العنوان... ... ... ١٦٦
وأما الإيضاح ١٦٩
وأما التشكيك ١٦٩
وأما القول بالموجب... ... ... ١٧٠

صفحة
وأما القلب ١٧١
وأما التندير ١٧٢
وأما الإسجال بعد المغالطة... ... ... ١٧٣
وأما الافتنان ١٧٣
وأما الإبهام ١٧٤
وأما حصر الجزئيّ والحاقة بالكليّ... ... ... ١٧٤
وأما المقارنة... ... . ١٧٥
وأما الإبداع... ... ... ١٧٥
وأما الانفصال ١٧٧
وأما التصرف ١٧٧
وأما الاشتراك ١٧٨
وأما التهكم ١٧٩
وأما التدبيج ١٨٠
وأما الموجّه ١٨١
وأما تشابه الأطراف ١٨١
وأما ما يتصل بذلك من خصائص الكتابة فالاقتباس الخ ١٨٢
وأما الاستشهاد بالآيات ١٨٣
وأما الحل ١٨٣
ذكر ما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسك به وما يجوز
في الكتابة وما لا يجوز ١٨٥
واذا كتب في التهاني بالفتوح ١٩٣
وأما التقاليد والمناشير والتواقيع وما يتعلق بذلك ٢٠١
ذكر شيء من الرسائل المنسوبة الى الصحابة رضى الله عنهم والتابعين
وشيء من كلام الصدر الأول وبلاغتهم — فمن ذلك الرسالة
المنسوبة الى أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه إلى عليّ وما يتصل
بها من كلام عمر بن الخطاب وجواب عليّ رضى الله عنهم ٢١٣

صفحة
ومن كلام عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ٢٣٠
ذكر شرح غريب رسالتها رضى الله عنها ٢٣٢
ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه ٢٣٣
ومن كلام الأحنف بن قيس ٢٣٧
ومن كلام أم الخير بنت الحريش البارقية ٢٤١
خطبة الحجاج لما قدم البصرة... ... ... ٢٤٤
خطبته بعد وقعة دير الجماجم ٢٤٥
ومن مكاتباته إلى المهلب بن أبى صفرة وأجوبة المهلب له ٢٤٦
ومن كلام قطرى بن الفجاءة — خطبته فى ذم الدنيا ٢٥٠
ومن كلام أبى مسلم الخراسانى ٢٥٣
ومن كلام جماعة من أمراء الدولتين — خطبة ليوسف بن عمر ... ٢٥٥
خطبة لخالد بن عبد الله القسرى ٢٥٥
خطبة لأبى بكر بن عبدالله لما ولى المدينة ٢٥٦
ذكر شىء من رسائل وفصول الكتّاب والبلغاء المتقدمين والمتأخرين
والمعاصرين من المشارقة والمغاربة ٢٥٩
ذكر شىء من رسائل فضلاء المغاربة ووزرائهم وكتّابهم — فمن ذلك رسالة
ابن زيدون التى كتبها على لسان ولادة الى إنسان استمالها الى نفسه عنه ٢٧١
وقال أيضا فى رقعة خاطب بها ابن جهور... ... ... ٢٩٠
ومن كلام أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال ٣٠٣
ومن كلام الوزير الفقيه أبى القاسم محمد بن عبدالله بن الجد ٣٠٤
ومن كلام أبى عبدالله محمد بن الخياط ٣٠٦
ومن كلام أبى حفص عمر بن برد الأصغر الأندلسى ٣٠٦
ومن كلام أبى الوليد بن طريف ٣٠٨
ومن كلام ذى الوزارتين أبى المغيرة بن حزم ٣١٠
ومن كلام الوزير الكاتب أبى محمد بن عبد الغفور ٣١١

الكتب والمصادر التى رجعنا اليها فى تصحيح هذا الجزء
وقد رتبناها على حروف المعجم

إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ، أساس البلاغة للزمخشرى ، الأمالى لأبى على القالى ، أقرب الموارد ، أدب الكتاب للصولى ، إرشاد السارى لشهاب الدين القسطلانى .

البيان والتبيين للجاحظ .

تحرير التحبير لابن أبى الإصبع ، تاج العروس للسيد محمد مرتضى الزبيدى ، تاريخ ابن جرير الطبرى ، تاريخ أبى الفداء ، تهذيب التهذيب فى أسماء الرجال للحافظ ابن حجر ، تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون للصفدى .

الحماسة لأبى تمام ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى .

خزانة الأدب لابن حجة الحموى ، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للخزرجى .

دلائل الإعجاز للجرجانى ، ديوان أبى تمام ، ديوان أبى الطيب المتنبى ، ديوان أبى نواس ، ديوان لبيد بن ربيعة ، ديوان البحترى ، ديوان امرئ القيس ، ديوان أبى فراس الحمدانى ، ديوان حسان بن ثابت رضى الله عنه .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام .

رسائل بديع الزمان الهمذانى .

زهر الآداب للحصرى .

سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة .

شذور العقود لابن الجوزى ، شرح الباعونيـة ، شرح نهج البـلاغة لابن أبى الحديد، شرح رسائل بديع الزمان الهمذانى ، شروح تلخيص المفتـاح، شرح ديوان أبى تمام للخطيب التبريزى ، شرح شواهد المبانى . الشفاء للقاضى عياض، الشعر والشعراء لابن قتيبة، شرح ديوان آمرئ القيس للبطليوسى .

صبح الأعشى للقلقشـندى، الصحاح للجوهرى ، الصناعتين لأبى هلال العسكرى .

العقد الفريد لابن عبدربه، العمدة لابن رشيق القيروانى .

فهرست ابن النديم .

القاموس المحيط للفيروزبادي .

لسان العرب لابن منظور .

المفضليات للضبى، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد بن على التميمى، المثل السائر لابن الأثير الجزرى، مجمع الأمثال للميدانى، المحاسن والأضداد للجاحظ، المشتبه فى أسمـاء الرجال للحافظ الذهبى ، المصباح المنير للفيومى ، معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص لعبد الرحيم العباسى، معجم الأدباء لياقوت، مختار الصحاح مغنى اللبيب لابن هشام، المقتضب من جمهرة النسب لياقوت، المضاف والمنسوب للثعالبى، محاضرة الأبرار لابن العربى، معلّقات العرب .

نقد الشعر لقـدامة بن جعفر ، النهـاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى .

وفيات الأعيان لابن خلكان ، الوافى بالوفيات للصفدى .

يتيمة الدهر للثعالبى .

الجزء السابع

من

نهاية الأرب فى فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر نبذة من كلام القاضى الفاضلِ الأسعدِ محيي الدين

أبى علىٍّ عبدِ الرحيم ابنِ القاضى الأشرفِ [أبى المجدِ علىّ](١) بنِ(٢) الحسنِ بنِ الحسينِ ابنِ أحمدَ اللَّخْمِىِّ الكاتبِ المعروفِ بالبَيْسانىِّ — رحمه الله تعالى — إليه انتهت صناعةُ الإنشاء ووَقفتْ، و بفضله أَقَرّتْ أبناءُ البيان واعترفتْ، ومِن بحرِ علمِه رَوِيَتْ ذووالفضائل واغترفتْ؛ وأمامَ فضله ألقت البلاغةُ عصاها(٣)، و بين يديه استقرّتْ(٣) بها نواها؛ فهو كاتبُ الشرقِ والغربِ فى زمانه وعصره، وناشرُ ألوية الفضل فى مصره وغير مصرِه؛ ورافعُ عَلَمِ البيان لامحَالَه، والفاصلُ بغير إطاله؛ وقد أنصف بعضُ الكتّاب فيه، ونطَقَ مِن تفضيله بملءِ فيه؛ حيث قال :

(١) التكملة عن كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسى ج ٢ ص ٢٤٢ طبع مطبعة وادى النيل . وفى (ب) : «أبى الحسين» بدل «أبى المجد» . وفى وفيات الأعيان ترجمة القاضى الفاضل زيادة فى هذا النسب لم ترد فى الأصل ولا فى الروضتين ؛ وهذا نص عبارته : « ابن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد علىّ ابن القاضى السعيد أبى محمد محمد بن الحسن » الخ . وكذلك ورد نسب القاضى الفاضل مشتملا على هذه الزيادة فى عقد الجمان للعينى المأخوذ منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .

(٢) فى (١) : « أبى » ؛ وهو تحريف .

(٣) يشير بهاتين العبارتين إلى قول معقر بن حمار البارقىّ ؛ وقيل : الطرماح بن حكيم :

فألقت عصاها واستقرّت بها النوى ... كما قرّ عينا بالإياب المسافر

انظر تاج العروس مادة «نوى» .

كُلّ فاضلٍ بَعدَ الفاضل فضْله ،وكلٌّ قد عَرَفَ له فضلَه ؛وستقف إن شاء الله من كلامه على السحر الحلال ، فتُرْوِى صداك من ألفاظه بالعذب الزُّلال ؛ فمن ذلك قوله : وافَينا[1] قلعةَ نجمٍ [وهى نجمٌ[2]] فى سحاب ، وعُقابٌ فى عِقاب[3] ؛ وهامةٌ لها الغمامةُ عِمامه ، وأَثْمَلةٌ اذا خَضَبها الأصيلُ كان الهلال لها[4] قُلامه .

ومن رسائله ما كتب به الى النظام أمير حلب : ورد كتاب المجلس السامى ـ حرس الله به نظامَ المجد [وأطلق فيه[2] لسان الحمد] ، ودامت مساعيه مصافحةً ليد السعد ، وأحسن له التدبيرَ فى اليومين : مِن قَبلُ ومِن بَعد — فمرحبا بمَقْدَمِه ، وأهلا بمَنْجَمه ؛ والشوقُ تختلف وفودُ[5] صُروفِه ، وتتنوع صنوفُ ضيوفِه ؛ فلابد أن تتبعّض اذا تبعّضت المسافات ، وتَبرُدَ وتَخمُدَ اذا عُبِدَتْ[6] ودنت الطُّرقات ؛ ولو بمقدار ما يدنو اللقاءُ على الرسول السائر ، بالكتاب الصادر ، والخيالِ الزائر ، بالحبيب العاذر ، والنسيمِ الخاطر ، من رسائل الخواطر ؛ وقد وجدتُ عندى أنسا لا أعهدُه ؛ وعَددتُ نقصَ البُعدِ أحدَ اللقاءين ، كما كنتُ أعُدّ زيادةَ البعدِ أحدَ النأيَين ؛ فزاده الله من القلوب

(١) كذا وردت هذه العبارة فى (ا) ، (ب) ؛ والذى فى كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ «والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما فى سحاب» الخ والشيخ الفقيه هو زين الدين بن نجا الواعظ ؛ والقلعة التى وصفها ، هى قلعة حمص ، كما ذكره صاحب الروضتين أيضا . وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٣ طبع بولاق أن هذه القلعة يقال إنها قلعة كوكب .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (ا) وقد أثبتناها عن (ب) .

(٣) العقاب بكسر العين : المراقى الصعبة من الجبال ، مفرده عقبة بفتح العين والقاف .

(٤) فى الروضتين : «منها» .

(٥) فى الأصل : «فقود» ؛ وهو تحريف .

(٦) عبدت : ذللت ومهدت . وفى كلا الأصلين : «بعدت» ؛ وهو غير مستقيم ؛ ولعل صوا ما أثبتنا كما يقتضيه ما قبله وما بعده من الكلام .

حُظوه، ولا أخلاه من بسطِ يدٍ وقدمٍ فى حظٍّ وحُظوه[1]؛ ووقفتُ على هذا الكتاب المشارِ اليه وما وقفتُ عنه لسانا شاكرا، ولا صرفتُ عنه طَرْفا ناظرا، و بلغتُ من ذلك جَهدى و إن كان قاصرا، واستفرغتُ له خاطرى وما أُعِدّه اليوم خاطرا؛ ومما أُسَرّ به أن يكون فى الخدمة السلطانية — أعلاها الله و رفَعَها، و وصَلَها ولا قطَعَها، وألّف عليها القلوبَ و جمَعَها، واستجاب فيها الأدعيــة وسمعها — من يكثّر قليلى، ويَشفِى فى تقبيل الأرض غليلى، فإن تقبيلَ سيّدنا كتقبيلى؛ فلو شرب صديقٌ وأنا عطشانُ لأروانى، ولو آستضاء بلَمعة فى الشرق وأنا فى الغرب لأَرانى؛ كما أنّ الصّــديق اذا مسّــتهُ نعمةٌ وجب عنها شكرى، واذا وَصلتْ اليــه يدُ منعم وصلتْنى وتغلغلت الىّ ولو كنت فى قبرى .

ومنها : وأعود الى جواب الكتاب، الأخبارُ لا تزال غامضةً إلى أن يشرحَها، ومقفَلةً إلى أن يفتحَها؛ بخلاف حالى مع الناس، فإن القلوبَ لا تزال سالمةً إلا أن يجرحَها، والهموم خفيفة إلا أن يرجّحَها؛ والحقُّ من جهته ما تحقّق، وما استَنطَق بشكرِ مَن أَنطَق؛ وفى الخواطر فى هذا الوقت موجودٌ يجعلها [فى][2] العَدَم، ويُخرجُها من الألمِ الى اللّمِ[3]، و يعادِى بين الألسنةِ والأسماعِ و بين العيونِ والقلم؛ وكلّما قلّت الحيلةُ المشكوكُ فى نُجحِها، فَتَحَ اللهُ باب الحيــلة المطموعِ فى فتحِها؛ وهى من فضل الله سبحانه والآستجارةِ بالآستخاره، فتلك تجارةٌ رابحةٌ وكلُّ تجارةٍ لا تخلو من خساره؛ والله تعالى يَجمَع كلمةَ المسلمين على يد سلطاننا، ولا يُخلينا منه ومن [بنيــه][4] حلىِّ زمانِنا، وشُنوفِ إيمــانِنا، ويُسعدُنا مِن أكابرِهم بتيجان رءوسِنا، ومِن أصاغرِهم بخواتم أيمــانِنا؛

(١) أراد بالحظوَة هنا : التفضيل أو الحظ من الرزق . وبالتى قبلها : المكانة والمنزلة .

(٢) كذا فى (ب) .

(٣) اللم بالتحريك : الجنون .

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن مسالك الأبصار .

ولو تفرّغت العزمةُ الفلانيّةُ لهذا الكلبِ العدوّ فترجُم كلبَه، وتكُفّ غَرْبَه؛ وتذيقه وبالَ أمرِه، وتطفئ شَرارَ شرِّه، وتعجّل له عاقبةَ خُسرِه؛ فقد غاظ المسلمين وعضّهم، وفلّ جموعَهم وفضّهم؛ وما وجد من يَكفى فيه ويكُفّه، ويَشفى الغليلَ منه بما يشُفّه(١)؛ ولو جَعل السلطانُ — عزّ نصرُه — غزوَ هذا الطاغيـة مَغْزاه(٢)، وبلادَه مستقرَّ عسكرِه ومثواه، لأخذ الله الكافر بطَغواه؛ ولأبقَى ذكرا، وأجرى في الصحيفة أجرا؛ ولأطفأ الحقدَ الواقد، بالحديد البارد، وغنِمَ المَغنَمَ البارد، وسدّد الله ذلك العزمَ الصادرَ والسهمَ الصارد(٣)؛ فلابدّ أن يُجرىَ سيّدُنا هذا الذكر، ولو لما أحتسبه أنا من الأجر؛ وما أورده المجلسُ عن فلانٍ من صفوِ شُربِه، وأمنِ سِرْبِه؛ واستقرارِه تحت الظلِّ الظليلِ السلطانىّ — جعله الله سا كنا، وأحلّه منه حَرما آمنا — ومِن مُعافاتِه في نفسه وولدِه وجماعته، وأهلِ وَلائه ووِلايتِه، فقد شكرتُ له هذه البشرى، وفرحتُ بما يسّر الله ذلك المولى له من اليسرى؛ غير أنى أريد أن أسمع أخبارَه منه لا عنه وبمباشَرته لا باستنابتِه، فلا عَرَفتُ مودّتَه مِن المودّات الكُسالى، ولا أقلامَه إلا بلُبسِ السواد — على أنها مسرورةٌ سارّةٌ لا تَكالى؛ وإذا قنِع صديقُه منه بفريضةٍ حَجّيّة، لا تُؤدّى إلا في ساعةٍ حَوليّة، فإن يبخَل بها ذلك الكريمُ فقد انتحل الاسمَ الآخَر — أعاذه الله منه، وصَرَف عنه لفظَه كما صَرَف معناه عنه؛ وللمودّةِ عينٌ لا يَكحُلها إذا رَمِدتْ إلا إثمِدُ مدادِ الصديق، وما في الصبر وُسْعٌ لصحبةِ أيامِ العُقوق بَعد صحبةِ أيامِ العقيق؛ وقد بلغنى أنّ ولدَ المذكورِ نزع(٤) وترعرع، ونفع

(١) يشفه : يحزنه . (٢) المغزى : المقصد . (٣) الصارد من السهام : النافذ .

(٤) كذا فى كلا الأصلين بالنون والزاى ؛ ولعله من قولهم : نزع فلان إلى أبيه ينزع بكسر الزاى فى المضارع ، أى ذهب اليه وأشبهه . أو هو من قولهم : نزع الى عرق كريم . أو لعله : « برع » بالباء الموحدة والراء المهملة .

وأينع، وخَدَم فى المجلس السلطانىّ، فسررت بأن تجمّع فى خدمته الأعقابُ والذّرارِى، والله تعالى يحفظ علينا تلك الخدمةَ جميعا، ولا يُعدِمنا من يدِها سحابا ولا من جنابِها ربيعا، وقد فتح سيّدُنا بابا من الأنس ونَهَجَه، وأوثرُ ألاّ يُرتجَـه، بمكاتباته التى يدُه فيها بيضاء، ويدُ الأيام عندى خضراء، بحيث لا يستوفى على الحساب، فى كل جواب، وأنا فى هـذه الأحوال أوثرُ العُزلةَ وأبدأ فيها بلسـانى وقلمى، وأتونّى أن أشبّه حالةَ وجودى بعدَمى، فإنى أرى مَن تحتَها أروَحَ ممن فوقَها، ومَن خرج منها أحظَى ممن أقام بها، وللودّات مقرٌّ ما هو إلا الألسـنه، والقلوبُ قضاةٌ لا تحتاج الى بيِّنـــه.

وكتب [جوابا](١) أيضا الى آخر وهو: وقفتُ على كتاب الحضرة — يَسّر الله مَطالبَها وجمّل عواقبَها، وصَفّى من الأكدارِ مَشاربَها، وحاط مِن غِيَرِ الأيّام جوانبَها، ووسّع فى الخيرات سُبلَها ومذاهبَها، ووقاها ووقى ولَدَها، وأسعدها وأسعد يومَها وغَدَها، وجمع الشملَ بها قريبا، وأحدث لها فى كلّ حادثةٍ صُنعا غريبا — من يد الحضرة الفلانيّة — لاعَدمتُ يدَها ومدَّها، وأدام الله سعدها — وشكرتُ الله على [ما](٢) دلّ عليه هذا الكتابُ من سلامة حَوزتِها(٣)، ودوامِ نعمتِها، وسُبوغِ كفايتِها، وسألته سبحانه أن يُصحّ جسمَها، ويُميطَ همّى وهمَّها، فهُما همان لا يتعلّقان إلا بخدمة المخدوم — أجارنا الله فيـه من كلّ هم، وأجرَى بتخصيصه السـعدَ الأعمّ، واللّطفَ الأتمّ — وعرفت ما أنعمتْ بذكره من المتجدّدات بحضرتِه، ومن الأمور الدالّة على سعادتِه وقوّتِه، ولِلأمورِ أوائلُ وأواخر، ومواردُ ومصادر، فنسأل الله سبحانه أن يجعـل

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) وقد أثبتناها عن (ب).

(٢) فى (ا): «على دل» بدون «ما»، والسياق يقتضى إثباتها، كما فى (ب).

(٣) حوزة الرجل: ما فى حيزه.

العواقبَ لكم، والمصادرَ إليكم، والنعمةَ عندكم، والنُّصرةَ خاصّةً بسلطانكم، والكفايةَ مكتنِفةً بجماعتكم[1]؛ وقد قاربت الأمورُ بمشيئة الله أن تُسفِرَ وجوهُها، والخواطرُ أن يستروِحَ مشدوهُها[2]، "إنَّ ٱللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ" وفى كلّ أقدارِ الله الخيرة، وفى حكمته أنه جعل الخِيرةَ محجوبةً تحت أستار الأقدار؛ وقد علم الله تقسُّمَ فكرى لما هى عليه من المشقّات المحمولةِ بالقلب والجسد، والأمورِ الحاضرةِ فى اليوم والمستقبَلةِ فى غد؛ وهى فى جانب الخير، والخيرُ يعمّ الوكيَل لصاحبِه، ومَن أصلح جانبَه مع الله كان الله جديرا بإصلاح جانبِه.

ومنه: وعليه السلامُ الطيّبُ الذى لو مرّ بالبهيم لأشرق، أو بالهشيم لأورق؛ وكتبُها الكريمةُ إن تأخرتْ فمأموله، وان وصلتْ فمقبوله؛ وان أنبأتْ بسارٍّ فمشهوره وان أنبأتْ بشرٍّ فمستوره؛ وخادمُها فلانٌ يخدُم مجلسها خدمةَ الخادم لمخدومِه، ويكرُر التسليم على وجهه الكريمِ المحفوفِ مِن كلّ قلب بحبّه، ومن كلّ سلامٍ بتسليمِه.

وكتب أيضا: وصل كتابُ الحضرة — وصل الله أيّامَها بحميد العواقب، وبلوغ المآرب، وصَحِبتِ الدهرَ [على خير ما صَحِبَه صاحب][3]، وأنهضَنا بواجب طاعته، فإنه بالحقيقة الواجب — وكلُّ واجبٍ غيرِه غيرُ واجب — مِن يدِ فلانٍ، فرجوتُ أن يكون طليعةً للاقترابِ، ومبشِّرًا بالإياب، ومخبِرا بعَوْدِها الذى هو كَعَوْدِ الشباب لو يعود الشباب؛ وأعلَمَنى من سلامة جسمها، وقلبِها مِن همِّها؛ ما شكرتُ الله عليه، واستدمتُ العادةَ الجميلةَ منه، وسألته أن يوزعها[4] شكرَ النعمةِ فيه؛ وعرَفتُ الأحوالَ جملةً من كتابِها، وكلُّها

(١) كذا فى الأصول. ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على أن «اكتنف» يتعدى بالحرف؛ ولعله مضمن معنى الإحاطة، فعدّاه بالباء؛ أو لعله: «لجماعتكم» باللام.

(٢) المشدوه: المدهوش.

(٣) التكملة عن (ب) ومسالك الأبصار ج ٧ ورقة ٣٠٣ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ.

(٤) يوزعها: يلهمها.

تَشهد بتوفيق سلطاننا، وبأيّامه التى تعُود بمشيئة الله بإصلاح شانه وشاننا؛ والذى مدّه ظلّا، يَمُدّه فضلا؛ فالفضلُ الذى فى يديه، فى يد خلقِ الله الذى أحالهم فى الرزق عليه؛ فكيفما دعونا له دعونا لأنفُسنا، وكيفما كانت أسنّةُ رماحِه فهى نجومُ حرسِنا، فلا عدمت أيامه التى هى أيام أعيادِنا، ولا لياليه التى هى ليالى أعراسِنا .

٥ ومن أجوبته : ورد على الخادم — أدام الله أيامَ المجلس وصفّاها من الأكدار، وأبقى بها مِن تأثيراته أحسن الآثار، وأَسمَع منه وعنه أَطيَبَ الأخبار وجعل التوفيقَ مقيما حيث أقام، وسائرا أينما سار — كتابُه الكريم، الصادرُ عن القلب السليم، والطبعِ الكريم، والباطنِ الذى هو كالظاهرِ كلاهما المستقيم؛ ولا تزال الأخبارُ عنّا محجمه، والأحاديثُ مستعجِمه؛ والظنونُ مترجِّحه(١)، والأقوالُ مُسقمةٌ

١٠ ومصحّحه؛ الى أن يردَ كتابُه فيُحقّ الحقَّ ويُبطِلَ الباطل، ويَتّضِحَ الحالى ويَفتضِحَ العاطل؛ ويُعرَف الفرقُ ما بين تحريرِ قائل، وتحويرِ ناقل(٢)؛ فتدعو له الألسنةُ والقلوب وتستغفر بحسناته الأيامُ من الذنوب؛ والشجاعةُ شجاعتان : شجاعةٌ فى القلب وشجاعةٌ فى اللسان؛ وكلتاهما لديه مجموع، ومنه وعنه مَروىٌّ ومسموع؛ وذخائرُ الملوك هم الرجال، وآراءُ الحُزَماء هى النصال، ومودّاتُ القلوب هى الأموال، ومجالسُ آرائهم

١٥ هى المَعركةُ الأولى التى هى ربما أغنتْ عن معارك القتال؛ والله تعالى يُمِدّ المسلمين به حالَ تجمّعِهم على جهاد الكفّار، ويُلهمهم أن يَبذُلوا فى سبيله النفْسَ والسيفَ والدّرهمَ والدينار؛ ويزيلُ ما فى طريق المَصالح من الموانع، ويَفطِمُ السيوفَ عن الدِّماء الإسلاميّة ويحرِّمُ عليها المَراضع؛ ويجعل للمجلس فى ذلك اليدَ العُليا، والطريقةَ المُثلى، ويجمع له بين خَيرَى الآخرةِ والأولى؛ والأحوالُ هاهنا بمصر مع بعد سلطانِها

٢٠ (١) المترجحة : المتذبذبة .

(٢) فى الأصلين : «قائل»؛ وهو تحريف .

وتَمـادِى غيبتِه عن مباشرة شأنِها ؛ على ما لم يُشهَد مِثلُه فى أوقات السكون فكيف فى أوقات القلق ، على من يَحفَظ الله به من فى البلاد من الجموع ومن فى الطُّرقاتِ مِن الرُّفَق ؛ والأميرُ الولدُ صحيحٌ فى جسمِه وعزمِه ، متصرِّفٌ فى مصالحه على عادته ورسمِه ؛ جعـله الله نعم الخَلَفُ المسعود ، وأمتعه بظلِّ المجلس الممـدود، فى العمر الممدود؛ وعرَف الخادمُ أن المجلس ناب عنه مرّةً بَعد مرّةٍ بمجلس فلان ويشكُر على ما سلف من ذلك المَناب، ويسـتزيدُ ما يستأنفُه من الخطاب؛ والبيتُ الكريمُ أنا فى وَلائه وخدمتِه كما قيل :

إنّ قلبى لَكُم لَكالكبِد الحـــرّى وقلبى لِغيرِكم كالقـلوبِ

يسرّنى أن يَمُدّ الله ظلَّهم، وأن يَجمعَ شملَهـم؛ كما يسـوءنى أن تَختلفَ آراؤهم ولا تَنتظِمَ أهواؤهم؛ وهـذا المولى يَبلُغُنى أنه سَـدّ وساد، وجَدّ وجاد، وخلف مَن سلَفَ مِن كرامِ هذا البيت من الآباء والأجداد؛ وٱشتهرتْ حسنُ رعايتِه لمن جعله الله من الرعايا وديعه، وحسنُ[1] عنايتِه بمن جعله الله له من الأجنادِ شِيعه ؛ وإذ بلغنى ذلك سُررتُ له ولأبنِه ولجدّه ، وعلمتُ أنه لم يمت من خلّفه لإحياء مجدِه ؛ ومن ٱستعمله بحَسَنٍ فقد أراد الله به حَسَنا، ومن أحسن إلى خلق الله كان الله له محسنا؛ إن الله أكرمُ الأكرمين، وأعدَلُ العادلين؛ وكُتبُ المجلس السامى يُنعم بهـا متى خَفّ أمرُها، وتيسّر حملُها، وتَفرّغ وقتُه لهـا ؛ والثقةُ حاصلةٌ بالحاصـل من قلبِه،وعاذرة وشاكرةٌ فى المبطئ[2] والمسرع من كُتبِه؛ورأيُه الموفَّقُ إن شاء الله تعالى.

وكتب : ورد كتابُ الحضرة السامية — أحسن الله لها المعُونه، ويَسّر لها العواقبَ المأمونه، وأنجدَها على حرب الفئةِ الكافرةِ الملعونه — بخبَر خروجِ الخارج

(١) فى الأصلين : « ومن حسن » ؛ وقوله : « من » زيادة من الناسخ، إذ لا مقتضى لها هنا .

(٢) فى (أ) : « من المبطىء » ؛ والسياق يقتضي الفاء، كما فى ب ، أى فى حالة الإبطاء .

من قلعة كذا، وما صَرّح به من الخوف الذى ملأ الصدور، والاستحثاث فى مَسِيرِ العسكر المنصور، وكلُّ ضِيقةٍ[1] وردت على القلوب ففزِعتْ فيها إلى ربّها فرجَتْ فَرَجه وأذكى لها اليقينُ سُرُجَه، ولَم تُشرِكْ معه غيرَه مستعانا، ولم تَدْعُ معه مِن خَلْقِه إنسانا، فما الضِّيقةُ وإن كانت منذرةً إلا مبشِّره، والخطةُ وإن كانت وَعْرةً إلا ميسِّره؛ لاجرم أن هذا الكتاب أعقبه وُصولُ خبر نهضة فلان — نَصَرَ الله نَهضاته، وأدّى عنه مفترَضاته — فاستَنهَض العساكر، وقوتل العدوُّ الكافر، فنفّس ذلك الخناق، وتماسكت الأرماق؛ وما أحسَب أنّ الأمر يتمادى مع القوم، بل أقول: لا كَرْبَ على الإسلام بعد اليوم؛ نَتوافى بمشيئة الله ولاةُ الأطراف، ويزول من نفْسِ العدوِّ وسمعِه ما استشعره بين المسلمين من الخلاف؛ ويجتمعون إن شاء الله على عدوِّهم، ويُذهِب الله بأهلِ دينه ما كان [من فساد][2] أعدائه فى أرضه وعُلوِّهم؛ وقد شَمِمنا رائحةَ الهدنة بطلب الرسول، وبخبرِ هلاكِ مَلِكِ الألمانِ الذى هو بسيف الله مقتول، والموتُ سيف الله على الرقاب مسلول.

ومنها: فأما ما أشار إليه من القِلاعِ التى شَحَنها[3]، والحصونِ التى حصّنها؛ والأسلحةِ التى نقلها إليها، والأقواتِ التى ملأ بها عيونَ مُقاتِلتها وأيديها؛ فإن الله يَمُنّ عليه بأن يسّره لهذه الطاعه، ورَزَقه لها الاستطاعه؛ فكم رزق الله عبدا رزقا حَرِمه منه وفتح عليه بابا من الخير وصَرَفه عنه؛ لاجرم أنه وفّى قوما أجرَهم بغير حساب، ووقَف

(١) الضيقة بكسر الضاد: مثل الضيق (اللسان).

(٢) عبارة الأصول: «ما كان أعدائه فى أرضه» الخ وهى على هذا الوجه غير تامة ولا مستقيمة الإعراب؛ والتكملة عن مسالك الأبصار ج ٧ ورقة ٣٠٧ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ.

(٣) فى (ا): «تحها»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما فى (ب).

قوما بموقف مناقشةِ الحساب ، الذى ٱلمَصرِفُ عنه إلى ما بعده من العذاب ؛ الآن واللهِ مُلِّكَ الملكُ العادلُ مالَه الذى أنفقَه ، وأَودعَه لخير مستودَعٍ مِن ٱلذى رزقَه ؛ وشتّان بين الهمم : همّةُ ملكٍ ذخر مالَه فى رءوس القِلاع لتحصينِ الأموال ، وهمّةُ ملكٍ أودع مالَه فى أيدى المُقاتِلةِ لتحصين القلاع

يبنى الرجالَ وغيرُه يبنى القرى * شتّان بين مزارعٍ ورجالِ ٥

والحمـد لله الذى جعـل مالَه له مَسرّه ، يوم يَرَى الذين يكنِزون الذهبَ والفضّـةَ المـالَ عليهم حسره؛ ما أحسَب أحدا من هذه الأمّة إن كان عند الله[(١)] مِن أهلِ الشهاداتِ بين يديه، وإن كان كريمَ الوِفادة لديه؛ إلا تلقّاه شاكرا لهـذا السلطان شاهدا بمـا يُولى هذه الأمّةَ من الإحسان، "وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ" سيحصُد الزارعون ما زرعوا ، والله يزيده توفيقا إلى توفيقِـه ، ويلهم كلَّ مسـلم ١٠ [القيامَ][(٢)] بمفترَض برِّه ويعيذه من محذورِ عقوقِه؛ وأنا أعلم أنّ الحضرة تُفرِد لى شَطْرا من [زمانها المهمّ، لكتاب تُلقيه[(٣)] الىّ، وخبر سارّ تورده علىّ؛ وأنا أُفرد شطرا من] زمانى لِشكرِها، وأسرُّ واللهِ لهـا بتوفيقِ الله فى جميع أمرِها ، فإن الذّاكر لها بالخـير كثير ، فزاد الله طيبَ ذكرِها؛ ورأيه الموفَّقُ فى أن يُجرِيَنى على كنف العـادة ، و[لا][(٤)] يقطع عنى هذه المـادّة؛ إن شاء الله تعالى . ١٥

وكتب : ورد كتاب المجلس السامى — نصر الله عزائمَه، وأَمضَى فى رءوس الأعداء صوارمَه ، وشدّ به بنيانَ الإسلام ودعائمَه، وٱسترد به حقوقَ الإسلام من

(١) فى (ا) : « من عند » ؛ وقوله : « من » زيادة من الناسخ .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصول، والسياق يقتضى إثباتها إذ لم نقف فيما راجعناه من كتب اللغة على تعدية "ألهم" بالباء . ٢٠

(٣) هذه الكلمة لم ترد فى (ا) وقد أثبتناها عن (ب) .

(٤) فى (ا) : «ويقطع» بسقوط «لا» والسياق يقتضى إثباتها كما فى (ب) .

الكفر ومَظالمَه، وأخلف نفقاته فى سبيل الله ومَغارِمَه، وجعَلها مَغانمَه — وكان العهدُ به قد تطاول، والقلبُ فى المطالَبة ما تساهل، ولمحتُ أشغالَه بالطاعة التى هو فيها وما كلُّ من تَشاغَل تَشاغَل؛ فهنّأه الله بما رزقَه، وتَقبّلَ فى سبيل الله ما أنفقَه وعافى الجسمَ الذى أنضاه فى جهاد عدوِّه وأخلَقَه، وقد وُفّقَ مَن أتعبَ نفسا فى طاعة مَن خلَقَها، وجسما فى طاعة مَن خلَقَه؛ فهذه الأوقات التى أنتم فيها أعراسُ الأعمار، وهذه النفقاتُ التى تُجرَى على أيديكم مهورُ الحُور فى دار القرار؛ قال الله سبحانه فى كتابه الكريم: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وأما فلان وما يسّره الله له، وهوّنه عليه، مِن بذلِ نفسِه ومالِه، وصبرِه على المشقّات واحتمالِه، وإقدامِه فى موقف الحقائق قَبل رجالِه؛ فتلك نعمةُ الله عليه، وتوفيقُه الذى ما كلُّ مَن طلبَه وصل اليه؛ وسوادُ العجاج فى تلك المواقف، بياضُ ما سوّدتْه الذنوبُ مِن الصحائف "يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا" فما أسعدَ تلك الوقَفات، وما أعوَدَ بالطُّمأنينةِ تلك المرجِفات(١)؛ وقد علم الله سبحانه وتعالى منّى ما علم من غيرى من المسلمين من الدعاء الصالح فى الليل إذا يَغشَى، ومِن الذكر الجميل لكم فى النهار إذا تجلّى؛ والله تعالى يؤيّد بكم إيمانَكم، وينصُركم وينصر سلطانَكم، ويُصلحُكم ويصلح بكم زمانَكم، ويشكرُ هجرتَكم التى لم تؤثروا عليها أهليكم ولا أموالَكم ولا أوطانَكم؛ ويعيدُكم إليها سالمين سالبين، غانمين غالبين؛ إنه على كل شىء قدير.

وكتب: وصل كتاب الحضرة السامية — أيد الله عزمَها، وسدّد سهمَها وجعل فى الله همَّها، ووفّر فى الخيرات قِسمَها — مبشّرا بالحركة الميمونةِ السلطانيّة

(١) المرجفات من الإرجاف، وهو الزلزال.

إلى العدوّ خذله الله، ومَسِيرِ المسلمين — نصرهم الله — تحت أعلامه أعلاها الله؛ ومُباشرةِ العدوّ واستبشارِ المسلمين بما أسعدهم الله من الجراءة عليه، ومن إضمارِ العَودِ اليه؛ وهذه مقدّمةٌ لها ما بعدَها، وهى وإن كانت نُصرةً من الله فما نَقنَع بها وحدَها فالهِمّةُ العاليـةُ [السلطانيّةُ] للحربِ التى تَسلُب الأجسامَ رءوسَها، والسيوفَ حدّها؛ فإن الجنّة غاليةُ الثمَن، والخطابُ بالجهاد متوجّهٌ الى الملِكِ العادل دون ملوك الأرض وإلا فمَن؟ فهذه تُشترَى بالمشقّات، كما أن الأخرى — أعاذنا الله منها — رخيصةُ الثمَن وتُشترَى بالشهوات؛ والحضرةُ الساميةُ نعم القرين ونعم المعين، وفَرْضُ ذى اللّهجة المُبين، أن يستجيش ذا القوّة المتين، وكلمةٌ واحدةٌ فى سبيل الله أَنْمَى من ألوف المُقاتِلةِ والمئين؛ والله تعالى يوسّع إلى الخيرات طُرقَها، ويُطلق بها منطلِقَها، ويُمتع الإخوان بخُلقها الكريم فما منهم إلا من يشكر خُلقَها؛ ورأيُها الموفّقُ فى إجرائى على العـادة المشكورة مِن كُتبِها، وإمطارى من خواطرها، لا عدمتُ صَوبَ سحبِها.

ومن كتاب كتبه الى القاضى محيي الدين بن الزكىّ: بعد أن أصدرتُ هذه الخدمةَ الى المجلس — لاعَدِمتُ عواطفَه وعوارفَه، ولطائفَه ومعارفَه؛ وأَمتع الله الأمةَ عموما بفضائله وفواضـلِه، ونَفعَهم بحاضره كما نفعهم بسلفِه الصالح وأوائلِه، وعادى اللهُ عدوَّه ودَلَّ سهامَه على مَقاتلِه — [ورد كتابٌ[1] منه فى كذا وما بقِيتُ أذكر الإغبابَ، فإن سيّدَنا يقابله] بمِثلِه، ولا العتابَ فإن سيدنا يساجله بأَفيَض من سَجْلِه؛ ولا أُلقِى عليه من قولى قولا ثقيلا، ولا أقابِل به من قوله قولا جلياً

(١) التكملة عن (ب) ومسالك الأبصار.

جليلا؛ فقد شَبّ[1] عمرو عن الطَّوق، وشَرُف البُراقُ عن السَّوق؛ وذلك العمرو[2] ما برح محتنكا[3] والطَّوق للصَّبيّ، وذلك البُراقُ حِمى لا يقدَّم إلا للنّبيّ؛ ومع هذا فلا تُقلّص عنّى هـذه الوظيفه، وٱعتقِدْها مِن قُرَب الصحيفه؛ فإنك تسكِّن بهـا قلبا أنت ساكنُه وتَسرّ بها وجها أنت على النوى معاينُه.

٥ وكتب إلى العماد: كانت كتبُ المجلس — لا غيّر الله مابه من نِعَمه ولا قطع عنه مَوادَّ فضلِه وكرَمِه، ولا عَدِمت ٱلدنيا خَطَّ قلمِه وخطوَ قدَمِه؛ وأعاذنا الله بنعمة وُجودِه من شِـقوةِ عدَمه — تأخّرتْ وشقّ علىّ تأخُّرُها، وتغـيّرتْ علىّ عوائدُها والله يعيذها مما يغيّرُها؛ ثم جاءت ببيت ابن حجّاج:

غاب ما غاب ووافا * نى على ما كنتُ أعهدْ[4]

١٠ وأجبتُه ببيت الرّضىّ:

ومتى تَدنُ النوى بهمُ * يجدوا قلبى كما عَهِدوا

كتابةٌ لا ينبغى مُلكُها إلا لخاطـرِه السليمانىّ، وفَيضٌ لا يسـند إلا عن نُوح[5] قلمِه

(١) فى أساس البلاغة مادة «طوق» «جل»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين. وهـذا المثل لجذيمة الأبرش فى عمرو بن عدى، كما فى جمهرة الأمثال.

١٥ (٢) كذا ورد هذا الاسم فى الأصلين مقرونا بالألف واللام؛ ووجهه أنه نكر عمرا ثم أدخل عليـه حرف التعريف؛ ومنه قوله:

باعد أم العمرو من أسيرها * حراس أبواب على قصـورها

قال فى مغنى اللبيب ص ٥٠ مانصه: وقيل: «ال» فى اليزيد والعمرو للتعريف، وأنهما نكرا ثم أدخلت عليهما «ال» كما ينكر العلم اذا أضيف، كقوله: «علا زيدنا يوم النقا رأس زيدكم» اهـ.

٢٠ (٣) يقال: حنكته السن وٱحتنكته، اذا أحكمته التجارب.

(٤) فى (أ): «أعهده»؛ والهاء زيادة من الناسخ، إذ بها يختل الوزن؛ ولم نقف على هذا البيت فى يتيمة الدهر ضمن شعر ابن حجاج.

(٥) لعله: «إلى نوح» إذ هو مقتضى اللغة؛ أو لعله ضمن قوله: «يسند» معنى الأخذ والرواية فسوغ له هذا التضمين ذكر «عن» مكان «إلى» وعبارة مسالك الأبصار: «لا يصدر إلا عن» الخ وهى أظهر.

الطُّوفانىّ، أوجبت على كل بليغ أن يتلوَ، "وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِىَّ" وبالجملة فالواجب على كلّ عاقل ألّا يتعاطى ما لم يُعْطَه، وأن يدخل بابَ مجلس سيّدِنا ويقولَ حِطّه؛ فأما ما أفاض فيه من سكون الأحوال بتلك البـلاغة فقـد كدت أسكَر لمـا ٱستخرجتُـه من تلك المحاسن التى لو أن الزمان الأصمّ يَسمع لأسمعتْه، ولو أن الحظَّ الأشمّ يخضع لأخضعتْه؛ وبالجملة فإنه لا يُشنَأُ زمنٌ أبقَى من سـيّدِنا نعمةَ البقيّةِ التى مهما وُجدتْ فالخير كلُّه موجود، والمجدُ بحفيظته مشهود؛ وكما تيسّرتْ راحةُ جسمِه، فينبغى أن يقتدىَ به قلبُه فى راحة مِن همِّه؛ وأعراضُ الدنيا متاعُ المتاعب، وقد رفع الله قدره، وإلا فهـذه الدنيا وهدةٌ إليهـا مَصابُ المصائب؛ والحالُ التى هو الآن عليها عاكفٌ [إلا](١) مِـن عِلمٍ يدرُسُـه، وأدبٍ يقتبسُـه، وحريمٍ عقائلَ يذَبّ عنه ويحرسه؛ هى خير الأحوال، فالواجب الشكر لواهبِها، والمَسَرّةُ بالإفضاء إلى عواقبِها؛ وما ينقُص شىءٌ من المقسوم، وإن زاد عند المجلس فليس من حظِّه، ولكن من حظِّ السائل والمحروم؛ فلا يَسمح ٱلمجلسُ بكتابٍ من كتبِه على يدٍ من الأيدى التى لا تؤدِّى، ولا يؤمَن أن تكون أناملُها حروفَ التعدّى، وهى إحدى ما تعلّقتْ به الشهواتُ من اللذّات، وهو يُنعم بها على عادته فى كفِّ ضراوةِ القلب ودفعِ عاديتِه؛ موفّقًا إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى القاضى محيى الدين بن الزكىّ أيضا: كان كتابى تَقـدّم الى المجلس السـامى — أدام الله نفاذَ أمرِه، وعلوَّ قـدرِه، وراحةَ سرِّه ونعمةَ يسرِه؛ وأجراه على أفضل ما عوّدَه، وأسعد جَدَّه وأصعدَه، وأحضرَه أمثالَ العام المقبل وأشهدَه؛ ولا زال يلبَس الأيّامَ ويخلعها، ويستقبِل الأهلّة ويودّعها

(١) هذه الكلمة ساقطة من كلا الأصلين؛ والسياق يقتضى إثباتها.

وهو محروس فى دنياه ودينه ، مستلمٌ من نُوَب الدهر بدرع يقينه ، كاشفٌ لليل الخطبِ بنور جبينه ، وليومِ الجدب بفَيض يمينه ؛ وأعمالُه مقبوله ، ودعواتُه على ظهرِ الغمام محموله ؛ والدنيا ترعاه وهى تأتى[1] برغمِها ، والآخرةُ تُدّخَر له وهو يسعى لها سعيَها — من أيدى عِدّةٍ من المسافرين ، ولتقى بهم ما قَدّرتُ[2] أسماءهم ، ولِضيق صدرى بتأخير كتب المجلس ما حفظتُها .

وجاء منها : وما كأنا إلا أن دعونا الله سبحانه دعوةَ الأوّلين أن يباعد بين أسفارِنا ، وأردنا أن يقطع بيننا وبين أخبارِنا ؛ فأجيبت الدّعوه ، ولا أقول لِسابق الشّقوه ، ولكن لِلاحقِ الحُظوه ؛ فإن مكابَدَةَ الأشواقِ إلى الأبرار ، تَسُوق الى الجنّة ولا تَسُوق إلى النار ، وأُقسم انى بالاجتماع به فى تلك الدار ، أَبهجُ منى بالاجتماع به لو أُتيح فى هذه الدار ؛ فعليه وعلىّ من العمَلِ ما يَجمَع هنالك سلكَ الشمل ويصلُ جديدَ الحبل ؛ فثمّ لا يُلقِى العصا إلا من أَلْقَى[3] هنا العِصيان ، وهناك لا تَقِرّ العينُ إلا ممن سهِرتْ منه هاهنا العينان ؛ فلا وجه لجمع اسمى مع اسمه فى هذه الوصيّة مع علمى بسوء تقصيرى ، وخوفى من سوء مَصيرى ، ولكن لِيزيدَ سيّدُنا من وظائفه وعوارفه ، — فكلّ فعلِه تفضُّل من فضلِه — ما يخلّصنى بإخلاصه فإننى أستحقّ شفاعتَه لِشُفعةِ جِوارِ قلبى لقلبِه ، وهذا معنى ما بَعث على شُغل الكُتّاب به ، مع علمى باستقرار نفسه النفيسة ، إلا أنه — أبقاه الله — قد أَبعَد عهدى مِن كُتبِه بما يقع التفاوضُ فيه ، والمراجَعةُ عنه ؛ والخواطرُ فى هذا الوقت منقبضه ، والشواغلُ لها معترِضه ، وأيامُ العُمر فى غير ما يُفرَض من الدنيا للآخرة

(١) عبارة مسالك الأبصار : «وهو يأبى رعيها» ؛ وبها مع ما بعدها يتم السجع الذى التزمه القاضى فى رسالته .

(٢) فى (ب) : «قيدت» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٣) فى الأصل : "هنالك" ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

منقرِضــه؛ ومتجدِّدُ نَوبةِ بَيْروتَ قد غَمّت كلّ قلب، وهاجت المسلمين أشواقا الى المَلِكِ الناصر، وذكرَى بما ينفعه الله به من كلِّ ذاكر، وأَخَذَ الناسُ فى الترحّم على أوّلِ هذا البيت والدعاءِ للحاضر والآخر — وليس إن شاء الله بآخر؛ فما ادّخر المولى لهذه الحرب مجهودا، ولا فَلّتْ عسكرا مجرورا ولا مالا ممدودا

فإن كان ذنبى أنّ أحسَنَ مطلبى * إساءةٌ ففى سوء القضاء لىَ العــذرُ ٥

ومنه: وسـيّدُنا يستوصى[1] بالدار بدِمَشقَ فقد خَلتْ، وإنما الناسُ نفوسُ الديار؛ وأنا أعلم أن سـيّدَنا فى هذا الوقت مشدُوهُ الخاطر عن الوصايا، ومشغولُ اللسان بتنفيذِ ما ينفّذه ممـا هو متصب له من القضايا؛ فما فى وقتِه فضلةٌ ولكن فضْل، وسيّدُنا يُحسِن فى كلّ قضيّة مِن بَعد كما أَحسَن مِن قَبل؛ فهو الذى جعل بينى وبين الشام نَسَـبا [وأنشانى فيــه الى أن ادّخرتُ[2] عَقارا ونَشَبا] فعليــه أن يَرعى ١٠ ما أقناه[3]، وينفىَ الشّوكَ عن طريقِ اليدِ إلى جَناه؛ والجارُ إلى هذا التاريخ ما اندفع جَورُه، ولا أُدرِكَ غَورُه؛ يَعِدُ لسانُه ما تُخلف يدُه؛ ويدّعى يومه ما يكذّبه فيه غدُه؛ وأنا على انتظار عواقب الجائرِين، وقد عرف الغيظُ منّى ألفاظا مجهولةً ما كنت أسمح بأن أعرفها، وكشَفَ مستورا من أسـباب الحَرَج ما يسرّنى أن أكشـفها ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ وأَسْوَأُ خُلقا مِن السيّء الخُلق ١٥ مَن أَحوَجه إلى سوء الخُلق؛ وما ذكرتُ هـذا لِيُذكَر، ولا طويتُ الكتابَ عليه لِيُنشَر، والسرُّ عند سيّدنا ميتٌ وهو يَقضِى حقَّه بأن يُقبَر.

(١) فى الأصل: "يتوصى" بسقوط السين المهملة وتشديد الصاد؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من كتب اللغة.

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب). ليتم بها السجع الذى التزمه الكاتب فى أكثر ٢٠ رسالتــه.

(٣) أقنيت فلانا، إذا أعطيته ما يقتنى.

وكتب : أدام الله أيامَ المجلس وخصه مِن لطفِه بأوفر نصيب، ومنحه من السعادة كلّ عجيب وغريب، وأراه ما يكون عنه بعيدا مما يؤمّله أقربَ مِن كلّ قريب — الخادمُ يخدُم ويُنهِي وصولَ كتابٍ كريمٍ تفجّرتْ فيه ينابيعُ البلاغه، وتبرّعتْ [له] (١) بالحكم أيدى البراعه؛ وجادَ منه بسماءٍ مزيّنةٍ بزينةِ الكواكب، وهطَلَ منها لأوليائه كلُّ صَوبٍ ولأعدائه كلُّ شهابٍ واصب (٢)، وتجلّى فما الغِيدُ الكواعب، وما العقودُ فى التّرائب، وتفرّق منه جيشُ الهمّ فانظر ما تفعل الكتبُ فى الكتائب؛ وما وردَ إلا والقلب إلى مَوردِه شديدُ الظما، وما كُحِّلَ به إلا ناظرهُ الذى عَشِيَ عن الهدى وقَرُب من العمى؛ وما نار إبراهيم بأعظمَ مِن نورِه، ولا سرورُه — صلّى الله عليه وسلم — حين نجا أعظَمَ يومَ وصولِه مِن سرورِه؛ فحيّا الله هذه اليدَ الكريمةَ التى تَنهَلّ بالأنواء وتجزل سوابغَ النعماء؛ وتُعطِى أفضلَ عطاءٍ يسرّها فى القيامه، وتحُوز به أفضلَ أنواع الكرامه؛ فأما شوقُه لعبدِه فالمولى — أبقاه الله — قد أُوتِيَ فصاحةَ لسان، وسحَبَ ذيلَ العِيِّ على سَحبان؛ ولو أنّ للخادم لسانًا مُوات (٣)، وقلبا يقال له هِى هات (٤)؛ لقال

(١) هذه الكلمة ساقطة من كلا الأصلين؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) كذا فى كلا الأصلين ومسالك الأبصار؛ ولعله : « ثاقب » فإنه يريد الإشارة الى قوله تعالى : (الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وأما الوصف بالوصوب، أى الدوام واللزوم فقد ورد فى القرآن للعذاب لا للشهاب؛ قال تعالى : « ولهم عذاب واصب » .

(٣) كذا فى كلا الأصلين ومسالك الأبصار؛ والقواعد تقتضى إثبات يائه والوقوف عليه بالألف فيقال : « مواتيا » إلا أن السجع اقتضى أن يجرى الكاتب المقوص المنصوب مجرى المرفوع والمجرور فى الإعراب فيسكن ياءه ويحذفها فى الوقف؛ وهى لغة لبعض العرب ومنه قول الشاعر :

* ولو أن واش باليمامة داره * الخ البيت . والأصح جواز ذلك فى غير الضرورة؛ ومنه قراءة جعفر الصادق : من أوسط ما تطعمون أهاليكم بإسكان الياء انظر حاشية الخضرى ج ١ ص ٦١ طبع بولاق .

(٤) قال أبو الهيثم : يقولون عند الإغراء بالشىء : «هى هى» فاذا ينوا منه فعلا قالوا : هيهيت به، أى أغريته .

ما عندَه، وأذكرَ عهدَه ووُدَّه، وباح بأشواقِه، وذمّ الزمنَ على اعتياقِه، وأما تفضّلُه بكذا فالخادمُ ما يقوم بشكرِه، ولا يقدّرُه حقَّ قدرِه، وقد أحال[1] مكافأةَ المجلس على مليءٍ[2] قادر، ومَسرّة خاطرة عليه يوم تُبلَى السرائر، واللهُ تعالى يصلُه برزقٍ سنيٍّ يملأ إناه، ويُوضح هداه، ولا يُخلِي المجلسَ من جميلِ عوائدِه، ويمنحُه أفضلَ وأجزلَ فوائدِه إن شاء الله تعالى .

ومن مكاتباته يتشوّق الى إخوانه وأودّائه، ومحبّيه وأوليائه — كتب إلى بعضهم :

أأحبابَنا هل تَسمعون على النوى * تحيّـــةَ عان أو شكيّةَ عاتبِ
ولو حَملتْ ريحُ الشَّمال إليكمُ * كلاما طَلبْنا مِثلَه فى الجنائبِ

أصدر العبد هـذه الخدمة وعنده شوقٌ يَغُور به ويُنجد، ويستغيث من ناره بماء الدمع فيجيب ويُنجِـد، ويَتعلّل بالنسيم فيُغرِى نارَه بالإحراق، ويَرفع النواظرَ إلى السُّلوان فيعيدها الوجدُ فى قبضة الإطراق، أسفا على زمنٍ تَصرَّم، ولم يُبقِ إلا وجدا تَضرَّم، وقلبا فى يد البين المُشَتِّ يَتظلّم

ليالىَ نحن فى غفلات عيش * كأنّ الدّهر عنّـا فى وَثاقِ

فلاتَنفَّس خادمُه نفسا إلا وصَلَه بذكرِه، ولا أَجرَى كلاما إلا قيَّده بشكرِه، ولا سار فى قفرٍ إلا شبَّهه برحيب صدْرِه، ولا أَطلّ على جبل إلا احتقره بعلىّ قدرِه، ولا مرّ بروضةٍ إلا خالَها تفتّحت أزهارُها عن كريم خُلقِه ونسيم عطرِه، ولا أَوقد المصطَلون نارا إلا ظنّهم اقتبسوها من جمرِه، ولا نزل على نهر إلا كاثَر دمْعَه ببحرِه

(١) فى (ا) « جاءك » وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . والإحالة بالدين : نقله من ذمة إلى ذمة أخرى، والاسم الحوالة بفتح الحاء .

(٢) الملىء والملىّ بتشديد الياء : الغنىّ القادر، أو هو الحسن القضاء للدين .

سقى الله تلك الدارَ عَودةَ أهلِها * فذلك أَجدَى من سحاب وقَطْرِه

لئن جَمَع الشَّملَ المشتَّتُ شَملَه * فما بَعدَها ذنبٌ يُعَدّ لدهرِه (١١٨)

فكيف ترَى أشواقه بعد عامه * اذا كان هذا شوقُه بَعد شهرِه (١)

بعيدٌ قريبٌ منكمُ بضميره * يَرَاكم (٢) اذا ما لم تروه بفكرِه

٥ تَرحّل عنكم جسمُه دون قلبِه * وفارقكم فى جهره دون سرِّه

اذا ما خلتْ منكم مجالسُ ودِّه * فقد عَمَرَتْ منكم مجالسُ شكرِه

فياليل لا تُجلِبْ عليهم بظُلمة * وطلعةُ بدر الدين طلعةُ بدرِه

ونسأل الله تعالى أن يمنّ بقُربِه ورحابُ الآمال فسائح ، وركابُ الهموم طلائح والزمن المناظِر (٣) بالقرب (٤) مسامح ؛ هنالك تُطلَق أعنّةُ الآمال الحوابس ، ويهتزّ مخضرًا

١٠ من السعود عودٌ يابس

وما أنا من أن يَجمعَ الله شَملَنا * بأحسنِ ما كنا عليه بآيِس

وقد كان الواجب تقديم عَتْبِه ، على تأخيرِ كُتْبِه ؛ ولكنه خاف أن يجنىَ ذنبا عظيما ويؤلمَ قلبا كريما

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائلٍ * قليلٍ ولا راضٍ له بقليلِ (٥)

---

١٥ (١) كذا فى (ب) ومسالك الأبصار والذى فى (ا) «وان» وهو غير مستقيم .

(٢) فى كلا الأصلين : «يراد» ؛ وهو تحريف .

(٣) المناظر : المجادل .

(٤) بالقرب : متعلق بقوله : «مسامح» وقد ورد فى الشعر تعدية «سامح» بالباء ، قال الشاعر :

ولكن اذا ما جل خطب فسامحت * به النفس يوما كان للكره أذهبا

- انظر اللسان .

٢٠ (٥) البيت لكثير عزة الأغانى ج ١ ص ١٤٣ طبع دار الكتب المصرية .

وحاشى[1] جلاله من الإخلال بعهودِ الوفاء ، ومن انحلال عقودِ الصفاء، وما عهدتُ عزمَه القوىَّ فى حَلْبة الشوق إلا من الضعفاء، وحاشيةَ خُلُقِه إلا أرقَّ مِن مدامعِ غُرَماء الجفاء

من لم يَبِتْ والبينُ يصدع قلبَه * لم يدر كيف تَقلقُلُ الأحشـاءِ

وكتب أيضا فى مثل ذلك : كتَبَ مملوكُ المولى الأجلِّ عن شـوقٍ قدَحَ الدمعَ من الجفون شرارا ، وأَجرَى من سيل المـاء نارا ، واستطال واستطار فمـا تَوارَى أُوارا، ووجدٍ على تذكّر الأيام التى عَذُبتْ[2] قِصـارا، والليالى التى طابت فكأنما خُلقتْ جميعُها أسحارا

وبى غَمرةٌ للشوق من بَعـد غمرةٍ * أخوض بها ماء الجفون غِمـارا
وما هى إلا سَـكرةٌ بَعـد سكرةٍ * اذا هى زالت لا تزال نُمـارا
رحلتم وصبرى والشبابَ وموطنى * لقد رحلتْ أحبابُنـا تَتبـارى
ومن لم تصافح عينُـه نورَ شمسِـه * فليس يرى حتى يُراه نهـارا
سقى الله أرض الغُوطتين[3] مدامعى * وحسبكِ سُحْبا قد بعثتُ غزارا
وماخدعتْنى مصرُ عن طيبِ دارِها * ولا عوّضتْنى بعـد جارىَ جارا
أدارَ الصِّبا لا مِثلَ ربعك مَربَعٌ * أرى غيرَك الربعَ الأنيس قفـارا

(١) يقال : حاشاك وحاشى لك ، والمعنى واحد، كما فى الصحاح للجوهرى ؛ وحاشى : اسم على الصحيح مرادف للبراءة ،كما فى مغنى اللبيب فى الكلام على «حاشى» التنزيهية .

(٢) فى مسالك الأبصار : «التى ذهبت» .

(٣) المراد بالغوطتين هنا : أرض الغوطة ، وإنما ذكرها بالتثنية جريا على عادتهم من ذكر الواحد بلفظ المثنى ؛ والغوطة : هى الكورة التى منها دمشق ، استدارتها ثمانية عشر ميلا ، تحيط بها جبال عالية جدا ومياهها خارجة من تلك الجبال ، وتمد فى الغوطة فى عدة أنهر فتسقى بساتينها و زروعها و يصب باقيها فى أجمة هناك وبحيرة .

فما ٱعتضتُ أهلا بعد أهلِكِ جيرةً * ولا خلتُ دار المُلك بعدَكِ دارا

وما ضرّ اليدَ الكريمةَ التى أياديها بيض فى ظلمات الأيّام، وأفعالها لا يقوم بمدحها إلا ألسنةُ الأسنّةِ والأقلام ؛ لو قامت للودّة بشرطِها، ومحتْ[1] خطَّ الأسى بخطِّها ؛ وكَتبتْ ولو شطرَ سطرٍ ففرغتْ قلبا من الهمّ مشحونا، وأطلقتْ صبرا فى يد الكمد مسجونا ؛ ونزّهتْ ناظرَ المملوك فى رياضٍ منثورةِ الحُلى، وحلّت عهودَه بمكارمَ مأثورةِ العُلا

٥

وما كنت أرضى من علاك بذا الجفا * ولكنه من غاب غاب نصيبُه

ولو غيرُكم يَرمِى الفؤادَ بسهمِه * لَما كان ممن قد أصاب يصيبُه

ومالىَ فيمن فرق الدهر أُسوةٌ * كأن محبّا ما نآه حبيبُه

والمملوكُ مذ حطّت مصر أثقاله، وجهّز الشامُ رحالَه ؛ وألقت ٱلنوى عصاها وحلّت ٱلأوبةُ عُراها ؛ يكتب فلا يجاب، ويستكشف[2] الهمَّ بالجواب فلا ينجاب

١٠

يا غائبا بلقائه وكتابِه * هل يُرتجَى من غَيبتيك إيابُ

ومتى يصفِّى الله وردَ الحياة من التكدير، ويتحقّق بلقائه أحسنُ التقدير "وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ". (١٩)

وزمان مضى فما عُرِف الأوّلُ إلا بما جناه الأخيرُ

١٥

أين أيّامُنا بظلّك والشّمـ * ـلُ جميعٌ والعيشُ غضٌّ نضيرُ

(١) فى كلا الأصلين : «ومضت» ؛ وهو تحريف .

(٢) كذا ورد هذا الفعل فى الأصل بالسين والتاء ؛ ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال : «استكشف الهم» مثلا، بمعنى طلب أن ينكشف ويزول، كما هو المراد هنا ؛ والذى وقفنا عليه انه يقال : «استكشف عنه» اذا سأل أن يكشف له عنه ؛ وهذا المعنى لا يناسب ما هنا .

٢٠

وحوشى المولى أن يكون عَونا على قلبِـه ، وأن يرحل إثره الرِّىُّ على سربِه[1]، وأن ينسـيَه بإغبابِ الكُتبِ ساعاتِ قربه ، وأن يُحوجه الى إطلاق لسانه بما يصون السمعَ الكريمَ عنه من عَتْبِـه[2]؛ الأخ فلان مخصوصٌ بسـلام كما تفتّحتْ عن الورد كمائمُه ، وكما توضّحتْ عن القَطر غمائمُه

اذا سار فى تُرْب[3] تعرّف تربُها * بريّاه والتفّتْ عليهـا لطائمُه[4]

وقد تَبِـع الخُلُقَ الكريمَ فى الإغباب والجفوه ، وأعْدَتْ محزائمُه قلبَه فاستويا فى الغِلظة والقســوه

ان كنت أنت مُفـارقى * من أين لى فى الناس أُسوه

وهبْ أن المولى آشتغل — لا زال شغلُه بمَسارّه ، وزمنُه مقصورا على أوطارِه — فما الذى شـغله عن خليلِه ، وأَغفَله عن تَدارُك غليلِه ؟ هذا وعلائقُه قد تقطّعت وعوائقُه قد آرتفعت ؛ وروضـةُ هواه قد صارت بعـد الغضارة هشيما ، وعهودُه قد عادت بعد الغضاضة رميما

إن عهدا لو تعلمان ذميما * أن تناما عن مقلتى أو تُنيما

وما أَولى المولى أن يواصـل بكتبِه عبدَه ، ويجعل ذكرَه عقدَه ، ولا ينساه ويألَف بُعدَه ، ويَستبدل غيرَه بَعدَه .

وكتب أيضا :

أكذا كلُّ غائبٍ * غاب عمّن يحبُّـه

غاب عنه بشخصِه * وسـلا عنه قلبُـه

(١) لعله : «عن شربه» ؛ والشرب بفتح الشين المعجمة وسكون الراء : الجماعة يشربون .

(٢) فى (ا) : «غبه» ؛ وهو تحريف .

(٣) الترب : جمع تراب ، وهى الأرض ذات التراب . وهذا الجمع مطرد فى فعلاء مؤنث أفعل وفى مذكره .

(٤) اللطائم : جمع لطيمة ، وهى المسك .

ولو أن لى يدا تكتب، أو لسانا يُسْهِب، أو خاطرا يَستهِلّ، أو فؤادا يَستدِلّ، لوصفتُ إليه شوقا إن آستمسك بالجفون نَثَرَ عِقدَها، أو نزل بالجوانح أَسعَر وقْدَها، أو تَنفَّس مشتاقٌ أعان على نَفَسِه، وظنّه آستعاره من قبَسِه، أو ذكَرَ محبٌّ حبيبا خالَه خطَر فى خَلَدِه، وتَفادَى من أن يَخطُر به ذكرُ جَلَدِه

٥ حتى كأنّ حبيبا قَبل فرقتِه * لا عن أحبّتِه ينأى ولا بلدِه

بالله لا ترحموا قلبى وإن بلغتْ * به الهمومُ فهذا ما جنى بيدِه

ولولا رجاؤه أنّ أوقاتَ الفراق سحابةُ صيف تَقشَعها الرياح، وزيارةُ طيفٍ يَخلَعها الصباح؛ لآستطار فؤادُه كمدا، ولم يجد ليوم مسرّته أمدا؛ ولكنه يَتعلّل بميعاد لقياه، ويدافع ما أَعَلّه بلعلّه أو عساه

١٠ غِنًى فى يد الأحلام لا أستفيدُه * ودَينٌ على الأيّام لا أتقاضاهُ

ومن غرائبِ هذه الفُرقه، وعوارض هذه الشُّقّه؛ أنّ مولاى قد بخِل بكتابه وهو الذى يداوِى به أخوه غليلَ آكتئابِه، ويَستعدِيه على طارق الهمّ إذا لجّ فى انتيابِه

كمِثلِ يعقوبَ ضلّ يوسفَه * فاعتاض عنه بشم أثوابِه

١٥ وهبْ أنّ فلانا عاقه عن الكتب عائق، وآختدَع ناظرَه كمن هو فى ناضِر عيشٍ رائق؛ فما الذى عرض لمولانا حتى صار جودُ ودّه عَرَضا، وجَعَل قلبى لسهام إعراضه غَرَضا؟

بى منه ما لو بدا للشمس ماطلعت * من المكاره أو للبرق ما ومضا[1]

وما عهدتُه — أدام الله سعادته — إلا وقد آستراحت عواذلُه، وعُرِّى[2] به أفراسُ

(١) البيت لأبى العلاء المعرّى (سقط الزند).

(٢) لعله: «منه»؛ يشير بهذه العبارة الى قول زهير بن أبى سلمى:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله * وعرى أفراس الصبا ورواحله

الصِّبا ورواحلُه ؛ إلا أن يكون قد عاد إلى تلك اللُّجج ، ومرِض قلبه فما على المريض حرَج ؛ وأيًّا ما كان[1] ففى فؤادى اليــه سريرةُ شوقٍ لا أُذيعها ولا أضيعها ، ونفسى أسيرةُ غُلّةٍ لا أُطيقها بل أُطيعها

وانى لمشتاق اليــك وعاتبٌ * عليك ولكن عَتْبة لا أُذيعُها

والأخ النِّظام — أدامَ الله انتظام السـعد ببقائه ، وأعدانى على الوجد بلقائه — مخصوصٌ بالتحية إثرَ التحيّه ، ووَالَهْفى على تلك السجيّة السخيّه ؛ وردتُ منها البابلىّ معتّقا ، وظَلْتُ مِن أسرِ الهموم بلقائها معتَقا

خلائق إما ماءُ مُزنٍ بشُهْدة * أغادَى بها أو ماءُ كرْمٍ مصفّقا[2]

وقد اجتمعتْ آراء الجماعة على هجرانى ، ونسُوا كلَّ عهدٍ غيرَ عهد نسيانى

وما كنتمُ تعرفون الجفا * فبالله ممّن تعلّمتُمُ .

وكتب أيضا : إن أَخذ العبدُ — أطال الله بقاء المجلس وثبّت رفعتَه وبسَطَ بسطتَه ، ومكّن قدرتَه ، وكَبَتَ حسَدتَه — فى وصفِ أشواقه إلى الأيام التى كانت قصارا وأعادت الأيامَ بعدها طوالا ، والليالى التى جَمعتْ من أنوار وجهه شموسا ومن رغدِ العيش فى دارِه ظلالا

وَجدتُ اصطبارى بعدهنّ سفاهةً * وأبصرتُ رشدى بعدهنّ ضلالا

وإن أَخذ فى ذكرِ ما ينطق به لسانُه من وَلاءٍ صريح ، ويَعتقِده جَنانُه من من ثناءٍ فصيح[3]

(١) فى كلا الأصلين : «وأنى ما كان» ؛ وهو تحريف .

(٢) مصفقا ، نصب على الحال من "ماء" وهو من صفقت الشراب اذا حوّلته من إناء الى إناء آخر ليصفو .

(٣) الظاهر أن فى هذه الجملة والتى قبلها تقديما وتأخيرا فى بعض ألفاظهما ؛ ولعل الأصل فيهما هكذا : «ما ينطق به لسانه من ثناء فصيح ، ويعتقده جنانه من ولاء صريح» فان الثناء محلّه اللسان ؛ والولاء ، وهو المحبة ، محله القلب .

تَعاطَى مَنالا لا يُنال بعزمه * وكُلُّ ٱعتزامٍ عن مداه طليحُ

ولكنه يعـدِل عن هذين إلى الدعاء بأن يبقيَه الله للإسلام صـدرا، وفى سمـاء الملّة بدرا، وفى ظلماتِ الحوادث فجرا؛ وأن يَجمعَ الشَّملَ بمجلسه وعِراصُ الآمال مطـلوله (١) وسهامُ القُربِ على نحور البعد مدلوله، وعقودُ النوى بيَدِ اللّقاء محلوله؛ "وَمَا ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ بِعَزِيزٍ" (٢).

فقد يجمع الله الشَّتيتَين بعد ما * يظنّان كلّ الظنّ أن لا تَلاقِيا

وما رمت به النوى مراميَهَا، ولا سَلكتْ به الغربةُ مواميَهَا (٣)؛ إلا ٱستَنجَد شوقُه من الجفون هاميا، واستَدْعَى من الزَّفْرة ما يُعيد مَسلكَه من الجوانح داميا، وصدَرَ عن مَنهل المـاء العذبِ النمير ظاميا، وتَعلّل بالأمانى فى الٱجتماع "وآخر ما يبقى الإياس الأمانيا" (٤) (٥) والسلوةُ أن الطريقَ بحمد الله أسفرتْ (٦) عن فضل اجتهادِه، وفضيلةِ جهادِه؛ ونُصرةِ الإسـلام، وإعلاءِ الأعلام؛ وخدمةِ المجلس الفلانى — أعزّ الله نصرَه، وأسـعَد بها جَدَّه، وبلغ بها قصدَه، وأَمضَى فى الكفر حدَّه؛ وأَورَى بها للإسلام قَدْحا، وشَرُفتْ حديثا وشرحا، وأَجهَدت الأعداء إثخانا (٧) وجرحا

(١) المطلولة : التى نزل عليها الطل .

(٢) البيت لقيس بن الملوّح، وهو المعروف بالمجنون .

(٣) المواى : جمع موماة، وهى المفازة من الأرض .

(٤) فى (ب) «ولا ضر ما يبق» الخ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصول منصوبا؛ ولم يتضح لنـا وجه نصبه فان القواعد تقتضى رفعـه اذ هو خبر للمبتدإ وهو قوله : « وآخر» .

(٦) أسفرت بالهمز : تكشفت؛ وهو مستعار من قولهم : أسفر الصبح، أى انكشف وأضاء إضاءة لا يشك فيه، كما فى اللسان (ج ٦ ص ٣٦) .

(٧) الإثخان : المبالغة فى القتل .

وأبقَى بها فى جبهة الدهر أسطرا * اذاما ٱنمحَى خَطُّ الكواكب لاتُمحَى

اذا جاء نصرُ ٱلله فالفتحُ بَعـــدَه * وقـد جاء نصرُ الله فليَرقب ٱلفتحا

فأما الخادمُ فيودّ ألّا يزالَ لشرف محصِّلا ، ولتلك اليدِ الكريمةِ مقبِّلا ، وللغُرّةِ المتهلّلة كالصباح مستقبِلا

محيًّـا اذا حيّاك منـه بنظـرةٍ * فتحتَ به بابا من اللطف مُقفَلا ٥

ويرى أن خير أوقاته ما كان فيـه بالحاشية الفلانيّـة مكاثِرا ، وتحت ظلال ألويتِها سـائرا

فثَمّ ترى معنى السعادة ظاهرا * وثَمّ ترى حزبَ الهداية ظاهرا

والخادم يؤثر من المجلس المواصَلةَ بالمراسم[1] [التى يعُـدّ أيامَها[2] من المواسم]، ويقابل بهـا أوجهَ المسَارّ طَلقـةَ المباسم ، ويرتقبها ٱرتقابَ الصُّوّام للأهلّه ، والرُّوّادِ لمواقع السحائبِ المنهلّة . ١٠

وكتب عن الملك الناصر صلاح الدين الى تقى الدين بن عبد الملك :

سقى الله أرضَ الغُوطتين وأهلَهـا * فلى بجنوب الغُوطتين جنونُ

وما ذكرتْهـا النفسُ إلا اسـتفزّنى * الى طيبِ ماء النَّيْرَبين[3] حنينُ

وقد كان شكّى فى الفراق مروِّعى * فكيف أكونُ اليـوم وهو يقينُ ١٥

(١) المراسم والمراسيم : المكاتيب .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (ا) وقد أثبتناها عن (ب) .

(٣) المراد بالنيربين قرية نيرب ، وانما ذكرها الشاعر بالتثنية جريا على عادتهم من ذكر المفرد بلفظ المثنى ؛ وهذه القرية بدمشق على نصف فرسخ فى وسط البساتين وذكر ياقوت أنهـا أنزه موضع رآه ؛ وهذا الشعر لأبى المطاع وجيـه الدولة بن حمدان كما فى معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٥٥ طبع جوتنجن . ٢٠
وفى (ا) "النيرتين" ؛ وفى (ب) : « النيرين » ؛ وهو تصحيف فى كلتيهما .

كم جَهْدِ ما تُسلّى القلوب ، وتُسرّى[1] الكُروب ؛ لا سيّما إذا كان الذى فارقته أعلقَ بالأكباد من خِلْبِها[2]، وأقربَ الى القلوب من حُجُبِها ؛ وهل يَستروح إلا أن يَفُضّ ختامَ الدمع ، ويَخترِقَ حجابَ السمع ، ويستغيثَ بسماء العيون ذات الرَّجْع[3]، لتجودَ (١٢١) أرضَ الخواطر ذاتَ الصدع ؛ وهنالك أَوفَى ما يكون الشوقُ جندا ، وأَورَى ما يُورِى الوجدُ زندا

إلى زفرةٍ أو عَبرةٍ مستباحةٍ * لِهذى مَراحٌ عنده ولذى مَغدَى

وقد علم الله أنّى مذ فارقتُه مادعانى الذكرُ إلا لبّيتُه بجوابٍ من ماء الغليل غيرِ قليل ولا ذكرتُ خُلقَه الجميلَ إلا ورأيت الصبرَ الجميلَ غيرَ جميل

وغيرُ كثيرٍ فيه وجدُ كُثيِّرٍ * ولوعةُ قيس والتياحُ[4] جميلِ

أهيم برسمٍ فيك للجدِ واضحٍ * وهاموا برسمٍ للغرام مُحيلِ[5]

وقد كتبتُ اليه حتى كاد يشيب له المداد ، لو لم يَخلع عليه الناظرُ حلّةَ السواد وحبّةَ الفؤاد ، فما رَدّ ، وجارَ عن خُلقه الكريم فإنه قطّ ما وَدّ[6] وصَدّ ؛ وأُوثِرُ منه ألّا يحكّم الفراقَ علىّ فيَشتطّ ، ولا يمكّنَ اللوعةَ من مهجتى فتَخبِطَ[7]

فجُد لى بدرٍّ من بحارِك إننى * من الدمع فى بحرٍ وليس له شطّ

---

(١) تسرى بتشديد الراء : تنكشف .

(٢) الخلب بكسر الخاء : حجاب الكبد .

(٣) الرجع بفتح الراء : المطر بعد المطر .

(٤) الالتياح فى الأصل : العطش ، والمراد هنا شدّة الهيام والشوق . والذى فى الأصول : «وارتياح» ؛ وهو تحريف .

(٥) المحيل : الذى مضى عليه حول .

(٦) فى الأصول : «ما رد» بالراء ؛ وهو تحريف .

(٧) يقال : هو يخبط فى عمياء اذا ركب ما ركب بجهالة .

بكفٍّ بها للحرب والسـلم آيةٌ * فيُحيي لديها الخطَّ أو يقتُلُ الخطَّ[1]

ونسأل الله الرغبـة فى اجتماع لا يكدر وِردُه ، ولا يُنثَر عِقدُه ، ولا يعزُب عن آفاق الوفاق سعدُه

وما كان حُكمى أن أفارقَ أرضَكم * ولكنّ حُكم الله لسـنا نردُّه

وكتب عنه أيضا إلى عز الدين فَرّوخ شاه[2] :

أحبابَنا لو رُزِقتُ الصبرَ بَعدكُم * لَمـا رضيتُ به عن قربكم عِوَضا

إنى لَأَعجب أنّى بَعـد فرقتكم * ما صحّ جسمىَ إلا زادنى مَرَضا

أُنبِيكُم عن يقينٍ أنّ قلبىَ لو * أضحى مكانَ جناحَىْ طائرٍ نَهَضا

هـذا ولو أنّه بالعهـد فيك وفَى * لكان حين قضى الله الفراق قضى

كتبتُ — أطال الله بقاء المولى الولَدِ — عن قَريحةٍ قَرِيحه[3] ، و إنسانِ مقلةٍ جَرِيحٍ فى جَريحه ، ولوعةٍ صريحه ، وذكرةٍ اذا ذُكِر الصبرُ كانت طَريحه

وليـلٍ بطىءِ طلوعِ الصبا * حِ شوقا الى القَسَماتِ[4] الصَّبِيحه

أَبحتَ فؤادى وأنت المُبـاحُ[5] * وما كان مِن حقِّه أن تُبيحَه

وما أَصحبَتْ[6] فى قتال العـذول * أعِنّـةُ قلبٍ عليهـم جَموحَه

(١) فى (١) : «يقبل» بياء موحدة ؛ وهو تحريف .

(٢) كذا فى وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ طبع بولاق ؛ والذى فى كلا الأصلين : «فرخشاه» بدون واو .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من (ا) وقد أثبتناها عن (ب) إذ السياق يقتضيها .

(٤) القسمات : واحده قسمة بكسر السين وفتحها وهى الحسن ، أو أعلى الوجه ، أو ظاهر الخدين .

(٥) وأنت «المباح» ، أى أنت الفؤاد الذى أبحته .

(٦) أصحبت : انقادت بعد صعوبة .

مُعنًّى بريحِ شمالِ الشآم * لقد عذّب الله بالريحِ رُوحَه

فلا رَوح الله مِن قربِكم * فؤادى بخطرةِ يأسٍ مُريحَه

ولولا التعلّلُ بأبنية ألمنى الخادعه ، والنزولُ بأفنيةِ الأُسا[1] الواسعه ؛ لتصدّعتْ أكبادٌ وتفطّرتْ ، وتجدّلتْ[2] أفراسُ دموعٍ وتقطّرتْ[2]

٥ يا صاحبي إنّ الدموع تنفّستْ * فدَعِ الدموعَ تبيح ما قد أضمرَتْ

قد كنتُ أكتم عن وشاتى سرَّها * ولقد جرى طِرْفُ الحديث كما جرَتْ

لله ليلاتٌ قَرَنَّ بنجومِها * بل بدرَها بوجوهِ عيشٍ أقمرَتْ

أغلتْ على السُّلوان شوقُكم فما * باعت كما أمر الغرامُ مَن اشترَتْ

ومذ فارقتُ تلك الغرّةَ البدريّه ، والطلعةَ العزيزةَ العِزّيّه ؛ ما ظفرتُ بشخصِه نوما

١٠ ولا بكتابِه يوما

* فواعجبًا حتى ولا الطيفُ طارقا * !

وأعجِبْ[3] له فى الحرب نثرُ كتائبٍ * بكفٍّ أبتْ[4] فى السِّلم نظمَ كتابِ

يحاسبنى فى لفظةٍ بَعد لفظةٍ * ومعروفُه يأتى بغير حسابِ

ولو رضيتُ — وكلّا — بأن أحمل من هذا الجفاء كلّا ؛ لما رضِىَ به لخُلُقه (١٢٢)

١٥ الرَّضِىّ ، ولأخذ بقول الرَّضِىّ :

(١) الأسا بكسر الهمزة وتضم : جمع إسوة ، بالكسر والضم أيضا ، وهى ما يأتسى به الحزين .

(٢) تجدلت : من جدله بتشديد الدال وتخفيفها ، أى صرعه على الجدالة بفتح الجيم ؛ وهى الأرض . وتقطرت : من قطره ، اذا ألقاه على أحد قطريه ، وهما جانباه .

(٣) كذا فى كلا الأصلين ومسالك الأبصار ؛ وفى هذا البيت حذف المتعجب منه ، والأصل : «وأعجب به له» الخ والذى يفهم من حاشية الصبان على شرح الأشمونى ج ٣ ص ١٨ س ٢٧ أن ذلك الحذف سائغ لا شذوذ فيه ، إذ المدار على أن يدل عليه دليل .

(٤) فى كلا الأصلين : «أتت» بالتاء المثناة ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى مسالك الأبصار ؛ ويدل عليه سياق ما قبله وما بعده .

هبونى أرضَى فى الإياس بهجركم * أترضَى لمن يرجوك ما دون وصلِه (١)

والرغبةُ مصروفةُ العِنَانِ إلى الله أن يُبيح من اللقاء مَنيعا، و ينتجَ من اللّطفِ صنيعا

لو تأخذون بساعةٍ * من وصلِكم عُمرى جميعا

لرغبتُ فى أن تشترى * ان كنتَ ترضَى أن تبيعا

ومفارِقين مع الصِّبا * عزماً فهل أرجو الطلوعا (٢) (٣) ٥

أقسمتُ لو رجعوا لأعـ * ـقبَنى الصِّبا معهم رجوعا

هبْكم منَعتم [قُربكم] (٤) * ولبستُم بُعدا مَنوعا

أفتَمنعون بكم ضلو * عا قد شُفِين بكم وَلُوعا (٥)

ما غايتى إلا الدمو * عُ وأستقِلّ لك الدموعا

وكتب [أيضا رحمه الله تعالى] (٦) يتشوق : ١٠

فيارب إن البين أنْحتْ صروفُه * علىّ وما لى من معينٍ فكن معى

على قربِ عدّالى وبعدِ أحبّتى * وأمواهِ أجفانى ونيرانِ أضلعى

هذه تحيّةُ القلب المعذّب، وسريرةُ الصبرِ المذبذَب، وظلامةُ عزمِ السلوِّ المكذَّب؛ أصدرتُها الى المجلس وقد وَقدتْ فى الحشى نارُها، الزَّفيرُ أُوارُها، والدموعُ شرارُها، والشوقُ أثارَها وفى الفؤاد ثارُها : ١٥

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوان الشريف الرضى الموجود بين أيدينا .

(٢) لعله رغما بالراء المهملة والغين المعجمة .

(٣) كذا وردت هذه العبارة فى كلا الأصلين ؛ ولم يتضح لنا معناها ؛ ولعل الصواب : « فهل يرحوا الضلوعا » .

(٤) لم يرد هذا اللفظ فى (أ) وقد أثبتناه عن (ب) اذ لا يستقيم البيت بدونه . ٢٠

(٥) ولوعا مفعول ثان لقوله : «تمنعون» ؛ يقول : أفتمنعون الضلوع ولوعا بكم وشوقا اليكم وقد شفيت بقربكم فيما سلف .

(٦) لم ترد هذه العبارة فى (أ) .

لو زارنى منكم خيالٌ هاجرٌ * لَهَدتْه فى ظُلُماته أنوارُها

أسفًا على أيّام الاجتماع التى كانت مَواسمَ لسرور الأسرارِ، ومَباسمَ لثغورِ الأوطار؛ وتذكّرًا لأوقاتٍ عَذُب مَذاقُها، وعَذُب فراقُها[1]؛ ورَوّحتْ بُكَرُها، ورَوّعتْ ذكَرُها

والله ما نسيتُ نفسى حلاوتَها * فكيف أذكر أنّى اليوم أذكُرُها

ومذ فارقتُ الجنابَ النُّورىّ — لا زال جَنَى جنابِه نضيرا، وسنا سنائه[2] مستطيرا؛ وملكُه فى الخافِقَين خافق الأعلام، وعزُّه على الجديدَين جديدَ الأيام؛ لم أقفْ منه على كتاب يَخلُف سوادُ سطورِه ما غَسَل الدمعُ من سواد ناظرِى، ويقْدم[3] ببياضِ منظومِه ومنثورِه ما وَزّعه البينُ من سواد[4] خاطرِى

ولم يَبقَ فى الأحشاء إلا صُبابةٌ[5] * من الصبر تَجرِى فى الدموع البوادرِ

وأسأله المَناب[6] بشريف الجناب، وأداءَ فرض، تقبيلِ الأرض؛ حيث تَلتقِى وفودُ

---

(١) فى كلا الأصلين : «مراقها» بالميم؛ وهو تحريف .

(٢) السناء بالمدّ : الرفعة وعلو المنزلة، يقال منه : أسناه اذا رفعه .

(٣) كذا فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٧٥ والذى فى كتاب الفاضل من كلام القاضى الفاضل المأخوذ منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٨٨٨ أدب "ويغرم" بالغين المعجمة والراء وفى كلا الأصلين : "ويعزم بياض" الخ بالعين المهملة والزاى المعجمة؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى .

(٤) المراد بالسواد هنا، العدد الكثير، كما يفهم من سياق العبارة .

(٥) الصبابة بضم الصاد : « البقية » .

(٦) كذا فى (ب) وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٧٥؛ والمناب مصدر ميمى من النوب، أى أن ينوب عنه، كما يدل عليه سياق ما بعده . والذى فى (أ) : "المتاب" بالتاء المثناة؛ والمعنى عليه غير ظاهر .

الدنيا والآخره ، وتَغمُر البيوتَ العامرةَ المنُن الغامره ؛ ويظَلّ الظلُّ غيرَ منسوخ بهجيره ، ويُنشَر المجد بشخص لا تسمح الدنيا بنظيره

تَظاهَر فى الدنيا بأشرفِ ظاهرٍ * فلَم يُرَ أنقَى منـــه غيرَ ضميره

كفانِىَ عزًّا أن أسمّى بعبـــده * وحسبِىَ هَـذْيا أن أسير بنوره

فأىُّ أمـيرٍ ليس يشرف قدرُه * إذا ما دعاه صادقا بأمـــيره ٥

وإننى فى السؤال بكتبه أن يوصلها ليوصل بهـا لدى تهانئ تَملأ يدى ، ويُودعَ بها عندى مسَرّةً تقتدح فى الشكر زنْدى

عهدتُك ذا عهدٍ هو الوَردُ نَضرةً * وما هو مِثلُ الورد فى قصر العهدِ

وأنا أرتقِب كتابه ٱرتقابَ الهلال لتفطر عين عن الكرى صـائمه ، وتَرِدَ نفسٌ على موارد المـاء حائمه . ١٠

وكتب أيضا يتشوّق :

لاعَتْبَ أخشاه لِقطـعِ كتابِكم * وٱسمعْ فعذرى بَعده لا يُعتَبُ

مهما وجدتُك فى الضمير ممثّلا * أبدا تُناجينى إلى مَن أكتبُ

كَتَبَ عبدُ حضرة مولاه — حرس الله سموّه ، وأدام مزيدَ علائه ونموّه[1] ، وقَرَنَ بالمَسارّ رواحَه وغدوّه ، وكَبَت حاسدَه وأهلَك عدوّه — عن سلامة ما ٱستثنى فيها الدهرُ إلا ألمَ فراقِه ، وعافيةٍ موصولةٍ بمرضِ قلبٍ لا أرجو موعدَ إفراقِه[2] ١٥

لو لم يكن إنسانُ عيـنِى سابحا * لخشيتُ حين بكَيتُ مِن إغراقِه

(١) فى (أ) : « وسموه » بالسين المهملة ؛ وهو تحريف .

(٢) إفراق المريض : برؤه وإقباله .

وعندى اليه[1] وجدٌ يكلِّمُ الضلوع ، ويتكلّم بألسنة الدموع ؛ والنفسُ قريبةُ ٱستعبار، لِذكرِ أوقات السرور القِصار، وأنوارِها التى يكاد سنا برقِها يَخطَف ٱلأبصار[2] .

شهورٌ ينقضِين وما شَعَرنا * بأنصافٍ لهنّ ولا سَرارِ[3]

إذ العيشُ غضٌّ وَرِيق ، والمهجُ لم يتقسّمْها التفريق ، ولا سار منها إلى بلدٍ فريقٌ وبقىَ فى بلدٍ فَرِيق، ولا سقاها كؤوسَ وجدٍ للجفونِ المترَعةِ تُرِيق

ثَمِلتُ منها وما لى * سوى الغرامِ رَحِيق

وإلى الله الشكوى من شوقٍ فى الصّميم، وصبرٍ راحلٍ وغرامٍ لا يَرِيم، كأنّه غريم

زعموا أنّ مَن تَباعَد يسلو * لا ومُحيي العظامِ وهى رميمُ

ولقد ٱستغرَب وُصولَ الرفاقِ وقد صَفِرتْ مِن كتابِه الكريمِ عيابُهم، ولو زاره لَعدّه تحفةَ الخِصيصِ[4] بالتخصيص، وأدرَك به بُغْيةَ الحريص، ورأى للدهرِ المذنبِ مزيّةَ التمحيص، وَصالَ به على نوائبِ الأيامِ المتتابعةِ صولةً لا يجِدُ عنها من محيص

وحسِبتُنى لِوصولِه * يعقوبَ بُشِّر بالقميص

(١) كذا فى كلا الأصلين؛ ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على أنه يقال : "وجد اليه"؛ والذى يقال : "وجد به"؛ ولعله أراد بالوجد هنا معنى التشوق، فسوّغ له ذلك ذكر «إلى» مكان الباء .

(٢) فى كلا الأصلين : «بالأبصار»؛ والباء زيادة من الناسخ؛ أولعل أصل العبارة : «يذهب» بدل «يخطف» واذن فتثبت الباء؛ فان الكاتب يشير الى قوله تعالى فى سورة النور : «يكاد سنا برقه يذهب بالابصار» .

(٣) السرار بفتح السين وكسرها : الليلة التى يستسر فيها الهلال آخر الشهر؛ ونقل عن الأزهرى أن كسر السين فيها لغة ليست بجيدة عند اللغويين .

(٤) المراد بالخصيص، من خصصته بودّك؛ وقد راجعنا كتب اللغة التى بين أيدينا مادة (خص) فلم نقف على هذه الصيغة بهذا المعنى غير أننا وجدنا ٱستعمالها شائعا فى بعض كتب الأدب كمعجم الأدباء لياقوت، فقد قال فى ج ٥ ص ١٥٢ عن أبى الفرج الأصفهانى ما نصه : «وكان أبو الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى من ندماء الوزير أبى محمد الخصيصين به» الخ .

هنالك يَرتع فى تلك الرياض التى غصونُها أسطارُها، وشكلُها أطيارُها، وألفاظُها نُوّارُها، ومعانيها ثمارُها، وبلاغتُها أنهارُها، وجزالتُها تيّارُها

إن أظلمتْ للنفسِ فيها ليلةٌ * قمرُ المعانى عنـدنا سمسارُها (١)

ويتلقّاه قَبل يده بقلبِه، ويكاد يسبق ضميرَه إلى أكلِه وشربِه

ويظنّه والطرفُ معقودٌ به * شخصَ الرقيب بدا لعين محبّه (٢) ٥

وإذا ضنّ مولاه بمأثورِه، جاد عليه بميسورِه؛ ... (٣)

فكأنّنى أهـدَيتُ لِلشمسِ السّنا * وطرحتُ مابينَ المصاحفِ دِفترا

وعلى كلّ حالٍ فيسأله أن يواصلَه مِن مَراسِمِه بمـا ينتظره ناظرُه ليجد نورا، وقلبُـه ليستشعر به سرورا، وخاطرُه ليجعله بينه وبين الهمّ سُورا؛ وألّا يخلىَ رُفقةً من كتابٍ ولو بالقلائد القلائلِ من درِ أقلامِه، ودرارىّ كلامِه . ١٠

وكتب : لو آستعار الخادمُ — أدام الله نعمةَ المجلس — أنفَاس البَشَر كلاما، وأغصانَ الشجر أقلاما؛ وبياضَ النهار أطراسا، وسوادَ الليـل أنقاسا (٤)؛ ما عبّر عن الوجد الذى عبّرتْ عنه عَبَراتُه، ولا عن الشوق الذى لا يستثير مِثلُه مَعبَدًا (٥)

(١) المراد بالسمسار هنا، الدليل والهادى . وأصل معناه : المتوسط بين البائع والمشترى، أو هو السفير بين المحبين انظر القاموس . ١٥

(٢) كذا فى كلا الأصلين . ولعله : «الحبيب»، فان تشبيه كتابه بشخص الرقيب غير مناسب لما أراده من الآستبشار به، والتهلل لوروده؛ ويدل على ذلك أيضا قوله : "لعين محبه"؛ ولم نقف على هذا البيت فيما لدينا من المظان .

(٣) الظاهر أن هنا كلاما سقط من الناسخ إذ لا مناسبة بين معنى البيت وبين ما سبقه من الكلام؛ ولم نقف على هذه الرسالة فيما راجعناه من المظان . ٢٠

(٤) أنقاس : جمع نقس بكسر النون، وهو المداد .

(٥) هو أبو عباد معبد بن وهب؛ وقيل : ابن قطنى مولى ابن قطر؛ مغنّ معروف غنى فى أول دولة بنى أمية ومات فى أيام الوليد بن يزيد الأغانى ج ١ ص ٣٦ طبع دار الكتب .

إذا هَزِجتْ[1] فى الثقيل الأوّل نَبَراتُه[2]؛ أسفا على ما عَدِمه فى هذه الطريق، من ذلك المحيّا الطّليق، والخُلُقِ الذى هو بكل مَكرُمَـةٍ خليق، والصفاتِ التى يَحسُن بها كلُّ حُسنٍ ويليق، ويُعذَر كلُّ جفنٍ يَسفَح ذخيرتَه شوقا إليها ويُرِيق

قِفا أوخذا فى العذْل أىَّ طريقِ * فـما أنا مِن سكرِ الهوى بمُفيقِ
أما والهـوى إنّ الهوى لألِيّةٌ * يعظّمُها فى الحبِّ كلُّ مَشُوقِ
لو آنّ الهوى ممـا تصحّ هِباتُه * لقاسمتُ منه قلبَ كلِّ صديقِ

وما زار ناظرَ خادمِه الكرى إلا تَمثّـل له مولاه طيفا يَهُمّ أن يتعلّق بأذيالِه، وقَبِـلَ تمويهَ ناظرِه على قلبِه فى وصالِه

وَوَدَّ أن سـوادَ الليل مُدَّ له * وزاد فيه سوادَ القلبِ[3] والبصرِ

ولقد وَجَد طعمَ الحياة لِبعدِه مرّا، وقال بَعدَه للذّتَى العين والقلب: مُرّا

وها هو يرجو فى غدٍ [وعدَ][4] يومِه * لعـلّ غدا يأبى[5] لمنتظرٍ عـذرا

وإلى الله سبحانه وتعـالى يَرغب أن يجعلَه بالسـلامة مكنوفا، وصَرْفَ الحِدْثان عن ساحتِه مكفوفا[6]، وعِنانَ الصُّروف عن فِنائه مصروفا، ووُفودَ الرجاء على أرجائه عُكوفا؛ وأن يُمتِـع الوجهَ[7] بوصفه الذى هو أشرفُ مِن كلِّ وجهٍ موصوفا

---

(١) يقال: هزج المغنى بكسر الزاى المعجمة وهزج بتشديدها، اذا طرّب بتشديد الراء وترنم؛ والذى فى كلا الأصلين: «رهجت»؛ وفيه قلب وتصحيف.

(٢) كذا فى (ب) والذى فى (ا) «مراته»؛ وهو تحريف.

(٣) فى كلا الأصلين: "السمع"؛ وهو غير مستقيم؛ والتصويب عن سقط الزند، والبيت لأبى العلاء المعرّى

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) ولا يستقيم البيت بدونها.

(٥) فى الأصول: «يأتى»؛ وهو تحريف.

(٦) فى (ا): «مكنوفا» بالنون؛ وهو تحريف.

(٧) فى كلا الأصلين: «الوجد» بالدال؛ وهو تحريف.

مَن كان يُشرِك فى علاك فإنّنى * وجّهتُ وجهىَ نحوهنّ حنيفا

وقد كان (١) يَنتظر كتابا يشرّفه ويشنّفه، ويستخدمُه على الأوامر ويصرّفُه؛ ويَجتنِى ثمرَ السرور غضَّ المَكاسِر ويقتطفُه؛ فتأخّر ولَمْ يُحدِثْ له التأخيرُ ظنّا، ولا صرَفَه [عن] أن يَعتقِدَ أنّ مولاه لا تُحدث له الأيامُ بخلا بفضله ولا ضنّا

ولو تُصرَف السحْبُ الغزارُ عن الثّرى * لَمـا انصرفتْ عن طبعك الشّيمُ الحُسنى ٥

وهو يَنتظرُ مِن الأمرِ والنهيِ ما يكون عملُه بحسبِه، ويثبت له عهد الخدّام بنسَبِه (١٢٤)

ومِن عَجَبٍ أنّى أحِنّ إليهمُ * وأسألُ عنهم مَن أرَى وهمُ معى

وتَطلبُهم عينى وهُم فى سوادِها * ويشتاقهم قلبى وهُم بين أضلعى.

وكتب أيضا : كتبتُ والعبَراتُ تمحو السطور، ويُوقد ماؤها نارَ الصدور ويَهتِكُ (٢) وجدا كان تحت السّتور، ويُرسِل من بين أضلعى نفَسَ المَوْتور ١٠

قد ذَكرْنا عهودَكم بعـد ما طا * لت ليالٍ مِن بَعـدِها وشهورُ

عَجَبًا لِلقـلوبِ كيف أطاقتْ * بُعدَكم! ما القلوبُ إلّا صخـورُ

وما وردتُ المـاءَ إلّا وَجدتُ له على كبـدى وَقْدًا لا بَرْدا ، ولا تعرّضتُ لنفحات النسيم إلا أهدَى إلىّ جَهْدا، ولا زارنى طيفُ الخيال إلا وجدنى قد قطعتُ طريقه سُهْدا، ولا خَطِفَ (٣) لى البارقُ الشّامىُّ إلا باراه قلبى خُفوقا ووَقْدا ١٥

وأيسرُ ما نال مـنّى الغليـ * ـلُ ألا أُحِسَّ من المـاء بردا

---

(١) فى (أ) : « ومن » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (أ) : «ويهبك» بالباء الموحدة ؛ وهو تحريف .

(٣) « خطف لى » أى لمع لمعانا يخطف البصر .

فسقى الله دارَه ما شربتْ [من] (١) الغمام، وأيّامَنا بها وبُدورُ ليالى تلك الأيّامِ تَمام

ذُمَّ اللّيالىَ (٢) بَعد منزلة اللّوى * والعيشَ بَعد أولئك الأقوامِ (٣)

وكان قد وصل منه كتابٌ كالطّيف أو أقصرُ زَوْرا، وكالحبِّ أو أظْهرُ جَوْرا، والربيع أو أبْهرُ نَوْرا، والنجمِ أو أعلى طَوْرا، والماءِ الزلال أو أبْعدُ غَوْرا؛ فنثرتُ عليه قُبَلى، وجعلتُ سطورَه قِبلى (٤) بل قِبلى (٥)، ووردتُ منه مَوردا

أهلًا به وعلى الإظماءِ (٦) أنشُدُه * لو بَلَّ مِن غُلّى أبللتُ مِن عِلّى

إلا أنه — أبقاه الله — ما عزّزه (٧) بثان، ولا آنس غريبَه، وإنى وإيّاه غريبان

وكم ظلّ أو كم بات عندى كتابُه * سميرَ ضميرٍ أو جِنانَ جَنان

وأرغبُ إليه — لا زالت الرّغبات اليه —، وأسألُه — لا خَيّم السؤالُ إلا لديه —؛ أن يلاطِفَ بكتابه قلبى، ويمثّلَ لى بمثالِه أيّامَ قربى

---

(١) عبارة كلا الأصلين: «ما شربت الغمام» بسقوط «من» والسياق يقتضى إثباتها، كما فى مسالك الأبصار؛ يشير الكاتب بهذه العبارة الى قول الشريف الرضى:

سق منى وليالى الخيف ما شربت * من الغمام وحياها وحياك

انظر ديوان الشريف الرضى.

(٢) البيت لجرير انظر ديوانه ص ١٢٤ طبع المطبعة العلمية وقد روى البيت فيه هكذا

* ذم المنازل بعد منزلة الصبا * الخ البيت.

(٣) فى ديوان جرير: «الأيام» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

(٤) قبلى بكسر القاف وفتح الباء، أى تجاهى، ويجوز ضبطه بضم القاف وسكون الباء، أى قصدى تقول: أنا أقبل قبلك، أى أقصد قصدك.

(٥) قبلى، هو جمع قبلة بكسر القاف.

(٦) يريد أنه ينشد كتابه، أى يطلبه على اظمائه إياه، وقلة جدواه فى شفاء غلته، كما يدل عليه عجز البيت. وفى كلا الأصلين: «وعن الظماء»؛ وهو تحريف إذ المعنى عليه غير ظاهر.

(٧) عززه: من التعزيز، وهو التقوية والإعانة.

واللهِ لولا أنّـــنى * أرجو اللّقا لقضيتُ نحبى
هـذا وما فارقتُكم[1] * لكنّنى فارقتُ قلـبى .

وكتب جواب كتاب ورد عليه :

شكرتُ لدهرى جمعَـه الدارَ مرّةً * وتلك يدٌ عنـــدى له لا أُضيعُها
وطلعة مولانا يطالِـعُ عبـــدَه * وكلُّ رُبوعٍ كان فيها رُبوعُها
فؤادٌ ســـقاه لا يعـــودُ غليـلُه * وعينٌ رأتْه لا تَفيض دموعُها

ورد على الخادم كتابُ المجلس — أعلى الله سـلطانه وأثبتَـه ، وأرْغَم أنفَ عدوّه وكَبَتَه ، وأصماه بسهام أسـقامه وأصمَتَه ؛ ولا أخلَى الدنيـا من وجودِه ، كما لم يُخْلِ أهلَها مِن جودِه ، ولا عطّل سمـاءَ المجد من صـعودِه ، كما لم يُعطّل أرضَها من سُـعودِه — وهو كتابٌ ثانٍ يَثـنِى إليه عِنانَ الثنـاء ، ويَصِفُ لى حسنَ العهـد على التّناء ، ويَستنهِضُ الأدعيـةَ الصالحةَ فى الأطرافِ والآناء ، ويبشّرُ الخـادمَ بأنه وإن كان بعيـدَ الدارِ فإنه بمثـابة المقيم فى ذلك الفِنـاء ، وأن هـذه الخـدمةَ التى أنعم الله عليـه بهـا وَثيقـةُ الأسـاسِ على الدهر شامخةُ البنـاء ؛ فقام له قائمـا على قدمِه ، وسَجدَ فى الطِّرس ممثّلا سُجودَ قلمه ، واسترعى اللهَ العهدَ على أنه تعالى قد رعى ما أوْدعه فى ذمّة كرمِه ؛ وصارت له نَجْرانُ[2] علاقةَ خيرٍ صَرَفَ إليها وجهَه فكأنها قِبْله ، ودعا بنى الآمالِ إلى اعتقادِ فضلِ مالكِها فكأنّمـا يدعوهم إلى

(١) فى (أ) : «وما قد فارقتكم» ، و«قد» زيادة من الناسخ اذ بها يختل الوزن ، وهذا الشعر ينسب الى العينى من أهل مصر ، أو هو لظافر الحداد انظر خريدة القصر لعماد الدين الأصفهانى المأخوذ منه بعض أجزاء بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٥٥ أدب ، والعينى الذى ينسب اليه هذا الشعر غير الحافظ بدر الدين محمود العينى صاحب عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان .

(٢) كذا فى (ب) ؛ وقد وردت هذه الكلمة فى (أ) مهملة الحروف من النقط ، ونجران فى عدّة مواضع ، منها نجران فى مخاليف اليمن من ناحية مكة .

ملّه ؛ واللهُ يُوزِعُه شكرَ هذا الافتقادِ[1] على البِعاد، ولا يُخلِه من هذا الرأى الجميل الذى هو مَلجأُ الاستناد ؛ وعَقْدُ الاعتقاد ؛ والخادم لاينفكّ متطلّعا لأخبار المولى فتَرِده مُفْصِلةً ومُجْمِله، ومُفَصَّلةً ومُجْمَلَه ؛ ويَعرِف منها مايَعرِف به مَوْقعَ اللطف بالمولى فى أحوالِه ، ومكانَ النجح فى آمالِه ؛ وأنّه بحمد الله فى نعمةٍ منه — لاغيَّر اللهُ مابه منها ، ولا صَرَفَها عنه ولا صَرَفَه عنها — فيجدِّد لله الشكرَ والحمد ، ويبلِّغه مايَبلُغه منها المرادَ والقصد ؛ ونسأل الله ألّا يخلىَ الدولةَ الناصريّةَ منه ناصرا لسلطانِها، وعينا لأعيانِها ؛ وسيفا فى يدِ الإسلام يناضِل عن حقِّه ، وفرعا شريفا يَشهد مَرآه بشرف عِرقِه ؛ والرأى أعلى فى إجرائه على ما عُوِّد مِن هذا الإنعام ، وزيادته شرفا بالاستنهاض — إن صَلَح له — والاستخدام .

ومن جواب آخر : وَرَد كتاب المجلس — أدام الله وارداتِ الإقبال على آمالِه ، و[لا] سَلَبت[2] الأيامُ نعمتَى جميلِه وإجمالِه ، ولا انحطّ قدرُ بدرِه عن درجتَى تمامِه وكمالِه ، وأحسن جزاءه عن ميثاق[3] الفضل الذى نَهَض باحتمالِه — ووقفتُ منه على ما لا يَجِدُ الشكرُ عنه مَحيدا ، وآنستُ[4] به القلبَ الذى كان وحيدا ، وعَددتُ يومَ وصوله السعيد عيدا ، ووردتُ منه بئرا معطَّلةً[5] وحللتُ قصرا مَشيدا ؛ ولا يكلّف الله نفسا إلّا وُسعَها ، وتلك الغايةُ ليست فى وُسعى ، ولا تَعلم نفسٌ إلا ماطَرَق سَمْعَها ، وتلك المحاسنُ ماطَرَق مِثلُها سمعى ، ولا تتناول يدٌ إلّا ماوسِعه ذَرْعُها ، وهذه الأوابدُ الأباعدُ ماطالها ذراعى ولا استَقَلّ بها ذَرْعى .

(١) افتقده وتفقده : طلبه عند غيبته .

(٢) فى (أ) : « وسلبت » بسقوط « لا » ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٣) فى كلا الأصلين : « ميقات » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (أ) : « وأنسيت » ؛ وهو تحريف .

(٥) تعطيل البئر ؛ ألا تورد كما فى أساس البلاغة ؛ يريد أنها صافية الماء عذبة المورد لقلة الزحام عليها المكدر لها .

ومن آخر : خلّد الله أيّام المجلس ، وعضّد الملّة الحنيفيّة منه بحاميها ، والأركانَ الإسلاميّةَ من سيفه بشائدها وبانيها ، وأمتع الدولةَ المحمديّةَ بعزمته التى حسُنتْ الكفايةُ بها ، فلا غرو أن تحسُن الكفايةُ فيها ؛ ولا عدِمت الدنيا نضرةً بأيّامه النّضيره ، والدينُ نُصرةً بأعلامِه النصيره ؛ الملوكُ يقبّل الترابَ الذى يوماً يستقرُّ بحوافر سَيْله[1] ، ويوما يستقرّ بحوافر خيلِه — فلا زال فى يوم السِّلْم جُوده سحابا صائبا ، ويومِ الحربِ شهابا ثاقبا — ويُنهِى أنه وردتْ عليه المكاتبةُ التى استيقظتْ بها آماله من وسَنها ، وأفادته معنًى من الجَنّة فإنها أذهبَتْ ما بالنفوس من حَزَنِها ، وتلقّى الملوكُ قُبلَها[2] بالسجود والتقبيل ، وتحلّى بعقودِ سطورِها فهيهات بعد هذا شكوى التعطيل ؛ واكتحَلَ من داء السهد بإثمِدها[3] ، وأدار على الايّامِ كأسَ مَرقَدِها[4] ، وأسمعتْه نغَمُ النِّعمِ التى هى أعجبُ إلى النفس من نَغَمات مَعْبَدِها ، وأطالت الوقوفَ عليها رِكاب طَرْفِه [فما وقوفُ ركابِ طَرَفَةَ[5]] ببُرْقَةِ ثَهمَدِها[6] ؛ وضَرعَ إلى من يشفّع وسائلَ المتضرّعين ،

(١) الحوافر جمع حافرة ، وهى الأرض المحفورة ، كما قاله الأزهرى .

(٢) القبل بضم القاف وسكون الباء الموحدة : الوجه انظر اللسان .

(٣) الإثمد بكسر الهمزة والميم : الكحل الأسود . ويقال إنه معرب . قال ابن البيطار فى المنهاج : هو الكحل الأصفهانى ، ويؤيده قول بعضهم : ومعادنه بالمشرق . وهو هنا مذكور على سبيل الاستعارة والتمثيل .

(٤) يريد أنه بهذه الرسالة قد أنام الأيام عن محاربته وأغفلها عن الكيد له .

(٥) التكملة عن (ب) ومسالك الأبصار .

(٦) البرقة والبرقاء : أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل ، وجمعها برق بضم الباء وفتح الراء وبراق بالكسر انظر اللسان . وفى معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٥٧٩ طبع جوتنجن أن (برقة ثهمد) لبنى دارم وذكر فى ج ١ ص ٩٤٢ فى الكلام على (ثهمد) نقلا عن نصر أن ثهمد جبل أحمر حوله أبارق كثيرة فى ديار غنى ؛ ونقل عن غيره أن ثهمد موضع فى ديار بنى عامر . وقد أشار الكاتب بهذه العبارة الى قول طرفة ابن العبد فى مطلع معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد * تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

ويملأ مواقعَ آمالِ المتوقّعين، أن يَغُلّ عنه كلَّ يدٍ للخطوب بسيطه، ويفكّ به كلَّ رِبْقةٍ(١) للأيّام بأعناق بَنيها(٢) محيطه .

ومن آخر : رفع الله عمادَ الإسلام ببقاء المجلس، وبَسَط ظلَّه على الخلق، ومَلَّك يدَه الكريمةَ قصَبَ السَّبق، وجَمَعَ بتدبيره بين ناصيتَى الغربِ والشرق، وألَّف لقدرته طاعتَى الجهرِ والسرّ، وصَرَّف بعزمته زمامَى النَّهى والأمر، وأحرَزَ لجَدِّه مَسَرَّتَى الأجرِ والنصر، وقَطَّ(٣) بفتكته شوكتَى النفاقِ والكفر — وَردتْ على المملوك مكاتبةٌ كريمةٌ رَفَعها حيث تُرفع العمائم، ومَدَّ اليدَ اليها كما تُمَدّ إلى الغمائم، وفَضَّها، بعد أنْ قَضَى باللثم فرْضَها، واستمطَرتْ نفسُه سماءها فأرضتْ أرضَها، وكاد المملوكُ يَتأمّلها لولا أنّ دمعَ الناظرِ إلى العين سبَقَه، على أنه دمعٌ قد تلوّن بتلوُّنِ الأيّامِ فى فِراقه، فلو فاض لَعَصْفَرَ(٤) الكتابَ وخَلَّقه(٥)، فلا أعدمه الله المولى حاضرا وغائبا، ومُشافِها ومُكاتِبا، وأحلّه(٦) فى جانب السعادة ويَعِزّ على المملوك أن يَحُلّ من مولاه جانبا .

ومن آخر : ورد كتابُه ووقفتُ على ما أودَعه مِن فضلِ خطٍّ وفصلِ خِطاب، وعقائلِ عقولٍ ما كنّا لها من الأكفاء وإن كنّا مِن(٧) الخُطّاب، وآثار أقلامٍ

(١) عبارة كلا الأصلين « كل رقبة للانام » الخ وهو تحريف لايستقيم به المعنى، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا، ويعينه قوله : « محيطة » .

(٢) هذه الكلمة فى (أ) مهملة الحروف من النقط .

(٣) القط : القطع عامة .

(٤) يقال : عصفرت الثوب، أى صبغته بالعصفر، وهو نبات سلافته الجريال، وبذره القرطم وهو ريفى وبرى، وكلاهما ينبت بأرض العرب .

(٥) خلقه بتشديد اللام : طلاه بالخلوق، وهو طيب يتخذ من الزعفران وغيره .

(٦) وأحله، أى وأحل المملوك؛ يريد الدعاء لنفسه بأن ينزله الله فى جانب السعادة، أى جانب المكتوب اليه .

(٧) فى كلا الأصلين : « وان كانت » وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا؛ فان الخطّاب جمع خاطب، كما فى اللسان .

تُناضِل عن المِلّة نضالَ النِّصال، وكأنها فضلُ سبقٍ[(١)] لما تحُوزه مِن حقِّ السَّبقِ وخَصلِ[(٢)] الخصال؛ فأُعيـذَ الإسلام مِن عَدَمِه، ولا عدِمَ بَسطةَ قلمِه، وثبوتَ قدمِه؛ فإنه الآن عينُ الآثار، وأثرُ الأعيان، وخاطِرُ الحِفظِ إلا أنّ الخطوب تَصحب فيه خواطرَ النِّسيان؛ ولَئِنْ اهتَصَر الدهرَ سَطْوا[(٣)]، واختَصَر خطْوا[(٤)]؛ وإنه سيفُ يمـانٍ إن قَدُم عهدا، فقد حَسُن فِرِندا[(٥)]، وخشن حدّا؛ وأجرَى نهرا، وأورَى شررا؛ واخضرّ نجيلَه، وقَطَع الأيّامَ جيلَه؛ وضارَب الأيّامَ فأجفَلَتْ[(٦)] عن مضاربه ضرائبُها[(٧)]، وشَرَدَتْ عن عزمه غرائبُها؛ ولبِسَها حتى أنهجتْ[(٨)] بَواليَا، ثم اختار منهـا أياما وأبى أن يلبسها لياليَا؛ لا جرم أن صحيفتَه البيضاءَ شعارُ شِعرِه، وروضة علمه الغنـاء[(٩)] قد جاءت أنوارَ نَورِه، وزواهرَ زهرِه؛ فالزمانُ لا يعدو عليه بزمانة تعدُو، ولا يتجاوز أوقاتَه إلّا مَوسُومَةً بمحاسنه ولا يعـدو؛ حتى يَمُتَّ إليه[(١٠)] عدوٌّ يلتفِت[(١١)] أمس، ويَروِىَ اليـومَ

(١) يريد، السبق الى الإسلام الذى كان من مفاخر بعض الصحابة رضوان الله تعـالى عليهم، كعلىّ ابن أبى طالب وأبى بكر وغيرهما .

(٢) الخصل : الخطر الذى يتراهن عليه فى الرمى ؛ يقال : أحرز فلان خصله، والمعنى أنه غلب . والخصال : مصدر خاصله، اذا راهنه فى الرمى .

(٣) فى كلا الأصلين : «سطورا» وهو تحريف ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا ؛ واهتصر الدهر جذبه وأماله ؛ ومن نعوت الأسد المهتصر .

(٤) واختصر خطوا : نأية عن الوثب، فإن الواثب يقل الخطو الى غايته .

(٥) فرند السيف : جوهره .

(٦) أجفلت : نفـرت وأسرعت فى الهرب . وفى كلا الأصلين : « وأحفلت » بالحاء المهمـلة وهو تصحيف .

(٧) الضرائب : جمع ضريبة، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . وإنمـا ثبتت فيه التاء مع أنه بمعنى المفعول لأنه صار فى عداد الأسماء .

(٨) يقال : أنهج الثوب، إذا أخذ فى البلى .

(٩) فى كلا الأصلين : « الخنا » وهو تحريف لا يظهر له معنى .

(١٠) فى كلا الأصلين : « عليه » وهو تحريف .

(١١) يلتفت، أى ينصرف عنه ويعرض .

أنّ قرابتَه مِن فضلِه أَمَسّ؛ واللهُ يعلم أنّى لَأَرَى له ولا أَرَى فيه، وأُسُدّ عنه كلَّ خَرْقٍ تَعجِز عنه يدُ رافِيه؛ ضنًّا بالصدور أن تخلوَ من صدرٍ كقلبِها، ومحاماةً عن حقوقِ تَقدِمتِه التى أَوجبَها أن تُعارَض بسَلْبِها .

ومن آخر : وصل كتابُ الحضرة فجعَل مستقَرَّه النِّعمةَ فى الصدور، وأخرجتْنى ظلماتُ خطِّه إلى نور السرور؛ ووقفتُ وكأنّى واقف على طللٍ من الأحبّةِ قد بكَى عليه السحابُ بِطَلِّه، وابتَسَم له الروضُ عن أخبار أهلِه وآثارِ منهلِّه؛ فلم أزل أرشُف مسكَ سطورِه ولَماها، وأنزِّهُ العينَ والقلبَ بين حسنِها وجَناها؛ وأُطلِقُ عِنانَ شوقٍ جَعلتُ الأقلامَ له لُجُما، وحسِبتُ النَّفَس ليلا، والكتابَ طيفا، والوقوفَ عليه حُلُما؛ إلى أن قضت النفوسُ وَطَرا، وحَمَلتْ الخواطرُ خطرا، وقرنت[1] بما ظنّه سحابا ما ظنّه مطرا؛ هذا على أنه قريبُ العهد بيدِ النَّعماء، فإن هَرَبَ فمن ماءٍ إلى ماء .

ومن آخر : فلمّا وقف على الكتابِ جَدَّدَ العهدَ بلَثمِه ما لَم يصِلْ إلى اليد [التى][2] بعثَتْه، وشَفَى القلبَ بضمِّه عوضا عن الجوانح التى نفثَتْه

وأين المطامعُ مِن وصلِه * ولكن أعلِّلُ قلبا عليلا .

ومن آخر : وصلَ كتابُه، وكان من لقائه طيفا إلا أنه أَنِس بالضُّحى، وأثار حربَ الشوقِ وكان قطبَ الرَّحَى

تَخطَّى إلىّ الهولَ والقفرُ دونه * وأخطارُه لا أَصغَرَ اللهُ مَمشاه .

(١) فى كلا الأصلين : « وقرنته » ؛ والهاء زيادة من الناسخ .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من (ا)؛ والسياق يقتضي إثباتها، كما فى (ب) .

ومن كلامه رحمه الله يصف بلاغة كتاب، قال : كتابٌ إلى نحرى ضممتُـه، وذكرتُ به الزمنَ الذى ما ذممتُه، وأكبرتُ قدرَه فحين تسلّمتُه [أستلمتُه](١) وآلتقطتُ زَهْرَهُ فحين لمحتُـه آستملحتُه، وامتزج بأجزاء نفسى فحين لحظتُه حفظتُه ؛ وجمعتُ بينه وبين مستقرّه من صدرى ، وآستطلتُ به مع قِصره على حادثات دهرى، وجعلتُ سِحرَه بين سَحْرى(٢) ونَحرى ، وآستضأتُ به ورَشَفتُه فهو نهارى وهو نَهرى ؛ فإن أردتُ العِطرَ بلا أثرٍ أمسكتُ مِسكَه بيدى، وإن أردتُ السكرَ بلا إثمٍ أدرتُ كأسَـه فى خَلَدى ؛ فلله أناملُ رَقَمْتـه، ما أشرفَ آثارَها ! وخواطرُ أملتـه، ما أشرقَ أنوارَها ! ولم أزل متنقلا منـه بين روضةٍ فيهـا غدير، وليلةٍ فيهـا سمير ؛ وإمارةٍ لها سرير، ومَسَرّةٍ أنا لهـا طليقٌ أسير، ونعمةٍ أنا لهـا عبدٌ بل بهـا أمير، حتى أدبرتْ عنى جيوشُ الأسى مفلوله، وقَصُرتْ عنّى يدُ الهمّ مغلوله ؛ ومُلئتْ منّى مسامعُ المكارم حمـدا، وخواطرُ الصنائع ودّا ؛ وحطّ الأملُ بربعى رحلَه، وأنبتَ الربيعُ بفِنائى بَقْـلَه ؛ ولبستُ من الإقبال أشرفَ خلعه، ووردتُ من القبول أغزرَ شِرْعه، وآنتجعتُ من رياض الرجاء أرجى نُجْعه .

وقال أيضا من آخر : هذا مِن عفـوِ الخواطر، فكيف إذا استدعى المجلسُ خَطّيّـةَ(٣) خطّه فجاءت تَعسِل(٤)، وحَشَدَ حُشودَ بلاغتـه فأتت من كل حَدَبٍ(٥) تَنسِـل ! .

(١) هذه الكلمة ساقطة من (أ) وقد أثبتناها عن (ب) إذ السياق يقتضى إثباتها ؛ ويرشد إليها أيضا ما يأتى فى الجملتين اللتين بعدها، والمراد بالاستلام هنا، التقبيل، تشبيها له بالحجر الذى يستلمه الحجيج .

(٢) السحر بفتح السين وسكون الحاء المهملة وفتحها : الرئة، أراد ما يحاذيها من الصدر .

(٣) الخطية : رماح تنسب الى الخط، وهو مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح لأنها تحمل إليه من الهند فتباع به .

(٤) عسل الرمح عسلا وعسلانا : اشتدّ اهتزازه وآضطرب .

(٥) الحدب بفتحتين : الغلظ المرتفع من الأرض . وتنسل : تسرع .

ومن آخر : ورتع فى رياض بلاغته التى لم يقتطفهن من قبله غارس ولا جان ، واجتلى الحور المقصورات فى الطروس التى لم يطمثهن[1] إنس قبله ولا جان ؛ وغنى بتلك المحاسن غنى خيرا من المال ، واعتقد[2] فيها كنوزا إذا شاء أنفق منها الجمل ، وإذا شاء أمسك منها الجمال .

٥ وقال أيضا : كتاب اشتمل على بديع المعانى وباهرها ، وزخرت بحار الفضل إلا أننى ما تعبت فى استخراج جواهرها ؛ بل سبحت حتى تناولتها ، وجنحت إلى فما حاولتها ؛ واقتبست من محاسن أوصافه ، وبدائع أصنافه ؛ نكتا استقلت أجسادها بالارواح ، وزهيت جيادها بما فيها من الغرر والأوضاح ؛ فيالله من بدائع وروائع ، ولطائف وطرائف ! فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ،

١٠ وما يقرط الأسماع[3] ويقرط الألسن ؛ فكأنه طرف[4] طرف[4] صوبه مدرار ، وعلم علم منصوب فى رأسه نار ؛ صحح السحر وإن كان ظنا ، وفضح الدر إذ كان أبرع معنى ، وأسنى حسنا ، وأدنى مجنى ، وأغنى مغنى ؛ فما ضره تأخير زمانه ، مع تقدم بيانه ؛ ولا من سبقه فى عصره ، مع أنه قد سبق فى شعره .

(١٢٧)

---

(١) الطمث : الافتضاض ، وبابه نصر وضرب .

١٥ (٢) اعتقد : أحرز واقتنى .

(٣) يقرط الأسماع ، أى يحلى به الأسماع كما تحلى الآذان بالأقراط ، وهو جمع قرط بضم القاف ، وهو ما يعلق من الحلى فى شحمة الأذن . (ويقرط الألسن) من التقريط ، وهو التقطيع ؛ أو هو من تقريط الفرس ، وهو إلجامه ؛ والمراد أن ما فى هذا الكتاب من البلاغة يقطع الألسن عن معارضته ويلجم الأفواه عن مساجلته ؛ وفى الأصول : «يفرط» بالفاء الموحدة فى كلا اللفظين ؛ وهو تصحيف لا يظهر له معنى .

٢٠ (٤) كذا فى كلا الأصلين ؛ ولم نجد من معانى هاتين الكلمتين ما يناسب سياق ما هنا ؛ ولعل صواب العبارة : «فكأنه قطر قطر» الخ فالأولى مصدر قطر الماء يقطر ، اذا سال . والثانية بمعنى المطر ، كما تدل على ذلك بقية الجملة .

ومن آخر : ولله هو من كتابٍ لمّا وقفتْ عليه الغُلّةُ شَفاها ، ورأت وِرْدَها كلَّ ماءٍ غيره سَفاها[1] ، ووطأ مضاجعَ أُنسِها بعد أن كان الشوقُ يُقلّب[2] الجنوبَ على سَفاها[3] ؛ فلا عدم ودّها الذى به عن كلّ مودّةٍ سُلوة ، ولا برحت كفايةُ الله تُحلّها فى الذّرا وتُعلى قدرَها فى الذُّروه ، ولا فقد مما يُنعِم به أىَّ نعمه ، ولا مما يُنشيه أىَّ نشوه .

ومن آخر : كتابٌ كريمٌ تبسّم إلىّ ضاحكا ، وظُنّ مدادُه أنه قد جلا سَطرُه علىّ حالكا ؛ فما هو إلّا سوادُ الحدقة منه انبعثت الأنوار ، وما هو إلا سُويداءُ[4] ليلة الوصلِ اشتملتْ على دجًى تحته نهار ، فلله هو مِن كتابٍ استغفر الدهرُ ذنبَ المشيب بسوادِه ، واستدرك الزمانُ غلطَه بسدادِه .

ومن آخر : كتابٌ تقارعت الجوارحُ عليه فكادت تتساهم ، فقالت اليدُ : أنا أولى به ، شَدَدتُ على مولاه ومولاى عَقدَ خِنصَرى ، ورفعتُ اسمَه فوق منبرى ؛ وقبضتُ عليه قبضتى ، وبسطتُ فى بسطِ راحتِه وقت الدُّعاء راحتى ؛ وقالت العين : أنا أولى به ، أنا وعاءُ شخصِه ، والىّ يرجع القلبُ فى تمثيلِه ونصّه[5] ؛ وأنا سهرتُ بعد رحيلِه وحشَة ، وأنا إذا ذُكِر هجيرُ القلبِ عَلّلتُه[6] رشّةً بعد رشّة ؛ فقال القلب : طمعتما فى حقّ لأنى غائب ، وهل أنتِ لى يا يدُ إلّا خادم ؟ وهل أنتِ لى

(١) السفاه بفتح السين المهملة : الجهل .

(٢) فى (أ) : « نقلت » ؛ وهو تصحيف .

(٣) السفا : الشوك ؛ وفى كلا الاصلين : «شفاها» بالشين المعجمة ؛ وهو تصحيف .

(٤) سويداء : تصغير لسوداء ، ولعله صغرها لوصفهم ليلة الوصل بالقصر عادة .

(٥) النص هنا : الإظهار .

(٦) فى كلا الأصلين : « عليه » ؛ وهو تحريف لا تستقيم به الجملة ؛ وعللته : من العلل بفتحتين وهو الشرب الثانى .

يا عينُ إلا حاجب ؟ أنا مستقرُّه ومستودَعُه ، ومَرتَعُه ومَشْرَعُه ، وأنا أذكُرُه وبه أذكُرُكما ، وأُحضِرُه ولخدمتِه أُحضِرُكما ؛ فاليدُ أستخدمُها مرّةً فى الكتابة إليه ، ومرّة فى شدِّ الخِنصِرِ عليه ؛ ومرّةً فى الإشارة الى فضله ، ومرّةً فى الدعاء بكلِّ صالحٍ هو مِن أهلِه ؛ والعينُ أستخدمتها فى ملاحظةِ وجهه آنبا (١) ، وفى توقُّع لقائه غائبا (١) ؛ وفى السهدِ شوقا الى قربه ، والمطالَعةِ لما يَخرُج أمرى بكَتْبِه مِن كُتْبِه ؛ فهنالك سَلَّمتا وأستجرّتا (٢) ، وألقتا وأستأخرتا ؛ وكدتُ أرشُف نِقسَه (٣) لِأنقلَه الى سُويداه ، لولا أنّ سواد العين قال : أنا أحوَجُ الى الأستمدادِ من هُداه .

ومن كلامه رحمه الله تعالى ما رُكّب نصف قرائنه على نصف بيت نحو قوله :

وَصَلَ كتابُ مولاى بعد ما * أصات (٤) المنادى للصَلاة (٥) فأعتما

فلما أستقرّ لدىّ ، « تجلّى الذى من جانب البدر أظلَما » فقرأتُه ، « بعينٍ اذا استمطَرتُها أمطرتْ دما » وساءلتُه ، « فساءلتُ مصروفا عن النطقِ أعجَما » ولَم يردّ جوابا ، « وماذا عليه لو أجاب المتيّما » وردّدتُه قراءة ، « فعوجلتُ دون الحلم أن أتحلّما » وحفظتُه ، « كما يحفظ الحرُّ الحديثَ المكتّما » وكرّرتُه ، « فمن حيثما واجهتُه قد تبسّما » وقبّلتُه ، « فقبّلتُ درّا فى العقود منظّما » وقمتُ له ، « فكنتُ بمفروض

(١) عبارة الأصول : « فى ملاحظة وجهه غائبا ، وفى توقع لقائه آيبا » ؛ وظاهر أن فى نهايتى هاتين الجملتين تقديما وتأخيرا ؛ وسياق الكلام يقتضى العكس كما أثبتنا .

(٢) استجرتا : انقادتا ؛ يريد انهما وافقتاه على دعواه ؛ والذى فى كلا الاصلين : « استحرتا » بالحاء المهملة والنون ؛ وهو تصحيف لا يظهر له معنى .

(٣) فى كلا الأصلين : « نفسه » بالفاء الموحدة ؛ وهو تحريف ؛ والنقس بالكسر المداد .

(٤) فى كلا الأصلين : « أصاب » بالباء الموحدة ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ وأصات : نادى ؛ وهو من الصوت .

(٥) هذه اللام ساقطة من (ا) ؛ والسياق يقتضى إثباتها ، كما فى (ب) .

المحبّـة قيّما» وأخلصتُ لكاتبِه، «وليس[1] على حكم الحوادث محكما» ولَم أصـدّفه[2]، «ولكنّه قد خالط اللحم والدما» وأزختُ وُصـولَه، «فكان لأيام المواسم موسما» وداويتُ عليلَ «حَشًا ضَرّ ما فيـه من النار ضُرّما» وشفَيتُ غليلَ «فؤادٍ أُمنيّـه وقد بلغ الظما» فأما تلك الأيام التى «حماها من اللوم[3] المُقـامُ على الحمى» والليـالى العذابُ التى «ملأن نحور الليل بيضا[4] وأنجما» [فإنّى[5] لأذكُرها، «بصبرٍ كما قد صُرّمتْ قد تَصَرّما»] وأُرسِـل[6] الزفره «فلو صالحت[7] رَضوَى لَرُضّ[8] وهُدّما» وأرسـل العبره، «كما أنشأ[9] الأفُق السحابَ المديّما[10]» وأخطب السُّلوه، «فأسأل معدوما وأقفُل[11] معدما»

(١) كذا فى كلا الأصلين وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٧٨ وارتباط هذا الشطر بما قبله من النثر غير ظاهر؛ ولعله: «ولست» بزيادة تاء الضمير يقول: إنى لا أملك ردّ الحوادث التى تعوقنى عن أن أكتب إليه بما عندى له من الشوق. وإذن يكون الارتباط واضحا.

(٢) ولم أصدفه، أى لم أغشه بالصدف بفتح الصاد والدال، كما يغشى الدر. والذى فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٧٨ «ولم أصدقه» بالقاف المثناة وهو تصحيف.

(٣) كذا فى تذكرة الصفدى المحفوظ منها بعض أجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٠ أدب. والذى فى كلا الأصلين وصبح الأعشى: «حماها على اللوم» الخ. ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على تعدية هذا الفعل ب «على».

(٤) البيض: جمع أبيض، ومن معانيه الرجل النقىّ العرض؛ والظاهر أن ذلك هو المراد هنا؛ يريد وصف خلانه وجلسائه بنقاء أعراضهم من الدنس والعيوب؛ وانهم كالنجوم فى علوّ الشرف وبعد المنزلة.

(٥) هذه الكلمة ساقطة من كلا الأصلين وصبح الأعشى؛ وقد نقلناها عن تذكرة الصفدى؛ اذ لا يستقيم الكلام بدونها.

(٦) فى كلا الأصلين: «وأرسلت» بصيغة الماضى وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا ليوافق ما بعده وما قبله.

(٧) فى (أ): «فما صالحت» وهو غير مستقيم؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا كما فى (ب) وتذكرة الصفدى.

(٨) رض: من الرض، وهو الدق والكسر.

(٩) أنشأ الأفق السحاب، أى رفعه.

(١٠) المديم بتشديد الياء: من ديم السحاب، أى دام مطره. ويقال: دوّم بتشديد الواو، وهو الأصل كما يستفاد من اللسان.

(١١) أقفل: من القفول، وهو الرجوع.

فأما الشكرُ فإنما « أفضّ به مسكا عليك مختّما » وأقوم منه بفرض « أرانى به دون البريّة أقوما » وأوفّى واجبَ قرض، «وكيف تُوفّى الأرض قرْضا من السما» .

وقال أيضا : وصل[1] كتابُ الحضرة بعد أن عددتُ الليالىَ لطلوع صَديعه[2] «وقد عشتُ دهرا لا أعُدّ الليالیا»، وبعد أن انتظرتُ القيظَ والشتاءَ لفصلِ ربيعه «فما للنوى ترمى بليلى المراميا» ! واستروحتُ إلى نسيم سَحَره، «إذا الصيفُ ألقَى فى الديار المراسيا» ومددتُ يدى لاقتطاف ثمَره، « فلله ما أحلَى وأحمَى المجانيا[3] ! » ووقفتُ على شكواه مِن زمانه، «فبتُّ لشكواه من الدهر شاكيا» وعجبتُ لعمى الحظّ عن مكانه « وقد جمع الرحمن فيه المعانيا » وتوقّعتُ له دولةً يعلو بها الفضل « إذا هزّ مِن تلك اليراع عواليا » ورتبةً يرتقى صهوتَها بحكم العدل « فربّ مَراق يُعتدَدن مَهاويا» وإلى الله أرغب فى إطلاع سعوده، «زواهرَ فى أفق المعالى زواهيا» وفى إنهاض عثَراتِ جدوده، « فقد أعثرتْ بَعدَ النهوض المعاليا » .

وقال أيضا :

وَصلَ من الحضرة

كتابٌ به ماءُ الحياةِ ونَفحةُ الـ * ـحيا فكأنّى إذ ظفِرتُ به الخضْرُ

ووَقَفَ عبدُها منه على

عقودٍ هى الدرُّ الذى أنت بحرُه * وذلك ما لا يَدّعِى مِثلَه البحرُ

(١) كذا فى (ب) ؛ ولم يرد من هذه الكلمة فى (أ) غير الحرف الأول، وهو الواو .

(٢) الصديع : الصبح .

(٣) فى (أ) : « المحاميا » وفى (ب) «المخاميا» ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر تذكرة الصفدى وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٧٩ وأراد بقوله : «وأحمى المجانيا» وصف مجانيها بالصيانة وانها ممنعة غير مبتذلة .

ورَتَعتُ منه فى

رياضٍ [يدٍ][1] تُجْنَى وعَينٍ وخاطرٍ * تَسابَقَ فيها النَّورُ والزهرُ والثَّمْـرُ[2]

وكَرَعتُ منه فى حياضٍ

تَسُرُّ مَجانيهـا اذا ما جنى الظما * وتُروِى مَجاريها اذا بَخِـلَ القَطرُ

وما زلتُ منه أنشد ٥

كأنِّىَ سـارٍ فى سَرِيرةِ ليـلةٍ * فلمّـا بدا كبّرتُ إذ طلع الفجرُ

ووافَى على ما كنتُ أعهد

فخلتُ بأنّ العين مِن سُحْبِ كفِّه * فمِن ذى ومِن ذى [فيه][3] يَنثِرِ الدرُّ

وأسترجع فائتَ الدنيا من مَوردِه

وما كان عندى بعد ذنبِ فراقه * بأنّى أَرَى يوما به يَعِـــد الدهرُ ١٠

ونفّس عن النفسِ بأبيض ثِمادِه[4]، وعن العينِ بأَسْوَدِ إثْمِده

به لها سبحٌ طويلٌ فهـذه * على خاطرٍ بَردٌ وفى خَطَرٍ[5] بدرُ

وجَدَّدَ اليه أشواقا جديدُها

يمرّ به ثوب الجديدين دائمـا * فيبلى ولا تَبلَى وإن بَلِىَ الدهرُ

وذَكّر أياما لا يزال يستعيدها ١٥

وهيهـات أن يأتى من الدهر فائتٌ * فدع عنك هذا الأمرَ قد قُضِىَ الأمرُ .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من (ا) ؛ وقد أثبتناها عن (ب) و تذكرة الصفدى وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٧٦ إذ بها يستقيم البيت .

(٢) الثمر بضم الثاء والميم جمع ثمار بالكسر كما فى المصباح ؛ وهذا الجمع يجوز فيه إسكان عينه المضمومة كما هنا .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من (ا) ؛ واستقامة الوزن تقتضيها ؛ وقد أثبتناها عن (ب) و تذكرة الصفدى . ٢٠

(٤) كذا فى كلا الأصلين . والذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة أن الثماد بكسر أوله : الماء القليل كالثمد بالتحريك ، فكأنه يريد تشبيه الكتاب بالماء فى أنه يشفى الظمأ و ينقع الغلة .

(٥) أراد بالخطر هنا : الامر المخوف .

وكلامُ[1] القاضى الفاضل — رحمه الله — كثيرٌ، بأيدى الناس منه عدّةُ مجلّدات، أخبَرنى من أثق بقوله من القضاة الحكام الأعيان أنه يزيد على خمسين مجلّدا قد جُمِعتْ، أما ما لم يجمعه الناس فكثير جدا؛ وقد نَقل بعضُ مَن أرّخ، أنه وجد للقاضى الفاضل مسوّداتِ كتب صدرتْ عنه وأجْوِبةٍ تزيد اذا جُمِعتْ على مائة مجلّد، ولا يحتمل الحال أن نورد له أكثرَ مما أوردناه، ورسائلُه المختارةُ كثيرةٌ قد يكون فيها أجودُ مما اخترناه ونحوه، وإنما أوردنا له ماحضر فى هذا الوقت، إذ لم يمكن البحث عن كلامه والاستقصاء، وإن كان كلُّ رسائله مختارةً رحمه الله.

ذكر شىء من رسائل الشيخ الإمام الفاضل ضياء الدين

أبى العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العابد القدوة أبى عبد الله محمدِ بنِ عمرَ بنِ يوسفَ بنِ عمرَ[2] بنِ عبد المنعم الأنصارىِّ القرطبىِّ رحمه الله، — وكانت وفاتُه بقنا من أعمال قوص فى سنة اثنتين وسبعين وستمائة —

كتب إلى شيخنا الإمامِ العلّامةِ تقىِّ الدين محمد ابنِ الشيخ الإمام الحَبرِ مجدِ الدين أبى الحسن علىّ بنِ وهب بنِ مطيع القُشيرىِّ المعروفِ بابن دقيقِ العيد رحمهم الله تعالى: تخدُم المجلس العالىَ صفاتٌ يقِف الفضلُ عندَها، ويَقْفُو الشرفُ مجدَها، وتَلتزِم المعالى حمدَها؛ وسِماتٌ يبتسم ثغرُ الرياسة منها، وتُروَى أحاديثُ السيادة عنها؛ الصدرىّ الرئيسىّ المفيدىّ؛ معانٍ استحقّها بالتميز، واستوجبها بالتبريز، وسَبكتْه الإمامةُ لها فألفتْه خالصَ الإبريز؛ ومعالٍ أقرّتْه فى سويدائها، وأطلعتْه فى سمائها،

(١) كذا فى (ب) والذى فى (أ) «ومن كلام» وقوله: «من» زيادة من الناسخ.

(٢) كذا فى كلا الأصلين؛ وقد ورد هذا النسب فى بعض المصادر ساقطا منه هذا الجد الثالث وهو عمر انظر كتاب الطالع السعيد لكمال الدين الإدفوى ص ٥٤ طبع الجمالية فى ترجمة محيى الدين أحمد بن محمد ابن أحمد حفيد ضياء الدين أبى العباس ابن القرطبى.

وألبسته أفضـلَ صفاتها وأشرفَ أسمائها ؛ العلاّمىّ الفاضلىّ التقوىّ ؛ نسبٌ اختص به اختصاصَ التشريف ، لا تعريفا له (١) فالشمس تستغنى عن التعريف ؛ لا زالت إمامتُـه كافلةً بصـون الشرائع ، واردةً من دين الله وكفالةِ أمّةِ رسـول الله أشرفَ الموارد وأعذبَ الشرائع (٢) ، آخذةً بآفاق سمـاء الشرف فلها قمَراها والنجومُ الطّوالع (٣) ، قاطعةً أطماع الآمال عن إدراك فضلِه وما زالت تُقطّع أعناقَ الرجال المطامع (٤) ، صارفةً عن جلاله مَكارهَ الأيام صرفا لا تَعتورُه القواطع ، ولا تعترضه الموانع ؛ ويُنهِى ورودَ عذرائه التى « لها الشمسُ خِدْنٌ (٥) والنجومُ ولائدُ » وحسنائه التى « لها الدرُّ لفظٌ والدّرارى (٦) قلائدُ » ومشرّفته التى « لها من براهين البيان شواهدُ » وكريمتِه التى « لهـا الفضلُ وِردٌ والمعالى موائدُ (٧) » ووديعتِه التى « لها بين أحشائى وقلبى مَعاهدُ »

وآيتِـه الكبرى التى دلّ فضلُها * على أن من لَم يشهدِ الفضل جاحدُ
وأنك سيفٌ سـلّه الله للهـدى * وليس لسيفٍ سـلّه الله غامـدُ

(١) فى (أ) : «لاتشريفا» وفى (ب) : «تشريفا» بسقوط « لا » ؛ وما أثبتناه هو المناسب لسياق الكلام .

(٢) الشرائع جمع شريعة ؛ وهى مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون ، والعرب لاتسميها شريعة حتى يكون الماء عذا لا انقطاع له ، ويكون ظاهرا معينا لايسق بالرشاء . ولا تكرار بين ما هنا وما سبق لاختلاف المعنى .

(٣) أشار بهذه العبارة إلى قول جرير :

أخذنا بآفاق السماء عليكمو * لنا قمراها والنجوم الطوالع

(٤) أشار بهذه العبارة إلى قول البعيث المجاشعى :

طمعت بليلى أن تريع وإنما * تقطع أعناق الرجال المطامع

(٥) فى (أ) : « حدث » وفى (ب) «هدب» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٦) الدرارى : الكواكب العظام التى لا تعرف أسماؤها ، قاله الفراء .

(٧) فى كلا الأصلين وكتاب الطالع السعيد ص ٥٨ طبع الجمالية : «موارد» ؛ وهو تحريف لحصول التكرار به مع قوله : «ورد» .

فلِمثلِها يحسُن صَوغُ السوار، ولِفضلِها يقـال : "أناةً أيها الفَلَكُ المُـدار" وإنها في العِلم أصلُ فرعٍ نابت، والأصل علةُ النشأة والقرار، وفرعُ أصلٍ[1] ثابت، والفرعُ فيه الورقُ والثمـار؛ هذه التي وَقفَتْ قرائحُ الفضلاء على استحسانِها، وأوقفَتْني[2] على قدم التعبُّدِ لإحسانِها، وأيقنتُ أنّ مفترقَ الفضائل مُجتمِعٌ في إنسانِها، وكنتُ أعلم ٥ عِلمَها بالأحكام الشرعية فاذا هي في النثر ابنُ مقفّعِها، وفي القصائد أخو حسّانِها؛ هـذه وأبيك أمُّ الرسائل المبتكَره، وبنتُ الأفكار التي هذّبتها الآدابُ فهي في سهل الإيجاز البَرْزةُ[3] وفي صَونِ الإعجاز المخـدَّره، والمليئةُ ببـدائع البدائه، فمتى تقاضاها متقاضٍ لَم تقُلْ : "فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ"؛ والبديعةُ التي لم تُوجِّه اليها الآمالُ فكرَها لاستحالةِ غيرِ مسبوقٍ بالشعور، ولَم تسمُ اليها مقلُ الخواطر لعـدَمِ الإحاطة بغيبِ الصدور قَبْلَ الصدور، والبديهةُ التي فَصَّل البيانُ كلماتِها تفصيلَ الدرر بالشذور؛ ١٠ إنّ كَلِمَها لَيَميس في صدورها وأعجازِها، ويختال في سطورها وإعجازِها، وتنثال[4] عليها أغراض المعاني بين إسهابِها وإيجازِها؛ فهي فرائدُ ائتلفَتْ من أفكار الوائليّ والإياديّ، وقلائدُ انتظمَتْ انتظامَ الدراريّ، ولطائمُ[5] فُضّتْ عن العنبر الشِّحريّ[6] والمسـكِ الداريّ[6]؛ لا جرم أن غوّاصِي الفضائل ظلوا في غمراتها خائضين، وفُرسانَ

١٥ (١) كذا في (ب)، والذي في (ا) «وأصل فرع» وهو مكرر مع ماقبله .

(٢) كذا في كلا الأصلين؛ وأوقفه بالهمز لغة رديئة كما في اللسان؛ وقد نقلها ابن السكيت عن الكسائي وقيل : وقفه وأوقفه سواء .

(٣) البرزة : البارزة المحاسن . وفي (ا) : «البررة» براءين مهملتين؛ وهو تصحيف .

(٤) تنثال : تتتابع .

٢٠ (٥) اللطائم : أوعية المسك، الواحد لطيمة .

(٦) الشحرى : نسـبة الى الشحر، وهو صقع بساحل بحر الهنـد من ناحية اليمن قال الأصمعي : هو بين عدن وعمان، واليه ينسب العنبر الشحرى «ياقوت» . والداري : نسبة الى دارين، وهي فرضة بالبحرين فيها سوق كان يحمل اليها المسك من ناحية الهند «اللسان» مادة «دور» .

الكلام أضحَوا فى حَلَباتها راكِضين، وأبناءَ البيان تُلِيَتْ عليهم آياتُها "فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ".

ما إنْ لها فى الفضل مثلٌ كائنٌ * وبيانُها أحلى البيانِ وأَمْثَلُ
فالعجـزُ عنهـا معجِزٌ[1] متيقَّنٌ * ونبيُّهـا بالفضل فينا مرسَـلُ
ما ذاك إلا أنَّ ما يأتى به * وحىُ الكلام على اليراعة ينزلُ

بزغَتْ شمسا لا تَرضَى غيرَ صدرِه فَلَكا، وانقادت معانيها طاعةً لا تختار سواه مَلِكا، وانتَبَـذَتْ بالعراء فلا تخشى إدراكَ الإنكار ولا تخـاف دَرَكا، ونَدَّت شواردُها فلا تقتنصها الخواطرُ ولو نصبَتْ هُدْبَ الجفون شَرَكا

فللأصـائلِ[2] فى عليائها سَمَـرٌ * إن الحديث عن العليـاء أَسْمارُ[3]
وللبصـائرِ هادٍ مِن فضائلِها * يهدى أُولى الفضلِ إن ضلّوا وإن جاروا
بادِى الإبانـةِ لا يخـفى على أحد * "كأنه عَـلَمٌ فى رأسـه نارُ"

أَعْجِب بها من كَلِمٍ جاءت كغمام الظِّـلالِ على سماء الأنهـار! وسَرتْ كعليل النسيم عن أندية الأسحار، وجُلِيَتْ محاسنُها كلؤلؤ الطلِّ على خدود الأزهار، وتجلّت كوجنة الحسناء فى فَلَك الأزرار، وأهدت نفحةَ الروض متأوِّدَ الغصن بليلَ الإزار، فأحيتنا بذلك النفَسِ المِعطار، وحيّتنا بأحسنَ [من][4] كأَسَىْ لَمًى وعُقار، وآسَىْ ريحانٍ وعذار؛ (١٣٠)

(١) المعجز بكسر الجيم وفتحها مصدر ميمىّ بمعنى العجز.

(٢) الأصائل، جمع أصيل، وهو المحكم الرأى. وفى كتاب الطالع السعيد ص ٥٩: «فللأفاضل» والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٣) الأسمار بفتح الهمزة جمع سمر بفتح السين والميم، وهو معروف؛ ويجوز أن يقرأ: «إسمار» بكسر الهمزة على احتمال أن أسمر فلان بالهمز لغة فى سمر كما فى اللسان عند قول عبيد بن الأبرص:

فهن كنبراس النبيط أو الـ * فرض بكف اللاعب المسمر

(٤) كذا فى (ب) والطالع السعيد؛ ومكان هذه الكلمة فى (أ) باء موحدة بعدها ألف؛ ولا يفهم لها معنى.

ولؤلؤى حَبَبٍ وثغر، وعَقِيقَىْ شفةٍ وخمر، وربيعَى زهرٍ ونهر، وبديعَى نظمٍ ونثر؛ ولم أَدْرِ ما هى أثغورُ ولائد؟ أم شذورُ قلائد؛ أم توريدُ خدود، أم هيفُ قدود؛ أم نهودُ صدور، أم عقودُ نحور؛ أم بدورٌ ائتلفَتْ فى أضوائها، أم شموسٌ أشرقت فى سمائها ؟

٥ جَمَعن شتيتَ الحسن مِن كلِّ وجهة * فحيّرن أفكارى وشَيّبن مَفرِقِى
وغازلها قلبى بودٍّ محقَّقٍ * وواصلها ذكرى بحمدٍ مصدَّقِ
وما كنتُ عَشّاقا لِذات محاسنٍ * ولكن من يبصرْ جفونك يَعشَقِ
ولم أدر والألفاظُ منها شريفةٌ * الى البدر تسمو أم إلى الشمس ترتقِ

إنما هى جملةُ إحسان يُلقِى اللهُ الرُّوحَ مِن أمرِه على قلبها، أو روضةُ بيان «تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا»؛ أو ذاتُ فضلٍ آشتمَلَتْ على ذواتِ الفضائل، وجنت ثمر العلوم فأَجْنَتْها بالضحى والأصائل؛ أو نفسٌ زكت فى صنيعها، ونَفَثَ رُوحُ القُدُس فى رُوعِها؛ فسلكَتْ سُبُلَ البيان ذُلُلا، وعدمَتْ مماثِلا فأضحت فى أبناء المعالى مَثَلا؛ وسَرَتْ الى حَوْز الأمانى والأنامُ نيام، فوَهب لها واهبُ النعم أَشْرَفَ الأقسام؛ فجادت فى الإنفاق، ولَم تُمسكْ خشيةَ إملاق، وقيّدتْ نفسَها فى طَلَقِ(١) الطاعة فجاءها توقيعُ التفضيل على الإطلاق

أَبِنْ لِىَ مَعْزاها أخا الفهم إنها * الى الفضل تُعْزَى أم الى المجد تُنسَبُ
هى الشمسُ إلّا أنّ فكرَك مَشرِقٌ * لإبدائها عندى وصدرىَ مَغرِبُ
وقد أَبدعَتْ فى فضلها وبديعِها * فجاءت الينا وهى عنقاءُ مُغْرِبُ(٢)

(١) فى طلق الطاعة» اى فى قيدها؛ وأصل الطلق بالتحريك، القيد من جلود .

(٢) شبه هذه الرسالة بالعنقاء المغرب، وهى التى أغربت فى البلاد ونأت ولم تحس ولم تر؛ والمراد أن هذه الرسالة غريبة فى بلاغتها وحسن بيانها، ولا عهد للكتّاب بأمثالها .

فأعرب عن كلّ المعانى فصيحُها * بما عجزتْ عنـــه نزارُ ويَعرُبُ
ومذ أشرقَتْ قبـل التناهى بأوْجِها * عفا فى سناها بدرُ تمٍّ وكوكبُ
تنـاهت علاءً والشـــبابُ رداؤها * فما ظنكم بالفضل والرأس أشيَبُ
لئن كان ثغرى بالفصاحة باسما * فثغرك بسّـام الفصاحـة أشنبُ
وإن ناسبَتْنى بالمجـاز بلاغةٌ * فأنت إليهـا بالحقيقـــة أنسَبُ
ومذ وردَتْ سمعى وقلـبى فإنهـا * لتُؤكل حُسْـنا بالضـمير وتُشرَبُ
وإنى لأشـدو فى الورى بثنائهـا * كما ناح فى الغصن الحمامُ المطـرَّبُ
وتشهـد أبناء البيان إذا انتـدَوا * بأنىَ من قسّ الإيادىِّ أخطَبُ
وإنّى لَتـدنينى الى المجـد عصبةٌ * كرامٌ حوتهـــم(١) أوّلَ الدهر يَثرِبُ
وإنّى إذا خان الزمان وفاءه * وفىٌّ عـلى الضراء حرٌّ مجـرّبُ
إباء أبت نفسى ســـواه وشيمـة * قضى لى بها فى المجد أصلٌ مهذّبُ
ونفسٌ أبت الا اهـتزازا إلى العلا * كما اهتزّ يومَ الرّوع رمحٌ ومِقضَبُ(٢)
ولى نسبٌ فى الأكرمين تعـرّفَتْ * إليـه المعـالى فهو ريّانُ(٣) مخصِبُ(٤)
نَمَتْـــهُ أصول فى العـــلاء أصيلةٌ * لهـا المجدُ خِدْنٌ والسيادةُ مَركبُ
تَلاقَى عليـــه المطعمون تكرّما * اذا احمـــرّ(٥) أفقٌ بالمَجرّة(٥) مجـــدِبُ
من اليمنيّين الذين سمـا بهـم * الى العزّ بيت فى المعـالى مطنّبُ

(١) فى كلا الأصلين : « حولهم » ؛ وهو تحريف .
(٢) المقضب : السيف القاطع .
(٣) فى بعض المصادر «عريان» ؛ وما أثبتناه هو المناسب لما بعده من الوصف .
(٤) المراد بوصف هذا النسب بالإخصاب ، كثرة ما يعدّ فيه من الكرام وأصحاب المفاخر .
(٥) احمرار الأفق كناية عن الجدب . والعرب تقول : سنة حمراء اذا كانت شديدة ؛ وذلك لأن آفاق السماء تحمرّ فيها . والمجرّة : البياض المعترض فى السماء ، والنسران عن جانبيها .

قَرَوا تُبَّعا بيضَ المواضى ضَحاءَه (١) * وكُومَ (٢) عِشارٍ بالعشيّات تُضْهَبُ (٣)

فرحّله الجودُ العميم ومنصُلٌ (٤) * له الغمدُ شرقٌ والذوائبُ مَغرِبُ

وهم نَصَروا (٥) والدين عزّ نصيرُه * وآوَوا وقد كادت يدُ الدين تُقضَبُ

وخاضوا غمارَ الموت فى حومة الوغى * فعاد نهارا بالهدى وهو غيهبُ (١٣١)

أولئك قومى حسبى الله مثنيا * عليهم وآىُ الله تُتلى وتُكتَبُ

هذه اليتيمة أيدك الله مِلْحتُها (٦) الإحماض ، وتحليتُها (٧) الألفاظُ فى أبعاض الاعتراض لِتَسرحَ مقلُ (٨) الخواطر فى مختلفات الأنواع ، ويتنوّعَ (٩) الواردُ على القلوب والأسماع ، وإلا فلا تَماثُل فى الأدوات ، وان وقع التماثُل فى الذوات ، كالجمع بين النُّورِيّة فى

(١) ضحاءه ، أى فى وقت ضحائه ، والضحاء : إذا امتد النهار وكرب أن ينتصف . وفى كلا الأصلين « ضحاة » وهو تحريف .

(٢) الكوم : النياق العظيمة الأسنمة ؛ واحده كوماء بفتح الكاف .

(٣) فى كلا الأصلين وغيرهما من المصادر : « تهضب » بتقديم الهاء على الضاد ، ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق . « وتضهب » بالبناء للمجهول : من قولهم ضهبه بالنار كنعه ، إذا لوّحه وغيره ، كما فى القاموس وشرحه ، وهم يمدحون الشواء الذى لم يتم نضجه لما فى ذلك من التعجيل بقرى الأضياف أنشد الكلابىّ

خير الشواء الطيب الملهوج * قد هم بالنضج ولما ينضج

أو لعله من ضهب اللحم بتشديد الهاء ، أى قطعه ، واذن يكون صواب البيت : « بالعشىّ تضهب » بإفراد العشىّ ليستقيم الوزن .

(٤) المنصل : السيف .

(٥) فى كلا الأصلين : « بهم » بالباء ؛ وهو تحريف .

(٦) كأن الكاتب يريد تشبيه رسالته اذا نسبت الى رسالة ابن دقيق العيد بإحماض الابل بعد أن تسأم الحلو من النبات ؛ كما يرشد الى ذلك سياق الكلام الآتى ؛ والاحماض مصدر أحمضت الابل اذا أكلت الحمض وهو ما ملح وأمر من النبات ؛ وهو كفاكهة الابل تأكله عند سآمتها من الخلة .

(٧) فى (أ) « تجلبهم » ، وفى (ب) « وتحكيم » ، وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٨) كذا فى الطالع السعيد ؛ والذى فى كلا الأصلين : « بنقل » الخ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٩) فى كلا الأصلين : « وينبوع » ؛ وهو تصحيف .

السراج والشمس ، وٱشتمال الإنسانيّةِ على[1] القلامة والنفس ، والتوارُدِ الإدراكىّ بين كلّىّ بالعقل ، وجزئىّ بالحس[2] ؛ وكالعناصر فى افتقار الذوات اليها ، وان تميّزت الحرارة عليها ؛ وكالمشاركة الحيوانيّـة فى البضعة اللسانيّـة ، واختصاص الناطقيّة بالذات الإنسانيّة ؛ فسيّدنا ثمرُ الروض ونسيمُه ، وسواه ثراه وهشيمُه ، وزهرُه وأنداؤه ، وغيرُه شوكُه وغُثاؤه ؛ والبدرُ وإشراقُه ، وسـواه هلاليّتُهُ ومُحاقُه ؛ اشـتراكٌ فى الأشخاص ، وامتياز فى الخواصّ ؛ ومشابهَة فى الأنواع والأجناس ، ومغايرَة فى العقول والحواسّ ؛ كالورد والشّقيق ، والقَهرمانِ[3] والعقيق ؛ تمـاثلَا فى الجواهر والأعراض ، وتغايرَا فى تميز الأغراض ؛ فسيّدنا من كلِّ جنسٍ رئيسُه ، ومن كلِّ جوهرٍ نفيسُه ؛ وأما حسناءُ المملوك على مذهبهم فى تسمية القبيح بالحَسَنِ ، والحَسَنِ بالقبيح ، والضريرِ بالبصيرِ والأخرسِ بالفصيح ؛ فمـا صَدّت ولا صَدّت يمنى كاسِها[4] . ولا شذّت فى مذهب ولائه عن ٱطّراد قياسِها ، ولا زَوَتْ عن وجه جلالتِه وجهَ إيناسِها ، ولا جهلَتْ أنه فى العلوم الشرعيّة ابن أنَسِها ، وفى المعانى الأدبيّة أبو نواسِها ؛ ولا خفِىَ عنها أن سيّدنا مجرَى ايمين[5] ، وفى وجه السيادة إنسانُ المقـلة وغرّةُ الجبين ، والدرّةُ فى تاج الجلالة

(١) كذا فى الطالع السعيد ؛ والذى فى كلا الأصلين : « فى » ؛ وهو غير مستقيم .

(٢) أشار بهذه العبارة الى ما هو معروف فى كتب المعقول من أن الماهيات الكلية انما يدركها العقل دون غيره ؛ وذلك لأنها ليس لهـا وجود فى الخـارج ، وأما جزئيات هذه المـاهيات وأفرادها فإنها تدرك بالحس لوجودها الخارجىّ .

(٣) يقال فيه أيضا «الكهرمان» بالكاف ؛ والكهرم بجعفر . انظر تاج العروس مستدرك مادة « كهم» .

(٤) أشار بهذه العبارة الى قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

صددت الكأس عنـا أم عمرو * وكان الكأس مجـراها اليمينا

(٥) أشار بهذه العبارة الى قول عمرو بن كلثوم فى البيت السابق فى الحاشية رقم ٤ من هـذه الصفحة «وكان الكأس مجراها اليمينا» ؛ والمعنى أنه أولى من سواه بالتقديم .

والشَّذْرةُ فى العقد الثمين؛ وأنه الصدرُ الذى يَأْرِزُ[1] العِلمُ إلى صدرِه، وتُقْتَرَحُ[2] عقائلُ المعانى مِن فكره، وتأتمّ الهداةُ ببدرِه، وتَنتمِى[3] الهدايةُ الى سرّه، وانّها فى الإيمان بمحمديّته أمُّ عمارة[4] لا أمُّ عمرِه؛ وانّه غاية فخارِها؛ ونهايةُ إيثارِها، [وآيةُ نهارِها][5] ومستَوطَنُ إفادتِها بين شموس فضائله وأقمارِها؛ فكيف تَصُدّ وفيه كلّيّةُ أغراضِها، ومنه علّيّةُ جملتِها وأبعاضِها، وفى محلّه قامت حقائقُ جواهرِها وأعراضِها؛ لكنّها توارت بالحجاب، ولاذت بالاحتجاب؛ وقُربِ بالمجلس الكمالىّ ليكمّل ما بها مِن نقصِ كمالٍ وكمالِ عيب، وتَجمَعَ بين حقيقتَى إيمان الشهادة والغيب، وتُعرَضَ على الرأى التقوِىّ سليمةَ الصدر نقيّةَ الجيب، وأَشهَدُ أنها جاءت تمشى على استحياءٍ وليست كبنت شعيب[6]؛ هـذا ولَم تشاهدْ وجهَ حسـنائه، ولا عاينَتْ سُكَينةَ[7] حسينِه وهندَ[7]

(١) يأرز: يأوى ويلجأ؛ وفى كلا الأصلين: «بارذ»؛ وفى الطالع السعيد: «يأزر» وهو تصحيف فى جميعها.

(٢) تقترح: تستنبط أو أنها تبتدع من غير سبق مثال؛ وفى الطالع السعيد «تفترع» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

(٣) تنتمى: تنتسب؛ وفى الطالع السعيد: «و تنتهى» بالهاء؛ والمعنى يستقيم على كلا الوجهين.

(٤) أم عمارة: هى نسيبة بنت كعب إحدى نساء بنى مازن بن النجار؛ وكانت ممن شهدوا بيعة العقبة الثانية هى وأسماء بنت عمرو بن عدىّ أم منيع احدى نساء بنى سلمة، انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٥ ط بولاق والمراد وصف هذا الإيمان بأنه ثابت لا يقبل الشك لأنه عن مشاهدة وعيان كإيمان أم عمارة.

(٥) لم ترد هذه العبارة فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب) وكتاب الطالع السعيد ص ٦٢ طبع الجمالية.

(٦) أشار بهـذه العبارة الى قوله تعـالى فى سورة القصص: «فجاءته إحداهما تمشى على استحياء» الآية انظر تفصيل هذه القصة فى كتب التفسير.

(٧) يريد السـيدة سكينة بنت الحسين بن على رضى الله تعالى عنهم؛ وكان قد تزوجها مصعب بن الزبير ثم مات عنها، ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام؛ وآخر من تزوجها زيد ابن عمرو بن عثمان بن عفان؛ وكانت وفاتها سنة سبع عشرة ومائة (وفيات الأعيان). أما هند فهى بنت أسماء ابن خارجة وكان قد تزوجها الحجاج بن يوسف الثقفىّ بعد بشر بن مروان؛ وكانت سكينة وهند من أجمل نساء العرب وأظرفهن.

أسمائه ، ولا قابلَتْ نيِّرَ فضلِه وبدرَ سمائه ؛ أقسم لقد كان يصرفها الوجل ، ويقيّدها الخجل ؛ عالمةً أنّ البحر لا يُساجَل ، والشمسَ لا تُماثَل ؛ والسيفَ لا يُخاشَن ، والبدرَ لا يحاسَن ؛ والأسدَ لا يُكْمَم (١) ، والطّودَ لا يُزْحَم ؛ والسحابَ لا يبارَى ، والسيلَ لا يُجارَى ؛ وأنّى تبلُغُ الفَلَكَ هامةُ المتطاوِل ، "وأين الثريّا مِن يدِ المتناوِل" ؛ تلك عوارفُ آستولت على المعالى آستيلاءَها على المعالم ، وشهدَتْ لها الفضائل بالسيادة شهادةَ النبوّة بسيادة قيس بن عاصم (٢) ؛ ولا خفاءَ بواضح هذا الصواب ، عند مقابلة البداية بالجواب ؛ ٥

فالشمسُ أوْضح مِن ضياء الأنجمِ * ما البيْتُ الأعلَى كداجٍ مظلِمِ

يا مُثريا مِن كلّ علمٍ نافعٍ * أيقاس مثرٍ فى العلوم بمعدمِ

أوْكَفْتَ (٣) فضلَك فى رذاذ غمائمى * ما للرذاذ يدٌ بنَوْء المُرْزِمِ (٤)

وانصبّ بحرُك فى ربيع (٥) خواطرى * ما للربيع وفَيْض بحرٍ أعظمِ ١٠

وسَللتَ سيف العلم أبيضَ مِخْذَما * كالبرق يلمع فى غمامٍ مُثْجِمِ (٦)

فللّتَ حدَّىْ معضَدٍ (٧) فى راحتى * ما للكهام وحدّ أبيضَ مِخْذَمِ (٨) (١٣٢)

---

(١) يكمم : يشد على فيه ، وهو من كمم البعير أى شدفاه عند هياجه لئلا يعض أو يأكل . أو هو من كممه الخوف : اذا أمسك بفيه ، وهو على المثل .

(٢) أشار بهذه العبارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم فى قيس بن عاصم المنقرى : "هذا سيد أهل الوبر" (الأغانى) ج ١٢ ص ١٥١ طبع بولاق . ١٥

(٣) كذا ورد هذا الفعل فى كلا الأصلين بالألف ؛ والذى وقفنا عليه فيما لدينا من كتب اللغة أنه يتعدى بنفسه لا بالهمز ، يقال : وكفت العين الدمع أى أسالته قاله اللحيانىّ . أما أوكف بالألف فلم نقف عليه إلا لازما يقال : أوكف البيت والسطح بالمطر ، أى هطل وقطر .

(٤) المرزم : من أرزم الرعد إذا اشتدّ صوته . ٢٠

(٥) الربيع : النهر الصغير .

(٦) المثجم : السريع المطر ؛ وفى (أ) : «متخم» بتاء مثناة بعدها خاء فوقية ؛ وهو تصحيف .

(٧) المعضد : السيف الذى يمتهن فى قطع الشجر .

(٨) المخذم بكسر أوله من السيوف : القاطع .

يا سابقا جُهدى (١) مصلّى عفوه * ما للسُّكَيت (٢) يدٌ بعفو مطهّم (٣)
بذّ السوابقَ فى العلوم وحازها * بالكسب منه والتراث الأعظمِ
العلم علمُ محمد وكفى به * وعلىٌّ البابُ المبلِّغ فاعلَمِ
ما كنتُ أوّلَ مُحجِمٍ عن مَوردٍ * عذُبتْ مواردُه لقَرْنٍ مُحجِمِ (٤)
سابقتُ سُبّاقا شأوتُ (٥) بيانَهم * ببديع نثرٍ أو بليغ منظّمِ
وسقيتُ بالكأس الكبيرة منهما * لما سقوا بالأصغر المتثلّمِ
حتى اذا سابقتُه وهو ابنُ (٦) بحرٍ * أو أبو بحرٍ إليه ينتمى
طارت فضائله إلى عليائها * بجناح فَتْخاء (٧) ونسرٍ قَشْعَمِ
وسما به العلم الأجلُّ محلّه * حتى توقّل (٨) فى المحلّ الأعظمِ
ومشى حضارا (٩) فانثنيتُ مقصّرا * أتجول خيلى فى مَقَرّ الهَيثَمِ (١٠)

(١) فى (أ) : « عهدى » بالعين المهملة ؛ وهو تحريف . والمصلى من الخيل ، الذى يجىء بعد السابق ؛ سمى بذلك لأن رأسه يلى صلا المتقدم . والصلا : منحدر الوركين .

(٢) السكيت : العاشر من خيل السباق .

(٣) المطهم : الحسن التام كل شىء منه على حدته ، فهو بارع الجمال .

(٤) القرن من القوم : سيدهم . والمحجم اسم فاعل من الإحجام وهو التقدم ؛ ويستعمل فى التأخر أيضا فهو من الأضداد ؛ ومثله الاجحام بتقديم الحاء فانه يستعمل فى المعنيين أيضا . مستدرك التاج مادة (حجم) .

(٥) فى كلا الأصلين : «شادت» ؛ وهو تحريف لا يستقيم به البيت ؛ وشأوت : غلبت .

(٦) فى كلا الأصلين : «فهو» بالفاء . والسياق يقتضى الواو ؛ فان الجملة بعدها فى موضع الحال .

(٧) الفتخاء العقاب اللينة الجناح لأنها اذا انحطت كسرت جناحيها وغمزتهما وذلك لا يكون إلا من اللين .

(٨) توقل ، أى صعد بتشديد العين ؛ وأصله من التوقل فى الجبل وهو التصعيد فيه .

(٩) الحضار : مصدر حاضرة ، أى سابقة فى العدو ، وهو هنا على الاستعارة يريد المسابقة فى التفضل والذى فى (أ) « خطارا » وهو تحريف ؛ وفى (ب) « مطارا » ؛ وهو وان صح حمله على أنه مصدر ميمى بمعنى الطيران الا أنه غير ملائم لقوله قبل : « ومشى » .

(١٠) الهيثم : فرخ النسر .

لا عار إن عضلت بدائهُ فكرتى * بابن المقفّع أو بنجل الأهتم (١)

يا أعلمَ الفضلاء لستُ مقاولا * فُصْحَى بناتِك (٢) باللسان الأعجمِ

لو حاولَتْ فِكَرى مساواةً لها * يوما لجاءت بالغراب الأعصمِ (٣)

أقتصِرُ فللبيان فى بحر فضائله سَبْحٌ طويل، وللسعيِ فى غاياته مُعرَّسٌ ومَقِيل، ولِلحامد بُثَينة محاسنه صَبابةٌ جميل، وإنّى وإن كنتُ كثيرَ عَزّةِ ودِّه، إلا أنّى فى حلبة الفضل لستُ مِن فُرسان ذلك الرَّعيل؛ لا سيّما وقد وردتُ مَشرَع ألفاظه التى راقت معانيها، ورقّت حواشيها، وأدنَتْ ثمرات الفضل من يمين جانيها؛ فجاءت كالنسيم العليلِ، والشذا من نفحة الأصيل، والشرابِ الباردِ والظلِّ الظليل

طبعٌ تَدفَّق رقّةً وسلاسةً * كالماء عن متن الصفاة يسيلُ

كالمقلة الحسناءِ زان جفونَها * كَحْلٌ وأخرى زانها التكحيلُ

والروضة الغناء يَحسُن عَرْفُها * وتزاد حُسنا والنسيمُ عليلُ

والخاطرُ التقوىُّ كَمَّل ذاته * علما وليس لكامل تكميلُ

والله تعالى يبقيه جامعا للعلوم جمع الراحة بنانَها، رافعا له رفع القناة سنانَها، حافظا له حفظ العقائد أديانَها، والقلوبِ إيمانَها

---

(١) نجل الأهتم، هو عمرو بن سنان بن سمىّ بن سنان بن خالد بن منقر؛ والأهتم هذا لقب لقب به أبوه لأن قيس بن عاصم المنقرى ضربه بقوسه فهتم فاه وقد وفد عمرو بن الأهتم هو والزبرقان بن بدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهو الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان من البيان لسحرا» وبنو الأهتم: أهل بيت بلاغة فى الجاهلية والإسلام، وكان يقال: «الخطابة فى آل عمرو (زهر الآداب ج ١ ص ٥ و ٦ طبع الرحمانية.

(٢) أراد بناته، رسائله؛ وفى كلا الأصلين: «بيانك»؛ وهو غير مطابق لما قبله من الوصف.

(٣) الغراب الأعصم: الذى فى جناحيه ريشة بيضاء ويقال هذا للشئ الذى يعز وجوده.

ليُضحِي نديما للعالى كأنه * نديما صفاءٍ مالكٌ وعَقيلُ (١)
ويصبح ظلُّ الفضل من فَيْءِ ظلِّه * على كَنَف الإسلام وهو ظليلُ
وينشأ أبناءُ العلوم وكلُّهم * بحسنائه فى العاشقين جميلُ
دَلالته فى الفضل من ذات نفسه * وليس على شمس النهار دليلُ

٥ وكتب — رحمه الله تعالى — رسالةً الى الصاحب شرف الدين الفائزى (٢) عند ما ورد عليه كتابٌ يذكر أن رسول الخليفة وصَل يلتمس إجابةَ المَلِك المعزّ (٣) أوّلِ ملوك الترك إلى صلح المَلِك الناصرِ صلاحِ الدين يوسف (٤) — وقد كان الناس يذكرون أن الملك الناصر يريد أن يَهجُم بعساكره على الديار المصرية، وأنه لا يجيب إلى الصلح، [فلما] (٥) جاء الرسول بذلك ظهر للناس خلافُ ما ظنّوه — :

١٠ (١) مالك وعقيل، هما نديما جذيمة الأبرش، وكان يضرب بهما المثل فى طول الاجتماع؛ وهما اللذان عناهما متمم بن نويرة بقوله فى رثاء أخيه مالك :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

زهر الآداب (ج ٣ ص ١٦٠) طبع الرحمانية .

(٢) شرف الدين الفائزى، هو هبة الله بن صاعد وزير الملك المعز، ووزير ابنه الملك المنصور بعده؛ والفائزى نسبة الى الملك الفائز ابراهيم بن العادل لأنه كان فى خدمه أولا، وكان فى صباه نصرانيا ١٥ ثم أسلم؛ مسالك الأبصار ج ٧ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ وذكر ابن إياس فى كتابه ج ١ ص ٩٣ أن الأمير سيف الدين قطز المعزى نائب السلطنة بالديار المصرية فى عهد الملك المنصور ابن الملك المعز قد قبض على الشيخ شرف الدين هذا وصادر أمواله وصلبه على باب القلعة وولى مكانه فى الوزارة زين الدين يعقوب بن الزبير .

٢٠ (٣) هو عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى، تولى السلطنة بالديار المصرية فى سنة ثمان وأربعين وستمائة، ولقب بالمعز؛ وقتل فى سنة خمس وخمسين وستمائة انظر تاريخ أبى الفدا (ج ٣ ص ١٩١ و ٢٠٠) طبع الأستانة .

(٤) هو الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ وقد قتله هولاكو ملك التتر فى سنة تسع وخمسين وستمائة، ٢٥ انظر تفصيل ذلك فى تاريخ أبى الفدا (ج ٣ ص ٢٢٠، ٢٢١) طبع القسطنطينية .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من (أ)؛ والسياق يقتضى إثباتها

(١٣٣) لِأمرِك أمرُ الله بالنجح عاضـدُ * فَصُلْ آمِرا فالدهر سيفٌ وساعدُ
وقُلْ ما آقتضت عليـاك فالعزّ قائمٌ * بأمرِك والمجـد المؤثّل (١) قاعدُ
وَنَمْ وادعا فالجَـدُّ يقظـانُ حارس * لمجـدك والعـادى لبأسـك راقدُ
فمـا تُـبرِم الأيّامُ ما آلله ناقض * ولا تنقض الأيّامُ ما آلله عاقـدُ
وقد بَرزتْ بكر المكارم والعـلا * وفى جيدها من راحتيك قلائدُ
فخَفَّت بها الأملاكُ وهى مواهب * وسارت بهـا الرّكبان وهى محـامدُ
وزُفّتْ لهـا النعماءُ وهى مصادر * رفعنـا لهـا الأمداح (٢) وهى مواردُ
فنـثّرها الإحسانُ وهى لآلئ * ونظّمها الإفضالُ وهى فرائـدُ
فلا زلتَ محروس العلا يابن صاعدٍ * وجَـدُّك فى أفق السيادة صاعدُ
تُسَـرّ بك الدنيـا ويَبتهجُ الورى * وتُستوكَف النُّعمى وتُحوَى المقاصدُ

وَرَد كتابٌ كريم ، ونبأٌ عظيم ؛ لَم تُجـرِ يَنبوعَه جياد الأقلام ، ولَم تجُـدْ بنوئه عهاد الأيام ، ولم تَظفَر بمثله أعياد الإسـلام ؛ فتُلِيَ على عذبات (٣) المنـابر ، وجُلِيَ على آماق الأبصار وأحداق البصائر ؛ وكانت بشراه البِكرَ العَوانَ (٤) ، لِمـا آبتَدَأتْ (٥) به من البشارة

(١) فى (ا) : «الموشك» ؛ وهو تحريف .

(٢) كذا فى كلا الأصلين . ولم نقف على هذا الجمع للدح فيما بين أيدينا من كتب اللغة ؛ كما أن الذى يستفاد من كتب الصرف عند الكلام على « أفعال » أن هـذه الصيغة لا تطرد جمعا «لفعل» بفتح أوله وسكون ثانيه اذا كان صحيح الفاء والعين .

(٣) المراد بعذبات المنابر ، أعاليها ؛ والعذبة بفتح العين والذال من كل شىء : طرفه .

(٤) العوان : النصف فى سنها من النساء وغيرهن ؛ وفى كلا الأصلين : « القران » وهو تحريف لا يظهر له معنى .

(٥) فى كلا الأصلين : «ابتدلت» وهو تحريف . أراد بهذه العبارة أنها بكر لانها لم تسبق بمثلها ؛ وعوان ، لانها تلد البشائر .

ولِمـا تَلِدُه من البشائر، وطليعةَ المَسارِّ التى واجهَت الآمالَ ووجهُ السعد سافر، ومقدّمةَ الأمن التى لا يُسَرّ بها إلا مؤمن ولا يساء بها إلّا كافر؛ وتحيّةَ الله التى أحيت قلوب العباد، ومنّةَ الله التى سكنتْ لهـا السيوفُ فى الأغماد، ونعمةَ الله التى عمّتْ كلّ حاضر وباد؛ ورحمةَ الله التى رحم بها هـذه الأمّةَ وما زال بالمؤمنين رحيما، وفضْلَ الله على هـذه الملّة وكان فضل الله عليها عظيما؛ وسعادةً سارت بها الأيام الى المقام المعزّىّ بين الخَبَب والتقريب، ومَركبَ عزٍّ قدّمتْه عنايةُ الله تقدمةَ الجَنيب، وكتابًا عنايتُه هـذا عطاء الله، وعُنوانُه «نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ»، وسِـلْمٌ جلّل وجه الإسـلام بُرْدَ لباسِه القشيب، وسـلامةٌ جنَتْ يمين الإيمان ثمرَ غصنها الرطيب، وعزٌّ ألبس المُلكَ خِلَعَ شبابه بعد ما خَلَع غبارُ الوقائع [عليه] رداءَ المَشيب، وشمسُ سعادةٍ منذ طلعَتْ فى أفقها لَم تجنح للغيب، ولطفٌ خفىٌّ قعد له كلُّ حمدٍ وقام به كلُّ خطيب، ومملكة تُسـمِعُها الأيّامُ: قِفا نَضحكْ بمَسارِّ الإنعام لا قِفا نَبـكِ من ذكرى حبيب، وغنيمة باردة حازتها يدُ المُلك ولسانُ السنان غيرُ ناطق وكفُّ السيف غيرُ خضيب

بتسديد رأيٍ لو رأته أميّـةٌ * لمـا احتفلتْ يوما بقتل شَبِيبِ

(١) فى كلا الأصلين: «وأمنية»؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٢) كذا فى (ب)؛ والذى فى (ا) «الأمة» وهو وإن صح به المعنى إلا أن فيه تكرارا مع ما سبق فى الجملة التى قبلها. (٣) عنايته: أى مقصده. (٤) سلم بالرفع معطوف على قوله: «نصر».

(٥) هذه الكلمة ساقطة من كلا الأصلين؛ والسياق يقتضى إثباتها.

(٦) فى كلا الأصلين: «بنشيد»؛ ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على معنى له يناسب السياق؛ ولعل صوابه ما أثبتنا إذ به يستقيم الوزن والمعنى.

(٧) فى كلا الأصلين: «اختلفت»؛ وهو تحريف.

(٨) شبيب: هو أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى الخارجىّ؛ وكان خروجه فى زمن الحجاج مع صالح بن مسرح من بنى امرئ القيس؛ وقد بايعته الخوارج بعد قتل صالح؛ وكان يلقب بأمير المؤمنين وكان موته غرقا فى نهر دجيل، وهو دجيل الأهواز لا دجيل بغداد فى سنة ١٧٧ أو ٧٨ على اختلاف فى الرواية؛ وكانت ولادته فى سنة ٢٥ أو ٢٦ انظر كتاب ملخص تاريخ الخوارج وغيره من كتب التاريخ.

الى غير ذلك من فكرةٍ صاحبيّةٍ شَرَفيّةٍ سَكَن المُلكُ تحت ظلالها ونام ، وقعد بأمرها وقام ؛ وتحرّكَتْ لها العزائم ، وسكنَتْ لهـا الصوارم ، وٱستُنزِلت العُصْم وذُعِرَتْ العواصم ، وهِمِم إذا سمَتْ سامت ٱلسماء واذا هَمَّتْ أَهمت ٱلغمائم ، وعزٌّ تحت ظل ظلاله الشرفُ مقيم وفى خدمته المجدُ قائم ، وعزمٍ ٱستيقظ له جفن النصر والسيفُ فى جفنه نائم ، وسيفِ حزم على عاتق المُلك منه نِجادٌ وفى يد جبّار السموات منه قائم ؛ وآراءٍ ٱستَفتح عقائلها فأَنجبَتْ[1] ، ورَمَى غرض إصابتها فأَكثبَتْ ، (أى أصابت[2]) وأَعمَل رائدَها فاستيقظت له ٱلهمم والأنام نيام ، وجلس فى صدور رِياستها والعالمون قيام ، وتدبير أُحكِم بإبرام النقض ونقضِ الإبرام ، وذُعِر به رابضُ الأُسد وآنِس به نافرُ الآرام ؛ وأجال به خيله فى مَسارِى الأرقم ، ومَقَرِّ الهَيْم ، وأمضاه فى مَضايق خطْبِـه فأغناه عن سنّ السِّنان وشفةِ اللَّهذم ؛ هذا ولمّـا[3] صَدقتْ عزائمُ المملكة التى نظم الله قلادةَ مُلكِها فليس لهـا انتثار ، ولمَعَتْ كواكب أَسَـلِها[4] فى ليـل الرَّهَج وسمـاءِ الغبار ، وبَنَتْ حوافر خيلِها سورا من متراكم النَّقع المُثار ، وحصَّنَتْها يد الله بمـا أظهرَتْه مِن

(١) فى كلا الأصلين : «فأنجبت» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السجع الذى التزمه الكاتب فى جميع رسالته .

(٢) الذى وقفنا عليه فيما لدينا من كتب اللغـة أن الإكثاب هو المقاربة والمداناة ، وهو من الكثب بالتحريك بمعنى القرب فلعل تفسيره هنا بالإصابة منظور فيه الى مراد الكاتب .

(٣) لم يرد فى هذه الرسالة كلها ما يصح جعله جوابا (لمّـا) هذه ، والظاهر أن بعض عباراتها قد سقط من الأصل ؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من المظان .

(٤) الأسـل : الرماح ؛ وانمـا سميت الرماح أسـلا تشبيها لها بالأسل ، وهو نبات من الأغلاث يخرج قضبانا دقاقا ليس لها ورق ولا شوك الا أن أطرافها محدّدة وليس لهـا شعب ولا خشب ؛ وشبهت الرماح به فى طوله واعتداله واستوائه ودقة أطرافه .

كامنِ الغيب وأَخفته[1] مِن طلائع الأقدار، وحضَنتها[2] رعاية الله وله مِن القدر أعوانٌ ومِن الملائكة أنصار (١٣٤)

فعمّت عمومَ اللّيلِ واللّيـــلُ مظلمٌ * وجاءت مجيءَ الصبحِ والصبحُ مُشرقُ

ومَدّت غمـاما من سنابك خيلها * بسَـــلِّ المَواضى المَشرَفيّات يَبرُقُ

٥ فى كَتائبَ إذا سارت سـوابقُها ملأَتْ عَرْضَ الغـبراء، واذا نُشرَتْ خوافقها سترَتْ وجهَ الخضراء؛ وكادت تُذْعَر الآسادُ بمَواضى حتوفِها، وتسكن المنايا تحت ظلال سـيوفِها؛ لاسيما إذا أنجمَتْ[3] أنجُمُ عواليها، ولمعَتْ بروقُ مَواضيهـا؛ وجاءت خيلُها كالصخر الأصمِّ والطود الأشمِّ أعجازُها وهَواديها؛ من كلِّ كُمَيْتٍ[4] حلوٍ فى الإزار، بين الشُّقرة والاحمرار، كأنه وَرْديّةُ العُقار

١٠ يُحِسّ وقـــعَ الرزايا وهى نازلةٌ * فيُنهِب الجرىَ نفسَ الحادث[5] المَكِرِ

وكلِّ أشقرَ[6] كأنمـا قُدَّ أديمُه مِن لهبِ النار، مُعارٍ رداءَ الحُسن، وأَحَقُّ الخيلِ

---

(١) فى (ا) «وألحقته»؛ وهو تحريف.

(٢) فى كلا الأصلين: «وحصنته» بالصاد؛ وهو مكرر مع ما قبله فى أول الجملة السابقة. وحضنتها بالضاد المعجمة: أى حفظتها وكفلتها وهو مستعار من حضانة المرأة للصبى، أى تربيته وحفظه.

١٥ (٣) أنجمت: ظهرت.

(٤) قال ابن الأعرابى: الكمتة كمتتان: كمتة صفرة، وكمتة حمرة؛ والكميت من الخيل يستوى فيه المذكر والمؤنث؛ ولونه الكمتة، وهى حمرة يدخلها قتوء. وقال سيبويه: سألت الخليل عن كميت، فقال: هو بمنزلة جميل (بضم الجيم)؛ وقال: إنما هى حمرة يخالطها سواد ولم تخلص، وإنما حقروها لأنها بين السواد والحمرة ولم تخلص لواحد منهما فيقال: أسود أو أحمر، فأرادوا بالتصغير أنه منهما قريب.

(٥) البيت لأبى العلاء المعرى انظر سقط الزند.

٢٠ (٦) الأشـقر من الدواب: الأحمر فى مغرة حمرة صافية يحمّر منها السبيب والمعرفة والناصية. وأما فى الإنسان: فهى الحمرة تعلو بياضا.

بالركِض المُعار[1]، لا تَعـلَق به المَذاكِي[2] يوم رِهان ولا تَشُـقّ له الحوادثُ وجهَ غبار كأنّمـا لبس ثوبا من خالص النُّضار

عِتاق لو جرت والريحَ شأوا * لفاتتـــه وأَوثَقَـــه[3] إسارُ

غَدت ولهـا حُجول من لُجَينٍ * وراحت وهى من عَلَقٍ نُضارُ

وكلّ أدهمَ كريمِ النِّجار، غَذىِّ اللِّبانِ[4] الغِـزار، كأنما فُصّلتْ ثيابه من سـواد الليل وصِيغَتْ حُجولُه من بياض النهار ٥

بأَغَرَّ يَبتسم الصـباح بوجهـه * حُسنا ويَسفِر عن مُحيًّا مُسـفِرِ

خَلَع الظلامُ عليه فضـلَ ردائه * وثنَى من التحجيل ثوبَ مقصّرِ

وكلّ أشهبَ أُفرِغ فى قالَب الكمال، وَجِيهىِّ[5] الأب أَعوَجىِّ[5] الخال، إن مشى ضاق بزهْوِه فَسـيحُ المجال، وإن سعى رأيتَ البرقَ ملجَما بالثريّا مسرَجا بالهـلال، كأنّما آنتَعَل خدَّ الجنوب وآشتَمَل بثوب الشَّمال[6] ١٠

(١) المعار: «المسن» بتشديد الميم المفتوحة، يقال: أعرت الفرس: أى أسمنته. أشار بهذه العبارة الى قول الشاعر:

أعيروا خيلكم ثم اركضوها * أحق الخيـل بالركض المعار

(٢) المذاكى من الخيل: التى تم سنها وكملت قوتها. ١٥

(٣) أراد بالريح هنا معنى الهواء فأعاد عليها ضمير المذكر مع أن التأنيث هو الأكثر فيها؛ وانما آثر التذكير دفعا للالتباس، فانه لو أنث الهاء لم يعلم مرجعها أهو العتاق، أم الريح.

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين؛ والذى وقفنا عليه فيما لدينا من كتب اللغـة أن جمع اللبن ألبان، كسبب وأسباب؛ فلعل المراد باللبان هنا: ذوات اللبن، وواحده لبون (اللسان نقلا عن المحكم).

(٥) الوجيهى: نسبة الى الوجيه، وهو اسم فرس من خيـل العرب نجيب تنسب اليه كرام الخيل وكان لغنى بن أعصر. والأعوجى: نسبة الى أعوج، وهو اسم فرس سابق ركب صغيرا فاعوجت قوائمه، واليه تنسب كرام الخيل أيضا فيقال: الأعوجيات وبنات أعوج؛ وكان هذا الفرس لهلال بن عامر. ٢٠

(٦) هذه الياء ساقطة من كلا الأصلين؛ واللغة تقتضى إثباتها.

مِن الجياد التى لم تَبْـدُ فى رَهَجٍ * إلّا أرَتْكَ بياضَ الصبح فى غَسَقِ
ولا جَرَين مع النَّكْباء[1] فى طَـلَقٍ[1] * إلّا ٱحتقَرتَ ٱلتماعَ البرق فى الأفقِ

وكلٌّ مطهَّم إن رَكض قَلِق السماطُ لرَكضِه ، وخِلت بعضَه منفصلا عن بعضِه وإن مشى رأيتَ الطودَ فى سمائه والرياحَ فى أرضه ؛ وإن خطا ظننتَه يَرْتَع فى روض المَجَـرّة ويَكرَع فى حوض الغمام ، وخلتَه ٱلأشَمَّ مِن ٱبنَىْ شَمام[2] ، همُّه جهـة الأمام وصوتُه حركةُ اللجام ، كأنه قطعةٌ من سماءٍ أو ظُلّةٌ من غمام

جِرى[3] والريحَ فى طَلَقَ رِهانٍ * فقـامت دونه ومضى أَماما
وَمدّ من السـنابِك ثوبَ غَيم * ولَم أرَ قبلهـا ثوبا غمـاما

عليها كلُّ كمىٍّ لابَسَ الحربَ ولابسَتْه[4] ، ومارسها ومارسَتْه ؛ وكَتبَتْ عليـه المواضى فى صدره كتابا أعجمَتْه أطرافُ الأَسَل ، وجَنَى ثمرِ الحديدِ أحلى عنـده من العسل وسار إلى مهج الأبطال كسيف القضاء وحثّ[5] الأجل ؛ له حُنْكَةُ الأَشيَب ونجـدةُ الغلام ، وصنعةُ الضرب الفَـذّ والطعنِ التُّؤام ، والفتكاتُ التى تُطلِـع صبح الصوارم

(١) النكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين ، أو بين الصبا والشمال . والطلق بفتحتين : الشوط الواحد فى جرى الخيل .

(٢) شمام : اسم جبل لباهلة ، كما فى ياقوت . وقال ابن برى : هو جبل بالعالية ، وهـذا الجبل له رأسان ، يقال لهما : ابنا شمام قال لبيد :

فهل نبئت عن أخوين داما * على الأحداث إلا ٱبنى شمام

(٣) فى كلا الأصلين : « بجرى » ؛ والفاء زيادة من الناسخ .

(٤) الى هنا انتهت النسخة المشار اليها بحرف (ب) .

(٥) الحث : الإعجال ، وإضافته إلى الأجل من إضافة المصدر الى مفعوله . أو لعله : « وحتم » بفتح الحاء وسكون التاء .

فى ليـل القَتام ، والفَعلاتُ التى لهـا فَتكاتُ الأَوْرق[1] فى النَّقَـد وصَولاتُ الأسد فى السَّوام

يمشى الى الموت عالى الكعب معتقِلا * أَظمَى الكعوب كمشى الكاعبِ الفُضُلِ[2][3]

يُحسِنُ فى بحار الدروع سَبحَ[4] الفوارس ، بين بدور اليَلَب[5] ونجومِ القَوانس[6] ؛ من كلِّ سابغة لاتصل إليها ألسنةُ الحداد ، كأنها أثواب الأراقم خِيطت بأعين الجراد ؛ كفيلة بحماية الأنفُس وصيانةِ المهَج ، تُنير مسالكَ لا بِسها فى دياجى الرَّهَج ، إنما هى البحر ولا حرج[7]

اذا ما مشَوا فى السابغات حسِبتَهم * سيولا وقـد سالت بهنّ الأباطحُ

وكلِّ أبيضَ هندىٍّ تألّفتْ من المِلح أبعاضُه ، البَردُ جسمُه والبرْقُ إياضهُ ؛ المَفارقُ مغاربُه والأجفانُ مَطالعُه ، والأنفسُ مواردُه والمنايا منابعُـه ؛ لو أَثمَر لأنبت رءوسا ولو تفجّر لسال نفوسا ، ولوتكشّف صافى حديدِه لرأيتَ فيه عُبوسا

(١٣٥)

---

(١) فى الأصل : «الأوراق» ؛ والألف زيادة من الناسخ . والمراد بالأورق هنا : الذئب ، فان لونه الورقة ، و يقال للذئبة : الورقاء ؛ قال فى اللسان مادة (ورق) مانصه : وكذلك شبهت العرب لون الذئب بلون دخان الرمث ، لان الذئب أورق قال رؤبة :

فلا تكونى يا ابنة الأشم * ورقاء دمى ذئبها المدمى

اهـ والنقد بفتحتين : صغار الغنم ، واحدته نقدة .

(٢) الأظمى من الرماح : الأسمر ؛ وهو من المعتل اللام ، وليس من المهموز .

(٣) الفضل بضمتين : المختالة التى تفضل من ذيلها ، كما فى اللسان مادة (فضل) .

(٤) فى الأصل : «تحت» ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٥) اليلب محركة : الترسة ، أو هى جلود يخرز بعضها الى بعض تلبس على الرءوس خاصة .

(٦) القوانس : جمع قونس ، وهى أعلى بيضة الحديد .

(٧) أشار بهذه العبارة الى قولهم : "حدث عن البحر ولا حرج" والمراد أنه لا لوم على من يطيل فى وصف هذه الدروع مهما توسع فى ذلك ، لشبهها بالبحر فى بريقها واطراد متنها .

سَـلِيل النار دَقّ ورَقّ حتى * كأنّ أباه أَورَثه السُّـلالا (١)
ودَبَّت فوقه حمـرُ المنايا * ولكن بعد ما مُسخَتْ نِمالا

وكل أَسمَرَ اذا انحنى فهو صاحٍ واذا آنثنى فهو نشوان ، واذا ورد دمَ القلبِ فهو ظمآنُ القناةِ ريّانُ السنان؛ اذا خطب النواصيَ وخَط (٢)، واذا كَتبت المواضى نقَط؛ واذا قَصُرت يدُ القِرْنِ طال، واذا صَلِيَتْ نارَ الحرب العوالى صال

تَوَهّـم كلَّ سابغةٍ غديرا * فرَنّق يشرب الحَلَقَ الدّخالا (٣) (٤)

وكلّ صـفراءَ رَقشاءِ الأديم (٥)، كانهـا أَرقَمُ الصَّريم (٦)؛ لهـا فَلَكٌ بالرزيّة دائر، وسهمٌ بالمنيّة طائر، إن رَكِب فهو مقيم وإن نزل فهو سائر؛ مع عزائمَ بَنَتْ على الدولة (٧) سورا، وجَعلَتْ بينها وبين الذين لايؤمنون بالدولة المعزّيّة حجابا مستورا؛ على أنها غنيمةٌ لَم تحتج إلى الإيجاف والإيضاع، وطَلِبَةٌ ألفاها على طرف الثمام (٨) وحبلِ الذراع (٨)؛ وعنايةٌ جاءت على آختيار المراد ومرادِ الآختيار، ونعمةٌ كَرّتْ هى والتوفيق فى قَرَنٍ

(١) "سليل النار" يريد أن هذا السيف قد ولدته النار لأنه أخرج بها من معدنه؛ وطبع سيفا بواسطتها والشعر لأبى العلاء المعرى انظر شرح التنوير على سقط الزند ج ١ ص ٢٧، ٢٨ طبع بولاق .

(٢) وخط : طعن طعنا نافذا؛ وبابه وعد .

(٣) قال فى شرح التنوير على سقط الزند ج ١ ص ٢٩ طبع بولاق فى تفسير هذه الكلمة : رَنق الطائر: اذا حام حول الماء ليشرب اه والبيت لأبى العلاء المعرى .

(٤) الدخال : المتداخل بعضه فى بعض انظر شرح التنوير على سقط الزند . والذى فى الأصل : «الخلق الدجالا»؛ وهو تصحيف .

(٥) الرقشاء : المنقوشة؛ يريد القوس .

(٦) الصريم : القطعة من معظم الرمل .

(٧) فى الأصل : «عليها»؛ والسياق يقتضى حذف الهاء .

(٨) يقال : هوله على طرف الثمام : إذا كان هين المتناول، كما يقال : هو على حبل الذراع : إذا كان ممكنا مستطاعا .

وجَرَتْ والسعادةَ فى مضمار، ومنحةٌ رَكَضَتْ بها الى المقام المعزّىّ سوابقُ الأقـدار ومعنًى خفىٌّ من نعم الله لم تَلِجه عقائل الأفكار ؛ واذا سبَقت عناية الله فليس لأمر حتمه الله رافع ، واذا لحظَتْ السـعادة أمراً وقفَتْ دونه آمال المطالب وتقطّعَتْ خلفه أعناق المطامع ، وٱستولت يمينه على آفاق سمـاء الشرف[(١)] فلها قمراها والنجوم الطوالع، وهذه مواهبُ لا تدركها دقائقُ ٱلأَسْطُرْلاب[(٢)] ولا دَرَج الشمس ولا رَصْدُ الطـــوالع

لعمرك ماتدرى الضَّواربُ بالحصا * ولا زاجراتُ الطـيرِ ما ٱلله صـانعُ.

ويُنهِى[(٣)] أنّ حاملها مَن عَقدَتْ عليـه الملوك خناصرَها، وٱختَصّ منها بالصحبة ناصرَها؛ وله فضـلٌ لا يذاد عن مَنهل العلم سَوامُه، ولا تُجهَل فى مسالك الشرف

(١) فى الاصل : «يمين» ؛ وهوغير مستقيم ؛ والصواب ماأثبتنا ، فانه يشير بهذه العبارة إلى قول جرير:

أخذنا بآفاق السماء عليكمو * لنا قمراها والنجوم الطوالع

(٢) الأسطرلاب بفتح الهمزة وضم الطاء : ميزان الشمس ، وبه يعرف مقـدار الساعات وأخذ الأرصاد ومطالع الكواكب .

(٣) الظاهر أن هـذا الكلام من قوله : «وينهى» إلى قوله فيما سـيأتى : «من أفقها صبحا» ، ليس من تتمـة الرسالة السابقة ؛ وانما هو بعض رسالة أخرى سقط أولها من الأصل الذى بين أيدينا ؛ ويدل على ذلك أمران : أحدهما ، أن المكتوب اليه بالرسالة السابقة هو الصاحب شرف الدين الفائزى وزير الملك المعز كما تقدم ، أما هذه الرسالة ففيها ما يدل على أن المكتوب اليه غير الصاحب شرف الدين ، فانه يقول فيها : «وقد صـير الجناب الزينىّ لما يحاوله» الخ ولم يقـل : الجناب الصاحبىّ أو الشرفىّ أو الفائزى نسبة الى أجد ألقاب شرف الدين ؛ والظاهر ان الزينىّ نسبة الى زين الدين يعقوب بن الزبير وزير الملك المنصور نور الدين على ابن الملك المعز أيبك التركمانى ؛ وزين الدين هذا قد تولى الوزارة للملك المنصور بعد الصاحب شرف الدين الفائزىّ كما تقـدّم بيان ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٦٣ من هذا الجزء نقلا عن ابن إياس . الأمر الثانى ، اختلاف الغرض فى كلتا الرسالتين فانه فى الرسالة الأولى ينهى الصاحب شرف الدين بالصلح بين الملك الناصر والملك المعز؛ وفى الرسالة الثانية يوصى بخير لإنسان .

أعلامُه؛ وله نفسٌ سَمَت حتى أخذَتْ سماء السيادة بيمينها، وهمّةٌ اذا رأيتَ ذاتها الكريمة توسّمتَ الرِّياسةَ فى جبينها، وأبوةٌ لا تتجر من المعالى إلّا فى ثمينها؛ وقد أكلَتْه السنة بل السنوات، وترادفت عليه الملمّات بل المؤلمات؛ وقد صيّر الجناب الزينىّ لما يحاوله ذَرِيعه، ووَرَد المنهلَ الرَّحْبَ وإنه لعذبُ الشريعه، وقد أصاب به مولانا طريقَ المَصنع فألبَسه ثياب الصنيعه؛ ومولانا أولى مَن أولاه شرفَ جلاله ونظر اليه بعينٍ كريمةٍ يقابِل بها ما يقابِله من كرم خلاله؛ فالإبريزُ قد يَشتبِه إلّا على نُقّاده، والغيثُ قد يُخْلِف إلا على رُوّاده، والماء قد يأجُن إلا على وُرّاده؛ وسيّدنا مصعبُ الهمِم وهذا ابن قيس رقيّاته[1]، ومهلبُ الشِّيم وهذا حبيب أبنائه[2]، وواثقُ الإحسان وهذا فى الجلالة ابنُ [أبى][3] دُواده وفى الأدب ابنُ زياته[4]؛ فليضعْه حيث

(١) كذا فى الأصل؛ ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على أنهم عدوا الإخلاف مرادا به الإمحال وقلة المطر بهذا الحرف؛ ولعله ضمن قوله: «يخلف» معنى «يبخل» فسوغ له هذا التضمين ذكر «على».

(٢) يريد عبيد الله بن قيس الرقيات، وهو شاعر من بنى عامر بن لؤى؛ وذكر ابن سلام فى كتاب طبقات الشعراء (ص ١٣٧ طبع ليدن) أنه نسب الى الرقيات لأن جدات له توالين يسمين رقية. وفى الأغانى (ج ٤ ص ١٥٥ طبع مطبعة بولاق): أنه لقب بالرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية: منهن رقية بنت عبد الواحد، وابنة عم لها يقال لها: رقية، وامرأة من بنى أمية يقال لها: رقية. وكان عبيد الله منقطعا الى آل الزبير، فمدح مصعبا، وهجا عبد الملك؛ وهو القائل:

إنما مصعب شهاب من الله* تجلت عن وجهه الظلماء

(٣) فى الأصل: «أبياته»؛ وهو تصحيف، فان الذى وقفنا عليه فى كتب التراجم أن حبيبا هذا من أبناء المهلب لا من شعرائه الذين مدحوه.

(٤) ابن أبى دواد: هو القاضى أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد الإيادى؛ وكان أصله من قرية بقنسرين واتجر أبوه الى الشام، وأخرجه معه وهو حدث، فنشأ أحمد فى طلب العلم، وخاصة الفقه والكلام حتى بلغ مابلغ؛ قال أبو العيناء: مارأيت رئيسا قط أفصح ولا أنطق من ابن أبى دواد؛ وتولى القضاء فى زمن المعتصم والواثق الى أن أصيب بالفالج فى زمن المتوكل؛ وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين اه ملخصا من وفيات الأعيان.

(٥) ابن الزيات: هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات؛ وكان من أهل الأدب والفضل، عالما بالنحو واللغة كاتبا شاعرا؛ وقد استوزره المعتصم ثامن خلفاء بنى العباس، وأقره ابنه الواثق هارون على ما كان عليه فى أيام أبيه المعتصم بعد أن كان متسخطا عليه؛ ولما قام المتوكل بالأمر قبض على ابن الزيات، واستصفى أمواله، وحبسه فى التنور حتى مات فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين اه ملخصا من وفيات الأعيان. والذى فى الأصل: «ابن زياده» بالدال؛ وهو تحريف.

وضعتْه السيادة صدرا، وليُطلعْه كما أطلعَتْه الفضائل بدرا؛ وليَصرِف اليه عنايةً تَعلّق بها الحمدُ عَلاقةَ غَيلانَ[1] بمَيّه، والحَكَمِ[2] بأميّه؛ وهو يعلم — أدام الله أيامه — أن المناصبَ عرائس، والصنائع قلائدُها، والولاياتِ مآدب، والمكارم موائدُها، والليالى — كما علمت — حَبالى، والسيّئات والحسنات ولائدُها؛ وخيرُ مَن لَبِس ثوبَ نعمة كاهلُ هذا الإمام، وإن الحسنة اليه لأشرفُ مواهب الأيام، فاغتنمْها فإنّها غاية الاغتنام؛ وأعيذ مولانا بالله أن يَجعل نظرَه إليه لمحا، أو يَضرب عنه الذكر صفحا، أو يكون مولانا روضةً ثم لا يجدُ هذا الصدرُ منها نفحا، ومَطلَعَ آفاق الشرف ثم لا يَستوضِح هذا الملتمِسُ مِن أفقها صبحا.

ومثل صدر هذه الرسالة لبعض الكتّاب المتقدّمين[3] :

الحمد لله مقلّب القلوب، وعالِم الغيوب؛ الجاعلِ بعد عسرٍ يسرا، وبعد عداوةٍ ودّا، وبعد تحاربٍ اجتماعا، وبعد تباينٍ اقترابا؛ رأفةً منه بعباده ولطفا، وتحنّنا عليهم وعطفا؛ لئلا يَستتمّهم[4] التتابُع، فى التدابر والتقاطُع؛ وليكونوا بَررةً إخوانا، وعلى الحقّ أعوانا؛ لا يتنكّبون منهجا، ولا يركبون من الشبهة ثَبَجا؛ بغير دليلٍ يهديهم

(١) غيلان : هو أبو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود بن حارثة، وهو المعروف بذى الرمة؛ وكان من فحول الشعراء، وهو أحد عشاق العرب المشهورين؛ وصاحبته مية بنت مقاتل ابن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى، وكان كثير التشبيب بها فى شعره، وكانت وفاته سنة سبع عشرة ومائة اهـ ملخصا من وفيات الأعيان ترجمة ذى الرمة.

(٢) يريد الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، وهو والد مروان ثالث خلفاء بنى أمية.

(٣) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل؛ ولم يرد فيما سبق صدر رسالة تصح المماثلة بينه وبين ما أورده هنا لبعض الكتّاب المتقدمين. ولعله قد سقط من الأصل الذى بين أيدينا.

(٤) فى الأصل : «يستتم بهم» والباء زيادة من الناسخ اذ لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أن هذا الفعل يتعدى بالحرف والتتابع بالياء المثناة : التهافت؛ أو هو المجاجة. ويريد بقوله : «لئلا يستتمهم» الخ أن المجاجة فى الخصومة تستأصلهم بتمامهم ولا تبقى على أحد منهم.

قصد المسالك، ولا مرشدٍ يذودهم عن دَرْك المهالك؛ أحمده على نعمه التى لا يحصى الواصفون إحصاءها، ومننه ٱلتى لا تحمل ٱلخَلْقُ أعباءها؛ حمدا يتجدّد على مَمَرّ الأزمان والدهور، ويزيد على فَناء الأحقاب والعصور؛ وإنّ أحقّ ما ٱستعمله العاملون ولَحِق به التالون، وآثره ٱلمؤمنون، وتَعاطَى بينهم المسلمون؛ فيما ساء وسَرّ، ونفع وضَرّ؛ ما أصبح به الشَّمْل ملتئما، والأمرُ منتظما، والفتقُ مرتتقا، والسيفُ مغمودا ورواقُ الأمن ممدودا؛ فحُقِنَتْ به الدماء، وسكنَتْ معه الدهماء، وٱنقَمَع به الأعداء[1]؛ وٱتصل به السرور، وأُمِنَتْ معه الشرور؛ وليس بذلك أَولى، والى إحرازِ الثواب به أدنى من الصلح الذى أمر الله تبارك وتعالى به، وخَصّ وعَمّ ورغّب[2].

ولنعد الى كلام الشيخ ضياء الدين بن القرطبي

فمن ذلك ما كتب به أيضا الى الصاحب شرف الدين الفائزىّ جوابا عن كتاب شفاعة يوصى على أخيه نجم الدين، فأجابه الشيخ: يخدُم الجنابَ الشرفىّ — رفع الله قدره بين أوليائه، وأطاب ذكره فى مقام عليائه؛ وأطال عمره مقترنا بعزّه، وأقرّه فى كنف سلامته وكهف حرزه — وردَتْ الأوامر المطاعه، المقابَلةُ بالسمع والطاعه؛ فى حق أخى المملوك مولانا نجمِ الدين، فتَلَقّى راية طاعتها بيمينه، وأقرّها من تعظيمه فى أسرّة جبينه، وأَحَلّها من شرف الٱمتثال فى مستودَع دينه؛ وقابل حاملَها بأَوْفر ترحيبه، وأقربِ تقريبه؛ وواجَهه بإجلال الأخوّه، وخلال[3] البنوّه؛ وأَحَلّه كنفَ قلبه، وأَوْدعه بين شَغاف[4] القلب وخِلْبِه[4]، وأعاده الى معهود ولائه وحَسَبِه؛ وقرّر له

(١) فى الأصل: «له» باللام؛ وهو تحريف.

(٢) الظاهر أن لهذا الكلام بقية قد سقطت من الأصل الذى بين أيدينا؛ ولم نقف عليها فيما راجعناه من المظان.

(٣) فى الأصل: «وجلال» بالجيم؛ وما أثبتناه هو المناسب لقوله: «البنوّة».

(٤) الشغاف: غشاء القلب وغلافه، وهو جلدة ألبسها. والخلب: حجاب الكبد.

فى كلّ شهر عشرة دنانير وهى نهـاية قدرتِه ، وأعلَمَه أنّهـا أعْوَد نفعا من ولايتِـه وأقربُ عونًا مِن إمرَتِه ؛ وعاهد اللهَ ألا يتعرض لجنديّةٍ أبدا ، ولا يَمدّ لطلب ولايةٍ يدا ؛ ولا يَقِفَ بين يدَى الأمراء بعدَها ، ولا يتجاوزَ بجلالة أبَويه حدَّها ، ولا يهمل شرف نسبته التى لَم تُصاعِرْ [لهـا] (١) (٢) الأيّامُ خدَّها ؛ وأخذ عليـه عهود الله والمملوك فى الوفاء مهما عهِدَها ؛ وقد توجَّه الى المَشارع الصاحبيّـة التى استَعذَب وِرْدَها والمكارمِ الشرفيّة التى أَلِف حمْدَها ، والصنائعِ الإحسانيّة التى وَجد فى مرارة الفقـر حلوَهـا وفى حرارةِ الغـربة بَرْدَهَا ؛ وعاوَدَ عُشَّ الفضل الذى منـه دَرَج ، وبيتَ الكرم الذى اليه (٣) دَخَل ومنـه (٣) خَرَج ، وسماءَ الإحسان التى أَطلعَتْ نجمَ إمامتِه فعَرَّج عليها وإليها عَرَج ، وبحرَ المعروف الذى اذا أَطنبَ لسانُ ثنـائه قالت شـواهد بيانه : « حدِّثْ عن البحر ولا حَرَج » ؛ ومولانا يضعُه تحت كَنَفِه ، ويرفعُـه لله ولسـلَفِه ، ويقابله الجنابُ الشرفيُّ بمـا عَرَفه من شرَفِه ؛ ويُعِينُـه على جارِيه الذى هو مادّةُ رفقِـه ، وأوّلُ ما أجراه الله على يد مولانا من رزقِه ؛ بكتاب يُجـزل له العزَمات ويُنْمِيها (٤) ، ويُسكن رُوحَ الحياة فى جسد فاقته ويُبقيها ؛ فهو ذو ضرّاءَ لاتسدّها إلا القناعه ، وذو فاقةٍ لاترفعها إلا السَّعةُ التى تمدّ باعَه ؛ والله يجعل مولانا وقايةً لمن لجأ إليه ، وإعانةً لمن اعتمد عليه ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) صاعر خدّه وصعره بتشديد العين المهملة : أماله كبرا ؛ وقرئ : (ولا تصاعر خدك للناس) .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها . والضمير عائد الموصول وفى قوله : «خدّها» يعود الى «الأيام» .

(٣) عبارة الأصل : «الذى منه دخل واليه خرج» والصواب العكس كما أثبتنا .

(٤) فى الأصل : «وبيعتها» ؛ وهو تحريف .

(١٣٧) وكتب إليه أيضا شفاعةً فى بعض الأعيان فقال :

ويُنهِى أنّ الله تعالى متولّى سرائرَ عبادِه، ومُجازيهم على مخالفةِ أمره وإن كان على وَفْق مرادِه؛ أَعَدّ دارَىْ ثوابِه وعقابِه، وحذّر أُولى العقوبة مِن أليم عذابِه؛ ثم عمّت رحمته فشَفَّع فى العصاه، وعفا عن الجناه؛ فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ ثم بُذلتْ عوارفُ الإحسان، وعواطفُ الحَنان؛ حتى شَفَع الى خَلقِه، فى العفو عن حقِّهم وحقِّه؛ صفة كَرَمٍ رحمانيّه، وصِلة عفوٍ إحسانيّه، وصنائع ٱلطافٍ ربانيّه، فشفع إلى الصدّيقِ فى مِسْطَح، فقال : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى ٱلْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ فقدّم مُوجباتِ العطف بما قدّم من القرابة والمسكنة والمهاجَرة، ثم تلقّاها مِن أجرِ الآخرة بكرم المُجازاة وربح المعاملة، وحُسنِ جزاء المنعم، تعريفا بمواقع الإحسان، وتكريما لنوع الإنسان؛ ومملوكُ مولانا فلان ٱلذى أنزل حاجتَه بعبدِك[1]، وقَصَده قَبل قصدِك؛ وأَسكَنَ حريمَه مجاورا لحريمِه وتَشفّع به إلى صدر الزمن وكريمِه، واستَوهَبه الذنب وإن كان معترفا بعظيمه؛ والصنعُ الجميل ثمرةُ الأيام، والفضلُ أثبتَتْه ألسن الأقلام؛ ولله لحظاتٌ تَلحظ عبادَه ويرحم الراحمين، ويجزى المتصدّقين، ولا يضيع أجر المحسنين؛ وإن مولانا عِقالُ[2] الشرف وذو الفضل الأُنُف[3]، والعارفُ فى صنائع الإحسان كيف تُؤكَل الكَتِف؛ وقد أَحلتُه

---

(١) فى الأصل : «لعبدك» باللام؛ والسياق يقتضى الباء كما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : «عقائل» ؛ وهو غير مستقيم؛ والمراد بقوله : «عقال الشرف» أن الشرف محتبس عليه لا يفارقه؛ وهو مستعار من عقال البعير : وهو الحبل الذى يعقل به عن النهوض .

(٣) الفضل الأنف : أى الذى لم يسبق اليه؛ وهو استعارة من قولهم : « روضة أنف » أى أنها لم ترع، «وكأس أنف» أى أنها لم يشرب بها قبل ذلك .

على مَلاءةِ[1] أياديك، وألبستُه مُلاءَةَ معاليك، وأحللتُه بضَمان الله كَنَف ناديك؛ وأنت الكريم أخلاقا ونسبا، والطَّيِّبُ أعراقا وأبا، والصَّدرُ الذى إذا سامته الأيّام خُطَّةَ ضيم ابى، واذا أوطأته مَهانةٌ[2] وخسفا نَبا؛ وأحقُّ مَن قَبِل هـذه الشفاعَة كَرُمُـك[3] وأَولى من رعاها شيمُك، والمعـالى جنودُ الشرف وأحقُّ عَلَمٍ رُفِـع[4] عليها عَلَمُك؛ والله تعـالى يبقيه للأنام ملاذا، وللأمل مَعاذا، ويَهَب عزمَه مَضاء وقلمَـه نفاذا؛ إن شاء الله تعالى.

وكتب الى[5] قاضى القضاة تاج الدين بن خلف :

يخدُم الجنابَ التاجىَّ — أدام الله شرف الملّة ببقائه، وأعلى كلمةَ الأمّة بعـلائه وأجرَى ألسنةَ الأقلام بثنائه، ورَفع ألوِيةَ أوليائه بولائه — ويُنهِى ورودَ مشرِّفته الّتى تجلّت فى سمـاء السيادة حُسنا، وسهلَتْ لفظا وجَزُلَتْ معنى، وغدا لسان الإحسان عليها يُثنِى، وعِنانُ الفضائل اليها يُثنَى؛ وقد أخذَتْ برقاب المعانى، وأطربَتْ إطراب المثانى، وبعثَتْ روحَ الحياة الى روح الأمانى، وثنت إلى فضلها الأوّلِ عِنانَ الثـانى

فَحَىَّ[6] هلا بالمكرُمات وبالعـلا * وحَىَّ هَلا بالفضل والسُّؤدُد المحض

(١) الملاءة بفتح الميم : القدرة والغنى، وهو مصدر ملؤ الرجل فهو ملىء : أى صار ثقة غنيا .

(٢) فى الأصل : « بهـا » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : «لومك» بلام بعدها واو؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : «وقع» ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : «اليه» ؛ وهو غير مستقيم .

(٦) يقال : حىّ هلا بكذا بلا تنوين : أى عليك به؛ ويقال فيه أيضا : حىّ هلا بالتنوين وحى هل بفتح الجزأين كخمسة عشر؛ وكلها يراد به الحث .

لا جَرَم أنّ المملوك سجد لله ثم لجلالة[1] ذلك الاستغفار، وقبولِ كلماتِ الاعتذار؛ وعَلِم أنّ مولانا لبس حلّةَ التواضع لتمام شرف الاصطناع، وليحُوزَ أقسام السيادة بالصدرِ الرَّحبِ والخُلُقِ الوَساع[2]

سجيّة[3] نفسٍ شرّف الله مجدَها * بما شاء من فضل لديها ومن حلمِ
وسُؤدُدِ آباء وكسبِ سيادة * تَضُمّ إلى عزّ العلا شرفَ العلمِ

هذا مع إساءتنا التى تسوِّد وجوهَ الأمل، ويَقضِى كفرُها — لولا إيمان مولانا — بإحباط العمل، على أنها مُلازَمةُ المعلولات للعلل

وما كنتُ جانِى فتنةٍ غير أنّها * إذا وقعَتْ أردَتْ مسيئاً ومحسنا (١٣٨)
ولو رشقَتْنى مُصْمِياتُ سهامِها * لألفَتْ لها حُكما من الله بيِّنا
وإن جلال الله يشهد انّنى * بَذلتُ مِن الوُسع الّذى كان ممكنا
وحَذرتُ حتى لم أَجِد متحرِّزا[4] * وأَسمَعتُ لكن لم أَجِد ثَمّ أُذُّنا[5]
وكانت صعابٌ[6] تقتضيها مشيئةٌ * وهل لقضاء الله ردٌّ إذا دنا

وأما إشارة مولانا إلى الحاجب الذى هو لمولانا أشرفُ مِن حاجب بنِ زُراره بما[7] أودَعه أثناءَ تلك الكلم مِن لطيف الإشارة وشريف العباره؛ فجزاءُ مولانا على الله فى جبره لقلب المملوك المنصدع، وصِلةِ أمله المنقطع.

(١) لعله: «لإجابة» كما يدل عليه قوله بعد: «وقبول» الخ.
(٢) الوساع بفتح الواو: الواسع.
(٣) فى الأصل: «تحية» بالتاء المثناة والحاء المهملة؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.
(٤) فى الأصل: «متحذرا»؛ وهو تحريف إذ لم نقف عليه فيما بين أيدينا من كتب اللغة.
(٥) الأذن بضم الهمزة وتشديد الذال: جمع آذن، وهو المستمع؛ يقال: اذنت اليه وله: اذا استمعت اليه معجبا بما يقول.
(٦) فى الأصل: «طباعا»؛ وهو تحريف لا يتضح به المعنى؛ والفعل قبلها تام لا يحتاج الى منصوب إذ معنى الكون هنا: الوقوع والحصول.
(٧) هذه الباء ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها.

وكتب إلى الصاحب قاضى القضاة بدر الدين السنجارى —

وهو يوم ذلك متولى الحكم والوزارة بالديار المصرية :

لا زال الإسلام يستضىء ببدرِه، والإيمانُ يَأرِز[1] إلى صدرِه، والشرفُ يَتضاءل عند قدر جلالته وجلالةِ قدرِه، والآمالُ والآجالُ مصرَّفةٌ بين بسطةِ نعمته وسطوةِ قهرِه، هذه على ذكرِه وهذه على فكرِه، والمكارمُ والمحامدُ تَتعلّق وتَتألّق هذه بنشْرِه وهذه ببشْرِه، والعزمُ والرأىُ إذا فُلَّ أو فالَ[2] آستغاث وآستضاء هذا بنصرِه وهذا بفكرِه

ولا غرو أن تَثنِى الوِزارة جيدَها * إلى ناظمٍ فى جيدها عِقدَ فخرِه

الى أَحوذىٍّ[3] الرأى إن ناب معضِلٌ * أراك جلىَّ الأمرِ إيحاءُ سرِّه

إذا آستَغزَر الذهنَ[4] الذكىَّ تضاءلَتْ * له فكرتا قيسِ[5] آلذكاءِ وعَمرِه

(١) فى الأصل : «بارز» ؛ وهو تحريف . ويأرز : يأوى ويلجأ .

(٢) فال الرأى يفيل كيبيع : ضعف وأخطأ . والذى فى الأصل : « اذا قل أو قال » بالقاف فى كلتيهما ؛ وهو تصحيف .

(٣) الأحوذىّ : هو الذى يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها .

(٤) فى الأصل : «الدهر» ؛ وهو تحريف .

(٥) يريد : قيس بن زهير بن جذيمة العبسىّ صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين : داحس والغبراء؛ وكان فارسا شاعرا داهية، يضرب به المثل فيقال : "أدهى من قيس" اه ملخصا من مرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون . وعمرو: هو ابن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم؛ ويكنى أبا عبد الله ؛ أسلم بأرض الحبشة عند النجاشى، ثم قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا؛ واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على غزوة ذات السلاسل ؛ وبعثه أبو بكر رضى الله تعالى عنه الى الشام فتولى ما تولى من فتحها ؛ وولاه عمر رضى الله تعالى عنه فلسطين، ثم كتب اليه أن يسير الى مصر فسار اليها وفتحها ، وولاه عمر إياها ؛ وقد شهد صفين مع معاوية بن أبى سفيان؛ وقد ولاه معاوية مصر أيضا فلم يزل بها واليا الى أن مات بها يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين، ودفن بالمقطم مقبرة أهل مصر؛ انظر طبقات ابن سعد فى القسم الثانى من الجزء السابع ص ١٨٨ طبع ليدن . وكان عمرو بن العاص يضرب به المثل فى السياسة والدهاء .

فيُطلِع رأيا واضحا من سداده * كما انشقّ بُردُ الليل عن ضوء فجره

إلى سؤدَدٍ أجرَتْ معاليه خيلَه * سوابقَ غُرًّا (١) فى بَهيات دهره

وكم سابقٍ أجرى إلى غاية العلا * ولكن طوى سبْقا مُلاءةَ حُضره

بحلم تجلّى فى أسرّة وجهه * وجودٍ تجلّى من طلاقة بشره

يمينا لقد أضحت جلالةُ قدرها * على شرف المقدار من دون قدره

سطّرها المملوك بعد ما لبست الوِزارةُ حلّة فخرِها ، وسحبتْ ذيل افتخارِها ، وبدا معصم شرفها فى حلية سِوارِها ، وتجلت معانيها بين شموس فضلها وأقمارِها ، وجَنينا الغضّ من زهرِها ، والطيّب من ثمرِها ، وحَمِدنا جميل تأثيرها وحميدَ آثارِها

وحيّتْ على بعد المدى نفثاتُها * بأطيَبَ من رَنْد (٢) الرُّبا وعَرارِها (٢)

واجتلَى المملوك حسناء إحسانِها فما ضارعتْها البدورُ مذ فارقتْ سَرارَها ، ولا الأنجمُ ولو نظم الفَلَكُ أنوارَها ، ولا الروضةُ وقد عقدت الغمائمُ إزارَها (٣) ، ولا أطلالُ ميّةَ وقد دَبّجت يدُ الأنواء (٤) أزهارَها ، ولا أَرْدانُ عزّةَ وقد أوقدتْ بالمَنْدَل (٥) الرطب

(١) فى الأصل : «عز» ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يرشد اليه قوله بعد : «فى بهيات» .

(٢) الرند : الآس ؛ أو هو العود الذى يتبخر به ؛ وقيل : إنه شجر من أشجار البادية طيب الرائحة يستاك به ، وليس بالكبير ، وله حب يسمى الغار . والعرار : النرجس البرى .

(٣) يريد تشبيه النبت والأزهار حول الروضة بإزار عقدته الغمائم عليها ، كما يدل عليه قول أبى تمام :

حتى تعمّم صلع هامات الربا * من نوره وتأزّر الأهضام

والذى فى الأصل : «أزرارها» والراء الأولى زيادة من الناسخ .

(٤) عبارة الأصل : «ذبحت يد النوار» ؛ وهو تحريف .

(٥) المندل والمندلى : العود الذى يتبخر به . قال الأزهرى : وهو عندى رباعى لأن الميم أصلية وقد أشار بهذه العبارة الى قول كثير :

بأطيب من أردان عزة موهنا * وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

والروى فى هذا الشعر مرفوع ، وقوله : «أوقدت» مبنى للمجهول ، ويدل على ذلك قوله قبل هذا البيت :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى * يمج الندى جثجاثها وعرارها

الأغانى ج ١٤ ص ٥٩ طبع بولاق وإنما خالف الكاتب هنا حركة الروى فى شعر كثير لاقتضاء السجع نصب الراء .

نارَها" ؛ صلة جاءت كبُرد الشباب[1]، وبَرد الشراب؛ اقتضابا قبل السؤال، وابتداء الآمال ؛ والمملوكُ يحضر عقيبها ليجتلىَ وجه المنعم قريبا، ويجتنىَ غصنَ النِّعَم رطيبا

ومتى لم أَقُم بشكرك للنا * س خطيبا فلا وُقيتُ الخطوبا

(١٣٩) وكتب الى الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب بهاء[2] الدين على بن محمد المعروف بابن حِناء[3]:

رفع الله قـدر الجناب الصـاحبيِّ التاجيِّ فى شرف الأقـدار، وأَجْرَى بإرادته وسعادته سـوابقَ الأقدار، وألبَسَه حليـة الشرف التى هى على رأس رياسـته تاجٌ وفى مِعصم سيادته سِـوار، وحلّةَ النعم التى ينكمش[4] لأجلها رُدْن المساءة وينسحب بمثلها ذيل المسَار، وأَمضَى عزائم آرائه التى اذا سَـطت يوم البأس نفـذتْ نفوذ

(١) فى الأصل : «الشتاء» ؛ وهو تحريف .

(٢) كذا فى الأصل ؛ والذى وجدناه فى المصادر التى بين أيدينا أن الصاحب بهاء الدين جد الصاحب تاج الدين ؛ وأما أبوه فهو فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين . فقد ورد فى كتاب المنهل الصافى المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١١٣ تاريخ فى ترجمة الصاحب تاج الدين هذا : أنه محمد بن محمد بن على بن محمد بن سليم الصاحب تاج الدين أبو عبد الله بن الصاحب فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حناء المصرى وزير الديار المصرية ؛ وكان مولده فى سنة أربعين وستمائة ؛ وتفقه وبرع ونظم ونثر، وحدث بمصر ودمشق، وانتهت اليه الرياسة فى عصره بالقاهرة ؛ وتوفى فى سنة سبع وسبعمائة . وفى كتاب أعيان العصر وأعوان النصر المأخوذ منه بالتصوير الشمسى بعض أجزاء محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٩١ تاريخ : ان الصاحب تاج الدين هذا قد تولى الوزارة بالديار المصرية مرتين ؛ ورأى من العز والوجاهة ما لم يره جده الصاحب بهاء الدين . وانظر (مستدرك التاج) مادة « سلم » فقد نص فيه على ان تاج الدين حفيد الصاحب بهاء الدين .

(٣) كذا ورد هذا الاسم بالهمز فى مستدرك التاج مادة (سلم) .

(٤) الانكماش : التقلص .

السنهم ومضت مَضاء الغِرار[1]، واذا سرت فى ليل الخطب هدت هداية النجم ووضحت وضوح النهار، وأرضى همّته التى اذا همّت أغنت عن الأبيض المرهَف والأسمرِ الخطّار، واذا أمّت شأت[2] ناصيةَ الحَنْفاء[3] وبذّت قاصيةَ الخطّار[4]؛ وأرهف أقلامه التى اذا أجراها أثبتَتْ خَال النِّقس، فى وجنة الطرس، وطرّزتْ بالظلماء أرديةَ الشمس؛ واذا هزّها أنستْ هزّ العوامل، وأصابت مِن الأمر الكُلَى والمفاصل، وإذا أمضاها لنعمة أو لنقمة فللجانى لعابُ الأفاعى القواتل، وللعافى أَرْىُ[5] الجنَى اشتارته أيدٍ عواسل؛ ولا زال ربعه مَربعا للجلال ومَصيفا، ومَرتعا لسَوام الآمال وخريفا، ومَشرَعا وارد الظلال وَرِيفا؛ وحرما آمنا تُجبَى اليه ثمرات الحمد وتُجنَى منه ثمرات الرِّفْد، وتقف المعالى عليه "وقوف مطايا الشوق بالعَلَم[6] الفرد"؛ فإنه الربع الذى وقفَتْ به الآمال وقوفَ غَيلانَ[7] بدارميّه، وعكفَتْ [عليه][8] المحامد[9]

(١) الغرار بالكسر: حد السيف والرمح.

(٢) فى الأصل: «شابت»؛ وهو تحريف. وشأت: سبقت؛ والمضارع يشأو كيدعو.

(٣) الحنفاء والحطار بتشديد الطاء المهملة: اسما فرسين لحذيفة بن بدر الفزارى؛ وفى الأصل: «الحيفا» بالياء المثناة؛ وهو تحريف.

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل؛ ولعله يريد بقاصية الخطار: الغاية التى ينتهى اليها فى جريه.

(٥) فى الأصل: «أرق» بقاف مثناة بعدها ياء؛ وهو تحريف. والأرى: عسل النحل. يشير بهذه العبارة الى قول أبى تمام فى صفة القلم:

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه * وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

واشتارته: جنته واستخرجته من الوقبة.

(٦) العلم: الجبل، والمراد بالعلم الفرد هنا: جبل فرد شرقى الحاجر يقال له: أبان، فيه عيون ونخيل ومياه.

(٧) غيلان: اسم ذى الرمة الشاعر. وفى الأصل: «عليلان»؛ وهو تحريف. وانظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٧٤ من هذا الجزء.

(٨) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ والسياق يقتضيها.

(٩) فى الأصل: "التجافل"؛ وهو تحريف لا معنى له.

عكوف تَوبةَ على حبّ الأخَيليه[1]، والجنابُ [الذى][2] فاءت ظلالُه وفاضت مواهبُـه وجاءت مَذانبُـه[3]، وجادت سحائبُـه، وجلّت شيمـه وتجلّت غياهبُـه؛ فى روض المعـالى الذى فاحت نسـائمُه، وناحت حمـائمُه، ومَنشإ المجـد حيث شـاب فأُرخيَتْ ذوائبـه وشبّ فقُطّعت تمـائمُه، و بيتِ الرياسـة الذى اذا دنوتَ حباك بإكرامـه واذا نأيت حيّتك مكارمُه، وصـدر السيادة الذى خضعت له الأعنـاق هيبة "لِأبلجَ لا تيجانَ إلّا عمائمُه"

ولا زال بدرا فى سمـاء سـيادة * يشـار إليـه فى الورى بالأناملِ
بسيط مساعى المجد يركب نجـدَه * من الشرف الأعلى وبذلِ الفواضلِ
إذا سـيل[4] أغنى السامعِين جوابُه * وان قال لم يترك مقـالا لقـائلِ
محـدّد أيّامِ الحيـاة فكلُّها * لطـالبِ علم أو لقاصـدِ نائلِ

ويُنهِى ولاء مخبوءا بسـويداء قلبِه، موضوعا بين شَـغافه وخِلْبِه؛ وثنـاءً مسموعا فى محافل الأنام، معلنًا[5] فى صحائف الحمد بألسنة الأقلام، جديدا على ذهاب الليالى واختـلاف الأيام؛ ودعاءً سابقَ أراعيلَ[6] الرياح، ووَضَحتْ أنوار إجابتـه وضوح

(١) الأخيلية: هى ليلى بنت عبد الله بن الرحال وقيل: ابن الرحالة بن شدّاد بن كعب بن معاوية، وهو الأخيل؛ وهى من النساء المتقدّمات فى الشعر من شـعراء الإسلام؛ وكان يهواها توبة بن الحمير بن حزم بن كعب بن خفاجة بن عمـرو بن عقيـل الأغانى ج ١٠ ص ٦٧ طبع مطبعة بولاق. وقد أوردلها أبو الفرج أخبارا كثيرة فانظره.

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل.

(٣) المذانب: مسايل المـاء الى الأرض. أو هى الجداول تسـيل عن الروضة بمائها إلى غيرها، واحده مذنب بكسر الميم وفتح النون.

(٤) فى الأصل: «سال» بالألف؛ وهو تحريف.

(٥) فى الأصل: «مقلبا» بالقاف والباء الموحدة؛ وهو تصحيف.

(٦) أراعيل الرياح: أوائلها.

الصباح، وطار الى ملإ القبول بقادمة كقادمة الجناح؛ وتحية اذا واجهتْ وجه الجهام أمطر، واذا هزّتْ أعطاف الكهام[1] أثر؛ أرقّ من النسيم السَّحَرى، وأعطر من العنبر الشِّحرىّ؛ وأصفَى من ماء المَناقع[2]، وأحلى من "جنَى النحل ممزوجا بماء الوقائع[3]" يرى ذلك فى شرع المروءة واضحا واجبا ... [4]؛ تحيّةَ من أُولىَ النعمة فشكرَها وعرف العارفةَ وما أنكرَها، وآمن بيده البيضاءِ من غير سوء ومذ آمن بها ما كفرها؛ كيف لا وقد آمتزج بحبها لحمُه ودمُه، وسبّح بحمدها قلمُه وفمُه، وجرت شِيَمُ حمده على أعرَق جيادها والخيِّرُ من سبقتْ به إلى شكر المنعم شِيَمُه؛ لا سيّما وقد جنى الطّيّبَ من ثمارِها، ووَرد العذب من أنهارِها[5]؛ فلا أعدم الله مولانا صنائعَ الإحسان الذى آنعقدتْ عليه كلمةُ الإجماع، وأَنشَده لسانُ المحامد عن شرف الاصطناع

فلو صوّرتَ نفسك لم تزدها * على ما فيك مِن كرم الطباع[6]

ولا زال اللطف صدَى صوتِه إذا دعا، والنجحُ قرينَ مساعيه أنّى سعى، وحاكمُ الفضل يصدِّق دعواه حَوْزَ كلِّ فضيلة كيف آدّعى؛ حضر المملوك مهنّئا نفسَه بهنائه، ساعيا فى خدمته سعى الأَجْدل[7] فى هوائه، والنجمِ فى سمائه؛ من ملازمة

(١) الكهام من السيوف : الكليل الحدّ .

(٢) المناقع : مجامع الماء . وفى الأصل : «النقائع» وهو تحريف إذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق .

(٣) الوقائع جمع وقيعة وهى مكان صلب يمسك الماء وكذلك النقرة فى الجبل يستنقع فيها الماء وماؤها يضرب به المثل فى الصفاء فيقال : «أصفى من ماء الوقائع» ؛ وقوله : « جنى النحل » الخ عجز بيت لذى الرمّة ، وصدره : ونلنا سقاطا من حديث كأنه * الخ كما فى كتاب نهاية الأرب ج ٢ ص ٧٠ .

(٤) الظاهر أن هنا جملة ساقطة من الأصل بها يتم السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته هذه وغيرها من رسائله وان كان المعنى يستقيم بدونها . ولم نقف عليها فيما راجعناه من المظان .

(٥) فى الأصل : "شهادها" وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته . (٦) البيت لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى . (٧) الأجدل : الصقر .

وجهه الذى ألقى ٱللهُ عليه محبّةً منـه فٱستنار ، وٱكتسى حلّة الحيـاء فألبسته حلّة الوقار، وٱجتلته المقل فرأت رونق الخفر عليه باديا، وٱئتمّتْ به الهـداة فألفته نجما فى سماء السيادة هاديا، وقالت الأمانى فى ظلّه فأنشأ جودُه قائلا :

* نزلتُ على آل ٱلمهلّب شاتيا *(١)

ورأيتُه والناس مومئون من ليث(٢) عليـه مهابة فكانوا الكِرْوانَ(٣) أبصَرن بازيا(٤) ؛ أبّهة الجلاله ، وجلالةُ الأصاله ؛ وأَصالة الشرف، وشرفُ الفضـل الأنف، ورِياسـةٌ ورّثها خيرُ سلفٍ لخير خلف، وشيمٌ علّمته فى المعالى كيف تؤكَل الكتف؛ فصادف ركابَه العالىَ قد ٱستقلّ، وحلّ من دارة العزّ حيث حلّ؛ فأقام رجاءَ أن يعاين أسرّةَ جبينِه ، ويقبّلَه كتقبيل الندى فى يمينِه ؛ وحين جنحت الشمس الى مستقَر الأنوار وطوى الفَلَكُ بيدِ القدرة رداء النهار ، وأَشرَفَ اليومُ من خشية(٥) طيّه على شفا جُرُف هار؛ وثوّب(٦) داعى العصر وحيْعَـل ، وعاين نيّرَ الفلَك فى وجه السماء كعين الأقبَل(٧) ؛

(١) تمام البيت : «غريبا عن الأوطان فى زمن المحـل» الأمالى لأبى على القالى ج ١ ص ٤١ طبع دار الكتب المصرية . ولم يعين أبو على قائل هذا الشعر .

(٢) كذا فى الأصل ؛ والظاهر أن صواب العبارة : «من كثب اليه مهابة» ؛ كما يرشد اليه قوله : «من» ولم يقل : «الى» . والكثب بفتحتين : القرب ؛ واذن فقوله : «مهابة» يقرأ بالنصب أى : «من مهابة» .

(٣) الكروان بكسر الكاف وسكون الراء : جمـع كروان بفتحهما : وهو طائر طويل الرجلين أغبر دون الدجاجة فى الخلق ، وله صـوت حسن ؛ يكون بمصر ، وهو من طيور الريف والقرى ولا يكون فى البادية .

(٤) يشـير بهـذه العبارة الى قول ذى الرمـة فى بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى :

من آل أبى موسى ترى الناس حوله * كأنهـم الكروان عاين بازيا

والبازى : ضرب من الصقور .

(٥) عبارة الأصل : « من حاشية طيفه » ؛ وهو تحريف .

(٦) التثويب : ترديد الصوت .

(٧) الأقبل ، من القبل بفتحتين : وهو فى العين : إقبال سوادها على الأنف ، أو هو مثل الحول .

ثَنَى عِنانَه إلى مَثْـوَى قرارِه ، وٱنثنى يسابق أدهمَ ليـلِه بأشهب نهارِه ؛ وعلى الرغم أَخفق مسعاه ، ولم يَقْلِ[1] قلبُـه الشوقَ الذى دعاه ؛ لكن سار وأقام خالصُ ولَائه وعاد بعد ما أَودع الحفَظةَ مرفوعَ دعائه ؛ فعرّف ٱللهُ مولانا بركاتِ هذا الشهر الذى سارت به إلى إحسانه مطايا أيامِه ، وجعلَه مثبِتا لحسناته ممحّيا[2] لآثامِه ، وحلّاه بالمقبول[3] من صيامه والمشهورِ من قيامِه ؛ وأراه صـدرَ بِرِّه أَثلَج ، ووجهَ بدرِه أَبلَج ، وثغـرَ ٱبتسامِه عن رضوان القبول أَفلَج ؛ ورقّاه درَجَ تَضاعُف حسناتِه ، ولقّاه من كرم الله مذخورَ إحسانه وموعودَ هباتِه ؛ وأراه الأملَ فى بَنِيه ، وأرانا فيهم ما رأينا فيه ؛ فهو غابُ[4] العلم وهم أغصانه وشجَرُه ، ومُطَهَّمُ السابقين وهم حُجولُه وغُرَرُه ؛ وانى لأَلمح[5] من مَخايل شرفهم وشرف مَخايلِهم ، وشمائلِ شيمهم وشيمِ شمائلِهم ؛ نجابةً[6] تضعُهم من الرِّياسة فى أنفِها ، ومن السيادة بمكان شَنَفِها ؛ فهم جذوة فضـلٍ مُبرِقه ، ودوحةُ عِلمٍ مُورِقه ونَبعـةُ سيادةٍ مُعرِقه ، وشموس معالٍ فى أفق كلّ شرف مُشرِقه ؛ سمت بهـم أَصالة النسب ، وفضيلةُ الأدب المكتسَب ، وجمعوا بين شرف العمومة والخؤولة فى كرم المنتسَب ؛ فللعلا ألسنٌ تثنى محامدها على الحميد من فعلهم وشيمهم ، وللندى مواهبُ عُزِيَتْ[7] مذاهبها الى العليّين من كرمهم وهممِهم ؛ لا زالت محاسنهم قلائدَ الأجيـاد وأيّامُهم مواسمَ الأعياد ، وحرمهم المخصب بالمكارم سواء العاكفُ فيه والبـاد ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) فى الأصل : « يقبل » ؛ والياء زيادة من الناسخ . (٢) ممحيا بتشديد الحاء المهملة ، من محاه تمحية : أى بالغ فى محوه . (٣) عبارة الأصـل : « بالتقبل فى » الخ ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يرشد اليه قوله بعد : « والمشهور من » الخ . (٤) فى الأصل : «باغ» ؛ وفى حروفه قلب لا يظهر به المعنى . والغاب : الآجام ؛ وهو من الياء ، وقد جعلت جماعة الشجر غابة لأنه مأخوذ من الغيابة . (٥) فى الأصل : « لأتلمح » ؛ ولم نقف على هذا الفعل فيما لدينا من كتب اللغـــة . (٦) عبارة الأصل : « محابة بعضهم » ؛ وهو تحريف فى كلا اللفظين لا يظهر له معنى . (٧) عبارة الأصـل : « عذبت مواهبها على » ؛ وهو تحريف فى الكلمات الثلاث ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

وكتب الى القاضى شمس الدين الأصفهانى الحاكم — وكان بالأعمال القوصيّة — رحمهما الله تعالى — :

أَوْضح الله صـنائعَ المجلس فى بهيم الآمال غررا ، ونظم أياديَه فى أجياد الأيّام دررا ، وصفّى مشارعَ أمانيِّـه إن كان مَشرَعُ الأمانىّ كدِرا ، ولا زال الإسـلام يشـدو بمجده مفتخرا ، والأيّامُ تتلو مجدَه سُـوَرا ، والشرعُ المحمدىُّ يكون بمضائه فى ذات الله منتصرا

فقـد نشرت يمنـاك أرديةَ العـلا * تُحـلِّى بلادَ الله بالدين[1] والعـلمِ
وأمضيتَ أمر الله فى شرع أحمـد * وقيّدتَ شكر الله فى مطلق الحُكمِ
وتُرضِى كلا الخصمين فى السّخْط والرضا * كأنك تُعطِى الخصم ما كان للخصمِ

الى غير ذلك من محاسنَ وضحت وضوح النجم فى الليـل البهيم ، وسرت الى الحمـد سُرى المُجِـدِّ الى الشرف الصميم ، وحدَّثتْ عن مساعيه فجاءت بالنثر البـديع والدرّ النظيم ، وأثنتْ عليه ثناءَ وارفِ الروض على واكِـفِ الوَبل بألسنة النسيم

وهزّت جناحَى فضـله وجلاله * الى دَرَك العلياء من غاية المجـدِ
وقالت معاليـه لىَ المجـد كلُّه * فما ابنةُ[2] ذى البردين والفرسِ الوَردِ

(١) فى الأصل : « فى الدين » ؛ وهو تحريف .

(٢) ذو البردين : عامر بن أحيمر بن بهـدلة بن عوف ؛ لقب بذلك لأن الوفود اجتمعت عنـد عمرو بن المنذر بن ماء السماء فأخرج بردين وقال : ليقم أعز العرب فليلبسهما ، فقام عامر ، فقال له : أنت أعز العرب؟ قال : نعم ، لأن العز كله فى معد ، ثم نزار ، ثم مضر ، ثم تميم ، ثم سعد ، ثم كعب ، فمن أنكر ذلك فليناظر ؛ فسكتوا ؛ فقال : هذه قبيلتك ، فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك؟ فقال : أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ؛ فأخذ البردين وانصرف (سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين بن نباتة) وقد أشار بهـذا الشطر إلى قول قيس بن عاصم المنقرىّ لزوجتـه منفوسة بنت زيد الفوارس الضبىّ — وكانت قد أتته فى الليلة الثانية من بنائه بها بطعام ، فقال : أين أكيلى؟ فلم تفهم ما يريد فأنشأ يقول :

أيا ابنـة عبد الله وابنـة مالك * ويا ابنـة ذى البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى لنـا * أكيلا فإنى لست آكله وحـدى

الأغانى ج ١٢ ص ١٥٠ طبع بولاق .

فلا عدمه الإسلام إماما فاضلا، وحَكَما فاصلا ، وساعيا الى غايات الفضائل واصلا ، وفاعلَ حسناتٍ صيرَّ الحاصل من ثنائه باقيا والباقيَ من عملِه الصالح حاصلا؛ المجلس — أدام الله أيامه — يعلم أن الأيام مسّتني بحدّ شَباتِها، ورمتني عن قوس أذاتِها، وجنتني الحنظلَ من شَجَراتِها، والمرَّ من ثمراتِها، وأَضرمتْ من نار ألمى مالم تُطفئْه مقلتى بفيض عبراتِها

كأنى لم أَطلُع بأفق سمائها * ولَم أتقلّب فى ثياب سماتِها
ولم أكُ منها فى سويداء قلبها * مَخايلَ من هدى العلا وهداتِها

— أستغفر الله — فإنها آسترجعتْ ما لم يكن مستحَقّا، وأبقت إن شاء الله لمجلسه السامى ما كان حقّا، وأسكنتْه[1] — أدام الله نعمته — وفَلَكَ السعادة شرقا ومَطلِع الشمس أفقا، وأحلّته[2] من كَنَف السيادة قلبا ومن رأس الرِّياسة فَرْقا

وتُطلِعه آلآمال خيرَ غمامة * فتُلمِعُه بَرقا وتُوكِفُه ودْقا
وتبقيه للدين الحنيفيِّ عصمةً * وللهَدْيِ والإضلال إن أبهما فَرْقا
وتُبرزُه فى صدر كلّ فضيلة * كما بَذّ شأوَ الفاضلين بها سَبْقا

حضر مملوكُ مولانا الولَدُ [وقد][3] رَفع من المحامد الشمسيّة لواء ، والتَزَم العبوديّةَ والإخلاصَ وَلاء ، وعَمَر الأفنيَةَ ودادا والأندية ثناء؛ وقال : أحسن مولانا حين أساءت آلأيام، وأَولى نعمةً حاتميّةً وإنها أشرفُ الإنعام

(١) فى الأصل : « وسقته » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «ومحله» ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها لأن ذلك هو الأكثر فى كلامهم ؛ فان فى جملة الماضى المثبت الواقعة حالا أربع صور مرتبة فى الكثرة ، وهى : جاء زيد وقد قام أبوه ، ثم جاء زيد قد قام أبوه ، ثم جاء زيد وقام أبوه ، ثم جاء زيد قام أبوه وهذا خلاف مذهب البصريين ، فإن مذهبهم لزوم « قد » لهذه الجملة مطلقا ظاهرة أو مقدرة انظر شرح الأشمونى ج ٢ ص ١٦٩ طبع بولاق .

ومالَى لا أُثنِي عليـــه بصـالح * وأشكـره والشكرُ بعضُ حقوقِه
وأملأ من حسن الثنا كلَّ مَسمَع * وإنّى لَأخشى بَعـــدُ إثمَ عقوقِه

ثم سار وقلبي يتبَعُـه ، ودمعى يشيّعُه ، ولسانى يستحفِظه اللهَ ويستودِعُه ؛ وعليه من الديون ما أحاط به إحاطة الجفون بمقلِها ، والأغمادِ بمُنصُلِها (١) ؛ لتوالِي هـذه المغارم التى طَمّ جُداها (٢) ، والمظالِم التى عَمّ رداها ، والمحنةِ التى ملَكَتْنى يداها ؛ من خراج طَمى بحرُ ظلمِه ، وزاد على حدّ الجور رسمُه وخُصِصتُ من بين هذا العالم بوَسمِـه (٣) ؛ للزومِ قام بوصفِي فتبعه لازمُه ، ومعنًى وجب لذاتى فاستحال عَدمُه ؛ وقد كان المملوك وولدُه فيما سلف يجودان بمـا يَجِـدان لقانع ومُعترّ ، وغنىّ ومضطرّ ؛ صيانةً للأعراض مِن أعراضِ اللّوم ، ورغبـةً فى صِلة حمدِ الأمس بفائد اليوم (٥) ؛ وسجيّةَ نفس تأنف من عَلاقة الذم ؛ وإن كان هـذا فيما لا يجب فالقياسُ فيما يجب انبعاثُ النفس اليـه مِن حَتْم المروءة أمضَى (٦) ، والدّينُ بأداء الواجب أقضَى ؛ لانه

(١) المنصل بضم الصاد وفتحها : السيف .

(٢) عبارة الأصل : «ضم جيداها» ؛ وفى كلا اللفظين تحريف لا يستقيم به المعنى . والجداء بضم الجيم والمدّ : مبلغ حساب الضرب ، كقولك : ثلاثة فى ثلاثة جداؤها تسعة ؛ يريد بقوله : «طم جداها» أنه قد زاد مبلغ حساب هذه المغارم .

(٣) فى الأصل : «جدل» ؛ وفيه تصحيف وزيادة لام .

(٤) يريد أن هذا الخراج قد لزمه لزوم الوسم للوسوم ؛ والوسم : أثر الكىّ . والذى فى الأصل : «برسمه» بالراء ؛ وهو مكرر مع ما قبله .

(٥) الفائد : المستفاد ؛ يقال : فادت لفلان فائدة ، أى حصلت .

(٦) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا : «فالقياس انبعاث النفس اليه فيما يجب أمضى من حاتم المروءة والدين أمضى بأداء الواجب» الخ وفيها تقديم وتأخير لا يظهر بهما المعنى ؛ واستقامة الكلام تقتضى اثباتها على هذا الوجه . وقوله : «انبعاث» فاعل «ليجب» ؛ وقوله : «من حتم» بيان لـ«ما» ؛ وقوله : «أمضى» خبر المبتدإ فى أول الجملة .

مؤيَّد بإبرام الشرع، وقد صحّ هـذا القياس بجامعيّة الأصل والفرع؛ لكن ضاقت[(١)] يد القـدرة عن نفاذِها، واعتاضت من وابل الثروة برذاذِها؛ واذا توافرت القرائن أفادت فوق ما تفيد غلباتُ الظنون من مَدار الشرعيّات عليها، وانتهاءِ غالب الأحكام إليها؛ وقد كان المملوك حرّك عزائم سيّدنا قاضى القضاة — شرّف الله قدرَه، وأدام على الإسلام أمرَه — إلى تحرّيها[(٢)] العلومَ الكريمةَ بما هى عالمه، وحُكمها بما هى حاكمه؛ ليكون[(٣)] له مستنَد يدفع أقوال المتعرّضين، ويصرف آعتراضَ المعترضين؛ ولئلّا يقفَ له واقف فيجرِىَ قلمه الشريف بأمرٍ جازمٍ يجب الوقوفُ على مثالِه، والمسارعةُ إلى آمتثالِه؛ فيعزّ آستدراكُ الأمر بعد إحكامِه، ويكون السعىُ فى معارضته كالنقض لأحكامِه؛ فكتَبَ بمـا يقف مولانا عليـه، وتشـير مروءتُه وديانتُه اليه؛ ويقرِّر مع نائبه[(٤)] ما يقف عنده، ولا يتجاوز حدَّه؛ غيرَ ذاكرٍ عن مولانا منْعا ينفِّر عنه الرُّواه[(٥)]، ولا مشنِّع[(٦)] بكتّاب سـيّدنا قاضى القضاه؛ بل يكون كالشافع، اذا صمّم الخصمُ آعتذر بمـا هو لهـذه المصالح كالجامع؛ ليكون المملَّك[(٧)] فى إرضائه بحسب الإمكان ويَرَى الخصمُ ما أخذه بعد اليأس نوعا من الإحسان؛ فالنفوس اذا مُنِعتْ كلَّ المنع طَلبَتْ كلَّ الطلب، وتعلّقتْ فى دَرَك أغراضها بكل سبب؛ وإذا أُخذتْ بالكلام

(١) فى الأصل: «صابت» بالصاد المهملة والباء الموحدة؛ وهو تحريف.

(٢) فى الأصل: «تحريك» بالكاف؛ وهو تحريف.

(٣) «ليكون» أى ليحصل ويثبت. فالفعل هنا تام لا يحتاج إلى منصوب، ويحتمل جعله ناقصا، واسمه ضمير يعود الى «تحرّيها»، وخبره قوله: «مستندا» بالنصب.

(٤) فى الأصل: «بما» والباء زيادة من الناسخ؛ إذ لم نقف فيما لدينا من كتب اللغـة على أن «قرّر» يتعدّى بالباء.

(٥) فى الأصل: «الذوات» بالذال المعجمة؛ وهو تحريف.

(٦) فى الأصل: «مشيع» بالياء المثناة؛ وهو تصحيف.

(٧) عبارة الأصل: «المماليك فى إرضائهم»؛ وهو غير مستقيم؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

البين[(١)]، وعوملَتْ بالسهل[(٢)] اللين؛ بعْد دَرءِ سَورتها[(٣)] بالمنع، ودفعِ شهوتِها بالدفع؛ اتَّسَق حُكم الأشياء وانتظم، وانشعب صَدعُ هذا الجرح والتأم؛ وجرَى الأمرُ على سداد بحفظ النظام وحفظِ الحرمة والحفظ للشارع، ولذلك قال: "أقيلوا ذوى الهيئات عَثَراتِهم" لا سيما مع شهادات ضروراتِهم؛ بسَطَ الله يمينَ سيدنا فى المعالى كما بسط لسانَه فى المعالم، وقيَّد عليه لسان المحامد كما أطلق يدَه بالمكارم[(٤)]؛ وعليه تحية الله التى تُوالِى عليه نفحاتِها، وتُهدِى إلى آماله العالىَ [من][(٥)] مقترحاتِها.

وكتب إلى شهاب الدين محمود متولى سَمهودَ[(٦)] من عمل قوصَ — وكان بينهما مودّة، فاستدعاه للسلام عليه — فكتب:

إلينا فإنا قد حللنا بأرضكم * على فرط شوقٍ لابن عثمان دائمِ
وزرناك محمودا كما زار أحنفٌ[(٧)] * لنَيل الأمانى ربعَ قيس بن عاصمِ[(٨)]

(١) فى الأصل: «اللين» باللام، وهو تحريف لتكرره مع ما يأتى بعده فى الجملة الآتية.

(٢) فى الأصل: «بالمنهل»؛ وهو تحريف. (٣) السورة: الحدّة. (٤) عبارة الأصل: «يد المكارم» بسقوط الهاء والباء؛ والسياق يقتضى إثباتهما. (٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها. والهاء فى قوله: «مقترحاتها» تعود إلى «آماله».

(٦) سمهود، ويقال سمهوط: قرية كبيرة على شاطئ غربى النيل بالصعيد دون فرشوط (ياقوت) وقال فى تاج العروس: المشهور فى هذه القرية أنها بفتح السين وبالدال فى آخرها.

(٧) الأحنف: هو الضحاك، وقيل: صخر بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة، ينتهى نسبه الى سعد ابن زيد مناة بن تميم؛ ويكنى أبا بحر؛ وهو الذى يضرب به المثل فى الحلم، وكان من سادات التابعين؛ وأدرك عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه؛ وروى عن عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، وروى عنه الحسن البصرى وأهل البصرة؛ وشهد مع على رضى الله تعالى عنه وقعة صفين؛ وخرج مع مصعب بن الزبير الى الكوفة، فمات بها سنة سبع وستين وقيل سنة إحدى وسبعين (وفيات الأعيان) ترجمة الأحنف بن قيس.

(٨) هو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد، ينتهى نسبه الى سعد بن زيد مناة ابن تميم؛ ويكنى أبا على؛ وكان شاعرا فارسا كثير الغارات مظفرا فى غزواته حليما؛ أدرك الجاهلية والإسلام فساد فيهما؛ وهو أحد من وأد بناته فى الجاهلية؛ وأسلم وحسن إسلامه، وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه فى حياته، وعمر بعده زمانا، وروى عنه عدّة أحاديث، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا سيد أهل الوبر" (الأغانى ج ١٢ ص ١٤٩ طبع بولاق) أخبار قيس بن عاصم.

ولسنا بغاةً للنـــدى والتماسِـــه * وان كنتَ معروف الندى والمكارمِ
ولكن وفاءً بالإخاء لمن وفَى * وقد خان حتى حدُّ سيفى وقائمى
وجدتك ذخرى والزمانُ محاربى * كما كنت عَونى والزمانُ مسالمى
فلا غرو أن أَنِي اليـــك أعنّتى * كما قد ثَنت يمناى خِنصَرَ خاتَمِى

٥ يُهـدى الى المجلس السامى الشرفَ تحيّـةَ الله التى تحملها أنفاس النسيم معطّرةً بعَرْف الرياض ، مكلّلةً بأندية الكرم الفيّاض ؛ تغـاديه فى السحر والمَقِيـل ، وتُراوحه فى الطَّفَل والأصيل ، وتشاهد محاسنه[1] المقل أَحسَنَ من محاسن بثينة فى وجه جميل ؛ وأثنيتـه[2] التى تنتظم فى الأجياد انتظامَ القـلائد ، وتَرِد على الأسماع ورود الهِيم[3] على عِذاب المَوارد ؛ ويوليه[4] من حبّـه مزيّةَ الاختصاص ، ومن مُوالاته السوانحَ التى

١٠ لا تمتد إليها يد الاقتناص ؛ فهو نسيم الأنس ، ومسرّةُ النفس ، وذخرُ اليوم والأمس ؛ مصعبيُّ الهمم ، مهلّبيُّ الشـيم[5] ، حاتميُّ الكرم ؛ فاق أخلاقا ، وراق أعراقا ؛ وسما نفسا ، وطلع فى سماء الشرف شمسا

وأَلفيتُـــه فى نفسِـــه وولائه * وحسنِ معانيـــه كما انتظم الدرُّ
وضاع شـذا أنفاسـه فانتشـقتُه * على النأى منـه مثلَما ابتسم الزهرُ
١٥ ولاحت معاليـــه بآفاق مجـــدِه * كما لاح فى ليـــل التّمـام لنا بدرُ

---

(١) فى الأصل : «مجاشفه» ؛ وهو تصحيف .

(٢) الظاهر أن هذه الجملة والتى بعدها متقدّمتان من تأخير ؛ واستقامة الكلام تقتضى تأخيرهما عن الجملتين اللتين بعدهما ، أى بعد قوله فيما سيأتى : (يد الاقتناص) . والأثنية : جمع ثناء .

(٣) الهيم : الإبل العطاش . وفى الأصل : «الهم» بسقوط الياء .

٢٠ (٤) عبارة الأصـل : «وله لأولى» ؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٥) فى الأصل : «النسيم» ؛ وهو تحريف .

لا حُرِم إتيانى اليه[1]، و إيثارَ تسليمى عليه؛ مع أنى كنت أعهد له خلوةً حلوةً مع الله ووقفةً على بابِه، والتجاءَه فى جنح الليـل إلى جنابِه، ودمعةً يرسلها إذا آسترسـل فى محرابِه؛ وضراعةً يتابعها خشوعُه، وزفرةً يشتمل عليها قلبه وتفرّق عنها ضلوعُه

فياليت شـعرى هل أقامت بثينة * على عهـدها أم قد ثنتها الشواغلُ

وهـل ذلك الودّ الذى كان بيننا * بوادى الخزامى مثـلُ ما كان أوّلُ[2] ٥

(١٤٣) وكتب اليه — رحمهما الله — يستدعى منه ثلاثة أسهم ومليات[3]

— وقد أوردنا بعض هـذه الرسالة فى الفن الأوّل فى السواق، ونُوردها فى هـذا الموضع بجملتها لتكون متتابعة يتلو بعضُها بعضا — :

والسيفُ يُنْدَب فى الوغى فيهزّه * نَدْبُ الكمىّ الى مضاء غِرارِه

والحرُّ أولى بانتـداب خلالِه * لمؤمّـل فيـه قضـا أوطارِه ١٠

فلذلك حرّكتُ العزائمَ العاليـةَ المولويّةَ الشرفيّـةَ — أدام الله علاها ، ورفع لواها وأودع أسماعَ الأنام ثناها؛ ولا زالت مرفّهةَ السرائر، منوّرةَ الضمائر، سائرةً فى قطب المعالى سير الفَلَك الدائر، آخذةً بحظها من شرف المفاخر، جامعةً بين دَرَك إحسان

---

(١) عبارة الأصل : «لا جرم إثناى»؛ وهو تصحيف فى كلا اللفظين .

(٢) لم يلتزم هنا ألف التأسيس وهى التى يكون بينها و بين الروىّ حرف متحرك، ويجب على الشاعر ١٥ التزامها اتفاقا . انظر الحاشية الكبرى للدمنهورى على متن الكافى ص ١١٧ طبع بولاق .

(٣) كذا فى الأصل والسفر الأوّل من هذا الكتاب ص ٢٨٩ طبع دار الكتب المصرية، وضبط فيه بفتح الميم وتشديد الياء، ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على لفظ «المليات» بالمعنى الذى يريده الكاتب فى هذه الرسالة؛ فإنه يريد بالمليات : أوان من خزف يستخرج بها الماء من السواق كما يفهم من وصفها الآتى وتسمى هذه الأوانى بالقواديس؛ كما فى مستدرك التاج مادة «قدس» . ٢٠

الله فى اليـوم الأوّل واليوم الآخر — تحريكَ الطَّسْمِيّة[1] عزائمَ الأَسْوَد بن عفار[2] وبعثُها إلى إنالة الأمل آنبعاثَ الهمم العربيّـة يومَ ذى قار[3]، وآستجشتُ عزائمها استجاشةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عزائمَ الأنصار، واستنجدتُها استنجادَ العثمانيّة بالهاشميّة يوم الدار[4]، واستحثثتُها سرعةَ الإجابة استحثاثَ أَدهمِ الليل أَشهبَ النهار؛ فإنها

(١) كذا فى الأصل ؛ ولعله : «الجديسية» نسبة الى جديس ؛ فان الذى حرّك الأسود بن عفار للذود عن شرفه وشرف قومه ، هى عفيرة أخته ، وهما من جديس لا من طسم ؛ وقد بينا ذلك فى الحاشـية التى تليهـا .

(٢) كذا فى الأصل ومستدرك التاج والكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٢٥٤ طبع ليدن) بالعين المهملة والذى فى تاريخ الطبرى القسم الأوّل (ص ٧٧١ طبع أوربا) : «ابن غفار» بالغين المعجمة . وأشار بهذه العبارة الى ما كان بين طسم وجديس — وهما قبيلتان من العرب البائدة — وذلك أن ملك طسم كان قد سام جديس أنواع الذل ، وأمر ألا تزف فتاة من جديس الى زوجها حتى يفتض هو بكارتها ، فزفت فتاة من جديس الى زوجها ، وقبل زفافها أتى بها الى ملك طسم ، فافتضها ، وكانت اسمها عفيرة ، وهى الشموس أخت الأسود بن عفار هذا ، فخرجت على قومها فى حالة تثير الحمية فى نفوسهم وتحرضهم على أن يقوموا فى وجه هذا الظالم ليحفظوا شرفهم وأعراضهم ؛ فخطب الأسود بن عفار فى قومه وائتمروا بطسم وملكهم ليفنوهم عن آخرهم ويخلصوا من ظلمهم ، فصنعوا طعاما ، ودعوا اليه ملك طسم وقومه ودفنوا سيوفهم فى الرمل فلما حضروا وجلسوا الى الطعام أخذتهم سيوف جديس فلم تبق منهم أحدا . انظر تفصيل هذه القصـة فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ طبع ليدن) وغيره من كتب التاريخ .

(٣) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها و بين واسط ؛ و به كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس ، وهو أوّل يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وهذه الوقعة من مفاخر بكر بن وائل (ياقوت) فى الكلام على ذى قار وانظر تفصيل هذه القصة فى كتب التاريخ .

(٤) يريد دار عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه التى حوصر فيها وقتله الثوار بها فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين . انظر ذلك مفصلا فى كتب التاريخ . ويشير بقوله : «استنجاد العثمانية بالهاشمية» الى كتاب قيل : ان عثمان بعث به الى على رضى الله تعالى عنهما يستنجده على من حاصره جاء منه : أما بعد فقد بلغ السيل الزبى ، وتجاوز الحزام الطبيين ، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه ؛ الى أن قال : فأقبل إلى على أى أمريك أحببت

فان كنت مأكولا فكن خير آكل * والا فأدركنى ولما أمزق

"تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون للصفدى" .

لَتى ثَنَيتُ عليها خِنصَرَ الاعتماد ، وصرفتُ اليها عَقيدةَ الاعتداد[1] ، وجعلتُها من القلب في سويدائه ومن المقلة في السواد ، واعتمدتُ عليها اعتمادَ بكرٍ على الحارث بن عُبَاد[2] ؛ لا جرم أنها والحمد لله تعالى ساعيةٌ لآمالي متى استَسعَيتُها ، وصدَى صوتي متى دعوتُها وفاتحةُ كتابِ المحامد متى تلوتُها ؛ وأعيذها بالله أن تَنكُب عن قضائها[3] ، أو تقف دون غاية انقضائها ؛ وإنها لأَورَقُ[4] فرعا من أفنان السَّلَمه[5] ، وأعرقُ أصلا في الوفاء من أصل السَّلِمه[6] ، وأَرشَقُ سهما في كنانة سَلِمه[7] ، وأَوثَقُ في حفاظ المودّة من ابن شُبرمه[8] ؛ يقينٌ

(١) في الأصل : «الاعتذار» بالذال المعجمة والراء ؛ وهو تحريف .

(٢) كذا ضبطه العلامة الشنقيطيّ بضم العين في إحدى نسخ القاموس مادة "نعم" وهذه النسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٩ لغة ش . وضبط كذلك بالقلم في شرح التبريزي على ديوان أبي تمام المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش عند قول ابي تمام : كم وقعة لك في الهوى مشهورة * ما كنت فيها الحارث بن عباد . والحارث بن عباد : هو أحد فرسان بني بكر بن وائل و رؤسائهم ؛ وكان قد اعتزل الحروب التي وقعت بينهم و بين بني تغلب ، وهي المسماة بحرب البسوس . ثم شهدها بعد ذلك لما قتل مهلهل بن ربيعة ابن أخيه بجيرا ، وقال مهلهل حين قتله : "بؤ بشسع نعل كليب" فغضب عندذلك الحارث بن عباد وقال :

قـربا مربط النعامة مني * لقحت حرب وائل عن حيال

الأبيات — والنعامة : فرسه — فأتوه بها ، فركبها وولى أمر بكر وشهد حربهم ، وكان أول يوم شهده يوم قضة ، وهو يوم تحلاق اللم ، و إنما قيل له : تحلاق اللم ، لأن بني بكر حلقوا رءوسهم ليعرف بعضهم بعضا ، وقاتل يومئذ الحارث بن عباد قتالا شديدا ، فقتل في تغلب مقتلة عظيمة ، وفي هذا اليوم أسر الحارث ابن عباد مهلهل بن ربيعة ثم أطلقه اه ملخصا من تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ طبع ليدن) .

(٣) عبارة الأصل : « أن تكتم عن نصابها » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا إذ هو مقتضى السياق .

(٤) هو من ورق الشجر يرق كوعد يعد والأكثر في هذا الفعل «أورق» بالألف ، قاله الأصمعي .

(٥) السلمة : شجرة ذات شوك يدبغ بورقها وقشرها وورقها يسمى القرظ ، ولها زهرة صفراء فيها حبة خضراء طيبة الريح تؤكل في الشتاء وتخضر في الصيف . وقال أبو حنيفة : السلم سلب العيدان طولا شبه القضبان وليس له خشب وان عظم وله شوك دقاق طوال حادّ . والكلام هنا على الاستعارة .

(٦) السلمة بكسر اللام : الصخرة ؛ يريد أنه ثابت العهد على الأيام ثبوت الصخر . (٧) سلمة بكسر اللام : بطن من الأنصار . (٨) لعل المراد بابن شبرمة : سعيد بن النضر بن شبرمة الحارثي الكوفي ، من المحدّثين انظر مستدرك التاج . وفي الأصل : «ابن أبي شبرمة» ؛ وقوله : «أبي» زيادة من الناسخ .

أحطتُ بأنبائه، إحاطةَ رسول ابن داود[1] يوم إنبائه؛ فلا أشكّ[2] فى شرف نفسها وسموّ نجمها ووضوح شمسها، وزيادةِ يومها فى الوفاء على أمسها[3]، كما لا تشكّ الإياديّة فى فصاحة قُسّها، ولا العامريّةُ فى عَلاقة قيسها؛ وقد توجّه اليه حاملُها لحمل السهام التى أسهمتْ له مِن الموالاة[4] أوفرَ أقسامِها، ونَشرتْ رداءَ ذكرِه على أفئدة قلوبها وألسنة أقلامِها؛ عند اشتداد الحاجة إليها، وجرّ ثقلِ السواق عليها؛ وحركةِ الحرّ التى حلّت شمسُه بُرجَ حَمَلِها[5]، وتوالت جيوشُ جنودِه بين صدور ظُباها وأطرافِ أَسَلِها؛ تجفّف أنداءَ الثرى، وتُعيد عنبرَ[6] الأرض عِثيرًا، وتُشيب مَفارِقَ نَباتِها، وتُذيق المماتَ[7] أكبادَ حَبّاتِها؛ فاستنصر العزائمَ العاليةَ المولويّةَ الشرفيّةَ فى إطفاء لَهَبِه واقتضينا إعانته قبل انتضاء[8] قُضُبِه، وبعثْنا لمحلّ الهمة الشرفيّة قبل سطوته على قَضْبِه[9] وقَصَبِه؛ لتجرىَ جداولُها على صفحة الثرى مستفيضه، وتُجْنَى ثمراتُ رياضها من

(١) أراد برسول ابن داود: الهدهد؛ وقصته مع نبى الله سليمان بن داود صلى الله عليهما وسلم مشهورة.

(٢) فى الأصل: «ان فى شرف» وقوله: «ان» زيادة من الناسخ.

(٣) فى الأصل: «أمنها»؛ وهو تحريف.

(٤) الموالاة، من والى فلانا: اذا أحبه وصادقه.

(٥) الحمل من بروج السماء: أوّل البروج، وأوّل هذا البرج الشرطان — وهما قرنا الحمل — ثم البطين ثلاثة كواكب، ثم الثريا، وهى ألية الحمل؛ هذه النجوم على هذه الصفة تسمى حملا. قال فى اللسان: وهذه المنازل والبروج قد انتقلت؛ والحمل فى عصرنا هذا أوّله من أثناء الفرغ المؤخر اه كلامه؛ والحمل من البروج الربيعية.

(٦) عبارة الأصل: «عبير الأرض عنبرا»؛ وهو تصحيف فى كلا اللفظين لا يستقيم به المعنى؛ والعثير: الغبار.

(٧) فى الأصل: «صمات» بالصاد؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى.

(٨) فى الأصل: «انقضاء» بالقاف؛ وهو تحريف.

(٩) القضب كل نبات يقتضب فيؤكل طريا غضا.

أنداء همّته أَريضـه[1]، وتغازِل مقلُ النفوس لحظاتِ أزهارِها، وتفتِن أفنـانُ[2] فنونها بنَوح بلبلها وهَزارِها، ويبوح شذا الروض عن[3] سرِّها وآثارِها[4]، هذا مع أنّها خَطبتْ حُسنَ إحسانه، وتقلّدتْ جميلَ بِرّه وجزيلَ امتنانِه، والربيع متمّم العـذار، مُوشّى الإزار، قد لبس رداء شـبابِه، وماسَ فى خَضِرِ ترابِه وخَضِلِ رَبابِه[5]، يهزّ أعطاف سَنائه[6]، ويَخطِر فى بُرد هوائه وبَرد مائه، فكلّل وجنـاتِ نَوْرِه ببَرَد أندائه، والثرى عنبرىُّ الأديم، سَحرىُّ النسيم، رَنْدىُّ الشميم، موشّحٌ بقلائد غدرانه، مغازِلٌ بعيون نرجسِه بسّام بثغر أُقْحُوانه، لا يغرّد ذبابُه[7] ولا يطرِّب، ولا يصِرّ[8] بسُحُراته الجُندُب، تطلُع شمسه محتجبةً فى ضبابِها[9]، مقنّعةً مِن سحابِها، جاريةً فى أثنـاء حُبُكِها[10]، جائلةً فى أدنى فَلَكِها، تسعى فتُسرِع، وتكاد أن تغرب حين تَطلُع، والجوُّ معقود الأزرار، فاختىّ[11]

(١) الأريضة : المعجبة للعين .

(٢) الأفنان : الأغصان، واحده فنن، كسبب . ويريد بالفنون : ضروب النبات، واحده فن .

(٣) كذا فى الأصل، ولم نقف فيما بين أيدينا من كتب اللغة على تعدية «باح» بهذا الحرف، ولعله ضمن يبوح : معنى يكشف فسوّغ له هذا التضمين ذكر « عن » .

(٤) فى الأصل : «وأسرارها»، وهو تحريف نتكره مع ما قبله .

(٥) فى الأصل : «ذبابه» بالذال المعجمة، وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . والرباب : السحاب .

(٦) فى الأصل : « شبابه »، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه آخر الجملة الآتية . إذ به يتم السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته .

(٧) فى الأصل : «لا يفر» وفيه تصحيف ونقص .

(٨) فى الأصل : « ولا يضر بشجراته »، وهو تصحيف فى كلا اللفظين . والصرير والصرصرة : صوت الجندب .

(٩) فى الأصل : « ضيائها »، وهو تحريف .

(١٠) حبك الشمس : طرائقها، الواحد حبيكة .

(١١) الفاختىّ، نسبة الى الفاختة، وهى ضرب من الحمام المطوّق لأن لونها يشبه الفخت : وهو ضوء القمر .

الإزار؛ غَيمُه منسكب، ونُورُه منسحب؛ وليلُه يضمّ أطراف نهاره، ويلفّ وجهَه (١٤٤)
فى حاشية إزارِه؛ يَنفِى القذاةَ[1] عن مائِه، ويَجمع الحواسَّ على جَلْوائه[2]، ويُعشِى المقل
من ضوء سَنائه

فلو أن ليلى زارنى طيفُ أنسها * وماءُ شبابى قاطرٌ فى ذوائبى
ضَممتُ عليها البرد ضمّةَ آلفٍ * وألصقتُ أحشائى بها وترائبى
ولكن أتتنى بعد ما شاب مَفرِقى * ووَدّعتُ أحبابى له وحبائبى

والحاجةُ داعيةٌ إلى ثلاثة أسهم، كأنها هَقْعةُ[3] الأنجُم؛ ممتدّة آمتداد الرمح، مقوّمة
تقويم القِدْح؛ غير مُشعَّثةِ الأطراف، ولا معقّدةِ الأعطاف، ولا مسوّسةِ الأجواف؛
تُحاسِن الغصون بقوامِها، والقدودَ بتمامِها؛ وتُخالِف هيفَها بامتلاء خصورِها؛
وتُساوِى [بين][4] هَواديها وصدورِها؛ معتدلة القدود، ناعمة الخدود؛ مع مليات[5]
أخذت النار فيها مَأخذَها فاسودّتْ، وتطاولت عليها مدّةُ الجفاف فاشتدّتْ؛ وترامت
بها مدّة القِدَم، كأنها فى حيّز العدم؛ صِلاب المَكاسر، غِلاظ المآزر؛ تشبه أخلاقَه
فى هيجاء السِّلْم، وتَحكِى[6] صلابة آرائه فى نفاذ الرأى ومَضاء العزم؛ تَكظِم على الماء
بقَبضِها[7]، فتجود على الأرض بفَيضِها؛ تمدّ يدَ أيدِها[8] فى آقتضاء إرادتِها، وتَطلُع

(١) فى الأصل: «ينفر الدرات»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يرشد اليه سياق الكلام.
(٢) فى الأصل: «ملوايه»؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى.
(٣) الهقعة: ثلاثة كواكب فوق منكبى الجوزاء كالأثافى إذا طلعت مع الفجر آشتدّ حر الصيف.
(٤) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن السفر الأول من هذا الكتاب ص ٢٨٩ الطبعة الأولى بدار الكتب المصرية.
(٥) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٩٤ من هذا الجزء.
(٦) فى الأصل: «وتجلى»؛ وهو تحريف.
(٧) فى الأصل: «لغيظها» وفى السفر الأول من هذا الكتاب: «بغيظها»؛ وهو تصحيف فى كليهما.
(٨) الأيد: القوّة.

طلوعَ الأنجم فى فلَكِ إدارتِها ؛ وتُعانِق أخواتها معانقةَ التشييع ، فآخرُ التسليم أوّلُ التوديع ؛ على أنها تؤذِن بحقائق الاعتبار، وتجرِى جَرْىَ الفَلَك المُدار فى فَناء الأعمار

تَمرّ كأنفاس الفتى فى حياته * وتسعى كسعى المرء أثناء عمرِه
يفارق خِلٌّ خلَّه وهو سائرٌ * على مِثل حال الخلّ فى إثر سيرِه
ويُعلِمه الدّوارُ لو يعقل الفتى * بأن مرور العمر فيه كمَرِّه
فمن أدركتْ أفكارُه سرَّ أمرِها * فقد أدركت أفكارُه سرَّ أمرِه
ومن فاته الإدراك أدركه الردى * إذا جُرِّعتْ أنفاسه كأسَ مُرِّه

هـذه آخر خَطَوات القلم، ومنتهى خَطَرات الكَلِم ؛ فقُم فى سرعة وصولِها وتعجيلِ رسولِها

بعزمٍ [غدا] يُنسِى لمروانَ عَزْمَه * براهِطَ[1] إذ جاشت عليه القبائلُ

غيرَ معتمد عليه، ولا مفوَّضٍ أمرا اليه؛ فلَم أعتمد عليه اعتماد الصُّوفه[2]، وإنما هو العِماد عند أهل الكوفة[3]؛ وإنما هو حمار سَير، وذَنَب طَير؛ يَحمِل ورقة مطويّةً عن

(١) راهط : موضع فى الغوطة من دمشق . (ياقوت) ومنعه من الصرف باعتبار أنه علم على البقعة . وأشار بهذا الى وقعة مرج راهط المشهورة وكانت بين عساكر مروان بن الحكم أحد خلفاء بنى أمية وأتباع عبد الله بن الزبير، وهم القيسية، وكان النصر فيها لجنود مروان .

(٢) كذا فى الأصل ؛ ولم نجد من معانى هـذه الكلمة ما يناسب السياق ؛ ولعل صواب العبارة : " اعتماد آل صوفة " ، وآل صوفة : قوم كانوا يخدمون الكعبة ويتنسكون ؛ قال فى الأساس : ولعل الصوفية نسبوا اليهم تشبيها بهم فى النسك والتعبد ا هـ؛ يريد الكاتب بهذه العبارة : أنه لم يعتمد على هذا الرسول اعتماد المفوض اليه فى كل أمر، كاعتماد أهل النسك والعبادة على خالقهم وتسليمهم اليه فى جميع الأمور .

(٣) العماد عند أهل الكوفة : هو المسمى بضمير الفصل عند البصريين مثل « هو » فى قولك : « زيد هو القائم » ؛ وتسميته عمادا لأنه يحفظ مابعده حتى لايسقط عن الخبرية كالعماد فى البيت الحافظ للسقف من السقوط كما نص على ذلك فى كتب القواعد ؛ وكأن الكاتب يقول : إن هذا الرسول لا يصلح إلا لأن يحمل ما يكلف بحمله، ولا يصلح لأن يفوض اليه أمر آخر يحتاج الى فطنة ودقة نظر، فهو كضمير العماد الذى ليس له فائدة فى الجملة لا كونه عمادا لما يليه .

عِلمِه، مزويّةً عن فهمِه؛ "كما يحمل الزَّندُ الشرارَ إلى العَظْم" والله تعالى يُحلّه من السعادة أشرفَ آفاقِها، ويحرسه فى طَفل الشمس وإشراقِها

ويُجريه من ألطافه نحو غاية * تُبلّغه الألطافُ حلوَ مَذاقِها
ويُلبِسه فخرَ السيادة والعلا * كما لبسَتْ أسماءُ[1] فخرَ نطاقِها

٥ إن شاء الله تعالى .

ذكر شىء من إنشاء المولى [القاضى[2] الفاضل البارع الأصيل] الأجل محيي الدين عبد الله [بن عبد[2] الظاهر] رحمه الله تعالى

كان رحمه الله من أجلّ كتّاب العصر، وفضلاءِ المصر، وأكابرِ أعيان الدُّوَل والذى افتخر بوجوده أبناء عصره على الأُوَل؛ له من النظم الفائق ما راق صناعةً وحُسنا، ومن النثرِ الرائق ما فاق بلاغةً ومعنى؛ فقصائدُه مدوّنةٌ[3] مشهوره، ورسائلُه ١٠ بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطوره؛ وكلامُه كاد يكون[4] لأهل هذه الصناعة وعليهم

(١) أسماء : هى بنت أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنهما ؛ وكانت تلقب بذات النطاقين، وأصح الأقوال فى تعليل ذلك اللقب أنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتحمل فى الآخر الزاد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه وهما فى الغار. وقيل لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله ١٥ عليه وسلم الى الغار، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأخرى عصاما لقربته ؛ وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج مع أبى بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت أسماء من نطاقها وأوكت به الجراب فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين (تاج العروس) وتوفيت أسماء بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير بليال، وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٨ ص ١٨٦ طبع ليدن .

٢٠ (٢) هاتان العبارتان لم تردا فى (أ) وقد أثبتناهما عن (ج) .

(٣) فى (أ) : "مبينة" .

(٤) كذا فى (ج) والذى فى (أ) «كاد أن يكون» بزيادة «أن» والذى اخترناه هو الأكثر فى خبر « كاد » فإن اقتران خبرها «بأن» قليل ؛ بل نص بعضهم على أن ذلك مخصوص بالشعر ؛ ومنه قول الشاعر :

* كادت النفس أن تفيض عليه * الخ البيت .

حجّه ، وطريقُه فى البـلاغة أسهل طريق وفى الفصاحة أوضحُ محجّه ؛ وهو رحمه الله ممن عاصرتُه[1] ولســوء الحظ لم أشاهدْ محيّاه الوسيم ، ولم أفُز بالنظر إلى طلاقة وجهه الكريم ؛ والذى أُورده من كلامه هو ممّـا نقلتُــه من خطّه ، وتلقّيتُه ممّن سمعه مِن لفظِه ؛ فمن كلامه — رحمة الله عليه — ما كتبه عن السلطان الملكِ الظاهرِ ركنِ الدين بيبرس الصالحىّ — رحمه الله — إلى ملك الغرب ، كتب :

تحيّاتُ الله التى تَتابَع وفودها وتَتوالَى ، وتشرق نجومُها وتَتلالا ، وتنفق إسرافا ولا تخاف من ذى العرش إقلالا ؛ تخصّ الحضرةَ السنيّةَ السّريّه ، العالميّةَ العادليّـةَ المستنصريّه ؛ ذخيرةَ أمـيرِ المؤمنين ، وعصمةَ الدنيـا والدين ، وعُدّة الموحّدين ؛ لا زالت سماؤها بالعـدل مُغدِقةَ الأنواء مُشرِقةَ الأنوار ، ورياضُها بالفضـل مُورِقةَ الأغصان مُونقةَ الثّمار ؛ ولا برحتْ ضَوالُّ الأمانى فى أبوابها تُنشَد ، وقصائدُ القُصُود[2] فى اتصافها تُنشَد ؛ وسُرى الآمال عند صباح أمرها يُحمد ، وأحاديثُ الكرم عن جودها تُرسَل والى وجودها تُسنَد ؛ وسلامُه الذى يكاثر نسيمَ الروض الأنيق ، ويفاخر جديدُه عتيقَ[3] المسك وأين الجديد من العتيق ؛ يغادِيان تلك الأنداءَ[4] المباركةَ مُغاداةَ الغوادى

(١) فى (ا) : «عاجزته» بالجيم والزاى ؛ وهو تحريف .

(٢) القصود : جمع قصد ؛ وهذا الجمع ذكره بعض الفقهاء ، وانما جمع القصد مع أنه مصدر — والمصـدر لا يثنى ولا يجمع — نظرا لاختلاف أنواعه ، ويدل كلامهم على أن جمع المصدر موقوف على السماع ، فإن سمع الجمع عللوا باختلاف الأنواع ، وان لم يسمع عللوا بأنه مصدر أى باق على مصـدريته وعلى هذا فجمع القصد موقوف على السماع اه ملخصا من المصباح .

(٣) عتيق المسك : قديمه ؛ وفى كلا الأصلين : «فتيق» بالفاء وهو وإن كان صحيح المعنى الا أن مقابلته فى العبارة بالجديد مرتين يرجح ما أثبتنا . وفتيق المسك بالفاء : فعيل بمعنى مفعول ، وهو من فتق المسك بغيره : اذا أخرج رائحته بشىء يدخله عليه .

(٤) الأنداء : جمع النادى ، وهو القوم المجتمعون ؛ وفى حديث أبى سعيد : "كنا أنداء فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم" .

من وابل المطر، ويراوحانها مُراوَحةَ الرِّقة للأُصُل والبُكَر[1]، حيث العزّة القعساءُ يمتدّ رواقُها، والنعمةُ الغرّاءُ تُخصَف[2] أوراقُها، والدِّيمةُ الوَطْفاءُ[3] يتوالى إغداقُها، ويتتالى إغراقُها؛ وحيث العدل منشور الجناح، والحقّ مشهور السلاح، والإنصافُ مبرورُ الأقسام لِطالبِه باقٍ لا يزاح؛ سجيّةٌ تتوارث تَوارُثَ الفخار، ومزيّة تَستأثِر بالهداية ٥ آستئثارَ النجوم بالأنوار، وشِيَم تُستصحَب آستصحابَ الأهلّة للإبدار؛ فلذلك يَتلفّت الأمل اليها تَلفُّتَ السارى الى تَبلُّج الصباح، ويرتاح الى تَلقِّى إحسانها آرتياحَ الظامئ إلى ارتشاف الماء القَراح؛ ويَحتمِى بها فى المطالب آحتماءَ الليث بآلغابه، ويَستمِدّ إسعافَها آستمدادَ الحديقة من السحابه؛ ويهزّ عَطفها كما هَزّ الكمىُّ المُرْهَف، وينبِّه فضلَها تنبيهَ النسيم جفنَ الزهر الأَوْطَف[4]؛ فيناجِى بالجُؤور[5]، ويَلتمِسُ لها حسنَ ١٠ الصنع الذى لا يزال مبتسمَ الثغور؛ فما قَصَّ عليه من مناجاته، وطَوَى عليه طَوِيّةَ مفاوضاته؛ أنّ القاضىَ زينَ الدين بنَ حَباسةَ من بيتٍ أَسلَف سلفُه جميلا، وغدا هو على مكارمه دليلا؛ وكان له غلام قد سيَّر معه جملةً[6]...والآحتفالُ الحفىُّ[7] مسئولٌ

(١) لعله: «بوابل» فإن السياق يقتضى الباء.

(٢) تخصف أوراقها: أى تتصل أجزاؤها اتصالا لا انقطاع فيه، وخصف الورق: هو أن يوصل ١٥ بعضه ببعض للاستتار به.

(٣) الوطفاء من السحب: المسترخية لكثرة مائها؛ أو هى الدائمة السح الحثيثة.

(٤) الأوطف: المسترخى. والمصدر الوطف بالتحريك؛ يريد تشبيه الزهر فى سكونه بالجفن الذى غشيته سنة من الكرى فاسترخى.

(٥) فى كلتا النسختين: «بالأجور» بتقديم الهمزة؛ وهو تحريف لايستقيم به المعنى. والجؤور: ٢٠ جمع (جأر) بسكون الهمزة مصدر جأر يجأر: اذا دعا وتضرع؛ وانما جمع المصدر هنا نظرا لاختلاف أنواعه؛ وقد سبق الكلام فى جمع المصدر فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٠٢ من هذا السفر

(٦) كذا وردت هذه العبارة فى كلا الأصلين؛ وهى غير واضحة المعنى، والظاهر أن لها بقية تتم معناها سقطت من الأصول التى بين أيدينا؛ ولم نقف عليها فيما راجعناه من المظان.

(٧) الحفىّ بتشديد الياء: المبالغ فى البر والإكرام. وفى (ج) «الخفى» بالخاء المعجمة؛ وهو تصحيف.

فى تقدّمٍ يجيب النجاحُ داعِيَه، ويغدو الفلاحُ مُراوِحَه ومُغاديَه؛ وٱعتناءٍ يستخلص حقَّه ممن عليه ٱعتَدَى، ويَرَى مِن قبسِـه نورا يجد به هدى؛ فبارقةٍ يضىء لديه الحالك، وبلمحةٍ يهتدِى "بحيث ٱهتـدت أمُّ النجوم الشوابك"(١)؛ وما هو إلا رسمٌ يرسم به وقد قرب البعيد، وآب الشريد؛ وخاف الخائف، وكَفَّ الجانف(٢)؛ وجُمِعت الضَّوالّ، وضاق على ٱلمختزِل(٣) واسعُ المجال؛ مَهابة قد سكنت القلوب، وسياسة قَوِىَ الطالبُ بها وضعف المطلوب، وعزّة لا يزال الرجاء يُنيب إليهـا فيما ينوب؛ وأىُّ مطلب تُناجَى فيه الآلاءُ المباركةُ فلا يُصحِب قيادُه، ويُستسـقَى له مُزْنٌ ولا تُعاهَد عِهادُه(٤)؛ وأىُّ ذاهبٍ لا يُسترجَع به ولو أنه عشيّاتُ(٥) الحمى، وأىُّ فائتٍ لا يُرَدّ ولو أنه زمن الشبيبة المعسولُ اللَّمى؛ وحسبُ العانى أن يحطّ برحابها رحالَه، أو أن يوفد إلى أبوابها آمالَه؛ وقد تبادرتْ إليه المَناجحُ متسابقه، وٱنتظمتْ لديه ٱلمصالح متناسقه؛ فحينئـذ يُفعَم إناءُ تأميلِه، ويَستوعِب الإحسان(٦) لجملة قصده وتفصـيلِه؛ ويناديه

(١) الشوابك: من شبكت النجوم اذا دخل بعضها فى بعض واختلطت، وكذلك اشتبكت وتشابكت. وأم النجوم: المجرّة وهذا عجز بيت لتأبط شرا، وصدره: «يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى» بحيث اهتدت الخ انظر ديوان الحماسة. ومعنى الشطر الثانى من هذا البيت أنه يستغنى عن الدليل فى أسفاره كما تستغنى المجرّة؛ والعرب تقول: هو أهدى من النجم.

(٢) الجانف، من الجنف بفتح الجيم والنون: وهو الميل والجور.

(٣) المختزل: الخائن؛ يقال: اختزل الوديعة: إذا خان فيها. والاختزال فى الأصل: الاقتطاع.

(٤) تعاهد بالبناء للمجهول، من المعاهدة: وهى المعاقدة والمحالفـة. والعهاد، جمع عهد: وهو المطر بعد المطر؛ أو هو أول مطر الوسمىّ.

(٥) يشير بهذه العبارة الى قول الصمة بن عبد الله بن طفيل القشيرى:

وليست عشيات الحمى برواجع * عليك ولكن خل عينيك تدمعا

ديوان الحماسة (باب النسيب).

(٦) هذه اللام ساقطة من كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها ليصح الإعراب بالكسر فى قوله: «وتفصيله»؛ كما هو مقتضى السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته.

السعد من تلك البقعة المباركه ، فيوافيه التوفيقُ بصحائف القبول تحملُها الملائكه ؛ أمتع الله ببركاتها التى آمتدّ رواقُها ، وأنار آلحالكَ إشراقُها ؛ ولا زالت يراوحها تسليمٌ عَطِرُ النفحه ، وتصافحها تحيّاتٌ جميلة الصفحه ؛ بمنّه وكرمه .

وكتب رسالة صَيديّة[1] عن السلطان الملكِ الظاهرِ إلى الأمير عز الدين الحَلّىّ[2] نائبِ السلطنة بالقلعة :

هذه المكاتَبة إلى المجلس لا توارت شُموسُ أنسِه ، ولا أُذبِلتْ ثمار غرسِه ولا برح غدُه فى السعد مُرْبيا على يومه ويومُه على أمسِه ؛ تتضمّن إعلامَه بأنا خرجنا إلى الصيد المبارك بجنود تملا السهل والجبل ، وتستحيي الشمس منها فتستتر فى سحابها من كثرة الخجل ؛ تَسير على الأرض منها جبال ، وتَأوِى الرمال منها الى أَورَف ظلال ؛ وَتوجّهنا إلى جهة الطّرّانة[3] وإذا بحشود[4] الوحوش قد توافدتْ ، وعلى مناهل المناهج قد تواردتْ ؛ والأجلُ يسوقُهم ، واليدُ تعقّهم[5] ، والمنايا تَعُوقُهم ؛

(١) فى (أ) : «إلى» ؛ وهو غير مستقيم .

(٢) هو عز الدين أيدمر بن عبد الله الحلى الصالحى النجمىّ ؛ كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملوك ، ثم عند الملك الظاهر بيبرس ، وكان يستنيبه فى غيبته ؛ وكانت وفاته فى سنة سبع وستين وستمائة تاريخ العينى المسمى بعقد الجمان المأخوذ منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ والنجوم الزاهرة المأخوذ منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٤٣ تاريخ .

(٣) الطرّانة مشدّدة الراء : اسم لوادى هيبب ، وهى كورة من حوف رمسيس ، وتعرف ببرية شهاب ، وبرية الأسقط ، وميزان القلوب ، وبها قبر أبى معاذ الكبير (مستدرك التاج) .

(٤) الحشود : الجموع ، وهو جمع حشد بفتح الحاء وسكون الشين .

(٥) تعقهم : أى تغبوبهم ، وتخبافى عنهم .

ولم تزل أيدى الخيل تجمعهم فى صعيد، وتَطوى بهم سطورا فى طروس البِيد؛ حتى أحاطت بهم إحاطةَ الفَلَك بالنجوم الزواهر، والأجفانِ بالعيون النواظر؛ وجُرِّدَتْ السيوف فظنّتْهـا غُدُرا، ورُميتْ النبـال فحسِبَتْها شَرَرا؛ وعُزِلَتْ[1] الرماحُ بالسهـام وحيّتها السِّلام[2] بالسَّلام، وسَكنتْ نهارا من العَجاج فى ظلام؛ وضاقت عليها الأرض بمـا رَحُبتْ، وأدركتْ المنيّةُ منها ما طَلبتْ؛ وراسلتْها المنايا، وأهدت اليها رياحينَ تحايا؛ فمن صريعٍ وصديعٍ وطريحٍ وطريد، وجريحٍ ومقبلٍ وشريد، وقائمٍ وحصيد؛ ولم تَسلم فى هذا اليوم غيرُ غزالة السماء فإنهـا استترت بالغيوم، وخافت أن يكون الهلال قد نُصِب فخّا لصيدها وصيد غيرها من النجوم؛ والموتُ[3] أَسَرَ كلَّ مَهاةٍ مَهابَه، ونال الحتف من كل طَلًا[4] طِلابَه؛ وفتكت الظُّبـا بالظِّبى، وقالت السهام لأجيادها: مَرحبا؛ وتَنَبنـا الأعنّـة والشفار قد أُنهِلتْ، والظهورُ قـد أُثقِلتْ؛ والكُنُسُ[5] خاوية على عروشِها، والبِيدُ قد أَوحشتْ من وحوشها؛ وما نشتمل عليه من محبّة المجلس وإيثارِه، ونَجِده من الوحشة له مع دنوِّ دارِه؛ وسرورُه بما عساه لنا يتجدّد، وحبورُه بما يَرِد من جهتنا وهذا لا نشكّ فيه ولا نتردّد؛ أَوجب أن نخصّه به ونُتحِفَه، ونصِفَه له على جليّته إذ كنّا بالتخصيص به لن ننصفَه؛ وقد بعثْنا إليه منه قِسما، ولم نَنسَ عند ذكرِنا أنفسَنا له آسما.

(١) لعله: «وعززت» بالبناء للمجهول من التعزيز: وهو التقوية والإعانة. أو لعل المراد بقوله: «وعزلت الرماح» الخ: أن العمل فى الصيد كان بالسهام دون الرماح فشبه ترك العمل بها بالعزل.

(٢) السلام: الحجارة، واحده سلمة بكسر اللام.

(٣) فى كلا الأصلين: «وللوقت»؛ وهو تحريف.

(٤) الطلا بالفتح: من أولاد الوحش من حين يولد الى أن يتشدد.

(٥) الكنس: جمع كناس بكسر الكاف، وهو موالج الوحش من الظباء والبقر تكتنّ فيه من الحر. وفى كلا الأصلين: «والكناس» بصيغة المفرد؛ وما أثبتناه هو مقتضى السياق.

* * *

وكتب عن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون إلى صاحب اليمن جوابَ كتابٍ عزّى فيه السلطانَ عن ولدِه الملكِ الصالح علاءِ الدِّين علىّ[1] — وكان الكتابُ الذى ورد فى ورق أزرق، وسيَّره فى كيس اطلسَ أزرق، والعادةُ أن يكون فى كيسٍ أطلسَ أصفر — :

أعزّ الله نُصرتَه وأحسن بتسليته الصبرَ على كل فادح، والأجرَ على كلّ مصاب قَرَح القرائح، وجرح الجوارح، وأوفَد مِن تعازيه كلَّ مسكِّنٍ طاحت[2] به من تلقاءِ صنعاء اليمن الطوائح، وكتب له جزاءَ المصبِّر عن جارٍ من دمعٍ طافح، على جارٍ لسويداء القلب صالح[3]؛ الملوك يخدُم خدمة لا يذُود المواصَلةَ بها حادث، ولا يؤخّرها عن وقتها أمرٌ كارث، ولا تَنقُصها عن تحسينِها[4] وترتيبِها بواعثُ الاختلاف ولا اختلافُ البواعث؛ ويُطلِع العِلمَ الكريمَ على ورود مثالٍ كريم لولا زرقةُ طرسه؛ وزرقةُ لبنسه، لقال: "وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ"؛ يتضمّن ما كان حدث من رزءٍ تلافاه الله بتناسيه، وتَوافَى هو والصبر فتولَّى التسليمُ تبيينَ عاسِيه[5]

(١) كذا فى كلا الأصلين وتاريخ العينى المعروف بعقد الجمان؛ والذى فى ابن إياس (ج ١ ص ١١٧) (نور الدين) مكان (علاء الدين) فلعله لقب آخر له. وكانت وفاة الملك الصالح هذا فى سنة سبع وثمانين وستمائة بعد أن مرض بالدوسنطارية الكبدية؛ وكان أبوه قد عهد اليه فى الأمر من بعده، وخطب له معه على المنابر فلما مات جعل أبوه الولاية من بعده الى ابنه الملك الأشرف خليل انظر تاريخ العينى المأخوذ منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ.

(٢) طاحت به: أى أسرعت به، وهو مستعار من قولهم: «طاح به فرسه» اذا أسرع به كالسهم.

(٣) كذا فى صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٥٧. وفى كلا الأصلين: «صائح»؛ وهو تحريف.

(٤) فى كلا الأصلين: «تحيتها»؛ وهو تحريف لا يظهر به المعنى.

(٥) العاسى: الشديد الظلمة، يقال: عسا الليل: اذا اشتدّت ظلمته؛ قال فى شرح القاموس: «والغين أعرف».

وتمرينَ قاسِيه؛ فشكرنا الله على ما أعطى وحمِدناه على ما أخذ، وما قلنا : هذا جَزَعٌ قد آنتبه إلا وقلنا : هـذا تَثبُّتٌ قد آنتبذ[1]، ولا توهمنا أن فِلْذة كبدٍ قد آختُطِفتْ إلّا وشاهَدْنا حولنا مِن ذرّيّتنا — والحمد لله — فِلَذ؛ وأحسنّا الاحتساب، ودخلت الملائكة علينا مِن كلّ باب، ووفّانا آلله أجر الصابرين بغير حساب؛ ولنا — والشكرُ لله — صبرٌ جميلٌ لا نأسف معه على فائت ولا نأسَى على مفقود، وإذا علم الله حُسنَ الاستنامة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه عوّض كلّ يوم ما يقـول المبشِّر به : هـذا مولًى مولود؛ وليست الإبل بأغلظَ أكبادا ممن له قلبٌ لا يبالى بالصدمات كثرتْ أو قلّتْ، ولا بالتباريح حَقُـرتْ أو جلّتْ، ولا بالأزَمات إن هى توالت أو تولّتْ، ولا بالجفون إن ألقت ما فيها من الدّموع والهجوع وتخلّتْ؛ ويَخاف من الدهر من لم يَحلُب أشطُرَه، ويأسف على الفائت من لا تنتابه الخطوب الخطِرَه؛ على أن الفادح بموت الولدِ آلملكِ الصـالح — رضى الله عنـه — وإن كان مُنكِيا[2] والنائحَ بشجوِه وإن كان مُبكِيا، والنائحَ[3] بذلك الأسف وإن كان لنار الأسى مُذكِيا؛ فإن وراء ذلك من تثبيت الله ما ينسفه نسفا، ومن إلهـامه الصبرَ ما يجدّد لتمزيق القلوب أحسن ما به يُرفا؛ وبكتاب الله وبسنة نبيّه صلّى الله عليه وسلم عندنا حُسنُ اقتداء نَضرب به عن كلّ رثاءٍ صفحا، وما كنّا مع الله — والمنّة لله — نُعطِى لمن يؤنِّب ويؤبِّن[4] أذنا ولا نُعيرها لمن يَحَى؛ إذ الولد الذاهب مَرْقى رضوان الله تعالى سالكا

(١) انتبذ : أى ترك الحزن والجزع؛ من النبذ وهو الطرح والرمى .

(٢) كذا فى كلا الأصلين؛ ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال : «أنكاه» من «نكأ» المهموز ولا «أنكاه» من «نكى» المعتل اللام؛ والظاهر أن الكاتب أراد المجانسة بين قوله : «منكيا» وقوله بعده : «مبكيا» . ونكأ الجرح بالهمز : أى قرفه وقشره . وهو هنا على الاستعارة .

(٣) النائح بالجيم : الصائح؛ يقال : ناج ينأج : إذا صاح .

(٤) أبنه : أثنى عليه بعد موته .

طريقا لا عِوَجَ فيها ولا أَمْتا[1]، وآنتقل سارّا بارّا صالحا وما هكذا كلُّ آلموتى نعيا ولا نعتا ؛ وان كان نَفَعنا[2] فى الدنيا فها نحن بالصدقات والترحُّم عليه ننفعُه، وان كان الولدُ عملَ أبيه — وقد رَفَع الله روحَ ولدنا فى أعلى عِلّيِّين تحقّق أنه العملُ الصالح «وَآلْعَمَلُ آلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» ؛ وفيما نحن بصدده من آشتغال بالحروب، [ما][3] يُهوّن ما يَهُول من الكروب ؛ وفيما نحن عاكفون عليه من مكالحات الأعداء [ما][3] بين المرء وبين قلبه يَحُول، ومُلهٍ عن تَخيّلِ أسف فى الخاطر يَجُول

اذا آعتاد الفتى خَوضَ المنايا * فأَهْوَن ما يمرّ به الوُحولُ[4]

ولنا بحمد الله ذرّيّةٌ دَرّيّه[5]، وعقودٌ والشكر لله كلُّها دُرّيّه

اذا سيّدٌ منهم خلا قام سيّدٌ * قَؤولٌ لما قال الكرام فعولُ[6]

---

(١) الأمت : ما ارتفع من الأرض ؛ وقوله : « لا عوج فيها ولا أمتا » أى لا انخفاض فيها ولا ارتفاع (اللسان) .

(٢) كذا فى صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٥٨ . والذى فى كلا الأصلين : « نفعه » بالهاء .

(٣) هاتان الكلمتان لم تردا فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناهما عن صبح الأعشى اذ لا يستقيم الكلام بدونهما .

(٤) الوحول بالحاء المهملة ، جمع وحل بسكون الحاء : كفلس وفلوس ؛ وأما بالتحريك فجمعه أوحال كما فى المصباح ؛ والوحل بالتسكين لغة رديئة كما ذكره الجوهرى والصاغانى ، واقتصرا على ذكر الوحل بالتحريك (التاج) وفى (ج) "الوجول" بالجيم ، وهو تصحيف ؛ والبيت لأبى الطيّب المتنبى .

(٥) درية بفتح الدال وتشديد الراء : نسبة الى الدر ، وهو اللبن . والمراد بهذه الكلمة ما يلزمها من معنى الانتساب ومشابهة الذرية لابيها وأمها فى الأخلاق والصفات .

(٦) البيت للسموءل بن عادياء من قصيدته المشهورة ؛ وفى بيت السموءل : «منا» فغيرها الكاتب بقوله : « منهم » تبعا لسياق الكلام .

ما منهم الا من نَظَرَ سعدَه ومَن سعدُه يُنتظَر، ومن يحسن أن يكون المبتدا وأن تسدَّ حالُه بكَفالتِه وكِفايتِه مَسَدَّ الخبر[(١)] « والشمسُ طالعةٌ إن غُيِّبَ القمر » لا سيّما مَن الدينُ به إذ هو صلاحُه أعرَف ، ومَن إذا قيل لبناء ملكٍ هذا عليُّه قد وَهَى قيل : هذا خيرٌ منه مِن أعلى بناءِ سعدٍ أشرَف[(٢)] ؛ وعلى كلِّ حال لا عُدِم إحسانُ المولى الذى يَتنوّع فى بِرِّه، ويعاجِل قضاءَ الحقوق فتساعِف مَرسومَه فى توصيله طاعةُ بحرِه وبَرِّه ؛ وله الشكرُ على مساهمة المولى فى الفرح والترح ، ومشاركتِه فى الهناء إذا سَنَح ، وفى الدمع اذا سَفَح ؛ وما مِثلُ مكارم المولى من يَعزُب مِثلُ ذلك عن علمِها ، ولا يُعزَى الى غير حُكمها وحلمِها ؛ وهو — أعزه الله — ذو التجارب التى مَخَضتْ له من هذه وهذه الزُّبده، وعَرَضتْ عليه منهما الهَضْبةَ والوَهده؛ والرغبةُ الى الله تعالى فى أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتِمه وكما لم يجعلها للظهور قاصمة فلا يجعلها لعرا الشكر فاصمه[(٣)] ، وان يجعلها بعد حَمْلِ هذا الهمّ وفِصالِه على عليّةِ فاطمه؛ وأن يحبِّب الينا كلَّ ما يلهى عن الأموال والأولاد من غزوٍ وجهاد ، وأن يجعلنا ليس يُجِدّ لدينا على مفقود تأدّبا مع الله غيرُ السيوف فإنها تُعرَف بالحِداد، وألّا تُقصَفَ رماحُنا إلا فى فَودٍ أو فى فؤاد، ولا تُحوَّلَ

(١) يشير بهذه العبارة الى ما ذكره النحاة من وجوب حذف الخبر وسدّ الحال مسدّه ، وذلك اذا كان المبتدا مصدرا بعده حال لا تصلح ان تكون خبرا كقولك : ضربى العبد مسيئا ؛ انظر تفصيل ذلك فى كتب القواعد والمعنى أن معاينة صفاته الكريمة تغنى عن الإخبار بها .

(٢) أشرف على الشىء : أى أطل عليه . وقوله : « من أعلى » متعلق به ، وفى هذا اللفظ تورية عن الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، وكان أبوه قد عهد اليه بالملك بعد وفاة أخيه الملك الصالح علىّ المتقدّم ذكره ؛ وجلس على سرير الملك يوم الأحد سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة بعد وفاة أبيه قلاوون ؛ والملك الأشرف هو الثامن من ملوك الترك على الديار المصرية (تاريخ ابن إياس) ج ١ ص ١١٩ ، ١٢١ .

(٣) فى (أ) : « فاحمه » ؛ وهو تحريف .

سروجُ خيلنا مِن ظهر جوادٍ فى السَّرايا إلّا إلى ظهر جواد ، وألا تُشَقّ لدينا إلا أكباد أكاد (١) ، ولا تُجَزّ (٢) غيرُ شعور ملوك التتار تُتَوَّج (٣) بها رءوسُ الرماح ويُصعَد بها على قِمَم الصِّعاد (٤) ؛ والله يشكر للمولى سعىَ مَراثيه التى لولا لطف الله بما صبَّرنا به (٥) لأقامت الجنائز ، واستخفّت (٦) النحائز ، ولَهَوْتُ بالنفوس فى استعمال الجائز من الأسف وغيرِ الجائز ، ولا شغل الله لبَّ المولى [بفادحه] ، ولا خاطِرَه بسانحة من الحزن ولا بارحه ولا أسمَعه بغير المَسرّات من هواتف الإبهاج صادحه ؛ بمنّه وكرمه .

٥

* * *

ومن إنشائه رحمه الله تقليدُ السلطان الملكِ الأشرفِ صلاح الدين خليل بولاية عهد السلطنة من أبيه السلطان الملكِ المنصور — سقى الله عهدهما صوب الرحمة — وهو :

١٠

الحمد لله الذى لم يزل له السمعُ (٧) والطاعةُ فيما أمر ، والرضا والشكرُ فيما هَدَم من الأعمار وما عَمَر ، والتفويضُ (٨) فى التعويض إن غابت الشمس وبقى القمر

(١) أراد بالأكباد : الجاحدين ؛ ولم نجد هذا الجمع فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أننا لم نجد فى كتب القواعد مايسوّغه ؛ فإن صيغة أفعال مطردة فى جمع الأسماء الثلاثية دون الصفات ، وأما غير ذلك فسماعى . ولعل الكاتب أراد المجانسة بين «أكباد» و «أكاد» .

١٥

(٢) فى كلا الأصلين : «تجر» بالراء المهملة ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى إحدى النسختين : (تنوح) وفى الأخرى : «تنوج» وهو تصحيف فى كلتيهما .

(٤) الصعاد : جمع صعدة ، وهى القناة التى تنبت مستوية فلا تحتاج الى تثقيف .

(٥) كذا فى (ج) وصبح الأعشى ؛ والذى فى (ا) "بها ميزنا" ؛ وهو تحريف لا يتضح به المعنى .

(٦) فى كلتا النسختين : «واستحقت» ؛ وهو تصحيف . والنحائز : جمع نحيزة وهى الطبيعة ، يريد هنا : طبيعة الصبر والاحتمال .

٢٠

(٧) كذا فى (ج) وصبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ ؛ والذى فى (١) : «الحمد» مكان «السمع» .

(٨) فى كلتا النسختين : «فى التفويض» بالفاء ؛ وهو تحريف .

نحمـده على أن جعل سـلطاننا ثابتَ الاركان ، نابتَ الأغصان ، كلّ روضـة من رياضـه ذات أفنان ؛ لا تُزعزعه ريحٌ عقيم (١) ، ولا يُحـرجه رزءٌ عظيم عن الرضا والتسليم ، ولا يُعتَبط (٢) من جملته كريم إلا ويُغتَبَط من أُسرتِه بكريم ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تزيد قائلَها لله تفويضا ، وتُجـزِل له تعويضا وتُحسِـن له على (٣) الصبر الجميـل فى كل خطبٍ جليلٍ تحريضا ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه الذى أنزل فى التسلية به : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » والنبيُّ الذى أوضح الله به المنـاهج وبيَّن السُّبُل ؛ صلى الله عليـه وعلى آله ما تجاوبت المحابرُ والمنابرُ فى البُكَر (٤) والأُصُل ؛ وما بُدِّدتْ عقود ونُظِّمتْ ، ونُسِختْ آياتٌ وأُحكمتْ ونُقِضتْ أمور وأُبرِمتْ ، وما عَزَمتْ (٥) آراءٌ فتوكّلتْ وتوكلت فعَزَمتَ ؛ ورضى الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليقة نعم الخليفة ، ومنهم من لم يُدرِك أحدٌ فى تسويد النفس الحَصِيفة (٦) ولا فى تبييض الصحيفة مُدَّه ولا نَصِيفه (٧) ، ومنهم من يسرّه الله

(١) الريح العقيم : هى غير اللاقح ، أى لا تأتى بمطر انما هى ريح الإهلاك ، كما قاله أبو اسحاق الزجاج . وقيل : لا تلقح الشجر ولا تنشئ سحابا ، عادلوا بها ضدها وهو قولهم : ريح لاقح : أى أنها تلقح الشجر وتنشئ السحاب .

(٢) اعتبط الموت فلانا : أخذه شابا صحيحا من غير علة ، كأعبطه .

(٣) فى احدى النسختين : «عن» ؛ وفى الأخرى : «عز» ؛ وهو تحريف فى كلتيهما .

(٤) فى كلتا النسختين : «والبكر» بالواو مكان «فى» ؛ وهو تحريف .

(٥) يقال : عزم الرأى بالبناء للفاعل : أى عزم عليه ، وهو من قبيل القلب للمبالغة ، كما يقولون : هلك الرجل ، وإنما هو أهلك بالبناء للمجهول ؛ ويدل على أن للفعل هنا مبنىّ للفاعل قوله : «فتوكلت» بالبناء للفاعل أيضا وفى قوله «توكلت» إسناد مجازىّ وهو المسمى بالمجاز العقلىّ .

(٦) يقال : حصف الرجل وزان «كرم» حصافة فهو حصيف : اذا كان جيد الرأى محكم العقل .

(٧) أشار بهذه العبارة الى قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تسبوا أصحابى فإن أحدكم لو أنفق ما فى الأرض جميعا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه" ؛ والنصيف كأمير : نصف الشىء ، كالعشير والثمين فى العشر والثمن . قال فى التاج : «ومنه الحديث» وأورد الحديث السابق .

لتجهيز جيش العُسْرة[(١)] فعرف اللهُ ورسولُه معروفَه، ومنهم من عمل صالحا أرضى ربه فأصلح فى ذريّته الشريفه؛ وبعد، فإن من الطاف الله بعبادِه، وآكتنافِ عواطفِه ببلادِه[(٢)]؛ أن جعلنا كلّما وَهَى للملك ركنٌ شديدٌ شيّدنا ركنا عِوضَه، وكلّما آعترضت للقادير جملةٌ بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ وتناسينا تجلُّدا تلك الجملةَ المعترِضه؛ فلَمْ نُحوِج اليومَ لأمسِه وإن كان حميدا، ولا الغارسَ لغرسِه وإن كان ثمره يانعا وظلُّه مديدا؛ فأطلعْنا فى أفق السلطنة كوكبَ سعدٍ[(٣)] كان لحُسن الآستخلاف مُعَدّا، ومَن لِقبيل المسلمين خيرٌ ثوابا وخيرٌ مَرَدّا، ومَن يبشّر الله به الأولياءَ المتقين ويُنذِر به من الأعداء قوما لُدّا، ومن لَم يَبقَ [إلّا به[(٤)]] أنسُنا بَعد ذهاب الذين نحبّهم [وبقِيَ[(٥)]] كالسيف

(١) جيش العسرة : هو الجيش الذى سار به رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك . قال ابن عرفة : سمى بذلك لأنهم ندبوا اليها فى حارّة القيظ فعسر ذلك عليهم وغلظ ، وكان إبان إيناع الثمرة الخ (تاج العروس) وكان عدد ذلك الجيش ثلاثين ألفا ؛ وكان ممن جهز هذا الجيش عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فانه أنفق عشرة آلاف دينار وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وخمسين فرسا ؛ وجاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه بكل ماله ، وغيرهما من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ؛ وكانت هذه الغزوة آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجد بتبوك جيش الروم الذى أراد قتاله . انظر تفصيل ذلك فى كتب السيرة ؛ وتبوك : موضع بين وادى القرى والشام .

(٢) كذا فى كلا الأصلين ؛ ولم نجد فيما بين أيدينا من كتب اللغة تعدية « اكتنف » بالباء ؛ والذى وقفنا عليه انه يقال « اكتنفه » بلا واسطة حرف ؛ ولعله ضمنه معنى الإحاطة ؛ فسوّغ له هذا التضمين تعديته بهذا الحرف ؛ أو لعله : « لبلاده » باللام .

(٣) إلى هنا انتهى ما وجد من النسخة المشار اليها ب (ج) .

(٤) هذه العبارة ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن صبح الأعشى (ج ١٠ ص ١٦٧) إذ لا يستقيم الكلام بدونها .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل وصبح الأعشى ؛ واستقامة العبارة تقتضى إثباتها ؛ فإنه يشير بها الى قول عمرو بن معديكرب الزبيدىّ :

ذهب الذين نحبهم * وبقيت مثل السيف فردا

كما فى ديوان الحماسة ؛ وفاعل « بقى » ضمير يعود على « من » .

فَرْدا، والذى ما أَمضَى حَدَّه [فى](١) ضَريبــة إلا قَدّ البِيضَ(٢) والأبدانَ قَدّا، ولا جهز(٣) رايةَ كَتيبةٍ إلا

أَغَنَى(٤) غَنــاءَ الذاهبِين * وعُدّ(٥) للأعداء عَدّا

ولا بَعَثَه جزعٌ فقال : « كم من أخٍ(٦) لى صالحٍ » إلا لقِيَــه وَرعٌ فقال : « وخُلِقْتُ يوم خُلِقْتُ(٦) جَلْدا » ؛ وهو الذى بقواعد السلطنة الأَدرَى وقوانينها الأعرَف، وعلى الأولياء الأعطَف وبالرعايا الأرأف ، والذى ما قيل لِبناءِ مُلكٍ : هذا عليُّه قد وَهَى إلا وقيل : هذا بناءٌ مِثلُه منه أسمى مُلْكًا وأشرَف، والذى ما برح النصرُ يُتنسّم مِن مَهابّ

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل وصبح الاعشى ؛ والسياق يقتضى إثباتها . والضريبة : ما ضربته بالسيف ، وإنما دخلته التاء وان كان بمعنى مفعول لأنه صار فى عداد الأسماء .

(٢) البيض بفتح الباء : جمع بيضة ، وهى من الحديد ما يلبس على الرأس فى الحرب ، وقيل لها البيضة تشبيها لها ببيضة النعام . قاله أبو عبيدة فى كتاب الدروع ، وقال : البيضة اسم جامع لما فيها من الأسماء والصفات التى من غير لفظها ، ولها قبائل وصفائح كقبائل الرأس تجمع أطراف بعضها الى بعض بمسامير يشد بها طرفى كل قبيلتين ؛ قال : وربما لم تكن من قبائل وكانت مصمتة مسبوكة من صفيحة واحدة فيقال لها : صماء .

(٣) فى الأصل : « جهر » بالراء ؛ وهو تصحيف .

(٤) البيت لعمرو بن معديكرب من القصيدة التى سبقت الإشارة اليها فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١١٣ من هــذا السفر وروايته فى ديوان الحماسة : « أغنى » بضم الهمزة وكسر النون مسندا الى ضمير المتكلم ، وانما أسند هنا الى ضمير الغائب تبعا لسياق الكلام .

(٥) روايته فى الحماسة : « أعد » بضم الهمزة والدال المشددة وفتح العين مسندا الى ضمير المتكلم وأسنده الكاتب هنا الى ضمير الغائب لما قدمنا فى الحاشية التى قبل هذه . ويريد بقوله : «وعد للأعداء» الخ أن الأعداء يقولون فيه : خذوا فلانا فإنه يعدّ بألف انظر شرح التبريزى على ديوان الحماســة (ج ١ ص ٩٣) طبع بولاق عند شرحه لهذا البيت .

(٦) هذان الشطران من القصيدة التى سبقت الاشارة اليها فى الحاشيتين رقم ٤ ، ٥ من هذه الصفحة لعمرو بن معد يكرب ، أولهما صدر بيت ، والثانى عجز بيت آخر ؛ والبيتان هما :

كم من أخ لى صالح * بوّأته بيــدىّ لحــدا

ألبستــه أثــوابــه * وخلقت يوم خلقت جلدا

تأميلِه والفلاح ، ويتبسّم ثغرُه فتتوسّم الثغور من تبسُّمِه النجاح ، وينقسم نُورُه على البسيطة فلا مصرَ من الأمصار إلا وهو يَشرَئِبّ الى ملاحظة جبينِ عهده الوضّاح ويتّفق اشتقاقُ النعوتِ فيقول التسلّي للتملّي سواءُ الصالح والصلاح ؛ والذى ما برِح لِشعار السلطنة الى توقُّله[1] وتنقُّله أتمُّ حنين ، وكأنّما كوشفت الإمامةُ العبّاسيّةُ بشرف مسمّاه فيما تقدّم مِن زمن مَن سَلَف مِن حِين[2] ، فسمّتْ ووَسَمَتْ باسمِه أكابرَ الملوك [وأخايرَ[3] السلاطين] فخوطب كلٌّ منهم مجازا لا كهذه الحقيقة بـ«خليلِ» أميرالمؤمنين ؛ والذى كم جلا بهاءُ جبينه مِن بهيم ، وكم غدا المُلكُ بحُسن رأيه[4] ويمنِ آرائه بهيم[5] وكم أبرأ مَوردُه العذبُ هيمَ عِطاشٍ ولا يُنكَر الخليل اذا قيل عنه : إنه إبراهيم ؛ ومن تشخص الأبصارُ لِكماله يوم ركوبه حَسيره ، وتُلقِي البنانُ سلاحَها ذَهلا وهى لا تَدرِى لكثرة الإيماء إلى جلاله إذا يبدو مَسيرَه ؛ والذى ألهم الله الأمّةَ بجودِه ووجودِه صبرا جميلا ، وآتاهم من نَفاسة كرمه وحراسةِ سيفه وقلمِه تأمينا وتأميلا ، وعَظُم فى القلوب والعيون ، بما مِن بِرِّه سيكون ، فسمّته الأُبوّة الشريفة ولدا[6] وسمّاه الله : خليلا ؛ ولمّا تحتّم من تفويض أمرِ المُلكِ اليه ما كان الى

(١) توقل فلان فى مصاعد الشرف : اذا صعد فيها ، وهو مستعار من التوقل فى الجبل : أى التصعيد فيه .

(٢) عبارة صبح الأعشى : « من زمن سلف ومن حين » ؛ والمعنى يستقيم بها أيضا .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى ؛ وأخاير : جمع أخير ، وهذه لغة بنى عامر ؛ يقولون : هذا أخير من هذا وأشر منه بالألف فيهما ؛ وسائر العرب تسقطها منهما فتقول : هذا خير من هذا وشر منه (المصباح) .

(٤) الرأى هنا بمعنى المرآى والمنظر ؛ فلا تكرار بينه وبين قوله بعد : «آرائه» ، والذى فى صبح الأعشى : « روائه » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا ؛ والرواء : حسن المنظر .

(٥) إبراهيم : أى إبراء هيم ؛ والإبراء من البرء : وهو الشفاء . والهيم بكسر الهاء : العطاش ؛ ولا يخفى ما فى قوله : « إبراهيم » من التورية .

(٦) كذا فى صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٨ ؛ والذى فى الأصل : « أبا » ؛ وهو غير مستقيم .

وقته المعلوم قد تأخر، وتُحُيِّنَ[1] حِينُه فَكَمَل بزيادة[2] كزيادة الهلال حين بادر تمامه فأبدر، اقتضى حُسنُ المناسبة لنصائح الجمهور، والمُراقَبـةِ لمصالح الأمور، والمُصاقَبـةِ[3] لمَناجح البلاد والثغور، والمقارَبة[4] من فواتح كل أمرٍ ميسور؛ أن نفوِّض اليـه ولاية العهد الشريف بالسـلطنة الشريفة المعظَّمه، المكرَّمة المفخَّمة المنظَّمه؛ وأن تُبسَـط يدُه المنيفـةُ لمصافحتهـا بالعهود، وتحكيمِها فى العساكر والجنود، وفى البحور والثغور وفى التَّهائم والنجود؛ وأن يُعْقَدَ بسيفها وقلمها كلُّ قطع ووصْل، وكلُّ فرعٍ وأصل وكلُّ نصر ونصْـل؛ وكلُّ ما يَحمى سرحا، ويَهمى مَنحا، وفى المُثيرات فى الإعداء[5] على الأعداء نَقْعا وفى المُغيرات صـبحا؛ وفى المنع والإطلاق، وفى الإرفاد[6] والإرفاق وفى الخميس إذا ساق[7]، وفى الخُمُس[8] اذا انساق، وفى السيوف "إذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ: مَنْ رَاق"، وفى الرماح إذا التفّت الساقُ منهـا بالساق؛ وفى المعاهَدات والهُـدَن

(١) كذا فى صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٨؛ والتحين: الانتظار والطلب؛ والذى فى الأصل: «وتحرر»؛ وهو تحريف إذ لم نجد هذه الصيغة فيما راجعناه من كتب اللغة بالمعنى المناسب لسياق ما هنا.

(٢) عبارة صبح الأعشى: «فكمل زيادة» بدون باء.

(٣) المصاقبة: المقاربة والمواجهة.

(٤) فى الأصل: «والمقارنة» بالنون؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا بقرينة ذكر «من» بعده.

(٥) الإعداء بكسر الهمز: مصدر أعداه اذا حمله على العدو بتخفيف الواو، وهو الجرى.

(٦) الإرفاد بكسر الهمزة: الإعطاء، والاسم الرفد بكسر الراء. والإرفاق بالكسر أيضا: النفع، يقال: أرفق فلان فلانا ورفقه: أى نفعه.

(٧) اذا ساق: أى اذا ساقه، فالمفعول محذوف، وهو ضمير يعود الى «الخميس».

(٨) أراد بالخمس: خمس ما يغنمه الجيش فى الحرب، وهو المذكور فى قوله تعالى فى سورة الأنفال: (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول).

وفى الفداء بما عُرِض مِن عَرَض وبالبَدَن لِلبَدَن[1]، وفيما ظهر من أمور المُلك وما بَطن، وفى جميع ما تستدعيه بواعثُه فى السرِّ والعَلَن، وتسترعيه[2] نوافثُه مِن كَبْتٍ وكَتْبٍ متفرِّقَين أو فِى قَرَن؛ عهدا مباركةً عُوذُه[3] وتمائمُه، وفواتحُه وخواتمُه، ومناسمُه[4] ومَواسمُه، وشروطُه ولوازمُه

٥ [على عاتق المَلْك الأغرِّ نِجادُه[5] * وفى يد جبّار السمٰوات قائمُه]

لاراد لحكمِه، ولا ناقضَ لبرمِه[6]، ولا داحضَ لما أثبتَتْه الأقلام من مكنون علمِه.

ويزيده[7] مَرُّ الليالى جِدَّةً * وتقادُمُ الأيام حُسنَ شبابِ

---

(١) «وبالبدن للبدن» أى أنه متحكم فى الفداء بالأسير لأسير مثله، كما كانت تلك عادتهم فى تبادل الأسرى؛ والذى فى الأصل وصبح الأعشى: «بالبدن» بالباء مكان اللام؛ وهو غير ظاهر، اذ ليس فيما سبق ما يصح تعليقه به.

١٠ (٢) تسترعيه: تستحفظه، والمراد بالنوافث هنا: الحوافظ، والنوافث فى الأصل: الرواق جمع نافثة من نفث الراق فى العقدة نفثا وهو دون التفل. والكبت: مصدر كبت عدوّه يكبته: أى ردّه بغيظه وأذله؛ والظاهر ان المراد بالكبت والكتب فى هذه العبارة: الحرب والكتابة، إذ هما من أسباب حفظ الملك.

١٥ (٣) العوذ بضم العين وفتح الواو، جمع عوذة بضم العين: وهى الرقية يرقى بها الانسان من فزع أو جنون لأنه يعاذ بها وهى التى تكتب وتعلق على الإنسان من العين ونحوها، وأصلها: الرقية بما فيه «أعوذ» ثم عمت.

(٤) المناسم جمع منسم بكسر السين، وهو هنا بمعنى الأثر والعلامة، يريد أن هذا العهد مباركة آثاره.

(٥) لم يرد هذا البيت فى الأصل؛ وقد أثبتناه عن صبح الأعشى ومسالك الأبصار قسم ٢ ج ٨ من

٢٠ النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ؛ وهو من قصيدة لأبى الطيب المتنبى يمدح بها سيف الدولة عند منصرفه من حصن برذويه.

(٦) برم الأمر وإبرامه: إحكامه.

(٧) البيت لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق ويستعطفه على قومه، ورواية البيت: «ويزيدها» بضمير المؤنث، مرادا به القصيدة.

وتَلزَم السـنون والأحقاب ، اِسـتيداعَه حتى الذَّراريّ[1] والأعقاب ؛ فلا سـلطانَ ذا قَدْرٍ وقدره ، وذا أمرٍ و إِمْرَه ؛ ولا نائبَ فى مملكة قربَتْ أو بعدَتْ ، ولا مقدّم جيوشٍ أَتهمَتْ أو أَنجدتْ ؛ ولا راعىَ ولا رعيّه ، ولا ذا حكمٍ فى الأمور الشرعيّه ؛ ولا قلمَ إنشاءٍ ولا قلمَ حساب ، ولا ذوى أنسـابٍ ولا ذوى أسـباب ؛ إلا وكلٌّ داخلٌ[2] فى قبـول عَقْد هذا العهـد الميمون ، ومتمسِّك بمحكَم آيات كتابه المكنون والتسليمِ لنصِّه الذى شهدتْه من الملائكةِ الكرامُ الكاتبون ؛ وأمست بَيعتُه بالرضوان محفوفه ، والأعداءُ يدْعُونهـا تضرّعا وخِيفه ، فليشكروا الصنعَ الذى بعـد أن كانت الخلفاء تُسلِطن الملوكَ قد صار سـلطانُهم يقيم لهم من وُلاة العهد خليفةً بَعد خليفه ؛ وأمّا الوصـايا فأنت يا ولدَنا المـلِكَ الأشرفَ — أعزّك الله — بهـا الدَّرِب ولِسماعِ شدوِها وحدوِها الطَّرِب ، الذى لِلَّغوِ لا يضطرب ؛ فعليـك بتقوى الله فإنها مَلاكُ سـدادِك ، وهَلاكُ أضدادِك ؛ و بها يُراش جناحُ نجاحِك ، ويَحسُن اقتـداءُ اقتـداحِك ؛ فاجعلها دفينَ جوانح تأمّلِك و وعيِك ، ونُصْبَ عَينَىْ أمرِك ونهيـك . والشرعِ الشريف فهو قانون الحقّ المتّبَع ، وناموسُ[3] الأمر المستَمَع ؛ وعليـه مَدارُ إيعـاءِ كلِّ إيعاز[4] ، و به يَتمسّك من أشار وآمتاز[5] ، وهو جَنّة والباطلُ نار ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ

(١) كذا فى الأصـل . والذى فى صبح الاعشى : « للذرارى » باللام مكان « حتى » ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) كذا فى صـبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٩ ؛ وفى الأصـل : « واحد » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٣) الناموس : الوحى .

(٤) فى الأصل : « إيعار » بالراء ؛ وهو تصحيف . والإيعاز مصدر أوعز اليـه فى الشىء : أى تقدّم اليه فيه وأشار به .

(٥) فى الأصل : « امتار وامتار » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين ؛ والتصويب عن صبح الأعشى .

عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ؛ فلا تخرج فى كلّ حال عن لوازمه وشروطه ولا تَنْكُب عن معلّقه ومَنُوطه ؛ والعدل ، فهو مُثْمِر غروس الأموال ، ومُعمر بيوت الرجاء والرجال ، و به تزكو الأعمار والأعمال ؛ فاجعله جامعَ أطرافِ مَراسِمك ، وأفضلَ أيّام مواسِمك ؛ وسِمْ به فعلَك ، وسَمِّ به فرضَك ونفلَك ؛ ولا تُفرِد به فلانا دون فلان ولا مكانا دون مكان ، وأقرِنْه[1] بالفضل ، ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ ؛ وأحسِن التخويل ، وأجمِل[2] التنويل ، وكثِّر لمن حولك التموينَ والتمويل ؛ وضاعِف ٱلخير فى كلّ مُضافٍ لمَقامِك ، ومستضيفٍ[3] بإنعامِك ، حتى لا تَعدَم فى كلّ مكان وكلّ زمان من النعماء ضيافةَ الخليل[4] ؛ والثغور ، فهى للممالك مباسمُها فاجعل نواجذَها تَفتَرّ عن أحسن ثنايا الصّون ، ومَراشفَها شَنِبةَ[5] الشِّفاهِ[6] بحُسن العَون ؛ ومُنْها بما يحمى السَّرْحَ مِنها ، وأَعِنها بما يدفع المَكارهَ عنها ؛ فإنها للنصر مَقاعد ، وبها حفظ البلاد من كلّ مارٍّ من الأعداء مارد ؛ وأمراء الجيوش ، فهم السُّور الواقى بين يدَىْ كلّ

(١) كذا ضبط هذا الفعل فى اللسان بكسر الراء وضمها . وفى الأصل : «واقرضه» بالضاد ؛ وهو تحريف .

(٢) يقال : أجمل الصنيعة ، أى حسنها وكثرها .

(٣) المستضيف : المستغيث .

(٤) يشير بهذه العبارة الى قصة سيدنا ابراهيم الخليل — صلوات الله عليه — مع ضيوفه من الملائكة ؛ وقد ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم فى غير موضع ، فقال تعالى فى سورة الذاريات : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) الآيات .

(٥) الشنبة بفتح فكسر من الشنب بفتحتين : وهو برد الأسنان كما قاله التبريزى فى شرح ديوان أبى تمام المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٠ أدب ش) عند قول أبى تمام فى قصيدته فى فتح عمورية :

كم نيل تحت سناها من سنا قمر * وتحت عارضها من عارض شنب

والكلام هنا على الاستعارة والتمثيل .

(٦) فى الأصل : «السقاه» بالسين والقاف ؛ وهو تصحيف .

سور ، وما منهـم إلّا بطلٌ بالنصر مشهورٌ كما سـيفه مشهور ؛ وهم ذخائر الملوك وجواهرُ السلوك ، وأخايرُ الأكابر الذين خَلَصوا من الشكوك ؛ وما منهم إلا من له حُرُماتٌ[1] سلفتْ ، وحقوقٌ عُرِفتْ ، ومَواتٌ[2] على آستلزام الرعاية للعهود وُقِفَتْ ؛ فكن لجنودِهم[3] متحبِّبا ، ولمَرابعِهـم مُخْصِبا ، ولمصالِحهم مرتِّبـا ، ولآرائهـم مستصوِبا وللآعتضادِ بهـم مستصحِبا ، وفى حمدِهم مُطنِبا ، وفى شكرهم مُسهِبا ؛ والأولياءِ المنصوريِّين الذين هم كالأولاد ، ولهم سوابقُ أَمَتُّ من سوابق الإيجاد[4] ؛ وهم مَن علمتَ آستكانةً[5] من قربِنا ، ومكانةً[6] من قلبِنا ، وهم المساهِمون فيما ناب ، وما برحوا للدولة الظفرَ والناب ؛ فأَسهِم لكلٍّ منهم من آحترامك نصيبا ، وأَدِمْ[7] لهم آرتياحَك ، وأَلِنْ[7] جماحَك وقوِّ بهـم سلاحَك ، تجِدْ منهم ضُروبا ، وتَرَ كُلًّا منهـم فى أعدائك ضَروبا ؛ وكما أنا نوصيك بجيوش الإسـلام ، كذلك نوصيك بالجيش الذى له المنشآتُ فى البحـر كالأعلام ؛ فهو جيش الأَمْواه والأمواج ، المضافُ الى الأفواج من جيش الفِجاج ؛ وهو الجيش السُّليمانىُّ فى إسراع السَّير ، وما سُمِّيَتْ شَوانيه[8] غِربانا إلا ليُجمَع بها لنا

(١) فى صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٠ : «خدمات» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٢٣ من هذا السفر .

(٣) فى الأصل : «لحنوهم» ؛ وهو تحريف .

(٤) المراد بالإيجاد : الولادة .

(٥) يريد بالآستكانة هنا : السكون والاطمئنان ؛ وأصل الفعل «استكن» على افتعل من السكون ، فزيدت الألف بعد الكاف فقيل : «استكان» وفى المصباح مادة سكن نقلا عن ابن القطاع : أن ذلك كثير فى كلام العرب ؛ وقال ابن سيده : وأكثر ما جاء إشباع حركة العين فى الشعر ، كقوله : «ينباع من ذفرى غضوب» الخ أى ينبع ، مدت فتحة الباء بألف كما نقل عنه فى اللسان مادة «سكن» .

(٦) لعله «إلى» كما تقتضيه تعدية «استكان» .

(٧) عبارة الاصل : «وألن لهم ارتياحك وأدم جماحك» ؛ وسياق الكلام يقتضى العكس كما أثبتنا .

(٨) الشوانى جمع شونة بفتح الشين : وهى مركب يعدّ للجهاد فى البحر ، لغة مصرية .

ما آجتمع لسليمان صلى الله عليه وسلم من تسخيرِ الريحِ والطير، وهى من آلديار المصريّة على ثَبَج البحر الأَسوار، فإن قَذَفَتْ قَذَفَت الرعبَ فى قلوب الأعداء و إن أَقلعَتْ[1] قَلعتْ منهم الآثار؛ فلا تُخلِه من تجهيز جيشِه، وسكِّن طيشَ البحر بطيشِه؛ فيُصبحَ لك جيشان كلٌّ منهما ذو كرٍّ وفرّ، هذا فى برٍّ بحرٌ وهذا ببحرٍ برّ؛ وبيوتِ العبادات فهى التى الى مصلّى سمّيك خليلِ الله تنتهى محاريبُها، وبها لنا ولك وللمسلمين سُرَى الدعوات وتأويبُها[2]؛ فوفِّها نصيبَها المفروضَ غيرَ منقوص، ومُرْ برفعها وذكرِ آسم الله فيها حسب الأمر المنصوص؛ وأخواتِها من بيوت الأموال الواجداتِ[3] الواجبات من حيث أنها كلّها بيوتٌ لله هـذه للصّلاة وهـذه للصلات؛ وهذه كهذه فى رفع المنار، وجَمْعِ المباز، واذا كانت تلك مما أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا آسْمُه، فهذه تُرفَع ويُذكَرُ فيها آسمه حتى على الدرهم والدينار؛ فاصرف اليها آجتهادَك فيما يعود [عليها] بالتثمير، كما يعود على تلك بالتنوير؛ وعلى هـذه بإشحانها[4] بأنواع الصروف، كإشحان[5] تلك باستواء الصفوف؛ فإنهـا إذا أصبحت مصونَه، احتَملَتْ بحمـد الله المعونَه

(١) أقلعت : أى سارت الى الأعداء؛ والذى يستفاد من كتب اللغة أن تفسير الإقلاع بالسير تفسير مجازى، فقد ذكر ابن برى أنه ليس فى قولهم «مقلعة» مايدل على السير من جهة اللفظ، إنما يفهم ذلك من فحوى الكلام، لأنه قد أحاط العلم بأن السفينة متى رفع قلعها فإنها سائرة، فهذا شىء حصل من جهة المعنى لا من جهة أن اللفظ يقتضى ذلك الخ (اللسان) وأيضا فإسـناد الإقلاع الى السفن إسناد مجازى، وهو المسمى بالمجاز العقلى، فقد ذكر ابن برى أيضا أن الإقلاع ليس فعلها، وانما هو فعل أصحابها يقـال أقلع القوم سفنهم : اذا رفعوا قلعها عند المسير .

(٢) التأويب : السير بالنهار؛ وعكسه الإسآد والسرى : وهما السير عامة الليل .

(٣) الواجدات : الغنيات، وهو من قولهم : وجد المـال يجده وجدا بتثليث الواو : اذا صار غنيا .

(٤) الإشحان بالهمز : الملء، كالشحن؛ وفى القاموس وشرحه أنه يقال : أشحن المدينة بالخيل : أى ملأها .

(٥) فى الأصل : «كامتحان»؛ وهو تحريف .

وكَفَلَتْ بالمؤونَة و بالزيادة على المؤونَه ، فتُكمِّل هـذه لكلِّ ولىٍّ دنياه كما كمَّلت تلك لكل ولىٍّ دِينَه ؛ وحدود الله، فلا يتعدّاها أحد، ولا يَرأُف فيها ولدٌ بوالد ولا والدٌ بولد؛ فأقِمْها وقُم فى أمرها حتى تنضبط أتم الضبط، ولا تجعـل يد القتل مغلولةً إلى عنقها ولا تبسُطها كلَّ البسـط ، فلكلٍّ من الجنايات والقصاص شرطٌ شرطه الله وحدٌّ حدَّه فلا يتجاوز أحدٌ ذلك الحـدَّ ولا يخرج عن ذلك الشرط ؛ والجهاد فهو الدِّيْدَنُ المألوفُ من حين نشأتنا ونشأتك فى بطون الأرض وعلى ظهور الخيـل فمِلْ على الأعداء كل المَيْل، وصبِّحهم من فَتَكاتك بالويل بعـد الويل ، وآرمِهـم بكلِّ شَمَّرِىٍّ[1] قـد شَمّر من يدِه عن الساعد ومن رمحِـه عن السـاق ومن جوادِه الذَّيل[2]؛ وآذهب بهم فى ذلك كلَّ مذهب، وأَنِ[3] بنجوم الخِرْصان[4] كلَّ غىٍّ وغَيهب وتَكثَّرْ[5] فى غزوهم من الليل بكلِّ أدهمَ ومن الشَّفَق بكلِّ أحمرَ وأشقرَ [ومن الأَصيل بكلِّ أصـفرَ[6]] ومن الصـبح بكلِّ أشهب، وآنتهِبْ[7] أعمارهم وآجعلها آخرَ ما يُسلَب

(١) الشمرى بفتح الشين وتشديد الميم المفتوحة ؛ و يقال أيضا بكسر الشين والميم المشددة كذلك : الرجل الماضى فى الأمور .

(٢) كذا فى صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٢ ومسالك الأبصار قسم ٢ ج ٨ من النسخة المأخوذة بالصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ . والذى فى الأصل : « على الذيل» وقوله : «على» زيادة من الناسخ وليست محرفة عن لفظ : (عن) كما يتوهم فان التشمير لا يكون عن الذيل و إنما يكون للذيل عما تحته ؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة انه يقال : «شمر عن ذيله» والذى وقفنا عليه قولهم : « شمر ذيلا وادّرع ليـلا» بدون « عن » ، والكلام هنا على طريق التمثيل والمراد المضاء والجد فى السير .

(٣) فى صبح الأعشى ومسالك الأبصار : « وأنر » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٤) الخرصان بكسر الخاء : أسنة الرماح ، واحده خرص بكسر فسكون ، و يضم أوّله أيضا .

(٥) التكثر : طلب الكثرة ، كما يفهم من أساس البلاغة فقد ورد فيه : «تقلل من العلم لتحفظ وتكثر منه لتفهم » .

(٦) لم ترد هـذه العبارة فى الأصل ؛ وقـد أثبتناها عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٢ ومسالك الأبصار .

(٧) فى الأصل وصبح الأعشى : «واستهب» ؛ ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة .

وأوّلَ ما يُنهَب؛ ونرجوا أن يكون الله قد خبأ لك من الفتوحات ما يستنجزها لك صادقُ وعدِه، وأن ينصر بك جيوش الإسلام فى كلّ إنجاد و إتهام وما النصر إلا من عندِه؛ و بيت الله المحجوج من كلّ فجّ، المقصود من كل نهج؛ يسّر سبيلَه، ووسّع الخير وأحسِن تسبيلَه[1]، وأوصِل من برّك لكلٍّ من الحرمَين ماهُو له[2]، لتصبح ربوعُه بذلك ماهولَه؛ وآحِمه ممّن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم، وطهّرْه من كلّ مَكْسٍ[3] وغرم؛ ليعود نفعُك على البادى والعاكف، و يصبحَ واديه وناديه مستغنيَين بذلك عن السحاب الواكف؛ والرّعايا، فهم للعدل زُروع، وللاستثمار فروع[4]، ولاستلزام العمارة شُروع[5]؛ فتى جادهم غيثٌ أعجَب الزُّرّاعَ نباتُهم، ونمَتْ بالصلاح أقواتُهم، وصلَحتْ بالنّماء أوقاتُهم، وكثرت للجنود مستغلّاتُهم، وتوافرتْ زكواتُهم، وتنوّرتْ مشكاتُهم "وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء"؛ هـذا عهدُنا للسيّد الأجلّ الولدِ الملكِ الأشرفِ صلاحِ الدنيا والدّين، فخرِ الملوك والسلاطين، خليلِ أميرِ المؤمنين — أعزّنا الله ببقائه — فليكن

---

(١) التسبيل : أن تجعل الشىء فى سبيل الخير .

(٢) هو بسكون الواو لغة فى هو بفتحها ؛ وقد حكى هذه اللغة الكسائى عن بنى أسد وتميم وقيس ، كما أن بعضهم يحذف الواو إذا كان قبل « هو » ألف ساكنة فيقول : حتاه فعل ذلك .

(٣) المكس : ما يأخذه أعوان السلطان ظلما عند البيع والشراء، قال الشاعر :

وفى كل أسواق العـراق إتاوة * وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

(٤) كذا فى الأصل وصبح الأعشى بالسين والتاء؛ ولم نجد هذه الصيغة فيما راجعناه من كتب اللغة غير أن فى شرح الأشمونى وحاشيته عند قول ابن مالك فى باب التصريف :

والتـاء للتأنيث والمضارعة * وتاء الاستفعال والمطاوعة

ما يفيد أن هذه الزيادة مطردة، حيث قال : وأما زيادتها حشوا فلا تطرد إلا فى الاستفعال والافتعال وفروعهما الخ والذى فى مسالك الأبصار : « ولاستتمام » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٥) الشروع : مصدر شرع فى الأمر اذا أخذ فيه ، وقد وصف الرعايا به على طريق المبالغة .

بعروته متمسّكا، وبنفحتـه متمسّكا[1]؛ وليتقلّدْ سيفَ هـذا التقليد ، ويفتح مُغلَق كلِّ فتحٍ منه بخير إقليد[2]، وها نحن قد كثّرنا لديه جواهرَه فدونه ما يشاء تحليتَـه : من تتويج مَفرِقٍ وتختيم أناملَ وتسويرِ زَندٍ وتطويقِ جِيد ، ففى كلّ ذلك تبجيـلٌ وتمجيـد؛ والله تعـالى يجعـل آستخلافه للتقين إماما، وللدين قواما، وللجاهدين آعتصاما ، وللمعتـدين آنقصاما ، ويطفئ بمياه سـيوفه نارَ كلِّ خطب حتى تُصبحَ كما أصبحَتْ نارُ سميِّه صلّى الله عليه وسـلّم بردا وسلاما؛ إن شاء الله تعالى .

وكلامه رحمه الله كثير ورسائله مشهورة، وبيدِ الناس من إنشائه ما لوآستقصيناه لطال وانبسـط ، وقد قدّمنا فى كتابنا هـذا من كلامه فى باب التهانى بالفتوح ما تجده فى موضعه

ونختم كلامه بشىء من أدعية الملوك، وهى :

ومَكّن الله له فى الأرض، وجعل طاعتَه واجبـةً وجوبَ الفرض، وأيّد آراءه بالملائكة فى الحَلّ والعَقد والإبرامِ والنقض .

آخر : وأَنجَزَ له من النصر صادقَ وعدِه، وجعل الملوكَ من عبيـده والملائكةَ من جندِه، ومتّعه بمـا وهبه من المُلك الذى لا ينبغى لأحد من بَعدِه .

آخر : وحَفِظه بمعقّبات من أمرِه ، وحَمى حِمى الدين بقِصار بِيضِـه وطوالِ سُمْرِه ، وجعـل قدرَ مملكتـه فى الدهر كليالى قدرِه ، وألْبَس أولياءه من طاعتـه ما يجرّون أذيالَ فخرِه .

(١) المتمسك : المتطيب بالمسك .

(٢) الإقليد : المفتاح؛ وهى لغة يمـانية ، وقيل معرّب .

آخر : ولا زالت الدنيا بعدله مخضرّةَ الوهاد والرُّبا ، والامالُ بفضله قائلا لها النجحُ : مرحبا ، والأقدارُ لنصره مسدّدةَ السهام مرهفةَ الظُّبا ، والأيّامُ لا تعدَم من جميل أثره وجليلِ تأثيره فعلا مطربا ، ووصفا مطيّبا . وجَعلتْ مُلكَه موصولا بحبل لا يُحلّ عَقدُه ، وحَرَمَه محروسا بسيف التوفيق لا يُفلّ حدُّه . ولا زالت راياته ألسنةً تنذر أعداءه بالفرار ، وتُبشّر أولياءه بالقرار ، وآراؤه أعلاما عاليةَ المَنار واضحةَ الأنوار . وأنجزله عِداتِه فى عُداتِه ، وجعل النصر والتوفيق مصاحبَين لآرائه ورايات . وأناله النصرَ الذى يغنيه عن الحيلة والحول ، وعَقَد السعدَ بُعرا[1] ما يُمضيه من الفعل والقول ، وبوّأ أولياءه جُنّةً من النصر ما فيها غائلة وجَنّةً من العزّ ما فيها غَول . وقصم بمهابته كلَّ جبّار عنيد ، وعصم كلَّ من يَأوِى من رجائه إلى ركن شديد . وآتاه من التأييد سلطانا نصيرا ، وجعل جيشه أكثرَ قوًى وأقوَى نفيرا . ولا زالت الآمال بسحابه مخضرّةَ الرُّبا والوهاد ، والتأييدُ بتمكينه مناديا فى كلّ ناد ، والدنيا بمُلكه مسرورةَ الأسرار[2] حاليةَ الأجياد ، والأقدارُ لأمره متكفّلةً بالنفاد[3] . وطرّز بأيامه ملابس السِّيَر ، وأحلّ أمره أعلى هَضَباتِ النصر والظَّفَر ، وحلّى أجياد الممالك من عدلِه وبذلِه بأشرف الدُّرَر ، ولا برح القدر يوافق قُصُوده[4] فيقول للقدر :

(١) فى الأصل : « يعزى بما » ؛ وهو تحريف .

(٢) المراد بالأسرار هنا : خطوط الوجه والجبهة ؛ الواحد سر بكسر السين وضمها ؛ وإنما أسند السرور اليها لظهور أماراته فيها . يقال : برقت أسارير وجهه اذا تهلل من الفرح .

(٣) كذا فى الأصل بالدال المهملة ؛ والذى يستفاد من كتب اللغة أن هذه الكلمة تأتى بمعنى النفاذ بالذال المعجمة : أى الجواز والمضى ؛ فقد جاء فى اللسان مادة « نفد » بالمهملة فى تفسير حديث ابن مسعود : « إنكم مجموعون فى صعيد واحد ينفدكم البصر » ما نصه : يقال : نفدنى بصره اذا بلغنى وجاوزنى . ثم قال : وأنفدت القوم اذا خرقتهم ومشيت فى وسطهم ، فان جزتهم حتى تخلّفهم قلت : نفذتهم بلا ألف اهـ ثم ذكر هذا الكلام نفسه بالذال المعجمة فى مادة « نفذ » .

(٤) القصود : جمع قصد ، وهذا الجمع ذكره بعض الفقهاء ، وقد أوضحنا ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٠٢ من هذا الجزء فانظره .

«لَقَدْ جِئْتَ عَلَى قَدَر» . وأَتَمَّ نعمته عليه كما أَتَمَّها[1]، وعَمَر بعدله الآفاقَ وعَمَّها، وأَوضح مَناهجَ كرمه لمن قَصَدها وأَمَّها، وأنجز عِداته فى عُداته فأصماها وأَصمّها. وأَتَمَّ نعمتَه عليه كما أتمها على أبويه مِن قَبلِه، وحَمى حِمى الدين بنصرِه وفضلِه، وكسا الدنيا بمُلكه حلةَ فخار مُعلَمةً بإحسانه وعدلِه، وجعل أقاليمَ الأرض معمورةً بسلطانه مغمورةً بعطائه وبذلِه.

ذكر شىء من إنشاء المولى الماجد السالك من طريقَ الفضل والفضائل أَوضحَ الطرق وأَنهجَ المَسالك، المفصِح بلسان براعته والمُوضِح بأنوار بلاغته ما أَبهَم وأَستبهم من ليل العِىِّ الحالك، المتصرِّف بقلمِه وكَلِمه لوثوق[2] ملوك الإسلام بديانتِه وأمانتِه وأصالتِه ونزاهتِه فى الأقاليم والثغور والحصون والممالك، العامرِ بفضله وفضائله والغامرِ بجوده ونائله باطنَ وظاهرَ من أمّله وأمَّ له من زائرٍ وقاطنٍ ومارٍّ وسالك؛ فينفصل هذا عن بابه وهو بجوده مغمور، وهذا عن مجلسه وقلبُه بَولائه لِما أَولاه من إحسانه معمور؛ وهذا وهو يُنفق الجلَّ من ماله، وذاك وهو يجود على المُعدم مِن فضلِ نوالِه؛ والآخرُ وقد امتلأ صدره سرورا، وأشرق وجهُه بهجةً ونورا؛ وآنطلق لسانُه من عِقاله بعد تقييده، وآنبسط أملُه لطلب الفضائل لَمّا ظفر بمعدنها بعد تعقيدِه[3]؛ فتَجِده وقد آعتَلَق[4] منه جملا وآعتَنَق جمالا، وأنفق الدّرر بعد ضنّه بالأصداف فهو لا يخشى عُدْما ولا يخاف إقلالا؛ والمولى المعنىُّ

(١) متعلق هذا الفعل محذوف للعلم به وهو قوله: «على أبويه من قبل» أخذا من الآية الكريمة، وانما حذفه ليتم السجع الذى التزم فى هذه الأدعية، وليست هذه العبارة مكررة مع ما يأتى، لأنه دعاء آخر.

(٢) فى الأصل: «لوقوق» بقافين؛ وهو تحريف.

(٣) فى الأصل: «تقييده»؛ وهو تحريف لتكرره مع ما قبله فى آخر الجملة السابقة.

(٤) كذا فى الأصل؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أنه يقال: «اعتلقه» بمعنى علقه بتشديد اللام أى حفظه، كما هو المراد هنا؛ والذى وقفنا عليه أنه يقال: «اعتلقه» أى أحبه؛ ولعل المؤلف قصد المجانسة بين هذا اللفظ وقوله بعده: «واعتنق».

بهـذه المعالى التى ٱبتسمت ثغورُها ، وتحلّت نحورُها ؛ والمكارمِ التى جادت سحائبُها وٱمتـدّت مَذانبُها[1] ، وترادفَتْ مواهبُها ، واتّسعَتْ مذاهبُها ؛ والفضائلِ التى لجنـابِه الكريم تُعزَى ولفضلِه العميمِ تَنتسب ، والسـيادةِ التى شادها لنفسه لٱستغنائه عمّـا مهدتْه له آباؤه النُّجُب ، والمرادُ بهذه الأوصاف التى (٨)

٥ خُلِّيَتْ والحُسنَ تأخذه * تَنتقِى منـــه وتَنتخبُ[2]

هو لسانُ الدولة ويمينُها ، وسـفير المملكة وأمينُها ؛ وجامعُ أشتات الفضائل ، وناظمُ أخبارِ الأواخر وسِيَرِ الأوائل ؛ وسيّدُ الرؤساء وجليسُ الملوك ، ومؤلِّفُ كتابِ نظمِ السلوك ؛ المولى المـالكُ علاءُ الدين علىّ ابن المولى المرحوم فتح الدين محمد ابن المولى المرحوم محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، ذو الفضائل والمآثر ، والنسبِ العريق والأصلِ

١٠ الطاهر ، والسببِ الوثيقِ والفضل الباهر ؛ فهذه نبذة من أوصافه أثبتناها ، ولُمعة من محاسنه أوردناها ، أسامٍ لم تَزده معرفةً وإنمـا لذّةً ذكرناها ؛ وله — أعزّه الله وأوفر نعمه لديه ، وأَتَمّ نعمته عليه كما أتمها على أبويه ؛ وأرانا فى نجله الكريمِ ما رأيناه فى سلفه وفيه ، وأَنطَق الواصفَ لمحاسنهم بمِلءِ فيه — من الرسائل البليغه ، والتّقاليدِ البديعـه ؛ والعهودِ التى عاهدَتْها البـلاغةُ ألا تتعدّاها فوفت بعهـدِها ، وأقسمت

١٥ معانيها أنها لم تَقصِدْ سواه مِن قَبل لِعلمِها أنّ غيرَه لا يوفّيها حقَّ قصدِها ؛ وسنورد إن شاء الله من كلامه ما هو بالنسبة الى مجموعه نبذةٌ يسيره ، ونرصّع فى كتابنا هذا من فضائله لُمعةً خطيره ؛ ونرفع بما نضعه فيه من كلامه قدرَ هذا التصنيف ، ونطرّز به

---

(١) المذانب : مسايل الماء ، واحده مذنب بكسر الميم وفتح النون . وفى الأصل : «مذاهبها» ، وهو تحريف لتكرره مع ما يأتى بعده .

٢٠ (٢) البيت لأبى نواس .

أَرْدانَ هــذا التأليف ، ولا نحتاج إلى التعريف بمكانه وتمكُّنه من هــذه الصناعة فالشمس تستغنى عن التعريف ؛ ونحن الآن نعتذر من التقصير فى الانتهاء إلى وصف محاسنِه ، ونعترف بالعجز عن إدراك كنه مناقبــه الشريفة ومَيامنِه ؛ ونأخذُ فى ذكر كلامه لنمحوَ ذنبَ التقصير بحسن الإخبار(١) ، ونسأل الصــفح عن اختصارنا واجبَ حقّه ونرجوا قبول كلماتِ الاعتذار ٥

فمن إنشائه ما كتبه عن الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان — جمَّل الله به الدين ، وأيّد ببقائه الإســلامَ والمسلمين — للســلطان الملكِ المظفَّر ركن الدين بيبرس المنصورىّ فى شوّال سنة ثمان وسبعمائة ، ابتدأه بأن قال :

هذا عَقدٌ شريف انتظمتْ به عقودُ مصالح الممــالك ، وابتَسمتْ ثغورُ الثغور ببيعته التى شهِدَتْ بصحّتها الكرامُ الملائك ؛ وتمسّكت النفوسُ بمحكَم عَقده النَّضيد ١٠ ومبرَم عهدِه(٢) النظيم ، ووثقت الآمالُ ببركة مِيثاقه فتقرأه الألسنة مستفتِحةً فيه بقول الله الكريم : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ الحمد لله الذى جعــل الملّة الإسلاميّةَ تأوِى من سلطانها الى ركنٍ شــديد ، وتَحوِى من مبايعة(٣) مظفَّرِها كلَّ ما كانت ترومه من تأبيــد التأبيد ، وتَروِى أحاديثَ النصر عن مَلِكٍ لا يَمــلّ من نُصرة الدِّين الحنيفىِّ وإن مَلّ الحديدُ من الحديد ؛ مُؤتى مُلكَه من يشاء من عبادِه ١٥ ومُلْقِى مقاليــدِه للولىِّ المُلَّى(٤) بقَمْع أهــل عناده ؛ ومانِحه من لم يزل بعزائمه ومكارمه

(١) لعله يريد « بالإخبار » : أن ذكر شىء من كلامه إخبار عن فضله وتمكنه من ناصية البلاغة . أو لعل صوابه « الاختيار » .

(٢) فى صبح الأعشى ج ١٠ ص ٦٩ : « عقده » بكسر العين .

(٣) فى صبح الأعشى : « من متابعة » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا . ٢٠

(٤) يقال : هو ملىء بهذا الأمر : أى مضطلع به « الأساس » .

مرهوبا مرغوبا، ومُوليه [ومولِّيه](١) من غدا مَحبوّا من الأنام بواجب الطاعة محبوبا وباسط أيدى الرغبات لمن حَكَم له كمالُ وصفِه ووصفُ كمالِه بأن يكون مسئولا مخطوبا ومفوِّض(٢) أمرِه ونهيِه إلى من طالما صَرَف خَطَّيه عن حمى الدين أخطارا وخطوبا؛ والحمد لله مُجرِى الأقدار برفع الأقدار، ومُظهِر سرِّ الملك فيمن أضحى عند الإمامة العباسيّة بحُسن الاختبار من المصطفَين الأخيار، جامع أشتات الفخار، ورافع لواءِ الاستظهار(٣)، ودافع لَاواءِ(٤) الأضرار، بجميلِ الالتجاءِ الى ركنٍ أمسى بقوّة الله تعالى عالىَ المَنار وافىَ المَبار، بادىَ الآثار الجميلة فى الإيثار(٥)؛ والحمد لله على أن قلّد أمورَ السلطنة الشريفة لكافلِها وكافيها، وأَسنَد عَقدَها وحَلَّها لمن يدرك بكريم فطنتِه وسليمِ فطرته عواقبَ الأمور مِن مباديها، وأيّد الكتائبَ الإيمانيّةَ بمن لم تزل عواليه تبلّغها من ذُرا الأمانىّ معاليها؛ يحمده أمير المؤمنين على إعلاءِ كلمة الإيمان بأعيان أعوانِها، وإعزازِ نصرها بأركانِ تشييدِها وتشييدِ أركانِها؛ ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة [لا] تبرح الألسنُ تَرويها، والقلوبُ تَنويها، والمواهبُ تُجزِل لقائلها تنويلا وتنويها؛ ويشهد أنّ محمدا عبده ورسوله أكملُ نبىٍّ وأفضلُ مبعوث، وأشرفُ مُورِّثٍ لأَجلِّ موروث؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تنمو بركاتُها وتنمّ(٦)، وتَخُصّ حسناتُها وتَعُمّ؛ ورضى الله عن عمِّه العباسِ بنِ عبد المطلب جدِّ أمير المؤمنين، وعن أبنائه الأئمّةِ المهدِيّين؛ الذين ورِثوا الخلافةَ كابرا عن كابر، وسَمَتْ ووُسِمَتْ بأسمائهم ونعوتهم

(١) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ٦٩

(٢) فى الأصل: «ومعرض» بالعين والراء؛ وهو تحريف.

(٣) الاستظهار: العلوّ والغلبة.

(٤) اللأواء: الشدّة والمحنة.

(٥) فى صبح الأعشى: «والإيثار» بالواو مكان «فى»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٦) يقال: نمّ المسك اذا سطعت رائحته؛ وهو هنا مستعار للانتشار والظهور.

ذُرا المنابر؛ أما بعـد، فإن الله تعالى لمّـا عَدَق[1] لمولانا أميرِ المؤمنين مصالحَ الجمهـور وعَقَد له البَيعةَ فى أعناق أهل الإيمان فزادتهم نورا على نور؛ وأورثه عن أسلافه الطاهرين إمامةَ خيرِ أمّه، وكَشَف بمُصابرته من بأس العدا غمامَ كلِّ غُمّه؛ وأنزَل عليه السكينةَ فى مواطن النصر والفتح المبين، وثبّته عند تَزلزل الأقدام وثبّت به قلوب المؤمنين؛ وأفاض عليه من مَهابة الخلافة ومواهبِها ما هو من أهلِه، وأتمّ نعمتَه عليه كما أتمّهـا على أبويه مِن قبـلِه؛ بايع اللهَ تعـالى على أن يختار للتمليك على البرايا، والتحكيم فى المـالك والرّعايا؛ من أسّس بنيانَه على التقوى، وتمسّكَ من خشـية الله سبحانه بالسبب الأقوى؛ ووَقَف عند أوامر الشرع الشريف فى قضائه وحُكمه، ونهض لأداء فرضِ الجهـاد بمعالى عزمِـه وحزمِه؛ وكان المقامُ الأشرفُ العـالى المَوْلوىُّ السلطانىُّ المَلكىُّ المظفّرىُّ الركنىّ، سلطانُ الإسـلام والمسلمين، سـيّدُ الملوك والسـلاطين؛ ناصرُ الملّة المحمّديّه، محيي الدولة العباسيّه (أبو الفتح بيـبرس) قسيمُ أميرِ المؤمنين — أعزّ الله تعالى ببقائه حمى الخلافة وقد فَعَل، وبلغ فى دوام دولتـه الأمل — هو المَلِكَ الذى انعقد الإجماعُ على تفضـيلِه، وشَهدتْ مناقبُه الطاهرةُ باستحقاقه لتحويل المُلْك [اليه][2] وتخويلِه؛ وحَكَم التوفيقُ والاتفاقُ بترقّيه الى كرسىِّ السلطنة وصـعودِه، وقضت الأقدار بأن يُلقِىَ اليـه أميرُ المؤمنين أزمّة عهودِه؛ والذى كم خَفَقت قلوبُ الأعادى عند رؤية رايات نصرِه، ونطقت ألسنةُ الأقدار بأن سيكون مليـكَ عصرِه وعزيزَ مصرِه؛ واهتزّتْ أعطاف المنـابر شوقا للافتخار باسمِه، واعتزّتْ المـالك بمن زاده الله بسطةً فى علمِه وجسـمِه؛ وهو الذى ما برح

(١) عدق : أى جمع .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ٧٠

مذ نشأ يجاهد فى الله حقّ جهادِه، ويساعِد فى كل معركة بمرهَفات سيوفه ومتلِفاتِ صِعادِه، ويُبدِى فى الهيجاء صفحتَه للصِّفاح فيَقيه ٱللهُ ويبقيه ليجعله ظلَّه فى الأرض على عبـاده وبلادِه، فيُردِى الأعداءَ فى مواقف تأييـده فكم عَفَّـر من خدٍّ لملوك الكفر تحت سنابك جيادِه؛ ويشفِى بصدور سيوفه صدورَ قوم مؤمنين، ويسـقِى ظِماءَ أسنّته فيُرويها من مَورد وُرود[1] المشركين؛ ويُطلِـع[2] فى سماء الملك من غُرَرِ رأيه نيّراتٍ لا تَأفُل ولا تَغُور، ويُظهِرُ من مواهبه ومَهابته ما تُحصَّن به الممالكُ وتُحصَّن به الثغور؛ فما من حصنٍ أغلقه[3] الكفرُ إلا وسيفُه مفتاحُه، ولا ليل خطبٍ دَجا إلا وغرّتُه الميمونةُ صباحُه، ولا عزّ أملٍ لأهل الإسلام إلّا وكان فى رأيه المسدَّدِ نجاحُه، ولا حصل خللٌ فى قطرٍ[4] من الممالك إلّا وكان بمشيئة الله تعالى وبسَداد تدبيره صلاحُه؛ ولا ٱتّفق مشهدُ غزوٍ إلا والملائكةُ بمضافرته فيه أعدلُ شهود، ولا تَجدَّد فتوحٌ للإسلام إلا جاد فيه بنفسه وأجاد، "والجُودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود" كم أَسلف فى غزوِ الأعداء من يومٍ أَغَرَّ محجَّل، وأنفق مالَه ٱبتغاءَ مرضات الله فحـاز النصرَ المعجَّل والأجرَ

(١) الورود جمع وريد: وهو عرق فى العنق، ويقال له: خبل الوريد، وهما وريدان؛ والظاهر أنه أراد بالورود هنا: العروق التى فيها الدم لا جمع وريد بالمعنى المعروف، فان كلام أهل اللغة يدل على أن الوريد من العروق ما جرى فيه النفس ولم يجر فيـه الدم. قال أبو الهيثم: الوريدان تحت الودجين، والودجان: عرقان غليظان عن يمين ثغرة النحر ويسارها؛ والوريدان ينبضان أبدا من الانسان؛ والوريد من العروق: ما جرى فيه النفس ولم يجر فيه الدم الخ قال الأزهرى: والقول فى الوريدين ماقاله أبو الهيثم وفى المصباح نقلا عن الفراء: الوريد: عرق بين الحلقوم والعلباوين، وهو ينبض أبدا؛ فهو من الأوردة التى فيها الحياة ولا يجرى فيها دم، بل هى مجارى النفس بالحركات.

(٢) فى الأصل: «من فى سماء»؛ وقوله: «من» زيادة من الناسخ.

(٣) فى الأصـل وصبح الأعشى: «استغلقه»؛ ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة انه يقال: استغلقت الباب بمعنى أغلقته.

(٤) كذا فى الأصل؛ والذى فى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٧١): «طرف»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا.

المؤجّل؛ وأحيا من معالم العلوم ودوارسِ المدارس كلَّ دائر، وحثّه إيمانُه على عمارة بيوت الله تعالى الجامعةِ لكلِّ تالٍ وذاكر، " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ"؛ وهو الذى ما زالت الأولياء تَخيّل مخايلَ السلطنة فى أعطافه معنًى وصوره، والأعداءُ يرومون إطفاءَ ما أفاضه الله عليه من أشعّة أنوارِه " وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ"؛ طالما تطاولتْ إليه أعناقُ ٱلممالك فأعرض عنها جانبا، وتطفّلتْ[1] عليه[2] فغدا لها رعايةً لذمّة الوفاء مجانبا؛ حتى أَذِن الله سبحانه لكلمة سلطانه أن تُرفَع وحكم له بالصعود فى دَرَج المُلك الى المحلّ الأعلى وٱلمكانِ ٱلأرفع، وأدّى له من المواهب ما هو على ٱسمه فى ذخائر الغيوب مستودَع؛ فعند ذلك ٱستخار ٱللهَ تعالى سيّدُنا ومولانا أميرُ المؤمنين (المستكفى بالله) — جعل الله الخلافةَ [كلمة][3] باقيةً فى عَقِبِه، وأَمتع الإسلامَ وٱلمسلمين بشريفَىْ حسبِه ونسبِه — وعَهِد إلى المقام العالى السلطانىّ بكلِّ ما وراء سرير خلافتِه، وقلّده جميعَ ما هو متقلّدُه من أحكام إمامتِه؛ وبَسَط يَده فى السلطنة المعظّمه، وجعل أوامرَه هى النافذةَ وأحكامَه [هى][3] المحكّمه؛ وذلك بالدِّيار المصريّة والممالكِ الشاميّه، والفراتيّة والحلبيّة[4] والساحليّه، والقلاعِ والثغور المحروسةِ والبلاد الحجازيّة واليمانيّه؛ وكلُّ مَا هو من الممالك الإسلاميّة الى خلافة أمير المؤمنين منسوب، وفى أقطار إمامتِه محسوب؛ وأَلقَى إلى أوامره أزمّةَ البسط والقبض

(١) كذا فى صبح الأعشى ج ١٠ ص ٧٢؛ والذى فى الأصل: « وتطلعت »؛ وهو و إن كان كان صحيح المعنى إلا أن قوله بعد: (عليه) يقتضى ما أثبتنا.

(٢) فى صبح الأعشى: «على قربه»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى.

(٤) فى صبح الأعشى: « والجبلية »؛ وهو أظهر، فإن الحلبية داخلة فى الممالك الشامية التى سبق ذكرها.

والإبرامِ والنقض، والرفعِ والخفض، وما جعله الله فى يده من حُكم الأرض ، ومن إقامةِ سنّةٍ وفرض؛ وفى كلّ هِبةٍ وتمليك، وتصرّفٍ فى ولاية أمير المؤمنين[1] من غير شريك ؛ وفى تولية القضاة والحكام ، وفصلِ القضايا والأحكام؛ وفى سائر التّحكّم فى الوجود، وعقدِ الألوية والبنود ، وتجنيـدِ الكتائب والجنود، وتجهـيزِ الجيوش الإسلامية فى التأييد لكلّ مقامٍ محمود؛ وفى قهرِ الأعداء الّذين نرجوا بقوّة الله تعالى أن يمكّنه من نواصيهم، ويحكّم قواضبَه فى استنزالهم من صَياصيهم، واستئصالِ شأفة عاصيهم ؛ حتى يمحوَ الله بمصابيح سيوفه سوادَ خطوب الشّرك المدلهمّه، وتغـدو سَراياه فى اقتلاع قلاعِ الكفر مستهِمّه[2] ؛ وتُرهِبهم خيلُ بعوثه وخيالُها فى اليقظـة والمنـام ، ويَدخُل فى أيّامه أهلُ الإسـلام مدينـةَ السلام بسـلام ؛ تفويضا تامّا عامّا منضّدا منظّما، مُحْكَمًا مُحَكَّمًا؛ أقامه مولانا أميرُ المؤمنين فى ذلك مُقامَ نفسه الشريفه ،واستشهدالكرامَ الكاتبين فى ثبوت هذه البَيعة المنيفه ؛ فليَتقلّد المقامُ الأشرفُ السلطانىُّ — أعزّ الله نصرَه — عِقدَ هذا العهدالذى لا تطمح لمثله الآمال، وليَستمسِكْ منه بالعروة الوثقى التى لا انفصامَ لها ولا انفصال ؛ فقد عوّل أميرُ المؤمنين على يمن أرائك[3] التى ما برحت الأمّةُ بهـا فى المعضـلات تَستشفِى ، واستكفَى بكفايتِـك وكفالتِـك فى حياطة المُلك فأضحى وهو بذلك (المستكفِى)؛ وهو يقصّ عليـك من أنبـاء الوصايا أحسنَ القَصَص ، وينصّ لديك ما أنت آخذٌ منه بالعزائم اذا أَخَذ

(١) عبارة صبح الأعشى : « أمور الإسلام » .

(٢) مستهمة بتشديد الميم : أى مهتمة؛ قال فى الأساس : سمعتهم يقولون : استهمّ لى فى كذا ؛ ويجوز أن يقرأ : (مستهمة) بتخفيف الميم؛ أى مقتسمة، من الاستهام .

(٣) كذا ورد هـذا اللفظ فى الأصل وصبح الأعشى ج ١٠ ص ٧٣ بضمير الخطاب، ولا يخفى ما فيه من الالتفات لاختلاف الضمائر بين ماهنا وبين ماسبق ؛ وكأن النكتة فى ذلك تأكيد اختصاصه بهذا العهد المذكور فى الجملة السابقة .

غيرُك فيه بالرُّخص ؛ فإن نُبِّهتَ على التقوى فطالما تمسّكتَ منها بأوثقِ عروه ، وإن هُديتَ الى سبيل الرشاد فما زلتَ ترقى منه أشرفَ ذُروه ؛ وإن آسترهفنا[1] عزمَك الماضيَ الغِرار ، وآستدعينا حزمَك الذى أضاء به دهرُك وأنار[2] وآستنار ؛ فى إقامة مَنار الشرع الشريف ، والوقوفِ عند أمرِه ونهيِه فى كل حكمٍ وتصريف ؛ فما زلتَ — خلّد الله سلطانَك — قائما بسننه وفرضه ، دائبا فى رضى الله تعالى بإصلاحِ عقائدِ عبادِه فى أرضِه ؛ وما برح سيفُك المظفَّرُ للأحكام الشرعيّة خادما ، ولموادِّ الباطل حاسما ، ولِأُنوفِ ذوى الزَّيغ والبِدَع مُرغِما ؛ وكلُّ ما نوصيك به من الخير فقد جُبلتْ عليه طباعُك ، ولم يزل مشتدّا فيه ساعدُك ممتدّا إليه باعُك ؛ غيرَ أننا نُورد لمعةً اقتضاها أمر الله تعالى فى الاقتداء بالتذكرة فى كتابه المبين ، وأوجبَها نصُّ قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ويندرج تحت أصولها فروعٌ يَستغنِى بدقيق ذهنه الشريفِ عن نصِّها ، وبفكره الثاقبِ عن قصِّها ؛ فأعظمُها للملّة نفعا ، وأكثرُها للباطل دفعا ؛ الشرعُ الشريف ، فليكن — أعزّ الله نصرَه — عاملا على تشييد قواعد أحكامِه ، وتنفيذِ أوامر حكّامِه ؛ فالسعيدُ من قرن أمرَه بأمرِه ، ورضى فيه بحلو الحق ومُرِّه ؛ والعدلُ ، فلينشرْ لواءه حتى يأوىَ اليه الخائف وينكفّ بردْعه حَيفُ كلِّ حائف ؛ ويَتساوى فى ظلِّه الغنىُّ والفقير ، والمأمورُ والأمير ؛ ويمسىَ الظلمُ فى أيامك وقد خَمدتْ نارُه ، وعفَتْ آثارُه ؛ وأهمُّ ما آحتفلتْ به العزائم ، وآشتملتْ عليه همُمُ الملوك العظائم[3] ، وأُشرِعتْ له الأسنّةُ وأُرهِفتْ من أجله الصوارم ؛ أمرُ الجهاد الذى جعله الله سبحانه حصنا للإسلام وجُنّه ، وآشترَى

(١) كذا ورد هذا الفعل فى الأصل وصبح الأعشى بالسين والتاء ؛ ولم نجده بهذه الصيغة فيما لدينا من كتب اللغة ، والذى وقفنا عليه أنه يقال : رهفه وأرهفه ، أى رققه وأحده .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى صبح الأعشى .

(٣) العظائم صفة للهمم .

فيه من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنّة؛ فجَنِّد له الجنودَ وجَمِّع له الكتائب وآقِض فى مواقفه على الأعداء من بأسِك بالقَواضى القَواضب؛ وآغزُهم فى عقر الدار، وأرهِف سيفَك البتّار، لتأخذَ منهم للمسلمين بالثار؛ والثغور والحصون، فهى سرُّ المُلك المصون، وهى معاقلُ النفوس" اذا دارت رحى الحرب الزُّبون"(١)؛ فلتقلِّدْ أمرَها لكُفاتِها، وتحصِّن حِماها بحُماتِها، وتضاعِف لمن بها أسبابَ قوّتها ومادّةَ أقواتِها؛ وأمراء الإسلام، وجنود الإيمان، فهم أولياء نصرِك، وحَفَظةُ شامِك ومصرِك؛ وحزبُك الغالب، وفريقُك الذى تفرَق منه قلوبُ العدوّ فى المشارق والمغارب؛ فليكن المقام العالى السلطانىّ — نصره الله تعالى — لأحوالهم متفقّدا وببسطِ وجهِه لهم متودِّدا؛ حتى تتأكّدَ لمقامه العالى طاعتُهم، وتتجدّدَ لسلطانه العزيز ضراعتُهم؛ وأما غير ذلك من المصالح فما برح تدبيرُه الجميلُ لها ينفّذ ورأيُه الأصيلُ بها يشير، ولايحتاج مع علمه بغوامضها الى إيضاحها «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» واللهُ تعالى يخصّ دولتَه من العدل والإحسان بأوفر نصيب، ويمنح سلطانَه مايرجوه من النصر المعجَّل والفتح القريب؛ بمنّه وكرمه.

وكتب تقليدا مظفَّريّا للأمير سيف الدين سَلَار المنصورىّ بنيابة السلطنة الشريفة فى سنة ثمان وسبعمائة، وهو:

الحمد لله الذى شيّد ركنَ الإسلام بسيفه المنتضَى، وجدّد للمُلك مزيدَ التأبيد بكافِله الذى مابرح وفاؤه للملوك الأواخر والأوائل مرتضَى، وأنجزَ من وعودِه الاتفاقُ والتوفيقُ ما كان من ذمّة الدهر مُقتضَى، جامع شملِ الأوامر والنواهى بتفويضها

(١) الزبون، من الزبن بفتح فسكون: وهو الدفع ومنه قيل: حرب زبون، لأنها تدفع الأبطال عن الإقدام خوف الموت.

الى مَن تبيت العدا مِن مهابته على جمر الغَضَى ، ومُنيلِ المنى بمواهبه التى تحوز موادَّ الاختيار وتجوز أمَدَ الرضا ، ومُلقِى مقاليدِ التدبير الى من أضحى جميلَ التأثير اذا تصرّف فى الرفع والخفض حكمُ القضا ، ومصرِّف أزمّةِ الأمور فى يد من غدا ثابتَ العزَمات فى الأزَمات ، فما أظلمَ خطبٌ إلا انجلى بمصابيح آرائه وأضا ؛ نحمده على أن عضّد دولتَنا بالكافل الكافى الذى اختاره الله لنا على عِلم ، ومنح أيّامَنا موالاةَ الولىّ الذى جُمِعت فيه خَلّتان يحبّهما اللهُ ورسولُه : وهما الأناةُ والحِلم ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مشرقةَ الأنوار ، مغـدقةً سحبُها بأنواء المَنَنِ الغزار ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى بعثه الله لإقامة شـعائر الإيمان ، وخصّ ملّته فى الدنيا والآخرة باليمن والأمان ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من أضحى بفضل السَّبْق للإيمان به صِدّيقَه وصَديقَه ، وأمسى لفرط الأُلفة أنيسَه فى الغار ورفيقَه ؛ ومنهم من ضافَرَه فى إظهار النبوّة ووازَرَه[1] ، وظاهَرَه على إقامة منارها بإطفاء كل ثائرة وإخمادِ كلّ نائره[2] ؛ ومنهم من ساعد وساعف فى تجهيز جيش العُسْره[3] ، وأحسَن وحسَّن مع إخوانه المؤمنين الصحبةَ والعشره ؛ ومنهم من كان سيفَه المـاضىَ الحدّ ، ومهنّدَه الذى كم فَلّ بين يديه الجموع فـما اعترض إلا قطّ[4] ولا اعتلى إلا قدّ ؛ وسـلّم تسليما كثيرا ؛ أما بعد ، فان الله تعالى لمـا هنّأ لنا مواهبَ الظَّفَر ، وهيّأ لنا من الملك مَوادَّ إدراكِ المنى وبلوغِ الوَطَر ، وأيدنا من أنصارنا بكلّ ذى فعلٍ أبَرّ ووجهٍ أغَرّ ؛ وشدّ أزْرَنا بمضافرة سيف يُزهَى المُلكُ بتقليده ، وأمّدنا بمؤازرٍ تتصرّف المنى والمنونُ

(١) وازره : أعانه وقواه ، والأصل آزره بالهمز ، وفى القاموس وشرحه مادة «أ ز ر» أن المؤازرة بالهمز أفصح ، وبالواو شاذ ؛ وقال الفراء : إنه عامىّ .

(٢) النائرة : اسم فاعل من نارت الفتنة تنور ، إذا وقعت وانتشرت .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ١١٣ من هذا السفر .

(٤) القط : القطع .

بين وعده ووعيده ؛ وجب علينا أن نحوط دولتنا بمن لم تزل حقوقُ مودّته بحسن الثناء حقيقَه ، وعهودُ محبّته فى ذمام الوفاء متمكّنةً وثيقَه ، وطريقتُه المثلى فى المحاسن والإحسان مشهورةً ولا نرى مثلا لتلك الطريقه ؛ وتقلّد كفالةَ ممالكنا للولىّ الذى مابرح يتلقّى أمورَنا بفسيح صدره ، و يتوقّى حدوثَ كلّ مانكرهه فينهض فى دفعه بصائب رأيه وثاقبِ فكره ؛ وكان الجنابُ الكريمُ العالى الأميرىُّ الكبيرىُّ العالمىُّ العادلىُّ الكافلىُّ المؤيّدىُّ الزعيمىُّ الغياثىُّ[1] المُسندىُّ المهّدىُّ المثاغرىُّ المظفّرىُّ المنصورىُّ السّيفىُّ ، معزُّ الإسلام والمسلمين ، سيّدُ أمراء العالمين ؛ سندُ الممالك ، مدبّرُ الدُّوَل ، مقدّمُ العساكر ، أميرُ الجيوش ، كهفُ الله ، حصنُ الأمّة ، نُصرةُ الملوك والسلاطين ، (سَلَارُ المنصورىُّ) نائبُ السلطنة المعظّمة ، وكافلُ الممالك الاسلامية ، — أعز الله نصره — هو واسطةَ عِقد الأولياء ، وسيفَ الدولة الفاتكَ بالأعداء ، والذى أسلف فى نُصرة الإسلام حقوقا غدت مرقومةً فى صحف الفخار ، واستأنف فى مصالح الأئمة المحمديّة تدبيراتٍ أظهر بها أسباب التأييد على الأعداء والاستظهار ؛ كم أصلح بيمن سياسته ذاتَ البَين ، وكم أبهج ببركة تأتّيه[2] وتأنّيه كلَّ قلب وأقرّ كلَّ عين ؛ وكم ساس من مُلك فأضحى ثابتَ الأساس ، وجعل شعارَه دفعا للباس ونفعا للناس ؛ ما عوهد إلا وأوفَى ، ولا عوند إلا وعَفّ وعفا ، ولا استُشفِىَ فى طبّ معضلة إلا وشَفَى ، ولا استدرك تدبيرُه فارطَ[3] أمرٍ كان على شفا ؛ فما يومُه فى الفضل بواحد ، ولا أحد لمثل محاسنه الجميلة بواجد ؛ لعزماته فى مواقف الجهاد السوابقُ

(١) فى الأصل : «الفيانى» بالفاء والنون ؛ وهو تحريف لا معنى له .

(٢) التأتى للأمر : الترفق له والتلطف فيه .

(٣) الفارط : الفائت ؛ يريد بهذه العبارة وصفه بالحزم وأنه لا يترك الأمور ينفذ الخلل إليها ثم يستدركها بعد فواتها ، بل إنه يتوقى الخلل فيها بتدبيره قبل حصوله .

الغُرُّ المحجَّله، ولِتدبيراته فى مصالح العباد والبلاد المنافعُ المعجَّلةُ والمؤجَّله؛ وهو الذى خافت مَهابتَه الكتائب، وأُمِّلَت مواهبُه الرغائب[1]، ولعبَتْ[2] سَطَواتُه للعـدا خيالا فى المراقدِ وخيلا فى المَراقب، وٱمتَـطَى من الشهامة كاهلَها فأَحجَم عنه لمّـا أقدم كلُّ مُحارِب، وصـدق مَن نعَتَه بالسيف، فلو لم يُنعَت به لقيـل: هذا سيف يفتُك بالضَّريبة ولا تُفَلّ له مَضارب؛ وكم لقِىَ بصدره الألوفَ من التتار — خذلهم الله — والمنايا قد بلغتْ من النفوس المنى، وأَمضَى سـيفَه فى الحروب وما شكا الضنى؛ وحمل حملة فرّق بها كلّ شَمِلٍ للكفّار ٱجتمع، وقطع أعناق العدا فى رضى الله تعالى ولا يُنكَر السيفُ إذا قطع؛ ووصل من العلياء إلى غايةٍ تُزاحِم الكواكبَ بالمناكب، وتَفرَّد بأمر الجيـوش فأضحى بدرَ الكتائب وصـدرَ المواكب؛ إذا جاش الجيشُ ثبت عنـد مشتجر الرماح، وإذا أظلم ليـلُ النَّقْع وَضَحت أسارير جبينِه وضـوحَ الصباح، وإذا أقدم فى كتيبة "رأيتَ البرَّ بحرا من سلاح" واذا رُفِعت راياتُه يوم الوغى كبَّرَتْ بالظَّفَر على ألسنة الرماح، وإذا كان فى جحفلٍ كانت عزائمُه للقلب قلبا وصوارمُه جناحا للجناح، وإذا قَدَر فى السِلم عفا لكنه فى الحرب قليلُ الصفح بيِّنُ الصَّفاح؛ وهو الذى ما برحت أيدى ٱنتقامه تهدم من أهل الشرك العمائرَ والأعمار، وبروقُ سيوفه تَذهَب بالنفوس لا بالأبصار، ويمنُ يمينه وصبحُ جبينه هذا يَستهِلّ بالأنواء وذا بالأنوار؛ اقتضَى حسنُ الرأى الشريف أن نوفىَ حقـوقَ مودّته التى أسلفها لنا فى كل نُعمى وبُوسى، وأن نضاعفَ علوَّ مكانه من أخوّتنا ليكون مناكهرون

(١) الرغائب: النفائس المرغوب فيها، واحده رغيبة.

(٢) كذا ورد هـذا اللفظ فى الأصل؛ يريد أن سطواته فى تشكلها للأعداء فى النوم بالخيال وفى اليقظة بالخيل تشـبه فعل اللاعب حين يتشكل للناظر بأشـكال مختلفة. أو لعله: «ولقبت» بالبناء للمجهول أى سميت وعلى الأول فقوله: «خيلا» حال من سطوات وعلى الوجه الآخر فهو مفعول ثان، وإنما لم يتعدّ اليه بالباء كما هو مقتضى اللغة لتضمنه معنى التسمية.

من موسى؛ فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى المولَوىّ السلطانىّ الملكىّ المظفّرىّ الركنى — لا برح يوفى بعُهود الأولياء ويفى، ويَمنح من أخلص النيّة فى ولائه البرّ الخفىّ والفضلَ الحَفِى — أن تكون كلمةُ الجناب الكريم العالى الأميرىّ السيفىّ المشارِ إليه — أعزّ الله نصره — نافذةً فى كفالة الممالك الإسلاميّة، متحكّمةً فى نيابة السلطنة المعظّمة، وأوامرُه المطاعةَ فى إمرة الجيوش وحياطة الثغور التى غدت بدوام كفالته متبسّمة؛ على أجمل عوائِده(١)، وأكمل قواعِده؛ نيابةً ثابتةَ الأساس، ناميةَ الغراس؛ لا يضاهَى فيها ولا يشارَك، ولا يَخرُج شىءٌ من أحوالها عن رأيه المبارك؛ فليبسُط نهيَه وأمرَه فى التدبير والإحكام، وليَضبِط الممالكَ حتى لا تسامَى ولا تُسام؛ وليُطلع من آرائه فى سماء الملك نجوما بها فى المصالح يُهتدَى، وليَرفع من قواعده ما يخفض به قدرَ العدا؛ وليُضاعِف ما أَلِفته الأئمةُ من عدلِه، وليَجرِ على أكرم عاداته مِن نشرِ إنصافه وشمولِ فضلِه، وليعضِّد جانب الشرع المطهَّرِ فى عَقدِه وحَلِّه، وتحريمه وحِلِّه؛ ولينفذ كلمتَه على ما هو من ديانته مألوف، وليَستكثِر من الاقتداء بأحكامه فى النهى عن المنكر والأمرِ بالمعروف؛ وأمراء الإسلام وجنوده، فهم ودائعُ سرِّه، وصنائعُ شكره، وطلائعُ نصرِه، وما منهم إلا من غُذِىَ بلبان(٢) دَرِّه(٣)، وغدا [من](٤) ثناء عصره متقلدا لعقود دُرِّه؛ فليستدم حُنوَّه عليهم وإشفاقَه، وليوالِ إليهم بِرَّه وإرفادَه وإرفاقَه؛ والوصايا كثيرةٌ لكنها منه تُستملَى، والتنبيهاتُ على المصالح منه تستفاد نقْلا وعقلا، وما زلنا نستضئ فى المهمّات بيمن آرائه التى جَمعتْ للمصالح شملا؛ فمثلُه لا يُدَلّ على صواب وهو المتفرِّد بالسداد، والخبيرُ بتفريج كُرَب الخطوب والسيوفُ

(١) كذا فى الأصل، وهو جمع عادة كما فى المصباح، ولم نجده فى غيره من كتب اللغة التى بين أيدينا.
(٢) اللبان بالكسر: الرضاع، يقال: هو أخوه بلبان أمه، ولا يقال: بلبن أمه.
(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل والسياق يقتضى اثباتها.
(٤) فى الأصل: «نساء»؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى.

غامضةُ الجفون فى الأغماد ؛ والله تعالى يمتعنا من بركة كفالته بالحـلِّ المُوافِى[(١)] والأخ المواسِى، ويشدّ أزرَ سلطاننا من مضافرته بمن أمسى جبل الحُلوم[(٢)] الرواسى؛ إن شاء الله تعالى .

(١٣) ومن انشائه أيضا أعزه الله تعالى مقامة عملها فى سنة اثنتين وسبعمائة، على لسان من التمسها منه، فقال :

حَكَى أليفُ الغرام ، وحليفُ السَّقام؛ وقتيلُ العيون، وصريعُ الجفون ؛ وفريسةُ الأسود، والمصابُ بنبال الحَدَق السود؛ عن قصّتِه فى هواه، وقضيّتِه التى كان فى أوّلهـا غِناه ، وفى آخرها عَناه[(٣)]؛ قال : لم أزل فى مدّة العمر أترقّب حبيبا أتلذّذ بحبّه، وأتنعّم بقربِه ؛ وأحيا بانعطافِه، وأسكر من ريقه بسلافِه؛ وأستعذب العذابَ فيه ، وأرشُف خمر الرضاب مِن فيـه ، وأقتطِف ورد السرور من وجنتيه وأجتنيه ؛ وأكتسِى به لطفا، وأكتسِب بمصاحبته ظَرْفا ؛ حتى ظفِرتْ يداى بمن رقّ وراق، ولطُفَتْ حدائقُ معانيه حتى كادت تخفى عن الأحداق

لطُفَتْ معانيه فهبّ مع الصَّبا * ورقيبُـه بهبوبه لا يعـرِفُ

قد جمع أوصاف المحاسن والمعانى ، وفاق كلَّ مليح فليس له فى الحسن ثانى ؛ أما قوامُه ، فقـد ملك الفؤاد فأضحى مَلِكا عادلا ، وآستباح النفوسَ من آعتـدالِه فلا غرو إن أضحى لهـا قاتلا

(١) الموافى ، من وافى يوافى : وهو بمعنى وفى ، يقـال : وفى له بالعهد يفى ووافى يوافى كلاهما بمعنى واحد انظر اللسان .

(٢) فى الأصل : «الحلقوم» والقاف زيادة من الناسخ . والحلوم ، جمع حلم بالكسر : وهو الأناة وعدم الخفة . والرواسى : صفة للحلوم .

(٣) فى الأصل : «غناه» بالغين ؛ وهو تصحيف .

عَجَبا لقــدّك ما تَرَنَّحَ مائلا * إلا وقد سلب الغصونَ شمائلا

وأما لحاظُه فقد غَنيتْ عن الكُحْل بالكَحَل، وأذابت حبّاتِ القلوب فى حُبّ تلك المقَــل

وإذا رأيتَ الطرف يعمل فى الحشا * عمــلَ الأسنّة فالقــوامُ مثقّفُ

٥ إلى غير ذلك من وجه كالبدر فى تمامه، يعلوه مِن شعرِه مايصير به كالبدر تحت غمامِه

قمر تبلّج وجهُــه فى حندسٍ * من شعره فأضاء منه الحندسُ

ومقبّلٍ أشهى من الراح، وأعطَرَ من زهرِ الربا تفتّحت أكمامُه عند الصباح

ومقبّل عذب كأنّ رضابَه بَرَدٌ وراح

وخدٌّ أمسى شقيقَ الشّقيق[1]، ومَبسِمٍ يُرشَف مِن شفاهِه العقيقِ الرحيق

١٠ شــفة كمحمرّ العقيـ * ـق ومَبسِم مِثلُ الأقاح[2]

وصُدْغٍ سال على خدّه القانى، وامتدّ كدمع محبِّه الأسيرِ العانى

صبّ له دمعٌ كصُدغك سائلٌ * فعساك يا مُثْرِى الجمال تُواسِى

وخصرٍ لَطُف ودَقّ، وعلاه كَثيبُ ردفٍ فأثقله حتى ضَنِىَ ورَقّ

يا ردفَه رفقا على خصرِه * بينكما حرمــةُ جيرانِ

١٥ الى غير ذلك من أنواع حسنٍ قصر عن وصفها قلمى، وعجز عن حصرها كَلِمى؛ وأشفقتُ من شرحها خوفا أن أُثِمَّ عليــه، أو أذكر ما تفرّد به من الحسن فأكون

(١) يريد بالشقيق : شقائق النعمان، وهو زهر أحمر، وانما أضيف الى النعمان لأن النعمان بن المنذر حمى أرضا فكثر فيها هذا النبت؛ وقيل : النعمان اسم للدم، وشقائقه : قطعه، فشبهت حمرة هذه الزهرة بحمرة الدم .

٢٠ (٢) الأقاحى بتخفيف الياء وتشديدها : جمع أقحوان، وهو من نبات الربيع، دقيق العيدان، له نور أبيض كأنه ثغر جارية حدثة السن؛ وهو المسمى بالبابونج والبابونك عند الفرس .

قد أشرتُ اليه ؛ وأنا قد تدرّعتُ ثوبَ الكتمان، وتستّرتُ حتى غاض منى الدمعُ وأغضَى الطرفُ وسكت اللسان

يقولون من هذا الذى مُتّ فى الهوى * به كَلَفا يا ربِّ لا علموا الذى

غيرَ أنّى قد متعت بذكر ملاحته فؤادى، ولا بدّ أن أُوردَها مجمَلةً لأُكْمِد[1] بلفظها[2] المُعادى ٥

حكاه من الغصن الرطيبِ وَرِيقُه * وما الخمرُ إلاّ وجنتاه ورِيقُه

هلالٌ ولكن أفقُ قلبى محلُّه * غزالٌ ولكن سفحُ عينى عقيقُه

بديعُ التثنّى راح قلبى أسيرَه * على أن دمعى فى الغرام طليقُه

أَقَرَّ له من كل حسنٍ جليلُه * ووافقه من كل معنًى دقيقُه

من التُّرك لا يصبيه وجدٌ إلى الحِمى * ولا ذكرُ باناتِ الغُوَيْر[3] يشُوقُه ١٠

ولا حلَّ فى حىٍّ تلوح قبابُه * ولا ساق فى ركبٍ يساق وسيقُه[4]

ولا بات صبّاً للفُرَيق[5] وأهلِه * ولكن إلى خاقانَ يُعزَى فَرِيقُه

يهدِّد منه الطرفُ من ليس خصمَه * ويُسكِر منه الريقُ من لا يذوقُه

على خدّه جمر من الحسن مضرَمٌ * يُشَبّ ولكن فى فؤادى حريقُه

له مَبسِمٌ يُنسِى المدامَ بريقِه * ويُخجِل نُوّارَ الأقاحى بَرِيقُه ١٥

(١) فى الأصل : « لا لهد » ؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى .

(٢) بلفظها : أى بذكرها ، فالمراد من اللفظ المصدر ، أى التلفظ .

(٣) الغوير : ماء لكلب بأرض السماوة بين العراق والشام ؛ وقال أبو عبيد السكونىّ : إنه ماء بين العقبة والقاع فى طريق مكة .

(٤) كذا فى الأصل ؛ ولعل المراد بالوسيق : الموسوق ، فعيل بمعنى مفعول أى الذى حمل عليه الوسق بفتح الواو وهو الحمل . ٢٠

(٥) فريق بالتصغير : اسم موضع بتهامة ، كما فى معجم البلدان والقاموس ، وهو فيهما غير معرّف بأداة التعريف .

قال الراوى : فأعلمتُه ما خامر قلبي من هواه ، و بذلتُ نفسى آبتغاءً لرضاه

بَثثتُ له سرّى ونحن بروضـةٍ * فمـالت لتُصغِى للحديث غصونُ

فتَلقّى ضراعتى بالرُّحْب والإقبال، وسَفَرَ عن وجه الرضا فبشّرتُ نفسى ببلوغ الآمال؛ وقلت (١) :

تذلّلتُ فى الشكوى إليه فرقّ لى * حُنوّا لدمعى فى الهـوى وتذلُّلى

غزالٌ لبستُ السُّقمَ خلعةَ جفنه * على أننى فيـه خلعتُ تجمُّلى

تَعلَّلَ بالأعذار حتى خدعتُـه * بسِحر الرُّقى أفديه مِن متعلِّلِ

فراقَبَ إغفاءَ الرقيب وهَجعـةَ الـ * ـسمير وراعَى حينَ غفـلةِ عُذّلى

ووافى أخا الأشواق حلفَ صبابةٍ * أسـيرَ هوًى مِن وجدِه فى تململِ

فلم أر روضا كان أحسنَ بهجةً * ـ لعمر الهوى ـ من وجهه المتهلّلِ

فأعظمتُ مَسراه وقبّلتُ خاضعا * ثرى خَطوِه شكرا لفضل التطوّلِ

وآنعطف علىّ آنعطافَ الغصن الرطيب ، وتمازجتْ قلوبُنـا حتى أشـكل علىّ أينا الحبيب (٢) ؛ وفزتُ منه ببديع جمـال تلذّ به النفوس، ورَشَفتُ من رضابه أحلى ما تَرشُفه الأفواهُ من شفاهِ الكؤوس

تعلّقتُـه صائدا للقـلوب * بألحاظـه سالبـا للنُّهى

بديعَ الجمـال إذا ما بـدا * ترى فيه للعين مستنزَها (٣)

فكم فيـه للعين من روضةٍ * وكم فيه للنفس من مشتهى

(١) فى الأصل : « وقال » ؛ وما يأتى بعده من الشعر يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : « أتيا » ؛ وهو تصحيف .

(٣) قال المطرزى فى المغرب : الأستنزاه بمعنى التنزه غير مذكور إلا فى الأحاديث اهـ .

يا حسنَه لمّـا أتى بوعد وعلى غير وعد ، ويا لذاذةَ قربِه ويا حرارةَ ما ذقناه بعدها من هجرٍ وصـدّ ؛ فلم نزل على ذلك مدّةً أَغفَى الدهرُ عنّا فيهـا ، أُقضّى حياةً طابت تلذُّذا وتَرَفِّيها

رعى الله محبوبا نعمتُ بوصلِه * وقد بعدتْ عنّا الغـداةَ عيونُ

حتى شعَّر بنـا الدهرُ الخؤون ، ورمانى بسهم فرقةٍ أبعدت ٱلمنى وجلبت ٱلمنون ؛ وعلم بمـا كتمناه الرقيب ، وعجَز عن داء قلبي ٱلطبيب

لو كان للعشاق حظٌّ فى الهوى * ما كان يُخلَق فى الزمان فـراقُ

فتجرّعتُ بعد الشُّهد علقما ، ولَم أستطع أفتحُ[1] من الحزن فما ؛ وهمتُ فى ساحة الشوق والآلتياح[2] ، وفضحتْنى الأدمعُ التى طال بها على المحبِّين الآفتضاح

لا جزى اللهُ دمعَ عيـنىّ خيرا * وجزى اللهُ كلَّ خيرٍ لسانى

نَمّ دمـــعى فليس يكتم شيئا * ووجدتُ اللســانَ ذا كتمانِ

كنتُ مِثلَ الكتاب أخفاه طىٌّ * فٱســـتدلُّوا عليه بالعُنـــوانِ

فاذا هو مُرُّ المَذاق ، وأمنع الدمعَ فيقول : وهل خبأتَنى لأعظمَ من يوم الفراق

أبَى الوجدُ أن يُخفيه قلبٌ متيّمٌ * يكابده والدمعُ يُبديه والضّنى

---

(١) يريد : أن أفتح ؛ فأن فى هذه العبارة محذوفة ، وقد أجاز الأخفش حذفها مع رفع الفعل بعدها وجعل منه قوله تعالى : (أفغير الله تأمرونى أعبد) الآية ، « وتسمع بالمعيـدىّ خير من أن تراه » برفع «أعبد» و «تسمع» وظاهر شرح التسهيل موافقته حيث قال فى قوله تعالى : (ومن آياته يريكم البرق) : أنّ «يريكم» صلة أن حذفت وبقى الفعل مرفوعا ، وهذا هو القياس ، لأن الحرف عامل ضعيف فحذفه يبطل عمـله اهـ . وأما حذف أن مع نصب الفعل بعدها فهو شاذ عنـد البصريين فى غير المواضع المنصوص عليهـا فى كتب القواعد .

(٢) فى الأصل : « الآرتياح » بالراء ؛ وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق . والالتياح فى الأصل : شدة العطش من اللوح بفتح اللام ، والمراد هنا الهيام والعشق لشبههما بالعطش فى شدة الغليل .

وكم ذاب القلبُ حسره، وتفتّت الكبدُ فى تلك الفتره؛ على خلوة أبثّ فيها حزنى، وأفسح فيها المجالَ الذى ضاق به عطَنى؛ فلم أظفر بخلوة فى لمحة بصر، ولا فزتُ بذكر كلمة أفرج بها ما عرض من حصَر

تعرّضتُ من شوق إليه فأعرضا * ولولا الهوى لم أمنح الحبَّ مُبغِضا
وبُحتُ إليه أنّ عندى رياضةً[1] * عليه وما تلك الرِّياضةُ عن رضا
قضى حبُّه أنّى إذا عزّ فى الهوى * أذِلّ وإنى قد رضِيتُ بما قضى
لقلبىَ من عينيه سُقْمٌ وصحّةٌ * فكم مرّة فى الحبّ داوَى وأمرَضا
مضى لى به عيشٌ بكَيتُ لفقده * وهيهات أن يرتدَّ عيشٌ إذا مضى

وبُليتُ[2] برقيب قد سلب الله من قلبه الإيمان، وسلّطه علىّ بغلظ الطباع وفظاظة اللسان؛ كأنه شيطان لا بل هو بعينه، لكنّه أربَى عليه فى بهتانه ومَينه؛ يُحاقُّ[3] على الكلمة الواحده، ولا يسمح بأن طرفى يمتدّ إلى تلك المحاسن التى غدت القلوبُ بها واجده؛ يودّ لو غُطِّىَ على بصرى، ويبدلنى مَغيبى من محضَرى؛ لا يفتُر عن اللّوم والعَذل، ولا يرى أن يقضىَ ساعاته إلّا فى بذل الحيَل؛ يرغب فى شتات شملى، وانقطاع وصلى؛ وليس لى فى دفعه حيله، ولا فى الانتقام منه وسيله؛ وما زال حتى أحال الحبيبَ عن وداده، وكدر ما صفا من حسن ظنّه واعتقاده؛ وأنا أروض نفسا كادت تنوب، وأتسلّى بأيّام وصاله وأقول: لعلها ترجع وتؤوب

لئن ذقتُ مرَّ الصبر أو ملحَ أدمعى * لقد أعذبتْ تلك المذاقاتُ منهلى

(١) يريد بالرياضة هنا: ملازمة هواه والاعراض عن كل ما سواه، أخذا من الرياضة عند العباد وأهل التصوّف.

(٢) فى الاصل: «وتلفت»؛ وهو تحريف.

(٣) يحاق، من المحاقة بتشديد القاف: وهى المخاصمة والمنازعة لاظهار الحق؛ وفى الأصل: «يحاقق» بقافين؛ وهو مما يجب فيه الإدغام.

فلم يقنع ٱلدهرُ لى بذلك ، ولا رضى بالصـدّ والعذل والهجر الذى هـو أعظمُ المهالك؛ حتى قضى بالفرقة والبِعاد، ورمتنى النوى بسهم فلم يخطئ ٱلفؤاد؛ وكنتُ أتعلّل بالنظر، وأقول : مشاهدةُ هـذا الوجه القمرىّ عنـدى أكبرُ وطر؛ حتى مُنِعتُ الوصالَ والمشاهده، ونَدَبتُ قلبى القريحَ بأدمع عينى ٱلجامده (١٥)

أحبابَ قلبى لقد قاسَيتُ بَعدكمُ * نوائبـا صيّرتْنى فى الهوى مَثلا ٥

وقد تعجّبتُ أنّى بعـد فرقتكم * أحيا وأيسرُ ما لاقَيتُ[1] ما قَتَلا

وٱنقطعتْ عنّى الرسائل، وذهبت لذاذةُ ما ٱعتدتُه من تلك الوسائل

هل مُخْـبِرٌ عنكم يعيش بقربِه * ميتُ الرجا والصبرِ بعـد إياسِ

أحبابَنـا قسما بسـاعة وصلنا * لَمْ أَكتحِل من بَعدكم بنعاس

غبتم فعنـــدى بالفراق مآتمٌ * فمتى تعـود بعَودكم أعراسى ١٠

وذَوَى غصنُ السرور بعـد أن كان رطيبا ، وفقدت لنـداء ألمى مجيبا ؛ وأغلقتُ بابَ الدَّعه ، وأسبلتُ هواطلَ أدمعى قائلا للأجفان : لا تخشَىْ فأنت منفقة من سَعه ؛ ولولا التعلُّلُ بالذكرى ، والتأمّلُ[2] فى حسنه[3] الذى تَشكّل فى مرآة القلب فسَرَّ سِرّا ؛ لقلت :

كأنّك قـد خَتمتَ على ضميرى * فغـيرُك لا يمر على لسـانى ١٥

ولى عينٌ تراك وأنت تنـآى * كما ترنو إليـك وأنت دانى

وأقربُ ما يكون هـواك منّى * إذا ما غاب شخصُك عن عِيانى

(١) فى ديوان أبى الطيب المتنبى (ما قاسيت) والمعنى يستقيم عليه أيضا ؛ وهذا صدر بيت له من قصيدة يمدح بها سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابى المنبجى ؛ وتمام البيت : ٢٠

* والبين جار على ضعفى وما عدلا *

(٢) فى الأصل : « والتأمن » بالنون ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : « بحسنه » بالباء ؛ وهو تحريف .

شَغلتَ عن الورى بصرى وسمعى * كأنهما بحبِّك مفردانِ
فهأنا لا أعاين ما بدا لى * سواك ولا أُصيخ لمن دعانى

ثم إنّى فارقتُ الحياه، وبذلتُها راغبا فى هواه ؛ ولم أزل كذلك الى أن ظهرت آثار قربه ، وسَرَى النسيمُ عِطرا فعلمتُ قربَ ركبِه

وأذكرنى ذاك الصَّبا زمنَ الصِّبا[1] * وما الشوقُ إلا ما تجدَّدَ بالذكرِ

فكاد قلبى يطير للقائه ، ولولا تستُّرُه بحُجب الفؤاد لخرج من قوّة بُرَحائه ؛ وتذكرتُ كيف يكون اللقاءُ والاجتماع ، والرقباءُ قد أزمعوا على المنع والدِّفاع ، وقلتُ : فارقَنى على غير رضا ، وجفانى من غير ذنب ، ونآى عنّى من غير وداع ؛ وهأنا فى غيابه وحضوره ، وسخطه وسروره ؛ لا أَحُول عن ودّه ، ولا أرَى إلا الوفاء بعهده

هيهات ما وجدى عليك بزائل * فإلام يُطنِب فى الملامة عاذلى
ناشدتك العهدَ القديمَ ويومَنا * بِلوى الصَّريم وبانِه المتمايلِ[2]
هل تعلمنّ سوى هواك وسيلةً * تدنى رضاك وقد جهلتُ وسائلى
أدنيتَنى حتى إذا تيمتَنى * بمحاسنٍ ومعاطفٍ[3] وشمائلِ
وبحسنِ وجهٍ لو تجلّى فى الدجى * سجد الصباحُ لضوئه المتكاملِ
ونواظرٍ سحّارةٍ[4] لجفونِها * فضلُ الصناعة لا لساكنِ بابلِ[5]

(١) الصبا بالفتح : ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش ؛ قاله ابن الاعرابى، وتثنيتها صبوان وصبيان ؛ وهى مؤنثة ، وإنما أراد هنا النسيم فأوردها بالتذكير .

(٢) عبارة الاصل : « وبانة المتمائل » وهو تحريف .

(٣) أراد بالمعاطف : مواضع الانثناء من البدن كالخاصرتين والجيد جمع معطف بفتح الميم وكسر الطاء كما هو قياس اشتقاق اسم المكان من الفعل المكسور العين فى المضارع .

(٤) يريد : صناعة السحر .

(٥) بابل : اسم ناحية منها الكوفة والحلة ينسب إليها السحر والخمر .

ووقعتَ من قلبي بودٍّ قد جرى (١) * تجرى دمى بجوانحى ومفاصلى
قاطعتنى وسمعتَ قول حواسدى * وصرمتَ من بعد الوصال حبائلى (٢)
ولرب ليـــل بتُّ فيـــه مسهّدا * فردا أسامر لوعتى وبلابلى
أطوى على حرّ الغرام أضالعا * يُطوَين فيـــه (٣) على قداح النابل (٤) (٥)

وهأنا أترقّب وصلَه ، وأتوقّع عدلَه . ٥

أتراه من جَور الصبابة ينصفُ * ويرقّ للعـانى عليه ويَعطفُ
صبٌّ يرى السُّلوانَ عنه محرَّما * فـــله إليـــه تولّهٌ وتلهُّفُ
يا أهـــل كاظمةٍ (٦) وحقِّ هواكمُ * قسما بكم وبغـــيركم لا يُحلَفُ
مشتاقُكم ألِفَ الصـــبابة فيكمُ * فكأنه لســـواكمُ لا يَعرفُ
فعـــدوه منكم بالوصـــال تَعلّةً * ولكمْ بأن تعِدوا الوصالَ ولا تفوا ١٠
وحياتَكم (٧) يرعاكمُ فى بُعـــدكم * ولقربِكم فى بُعـــدكم (٨) يتشوّفُ

(١) فى الأصل : « حوى » ؛ وهو تحريف .

(٢) الحبائل : الأسباب والعهود واحده حبال جمع حبل ، فحبائل جمع الجمع اللسان .

(٣) لعله « منه » أى من الغرام .

(٤) المراد بالقداح هنا السهام على طريق التجوّز فى استعمال اللفظ ، فان القـــداح فى الأصل : هى السهام قبل أن تراش وتركب فيها النصال ، واحده قدح بكسر القاف وسكون الدال ، فاستعمالها فى السهام ذات النصال مجاز مرسل باعتبار شأنها الأول . ١٥

(٥) النابل : الرامى بالنبل ؛ والذى فى الأصل : «البابل» بالباء فى أوله ؛ وهو تصحيف اذ لم نجد له معنى يناسب السياق .

(٦) كاظمة : جوّ على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها . ٢٠

(٧) نصب هذا اللفظ على الظرفية ، أى أنه يرعاكم ويتشوف لقربكم ما حييتم ؛ ولا يجوز الإعراب بالكسر على القسم لأن الفعل بعده لا يصلح أن يجعل جوابا له لعدم تأكيده باللام والنون .

(٨) عبارة الأصل : « ولبعدكم فى قربكم »وفيها تقديم وتأخير مفسدان للمعنى .

وليس لى ما أمُتّ به إلا صِدقُ الغرام، والإقدامُ فى حبه[1] على ارتكاب[2] الحِمام

جدِّدْ عهودَ تواصُـــلٍ وتَلاقِ * وٱستبقِ لى رمقـا فليس بباقِ (١٦)

وٱشفَع إلى مارقّ من ترف الصِّبا * من وجنتيك برقّـــة الأخلاقِ

ما حقُّ ذى قلبٍ صفا لك ودُّه * تقطيعـــه بقطيعـــةٍ وفراقِ

٥ مع ذا وذا كيف استَهَنتَ فكن أنا الـ * ـموثوقُ[3] بى مولاى فى الميثاقِ

قال الراوى : فسمع شكواى وما أشكَى[4]، وقابل رقّتى بجفوة بهـا القلبَ أنكَى[5] والطرفَ أبْكَى؛ ولفق أعذارا، وأقسمتُ عليه أن يزُور فلم يرلقسمى إبرارا

هـذا ما ٱتّفق إيرادُه من كلامه — أدام الله علوّه — فى هـذا الموضع، وسنورد إن شـاء الله من كلامه أيضا ماتقف عليـه فى آخر فن الحيوان فى السفر

١٠ الذى يليه إن شاء الله تعالى .

ذكر شىء من إنشاء ٱلمولى الفاضل الصدرِ الكبيرِ الكامل، البارعِ الأصيل، الأوحدِ النبيل، تاجِ الدين عبد الباقى بنِ عبد المجيد اليمانى

هو الذى أتقن صـناعة الأدب فى غرّة شـبابه، وبرّز على من ٱكتهـل فى طلبها

١٥ وشابَ فى الترقّى إلى رتبها، فما ظنُّك بأترابه؛ وجارى[6] ذوى الفضل فى[7] الأقطار اليمنيّة

(١) فى الأصل : « فى جنة » بالجيم والنون ؛ وهو تصحيف .

(٢) يقال : ركبه وارتكبه، كلاهمـا بمعنى واحد .

(٣) كذا فى الأصل . وقوله : « أنا الموثوق بى » خبر لقوله : « كن » واسمها ضمير مستتر، أى كن أنت، والعائد مقدّر فى جملة الخبر، أى أنا الموثوق بى منك .

٢٠ (٤) يقال : أشكى فلان فلانا، إذا أزال شكواه، فالهمزة للسلب .

(٥) كذا ورد هذا الفعـل فى الأصل بالألف فى أوّله، والذى وقفنا عليه أنه يقال : نكأ القرحة بدون الألف فى أوّله إذا قشرها بعد البرء وانظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٠٨ من هذا السفر .

(٦) فى الأصل : « وجاذى » بالذال ؛ وهو تحريف .

(٧) عبارة الأصل : « بل فى الأقطار » ؛ وقوله : بل زيادة من النـاسخ .

فطلع مُجَلِّى[1] الحَلْبة ، وبارَى نجباءَ الأفاضل بالمملكة التَّعزِّيَّة[2] وكان المؤمَّلُ[3] منهم بالنسبة إليه أرفعَهم رتبـه ؛ وسما إلى سماء البـلاغة فكان نجمَها الزاهر ، وآرتَقى إلى أفلاك البراعة فكان نيِّرَها الباهر ، ورام مَن سواه الآرتقاءَ إلى محلّه والمناوأةَ[4] لفضله فغدا وهو فى ذيول حَيرته عاثر ؛ فعنـد ذلك علمـوا عجزَهم عن إدراك غاياته ، واعترفوا بالتقصير عن مجاراته ومباراته ؛ وحين لم يجد لفضله مُجاريا ، ولا عاين لفضائله مُباريا ؛ صار بها كالغريب وإن كان فى أهله ووطنه ، والفريد[5] مع كثرة أبنائه وإخوان زمنه ؛ فسمت[6] به نفسُه إلى طلب العـلوم من مَظانِّها ، والآحتواء عليها فى إبّانها ؛ وآللّحاق بأعيان أهلها ، والآختلاطِ بمن آرتدى بأردية فضلها ؛ ورؤيةِ من توشّح بقلائدها ، وترشّح لبذلِ فوائدها ونظمِ فرائدها ؛ ففارق الأقطارَ اليمنيّةَ وهى تسأله التأنّى ، وتبذُل لرضاه الرغبـةَ والتمنّى ؛ وهو لا يجيب مناديَها ولا يعرِّج على ناديها ، ولا يميـل الى حاضرها ولا ينظر الى باديها ؛ وصَرف وجهَه عنها ، ونفض يدَه منها ؛ وآلتحق[7] بالديار

(١) المجلى من الخيل : السـابق فى الحلبة .

(٢) فى الأصل : « الثغرية » بثاء مثلثة بعدها غين معجمة وراء ؛ وهو تصحيف إذ لم نجـد وجها لتخصيص اليمن بهذه النسبة . والتعزية : نسبة إلى تعز بفتح التاء وكسر العين وتشديد الزاى وهى قاعدة اليمن كما فى القاموس ؛ وقال فى التاج : انها مدينـة عظيمة ذات اسوار وقصور ، كانت دار ملك بنى أيوب ثم بنى رسول من بعدهم اه . وقال أيضا فى صبح الأعشى ج ٥ ص ٨ نقلا عن كتاب تقويم البـلدان : إنهـا مقرّ ملوك اليمن يعنى من أولاد رسـول . ثم قال : وهى حصن فى الجبال مطـل على التهائم وأراضى زبيد الخ .

(٣) المؤمل بتشديد الميم المفتوحة : الثامن من خيل الحلبة .

(٤) المناوأة بالهمز والنواء بكسر النون : المفاخرة والمعارضة .

(٥) فى الأصل : « والقرير » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : « فنمت » بالنون ؛ وهو تحريف .

(٧) قولهم : التحق به بمعنى لحق كلمة مولدة ؛ قال الصاغانى : لم أجده فيما دوّن من كتب اللغة فليجتنب ذلك انظر تاج العروس مادة «لحق» .

المصريّه، وأنبتّ[1] فى طلب العلوم بأجمل سريرةٍ وأحسنِ سيرةٍ وأخلصِ نيّه؛ فبلغ فيها[2] مناه، وأدرك بها ما تمنّاه؛ وغدا وثغرُ فصاحته بالعلوم أشنَب، وبُردُ بلاغته بالآداب مُذْهَب

تَنَاهَى علاءً والشبابُ رداؤه * فما ظنُّكم بالفضل والرأسُ أشيَبُ

٥ ولما عاينه أعيانُ أهلِ هذا الوادى، وشاهدوه يُبكّر فى طلب العلوم ويُغادِى؛ تلقّوه بالإكرام والترحيب، وقابلوه بالتبجيل والتقريب، وأنزلوه بالمحلّ الأرفع والفِناءِ الخصيب؛ وعاملوه بمحض الوداد، وساواه شبابُهم بالإخْوةِ ومشايخُهم بالأولاد؛ وخلطوه بالنفس والمال، وظهر له فى ٱبتداء أمرِه بقرائن الأحوال حسنُ المآل؛ فأصبح من عُدول المصر، وأمسى وهو من أعيان العصر؛ فشكر عاقبةَ مَسيرِه وحَمِد

١٠ صباحَ سُراه، وأجابه لسانُ الفضائل بالتَّلبيةِ لمّا دعاه؛ ثم ٱرتحل الى الشأم فجعل دِمَشقَ مَقرَّ وطنِه، وموطنَ سَكنِه؛ ومحلَّ ٱستفادته وإفادته، ونهايةَ رحلته وغايةَ إرادته؛ فعامله أهلُها بفوق[3] ما فى نفسِه، فحمد يومَه بها على أمسِه؛ وغدا لأهل المصرَين شاكرا، ولمناقبِهم تاليا ولمحاسنِهم ذاكرا؛ وله من النظم ما رقّت حواشيه، وراقت معانيه؛ ومن النثر ما عَذُب وصَفا، وكَمُل بلاغةً ولطفا؛ وحسُن إعجازا،

١٥ وتَناسَب صدورا وأعجازا؛ وقد قدّمنا من كلامه فى هذا الكتاب ما بٱسمه ترجمناه، ولفضائلِه نسبناه؛ مما تقف عليه فى مواضعِه، وتغتذى بلِبان مَراضعِه؛ فلنورد له

---

(١) انبت: انقطع، أى انقطع عن الشواغل فى طلب العلوم.

(٢) فى الأصل: «بها»، وهو مكرر مع ما بعده فى الجملة الآتية.

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل مجرورا بالباء، والذى فى كتب القواعد أن «فوق» و «تحت» من الظروف غير المتصرفة فجرهما بالباء كما هنا غير سائغ، وأجاز بعض النحويين تصرفهما فى نحو فوقك رأسك وتحتك رجلاك برفع فوق وتحت على الابتداء، والذى حكاه الأخفش عن العرب فى هذا المثال هو نصبهما.

فى هــذا الباب غيرَ ما تَقدَّم إيرادُه وما تأخَّر، ونأخذ لتصنيفنا من بلاغته بالنصيب الأَوفَى والحظِّ الأَوفَر.

(١٧) فمن إنشائه كتاب عن الخليفة المستكفى بالله أميرِ المؤمنـين أبى الربيع سليمان لِمَلِكِ[1] اليمن — عمِلَه تجربةً لخاطره عند ما رُسم بمكاتَبته، ابتدأه بأن قال: ٥

أما بعد حمد الله مانِح القلوبِ السليمةِ هداها، ومرشِدِ العقولِ إلى أمر معادها ومبتداها؛ وموفِّقِ من آختاره الى مَحَجّة صوابٍ لا يضـلّ سالكُها، ولا تُظلم عند اختـلاف الأمور العظام مسالكُها؛ وملهِمِ من آصطفاه آقتفاءَ آثارِ السنن النبويّه، والعملَ بموجب القواعد الشرعيّه؛ والانتظامَ فى سلك من طوّقَته الخلافةُ عقودَها، وأفاضت على سُدّته الجليـلةِ بُرودَها؛ وملّكَته أقاصىَ البـلاد، وناطت بأحكامه السديدةِ أمورَ العباد؛ وسارت تحت خوافق أعلامه أعلامُ الملوك الأكاسره، وسَرتْ[2] بأحكامه النيّرةِ مناجحُ الدنيا ومصالحُ آلآخره؛ وتَبختَر[3] كلُّ منبر من ذكرِه فى ثوبٍ من السيادة مُعْلَم، وتهلّلت من ألقابه الشريفةِ أسارِيرُ كلِّ دينار ودرهم؛ يحمده أميرُ المؤمنين على أن جعل أمورَ الخلافة ببنى العباس مَنُوطه، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ الى يوم ١٠

(١) فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٢ أن المكتوب اليه بهـذه الرسالة هو الملك المؤيد هزبر الدين داود ابن الملك المظفر صلاح الدين يوسف بن رسول، وان هذه الرسالة كتبت فى دولة الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى سنة سبع وسبعمائة، وذلك حين منع صاحب اليمن الهدية التى جرت العادة بارسالها الى الأبواب الشريفة بالديار المصرية. ١٥

(٢) فى الأصـل: «وسدّت» بالدال؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه وصف الأحكام بالنيرة؛ وعبارة صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٢: «ورشيدت بأحكامه مناجح» الخ بدون كلمة «النيرة» والمعنى يستقيم عليها أيضا. ٢٠

(٣) كذا فى صبح الأعشى؛ وقد وردت هـذه الكلمة فى الأصل مهملة من النقط.

القيامة مَحُوطه؛ ويصلّى على ابن عمه محمد الذى أحمد الله بمبعثه ما ثار من الفتن، وأطفأ برسالته ما اضطرم من نار الإحَن؛ صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين حَموا حِمى الخلافة فذادوا عن مواردها، وتجهّزوا[1] لتشييد المعالم الدينيّة فأقاموها على قواعدها؛ صلاةً دائمةَ الغدوّ والرواح، متصلا أوّلُها بطرّة الليل وآخرُها بجبين الصباح؛ هذا وإن الدين الذى فرض الله على الكافّة الانضمامَ الى شعبه، وأطلع فيه شموسَ هداية تشرق من مشرقه ولا تغرُب فى غربه؛ جعل الله حُكمَه بأمرنا مَنُوطا، وفى سلك أحكامنا مخروطا[2]؛ وقلّدنا من أمر الخلافة سيفا طال نجادُه، وكثُرَ أعوانُه وأنجادُه[3]؛ وفوّض إلينا أمرَ الممالك الإسلاميّة فإلى حرمنا تُجْبَى ثمراتُها، ويُرفَع الى ديواننا العزيز نفيُها وإثباتُها؛ يخلّف الأسدُ إن مضى فى غابه شبلَه، ويُلْفى فى الخُبْر والخَبَر مِثلَه؛ ولما أفاض الله علينا حلّةَ الخلافة، وجعل حرمَنا الشريفَ محلَّ الرحمة والرافه؛ وأقعدَنا على سُدّة خلافة طالما أشرقَتْ بالخلائف من آبائنا، وابتهجتْ بالسادة الغطاريف[4] من أسلافِنا؛ وألبسَنا خلعةً هى من سواد السؤدُد مصبوغه، ومن

(١) كذا فى الأصل؛ والذى فى صبح الأعشى: «وعمدوا»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين والتجهز للأمر: التهيؤ له.

(٢) قال فى مستدرك (التاج) مادة «خرط» نقلا عن شيخه ما نصه: استعمل الناس كثيرا الانخراط بمعنى الانتظام والدخول، كانخرط فى السلك اذا انتظم فيه وقد وقع فى كلام الفصحاء الثقات من علماء اللسان كالسكاكىّ والزمخشرى وأضرابهما، ولا يكاد يوجد فى كلام العرب ونصوص أهل اللغة ما يؤيده ثم رأيت الشهاب وقع له مثل هذا، ولكنه رحمه الله وقع فى جامع اللغة لابن عباد على قولهم: خرطت الجواهر، جمعتها فى الخريطة؛ قال: فعلمت أنهم تجوّزوا به عن جعلها فى العقد الخ.

(٣) الأنجاد: الشجعان الماضون فيما يعجز غيرهم، واحده: «نجد» بفتح النون مع كسر الجيم وضمها وزان كتف ورجل.

(٤) فى الأصل: «العصاريف» بالعين والصاد؛ وهو تصحيف؛ والغطاريف من الناس: أشرافهم وسراتهم.

سوادِ العيون وسُوَيداواتِ القلوب مَصُوغه ؛ وأمضَينا على سُدّتنا أمورَ الخاصّ والعامّ ، وقلّدنا أربابَ الكفاية كلَّ إقليم من عملنا ممن تَصلُح سياستُه على الدوام ؛ وٱستكفَينا بالكُفاة من عمّالنا على أعمالنا ، واتخذنا مصرَ دارَ مُقامنا ، وبها سُدّة مقامنا لما كانت فى هذا العصر قبّةَ الإسلام ، وفَيئةَ[1] الإمام ، وثانيةَ دارِ السلام ؛ تَعيّن علينا أن نتصفّح جرائد عمّالِنا ، ونتأمّل نظامَ أعمالِنا ؛ مكانا فمكانا ، وزمانا فزمانا ؛ فتصفّحناها فوجدنا قطرَ اليمن[2] ، خاليا من ولايتنا فى هذا الزمن ، والعادةُ مستمرّةٌ بأن لم تزل نوابُنا فى بلاد اليمن[3] ؛ عَرّفَنا هذا الأمرَ من ٱتخذناه للممالك الإسلاميّة عينا وقلبا ، وصدرا ولبّا ؛ وفوّضْنا اليه أمرَ الممالك الاسلامية فقام فيها قياما أقعد الأضداد ، وأحسَن فى ترتيب ممالكنا نهايةَ الإصدار وغايةَ الإيراد ؛ وهو السلطان الأجلُّ السيّدُ الملكُ الناصر ، لا زالت أسبابُ المصالح على يديه جاريه ، وسحائبُ الإحسان من أُفق راحتـه ساريه ؛ فلم يُعِدّ جوابا لما رسمناه ، ولا عذرا عما ذكرناه ؛ إلا تجهيزَ شِرْذِمَةٍ من جحافله المنصوره ، وتعيينَ أناس من فوارسه المذكوره ؛ يقتحمون الأهوال ، ولا يَعبأون

(١) وفيئة الامام : أى محل فيئته ؛ والفيئة : الرجوع كالفَيْء من فاء يفىء اذا رجع ؛ يريد أن مصر هى التى رجعت اليها الامامة العباسية ؛ وكان ذلك بعد سقوط بغداد فى يد هولاكو ملك التتار فى سنة ست وخمسين وستمائة كما فى تاريخ أبى الفداء ج ٣ ص ٢٠٢ طبع القسطنطينية ، وكان رجوع الامامة العباسية ثانيا فى سنة تسع وخمسين وستمائة على يد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس — وهو الرابع من ملوك الترك بالديار المصرية — وكان أوّل خليفة بايعه الملك الظاهر هو الامام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ولقب بالمستنصر بالله ؛ ولم يقم بمصر ، والذى أقام بها هو الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن على بن أبى بكر ابن الخليفة المسترشد بايعه الملك الظاهر أيضا فى سنة ستين وستمائة وأسكنه فى مناظر الكبش التى أنشأها الأمير أحمد بن طولون ؛ والحاكم بأمر الله هذا هو جدّ الخلفاء الذين تولوا الخلافة بمصر انظر بدائع الزهور لابن إياس فى حوادث سنتى تسع وخمسين وستمائة وستين وستمائة .

(٢) فى الأصل : «فوجدناها» ؛ والهاء زيادة من الناسخ .

(٣) لم ترد هذه الجملة فى صبح الأعشى .

بتغيّرات الأحوال؛ يَرون الموتَ مغنما إن صادفوه، وشَبا المُرهَف مكسبا إن صافحوه؛ لا يشربون سوى الدماء مدامَه، ولا يلبسون غيرَ التَّرائك[1] عمامه؛ ولا يَعرِفون طربا إلا ما أَصدَره[2] صَليلُ الحسام من غِنا، ولا ينزلون قفرا إلا وأَنبَت ساعةَ نزولهم عن صَهوات خيلهم قَنا؛ ولما وثقنا منه بإنفاذهم راجَعْنا رأينا الشريف فاقتَضى أن نكاتب مَن بَسَط يدَه فى ممالِكها، ومَلَك جميعَ مسالِكها؛ واتخذ أهلَها خَوَلا، وأَبدَى فى خلال ديارها مِن عدم سياسته خَلَلا؛ فبرز مرسومُنا الشريفُ النبوىُّ أن نكاتب من قعد على تخت مملكتها، وتصرَّف فى جميع أمور دولتها؛ فطُولع بأنه ولدُ السلطان الملِكِ المظفَّرِ يوسفَ بنِ عمر الذى له شُبهةُ[3] تمسُّكٍ بأذيال المواقف المستعصمية[4]، وهو مستصحِبُ الحالِ على زعمِه، أو ما علم الفرقَ بين الأحياء والأموات؟ أو ما تحقَّق الحالَ بين النفى والإثبات؟ أصدرناها إلى الرِّحاب التَّعزِّيه[5]، والمعالِم اليمنيّه؛ تُشعِر من تولَّى فيها فاستبدّ، وتولَّى كبرَه فلم يعرِّج على أحد؛ أنّ أمر اليمن ما برحتْ حكّامُنا ونوّابُنا تحكم فيه بالولاية الصحيحه، والتفويضاتِ التى هى غيرُ جريحه[6]؛ وما زالت تَحمِل إلى بيت المال المعمورِ ما تمشى به الجمالُ وئيدا[7]، وتَقذِفه بطونُ الجوارى[8] الى ظهور

(١) الترائك جمع تريكة، وهى بيضة الحديد التى تلبس على الرأس فى الحرب.

(٢) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل وصبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٤.

(٣) كذا فى صبح الأعشى؛ والذى فى الأصل: «سهه» بسين مهملة وهاءين؛ وهو تحريف لامعنى له.

(٤) المستعصمية: نسبة إلى المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ببغداد، وهو الذى قتله هولاكو ملك التتار فى سنة ست وخمسين وستمائة.

(٥) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥٠ من هذا السفر.

(٦) فى الأصل: «صريحة» وهو تحريف يفسد المعنى؛ والتصويب عن صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٤

(٧) مشى مشيا وئيدا، أى على تؤدة وتأن؛ يريد أن ثقل ماتحمله هذه الجمال قلل من خطوها.

(٨) أراد بالجوارى: السفن.

اليَعْمَلات[(١)] وليـدا ؛ وتُطالعُنا بأمر مصالحه ومفاسده ، وبحال معاهده ومقاصده[(٢)] ؛ ولك أُسوةٌ بوالدك السلطان الملكِ المظفَّر ، هلّا آقتفَيتَ ما سنّه من آثاره ، ونقلتَ ما دوّنته أيدى الزمن من أخبـاره ؛ واتصل بمواقفنا الشريفة أمورٌ صدرت منك : منهـا[(٣)] — وهى العظمى التى تَرَتَّب عليها ما تَرَتَّب — قطعُ الميرة عن البيت الحرام ، وقد علمتَ أنه وادٍ غيرُ ذى زرع ، ولا يحـلّ لأحدٍ أن يَتطرّق إليه بمنع ؛ وكفتك الآيةُ[(٤)] دليلا على ما صنعت ، وبرهانا على ما فعلت ؛ ومنها آنصبابُك[(٥)] على تفريغ مال بيت المـال فى شراءِ لهوِ الحديث[(٦)] ، ونقضُ العهود القديمة بما تبديه من حديث ؛ ومنها تعطيلُ أجيـاد المنابر من عقود آسمنا ، وخلوُّ تلك الأماكن من أمرِ عقـدنا وحَلّنا ؛ ولو أوضحنا لك ما آتصل بنـا من أمرك لطال ، ولا آتسعتْ فيـه [دائرة][(٧)] المقال ؛ رسمنا بهـا والسيفُ يَوَدّ لو سبق القلمَ حدُّه ، والعلَمُ المنصور يحب لو فات القلمَ وآهتزّ بتلك الروابى قدُّه ؛ والكتائبُ المنصورةُ تَختار لو بَدَرتْ[(٨)] عِنوانَ الكتاب و [أهـلُ][(٩)] العزم والحـزم يَوَدّون اليك إعمـالَ الرِّكاب ؛ والجـوارى المنشآتُ قد

(١) اليعملات : جمع يعملة ، وهى الناقة النجيبـة المعتملة المطبوعة على العمل ؛ ولا يوصف به ، وإنمـا هو اسم ، والياء فيه زائدة .

(٢) عبارة صبح الأعشى : « وبحال دياره ومعاهده » .

(٣) فى الأصل : «بها» ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٤) يريد بالآية قوله تعالى حكاية عن سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله تعالى عليه : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع) الخ الآية .

(٥) يقال : انصب البازى على الصيد اذا انقض عليه ، وما هنا مستعار منه .

(٦) فى الاصل : «فى سرى» ؛ وهو تحريف .

(٧) لم ترد هذه الكلمة فى الاصل ؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٥ .

(٨) « لو بدرت عنوان » الخ أى لو سبقته إلى حربك ؛ يقال : بدرت فلانا إلى الأمر وبادرته ، اذا سابقته اليه .

(٩) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى اذ بها يستقيم الكلام .

تكوّنت من ليلٍ ونهار، وبرَزت كصور الفِيلة[1] لكنها على وجه الماء كالأطيار، وما عمدْنا[2] الى مكاتبتك إلا للإنذار، وما جنحْنا لمخاطبتك الا للإعذار؛ فأقلِعْ عما أنت بصدده من الخيلاء والإعجاب، وآنتظِم فى سلك من آستخلفناه على أعمالنا فأخذ بيمينه ما أُعطِىَ من كتاب؛ وصُن بالطاعة نفوس من زعمتَ أنهم مقيمون تحت لواء علمِك، ومنتظمون فى سلك أوامر كَلِمك، وداخلون تحت طاعة قلمِك؛ فلسنا نَشُنّ الغارات على من نطق بالشهادتين لسانه وقلبُه، وآمتثل أوامرَ الله المطاعةَ عقله ولبُّه؛ ودان الله[3] بما يجب من الدِّيانه، وتقلّدَ عقود الصلاح وآلتحف بمطارف[4] الأمانه؛ ولسنا ممن يأمر بتجريد سيف الا على من علمنا أنه خرج عن طاعتِنا، ورفض كتابَ الله ونزَعَ عن مبايعتِنا؛ [فأصدرنا][5] مرسومنا هذا اليه يَقصّ عليه من أنباء حلمنا ما أطال مدّة دولتِه، وشيّد قواعدَ صولتِه؛ ويَستدعى منه رسولا إلى مواقفنا الشريفه، ورحابِ ممالكنا المنيفه؛ لينوب عنه فى قبول الولاية مَنابَ نفسِه، وليجنىَ بعد ذلك ثمارَ شفقاتنا إن غرس شجرَ طاعتنا ومن سعادة المرء أن يجنىَ ثمارَ غرسِه؛ بعد أن يُصحِبه من ذخائر الأموال ما كثر قيمةً وخفّ حملا، وتَغالَى[6] فى القيمة[7] رتبةً وحسُن مِثلا؛ وآشرُط على نفسك فى كل

(١) فى الأصل وصبح الأعشى: «الافيلة»؛ ولم نجد هذا الجمع فيما راجعناه من كتب اللغة، وأنكره ابن السكيت.

(٢) فى الأصل: «عهدنا» بالهاء؛ وهو تحريف.

(٣) دان الله: أى أطاعه، يقال: دنته ودنت له، وهو من الدين بمعنى الطاعة (انظر اللسان). وقال فى الاساس: دانوه، أى انقادوا له.

(٤) هذه الباء ساقطة من الأصل وصبح الأعشى؛ واللغة تقتضى إثباتها.

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل، وقد أثبتناها عن صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٥ اذ بها يستقيم الكلام.

(٦) تغالى: آرتفع وفى المحكم: كل ما ارتفع فقد غلا وتغالى انظر تاج العروس. والذى فى صبح الأعشى: «وتعالى» بالعين المهملة؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٧) عبارة صبح الأعشى: «وتعالى رتبة» الخ بدون قوله: «فى القيمة» والمعنى يستقيم عليه أيضا.

سـنة قطيعةً[(١)] ترفعها الى بيت المـال، و إيّاك ثم إيّاك أن تكون عن هذا الأمر ممن مال ؛ و رتِّب جيشا مقيما تحت لواء علم السـلطان الأجلّ الملكِ الناصرِ للقاء العدو المخذول التتار، ألحق الله أوّلهم بالهلاك وآخرهم بالبوار؛ وقد علمتَ تفاصيل أحوالهم المشهوره، وتواريخَ سِـيَرهم المذكوره ؛ وٱحترِص[(٢)] على أن يخصك من هذا ٱلمشرب السائغ أوفى نصيب، و [أن تكون][(٣)] ممن جهّز جيشا فى سبيل الله فرَمَى بسهم فله أجرٌ كان مصيبا أو غيرَ مصيب ؛ ليعود رسـولك من دار الخلافة بتقاليدها وتشاريفها حاملا أهـلّةَ أعلامنا المنصوره، شاكرا برَّ مواقفنا المبروره؛ و إن أبى حالُك[(٤)] إلا أن ٱستمررتَ على غيِّك، وٱستمرأتَ مرعى بَغيك ؛ فقد منعناك التصرّف فى البلاد، والنظرَ فى أحكام العبـاد؛ حتى تطأَ خيلنا العتاقُ مشمخرّاتِ حصـونِك ، وتعجّل حينئذ ساعة منونك ؛ وتُمسِى لهَوادى قِلاعِك عقودا، ولعرائسِ حصونك نهودا ؛ وما علّمناك غير ما علمه قلبُك ، ولا فهّمناك غير ما حدّسَه[(٥)] لبُّك ؛ فلا تكن كالصغير تزيده كثرةُ التحريك نوما، ولا ممن غرّه الإمهالُ يوما فيوما ؛ وقد أعلمناك ذلك فاعمل بمقتضاه، موفّقا إن شاء الله تعالى ؛ والحمد لله وحده .

---

(١) القطيعة : الضريبة والوظيفة .

(٢) يقال : احترص واحرص ، كلاهما بمعنى واحد .

(٣) التكملة عن صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٦ .

(٤) المشهور فى كتب اللغـة أن الحـال تذكر كما هنا وتؤنث ، فيقال : حال حسن ، وحال حسـنة (المصباح) .

(٥) حدس : ظن ظنا مؤكدا ، « المصباح » والمراد بالحدس هنا : اليقين كما يستعمل الظن فى معنى اليقين أيضا كقوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) الآية .

ومن إنشائه تقليد السلطان الملك الناصر لما ترك الديار المصرية وأقام بالكَرَك[1] — وكُتِب له بذلك من ديوان الإنشاء عن الملك المظفّر ركنِ الدين، فلم يمكن الكاتب الإطناب، ولا وَسِعَه غيرُ الاختصار[2]، فلم يُرضه الكتّاب، وعَمِلَ جماعةٌ منهم فى ذلك تجرِبةً لخواطرهم ولم يُكتَب بشىء منها فعمِلَ هو — :

الحمد لله مدبّرِ الأمر على ما يشاء فى عبادِه، ومنقِّلِ الحالِ على حكم اختياره ووَفقِ مرادِه، ومُجرِى أسبابِ الممالك على يد من اختاره من عباده لإصدارِ الأمر وإيرادِه، ومجيبِ من أصبح قاصدا بابَه الشريفَ والزهادةُ فيما حوله مِن اعتقادِه، ومعزِّ من أضحى له من حِقونا[3] ركنٌ استَنَد إليه الدهرُ فى استنادِه، يلبّى دعوةَ مرامه حيث كان من بلادِه، ويجيب داعىَ نِداه وإن بعد فيكون أقربَ من سرِّه الى فؤادِه، يَذُبّ عن حَوزة نسائه بِبِيض مرهَفاته وسمرِ صِعادِه، ويحمى بيضة جاهه بالغُلْب من أشياعِه والجُرْدِ من جِيادِه؛ نحمده على أن جعل مُوالاتَنا لهذا البيت الشريف المنصورىِّ تستديم عهودَه، وتَلتحف من المحافظة على مَراضيه الشريفة فى كلِّ حالٍ بُرودَه؛ وتَرِد من القيام بواجب حقِّه أعذبَ منهل شَرَعه الصفاءُ وسَنّه، وأكّد مُوالاتَه الوفاءُ وحسنُ الوفاء من شعار أهل السُّنّة؛ ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تَرفع أعلامَ الهدى بكَلِمها، وتُخمِد نارَ الشرك بنور هداية

(١) الكرك بفتح الكاف والراء كما ذكره ياقوت: اسم لقلعة حصينة جدا فى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها بين أيلة وبحر القلزم والبيت المقدّس، وهى على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الريض.

(٢) فى الأصل: «عن»؛ وهو تحريف.

(٣) فى الأصل: «جقونا» بالجيم؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا. والمراد بالحقو هنا: الجناب الذى يستجار به ويلتجأ اليه، وهو مجاز، والعرب تقول: عذت بحقوه اذا عذت به ليمنعك قال الشاعر:

سماع الله والعلماء انى * أعوذ بحقو خالك يابن عمرو

عِلْمها وعَلَمِها ، وتُطهِّر أديمَ البسيطة من أرجاس الكفرة بالحـدّين من غَرْبى[1] صَمصامها وقلمِها ، وتُروِى كلَّ قُطر أصبح ماحلًا من قَطرَىْ عدلها ونعمِها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسـوله الذى كانت الزهادة مَلاكَ أمره و [المـلوكُ[2]] تحت وطأة أقدامِه ، والملائكةُ يحفُّونه مِن حوله ومن أمامِه[3] ، ومعادنُ الذهب تُعرَض عليـه فيساوِى لديه لزهادته بين نُضارِه ورَغامه ؛ صلّى الله عليـه وعلى آله وصحبه صـلاة تُحاكِى أرجَ الصَّـبا وقد سرَى عن خزامِه[4] ، وتُضاهِى فَتيقَ[5] المسـك وقد تنفّس عن ختامِه ، مشـفوعةً إلى يوم القيامة برضوانه وسـلامِه ؛ وبعد ، فإنه لمـا كان المقامُ العالى الملكىُّ الفلانىُّ هو الذى ربّته المالكُ فى حجرها وليدا ، وخوّلته السلطنةُ الشريفـةُ من نفائس ذخائرها طارفا وتليـدا ؛ وبوّأته من مراتب العز أقصى غاية لا ترام ، وأبادت بمرهَفه البتّار جمعَ التتار الطَّغام ؛ وآستخدمتْ لطاعتـه جيشَين : جيشَ نهارٍ بَكّر فيه مواليه على أعدائه بسابِق خيـلِه ومرهَف حسامِه ، وجيشَ ليلٍ تَبسُـط أولياءُ دولته أكُفَّهـم للدعاء ببقائه فى جنح ظلامِه ؛ طالمـا هزّت المنابرُ أعطافَها طربا عنـد ذكر آسمِه ، وآزدادت وسامةُ الدّينارِ حُسـنا لمّـا شرّفها بحسن

(١) فى الأصل : «عزى» ؛ وهو تصحيف .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٣) لعله : «من خلفه» كما تدل عليه مقابلته بالأمام .

(٤) يريد بالخزام : الخزامى ، وانما أسقط الألف لضرورة السجع الذى التزمه فى هـذا التقليد ؛ أو لعـل الخزام بدون الألف لغة فى «الخزامى» ، ولم نجده فيما بين أيدينا من كتب اللغة غير كتاب أقرب الموارد ؛ والخزامى : خيرى البرّ وهى عشبة طويلة العيدان ، صغيرة الورق ، حمراء الزهرة ، طيبة الريح ، لها نور كنور البنفسج ؛ قال أبو حنيفة : ولم نجد من الزهر زهرة أطيب نفحة من نفحة الخزامى ؛ وواحد الخزامى خزاماة .

(٥) الفتيق — فعيل بمعنى مفعول ، من فتقت المسك بغـيره : اذا استخرجت رائحته بشىء آخر تدخله عليه .

وشِيمه ورسْمِه ؛ وتلت أوصافَ بأسه ألسنةُ خرصانِه[1] ، ورجعتْ سوابقُ الهمم عن التطاوُل للطاوَلة فى مَيدانِه، وقالت فوارس الجروب لمّا رأت كرَّه : هـذا سِباق لسنا من رهانِه ؛ كم فرق بجيشه اللُّهامِ[2] جيشا أرمَدَ جفنَ الشمس بقتامِه ، ونصرَ الأحزابَ يوم الكريهة بالعاديات من خيله والمرسَلاتِ من سهامِه ، فالدهرُ يشكر مواقفَ إقدامِه ، والعدلُ ينشر منشور فضله وسديد أحكامِه ؛ والممالكُ تُثنِي على عليائه بالسَداد ، والمسالكُ تُهدِى لسالكها ما خصّها به مِن أمنها المعتاد ؛ والناسُ فى ظلّ عدلٍ لياليه [خُلِقتْ][3] كما شاءوا أسحارا ، والوحشُ والغنمُ كلٌّ منهما قد جعل صاحبَه جارا ؛ ومواطنُ العلوم أمست تطرّز بمحاسن أوصافِه ، وحُكّام الشرع الجليل أضحت تَميس فى حلل عدله وإنصافِه ؛ والأماكنُ التى تُشَدّ لها الرحالُ يفترّ ثغرها عن عدلِه ، والمشَاعرُ المعظَّمةُ قد حمى حَوزتَها بالسهم من نصلِه والشهمِ من رَجْلِه[4] ؛ تَنقّل فى مراتب الملك صغيرا الى أن اشتدّ بالعزم القوىّ كاهلُه ، واستوطن ربعَ العزّ مذ كان يَجتلِى بدورَه وتجتليه عقائلُه ؛ فلم تبقَ له مأرُبةٌ إلا قضاها ، ولا حالةٌ إلا ابتلاها ، ولا غمّةٌ إلا جلاها ، ولا آيةُ شكر إلا تلاها ؛ الى أن قمع بحدّ

(١) الخرصان : جمع خرص بكسر الخاء وضمها ، وهو سنان الرمح .

(٢) اللهام : الجيش الكثير ، كأنه يلتهم كل شىء .

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل والسياق يقتضيها إذ بها يستقيم الإعراب بالنصب فى قوله «أسحارا» ، وبنصبه يتم السجع الذى التزمه الكاتب فى هذا التقليد ؛ وقد استنسبنا زيادة هذا اللفظ دون غيره لوروده فى بعض رسائل القاضى الفاضل إذ قال : والليالى التى طابت فكأنما خلقت جميعها أسحارا انظر صفحة ٢٠ سطر ٧ من هذا الجزء .

(٤) الرجل : اسم جمع عند سيبويه للراحل ، وهو ضد الراكب .

سيفه كلَّ مُجترى، وقال للسحابة كما قيل : ٱمطُرى[(١)]؛ رأى[(٢)] أن المواردَ الدنيويّة لا بدّ لهـا من مصادر، وأن أوائلَ الأمور تَستدعِى الأواخر، وأن للزهادة فى الدنيا وإن عظُم قدرُها الشأنَ الكبير، وأن الانقطاعَ الى الله تعالى مَنهلُ صفو لا يَقبل شوائبَ التكدير؛ وقوىَ عزمُه فى الرّحلة عن مَقرّ ملكه الى أعزّ حصونه المنيعه ، بل الى أجلّ معاقله الشامخة الرفيعه؛ قاصدا بها ٱلانفراد ، عالمـا بأن الله يطلع على خفيّات الفؤاد؛ فرحل ركابُه العـالى ونظامُ المملكة من حُسن الهيئة قائم على ساق، وقلوب كفّال الممـالك الشريفةِ متّفقةٌ على الاتفاق؛ واثقا بأن للمُلك من أولياء بيته الشريف كلَّ ولىِّ عهـدٍ لا تُخفَر لديه الذمم ، وكلَّ سلطانِ أُفُقٍ[(٣)] تَضؤل دون عزمـه الهمم؛ يَحِى بيضةَ خدره من كلِّ متطاولٍ إليها، ويقصّر أسبابَ الحرص من كلّ شانٍّ[(٤)] عليها؛ وٱختار الانفراد، وتَيقّن أنّا لا نعدل عمّا أراد؛ ونصَبَ عُمُدَ خيامه الشريفةِ على سفح روضِ الكَرَك النَّضِر، وحَلَّ منه رأسَ شاهقةٍ نبتُها خَضِر؛ ورغب فى الزهادة وشعارِها، وٱستوت[(٥)] عنده الدنيا فى حالتَىْ إقبالها وإدبارِها؛ فاقتَضَى ٱعتناؤنا الشريفُ أن نبلّغه من مآربه الشريفـة أقصى المرام، وأن نساعده فى كلّ أمر يعرف منـه الموافقـة منّا على الدوام؛ وأن ننظِم الأمرَ فى سلك الإرادة على مُرادِه، وأن نبادر إلى راحة سرّه الشريف وفؤادِه ؛ ولسوف نعامل مقامَه العالىَ بكلّ ٱحترامٍ يصـل

(١) يشير بهذه العبارة الى ما روى عن بعض الخلفاء أنه رأى سحابة تسير فى الأفق ملأى بالمطر فقال : امطرى حيث شئت فإن ما تنبتينه سيجبى الينا . يريد بهذا أن مملكته واسعة الأطراف فلن تجاوزها السحابة مهما أبعدت فى المسير .

(٢) رأى : جواب لما السابقة فى قوله : «لما كان المقام العالى» الخ .

(٣) المراد بالأفق هنا : الناحية من الأرض ، وتضم فاؤه وتسكن .

(٤) الشان بتشديد النون : اسم فاعل من شن الغارة على القوم اذا صبها عليهم من كل وجه .

(٥) فى الأصل : «واستهوت» ؛ والهاء زيادة من الناسخ .

إليه تفصيلا وإجمالا ، ونراعى معه أدبَ أسلافه الكرامِ حالا فحالا ، وإنّا لا نخليه من تجهيز مثالٍ يتضمّن من محاسنه سِيَرا وأمثالا ، ولولا عرفُ السلطنة ونظامُ المملكة يقتضيان ذلك ما جهّزنا إلى بابه الشريف مثالا ، فلذلك خرج الأمرُ الشريفُ بكذا وكذا .

٥ هذا ما آتفق إيرادُه فى هذا الفصل من رسائل الكتّاب ، وكتّابُ العصر — أعزّهم الله تعالى — كثير ، وكلامُهم مشهور ، ومدوَّنٌ بأيدى الناس ومحفوظٌ فى صدورهم ، ولَم نشترِطْ أن نورد لجميعهم فنلتزم الشرط ، ولو فعلنا ذلك لطال الكتابُ وخرج عن شرطه ، وانما خصصنا هؤلاء بالذكر لتعلُّقنا بهم ، وآتصال سببنا فى الوداد بسببهم .

---

١٠ ذكر شىء من الأبيات الداخلة فى هذا الباب (١)

فمن ذلك قول بعض الشعراء :

إنّى لِعُظْمِ تشوُّقى * وشديدِ وجدى واكتئابى
أصبحتُ أحسُد من يفو * ز بقربكم حتى كتابى

وقال آخر :

١٥ وما تأخُّرُ كُتْبى عنك من مللٍ * طُوبى (٢) لوُدّك يآبن السادة النُّجبِ
لكن حسدتُ كتابى أن يراك وما * أراك فاخترتُ إمساكى عن الكتُبِ

---

(١) المراد بالباب هنا : باب الرسائل الإخوانية فقد سبق أن ترجم لها فى السفر السابع من هذا الكتاب ص ٢١٣ إذ قال : « واما الرسائل الإخوانية وما يتجدد من الأمور ويطرأ من الحوادث » .

(٢) طوبى وزان فعلى ، من الطيب ، كأن أصله طيبى بضم الطاء فقلبوا الياء واوا للضمة قبلها .

[وقال آخر] (١) :

عقتُ الرسائل طامعا أن نلتقى * فأبَى الزمانُ يُتيح لى ما أطلبُ
وتأخرتْ كُتْبِى فقلتُ أعاتبٌ * فى ذاك أنت علىّ أم متعتِّبُ (٢)
فإذا وجدتك فى الضمير ممثَّلا (٣) * أبدا تـاجينى إلى مَن أكتبُ

وقال آخر :

الكُتْبُ تُكتب للبعيـ * ـد وانت من قلبى قـريب
فإذا وجـدتك فى الفـؤا * دِ فمَن أكاتب أو أجيب

وقال آخر :

لو أنّ كُتْبِى بقدر الشوق واصلةٌ * كانت إليك مع الأنفاس تتّصلُ
لكنّنى والذى يبقيك لى أبدا * على جميل اعتقادى فيك أتّكلُ

وقال آخر :

وفى الكُتْب نجوى من يَعِزّ لقاؤه * وتقريبُ من لم يدنُ منه مَزارُ
فلِمْ تُخلِنى (٤) منها وتعـلمُ أنّها (٥) * لعيـنى وقلبى قُـرّةٌ وقَـرارُ

وقال آخر :

سألتـك عوِّذنى بكُتْبك إنّ لى * شياطينَ شوق لا تفارِق مَضْجَعى
إذا استرقتْ أسرارَ فكرى تمرُّدا * بعثتُ إليها فى الدجى شُهُبَ أدمعى

(١) لم ترد هذه العبارة فى الأصل .

(٢) التعتّب : التجنّى ، يقال : تعتب عليه وتجنى عليه ، كلاهما بمعنى واحد .

(٣) ورد هذا البيت فى صفحة ٣٢ من هذا السفر أيضا وروايته ثم : « مهما وجدتك » الخ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٤) كذا ورد هذا الفعل فى الأصل بحذف الياء ، ولا نرى مقتضيا لجزمه غير ضرورة الوزن ، أولعله : « فلا تخلنى » واذن فهو مجزوم بلا الناهية .

(٥) فى الأصل : « أنى » ؛ والسياق يقتضى الهاء كما أثبتنا .

وقال آخر :

أتبخل بالقرطاس والخط عن أخٍ * وكفّاك أندى بالعطايا من المزنِ
لعمرى لقد قوّى جفاؤك ظِنّتى * وأوهن تأميلى وما كان ذا وَهْنِ

وقال آخر :

أظنّ القراطيسَ فى مصركُم * تخوّنها ريبُ دهرٍ خؤون
فلو أنها صفحاتُ الخدو * د يُكتَب فيها بماء الجفون
لما أعوزتْك ولكن جفوت * فألقيتَ شأنى خلالَ الشؤون

(٢١)

وقال المتنبّي فى جواب كتاب وَرَدَ عليه :

بكُتْب الأنام كتابٌ ورد[1] * فَدَتْ يدَ كاتبِه كلُّ يد
يعبِّر عما له عندنا * ويذكر من شوقه ما نجِد

وقال أبو الفتح البُسْتىّ :

لمّا أتانى كتاب منك مبتسمٌ * عن كل فضلٍ وبرٍّ غيرِ محدودِ
حَكَتْ معانيه فى أثناء أسطره * آثارَك البِيضَ فى أحوالىَ السودِ

وقال آخر :

طلع الفجر من كتابك عندى * فمتى باللقاء يبدو الصباحُ

وقال آخر :

ولمّا أتانى بعد هجرِ كتابكم * وفيه شفاءُ الوالهِ الدنفِ المُضْنَى
سُررتُ به حتى توهّمتُ أنه * كتابى وقد أُعطيتُه بيدى اليمنَى

---

(١) قوله : « كتاب » بالرفع على الابتداء ، أى كتاب ورد مفدىٌّ بكتب الخ ويجوز أن يقرأ بالنصب على المفعولية ، أى أفدى بكتب الأنام كتابا ، وقد جوّز العكبرىّ الوجهين عند شرحه لقول المتنبي أيضا : * بأبى الشموس الجانحات غواربا *
انظر شرحه لديوان المتنبي ج ١ ص ٩٠ طبع بولاق .

وقال آخر :

نفسى الفداءُ لغائب عن ناظرى * ومحـــلُّه فى القلب دون حجابِه
لولا تمتُّـــع مقلتى بلقـائه * لوهبتُها لمبشِّرى بكتابِه

وقال آخر :

ورد الكتابُ مبشِّرا * نفسى بأوقات (١) السرور
وفضضـــتُه فوجـــدتُه * ليـــلا عـلى صَفَحات نور
مِثـــلَ السوالِف والخدو (٢) * د البيضِ زِينَتْ بالشـعور
أنزلتُـــــه مـــنّى بمـ * ـنـزلة القـلوبِ من الصدور

وقال آخر فى كتاب عُدِم فلم يصل إليه :

نُبِّئتُ أنّ كتابا * أرسلتَه مع رسـولِ
ملأتَه منـك طِيبا * فضاع قبل الوصولِ

ومما يتصل بهذا الباب ويلتحق (٣) به، ويحتاج الكاتبُ إلى معـرفته والاطلاع عليه الحجّةُ البالغةُ والأجوبةُ الدامغة .

فمن ذلك فى التنزيل قولُه عزّ وجل : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

وقولُه تعـالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .

(١) فى الأصل : « بأوراد » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : « والحدوق » بالحاء المهملة والقاف ؛ وهو تحريف .
(٣) انظر الحاشية رقم ٧ من صفحة ١٥٠ من هذا السفر .

وقولُه تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ .

وقولُه تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ .

٥ وقولُه تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ .

وقولُه تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ .

١٠ وقال تعالى فى الدَّلالة على إثبات نبوّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ ، فإنه صلّى الله عليه وسلّم كان يُعرَف فى قريش بالصادقِ الأمين

وقولُه تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

١٥ ولمّا بُعِث رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " يا معشر قريش لو قلتُ لكم إنّ خيلا تَطلُع عليكم من هذا الجبل كنتم تصدّقونى (١) ؟ قالوا : نعم ؛ قال : (٢٢)

(١) روايته فى صحيح البخارى من طريق يوسف بن موسى : أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقىّ ؟ الخ وفى رواية أخرى من طريق محمد بن سلّام : أن العدوّ مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدّقونى ؟ الخ وحذفت نون الرفع من قوله : تصدقونى تخفيفا ؛ ويروى تصدّقوننى بإثباتها انظر ٢٠ ارشاد السارى ج ٩ ص ٢٩٥ طبع الأستانة .

"فإنّى نذيرٌ لكم بين يدَىْ عذابٍ شديد" فلمّا أقرّوا بصدقه خاطبهم بالإنذار، ودعاهم إلى الإسلام . فهذه حججٌ من الكتاب والسنّة لا جواب عنها

ولمّا انتهى إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يومَ السّقيفة أنّ الأنصارَ قالت : منّا أميرٌ ومنكم أمير ؛ قال علىّ : فهلاّ احتججتم عليهم بأنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أوصى بأن يُحْسَن إلى محسنهم ، ويتجاوَزَ عن مسيئهم ؛ قالوا : وما فى هذا من الحجة عليهم ؟ قال : لو كانت الإمارةُ فيهم لم تكن الوصيّةُ بهم .

ولمّا قال الحُبابُ بنُ المنذر فى يوم السّقيفة أيضا : أنا جُذَيْلُها(١) المُحكَّك وعُذَيْقُها(٢) المُرجَّب ، إن شئتم كررناها جَذَعة(٣) ، منّا أميرٌ ومنكم أمير ، فإن عمل المهاجرىُّ شيئا فى الأنصارىِّ ردّه عليه الأنصارىّ ، وإن عمل الأنصارىُّ شيئا فى المهاجرىِّ ردّه عليه المهاجرىّ ؛ أراد عمر الكلام ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : على رِسْلِك(٤) ، نحن المهاجرين أوّلُ الناس إسلاما ، وأوسطُهم دارا ، وأكرمُ الناس حسبا ، وأحسنُهم وجوها ، وأكثرُ الناس ولادةً(٥) فى العرب ، وأمسُّهم رحما بالرسول صلى الله

(١) الجذيل : تصغير جذل بكسر الجيم قال يعقوب : عنى بالجذيل هنا الأصل من الشجرة تحتك به الإبل فتشتفى به ، أى قد جربتنى الأمور ، ولى رأى وعلم يشتفى بهما كما تشتفى هذه الإبل الجربى بهذا الجذل ؛ وصغره على جهة المدح .

(٢) العذيق : تصغير تعظيم للعذق بالفتح ، وهو النخلة . والمرجب : من الترجيب ، وهو أن تدعم النخلة من جانب ليمنعها ذلك من السقوط ؛ يريد أن له عشيرة تعضده وتمنعه وترفده ؛ وقيل : الترجيب هنا بمعنى التعظيم .

(٣) قال فى اللسان : اذا أطفئت حرب بين قوم فقال بعضهم : ان شئتم أعدناها جذعة : أى أوّل ما يبتدأ فيها اه .

(٤) الرسل : التؤدة ، يقال : على رسلك ، أى اتئد ، كما يقال : على هينتك .

(٥) كذا فى الأصل وعيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٣ طبع دار الكتب المصرية ، يريد بهذه العبارة أنهم أكثر عددا وأغزر نسلا ؛ ويحتمل أن يريد أن كثرة مصاهرتهم لغيرهم من القبائل جعلت أبناءهم فى قبائل العرب أكثر من سواهم ، أى أن اتصالهم بالعرب أوثق ، وأشياعهم من القبائل أكثر .

عليه وسلّم ، أسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا فى القرآن عليكم ، وأنتم إخواننا فى الدِّين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارُنا على العدوّ[(١)] ، آويتم وواسَيتم ، فجزاكم الله خيرا ، نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تَدين العرب الا لهذا الحىّ من قريش . قالوا : قد رضِينا وسلّمنا .

قال بعض اليهود لعلىّ رضى الله عنه : ما دفنتم[(٢)] نبيّكم حتى آختلفتم ، فقال : انما آختلفنا عليه[(٣)] لا فيه ، ولكنكم ما جفّت أرجلُكم من البحر حتى قلتم لنبيّكم : ﴿ آجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ .

وقال حاطِب بن أبى بَلْتَعة : لما بعثنى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم الى المقوقِس مَلكِ الإسكندريّة بكتابه ، أتيتُه وأبلغته الرسالة ، فضحك ثم قال : كتب إلىّ صاحبك يسألنى أن أتبَعه على دينه ، فما يمنعه إن كان نبيا أن يدعوَ الله فيسلِّط علىّ البحرَ فيغرقَنى فيكتفىَ مُؤْنتى ، ويأخذَ مُلْكى ؟ قلتُ : ما مَنَع عيسى عليه السلام إذ أخذتْه اليهودُ فربطوه فى حبل ، وحلقوا وسطَ رأسه ، وجعلوا عليه إكليلا من شوك ، وحَمَلوا خشبتَه التى صلبوه عليها على عاتقه ، ثم أخرجوه وهو يبكى حتى نصبوه على الخشبة ثم طعنوه حيّا بحربة حتى مات — على زعمِكم — فما مَنَعه أن يدعوَ اللهَ فينجيَه ويهلكَهم ، ويكتفىَ مُؤْنتهم ، ويَظهرَ هو وأصحابه عليهم ؟ وما منَع يحيى بن زكريّا حين سألت آمرأةُ المَلِكِ المَلِكَ أن يقتله فقتله وبعث برأسه اليها حتى وُضِع بين يديها أن يسأل الله أن يحميَه ويهلكَهم ؟ فأقبَل على جلسائه وقال : والله إنه لحكيم ، وما تخرج الحِكَم إلّا مِن عند الحكماء .

---

(١) كذا فى عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٤ والذى فى الأصل : « فى » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « ما دفعتم » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٣) عليه : أى على الأولوية به ومن أحق بخلافته قرابته أم غيرهم ؟ لا فيه : أى لا فى صدق رسالته .

وخطب معاويةُ بنُ أبى سفيان ذات يوم وقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ فما نلام نحن؛ فقام اليه الأحنفُ بنُ قيس فقال له : يا معاوية، إنا والله ما نلومك على ما فى خزائن الله، وإنّما نلومك على ما آثَرَك الله [به] (١) (٢) علينا من خزائنه فأغلقتَ بابَك دونَه .

وقال معاويةُ لرجل من اليمن : ما كان أحمقَ قومَك حين مَلّكوا عليهم امرأة ! قال : قومُك أشدُّ حماقةً إذ قالوا : "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" أفلا قالوا : اهدِنا له .

وقيل : مرّت امرأةٌ من العرب بمجلس من مجالس بنى نُمير، فرماها جماعةٌ منهم بأبصارهم، فوقفت ثم قالت : يابنى نُمير، لاأمرَ الله تعالى أطعتم، ولا قولَ الشاعر سمعتم، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾

وقال الشاعر (٣) :

فغُضَّ الطرفَ إنّك من نُميرٍ * فلا كعبا بلَغتَ ولا كلابا

فما اجتمع منهم بعد ذلك اثنان فى مجلس .

وقيل : استعمَل عُتبةُ بنُ أبى سفيان رجلا من أهله على الطائف، فظَلَم رجلا من أَزْدِ شَنُوءة، فأتى الأزدىُّ عُتبةَ فقال :

أمرتَ مَن كان مظلوما ليأتيَكم * فقد أتاكم غريبُ الدار مظلومُ

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «عليك» ؛ وهو تحريف .

(٣) هو جرير؛ والبيت من قصيدة له يهجو الراعى النميرى انظر ديوان جرير ص ٣١ طبع المطبعة العلميـــة .

ثم ذَكر ظلامتَه ، فقال عُتبة : إنّى أرى أعرابيّا جافيا ، والله ما أحسَبك تَدرِى كم تصلّى فى اليوم والليلة ؛ فقال : إن أنبأتُك ذلك تجعلُ لى عليك مسألة ؟ قال : نعم ؛ فقال الأعرابىّ :

إنّ الصلاةَ أربعٌ وأربعُ * ثم ثلاثٌ بعدهنّ أربعُ
* ثم صلاةُ الفجر لا تُضيَّعُ *

قال : صدقتَ فاسألْ ؛ فقال : كم فَقارُ ظهرِك ؟ فقال : لا أدرى ؛ قال : أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك ؟ فأمر بردّ ظلامتِه عليه .

وقال الحجّاج بن يوسف ليحيى بن سعيد بن العاصى (١) : بلغنى أنّك تشبِه إبليس فى قبح وجهِك ؛ قال : وما ينكِر الأميرُ مِن أن يكون سيّدُ الإنس يشبه سيّدَ الجنّ ؟ .

وقال لسعيد بن جُبير : اِختر لنفسك أىَّ قِتْلة شئت ؛ قال : اِختر أنت فإنّ القصاص أمامَك .

وحُكِىَ أن حويطِب (٢) بنَ عبد العُزّى بلغ عشرين ومائةَ سنة ، ستين فى الجاهليّة وستين فى الإسلام ، فلما ولىَ مروانُ بنُ الحكم المدينةَ دخل عليه حُويطِب (٢) ، فقال له مروان : لقد تأخّر إسلامُك أيها الشيخ حتى سبقك (٣) الأحداث ؛ فقال : والله لقد هممتُ (٤)

(١) قال المبرد : انه العاصى بالياء لايجوز حذفها ، وقد لهجت العامة بحذفها . قال النحاس : هذا مخالف لجميع النحاة ؛ يعنى أنه من الأسماء المنقوصة فيجوز فيه إثبات الياء وحذفها مستدرك التاج مادة « عصى » .

(٢) فى الأصل : « خويطب » بالخاء المعجمة ؛ وهو تصحيف ، والتصويب عن القاموس وغيره . وهو حويطب بن عبدالعزى بن أبى قيس بن عبد ودّ ، ينتهى نسبه الى عامر بن لؤى ؛ ويكنى أبا محمد ؛ وأسلم يوم فتح مكة ؛ وكانت وفاته سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٥ ص ٣٣٥ طبع ليدن .

(٣) فى الأصل : « تتعك » ؛ وهو تحريف لا معنى له .

(٤) هذه الكلمة فى الأصل مطموسة الحروف تتعذر قراءتها ؛ وقد أثبتناها عن العقد الفريد ج ٢ ص ١١٧ طبع المطبعة الشرفية بمصر .

بالإسلام غيرَ مرّة كلُّ ذلك يَعُوقنى أبوك عنه[(١)] وينهانى ، ويقول : أتَدَع[(٢)] دين آبائك [لدينٍ مُحدَث[(٣)]] ؟ ! أما أخبرك عثمانُ ما كان قد لَقِىَ من أبيك حين أسلم .

وقيل : لمّا ظفِر الحجّاج بابن الأشعث وأصحابه أمَرَ بضرب أعناقهم ، حتى أتَى على رجلٍ من تميم ، فقال التميمىّ : أيها الأمير، والله لئن أسأنا[(٤)] فى الذنب ما أحسنتَ[(٥)] فى العقوبة ؛ فقال الحجاج : وكيف ذاك ؟ قال : لأنّ الله تعالى يقول : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ فوالله ما مَننتَ ولا فاديتَ[(٦)] ؛ فقال الحجّاج : أفٍّ[(٧)] لهذه الحِيَف ، أما كان منهم من يُحسِن مِثلَ هذا ؟ وأمَر بإطلاق من بقِىَ وعفا عنهم .

وحُكِىَ أن الرشيد سأل موسى بنَ جعفرٍ فقال : لِمَ قلتم إنّا ذرّيّةُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وجوّزتم للناس أن ينسُبوكم اليه ويقولوا : يا [بَنِى][(٨)] نبىّ الله وأنتم

(١) فى الأصل : « به » وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا ، وانظر العقد الفريد .

(٢) فى الاصل : «امامك» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر العقد الفريد .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن العقد الفريد ج٢ ص١١٧ طبع المطبعة الشرفية .

(٤) فى الأصل : « أمرنا » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما تدل عليه مقابلته بقوله : ما أحسنت .

(٥) فى الأصل : « لما أحسنت » واللام زيادة من الناسخ فان الجملة جواب للقسم السابق وليست جوابا للشرط لتقدّم القسم عليه ؛ وفى كتب القواعد أن جواب القسم اذا نفى « بما » لم يقترن باللام وما ورد من اقترانه بها شاذ لا يقاس عليه ، ومنه قول الشاعر :

أما والذى لو شاء لم يخلق الورى * لئن غبت عن عينى لما غبت عن قلبى

انظر حاشية الصبان ج ٤ ص ٢٢ طبع بولاق .

(٦) يقال : فاديته مفاداة : أى أطلقته وأخذت فديته المصباح .

(٧) فى الأصل : « ان » بالنون ؛ وهو تحريف .

(٨) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ ولا يستقيم الكلام بدونها ، ويرشد اليها قوله بعد : «وأنتم بنو» الخ .

بنو علىّ، وانما يُنسَب الرجلُ إلى أبيه دون جدّه؛ فقرأ[(١)] : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ وليس لعيسى أب، وانما لحق بذرّيّة الأنبياء مِن قِبَلِ أمّه؛ وكذلك أُلحقنا بذرّيّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم مِن قِبَلِ أمّنا فاطمةَ — عليها السلام — وأزيدك يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ﴾ ولَم يدْعُ صلّى الله عليه وسلّم فى مباهلة[(٢)] النصارى غيرَ فاطمة والحسن والحسين[(٣)]، وهما[(٤)] الأبناء .

قيل : لما وُلّىَ يحيى بنُ أكثمَ قضاءَ البَصرة آستصغر الناسُ سنّه، فقال له رجل : كم سنُّ القاضى — أعزّه الله — ؟ فقال : سنُّ عتّابِ[(٥)] بنِ أَسِيد حين ولّاه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم قضاءَ مكّة . فجعل جوابَه آحتجاجا .

قال يزيد بن عروة : لمّا مات كُثيِّرٌ لَم تتخلّف بالمدينة آمرأةٌ ولا رجلٌ عن جِنازته، وغَلَب النساءُ عليها، وجعلن يبكينه ويذكُرن عزّةَ فى ندبهنّ له ؛ فقال

(١) فى الأصل : «فقدا» ؛ وهو تحريف .

(٢) المباهلة : أن يجتمع القوم اذا اختلفوا فى شىء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا .

(٣) لم يذكر عليًا رضى الله عنه مع أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه المباهلة انظر روح المعانى عند تفسير الآية المتقدّمة .

(٤) وهما الأبناء : أى وهما المقصودان بلفظ الأبناء فى الآية وإذن فالخبر مطابق للمبتدا فى التثنية .

(٥) هو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس ؛ أسلم يوم الفتح فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى حنين استعمله على مكة يصلى بالناس وأقام عتاب للناس الحج تلك السنة، — وهى سنة ثمان — وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعتاب بن أسيد عامله على مكة الطبقات الكبير لابن سعد ج ٥ ص ٣٣٠ طبع ليدن .

أبو جعفر محمدُ بن علىّ الباقر : أفرِجوا (١) لى عن جِنازة كُثَيِّر لأرفعها ، فجعلنا ندفع النساء عنها ومحمدُ بنُ علىّ يقـول : تَنحّين يا صُوَيحبات يوسف ؛ فانتَدَبتْ له آمرأةٌ منهن فقالت : يابن رسول الله ، لقـد صدقتَ ، إنّا لصُوَيحباته ، ولقد كنّا له خيرا منكم له ؛ فقال أبو جعفر [لبعض مواليه (٢)] : احتفِظ بهـا حتى تجيئنى بها (٣) إذا آنصرفتُ ؛ قال : فلما آنصرف أُتِىَ بها وكأنّها شَرَرَةُ النار ؛ فقال لهـا محمد بنُ علىّ : إيهِ (٤) ، أنتِ القائلة : إنّكنّ ليوسفَ خيرٌ منّا ؟ قالت : نعم ، تُؤمّننى غضبَك يابنَ رسول الله ؟ فقال : أنتِ آمنةٌ من غضبى فأنبئينى ؛ فقالت : نحن دعوناه إلى اللّذّات من المطعم والمشرب والتمتّع والتنعّم ، وأنتم معـاشر الرجال ألقيتموه فى الجبّ وبعتموه بأبخس الأثمان ، وحبستموه فى السجن ؛ فأيُّنا كان عليه أَحْنَى ، وبه أرأف ؟ فقال محمد : لله درّكِ ! لَن تُغالَب آمرأةٌ إلاّ غَلَبتْ ؛ ثم قال لهـا : ألك بعلٌ ؟ فقالت : لى من الرجال من أنا بعلُه ؛ فقال أبو جعفر : ما أصـدقكِ ! مثلُك من تَملك الرجلَ (٥) ولا يملِكها ؛ فلمّا آنصرفتْ قال رجل من القوم : هـذه فلانة (٦) بنت معقب (٧) .

وقال المأمون ليحيى بن أكثم : من الذى يقول :

قاضٍ يَرَى الحدَّ فى الزناءِ ولا * يَرَى على من يلوط من باسِ

(١) فى الأصل : «أفرحوا لى» بالقاف المثناة والحاء المهملة ؛ وهو تصحيف .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن الأغانى ج ٨ ص ٤٣ طبع بولاق .

(٣) فى الأصل : «تحينى» ؛ وهو تحريف .

(٤) إيه بكسر الهاء ويجوز تنوينها : كلمة استزادة واستنطاق .

(٥) فى الأغانى ج ٨ ص ٤٣ طبع بولاق : «بعلها» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٦) كذا فى الأصل بلا تعيين لآسمها ؛ وذكر أبو الفرج أنها زينب .

(٧) كذا فى الأصل ؛ والذى فى الأغانى : « معيقب » ولعله معيقيب بن أبى فاطمة الدوسىّ انظر ترجمته فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٤ ص ٨٦ طبع أوربا .

فقال : يا أمير المؤمنين، هو[1] الذى يقول :

شاهدُنا[2] يَرتشِى وحاكمُنا * يلوط والراسُ شرُّ ما راسِ

لا أحسَب الجورَ ينقضى وعلى * الأمة[3] والٍ من آل عبّاسِ

قال ومن هو ؟ قال : أحمد بن [أبى][4] نُعيم ؛ فأمَر بنفيه إلى السِّند[5] .

وحُكِى أنّ أهل الكوفة تظلّموا إلى المأمون من عاملٍ ولّاه عليهم ؛ فقال : ما علمتُ فى عَددِ عمّالى أعدَلَ ولا أقوَمَ بأمر الرعيّة ولا أعوَدَ بالرفق عليهم منه ؛ فقام رجل من القوم فقال : يا أمير المؤمنين، ما أحدٌ أولى بالعدل والإنصاف منك، فاذا كان الأمر على هذه الصفة فينبغى أن تعدِل فى ولايته بين أهل البُلدان ، وتُسوِّى بنا[6] أهلَ الأمصار، حتى يَلحَقَ أهلَ كلِّ بلد مِن عدلِه وإنصافِه مِثلُ الذى لحقنا ، فاذا فعل أميرُ المؤمنين ذلك فلا يخصُّنا منه أكثر من ثلاثِ سنين ؛ فضحك المأمون وعزَلَ العاملَ عنهم .

ولنصِل هذا الفصل بذكر هفوات الأمجاد[7] وكبوات الجِياد[7] — وقد رأيتُ بعضَ أهل الأدب ممن يستحِقّ الأدب تعرّض فى هذا الفصل الى ذكر قصص

(٢٤)

(١) فى الأصل : «من هو» وقوله : «من» زيادة من الناسخ .

(٢) فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٦ طبع بولاق : «أميرنا» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٣) هذه الواو ساقطة من الأصل ؛ واستقامة الوزن تقتضيها .

(٤) كذا فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٦ طبع بولاق ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى ج ١ ص ١٢٥ طبع مطبعة جمعية المعارف ؛ والذى فى الأصل : «ابن نعيم» باسقاط لفظ أبى ؛ ولم نجده فيما راجعناه من المظان .

(٥) السند : بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان ؛ وقد فتحت فى أيام الحجاج بن يوسف (ياقوت) .

(٦) فى الأصل : « به » ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٧) ورد فى الأصل كل من هاتين الكلمتين مكان الأخرى ؛ والمقام يقتضى ما أثبتنا ، فان الهفوات من صفة الإنسان ، والكبوات من صفة الخيل وانظر هذه الترجمة أيضا فى المستطرف ج ١ ص ٧٤ ، ٧٥ طبع بولاق .

الأنبيـاء — صلوات الله عليهـم — كآدمَ ويوسفَ وداودَ وسليمانَ فكرهتُ ذلك منه، ونزّهتُ كتابى عنه —

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فكانت هـذه هفوةً من المسلمين غفرها الله وعفا عنها . ٥

وقال الأحنف بن قيس : الشريفُ من عُدّتْ سَقطاتُه .

وقال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخًا لاتَلُمُّـه * على شَعَثٍ[1] أىُّ الرجال المهذَّبُ

وقالوا : كلُّ صارمٍ ينبو، وكلُّ جوادٍ يكبو .

وكان الأحنف بن قيس حليما سيّدا يضرب به المثل ، وقد عُدّت له سقطات ١٠ فمن ذلك أنه نظر الى خيلٍ لبنى مازن فقال: هذه خيل ما أُدركَتْ بالثار، ولا نَقَصت الأوتار[2]، فقال له سـعيد بن القاسم المـازنىّ : أمّا يومَ قتلَتْ أباك فقـد أدركتْ بثارها، فقال الأحنف : لشىءٍ ما قيل : "دَع الكلام حذرَ الجواب" — وكانت بنو مازن قتلت [أبا][3] الأحنف فى الجاهليّة .

ومنها أنه لمّـا خرج مع مُصعَب بنِ الزبير أرسَل اليه مائةَ ألف درهم، ولم يرسِل ١٥ الى زَبْراء[4] جاريته بشىء، فجاءت حتى وقفت بين يدى الأحنف، ثم أرسلَتْ عينيها،

(١) «لا تلمه على شعث» : أى لا تحتمله على مافيه من زلل فتلمه وتصلحه وتجمع ما تشعث من أمره «اللسان» .

(٢) الأوتار جمع وتر بكسر الواو، وهو الذحل، أى الثأر؛ يقول : ان هذه الخيل لم تقلل عدد الذحول والثارات التى لفرسانها عند غيرهم من القبائل . ٢٠

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل واستقامة الكلام تقتضى اثباتها .

(٤) فى الأصل : «ديرا» بالدال والياء المثناة؛ وهو تحريف، والتصويب عن القاموس .

فقال لها : ما يُبكيك؟ فقالت : ما لى لا أبكى عليك إذ لم تبك على نفسك ، أقعدتَها وتذر مَرْوَ الرُّوذ[1] تجمع بين غارين[2] من المسلمين ؛ فقال : نصحتِنى والله فى دينى إذ لم أتنبه لذلك ؛ ثم أمر بفُسطاطه فقُوِّض ، فبلغ ذلك مُصعَبا فقال : ويحكم ، مَن دهانى فى الأحنف؟ فقيل : زَبْراء ، فبعث إليها بثلاثين ألف درهم ، فجاءت حتى أرخت عينيها بين يديه ؛ فقال : مالك يازَبْراء؟ قالت : عجبتُ لأحوالك فى أهل البَصرة[3] ، تُزَفّهم كما تُزَفّ العروس ، حتى اذا ضربتَ بهم فى نحور أعدائهم أردتَ أن تفُتّ فى أعضادهم ؛ قال : صدقتِ والله ، يا غلام دَع الفساطيط ؛ فاضطرب العسكر يجىء[4] زَبْراء مرّتين .

ومن سقطاته التى عُدّت عليه أن عمرو بن الأهتم[5] دسّ إليه رجلا ليسفّهه ، فقال له : ياأبا بحر ، من كان أبوك فى قومه ؟ قال : كان من أوسطهم ، لم يسُدْهم ولم يتخلّف عنهم ؛ فرجع إليه ثانية ، ففطن الأحنف إلى أنه من قِبَل عمرو ، فقال :

---

(١) مرو الروذ : مدينة بخراسان بين بلخ ومرو ؛ افتتحها الأحنف بن قيس فى خلافة عثمان رضى الله عنه ؛ وأكثر ما يقال فيه : مرّوذ كسفود التاج مادة (روذ) وهى على نهر عظيم ؛ والروذ بالفارسية : النهر ، فلهذا سميت بذلك (ياقوت) .

(٢) فى الأصل : عاذين بالعين المهملة والذال ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ؛ والغار : الجيش الكثير ، ومنه قول الأحنف فى عبد الله بن الزبير عند انصرافه من وقعة الجمل : وما أصنع به إن كان جمع بين غارين من الناس ثم تركهم وذهب . والضمير فى قولها : « تجمع » يعود إلى مرو الروذ ؛ ومعنى العبارة أنها تلومه على قعوده مع مصعب بن الزبير وتركه المسير الى مرو الروذ وفيها جيشان من المسلمين يتحاربان — وهما جيش الخوارج وجيش المهلب — فهى تحرض الأحنف على أن يسير بجيشه الى مرو الروذ ويترك مصعبا .

(٣) فى الأصل : «من» ؛ وهو تحريف لا يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : «يمتحى» ؛ وهو تحريف لا معنى له .

(٥) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٦٢ من هذا السفر .

ما كان مال أبيـك ؟ قال : كانت له صِرْمة[1] يَمنَح منهـا ويَقرِى، ولم يكن أهتمَ سَـلّاحا .

وقيل : إن الحسـن[2] سئل عن قوله تعالى : ﴿قَدْ جَعَـلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ فقال : إنْ كان لَسَرِيًّا، وإنْ كان لَـكريما؛ فقيل له : من هو؟ قال : المسـيح ؛ فقال له حُمَيد[3] بن عبد الرحمن : أَعِدْ نظرا، إنما السرىُّ : الجَدول؛ فأنعم[4] له، وقال : يا حُمَيد، غَلَبنا عليك الأمراء .

ومات ولدٌ طفلٌ لسليمان[5] بن علىّ، فأتاه الناس بالبَصرة يعزّونه وفيهم شَبِيبُ بنُ شَيبَة وبكرُ[6] بنُ حبيب السَّهْمىّ ؛ فقال شبيب : أليس يقـال : إنّ الطفل لا يزال

(١) فى الأصل : «حرمة» بالحاء؛ وهو تحريف . والصرمة : القطعة من الإبل نحو الثلاثين .

(٢) الحسن : هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرىّ ؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة؛ وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصارىّ رضى الله عنه وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم؛ قال أبو عمرو بن العلاء : مارأيت أفصح من الحسن البصرى ومن الحجاج بن يوسف؛ فقيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن؛ وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ؛ وتوفى بالبصرة مستهل رجب سـنة عشر ومائة رضى الله تعالى عنه اه ملخصا من وفيات الأعيان ج ١ ص ١٨٠ طبع بولاق .

(٣) هو حميـد بن عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف ، ينتهى نسبه إلى زهرة بن كلاب ؛ وكنيته أبو عبد الرحمن ؛ روى عن سعيد بن زيد ومعاوية بن أبى سفيان وأبى هريرة والنعمان بن بشـير؛ وكان ثقة عالما كثير الحديث ؛ وتوفى بالمدينة سنة خمس وتسعين اه ملخصا من كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٥ ص ١١٤، ١١٥ طبع مدينة ليدن .

(٤) أنعم له : أى قال له نعم . والذى فى الأصل : «فنعم له» بدون ألف؛ ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا .

(٥) كذا فى الأصل؛ والذى فى العقد الفريد ج ١ ص ٢٩٦ طبع بولاق أن الذى مات ولده هو إسحاق بن عيسى؛ وعبارته : ودخل شبيب بن شبة على إسحاق بن عيسى يعزيه عن طفل أصيب به .

(٦) لم يرد هذا الاسم فى العقد الفريد ضمن هذه الحكاية .

محبنطئا[(١)] بباب الجنّة حتى يدخُل أبواه ؟ فجاء بظاء معجمة ؛ فقال له بكرُ بنُ[(٢)] حبيب : مُحبنطِئا[(١)]، بطاء مهملة ؛ فقال شَبِيب : إلّا أنّ مَن بين لابتَيها يَعلم أنّ القول كما أقول[(٣)] ؛ فقال بكر : وخطأٌ ثانٍ[(٤)] ، ما للبَصرة لابتان ، أذهبتَ إليه بالمدينة[(٥)] ؟ . (مَن بين لابتَيها[(٦)] : أى حَرّتَيها) .

قيل : جلس محمدُ بنُ عبدالملك[(٧)] يوما للظالم، وحضر فى جملة الناس رجلٌ زيُّه زىُّ الكُتّاب ، فجلس بإزاء محمد ، ومحمد ينقُد الأمور وهو لا يتكلّم، ومحمدٌ يتأمّله ؛ فلما خفّ المجلسُ قال له : ما حاجتك ؟ قال : جئتُك — أصلحك الله — متظلّما ؛ قال : ممّن ؟ قال : منك ، ضيعةٌ لى فى يدِ وكيلك يَحمِل إليك غلّتَها ، ويَحُول بينى وبينها؛ قال : فما تريد ؟ قال : تكتب بتسليمها إلىّ ؛ قال : هذا يُحتاج فيه إلى شهودٍ وبيّنة وأشياءَ كثيرة؛ فقال له الرجل : الشهودُ هم البيّنة ، وأشياء كثيرة عِىٌّ منك؛ فخجل محمدٌ وهاب الرجلَ، وكتب له بما أراد .

---

(١) فى الأصل : « محتبطئا » و « محتبطئا » بالتاء والباء فى كلتا الكلمتين ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا انظر العقد الفريد ج ١ ص ٢٩٦ طبع بولاق ؛ ونص هذا الحديث فى اللسان : «ان السقط ليظل محبنطيا على باب الجنة » قال ابن الأثير فى النهاية : المحبنطئ بالهمز وتركه : المتغضب المستبطئ للشىء .

(٢) فى العقد الفريد : قال إسحاق بن عيسى .

(٣) كذا فى الأصل؛ وعبارة العقد الفريد : ألى يقال مثل هذا وما بين لا بتيها أعلم منى بها ؟ . ومعنى العبارتين مختلف؛ وكلا المعنيين يستقيم به الكلام .

(٤) عبارة العقد : فقال له إسحاق : وهذه أيضا ، أللبصرة لابتان يالكع ؟ .

(٥) إليه : أى إلى سليمان بن على ؛ ويريد بهذه العبارة أن اللابتين إنما هما للمدينة لا للبصرة .

(٦) فى الأصل : « الى » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٧) انظر الحاشية رقم ٥ من صفحة ٧٣ من هذا السفر .

ووُصِف ذو الرُّمَّةِ[(١)] لعبد الملك[(٢)] بن مروان بالذكاء وحسنِ الشعر، فأمر بإحضاره، فلما دخل عليه أنشده قصيدةً افتتحها بقوله : "ما بال عينِك منها الماءُ ينسكبُ" وكانت عينا عبد الملك تَدْمَعان دائما، فظَنّ أنه عَرّض به، فغضب وقال : مالك ولهـذا السؤال يابن اللَّخناء ؟ وقطع إنشادَه، وأمر بإخراجه .

ودخل أبو النجم[(٣)] على هشـام بن عبـد الملك وأنشـده أُرجوزتَه التى أوّلُهـا : "الحمـد لله الوهوبِ المُجزِلِ[(٤)]" حتى انتهى إلى قوله يصف الشمسَ عند الغروب : "وهى على الأُفْق كعين الأحوَلِ"، واستَدرَك سقطةَ لسانِه ، وقطع إنشادَه ، وعَلِم أنها زلّة، لأنّ هشاما كان أحوَل، فقال له هشام كَمِّلْ إنشادَك ويلك وأَتْمِم البيت، وأمر بوجء[(٥)] عنقه وإخراجه من الرُّصافة[(٦)] .

(١) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٧٤ من هذا السفر .

(٢) هذا فى الأصل ؛ وقد وردت هذه القصة فى محاضرات الأدباء للراغب ج ١ ص ١١٨ طبع جمعية المعارف بين ذى الرمة وهشام بن عبد الملك ؛ ويؤيد ذلك أن وفاة عبد الملك كانت فى سنة ست وثمانين كما فى كتب التاريخ وسن ذى الرمة إذ ذاك تسع سنين فإنه ولد فى سنة ثمان وسبعين كما يستفاد من ترجمته فى وفيات الأعيان ، فقد ذكر فى وفاته ما نصه وكانت وفاته سـنة سبع عشرة ومائة رحمه الله تعالى ، ولما حضرته الوفاة قال : أنا ابن نصف الهرم ، أنا ابن أربعين سنة اه

(٣) أبو النجم : هو المفضل ، وقيل : الفضل بن قدامة بن عبيد الله بن عبد الله بن الحارث بن عبدة ينتهى نسبه إلى ربيعة بن عجل بن لجيم ؛ وهو من رجاز الإسلام الفحول المقدّمين ، وفى الطبقة الأولى منهم ، وكان أبلغ فى النعت من العجاج انظر الأغانى ج ٩ ص ٧٧ طبع بولاق ؛ وكانت وفاته فى آخر دولة بنى أمية كما فى معاهد التنصيص ص ١٢ طبع بولاق .

(٤) كذا فى الأصل والأغانى ج ٩ ص ٨٠ طبع بولاق ؛ وروايته فى معاهد التنصيص ص ٩ طبع بولاق : "الحمد لله العلى الأجلل" وبعده : "الواهب الفضل الوهوب المجزل" .

(٥) الوجء : اللكز ، يقال : وجأ عنقه وفى عنقه .

(٦) يريد بالرصافة : رصافة هشام بن عبد الملك ؛ وهى فى غربى الرقة ، بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية ؛ بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها فى الصيف ؛ ثم أورد ياقوت بعد هـذا الكلام ما يفيد أن الرصافة كانت مبنية قبل الإسلام بدهر ليس بالقصير .

قال المدائنىّ : كان رجل من وَلَد عبدِ الرحمن بن سَمُرَةَ أراد الوثوب بالشام فى زمن المهدىّ ، فأُخِذ وحُمِل إليه ، فلمّا مَثَل بين يديه آعتذر ، فرأى منه المهدىّ نُبلا وفضلا ، فعفا عنه وخلطه بجلسائه ؛ ثم قال له يوما : أنشِدْنى شيئا من شعر زهير ، فأنشده قصيدتَه التى أوّلُها : "لِمَنِ آلديارُ بقُنَّة الحِجْرِ"(١) حتى أتى على آخرها ؛ فقال المهدىّ : مضى من يقول مِثلَ هذا ؛ فقال السَّمُرىّ : وذهب والله من يقال فيه(٢) مِثلُه ؛ فآستشاط(٣) المهدىُّ غضبا ، وأمَر أن يُجَرّ برِجله ، وألّا يُؤذَنَ له بعدها .

ولنختم ما ذكرناه من أمر كتابة الإنشاء بشىء من الحِكَم .

ذكر شىء من آلحكم

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الحِكمةُ ضالّةُ المؤمن" .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لكلِّ جوادٍ كبوه ، ولكلِّ حكيمٍ هفوه ؛ ولكلِّ نفسٍ مَلّة(٤) ، فاطلبوا لها طرائفَ آلحكمة .

ومن آلحديث النبوىّ — صلواتُ الله تعالى وسلامُه على قائله — ممّا يدخل فى هذا الفصل قولُه صلّى الله عليه وسلّم : "كرمُ الرجل دِينُه ، ومروءتُه عقلُه ، وحسَبُه عملُه" . "خيرُ الأمور أوسطُها"(٥) . "كلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِق له" .

(١) قنة الحجر : جبيل ليس بالشامخ يحذاء آلحجر ؛ والحجر : قرية بحذائها قرية يقال لها : الرحضية للأنصار و بنى سليم من نجد (ياقوت) وقال فى مستدرك التاج مادة قنن : قنة آلحجر : قرب معدن بنى سليم .

(٢) فى الأصل : «يقول» بالبناء للفاعل ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) استشاط : التهب .

(٤) فى الأصل : «ملمة» ؛ والميم زيادة من الناسخ .

(٥) رواه ابن الأثير فى النهاية : «أوساطها» بصيغة الجمع .

" زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حبّاً " . " الوُحدةُ خيرٌ من قرين السوء " . " البركةُ فى الحركة " . " صِلوا أرحامَكم ولو بالسلام " . "من كَثَّر سوادَ قوم فهو منهم" . "ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهَى" . "ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، إنّما الغِنى غِنى النفس" .

وقال أبو بكر الصِّدّيقُ — رضى الله عنه — : صنائعُ المعروف تَقِى مَصارعَ السوء .

وقال علىّ بن أبى طالب : اِستغنِ عمّن شئتَ فأنت[1] نظيرُه، واحتَجْ إلى من شئتَ فأنتَ[1] أسيرُه، وأَفْضِلْ على من شئتَ فأنت[1] أميرُه . ٥

قال بعض الشعراء :

وإذا ما الرجاء أُسقِطَ بين النـ * ـاس فالناسُ كلُّهم أَكْفاءُ

وقال لقمان لابنه : ثلاثةٌ لا يُعرَفون إلّا فى ثلاثة مواضعَ : لا يُعرَف الحليم إلّا وقت الغضب ، ولا الشجاعُ إلا فى الحرب اذا لاقى الأقران ، ولا أخوك إلا عند حاجتك . ١٠

وقال عمر بن الخطّاب رضى الله تعالى عنه : أَحَبُّكم إلينا قبل أن نختبرَكم[2] أحسَنُكم صمتا، فإذا تكلّم فأَبْيَنُكم منطقا، فإذا اختبرناكم فأَحْسَنُكم فعلا .

وفى رواية : أَحَبُّكم إلينا أَحْسَنُكم اسما ، فإذا رأيناكم فأَجْمَلُكم مَنظَرا ، فإذا اختبرناكم فأَحْسَنُكم مَخبَرا . ١٥

وخطب علىّ رضى الله عنه يوما فقال فى خطبته : وأَعْجَبُ ما فى الإنسان قلبُه، له أمدادٌ[3] من الحكمة، وأضدادٌ من خلافها، فإذا سَنَح له الرجاءُ هاج به

(١) المشهور فى روايته « تكن » فى المواضع الثلاثة مكان قوله : «فأنت» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) فى الأصل : « نحركم » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله : فإذا اختبرناكم . ٢٠

(٣) الأمداد : الأعوان ، واحده مدد بالتحريك .

الطمع ، وإن هاج به الطمعُ أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأسُ قتله الأسف ، وإن عرض له الغضبُ اشتدّ به الغيظ ، وإن أسعد بالرضا نسيَ التحفُّظ ، وإن ناله الخوفُ شغله الحزن ، وإن أصابته مصيبةٌ قصمه الجزع ، وإن أفاد مالا أطغاه الغِنى ، وإن عضّته فاقةٌ شغله البلاء ، وإن جهده الجوعُ أقعده الضعف ، فكلُّ تقصيرٍ به مُضِرّ ، وكلُّ إفراطٍ له مفسِد .

ومن كلامه — رضى الله عنه — : فرَضَ الله تعالى الإيمانَ تطهيرا من الشِّرك ، والصَّلاةَ تنزيها عن الكِبر ، والزكاةَ سببا للرزق ، والصيامَ ابتلاء لإخلاص الخلق ، والحجَّ تقويةً للبَدَن ، والجهادَ عزًّا للإسلام ، والأمرَ بالمعروف مصلحةً للعوام[1] ، والنهيَ عن المنكر رَدْعا للسفهاء ، وصِلةَ الرحم منماةً للعَدد ، والقِصاصَ حَقْنا للدماء ، وإقامةَ الحدود إعظاما للمَحارم ، وتَرْكَ شربِ الخمر تحصينا للعقل ، ومجانبَةَ السرقة إيجادا[2] للعفّة ، وتَرْكَ الزنى تصحيحا للنَّسب ، وتَرْكَ اللواط تكثيرا للنسل ، والشهاداتِ استظهارا على المجاحَدات ، وتَرْكَ الكذبِ تشريفا للصدق ، والسلامَ أمانا من المخاوف ، والإمامةَ[3] نظاما للأمّة ، والطاعةَ تعظيما للإمامة[3] .

وقال فرفوريوس[4] : لو تميزت الأشياء بأشكالها لكان الكذبُ مع الجبن ، والصدقُ مع الشجاعة ، والراحةُ مع اليأس ، والتعبُ مع الطمع ، والحرمانُ مع الحرص ، والعزُّ مع القناعة ، والأمنُ[5] مع العفاف ، والسلامةُ مع الوُحدة .

(١) العوام : جمع عامة ، كدابة ودواب (المصباح) .

(٢) فى الأصل : «ايجازا» بالزاى ؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى .

(٣) فى الأصل : «الأمانة» بالنون فى كلتا الكلمتين ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٤) كذا فى كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٥٦ طبع ليبسك ؛ والذى فى الأصل : « فرفوريس » . وفرفوريوس هذا من أهل مدينة صور من ساحل الشأم ؛ وكان بعد زمن جالينوس ؛ وله النباهة فى علم الفلسفة والتقدم فى تفسير كتب أرسطوطاليس .

(٥) فى الأصل : «والأمر» بالراء ؛ وهو تحريف .

وقال آخر : الشكرُ محتاجٌ إلى القبول ، والحسبُ محتاجٌ إلى الأدب ، والسرورُ محتاج إلى الأمن[(١)] ، والقرابةُ محتاجة إلى المودّة ، والمعرفةُ محتاجة إلى التجارِب ، والشرفُ محتاج إلى التواضع ، والنَّجدةُ محتاجة إلى ٱلجِدّ .

وقال حكيم يونانىّ : السعاداتُ كلُّها فى سبعة أشياء : حُسنُ الصورة ، وصحّةُ ٱلجسم ، وطولُ العمر ، وكثرةُ العِلم ، وسَعَةُ ذات اليـد ، وطِيبُ الذكر ، والتمكّنُ من الصديق والعدوّ .

وقال بعض الأدباء — وقد سئل عن العيش — فقال : فى الغِنى فإنى رأيتُ الفقير لايلتذّ بعيش أبدا ؛ فقال له السائل : زِدْنى ، قال : فى الصحّة ، فإنى رأيت المريض لايلتذّ بعيشٍ أبدا ؛ فقال له : زِدْنى ، قال : فى الأمن ، فإنى رأيت الخائف لا يلتذّ بعيشٍ أبدا ؛ قال : زِدْنى ؛ قال : لا أجد مَزيدا . وهـذا الكلام مأخوذ من قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :

"من أصبح آمنا فى سِرْبِه[(٢)] ، مُعافًى فى بَدَنه ، عنـده[(٣)] قوتُ يومه ، فكأنّمـا حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها" .

وقال فيلسوف : كثيرٌ من الأمور لا تَصلُح إلّا بقُرَنائها : لا ينفع العِلمُ بغير ورع ، ولا الحفظُ بغير عقل ، ولا ٱلجمالُ بغير حلاوة ، ولا ٱلحسبُ بغير أدب ، ولا السرورُ بغير أمن ، ولا الغِنى بغير كفاية ، ولا الاجتهادُ بغير توفيق .

(١) فى الأصل : "الأمر" بالراء ؛ وهو تحريف .

(٢) السرب بكسر السين : النفس .

(٣) كذا فى الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٥٢ طبع بولاق ومحاضرات الأدباء ج ١ ص ٣٢٢ طبع جمعية المعارف بمصر ؛ والذى فى الأصل : «له» بدل قوله : «عنده» ؛ ولم نقف على هذه الرواية فيما بين أيدينا من المظان .

وقالوا : المنظرُ يحتاج إلى القبول، والحسبُ إلى الأدب، والسرورُ إلى الأمن، والقُرْبى إلى ٱلمودّة ، والمعرفةُ إلى التجارِب ، والشرفُ إلى التواضع ، والنجدةُ إلى ٱلجَلَد[1] .

وقال عليٌّ رضى الله عنه : يَغلِب المقدار على التقدير ، حتى تكون الآفةُ فى التدبير .

أخَذَه ٱبنُ الرومىّ فقال :

غَلِطَ الطبيبُ علىَّ غلطةَ مُورِدٍ * عَجَزتْ مَوارِدُه[2] عن الإصدارِ

والناس يلحَون الطبيبَ وإنّما * غَلَطُ الطبيبِ إصابَةُ ٱلمقدارِ

وقال : اذا ٱنقضت ٱلمدّه، كان ٱلهلاك فى العُدّه .

وقال القدماء : لا خيرَ فى القول إلّا مع الفعل ، ولا فى المَنظَرِ إلّا مع المَخبَر ، ولا فى المالِ إلّا مع ٱلجود ، ولا فى الصديق إلّا مع الوفاء ، ولا فى الفقهِ إلّا مع الورع ، ولا فى الصدقةِ إلّا مع حسن النيّة ، ولا فى ٱلحياةِ إلّا مع الصحّة ، ولا فى السرورِ إلّا مع الأمن .

قال بعض بنى تميم : حضرتُ مجلسَ الأحنف بنِ قيس وعنده قوم مجتمعون، فحمِد ٱلله وأثنى عليه، ثم قال : إن الكرَم، مَنْعُ الحُرَم؛ ما أَقرَبَ النِّقمةَ من أهل البغى! لا خيرَ فى لذّة تُعقِب ندما؛ لن يَهلِكَ مَن قَصَد ، ولن يفتقرَ مَن زَهَد ؛ ربّ هزل قد عاد جِدّا؛ من أَمِن الزمانَ خانه، ومن تَعظَّم عليه أهانه؛ دَعوا ٱلمزاح فإنه

(١) تقدّم هذا الكلام فى صفحة ١٨٤ مع تغيير يسير فى عباراته .

(٢) كذا فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٠٠ طبع بولاق وغيره من المصادر التى بين أيدينا ؛ والذى فى الأصل : « مجانيه » ؛ وهو تحريف .

يؤرث[1] الضغائن، وخيرُ القول ما صدّقه الفعل، احتملوا مَن أدَلَّ عليكم، واقبلوا عذرَ من اعتذر إليكم، أطع أخاك وإن عصاك، وصِلْه وإن جفاك، أنصِفْ مِن نفسِك قبل أن يُنتصَف منك، وإيّاكم ومشاورةَ النساء، واعلم أنّ كفر النعمة لؤم، وصحبةَ الجاهل شؤم، ومِن الكرم، الوفاء بالذمم، ما أقبحَ القطيعةَ بعد الصِّلة، والجفاء بعد اللُّطف، والعداوةَ بعد الوُدّ! لا تكونَنّ على الإساءة أقوَى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أسرَعَ منك إلى البذل، واعلم أنّ لك من دنياك، ما أصلحتَ به مَثواك، فأنفِق في حقّ ولا تكونَنّ خازنا لغيرك، واذا كان الغدرُ موجودا في الناس فالثقةُ بكلّ أحد عجز، اعرِف الحقّ لمن عرَفه لك، واعلم أنّ قطيعةَ الجاهل، تعدل صِلةَ العاقل. قال: فما رأيتُ كلاما أبلغَ منه، فقمتُ وقد حفظتُه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن كلام عليٍّ رضى الله عنه: من أبصَر عيبَ نفسه شُغِل عن عيب غيره، ومن سَلّ سيف البغيِ قُتِل به، ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها، ومن هتَك حجابَ أخيه انهتكتْ عوراتُ بيتِه[2]، ومن نسيَ خطيئته استعظَم خطيئةَ غيره، ومن تكبّر على الناس ذَلّ، ومن سَفِه على الناس شُتِم، ومن خالط العلماءَ وُقِّر، ومن خالط الأنذالَ حُقِر، ومن أكثر من شيءٍ عُرِف به، والسعيدُ من وُعِظ بغيره، وليس مع قطيعة الرحم تُقى، ولا مع الفجور غِنى، رأسُ العلم الرفق، وآفتُه الخُرْق، كثرةُ الزيارة تورث الملالة.

وقال موسى بنُ جعفر: ما انسابَ[3] اثنان إلّا انحطّ الأعلى إلى مرتبة الأسفل.

(١) يقال: أرّث النار تأريثا، إذا أوقدها، وهو هنا مستعار منه.

(٢) في الأصل: «بنته» بالنون، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: «ما أشب»، وهو تحريف

وقال آخر : ما تَسابّ اثنان إلا غَلَب ألأمُهما .

وقال الحسن بن علىّ بن موسى الرِّضىّ : اعلم أن للحِباء[1] مقدارا فإن زاد عليه فهو سَرَف ، وللحزم مقـدارا فإن زاد عليه فهو جبن ، وللاقتصاد مقـدارا فإن زاد عليه فهو بخـل .

قال مهدىُّ بن أبان : قلتُ لوَلّادةَ العَبْديّةِ — وكانت من أعقل النساء — : إنّى أريد الحج فأوصينى ، قالت : أوجِزْ فأبلغ ، أم أطيلُ فأُحْكِم ؟ فقلت : ماشئتِ ؛ فقالت : جُدْ تَسُدْ ، واصبر تفُز ؛ قلت : أيضا ؛ قالت : لا يُبعِد غضبُك حلمَك ، ولا هواك علمَك ؛ وقِ دينَك بدنياك ، وقِ عِرْضَك بعَرَضِك ؛ وتَفَضَّلْ تُخدَم ، واحلُمْ تُقدَّم ؛ قلت : فبمن أستعين ؟ قالت : بالله ؛ قلت : من الناس ؛ قالت : الجَلْد النشيط ، والصالح الأمين ؛ قلت : فمن أستشير ؟ قالت : المجرِّبَ الكَيِّس ، أو الأديبَ الأريب ؛ قلت : فمن أستصحب ؟ قالت : الصديقَ المسلِّم ، أو المؤاخى[2] المتكرِّم ؛ ثم قالت : يابُنـاه ، إنك تَفِد إلى مَلِك الملوك فانظر كيف يكون مقامُك بين يديه .

وقال حكيم : مَن الذى بلغ جسيما فلَم يَبطَر[3] ، واتّبع الهوى فلَم يَعطَب ؛ وجاوَر النساء فلَم يَفتتن ، وطَلب إلى اللئام فلَم يُهَنْ ، وواصَـل الأشرارَ فلَم يندم ، وصَحِب السلطانَ فدامت سلامتُه .

(٢٧)

---

(١) الحباء بالكسر : العطاء .

(٢) فى الأصل : « المداجى » بالدال والجيم ؛ وهو تحريف مفسد للمعنى ، فإن المداجاة : المداراة ومساترة العداوة .

(٣) فى الأصل : « ينظر » ؛ وهو تصحيف لا يستقيم به المعنى .

وقال : الاعتبارُ يفيدك[(١)] الرشاد، وكفاك أدبا لنفسك ما كرهتَ من غيرك .

وكان يقال : عليكم بالأدب فإنه صاحبٌ فى السَّـفر ، ومُؤنِسٌ فى الوُحدة، وجمالٌ فى المَحْفِل، وسببٌ إلى طلب الحاجة .

وقال بعضهم : احذر كلَّ الحذر من أن يخدعك[(٢)] الشـيطان فيمثِّلَ لك التوانيَ فى صورة التوكّل، ويُورثَك الهُوَينَى[(٣)] بالإحالة على القَدَر، فإن الله تعالى أمر بالتوكّل عند انقطاع الحيَل، وبالتسليم للقضاء بعد الإعذار، فقال تعالى : «خُذُوا حِذْرَكُمْ» «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» .

وقال آخر : لا تجاهـد الطلبَ جهادَ الغالب، ولا تتّـكل على القـدر اتّكالَ المستسلِم، فإنّ ابتغاءَ الفضل[(٤)] من السنّة، والإجمالَ فى الطلب من العفّة، وليست العفّةُ بدافعة رزقا، ولا الحرصُ بجالب فضلا .

وقالوا : عشرُ خصـالٍ فى عشرة أصـناف أقبحُ منهـا فى غيرهم : الضـيقُ فى الملـوك، والغدرُ فى الأشراف، والكذبُ فى القضـاة، والخديعـةُ فى العلماء، والغضبُ فى الأبرار[(٥)]، والحرصُ فى الأغنياء، والسَّفَهُ[(٦)] فى الشيوخ، والمرضُ فى الأطبّاء، والزَّهوُ فى الفقراء، والفجورُ فى القُرّاء[(٧)] .

---

(١) فى الأصل : « يعتدك » بالعين والتاء؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «يدعك» بسقوط الخاء؛ والتصويب عن محاضرات الأدباء للراغب ج ١ ص ٣٠٥ طبع جمعية المعارف بمصر .

(٣) كذا فى محاضرات الأدباء؛ والذى فى الأصل : «يريك تهوينا»؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

(٤) فى الأصل : «بالفضل»؛ والباء زيادة من الناسخ .

(٥) لعله : «فى الأمراء» .

(٦) فى الأصل : « والسعة »؛ وهو تحريف .

(٧) المراد بالقرّاء : حفظة القرآن والتالون له .

وقالوا : ثمانيةٌ إذا أهينوا[1] فلا يلوموا إلّا أنفسَهم : الآتى طعاما لم يُدْعَ إليه، والمتأمِّرُ على ربّ البيت فى بيته ، وطالبُ المعروف[2] من غير أهله ، وراجٍ مِنَنَ الفضلِ من اللئام، والداخلُ بين اثنين لم يُدخِلاه، والمستخفُّ بالسلطان، والجالسُ مجلسا ليس له بأهل، والمقبِلُ بحديثه على من لا يسمعه .

ومن الأبيات المناسبة لهذا الفصل قولُ الأَضبَط بن قُرَيع :

لِكلّ ضِيقٍ من الهموم سَعَه * والمُسْىُ والصبح لا بقاءَ معَه
فصِلْ حبالَ البعيد إن وصل الـ * ـحبلَ وأَقصِ القريبَ إن قطعَه
وخذ من الدهر ما أتاك به * من قَرِعينا بعيشه نفَعَه
لا تَحقِرنّ[3] الفقيرَ علّك أن * تَركَعَ[4] يوما والدهرُ قد رفَعَه
قد يَجمع المالَ غيرُ آكِله * ويأكل المالَ غيرُ مَن جمَعَه

وقال أُحَيحَة :

فما يدرى الفقيرُ متى غِناه * ولا يدرى الغنىُّ متى يَعيلُ[5]
ولا تدرى إذا أَزمَعتَ أمرا * بأىّ الأرض يأتيك المَقيلُ

(١) فى الأصل : « هيئوا » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « المعروه » بالهاء ؛ وهو تحريف .

(٣) فى اللسان مادة «ركع» ولا تهين الخ . وقال : أراد «ولا تهينن» بجعل النون ألفا ساكنة فاستقبلها ساكن آخر فسقطت .

(٤) يقال : ركع الرجل ، إذا افتقر بعد غنى وانحطت حاله .

(٥) يعيل : يفتقر .

وقال الصَّلَتان العبدىّ[(١)] :

أشـاب الصـغيرَ وأفنَى الكبيـ * ـرَ كرُّ الغـداة ومرُّ العَشِى[(٢)]

إذا ليـلةٌ هَرِمَتْ[(٣)] يومَها * أتَى بعـد ذلك يومٌ فَتِى

نروح ونغـدو لحـاجاتنا * وحاجةُ من عاش لا تنقضِى

تمـوت مع المـرء حاجاتُه * وتَبـقَى له حاجـةٌ ما بَقِى

وقال المتنبّى :

ذكرُ الفتى عُمرُه الثانى وحاجتُه * ما فاته وفضولُ العيش أشغالُ

وقد جُمِعَ من شعر أبى الطيّب فى ذلك ما وافق كلام أرِسْطوطاليسَ فى الحكمة؛ فمن ذلك قول أرِسْطوطاليسَ : إذا كانت الشهوةُ فوق القدرة كان هلاكُ الجسم[(٤)] دون بلوغ الشهوة .

قال المتنبّى :

وإذا كانت النفوس كبارا * تَعِبتْ فى مُرادها الأجسامُ

وقال أرِسْطوطاليس : قد يفسد العضو لصلاح أعضاء، كالكىّ والفصد اللّذين يُفسِدان الأعضاءَ لصلاح غيرِها . نقله المتنبّى إلى شعره فقال :

---

(١) كذا فى الأصل ومعاهد التنصيص ص ٣٥ طبع بولاق؛ ونقل صاحب معاهد التنصيص أيضا عن الجاحظ فى كتاب الحيوان نسبة هذه الأبيات الى الصلتان السعدى، وقال — أى الجاحظ — : هو غير الصلتان العبدى .

(٢) كذا فى معاهد التنصيص ؛ والذى فى الأصل : « لواء » ولعله مقلوب «ولاء» بتقديم الواو المكسورة، وهو المتابعة، مصدر والى الشىء : أى تابعه، فإن المعنى يستقيم عليه أيضا .

(٣) فى الأصل : «هزمت» ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما فى اللسان ؛ ويدل عليه أيضا مقابلته بقوله فى آخر البيت : « يوم فتى» .

(٤) فى الأصل : «الهم» ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

لعلّ عَتْبَك محمودٌ عواقبُه * فربّما صحّت ٱلأجسادُ بالعِلَلِ

وقال أَرِسْطوطاليس : الظلم من طبع النفوس، وإنما يُصَدّها عن ذلك إحدى علّتين : إمّا علّة دينيّة خوف مَعاد، أو علّة سياسيّة خوف سيف

قال المتنبّي :

٥ والظلمُ من شِيَم النفوس فإن تَجِدْ * ذا عفّةٍ فلعلّةٍ لا يَظلِمُ

هذا ما ٱتفق إيرادُه فى هذا الباب من أمر كتابة الإنشاء، وكلامِ الصحابة وٱلخلفاء، وذوى الفصاحة من الأمراء، وبلاغاتِ ٱلخطباء والفصحاء، ورسائلِ الفضلاء والبلغاء، وفِقَرِ الكتّاب والأدباء، وحِكَمِ أوائل ٱلحكماء ؛ وهو ممّا يُضطرّ الكاتبُ إليه، ويَعتمِد فى ٱلاطلاع على ما خفى من أمر هذه الصناعة عليه ؛ وهى

١٠ إشاراتٌ إلى مجموعِها، ورشفاتٌ من يَنبوعِها ؛ وبابٌ يتوصّل منه إلى رحابِها، وسلّمٌ يرتقى عليه إلى هضابِها، ومَسِيلٌ عذبٌ يتّصل بعبابِها ؛ فقد وَضَح لك أيّها الطالبُ السبيل، وظهر لك أيّها الراغبُ قيام الدليل ؛ وفيما أوردناه كفايةٌ لمن تمسّك بهذه الصناعة ورغب فيها، وغُنيةٌ لمن تأمّل مقاصدها وتدبّر معانيها ؛ فلنذكر كتابةَ الديوان والتصرّف .

---

١٥ ذكر كتابة الديوان وقلم التصرف وما يتصل بذلك (٢٨)

قد ذكرنا فى أوّل هذا الباب فى السفر السابع من هذا الكتاب ٱشتقاقَ الكتابة، ولم سُمّيتْ بذلك، وذكرنا أيضا أصلَها وشرفَها وفوائدَها ، فلا حاجة إلى إعادته فى هذا ٱلموضع ، فلنذكر ٱلآن ما يتعلّق بقلم الديوان والتصرّف وٱلحساب ؛ وإن كنّا قدّمنا ذكرَ كتّابِ الإنشاء لِما هم بصدده من الصدارة والوجاهه، والنبالة والنباهه ؛

٢٠ والفصاحةِ والصباحه، والنزاهةِ والسماحه ؛ والأمانةِ والديانه، والسيادة والصيانه ؛

ولِمـا تصدَّوا له مِن كتمِ أسرار الدُّوَل، وتردَّوا به من محاسنِ الأواخرِ ومآثرِ الأُوَل، وٱلتحفوا به من مَطـارف الفضائل والمكارم، وتحلّوا به من صـفات الأفاضل والأكارم؛ الى غير ذلك من مناقبهم ٱلجمّـه، وأياديهم ٱلتى وَضَحَتْ غررا فى ليالى ٱلخطوب ٱلمدلهمّه؛ فكتّابُ ٱلحساب أكثرُ تحقيقا، وأقربُ إلى ضبط الأموال طريقا، وأدلُّ برهانا، وأوضحُ بيانا، قال ٱلله تعالى فى كتابه ٱلعزيز: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ وذهب بعض ٱلمفسرين لكتاب الله تعالى فى قوله تعـالى إخبارا عن يوسف عليـه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، أى كاتبٌ حاسب.

وروى البخارىّ عن أبى حُمَيد ٱلساعدىّ قال: "استعمل رسولُ ٱلله صلّى الله عليه وسلّم رجلا من الأَسْد[1] على صدقات بنى سَلِيم يُدعَى ٱبنَ اللُّتْبِيَّة[2] فلمّا جاء حاسَبَه" فقد صحّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حاسَبَ؛ وبكتّاب ٱلحساب تُحفَظ الأموال وتُضبَط الغلال؛ وتُحَدُّ قوانينُ البلاد؛ وتُميَّز الطوارفُ من التِّلاد؛ لَم يفخَر كُتّاب الإنشاء بمَنقَبة إلا فخَروا بمناقب، ولا سَمَوا إلى مرتبـة إلّا وقد رَقُوا إلى مراتب؛ ولا تميّزوا برسالة[3] إلّا ولهؤلاء فيها القِدْحُ المعلَّى، ولا نُسِبوا إلى نباهة إلّا ومحلُّهم فيها

(١) كذا فى الأصل بالسين، وهو أفصح؛ ويقال فيه: "الأزد" بالزاى، وهو أبو حى من اليمن، ومن أولاده الأنصار كلهم.

(٢) هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط؛ وقد أثبتناها هكذا نقلا عن صحيح البخارى ج ١ ص ٣٨٢ طبع ليدن واللتبية: أته، نسبة إلى بنى لتب بالضم، وهم حى من الأزد؛ ومنهم من يفتح اللام والتاء المثناة؛ وفى بعض الروايات: «الألتبية» بالهمز؛ وفى رواية أخرى بضم ففتح؛ وٱسم ٱبن اللتبية هذا: عبد الله انظر شرح القاموس مادة (لتب).

(٣) كذا وردت هـذه الكلمة فى الأصل، ولعل فيها تحريفا فإن رسائل المنشـئين ليس لكتّاب التصرف فيها القدح المعلى كما قال إلا اذا كانوا منشئين أيضا؛ ولعـل صوابه «بنبالة» ويرجحه حصول الجناس بها مع قوله فى الجملة الآتية «نباهة» والمؤلف يميل إلى هذا النوع فى كتابته؛ وقد سبق أن جمع بين الكلمتين فى صفحة ١٩١ س ١٩.

المحلّ الأرفعُ ومقامُهم المقامُ الأعلى؛ ولا اتصفوا بكتمان سرٍّ إلّا اتصف هؤلاء بمثله، ولا شُهِروا ببذل برٍّ إلا وهؤلاء هم أعيان أهله؛ ثم اختصّ كُتّابُ التصرف بأمورٍ مُنِع أولئك منها، وأُطلِقتْ أقلامُهم فى أقلام حُبِستْ أقلامُ أولئك عنها؛ وارتقوا إلى قُلَل مراتبَ كَبَتْ جِيادُهم عن إدراك غايتِها، وتسنّموا ذرا مناصبَ لا تمتدّ الآمالُ[(٢)] إلى أكثرَ من نهايتِها؛ ولسنا نقيمهم فى محلّ المناظره، ولا نوقفهم فى موقف المكاثرة والمفاخره؛ بل لكلٍّ طائفة فضلٌ لا ينكَر، وفضائلُ هى أشهرُ من أن تملَى وتسطَّر؛ ولمّا انتهيتُ فى كتابى هذا إلى باب الكتابة، أردت أن أضرب عن ذكر كتابة التصرّف صفحا، ولا أُعيرها من النظر لمحا، وأقتصر على كتابة الإنشاء جريا على عادة من صنّف، وقاعدةٍ من ألّف؛ فسألنى بعض إخوانى أن أضع فى ذلك (٢٩) ملخّصا يَعلم منه المباشِرُ كيف المباشَره، ويستضىء به فيما يسترفعُه[(٣)] أو يرفعه من ضريبةٍ ومُوافَره[(٤)]؛ فأوردتُ[(٥)] هذه النُّبذة إزالةً[(٦)] لسؤاله، وتحقيقا لآماله؛ وذكرتُ من صناعة الكتابة ما هو بالنسبة الى مجموعها قطرةٌ من بحرِها، وشَذْرةٌ من عقود درّها؛ ممّا[(٧)] لا بدّ للمبتدى من الإحاطة بعلمِه، والوقوف عند رسمِه؛ وحين وضعتُ ما وضعتُ من هذه الصناعة لم أقِفْ قبل ذلك على كتاب فى فنّها

(١) المراد بالأقلام هنا: أنواع كتابة الديوان كما هو المصطلح عليه عند كتاب الدواوين فى زماننا؛ وبالتى قبلها والتى بعدها: جمع القلم بالمعنى المعروف.

(٢) فى الأصل: «الأمثال»؛ والتاء زيادة من الناسخ.

(٣) يسترفعه: أى يطلب من غيره أن يرفعه إليه. ويرفعه: أى يرفعه هو إلى غيره.

(٤) فى الأصل: «موامره» بالميم؛ وهو تحريف.

(٥) فى الأصل: «فأردت» بسقوط الواو؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٦) فى الأصل: «إرادة» وهو تحريف؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٧) فى الأصل: «فيما»؛ وهو تحريف.

مصنَّف، ولا ٱنتهيتُ إلى فصل[(١)] مترجَم بهـا أو مؤلَّف؛ ولا لمحتُ فى ذلك إشاره، ولا سمعتُ من لَحْص فيها عباره؛ ولا من تفوّه فيها ببنت شـفة ولسان، ولا من صرَّف ببنانِ[(٢)] بلاغتِـه فى ميادينها ٱلعنان؛ حتى أقتدىَ بمثالِه، وأَنسُج[(٣)] على منوالِه؛ وأسلك طريقه فى الإجاده، وأحذوَ حذوَه فى الإفاده؛ بل وجدتُها مقفَلةَ ٱلبـاب، مسبَلةَ الحجَـاب؛ قد ٱكتَفى كلُّ كاتب فيهـا بعِلمِه، وٱقتصر على حسب فهمه؛ فراجعتُ فيها الفكره، وعطفتُ بالكرّة بعد الفرّه؛ ثم قرعتُ بابها ففُتِح بعد غَلْقِه[(٤)]، ورفعتُ حجابَها ففُتِق بعد رَتْقِه؛ وٱمتطيتُ صهوتَها[(٥)] فلانت بعد جماحِها، وٱرتقيتُ ذُروتها فظهر للفكرة طريقُ نجاحِها؛ فشرعتُ عنـد ذلك فى تأليف ما وضـعتُه[(٦)]، وترصيفِ[(٧)] ما صنّفتُه؛ وبدأتُ بٱشتقاق تسمية الديوان، ولِم سُمِّىَ ديوانا، ثم ذكرت ما تفرّع من كتابة الديوان من أنواع الكتابات، وأوّلَ ديوان وُضِع فى الإسـلام، وسببَ وضـعِه، ثم ذكرت ما يحتاج اليه كلُّ مباشر من كيفيّة المباشَرة وأوضاعها، وما ٱستقرّتْ عليه ٱلقواعد العرفيّـة، والقوانينُ الٱصطلاحيّة، وما يرفعه كلُّ مباشر ويسترفعه[(٨)]، والأوضاع ٱلحسابية، على ما ستقف إن شاء ٱلله تعالى عليه، وترجع فيما أَشكَل من أمورها إليه.

---

(١) فى الأصل: «لفظ»؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى. ومترجم بفتح الجيم: أى مسمى.

(٢) فى الأصل: «بنيان»؛ وهو تصحيف.

(٣) فى الأصل: «وأبيح»، وهو تحريف.

(٤) الغلق: مصدر علقت الباب بدون ألف، وهى لغة قليلة قال الشاعر: «ولا أقول لباب الدار مغلوق».

(٥) فى الأصل: «صهرتها» بالراء؛ وهو تحريف.

(٦) لعله: «وصفته» إذ به مع قوله: «صنفته» فى الجملة الآتية يستقيم السجع الذى التزمه المؤلف.

(٧) الترصيف: التجميع والتنضيد، يقال: رصف الحجارة ورصفها بتخفيف الصاد وتشديدها.

(٨) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٩٣ من هذا السفر.

ذكر اشتقاق تسمية الديوان ولم سمّى ديوانا ومن سمّاه بذلك

قد اختُلِف فى تسمية الديوان ديوانا على وجهين : أحدهما أنّ كسرى اطّلع ذات يوم على كتّاب ديوانه ، فرآهم يحسُبون مع أنفسهم ، فقال : دِيوانه : أى مجانين ؛ فسُمّىَ موضعُهم بهذا الاسم ، ثم حُذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا للاسم ، فقيل : ديوان . والثانى أن الديوان بالفارسيّة اسمٌ للشياطين ، فسُمّىَ الكتّابُ باسمهم لحذقهم بالأمور[1] ، ووقوفهم على الجلىّ والخفىّ ، وجمعهم لما شذّ[2] وتفرّق ، واطلاعهم على ما قرُب وبعُد ، ثم سُمّىَ مكانُ جلوسهم باسمهم ، فقيل : ديوان . هذا ما قيل فى تسميته[3] على ما حكاه الماوردىُّ فى الأحكام السلطانيّة ؛ والله أعلم .

ذكر ما تفرّع عن كتابة الديوان من أنواع الكتابات

هذه الكتابة تنقسم إلى أقسام ووظائف : أصولٍ وفروع ، وهى : مباشَرةُ الجيوش ، ومباشَرةُ الخزانة ، وبيتِ المال ، وأهراءِ[4] الغلال ، ومباشَرةُ البيوت ، ومباشَرةُ الهلالىّ[5] ، ومباشَرةُ الجوالى[5] ، ومباشَرةُ الخراجىّ ، ومباشَرةُ الأقصاب والمعاصر ومطابخ السكّر ؛ ويحتاج مباشرُ كلِّ وظيفة من هذه الوظائف إلى معرفة قواعدَ يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى ؛ ولنبدأ بذكر مباشرة الجيوش .

---

(١) كذا فى الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٩٠ بالباء ؛ ولعله « فى الأمور » ؛ إذ لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال : حذقت بالشىء ؛ والذى وقفنا عليه أنه يقال : حذقته ، وحذقت فيه .

(٢) فى الأصل : « شدّد » بدالين مهملتين ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : «تسميتهم» والميم زيادة من الناسخ ، فإن المراد تسمية الديوان .

(٤) الأهراء : جمع « هُرِىّ » بضم الهاء وكسر الراء وتشديد الياء ، وهو بيت كبير تجمع فيه الغلال التى للسلطان ؛ قال الأزهرى : لا أدرى أعربى هو أم دخيل .

(٥) سيأتى شرح الهلالى والجوالى عند الكلام على ما يحتاج إليه مباشر كل منهما .

ذكر مباشرة ديوان الجيش وسبب وضع الدواوين وأول من وضعها فى الإسلام

وديوانُ الجيش هو أوّلُ ديوان وُضِع فى الإسلام[(١)]، وضعه عمرُ بنُ الخطّاب — رضى الله عنه — فى خلافته؛ وقيل: بل وُضِع فى عهد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، ويدلّ على ذلك أن البخارىّ — رحمه الله — تَرجَم على هذا بقوله: باب كتابة الإمام الناسَ، قال: حدّثنا محمدُ بن يوسف، قال: حدّثنا سفيانُ عن الأعمش عن أبى وائلٍ عن حُذَيفةَ: قال النبى صلّى الله عليه وسلّم: "اكتبوا لى من تلفّظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل" وقد روى البخارىُّ أيضا بسنده عن ابن عبّاس — رضى الله عنهما — قال: "جاء رجل إلى النبى صلّى الله عليه وسلّم فقال: يارسول الله، إنّى اكتُتبتُ[(٢)] فى غزوة كذا وكذا، وامرأتى حاجّة؛ قال: ارجع فاحجُج مع امرأتك"

واختلف الناس فى سبب وضعه فى أيّام عمر، قال قوم: سببُه أنّ أبا هُرَيرة — رضى الله عنه — قَدِم بمال من البحرين، فقال له عمر رضى الله عنه: ما ذا

(١) فى صبح الأعشى ج ١ ص ٩١ أن أول ديوان وضع فى الإسلام هو ديوان الإنشاء؛ قال: وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم ويكاتبونه الخ ثم قال أيضا: وهذه المكتوبات متعلقها ديوان الإنشاء.

(٢) كذا فى اللسان مادة كتب؛ والذى فى الأصل: «إنى اكتسيت»؛ وهو تحريف؛ وفى صحيح البخارى ج ٤ ص ٧٢ طبع بولاق سنة ١٣١١: «كتبت» وقد روى البخارى هذا الحديث أيضا فى ج ٣ ص ١٩ طبع بولاق برواية أخرى، وهى: قال النبى صلى الله عليه وسلم: «لا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم؛ فقال رجل: يارسول الله، إنى أريد أن أخرج فى جيش كذا وكذا وامرأتى تريد الحج؛ فقال: اخرج معها» ولا شاهد فيه على هذه الرواية حيث قال: «إنى أريد أن أخرج» ولم يقل: «إنى كتبت».

جئتَ به ؟ قال خمسمائة ألفِ درهم، فاستكثَرَه عمرُ وقال : أتدرى ماتقول؟ قال : نعم، مائة ألف خمس مرات؛ فقال عمر : أطيبٌ[1] هو ؟ فقال : لا أدرى؛ فصَعِد عمرُ رضى الله عنه المنبرَ، فحمِد الله وأثنَى عليه، ثم قال : أيّها الناس، قد جاءنا مالٌ كثير، فإن شئتم كِلنا لكم كيلا، وإن شئتم عَددنا [لكم عدّا][2]؛ فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيتُ الأعاجم يدوِّنون ديوانا لهم، فدوِّن أنت [لنا][3] ديوانا .

وقال آخرون : بل سببُه أنّ عمر — رضى الله عنه — بعث بعثا وعنده الهُرْمُزانُ[4]، فقال لعمر : هذا بعثٌ قد أعطيتَ أهلَه الأموال، فإن تخلَّفَ رجلٌ منهم وأَخَلَّ[5] بمكانه فمن أين يَعلَم صاحبُك[6] ؟ فأثبِتْ لهم ديوانا؛ فسأله عن الديوان حتى فسّره له .

ورَوَى [عابد بن يحيي][7] عن [الحارث][7] بن نُفَيل أن عمر رضى الله عنه استشار المسلمين فى تدوين الدواوين، فقال علىّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه : تَقسِم فى كلِّ سنة ما اجتمع إليك من المال ولا تُمسِك منه شيئا؛ وقال عثمان بن عفّان — رضى الله عنه — : أرى مالا كثيرا يسَع الناسَ، وإن لم يُحصَوا حتى يُعرَفَ من أخَذ ممن لم يأخذْ خشيتُ أن ينتشر الأمر؛ فقال خالد بنُ الوليد : قد كنتُ بالشأم

(١) الطيب : الحلال، وهو ضد الخبيث، أى هل اكتسبه دافعوه من حلال ؟ .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية ص ٣٤٤ طبع ألمنيا .

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية .

(٤) كذا فى صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٠٦ والأحكام السلطانية؛ والذى فى الأصل : « الفيرزان »؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « آخر » وفى الأحكام السلطانية : «وأجل» وهو تحريف فى كليهما والتصويب عن صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٠٦ ومقدمة ابن خلدون ص ١١٨ طبع بولاق .

(٦) يريد بقوله : «صاحبك» أمير الجيش؛ وزاد فى الأحكام السلطانية بعد هذه الكلمة قوله : به .

(٧) هاتان الكلمتان ساقطتان من الأصل؛ وقد أثبتناهما عن الأحكام السلطانية .

فرأيتُ ملوكها دَوّنوا ديوانا، وجَنّـدوا جنودا، [فدوّن[1] ديوانا، وجَنّد جنودا] فأَخَذ بقوله، ودعا عَقيـلَ بنَ أبى طالب ومَخْرَمةَ[2] بنَ نوفل وجُبَيرَ بنَ مطعم — وكانوا من كُتّاب قريش — فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فبدءوا ببنى هاشم فكتبوهم، ثم أتبعوهم قومَ أبى بكر، ثم عمرَ وقومَه، وكتبوا القبائل ووضعوها على ٱلخلافة[3]، ثم رفعوا ذلك إلى عمر رضى الله عنه، فلمّا نظر فيه قال: لا، [ما][4] وَدِدتُ أنّه كان هكذا، ولكن ٱبدءوا بقرابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ٱلأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه ٱلله؛ فشكره العباس رضى الله عنه على ذلك؛ وكان ذلك فى ٱلمحرّم سنة عشرين من ٱلهجرة، وقيـل فى سنة خمس عشرة، — والله أعلم —؛ فلمـا ٱستقرّ ترتيب الناس فى الدواوين على قَدر[5] النسب ٱلمتصلِ برسول ٱلله صلّى ٱلله عليه وسلّم فَضّل بينهم فى العطاء على قدر السابقة فى الإسلام. وسنذكر إن شاء ٱلله فى خلافة عمر رضى ٱلله عنه ما فرضه من العطاء لكلّ طائفة على ما ستقف عليه — إن شاء ٱلله تعالى — فى موضعه من فنّ ٱلتاريخ؛ وهو فى السفر ٱلسابع عشر من كتابنا هذا؛ فهذا كان سببَ وضعِ ديوانِ ٱلجيش.

وأما دواوين الأموال — فإنها كانت بعد ظهور الإسلام بالشأم والعراق على ما كانت عليه قبل الإسـلام، فكان ديوان الشأم بالروميّة لأنه كان من ممالك

(١) التكملة عن الأحكام السلطانية ص ٣٤٥ طبع ألمنيا.

(٢) كذا فى مستدرك التاج؛ والذى فى الأصل والأحكام السلطانية: «محزمة» بالحاء المهملة والزاى المعجمة؛ وهو تصحيف.

(٣) لعله يريد بقوله: «ووضعوها على الخلافة»، أنهم جعلوا ترتيب القبائل فى الديوان على حسب قربهم فى النسب من القبيلة التى فيها الخلافة.

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية إذ بها يستقيم الكلام.

(٥) كذا فى الأحكام السلطانية؛ والذى فى الأصل: «تعدّد»؛ وهو تحريف.

الروم ؛ وكان ديوان العراق بالفارسيّة لأنه كان من ممالك الفُرس ؛ فلم يزل أمرهما جاريا على ذلك إلى زمن عبد الملك بن مروان ، فنقل ديوان الشأم إلى العربيّة فى سنة إحدى وثمانين من الهجرة ؛ وكان سبب نقلِه — على ما حكاه المدائنىّ — أن بعض كتّاب الروم فى ديوانه أراد ماءً لدواته ، فبال فى الدواة ، فبلغه ذلك فأدّبه ، وأمر سليمانَ بنَ سعد أن ينقل الديوانَ إلى العربيّة ، فسأله أن يُعِينه بخراج الأُرْدُنّ[1] سنةً ، ففعل وولّاه الأُرْدُنّ ، وكان خراجُه مائةَ ألف وثمانين ألف دينار ، فلم تنقضِ السنةُ حتى فرغ من الديوان ونَقَلَه ، وأَتَى به عبدَ الملك فدعى سرجون[2] كاتبَه فعرضه عليه فغمّه وخرج كئيبا ، فلقِيَه قوم من كتّاب الروم ، فقال لهم : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

وأما ديوان العراق — فكان سبب نقلِه إلى العربيّة أنّ كاتب الحجّاج بنِ يوسف كان زاذان فَرُّوخ[3] ، وكان معه صالح بنُ عبد الرحمن يكتب بين يديه بالعربيّة والفارسيّة ، فأوصله زاذان فَرُّوخ[3] إلى الحجّاج ، فخفّ على قلبِه ، فقال صالحٌ لزاذان فَرّوخ[3] إنّ الحجّاج قد قرّبنى ولا آمن أن يقدّمنى عليك ؛ فقال : لا تظنَّ ذلك فهو إلىّ أحوَجُ منّى إليه ، لأنه لا يجد من يكفيه حسابَه غيرى ؛ فقال له صالح : والله لو شئتُ أن أحوّل الحساب إلى العربيّة لفعلت ؛ فقال : فحوِّلْ منه ورقة أوسطرا حتى أرى ، ففعَل ؛ ثم قُتِل زاذان فَرُّوخ فى حرب عبدالرحمن بن الأشعث ، فاستخلف

(١) الأردن بضم الهمزة وتشديد النون : كورة واسعة ، منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى قسم ٢ ص ٨٣٧ طبع ليدن ؛ والذى فى الأصل : « سرحون » بالحاء المهملة .

(٣) كذا فى مقدمة ابن خلدون ص ١١٩ طبع بولاق وتاريخ الطبرى قسم ٢ ص ٤٥٨ طبع ليدن ؛ والذى فى الأصل : «زاذا بقروخ» ؛ وهو تحريف .

ٱلحجّاج صالحا مكانَه، فذَكَر له ما جرى بينه وبين زاذان فَرُّوخ فأمره أن ينقله، فأجابه إلى ذلك وأجّلَه فيــه أجلا حتى نقله إلى العربيّة، فلمّا عرف مَرْدانشاه بن زاذان فَرُّوخ ذلك بذَل له مائةَ ألف درهم ليُظهِر للحجّاج العجزَ عنــه ، فلم يفعل ؛ فقال له : قطع ٱلله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل ٱلفارسيّة .

وكان عبدُ الحميد بنُ يحيى كاتبُ مروان يقول : لله دَرُّ صالح ما أعظم مِنّته على الكتّاب ! .

هــذا ما حُكِيَ فى ٱبتــداءِ نقلِ الدواوين ، فلنرجع إلى الجيش وما يحتاج إليه مباشرُه .

ذكر ما يحتاج اليه كاتب الجيش على ما ٱستقر فى زماننا[1] هذا من ٱلمصطلح

يحتاج كاتب الجيش إلى أن يرصّع[2] أسماءَ أرباب ٱلإقطاعات والنقودِ والمَكِيلاتِ من ٱلأمراء على ٱختلاف طبقاتهم ، والمماليك السلطانيّة ، وأجنادِ ٱلحَلْقة، وأمراءِ التُّركمان والعربان ؛ ويضَعَ لذلك جريدة مُقفّاةً على حروف المُعجَم يُثبِت فيها أسماءهم ، ويذكر ٱلٱسمَ وٱبتداءَ إمرته أو جنديّته فى أىّ سنة كانت من السنين الهلاليّة لٱستقبال ما يكتب من مُغَلّ السنة الخراجيّة ، وعمن ٱنتقل إليه الإقطاع ؛

---

(١) فى الأصل : « فى مكاننا » ، ويرجح ما أثبتناه قوله فيما سيأتى فى صفحة ٢٠٨ س ١١ فهــذه هى القواعد التى استقرّت فى زماننا .

(٢) كذا وردت هذه الكلمة فى مواضع كثيرة من هذا الباب ؛ ولعلّ كتّاب الدواوين إذ ذاك كانوا يستعملون الترصيع بمعنى التنظيم ، كما يفهم من سياق الكلام ؛ وفى كتب اللغة أنه يقال : رصّع العقد بالجوهر ترصيعا اذا نظمه فيــه وضم بعضه الى بعض ، والمعنى أن كاتب الجيش يضمّ أفراد كل طائفــة الى بعضها ولا يدخل فيها ما ليس منها .

ويَرمُز قُبالةَ كلّ آسمٍ إلى عِبرة[1] إقطاعه رمزا لا تصريحا، ويشير فى جندىّ الحَلْقة إلى مقدَّمه، ويعيِّن فى آسم التُّركمانىّ أو البدوىّ ما قدّمه إلى الإصطبلات السلطانيّة والمُناخات من الخيل والجمال، وفى عربان مصر المقرَّر عليهم فى مقابلة الإقطاعات من التَّقادِم[2]، وإقامةِ خيل البريد فى المراكز، وغيرِ ذلك من نقلِ الغلال، وما هو مقرَّرٌ عليهم فى آبتداء أمرهم عند خروج الإقطاعات بأسمائهم، وغير ذلك على جارى العادة، فإن آنتقل أحدٌ منهم من إقطاع إلى غيره فى ذلك العمل بعينه وَضَع تحت إقطاعه الأوّل ما صورتُه: ثم آنتقل إلى غيره بمقتضَى منشورٍ تاريخُه كذا عن فلان المنتقلِ إلى غيره، أو المتوفَّى، أو المفارِق، أو غير ذلك؛ فإن كان على سياقته فى إقطاعه الأوّل قال: على سياقته؛ وضَبَط تاريخَ الأوّل، وإن كان لآستقبال مُغَلٍّ أو شىءٍ من مُغَلٍّ ميَّزه، وآحتاج إلى محاسبة ربّ الإقطاع على إقطاعه الأوّل؛ والمحاسَباتُ غالبا إنّما تقع بعد وفاة الأمير أو الجندىّ، أو آنفصالِه بوجه من وجوه الآنفصالات، وأما ما دام فى الخدمة فهى يتلو بعضُها بعضا؛ وصورة المحاسبة أن يُقيم تاريخَ منشوره إلى تاريخ آنفصاله أو نقلته، ويَعقِدَ على ذلك جملةً، ويوجبَ له عن نظير خدمته آستحقاقا، وينظرَ إلى ما قبضه من المُغَلّات فيجمعها، فإن كان قبضُه نظيرَ خدمته فلا شىء له ولا عليه، وإن زاد قبضُه على مدّة خدمته آستعاد منه ما زاد بنسبته، وإن كانت خدمتُه أكثرَ من قبضه أفرَج له عن نظير ما فَضَل له؛ ومن العادة فى غالب الأوقات أن يُسقط من آستحقاق أرباب الإقطاعات فى كل سنة أحد عشر يوما وربع يوم، وهى التفاوتُ بين آلسنة الشمسيّة والقمريّة، ويُبرِزَ له ما بقىَ

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل فى عدّة مواضع من هذا الباب وكتاب التحفة السنية لابن الجيعان؛ والظاهر أن المراد بها ما يقدّر على الإقطاعات، أخذا من سياق الكلام؛ وسميت بذلك لأنهم كانوا يعبرون الدراهم المتحصلة من البلد، أى يقوّمونها بدنانير جيشية كما يفهم من التحفة السنية.

(٢) المراد بالتقادم: الهدايا، وهو جمع تقدمة.

ويُعطيَه المِثل من نسبة البارز، وقد سوّح بذلك فى بعض الأوقات دون بعض ؛ وهذه الجريدة تسمّى الجريدةَ الجيشيّة .

ويَحتاج إلى بســطِ جريدة إقطاع صـورتها : أنه يرصّع[1] الأعمـال كلَّ عمـل وبلاده وضياعه وكفوره وقراه وجزائره وجروفه وجهات الهـلالىّ والجَوالِى ، وغير ذلك من معالمه وحدوده[2] والجهات المستظهر بها والبذول[3]، وسائرِ ما هو متعـلّق بذلك المكان ؛ ويَذكُر عِبرةَ[4] البـلد الجيشيّة ، وما استقرّ عليـه حال متحصِّلها أخيرا، وإن كان بالشام ذَكَر العِبرةَ الجيشيّة ومتحصِّلَ البلد لثلاث سنين : مُبقلة[5] ومتوسّطةٍ ومجدبة، ثم يشطب[6] قُبالةَ كلِّ جهة أسماءَ مُقطَعِيها، وما هو باسم كلِّ واحد منهـم ، ليَتحرّر[7] له بذلك هل استَوعب الإقطاعُ جملةَ النواحى والجهات ، ويتميّز له ما بقِىَ من المحلولات ؛ وإن انتقل ربُّ إقطاع من إقطاع إلى غيره بادَرَ بشطبه لوقته فى موضعه لئلا يدخُل عليه الوَهمُ[8] والاختلاف .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٠٠ من هذا السفر .

(٢) فى الأصل : «حقوقه» ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا فى الأصل ؛ ولم نجد من معانى هذه الكلمة ما يناسب سياق ما هنا .

(٤) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٠١ من هذا السفر .

(٥) فى الأصل : مقبلة . وفيه قلب صوابه ما أثبتنا كما يرشد إليه عطف المتوسطة والمجدبة عليه ؛ والمبقلة : التى كثر بقلها .

(٦) كذا وردت هذه الكلمة فى عدّة مواضع من هذا الباب والشطب هو أن تمدّ خطا على الغلط الواقع فى الكلام كما فى شفاء الغليل ، وليس هذا مرادا هنا ؛ والظاهر أن كتّاب الدواوين فى عصر المؤلف اصطلحوا على استعمال الشطب بمعنى التقييد والنقل من المستندات الى الدفاتر ، كما هو مصطلح كتّاب الدواوين عندنا فى استعمال هذه الكلمة ، ولديهم دفاتر تسمى دفاتر الشطب ؛ وهـذا المعنى هو المراد بالشطب فى هذا الباب ، كما يفهم من السياق .

(٧) فى الأصل : « ليتحرز » بالزاى المعجمة ؛ وهو تصحيف .

(٨) الوهم بالتحريك : الغلط .

ويحتاج إلى أن يتعاهد مباشرى المعاملات والبرور[1] بطلب الكشوف الجيشيّة فى كل ثلاث سنين ويشطبها[2] على ما عنده لتتحرّر[3] عنده العِبَر[4]، ويتميّز له ما تعيّن من الزيادة والنقص .

ويحتاج أيضا إلى بسط جريدةٍ ثالثةٍ بأسماء أرباب النقود والمكيلات خاصّة، لأنه يحتاج أن يفرج لكلّ منهم فى كلّ سنة عن نقده ومكيله بمقتضى ما شهد به منشوره، وعادةُ قبضه وجهته، أو ممّا تعيّن بقلم الاستيفاء إن كان، فإذا أفرج لكلّ منهم شطب[5] تاريخَ إفراجه قُبالة اسمه لتنضبط له بذلك تواريخُ قبوضهم ويأمَنَ من التّكرار والغلط، وهذه الجريدة هى فرع من الجريدة الجيشيّة، فإنه يبسطها منها .

ويحتاج فى أجناد[6] الحَلْقة السلطانيّة إلى أن يُضيف كل جماعة منهم إلى مقدّمٍ مشهور من أعيانهم ممن هو متميّز الإقطاع، ويقيم عليهم نقيبا يعرف مساكنهم ومظانّهم، فإذا طُلبوا جمعهم، أو طُلب أحدٌ منهم أحضره، ويُسمّى هذا المقدَّمُ : مقدّمَ الحَلْقة؛ ويضيف كلّ جماعة من أمراء الطّبلخاناه[7] وأمراءِ العَشَرات،

(١) كذا فى الأصل؛ ولم نجد من معانى هذه الكلمة ما يناسب السياق .

(٢) انظر الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر .

(٣) فى الأصل : «لتتحرز» بالزاى المعجمة؛ وهو تصحيف .

(٤) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٠١ من هذا السفر .

(٥) المراد بالشطب هنا : التقييد؛ كما سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر .

(٦) فى الأصل : «من أخبار»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٧) الطبلخاناه : أى بيت الطبل؛ وخاناه : لفظ فارسى معناه البيت إلا أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه على عادة العجم فى ذلك، وقال فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ عند الكلام على الطبلخاناه : إنها طبول متعدّدة معها أبواق وزمّارات تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص تدق فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة الملك فى الأسفار والحروب، وهى من الآلات العامة لجميع الملوك .

ومقدّمى ٱلحَلْقة، ومضافيهم إلى مقدّم كبير من أمراء ٱلمائة، ويسمّى هذا الأميرُ: مقدّمَ ٱلألف؛ ويحتاج إلى أن يضع لهاتين الطائفتين[1] جريدةَ عِدّة، يضع فيها ٱسمَ مقدّم الألف وعِدّته من غير تفصيل لأسمائهم وقُبالةَ ٱسمه عِبرة[2] إقطاعه، ما هو لخاصّه، وما هو لأصحابه؛ ثم أمراء الطَّبْلخاناه كلّ أمير وعِدّته، وعِبْرة إقطاعه، على ما تقدّم فى مقدّم الألف، ويرتّبهم فى التقديم والتأخير على مراتبهم؛ ثم أمراء العَشَرات كذلك؛ ثم يذكر مقدّمى ٱلحَلْقة فيعيّن ٱسمَ ٱلمقدّم ونسبتَه وأتباعَه إن كان له أتباع، وعِبْرةَ إقطاعه، ثم يذكر مضافيه من ٱلحَلْقة على هذا ٱلحكم، ويرتّبهم بحسب مراتبهم، يبدأ فى كلّ تقدمةٍ بٱسم ٱلمقدّم، ويختمُ باسم النقيب، ليسهل عليه طلبُ كلِّ جندىٍّ من مقدّمه، ويطلبه مقدّمه من نقيبه؛ وإن ٱنتقل أميرٌ أو جندىٌّ من مقدّم ألف أو مقدّم حَلْقة وٱنضاف إلى مقدّم آخَرَ نقلَه لوقته لئلّا يضطربَ عليه حالُهم، ويلتبسَ أمرُهم؛ وكذلك أيضا يَفعل فى ٱلممالك السلطانيّة من إضافة كلِّ جماعة منهم إلى مقدّم من أعيانهم، ويميّز أربابَ الوظائف منهم: من السلاحداريّة[3] والحَرْبداريّة والرُّمحداريّة والجُمَقْداريّة[4] والزَّردكَشيّة[5]

(١) يريد بالطائفتين: الأمراء وأجناد الحلقة.

(٢) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٠١ من هذا السفر.

(٣) السلاحدارية: نسبة الى السلاحدار وقد ذكر فى صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٧ أن دار لفظة فارسية معناها ممسك، فاعل من الإمساك؛ وكثير من كتاب الزمان أو أكثرهم بل كلهم يظنون أن لفظ دار فى ذلك عربىّ بمعنى المحل كدار السلطان أو الأمير؛ وهو خطأ الخ ماقال؛ فمعنى سلاحدار: ممسك السلاح؛ وكذا يقال فيما يأتى بعده.

(٤) الجمقدارية: نسبة الى الجمقدار وهو الذى يكون دائما حامل الدبوس، كما فى كتاب معيد النعم ومبيد النقم ص ٥٠ طبع أوربا.

(٥) الزردكشية: هم لابسو الدروع؛ وكش باللغة الفارسية، معناه لابس انظر المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستاين جاس مادة «كشيدن».

والبُندقـداريّة[١] ومن السُّقاة[٢] والجَمـداريّة[٣] والخِزنداريّة[٤] والحُـرّاس[٥] والبَشْمَقداريّة[٦] وغيرِهم؛ ويضيف كلَّ جماعة من كلِّ طائفة منهم إلى متعيِّن من جملتهم، ويجمع عِدّة كلِّ طائفة ويقدِّم عليهم أمثلَهم؛ وأمّا المماليك الكتابيّة[٧] أربابُ الجامكيّات[٨] فينسُب كلَّ جماعة منهم إلى طبقةٍ مُقدَّمُها من الطواشيّة، وينسُب المماليكَ البُرجيّة[٩]

(١) البندق: الذى يرمى به، وهو معروف؛ والبندقدارية: هم الذين يحملون هذا البندق خلف السلطان أو الأمير. انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ فى تفسير البندقدار.

(٢) السقاة: جمع ساق، قال فى صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤ هو لقب على الذى يتولى مدّ السماط وتقطيع اللحم وسق المشروب بعد رفع السماط ونحو ذلك، وكأنه وضع فى الأوّل لساقى المشروب فقط ثم استحدثت له هذه الأمور تبعا الخ.

(٣) قال فى صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ عند الكلام على الجمدار: إنه الذى يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه؛ وأصله: «جامادار» فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالا وقيل: جمدار وهو فى الأصل مركب من لفظين فارسيين أحدهما جاما ومعناه الثوب والثانى دار ومعناه ممسك.

(٤) فى الأصل: «والحربدارية» وهو تحريف لتكرره مع ما سبق ولعل صوابه ما أثبتنا؛ قال فى صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٢ فى الخزندار بكسر الخاء وفتح الزاى المعجمة: هو لقب على الذى يتحدّث على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما الخ.

(٥) فى الأصل: «والحران» بالنون؛ ولم نجده فيما راجعناه من المظان.

(٦) قال فى صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ فى تفسير البشمقدار: إنه الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير؛ وقال: إن البشمق باللغة التركية معناه النعل؛ ثم نقل عن صاحب الأنوار الضوئية: أن الصواب فيه «بصمق» بالصاد بدل الشين؛ ثم قال: والمعروف فى ألسنة الترك بالديار المصرية ما تقدّم والذى فى الأصل: «السمقداوية» بالسين، ولم نجده فيما راجعناه من المظان.

(٧) الكتابية: أى الذين يشتغلون بالكتابة.

(٨) الجامكيات: الرواتب والأجور، واحده جامكية؛ وأصله باللغة الفارسية: «جامكى» بفتح الميم وكسر الكاف. انظر المعجم الفارسى الإنجليزى تأليف ستاين جاس.

(٩) سميت هذه الطائفة بهذا الاسم نسبة إلى الأبراج التى كانوا يسكنونها فى القلعة، ومنهم كانت دولة المماليك الثانية التى حكمت الديار المصرية.

الى مساكنهم ومقـدّمهم ، والبحرية[1] إلى مراكزهم ومقدّمهم ، والأُوشاقيـة الذين إقامتُهم بالإسطبل الى المقدّم عليهم من الطواشيّة، ويرجع سائرَ المماليك السلطانيّة إلى مقدّمهم الكبير، ولا يكون فى الغالب إلّا من الطواشيّة الأمراء .

ويحتاج أيضـا الى أوراقٍ أخر تتضمّن أسماءَ أمراء الميمنة وأمراء الميسرة، والجالس — وهو المقدّم — أمامَ قلبِ الجيش، وهذه الأوراق تكون جُمليّة يُستغنَى فيها بذكر مقدّمِي الألوف دون مضافيهم . ٥

(٣٣)

ويتلو هذه الأوراقَ أوراقٌ أخرُ — تتضمّن أسماءَ الأمراء الذين جرت عادتهم بصحبة ركاب السلطان فى الصّيد والركوبِ للمُتنزّهات وفى الميادين للّعب بالكرة ، وفى غير ذلك؛ هذا ما يحتاج إليه فى الأمراء والمماليك السلطانيّةِ ورجالِ الحَلْقة .

وأما أجناد الأمراء فإنّ مباشرَ الجيش يَسترفع[2] من دواوينهم أوراقا بعِـدّة أجناد كلِّ أمير منهم، يُصْدِرُها كاتبُ عِدّة الأمير[3] على عِدّة نُسـخ بحسب المباشِرين للجيش ، ويقـول فى صدرها ما مثـاله : عَرضٌ رفعـه[4] المملوكُ فلان الفلانىُّ على ما استقرّ عليه الحال إلى آخر كذا، والعِدّةُ خاصّته،وكذا كذا طواشيّا؛ ويشرح أسماء ١٠

(١) قال فى صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ : ومن الأجناد طائفة ثالثة يقال لهم : البحرية ، يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان كالحرس؛ وأول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . اهـ كلامه وإنما سميت هـذه الطائفة بهـذا الاسم لأنهـم كانوا يسكنون بجزيرة فى النيل وهى جزيرة الروضـة ؛ ومن هؤلاء كانت دولة المماليك الأولى ، كما فى كتب التاريخ . ١٥

(٢) يسترفع : أى يطلب أن يرفع إليه ، كما سبق فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٩٣ من هذا السفر.

(٣) فى الأصل : «هذه» ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا . ٢٠

(٤) فى الأصل : « رقعة » ؛ وهو تصحيف .

ٱلجنـد، وما أُقطِع بٱسم كلٍّ منهم من إقطاع ونقـد ومكيل، مبتدئا برأس المدرّج ومن يليه فى ٱلجند، ثم مماليك الأمير وألزامه، ويختمهم بالنقيب، ثم يعيّن فى آخر المدرّج ما بقى لخاصّ الأمير من النواحى وٱلجهات، وما عليـه منه لأصحابه من نقد ومكيل إن كان؛ ويلزمه عملُ مَسِير على نواحى الإقطاع يَشْطُب[1] كلَّ جهـة بأسماء من أقطِعتْ لهم، وما بَقِىَ منها لخاصّ إن كان؛ فإن كان منشور الأمير قد عُيِّن فيه ما هو لخاصّـه وما هو لأصحـابه فليس له أن يَقتطِع من المعيَّن لجنـده ما يضيفه لخاصّه، ولا يُمنَع أن يقطع من خاصّه زيادةً لأصحابه؛ وهذه القاعدة لاحقة بقواعد الفقه، فإنّ له التصرّفَ فى ماله دون مال غيره، وله أن يميّز بعضهم على بعض بحسب أحوالهم ومراتبهم؛ فإذا رُفِعتْ إليه هـذه الأوراقُ عَرَضَ جندَ كلِّ أمير فى مجلس ولىّ الأمر بمشهد من الأمراء وغيرهم، فمن أجاز ولىُّ الأمر عَرْضَه حلّاه[2] قُبالةَ ٱسمه، ويعيّن فى حُلاه سِنَّه ولونَه وقامتَه، ثم يذكُر حِلية وجهـه، ويصف ما يتميّز به عن غيره من أثرٍ فى وجهه أو غيرِ ذلك؛ ومَن ردَّه ولىُّ الأمر من العَرْض طولب الأمير بإقامة غيره، فإذا أقامه وعرَضَـه وأجاز ولىّ الأمر عَرضَـه حلّاه عند ذلك، وعيّن تاريخَ عَرْضِه إن كان عَرَضَه بعـد يوم العَرْض الشامل؛ ويرقُم المباشر بقلمه على رأس أوراق العَرْض تاريخَ عَرْض ٱلجند؛ وتَستحِقّ هؤلاء ٱلجندُ الإقطاعاتِ والنقودَ والهلالىَّ من تاريخ عرضِهم وتدوينِهم فى الديوان، والأميرُ من تاريخ منشـوره؛ فإن مات جندىٌّ منهم أو فارق الخدمة أقام الأميرُ عوضَه، وعَرَضَه على ولىّ الأمر، وأثبت ٱسمه بالديوان؛ وإن قطعه الأمير فلا يخلو قطعُه: إمّا أن يكون لسبب كالعجز ونحوه فله ذلك، وإما أن يكون بغير سبب فلا يخلو:

(١) يشطب: أى يقيد كما سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر.

(٢) حلاه: أى وصفه، والحلية: الهيئة والصفة.

إما أن يكون قَطْعُه له فى قرب زمن إدراك المُغَلّ فلولىّ الأمر منعُه من ذلك، أو فى غير وقت المُغَلّ، فإن عَرَضَ من هو أكْفَى منـه وأقدرَ على الجنديّة أُجيزَ، وإن عَرَضَ من هو دونه مُنِـع أميرُه من ذلك، وأُلزِم بآستمرار الكافى أو إقامة من يماثله فى الكفاية والقدرة؛ وإذا عرض الأمير أصحابه فى السنة الثانية جَدَّد كاتبُه أوراقا بالعرض نظير الأولى، وشطب[1] كاتبُ الجيش حُلَى[2] الجند من العَرْض الأوّل، ثم يقابلها بالصورة الجديدة[3] فى وقت العَرْض الثانى، فإن وافقتْ وطابقتْ أجازه، وإن آختلفت الحُلَى وتباينت ردّه وطالع ولىّ الأمر به ليقـع الإنكارُ على من تجاسر على فعـل ذلك لمـا فيه من التلبيس؛ فهذه هى القواعد التى آسـتقرّت فى زماننا والله أعلم.

ويحتاج الكاتب إلى تحرير شواهده وحفظِها، فإن كان بين يدى السلطان ورَسَم له بإقطاع أمير أو جنـدىّ كتب مثالا بالإقطاع، وكَتب السلطانُ أو نائبُه بقلمـه أعلى المثال ما مثالُه: يُكتَب؛ وعَيّن ناظرُ الجيش بقلمه تحت خطّ السلطان أو نائبِه ما مثالُه: رُسِم أن يُكتَب بآسم فلان لآستقبال مُغَلِّ سنةِ كذا، ولآستقبال كذا من مُغَلِّ سنةِ كذا؛ وخَلَّد الكاتب هذا الشاهدَ عنده، وكتب مثالا ثانيا مربّعا بما مثالُه: رُسِم بالأمر الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ — ويدعو للسلطان — أن يُقطَع ويقرَّر بآسم فلان الفلانىّ — ويَنعَته بمـا يستحقّ — ما رُسِم له به الآن من الإقطاعِ والنقدِ والمَكيلِ إن كان فيه نقدٌ أو مَكيلٌ فى السنة، خارجا

(١) انظر الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر.

(٢) فى الأصل: «جدا» بالجيم والدال؛ وهو تحريف.

(٣) فى الأصل: «الجندىّ»؛ وهو تحريف.

عن الجَوالِي[1] والمواريثِ الحَشْرِيّة[2] والرِّزَقِ[3] الإحباسيَّة، إن كان الإقطاع بالديار المصريّة؛ وإن كان بالشام قال: خارجا عن المِلْك والوقف، ثم يقول: خُبْز[4] فلان الفلانىّ، إن كان عن أحد؛ وإن كان من الخاصّ أو مستجَدًا أو مستظهَرا به عَيَّنَه، ويَذْكُر خاصّتَه وعِدّتَه وأتباعَه، أو بمفرده، ثم يعيِّن جهاتِ إقطاعه، ويُثبِت هذا المثال الثانىَ فى الديوان، وتَشمَله علامةُ السلطان ونائبِه، ثم يُخلَّد بديوان الإنشاء، وهو شاهِدُ الموقِّع، ويُكتَب منشورُه بمقتضى ذلك المثال، وتَشمَله علامةُ السلطان وخطُّ نائبه ووزيره بالامتثال، ويُثبَت بديوان الجيش ثُم بالدواوين؛ وإن كان الكاتب فى جهة خارجة عن باب الملك من الممالك الشاميّة وأمَّره النائب بإقطاع أحد كتب مثالا بالإقطاع، وكتب النائبُ بأعلاه: يُكتَب، ثم يَكتُب عليه الناظر نحوَ ما تقدّم، وهو شاهِدُ الكاتب، ثم يكتب المثال الثانى فى ورقة مربَّعة بما مثالُه: رُسِم بالأمر الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ المَلكىّ الفلانىّ أن يُقطَع ويُقرَّر باسم فلان ما رُسِم له به الآن من الإقطاع، ويُعيِّن خُبْز[4] من كان وسببَ حَلِّه عنه، إما بوفاة، أو بمفارقة، أو بانتقال إلى غيره، أو غيرِ ذلك من الأسباب الموجبة لإخراج الإقطاع عنه،

(١) الجوالى: جمع جالية، وهى الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة؛ وسيأتى الكلام عنها فى ذكر الجزية.

(٢) المواريث الحشرية: هى مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو غيرها؛ أو الباقى بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له انظر صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٤.

(٣) فى الأصل: «الورق» وهو تحريف؛ والرزق بكسر ففتح وزان عنب: جمع رزقة بكسر الراء، وهى الجراية: يقال: كم رزقتك فى الشهر: أى جرايتك. (مستدرك التاج) والإحباسية بكسر الهمزة: نسبة الى الإحباس، وهو مصدر أحبست المال: اذا وقفته.

(٤) كذا فى صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٣، ١٥٦؛ والذى فى الأصل: «خبر»؛ وهو تصحيف.

ويَكتُب نائب السلطنة عليه بالتَّرجمة، ويترجِم عليــه الناظر بقلمه تحت خطّ النائب بما مثالُه : المملوك فلان يقبِّل الأرض ويُنهِى أن هذا مثالٌ كريمٌ بآسم فلان ٱلمرسومِ إثباته فى جملة الأمراء والمماليكِ السلطانيّة، أو البحريّة، أو رجالِ الحَلْقة ٱلمنصورة، أو رجالِ التُّركمانِ، أو العربان، أو الجبليّة بالمملكة الفلانيّة، أو بالجهة الفلانيّة بمـا رُسِم[1] له به الآن من الإقطاع عن فلان، والعِدّة خاصّته[2]، وكذا كذا طواشيّا، أو بحسب ما يكون لٱستقبال ما عُيِّن فيه على ما شُرِح باطِنَه، والأمرُ فى ذلك معذوق[3] بإمضائه أو بما يؤمَر به من الأبواب. ثم يُثبَت بديوان ٱلجيش، ويُجهَّز إلى باب السلطان، فإذا وصل إلى الباب كَتب عليه الناظر ومن معه من الرِّفاق بالمقابَلة، وقوبل به، ثم تَشمَله علامةُ السلطان أو نائبِــه بالكتابة، ويخلِّده كاتب الجيش بالباب عنــده، ويكتب مثالا من جهته على ما تقدم، فإذا خرج المنشور الشريف ووصل الى تلك المملكة شَمل خطَّ نائبها بالٱمتثال، وكتب عليــه ناظر ٱلجيش ورُفقتُه بالثبوت تحت خط ناظر ٱلجيش بالبــاب ورِفاقِه، ثم يُثبَت بالدواوين، ويفرج لربِّ الإقطاع على حُكمه، ويُثبَت إفراجُه، ويُسلَّم اليه إقطاعُه؛ فهذه شواهد المناشير والأمثلة.

وأما غيرها من شواهد الكشوف فعلى حسب الوقائع؛ والله سـبحانه وتعـالى أعلم بالصواب.

ويحتاج إلى ضبط أسماء من تَوجَّه بدُستور[4] إلى جهة من ٱلجهات، ويراعِى ٱنقضاءَ مدّة الدُّستور، ثم يكشِف عنه، ويطالِب مقدَّمَه به،

(١) فى الأصــل : «ما رسم» بدون الباء؛ والسياق يقتضى إثباتها كما فى صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٥، أى هذا مثال بمـا رسم الخ.

(٢) كذا فى صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٩؛ والذى فى الأصل : «خاصة» بدون هاء.

(٣) انظر الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٢١ من هذا السفر.

(٤) المراد بالدستور : الإذن. واطلاقه على هذا المعنى إطلاق عامىّ، انظر شرح القاموس.

وكذلك من تَوجَّه إلى ٱلحجاز وغيره، وكذلك من تَخلَّف عن العَوْد مع ٱلجيش المجرَّد في ٱلمهمّات؛ فيراعِى ذلك حَسَب الطاقة والإمكان، وإن تعذّرت عليه معرفة من تأخّر بعينه يَستعلِم[1] أخبارهم مجمَلة من مقدَّميهم ونقبائهم. (٣٥)

ويحتاج إلى أنه مهما ٱنحلّ من الإقطاعات، أو تَعيَّنَ من تفاوُت المُدَد عمّن دَرج[2] وفارق[3] وٱنتقل[4]، أو ما تَعيَّنَ فى خلال المُدَد بين منفصل ومتّصل يحرِّر ذلك، ويَكتُب به حَوطةً[5] جيشيّة يضمّنها ٱسمَ ربّ ٱلإقطاع ٱلمتّصل ونواحىَ إقطاعه ونقدَه ومَكيلَه إن كان، ويعيِّن ٱستقبالَ ٱلحَوْطة، ويميِّز ما ٱستحقّه الديوان من المُغَلّ، وتُصدَر الى ديوان التصرّف بعد شمولها بالعلامة وثبوتها، ويطالِب المستوفِى[6] بكتابة رُجْعة بوصول ذلك إليه لِيَبرأ من عُهدته، ويُلزَم المثبِتون التعريفَ بذلك وإضافةَ ما يَتحصّل منه، فإن أخّر كاتب ٱلجيش إصدارَ ٱلحَوطات الى ديوان التصرّف حتى يفوت الزمن الذى يمكن فيه تحصيلُ ما فيها، كان تحت دَرَكه[7] وتَبِعتِه؛ والله أعلم.

---

(١) فى الأصل: «يستعمل»؛ وفى حروفه قلب لا يستقيم به المعنى.

(٢) درج: أى مات.

(٣) يريد بالمفارقة مفارقة الخدمة.

(٤) المراد بالانتقال: الانتقال من إقطاع الى إقطاع آخر.

(٥) الظاهر أنه يريد بالحوطة ما يسميه كتّاب الدواوين فى زماننا بالحافظة، أخذا من السياق؛ وفى كتب اللغة أن الحوطة ٱسم من الاحتياط، وهو الأخذ بالحزم والثقة؛ والحوط: الحفظ.

(٦) المستوفى: هو الذى يضبط الديوان، وينبه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك؛ وفى بعض المباشرات قد ينقسم المستوفى الى مستوفى أصل، ومستوفى مباشرة؛ ولكل منهما أعمال تخصه صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦.

(٧) الدرك بالتحريك والتبعة كلاهما بمعنى واحد، ومنه ضمان الدرك فى البيع، وتسكن رائه أيضا.

ويحتاج مباشر ٱلجيش إلى مراجعة جرائده : الجيشيّة والإقطاعيّة وأوراق العِدّة فى كلّ وقت من غير ٱحتياج إلى كشف ، لتكون على خاطره أسماءُ ٱلجنـد ونواحى إقطاعهم ، فإنه بصدد أن يُسأَل عن شىء من ذلك بين يدَىْ مَلِك أو نائب ، فإن أَخَّرَ ٱلجواب بالجملة[1] إلى أن يَكشف عنه ربّما يُنسَب إلى عجز فيتعيّن أن يكون على خاطره من جليّات الأحوال ما يجيب به فى ٱلمجلس على الفور ، ولا يَتأتّى له ذلك إلا بمراجعة حسابه ومداومة النظر فيه ، والناظرُ إلى ذلك أحوجُ من غيره من ٱلمباشرين ، لأنه ٱلمسؤول والمخاطَب فى غالب الأوقات ؛ والله أعلم بالصـــواب .

ويحتاج أيضا إلى معرفة ٱلحِلَى[2] وٱختلافها على ما نذكره فى فصل الوراقة[3] ، ولا بدّ له من معرفة الأوضاع التى ٱصطلح عليهـا كُتّاب ٱلجيوش فى كتابة الحِلَىٰ من الٱختصار ؛ فهذه أمورٌ كلّيّةٌ لا بدّ لمباشر ٱلجيش من معرفتها و إتقانها .

و يتجنّب[4] مباشر ٱلجيش أن يرقُم بقلمـه عِدّةَ جيش تصريحا ، لمـا يتعيّن من إخفاءِ عِدّته وذِكرِ تكثيره ، فإنه إن وَضـع ذلك بقلمه لا يأمن من الٱطّلاع عليه

(١) لعله : «بالحالة» كما يرشد إليه قوله بعد : « من جليات الأحوال ما يجيب به » .

(٢) الحلى : جمع حلية ، وهى الصفة والهيئة وانظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٠٧ من هذا السفر .

(٣) فى كتب اللغة أن الوراقة هى حرفة من يورّق و يكتب ؛ والمراد بها هنا القواعد التى اصطلح عليها الكتّاب فيما يكتبونه من الأوراق ، كما يستفاد مما يأتى فى كتابة الحكم والشروط ، فإنه ذكر فيما يحتاج اليـه كاتبها أن يكون قد أتقن صـناعة الوراقة وعلم قواعدها وكيفية ما يكتب فى كل واقعة وحادثة الخ . وقال أيضا بعـد ذلك ما نصه : وأما معرفة صناعة الوراقة فى الأمور التى ذكرناها فلذلك من الفوائد ما لا يخفى على ذى لب لأن الكاتب اذا أخرج المكتوب من يده بعد إتقانه وتحرير ألفاظه على ما ٱستقر عليه الٱصطلاح من التقديم والتأخير ومتابعة الكلام وسياقته وترصيعه وترصيفه حسن موقعه وعذبت ألفاظه الخ .

(٤) فى الأصل : « و يحجب » ؛ وهو تصحيف .

فيشيع[1] ويذيع، وقد يتصل بالعدوّ والمعاند[2] والمُناوئ فيترتّب عليه من الفساد ما يترتّب وهذا بابٌ يجب على كاتب الجيش الاحتفال[3] به، والاحترازُ من الوقوع فيه، وكتمانُه عن سائر الناس؛ وإن دعته الضرورة الى تسطير ذلك خشيةَ[4] أن يسأله ولىُّ الأمر عن شيء منه، فليكن وضعه لذلك رمزا خفيّا يصطلح عليه مع نفسه لا يعرفه إلا هو، أو من له دُرْبةٌ بمباشَرة الجيش.

ويتجنّب أن يكشف عِبرةَ[5] إقطاع أو متحصِّله، أو يذكرَ ذلك لأحد إلا بمرسوم ولىّ الأمر، ثم يذكره باللفظ دون الخط، ووجوهُ الاحتراز كثيرة، وهى بحَسَب الوقائع، فيتعيّن على مباشر الجيش ملاحظةُ ذلك والاحترازُ من الوقوع فيما يُنتَقد عليه، أو يصلُ سببُ ضررٍ منه إليه؛

هذا ما أمكن إيراده مما يحتاج مباشر الجيش إلى اعتماده؛ والله أعلم.

(٣٦) وأما مباشرة الخزانة — فالعُمدة فيها على العدالة والأمانة، لأن خزائن الملوك فى هذا العصر لسَعتها، وكثرةِ حواصلها، وعظمِ ذخائرها لا تنضبط بسِياقة، فإنه لو طولب كاتبُ الخزانة بعمل سِياقة لحواصلها عن سنةٍ احتاج إلى أن ينتصب لكتابتها سنةً كاملةً لا يشتغل فيها بغيرها، فإذا تحرّرت سِياقة السنة فى آخر السنة الثانية وكشفها مباشر الأصل وحرّرها فى مدّة أخرى من السنة الثالثة فاتت المصلحة المستقبَلة. وتَعطّل على المباشر ما بعد تلك السنة، لاشتغاله بنظر[6] تلك السِّياقة، فإذا تقرّرَ عجزُ

(١) فى الأصل: «نيسيع»؛ وهو تصحيف لا معنى له.

(٢) فى الأصل: «بالعدد والمعاند»؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين.

(٣) الاحتفال به: أى الاهتمام بأمره.

(٤) فى الأصل: «حسبة»؛ وهو تصحيف.

(٥) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٠١ من هذا السفر.

(٦) فى الأصل: «بنظم» بالميم؛ وهو تحريف؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا.

الكاتب عن عمل السِّياقة بهذه المقدِّمة فقد تعيَّن أنّ[(١)] العمدة فى مباشرتها على الأمانة والعدالة؛ ومع ذلك فيحتاج كاتبها إلى أمور :

منها ضبطُ ما يصل[(٢)] إليه من حمول الأموال والأصناف، ويقابِل ما يصل منها على رسائِله، ويحرّره بالوزن والذَّرع والعَدَد والأحمال على آختلاف أجناسه وأنواعه وأوصافه، ويميِّزُ ما يصل إليه من الأقاليم والثغور والأعمال والممالك، وما يصل من آلهدايا والتَّقادِم[(٣)] على آختلافها، فيضيف كلَّ نوع إلى نوعه، وصنفٍ إلى صنفه؛ وكذلك يحرِّر ما يبتاعـه من الأصـناف التى تدعو الضرورة اليهـا وجرت العـادة بآبتياعها .

ومنها معرفة عوائد[(٤)] أرباب الصِّلات والإنعام، ومصاريفِ[(٥)] أرباب المنـاصب عند ولاياتهم، وما جرت عليـه عوائدهم[(٦)] من الإنعام فى خلال مباشراتهم بالأسباب الموجِبة لذلك وغيرِ الأسباب، وعوائد أرباب التَّقادِم والصنّاع وغيرِهم .

ومنها ضبطُ ما يصل إلى آلخِزانة من تَقادِم آلملوك والنوّاب، ويقابل ما يصل منها فى الوقت الحاضر على ما تَقدَّم، ويحرِّر زيادتَه من نقصِه، ويكون ذلك على خاطره،

---

(١) فى الأصل : «لأن» ؛ واللام زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : «فضل» ؛ وهو تحريف .

(٣) التقادم : جمع تقدمة بكسر الدال، وهى الهدية؛ فعطفه على الهدايا من قبيل عطف المرادف .

(٤) المراد بالعوائد هنا : الصلات، واحده عائدة .

(٥) فى الأصل : «وتصاريف» بالتاء؛ وهو تحريف .

(٦) المراد بالعوائد جمع عادة، كما فى المصباح المنـير، ولم نجد هذا الجمع فى غيره من كتب اللغة ؛ وقد سبق أن نبهنا على ذلك فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٣٩ من هذا السفر .

فإن سأله ولىُّ الأمر عنه أجابه، وإلّا فلا يبدؤه؛ ويَضبِط عاداتِ مُهاداةِ الملوك وما جُهِّز إلى كلٍّ منهم فى السنين الخالية، وما كان قد وصل من هداياهم، وما جرت عليه عاداتُ رسلِهم وقُصّادِهم[1] من التشاريف والإنعام.

ومنها ضبطُ ما جرت به العادة من كُسا أرباب العوائد[2] المقرَّرة فى كلِّ سنة على آختلاف طبقاتهم من أرباب الرتب والمناصب والمماليك السلطانيّة وغيرِهم، وتواريخِ صرف الكسوة اليهم.

ومنها تجهيزُ ما جرت آلعادة بأن يُجهَّز فى خزائن الصحبة عند آستقلال ركاب السلطان من مَقرّ مُلكه، إما إلى الصيد والنزهة، وإما لكشف ممالكه[3] عند آنتقاله من مملكة إلى أخرى، أو فى حروبه عند ملاقاة الأعداء، فيجهَّزُ ما جرت به العادة فى ذلك، ولا يزيد عليه إلا بمرسوم ولىّ الأمر، ولا يَستكثر من آستصحاب صنف من الأصناف عند تَوجُّهه إلى مَعدِن ذلك الصنف ومَظِنّته، ولا إلى الخِزانة منه بحَمْلِه[4]، بل يستصحِب منه ما يكون معه ذخيرة واحتياطا، إذ لو طلب المَلِكُ ذلك الصنفَ فى مَسيره قَبْل وصوله إلى معدن ذلك الصنف كان معه منه ما يَسُدّ به الضرورة، ولا يَعتذِر بأنه ما آستصحبه معه بحُكم تَوجُّهه إلى مَعدِنه، وأنه فعل ذلك للمصلحة الظاهرة، فإن آلملوك لا تحتمل مثل ذلك، ولا تصبر على أن يُفقَد

(٣٧)

(١) فى الأصل: «ونضادهم»؛ وهو تحريف.

(٢) العوائد: الصلات.

(٣) فى الأصل: «مماليكه» والياء زيادة من الناسخ.

(٤) فى الأصل: «بالجملة»؛ وهو تحريف لا يظهر به المراد من هذه العبارة، والمعنى على ما أثبتنا: أنه لا يستكثر من حمل ذلك الصنف إلى الخزانة، بل يحمل منه اليها ما تدعو الحاجة إلى حمله.

من ذخائرها ما تطلبه ؛ ويَستكثِر من آستصحاب الصنف المعـدوم فى ذلك الوجه الذى يتوجّه إليه، ويحمل منه ما يعلم أنه يكفيه فى مَسيره وعَوده ؛ والله أعلم .

ومنها[1] ضبطُ ما يتسـلّمه الصُّنّاع من مُزركش وخيّـاط وفَرّاء ونَجّـاد[2] وسَرّاج وخَرْدَفُوشِى[3] وغيرهم بالوزن والذّرع والعَدد، ويُحرِزه عند آستعادته من صانعه .

ومنها تحريرُ ما يصل إليه من الأقمشة من دار الأعمال وما جرت به العادة أن يُحَل منها فى كلّ مُدّة ليطالِبَ به إن تأخّر عن وقته ؛ وإن قلّ صنف من الأصناف عنده يبـادِر بمطالَعة وزير آلمملكة أو مدبِّرها بذلك ليَخلُص من عُهدته، وعلى وزير المملكة ومدبِّرها طلبُ ذلك الصنف من مظانّه وحَملُه إلى الخِزانة .

وأما ملبوس الملكِ المختصّ بنفسه وعادتُه فى التفصيل والحبس[4] والطُّولِ والسَّعة فهو أمر متعلّق برأس نَوبة آلجَمدارِيّة[5]، وهو المقدَّمُ عليهم، فعليه أن يَحضُر إلى الخزانة ويختار من الأقمشة ما يعلم أنه ملائم لخاطر السلطان وموافقٌ لغرضه، فيفصِّل منـه ما يراه على ما يراه من أنواع التفصيل، وعلى معـلِّم الخيّاطين الدَّرَكُ فى طوله وسَعتِه وهِندامِه، ولا يَستغنِى آلمباشرُ عن معرفة ذلك، ولا يستغنى أيضا عن معرفة

(١) فى الأصل : «وفيها» ؛ وهو تحريف .

(٢) النجاد بتشديد الجيم : من يعالج الفرش والوسائد ويخيطها .

(٣) كذا ضبط هـذا اللفظ بالقلم فى كتاب المعرب والدخيل للمدنى المحفوظ منـه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ لغة وورد فى هذا الكتاب فى تفسير هذه الكلمة أنها كلمة يقولها أهل الحرمين لصانعى السروج ونحوها، وليس له أصل فى اللغة العربيـة اهـ والذى فى الأصل « خردقوسى » بالقاف والسين، ولم نجده فيما راجعناه من المظان .

(٤) كذا فى الأصل ؛ ولعله يريد بالحبس هنا : ضيق الثياب .

(٥) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٠٥ من هذا السفر .

قِيَم الأشياء على ٱختلافها وعادةِ التفصيل والتَّرفئة[1] وٱلجَنْدرة[2] وٱلحَشْو ليشارِك ربَّ كل صنعة فى صناعته بنظره ولسانه، ولا يكون فى ذلك مقلِّدًا جملة، بل يشاركهم فيما هم فيه، وعليهم الدَّرَكُ دونه فيما لعلّه يعرض فى ذلك من خللٍ إن وقع، لأن هذه الصناعاتِ زائدةٌ على وظيفته ولازمةٌ لأولئك؛ فأيُّما رجل ٱجتمعت فيه هذه الأوصافُ تعيَّن على ولىّ الأمر ندبُه لمباشرة ٱلخزانة، وقرَّر له كفايتَه، وألزمه إن ٱمتنع .

وأما مباشر بيت المال — فعُمدتُه على ضبط ما يدخُل إليه وما يخرُج منه، ويحتاج فى ضبط ما يصل إليه من الأموال إلى أن يُقيم لكلِّ عمل من الأعمال وجهةٍ من الجهات أوراقا مترجَمةً بٱسم العمل أو ٱلجهة، ووجوهِ أموالها، فإذا وصل إليه المال وضع الرسالةَ الواصلةَ قريبةً من ذلك العمل[3]، ثم شطَبها[4] بما يصحّ عنده من ٱلواصل إليه، وذلك بعد وضعِه فى تعليق المياوَمة، فإن صحّ الواصلُ صحبةَ الرسالة كَتَب لمباشر ذلك العمل رُجْعةً بصحّته، وإن نقص ضَمَّن رُجْعتَه : من جملة كذا؛ وٱستثنى بالعجز والردّ، وبرز بما صحّ، وأعاد الردّ على مباشر ذلك العمل وأثبَت فى بيت المال ما صحّ فيه، فإن كان العجز عن ٱختلاف الصِّنج[5] عيَّنه فى رُجْعته

(١) فى الأصل : التقربة؛ وهو تحريف إذ لم نجده فيما راجعناه من المظان . والترفئة : مصدر رفّأ الثياب بتشديد الفاء : اذا لأم خروقها، والتشديد فى هذا الفعل للتكثير والمبالغة، وهو وإن لم يوجد فيما بين أيدينا من كتب اللغة فقد ورد فى شعر أبى العلاء المعرّى، قال :

ألق عليها جليسى فى الدجى حما * فقام عنها بأثواب يرفئها

انظر هذا البيت فى لزوم ما لا يلزم ص ٥١ طبع مطبعة المحروسة بمصر .

(٢) فى الأصل : «العتدرة» ؛ وهو تحريف إذ لم نجده فيما بين أيدينا من المظان؛ والجندرة : من جندرت الثوب، اذا أعدت وشيه بعد ذهابه قال الجوهرى : وأظنه معرب .

(٣) من ذلك العمل : أى من أوراق ذلك العمل .

(٤) انظر الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر .

(٥) الصنج : جمع صنجة بفتح فسكون، وهى ما يوزن به؛ وهذا الجمع ذكره صاحب المصباح مادة «سنج» والبين فيها أفصح من الصاد؛ وهو معرّب .

ولا شيء على مباشر العمل، وإن كان مع آتفاقها فلا يعتدّ لمباشر العمل أو آلجهة إلا بما صحّ فى بيت المـال .

ويحتاج كاتب بيت المـال إذا عمل جامعةً لسنةٍ إلى أن يضمّ كلَّ مال وصل إليه إلى ما هو مِثلُه، من الخراج والجَوالِى والأخماس وغيرِ ذلك بحَسَب مايصل اليـه، ويفصِّل جملةَ كلِّ مالٍ بنواحيه التى وصل منها، ويَستشهِد فيـه برسائل آلحمول، ويضيف إلى جملة ما آنعقد عليـه صدرُ آلجامعة من الأموال ما آنسـاق عنده من الحاصل إلى آخر السنة التى قبلها، ويُفذلِك[1] [بعد ذلِك][2]، ويعرف ما لعلّه صرَفَه من نقدٍ بنقدٍ فى تواريخه، ويستقرّ بالجملة بعد ذلك؛ ثم يشرع فى الخصم، فيبدأ منه بما حمله إلى المقام على يد من حمل على يده وتَسلَّمه، من الخِزَنْدارية[3] والجمَدَاريّة وغيرِهم إن كان، ثم يذكر ما نقله إلى الخِزانة ويستشهد فيه برُجْعاته، وما نقله إلى آلحوائج خاناه والبيوتِ والعمائر وغيرِها بمقتضَى آستدعاءاتِ[4] هـذه الجهات ووُصولاتِ مباشرِيها، وفى أرباب الجامِكيّات[5] والرواتبِ والصِّلاتِ بمقتضَى الآستمارات[6] والتواقيع السلطانيّة؛ فإذا تكامل الحَمْلُ والمصروفُ عقد عليهما جملةً وساق ما بقِىَ إلى آلحاصل؛ والله أعلم .

وطريقُ مباشر بيت المـال فى ضبط المصروف أن يبسط جَريدةً على ما يصـل إليه من الآستدعاءات[4] والوُصولات من آلجهات، وأسمـاءِ أرباب الآستحقاقات

(١) يقال: فذلك الحاسب حسابه، إذا أنهاه وفرغ منه، وهذا اللفظ منحوت من قول الحاسب: فذلك كذا وكذا إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته .

(٢) موضع هاتين الكلمتين فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) انظر تفسير الخزندارية والجمدارية فى الحاشيتين رقم ٣ و ٤ من صفحة ٢٠٥ من هذا السفر .

(٤) فى الأصل: «استيدعات» وهو تحريف .

(٥) انظر الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٠٥ من هذا السفر .

(٦) فى الأصل: «الآستثمار»؛ بالثاء، وفيه تصحيف ونقص؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

والجامكيّات والرواتب والصّلات، وما هو مقرَّر لكلٍّ منهم فى كلِّ شهر بمقتضى تواقيعهم أو ما شَهِدتْ به الاستمارات القديمةُ المخلَّدة فى بيت المال، ويشطب[1] قُبالةَ كل اسم ما صرفه له على مقتضى عادته إما نقدا من بيت المال، أو حَوالة تُفرَّع[2] على جهة تكون مقرَّرة له فى توقيعه، ويوصل إلى تلك الجهة ما فرّعه عليها، وكذلك إذا أحال ربَّ استحقاق غيرِ ثمن مَبيع[3] أو غيرِه على جهةٍ عادتُها تَحمِل إلى بيت المال سَوَّغ[4] ذلك المالَ فى بيت المال، وأوصله إلى تلك الجهة، والتسويغ[5] فى بيت المال هو نظير المجرى[6]؛ وإذا وصل إليه استدعاءٌ من جهة من الجهات أو وُصولٌ وَضَعه فى جريدته، وخصمه بما يُقبضه لربّه، ويُشهِد عليه بما يقبضه، ويُورد جميعَ ذلك فى تعليق المياوَمة.

وأما مباشر أهراء[7] الغلال — فمبنىٌّ أمرُه أيضا على ضبط ما يصل إليه، وما يُصرَف من حاصله؛ ويحتاج فى مبدإ مباشرته إلى تحرير ما انساق من حواصل الغلال بأصنافها، وإن أمكنه تمييزُ ذلك بيّنه، ويكون أتقنَ لعمله؛ ثم يبسط جريدة يرصع[8] فيها أسماء نواحى الخاصّ السلطانىّ التى تصل الغلال منها إلى الأهراء

(١) يشطب: أى يقيد كما سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر.

(٢) فى الأصل: «بفرع»؛ وهو تحريف. (٣) فى الأصل: «متبع» بالتاء؛ وهو تصحيف.

(٤) فى الأصل: «صوّغ» بالصاد؛ وهو تحريف اذ لم نقف على معنى له يناسب السياق. ولعل صوابه ما أثبتنا كما يستفاد من صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١ فإنه قال فى نظر بيت المال ما نصه: وموضوعها حمل حمول المملكة الى بيت المال والتصرف فيه تارة قبضا وصرفا وتارة بالتسويغ محضرا وصرفا الخ. والتسويغ: التجويز، يقال: سوّغه له، أى جوّزه، والمراد به هنا: الإذن فى تناول الاستحقاق من جهة معينة تيسيرا وتسهيلا على الآخذ (التاج).

(٥) فى الأصل: «والتصويغ» بالصاد؛ وهو تحريف انظر الحاشية السابقة.

(٦) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل. (٧) انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٩٥ من هذا السفر. (٨) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٠٠ من هذا السفر.

فإذا جاءته رسالة من جهة من[1] تلك الجهات وضعها تحت اسم الجهة وعبر[2] ما وصل قرينها، فإن صح صحتها كتب لتلك الجهة رُجعةً بالصحة، وإن نقص فلا يخلو: إما أن يكون المركب أو الظهر الذى حمل ذلك الصنف قد سُفِّر من ديوان الأصل، أو سفّره مباشر العمل من جهته، فإن كان قد سُفِّر من ديوان التسفيرات طالب مباشرُ الأهراء مقدَّمَ رجال المركب والأمينَ المسفَّرَ عليه بالعجز، وألزمهما بحمله، فإن كان قد سُفِّر من الأعمال كان دَرَكُ ذلك على مَن سفّره، ومباشرُ الأهراء بالخيار بين أن يطالب محضرَ الغلّة بالعجز، أو يرجعَ على مباشر العمل به، ويكون مباشرُ العمل هو المطالبَ لمَن سفَّره، والأولى طلبُ محضر الغلّة، فإنه إذا أطلقه ورجع إلى المباشر الذى سفّره فقد يعود إلى العمل وقد لا يعود، فإن لم يعُد كان مباشرُ الأهراء قد أضرّ بمباشر العمل، لأنه ألزمه الغُرم[3] مع قدرته وتمكّنه من استرجاعه ممن عدا عليه، ويكون هو أيضا ممن شارك فى التفريط؛ وإن وصلت إليه الغلّة متغيّرةً تغيّرا ظهر له منها أنها خُلطت بغيرها، إما بوصول عين تلك الغلّة اليه، أو بقرينة الحال التى يعلم منها أن تلك الغلة لا يوجد مثلُها من فلّاح، ولا يُعتدّ بها من خراج السلطنة لظهور غلثها[4]، أو وصلت إليه الغلّة مبلولةً بللا ظاهرا لتزيد عند الكيل وتميّز[5] نظيرَ ما أُخذ منها، فله أن يعمل لذلك معدّلا، وهو أن يكيل منها جزءا معلوما ويغربله حتى يصير مثلَ العين التى عنده، أو بتجفيف ذلك حتى يعود إلى حالته

(١) فى الأصل: «هذه» وهو تحريف.

(٢) يقال عبرت الشئ: اذا نظرت كم هو كيلا أو وزنا.

(٣) فى الأصل: «الغريم»؛ والياء زيادة من النسخ.

(٤) الغلث بفتحتين: اسم لما تخلط به الحنطة، يقال: غلثت الحنطة بالشعير: أى خلطتها به (المصباح).

(٥) تميز: اى ترتفع، وهو من الميز بمعنى الرفعة، كما فى مستدرك التاج.

الأولى، ويحرِّر العجزَ على هذا الحكم، ويطالِب به مُحضِرَ الغلّة؛ وينبغى له أن يبدأ (٣٩)
بصرف ما وصل إليه من الغلال المبلولة ولا يخلطها بغيرها، فإنها بعد بللها لا تحمل طولَ البقاء؛ هذا ما يعتمده فى القبض .

وأما فى المصروف، فإن كان لِصاحب جرايةٍ أو صِلةٍ أو إنعامٍ أو تَقاوٍ[1] لفلّاح صرف ذلك من عرض حاصلِه، ويراعِى فى صرف التَّقاوى أن[2] تكون من أُطيَب الغلال وأَفضَلِها، لأنه يجنى ثمرة ذلك عند آستيفاء الخراج؛ وإن كان ما يصرفه مما ينقله إلى الطواحين برسم المَخابز، أو للإسطبلات والمُناخات برسم العليق غربَلَه، وحرَّر نقْصَه، وأورده فى جامعته من الفَذلَكة[3] وآستقرارِ الجملة؛ ومباشرةُ الأَمراء مناسِبةٌ فى أوضاعها لمباشَرة بيت المال .

ذكر مباشرة البيوت السلطانية

وهى الحوائج خاناه، والشراب خاناه، والطشت خاناه، [والفِراش خاناه][4]، والسلاح خاناه؛ وأمر[5] البيوت معذوق[6] بأستاذ الدار .

فيحتاج مباشر الحوائج خاناه إلى أمور: منها ما يُحتاج إليه من راتب السِّماط العامّ والطارئ — وهو الطعامُ الثانى الذى يُمَدّ بعد قيام السلطان من المجلس العامّ، ويأكله

(١) التقاوى من الحبوب : ما يعزل لأجل البذر؛ وهى عامية (مستدرك التاج) .

(٢) فى الأصل : « وأن » ؛ والواو زيادة من الناسخ .

(٣) الفذلكة : حاصل الحساب، وانظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢١٨ من هذا السفر .

(٤) هذه التكملة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها لأن الفراش خاناه من البيوت التى سيذكرها فيما يأتى .

(٥) فى الأصل : «وأمراء» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٦) معذوق : أى منوط ومرتبط كما يناط العذق بكسر العين — وهو القنو — بالنخلة؛ وقد ورد هذا اللفظ فى مواضع من هذا الكتاب وفى مؤلفات أخرى مرادا به هذا المعنى .

خواصّ المَلك ومن يَحضُره بين يدى السلطان ، وهو أخصّ من السِّماط الأوّل — وطارئ الطارئ وهو الطعام الثالثُ الذى يُمَدّ بعد رفع الطارئ، ومنه يأكل المَلك وخواصّه، وقـد يأكل السلطان من الطارئ الذى قبـله ؛ فيحرز ما يُحتاج إليه من لحوم وتوابلَ وخَضْراواتٍ وأَبازِيرَ[1] وتحـالٍ وقـلوبٍ[2] وطِيبٍ وبَخور وأحطاب وغير ذلك ؛ ولذلك عندهم معدَّلٌ قد عرفوه فلا يتجاوزه، فإنه إن صرف زيادةً عنه بغير سبب ظاهر خرج عنه[3] وكان تحت دَرَكِه .

ومنها معرفـة مقاديرِ الأسمطة فى أوقات المهمّات والأعياد ليجرىَ الأمر فيها على العـادة، ولا يتجاوزها إلا بمرسوم .

ومنها تَعاهُد أسمـاء الحوائج خاناه ، فيَستدعِى ما يراه قد قلّ عنده منهـا قَبْلَ نفاده بوقت يمكن فيه تحصيلُه ، فإن أَخّر طلبَ ذلك إلى أن يَنفَد، أو طلبه فى وقت ولم يَبقَ عنده منه ما يكفيه إلى أن يأتيَه ذلك الصنف من بلد آخر كان المباشر تحت دَرَك إهماله[4]، ومتى طَلَبَ ذلك فى وقته وطالع ولىَّ الأمر به فقد خَلَص من عُهْدته .

ويحتاج إلى بسط أسمـاء مَن يُعامِل[5] بالحوائج خاناه من قصّاب وحَيَـوانىٍّ وطيورىٍّ وغيرهم، ويَحضُر[6] لكلٍّ منهم ما أحضره فى كلّ يوم، فإذا آجتمع له من ذلك

(١) الأبازير : جمع أبزار، وهو جمع بزر بالفتح والكسر، فأبازير جمع الجمع .

(٢) يريد بالقلوب هنا : لب اللوز والبندق والفستق وغيرها مما يؤكل قلبه، كما يستفاد من خطط المقريزى ج ١ ص ٤٢٦ طبع بولاق فى الكلام على دار الفطرة .

(٣) «عنه» : أى عن المعدّل.

(٤) فى الأصل : «اشتماله» ؛ وهو تحريف .

(٥) من يعامل : أى من يعاملهم، وهم الذين يشترى منهم الأصناف المطلوبة للحوائج خاناه؛ والذى فى الأصل : «من العامل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام .

(٦) فى الأصل : «ويحضر» بالضاد؛ وهو تحريف .

ما يقتضى محاسبتَه جَرَّد له محاسبةً ضَمَّ فيها كلَّ صنف إلى صنفه وثَمَّنه، إما بتعريف الحِسْبة، أو بعادة آستقرّت له، وأحاله بمبلَغ ما وجب له على بيت المال، أو آستدعَى من بيت المال ما يُنفِق منه[1] وأَشهَد عليه بقبض ذلك.

ويحتاج أيضا إلى بسط أسماء أرباب الرواتب السلطانيّة وأرباب الصِّلات، وما لكلٍّ منهم فى كلّ يوم، وخصْمِه بقبوضهم مياومة أو مشاهرة، صنفا أو حَوالة؛ ويراعِى حالَ مَن مَرِض من المماليك السلطانيّة ونُقِل من آللحم إلى المَزاوِيه[2] أو المَساليق[3] فيَقطع مُرتَّبَه من اللحم فى مدّة مرضه، ونظيرَ ذلك من التوابل فى مدّة مرضه.

ويحتاج إلى معرفة عادات الرُّسُل الواردين، والأضيافِ[4] المتردِّدين، ومرتَّبِ الصدقة فى شهر رمضان، وعاداتِ الأضَاحِى والصِّلات فى عيد النحر، فيجرِى آلأمرَ على حكم العادة؛ ويَضْبِط جميعَ ما يَصِل إليه من ديوان المتجَر ومطابخِ السكّر وغيرِها، ويكتب لهم بما يحملونه إليه من الأصناف؛ ويَضْبِط أيضا ما آستقرّ فى كلّ ليلة من الوَقود من شَمَع وزيت، ويَصرِف على ما آستقرّ عنده، وإذا سَلَّم شَمَعَ آلوَقود إلى الطَّشْتداريّة وَزَنه عليهم، وعَبَّره[5] عند إعادته فى بُكرة النهار ليتميّز له النقص؛

(١) عبارة الأصل: «ما نفق فيه»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه السياق.

(٢) كذا فى الأصل؛ ولعله يريد جمع "مزوّرة" بتشديد الواو المفتوحة، وهى مرقة يطعمها المريض، وهى مولّدة، كما فى شفاء الغليل، ولم نجد هذا الجمع فيما راجعناه من المظان.

(٣) فى الأصل: «المصاليق» بالصاد؛ وهو تحريف إذ لم نجده فيما راجعناه من المظان. والمساليق: جمع مسلوق، وهو من سلقت البقل ونحوه: إذا أغليته بالنار؛ والمراد هنا ما شاع استعماله عند العامة، وهو ما طبخ بالماء وحده.

(٤) فى الأصل: «والأصناف»؛ وهو تصحيف.

(٥) عبره: أى نظر كم وزنه.

ويَضبِط غيرَ ذلك مما يصل إليه وينزل عنده من عادات مَن قَنِـع وتَبتَّل[(١)]، وغير ذلك من جميع ما يَرِد وما يُرتَّب ويزاد ويُقطَع .

وأما الشراب خاناه — وهى بيت يشتمل على أنواع المشروب من المياه على اختلافها ، والسـكَّرِ والأشربة والدِّرياقات[(٢)] والسَّفوفات والمعاجين والأَقراص والأَقْسِما[(٣)] والفُقّاع[(٤)] والبلح والأَبقـالِ والحَلْويّات[(٥)] والجُوارِشات[(٦)] والفواكه ، وما يَجرِى هذا المَجرَى ؛ وأمر هذا البيت الخاص[(٧)] معذوق[(٨)] بأمير مجلس ، والعام بأستاذ الدار ؛ فيحتاج مباشر هذه الوظيفـة الى ضبط ما يصل إليه من جميع هـذه الأصناف ،

(١) عبارة الأصل : « من داعات ما نعق » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ، والمراد : الرواتب التى جعلت للزهاد والمنقطعين إلى العبادة من طعام وشراب .

(٢) الدرياق والترياق بالدال والتاء : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، وهو فارسىّ معرب .

(٣) الأقسما : شراب يصنع من السـكر المحلول بالماء والليمون ويطرح فى ذلك يسير من السذاب ، وهو شراب جيد للهضم انظر كتاب الأطعمة المعتادة المأخوذ منـه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥١ علوم معاشية . وفى شفاء الغليل أن الأقسما : نقيع الزبيب ، قال : وأظنـه معرّب « أبسما » .

(٤) الفقاع : شراب يتخذ من الشعير ، وسمى بذلك لما يرتفع فى رأسه ويعلوه من الزبد انظر القاموس وشرحه . وفى كتاب الأطعمة المعتادة المأخوذ منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية أن هذا الشعير يبقل ويجفف ويطحن ويضاف إليه من دقيق الحنطة قدر مثليه . إلى آخر ما ذكر فى كيفية صنعه .

(٥) الحلويات : جمع حلوىّ بفتح فسكون : نسبة الى الحلوى بقصر الألف .

(٦) الجوارشات : أنواع من الحلواء ، وهو معرب ؛ وفى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستانجاس أن الجوارش يصنع من دقيق وعسل أو سكر ، وأنه يساعد على الهضم .

(٧) فى الأصل : « خاص » بدون أداة تعريف ؛ والسياق يقتضى إثباتها كما يدل عليه قوله بعد : « والعـام » .

(٨) انظر الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٢١ من هذا السفر .

وما يستعمله من ذلك فى عَقد الأشربة والحَلْويّات، وما يَعقِده للمشروب وما يَصرِفه من ذلك، ومعرفةِ عادات الأسمِطة والطَّوارئ والرواتبِ المقرَّرة فى كلّ يوم، فيُجرِى الأمرَ فيها على العادة المستقِرّة، وما يستدعيه السلطان على حَسَب الآتفاق، وما يصرف للرضى من المماليك السلطانيّة من أنواع الأشربةِ والمعاجينِ وغيرِها بمقتضَى أوراق الأطبّاء؛ هذا ما يَعتمِد عليه مباشرُها والله أعلم.

وأما الطَّشْت[1] خاناه — فهى بيت تكون فيه آلةُ الغسل والوضوء، وقماشُ[2] السلطان البياضُ[3] الذى لا بدّ له من الغسل، وآلةُ الحمّام، وآلاتُ الوَقود؛ فيكون فى هذا البيت من الآلات: الطُّشوتُ[1] والأباريقُ والسخّاناتُ والطاساتُ والكراسىُّ والستائرُ واللَّبابيدُ[4] المختصّةُ بالحمّامات والسَّجّاداتُ والنُّمْرُقاتُ[5] والمناشفُ وفُوَطُ الخدمة ومقاعدُ الجلوس من الجَوخ والبُسُط، وغير ذلك، والمَباخرُ وأنواعُ البَخُورات والطِّيب والغوالِى[6] وماءُ الورد والمُسَكُ، وغيرُ ذلك من الأصناف التى تلائم هذا البيت؛ ويُستدعَى ما يُحتاج اليه برَسْم هذا البيت من الحوائج خاناه والخِزانة؛ والله أعلم.

(١) الطشت بالشين المعجمة لغة فى الطست بالسين المهملة؛ وقد نقلت هذه اللغة فى شروح الشفاء، فقيل: هى خطأ، وقيل: بل هى لغة.

(٢) الذى يستفاد من مستدرك التاج وكتاب المعرّب والدخيل للدنى المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ لغة أن إطلاق القماش على الثياب كما هنا إطلاق عامىّ.

(٣) البياض: أى ذو البياض، فوجه الوصف به ظاهر.

(٤) كذا ورد هذا الجمع فى الأصل؛ ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة؛ والمراد بها هنا: اللبود، وهى البسط من الصوف الملتبد، واحده لبد بكسر اللام.

(٥) وردت هذه الكلمة فى الأصل هكذا «النمرقات»؛ باهمال النون وزيادة لام بين الراء والقاف وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا. والنمرقات بضم النون والراء: الوسائد.

(٦) الغوالى: جمع غالية، وهى ضرب من الطيب؛ وإنما سميت بهذا الاسم لأنها أخلاط تغلى على النار مع بعضها، وأول من سماها بذلك سليمان بن عبد الملك (انظر تاج العروس).

وأما الفِراش خاناه — فيكون فيها أنواعُ الفُرُش والخِيامِ والخَرْكاهات[1] والتُّخوت وقُصور الخشب التى تُنصَب فى الدهاليز، وحمّامات الخشب التى تُنقَل على الظَّهر فى الأسفار، ومايتعلّق بذلك من اللَّبابيدِ[2] وشلائتِ[3] النوم وغيرِ ذلك؛ وهو بيتٌ متّسِعٌ فيه حواصلُ كثيرةٌ لها قِيَمٌ جليلةٌ تحتاج الى ضبط ومعرفة، فإن[4] مباشر هـذا البيت يحتاج الى معرفة ما يحتاج الى آستصحابه فى أسفار السلطان لخاصّته[5] ولمماليكه على آختلاف طبقاتهم ووظائفهم، ومايُنصَب برسم آدُر[6] السلطان ومَن يتبعها من الخُدّام وما يُنصَب برسم البيوت السلطانيّة الخزائنِ فما دونها، وما يُنصَب لأرباب الوظائف من المباشِرين الذين يكونون فى صحبة الرِّكاب السلطانىّ، ومِن غير المباشِرين حتى الكِلابِ السلطانيّة والكلابزيّةِ[7] والجوارى؛ ويميِّز بين خِيام الصيد والنُّزَهِ والأسفارِ والحروب، وغيرِ ذلك من الحركات التى يحتاج فيها إلى آستصحاب آلخيام (٤١)

(١) فى الأصل: «والحزكاهات»؛ وهو تصحيف اذ لم نقف عليه فيما راجعناه من المظان. والخركاهات: جمع خركاه، وأصله بالفارسية «خرجاه»، ومعناها: القبة، كما فى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستينجاس.

(٢) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٢٥ من هذا السفر.

(٣) الشلائت: لفظ يستعمله العامة ويريدون به الفرش المحشوة. ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة التى بين أيدينا.

(٤) فى الأصل: «قال»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٥) فى الأصل: «الخاصة»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه ما بعده.

(٦) الآدر: جمع دار.

(٧) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا: «ومن غير المباشرين حتى الكلاب السلطانية ومن غير المباشرين حتى الكلابزية» وفيها تكرار وقع من الناسخ؛ واستقامة الكلام تقتضى ما أثبتنا؛ والكلابزية: هم الذين يكلفون بخدمة الكلاب والقيام عليها، كما يستفاد من كتاب معيد النعم ص ٢٠٧ طبع ليدن. وفى شفاء الغليل: أن الكلبزة هى المعرفة بحال الكلاب السلوقية.

(٨) فى الأصل: «خادم»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يرشد إليه السياق.

ولكلّ حركة منها ما جرت به العادة من خيام المُقام والسَّفر[1]، ويَعرِض ما يسلّمه للفَرّاشين عليهم، ويَضبِط صفاتِه عند السَّفر، ويستعيده منهم عند العَود بعَرْضٍ ثانٍ، وكذلك ما يسلّمه لأرباب الوظائف، ويَضبِط أيضا ما يتسلّمه الصُّنّاعُ الذين يفصّلون آلحامَ الجديدَ وغيرَه من آلات الفِراش خاناه: من قُماشٍ بياضٍ[2] ومصبوغٍ وغَزْلٍ وجلودٍ ومُشمَّعاتٍ وشعرٍ وأخشاب، وغيرِ ذلك، ويَعرِف عوائدَهم[3] فى الأَجْر، ويحاسبهم على ما يستحقّونه من الأجر بحسب أعمالهم فيُحيلهم بمَبلَغِه.

وأما السلاح خاناه — فهى من أعظم البيوت وأهمّها، وأمرُها راجعٌ الى أميرِ سلاح؛ وعلى المباشِر فيها[4] حفظُ ما يدخُل إليها، وضبطُ ما يخرُج منها مما يتسلّمه السلاح داريّة والزَّرَدْكَشيّة[5] والحَرْب داريّة والرُّمْح داريّة من أنواع السلاح وأصنافِه اذا ركب السلطان أو جلس فى المجلس العام، وآستعادتُه منهم، وإعادتُه لهم، والآعتدادُ لهم بما أنعم به السلطان وذهّبه مما كان بأيديهم؛ ويوصِلُ ما يَصِل إلى السلاح خاناه من خزائن السلاح وغيرِها، وما يَصِل اليه من سيوف الأمراء الذين يُرسَم بآعتقالهم، وما يُحمَل اليه من سلاح من تُوُفِّىَ من الأمراء على جارى العادة. «ويميّز[6] ذلك من غيره» وعليه أن ينبّه أميرَ سلاح على ما عنده من العُدَد التى يُخشى عليها التلف

(١) فى الأصل: «والسبق»؛ وهو تحريف.

(٢) المراد بالبياض: ذو البياض، كما سبق فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٢٥ من هذا السفر.

(٣) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ١٣٩ ورقم ٦ من صفحة ٢١٤ من هذا السفر.

(٤) لعله: «لها».

(٥) انظر الحاشية رقم ٥ من صفحة ٢٠٤ من هذا السفر.

(٦) فى الأصل: «ويمن»؛ وهو تحريف. وقد وردت هذه الجملة فى الأصل قبل قوله: «وما يحمل اليه» وسياق الكلام يقتضى تأخيرها عنها كما أثبتنا.

بتطاول المدّة ليَأمُر بكشفها وإصلاحها : من مسحٍ ودهانٍ وصَقْلٍ وجِلاءٍ وشَحْذٍ[(١)] وتثقيفٍ وخَرْزٍ، وغير ذلك .

وجميعُ ما قدّمنا ذكرَه من البيوت ليس بشىء من صناعة الكتابة العلميّة ، بل العمليّةِ خاصّة ، فإن علوم الكتابة إنما تظهر فى نُظُم الحُسبانات ، ولا نُظُم فيما قدّمناه ؛ والعمدةُ فى صناعة الكتابة على مباشَرة الهلالىّ والخراجىّ على ما يأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر جهات أموال الهلالىّ ووجوهها[(٢)] وما يحتاج إليه مباشرها

والهلالىُّ عبارةٌ عمّا تُستادَى أجورُه مشاهرةً ، كأجر الأملاك المسقَّفة من الآدُرِ[(٣)] والحوانيتِ والحمّاماتِ والأفرانِ وأَرْحِيَةِ[(٤)] الطواحين الدّائرةِ بالعوامل[(٥)] ، والراكبةِ على المياه المستمرّةِ الجَرَيان ، لا الطواحينِ التى تدور بالمياه الشَّتْويّة فى بعض نواحى الشام ، فإنها تَجرِى مَجرى الخراجىّ ، وسنذكر ذلك إن شاء الله فى موضعه ؛ ومما نورد فى أبواب الهلالىّ عدادُ الأغنام والمواشى ، ومن الهوائىّ[(٦)] الجهاتُ الهلاليّةُ المضمونة والمحلولة ؛ والذى يَعتمِد عليه مباشُره أن يَتخيّر لكلّ جهةٍ من يستأجرها بقيمتها ، وما لعلّه يتعيّن

(١) فى الأصل : « ونجد » بالنون والدال ؛ وهو تحريف .

(٢) يريد بالوجوه هنا : الطرق ، أى طرق الكتّاب واصطلاحاتهم فى كتابة هذه الأموال ، فلا تكرار بينه وبين قوله : « جهات » .

(٣) انظر الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٢٦ من هذا السفر .

(٤) الأرحية : جمع رحى ، وهذا الجمع نادر ، بل نقل الأزهرى عن أبى حاتم أنه خطأ وأن الصواب فى جمعه أرحاء .

(٥) العوامل : البقر .

(٦) المراد بالهوائى : ماليس له سقف ؛ وعبارة المقريزى فى الخطط ج ١ ص ١٠٧ طبع بولاق : « والجهات الهوائية المضمونة والمحلولة » .

من ٱلحَيْطة[١]، ويُلزِم المستأجِرَ بكتابة إجارةٍ شرعيّةٍ لمدّةٍ معلومةٍ بأجرة معيّنة؛ ويخلّدُها في ديوانه؛ وإن كانت الجهة هوائيّةً ألزَم ضامنَها بكتابة حُجّة بمبلغ الضّمان، وطالَبه بمن يكفُله من الضُّمّان الأَمْلِئاءِ[٢] القادرين بالمـال[٣] في الذمّة، فإن تعذّر فبالوجه[٤]؛ فإذا خُلّدت ٱلحجّةُ عنده كَتب له من ديوانه تقريرا عيّن له فيه ٱستقبالَ مدّةِ ضَمانه، ومبلغَ الضمان وأقساطَه مبسوطةً[٥] أو منجّمة[٦]، ويذكر فيه ما يَستأديه من رسوم تلك ٱلجهة على ما تشهد به الضرائبُ المخلّدةُ في الدّيوان، وسُلّم اليه؛ فإذا تكاملت عنده إجاراتُ الأملاك وحُجَجُ الضّمان بسط على ذلك جريدةً يَشرَح فيهـا الجهةَ، وٱسمَ مستأجِرِها أو ضامنِها، وٱستقبالَ مدة إيجارِه[٧] أو ضمانِه، ومبلغَ الأُجرة أو الضّمان في السنة والشهر واليوم؛ وإنمـا ذكرنا اليوم لمـا يتحصّل من أقساط أيّام سُلوخ[٨] الشهورِ الناقصة، ولِمَـا كانت العادةُ جاريةً به من ٱستخراج قسطِ يومِ التعديل من سائر ضُمّان ٱلجهات

(١) في الأصل : «الغبطة» بالغـين والبـاء الموحدة؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق؛ والحيطة اسم من الاحتياط؛ والمعنى أنه يلزمه القيام بمـا يتعين عليه من الاحتياط والأخذ بالثقة في إجارة كل جهة .

(٢) «الأملئاء» بهمزتين : جمع ملىء، وهو الثقة الغنيّ، وقد أولع الناس فيه بترك الهمزة وتشديد الياء.

(٣) «بالمـال» متعلق بقوله : يكفله .

(٤) الظاهر أنه يريد بالوجه هنـا : الجاه، أي ان تعـذر الكفيل ذو المـال والغنى قبلت الكفالة بذي الجاه وإن لم يكن غنيا .

(٥) الظاهر أن المراد بالمبسوطة هنا : المدفوعة مرة واحدة، كما تدل عليه مقابلته بالمنجمة؛ ولم نجد هذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة، فلعله ٱصطلاح لكتّاب الدواوين في زمن المؤلف لأن دافع المـال يبسطه في المجلس ولا يؤجله .

(٦) المنجمة : هي التي يقدر عطاؤها في أوقات معلومة متتابعة، مشاهرة أو مساناة؛ وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها، فتقول : اذا طلع النجم حل عليك مالي .

(٧) الإيجار مصدر آجر، يقال : آجرت زيدا الدار مثلا اذا أكريتها .

(٨) في الأصل : «لوح» باللام والحـاء؛ وفيه نقص وتصحيف .

الهوائيّة، وهو قسطُ يومٍ واحدٍ فى سَلخ ثلاثِ سنين يُؤخَذ من الضُّمَّان خالصا للديوان زيادةً على الأقساط، وهـذا يُستأدَى فى بعض أقاليم الشأم؛ وإنما أوردناه خشيةَ الإخلال به؛ ويكون بَسْطُه لذلك فى يَمْنة القائمة إلى الشطر المكسور المعتاد الذى يتخلّله خيط ٱلجريدة؛ فإن ٱتّفق فى جهةٍ زيادةٌ فى أثناء السنة قرّرها فى تعليق المُياوَمة، ووضعها فى الجريدة بمـا صورته : ثم ٱستقرّت بٱسم فلانٍ لٱستقبال التاريخ الفلانىّ بكذا وكذا، العِبرةُ[1] كذا، والزيادةُ كذا؛ ويحاسِب المستأجِرَ أو الضامنَ المنفصلَ عمّا ٱستُحِقّ عليـه إلى حين ٱنفصاله، ويُلزِمه بالقيام به، وذلك بعـد أن يَعرِضَ على الضامن ٱلمستقرّ مازاد عليه، فإن ٱختار قبولَ الزيادة على نفسه قَبِل ذلك منه، وكان ذلك له، فإن زِيدت عليه فى الوقت زيادةٌ ثانيةٌ لم يكن له الٱستمرارُ فى الجهة إلا بزيادةٍ على تلك الزيادة الثانيـة؛ وإذا انقضت مدّة مستأجِرٍ أو ضامنٍ وأراد الخروج من تلك الجهة، فإن كان قد غَلَّق[2] ما عليـه من الأجرة أو الضّمان لم يكن للمباشِر إلزامُه بالٱستمرارِ بها، وإن ٱنطرد[3] عليه باقٍ كثيرا كان أو قليلا لزمه ٱستئنافُ عَقـدٍ جديدٍ نظيرِ العَقد الأوّل؛ هذا ٱصطلاحهُم فى الديوان، ولهم ٱصطلاحات أيضا نحن نذكر ما تيسّر منها، إذ لا تمكن الإحاطـةُ بجميعها لٱختلاف أحوال المباشَرات، ولو ٱستقصينا ذلك لطال؛ فمن ٱصطلاحاتهم أن المبـاشِر يسلّم للمستأجِر الطاحونَ عند أذان المغرب من اليوم الذى حصل فيه الإيجارُ أو الزيادةُ لٱستقبال

(١) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٠١ من هذا السفر.

(٢) فى الأصل : « علق » بالعين المهملة؛ وهو تصحيف إذ لم نجد من معانيـه ما يناسب سياق الكلام؛ وغلق بالغين المعجمة وتشديد اللام : أى تمم وكمل، وهـذا الاستعمال لا يزال شائعا بين العامة فى زماننا؛ ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة، وكأنهم أخذوه من أن المستأجر اذا دفع كل ما عليه فقد أغلق باب المطالبة.

(٣) فى المصباح وغيره أنه لا يقال انطرد إلا فى لغة رديئة.

اليوم الثانى، ويسلِّم الحمّامَ من وقت التسبيح، ويسلِّم بقيّةَ الجهات لاستقبال غُرّة النهار؛ وإذا دخل ضامنُ نيلةٍ قُوِّم[1] للمنفصل ماله بالخَوابِى من مياه الأصباغ المختلفةِ بالقيمة العادلة، ولا يُمكَّن مِن أخْذِ ذلك من المصبغة لما فيه من الإضرار بهما، أما ضررُ المنفصل فلفساد المياه، وأما ضررُ المتصل فلأنه يتعطّل مدّةً إلى أن تختمِر له مياهٌ غيرُها، ولا يُمكَّن ضامنُ المصبغة المنفصل مِن أخذِ خابية وإن كانت مِلكَه، بل القيمةِ عنها؛ هذا اصطلاحهم؛ وليَحترِز مباشرُ الجهات الهلاليّة من قبول زيادةٍ بسطا فى جهة منجَّمةٍ قد مضت أقساطُها الخفيفةُ[2] وبقيت الأقساطُ الكبار، لما يحصُل فى ذلك من التّفاوت والنقص على الدّيوان مع وجود الزيادة الظاهرة، مثال ذلك أن تكون جهةٌ مضمونةٌ فى كلِّ سنة بأربعة آلاف درهم منجَّمة، قسطُ ستة شهور ألفُ درهم، وقسطُ الستة شهور الثانيةِ ثلاثةُ آلاف، فانقضت الستّةُ الأُوَل، وحَصَلتْ زيادةٌ فى الجهة فى أوّل الستّةِ[3] الثانيةِ مَبْلغ خَمسمائة درهم فى السنة على أن تكون قسطين، فيصير بمقتضى البسط قسطُ الستّةِ شهور الثانيةِ ألفين ومائتين وخمسين درهما، وهى على الضامن المنفصل بثلاثة آلاف، فتكون هذه الزيادة على هذا الحُكم نقصا؛ فيراعى المباشرُ ذلك، فإنه متى وقع فيه خرج عليه وكان مخرجا لازما؛ ومهما استخرجه المباشرُ من مستأجِرٍ أو ضامنٍ أو أجراه بوُصولٍ[4] لربِّ استحقاقٍ أو ثمنِ صنف، أو غيرِ ذلك من وجوه المصارف أوردَه فى تعليق المياوَمة، وصورةُ وضعِه لذلك أن يرصع[5] المُحضَر أو المُجرَى عن يَمْنة القائمة، ويخصمَ عن يَسْرتها قُبالةَ

(١) فى الأصل: «مثله»؛ وهو تحريف لايستقيم به المعنى، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٢) فى الأصل: «الحقيقة»؛ وهو تصحيف.

(٣) فى الأصل: «السنة»؛ وهو تصحيف.

(٤) الوصول بصيغة المصدر: هو المعروف الآن بين الناس فى معاملاتهم بالإيصال. وفى شفاء الغليل أن هذه الكلمة مولدة عامية لم يستعملها متقدم ولا متأخر محسن، الا أنها وقعت فى الأشعار النازلة كثيرا.

(٥) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٠٠ من هذا السفر.

المُجرَى، فيقول فى يَمْنتها : من جهة فلان كذا، وفى مقابَلتِه : ينصرف فى كذا؛ ثم يَشْطُب[1] المُحضَرَ والمُجرَى من تلك الجهة فى يَسْرة قائمةِ الجريدةِ التى بَسَطها قُبالةَ كلّ اسم استخرج منه أو أُجرَى عليه، يَفعل ذلك فى مدّة السنة، ويَرمِزُ على تعليقه إشارةَ الخدمة على الجريدة، وصورتُه [له][2]؛ وكذلك اذا كتب وُصولا رَمَزَ عليـه إشارةَ الكتابة، وصورتُه له؛ فإذا انقضت السَّنة عَمِـلَ محاسَبةَ كلِّ جهةٍ بمـا استخرجه من مستأجرها أو ضامنها وأجراه عليـه، وعقَدَ على ذلك جملةً، فان كان المستخرَجُ والمُجرَى نظيرَ الأجرة أو الضَّمان فقـد تَعلّقت[3] تلك الجهة عن تلك السنة، وإن زاد المستخرَجُ على الأجرة أَوْرَدَه فى حسابه مضافا، ويسمّيه : زائدَ مستخرَجٍ، على ما يأتى بيانُه فى كيفيّة الأوضاع الحسابيّة، واعتـدَّ[4] له بذلك فى السنة المستقبلَة؛ وإن تعيّن للضامنِ أو المستأجِرِ اعتدادٌ بما يجب الاعتدادُ به كبَطالة الحمّامات من انقطاع المياه عنها أو وقوفِها فيها، وإصلاحِ القدور، وعُطْلِ العمائر، وبَطالةِ الطواحين لانقطاعِ المياه وانكسارِ الأحجار أو السهامِ أو العُدد، أو حصولِ جائحةٍ[5] أرضيّةٍ أو سمائيّـة كانقطاع الأجلاب[6] عن الجهات الهوائيّةِ بسبب مداوَمَةِ الأمطار، أو سقوطِ الثلوج، أو طُروقِ عدوٍّ للبلاد، أو حادثةٍ عُطِّلت تلك الجهةُ بسببها اعتدّ له بقسط تلك المدّة محسوبا

(١) انظر الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٣) فى الأصـل : « تعلقت » بالعين؛ وهو تصحيف اذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق . «وتعلقت» الخ : أى تم دفع ما على هذه الجهة من الأجرة أو الضمان، كما يرشد اليه السياق؛ وهو استعمال عامىّ كما سبق توضيح ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٣٠ من هذا السفر .

(٤) فى الأصل : «وامتد»؛ وهو تحريف . وفى المصباح انه يقال : اعتددت بالشىء، أى أدخلته فى العد والحساب .

(٥) فى الأصل : «حاجة»؛ وهو تحريف . والجائحة : الآفة والنازلة .

(٦) الأجلاب بفتح الهمزة : جمع جلب بالتحريك، وهو المجلوب .

"هذا[1] إذا شرط ذلك فى تقريره[2]" على ما يأتى شرح ذلك؛ هذا ما يعتمد عليه المباشرُ للجهات الهلاليّة فى أصولها .

وأما مضافاتُها فلا فرق بينها وبين سائرِ الأموال ، وسيَرِد الكلام إن شاء الله على ذلك مفصَّلا ؛ وقد اصطلح بعضُ مباشرى الجهات على إيراد أحكارِ البيوت والحوانيت ، وَرَيع البساتين التى تُستخرَج أجورُها[3] مشاهرةً ، ومَصايد السمك ، ومَعاصرِ الشَّيْرَج[4] والزيت فى مال الهلالىّ ؛ ومنهم من يوردها فى أبواب الخراجىّ ، وهو الأليق ، وإنما نبّهْنا عليه لبيان الاختلاف فيه ، ولا أرى فى إيراد رَيْع البساتين فى مال الهلالىّ وجها ، بل يتعيَّن ألّا يَرِدَ إلا فى أبواب الخراجىّ ؛ وإن قال قائل منهم : قد يكون فى أرض البستان مَسكَنٌ يستحِقّ أجرة ، قلنا : إن أمكن إفرادُ ذلك المَسكَن بأجرةٍ معيَّنةٍ تُقَيَّدُ أموالُه فى أموال الهلالىّ دون البستان ، وان تعذَّر إفرادُه وأُوجِرا بعقدٍ واحد فالمَسكَن هنا فرعُ البستان ، والفرعُ يتبع الأصلَ ولا ينعكس ، هذا ما لخّصناه من حال مالِ الهلالىّ[5] ، فلنذكر الجَوالِى .

---

(١) وردت هذه الجملة فى الأصل قبل الجملة السابقة ، أى قبل قوله : «اعتد» الخ ؛ والسياق يقتضى تأخيرها عنها كما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : « تقليله » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يرشد اليه قوله فى صفحة ٢٢٩ س ٤ : «كتب له من ديوانه تقريرا» الخ .

(٣) فى الأصل : « أصولها » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا ، كما فى خطط المقريزى ج ٢ ص ٩٣ طبع المعهد الفرنسى .

(٤) كذا ضبط هذا اللفظ بالعبارة فى مستدرك التاج مادة «شرج» بالمعجمة ، وذكر أن العوام ينطقون به بالسين المهملة مكسورة ؛ وهو دهن السمسم .

(٥) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

ذكر الجزية الواجبة على أهل الذمة وما ورد فيها من الأحكام الشرعيّة وأوّل مَن ضربَها وقرّرها على الرءوس وما اصطلح عليه كُتّابُ التصرّف فى زماننا من آستخراجِها وموضع إيرادها فى آلحساب ونسبتِها فى الإقطاعات الجيشيّة وما يلزم مباشرَها من الأعمال وما يحتاج إليه والله أعلم

أما الأحكام الشرعيّة فالأصل فى وجوبها قولُه تعالى : ﴿ قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ وقد ورد فى هـذه الآية تأويلاتٌ ذكرَها أقضى القضاة أبو الحسن علىُّ بنُ محمد بنِ حَبيب ٱلماوردىّ — رحمه الله — فى الأحكام السلطانيّة ، نحن نذكرها على ما أَورَده ، قال : أما قولُه : « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ » فأهلُ الكتاب [وإن](١) كانوا معترفِين بأن الله سبحانه واحد ، فيَحتمِل [نفىُ](٢) هـذا الإيمانِ بالله تأويلين ، أحدهما : لا يؤمنون بكتاب الله سبحانه وهو القرآن ، والثانى : لا يؤمنون برسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم ، لأن تصديقَ الرُّسُل إيمانٌ بالمرسِل ؛ وقولُه : « وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » يَحتمِل تأويلين ، أحدهما : لا يخافون وعيدَ اليوم الآخرِ وإن كانوا معترفين بالثواب والعقاب ، والثانى : لا يصدِّقون بما وصفه الله تعالى من أنواع العـذاب ؛ وقولُه تعالى : « وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ » يَحتمِل تأويلين ،

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية ص ٢٤٦ طبع ألمانيا .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ومن نسخة الأحكام السلطانية طبع ألمانيا ، وقد أثبتناها عن نسخة الأحكام السلطانية طبع مصر اذ بها يستقيم الكلام .

أحدهما : ما أَمَر الله سبحانه بنَسْخِه مِن شرائِعهم ، والثانى : ما أَحَلّه لهم وحَرَّمَه عليهم ؛ «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ» فيه تأويلان ، أحدهما : ما فى التوراة والإنجيل من ٱتّباع الرسول — وهو قول الكلبىّ — ، والثانى : الدخولُ فى دين الإسلام — وهو قول الجمهور — ، وقولُه : «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» فيه تأويلان ، أحدهما : من أَتْباع[1] الذين أوتوا الكتابَ ، والثانى : مِن الذين ملّتُهم الكتابُ ، لأنهم فى ٱتّباعِه كإيتائه[2] ؛ وقولُه : «حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ» فيه تأويلان ، أحدهما : حتى يدفعوا ٱلجزية ، والثانى حتى يَضمَنوها ، لأنه بضمانها يجب الكفُّ عنهم ؛ وفى الجزية تأويلان ، أحدهما : أنها من الأسماء المُجْمَلة التى لا يُعرَف منها ما أُريد بها إلا أن يَرِدَ بيان[3] ، والثانى : أنها من الأسماء العامّة التى يجب إجراؤها على عمومها إلا ما خصصه دليل ؛ وٱسمُها مشتقٌّ من ٱلجزاء ، وهو إما جزاءٌ على كفرِهم ، أو جزاءٌ على أمانِنا لهم ؛ وفى قوله : «عَنْ يَدٍ» [تأويلان ، أحدهما : عن غِنًى[4] وقُدرة ، والثانى : أن يَعتقِدوا أن لنا فى أخذها منهم يدًا وقُدرةً عليهم ؛ وفى قوله] : «وَهُمْ صَاغِرُونَ» تأويلان ، أحدهما : أَذِلّاءُ مساكين[5] ، والثانى : أن تُجْرَى عليهم أحكامُ الإسلام . وقال غيرُه : الصَّغار أن يُضرَب على فَكِّ الذمّىّ برءوس الأنامل عند قيامه بالجزية ضربا لطيفا غيرَ مؤلم . وقال الماوردىّ :

(١) انما قدر هذا المضاف لأن الذين أوتوا الكتاب أنفسهم لم يكونوا فى زمن الإسلام فتؤخذ منهم الجزية ؛ والذى فى نسخ الأحكام السلطانية « من أبناء » وكذلك فى كتاب الحاوى الكبير للماوردى المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٢ فقه شافعى ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٢) فى الأصل : « كإتيانه » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا فان الإيتاء هو مصدر « أوتوا » لا « الإتيان » ؛ والمعنى أنهم فى ٱتباعه كأنهم أوتوا الكتاب ؛ والذى فى الأحكام السلطانية : « كأبنائه » ؛ وهو تحريف .

(٣) عبارة الأصل : « تروتتان » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما فى الأحكام السلطانية ص ٢٤٧ طبع ألمانيا .

(٤) هذه التكملة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية إذ بها يتم الكلام .

(٥) فى الأصل : « مسألتين » ؛ وهو تحريف .

فيجب على ولىِّ الأمر أن يضرِبَ ٱلجزيةَ على رقاب من دخل فى الذمّة من أهـل الكتاب ليقرّوا بها فى دار الإسلام؛ ويَلتزِم لهم ببذلها حقّين : أحدهما الكفُّ عنهم، والثانى ٱلحمايةُ لهم، ليكونوا بالكفِّ آمنِين، و بالحماية محروسِين؛ روى نافعٌ عن ٱبن عمر رضى الله عنهم قال : آخرُ ما تكلّم به النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم : "اِحفظونى فى ذِمّتى"(١) قال المـاوردىّ : ولا تؤخَذ من مُرتدٍّ ولا دَهْرىٍّ ولا عابدِ وَثَن، وأخذَها أبو حنيفة من عَبَدة الأوثان من العجم، ولَم يأخذْها منهم إذا كانوا عربا(٢)؛ وأهلُ الكتاب هم اليهود والنصارى، وكتابُهم التوراةُ والإنجيل، وتَجرى ٱلمجوسُ مجَراهم فى أخذ الجزية منهم؛ وتؤخَذ من الصابئِين(٣) والسامِرة(٤) اذا وافقوا اليهودَ والنصارى فى أصل معتقَدِهم وان خالفوهم فى فروعه، ولا تؤخَذ منهم إن خالفوا اليهودَ والنصارى فى أصـل معتقَدِهم؛ ومن جُهِلتْ حالُه أُخِذتْ جزيتُه، ولا تؤكَل ذبيحتُه؛

والجزية تجب على الرجال الأحرار(٥) العقـلاء، ولا تجب على صبىٍّ ولا ٱمرأةٍ ولا مجنونٍ ولا عبدٍ، لأنهم أَتْباعٌ وذَرارىّ؛ ولو تَفرّدت ٱمرأةٌ منهم [عن](٦) أن تكون تبعا لزوجٍ أو نسيبٍ لَم تؤخَذْ منهـا ٱلجزية، لأنها تبعٌ لرجال قومها وإن كانوا أجانب

(١) أراد : فى أهل ذمتى .

(٢) فى الأصل : «غرباء» ؛ وهو تحريف .

(٣) الصابئون : قوم يشـبه دينهم دين النصارى الا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح (تاج العروس) .

(٤) السامرة : قوم من اليهود يخالفونهم — أى اليهود — فى بعض أحكامهم، كإنكارهم نبوة من جاء بعـد موسى عليه السلام وقولهم : « لا مساس » ، وزعمهم أن نابلس هى بيت المقدس؛ وهم صنفان : الكوشان، والدوشان؛ واليهم نسب السامرىّ الذى عبد العجل (تاج العروس) .

(٥) فى الأصل : «والأحرار» ؛ والواو زيادة من الناسخ .

(٦) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها؛ والذى فى نسختى الأحكام السلطانيـة طبع ألمانيا وطبع مصر مكان هذه الكلمة : «على» ؛ وهو تحريف .

منها؛ ولو تفردت امرأةٌ فى دار الحرب فبذلت الجزيةَ للمُقام فى دار الإسلام لم يلزمها ما بذلته، وكان ذلك منها كالهِبَة لا يؤخذ منها إن امتنعتْ؛ ولا تؤخذ الجزية من خنثى مُشكِل، فإن زال إشكالُه وبان رجلا أُخِذتْ منه فى مستقبَل أمرِه وماضيه؛ (١)

واختلف الفقهاء فى قدر الجزية، فذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم ثلاثةَ أصناف: أغنياءُ يؤخَذ منهم ثمانية وأربعون درهما، وأوساطٌ يؤخَذ منهم أربعة وعشرون درهما وضربٌ (٢) يؤخذ منه اثنا عشر درهما، [فجعلَها مقدَّرةَ الأقلِّ والأكثر] (٣) ومنَعَ من اجتهاد الولاة فيها .

وقال مالك : لا يقدَّر أقلُّها ولا أكثرُها ، وهى موكولةٌ إلى اجتهاد الإمام فى الطرفين .

وذهب الشافعىّ إلى أنها مقدَّرةُ الأقلّ بدينارٍ لا يجوز الاقتصار على أقلَّ منه ، وعنده أنها غيرُ مقدَّرةِ الأكثر ، يُرجَع فيه إلى اجتهاد الولاة ، ويجتهد رأيَه فى التسوية بين جميعهم، أو التفضيلِ (٤) بحسب أحوالهم ، فإذا اجتهد رأيَه فى عقد الجزية معهم على مُراضاة أُولى الأمر منهم صارت لازمة لجميعهم ولأعقابهم قرنا بعد قرن، ولا يجوز لوالٍ بعده أن يغيره (٥) الى زيادة عليه أو نقصانٍ منه .

---

(١) فى الأصل : « زاد » بالدال؛ وهو تحريف .

(٢) الذى فى الأحكام السلطانية : « وفقراء » ؛ وهو أظهر لأنه قد عين الصنفين السابقين بقوله : « أغنياء» « وأوساط » .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ، وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية كما تقتضيه المقابلة بما يأتى فى قول مالك والشافعىّ .

(٤) فى الأصل : « والتفصيل » ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى الأحكام السلطانية ص ٢٤٩ طبع ألمانيا .

(٥) أن يغيره، أى أن يغير عقد الجزية .

ويُشترَط عليهم فى عقد الجزية شرطان : مستحَقٌّ ومستحَبّ ، أما المستحَق فستة أشياءَ[(١)] : أحدها ألّا يذكُروا كتابَ الله تعالى بطعنٍ فيه ولا تحريفٍ له ، والثانى ألّا يذكُروا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم بتكذيبٍ له ولا ازدراءٍ به ، والثالث ألّا يذكُروا دينَ الإسلام بذمٍّ له ولا قدحٍ فيه ، والرابع ألّا يُصيبوا مسلمةً بزنًى ولا باسم نكاح ، والخامس ألّا يفتِنوا[(٢)] مسلما عن دينه ولا يتعرّضوا لماله ولا دمه[(٣)] ، والسادس ألّا يُعينوا أهلَ الحرب ولا يؤوُوا أغنياءَهم ؛ فهذه الستةُ حقوقٌ ملتزَمةٌ بغير شرط ، وإنما تُشترَط إشعارا لهم ، وتأكيدا لتغليظ العهد عليهم ، فيكون انتهاكُها بعد الشرط نقضا لعهدهم .

وأما المستحَبّ فستة أشياءَ : أحدها تغيير هيآتهم بلُبس الغِيار[(٤)] وشدِّ الزُّنّار[(٥)] ، والثانى ألّا يَعلُوا على المسلمين فى الأبنية ، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوِين لهم ، والثالث ألّا يُسمِعوهم أصواتَ نواقيسهم ، ولا تلاوةَ كتبهم ، ولا قولَهم فى عُزَير والمسيح ، والرابع ألّا يجاهروهم بشرب خمورهم ، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم ، والخامس أن يُخفُوا[(٦)] دفنَ موتاهم ولا يَجهَروا بندبٍ عليهم ولا نياحة ، والسادس أن يُمنَعوا من ركوب الخَيل عِتاقا وهُجْنا ، ولا يُمنَعوا من ركوب البغال والحمير ؛ قال : فهذه الستة المستحَبّة

(١) كذا فى نسخ الأحكام السلطانية التى بين أيدينا ؛ والذى فى الأصل : «فيه أشياء» وهو تحريف ويرشد الى ما أثبتناه أيضا مقابلته بقوله الآتى : « وأما المستحب فستة أشياء » .

(٢) فى الأصل : « يعينوا » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : «ذمته» ؛ وهو تحريف .

(٤) الغيار : علامة أهل الذمة كالزنار ؛ قال فى شفاء الغليل نقلا عن شرح المهذب : الغيار أن يخيطوا على ثيابهم الظاهرة مايخالف لونه لونها ، وتكون الخياطة على الكتف دون الذيل ، والأشبه ألا تختص بالكتف . اهـ

(٥) الزنار وزان رمان : ما يلبسه الذمّىّ يشدّه على وسطه .

(٦) فى الأصل : « أن لا يخفوا » ؛ وقوله : « لا » زيادة من الناسخ مفسدة للمعنى .

لا تلزم بعقد الذِّمة حتى تُشترَطَ فتصيرَ بالشرط ملتزمة، ولا يكون ارتكابُها بعد الشرط نقضا للعهد، لكن يؤخَذون بها[(١)] إجبارا[(٢)]، ويؤدَّبون[(٣)] عليها زجرا، ولا يؤدَّبون إن لم يُشترَط ذلك عليهم، ويُحتاط[(٤)] به.

[وتجب الجزية عليهم][(٥)] فى كل سنة مرّةً واحدةً بعد انقضائها[(٦)] بالشهور الهلالية، ومن مات منهم فى أثناء السنة أُخِذ من تَرِكتِه بقدر ما مضى منها، ومن أسلم كان ما لَزِم من جزيته دَينا فى ذمّته يؤخَذ منه؛ وأسقطها أبو حنيفة بإسلامه وموته؛ ومَن بَلَغ من صغارِهم، أوأفاق من مجانينِهم استُقبِل به حولٌ [ثم أُخِذ][(٧)] بالجزية ويُؤخَذ الفقيرُ بها إذا أَيْسَر، ويُنتَظَر بها إذا أَعْسَر؛ ولا تسقط عن شيخٍ ولا زَمِن، وقيل: تسقط عنهما وعن الفقير؛ ولِأهل العهد إذا دخلوا دارَ الإسلام الأمانُ على نفوسهم وأموالهم، ولهم أن يقيموا فيها أربعةَ أشهر بغير جزية، ولا يقيموا سنةً إلا بجزية، وفيما بين الزمانَين[(٨)] خِلاف؛ ويَلزَم الكفُّ عنهم كأهل الذمة، ولا يَلزَم الدفعُ عنهم؛ وإذا أَمَّن بالغٌ عاقلٌ من المسلمين حربيًا لَزِمَ أمانُه كافّةَ المسلمين، والمرأةُ

(١) فى الأصل: «يوجدون»؛ وهو تصحيف.

(٢) فى الأصل: «اخبارا» بالخاء؛ وهو تصحيف.

(٣) فى الأصل «ويؤذنون»؛ وهو تصحيف.

(٤) وردت هذه العبارة فى الأصل مكتوبة بخط كبير مشبه لما تكتب به تراجم الأبواب والفصول؛ ولم ترد فى الأحكام السلطانية؛ والمعنى أنه ينبغى للامام أن يحتاط باشتراط ذلك عليهم ليعاملهم بمقتضاه.

(٥) هذه التكملة ساقطة من الأصل؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها؛ وعبارة الأحكام السلطانية ص ٢٥١ طبع ألمانيا: «ولا تجب الجزية عليهم فى السنة الا مرة واحدة».

(٦) هذه الهاء والباء ساقطتان من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتهما، كما فى الأحكام السلطانية.

(٧) هذه التكملة ساقطة من الأصل وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية ص ٢٥٢ طبع ألمانيا.

(٨) كذا فى الأحكام السلطانية ص ٢٥٢ طبع ألمانيا و ص ١٣٩ طبع مصر؛ والذى فى الأصل: «دون»؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى.

فى بذل الأمان كالرجل، والعبدُ فيه كالحـرّ؛ وقال أبو حنيفة : لا يصحّ أمانُ العبد إلا أن يكون مأذونا له فى القتال ؛ وإذا[1] تَظاهَر أهلُ الذمّة والعهدِ بقتال المسلمين كانوا حربا لوقتِهم، يُقتَل مُقاتِلُهم، ويُعتَبَرُ حالُ مَن عدا المُقاتِلة منهم بالرضا بفعلِهم والإنكارِ له ؛ وإذا آمتنع أهـلُ الذمّة من أداء الجزية كان نقضـا لعهدِهم ؛ وقال أبو حنيفة : لا يَنتَقِض به عهدُهم إلّا أن يلحَقوا بدار الحرب، وتُؤخَذ منهـم جَبْرًا كالدُّيون ؛ وإذا نَقَض أهلُ الذمّة عهدَهم لم يُستَبَح بذلك قتلُهم، ولا غُنْمُ أموالهم، ولا سَبْيُ[2] ذراريِّهم ما لَم يقاتِلوا، ووجب إخراجُهم من بلاد المسلمين آمنـين حتى يَلحَقوا مَأمَنَهم من أدنى بلاد الشِّرك، فإن لم يَخرُجوا طوعا أُخرِجوا كَرْها ؛ فهذه هى الأحكام الشرعيّة فى أمر الجزية .

وأوّلُ ما ضُربت آلجزية وجُعِلتْ على الرءوس فى خلافة عمـر[3] بن الخطّاب — رضى الله عنـه — وكانت قبل ذلك تُحمَل قطائعَ ؛ وآختُلِف : هل آستأداها سَلفا أو عند آنقضاء الحَوْل .

(١) هذه الواو ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٢) فى الأصل : «ولا بنى» ؛ وهو تحريف .

(٣) فى كتب الفقه ما يفيد أن الجزية كانت على الرءوس فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم، فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب من كل حالم دينارا ولم يفضل . وروى مسروق عن معاذ بن جبل أنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن وأمرنى أن آخذ من كل حالم دينارا أو عدله معافر، انظر كتاب الحاوى الكبير للماوردى ج ١٩ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٢ فقـه شافعى وكتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٧٢ طبع المطبعة السلفية . والمعافر: ثياب تصنع باليمن . أما ما كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فهو أنه جعل أهل الذمة طبقات ، فأخذ من الأغنياء ثمانية وأربعين درهما ، ومن المتوسطين أربعة وعشرين درهما ، ومن الفقراء آثنى عشر درهما ، وذلك فى سواد العراق لما افتتحه ، انظر كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٢٠ و ٢١ و ٢٢ طبع المطبعة الأميرية وكتاب الأوائل لأبى هـلال العسكرى المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٠٥ تاريخ . ولم يكن هذا التقسيم قبل خلافة عمر .

وأما ما اصطلح عليه كُتّاب التصرّف فى زماننا هذا من استخراجها وموضع إيرادها فى حُسباناتهم، فهُم يستخرجونها سَلفا وتعجيلا فى غُرّة السنة، وفى بعض الأقاليم تُستخرَج قبل دخول السنة بشهر أو شهرين؛ وتُورَد فى الحُسبانات قلما مستقلّا بذاته، بعد الهلالىّ وقبل الخراجىّ، وسببُ تأخيرها عن الهلالىّ أنها تُستأدَى مُسانَهةً، وسببُ تقدُّمها على الخراجىّ ما ورد من وجوبها مشاهَرةً على الأشهر من أقوال الفقهاء؛ وقد تقدَّم ذكرُ الحُكم فيمن أسلم أو مات فى أثناء الحَوْل، وأنه لا يَلزَمه منها إلا بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته، فلذلك وردتْ بين الهلالىّ والخراجىّ.

وأما نسبتُها فى الإقطاعات الجيشيّة عند خروج إقطاعٍ ودخولِ آخر[1] فإنها تَجرِى مَجرى المال الهلالىّ، لأنها تُستخرَج على حكم شهور السنة الهلاليّة دون الشمسيّة؛ فإن تَعجّلها مُقطَعٌ فى غُرّة السنة على العادة وخرج الإقطاعُ عنه فى أثنائها بوفاةٍ أو نقلة إلى غيره استَحقّ منها نظيرَ ما مضى من شهور السنة إلى حين انتقاله، لا على حُكم ما استَحقّ من المُغَلّ؛ ويَستحِقّ المتّصلُ من[2] استقبال تاريخ منشوره كعادة النقود؛[3] وإن تَخلّل بين المنفصل والمتّصل مدّةٌ كان قسطُها للديوان، يَرِد فى جملة المحلولات من الإقطاعات.

(١) كذا فى الأصل؛ ويوضح ذلك ما ورد فى خطط المقريزى ج ٢ ص ٩٤ طبع المعهد الفرنسى؛ وعبارته: عند خروج إقطاع عن مقطع — بفتح الطاء — ودخول آخر على ذلك الاقطاع.

(٢) كذا فى كتاب الخطط للمقريزى؛ والذى فى الأصل: «لاستقبال» باللام مكان «من» وما أثبتناه هو مقتضى السياق.

(٣) كذا فى كتاب الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٩٤ طبع المعهد الفرنسى؛ والذى فى الأصل: «النفوذ»؛ وهو تصحيف.

وأما ما يَلزَم مباشِرَ الجوالى وما يَحتاج الى عمله، فالذى يلزمه أن يبسُط جريدةً على أسماء الذمّة[(١)] بمقتضَى الضريبـة المرفوعةِ إليه، أو الكشفِ الذى كَشَفَه إن كان العمـلُ[(٢)] مفتوحا[(٣)] أو مستجَدّا، يبدأ فيها بذكر أسمـاء اليهود، ويثنّى بالسامِرة[(٤)] لأنّهم شَعْبٌ منهم، ويثلّث بالنصارى، وإن كان فى عمله طائفـةٌ من الصابئة والمجوس ذَكَرهم بعد النصـارى؛ وفى بعض بلاد الشأم تؤخذ الجزية من طائفة تُعرف بالشَّمسيّة، يوحّدون الله تعالى وينكِرون نبوّةَ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، ومنهم من يقول بنبوّة عيسى عليه السلام وأن لا نبىَّ بعده؛ ويكون بَسْطُ الكاتب لهذه الجريدة على التقفية إذا كانت الأسماء كثيرة، ليسهل عليه بذلك الكشفُ والشطب، وإذا ٱستَخرَج جاليةً أَوْرَدها فى تعليق المياوَمة، وكَتَبَ له بها وُصولا[(٥)]، وشَطَبَها عن ٱسم من ٱستُخرِجتْ منه فى جريدته، ويَرمُز فى تعليقه إشارةَ الكتابة والخدمة على ما تَقدَّم بيانه فى الهلالىّ.

ويَحتاج مباشر الجوالى فى كلّ سـنة إلى إلزام رئيس اليهود ورئيسِ السامِرة وقِسّيس النصارى أو أُسْقُفِّهم[(٦)] بكتابة أوراق يسمّونها: الرِّقاعَ بمن عنـد كلّ منهم من الرواتب[(٧)]، وما لعـلّه ٱستجَدّ[(٨)] من الطَّوارئ[(٩)] والنَّوابت، ويعـيّن فى آخر الرِّقاع من

(١) أسماء الذمة: أى أسماء أهل الذمة. (٢) يريد بالعمل: البلد. (٣) مفتوحا: أى مما فتحه المسلمون من دار الحرب. (٤) انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٣٦ من هذا السفر.

(٥) انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٣١ من هذا السفر.

(٦) فى الأصل: «أو استفهم»، وهو تحريف، والأسقف بتخفيف الفاء وتشديدها فوق القسيس ودون المطران.

(٧) يريد بالرواتب: المقيمين، وهو من رتب رتبا إذا أقام بالبلد، كما فى المصباح؛ وإنما جمعه على فواعل لأن واحده «راتبة»، صفة للطائفة.

(٨) فى المصباح أن استجدّ قد يستعمل لازما — أى بمعنى تجدّد — فلذلك ضبطناه بفتح التاء والجيم.

(٩) الطوارئ: الذين طرأوا على البلد ولم يكونوا منه. والنوابت: جمع نابتة، أى النشء الصغار، والمراد بهم هنا من دون البلوغ.

ٱهتدى بالإسلام ، ومَن هلك بالموت ، ومَن تَسحَّب[1] من العمل ، وإلى أىّ جهة توجّه ، ويَجعل تلك الرِّقاعَ شاهدا عنده بعد الإشهاد فيها على[2] الصادرةِ عنه بأنه لم يُخلّ بشىء من الأسماء ، ويُلزِمه بكَتْبِ مَشاريحَ بمن ضَمَّن رِقاعَه أنه ٱهتدى أوهلك أوتَسحَّب[1] كلّ اسمٍ بمشروح ، ويخلِّد المشاريحَ عنده ويشطُبُها[3] على جريدته ؛ والكتّاب فى إيراد من ٱهتَدَى ونَزَح وهَلَك مختلفون : فمنهم من يُوصِل العِدّةَ المستقِرّةَ عنده عن يَمْنة العمل[4] ، ويَستثنِى بالتعديَةِ عمّن ٱهتَدَى وهَلَك وتَسحَّب[1] ، كلّ ٱسم بمقتضَى مشروحه المشهودِ فيه ، ويبرز بما تحرَّر بعد ذلك ؛ ومنهم من يُوصِل الجميعَ على ما ٱستقرّتْ عليه الحالُ الى آخر السنة الماضية ، ويَستخرِج ممّن ٱستخرج منه ، ويَعتدّ[5] بما يجب على ٱلمهتدى والهالكِ والمتسحِّبِ[1] محسوبا فى باب المحسوب قَبْل فَذْلَكة الواصل فى الرِّقاع — على ما نبيّنه إن شاء الله فى الأوضاع الحسابيّة — ويكون ماعلى النازحين موقوفا الى أن يتحرّى أمرهم ؛ فإن عاد أحدٌ منهم الى ذلك الإقليم ولم يكن قد قام بالجزية فى بلد آخر ٱستُخرِجتْ منه ، ووَرَدتْ فى باب المضاف فى حساب السنة ، وإن كان قد قام بالجزية فى بلد آخرَ وأَحضَر وُصولَ مباشِر تلك الجهة بما ٱعتَدّ له

(١) تسحب : أى نزح من بلد الى بلد آخر ، ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة بهذا المعنى ، والظاهر أنها عامية .

(٢) فى الأصل : «عن» ، وهو تحريف ، واللغة تقتضى ما أثبتنا .

(٣) انظر الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر .

(٤) يريد بالعمل هنا : مايسميه الكتّاب بالقائمة ، كما يرشد اليه السياق ، وسيأتى هذا اللفظ مرادا به هذا المعنى فى موضع آخر ، وسننبه عليه فى مكانه .

(٥) يقال : اعتددت بالشىء : أى أدخلته فى العدّ والحساب (المصباح) .

به عن تلك السـنة ، نَقَل[1] مَبلغَ الوُصول على تلك الجهة التى حَضَر وُصولُهـا قربت أو بعـدت ، وٱستَشهَد فى حسابه بمقتضى الوُصول ؛ وكلتا الطريقتين سائغـةٌ عند الكُتّاب ؛

وأما النَّوابت[2] والطَّوارئ فإنهـا تَرِد فى باب المضـاف باتفاق الكُتّاب فى أوّل سنة ، وتستقرّ أَصْلا فى السنة التى تليها وما بعدها ؛ ويحتاج المباشر الى تفقُّد أحوال النوابت فى كلّ مدّة لِٱحتمال بلوغ صبىٍّ فى أثناء ٱلحَوْل ، واختبار ذلك بأمور شرعيّة واصطلاحيّة : أما الشرعيـة فبإنبات[3] الشَّعر الخَشِن[4] ، أو بكمال خمس[5] عشرةَ سنة ؛ وأما الٱصطلاحيّة فبٱنفراق رأسِ الأنف ، وغِلَظ الصوت ، وبظهور شىء[6] على حَلَمَة الثَّـدْيِ من باطنه كالتُّرمُسة ، وبأن يُدارَ خَيطٌ على عنق الصبىّ مرّتين تحريرا ، ثم يوضَع طرفُ الخيط بين أسنانه وتُدخَل أُنْشُوطةٌ[7] فى رأسـه ، فإن دخلت دلّ ذلك على بلوغه ، وإلا فلا ؛ وٱصطَلَح بعضُ مباشِرى الجوالى فى بعض الأقاليم على إلزام عُرَفاء الذمّة[8] بالمطالَعـةِ بكل صبىٍّ يُولَد لوقتِـه ، وبمن هلك منهم ، ويرصع[9] أسماءهم

(١) فى الأصل : « ونقل » ؛ والواو زيادة من الناسخ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٩ من صفحة ٢٤٢ من هذا السفر .

(٣) يقال : أنبت الغلام ، اذا نبت شعر عانته ، وهو حدّ معتبر لبلوغ صبيان أهل الذمة لأنه لا يمكن الوقوف على سنهم لٱتهام أقوالهم .

(٤) فى الأصل : «الحسن» ؛ وهو تصحيف .

(٥) عبارة الأصـل : « أو الكمال فى عشرة » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا إذ به يستقيم الكلام ؛ وتحديد سن البلوغ بخمس عشرة سنة مذهب الشافعى وأبى يوسف ومحمد ، وعليه الفتوى عند الحنفية .

(٦) هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٧) الأنشوطة : ربطة دون العقدة ، إذا شدّت من أحد طرفيها ٱنحلت .

(٨) الذمة ، أى أهل الذمة .

(٩) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٠٠ من هذا السفر .

فى جريدة مفردةٍ بهم ، فمن بلغ عمره ثلاثَ عشرةَ سنةً استخرَج منه الجزيةَ سواء ظهرت أماراتُ بلوغه أم لا ، ويلازم المباشرُ الكشفَ والتنقيبَ عمّن لعلّه أُخفِيَ من الرواتب، أو استجدّ من الطّوارئ والنّوابت ولم يُرِد الدفع، فمن ظهر له أمرُه استخرَج الجاليةَ منه لاستقبال وجوبها عليه، ويقابل من أخفاه بالإهانة والنكال؛ والمباشَرةُ تُظهِر ما لا تحيط به الكُتُب؛ هذا ما يتعلّق بالجوالى، فلنذكر الخراجىّ — إن شاء الله تعالى — .

ذكر جهات الخراجىّ وأنواعه وما يحتاج اليه مباشره

(٤٧) والخراجىُّ عبارةٌ عما يُستأدَى مسانَهةً مما[(١)] هو مقرَّرٌ على الأراضى المُرصَدة للزراعة والنخلِ والبساتينِ والكرومِ والطواحينِ السنويّةِ التى تدور أحجارُها بمياه السيول فى الجهات[(٢)] الشاميّة، وما يُستأدَى من خدم الفلّاحين، ويسمّى ذلك بمصر: الضِّيافة، وبالشأم: رَسْمَ الأعياد والخميس، وهو أغنامٌ ودَجاجٌ وكَشْكٌ[(٣)] وبَيض — على ما استقرّ على كلِّ جهة — وهو إنما يكون على النواحى الإقطاعيّة غالبا، وأما فى نواحى الخاصّ فلا يُستأدَى، لما هو مقرر على الأراضى بمصر من الحقوق التى تُستخرَج دراهمَ، وبالشأم من التَّضْييف[(٤)] المقرَّر عليهم فى أيّام الفَتْح[(٥)] عن مدّة ثلاثة

(١) فى الأصل : « ممن » ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «فى المياه» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٣) فى شرح القاموس أن كسر الكاف فى هذا اللفظ مما ولعت به العامة .

(٤) فى الأصل : «المضيف» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما تقتضيه اللغة .

(٥) فى الأصل : «القسم» ؛ وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا فانه يريد صلح عمر رضى الله تعالى عنه لنصارى الشأم على ضيافة من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون من غير أن يكلفوا ذبح شاة ولا دجاجة وتبييت دوابهم من غير شعير، وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن . الأحكام السلطانية ص ١٣٨ طبع مصر .

أيّام؛ ومن أبواب الخراجىّ ما يُستأدَى بالشأم فى خدمة رؤساء الضِّيَاع فى مقابَلة ما لهم من المُطلَقِ والوُلاةِ والوكلاءِ والنُّقباءِ والصَّيارِفةِ والكيّالين والضَّوئيّة[1] فى مقابَلة ما يستأدونه من الرسم ، وذلك يَرِد فى أبواب المضاف؛ والخراجىُّ تختلف أحكامه وقواعده بمصر والشام؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

أما الديار المصريّة وأوضاعها وقوانينهـا وما جرت عليـه قواعدها على ما آستَقَرّ فى زماننا هـذا وتَداوَله الكُتّاب، فقانون الديار المصريّة مبنىٌّ على ما يَشمَله الرِّىُّ من أراضيها ويعلوه النيـل ؛ وقد ذكرنا فى باب الأنهار فى الفن الأوّل من كتابنا هذا نيلَ مصر، ومَبدأَه، والآختلافَ فيه، وما يَمُرّ عليه من البـلاد، وكيفيّةَ الآنتفاعِ به مِن حفْرِ التُّرَع ، وضبْطِ الجُسور، وتصريفِ الميـاه عن الأراضى بعد رَيِّهـا ؛ ونيلُ مصر هو من أعاجيب الدنيا ، وقـد رُوِىَ عن ذى القرنين أنه كتب كتابا عمّـا شاهده من عجائب الوجود فذَكَر فيه كلَّ عجيبة، ثم قال فى آخره : وذلك ليس بعَجَب ، ولكنّ العَجَب نيلُ مصر، ولولا ما جعل الله تعالى فيـه من حِكمة هذه الزيادةِ فى زمن الصيف على التدريج حتى يَتكامَل رِىُّ البلاد، وهبوطِ المـاء عنها عند بَدْءِ وقتِ الزراعة لفسد أمرُ هذا الإقليم، وتَعذَّرتْ سكناه، إذ ليس به أمطارٌ كافية ولا عيونٌ سارحةٌ[2] تعمّ أراضيَه، وليس ذلك إلا فى بعض إقليم الفيّوم؛ فسبحان من بيـده الخلقُ والأمرُ القادرِ على كلّ شىء، والمدبِّرِ لكلّ شىء، سبحانه وتعـالى لا إله إلّا هو .

(١) فى الأصل : «الصوية» ؛ وهو تصحيف . والضوئية : نسبة الى الضوء، والمراد بهم الذين يحملون المصابيح ويمشون بها ليلا، ولا تزال طائفة منهم الى وقتنا هذا تعرف بهـذا الآسم وان لم يعملوا ذلك الآن .

(٢) السارحة : الجارية .

والذى يحتاج إليه مباشرُ الخراج بمصر و يَعتمِد عليه فى مباشَرته أنه اذا شَمِل الرِّىُّ أرضَ الجهة التى يباشرها أن يبدأ بإلزام خولَة[1] البلاد برَفع قوانين الرِّىِّ، وصورتُها أن يكتب فى صدر القانون ما مثالُه : قانونٌ رَفَعَــه كلُّ واحدٍ من فلان وفلان الخَولَة[1] والمشايخ بالناحية الفلانيّة، بما شَمِله الرِّىُّ وعلاه النِّيلُ المبارك من أراضى الناحية لسنة كذا وكذا الخراجيّة، وهو من الفُدُن[2]؛ ويذكُرون جملةَ قانون البلد، ويُفَصِّلونه بالرِّىِّ والشَّراقِى، فالرِّىُّ : ما شَمِله النيل . والشراقِى : ما لم يشمله؛ وللرِّىِّ تفصيل : منه ما هو نَقاء[3]، ومنه ما هو مزروعٌ، وخِرْسٌ، وغالب، ومستبحر؛ ويُفصَّل بقبائله[4]، ويُشرَح فى كل قَبالة هذا التفصيل؛ والنقاء : هو الطينُ السوادُ[5] الذى يَصلُح للزراعة ويَنبُت فيــه اذا لم يُزرَع الكلأُ الصــالحُ للرَّعْىِ[6]، ويسمَّى نبــاتُه بصعيد مصر : الكُتَّيح[7]، وهو نباتٌ تَستغنِى به الخيلُ والدوابُّ والمــاشيةُ عن البِرسيم[8] . وأما المزروع :

(١) كذا ورد هذا الجمع فى الأصل بالتاء؛ ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة، غير أنه شائع الاستعمال بين العامة، وواحده خولى، وفى مستدرك التاج أنه هو الذى يقيس الأرض بقصب المساحة .

(٢) الفــدن بالضم — والعامة تكسر الفاء — : جمع فدان بتخفيف الدال، وهى لغة فى الفدان بالتشديد؛ قال فى شفاء الغليل ما نصه : الفدان : نبطى معرّب ويخفف ويشدّد جمعه فدن وأفدنة الخ . وكذلك فى كتاب المعرّب للجواليقى؛ والذى يستفاد من شرح القاموس أن الفدان للقدار المعلوم بتشديد الدال لا غير .

(٣) النقاء فى الأصل : مصدر، وقــد أريد به هنا اسم المفعول، أى الأرض النقية ممــا يعوق الزارعين عن زراعتها .

(٤) القبائل : جمع قبالة بفتح القاف، وهى الأرض التى يقبلها أصحابها، أى يضمنونها بمبلغ من المــال يؤدّونه عنها فى كل سنة .

(٥) السواد : أى ذو السواد، وهذه التسمية لا تزال مستعملة بين العامة حتى اليوم .

(٦) فى الأصل : « للزرع » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٧) فى الأصل : «الكثيح» بالثاء المثلثة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما فى مستدرك التاج .

(٨) كذا ضبط هذا اللفظ فى القاموس، والذى فى شرحه أن فتح الباء من لغة العامة .

فهو ما عادتُه أن يُزرَع فى كلّ سنة . وأما الخِرْس : فهو الأرض التى تَنبُت فيها الحَلْفاء[(١)]، فلا تُزرَع إلا بعد قلعها منها وتنظيفها، وقَطِيعتُه[(٢)] دون قطيعة النَّقاء. وأما الغالب : فهو ما غَلَبتْ على أرضه الحَلْفاء وتكاثفتْ فلا تُقلَع إلّا بكُلْفة، وقَطِيعتُه دون قطيعة الخِرْس، وقلّما يُزرَع، وأكثرُ ما يكون الخِرْس والغالبُ ببلاد الصعيد الأعلى لسعتها[(٣)]، وكثرةِ أرضها، وتعطيلِها من الزراعة سنةً بعد أخرى . وأما المستبحِر : فهو أراضى الخلجان المشتَغِلة التى تستمِرّ المياه فيها إلى أن يَفُوت زمنُ الزراعة، فمنها ما يُبوَّر، ومنها ما يُزرَع مَقاثِئ[(٤)]، وقَطِيعتُه متوسّطة، وتكون غالبا بالدراهم دون الغلّة . وعندهم أيضا الترطيب[(٥)] : وهو الذى تخلّلت المياه باطنَ أرضه شبه النِّزّ[(٦)] ولم تَعلُها، ولا تَصلُح لغير المقاثئ؛ فاذا رُفِع الى المباشر قانونُ الرِّى أشهدَ فيه على رافعِيه[(٧)] بأن الأمر على ما تَضَمَّنه؛ ثم ينظرُ المباشرُ إلى سنة يكون نيلها نظيرَ نيل تلك السنة، ويبرز الكشوف، ويُحضِّر[(٨)] البلد على الفلّاحين القَرارِيّة نظيرَ ما حضَّروه فى السنة الموافق نِيلُها لنِيل تلك السنة الحاضرة[(٩)]، ويُشهِد على كلِّ مزارِعٍ بما يُسجِّله من

(١) الحلفاء : نبت من الأغلاث، وقلما تنبت الحلفاء إلا قريبا من ماء أو بطن واد، وهى سلبة غليظة المس، وتأكل منها الإبل والغنم أكلا قليلا، وهى أحب شجرة إلى البقر .

(٢) القطيعة : الضريبة .

(٣) فى الأصل : «الأغلال»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٤) المراد بالمقاثئ هنا : أنواع القثاء، فهو مجاز من إطلاق الموضع وارادة ما يكون فيه .

(٥) فى الأصل : «الترتيب»؛ وهو تحريف؛ يريد : الأرض ذات الترطيب .

(٦) فى الأصل : «النزز» ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة؛ وكسر النون فيه أجود من فتحها وهو فارسى معرب .

(٧) فى الأصل : «بايعيه» وهو تحريف .

(٨) فى الأصل : «ويحصر» بالصاد، وهو وان صح معناه إلا أن الذى يمنع منه قوله بعد ذلك فى ص ٢٤٩ س ١١ فاذا تكامل تحضير البلد على المزارعين القرارية؛ الخ والظاهر أن المراد بالتحضير : التسجيل، كما يدل عليه قوله بعد : «ويشهد على كل مزارع بما يسجله» وهو من المحضر بمعنى السجل، كما فى كتب اللغة .

(٩) فى الأصل : «الحاصرة» بالصاد؛ وهو تصحيف .

أراضى كلّ قَبالة[(١)] وقَطيعتها المستقرّة، ويعيّن منها ما هو بحقوق وما هو بغير حقوق، والحقوقُ: دراهمُ يَقُوم بها المزارع عن كلّ فدّان غير الغلّة، وتكون من أربعة دراهمَ إلى درهمين، والغلّةُ بحَسَب قَطيعة الأرض وعادتها، وأكثرُ ما عُرِف من الخراج عن كلّ فدّان — وهو أربعمائة قصَبة بالقصَبة الحاكميّة[(٢)]، والقصَبةُ ستة أذرعٍ وثلثا ذراع بذراع القماش — ثلاثة[(٣)] أرادبّ، وهذه الأرض جزيرةٌ بالأَقْصُر من أعمال قُوص، وأقلّ ما علمناه من القطيعة عن كل فدان سدسُ إردبّ، وهى فى الأراضى التى غَلَبت عليها الأخراسُ وقلّ الانتفاع بها، فهى تُسَجَّل بهذه القطيعة عليها، وتنصلح فى المستقبل؛ وأما الأراضى التى تُسَجَّل بالدراهم فأكثرُ ما علمناه بأراضى الجيزيّة[(٤)] قُبالةَ فُسطاط مصر عن كلّ فدّان مائتان وخمسون درهما، وهو كثير فى أراضيها وسُجِّل فى بعض السنين ثلاثةُ أفدنة بألف درهم، ولَم تستقرّ هذه القَطيعة، وهذه الأراضى تُزرَع غالبا كتّانا؛ فاذا تكامل تحضير[(٥)] البلد على المزارعين القَراريّة والطّوارئ نظم المباشرُ أوراقا بجملة ما اشتمل عليه التحضيرُ[(٥)] مفصّلةً بالأسماء والقبائل[(٦)] والجزائر

(١) انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر.

(٢) قال فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ عند الكلام على القصبة الحاكمية: كأنها حررت فى زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى فنسبت اليه، وطولها ستة أذرع بالهاشمى، وخمسة أذرع بالنجارى، وثمانية أذرع بذراع اليد.

(٣) فى الأصل: «ثلاثة عشر اردبا» ولم نجد هذا المقدار فيما راجعناه من المصادر التى بين أيدينا، كخطط المقريزى وقوانين الدواوين وصبح الأعشى وغيرها وما أثبتناه هو الموافق لما ورد فى هذه الكتب، فقد جاء فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٢ نقلا عن ابن مماتى أن قطيعة القمح كانت الى آخر سنة سبع وستين وخمسمائة عن كل فدان ثلاثة أرادب ثم إنه تقرر عند المساحة فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة عن كل فدان إردبان ونصف إردب.

(٤) فى الأصل: «الخيرية»؛ وهو تصحيف.

(٥) انظر الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٤٨ من هذا السفر.

(٦) تقدم تفسير القبائل فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر.

والجُروف ، وتَكتُب عليهـا الشهودُ الذين حُضِّر[1] البلد بحضورهم ، ثم يَصْرِف لكلِّ مزارع ما جرت العادة به من التَّقاوِى[2] بحَسَب ما يُسَجِّله ، ويكون ما يَصرِفه من التقاوى من أَطْيَب الغلال وأَفْضَلِها وأَنْصَعها ، ثم يَبسُط جريدةً على أوراق السجلّات يَشرَح فيها آسم كلّ فلّاح وما يُسَجّله من الفُدُن[3] ، ويفصِّل ذلك بقبائله وجهاتِه وقطائعه ؛ فاذا نبت الزرعُ وآستوى على سُوقه ندَب عنـد ذلك من يباشر مساحة الأراضى : من شادٍّ وعُدولٍ ذوِى خِبْرة بعلم المساحة ، وكاتبٍ عارفٍ خبيرٍ أمين ، وقصّابين : وهم الذين يقيسون الأراضىَ بالأحكام[4] الحاكيّة المحرَّرة ؛ فيمسحون الأراضىَ المزروعةَ بأسماء أربابها وقبائلِها ، ويعيِّنون أصنافَ المزروعات بها ، ويكون مباشرو المساحة قد بسطوا أيضا سِجلّات التحضير ، فإذا تكاملت المساحة نظم مباشروها أوراقا يسمّونها : المكلّفة ، يترجَم صدرُها بما مثاله مكلّفةُ تأريخِ[5] فُنْداقِ مساحةِ الأراضى بالناحية الفلانيّة لمُغَلّ سنةِ كذا وكذا الخراجيّة . والتأريخُ[5] : هو الأوراق التى يبسُطها مباشرُ المساحة بما فى السِّجلّات ويختِمها[6] بمـا انتهت اليه المساحة . والفُنْداق : هو عبارة عن التعليق ، وهو الذى تُكتَب فيه المساحاتُ حالَ قياسها . فإذا انتهت ترجمةُ صدرِ المكلّفة عَقَد

(١) انظر الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٤٨ من هذا السفر .

(٢) التقاوى : ما يعزل من الحبوب للزرع ، وهى عامية .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر .

(٤) بالأحكام : أى بحسب الأحكام ؛ ويريد : أحكام المساحة ؛ وقد تقدّم بيان القصبة الحاكية فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٤٩ من هذا السفر .

(٥) فى الأصل : « تاريخ » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى القاموس وشرحه ، فقد جاء فى مادة « أرج » ما نصه : والأوارجة من كتب أصحاب الدواوين فى الخراج ونحوه ؛ ويقال : هذا كتاب التأريج الخ .

(٦) فى الأصل : « يخدمها » بالدال ؛ وهو تحريف .

جملةَ فُدُنها[1] فى صدرها وفصّلها بأصناف المزروعات وأسماء المزارِعين، فإن طابقت المساحةُ السِّجلّات من غير زيادة ولا نقص قال: وذلك بمقتضَى السِّجلّات، وإن تميّزتْ قال: ما تضمّنته السِّجلّات كذا، زائدُ المساحة كذا، وان نقصتْ ذكرَ ماصحّ بمقتضَى مساحته، وكمّله بالقلم تمّمة[2]؛ وإن نقَص مزارعٌ عن سجلّه فى قَبالةٍ وزاد على سجلّه فى قَبالةٍ أخرى كمّل[3] عليه ما نقص بمقتضَى سجلّه، وأورد ما زاد فى القَبالة الأخرى زيادة، ولا ينقُل الزائدَ إلى الناقص، ويُلزِمه المباشرُ بالقيام بخراج مانقص من تلك القبالة ومازاد فى الأخرى؛ هذا مصطلَحُهم، وليس هو منافيا للشرع، إلا أنّى أرى فى هذا النقص تفصيلا هو طريقُ العدل والحقّ، وهو إن كان النقص مع وجود أرضٍ بائرة[4] بتلك القَبالة لَزِمه القيامُ بخراج النقص، لأنه عطّلها مع قدرته على الانتفاع بها وزراعتِها؛ ويسلّم إليه من الأراضى البائرة التى شَملها الرِّىُّ بتلك القَبالة نظيرَ ما نَقَص عنده ليتنفع بما لعلّه نبت فى تلك الأرض من الكَلإ؛ وإن كان النقص مع تغليق[5] أرضِ تلك القَبالةِ بالزراعة فلا شىء عليه لأنه لم يتسلّم ما بسِجلّه، ويعتدّ له بما لعلّه زاد على تسجيل غيره بتلك القَبالة، فإنه يعلم بالضرورة القطعيّة أن الذى زُرِع بها أكثرُ مما بسجلّه أُخِذ من جملة سجلّ غيره؛ وإن صحّت تلك القَبالةُ[6] فى جميع المزارعين بمقتضى سجلّاتهم بغير زيادة، ونَقَص عند واحد بعينه

(١) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر.

(٢) هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط.

(٣) كمل عليه: أى كتب ذلك عليه كاملا وإن لم يكن كاملا عند المساحة.

(٤) فى الأصل: «مباشرة»؛ وهو تحريف.

(٥) فى الأصل: «تعليق» بالعين المهملة ولم نجد من معانيه ما يناسب سياق الكلام؛ والمراد بالتغليق: التكميل والتتميم؛ والظاهر أن هذا الاستعمال عامى كما سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٣٠ من هذا السفر.

(٦) فى جميع: أى فى مساحات جميع.

جميعُ ما آشتملت عليــه المساحة بهــا ، فإن وافق جمــلةَ قانونها تَعيَّن أن الخلل إنمــا جاء من قِبَــل المباشر، لأنه سَجَّــل فى قَبالة أكثرَ من قانونها ، فلا يُلزَم المزارعُ بالنقص؛ هذا هو العدل والإنصاف، فمن خرج عنه فقد ظلم وحاف ؛ فاذا تَكمَّلتْ تكملة المساحة وضع المبــاشرُ زائدَ مساحةِ كلِّ آسم تحت آسمه ، وضمّه إلى سجــلّه ، ورفع[1] الجملَة بالعَين والغلّة ،وأضاف [إلى][2] كلَّ آسم مالعلّه قدتَسلَّمه من تَقاوٍ وقُروض، وما عليه من عُشْرٍ ووفرٍ ورسوم ، وما لعلّه آنساق من الباقى الى آخر السنة المــاضية إن كان؛ وهم[3] يُضيفون عُشْرَ التقاوى ،وهو حرام لا شُبْهَةَ[4] فى أخذِه، وهو الرِّبا بعينه، فإنه يُقرض الرجلَ عشرة فيأخذها أحدَ عشَر؛ ويُضيفون أيضا فى بعض البلاد عُشرَ العُشر فيَقبِضُ كلَّ مائة إردبٍّ مائةَ إدربٍّ وأحدَ عشرَ إردبّا؛ وإنمــا آشتدّت هذه المظالم وأُحدِثت من قِبَل أرباب البذول[5] الذين يَقترِفون[6] المظالم ولا يجدون من يردعهم ويُردّهم عنها فتستمرّ ، وهى من السنن السيئة التى عليهم وزْرُها ووزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة .

(٤٩)

---

(١) فى الأصل : « ربع » بالباء، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا؛ يقال : رفع الحاسب حسابه : اذا عدّده ثم أجمله ، ويقال لجملته وفذلكته : مرفوع؛ وهذا اصطلاح للحساب والكتّاب مشهور فى كتبهم ورسائلهم انظر شفاء الغليل .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ واللغة تقتضى إثباتها .

(٣) فى الأصل : « وهو » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : « مالا شبهة » وقوله «ما» زيادة من الناسخ ، فان المعنى عليها غير ظاهر، ولعل صواب العبارة ما أثبتنا اذ به يستقيم الكلام . والشبهة : الالتباس، يريد أنه لا التباس فى حرمة أخذه .

(٥) لعله : « البذور » بالراء جمع بذر، وهو ما يعزل من الحبوب للزراعة .

(٦) فى الأصل : «يقتفون» بسقوط الراء .

ثم يَعقِد المباشر على جميع ذلك جملةً ويشُطُبها[1] بما يستخرجه منه ويحصّله ، والذى تنعقد عليه الجملة هو ما تعيَّن عليه للديوان أنجب زرعُه أو لم يُنجِب ؛ ومهما آستخرجه منه وحصّله وأحال به كَتَب به وُصولا ؛ فإذا غلَّق[2] كلَّ آسمٍ ما عليه أجاز عليه إشارةَ التغليق، وإن بقِىَ عليه شىء ممّا تعيَّن عليه طَرَده للباقى ؛ هذا حكم الأرض التى تُسجَّل بالغلّة ؛

وأما ما يُسجَّل بالنقد فإنه تتساوَى عليه ثلاثةُ أقساط أو قسطان : قسطٌ من ثمن البِرسيم الأخضر عند إدراكه وبيعه لربيع الخيل، وقسطٌ من الكتّان عند قلعه إن كان، وقسطٌ عند إدراك المُغَلّ والمَقاثئ، ومنهم من يسجِّل بالنقد الحاضر جملةً واحدةً فى وقت السجلّ؛ هذا حكم خراج الزراعة .

وأما الخراج الراتب ، فهو لا يكون إلا بالنقد عَينا[3] أو فضّة ؛ وهو خراج السواقى والبساتين والنَّخيل ؛ وذلك أن أربابه يقاطعون[4] الديوانَ على فُدُن[5] معيَّنةٍ بمبلغ معيَّنٍ عن كلّ فدان فى كلّ سنة يقومون به فى أوقات معلومة ، رَوِيَت الأرضُ أو شَرَّقت[6]؛ وهم يَحفِرون فى تلك الأراضى آبارا بقدر ما يعلمون أن المياه التى تطلع منها تُروِى تلك الأراضىَ، ويركِّبون على أفواه الآبار السواقِىَ

(١) فى الأصل : «ويبسطها» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام .

(٢) فى الأصل : «علق» بالعين المهملة ؛ وهو تصحيف لم نجد له معنى يناسب السياق ؛ وغلق بالغين المعجمة من التغليق ، وهو التتميم والتكميل والظاهر أنه عامىّ — كما سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٣٠ من هذا السفر — فكأن المزارع اذا دفع كل ما عليه فقد أغلق باب المطالبة .

(٣) العين : ما ضرب من الدنانير .

(٤) يقاطعون، من القطيعة : وهى الضريبة .

(٥) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر .

(٦) ذكر فى مستدرك التاج أن مصدره التشريق، ولذلك ضبطناه بتشديد الراء .

المتّخذة من أخشاب السنط وما ناسبه، المشهورةَ بالخرير[1] التى تُعين على رفع المـاء ويسمّونها بديار مصر: المَحال[2]، وبحماةَ: النواعير، إلا أن النواعير تَدُور بالمـاء، وهذه تدور بالأبقار، ويزرعون عليها بتلك الأراضى ما أحبّوه واختاروه من أصناف المزروعات والغُروس لا يطالَبون عليهـا بغير الخراج المقرَّر، إلا أن يَنْصِبوا[3] القصبَ فلا يُقتصَر منهم عند ذلك على الخراج، بل للديوان على الأقصاب مقرَّرٌ يستأديه عن كلّ فدّان؛ ويُستأدَى خراجُ الراتب على أقساط فى زمن الثمار والأعناب والفواكه وعند ضَرْبِ الوَسْمة[4] — وهى النِّيل الذى يُصبَغ به اللونُ الأزرق — وخراج الراتب يستأدَى ممن هو عليه، زَرَع أرضَه أو عَطّلها، وهو لا يبطل بوفاة المُقاطَع[5] على الأرض، بل ينتقل على ورثته، ويطالَبون به أبدا ما تعاقبوا وتناسلوا، ولا يوضع عنهم إلا إن ابتلع البحرُ الأرضَ المُقاطَع عليهـا بعد أن يعملوا بذلك مشاريع[6] تُثبِت عند حاكم البـلد أن البحر ابتَلع[7] تلك الأراضىَ بكمالها أو بعضها، ولا ينهض مباشرُ الناحية أو ناظرُ العمل

(١) الخرير: صوت المـاء.

(٢) فى كتب اللغة أن المحال والمحالة: البكرة العظيمة التى يستقى عليها، سميت بذلك لأنها تدور فتنتقل من حالة إلى حالة.

(٣) نصب القصب: هو أنهم اذا هيأوا الأرض لزرعه يلقونه فيها قطعتين، قطعة مثناة وقطعة مفردة بعد أن تجعل الأرض أحواضا وتفرز لها جداول يصل المـاء منها الى الأحواض، ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاث أنابيب كوامل وبعض أنبوبة من أعلى القطعة وبعض أخرى من أسفلها خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٢ طبع بولاق وسيأتى ذلك أيضا عند الكلام على زراعة القصب.

(٤) ضرب الوسمة: هو أن يضربوا شجرها بعد جفافه لينحت الورق عنه ويسقط.

(٥) المقاطع: هو الذى جعلت عليه قطيعة أي ضريبة يؤديها إلى الديوان.

(٦) فى الأصل: «مشارعا»، وهو تحريف؛ ويرشد الى ما أثبتنا ورود هذه الكلمة فى ص ٢٤٣ س ٣، ٤ من هذا السفر.

(٧) فى الأصل: «اقتلع» بالقاف؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه ما سبق.

بوضعه مع وجود المَحضَر[١] الثابت[٢]، بل يحضر المقاطع على الأرض أو من انتقلت اليه بالإرث أو الابتياع الى باب السلطان، ويرفع قصّةً الى الوزير بصورة الحال، ويوقّع عليها بقلمه أن يُوضَع[٣] عنه من خراج الراتِب بقدر ما ابتاعه البحرُ بمقتضى المَحضَر، ويستمرّ حكمُ ما بقِيَ، ويكتب على ظهر قصّته: توقيعٌ شريفٌ سلطانيّ؛ ويُثبَت بدواوين الباب السلطانيّ، ثم يُثبَت بديوان العمل الجامع، ثم ينزل فى ديوان البلد التى بها تلك الأرض، ويُوضَع عند ذلك من الضريبة الديوانية؛ هذا حُكمُ الخراج بالديار المصريّة وقاعدتُه والعادة فيه.

وأما جهات الخراجيّ بالشام وكيفيّتها وما يعتمد عليه مباشروها — فإن قانون البلاد الشاميّة مبنيٌّ على نزول الغيث، ووقوع الأمطار فى إبّانها وأوقات[٤] الاحتياج اليها، فمن ذلك المطرُ المسمّى: الوَسمِيّ، وهو الذى يقع فى فصل الخريف، وعند وقوع هذا المطر يُخَدُّ[٥] شَقُّ الأراضى المكروبة[٦] بالسِّكك[٧]، ثم يُبذَر الحبُّ فيها، ويعاد شقُّ الأرض عليه ليَخفَى عن الطير[٨] خشيةَ التقاطه، فإذا نزل عليه المطر الثانى

(١) المحضر: خط يكتب فى واقعة خطوط الشهود فى آخره بصحة ما تضمنه صدره؛ وهو اصطلاح حادث ليس من اللغة، كما فى القاموس وشرحه.

(٢) فى الأصل: «النايب» بالنون والياء؛ وهو تصحيف.

(٣) فى الأصل: «أو»؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٤) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها، ولم يتضح لنا منها غير الواو الأولى والألف التى بعدها؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٥) فى الأصل: «يحدّ» بالحاء المهملة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا؛ يقال: خدّ الأرض خدّا: إذا شقها.

(٦) المكروبة: المحروثة، يقال: كربت الأرض كربا وكرابا بكسر الكاف: إذا قلبتها وأثرتها للزرع.

(٧) السكك: جمع سكة بكسر السين، وهى حديدة المحراث التى يحرث بها.

(٨) فى الأصل: «الطين»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يدل عليه التعليل.

بعد ذلك نَبَت و برَزَ إلى وجه الأرض، وهو عند ذلك يسمَّى : الأَحْوَى[1]، ثم لاتزال الأمطار تسقيه والأنواءُ تغذيه حتى يصير غُثاء، ثم يقع عليه بعد ذلك المطر المُسمَّى بالمطر الفاطم، وهو غالبا يكون فى شهر نَيسانَ، ثم يعقد فيه الحبُّ بعد ذلك، و ينتهى على عادة الزرع؛ هذا حكمُ ما يُزرع على الوَسمىّ .

ومن أراضى الشأم [نواحٍ][2] يُغِبّهـا[3] الوَسمىُّ فيزرَع سُكّانُها[4] الحبَّ عَفِـيرا، ومعنى ذلك أنهم يزرعون فى الأرض الحبَّ قَبـل إبّان الزرع و يَنتظِرون وقوعَ الأمطار عليـه ؛ ومن غريب ما آتّفق فى بعض السنين أنهم أُودَعوا الحبَّ الأرضَ على عادتهم فلم تَسقط عليـه الأمطارُ فى تلك السـنة، فاستمرّ فى الأرض إلى العـام القابل، وأيس أهلُ البلاد منه، وزرعوا فى السنة الثانية شطرَ الأراضى التى كانت كِرابا غيرَ مزروعة — فإن عادتهم بسائر بلاد الشأم أن كلَّ فلّاحٍ يَقسِم الأراضىَ التى بيدِه شطرين، فيزرع شطرا، و يُرِيح شطرا، و يتعاهده بالحرث لتَقْرَع الشمسُ باطنَ الأرض، ثم يزرعه فى القابل و يُرِيح الشطرَ الذى كان به الزرع؛ هذا دأبهم، خلافا لأراضى الديار المصريّة، فإنها تُزرَع فى كلّ سـنة — فلمـا وقعت الأمطار نَبَت الشطران معا، وأَقبَلت الزراعاتُ فى تلك السـنة، فتَضاعَف المُغَلّ، وهـذا غريبٌ نادر الوقوع .

(١) الأحوى من النبات : ما يضرب إلى السواد من شدّة خضرته، وهو أنعم ما يكون منه .

(٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل؛ واستقامة العبارة تقتضى إثباتها .

(٣) يغبها : أى يتأخر عنها؛ والذى فى الأصل : «يقع بها»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق، فإن ما قبله من الكلام فيما إذا نزل المطر قبل الزرع، فيقتضى أن يكون مقابله فيما إذا تأخر نزول المطر عن الزرع .

(٤) فى الأصل : «مكانها»؛ وهو تحريف .

ومن أراضى الشأم ما يسقَى بالمياه السارحة من الأنهار والعيون، وتكون مقاسمةُ أرضه أوفرَ من مقاسمة ما يسقَى بالأمطار، وقيمةُ الأملاك بها أرفع وأغلَى[1] من تلك، ويكون غالبا فى الأراضى المستَفِلة[2]؛ والله تعالى أعلم .

والذى يعتمده مباشر الخراج ببلاد الشأم أنه يبدأ بإلزام رؤساء البلاد بتغليق[3] أراضيها بالزراعة والكِراب[4]؛ ومصطلَحُهم فى ذلك أن يقولوا : أحمرَ وأخضرَ، يَعنُون بالأحمر : الكِراب، وبالأخضر : الزرع شَتويًا[5] أو صيفيًا، ويَعنُون بالشَّتوىّ : القمحَ والشعيرَ والشُّوفانَ[6] والفولَ والحِمَّصَ والعدسَ والكِرسِنّة[7] والجُلبّان[8] والبسْتِيلية

(١) لم يتضح لنا فى الأصل من هاتين الكلمتين غير بعض حروفهما وسائرها مطموس تتعذر قراءته ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا . (٢) فى الأصل : « المستقلة » ؛ وهو تصحيف . ويريد بالمستفلة : ما اطمأن من السهل وسفل .

(٣) فى الأصل : « تعليق » ؛ وهو تصحيف اذ لم نجد له معنى يناسب السياق ؛ ويريد بالتغليق التكبيل والتنميم ؛ والظاهر أن استعماله فى هذا المعنى استعمال عامىّ ، كأن الشىء اذا كمل فقد أغلق باب الزيادة فيه ؛ وقد سبق ذلك أيضا فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٣٠ والحاشية رقم ٥ من صفحة ٢٥١ من هذا السفر .

(٤) الكراب : الحرث . (٥) فى الأصل : «صيفيا أو شتويا» والأولى تقديم الشتوىّ كما أثبتنا إذ هو مقتضى صنيعه بعد فى ذكر النباتات الشتوية قبل الصيفية .

(٦) الشوفان ، ذكر فى بعض الكتب باسم السلت ، والسلت : ضرب من الشعير يتجرد من قشره ، ولعل المراد من ذلك نوع من الشوفان يسمى بالمقشر ، أى الذى يخرج عاريا من قشره ؛ والشوفان نبات من الفصيلة النجيلية ، وسيقانه تعلو من قدمين الى ثلاثة ؛ وهو أنواع كثيرة ، أشهرها الشوفان المستنبت ، وهو أهم علف للخيل ، وتعلفه أيضا الماشية والطيور ، فهو يسمن الغنم ، ويزيد فى اللبن ، ويكثر بيض الطيور ، ويصنع الفقراء فى بعض الأماكن خبزا من دقيقه لكنه ردىء ، ويتخذ من الشوفان نشاء وبرغل اه ملخصا من دائرة المعارف للبستانى .

(٧) الكرسنة : شجرة صغيرة لها ثمر فى غلف تعلفه الدوابّ ، وهى الكشنى .

(٨) الجلبان : هو من القطانى بتشديد الياء ، أى الحبوب التى تطبخ ، وقال ابن البيطار فى مفرداته ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ طبع المطبعة الأميرية : الجلبان هو من القطانى المأكولة ، وله قضبان مربعة سباطية تنبسط على الأرض ، وله ورق حوالى القضبان الى الطول وله نوار الى الحمرة تخلفه مزاود فيها حب مدور الى البياض حلو ، ويؤكل نيّا فى الربيع ، ثم يجف ويطبخ .

وهى التى تسمَّى بمصر: البِسِلَّى[(١)]، وبالساحل الطرابُلُسىّ: الحالبة؛ ويعنون بالصيفىّ: الذُّرَةَ والدُّخْنَ والسِّمسِمَ والأُرُزَّ والحبّةَ السوداءَ والكُسْبَرَةَ والمَقَّاثىَّ[(٢)] والوَسْمَة[(٣)] والقِرْطِمَ[(٤)] والقطنَ والقُنَّب[(٥)]؛ ويَكتُب عليهم بذلك مشاريح أنهم لايبوِّرون شيئا من الأراضى ومن بوَّر شيئا منها كان عليه القيامُ بريْع[(٦)] الغامر من نسبة[(٧)] العامر؛ فإذا زُرعت الأراضى وبدا صلاحُ الزرع، وأخذ الفول فى العقد خرج الوكلاء على الزراعة إلى النواحى يحفظون الزراعة من التَّطرُّق إلى شىء منها، ويلازمونها إلى أن تُحصَد وتُنقَل إلى البيادر[(٨)]؛ فعند ذلك يخرج الأمر بحفظ ما يصل إلى البيادر[(٨)]، ويأخذون فى الدِّراس؛ فإذا تكامَل وطابت البيادر ولم يَبقَ إلا التَّذرِيَةُ أُخرِج مذرّيا — ووظيفة المذرِّى أنه يلزمهم بتخليص الغلال من الأقصال وتنظيفها؛ فإذا فعلوا ذلك وخَلَصت الغلال من الأتبان والأقصال وصارت بيادرَ صافيةً خرج والى العمل ومباشروه إلى تلك الجهة، وتقدّموا[(٩)] بتوزيع بيادرها على ضريبةِ الناحية وعادتِها فى المقاسَمة، مناصَفةً — وذلك فى أراضى السَّقْى —، ومثالَثةً ومرابَعةً — وهو فى غالب

(١) كذا ضبط هذا اللفظ بالعبارة فى مستدرك التاج.

(٢) المراد بالمقاثىّ هنا نفس القثاء، وهو مجاز من اطلاق اسم الموضع وارادة ما يكون فيه.

(٣) الوسمة: ورق النيل الذى يصبغ به كما سبق فى صفحة ٢٥٤ س ٧ من هذا السفر.

(٤) القرطم: حب العصفر.

(٥) القنب: ضرب من الكتّان، وهو الغليظ الذى تتخذ منه الحبال وما أشبهها.

(٦) فى الأصل: «بريع العامر»؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين؛ والمراد بالغامر الذى لا نبات فيه.

(٧) لعل صوابه «بنسبة» بالباء مكان «من» كما يدل عليه ما ورد فى قوانين الدواوين صفحة ٣٧ طبع مطبعة الوطن؛ وعبارته: «اذا استجعل المزارع أرضا على أن يزرعها مشاطرة بعد أن شملها الرىّ ثم بوّر شيئا منها وجب عليه القيام بخراجه بالنسبة لمتحصل المشاطرة» الخ.

(٨) البيادر: المواضع التى يداس فيها الفول والحنطة ونحوهما؛ واحده بيدر بفتح الباء.

(٩) يقال: «تقدّم إليه بالشىء» أى أمره به.

البلاد — ، ومخامَسةً ومسادَسةً — وذلك فى المزارع والنواحى الخالية من السكّان التى يزرعها المُسْتَكْرُون[1] — ، ومسابَعةً ومثامَنةً — وذلك فى النواحى المجاورةِ لسواحل البحر والمتاخِمةِ لأطراف بلاد العدوّ ؛ فإذا فرغ توزيعها أخذ المباشرون ما يخصّ الديوانَ من التوازيع ، ثم يُحزر[2] ما لعلّه تأخّر من الغلال فى عَرَصات البيادر والأقصالِ وأعقابِ التبّانات والعفائر، ويؤخَذ منه ما يخصّ الديوانَ من نسبة[3] المقاسَمة ، ويكمّل على الفلّاح على حُكم ضريبة[4] ذلك العمل ؛ وفى بعض النواحى يكون من المواسطة ، فتُفرَد لها توزيعةٌ بمفردها ، ثم يؤخَذ من حاصل الفلّاح بعد الرسوم عشرُ ما بقى له ؛ وهذا غيرُ مطّرِد فى جميع البلاد ، فإنّ فى جهات الأوقاف والبِرّ وما يناسبها لا يؤخَذ العشرُ إلا من النصاب الشرعىّ ؛ وفى نواحى الخواصّ والإقطاعات يؤخَذ ممّا بقى للفلّاح من كلّ عشرة أجزاءٍ جزءا ممّا قلّ أو كثُر بحسابه ؛ وفى بعض الأقاليم لا يُؤخَذ العشر من المزارعين الذِّمّيّة ؛ وأما النواحى الإقطاعيّةُ والأملاكُ التى أعشارُها ديوانيّةٌ فمنها ما عليه ضريبةٌ مقرَّرةٌ تؤخذ فى كلّ سنةٍ زاد المُغَلّ أو نَقَص ، ومنها ما يُندَب له من يقف على النواحى ويحزُرُ[5] ما بها من الغلال ويقدِّر العشرَ عنها ، ويكون هذا الحَزْرُ والزرعُ قائمٌ أو حصيدٌ قبل دِراسه ، ثم يستعاد بعد ذلك من الفلّاحين ما لعلّه

(٥١)

(١) فى الأصل : « المشكرون » بالشين ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

(٢) يحزر : أى يقدر بالظن والحدس ؛ والذى فى الأصل : « يحرّر » ؛ وهو تصحيف ، إذ لا يتأتى التحرير — وهو الضبط بدقة — فى هذه الحالة .

(٣) لعله « بنسبة » كما يدل عليه ما نقلناه عن قوانين الدواوين فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٢٥٨ ، فانظره .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل ؛ ولم يتضح لنا المراد به فى هذا الموضع .

(٥) فى الأصل : « ويحرر » ، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ؛ وقد سبق تفسير الحزر فى الحاشية رقم ٢ من هذه الصفحة .

عليهـم من التقاوِى[1] والقُروض، وتكون بمفردها مرصَـدةً لتَقاوِى[1] السنة الآتيـة؛ ثم يُعتبَر ما يَتحصّل من الغـلال على آختلاف أصنافها بالكيل المتعـامَل به فى ذلك الإقليم، وتُعمَل بذلك مخازيمُ[2] على العادة مفصّلة بالأسمـاء وأصلِ المقاسَمة والرسومِ والعشرِ وما لعلّه آستعيد من التقاوِى والقُروض؛ وعند تكامُل قَسْمِ نواحى كلِّ عملٍ يُنْظَم على المخازيم[2] عمـلٌ[3] بالمتحصِّل على ما نشرحه إن شاء الله تعـالى فى الأوضـاع الحسابيّة؛ هذا ما يعتمده فى الغلال.

وأما الخروبُ والزيتونُ والقطنُ والسُّمّاقُ[4] والفسـتقُ والجوز واللّوز والأُرُزّ فإنّ الوكلاء تستمرّ على حفظ ذلك إلى أن يصـير فى بيادره، ويُقسَم على حُكم الضريبة ويحصَّل ويُورَد على المتحصّل؛

وفى بعض الأعمال الشاميّة نواحٍ مفصولةٌ[5] ومضمّنةٌ[6] على أربابهـا بشىء معلوم يؤخَذ منهم عنـد إدراك المُغَـلّ من غير توكيل ولا مقاسمة، وهى نظيرُ المتأجَرات[7]

(١) تقدّم تفسير التقاوى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٢١ من هذا السفر، فانظره.

(٢) فى الأصـل: «مخاريم» بالراء؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، فقد ذكر فى شفاء الغليل أن المخزومة: نوع من الدفاتر يخرق، مولّدة؛ وقد وردت هذه الكلمة فى شعر ابن نباتة يذم كاتبا، قال:

لم يدر ما مخزومة وجريدة * سبحان رازقه بغير حساب

وستأتى كيفية عمل المخزومة فى صفحة ٢٧٤ من هذا السفر، فانظره.

(٣) المراد بالعمل نوع من القوائم يعمله كتّاب الدواوين بالكيفية التى سيأتى بيانها فى هـذا السفر عند الكلام على الأعمال وأنواعها.

(٤) السماق بالتشـديد: من شجر القفاف والجبال، وله ثمر حامض عناقيد فيهـا حب صغار يطبخ؛ قال أبو حنيفة: ولا أعلمه ينبت بشىء من أرض العرب إلا ما كان بالشأم؛ وهو شديد الحمرة.

(٥) انظر تفسير هذه الكلمة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٦١ عند شرحنا للفظ الفصل.

(٦) فى الأصل: «مذيمنة»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٧) فى الأصل: «المتأخرات»؛ وهو تصحيف.

بالديار المصريّة؛ ولفظُ الفصل[1] بالشأم كلّه كلمة فَرَنجيّة ، وٱستمرّ ٱستعمالها فى البلاد الساحليّة التى ٱرتجعت من أيدى الفَرَنْج جريا على عادتهم .

وأما خراج العين فهو مقرّر على البساتين والشجريّات والكروم والمقاثئ ويُستخرَج على حكم الضريبة عند إدراك كلّ صنف .

ومن أبواب[2] الخراجىّ الخِدَمُ التى تقدّم[3] ذكرُها ، ومقرّرُ القصب والبريد[4] والبُسط ، وعُشْرُ العَرَق[5] ، وغيرُ ذلك مما يطول شرحه ، الّا أن جميعَ ما يُستخرَج من الأراضى منسوبٌ الى الخراج .

ومن أبواب الخراجىّ الأحكارُ على ما فيها من ٱلٱختلاف ؛ ومهما ٱستخرجه المباشر وحصّله من ذلك يَعتمِد فى إيراده نحوَ ما شرحناه فى الهلالىّ : من إيراده فى تعليق المياوَمة ، وشَطْبِه على الجريدة المبسوطة على أبوابه ؛ هذا حكم الهلالىّ والجوالى والخراجىّ ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) لعل أصل هذه الكلمة فى اللغة الفرنسية (Vassal) فسال ومعناه التابع الذى أعطاه متبوعه إقطاعا نظير واجبات يؤدّيها ، كما فى معجمات هذه اللغة ، فكأن أهل الشأم اشتقوا منه لفظ (الفسل) وأرادوا به المعنى المصدرىّ ، أى التبعية ، ثم حرّفته ألسنتهم الى (الفصل) كما هنا حسب نطقهم العربى واشتقوا منه لفظ (مفصولة) السابق فى صفحة ٢٦٠ س ١٠ .

(٢) فى الأصل : «إدراك» ، وهو تبديل وقع من الناسخ لا يستقيم به معنى الكلام ؛ ويرشد إلى ما أثبتنا ما يأتى بعد فى السطر الثامن من هذه الصفحة .

(٣) فى الأصل : «تقرر» ، وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا ، فقد تقدم ذكر هذه الخدم فى قوله فى ص ٢٤٥ من هذا السفر : «وما يستأدى من خدم الفلاحين» الخ .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل وخطط المقريزى ج ٢ ص ٩٤ طبع المعهد العلمى الفرنسى ، ولعله « البرود » بدليل عطف البسط عليه ، والبرود : الثياب ، وكان ما يؤخذ على الثياب معروفا فى مصر الى زمن قريب .

(٥) العرق : دبس التمر ، أى عسله .

وأما ما يشترك فيه الهلالىُّ والخراجىُّ ويختلف باختلاف أحواله فجهاتٌ، وهى المراعى والمصايدُ والأحكار ؛

أما المراعى[1] — فالذى يَرِد منها فى أبواب الهلالىّ ما آستقرّ حُكمه بجهة، وتَقرَّر فى كل سنة، وصار ضريبةً مقرَّرة؛ فمن المباشرين من يَقبضه على شهور السنة، ويستخرجه أقساطا، ويورده فى جملة أبواب الهلالىّ ؛ والذى يَرِد منه فى أبواب الخراجىّ هو ما يُستخرَج من أرباب المواشى فى كلّ سنة عند هبوط نيل مصر ونباتِ الكلإ، فى مقابلة ما رعته مواشيهم من نبات الأرض ، وهو يزيد وينقُص بحسب كثرة المواشى وقلّتها ؛ وعادتُهم فيه أن يُندَب لمباشَرة ذلك مشدٌّ[2] وشهود وكاتب، ويعدّوا الأغنام وغيرَها، ويَستخرِجوا من أربابها عن كلّ رأسٍ شيئا معلوما بحسب ضريبة تلك آلجهة وعادتها؛ وهو على هذا الوجه لا ينبغى إيراده إلا فى أبواب الخراجىّ؛ ومن الكتّاب من[3] يُورِده فى أبواب الهلالىّ، وهو غلط .

وأما المصايد[4] — فمنها أيضا ما يورَد فى أبواب الهلالىّ كالنواحى التى تصاد

(١) فى خطط المقريزى ج ٢ ص ٨١، ٩٥ طبع المعهد العلمى الفرنسى أن أوّل من قرر فى مصر مالا على المراعى وأدخلها الديوان أحمد بن محمد بن مدبر لما ولى خراجها، وذلك بعد سنة خمسين ومائتين .

(٢) لم نقف على ضبط هـذا اللفظ فيما راجعناه من الكتب التى ورد فيها، كما أنه لم يرد فيما بين أيدينا من كتب اللغة ، وكأنه عامى ، وبعض العامة فى مصر ينطقون به بكسر أوّله وفتح ثانيه؛ وسيأتى فى هذا السفر شرح ما يلزم المشدمن الأعمال عند ذكر أرباب الوظائف .

(٣) فى الأصل : « ما » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى خطط المقريزى ج ٢ ص ٨١، ٩٥ طبع المعهد العلمى الفرنسى ان أول من قرر مالا فى مصر على المصايد أحمد بن محمد بن مدبر لما ولى خراجها وأنه احتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب فى الديوان : خراج مضارب الأوتاد ومغارس الشباك .

بها الأسماك على الدوام ، مِثل ثغر دمْياطَ والبُرُلُّس[1] وجنادل[2] ثغر أُسوانَ وأشباهِ ذلك بالديار المصريّة ، و بالشأم مِثل نهر العاصى[3] وبُحَيرةِ طَبَرِيَّة ، وغيرِهما من الأنهار والبِرَك ؛ ومنها ما يَرِد فى أبواب الخراجىّ ، وهو ما يصاد من الأسماك عند هبوطِ نيلِ مصر ورجوعِ المـاء من المزارع الى بحر النيل ؛ والعادة فى ذلك اذا انتهت زيادة النيل وشرع المـاء فى مبادئ النقص سكّروا[4] أفواهَ التُّرَع ، وسَدّوا أبوابَ القناطر التى عليها حتى يرجع المـاء (ويتكاثف[5] مما يلى المزارع) ثم ينصبون الشِّباكَ ، ويصرفون المياه ، فيأتِى السمكُ وقد اندفع مع المـاء الجارى ، فيجِد الشباك تَحُول بينه وبين الانحدار مع المـاء ، فيجتمع فيها ، ثم يُخْرَج منهـا الى البَرّ ، فيوضع على نخاخ[6] ويملّح ويودَع فى الأمطار ، وأكثرُ ما يكون ذلك فى طول الإصبَع[7] ونحوه ؛ وله أسماء : منها البُلْطى[8]

(١) كذا ضبط هذا اللفظ بالعبارة فى القاموس ؛ وضبطه ياقوت بفتحتين ؛ وهى بلدة بسواحل مصر من جهة الاسكندرية (شرح القاموس) .

(٢) الجنادل : موضع فوق أسوان بثلاثة أميال فى أقصى صعيد مصر قرب بلاد النوبة ، وهى حجارة ناتئة فى وسط النيـل (ياقوت) . وقال فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩١ إنها هى الجبل الذى ينحدر عليه النيل بين منتهى مراكب النوبة فى انحدارها ومراكب مصر فى صعودها .

(٣) نهر العاصى : هو اسم لنهر حماة وحمص ، و يعرف بالمياس ، مخرجه من بحيرة قدس ، ومصبه فى البحر قرب انطاكية ؛ واسمه قرب انطاكية : الارند (ياقوت) وذكر فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٨٠ فى سبب تسميته بهذا الاسم أن غالب الأنهار تسق الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب البلاد بأنفسها ، وهذا النهر لا يسق إلا بنواعير تنزع المـاء منه .

(٤) سكروا ، أى سدوا .

(٥) هـذه العبارة فى الأصل مطموسة الحروف تتعـذر قراءتها ، وقد أثبتناها عن خطط المقريزى ج ٢ ص ٩٦ طبع المعهد العلمى الفرنسى .

(٦) النخاخ : جمع نخ بتشديد الخاء ، وهو بساط طو يل ، طوله أكثر من عرضه ؛ وقد شاع فى مصر إطلاقه على الحصير الذى يتخذ من البردىّ ونحوه ، وهو المراد هنا .

(٧) فى خطط المقريزى ج ٢ ص ٩٦ طبع المعهد العلمى الفرنسى : «فما دونه» .

(٨) كذا ضبط هذا اللفظ بالعبارة فى مستدرك التاج ؛ وقال عنه : إنه أطيب الأسماك ، ويشبهون به المترعرع فى الشباب والنعمة .

والرَّاى[1] والبُنِّىّ[2] وغيرُ ذلك، وما يؤكَل منه طريًّا بعد قَلْيه يسمّونه الإبسارية[3]؛ ومنهـا ما يكون بقدر الفِتْر، ويسمّى الشال[4]، وهو يُملَّح أيضا[5]؛ فهـذا الذى يتعيّن إيرادُه فى أقلام الخراجىّ، ومنهم من يورده فى الهلالىّ، ومن الكُتّاب من يورد المصايدَ والمراعىَ قلما مستقلاً بعد الجوالى وقبل الخراجىّ.

وأما الأحكار — فقد تقدّم الكلامُ عليهـا عند ذكرنا للهلالىّ. ٥

وهـذه الاختلافات بين الكُتّاب هى بحسب آرائهـم وعاداتِ النـواحى وما استقرّت عليه قواعدها؛ وإنما أوردنا ذلك على سبيل التنبيه عليه، وذكرِ مصطلَح الكُتّاب فيه.

وأما أقصاب السـكّر ومعاصرها — فهى[6] تختلف بحسب الأماكنِ والبقاعِ والنواحى والديارِ المصريّة والشأم، وتختلف أيضا فى الديار المصريّة بحسب ١٠ الأعمال والنواحى والأراضى؛ وقاعدتُها الكليّةُ التى لا تكاد تختلف فى الديار المصريّة أن تُختارَ لها الأراضى الجيّدةُ الدِّمثةُ[7] التى شِملها الرِّىُّ وعلاها النيل، ويُقلَع ما بها من الحَلْفاء وتُنظَّف؛ ثم تُبرَش بالمقلقلات — وهى محاريثُ كبار — ستةَ وجوه، وتجرَّف

(١) فى الأصل: «الزاى»؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما هو الشائع فى مصر؛ ولم نجد الزاى بالمعجمة فيما لدينا من المظان. (٢) كذا ضبط هذا اللفظ فى القاموس. ١٥

(٣) كذا ورد هـذا اللفظ فى الأصل وخطط المقريزى ج ٢ ص ٩٦ طبع المعهد العلمى الفرنسى؛ وعامة مصر يقولون: «بسارية» بحذف الألف الأولى وكسر الباء؛ والظاهر أنه ليس بعربىّ، إذ لم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة.

(٤) كذا فى مستدرك التاج؛ والذى فى الأصل: «الرشال» والراء زيادة من الناسخ.

(٥) فى الأصل: «نقضا»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق. ٢٠

(٦) فى الأصل: «وهى»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام؛ ويرشد اليه ما يأتى فى أقصاب الشأم صفحة ٢٧١ سطر ١٤. (٧) الدمثة: السهلة اللينة.

حتى تُمَهَّدَ، ثم تُبْرَش ستةَ وجوهٍ أخرى وتجرَّف — ومعنى البَرْش الحرث[(١)] — ؛ فإذا صَلَحتْ وطابتْ ونَعُمتْ وصارت ترابا ناعمـا وتساوت بالتجريف تُشَقّ عند ذلك بالمقلقلات، ويُرمَى القصبُ فيها قطعتين : [قطعةً][(٢)] مثناةً[(٣)]، وقطعةً مفردة؛ وذلك بعد أن تُجعلَ أحواضا وتُفرَزَ لها جداولُ يصل المـاء منها الى تلك الأحواض، ويكون طول كلٍّ [illegible] منها ثلاثةَ أنابيبَ كواملَ وبعضَ أُنبوبةٍ من أعلى القطعة وبعضَ أخرى من أسفلها؛ و[illegible] النَّصْب من الأقصاب ما قصرتْ أنابيبُها، وكثُرت عيونُها؛ فإذا تكامل النَّصْبُ أعيد التراب عليه؛ وصورة النصب أن تكون القطعة ملقاةً لا قائمة؛ ثم يُسقَى من حال نصبه فى أوّل فصل الربيع فى كلّ أسبوع مرّة؛ فإذا نبت القصب وصار أوراقًا ظاهرةً على وجه الأرض نبتتْ معه الحَلْفاءُ والبقلةُ[(٤)] الحَمْقاء، فعند ذلك تُعْزَق أرضُه — ومعنى العَزْق أن تُنْكَش الأرضُ وينظَّف ما نبت مع القصب — ويُتعاهد[(٥)] بذلك[(٦)] مرّةً بعد أخرى إلى أن يَغْزُر القصب ويقوَى ويتكاثف، فلا يتمكّن العُزّاقُ من الأرض، فيقال فيه عند ذلك : طَرَدَ القصبُ عُزّاقَه، وذلك عند بروز الأُنْبوب منه؛ ومجموعُ ما يُسقَى بالقادوس ثمانيةٌ وعشرون ماءً .

(١) لم نجد البرش بمعنى الحرث فيما راجعناه من كتب اللغة التى بين أيدينا؛ وكأن هذا الاستعمال عامىّ .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٢ طبع بولاق .

(٣) كذا فى خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٢ طبع بولاق؛ والذى فى الأصل : « جفناد » وهو تحريف لا يظهر له معنى .

(٤) البقلة الحمقاء : هى المعروفة فى مصر بالرجلة؛ وإنما سميت بذلك لأنها تنبت على مجارى المياه [illegible] الماء فيقتلعها، ثم تعود فتنبت هناك أيضا .

(٥) فى كتب اللغة أن يتعهد أفصح من يتعاهد، لأن التعاهد إنما يكون بين اثنين؛ وأجازهما الفـــراء .

(٦) هذه الباء ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها، فإن المعنى أن القصب يتعاهد بذلك العمل؛ وستأتى هذه العبارة أيضا فى صفحة ٢٦٦ سطر ٩

والعادةُ أن الذى يُنصَب من الأقصاب على كلّ محالٍ[1] بحْرانىّ[2] — أى[3] مجاور للبحر — إذا كان مُزاحَ[4] العِلّة[5] بالأبقار[6] الجياد مع قُرْبِ أرْشِيَة الآبار ثمانيةُ أفدنة، ويحتاج إلى ثمانية أرؤسٍ بقرا، فإذا كانت الآبارُ بعيدةً عن مَجرَى النيل[7] لا يَقُوم المَحال[1] بأكثرَ من ستة أفدنة الى أربعة أفدنة، فإذا طلع النيلُ وارتفع سُقِىَ القصب عند ذلك ماءَ الراحة، وصفةُ ذلك أنه يُقْطَع عليه من جانب جسرٍ يكون قد أدير عليه ليقيَه من الغرق عند ارتفاع الماء بالزيادة، فيَدخُل الماء من تلك الثُّلْمة التى فُرِضتْ من الجسر، ويعلو على وجه أرضه نحوا من شبر، فتُسَدّ[8] عند ذلك، ويُمنَع الماء من الوصول اليه، ويُترَك ذلك الماءُ عليه مقدارَ ساعتين أو ثلاثٍ الى أن يَسخُن، ثم يُصرَف عنه من جانبٍ آخرَ إلى أن يَنضُب، ثم يجدَّد عليه الماءُ مرّةً أخرى، يُتعاهد بذلك مرارا فى أيّام متفرّقة بقدر معلوم، ثم يفطَم بعد ذلك، هذا هو القصب الذى يوفَّى حقّه فى حرثِه ونَضْبِه[9] وسَقْيِه وعَزْقِه وغيرِ ذلك، فما نَقَص من ذلك كان المباشرُ قد أخَلّ به إلا النصبَ على الرِّىّ وسقىَ ماءِ الراحة فإنه أمرٌ ربّانىٌّ لا قدرة للباشر على استجلابه .

(١) المراد بالمحال آلة الرى المعروفة بالساقية، كما سبق ذلك فى صفحة ٢٥٤ سطر ٢ . والمحال والمحالة فى الأصل : البكرة العظيمة التى يستقى بها، كما فى اللسان والتاج مادة « محل » . (٢) قال ابن سيده : ان النسب إلى البحر بحرانىّ على غير قياس؛ وقد ردّ عليه السهيلىّ فى ذلك وأنكر هذه النسبة انظر اللسان مادة (بحر) . (٣) فى الأصل : "أو"، وهو تحريف . (٤) عبارة الأصل : « إذا كانت مزاحة » ؛ والذى يؤخذ من كتب اللغة أن المحال مذكر، قال حميد الأرقط :

يردن والليل مرم طائره * مرخى رواقاه هجود سامره

* ورد المحال قلقت محاوره *

انظر اللسان والتاج مادة (محل) .

(٥) فى الأصل وخطط المقريزى ج ٢ ص ٧٧ طبع المعهد العلمى الفرنسى : « الغلة » ؛ وهو تصحيف لا يظهر به معنى الكلام . (٦) « بالأبقار » ، أى يدار بالأبقار، فالمتعلق محذوف لفهمه من الكلام . (٧) هذه الفاء ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها . (٨) فى الأصل : «فيشتدّ» ؛ وهو تحريف . (٩) فى الأصل : « ونضبه » بالضاد المعجمة، وهو تصحيف .

ولا غُنْيَةَ للقصب عن القَطِران قبل أن يحلوَ، فإنه يمنع السوسَ من الوصول إليه؛ وصفةُ ذلك أنهم يجعلون القَطِران فى قادوسٍ مبخوشٍ[1] من أسفله، ويُسَدّ ذلك البُخْشُ[1] بشىء من الحَلْفاء، ويُعلَّق القادوسُ على جَدْوَل الماء، ويُمزَج القَطِران بالماء فيَقطُر من خلال ذلك البُخْش المسدود، ويمتزج قَطْرُه بالماء الذى يصل الى القصب، ويحصل به المقصود.

وإن خشِىَ المباشر على القصب من فساد الفأر أدار حوله حيطانا رقيقة مقلوبةَ الرأس إلى خارج أرض القصب تُسمَّى حيطانَ الفأر، وتُصنَع من الطين المخلوط بالتبن فتمنع الفأرَ من الوصول إلى القصب، فإنه إذا تَسلَّق[2] فى الحائط وانتهى إلى آخرها منعته تلك الحافةُ المقلوبةُ وأصابت رأسه فيسقُط إلى الأرض. (٥٣)

هذا ما يلزم المَباشرَ الاحتفالُ به واعتمادُه فى أمر القصب.

فإذا كان فى أوّل كيهك من شهور القبط كُسِرت الأقصابُ وقُشِرتْ، ونُقِلتْ إلى المعاصر؛ وإذا كان فى أوان نصب القصب من السنة الثانية حُرِقتْ آثار الأقصاب وسُقِيتْ وعُزِقتْ كما تقدّم، فتُنبِت أرضُها القصبَ؛ ويسمُّونه بمصر: الحِلْفَة، ويسمّون الأوّل: الرأس؛ وقنود[3] الحلفة فى الغالب أجوَدُ من قنود[3] الرأس.

ذكر كيفية الاعتصار والطبخ وتقدير المتحصّل

الذى جرت عليه العادة بالديار المصرية أن الأقصاب إذا نُقِلت من المَكْسِر إلى المعصرة على ظهور الجمال أو الحمير وُضِعت فى مكان برسمِها يسمَّى دارَ القصب،

(١) مبخوش، أى مثقوب. والبخش: الثقب، ينطق به العامة بضم أوّله وسكون ثانيه؛ والظاهر أنه لفظ عامى إذ لم نجده فيما راجعناه من المظان، بل إن مادته لم ترد فى كتب اللغة التى بين أيدينا.

(٢) الذى وجدناه فى كتب اللغة التى بين أيدينا أن «تسلق» يتعدّى بنفسه لا بالحرف كما هنا؛ ولعله ضمن هذا الفعل معنى «صعد» فعدّاه «بفى».

(٣) القنود: جمع قند، وهو عسل القصب اذا جمد، وهو معرّب «كند».

بهـا وَتَراتٌ وحطبٌ ورجالٌ مُرْصَدون لإصـلاح القصب بالسكاكين الكبار التى (١) مقدارُ حديدها ثلثا ذراع، فى عَرْض سدس ذراع فى سَمْك إبهام، فينظّفون عيدانَ القصب، ويقطعون من أعلاه ما ليس فيه حلاوة، ويسمّونه اللّكلوك (٢)، وينظّفون اسفلَ العود ممـا لعلّه به من عروق وطين؛ ويسمّى هذا الإصلاحُ التطهيرَ؛ ثم يُنقَل من تلك الوَتَرات الى وَتَرات أُخَر مؤبَّدةٍ بأعلى حائطٍ عريضٍ مرتفعٍ عن الأرض، أحدُ جانبى الحائط ممـا يلى دار القصب، والوجهُ الآخرُ إلى بيتٍ آخر يسمّى بيتَ النُّوب (٣)؛ وعلى ذلك الحائط رجالٌ جالسون فى مقاعدَ أُعِدّتْ لهم، وبأيديهم السكاكين التى ينظّف بها القصب، والوَتَراتُ المؤبَّدةُ أمامَهم، فيَجمَع الرجل منهم عدّةَ عيدان من القصب، ويضعها على الوَتَرة، ويقطّعها قِطعا صغارا فتسقط فى بيت النُّوَب (٣)؛ ثم تُنقَل من بيت النُّوَب الى الجَحَر فى أفرادٍ (٤) تسـمّى العِيارات (٥) متساويةِ المقـادير؛ فيوضع ذلك القصبُ المقطَّع تحت الجَحَر، ويدَوِّرُ الجَحَرَ عليه الأبقارُ الحِياد فيَعصِره؛ ويَنزل ما يخرج منه من المـاء فى أبخاشٍ (٦) فى القاعدة التى تحت الجَحَر إلى مكانٍ ضَنْكٍ (٧)

(١) فى الأصل : «الذى»؛ وهو تحريف .

(٢) لم نجد هذا اللفظ بالمعنى الذى ذكره فيما راجعناه من كتب اللغة، والظاهر أنه من ألفاظ العامة، وهم ينطقون به بفتح أوّله؛ ويسمونه أيضا : «الزعزوع» .

(٣) لم نجد هذا اللفظ فيما راجعناه من المظان التى بين أيدينا؛ وقد أخبرنا بعض من لهم علم بالمعاصر القديمة لقصب السكر أنهم يسمون المكان الذى يغسل فيه القصب قبل عصره بيت النوبة؛ فلعله اصطلاح لهم .

(٤) الأفراد : أوعيـة تتخذ من خوص، واحده فرد بفتح فسكون؛ وهو لفظ شائع الاستعمال بين العامة فى مصر؛ ولم نجده بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة .

(٥) فى الأصل : "القبارات"؛ وهو تصحيف اذ لم نجد له معنى يناسب السياق .

(٦) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٦٧ من هذا السفر .

(٧) فى الأصل : « مضنك »؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من كتب اللغة بمعنى الضيق بتشديد الياء كما هو المراد هنا .

مُعَـدٌّ له ؛ فإذا انتهى ذلك القصب من العَصْر تحت الحَجَر نُقِل إلى مكانٍ آخر ، ثم يجعل فى قفاف مُتّخذةٍ من الحَلْفاء مشبّكة الأسافلِ والجوانب ، ويُلقَى تحت دولاب التَّخْت[1] ، ويُدور الدولاب عليـه بالأعواد حتى يأخذ حدَّه ، ويخرج ما بقى فيه من المـاء ؛ ويجتمع ما تحصّل من ماء القصب من الحَجَر والتَّخْت[1] فى مكان واحد ؛ ثم يُنقَل ذلك المـاء فيصفَّى من مُنْخُلٍ موضوعٍ فى قفص مُعَـدٍّ له ، وينزل ما يخرج الى مكانٍ متصلٍ يسمّونه البَهْو[2] ، له عِيـارٌ معلومٌ محرَّر ؛ فإذا امتلأ من ذلك المـاء المصفَّى نُقِل إلى المطبخ ، وصفِّىَ تصفية ثانيـة فى قِدْرٍ كبيرةٍ يسمّونها الخابية يُصَبّ فيها بعـد التصفية جميعُ ما كان فى البَهْو ، وهو ستون مَطَرا[3] من ماء القصب ضريبةُ كلِّ مَطَر نصفُ قنطار بالّليثىّ على التحرير — والرطل اللّيثىّ مائتا درهم — فيكون ما فى الخابية ثلاثةَ آلاف رطل وهو ما كان فى البَهْو ؛ ثم يوقَد عليها من خارج المعصرة إلى أن يغلىَ المـاء غليانا كثيرا ، وينقُص نقصا معلوما ، فعند ذلك يبطل الوقيد[5] عنها ؛ فإذا سكن غليانُها نُقِل ما فيها من المـاء المسلوق فى يقاطِينَ كبار ، فى كلّ قرعة منها خشبةٌ منجورةٌ طويلةٌ كالساعد نافذةٌ فى جانبى القرعة ، ويُصَبّ فى أكسية من الصوف

(١) لم نجد هذا اللفظ بالمعنى المراد هنا فيما راجعناه من المظان ؛ والظاهر أنه لفظ اصطلاحى معروف عند أصحاب المعاصر .

(٢) عبارة الأصل : «السهولة عيار» الخ وهو تحريف . والبهو : حوض مبنى ينزل فيه ما يصفى من العصير كما أنبأنا بذلك من له علم بمعاصر القصب ؛ والظاهر أنه لفظ اصطلاحى معروف بين هذه الطائفة اذ لم نجده بهذا المعنى فيما راجعناه من المظان .

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ بالقلم فى كتاب المعرب والدخيل المحفوظ منه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة تحت رقم ٦٤ لغة وقال مؤلف هذا الكتاب : كأنها لغة مصرية ، ولم أرها فيما وقفت عليه من كتب اللغـة اهـ . وفى هامش كتاب مناقب الليث بن سعد لابن حجر ص ٥ طبع بولاق : أن المطر وعاء معروف عند بعض اهل مصر .

(٤) فى مناقب الليث بن سعد ص ٥ طبع بولاق : أن المطر مائة وعشرون رطلا ؛ وفى هامش هذه الصفحة انه يسع مائة رطل مصرىّ تقريبا . (٥) الوقيد مصدر كالوقود بضم الواو انظر لسان العرب .

تحتها دِنَانٌ كبار فيصفَّى المـاء منها تصفية ثالثة، ويستقرّ فى تلك الدِّنان؛ ثم يُنقَل من الدنَانِ فى دُسوت[(١)] إلى القُدور، فيُطبَخ فيها إلى أن يأخذ حدَّه من الطبخ؛ ويحتاج كلُّ حَجرٍ الى خابية وثمانى قدور لطبخ ما يُعتصَر تحت الحَجَر والتَّخْت؛ ثم يُنقَل بعد طبخه فى دُسوت[(١)] من النُّحاس، لكلِّ دَسْت منها قبضتان من الخشب مسمورتان فى أعلاه يقبض الرجـل عليهما ليقيـاه حرارةَ الدَّسْت؛ ويُصَبُّ ذلك المطبوخ ـ ويسمَّى إذ ذاك المَحْلب ـ فى أباليجَ من الفَخّار ضيِّقةِ[(٢)] الأسافل، متسعةِ الأعالى، مبخوش[(٣)] فى أسفل كلّ أُبْلوجة منها ثلاثةُ أبخاش[(٣)] مسدودةٌ بقَشّ القصب، وهـذه الأباليجُ موضوعةٌ فى مكان يسمَّى بيتَ الصبّ، فيه مصاطبُ مبنيّةٌ مستطيلة تشبه المذاود[(٤)]، ويُجعل تحت كلّ أُبْلوجة من تلك الأباليج قادوس يقطُر فيـه ما يتخلّص من رقيق ذلك المَحْلب[(٥)] ـ وهو العسل القَطْر ـ ثم يَخْدُمها الرجال بالكرانيب[(٦)] مرّة بعد أخرى حتى تمتلئ تلك الأباليج، وهى تختلف، فمنها ما يسع أكثرَ من قنطار، وأقلّ منه؛ فإذا امتلأتْ وتكاملتْ خدمتها وأخذت فى الجفاف نُقِلت من بيت الصبّ الى بيت الدفن[(٧)]؛ فتعلَّق فيه على قواديسَ يَقْطُر فيها ما بقِىَ من أعسالها.

(١) اطلاق الدسوت على القدور المتخذة من النحاس ـ كما هو المراد هنا ـ اطلاق عامىّ شائع الاستعمال فى مصر وغيرها من بلدان المشرق انظر تاج العروس.

(٢) فى الأصل: «رقيقة»؛ وهو تحريف.

(٣) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٦٧ من هذا السفر.

(٤) المذاود: معالف الدواب، واحده «مذود» وزان منبر.

(٥) فى الأصل: «المجلب» بالجيم؛ وهو تصحيف، والتصويب عن القاموس.

(٦) فى الأصـل: «الركانيب»؛ وهو تحريف لا معنى له. والكرانيب: المغارف، واحده كرنيب؛ وهو لفظ عامىّ شائع الاستعمال فى مصر حتى اليوم، وفى مستدرك التاج: الكرنبـة: المغرفة، مصرية.

(٧) لعل وجه تسميته بيت الدفن أن الأباليج تستر فيه وتوارى مدّة حتى يقطر منها ما بقى من أعسالها.

وأما أوساخ الأقصاب التى تنظّف منها فى دار القصب فإنها تُعتَصَر على آنفرادها، وتُطبَخ بمفردها، وتسمّى الخابية ، وهى أردأ من عسل القصب .

ولِما يتحصّل من الأعتصار أسماءٌ وعِبَر[1]: منها الضريبة، ومنها الوضعة[2]، ومنها اليد؛ فالضريبة عبارة عن ثمانى أيادٍ؛ واليدُ ملءُ خابية ؛ والخابيةُ ثلاثة آلاف رطل من عصير القصب بالرطل اللَّيثىّ كما تقدّم؛ فتكون الضريبة أربعةً وعشرين ألف رطل من الماء، يَجمُد منها مع جَودة القصب وصلاحه من القَنْد خمسةٌ وعشرون قنطارا إلى خمسةَ عشرَ قنطارا ، ومن الأعسال آثنا عشر قنطارا إلى ثمانية قناطيرَ؛ ونهايةُ ما يتحصّل من الفدان القصب ثلاثُ ضرائب : منها قَنْدٌ وقَطْرٌ ضريبتان ونصف وعسلُ خابيةٍ نصفُ ضريبةٍ مقدارها أربعة وعشرون قنطارا بالمصرىّ؛ ومن الأقصاب ما يفسد فلا يَجمُد طبيخُ مائه ولا يصير قَنْدا، فيُطبَخ عسلا، ويسمّونه المُرْسَل ؛

وهذا الذى ذكرناه من الوَضْع[3] والمتحصِّل والتسميةِ آصطلاحُ بلاد قوص من الصعيد الأعلى بالديار المصريّة، وهو وإن آختلف فى غيرها من البلاد فلا يبعد من هذا الترتيب .

وأما أقصاب الشأم — فهى تختلف أوضاعها بحَسَب البقاع والنواحى والأعمال، فمنها ما هو بالسواحل الطَّرابُلُسيّة والبَيْروتيّة والعكّاويّة؛ ولهم آصطلاحٌ فى نصب الأقصاب وآعتصارها : فمنها ما يُعتَصَر بحجارة الماء ، ومنها ما يُعتَصَر بالأبقار، ومنها ما يُعتَصَر بالسِّهام[4]؛ وليس ذكرُها وبسطُ القول فيها من المهمّات التى

(١) يريد بالعبر المقادير، لأنها تعبر، أى توزن .

(٢) لم يذكر مقدار الوضعة كما ذكر مقدار الضريبة واليد فيما يأتى؛ ولم نقف على تعيين مقدارها فيما بين أيدينا من المظان .

(٣) فى الأصل : « الموضع » ؛ وهو غير مستقيم ؛ والمراد بالوضع المصطلح .

(٤) السهام : الأعواد من الخشب .

تقتضى الأنصباب[(١)] اليهـا ؛ والذى قدّمنا ذكرَه أيضا من أمر أقصاب مصر هو على الحقيقة فلاحةٌ ودَولَبة[(٢)] ، وليس هو كتابة ، وهو للباشر زيادةٌ على صناعته ، على أنه لايَستغنِى عن معرفته والاطلاع عليه .

وعمـدةُ المباشر فى الاعتصار ضبطُ ما يتحصّل ، وحراستُه من السارق والخائن والمفرِّط ؛ ويلزم مباشرَ الاعتصار أن يَنظِم فى كلّ يوم وليـلة مخزومةً[(٣)] بمـا اعتُصِر وبمـا تَحصّل ؛ فإذا انتهى الاعتصـار نَظَمَ عمـلا[(٤)] شاملا لجميعـه على ما نشرحه فى الأوضاع الحسابيّة .

والقَنْد إذا جَفّ وأخذ حدّه من البياض نُقِل إلى مطابخ السكّر ، فيُحَلّ بالمـاء وشىء من اللبن الحليب ، ويُطبَخ فيصير منه السكّرُ البياضُ[(٥)] والقُطارة ؛ ويَتحصّل من كلّ[(٦)] قنطار من القَنْد ربعُه وسدسُه سكّرا ، وثلثُه وربعُه قُطارة ؛ ومنه ما يُكرَّر ثانيا فيصير فى غاية البياض والنقاء ، وقُطارتُه تقارب قَطرَ النبات ؛ ومنه أيضا ما يُطبَخ نباتا ؛

وهذه أمور جمليّة يُستدَلّ منها على المقاصد ، والمباشَرةُ تشمَل مالا يمكن إيرادُه فى كتاب ، وتُظهِر ما لا يكاد ينحصر بخطاب ، فلنذكر الأوضاع الحسابيّة .

---

(١) لعل صوابه : « الأنصراف » .

(٢) الدولبة : العمل بالدولاب .

(٣) تقدم تفسير المخزومة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٦٠ ، فانظره .

(٤) تقدّم بيان المراد بكلمة « العمل » فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٦٠ وسيأتى فى هذا السفر الكلام على الأعمال وأنواعها وكيفية كل نوع منها .

(٥) البياض : أى ذو البياض ؛ فوجه الوصف به ظاهر .

(٦) فى الأصل : «ذلك» ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق العبارة .

ذكر أوضاع الحساب وما يسلكه المباشر ويعتمده فيها

أوّل ما يحتاج اليه كلّ مباشر أن يضع له تعليقا ليوميّته ، يذكُر فيه تاريخَ اليوم والشهر من السنة الهلاليّة، ويذكُر فيه جميعَ ما تجدّد ويقع فى ذلك اليوم فى ديوانه : من مُحْضَرٍ ومستخرَجٍ ومُجرَى ومُبتاعٍ[1] ومُباعٍ ومَبِيع ومصروف، وما يتجدّد من زيادات فى الأُجَر والضمانات ، وعطلٍ ، وتقريرِ أجائر، وترتيبِ أرباب استحقاقات على جهات، وتنزيلِ[2] من يستخدمه، وصرْفِ من يصرفه من أرباب الخِدَم، وغير ذلك بحيث لا يُخِلّ بشىء مما وقع له فى مباشَرته قلّ أو جلّ؛ وهذا التعليق هو أصل المباشَرة، فمَن ضَبَطَ اليومَ انضبط ما بعده[3]؛ وكلُّ المباشرين فى وضعه سواء، يضع الشاهدُ[4] فيه ما يضعه العامل[5]، فإذا كان فى آخر النهار قوبل على مجموعه بين المباشِرين، ويُساق ما يُحتاج إلى سياقته من العين والغلّة والأصناف .

(١) المبتاع : المشترى بفتح الراء . والمباع : الشىء المعروض للبيع ، وهو من أبعت السلعة — بالألف فى أوّله — أى عرضتها لأن تباع .

(٢) التنزيل : كلمة شاع استعمالها بين العامة فى مصر بمعنى التولية والتنصيب — أى فى مقابلة العزل — فيقولون : « نزل السلطان فلانا فى العمل وعزل فلانا عنه » ؛ وهذا هو المراد هنا أخذا من السياق . والتنزيل فى اللغة : الإحلال فى المنزلة ؛ وما هنا منه .

(٣) فى الأصل : « ما نقده » ؛ وهو تصحيف .

(٤) الشاهد هو الذى يشهد بمتعلقات الديوان نفيا وإثباتا انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦ وسيأتى فى هذا السفر شرح ما يلزم الشاهد من الأعمال فى ذكر أرباب الوظائف .

(٥) العامل هو الذى ينظم الحسابات ويكتبها ؛ وقد كان هذا اللقب فى الأصل إنما يقع على الأمير المتولى العمل ، ثم نقله العرف إلى هذا الكاتب وخصه به دون غيره صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦ وسيأتى فى هذا السفر شرح ما يلزم العامل من الأعمال فى ذكر أرباب الوظائف .

ثم يكتب العـامِلُ مخزومةً يورِد فيها المستخرَجَ والمُحضَرَ والمُجرَى والمصروف[(١)]، ويرفعها على عدّة نُسَخٍ بحَسَب المترفعين؛ وإن شاحّه[(٢)] المترفِـعُ لَزِمه أن يوردها فيما أورده فى مياوَمته من سائر المتجدِّدات والأحوال، فيصير بها المترفِعُ الغـائبُ كالمباشر الحاضر، وتَشمَل المخزومـةُ خَطَّ مَن هو مباشرٌ: مِن ناظرِ مباشَرةٍ فمَن دونَه؛ وقـد قدّمنا ذكرَ بسطِ الجرائد على الأموال والغلال، وكيفيّة خِدمتها فى الأصول؛ ونظيرُ ذلك أن يبسُط أسماءَ أرباب الاستحقاقات وأربابِ المصاريف تِلوَ أصول الأموال ومضافاتِهـا، ويضعَ لكلِّ اسم ما يسـتحقّه مشاهرةً ومسانهةً عينا وغلّة، أو ثمنَ صنفٍ أو غيرَ ذلك؛ ثم يشطب قُبالةَ كلّ اسمٍ ما قبضه مفصَّلا بتواريخه من جهة قبضه، لتَسهُل عليه بذلك محاسبةُ كلِّ نَفَرٍ[(٣)] عند الاحتياج الى محاسبته كما شرحناه فى الأصول؛ ولا بدّ لكلّ مباشر من جريدة على هـذه الصفة تشتمل على الأصـل والخصم؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

---

(١) فى الأصل : «والمضروب» ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «شاحّه» وهذا مما يجب فيه الإدغام؛ وشاحه بتشديد الحاء، أى ناقشه؛ ومنه قولهم : «لا مشاحة فى الاصطلاح» أى لا مناقشة فيه ولا منازعة .

(٣) إطلاق النفر على الواحد كما هو المراد هنا إطلاق شائع بين عامة مصر، والذى وجدناه فيما بين أيدينا من كتب اللغة أن النفر الجماعة من الرجال من ثلاثة الى عشرة، وقيل : الى سبعة؛ ولا تصح إرادته هنا كما لا يخفى .

ذكر ما ينتج عن التعليق من الحسبانات بعد المخازيم[1]

وهى الخِتَمُ والتَّوالى والأعمالُ والسياقاتُ التى[2] تلك كلّها شواهد الآرتفاع :

فأما الخِتَم — فتختصّ بجهات العَين من سائر الأموال ؛ وكيفيّتها أنه إذا مضت على المباشر مدّةٌ لا تتجاوز أحد عشر شهرا فما دون الشهر إلى عشرة أيام — وما دون[3] الشهر لا يقع إلا عند آنفصال كاتب فى أثناء الشهر أو آقتراح مقترح — نَظَمَ[4] حسابا سَمّاه الكُتّاب فى مصالحهم : الخَتْمة، يَشرح فى صدرها ما مثالُه بعد البسملة : خَتْمة بمبلغ المستخرَج والمُجرَى من أموال الجهات، أو المعاملة الفلانيّة لآستقبال كذا، والى آخر كذا؛ ويَذكُر أسماءَ المباشرين فيقول : بولايةِ فلان ، ونظرِ فلان، ومشارَفةِ فلان، وكتابةِ فلان؛ ويَعقِد فى صدرها جملةً على ما آستخرجه فى تلك المدّة وأجراه من أصول الأموال، يفصِّل ذلك بسنيه، ويشرحه بجهاتِه وأسماءِ أربابه وتواريخِ مُحضَره ومُجراه، إلى نهاية ذلك ؛ ثم يقول : وأضيف إلى ذلك ما وجبت إضافته ؛ يَبدأ بالحاصل المساق إلى آخر المدّة التى قبلها ، ثم يذكُر ما لعلّه آستخرجه من الجهات التى تَرِد فى باب المضاف، وما ورد من أثمان المبيعات والمصالحات والخدم ، وما لعلّه آقترضه ، وما لعلّه حصّل من المواريث[5] الحَشْريّة والمجتذبات والتأديبات ، وما لعله آعتَدّ به لمعامَلةٍ أخرى ونُقِل[6] عليه ، إلى غير ذلك من أبواب

(١) فى الأصل : « المخاريم » ، وهو تصحيف ، وقد سبق تفسير المخازيم فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٦٠ من هذا السفر، فانظره .

(٢) فى الأصل : «الذى ذلك» الخ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) يظهر لنا أن هذه الجملة معترضة بين الشرط وجوابه ؛ فلذلك وضعناها بين خطين .

(٤) «نظم» جواب «لإذا» ؛ والذى فى الأصل : «ونظم» ؛ والواو زيادة من الناسخ .

(٥) تقدّم تفسير المواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٠٩ من هذا السفر، فانظره .

(٦) «ونقل عليه» ، أى ونقل محسوبا عليه ؛ و إرادة المؤلف لهذا المعنى سوّغت له ذكر « على » مكان «إلى» التى هى مقتضى اللغة .

المضاف على اختلافها . مما يطول شرحه لو آستُقصِى ؛ ثم يفذلِك[1] على الأصل والإضافة ؛ وإن صرف نقدا بنقدٍ ذَكَرَه بعد الفذلَكة ، وآستقرّ بالجملة بعده وإلّا فالفذلَكة بمفردها ؛ ثم يخصم تلك آلجملةَ بما لعلّه حَمَله أو نَقَله على[2] معاملة أخرى أو صَرَفَه ، ويذكُر آلحملَ بتواريخه ورسائله ، وآسم من حُمِل على يده ، والمنقولَ كذلك والمصروف بأسماء أربابه وتواريخه ، ثم يسوق إلى التحصيل[3] إن آنطرد[4] له حاصل وإلّا فيقول فى آخرها : ولم يَبقَ حاصلٌ فنذكَره .

وقد آقتُرِح فى بعض الممالك الشاميّة فى بعض السنين على المباشرين أن يضمّنوا خِتَمهم ما يوردونه فى الأصل من جهات الأصول — كلَّ جهة من المستخرَج والمُجرَى — الأصلَ مختوما والخصمَ مفصّلا بجهاته ؛ مثال ذلك أن يقول فى الأصل : الجهةُ الفلانيّة فى التاريخ الفلانىّ كذا [و] كذا درهما ؛ ويذكُرَ تحت ذلك التاريخ خصمَ تلك الجملة ؛ وفى الخصم إذا ذَكَر آسمَ ربّ آستحقاق وما وَصَل اليه فى كل تاريخ يقول : التاريخ الفلانىّ ؛ ويعيِّن جهاتِه ؛ ويشطب المسترفِعُ الأصلَ دلى الخصم ؛ وفى هذا تضييق كثير على المباشر ، ولَم يستقرّ ذلك ، وعادت آلأوضاعُ على ما بيّنّاه ؛ هذا مصطلَحُهم فى الختَم ؛ والله أعلم .

(٥٦) وأما التوالى — فهى إذا أُطلِقتْ أُريدَ بها تَوالى الغلال ؛ وكيفيتها أنه إذا مضت مدّة على ماقدّمناه فى شرح الخِتَم نَظَم كاتب آلجهة حسابا للغلّة آسمه التالى

(١) يقال : فذلك الحاسب حسابه اذا أنهاه وأجمله ؛ والفذلكة : جملة آلحساب ؛ وهو لفظ منحوت من قول الحاسب إذا أجمل حسابه : فذلك كذا وكذا .

(٢) ذكر «على» مكان «إلى» لإرادة المعنى الذى ذكرناه فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٧٥ .

(٣) هذه الكلمة فى الأصل مطموس بعض حروفها ؛ وسياق الكلام والحروف الواضحة منها يرشدان إلى ما أثبتنا .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٣٠ من هذا السفر .

يَشرح فى صدره بعد البسملة : تالٍ بما انساق حاصلا من الغـلال بالجهة الفلانيّة إلى آخر المدّة الفلانيّـة ، مضافا مخصوما إلى آخر كذا ؛ ويذكُر أسماء المباشرين على ما تقـدّم ، ثم يوصِل فى صدره ما آنساق إلى آخر آلمدّة التى قبلها من الغـلال على آختلافها ، ويفسِّر[1] الغلالَ بسنيها ، ويضيف اليـه ما لعلّه آنضاف[2] من متحصِّلٍ ومبتاعٍ وقرضٍ وغيرِ ذلك ؛ ثم يفذلِك عليه ، ويذكُر بعد الفذلكة ما لعـلّه وقع من تبـديل صنفٍ بصنفٍ لوجود ذلك الصنف وعدمِ غيرِه ، إما فيما قَبَضه أو فيما صَرَفه ، وما لعلّه أُبيع[3] وثُمِّن ، وما لعلّه يُنقل من كيل إلى كيل ؛ ويستقِرّ بالجملة بعد ذلك على ثمن ما أُبيع[3] وما آستقرّ من الغلال بعـد التبديل والتنقيل ، ويَستخرِج ثمنَ البيع بمقتضَى خَتْمة تلك المدّة ؛ وهى شاهـده ؛ ويخصمُ بالمحمول والمنقول والمصروف على آختلافه ؛ ويفصِّل ذلك بتواريخه على ما شرحناه فى آلخَتْمة ، ويسوق الحاصلَ من الغلّة إن كان ؛ هذا مصطلَحُهم فى توالى الغلال .

ولهم أيضـا تواٍ يسمّونها توالى الآرتفاع — تشتمل على العين والغلّة والأصناف ، ولا تُعمَل إلّا عند اقتراحها ؛ وصورتها أن يُوصِل فى صدر تالى الآرتفاع ما آنساق آخر الآرتفاع الذى قَبله من الحاصل والباقى عينا وغلّة ؛ ويفصّله بسنيه ؛ ثم يضيف اليـه ما آستُحِقّ فى تلك السـنة أصلا ومضافا ، ويخصم بالخصم السائغ المقبول ، ويطرده بعد ذلك إلى حاصلٍ وباقٍ .

---

(١) « يفسر » ، أى يوضح ويبين .

(٢) أنكر الحريرى فى درة الغوّاص أنه يقال : « انضاف » ؛ وقد ردّ عليه فى ذلك ، ووردت هذه الصيغة فى اللسان مادة « ملد » .

(٣) أبيع بالألف فى أوّله : أى عرض للبيع وانظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧٣ من هذا السـفر .

ولهم أيضا توالى الاعتصار — وصورتها أن يُوصِل ما انساق حاصلا آخِرَ [المدّة][1] على الاعتصار أو تاليه[2]، ويضيف ما لعلّه تحصّل من قَطْرٍ وغيره، ويفذلك عليه، ويكرّر منه ويبيع، ويستقرّ بالجملة، ويخصم، ويسوق إلى الحاصل.

وأما الأعمال — وهى تختلف — : فمنها أعمال متحصّل الغلال والتقاوى، وأعمالُ الاعتصار، وأعمالُ المَبيع، وأعمالُ المبتاع، وأعمالُ الجَوالِى، وأعمالُ الخدم والتأديبات والجنايات[3].

فأما أعمال الغلال والتقاوى — فكيفيّتها أن يَشرح فى صدر العمل بعد البسملة ما مثالُه : عَمَلٌ بما تحصّل من الغلال بالناحية الفلانيّة لمُغَلّ سنة كذا وكذا الخراجيّة، المدرِك فى شهور سنة كذا وكذا الهلاليّة، مضافا إلى ذلك ما وجبت إضافته[4]، ويُوصِل فى صدره ما تحصّل من الغلال على اختلافها وأكيالها مفصّلا بأسماء الفلّاحين؛ ويضيف إليه ما لعلّه استعاده من التّقاوى والفروض أو حصّله من رسوم أو غير ذلك؛ ويفذلك عليه؛ فمن الكُتّاب من يسوقه بجملته حاصلا، ويخصم بمقتضى النالى؛ ومنهم من يخصم بما حَمَلَه وصرَفَه فى مدّة تحصيله لمُغَلّ، ويسوق ما بقى إلى الحاصل، ويَستغنِى بذلك عن تالٍ لتلك المدّة.

وأما عمل الاعتصار — فصورته أن يترجم فى صدره بعد البسملة بما مثالُه : عَمَلٌ بما تحصّل من اعتصار الأقصاب بالجهة الفلانيّة لاعتصار أقصابِ سنةِ

(١) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ والمعنى لا يتضح بدونها؛ ويرشد الى هذه الكلمة ما سبق فى سطر ٣ من صفحة ٢٧٧ عند الكلام على توالى الغلال، فانظره.

(٢) فى الأصل : « ثالثه »؛ وهو تصحيف.

(٣) فى الأصل : « والكنايات »؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه ما يأتى فى صفحة ٢٨٢ سطر ٧.

(٤) فى الأصل : «وما»؛ والواو زيادة من الناسخ.

كذا وكذا الخراجيّة؛ ويقول فى يَمْنة العمل : عن كذا وكذا فدانا أو مَنظَرةٌ[1] إن كان بالأغوار، أو قسما إن كان بالسواحل؛ ويفصِّل الفُدُن بما فيها رأسا[2] وما فيها خِلفةً[2] إن كان بمصر، ومقنطرا[3] أو قائما[4] إن كان بالشأم، ويبرز عن يَسرته بكيّة ما تحصَّل فيقول : من أصناف الحُلو كذا وكذا قنطارا، ويفصِّل ذلك بالقَنْد والأعسال على آختلافها : من المرسَلِ والقَطْرِ والحُر والأسطروس[5] والمردودة؛ والمرسَلُ هو من القصب الذى لا يجُد ولا يصير قَنْدا . والقَطْرُ هو ما يتحصّل من قَطْر أباليج القَنْد . والحُرُّ هو ما يتحصّل من أطراف الأقصاب، وهذه الأطراف يسمّونها بالشأم : العيكون[6]، ولا يعتصرونها ألبتّة، بل تُرْصَد للنَّصْب[7]، فإنّهم يستغنون

(١) المنظرة فى الأصل : المرقبة، أى الموضع المشرف الذى يكون فيه الرقيب، والمراد هنا : مقدار من الأرض يمكن للحارث الذى يجلس فى المنظرة أن يراه ويحرس ما فيه من المزروعات .

(٢) تقدّم بيان الرأس والخلفة فى ص ٢٦٧ س ١٤ من هذا السفر، فانظره .

(٣) المقنطر : لفظ عامى معناه الملق على قطره أى جانبه؛ يقولون : تقنطر أى وقع؛ وعربيته تقطر بتشديد الطاء؛ انظر شرح القاموس مادة (قطر) وشفاء الغليل؛ والمراد بهذه الكلمة القصب المزروع أوّل مرة وهو المسمى بالرأس فى مصر؛ وذلك لأن طريقتهم فى زراعة القصب أن يضعوا قطعه فى الأرض ملقاة لا قائمة، كما سبق ذلك فى صفحة ٢٦٥ سطر ٧ و ٨ من هذا السفر . هذا ما يظهر لنا من معنى هذه الكلمة أخذا من السياق . وفى الأصل : «مقنطارا»؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى .

(٤) المراد بالقائم القصب الذى ينبت تاليا للقصب الأوّل، وهو الخلفة، وسمى قائما لأنه ينبت من الجذور القائمة فى الأرض بعد قطع القصب الأوّل .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل فى هذا الموضع، وفيما يأتى بالشين المعجمة فى آخره مكان السين المهملة؛ ولم نقف على كلتا الكلمتين فيما راجعناه من المظان التى بين أيدينا .

(٦) لم نجد هذا اللفظ فيما بين أيدينا من مصادر اللغة ولا فى الكتب المدوّنة فى الألفاظ الدخيلة، ولعله : «العنكول»، تشبيها له بعنكول النخلة، وهو قنوها .

(٧) تقدّم تفسير نصب القصب فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٥٤ من هذا السفر، فانظره .

بها عن العيدان[(١)]، ومنهم من يسمّى الحُرّ المردودة . وأما الأسطروش[(٢)] : فهو ما يُعمل من جُرادة وجوه الأباليج حالَ الطبخ ، وما يتأخّر على البوَارى[(٣)] عند خلعه بالشأم . (٥٧)
وأما الخابيـة[(٤)] فهى ما يتحصّـل من الأوساخ والرِّيم[(٥)] . والمرسَل والحُرّ والخابيـة لا تُعرَف بالشأم أَبتّة ، وإنمـا يعرفون القَطْر والأسطروش[(٢)] ؛ ثم يذكُر بعـد ذلك تفصيلَ المتحصِّل بجهاته إن كان بمصر ـ يفصِّل كلَّ ساقية وفُدُنها وما يُحصَّل منها من الضرائب ـ وتفصيلَ الأقصاب الرأسِ والخلفة ، ويذكُر آسمَ الطبّاخ ؛ ثم يبيـع من عرض ذلك ويُثمِّن ، ويستقِرّ بالجملة ، ويَحمِل ويَصرِف ويسوق إلى الحاصل .

وأما عمل المَبيع — فصورته أن يقول فى صدره بعد البسملة : [عَمَـلٌ][(٦)] بمـا بِيعَ من الغلال والأصناف بالجهة الفلانيّـة لمدّة كذا وكذا ؛ ويَعقِـد على الثمن جملة ، ثم يفصّلها بأصنافهـا ، يذكر عن يَمْنة القائمة الصنفَ ، وفى الوسط السـعرَ إن كان سعرا واحدا ، وإلّا فيقول مكانه : بأسعارٍ تُذكَر ، وفى اليَسْرة الثمنَ ، ثم يفصّله بأسماء مبتاعِيه ؛ فإذا كمّل ذلك أضاف ما آنساق له آخرَ العمل الذى قَبله

(١) فى الأصل : «الإيدان» ؛ وهو تحريف ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٥ من صفحة ٢٧٩ من هذا السفر .

(٣) البوارىّ بتشـديد الياء هى الحصر المنسـوجة من القصب ، واحده بورىّ وبارىّ ، فارسىّ معرّب . وقوله : « عند خلعه » : أى عنـد اخراج السكر الجامد من القوالب التى يوضع فيها ؛ وكأنهم كانوا عند اخراجه من القوالب يضعونه على الحصر ليكمل جفافه .

(٤) لم يذكر الخابيـة فى أصناف العسل التى سردها فيما سبق ؛ ولعلها هى المرادة بالمردودة السابق ذكرها ضمن أنواعه .

(٥) يريد بالريم فضول الشىء وزوائده التى لا يعتنى بها لخستها ، وفى كتب اللغة : الرِّيم بفتح الراء : الزيادة والفضل ، والعامة فى مصر يكسرون راءه .

(٦) هـذه الكلمة ساقطة من الأصل والسياق يقتضى اثباتها ، كما يرشد اليه ما سبق فى أعمال الغلال وأعمال الاعتصار وما يأتى بعد ذلك من الأعمال .

من أثمان المبيعات ؛ و يفصّل ذلك بأسماء من تأخر عليه منها شيء إن كان ؛ ثم يفذلك على الجملة ، و يستخرج من عرضه بمقتضى ختم المدّة ، و يسوق إلى الباقى دون الحاصل .

وأما عمل المبتاع — فيقول فى صدره : عَمَلٌ بالمبتاع بالجهة الفلانيّة من الأصناف التى ذُكر لمدّة كذا وكذا ؛ و يَعقِد على ثمن المبتاع جملة يجعلها عن يَمْنة نصف القائمة ، و يبرز بالأصناف المبتاعة إن أمكن ، وإلّا فيقول : ما يُذكَر ؛ و يَشرح ما ابتاعه صنفا صنفا بتواريخه ، وأسماءِ من ابتاع منهم ، وأسعارِه ، و يضيف إلى جملة الثمن ما لعلّه تأخر عليه من ثمن ما ابتاعه فى العمل الذى قبله ، و يفصّله بأسماء أربابه ؛ و يفذلك على ذلك ، و يخصم بما صرفه من عرضه بمقتضى ختم المدّة ، و يسوق إلى متأخرٍ أو فائض[1] إن كان قد سَلَف عليه [شىء][2] .

وأما عمل الجوالى — فيقول فى صدره ما مثاله بعد البسملة : عَمَلٌ بما وجب من مال الجَوالِى بالمعاملة[3] الفلانيّة لسنة كذا وكذا الهلاليّة مخصوما مساقا إلى آخر المدّة ؛ و يُوصِل ما كان قد استقر من الأنفار[4] على ما تقدّم[5] ؛ و يضيف النوابتَ والطوارئَ[6] بأسمائها ومِللِها ، وما لعلّه انساق باقيا إن كان ، وقلّما يكون ، و يفذلك

(١) يريد بالفائض : الزائد ، وهو من قولهم : فاض الماء إذا كثر حتى سال .

(٢) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل يسع كلمة ؛ والسياق يقتضى اثباتها أو اثبات ما يفيد معناها .

(٣) الظاهر من سياق الكلام انه يريد بالمعاملة : الناحية والجهة ؛ وسيأتى هذا اللفظ فى مواضع أخرى من هذا السفر مرادا به هذا المعنى .

(٤) يريد بالأنفار : الأشخاص ؛ و إطلاق النفر على الشخص الواحد إطلاق عامىّ ، اذ لم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة التى بين أيدينا ؛ وقد سبق التنبيه على ذلك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٧٤ من هذا السفر ، فانظره .

(٥) يشير بقوله : «على ما تقدّم» الى ما ورد فى صفحة ٢٤٣ سطر ٥ من هذا السفر ، فانظره .

(٦) انظر تفسير النوابت والطوارئ فى الحاشية رقم ٩ من صفحة ٢٤٢ من هذا السفر .

على ذلك؛ ثم يذكر بعد الفذلكة من اهتدى بالإسلام، أو هلك بالموت، أو تسحّب[1] إلى عملٍ آخر على ما قدّمناه[2] من الاختلاف فى ايراد ذلك فى هذا الموضع، والاستثناء به فى الصدر بالتعدية[3] أو إيرادِه فى باب المحسوب؛ وكلُّ ذلك سائغ فى الوضع؛ ثم يستقرّ بالجملة بعد ذلك، ويستخرج بمقتضى الختم، ويسوق ما لعلّه انساق إلى الباقى؛ وإن عاد اليه متسحبٌ[4] أو نازحٌ وبيـدِه وصولٌ[5] من مباشرِ عملٍ آخرَ اعتدّ له به، وأوردَه فى باب المحسوب، وفذلكه على الجملة.

وأما عمل الخـدم والجنايات والتأديبات — فصورته أن يُوصِـل فى صدر العمل بعـد الترجمة عليه ما تعيّن من أموال الخدم أو ما تقرّر من الجنايات والتأديبات، يَذكُر فيه الأسماء والجرائم؛ ويضيف إلى ذلك ما لعلّه انساق قبل تقرير هذا المـال آخرَ العمل الذى قبله؛ ويفذلك عليه؛ ويَستخرِج من عرضه بمقتضى ختم المدّة، ويَعتدّ بمـا لعلّه رُسِم بالمسامحة به ممـا كان قُرّر، ويسوق ما ينطرد بعد ذلك إلى الباقى؛ فهذه هى الأعمال.

وأما السياقات — فهى مختلِفة: فمنها[6] سِياقة الأَسْرَى والمعتقَلين، وسِياقة الكُراع[7]، وسِياقة العُلوفات، وسِياقات الأصناف والعُدَد.

(١) تسحب: أى هرب، أخذا من السياق، ولم نجده بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة، غير أنه شائع الاستعمال بين العامة فى مصر.

(٢) يشير بقوله: «على ما قدمناه» الى الخلاف بين الكتّاب المذكور فى صفحة ٢٤٣ من هـذا السفر، فانظره.

(٣) فى الأصل: «بالتقدية»؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما يرشد إلى ذلك ما سبق فى صفحة ٢٤٣ سطر ٦ من هذا السفر.

(٤) انظر الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة.

(٥) انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٣١ من هذا السفر.

(٦) فى الأصل: «فيها»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٧) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٨٣ من هذا السفر.

فأما سِياقة الأَسْرَى والمعتَقَلين — فصورتها أن يُوصِل فى صدرها عِدَّة من آنساق عنده الى آخر المدّة التى قبلها، و يفصّلها بالمعتقَلين وأسمائهم و جرائمهم، والأَسْرَى ومِللِهم وأجناسِهم؛ و يضيفَ اليها ما لعلّه تجدَّد عنده من معتقَلٍ أو أسير، و يفذلِكَ عليها، ثم يذكُر من أُفرِج عنه: إما بمقتضى المراسيم «فيذكُر تواريخها وأسماءَ من حضرتْ على يده، ومن تسلَّم المعتقَل» وإما بالهداية الى دين الإسلام من الأَسْرَى «فيذكُر آسمَ المهتدى وجنسَه، ومن أىّ المِلل كان، وتاريخَ إسلامه والإفراجِ عنه، أو من فُودِىَ به، أو من تسحَّب[1]، أو من هلك بالموت بعد آعتبار ما يجب آعتباره فى الهالك؛ و يستقِرّ بالجملة بعد ذلك؛ وآستقرار آلجملة هو آلحاصل.

وأما سِياقة الكُراع[2] — فهى سِياقةٌ تشتمل على الخيل والجمال والدوابِّ والأبقارِ والأغنام؛ وصورتها أن يوصِل الكاتبُ ما انساق عنده حاصلا آخِرَ السياقة التى قبلها؛ و يضيفَ[3] [الى] ذلك ما لعلّه آبتاعه بتواريخه وأسماء من آبتيع منهم، وما لعلّه نُتِج، وما لعلّه آجتُذب؛ و يفذلِك على ذلك؛ ثم يذكر بعد ذلك ما باعه من عرض الجملة وما نَفَق[4] وتُنُبِّل[5] وذُكِّى[6]؛ و يستقِرّ بالجملة على ما آستقرّ من حيوانٍ وجلود وثَمَن، و يَصرِف و يَنقُل ما لعلّه صَرَفَه أو نَقَلَه، و يسوق الى آلحاصل.

(١) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٨٢ من هذا السفر.

(٢) الظاهر أن إطلاق الكراع على الدواب التى ذكرها إطلاق اصطلاحى نان فى كتب اللغة التى بين أيدينا أن الكراع اسم يجمع الخيل؛ ولم نقف على أنه يطلق على الجمال والأبقار والأغنام و يدل على أن هذا الاطلاق من مصطلحات الكتّاب أن الخوارزمىّ ذكره فى كتاب مفاتيح العلوم ص ٥٩ طبع أوربا فى الكلام على مواضعات كتّاب ديوان الخراج.

(٣) عبارة الأصل: «و يصيب ذلك» وفيها تحريف ونقص؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٤) نفق، أى مات.

(٥) فى الأصل: «تنيل»؛ وهو تصحيف؛ وتنبل بالبناء للمجهول، أى اختير، يقال: فلان تنبل، أى يأخذ الأنبل فالأنبل؛ والمراد ما يختار من المواشى للقنية.

(٦) ذكى، أى ذبح.

ويحتاج المباشر لذلك الى ملاحظة أحوال الأغنام ، ومعرفةِ أوقات نِتاجِها وما يكون منها توأمًا ، واستقبالِ النِّتاج لينضبط له نِتاجُ النِّتاج .

وأما سياقة العُلوفات — [فصورتها](١) أن يوصل فى صدرها ما صرفه على الكُراع فى المدّة التى نَظم لها السِّياقة ، ثم يفصِّل ذلك كلَّ صنفٍ من الكُراع وعددَه فى الزيادة والنقص ، وما صرفه على ذلك النـوع فى كلّ مـدّة ، فى اليـوم كذا فى المدّة كذا ، والزيادة والنقص على حَسَب الأتفاق ، ويراعِى فى ذلك ما تضـمّنته سـياقةُ الكُراع ؛ وإن صَرَف عُلوفةً لطارئٍ لا يستقرّ عنده ميَّزه فى التفصيل من المستقر فيقول : المستقرُّ كذا ، والطارئُ كذا إضافةً إلى هذه السياقة ، ولا فذلكة ، ويتجنّب أن يصرف عُلوفةً عن أيّامِ نقصِ(٢) الشهور الهلاليّة ، وهى ستةُ أيام فى السـنة فإن ذلك من المُخرَّج اللازم ، وكذلك أيّامُ الربيع .

وأما سِياقات الأصناف والزَّردخاناه(٣) والعُدَدِ والآلاتِ والخزائنِ والبِيمارِستانات(٤) — فإنه لا يمكن استيعابُها لمؤلّف كتاب ، وقلّمـا عُمِلتْ فيما كَثُر ،

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها ، كما يرشـد اليه ما سبق فى السياقتين اللتين قبلها .

(٢) فى الأصل : « بعض » ؛ وهو تصحيف .

(٣) الزردخاناه ، أى بيت الزرد ، وهى الدروع ؛ وفى صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ أن هذا اللفظ ربما أطلق على السلاح خاناه ، فقـد قال عند الكلام على السلاح خاناه ما نصه : السلاح خاناه ومعناها بيت السلاح ، وربما قيل الزرد خاناه الخ .

(٤) البيارستان : لفظ فارسى استعمله العرب ، ومعناه مجمع المرضى ؛ وهذا اللفظ مؤلف من كلمتين : « بيار » ومعناه المريض ؛ « وستان » ومعناه الموضع ؛ وأول من صنعه أبقراط ، وسماه : (أخشندوكين) انظر شفاء الغليل .

وإنما تعمل فيما قلّ من الأصناف؛ وصفتُها إذا أمكن عَمَلُها أن يوصِل ما عنده من الأصناف مفصَّلة، ويضيف إليها ما ابتاعه أو ما وَصَل اليه؛ ويفذلِكَ على ذلك ثم يذكر بين الفذلكة واستقرارِ الجملة ما يَرِد من الأبواب: من المنتقِل[1] والمستهلَك وغيرِ ذلك على كثرته؛ وإذا استُقصِيَ ما يَرِد بين الفذلكة واستقرارِ الجملة زاد على مائة باب لا يعرفها إلا أفاضلُ الكُتّاب ومن له حِذْقٌ بهذه الصناعة، واختلفت مباشَراتُه وتكررتْ؛ فاذا ذَكَر ما وقع عنده استقرّ حينئذ بالجملة على ما قام عليه ميزان عمله؛ ثم يخصم بما يَسُوغُ الخصمُ به، ويسوق إلى حاصله.

فهذه هى الخِتَمُ والتَّوالِي والأعمالُ والسياقات، وهى شواهد الارتفاع.

وأما الارتفاع — فهو العملُ الجامعُ الشاملُ لكلّ عمل؛ وصورة وضعه أن يشرح الكاتب فى صدره بعد البسملة ما مثالُه: عملٌ بما اشتمل عليه ارتفاعُ المعاملة[2] الفلانيّة لمدّة سنة كاملة، أوّلُها المحرمُ سنةَ كذا وكذا، وآخرُها سَلْخُ ذى الحجّة منها، ممّا اعتُمِد فى إيراد ذلك الهلالىُّ والجَوالِي للسنة المذكورة، والخراجىُّ والأقصابُ لسنة كذا وكذا الخراجيّة، مضافا إلى ذلك ما وجبت إضافته، مفذلَكا عليه، وما استقرّت عليه الجملة، مخصوما[3] مساقا إلى حاصل، وما اعتُدّ به محسوبا إن كان، وما اشتملتْ عليه فذلكةُ الواصل، وما انساق إلى الباقى والموقوف فى المدّة؛ ويذكر أسماءَ المباشرين كما قدّمناه فى الخَتْمة؛ وإن انفصل أحدٌ من المباشرين

(١) فى الأصل: «من النقل» بصيغة المصدر، والسياق يقتضى ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد: «والمستهلك» ولم يقل: والاستهلاك ويرشد الى ذلك أيضا ما يأتى بعد فى صفحة ٢٨٨ سطر ١٢ إذ قال: «والمنتقل من سنة الى سنة» الخ.

(٢) تقدّم تفسير المعاملة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٨١ من هذا السفر، فانظره.

(٣) فى الأصل: «مخصوصا» وهو تحريف؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

فى أثناء تلك السـنة و باشرَ آخَرُ بعدَه قال : بمباشرة فلانٍ الى آخر المدّة الفلانيّـة وفلانٍ بعده الى آخر المدّة ؛ و يقول فى صدره عن يَسْرة نصف القائمة : ما مبلغُه من الذهب كذا ، ومن الدراهم كذا ، ومن الغلات كذا ، ومن الأقصاب كذا ، ومن الأصناف كذا ، ومن الكُراع كذا ؛ يفصِّل ذلك بسنيه ، ثم يأخذ فى تفصيل كلِّ مال بجهاته ، فيبدأ بمال الهلالىّ ، يَذكُر كلَّ جهة ، وٱسمَ مستأجِرِها أو ضامنها ، وٱستقبالَ عَقدِ إجارته أو تقريرِه ، و يوجِب عليه فى الشهر وفى السنة ، الى أن يستوعب أبوابَ الهلالىّ ، و يشطب فى مسوّدته التى ينظمها لنفسه قُبالَةَ كلِّ جهةٍ ما ٱستخرجه بمقتضى خَتَمات المستخرَج ليقوم له ميزانُ كلّ جهة فى الباقى والفائض[1] ؛ ولا يلزمه هذا العملُ فى ٱلحساب المرفوع منـه ؛ فاذا ٱنتهت أبواب الهـلالىّ ذكر الجَوالِى وٱعتَمَد فيها كذلك ؛ ثم يذكر الخراجىّ ، و يفصّله بأقلامه وجهاته مستقصًى واضحا جليًّا ، و يَعتمِد من الشطب قُبالةَ كلِّ جهةٍ ما تقدّم شرحُه ؛ فاذا تحرّرتْ له جهاتُ الأصول قال : وأضيف الى ذلك ما وجبت إضافته ؛ و يعقِـد على المضاف جملة ، و يذكر أبوابه يبدأ فيها بالحاصل والباقى المُساقَيْن[2] آخِرَ العمل الذى قَبْله ، و يعقِد عليهما جملة ، ثم يقول : الحاصلُ كذا ، والباقى كذا ؛ و يفصِّل ما أمكن تفصيلُه من الحاصـل بسنيه و يفصِّـل الباقىَ بجهاته وأسماءِ أربابِه وسنيه وأسماءِ مباشرِيه إن أمكن ، و يشطب فى مسوّدته قُبالةَ كلِّ ٱسم ما لعـلّه ٱستخرجه من عرض ما هو عليـه كما تقدّم ؛ ثم يذكر جهاتِ مضافِ السـنة الحاضرة ، يبدأ بمـا هو مستقرّ من الأموال التى تَرِد [فى] جهات المضاف ، و يشطب قُبالةَ كلّ ٱسم ما تقدّم بيانه ؛ ثم يذكر بعد ذلك ما لعلّه وَصَل اليه أو ٱعتَدّ به : من الأموال والغلال على ٱختلافها ، وأثمانِ المبيعات

(١) فى الأصل : « القابض » ؛ وهو تصحيف ؛ وقد تقدّم شرح « الفائض » فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٨١ .

(٢) فى الأصل : « المساق » بصيغة المفرد ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

والمواريثِ الحَشْرِيّة[1] والمجتذَباتِ والجناياتِ والتأديباتِ والقروضِ والأصنافِ المبتاعة، يستقصِى أبوابَ المضاف على حسب ما ورد عنده منها فى طول السنة بمقتضى ما ورد فى الشواهد التى ذكرناها بحيث لا يخلّ منها بشىء .

ومن أبواب المضاف ما يضاف بالقلم — ولا أصل له، بل يكمّله الكاتب على نفسه فى حسابه لينطرد نظيرُه الى الباقى، ويقومَ به الميزان، وهو نظير التقاوى[2] والقروض ؛ وكُتّاب الشأم يفعلون ذلك دون كُتّاب الديار المصريّة ، وهم على الصواب فى إيراده، لأن الكاتب اذا أوردَ نظيرَ التقاوى[2] والقروض انطرد له الى الباقى نظيرُ ذلك، وصحّ ميزان العمل، فإنه لا يمكن أن ينطرد الى الباقى إلا بإضافة نظيره، فاذا انطرد الى الباقى وجب إيراده [فى] المضاف فى السنة الثانية وما بعدها الى أن يُستخرَج ويحصَّل ؛ وكُتّاب مصر يقتصرون فى ذلك على أعمال التقاوى[2] والقروض؛ والتحريرُ ما يورد كُتّابُ الشأم فى ذلك .

ومن وجوه المضاف الغريبةِ : المستعادُ نظيرَ المُعاد، مثال ذلك أن يكون المباشر أحال ربَّ استحقاقٍ على ضامنِ جهةٍ بمبلغٍ بمقتضى وُصولِ[3] أجراه

(١) تقدّم تفسير المواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٠٩ نقلا عن صبح الأعشى فانظره ؛ وقال المقريزى فى خططه (ج ٢ ص ١١٠) طبع المعهد العلمى الفرنسى انها هى التى يستحقها بيت المال عند عدم الوارث ؛ وقال قبل ذلك : إنها فى الدولة الفاطمية لم تكن كما هى اليوم من أجل أن مذهبهم توريث ذوى الأرحام، وأن البنت اذا انفردت استحقت المال بأجمعه، فلما انقرضت أيامهم واستولت الدولة الأيوبية ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية الخ.

(٢) التقاوى من الحبوب : ما يعزل لأجل البذر ؛ وهى عامية .

(٣) الوصول بصيغة المصدر : هو البطاقة المعروفة عندنا بالإيصال ؛ وقد سبق فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٣١ من هذا السفر ان هذه الكلمة مولدة عامية انظر شفاء الغليل .

وٱعتَـدّ به لضامن تلك ٱلجهـة ، واعتَدَّ على ربّ الٱستحقاق بمبلغه ، وقَطَع الباقَ والمتأخّرَ بعده ، وصدر حسابه بذلك ، فأعِيدَ[1] عليـه وُصولُه فى أثناء السـنة الثانية فِمثلُ هـذا تجب إضافتُه وإضافةُ نظيرِه ، فيكون خصمُ إضافته الأولى المُعـادَ على الضامن ، وخصمُ الثانيـة الباقىَ المُساق ، ويكمّل لربّ الٱستحقاق نظـير ذلك المبلغ فى محاسبته — على ما يأتى بيانه فى المحاسبات ؛ فاذا ٱستوعب ما ورد عنده من أبواب المضاف فَذَلَك على ذلك فيقول : فَذلك الأصل وما أُضيفَ اليه ؛ ويَعقِد على الفذلكة جملةً ، ومعناها أن يضمّ ما عَقَد عليـه الجملةَ فى صدر الٱرتفاع الى ما عَقَد عليه جملةَ المصاريف ، فتشتمل الفذلكة على الجملتين ، ويفصّل ذلك عينا وغلّة وأصنافا وكُراعا على ما تَقدّم ، ويفصّل ما هو متميّز بسنيه ؛ وما لم يتميّز كالحواصل من العين والكُراع وغيرِ ذلك يقول فيه : ما لم يتميّز بسنة ؛ ويشرحه ؛ ثم يذكر الأبواب التى تَرِد بين الفذلكة وٱستقرارِ الجملة على ٱختلافها بحَسَب ما وقع عنده منها ، يبدأ بالصرف من نَقْدٍ إلى نَقْد ، والمبدَّلِ من صنفٍ إلى صنف ، والمنتقِلِ من سنة إلى سـنة ، ومن كيلٍ إلى كيل ومن وزنٍ إلى وزن ، ومن عَدَدٍ إلى وزن ، ومن وزنٍ إلى عَدَد ، ومن صفةٍ إلى صفة وما وقع من مَبيع ومُثمَّنٍ ونافقٍ[2] ومستهلَك ، وغير ذلك ؛ وقد جَمَع بعض فضلاء الكُتّاب جميعَ ذلك وٱختصره فى لفظتين فقال : هو عبارة عن منقول ومعدوم ؛ وإذا نظرت إلى حقيقة هاتين اللفظتين وجدت جميع هذه الأبواب وإن كثرت مندرجة فيها[3] ، كما أن جميع الكلام لا يتعدّى أن يكون ٱسما أو فعلا أو حرفا ؛ فإذا ٱنتهت هذه الأبواب قال : واسـتقرّت الجملة بعـد ذلك على ... ويذكر ما ٱستقرّت عليه ٱلجملة بمقتضى

(١) فى الأصل : «فاعتدّ» ؛ وهو تصحيف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٨٣ من هذا السفر .

(٣) فى الأصل : « عنها » ؛ واللغة تقتضى ما أثبتنا .

قيام ميزانه، ويفصّله بسنيه، ثم يقول: آستُخرِج من ذلك وتَحصّل... ويذكر المستخرَج بمقتضى الخِتَم، فيشرح ما آستقرت عليه جملةُ الخَتْمة الأولى، وما آشتملتْ عليه فذلكتُها بعد وضع آلحاصل من آلجهة الثانية[1] وما بعدها لئلا يتكرّر عليه؛ ويحصِّل بمقتضى الأعمال والتَّوالِي والسِّياقات على هذا الحكم؛ ويفصِّل آلمستخرَجَ والمتحصّل بسنيه، ثم يخصم ما آستخرجه وحصّله، فيبدأ فى الخصم بالحَمْل من الأموال، والحمولِ من الغلال والأصناف، والمُساقِ من الكُراع؛ ويتلوه ما لعلّه نَقَلَه على[2] معاملة أخرى مفصَّلا بأبوابه ومعقودِ آلجملة على كل باب فيها؛ فإذا تكامل له الخصم فى العين والغلّة والمواشى والأصناف ساق ما تأخّر من جملة ما آستخرجه وحصّله إلى حاصل، ويفصّله بالعينِ والغلّةِ والصنفِ وغيرِه، فيكون ما حمله ونَقَلَه وصَرَفَه وساقه إلى الحاصل خَصْمَ ما آستخرجه وحصّله؛ ثم يذكر بعد سياقة الحاصل ما لعلّه ورد عنده من المحسوب على آختلافه[3]: من عُطْلة، ويذكر أسبابها، وما لعلّه ثبت من الجوائح الأرضيّة[4] والسمائيّة[5] بمقتضى المحاضر[6] الشرعيّة إذا بَرَزت المراسيمُ بالحَمْل على حكمها؛ فيذكر كلَّ جهة وآسمَ مستأجِرِها أو ضامنها، وتاريخَ محضَر الجائحة، وتاريخَ آلمرسوم بحمل الأمر على حكمه، وجملةَ آلمبلغ المتروكِ بسبب ذلك، وما لعلّه سوّح به من البواقى المُساقة، وغير ذلك ممّا هو داخل فى باب

(١) لعل صوابه: «من الختمة» كما يرشد إليه السياق.

(٢) ذكر «على» مكان «الى» مع أن الفعل قبلها يقتضيها لإرادة المعنى السابق فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٧٥، فانظره.

(٣) فى الأصل: «عنه»؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا كما يرشد اليه التعبير بذلك فى السطر الخامس من صفحة ٢٨٨، فانظره.

(٤) عبارة الأصل: «نبت من الحوائج الأصلية»؛ وهو تحريف فى الكلمات الثلاث؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا؛ ويرشد إلى ذلك ما سبق فى صفحة ٢٣٢ س ١٢ من هذا السفر، فانظره.

(٥) ينسب إلى السماء فيقال: «سمائى» على لفظها، و«سماوىّ» بالواو اعتبارا بالأصل (المصباح).

(٦) انظر تفسير المحضر فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٥٥ من هذا السفر.

المحسوب ؛ وسائرُ المسامحات تَرِد بعد سياقة الحاصل ، وتَرِد فى أماكنَ نذكرها بعد إن شاء الله تعالى ؛ فإذا ٱستوعب الكاتب جملة ما عنده من المحسوب فى بابه قال بعـد ذلك : فتلك جملةُ ٱلمستخرَج والمتحصّـل والمحسوب ؛ ويعقِد عليـه جملة يفصّلها بسنيها وأقلامها ؛ ويسمّون هـذه الفذلكةَ فذلكةَ الواصل ؛ وما بقِىَ بعـد ذلك مما ٱستقرّت عليه ٱلجملةُ بعد هذه الفذلكة تعيّنتْ سياقتُه إلى الباقى والموقوف ، فيطرده باقيـا وموقوفا ، أو باقيا بغـير موقوف ، معقودَ ٱلجمـلة ، مفصّلا بالسنينَ والجهات والأسماء والمباشَرات ، ويميِّز ما يُرجَى ٱستخلاصُه وتحصيلُه منه ومالا يرجَى ؛ وما ٱنعقد عليه الباقى والموقوفُ وٱشتملتْ عليه فذلكةُ الواصل هو خَصْمُ ما ٱستقرّت عليه جملة الٱرتفاع .

وأما الحواصل المعدومة المُساقة بالأقلام — ولا حقيقة لوجودها ، وإنمـا يُورِدُها الكُتّابُ حفظا لذكرها ، كالحواصـل ٱلمسروقة وٱلمنهوبة — فإنه إذا رُسِم بالمسامحة بها فقد اختلفت آراء الكُتّاب فى إيرادها على وجوه كثيرة : منها ما يَسُوغ ، ومنهـا ما لا يجوز فعله ، ونحن نذكر أقوالَهم وطرقَهم فى ذلك ، ونوضح ما يجوز منها وما لا يجوز ، ونذكر ما ينبغى أن يُسْلَك فيها : فمن الكُتّاب من يرى أن ينقُل هذا الحاصلَ بين الفذلكة واستقرارِ ٱلجملة من الحاصل الى الباقى ، ولا يورده فى باب ٱلمسـتخرَج ، ويطرده إلى الباقى ، ويورده فى باب المسموح بعد سياقته الحاصلَ ؛ وهذا لا يجوز ، وفى إيراده على هذا الوجه غلطٌ وسوءُ صناعة ، لأن ٱلحاصل لا يجوز نقله إلى الباقى ، والباقىَ أيضا ، فلا بدّ أن يكون بٱسم إنسان أو أُناس ، فإن ساقه باقيا بٱسم مباشِره فقد أتى بغير الواقع ، وعَرّض المباشرَ الى الغرامة ، ولا يفيده ، إذ مرسومُ[1] المسامحة يتضمّن المسامحةَ بحاصل معدوم ، وقد ٱنتقل هذا من تسمية الحاصل إلى الباقى .

(١) فى الأصل : « إذا » ؛ وما أثبتناه هو مقتضى اللغة .

ومن الكُتّاب من يرى آستثناءه من جملة آلمستخرَج، ثم يورده أيضا [فى] باب المسموح؛ وفى هذا أيضا ما فيه مِن نقلِه من الحاصل إلى غيره تسميةً، فإنه لا عِبرة عند ذلك بتسميته ولا بنسبته إلى الباقى والموقوف؛ وإن نُقِلَ فلا يجوز، لأن الحواصل لا يجوز نقلُها إلى تسمية أخرى ألبتّة؛ فهذه الوجوه لا تجوز فى صناعة الكتابة .

٥ وأما الذى يجوز فى هـــذا فوجوه : منها أن يكمّله الكاتب فى باب المستخرَج من ذلك، ويخصمَ إلى نهاية المصروف، ويقولَ قبل سياقة الحاصل : ما نُقِل رُسِم بالمساحة به عن الحاصل المعدومِ المُساقِ بالقـلم حفظا لذكره، بمقتضى مرسومِ تاريخُه كذا؛ ويشرح مقاصدَ المرسوم، وسببَ عدمِ الحـاصل، وجملتَه؛ ويكتفى بذلك عن إيراده فى باب المســموح؛ ويَعقِد جمـلةَ الخصم على الحَمـل والمصروفِ ١٠ والمسموح به .

ومنها أنه إذا ساق الحاصلَ بعد الحَمْل والمصروف يقول : من جملة كذا بعـد مَأمَنه ما سوح به عن الحاصل المعـدومِ والمُساقِ بالقـلم؛ ويَشرح ما تقدّم، ويبرز بالحاصل بعد ذلك .

ومنها أن يستثنيَه عند ذكر المضاف، فيقول عند إضافة الحـاصل ما صورتُه ! ١٥ الحاصلُ المُساقُ إلى آخر السنة الحاليّة من جملة كذا بعـد مَأمَنه ماعُدِم فى تاريخ كذا

(١) فى الأصل : « فان » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «فرجوة» ؛ وهو تحريف .

(٣) عبارة الأصـل : « تاريخ مرسومه » ؛ وفى هاتين الكلمتين تقديم وتأخير لايستقيم بهما المعنى ويرشد إلى ما أثبتنا ما يأتى فى السطر الأول والثانى من صفحة ٢٩٢ ، فانظره .

٢٠ (٤) فى الأصل : «والموصوف» ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : «عن» ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا ، كما يرشد إليه قوله بعد : «فيقول عند» الخ .

ووَرَد فى سياقات الحـاصل حفظا لذكرِه، ورُسم بالمسامحة به بمقتضى مرسـومٍ شريفٍ تاريخُه كذا؛ ويعيِّن جملةَ المسموح به، وهى جملةُ المعدوم، ويبرز بما بقى، ويستثنيه أيضا من المستخرَج عندما يَستشهِد بالخِتَم والتَّوالى والأعمال.

فهذه صورة نَظْم الارتفاع وشـواهِده التى قدّمناها قَبـله؛ والآرتفاعُ هو جُلُّ العمل، وقاعدةُ الكتابة، والجامعُ لسائر ما يَرِد فى آلمعاملة. ٥

وإن آنفصل الكاتب أثنـاء السنة لزمه أن ينظِم لمـا مضى من السنة فى مبـاشرته حسابا يسمّونه بالشأم الملخَّص، وبمصر التـالىَ، وهو نظيرُ الآرتفاع فى نَظْمه، إلا أنه يكون لمـا دون السنة، والملخَّص عند المصريّين هو الآرتفاع، ويَلزَم الكاتبَ المباشرَ بعده عمـلُ ملخَّصٍ أوتالٍ يتلوه لمـا بقىَ من المدّة، ثم يعمل جامعـةً على الملخَّصَين أو[1] التاليَـين، وهما شاهداها[2]؛ ويسـتغنى الكاتبُ فى إيراد آلمستخرَج والمتحصَّل والمصروفِ عن الآستشهاد بالخِتَم والتَّوالى والأعمال، ويَستشهِد بهـذين الملخَّصين فيقول: ما تضمّنه ملخَّص مدّة كذا وكذا [كذا][3] وما تضمّنه ملخَّص مدّة كذا وكذا كذا؛ وقـد تكون الملخصات أكثرَ من آثنين بحسب الآستبدال بالأعمال[4]. ١٠

(١) فى الأصل: «و»؛ والسياق يقتضى العطف "بأو" كما أثبتنا. ١٥

(٢) فى الأصل: «شواهدها»؛ وقواعد اللغة تقتضى ما أثبتنا؛ إذ به تحصل المطابقة بين المبتدا والخبر.

(٣) هـذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضى إثباتها كما يرشد الى ذلك ورودها فى الجملة التى بعدها.

(٤) الظاهر أن الباء هنا بمعنى «فى» الظرفية، أى بحسب استبدال العمال بعضهم ببعض فى الأعمال. ٢٠

ومما يَلزَم الكاتبَ رفعُه المحاسَبات ــ وتختلف :

فمنها محاسبة أرباب النقود الجيشيّة والمَكيلات والجامِكيّات[(١)] والجرايات ، وأربابِ الوظائِف والرواتبِ والصِّلات عما هو مستقرّ مشاهرةً أو مسانهة ؛ وهذه المحاسبة تنظم من الجريدة المبسوطة على أسمائهم ، المشتملة على كمّيّة استحقاقاتهم ، المشطوبة بقُبوضهم ؛ وصورةُ عملِها أن يقول الكاتب : محاسَبةٌ لأرباب النقد والمَكيل والقَرارات[(٢)] والجامِكيّات والرواتبِ والصِّلات بالمعاملة الفلانيّة لاستقبال مدّة كذا ، والى آخر كذا ؛ ويَعقِد جملةَ صدرها على ما يُستحَقّ لهم فى تلك المدّة المعيَّنة من عينٍ وغلّة وأصناف ، ويضيف الى تلك الجملة ما تأخّر لهم الى آخر المدّة التى قبلها ، ويفذلك على ذلك ، ويُقبِضهم ما صَرَفَه لهم بمقتضى ختمَ المدّة وأعمالها وتواليها ، ويعتدّ عليهم بما لعلّه انساق فائضا[(٣)] على مَنْ قَبَض منهم زيادةً على استحقاقه فى المدّة التى قبلها ، ثم يطرد ما انساق لهم الى متأخّر ، وما انساق عليهم الى فائض ، ثم يفصِّل ذلك بالأسماء ، فيضع الاسمَ ويذكره واستحقاقَه فى الشهر وعن المدّة ، ويضيف اليه ما لعلّه تأخّر له إن كان ، ويفذلك عليه ، ويخصم بقبضه ، ويسوق إلى متأخّرٍ إن بقِيَ له ، أو فائضٍ إن زاد قبضُه على استحقاقه ؛ ومن كان منهم قد تعجّل قَبل تلك المدّة زيادةً على استحقاقه استُحِقّ له ما وجب له فى المدّة ، واعتدّ عليه بما انساق فائضا[(٣)] ؛ وما لعلّه صرفه له فى تلك المدّة يسوقه[(٤)] إلى متأخّر أو فائض[(٣)] ، يفعل ذلك فى جميع الأسماء .

(١) قد سبق تفسير الجامكيات فى الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٠٥ ، فانظره .

(٢) الظاهر أنه يريد بالقرارات : الاستحقاقات ؛ وقد ورد لفظ «القرار» فى كتاب قوانين الدواوين صفحة ٢٠ سطر ٢٦ مرادا به هذا المعنى أخذا من سياق العبارة التى ورد فيها ، فانظره .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٨١ من هذا السفر .

(٤) فى الأصل : «ويسوقه» ؛ والواو زيادة من الناسخ فإن السياق يأباها .

وهذه المحاسبة إذا كان الكاتب مستمرَّ المباشرة عَمِلَها لسنة، وان آنفصل قبل آستكمال السنة أو آقترحها مقترِحٌ عليه لزمه عملُها؛ والله أعلم .

ومنها محاسبات أربابِ الأُجَر[1] والآستعمالات[2]، ويعتمد الكاتب فيها نظيرَ تلك، إلا أنه لا يُستحَقّ لكلّ نفرٍ[3] إلّا بمقدار عملِه، ويضيف إليه ما لعلّه تأخّر له ويفذلِك عليه، ويخصمه بالقبضِ والآعتدادِ بالمُسْلَف ان كان؛ وهذه المحاسبة على منوال تلك، إلا أنها تُعمل بمفردها .

ومما يلزم الكاتبَ رفعُه ضريبةُ أصول الأموال ومضافاتِها عن كلّ سنة كاملة، يَذكُر فيها كلَّ جهةٍ من جهات الهلالىّ، وآسمَ مستأجِرِها أو ضامنِها، ومبلغَ إجارتها أو تقرير ضمانها مشاهرةً ومسانهة، واستقبالَ العقد، وتاريخَ الحجّة المكتَتَبةِ به، ويشطب[4] قُبالتَها أسماءَ كُفلاءِ[5] ضامنِ الجهة؛ ويذكُر الجوالىَ ويفصّلها بالأسماء والمِلل، ويفصِّل الخراجىَّ بجهاته وأقلامِه، والأحكارَ بأسماء أربابها؛ وإن كان بتلك المعاملة[6] شيء من نواحى الخاصّ

(١) فى الأصل : «اثبات» ؛ وهو تحريف ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا كما يرشد اليه ما سبق فى صفحة ٢٩٣ سطر ٢ من هذا السفر .

(٢) لعل صوابه «والعمالات» بضم العين، كما يقتضيه عطفه على الأجر ؛ والعمالة : ما يأخذه العامل من الأجر على عمله .

(٣) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٧٤ من هذا السفر .

(٤) الظاهر أن المراد بالشطب هنا ما سبق بيانه فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٢ من هذا السفر فانظره .

(٥) فى الأصل : «لفلا» ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، فإنه لا بد لضامن كل جهة من كفيل يكفل بما عليه من المال كما سبق ذلك فى صفحة ٢٢٩ من هذا السفر، فانظره .

(٦) تقدم تفسير المعاملة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٨١ ، فانظره .

ذَكَرَ كلَّ ناحية، وٱسمَ رئيسها، وحدودَها وعدّةَ فُدُنِها[١] الرومية[٢] والكادية[٣] والعاطلة، وأسماءَ من بها من الفلّاحين القَرارية[٤]، وما يُبذَرُه كلّ فدان من الشَّتْوىّ والصيفىّ، ورَيْعه فى الثلاث سنين المقبِلةِ[٥] والمتوسّطةِ والمجدبة، وشروطَ المقاسَمة، وما على كلّ فدان من الحقوق والرسوم، وما بها من المطلَق، وما فيها من جهات العين وما عليها من الخِدَم[٦] والضيافات، وغير ذلك من معالمها بحيث لا يخلّ بشىء من جميع أحوال القرية، بل يوضحها إيضاحا شافيا كافيا حتى يَعلمَ الغائبُ عنها جليّةَ أمرها كالحاضر فيها.

فإذا تكامل ذكرُ جهات الأصل[٧] فى هذه الضريبة ذَكَرَ جهاتِ المضاف الراتبة كالخِدَم وما يناسبها، وذَكَرَ فى آخرها ما تتعيّن إضافتُه من المتوفّر من العين والغلّة على ٱختلاف ضرائبه؛ وهذه القواعد تكون فى ضِياع الشأم.

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر.

(٢) لم نجد للفظ الرومية معنى يناسب سياق الكلام، ولعل صوابه: «الردمية» بفتح فسكون، أى الأرض التى فيها الردم، وهو تراب يكون من الطين الذى يأتى به النيل عند فيضانه فى كل سنة، وهو مخصب للأرض ومصلح لزرعها؛ واستعمال هذا اللفظ فى ذلك شائع بين العامة فى مصر؛ والذى فى كتب اللغة أن الردم هو ما يسقط من الجدار المتهدم.

(٣) فى الأصل: «الكادنة»، وهو تحريف؛ ولعل صوابه ما أثبتنا؛ والكادية من الأرض: التى يبطئ نباتها.

(٤) القرارية، أى المقيمون، نسبة الى القرار.

(٥) فى الأصل: «المعتلة» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق؛ ويريد بالمقبلة السنة التى تقبل بالنبات، أى تجىء به.

(٦) تقدّم بيان المراد بالخدم فى ص ٢٤٥ من هذا السفر، فانظره.

(٧) هذه الكلمة فى الأصل ناقص بعض حروفها؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

ويلزمه رفعُ المؤامَرات — وتُسمَّى ضرائبَ المستقرِّ إطلاقُه — وهى تشتمل على أسماء من هو مرتَّبٌ على تلك المعاملة : من ربّ نقدٍ ومَكيلٍ ومقرِّرٍ[1] وصدقة، يذكر اسمَ كلِّ واحد واستحقاقَه مشاهرةً ومسانَهة، ويعقد على ذلك جملةً فى صدر المؤامَرة مشاهرةً ومسانَهة ؛ فإن كان فى حصن ذكر فى صدر الأوراق عدّةَ أرباب الاستحقاقات ، ثم يفصّلهم بوظائفهم وأسمائهم من الخَرْجيّة[2] والأَجْقيّة[3] وغيرِهم .

ويلزمه رفعُ ضريبة مايُستأدَى من الحقوق ، يذكر فيها ما يستأديه ضامنُ كلِّ جهة من رسومها وحقوقها ، وما لعلّه يُستأدَى بالدُّروب من الخَفْر[4] ، وغيرذلك من سائر مايُستأدَى من حقوق تلك المعاملة ، وما لعلّه يُقتَطع من أرباب النقود والمَكيلات وغيرِهم من الوفر والمقتطَع على اختلاف الضرائب ، بحيث لايخلّ بشىء منها ، لتُعلَم بذلك أحوالُ تلك الجهة ، فلا يمكن للضُّمّان أن يستأدوا زيادة على ذلك ، لما فيه من تجديد الحوادث على الرعيّة .

---

(١) فى الأصل : «ومولد» ؛ وهو تحريف ، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٢) لم نجد من معانى هذا اللفظ ما يناسب سياق الكلام فيما راجعناه من الكتب التى بين أيدينا ، وقد سألنا بعض من لهم علم بالمصطلحات التركية القديمة فأخبرنا أن المراد بهذه الكلمة الذين يقبضون استحقاقهم حنطة ولحما ونحو ذلك من المأكولات ؛ ويرجح ذلك عطف الأجقية عليه .

(٣) المراد بالأجقية الذين يقبضون استحقاقهم نقودا ، وهو نسبة الى الأجقة ، وهو لفظ تركى يراد به نوع من النقود ، كما فى معجمات هذه اللغة . والذى فى الأصل : «والأجقة» بدون ياء النسبة ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٤) "من الخفر" بيان «لما» يريد من أجرة الخفر ، وهو الحراسة .

ومما يلزمه رفعُه فى كلّ سنة تقديرُ الآرتفاع — وهو الآرتفاع بعينه إلا أنه لا يضيف فيه حاصلا ولا باقيا، ولا يفصِّل فيه الجوالىَ بالأسماء، بل يعقد الجملةَ فى صدره على ما يُستحَقّ بتلك المعاملة من جهات الأصول والمضاف، ويخصم بالمرتَّب عليها عن سنة كاملة، ويسوقه إلى خالص أو فائض[1]، ليَظهَر بذلك ميزانُ تلك الجهة .

هذا ما يَلزَم المباشرَ رفعُه مشاهرةً ومسانَهة .

ويلزمه فى كل ثلاث سنين رفعُ الكشوف الجيشيّة، يذكر فيها أسماء النواحى العامرة والغامرة، والفُدُنَ الكادية[2] والعاطلةَ وما تقدّم شرحه فى الضريبة: مِن ذكرِ البِذار والرَّيْع والشروطِ والمطلَقِ وغيرِه؛ ثم يذكر المتحصّل منها فى ثلاث سنين لثلاث مُغَلّات، يعقد على ذلك جملة، ويفصّله بسنيه وأقلامه، ولا يخلّ بشىء مما بكلّ ناحية من الحقوق الديوانيّة والإقطاعيّة، ويعقد فى صدر الكشف جملة على عدّة النواحى وعدّة الفُدُن، وجملةَ جهات العين والغلّة، مفصّلا بالمعاملات[1]؛ هذه هى الحسابات اللازمة .

وأما المقترَحات — فلا يمكن ضبطها، إلا أنه مهما آقتُرِح مما يكون سائغَ الآقتراح مُمكنَ العملِ لَزِمَ الكاتبَ عَمَلُه .

وحيث آنتهينا إلى هذه الغاية فلنذكر أرباب الوظائف .

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٨١ من هذا السفر .

(٢) فى الأصل : « الكادنة » ، وهو تحريف؛ ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ؛ وقد تقدم تفسير الكادية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٩٥ من هذا السفر .

ذكر أرباب الوظائف وما يلزم كلا منهم مع حضور رفقته ومع غيبتهم وما يسترفعه كل مباشر عند مباشرته وما يلزمه عمله

أما المشدّ[1] أو المتولّى — فالذى يَحتاج إلى استرفاعه عند مباشرته ضرائبُ أصول الأموال والمرتَّبُ عليها ليَعلَم حالَ المعامَلة، وما بها من الخالص، أو عليها من الفائض؛ ويسترفع أوراقا بالحاصلِ والباقى والفائِض والمتأخر[2]، ليَعلمَ أحوالَ الناس ومحاسباتهم، ويعلمَ ممّن يَطلُب وإلى من يَصرِف؛

والذى يلزمه عمارةُ البلاد، واستجلابُ من نزح منها، وإقامةُ السطوة، وإظهارُ المَهابة والحرمة، وتسهيلُ السُّبل، وإقامةُ الخُفَراء عليها، وتشييدُ مَنار الشرع الشريف، والتسويةُ بين القوىّ والضعيف؛

ويلزمه استخراجُ الأموال من سائر جهاتِها ووجوهِها المستحقّة[3] فى مباشرته، والبواقى التى رُفِعتْ إليه بعد تحقيقها بحيث لا ينطرد إلى الباقى الدرهمُ الفرد؛ ومتى انساق فى مباشرته شىءٌ لزِمَه؛

ويلزمه تقريرُ الجنايات[4] والتأديبات على أرباب الجرائم لتنحسم بذلك مَوادُّ المفسدين.

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٦٢.

(٢) فى الأصل: «والمتأجر» بالجيم؛ وهو تصحيف.

(٣) سياق العبارة يقتضى أن المراد بالمستحقة هنا، المطلوبة منها الحقوق، يقال: «استحقه» اذا طلب منه حقه انظر لسان العرب.

(٤) فى الأصل: «الجبايات» بالباء، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

وأما الناظر على ذلك — فيحتاج عند مباشرته الى آسترفاعِ ضرائبِ أصول الأموال ومضافاتِها، والمستأدَى من الحقوق، وضرائبَ[(١)] بما آستقرّ إطلاقُه، وأوراق الحاصل والباقى، وأوراقِ الفائض والمتأخّر، وتقديرِ الآرتفاع، والكشوفِ الجيشيّة، ويطالب بمخازيم[(٢)] المياوَمَة لآستقبال مباشَرته، والخِتَم والتّوالِى عند مضىّ المدّة، والأعمالِ وسائرِ الحُسبانات المتقدّم ذكرُها فى أوقاتها، وما لعلّه يقترحه ممّا يَسُوغ آقتراحُه ويمكن عملُه؛

والذى يلزمه الآجتهادُ فى عمارة نواحى آلخاصّ، وتمييز آلجهات ونموّها[(٣)]، والنظر فى أحوال المعاملات[(٤)]، وإزاحةُ أعذارها، وتقرير قواعدها، وآختبار من بها من المباشرين، والكشف عن أحوالهم، وكَتْبِ[(٥)] كلّ واحد منهم بما يلزمه مباشرةً وعملا، ويَتصفّح ما يَرِد عليه من الحُسبانات الصادرة عنهم؛ وينظُر فيما يتجدّد من أحوال المعاملاتِ[(٤)] وما يطرأ من الحوادث على آختلافها مما لا يحصره ضبط، بل هو بحسَب ما يقع؛ وإنما جعلنا هذه الإشاراتِ أُنْمُوذَجا يُستدَلّ بها على ما بعدها؛

ويقيِّد بخطّه الآستدعاءاتِ والإفراجاتِ والمراسيمَ والتواقيعَ وغيرَ ذلك مما جرت به العادة: من الكتابة بالمقابلةِ والثبوتِ والتّمحِيَة[(٦)] والآعتمادِ وغيرِ ذلك.

---

(١) ضرائب المستقر إطلاقه: هى التى تسمى عند الكتّاب بالمؤامرات، كما سبق ذلك فى صفحة ٢٩٦ من هذا السفر مع بيان كيفية عملها، فانظره.

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٦٠.

(٣) لعل صوابه: «وتمييزها» كما يقتضيه العطف على «تمييز».

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٨١ من هذا السفر.

(٥) فى الأصل: "وكشف" وهو لا يستقيم مع قوله بعد: "بما يلزمه". ولعل صوابه ما أثبتنا؛ والمعنى أنه يكتب كل مباشر بما يلزمه من الأعمال ليسأل كل مباشر عن عمله وتكون عليه التبعة دون غيره فيما قصّر فيه.

(٦) فى الأصل: «التجهية»؛ وهو تحريف لا معنى له؛ وما أثبتناه هو المناسب لاصطلاحات الكتّاب.

وأما صاحب الديوان — فإنه يسترفع مايسترفعه الناظر من المعالم خاصّة، وليس [له] أن يسترفع الأرتفاعاتِ ولا شواهدَها؛ فإن آسترفعها لزمه من دَرَكها[1] ما يلزم المستوفِي؛ وهو يَكتُب على ما يكتب عليه الناظر، وله زيادةٌ على ذلك: وهى الترجمة على التذاكر والأستدعاءات، والكتابةُ على تواقيع المباشرين بأخذ خطوطهم عند آستخدامهم، والكتابةُ على محرَّراتهم بالتخليد، والكتابةُ على تذاكر المخرَّج والمردود الصادرةِ عن مستوفِى العمل بأن يجيب المباشرون عنها بما يَسُوغ قبولُه، والكتابةُ بقبول الجواب عند عَوده إن كان سائغا، والكتابةُ على الحساب الصادِرِعن المباشِرين بتخليده [فى] ديوان الأستيفاء بعد أن يتصفّحه وتَظهَرَ له سياقةُ[2] أوضاعه؛ وكلُّ عمل لا يكون له صاحبُ ديوانٍ قام الناظر بهذه الوظيفة إلّا الكتابةَ بقبول آلحساب.

وأما مقابِل الأستيفاء — وهو بمنزلة الشاهد فى ديوان الأصل — فله أن يسترفع المعالمَ لنفسه فى كلّ سنة، ويسترفِعَ نتيجةَ الحُسبانات اللازمة التى تصدر الى الديوان العالى بالباب الشريف، ويضبِطَ[3] مياومة المجلس، ويكتبَ على ما يكتب عليه المستوفِى، ويكتبَ على الحُسبانات الواصلة من جهة المباشرين بتاريخ حضورها إلى الديوان قبل تخليدها [فى] ديوان الأستيفاء، ويَسُدَّ[4] بقلمه تواريخَ التذاكر والمراسيم، ويتصفّحَ ما يصدر عن المستوفى من المخرَّج والمردود

(١) الدرك: التبعة.

(٢) فى الأصل: «سباغة»، وهو تصحيف.

(٣) ضبط هذا اللفظ فى اللسان بضم الباء ضبطا بالقلم؛ وفى المصباح أنه من باب ضرب.

(٤) كذا ورد هذا اللفظ هنا وفى ص ٣٠٢ س ١١ من هذا السفر؛ ولم نقف على المعنى الاصطلاحى الذى يريده كتّاب الدواوين به.

ويطالِب بحَمْل ما ثبت منه، ويطالِب أربابَ الخطوط والبُذول[1] بما يُستحَقّ عليهم (٦٤)
ويُنِيب شادَّ[2] الدواوين عنه[3]، ويكتُب فى كلّ يوم بما يطالب به ؛ واذا لم يكن للديوان مقابل قام المستوفى بوظيفته .

وأما المستوفِى — فله أن يسترفعَ سائرَ الحُسبانات اللازمة، وما تدعو إليه حاجته من المقترَحات فى المُدد الماضية والحاضرة ممّا يمكن عمله ، فاذا صار الحساب إليه مشمولا بخطّ صاحب الديوان بتخليده ومؤرَّخا حضورُه بخطّ المقابِل تصفَّحه واستوفَى تفاصيلَه على جُمَلِه أصلا وخصما، وشَطَبَ ما يحتاج إلى شطبه — كلَّ عملٍ على شواهده — وخرَّج ورَدّ ما يتعيّن تخريجُه ورَدُّه ، وكتب بذلك مطالَعةً تُعرَض على المقابِل، فإذا وافقه عليها عُرِضت على صاحب الديوان وكَتَب بالإجابة عنها، ثم يطالِب المباشرَ بالإجابة عمّا تجب الإجابة عنه، وإضافةِ ما تجب إضافتُه [الى][4] حساب المدّة التالية لتلك المدّة، وحَمْلِ ما يجب حملُه ؛ وتكون إضافتُه فى الحساب منسوبةً إلى قلم مستدرَكِه ؛ فإن أخَّر استيفاءَ الحُسبانات وشطْبَها وتخريجَ[5] ما يَلُوح فيها ومضت عليها مدّة يمكن فيها العملُ، كان

(١) الظاهر أنه يريد بأرباب الخطوط والبذول : الذين يكتب لهم من السلطان ببذل شىء من الإقطاعات ونحوها .

(٢) شادّ الدواوين هو شخص يكون رفيقا للوزير متحدثا فى استخلاص الأموال وما فى معنى ذلك ؛ والعادة أن يكون أمير عشرة . انظر صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ فى شرح وظيفة شدّ الدواوين .

(٣) فى الأصل : «عليه» ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٥) فى الأصل : «وتخرج» وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا كما يرشد اليه ما ورد فى قوانين الدواوين صفحة ٨ طبع مطبعة الوطن ، فى الكلام على المستوفى إذ قال : «وإن ظهر أنه لم ينبه على وجوب مال أو استرفاع حساب أو آخر ما يجب تقديمه ، أو أهمل ما تعين تخريجه» الخ .

ما يتعيّن فيهـا لازما له إذا عُنِّت[1]، وإلا فتلزمه إعادةُ ماتناوله من الجامكيّة[2] عن تلك المدّة، ويطالَب مَن صدر عنه الحسابُ بمـا يلزمه ؛

ويتعيّن على المستوفِى أنه إذا رُفِـع اليه حسابُ معاملة تأمّل[3] خطوطَ المباشرين على عاداتهم، [و][4] نظر فيه[5] بعد ذلك ، فإن تغيّرت عن العادة، فإن كان بزيادة تأكيد فلا بأس، وإن كان بإخلال مثلَ أن يكتُب الشاهدُ على الحساب بالمقابلة، وعادتُه أن يكتُب : «الأمرُ على ماشُرِح» يَلزَمه الكشفُ عن موجِب ذلك ؛

ويَلزَم المستوفَى ضبطُ مياوَمة المَجلس، وكتابةُ الكشوف بخطّه والتـذاكر ونُسَخ المحرَّرات، وتعيينُ الجهات لأربابها بعد كتابة الناظر بتعيين الجهة، وعليه نَظْمُ جوامع التقدير بعـد عمل موازينها وتحريرها وشـطْبها على التقادير الصادرة عن المباشرين وجوامعِ الحواصـل : من العَين والغلالِ والكُراع[6] والأصـناف المعدودة والموزونة والمذروعة[7] والسـلاح خاناه والعُدَدِ والآلاتِ وغيرِ ذلك، يَسُدّ على ما أمكن سـدُّه جملة، ومالايمكن نَثْرَه أقلاما يستشهد فيها بما رُفِـع اليه من جهة المباشرين، وكذلك يَعتمِد فى جامعة البواقى، يَعقِد عليها جملة، ويفصّلها بمعاملاتِها وجهاتِها وسنيها وأسماءِ

(١) عنت بالبناء للمجهول ، أى شدّد عليه وأريد به العنت ، وهو المشقة .

(٢) تقدّم شرح الجامكية فى الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٠٥ من هذا السفر، فانظره.

(٣) «تأمل خطوط المباشرين على عاداتهم» . أى نظر فيها مطابقا لها على عاداتهم فى الكتابة .

(٤) فى الأصل، « نظر » بدون واو؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٥) « فيه » ، أى فى الحساب السابق ذكره .

(٦) الكراع : هى الدواب «انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى» ، وانظر سياقة الكراع فى صفحة ٢٨٣ من هذا السفر .

(٧) المذروعة، أى المقيسة .

مباشريها ، وما يُرجَى منهـا ومالا يُرجَى بمقتضى أوراق المباشرين ؛ وكذلك يَعتمِد فى جامعة الفائض والمتأخّر وغيرِ ذلك من الجوامع ؛

وعليه عملُ ما يُطلَب من الأبواب من المقترَحات والمطاوَلات ؛

ويَلزمه عملُ المقايَسات وفوائدِ المتأخّر، وغير ذلك من لوازم قـلمِ الآستيفاء ؛

٥ ويَلزَمه محاسباتُ أرباب النَّقْدِ والكيلِ المرتّبين على ما تَعيَّن بقلم الآستيفاء، فيحاسبهم على آستحقاقاتهم، ويَعتدّ[1] عليهم بمـا ثبت ممـا عيّنه لهم بقلمه ؛

ويَلزَمه التنبيهُ على خواص المعامَلات وطلبها : حَمْلا[2] الى بيت المـال، أو حَوالةً على ما يعيّنه بقلمه ؛

ويلزمه تخريجُ تَفَاوُت[3] المُدد والمحلولات[4] وغيرِ ذلك ؛

١٠ ويلزمه التفريعُ[5] بما يصل اليه من الخَوْطات الجيشيّة لِوقتِه على ماجرت به العادة.

ووظيفة الآستيفاء كبيرة ، كثيرةُ الأعمال، لا تنحصر لوازمها فى كتاب ، وانمـا هى بحسب الوقائع .

فاذا آنفصـل المستوفى من المباشرة فليس له أن يأخذ ورقةً من حسابه الذى آسترفعه أو وضعه بقلمه، ويتلقّاه المباشرُ بعده .

---

١٥ (١) فى الأصل : «ويعتمد» ، والميم زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : «جملا» بالجيم، وهو تصحيف .

(٣) «تفاوت المدد» ، أى ما توفر من الأموال عما فات من المدد، كما يستفاد من قوانين الدواوين ص ٢٠ طبع مطبعة الوطن وقد ذكر صاحب قوانين الدواوين مثالا لذلك يوضح هذا المعنى ، فانظره .

(٤) يريد بالمحلولات : الاقطاعات التى انحلت عن أصحابها ولم تقطع لآخرين .

٢٠ (٥) لعل صوابه : «التعريف» .

(٦٥) وأما المُشارِف — فله أن يسترفع عنـد مباشرته مَعالمَ الجهـة ليستعين بها على المباشرة : من ضرائبَ وتقاديرَ[(١)] وحاصـلٍ وباقٍ وفائض ومتأخرٍ وغيرِ ذلك ؛ وهو مطلوب بتحقيق الحواصل، وله الخَتْمُ عليها ؛ وهو مطلوب بنَظْم سائر الحُسبانات اللازمة والمقترَحة إن تَسحب[(٢)] العامل أو مات، ومع وجود العامل إن كان قد ٱلتزم عند مباشرته العملَ ؛ وتلزمه المقابَلةُ مع العامل على الحساب الصادر عنهما، وسِياقةُ التعليق معه ، والكتابةُ على الوُصولات[(٣)] والحُسبانات ؛ وهو مطلوب بجميع ما يُطلَب به العاملُ من المخرَّج وغيرِه .

وأما الشاهد — فيلزمـه ضبطُ تعليق المياوَمة ، والكتابةُ على الوُصولات[(٣)] والحُسبانات؛ومتى فُقِد العاملُ والمُشارِفُ لَزِمه رفعُ ٱلحساب اللازم دون المقترَحات ؛ ولا بدّ له من جريدة مبسوطة على الأصل والخصم .

وأما العامل — فقد قدّمنا ذكرَ ما يحتاج إليه كلُّ مباشر مِن ضبطِ تعليق المياوَمة[(٤)] وبسْطِ الجريدة وخدمتِها فى الأصـل والخصم أوّلا فأوّلا ، والتيقُّظِ لذلك وأنّ من أهمله فقـد قصّر فى مباشرته وأخَلّ بوظيفته ؛ والعاملُ أَحْرَى بجميع ذلك ممن سواه من سائر المستخدَمين، لمـا هو مطلوب به من نَظْمِ الحُسبانات ومَوْقِعِه[(٥)] مِن

(١) يريد بالتقادير ، تقادير الآرتفاعات ، وقد سبق الكلام على تقدير الآرتفاع فى صفحة ٢٩٧ من هذا السفر، فانظره . والذى فى الأصل : « مقادير » بالميم ؛ وهو تحريف .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٨٢ من هذا السفر .

(٣) انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٣١ من هذا السفر .

(٤) فى الأصـل : «مياومة التعليق» وفى هاتين الكلمتين تقديم وتأخير وقعا من الناسخ ؛ والصواب ما أثبتنا ، كما سبق فى سطر ٨ من هذه الصفحة ومواضع أخرى من هذا السفر .

(٥) فى الأصل : «ومتوقعه» ، ولعل صوابه ما أثبتنا إذ به يستقيم الكلام .

عملِ المقترَحات والأجوبةِ عن المخرَّج والمردود ، وأنه هو الملتزِمُ لذلك[(١)] دون غيره وأنه لا يَلزم من سواه شيءٌ من الأعمال مع وجوده .

وقد ذكرنا تلخيصَ قواعد هـذه الكتابة والمباشِرين وأوضاعِهم ولوازمِهم والأوضاع الحسابيّـة وغير ذلك من مَعالم المباشَرات ، مجمَلا غيرَ مفصَّل ، و بعضا من كلّ ، وقليـلا من كثير ، إذ لو آستقصينا ذلك لطال ولتعذَّر لآختلاف المباشَرات والوقائع والأوضاع والآراء ؛ ولقـد حصل الآجتماعُ لجماعة من مشايخ أهلِ هـذه الصناعة ممّن آتّخذها حرفة من مبادئ عمره إلى أن طَعَنَ فى سـنّه ، وما منهم إلا من يُخبِر أنه يَستجِدّ[(٢)] له فى كلّ وقت من أحوال المباشَرات ما لم يسمع به قبل ، ولا طرأ[(٣)] له فيما سلف من عمره ؛ فكيف يمكن حصرُ ما هو بهذه السبيل؟ ! وفيما نبّهنا عليه مَقْنَعٌ لطالب هذه الصناعة ، والعمدةُ فيها على الدُّرْبة والمباشرة ، وقد قيل :

ولا بدّ من شيخ يريك شخوصَها وإلّا فنَصُّ العـلم عندك[(٤)] ضائعُ

كمل الجزء الثامن من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى
— رحمه الله تعالى — ويليه الجزء التاسع وأوّله :
ذكر كتابة الحكم والشروط

---

(١) فى الأصل : «بذلك» ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أن «التزم» يتعدّى بالباء .

(٢) «يستجدّ» بكسر الجيم ، أى يتجدد ؛ وفى المصباح أن استجد قد يستعمل لازما .

(٣) لم نقف فيما راجعناه من كتب اللغة على أنه يقال : « طرأ له » والذى وجدناه أنه يقال : « طرأ عليه » ؛ ولعله ضمن « طرأ » معنى « وقع » فعدّاه باللام مكان « على » .

(٤) فى الأصل : « منك » ولا يستقيم الوزن به ؛ ولعله تحريف صوابه ما أثبتنا .

استدراك

راجعنا هذا الجزء بعد طبعه فبدت لنا فى تفسير بعض ألفاظه معانٍ أخرى، نرجّحها على ما كتبناه أوّلا فى حواشيه فرأينا أن نستدركها فى آخره خدمة للعلم وتتميما للفائدة .

ص	س	
٦٠	٩	«بنوء المُرزِم» وكتبنا على قوله : «المُرزِم» ما نصه : المرزم : «من أرزم الرعد اذا اشتدّ صوته» اهـ

ومع صحة هذا الضبط واحتمال اللفظ لذلك التفسير المتقدّم فإننا نرجّح أن يضبط : «المِرزَم» بكسر الميم وفتح الزاى ، وهو من نجوم المطر قال فى اللسان : «المِرزَمان، نجمان من نجوم المطر، وقد يفرد» .

١٩٣	١١	«من ضريبة وموافرة» وكتبنا على قوله : «وموافرة» ما نصه : «فى الأصل : «وموامرة» بالميم؛ وهو تحريف» اهـ

وقد بدا لنا بعدُ أنّ للفظ «المؤامَرة» معنًى مصطلحا عليه بين كتّاب الدواوين، وتصح إرادته فى هذا الموضع؛ فقد ورد فى مفاتيح العلوم ص ٥٦ طبع أوربا ما نصه : «المؤامرة عملٌ تُجمع فيه الأوامر الخارجة فى مدّة أيام الطمع، ويوقّع السلطان فى آخره بإجازة ذلك؛ وقد تُعمَل المؤامرة فى كل ديوان تجمَع جميع ما يُحتاج اليه من استثمار واستدعاء توقيع» اهـ وانظر صفحة ٢٩٦ من هذا الجزء .

٢٠٢	٥	«والبذول»؛ وكتبنا على هذه الكلمة ما نصه : «كذا فى الأصل؛ ولم نجد من معانى هذه الكلمة ما يناسب سياق ما هنا» اهـ

ويظهر لنا أن البذول فى هذا الموضع جمع بذل؛ والمراد ما يبذله السلطان من الإقطاعات لخواصّه وأجناده؛ وقد نبهنا على هذا المعنى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٣٠١، فانظره .

ص	س	
٢٠٢	٨	«مبقِلة» وكتبنا على هذه الكلمة ما نصه : «فى الأصل : «مقبلة» ، وفيه قلب صوابه ما أثبتنا كما يرشد اليه عطف المتوسطة والمجدبة عليه الخ» .

ومع جواز ما اخترناه واستقامة الكلام به فقد بدا لنا أنه يصح أن يراد بقوله : «مقبلة» ، السنة التى تقبل بالنبات ، أى تجىء به . وقد ذكرنا هذا المعنى فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٢٩٥ ، فانظره .

٢٠٣	١	«ويحتاج الى أن يتعاهد مباشرى المعاملات» ولم نفسّر لفظ المعاملات فى هذا الموضع ، وقد فسرناه فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٨١ ، فانظره .
٢٠٤	١٣	كلمة «الزردكشية» وكتبنا عن هذه الكلمة ما نصه : «الزردكشية» هم لابسو الدروع ؛ وكش باللغة الفارسية معناه لابس انظر المعجم الفارسى الإنجليزى تأليف ستاين جاس مادة (كشيدن) .

هذا ما كتبناه فى تفسير هذا اللفظ ؛ وقد وقفنا بعد ذلك على أنهم يريدون بالزرد كاشية : صانعو الزرد والأسلحة انظر صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢

ونحن نرجّح هذا المعنى ونؤثره على الأوّل .

٢٢٩	٣	قوله : «فإن تعذر فبالوجه» وكتبنا فى تفسير هذه العبارة ما نصه : «الظاهر أنه يريد بالوجه هنا : الجاه ، أى إن تعذر الكفيل ذو المال والغنى قبلت الكفالة بذى الجاه وإن لم يكن غنيا» اه

وقد بدا لنا بعد ذلك فى تفسير هذه العبارة معنى آخر نرجّحه على الأوّل ، وهو أن الكفالة بالوجه هى أن يضمن الكافل إحضار المكفول بوجهه ، أى بذاته ، اذا طُلِب منه أن يُحضره ؛ فمعنى العبارة إذن أنه إن تعذّر الكفيل بالمال قبلت الكفالة بأن يُحضِر الكافل شخص المكفول .

إصـــلاح خطـأ

ص	س	خطـأ	صـواب
٤٦	١٤	ذُكِرَ	ذَكَا
٦١	٢٢	حاضرة أى سابقة	حاضَره، أى سابَقَه
»	»	التفضّـل	الفضـل
١٢٣	١	ونرجوا	ونرجو
١٢٨	٥	ونرجوا	ونُرجو
١٣٢	١٦	كان كان صحيح	كان صحيح
١٣٣	٥	نرجوا	نرجو
١٤٤	١٨	أنّ	إنّ
١٦٥	١٣	أثارك	آثارك
١٨٧	٢	الرَّضىّ	الرِّضا
٢٠٤	١٣	والزَّرَد كَشِيّة	والزَّرَد كاشِيّة
٢٠٨	٢	وأقدرَ	وأقدرُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٨١٣/١٩٢٩/٢٥٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الثامن

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

فهرس

السفر الثامن

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

	صفحة
ذكر نبذة من كلام القاضى الفاضل محيي الدين أبى على عبد الرحيم البيسانى	١
ذكر شيء من رسائل الإمام الفاضل ضياء الدين أبى العباس أحمد بن أبى عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن عمر بن عبد المنعم الأنصارى القرطبيّ	٥١
ذكر شيء من إنشاء المولى القاضى الفاضل محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر	١٠١
ذكر شيء من إنشاء المولى الماجد علاء الدين عليّ بن فتح الدين محمد بن محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر	١٢٦
ذكر شيء من إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد ايمانى	١٤٩
ذكر شيء من الأبيات الداخلة فى هذا الباب	١٦٣
ومما يتصل بهذا الباب ويلتحق به ويحتاج الكاتب الى معرفته والاطلاع عليه الحجة البالغة والأجوبة الدامغة	١٦٦
هفوات الأمجاد وكبوات الجياد	١٧٥
ذكر شيء من الحِكَم...	١٨١
ومن الأبيات المناسبة لهذا الفصل	١٨٩
ذكر كتابة الديوان وقلم التصرف وما يتصل بذلك	١٩١
ذكر اشتقاق تسمية الديوان ولم سمى ديوانا ومن سمّاه بذلك	١٩٥
ذكر ما تفرّع عن كتابة الديوان من أنواع الكتابات	١٩٥

صفحة

ذكر مباشرة ديوان الجيش وسبب وضع الدواوين وأول من وضعها
في الإسلام... ... ... ١٩٦
وأما دواوين الأموال ١٩٨
ذكر ما يحتاج اليه كاتب الجيش ٢٠٠
وأما مباشرة الخزانة ٢١٣
وأما مباشر بيت المال ٢١٧
وأما مباشر أهراء الغلال ٢١٩
ذكر مباشرة البيوت السلطانية : — فيحتاج مباشر الحوائج خاناه الى أمور... ٢٢١
وأما الشراب خاناه ٢٢٤
وأما الطشت خاناه ٢٢٥
وأما الفراش خاناه ٢٢٦
وأما السلاح خاناه ٢٢٧
ذكر جهات أموال الهلالى ووجوهها وما يحتاج اليه مباشروها ٢٢٨
ذكر الجزية الواجبة على أهل الذمة وما ورد فيها من الأحكام الشرعية الخ : —
أما الأحكام الشرعية ٢٣٤
وأما ما اصطلح عليه كتّاب التصرّف فى زماننا هذا من استخراجها وموضع
إيرادها فى حسباناتهم ٢٤١
وأما نسبتها فى الإقطاعات الجيشية ٢٤١
وأما ما يلزم مباشر الجوالى وما يحتاج الى عمله ٢٤٢
ذكر جهات الخراجى وأنواعه وما يحتاج اليه مباشره ٢٤٥
أما الديار المصرية وأوضاعها وقوانينها وما جرت عليه قواعدها الخ ٢٤٦
وأما جهات الخراجى بالشأم وكيفيتها وما يعتمد عليه مباشروها ٢٥٥
ومن أبواب الخراجى الخ ٢٦١

صفحة

وأما ما يشترك فيه الهلالىّ والخراجىّ ويختلف باختلاف أحواله : —
أما المراعى ٢٦٢
وأما المصايد ٢٦٢
وأما الأحكار ٢٦٤
وأما أقصاب السكّر ومعاصرها : — قاعدتها الكلية التى لا تكاد تختلف
فى الديار المصرية ٢٦٤
ذكر كيفية الأعتصار والطبخ وتقدير المتحصّل... ... ... ٢٦٧
وأما أقصاب الشأم ٢٧١
ذكر أوضاع الحساب وما يسلكه المباشر ويعتمده فيها : — تعليق اليوميّة ٢٧٣
ذكر ماينتج عن التعليق من الحسبانات بعد المخازيم : — فأما الختم... ... ٢٧٥
وأما التوالى : — توالى الغلال ٢٧٦
ولهم أيضا توالٍ يسمونها توالى الأرتفاع ٢٧٧
ولهم أيضا توالى الأعتصار ٢٧٨
وأما الأعمال ٢٧٨
فأما أعمال الغلال والتقاوى ٢٧٨
وأما عمل الأعتصار... ... ... ٢٧٨
وأما عمل المبيع ٢٨٠
وأما عمل المبتاع ٢٨١
وأما عمل الجوالى ٢٨١
وأما عمل الخدم والجنايات والتأديبات ٢٨٢
وأما السياقات ٢٨٢
فأما سياقة الأسرى والمعتقلين ٢٨٣
وأما سياقة الكراع ٢٨٣
وأما سياقة العلوفات ٢٨٤

صفحة
وأما سياقات الأصناف والزردخاناه والعدد والآلات والخزائن والبيمارستانات ٢٨٤
وأما الأرتفاع ٢٨٥
ومن أبواب المضاف ما يضاف بالقلم ٢٨٧
ومن وجوه المضاف الغريبة الخ ٢٨٧
وأما الحواصل المعدومة المساقة بالأقلام ٢٩٠
وان انفصل الكاتب أثناء السنة الخ ٢٩٢
ومما يلزم الكاتب رفعه المحاسبات — : محاسبة أرباب النقود الجيشية والمكيلات الخ... ... ... ٢٩٣
ومنها محاسبات أرباب الأجر والأستعمالات ٢٩٤
ومما يلزم الكاتب رفعه ضريبة أصول الأموال ومضافاتها الخ ٢٩٤
ويلزمه رفع المؤامرات ٢٩٦
ويلزمه رفع ضريبة ما يستأدى من الحقوق ٢٩٦
ومما يلزمه رفعه فى كل سنة تقدير الأرتفاع ٢٩٧
ويلزمه فى كل ثلاث سنين رفع الكشوف الجيشية... ... ... ٢٩٧
وأما المقترحات ٢٩٧
ذكر أرباب الوظائف وما يلزم كلا منهم مع حضور رفقته ومع غيبتهم وما يسترفعه كل مباشر عند مباشرته وما يلزمه عمله — : أما المشد أو المتولى ٢٩٨
وأما الناظر على ذلك ٢٩٩
وأما صاحب الديوان ٣٠٠
وأما مقابل الأستيفاء ٣٠٠
وأما المستوفى ٣٠١
وأما المشارف ٣٠٤
وأما الشاهد ٣٠٤
وأما العامل ٣٠٤

بيان

ليس لدينا من نسخ هـذا الجزء غير نسخة واحدة مأخوذة بالتصوير الشمسى ومحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٧٠ تاريخ، وهى المشار اليها فى بعض حواشى هـذا الجزء بحرف (ا) ، وقطعتين من نسختين أخريين أُخِذتا بالتصوير الشمسى وحُفِظتا بدار الكتب المصرية : إحداهما تحت رقم ٤١٦ (معارف عامة)؛ وهى المشار اليها فى بعض حواشى الجزء بحرف (ب) وتنتهى فى السطر التاسع من صفحة ٦٩ من هذ الجزء؛ وقد نبّهنا الى موضع انتهائها فى حواشيه ؛ والثانية تحت رقم ٥٥١ (معارف عامة)، وهى المشار اليها فى بعض الحواشى بحرف (ج) وتبتدئ من السطر السادس من صفحة ١٠١ وتنتهى فى السطر السادس من صفحة ١١٣ وقد نبهنا على موضع انتهائها فى الحواشى أيضا .

وليس التحريف فى هاتين القطعتين بأقلّ منه فى النسخة الأولى ، فإن التحريف فى جميع هذه الأصول يكاد يكون متفقا ، كما يتبين ذلك مما كتبناه فى بعض الحواشى إذ نقول : «فى كلا الأصلين» أو «فى كلتا النسختين كذا ؛ وهو تحريف» أو « تصحيف » .

وعلى كل حال فقد بذلنا ما نستطيع فى إصلاح المحرّف والمصحّف من كلماته ، وتكميل الناقص من جُمَله ؛ وتحقيق أعلامه وضبطها ، وضبط الملتبس من ألفاظه ، وتفسير غريبه ، و إيضاح الغامض من عباراته ، وشرح ما أشكل من أبياته ونسبتها الى قائليها ، وشرح ما فيه من أسماء البلاد والأمكنة ، والتنبيه على ما فى هذا الجزء — ولا سيّما فى كتابة الديوان — من الكلمات العاميـة ، والألفاظ الاصطلاحية التى لم ترد فيما لدينا من كتب اللغة ، و بيان المراد منها ؛ فإن المؤلف قد استعمل بعض

هـذه الكلمات جريا على مصطلح كتّاب الدواوين فى استعمالها ؛ كما أننـا لم ندع التنبيه أيضا على ما استعمله المؤلف فى هذا الباب (أى كتابة الديوان) من مخالفات لغويّة فى صِيَغ الجموع وتعديَةِ الأفعال، كأن يعدِّىَ الفعل بنفسه ومقتضى اللغـة أن يتعدّى بالحرف ، أو العكس ، أو أن يعدّيَه بحرف واللغة تقتضى تعديَتَـه بحرف آخر؛ وغير ذلك ممـا استعمله المؤلف متّبعا فيه اصطلاح كتّاب الدواوين فى ذلك العهد ولم نجده فى كتب اللغة التى بين أيدينا؛ ولم نغيّر بعض هـذه الاستعمالات، بل أبقينا الأصل فيها على حاله لِعلْمنا أنهـا ترد كثيرا فى عبارات كتّاب الدواوين ، وأوّلْنا ما يستطاع تأويله منها .

أمّا الصعوبات التى صادفناها فى تصحيح هذا الجزء فإننا لم نكد نجـدُ صفحة من أصوله التى بين أيدينا خاليـة من عدّة كلمات وعبارات محرّفة أو مصحّفة غير مستقيمة المعنى ولا واضحة الغرض ، يحتـاج إصلاحها إلى زمن طويل ، وبحث غير قليل، وتحفُّظٍ من الخطإ، وحُسن اختيارٍ فى المحو والإثبات، وتفهُّمٍ لمـا يقتضيه السـياق من المعانى والأغراض ، ومعرفةٍ بأساليب الكتّاب ومصطلحاتهم فى كل عصر، ليكون المحو والإثبات تابعَين لمـا تقتضيه هذه الأساليب وتلك المصطلحات وخبرة بالكتب وأغراضها ، ومكان الفائدة منها، لئلا يضيع الزمن فى البحث عنها وتصفُّح جملتها .

أمّا طريقتنا فى التصحيح فقد كنّا نقف بالكلمة المحرّفة أو العبارة المغلقة فنحملها على ما يستطاع حملها عليه من المعانى، ونقلّبها على ماتحتمله من الوجوه،ونقرأ مادّة الكلمة فيما لدينا من كتب اللغة، ونرجع إلى ما نعرفه من مظانّها، فاذا لم يستقم المعنى بعد ذلك قلّبنا حروفها بين التحوير والتغيير، والتقديم والتأخير ، والحذف والزيادة،

والإعجام والإهمال، حتى يستقيم المعنى ويظهر الغرض، منبهين فى الحواشى على ما كان فى الأصل من حروف هذا اللفظ ووجه اختيار غيره وإثباته مكانه .

وقد تمّ طبع هذا الجزء فى عهد المدير الحازم، والمربّى الفاضل، الأستاذ "محمد أسعد براده بك" مدير دار الكتب المصرية .

فلا يسعنا فى هذا المقام إلا أن نشكره الشكر الجزيل على ما بذله ويبذله من العناية الصادقة بهذه الكتب، وما يسديه إلى مصححيها من الإرشادات القويمة، والاراء السديدة .

كما لا يفوتنا أن نثنى الثناء الجميل على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ "السيد محمد الببلاوى" مراقب إحياء الاداب العربيّة على حسن معاونته بما لديه من المعلومات الواسعة عن الكتب وأغراضها، والبحوث ومظانّها . ونسأل الله سبحانه حسن المعونة والتوفيق فى العمل .

مصحّحه

أحمد الزين

أسماء أهمّ الكتب والمصادر التى رجعنا اليها فى تصحيح هـــذا الجـــزء

وهى مرتّبة على حروف المعجم ومبيّنٌ فيها ماهو مطبوع فى غير مصر وما هو مخطوط أو مأخوذ بالتصوير الشمسى، ورقمه فى دار الكتب المصرية

أساس البلاغة، لجار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى .

الأغانى، لأبى الفرج على بن الحسين الأصفهانى .

إرشاد الأريب الى معرفة الأديب ، وهو معجم الأدباء لأبى عبد الله ياقوت الرومى الحموى .

أعيان العصر وأعوان النصر ، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى المأخوذ منه بالتصوير الشمسى بعض أجزاء محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٩١ تاريخ .

الأمالى، لأبى علىّ القالى .

الإرشاد الشافى على متن الكافى فى العروض والقوافى، وهو الحاشـية الكبرى للسيد محمد الدمنهورى .

أقرب الموارد فى فُصَح العربية والشوارد ، لسعيد الخورى الشرتونى اللّبنانى.

إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى ، لشهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلانى .

إخبـار العلماء بأخبار الحكماء، للوزير جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى، طبع أوربا .

الأحكام السلطانية، لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب المعروف بالماوردى طبع أوربا ومصر .

الأوائل ، لأبى هلال العسكرى، المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٠٥ تاريخ .

الأطعمة المعتادة، المأخوذ منه بالتصوير الشمسى نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥١ علوم معاشية؛ ولم يُعلَم مؤلّفه .

بدائع الزهور فى وقائع الدهور، المشهور بتاريخ مصر، لمحمد بن أحمد المعروف بابن إياس المصرى .

تاريخ العينى ، المسمى بعقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، للحافظ بدر الدين محمود، المعروف بالعينى المأخوذ منه بالتصوير الشمسى نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .

تاج العروس، وهو شرح القاموس، لمحب الدين السيد محمد مرتضى الحسينى الواسطى الزبيدى .

تاج اللغة وصحاح العربية، لأبى نصر اسماعيل بن حمّاد الجوهرىّ الفارابى .

التذكرة الصفدية، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، المحفوظ منها بدار الكتب المصرية بعض أجزاء مخطوطة تحت رقم ٤٢٠ أدب .

تاريخ أبى الفداء ، وهو المختصر فى أخبار البشر، للملك المؤيد أبى الفداء ، المعروف بصاحب حماة .

تاريخ ابن الأثير ، وهو المسمى بالكامل، لعز الدين على بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير الجزرىّ، طبع ليدن .

تاريخ الأمم والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، طبع أوربا .

تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون ، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، طبع بغداد .

التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ، لشرف الدين يحيي المعروف بابن الجيعان .

الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى .

الجامع لديوان الأدب ، فى اللغة ، المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥ لغة تأليف أبى ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابى .

حاشية الخضرى، على شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك .

حاشية الصبّان، على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك .

الحاوى الكبير، فى الفقه، لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى المعروف بالماوردى، المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٢ فقه شافعى .

خريدة القصر وجريدة أهل العصر، للوزير أبى عبد الله محمد بن محمد بن أبى الرجاء الكاتب الأصبهانى. وهذا الكتاب مأخوذ منه بالتصوير الشمسى بعض أجزاء محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٥٥ أدب .

الخراج، ليحيي بن آدم بن سليمان القرشى .

الخراج، لأبى يوسف يعقوب صاحب الإمام أبى حنيفة .

خطط المقريزى، وهو المسمى بالمواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

ديوان الشريف الرضىّ .

ديوان جرير .

ديوان الحماسة، لأبى تمّام حبيب بن أوس الطائى .

ديوان أبي الطيّب المتنبيّ .

دائرة المعارف، للبستاني .

درّة الغـوّاص فى أوهام الخواصّ ، تأليف أبي محمد القاسم بن على الحريرى.

الروضتين فى أخبار الدولتين، لشهاب الدين أبي شامة المقدسى .

روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، للسـيد محمود بن عبد الله الألوسي البغدادى .

زهر الآداب وثمر الألباب ، لأبى اسحاق ابراهيم بن على المعـروف بالحصرى القيروانى .

سقط الزند، لأبى العلاء المعرّى .

سيرة ابن هشام، وهو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرىّ .

سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون، لجمـال الدين أبي بكر محمـد بن محمد المعروف بابن نباتة المصرىّ .

شرح التنوير على سقط الزند، لأبى يعقوب يوسف بن طاهر النحوىّ .

شرح ديوان أبي تمّـام حبيب بن أوس الطائى، لأبى زكريا يحيي بن على المعروف بالخطيب التبريزى؛ وهذا الكتاب محفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش .

شرح حماسة أبي تمّـام، لأبى زكريا يحيي بن على المعروف بالخطيب التبريزى.

شرح ديوان أبي الطيّب المتنبيّ ، وهو المسمى بالتبيان لأبى البقاء عبد الله بن الحسين المعروف بالعكبرى .

شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل، لشهاب الدين الخفاجي .

شرح كافية ابن الحاجب فى النحو ، لرضىّ الدين محمد بن الحسن الإستراباذى النحوىّ .

صبح الأعشى فى كتابة الإنشا ، لشهاب الدين القلقشندى .

صحيح البخارى .

الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، لكمال الدين أبى الفضل الإدفوى .

طبقات الشعراء ، تأليف أبى عبدالله محمد بن سلّام الجمحىّ البصرىّ ، طبع أوربا .

الطبقات الكبرى ، لأبى عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدى طبع أوربا .

عيون الأخبار ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينورى .

العقد الفريد ، لأحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبىّ .

الفاضل من كلام القاضى الفاضل ، اختيار جمال الدين أبى بكر المعروف بابن نباتة المصرىّ ، وهذا الكتاب مأخوذة منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٨٨٢ أدب .

القاموس ، لمجد الدين الفيروزابادى .

قوانين الدواوين ، للأسعد بن مماتى .

لسان العرب ، لأبى الفضل جمال الدين المعروف بابن منظور الإفريقىّ المصرىّ .

لزوم ما لا يلزم ، لأبى العلاء المعرّى .

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، لشهاب الدين المعروف بابن فضل الله العمرى القرشى ؛ وهذا الكتاب مأخوذة منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ .

مغنى اللبيب ، لجمال الدين بن هشام الأنصارى .

ملخّص تاريخ الخوارج، للشيخ محمد شريف سليم .

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، لأبى المحاسن جمال الدين المعروف بابن تغرى بردى وهذا الكتاب محفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١١٣ تاريخ .

المصباح المنير، لأحمد بن محمد المقرى الفيومى .

المغرب فى ترتيب المعرب، لأبى الفتح ناصر بن عبد السيد المطرّزى .

محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى .

المستطرف فى كل فن مستظرف، لشهاب الدين أحمد الأبشيهى .

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لأبى الفتح عبد الرحيم العباسى .

معيد النعم ومبيد النقم، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ، طبع أوربا .

المعرّب والدخيل ، للشيخ مصطفى المدنى، المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ لغة .

المعرّب من الكلام الأعجمى ، لأبى منصور موهوب المشهور بالجواليقى ، طبع أوربا .

معجم البلدان، لياقوت، طبع أوربا .

مقدّمة ابن خلدون .

المعجم الفارسى الإنجليزى، تأليف ستاين جاس .

مفاتيح العلوم، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمىّ، طبع أوربا .

مناقب الليث بن سعد، للحافظ أبى الفضل شهاب الدين أحمد الشهير بابن حجر العسقلانى .

المخصّص، فى اللغة، لأبى الحسن على بن اسماعيل المعروف بابن سيده .

مفردات الأدوية والأغذية، لضياء الدين أبى محمد عبد الله بن أحمد الأندلسى المعروف بابن البيطار .

نهاية الأرب فى فنون الأدب، للنويرى .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، للأمير أبى المحاسن جمال الدين المعروف بابن تغرى بردى المأخوذ منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٤٣ تاريخ .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين المعروف بابن خلّكان .

يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر، لأبى منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى النيسابورى .

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر كتابة الحُكْمِ والشروط وما يتّصف به الكاتب ويحتاج اليه

(٦٥)

ينبغى أن يكون كاتبُ الحُكْم والشروط عَدْلا، دَيّنا، أمينا، طَلْقَ العبارة فصيحَ اللسان، حَسَنَ الخطّ؛ ويحتاج مع ذلك إلى معرفة علوم وقواعدَ تُعينه على هذه الصناعة، لا بدّ له منها، ولا غُنْيَة له عنها: وهى أن يكون عارفا العربيّةَ والفقه متقِنا علمَ الحساب، محرِّرا القِسَمَ والفرائض، دَرِبا بالوقائع، خبيرا بما يَصدُر عنه من المكاتبات الشرعيّة، والإسجالاتِ الحُكْميّة على اختلاف أوضاعها، وأن يكون قد أتقن صناعة الوِراقةِ[1] وعَلِمَ قواعدَها، وعَرَف كيفيّةَ ما يكتب فى كلّ واقعة وحادثة: من الدّيون على اختلافها، والحَوالات، والشِّركات، والقِراض، والعارية، والهبةِ والنِّحْلة، والصدقةِ والرجوع، والتمليك، والبيوع، والردّ بالعيب والفسخ، والشُّفْعة والسَّلَم، والمقايلة[2]، والقِسمةِ والمناصفة[3]، والأجائر على اختلافها، والمُساقاة، والوصايا

(٦٦)

(١) يريد بالوراقة مصطلح الكتّاب فى مكاتيبهم، كما يستفاد ذلك مما يأتى بعد فى صفحة ٦ من هذا السفر. وفى كتب اللغة أن الوراقة حرفة من يورّق ويكتب.

(٢) فى الأصل: «والمقابلة» بالباء الموحدة؛ وهو تصحيف، صوابه ما أثبتنا، كما يدل على ذلك ما يأتى بعد عند الكلام على هذا الباب، ويريد بالمقايلة هنا: المقايلة الحاصلة فى السلم، اذ هى التى سيذكرها مع السلم بعد عند الكلام عليه.

(٣) فى الأصل: «والمواصفة» بالواو مكان النون؛ وهو تحريف، إذ المواصفة هى أن يبيع ما ليس عنده، ثم يتاعه فيدفعه الى المشترى؛ وسمى بذلك لأنه باع بالصفة من غير نظر. وهذا المعنى غير مراد هنا؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

والشهادةِ على الكَوافل بالقُبوض[1]، والعتق، والتدبير، وتعليق العتق، والكتابة[2]، والنكاح وما يتعلّق به، و إقرارِ الزّوجين بالزوجيّة عند عدم كتاب الصّداق، واعترافِ الزوج بمَبلغ الصّداق، والطلاق، وتعليقِ الطـلاق[3]، وفسـخ النكاح، ونفي ولدِ الجارية والإقرارِ باستيلاد الأمة، والوَكالات، والمَحاضر، والإسجالات، والكُتُبِ الحُكميّـة والتقاليـد، والأوقاف، وغيرِ ذلك، على ما نوضّحه ونبيّنه ان شاء الله تعالى. فنقول و بالله التوفيق :

أما اشتراط العدالة والديانة والأمانة — فلأنّه يَتصرّف بشهادته في الأموال والدّماء والفروج، فإذا لم يكن فيه من الدّيانةِ والعدالةِ والأمانةِ ما يستمسك به، ويقِفُ عند أوامرِ الشرع الشريف ونواهيه بسببه؛ تَولّاه — والعياذ بالله تعالى — الشيطانُ بالغُرور، وأَوقَعه في محظورٍ يُتوقَّع في الدار الآخرة منه وقوعُ المحذور؛ وربّما انكشفت في الدّنيا عورتُه، وبَدَتْ سريرتُه؛ وإذَنْ هو المَعْنيُّ والمُشارُ اليه بقولهم: "شاهـدُ الزور قَتَل ثلاثة : نفسَه والمشهودَ له والمشهودَ عليـه" فلم يَفُزْ ممّا ارتكبه بطائل، بل جَمَـع لنفسه بين نكالٍ عاجلٍ وعقابٍ آجل، ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

(١) القبوض : جمع قبض، وانما جاز جمع المصدر في هذا الموضع لإرادة الوحدات، فان النحاة يمنعون جمعه، فاذا أريد به الوحدات أو الأنواع جاز ذلك.

(٢) اطلاق الكتابة على مكاتبة السيد لعبده اطلاق مجازيّ فيه تسامح واتساع؛ قال في المصباح مانصه: «قيل للكتابة كتابة تسمية باسم المكتوب مجازا واتساعا، لأنه يكتب في الغالب للعبد على مولاه كتاب بالعتق عنـد أداء النجوم، ثم كثر الاستعمال حتى قال الفقهاء للمكاتبـة كتابة وان لم يكتب شئ»؛ ثم قال: «وشذ الزمخشري فجعل المكاتبة والكتابة بمعنى واحد؛ ولا يكاد يوجد لغيره ذلك» الخ.

(٣) ورد في الأصل تعليق الطلاق بعد فسخ النكاح؛ وانما اخترنا العكس في هذا الموضع لما سيأتي عند الكلام عليهما؛ فقد ذكر تعليق الطلاق قبل الفسخ.

وأما طلاقة[1] العبارة وذلاقة اللسان — فلأنه يجلس بين يدى الحاكم فى مجلسه العام، ويحضره من يحضره: من العلماء والفقهاء، وذوى المناصب، وأصحاب الضرورات، وخصوم المحاكمات على اختلاف طبقاتهم وأديانهم؛ وهو المتصدّى لقراءة ما يحضر فى المجلس: من إسجالات حكميّه، ومكاتيب شرعيّه؛ وكتب مبايعات، ووثائق إقرارات؛ وقصص وفتاوى، وغير ذلك مما يتّفق فى المجلس؛ فمتى لم يكن الكاتب طلق العبارة فصيح اللسان، جيّد القراءة حسن البيان؛ تعذّرت قراءة ذلك عليه ولكن فى المجلس، فرمقته العيون شزرا، وتلمّظت[2] به الألسن سرّا؛ ونظر بعض القوم بسببه بعضا، وكان عندهم فى الرتبة سماءً فغدا أرضا؛ ثم تتعدّى هذه المفسدة الى إفساد المكتوب، والتباس المعنى المراد والأمر المطلوب؛ وذلك لأنّه إذا توقّف فى القراءة احتاج إلى إعادة اللفظة وتكريرها، وترديد الكلمة وتدويرها؛ فتشكل قراءته على سامعه ومستكتبه، ويكون قد أخلّ برتبته ومنصبه.

وأما حسن الخطّ — فلأنه مندوب إليه فى مثل ذلك، وله من الفوائد ما لا يحصى، ولأنّ المكتوب إذا كان حسن الخطّ قبلته النفوس، وانشرحت له ومالت إليه؛ وإذا كان على خلاف ذلك كرهته وملّته وسئمته؛ وقد ذكرنا ما قيل

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل. والذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا: "الطلوقة" أى الفصاحة، مصدر (طلق) بفتح أوّله وضم ثانيه لا "الطلاقة"، فقد وردت فى غير المراد هنا، وفى كتب القواعد أن (فعولة) بضم الفاء و(فعالة) بفتحها مصدران قياسيان "لفعل" مضموم العين، وأنه إذا ورد أحدهما ولم يرد الآخر اقتصر على ما ورد انظر حاشية الصبان ج ٢ ص ٢٥٩ طبع بولاق.

(٢) «تلمظت به الألسن»، أى تحركت بالذم له والعيب فيه؛ وأصل التلمظ تحريك اللسان فى الفم بعد الأكل، كأنه يتتبع بقية من الطعام بين أسنانه.

فى حُسن ٱلخطّ وما وُصِفتْ به الكتابة عنـد ذكرنا لكتابة الإنشـاء[1]، فلا فائدة فى إعادته هنا .

وأما معرفة العربيّة — فلأنّه إنّما يكتُب عن حاكم ٱلمسلمين فى الأمور الشرعيّة، فلا يجوز أن يَصدُرَ عنه لحن بلفظه، فكيف إذا سطّره بقلمه !؟ فإن وقع ذلك كان من أقبح العيوب وأَشْنَعِها، وربّما أَخَلّ بالمقصود، وحَرَّف المعـنى المراد وأَخرَجه عن وضعه، ونَقَله إلى غير ما أريدَ به، سِيَّما[2] فى شروط الأوقاف .

(٦٧)

وأما معرفة الفقه — فلأنه يجلس بين يدى حاكم عالم، لا يكاد يخلو مجلسه غالبا من الفقهاء والعلماء، فيُوردون المسائل أو تُورَد عليهم، فيَحصُل البحث فيها فيتكلّم كلٌّ من القوم بما علمه بقدر ٱشتغاله ونقْلِه، فإذا كان الكاتب عاريا من الفقه والمدارسة ومطالعة كتبِ العلوم الشرعيّة ٱقتضَى ذلك عدمَ مشاركتِه لهم فيما هم فيـه فيَصير بمَثابة الأجنبيّ من المجلس، وهو فى ذلك بين أمرين: إمّا أن يسكت، فلا فرق بينه وبين جماد شُغِلتْ به تلك البقعةُ التى جلس فيها؛ أو يتكلّم بما لا يعلم، فيُرَدّ عليه قولُه، فيَحصُلَ له الخجـلُ فى ذلك المجلس الحَفْل، ويستزريه القوم؛ هذا من هـذا الوجه؛ ثم هو فيما يكتبه عن ٱلحـاكم أو فى أصل[3] المكتوب بين أمرين: إمّا أن يُجيدَ ويُبرِزَ المكتوبَ وهو محرَّر على مقتضَى قواعد الفقه، فلا بدّ له فيه من الٱستعانة بالغير وتقليده، بحيث إنه لو سئل عن معنًى أجاد فيه وأَحسَنَ لعَجَز عن الجواب؛ وإمّا أن يَستقِلّ بنفسه فيكتُبَ غيرَ الواجب، فيكونَ قد أفسد المكتوب على أهله

(١) يشير بذلك إلى ما تقدم ذكره فى الجزء السابع صفحة ١٤ من هذا الكتاب .

(٢) "سيما"، أى لا سيما، فحذف "لا" للعلم بها وهى مرادة، لكن هـذا الحذف قليل (التاج) مادة "سوا" .

(٣) يريد بأصل المكتوب : ما يكون أصلا لما يكتب عن القاضى، ككتب المبايعات والإقرارات وغيرها، فإنها أصل لما يكتب عن القاضى من الإسجالات ونحوها .

ولَزِمه غُرْمُ ما أفسد من القراطيس والرُّقوق[1]، وكلتاهما خُطَّةُ خَسْفٍ ما فيهما حظٌّ[2] لمختار؛ وربّما اغترّ جاهل ممن تَلَبَّس بالكتابة لوُثوقه من نفسه بمعرفة مُصطلَح الوِراقة دون الفقه، فيَظنُّ أنه استغنى بذلك عنه، وهذا غلطٌ وجهل، لأنه قد يقع له من الوقائع مالم يعلمْه، فلا يخلِّصه منه إلا تصريفُه على القواعد الشرعيّة؛ ولا يعتمد الكاتب على اطّراد قاعدة الأشباه والنظائر، فيَقيس الشيء على ما يظنّ أنّه شبهُه أو نظيرُه، وقد لا يكون كذلك، فإنّ الفقه أمرٌ نقلٌ لا عقلىّ، فلا بدّ للكاتب من معرفته؛ والله أعلم.

وأما علم الحساب والفرائض — فلأنه لو وقع فى المجلس قسمةٌ شرعيةٌ بين وَرَثة أو شركةٍ[3]، ولم تكن له معرفةٌ[4] بهذا العلم، كان ذلك عجزا منه وتقصيرا

(١) الرقوق: جمع رق بفتح الراء وتكسر، وهو الصحيفة التى يكتب فيها.

(٢) فى الأصل: «خط»؛ وهو تصحيف؛ ويشير بهذه الجملة الى ما ورد فى شعر الأعشى يمدح السموءل بن عادياء ويستجير بابنه شريح وهو:

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به * فى جحفل كسواد الليل جرّار
إذ سامه خطتى خسف فقال له * قل ما تشاء فانى سامع حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما * فاختر وما فيهما حظ لمختار الخ الأبيات

انظر الأغانى ج ١٩ ص ١٠٠ طبع بولاق؛ ويشير الأعشى بهذه الأبيات الى وفاء السموءل لامرىء القيس ابن حجر الكندى؛ وذلك أن امرأ القيس كان قد أودع بنيه وأدراعه وماله عند السموءل، فجاء الحارث بن ظالم وطلب من السموءل أن يسلم اليه مال امرىء القيس، وخيره بين أن يسلم اليه المال أو يقتل ابنه، فأبى السموءل الغدر بامرىء القيس ورضى بقتل ابنه وفاء بذمته انظر تفصيل ذلك فى الأغانى.

(٣) يريد بالشركة هنا: الشركاء، وهى تسمية بالمصدر، ولهذا ضبطناه بالكسر عطفا على قوله: «ورثة»؛ وقد ورد هذا اللفظ فى شعر عروة بن الورد مرادا به الشركاء كما هنا، قال:

إنى امرؤ عافى انائى شركة * وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

انظر ديوان عروة بن الورد ص ٨٨ من المجموع المشتمل على خمسة دواوين من أشعار العرب طبع المطبعة الوهبية.

(٤) ضمّن المعرفة معنى العلم فعدّاها بالباء.

وتقصا فى صناعته ؛ ويَقْبُح به أن يَعتمِد على غيره فيه و يقلّده ، ويَرجِعَ اليه فى المجلس الذى هو ممّن يشار اليه فيه ، فيصيرَ فى ذلك المجلس تابعا بعد أن كان متبوعا ، ومقلّدا لغـيره ، ومسطِّرا بقلمه ما لم يعرفْه وما هو أجنـبيٌّ عنه ؛ هذا إن آتفق أن يَحضُرَ المجلس من له معرفةٌ بهذا العلم ؛ فأمّا إن خلا المجلس ممن يعـلم ذلك جملةً كان أشدَّ لتوقيف(١) الأمر وتعطيلِه ، ودَفعِه من وقت الى آخر ، وفى هـذا من النقص والتقصير والإخلال برتبتِه ، وعدمِ الآتصافِ بالكمال فى صناعتِه ، مالا يَخفَى على متأمّل .

وأما معرفة صـناعة الوِراقة فى الأمور التى ذكرناها — فلذلك من الفـوائد ما لا يَخفى على ذى لبّ ، لأنّ الكاتب إذا أخرج المكتوبَ من يده بعـد إتقانه وتحريرِ ألفاظه على ما آستقرّ عليـه الآصطلاح : من التقديم والتأخير ومتابَعةِ الكلام وسِـياقتِه ، وترصيعِه وترصيفِه ، حَسُنَ مَوقعُـه ، وعَذُبتْ ألفاظُه ، وآشرأبّت له النفوس ، ولو بلغ الكاتب فى الفقه والعربيّة واللغـة ما عساه أن يَبلُغَ ولم يدر المصطلَح ، وخرج الكتّابُ من يده وقد حرّره على قواعد الفقه والعربيّة من غير أن يسلك فيه طريقَ الكتّاب وآصطلاحَهم ، مَجّته الأسماع ، ولم تقبله النفوس كلَّ القبول ، وثَقُل على قارئه وسامعِه ؛ والله أعلم .

(٦٨)

* * *

فهذه لُمْعةٌ كافيةٌ من فوائد ما قدّمناه ممّا يحتاج الكاتب الشُّروطىُّ الى معرفته ؛ فلنذكر الآن صورةَ ما آصطَلَح عليه الكتّابُ من أوضاع الوِراقة فى الأمور التى قدّمنا ذكرَها على ما آستقرّ عليه آلحال فى زماننا هـذا ، ممّا يُضطرّ إليه المبتدِئ ، ولا يكاد يَستغنِي عنه المنتهِى ؛ فنقول :

ذكر صـورة ما آصطلح عليـه الكتّاب من أوضاع الوراقة

(١) التوقيف : مصدر «وقفته» بتشديد القاف ؛ ونقل صاحب التـاج عن شـيخه أن «وقفته» بالتشديد «وأوقفته» قد أنكرهما الجماهير ؛ وقالوا : غير مسموعين ، وقيل : غير فصيحين .

أوّلُ ما ينبغى أن يبدأ به الكاتبُ فيما يَصدُر عنه من جميع المكاتيب الشرعيّة حين ٱبتدائه بكتابة شىء منها أن يَكتُب :

﴿بِسْمِ ٱللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم يصلّى على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ثم يَكتُب لقبَ المشهود عليه وكنيتَه وٱسمَه ، ولقبَ أبيه وجدّه وكنيتَيهما وٱسميهما ، إن كانوا ممّن يُلقّبون ويُكنّون ، وإلّا فأسماؤهم كافية ؛ ويَنسُب المشهودَ عليه إلى قبيلته ، أو صناعته وحرفته أو مجموع ذلك ؛ وذلك بحَسَب ما تقتضيه رتبتُه وحالُه فى علوّ القدر والرفعة ؛ فإن كان من ذوى الأقدار المشهورين ذَكَرَ ألقابه وكُناه ، ونَسَبه إلى قبيلته وحرفته ، إن كانت ممّا تزيده رفعةً وتعريفا ؛ وإن كان غيرَ مشهورٍ برتبة أو مَنصِب لكنّه ممّن يعرفه الشهودُ بالحِلْية والنَّسَب قال : "وشهودُ هذا المكتوب به عارفون" وٱستغنَى بذلكَ عن وصف حليته (١) ؛ وإن كان ممّن عَرَفه بعضُهم ولم يَعرِفه البعض قال : "وبعضُ شهوده به عارفون" وذَكَرَ حِلْيَته ، وإن كان ممّن لا يَعرِفه الشهود جملةً ذَكَرَ حُلاه وضَبَطَها على ما نشرحه عند ذكرنا للحُلَى ؛ ثم يَذكُر المشهودَ له ويَسلك فى ألقابه ونعوته وكُناه وتعريفه نحوَ ما تَقدَّم فى المشهود عليه بحَسَب ما تقتضيه حالُه أيضا ويَذكُر بعد ذلك ما ٱتفقا عليه . فاذا ٱنتهى الى آخر الكلام فيه أَرَّخ ٱلمكتوبَ باليوم من الشهر ، وبما مضى من سنين ٱلهجرة النبويّة ؛ ولا بأس بأن يؤرّخه بالساعة من اليوم ، لِٱحتمالِ تَعارُضِ مكتوبٍ آخَرَ فى ذلك اليومَ يناقِض هذا ٱلمكتوب ، مثال ذلك أنّ ٱمرأةً طُلِّقتْ فى يومٍ قبل دخول الزوج المطلّق بها ، فتزوّجتْ فى يومها ، وتمادَى الأمرُ على ذلك ، ثم ٱدّعَى مُدَّعٍ أنها تزوّجتْ قبل وقوع الطلاق

(١) الحلية : الصفة والهيئة .

ولم يكن فى الكتاب ما يَمنع دعواه؛ فانه يحتاج فى مِثل هذا ونحوِه إلى تحديد الطلاق والزواج بالساعات، فإنّ فيه إزالةً للشكّ، وحَسْما لمـادّة الالتباس؛

(٦٩) فاذا كملتْ كتابةُ المكتوب استوعَبه الكاتب قراءة، فإن كان على السَّداد والتحرير أَشهَدَ فى ذيله عليهما بما اتّفقا عليـه، أو على المُقِرِّ بمـا أَقَرَّ به، وذلك بحَسب ما تقتضيه الحال.

وإن احتـاج المكتوب إلى إصلاح: من كَشْـطٍ أو ضربٍ أو إلحـاقٍ حَرَّره، واعتَذَر فى ذيل المكتوب تِلْوَ التاريخ قَبْـل وضع رسم الشهادة عمّا أَصلَحه فيقول فيه: "مُصْلَحٌ على كَشْطِ كذا وكذا[1]، وفيه ضربٌ ما بين كلمة كذا الى كلمة كذا" إن كان الضرب قد أخفَى ما كان تحته؛ وإن كانت الأحرف المضروبُ عليها ظاهرةً قال: "فيه ضربٌ على كذا وكذا، وفيه ملحَقٌ بين سطوره أو بهامشه كذا وكذا" ويَشرح ذلك، ثم يقول: "وهو صحيح فى موضعه، معمولٌ به، معتذَرٌ عنه بخطّ كاتبِـه".

وإن كان المكتوب فى دَرْجٍ[2] موصولٍ بالإلصاق، أو رَقٍّ[3] مخروزِ الأوصـال أشار على فواصـل الأوصال بقلمه إشـارةً له يعرفها وتُعرَف عنه: إمّا علامتَـه أو اسمَه؛ ويكتُب فى آخر أسطره عددَ أوصال المكتوب، وعدّة أسطره؛ وقد أهمل الكُتّابُ ذلك فى غالب مكاتيبهم، وهو زيادةٌ حسنةٌ فى التحرير؛ والله أعلم.

---

(١) الظاهر أن «على» فى هـذا الموضع بمعنى «مع»، أى أن هذا المكتوب مصلح مع كشط كذا وكذا؛ ومن مجىء «على» بمعنى «مع» قوله تعالى: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم).

(٢) الدرج بفتح فسكون وتفتح الراء أيضا: ما يكتب فيه.

(٣) يريد بالرق هنا: الجلد الرقيق الذى يكتب فيه.

وإن كان المكتوب نُسَخا متعدّدةً ككتب الأوقاف كتَبَ عند رسم شهادته في كلّ نسخة عددَ النُّسَخ؛ والقاعدةُ عندهم في هذه الصناعة أنّ الكاتب كلّما زادها عرفانا[1] زادته بيانا؛ فيكون هذا دأبَه في كلّ مايكتبه أو غالبِه؛ والله أعلم بالصواب.

* * *

ذكر كيفيّة ما يصنعه الكاتب في كلّ واقعة

ولنذكر كيفيّة ما يصنعه الكاتب في كلّ واقعة على معنى ما أَورَده "أبو عبد الله محمدُ بنُ عبد الرحمن المخزومىّ[2]، المعروفُ بابن الصَّيْرَفىّ في مختصره الذى ترجمه "بمختصر المكاتبات البديعة فيما يُكتَب من أمور الشريعة" الذى قال فيه إنه اختصره من كتابه المترجَم "بجامع العقود في علم المواثيق والعهود".

(١) في الأصل: «عفانا» بسقوط الراء؛ ولا معنى له.

(٢) كذا ورد هذا الاسم في الأصل؛ ولعل صوابه أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بالصيرفى، ويدل على ذلك أمور: أولها أننا راجعنا ترجمة محمد بن عبد الرحمن المخزومىّ فيما لدينا من كتب التراجم فلم نجد أنه يعرف بابن الصيرفى ولا أنه يكنى بأبى عبد الله، بل كنيته أبو عمر؛ ثانيها أننا لم نجد في ترجمته ما يفيد أنه ألف كتبا في الشروط والوثائق انظر ترجمته في تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٠٩ طبع مصر وكتاب الأنساب للسمعانى ورقة ٥١٤ المحفوظ منه بدار الكتب المصرية نسخة مأخوذة بالزنكوغراف تحت رقم ٢٦٣٧ تاريخ؛ ثالثها أن صاحب كشف الظنون ذكر في كتابه ج ١ ص ٤٩٥ و ٤٩٦ طبع بولاق أسماء المؤلفين في الشروط والسجلات وأورد فيهم محمد بن عبد الله المعروف بالصيرفى ولم يذكر محمد بن عبد الرحمن المخزومىّ؛ رابعها قول أبى بكر القفال عن محمد بن عبد الله الصيرفى: "إنه أول من انتدب من أصحابنا للشروع في علم الشروط، وصنف فيه كتابا أحسن فيه كل الاحسان" اهـ كما نقل ذلك عنه ابن خلكان في الوفيات ج ١ ص ٦٥٤ طبع بولاق؛ ولم يذكر ابن خلكان اسم الكتاب الذى ألفه الصيرفىّ في علم الشروط، فلعله أحد الكتابين الآتى ذكرهما بعد. والصيرفى هذا هو أبو بكر محمد بن عبد الله؛ كان من جملة الفقهاء الشافعية؛ أخذ الفقه عن أبى العباس بن سريج؛ واشتهر بالحذق في النظر والقياس وعلم الأصول؛ وله في أصول الفقه كتاب لم يسبق الى مثله؛ وحكى أبو بكر القفال في كتابه الذى صنفه في الأصول أن أبا بكر الصيرفى كان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعى؛ وتوفى يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثين وثلثمائة! انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٥٤ طبع بولاق وطبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٦٩ طبع المطبعة الحسينية بمصر والوافى بالوفيات المأخوذ منه بالتصوير الشمسى بعض أجزاء محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩ تاريخ؛ وفى كتاب الأنساب للسمعانى ورقة ٣٥٨ «المعروف بابن الصيرفى».

أما الإقرارات وما يتصل بها من الرهن والضمان — فسبيل الكاتب فيها أنّه إذا أقرّ رجل لرجل بدين كَتَب : أَقَرَّ فلانٌ عند شهوده طوعا إقرارا صحيحا شرعيّا بأن فى ذمتـه بحقٍّ صحيح شرعىٍّ لفلان من الذهب المسكوك[(١)]، أو من الدراهم النُّقرةِ[(٢)] المتعامَلِ بها يومئذ كذا وكذا، إن كان نقدا .

وإن كان غلّةً "أو صِنفا[(٣)] من الأصناف الموزونة أو المعدودةِ أو غير ذلك" قال : من الغلال الطّيّبةِ النقيّةِ السالمةِ من العيوب والغَلَث[(٤)]؛ ويعيِّن الغلّة، وينسُبها الى جهتها فيقول إن كان بالدّيار المصريّة : الصعيديّة، أو البحْريّة، أو الفيّوميّة ؛ وإن كان بالشأم أو بغيره نسبها الى جهتها فيقول : البَلْقاويّة[(٥)]، أو « الحَوْرانيّـة »[(٦)] أو السواديّة[(٧)]، أو الجَبَليّة[(٨)]، أو المَرْجيّـة[(٩)]، أو غير ذلك من النواحى؛ يعيِّنها بناحيتهـا

(١) المسكوك : المضروب بالسكة، وهى الحديدة المنقوشة التى تطبع بها الدراهم والدنانير .

(٢) المراد بالنقرة : ما سبك من دراهم الفضة التى يتعامل بها ؛ وأصل النقرة ما سبك من الفضـة والذهب مطلقا سواء كان دراهم أو غيرها .

(٣) وردت هـذه العبارة فى الأصل بعد قوله فيما يأتى : « وبأيّالهـا » ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها فى هـذا الموضع فان قوله : « صنفا » معطوف على قوله : « غلة » السابق قبله ؛ والمكتوب الآتى يكتب للغلة والصنف ؛ وإنمـا ذكرت الغلة فيه دون الصنف اكتفاء بها . والذى فى الأصـل : «أو صنف» بدون علامة النصب ؛ وهو خطأ من الناسخ .

(٤) الغلث بالتحريك : ما تخلط به الحنطة مما ليس منها، كالشعير والمدر ونحوهما .

(٥) البلقاوية : نسبة الى البلقاء، وهى كورة من أعمال دمشق، بين الشام وادى القرى ؛ قصبتها عمان ؛ وفيها قرى كثيرة، ومزارع واسعة ؛ وبجودة حنطتها يضرب المثل انظر معجم البلدان لياقوت .

(٦) الحورانية : نسبة الى حوران بالفتح ؛ وهى كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار ؛ وقصبتها بصرى معجم البلدان .

(٧) الظاهر أن السوادية : نسبة إلى سواد العراق، وهو رستاقها وضياعها التى افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار، وحدّ السواد من (حديثة الموصل) طولا الى « عبادان »، ومن « العذيب » « بالقادسية » الى « حلوان » عرضا .

(٨) الظاهر أن الجبلية نسبة الى بلاد الجبـل، وهى مدن بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان وفارس وبلاد الديلم، كما فى القاموس . ويحتمل أن يراد بالجبل هنا كورة من كور حمص كما فى معجم ياقوت .

(٩) المرجية : نسبة الى المرج، وهو يطلق على عدة مواضع ذكرت فى القاموس وشرحه ومعجم البلدان لياقوت ؛ ولم نجد فى أحد هذه المواضع ما يفيد أنه معروف بزراعة الحنطة حتى تنسب اليه .

وبأصنافها، وبأكيالها؛ ويَذكُر الجملةَ وينصِّفها فيقول: "النصفُ من ذلك تحقيقا لأصله وتصحيحا لجملته كذا وكذا"؛ ثم يقول: "يقوم له بذلك على حُكْم الحلول وسبيله، أو التنجيم"[1]؛ أو يقول: "على ما يأتى ذِكرُه وبيانُه، فمن ذلك ما يقوم به على حُكْم الحلول كذا، وما يقوم به فى التاريخ الفلانى كذا" على حَسَب ما يقع عليه الاتّفاق؛ ثم يقول: "وأقرّ المُقِرّ المذكور بأنه مَلِىءٌ بالدَّين المعيَّن، قادرٌ عليه وأنّه قَبض العوضَ عنه"؛ فإن كان ذلك على حُكْم الحلول اكتفَى فيه بالشهادة على المقِرّ دون المقَرِّ له؛ وإن كان لأجل فلا غُنْيَة عن الشهادة على المُقَرِّ له بأنّه صدّقه على ذلك فإنه لو ادَّعى الحلولَ فيما وقعت الشهادة فيه على المقِرّ بمفرده بأنّه إلى أجل، كان القول قوله مع يمينه[2]؛ وكذلك فى الشهادة بالغلّة أو الصنف، هل ذلك محمولٌ إلى منزل المقَرِّ له، أو هو موضوعٌ بمكان آخر، فإنّ[3] فى الشهادة عليهما معًا قطعا للنزاع والاختلاف؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولا يجوز أن يُشهَد فى الإقرار إلا على حرٍّ بالغ عاقل، أو مريضٍ مع حضور حِسّه وفهمِه، ويجوز أن يُكتَب على العبد البالغ ويُتْبَع به ذمّتُه بعد عتقِه. (٧٠)

---

(١) تنجيم الدين: هو أن يقدّر عطاؤه فى أوقات معلومة متتابعة؛ وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها وغيرها، فتقول: اذا طلع النجم حل عليك مالى، أى الثريا وكذلك باقى المنازل؛ وسمى ذلك بعد الاسلام تنجيما اعتبارا بالرسم القديم الذى عرفوه.

(٢) فى الأصل: «عينه»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا؛ أخذا من السياق ومن كتب الفقه؛ وفى هذه المسألة التى ذكرها المؤلف خلاف أورده الإمام الرافعىّ فى فتح العزيز ج ١١ ص ١٦٩ طبع مطبعة التضامن الأخوى بمصر وذكر: أن الظاهر قبول قول المقر فى دعوى الأجل — عكس ما كنا — وبه قال أحمد؛ وإذا قلنا: لا يقبل فالقول قول المقر له مع يمينه فى نفى الأجل وبه قال أبو حنيفة رحمه الله الخ وهذا هو الموافق لما ذكره المؤلف هنا.

(٣) فى الأصل: «قالا»؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه سياق الكلام.

وان كان الدَّين المقَرُّ به ثمنَ مَبيع كَتَبَ فى آخر المكتوب : وهـذا الدَّين هو ثمن ما ٱبتاعه المقِرُّ من المُقَرِّ له ، وتَسلَّمَه ، وهو جميع الشىء الفلانىّ ، أو جميع الحصّة التى مَبلغها كذا وكذا ، الجـارى ذلك فى يد البائع وملكه وتَصرُّفه على ما ذَكَرا[1] — — ويَذكُر المَبيعَ ويصفه — وذلك بعد النظر والمعرفة ، والمعاقَدةِ الشرعيّة ، والتفرّقِ[2] بالأبدان عن تراض ، وضمـانِ الدَّرَك[3] فى صحّة البيـع[4] حيث يجب شرعا . ويؤرِّخ المكتوب ، ويُشهِد عليهما معا . ٥

وإن كان الدَّين لرجلٍ واحدٍ [أو اثنين[5] أو جماعة] على ٱثنين أو على جماعةٍ قال: أَقَرَّ كلُّ واحد من فلان وفلان إقرارا صحيحا شرعيّا بأن فى ذمّتهم بحقٍّ صحيح شرعىٍّ بالسويّة بينهم أو على مقتضى ما وجب عليهم ، لكلّ واحد من فلان وفلان ؛ ويعيِّن المُقَرُّ به نقدا كان أو صِنفا على حكمه فى ٱلحلول والأجَل والمُدَد ، ويعيِّن لكلِّ واحد من المُقَرِّ لهم ما يخصّـه ، إن كان بينهم تَفاوُت ، أو بالسويّة بينهم ؛ ويُشهِد على من أَقَرَّ بالمَلاءة[6] وقَبْضِ العوض على ما تقدّم . ١٠

(١) ذكرا : اى المقر والمقرله .

(٢) هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) الدرك : العهدة والتبعة . وفى مستدرك التاج مادة (ضمن) أن ضمان الدرك هو رد الثمن للمشترى عنـد استحقاق المبيع . وفى كتب الفقه ما يفيد أن ضمان الدرك قد يكون ضمان الثمن للمشـترى أو ضمان المبيع للبائع إن خرج مقابله مستحقا أو معيبا انظر (شرح المنهج باب الضمان) . ١٥

(٤) فى الأصل : «المبيع» ، ولعل صوابه ما أثبتنا فان الصحة والفساد من أوصاف البيع لا المبيع .

(٥) هاتان الكلمتان لم تردا فى الأصل ، وسياق المكتوب الآتى يقتضى إثباتهما فقد ورد فيه ما يفيد أن الدين قد يكون لٱثنين إذ جاء فى سطر ٩ قوله : « لكل واحد من فلان وفلان » ؛ كما ورد فيه أيضا ما يفيد أنه قد يكون لجماعة ، فقد جاء فى سطرى ١٠ و ١١ قوله : «ويعين لكل واحد من المقر لهم ما يخصه ان كان بينهم تفاوت » . ٢٠

(٦) الملاءة بفتح الميم : الغنى والاقتدار .

وإن تَضامنوا وتَكافلوا قال : وكلُّ واحد منهم ضامنٌ فى ذمّته ما فى ذمّة الآخر من ذلك للمُقَرِّ لهم بإذن كلِّ واحدٍ منهم للآخَر فى الضمانِ والأداءِ والرجوع ؛ وأقروا بأنهم مَليئون بما ضمنوه ؛ ويؤرِّخ .

وإن كان كلُّ واحد من المُقِرِّين يقوم بما عليه من الدَّين من غير ضمانٍ ولا كَفالةٍ لغيره فلا بأس بأن يبرهن الكاتب على ذلك بأن يقول : "من غير ضَمانٍ ولا كفالة" .

فصـــل

وان حضر من يَضمن فى الذمّة كَتَب بعد تمام الإقرار : "وحضر بحضور المُقِرِّ المذكورِ فلان ، وأَشهَدَ عليه طوعا منه أنّه ضَمِن ما فى ذمّة المُقِرِّ المذكورِ من الدَّين المعيَّن للمُقَرِّ له على حُكْمِه" .

وإن كان الدَّين على حُكْم الحلول فحضر من يضمنه فى ذمّتــه إلى أجل ، عيَّنه فى حقّ الضامن إلى الأجَل ، وأَشهَدَ عليه بالمَلاءة بما ضَمِنه ؛ فان كان بإذن المضمون قال : "بإذنه له فى الضمان والأداء والرجوع عليــه" ، وإن تَبرَّع الضامن بالضمان صحّ ضمانه ، ويقول الكاتب : "إنّه ضَمِن الدَّينَ المعيَّنَ تبرُّعا واختيارا ، من غير إذنٍ صادرٍ من المضمون ، وليس للضامن أن يَرجِعَ على ذمّة المضمون بما يَقُوم به عنه" .

وإن حضر من يضمن الوجهَ والبَدَنَ دون المــال فلا يجوز إلّا بإذن المضمون ؛ ومثــالُ ما يَكتُب فى ذلك أن يقــول : وحضر بحضــوره فلان ، وضَمِن وكَفَل إحضارَ وجهِ وبدَنِ المُقِرِّ المذكور للمُقَرِّ له المذكور ، متى التَمَس إحضارَه منه فى ليل أو نهار ، أو فى مدّة معلومة أَحضَره له ؛ وذلك بإذنه له فى ذلك .

ويحلّ هذا الضمان عن الضامن بموت المضمون دون سفره وغَيبته ؛ والله أعلم .

(١)

(١) فى الأصل : «تموت» بالتاء المثناة مكان الباء ؛ وهو تصحيف .

وإن رَهَن المُقِرُّ عنـد المُقَرِّ له رهنا على دَينه كَتَب ما مثالُه : وبعـد تمام ذلك ولزومِه رَهَن المقِرُّ المذكورُ عند المُقَرِّ له توثِقةً[1] على الدَّين المذكور، وعلى كلِّ جزء منـه ما ذَكَر أنّه فى يدِه ومِلكِه وتصرُّفِه، وهو جميعُ الشيء الفلانىّ — ويُوصَف ويُحدَّد إن كان له حدود — رهنا صحيحا، شرعيّا، مقبوضا، مُسلَّما لِيَـد[2] المُقَرِّ له من المُقِرِّ الراهن بإذنه له فى ذلك، بعـد النّظر والمعرفة، والمعاقَدةِ الشرعيّة، والإيجابِ والقَبولِ الشرعيَّين، والتسلُّمِ والتّسليم[3] .

فإذا آستعار الرهنَ بعد ذلك كَتَب ما مثالُه : ثمّ بعد ذلك آستعار الراهنُ من المرتهِن المذكورِ الرهنَ المذكورَ لينتفِع به، مع بقاء حُكْم الرّهن، إستعارةً شرعيّة، من غير فَسْخ شيءٍ من أحكامِه، وصار ذلك بِيَدِ الراهن المذكور وقبْضِه وحَوْزِه .

فإن آستقرّ الرهنُ تحت يد المرتهِن كَتَب : وآعترَف آلمرتهِنُ بأنّ الرهنَ المذكورَ باقٍ تحت يدِه وحَوْزِه، وعليه إحضارُه عند وفاء الدَّين ؛ ويؤرِّخ .

فصـــل

وإن حضر من أعار المُقِرَّ شيئا ليَرهَنه على ما فى ذمّته كَتَب فى ذيل المسطور : وحضر بحضور المُقِرِّ المذكورِ فلان، وأشهَدَ عليه طائعا مختارا أنّه أعار المُقِرَّ المذكورَ جميعَ الشيء الفلانىّ — ويُوصَف ويُحدَّد إن كان له حدود — ليَرهَن ذلك عنـد المُقَـرِّ له على ما فى ذمّته له من الدَّين المُعيَّن أعلاه، ويُعيدَه[4] بسؤاله فى ذلك، عاريةً

(١) لم نجد "التوثقة" مصدر "وثق" بتشديد الثاء فيما راجعناه من كتب اللغة ؛ كما أننا لم نجد فى كتب القواعد ما يفيد اطراد هذه الصيغة فى مصـدر هذا الفعل ؛ ولعله من الألفاظ المصطلح على استعمالها بين كتّاب الشروط والوثائق ؛ أو لعله "توثيقا" .

(٢) فى الأصل : «بيد» بالباء ؛ واللغة تقتضى ما أثبتنا ، فان الذى يقال : «سلم له» «وسلم اليه» .

(٣) لعله «والتسليم والتسلم» بتقديم التسليم على التسلم ، لتقدّمه عملا .

(٤) فى الأصل : "ويعينه" ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

صحيحةً شرعيّةً مسلَّمةً مقبوضة ، وذلك بعد النظر ، والمعاقَدةِ الشرعيّة ، والإيجابِ والقَبول ؛ وأَذِن المُعيرُ للمستعيرِ أن يَرهَن ذلك عند المُقَرِّ له على الدَّين المذكور ، ويُسلِّمَه له التسليمَ الشرعىّ ، ثم يستعيد ذلك منه ليُعِيدَه إلى المُعير المالك ليَنتفِع به ، مع بقاءِ عَينِه على حُكْم الرهن .

٥ وإن كان المستعيرُ الراهنُ ينتفع بالرهن كَتَب : وأن يستعيدَ المستعيرُ الرهنَ ليَنتفِع به دون المُعير ، مع بقائه[(١)] على حُكْم الرهن .

وان كان الرهنُ تحت يد ٱلمرتهِن كَتَب : وهذا الرهنُ المذكورُ تحت يد ٱلمرتهِن حفظا لِمالِه ، وصيانةً لدَينِه ، وعليه أن يُعِيدَه عند وفاء الدَّين للمستعيرِ ليسلِّمَه للمُعير .

فإن وَكَّل الراهنُ وكيلا فى بيع الرهن عند ٱستحقاق الدَّين و وفاءِ ما عليه كَتَب :

١٠ ثمّ بعد تمام ذلك ولزومِه وَكَّل المُقِرُّ المذكورُ فلانَ بنَ فلان فى قبضِ الرهن المذكور ممّن هو تحت يده برضا ٱلمرتهِن ، و بيعِه[(٢)] ممّن يَرغب فى ٱبتياعِه بما يَراه من الأثمان وقَبْضِ الثمن ، وتسليمِ المَبيع لمُبتاعِه ؛ وكَتْب ما يجب ٱكتتابُه ، وقضاءِ ما عليه من الدَّين المعيَّن فيه للمُقَرِّ له وأَخْذِ الحُجّةِ منه ، والإشهادِ على المُقَرِّ له بقبْضِ الدَّين المذكور منه[(٣)] على المُقِرّ[(٤)] ؛ وَكالةً صحيحةً شرعيّة ، قَبِلَها منه قَبولا سائغا[(٥)] ، أقامه فى ذلك مُقامَ

١٥ نفْسِه ، ورضِيه[(٦)] وٱختاره .

---

(١) فى الأصل : «نقائه» بالنون ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى الأصل : « وتبعه » ؛ وهو تصحيف ، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٣) «منه» ، أى من الوكيل .

(٤) لعله : « عن » أى أن القبض من الوكيل نيابة عن المقر .

٢٠ (٥) فى الأصل : «سابقا» ؛ وهو تصحيف .

(٦) فى الأصل : «ورضيه» ؛ والتاء زيادة من الناسخ .

وإن أراد ٱلمرتهِنُ أن يَنزِل عن الرهن كَتَب خلْفَ المسطور : أَقَرَّ فلان وهو المُقَرُّ له بالدَّين باطنَه ، اقـرارا صحيحا شرعيّا بأنّه نزل عن رهنيّة العين المعيَّنةِ باطنَه ، المرتَهَنةِ عنـده على دَينِهِ المعيَّن باطنَه ، نزولا صحيحا شرعيّا ، وأَبطَل حقَّـه فى وثيقـة الرهن المذكور ، وسَـلَّم الرهنَ للراهن المذكور وهو على صـفته الأُولى فتَسلَّمه منـه بغـير حادث غيَّرَه عن صفته ؛ وذلك بعـد النظر والمعرفة ، والإحاطةِ بذلك علما وخِبْرة . ٥

فصـــل

اذا أَقَرَّ ربُّ الدَّين أنّ الدَّين المُقَرَّ له به كان من مال غيره كَتَب : أَقَرَّ فلان وهو المُقَرُّ له باطنه ، عند شهوده طوعا إقرارا صحيحا شرعيّا بأنّه لمّـا داين فلانا ٱلمقِرّ (٧٢) المذكورَ[(١)] باطنَه بالدَّين المعيَّن باطنَه — وهو كذا وكذا — كان ذلك من مال فلانٍ دون ١٠ مالِه ، وأنّ ٱسمَ ٱلمُقَرِّ له باطنَه كان على سبيل النيابة والوَكالة ، وأنّه كان أَذِن له فى معاملة المُقِرِّ المذكورِ باطنَه بالدَّين المذكور على حُكْمه ، ومدايَنته ؛ وصدّقه المُقَرُّ له[(٢)] على ذلك تصديقا شرعيّا ؛ و بمقتضَى ذلك وجبتْ له مطالَبـةُ المُقِرّ باطنَه بالدَّين المعيَّنِ فيـه وٱستخلاصُ حقِّه منه ، وقبضُه على الوجه الشرعىّ .

فصـــل ١٥

فان أقَرَّ المُقَرُّ له بأنّ الدَّين أو ما بقِىَ منه صار لغيره كَتَب على ظهر المكتوب : أَقَرَّ فلان — وهو المُقَرُّ له باطنَه — إقرارا صحيحا شرعيّا بأنّ الدَّين المعيَّنَ باطنَه ، أو أنّ الذى بقِىَ من الدَّين المعيَّن باطنه — وهو كذا وكذا — صار ووجب من وجهٍ صحيح

(١) فى الأصل : «الذكر» ؛ والصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٢) يريد بالمقرّ له هنا : الدائن الأصلى الذى أقرّ له رب الدين بأن الدين من ماله . ٢٠

شرعى لا شبهة فيه لفلان ، وصدّقه على ذلك، وقَبِل منه هذا الاقرار لنفسه قَبولا سائغا؛ وبحُكْم ذلك وجبتْ له مطالَبةُ المُقِرِّ باطنَه بالدَّين المعيَّنِ على الوجه الشرعىّ.

وأما الحَوالة — فسبيل الكاتب فيما يَكتب فيها أنه اذا كان لرجل دَيْنٌ على آخرَ وأحال به كَتَبَ على ظهر مسطور الدَّين ما مثالُه : أَقَرَّ فلان — وهو المُقَرُّ له باطنَه — عند شهوده إقرارا صحيحا شرعيّا بأنّه أحال فلانا على ذمّة فلانٍ المقرِّ المذكورِ باطنَه بما لَه فى ذمّته من الدَّين المعيَّنِ باطنَه، وهو كذا وكذا، على الحُكْم المشروح باطنَه، وذلك نظيرُ ما لفلانٍ المُحالِ فى ذمّة فلانٍ المُحِيلِ من الدَّين الذى اعترَف به عند شهوده، وهو نظيرُ المبلغ المُحالِ به فى القَدْرِ والجنسِ والصفةِ والاستحقاق حَوالةً صحيحةً شرعيّة، قَبِلها منه قبولا سائغا، ورضىَ ذمّة المُحالِ عليه؛ تعاقَدَا على ذلك معاقَدةً صحيحةً شرعيّة، وافترقَا عن تراضٍ؛ وبحُكْم ذلك برئَتْ ذمّةُ المُحِيلِ المُبْدِإِ[1] بذكره من الدَّين الذى كان فى ذمّته، براءةً صحيحةً شرعيّة، وقَبِل كلٌّ منهما ذلك من الآخَر لنفسه قبولا شرعيّا ، وبه شُهِد عليهما ؛ ويؤرَّخ .

فصل[2]

وأمّا الشَّرِكة — فهى تصحّ فى الذّهب والفضّة؛ وسبيل الكاتب فيها أنّه اذا اتّفق اثنان على الشَّرِكة، فأَخرَج كلُّ واحد منهما مالًا وخلطاه، وأرادا المكاتَبةَ بينهما

(١) المبدأ : من «أبدأت» بالألف فى أوّله ، وهى لغة فى «بدأت» ؛ يقال : أبدأت بالأمر ، أى ابتدأت به .

(٢) لم تجر عادة المؤلف فى جميع هذا الكتاب أن يترجم بكلمة « فصل » للأبواب التى يبتدئها بقوله : «وأما كذا» ؛ فلعل هذه الكلمة زيادة من الناسخ فى هذا الموضع ؛ أو لعلها مؤخرة عن موضعها الذى كان ينبغى أن توضع فيه ؛ فقد كان الأولى أن يترجم بها للرهن ، أى قبل قوله السابق فى ص ١٤ س ١ : « وان رهن المقر عند المقر له » الخ كما ترجم بها للضمان فى ص ١٣ س ٦ ، ٧ : فقال : « فصل وان حضر من يضمن فى الذمة» الخ .

كَتَب ما مثالُه : أَقَرّ كلُّ واحد من فلان وفلان عند شهوده[(١)] إقرارا صحيحا شرعيّا بأنّهما ٱشتَرَكا على تقوى ٱلله تعالى، وإيثارِ طاعتِه، وخوفِه ومراقبتِه، والنصيحةِ من كلٍّ منهما لصاحبه، والعملِ بما يُرضِى ٱللهَ تعالى فى الأخذ والعطاء، وهو[(٢)] أنّ كلًّا منهما أَخرَج من مالِه كذا وكذا، وخَلَطا ذلك حتى صار شيئا واحدا، لا يتميّز بعضُه من بعض وجملتُه كذا وكذا، ووَضعا أيديَهما عليه، وتَراضَيا على أنّهما يبتاعان به من ٱلمكان ٱلفلانىّ أو المدينة الفلانيّةِ ما أَحَبّا وٱختارا من أصناف البضائع وأنواع المتَاجر ويَجلِسان به فى حانوت بالبلد الفلانىّ، إن كان ٱتّفاقُهما على ذلك ؛ وإن كانا يسافران به كَتَب : ويسافران به الى البلاد الفلانيّةِ» فى البرّ والبحرِ العذب والملح أو أحدِهما دون الآخر على حَسَب ٱتّفاقِهما ، ويتولّيان معًا ذلك بأنفسهما ومن يختارانِه من وُكَلائهما ونُوّابهما ، على ما يَرَيان فى ذلك من ٱلحظّ والمصلحة ويبيعان ذلك بالنَّقْد دون النَّسيئة[(٣)] ، ويسلِّمان المَبيع ، ويَتعوّضان بالثمن ما أَحَبّا وٱختارا ، ويدِيران هذا ٱلمالَ فى أيديهما على ذلك حالا بعد حال ، وفعلا بعد فعل، ومهما فتح ٱلله فى ذلك من ربْح وفائدةٍ بعد إخراج رأس المال والمُؤَن والكُلَف وحقّ ٱلله تعالى إن وجب ، كان الربح بينهما مقسوما نصفين بالسويّة ؛ تَعاقَدَا على ذلك معاقَدةً صحيحةً شرعيّةً شِفاها بالإيجاب والقبول ؛ وأَذِن كلُّ واحد منهما لصاحبه فى البيع والشراء، والأخذِ والعطاء، فى غَيبة صاحبه وحضورِه، إذنا شرعيّا ؛ وعلى كلٍّ منهما أداء الأمانة، وتَجنُّبُ ٱلخيانة، وتقوى ٱلله فى السرّ والعلانية والنصيحةُ لصاحبه، ومعاملةُ شريكه بالمعروف والإنصاف .

(٧٣)

(١) شهوده : أى شهود المكتوب .

(٢) الضمير هنا ضمير الشأن والحال ، أى والشأن أن كلا منهما الخ .

(٣) النسيئة فى البيع : تأخير الثمن .

وإن تَسلَّم أحدُهما المالَ دون الآخر كَتَب بعد ذكر جملته : تَسلَّمه جميعَه فلان، وصار بيَده وقبضه وحَوْزه، ليَبتاع به ما أراد من البلاد الفلانيّة من أصناف البضائع، وأنواع المَتاجر، ويَجلِس به فى حانوت أو يسافرَ به؛ ويُكمِّله على ما تقدَّم.

وأما القِراض[1] — فاذا دَفع رجلٌ لرجل مالًا يعمل فيه، أو لجماعة من الناس كَتَب ما مثالُه : أقَرَّ فلان عند شهوده إقرارا صحيحا شرعيّا بأنّه قبَض وتَسلَّم من فلان من الذهب العَيْن كذا وكذا، أو من الدراهم الجيّدة المُتعامَل بها كذا وكذا — ولا يجوز فى الدراهم المغشوشة — وصار ذلك نقْدَه وقبْضَه وحَوْزَه، على سبيل القِراض الشرعىّ الجائز بين المسلمين؛ وأَذِن ربُّ المال له أن يشترِىَ بذلك ما أَحبَّه واختاره من المدينة الفلانيّة من أصناف البضائع، وأنواع المَتاجر على اختلافها، وتَبايُنِ أجناسها ويسافرَ به أين شاء من بلاد المسلمين فى الطُّرُق المأمونة، أو فى البحر العذبِ والمِلح ويبيع ذلك بالنَّقْد دون النسيئة، ويَتعوّض بقيمته ما أراد من أنواع المَتاجر، ويعود به الى البلد الفلانىّ، ويبيعه بالنَّقْد دون النسيئة، ويدِير هذا المال فى يده على ذلك حالا بعد حال، وفِعلا بعد فعل، ومهما أطلعه الله فى ذلك من ربح وفائدةٍ بعد إخراج رأس المال والوَزْن[2] والكُلَف وحقِّ الله تعالى إن وجب، كان الربح مقسوما بينهما نصفين، أو أثلاثا : لربّ المال الثلثان، وللعامل بحقّ عمله الثلث؛ تَعاقَدَا على ذلك معاقَدةً صحيحةً شرعيّةً بالإيجاب والقبول؛ والتفرُّق بالأبدان عن تراض وقَبِل كلٌّ منهما ذلك لنفسه قبولا شرعيّا، وعلى هذا العامل المذكورِ الأمانة وتجنُّبُ الخيانة، وتقوى الله فى السرّ والعلانية فى بيعه وابتياعه وجميع أفعاله، وحِفْظُه هذا المال على عادةِ مِثله، وإيصالُه عند وجوب ردِّه؛ ويؤرِّخ .

(١) القراض : هو توكيل مالك يجعل ماله بيد آخر ليتجر فيه، والربح مشترك بينهما، كما عرّفه الفقهاء بذلك، ويقال له : (المضاربة) أيضا .

(٢) «والوزن»، أى وأجرة الوزن .

وإن كان القِراض بِيَدِ جماعة فلا يصحّ أن يتكافلوا فى الذمّة، ويصحّ ضمانُ الوجه.(١)

وأما العارية — فإنّ الرجل إذا أعار لابنته شَوْرةً(٢) تتجمّل بها، أو أعار لرجل دارا أو عبدا أو غيرَ ذلك كَتَب الكاتب ما مثالُه : أقرّ فلان بأنه أعار لابنته لصُلْبه فلانةَ البكرِ البالغ، التى اعترف برشدها عند شهوده، ماذكر أنّه له وفى مِلكه ويده وتصرُّفه، وصدّقته على ذلك، وهو جميعُ الشَّورة(٢) الآتى ذِكرُها فيه، وهى كذا وكذا — وتوصَف وتُذكر الأوزانُ والقِيَم، وإن كان المُعارُ دارا حَدَّها ووصَفَها — عاريةً صحيحةً شرعيّةً مسلَّمةً مقبوضةً بِيَدِ المستعيرة من المُعير، بإذنه لها فى ذلك وذلك بعد النظر والمعرفة والمعاقَدة الشرعيّة، وعلى هذه المستعيرة حِفظُ ذلك والانتفاعُ به فى منزلها بالموضع الفلانىّ، والتجمُّلُ به، وألّا تُخرِجَ ذلك من يدها إلى أن تعيدَه الى المُعير على الصفة المذكورة، وعَلِمتْ مقدارَ العارية وما يلزم فيها؛ ويؤرِّخ.

وأما الهبة والنِّحْلة — فإنّ الرجل اذا وهب لأجنبىّ دارا أو غيرَ ذلك أو وَهَب لولده(٣) لصُلبه فلانٍ(٤) الرجلِ الرشيدِ مالا أو غيرَه كتب الكاتب : أقرّ فلان

(١) تقدّم ما يستفاد منه معنى ضمان الوجه فى ص ١٣ من هذا السفر، فانظره.

(٢) فى الأصل : «سورة» بالسين المهملة؛ وهو تصحيف اذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق ويريد بالشورة : الجهاز، كما فى جواهر العقود الموجود منه جزء مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٣٩ فقه شافعى؛ والذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة أن الشورة : اللباس والزينة، فلعل تفسيرها بالجهاز تفسير بالمعنى العرفىّ.

(٣) فى الأصل : «لغيره»؛ وهو تبديل وقع من الناسخ، صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله : «لصلبه» وما يأتى بعد فى أول المكتوب.

(٤) يلوح لنا أن قوله : «فلان» زيادة من الناسخ فى هذا الموضع، إذ ليس هنا محل تسمية الموهوب له، وانما محل ذلك فى عقد الهبة؛ ويؤيد ذلك أيضا عدم ورود هذه الكلمة فى صفحة ٢١ سطر ٨ إذ قال : «فإن وهب الرجل دارا لولده الطفل أو لولده البالغ» الخ.

بأنّه وهب لولده لصُلبه فلانٍ الرجلِ الرشيد ، الذى ٱعترَف بأنّه لا حَجْرَ له عليه ما ذَكَر أنّه له وفى مِلكه ويده وتصرّفه ، وهو جميعُ الدّار التى بالموضع الفلانىّ — وتوصَف وتُحدَّد — هِبةً صحيحةً شرعيّةً جائزةً ماضية ، بغير عوض عنها ولا قيمة قَبِلها منه قبولا شرعيّا ، وتَسلّم الموهوبُ له من الواهب[1] ما وَهَب له فيه[2] التسلّمَ الشرعىّ ، وصار بيَدِه وقبضه وحَوْزِه ، فبحكم ذلك وجب له التصرّف فيها تصرُّفَ المُلّاك فى أملاكهم ، وذوى ٱلحقوق فى حقوقهم ، وأقرّا بأنّهما عارفان بذلك ٱلمعرفةَ الشرعيّةَ النافذة[3] .

فإن وهب الرجل دارا لولده الطفلِ أو لولده البالغ الذى هو تحت حَجره كَتَب موضعَ القبول ما مثالُه : قَبِل الواهب ذلك من نفسه لولده المذكور ، بحكم أنّه تحت حَجْره ووِلاية نظره قبولا صحيحا شرعيّا ، وتَسلّم من نفسه لولده المذكورِ ما وَهَب فيه[2] التسلُّمَ الشرعىّ ، ورَفَع عنه يدَ مِلكيّته ، ووَضَع عليه يدَ نظرِه ووِلايته ، وأقرّ بأنه عارف بذلك المعرفةَ الشرعيّة .

فإن نَحَلَ الرجلُ ولدَه الطفلَ مالا أو غيرَ ذلك كَتَب ما مثالُه : أقرّ فلان بأنه نَحَلَ (أى دَفَع) لولدِه لصلبه فلانٍ الطفلِ ، أو المراهِق ، الذى تحت حَجْره ووِلاية نظره ما ذَكَر أنّه له وفى يدِه ومِلكه وتصرُّفه ، وهو جميعُ الشىء الفلانىّ — ويوصَف بما يليق به — نِحْلةً صحيحةً شرعيّةً ، جائزةً مرضيّه ، قَبِلها له من نفسه ، وصار ذلك بيَدِه مِلكا لولده المذكور ، وأقرّ بأنّه عارف بما نَحَله .

(١) فى الأصل : «من الموهب» ؛ وهو تحريف ؛ واللغة تقتضى ما أثبتنا .

(٢) «فيه» ، أى فى المكتوب .

(٣) النافذة ، أى المقبولة المعمول بها ؛ على أن عادة المؤلف فى المكاتيب الآتية أن يقول : «المعرفة الشرعية النافية للجهالة» .

وإن نَحَل ولَده البالغ أو الأجنبيَّ كَتَب نحوَ ما تَقدَّم الّا القبولَ والتسلُّم فإنه يقول : قَبِل ذلك لنفسه قبولا صحيحا شرعيّا ، وتَسلَّم منه ما نَحَله إيّاه فيـه بإذنه وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه ، ومالًا من جملة أموالِه ، وأقرّا بأنهما عارفان بذلك ٱلمعرفةَ الصحيحةَ الشرعيّةَ النافيةَ للجهالة .

وأما الصدقة والرجوع — فإنّ الرجل إذا تَصدّق على ولده الطفلِ ٥ أو البالغ أو على أجنبيٍّ ، كَتَب ما مثالُه : أقـرّ فلان بأنه تصـدَّق على ولده الطفلِ الذى تحت حَجْره ووِلاية نظره فلان ، وان كان بالغا كَتَب : "البالغ الرشيدِ بٱعتراف والده" بِرًّا به ، وحُنُوًّا عليـه ، وٱبتغاءً بذلك وجهَ الله الكريم ، وطلبا لثوابِه ٱلجسـيم بمـا ذَكَر أنه له وفى يده وتصرُّفِه ، وهو جميعُ الدار الفلانيّـة التى بالموضع الفلانى — وتوصَف وتُحدَّد — صدقةً صحيحةً شرعيّةً جائزةً ماضيةً نافذة ، قَبِلها من نفسِه ١٠ لولدِه ، أو قَبِلها الولدُ البالغُ الرشـيدُ لنفسِه ، على نحو ما تَقـدَّم فى الهبة والنِّحْلة من القبول والتسلّم .

واذا أراد الأبُ أو الجَدُّ وإن علا ، والأمّ والجَدّة وإن عَلَت الرجوعَ عن الصدقة والهبـةِ والتمليك اذا كان بغير عِوَض ، كتب الكاتب على ظهر المكتوب ما مثالُه : أشهَدَ فلان على نفسـه طائعا مختارا أنّه رَجَع فى الدّار المذكورةِ الموصوفةِ المحدودة ١٥ باطَنه ، التى كان تَصدَّق بها على ولده المذكورِ باطَنه فلان ، رجوعا صحيحا شرعيّا ، وأعادها الى مِلكه ويدِه وتصرُّفه ، وأَبطَل حُكمَها ، ونَقَض شرطَها ، وتَسلَّمها تسلُّمَ مثلِه لمثلِها ، وأقرّ بأنّه عارف بها ٱلمعرفةَ الشرعيّة ، ويؤرِّخ .

(٧٥)

وأما التمليك — فمنه ما هو بعوض، وما هو بغير عوض، فأما ما كان بعوض[(١)] فيكتب[(٢)] [فيه][(٣)] ما مثاله : مَلَّك فلانٌ لفلانٍ جميعَ الدار الفلانيّةِ الجاريةِ فى يده وملكه وتصرُّفه التى بالموضع الفلانى — وتوصَف وتُحدَّد — تمليكا صحيحا شرعيّا ، بثمن مبلغُه كذا وكذا، قَبَض الفقيرُ المُمَلَّكُ ذلك من المملِّكِ له بإذنه، وصار بيَدِه وحَوْزِه ومالا من جملة أموالِه ، عوضا عما مَلَّكه فيه فتسلَّمه منه ، وصار بيَدِه وقبضه وحَوْزِه، وذلك بعد النظر والمعرفة، والمُعاقَدةِ الشرعيّة، والتفرق بالأبدان عن تراض، وضمانِ الدَّرَكِ[(٤)] فى ذلك .

وأما ما كان بغير عوض ، فيكتُب [فيه][(٥)] : مَلَّك فلانٌ لفلانٍ جميعَ الدار — وتوصَف وتُحدَّد نحوَ ما تقدّم — تمليكا صحيحا شرعيّا، جائزا نافذا مَرضيّا ، بغير عوضٍ عن ذلك ولا قيمة، قَبِلها منه قبولا صحيحا شرعيّا، وسَلَّم هذا المملِّكُ لفلانٍ المملَّكِ ما ملَّكه إيّاه ، فتسلَّمه منه ، وصار بيَدِه وحَوْزِه ، مِلكا من جملة أملاكِه ؛ وأقرّا بأنّهما عارفان بها المعرفةَ الشرعيّةَ النافيةَ للجهالة ، وأنّهما نظراها وأحاطا بها

---

(١) عبارة الأصل : "بغير عوض" وقوله : "غير" زيادة من الناسخ والصواب حذفها ، كما يقتضيه ما يأتى فى المكتوب .

(٢) فى الأصل : "كتب" والقواعد تقتضى ما أثبتنا للزوم الفاء فى جواب أمّا وعدم جواز خلوّه منها إلا فى الضرورة، كما فى مغنى اللبيب ج ١ ص ٥٣ ، على أن المؤلف قد عبر بما أثبتناه عند الكلام على القسم الثانى من التمليك، وهو ما كان بغير عوض .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والقواعد تقتضى إثباتها ، فان الهاء هى الضمير العائد على الموصول السابق فى قوله : "ما كان" ولا يجوز حذف العائد فى مثل هذا الموضع الا شذوذا انظر كتب القواعد .

(٤) تقدم تفسير ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر، فانظره .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والقواعد تقتضى اثباتها كما سبق تعليل ذلك فى الحاشية رقم ٣ من هذه الصفحة .

علمـا وخِبْرة، تَعاقَدَا على ذلك معاقدةً شرعيّةً بالإيجاب والقبول، ثم تَفرَّقا بالأبدان عن تراض؛ و يؤرِّخ .

و إذا أقر رجلٌ بأنّ دارَه مِلكٌ لغيره [كَتَب](١) : أقر فلان عند شهوده طوعا إقـرارا صحيحا شرعيّا بأنّ جميـعَ الدّار التى بِيَدِه وتصرُّفه — وتوصَـف وتُحدَّد — مِلكُ فلانٍ مِلكا صحيحا شرعيّا دونه ودون كلِّ أحد بسببه(٢)، وأنّ مِلكه لهـذه الدّار سابقٌ على هـذا الإقرار ومقدَّمٌ عليه؛ وصـدَّقه المُقَرُّ له على ذلك تصـديقا شرعيّا وقَبِل منه هذا الإقرارَ لنفسِه قبولا شرعيّا، وأقرا بأنّهما عارفان بذلك المعرفةَ الشرعيّةَ النافيةَ للجهالة، وسَلَّم المقِرُّ المذكورُ للمُقَـرِّ له جميعَ الدار المذكورة، فتسـلَّمها منـه وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، وأقر المقِـرُّ المذكُور بأنّه لاحقّ له فى هـذه الدار ولا طلبَ بسبب ولا ملك ولا استحقاق منفعة بوجه من الوجوه الشرعيّة كلِّها على اختلافها، وتَصادَقَا على ذلك .

وأما البيوع — فإنّه إذا ابتـاع رجلٌ دارا أو حصّةً من دار أو غيرَ ذلك كتب الكاتب ما مثالُه : هـذا ما اشـتَرَى فلان بمالِه لنفسـه من فلان جميعَ الدّار الكاملة أرضا وبناءً، الآتى ذكرها ووصفُها وتحديدُها فيه، التى ذَكَر البائع أنّهـا له وفى مِلكه ويدِه وتصرُّفِه؛ وإن كان عَمَرَها كتب : "ومعروفة بإنشائه وعمارته".

وإن كان المَبيع حصّةً من دار كَتَب : جميعُ الحصّة التى مبلغُها كذا وكذا سهما من أربعـة وعشرين سهما شائعا غيرَ مقسوم من(٣) جميع الدار التى ذَكَر البائع أنّ

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها .

(٢) "بسببه" صفة لقوله : « أحد »، أى كل أحد متصل به .

(٣) "من جميع" متعلق بقوله : "مقسوم" .

هذه الحصّة المذكورةَ له وفى يده وملكه وتصرُّفه بجميع حقوقها ومَرافقها وما يُعرَف بها ويُنسَب إليها .

فإن ٱستثنَى البائعُ مكانا منها غيرَ داخلٍ فى ٱلبيع كَتَب بعد ذلك : خلا الموضعَ الفلانىّ ، فإنّه خارجٌ عن هـذا العَقد ، غيرُ داخلٍ فى هذا البيع ، وعَلِم به ٱلمشـترِى ورضِىَ به . ثم يقول : شراءً صحيحا شرعيّا قاطعا ماضـيا جائزا نافذا ، بثمن مبلغُه كذا وكذا ، تَقابَضا وتَفرَّقا بالأبدان عن تراض ، بعـد النظر والمعرفةِ والمعاقَدةِ الشرعيّة ، وضمانِ الدَّرَك[1] فى المَبيع حيث يجب شرعا .

وإن أراد الكاتب تحسينَ ألفاظه وتنميقَها وتكثيرَها فيما لا يضرّ بالعَقد ولا يُفسِد البيعَ كَتَب بعد تنصيف الثمن : دَفَعه ٱلمشترى المذكورُ للبائع المذكورِ من خالِص مالِه وصُلب حالِه ، تامّا وافيا ، وأَقبَضه له بعد وزنِه ونقْدِه ، فقبَضَه البائع المذكورُ منـه وتَسلَّمه بتمامِه وكمالِه موزونا منتقَدا ، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه مالًا من جملة أموالِه ؛ وبحكم ذلك بَرِئَتْ ذمّةُ ٱلمشترِى ٱلمقبوضِ منه من الثمن المذكور براءةً صحيحةً [شرعيّةً][2] براءةَ قبضٍ وٱستيفاء ، وسَلَّم البائع المذكورُ للمشترى ٱلمذكورِ ما باعه إيّاه ، فتَسلَّمه منه خاليا لا شاغلَ له ، ولا مانعَ له منه ، ولا دافعَ [له عنه][3] ، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه ، مِلكا من أملاكه ، يَتصرّف فيه تصرُّفَ المُلّاك فى أملاكهم ، وذوى ٱلحقوق فى حقوقهـم من غير مانع ولا معترِض ، ولا رافع ليد بوجه ولا سبب ، وذلك بعد نظرهما لجميع[4] ذلك ، ومعرفتِهما إيّاه ، وإحاطتِهما به علما وخِبْرة نافيَين للجهالة ، وتعاقُدِهما على ذلك كلِّه

(١) تقدّم شرح ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر ، فانظره .

(٢) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) موضع هاتين الكلمتين فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٤) فى الأصل : «بجميع» بالباء ، والسياق يقتضى اللام كما أثبتنا .

المُعاقَدة الصحيحةَ الشرعيّةَ المعتبَرَة شِـفاها بالإيجاب والقبول، ثم تفرّقا بالأبدان من مجلس العَقد التفرّق الشرعيّ عن تراضٍ منهما، وضمانِ الدَّرَك[1] فى صحّـة البيع[2] حيث يوجبه الشرع الشريفُ وتقتضيه أحكامُه .

وإن اشترَط أحدهما الخيارَ لنفسه ثلاثةَ أيّام كَتَب بعد قوله : «عن تراض» : وانقضاءِ مدّةِ الخيار الشرعيّ الذى اشترطه البائعُ لنفسه خاصّة، أو المشترِى، أو الذى اشترطاه لأنفسهما، وهو ثلاثة أيّام من تاريخ العَقد .

وإن كانا لم يتفرّقا من مجلس العَقد كَتَب عوض التفرّق بعد الإيجاب والقبول: واختـار كلٌّ من المتعاقدَين المذكورَين إمضاءَ البيع المذكورِ بينهما فى المَبيع المعيَّن وإلزامَه وإبرامَه وتمامَ إحكامِه ونفوذَه على الوجه الشرعىّ، والقانونِ المَرضىّ، وضمانَ الدَّرَك[1] على ما تقدّم .

وإن أحضَر البـائعُ من يده[3] كتابا يَشهَد له بصحّة مِلكه للمَبيع كَتَب : وأحضَر هـذا البائع من يده[3] كتابا يتضمّن ابتياعَه الدّارَ المذكورة، وأصولا[4] له، وسَطّر[5] عليها فصولا بهذه المبايَعة، وتَسلّم المشترِى ذلك توثقةً[6] له، وحُجّةً لليوم ولِمـا بَعده .

(١) تقدم شرح ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر، فانظره .

(٢) فى الأصل : «المبيع» ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا فان الصحة مما يوصف به البيع لا المبيع .

(٣) ضمن «أحضر» معنى «سلم» بتشديد اللام، فسوّغ له هذا التضمين ذكر «من» فى هذا الموضع ؛ وقد ورد التعبير بذلك فيما بين أيدينا من كتب الوثائق والشروط .

(٤) يريد بالأصول : الحجج والعقود التى كانت لمن ملك المبيع قبـل بيعه ؛ وعبارة الأصـل : «وأصـلا له وأصولا» ؛ ولا يخفى ما فيها من التـكرار ؛ وما أثبتناه عن الكوكب المشرق المحفوظة منـه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة تحت رقم ٨٩٢ فقه شافعى ؛ وعبارته : «وأصولا له عدّتها كيت وكيت» .

(٥) فى الأصل : «وشطر» بالشين المعجمة ؛ وهو تصحيف .

(٦) لم نجد التوثقة فيما راجعناه من كتب اللغة، كما أنه ليس مصدرا قياسيا "لوثق" بتشديد الثاء ؛ ولعله من الألفاظ التى اصطلح كتاب المواثيق على استعمالها ؛ وقد سبق التنبيه على ذلك فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٤ من هذا السفر .

وإن كان البائع «قد آستعاد آلحُكْمَ على ما بقِىَ»[(١)] على ملكه منها أو من غيرها كَتَب عوض «وتَسلَّم المشترِى ذلك» : ثم بعد ذلك آستعادها البائعُ بحكم ما بقِىَ على ملكه منها أو من غيرها» .

وإن كان فى ملك المشترِى حصّةٌ متقدِّمةٌ ثم آبتاع حصّةً أخرى كَتَب : وقد كَمُل للمشترِى المذكورِ بما فى ملكه متقدِّما وبهذه المبايَعة ملكُ جميع كذا وكذا سهما أو ملكُ جميع الدار المذكورة، وصدّقه البائع على ذلك .

وإن كان فى المَبيع عيبٌ وآشترطه البائعُ كَتَب بعد تمام العَقد ولزومه : أَعلَمَ البائعُ المشترِىَ أنّ الدّارَ المَبيعةَ واقعةُ[(٢)] آلجدران، مختلّةُ[(٣)] البنيان، سبِخةُ الأرض والحيطان مائلةُ الجُدُر والزُّروب[(٤)]، مكسورةُ القوائم والأعراق[(٥)]، مسوَّسةُ الأخشاب، الى غير ذلك ممّا لعلّه يكون فيها من عيب، ورضِىَ آلمشترِى بذلك .

وإن كان وكيلا فى الشراء كَتَب : وعَلِم آلمشترِى أنّ الدار المذكورةَ مَعيبة[(٦)] — أو على ما يصفُها به من العيوب — وقال : إنه أَعلَمَ مُوكِّلَه بذلك ورضِىَ به .

وإن كان البيع بناءً دون الأرض كَتَب : جميعُ البناءِ القائمِ على الأرض المحتكَرة[(٧)] دارا أو طاحونة أو غيرَ ذلك ، الجارى هذا البناءُ فى يد البائع وملكِه وتصرّفه على

(١) لعل صواب هذه العبارة : «قد استعادها بحكم ما بقى» الخ كما سيأتى التعبير بذلك فى سطر ٢ من هذه الصفحة أى استعاد البائع من المشترى هذه الأصول التى تشهد له بصحة ملكه للبيع بحكم ما بقى الخ .

(٢) فى الأصل : «واقفة» بالفاء، وهو تصحيف .

(٣) فى الأصل : «مختلفة» ؛ والفاء زيادة من الناسخ .

(٤) الزروب : المداخل، واحده زرب بفتح فسكون .

(٥) يريد بالأعراق : قطعا طويلة من الخشب تسقف بها الدور، واحده عرق بكسر فسكون ؛ واستعمال هذا اللفظ فى ذلك المعنى استعمال شائع فى مصر؛ ولم نجده فيما بين أيدينا من كتب اللغة .

(٦) فى الأصل : «مقتة» ؛ وهو تصحيف .

(٧) المحتكرة، أى المحتبسة بفتح الباء .

ما ذَكَر ؛ ويكمِّل المبايَعـةَ على ما تقـدَّم شرحُه وبيانُه ؛ ويَكتُب فى آخرها : وعَلِم المشترِى المذكورُ أنّ الأرض الحاملةَ لهذا البناء المذكورِ محتكَرة، ومبلغُ الحِكْر[1] عنها فى كلّ سنة أو فى كلّ شهر كذا وكذا، ورضِىَ بذلك .

وإن كان المشترِى وكيلا كَتَب : وقال : إنّه أَعلَمَ موكِّلَه بذلك، ورضِىَ به .

وإن كان المَبيع أرضا دون البناء أو أرضا كَشْفا[2] كَتَب : جميعُ قطعـة الأرض الحاملةِ لبناء البائع ؛ أو جميعُ الساحة الكَشْفِ[2] التى لا بناءَ عليها، الجاريةِ فى يد البائع ومِلكِه وتصرّفِه ؛ ويَذْرَع ويحدِّد، ويكمِّل المبايَعةَ على ما تقدّم .

فصـــل

وان كان المبيـع بئرا كتب : جميعُ بناء البئر المَعِينةِ[3] ومكانها من[4] الأرض، المبنيّةِ بالطوب الآجُرِّ والطين والحجر .

وإن كانت نَقْرا كَتَب : جميعُ البئر المنقورة للمـاء[5] المَعين .

---

(١) الحكر بالكسر : ما يجعـل من الأجور على العقارات ويحبس ؛ وهى مولدة انظر تاج العروس .

(٢) الكشف ، أى المكشوفة ؛ فالمراد بالمصدر اسم المفعول .

(٣) الذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا « المعيونة » أى التى لها مادة من الماء وأما المعين فهو وصف للماء، أى الجارى الظاهر على الأرض ، غير أن القواعد الصرفية لا تمنع أن يقال : « معينة » بالمعنى السابق المراد هنا ، بل هو الأصل .

(٤) فى الأصل : «والأرض» والسياق يقتضى ما أثبتنا ؛ ويدل على هذا أيضا تعبيره بذلك فى ص ٢٩ س ٣ من هذا السفر .

(٥) فى الأصل : « البناء » ؛ وهو تحريف ، صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه السياق .

وإن كان صهريجا كَتَب : جميعُ الصِّهريج المبنىِّ بالطوب الآجرِّ والطين والجير المُتَلِّص[1] المُبيَّض بالخافقىّ[2] الذى برسم خَزْن الماء العذْب .

وإن كان بئرا هَمّاليّة[3] كَتَب : جميعُ بناء الهَمّاليّة ومكانها من الأرض، المبنيّة بالطوب الآجرِّ والطين والجير ، الجارى ذلك فى يد البائع وملكِه وتصرّفِه، وهى فى الموضع الفلانىّ؛ ويَذْرَع ويحدِّد ذلك، إن أمكن ذلك .

وإن كان المَبيع نخلا دون الأرض كَتَب : جميعُ النخل القائم فى الأرض الوقفِ على الشىء الفلانىّ، الخارجةِ عن هذا البيع، ومكانُ[4] كلِّ نخلة من الأرض، الجارى النخلُ المذكورُ فى يد البائع وملكِه وتصرّفِه على ما ذَكَر، الذى ذلك فى الموضع الفلانىّ؛ ويَذكُر عددَها .

وإن كانت الأرض مملوكةً للبائع وأراد أن يبيع النخل بمَغارسها[5] كَتَب : جميعُ النخل النابتِ فى الأرض الآتى[6] ذكرُها فيه، وجميعُ أماكنها من الأرض، الجارى

(١) فى الأصل : «المتصل» وفى حروفه قلب لا يستقيم به معنى الكلام . والملص : من تلصت الشىء، اذا ملّسته ولّينته، والمراد هنا : المطلية حيطانه وأرضه بالجير والرمل ونحوهما حتى صارت ملساء.

(٢) يريد بالخافقىّ أخلاطا من الجص و الجير وغيرهما تطلى بها أرض الصهاريج ونحوها لئلا تتشرب الأرض ماءها ؛ ولم نجد هذا اللفظ فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أننا لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ المعرّبة والدخيلة .

(٣) يريد بالهمالية : البئر المجاورة للأنهار وماؤها مستمدّ منها ؛ واستعمال هذا اللفظ فى ذلك استعمال شائع بين العامة فى مصر؛ وقد ضبطناه بفتح أوله وتشديد ثانيه كما سمعناه منهم، وكأن استعماله فى ذلك المعنى السابق مأخوذ من الهملان بمعنى الفيضان .

(٤) « مكان » معطوف على الضمير المستتر فى قوله : «الخارجة» أى الخارجة هى ومكانُ الخ ولهذا ضبطناه بضم آخره، لأن مكان كل نخلة خارج عن هذا البيع أيضا .

(٥) أنث الضمير العائد على النخل هنا، وأورده مذكّرا فى مواضع أخرى ، جريا فى التأنيث على لغة أهل الحجاز، وفى التذكير على لغة أهل نجد وتميم ؛ وقد جاء القرآن بكلتا اللغتين .

(٦) فى الأصل : « اللاتى » ؛ واللام الثانية زيادة من الناسخ .

النخلُ والأرضُ بكمالها فى يد البائع المذكور وملكه وتصرّفه على ما ذَكَر، باع من ذلك النخلَ المذكورَ ومواضعَ مَغارسها، وتَبقَّى على ملكه بقيّةُ الأرض فإنها غيرُ داخلة فى هذا البيع؛ وهذه الأرض بالموضع الفلانىّ؛ وعدّةُ النخل كذا وكذا. ويحدِّد الأرض، ويكمِّل المبايَعة؛ ويَكتُب فى آخر المكتوب: ولهذا المشترِى العبورُ فى الأرض المذكورة والاستطراقُ[1] فيها الى النخل المذكورِ بحقٍّ شرعىّ. ٥

وان كان المَبيع ثمرا ونخلا كَتَب: جميعُ ثمر النخل الجارى ذلك فى ملكه ويده وتصرُّفه على ما ذَكَر، الذى ذلك بالموضع الفلانىّ؛ وعِدّتُها كذا كذا نخلة، إن أمكن؛ ويحدِّد الأرض، ثم يقول: التى بدا صلاحُها، وطاب أُكْلُها، واحمرّتْ واصفرّتْ، وجاز بيعُها بشرط القطع؛

وإن شَرَط التَّبقِيَةَ كَتب: بشرط التَّبقِيَة إلى أوان الجِذاذ، شراء صحيحا شرعيّا؛ ويكمِّل[3] المبايَعة. ١٠

فصـــل

وان كان المَبيع مَرْكَبا كَتَب: جميعُ المَرْكَب العِشارىّ[4]

(١) الاستطراق: سلوك الطريق؛ يقال: استطرقت الى الباب، اذا سلكت طريقا اليه، كما فى المصباح.

(٢) الجذاذ بفتح الجيم وكسرها: من جذذت النخل، اذا صرمته. ١٥

(٣) فى الأصل: «وبكل»؛ وهو تحريف.

(٤) (العشارى): مركب نيلى؛ ويعبر عنه فى بعض الكتب بالعشيرىّ؛ قال عبد اللطيف البغدادىّ فى مختصر أخبار مصر صفحة ١٧٢ طبع ليدن ما نصه: «وأما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه العشيرى، شكله شكل شبارة الا أنه أوسع منها بكثير، وأطول وأحسن هندامًا وشكلا، قد سطح بألواح خشب ثخينة محكمة، وأخرج منها أفاريز كالرواشن نحو ذراعين، وبنى فوق هذا السطح بيت من خشب، وعقدت عليه قبة، وفتحت له طاقات وروازن بأبواب الى البحر من سائر جهاته، ثم تعمل فى هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض، ثم يزوّق بأصناف الأصباغ، ويذهب ويدهن بأحسن دهان، وهذا يتخذ للملوك والرؤساء، بحيث يكون الرئيس جالسا فى وسادته، وخواصه حوله والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن، وأطعمتهم وحوائجهم فى قعر المركب، = ٢٠

أو الخضارى (١) ، أو الدَّرَمُونة (٢) ، أو النارية (٣) ، أو الشَّخْتُور (٤) ، أو الحَرّاقة (٥)

= والملاحون تحت السطح أيضا و فى باقى المركب يقذفون به ، لا يعلمون شيئا من أحوال الركاب ، ولا الركاب تشتغل خواطرهم بهم ، بل كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول بما هو بصدده » الخ . والشبارة الواردة فى أول كلامه عند أهل الموصل : هى الحرّاقة عند أهل مصر ، كما فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧ طبع بولاق . و ورد لفظ « العشاريات » فى عدة مواضع من خطط المقريزى فى ذكر ما كان يعمل يوم فتح الخليج ، وفى الكلام على منظرة الصناعة ؛ و يؤخذ من كلامه ان هذا النوع من السفن كان يعدّ لركوب الخليفة يوم تخليق المقياس ، وان لولاة الأعمال عشاريات يقال لها : العشاريات الدواميس ، وللشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه فقد ذكر عن ابن الطوير أن العشاريات كانت تزيد على خمسين عشاريا و يليها عشرون ديماسا ، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها ، و بقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الأعمال المميزة ، فهى تجرّ لهم ، وتقيم مع أحدهم مدّة مقامه ؛ الى أن قال : « وللشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه » الخ . ولم نقف على وجه تسمية هذا النوع بهذا الأسم .

(١) لم نجد وصف هذا النوع من المراكب فيما راجعناه من المظان ، كما أننا لم نقف على ضبطه .

(٢) كذا ضبط هذا اللفظ ضبطا بالقلم فى الأصل وجواهر العقود المحفوظ منه جزء مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٣٩ فقه شافعى و يؤخذ من كلام المقريزى فى الخطط انها من سفن الروم البنادقة فقد ذكر فى الجزء الأول صفحة ٤١٩ طبع بولاق عند الكلام على وصف الفسطاط الكبير المعروف بالمدوّرة الكبيرة : أن عموده أطول ما يكون من صوارى درامين الروم البنادقة ، و يؤيد ذلك ما ورد فى تكملة القواميس العربية (لدوزى) فقد ذكر أن « الدرمونة » ضرب من السفن ، وهو يونانى اه . ولم نجد صفة هذا المركب فيما راجعناه من المظان ، غير أنه يؤخذ من جواهر العقود أن الدرمونة هى الباطوسىّ فقد قال فى كيفية ما يكتب فى بيع مركب مانصه : « جميع المركب المورقى أو الباطوسىّ الدرمونة » الخ ، والباطوسىّ هو الذى يعبر عنه فى بعض الكتب بالبطسة ؛ وهو مركب حربى عظيم يشحن بآلات الحرب والأسلحة والميرة والرجال والأبطال المقاتلة ، وهى كثيرة القلاع حتى إنها قد يكون فيها نحوا من أربعين قلعا ، كما يستفاد ذلك من سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية لابن شدّاد فى الكلام على غرق البطسة الاسلامية ص ١٤٨ طبع مطبعة الآداب بمصر . (٣) لا فائدة من ذكر النارية هنا مع ذكره للحرّاقة بعد فكلتاهما بمعنى واحد كما سيأتى فى تفسير الحراقة بعد فى الحاشية رقم ٥ من هذه الصفحة ؛ ولعل صوابه « النهرية » أى السفينة التى تسير فى النهر .

(٤) فى محيط المحيط أن الشختور سفينة صغيرة بصار واحد فى الوسط ، وهو من اصطلاح النوتية ؛ ولم نجد صفة هذا النوع من السفن فى غير هذا الكتاب بل إن مادة لفظه لم ترد فى غيره من كتب اللغة التى بين أيدينا ؛ وقد أنبأنا بعض من له علم بذلك من البحريين وأصحاب السفن أنهم كانوا يطلقون هذا اللفظ على مركب كبير لنقل البضائع فى البحر المالح ، وشراعه يتحرك صعودا وهبوطا على القرية و يكون له صار أو صاريان ؛ أما الآن فيطلق على المركب الصغير ؛ وقد ضبطناه بفتح الشين كما ينطق به أصحاب هذه الصناعة .

(٥) فى أساس البلاغة أن « الحراقة » سفينة خفيفة المرّ . وفى غيره من كتب اللغة أن الحرّاقة سفينة فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر .

أوالشلودةِ[1]، أو الدلاج[2]، أو الكبكة[3]، أو غيرِ ذلك، وجميعُ عُدّتها المتخَذةِ برسمها، الآتى ذِكرُ ذلك ووصفُه، الجارى ذلك فى يد البائع وملكه وتصرُّفه على ماذَكَرْ؛ وصِفةُ المَرْكَب أنّها طولُ كذا كذا ذراعا بالذراع النّجّارىّ[4]، ومَحْمَلُها كذا وكذا إردباً بالكيل المصرىّ[5]؛ وصِفةُ العُدّة أنها صارٍ قطعةٌ واحدة، و برأسه جامُور[6]، وقَرِيّةٌ[7] ثلاثُ قِطَع

(١) لعل صوابه : «الشلندى» بالنون إذ لم نجد «الشلودة» فيما راجعناه من المظان؛ وقد ورد لفظ الشـلندى فى قوانين الدواوين المأخوذة منـه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٣٠١ أدب؛ وجاء فى هـذا الكتاب « أنه مركب مسقف تقاتل الغـزاة على ظهره، وجذافون يجذفون تحتهم» اهـ. وورد لفظ «الشلنديات» فى عدّة مواضع من خطط المقريزى : منها ما جاء فى الجزء الثانى صفحة ١٩٣ و ١٩٧ طبع بولاق، ولم يذكر وصفها .

(٢) لم نجد هذا اللفظ فيما راجعناه من المظان التى بين أيدينا، كما أننا لم نجد من يعرفه من البحريين وأصحاب السفن .

(٣) فى الأصـل : « الكتكه » بالتاء المثناة؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب، وقد أثبتناه بالباء الموحدة نقلا عن قوانين الدواوين صفحة ١٨ طبع مطبعة الوطن فقد ورد فيه لفظ (الكبك) بالباء مرادا به المراكب؛ وفى جواهر العقود المحفوظ منه جزء مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٣٩ فقه شافعى (الكَكّ) بسقوط الباء؛ وقال عنها : « انها سفينة عريضة السفل والعلو مقدّمها ومؤخرها حادّان، ذات طبقات : الطبقة السفلى منها للحديد والأثقال، والثانية للحريم والجوارى والرقيق؛ والعليا للرجال، ويشتمل علوّها على صار أو اثنين، وعلى مرساة أو اثنتين وصهريج برسم الماء الحلو» اهـ .

(٤) لم نجد من ذكر قدر الذراع النجارى فيما راجعناه من المظان التى بين أيدينا، غير أنه يستفاد من صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ فى الكلام على القصبة الحاكية أن الذراع النجارى ذراع بذراع اليد وستة أعشار فانه نقل عن ابن ممـاتى ان طول القصبة الحاكية خمسة أذرع بالذراع النجارى، ثم نقل عن غيره ان طول هذه القصبة ثمـانية أذرع بذراع اليد؛ فاذا قسمت ثمـانية على خمسة كانت نتيجة ذلك ماذكرنا .

(٥) النجارىّ بتذكير الوصف لغة قليلة، فان الأكثر فى لغة العرب تأنيث الذراع؛ قال فى المصباح : ذراع القياس أنثى فى الأكثر .

(٦) الجامور : الخشبة المثقوبة فى رأس دقل السفينة المركبة فيه، كما فى مستدرك التاج .

(٧) القرية بفتح القاف وتشـديد الياء : عود الشراع الذى يكون فى عرضـه من أعلاه؛ والعامة ينطقونه بتخفيف اليـاء .

وقوسان ، وقلعٌ مزوّى[1] من قماش القطن ، أو المُلْحَم[2]، أو غيره، عِدّتُه كذا وكذا بيلمانا[3] أو قِلْعٌ ستارةٌ مكمّلة حبال القُنّب[4] أو القطن ، ورِجلٌ[5] طويلةٌ قطعةٌ أو قطعتان ، وفِراش[6] ، وكذا وكذا مِجْذافا[7] ، وإِسْقالةُ[8] برٍّ أو أكثرُ من ذلك

(١) فى الأصل : « مزون » بالنون فى آخره ؛ ولم نقف على معنى له يناسب السياق فيما راجعناه من المظان ، ولعل صوابه ما أثبتنا ، والمزوى بتشديد الواو المفتوحة : الذى له ثلاثة أطراف ؛ قال أبو الهيثم : كل شىء تام فهو مربع ، كالبيت والبساط له حدود أربع ، فاذا نقصت منها ناحية فهو أزور مزوى ، بتشديد الواو المفتوحة .

(٢) يريد بالملحم هنا : ما كان سداه من القطن ولحمته من غيره .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل وجواهر العقود ؛ ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أننا لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ المعرّبة والدخيلة ؛ والظاهر من سياق الكلام هنا وفى جواهر العقود أن المراد به : الشقة من قماش القلع ، فقد ورد فى جواهر العقود فى الكلام على كيفية ما يكتب فى بيع المراكب ما نصه : « وفى مراكب البحر العذب يذكر النوع والصوارى والجوامير والقرايا والقلاع ، وعدّة مفصلاتها وبيلماناتها » الخ فعطف البيلمانات على المفصلات — بتشديد الصاد المفتوحة — يدل على أن المراد بها ما ذكرنا .

(٤) عبارة الأصل : « الحب الى العنب » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين ؛ والقنب : نبات يؤخذ لحاؤه ، وتفتل منه حبال ، وله حب يسمى الشهدانج ؛ وقيل : هو فارسىّ قد جرى فى كلام العرب ، كما فى المغرب .

(٥) فى الأصل : « ورحل » بالحاء المهملة ؛ وهو تصحيف ، ولم نجده فيما راجعناه من المظان كما أننا لم نجد من يعرف هذا اللفظ من الملاحين وأصحاب السفن .

(٦) يريد بفراش المركب : ألواحا غير مسمورة تفرش فيه ليجلس عليها الركاب وتوضع عليها البضائع وهى التى تعرف الآن عند الملاحين فى مصر (بالدوامس) كما أخبرنا بذلك من نثق به ممن لهم علم وخبرة بالسفن وآلاتها ، ولم نجد هذا التفسير فيما راجعناه من الكتب التى بين أيدينا .

(٧) المجذاف بالذال المعجمة أو الدال المهملة — كلتاهما لغتان فصيحتان — : خشبة فى رأسها لوح عريض يدفع بها الملاح السفينة (تاج العروس) مادة جدف بالمهملة .

(٨) الإسقالة : كلمة عامية يراد بها الألواح العريضة التى تمد على جانب السفينة ليعبر بها الى البر ، والذى ورد فى مستدرك التاج هو تفسير إسقالة البناء ، فقد جاء فيه ما نصه : الإسقالة بالكسر : ما يربطه المهندسون من الأخشاب والحبال ليتوصلوا بها الى المحال المرتفعة ، والجمع أساقيل اه والعامة فى زماننا يسمونها « سقالة » بحذف الألف الأولى .

ومِذْراةٌ[(١)] أو أكثر، وعُرُوس[(٢)]، وقُلُوس[(٣)]، وقَرايا[(٤)]، وغيرُ ذلك من آلات المَرْكَب وعُدده؛ فما زاد عن ذلك ذَكَره، وما نقص وصَفَه[(٥)]؛ ثم يقال: "وهذا المَرْكَب مَدْسُورُ[(٦)] السُّفْل والعُلْو، مسدودُ الشوبين[(٧)]، مغطَّى الخِنَّين[(٨)]"؛ وإن كان له مِرْساةٌ[(٩)] من حديد وصَفَها وذكَرَ زِنَتَها؛ ويكمِّل المبايَعة.

(١) يريد بالمذراة: خشبة طويلة يدفع بها الملاح السفينة ورأسها فى الأرض؛ وهو بهذا المعنى عامى وعربيته: «مردى» بضم الميم وسكون الراء وتشديد الياء، فقد جاء فى مبادئ اللغة ص ١٩ فى تفسير المردى: أنه خشبة يدفع بها ورأسها فى الأرض الخ وهو من المرد بمعنى الدفع؛ والذى فى تاج العروس مادة «مرد» أن المردىّ هو المجداف، وهو مخالف لما نقلناه عن مبادئ اللغة.

(٢) العروس بضم العين: الحبال، واحده عرس، بفتح فسكون؛ ولم يرد فى كتب اللغة التى بين أيدينا أنه يجمع على عروس كما هنا، غير أن فى كتب القواعد ما يفيد أن هذا الجمع قياسى فى مثله.

(٣) فى الأصل: «وقلوس» والميم زيادة من الناسخ، والقلوس بضم القاف: جمع قلس بفتح فسكون، وهو حبل غليظ من حبال السفينة؛ ولعله هو المعروف عند الملاحين فى مصر الآن (باللبان) بكسر اللام، وهو الحبل الطويل الذى تجر به السفينة.

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل؛ وهو تكرار مع «القرية» السابق ذكرها فى سطر ٤ من صفحة ٣٢ من هذا السفر.

(٥) لعل الأولى: «ثم يقول» بالبناء للفاعل، وذلك لموافقة قوله فيما سبق: «ذكره» «ووصفه» بصيغة الماضى المبنى للفاعل أيضا.

(٦) فى الأصل: «مدسو» بسقوط الراء؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا؛ والمدسور: الذى أصلح بالدسر بضمتين، وتسكن السين أيضا، وهى خيوط من ليف تشد بها ألواح السفينة، أو هى المسامير، واحده دسار بكسر الدال.

(٧) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل وجواهر العقود؛ ولم نجده فيما لدينا من الكتب، كما أننا لم نجد من البحريين وأصحاب السفن من يعرفه، ولهذا لم نضبطه.

(٨) الخنان: تثنية خن بكسر الخاء وتشديد النون، وهو لفظ تطلقه العامة على موضع فارغ فى بطن السفينة يضع فيه النوتى متاعه، كما فى تاج العروس؛ وإنما ذكره بالتثنية لأن فى السفينة خنين: أحدهما جهة مقدّمها، والثانى جهة مؤخرها، كما هو معروف فى السفن التى نشاهدها.

(٩) المرساة: أنجر السفينة التى ترسى بها، وهو أنجر ضخم يشدّ بالحبال، ويرسل فى الماء، فيمسك السفينة ويرسيها حتى لا تسير؛ وفى المخصص ج ١٠ ص ٢٧ أن تسمية المرساة بالأنجر تسمية عراقية.

وإن كان المَبيع بالغا عبدا أو أمةً "أو كانا غيرَ بالغين"[(١)] كَتَب : جميعُ العبد ، أو الغلام ، أو الوَصِيف[(٢)] ، أو المملوك ، أو الجارية ، أو الأمة ، أو الوَصِيفة[(٢)] ، الجارى ، أو الجاريةِ فى يد البائع ومِلكِه ، المقِرِّ له[(٣)] بالرِّق والعبوديّة ، المدعوِّ فلانا ؛ ويَذكُر جنسَه ودِينَه ، ثم يقول : وحِلْيتُه : ... ... ويَذكُرها .

وإن كان[(٤)] دون البلوغ كَتَب : جميعُ الغلام الذى بيَدِه وملكه وتصرُّفه على ما ذَكَر ، المُراهِق ، أو المُعْصِر[(٥)] ، إن كانت جارية ؛ ويعيِّن البَكارة إن كانت ؛ ثم يقول : "شراءً صحيحا شرعيّا بثمن مبلغه كذا وكذا" ؛ ويكمِّل المبايَعة .

وإن كان بالمَبيع عيبٌ ذكَرَه ، فيكتُب : وعَلِمَ المشترى أنّ به أو بها المرضَ الفلانىّ — ويعيّنه ، ويعدِّد الأمراضَ والعيوبَ وآثارَ الكىّ وغيرَ ذلك إن كان — ورضِىَ به ، ودخَل[(٦)] عليه .

(١) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل ؛ وهى زيادة فى الكلام تنافى مع قوله الآتى بعد فى المكتوب : « المقر له بالرق والعبودية » اذ أن ذكر الإقرار خاص بما اذا كان المبيع بالغا ، كما بينا ذلك فيما يأتى فى الحاشية رقم ٣ من هذه الصفحة ؛ على أن المؤلف سيذكر بعد ذلك مكتوبا آخر يخص بيع الرقيق الذى هو دون البلوغ .

(٢) الوصيف والوصيفة : العبد والأمة ، ولا يجوز فى هذا الموضع تخصيص هذين الوصفين بما إذا كان الموصوف بهما دون المراهقة كما فى المصباح ، لأن هذا التخصيص ينافى قوله بعد : « المقر له بالرق والعبودية » اذ أن ذكر الإقرار خاص بما اذا كان المبيع بالغا ، كما بينا ذلك فيما يأتى فى الحاشية رقم ٣ من هذه الصفحة ، فانظره .

(٣) « المقر له » ، أى للبائع ، وهذه العبارة خاصة بما اذا كان العبد المبيع بالغا فإن إقرار الصبى مسلوب مطلقا ؛ كما فى كتب الفقه ، وعبارة الكوكب المشرق فى الكلام على كيفية ما يكتب فى بيع الرقيق : وان كان المبيع بالغا يكتب : « المعترف لبائعه بسابق الرق والعبودية » .

(٤) « وان كان » ، أى وان كان المبيع .

(٥) يريد بالمعصر هنا : الجارية التى قاربت الحيض ؛ والإعصار فى الجارية كالمراهقة فى الغلام (تاج العروس) .

(٦) «ودخل عليه» أى أن المشترى دخل فى عقد البيع على هذا العيب ، أى على علمه به .

وإن كان المَبِيع عبدا بجارية أو العكسَ كَتَب : جميعُ العبـد الذى بِيَد البائع — على نحو ما تقدّم — بجميـع الجارية الفلانيّة الجنس، المسلمة، تقَابَضا[1] وتفرّقا بالأبدان، بعد النظر والمعرفة، والمعـاقَدة الشرعيّة، وضمانِ الدَّرَك[2] فى ذلك حيث يجب شرعا ؛ وإن كان فى أحدهما عيبٌ ذكَره .

فصـــل

وإن كانت الدار المَبيعة فى بلدٍ والمتبايعان فى بلدٍ آخَر كَتَب التخليةَ عوضَ التسليم، فيقول : وخَلَّى البائع المذكورُ بين المشـترِى وبين ما باعه إيّاه فيـه[3] تخليةً شرعيّة، ووجب[4] له بذلك قبضُ المَبِيع وتسـلُّمُه بمقتضى هذا الابتيـاع الشرعىّ ؛ وأقرّا أنهما[5] عارفان بذلك المعرفةَ الشرعيّة قبل تاريخه، ونظراه النظرَ الشرعىّ، تعاقَدا هـذه المبايَعةَ[6] بينهما معاقَدةً شرعيّةً مشافَهةً بالإيجاب والقبول .

(١) «تقابضا» ، أى البائع والمشترى .

(٢) تقدّم شرح ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر، فانظره .

(٣) «فيه» ، أى فى المكتوب ؛ وقد سبق التنبيه على ذلك أيضا فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢١ من هذا السفر .

(٤) فى الأصل : «وجب» بدون واو العطف ؛ والسياق يقتضيها .

(٥) «أنهما» ، أى بأنهما، فإن الإقرار بمعنى الإذعان والاعتراف انما يتعدّى الى مفعوله بالباء، كما فى كتب اللغة، وحذف الجار فى مثل هـذا الموضع للعلم به حذف قياسى، كما نص على ذلك فى كتب القـواعد .

(٦) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل، وطريقة المؤلف فى غير هذا الموضع أن يقول : «تعاقدا على كذا» فيعدّى الفعل إلى مفعوله بالحرف كما فى ص ١٧ س ٩ وص ١٨ س ١٥ وص ١٩ س ١٦ ؛ وفى أساس البلاغة مادة «قيـل» ما يفيد صحة تعدية «تعاقدا» إلى مفعوله بنفسه كما هنا ؛ وعبارته : «تقايلاه بعدما تعاقداه» اهـ . أى أنّ البائع والمشترى تقايلا البيع بعد ما تعاقدا عليه .

وإذا دَفَع المشترى للبائع من الثمن جوهرةً، أو سيفا، أو خاتَمًا بفصٍّ ثمين[1]، أو غيرَ ذلك مما[2] تُجهَل قيمتُه، كَتَبَ: شراء صحيحا شرعيّا، بثمنٍ مَبلغُه من الذهب، أو من الدراهم كذا وكذا، وبجوهرةٍ نفيسة، أو لؤلؤةٍ نقيّة، مجهولةِ القيمة، مَرْئيّةٍ[3] حالَ العَقد، تَقابَضا وافترقا، ويكمِّل المبايَعة.

وإن حضر من يَضمَن دَرَكَ[4] البائع فيما باعه وقبَضَ ثمنَه كَتَب: وحضر بحضور البائع المذكورِ فلان، وضَمِن فى ذمّته دَرَكَ البائع فيما باعه وقبَضَ الثمنَ بسببِه[5]، ضمانا شرعيّا فى مالِه، بإذنه له فى ذلك، وأقرّ أنه مليءٌ[7] بما فى ضمانه[6].

فصـــل

وإن أبرأ البائعُ ذمّةَ المشترِى من الثمن كَتَب: بثمنٍ مَبلغُه كذا وكذا، أبرأ البائع المذكورُ ذمّة المشترِى منه براءةً صحيحةً شرعيّة، براءةَ إسقاط، قَبِلها منه قبولا شرعيّا، ولم تَبقَ للبائع المذكور قِبَل المشترِى المذكور مطالبةٌ بسبب الثمن ولا شيءٍ منه، ولا عوضٍ عنه ولا عن شيءٍ منه، وسلَّم البائع المذكورُ للمشترى المذكور ما باعه إيّاه، فتَسلَّمه بعد النظر والرضا والمعرفة والمُعاقَدة الشرعيّة.

(١) فى الأصل: «بعض»؛ وهو تصحيف.

(٢) فى الأصل: «فيا»؛ وهو تحريف.

(٣) فى الأصل: «مزينة»؛ وهو تصحيف.

(٤) تقدّم شرح ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر، فانظره.

(٥) فى الأصل: «بسنه»؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٦) «أنه»، أى «بأنه» وقد سبق توضيح ذلك فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٣٦ من هذا السفر، فانظره.

(٧) الملىء: المقتدر الغنىّ.

وان كان البيعُ بثمن مؤجَّلٍ أو منجَّمٍ (١) كَتَب : بثمن مبلغُـه كذا وكذا يقوم له بذلك جملةً واحدةً فى التاريخ الفلانىّ، أو فى كلّ شهر يمضى كذا وكذا، على حَسَب ما يقع عليه الاتّفاق .

فصـــل

و إن اشـترى رجلٌ من رجلٍ دارا بمـالَه فى ذمّته من الدَّين كَتَب ما مثالُه : شراءً صحيحا شرعيّا ، بمـا للمشترِى فى ذمّـة البائع من الدَّين الحالّ الذى اعترَف به البائعُ عند شهوده ، وهو كذا وكذا، وصدّقه المشترِى على ذلك ، وسلّم البائعُ للمشترى ما باعه إيّاه ، فتسلّمه منـه ، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه ، وذلك بعد النظر والرضا والمعرفة والمعاقَدة الشرعيّة ، والتفرّق بالأبدان عن تراض ، وضمانِ الدَّرَك فى ذلك وبحكم ذلك برئتْ ذمّة البائع من الدَّين الذى كان قِبَـله للمشترِى، ولم تَبْقَ للمشـترى عنده مطالَبةٌ بسبب ذلك، وتَصادَقا على ذلك .

فصـــل

و إن كان لرجلٍ على رجلٍ دَينٌ فباعه دارا بثمنٍ معلوم، ثم قاصّه (٢) بمـالَه فى ذمّته من الدَّين ، أو امرأةٌ اشترت من زوجها دارا بثمنٍ حالٍّ وقاصّته بصداقها، كَتَب

(١) المنجم من الديون : هو الذى يقدّر أداؤه فى أوقات معلومة متتابعة ، مشاهرة أو مساناة ؛ وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها ، فيقولون : « اذا طلع النجم حل عليك مالى » .

(٢) فى الأصل : « قاصصه » و إحدى الصادين زيادة من الناسخ ، فإن هذا مما يجب فيه الإدغام ؛ « وقاصه » من المقاصة ، وهى أن يكون لرجل دين على آخر مثل ما للآخر عليه ، فيجعل كل منهما ما له عند صاحبه فى مقابلة ما عليه .

ما مثالُه : اشترى فلانُ بن فلانٍ من فلانٍ جميعَ الدار الفلانيّة — كما تقدّم شرحُه — شراء[(١)] صحيحا شرعيّا ، بثمنٍ مَبلغُـه كذا وكذا حالّ[(٢)] ، وسلّم البـائعُ للمشترِى ما باعه إيّاه فتسلّمه منه ، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه ، [ومالا][(٣)] من جملة أموالِه ، وذلك بعد النظر والمعرفة ، والمُعاقَدة الشرعيّة ، والتفرُّق بالأبدان عن تراض ؛ وضمانِ الدَّرَك[(٤)] فى ذلك ؛ ثم بعد [تمـام][(٥)] ذلك ولزومِه قاصّ[(٦)] المشـترِى المذكورُ البائعَ المذكورَ الثمنَ المذكورَ بمالَه فى ذمّة البائع من الدَّين الذى اعترَف به عند شهوده ، وهو نظيرُ الثمن المـذكورِ فى القدر والجنس والصفة والاستحقاق ، مُقاصّةً[(٦)] صحيحةً شرعيّة ، قَبِل كلٌّ منهما ذلك لنفسه قبولا شرعيّا ، ولم تَبقَ لكلٍّ منهما مطالَبةٌ قِبَل الآخَر بسبب ثمن ، ولا مثمَّـن ولا دَين ، ولا غيرِه ، ولا حجّـة ، ولا مسطور ، ولا ذهب ، ولا فضّـة ، ولا حقّ من الحقوق الشرعيّة على اختلافها لِمـا مضى من الزمان وإلى يوم تاريخِه ، وتَصادَقا على ذلك .

(١) فى الأصل : «شرحا» ؛ وهو تحريف .

(٢) حال بكسر اللام : صفة لثمن .

(٣) لم ترد هـذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ، وقد أثبتناها جريا على طريقة المؤلف فى التعبير بذلك فى عدّة مواضع من هذا الباب ، منها ما ورد فى صفحة ٢٢ سطر ٣ ، وصفحة ٢٣ سطر ٥ ، وصفحة ٢٥ سطر ١١ ، وغيرها من المواضع ، وإن كان الكلام يستقيم بدونها .

(٤) تقدم شرح ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر ، فانظره .

(٥) هـذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها جريا على طريقة المؤلف فى التعبير بها فى عدّة مواضع من هذا البـاب ، منها ما ورد فى صفحة ١٤ س ١ ، وصفحة ١٥ س ١٠ ، وغيرهمـا من المواضـــع .

(٦) انظر تفسير المقاصة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٣٨ من هذا السفر .

(٧٩) وإذا آشترى جماعةٌ من جماعةٍ دارا ورِثوها كَتَب ما مثالُه : هذا ما آشترى فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ بمالِهم لأنفسهم بالسويّة بينهم أثلاثا ؛

وإن كانوا متفاوتِين فى الآبتياع كَتَب : "فمن ذلك ما آشتراه فلانٌ المُبدأُ[1] بذكره بمالِه لنفســه كذا ، وما آشتراه فلانٌ بمـالِه لنفســه كذا ، وما آشـتراه فلانٌ بمـالِه لنفسه كذا" ؛

وإن كان منهم من آشترى حصّة لموكِّله قال : "وما آشتراه فلانٌ لموكّله بإذنه وأمره وتوكيلِه ومالِه كذا حَسَبَ مَا وكّله فى ابتياع ما يُذكَر فيه[2] ، وفى التسليم والتسلّم اللّذين يُشرحان فيه[2] ، على ما يَشهد به من يعيّنه فى رسم شهادته آخرَه ، أو على ما ذَكَر الوكيلُ المشترِى" من فلانٍ وفلانٍ وفلانٍ الإخوةِ الأشقّاء ، أو لأبٍ ، أولادِ فلانِ بن فلانٍ الفلانىّ ، جميع الدار[3] الكاملةِ الجاريةِ فى أيدى البائعِين وملكِهم وتَصرُّفِهم بالسويّة بينهــم أثلاثا ، المنتقلةِ إليهم بالإرث الشرعىّ عن والدهم فلان آلمذكور ، بحكم أنّه تُوفِّىَ إلى رحمة الله تعالى قَبْل تاريخه ، وخَلَّف من الورثة المستحقِّين لميراثه المستوعِبين جميعَــه شرعا أولادَه لصلبه الإخوةَ الأشقّاء ، وهم البائعون المذكورون أعلاه الذين رُزِقهم من زوجته التى كانت فى عِصْمته وعَقدِ نكاحه فلانة ، بغير شريك لهم فى ميراثه ، ولا حاجب يحجُبهــم عن آستكماله بوجه ولا ســبب ، وتَرَك من جملة ما خلّفه هــذه الدار المذكورة ، قُسمتْ بينهــم بالفريضة الشرعيّة أثلاثا بالسويّة بينهـــم ؛

(١) المبدأ : من أبدأت بالألف فى أوّله ، وهى لغة فى بدأت ؛ وقد تقدم التنبيه على ذلك أيضا فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٧ من هذا السفر .

(٢) « فيه » ، أى فى المكتوب ؛ وقد سبق التنبيه على ذلك غير مرة .

(٣) فى الأصل : «الأرض» ؛ وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا ، فإن المسألة مفروضة فيما اذا كان المبيع دارا لا أرضا ، كما يدل عليه ما سبق فى هذه الصفحة س ١ وما يأتى فى ص ٤١ س ١

وإن كانت وفاةُ والدهم ثابتةً عند حاكم ذَكَرها ، ثم يقول : وهذه الدار بالبلد الفلانىّ ، بالحارة الفلانيّة ، بالخُطّ الفلانىّ — وتُوصَف وتُحدَّد — شراءً صحيحا شرعيّا بثمن مَبلغُه من الذهب أو من الدراهم كذا وكذا بين البائعين[1] بالسويّة ، من مال المشترين المذكورين على قدر ما ابتاعه كلٌّ منهم فيه[2] ، تقابَضوا ، وتفرّقوا بالأبدان ، بعد النظر والمعرفة والمُعاقَدة الشرعيّة ، وضمانِ الدَّرَك فى ذلك .

وإن ضَمِن كلٌّ من البائعين دَرَكَ الآخر كَتَب : "وكُلُّ واحد من البائعين ضامنٌ فى مالِه وذمّتِه دَرَكَ الآخَرين المذكورَين فيما باعاه وقبضا الثمن بسببه ضمانا شرعيّا فى ماله وذمّته ، بإذن كلٍّ منهم للآخَرين فى الضمان والأداء والرجوع ، وأقرّ كلٌّ واحد منهم أنّه[3] مَلِىءٌ بما ضَمِنه ، وقادرٌ عليه" .

وإن صَدّق كلٌّ منهم الآخَرَ على صحّة ملكه لما باعه كَتَب : "وصَدّق كلٌّ واحد منهم الآخَرَ على صحّة ملكه لما باعه فيه وقَبَض الثمن بسببه تصديقا شرعيّا" .

وإن حضر من يَضمَن فى الذمّة كَتَب : "وحضر بحضورهم فلان ، أو كلٌّ واحد من فلانٍ وفلان ، وضَمِن كلٌّ منهم وكَفَل فى ذمّته دَرَكَ البائعين المذكورين فيما باعوه وقبضوا الثمن بسببه ، ضمانا شرعيّا ، بإذن كلٍّ منهم للآخَر فى ذلك ، وأقرّ كلٌّ منهم أنّه[3] مَلِىءٌ بما ضَمِنه ، قادرٌ عليه" .

(١) «بين البائعين» ، أى مقسوم بين البائعين ، فحذف متعلق الظرف للعلم به .

(٢) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٦ من هذا السفر .

(٣) تقدّم الكلام على حذف باء التعدية من مفعول « أقرّ » فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٣٦ من هذا السفر ، فانظره .

وإذا ابتاع رجلٌ لموكّله حَجَرَ طاحون[1] أو غيرها[2] كَتَب ما مثالُه: هـذا ما اشترى فلانٌ لموكّله فلانٍ بمـاله وإذنه وتوكيله إيّاه فى ابتياع ما يُذكَر فيـه[3]، وفى التسليم والتسلُّم اللّذَين يُشرَحان فيه[3]، بشهادة من يعيّنه فى رسم شهادته آخِرَه؛ أو يقول: "على ما ذَكر"؛ وإن كان بيده وكالة كتب: "حَسَبَ ما تَشهَد به الوَكالةُ التى بيَده، الثابتةُ بمجلس الحُكْم العزيز بالمكان الفلانىّ"، من فلان، جميع حَجَر الطاحون[1] الفارسىّ[4] وعُدّتها[5]، الداخل ذلك فى عَقد هذا البيع، الجارى ذلك فى يد البائع المذكور وملكه وتَصرُّفه على ما ذَكر، وهى بالمكان الفلانىّ؛ ويَصف الطاحونَ[1] والعُدّةَ التى بها، وهى التوابيتُ[6] والحجارةُ النجديّةُ وقواعدُ الصَّوّان، ويصف جميعَ العُدّة، ويحدّد الطاحون[1]، ويَذكُر الثمن، ويَكتُب: دفَعَه المشترى المذكورُ من مال موكّله للبـائع المذكور، فتَسلَّمه منه، وصار بيَده وقبضِه وحَوْزِه، وبحُكم ذلك برئَتْ ذمّةُ المشترى المذكورِ والمشتَرَى له فيه[3] من الثمن المذكورِ ومن وزنِه ونقدِه، براءةً صحيحةً شرعيّـة

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل بحذف التاء من آخره؛ وقد ورد أيضا فى كتاب أقرب الموارد كما ورد فى شعر ابن هانىء الأندلسىّ، قال من أبيات له يصف رجلا أكولا:

تبارك الله ما أمضى أسنته * كأنما كل فك منه طاحون

والذى وجدناه فى لدينا من كتب اللغة الأخرى (طاحونة) لا (طاحون).

(٢) «أو غيرها» الضمير يعود على الطاحون، أى أو حجر غير الطاحون، كحجر المعصرة ونحوها.

(٣) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٦ من هذا السفر.

(٤) «الفارسى» صفة لحجر.

(٥) الضمير فى قوله: «وعدتها» يعود على الطاحون.

(٦) يريد بالتوابيت: الصناديق المعـدّة للدقيق بعد الطحن، كما يستفاد من كتاب جواهر العقود الموجود منه جزء مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٣٩ فقه شافعى، فقد ورد فيه ضمن عقـد بيع طاحونة ما نصـه: «المشتملة على باب يدخل منه الى مسطاح به تابوت أو تابوتان معدّان للدقيق».

براءةَ قبضٍ واستيفاء، وسلَّم البائعُ للمشترى ما باعه إيّاه، فتسلَّمه منه لموكّله المذكور، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه ملكا لموكّله، وذلك بعد النظر والمعرفة الشرعيّة والمعاقدة والتفرُّقِ بالأبدان عن تراض، وضمانِ الدَّرَك[1] حيث يوجبه الشرع الشريف .

فصـــل

٥ إذا باع الوكيل عن موكّله حمّاما كَتَب : هذا ما اشترى فلانٌ بمالِه لنفسه من فلانٍ القائمِ فى بيع ما يُذكَر فيه[2] بالثمن الذى تعيّن فيه[2]، وقبضِ الثمن، وتسليمِ المَبيع لمبتاعه، عن موكّله فلان، حَسَب ما يَشهد على موكّله بذلك من يعيّنه فى رسم شهادته آخرَه؛ (٨٠) وإن كان بيَدِه وكالةٌ كَتَب: "حَسَبَ ما يَشهد بذلك كتابُ الوكالة[3] الذى بيَدِه، الثابتُ حُكمه بمجلس الحُكْم العزيز بالمكان الفلانىّ"؛ ويَشرح مَقاصدَ الثُّبوت، ثم يَكتُب :

١٠ جميع الحمّام المعروفةِ[4] بدخول الرجال والنساء، وقدورِها الرَّصاص الأربع، ومَيازيبِها[5] النُّحاس والرَّصاص، ومستوقَدِها، وبيتِ نارِها، الآتى ذِكرُ جميع ذلك فيه[2]، الجارى جميعُ ذلك فى يد البائع ملكا لموكّله المَبيع عنه، على ماذَكَر الوكيلُ البائع، وذلك بالبلد الفلانىّ، بالموضع الفلانىّ — ويوصَف ويحدَّد — شراءً صحيحا شرعيّا، بثمن مَبلغُه

(١) تقدم شرح ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر، فانظره .

١٥ (٢) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٦ من هذا السفر .

(٣) فى الأصل : «الوقف» ؛ وهو تبديل من الناسخ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٤) أنث الوصف هنا جريا على لغة من يؤنث الحمام، فقد ذكر فى المصباح أن تأنيثه أغلب، فيقال: هى الحمام، ويذكر، فيقال : هو الحمام؛ والذى فى القاموس أنه مذكر؛ وذكر شارحه أن الشهاب نقل عن ابن الخباز تأنيثه، وغلطوه، وقالوا : التأنيث غير مسموع .

٢٠ (٥) فى الأصل : «ومبارنها» ؛ وهو تصحيف؛ والمراد بالميازيب هنا : المزاريب التى تكون على أحواض الحمامات تصب فيها الماء الحار والبارد، واحده ميزاب، ويقال فيه أيضا (مِزْآب) بالهمز، وهو من أزب الماء ووزب، اذا جرى؛ وقيل : ان الميزاب فارسىّ معرّب .

كذا وكذا، ودَفَع المشترى الثمنَ من مالِه للبائع المذكور، فتسلَّمه منه لموكّله المذكور وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، وسلَّمَ[1] البـائعُ المذكورُ للمشـترى ما باعه إيّاه عن موكّله فتسـلَّمه منه، وصـار بِيَدِه وملكِه وحَوْزِه، وذلك بعد النظر ... ؛ ويكمّل على ما تَقـدَّم .

وإذا ٱبتاع الأخرسُ الأصمُّ دارا، كَتَب : اشترى فلان الأخرسُ اللسان، الأصمُّ الأُذنين، الصحيحُ البصر والعقل والبدن، العارفُ بمـا يَلزمه شرعا الخبيرُ بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، كلُّ ذلك بالإشارة المفهومة عنـه، المعلومةِ عند البائع وعند شهود هذا المكتوب، القائمةِ مَقامَ النطق، التى لا تُجهَل ولا تُنكَر من فلان الفلانىّ جميعَ الدار الفلانيّة ... ؛ ويكمل نحو ما تَقدَّم .

وإذا ٱبتـاع رجلٌ من آخَرَ دارا بثمن معيَّنٍ مقبوضٍ وكُتب بينهما مكتوبٌ على ما تَقـدَّم، ثم حضر المشـترى وٱدَّعى أنه كان ٱبتـاع الدارَ لموكّله كتَب على ظهر المكتوب : أقرّ فلان — وهو المشترِى المذكورُ باطنَه — أنه[2] لمَّا ٱبتاع الدارَ الموصوفةَ الحـدود فى باطنِه فى التاريخ الفـلانىّ من فلانٍ[3] بالثمن المعيَّن وهو كذا وكذا، كان وكيلا فى ٱبتيـاعها عن فلانٍ بإذنِه وأمرِه وتوكيلِه إيّاه فى ذلك وأنّ ٱسمَه على سبيل النيابة[4] والوَكالة، وأنّ الثمن المعيَّنَ باطنَـه من مال هذا المُقَرِّ له

(١) فى الأصل : «وتسلم» ؛ والتاء زيادة من الناسخ .

(٢) تقـدّم الكلام على حذف باء التعدية من مفعول « أقرّ » فى الحاشـية رقم ٥ من صفحة ٣٦ من هذا السفر .

(٣) فى الأصل : « ثمان » ؛ وهو تبديل من الناسخ، صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه السياق .

(٤) فى الأصل : «اليانه» ؛ وهو تصحيف .

فيه وصلْبِ حالِه[(١)]، وصَدَّقه على ذلك تصديقا شرعيّا، وقَبِل منه هذا الإقرار لنفسه وسلَّم له الدارَ المذكورة، فتسلَّمها منه، وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ملكا له وأَقرَّ المُقَرُّ له أنه كان قد أَذِن له فى ذلك ووكَّله فى ٱبتياعِها الوَكالةَ الشرعيّة، وصَدَّقه المُقِرّ، وأقرّا أنَّهما عارفان بالدار المذكورةِ المعرفةَ الشرعيّةَ النافيةَ للجهالة، وبحُكْم هذا الإقرار صارت هذه الدارُ المذكورةُ ملكاً للمُقَرِّ له دون المقرّ، ودون كلِّ احدٍ بسببِه[(٢)] ولم يَبقَ للمقرّ فيها حقٌّ ولا طلب، وتَصادقا على ذلك تَصادُقًا[(٣)] شرعيّا، ويؤرَّخ.

وإذا ٱبتاع رجلٌ من آخَر دارا، ومات البائع ولم يكن بينهما مكاتبة فأراد ورثتُه مكاتبةً ببراءة ذمّة مورِّثهم والإشهادَ له بذلك، كَتَب ما مثالُه: أقرّ كلُّ واحد من فلانٍ وفلانٍ [وفلانٍ][(٤)] الإخوةِ الأشقّاء، أو غيرِ الأشقّاء، أولادِ فلان عند شهودِه[(٥)] طوعا إقرارا شرعيّا، أنّ والدَهم المذكورَ تُوفِّىَ[(٦)] إلى رحمة الله تعالى فى التاريخ الفلانىّ، وأنه كان قَبل تاريخ وفاته فى تاريخ كذا وكذا باع لفلان جميعَ الدار الفلانيّة، الجاريةِ فى يدِه وملكِه وتَصرُّفِه — وتوصَف وتحدَّد — بما مَبلغُه كذا وكذا، بيعا صحيحا شرعيّا قاطعا ماضيا جائزا نافذا، وأنّ المشترىَ المذكورَ

(١) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٦ من هذا السفر.

(٢) «بسببه»: صفة «لأحد» أى كل أحد متصل به؛ وقد سبق هذا التفسير أيضا فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٤.

(٣) فى الأصل: «تصديقا»؛ والصواب ما أثبتنا، كما يقتضيه الفعل الذى قبله.

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ والسياق يقتضيها، فإن الأوصاف الآتية بعدها جموع، فيقتضى أن يكون الموصوف بها جماعة لا أثنين.

(٥) «شهوده»، أى شهود المكتوب.

(٦) تقدّم الكلام على حذف باء التعدية من مفعول «أقرّ» فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٣٦ من هذا السفر، فانظره.

دَفع إليه جميـعَ الثمن من ماله ، وصلْبِ حالِه ، بتمامه وكماله ، وسلَّم والدُهم البائعُ هذا المشـترىَ المذكورَ الدارَ المذكورة ، فتسلَّمها منه ، وصارت بيَـدِه وقبضِه وحَوْزِه وذلك بعـد النظر والمعرفة ، والمعاقَدة الشرعيّـة ، والتفـرّقِ بالأبدان عن تراض وصدَّقهم المشترى المُقَرُّله على ذلك ، وٱعترَف كلٌّ من المقِرِّين والمشترى أنهم (١) عارفون بالدار المذكورة المعرفةَ الشرعيّةَ النافيةَ للجهالة ، وأقروا أنّ البائع المذكورَ كان عارفا بهـا ، وتصادقوا على ذلك ، وٱعترَف المشـترِى المذكورُ أنّ الدار المذكورةَ بيَـدِه وتصرُّفه ، وجاريةٌ فى ملكه ، وأنّه سأل الورثةَ المذكورِين الإشهادَ على أنفسهـم بذلك ، فأجابوا سؤالَه ، وأشهدوا على أنفسهم براءة لذمّة أبيهم ، ومُراعاةً لحقه عليهـم وأقَرّ المقِرّون أنهم (٢) لا يَستحِقّون فى هـذه الدار ملكا ، ولا يدا ، ولا إرثا ، ولا موروثا ولا حقّا من الحقوق الشرعيّة ، وأنّ ٱلمشترىَ المذكورَ المُقَرُّله مالكٌ لهذه الدار دونهم ودون كلِّ أحد بسببهم (٣) ، وتصادَقوا على ذلك ، وقَبِل منهم المشترِى هذا الإقرارَ قبولا شرعيّا ، ويؤرِّخ .

إذا (٤) ٱبتاع رجلٌ من بائع قد ثبت رشدُه بعد الحَجْر عليه كَتَب ما مثالُه :

هـذا ما ٱشترى فلانٌ من فلانٍ البالِـغ الرشيد ، الثابتِ رشـدُه فى مجلس الحُكم العزيز بالبلد الفلانىّ ، عند القاضى فلان ... ... (٥) ...

(١) «أنهم» ، أى «بأنهم» فإن «اعترف» بمعنى «أقر» إنما يتعدّى إلى مفعوله بالباء ، كما فى كتب اللغة ، وحذف الجارّ فى مثل هذا الموضع للعلم به حذف قياسىّ ، كما نص على ذلك فى كتب القواعد .

(٢) «أنهم» أى بأنهم ، وقد سبق توضيح ذلك فى الحاشـية رقم ٥ من صفحة ٣٦ من هـذا السفر ، فانظره .

(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٤٥ من هذا السفر ، فانظره .

(٤) حذف واو العطف هنا وفى مواضع أخرى سنأتى للعلم بها .

(٥) بقية هـذا المكتوب ساقطة من الأصل ، ولم نقف عليهـا فيما راجعناه من كتب الوثائق والشروط التى بين أيدينا .

... ... من نفقةٍ ومَؤونةٍ وكُسوةٍ ولوازمَ شرعيّة،ولكونه ليس له موجودٌ (١) غير ما يُذكَر فيه (٢)، وأنّ والدَه لا تلزمه نفقتُه بحُكم مالَه من هـذا الموجود، اشترَى من نفسه بقضيّة ذلك وحُكمِه جميعَ الحصّـة التى مبلغها كذا وكذا سهما من أربعةٍ وعشرين سهما شائعا فى جميع الدار الفلانيّـة التى بالمكان الفلانىّ (٣)، أو الدار الكاملة — وتوصَف وتحدَّد — شراءً صحيحا شرعيّا، بثمن مَبلغُه كذا وكذا، وقبَضَه المشترِى من نفسه لولده المذكورِ المَبيع عليـه (٤)، من مال أخيه فلان الطفلِ المشترَى له فيـه (٢)، الذى تحت يده وحَوْطه، وصار ذلك فى حَوْزه لولده فلان المَبيع عليـه (٤) وتَسلَّم من نفسـه الدارَ المذكورةَ لولده المشـترَى له، وذلك بعـد مشاهَدتِه لهـا ونظرِه إيّاها، ومعرفتِه بها المعرفةَ الشرعيّـة، كلُّ ذلك بالمعاقَدة الشرعيّة الجـائزة

(١) أول هذا المكتوب ساقط من الأصل كآخر المكتوب الذى قبله، وسياق ما بقى منه هنا يدل على أن المسألة مفروضة فيما اذا كان لرجل ولدان طفلان، وكان لأحدهما دار، فأراد الوالد أن يبيع حصة منها، أو أن يبيعها كلها لولده الآخر بحكم ولايتـه عليهما؛ وقد وقفنا على صورة مكتوب بهـذا المعنى فى الكوكب المشرق المحفوظة منه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة تحت رقم ٨٩٢ فقه شافعى، وترجم صاحبه لهذا المكتوب بقوله: «فى بيع الحاجر على محجوره لمحجوره الآخر» ثم أورد المكتوب، وأوله: «هـذا ما اشترى فلان لولده من صلبه الطفل الذى هو تحت حجره وولاية نظره بماله الذى له تحت يده، لما رأى له فى ذلك من الحظ والمصلحة والغبطة وحسن النظر، من نفسه، ما هو جار فى ملك ولده الثانى فلان الفلانى شقيق ولده المذكور فيـه الذى هو تحت حجره وولاية نظره القائم فى البيع عليه لما رأى له فيـه من الحظ والمصلحة وحسن النظر، بحكم أنه يحتاج الى بيعها فيما يحتاج إليه من نفقة» الخ، ولم تثبت هـذا الكلام فى صلب الكتاب بين مربعين مكان ما سقط من الأصل لاحتمال أن يكون أحد المكتوبين مخالفا للآخر فى الألفاظ والعبارات، وإن اتحدا فى المعانى والأغراض.

(٢) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٦ من هذا السفر.

(٣) فى الأصل: «من»؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٤) يقال: «باع عليـه»، أى من غير رضاه (المصباح).

باع على ولده فلان ٱلمثنّى بٱسمِـه المذكور، وٱشـترَى لولده فلان ٱلمُبْدِإ[1] بٱسمه فيـه من نفسـه على ما شرح أعلاه ، وٱعترَف[2] أنّ الثمن المذكورَ هو ثمنُ المِثل يومئذ لا حَيفَ فيه ولا شَطَط، ولا غَبِينةَ[3] ولا فَرْطَ[4] ولا بَخْسَ ولا وَكْس،ولا تفاوُتَ[5] فيه بوجه ولا سبب ، وقَبِل ذلك من نفسه لولده المشترَى له فيـه قبولا صحيحا شرعيًا وضَمِن الدَّرَكَ[6] حيث يوجبه الشرع الشريف .

اذا ٱبتاع رجلٌ دارا من نفسه لنفسه — وهو أن يكون له ولد تحت حَجْره،ولولدِه دار، فأراد أن يشتريَها لنفسه من ولدِه — كَتَب ما مثالُه : اشترى فلانٌ من مالِه لنفسه من نفسـه جميعَ الدار الكاملة، الجـاريةِ فى يده ملكا لولدِه لصلبِه فلان الطفل ٱلذى تحت حَجْره وكَفالتِه ووَلاية نظرِه، لِمـا رأى له فى ذلك من الحظّ والمصلحة، والغِبطةِ[7] الزائدةِ على ثمن المِثل، أو لمصلحة ٱقتضت ذلك، وهذه

(١) المبدأ : من أبدأت ، وهى لغة بمعنى بدأت ؛ وقد تقدم ذلك أيضا فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٧ من هذا السفر .

(٢) تقدم الكلام على حذف باء التعدية من مفعول « اعترف » فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٤٦ من هذا السفر، فانظره .

(٣) الغبينة : اسم من الغبن .

(٤) الفرط بفتح فسكون : اسم من الإفراط ، وهو مجاوزة الحدّ ؛ ويجوز أن يقرأ بضم الفاء والراء ومعناه الظلم .

(٥) الظاهر أن معنى عدم التفاوت فى الثمن : أنه لا يختلف باختلاف المثمّنين — بكسر الميم المشدّدة — ولا يجاوز هذا القدر بزيادة ولا نقص .

(٦) تقدم شرح ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر، فانظره .

(٧) صوّر الفقهاء هـذه الغبطة بأن يرغب فى المبيع بأكثر من ثمن مثله ، وهو — أى البائع — بحد مثله — أى مثل المبيع — ببعض ذلك الثمن ، أو خيرا منـه بكلّه انظر (شرح المنهج) (باب الحجر) .

الدارُ بالبلد الفلانىّ ، بالخُطّ الفلانىّ — وتوصَف وتحدَّد — شراءً صحيحا شرعيّا بثمن مَبلُغه كذا وكذا ، قَبَضَ الثمَن من نفسِه لولدِه عن دارِه التى ٱبتاعها منه لنفسه وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه ، ويصرفه فى مصالح ولده المذكور ، وتسلَّم من نفسِه لنفسِه الدارَ المذكورة ، وصارت بِيَده ملكا له ، ورَفَع عنها يَدَ نظرِه وولايته ، ووَضَع عليها يَدَ ملكه وحيازته ، وأَقَرَّ أنه[1] عارفٌ بالدار المذكورة ، وأنَّه نظرها النظرَ الشرعىّ وأحاط بها علما وخِبرةً نافيةً للجهالة ؛ ويؤرِّخ .

(٨٢) اذا أراد أمين الحُكم — وهو الناظر على الأيتام من قِبَل الحاكم — أن يبيع دارا على يتيم محجور عليه[2] كَتَب مَحضَرا بالقيمة ، وأَثبتَه عند الحاكم بشهادة شهود القيمة والمهندسين ، وأَشهَر[3] الدارَ بحضرة عَدلَين ؛ وصفةُ المَحضَر فى فصل المَحاضر ؛ فإذا ثبت المَحضَرُ وأراد البيعَ وكَتَبَ كتابَ المبايَعة ، فسبيل الكاتب أن يكتُب : هذا ما ٱشترى فلانٌ من القاضى فلانٍ أمينِ الحُكم العزيزِ بالبلد الفلانىّ ، القائِم فى بيع ما يُذكَر فيه على فلان بنِ فلان المحجورِ عليه من قِبَل الحُكم العزيز ، لِما دعت حاجتُه إليه : من نفقةٍ ومَؤونةٍ وكُسوةٍ ولوازمَ شرعيّة ، وذلك بإذن سيّدنا قاضى ٱلقضاة فلان الحاكم المُشارِ اليه فى بيع الدار التى تُذكَر فيه ، بالثمن الذى تَعيَّنَ فيه وقَبْضِه ، وفى تسليم الدار لمبتاعها ، الإذنَ الشرعىّ ، يَشهَد عليه بذلك من يعيّنه فى رسم شهادتِه آخِرَ هذا المكتوب ؛ اشترَى منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ الدار الفلانيّةِ

(١) تقدّم الكلام على حذف باء التعدية من مفعول « أقر » فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٣٦ من هذا السفر .

(٢) يقال : « باع عليه » أى من غير رضاه انظر المصباح ؛ وقد سبق هذا التفسير أيضا فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٤٧ من هذا السفر .

(٣) كذا ورد هذا الفعل فى الأصل بالألف فى أوّله ؛ والذى فى (المصباح) « أن أشهره » بمعنى « شهره » غير منقول . وفى (المغرب) أنه غير ثبت .

الجاريةِ فى يده ملكا لفلان ٱلمحجورِ عليه — وتُعيِّنُ فيه — وله بيعُها، وقبضُ ثمنِها وتسليمُها لمبتاعها بطريق شرعىّ؛ و إن صَـدَّقه المشترِى قال : "وصدَّقه المشترى على ذلك تصديقا شرعيّا" وهى الدارُ التى بالبلد الفلانىّ، بالخُطّ الفلانى — وتوصَف وتحدَّد — شراءً صحيحا شرعيّا، بثمن مَبلغُه كذا وكذا، دفعَه المشترى من مالِه لأمين الحُكم العزيز، فتسلَّمه منه وصار بيَـدِه وقبضِه لفلان المذكورِ المحجورِ عليه، وسلَّم أمينُ الحُكم العزيزِ المذكورُ للمشترى المذكور ما باعه إيّاه، فتسلَّمه منه، وصار بيَدِه وقبضِه وملكه وحَوْزِه وتَصرُّفِه، وذلك بعد النظر والرضا والمعرفةوالمعاقَدة الشرعيّـة والتفرّقِ بالأبدان عن تراض .

و إن شرَطَ أمينُ الحُكم الخيارَ كَتَب : "وٱنقضاءِ مدّة ٱلخيـار الشرعىّ الذى ٱشترطه أمينُ الحُكم البائعُ لنفسه ثلاثةَ أيّام"، والسببُ فى هذه المبايَعة ٱحتياجُ المَبيع عليـه إلى نفقةٍ ومَؤونةٍ وكُسوةٍ ولوازمَ شرعيّة، وثبوتُ ذلك عنـد الحاكم المذكور وثَبتَ عنـده أيضا — أيّد الله أحكامَه — أنّ قيمةَ الدّار المـذكورةِ كذا وكذا وهو الثمن المعيَّنُ أعلاه، ثبـوتا صحيحا شرعيّا، بشهادة ذَوَىْ عدل : هما فلانٌ وفلان ومهندسَيْن : هما فلانٌ وفلان؛ فحينئذ تقدّم إذنُ الحاكم المذكورِ بالنِّداء على الدّار المذكورة، وإشهارِها[1] بصُقْعها وغيرِه فى مَظَانِّ الرغبة فيها مدّةَ ثلاثةِ أيّام، آخرُها اليومُ الفلانىّ، فلم يسمعا[2] مَنْ بَذَلَ زيادةً على ذلك، وقد أقام كلٌّ من شاهِدَى ٱلقيمة والمهندسَين

(١) تقدم فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٤٩ من هذا السفر أن الإشهار غير منقول كما فى (المصباح)؛ أو هو غير ثبت كما فى (المغرب) .

(٢) « فلم يسمعا » أى الشاهدان بالنداء؛ والذى فى الأصل : « فلم يسمعان » ؛ والنون زيادة من الناسخ .

وشاهدَى النّداء شهادتَه بما يَشهَد به فيه[1] عند الحاكم المذكور، وأَعْلَمَ تحت رسم شهادتهم علامةَ الأداء على الرسم المعهود حَسَب ماتَضمَّنه المَحْضَرُ الشرعىّ المؤرَّخ بكذا وكذا، وبأعلاه علامةُ الثّبوت، ومثالُها كذا وكذا، فلمّا تكامَل ذلك عند الحاكم المذكور، وسأله من[2] جازت مسألتُه، وَسوَّغت الشريعةُ المطهَّرةُ إجابتَه[3] الإذنَ لأمين الحُكم المذكورِ فى بيع الدار المذكورةِ بالثمن المذكور، والإشهادَ عليه بما ثَبتَ عنده فأجاب الحاكمُ المذكورُ سؤالَه، وأَشهَدَ عليه بثبوت ذلك عنده على الوجه الشرعىّ وأَذِن لأمين الحُكم فى بيع ذلك على ماشُرِح أعلاه، فشَهِد على الحاكم المذكورِ بذلك مَن يعيّنه فى رسم شهادته آخرَه، فامتَثل أمينُ الحُكم ذلك، وعاقَدَ المشترىَ المذكورَ على ذلك كذلك[4] على ماشُرِح أعلاه، وبمضمونه شُهِد على المتعاقدَين بتاريخ كذا وكذا.

اذا مات رجلٌ وتَرَك دارا وفى ذمّته لزوجته صداقٌ وأثبتته، واشترت الدارَ من أمين الحُكم بمبلغ صداقها، فالذى يُفعل فى ذلك أنّ الزوجة تُحضِر عدلين [يَشهدان][5] بشخصه وهو ميت، ويَكتُبان لها فى ذيل صداقِها[6] أنّهما عايناه ميتا؛ وإن كانا شاهدَى الصداق كان ذلك أَجْوَد، وإن لم يكونا عايناه شَهِدا بالاستفاضة؛

(١) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٦ من هذا السفر.

(٢) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها؛ وقد أثبتنا هذه الكلمة مكان هذا الطمس أخذا مما يأتى، فقد عبّر بها المؤلف فى عدّة مواضع من هذا الباب.

(٣) فى الأصل: «حامته» بالحاء والميم؛ وهو تحريف.

(٤) «كذلك»، كما يقال: «هكذا»، وقوله بعد: «على ما شرح» الخ يفيد معناها أيضا.

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها أو إثبات مايفيد معناها، إذ ليس فى الكلام السابق مايتعلق به قوله بعد: «بشخصه»؛ ومعنى شهادتهما بشخصه: أنهما يذكران ما يتعين به ويتشخص؛ وعبارة (الكوكب المشرق): «تشخصه الشهود».

(٦) «صداقها»، أى باب صداقها.

ثم يؤدى[1] شهودُ العَقد والتشخيص عند الحاكم، ثم تُحلَّف الزوجة، ويُكتَب الحَلف، وصورةُ ما يُكتَب : أُحلِفَت المشهودُ لهـا أعلاه، أو باطنَـه، فلانةُ المرأةُ الكاملةُ ابنـةُ فلان بالله الّذى لا إله إلّا هو، يمينا شرعيّـة، مؤكَّدةً مستوفاةً جامعةً لمعـانى الحَلف، إنّها مستحِقّةٌ فى تَرِكة المُصْدِق المسمَّى باطنَه فـلانٍ مبلغَ صـداقها عليـه وإنّ الشـاهدَين بذلك صادقان فيما شَهِدا لهـا [به][2] من ذلك ، وإنّ ذمّتَه لم تبرأ من الصـداق المذكور ولا من شىءٍ منه ، وإنّهـا ما قبضَـتْه ولا شيئا منـه ولا تَعوَّضَتْ عنه ولا عن شىءٍ منه، ولا أبرأتْه منه ولا من شىءٍ منه، ولا أحالت به ولا بشىءٍ منه، ولا اختَلَعتْ[3] به ولا بشىءٍ منه، ولا بَرِئَ[4] إليها منه، ولا من شىء منه بقولٍ ولا فعل ، وإنّها تَستحِقّ قبضَ ذلك من تَرِكته حالَ حَلِفها ، وإنّ من يَشهَد لها به صادقٌ فيما يَشهَد لها به من ذلك، فحَلَفتْ كما أُحلِفتْ بالتماسها لذلك، وحضورِ من يُعتَبر حضورُه [على][5] الأوضاع الشرعيّة، بعد تَقدُّم الدّعوى المسموعة وما تَرتَّب

(١) « يؤدى شهود العقـد » الخ أى يؤدّون شهادتهم ، فالمفعول محذوف للعلم به ، وسيأتى حذفه من مثل هذه العبارة أيضا فى ص ٥٧ س ٧

(٢) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها ، فإن الضمير فى قوله : « به » عائد الموصول السابق فى قوله : «فيما شهدا» ؛ على أن هذه الكلمة ستأتى أيضا فى مثل هذه العبارة فى سطر ١٠ من هذه الصفحة ومواضع أخرى .

(٣) اختلعت المرأة ، أى طلقت من زوجها ببذل منها له ، والاسم الخلع بضم الخاء ، وعلة هذه التسمية أن الله تعالى جعل النساء لباسا للرجال والرجال لباسا لهنّ فقال : (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) فاذا افتـدت المرأة بمـال تعطيه لزوجها ليبينها منه فأجابها الى ذلك فقد بانت منه ، وخلع كل واحد منهما لباس صاحبه .

(٤) فى الأصل : «يرى» ؛ وهو تصحيف .

(٥) موضع هـذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعـذر قراءتها ، وما أثبتناه هو المعبر به فى عدّة مواضع من هذا الباب .

عليها بتاريخ كذا وكذا . ويَشهد شهودُ الحَلِف فى آخره بما صورتُه : "حضرتُ الحَلِف المذكورَ وشَهدتُ به" .

وإن كان صداقُها لم يَثبُت إلا بشهادة عدلٍ واحدٍ أُحلفتْ على ذلك، ويُكتَب حَلِفُها ، وهو : أُحلِفَت الزوجةُ، المشهودُ لها فيه، فلانةُ المشخَّصةُ لمستحلِفها بالله الّذى لا إله إلّا هو يَمينين شرعيتين[1] مؤكَّدتين مستوفاتين جامعتين لمعانى الحَلِف معتَبرتين شرعا : إحداهما أنّها مُحِقّةٌ فيما ادّعت به على زوجها المُصْدِقِ المذكورِ فلان، وهو مَبلَغُ صداقِها عليه، الشاهد به كتابُها ، وهو كذا وكذا ، وأنّ شاهِدَها بذلك صادقٌ فيما شَهِد لها به من ذلك، واليمينُ[2] الثانيةُ أنّها تَستحِقّ قبضَ المَبلغ المذكورِ من تَرِكته ، وأنّها ما قَبَضتْ ذلك ولا شيئا منه ، كما تَقدّم ذكرُه فى الحَلِف الأوّلِ إلى التاريخ . ثم يكتب بعد ذلك إسجال الحاكم ، ومثالُه : هذا ما أَشهَدَ عليه سيّدنا ومولانا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى قاضى القضاة، أو أقضَى القضاة فلان، الحاكمُ بالمكان الفلانىّ، مَن[3] حَضَر مجلسَ حُكمه ومَحلّ قضائه وولايته، فى اليوم الفلانىّ مِن الشهر الفلانىّ، مِن السَّنة الفلانيّة[4] ... بعد صدور دعوى محرَّرة، مقابَلَةٍ بالإنكار

(١) فى الأصل : «شرعيين مؤكدين» بالتذكير فى هذين الوصفين وما بعدهما من الأوصاف، واللغة تقتضى ما أثبتنا، فإن اليمين مؤنثة . (٢) فى الأصل : «والهين» ؛ وهو تحريف .

(٣) «من» مفعول قوله فيما سبق : «أشهد» .

(٤) الظاهر أن فى موضع هذه النقط كلاما ساقطا من الأصل، فقد ورد بعد ذكر التاريخ فى أكثر الإسجالات التى ذكرها المؤلف فى هذا الجزء قوله : «انه ثبت عنده وصح لديه — أحسن الله اليه — فى المجلس المذكور» الخ وكذلك فى الإسجالات الواردة فى (جواهر العقود) (والكوكب المشرق) وغيرهما من كتب الوثائق ؛ وفى إسجالات أخرى قوله : «انه ثبت عنده فى مجلس حكمه ومحل نيابته فى اليوم الفلانى» ؛ وعلى كل حال فإنه لم يخل إسجال من عبارة تفيد هذا الغرض ، وأيضا فانه لا يتم الكلام بدون ما يفيد هذا المعنى ، وذلك لأمرين : أولهما أن قوله فيما سبق فى أول الإسجال : «هذا ما أشهد عليه» يقتضى =

على الوجه المعتـبَر الشرعىّ، بشهادة العُدول الذين أُعلِم تحت رسم شهادتهـم بالأداء فى باطنِه، ويمينِ المشهودِ لها فيه فلانَةَ[(١)] على ٱستحقاقها فى ذمّة المُصدِق المسمَّى باطنَه فلان مَبلغَ[(٢)] صداقِها عليـه، وهو كذا وكذا، على ما تَضمَّنه الصداقُ باطنَه، أو على ما تَضمَّنه فصـلُ الٱسترجاع[(٣)] المسطَّرُ باطنَه، المؤرَّخُ بكذا، [وقال[(٤)] كلٌّ منهم: إنّه عارفٌ بالمُصـدِق والزوجةِ المذكورَين، وما عَلِمَ مغيِّرًا لشهادتِه إلى أن أقامها عنده] بشروط الأداء المعتبَرةِ شرعا، وشَخَّص له الشهودُ المشهودَ لها تشخيصا معتبرًا، وقبِل ذلك منهم القبولَ السائغَ فيه، وسَطَّر ما جرت العادةُ به مِن علامة الأداء والتشخيص على الرسم المعهودِ فى مِثله، وذلك بعد ثبوتِ وفاةِ المُصدِقِ المذكورِ الثّبـوتَ الشرعىّ وأُحلِفت الزوجةُ المشهودُ لها المذكورةُ على ٱستحقاقها ذلك بالله العظيم الّذى لا إله

= ذكر مشهود عليه بعد ذلك، أى أشهد عليه أنه ثبت عنده إلخ وليس فى الكلام ما يصلح جعله مشهودا عليه غيره؛ ثانيهما أن قوله بعد: «بشهادة» الخ متعلق بقوله فى هـذه الجملة: «ثبت» أى ثبت بشهادة الخ، ولم نثبت إحدى هاتين العبارتين فى صلب الكتاب بين مربعـين لاحتمال أن يكون المؤلف قد عبر عن ذلك فى هذا الموضع بالعبارة الثانية التى لم نثبتها، أو بعبارة أخرى غير هاتين العبارتين.

(١) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٦ من هذا السفر.

(٢) فى الأصل: «خلاف»؛ وهو تحريف.

(٣) الاسترجاع، أى مراجعة الرجل زوجته المطلقة طلاقا غير بائن الى النكاح من غير استئناف عقد جديد؛ ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال: استرجع الرجل مطلقته، والذى وجدناه أنه يقال: ارتجعها وراجعها.

(٤) هذه التكملة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها لأمرين: أولهما ورود هذا الكلام بنصه فيما سيأتى فى صفحة ٥٨ سطر ١١ من هذا السفر ضمن عقد بيع دار هذا الزوج المتوفى نفسه لأجل وفاء الصداق المذكور فقد ذكر فى هذا العقد أن هذه الزوجة المذكورة أثبتت صداقها بشهادة العدول المشار اليهم فى هذا الإجمال الذى نحن بصدده، ثم ذكر بعد ذلك نص شهادتهم، وهى هذه التكملة التى أثبتناها؛ الأمر الثانى أن قوله بعد: «بشروط» متعلق بقوله فى هذه التكملة: «أقامها» اذ ليس فى الكلام السابق ما يصلح جعله متعلقا للجار والمجرور غيره.

إلّا هو، اليمينَ الثابتةَ[(١)] الشرعيّةَ المسطَّرةَ فى فصل الحَلِف باطنَه على ما نُصّ وشُرِح فيه، فحَلَفتْ كما أَحلفتْ بالتماسها لذلك، وحضورِ من يُعتبَر حضورُه على الأوضاع الشرعيّةِ فى تاريخ الحَلِف المذكور؛ ولما تكامَل ذلك كلُّه عنده وصحّ لديه — أحسن الله إليه — سأله مَن جاز سؤالُه الإشهادَ على نفسه بثبوت ذلك عنده، فأجابه إلى سؤاله، وتقدَّم بكتابة هذا الإسجال، فكُتِب عن إذنه الكريم، وأَشهَدَ على نفسه بثبوت ذلك لديه، وأَبقَى كلَّ ذى حجّةٍ معتبَرةٍ على حجّته إن كانت، وهو فى ذلك نافذُ القضاء والحُكْم ماضيهما، بعد تقدُّم الدّعوى الموصوفةِ[(٢)] وما ترتَّب عليها، وحضر سماعَ الدّعوى وإقامةَ البيّنةِ القاضى فلانٌ أمينُ الحُكم العزيز، واعترَف بأنّه لا مَطعَن له فى ذلك، فحينئذ أَذِن الحاكمُ فى إيصال الحقّ لمستحِقّه[(٣)] شرعا، ووقع الإشهادُ فيه بتاريخ كذا وكذا.

ثم يكتب ابتياعها من أمين الحكم فى ذيل الإسجال ...[(٤)] : هذا ما اشترت فلانةُ المرأةُ الكاملةُ ابنةُ فلان — وهى المشهودُ لها باطنَه المستحلَفةُ فيه —

(١) هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٢) لعله «المسموعة» كما هو تعبير المؤلف فى جميع الإسجالات التى أوردها فى هذا الجزء ماعدا إسجال واحد عبر فيه بقوله: «المحرّرة».

(٣) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أنه يقال: «أوصل الشىء للشىء»؛ والذى وجدناه أنه يقال: «أوصله اليه»، إلا أنه ضمن الايصال هنا معنى التسليم، فسوّغ له هذا التضمين ذكر اللام مكان «الى».

(٤) الظاهر أن موضع هذه النقط كلمة ساقطة من الأصل؛ وهى قوله: «ومثاله» أو «وصورته» أو «وهو» ونحو ذلك، فقد جرت عادة المؤلف أن يعبر بإحدى هذه الكلمات الثلاث فى مثل هذا الموضع من هذا الباب؛ ولم نثبت إحداها فى صلب الكتاب بين مربعين لاحتمال أن يكون المؤلف قد ترك ذلك اختصارا للعلم به من السياق، أو أن يكون قد عبر بكلمة أخرى غير التى أثبتناها.

لنفسِها من القاضى فلانٍ أمينِ الحُكم العزيز بالجهـة الفلانيّة، القائِم فى بيع ما يُذكَر فيـه على المُصدِق المسـمَّى المحلَّى[1] باطنَـه فلان ، فيما[2] ثبت عليه من صداق زوجته المشـتريةِ المذكورةِ بمجلس الحُكم العزيز بالجهـة الفلانيّة ، وهو كذا وكذا ، وفى المُقاصّة[3] الشرعيّةِ على الأوضاع الشرعيّـة المعتبَرة، بإذنٍ صحيحٍ شرعىٍّ مِن يدِ قاضى القضاة فلانٍ الحاكِم بالجهـة الفلانيّة لأمين الحُكم المذكورِ فى ذلك، اشـترتْ منه بقضيّة ذلك وحُكمِه جميعَ الدّار الكاملة الجاريةِ فى يدِه وتصرُّفه منسوبةً لملك فلانٍ المتوفَّى إلى رحمة الله تعالى، وهى[4] بالمكان الفلانىّ — وتوصَف وتحدَّد — شراءً صحيحا شرعيّا بثمن مَبلغُه كذا وكذا حالٌّ[5]، وسَلَّم البائعُ أمينُ الحُكم المذكورُ للمشتريةِ المذكورةِ ما ابتاعتْه منـه فيه، فتسلَّمتْه منه، وصار بيَـدِها وقبضِها وملكِها وحَوْزِها ، وما لا من جملة أموالها، وذلك بعـد النظر والرضا والمعرفةِ والتفـرُّقِ بالأبدان عن تراض وأقرّت المشتريةُ المذكورةُ أنّ[6] الدّارَ المذكورةَ جاريةٌ فى ملك زوجها المـذكور، ثمّ بعد تمام ذلك ولزومِه قاصّ القاضى فلانٌ أمينُ الحكم العزيز البائعُ المذكورُ المشتريةَ بما فى ذمّتها مِن الثمن المذكور ما ثبت لها على المَبيع عليه من الصداق المذكور، وهو كذا وكذا، وهو قدرُ الثمن المذكور وصفتُه وجنسُه وحلولُه[7]، مُقاصّةً[8] شرعيّـةً برَّأتْ

(١) المحلى، أى الموصوف، من «حليته» : إذا ذكرت حليته، وهى صفته وهيئته .

(٢) «فيما» متعلق بقوله فيما سبق : «بيع» أى أن البيع فيما ثبت، أى بسبب ما ثبت، فالفاء هنا سببية .

(٣) «فى المقاصة» معطوف على قوله : «فى بيع» ؛ والمعنى أن أمين الحكم قائم فى البيع وفى المقاصة وقد تقدم تفسير المقاصة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٣٨ من هذا السفر، فانظره .

(٤) فى الأصل : «وهو» ؛ والسياق يقتضى تأنيث الضمير كما أثبتنا .

(٥) «حال» بكسر اللام المشدّدة : صفة «لثمن» .

(٦) انظر الحاشية رقم ٥ من صفحة ٣٦ من هذا السفر .

(٧) «حلوله» ، أى أن حلول الصداق واستحقاق دفعه كحلول الثمن واستحقاق دفعه .

(٨) تقدّم تفسير المقاصة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٣٨ من هذا السفر، فانظره .

ما فى ذمّة المَبيع عليه من الصداق، وبرّأتْ ما فى ذمّة المشتريةِ من الثمن براءةً صحيحة (٨٤)
شرعيّة، براءةَ إسقاط، وذلك بعد أن ثبت عند سيّدنا قاضى القضاة فلان بشهادة
من يضع خطّه آخرَه، من العدول والمهندسين المندوبين لتقويم الأملاك أهلِ الخبرة
بذلك، أنّ قيمةَ الدار المذكورة جميعُ الثمن المذكور، وأنّه قيمةُ المثل يومئذ،
٥ لا حَيْف فيه ولا شَطَط، ولا غَبِينة ولا فَرْط، وأنّ الحظّ والمصلحةَ فى البيع
بذلك؛ ويؤرّخ. ثم يَكتُب شهودُ القيمة والمهندسين خطوطَهم أنّ الثمن المذكورَ
هو ثمن المثل يومئذ، ويؤدّون عند الحاكم، ويُعلم تحت رسم شهادتِهم، ثم يَكتب
شهودُ المعاقَدةِ الشهادةَ عليهما بالابتياع [وأنّه] قد تمّ ذلك.

وإن كانت الزوجة لم تَشترِ بل اشترَى غيرُها لنفسه كتب مامثالُه:
١٠ هذا ما اشترَى فلانٌ من القاضى فلانٍ أمينِ الحُكم العزيز، القائم فى بيع ما يُذكر
فيه على فلانٍ المُصدقِ فيما ثبت عليه من صداق زوجته فلانةَ بمجلس الحكم العزيز

(١) الظاهر أن قوله «ما فى» زيادة فى كلا الموضعين، وأن الصواب: «برأت ذمة المبيع عليه من الصداق، وبرأت ذمة المشترية» الخ فإن التبرىء انما يقع على الذمة لا على ما فى الذمة؛ وقد جاء فى مستدرك التاج أنه يقال: «أبرأته مالى عليه»؛ ولا يدل ذلك على أن التبرىء يقع على ما فى الذمة، فإنه خطأ مطبعى
١٥ صوابه: "مما لى عليه"، كما فى اللسان مادة (برأ).

(٢) الغبينة: اسم من الغبن.

(٣) الفرط بفتح فسكون: اسم من الإفراط، وهو مجاوزة الحدّ، ويجوز أن يقرأ بضم الفاء والراء، ومعناه الظلم.

(٤) «ويؤدّون عند الحاكم»، أى يؤدّون شهادتهم، فالمفعول محذوف من هذه الجملة للعلم به؛
٢٠ وقد سبق حذفه من مثل هذه العبارة فى صفحة ٥٢ سطر ١ من هذا السفر، ونبهنا عليه هناك فى الحاشية رقم ١

(٥) «عليهما»، أى على المتعاقدين.

(٦) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٦ من هذا السفر.

— وهو كذا وكذا — وفى وفاء[(١)] الصّداق المذكورِ للزّوجة المذكورة، وذلك بإذنٍ صحيح شرعىٍّ من سيّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالى قاضى القضاة فلان الحاكِم بالجهة الفلانيّـة وشَهِد عليه بذلك من يعيّنه فى رسم شهادته آخرَه؛ اشترَى منـه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ الدّار الكاملةِ[(٢)] الجاريةِ فى يده وتصرُّفه ملكا لفلان المتوفَّى المَبيع عليه. وتوصَف وتحدَّد، ويُذكَر الثمن، ويقال: قَبَضَه أمينُ الحُكم من المشترى المذكور، وصار بيَدِه وحَوْزِه، وسَلَّم البائعُ للمشترى المذكورِ ما باعه إيّاه، فتَسلَّمه منه، وصار بيَدِه وقبضِـه ومالا من جملة أمواله، بعد النظر والمعرفة والمعاقَدةِ الشرعيّة، والتفرّق بالأبدان عن تراض؛ والسببُ فى هذه المبايعة أنّ فلانةَ زوجةَ فلان المتوفَّى المذكورِ أثبَتت صداقَها فى مجلس الحُكم العزيز عند الحاكم المذكور على زوجها المذكور، بشهادة العُدول المشارِ إليهم فى الإسجال المذكور، الذين أُعلِمَ تحت رسم شهادتهم علامة الأداء آخرَه، وقال كلٌّ منهـم: إنّه عارفٌ بالمُصدِق والزوجةِ المذكورَين، وما عَلِمَ مغيِّرا لشهادته إلى أن أقامها عنده بشروط الأداء. وشَخَّص الزوجةَ المذكورة، وقَبِله[(٣)] فى ذلك، وأعلم تحت رسم شهادته علامة الأداء والتعريف بالتشخيص على الرسم المعهودِ فى مِثـله

(١) فى الأصل: «فى وفاء» بدون واو العطف؛ والسياق يقتضى إثباتها، فان قوله: «فى وفاء» معطوف على قوله: «فى بيع»؛ والمعنى أن أمين الحكم قائم فى البيع وفى وفاء الصداق.

(٢) فى الأصـل: «الكائنـة» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق وكما هو المعبر به فى عدة مواضع من هذا الباب.

(٣) «قبله فى ذلك»، أى أن القاضى قد قبل الشاهد فى شهادته؛ على أن عبارة المؤلف فى جميع المواضع الأخرى: «وقبل منه ذلك»؛ وكل من التعبيرين مفيد للمعنى المقصود مع استقامة التركيب.

وأَحلَف الزوجةَ المذكورةَ بالله الذى لا إله إلّا هو اليمينين[(١)] الشرعيّتين، الجامعتين لمعانى الحَلَف، المشروحتين فى مسطور الحلف بكذا وكذا، وذلك بحضور من يُعتبَر حضورُه؛ فلما تكامل ذلك عند الحاكم المذكورِ سألت الزوجةُ الحاكمَ المذكورَ إيصالَها[(٢)] إلى مبلغ صداقها المشهودِ لها به من موجود زوجها المذكور، فأَذِن الحاكمُ لأمين الحُكم العزيز فى بيع ذلك، وقبضِ ثمنِه، و إيصالِ الزوجةِ المذكورةِ[(٢)] إلى ما ثبت لها فى ذمّة زوجها من الصّداق المذكور، والإشهادِ عليها بقبض ذلك، إذنا شرعيّا، فشَهِد عليه بذلك من يضع خطَّه آخرَه، وذلك بعد أن ثبت عند الحاكم المذكورِ أنّ هذه القيمةَ المَبيع بها قيمةُ المِثل يومئذ، وأنّ الحظّ والمصلحةَ فى البيع بذلك، يَشهَد به المَحضرُ المؤرَّخُ بكذا وكذا، وفيه خطُّ جماعةٍ من العُدول والمهندسين أربابِ الخِبرة بالعقار وتقويمِه وذلك بعد أن شَهِد أمينُ الحُكم المذكورُ أنّ الدار المذكورةَ أقامت[(٣)] بِيَدِ الدّلّالين على العقار ليشهروها فى الشوارع والأسواق الجاريةِ بها العادةُ أيّاما متواليةً بحضرةِ عدلين :

(١) قوله : «اليمينين» بلفظ المثنى غير ظاهر، فانه قد سبق فى صفحة ٥٣ من هذا السفر ما يفيد أن الزوجة انما تحلف يمينين اذا لم يثبت صداقها إلا بشهادة عدل واحد فقد ورد فى هذه الصفحة ما نصه : و إن كان صداقها لم يثبت إلا بشهادة عدل واحد أحلفت على ذلك و يكتب حلفها . وهو : «أحلفت الزوجة المشهود لها فيه فلانة المشخصة لمستحلفها بالله الذى لا إله الا هو يمينين شرعيتين» الخ والصداق فى هذا المكتوب ثابت بشهادة عدول، لا عدل واحد، كما يدل عليه ما سبق فى السطر التاسع من صفحة ٥٨ و إذن فالظاهر أنه لا مقتضى هنا لأن تحلف الزوجة يمينين .

(٢) كذا ورد فى الأصل هاتان العبارتان اللتان تحت هذا الرقم، وكان الأنسب أن يقول فى العبارة الأولى «إيصال مبلغ صداقها إليها» وفى العبارة الثانية «و إيصال ما ثبت للزوجة المذكورة فى ذمة زوجها من الصداق المذكور إليها» فان الصداق واصل إلى الزوجة لا موصول إليه كما لا يخفى، إلا أن الزوجة لما سلكت لاثبات صداقها الطرق السابقة الذكر كان تمكنها من قبضه بعد ذلك كوصولها إليه .

(٣) فى الأصل : «اقامته» ؛ والهاء زيادة من الناسخ .

هما فلانٌ وفلان، فكان الّذى آنتهى [إليه](١) البذلُ فيها من هذا المشترى كذا وكذا، وهو الثمن آلمذكور؛ فلمّا تكامل ذلك كلّه وقع الإشهادُ على الحاكم المذكور وأمين الحُكم والمشترِى بما نُسِب الى كلٍّ منهم فيه بتاريخ كذا وكذا .

ثم يكتب خلفَ الصـداق قبْضَ الزوجة ، ومثالُ ذلك : أقرّت فلانةُ المـرأةُ الكاملةُ عند شهوده طوعا أنّها قبضتْ وتسلّمتْ من القاضى فلان أمينِ الحُكم العزيز جميعَ مبلغ صداقها الذى فى ذمة زوجها فلان المتوفّى المذكور، وهو كذا وكذا، وصار بيَـدِها وقبضِها وحَوْزِها ، وهو ثمنُ الدّار التى باعها أمينُ الحُكم العـزيز على زوجها فلان لأجل وفاء صـداقها المذكور ، فبحكم ذلك بَرِئَتْ ذمّةُ المُصدِق من الصـداق المذكورِ براءةً صحيحة شرعيّة، براءةَ قبضٍ وآستيفاء؛ ويؤرّخ . (٨٥)

إذا باع الوصىُّ دارا بالغبطـة(٢) الزائدةِ على ثمن المِثـل بغـير حاجة لمن هو تحت الحَجْر فالطريق فى ذلك أن يَكتُب محضرا بالقيمة يَشهَد فيه شهودُ القيمة والمهنـدسون ويناَدى عليها بحضرة عدلين، ويُثبتَ ذلك عنـد الحاكم ؛ وصورةُ المَحضَر فى باب المحاضر؛ ثم يَكتُب المبايعة، وصورةُ ما يكتب : هـذا ما آشترى فلانٌ لنفسه من فلانٍ القائِم فى بيع مايُذكَر فيه على فلان بن فلان الذى هو تحت وَلاية نظره بمقتضَى الوصيّة المفوّضة اليه من والدِه ، الثابتـةِ بمجلس آلحُكم العزيزِ وعدالته، ونُسختُها ... وأرْخُها(٣) ... وأسماءُ شهودِها ... والحاكم الّذى ثبتت عنده ... وصورةُ علامتِه ... —

(١) لم ترد هـذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها ، فإنه ليس فى هذه الجملة ضمير يصلح جعله عائدا على الموصول، وليس العائد فى هذا الموضع ممـا يجوز حذفه .

(٢) تقدّم تفسير الفقهاء للغبطة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٤٨ من هذا السفر، فانظره .

(٣) فى الأصل : «وأرضها» ؛ وهو تحريف ؛ والأرخ : التاريخ ، يقال : أرخت الكتاب بتخفيف الراء أرخا : اذا جعلت له تاريخا .

وإن اختصر ولم يذكر نسختها فذلك كافٍ — لما رأى له فى ذلك من الحظّ والمصلحة، وحسن النظر، والغبطة[1] الزائدة على ثمن المثل، حسب ما يشهد بذلك محضر القيمة والغبطة[1] المشروح آخره، الثابت بمجلس الحكم العزيز الثبوت الشرعى يشهد على الحاكم بذلك من يعيّنه فى رسم شهادته آخره؛ اشترى منه بقضيّة ذلك وحكمه جميع الدّار الفلانيّة — وتوصف وتحدّد — شراءً صحيحا شرعيّا بثمن مبلغه كذا وكذا، تقابضا وتفرّقا بالأبدان عن تراضٍ، بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعيّة؛ والسببُ فى هذه المبايعة أنّ الوصىّ البائعَ المذكورَ نجّز محضرا يتضمّن مسيرَ أرباب الخبرة بالعقار وتقويمه والعدول والمهندسين المندوبين من مجلس الحكم العزيز لذلك — وهم فلانٌ وفلانٌ شاهدا القيمة، وفلانٌ وفلانٌ المهندسان — الى الدّار[2] المذكورة، وشاهدوها، وأحاطوا بها علما وخبرة، وذكروا أنّ القيمة عنها كذا وكذا، وأنّها قيمةُ المثل يومئذ، لا حيف فيها ولا شطط، ولا غبينة[3] ولا فرط[3]، وأنّ الحظّ والمصلحة فى بيع الدار المذكورة بزيادة كذا وكذا لتتمّة كذا وكذا، وهو الثمن المعاقَدُ عليه، وأقام كلٌّ منهم شهادته عند القاضى فلانٍ بذلك، وأعلم تحت شهادتهم ماجرت العادةُ به من علامة الأداء والقبول، ثم أُشهِرت[4] الدارُ المذكورةُ بحضرة عدلين: هما فلانٌ وفلان، فى صُقْعها وغيره من الأصقاع ومَظانّ الرّغبة مدّةَ ثلاثة أيّام فلم يحضر مَنْ بذل زيادةً على ذلك، وقد أقام كلٌّ من شاهدَى النداء شهادته عند الحاكم المذكور بذلك، وأعلم تحت رسم شهادته علامة الأداء حسب ما تضمّنه

(١) تقدّم تفسير الفقهاء للغبطة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٤٨ من هذا السفر، فانظره.

(٢) «إلى الدار» متعلق بقوله فيما سبق: «مسير».

(٣) تقدّم تفسير الغبينة والفرط فى الحاشيتين رقم ٢، ٣ من صفحة ٥٧ من هذا السفر.

(٤) قد سبق فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٤٩ من هذا السفر التنبيه على أن «أشهره» بمعنى «شهره» غير منقول، كما فى (المصباح)؛ أو غير ثبت، كما فى (المغرب).

المحضرُ المذكورُ المؤرَّخ بكذا وكذا، الذى بأعلاه علامةُ الثبوت، ومثالُهـا كذا وكذا وشَهِد على الحاكم بثبوت ذلك عنده من يعيّنه فى رسم شهادته آخرَ هذا المكتوب؛ فلمّـا تكامل ذلك كلُّه وقع الإشهادُ[1] على الوصىِّ البائعِ والمشترِى بمـا نُسِب إلى كلٍّ منهما بعاليه بتاريخ كذا وكذا.

وإن كان الوصىّ باع بإذن الحاكم كتب ذلك كما تَقدّم فى حقّ أمين الحُكم؛ ويجوز أن يبيع[2] الوصىُّ بغير محضَر، وإنّمـا المحضَر أقطعُ للتنازع، وأدفعُ للطاعن.

اذا باع الوصىّ دارا على يتيم للحاجة من غير أن يُثبِت الحاجة ولا القِيمةَ فذلك جائز، وإنّمـا يُخاف من التنازع؛ فإذا أراد ذلك كَتَب ما مثالُه: هـذا ما اشـترى فلانٌ بمالِه لنفسـه من فلانٍ وصىِّ فلان بن فلان على ولدِه لصلبه فلان الطفلِ الّذى هو تحت حَجْـره ووَلاية نظره، متصرِّفا فيما لَه وعليـه بمقتضى الوصيّة التى بِيَدِه، الثابتةِ فى مجلس الحكم العزيز بالجهة الفلانيّة، القائمِ فى بيع ما يُذكَر فيه على فلان الطفل الذى تحت حَجْره ووَلاية نظره، لِمـا دعت اليه الحاجة من نفقتِـه وكُسوتِه ولوازمِه الشرعيّة، وأنّه ليس له موجود غير هـذه الدار المذكورة، وليس منها أجرةٌ تكفيه، ولمـا رأى له فى ذلك من الحظّ والمصلحة وحُسنِ النظر، اشترَى

(١) عبارة الأصل: «وقع الوصى على اشهاد البائع والمشترى» الخ وفى ألفاظ هذه العبارة تقـديم وتأخير لايستقيم بهما المعنى، فإنها تفيد أن الوصىّ غير البائع، وليس كذلك، بل الوصىّ هو البائع؛ كما يدل على ذلك ما سبق؛ والسياق يقتضى ما أثبتناه أخذا من عبارات المؤلف فى مواضع أخرى، فقد ورد فى ص ٧٠ س ١ ضمن عقـد مبايعة ــ والبائع وكيل بيت المـال ــ ما نصه: فلما تكامل ذلك كله وقع الاشهاد على القاضى فلان وكيل بيت المـال المعمور والمشترى بمـانسب الى كل منهما»؛ وجاء بعد ذلك أيضا فى ص ٧١ س ٤: «فلما تكامل ذلك كله وقع الاشهاد». وقوله: «وقع» يجوز أن يضبط بفتح الواو والقاف، أى حصل الاشهاد الخ وان يضبط بضم الواو وتشديد القاف المكسورة، من التوقيع.

(٢) فى الأصل: «يتبع»؛ وهو تصحيف.

منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ الدّار الفلانيّة، الجاريةِ فى يدِه وتصرُّفه ملكا لفلان المَبيع عليه — وتوصَف وتحدَّد — شراءً صحيحا شرعيّا، بثمن مَبلغُه كذا وكذا، دفعَه المشترى المذكورُ من مالِه للبائع المذكور، فقبضه منه وتَسلَّمه، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه لفلان المَبيع عليه، وسَلَّم الوصىُّ البائعُ المذكورُ للمشترى المذكورِ ما باعه إيّاه، فتسلَّمه وصار بيَدِه وملكِه وحَوْزِه، ومالا من أمواله، وذلك بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعيّة، والتفرّق بالأبدان عن تراضٍ، وضمانِ الدَّرَك فى صحّة البيع(١)، وبعد أن اعترف الوصىُّ البائعُ أنّ الثمن المذكورَ هو قيمةُ المِثل يومئذ، لاحَيفَ فيه ولا شَطَط ولا غَبِينة(٢) فيه ولا فَرْط(٢)، وصدَّقه المشترى على ذلك؛ ويؤرّخ.

إذا ابتاع الوصىُّ دارا ليتيم على يدِه كَتَب ما مثالُه:

هذا ما اشترَى فلانٌ لفلان بنِ فلان الطفلِ الذى فى حَجْره وكَفالته وولاية نظرِه، بمالِه الذى تحت يدِه، المنتقلِ إليه بالإرث عن والده المذكور، الذى كان فى حال حياته وصّاه عليه، وجعَلَه ناظرا فى مصلحته، وذلك بمقتضَى الوصيّة التى بيَده، الثابتةِ بمجلس الحُكم الشريف وعدالتِه، لما رأى له فى ذلك من الحظّ والمصلحة وحُسنِ النظر؛ اشترَى له بقضيّة ذلك وحُكمِه من فلانٍ جميعَ الدار الفلانيّة — وتوصَف وتحدَّد، ويكمِّل المبايعةَ على ما تقدَّم — وذلك بعد أن اعترف الوصىّ بأن الثمن المذكورَ هو ثمنُ المِثل، لاحَيفَ فيه ولا شَطَط، وصدّقه البائع على ذلك؛ ويؤرّخ.

---

(١) فى الأصل: «المبيع»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، فان الصحة والفساد إنما يتعلقان بالبيع لا بالمبيع؛ وقد تقدّم التنبيه على مثل ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٦ من هذا السفر.

(٢) تقدم تفسير الغبينة والفرط فى الحاشيتين رقم ٢ و ٣ من صفحة ٥٧ من هذا السفر.

إذا عَوَّض الرجلُ ٱبنته الطفلةَ دارا بِدارٍ[1] لهـا كتب ما مثاله :

حضر الى شهودِه فى يومِ تاريخِـه فلان، وأشهَد على نفســه طوعا أنه عَوَّض ٱبنتَه لصلبه فلانةَ الطفلة، التى تحت حَجْره وكَفالتِـه ووَلاية نظره ـ لِمـا رأى لها فى ذلك من الحظّ والمصلحة وحُسنِ النظر ـ جميعَ الدّار التى بِيَدِه وملِكه وتصرُّفه ـ على ما ذَكَر ـ بجميع[2] الدّار التى بِيَدِه وتصرُّفه ملكا لٱبنته المذكورة ـ وتوصَف وتحدَّد ـ لِمـا رأى لها فى ذلك من الحظِّ والمصلحة والغِبطة، ولعلمِه أنّ الدّار التى عَوَّض ابنته بها[3] ـ وهى المبتدَأُ بذكرها ـ أجوَدُ من الدّار التى تَعوَّضتْ منها وأعْمَر، وأكثَرُ أجرةً وقيمة، معاوَضةً صحيحةً جائزة، قَبِلها من نفسه لٱبنته، وسلَّمها من نفسه لنفسه لٱبنته المذكورة، ورَفَع عنها يدَ ملِكه، ووَضَع عليها يدَ وَلايته ونظرِه، وأخرَجَ الدّار الفلانيّةَ المثنَّى بذكرها من ملك ٱبنته المذكورةِ إلى ملِكه، وسلَّمَها من نفسه لنفســه وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ومالا من جملة أمواله، ورَفَع عنها يدَ نظرِه ووَلايتـه ووَضَع عليها يدَ ملِكه، كلُّ ذلك بحقِّ هـذا التعويض. وبحكم ذلك صارت الدّار المبتـدَأُ بذكرها ملكا لٱبنته المذكورةِ دونه ودون كلِّ أحد بسببه[4]، وصارت الدّار

(١) فى اللسان ما يفيد أن الباء « كمن » فى أنها تدخل على المعوّض منه، كما هنا، فقد ورد فى الأمثلة التى ذكرها : « عاضه منه وبه » أى عوّضه .

(٢) قد سبق التنبيه على أنه يستفاد من بعض الأمثلة الواردة فى اللسان مادة « عوض » أن الباء « كمن » فى أنها تدخل على المعوّض منه كما هنا انظر الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة .

(٣) الباء هنا داخلة على المعوّض ـــ بتشديد الواو المفتوحة ـــ لا على المعوّض منـه، كما لا يخفى وقد ورد مثل ذلك أيضا فى شعر أبى العلاء المعرّى، فقد قال :

وقد تعوّضت من كل بمشـبه * فما وجدت لأيام الصبا عوضا

ولم نجد ذلك فى كتب اللغة التى بين أيدينا .

(٤) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٤٥ من هذا السفر .

المثنّى بذكرها ملكا له دون ٱبنته المذكورةِ ودون كلِّ أحدٍ بسببها، وأقرّ بأنه عارفٌ بذلك المعرفة الشرعيّةَ النافيــةَ للجهالة، وأنّه رآها الرؤيةَ المعتبَرة، وأحاط بهــا علما وخِبرة؛ ويؤرّخ .

[اذا](١) ٱعترف رجل بأنه كان من مدّة باع لرجل دارا كتب ما مثالُه :

٥ أقرّ فلانٌ بأنه كان بتاريخ كذا وكذا باع لفلانٍ جميعَ الدّار الكاملة، الّتى كانت يوم تَعاقُدِهما عليهــا فى يدِه وملكه وتصرُّفه، على ما ذَكَرَ — وتوصَف وتحدَّد — بيعا صحيحا شرعيّا، بثمن مبلغُه كذا وكذا، وأنّه قبَضَ الثمنَ منــه لنفسه، وتَســلَّمه وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، وأنّه(٢) من التاريخ المذكورِ ٱشتراها منه بالثمن المعيَّنِ أعلاه وسلَّمَه له، وتَسلَّم منه الدارَ المذكورةَ أعلاه، وصارت بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ومالا

١٠ من جملة أمواله؛ وأقرّا بأنّهما كانا تَعاقَدا على ذلك كذلك من التاريخ المذكورِ مُعاقَدةً صحيحة شرعيّةً شِــفاها بينهما بالإيجاب والقبول، ثم تَفرّقا عن تراض؛ وأقرّا بأنّهما عارفان بها، وأنّهما نظراها قَبــل ذلك، وأحاطا بها علما وخِبرةً نافيةً للجهالة، وضَمِن البــائعُ المذكورُ دَرَكَ(٣) ماباعه فيه وقَبَضَ ثمنَه بسببه ضمانا شرعيّا، ولم تَبقَ لكلٍّ منهما مطالَبةٌ قِبَل الآخَرِ بسبب من الأسباب، ولا حقّ من ٱلحقوق الشرعيّة، وأنّ الدّار

١٥ صارت ووجبت بطريق الٱبتياع المذكور ملكا لفلان المقَــرِّله ملكا صحيحا شرعيّا دون البــائع ودون كلِّ أحدٍ بسببه؛ ويؤرّخ .

(٨٧)

(١) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٢) «وأنه» أى المشترى المقرّله، فرجع الضمير هنا غير مرجعه فى قوله : «وأنه» السابق فى سطر ٧ من هذه الصفحة، فان المراد به المقرّ، وهو البائع، كما لا يخفى .

٢٠ (٣) تقدّم شرح ضمان الدرك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢ من هذا السفر، فانظره .

إذا كان البائع هو السلطان كتب ما مثالُه : هــذا كتابُ مبايعةٍ شرعيّه، جائزةٍ مَرضيّه ؛ أَمَرَ بكَتْبِه وتسطيرِه، وإنشائه وتحريرِه؛ وٱستيفاءِ مقاصِده، وٱستكمالِ معانيــه وفوائِده ، المولى السـيّدُ الأجلُّ السلطانُ المـالكُ الملكُ الفلانىُّ أبو فلان — وتُذكَر ألقابُه ونعوتُه الملوكيّةُ وسلطنتُه على العادة، ويُدعَى له بما يُدعَى للملوك من النصر والٱقتدار وغيرِ ذلك — وأَشهَدَ على نفسه الشريفة مَن حضر مقامَه الشريفَ من العدول الواضعِي خطوطِهم آخرَه أنه باع لفلان جميعَ كذا ؛ ويكمّل المبايعة .

إذا ٱشترى للسلطان وكيلُه قدّم ٱسم السلطان، وهو أن يكتب: هذا ما ٱشترَى للمولى السـيّدِ الأجلِّ السّلطانِ المـالكِ الملكِ الفلانىّ، وكيلُه فلان ، بماله المبـارك النّـامى، وتوكيلِه إيّاه فى ٱبتياع ما يُذكَر فيه بالثمن الّذى تَعيَّن فيه، والتسليم والتسلُّم اللّذَين يُشرحان[1] فيــه، يَشْهَد عليــه — خلّد الله ملكَه — بذلك من يعيّنه فى رسم شهادتِه آخرَه، من فلان[2] جميعَ الشىء الفلانىّ؛ ويكمّل .

وان كان البائع وكيلَ بيت المـال كُتِب مشروحٌ على العـادة بالشهادة على بعض المهندسين، مثالُه : مشروحٌ رَفَعَه كلُّ واحدٍ من فلان وفلان ٱلمهندسَين على العَقار بالبلد الفلانىّ، بقضيّة حالِ الدّارِ الكاملة ، الجاريةِ فى ديوان المواريث الحَشْريّة[3]

(١) فى الأصل : « الذى يشرح » ، بصيغة المفرد فى كلتا الكلمتين ؛ والسياق يقتضى التثنية كما أثبتنا .

(٢) «من فلان» متعلق بقوله : «اشترى» السابق فى نهاية السطر السابع من هذه الصفحة .

(٣) فى الأصل : الخيرية ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ؛ والمواريث الحشرية : هى مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقى بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المـال ، ولا عاصب له انظر صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٤ . وقال المقريزى فى خططه ج ٢ ص ١١٠ طبع المعهد العلمى الفرنسى : انها هى التى يستحقها بيت المـال عند عدم الوارث . وقال قبل ذلك : إنها فى الدولة الفاطمية لم تكن كما هى اليوم ، من أجل أن مذهبهـم توريث ذوى الأرحام ، وأن البنت اذا انفردت استحقت المـال بأجمعه ، فلما انقرضت أيامهم واستولت الدولة الأيوبيـة ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية الخ .

التى بالمكان الفلانىّ — وتوصَف وتحدَّد — شاهدا[1] الدارَ المذكورةَ على الصفة المشروحةِ أعلاه، وأحاطا بها علما وخِبرة، وكُتِب هذا المشروحُ ليثبت علمُه بالديوان المعمور، ويؤرّخ .

ثم يُكتَب مكتوبٌ على المهندسَين، ويَشهَد فى آخره شهودُ القيمة، مثالُه :

٥ يقول كلُّ واحدٍ من فلان وفلان ٱلمهندسَين على العَقار بالبلد الفلانىّ : إنّهما سارا[2] صحبةَ فلانٍ وكيلِ بيت المال المعمور الى حيث الدارُ الآتى ذكرُها ووصفُها وتحديدُها فيه، الجاريةُ فى ديوان المواريث الحَشْريّة[3]، وهى بالمكان الفلانىّ — وتوصَف وتحدَّد — وأحاطا بها علما وخِبرة، وقوَّماها بما مبلغه كذا وكذا، وقالا : إنّ ذلك قيمةُ المِثل التى لا حَيفَ فيها ولا شَطَط، ولا غَبِينةَ[4] ولا فَرْط[4]، وأنّ الحظَّ والمصلحةَ

١٠ فى البيع بذلك، ويؤرّخ .

وتُكتَب على ظهره[5] حُجّةٌ على سماسرة العَقار، صورتُها : يقول كلُّ واحدٍ من فلانٍ وفلانٍ ٱلمناديَين على العَقار : إنّهما أشهَرا[6] ماذُكِر[7] باطنَه فى مَظانّ الرَّغَبات، ومواطنِ الطلبات، فى صُقْعها وغيرِه من الأصقاع دَفعاتٍ متفرّقة، وأوقاتٍ متعدّدة، فلم

(١) فى الأصل : «شاهدوا» ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا، فان الضمير يعود على المهندسين السابق

١٥ ذكرهما فى أوّل المشروح .

(٢) فى الأصل : «انهم ساروا» ؛ والسياق يقتضى التثنية كما أثبتنا .

(٣) فى الأصل : « الخيرية » ؛ وهو تحريف ؛ وقد سبق تفسير المواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٦٦ من هذا السفر، فانظره .

(٤) تقدم تفسير الغبينة والفرط فى الحاشيتين رقم ٣، ٤ من صفحة ٤٨ من هذا السفر، فانظره .

٢٠ (٥) فى الأصل : « ظهر » بدون هاء الضمير ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٦) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٤٩ من هذا السفر .

(٧) فى الأصل : « على ماذكر » وقوله : « على » زيادة من الناسخ، فإن « أشهر » يتعدّى الى مفعوله بنفسه، لا بالحرف .

يَسمَعا مَن بَذَل زيادةً على ما قُوِّم باطنَه؛ و يؤرّخ، ويُشهَد عليهما فيه . ثم تُكتَب قصَّـةٌ بٱسم المشترِى للمقام الشريف السلطانىّ ، و يَكتُب عليهـا صاحبُ الدّيوان ويجاوِب وكيلُ بيت المـال المعمور، ويُخرِج ٱلحـالَ على ظهرِها، ثم يوقِّع[1] صاحبُ الدّيوان بحَمل المَبلَغ إلى بيت المـال المعمور ، فاذا حُمِل وقَّع صاحبُ الدّيوان وتُلصَق المجمَّةُ على القصّة، فاذا كَمُل ذلك عاقَد[2] وكيلُ بيت المـال، وصورةُ المكاتَبة: ٥

هذا ما ٱشـترى فلانٌ بمـالِه لنفســه من القاضى فلان، وكيلِ بيت المـال المعمور والقائِم فى بيع ما يُذكَر فيه بأحكام الوَكالة الّتى بِيَدِه، المفوَّضةِ إليه من المقام الشريف السلطانىّ الملكىّ الفلانىّ الذى جَعَل له فيها بيعَ ما هو جارٍ فى أملاك بيت المـال المعمـور، وغيرَ ذلك على ما نُصّ وشُرِح فيهـا، وما مآلُه الى بيت المـال المعمورِ بالقضايا الشرعيّة، الثابتةِ وَكالتُـه فى مجلس الحُكم العزيز الثبوتَ الشرعىّ، المتوّجة ١٠ بالعلامة الشريفة، ومثالُها كذا وكذا ؛ اشتَرَى منـه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ الدّار الفلانيّة، الجاريةِ فى رباع المواريث[3] الحَشْريّة، الموروثةِ عن فلان المتوفَّى إلى رحمة الله تعـالى ، أو الّتى أظهرها الكَشْف — وتوصَف وتحدَّد — شراءً صحيحا شرعيًّا بثمن مبلغُه كذا وكذا دينارا أو درهما حالّة، وذلك محمولٌ الى بيت المـال المعمورِ [على ما شَهِد[4] به وُصولُ بيت المـال المعمور] المشروحُ فى آخره؛ وتَسلَّم المشترى ١٥

(٨٨)

(١) فى الأصل : « يدفع » ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٢) مفعول «عاقد» محذوف للعلم به ، وهو المشترى .

(٣) تقدّم تفسير المواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٦٦ من هذا السفر، فانظره .

(٤) هذه التكملة ساقطة من الأصل ؛ وقد نقلناها عما يأتى بعد فى ص ٧٠ س ٨ من هـذا السفر، إذ لا يستقيم الكلام بدون إثباتها ؛ فان قوله بعد : « المشروح » صفة للوصول لا لبيت المـال ؛ والمراد بالوصول : البطاقة التى تعطى للمشترى بأنه حمل الثمن الى بيت المـال؛ قال فى شفاء الغليل : الوصول — بصيغة المصدر — : بطاقة تعطى لرب الدين ونحوه، وهو تجوّز، لأنها يتوصل بها، لكنها مولدة عامّية الخ . ٢٠

المذكورُ ما ٱبتاعه بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعيّة ، والتفرّق بالأبدان عن تراض، وٱنقضاءِ أمد الخيار الشرعىّ الّذى ٱشترطه البائعُ على المشترى المذكور، وهو ثلاثةُ أيّام؛ وأقرّ المشترى المذكورُ أنّ ذلك صائرٌ فى أملاك بيت المال المعمور ؛ والسببُ فى هذه المبايعة أنّ المشترىَ المذكورَ رَفَعَ قصّةً بٱسمه أَنْهَى فيها : ...

٥ — وتُنقَل الى آخرها — فَوُقِّع على ظهرها من جهة متولّى الدّيوان المعمور ما مثاله : "لِيُذكَرْ ما بُذِل[1] عليه[2] للدّيوان المعمور" ؛ ...[3] ومثاله : ... — ويُنقَل إلى عند[4] الصفات المحدودة ، ويُكتَب تاريخُه — ثمّ تلاه توقيعٌ كريم، ومثالُه : لِيتقدّم ٱلمجلس... — ويُنقَل جميعُ ما فيه — ثم تلاه جوابُ متولّى الوَكالة الشريفةِ بمامثالُه : "المملوكُ فلان ٱلوكيل"... — ويُنقَل — ثم نَجّز المشترى المذكورُ وُصولا[5] من بيت

١٠ المال المعمور شاهدا له بحَمْل الثمن المذكور، ونُسختُه بعد البسملة ... — ويُنقَل ما فيه — ثم تلاه توقيعٌ كريم، إذا كان — ويُنقَل جميعُ ما فيه — وذلك كلُّه بعد أن أُخذت الحجّةُ الملصَقةُ بأعلى التوقيع الدّيوانىّ، المتضمِّنةُ الإشهادَ على كلِّ واحدٍ من فلان وفلان المهندسَين على العَقار أنّ القيمة المعيَّنةَ فيها — وهى كذا وكذا — قيمةُ المِثل يومئذ — وتُشرَح الى آخر التاريخ — بشهادة فلان وفلان سماسرة

---

١٥ (١) فى الأصل : «ما يدل» ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه سياق الكلام .

(٢) «عليه» ، أى على المبيع .

(٣) الظاهر أن هنا كلاما قد سقط من الأصل ، إذ ليس فى الكلام السابق ما يصح جعله مرجعا للضمير فى قوله بعد : «ومثاله» ، وسياق الكلام يدل على أن المراد بقوله : «ومثاله» ، مثال المكتوب بالقيمة ؛ ويؤيد ذلك أيضا ما يأتى فى صفحة ٧٣ س ١ إذ قال مانصه : «ويشرح مسطور القيمة نحو ما تقدم» .

٢٠ (٤) كذا فى الأصل ؛ والذى فى كتب القواعد أن «عند» لا تخرج عن الظرفية الا إلى الجر «بمن» ، أما جرّها «بإلى» كما هنا ، فهو لحن .

(٥) تقدّم بيان المراد بالوصول فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٦٨ من هذا السفر، فانظره .

العَقار، بأنّهـما أشهرا[1] ذلك على ما تضمّنته[2]؛ فلمّا تكامل ذلك كلّه وقع[3] الإشهادُ على القاضى فلانٍ وكيلِ بيت المـال المعمور والمشترِى بما نُسِب إلى كلٍّ منهما؛ ويؤرّخ .

وان باع وكيلُ بيت المـال بغير توكيل بيع بل بحجّة قيمة كتب: هذا ما آشترَى فلانٌ من فلانٍ وكيلِ بيت المـال المعمور — كما تقدّم — جميع قطعة الأرض الحاملةِ لبناء المشترِى، الآتى ذكرُها وذَرْعُها[4] وتحديدُها فيه، الجاريةِ فى أملاك بيت المـال المعمـور، مضافةً الى ديوان المواريث[5] الحَشْريّة، أو ديوان الأحكار، وهى بالمكان الفلانىّ — وتُذْرَع وتُحدَّد — شراءً صحيحا شرعيّا، بثمن مبلغُـه كذا وكذا الجميعُ حالٌّ محمولٌ إلى بيت المـال المعمور، على ما شَهِد به وُصول[6] بيت المـال المعمور المشروحُ فى آخره، وتَسلّم المشترى المذكورُ ما آبتاعه بعد النّظر والرّضا والمعرفة والمعاقدة الشرعيّة، والتفرّقِ بالأبدان عن تراض، وآنقضاءِ أمد الخيار الذى آشترطه البـائعُ على المشـترى، وهو ثلاثةُ أيّام؛ وأقرّ المشترى المذكورُ أنّ الأرض المذكورةَ جاريةٌ فى ديوان المواريث؛ وذلك بعد آكتتاب حجّةٍ تتضمّن الإشهادَ على كلّ واحدٍ من فلان وفلان المهندسَين على العَقار — وتُشرَح كما تقدّم — والشهادةَ على

(١) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٤٩ من هذا السفر .

(٢) « على ما تضمنته » ، أى على ما تضمنته الحجة السابقة الذكر ؛ والذى فى الأصل : « تضمنه » بدون تاء التأنيث ؛ والسياق يقتضيها كما أثبتنا .

(٣) قد سبق التنبيه فى آخر الحاشية رقم ١ من صفحة ٦٢ على أن هذا اللفظ يحتمل أن يقرأ بفتح الواو وتخفيف القاف ؛ وأن يقرأ بضم الواو وتشديد القاف المكسورة مبنيا للمجهول ، من التوقيع ؛ وكل من الوجهين يؤدّى معنى صحيحا .

(٤) الذرع : القياس بالذراع .

(٥) تقدّم تفسير المواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٦٦ من هذا السفر ، فانظره .

(٦) تقدّم تفسير الوصول فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٦٨ من هذا السفر ، فانظره .

السماسرة؛ فحينئذ آستظهر[1] القاضى فلانٌ البائعُ على المشترى بكذا وكذا، فتكون جملةُ ما تقرّر من القيمة[2] والآستظهار ورسمِ الوَكالة جميعَ الثمن المذكور أعلاه؛ ثم بعد ذلك حضر وُصولٌ[3] من بيت المال المعمور شاهدٌ له بحَمْل الثمن المذكور، نُسختُه كذا وكذا، وعلى ظهره توقيعٌ كريم، مثالُه كذا وكذا ...[4]؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه وقع الإشهاد؛ ويؤرّخ.

وان كان المشترى أُجرِىَ بآسمه[6] الثمنُ من بيت المال وأُنعِمَ عليه به كتب ما مثالُه: هذا ما آشترى فلان بنُ فلان؛ ويذكر الثمن، ويقول: "وهو مُجْرًى من بيت المال المعمور"؛ ويكمّل المبايعةَ نحوَ ما تقدّم، ويكتب: "ثم أَحضَر المشترى توقيعا شريفا سلطانيّا بالإنعام عليه بالثمن"؛ ويُنقَل إلى آخره؛ والله أعلم بالصواب.

إذا آشترت آمرأةٌ من وكيل بيت المال دارا جاريةً فى رباع المواريث[7] الحَشْريّة بما لها فى ذمّته[8]، ثم قاصّت[9] بما لها

(١) استظهر: من الآستظهار، وهو التحرى والآحتياط، والمراد أن القاضى زاد مبلغا على الثمن الذى قوّم به المبيع للاحتياط والوثوق بأن هذا الثمن هو ثمن المثل، وأن فى هذا البيع غبطة ومصلحة.

(٢) فى الأصل: «القسمة»؛ وهو تحريف.

(٣) تقدم تفسير الوصول فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٦٨ من هذا السفر، فانظره.

(٤) ورد فى الأصل موضع هذه النقط كلمة «ويؤرخ»؛ وظاهر أنها زيادة من الناسخ لتكررها مع ما يأتى بعد فى آخر المكتوب، ولا مقتضى لها فى هذا الموضع.

(٥) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٠ من هذا السفر.

(٦) فى الأصل: «باسم» بسقوط الهاء؛ والسياق يقتضى اثباتها.

(٧) تقدّم تفسير المواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٦٦ من هذا السفر، فانظره.

(٨) فى الأصل: «فى ذمتها» بتأنيث الضمير؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يدل عليه السياق.

(٩) تقدّم تفسير المقاصة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٣٨ من هذا السفر، فانظره.

فى رباع ديوان المواريث ، يكتب : [هذا][1] ما آشترت [فلانةُ][1] من وكيل بيت المـال — كما تقـدَّم — جميـعَ الدار الكاملة الجـارية فى ديوان المواريث الحَشْريّة — على ماذَكرت المشـترية — المقبوضةِ عن فلان المتوفَّى إلى رحمـة الله تعالى، وهى بالمكان الفلانىّ — و توصَف وتحدَّد — شراءً صحيحا شرعيًا بثمن مبلغه من الدراهم كذا وكذا، الجميعُ حالّ، وتسلّمت[2] المشتريةُ ما آبتاعته بعـد النظر والرّضا والمعرفة والمعاقدة — نحوَ ما تقدَّم — ثم بعد ذلك قاصّ[3] القاضى فلانٌ المشتريةَ المذكورةَ بالذى تَوجَّه على الديوان المعمور إيفاؤه من تَرِكة زوج المشـتريةِ المذكورةِ فلان وهو مبلغُ صداقها عليـه، الثابت لهـا بمجلس الحُكم العزيز، ومبلغُه كذا وكذا، وهو نظيرُ الثمن المذكورِ فى قدره وجنسه وحلولِه، مقاصّةً[3] صحيحةً شرعيّة ، برئتْ بها ذمّةُ المشترية من الثمن، وذمّةُ زوجها من نظير ذلك الصداق؛ والسببُ فى هـذه المبايعة والمقاصّة[3] أنّ المشـترية المذكورةَ أثبتت صداقَها على زوجها فلانٍ فى مجلس آلحكم العزيز، ومبلغُـه كذا وكذا ، المؤرَّخ الصـداقُ بكذا وكذا، وأسجل لهـا الحاكمُ على نفسه — وهو القاضى فلان — بثبوت ذلك عنده ، والحُكم به، وأَشهَدَ لها على نفسه بذلك ، وذلك بعـد آستحلافها اليمينَ الشرعيّة، المؤرَّخ الحَلِفُ بكذا وكذا؛ ثم بعد ذلك رفعت المشتريةُ قصّـةً مترجَمةً بآسمها، مثالُها : المملوكة ...؛ ويشرح ما فيهـا

(٨٩)

(١) هاتان الكلمتان لم تردا فى الأصل ؛ وسـياق الكلام يقتضى إثباتهـما أخذا مما ورد فى المكاتيب السابقة .

(٢) فى الأصل : «وسلمت» ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) تقدّم تفسير المقاصة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٣٨ من هذا السفر، فانظره .

وما تضمّنه التوقيعُ[1] كما تقدّم، ويشرح مسطور القِيمة نحو ما تقدّم .

هذا ما اتّفق[2] إيرادُه فى البيوع على اختلاف[3] الوقائع؛ والله أعلم .

وأما الردّ بالعيب والفسخُ — فإنه اذا اشترى رجل من آخَر دارا أو عبدا أو أَمَةً أو دابّة، واطّلع على عيب يوجب الردَّ بالعيب، وأراد الإشهاد بذلك، كتب ما مثالُه : حضر إلى شهوده فى يومِ تاريخِه فلان ، وأَشهَدَ عليه أنه ابتاع[4] قبل تاريخه من فلانٍ جميعَ الشىء الفلانىّ، وأنّه اطّلع فى يومِ تاريخِه على أنّ به عيبا قديما مزمِنا يوجب الردّ، وهو الشىءُ الفلانىّ — ويذكر العيب — وأنه حين اطّلاعِه على العيب حضر إلى شهودِه على الفور، واختار فسخَ البيع وردَّ المَبيع على بائعه بالعيب المذكور، وأنّه باقٍ على طلب الردّ، واستعادةِ الثمن الذى أقبَضَه له ، ورَفع يدَه عن التصرّف فى الشىء الفلانىّ رفعا تاما؛ ويؤرّخ .

فى مقايلةٍ[5] تُكتَب على ظهر المبايَعة، ومثالُها : أقرّ كلُّ واحدٍ من فلان — وهو المشترِى باطنَه — وفلانٍ — وهو البائعُ باطنَه — بأنّهما تقايَلا أحكامَ

(١) فى الأصل : « التوكيل » ؛ وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا ، كما يرشد اليه ما سبق فى ص ٦٩ س ٥ من هذا السفر ، فانه يفيد أن الكاتب بعد أن ينقل القصة المرفوعة من المشترى ينقل ما تضمنه توقيع متولى الديوان ؛ وهذا هو الذى يشير اليه المؤلف هنا بقوله : « كما تقدّم » .

(٢) فى الأصل : «ما اختلف» ؛ وهو تبديل من الناسخ مفسد للمعنى .

(٣) فى الأصل : «على خلاف» بسقوط الألف والتاء؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٤) عبارة الأصل : «أنه لما ابتاع» ؛ وقوله : « لما » زيادة من الناسخ، اذ ليس فى الكلام الآتى بعدها ما يصلح جعله جوابا لها إلا بإسقاط كلمة «وأنه» الآتية بعد ذلك فى قوله : «وأنه اطلع» ؛ وعلى كل حال فإنه لا يستقيم الكلام بدون إسقاط إحدى هاتين الكلمتين .

(٥) فى الأصل : «فى معاملة» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا؛ كما يقتضيه سياق المكتوب الآتى .

المبايَعة المشروحةِ باطنَه، وهى [فى](١) جميع الدّار الموصوفة المحدودة، الّتى كان فلان المُبدَأُ(٢) باسمه ابتاعها من فلان المثنّى باسمه بالثمن المعيَّن فى باطنِـه، وهو كذا وكذا مقايلةً صحيحةً شرعيّة؛ ودَفَع البائع المذكورُ للمشترى المذكورِ جميعَ الثمن بتمامـه وكمالِه فقبَضَه منه، وتَسلَّمه، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه؛ ورَفَع المشترى يدَه عن الدّار المذكورة، وسلَّمها للبائع على صفتها الأولى، فتَسلَّمها منه، وذلك بعـد النظر والمعرفة والتفرّق بالأبدان عن تراض. ٥

وأما الشُّفْعة(٣) — فالذى يُكتَب فيها أنّه اذا اشـترى رجل حصّةً من دار وحضَر مالكُ بقيّة الدار فطلَبَ الحصّةَ بالشُّفعة، وصدّقَه المشترى على ذلك، كتب ما مثالُه: حضر الى شهوده فى يومِ تاريخِه كلُّ واحدٍ من فلان بنِ فلان، وفلان بنِ فلان — وهو المشترى المذكورُ باطنَه — وأَعلَمَ فلانٌ المبتدَأُ بذكره فلانا المشترى باطنَه — أنّ فى ملكه من الدّار الموصوفة المحدودة باطنَه كذا وكذا سهما من أربعة وعشرين سهما شائعا فى(٤) جميع الدّار المذكورة، وأنّه يَستحِقّ أخْذَ الحصّة التى ابتاعها منها بالشُّفعة الشرعيّة، وأنّه قام على الفور(٥) عند سماعِه بابتياع الحصّة المذكورة باطنَه ١٠

(١) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ والسياق يقتضيها، إذ أن المبايعة ليست هى الدار.

(٢) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ١٧ من هذا السفر. ١٥

(٣) عرّف الفقهاء الشفعة بأنها حق تملك قهرىّ يثبت للشريك القديم على الحادث فيما ملك بعوض. انظر (شرح المنهج) (كتاب الشفعة). وفى اللسان أنها مشتقة من الشفعة بمعنى الزيادة، وهو أن يشفعك فيما تطلب حتى تضمه الى ما عندك فتزيده وتشفعه به الخ.

(٤) فى الأصل: «من»؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٥) انما قيد القيام بأنه على الفور وبأنه من غير إمهال لأن طلب الشفعة يجب أن يكون على الفور على القول الراجح من مذهب الشافعى، وكذلك عند أبى حنيفة؛ فمن أخر المطالبة بالشفعة مع الإمكان سقط حقه كخيار الرد؛ وللشافعى قول آخر؛ وهو أنه يبقى حقه ثلاثة أيام انظر جواهر العقود الموجود منه جزء مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٣٩ فقه شافعى. ٢٠

من غير إمهال، وٱجتمع بالمشترى المذكور، وأعلمه بما ذُكر، فحينئذ صدّقه المشترى على صحّة ذلك جميعه تصديقا شرعيّا، وٱلتمس منه القيامَ له بنظير الثمن الّذى دفعه المشترى المذكورُ باطنَه عن الحصّة المذكورة باطنَه؛ فأحضره إليه بكماله، وهو كذا وكذا، وأقبضه له، فقبضه منه، وتسلّمه، وصار بيده وقبضه وحوزه؛ وسلّم المشترى المذكورُ باطنَه لفلان المبتدإ بذكره المستشفع المذكور الحصّةَ المذكورة، ومبلغُها كذا وكذا سهما من أربعة وعشرين سهما شائعا فى جميع الدّار الموصوفة المحدودة باطنَه، فتسلّمها منه، وصارت بيده وقبضه وحوزه عن هذه الشُّفعة؛ وأقرّا بأنّهما عارفان بها المعرفةَ الشرعيّة، وبحكم ذلك كمل لفلان المستشفع بما فى ملكه متقدّما وبهذه الحصّة مِلكُ جميع الدّار المذكورة بالشُّفعة المذكورة، ولم يبقَ لفلان المشترى المذكورِ باطنَه فى الدّار المذكورة حقٌّ ولا طلبٌ بسبب ملك، ولا يد، ولا ٱبتياع، ولا حقٌّ من الحقوق الشرعيّة؛ وبمضمونه شُهِد؛ ويؤرّخ.

إذا ٱدّعى رجلٌ على رجلٍ أنّ الحصّة التى ٱبتاعها من شريكه يستحقُّها بالشُّفعة ولم يصدّقْه على ذلك، وكلّفه إثباتَ الملك وقبولِ القسمة — فالذى يُفعل فى ذلك أن يُثبِت المدّعى ٱبتياعَه عند الحاكم

(١) فى الأصل: «البائع»؛ وهو تبديل من الناسخ لا يستقيم به الكلام؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٢) يريد بالمستشفع هنا: طالب الشفعة؛ والذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة أن المستشفع هو طالب الشفاعة، لا طالب الشفعة؛ وأما طالب الشفعة فيقال له: شفيع؛ ولعل ما هنا من استعمالات الفقهاء.

(٣) «عن هذه الشفعة»، أى أن هذا التسليم والتسلم ناشئان عن هذه الشفعة.

(٤) وقبول — بكسر اللام — أى وإثبات قبول الخ وإنما يكلف طالب الشفعة باثبات قبول القسمة لأن مذهب الشافعى أنه لا شفعة فيما لا ينقسم، كالطاحونة والحمام وبئر الماء، وغير ذلك مما لا يقبل القسمة إلا بإبطال منفعته المقصودة منه؛ وعلة ذلك دفع ضرر مؤونة القسمة والحاجة إلى إفراد الحصة الصائرة للشريك بالمرافق، كما هو مبين فى كتب الفقه.

ثم يُثبِتَ محضرا بقبول القسـمة ؛ فإن لم يكن معـه كتابُ ابتياعٍ كَتَب محضرا بأنّه مالكٌ لحصّته من الدّار، وصيغةُ المحضَر: شَهِد الشهودُ الواضعون خطوطَهم آخرَه — وهم من أهل الخِبرة الباطنةِ[1] فيما شهدوا به فيه[2] — أنّهم يعرفون فلانا معرفةً صحيحةً شرعيّـة، ويشهدون أنّه مالكٌ لجميع الحصّة التى مبلغُها كذا وكذا سهما من أربعـة وعشرين سهما شائعا غيرَ مقسوم من جميع الدّار الفلانيّة، الّتى بالمكان الفلانىّ — وتوصَف وتُحدَّد — ملكا صحيحا شرعيّا، من وجهٍ صحيحٍ شرعىّ، وأنّه متصرّفٌ فى الحصّة المذكورةِ بالسكن والإسكان والإجارة والعمارة، وأنّها باقيةٌ فى ملكه ويده وتصرّفه إلى الآن، ولم تخرُجْ عنه بتمليك[3]، ولا بيع، ولا هِبة، ولا إقرار، ولا صـدقة، ولا غيرها[4] ولا بوجهٍ من وجوه الانتقالات كلّهـا، وهم بالدّار فى مكانها عارفون، وأنّ تلك الحصّةَ الّتى مبلغُها كذا وكذا سهما من أربعة وعشرين سهما شائعا فى الدّار المذكورةِ ابتاعها[5] فلان بنُ فلانٍ من فلان بنِ فلان شريكِ فلانٍ متنجزِ[6] هـذا[7] المحضَر، وأنّ متنجِّزَه قام فى طلب الحصّة المَبيعةِ وأخذِها من المشترى المذكورِ بالشُّفعة الشرعيّة بحكم أنّه مالكٌ للحصّة المشهودِ بها ملكا شرعيّا متقدّما على ابتياع المشترى المدّعَى عليه

(١) الخـبرة الباطنة، أى الناشـئة عن معرفة واطلاع على ما خفى ودق من الأمور ولم يقتصر فيها على الظواهر.

(٢) «فيـه»، أى فى المحضر.

(٣) فى الأصل: «بملك»؛ وما أثبتناه هو المناسب لسياق الكلام، فإن خروج الشىء وانتقاله من يد مالكه إلى يد آخر انما يكون بالتمليك، أى بأن يملكه لغيره، لا بالملك، كما يتبين ذلك من معنى الكلمتين؛ وقد سبق الكلام على التمليك بقسميه فى صفحة ٢٣ من هذا السفر.

(٤) فى الأصل: «ملك»؛ وهو تحريف؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٥) فى الأصل: "التى ابتاعها"؛ وقوله: "التى" زيادة من الناسخ، كما يتبين ذلك من سياق الكلام.

(٦) «متنجز هذا المحضر»، أى الذى طلب إنجازه؛ يقال: «تنجز الحاجة»، إذا سأل إنجازها.

(٧) فى الأصل: «بهذا المحضر»؛ والباء زيادة من الناسخ، كما لا يخفى.

وأنّه قام على الفور[(١)] فى طلب الحصّة المَبيعةِ من المشترى من غيرِ تأخيرٍ ولا عاقة[(٢)]؛ يعلمون ذلك ويَشْهَدون به بسؤال[(٣)] من جازت مسألتُه ، وسَوَّغَت الشريعةُ المطهَّرةُ إجابتَه؛ ويؤرّخ؛ ثم يشهد فيه الشهود عند الحاكم . ثم يكتب تحته محضَرا بأنّ الدّارَ المذكورةَ قابلةٌ للقسمة[(٤)]، وصيغتُه : شهد الشهودُ الواضعون خطوطَهم آخرَه — وهم من أهل الخِبرةِ بالعَقَار وتقويمِه وقسمتِه — أنّهم ساروا بإذنٍ صحيحٍ شرعىٍّ من القاضى فلان الحاكِم بالجهة الفلانيّةِ إلى حيث الدّارُ الآتى ذكرها فيه ، الجاريةُ منها حصّةٌ مبلغُها كذا وكذا سهما فى ملك فلانٍ متنجزٍ المحضَرِ الأوّلِ[(٥)] المستشفِع فيه[(٦)] ، وحصّةٌ مبلغُها كذا وكذا سهما فى ملك المشترى المدّعَى عليه الشفيع[(٧)] المذكور، منتقلةٌ إليه بالابتياع الشرعىِّ [من شريك[(٨)]] المستشفِع[(٥)] المذكور ، لكشف حالها، ومعرفةِ جملتها وتفصيلها ، وسببِ طلب الشُّفعة من متنجِّز هذا المحضَر فيها[(٩)]، بحكم ابتياعِ المشترى الشفيعِ[(٧)] لحصّته[(١٠)] فيها ودخولِه على المستشفِع[(٥)] ، وأنّها هل تتهيّأ فيها قسمةُ التعديل بالأجزاء

(١) تقدم فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٧٤ وجه تقييده القيام بأنه على الفور وبأنه من غير تأخير، فانظره .

(٢) اطلاق العاقة على ما يعوق عن الحاجة كما هنا إطلاق عامىّ شائع الاستعمال بين العامة حتى اليوم؛ ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة التى بين أيدينا؛ أو لعل ما هنا تحريف صوابه : «عائقة» .

(٣) عبارة بعض كتب الوثائق فى مثل هذا المحضر : «مسئولين بسؤال» الخ انظر جواهر العقود المحفوظ منه بدار الكتب المصرية جزء مخطوط تحت رقم ١٤٩٣ فقه شافعى . (٤) تقدم فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧٥ وجه اشتراط الفقهاء قبول القسمة فيما فيه الشفعة، فانظره .

(٥) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٥ من هذا السفر . (٦) «فيه» ، أى فى المحضر .

(٧) كذا ورد هذا اللفظ فى عدة مواضع من هذا الباب مرادا به الشخص المطلوبة منه الشفعة؛ والذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة أن الشفيع هو طالب الشفعة، لا المطلوبة منه .

(٨) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ ولا يستقيم الكلام بدون اثباتها أخذا من السياق ومما سبق فى ص ٧٥ س ١٢ وما يأتى فى ص ٧٩ س ٣ وص ٨٠ س ٤ من هذا السفر .

(٩) «فيها» متعلق بالشفعة، أى طلب الشفعة فيها من متنجز الخ .

(١٠) فى الأصل : «بحصته» بالباء ؛ والسياق يقتضى اللام كما أثبتنا .

المقتضيةُ[1] لخير الشّريك ؟ فألفَوها فى البلد الفلانىّ — وتوصَف وتُحـدَّد — وتأمّلوها وأحاطوا بهـا علما وخِبرة، فوجدوها قابلةً لقسـمة التعديل الموجبةِ لخير الشّريك وشهدوا أنّها تمكن قسمتُها جزأين، أو تمكن قسمتُها ثلاثةَ أجزاء، ومهما كان، على قدر ملك كلِّ واحد من الشركاء، كلُّ جزءٍ مسـاوٍ للجزء الآخَرِ فى القيمة والانتفاع به؛ شهدوا بذلك بسؤال من جاز سؤالُه، وسَوَّغت[2] الشريعةُ المطهَّرةُ إجابتَه؛ ويؤرّخ، ويُشْهَد فيه عند الحاكم.

ثم يكتب إسجال الحـاكم، وصورتُه: هذا ما أَشهَد على نفسه سيّدُنا ومولانا قاضى القضاة فلانٌ مَن حضر مجلسَ حُكمِه ومحلِّ ولايته — وهو يومئذ نافذُ القضايا والأحكام، ماضى النقض والإبرام — أنّه ثبت عنده وصحّ لديه بمَحضَرٍ من متكلّمٍ جائزٍ كلامُه، مسموعةٍ دعواه على الوجه الشرعىّ، مضمونُ المَحضَرين المسطَّرَين باطنَه: أحدُهما — وهو الأوّل — مضمونُه: أنّ فلانَ بنَ فلان المستشفِعَ المدّعى مالكٌ لجميع الحصّة الّتى مبلغُها كذا وكذا سهما شائعا غيرَ مقسوم[3] فى جميع الدّار الموصوفة المحـدودة ملكا صحيحا شرعيّا، من وجهٍ صحيـح شرعىّ، وأنه متصرّفٌ فى الحصّة المذكورةِ بالسكن والإسكان والإجارة والعمارة، وأنّهـا باقيةٌ على ملكه وفى يده وتصرّفه إلى الآن، لم تَخرُجْ عنـه بتمليك[4]، ولا بيـع، ولا هِبـة، ولا إقرار، ولا صـدقة

(٩١)

(١) المقتضية بالرفع: صـفة لقسمة؛ والذى فى الأصـل: «المنصبة»؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضـيه السياق، وكما يرشد إليه أيضا تعبيره بالموجبة فيما يأتى فى سـطر ٢ من هذه الصفحة وص ٧٩ س ٩: فانه بمعناه؛ وانما اخترنا هنـا لفظ المقتضية دون الموجبـة، لقربه فى رسم الحروف من اللفظ الوارد فى الأصل.

(٢) فى الأصل: «ومستوعبا»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما عبر به فى عدّة مواضع.

(٣) «فى جميع» متعلق بقوله: «شائعا».

(٤) فى الأصل: «بملك»؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا، كما سبق تعليل ذلك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٦ من هذا السفر، فانظره.

ولا بوجه من وجوه الانتقالات كلّها، وأنّ الشهودَ الواضعى رسمِ شهادتِهم آخرَ المحضَر المذكور بالدّار المذكورة عارفون[(١)] فى صُقْعها ومكانِها، وأنّ ملكَه للحصّة سابقٌ على ابتياع فلان المدّعَى عليه الشراءُ المذكورُ للحصّة التى ابتاعها من شريك فلانٍ المستشفِع المشروحِ فى المحضَر الأوّل، وأنّ متنجِّزَ[(٢)] المحضَر قام فى طلب الحصّة المبيعةِ وأخْذِها من المشترى بالشُّفعة على الفَوْر، بحكم[(٣)] أنّه مالكٌ للحصّة المشهودِ له بها، وأنّ ملكَه متقدّمٌ على ابتياع الشفيعِ المشترى[(٤)]؛ وقد أقام كلٌّ من الشهود شهادتَه بذلك عند الحاكم المذكور، على ما تضمّنه المحضَرُ الأوّلُ المؤرَّخُ بكذا وكذا، وقَبِل ذلك منه القبولَ السائغ، وأعلَمَ تحت رسم شهادته علامةَ الأداء والقبول على الرسم المعهود؛ والمحضَرُ الثانى يتضمّن أنّ الدّار المذكورةَ قابلةٌ للقسمة الموجبةِ لخير الشريك وأنّ القسمةَ تتهيّأ فيها على ما شُرِح[(٥)] فى المحضَر الثانى؛ وأقام كلٌّ من الشهود شهادته بذلك عند الحاكم المذكور، على ما تضمّنه المحضَرُ الثانى المؤرَّخُ بكذا وكذا، وقَبِل ذلك منه القبولَ السائغَ الشرعىّ، وسَطَّر ما جرت العادةُ به تحت رسم شهادته من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهودِ فى مثله؛ فلمّا تكامل ذلك عنده وصحّ لديه — أحسن الله إليه — أشهَد عليه بثبوت المحضَرين المذكورَين لديه على الوجه الشرعىّ؛ وحينئذ سأل فلانٌ متنجِّزُ[(٢)] المحضَرين المدَّعِى الحاكمَ المذكورَ الحُكمَ بمقتضَى ما ثبت

(١) عبارة الأصل: "عارفون بها"؛ وقوله: «بها» زيادة من الناسخ، إذ لا مقتضى لها فان قوله قبل: «بالدار» يغنى عنها.

(٢) تقدم بيان المراد بالمتنجز فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٧٦ من هذا السفر.

(٣) فى الأصل: «وبحكم»؛ والواو زيادة من الناسخ، إذ لا مقتضى لها هنا.

(٤) انظر الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٧ من هذا السفر.

(٥) فى الأصل: «وفى»؛ والواو زيادة من الناسخ.

عنده ، فأجابه إلى سـؤاله ، وأَوجَبَ الشُّفعةَ المذكورة، وأَلزَم الحاكمُ المشـارُ اليه المدّعِيَ بالقيام للمشترى[(١)] المدّعَى عليـه بالثمن الذى ٱبتاع به الحصّةَ من شريك المدّعى المذكور، وهو كذا وكذا ، وحَكَم على فلان المشترى[(٢)] المدّعَى عليه بتسليم الحصّة التى ٱبتاعها من شريك المستشفِع[(٣)] — وهى كذا وكذا سهمـا — لفلان المـدّعى متنجّز المحضَرين المذكورَين[(٤)] ، بحُكم ثبوتهما عنده ؛ فحينئذ أَشهَد فلانٌ المشترى الشـفيعَ عليه أنّه قبض من المستشفِع[(٣)] نظيرَ الثمن الذى قام به للبـائع[(٥)] — وهو كذا وكذا — عن الحصّة التى ٱبتاعها، وصار بيَده وقبضه وحَوْزه، وسَلَّم للمدّعى المستشفِعِ[(٣)] المذكورِ الحصّة الثابتَ أخذُها منه بالشُّفعة — وهى كذا وكذا سهما — فتَسلَّمها منه، وصارت بيَده وملكه وحَوْزه، ملكا من جملة أملاكه، ومالا من جملة أمواله، وأضافها الى ما يملكه من الدّار المذكورةِ من الحصّـة المشهودِ له بها، فقد حل له جميعُ الدّار المذكورة؛ وأقرّا بأنّهما عارفان بها المعرفةَ الشرعيّة ؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه سأله مَن جاز سؤالُه الإشهادَ على نفسـه بذلك[(٦)] ... ... وأَبقَى كلَّ ذى حجّة على حجّته ، وهو

(١) عبارة الأصل : «بالقيام للدعى للشترى» ؛ وقوله : «للدعى» زيادة من الناسخ، كما لا يخفى.

(٢) فى الأصل : «للشترى» ؛ وهو تحريف .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٥ من هذا السفر.

(٤) انظر الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٧ من هذا السفر .

(٥) فى الأصل : «البائع» ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٦) موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل يفيد أن القاضى أجاب السائل الى ذلك، وأشهد على نفسه بثبوت ذلك لديه ؛ و يدل على ذلك أمور : أوّلها ان عطف قوله بعد : « وأبقى » على ما قبله غير مستقيم ، فإن الإبقاء فعل القاضى ، وماقبله من السؤال فعل المدعى ، كما لا يخفى ؛ ثانيها ان هذا المعنى هو مقتضى السؤال السابق قبله ؛ ثالثها ورود ما يفيد ذلك فى مثل هذا الموضع ضمن إسجال سابق انظر ص ٥٥ من سطر ٤ و ٥ من هذا السفر، وكذلك فى غيره من الإسجالات التى أوردها المؤلف فى هذا السفر؛ ولم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لاحتمال أن يكون الكلام الذى قد سقط من الأصـل مخالفا فى العبارة لما أثبتناه، و إن اتحدا فى المعنى .

فى ذلك كلّه نافذُ القضاء والحُكم ماضيهما ، بعد تقدُّم الدعوى المسموعةِ وما ترتّب عليها، وتقدّم[1] — أدام الله أيّامه — بكتابة هذا الإسجال ، فكُتب عن إذنه متضمّنا لذلك،وذلك بعد قراءة ما تضمّنه باطنا وظاهرا،وأشهد[2] الشفيعُ والمستشفعُ[2] عليهما بما نُسب الى كلٍّ منهما فيه، وذلك بتاريخ كذا وكذا .

٥ وان كان بعض الثمن عُروضا[3]، والمشترِى يعترِف بأنّ المستشفِعَ له حصّةٌ فى الدّار ، وأنّ الدّار قابلةٌ للقسمة ، ولم يَعترِف بقيمة العُروض[3] ، وطَلَب منه الثّمنَ وتحليفَه على ذلك ، فرَدّ عليه الثّمن[4] وأخَذ الحصّة بالشُّفعة بعد التّرافع إلى الحاكم — فسبيل الكاتب أن يكتب ما مثالُه : حضر الى شهودِه فى يومِ تاريخِه مَن ذَكَر أنّه حضر الى مجلس

١٠ الحُكم العزيز بالجهة الفلانيّة عند سيّدنا القاضى فلان الحاكمِ بها، كلُّ[5] واحد من فلان ابن فلان، وفلان بن فلان ، وهو المشترى باطنَه ، وذَكَر فلان المبتدأُ بذكره أنه يَستحِقّ أخذَ الحصّةِ المَبيعةِ بما طَلَب باطنَه — ومَبلغُها كذا وكذا سهما من أربعة وعشرين سهما شائعا فى جميع[6] الدّار الموصوفة المحدودة باطنه ، الّتى ابتاعها المثنّى

(١) يقال : «تقدّم بكذا» ، أى أمر به .

١٥ (٢) انظر تفسير هاتين الكلمتين فى الحاشيتين رقم ٧ من صفحة ٧٧ و رقم ٢ من صفحة ٧٥ من هذا السفر .

(٣) العروض : الأمتعة التى لا يدخلها كيل ولا وزن ، ولا تكون حيوانا ولا عقارا ، كما فى المصباح نقلا عن أبى عبيد ؛ وقالوا : الدراهم والدنانير عين ، وما سواهما عرض ، بفتح فسكون .

(٤) فى الأصل : « الهين » ؛ وهو تحريف .

٢٠ (٥) « كل » بدل من «من» السابقة فى قوله : « من ذكر » .

(٦) فى الأصل : «من» ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

بذكره من شريك المبتدإ بذكره فلان البائع باطنَه — بحُكم ما يَجرِى فى ملكه من الدّار المذكورة ؛ وأنّه حين عَلِمَ بابتياع المشترى للحصّة المعيَّنة قام على الفور[1] فى طلب الشُّفعة، وأَحضَر المشترىَ المذكورَ للحاكم المذكور، وادَّعَى عليه هذه الدّعوى (٩٢) وأنّ الدّار قابلةٌ للقسمة، وأنّ قيمة العُروض التى أخذها البائعُ باطنَه كذا وكذا درهما وأنّه لَم يكتم[2] قيمتَها إلّا تحيّلًا منه فى إقصاء[3] حقّه عن الشُّفعة، وسأل سؤالَه عن ذلك؛ فسأله الحاكم عن ذلك، فصَدَّق المدّعِىَ [فى][4] صحّة ما ادّعاه، وفى كلّ العُروض[5] الّتى سلَّمها للبائع المذكورِ باطنَه، وأنّه ما يعلم قيمتَها؛ فطَلَب يمينَه على ذلك، فأبى أن يحلف، وردّ عليه اليمين، فأَحلَف الحاكمُ المدّعِىَ على قيمة العُروض، فحلف أنّ قيمتَها كذا وكذا درهما، اليمينَ الشرعيّةَ المستوفاة، بمَحضَر من خصمه المذكور، وسأل المدّعِى الحاكمَ المذكورَ الحُكمَ له على خصمه بما يوجبه الشرع الشريف، فأجابه الى سؤاله وحَكَم له بوجوب الشُّفعة على خصمه حُكما صحيحا شرعيّا، وأَوجب عليه القيامَ بنظير الثّمن، وهو كذا وكذا، وقيمةِ العُروض، وهى كذا وكذا، وأَوجب على المشترِى تسليمَ الحصّة؛ فحينئذ أَشهَد المشترى المذكورُ على نفسه أنّه تَسلَّم نظيرَ الثّمن، وهو كذا

(١) قد سبق وجه تقييده القيام بأنه على الفور فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٧٤ من هذا السفر، فانظره.

(٢) فى الأصل: «يكفى»؛ وهو تحريف؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٣) فى الأصل: «اقضاء»؛ وهو تصحيف.

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ والسياق يقتضيها.

(٥) عبارة الأصل: «قيمة العروض»؛ وقوله: «قيمة» زيادة من الناسخ منافية للمعنى المقصود فان المشترى صدّق طالب الشفعة فى كل العروض التى دفعها للبائع، ولم يصدّقه فى قيمتها، أى ثمنها، كما يدل على ذلك سابق الكلام ولاحقه.

وكذا ... ... وصار بيده وقبضه وحوزه؛ وأشهد المدعى المستشفع[1] أنه تسلم من المشترى الشفيع[2] جميع الحصة المعينة باطنه[3] تسلما شرعيا، وصارت بيده وقبضه وحوزه وملكه، وذلك بعد النظر والمعرفة؛ فقد كمل للمدعى المستشفع[2] بما فى ملكه متقدما وبهذه الحصة ملك جميع الدار المذكورة؛ ويؤرخ.

٥ فى استشفاع الأب لابنه[4] المحجور عليه، وكذلك الوصى وأمين الحكم، مع تصديق المشترى له على دعواه، يكتب ما مثاله: أقر كل واحد من فلان — وهو كافل ولده فلان المراهق، أو الطفل الذى تحت حجره وكفالته وولاية نظره —، وفلان — وهو المشترى المذكور باطنه — عند شهوده طوعا بأن فلانا المبتدأ بذكره كافل ولده المذكور اجتمع بفلان المثنى بذكره، وأعلمه ١٠ بأن فى ملك ولده لصلبه فلان المذكور جميع الحصة التى مبلغها كذا وكذا سهما من أربعة وعشرين سهما شائعا فى جميع الدار المذكورة .....[5] بحكم تقدم ملك ولده

(١) يلوح لنا أن موضع هذه النقط كلاما ساقطا من الأصل، وهو قوله: «وقيمة العروض، وهى كذا وكذا»؛ فان هذا هو مقتضى قوله السابق فى سطر ١١، ١٢ من صفحة ٨٢: «وأوجب عليه القيام بنظير الثمن، وهو كذا وكذا، وقيمة العروض، وهى كذا وكذا».

١٥ (٢) انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٥ من هذا السفر.

(٣) انظر الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٧ من هذا السفر.

(٤) هذه اللام ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها.

(٥) يلوح لنا أن موضع هذه النقط جملة ساقطة من الأصل تفيد أنه — أى الوالد — طلب من المشترى أخذ الحصة لولده بالشفعة، فان قوله بعد: «بحكم تقدم ملك ولده» الخ إنما يصلح أن يكون ٢٠ تعليلا لطلب الحصة بالشفعة كما هو ظاهر، وكما يستفاد من قوله فيما سبق فى صفحة ٧٦ سطر ١٢، ١٣: «وأن متنجزه قام فى طلب الحصة المبيعة وأخذها من المشترى المذكور بالشفعة الشرعية بحكم أنه مالك للحصة المشهود بها ملكا شرعيا متقدما على ابتياع المشترى» الخ وورد أيضا ما يفيد هذا المعنى فى ص ٧٩ س ٤، ٥، ٦ من هذا السفر، فانظره.

للحصّـة المذكورةِ الّتى فى يد والده المذكور، وبحُكم أنّ الدّار قابلةٌ للقسـمة وأنّ الثّمن الذى قام به المشترى المذكورُ للبائع المذكورِ[(١)] هو ثمنُ المثل يومئذ، وقيمةُ العدل، وأنّه قام فى طلبها على الفور، لِمـا رأى لولدِه فى ذلك من الحـظّ والمصلحة وأنّ المشترىَ صدّقه على جميع ذلك تصديقا شرعيّا، وٱلتَمَس منه القيامَ بنظير ما كان دفَعه ثمنا عن الحصّة، وهو كذا وكذا، وأنّه أجابه الى ذلك، وسَلَّم له من مال ولدِه فلان نظيرَ الثّمن المذكور، وهو كذا وكذا، فقَبَض ذلك منه، وتَسلَّمه، وسَلَّم المشترى المذكورُ له الحصّةَ المذكورةَ بحقّ الٱستشفاع[(٢)]، فتَسلَّمها منه، وصارت بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ملكا لولدِه فلان، وأضافها الى ما فى يده من الحصّة الجاريةِ فى ملك ولدِه؛ وبحُكم ذلك كُمِّل لولدِه المذكورِ جميـعُ الدّار المذكورةِ باطنَـه؛ وأقَرّا بأنّهما عارفان بها المعرفة الشرعيّة؛ [ويؤرّخ].

وأما السَّلَم[(٣)] والمقايَلة[(٤)] فيه — فاذا أَسلَم رجلٌ لرجلٍ ثمنا فى قمح أو حبوب[(٥)] أو غير ذلك كتب ما مثـالُه: أقرّ فلانٌ عند شهوده بأنّه أَسلَم الى فلان من الدراهم

---

(١) الظاهر أن قوله: «المذكور» زيادة من الناسخ، اذ لم يتقدّم فى هـذا المكتوب ذكر البائع وهو شريك طالب الشفعة، كما لا يخفى.

(٢) لم نجد الاستشفاع بمعنى طلب الشفعة فيما راجعناه من كتب اللغة؛ والذى وجدناه أن الاستشفاع هو طلب الشفاعة؛ فلعل ما هنا من استعمالات بعض الفقهاء.

(٣) عرّف الفقهاء السلم بأنه بيع شىء موصوف فى ذمة بلفظ «سلم». ويقال له: السلف أيضا، وتسميته بالسلم هى الكثيرة المتعارفة بين الفقهاء؛ وسمى هذا العقد بالسلم لتسليم رأس المال فى المجلس، وسمى بالسلف لتقديمه.

(٤) فى الأصل: «والمعاملة»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يدل عليه ما يأتى فى صفحة ٨٥ س ٦ من قوله: «فان تقايلا فى السلم».

(٥) فى كتب اللغة ما يفيد أن الحبوب تعم القمح وغيره، فعطفها عليه هنا من عطف العام على الخاص.

كذا وكذا، وسلّمها له، فتسلّمها منه فى مجلس العَقد، وصارت بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه على حُكم السَّلَم الشرعىّ فى كذا وكذا — ويعيِّن ذلك ويصفه — يقوم له بذلك فى التاريخ الفلانىّ، محمولا الى المكان الفلانىّ، أو موضوعا بالمكان الفلانىّ؛ تَعاقَدا أحكامَ هذا السَّلَم بينهما معاقدةً صحيحةً شرعيّةً بالإيجاب والقبول، ثم تفرّقا من مجلس العَقد بالأبدان عن تراض؛ ويؤرّخ.

فإن تقايلا فى السَّلَم كتب ما مثالُه: أقَرّ كلُّ واحد من فلانٍ [المسلِم][1] وفلانٍ المسْلَم اليه بأنّهما تقايَلا أحكامَ السَّلَم الذى كانا تَعاقَدا عليه بينهما باطنَه مقايلةً صحيحةً شرعيّة، وفسخا أحكامَه فسخا شرعيًّا، وسَلَّم فلانٌ المسْلَمُ اليه لفلانٍ المسْلِمِ المبلغَ المذكورَ باطنَه، وهو كذا وكذا، فتَسلَّمه منه، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ولم يبَقَ لكلٍّ منهما قِبَل الآخر حقٌّ من الحقوق الشرعيّة بسبب السَّلَم المذكور، ولا بسبب شىءٍ منه، وتَصادَقا على ذلك؛ ويؤرّخ.

(٩٣)

وأما القسمة والمناصفة[2] — فاذا كان بين شريكين دار، وحصل الاتّفاق بينهما على قسمتها، فالذى يكتب فى ذلك: أقَرّ كلُّ واحد من فلانٍ وفلانٍ بأنّ لهما وفى ملكهما وتصرّفهما بالسوية بينهما — لا مزيّة لأحدهما على الآخر — جميعَ الدّار الفلانيّة — وتوصَف وتُحدَّد — ملكا صحيحا شرعيًّا؛ وأنّ ملكَهما لذلك سابقٌ لهذا الإقرار ومتقدّمٌ عليه؛ وأنهما عارفان بها المعرفة الشرعيّة، وأنّ يديهما فيها

(١) المسلم: الذى أسلم المال؛ وهذه الكلمة لم ترد فى الأصل؛ والسياق يقتضيها إذ لا وجه لتخصيص الثانى بالوصف دون الأول.

(٢) فى الأصل: «والمواصفة»؛ وهو تحريف، فان المواصفة عند الفقهاء هى أن يبيع ماليس عنده ثم يبتاعه فيدفعه الى المشترى؛ وقيل له ذلك لأنه باع بالصفة من غير نظر؛ وهذا المعنى غير مرادٍ هنا؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

متصرِّفتان تصرُّفَ المُلّاكِ فى أملاكهم، وذوى الحقوق فى حقوقهـم، من غير مانع ولا معترِض، ولا رافعٍ لِيَدٍ بسبب من الأسـباب، وتَصادَقا على ذلك كلِّه تصادُقا شرعيًّا؛ وأنّهما فى يومِ تاريخِه آتّفقا وتَراضَيا على قسمة ذلك جزءين: قِبْليًّا، وبحْريًّا، صفةُ القِبْلىّ كذا — ويحدَّد — وصفةُ البحْرىّ كذا — ويحدَّد —؛ ثم بعد تمام ذلك آشتَرَى فلانٌ من شريكه فلانٍ جميعَ النّصف الشائع فى جميع الجزء القِبْلىّ، وكمَّل لفلان جميعَ الجزء البحْرىّ؛ وتصادقا على ذلك تصادُقا شرعيًّا؛ ويؤرّخ.

وإن كانا أحضرا رجلين من المهندسين كتب فى ذيل المكاتبـة: وذلك كلُّه بعـد أن أحضرا رجلين من أهل الهندسـة والخِبْرة بمساحة الأراضى وذَرْعِها وقسـمتها، والآدُر وقيمتِها — وهمـا فلان وفلان — الى الموضـع المذكور وشاهداه، وأحاطا به علما وخِبْرة، وقسماه بينهما جزأين، لامزيّة لأحدهما على الآخر؛ وأنّهما آتّفقا وتراضيا على ذلك، ورضيا قولَهما، وأَمضَيا فعلَهما.

وإن كان بينهما قُرْعةٌ كتب ما مثالُه: وذلك كلُّه بعد قُرْعةٍ شرعيّةٍ رضيا بهـا وحصل الآتّفاق على ما ذكِر أعلاه.

وإن كان بينهما حوانيت وآقتسماها بالتعديل على القُرْعة كتب ما مثالُه: أقَرّ كلُّ واحد من فلانٍ وفلانٍ بأنّ لهما بالسويّة بينهما جميعَ الحوانيت — ويذكر عددَها وصفتَها وتحديدَها نحوَ ما تقـدّم — وأنّهما فى يومِ تاريخِه رغبا فى قسمتها بينهما بالتعديل والقُرْعة الشرعيّـة، وأَحضرا رجلين من أهل الهندسـة والخِبْرة بالأراضى وذَرْعِها وقيمةِ العَقار وقسمتِه — وهما فلانٌ وفلان — الى الحوانيت

(١) فى الأصل: «تصديقا»؛ وهو تحريف؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٢) الآدر: جمع دار.

المذكورة، وشاهَداها، وأحاطا بها علما وخِبْرة، وقسماها بينهما قسمةً عادلةً شرعيّةً بالذّرع والقيمة والمنفعة، وأَقرعا[(١)] بينهما فى ذلك قُرْعةً شرعيّه، جائزةً مرضيّه؛ فكان الذى حصل لفلان المبتدِإ بذكره جميع الحوانيت — وتُعَدُّ وتوصَفُ وتُحدَّد — التى قيمتُها كذا وكذا، الجميعُ حقُّه وحصّتُه من جملة الحوانيت المذكورة؛ والذى حصل لفلان المثنّى بذكره جميع الحوانيت — ويَذكُر فيها ما تَقدَّم —؛ وسَلَّم كلُّ واحد منهما للآخر ما وجب عليه تسليمُه، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه؛ وأقرّا بأنّهما عارفان بذلك المعرفةَ الشرعيّة؛ تَعاقَدا[(٢)] أحكامَ هذه القسمة بينهما معاقَدةً صحيحةً شرعيّةً شِفاها بالإيجاب والقبول، ثم تَفرّقا بالأبدان عن تراض؛ وأقرّ كلُّ واحد منهما بأنّه لا حقّ له ولا طلبَ فيما صار لصاحبه ممـا ذُكِر أعلاه بوجه من الوجوه الشرعيّة على آختلافها؛ وتصادقا على ذلك، ورضِىَ كلٌّ منهما بهذه القسمة وآعترفا بأنّ الذى قُوِّم به كلُّ موضع قيمةُ المثل يومئذ لا حَيفَ فيها ولا شطط.

فى صفة ميراث[(٣)] — يكتب ما مثالُه: أَقرّ كلُّ واحد من فلانٍ وفلانٍ وفلانٍ الإخوةِ أولادِ فلانٍ بأنّ والدَهم المذكورَ تُوُفِّىَ ولم يُخلِّف من الورثة سواهم، وأنهم مستحقّون لميراثِه، مستوعبون لجميعِه، بغير شريكٍ لهم فى ميراثه، ولا حاجبٍ

(١) فى الأصل: «وقرعا»؛ ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا؛ والذى وجدناه أنه يقال: أقرع بينهم، وقارع بينهم؛ والأوّل أعلى، كما فى مستدرك التاج؛ وأما «قرع»، فمعناه غلب بالقرعة؛ وليس ذلك مرادا هنا.

(٢) عادة المؤلف فى مواضع كثيرة من هذا الباب أن يعدّى هذا الفعل «بعلى» فيقول: «تعاقدا على كذا»؛ وقد ورد فى أساس البلاغة مادة «قيل» ما يفيد صحة تعديته بنفسه أيضا كما هنا؛ وعبارته: تقايلاه بعد ما تعاقداه اهـ أى أن البائع والمشترى تقايلا البيع بعد ما تعاقدا عليه.

(٣) «فى صفة ميراث»، أى فى صفة قسمة ميراث.

يحجبهم عنــه [بوجه](١) ولا سبب، وترَك لهم موروثا عنــه جميعَ الدّار الفلانيّة — وتوصَفُ وتُحدَّد — ؛ فلمّا كان فى يومِ تاريخه تداعَوْا إلى قسمة ذلك، فقُسِم بينهم على الوجه الشرعىّ، فتميّز لكلّ واحد منهم الثلثُ شائعا فيهـا، ووضع كلُّ واحد منهم يَدَه على ما تميّزله منها بهذا الإرث وضعا تاما، وعرَفَه وعرَف مقدارَه، وصار بيَـدِه وتصرُّفه وملكِه وحَوْزِه بالإرث الشرعىّ المشروحِ أعلاه، يتصرّف كلُّ منهم فيما صار إليــه تصرُّفَ المُلّاك فى أملاكهم، وذوى الحقوق فى حقوقهم، من غير مانع، ولا دافع، ولا رافع لِيَد، ولا معترِض بوجهٍ ولا سبب ؛ وأقرّوا بأنّهم عارفون بالدّار المذكورةِ المعرفةَ الشرعيّــة، ونظروها، وأحاطوا بها علما وخِبْرة، وتصادقوا على ذلك كلِّه، وقَبِــل كلُّ منهم هذا الإقرار لنفســه من الآخَر(٢) قبولا شرعيّا؛ والله مع المتّقين .

وأما الأجائر — فإذا آســتأجر رجلٌ من رجلٍ دارا كتب ما مثالُه : اســتأجر فلانٌ من فلانٍ جميعَ الدّار الجـارية فى يَدِه وملكِه وتصرُّفِه، على ماذَكَر وصدّقه المستأجر على ذلك، إن صدّقه .

وإن كانت الدار وقفا عليه كتب : الجـارية فى يَدِه وتصرُّفِه وقفا عليه تناهت(٣) منافعُها إليه .

---

(١) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضى اثباتها أخذا ممـا سبق فى ص ٤٠ س ١٥ من هذا السفر وما يأتى بعد فى س ٧ من هذه الصفحة .

(٢) فى الأصل : «مع» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه السياق .

(٣) «تناهت»، أى انتهت ؛ وهذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتهـا على هذا الوجه، وقد ورد فى الكوكب المشرق مكان هذه الكلمــة «الآئلة» ؛ وهى وإن كانت مؤدّية للمعنى المراد هنا إلا أنها بعيدة فى الرسم عن الحروف الموجودة فى الأصل .

وإن كانت فى عَقد إجارته نبَّه على ذلك ، فيكتب : الجاريةِ فى يَدِه وتصرُّفِه وعَقدِ إجارته بالإيجار الشرعىِّ من فلان .

وإن كان يؤجِر عن موكّله كَتَب : الجاريةِ فى يَدِه وتصرُّفِه ملكا لموكِّله فلان، وله إيجارُها، وقبضُ أجرتها عنه بطريق الوَكالة الشرعيّة التى بِيَدِه .

٥ وإن كانت حصّةً من دار كتب : جميعَ الحصّة التى مَبلغُها كذا وكذا من جميع الدّار وهى بالمكان الفلانىّ — وتوصَف وتُحدَّد — لِيَنتفِع بها فى السكن والإسكان، ووُقودِ النيران — إن أَذِن له فى ذلك — لمدّةِ كذا وكذا، أوّلُ ذلك يومُ تاريخِه، أو اليومُ الفلانىُّ من الأشهر الماضية (١) ، بأجرة مَبلغُها فى كلِّ شهر من شهورها كذا وكذا قسطُ كلِّ شهر فى سلخه، أو مستهلِّه ؛ وتَسلَّم ما آستأجره بعد النظر والمعرفة والمعاقدة ١٠ الشرعية، والتفرّقِ بالأبدان عن تراض ؛ ويؤرِّخ .

وإن استأجر مدّةً كلَّ يوم بعضَ النهار بأجرة حالّة مقبوضةٍ أو أبرأه منها كتب ما مثالُه : استأجر فلانٌ من فلانٍ جميعَ الحانوت — ويوصَف ويحدَّد كما تقدّم — لمدّة سنةٍ كاملة، أو أقلَّ أو أكثر، لِيَنتفِع بذلك فى السكن والإسكان طولَ المدّة فى كلّ يوم من أوّل النهار إلى الوقت الفلانىِّ منه، خلا بقيّة

---

١٥ (١) انما خص الأشهر الماضية ولم يقل بعدها : «أو المستقبلة» ، لأن مذهب الشافعى أنه لا يجوز إيراد إجارة العين على المنفعة المستقبلة ، كإجارة الدار للسنة القابلة ، كما فى جواهر العقود المحفوظ منه بدار الكتب المصرية جزء مخطوط تحت رقم ١١٣٩ فقه شافعى ؛ وجاء فى هذا الكتاب ايضا فى موضع آخر ما نصه : «واختلفوا فيما إذا استأجر منه شهر رمضان فى شهر رجب ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يصح العقد ؛ وقال الشافعى : لا يصح اه . وذكر شارح المنهج فى كتاب الإجارة أيضا أنه لا يصح فى اجارة العين ٢٠ الأكتراء لمنفعة قابلة ، كإجارة دار سنة أولها من الغد ، كبيع العين على أن يسلمها غدا .

النّهار واللّيل، فإنّ منفعتَه باقيةٌ فى يد الآجرِ وتصرُّفه، ينتفِـعُ بذلك كيف شاء، بأجرةٍ مَبلغُها عن جميع هذه المدّة كذا وكذا حالّة، قبَضَها الآجرُ من المستأجِر، وتَسلّمها .

وإن كان أبرأه منها كَتَب : حالّة، أبرأه الآجِرُ منها براءةً صحيحةً شرعيّة، براءةَ إسقاط، قَبِلها منه، وتَسلم ما ٱستأجره بَعد النّظرِ والرّضا والمعرفة والمعاقدةِ الشرعيّة .

ان ٱستأجر من رجل بمالَه فى ذمّته من الدّين كتب: ... ... لمدّةِ سـنةٍ كاملة، أوّلُها يومُ تاريخِه، بمـا للمستأجِر فى ذمّة الآجرِ من الدّين الحـالِّ ٱلذى ٱعترَف به عند شهوده، وهو كذا وكذا، وتَسلّم ما ٱستأجره ؛ ويُكمِّل . ٥

فصـــــل

وإن ٱستأجر من رجل دارا لمدّة، ثم ٱستأجر مدّة ثانية قبل ٱنقضاء المدّة الأولى كتب: ... ... لمدّةِ سنةٍ كاملةٍ مستأنفةٍ[1] على مدّته الأولى، أوّلُها اليومُ الفلانىُّ من الشهر الفلانىّ، بحُكم أنّ الدّار مستأجرةٌ معه على [مدّةٍ][3] معلومة آخرُها اليومُ الفلانىّ، وقد ٱستؤنِفَتْ هـذه المدّةُ الثانيةُ زيادةً على تلك المدّة الأولى إجارةً صحيحةً شرعيّة، بأجرة مَبلغُها كذا وكذا ؛ [تَعاقَدا على ذلك][4]] معاقدةً شرعيّـةً ١٠

(١) فى الأصل : «مسانقة» ؛ وهو تصحيف .

(٢) «على مدة» ، أى فى مدة ، «فعلى» هنا بمعنى فى ؛ وهذا كما قال أبو كبير الهذلى : ١٥

* ولقد سريت على الظلام بمغشم *

الخ البيت ، أى فى الظلام انظر اللسان .

(٣) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ والسياق يقتضى اثباتها إذ بها يستقيم الكلام .

(٤) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ؛ وسياق الكلام يقتضى اثباتها أخذا مما ورد فى المكاتيب السابقة والآتيـة . انظر ص ١٧ س ٩ وص ١٨ س ١٥ وص ١٩ س ١٦ وص ٢٤ س ١ وغير ذلك من المواضـــع . ٢٠

شِفاها بالإيجاب والقبـول ؛ وٱعترف المستأجِرُ بأنّ الدّار المذكورةَ فى يَده وتصرُّفه وأنّه عارفٌ بها المعرفةَ الشرعيّة .

فصـــل

وإن ٱستأجر بأجرة حالّة ثم قاصّه[1] المستأجِرُ بمالَه فى ذمّتـه كتب : ..... بأجرةٍ مبلغُها عن جميع المدّة كذا وكذا حالّة ـ ويُكمِّل الإجارة ـ ؛ ثم بعد ذلك قاصّ[1] المستأجِرُ المذكورُ الآجرَ المذكورَ بمالَه فى ذمّته من الدَّين ٱلذى ٱعترف به عند شهوده — وهو نظيرُ الأجرة المذكورة فى القدر والجنس والصّفة والحلول — مقاصّةً[1] شرعيّة ، قَبِل كلٌّ منهما ذلك لنفسه قبولا شرعيًا ؛ ولم تَبقَ لكلٍّ منهما مطالبةٌ قِبَل الآخَرِ بسبب دَينٍ ولا أجرةٍ ولا حقٍّ من ٱلحقوق الشرعيّة كلِّها .

وإن ٱستأجر جماعة من رجل أرضا لبناء[2] وغيره كتب ما مثالُه : استأجر فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ من فلانٍ جميعَ قطعة الأرض الطين السواد ، الجاريةِ فى يَد المؤْجِر[3] وملكِه ، وهى بالمكان الفلانىّ ، ومساحتُها كذا وكذا قصبةً بالقصبة الحاكمية[4] ، وذَرْعُها كذا وكذا ذراعا بذراع العمل[5] ، ليبنوا عليها ما أرادوا بناءَه ، ويحفِروا

(١) تقدّم تفسير المقاصة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٣٨ من هذا السفر ، فانظره .

(٢) فى الأصـل : « وبناء » بالواو ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما يدل عليـه قوله بعـد فى المكتوب : «ليبنوا» .

(٣) المؤجر اسم فاعل من آجرت وزان أفعلت ، وهى لغة نقلها صاحب المصباح عن الزمخشرى .

(٤) قال فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ عنـد الكلام على القصبة الحاكمية : كأنها حررت فى زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فنسبت اليـه ؛ وطولها ستة أذرع بالهاشمى ، وخمسـة أذرع بالنجارى وثمانية أذرع بذراع اليد ؛ وقد تقدّر القصبة بباعين من رجل معتدل .

(٥) ذراع العمل ، هو ذراع اصطلح على أن تقاس به أرض البنيان ، وطوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ؛ ولعله هو الذراع الذى كانت تقاس به أرض السواد بالعراق ، فقد ذكر الزجاجىّ أنه ذراع وثلث بذراع اليد انظر صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ .

فيهـا ما أرادوا حفرَه : من الآبار المَعِينةِ[(١)] وآبارِ السَّراب[(٢)] والقُنِيِّ والمجارِى ، ويُعلُّوا ما أرادوا تعليتَه ، ويزرَعوا ويغرِسوا ما أحبّوا زراعتَه وغرْسَه ، وينتفعوا بها كيف شاءوا على الوجه الشرعىّ ، لمدّةِ ثلاثين سنةً كوامل ، أوّلُها يومُ تاريخِه ؛ ويُكمل .

وإن كان كلٌّ منهم يقوم بما عليه بَرْهَنَ[(٣)] على ذلك ، وكذلك إن تَضامَنوا .

وإن ٱستأجر وكيل دارا لموكله [من جماعة[(٤)]] كَتَب : استأجر فلانٌ لموكِّله فلانٍ بإذنه وتوكيله إيّاه فى ٱستئجار ما يُذكَر فيـه بالأجرة الّتى تُعيَّن فيه للمدّة الّتى تُذكَر فيه ، وفى تَسلُّم ما ٱستأجره له ، التوكيلَ الشرعىّ ، على ما ذَكَر ، أو على ما تشهد به الوَكالة الّتى بيَدِه ؛ من فلانٍ وفلانٍ وفلانٍ جميعَ الدّار الكاملة ، الجاريةِ فى ملكِهم ويَدِهم وتصرُّفِهم بالسويّة ، أو بقدر حصصهم — وتوصَـف وتُحـدَّد وتُذكَر المدّةُ والأجرة — ما هو لفلانٍ عن أجرةِ حصّته كذا ، وما هو لفلانٍ كذا ، [وما هو لفلانٍ[(٥)] كذا] ؛ وتَسلُّم ما ٱستأجره لموكِّله بَعد النظرِ والمعرفةِ والمعاقدةِ الشرعيّة .

(١) يريد بالمعينة هنا : الآبار التى لها مادة من الماء ؛ والذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة بهذا المعنى « معيونة » ؛ وأما المعين فهو وصف للماء ، أى الجارى الظاهر على الأرض ؛ غير أن القواعد الصرفية لا تمنع أن يقال : « معينة » بالمعنى السابق المراد هنا ، بل هو الأصل .

(٢) السراب : كلمة شاع استعمالها عند العامة فى مصر كناية عن البراز ؛ ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة بهـذا المعنى ، كما أننا لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ المعرّبة والدخيلة ؛ ولعل عربيته (سارب) اسم فاعل من سرب سروبا ، وذلك لانسرابه فى جوف الأرض .

(٣) فى الأصل : « عن » ؛ وهو تحريف .

(٤) لم ترد هذه التكملة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها أخذا ممـا يأتى بعد فى السطر الثامن من هذه الصفحة وهو قوله : «من فلان وفلان وفلان» الخ .

(٥) لم ترد هذه التكملة فى الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها فان المؤجر منهم ثلاثة كما سبق فى المكتوب فيقتضى ذلك ذكر نصيب الثالث من الأجرة .

وإن آجر رجل دارا عن موكّله كتب : استأجر [فلانٌ](١) من فلانٍ القائمِ فى إيجار ما يُذكَر فيه عن موكّله فلان، بالأجرة التى تُعيَّن فيه، للمدّة التى تُذكَر فيه؛ وفى تسليمِ ما يؤجِر لمستأجِره، حَسَبَ ما تشهد به الوَكالة التى بيَدِه ؛ استأجر منه بقضيّةِ ذلك وحُكمِه جميعَ ... ويُكمِّل؛ والله أعلم بالصواب .

فصل فى معاقدة حَمولة(٢)

عاقد فلانُ بنُ فلان السَّيْرَوانُ(٣) فلانا على حَملِه وحَملِ محارمه وزادِه(٤) — وهو كذا وكذا رطلا — من البلد الفلانىّ الى البلد الفلانىّ ، على ظهر جماله التى بيَدِه وتصرُّفِه، بما مبلغُه كذا وكذا، قبضَه منه؛ تعاقَدا معاقدةً شرعيّةً بعد النظر والمعرفة والإحاطة بذلك علما وخِبرة، وعليه الشروع فى ذلك من يوم كذا وكذا .

(١) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها فان قواعد العقود توجب ذكر المستأجر، كما نص على ذلك فى جواهر العقود ورقة ١٢٩

(٢) معاقدة حمولة، أى معاقدة صاحب حمولة، وهى بفتح الحاء : ما يحمل عليه؛ وتطلق الحمولة على الواحد فما فوقه . ويحتمل أن يراد بالحمولة هنا : الأحمال نفسها ، وإذن فمعنى قوله : « معاقدة حمولة» : معاقدة على حمولة، أى على حمل أحمال؛ وضبطه الصاغانى والجوهرى بهذا المعنى بضم الحاء ، وظاهر ما فى القاموس أنه بفتحها .

(٣) فى الأصل : «السترو ان» بالتاء؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا ، كما فى كتاب المعرب والدخيل المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ لغة وقد ورد فى هذا الكتاب أن السيروان كلمة أعجمية معناها الجمال — بتشديد الميم — ؛ وقد جاء هذا اللفظ فى شعر ابن مكانس، قال :

وسيروان قاد قلبى وقد * قطر دمعى هجره كالجمان

وكلما واصل قالت له * حواسدى قاطعه ياسيروان

وقد ضبطناه بفتح أوله وسكون ثانيه نقلا عن ضبطه فى هذا الكتاب ضبطا بالقلم؛ على أن الذى وجدناه فيما لدينا من معجمات اللغة الفارسية بالمعنى السابق : « ساروان» و «ساربان» و «شتربان» بضم الشين والتاء وسكون الراء .

(٤) فى الأصل : «وداره» ؛ وهو تحريف .

فصـــــل

وإن ٱستأجر دارا بدار كَتَب : استـأجر فلانٌ من فلانٍ جميـعَ الدار الفلانيّـةِ الجاريةِ فى يَدِ الآجر، لمدّةِ كذا وكذا، بجميع الدّار الجارية فى يد المستأجِر — ويحدِّد كلًّا منهما — وتَسلَّم كلٌّ منهما ما وجب له تَسلُّمُه من الآخر[1] تسـلّما شرعيّا وصار بِيَدِه، وذلك بَعد النظر والمعرفةِ والمعاقدةِ الشرعيّة؛ ويؤرّخ . ٥

فصـــــل

وإن ٱستأجر مركَبا كَتَب طولَهـا وحَمْلَها وعُدّتَها[2] ... ليَنتفِـعَ بها فى حَمل الغلال والرُّكبان، فى البحر الفلانىّ؛

وإن كان فى بحر النيل قال : "مُصعِدا[3] ومُنحدِرا"؛ ويُكمِّل كما تقدّم .

فصـــــل

١٠

وإن ٱستأجر بغلا أو حمارا كتب : ... جميع[4] الحمار[5]، ليَنتفِـعَ به فى حَمله وحَمل قماشه[6] من المكان الفلانىّ الى المكان الفلانىّ، أو فى حَمل مايختاره من القماش[6] والأثاث، ونقلِ الحواصل على ظهره على قدر طاقته، لمدّةِ كذا وكذا؛ ويُكمّل .

---

(١) فى الأصل : «الآجر» بالجيم؛ وهو تصحيف .

(٢) يحتمل أن يكون موضع هـذه النقط عبارة ساقطة من الأصـل ، وهى : « ثم يقول » أو «ثم يكتب» أو نحو ذلك مما يفيد هذا المعنى؛ كما أنه يحتمل أيضا أن يكون المؤلف قد ترك التعبير بذلك اختصارا للعلم به من السياق ؛ ويرجح الاحتمال الثانى ورود مثل هذا الحذف فى مواضع أخرى من هـذا الباب؛ ولهذا لم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين . ١٥

(٣) فى الأصل : «مقلعا» ؛ وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : «ومنحدرا» ؛ ولم نجد فى كتب اللغة التى بين أيدينا من معانى الإقلاع ما يضادّ الانحدار . ٢٠

(٤) موضع هـذه النقط محذوف للعلم به من المكاتيب السابقة ، وهو قوله فى أوّل العقد : «استأجر فلان من فلان» .

(٥) ضبط هذا اللفظ بالفتح لأنه مفعول لقوله : « استأجر » المحذوف للعلم به من العقود السابقة؛ وقد مرّ التنبيه على هذا الحذف فى الحاشية السابقة .

(٦) اطلاق القماش على الثياب كما هنا اطلاق عامى، كما يستفاد من مستدرك التاج وكتاب المعرّب والدخيل المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ لغة . ٢٥

فصـــل

إذا أَجَرَ رجل عبـده أو ولده كتب : أَجَرَ فلانٌ ولدَه لصـلبه فلانا المراهِقَ الّذى تحت حَجْره وولاية نظره، لفلان، ليَعمَل عنـده فى صناعة كذا فى حانوته بالمكان الفلانىّ، لمـدّة كذا ، بأجرة مبلغُها فى كلِّ يومٍ كذا من آستقبالِ تاريخِه؛ تَعاقَدا [على] ذلك معاقدةً شرعيّـةً بالإيجاب والقبول والتسـليم الشرعىّ . (٩٦)

وان أَجَرَ نفسه كتب : أَجَرَ فلانٌ نفسَه لفلان، ليَعمَل عنده فى صـناعةِ كذا؛ ويُكمّل .

فصـــل

وإن أَجَرَت آمرأةٌ نفسَها لمطلّقها كتب : أَجَرَتْ فلانةُ نفسَها لمطلّقها الطلقةَ الأولى — أو مهما كان من عدد الطلاق — فلان، فى رَضـاع(١) آبنِها منـه وحَضانتِه وغسلِ خِرَقه، وتسريحِ رأسه، والقيامِ بمصالحه فى منزلها بالمكان الفلانىّ لمدّةِ كذا؛ ويُكمّل؛ والله أعلم بالصواب .

وإذا أَجَرَ رجل دارا على ولده الطفل أو أَجَرَ الوصىُّ أو أمينُ الحُكم كتب : استأجر فلان من فلان القائم فى إيجار ما يُذكَر فيـه على ولده اصـلبه فلان الطفلِ الّذى هو تحت حَجْره وكَفالتِه، لِمـا رأى له فى ذلك من الحظّ والمصلحة .

(١) «فى رضاع» ، أى "لرضاع" فالفاء هنا بمعنى اللام ؛ على أنه من المحتمل أيضا أن يكون قد سقط من الأصـل جملة أخرى قبل قوله : « فى رضاع » ، وهى قوله : "لينتفع بها" الخ ، كما يرشد الى ذلك ورودها ضمن المكاتيب السابقة فى الإجارة فى مثل هذا الموضع انظر ص ٨٩ س ٦ و س ١٣ و ص ٩٤ س ٧ و س ١١ .

وإن كان الاجر الوصىّ كتب : القـائم فى إيجار ذلك على فلان المحجورِ عليه[1] بطريق الوصيّة الشرعية الّتى بِيَدِه، وقَبْضِ الأجرة ، وتسـليم ما يَأجُره لمستأجره .

وإن كان أمين الحكم هو الآجر كتب : القائم فى إيجار ما يُذكَر فيه على فلان المحجورِ عليه من قِبَل الحُكم العزيز؛

فإن كان الحاكم أَذِنَ كتب : "وذلك بإذنٍ من سـيّدنا القاضى فلان الدّين له فى ذلك"؛ جميعَ[2] الدّار؛ ويُكمّل . ٥

وإن شُهِد بقيمة الأجرة شَرحه[3] فى ذيل الإجارة .

فصـــل

وإن استأجر رجل لولده دارا أو الوصىُّ أو أمينُ الحُكم كتب ما مثالُه : استأجر فلانٌ لولده الّذى تحت حَجْره ووَلاية نظره ، لِمـا رأى له فى ذلك من الحظّ والمصلحة . ١٠

وإن كان الوصىّ فكما تقدّم؛ أو أمين الحُكم فنحوه؛ ويذكر إذن الحـاكم؛ والله أعلم .

إذا استأجر الوصىّ من يحجّ عن الميّت كتب ما مثالُه : أقرّ فلان ابنُ فلان بأنّه أَجَر نفسَه لفلانٍ وصىّ فلانٍ المتـوفّى الى رحمة الله تعالى ، القائم ١٥

---

(١) فى الأصل : «الموجر» ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا ؛ وأيضا فقد عبر به فيما يأتى بعد فى س ٤ من هذه الصفحة .

(٢) "جميع" : مفعول لقوله "استأجر" السابق فى ص ٩٥ س ١٤

(٣) "شرحه"، أى شرح المشهود به .

فى معاقدته بالوصيّة الشرعيّة التى بيده، الثابتة بمجلس الحكم العزيز، لأن يحجّ بنفسه عن فلان الموصى المذكور حجّة الإسلام الواجبة عليه ؛

وإن كانت غير واجبة كتب: "لأن يحجّ عنه حجّة تطوّع" على أن يتوجّه من المكان الفلانىّ فى عام تاريخه قاصدا لأداء حجّة الإسلام وعُمرته فى البحرين[1] العذب والملح، أو فى البحر الملح[1]، أو فى البرّ[1]، ويُحْرِم من الميقات[2] الذى يجب على مثله، فينوى حجّة مفردة كاملة، أو يدخل الى الحرم الشريف بمكّة — شرّفها الله تعالى — فينوى عنه الحجّة المذكورة كاملة بأركانها وواجباتها وشروطها وسننها ثم يعتمر عنه عُمرة من ميقاتها مكمّلة فروضها على الأوضاع الشرعيّة ؛ وهو بالخيار

(١) فى الأصل : "من" فى المواضع الثلاثة ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٢) ميقات الإحرام بالحج نوعان : ميقات زمانىّ ، وميقات مكانىّ ؛ فالميقات الزمانىّ من أوّل شهر شوال الى فجر يوم النحر ؛ والميقات المكانىّ يختلف باختلاف المواطن . فمن كان بمكّة ، فميقاته مكّة نفسها ؛ ومن توجه من المدينة فميقاته "ذو الحليفة" ، وهو مكان على نحو عشر مراحل من مكّة وستة أميال من المدينة ؛ قال ياقوت فى المعجم : وهو من مياه جشم ؛ ومن توجه من الشأم ومصر والمغرب فميقاته الجحفة ، بضم فسكون ، وكانت قرية كبيرة ، وهى على طريق المدينة ؛ قال شارح المنهج نقلا عن الرافعى : ان المعروف المشاهد أنها على خمسين فرسخا من مكّة ؛ وفى معجم البلدان لياقوت أنها على أربع مراحل منها ؛ وكان اسمها "مهيعة" وانما سميت الجحفة بعد ذلك لأن السيل اجتحفها وحمل أهلها فى بعض الأعوام ؛ ومن توجه من تهامة اليمن ، فميقاته "يلملم" ؛ ويقال فيه أيضا : "ألملم" وهو جبل من جبال تهامة على ليلتين من مكّة ؛ ومن توجه من نجد اليمن والحجاز فميقاته "قرن" ، بفتح أوله وسكون ثانيه ، وهو مكان بينه وبين مكّة مرحلتان ؛ وفى معجم البلدان لياقوت أنه هو الذى يقال له : قرن المنازل ؛ وذكر أنه من مكّة على يوم وليلة ؛ ومن توجه من العراق فميقاته ذات عرق ، وهى على مرحلتين من مكّة ، وهى الحدّ الفاصل بين نجد وتهامة انظر شرح المنهج كتاب الحج ومعجم البلدان لياقوت .

إن شاء أَفرَدَ، وإن شاء أَقرَنَ[(١)]؛ وينوى فى جميع أفعاله وقوعَ ذلك عن المتوفَّى الموصِى المذكور، وأجر ثوابِه[(٢)] له ؛ ومتى وقع منه إخلال يَلزَمه فيه فداء، أو وجب عليــه دم كان ذلك متعلّقا به وبمالِه، دون مال الموصِى المتوفَّى؛ المشروحُ جميعُ ذلك فى كتاب الوصـيّة المذكورة؛ عاقــده على ذلك معاقدةً صحيحةً شرعيّــةً بالأجرة المعيَّنة أعلاه[(٣)] وهى كذا وكذا ، قبَضَها منــه وتَسلَّمها ، وصارت بِيَدِه وقبضِــه وحَوْزِه، من مال الموصِى المذكور الّذى فرَضَه فى ذلك، وأَذِنَ فى تسليمه؛ وذلك بعــد أن تَبيَّن أنّ الآجرَ المذكورَ حجّ عن نفسه الحِجّةَ الواجبةَ عليه؛ ويؤرّخ .

إذا استأجر رجل من وكيل بيت المـال أرضا ليبنىَ عليهـا أو جُدُرا يَعمِد[(٤)] عليها أو سَطْحا أو غيرَ ذلك، كتب مشروحا، وأَخذَ فيه خطَّ شهود القيمة والمهندسين، ثم يكتب الإجارة، ويَشرح فى ذيلها المشروح؛ وإن كانت بتوقيع مثلَ توقيع المبايَعة كَتَب فى آخر الإجارة مثلَ ما يَكتُب فى المبايَعــة وهو أن يقول : والسببُ فى هذه الإجارة أنّ المستأجِرَ المذكورَ رفَعَ قصّة... وتُشرَح .

(١) "أقرن" — بالألف فى أوّله — لغة قليــلة أنكرها القاضى عياض، وأثبتها غيره ؛ والكثير فيــه : قرن ، وهو أن يجمع بين الحج والعمرة بنيــة واحدة ، وتلبية واحدة ، وإحرام واحد ، وطواف واحد، وسعى واحد انظر شرح القاموس .

(٢) إضافة الأجر إلى الثواب من إضافة الشىء إلى نفســه ، وهى جائزة على مذهب الفراء، فانه يجيز إضافة الشىء إلى ما هو بمعناه لاختلاف اللفظين ؛ ونقل هذا المذهب فى كتاب النهـاية عن الكوفيين أيضا وجعلوا منه « ولدار الآخرة » ، و «حق اليقين » ؛ وظاهر التسهيل وشرحه موافقته شرح الأشمونى ج ٢ ص ٢١٦ طبع بولاق . وقال الرضىّ فى شرحه على الكافية بعــد أن أورد هذا المذهب ما نصه : والإنصاف أن مثله كثيرلا يمكن دفعه؛ ثم قال بعد ذلك : ولو قلنا إن بين الاسمين فى كل موضع فرقا لاحتجنا إلى تعسفات كثيرة .

(٣) لعل صوابه : «فيــه» مكان قوله : «أعلاه» ؛ لأن الأجرة لم تعيّن فى أعلى المكتوب، أى فى أوائله، كما يتبين ذلك من مراجعته .

(٤) فى الأصل : «يعمل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

وصيغةُ المشروح : مشروحٌ رفَعه كلُّ واحد من فلان وفلان المهندسَين على العَقار بقضيّة حالِ قطعةِ الأرض الآتى ذكرها وذَرْعُها وتحديدُها فيه ، الجاريةِ فى ديوان المواريث الحشريّة[1] — وتُذْرَع وتُحدَّد — تأمّلاها[2] بالنظر، وأحاطا بها علما وخِبرة ؛ وقالا : إنّ الأجرة عنها لمن يَرغب فى ٱستئجارها لِيَنتفِعَ بها كيف شاء وأَحبّ وٱختار على الوجه الشرعىّ، ويَبنىَ عليها ما أَحبَّ بناءَه، ويعلِّىَ ما أراد تعليتَه ويَحفِرَ الآبارَ المَعِينةَ[3] وآبارَ السراب[4] والقُنىّ، ويَشُقَّ الأساسات[5]، ويُخرِجَ الرّواشن[6] .

وإن كان المؤجَر سطوحا أو جُدُرا أو عقودا[7] كَتَب زِنةَ ما يبنيه ، وهو أن يقول : "فتكون زنةُ ما يبنيه ويعلّيه عليها كذا وكذا قنطارا" لمدّةِ ثلاثين سنةً كواملَ ما مبلغُه[8] كذا وكذا، الحالّ من ذلك كذا، وباقى ذلك — وهو كذا — يقوم به منجّما فى سلخ كلِّ سنة تَمضِى من تاريخه كذا؛ وقالا : إنّ ذلك أجرة المثل يومئذ، لا حَيْفَ فيها ولا شطط، ولا غَبينةَ[9] ولا فَرْط[9]، وإنّ الحظَّ والمصلحة فى إيجار ذلك بهذه الأجرة، ويؤرّخ .

ومن الكتّاب من يَكتُب أوّلَ المشروح ما صورتُه : لمّا رُسِم بعملِ مشروحٍ بقضيّة حال الموضع الآتى ذكرُه فيه، الجارى فى ديوان المواريث الحشريّة[1]، امتثل

(١) تقدّم تفسير المواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٦٦ من هذا السفر، فانظره .

(٢) فى الأصل : « تأملوها » بضمير الجمع فى هذا الفعل وما بعده من الأفعال ؛ وهو خطأ من الناسخ ؛ واللغة والسياق يقتضيان ما أثبتنا .

(٣) تقدّم بيان المراد بالمعينة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٩٢ من هذا السفر، فانظره .

(٤) قد سبق بيان المراد بكلمة «السراب» فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٩٢ من هذا السفر، فانظره.

(٥) «ويشق الأساسات» ، أى يشق مواضعها من الأرض .

(٦) الرواشن : الرفوف، وهى توضع عليها طرائف البيت .

(٧) العقود فى الأبنية معروفة، واحدها عقد بفتح أوله .

(٨) هذه الجملة خبر «إن» السابقة فى قوله فى السطر الرابع من هذه الصفحة : « إن الأجرة » .

(٩) تقدم تفسير الغبينة والفرط فى الحاشيتين رقم ٣، ٤ من صفحة ٤٨ من هذا السفر، فانظره .

المرسومَ كلُّ واحد من فلان وفلان المهندسَين على العَقار ، وسارا الى الموضـع المذكور ، فألفَياه بالمكان الفـلانىّ ؛ و يوصَف ويحـدَّد ؛ ويُكمّل المشروح نحـوَ ما تقـــدّم .

ثم يكتب الإجارة ، وصيغتُها : استأجر فلان من القاضى فلان وكيلِ بيت المـال المعمور ، القائمِ فى إيجار ما يُذكَر فيه بأحكام الوَكالة التى بيَـدِه ، المفوَّضةِ اليه من المقام الشريف ، الّتى جعل له فيها إيجار ما هو جارٍ فى أمـلاك بيت المـال المعمور وغير ذلك ، على ما نُصّ وشُرِح فيهـا ، وما مآلُه الى بيت المـال المعمـور بالقضايا الشرعيّة ، الثابتةِ وَكالتُه بمجلس الحُكم ، المتوَّجةِ وَكالتُه بالعلامة الشريفة ، ومثالُها كذا وكذا ؛ استأجر منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ قطعة الأرض الّتى لا بناءَ بها ، أو الحاملةِ لبناء المستأجِر ، الآتى ذكرُها وذَرْعُها وتحديدُها فيه ، الجـاريةِ فى ديوان المواريث الحشريّة[1] ؛ أو جميـعَ السَّطح ، أو الجُـدُر ، ليبنىَ على ذلك ما أَحبّ وأراد بالطوب والطين والجير والجبس وآلة العمارة ما زِنتُه كذا وكذا قنطارا — هذا يكون فى السَّطح أو فى الجدار ؛ وأمّا الأرض فلا — لمدّة كذا وكذا سنةً ، أوّلُها يومُ تاريخه ، بأجرة مبلغها عن جميع هذه المدّة كذا وكذا ، الحالُّ من ذلك كذا وكذا بما فيه من المستظهَر[2] [به][3] و باقى ذلك — وهو كذا وكذا — يقوم به منجّما ، فى سلخ كلِّ سنة من استقبالِ تاريخه كذا وكذا ؛ وتَسلَّم ما استأجره بَعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعيّة ؛ وأقرّ المستأجِرُ

(١) تقدم بيان المراد بالمواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٦٦ من هذا السفر ، فانظره .

(٢) «المستظهر به» ، أى المحتاط به ؛ والاستظهار : الاحتياط والتحرّى ؛ والمراد به المبلغ الذى زاده القاضى على الأجرة الأصلية للاحتياط فى أن يكون ذلك أجرة المثـل ، وأن يكون فى الإيجار بهـذه الأجرة غبطة ومصلحة لبيت المـال .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

بأنّ الأرض جاريةٌ فى ديوان المواريث الحشريّة[1]؛ وذلك بعد أن تَنجّز[2] المستأجِرُ المذكورُ مشروحا يتضمّن الإشهادَ على كلّ واحد من فلان وفلان المهندسَين على العَقار بأنّهما سارا إلى ماذُكِر أعلاه، وذَكَرا من الذّرع والتحديد ماوافق أعلاه، وقالا: "إنّ الأجرة فى ذلك عن كلّ سنة كذا وكذا"؛ ويَذكُر ماتَضمّنه المشروح، ورَسْمَ شهادةِ العدل فلانٍ والعدلِ فلانٍ بأنّ الأجرة المعيَّنةَ فيه أجرةُ المثل يومئذ؛ ثم بعد تمام ذلك أحضر المستأجِرُ من يده وُصولات[3] بيت المال شاهدةً له بحَمل المال المذكور ونُسخُها كذا وكذا؛ فلمّا تكامل ذلك كلّه وقع[4] الإشهاد على القاضى فلانٍ الآجرِ والمستأجرِ بما نُسِب الى كلّ واحد منهما فيه؛ ويؤرّخ[5].

وإن أَجَرَ نائبُ وكيل بيت المال المعمور أرضا فى ديوان الأحباس

كتب ما مثالُه: استأجر فلان من القاضى فلان النائبِ عن القاضى فلان وكيلِ بيت المال المعمور، القائمِ فى إيجار ما يُذكَر فيه عن مستنيبه المذكورِ بأحكام الوَكالة التى بيَدِ مستنيبه، المفوَّضة اليه من المقام الشريف، التى لمستنيبه فيها إيجارُ ما هو جارٍ فى أملاك بيت المال المعمور وأوقافِ الأحباس المعمورة، وغيرُذلك، على ما نُصّ وشُرِح فيها، وما مآلُه الى بيت المال المعمور بالقضايا الشرعيّة، وأن يستنيب عنه

(٩٨)

(١) تقدم تفسير المواريث الحشرية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٦٦ من هذا السفر.

(٢) «تنجز مشروحا»، أى طلب إنجازه؛ يقال: تنجز الحاجة، إذا سأل إنجازها.

(٣) «الوصولات»: جمع وصول، وهو البطاقة المعروفة اليوم بالإيصال؛ وذكر فى شفاء الغليل أن الوصول بصيغة المصدر: بطاقة تعطى لرب الدين ونحوه؛ وهو مجاز، لأنها يتوصل بها، لكنها مولدة عامية.

(٤) يجوز أن يضبط هذا اللفظ بفتح الواو والقاف، من الوقوع بمعنى الحصول، كما يجوز أن يضبط بضم الواو وتشديد القاف المكسورة، من التوقيع.

(٥) وردت هذه الكلمة فى الأصل مطموسة الحروف تتعذر قراءتها؛ وقد أثبتناها على هذا الوجه أخذا مما ورد فى المكاتيب السابقة والآتية.

فى ذلك من يراه، الثابتة وَكالتُه فى مجلس الحُكم العزيز الثبوتَ الصحيحَ الشرعىّ؛ ويَشهَد على وكيل بيت المـال المعمور بالإذن لنائبه المذكور فى ذلك من يعيّنه فى رسم شهـادته آخرَه ؛ استأجر منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ قطعة الأرض الآتى ذكرُها وذَرْعُها وتحديدُها فيه، الجاريةِ فى ديوان الأحباس المعمور،(١) الّذى صاحبُ الدّيوان به يومئـذ فلان ، ومشارِفُ(٢) الأحكار به فلان ، الاذنُ كلٌّ منهما للآجر فى الإيجار المذكور ، يَشهَد عليهما بذلك شهودُه ؛ وهى بالمكان الفلانىّ ؛ وتوصَف وتُحـدَّد ويُكمَّل الإجارَة كما تقدّم .

إذا كان بستانا فأَجَرَ الأرض وساقَى(٣) على الأنشاب(٤) كتب ما مثالُه : استأجر فلان من فلان جميعَ قطعة الأرض السواد ، المتخلّلةِ بالأنشاب(٤) الآتى

(١) صاحب الديوان : كانوا فى الزمن الأول يعبرون عنه بمتولى الديوان ، وهو ثانى رتبـة الناظر فى المراجعة ، وله أمور تخصه ، كترتيب الدرج ونحو ذلك انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦ وقال فى نهاية الأرب ج ٨ ص ٣٠٠ عنـد الكلام على صاحب الديوان : إنه يكتب على ما يكتب عليـه الناظر «وله زيادة على ذلك ، وهى الترجمة على التذاكر والاستدعاءات ، والكتابة على تواقيع المباشرين بأخذ خطوطهم عند استخدامهم» ؛ الى آخر ما أورده فى هذا الكتاب مما يلزم صاحب الديوان ، فانظره .

(٢) قال فى قوانين الدواوين ص ٩ طبع مطبعة الوطن عنـد الكلام على المشارف ما نصـه : من لوازمه أن يكتب على الوصولات وعلى الحساب ، ويكون له تعليق يخدمه ، ويقابل به المستخدمين معـه ولا يلزمه عمل حساب كما لم يلزم الناظر ، وينفرد عن الناظر بأنه مطلوب بالحاصل مخاطب عليـه اهـ وقد استوفى صاحب نهاية الأرب أيضا ج ٨ ص ٣٠٤ الكلام على المشارف وما يلزمه من الأعمال ، فانظره .

(٣) عرف الفقهاء المساقاة بأنهـا معاملة الشخص غيره على شجـر ليتعهده بسـقى وغيره والثمرة لهما . واشتقت من السقى مع أنها تحتاج الى أعمال كثيرة غيره لأن السقى أنفع أعمالها ، كما فى كتب الفقه ؛ وأهل العراق يسمونها المعاملة ، كما فى مستدرك التاج وغيره من كتب اللغة .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل فى عدّة مواضع من هذا الباب مرادا به الأشجار ، ولم نجده بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة ؛ والذى يلوح لنا أن ذلك استعمال عامىّ وان كنا لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة ؛ ويبعد تخريج ذلك على أن الأنشاب جمع نشب بمعنى المـال شجرا كان أو غيره فيكون إطلاقه على الأشجار خاصة من إطلاق العام على الخاص .

ذكرُها فيه، ومساحتُها كذا وكذا فدانا بالقصبة الحاكمية[1]، الجاريةِ الأرضُ المذكورةُ في يدِه وعَقد إجارتِه، أو في ملكِه، وجميعَ بناء البئر المَعينة[2] والساقية المركَّبة على فُوَّهتها، المكمِّلةِ العُدّة والآلة، الذي ذلك بالموضع الفلانيّ ؛ وصفةُ الأنشاب[3] أنها النخل والكَرْم والتين[4] والزيتون والرمّان، وغيرُ ذلك، بحدود ذلك وحقوقه، خلا الأنشاب[3] ومواضعَ مَغارسها، فإنّها خارجةٌ عن عَقد هذه الإجارة، لمدّة ... ؛ ويُكمّل كما تقدّم .

وأما المساقاة — فإنّه إن كتبها في ذيل الإجارة كتب ما مثالُه : ثم بعد ذلك ساقَى الآجرُ المستأجرَ ... ... ويُكمّل .

وإن لم يكتبها في ذيلها كتب ما مثالُه : ساقَى فلان مالكُ الأنشاب[3] الآتي ذكرها فيه فلانَ بنَ فلان على الأنشاب[3] القائمة في الأرض الآتي ذكرها فيه، الجاري ذلك في يد فلان المبتدإ بذكره، وهي الأرض التي بالموضع الفلانيّ، ومساحتُها كذا وكذا فدانا بالقصبة الحاكمية[1]، وصفةُ الأنشاب[3] المُساقَى عليها أنّها النخل والكرم وكذا وكذا، بحَسَب ما يكون، ويحيط بذلك حدود أربعة — وتُذكَر — مساقاةً صحيحةً شرعيّةً جائزةً نافذة، لمدّة سنة كاملة، أوّلُها يومُ تاريخِه، على أن يتولّى سقْيَ

(١) تقدّم تفسير القصبة الحاكمية في الحاشية رقم ٤ من صفحة ٩١ من هذا السفر، فانظره .

(٢) تقدّم بيان المراد بقوله «المعينة» في الحاشية رقم ١ من صفحة ٩٢ من هذا السفر، فانظره .

(٣) تقدّم بيان المراد « بالأنشاب » في الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٠٢ من هذا السفر، فانظره .

(٤) جواز المساقاة في غير النخل والكرم من الأشجار، كالتين والزيتون والرمان وغير ذلك، مذهب مالك وأحمد، وهو القديم من مذهب الشافعي، واختاره المتأخرون من أصحابه ؛ والجديد الصحيح من مذهب الشافعي أنها لا تجوز إلا في النخل والعنب ؛ وقال داود : إنها لا تجوز إلا في النخل خاصة جواهر العقود ورقة ١٢٢ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٣٩ فقه شافعي .

ذلك وتنظيفه وتأبيره[(١)] وغرسه وإصلاحه بنفسه ، وبمن يستعين به ؛ ومهما أطلعه الله تعالى من ثمر كان مقسوما بينهما على ألف جزء، جزءٌ واحدٌ لفلان[(٢)] المبتدإ بذكره مالك الأنشاب، وباقى "الأجزاء"[(٣)] لفلان المثنَّى بذكره المُساقَى؛ وذلك بعد إخراج المؤن والكُلَف وحقِّ الله تعالى إن وجب؛ تعاقدا على ذلك معاقدةً شرعيّـة، وسَلَّم فلان المـالكُ لفلان المُساقَى جميعَ الأنشاب المذكورة، فتسلّمها منه للعمل عليها، وصارت بيَدِه وحَوْزِه، وذلك بعد النظر والمعرفة، والإحاطة بجميع ذلك علما وخبرة .

وفى المساقاة على اللِّيف والسَّعف والكِرْناف[(٤)] خلاف : فإن كان يُعَـدّ من الثمرة[(٥)] جاز، وإن لم يُعَدَّ منها لم يجز .

وأما الوصايا والشهادةُ على الكوافل بالقبوض[(٦)] وما يلتحق[(٧)] بذلك — فاذا أوصى رجل رجلا كتب ما مثالُه : هذا كتابُ وصيّة أكتبه فلان، حذرا من

(١) التأبير : الإصلاح .

(٢) لم يظهر لنا وجه لأن يجعل للمالك جزء واحد من ألف جزء وللعامل بقية الأجزاء، إلا أنه يحتمل أن يريد أن المالك والعامل مهما اتفقا على شىء فى قسمة الثمار فاتفاقهما جائز نافذ ، حتى لو اتفقا على أن للمالك جزء واحد من ألف جزء وللعامل بقية الأجزاء؛ وقد ورد مثل ذلك أيضا فى جواهر العقود ورقة ١٢٤ ضمن عقد بإجارة ومساقاة؛ وعبارته : «ومهما فتح الله فى ذلك عنـد إدراك غلاتها فللمساقى المـالك سهم واحد من جملة ألف سهم بحق ملكه ، وللمستأجر المساقى تسعمائة وتسعة وتسعون جزءا بحق عمله» .

(٣) فى الأصل : «الهامة»؛ وهو خطأ من الناسخ، إذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق، كما أننا لم نجد من الألفاظ المؤدّية للمعنى المقصود ما هو قريب فى رسمه من الحروف الموجودة فى الأصل .

(٤) الكرناف بكسر الكاف وضمها : أصـول السعف الغلاظ العراض التى إذا يبست صارت أمثـال الأكتاف؛ أو هى أصول الكرب التى تبقى فى الجذع بعد قطع السعف .

(٥) "جاز"، أى جاز عقد المساقاة عليه .

(٦) القبوض : جمع قبض؛ وصح جمع المصدر هنا باعتبار عدد مرّاته .

(٧) يلتحق بمعنى يلحق كلمة مولدة؛ قال الصاغانى : لم أجده فيما دوّن من كتب اللغة فليجتنب ذلك انظر تاج العروس مادة «لحق» .

هجوم الموت عليه[1]، وعملا بالسنّة النبويّة، وامتثالا لأمر[2] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم
فى الندب إلى الوصيّة؛ وأشهد على نفسه فى حال عقله، وتوعّك[3] جسمه، وحضور
حسّه، وثبوت فهمه، وجواز أمره؛ وهو عالم بأركان الإسلام، عارف بالحلال
والحرام؛ متمسّك بكتاب الله وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ عالم بالموت وحقيقته (٩٩)
٥ والقبر ومسألته؛ متيقّن بالبعث والنشور، والصّراط والعبور؛ والجنّة والنّار، والخلود
والاستقرار، غير محتاج الى تعليم ولا تكرار؛ أنّ الذين له من الورثة المستحقّين
لميراثه المستوعبين لجميعه[4]: زوجته فلانة بنت فلان، الّتى لم تزل فى عصمته وعقد
نكاحه إلى الآن؛ وأولاده منها، وهم فلان وفلان [وفلان]، بغير شريك لهم فى ميراثه
ولا حاجب يحجبهم عن استكماله؛ وأشهد على نفسه أنّ الّذى عليه لزوجته كذا وكذا
١٠ ولفلان كذا وكذا، وأنّ ذلك باق فى ذمّته إلى الآن؛ وأنّ الذى له من الدّين على فلان
كذا وكذا، وعلى فلان كذا وكذا، وأنّ ذلك باق فى ذمّتهما إلى الآن، وأنّ الجارى فى ملكه
كذا وكذا — ويعيّن ماله إن كان —؛ وأشهد على نفسه أنّه دبّر[5] مملوكه فلانا تدبيرا[5] صحيحا
شرعيّا، وقال له: "أنت حرّ بعد موتى، تخرج من ثلث مالى المفسوح لى فى إخراجه"؛
وأشهد على نفسه أنّه أوصى فلانَ بنَ فلان، وجعل له أنه اذا نزل به حادث الموت
١٥ الذى كتبه الله على خلقه، وساوى فيه بين بريّته، يحتاط على جميع موجوده، ويقبضه

(١) فى الأصل: "به"؛ واللغة والسياق يقتضيان ما أثبتنا.

(٢) يريد بهذا قوله صلى الله عليه وسلم "ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده" انظر شرح المنهج وغيره من كتب الفقه (كتاب الوصية).

(٣) لم نجد التوعك بالمعنى المراد هنا فيما راجعناه من كتب اللغة غير كتاب أقرب الموارد؛ والذى
٢٠ وجدناه «الوعك» بالفتح ثم السكون، وهو أذى الحمى ووجعها.

(٤) فى الأصل: «له ولميراثه»؛ وقوله "له" والواو التى بعدها زيادة من الناسخ.

(٥) التدبير: عتق العبد عن دبر، أى تعليق عتقه بموت سيده.

ويُحرِزه تحت يده، ثم يبدأ من ثلث مالِه بتجهيزه وتغسيله وتكفينه ومواراته فى قبره بمن يراه أهلا لذلك على الأوضاع الشرعيّة، والسنّة النبويّة؛ ثم يسارعُ الى قضاء ديونه[1] الواجبة عليه، وإبراءِ ذمّتـه؛ ثم يُفرِز من ثلث مالِه كذا وكذا، ليَستأجرَ به رجلا مشهورا بالخير والصلاح، عارفا بأداء الحجّ، ممن حجّ عن نفسه، ليحُجّ عنه، على أن ينشئ السفر من البلد الفلانىّ فى البرّ والبحر على ما يراه، بِنيّة الحَجّ عن هذا الموصِى المذكور، فيُحْرِم من الميقات[2] الواجب عليه فى طريقه، ويؤدّى عنه حِجّة الإسلام وعُمرتَه الواجبتين عليه شرعا، مكمّلتين بأركانهما وشروطهما وواجباتهما وسننهما على الأوضاع الشرعيّه، والسُّنن المرضيّه، وينوى فى جميع أفعاله وقوعَ ذلك عن الموصِى المذكور؛ وللوصىّ الناظرِ أن يسلّم اليه المبلغَ المذكورَ فى ابتداء سفره، ليكون عونا له على هذه العبادة؛ وعلى المؤجَر أن يُشهِد على نفسه بأداء ذلك عن الموصِى ليثبت علمه عند الوصىّ المذكور؛ كلُّ ذلك من رأس مالِه؛ ثم يبيع ما يَرى بيعَه، ويَقبِض ثمنَه، ويَستخلِص ما لَه من دَين على أربابه، ويحرِّر جميع ذلك؛ ثم يعود فيفرِّق من ثلث مالِه المفسوح له فى إخراجه، فيقوِّم العبدَ المذكورَ ويُخرِج قيمتَه من ثلث ماله ويُثبِت عِتقَه؛

وإن تَصدّق بشىء يذكره فى هذا الموضع، وهو أن يقول: "ثم يُخرِج لفلان كذا، ولفلان كذا، ويَقِف عنه الموضعَ الفلانىّ" — كلُّ ذلك على ما يعينه[3] —؛

(١) فى الأصل: "لمن" باللام؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا، أى بمباشرة من يراه الخ.

(٢) تقدم ذكر مواقيت الاحرام الزمانيـة والمكانية فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٩٧ من هـذا السفر، فانظرها.

(٣) «على ما يعينه»، أى على الجهات التى يعينها.

ثم يقسم ثلثى المال وما يَفضُل من الثلث المفسوح له فى إخراجه على ورثته بالفريضة الشرعيّة، فيسلِّم البالغَ الرشيدَ حصّته، ويُبقِى تحت يده للمحجور عليهم ما يتعيّن لهم من نقدٍ وعُروض[1] وعَقار وغيرِ ذلك، فيصرف لهم وعليهم على النظر والاحتياط إلى حين بلوغِهم و إيناس رشدِهم، ويُنفق عليهم بالمعروف، ويصرف عليهم ماتدعو الحاجة إلى صرفه؛ فمن بلغ منهم أشدَّه، وآنس الناظرُ عليه مِنه صلاحَه ورشدَه، سلَّم إليه ما عساه يَبقَى له تحت يده من ذلك، ويُشهِد عليه بقبضه؛ أوصَى بجميع ذلك وصيّةً صحيحةً شرعيّةً ثابتةً فى حياته، معمولا بها بعد وفاته، أقامه فيها مُقام نفسه، لعلمه بدينه وعدالته وأمانته، وله أن يستنيب عنه فى ذلك من يراه؛ فإن تعذّر تصرُّف فلان الوصىّ كان الوصىُّ فى ذلك فلانا، فإن تعذّر كان لحاكم[2] المسلمين بالمكان الفلانىّ .

اذا عَزَل الموصِى وصيَّه بغيره كتب : هذا ما أشهَد عليه فلانٌ أنّه عَزَل وصيَّه فلانا عن وصيّته التى كان وصّاه بها عزلا شرعيّا، ورجع عنها؛ وأشهَد عليه أنّه أسند وصيّتَه إلى فلان، وجعله وصيّا، وأقامه مُقام نفسه؛ ويؤرّخ .

فصل

اذا كلّف الحاكم الوصىَّ بإثبات أهليّته كتب على ظهر الوصيّة ما مثالُه : شهد الشهود الواضعو خطوطِهم آخرَ هذا المَحضر — وهم من أهل الخِبرة الباطنةِ[3] بما شهدوا به — أنّهم يعرفون فلانا الوصىَّ المذكورَ باطنَه معرفةً صحيحةً

(١) العروض : الأمتعة التى لا يدخلها كيل ولا وزن، ولا تكون حيوانا ولا عقارا، كما فى المصباح نقلا عن أبى عبيد .

(٢) « كان لحاكم » ، أى كان التصرف لحاكم الخ .

(٣) يريد بالخبرة الباطنة : العلم بما خفى ودق من الأمور ولم يقتصر فيه على الظواهر .

شرعيّة؛ ويشهدون أنّه أهل لما فوّضه إليه فلان الموصِى باطنَـه المتوفّى الى رحمة الله تعالى من الوصيّة المشروحة باطنَـه، وأنّه كافٍ[1] للتصرّف، عدلٌ لهم وعليهم؛ يعلمون ذلك ويشهدون به بسؤال من جاز سؤالُه .

فصـــل

فى إسجال الوصيّة ومحضر الوصىّ

يكتب على ظهر الوصيّة: هذا ما أشهَد عليه سيّدُنا القاضى فلان الحاكمُ بالعمل[2] الفلانىّ على نفسه الكريمة مَن حضر مجلسَ حُكمه وقضائه [أنه ثبت عنده وصحّ لديه][3] بعـد صدورَ دعوى محرّرة، مقابَلةٍ بالإنكار على الوضـع الشرعىّ، بشهادة من أعلَم تحت رسم شهادته علامةَ الأداء، مضمونُ الوصيّة — ويذكر تاريخها — وبآخرها رسمُ شهادة العدلين المذكورَين؛ وقال كلُّ واحد من هذين العدلين : إنه شهد على الموصِى والوصىّ بما نُسِب الى كلٍّ منهما فيه ، وهو بهما عارف، وإنّ الموصِىَ تُوفّىَ الى رحمة الله تعالى فى اليوم الفلانىّ، وما علِم مغيِّرًا لشهادته الى أن أقامها عند الحاكم بشروط الأداء المعتبرة ؛ وأعلَم تحت رسم شهادة[4] كل منهما علامةَ الأداء والتعريف

(١) فى الأصل : « كان » ؛ وهو تحريف .

(٢) يريد بالعمل : الجهة والناحية .

(٣) هـذه التكملة لم ترد فى الأصـل ؛ والسياق يقتضى اثباتها لأمور : أولها ان قوله فيما سبق فى أوّل الإسجال : « هذا ما أشهد عليه » يقتضى ذكر المشهود عليه بعد ذلك ، وهو قوله فى هذه التكملة : « أنه ثبت عنده » الخ أى أشهد عليه أنه ثبت؛ ثانيها أن قوله الآتى فى السطر الثامن من هذه الصفحة : « بشهادة » متعلق بقوله فى هـذه التكملة : « ثبت » أى ثبت عنـده بشهادة الخ ؛ ثالثها أن قوله : « مضمون » الآتى بعد فى قوله : « مضمون الوصية » فاعل لقوله فى هذه التكملة : « ثبت » ، أى ثبت عنده مضمون الخ ويرجح أن هـذه العبارة بنصها هى التى سقطت من الأصل دون غيرها مما يفيـد معناها ورودها بعد بنصها فى هذا الاسجال نفسه فى السطر الأول والثانى من صفحة ١٠٩

(٤) فى الأصل : «شهادته» ؛ والهاء زيادة من الناسخ .

على الرسم المعهود بما رأى معه قبولَ شهادتهما ؛ وأَشهَد عليه أيضا أنّه ثبت عنده وصحّ لديه، بعد صدور دعوى محرَّرة، مقابَلةٍ بالإنكار على الوضع المعتبَر الشرعىّ بشهادة عدلين، هما فلان وفلان — عَرَفَهما فقَبِل شهادتَهما بما رأى معه قبولَها — جميعُ ما تَضمّنه المحضرُ المكتتَبُ فى ذيل هذه الوصيّة — وذكر مضمونه وتاريخه — وبآخره رسمُ شهادة الشاهدَين المذكورَين ؛ وقال كلٌّ منهما : إنه بما شهد عالم وبفلان الوصىِّ المذكورِ عارف، وما عَلِم مغيِّرًا لشهادته إلى أن أقامها بشروط الأداء؛ وأَعلَمَ تحت رسم شهادة كلٍّ منهما علامة الأداء والتعريف على الرسم المعهود فى مثله ؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه سأله من جازت مسألتُه، وسَوّغت الشريعةُ إجابتَه الإشهادَ على نفسه الكريمة بثبوت ذلك لديه، والحُكمَ به، فأجابه إلى سؤاله، وأَشهَد عليه بثبوت ذلك عنده على الوجه الشرعىّ ، وأطلق يدَ الوصىِّ فى تنفيذ الوصيّة المذكورة باطنه على الوجه المشروح فيها ، وحَكَم بذلك وأمضاه ، ونفّذه وآرتضاه وهو فى ذلك كلِّه نافذُ القضاء والحكم ماضيهما، وأَبقَى كلَّ ذى حُجّة معتبَرة فيه على حجّته، وذلك بعد تقدّم الدعوى المسموعة وما ترتّب عليها بتاريخ كذا وكذا .

فصـــــل

إذا قبضت الكافلة نفقة ولدها كتب: أقرّت فلانة المرأة الكاملة ابنةُ فلان، كافلةُ ولدها فلان بنِ فلان الطفل، عند شهوده، بأنها قبضت وتسلّمت من فلان وصىِّ زوجِها فلان المذكورِ والدِ ولدها كذا وكذا، وذلك عوضا عن نفقة ولدها لبطنها المذكور، لمدّة كذا وكذا شهرا، آخرُها يومُ تاريخِه ؛ وصار ذلك بيَدِها وقبضِها وحَوْزِها، من مال الموصِى المذكور، ويؤرّخ .

فصـــــــل

إذا خلف الموصِى زوجة مشتملة على حمل ، فوضعت وأراد الوصىّ إثبات ذلك كتب : شهد من أثبت آسمَـه آخرَه من الرجال الأحرار المسلمين، شهدوا شهادة لا يشكّون فيها ولا يرتابون، أنّ فلانة وضعت الحَمْل الّذى كانت مشتملة عليه من زوجها فلانٍ المتوفّى الى رحمة الله تعالى ولدا ذكرا — وآسمُه فلان — فى اليوم الفلانىّ، وهو فى قَيْد الحياة الى الآن، وهم بها و بولدها عارفون؛ ولمّـا سألهم من جاز سؤالُه أجابوا سؤالَه .

وأما العتق والتدبير وتعليق العتق — فإذا أعتق السيّد عبدَه كتب : هـذا ما أشهَد عليـه فلان أنّه أعتق فى يومِ تاريخِه أو قبْـل تاريخِه مملوكَه فلانا المقرّ له بالرّقّ والعبودية ، المدعوّ فلانا[1]، الفلانىّ الجنس، المسلم ؛

وإن كان دون البلوغ كتب : "مملوكَه المراهِق، المـاسكَ بِيَدِه عنـد شهوده المدعوّ فلانا" — ويَذكُر حِلاه — عتقا صحيحا شرعيّا منجّزا ، لوجه الله الكريم وطلب ثوابِه العميم، يوم يجزى الله المتصدّقين، ولا يضيع أجرَ المحسـنين، ولقول النبي صلّى الله عليه وسلّم : "من أعتق رقبةً[2] مؤمنةً أعتق الله بكلِّ عضو منها عضوا

(١) قد يتوهم أنه لا فائدة من قوله : «المدعو فلانا» بعد قوله فيما سبق «مملوكه فلانا» وان ذلك تكرار؛ والذى يظهر لنا أنه لا تكرار فى ذلك ، إذ قد يكون العبد مسمى باسم ، و يدعى باسم آخر مشهور به ، فقد كانت العادة جارية بأن يسموا مماليكهم بأسماء غير أسمائهم للتفاؤل ونحوه .

(٢) فى شرح القاموس واللسان مادة «نسم» : «نسمة» مكان قوله : «رقبـة» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا . والنسمة بالتحريك فى العتق : المملوك ذكرا كان أو أنثى .

منه حتى الفـرج بالفرج"[1] صار [به][2] فلان حرّا من أحرار المسلمين، لا سبيل لاحد عليه إلّا سبيل الولاء الشرعىّ، فإنه لمعتِقه، ولمن يستحقّه من بعده .

فإن أَعتَق نصف عبـد وهو موسرٌ كتب : أَعتَق جميـعَ النصف من جميـع العبد المقِرّ له بالرّق والعبوديّة، ويُكمّل العتق، ثم يكتب : "وأقرّ المعتِق بأنه فى يوم تاريخه موسرٌ بقيمة النصف الثانى" ، ويؤرّخ .

ثم يكتب خلفَ العتق تقويمَ حصّة الشريك وتكملةَ العتق، ومثال ما يكتب : أقرّ فلان بأن شريكَه فلانا أَعتق ما يملكه من العبد المذكور باطنَـه، وهو النصف وهو موسر، وأنّهما أحضرا رجلين خبيرين بقيمة الرقيق، وهما فلان وفلان، وقوّما النصف من العبـد المذكور يوم العتق بكذا وكذا، وأنّهما رضيا قولهما، وعَلِما أنّها قيمةُ المثـل يوم ذاك، وأنّ فلانا المعتِقَ دفع ذلك لشريكه، فقبَضَـه منه وتَسلّمه، وبحكُم ذلك عَتَقَ النصفُ الثانى من العبد على فلان عتقا شرعيّا، وصار العبد بكماله حرّا من أحرار المسلمين، لا سبيل لأحد عليه إلّا سبيل الولاء الشرعىّ .

---

(١) زاد فى جواهر العقود بعد قوله «عضوا منه» قوله «من النار» و رواية اللسان وشرح القاموس مادة « نسم » : وفى الله عز وجل بكل عضو منـه عضوا من النار . و رواية هـذا الحديث فى صحيح البخارى باب كفارات الأيمان : من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منـه عضوا من النار حتى فرجه بفـرجه . وفى رواية أخرى : أيمـا رجل أعتق امرأ مسـلما الخ الحديث انظر إرشاد السارى ج ٩ ص ٤١٥ طبع بولاق .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن جواهر العقود، فان سياق الكلام يقتضى إثباتها وقوله : « به » ، أى بالعتق السابق فى س ١٢ من صفحة ١١٠ . وفى موضع آخر من جواهر العقود : «بذلك» . وفى الكوكب المشرق : «بهذا العتق» .

فصـــــل

اذا علّق رجل عتق عبـده على موته ليخرج من رأس ماله

كتب : أقر فلان بأنّه علّق عِتقَ عبـده فلانٍ على موته فى آخر يوم من أيام حياته[1] المتقدّمِ على وفاته، لاستكمال عِتقِ عبـده المذكورِ من رأس ماله ؛ تلفّظ بذلك بتاريخ كذا .

فصـــــل

اذا دبّر[2] رجل عبدَه كتب ما مثاله : دبّر[2] فلان مملوكَه فلانا ، الفـلانىّ الجنس، المقرّله بالرقّ والعبوديّة، تدبيرا[2] صحيحا شرعيّا، وقال له : "متى مِتُّ فأنت حرّ بعـد موتى، تخرج من ثلث مالى المفسوح لى فى إخراجه" ؛ فبحكم ذلك صار حكمه حكمَ المدبَّر؛ ويؤرّخ .

فإن أقـرّ الورثةُ بخروج المدبَّر من ثلث المـال الموروث، أو أقرّ الوصىُّ بذلك كتب ما مثالُه : أقرّ فلان وفلان [وفلان[3]] أولادُ فلان بأنّ العبـد المسمَّى باطَنه الّذى كان والدهم دبّره تدبيرا شرعيّا، قوّمَه أهلُ الخبرة والمعرفة بقيمة الرقيق، فكانت قيمتـه كذا وكذا ، وأنّها قيمة عادلة يكمل خروجها من ثلث مال متوفّاهم؛ وبحكم ذلك صار العبد حرّا من أحرار المسلمين، لا سبيل لأحد عليـه إلّا سبيل الولاء الشرعىّ؛ ويؤرّخ .

(١) فى الكوكب المشرق وجواهر العقود : «صحته» .

(٢) التدبير : تعليق العتق من المـالك بموته .

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها، إذ هو مقتضى قوله بعد ذلك : «أولاد» بصيغة الجمع .

وأما الكتابة[1] — فإذا كاتب رجل عبده كتب ما مثاله : كاتب فلان مملوكه الذى بيده وملكه ، المقرّ له بالرّق ، المدعوّ فلانا ، الفلانىّ الجنس ، المسلم لما علم فيه من الخير والديانه ، والعفّة والأمانه ؛ ولقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ ، على مالٍ جملتُه كذا وكذا ، يقوم به منجّما ، فى سلخ كلّ شهرٍ كذا وكذا من استقبال تاريخه ، وأسقط عنه السيّدُ من ذلك قسطَ النّجم[2] الأخير ، وهو كذا وكذا وأبرأه منه ، لقول الله عزّوجلّ : ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ؛ مكاتبةً صحيحةً شرعيّة ؛ وأذن له سيّدُه فى التكسّب والبيع والشراء ؛ فمتى أوفى ذلك كان حرّا من أحرار المسلمين ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، لا سبيل لأحد عليه إلّا سبيل الولاء الشرعىّ ؛ ومتى ما عجز ولو عن الدرهم الفرد كان باقيا على حُكم العبوديّة ، لقوله صلّى الله عليه وسلّم : "المكاتَبُ قِنٌّ[3] ما بَقِىَ عليه درهم" ؛ وبمضمونه شُهِد بتاريخ كذا وكذا .

فإن وفّى العبد مال الكتابة كتب ما مثاله : أقرّ فلان بأنّه قبض وتسلّم من مملوكه فلان المسمّى باطنَه جميعَ المبلغ المعيَّن باطنَه ، وهو كذا وكذا ، على حكم التنجيم باطنَه ، وصار ذلك بيَده وقبضِه وحَوْزِه ، فبحكم ذلك صار فلان حرّا من أحرار المسلمين ، على ما تقدّم ؛ ويؤرّخ .

---

(١) اطلاق الكتابة على مكاتبة السيد لعبده كما هنا ، اطلاق مجازىّ ، فيه تسامح واتساع ؛ قال فى المصباح ما نصه : «قيل للمكاتبة كتابة تسمية باسم المكتوب مجازا واتساعا ، لأنه يكتب فى الغالب للعبد على مولاه كتاب بالعتق عند أداء النجوم ، ثم كثر الاستعمال حتى قال الفقهاء للمكاتبة كتابة وان لم يكتب شىء» ؛ ثم قال : «وشذ الزمخشرى فجعل المكاتبة والكتابة بمعنى واحد ؛ ولا يكاد يوجد لغيره ذلك» الخ .

(٢) النجم : الوقت الذى يحل فيه الأداء ، وهو مجاز . ويطلق النجم أيضا على القسط الذى يؤدّى فى الوقت المضروب للأداء ، وهو مجاز أيضا ؛ والمراد هنا المعنى الأوّل ، فان إرادة الثانى تقتضى إضافة الشىء الى نفسه .

(٣) القن : العبد .

فصـــــــل

وإن عجز المكاتَب عن أداء ما كوتب عليه كتب ما مثالُه : حضر الى شهوده فى يومِ تاريخِه فلان ، وأشهدهم على نفسه أنه كان كاتب عبدَه المذكورَ باطنَه [المكاتَبَةَ](١) المشروحةَ باطنَه الى المدّة المعيَّنة [باطنه](١)، وزادت مدّةٌ ثانية، وٱستحقّ عليه كذا وكذا عن قسط كذا وكذا شهرا ، ولم يَقُم له بها ، وصدّقه العبدُ على ذلك وٱعترَف بأنّه عاجز عن القيام بما حصل عليه، وأنّه سأله بعد الٱستحقاق الصبرَ عليه إلى يومِ تاريخِه ليسعى فى تحصيل ما بقِىَ عليــه ... ... (٢) لقوله صلّى الله عليــه وسلّم : "المكاتَبُ قِنٌّ ما بقِىَ عليه درهم" ؛ وتَصادَقا على ذلك؛ ويؤرّخ .

وان كانا تَحاكَما عنــد حاكم كتب ما مثالُه : حضر إلى شهوده فى يومِ تاريخِه مَن ذَكَرَ أنّه حضر الى مجلس الحُكم عنــد سيّدنا الفقيرِ الى الله تعــالى فلان الحاكِم بالعمــل الفلانىّ، كلُّ(٣) واحد من فلان بن فلان ومملوكِه، وٱدّعَى فلان المبتدأُ بٱسمه على مملوكه عند الحاكم المذكور أنّه كاتبه على مالٍ جملتُه كذا وكذا؛ فمتى أوفَى ذلك كان حرّا من أحرار المسلمين ؛ ومتى عجز عن أدائه ووفائه ولو عن درهم

---

(١) هاتان الكلمتان اللتان بين مربعين لم ترِدا فى الأصل ؛ والسياق يقتضى اثباتهما نقلا عن جواهر العقود والكوكب المشرق .

(٢) موضع هــذه النقط كلام ساقط من الأصــل يفيد أن السيد صبر على العبــد وأمهله الى الآن فلم يقدر على تحصــيل ما بقى عليه وعجز عن ذلك ، فبحكم ما بقى عليه فسخ السيد لمكاتبة فسخا شرعيا » ؛ فان هذا الكلام هو مقتضى الاستدلال بالحديث الآتى بعد ، كما لا يخفى ؛ وهذه العبارات بنصها هى الواردة فى هذا الموضع من جواهر العقود ؛ ولم نثبتها فى صلب الكتاب بين مربعين لاحتمال أن يكون ما سقط من الأصل مخالفا لما فى جواهر العقود فى الألفاظ ، وإن اتحدا فى المعانى .

(٣) « كل» بدل من « من » السابقة فى قوله : « من ذكر » .

واحد كان قِنّا باقيا على العبوديّة ، وأنّ المدّة المذكورة[(١)] آنقضت ، فآستحقّ عليه كذا وكذا درهما ، ولم يقُم له بها ؛ وأنه صَبَر عليه مدّة ثانية ، آخرُها يومُ تاريخِه ، ولم يقم له بشيء منها ؛ فسأل الحاكمُ المملوكَ عن ذلك ، فصدّق سيّدَه فى دعواه ، وآعترف بأنه عاجز عن الوفاء ، وأنّه لم يقدر على تحصيل ما بقِيَ ؛ فحينئذ سألا الحاكم المذكورَ الحكمَ لهما بما يوجبه الشرع الشريف ، فأَذِنَ[(٢)] له الحاكم المذكورُ فى فسخ المكاتَبة المذكورة ، لقول النبى صلّى الله عليه وسلّم : " المكاتَبُ قِنٌّ ما بَقِيَ عليه درهم " ؛ فحينئذ فسخ السيّدُ المكاتَبةَ المذكورةَ فسخا شرعيّا ، وأَبطَل حكمها ، وأُشهِد عليهما بذلك بتاريخِ كذا وكذا .

وأما النكاح وما يتعلّق به — فاذا زوّج الوالد آبنتَه بإذنها أو زوّجها وهى غير بالغ كتب ما مثالُه : هذا ما أَصدَق فلانٌ فلانةَ البكرَ البالغَ ابنةَ فلان ، صداقا تزوّجها به ، على بركة الله تعالى وعونه ، وحسنِ توفيقه ومنّه مَلَك به عِصمتَها ، وآستدام به — إن شاء الله — صحبتَها ؛ مَبلغُه كذا وكذا ، الحالُّ من ذلك كذا وكذا ، قبضته الزوجة وتسلّمته ، أو قبَضَه والدُ الزوجة لها بإذنها — وإن كانت تحت حَجْره كَتَب : «قبَضَه للزوجة والدُها ، ليصرفه فى مصالحها » — وباقى ذلك — وهو كذا وكذا — يقوم به منجّما ، فى سلخ كلِّ سنةٍ من آستقبال تاريخِه كذا وكذا — وإن كان الصداق بكماله على حُكْم الحلول كَتَب : « عجّل لها الزوجُ من ذلك كذا وكذا ، وباقى ذلك فى ذمّته على حُكْم الحلول» — وَوَلِيَ تزويجَها إيّاه بذلك والدُها المذكور — ويحلّى[(٣)] فى هذا الموضع إن كان ممّن لا يُعرَف —

(١) لم تذكر المدّة قبل ذلك فى هذا المكتوب ؛ فلعله يريد أنها مذكورة فى عقد المكاتبة ؛ أو لعل فى هذا المكتوب عبارة قد سقطت من الأصل بعد قوله فى السطر الثانى عشر من صفحة ١١٤ : « كذا وكذا » ، وهى قوله : « لمدة كذا وكذا » .

(٢) « له » ، أى للسيد .

(٣) يحلّى ، أى يوصف ؛ والحلية : الصفة والهيئة .

بحقّ وَلايته عليها شرعا ، و بإذنها له فى ذلك و رضاها ، بشهادة من يعيّنه فى رسم شهادته ، أو على ما ذَكَر — وإن كانت دون البلوغ كَتَب : « بحقّ وَلايتـه عليها شرعا ، لِمـا رأى لها فى ذلك من الحظّ والمصلحة وحُسنِ النّظر » — بعد أن وَضَع للقاضى فلانٍ عاقدِ الأنكحة بالمكان الفلانىّ بالتولية الشرعيّة عن القاضى فلانٍ أن الزوجةَ المذكورةَ بِكرٌ بالغ، خاليةٌ من موانع النّكاح الشرعيّة، وأنّها ممّن يجوز العَقـدُ عليها شرعا، وأنّ أباها المذكورَ مستحِقُّ الوَلايةِ عليها شرعا بشهادة جماعةٍ[1] من المسلمين وهم فلانٌ وفلان ؛ فتقدّم[2] حينئذ بكتابتـه، وزوّجها والدُها المذكورُ من الزوج المذكورِ على الصّداق المعيّن، وقَبِله الزوج لنفسه ورضِيَه؛ والله تعالى مع المتّقين ؛ و يؤرّخ .

(١٠٣) وان آعترَف الأب برشدها كَتَب : وآعترف والدُ الزوجة المذكورةِ بأنّ آبنتَه رشيدة، جائزةُ التصرّف، لا حَجْرَ عليها .

وان كان العقـد لم يَحضُره كاشفٌ[3] حاكم كتَب إلى[4] عنـد «و بإذنها[5] له فى ذلك و رضاها» و باشَرَ والدُها المذكورُ عقدَ النكاح بنفسه، و زوّجها من خاطبها المُصْدِق على الصداق المذكور، وقَبِله الزوجُ لنفسه؛ و يؤرّخ .

(١) يريد بالجماعة هنا ما فوق الواحد، اذ لم يذكر بعد غير اثنين .

(٢) يقال : «تقدّم بكذا» ، أى أمر به .

(٣) سياق الكلام يدل على أن المراد بكاشف الحاكم هنا : متولى عقد الأنكحة من قبل الحاكم، وهو المعروف فى مصر الآن بالمأذون ؛ ولم يذكره صاحب صبح الأعشى ضمن أرباب الوظائف الذين ذكرهم فى الجزء الرابع ، كما أننا لم نجده بهذا المعنى فى الكتب الأخرى التى بين أيدينا ؛ ولعل هذه التسمية مأخوذة من من الكشف بمعنى الاظهار ، لأنه بمباشرته عقود الأنكحة يظهر صحتها أو فسادها من جهة الشرع .

(٤) فى كتب القواعد أن جرّ «عند» «بإلى» — كما هنا — لحن ، فان «عند» من الظروف التى لا تخرج عن الظرفية الا إلى الجر « بمن » .

(٥) لم ترد هـذه الواو فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها لو رودها فيما سبق فى هذه العبارة التى يشير اليها انظر السطر الأول من هذه الصفحة .

وان زوّجها العاقد بإذنها وإذن أبيها، أو بإذنها خاصّةً إذا لم يكن لها ولىّ كتب : ووَلِىَ تزويجَها إيّاه بذلك القاضى فلانٌ عاقدُ الأنكحة الشرعيّة بالتولية الشرعيّة عن فلان[1] ، بإذنها وإذن والدِها له فى ذلك ورضاهما، بعد أن وَضَح عند فلانٍ العاقدِ أنّها بِكرٌ بالغ ، كما تقدّم .

٥ وإن كان الزوج ممّن مسّه الرِّقّ وعَتَق كتب : وعَلِمَت الزوجةُ المذكورةُ ووالدُها أنّ الزوج المذكورَ مسّه الرِّقّ وعَتَق، ورضيا بذلك .

وإن كانت الزوجة بِكرا وزوّجها من له الوَلايةُ عليها شرعا ، كالأبِ أو الجدِّ الأعلى، أو الأخِ، أو ٱبنِ الأخِ، أو العمِّ، أو ٱبنِ العمِّ، أو المعتِق، أو ابنِه أو وليِّه، كَتَب : ووَلِىَ تزويجَها بذلك فلان — ويَذكُر نسبتَه منها[2] — بحقِّ وَلايته

١٠ [عليها] شرعا ، وبإذنها له فى ذلك ورضاها .

وإن كانوا جماعةَ إخوةٍ كتب ٱسم أمثلِهم[3]، بإذنها له ، وإذنِ بقيّة إخوتها الأشقاء — وهم فلانٌ وفلان — له، وإذنِها لإخوتها فى هذا الإذن .

وإن زوّجها الحاكمُ بإذنِها وإذنِ أوليائها أو أحدِهم ذُكِر[4]، بشهادة من يعيّنه فى رسم شهادتِه آخرَه .

١٥ وان كانت الزوجة ثيّبا كتب كما تقدّم، ويكتب : بعد أن حضر الى العاقد المذكورِ من عرّفها عنده، وهما فلانٌ وفلان، شهِدا[5] أنّهما يعرفان هذه الزوجةَ معرفةً

(١) « من فلان » ، أى عن القاضى فلان ؛ فحذف هذا الوصف للعلم به من السياق ، ومما سبق فى ص ١١٦ س ٤ .

(٢) «نسبته منها» ، أى قرابته منها ؛ وهذا المعنى هو الذى سوّغ له ذكر «من» فى هذا الموضع .

٢٠ (٣) الأمثل : الأفضل .

(٤) «ذكر» بالبناء للمجهول ، أى ذكر هذا الإذن .

(٥) عبارة الأصل : « شهدوا أنهم يعرفون » بصيغة الجمع ؛ والسياق يقتضى التثنية ، كما أثبتنا .

شرعيّـة، وأنّها خاليةٌ من جميع موانع النكاح الشرعيّـة ، ومنذ طلّقها زوجُها فلانٌ الذى دخل بها وأصابها، الطلقةَ الأولى الخُلع[(١)]، أو الثانية، أو الثلاث، أو الرجعيّةَ الّتى انقضت عدّتُها ولم يراجعها ، المسطَّرةَ على ظهر صـداقها أو حاشيته ، المؤرَّخةَ بكذا وكذا ، لم تتّصلْ بزوجٍ غيرِه الى يومِ تاريخِه .

وإن طلّقها قبل الدخول والاصابة كُتِب ونُبِّه عليه .

وان كان زوجها تُوُفِّىَ عنها كتب : ومنذ تُوُفِّىَ عنها زوجها فلانٌ من مدّة تزيد على أربعة أشهر وعشرة أيام لم تتّصلْ بعده بزوجٍ إلى الآن .

وان طلقها ومات عنها وهى حامل ووضعت كتب : وإنّ زوجَها [طلّقها، و[(٢)]] تُوُفِّىَ عنها، وهى مشتمِلةٌ منه على حَمل ، ووضعتْه ، وانقضت عدّتُها بحُكْم وضعِها .

وان كان عن فسخٍ[(٣)] كتب : ومنذ فَسَخَ الحـاكمُ فلانٌ نكاحَها من زوجها فلانٍ فى التاريخ الفلانىِّ [و[(٤)]] انقضت عدّتُها، لم تتّصلْ بزوجٍ إلى يومِ تاريخِه .

---

(١) « الطلقة الأولى الخلع » ، أى الحاصـلة بالخلع ؛ والخلع طلاق بائن عنـد أبى حنيفة ومالك وعنـد أحـمد فى احدى الروايتين ، وهو الصحيح الجديد أيضا عنـد الشافعى ؛ وقال أحـمد فى أظهر الروايتين : هو فسخ لا ينقص عددا ، وليس بطلاق ، وهو القـديم من قولى الشافعى ؛ واختاره جماعة من متأخرى أصحابه ، انظر جواهر العقود المحفوظ منه بدار الكتب المصرية جزء مخطوط تحت رقم ١٤٩٣ فقه شافعى . والقول بأن الخلع طلاق بائن مذهب عمر وعثمان وعلى — رضى الله تعالى عنهم — كما فى كتاب الوجيز للغزالى جزء ٢ ص ٤١ طبع مطبعة المؤيد .

(٢) لم ترد هذه التكملة فى الأصل ؛ والسياق يقتضى اثباتها أخذا من قوله السابق «وان طلقها » الخ .

(٣) «و إن كان عن فسخ » ، أى وان كان الفراق عن فسخ .

(٤) فى الأصل : « انقضت » بغير واو العطف ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

وإن راجع رجل امرأته من طلقة أو طلقتين كتب : هذا ما أصدق فلانٌ مطلِّقته الطلقةَ الأولى الخُلْعَ، أو الثانية، المؤرَّخةَ قَرِينتَه[1] أو باطنَه ، أو المكتتَبةَ فى براءة محرَّرةٍ تاريخُها كذا وكذا .

وان زوّجها الحاكم عند غيبة وليِّها نبّه عليها[2] بأن يكتب : ووَلِيَ تزويجَها إيّاه فلان[3]، بعد أن وَضَح عنده بشهادة فلانٍ وفلانٍ خلوُّها من الموانع الشرعيّة؛ وأنّه لا ولىَّ لها حاضرٌ سوى الحاكم العزيز، بحكم غيبة وليِّها فلان — ويعيِّن نسبتَه[4] منها — فى مسافة تُقصَر فيها الصلاة ، وأنّ هذا الزوجَ كفءٌ لها الكفاءةَ الشرعيّةَ فى الدِّين والنَّسب والحرّيّة ؛ فحينئذ زوّجها الحاكمُ المذكورُ من الزوج المذكورِ على الصداق المعيَّن، وقَبِله الزوج لنفسه ورضِيَه؛ ويؤرّخ .

وان زَوّج الحاكمُ امرأةً عَضَلها[5] وليُّها وقد دُعيَتْ الى كفءٍ كتب : ووَلِيَ تزويجَها إيّاه بذلك القاضى فلان ، بإذنها له فى ذلك ورضاها وبحكم أنّ والدَها المذكورَ حضر إلى القاضى فلان، وسألته ابنتُه المذكورةُ أن يزوّجها من الزوج المذكورِ لمّا ثبتت كفاءتُه عند الحاكم، فامتنع، فوعظه القاضى فلان وأعلمه بماله من الأجر فى تزويجها ، وما عليه من الإثم فى المنع، فلم يرجع إلى عظته وأصرّ على الامتناع، وعَضَلَها[5] العضْلَ الشرعىّ؛ وقال بمحضر من شهوده : «عضلتُها[5] فلا أزوّجها » ؛ وبعد أن حضر إلى الحاكم المذكور كلُّ واحد من فلانٍ وفلان

(١) « قرينته » ، أى مقارنة لكتاب الصداق .

(٢) «عليها» ، أى على الغيبة .

(٣) «فلان» ، أى القاضى فلان ؛ فحذف الوصف للعلم به مما سبق فى ص ١١٦ سطر ٤ وما يأتى بعد فى ص ١١ من هذه الصفحة .

(٤) «نسبته منها» ، أى قرابته منها ؛ وهذا المعنى هو الذى سوّغ له ذكر «من» فى هذا الموضع .

(٥) «عضلها» ، أى منعها من التزويج ظلما .

وشهدا عنده أنّ الزوجةَ المذكورةَ خاليةٌ من جميع موانع النكاح الشرعيّة، وأنّ أباها المذكورَ عَضَلَها العَضْلَ الشرعيّ، وأنّ هذا كفءٌ لها الكفاءةَ الشرعيّةَ فى النَّسب والدِّين والصـناعة[1] والحرّيّة؛ فلمّا وَضَح له ذلك من أمرها أَذِنَ بكَتْبِـه فكُتِب وزوّجها من الزوج المذكورِ على الصداق المعيَّن، وقَبِله الزوج لنفسه ورضِيَه .

فصـــل

إذا زُوّج الصـغيرُ أو المراهِقُ للصغيرة [أو][2] المعصِرةِ[3] كتب ما مثالُه : هـذا ما أَصـدَق فلانٌ عن ولده لصلبه فلان — ويَذكُر سنَّه — الّذى تحت حَجْره وكَفالته ووَلاية نظرِه، لِمـا رأى له فى ذلك من الحظّ والمصلحة فى دينـه ودنياه فلانةَ البِكر — ويعيِّن سنَّها — ابنةَ فلانٍ التى تحت حَجْر والدها المذكورِ وكَفالتـه ووَلاية نظرِه، لِمـا رأى لها فى ذلك من الحظّ والمصلحة ، صداقا مَبلغُـه كذا وكذا عَجَّل لهـا من ذلك من مالِه عن ولده المذكورِ كذا وكذا، قبَضَـه منه والدُها لابنتِه المذكورةِ ليصرفه فى مصالحها — وإن كان من مال ولده [كتب[4] : « من مالِ ولدِه المذكورِ] الّذى تحت يده وحَوْطِه[5] » — وباقى ذلك — وهو كذا وكذا — يقوم به

(١) فى الأصل : « والصنعة » ؛ والسياق واللغة يقتضيان ما أثبتنا ، فان المراد هنا الحرفة ، وهى الصناعة ؛ وأما الصنعة فهى عمل الصانع .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٣) المعصرة بالتـاء فى آخره — كما قاله ابن دريد — والمعصر بدونها : هى التى قاربت الحيض لأن الإعصار فى الجارية كالمراهقة فى الغلام ؛ وقد اختلف اللغويون فى معنى هذا اللفظ ؛ والذى اخترناه هو المناسب لسياق ما هنا .

(٤) لم تردهذه العبارة فى الأصل ؛ وسياق الكلام يقتضى اثباتها اذلا يستقيم الكلام بدونها كما لايخفى ويؤيد ذلك أيضا قوله بعد فى صفحة ١٢١ س ٢ : «أو من مال ولده المذكور» الخ .

(٥) الحوط : الحفظ .

الولىُّ من مالِه عن ولده ، فى سلخ كلِّ سنةٍ من استقبال العقد بينهما كذا وكذا ؛ أو من مالِ ولده المذكورِ الّذى تحت يده وحَوْزِه ؛ ووَلِىَ تزويجَها إيّاه بذلك والدُها المذكور ، بحقِّ وَلايته عليها شرعا ، بعد أن وَضَح للقاضى فلانٍ أنّها بِكرٌ مُعصِر لم يُعقَد عليها عقدٌ إلى يومِ تاريخِه ؛ أو يكتب : « خاليةٌ من جميع موانع النكاح الشرعية » ؛ وأنّ أباها مستحِقُّ الوَلاية عليها شرعا ، بشهادة فلانٍ وفلان ؛ فلمّا وَضَح ذلك عنده أَذِنَ بكَتْبه فكُتِب ، وزوّجها والدُها من الزوج المذكورِ على الصداق المعيَّن ، وقَبِله والد الزوج لولده قبولا شرعيّا .

وإن كان من مالِ الصغير كتب فى آخر الكتاب : « وشهِدتْ البيّنةُ أنّ المهر المذكورَ مهرُ مثلها على مثله ، لا حَيْفَ فى ذلك ولا شطط » ويؤرّخ .

فصل فى صداق المحجور عليه من قِبَل الحاكم

يكتب ما مثالُه : هذا ما أَصدَق فلان المحجورُ عليه من قِبَل الحُكم العزيز عند ما دعت حاجتُه إلى النكاح ، وتاقت نفسُه إليه ، وذَكَرَ ذلك للقاضى فلانٍ أمينِ الحكم بمحضرٍ من شهوده ، وسأله الإذنَ له فى ذلك ، فأَذِنَ له فيه بالصداق الآتى ذكرُه الإذنَ الصحيحَ الشرعىّ ، فلانةَ بنتَ فلان ، وتزوّجها به ؛ أَصدَقها على بركة الله تعالى صداقا مبلغُه كذا وكذا ، الحالُّ من ذلك كذا وكذا ، قبضته الزوجة المذكورة

(١) فى الأصل : «ومن مال» ؛ والسياق يقتضى العطف « بأو » كما أثبتنا .

(٢) تقدّم تفسير المعصر فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢٠ ، فانظره .

(٣) عبارة الأصل : «مثله على مثلها» بتذكير الضمير فى الأوّل وتأنيثه فى الثانى ؛ والسياق يقتضى العكس كما أثبتنا .

(٤) «فلانة» بالنصب : مفعول لقوله : « أصدق » السابق فى السطر ١١ من هذه الصفحة .

(٥) « به » ، أى بالصداق .

من القـاضى فلانٍ أمينِ الحكم العزيز ، من مالِ هـذا الزوج الذى له تحت يده وصار بيَـدِها وقَبْضِها وحَوْزِها ، وباقى الصـداق — وهو كذا وكذا — مقسّط فى سلخ كلِّ سنةٍ كذا وكذا ، ووَلِىَ تزويجَها إيّاه بذلك ..... ويُكمّل ؛ ويكتب فى آخره : وشهدتْ البيّنة أنّ الصداق المذكورَ مهرُ مثلها[1] على مثله .

وإن تزوّج رجل امرأة محجورا عليها كتب فى القبض : « بيَدِ الوصىّ أو أمينِ الحكم ، ليصرفه فى مصالحها » . ويكتب فى آخره : « وشهدت البيّنة أنّ هذا المهر مهرُ المثل » .

فصـــل

اذا أَصدَق رجلٌ عن موكّله كتب ما مثالُه : هـذا ما أَصدَق فلانٌ عن موكّله فلانٍ بإذنه له فى ذلك وتوكيله — ويشرح الوَكالةَ إن كانت مفوّضةً أو مقيّدةً على الزوجة بعينها — يشهد بذلك على الموكّل من يعيّنه فى رسم شهادتِه من شهود هذا العقد ، فلانةَ البِكرَ البالغ ؛ أو المرأةَ الكاملة ؛ ويُكمّل . ويكتب فى القبول : « وقَبِل هذا الوكيلُ المذكورُ عقدَ هذا النكاح لموكّله فلانٍ على الصداق المعيّن قبولا شرعيًّا » ويؤرّخ .

فصـــل

اذا تزوّج الحـرّ أمةً كتب : هـذا ما أَصدَق فلانٌ فلانةَ مملوكةَ فلان المقِرّةَ لسـيّدها بالرقّ والعبوديّة ، عند ما خشِىَ على نفسـه العنتَ[2] ، وخاف الوقوعَ فى المحظور لعدم الطَّول ، وأنّه ليس فى عصمته زوجة ، ولا يقدر على صداق حرّة على ما شَهِد له به من يعيّنه فى رسم شهادته ، صـداقا تَزوّجها به ، مَبلغُه كذا وكذا

(١) فى الأصل : « مثله على مثلها » بتذكير الضمير فى الأوّل وتأنيثه فى الثانى ؛ والسياق يقتضى العكس كما أثبتنا . وقد سبق التنبيه على مثل هذا التبديل فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢١ من هذا السفر .

(٢) العنت : الفجور والزنا .

ووَلِيَ تزويجَها إيّاه بذلك سيّدُها المذكورُ بحقّ وَلايته عليها شرعا — ولا يُفتقَر إلى إذنها — ويُكمّل الصداق . ويكتب : « وشهدت البيّنة أنّ الزوج المذكورَ فقير ليس له موجودٌ ظاهر، ولا مالٌ باطن، ولا له قدرةٌ على نكاح حرّة، ولا فى عصمته زوجة ، وأنّه عادمٌ للطَّوِل » .

٥ وان تزوّج العبد حرّة كتب : هذا ما أَصدَق فلانٌ مملوكُ فلان، المقرُّ لسيّدِه بالرقّ والعبوديّة، بسؤال منه لسيّده، وإذنِ سيّدِه له فى ذلك الإذنَ الصحيحَ الشرعىّ ، وشَهِد عليه بذلك شهودُ هـذا الكتاب ، فلانةَ بنةَ فلان ، صداقا تَزوّجها به، جملتُه كذا وكذا ، الحالُّ من ذلك كذا وكذا ، قبضته الزوجة من مالِ سيّدِه الّذى بِيَدِه بإذن سيّدِه له فى ذلك، وباقى ذلك — وهو كذا وكذا — يقوم به ١٠ سيّدُه لها عن عبده من مالِه ، فى ساخ كلِّ سنةٍ تمضِى من تاريخ العقد كذا وكذا — وان كان من مالِ العبد من كسبِه ذَكَره — وأَذِنَ له سيّدُه فى السعى والتكسّب والبيع والشراء، والأخذِ والعطاء، ووَلِيَ تزويجَها ... ... ويُكمّل .

ويكتب فى آخره : « وعلمت الزوجةُ المذكورةُ أنّ الزوج مملوك ، ورضيتْ بذلك » . وان كان لها أولياءُ كُتِب رضاهم .

١٥ فصـــل

وان زوّج السيّدُ جاريتَه لعبده كتب ما مثالُه : هـذا كتاب تزويج أكتبه فلانٌ لعبده فلانٍ مِن أمتِه (١) فلانةَ ، المقرُّ له كلٌّ منهما بالرقّ والعبوديّة ، وهو أنّه أَشهَدَ على نفسه أنّه زوّج عبدَه المذكورَ لِأمَتِه المذكورةِ تزويجا صحيحا شرعيّا بسؤال كلٍّ منهما لسيّدِه المذكورِ فى ذلك، وقَبِل الزوج المذكورُ من سيّده عقدَ

٢٠ (١) « من أمته » متعلق بـ«تزويج » .

هذا النكاح لنفسه قبولا شرعيًا . ولا يعيّن الصـداق ، ولا اعتبارَ بإذنها ، وإن كشفه عاقدٌ[1] كتب كما تقدّم[2] .

فصـــــل

وان تزوّج رجلٌ أخرسُ بامرأةٍ ناطقـةٍ كتب : هـذا ما أَصدَق فلانٌ الأخرسُ اللّسان، الأصمُّ الاذان[3]، العاقل ، الذى يَفهـم ما يجب عليه شرعا ، كلُّ ذلك بالإشارة المفهومة عنـه ، يعلمها منه شهودُه، ولا ينكرها منه من يعلمها عنـه فلانةَ بنةَ فلان ، ويُكمّل على ما تقدّم .

ويكتب عندالقبول: « وقَبِل الزوجُ لنفسه هذا العقدَ بالإشارة المفهومةِ عنه» .

وان كانا أخرسين كتب : هذا ما أَصدَق فلانٌ فلانةَ ،وكلٌّ منهما أخرس لا ينطق بلسانه ، أصمُّ لا يَسمع بآذانه[3] ، صحيح العقل والبصر، عالمٌ بمـا يجب عليه شرعا ، كلُّ ذلك بالإشارة المفهومةِ عنـه ، يفهمها مِن كلٍّ منهما شهودُ هـذا العقد صداقا تزوّجها به ؛ ويُكمّل كما تقدّم .

وان كان الزوج مجبوبا كتب فى آخر الكتاب : «وعلمت الزوجةُ أنّ الزوج مجبوب، لا قدرةَ له على النكاح، ورضيتْ به» .

وأمّا إقرارُ الزوجين بالزوجيّـة واعترافُ الزوج بمبلغ الصـداق وما يتصل بذلك من فرض الزوجة والإشهادِ عليها بقبض الكسوة

(١) « كشفه عاقد » ، أى حضره متولى عقـد الأنكحة من قبـل الحاكم ليكشف عن صحة العقد أو فساده من جهة الشرع، كما هو الظاهر لنا من معنى هذه العبارة؛ وقد سبق هذا المعنى أيضا فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١١٦ فى بيان المراد بكاشف الحاكم، فانظره .

(٢) يشير بقوله : « كما تقـدّم » الى ما سبق فى صفحة ١١٦ من هذا السـفر من قوله فى السطر الثالث : «بعد أن وضح» الخ مع تبديل بعض العبارات، فيضع مكان قوله هناك : «وأن أباها المذكور» قوله فى هذا المكتوب : «وأن سيدها المذكور» الخ .

(٣) المراد بالجمع هنا ما فوق الواحد؛ وهو كثير فى كلام العرب .

فيحتاج فى إقرار الزوجين بالزوجيّة الى تسطير محضر بأنّهما زوجان متنا كان ويشهد فيه جماعة من المسلمين الذين يعلمون ذلك ، ثم يكتب كتاب الإقرار وصورتُه : أقرّ فلانٌ وفلانةُ بأنّهما زوجان متنا كان بنكاح صحيح شرعىّ ، وأنّ الزوج منهما دخل بالزوجة وأصابها ، وأولدها[1] على فراشه ولدا ذكرا يسمّى فلانا — إن كان — وأنّ الزوجة المذكورةَ لم تَبِنْ من الزوج المذكورِ بطلاقٍ بائنٍ ولا رجعىّ[2] ولا فسخ ولا غيرِه ؛ ومنذ تزوّجها إلى الآن أحكامُ الزوجيّة قائمةٌ بينهما ، وتَصادَقا على ذلك ، واعترف الزوج بأنّ فى ذمّته مبلغَ صداقِها عليه الذى عُدِم[3] ، وهو كذا وكذا .

وإن كشفه[4] عاقدٌ كتب : وذلك بعد أن وَضَح للعاقد فلانٍ بشهادة فلانٍ وفلانٍ مضمونُ ما أقرّا به فيه ؛ فحينئذ أَذِنَ فى كَتْبِه ؛ ويؤرّخ .

فصل فى فرض زوجة

إن فرض الرجل على نفسه كتب : فرضٌ قرّره على نفسه فلانٌ لزوجته فلانةَ التى دخل بها وأصابها ، واستولدها على فراشه — إن كان ذلك — لِما تحتاج إليه من طعامٍ وإدامٍ وماءٍ وزيتٍ وصابونِ حمّام[5] ، فى غرّة كلّ يومٍ كذا وكذا حَسَب ما اتّفقا على ذلك وتراضيَا عليه ، وذلك خارجٌ عمّا يوجبه الشرع الشريف لها .

---

(١) فى المصباح المنير أن «أولدها» بالألف بمعنى استولدها ، غير ثبت ، وصرح بعضهم بمنعه اهـ . وفى كتاب المغرب أيضا أنه لا يقال : «أولد الجارية» بمعنى استولدها اهـ .

(٢) فى الأصل : «خفى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه السياق .

(٣) «عدم» ، أى عدم كتابه الشاهد به ، كما يفهم من السياق ، وكما يدل على ذلك ما سبق فى ص ٢ س ٢ من هذا السفر .

(٤) تقدّم بيان المراد بهذه العبارة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٢٤ من هذا السفر ، فانظره ، وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ١١٦

(٥) فى الأصل : «وحمام» ؛ والواو زيادة من الناسخ .

وإن قرّره حاكمٌ كتب : هذا ما أشهدَ على نفسه القاضى فلانٌ أنّه فرَضَ على فلانٍ لزوجته فلانةَ لِما تحتاج إليه من نفقةٍ ومؤونةٍ وماءٍ وزيتٍ وصابونِ حمّام فى كلِّ يومٍ كذا وكذا، وذلك خارجٌ عمّا يلزمه لها من اللوازم الشرعيّة غير ذلك ؛ قرّر ذلك الحاكمُ عليه، وأوجبه فى مالِه ، ورضيت الزوجةُ به .

فصـــل

وإن قبضت المرأة كسوتَها كتب : أقرّت فلانةُ بأنّها قبضت وتسلّمت من زوجها فلانٍ كُسوتَها الواجبةَ عليه شرعا ، وهى ثوبٌ وسراويلُ ومِقْنَعة[1] ، وذلك عن فصل واحد، أوّلُه يومُ تاريخِه ، وصار ذلك بِيَدِها وقبضِها وحَوْزِها . وكذلك إن قبضت كُسوةَ ولدِها الطفل .

وأما الطلاق وما يتصل به من الفروض الواجبة — فإذا طلّق الرجل زوجته قبل الدخول كتب : طلّق الزوجُ المسمَّى باطنَه فلانٌ زوجتَه المسمّاةَ باطنَه فلانةَ قبل الدخول بها والإصابة ، طلقةً واحدة بانت منه بذلك، بحكم أنّه لم يدخل بها ولم يصِبْها، وبحكم ذلك تَشطَّر الصداقُ المعقودُ عليه باطنَه نصفين سقط عنه النصف، وبقِيَ النصف الثانى .

فإن طلّق الزوجُ الزوجةَ قبل الدخول بها على ما يَتشطَّر لها من الصداق كتب ما مثالُه : سألت الزوجةُ المسمّاةُ[2] باطنَه فلانةُ زوجَها فلانا

(١) المقنعة بكسر الميم : ما تقنع به المرأة رأسها ومحاسنها .

(٢) فى الأصل : «المسلمة» ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

الذى لم يدخل بها ولم يصِبْها — وتَصادَقا على ذلك — أن يخلعها من عصمته وعقدِ نكاحِه على ما يتشطّر[1] من الصداق باطنَه، أوعلى ما يتّفقان عليه، فأجابها إلى سؤالها وقَبِل منها العوضَ المذكور، وطلّقها عليه الطلقةَ المسئولة، بانت منه بذلك وملكت نفسَها عليه، وبحكم ذلك تَشطّر[1] الصداقُ المعقودُ عليه باطنَه نصفين سقط عنه النصف، وبرئت ذمّتُه من النصف الثانى بحكم هذا.

وإن سأل الأبُ[2] أو غيرُه الزوجَ أن يطلّق زوجته على نظير ما بذله له فى ذمّته[3]، ثم أحال المطلّقُ مطلّقتَه بذلك كتب: سأل فلانٌ فلانا — وهو الزوج المسمّى باطنَه — أن يخلع زوجتَه فلانةَ المسمّاةَ باطنَه التى لم يدخل بها ولم يصِبْها؛ أو التى دخل بها وأصابها، بطلقة واحدة: أولى أو ثانية، أو ثالثة، على ما بذله[4] فى ذمّته، وهو كذا وكذا، من ذلك ما هو حالٌّ كذا وكذا، وما هو مؤجّلٌ كذا وكذا؛ فأجابه الى سؤاله، وقَبِل منه العوضَ المذكور وطلّق زوجته طلقةً واحدةً أولى خلعا[5] بانت بها منه، وملكت نفسَها عليه، وبحكم هذا الطلاق تشطّر[1] الصداق المذكورُ نصفين، سقط عنه النصف، وبقِىَ فى ذمّته النصف الثانى، وأقرّ المطلّق بأنّه قبض من السائل مبلغَ الحالِّ الذى اختلَع له به

(١) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أنه يقال: «تشطر» مطاوع «شطره» بتشديد الطاء؛ والذى وجدناه أنه يقال: «شطر» بضم أوله وتشديد ثانيه، مبنيا للمجهول، أى صار شطرين.

(٢) «الأب»، أى أبو الزوجة، أخذا مما يأتى بعد.

(٣) «ما بذله له فى ذمته»، أى ما سماه الزوج من الصداق لأبى الزوجة ولم يدفعه، بل لا يزال فى ذمة الزوج؛ فالمراد بالبذل هنا: التسمية، بدليل قوله: «فى ذمته»؛ والضمير فى قوله «ذمته» يعود على الزوج، كما يفهم ذلك من سياق المكتوب الآتى.

(٤) «على ما بذله»، أى على نظير ما بذله؛ فحذف المضاف للعلم به مما سبق فى هذه الصفحة.

(٥) تقدّم فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١١٨ من هذا السفر بيان الخلاف فى أن الخلع طلاق أو فسخ فانظره.

واعترف أيضا بأنّه قبض نِصفَ المعجَّلِ باطنه، وصار بِيَدِه وقبضه وحَوْزِه؛ ثم بعد تمـام ذلك ولزومه أحال المطلّقُ المذكورُ مطلّقتَه المذكورةَ على أبيها بالمبلغ المؤجّل وهو نظيرُ نصفِ مؤخّرِ الصداق المعيَّنِ باطنَه فى قدرِه وجنســه وصفته وٱستحقاقه حَوالةً شرعيّة، قَبِلها منه لهـا والدُها، بحكم أنّها تحت حَجْره ووَلايةِ نظرِه، قبولا شرعيّا، وبحكم ذلك وجبت لها مطالَبةُ أبيها. ٥

فإن طلّق طلقة رجعيّة بعـد الدخول كتب: طلّق الزوج المسمّى باطنَـه فلانٌ زوجتَـه المسمّاةَ باطنَه فلانة، التى دخل بهـا وأصابها، طلقةً واحدة أوثانيةً رجعيّة، يملك بها رجعتَها ما لم تنقضِ عدّتُها، فاذا انقضت فلاسبيل له عليهـا ولا رجعةَ إلّا بأمرها ورضاها وعقدٍ جديدٍ لها عليه، على مايوجبه الشرع الشريف.

وإن ٱسترجعها[1] منهـا[2] كتب: ثم بعـد ذلك ٱسترجع[1] المطلّقُ المذكورُ مطلّقتَه؛ أو أقرّ بأنه ٱسـترجع[1] مطلّقته من الطلقة الأولى، أو الثانيـة، استرجاعا شرعيّا، وردّها، وأمسكها، وصار حكمها حكمَ الزوجات؛ ويؤرّخ. ١٠ (١٠٦)

فإن طلّقهـا ثلاثا كتب: طلّق فلانٌ زوجتَه فلانةَ الّتى دخل بهـا وأصابها طلاقا ثلاثا، حرمت عليه بذلك، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَـيْرَهُ﴾. ١٥

فإن ٱختلعت المرأة من[3] زوجها على أن يطلّقها كتب: سألت فلانةُ زوجَها فلانا الذى دخل بها وأصابها أن يخلعها من عصمته وعقدِ نكاحِه على

(١) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال: «استرجع الرجل مطلقته»؛ والذى وجدناه أنه يقال: «ارتجعها وراجعها»؛ فلعل ما هنا من استعمالات كتاب الوثائق.

(٢) «منها»، أى من الطلقة. (٣) فى الأصل: «لزوجها» باللام مكان «من»؛ وما أثبتناه هو مقتضى السياق، وهو المعبر به فى كتب اللغة والفقه. ٢٠

مؤخّر صداقِها عليــه ، الشاهدِ به كتابُه[1] المتعذّرُ حضورُه، وهو كذا وكذا، فأجابها الى سؤالها، وقَبِل منها العوضَ المذكور، وطلّقها عليه طلقةً واحدةً أولى خلعا، أو ثانيةً خلعا، أو ثالثة، بانت منه بذلك، وملكت نفسَها عليه، وأقرّت بأنّهــا لا تستحِقّ عليــه صداقا ، ولا بقيّةً من صــداق ، ولا نفقةً ولا كُســوةً ولا حقّا من حقوق الزوجيّة كلّها .

والعبد لا يملِك إلّا طلقتين . واذا طلّق المحجوبُ لا يُكتَب فى طلاقه إصابة .

وإن وكّل رجلا أن يطلّق عنــه كتب : سألت فــلانةُ فلانَ بنَ فلان الوكيلَ عن زوجها فلان ، القائمَ عنه فى طلاقها بالوَكالة الّتى جعل له فيها أن يطلّق عنــه زوجتَه المذكورةَ طلقةً واحدةً أولى خلعا على مؤخّر صداقِها عليه، وهو كذا وكذا ، المشروح ذلك فى الوَكالة المؤرّخةِ بكذا وكذا ، أن يطلّقهــا عن موكّله فلان المذكورِ بطلقــة واحدة أولى خلعا على جميع مؤخّر صداقها ، وهو كذا وكذا ؛ فأجابها الى سؤالها ، وقَبِل منهــا العوضَ المذكور، وطلّقها عن موكّله طلقةً واحدةً أولى خلعا، بانت منــه بها، وملكت نفسَها عليه، فلا تحلّ له إلّا بعــد عقد جديد وأقرّت بأنّها لا تستحِقّ عليه صداقا، كما تقدّم .

فصل فى فرض امرأة مطلّقة ظهرت حاملا

يكتب ما مثــالُه : فرضٌ قرّره على نفســه فلانٌ لمطلّقتــه [الطلقةَ][2] الأولى أو الثانية، أو الثلاث، فلانةَ المرأةِ الكاملة، المشتملة منه على حَمل، وتَصادَقا على

(١) « تابه » ، أى كتاب الصداق .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

ذلك، عوضا عما تحتاج اليه من طعامٍ و إدامٍ وماء، فى كلِّ يوم من الأيّام كذا وكذا قسطُ كلِّ يوم فى أوّله من آستقبال تاريخه، حَسَب ما آتّفقا على ذلك وتراضَيا عليـه وذلك خارج عمّا يوجبه الشرع الشريف لها، وأَذِنَ لها أن تقترِض على ذمّته بقدر ما قَرَّر لها عند تعذّر وصول ذلك اليها، وتنفقَه عليها، وترجعَ به عليه، إذنا شرعيّا قبلتْه منـــه .

فإن قرّر على نفســه لولده كتب : فرضٌ قرّره على نفسه فلانٌ لولده الطفل، الذى فى كَفالة والدته مطلّقتِه فلانة، لِمـا يحتاج اليه من طعامٍ وادامٍ وماءٍ وزيتٍ وصابونِ حمّام، فى كلِّ يوم من الأيّام كذا وكذا من آستقبال تاريخه، حَسَب ما آتّفقا وتراضَيا عليه، وذلك خارج عمّا يوجبه الشرع الشريف، وأَذِنَ لها أن تقترِض على ذمّته، وتنفقَ على ولدها، وترجعَ به عليه، إذنا شرعيّا .

فان قرّر لوالده أو والدته كتب ما مثـالُه : فرضٌ قرّره على نفســه فلانٌ لوالدته[1] فلانة، بحكم عجزها وفقرها وحاجتها، لِمـا تحتاج اليه من طعامٍ و إدامٍ وزيتٍ وصابون، فى كلِّ يوم كذا وكذا، و يُكمّل .

فصـــــل

إذا قرّر القاضى للمحجور عليه من مالِه له ولزوجته كتب : هـذا ما أَشهَدَ على نفسه القاضى فلانٌ الفارضُ أنّه قرّر لفلان المحجورِ عليـه بيَدِ الحُكم العزيز ولزوجته فيما لَه من أجرة العَقار المنسوبِ إليه، الّذى تحت نظر الحُكم العزيز، لِمـا يحتاجان إليه من طعامٍ و إدامٍ وماءٍ وزيت، فى كلِّ يومٍ كذا وكذا من آستقبال تاريخه، قسطُ كلِّ

(١) اقتصر فى هـذا المكتوب على ذكر الوالدة دون الوالد للعلم بما يكتب فى نفقته مما ذكره فى نفقة الوالدة .

يوم فى أوّله ، وقرّر له ولزوجته وللخادم عوضا عن كُسوتهم لفصل الصيف كذا وكذا ولفصل الشتاء كذا وكذا ؛ وبذلك شُهِد عليه ؛ ويؤرّخ .

وأما تعليق الطلاق وفسخ النكاح — فإذا علّق الزوج طلاقَ زوجته على سفره ، أو أنّه يسافر بها (١) ، كتب على ظهر كتابه ما مثالُه : قال الزوج المسمّى باطنَه فلانٌ لزوجته فلانة ، التى دخل بها وأصابها : «متى سافرتُ عنكِ من البلد الفلانىّ ، واستمرّت غيبتى عنكِ شهرا واحدا ابتداؤه من حين سفرى ، أو متى سفّرتكِ إلى بلد من البلاد بنفسى أو وكيلى ، أو متى تسرّيتُ عليكِ بأَمَةٍ فأنت طالقٌ ثلاثا» ؛ تلفّظ بذلك عند شهوده ؛ ويؤرّخ .

فصل

إذا سافر الزوج عن زوجته وتركها بغير نفقة ولا كُسوة ، وأرادت فسخَ نكاحها منه ، كُتِب محضرٌ بالغَيبة ، مثالُه : شَهِد الشهود الواضعون خطوطَهم آخرَ هذا المحضر — وهم من أهل الخِبرة الباطنةِ (٢) فيما شهِدوا به فيه (٣) — أنّهم يعرفون كلّ واحد من فلانٍ وفلانةَ معرفةً صحيحةً شرعيّة ، ويشهدون أنّهما زوجان متناكحان بنكاح صحيح شرعىّ دخل الزوج منهما بالزوجة ، وأولدها (٤) على فراشه ولدا ذَكَرا ، أو أولادا — إن كان ذلك ؛ وان كان لم يدخل بها كتب : «وانّ الزوج لم يدخل بها ، ولم يصِبْها ، وأنّها

(١) «أو أنه يسافر بها» ، أى أو علّق طلاقها على أنه يسافر بها ؛ والذى فى الأصل : «لا يسافر بها» وقوله : «لا» زيادة من الناسخ ، والصواب حذفها ، كما يقتضيه قوله بعد : «أو متى سفّرتك» الخ بصيغة الإثبات ، فانه يفيد أنه علّق طلاقها على سفره بها لا على نفيه .

(٢) تقدّم بيان المراد بالخبرة الباطنة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٧٦ من هذا السفر ، فانظره .

(٣) «فيه» ، أى فى المحضر .

(٤) ذكر المطرّزىّ فى المغرب أنه لا يقال : أولد الجارية بمعنى استولدها . وفى المصباح أيضا أن أولدها بمعنى استولدها غير ثبت ، وصرّح بعضهم بمنعه .

عرضت نفسَها عليه ليدخل بهـا فامتنع من ذلك، وأخّره الى وقتٍ آخر» — وأنّه سافر عنها بعد ذلك من البـلد الفلانىّ، وتوجّه الى البلاد الفلانيّة، من مدّة تزيد على أشهُرِ سـنةٍ تتقدّم على تاريخـه، وهى مطاوعة له؛ وأنّه تركها معوزةً عاجزةً عن الوصول إلى ما يجب لها عليـه، من النفقة والكُسوة واللّوازم الشرعيّة، بحكم أنّه ليس له موجودٌ حاضر، ولا مالٌ متعيّن، وقد تضرّرت[1] بسبب غَيبته عنها، وتعذّر وصولُ ما يجب لها عليه شرعا من جهته ومن جهة أحد بسـببه[2]، وأنّها لم تجد من يُقرضها على ذمّته، ولا من يتبرّع بالإنفاق عليها عنه، وأنّه مستمرٌّ الغَيبة عنهـا الى الآن، وأنها مسـتمرّةٌ على الطاعة له؛ يعلمون ذلك ويشهدون به بسـؤال من جازت مسألتُه، وسوّغت الشريعة المطهّرة إجابتَه؛ ويؤرّخ.

فاذا وضع الشهود رسم شهادتهم، وأدّوا[3] عند الحاكم، كتب على ظهره الحلفَ بعد حلفِها[4]، وصورتُه: أُحلِفتْ المشهودُ لهـا باطنه فلانةُ بالله العظيم الّذى لا إله إلّا هو، اليمينَ الشرعيّةَ المستوفاة، الجامعةَ لمعانى الحلف، المعتبَرَةَ شرعا، أنّ الزوج المذكورَ معها باطنَه فلانا سافر عنها من البلد الفلانىّ، متوجّها إلى البـلد الفلانىّ من مدّة تزيد على سـنة كاملة تتقـدّم على تاريخه، وهى مطاوعة له، وانّه تركها معوزةً عاجزةً عن الوصول إلى ما يجب لهـا عليـه، من النفقـة والكُسوة واللوازم الشرعيّة، بحكم أنّه ليس له موجود — ويصِفُ كلَّ ما فى المَحضر الى عند[5] «وأنّها

(١) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال: «تضرر» غير كتاب (أقرب الموارد).

(٢) بسببه: صفة لأحد، أى أحد متصل به.

(٣) «وأدّوا عند الحاكم»، أى أدّوا شهادتهم، فالمفعول محذوف للعلم به؛ وقد تقـدّم مثل هذا الحذف فى هذا الكتاب ونبهنا عليه فى مواضعه، انظر ص ٥٢ س ١ و ص ٥٧ س ٧

(٤) «بعد حلفها»، أى بعد أن تحلف.

(٥) فى كتب القواعد أن جرّ «عنـد» بـ«إلى» كما هنا، لحن، فان «عند» من الظـروف التى لا تخرج عن الظرفية الّا الى الجرّ بـ«من».

مستمرّةٌ على الطاعة له » — وأنّ من شَهِد لها باطنَه صادقٌ فيما شَهِد لها به ؛ فحلفتْ كما أُحلِفتْ ، بالتماسها لذلك على الأوضاع الشرعيّة ، وبحضور من يُعتبَر حضورُه شرعا ، بعد تقدّم الدّعوى وما ترتّب عليها ؛ ويؤرّخ .

ثم يكتب الإسجال قرينَ الحلفِ أو تحته ، وهو : هذا ما أشهد على نفسه الكريمة سيّدُنا العبدُ الفقيرُ الى الله تعالى فلان الحاكم ، مَن حضر مجلسَه من العدول الواضعِي خطوطِهم آخرَه ، أنّه ثبت عنده وصحّ لديه فى اليوم الفلانىّ ، بعد دعوى محرّرةٍ مقابَلةٍ بالإنكار على الوجه الشرعىّ ، بشهادة[1] من أعلم تحت رسمِ شهادته باطنَه وزُكّىَ لديه التزكيةَ الشرعيّةَ على الوجه المعتبَر الشرعىّ ، مضمونُ[2] المحضر المسطَّرِ باطنَه « على ما نُص[3] وشُرِح فيه بكذا وكذا » ثبوتا صحيحا شرعيّا ؛ وقد أقام كلٌّ من الشهود به[4] شهادتَه عنده بذلك ، وأعلم تحت رسم شهادة كلٍّ منهم ما جرت به العادة ، وأُحلِفتْ الزوجةُ المذكورةُ الحلفَ المشروحَ فيه ؛ فلمّا تكامل ذلك عنده وصحّ لديه وَعَظَها ، وأعلَمَها بما لها من الأجر فى الصبر على البقاء فى عصمة زوجها المذكور ، فأبت الصبر ، وذكرتْ أنّ ضرورتَها تمنعها من ذلك ، وسألت الحاكمَ المذكورَ الإذنَ لها فى فسخ نكاحها من زوجها المذكور ؛ فحين زالت الأعذار من إجابتها[5] أَذِن لها الحاكمُ المذكورُ فى فسخ نكاحها من زوجها المذكور ؛ وأشهدتْ

(١) « بشهادة » متعلق بقوله : « ثبت » السابق فى السطر السادس من هذه الصفحة .

(٢) « مضمون » فاعل لقوله : « ثبت » السابق فى السطر السادس من هذه الصفحة .

(٣) الظاهر ان فى هذا الكلام الموضوع بين هاتين العلامتين تقديما وتأخيرا وقعا من الناسخ ولعل صوابه « المسطّر باطنه بكذا وكذا على ما نص وشرح فيه » .

(٤) « به » ، أى بمضمون المحضر .

(٥) « زالت الأعذار من إجابتها » ، أى لم يبق لدى القاضى من الأعذار ما يمنعه من أن يجيبها الى ما طلبت .

على نفسها شهودَ هذا الإسجال أنها فسخت نكاحها من زوجها المذكور، واختارت فراقه — وإن كان الحاكم هو الفاسخَ كتب: «فحينئذ سألتْ بِرّ[1] الحاكم فسخَ نكاحِها من زوجها المذكور، وأصرّت على ذلك؛ فحين زالت الأعذار من إجابتها قدّم خِيرةَ الله تعالى، وأجابها الى ما التمستْه، وفسخَ نكاحَها من زوجها المذكورِ الفسخَ الصحيحَ الشرعيّ، وفرّق بينهما» — فلمّا تكامل ذلك كلُّه سأله من جازت مسألتُه وسوّغت الشريعةُ المطهّرةُ إجابتَه، التقدّمَ بكتابة هذا الإسجال، والإشهادَ عليه بذلك، فأجابه الى سؤاله، وتقدّم بكتابته[2]، فكُتِب عن إذنه، وأشهد على نفسه بذلك فى مجلس حكمه وقضائه — وهو فى ذلك كلّه نافذ القضاء والحكم ماضيهما — وأبقى كلَّ ذى حجّة معتبَرةٍ فيه على حجّته ان كانت، وذلك بعد تقدّم الدعوى الموصوفة وما ترتّب عليها. ويُشهد على الزوجة أيضا بما نُسِب اليها.

وأما نفىُ ولدِ الجارية والإقرارُ باستيلاد الأمة — فإنّه اذا أراد السيّد نفىَ ولدِ جاريته بعد الوطء والاستبراءِ على قول من قال[3] به كتب مامثالُه: أقرّ فلانٌ بأنّه كان قبل تاريخِه وطئ مملوكتَه فلانة — ويذكر جنسها — المسلمةَ المقرّةَ له بالرقّ والعبوديّة، ثم استبرأها بعد الوطء استبراءً صحيحا شرعيّا، وأنّه لم يطأها بعد

(١) عبارة الأصل: «سأل رب» الخ؛ وهو تحريف لايستقيم به معنى الكلام؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٢) «تقدّم بكتابته»، أى أمر بها.

(٣) «من قال به» أى من قال بأن نسب ملك اليمين ينتفى بدعوى الاستبراء؛ فان فى ذلك خلافا بين الفقهاء؛ قال صاحب جواهر العقود فى كتاب الاستبراء مانصه: «اذا وطئ أمته ثم استبرأها بقرء، ثم أتت بولد لتسعة أشهر من حين الوطء، فانه لا يلحق عند الشافعى، وهذا مشكل من جهة أن الأمة فراش حقيقى وهذه مدّة غالبة، فكيف لا يلحق الولد بفراش حقيقى مع غلبة المدة، ويلحق بإمكان الوطء من المزوّجة مع قلة المدّة وندرة الولادة فى مثلها؟! وقد قاله بعض الأصحاب؛ وهو متجه».

الاستبراء ، وأنها بعد ذلك أتت بولد، وسمته فلانا ، وأنه الان فى قيد الحياة، وأن هذا الولد ليس منه ولا من صلبه ، ولا نسبَ بينه و بينه؛ وحلف على ذلك بالله العظيم اليمين الشرعيّة، وأشهد عليه بحضورها بتاريخ كذا وكذا .

وان أقرّ بأنّه استولد جاريته كتب : أقر فلانٌ بأنّه كان قبل تاريخه وطئ مملوكته التى بيده وملكه ، المقرّة له بالرق والعبودية، المدعوّة فلانة ، الفلانيّة الجنس؛ الوطءَ الصحيحَ الشرعىّ، فى حال مُمْلَكَته[1] لها على فراشه، واستولدها عليه ولدا ذكرا يسمّى فلانا، الطفلَ يومئذ، وهو الآن فى قيد الحياة، وأنه من صلبه ونسله، ونسبُه [لاحقٌ][2] بنسبه، وصدّقته على ذلك .

واما الوكالات — فاذا وكّل رجل رجلا وكالةً مطلقة كتب : وكّل فلانٌ فلانا فى المطالبة بحقوقه كلّها ، وديونه بأسرها ، من غُرَمائه وخصومه قِبَل من كانت وحيث تكون، والمحاكمة بسببها عند القضاة والحكّام وخلفائهم وولاة أمور الإسلام، والدّعوى على غُرَمائه وخصومه، واستماع الدّعوى عليه وردّ الأجوبة عنها بما يسوغ شرعا ، والحبس[3] والإطلاق والترسيم[4] والملازمة

(١) المملكة بضم اللام وفتحها : بمعنى الملك؛ وكسر اللام نادر .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن (الكوكب المشرق) إذ السياق يقتضيها .

(٣) يريد بالحبس والإطلاق : حبس من امتنع عن الأداء، و إطلاقه منه .

(٤) يريد بالترسيم : اعتقال الغريم؛ وقد ورد هذا اللفظ كثيرا فى كتب التاريخ مرادا به هذا المعنى ، فقد جاء فى تاريخ ابن إياس ج ٢ ص ٣٥٣ فى الكلام على سلطنة الملك الظاهر ابى سعيد قانصوه بن قانصوه الأشرفىّ ما نصه « وفيه قبض السلطان على الناصر بن خاص بك أخى خوند زوجة الأشرف قايتباى، فأقام فى الترسيم مدّة» الخ وانظر صفحة ٣٦١ ، ٣٦٢ من هذا الجزء أيضا؛ ولم يرد هذا اللفظ فيما راجعناه من كتب اللغة بهذا المعنى؛ والظاهر أنه استعمال محدث .

والإفراج، وأخذِ الكُفَلاء والضُّمَناء بالوجه[1] والمـال، وقبولِ الحَوالات على الأملئاء[2] وإثباتِ حججه ومساطيرِه، وإقامةِ بيّناته، وقبضِ كلِّ حقٍّ متوجِّهٍ له قبضُـه بكلّ طريق شرعىّ، والإشهادِ على الحكّام والقضاةِ بمـا يَثبُت له شرعا، وطلبِ الحكم من الحكّام، وفى إيجار ما يجرِى فى ملكه من العَقار الكامل[3] والمُشاعِ[4] لمن يرغب فى استئجاره بمـا يراه من الأجر: حالّهـا ومنجّمها ومؤجّلها ومعجّلها، لِمـا يراه من المُدد: قليلِها وكثيرِها، وقبضِ الأجرة، واكتتابِ ما يجب اكتتابُه فى ذلك، وتسليمِ ما يؤجره — ومهما وكّله فيه كَتَبهَ وعيّنه بما يليق تعيينُه[5] —؛ وكّله فى ذلك كلِّه وكالة شرعيّةً قَبِلها منه قبولا شرعيّا، وأذِنَ له أن يوكّل عنه فى ذلك كلِّه وفيما شاء منه من شاء، ويعزِلَه متى شاء، ويعيدَه متى أراد.

فإن وكّله وأراد ألّا يعزِله كتب فى ذيل الوكالة: ثم بعد تمـام ذلك ولزومه قال الموكّل لوكيله: «متى عزلتك فأنت وكيلٌ متصرّفٌ لا منصرف».

فاذا أراد عزله كتب على ظهر الوكالة: قال الموكّل لوكيله: «متى عدتَ وكيلى فأنت معزول»؛ وبحكم ذلك العزل بطل تصرّفُه فى الوكالة المشروحةِ باطنَه؛ ويؤرّخ.

---

(١) تقدّم ما يستفاد منه معنى ضمان الوجه فى صفحة ١٣ من هذا السفر، فانظره.

(٢) «الأملئاء»: الأغنياء القادرون، واحده ملىء.

(٣) يريد بالعقار الكامل: المملوك له بأكمله، وليس مشاعا فى ملك غيره.

(٤) كذا فى كتاب الكوكب المشرق؛ والذى فى الأصل: «والمتاع»؛ وهو وإن صحّ معناه عطفا على العقار، إلا أن مقابلته بالكامل — أى المملوك بأكمله — تقتضى ما أثبتنا.

(٥) «بمـا يليق تعيينه»، أى بمـا يليق تعيينـه به، فالعائد هنا محذوف؛ وهذا من المواضع التى يجوز فيها حذف العائد.

واذا وكّل ذمّىّ مسلما قدّم اسم الوكيل، فيكتب : هذا كتاب وكالة اكتتبه لفلانٍ فلانٌ الذمّىّ، وأشهد على نفسه أنه وكّله فى كيت وكيت ؛ ويكمّل كما تقدّم .

وأما المحاضر على اختلافها فسنذكرها، اذا أراد أمين الحكم أن يبيع على يتيم للحاجة كتب محضرا بالقيمة ، مثالُه : شهد الشهود الواضعون خطوطَهم آخرَه — وهم من أهل الخبرة بالعقار وتقويمه — أنهم ساروا بإذنٍ شرعىٍّ الى حيث الدّارُ الكاملةُ الآتى ذكرُها ووصفُها وتحديدُها فيه، المقوّمةُ بكمالها، أو المقوَّمُ منها حصّةٌ مبلغُها كذا وكذا سهما، ملك فلان المحجورِ عليه، لتباع عليه فى نفقته ومؤونته ولوازمه الشرعيّة، وهى بالمكان الفلانىّ — وتوصَف وتُحدَّد — وتأملوا ذلك بالنظر، وأحاطوا به علما وخبرة، وقوّموا الحصّة المذكورةَ بما مبلغُه كذا وكذا وقالوا: «إنّ ذلك قيمة المثل يومئذ، لا حَيْفَ فيها ولا شطط ، ولا غَبينةَ[1] ولا فَرْط[1] وإنّ الحظَّ والمصلحةَ فى البيع بذلك» .

فإن كان بالغبطة على القيمة[2] كتب كما تقدّم الى قوله : «لتُباعَ عليه» لما له فى ذلك من الحظّ والمصلحةِ والغبطةِ[3] الزائدةِ على قيمة المثل، وهى الدّارُ [التى][4] بالموضع الفلانىّ — وتوصَف وتُحدَّد — وتأملوا ذلك بالنظر ، وأحاطوا به

(١) تقدّم تفسير الغبينة والفرط فى الحاشيتين رقم ٣ و ٤ من صفحة ٤٨ فانظرهما .

(٢) «بالغبطة على القيمة» ، أى الزائدة على القيمة ؛ فحذف متعلّق الجارّ والمجرور للعلم به من السياق .

(٣) صوّر الفقهاء الغبطة بأن يرغب فى شراء العقار بأكثر من ثمن مثله ، والبائع يجد مثله ببعض ذلك الثمن أو خيرا منه بكلّه . انظر شرح المنهج (كتاب الحجر) .

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

علما وخبرة، وقوموا الحصّة بكذا وكذا درهما، وقالوا : « إنّ ذلك قيمةُ المِثل — نحو ما تقـدّم — وإنّ الحظّ والمصلحةَ والغبطةَ فى بيع الحصّة المذكورةِ بزيادة كذا وكذا»؛ وبذلك وضعوا خطوطَهم؛ ويؤرّخ .

فإن قُوّمتْ لتُباعَ فيما ثبت على المتوفّى من صـداق زوجته ، أو من دَين، كُتِب أوّلُ المحضر كما تقدّم، وقيـل : المنسوبة لفلان المتوفّى الى رحمة الله تعالى ، لتُباعَ عليه فيما ثبت فى ذمّته من صـداق زوجته فلانة ، الثبوتَ الصحيحَ الشرعىّ؛ أو فيما ثبت عليه من دَينٍ شرعىٍّ لفلان، حَسَب ما يَشهَد بذلك مسطورُه الّذى بِيَدِه، الذى ثبت بمجلس الحكم العزيز؛ ويُكمّل كما تقدّم .

فصل فى محضر وفاةٍ وحصرِ ورثة

يكتب : شهد الشهود الواضعون خطوطَهم آخرَ هذا المحضر — وهم من أهل الخِبرة الباطنةِ فيما شَهدوا به — أنّهم يعرفون فلانَ بن فلان ، وورثتَه الاتىَ ذكرهم فيه، معرفةً صحيحةً شرعيّة ؛ ويَشهدون أنّه تُوفّىَ الى رحمة الله تعالى بالبلد الفلانىّ من مدّةِ كذا وكذا، وخلّف من الورثة المستحقّين لميراثه المستوعِبين لجميعه زوجتَه فلانةَ الّتى لم تزل فى عصمته وعقدِ نكاحِه الى حين وفاته ، وأولادَه منها أو من غيرها — ويذكُر أبويه إن كانا أو أحدَهما — بغير شريك لهم فى ميراثه، ولا حاجبٍ يحجبهم عنه بوجه ولا سبب ؛ يعلمون ذلك ويشهدون به (١) بسؤال من جازت مسألتُـه وسوّغتْ الشريعةُ المطهّرةُ إجابتَه؛ ويؤرّخ .

(١) فى الأصل : « ولا يشهدون » ؛ وقوله «لا» زيادة من الناسخ مفسدة للمعنى .

فصـــل

اذا مات رجل وخلّف أبوين وأخوين كتب ما مثالُه : شهد الشهود أنهم يعرفون فلانا ووالديه الآتى ذكرُهما فيه، ويشهدون بالخبرة الباطنة أنّه خلّف وارثَيه: والدَه فلانا، ووالدتَه فلانة، بغير شريك لهما فى ميراثه، ولا حاجبٍ يحجبهما حجْبَ حرمانٍ عن استكماله ؛ ويشهدون أنّ المتوفّى له أخَوان، وهما فلانٌ وفلان؛ وبحكم ذلك يكون للأب من ميراثه النصفُ والثلث ، وللأم السدس ، بحكم أنّ الأخوين حجباها عن الثلث الى السدس حجْبَ تنقيصٍ[1] للفريضة[2] الشرعيّة، لا حجبَ حرمان؛ يعلمون ذلك ويشهدون به .

وان مات رجل فى بلد بعيدة واستفاض موته وشُهِد به بالاستفاضة كتب كما تقدّم[3] ، [و][4]: أنّهم يعرفون فلانا، ويشهدون بالاستفاضة الشرعيّةِ بالشائع الذائع ، والنقلِ الصحيح المتواتر ، أنّه مات الى رحمة الله تعالى من مدّةِ كذا وكذا بالمدينة الفلانيّة؛ ويشهدون أنّه خلّف من الورثة ... ...ويُكمّل .

---

(١) فى كتب اللغة أن نقّصته — بتشديد القاف — تنقيصا، لغة ضعيفة ، ولم تأت فى كلام فصيح (المصباح) .

(٢) فى الأصل : « بالفريضة » ؛ وهو تحريف ، إذ لا مقتضى للباء فى هـذا الموضع؛ والسياق يقتضى اللام كما أثبتنا ، أى تنقيص مافرضه الشرع للأم .

(٣) يشير بقوله « كما تقدّم » إلى ما سبق فى ص ١٣٨ س ١٠ ، وهو قوله : «شهد الشهود الواضعون خطوطهم آخر هذا المحضر » الخ .

(٤) لم ترد هذه الواو فى الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها ، أى وكتب أنهم الخ . وسيأتى مثل ذلك أيضا فى ص ١٤١ س ٤ فليتنبّه إليه .

فصـــل

إذا مات قوم بعـد قوم يكتب : ... ... أنّهـم يعرفون فلانَ بنَ فلان (١) وورثتَـه الآتيَ ذكـرُهم ، ومن تُوُفِّيَ منهم على الترتيب الآتى ذكرُه فيـه ، معرفةً صحيحة شرعيّـة ؛ ويشهدون أنّ فلانا المبتـدأَ بذكره تُوُفِّيَ إلى رحمـة الله تعـالى بالبلد الفلانىّ ، وخلّف من الورثة المسـتحقّين لميراثه المستوعِبين لجميعـه زوجتَه فلانةَ ألّتى لم تزل فى عصمته وعقدِ نكاحِه إلى حين وفاته ، وأولادَه (٢) منها ، وهم فلان وفلان ، ثم توفّيت الزوجةُ بعدَه فى تاريخ كذا وكذا ، وخلّفتْ من الورثة المستحقّين لميراثه أولادَه لصلبه ، وهم — ويسمّيهم — يعلمون ذلك ويشهدون به ؛ ويُكمّل ، ويؤرّخ . وهذا مثالٌ فقِسْ عليه .

فصـــل

(١٠٩)

إذا مات العبد وخلّف سيّدَه كتب : شهد من أثبتوا أسماءهم (٤) آخرَه — وهم من أهل الخبرة الباطنةِ فيما شهدوا به — (٣) أنّهـم يعرفون كلَّ واحد من فلان ومملوكه [فلان] (٥) ، الفلانىِّ الجنس ، المسلم ، ويشهدون أنّ فلانا المثنّى باسمه تُوُفِّيَ إلى رحمة

---

(١) حذف المؤلف صدر هـذا المحضر كما حذف صدور بعض المحاضر الآتية ، وهو قوله : « شهد الشهود الواضعون خطوطهم » الخ للعلم بذلك مما سبق ؛ وقد وضعنا هذه النقط مكان المحذوف هنا وفيما يأتى بعد تنبيها على ذلك .

(٢) أولاد بالجمع هنا ما فوق الواحد ، إذ لم يذكر بعد غير اثنين .

(٣) عبارة الأصل : « من أشهد » ؛ وفيها زيادة من الناسخ لا يستقيم بها الكلام ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٤) فى الأصل : « اسمه » بصيغة المفرد ؛ والسياق يقتضى الجمع ، كما أثبتنا .

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسـياق يقتضى إثباتها أخذا مما ورد فى كتب الوثائق من التصريح باسم المملوك فى صورة هذا المحضر انظر (جواهر العقود) و (الكوكب المشرق) ؛ وكما يقتضيه أيضا قوله بعد : « المثنى باسمه » .

الله تعالى، وخلّف سيّده المذكور، الذى لم يزل فى ملكه إلى حين موته؛ وأنّه مستحِقٌّ لجميع ما يخلّفه بغير شريك له فى ميراثه، ولا حاجبٍ يحجبه عنه.

وإن كان قد أعتقه ومات كتب كما تقدّم[1]، [و]: أنّهم يعرفون فلانَ ابنَ فلان، وعتيقَه فلانَ بنَ فلان، معرفةً صحيحةً شرعيّة، ويشهدون أنّه ماتَ الى رحمة الله تعالى، وأنه كان مملوكا لفلان، وأنّه أعتقه عتقا منجّزا قبل موته، ولم يخلّف من الورثة سواه، بغير شريك له فى ميراثه؛ ويُكمّل.

فصـــل

إذا أراد إثبات ملكه لدار كتب ما مثالُه: ... ...[2] أنّهم يعرفون فلانَ بنَ فلان، ويشهدون أنّه مالك لجميع الدّار الفلانيّـة — وتوصَف وتُحدَّد — ملكا صحيحا شرعيّا، وأنّه متصرّفٌ فيها بالسكن والإسكان والإجارة والعمارة وقبضِ الأجرة، وأنّها باقيةٌ فى يدِه وملكِه وتصرُّفه الى الآن، لم تخرج عنه بتمليك[3] ولا بيع ولا إقرارٍ ولا صدقة، ولا بوجه من الوجوه الشرعيّة كلِّها على آختلافها، وأنّهـا باقيةٌ على ملكه وتصرُّفه وحيازتِه الى يومِ تاريخِه؛ وهم بالدّار المذكورةِ فى مكانها عارفون؛ يعلمون ذلك ويشهدون به.

---

(١) يشـير بقوله: «كما تقدّم» الى ما سبق فى ص ١٤٠ س ١١ من قوله: «شهد من أثبتوا أسماءهم آخره وهم من أهل الخبرة الباطنة فيما شهدوا به».

(٢) انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ١٤٠ من هذا السفر.

(٣) فى الأصل: «بملك»؛ وما أثبتناه هو المناسب لسياق الكلام؛ فان خروج الشىء وانتقاله من يد مالكه الى يد آخر إنما يكون بالتمليك — أى بأن يملكه لغيره — لا بالملك، كما يتبين ذلك من معنى الكلمتين؛ وقد سبق الكلام على التمليك بقسميه فى صفحة ٢٣ من هذا السفر.

فصـــــل

إذا أثبت رجلٌ أنّه باع بالإجبار والإكراه كتب : ... ... أنّهـم يعرفون كلّ واحد من فلانٍ وفلان ، ويشهدون أنّ فلانا المبتـدأ بآسمه جَبَرَ فلانا المثنّى بآسمـه وخوّفه وآعتقله وضربه وأوجعـه ، وطَلَب منه بيعَ داره التى بالموضع الفلانىّ — وتوصَف وتُحدَّد — بغير ثمن ، وأن يُشهِدَ عليه بالبيع وقبضِ الثمن ، وأنّه آمتنع من ذلك ، فأعاد عليه الضرب ، وهدّده بالقتل ، وسجَنَه ، ولم يزل على ذلك حتى جَبَرَه وأكرهه ، وآبتاعها منه بكذا وكذا ، وآعترَف بقبضها ، وأنّه وضع يدَه عليها ، وتَسلّمها من مدّةِ كذا وكذا ، وهم بالدّار عارفون ، يعلمون ذلك ويشهدون به .

وان كان جَبَره حتّى باعه بدون القيمة كتب صـدر المحضر كما تقدّم ، وطَلَب منه بيعَ الدّار بكذا وكذا ، وأنّ قيمتَها أزيدُ من ذلك ، وأنّه آمتنع من ذلك ، فضربه وسجنه ، وأعاد عليه العقوبة ، وأكرهه وجَبَره إلى أن باعه الدّار المذكورةَ بالثمن المذكور ، وقبَضَـه منه ، وأنّه دون قيمتها ، وأنّ قيمتَها أضـعافُ ذلك ، وأنه وضع يدَه عليها ، وتَسلّمها من مدّة كذاوكذا ، يعلمون ذلك ... .

فصل فيما يكتب بعيب فى جارية

شهد الشهود المسمّون آخرَه — وهم من أهل الخبرة الباطنةِ[1] بالرقيق وعيبِه[2] — أنّهـم نظروا الجاريةَ المدعوّةَ فلانة ، الفلانيّةَ الجنس ، التى بيَدِ فلانٍ متنجزِ[3] هـذا

(١) يريد بالخبرة الباطنة : المعرفة بما خفى ودقّ من الأمور ولم يقتصر فيها على الظواهر .

(٢) فى الأصل : « وغيره » ؛ وهو تحريف صـوابه ما أثبتنا إذ لا مقتضى لأن تذكر الخبرة بغـير الرقيق فى هذا الموضع .

(٣) « متنجز هذا المحضر » ، أى الذى طلب إنجازه ؛ يقال : « تنجز الحاجة » ، إذا سأل إنجازها .

المحضر، الذى ذَكَر أنّه ابتاعها من فلان، نظرَ مثلِهم لمثلِها، بمحضر من الخصمين المذكورَين، فوجدوا بها من العيوب المرضَ الفلانىّ، وأنّ ذلك مرضٌ مزمنٌ متقدّمٌ على تاريخ العُهْدة[1] التى أظهرها المشترى من يده، المؤرَّخةِ بكذا وكذا؛ وأنّ ذلك عيبٌ[2] منقِصٌ للثمن؛ يعلمون ذلك ويشهدون به .

فصـــل

إذا شُهِد لإنسان أنه من أهل الخير كتب : ... ... ويشهدون أنّه من أهل الخير والصلاح، والعفّةِ والفلاح؛ والصِّيانة والأمانه، والثِّقةِ والدّيانه؛ محافظٌ على صلاته، أهلٌ لأن يَجلس بين أطهر المسلمين، وأنه [محقٌّ][3] فى جميع أفعاله، صادقٌ فى جميع أقواله؛ يعلمون ذلك ... .

فصـــل

اذا شُهِد برشد إنسان كتب : ... ... ويشهدون أنّه رشيد، صالحٌ فى دِينه، مصلِحٌ لِمالِه، مستحِقٌّ لفكّ الحَجْر عنه، غيرُ مبذِّرٍ ولا مفرِّط، حسنُ[4] التصرّف؛ يعلمون ذلك ... .

---

(١) العهدة : وثيقة البيع؛ وأصله من قولهم : «فى الأمر عهدة» أى مرجع للإصلاح؛ وسميت وثيقة البيع بذلك لأنه يرجع اليها عند الالتباس انظر المصباح .

(٢) فى كتب اللغة أن «أنقصه» «ونقصه» — بتشديد القاف — : لغتان ضعيفتان؛ ولم يأتيا فى كلام فصيح المصباح .

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها نقلا عن جواهر العقود وما سيأتى بعد فى ص ١٤٤ س ٨ من هذا السفر .

(٤) كذا فى الكوكب المشرق وجواهر العقود؛ والذى فى الأصل مكان هذه الكلمة : «مطلق»؛ وهو تبديل من الناسخ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا، فإن شهادة الشهود برشد المحجور عليه إنما تكون بأن حسن التصرف لا بأنه مطلقه .

فصل فى نسب رجل شريف

... ... ويشهدون بالأستفاضة الشرعيـة ، بالشائع الذائع ، والنقلِ الصحيح المتواتر، [أنّه](١) شريفُ النَّسب، صحيحُ الحَسَب، من ذريّة الحسين بنِ علىٍّ — رضى الله عنهما — من أولاد الصلب ، أبا عن أب، إلى أن يرجع نسبُه إليه، ويُدلى(٢) بأصله إلى أصل الحسين؛ يعلمون ذلك ويشهدون به . ٥

فصل فى عدالة رجل

... ... ويشهدون شهادة علموا صحّتَها، وتيقّنوا معرفتَها، لا يشكّون فيهـا ولا يرتابون، أنه من أهل الصدق والوفاء، والعفّـةِ والصّفاء؛ صادقٌ فى أقواله ، مُحِقٌّ فى أفعاله ؛ حَسَنُ السيره، طاهرُ السريره؛ متيقّظٌ فى أموره، سالكٌ شروطَ العدالة وأفعالَها ؛ صالحٌ لأن يكون من العدول المبرَّرين(٣) ، والأعيانِ المعتبَرين، مستحِقٌّ أن يضع خطَّه فى مساطير المسلمين، عدلٌ رضىٌ لهم وعليهم؛ يعلمون ذلك ويشهدون به . ١٠

فصل فى إعسار رجل

... ... ويشهدون أنّه فقيرٌ لا مالَ له ، معسِرٌ لا حالَ له ، عاجزٌ عن وفاء ما عليه من الدّيون، أو عن شىء منها؛ يعلمون ذلك ... .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها . ١٥

(٢) فى الأصل : «ويدل» ؛ واللغة والسياق يقتضيان ما أثبتنا .

(٣) المبرّرون : اسم مفعول من برّره ، أى زكاه ، كما فى أقرب الموارد ؛ ولم نجد هذه الصيغة فى غيره من كتب اللغة التى بين أيدينا .

فصل فى إسلام ذمّىّ

(١١٠) يكتب : حضر الى شهوده فى يومِ تاريخِه مَن ذَكَر أنّه حضر الى مجلس فلانٍ — أدام الله أيّامَه — فلانُ بنُ فلان الفلانىّ[1]، وأشهدهم على نفسه أنّه تلفّظ بالشهادتين المعظّمتين، وهما شهادة أن لا إله الّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمدا عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، أرسله بالهُدَى ودِينِ الحقّ ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره المشركون، وأنّ عيسى عبدُ الله ونبيُّه، ومريمَ أَمَةُ الله، وأنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم خاتمُ النبيِّين، وأفضلُ المرسلين، وأنّ شريعتَه أفضلُ الشرائع وملّتَه أفضلُ الملل، وأنّ ما جاء به عن الله حقّ؛ وقال : « أنا برئتُ من كلِّ دِين يخالف دينَ الإسلام»، ودخل فى ذلك طالبا[2] مختارا؛ وأشهد عليه بذلك، وتلفّظ به بتاريخِ كذا وكذا .

فإن أسلم يهودىّ كتب موضع عيسى : وأنّ موسى عبدُ الله ونبيُّه، وأنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم أفضلُ الأنبياء، وشريعتَه أفضلُ الشرائع، وأنّ شريعة محمد صلّى الله عليه وسلّم نسخت شريعة موسى وجميعَ الشرائع؛ وقال : «أنا مسلم برئتُ من كلِّ دِين يخالف دين الإسلام، ومن كلِّ ملّة تخالف ملّةَ محمد صلّى الله عليه وسلّم»؛ وأشهد على نفسه بتاريخ ...[3] .

وأما الإسجالات — فهى بحَسَب الوقائع، وقد ذكرنا منها فى أثناء ما قدّمناه ماهو وارد فى مواضعه، فلنذكر ما لم نوردْه هناك؛ فمن ذلك إسجال بثبوت العدالة.

(١) فلان بالرفع بدل من « من » السابق فى قوله : « من ذكر » .

(٢) فى بعض كتب الوثائق : « طائعا » مكان قوله « طالبا » ؛ والمعنى يستقيم على كلا اللفظين فإنه اذا كان طالبا للدخول فى دين الإسلام كان طائعا .

(٣) عبارة المؤلف فى مثل هذا الموضع من المكاتيب السابقة قوله : « بتاريخ كذا وكذا » ، فحذف هنا قوله « كذا وكذا » للعلم به مما سبق ؛ وقد وضعنا هذه النقط مكان المحذوف تنبيها عليه .

قد استقرّت القاعدة بين الناس فى إسجالات العدالة ان يبتدئ الكاتب بخطبة يذكر فيها شرفَ العدالة وعلوَّها، وارتفاعَ رتبتها وسموَّها؛ ويصف المعدَّلَ بأوصاف تليق به بحَسَب حاله ورتبتِه، وأصالته وأبوتِه؛ ولا حَجْرَ على الكاتب فيما يأتى به من القرائن والفِقَر والكلام المسجوع ما لم يتعدَّ به حقَّ المنعوت، أو يخرجْ به عن طوره ورتبته، ويراعِى مع ذلك قيودَ الشرع وضوابطَه؛ والكاتبُ فيها بحَسَب[1] قدرته وتصرّفه فى أساليب الكلام وبراعة الاستهلال واختيار المعانى؛ فاذا انتهى إلى آخر الخطبة وذِكرِ أوصافِ المعدَّل قال: فلذلك استخار الله تعالى سيّدُنا ومولانا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى قاضى القضاة، حاكمُ الحكّام؛ وينعته بنعوته، ويذكر مذهبه وولايتَه للدولة القاهرةِ السلطانيّةِ الملكيّةِ الفلانيّة، بالولاية الصحيحة الشرعيّه، المتّصلةِ بالمواقف الشريفة النبويّه، الإماميّة العبّاسيّه، (المستكفِى) أميرِ المؤمنين — أعزّ الله به الدِّين، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين — وأشهَدَ على نفسه مَن حضر مجلسَ حكمِه وقضائه، وهو يومئذ نافذُ القضايا والأحكام ماضى النقض والإبرام، وذلك فى اليوم المبارك؛ ويكتب الحاكم التاريخ بخطّه؛ ثم يكتب الكاتب: أنّه ثبت عنده وصحّ لديه بالبيّنة العادلة المرضيّه، التى ثبتت بمثلها الحقوقُ الشرعيّه، عدالةُ فلان — وينعته بما يستحقّه — ثبوتا ماضيا شرعيّا معتبرًا تامّا مَرضيًا؛ وحكَمَ بعدالتِه، وقبولِ قوله فى شهادته؛ وأجاز ذلك وأمضاه واختاره وارتضاه، وألزَمَ ما اقتضاه مُقتضاه؛ وأذِنَ سيّدُنا قاضى القضاة فلانٌ لفلان المحكومِ بعدالته فى تحمّل الشهادات وأدائها، لتُحفظَ الحقوقُ على أربابها وأوليائها؛

(١) «بحسب»، أى يكتب بحسب؛ فالمتعلّق محذوف للعلم به من السياق؛ وسيأتى التصريح بهذا المتعلّق فى مثل هذه الجملة انظر ص ١٥٢ س ٩ من هذا السفر.

وسمع شهادتَه فقَبلها وأجازها، وأمره أن يرقُم على حُلل[1] الطروس طرازَها؛ و بسَطَ قلمَه بسطا كلّيا، ونصبَه بين الناس عدلا مبرّرا[2] مَرضيّا، وأجراه مُجرَى أمثالِه من العدول المبرِّرين[2]، وسَلَك به مسلكَ الشهداء المتميّزين؛ وتقدّم — أدام الله تعالى أيّامَه — بكتابة هذا الإسجال، فكُتِب عن إذنه الكريم فى التاريخ المقدَّم ذكرُه أعلاه المكتتَبِ بخطّه الكريم، شرّفه الله تعالى. والكاتب فى ذلك بحَسَب ما تُوصله إليه عباراتُه.

فصل فى ثبوت إقرار متبايعَين

يكتب: هذا ما أشهد على نفسه الكريمة سيّدنا ومولانا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى قاضى القضاة، حاكمُ الحكّام فلان — وتُستوفَى ألقابُه ونعوتُه وولايتُه، ويُدعَى له — مَن حضر مجلسَ حكمِه وقضائه، وهو نافذُ القضاء والحكم ماضيهما، أنه ثبت عنده وصحّ لديه — أحسن الله اليه — فى المجلس المذكور، بمحضَرٍ من متكلّمٍ جائزٍ كلامُه، مسموعةٍ دعواه على الوجه المعتبَرِ الشرعىّ، بشهادة العدول الثلاثة — أو بحَسَب ما يكونون — الّذين أعلم تحت رسم شهادتهم بالأداء فى باطنه، إقرارُ[3] فلانٍ وفلانٍ بما نُسِب إلى كلٍّ منهما فى كتاب الإقرار باطنَه على ما شُرِح فيه، وهو مؤرَّخٌ بكذا وكذا، وبآخره رسمُ شهادتهم، وقد أرّخ شاهدان منهم شهادتَهما بتاريخ الكتاب، والثالث أرّخ شهادتَه بكذا وكذا [و][4] جميعُ ما تضمّنه كتاب الابتياع المشروحُ باطنَه — ويذكر جميعَ ما فيه —

(١) فى الأصل: «خلل»؛ وهو تصحيف.

(٢) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٤٤ من هذا السفر.

(٣) «اقرار» بالرفع، فاعل لقوله: «ثبت» السابق فى السطر الحادى عشر من هذه الصفحة.

(٤) هذه الواو ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها، فإن ما بعدها معطوف على قوله فيما سبق: «إقرار»، أى وثبت عنده أيضا جميع الخ.

وقد أقاموها بذلك عنـد سيّدنا قاضى القضاة فلان الحاكم المذكور بشروط الأداء المعتبَرة فيما عيّنه كلٌّ منهم فى خطّه باطنَه فى التاريخ [المذكور](١) ، وقَبِـل ذلك(٢) منهم القبولَ السائغَ فيه، وأَعلَمَ تحت رسم شهادتهـم فى باطنـه علامةَ الأداء والقبول على الرسم المعهود فى مِثله ، وثبت ذلك عنده ثبوتا شرعيّا ؛ فلمّا تكامل ذلك عند سيّدنا قاضى القضاة فلان الحاكم المذكور سأله من جازت مسألتُه، وسوّغت الشريعـةُ المطهَّرةُ إجابتَه، الإشهادَ على نفســه بثبوت ذلك عنده ، والحكمَ بموجَبِه على الوجه المشروح فيــه ، ... ... وأَبقَى(٤) كلَّ ذى حجّة على حجّته ، وهو فى ذلك كلّه نافذ القضاء والحكم ماضيهما ، بعد تقدُّم الدعوى المسموعة وما تَرتّب عليها ، وتَقدَّم — أدام الله أيّامَه، وأعزّ أحكامَه — بكتابة هــذا الإسجال ، فكُتِب عن إذنه متضمنا لذلك وذلك بعد قراءة ما يحتاج الى قراءته فى كتاب الإقرار ، ووقع الإشهادُ بذلك بتاريخ كذا وكذا .

(١) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : « كل » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذا مما سبق فى ص ٥٤ س ٧ وص ٧٩ س ٧ و ١٢ وما سيأتى أيضا فى ص ١٥٠ س ١ و ١٧ وص ١٥٢ س ١٩ وص ١٥٣ س ٥ وغير ذلك من المواضع .

(٣) فى الأصــل : «الحكم» ؛ وهو تبديل من الناسخ ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا أخذا مما ورد فى الفتاوى الهندية وغيرها من كتب الوثائق .

(٤) موضع هذه النقط عبارات ساقطة من الأصل تفيد أن القاضى أجاب السائل الى سؤاله وأشهد على نفسه بثبوت ذلك عنده ؛ وحكم بموجبــه على الوجه المشروح فيه » ويدل على ذلك أمور : أولها ان عطف قوله بعد : «وأبقى» على ما قبله غير مستقيم ، فإن الإبقاء فعل القاضى ، وما قبله من السؤال فعل المدّعى ، كما لا يخفى ؛ ثانيها ان هذه العبارات هى مقتضى السؤال السابق قبله ؛ ثالثها ورود ما يفيد هذه المعانى فى مثل هذا الموضع من الإسجالات الواردة فى هذا السفر انظر صفحة ٥٥ و ١٠٩ و ١٥١ و ١٥٢ وكذلك فى الإسجالات المذكورة فى الفتاوى الهنـدية وغيرها من كتب الوثائق ؛ ولم نثبت هــذه العبارات فى صلب الكتاب بين مربعين لاحتمال أن يكون ما سقط من الأصــل مخالفا فى الألفاظ والعبارات لما نثبته ، وإن اتحدا فى المعانى .

مثال إسجال بثبوت مبايعة بشهود الأصل[1] وشهود الفرع[1] على نائب الحكم

هذا ما أشهد على نفسه العبدُ الفقيرُ الى الله تعالى أقضى[2] القضاة فلان، خليفةُ الحكم العزيز بالمكان الفلانىّ عن سيّدنا العبدِ الفقيرِ الى الله تعالى قاضى[2] القضاة فلان، مَن حضره من العدول، أنّه ثبت عنده فى مجلس حكمه ومحلّ نيابته فى اليوم الفلانىّ، بعد صدور دعوى محرّرةٍ مقابَلةٍ بالإنكار على الوضع الشرعىّ بشهادة عدول الأصل الثلاثة، وهم — ويسمّيهم — وشاهدَى الفرع، وهما فلانٌ وفلان، وهم الذين أعلَمَ الحاكمُ المذكورُ تحت رسم شهادتهم بالأداء آخرَ[3] الابتياع المذكورِ باطنَه، إقرارُ[4] المتبايعَين المسمَّيين باطنَه بما نُسِب اليهما فيه، على ما نُصّ وشُرِح فيه، المؤرَّخُ بكذا وكذا، وبآخره رسمُ شهادة العدول الثلاثةِ المشارِ إليهم؛ [وقد أقام شهود الأصل[5]] شهادتَهم بذلك عند الحاكم المذكورِ بشروط الأداء

---

(١) يريد بشهود الأصل : الشهود الأصليين، أى الذين حضروا مجلس العقد وشهدوا به عن رؤية لا عن سماع من غيرهم . وبشهود الفرع : الذين يشهدون بما سمعوا من شهود الأصل ولم يحضروا مجلس العقد؛ كما يدل على ذلك سياق ما يأتى بعد فى هذا الإسجال؛ ووجه التسمية فى كليهما ظاهر .

(٢) كان المناسب أن تكون صيغة التفضيل للثانى دون الأوّل، فيقول عن خليفة الحكم : «قاضى القضاة» وعن الثانى : «أقضى القضاة» إلا أنا وجدنا مثل ذلك أيضا فى كتاب جواهر العقود؛ فلعله اصطلاح لكتّاب الوثائق تفاؤلا لخليفة الحكم بأن تعلو رتبته ويصير أقضى القضاة .

(٣) فى الأصل : «أو آخر»؛ وقوله : «أو» زيادة من الناسخ، إذ لا مقتضى لها فى هذا الموضع .

(٤) فى الأصل : «بإقرار»؛ والباء زيادة من الناسخ، فان قوله : «إقرار» فاعل لقوله : «ثبت» السابق فى السطر الخامس من هذه الصفحة، إذ ليس فى الكلام ما يصلح جعله فاعلا غيره .

(٥) هذه العبارة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها إذ لا يستقيم الكلام بدونها، ويؤيد إثباتها أيضا قوله بعد فى السطر الأوّل من صفحة ١٥٠ فى شاهدى الفرع : «وقد أقام شاهدا الفرع» .

وقَبِـل ذلك منهم القبولَ السائغَ فيه ؛ وقد أقام شاهدا الفرع المذكوران شهادتَهما على أصلهما العدلِ فلانٍ بما تحمّلاه عنه ، وهو أنّه شَهِد على المتعاقدَين المذكورَين باطنَه بمـا نُسِب الى كلٍّ منهما فيه ، وأنّه ذَكَر لهما ذلك ، وأشهدهما على شهادته به ، على ما تضمّنه رسمُ شهادتهما آخرَ الابتياع باطنَه ، فى حال سَوْغ سماع شهادة الفرع على أصله ، عند سيّدنا القاضى فلان الحاكِم المذكور ، وقَبِلها منهما القبولَ السائغَ فيـه وسَطّر تحت رسم شهادة كلٍّ منهما ما جرت العادةُ به من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود فى مثله ؛ وانّه ثبت عنده — أعزّ الله أحكامَه — فى المجلس المذكور على الوضع الشرعىّ ، بشهادة عدلين من العدول الثلاثة الأصول ، وهما فلانٌ وفـلان أنّ البائع المذكورَ لم تزل يده متصرّفة فيما باعه الى حين انتقاله من يده الى يد هـذا المشترى المسمّى باطنَه ؛ وقد أقام كلٌّ منهما شهادتَه بذلك عنده ، وقبلها منه القبولَ السائغَ فيـه ، وسَطّر ما جرت العادة به من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود فى مثله — وان كانت المبايعة ثبتت بعدلين وشُهد أنّ البائع مالكٌ لمـا باعه كتب : «أنّه ثبت عنده فى المجلس المذكور بمحضر من متكلّم جائزٍ كلامُه ، مسموعةٍ دعواه على الوضع الشرعىّ المعتبَر ، بشهادة عدلين ، هما فلانٌ وفلان ، إقرارُ المتبايعَين باطنَه ، وهو أنّ فلانا اشترى من فلان جميعَ كذا وكذا — ويشرح ما فى المبايعة — وبآخرها رسمُ شهادتهما ، وقد أقاماها عند الحاكم على المشترى والبائع بما نُسِب الى كلٍّ منهما باطنَـه وأنّ البائع المذكورَ مالكٌ لمـا باعه فيه ، وشخّصاه له ، فقَبِل ذلك منهما القبولَ السائغَ فيه ، وسَطّر ما جرت العادة به من علامة الأداء والتشخيص على الرسم المعهود» — فلمّا تكامل ذلك عنده وصحّ لديه سأله من جاز سـؤالُه التقدّمَ بكتابة هـذا الفصل وتضمينَه الإشهادَ عليـه بثبوت ذلك لديه ، والحكمَ على المتبايعَين المذكورَين بمـا

نُسِب إليهما بأعاليه، وتضمينَه ملكَ البائع المذكور لِما باعه فيه[1]؛ فأعذَر — أعزّ الله أحكامَه — إلى البائع المذكور: هل له مطعنٌ فيما شُهِد [به][2] عليه فيه[1]، أو فى من شَهِد؟ فأقرّ فى المجلس المذكور بأنّه لا مَطعَنَ له فى ذلك ولا فى شىء منه؛ فعند ذلك أجاب السائلَ الى سؤاله، فكُتِب عن إذنه، وحَكَم على المتبايعَين المذكورَين بما نُسِب إليهما بأعاليه، وبصحّة ملكِ البائع المذكورِ لِما باعه بعد قراءة ما تَضمّنه باطنُه[3] على شهود هذا الإسجال، وأَبقَى كلَّ ذى حجّة معتبَرةٍ فيه على حجّته، وهو فى ذلك كلّه نافذُ القضاء والحكم ماضيهما، وذلك بعد تقدّم الدعوى المحرَّرة وما ترتّب عليها؛ ووقع الإشهاد بذلك بتاريخ كذا وكذا.

فصل فى ثبوت إسجال حاكم على حاكم

هـذا ما أشهد عليه سيّدُنا العبدُ الفقيرُ الى الله تعالى قاضى القضاة فلانٌ من حضره من العدول، أنّه ثبت عنده وصحّ لديه فى مجلس حكمه ومحلّ ولايته، بعد صدور دعوى محرَّرة مقابَلةٍ بالإنكار على الوضع الشرعىّ، بشهادة العدول الذين أعلم تحت رسم شهادة كلٍّ منهم بالأداء فى باطنه، إشهاد قاضى القضاة فلان الحاكم بالعمل الفلانىّ بما نُسِب إليه فى إسجاله المسطَّر أعلاه، على ما نُصّ وشُرِح فيه، وهو مؤرَّخ بكذا وكذا؛ وقد أقام كلٌّ من الشهود شهادتَه بذلك عند القاضى فلان الحاكمِ

(١) «فيه»، أى فى المكتوب.

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها؛ فان الضمير هو عائد الموصول السابق فى قوله: «فيما شهد» وليس فى الجملة ما يصلح جعله عائدا غيره؛ وليس هذا الموضع مما يسوغ فيه حذف العائد.

(٣) قوله: «باطنه» يحتمل ضبطين: الرفع على أنه فاعل لقوله: «تضمنه» أى ما تضمّنه باطن الإسجال؛ والنصب على الظرفية، أى ما تضمّنه الإسجال فى باطنه؛ وكلا الضبطين صحيح لا رجحان لأحدهما على الآخر، كما هو الظاهر لنا.

المبتدإ باسمه بشروط الأداء على الرسم المعهود عنده فى مثله ؛ فلمّا تكامل ذلك عنـده وصحّ لديه — أحسن الله اليه — سأله من جاز سؤالُه الإشهادَ على نفسـه بثبوت ذلك لديه ، وتنفيذَه و إمضاءَه والحكمَ به ، فأجابه الى سـؤاله ، وتقـدّم بكتابته فكُتِب عن إذنه الكريم ، وأَشهَد على نفسه بثبوت ذلك لديه ، وتنفيـذِه و إمضائه وأنّه حكم به وارتضاه ، وأَبقَى كلَّ ذى حجّة معتبَرة فيه على حجّته ، وهو فى ذلك نافذ الحكم والقضاء ماضيهما ، بعد تقدّم الدّعوى المسموعة وما ترتّب عليها — وإن حضر من أشهد عليه أنّه لا مَطعَنَ له فى ذلك كتب : «وحضر إقامةَ البيّنة فلان ، وأعترف بأنّه لا مَطعَنَ له فى ذلك ولا فى من شَهِد به » — ووقع الإشهاد به بتاريخ ...[1] .

فهذه أمثلة ذكرناها ؛ والكاتب المُجيد المتصرّفُ يكتب بقدر الوقائع ، ويتصرّف فى الألفاظ ، ما لم يخلّ بالمقاصد ، ولا يُدخِل عليها من الألفاظ ما يفسدها .

وأما الكتب الحُكميّة — فاذا ثبت عنـد حاكم من الحكّام أمرٌ وسأله المحكوم له كتابا حُكميّا لجميع القضاة كتب ما مثالُه بعـد البسملة : هـذه المكاتَبةُ الحُكميّةُ الى كلّ من تصل اليـه من قضاة المسلمين وحكامهم — ويدعو لهم — من مجلس الحكم العزيز بالعمل الفلانىّ عن سيّدنا قاضى القضاة فلان ، الحاكم بالعمل الفلانىّ — ويدعى له — أنّه ثبت عنـده وصحّ لديه فى مجلس حكمه وقضائه بمحضر من متكلّمٍ جائزٍ كلامُه ، مسموعةٍ دعواه على الوضع الشرعىّ ، بشهادة عدلين ، وهما فلانٌ وفلان ، جميعُ[2] ما تَضمّنه مسطورُ الدّين المتّصلُ أوّلُه بآخر كتابى هـذا ، الذى مضمونُه — ويُنقَل الى آخره — وبآخره رسمُ شهادة العدلين المشارِ اليهما ؛ وقد أقام كلٌّ منهما شهادتَه عنـده أنّه بالمُقِرّ المذكور عارف ؛ وقَبِـل ذلك منهما القبولَ

(١) انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٤٥ من هذا السفر .

(٢) «جميع» بالرفع ، فاعل لقوله : «ثبت» السابق فى السطر الخامس عشر من هذه الصفحة .

السائغَ، وسَطَّر تحت رسم شهادتهما ما جرت العادة به من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود فى مثله، وذلك بعد أن ثبتت عنده على الوضع الشرعىّ بشهادة عدلين — هما فلانٌ وفلان الواضعا[1] رسمِ شهادتِهما فى مسطور الدَّين المذكور — الغَيبةُ الشرعيّة وأقام كلٌّ منهما شهادتَه عنده بغَيبة المُقِرّ المذكور، وقالا: «إنّهما به عارفان»، وقبل ذلك منهما القبولَ الشرعىّ، وسَطَّر تحت رسم شهادتهما ما جرت العادة به من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود فى مثله، وأَحلَف المُقَرَّ له بالله العظيم، اليمينَ الشرعيّةَ المتوجِّهةَ عليه، المؤرَّخةَ فى مسطور الحلف المكتتَبِ على ظهر المسطور أو الملصَقِ بذيل مسطور الدين، بالتماسه لذلك على الأوضاع الشرعيّة، ثبوتا[2] شرعيّا معتبَرا؛ وأنّه حكم بذلك وأمضاه، وأَلزَم بمقتضاه، على الوجه الشرعىّ، مع إبقاء كلِّ ذى حجّة معتبَرة على حجّته، وهو فى ذلك كلّه نافذ القضاء والحكم ماضيهما بعد تقدّم الدعوى المسموعة وما ترتّب عليها؛ ولمّا تكامل ذلك كلُّه عنده وصحّ لديه — أحسن الله اليه — سأله من جازت مسألتُه، وسوّغت الشريعةُ المطهَّرةُ أجابتَه، المكاتَبةَ عنه بذلك، فأجابه الى سؤاله، وتقدّم بكتابة هذا الكتاب الحُكمىّ فكُتِب عن إذنه؛ فمن وقف عليه من قضاة المسلمين وحكّامهم واعتمد تنفيذَه وإمضاءه حاز الأجر والثواب، والرضا[3] وحُسنَ المآب؛ وفّقه الله وإيّانا لِما[4] يحبّه ويرضاه؛ وكُتِب عن مجلس الحكم العزيز بالعمل الفلانىّ فى اليوم الفلانىّ — ويؤرّخ — مثالُ العلامة بعد البسملة كذا وكذا، وعددُ أوصاله كذا وكذا؛ ويختم الكتاب.

---

(١) فى الأصل: «الواضعى»؛ وهو تحريف؛ وقواعد اللغة تقتضى ما أثبتنا.

(٢) «ثبوتا» مفعول لقوله: «ثبتت» السابق فى السطر الثانى من هذه الصفحة.

(٣) فى الأصل: «والراى»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه السياق.

(٤) فى الأصل: «لمن»؛ وهو تحريف.

ثم يكتب عنوانه، ومثـال ما يكتب : «من فلانِ بنِ فلان الحـاكم بالعمل الفلانىّ» ويُشهِد عليه بثبوت ذلك عنده .

ويكتب أيضا فى مثل ذلك — وهو أبلغ — ما صورتُه : هـذا كتاب حُكمىّ محرَّرٌ مرضىّ؛ تقدّم بكتابته وتسطيرِه، وتنجيزه وتحريرِه، العبدُ الفقيرُ الى الله تعالى قاضى القضاة فلان — ويدعَى له — الحاكمُ بالدّيار المصريّة ، أو غيرِها ، للدّولة الفلانيّة، بالوَلاية المتّصلة بالمواقف الشريفة — نحو ما تقدّم فى إسجال العدالة — الى كلّ من يصل اليـه من قضاة المسلمين وحكّامهم ونوّابهم وخلفائهم — ويدعو لهم — متضمنا[1] أنّه ثبت عنده وصحّ لديه؛ ويُكمّل كما تقدّم .

فصـــل

اذا ورد مثل هـذا الكتاب من قاضٍ الى قاض — مثالُه من قاضى القضاة بدِمَشْقَ الى قاضى القضاة بمصر — كتب على ظهره ما مثالُه : هذا ما أشهد على نفسه سيّدُنا ومولانا قاضى القضاة فلان، الحاكمُ بالقاهرة ومصرَ المحروستين وسائرِ الدّيار المصريّة — ويدعى له — أنّه ورد عليه الكتاب الحُكمىُّ الصادرُ عن مُصدِّره قاضى القضاة فلان الحاكمِ بدِمَشق — وهو الكتاب المشروحُ باطنَـه — ورودا صحيحا شرعيّا، موثوقا به، مسكونا اليه؛ وشهد بوروده عن مُصدره قاضى القضاة فلانِ الحاكمِ بدِمَشْقَ المحروسـةِ كلُّ واحد من العدول المستورين، أو المزكّين[2] وهم — ويسمّيهم — عند سيّدنا قاضى القضاة فلان، وقالا : « إنّ الحاكم المذكورَ

(١) «متضمنا» بالنصب، حال من الضمير فى قوله : « بكتابته » السابق فى السطر الرابع من هذه الصفحة .

(٢) فى الأصل : « المركبين » ؛ وهو تصحيف .

أشهدهما على نفسه بما تَضمّنه الكتابُ الحُكمىُّ المسطَّرُ باطنَه، بعد قراءته على مُصدره بحضرتهما وحضور من يُعتبَر حضورُه » وانّ قاضىَ القضاةِ فلانا سمع شهادتهما فقَبِلها القبولَ السائغ ؛ ولمّا تكامل ذلك كلّه سأله من جازت مسألتُه، وسوّغت الشريعة المطهَّرة إجابتَه، الإشهادَ على نفسه بثبوت ذلك لديه، وأنّه قَبِله قبولَ أمثاله من الكتب الحُكمية قبولا شرعيّا، وحكم به وأمضاه، وألزَم بمقتضاه ؛ فأجاب السائل الى سؤاله، وأشهد على نفسه بذلك، وذلك كلّه بعد تقدّم الدعوى المسموعة فى ذلك وما ترتّب عليها، وأبقَى كلَّ ذى حجّة معتبَرة فيه على حجّته، وهو فى ذلك كلّه نافذ القضاء والحكم ماضيهما؛ وذلك بتاريخ ... .

وأما التقاليد الحُكميّة — فيبتدئ الكاتب فى صدرها بعد البسملة بخطبة يورد فيها ما تؤدّيه إليه عبارتُه، وتُبلّغه إيّاه فصاحته وبلاغتُه؛ ثم يكتب : ولمّا كنتَ[1] أيّها القاضى فلان — وينعته بما يستحقّه — ممّن اتّصف بكذا وكذا واشتغل بكذا وكذا، واستحقّ كذا وكذا، استخرتُ الله تعالى، واستنبتُك عنّى فى القضاء والحكم فى العمل الفلانىّ، فى جميع أعماله وبلاده وسائر أقطاره ؛ فتولَّ ما ولّيتُك، وباشرْ ما عذقتُه[2] بك، وصُنْ أموال الناس عن الضّياع، وزوِّجْ من لاولىّ له عند[3] الشروط المعتبَرة الأوضاع؛ واضبِط الأحكامَ بشهادة الثّقاة العدول وميِّزْ بين المردود منهم والمقبول؛ وراعِ أحوالَ النوّاب فى البلاد، وأرِهم يقظةً تردع

(١) فى الأصل : « كيت » ؛ وهو تحريف .

(٢) « عذقته بك » ، أى علّقته وجعلت أمره منوطا بك كما يناط العذق — بكسر العين ، وهو القنو — بالنخلة ؛ وقد ورد هذا اللفظ فى الجزء الثامن من هذا الكتاب فى عدّة مواضع ، كما ورد فى مؤلفات أخرى كثيرة ؛ ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة بهذا المعنى .

(٣) « عند الشروط » ، أى عند تحقق الشروط .

بها المفسدَ عن الفساد — ويَذكر غيرَ ذلك من الوصايا، ويوصيه فى آخرها بتقوى الله تعالى — وكُتب عن مجلس الحكم العزيز بالعمل الفلانىّ، ويؤرّخ .

وأمّا تقاليـد قضاة القضاة فتتعلّق بكتّاب الإنشاء ؛ وهـذا مثال ، والكاتب يتصرّف بحَسَب نباهته ومعرفته وعلمه .

وأما الأوقاف والتحبيسات — فهى بحسب آراء أربابها فيما يوقفونه (١) ويحبسونه على أبواب القُرُبات ، وأنواعِ الأجر والمَثُوبات؛ وسنذكر منهـا قواعد يقاس عليها — إن شاء الله تعالى — ٥

فمن ذلك ما إذا كان لرجل دارٌ وأراد أن يوقفها (١) عليـه (٢) وعلى أولاده من بعده ونسلهم وعقبهم ، فسـبيله فى ذلك أن يملّك الدّارَ لغـيره (٣) ، ويكتب التمليـك على ما تقدّم (٤)؛ ثم يقول : وبعد تمـام ذلك ولزومه أشهد عليه فلان المقرُّ له فيه شهودَ هذا المكتوب طوعا منه واختيارا، أنّه وقَفَ وحبّس وسبّل وحرّم (٥) وأبّد ، وتصدّق ١٠

(١) فى المصباح أن قولهم «أوقفت الدار» بالألف لغة تميم ، وأنكرها الأصمعىّ ، وقال : الكلام «وقفت» بدون ألف .

(٢) فى الأصل : « يوقف عليها » ؛ وهو خطأ من الناسخ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) هذه الطريقة التى ذكرها — وهى أن يملك الواقف ما يريد وقفه لشخص آخر، ثم يقفه هذا الشخص المملَّك بتشـديد اللام المفتوحة على المملِّك بالكسر — مبنية على قول من يقول بعدم جواز وقف الإنسان على نفسه؛ قال الغزالىّ فى الوجيز ج ١ ص ٢٤٥ طبع مطبعة المؤيد ما نصـه : «ولا يجوز الوقف على نفسـه ، إذ لا يتجدّد به إلا منع التصرف ؛ وفيـه وجه آخر أنه يجوز » اه . وفى فتح العزيز أن القول بجوازه هو قول أحمـد وأبى عبـد الله الزهرىّ — رضى الله تعالى عنهما — وينسـب الى ابن سريج أيضا . ١٥ ٢٠

(٤) يشير بقوله : « على ما تقدّم » إلى ما سبق فى ص ٢٣ من هذا السفر .

(٥) «حرّم» ، أى منع من التصرّف فى الموقوف وجعله حراما .

بما هو له وفى يده وملكه وتصرّفه، ورآه وعرفه، وأحاط به علما وخبرة؛ وهو جميع الدّار الموصوفةِ المحدودةِ أعلاه، على فلانِ بنِ فلان المقرِّ المملّكِ المذكور أعلاه أيّامَ حياته، ثمّ من بعده على أولادِه، وأولادِ أولادِه، وأولادِ أولادِ أولادِه أبدا ما تناسلوا دائما، وما تعاقبوا، للذّكر مثلُ حظِّ الأنثيين، يتناقلونه بينهم كذلك الى حين انقراضهم، يَحجُب الآباءُ منهم والأمّهاتُ أولادَهم وأولادَ أولادِهم وإن سَفُلوا؛ فإن لم يكن له ولدٌ[1] ولا ولدُ ولدٍ ولا أسفلُ من ذلك، كان نصيبُه لإخوته الموجودِين حين موته، للذّكر مثلُ حظِّ الأنثيين، يَحجُب الآباءُ منهم والأمّهاتُ أولادَهم وأولادَ أولادِهم؛ فإن لم يوجد من أولاد الموقوف عليه وأولادِ أولادِه أحدٌ كان ذلك وقفا مصروفا رَيعُه على مصالح المسجد الذى بالموضع الفلانىّ — ويوصَف ويُحدَّد — برسم عمارته ومَرَمّتِه وفرشِه ووقود مصابيحِه وشراءِ ما يحتاج اليه من الزّجاج والنّحاس والحديد، ومن يقوم بخدمتِه والأذانِ فيه، ومن يؤمّ فيه بالمسلمين فى الصلوات الخمسِ المكتوبةِ المفروضةِ على سائر المسلمين، على ما يراه الناظر فى ذلك؛ فإن تعذّر الصرفُ عليه بوجه من الوجوه كان ذلك وقفا على الفقراء والمساكينِ أينما كانوا وحيثما وُجِدوا من الديار المصريّة أو الشامِ، أو عملٍ من الأعمال، أو بلدٍ من البلاد، على ما يراه الناظرُ فى ذلك من مساواةٍ وتفضيل، وإعطاءٍ وحرمان؛ ومتى أمكن الصرفُ الى ما ذُكِر من مصالح المسجد كان الوقفُ عليها والصرفُ إليها، يَجرِى الحالُ فى ذلك كذلك الى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومن عليها وهو خير الوارثين؛ على أنّ للنّاظر فى هذا الوقف والمتولّى عليه أن يؤجِره لمن شاء

(١) «له»، أى لأحد المستحقّين من الأولاد وأولاد الأولاد الخ كما يدل على ذلك سياق ما يأتى بعده من الكلام، فرجع الضمير مذكور ضمنا وان لم يتقدّم ذكره تصريحا؛ وكان الأولى فيما يظهر لنا أن يقول: «فمن لم يكن له» لأنه أوضح فى المعنى، والوضوح أولى بالوثائق.

ماشاء من المُدَد: طوالها وقصارها، بما يراه من الأُجَر: المعجَّلة أو المؤجَّلة أو المنجَّمة ؛ أو يكتب: «وعلى الناظر فى هذا الوقف أن يُؤجِره لسنةٍ كاملةٍ فما دونها، بأجرة المِثل فما فوقها» ولا يتعجّلْ أجرة، ولا يُدخِلْ عقدا على عقد إلّا أن يجد فى مخالفة ذلك مصلحةً ظاهرة، أو غبطةً ظاهرة(١)، فيؤجِره لمدّةِ كذا وكذا ولمن شاء، ويَستغِلّ أُجْرَه بوجوه الاستغلال الشرعيّة، فما حصل من رَيعه بدأ منه بعمارته ومَرَمّته وإصلاحه وما فيه بقاءُ عينه ودوامُ منفعته، ثم مافَضَلَ بعد صَرفَه لمستحقّه على ماشُرِح أعلاه؛ وجَعَلَ الواقفُ النّظرَ فى هذا الوقف والوَلايةَ عليــه لفلان الموقوفِ عليه أوّلا، ثم من بعدِه لأولادِه وأولادِ أولادِه، يُنظَّر كلٌّ منهم على حصّته فى حالِ استحقاقِه وعلى حصّةِ من تعذَّر نظرُه من المستحقّين لصغرٍ أو سفهٍ أو غيبةٍ أو عدمِ أهليّة، أو سببٍ من الأسباب، الى حين تمكّنِه من النظر، فيعود حُكمُه حُكمَ باقى المستحقّين فى النظر على حصّته وحصّةِ غيرِه؛ فإن تعــذّر النظرُ من أحدِهم أو من جميعِهــم بسببٍ من الأســباب، أو انقرضوا ولم يُوجد منهم أحد، كان النظرُ فى ذلك لحاكم المسلمين؛ وان عاد إمكانُ النظر الى مستحقّ الوقفِ أو إلى أحدٍ منهم قُدِّم فى النظر على غيره؛ ومن عُدِمتْ منهم أهليّتُه وكان له ولىٌّ ينظرُ فى مالِه كان النظرُ له على حصّته فى هذا الوقف دون غيرِه من المستحقّين ومن الحاكم؛ يَجرِى الحالُ فى ذلك كذلك وجودا وعدما، الى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومن عليها وهو خير الوارثين؛ ولكلّ ناظر فى هذا الوقف أن يستنيب عنه فى ذلك من هو أهلٌ له؛ وعلى كلّ ناظر فى هــذا

(١) قد يتوهّم أن هذه الكلمة مكررة مع ماسبق قبلها؛ وليس كذلك، فان المراد أن الكاتب مخيّر بين أن يقول: «مصلحة ظاهرة»، أو يقول: «غبطة ظاهرة»، وليس المراد أن يجمع بينهما فى مكتوب واحد، وإذن فلا تكرار، ويرشد إلى ذلك العطف «بأو» فى قوله: «أو غبطة»، اذ لو كان المراد الجمع بين العبارتين لعطف بالواو؛ على أنّ مثل هذا التكرار إن وجد لا يلزم منه محظور.

الوقف أن يتعهّد إثباتَه عند الحاكم بحفظِه بتواتُرِ الشّهادات وآتّصال الأحكام، وله أن يصرف فى كُلْفة إثباتِه ما جرت العادةُ به من رَيع هـذا الوقف؛ وَقَفَ فلانٌ المبتدأُ باسمِه جميعَ ذلك على الجهات المعيَّنة، بالشروطِ المبيَّنة، على ما شُرِح أعلاه؛ وقفـا صحيحا شرعيّا مؤبّدا، وحبسا دائمـا سرمدا، وصـدقةً موقوفة، لا تبـاع (١١٤) ولا تُوهب، ولا تملَّك، ولا ترهَن، ولا تُتلَف بوجهِ تلف، قائمةً على أصولهـا محفوظةً على شروطها، الى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومن عليها وهو خيرالوارثين؛ وقَبِل هذا الموقوفُ عليه ذلك لنفسه قبولا شرعيّا، وتَسلّم الموقوفُ عليـه الدّارَ المذكورة وصـارت بيَدِه وقبضِـه وحَوْزِه؛ وذلك بعـد النظر والمعرفة، والإحاطة به علمـا وخِبْرة؛ فلا يَحِـلّ لأحد يؤمن بالله واليـوم الآخر إخراجُه عن أهـله، وحرامٌ على من غيّره أو بدّله ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَـا إِثْمُـهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

فصـــل

اذا وقف رجل دارا على أولاده وعلى من يُحدثه الله من الأولاد، ثمّ على المسجونين ثمّ على فكّ الأسرى، ثمّ على الفقراء والمساكين، كتب ما مثالُه : هذا كتابُ وقفٍ صحيحٍ شرعىّ، وحبسٍ صحيحٍ مرضىّ(١)، تقرّب به واقفُه الى الله تعالى رغبةً فيما لديه وذخيرةً له يوم العرض عليه؛ يوم يجزى الله المتصدّقين، ولا يضيع أجر المحسنين؛ اكتتبه فلان، وأشهد على نفسه أنّه وَقَف وحبّس وسبّل وحرّم وأبّد وتصدّق

(١) كذا ورد هـذا اللفظ فى الأصل؛ وهو مكرر مع ما سبق فى الجملة التى قبل هذه؛ فلعلّ صوابه : « صريح » على أن مثل هـذا التكرار لا يلزم منه فساد فى اللفظ ولا فى المعنى، إلا أن الأولى فى الكتابة عدم حصوله .

بمـا هو له وفى يده وملكه وتصرّفه ، وعَرَفه ورآه ، وأحاط به علما و [خِبرة] (١) .

... ... (٢)

... ...

[عقّار (٣) بالعين والقاف والراء : عَقّارُ بنُ (٤) المُغيرةَ بنِ شُعْبة ، وغيرُه ؛ وغفار ، هو أبو غفار (٥) ، عن (٦) أبى تَميمة ، وأبو غِفار (٧) غالبٌ التمّار .

ف والمختلف أسماء نقلة الحديث

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها أخذا مما سبق فى ص ١٥٧ س ١ وص ١٥٩ س ٩ من هذا السفر ، وغير ذلك من المكاتيب والعقود السابقة .

(٢) هنا عدّة صفحات ساقطة من الأصل تشتمل على بقيّة كتاب الوقف الذى نحن بصدده وما عسى أن يكون بعده من بقيّة كتابة الحكم والشروط ، كما تشتمل أيضا على أوّل كتابة النسخ وشىء من المؤتلف والمختلف من أسماء نقلة الحديث من أوّل حرف الألف إلى الكلام على عقّار بن المغيرة بن شعبة فى حرف العين ؛ ولم نثبت هنا بقية كتاب الوقف الذى نحن بصدده عمّا بين أيدينا من كتب الوثائق والشروط ، لاحتمال أن يكون ما سقط من الأصل مخالفا لما فى الكتب الأخرى فى الألفاظ والعبارات ، وإن اتحدا فى المعانى والأغراض .

(٣) هذه التكملة مع أسماء كثيرة قبلها ساقطة من الأصل ، وهـذه الأسماء تبتدئ من حرف الألف إلى هذا الموضع فى الكلام على عقّار بن المغيرة فى حرف العين ، كما سبق التنبيه على ذلك فى الحاشية رقم ٢ من هذه الصفحة ؛ وقد نقل المؤلّف هذه الأسماء عن كتاب المؤتلف والمختلف فى أسماء نقلة الحديث لعبد الغنىّ بن سعيد المصرىّ ، كما سينبّه بعد على هـذا النقل ؛ وقد نقلنا هذه التكملة عن هـذا الكتاب إذ لا يتمّ ما بعدها من الكلام بدونها ، ولم ننقل ما قبلها من الأسماء لتعذّر معرفة ما أثبتـه المؤلّف منها وما لم يثبته فى الصفحات التى سقطت من الأصل ، فإنه لم ينقل عن كتاب المؤتلف والمختلف جميع ما ورد فيه ، وإنما جرى فى ذلك على طريقـة الاختصار وحذف البعض ، كما سينبّه على ذلك بعد ، وكما يتبيّن ذلك من مقابلة ما بقى هنا من هذه الأسماء بما فى كتاب المؤتلف والمختلف ، وذلك هو دأبه فى جميع أبواب هـذا الكتاب حين ينقل عن الكتب الأخرى .

(٤) الذى فى طبقات ابن سعد ج ٦ ص ١٨٨ طبع ليدن : «العقار» بزيادة ألف ولام .

(٥) عبارة المؤتلف والمختلف ص ٨٦ : «هو مثنّى أبو غفار» فذكر اسمه وكنيته ؛ واقتصر المؤلّف هنا على ذكر كنيته . وفى تقريب التهذيب ص ٢٠١ طبع الهند : «المثنّى» بزيادة ألف ولام ؛ وورد فى هـذا الكتاب أيضا وفى خلاصة تذهيب التهذيب ص ٣٦٨ طبع المطبعة الأميرية ما يفيد أنه مختلف فى هذه الكنية ، فقال بعضهم : إنه أبو عفّان .

(٦) «عن أبى تميمة» ، أى يروى عن أبى تميمة ؛ والذى فى الأصل : «ابن» مكان قوله : «عن» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما فى كتاب المؤتلف والمختلف ص ٨٦ وغيره .

(٧) فى مستدرك التاج مادة «غفر» أنه مختلف فى هذه الكنية ، فقيل : ان كنيته أبو عفّان .

(وعُبَيْس) (وعَنْبَس)

عُبَيْس، هو ابنُ ميمونٍ أبو عُبَيدة، وأمُّ عُبَيْس، امرأةٌ كانت تعذَّب فى الله أعتقها أبو بكر الصِّدّيق — رضى الله عنه —[1]؛ وعَنْبَس، هو ابنُ عُقْبة، وعَنْبَس ابنُ إسماعيلَ القزّاز، وغيرُهما.

٥ (وعَبّاد) (وعُباد) (وعِياذ) (وعِباد)

فأمّا عَبّاد، فكثير؛ وعُباد بضمّ العين، هو قيسُ بنُ عُباد، تابعىٌّ كبير؛ وعياذ بكسر العين وياء مثنّاة وذال معجمة، هو عِياذُ بنُ عمرو[2]، له صحبة، وأُهْبانُ بنُ عِياذ مُكلِّمُ[3]

(١) قال الزبير بن بكار فى قصة أم عبيس هذه: «إنها كانت أمة لبنى تميم بن مرة، فأسلمت أول الإسلام، وكانت ممن استضعفه المشركون يعذبونها، فاشتراها أبو بكر فأعتقها؛ وكنيت بابنها عبيس بن كريز. وذكر البلاذرىّ: «أنها كانت أمة لبنى زهرة، وكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها» اهـ (الإصابة فى تمييز الصحابة) ج ٨ ص ٢٥٨ طبع المطبعة الشرفية بمصر.

(٢) ذكر ابن حجر فى التبصير أنه قيل فيه: انه ابن عبد عمرو.

(٣) ذكر ابن سعد خلافا فى مكلم الذئب، فروى عن هشام بن محمد أن مكلم الذئب هو أهبان بن الأكوع، وعن محمد بن الأشعث أن مكلم الذئب هو أهبان بن عياذ — فى الطبقات «ابن عباد» وهو تصحيف —؛ وقال محمد بن عمر: «مكلم الذئب هو أهبان بن أوس الأسلمى، وذلك أنه كان يسكن (بين)، وهى بلاد أسلم، فبينا هو يرعى غنما له بحرّة الوبرة عدا الذئب على شاة منها، فأخذها أهبان منه، فنتحى الذئب فأقعى على ذنبه، وقال لأهبان: ويحك، «لم تمنع منى رزقا رزقنيه الله»؟ فجعل أهبان الأسلمىّ يصفق بيديه ويقول: «تالله ما رأيت أعجب من هذا» فقال الذئب: «ان أعجب من هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذه النخلات» وأومأ إلى المدينة؛ فحذر أهبان غنمه الى المدينة، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدّثه؛ فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك، وأمره إذا صلى العصر أن يحدّث به أصحابه، ففعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صدق فى آيات تكون قبل الساعة" اهـ (انظر كتاب الطبقات الكبرى) جزء ٤ قسم ٢ صفحة ٤١ طبع ليدن. (وبين) بفتح أوّله وثانيه، وقيل: بفتح فسكون: ناحية من أعراض المدينة على بريد منها، وهى منازل أسلم بن خزاعة، كما قاله نصر؛ وذكر صاحب تاج العروس فى تعيين هذا المكان أقوالا أخرى غير ذلك، فانظره.

الذئب، وعِياذُ بنُ أبى العَيْذ ، وعِياذُ بنُ مَغْراء؛ وعِباد[1] بكسر العين و باء موحّدة : ربيعةُ بنُ عباد، له صحبة، وعِباد العَبْدىّ .

(وعُمارة) (وعِمارة)

عُمارة بالضم، كثير؛ وبكسر العين : واحد، هو أُبَىُّ بنُ عِمارة، له صحبة .

(وعابس) (وعائش)

عابس، كثير؛ وعائش، هو ابنُ أَنَس، وعبدُ الرحمن بنُ عائش الحَضْرَمىّ .

(وعُدْثان) (وعَدْنان)

أمّا عُدْثان، فهو فى نسب غافق[2] بنِ[3] العَتِيك بنِ عكّ[4] بن عُدْثان؛ وعَدْنان، هو عَدْنانُ بنُ أحمدَ بنِ طُولون .

(١) كان الأنسب تقديم الكلام على « عباد » بكسر العين على «عياذ» السابق قبله، أى جعله بعد الكلام على « عباد » بضم العين، وذلك لاتفاقهما فى المادّة؛ وكما هو صنيع الذهبي فى المشتبه وابن حجر فى التبصير المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ مصطلح ش .

(٢) فى الأصل : «عافق» بالعين المهملة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما فى مستدرك التاج وغيره.

(٣) الذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة وغيرها أن غافقا ليس ابن العتيك كما هنا، و إنما هو ابن الشاهد؛ وقيل : ابن الحارث بن عك بن عدثان، كما فى مستدرك التاج مادة « غفق » . وجاء فيه أيضا مادّة «عك» ضمن كلام نقله عن ابن حبيب ما نصه : «ثم إن عكا هذا عقبه فى فخذين : الشاهد والصحار بنى عك، ومن بنى الشاهد غافق» الخ والذى فى كتاب المؤتلف والمختلف المنقولة عنه هذه الأسماء : « فى العتيك » مكان « ابن العتيك » أى أن نسب غافق فى هذه القبيلة، وليس الأمر كما ذكر، فان غافقا من بنى الشاهد ابن عك، أو من بنى الحارث بن عك، وليس من بنى العتيك، كما يتبين ذلك مما نقلناه عن مستدرك التاج .

(٤) الذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة والأنساب أن العتيك ليس ابن عك بن عدثان كما هنا وكما فى المؤتلف والمختلف أيضا، و إنما هو ابن الأسد بن عمران بن عمرو مزيقياء بن ماء السماء، كما فى شرح القاموس مادة « عتك » ووفيات الأعيان ج ٢ ص ١٤٥ طبع المطبعة الميمنية فى نسب المهلب بن أبى صفرة، وكتاب نسب عدنان وقحطان المحفوظة منه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة تحت رقم ١٨٣٩ تاريخ . والذى فى أنساب السمعانى ورقة ٣٨٣ أن العتيك هذا هو ابن النضر بن الأزد بن الغوث . والذى فى الأصل : « على » مكان « عك » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما فى كتاب المؤتلف والمختلف وغيره .

(وعَلِيّ) (وعُلَيّ)

... ... عُلَيّ بضم العين وتشديد اليـاء ، هو عُلَيُّ بنُ رَباح ، والأَصْبَغُ بنُ عَلقَمةَ بنِ عُلَيّ (١) .

(وعَيْشُون) (وعِيسُون) (وعَبْسُون)

أمّا عَيْشُون ، فهو عبدُ الله بنُ عَيْشُون (٢) الحَرّانيّ ، ومحمدُ بنُ عَيْشُون ؛ وأمّا عِيسُون ، فهو عبـدُ الحميد بنُ أحمدَ بنِ عيسى ، هـذا (٣) يُعرَف بعِيسُون ، ومحمّـدُ بنُ عِيسُون الأَنْمـاطيّ ؛ وأمّا عَبْسُون ، فهو محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عَبْسُون البغداديّ .

(وعَتِيق) (وعُتَيْق)

الأوّلُ بالفتح ، كثير ؛ وعُتَيْق بالضم ، هو عُتَيْق بنُ محمّد .

(وعُتْبـة) (وعِنَبة) (وغَنِيّة) (وعُبَيّة) (٤)

أمّا عُتْبة بضم العين ، فكثير ؛ وأمّا عِنَبة بكسر العين وبعدها نون ، فهو أبو عِنَبةَ الخَوْلانيّ ، أدرك الجاهليّة والإسلام ، والحارثُ بنُ عِنَبةَ الكوفيّ ؛ وأمّا غَنِيّة بالغين

(١) لم يرد فى الأصـل كلام عن « على » بفتح العين ، فلعل المؤلف تركه لشهرته وكثرة من سمى به دون ما بعده لندرته واحتياجه الى التوضيح ؛ وقد تكرر مثل هـذا الحذف فى مواضع كثيرة من هذا الباب ونبهنا عليه فى مواطنه . وعبارة عبد الغنى فى المؤتلف والمختلف ص ٨٨ : « على بفتح العين وكسر اللام وتسكين الياء ، كثير » .

(٢) عيشون هذا هو جدّ عبد الله ، وأما أبوه فهو محمد بن عيشون انظر المؤتلف والمختلف ص ٨٩ والإكمال لابن ماكولا جزء ٢ ورقة ١٥٤ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨ مصطلح .

(٣) « هذا » ، أى عيسى جدّ عبد الحميد ، كما تدل على ذلك عبارة الذهبي فى المشتبه ص ٣٨١ طبع ليدن .

(٤) لم يرد هذا الاسم فى كتاب المؤتلف والمختلف المنقولة عنه هذه الأسماء ؛ والذى فى مستدرك التاج مادة « عتى » أنه يقال فيـه : « عتية » بالتاء و « عبية » بالباء . وذكره الذهبي فى المشتبه ص ٣٤٦ وابن حجر فى التبصير بالتاء المثناة .

المعجمة ونون وياء، فعبدُ الملك بنُ حُمَيْـدِ بنِ أبى غَنِيَّةَ والدُ يحيى ؛ وأمّا عُبَيْـة ، فاسمٌ مشهور (١) .

(وعبّاس) (وعيّاش) (وعيّاس) (وعنّاس)

فأمّا عبّاس، فكثير؛ وأمّا عيّاش، فجماعة، منهـم عيّاشُ بنُ أبى رَبيعة ؛ وأمّا عيّاس بالياء المثنّاة من تحت والسين المهملة ، فهو أبو العَيّاس، يَروِى عن سعيد بن المُسيِّب؛ وأمّا عنّاس بالنون والسين المهملة، فهو عنّاسُ بنُ (٢) خليفة .

(وعَبْدان) (وعَيْدان) (وعِيدان)

فعَبْدان، اسمٌ مشهور؛ وعَيْدان بفتح العين، هو رَبيعةُ بنُ عَيْدان (٣)؛ وأمّا عِيدان (٤) بكسر العين، فهو واحد من المحدِّثين .

(وعَقِيل) (وعُقَيل) اسمان مشهوران .

(وعتّاب) (وغِياث) كذلك .

(١) قول المؤلف عن هـذا الاسم إنه مشهور يوهم أنّ المسمين به كثيرون، ولم نجـد فيما لدينا من الكتب من سمى بعبية غير عبيـة بنت هلال العبدية ، وقيل : بنت ابراهيم بن على بن سـلمة بن عامر بن هرمة، كما فى شرح القاموس مادة « عبي » . فلعـله يريد بقوله : «مشهور» أنه معروف وإن لم تكثر التسمية به، إذ لا يلزم من معرفة الاسم كثرة التسمية .

(٢) كذا فى الأصل والمشتبه ص ٣٣٥ والمؤتلف والمختلف ص ٩٠، والإكمال جزء ٢ ورقة ١١٢ ؛ والذى وجدناه فى مسـتدرك التـاج مادة « عنس » : « أبو خليفة » وكذلك فى التبصير فى كلتا نسختيه المخطوطتين المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٣ ، ٤ مصطلح ش ؛ ولم نجـد ما يرجح إحدى الروايتين على الأخرى .

(٣) قيل فيه أيضا : إنه ابن عبـدان بكسر العين وبعـدها باء موحدة ، كما فى المؤتلف والمختلف ص ٩١ وغيره .

(٤) كذا ورد هذا الاسم فى الأصل بالياء المثناة، ونص على ذلك أيضا الحافظ عبد الغنىّ فى المؤتلف والمختلف ص ٩٠ والذى فى مشتبه الذهبىّ ص ٣٣٧ والتبصير ومستدرك التاج مادة «عبد» : «عبدان» بالباء الموحدة، وهو جدّ عطاء بن نقادة، حدّث عنه يعقوب بن محمد الزهرىّ .

(وعُلَيْم) (وعَلْثَم)

أمّا عُلَيْم، فهو الّذى يَروِى عن سَلْمانَ الفارسىّ؛ وأمّا عَلْثَم، فهو والدُ عَمّارِ ابنِ عَلْثَم.

(وعيسى) (وعَبْسىّ)

٥ أمّا الأوّلُ، فاسمٌ مشهورٌ معروف؛ والثانى بفتح العين وتسكين الباء الموحّدة وكسر السين، فهو عَبْسى[1] بنُ قاشِىّ[2]، اجتمع بأحمدَ بنِ حنبل.

(وعُثَيْم) (وغُنَيْم)

الأوّلُ: اسمُ جماعة، منهم عُثَيْمُ بنُ نِسْطاس، رَوى عن سعيد المَقْبُرىّ؛ وغُنَيْم بالغين المعجمة والنون: غُنَيْمُ بنُ قَيْس، أبو العنبر، أدرك النّبىّ صلّى الله عليه

١٠ وسلّم ورآه.

(وعُتَيْبة) (وعُيَيْنة)

الأوّلُ: الحَكَمُ بنُ عُتَيْبة، وعُتَيْبة عن[3] بُرَيْد[4] بنِ أَصْرَم عن علىّ؛ وأمّا عُيَيْنة، فكثير.

(١) «عبسىّ»: لقب له، أما اسمه فهو عيسى، أو العباس، كما فى كتاب المؤتلف والمختلف ص ٩٥

١٥ طبع الهند.

(٢) فى المشتبه ص ٣٩٣ فى الكلام على الفرق بين (الفاسى) (والقاشى): «ابن القاشىّ» بزيادة ألف ولام.

(٣) فى الأصل والمشتبه ص ٣٤٩ «ابن» مكان «عن»؛ وهو تحريف فى كليهما، صوابه ما أثبتنا كما فى المؤتلف والمختلف ص ٩٥ وتبصير المنتبه؛ ونص عبارة التبصير: «عتيبة بالتصغير روى عن

٢٠ بريد».

(٤) فى الأصل ومشتبه الذهبىّ والمؤتلف والمختلف «يزيد» مكان «بريد» عند الكلام على الفرق بين «عتيبة» و«عيينة»؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن المشتبه أيضا ص ٥٥٥ والتبصير عند الكلام على الفرق بين «يزيد» و«بريد» ومستدرك التاج مادة «برد»؛ بل ذكر فى التبصير: «أن بعضهم قال فيه: «يزيد»؛ وهو تصحيف.

(وعُدَيْس) (وعَدَبَّس)

عبدُ الرحمن بنُ عُدَيْس[1]، له صحبة؛ وعَدَبَّس بالبـاء الموحّدة، هو جدُّ عبدِ الله ابنِ أحمدَ بنِ وُهَيْب بنِ عَدَبَّس، وأبو العَدَبَّس مَنِيعُ بنُ سليمان .

(وعُفَيْر) (وغُفَيْر)

الأوّلُ بالعين المهملة : جماعة؛ والثانى بالإعجام، هو الحسنُ بنُ غُفَيْر . ٥

(وعَدِىّ) (وعُدَىّ)

الأوّلُ بالفتح، كثير؛ والثانى بالضم، هو زيادُ بنُ عُدَىّ . (١١٥)

(وعائذ) (وعابد)

الأوّلُ بالياء المثنّاة من تحت والذال المعجمة، كثير؛ والثانى بالباء الموحّدة والدال المهملة : حَبِيس[2] بنُ عابد، وعابدُ بنُ عمرِ[3] بنِ مخزوم . ١٠

---

(١) مقتضى صنيعه فى الأسماء السابقة والآتية بعـد أن يقول : « الأوّل : عبـد الرحمن » الخ أو يقول : « أما عديس فهو عبد الرحمن » ، فلعـله خالف طريقته هنـا للعلم بالمحذوف من السـياق . ويرجحه أن عبارته هذه هى الواردة فى كتاب المؤتلف والمختلف ص ٩٥

(٢) كذا فى المؤتلف والمختلف ص ٩٧ وغيره من الكتب التى بين أيدينا ؛ والذى فى الأصـل : « بسر » ؛ ولم نجد فيما لدينا من الكتب من اسمه « بسر بن عابد » إلا أنه قد ورد فى تقريب التهذيب ص ٢٣ طبع الهند : « بشر بن عائذ » بالياء المثناة والذال المعجمة ؛ فلعل هذا الاسم هو الذى تصحف على المؤلف هنا فأورده فى الكلام على « عابد » بالباء الموحدة والدال ؛ وهو خلاف الصواب . ١٥

(٣) كذا فى كتاب المؤتلف والمختلف ص ٩٧ وشرح القـاموس مادة « عبـد » وتبصير المنتبـه المحفوظة منه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة تحت رقم ٣ مصطلح ش ؛ وزاد فى شرح القاموس والتبصير قبل قوله : « ابن عمر » قوله : « ابن عبد الله » . والذى فى الأصل : « ابن عمران » ؛ وهو تحريف ، فإن ابن عمران هو عائذ بالياء المثناة والذال المعجمة ؛ وأما « عامد » بالبـاء والدال فهو ابن عمر كما أثبتنا انظر مشتبه الذهبى ص ٣٣١ فى الكلام على الفرق بين العابدىّ والعائذىّ ، وكذلك نص عليـه فى التبصير فقال : « ومن كان من ولد عمران بن مخزوم فهو « عائذ » يعنى بياء وذال معجمة » ا هـ . ٢٠

(وغَزْوان) (وعَزْوان)

الأوّلُ بالإعجام، كثير؛ والثانى بالعين المهملة، هو عَزْوانُ بن زيد[1] الرَّقاشى روَى عن الحسن[2] البَصْرىّ .

(وغَنّام) (وعَتّام)

الأوّلُ : غَنّام، بَدْرىّ، وتَسمّى به غيرُه؛ والثانى : عَتّامُ بنُ علىّ .

(وغُرَيْر) (وعُزَيْز) و (عَزِيز) (وعُزَيْر)

الأوّلُ بالغين معجمة وراء مهملة مكرّرة، هو غُرَيْرُ بنُ حُمَيْد[3] بنِ عبدِ الرحمنِ ابنِ عوف؛ والثانى عُزَيْز بالعين[4] المهملة مضمومة وزاى مكررة معجمة، هو محمّدُ ابنُ عُزَيْز الأَيْلىّ، ومحمّدُ بنُ عُزَيْز[5] السِّجِسْتانىُّ صاحبُ غريب القرآن؛ والثالث عَزِيز بفتح العين المهملة وكسر الزاى الأولى المعجمة، هو والدُ خَيْثَمة ؛ قال خَيْثَمةُ بنُ عبدِ الرحمن : « كان اسمُ أبى فى الجاهليّة عَزِيزا، فسمّاه النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم

(١) كذا فى الأصل وكتاب المؤتلف والمختلف ومستدرك التاج مادة « عزا » ؛ والذى فى المشتبه والتبصير : «يزيد» .

(٢) كذا فى المشتبه ص ٣٨٦ ومستدرك التاج مادة (عزا) والتبصير ؛ والذى فى الأصل وكتاب المؤتلف والمختلف ص ٩٧ والإكمال : « عنه » بزيادة هاء الضمير ؛ ولم نجد فيمن روى عنهم الحسن البصرىّ من اسمه (عزوان) انظر طبقات ابن سعد جزء ٧ قسم أول صفحة ١١٤، ١١٥ وتهذيب الكمال المحفوظة منه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة تحت رقم ٢٥ مصطلح .

(٣) زاد فى التبصير والمشتبه ص ٣٦٢ قبل قوله : «ابن حميد» قوله : « ابن المغيرة» .

(٤) فى الأصل : «بفتح العين» ؛ وقوله : «بفتح» زيادة مخالفة للصواب، ومنافية لقوله بعد : « مضمومة » .

(٥) أورد الذهبى هذا الاسم فى المشتبه ص ٣٦١ بالراء المهملة فى آخره مكان الزاى المعجمة، ونقل عن بعضهم أن من قاله بزايين معجمتين فقد صحف . وقد ذكر ابن حجر فى (التبصير) هذا الخلاف، وبسط القول فيه، ومال فى آخر كلامه إلى أنه بزايين معجمتين كما هنا .

عبـدَ الرحمن » . والرابع عُزَيْر بالزاى والياء المثنّاة تحت[1] : أحمـدُ بنُ عُبَيـد الله حمارُ العُزَيْر .

(وغَزُّون)[2] (و عَزُّون)[2]

الأوّلُ : من شيوخ المَوْصِل ؛ والثانى : بالعين المهملة ، هو جدُّ علىِّ بنِ الحسينِ ابنِ عَزُّون[3] . ٥

(وغَنِيّ) (وعُتَيّ)

الأوّلُ : عطيّةُ بنُ غَنِيّ ؛ والثانى : عُتَيُّ بنُ ضَمْرة ، عن أُبَيّ بنِ كعب .

(وفُضَيْل) (وفَصِيل)

الأوّلُ ، كثـير ؛ والثانى بالفاء والصاد المهملة مكسورة : الحَكَمُ بنُ فَصِـيل يَروِى عن خالد الحذّاء ، عن نافع ، عن ابنِ عمر . ١٠

(وفَرِيس) (وقُرَيش)

الأوّلُ بفاء مفتوحة وسين مهملة ، هو فَرِيسُ بنُ صَعْصَعة ؛ والثانى ، كثير .

(وفَرَج) (وفَرَح) (وفَرْخ)

الأوّلُ بالجيم : جماعة ؛ والثانى بالحاء المهملة : قليل ، منهم فَرَحُ بنُ رَواحة ؛ والثالث بالخاء المعجمة والراء الساكنة ، هو جدُّ عبدِ الله بنِ محمّدِ بنِ فَرْخ[4] الواسطىّ . ١٥

(١) كان الأنسب أن يزيد بعد ذكر الياء المثناة الراء المهملة أيضا كما ذكرها صاحب كتاب المؤتلف والمختلف ص ٩٨ فانّ ذكر الراء المهملة فى تعيين هذا الاسم ألزم من ذكر الحرفين اللذين قبلها ، لأنه إنما يتميز عما سبقه بالراء المهملة فى آخره لا بالزاى والياء .

(٢) فى الأصل : «غزوان» و «عزوان» ؛ وهو تحريف فى كليهما صوابه ما أثبتنا ، كما فى كتاب (المؤتلف والمختلف) ص ٩٩ وأيضا فقد تقدّم الكلام على غزوان وعزوان فى ص ١٦٧ س ١ من هذا السفر ٢٠

(٣) فى الأصل : «ابن غزوان» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما فى المؤتلف والمختلف .

(٤) فى المؤتلف والمختلف « ابن الفرخ » بزيادة « ال » .

(وفَتح) (وفَنَّج)

الأوّلُ اسمٌ مشهور ؛ والثـانى بالفاء والنون والجيم : واحد ، روى [عبدُ الله ابنُ][1] وهبِ بنِ منبِّهٍ عن أبيه ، قال : « حدّثنى فَنَّج »[2] ... .

(وقَهْم) (وفَهْم)

الأوّلُ بالقاف ، هو النَّهّاسُ بنُ القَهْم[3] ؛ والثـانى بالفاء ، هو فَهْمُ بنُ عبدِ الرحمن ، وغيرُه .

(وكَثِير) (وكَنِيز) (وكُثَيِّر[4]) (وكَبِير) (وكُنَيْز[5])

(١) هذه التكلة ساقطة من الأصل ؛ وقد نقلناها عن كتاب المؤتلف والمختلف ص ١٠٣ إذ بدونها يفيد الكلام معنى مخالفا للصواب ، فإن الذى روى عن أبيه الحديث المشار اليه إنما هو عبد الله بن وهب لا وهب .

(٢) لم يرد فى الأصل الحديث الذى حدّثه فنج لوهب بن منبه ، فلعل المؤلف قد تركه اختصارا واكتفى بالمقصود فى هـذا الموضع ، وهو تعيين الأسم الذى هو بصدد تعيينه دون ما عداه ، كما هو دأبه فى جميع أبواب هذا الكتاب ؛ وقد أورده الحافظ عبد الغنى فى كتاب المؤتلف والمختلف ص ١٠٣ ، ونصه : قال — أى فنج — : « كنت أعمل فى الدّينباذ أعالج فيها ، فلما قدم يعلى — وهو ابن أمية — أميرا على اليمن ، جاء معه برجال ، فجاءنى رجل ممن قدم معـه وأنا فى الزرع أصرف الماء فيـه ، معه فى كمه جوز فجلس على ساقيـة ، وهو يكسر من ذلك الجوز ويأكل ؛ قال : ثم أشار إلىّ فقال : « يافارسى هلم » فدنوت منه ، فقال لى : يافنج : أتأذن لى أن أغرس من هـذا الجوز على هذا الماء ؟ فقال له فنج : ما ينفعنى ذلك ؟ قال الرجل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من نصب شجرة فصـبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر ، كان له بكل شىء يصاب من ثمرها صدقة عند الله" الخ . والدّينباذ المذكور فى كلامه ورد فى القاموس وشرحه بأسم « نبذ الدّينباذ » بكسر الدال المهملة ، وهو موضع باليمن كثير الجوز .

(٣) فى المؤتلف والمختلف وغيره من الكتب التى بين أيدينا « ابن قهم » بغير « ال » .

(٤) كان الأنسب أن يذكر هذا الاسم تاليا « لكثير » بفتح الكاف ، وذلك لاتفاقهما فى المادّة ، وأيضا فذلك هو ترتيب الذهبى فى المشتبه ص ٤٣٩ وابن حجر فى التبصير .

(٥) كان الأنسب أن يذكر هذا الأسم تاليا « لكنيز » بفتح الكاف ، وذلك لاتفاقهما فى المادّة ، وكما أورده الذهبى فى المشتبه وابن حجر فى التبصير .

الأوّلُ بالفتح والثاء المثلّثة: اسمٌ مشهور؛ والثانى بالفتح والنون والزاى معجمة، هو بحرُ بنُ كَنِيز السّقّاء؛ والثـالث كُثير بضم الكاف وتشديد اليـاء، هو كُثَيِّرُ بنُ عبدِ الرحمن؛ والرابع كَبير بالفتح والباء الموحّدة والياء الساكنة، هو أبو أُمية كَبـير والدُ جُنادةَ الأَزْدىّ؛ والخامس كُنَيْز بضم الكاف وفتح النون، هو كُنَيْز الخـادم كان يحدِّث بمصر. ٥

(وكَبْشة) (وكَيِّسة)

الأوّلُ، كثير؛ والثـانى بالياء والسين، هو أبو كَيِّسةَ[1] البَراءُ بنُ قيس، وكَيِّسةُ بنتُ أبى بَكْرَةَ[2] الثَّقفىّ.

(ومُسْلِم) (ومُسَلَّم)[3] ... ...

---

(١) قال أبو مسلم والدارقطنى فى هذا الاسم: إنه أبو كبشة بالباء الموحدة والشين المعجمة (المشتبه فى أسماء الرجال ص ٤٣٧) ١٠

(٢) كذا فى القاموس مادّة «كيس» والمصباح مادّة «بكر» والمشتبه ص٤٣٧ وتبصير المنتبه؛ والذى فى الأصـل: «بكر» بلا تاء فى آخره؛ وهو خطأ من النـاسخ؛ «وأبو بكرة»، هو نفيع بن مسروح وكنى أبا بكرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حاصر أهل الطائف قال: "أيما حر نزل إلينا فهـو آمن، وأيما عبد نزل إلينا فهو حر"؛ فنزل إليه عدّة من عبيد أهل الطائف وفيهـم أبو بكرة هذا؛ وكان قد تدلى إليهم فى بكرة، فكنى بذلك (الطبقات الكبرى) لابن سعد ج ٧ قسم أول صفحة ٨ و ٩ طبع ليدن. ١٥

(٣) لم يرد فى الأصل تفصيل لهـذين الاسمين؛ وقد تكرر مثل هـذا الحذف فى مواضع كثيرة من هذا الباب، منها ماسبق فى ص ١٦٣ س ٢، وما يأتى بعد فى ص ١٧٤ س ١ و ٢ وص ١٨٠ س ٥ وغير ذلك من المواضـع الكثيرة الآتية فى الكلام على مشتبه النسبة؛ وقد نبهنا على كل ذلك فى مواطنه؛ وتكرر مثل هذا الحذف يشعر بأنه مقصود من المؤلف اختصارا، لا أن هذا التفصيل قد سقط من الناسخ؛ ولهذا لم نثبت هذا التفصيل فى صلب الكتاب بين مربعين، واكتفينـا باثبات ذلك فى الحاشية نقلا عن كتاب المؤتلف والمختلف ص ١٠٩ فقد جاء فيه ما نصه: «فسلم ساكنة السين مكسورة اللام، كثير واسـع استغنى عن ذكره؛ ومسلم بفتح السين واللام وتشديدها، منهم مسلم بن محمد بن عوجر صنعانى، ويوسف بن سعيد بن مسلم روى عنه أبو عبد الرحمن النسائى، والحسن بن أحمد بن مسلم، روى عن محمد بن عبد الرحيم بن شروس» الى آخر ما ورد فى هذا الكتاب من الأسماء، فانظره. ٢٠ ٢٥

(ومَخْلَد) (ومُخَلَّد)

الأوّلُ بتسكين الخاء، كثير، والثانى بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام: مَسْلَمَةُ[1] ابنُ مُخَلَّد، له صحبة، والحارثُ بنُ مُخَلَّد، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(ومُعاوية) (ومُغْوِية)

٥ الأوّلُ، معروف، والثانى بالغين المعجمة ، هو أبو راشد الأَزْدىّ، وَفَدَ على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال له : "ما اسمُك"؟ فقال : «عبدُ العُزَّى»، قال : "أبو مَن"؟ قال : «أبو مُغْوِية» ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "كلّا ، ولكنّك عبدُ الرحمن أبو راشد" .

(ومُبَشِّر) (ومُيَسِّر)

١٠ الأوّلُ، اسمٌ مشهور، والثانى، هو مُيَسِّرُ بنُ عمرانَ بنِ عُمَيْر، مولى عبد الله بن مسعود، وعلىُّ بنُ مُيَسِّر، كوفىّ .

(ومَعْمَر) (ومُعَمَّر) اسمان مشهوران .

(ومَعْبَد) (ومُعَيْد)

الأوّلُ، كثير، والثانى، هو أبو مُعَيْدٍ حَفْصُ بنُ غَيْلان .

١٥ (ومِسْوَر) (ومُسَوَّر)

الأوّلُ بكسر الميم وتسكين السين المهملة، كثير، والثانى، هو بضم الميم وفتح السين وتشديد الواو، وهو مُسَوَّرُ[2] بنُ يزيد المالكىُّ الكاهلىّ، له صحبة .

(١) فى الأصل : «مسلم» بسقوط التاء، والصواب إثباتها، كما فى كتاب المؤتلف والمختلف ص ١٠٩ ومشتبه الذهبى ص ٤٧٠ وغيرهما .

٢٠ (٢) فى الإكمال جزء ٢ ورقة ٢٥٦ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨ مصطلح «المسوّر» بزيادة «ال» .

(وَمَرْثَد) (وَمَزْيَد) (وُمَرَيْد) (وُمَزِّيد)[1]

الأوّلُ بفتح الميم وسكون الراء المهملة والثاء المثلّثة، كثير؛ والثانى مَزْيَد بالزاى والياء، هو الوليدُ بنُ مَزْيَد [صاحبُ][2] الأَوْزَاعىّ، ومَزْيَدُ بنُ هلال، «ووالدُ يزيد[3] ابن مَزيد، [ومزيدُ][4] بنُ عبدِ الله»؛ والثالث مُرَيْد بضم الميم والراء المهملة والياء المثنّاة من تحت، هو مُرَيْد، روى عن أيّوب السَّخْتِيانىّ؛ والرابع مُزِيد[5]، هو[صاحب النوادر، بالزاى والباء المعجمة بواحدة][6] .

(١) فى الأصل : «مزيد» بالياء المثناة ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا ، كما يتبين ذلك من التكلة التى أثبتناها بعد فى السطر السادس من هذه الصفحة عن كتاب (المؤتلف والمختلف) المنقولة عنه هذه الأسماء وغيره من الكتب التى بين أيدينا . وقد اختلف العلماء فى ضبط هذا الأسم ، فقال ابن حجر فى (التبصير) : «إن المحفوظ أنه بفتح الزاى وتشديد الموحدة وفتحها ، كما أثبتنا . وقال قبل ذلك : «إنه رآه بخط الذهبىّ ساكن الزاى مكسور الموحدة» . والذى وجدناه فى الإكمال لابن ماكولا ج ٢ ورقة ٢٥١ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨ مصطلح أنه بتشديد الباء المكسورة .

(٢) هـذه الكلمة ساقطـة من الأصل ؛ وقـد أثبتناها عن المؤتلف والمختلف ص ١١٦ والمشتبه ص ٤٧٥ وغيرهما من الكتب ، اذ بدونها تفيد العبارة أنّ الوليد بن مزيد هو الأوزاعىّ ، وليس كذلك .

(٣) وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى الأصل مؤخرة عن موضعها ، فقد ذكرت فى شرح « مزيد » ، وهو الأسم الأخير من هـذه الأسماء الأربعة ؛ وهو خطأ من الناسخ ، والصواب وضعها هنا فى الكلام على «مزيد» بالياء المثناة كما أثبتنا ، نقلا عن المؤتلف والمختلف ص ١١٦ وغيره من الكتب التى بين أيدينا .

(٤) هـذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ وقـد أثبتناها عن كتاب (المؤتلف والمختلف) ص ١١٧ والمشتبه ص ٤٧٤ وغيرهما .

(٥) فى الأصـل : «مزيد» بالياء المثناة ، وضبط بضم أوله وفتح ثانيه ضبطا بالقلم ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، نقلا عن كتاب المؤتلف والمختلف ؛ وقد سبق أن نبهنا على مثل هذا الخطإ فى الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة ، فانظره .

(٦) هذه التكلة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن كتاب المؤتلف والمختلف المنقولة عنه هذه الأسماء ؛ وقد ورد مكانها فى الأصل قوله : « والد يزيد بن مزيد بن عبد الله» ؛ وهو خطأ من الناسخ ؛ والصواب تقديم هذه العبارة الأخيرة ووضعها فى ص ٣ ، ٤ من هذه الصفحة ، كما أثبتنا ، ونبهنا عليه هناك فى الحاشية رقـم ٣ .

(ومُحْرِز) (ومُحَرِّر) (ومُجَزِّز)

الأوّل : مُحْرِزُ بنُ زُهير ، له صحبة ؛ والثانى مُحَرِّر بالحاء والراءين المهملتين هو مُحَرِّر بنُ أبى هريرة[1] ، ومُحَرِّرُ بنُ قَعْنَب ؛ والثالث مُجَزِّز بالجيم وزايين معجمتين هو مُجَزِّز المُدْلِجِىُّ القائف ، وهو فى الصحابة .

(ومُغِيث) (ومُعَتِّب) (ومُعْتِب)

الأوّل : مُغِيثُ بنُ بُدَيل ، ومُغِيثُ بنُ أبى بُرْدة ، ومُغِيثٌ[2] زوجُ بَرِيرة ، له صحبة وغيرهم ؛ والثانى مُعَتِّب ، هو ابنُ قُشَيْر ، ومُعَتِّبُ بنُ أبى مُعَتِّب ، وغيرُهما ؛ والثالث مُعْتِب ، تَسمَّى به جماعة[3] .

(ومُزاحِم) (ومُراجِم)

الأوّل ، مشهور ؛ والثانى مُراجِم بالراء المهملة والجيم : عَوّامُ بنُ مُراجِم .

(ومُسْهِر) (ومُشَهِّر)

الأوّل ، فيه جماعة ؛ والثانى [وَبَرُبنُ][4] مُشَهِّر[5] ، له صحبة .

---

(١) فى المشتبه والتبصير : «المحرّر» بزيادة «ال» .

(٢) قيل فى زوج بريرة : «معتب» بالتاء المشدّدة المكسورة انظر شرح القاموس مادّة (غاث) .

(٣) المسمون «معتبا» بتخفيف التاء ، هم المسمون «معتبا» بتشديدها ؛ فقد جاء فى كتاب المؤتلف والمختلف ص ١٢٠ بعد أن ذكر المسمين «معتبا» بالتشديد ما نصه : «وربما قيل فى هذه كلها : «معتب ومعتب» مرة بفتح العين ، ومرة بتسكينها» اهـ . وورد فى المشتبه أيضا ص ٤٩٨ ما يفيد هذا المعنى .

(٤) لم ترد هذه التكملة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن كتاب المؤتلف والمختلف ص ١٢١ ومشتبه الذهبى صفحة ٤٨٦ إذ بها يستقيم الكلام .

(٥) اختلف فى ضبط هذا الاسم ، فضبطه الذهبىّ فى المشتبه بسكون الشين المعجمة وفتح الهاء اسم مفعول ، ثم ذكر أن بعضهم يثقل الهاء . وذكر ابن حجر فى التبصير أن التثقيل هو المعتمد ، وبه جزم الجمهور .

(ومُشْكان) (ومُسْكان) (١) ... ...

(ومِشْرح) (ومُسَرَّح) (٢) ... ...

(ومُسَبَّح) (ومُسَيَّح) (ومَسِيح) (ومُشَنَّج)

الأوّلُ، هو مُسَبَّحُ بنُ حاتم العُكْلىّ، وغيرُه؛ والثانى مُسَيْح بفتح السين المهملة وسكون الياء، هو تميمُ بنُ مُسَيْح؛ وبكسر السين المهملة، هو عبدُ العزيز بنُ مَسِيح (٣)؛ ٥

١١٦

(١) لم يرد فى الأصل تفصيل لهذين الاسمين؛ وقد تكرر مثل هذا الحذف فى مواضع كثيرة من هـذا الباب، منها ما سبق فى ص ١٦٣ س ٢ وص ١٧٠ س ٩ وما يأتى بعد فى س ٢ من هذه الصفحة وص ١٨٠ س ٥ وغير ذلك من المواضع الكثيرة الآتية فى الكلام على مشتبه النسبة؛ وقد نبهنا على كل ذلك فى مواطنه، كما سبق التنبيه أيضا فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٧٠ على أن تكرر مثل هذا الحذف يشعر بأنه مقصود من المؤلف اختصارا، لا أن هذا التفصيل قد سقط من الناسخ، ولهذا لم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين، واكتفينا باثباته فى الحاشية، نقلا عن كتاب المؤتلف والمختلف ص ١٢١، فقد جاء فيه ما نصه: «مشكان» بالشين معجمة، هو معروف بن مشكان، ومحمد بن مشكان السرخسى؛ روى عنه الدغولى محمد بن عبد الرحمن. مسكان بالسين غير معجمة: عطوان بن مسكان، صاحب حديث حمزة، حديثه عند الحمانىّ» اهـ. ١٠

(٢) لم يرد فى الأصل تفصيل لهذين الاسمين كسابقيهما، وقد أورد ذلك الحافظ عبـد الغنى فى كتابه (المؤتلف والمختلف) صفحة ١٢١ فقال: «مشرح» بالشين معجمة وكسر الميم: مشرح، له صحبة، روت عنه ابنته، واسمها «ميل» ... ... وأحنف بن مشرح والد فرات بن أحنف، ومشرح بن عاهان أبو مصعب البصرىّ، وسودة بنت مشرح، لها صحبة. مسرح بالسين المهملة وضم الميم: أبو وهب الوليد ابن عبد الملك بن مسرح، حرانى، حدّث عنه جعفر الفريابىّ، وغيره» اهـ ولم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لما سبق ذكره فى الحاشية التى قبل هذه، فانظرها. ١٥ ٢٠

(٣) أورد ابن حجر فى التبصير هذا الاسم فى مسيح بضم الميم وفتح السين، وهى رواية فيه، كما أن ما هنا رواية أخرى فيه أيضا انظر الإكمال جزء ٢ ورقة ٢٥٧ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨ مصطلح.

والرابع مُشَنَّج بالشين المعجمة والنون والجيم، هو سِمْعانُ بنُ مُشَنَّج[1]، روى عن سَمُرَةَ ابنِ جُنْدَب .

(ومُثَنَّى) (ومَيْثاء)

الأوّلُ، مشهورٌ كثير؛ والثانى مَيْثاء بالياء المثناة من تحت والثاء المثلثة، هو أبو المَيْثاء المستظِلُّ[2] بنُ حُصَين ، وأبو المَيْثاء أيّوبُ بنُ قسطنطين ، مصرىّ وأبو المَيْثاء، عن أبى ذَرّ .

(ومُنَبِّه) (ومُنْية)

الأوّل، كثير؛ والثانى، قليل، منهم يَعْلَى بنُ مُنْية، وهو ابنُ أُميّة، ومُنْيةُ بنتُ عُبيدِ بنِ أبى برزة .

(ونافع) (ويافع)

الأوّلُ بالنون، كثير؛ والثانى بالياء، هو يافعُ بنُ عامر .

(ونَصْر) (ونَضْر) اسمان معروفان .

(ونُمَيْل) (وثُمَيْل)

الأوّلُ بالنون : اسماعيلُ بنُ نُمَيْل؛ والثانى بالثاء المثلثة : ثُمَيْل الأشعرىّ، عن أبى الدَّرْداء .

(ونُعَيْم) (ويَغْنَم)

(١) كذا ضبط هذا الاسم بفتح النون المشدّدة فى خلاصة التهذيب ص ١٥٦ طبع بولاق ضبطا بالعبارة ، فقد ورد فيه أنه كمعظم . وضبط بكسر النون المشدّدة ضبطا بالقلم فى مشتبه الذهبي ص ٤٨٢ طبع ليدن .

(٢) فى الأصل : «المستطيل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما فى المؤتلف والمختلف ص ١٢٣ وغيره . والذى فى المشتبه والتبصير : «مستظل» بدون «ال» .

الأوّلُ بالنون، كثير ؛ والثانى بالياء وغين معجمة، هو يَغْـنَمُ بنُ سالِمِ بنِ قَنْـبَرَ ضعيفٌ جدّا .

(ونزار) (وبَرّاز)

الأوّلُ بالنون، جماعة ؛ والثانى بالباء، هو أَشْعَثُ[1] بنُ بَرّاز، من أهل البَصْرة ، له مناكير .

(ونُصير[2]) (ونُضَيْر) (ونَضِير) (وبَصِير[3])

الأوّلُ : نُصَيْرُ بنُ الفَرَج، وغيرُه ؛ والثانى : نُضَيْر بنون مضمومة وضاد معجمة هو نُضَيْر بنُ زياد ؛ والثالث نَضِير بنون مفتوحة وضاد معجمة مكسورة، هو نَضِيرُ ابنُ قيس؛ والرابع : [أبو][4] بَصِـير ، روى عنه أبو إسحاق[5] السَّبِيعىّ، وأبو بَصِـير عُتْبَةُ بنُ أَسِيد .

(والنّجّار) (والنَّحّاز)

---

(١) فى الأصل : «أشعب» بالباء؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما فى المؤتلف والمختلف ص ١٢٦ والمشتبه ص ٥٢٥ وغيرهما .

(٢) فى الأصل : « نضيز » بالضاد والزاى المعجمتين؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما يدل عليه ما يأتى بعد عند الكلام على هذا الاسم، وكما فى كتاب المؤتلف والمختلف ص ١٢٧ وغيره .

(٣) فى الأصل : «نصير» بالنون؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما يدل عليه ما يأتى بعد فى السطر السابع من هذه الصفحة عند الكلام على هذا الاسم، وكما فى كتاب المؤتلف والمختلف وغيره .

(٤) هذه الكلمة ساقطة من الأصـل؛ وقد أثبتناها عن كتاب (المؤتلف والمختلف) (والإكمال لابن ماكولا) وغيرهما .

(٥) تفيـد عبارة الأصل هنا أن أبا بصير شيخ لأبى إسحاق السبيعىّ؛ ويفيد ذلك أيضا كلام ابن ماكولا فى الإكمال جزءا ورقة ٧١ ؛ والذى يستفاد من عبارة الذهبىّ فى المشتبه ص ٥٣٠ أن شيخ أبى إسحاق السبيعىّ هو عبد الله بن أبى بصير؛ فلعل السبيعىّ روى عن عبد الله بن أبى بصير وعن أبيه .

الأوّلُ بالجيم والراء : أيّوبُ بنُ النّجّار، والنّجّارُ جدُّ[1] الأنصار ؛ والثانى النّحّاز بالحاء والزاى ، هو النّحّازُ[2] بنُ جُدَىّ[3] .

(ونَجَبة) (وتِحْيَة)

الأوّلُ بالنون والجيم والباء، هو نَجَبةُ بنُ صَبِيغ[4]، عن أبى هريرة، والمُسيّبُ ابنُ نَجَبة ؛ والثانى تِحْيَة بالتاء والحاء والياء، هو الحَكَمُ بنُ أبى تِحْيَة[5] .

(ونائل) (ونابِل) (وناتِل)

الأوّلُ بالياء : نائلُ بنُ نَجِيح، ونائلُ بنُ مُطَرِّف؛ والثانى بالباء الموحّدة هو نابِلٌ صاحبُ العباء[6]، عن ابن عمر، وأَيْمَنُ بنُ نابِل؛ والثالث ناتِل بالتاء المثنّاة هو ناتِل الشامىّ، وهو ناتِلُ بنُ قيس، عن أبى هريرة .

(ونَجِيب) (وبُخَيْت)

الأوّلُ بالنون والجيم ، هو أبو النَّجِيب ، عن أبى سعيد الخُدْرىّ — رضى الله عنه — واسمُهُ ظَلِيم ، والنَّجِيبُ بنُ السَّرىّ ؛ والثانى بُخَيْت، هو أبو بكر بنُ بُخَيْت[7] البغدادىُّ الدّقّاق .

---

(١) فى الأصل : « ضد » بالضاد؛ وهو تحريف .

(٢) كذا ضبط هذا الاسم فى الكتب التى بين أيدينا؛ وقيل فيه أيضا «نحاز» بكسر النون وتخفيف الحاء، كما فى المشتبه ص ٥١٩

(٣) قيل فيه ايضا «ابن حوىّ» بالحاء والواووتشديد الياء، كما فى المشتبه .

(٤) فى الأصل : «ضبيع» بالضاد والعين؛ وهو تصحيف صوابه ماأثبتنا، كما فى (المؤتلف والمختلف) ص ١٢٩ (والمشتبه) ص ٧٢ وغيرهما .

(٥) ضبط هذا الاسم بالعبارة الحافظ عبد الغنىّ فى (المؤتلف والمختلف) ص ١٢٩ فقال : «بالتاء المكسورة معجمة من فوقها باثنتين، والحاء الساكنة» الخ .

(٦) لعله لقب بصاحب العباء لبيعه إياها، ويدل على ذلك ما ورد فى التقريب ص ٢١٩ وعبارته : « صاحب العباء والأكسية والشمال » .

(٧) زاد فى المشتبه ص ٢٨ قبل قوله : « ابن بخيت » قوله : « ابن عبد الله » ؛ وكذلك فى التبصير؛ وإذن فبخيت هذا هو جدّ أبى بكر؛ لا أبوه .

(وواقد) (ووافد)

الأوّلُ بالقاف، كثير؛ والثانى وافد بالفاء، قليل، منهم وافدُ بنُ سلامة، ووافدُ ابنُ موسى .

(ووِقاء)[1] (ووفاء)

فأمّا وِقاء[1] بالقـاف ، فهو وِقاءُ بنُ إياس[1] ؛ وأمّا وفاء بالفاء ، فهو ابنُ شُرَيْح ، ووفاءُ بنُ سُهَيل . ٥

(وهُدْبة) (وهَدِيّة)

هُدْبة بالباء الموحّدة، هو ابنُ المِنْهال ، وهُدْبةُ بنُ خالد أخو أميّة ؛ وأمّا هَدِيّة بالياء المثنّاة ، فهو هَدِيّةُ بنُ عبد الوهّاب ، ومحمـدُ بنُ هَـدِيّةَ الصَّدَفىّ ، ويقال : « ابن هُدَيّة » ، ويزيدُ بنُ هَدِيّة . ١٠

(ويَسَرة) (وبُسْرة)

الأوّلُ : يَسَرةُ بنُ صفوان ؛ والثانى بُسْرة بالباء الموحّدة ، هو أبو بُسْرة ، عن البَراء[2] ، وبُسْرةُ بنتُ صَفْوان ، لها صحبة .

(وياسِر) (وباشِر) (وناشِر)

الأوّلُ ياسِر، كثير؛ وباشِر، هو أبو حازم باشِر[3]؛ وناشِر بالنون ، هو والدُ أبى ثعلبة الخُشَنىّ جُرْثوم؛ وقيل فيه : « ناشِب » . ١٥

(١) فى الأصل : « رقا » بالراء فى الكلمات الثلاث؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما فى المؤتلف والمختلف ص ١٣٢ وغيره .

(٢) فى الأصل : «البزار» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما فى المؤتلف والمختلف ص ١٣٤ والمشتبه ص ٥٥٧ ٢٠

(٣) قيل فى هذا الأسم أيضا «بشر بن حازم» (المؤتلف والمختلف ص ١٣٥) .

هـذا ما اتفق إيراده من مؤتلف الأسماء ومختلفها على سبيل الاختصار مما ألفه الشيخ عبدُ الغنيّ بنُ سعيدِ بنِ عليّ بنِ سعيدِ بنِ بشرِ بنِ مروانَ الأزديّ[(١)]، الحافظُ المصريّ — رحمه الله تعالى — ؛ وقد ألّف أيضا كتابا آخرَ في المنسوب من رجال الحديث الى قبيلة أو بلدة أو صنعة، مما يأتلف في صورة الخطّ ويختلف في المعنى[(٢)]، لا بأس أن نورد منه نُبْذة .

المؤتلف والمختلف من نسب رجال الحديث

فمن ذلك الأُبُلّيّ: نسبة إلى الأُبُلّة[(٣)]؛ واليها يُنسَب نهرُ الأُبُلّة الّذى هو أحدُ متنزّهات الدنيا الأربعة[(٤)] . والأَيْلِيّ : نسبةٌ إلى أَيْلة، وأَيْلَة على شاطئ البحر[(٥)]، يمرّ عليها الحاجُّ المصريُّ في مسيرِه الى مكّةَ وعَودِه، وإليها تُنسَب العَقَبة، وهى على عشر مراحلَ من القاهرة[(٦)] . ولهم أيضا (الأَبِلّيّ[(٧)]) : نسبة الى (أَبلة[(٧)]) بالأندلس .

(١) يقال فيه : «الأسدى» أيضا بسكون السين؛ وهو أفصح ، وبالزاى أكثر؛ وهو نسبة إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان .

(٢) الاختلاف فى هـذه النسب الآتية لا يخص المعنى وحده ، ولكن يشمل اللفظ والمعنى ، وعبارة الحافظ عبد الغنى فى مقدّمة كتابه (مشتبه النسبة) : « ويفترق فى اللفظ والمعنى » .

(٣) الأبلة : بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى ، فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة (ياقوت) .

(٤) هذه المتنزهات الأربعة هى غوطة دمشق ، وصغد سمرقند ، ونهر الأبلة ، وشعب بوّان (معجم البلدان) فى الكلام على الصغد ج ٣ ص ٣٩٤ طبع أوربا .

(٥) يريد شاطئ بحر القلزم . (٦) «لهم» ، أى لرجال الحديث من النسب .

(٧) لم نجد هـذه النسبة فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى النسب والأسماء ، (كأنساب السمعانى) (والمشتبه فى أسماء الرجال) (ومشتبه النسبة) (والتبصير) (ولب اللباب) وغيرها من الكتب ، ولذلك لم نضبطها كما أننا لم نجد اسم هذا البلد الذى ذكره ضمن بلاد الأندلس فيما راجعناه من الكتب ، (كمعجم البلدان) (وتقويم البلدان) (وتاج العروس) (والمكتبة الجغرافية) ، وغيرها من الكتب ، ولذلك لم نضبطه أيضا ؛ والذى وجدناه فى بلاد الأندلس : « لبلة » بالفتح ثم السكون ، وقد ذكر ياقوت أن لبلة هذه ينسب اليها جماعة ، ثم عدّهم ؛ إلا أن النسبة اليها لا تشتبه فى الكتابة بالنسبتين اللتين قبلها ، وذلك لبعد ما بين الألف فى أولها واللام فى أول هذه .

ومنه (الأَسِيدىّ) والأُسَيِّدىّ)[1]

فالأولى بالفتح : نِسبةٌ الى آل أَسِيد بنِ أبى العِيص ؛ والأُسَيِّدىُّ بالضم وتشديد الياء[2] : نسبة الى بطنٍ من تميم، منهم حنظلةُ بنُ الرَّبيع، وأخوه رِياح[3]، لهما صحبـــة .

ومنه (البَصْرىّ) (والنَّصْرىّ)[1] ... ...[4] ٥

(والبَكْرىّ) (والنُّكْرىّ)

فالبَكْرىّ : نسبة الى أبى بكر الصِّدّيق رضى الله عنه ، وإلى بَكْر ؛ والنُّكْرىّ بالنون، يقال : إنّهم[5] من عبد القيس، منهم عمرُو بنُ مالك .

(١) «منه» ، أى من المنسوب من رجال الحديث مما يأتلف فى صورة الخط ويختلف فى اللفظ والمعنى .

(٢) ذكر ابن خطيب الدهشـــة فى (تحفة ذوى الأرب) ص ١٣٦ طبع ليدن أن المحدّثين يشدّدون ياءه — كاهنا — والنحاة يسكنونها تخفيفا . ١٠

(٣) هذا الأسم مختلف فيه ، فقيل فيه بالياء المثناة ، كما هنا ، وقيل فيه : « رباح » بالباء الموحدة (الإكمال جزء ١ ورقة ١٩) (ومشتبه الذهبى ص ٢١٢) .

(٤) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين ؛ وقد تكرر حذف هـــذا التفصيل فى مواضع كثيرة من هذا الباب ، منها ما سبق فى ص ١٦٣ س ٢ ، وص ١٧٠ س ٩ ، وص ١٧٤ س ١ ، ٢ وما يأتى بعد فى ص ١٨١ س ١ ، ٢ وغير ذلك من المواضع الكثيرة ؛ وقد نبهنا على كل ذلك فى مواطنه ؛ ويظهر لنا من تكرر هـــذا الحذف أن ذلك مقصود من المؤلف اختصارا لا أن هـــذا التفصيل قد سقط من الناسخ ؛ ولهـــذا لم نثبته فى صلب الكتاب بين مربعين ، واكتفينا بذكر ذلك فى الحاشية ، نقـــلا عن كتاب مشتبه النسبة المنقولة عنه هذه النسب ، فقد جاء فى صفحة ٥ من هذا الكتاب ما نصـــه : « فأما البصرىّ بالباء المعجمة بواحدة والصاد التى لا تعجم ، فبابه أوسع ، واللسان إليـــه أسرع ؛ وأما النصرىّ بالنون والصاد غير معجمة ، فنهم طلحة بن عمرو النصرىّ من أصحاب الصفة ، ومالك بن أوس بن الحدثان النصرىّ ، وهو من رهط مالك بن عوف النصرىّ ، من نصر سليم ، الى آخر ما ورد فى هذا الكتاب ممن تطلق عليهم هذه النسبة ، ولا نرى مقتضيا لإيراد جميعهم هنـــا . وقد زاد مؤلف هـــذا الكتاب بعـــد هاتين النسبتين نسبتين أخريين ، وهما النضرىّ بسكون الضاد المعجمة ، والنضرىّ بفتحها . والنصرى بالصاد المهمـــلة : نسبة الى نصر ، وهى قبيلة من هوازن ، وقبيـــلة أخرى من بنى أســـد بن خزيمة ، وقد تكون هذه النسبة الى النصرية ، وهى محلة ببغداد انظر لب اللباب صفحة ٢٦٣ . ١٥ ٢٠ ٢٥

(٥) «إنهم» ، أى من تطلق عليهم هذه النسبة .

(والبَحْرانىّ) (والنَّجْرانىّ) (١) ... ...

(والبَشيرىّ) (والتُّسْتَرىّ) (٢) ... ...

(والبُسْتىّ) (والبُشْتىّ)

الأوّلُ : نسبة الى بُسْت، من سِجِسْتان ؛ والثانى : الى بُشْت، قريةٌ من قرى نَيْسابور .

(والبَلْخىّ) (والثَّلْجىّ)

(١) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين ؛ وقد جاء فى كتاب (مشتبه النسبة) الذى نقل عنه المؤلف هذه النسب فى تفصيلهما ما نصه : «فأما الذى بالحاء التى لا تعجم بعد الباء المعجمة بواحدة، فمنهم محمد بن معمر البحرانىّ، بصرىّ ثقة، له حديث كثير حسن، حدّث عنه محمد بن إسماعيل البخارىّ فى الصحيح ؛ وأما الذى بالجيم بعد النون، فهو النجرانىّ الذى يروى عنه أبو إسحاق السبيعىّ، ومنهم جميل النجرانىّ، وبشر بن رافع النجرانى أبو الأسباط اليمانى، روى عنه حاتم بن إسماعيل وعبد الرازق» اهـ . ولم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لتكرر حذف هذا التفصيل فى هذا الباب تكررا يشعر بأن المؤلف قد قصد ذلك للاختصار، لا أنه سقط من الناسخ ؛ وقد سبق التنبيه على ذلك فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٨٠ وغيرها من الحواشى، فانظره . والبحرانى : نسبة الى البحرين، وهو إقليم بين البصرة وعمان، كما فى لب اللباب ص ٣١ طبع ليدن . والنجرانى : نسبة الى نجران، وهى ناحية بين اليمن وهجر كما فى لب اللباب أيضا ص ٢٦٠ .

(٢) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين كالتين قبلهما ؛ وقد جاء فى كتاب مشتبه النسبة ص ٦ فى تفصيلهما ما نصه : فأما البشيرى بالباء المعجمة بواحدة، والشين المعجمة، والياء بعدها معجمة بنقطتين من تحتها، فهو أحمد بن محمد بن عبد الله البشيرى ... ... ؛ وأما التسترى بالتاء مكررة معجمة من فوقها بنقطتين، فواسع» . ولم نثبت هذا الكلام فى صلب الكتاب بين مربعين لما سبق التنبيه عليه فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٨٠ والحاشية رقم ١ من هذه الصفحة وغيرهما من الحواشى . وقال السيوطى فى (لب اللباب) ص ٣٩ طبع ليدن فى الكلام على البشيرى : «كأن هذه النسبة الى قلعة بشير بنواحى الزوزان من بلاد الأكراد، وإلى جدّ أيضا» اهـ وقد اعتمدنا على هذا الكتاب فى بيان المنسوب اليه فى أكثر النسب الواردة فى هذا الباب، فلينتبه اليه إذا لم نذكره اختصارا فى كثير من الحواشى الآتية بعد واكتفينا بذكر غيره من المصادر . والتسترى : نسبة الى تستر، وهى بلدة من كور الأهواز من بلاد خوزستان كما فى (أنساب السمعانى) ورقة ١٠٦

البَلْخىّ : نسبة الى بَلْخ[(١)]، والثَّلْجىّ : محمّدُ بنُ شُجاع الثَّلْجىّ .

(والبزّاز) (والبزّار) [(٢)] ...

(والتَّيْمىّ) (والتَّيَمىّ)

فالتَّيْمىّ بتسكين الياء : نسبة الى تَـيْم[(٣)] بنِ مُرّةَ بنِ كعب، وتَيْم الرّباب؛ وأمّا التَّيَمىّ بتحريك الياء، فهم بطنٌ[(٤)] من بنى غافق . ٥

(والثّـاتىّ) (والبـانى) (والبـابىّ)

أمّا الثّاتىّ، فهو ابراهيمُ بنُ يزيدَ أبو خُزيمةَ[(٥)] الثّـاتىُّ قاضى مصر، وثاتُ : قبيلةٌ من حِمْير؛ وأمّا البانى، فهو محمّدُ بنُ إسحاق؛ وأمّا البابىّ، فمنهم زُهَيرُ بنُ نُعَيْم البـابىّ وغيرُه، ولعلّها نِسبةٌ إلى الباب[(٦)] : قريةٌ من قرى حلب .

---

(١) «بلخ» : مدينة بخراسان مشهورة . ١٠

(٢) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين ؛ وقد أورد الحافظ عبد الغنى فى مشتبه النسبة المنقولة عنه هذه النسب تفصيل ذلك، فقال فى النسـبة الأولى ما نصـه : « فأما البزاز بالزايين، فهم كثير؛ والتصحيف فيه أقل من التصحيف فى البزار . وذكر فى النسبة الثانية من الأسماء دينارا أبا عمرو البزار — وفى مشتبه الذهبى أبو عمر — ، وبشر بن ثابت البزار؛ وغيرهما من الأسماء التى لا نرى مقتضيا لاستيعابها هنا ؛ ولم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لما سبق التنبيه عليه فى الحاشـية رقم ٤ من صفحة ١٨٠ من هذا السفر وغيرها من الحواشى، فانظره . ١٥

(٣) فى الأصل : «تميم»؛ وهو تحريف . وتيم بن مرة : رهط أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه . ولم يذكر فى كتاب (مشتبه النسبة) تيم بن مرة، وإنما ذكر تيم الله بن ثعلبة؛ وكلتاهما قبيلة مشهورة .

(٤) «فهم»، أى من ينسبون إلى تيم بفتح أوله وثانيه .

(٥) فى الأصل : «أخو»؛ وهو تبديل من الناسخ، صوابه ما أثبتنا نقلا عن (مشتبه النسبة ص ١١) والقاموس وشرحه مادة (ثات) . ٢٠

(٦) كذا ورد فى الأصل هذا الكلام؛ وهو مخالف لما وجدناه فيما لدينا من الكتب، ففى (أنساب السمعانى) ورقة ٥٠٦ ان هذه النسبة الى باب الأبواب، وهى مدينة دربند . وفى معجم ياقوت أن هذه المدينة على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر، وذكر أيضا أن ممن ينتسبون إليها زهير بن نعيم المذكور هنا؛ وكذلك فى أنساب السمعانىّ . ٢٥

(والثَّوْرىّ) (والتَّوَّزىّ) (والبُورىّ) (والنُّورىّ)

فالثَّوْرىّ : نسبة إلى ثَوْرِ بنِ عبدِ مَناةَ بنِ أُدّ بنِ طابخة ؛ وأمّا التَّوَّزىّ [بالزاى بعد تاء معجمةٍ من فوقها بنقطتين ، فأبو يَعْلَى محمّدُ بنُ الصَّلْت التَّوَّزىّ ؛ وأمّا البُورىّ بالباء المعجمة بواحدة ، فمحمّدُ بنُ عمرَ بنِ حفص البُورىُّ البَصْرىُّ العَنَزىّ ، كان بمصر... ؛ وأمّا النُّورىّ] ، فأبو الحَسَنِ النُّورىُّ الصوفىُّ البغدادىّ .

(والجُرَيْرىّ) (والحَرِيرىّ) [والجَرِيرىّ] (والحِزْيَزىّ) .

أمّا الجُرَيْرىّ بالجيم مضمومة ، فجماعة ، منهم سعيدُ بنُ إياس ، وأَبانُ بنُ تَغْلِب وعبّاسُ بنُ فَرُّوخ ؛ وأمّا الحَرِيرىّ بالحاء المهملة ، فكثير ؛ وأمّا الجَرِيرىّ بالجيم المفتوحة ، فجماعةٌ يُنسَبون الى جَرِيرِ بنِ عبدِ الله البَجَلىّ ؛ وأما الحِزْيَزىّ بالحاء المهملة وزايين ، فنسبة إلى قرية اسمُها حِزْيَز .

(والجُنْدَعىّ) (والخِبْذَعىّ)

(١) هذه التكلة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن كتاب (مشتبه النسبة) الذى نقل عنه المؤلف هذه النسب إذ لا يستقيم الكلام بدون اثباتها ، كما لا يخفى . والتوزى : نسبة الى توز وهو موضع عند بحر الهند مما يلى فارس ؛ وأما البورىّ ، فنسبة الى بورة ، وهى مدينة قرب دمياط وإلى « بورى » أيضا بفتح الراء ، وهى قرية قرب عكبراء ؛ وأما « النورى » بالنون ، فهى نسبة الى « نور » : بلد بين بخارى وسمرقند .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والتفصيل الآتى بعد يقتضى إثباتها انظر السطر الثامن من هذه الصفحة .

(٣) الجريرىّ بضم الجيم : نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .

(٤) زاد فى مشتبه النسبة ص ١٢ بعد كل اسم من هذه الأسماء الثلاثة قوله : « الجريرىّ » ؛ ولعل المؤلف قد ترك ذلك هنا للعلم به من السياق .

(٥) فى الأصل : « فروح » بالحاء المهملة ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا . انظر مشتبه النسبة ص ١٢ والمشتبه فى أسماء الرجال ص ١٠٦

(٦) هذه القرية من قرى اليمن ، بينها وبين صنعاء نصف يوم .

فالجُنْدَعىّ: نسبة إلى جُنْدَع، من لَيْث، وليث من مضر بن نِزار؛ وأمّا الجِبْـذَعىّ فهم بطنٌ من هَمْدان.

(والجُبَيْرىّ) (والحَبْتَرىّ) (والخَيْبَرىّ)

فالجُبَـيْرىّ جماعة، منهم سـعيدُ بنُ عبدِ الله بنِ زيادِ بنِ جُبَيْر، وغيرُه؛ وأمّا الحَبْتَرىّ، فنسبة إلى حَبْتَر، وحَبْتَر من كعب، ثم من خُزاعة؛ وأمّا الخَيْبَرىّ، فأظنّها نِسبةً إلى خَيْبَر[1].

(والحنّاط) (والخيّاط) (والخبّاط) جماعة من المحدِّثين.

(والحِبَرىّ[2]) (والحِيرىّ) (والحِيزىّ) (والخَبْرىّ) (والحُتْرىّ)

فأمّا الحِبَرىّ[2]، فهو الحسينُ بنُ الحَكَم الحِبَرىّ[2]؛ وأمّا الحِيرىّ، فنسبة إلى الحِـيرة مَحَلّة بنَيْسابور؛ وأمّا الحِيزىّ، فنسبة إلى حِيزةِ فُسْطاط مصر؛ وأما الخَبْرىّ، فنسبة الى قرية من قرى شـيراز، منها الفضلُ بنُ حمّاد الخَبْرىّ؛ وأمّا الحُتْرىّ، فهو أبو عبدِ الله الحُتْرىّ.

(والحَرّانىّ) (والحِرابىّ)

فالحَرّانىّ: نسبة الى حَرّان، من مُدُن الجزيرة[3]؛ والحِرابىّ، هو أحمدُ بنُ محمّـد شيخُ البغداديّين.

(١) «خيبر»، ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشأم؛ والبريد فرسخان؛ وقيل: أربع فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال (شرح القاموس).

(٢) فى الأصل: «الجبرى» بالجيم فى المواضع الثلاثة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما فى مشتبه النسبة ص ١٨ وغيره. «والحبرى» بكسر أوله وفتح ثانيه: نسبة الى الحبرة، بفتح الباء، وهى ثياب من اليمن.

(٣) يريد بالجزيرة: الجزيرة التى بين دجلة والفرات، وتشـتمل على ديار مضر وديار بكر، وحران هذه فى ديار مضر، وهى قصبتها.

(والحِنّائىّ) (والجَبَاىّ) (والجُبّائىّ) (والجَنّابىّ)[1]

أمّا الحِنّائىّ بالحاء المهملة والنون، فإبراهيمُ بنُ علىّ الحِنّائىّ؛ وأمّا الجَبَاىّ بالجيم والباء، فهو شعيب الجَبَاىّ، منسوبٌ إلى جبل[2] باليمن؛ وأمّا الجُبّائىّ بالجيم المضمومة والباء الموحّدة، فهو أبو علىّ الجُبّائىّ[3] المتكلّم؛ وأمّا الجَنّابىّ بالجيم والنون والباء الموحّدة، فهو محمّدُ بنُ علىّ بنِ عمرانَ الجَنّابىّ[4].

(والخَزّاز) (والخَرّاز) (والجَرّار) (والجَزّار)

أمّا الخَزّاز بالخاء والزايين المعجمات، فعددٌ كثير، منهم النَّضْرُ بنُ عبدِ الرحمن[5] وأحمدُ بنُ علىّ[5]، وغيرُهما؛ وأمّا الخَرّاز بالخاء والراء والزاى، فجماعة، منهم عبدُ الله ابنُ عون الخَرّاز، وغيرُه؛ وأما الجَرّار بالجيم والراء المكرّرة المهملة، فعبدُ الأعلى بنُ أبى المُساوِر الجَرّار، وعيسى بنُ يونس الرَّمْلىّ الجَرّار، وهو الفاخورىّ؛ وأما الجَزّار فنسبة إلى صنعة الجزارة.

---

(١) فى الأصل: «والخناى»؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما يدل عليه ما يأتى بعد فى الكلام على هذه النسبة.

(٢) هذا الجبل يقال له: «جبأ» بالتحريك والهمز فى آخره؛ وقيل: إنه اسم بلدة باليمن قريبة من الجند، وصحح ذلك الصاغانى (تاج العروس).

(٣) «الجبائى» نسبة إلى «جباء» وزان رمّان، وهى كورة بخوزستان من نواحى الأهواز بين فارس وواسط والبصرة (تاج العروس) مادة «جبأ».

(٤) ضبط الأمير هذه النسبة بتثقيل النون، كما فى شرح القاموس؛ وذكر الذهبى فى المشتبه ص ٨٥ أنه بالتخفيف؛ وعلى الضبط الأول فهو نسبة إلى جنابة بالتشديد، وهى بلدة صغيرة بساحل بحر فارس منها أبو سعيد الحسن الجنابى القرمطى الذى أظهر مذهب القرامطة، انظر (معجم البلدان).

(٥) زاد فى مشتبه النسبة ص ٢٢ بعد كل اسم من هذين الاسمين قوله: «الخزاز»؛ ولعل المؤلف قد ترك ذلك هنا للعلم به من السياق؛ وقد سبق التنبيه على مثل ذلك أيضا فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٨٣ من هذا السفر.

(والخضِرمىّ) (والحَضْرَمىّ)

فأمّا الخِضْرِمىّ بالخـاء المعجمة المجرورة ، فهم عدّة يسكنون بأرض الجَزيرة[(١)] ؛ وأمّا الحَضْرَمىّ بالحاء المهملة ، فخَلْقٌ كثير ، يرجعون إلى حَضْرَمَوْت[(٢)] .

(والحِمْصىّ) (والحِمِّصىّ)

فالحِمْصىّ : منسوبٌ إلى حِمْص[(٣)] ؛ والحِمِّصىّ قليل ، وهو إبراهيمُ بنُ الحجّاج بنِ منير الحِمِّصىّ ، كان يَقْلِي الحِمَص .

(والحُضْرىّ) (والحُصْرىّ) (والحِضْرىّ)[(٤)]

فأمّا الحُضْرىّ بالخـاء والضـاد ، [فأبو][(٥)] شَـيْبَةَ الحُضْرىّ[(٦)] ؛ وأمّا الحُصْرىّ فسعيدُ بنُ محمّد الحُصْرىّ ، وغيرُه ؛ وأمّا الحِضْرىّ ، فهو فقيهُ أهلِ مَرْوَ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ أحمد .

(١) يستفاد من تاج العروس مادة «خضرم» أن المقيمين بأرض الجزيرة إنما هم قوم من الخضارمة يقال لهم : الجراجمة ، لاجميع طوائفهم ؛ وعبارته : «الخضارمة قوم من العجم خرجوا فى بدء الإسلام فتفرّقوا فى بلاد العرب ، فمن أقام منهم بالبصرة فهم الأساودة ، ومن أقام منهم بالكوفة فهم الأحامرة ، ومن أقام منهم بالشأم فهم الخضارمة ، ومن أقام منهم بالجزيرة فهم الجراجمة ، ومن أقام منهم باليمن فهم الأبناء ومن أقام منهم بالموصل فهم الجرامقة» .

(٢) حضرموت : ناحية واسعة فى شرقىّ عدن ، بقرب البحر ، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف .

(٣) «حمص» : بلد مشهور بين دمشق وحلب فى وسط الطريق .

(٤) كان الأنسب تقديم الخضرىّ بالكسر على الذى قبله ؛ أى جعله تاليا للخضرىّ بالضم ، للاتفاق بينهما فى جميع الحروف ؛ وقد جمع بينهما الذهبىّ وابن حجر فى كتابيهما .

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ولافى كتاب مشتبه النسبة ؛ وقد اثبتناها عن المشتبه فى أسماء الرجال ص ١٦٥ طبع ليدن وتبصير المنتبه والقاموس وشرحه مادّة «خضر» .

(٦) الخضرىّ : نسبة الى الخضر بضم الخاء ، وهى قبيلة من قيس عيلان .

(والخُوزىّ) (والجُورىّ) (والجَوْزىّ) ... ... (١)

(والحَسَنىّ) (والخُشَنىّ) (والحَبَشىّ) (والخَيْشىّ) ... ... (٢)

(والخُتَّلىّ) (والجَبَلىّ) (والجُبُلىّ) (والخُتُلىّ) (والجَبَلىّ)

فأمّا الخُتَّلىّ بضم الخاء وتشديد التاء المثنّاة ، فنسبة الى خُتَّل " من بلاد الدّيلم (٣)

(١) لم يرد فى الأصل تفصيل لهذه النسب الثلاث ؛ وقد أورد ذلك صاحب مشتبه النسبة ، فذكر فى الخوزىّ — وهى النسبة الأولى — ابراهيم بن يزيد الخوزى ، وغيره ؛ وفى الثانية — وهى الجورى — محمد بن يزداد شيخ أبى بكر أحمد بن عبدان الشيرازى ، وغيره ؛ وفى الثالثة — وهى الجوزى — ابراهيم ابن موسى الجوزى ، وغيره . ولم نثبت ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لما سبق التنبيه عليه فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٨٠ من أنه قد تكرر حذف هذا التفصيل فى مواضع كثيرة من هذا الباب فمن هذه المواضع ماسبق فى ص ١٧٠ س ٩ و ١٧٤ س ١ ، ٢ و ١٨٠ س ٥ و ١٨١ س ١ ، ٢ وغير ذلك من المواضع الكثيرة الآتية بعد ؛ وقد نبهنا على كل ذلك فى مواطنه ، كما نبهنا أيضا على أن تكرر مثل هذا الحذف يشعر بأنه مقصود من المؤلف اختصارا ، لا أن هذا التفصيل قد سقط من الناسخ . والخوزىّ بضم الخاء : نسبة الى شعب الخوز بمكة . والجورىّ بضم الجيم : نسبة الى جور ، وهى مدينة بفارس ، وإليها ينسب الورد الجورىّ . والجوزى : نسبة الى الجوز وبيعه انظر أنساب السمعانىّ وغيره .

(٢) لم يرد فى الأصل تفصيل لهذه النسب الأربع كالنسب الثلاث التى قبلها ؛ وقد أورد صاحب مشتبه النسبة ذلك التفصيل وزاد عليها نسبة خامسة ، وهى الخشبىّ ، فذكر فى الحسنى — وهى النسبة الأولى — جعفر بن محمد بن جعفر بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب الحسنى ، وغيره ؛ وفى الخشنىّ — وهى الثانية — أبا ثعلبة الخشنى جرثوم بن ناشب ، وغيره ؛ ثم تكلم بعد ذلك عن الحبشىّ ، وهى النسبة التى لم يوردها المؤلف هنا ؛ وذكر فى الحبشىّ — وهى الثالثة — بلال بن رباح الحبشىّ مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغيره ؛ وفى الخيشىّ — وهى الأخيرة — احمد بن محمد بن دلان الخيشىّ . ولم نثبت ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لما نبهنا عليه فى الحاشية التى قبل هذه والحاشية رقم ٤ من صفحة ١٨٠ وغيرهما من الحواشى ، من أن تكرر مثل هذا الحذف فى هذا الباب يشعر بأن ذلك مقصود من المؤلف اختصارا لا أن هذا التفصيل قد سقط من الناسخ . ووجه النسبة فى الحسنىّ والحبشىّ ظاهر . أما الخشنىّ بضم الخاء — وهى النسبة الثانية — فهى نسبة الى خشين بضم الخاء ، وهو بطن من قضاعة ، كما فى أنساب السمعانى ورقة ٢٠٠ ؛ وأما الخيشى — وهى الأخيرة — فهى الى الخيش ، وهو ضرب من الكتان الغليظ .

(٣) كذا ورد فى الأصل هذا الكلام الموضوع بين هاتين العلامتين فى تفسير ختل ؛ وهو خلاف الصواب ، فإن ختل ليست من بلاد الديلم ، ولا تنسب اليها الدولة الديلمية كما قال ، وإنما هى كورة واسعة =

وإليها تُنسَب الدّولةُ الدّيلميّةُ الخُتّليّة"؛ وأمّا الجَبُّليّ[1] بالجيم المفتوحة والبـاء الموحّدة المشدّدة[2]، فنسبة الى جَبُّل[3] : قريةٌ بين بغداد[4] وواسط؛ وأمّا الحُبُّليّ بالحـاء المهملة والبـاء الموحّدة، فهو أبو عبـدِ الرحمن عبدُ الله بنُ يزيدَ الحُمُلّيّ[5]، صاحبُ عبدِ الله ابن عمـرو[6]، رضى الله عنهما؛ وأمّا الخُتُلّيّ[7] «بضم الخـاء وضم التـاء المثناة وتشديد اللام» فنسبة الى خُتُلّ[8]؛ وأمّا الجَبَلّيّ، فنسبة إلى جَبَلَةَ[9] الشأم . ٥

= خلف نهر جيحون ، أى أنها من بلاد ما وراء النهر، وهى على تخوم السـند ، كما فى معجم البلدان وغيره . والذى من بلاد الديلم إنما هو الجيل بكسر الجيم ، واليه تنسب الدولة الديلمية الجيلية لا الختلية ، وهى دولة بنى بويه التى ابتدأ ملكها فى سنة ٣٢١ هجرية . والجيل بالجيم المكسورة — ويقال : « جيلان » « وكيلان » أيضا — : صقع واسع مجاور لبلاد الديلم فيه قـرى كثيرة . قال ابن حوقل : بلاد الديلم سهل وجبل ، فالسهل يسمى « الجيل » ، وهو ساحل على بحر الخزر تحت جبال الديلم انظر تقويم البلدان لأبى الفداء صفحة ٤٢٦ طبع باريس . والنسبة الى الجيل مما يشـتبه فى صورة الخط بالنسب التى أوردها هنا أيضا . ١٠

(١) فى الأصل : «المضمومة» ؛ وهو خطأ صوابه ما أثبتنا نقلا عن أنساب السمعانى ورقة ١٢٢ ومشتبه الذهبى صفحة ٨٩ ومعجم البلدان فى الكلام على (جبل) بتشديد الباء المضمومة .

(٢) فى الأصل : «الساكنة» ؛ وهو خطأ صوابه ما أثبتنا نقلا عن لب اللباب ص ٦٠ وأنساب السمعانى ورقة ١٢٢ ومشتبه الذهبى ص ٨٩ ومعجم البلدان . (٣) فى الأصل : «من» ؛ وهو تحريف . ١٥

(٤) عبارة ياقوت : «بين النعمانية وواسط» ؛ وهذه العبارة لا تنافى ما هنا .

(٥) «الحبلى» بضمتين ، أو بضم أوله وسكون ثانيه : نسبة إلى بنى الحبلى ، وهم حىّ من الأنصار ثم من الخزرج . انظر (تاج العروس) مادة «حبل» .

(٦) يريد عبد الله بن عمرو بن العاص ، كما فى أنساب السمعانى . ٢٠

(٧) عبارة الأصل : « بفتح الخاء المعجمة وضم التاء المثناة وتشديدها » ؛ ولم نجد نسبة بهذا الضبط الذى ذكره فيما لدينا من الكتب ، كأنساب السمعانى ولب اللبـاب والمشتبه فى أسماء الرجال وتبصير المنتبه ومشتبه النسبة والقاموس وشرحه ، كما أننا لم نجد فى معجم البلدان اسم بلد بهذا الضبط أيضا ، وما أثبتناه عن لب اللباب ص ٨٨ طبع ليدن ومستدرك التاج مادة «ختل» .

(٨) «ختل» بضم أوله وثانيه وتشديد اللام : قرية على طريق خراسان لب اللبـاب ص ٨٨ ٢٥

(٩) «جبلة» : قلعة مشهورة بساحل الشأم من أعمال حلب قرب اللاذقية .

(والخَصِيبِيّ) والحُصَيْنِيّ ... ... (١)

(والحِرَقِيّ) (والحُرَقِيّ)

... ... الثانى : نسبة الى الحُرَقِة بنتِ النُّعمان (٢) (٣) .

(والدُّهْنِيّ) (والذَّهَبِيّ)

٥ الدُّهْنِيّ بضم الدال المهملة وكسر النون : نسبة إلى حىٍّ من بَجِيلة (٤) ... ... (٥)

(والرَّهاوِيّ) (والرُّهاوِيّ)

بالفتح : منسوبٌ إلى قبيلة (٦) (٧) ، منهم مالكُ بنُ مُرارةَ الرَّهاوِيّ ، له صحبة ؛ وبالضم : نسبة الى بلد الرُّها ، من أرض الجزيرة .

---

(١) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين ؛ وقد أورد ذلك صاحب مشتبه النسبة ص ٢٨ فذكر فى الخصيبيّ عبد الله بن محمد بن الخصيب الخصيبيّ قاضى مصر . وذكر فى الحصينى بالحاء المضمومة على بن محمد الحصينيّ الحرانى . ولم تثبت ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لما سبق التنبيه عليه فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٧٠ والحاشية رقم ٤ من صفحة ١٨٠ وغيرهما من الحواشى ، فارجع اليها .

(٢) لعله لم يذكر وجه النسبة فى الأول لشهرة أنه الى بيع الخرق والثياب ؛ والذى ورد فى (مشتبه النسبة) فى الكلام على الخرقىّ بالخاء قوله : « فأما الخرقى بالخاء المعجمة ، فجماعة ، منهم يحيى بن الفضل الخرقىّ » الخ .

(٣) الذى وجدناه فيما لدينا من الكتب أن من تطلق عليهم هذه النسبة إنما ينسبون الى الحرقات وهم بطن من جهينة ، وإلى الحرقة ، وهم بطن من غافق ، والى ناحية بعمان أيضا ، لا إلى بنت النعمان كما ها وان كانت النسبة اليها حرقىّ أيضا بضم ففتح انظر (لب اللباب) ص ٧٨ طبع ليدن .

(٤) يريد بالحىّ : بنى دهن بن معاوية (مشتبه الذهبى صفحة ٢٠٢)

(٥) لعله لم يذكر فى هذا الموضع وجه النسبة فى الذهبىّ لشهرة أن هذه النسبة الى الذهب وسبكه ، أو بيعه .

(٦) ضبطه جماعة بضم الراء (تاج العروس) مادة (رها) .

(٧) يريد بالقبيلة : بنى الرهاء بن يزيد ، وهم بطن من مذحج ، كما فى لب اللباب ص ١٢٠ . وقيل : الرهاء بن منبه (تاج العروس) .

(والرِّياحىّ) (والرَّباحىّ)

فالرِّياحىّ بكسر الراء المهملة وفتح الياء المثنّاة من تحت : إلى بطنٍ[(١)] من تميم بنِ مُرّة؛ والرَّباحىّ بفتح الراء والباء الموحّدة : منسوبٌ الى قلعةِ رَباح بالأندلس .

(والرَّبَذىّ) (والزَّيْدىّ)

فالرَّبَذىّ بالراء المهملة والبـاء الموحّدة المفتوحة والذال المعجمة : نسـبة إلى الرَّبَذة[(٢)]؛ والزَّيْدىّ بالزاى المعجمة : نسبة إلى زيد العلوى، وإلى مذهبه .

(والرِّفاعىّ) (والرِّقاعىّ) ... ...[(٣)]

(والزِّمّانىّ)[(٤)] (والرُّمّانىّ)[(٥)]

فالزِّمّانى بكسر الزاى المعجمة : عبـدُ الله بنُ مَعْبَـد؛ والرُّمّانىّ بالراء المهملة : جماعة، منهم علىُّ بنُ عيسى النحوىُّ المتكلّم، وغيره .

(والزَّينبىّ) (والزَّبيبىّ)[(٦)] ... ...

(١) يريد بهذا البطن : بنى رياح بن يربوع بن حنظلة (تاج العروس) .

(٢) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال، قريبة من ذات عرق .

(٣) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين، وقد أورد صاحب مشتبه النسبة ص ٣٢ ذلك التفصيل فذكر فى الرفاعى — وهى النسبة الأولى — عقبة الرفاعى، وعقبة بن عبد الله الرفاعى، وغيرهما؛ وفى الرقاعى — وهى الثانية — على بن سليمان الرقاعى، ويعرف بابن الرقاع، من أهل إخميم . ولم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لتكرر مثل هذا الحذف فى مواضع كثيرة من هذا الباب تكررا يشعر بأنه مقصود من المؤلف اختصارا، لا أن هذا التفصيل قد سقط من الناسخ؛ وقد نبهنا على ذلك فى عدّة من الحواشى السابقة . والرفاعى : نسبة الى جدّ اسمه رفاعة، والى بطن من جهينة أيضا؛ والرقاعى : نسبة الى الرقاع، وهو بطن من جشم والى كتابة الرقاع، والى جدّ أيضا اسمه الرقاع .

(٤) الزمانى : نسبة الى زمان بن مالك بن صعب، ينتهى نسبه الى بكر بن وائل انظر (القاموس وشرحه) .

(٥) الرمانى : نسبة الى قصر الرمان بواسط .

(٦) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين؛ وقد أورد صاحب كتاب مشتبه النسبة ص ٣٣ تفصيل ذلك، فذكر فى النسبة الأولى على بن هارون الزينبى وغيره، وفى الثانية ابراهيم بن عبد الله الزبيبى العسكرى .

(والزُّبَيْدىّ) والزَّبيدىّ)

بالضم : نسبةٌ الى قبيلة[(١)]، منهم عمرُو بنُ مَعْدِيكرِب؛ وبالفتح : نسبة إلى زَبيد؛ من أرض اليمن .

(والزَّبادىّ) (و الزِّيادىّ)

٥ فالزَّبادىّ بفتح الزاى المعجمة، جماعة، منهم خالدُ بنُ عامر[(٢)] الزَّبادىّ[(٣)]؛ والزِّيادىّ بكسر الزاى المعجمة : نسبة الى زياد .

(والسُّلَمىّ) (والسَّلَمىّ) بضم السين المهملة وفتحها ... ...[(٤)]

(والسَّذابىّ)[(٥)] (والشَّذائىّ)[(٦)]

---

(١) يريد بالقبيلة : بنى زبيد بضم أوله، من مذحج، واسم زبيد هذا منبه الأكبر بن صعب بن سعد

١٠ العشيرة، واليه ترجع قبائل زبيد (أنساب السمعانى) (وتاج العروس) .

(٢) كذا فى الأصل وأنساب السمعانى ورقة ٢٦٨ ؛ والذى فى مشتبه النسبة ص ٣٤ : « ابن عمران» .

(٣) « الزبادى » : نسبة الى زياد، وهم بطن من ولد كعب بن حجر بن الأسود بن الكلاع كما فى (مشتبه النسبة) ص ٣٥

١٥ (٤) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين ؛ وقد أورد صاحب مشتبه النسبة ص ٣٥ كثيرا من الأسماء فى كل منهما، فذكر فى السلمى بضم السين : مجاشع بن مسعود، وأخاه معبد بن مسعود وغيرهما ؛ وفى السلمى بفتح السين : ابا قتادة الحارث بن ربعى، وعبد الله بن عمرو بن حزام، وغيرهما . ولم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لما سبق أن نبهنا عليه فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٧٠ والحاشية رقم ٤ من صفحة ١٨٠ وغيرهما من أن حذف هذا التفصيل قد تكرر فى مواضع كثيرة من هذا الباب تكررا يشعر

٢٠ بأن المؤلف قد قصد ذلك اختصارا، لا أنه سقط من الناسخ . والسلمى بضم السين : نسبة الى سليم، وهى قبيلة من قيس عيلان . والسلمى بفتحتين : نسبة الى سلمة بفتح السين وكسر اللام، وهم بطن من الأنصار والمحدثون يكسرون اللام فى النسبة أيضا .

(٥) السذابى : نسبة الى السذاب، وهو نوع من البقول معروف .

(٦) الشذائى : نسبة الى شذا، وهى قرية بالبصرة؛ وهذه النسبة المذكورة هنا على غير القياس، اذ

٢٥ مقتضى القواعد أن تكون النسبة اليها «شذوى» بقلب الألف واوا .

فالسَّذابىّ بالسين المهملة، هو عمرُ بنُ محمّد السَّذابىّ؛ وبالشين المعجمة والياء المثنّاة من تحت، هو أبو الطّيّب الشَّذائىُّ الكاتب، واسمُه محمدُ بنُ أحمد.

(والسَّبَاىّ)[1] (والشَّنَاىّ) (والسَّنائىّ)

فأما السَّبَاىّ[1] بالسين المهملة والباء الموحّدة، فنسبة ترجع إلى سَبَإِ بنِ يَشْجُبَ ابن يَعْرُبَ بنِ قَحْطان؛ وأمّا الشَّناىّ بالشين المعجمة والنون، فنسبة إلى أَزْدِ شَنُوءه؛ وأمّا السَّنائى، فرجلٌ نعرفه، كان يلقّب[2] عزَّ الدّين السَّنائىّ؛ وقد أورد[3] فى هذا الموضع النَّسائىّ بتقديم النون على السين، نسبة إلى نسا[4] من خُراسان؛ والأفصح فيها النَّسَوىّ.

(والسامَرِّىّ) (والسامِرىّ)

الأوّل: نسبة إلى سامرّا[5]؛ والثانى: نسبة معروفةٌ إلى السامِرىّ وفى المحدِّثين إبراهيمُ بنُ [أبى][6] العبّاس السّامِرىّ.

(١) فى مشتبه النسبة ومشتبه الذهبىّ: «السبائى» بزيادة ألف بعد الباء، وهى نسبة صحيحة أيضا فقد ورد فى شرح القاموس مادة «سبأ» أن «سبأ» يمدّ ولا يمدّ.

(٢) فى الأصل «يبعث»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه سياق الكلام.

(٣) أورد، أى الحافظ عبد الغنى صاحب مشتبه النسبة.

(٤) كذا ورد هذا الاسم بقصر الألف فى الأصل ومعجم البلدان وشرح القاموس، والذى فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١ أن اسم هذا البلد نسأ بالهمز بعد السين، فقد قال فى النسائى: ان هذه النسبة الى نسأ بالهمز بعد السين.

(٥) سامرا: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقى دجلة؛ وفيها لغات، وهى سامراء، وسامرا وسرّ من راء، وسرّ من را (ياقوت).

(٦) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن (مشتبه النسبة) ص ٣٧ والمشتبه فى أسماء الرجال ص ٢٤٨ وتبصير المنتبه المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ مصطلح ش.

(والسِّبْيِ[1]) (والشَّيبيّ) (والسِّيبيّ) (والسَّبَنيّ) (والسِّينيّ) (والسَّبْتيّ)

أمّا السِّبْيِ[1] بالسين المهملة والباء الموحّدة والياء بآثنتين من تحتها ، فهو أبو طالب السِّبْيِ[1] ، يُنسَب إلى قرية من قرى الرّملة ، تسمّى سَبْية[1] ؛ وأمّا الشَّيبيّ ، فنسبة الى شَيْبَةَ بنِ عثمان ، من بنى عبد الدّار بنِ قُصَيّ ، من سَدَنةِ[2] الكعبة ؛ وأمّا السِّيبيّ[3] بالسين مهملة ، تليها ياء مثنّاة من تحتها ، بعدها باء موحّدة ، فهو صبّاحُ ابنُ هارون أبو مروان ؛ وأمّا السَّبَنيّ ، بالسين المهملة والنون بعد الباء الموحّدة فهو أحمدُ بنُ إسماعيل السَّبَنيّ[4] ؛ وأمّا السِّينيّ ، فقبيلٌ من الأكراد يُعرَفون بالسِّينيّة ؛ وأمّا السَّبْتيّ[5] ، فشيخٌ صالحٌ متأخّر ، مدفونٌ بقرافة مصر ؛ والسِّينيّ والسَّبْتيّ لم يذكرهما عبد الغنيّ .

(والشّامىّ) (والسّامىّ)

فالشّامىّ بالشين المعجمة : نسبة إلى الشأم ؛ والسّامىّ بالسين المهملة : قوم يُنسَبون إلى سامةَ بنِ لؤىّ بنِ غالب ، منهم إبراهيمُ بنُ الحجّاج [صاحبُ الحمّادين[6] :

---

(١) ضبطنا هذا اللفظ بفتح السين وكسرها فى جميع مواضعه نقلا عن معجم البلدان فى الكلام على (سبية) ؛ ولم يرد الفتح فى لب اللباب ص ١٣٣ ولا فى مشتبه الذهبيّ ص ٢٥١

(٢) السدنة محركة : جمع سادن ، وهو من يخدم الكعبة و يتولى أمرها و يفتح بابها و يغلقه .

(٣) «السبى» نسبة الى بلد «السيب» ، وهو على الفرات بقرب الحلة ، كما قاله الذهبى فى (المشتبه) ص ٢٥١ . وذكر ياقوت أن السيب كورة من سواد الكوفة ، وهما سيبان : الأعلى والأسفل .

(٤) السبنىّ : نسبة إلى سبن ، وهو موضع ذكره ياقوت ولم يعينه ؛ وقال نقلا عن الحازمىّ : إنه الذى تنسب اليه الثياب السبنية ، وهى ضرب من ثياب الكتّان أغلظ ما يكون .

(٥) السبتىّ : نسبة الى سبتة ، وهى بلدة من قواعد بلاد المغرب على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس .

(٦) لم ترد هذه التكملة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن (مشتبه النسبة) ص ٣٨ إذ بدونها يفيد الكلام عطف حماد بن زيد الآتى بعد على إبراهيم بن الحجاج ، وليس كذلك .

حَمّادِ بنِ سَلَمة] وحَمّادِ بنِ زيد؛ وعلىُّ بنُ الحَسَن[1] السّامىّ[2]، وعمـرُ بنُ موسى السّامىّ ومحمّـدُ بنُ عبـد الرحمن السّامىُّ الهَرَوىّ، ويحيى بنُ حجر، وبِشْرُ[3] بنُ حجر.

(والسَّجْزىّ) (والسِّحْرىّ) (والشَّجَرىّ)

فأمّا السَّجْزىّ[4] بفتح السين المهملة، وبالجيم والزاى المعجمة، فعـدد كبير يُنسَبون إلى سِجِسْتان[5]؛ وأمّا السِّـحْرىّ بكسر السين، وبالحاء والراء المهملات، فهو عبدُ الله بنُ محمّد السِّحْرىّ[6]؛ وأمّا الشَّجَرىّ بالشـين المعجمة والجيم والراء المهمـلة فإبراهيمُ بنُ يحيى الشَّجَرىّ[7].

(والشَّيْبانىّ) (والسَّيْبانىّ) (والسِّينانىّ)

أمّا الشَّيْبانىّ، فنسبٌ معروف؛ وأمّا السَّيْبانىّ بالسين المهملة، تليهـا ياء مثنّاة من تحتها وباء موحّدة، فهو يحيى بنُ أبى عمرو السَّيْبانىّ[8]، وأيّوبُ بنُ سُوَيد الرَّملىّ؛

(١) فى الأصل: «ابن على» وقوله: «ابن» زيادة من الناسخ، والصواب حذفها، راجع (مشتبه النسبة) ص ٣٨ (وأنساب السمعانىّ) ورقة ٢٨٧

(٢) كذا فى الأصل؛ وشرح القاموس مادة «سوم» وأنساب السمعانى؛ والذى فى مشتبه النسبة: «ابن الحسين»؛ وهو تحريف.

(٣) فى الأصل: «وبشير» بزيادة الياء؛ وما أثبتناه عن مشتبه النسبة والإكمال المحفوظة منـه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨ مصطلح.

(٤) فى القاموس مادة «سجز» أنه بفتح السين وكسرها.

(٥) سجستان: إقليم بين خراسان والسـند وكرمان؛ واسم قصبته «زرنج» المشتبه فى أسماء الرجال ص ٢٥٨ طبع ليدن. وفى معجم البلدان أنه جنوبىّ هراة بينه وبين هراة عشرة أيام.

(٦) قال صاحب التاج مادة «سحر»: «لا أدرى هذه النسبة إلى أى شىء، ولم يبينوه».

(٧) الشجرىّ: نسبة إلى الشجرة، وهى قرية بالمدينة، كما فى لب اللباب ص ١٥٠. وفى معجم البلدان انها هى الشجرة التى ولدت عنـدها أسماء بنت أبى بكر بذى الحليفة؛ وذكر أن إبراهيم بن يحيى المذكور هنا ينسب إليها.

(٨) السيبانى: نسبة إلى سيبان، وهو بطن من حمير، كما فى أنساب السمعانىّ ورقة ٣٢١

وأمّا السِّينانىّ بكسر السين المهملة ، تليها ياء مثنّاة من تحتها ونون ، فهو الفضلُ بنُ موسى السِّينانىّ ، يُنسَب الى قرية من قرى مَرْوَ .

(والسَّبَخىّ) (والسِّنْجىّ) (والسُّبَحىّ) (والشَّيْخىّ)[1]

أمّا السَّبَخىّ بالباء الموحَّدة والخاء المعجمة ، فهو فَرْقَدُ بنُ يعقوبَ السَّبَخىّ[2] العابد ؛ وأمّا السِّنْجىّ بالنون والجيم ، فهو أبو داودَ سليمانُ بنُ مَعْبَد السِّنْجىّ[3] ، خُراسانىّ ؛ وأمّا السُّبَحىّ بضم السين المهملة ، و بالحاء المهملة ، قبلها باء موحَّدة ، فهو أبو بكر السُّبَحىّ[4] ؛ وأمّا الشَّيْخىّ ، فجماعة نعرفهم من الأمراء يقال لهم : الشَّيخيّة ؛ و يصلح أن يضاف الى هذه الترجمة السَّيحىّ[5] والشِّيحىّ[6] .

(والشَّعْبىّ) (والشُّعْبىّ) [والشَّغْبىّ][7]

فالشَّعْبىّ بفتح الشين المعجمة ، هو عامرُ بنُ شَرَاحِيل الشَّعْبىّ[8] ؛ وأمّا الشُّعبىّ بضمّها ، فهو معاويةُ بنُ حفص الشُّعْبىّ[9] ؛ وأمّا الشَّغْبىّ بالشين والغين المعجمة

(١) لم ترد هذه النسبة فى كتاب مشتبه النسبة الذى نقل عنه المؤلف هذه النسب .

(٢) السبخىّ : نسبة إلى السبخة : موضع بالبصرة .

(٣) السنجىّ بكسر السين : نسبة الى سنج ، وهى قرية بمرو .

(٤) «السبحىّ» : نسبة الى السبح التى يسبح بها .

(٥) السيحىّ بفتح السين : نسبة الى سيح ، وهو ماء بأقصى اليمامة ، ونسبة إلى سيح الغمر ، وهو باليمامة أيضا (مشتبه الذهبى) ص ٢٥٥ .

(٦) الشيحىّ بكسر الشين : نسبة إلى شيحة ، وهى قرية من قرى حلب (مشتبه الذهبىّ صفحة ٢٥٤).

(٧) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والتفصيل الآتى بعد يقتضى اثباتها انظر السطر الحادى عشر من هذه الصفحة .

(٨) الشعبىّ : نسبة الى شعب ، وهو بطن من همدان ؛ وقال ابن الأثير : « من حمير » انظر (لب اللباب) . وقال ابن سعد فى (الطبقات ج ٦ ص ١٧١) فى الكلام على عامر الشعبى : « هو من حمير ، وعداده فى همدان» .

(٩) الشعبىّ : نسبة الى شعب بضم الشين ، وهو اسم لأحد أجداده ، كما يستفاد من (مشتبه الذهبى).

فهو زكريّا بنُ عيسى الشَّـغْبيّ، منسوب إلى شَغْب : مَنْهَلٌ[1] بين طريق مصر والشأم .

(والشُّعَيْثيّ) (والشُّعَيْبيّ)

فالشُّعَيْثيّ : نسبة الى شُعَيْثِ بَلْعَنْبر[2] من بنى تميم؛ وأمّا الشُّعَيْبيّ، فنسبة الى من اسمُه شعيب .

(والشَّنّيّ) (والشَّبّيّ) (والسُّنّيّ) (والبَسّيّ)

[فأمّا[3] الشَّنّيّ بالشين المعجمة والنون ، فعِدّة، منهم عُقْبـةُ بنُ خالد الشَّنّيُّ البَصْريّ ، عن الحَسَن البَصْريّ ، رَوى عنـه مُسْلِمُ بنُ ابراهيم ؛ والعبّاسُ بنُ جعفرِ ابنِ زيدِ بنِ طَلْق العَبْديُّ الشَّنّيّ؛ وأمّا الشَّبّيّ]، فهو محمّدُ بنُ هلالِ بنِ بلال[4] الشَّبّيّ[5]؛ وأمّا السُّنّيّ بالنون، فهو الحافظُ ابنُ السُّنّيّ[6] الدِّينَوَريّ؛ وأمّا البَسّيّ، فهو أبو مِحْجَن تَوْبةُ بنُ نَمِر قاضى مصر، بطنٌ[7] من حِمْير يقال لهم : «البَسّيّون» .

(١) فى (لب اللباب) ص ١٥٣ أنه واد خلف وادى القرى . وفى معجم البلدان « أنه ضيعة خلف وادى القرى كانت للزهريّ ، وبها قبره » .

(٢) الإضافة فى هذه العبارة بمعنى «من» ، أى شعيث من بلعنبر، بمعنى أنه بطن من هذه القبيلة .

(٣) لم ترد هـذه التكملة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن كتاب مشتبه النسبة ص ٤٢ اذ السياق يقتضى إثباتها لأمرين : أولها أن مابعدها من الكلام لا يستقيم مع ماقبلها بدون إثباتها ، كما لا يخفى ؛ ثانيهما أننا لا نرى وجها لأن يغفل المؤلف الكلام عن هذه النسبة دون مابعدها من النسب الثلاث . والشنى بالنون : نسبة إلى شنّ ، وهو بطن من عبد القيس .

(٤) لم يرد قوله : « ابن بلال » فى كتاب مشتبه النسـبة ، وانما ورد فى الأصل هنا وفى المشتبه فى أسماء الرجال ص ٢٨٠ وأنساب السمعانى .

(٥) الشبي : نسبة إلى الشب المعروف الذى يدبغ به الجلد .

(٦) يريد بابن السنى : أبا بكر أحمد بن محمد بن إسحاق . (مشتبه الذهبي ص ٢٧٨)

(٧) «بطن» بالرفع ، خبر لمبتدإ محذوف معلوم من السياق ، أى المنسوب إليهم بطن الخ .

(والضَّبّىّ) (والضِّنّىّ)

فالضَّبّىّ : نسبة إلى «ضَبّة»[(١)]؛ وأمّا الضِّنّىّ بالنون وكسر الضاد، فهو أبو يزيد الضِّنّىّ[(٢)]، يَروِى عن ميمونةَ مولاةِ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم .

(والصِّرارىّ) (والضِّرارىّ) (والصَّرّارىّ)[(٣)]

٥ فأمّا الصِّرارىّ، فهو محمدُ بنُ عبد الله الصِّرارىّ[(٤)]، يَروِى عن عطاء بنِ أبى رَباح؛ وأمّا الضِّرارىّ بكسر الضاد المعجمة، فهو محمدُ بنُ إسماعيلَ الضِّرارىّ[(٥)]؛ وأمّا الصَّرّارىّ بفتح الصاد المهملة والراء المهملة المشدّدة، فأبو القاسم بكرُ بنُ الفضل بنِ موسى النِّعالىُّ الصَّرّارىّ : نسبة إلى صنعة النِّعال الصِّرّارة[(٦)] .

(والصّائغ) (والضّائع)

١٠ فالصائغ : نسبة إلى صنعة الصِّياغة؛ والضّائع، هو عثمانُ بنُ بَلْج[(٧)] الضّائع .

---

(١) ضبة، هو ابن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر (مشتبه الذهبى) ص ٣١٢ .

(٢) الضنىّ : نسبة إلى بنى ضنة، وهم خمس قبائل : ففى قضاعة ضنة بن سعد هذيم، وفى عذرة ضنة ابن عبد، وفى هذيل ضنة بن عمرو، وفى أسد ضنة بن الحلاف، وفى الأزد ضنة بن فلان (مشتبه الذهبى ص ٣١٢) .

١٥ (٣) كان الأنسب فيما يظهر لنا تقديم «الصرارى» بالصاد المهملة وتشديد الراء على «الضرارى» بالضاد المعجمة، أى جعل هذه النسبة تالية «للصرارى» بكسر الصاد، وهى النسبة الأولى، وذلك لاتفاقهما فى جميع الحروف .

(٤) الصرارى : نسبة الى صرار بكسر الصاد، وهو موضع بالمدينة .

(٥) الضرارى : نسبة الى جدّ من أجداده يسمى ضرارا .

٢٠ (٦) الصرارة، أى التى لها صرير وصوت عند المشى .

(٧) فى الاصل : « بلح » بالحاء المهملة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا (انظر مشتبه الذهبى) ص ٣٠٩

(والصَّعْدىّ) (والصُّغْدىّ)

فالصَّعْدىّ، هو محمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ مُسْلِمٍ الصَّعْدىّ[١]؛ وأمّا الصُّغْدىّ بضم الصاد المهملة وتسكين الغين المعجمة، فهو أيّوبُ بنُ سليمانَ الصُّغْدىّ، و إسحاقُ[٢] بنُ إبراهيمَ بنِ منصور الصُّغْدىّ؛ أراها نِسبةً الى الصُّغْد[٣] بسَمَرْقَنْد، وهو أحد متنزّهات الدنيا الأربعة[٤]. ٥

(والصُّبَاحىّ) (والصَّبّاحىّ)

فالصُّبَاحىّ بضم الصاد، هو أبو خِيرَةَ[٥] الصُّبَاحىّ[٦]، له صحبة؛ وأمّا الصَّبّاحىّ بفتح الصاد وتشديد الباء الموحّدة، فهو يزيدُ بنُ سعيد الصَّبّاحىّ[٧]، يروى عن مالكِ ابنِ أَنَس حديثين.

(والطِّبيّ) (والطِّينىّ) (والطُّبْنىّ) (والطَّيّبىّ) ١٠

(١) الصعدى: نسبة إلى صعدة، وهى بليدة باليمن، كما قاله الذهبي فى المشتبه ص ٣١٤.

(٢) ورد إسحاق بن ابراهيم فى الأصل هنا وفى تبصير المنتبه؛ ولم يرد فى مشتبه النسبة المنقولة عنه هذه النسب ولا فى المشتبه فى أسماء الرجال للذهبي؛ والذى ورد فى هذين الكتابين هو والده إبراهيم ابن منصور.

(٣) الصغد: كورة قصبتها سمرقند، وهى قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى؛ ومساحتها ستة وثلاثون فرسخا فى ستة وأربعين (ياقوت). ١٥

(٤) هذه المتنزهات الأربعة هى غوطة دمشق، ونهر الأبلة، وصغد سمرقند، وشعب بوّان (ياقوت).

(٥) ضبط هذا الاسم فى القاموس مادّة «خير» بكسر الخاء ضبطا بالقلم؛ ونص شارحه على ذلك أيضا ثم ذكر أنه فى التبصير بفتحها؛ ولهذا ضبطناه بالوجهين.

(٦) الصباحى: نسبة الى بنى صباح بن لكيز، وهم بطن من عبدالقيس «مستدرك التاج مادّة صبح» وتبصير المنتبه. ٢٠

(٧) الصباحى: نسبة إلى الصباح، وهو بطن من سهم.

فالطِّبيّ بالطاء والياء المعجمة باثنتين من تحتها وباء موحّدة، هو أحمدُ بنُ إسحاقَ بن نِيخاب الطِّبيّ[1]؛ وأمّا الطِّينيّ[2] بالياء المثنّاة من أسفل والنون، فهو عبد الله ابنُ الهَيْثَم الطِّينيّ[3]؛ وأمّا الطُّبْنيّ بالباء الموحّدة والنون، فنسبة الى مدينة[4] بالمغرب منها عليُّ بنُ منصور الطُّبْنيّ، وغيرُه؛ وأمّا الطَّيّبيّ، فنسبة إلى الطَّيّبة: بلد بإقليم الغربيّة بمصر[5]، وبلد بالشرقيّة[6]، وقرية بالسوداء من الشأم تُسمَّى «طيّبة[7] الأسم» وهذه النسبة إلى الطّيبة لم يذكرها عبدُ الغنيّ.

(والعابدىّ) (والعائدىّ[8]) (والعائذىّ)

فالعابدىّ بالباء الموحّدة والدال المهملة: نسبة إلى عابد بنِ عمرَ بنِ مخزوم منهم عبدُ الله بنُ المسيّب القرشيُّ العابدىّ، وعبدُ الله بنُ عمرانَ العابدىُّ صاحبُ سفيانَ بنِ عُيَيْنة؛ «وأمّا العائدىّ[9]، فهم من ولد عائد بنِ عمرو بنِ مخزوم، فقد (١١٩)

(١) لم نجد فيما راجعناه من الكتب نصا على ضبط هذا الاسم، وإنما ضبطناه بكسر النون تبعا لضبطه فى الإكمال بالقلم لا بالعبارة.

(٢) الطبى: نسبة إلى طيب، وهى بلدة بين واسط وكور الأهواز (أنساب السمعانى ورقة ٢٧٥)

(٣) الطينى: نسبة الى بيع الطين المالح الذى يؤكل، وإلى بلدة بين الفرما وتنيس من أرض مصر يقال لها: «طينة».

(٤) هذه المدينة هى طبنة؛ قال ياقوت: هى بلدة فى طرف افريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب.

(٥) هذا البلد هو المعروف الآن (بأم رماد) تاج العروس مادّة (طيب).

(٦) السوداء: من كور حمص (ياقوت).

(٧) لم يذكر ياقوت ولا البكرى فى كتابيهما اسم هذه القرية، كما أنه لم يرد فى تاج العروس أيضا.

(٨) لم نجد فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى النسب والأسماء من ذكر «العائدى» بالدال المهملة؛ والذى يظهر لنا أن الصواب إسقاطها، وسنوضح وجه ذلك فى الحاشية الآتية بعد هذه، فانظرها.

(٩) كذا ورد فى الأصل هذا الكلام الموضوع بين هاتين العلامتين؛ وهو مخالف لما وجدناه فيما لدينا من الكتب الكثيرة المؤلفة فى النسب والأسماء؛ والذى ورد فى هذه الكتب هو عابد بالباء الموحدة ابن عمر بن مخزوم المتقدّم ذكره، وعائذ بالذال المعجمة ابن عمران بن مخزوم المذكور بعد؛ ولم نجد عائدا =

آجتمع فى مخزوم عابد وعائد»؛ وأمّا العائذيُّون بالذال المعجمة، فهم من ولد عمرانَ ابنِ مخزوم أيضا .

(والقَيْنىّ) (والقُتَبىّ)

فأمّا القَيْنىّ بالياء المثنّاة من تحتها والنون، فجماعة، منهم عبدُ الله بنُ نُعَيْم القَيْنىّ[1] وغيرُه؛ وأمّا القُتَبىّ بضم القاف وفتح التاء المثنّاة من فوقها وبالباء الموحّدة، فهلالُ[2] ابنُ العَلاء، وعبدُ الله بنُ مُسْلم بنِ قُتَيْبة؛ وأضاف عبدُ الغنىّ إلى هذه الترجمة العُتْبىّ[3]، وهو محمدُ بنُ عُبَيد الله العُتْبىّ الأخبارىّ .

(والعَوَقىّ) (والعَوْفىّ)

أمّا بالقاف، فهو أبو نَضْرةَ منذرُ بنُ مالك العَوَقىّ[4] صاحبُ أبى سعيد الخُدْرىّ، ومحمدُ بنُ سِنان العَوَقىّ؛ وأمّا العَوْفىّ[5] بالفاء، فهو عطيّةُ العَوْفىّ، وأحمدُ ابنُ إبراهيمَ العَوْفىّ .

= بالدال المهملة ابن عمرو بن مخزوم الذى ذكره المؤلف هنا؛ وإذن فالصواب حذف هذه النسبة، ووضع قوله : « فقد آجتمع فى مخزوم عابد وعائذ » — بالذال المعجمة لا بالمهملة كما فى الأصل — فى الكلام على العائذى الآتى بعد انظر مشتبه النسبة ص ٤٥ والمشتبه فى أسماء الرجال ص ٣٣١ ولب اللباب ص ١٧٣ وأنساب السمعانى والإكمال، وغيرها من الكتب .

(١) القينى : نسبة إلى قين، وهى قبيلة من قضاعة .

(٢) فى أنساب السمعانى ورقة ٤٤٣ «العلاء بن هلال» عكس ما هنا وعكس ما فى كتاب مشتبه النسبة؛ وهذا منسوب إلى قتيبة، وهو بطن من باهلة (أنساب السمعانى)؛ وأما الذى بعده فالنسبة فيه الى جدّه قتيبة .

(٣) فى الأصل : « العينى » . بالياء المثناة التحتية والنون فى كلا الموضعين؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، انظر مشتبه النسبة ص ٤٦

(٤) العوقى : نسبة إلى العوقة بالتحريك، وهو بطن من عبد القيس .

(٥) هذه النسبة فى بعض الأسماء إلى عبد الرحمن بن عوف؛ وفى أسماء أخرى إلى عوف بن سعد وهو بطن من قيس عيلان .

(والعُتَقىّ) (والغَيْفىّ)

فالعُتَقىّ بضم العين المهملة وفتح التاء المثنّاة من فوقها و بالقاف، هو الحارثُ ابنُ سعيد العُتَقىّ[(١)]، وأبو عبد الرحمن محمد بنُ عبد الله العُتَقىّ[(٢)] المقرئ، له تاريخ فى المغاربة؛ وأما الغَيْفىّ بالغين المعجمة والياء المثنّاة من تحتها والفاء، فالنسبة فيها إلى (غَيْفة): قرية من قرى مصر بقرب بُلْبَيْس مدينةِ الشرقيّة، منها الحسين[(٣)] بنُ إدريسَ بنِ عبد الكبير الغَيْفىّ.

(والعُودىّ) (والعَوْذىّ) ... ...[(٤)]

(والعُمَرىّ) (والعَمْرىّ) (والغَمْرىّ) ... ...[(٥)]

(١) العتق: نسبة إلى العتقاء، وهم جماع فيهم من حجر حمير ومن سعد العشيرة ومن كنانة مضر ومن غيرهم (القاموس).

(٢) كذا فى مشتبه النسبة ص ٤٨ والمشتبه فى أسماء الرجال ص ٣٤٨ وأنساب السمعانىّ ورقة ٣٨٣؛ والذى فى الأصل: «ابن سعيد»؛ وهو خلاف الصواب إذ لم نجده فيما لدينا من المظانّ.

(٣) الذى فى مشتبه النسبة «عمرو بن إدريس»، ولم يرد فيه الحسين بن إدريس؛ والحسين وعمرو أخوان، وقد أوردهما الذهبىّ فى المشتبه ص ٣٤٨

(٤) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين؛ وقد أورد ذلك صاحب مشتبه النسبة ص ٤٨ فذكر فى «العودى» بالدال المهملة محمد بن أحمد بن هارون العودى، ومحمد بن عمر العودى. وذكر فى العوذى بالذال المعجمة أبا إدريس العوذى، وعبد الصمد بن حبيب العوذى، وحسين بن ذكوان العوذى اهـ. ولم نثبت شيئا من ذلك فى صلب الكتاب بين مربعين لما سبق التنبيه عليه فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٧٠ والحاشية رقم ٤ من صفحة ١٨٠ وغيرهما من الحواشى من أن حذف هذا التفصيل قد تكرر فى مواضع كثيرة من هذا الباب تكررا يشعر بأنه مقصود من المؤلف اختصارا، لا أنه سقط من الناسخ. ولم يرد فى لب اللباب ولا فى أنساب السمعانى وجه النسبة فى العودى بالعين المضمومة والدال المهملة؛ وأما العوذى بالعين المفتوحة والذال المعجمة، فنسبة الى عوذ بن سود، وهو بطن من الأزد.

(٥) لم يرد فى الأصل تفصيل لهذه النسب الثلاث كالنسبتين اللتين قبلها والنسب التى بعدها؛ وقد زاد صاحب مشتبه النسبة ص ٥٠ على ذلك: (القمرى) بالقاف، وذكر فى النسبة الأولى — وهى «العمرى» بضم أوّله — أنهم كثير، منهم ولد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، الى آخر ما قال، وذكر فى العمرى =

(والعِبادىّ) (والعُبادىّ) (والعَبّادىّ) (١) ... ...

(والعَبْدىّ) (والعَيْدىّ) (٢) ... ...

(والعَبْسىّ) (والعَنْسىّ) (والعَيْشىّ)

فأمّا العَبْسىّ، فنسبة إلى عَبْس، منهم جماعة من الصحابة؛ وأمّا العَنْسى (٣) بالنون فجماعة، منهم عمّارُ بنُ ياسِر؛ وأمّا العَيْشىّ (٤)، فجماعة كثيرة، منهم أُميّةُ بنُ بِسْطام وحمّادُ بنُ عيسى.

= بفتح أوّله وسكون ثانيه — وهى النسبة الثانية — جعفر بن عون بن عمرو بن حريث، نسب إلى عمرو بن حريث، وغيره من الأسماء. وذكر فى الغمرى بفتح الغين المعجمة وسكون الميم — وهى الثالثة — اسماعيل ابن فليح الغمرى، وغيره. وذكر أيضا أن الغمرى: نسبة إلى بطن من غافق.

(١) لم يرد فى الأصل تفصيل لهذه النسب الثلاث كالنسب التى قبلها؛ وقد أورد صاحب مشتبه النسبة ص ٥١ النسبتين الأولين، ولم يورد النسبة الأخيرة، وذكر فى النسبة الأولى — وهى العبادى بكسر العين — سليمان بن أبى صالح مولى الحصين بن عبد الرحمن التجيبى، ثم العبادى؛ وذكر أن العباد بكسر العين: بطن من تجيب. وذكر فى العبادى بضم العين عبد الله بن محمد العبادى اهـ والنسبة فى العبادى بضم أوّله قد تكون إلى عباد بن ضبيعة، وتكون إلى عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه، كما فى (لب اللباب)؛ وأما العبادى بفتح أوّله وتشديد ثانيه — وهى النسبة الثالثة التى لم يذكرها عبد الغنى — فقد أوردها الذهبى فى المشتبه ص ٣٣٣، وقال: العبادى من فقهاء الشافعية أبو عاصم محمد بن أحمد الهروى، والمظفر بن أردشير العبادى الواعظ اهـ والنسبة فى هذه الأخيرة الى سنج عباد، وهى قرية بمرو، وإلى جدّ يسمى عبادا.

(٢) لم يرد فى الأصل تفصيل لهاتين النسبتين كالنسب السابقة؛ وقد زاد فى مشتبه النسبة عليهما نسبة ثالثة وهى «الفيدى» بالفاء الموحدة، وذكر فى النسبة الأولى — وهى «العبدى» بالباء الموحدة والدال المهملة — معبد بن قيس العبدى، له صحبة، وعبد الله بن جابر العبدى، وغيرهما؛ وذكر فى العيذى بالياء المثناة والذال المعجمة محمد بن سليمان العيذى، وبكار بن الأسود العيذى اهـ والنسبة فى «العبدى» إلى عبد القيس، وهو بطن من ربيعة بن نزار؛ وفى «العيذى» الى عيذ الله بن سعد العشيرة من مذحج (لب اللباب) ص ١٧٥ فى النسبة الأولى و ١٨٤ فى النسبة الثانية.

(٣) العنسىّ: نسبة إلى عنس، وهو حى من مذحج.

(٤) العيشى: نسبة الى عائش بن مالك، وهو بطن من تيم الله بن ثعلبة؛ ويقال فيه «العائشى» المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى ص ٣٤٠

(والقَيْسىّ)[1] (والفِيشىّ)[1]

فالقَيْسىّ : نسبة إلى قَيْس[2]؛ والفِيشىّ بالفاء والشين : نسبة إلى قرية من قرى مصر يقال لها : فِيشة .

(والعَرَفىّ)[3] (والعِرْقىّ) (والعَرْقىّ)[4]

٥ فالعَرَفىّ، هو أبو عبد الله العَرَفىّ[5] الحجازىّ؛ والعِرْقىّ، هو عروةُ بنُ مروان الرِّقّىّ[6] العِرْقىّ « والعِـرْقىّ[7] : نسبة الى (عِرْقة) ، من عمل طَرابُلُس الشأم ، لم يذكرها عبد الغنىّ » .

(١) كذا ورد فى الأصـل هاتان النسبتان ضمن النسب التى أولها عين مهملة أو غين معجمة ، وكان الأنسب ذكرهما ضمن النسب الآتية التى أولها فاء أو قاف ، كما يقتضيه ترتيب النسب بحسب ترتيب الحروف .

١٠ (٢) يريد بقيس : قيس عيلان؛ أو قيس : بطن من بكر بن وائل ، أو بطن من النخع .

(٣) فى الأصل : «والعوقى» بالواو والقاف؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه التفصيل الآتى بعد ، وأيضا فقد تقدّم الكلام على العوقى فى ص ٢٠٠ س ٨ من هذا السفر .

(٤) كذا وردت هذه النسبة فى الأصل مضبوطة بفتح العين وسكون الراء ضبطا بالقلم؛ ويظهر لنا أن الصواب إسـقاطها لأمرين : أولهما أننا لم نجدها فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى النسب والأسماء

١٥ كمشتبه النسبة وأنساب السمعانى ولب اللباب والمشتبه فى أسماء الرجال وتبصير المنتبه ، وغيرها من الكتب؛ ثانيهما أن البيان الذى سيذكره المؤلف بعد لهذه النسبة مخالف للصواب ، إذ الصواب جعله بيانا للنسبة التى قبلها وهى « العرقى » بكسر أوله وسكون ثانيه ، كما يتبين ذلك مما سنوضحه بعد فى الحاشية رقم ٧ من هذه الصفحة . ولا يتوهم أن فى هـذه النسبة تصحيفا من الناسخ ، إذ البيان الآتى بعد فى السطر السادس من هذه الصفحة يمنع من توهم التصحيف .

٢٠ (٥) العرقىّ : نسبة الى عرقة بالتحريك ، لأن أبا عبـد الله المذكور — واسمـه زنقل — كان ينزلها . (المشتبه فى أسماء الرجال ص ٣٥٧) .

(٦) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصـل ومشتبه النسبة ص ٥٦ ولم نجـد فى غير هذين الكتابين من قال فى عروة بن مروان هذا : « الرقى » انظر مشتبه الذهبى ص ٣٥٨ وأنساب السمعانى ورقة ٣٨٨ ومعجم البلدان فى الكلام على (عرقة) بكسر العين .

٢٥ (٧) كذا ورد فى الأصل هذا الكلام الموضوع بين هاتين العلامتين فى بيان النسبة الثالثة التى لم يذكرها عبد الغنى فى كتابه؛ وهو خلاف الصواب ، إذ العرقة التى من أعمال طرابلس إنما هى بكسر العين وسكون الراء =

(والغُبَرىّ) (والعَنَزىّ) (والعِتْرى) (والعَنْزى)[1]

فأمّا الغُبَرىّ بالغين المعجمة المضمومة والبـاء المفتوحة بواحدة والراء المهمـلة فهم كثير، من بنى غُبَر[2]، منهم عَبّادُ بنُ شُرَحْبِيل، وعَبّادُ بنُ قَبِيصة؛ وأمّا العَـنَزىّ بالعـين المهملة والنون والزاى، فنسـبة الى عَنَزَة : حىٌّ من رَبيعة؛ وأمّا العِـتْرىّ[3] فجماعة، منهم بكّارُ بنُ سلام العِتْرىّ؛ وأمّا العَنْزىّ بفتح العين وسكون النون وكسر الزاى، فمنهم عامرُ بنُ رَبيعةَ العَنْزى؛ وعَنْز من رَبيعةَ بنِ نزار .

(والفَزارىّ) (والقَرارىّ)

فالفَزارىّ : نسبة الى بنى فَزارة؛ والقَرارىّ بالقاف والراء المهملة المكرّرة، قليـل منهم أبو الأَسَد سَهْل القَرارىّ؛ وقَرار : قبيلة[4] .

= واليها ينسب عروة بن مروان السابق ذكره فى النسبة الثانية ، وهى العرق بكسر فسكون انظر المشتبه فى أسماء الرجال ص ٣٥٨ والقاموس وشرحه مادة «عرق» وأنساب السمعانى ورقة ٣٨٨ ومعجم البلدان فى الكلام على (عرقة) بكسر العين ، وغير ذلك من الكتب ؛ واذن فالصواب جعل هذه العبارة من تتمة الكلام على النسبة السابقة ، لا أن تجعل بيانا للنسبة الثالثة التى لم يذكرها عبد الغنى . وأما النسبة الثالثة التى زادها المؤلف على عبد الغنى ، وهى (العرق) بفتح فسكون كما هو مضبوط فى الأصـل ضبطا بالقلم ، فاننا لم نجد فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى النسب والأسماء من أورده ، كما سبق التنبيه على ذلك فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٠٣ من هذا السفر؛ وقد أورد ياقوت فى معجمه «العرقة» بفتح فسكون ، اسم بلدة من نواحى الروم ؛ غير أننا لم نجد فيما راجعناه من الكتب من انتسب إليها .

(١) كان الأنسب تقديم (العنزى) بفتح فسكون على (العترى) ، أى جعله تاليا (للعنزى) بفتح أوله وثانيه ، وذلك لاتفاقهما فى جميع الحروف ، وكما هو صنيع الذهبى أيضا فى المشتبه ص ٣٧٧

(٢) بنو غبر ، هم بطن من بشكر .

(٣) العترى فى بعض الأسماء : نسـبة الى عتر بن جشم ، وفى بعضها الى عترة بن الحارث من هذيل وفى أسماء أخرى إلى عتر بن معاذ من هوازن انظر المشتبه فى أسماء الرجال ص ٣٧٨ .

(٤) فى لب اللباب أن هذه القبيلة من بكر .

(والفَلّاس) (والقَلّاس)[1]

فالفَلّاس بالفاء، هو أبو حفص عمرُو بنُ علىّ الصيرفىُّ الفَلّاس؛ والقَلّاس بالقاف والسين المهملة[2]، هو أبو بكر محمدُ بنُ هارون القَلّاس .

(والقِتْبانىّ) (والفِتْيانىّ)

فالقِتْبانىّ بالقاف : جماعة، منهم عيّاشُ بنُ عبّاس القِتْبانىّ[3]، وأبو معاوية المفضَّلُ بنُ فَضالة بن عُبَيْد القِتْبانىّ قاضى مصر؛ وأمّا الفِتْيانىّ بالفاء، فبطن[4] من بَجِيلةِ الكوفة، منهم رِفاعةُ بنُ[5] عاصم .

(والقُبائىّ) (والقُنّائىّ) (والقِيانىّ) (والقَبّانىّ) (والقِنائىّ) (والقَبّانىّ)[6]

---

(١) فى الأصل : « والقلاش » بالشين المعجمة ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما فى مشتبه النسبة ص ٦٠ والمشتبه فى أسماء الرجال ص ٤١١ وتبصير المنتبه .

(٢) عبارة الأصل : « والشين المعجمة » ؛ وهو خطأ صوابه ما أثبتنا انظر مشتبه النسبة ص ٦٠ والمشتبه فى أسماء الرجال ص ٤١١ وتبصير المنتبه ومستدرك التاج مادّة « قلس » وغير ذلك من الكتب المؤلفة فى النسب والأسماء .

(٣) القتبانى : نسبة إلى قتبان بكسر القاف ابن ردمان، وهو بطن من ذى رعين (المشتبه فى أسماء الرجال ص ٣٩٨) .

(٤) «فبطن»، أى فالمنسوب اليهم بطن الخ فحذف المبتدا للعلم به من سياق الكلام؛ واسم هذا البطن « فتيان »، كما فى مشتبه النسبة؛ وفى القاموس وشرحه مادّة (فتى) : « الفتيان » بزيادة « ال » وهم بنو فتيان بن معاوية بن زيد بن الغوث .

(٥) كذا فى الأصل ومشتبه النسبة ص ٦٠ وأنساب السمعانى ورقة ٤١٩؛ والذى فى تاج العروس مادة « فتى » : « أبو عاصم » .

(٦) الصواب إسقاط هذه النسبة لتكررها مع النسبة الرابعة، كما هو ظاهر، وقد سرى ذلك إلى المؤلف من توهمه أنّ النسبة الرابعة إنما هى بكسر القاف، وهذه بفتحها؛ وهو خلاف الصواب، كما سننبه على ذلك فى الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٠٦ من هذا السفر، فانظرها .

فالقُبائىّ بضم القاف : نســبة لمن سكن قُباء[(١)] [(٢)]؛ وأمّا القُنّائىّ بضم القاف أيضا وبالنون، فهو [أبو][(٣)] إسحاقَ [ابراهيمُ بنُ أحمدَ][(٣)] بنِ علىّ القُنّائىُّ[(٤)] الكاتب[(٥)]؛ وأمّا القِيانىّ بكسر القاف وبالياء المثنّاة من تحتها والنون[(٦)] [(٧)]، فهو عَبْدُوس بنُ المُعَلَّى القِيـانىّ والقِيانة، بطنٌ من غافق؛ وأمّا القَبّانىّ بفتح القاف وبالباء الموحّدة والنون[(٨)]، فهو علىٌّ

(١) فى الأصـل : « الى من سكن » ؛ وهو غير مستقيم ، اذ ليس القبائىّ نسبة الى من سكن قباء وانما هى نسبة إلى قباء نفسها ، كما لا يخفى ؛ واذن فالصواب وضع اللام كما أثبتنا مكان «الى» ، ومعنى أنها نسبة لمن سكن الخ أن هـذه النسبة تقال له ، وتختص به ، فمعنى اللام هنا الاختصاص ، وسيأتى التنبيه على مثل ذلك أيضا فى موضعين آخرين أثبتنا فيهما اللام مكان « إلى » . وعبارة مشتبه النسـبة : « الى سكنى قباء » ؛ وهى أظهر .

(٢) قباء بالمدّ والقصر : قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة .

(٣) هاتان الكلمتان اللتان بين مربعين لم تردا فى الأصل ، وقد أثبتناهما عن مشـتبه النسبة ص ٥٧ إذ لا يستقيم الكلام بدون إثباتهما .

(٤) قال الذهبي فى المشتبه ص ٤١٦ : كأنه من قرية «قنا» بالسواد . وقال فى لب اللباب : إنه موضع بالنهروان .

(٥) ورد فى الأصل بعد هـذه الكلمة قوله : « على بن الحسين القنائى » ؛ وهو خطأ من الناسخ فإن على بن الحسين هذا سيأتى ذكره فى القبانى بالقاف والباء المشدّدة والنون ، وهى النسبة الرابعة ؛ وانظر مشتبه النسبة ص ٥٧ ومشتبه الذهبىّ ص ٤١٥

(٦) فى مستدرك التاج مادّة « قين » أنه بكسر القاف وفتحها .

(٧) كذا فى الأصل ومشتبه النسبة ص ٥٧ والذى فى مستدرك التاج مادّة « قين » أن أئمة النسب ذكروه بالنون ، والصواب فيه بالفاء . وأورده صاحب لب اللباب بالفاء أيضا مكان النون .

(٨) فى الأصـل : بكسر القاف ، وهو خلاف الصواب ، فقد نص الحافظ ابن حجر فى التبصير على أنه بفتح القاف وتشديد الباء ، وانظر المشتبه فى أسماء الرجال ص ٤١٥ ؛ ولم نجد القبانى بكسر القاف فيما لدينا من الكتب الكثيرة المؤلفة فى النسب والأسماء ؛ واذن فهـذه النسبة مكررة مع النسبة السادسـة .

ابنُ الحسين القَبّانىّ ؛ وأمّا القِنائىّ (١) ، فنسبة لمن يكون من قِنى من أعمال الدّيار المصريّة ، على مرحلة من مدينة قُوص ؛ وأمّا القَبّانىّ (٢) ، فنسبة لمن يَزِن بالقَبّان (٣) والقِنائىّ (٤) والقَبّانىّ لم يذكرهما (٥) عبد الغنىّ رحمه الله .

(والفِرْيابىّ) (والقَرْنانىّ)

فأمّا الفِرْيابىّ ، فنسبة الى فِرياب (٦) من خراسان ؛ وأمّا القَرْنانىّ بالقاف والنونين فهو شَرِيكُ بنُ سُوَيد التُّجِيبىُّ ثمّ القَرْنانىّ (٧) ، من بنى القَرْنان .

(١) فى الأصل : « إلى من يكون » ؛ وهو غير مستقيم ، إذ ليست هذه النسبة الى من يكون من قنى ، وإنما هى إلى قنى نفسها ، كما هو ظاهر ، واذن فالصواب وضع اللام كما أثبتنا مكان « الى » ، ومعنى قوله : « نسبة لمن يكون » الخ أنها نسبة تقال له وتختص به ، فمعنى اللام هنا الاختصاص .

(٢) قد سبق التنبيه فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٠٥ والحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٠٦ على أن هذه النسبة الأخيرة مكررة مع النسبة الرابعة ، كما نبهنا أيضا على أن هذا الخطأ سرى إلى المؤلف من توهمه أن النسبة الرابعة انما هى بكسر القاف وهذه بفتحها ؛ فعدّهما نسبتين ؛ وقد نبهنا فى الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٠٦ على أن ذلك خلاف الصواب ، اذ النسبة الرابعة إنما هى بفتح القاف وتشديد الباء أيضا نقلا عن التبصير ومشتبه الذهبىّ .

(٣) فى الأصل : « الى من يزن » ؛ وهو غير مستقيم ، إذ ليس القبانىّ نسبة إلى من يزن بالقبان وإنما هى نسبة إلى صناعة القبان ، كما لا يخفى ؛ واذن فالصواب وضع اللام كما أثبتنا مكان « إلى » ، ومعنى اللام هنا الاختصاص ، أى أن هذه النسبة تقال لمن يزن بالقبان وتختص به ؛ وقد سبق التنبيه على مثل ذلك فى موضعين آخرين أثبتنا فيهما اللام مكان « إلى » .

(٤) فى الأصل : « والفتانى » ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا ، كما يرشد اليه ما سبق فى السطر الأول من هذه الصفحة .

(٥) قد ذكر عبد الغنى « القبانى » ، وهى النسبة الرابعة من هذه النسب الست ، غير أن المؤلف توهم أن القبانى الوارد فى كتاب عبد الغنى مكسور القاف ؛ فذكر هنا أنّ عبد الغنى لم يذكر القبانى بالفتح والتشديد ، وقد سبق التنبيه على خطإ هذا الوهم فى الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٠٦ من هذا السفر ؛ وإذن فهذه النسبة السادسة مكررة مع الرابعة .

(٦) يقال فيه : فرياب ، كما هنا ، وفارياب ، وفيرياب (القاموس) .

(٧) فى الأصل : « القرنا » بسقوط النون الأخيرة ؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا ، كما فى مستدرك التاج مادّة (قرن) ولب اللباب ص ٢٠٦ وغيرهما من الكتب . وبنو قرنان : بطن من تجيب .

(والقَرَنىّ) (والقِرَبىّ)

فأمّا القَرَنىّ، فنسبة إلى بطن من مراد، منهـم أُوَيس القَرَنىّ؛ وأمّا القِرَبىّ فالحَكَمُ بنُ سنان .

(والغَزِّىّ)[1] (والغَزَىّ)[2]

فالغَزِّىّ: نسبة الى مدينة غَزَّةَ بالشأم؛ «والغَزَىّ[3] : طائفة من الأكراد يسمّون الغَزّية»، لم يذكرهم عبد الغنىّ . ٥

(والقَرَوىّ) (والفَرْوىّ)

فالقَرَوىّ بالقاف : نسبة إلى القَيْروان من المغرب؛ والفَرْوىّ بالفاء : هم رهطُ أبى عَلْقَمة عبدِ الله بنِ محمد الفَرْوىّ[4] .

---

(١) كذا ورد فى الأصـل هاتان النسبتان ضمن النسب المبتدئة بفاء أو قاف، وكان الأنسب ذكرهما ضمن النسب السابقة المبتدئة بغين معجمة، كما يقتضى ذلك ترتيب النسب على الحروف . ١٠

(٢) كذا وردت هـذه النسبة بالراء المهملة؛ ولعـل صوابها «الغزىّ» بالغين المضمومة والزاى المعجمة المشدّدة، كما سنبين وجه ذلك فى الحاشية رقم ٣ من هذه الصفحة عند بيان هذه النسبة، فانظرها .

(٣) كذا ورد فى الأصل هذا الكلام الموضوع بين هاتين العلامتين؛ ولعل صوابه «والغزى : طائفة من الأتراك يسمون الغزية» بالغين المضمومة والزاى المعجمة المشدّدة مكان الراء فى كلا الموضعين ووضع لفظ «الأتراك»، مكان قوله «الأكراد»، ويرجح ذلك أننا لم نجد فيما راجعناه من الكتب من طوائف الأكراد من يسمون الغرية بالراء المهملة ولا ما يقرب فى رسم الحروف من هذا اللفظ حتى يكون التصحيف محتملا انظر الكلام على طوائف الكرد وقبائلهم فى تاج العروس مادة (كرد)، والتنبيه والإشراف للسعودى وكتاب شرفنامه فى تاريخ الأكراد للأمير شرف خان البدليسى، وغيرها من الكتب المؤلفة فى تاريخ الكرد وأيضا فقد سألنا عن هـذه الطائفة بعض من لهم علم بذلك من الأكراد الموجودين بمصر، فذكروا أنهم لم يعرفوا هذا الأسم فى طوائفهم . أما الغز بالغين المضمومة والزاى المعجمة المشدّدة فقد ورد فى الكتب التى بين أيدينا أنهم جنس من الترك، انظر تاج العروس مادة «غزز» وصبح الأعشى ج ١ ص ٣٦٦، وهم الذين كان منهم ملوك السلاجقة . ١٥ ٢٠

(٤) ذكر السمعانى فى الأنساب أن هذه النسبة إلى الجدّ الأعلى .

(والقَبّاب) (والقَتّات)

فالقَبّاب بباءين موحّدتين ، هو عبدُ الله بنُ محمد بنِ محمد بنِ فُورَك[1] القَبّاب الأصبَهانىّ ، وقيل فيه : « القَتّات » ؛ والقَتّات بتاءين مثنّاتين من فوقهما ، هو أبو يحيى زاذان ، روى عن مجاهد ، وأبو عمرو محمدُ بنُ جعفر القَتّات .

٥ (والقِطْرىّ[2]) (والفِطْرىّ[3])

فالقِطْرىّ بالقاف ، هو محمدُ بنُ [عبدِ[4]] الحَكَم ؛ والفِطْرىّ بالفاء ، هو محمدُ بنُ موسى ، روى عن سعيد المَقْبُرىّ .

(والقُوصىّ) (والقَوَصىّ)

فالقُوصىّ بضم القاف وتسكين الواو : نسبة لمن يكون من أهل مدينة (قُوص) ١٠ من الدّيار المصريّة ؛ والقَوَصىّ بفتح القاف والواو : نسبة لمن يكون من قرية (القَوَصة) من إقليم مصر ، من مَرْج بنى هُمَيْم ، لم يذكرهما عبد الغنىّ رحمه الله .

(والكِسائىّ) (والكُشانىّ)

---

(١) يستفاد من مستدرك التاج « مادة فرك » أن هذا الآسم بضم الفاء وفتحها ، إذ قال : « كفوفل » ؛ والفوفل تضم فاؤه وتفتح ، كما فى القاموس (مادة فوفل) ، وضبط هذا الآسم فى مشتبه الذهبىّ ص ٤١٤ ١٥ بضم الفاء ضبطا بالقلم لا بالنص .

(٢) هذه النسبة إما أن تكون الى القطر بمعنى النحاس ، أو إلى القطر بمعنى نوع من البرود ؛ ولم يذكر السمعانىّ فى الأنساب واحدا من هذين المعنيين ، كما أن القطرىّ بكسر القاف لم يرد فى لب اللباب .

(٣) الفطرىّ : نسبة إلى الفطريين ، وهم موالى بنى مخزوم ، كما فى لب اللباب ؛ والذى فى أنساب السمعانىّ : « من بنى مخزوم » .

٢٠ (٤) فى الأصل : « ابن الحكم » بسقوط كلمة « عبد » وقد أثبتناها عن مشتبه النسبة ص ٦٦ وأنساب السمعانىّ ورقة ٤٥٧ وغيرهما .

(١٢٠) الأوّلُ بكسر الكاف وفتح السين المهملة، هو عليُّ بنُ حمزةَ الكِسائيُّ النحـوىّ أحدُ القـرّاء السبعة ؛ وأمّا الكُشانىّ[1] بضم الكاف و بالشين المعجمة والنـون، فهو محمدُ بنُ حاتم الكُشانىُّ[2] النحوىّ .

(والكُلَيْبىّ) (والكُلِينىّ)

الأوّلُ : نسـبة معروفة إلى كُلَيْب ؛ والكُلِينىّ بالنون ، هو محمـدُ بنُ يعقوبَ الكُلِينىّ[3] ؛ من الشّيعة . ٥

(والكِتّانىّ) (والكَتّانىّ)

فالأوّلُ : نسبة إلى كِتّانة[4] ؛ والثانى بالتاء المشدّدة ، هو محمدُ بنُ الحسـين الكَتّانىّ وأحمدُ بنُ عبد الواحد الكَتّانىّ ، وغيرُهما .

(والكَرَجىّ) (والكَرْخىّ) (والكُرْجىّ) ١٠

---

(١) يستفاد من (معجم البلدان) فى الكلام على (كشانية) أن فتح الكاف أظهر من ضمها .

(٢) الكشانىّ : نسبة إلى (كشانية) بضم الكاف ، وهى قلعة بصغد سمرقند ، على يومين من بخارى انظر (المشتبه فى أسماء الرجال ص ٤٤٧) .

(٣) الكلينىّ : نسبة إلى (كلين) ، وهى قرية من قرى العراق ، كما فى (المشتبه فى أسماء الرجال ص ٤٤٨) وضبط اسم هذه القرية فى هذا الكتاب بكسر اللام وفتحها ضبطا بالقلم لا بالعبارة ؛ واقتصر فى لب اللباب على ذكر الكسر ؛ ولم ينص يا قوت على ضبطه ، وذكر أن (كلين) هذه هى المرحلة الأولى من الرىّ لمن يريد (خوار) على طريق الحاج . ١٥

(٤) هو كتانة بن خزيمة بن مدركة ، وكتانة أيضا بطن من كلب (مشتبه الذهبىّ ص ٤٣٩) .

فالكَرَجىّ : نسبة إلى الكَرَج[1] ؛ [والكَرْخىّ[2] : نسبة إلى الكَرْخ] محلّة ببغداد ؛ والكُرْجىّ : إلى الكُرْج، طائفة من الأكراد[3] أتراك .

(واللَّهَبىّ) (واللِّهْبىّ)

فاللَّهَبىّ بفتح اللام : نسبة إلى أبى لَهَب ؛ وأمّا اللِّهْبىّ بكسر اللام وسكون الهاء فنسبة إلى قبيلة من الأَزْد .

(والمازِنىّ) (والمَأْرِبىّ)

فالمازِنىّ : نسبة إلى مازِنٍ أخى سُلَيم بن منصور بنِ عِكْرِمَة بن خَصَفة[4] بنِ قيس عَيْلان بنِ مضر، وغيره ؛ وأمّا المَأْرِبىّ بالراء المهملة والباء الموحّدة، فهم جماعة من مَأْرِب باليمن، إليها يُنسَب سَدّ مَأْرِب الّذى كان بُنِىَ بسبب سَيل العَرِم، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) (الكرج) بفتحتين : مدينة بالجبل بين أصبهان وهمذان، و بلدة بالدينور أيضا (تاج العروس) .

(٢) لم ترد هذه التكملة فى الأصل ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها، إذ بدونها تفيد عبارة الأصل أن (الكرج) بالجيم محلة ببغداد، وليس كذلك، كما نبهنا عليه فى الحاشية التى قبل هذه ؛ والمحلة التى ببغداد إنما هى (الكرخ) بالخاء، وكانت سوقا لبغداد، وموضعها بين الصراة ونهر عيسى (ياقوت) .

(٣) عبارة الذهبىّ فى المشتبه ص ٤٤٢ «من الموالى الأجناد» وذكر ياقوت أن الكرج بضم الكاف : جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون فى جبال القبق و بلد السرير، فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة برأسها وشوكة وقوة وكثرة وعدد ؛ ثم ذكر بعد ذلك عنهم أنهم صاروا فى زمانه ملوكا لهم شوكة وعدّة تملّكوا بها البلاد حتى أخرجهم منها خوارزم شاه جلال الدين الخ. وهذه النسبة لم يذكرها عبد الغنىّ فى (مشتبه النسبة) .

(٤) فى الأصل : «حفصة» وفى حروفه قلب وتصحيف، والصواب ما أثبتنا، كما فى (القاموس) (ومشتبه النسبة)، وغيرهما .

(والنَّجّارىّ) (والبخارىّ)

فالنّجّارى : نسـبة إلى بنى النّجّار من الأنصار ؛ والبخارىّ : نسبة إلى مدينة بُخَارى بمـا وراء النّهر .

(والنّاجىّ) (والباجىّ) (والتّاجىّ)

فالنّاجىّ بالنون : نسـبة إلى بنى ناجية من سامةَ بنِ لُؤَىّ ؛ وأمّا الباجىّ بالباء الموحّدة ، فنسبة إلى (باجة) من مدن المغرب[1] ؛ وأمّا التّاجىّ ، فجماعة من الأتراك يُنسَبون إلى مواليهم ممّن لقبه تاجُ الدّين .

(والنّحّاس) (والنّخّاس)

فالنّحّاس بالحاء : الذى يصنـع أوانىَ النّحاس ؛ والنّخّاس بالخاء ، هو دلّال[2] الرقيـــق .

(والبَجَلىّ) (والبَجْلىّ) (والنَّخْلىّ)[3]

فالبَجَلىّ بالجيم المفتوحة : من بَجِيـلة ؛ وأمّا البَجْلىّ بسكون الجيم ، فهم رهط من سُلَيم بن منصور ، يقال لهم : بنو بَجْلة ، نُسِبوا إلى أمّهم[4] بَجْلَةَ بنتِ هَنْأَةَ بنِ مالك

(١) ذكر فى لب اللباب باجات ثلاث : مدينة بالأندلس ، وقرية بافريقية ، وبأصبهان .

(٢) فى القاموس : «بياع الدواب والرقيق» .

(٣) كان المناسب تقديم هذه النسبة الأخيرة على النسبتين اللتين قبلها ، فإن المؤلف بصدد تمييز النسب التى أوّلها نون من النسب المبتدئة بحروف مشبهة لها فى الرسم ، كالباء ونحوها ؛ وهذا الترتيب الذى ذكرناه هو ما صنعه عبد الغنىّ فى (مشتبه النسبة) المنقولة عنه هذه النسب ؛ وأما الذهبىّ وابن حجر فقد قدّما الكلام على البجلىّ بالباء ، كما هنا ، إلا أنهما ذكرا هذه النسب كلها فى حرف الباء ، وهو ترتيب حسن أيضا . انظر المشتبه فى أسماء الرجال ص ٢٤ وتبصير المنتبه .

(٤) كذا فى أنساب السمعانىّ ورقة ٦٦ ومشتبه النسبة ص ٧٦ ؛ والذى فى الأصل : «أبيهم» ؛ وهو خلاف الصواب ، كما أنه مناف لقوله بعد «بنت هنأة» ؛ أو لعله يريد بقوله : «أبيهم» ، الأصل الذى تنسب القبيلة اليه سواء أكان أبا أم أمّا .

ابنِ فَهْم الأَزْدىّ ؛ وأمّا النَّخْلىّ بالخاء المعجمة والنون قبلها ، فعمرانُ النَّخْلىّ[(١)] روى عنه شَريكُ بنُ عبد الله القاضى ، وابراهيمُ بنُ محمد[(٢)] أبو عبد الله النَّخْلىّ[(١)] صاحب التاريخ .

(والهَمْدانىّ) (والهَمَذانىّ)

فالأوّل : منسوب إلى هَمْدان ، قبيلة مشهورة من اليمن ؛ والثانى : نسبة إلى مدينة هَمَذان[(٣)] .

(واليَزَنىّ) (والبِرْتىّ)

فأمّا اليَزَنىّ ، فنسبة الى سَيف بنِ ذى يَزَن الحِمْيَرىّ ؛ وأمّا البِرْتىّ بالباء الموحّدة والراء المهملة والتاء المثنّاة من فوقها ، فمنهم أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عيسى البِرْتىّ[(٤)] . وذَكَر عبد الغنىّ فى هـذا الموضع (البَزّىّ) (والبُزّىّ) (والبَرّىّ) فقال : أمّا البَزّىّ بالباء المعجمة بواحدة والزاى المعجمة ، فهو أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عبد الله بنِ القاسمِ بنِ أبى بَزّة ، صاحبُ القراءة ، يروى عن ابنِ كَثير ؛ وأمّا البُزّىّ بالباء المضمومة الموحّدة والراء المهملة ، فمنهم عثمانُ بنُ مِقْسَم البُزّىّ[(٥)] أبو سَلَمة[(٦)] ؛ وأمّا البَرّىّ بباء مفتوحة موحّدة فهو علىُّ بنُ بَحْرِ [بنِ][(٧)] بَرّىّ .

(١) النخلىّ بفتح النون : نسبة إلى النخلة ، وهى قرية عند مكّة (لب اللباب) وذكر السمعانىّ فى الأنساب ورقة ٥٥٧ أنها بضم النون ، وقال : ان هذه القرية على ستة فراسخ من مكّة .

(٢) فى الأصل : «ابن» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا (مشتبه النسبة) ص ٧٦ وأنساب السمعانىّ ورقة ٥٥٧

(٣) همذان : بلد من كور الجبل ، بينه وبين الدينور أربع مراحل ، كما قاله شارح القاموس ، وقد نقل عن شيخه أن المعروف بين العجم أنه بالدال المهملة ، فكأن الذى بالذال المعجمة تعريب له .

(٤) البرتىّ بكسر الباء : نسبة إلى (برت) ، وهى قرية بنواحى بغداد (أنساب السمعانىّ) .

(٥) البرّىّ : نسبة الى بيع البرّ .

(٦) كذا ورد هـذا اللفظ فى الأصل ومشتبه النسبة ؛ والذى فى تاج العروس مادة «سلم» : «أبو مسلمة» بزيادة ميم ؛ ولم نقف فيما بين أيدينا من الكتب على نص يرجح إحدى الروايتين .

(٧) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن (مشتبه النسبة) .

هذا مختصرُ ما ألّفه عبد الغنيّ — رحمه الله تعالى — وفيه زيادةٌ فى مواضعَ نبّهنا عليها؛ ولم يكن الغـرضُ بإيراد ما أوردناه من المؤتلِف والمختلِف آستيعابَه وحصرَه وإنّما كان الغرضُ التنبيهَ على ذلك، وأنّ الناسخَ يحتاج إلى ضبط ما يَرِدُ عليه من هذه الأسماء وأمثالِها، وتقييدِها والإشارةِ عليها؛ وقد أخذ هـذا الفصل حقَّه، فلنذكرْ غيرَ ذلك من شروط الناسخ وما يحتاج إلى معرفته . ٥

وأمّا من ينسخ العلوم، كالفقهِ واللّغةِ العربيّة والأصولِ وغيرِ ذلك، فالأولى له والأشبهُ به ألّا يتقدّمَ إلى كتابة شيءٍ منها إلّا بعد آطّلاعِه على ذلك الفنّ وقراءتِه وتَكرارِه، ليَسلمَ من الغلط والتحريف، والتبديل والتصحيف؛ ويَعلمَ مكانَ الآنتقال من بابٍ إلى باب، ومن سؤالٍ إلى جواب؛ ومن فصلٍ إلى فصل، وأصلٍ إلى فرعٍ أو فرعٍ إلى أصـل؛ ومن تنبيهٍ إلى فائده، وآستطرادٍ لم يَجْرِ الأمرُ فيه على قاعده؛ ١٠ ومن قولِ قائل، وسؤالِ سائل؛ ومعارضةِ معارِض، ومناقضةِ مناقِض؛ فيَعـلم آخرَ كلامِه، ومنتهى مرامِه؛ فيَفصِلَ بين كلِّ كلامٍ وكلامٍ بفاصلة تدلّ على إنجازِه، ويُبرِزَ قولَ الآخرِ بإشارةٍ يُستدَلّ بها على إبرازِه؛ وإلّا فهو حاطبُ ليلٍ لا يدرى أين يفجَأُه الصباح، وراكبُ سيلٍ لا يعرف الغدوَّ من الرّواح .

وأمّا من ينسخ التاريخ — فإنه يحتاج إلى معرفة أسماء الملوك وألقابِهم ونعوتِهم ١٥ وكُناهم، خصوصا ملوكَ العجم والتّرك والخُوارَزْميّة والتّتار فإنّ غالبَ أسمائهم أعجميّةٌ لا تُفهَم إلّا بالنقـل، ويحتاج الناسخ إذا كتبها إلى تقييـدها بضوابطَ وإشاراتٍ وتنبيهاتٍ تدُلّ عليها؛ وكذلك أسماءُ المدنِ والبلادِ والقرى والقلاعِ والرّساتيقِ (١) والكُوَرِ

(١) الرساتيق : جمع رستاق بضم الراء؛ وهو السواد، أى الريف؛ وفى المصباح أنه يستعمل بمعنى الناحية التى هى طرف الإقليم؛ ومؤدّى العبارتين واحد؛ وهو فارسىّ معرّب، ويقال فيه أيضا «رزداق» «ورسداق» . ٢٠

والأقاليم، فينبّه على ما تشابه منها خطّا واختلف لفظا، وما تشابه خطّا ولفظا واختلف نسبة، نحو (مَرْو)، (ومَرْو)؛ إحداهما (مَرْو الرّوذ)[1]، والأخرى (مَرْو الشّاهجان)[2]؛ (والقاهرة)، (والقاهرة)؛ إحداهما (القاهرة المُعِزّيّة)[3]، والأخرى (القلعةُ القاهرة)[4] التى هى (بزوزن)[5] التى أنشأها مؤيّد المُلْك صاحبُ (كَرْمان)[6]، فإنّ الناسخ متى أطلق اسم القاهرة ولم يميّز هذه بمكانها ونسبتها تبادر ذهنُ السامع إلى القاهرة المُعِزّيّة لشهرتها دون غيرها؛

وأمّا فى أسماء الرجال، فمثلُ عُبَيْد الله بنِ زياد، وعُبَيْد الله بنِ زياد، فالأوّلُ عُبَيْدُ الله بنُ زِيادِ بنِ أَبيه، وزِيادٌ هذا، هو ٱبنُ سُمَيّة ٱلّذى ألحقه معاويةُ بنُ أبى (١٢١)

(١) (مرو الروذ): مدينة بخراسان، بينها وبين (مرو الشاهجان) مسيرة خمسة أيام؛ وسميت بهذا الاسم لأن الروذ بالفارسية معناه النهر، وهذه المدينة على نهر عظيم (ياقوت).

(٢) (مرو الشاهجان)، هى أشهر مدن خراسان، وبينها وبين نيسابور سبعون فرسخا، ومنها إلى سرخس ثلاثون فرسخا، وإلى بلخ مائة واثنان وعشرون فرسخا؛ والنسبة اليها مروزىّ على غير قياس (ياقوت).

(٣) المعزية: نسبة الى المعز لدين الله أبى تميم معدّ — بتشديد الدال — ابن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدىّ العبيدىّ، لأنه هو الذى أنشأ القاهرة وعمرها، وكان تمام ذلك فى سنة ٣٦٢ (تاج العروس).

(٤) لم يذكر ياقوت هذه القلعة ضمن القلاع التى ذكرها فى كتابيه: «المعجم» «والمشترك»، كما أننا لم نجدها فى غيرهما من الكتب التى بين أيدينا، كمعجم البكرىّ وتاج العروس والمكتبة الجغرافية المطبوعة فى ليدن وغيرها.

(٥) «زوزن» بفتح أوّله، كما ضبطه بالعبارة صاحب التاج، فقال: «بكوهر»؛ وذكر ياقوت أنه بضم الأوّل، وقد يفتح، ثم قال بعد ذلك: «إن أكثر أهل الأثر والنقل على الفتح» وهى كورة واسعة بين نيسابور وهراة.

(٦) (كرمان)، ذكر ياقوت أنها بفتح الكاف، وربما كسرت، والفتح أشهر بالصحة، وهى ولاية كبيرة، بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، فشرقيها مكران، وغربيها أرض فارس، وشمالها مفازة خراسان؛ وجنوبيها بحر فارس.

سفيانَ بأبيه ، وٱعترَف بأخوته ، وكان عُبَيْدُ الله هـذا يتولّى أمرَ العراق بعد أبيه إلى أيّام مروانَ بنِ الحَكَم ؛ والثـانى عُبَيْدُ الله بنُ زِيادِ بنِ ظَبْيانَ ؛ وخبرُهما يشبه مسائلَ الدَّوْر ، فإنّ عُبَيْدَ الله بنَ زيادِ بنِ أَبِيـه قتلَه المختارُ[1] [بنُ] أبى عُبَيْـد الثَّقَفىّ والمختار بن أبى عُبَيْدٍ قتلَه مُصْعَبُ[2] بنُ الزُّبير، ومُصْعَب بن الزُّبير قتلَه عُبَيْدُ الله[3] بنُ زِيادِ بنِ ظَبْيان ؛ فإذا لم يميِّز كلَّ واحدٍ منهما بجَـدِّه ونَسَبِه أَشْـكَل[4] ذلك على السامع وأَنكَره ما لم تكن له معرفةٌ بالوقائع ، وٱطّلاعٌ على الأخبار ؛ فأمثالُ ذلك وما شاكله يتعيّن

(١) «قتله المختار» ، أى شيعة المختار وأصحابه ، لأن المختار لم يقتل ابن زياد بنفسه ، وإنما قتله إبراهيم ابن الأشتر النخعىّ ، وقيل : إن قاتله هو شريك بن جدير التغلبىّ ، وكلاهما من أصحاب المختار ؛ وكان قتل ابن زياد فى سنة سبع وستين على شاطئ نهر الخازر (كما فى تاريخ ابن الأثير فى الكلام على حوادث سنة سبع وستين) . وفى معجم البلدان أن (الخازر) نهر بين أربل والموصل ، ثم بين الزاب الأعلى والموصل ، وعليه كورة يقال لها : (نخلا) .

(٢) «قتله مصعب» ، أى شيعة مصعب وأصحابه ، لأن مصعبا لم يقتل المختار بنفسه ، وإنما قتله رجلان أخوان من أصحابه ، هما طرفة وطرّاف بنا عبدالله بن دجاجة ، من بنى حنيفة ، وكان ذلك فى سنة سبع وستين كما فى تاريخ ابن الأثير فى الكلام على حوادث سنة سبع وستين . وجاء فى كتاب (الكامل للمبرد) ص ٥٩٦ طبع ليبسك أنّ المختار بن أبى عبيد لم يكن يوقف له على مذهب ، كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا فى ظاهره .

(٣) قيل أيضا : إن الذى قتـل مصعبا هو زائدة بن قدامة الثقفىّ ، وقال حين قتـله : يالثارات المختار ؛ ويريد بالمختار : المختار بن أبى عبيد الثقفىّ الذى قتله مصعب بن الزبير ، وكان قتل مصعب فى سنة إحدى وسبعين بدير الجاثليق عنـد نهر دجيل (تاريخ ابن الأثير فى الكلام على حوادث سـنة إحدى وسبعين) .

(٤) فى الأصل : «وإلا أشكل» ؛ وقوله : «وإلا» زيادة من الناسخ يجب إسقاطها ، إذ هو تكرار فى المعنى مع النفى السابق فى جملة الشرط ، كما هو ظاهر .

على الناسخ تبيينُه ؛ وكذلك أسماءُ أيّام العرب ، نحو أيّامِ الكُلاب[1] بضمّ الكاف ، وأيّامِ الفِجار[2] بكسر الفاء[3] وبالجيم ، وغيرِ ذلك ، فينبِّـه على ذلك كلِّه ، ويشير إليه بمـا يدلّ عليـــه .

وأمّا من ينسخ الشِّعر — فإنّه لا يَستغنِي عن معرفة أوزانه ، فإنّ ذلك يُعِينه على وضعه على أصله الذى وُضِع عليه ؛ ويحتاج إلى معرفة العربيّة والعَروض ليُقيمَ وزنَ البيت إذا أَشكَل عليـه بالتفعيل ، فيَعلَمَ هل هو على أصـلِه وصفتِه

(١) فى الأصل : «الكلام» بالميم ؛ وهو تحريف ؛ والكلاب : ماء بين الكوفة والبصرة ، وقيل : هو ماء بين جبلة وشمام ، على سبع ليال من اليمامة . وفيه كان الكلاب الأوّل والكلاب الثانى من أيام العرب المشهورة . واسم الماء (قدة) بتخفيف الدال وتشديدها ؛ فأما الكلاب الأول فقد كان بين شرحبيل بن الحارث آكل المرار ، وأخيـه سلمة ، ومع شرحبيل بكر بن وائل و بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، ومع أخيه سلمة بنو قيس ؛ وأما الكلاب الثانى فكان بين بنى سـعد والرباب ، وبين بنى الحارث بن كعب . وفى التاج واللسان مادة « كلب » : « كلاب الأوّل وكلاب الثانى : يومان كانا بين ملوك كندة و بنى تميم » .

(٢) الفجار : أربعة أفجرة ، وكلها بسوق عكاظ ، فأما الفجار الأوّل فقـد كان بين كنانة وهوازن ولم يقع بين الحيين قتال فى هذا اليوم ؛ وأما الفجار الثانى فقد كان بين قريش وهوازن ، ووقع بين القوم فيه قتال ودماء يسيرة ، فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم ؛ وأما الفجار الثالث فقد كان بين كنانة وهوازن ، ولم يقع بين القبيلتين قتال فى هذا اليوم ؛ وأما الفجار الرابع فقد كان بين قريش وكنانة كلها وهوازن ، وهـذا الأخير هو الذى كانت فيه الوقعة العظمى ، وهو خمسـة أيام : يوم نخـلة ، و يوم شمطة ، و يوم العبلاء و يوم شرب ، و يوم الحريرة ؛ وسميت هذه كلها بأيام الفجار لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وهى الشهور التى يحرمونها ، ففجروا فيها ، فلذلك سميت بفجار . انظر تفصيل هذه الوقائع وأسبابها فى العقد الفريد ج ٣ ص ٨٦ طبع المطبعة الشرفية بمصر . وعبارة التاج «مادة فجر» «الفجار يوم من أيام العرب ، وهى أربعة أفجرة : بفجار الرجل ، وبفجار المرأة ، وبفجار القرد ، وبفجار البراض » إلى أن قال : « وكانت بين قريش ومن معها من كنانة ، و بين قيس عيلان فى الجاهلية ، وكانت الدبرة — أى الهزيمة — على قيس ، وقد حضرها النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ابن عشرين سنة » الخ .

(٣) فى الأصل : «بفتح» ؛ وما أثبتناه عن القاموس وشرحه ، وغيرهما من كتب اللغة .

أو حصل فيـه زِحافٌ[1] من نقصٍ به أو زيادة[2]، فيثبتَه بعد تحريرِه، ويضعَ الضبط في مواضعه، فإنّ تغييرَه يُخلّ بالمعنى ويفسده، ويحيله عن صفته المقصودة؛ فإذا عَرَف الناسخ هذه الفوائدَ وأتقنَها، وحرّر هذه القواعد وفنّنها[3]، وأوضح هذه الأسماءَ[4] وبيّنَها، وسلسل هذه الأنسابَ وعنعنَها؛... ...[5] والمرغوب في علمه وكتابته، فليبسُطْ قلمَه عند ذلك في العلوم، ويضعْ به المنثورَ والمنظوم؛ ولنذكرْ كتابةَ التعليم.

ذكر كتابة التعليم وما يحتاج من تصدّى لها إلى معرفته

وكتابة التعليم تنقسم إلى قسمين: تعليمِ ابتداء، وتعليمِ انتهاء

فأمّا تعليمِ الابتداء — فهو ما يعلّمُه الصبيانُ في ابتـداء أمرِهم؛ وأوّلُ ما يَبدأ به المؤدِّب من تعليم الصبيّ أن يُكتِّبَه حروفَ المعجَمِ المفردات؛ فإذا علِمَها

(١) الزحاف: تغير مختص بثواني الأسباب الثقيـلة والخفيفة بلا لزوم، كما نص على ذلك في كتب العروض، وعبارة القاموس وشرحه: «الزحاف ككتاب في الشـعر، هو أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر، تختص به الأسباب دون الأوتاد».

(٢) «زيادة»: معطوف على قوله: «زحاف»، لا على قوله: «نقص»، إذ لو عطف عليـه لاقتضى ذلك أن يكون الزحاف نقصا أو زيادة، وليس كذلك، فإن الزحاف لا يكون إلا نقصا في الحروف أو الحركات؛ وأما التغير بالزيادة أو النقص، فذلك هو العلة، كما نص على ذلك في كتب العروض.

(٣) «فننها»، أي أخذ في جميع فنونها وأنواعها وأحاط بها، يقال: «فنن الكلام»، إذا اشتق في فنّ بعد فنّ منه؛ ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «فننها»، أن يجعلها فنونا وأنواعا، فيراعي النـاسخ في نسخ كل شيء ما يختص به من القواعد ولا يخلط بينها؛ أخذا من قول اللغويين: «فنن الناس»، أي جعلهم فنونا.

(٤) في الأصل: «الأسباب»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه السياق.

(٥) موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل، كما هو واضح؛ ولم نجده فيما بين أيدينا من المظانّ.

الصبيُّ وعَرَف كيف يضعُها ، وميَّز بين المعجَم والمهمَل منها امتحنه المؤدِّبُ[(١)] بتقطيعها وسؤالِه عنها على غيرِ وضعِها[(٢)] ، مثل أن يسأله عن النون ، ثمّ الجيم ، والضاد ونحوِ ذلك ؛ فإذا أجابه عمّا فرّقه وعكَسه عليه عَلِم من ذلك أنّه أتقن هذه الحروف فيهجِّيه الحروفَ بعد ذلك حرفا حرفا ، كلَّ حرف وهجاءه فى المنصوبِ والمجرورِ والمرفوعِ والمجزوم ، فإذا عَرَف هجاءَ هذه الحروفِ وأتقنه ، وامتحنه نحوَ ما تقدّم جَمَع له بعد ذلك كلَّ حرف إلى آخَرَ كتابةً ، من الباء والجيم والدال والراء والسين والصاد والطاء والعين والفاء والكاف واللام والميم ؛ يبدأ بالباء مع الألف وما بعدها ثم يُكتِّبه البسملة ، ويأخذ فى تدريجه فى الكتابة ، وتدريبِه فى استخراج الحروف بالهجاء وما يتولّد منها إذا[(٣)] اجتمعت ، إلى أن يَقْوَى فيها لسانُه ويدُه[(٤)] ، ويَقرأ ما يُكتَب له ، ويَكتُبَ ما يُقترَح عليه من غير منبِّهٍ له ولا مساعد ؛ فهذه كتابةُ الابتداء ؛ ولا ينبغى أن يتصدّى لها إلّا من اشتهرت ديانتُه وحُسْنُ اعتقادِه والتزامُه طريقَ السنّة ، ومن كان بخلاف ذلك ، أو ممّن طُعِن فيه بوجه من وجوه المطاعن وجب على ناظر الحِسْبة[(٥)] منعُه .

---

(١) فى الأصل : «وامتحنه» ؛ والواو زيادة من الناسخ لا مقتضى لها فى هذا الموضع ، إذ قوله : « امتحنه » هو جواب الشرط ، كما هو واضح .

(٢) « على غير وضعها » ، أى على غير ترتيبها المعروف .

(٣) فى الأصل : «فاذا» ؛ والفاء زيادة من الناسخ .

(٤) فى الأصل : « زيده » بالزاى ؛ وهو تحريف .

(٥) ذكر فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧ فى الكلام على وظيفة الحسبة « أنّ موضوعها التحدّث فى الأمر والنهى ، والتحدث على المعايش والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح فى معيشته وصناعته » الخ وقال فى نهاية الأرب ج ٦ ص ٢٩١ نقلا عن الماوردىّ ما نصه : «الحسبة ، هى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله» الخ .

وأمّا تعليم الانتهاء — فهو كتابة التجويد، وهى أصـلُ جميع ما قدّمناه من الكتابات، ويحتاج من تصدّى لهـا إلى إتقان أقلام الكتابة، ومعرفةِ أوضاعِها على ما وضعه الوزير أبو علىّ بنُ مُقْلَةَ[1] حين عَرَّب الخطَّ ونقَلَه من الكوفيّة[2] إلى التوليد، ثم عمدتُه على طريق علىِّ بنِ هلال الكاتب المعروفِ بابن البوّاب[3] وما وضعه من أقلام الكتابة، ومعرفةِ الأقلامِ الأصولِ الخمسة، وهى قلم المحقّق، وقلمُ النَّسْـخ وقلمُ الرِّقاع، وقلمُ التّواقيع، وقلمُ الثُّلُث؛ فهذه الأقلامُ الخمسةُ هى الأصول؛ ثم تتفرّع عنها أقلامٌ أُخَرُ نذكرها بعـدُ إن شاء الله تعالى؛ وقد ذُكِر لهذه التسمية أسـباب واشتقاقات، فقالوا: إنّ قلمَ المحقّق إنّما سُمّىَ بذلك لأنّه أصل الكتابة، وهو يحتاج

(١) ابن مقلة، هو الوزير محمد بن علىّ بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور، كان فى أول أمره يتولى أعمال فارس، ثم استوزره المقتدر بالله الخليفة العباسىّ، ثم نفاه بعد ذلك الى بلاد فارس، ثم استوزره القاهر بالله، واتهمه بعد ذلك بمعاونة من يريد الفتك به، وبلغ ابن مقلة الخبر فاستتر منه، ثم استوزره الراضى بالله، ثم جرى عليه بعـد ذلك كثير من المكاره والنكبات حتى قطعت يده ثم قطع لسانه؛ وكانت ولادته فى سـنة ثمان وستين ومائتين، وتوفى فى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة اهـ ملخصا من وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١ طبع المطبعة الميمنية بمصر.

(٢) «من الكوفية»، أى من الصورة الكوفية؛ على أنه قد ورد فى صبح الأعشى ج ٣ ص ١٥ نقلا عن صاحب كتاب (إعانة المنشئ) أن أول ما نقل الخط العربىّ من الكوفىّ الى ابتداء هذه الأقلام المستعملة الآن، فى أواخر خلافة بنى أمية وأوائل خلافة بنى العباس؛ ثم ذكر أن الكثير من الكتاب يزعمون أن الوزير ابن مقلة رحمه الله تعالى هو أول من ابتدع ذلك؛ وهو غلط، فإنا نجد من الكتب بخط الأولين فيما قبل المـائتين ماليس على صورة الكوفىّ، بل يتغير عنه إلى نحو هذه الأوضاع المستقرة، وإن كان هو إلى الكوفىّ أميل، لقربه من نقله عنه.

(٣) قيل له «ابن البوّاب» لأنّ أباه كان بوّابا؛ ويقال له: «ابن السترىّ» أيضا، لأنّ البوّاب يلازم ستر الباب؛ قال ابن خلكان فى ترجمته: إنه لم يوجد فى المتقـدّمين ولا المتأخرين من كتب مثـله ولا قاربه، وإن كان أبو علىّ بن مقلة أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وأبرزها فى هذه الصورة لكن ابن البوّاب هذب طريقته ونقحها، وكساها طلاوة وبهجة؛ وكان شيخه فى الكتابة ابن أسد الكاتب؛ وتوفى ابن البوّاب فى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، وقيل سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ببغداد.

إلى التحقيق فى وضع الحروف وتركيبها ؛ وقلمَ النَّسْخ ، لأنه تُنسَخ به الكتب، ولذلك وُضِع بحيث أنّ الكُتبَ لا تَحسُن كتابتُها بغيره ، لاعتدالِ أسطره ، ودقّةِ حروفه وٱلتئامِ أجزائه ؛ وقلمَ الرِّقاع لأنه وُضِع لكتابة الرِّقاع المرفوعةِ فى الحوائج ؛ ألا ترى ما على الرِّقاع به[1] مِن البهجة؟ ولو كُتِبتْ بغيره ما حَسُن موقعُها من النّفوس ؛ وقلمَ التواقيع[2] لأنّه وُضِع لتُكتَب به التواقيعُ[3] الصادرةُ عن الخلفاء والملوك ؛ وقلمَ الثُّلُث لكتابة المناشير التى تُكتَب فى قطع الثُّلُث[4] ؛ هذا ماقيل فى سبب تسمية هذه الأقلام بهذه الأسماء .

وأمّا ما يتفرّع عن هذه الأقلام الخمسة الّتى ذكرناها — فلكلِّ قلمٍ منها غليظٌ وخفيفٌ ومتوسّط ، فقلمُ المحقّق يتفرّع عنه خفيفُه ، ويتفرّع

(١) « به » ، أى بسببه .

(٢) فى صبح الأعشى ج ٣ ص ١٦ ، ص ١٠٤ أن الذى اخترع هذا القلم هو يوسف أخو إبراهيم الشجرىّ ، وأنّ ذا الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون أعجب بهذا القلم ، وأمر أن تحرّر الكتب السلطانية به ، ولا تكتب بغيره ، وسماه القلم الريامىّ .

(٣) جمع « توقيع » على « تواقيع » كما هنا شائع فى كتب المؤلفين ؛ ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة غير كتاب « أقرب الموارد » ؛ والذى وجدناه فى هذه الكتب : « توقيعات » .

(٤) الذى وجدناه فيما لدينا من الكتب أن قلم الثلث يكتب به فى قطع الثلثين ، لا فى قطع الثلث ، كما هنا والذى يكتب به فى قطع الثلث إنما هو قلم التوقيع ؛ وأما تسمية قلم الثلث بهذا الاسم فقد اختلف الكتّاب فى وجه ذلك على مذهبين ؛ أحدهما أن للخط الكوفىّ أصلين من أربع عشرة طريقة هما لها كالحاشيتين ، وهما قلم الطومار ، وهو قلم مبسوط كله ، ليس فيه شىء مستدير ؛ وقلم غبار الحلبة — بفتح فسكون وباء موحدة — وهو قلم مستدير كله ، ليس فيه شىء مستقيم ، فالأقلام كلها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسبا مختلفة ؛ فإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلث سمى قلم الثلث ، وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلثان سمى قلم الثلثين . المذهب الثانى أن هذه الأقلام منسوبة من نسبة قلم الطومار فى المساحة ، وذلك أن قلم الطومار مساحة عرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون ، وقلم الثلث منه بمقدار ثلثه ، وهو ثمان شعرات (صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١ و٥٢ و٦٢) .

عنه أيضا قلمُ الرَّيحان[(١)]، وقلمُ النَّسخ يتفرّع عنه قلمُ المَتْن، وهو غليظُه، وقلمُ الحواشى وهو خفيفُه، وقلمُ المنثور، وهو الذى يفصل بين كلِّ كلمةٍ وكلمةٍ ببياض؛ وقلمُ الرِّقاع يتفرّع عنه قلمُ الغُبار[(٢)]، وهو خفيفُه، وينزل منه بمنزلة الحواشى من النَّسْخ، وهو الذى تُكتَب به المُلَطِّفاتُ[(٣)] والبطائق[(٤)]، ويتفرّع عنه أيضا قلمُ المقترِن، وهو ما يُكتَب سطرين مزدوجَين، وقد يُكتب بغير قلم الرِّقاع، لكن لم تَجْرِ عليه هذه التسمية، وفى الرِّقاع مسلسَل؛ وقلمُ التّواقيع منه ما هو مسلسَل، وهو ما يتّصل بعضُ حروفه ببعضٍ بتَشْعيراتٍ رقيقة تلتفّ على الحروف؛ وقلمُ الثُّلُث يتفرّع عنه وعن المحقّق جميعا قلمٌ يسمَّى قلمَ الأشعار[(٥)]؛ ولهم أيضا قلمُ الذّهب[(٦)]، وهو قد يكون تارةً ثُلُثا وتارةً تواقيع إلّا أنه يكون خاليا من التشعير بسبب ترميكه باللّون المغايرِ للون الذّهب، والترميك هو أن يُحبَس الحرفُ بلون غيرِ لونه بقلمٍ رقيقٍ جدّا؛ ولهم أيضا قلمُ الطُّومار[(٧)]

(١٢٢)

(١) قال ابن الوحيد: قطة قلم الريحان أشدّ القطات تحريفا، وقطة الرقاع أقلها تحريفا انظر تاريخ الأدب للمرحوم حفنى بك ناصف ج ٢ ص ١٢٧

(٢) سمى هذا القلم قلم الغبار، لدقته، كأن النظر يضعف عنه لضآلة حروفه كما يضعف عن رؤية الشىء عند ثوران الغبار وتغطيته له، وهو الذى يكتب به فى القطع الصغير من ورق الطير وغيره؛ وهو قلم ضئيل مولد من الرقاع والنسخ (صبح الأعشى ج ٣ ص ١٣٢).

(٣) الملطفات: جمع ملطفة بتشديد الطاء المكسورة، وهى مكتوب صغير بعتاب أو شفاعة (شفاء الغليل).

(٤) يريد بالبطائق: بطائق الحمام التى تحمل هذه البطائق على أجنحتها؛ وبعضهم يسمى هذا القلم قلم الجناح لذلك (صبح الأعشى ج ٣ ص ١٣٢).

(٥) لعل قلم الأشعار هذا هو المعروف بالمدوّر الصغير، وهو قلم جامع يكتب به فى الدفاتر، ويكتب به الحديث والأشعار (انظر فهرست ابن النديم ص ١٢ طبع المطبعة الرحمانية بمصر).

(٦) سمى قلم الذهب لأنّ كتابته بماء الذهب.

(٧) المراد بالطومار: الكامل من مقادير قطع الورق، أى الورقة الكاملة التى يعبر عنها الكتّاب الآن (بالفرخ)؛ وأضيف هذا القلم الى الطومار لأنه يكتب به فيه، كما فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٣. وفى كتب اللغة أن الطومار والطامور: الصحيفة مطلقا، ولم يقيدوها بالكبيرة أو الصغيرة.

ومنه كاملٌ وغيرُ كامل، فالكاملُ : الذى إذا جُمِعت الأقلامُ كلُّها كانت فى غلظه وهو الذى يُكتَب به على رءوس الدُّروج ؛ وغيرُ الكامل، هو الطُّومار المعتاد ؛ فهذه هى الأصول وما يتفرّع عنها . ولهم أيضا أسماءٌ أُخَر، منها قلمُ الطُّور[1] وقلمُ المَنهَج ، وقلمُ الطَّمْغاوات[2] ، وأسماءٌ غيرُ هذه اصطلح عليها الكتّاب ؛ فإذا أتقن الكاتب ما ذكرناه من هذه الأقلام وحرّرها ، وعَرَف أوضاعَها وقواعدَها ، وكيفيّةَ وضع الحروف، وموضعَ ترقيقها وتغليظها، والمكانَ الذى تُكتَب فيه بسنّ القلم وبصدره، وأين يضع الحرفَ الآخَرَ منه ، إلى غير ذلك من شروطِها وقواعدِها، واتّصف بما قدّمناه فى المؤدِّب من الدّيانةِ والخيرِ والعفّةِ وحُسْنِ الطريقة وصحّةِ الاعتقاد والتزامِ السّنّة ، فقد استحقّ أن يتصدّى للتعليم والإفادة، ويتعيّن على الطالب الرجوعُ إليه، والاقتداءُ بطريقته، والكتابةُ على خطّه والتزامُ توقيفه .

(١) لم نجد هذا اللفظ فيما راجعناه من الكتب التى بين أيدينا ؛ ولعل صوابه : (الأسطور) ؛ وهو المعبر عنه بقلم أسطورما الكبير، كما فى كشف الظنون ج ١ ص ٣٥٧ طبع بولاق .

(٢) فى الأصل : « الطمغارات » بالراء مكان الواو ؛ وهو تحريف، اذ لم نجده فيما بين أيدينا من المظان ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا ؛ والطمغاوات : جمع طمغا ، وهو لفظ فارسىّ يطلق على ما يعرف عندنا الآن (بالتمغة) (والدمغة)، كما يستفاد من المعجم الفارسىّ الإنجليزىّ تأليف (ستاين جاس) .

[الفنّ الثـالث[1] فى الحيوان الصامت]

قد جَمعتُ فى هذا الفنّ — أعزّك الله تعالى — من أجناس الحيوان بين الكاسِر والكاشر[2]، والنـافِر[3] والطائر؛ والصائدِ والصائل، والنـاهِق والصاهل؛ والحامِل والحالب، واللّادِغ[4] واللّاسب؛ والكانِس[5] والسانح، والراسخ[6] والسائح؛ فمن أسـدٍ آنفرد عظما بنفسِه، وتَرفّع عن الإلمـام بمـا سواه من جنسه؛ إن وطئ أرضا مالت الوحوش عن آثارِه، أو قصـد جهةً نفرتْ من جِوارِه؛ وإن فغر[7] فاه أبرز المُـدَى وإن مَدّ خُطاه قرّب المَدَى؛ ونَمِرٍ حديدِ النّـاب، مُوَشّى الإهاب؛ وفَهْدٍ سريعِ الوُثوبِ والآختطاف، وكلبٍ إن طَفِئتْ النّيرانُ فهو الجـالب للأضياف؛ وضَبُعٍ إن رأتْ قتيلا طافت به ومالت إليه، وذئبٍ ما رأى بصاحبه دما إلّا أغارَ عليـه؛ إلى غير ذلك من أنواع الوحوشِ والآرام، والخيلِ والبغالِ والأنعام؛ وذواتِ السُّموم القواتلِ منها وغيرِ القواتل، وأصنافِ الطّير التى تكون تارة محمـولةً وتارة حوامل؛ وآونةً تَختطِف من الهواء، وحالةً تقتنِص الوحشَ من البَيْداء؛ وما شا كل منها الكلب

(١) لم ترد هذه الترجمة فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب).

(٢) الكاشر، من قولهم: «كشر السبع عن نابه»، اذا هرّ للحراش.

(٣) يريد بالنافر: ما ينفر من الظباء ونحوها من أصناف الوحوش، إذ أن النفور وصف غالب عليها.

(٤) اللدغ واللسب كلاهما بمعنى واحد، إلا أن اللسب أكثر ما يستعمل فى العقارب، كما فى كتب اللغة؛ ولما كان العطف يقتضى المغايرة كان من المحتمـل أن يريد باللادغ هنا: ما يعض من الحيات وباللاسب: ما يلسع من العقارب، إطلاقا للعام على الخاص فى كلا اللفظين.

(٥) الكانس، من «كنس الوحش»: إذا دخل فى الكناس، وهو موضع فى الشجر يكتن فيه الوحش ويستتر. والسانح، من «سنح»: إذا عرض وظهر؛ والمراد به ما يظهر من الحيوان للـارّة ولا يستتر فى الأكنسة.

(٦) يريد بالراسخ: ما يثبت من الحيوان فى مكان ولا ينتقل منه. وبالسائح: الذاهب فى الأرض المنتقل من مكان إلى مكان.

(٧) فغر فاه، أى فتحه.

والبهيمه، وما حُبِس لسماع صوته فعلتْ قيمتُه كلَّ قيمه؛ وما ينوح ويغرّد، وما يتلو ويردّد؛ وميّزتُ كلَّ حيوانٍ منها بمحاسنه ومناقبِه، ونَبذتُه بمعايبه ومثالبِه؛ ولولا خشيةُ الإطاله، لوصفتُ كلَّ حيوان منها برساله؛ لكنّى آستغنيتُ بما ألّفتُه من منقولى، عمّا أصنّفه من مَقُولى؛ وعلمتُ أنّى أَقْصُر عن حقّ هـذه الرتبة فأَحجمْت وأَقِفُ دون بلوغ هذه الحَلْبة فأَمسكْت؛ وقد تقدّمنى مَن بالغ [فى] هـذا وأَطنَب ووَجَدَ المقالَ [فبَسَـطَ](١) القولَ وأَسهب(٢)، وحاز المعانىَ فما ترك لسـواه مذهب(٣)؛ فآختصرتُ عند ذلك المقال، وآقتصرتُ على هذه النُّبْذة التى أشبهتْ طيفَ الخيال؛ ووضعتُه على أحسن ترتيب، ورتّبتُه على أجمل تقسيم وتبويب؛ وهو يشـتمل على خمسة أقسام.

القسم الأوّل من هذا الفنّ فى السباع وما يتّصل بها من جنسها، وفيه ثلاثة [أبواب](٤)

البـاب الأوّل فى الأسد والبَبْر والنَّمِر

ولنبدأْ بذكر أسماء الأسـد، ثم نذكر ما قيل فى أصنافِ الآساد وأجناسِها وعاداتِها فى آفتراسها، وما فيها من الجراءة والجبن، وما وُصِف به الأسـدُ نظما ونثرا ثم نذكر ما سواه، فنقول — وبالله التوفيق — :

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (ب) وقد أثبتناها عن (أ) إذ لا يستقيم الكلام بدونها.

(٢) فى (ب) : «وانتهب»؛ وهو تحريف.

(٣) مقتضى اللغة الفصحى أن يوقف على هذا اللفظ بالألف، فيقال : «مذهبا» كما هى قاعدة الوقف على المنصوب المنوّن، إلا أن المؤلف لما التزم السجع فى هذا الكلام اضطرّه ذلك إلى أن يقف عليه بالسكون، وهى لغة ربيعة، فإنهم يقفون على المنوّن بحذف تنوينه وسكون آخره مطلقا، أى سواء أكان مرفوعا أم منصوبا أم مجرورا (شرح الأشمونى ج ٤ ص ١٧١ طبع المطبعة الأميرية).

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب)، كما أنّ سياق الكلام يقتضى إثباتها أيضا.

أمّا أسماء الأسد — فقد بسط الناسُ فيها القولَ وزادوا، فمنهم من عدّ له ألفَ آسمٍ فما دون ذلك ، وقد آقتصرنا منها على أشهرِها .

فمن أسمائه: الأَسَد، والأنثى أَسَدَةٌ ولَبُؤة؛ والشِّبْل والحَفْص : جِرْوُه؛ والشِّبْلةُ[1] والحَفْصةُ[1] : الأنثى؛ وكُناه : أبو الأشبال، وأبو الحارث؛ ومن أسمائه الأعلام : بَهْس[2]، وأُسامة، وهَرْثَمة، وكَهْمَس؛ ومن صفاته : الصِّمّ، والصِّمّة، والمَصَدَّر والصَّمْصامة[3]، والهِزَبْر، والقَسْوَرة، والدَّهْمَس، والضَّيْغَم، والغَضَنْفَر، والهُمام والدَّوْكَس[4]، والدَّوْسَك، والعَلَنْدَس[5]، والعُنابِس[6]، والسِّيد، والدِّرْباس، والفُرافِر

(١) كذا ورد هذان اللفظان فى كلا الأصلين وكتاب مبادئ اللغة للخطيب الإسكافى ص ١٤٧ طبع مطبعة السعادة، وقد بحثنا عنهما فيما لدينا من كتب اللغة الأخرى فوجدنا الشبلة بهذا المعنى أيضا ضمن قطعة من كتاب (ما خالف فيه الإنسان البهيمة لقطرب) صفحة ٣٤ من النسخة المطبوعة فى فينا مع كتاب (أسماء الوحوش) للأصمعىّ؛ ولم نجدها فى غير ذلك من كتب اللغة الجامعة التى بين أيدينا، كاللسان والتاج والصحاح والمخصص، وأما الحفصة فقد وردت فى هذه الكتب بعدّة معان ليس منها هذا المعنى المذكور هنا .

(٢) كذا فى (ب)؛ والذى فى (أ) : « بهنس » وكلا اللفظين اسم للأسد، كما فى كتب اللغة .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ومبادئ اللغة ص ١٤٧ طبع مطبعة السعادة؛ وقد راجعنا اللسان والقاموس وشرحه والصحاح والمخصص، وغيرها من الكتب، فلم نقف فيها على أن الصمصامة من صفات الأسد ولا من أسمائه، وانما يقال هذا اللفظ للرجل والفرس والسيف، والذى وجدناه من صفات الأسد فى هذه المادّة « الصمصم » بضم أوّله وفتح ثانيه « والصماصم » بضم أوّله أيضا .

(٤) فى كلا الأصلين : « والروكس » بالراء؛ وهو تحريف .

(٥) فى كلا الأصلين : « العنكس »؛ وهو تحريف . والذى فى نسخ القاموس : « عكندس » بالكاف، وقال شارحه : « إنه غلط، والصواب باللام » كما أثبتنا انظر تاج العروس (مادّة عكندس) .

(٦) فى كلا الأصلين : « والغنابس » بالغين المعجمة؛ وهو تصحيف .

[والقُصاقِص](١)، والقُضاقِض، والزِّنْبال، والضَّيْثَم؛ والخُنابِس، وعَثَمْثَم، والخُنابِش(٢): اللَّبُؤة إذا آستبان حملُها، وكذلك الآفِل؛ والهَرِس(٣): الشديد المراس(٤).

وأمّا أصناف الآساد وأجناسُها — فالذى يعرفها الناس منها صنفان: أحدُهما مستديرُ الجُثّة، والآخَرُ طويلُها، كثيرُ الشّعر؛ وعَدَّ أرِسْطُو من هذا النوع ضروبا كثيرة، حَكَى عن بعض من تكلم فى طبائع الحيوان قَبلَه أنّ فى أرض الهند سَبُعا — سمّاه باليونانيّة(٥) — فى عِظَم الأسد وخلقتِه، ما خلا وجهَه فإنّه شبيهٌ بوجه الإنسان ولونُه شديدُ الحمرة، وذَنَبُه شبيهٌ بذَنب العقرب، وفى طَرَفه(٦) حُمَة(٧)، وله صوتٌ يُشبِه صوتَ الزَّمّارة [وهو قوىّ](٨)، ويأكل الناس؛ وذَكَر أنّ من السباع ما يكون فى عِظَم الثور وفى خلقته، له قرونٌ سود، طويلُها، فى قدر الشِّبر، إلّا أنّه [لا](٩) يحرِّك

(١) وردت هذه الكلمة فى (أ)؛ ولم ترد فى (ب).

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين وكتاب مبادئ اللغة للخطيب الإسكافى، ونص على أنه بالشين المعجمة؛ ولم نجد الخنابش بهذا المعنى ولا بغيره فيما لدينا من كتب اللغة الجامعة الأخرى، كاللسان والتاج والصحاح والمخصص وغيرها من الكتب؛ والذى وجدناه بالمعنى المذكور هنا: «خنابسة» بالخاء المضمومة والسين المهملة والتاء.

(٣) فى كلتا النسختين: «الهرش» بالشين المعجمة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن المخصص ج ٨ ص ٦٢

(٤) كذا فى (ب) والذى فى (أ): «الراس» بسقوط الميم؛ وهو تحريف.

(٥) قال الدميرىّ فى (حياة الحيوان) ج ١ ص ٣ طبع المطبعة الخيرية عند الكلام على هذا النوع: «لعل هذا هو الذى يقال له: «الورد».

(٦) فى كلا الأصلين: «طرفيه»؛ والياء زيادة من الناسخ.

(٧) الحمة: الإبرة التى تضرب بها العقرب؛ والذى فى (أ) «خمة» بالخاء المعجمة؛ وهو تصحيف.

(٨) لم ترد هذه العبارة فى (ب).

(٩) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين؛ وسياق العبارة يقتضى إثباتها نقلا عن مباهج الفكر المأخوذة منه نسخة بالتصوير الشمسىّ محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥٩ علوم طبيعية.

الفكّ الأعلى كما يحرّكه[(١)] الثّور ، ولرجليه أظلافٌ مشقوقة، وهو قصيرُ الذَّنَب بالنسبة إلى نوعه، ويَحفِر الأرضَ بخُرطومه، ويَستّف التراب، وإذا جُرِح هَرَب، فإن طُلِب رَمَح[(٢)] برجليه، ورَمَى برجيعه على بعد .

وأما عاداتها فى حملِها ووضعِها وحِضاناتِها[(٣)] — فقد قال صاحب كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر : إنّ أصحابَ الكلام فى طبائع الحيوان يقولون : إنّ اللُّبُؤَةَ لا تضع إلّا جَرْوا واحدا، وتضعُه بَضْعةَ[(٤)] لحمٍ ليس فيها حِسٌّ ولا حركة، فتحرُسُه من غير حِضانة[(٣)] ثلاثةَ أيّام، ثم يأتى أبوه بعد ذلك فينفُخ فى تلك البَضْعة المرّةَ بعد المرّةِ حتّى تتحرّك وتتنفّس وتنفرجَ الأعضاءُ وتتشكّلَ الصورة، ثم تأتيه أمُّه فترضِعه ولا يفتح عينيه إلّا بعد سبعة أيّامٍ من تخليقه[(٥)]، واللُّبُؤةُ مادامت تُرضِع لا يَقْرَبها الذَّكَر ألبتّة، فإذا مضى على الجَرْو ستّةُ أشهرٍ كُلِّفَ الاكتساب لنفسه بالتعليم والتدريج وطارد الذَّكَرُ الأنثى، فإن كانت صارفا[(٦)] أمكنتْه من نفسها ، وإن لم تكن كذلك منعتْه

(١) كذا ورد هذا الكلام فى كلا الأصلين ومباهج الفكر؛ وهو خلاف الصواب، إذ الثور لا يحرّك فكه الأعلى، كما هو مشاهد معروف؛ وقد راجعنا الكلام على الثور والبقر فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى الحيوان فلم نجد نصا على أن الثور يحرّك فكه الأعلى، بل إنّ المؤلف نفسه لم يذكر ذلك فى الكلام على البقر فى السفر العاشر من هذا الكتاب؛ وقد ذكر غيره أنه ليس لجنس البقر ثنايا عليا؛ وإنما يقطع الحشيش بالثنايا السفلى انظر حياة الحيوان ج ١ ص ١٢٩ طبع المطبعة الميمنية بمصر، وهذا الكلام يقتضى أنه لا يحرّك الفك الأعلى؛ وأيضا فمن المشهور أنه لا يحرّك فكه الأعلى من الحيوانات غير التمساح .

(٢) رمح، أى رفس .

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ بفتح الحاء وكسرها فى المصباح والأساس .

(٤) البضعة : القطعة؛ وفى مباهج الفكر : « مضغة »؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٥) إضافة التخليق الى الماء : من إضافة المصدر إلى مفعوله، كما هو واضح .

(٦) الصارف : التى اشتهت الفحل .

ودفعته عن نفسها ، وبقيت مع جِرْوها بقيّةَ الحول وستّةَ أشهرٍ من الثانى ، وحينئذ تألف الذَّكَرَ وتُمكّنه من نفسها؛ والله أعلم .

وأمّا عادتها [فى] وثباتِها وثِباتِها وأفعالِها وصبرها وسرعةِ مشيِها وأكلِها — فإنّ للأسَدِ [مِن] بُعْدِ الوَثْبة ، واللّصوقِ بالأرض، والإسراعِ فى الحُضْر اذا هَرَب، والصبرِ على الجوع، وقلّة الحاجة إلى الماء، ماليس لغيرِه من السِّباع؛ قالوا : وربّما سار فى طلب القوت ثلاثين فرسخا، وهو لا يأكل فريسةَ غيرِه من السباع، وإذا شبع من فريسته تَرَكها، ولم يَعُدْ إليها ولو جَهَده الجوع، وإذا أكل أكْلَةً يقيم يومين وليلتين بلا طعامٍ لكثرة امتلائه، ويلقيه بعد ذلك شيئا يابسا مثل جَعْرِ[1] الكلب، وإذا بال رفع إحدى رجليه كالكلب، وإذا فَقَد أكلَه صَعُب خُلُقُه، وإذا امتلأ بالطعام فهو وادع، وأكلُ الجِيَف أحبُّ إليه من أكل اللّحم [الغَرِيض[2] الغَضّ]، وهو لا يفترس الإنسانَ للعداوة ولكن للطُّعْم، فإنّه لو مرّ به وهو شبعانُ لم يتعرّض له ، وهو يَنْهِس[3] ولا يَمْضَغ، ويوصف بالبَخَر[4] ، ولحمُ الكلب أحبُّ اللُّحمان إليه، ويقال : إنّ ذلك لحَنَقِه عليه، فإنه إذا أراد التَّطوافَ فى جَنَبات القرى أَلَحّ[5] الكلبُ فى النُّباح عليه والإنذارِ به ، فينهَضُ الناسُ ويتحرّزون منه ، فيرجع

(١) فى (أ) : « جعفر » ؛ والفاء زيادة من الناسخ ؛ والجعر : ما يبس من العذرة فى المجعر أى الدبر .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلتا النسختين ؛ وقد أثبتناها عن (مباهج الفكر) إذ لا تتم المقابلة بدونها كما لا يخفى . والغريض من اللحم : الطرىّ .

(٣) النهس بسكون الهاء وفتحها : الأخذ بمقدّم الأسنان .

(٤) البخر : نتن الفم .

(٥) فى (ب) : (إلى آخره)؛ وهو تحريف .

بالخيبة، فهو إذا أراد ذلك بدأ بالكلب ليأمنَ إنذارَه؛ ومن شأنه أنّه إذا أكثر من أكل اللحم وحَسْوِ الدَّمِ وحَلَتْ نفسُه منهما، طَلَبَ المِلْح ولو كان بينه (١) وبين عِرِّيستِه (٢) خمسون مِيلا .

وأمّا [ما] (٣) فى الآساد من الجراءة والجبن — فجراءتُه معروفةٌ مشهوره، غيرُ منكوره ، فمنها أنّه يُقْبِـل على الجمع الكثيرِ من غير فزعٍ ولا اكتراثٍ بأحد ولا مَهابةٍ له، وقد شاهدتُ أنا ذلك عيانا، وهو أنّى ركبتُ ليلةً فى شوّال سنة اثنتين وسبعمائة من (بَيْسانِ (٤) الغَوْر) إلى (قَراوَى (٥)) فى نحو خمسةَ عشَرَ فارسا وجماعةٍ من الرجال بالقسىّ والتَّراكيش (٦) — وكانت ليلةً مقمرة — فعارَضَنا أسد، ثمّ بارانا وسايَرَنا على يَمْنةِ طريقِنا عن غير بعد، بل أقربَ من رَشْقةِ حَجَر، لا أقول : مِن كفٍّ قوىّ فكان كذلك مقدارَ ربع ليـلة، فلمّا أَيِس من الظَّفَر بأحدٍ منّا لتيقُّظنا قصَّر عنّا، ثم تركنا إلى جهـة أخرى . قالوا : والأسـدُ الأَسْوَدُ أكثرُ جراءةً وجهالةً وكَلَبًا على الناس ؛ قالوا : وإن أُلجئ الأسدُ إلى الهربِ أو أحسَّ بالصيّادين تولّى وهو يمشى

(١) « بينه » ، أى بين الملح ، كما هو واضح ، وتذكير الملح كما هنا لغة قليلة ، والأكثر فيه التأنيث كما نقله صاحب المصباح عن الصاغانىّ .

(٢) العرّيسة : مأوى الأسد .

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى (ب) ؛ ولا يستقيم الكلام بدون إثباتها .

(٤) بيسان : مدينة بالأردنّ بالغور الشامى ، وهى بين حوران وفلسطين .

(٥) قراوى : قرية بالغور من أرض الأردنّ .

(٦) التراكيش : جمع تركش بفتح التاء والكاف وسكون الراء ، وهو مقرّ السهام ؛ وقد عربه المولدون وتصرفوا فيه ، وهو عامىّ ، وقد ورد فى الشعر ، قال الشاعر :

ظبى من الترك أغنـــه لواحظه * عما حوته من النبل التراكيش

انظر شفاء الغليل .

مشيا رفيقا ، وهو مع ذلك مُتَلَفِّتٌ[1] يُظهِر عدمَ الاكتراث، فإن تمكّن منه الخوفُ هرب عَجِلا حتى يبلغَ مكانا يأمن فيه ، فإذا علم أنّه أَمِن مشى متئدا، وإن كان فى سهلٍ وأُلجئ إلى الهرب جرى جريا شديدا كالكلب ، وإن رماه أحدٌ ولم يصبْه شدَّ عليه، فإن أخذه لم يضرّه، وإنّما يخدِشه ثم يخلّيه، كأنّه مَنَّ عليه بعد الظَّفَر به وهو إذا شَمّ أثرَ الصيّادين عفا أثرَه بذَنَبِه .

وأمّا جبنُه — فمنه أنّه يُذْعَر من صوت الدّيك، ومن نقرِ الطَّسْت وحِسِّ الطُّنْبور[2]، ويفزع من رؤية الحبلِ الأسودِ والديكِ الأبيضِ والسِّنَّوْرِ والفَأْرة ، ويَدْهَش لضوء النار، ويعتريه ما يَعترِى الظِّباءَ والوحوشَ من الحَيْرة عند رؤيتها وإدمانِ النظر اليها والتعجّبِ منها، حتى يَشغَله ذلك عن التحفّظ والتيقّظ .

قالوا: والأسد لا يألَف شيئا من السّباع، لأنّه لا يرى له فيها كفؤا فيَصحَبَه، ولا يطأ شيء منها على أثر مشيه، ومتى وُضِع جلدُ الأسد مع سائر جلودها تساقطتْ شعورُها؛ والأسُد لا يدنو من المرأة الطامث[3]، وهو إذا مَسّ بقوائمه شجرَ البَلُّوط[4] خَدِر[5] ولم يتحرّك من مكانه ، وإذا غمره الماء ضعف وبَطَلتْ قُواه ، فربّما ركب الصبيُّ على ظهرِه وقبض على أذنيه ولا يستطيع عن نفسه دفاعا؛ وأخبرنى بعضُ من سكن

(١) عبارة مباهج الفكر : «وهو مع ذلك يضمر الخوف» الخ .

(٢) «الطنبور» بضم الطاء : من آلات الطرب ، ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس ، وهو فارسىّ معرّب .

(٣) الطامث : الحائض .

(٤) شجر البلوط : شجر كبير يدبغ بقشره ، وكانوا يغتذون بثمره قديما .

(٥) الخدر بفتحتين : استرخاء الأعضاء وثقلها فلا يمكنها أن تتحرّك .

غَوْرِ[1] الشأم أنّ بعض الغَـوارنةِ[2] رأى أسـدا فى بعض الأيام وهو رابضٌ على حافةِ نهرِ الأُرْدُنّ[3]، وظهرُه إلى المـاء، وذَنَبُه فيـه، وهو يرُشّ على ظهره وجنبيه بذنَبـه وكان الغَوْرىُّ من جانب الشَّريعـة[4] [الآخَر[5]] فبادَرَ بعبور المـاء، وعدَّى الى جهة الأسد برفقٍ وسكونٍ حتّى صار وراءه، ثم قبض الغَوْرىّ على مَرَقّ فَخِذَى الأَسـد وجذَبَه إلى المـاء، فهمّ الأسدُ بالوثوب وضرب الأرضَ بيديه، فانسحل[6] الرملُ من ٥

(١) غور الشأم : بين البيت المقـدّس ودمشـق، وهو منخفض عن أرض دمشـق وأرض البيت المقدّس، ولذلك سمى الغور، وفيه نهر الأردن، و بلاد وقرى كثيرة، وعلى طرفه طبرية وبحيرتها، وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية .

(٢) الغوارنة : جمع غورانىّ، نسبة إلى الغور، ولم نجد هذه النسبة فيما لدينا من كتب الفقه؛ فلعلها كانت مستعملة بين أهل تلك البلاد . ١٠

(٣) ذكر صاحب (صبح الأعشى ج ٤ ص ٨١) : أن أصل نهر الأردنّ من أنهار تصب من جبل الثلج إلى بحـيرة بانياس، ثم يخرج من البحيرة المذكورة و يصب فى بحيرة طبرية، و يمتـدّ جنوبا، وهناك يصب فى نهر اليرموك بين بحيرة طبرية المذكورة و بين (القصير)، و يمتدّ فى وسط الغور جنوبا حتى يجاوز (بيسان)، و يمتدّ فى الجنوب كذلك إلى (أريحا)، ولا يزال يمتدّ فى الجنوب حتى يصب فى بحيرة زغر، وهى البحيرة المنتنـة المعروفة ببحيرة لوط اه وفى معجم البلدان لياقوت نقلا عن أحمد بن الطيب السرخسىّ أنهما ١٥ أردنان : الأردن الكبير، والأردنّ الصـغير؛ فأما الكبير، فهو نهر يصب إلى بحيرة طبرية، بينـه و بين طبرية لمن عبر البحيرة فى زورق اثنا عشر ميلا، تجتمع فيه المياه من جبال وعيون، فتجرى فى هـذا النهر، فتسقى أكثر ضياع جنـد الأردن ممـا يلى ساحل الشأم وطريق صـور، ثم تنصب تلك المياه الى البحيرة التى عنـد طبرية؛ وأما الأردن الصـغير فهو نهر يأخذ من بحيرة طبرية و يمرّ نحو الجنوب فى وسط الغور، فيسقى ضياع الغور؛ وعليـه قرى كثيرة، منها (بيسان)، و (قراوى) وغير ذلك الخ والظاهر من ٢٠ سياق الكلام أن المراد هنا الثانى دون الأوّل .

(٤) الشريعة : اسم لنهر الأردنّ، كما فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٨١، وهى أيضا مورد الشاربة من المـاء .

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى (ب) .

(٦) فى كلا الأصلين : « فامسحل » بالميم مكان النون؛ وهو تحريف، إذ لم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة؛ (وانسحل الرمل)، أى انجرف، وهو من قولهم : « سحلت الرياح الأرض »، أى كشطت = ٢٥

تحتهما، ولم يستطع إثباتَهما عليه، فانحدر إلى الماء، وركبه الغَوْرىّ، وقبض على أذنيه، وضربه بسكّين معه فقتله؛ والغَوارنةُ[1] تحيّل على قتل السباع بأمورٍ كثيرةٍ مواجَهةً، والّذى وقع لهذا الرجل نادرُ الوقوع لم أسمع أنّه وقع لغيره، وهو أمرٌ مستفاضٌ[2] عند الغَوارنة[1].

٥ قالوا: والأسدُ لا تفارقه الحمّى، ولذلك الأطبّاءُ يسمّونها داءَ الأسد، وعظامُه عاسيةٌ[3] جدّا، وإن دُلك بعضُها ببعضٍ خرجت منها النّارُ كما تخرج من الحجارة وكذلك فى جلدِه من القوّة والصّلابة ما لا يعمَل فيه السلاحُ إلّا من مَراقّ[4] بطنِه؛ والأسدُ طويلُ العمر؛ وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا: إنّ شحم الأسد يحلّل الأورامَ الصُّلْبة.

---

١٠ = ما عليها ونزعت عنها أدمتها، ومنه سمى ريف البحر ساحلا، لأن الماء يسحله، أى يجرفه؛ أو لعله: «فانسحب» بالباء مكان اللام.

(١) تقدّم الكلام على هذا اللفظ فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٣٢ من هذا السفر فانظرها.

(٢) فى كتب اللغة أنه يقال: «حديث مستفاض فيه» «ومستفيض» ولا يقال: «مستفاض» كما هنا، ١٥ فانه لحن، وقيل: إن «مستفاض» لغية، من «استفاضوه فهو مستفاض»، أى مأخوذ فيه، ونقل صاحب التاج عن شيخه أن القياس لا ينافيه؛ وقد استعمله أبو تمام، كما فى موازنة الآمدىّ؛ وفى المصباح أن منهم من يقول: «استفاض الناس الحديث»؛ وأنكره الحذاق. وقال فى اللسان: «حديث مستفاض: ذائع، ومستفاض، قد استفاضوه»، أى أخذوا فيه، وأباها أكثرهم.

(٣) العاسية: الصلبة اليابسة.

٢٠ (٤) مراق البطن: أسفله وما حوله مما استرق منه، ولا واحد لها.

ذكر شيء مما وُصف به الأسد نثرا ونظما

قال أبو زُبَيْد الطائيُّ يصفه لعثمانَ بن عفّان — رضى الله عنه — وكان قد لقيه : أَقبَل يَتضالع (١) من بغيه، ولصدره نَحيط (٢)، ولبلاعيمه غَطيط (٣)، ولطَرْفه وَميض (٤) ولأرساغه نَقيض، كأنّما يَخبِط هشيما، أو يطأ صَريما (٥)، وإذا هامةٌ (٦) كالمِجَنّ (٧)، وخدٌّ كالمِسَنّ، وعينان سَجْراوان (٨)، كأنّهما سراجان، وقَصَرةُ (٩) رَبِله (١٠)، ولِهْزِمةُ (١١) رَهله، وساعدٌ

(١) يتضالع بالضاد المعجمة، أي يتمايل؛ وهو من ضلع فلان، اذا مال وجنف. والذى فى الأغانى ج ١١ ص ٢٥ طبع بولاق. «يتظالع»؛ وفى كتب اللغة ما يفيد أن ذلك مما يروى بالضاد والظاء؛ قال فى التاج (مادة ظلع بالظاء): «والظالع: المائل، وهذا يروى بالضاد أيضا» اهـ.

(٢) النحيط: الزفير. وفى (ب): «مخيط»؛ وهو تحريف.

(٣) الغطيط: تردّد النفس صاعدا إلى الحلق حتى يسمعه من حوله (المصباح). وفى اللسان: الغطيط: النخير، وهو الصوت الذى يخرج مع نفس النائم، وهو ترديده حيث لا يجد مساغا.

(٤) فى كلا الأصلين: «نقيض» بالفاء؛ وهو تصحيف. والنقيض بالقاف: صوت المفاصل.

(٥) يريد بالصريم: ما جذ وقطع من الشجر، فعيل بمعنى مفعول.

(٦) كذا فى الأغانى ج ١١ ص ٢٥ طبع بولاق. والذى فى كلا الأصلين ومناهج الفكر: «ذا هامة»؛ وهو تحريف، إذ لا يستقيم معه الإعراب بالرفع فى قوله بعد: «وعينان سجراوان».

(٧) المجنّ: الترس.

(٨) فى كلا الأصلين: «شجراوان» بالشين المعجمة؛ وهو تصحيف؛ والسجراوان: تثنية سجراء، وهى العين التى يخالط بياضها حمرة، والأسم السجرة بضم فسكون.

(٩) القصرة بفتح القاف والصاد: أصل العنق.

(١٠) فى كلتا النسختين: «زيله»؛ وهو تصحيف؛ والربلة بفتح فكسر: الغليظة السمينة، وهو من الربالة بفتح الراء، وهى كثرة اللحم.

(١١) الذى فى كلا الأصلين: «وهزمة دهلة»؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين؛ واللهزمة: واحدة اللهزمتين، وهما مضيغتان فى أصل الحنك؛ وقيل عند منحنى اللحيين أسفل من الأذنين، وهما معظم اللحيين. والرهلة: المسترخية، وهو من «رهل اللحم» وزان «فرح»: إذا اضطرب واسترخى.

مجدول، وعضدٌ مفتول؛ وكفٌّ شَثْنَةُ البراثن[1]، ومخالبُ كالمحاجن[2]؛ وفمٌ أشدَق[3] كالغار الأخرق[4]؛ يفترّ عن معاولَ مصقوله، غيرِ مفلوله؛ فهجهجنا[5] به ففرفر[6] وبربر[7]، ثم زأر فجرجر؛ ثم لحَظَ نخلتُ البرقَ يتطاير من جفونه، عن شِماله ويمينه؛ فأُرعِشَت الأيدى، واصطكّت الأرجل؛ وجحَظَت[8] العيون، وساءت الظنون، ولحِقت الظهورُ بالبطون.

ووصَفَه بعضُ الأعراب[9] فقال: له عينان حمراوان مثلُ وَهَج الشَّرَر، كأنما نُقِرتا بالمناقير فى عُرْض حَجَر؛ لونُه وَرْد، وزئيرُه رعد؛ هامتُه عظيمة، وجبهتُه

(١) فى كلا الأصلين: «تشبه»؛ وهو تصحيف. والشثنة: الخشنة الغليظة.

(٢) المحاجن: جمع محجن بكسر الميم، وهى العصا المعقفة الرأس كالصولجان.

(٣) الأشدق: الواسع الشدقين.

(٤) كذا ورد لفظ الأخرق بالراء فى كلا الأصلين ومباهج الفكر والأغانى ج ١١ ص ٢٥ طبع بولاق؛ والمراد به: الواسع، أخذا من سياق الكلام، ولم نجده بهذا المعنى فيما راجعناه من المظان، غير أنه ورد فى كتب اللغة أن الخرقاء هى الأرض الواسعة التى تخرق فيها الرياح؛ والذى يستفاد من المخصص ج ١٦ ص ٥٧ أن الخرقاء بهذا المعنى لا أفعل له، فقد وردت هذه الكلمة فى باب (فعلاء لا أفعل لها من جهة السماع)؛ واذن فلا يقال: «أخرق» بالمعنى السابق، فلعل ما هنا تحريف صوابه: «أخوق» بالواو مكان الراء، أى واسع، وهو من «الخوق» بالتحريك، أى السعة.

(٥) يقال: «هجهج بالسبع»، إذا صاح به وزجره ليكف.

(٦) «ففرفر»: من الفرفرة بمعنى الصياح، يقال: «ففرفره»، أى صاح به.

(٧) بربر، أى صوّت وصاح مع غضب، ومنه سمى الأسد مبربرا بكسر الباء لجلبته وتنوره وغضبه.

(٨) «جحظت العيون»، أى شخصت، وهو تفسير مجازى؛ قال فى اللسان فى تفسير قول عائشة — رضى الله تعالى عنها — تصف أباها: «وأنتم يومئذ جحظ تنظرون الغدوة» ما نصه: «جحوظ العين: نتوءها وانزعاجها؛ تريد: وأنتم شاخصو الأبصار ترقبون أن ينعق ناعق» اهـ ويجوز أن يقرأ بضم الجيم وتشديد الحاء مع الكسر مبنيا للمجهول، وهو من التجحيظ بمعنى تحديد النظر، كما فى القاموس وشرحه.

(٩) هو أبو زبيد الطائى، كما فى محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٣٩١ طبع جمعية المعارف.

شَتيمه[1]؛ نابُه شديد، وشره عتيد[2]؛ إذا آستقبلتَه قلتَ: أقرع، وإذا آستدبرتَه قلتَ: أفرع[3]؛ لا يَهاب إذا الليلُ عَسْعَس[4]، ولا يجبُن إذا الصبحُ تنفّس؛ ثم أنشد:

عَبوسٌ شَموسٌ مُصْلَخِدٌّ[5] مُكابِرٌ[6] * جريءٌ على الأقران للقِرْن قاهرُ

براثنُه شُثْنٌ[7] وعيناه فى الدُّجى * كجمر الغَضَى فى وجهه الشرُّ طائرُ

يُدِلُّ بأنيابٍ حِدادٍ كأنّها * إذا قَلَّص الأشداقَ عنها خناجرُ

ومن التهويلات فى وصف الأسد قولُ الشاعر:

إيّاكَ لا تَستَوْشِ[8] ليثا مُخْدَرا[9] * للهولِ فى غسق الدُّجى دوّاسا

مِرِسا[10] كأمراس[11] القَليب جُدولُه[12] * لا يستطيع له الأنامُ مِراسا

(١) الشتيمة: الكريهة المنظر.

(٢) العتيد: الحاضر المهيأ؛ والمراد أن شره لا تأخر فيه ولا آنتظار.

(٣) فى كلا الأصلين: «أقرع» بالقاف؛ وهو تصحيف كما لا يخفى؛ والأفرع: الكثير الشعر، يريد لبدة الأسد؛ وهى الشعر المجتمع على كاهله.

(٤) عسعس الليل: أقبل بظلامه.

(٥) المصلخدّ: المنتصب قائما؛ والمراد أنه متهيئ للشر مستعدّ له.

(٦) كذا فى مباهج الفكر؛ والذى فى كلا الأصلين: «مكاثر» بالثاء المثلثة؛ وهو تصحيف، إذ المكاثرة هى المغالبة فى الكثرة، ولا تصح إرادتها هنا.

(٧) الشثن: الغليظة الخشنة.

(٨) «لا تستوش ليثا»، أى لا تستخرج ما عنده من البأس والقوّة، وهو من الآستيشاء بمعنى الآستخراج؛ يقال «استوشى فلان فرسه»، اذا آستخرج ما عنده من الجرى.

(٩) المخدر: من أخدر الأسد، اذا لزم الأجمة وآتخذها خدرا، ويجوز أن يقرأ بفتح الدال على صيغة آسم المفعول، وهو من «أخدر العرين الأسد»، أى ستره وواراه؛ ولهذا ضبطناه بالوجهين.

(١٠) المرس بفتح فكسر: الشديد المراس.

(١١) الأمراس: الحبال، وهو جمع جمع، فان الواحد «مرسة» بفتح أوّله وثانيه، وجمعها «مرس» بفتح أوله وثانيه أيضا، وجمع الجمع «أمراس».

(١٢) الجدول: قصب اليدين والرجلين؛ أو هى الأعضاء، واحده جدل بفتح الجيم؛ يريد أن أعضاءه محكمة الفتل وثيقة كالحبال التى تجتذب بها الدلاء.

شَثْنَ البراثنِ كالمحاجنِ عُطِّفتْ * أظفارُه فتخالُها أقواسا
لان الحديدُ لجلدِه فإهابُه * يكفيه من دون الحديد لباسا
مصطكّة أرساغُه بعظامِه * فكأنّ بين فصولِها(١) أجراسا
وإذا نظرتَ إلى وميض جفونِه * أبصرتَ بين شُفورِها(٢) مقباسا

٥ وقال آخر :

توقَّ — وقاكَ(٣) ربُّ الناس — ليثا * حديدَ النّابِ والأظفارِ وَرْدا
كأنّ بِمُلتقَى اللَّحْيَين منه * مذرَّبةَ(٤) الأسنّةِ أو أُحَدّا
وتَحسَب لَمْحَ عينيه هُدوءا(٥) * ورَجْعَ زئيرِه برقا ورعدا
تَهابُ الأُسْدُ حين تراه منه(٦) * اذا لاقَينه(٧) فى الغاب فَرْدا
١٠ تصُدّ عن الفرائسِ حين يبدو * وكانت قبلُ تأنَف أن تصُدّا

(١) الفصول : المفاصل .

(٢) كذا ورد هذا الجمع فى هذا الشعر؛ والذى فى كتب اللغة أن شفر العين يجمع على أشفار ولا يجمع على غير ذلك، كما قاله سيبويه .

(٣) فى كلا الأصلين : «وقال» باللام؛ وهو تحريف .

١٥ (٤) المذرّبة : المحدّدة .

(٥) هدوءا، أى فى وقت هدوء الليل وسكونه، وذلك لأن هذا الوقت أشدّ لظهور البريق واللمعان .

(٦) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال : «هاب منه» وانما يقال «هابه» إلا أن قد ورد تعدية هذا الفعل بـ «من» فى بعض عبارات اللغويين فى تفسير بعض الألفاظ، لا أنه منقول عن العرب فقد جاء فى اللسان والتاج مادة «هيب» : «رجل هيوب» : جبان يهاب من كل شىء؛ فلعل هذا الفعل
٢٠ ضمن معنى الفزع، فساغت تعديته بـ «من» .

(٧) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : «لاقيته» بالتاء؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما هو ظاهر .

وقال أبو الطّيّب المتنبّي — رحمه الله — :

وَرْدٌ إذا ورد البُحـــيرةَ[1] واردا[2] * وَرَدَ الفراتَ زئيرُه والنِّيـــلا

متخضّبٌ بدمِ الفوارسِ لابسٌ * فى غِيلِه[3] من لِبْدتيـه غِيلا

فى وُحْدةِ الرُّهبانِ إلّا أنّه * لا يعرف التحـريمَ والتّحليلا

وقعتْ على الأُرْدُنّ[4] منـــه بليّةٌ * نُظِمَتْ[5] بها هامُ الرفاقِ تُلولا

يطأ البَرَى[6] مترفّقا[7] مِن تِيهِه * فكأنّه آسٍ يَجُسّ عليـــلا

ويُرُدّ غُفْـــرتَه[8] إلى يافـــوخِه * حتّى تَصـــيرَ لرأســـه إكليلا

(١) يريد بالبحيرة : بحـيرة طبرية ، كما فى شرح العكبرىّ على ديوان المتنبى ج ٢ ص ١٩١ طبع بولاق ؛ وهذه البحيرة كالبركة ، تحيط بها الجبال ، وتصب فيها فضلات أنهر كثيرة تجىء من جهة بانياس والساحل والأردن الأكبر ، وماء هـذه البحيرة عذب شروب ليس بصادق الحلاوة انظر معجم البلدان

(٢) كذا فى كلا الأصلين ؛ والذى فى شرح العكبرىّ على ديوان المتنبى ج ٢ ص ١٩١ طبع بولاق «شاربا» ؛ وهو أنسب ، فانه يقل مجىء الحال المؤكدة موافقة لعاملها فى اللفظ والمعنى كما هنا ؛ ومنه قول الشاعر : «أصح مصيخا لمن أبدى نصيحته» ، والكثير مجيئها موافقة لعاملها فى المعنى دون اللفظ ، كما نص على ذلك فى كتب القواعد .

(٣) الغيل : الأجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف الذى يستتر فيه الأسد .

(٤) الأردنّ : كورة بالشأم واسعة ، منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك .

(٥) فى شرح العكبرىّ : «نضدت» ؛ والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا .

(٦) البرى : التراب .

(٧) فى (أ) : «مترفعا» ، وفى (ب) : «رقعا» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٨) فى شرح العكبرىّ على ديوان أبى الطيب ج ٢ ص ١٩٢ طبع بولاق أن «الغفرة» هى الشعر اجتمع على قفاه . والذى وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال لشعر القفا «غفر» بالتحريك ، و «غفار» بالضم ، و «غفير» ، وأما «الغفرة» ، فهى ما يغطى به الشىء : فلعله سمى هذا الشعر «غفرة» ، لأنه يغطى القفا ؛ والمراد بهـذا البيت وصف شعر منكبيه بالعظم والطول حتى أنه يردّ ذلك الشـعر فيجتمع على هامته ويصير كالإكليل .

قَصرتْ مخافتُه الخُطا فكأنّما * رَكِبَ الكَمِيُّ جوادَه مشكولا

وقال عبد الجبّار بنُ حمديس :

وليثٍ مقيمٍ فى غياضٍ منيعةٍ * أميرٍ على الوحش المقيمةِ فى القفرِ
يوسِّد شِبليه لحومَ فوارسٍ * ويقطع كاللِّصّ السبيلَ على السَّفرِ
هِزَبْرٌ له فى فيه نارٌ وشَفْرةٌ * فما يَشتوِى لحمَ القتيل على الجمرِ
سراجاه عيناه إذا أظلم الدّجى * فإن باتَ يَسْرِى باتت الوَحْشُ لا تَسرى
له جَبْهةٌ مثلُ المِجَنِّ ومَعْطِسٌ * كأنّ على أرجائه صِبغةَ الحِبْرِ (١)
يصلصِل (٢) رعدٌ من عظيم زئيره * ويَلمَع برقٌ (٣) من حماليقه الحُمْرِ
له ذنَبٌ مستنبَطٌ منه سوطُه * ترَى الأرضَ منه وهى مضروبة الظهرِ
ويَضرِب جنبيه به فكأنّما * له فيهما طبلٌ يَحُضّ على الكَرِّ
ويُضحِك فى التّعبيس فكّيه عن مُدًى * نُيوبٍ (٤) صلابٍ ليس تَهتمّ بالفِهْرِ (٥)
يصول بكفٍّ عَرْضُ شبرين عَرْضُها * خناجرُها أمْضَى من القُضُبِ البُترِ
يجرِّد منها كلَّ ظُفْرٍ كأنّه * هلالٌ بدا للعين فى أوّل الشهرِ.

وقال بشرُ بنُ عَوانةَ الفَقْعسىُّ (٦) يصف ملاقاتَه الأسدَ وما كان بينهما :

أفاطمُ لو شهدتِ ببطن خَبْتٍ * وقد لاقَى الهِزَبْرُ أخاكِ بِشْرا

(١) فى (أ) : «الخمر» ؛ وفى (ب) : «الجبر» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ؛ والتصويب عن ديوان ابن حمديس ص ٤٨٦ .

(٢) الصلصلة : ترجيع الصوت .

(٣) الحماليق : جمع حملاق و ملوق ، وهو باطن الجفن الأحمر الذى اذا قلب للكحل رأيت حمرته .

(٤) فى كلتا النسختين : « ينوب » ؛ وهو تصحيف .

(٥) الفهر : الحجر ، وهو مؤنث .

(٦) كذا ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين ؛ وفى رواية : «العبدى» كما فى شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى للشيخ محمد عبده ص ٢٤٧ طبع بيروت ؛ ولم نقف على مايرجح إحدى الروايتين ؛ وقد أورد =

إذَا لرأيتِ ليثا رام ليثا * هِزَبْرا أغلبا لاقَى هِزَبْرا
تَبهنَس(١) إذ تَقاعَس(٢) عنه مُهرى * محـاذَرةً فقلتُ : عُقِرتَ مُهرا
أَزِلْ قـدمىَّ ظهرَ الأرضِ إنّى * وجدتُ الأرضَ أثبتَ منك ظهرا
وقلتُ له وقد أَبدَى نِصـالا * مـذرَّبةً(٣) ووجهـا مكفهِرّا
يُدِلّ بِمِخلَبٍ وبحـدِّ نابٍ * وباللَّحَظات تحسَـبهنّ جمـرا
وفى يمنـاى ماضى الحـدِّ أَبقَى * بمَضرَبه قِراعُ المـوت أُثْرا(٤)
ألم يُبلُغْـك ما فعلتْ ظُبـاهُ * بكاظمـةٍ(٥) غداةَ لقيتُ عمـرا
وقلبى مثلُ قلبكَ لستُ أخشى(٦) * مصاوَلةً(٦) ولستُ أخاف ذُعْرا

= الهمذانىّ قصيدة بشر هذه وقصته مع ابنة عمه فى إحدى مقاماته ، وهى المقامة البشرية ؛ ولم نقف على ترجمة لبشر هـذا فيما لدينا من كتب الأدب على كثرتها ، كما أننا لم نجد اسمه فى معجمات الأسماء التى بين أيدينا ؛ وقال الشيخ محمد عبده فى شرحه على هذه المقامات ص ٢٥٠ طبع بيروت : « إن بعض الرواة قد نسب هذه الأبيات لعمرو بن معديكرب ، كتب بها إلى أخته كبشة ، ومطلع قصيدة عمرو :

أكبشة لو شهدت ببطن جب * وقد لاقى الهزبر أخاك عمـرا »

ثم قال : « والصحيح أن الواقعتين مختلفتان » . ولم يورد أبو الفرج فى الأغانى هـذه الأبيات فى أخبار عمرو بن معديكرب .

(١) تبهنس الأسد ، أى تجبّر .

(٢) تقاعس ، أى تأخر ورجع إلى الخلف .

(٣) المذرّبة : المحدّدة .

(٤) الأثر بضم الهمـزة : أثر الجرح ، وقد اسـتعاره هنا للندوب والثلوم التى تكون فى السـيف من مقارعة الأبطال .

(٥) كاظمة : جوّ — أى منخفض من الأرض — على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة ؛ وقد أكثر الشعراء من ذكرها .

(٦) فى رواية أخرى لهذا البيت : « ليس يخشى مصاولة فكيف يخاف » الخ كما فى شرح مقامات بديع الزمان للشيخ محمد عبده ص ٢٥١ ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

وأنت تروم للأشبال قوتا * وأطلب لابنة الأعمام مهرا (١)

ففيم تروم مثلى أن يولّى * ويترك فى يديك النفس قسرا (٢)؟!

نصحتك فالتمس يا ليثُ غيرى * طعاما إنّ لحمى كان مُرّا

ولمّا ظنّ أنّ الغشّ نصحى * وخالفنى كأنّى قلت هُجْرا

٥ دنا ودنوت من أسدين راما (٣) * مراما كان إذ طلباه وَعْرا (٤)

يكفكف غِيلةً إحدى يديه * ويبسط للوثوب علىّ أخرى

هززت له الحسامَ فخلت أنّى * شققت به من الظلماء فجرا (٥)

حساما لو رَمَيتُ به المنايا * لجاءت نحوَه تعطيه عذرا

وجُدتُ له بجائفةٍ (٦) رآها * بمن كذّبته ما منّه غدرا (٧)

---

١٠ (١) كذا ورد هذا الشطر فى مقامات الهمذانى؛ والذى فى كلا الأصلين: «ومطلبى لبنت العم»؛ وهو خطأ إذ لا يستقيم به الإعراب بالنصب فى قوله آخر البيت: «مهرا»، كما لا يخفى.

(٢) القسر: القهر.

(٣) فى رواية: «مشى ومشيت». انظر شرح الشيخ محمد عبده على مقامات البديع الهمذانى ص ٢٥٢

(٤) «من أسدين»، أى فيما لهما من أسدين.

١٥ (٥) فى رواية: «سللت به لدى الظلماء»؛ شرح الشيخ محمد عبده على مقامات الهمذانى ص ٢٥٢.

(٦) الجائفة: الطعنة التى تخالط الجوف.

(٧) «غدرا»: مفعول لقوله: «رآها»؛ وقوله: «بمن كذبته» متعلق بقوله: «غدرا»، و«ما» فى قوله: «ما منه» مفعول ثان لـ«كذبته»؛ والمعنى أنّ هذا الأسد رأى إصابة الطعنة غدرا بالذى كذبته تلك الطعنة ما كانت قد منته من خيبتها وعدم إصابتها لاضطرابها فى كف ضاربها، فكأن

٢٠ الأسد قد ظن أنها ستخطئه وتمنى ذلك فكذبته الطعنة أمنيته وغدرت به. وروى هذا البيت فى مقامات الهمذانى: «وجدت له بجائشة أرته * بأن كذبته» الخ؛ وقال الشيخ محمد عبده فى تفسيره ما نصه: «الجائشة: النفس؛ يتهكم على الأسد ويقول: انى تكرمت عليه بنفس قد أرته وأظهرت له انها قد غدرت به فيما منته وأطمعته فيها بثباتها بين يديه، اذ كذبته تلك الأمنية وفتكت به، وقد يراد من الجائشة هنا المعنى الوصفى، أى بضربة هائجة وقد كانت تلك الضربة منته خيبتها لاضطرابها بهيجان ضاربها» اه.

بضربةٍ فَيْصَـــلٍ تركتْه شَفْعا * وكان كأنّه الجُلُمُـــودُ وَتْرا
فخـــرّ مضـــرَّجا بدمٍ كأنّى * هـدمت به بنـاءً مشْـمَخِرّا
وقلت له : يَعِـزّ عـــلىّ أنّى * قَتلت مناسـبى جَلَدا وقهـــرا
ولكـن رمتَ شـيئا لم يَرُمْه * سواك فلم أُطِقْ يا ليثُ صـبرا
تحاول أن تعلّمنى فِـرارا * لعمر أبيـك قد حاولتَ نُكْرا
فلا تَبْعَـدْ لقـــد لاقاك حرٌّ * يحـاذِر أن يعـابَ فِتًّ حُرّا

وأمّا البَبْر [وما قيل[1] فيه] — فهو سَبُعٌ هنـدىّ، ويقال : حبشىّ ؛ وهو فى صورة أسدٍ كبير، أزبُّ[2] ملمّعٌ بِصُـفرة وسواد ، ويقال : إنّه متـولّدٌ بين الزّبرقان[3] واللَّبُؤة ؛ وفى طبعِـه أنّه يسالم النَّمِرَ وغيرَه من السباع ما لم يَستكلِب ، فاذا آستَكلَب خافه كلُّ شىء كان يسالمه، وهو والأسـد متوادّان أبدا، ومودّتُه معه كمودّة الخنافس والعـقارب والحيّات والوَزَغ ؛ ويقال : إنّ الأنثى منـه تَلْقَـح بالريح ، ولهـذا يقال : إنّ عَدْوَه يشـبه الرّيحَ سرعة، ولا يقـدر أحدٌ على صيده؛ وإنّما تُسرَق جِراؤه فتُحمَل فى مثـل القوارير من زجاج، ويُرْكَض بهـا على الخيول السوابق ، فإن أدركهم أبوها رُمِىَ اليه بقارورة منها، فيشتغل بالنظر إليهـا والفكرة[4]

(١) لم ترد هذه العبارة فى (ب) .

(٢) الأزب : من الزبب بالتحريك، وهو كثرة الشعر وطوله .

(٣) كذا ورد هـذا اللفظ فى كلا الأصلين ومباهج الفكر للكتبىّ وحياة الحيـوان للدميرى ج ١ ص ١٠٣ طبع المطبعة الخيرية وديوان الحيوان للسيوطى ؛ وهو سبع هندىّ أصغر من الفهد أحمر ذو زغب وعينين براقتين، سريع الوثبة انظر مروج الذهب للسعودى ج ١ ص ١٨٤ طبع بولاق ؛ ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة ما يسمى بهذا الاسم من السباع وغيرها من بقية الحيوانات ؛ ولهذا لم نضبطه .

(٤) فى كلا الأصلين : « والنكرة » بالنون ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السـياق ؛ والذى فى مباهج الفكر وحيـاة الحيوان ج ١ ص ١٠٣ طبع المطبعة الخيرية : « والحيـلة » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

فى إخراج جِرْوِه منها ، فيَفُوتُه الآخذُ لها ؛ وزعم قومٌ أنه إذا استكلَب ورآه الأسد رقد له حتّى يبولَ فى أذنه خوفا منه ورهبةً له ؛ هكذا نقَلَ صاحبُ مباهج الفكر ومناهج العبر، ولم أقف على شعرٍ فى وصف البَبْر ولا رسالةٍ فأُوردَها .

ذكر ما قيل فى النَّمِر

٥ والنَّمِر له أسماء، منها السَّبَنْدَى والسَّبَنْتَى، والطرحُ (١) : [وَلَدُه] (٢)، وجمعُه طُروح؛ والتلوة (١) والخَتْعةُ : [الأنثى] (٢) .

وزعم أهلُ البحثِ عن طبائع الحيوان والاطّلاع على أسرارِه أنّ النَّمِرةَ لا تضع ولَدها إلّا وهو مطوَّقٌ بأفعى، وهى تُعَيِّث (٣) وتنهِش (٤) إلّا أنّها لا تَقتُل؛ وفى طبع النَّمِر وعادتِه أنّه يشبع لثلاثة أيّام، ويقطعها بالنوم، ثم يخرج فى اليوم الرابع، ومتى ١٠ لم يَصِدْ لم يأكل، ولا يأكل من صيد غيرِه كالأسد، وينزّه نفسَه عن أكل الجِيَف ولو مات جوعا؛ وهو لا يأكل لحومَ الناس إلّا للتداوى من داءٍ يصيبُه؛ وفيه

(١) كذا ورد لفظ « الطرح » و « التلوة » فى كلا الأصلين وكتاب مبادئ اللغة ص ١٤٨ طبع مطبعة السعادة بمصر ؛ ولم نجدهما بهذا المعنى المذكور هنا فيما لدينا من كتب اللغة الجامعة ، كاللسان والتاج والصحاح والتكملة والمخصص وغيرها ؛ ولهذا لم نضبطهما .

١٥ (٢) لم يرد فى الأصل هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم ؛ وقد أثبتناهما عن كتاب مبادئ اللغة ، وهو الذى نقل عنه المؤلف هذه الأسماء فيما يظهر لنا وإن لم يصرح بهذا النقل .

(٣) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر وحياة الحيوان وديوان الحيوان : « تعيش » بالشين ؛ وهو تحريف فى جميع هذه الكتب ، إذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا ؛ و « تعيث » بتشديد الياء، أى تؤثر ؛ يقال : «عيث فى السنام بالسكين» ، أى أثر فيه .

٢٠ (٤) تنهش : من النهش، وهو تناول الشىء بالفم ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه .

زَعارَةُ[1] خُلق ، وحِدّةُ نفس ، وتجهُّـم وجه ، وشـدّةُ غيظ ، ولهـذا يقال فى الرجل إذا اشـتدّ غضبُه وكثر غيظُه على عدوّه : "لَبِسَ له جِلْدَ النَّمِر" ، أى تَخـلّق[2] بأخلاقه ؛ والنَّمِرُ بعيدُ الوثبـة ، وربّمـا وثب أربعين ذراعا صُعودا إلى مَجْثَمِه الذى يأوِى اليه ، وقد شوهد وهو يَثِبُ فى اللّيل فيصير فى داخل زَريبة الغنم فيأخذ الشاةَ فيحذفُها إلى خارج الزَّريبة ، ثمّ يثِبُ فيسبِقُها إلى الأرض ، ويتناولُها من الهواء قبل أن تسقُطَ على الأرض ؛ ومن خصائصه الغريبة أنّ المعضوض منه يطلبه الفأرُ حيث كان ، ويقصده ليبول عليه ، فإن ظَفِر به وبال عليه مات ؛ والناس يَحترِزون على من يجرحه النَّمِرُ غايةَ الاحتراز ، والفأرُ يطلُب المجروحَ كلَّ الطلب ، ومن أعجب ما سمعتُ أنّ إنسانا جرحه النَّمِرُ فاحترَز على نفسه من الفار ، فرَكب فى مَرْكَب ، ووقف به فى المـاء وقد وَثِق بذلك ، وظَنّ أنّ الفار لا يصل إليه ، فاتّفق لنفوذ القضاء المقـدَّر الذى لا حيلةَ فى دفعه أنّ حِدأةً اختطَفتْ فأرا من الأرض ، وطارت فحاذت المجـروح فلمّا سامَتَه الفأرُ بال عليه فمات . وقد وُجد فى بعض الكتب القديمة : أنّ النَّمِر إذا عضّ إنسانا أُخِذَ زهرُ السُّمّاقِ[3] ودُلِكَ به الجُرح ، فإنّ الفأرَ لا يقاربُه ، ويكون فى ذلك شفاؤه ؛ وأخبرنى من عاين ذلك عند التَّجْرِبة ؛ والنَّمِرُ يحبّ شربَ الخمر ، وبها يصاد ، فإنه اذا سَكِر نام ؛ وزعموا أنّه يتولّد بينه وبين اللَّبُؤة سبُعٌ يسـمّى الذراع[4] على قَدْرِ الذئب العظيم ، كثير الجراءة ، لا يأوى معه شىءٌ من السباع والوحوش .

(١) الزعارّة بتشديد الراء وتخفيفها : الشراسة وسوء الخلق .

(٢) فى كلا الأصلين : «وتخلق» ؛ وهو غير مستقيم ، فان هذه الجملة تفسير للمثل السابق ، لا من تتمته .

(٣) السماق بتشديد الميم : من شجر القفاف والجبال ، وله ثمر حامض عناقيد فيها حب صغار يطبخ ؛ قال أبو حنيفة : لا أعلمه ينبت بشىء من أرض العرب إلا ما كان بالشأم ؛ قال : وهو شديد الحمرة .

(٤) كذا ورد هـذا اللفظ فى كلا الأصلين ومباهج الفكر ؛ ولم نجـد سبعا بهذا الأسم فيما راجعناه من كتب اللغة ، كاللسان والتاج والمخصص وغيرها ، كما أننا لم نجد كلاما عن هـذا السبع فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى الحيوان ؛ ولهذا لم نضبطه .

ما قاله الشعراء في وصف النمر

ووَصَفَ كُشاجِمُ النَّمِرَ من طَرَدِيَّةٍ[1] فقال :

وكالِحٍ كالمُغْضَبِ المَهِيجِ * جَهْمِ المُحَيَّا ظاهِرِ النَّشِيجِ[2]

يَكشِرُ عن مِثلِ مُدَى العُلوجِ[3] * أو كَشَبَا أسِنَّةِ الوَشِيجِ

مدبَّجِ الجِلْدِ بلا تدبيجِ * كأنّه من نَمَطٍ[4] منسوجِ

تريك فيه لُمَعُ التدريجِ * كواكبا لم تكُ في بروجِ

ولم أقِفْ في وصف النَّمِرِ على غير ذلك فأذكره .

(١) «طردية» ، أى أرجوزة طردية ، نسبة الى الطرد بالتحريك ، وهو مزاولة الصيد .

(٢) النشيج ، هو ترديد الصوت فى الصدر دون إخراجه .

(٣) لعل الوجه فى إضافة المدى إلى العلوج — وهم كفار العجم — اختصاصهم بصنعها ، أو بصنع الجيد منها .

(٤) النمط : ضرب من البسط .

البـاب الثـانى من القسم الأوّل من الفنّ الثالث
فيما قيل فى الفهد والكلب والذئب والضبع والنّمس

ذكر ما قيل فى الفهد

يقال للذَّكَر : الفَهْد ، وللأنثى : فَهْدة «وهما البَنَّة ، ولذلك يُكنَى أبابَنَّة»[1] ، وجِرْوُه الهَوْبَر، والأنثى هُبَيْرة[2]؛ قال أرِسْطو : إنّ الفَهْدَ متولِّدٌ بين أسدٍ ونَمِرة، أو لَبُؤةٍ ونَمِر؛ ويقال : إنّ الفَهْـدةَ إذا حَمَلَتْ وثَقُلَ حَمْلُها حَنـا عليها كلُّ ذَكَرٍ يراها من الفهود، ويواسيها من صيدِه ، فاذا أرادت الولادةَ هَرَبتْ إلى موضعٍ قـد أعدّته لنفسِها ، حتى اذا علّمت أولادَها الصيدَ تركتْها ؛ وبالفَهْد يُضرَب المثلُ فى شـدّة النوم؛ قال بعضُ الشعراء :

رَقدتْ مقلتى وقلبىَ يقظـا * نُ يُحِسّ الأمورَ حِسًّا شديدا
يُحْمَـد النّومُ فى الجواد كما لا * يَمنع الفَهْدَ[3] نومُه أن يَصيدا

(١) كذا ورد فى كلا الأصلين وكتاب مبـادئ اللغة هـذا الكلام الموضوع بين هاتين العلامتين ؛ والمراد أن الذكر والأنثى من الفهود يطلق على كل منهما لفظ « البنة » ؛ ولم نجد « البنة » ولا «أبابنة» بهذا المعنى فيما لدينا من كتب اللغة الجامعة ، كاللسان والتاج والصحاح والمخصص وغيرها ، كما أن ابن الأثير لم يذكر « أبابنة » فى كتابه (المرصع فى الآباء والأمهات) طبع أوربا ؛ ولم يورده المحبّى أيضا ضمن الكنى التى ذكرها فى كتابه (ما يعوّل عليـه فى المضاف والمضاف إليـه) المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٧٥٤ أدب ؛ وقد ضبطناه بفتح الباء وتشديد النون تبعا لضبطه فى مبادئ اللغة ضبطا بالقلم لا بالعبارة .

(٢) كذا ورد هـذا اللفظ فى كلا الأصلين ومبادئ اللغة ؛ ولم نجد الهبيرة بهذا المعنى المذكور هنا فى غير ذلك من كتب اللغة الأخرى التى بين أيدينا ؛ والذى وجدناه أن الهبيرة : الضبع مطلقا ، وقيل : الضبع الصغيرة ؛ ويقـال لأنثى الضفادع : أم هبيرة ، وللذكر : أبو هبيرة ، كما فى تاج العروس .

(٣) فى (أ) : « يمنع النوم فهـده » بتقديم النوم على الفهد ؛ والسياق يقتضى العكس كما أثبتنا نقلا عن (ب) ومباهج الفكر .

وقال الجاحظ : قال صاحبُ المنطق[1] : والفَهْد إذا آعتراه الداء الّذى يقال له : (خانقة الفهود) أَكَل العَذِرةَ فبَرأ منه ؛ قال : والسباعُ تَشتهِى رائحةَ الفهود، والفَهْد يتغيّب عنها[2] ، وربّما قَرُب بعضُها من بعضٍ فيُطيع الفَهْدَ فى نفسه ، فإذا أراده الفَهْد[3] وَثَب عليه السبعُ فأكَلَه ؛ قالوا : وليس شىء فى الحيوان فى جِرْم الفَهْد إلّا والفَهْدُ أثقَلُ منه وأحطَمُ لظهر الدابّة ؛ والإناثُ أصعبُ خُلقا وأكثرُ جراءةً وإقداما من الذكور ؛ ومن خُلقِ الفهد الحياء، وذلك أنّ الرجلَ يمرّ بيَدِه على سائر جسدِه فيَسكُن لذلك، فإذا وصلتْ يدُه إلى مكان الثُّفْر[4] قَلِقَ حينئذ وغضب ؛ ويقال : أوّلُ من صاد بالفهد كُلَيْبُ وائل، وقيل : هَمّامُ بنُ مُرّةَ، وكان صاحبَ لهوٍ وطرب ؛ وأوّلُ من حمله على الخيل يزيدُ بنُ معاويةَ بنِ أبى سفيان، وأكثرُ من آشتهرَ باللّعب بها أبو مسلم الخُراسانىُّ صاحبُ الدّعوة العبّاسيّة، وأوّلُ من آستسنّ حَلْقةَ[5] الصيد المعتضِدُ بالله ؛ والمواضعُ الّتى توجَد فيها الفهودُ ما يلى بلادَ الحِجاز إلى اليمن، وما يلى

(١) يريد بصاحب المنطق : أرسطوطاليس .

(٢) ورد هذا الكلام فى مباهج الفكر مع زيادات أخرى موضحة له ، فقد جاء فيه ما نصه : «والسباع تشتهى رائحة الفهد وتستدل بها على مكانه ، وتعجب بلحمه أشدّ العجب ، فهو يتغيب عنها لذلك» .

(٣) ورد فى كلا الأصلين كل من هاتين الكلمتين اللتين تحت هذا الرقم مكان الأخرى ؛ وهو خطأ من الناسخ مغير للمعنى المقصود ، والصواب ما أثبتناه كما يقتضيه قوله قبل : « فيطمع الفهد فى نفسه » ؛ ويؤيده أيضا ما ورد فى مباهج الفكر ، وعبارته : « فاذا أحس السبع منه ذلك وثب عليه فأكله » .

(٤) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : « النفر » بالنون ؛ وهو تصحيف ؛ والثفر بفتح الثاء وضمها للسباع ولذوات المخالب : كالحياء للناقة .

(٥) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : « خلقة » ؛ وهو تصحيف .

الحِجـازَ إلى العراق، وما يلى بلادَ الهند الى تُبَّت[1]، وتوجد أيضا فى بَرِّيَّة عَيْذاب من أعمال قُوص من الدِّيار المصريّة .

ما قيل فى وصف الفهود من النظم والنثر

وقد وَلِـع الشعراء والفضلاء بوصف الفهود نظما ونثرا؛ فمن ذلك قول أبى إسحاق الصابى فى رسالةٍ طَرَدِيَّةٍ[2] جاء منها : ومعنا فهودٌ أخطَفُ من البروق ، وأسرَعُ من السهم حين المُروق؛ وأثقَفُ[3] من اللُّيوث، وأجرَى من الغُيوث؛ وأمكَرُ من الثعالب وأدَبُّ من العقارب؛ خُمْصُ الخصور قُبُّ[4] البطون، رُقْشُ[5] المتـون ؛ حمـرُ الآماق خُزْرُ[6] الأحداق، هُرْتُ[7] الأشداق؛ عِراضُ الجِباهِ غُلْبُ[8] الرِّقاب، كاشرةٌ عن أنيابٍ كالحِراب؛ تَلحَظ الظِّباءَ مِن أبعد غاياتِها، وتعرف حِسَّها من أقصى نهاياتِها ؛ تَتبَع مَرابضَها وآثارَها، وتَشُمّ روائحَها وأبشارَها .

(١) كذا ضبط هـذا اللفظ فى القاموس ومعجم البـلدان؛ وذكر ياقوت أيضا أن الزمخشرىّ كان يقوله بكسر ثانيه، و بعضهم يقوله بفتح ثانيه، ورواه أبو بكر محمد بن موسى بفتح أوّله وضمّ ثانيه، وهو بتشديد الباء فى جميع هذه الروايات، وهو بلد بأرض الترك؛ ثم ذكر بعد ذلك : «أنه قرأ فى بعض الكتب أن تبت مملكة متاخمة لمملكة الصين، ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهنـد، ومن جهة المشرق لبـلاد الهياطلة، ومن جهة المغرب لبلاد الترك» الخ .

(٢) طردية، أى صيدية، نسـبة الى الطرد بالتحريك، وهو مزاولة الصيد .

(٣) أثقف : من «ثقفه»، اذا أدركه وأخذه، يريد أنها أشدّ إدراكا وأخذا للصيد من الليوث .

(٤) «قب البطون»، أى ضوامرها، الواحد أقب .

(٥) رقش المتون، أى أنّ فى متونها نقط سواد وبياض، واحده أرقش .

(٦) فى كلا الأصـلين : «جرد»، وهو تحريف؛ والخزر بضم فسكون : جمع أخزر، من الخزر بالتحريك، وقد اختلف اللغويون فى معناه، فقيل : هو النظر الذى كأنه فى أحد الشقين؛ وقيـل : هو إقبال الحدقتين إلى الأنف؛ وقيل : هو النظر كأنه يكون بمؤخر العين؛ والمعنى يستقيم على كل من هـذه التفسـيرات .

(٧) «هرت الأشداق»، أى واسعتها، الواحد أهرت .

(٨) غلب الرقاب، أى غليظتها، من الغلب بالتحريك، وهو غلظ العنق وعظمه .

ومن رسالة طَرَدِيّة لضياء الدِّين نصر الله بنِ الأثير الجَزَرىّ يصف فَهْدا بعد ان ذَكَر ظبيا، قال : فأرسلنا عليه فَهْدا سَلِسَ الضَّريبه[1]، ميمونَ النقيبه، منتسبا إلى نجيبٍ من الفهود ونجيبه ؛ كأنما ينظر من جمره، ويسمع من صخره، ويطأ من كلِّ بُرْثُنٍ على شَفْرَه؛ وله إهابٌ قد جُبِل[2] من ضدّين : بياضٍ وسواد، وصُوِّر على أشكال العيون فتطلّعتْ إلى انتزاعِ الأرواح من الأجساد؛ وهو يَبلغ المَدَى الأقصى فى أدنى وثَبَاتِه، ويَسبِق الفريسةَ ولا يقبِضها إلّا عند التفاتِه .

وقال أحمدُ بنُ زِياد بنِ أبى كَريمةَ يصفُها بعد أن وصف الكلبَ من ابيات :

بذلك أبغى الصيدَ طورا وتارةً * بمُخْطَفةِ الأكفال[3] رُحْبِ التَّرائبِ

مرقّقةِ الأذنابِ نُمْرٍ[4] ظهورُها * مخطّطةِ الاذان غُلْبِ[5] الغواربِ

---

(١) الضريبة : الطبيعة والسجية .

(٢) جبل، أى خلق .

(٣) كذا فى (أ) والحيوان ج ٢ ص ١٣٤ طبع مطبعة السعادة ، والمراد أنها ضامرة الأعجاز صغيرتها ؛ وفى رواية أخرى «الأحشاء» انظر الحيوان أيضا ج ٦ ص ١٦٢ والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا كما لا يخفى . وفى مباهج الفكر : « الأكفان » ، وهو مقلوب الأكناف، أى الجوانب، كما هو ظاهر .

(٤) « نمر ظهورها » أى أن فى ظهورها نمر بضم ففتح، أى نكت بيضاء وسوداء، الواحد أنمر .

(٥) فى (أ) : « صلب » وفى (ب) : «خلب» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ؛ « وغلب الغوارب » ، أى غليظة الأعناق عظيمتها .

مـــدنَّرةٍ ورْقٍ[1][2] كأنَّ عيونَهـا * حواجلُ[3] تستوعِى[4] متونَ الرَّواكبِ
اذا قلبْتَهـا فى الحِجَـاجِ[5] حسِبتَهَا * سَنَا ضَرَمٍ فى ظلمة الليـــلِ ثاقبِ
مولَّعـــةٍ[6] فُطْسِ[7] الأنوف عوابس * تَخـال على أشـداقِها خطَّ كاتبِ

(١) فى كلا الأصلين والحيوان « مدربة » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى مباهج الفكر ، وكما يقتضيه قوله بعد : «ورق» ؛ والمدنرة : التى فى لونها سواد تخالطه شهبة ؛ وقال أبو عبيدة : المدنر : الذى فيه نكت فوق البرش .

(٢) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر « زرق » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ١٣٤ وكما هو المعروف المشاهد من ألوان الفهود ؛ والورق : جمع أورق وهو الذى فى لونه سواد وبياض كدخان الرمث .

(٣) الحواجل : القوارير الواسعة الرءوس ، واحده حوجلة ، يريد بهذا التشبيه وصف عيونها بالغؤور ، كما قال العجاج :

كأن عينيه من الغؤور * قلتان أو حوجلتا قارور

(٤) فى كلا الأصلين : « تستدعى » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه قوله قبل : « حواجل » بالمعنى السابق فى الحاشية التى قبل هذه . « وتستوعى » ، أى تستوعب ، يريد أن هذه الحواجل ، أى القوارير تستوعب فيها متون الرواكب ، وهى الشحوم المتراكب بعضها على بعض فى مقدم السنام ؛ هذا ما يظهر لنا من معنى هـذا الشطر ؛ وفى الحيوان للجاحظ « تستدعى » ؛ ولم نجد من معانى الاستدعاء ما يناسب السياق .

(٥) الحجاج بكسر الحاء وفتحها : العظم المستدير حول العين .

(٦) كذا فى (ب) وغيرها من الكتب الأخرى ؛ والذى فى (أ) « براقة » ؛ وهو خطأ من الناسخ لا يستقيم به البيت ؛ والمولعة : من التوليع ، وهو التلبيع من البرص وغيره ، ويقال : «فرس مولع» أى أن تلبيعه مستطيل ، وهو الذى فى بياض بلقه استطالة وتفرق .

(٧) الفطس : جمع أفطس ، من الفطس بفتحتين ، وهو تطامن قصبة الأنف وانتشارها ؛ وقيل : هو انفراش الأنف فى الوجه .

نواصب للآذان حتّى كأنّها[1] * مَداهنُ، للإجراس[2] من كلِّ جانبِ
ذوات[3] أشافٍ[4] ركّبتْ فى أكُفِّها * نوافذَ فى صُمّ الصخور نواشبِ
ذِرابٍ[5] بلا ترهيف قَـيْنٍ[6] كأنّها * تَعقرُبُ أصداغِ الملاحِ الكَواعبِ
فـوارس ما لم تَلْقَ حربا، ورِجْلة[7] * إذا آنستْ بالبِيدِ شُهْبَ[8] الكَتائبِ

(١) فى رواية أخرى لهـذا الشطر : « نواصب آذان لطاف كأنها » انظر الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) « للإجراس » متعلق بقوله فى أوّل البيت : « نواصب » أى أن هـذه الفهود ناصبة آذانها لأجل الإجراس، أى استماع الصوت، تقول : «أجرسنى السبع» إذا سمع صوتك؛ وليس وصفا لقوله : « مداهن » إذ لا يخفى فساده؛ والذى فى كلا الأصلين : « الأجرا » بسقوط السين، وفى مباهج الفكر والحيوان : « الأحراس » بالحاء المهملة ؛ ولم نجد له معنى يناسب السياق ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٣) ورد هذا البيت فى كلا الأصلين بين البيت الحادى عشر والثانى عشر من هذه القصيدة، والسياق يقتضى وضعه فى هذا الموضع اذ لا يستقيم البيت الآتى بعد بدونه، وكما هو ترتيب الجاحظ فى الحيوان ج ٢ ص ١٣٤

(٤) الأشافى : جمـع إشفى بكسر الهـمزة وفتح الفاء، وهى مثقب الإسكاف ومخيطه، استعارها لبراثن الفهود .

(٥) فى كلا الأصلين : «دواب» بالدال المهملة والواو؛ وهو تحريف؛ والذراب : الحداد .

(٦) القين : الحدّاد .

(٧) الرجلة بفتح الراء وكسرها : المشاة؛ وفى كلا الأصلين ومباهج الفكر والحيوان : «ورحله» بالحاء؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما تقتضيه المقابلة بقوله : « فوارس » وقد سبق فى ص ٢٤٧ س ٩ من هذا السفر ما يستفاد منه أن الفهود تركب الخيل كالفوارس من الناس، فقد ذكر المؤلف كما ذكر غيره أن أوّل من حمله على الخيل يزيد بن معاوية؛ ومعنى البيت أن هذه الفهود فوارس فى غير أوقات الصيد؛ ومشاة على الأقدام حين تصيد، لأنها تعدو خلف الوحش .

(٨) يريد بشهب الكتائب : أسراب الوحش التى تصيدها الفهود من البيداء، لأن فى لونها شهبة .

تَرُّو وتَسكينٌ يكون دَريئةً * لهنّ "بذى الأسراب"(١) فى كلِّ لاحبِ(٢)
تَضاءلُ حتّى ما تكاد تُبينُها * عيونٌ لدى الضَّبْرات(٣) غيرُ كواذبِ
حِراص يَفُوت البرقَ أمكَثُ(٤) جريِها * ضِراء(٥) مُبِلّات(٦) بطول التّجاربِ
تُوسِّدُ أجيادَ الفرائسِ(٧) أذرعا * مرمَّلةً(٨) تحكى عناقَ الحبائبِ

وقال ابنُ المعتزّ : ٥

ولا صيدَ إلّا بوثّابةٍ * تطير على أربعٍ كالعَذَبْ(٩)
ملمّعةٍ(١٠) من نِتاجِ الرياح * تريك على الأرض شيئا عجبْ

(١) كذا وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى (ا) والذى فى (ب) «بذى الأتراب» ؛ وفى الحيوان : «بذى الأسوار» ولم يتضح لنا المعنى المراد من هذه العبارات الثلاث ؛ والذى نرجحه أن فى جميعها تحريفا لم نقف على صوابه . ١٠

(٢) اللاحب : الطريق الواضح .

(٣) كذا فى كلتا النسختين ، ولعل المراد بالضبرات : الوثبات ، يقال : «ضبر الفرس ضبرا» إذا جمع قوائمه ووثب ، والمعنى ان عيون هذه الفهود لا تكذبها عند ما تريد الوثوب على فرائسها فلا يخطئها الصيد .

(٤) كذا فى (ب) والحيوان ؛ والذى فى (ا) ومباهج الفكر : «أنكث» بالنون ، وهو تحريف .

(٥) الضراء : المعتادة الصيد ، والواحد ضرو بكسر الضاد . ١٥

(٦) كذا فى الحيوان ج ٢ ص ١٣٥ ، والمراد بالمبلات : الغالبات ، يقال : «أبل عليه» أى غلبه ، والذى فى كلا الأصلين : «متلات» بالتاء ؛ وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق .

(٧) فى كلا الأصلين والحيوان : «الفوارس» ، وهو تحريف ، اذ الفهود لا توسد الفوارس أذرعها ، كما هو ظاهر ، وإنما تفعل ذلك بفرائسها ، أى تمسكها بين أذرعها وتضمها إليها فلا تفلتها كما قال ابن المعتز فى أبياته الآتية بعد يصف فهدة : «تضم الطريد إلى نحرها» الخ البيت . ٢٠

(٨) المرمّلة : الملطخة بالدم .

(٩) العذب : الخيوط التى ترفع بها الموازين ، واحدها عذبة ، شبه بها أرجل الفهدة فى الدقة والنحول .

(١٠) ملمعة : أى ذات لمع من ألوان مختلفة ؛ والذى فى مباهج الفكر : «معلمة» ؛ أى أنها مدرّبة على الصيد . ٢٥

تضمّ الطـــريدَ إلى نحـــرِها * كضمّ المُحِبّـةِ من لا يُحِبْ
إذا ما رآى عَـدوَها خلفَـــه * تناجت ضمـائرُه بالعَطَبْ
لهـا مجلسٌ فى مكان الرِّديف * كتركيّةٍ قد سـبتْها العـــربْ
ومقلتُهـا سائلٌ كحلُهـا * وقـد حُلِّيَتْ سُبَحا من ذهبْ
متى أُطلقتْ من قلاداتهـا * وطار الغبـارُ وجـــدّ الطلبْ
غـــدتْ وهى واثقـــةٌ أنّهـا * تقـــوم بـزاد الخميس اللَّجِبْ

وقال محمدُ بن أحمدَ السَّرّاجُ يصفه :

وأَهْرِتِ(١) الشِّـدْق فى فيه وفى يده * ما فى الصـوارمِ والخَطّيّـةِ الذُّبُلِ
تساهَمَ اللّيـــلُ فيه والنهـارُ معـا * فقمّصاه(٢) بجلبـابٍ من المُقَلِ
والشـــمسُ مذ لقّبوها بالغزالة لم * تَطلُـعْ لناظـــرِه إلّا عـــلى وَجَلِ

وقال آخر :

وأَهْرِتِ(١) الشِّدْقِ بادى السُّخْط مطّرِح الـ * ـحياء جَهْـــمِ المحيّـا سيِّئِ الخُـلُقِ
والشـــمسُ مذ لقّبوها بالغـزالة أعـ * ـطته الرِّشاء(٣) جدًّا(٤) من ثوبها اليَقَقِ(٥)

---

(١) الأهرت : الواسع .

(٢) فى (أ) « فقمضاه » ؛ وهو تصحيف .

(٣) سياق البيت يدل على أنه يريد بالرشاء : جمع رشوة ؛ ولم نجد الرشاء بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغـة التى بين أيدينا ؛ والذى وجدناه أن جمع الرشوة رشا بالألف مقصورا ، وزان سدر ، جمع سـدرة ؛ فلعل المـدّ هنا لضرورة الوزن ؛ وقد أجاز الكوفيون مدّ المقصور محتجين بقول الشاعر :

* فلا فقر يدوم ولا غنـاء * .

(٤) فى (ب) ومباهج الفكر : «جسدا» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه سياق البيت .

(٥) اليقق بفتح القاف وكسرها : الشديد البياض .

(١٠) ونقّطتْـــه حِبـاءً[1] كى يسـالمهـا * عـلى المنـايا[2] نِعاجُ[3] الرمل بالحَـــدَقِ

وقال آخر :

تَغايَرَ اللّيلُ فيـــه والنهـارُ معا * فخلّياه بجلبـابٍ من الحَـــدَقِ
والشمسُ مذ لقّبوها بالغزالة لم * تَطلُعْ على وجهه من شدّة الحَنَقِ[4]

ذكر ما قيـــل فى الكلاب

يقال : إن بين الكلب والضّبُع عداوةً شـديدة، وذلك أنه إذا كان فى مكانٍ مرتفعٍ ووَطئت الضّبعة[5] ظلَّه فى القمر رمى نفسَه إليها مخذولا فأكلتْه؛ ويقال : إنّ الإنسان متى حَمَل لسانَ ضبُعٍ لم يَنبَحْ عليه كلب ؛ ومتى دُهِن كلبٌ بشحمها جُنّ؛ وفى طبع الكلب أنه يحمِى ربَّه، ويَحمِى حريمَه شاهدا وغائبا، ونائما ويقظانَ؛ والكلبُ أيقظُ الحيوان عينا فى وقت حاجتـه[6] الى النوم ، وأنومُها نهارا عنـد آستغنائهم عن حِراسته؛ ومن عجيب أمره أنه يكرِم الحِلّةَ من الناس وأهلَ الوجاهة ؛ فلا يَنبَح على أحد منهم، وربّما حاد عن طريقهم [ويَنبَح][7] على الأَسْـوَد والوَسِخِ الثوب والزّرىّ الحال والصغير .

(١) فى كلا الأصـلين ومباهج الفكر « حياء » بالياء المثناة؛ وهو تصـحيف صـوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق؛ والحباء : العطاء .

(٢) « يسالمها على المنايا » ، أى على ألا يوقع بها المنايا .

(٣) فى (أ) : « تعالج » ، وفى (ب) : (بعاج)، وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٤) فى كلا الأصلين : « الحق » بالميم ، وهو تحريف ، إذ لا يناسب معناه سياق البيت، كما هو ظاهر، ولعل صوابه ما أثبتنا، وكان الأنسب منه : « الفرق » بفتحتين ، أى الفزع والخوف من أن يصيدها؛ ولم نثبته فى صلب الكتاب لبعده فى رسم الحروف ممـا فى كلتا النسختين .

(٥) الضبعة بالتاء : لغة حكاها ابن عباد فى المحيط، وأنكرها الجوهرىّ انظر تاج العروس .

(٦) حاجته، أى حاجة ربه، كما يتضح ذلك من السياق .

(٧) لم ترد هذه الكلمة فى (ب) .

وأمّا ما فى الكلب من المنافع الطيّبة — فقد قال الشيخُ الرئيسُ أبو علىّ بنُ سينا : إنّ بول الكلب يُستعمل على الثآليل[1] ، ودمَ الكلب لنُهوشه[2] ولَسَمِّ السهام[3] الأَرْمَنِيَّة[4] ؛ وقال إبراهيمُ بنُ هَرْمَةَ — رحمة الله تعالى عليه — :

أوصيك خيرا به فإنّ له * سجيّةً لا أزال أحمَدُها

يَدُلّ ضيفى علىّ فى غَسَقِ الليـ * ـل إذا النارُ نام مُوقِدُها

وقال أيضا :

يكاد إذا ماأبصر الضيفَ مقبلا * يكلّمه من حبّه وهو أعجمُ

فصل

قال أبو عثمانَ عمرو بنُ بحر الجاحظُ فى كتاب الحيوان : وزعموا أنّ ولد الذئب [من الكلبة][5] يقال له : الدَّيْسَم ، ورُوىَ لبشّار بن بُرد فى دَيْسَم العَنَزِىّ أنه قال :

أدَيْسَمُ يا ابنَ الذئبِ من نسل زارعٍ * أتَروِى هجائى سادرا غيرَ مقصِرِ

قال : وزارع ، اسمُ الكلب ، يقال للكلاب : أولاد زارع ؛ قال : وزعم صاحب المنطق[6] أنّ أصنافا أُخَرَ من السباع المتراوجاتِ المتلاقحاتِ مع اختلاف الجنس والصورة

(١) الثآليل : جمع ثؤلول . وهو بثر — أى خراج — صغير صلب مستدير على صورة ثدى ، فمنه منكوس ومتشقق ذو شظايا ، ومتعلق ومسمارىّ عظيم الرأس مستدق الأصل وطويل معقف ومفتح .

(٢) «لنهوشه» ، أى لعضاته ، وإنما صاغ جمع المصدر هنا لإرادة أنواع النهش أو وحداته .

(٣) فى (ب) «النهار» ؛ وهو تحريف .

(٤) الأرمنية : نسبة الى أرمينية ، وهى بلاد معروفة ، وهذه النسبة على خلاف القياس ، وكان القياس «الأرمينية» إلا أنه لما وافق ما بعد الراء منها ما بعد الحاء فى حنيفة ؛ حذفت الياء منها كما حذفت من حنيفة فى النسب ؛ وأجريت ياء النسبة فى أرمينية مجرى تاء التأنيث فى حنيفة .

(٥) لم ترد هذه العبارة فى (ا) .

(٦) يريد بصاحب المنطق : أرسطوطاليس .

معروفةُ النِّتاج مثل الذئاب التى تَسفِد الكلابَ فى أرضِ رُومِيَةٍ[1]؛ قال : وتتولّد أيضا كلابٌ سَلُوقيّـةٌ بين ثعالبَ وكلاب ؛ قال : و بين الحيوان الذى يسمّى باليونانيّة "طاغريس"[2] والكلبِ تحدث هذه الكلاب الهنديّة؛ قال : وليس يكون ذلك من الولادة الأولى؛ هذا ماحكاه الجاحظ عن صاحب المنطق . وحكَى الجاحظ عن بعض البصريّين عن بعض أصحابه، قال : و زعموا أنّ النِّتاج الأوّلَ يخرج صعبا وحشـيّا لا يلقّن ولا يؤلّف ؛ و زعم لى بعضُهم عن رجلٍ من أهل الكوفة من بنى تمـيم أنّ الكلبـةَ تَعرِض لهـذا السـبع حتى تَلْقَح، ثم تَعرِض لمثـله مرارا حتى يكون حَرْوُ البطن الثالث قليلَ الصعو بة يَقبَل التلقين، وأنّهم يأخذون إناثَ الكلاب ويربطونها فى تلك البرارىّ، فتجىء هذه السباع فتَسفِدها، قال : وليس فى الأرض أنثى يُجتَمَع على حبّ سِفادِها، ولا ذَكَرٌ يَجتمِـع له من النِّزاع[3] إلى سِفاد الأجناس المختلفة أكثر فى ذلك من الكلب والكلبـة ؛ وقال : اذا زبطوا هـذه الكلابَ الإناثَ فى تلك البرارىّ، فإن كانت هذه السباع هائجة سفِدتْها، و إن لم تكن السباع هائجةً فالكلبةُ ماكولة؛ قال الجاحظ : ولو تمّ للكلب معنى السَّبُع وطباعُه ما أَلِف الإنسـانَ وآستَوحَش[4] من السَّـبُع، وكَرِه الغِياض، وأَلِفَ الدُّور، وآسـتَوحَش من البرارىّ

(١) ذكر ياقوت أن هذا الاسم بتخفيف الياء، وقال : « كذا قيده الثقات » .

(٢) كذا ورد هـذا اللفظ فى كلا الأصلين والجزء الأول من كتاب الحيوان ورقة ٢١٦ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ أدب، وهى أوثق النسـخ التى بين أيدينا من هذا الكتاب ؛ وفى النسخة المطبوعة بمطبعة السعادة بمصر ج ١ ص ٨٥ «طاعويس» ؛ والظاهر أنه تحريف ؛ ولم نجد الكلام على هذا الحيوان فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى هذا الفن .

(٣) النزاع : الاشتياق، كالنزوع .

(٤) « واستوحش » الخ أى وما استوحش ، فالنفى السابق مسلط على هـذا الفعل وما بعده من الأفعال أيضا، كما لا يخفى ؛ و بهذا التفسير يستقيم الكلام .

وجانَبَ القفار، وأَلِف المجالسَ والدّيار؛ ولو تمّ له معنى البهيميّة فى الطبع والخُلق والغذاء ما أكل الحيوانَ، وكَلِبَ[1] على الناس، نَعَمْ حتّى ربّما وثب على صاحبِه؛ وذَكَرَ من معايب الكلب وذمّه، فقال: إنّه حارسٌ محترَسٌ منه، ومؤنِسٌ شديدُ الإيحاش من نفسِه، وأليفٌ كثيرُ الجناية[2] على إلفِه، وانما قَبِلوه[3] حين قَبِلوه على أن ينذرهم بموضع السارق، وتركوا طَرْدَه لينبِّههم على مكان المبيِّت[4]، وهو أسرقُ من كلّ سارق، وأَدْوَمُ جنايةً من ذلك المبيِّت[4]، فهو سرّاقٌ وصاحبُ بيات، وأكّالٌ للحوم الناس إلّا أنّه يَجمع[5] سرقةَ الليلِ مع سرقة النهار، ثم لا تجده أبدا يمشى فى خزانةٍ[6] أو مَطبخٍ أو فى عَرْصةِ دارٍ أو فى طريقٍ أو برارِىّ، أو على ظهرِ جبلٍ أو فى بطن وادٍ إلّا وخَطْمُه[7] أبدا فى الأرض يشمّ ويَستروِح؛ وإن كانت الأرضُ بيضاءَ حَصّاء[8]، أو دَوِّيّةً[9] مَلساء، أو صخرةً خَلْقاء[10]، حِرصا وجَشَعا، وشرَهًا وطمعا، نَعَمْ حتّى

(١١)

(١) «وكلب»، أى وما كلب، فالنفى السابق مسلط على هذا الفعل أيضا، كما لا يخفى.

(٢) فى كلا الأصلين والحيوان ج ١ ص ٨٨ «الخيانة»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما تقتضيه التعدية بـ«على» وأيضا فان الكلب يوصف بالوفاء لصاحبه، ويضرب به المثل فى ذلك، وهو ينافى وصفه بالخيانة.

(٣) فى احدى نسخ الحيوان مكان هذه العبارة: «وإنما آقتنوه»؛ والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا.

(٤) المبيت: المغير على القوم الموقع بهم ليلا.

(٥) يريد بهذه العبارة أنه لص بالليل والنهار معا، فلا تختص سرقته بأحدهما، وذكره أداة الاستثناء فى أوّل الجملة تأكيد للذم بما يشبه المدح، وهو من مقاصد البلغاء، كما هو معروف.

(٦) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين والنسخ التى بين أيدينا من كتاب الحيوان، ولعله يريد بالخزانة: حجرة فى البيت يخزن فيها الطعام ونحوه، ويرجح هذا التفسير قوله بعد: "أو مطبخ".

(٧) الخطم بالفتح: مقدّم الأنف والفم.

(٨) الحصاء: الجرداء التى لا نبات فيها.

(٩) الدوّية: الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الأطراف.

(١٠) الخلقاء من الصخور: المصمتة الملساء التى لا يؤثر فيها شىء.

تجده أيضا لا يرى كلبا إلّا شمّ آستَه، ولا يَشَمّ غيرَها منه، ولا تراه يُرمَى بحَجَرٍ أبدا إلّا رجع إليه فعَضّ عليه، لأنه لمّا كان لا يكاد يأكل إلّا شيئا رَموا به اليه صار يَنسَى لفَرْطِ شَرَهِه وغلبةِ الجَشَعِ على طبعِه أنّ الرامىَ إنما أراد عقرَه أو قتْلَه[1]، فيَظنّ لذلك أنه إنّما أراد إطعامَه والإحسانَ اليه، كذلك يخيَّل اليه فرطُ النَّهَم، وتُوهِمُه غلبةُ الشَّرَه، ولكنّه رمَى[2] بنفسه على الناس عجزا ولؤما، وفُسُولةً[3] ونقصا، وخاف السباع وآستَوحَش من الصّحارِى؛ وسمعوا بعضَ المفسّرين يقول فِى قوله عزّوجلّ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: إنّ المحرومَ هو الكلب؛ وسمعوا فى المثل: "اِصنع المعروف ولو إلى كلب"، فلذلك عَطفوا عليه، وآتّخذوه فى الدُّور، على أنّ ذلك لا يكون إلّا من سَفِلتِهم وأغبيائهم، ومن قلّ تَقَزُّزُه[4]، وكثر جهلُه، ورَثّ الآثار إمّا جهلا وإمّا معانَدة؛ ووَصَف[5] فى ذمّه ومعايبِه ما ذكره صاحبُ الدّيك من ذمّ الكلاب، وتَعدادِ أصناف معايبِها ومثالبِها، مِن لؤمِها وخبثِها[6] وضعفِها وشَرَهِها وغَدرِها وبَذائِها وجهلِها وتَسرُّعِها ونَتْنِها وقذَرِها، وما جاء فى الآثار من النَّهيِ

(١) فى كلا الأصلين: «الذى»؛ وهو تحريف لا يستقيم به الكلام؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا نقلا عن كتاب الحيوان ج ١ ص ٨٩.

(٢) فى كلا الأصلين: «لما رمى» وقوله «لما» زيادة من الناسخ لا يستقيم بها الكلام، كما هو ظاهر.

(٣) الفسولة: النذالة والخسة، والفعل ككرم وعلم.

(٤) التقزز: التباعد من الدنس؛ وفى الحيوان: «تقذره»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا؛ وهو من قولهم: «تقذرت الشيء»، إذا كرهته لوسخه.

(٥) «ووصف»، أى الجاحظ انظر (باب ما ذكر صاحب الديك من ذم الكلاب) فى كتاب الحيوان ج ١ ص ١٠٤ طبع مطبعة السعادة.

(٦) فى نسخة الحيوان المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية: «وجبنها» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين؛ ويرجح الرواية الثانية مناسبة الجبن للضعف المذكور بعده.

عن آتخاذها وإمساكها، ومن الأمر بقتلها وإطرادها[1]، ومن كثرة جناياتها وقلّة وُدّها[2]، وضرب المثل بلؤمها وتذالها وقبحها وسماجة نُباحها وكثرة أذاها وتقذّر[3] المسلمين من دنوّها[4]، وأنّها تأكل لحوم الناس، وأنّها مطايا الجنّ، ونوعٌ من المَسْخ، وأنّها تنبُش القبور، وتأكل الموتى، وأنّها يعتريها الكَلَبُ من أكلِ لحوم الناس، إلى غير ذلك من مَساويها، ثم ذَكَرَ قولَ من عدّد محاسنَها وصنّف مناقبَها وأَخَذَ فى ذكرِ أسمائها وأنسابها وأعراقها وتَفْدِيةِ الرجالِ لها، وذِكرِ كسبها وحراستها ووفائها وإلْفِها وجميع منافعها، والمرافقِ الّتى فيها، وما أُودعتْ من المعرفة الصحيحة والفِطْنةِ العجيبة، والحِسّ اللّطيف، والأدبِ المحمود، وصدقِ الآسترواح، وجَودةِ الشّمّ، وذِكرِ حفظِها وإتقانها وآهتدائها، وإثباتِها لصُورِ أربابها وجيرانها، ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانتِها اللّئام، وصبرِها على الجفاء، وآحتمالِها للجوع، وشدّة مُنّتها[5] وكثرةِ يَقَظتها، وعدمِ غفلتها[6]، وبُعدِ أصواتها، وكثرةِ نسلها، وسرعةِ قبولها ولَقاحها مع آختلاف[7] طبائع ذُكورتها[8] والذُّكورةِ[8] من غير جنسها، وكثرة أعمامها وأخوالها

(١) «اطرادها»، أى جعلها طريدة، يقال: «أطرده» بالألف، اذا جعله طريدا ونفاه.

(٢) فى كلا الأصلين: «ردها» بالراء؛ وهو تحريف.

(٣) فى إحدى نسخ الحيوان: «وتقزز»؛ والمعنى يستقيم عليه ايضا انظر الجزء الأوّل ورقة ٢٦٥ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ أدب.

(٤) فى إحدى نسخ الحيوان: «من درنها»؛ والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا انظر الجزء الأوّل صفحة ١٠٥ من النسخة المطبوعة فى مطبعة السعادة.

(٥) المنة بالضم: القوّة.

(٦) فى الحيوان ج ١ ص ١٠٥: «وقلة»، والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا.

(٧) زاد فى الحيوان قبل هذه العبارة قوله: «وتصرف أرحامها فى ذلك مع آختلاف» الخ؛ ولم نثبتها فى صلب الكتاب بين مربعين لاستقامة الكلام بدون إثباتها.

(٨) الذكورة بالتاء: جمع ذكر بالتحريك، كالذكور.

وتَرَدُّدِها فى أصناف السِّباع، وسلامتِها من أعراق البهائم، وغيرِ ذلك من محاسنها؛ وأَوْرَدَ ذلك بألفاظٍ طويلة، وأدلّةٍ كثيرة، وآستطراداتٍ يطول الشرحُ فى ذكرِهـا فأضربنا عن ذلك رغبةً فى الآختصار؛ فلنذكرْ ما يحتاج الكاتبُ الى الآطّلاع عليه ويَدُور فى ألفاظ الكُتّاب من وصفِ كلاب الصّيد، الّتى لابدّ للكاتب من معرفة جيّدِها وأفعالهـا، ليضمِّنَه ما يَصدُر عنـه من الرسائل الطَّرديّة، فنقول: دلائلُ النّجابة والفَراهة[1] فيها تُعرَف من خِلقتِها وألوانِها ومولدِها.

دلائل النجابة والفراهة فى كلاب الصيد

أمّا فى الخِلقة — فقد قالوا: طولُ ما بين اليدين والرجلين، وقِصَرُ الظّهـر وصِغَرُ الرأس، وطولُ العنق، وغَضَفُ[2] الأذنين، وبعـدُ ما بينهما، وزرقةُ[3] العينين ونتوءُ الجبهة وعِرَضُها، وقِصَرُ اليدين.

وأمّا فى الألوان، فإنه يقال: السُّودُ أقلُّ صبرا على الحرّ والبرد، والبيضُ أَفْرَهُ اذا كنّ سودَ العيون؛ وقد قال قوم: إنّ السّودَ أصبرُ على البرد وأقوى.

وأمّا فى ولادتها — فإنه يقال: إذا ولدت الكلبة جِرْوا واحدا كان أفرهَ[4] من أبويه، وإن ولدتْ ذكرا وأنثى كان الذكرُ أفرهَ[4]، وإن ولدتْ ثلاثةً فيها أنثى شِبْهُ الأمّ كانت أَفْرَهَ[4] الثلاثة، وإن كان فى الثلاثة ذكرٌ واحدٌ فهو أَفْرَه[4].

(١) الفراهة: النشاط والخفة والحذق.

(٢) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر: «وعصف»؛ وهو تصحيف، إذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق؛ والغضف بفتح أوله وثانيه: استرخاء فى الأذن على محاذرتها من سعتها وطولها.

(٣) فى (ا): «ورقة» وفى (ب): «وزنه»؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين.

(٤) أفره، أى أنشط وأخف وأحذق.

ذكر شيء ممّا وصفت به كلاب الصيد نثرا ونظما

قال أبو إسحاق الصّابي يصفها من رسالة طَرَديّة : ومعنا كلُّ كلبٍ عريقِ المناسب، نَجيحِ المَكاسب، حلوِ الشمائل، نجيبِ المخايل، حديدِ الناظرَين، أغْضَفِ[1] الأذنين، أسيلِ الخدّين، مُخْطَفِ[2] الجنبين، عريضِ الزُّور[3]، متينِ الظّهر، أبيِّ النفس، مُلهِبِ الشدّ، لا يَمسّ الأرضَ إلّا تحليلا[4] وإيماء، ولا يطؤها إلّا إشارةً وإيحاء .

وقال بعض الشعراء :

أَبعثُ كلبا يكسِر اليَحْمُورا[5] * مجرَّبا مدرَّبا صبورا
يأنَف أن يشاكل الصُّقورا * منفردا بصيده مُغيرا
ذا شِيَةٍ تحسَبها حريرا * قد حُبِّرتْ نقوشُها تحبيرا
إذا جرى حسِبتَه المقدورا * يكاد للسرعة أن يطيرا
حَتْفا[6] لما عَنّ له مُبيرا[7] * أعجزُ أن أرى له نظيرا

(١) الأغضف : من الغضف بالتحريك ، وهو استرخاء أعلى الأذن على المحارة من اتساعها وطولها .
(٢) مخطف الجنبين ، أى ضامرهما .
(٣) الزور بفتح الزاى وسكون الواو : الصدر ، أو هو : وسطه .
(٤) «إلا تحليلا» ، أى إلا مسا خفيفا لا مبالغة فيه ، وذلك لسرعته وخفته ، ومنه قول كعب ابن زهير فى هذا المعنى يصف سير ناقة :

تخدى على يسرات وهى لاحقة * ذوابل مسهنّ الأرض تحليل

قال ابن هشام فى شرح قوله : «مسهن الأرض تحليل» إنه إشارة الى سرعة رفعها قوائمها ، وذلك أن التحليل من تحلة اليمين ، فالمعنى أن مسهن الأرض تحليل كما يحلف الإنسان على الشىء ليفعله فيفعل منه اليسير ليتحلل به من قسمه ، هذا أصله ، ثم كثر حتى قيل لكل شىء لم يبالغ فيه الخ وفى تاج العروس مادة "حل" ما يفيد معنى هذا الكلام ، فانظره .
(٥) اليحمور : حمار الوحش .
(٦) فى كلتا النسختين : «حيفا» بالياء المثناة ؛ وفى مباهج الفكر : «حتقا» بالنون والقاف ؛ وهو تصحيف فى هذه المصادر الثلاثة ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .
(٧) المبير : المهلك .

وقال أبو نُواس :

هِجْنا بكلبٍ طالما هِجْنا به * يَنتسِفُ (١) المقْـوَدَ من جِذابِه (٢)
كأنّ متنيه لدى آنسلابه (٣) * مَتْنَا شُجاعٍ (٤) لجّ فى آنسيابه
كأنّما الأُظْفورُ فى قنابِه (٥) * موسَى صَناعٍ رُدَّ فى نِصابِه (٦)
تَراه فى الحُضْر (٧) إذا هاهى به (٨) * يكاد أن يخرُجَ من إهابِه
تَرى سَوامَ الوحش إذ تُحْوَى به * يَرْحن أُسْرَى ظُفْـرِه ونابِه

وقال أيضـا :

كأنّ لَحيَيْـه (٩) لدى آفترارِه (١٠) * شَـكُّ (١١) مسامير على طَوارِه (١٢)

(١) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر ومحاضرات الأدباء «ينشف» بالشين ؛ وهو تحريف اذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق، وما أثبتناه عن ديوان أبي نواس ص ٢١٠، «ويتنسف»، أى ينتزع .

(٢) من جذابه، أى بسبب مجاذبته المقود، فـ«من» فى هـذا الموضع : تعليلية، كما لا يخفى، والذى فى ديوان أبي نواس : «من كلابه» والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا، والكلاب بفتح أوله وتشديد ثانيه : صاحب الكلب .

(٣) الانسلاب : الاسراع فى السير جدا .

(٤) الشجاع بضم الشين وكسرها : الحية، وقيل : الذكر منها .

(٥) القناب بكسر القاف : الغطاء الذى يستر به مخلبه من كفه، كالمقنب انظر تاج العروس .

(٦) نصاب الموسى : مقبضه الذى نصب فيه .

(٧) الحضر : شدّة الجرى .

(٨) «هاهى به»، أى زجره ؛ ومرجع الضمير فى قوله : «ها هى» معلوم من السياق وان لم يصرح به، أى هاهى به صاحبه .

(٩) اللحيان : حائطا الفم، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم .

(١٠) الافترار : انكشاف الأسنان، يقال : «افتر عن أسنانه» اذا كشر عنها وأبداها .

(١١) الشك : النظم .

(١٢) على طواره، أى على طول فمه، يقال : رأيت حبلا بطوار هذا الحائط، أى بطوله ؛ ويحتمل أيضا أن يفسر الطوار بالحدّ والجانب، أى أن هذه المسامير منتظمة على حدّ فمه، وهو العظم الذى تنبت عليه الأسنان .

سِمْعٌ (١) إذا استَرَوَح (٢) لم تُمارِه * إلّا بأن يُطلَق من عِذارِه
فانصاع (٣) كالكوكب في انحدارِه * لَفْتَ المُشِير مُوهِنا (٤) بنارِه
شَدًّا (٥) إذا أخصَفَ (٦) في إحضارِه * خَرّق أذنيه شَبا أظفارِه .

وقال بعضُ الأندلسيين (٧) :

[وأغضَفَ (٨) تلقَى أنفَه فكأنّما * يقود به نورٌ من الصبح أنوَرُ]
إذا ألهبتْه شهوةُ الصّيد طامعا * رأيتَ عقيمَ الرّيح عنه تقصّرُ

(١) السمع بكسر السين : ولد الذئب من الضبع ، وفي المثل : "أسمع من سمع" وهذا الحيوان أخبث الحيوانات وأسرعها ، يقال : إن وثبته تزيد على ثلاثين ذراعا ، والمراد تشبيه الكلب به .

(٢) استروح ، أي تشمم رائحة الصيد .

(٣) فانصاع ، أي ذهب مسرعا ، وهو معطوف على قوله قبل هذه الأبيات الواردة هنا : «عارضته في سنن أمتياره» الخ انظر ديوان أبي نواس ص ٢١١

(٤) كذا في ديوان أبي نواس ص ٢١٢ وغيره ؛ وضبط صاحب التاج هذا اللفظ بضم الميم وكسر الهاء ضبطا بالعبارة ، فقال : «والموهن كمحسن» ، وهو نحو نصف الليل ، وضبط بفتح الميم ضبطا بالقلم لا بالنص في نسخ القاموس واللسان وأساس البلاغة ؛ والذي في (ا) «مرهبا» وفي «ب» «مزهبا» ؛ وهو تحريف في كلتا النسختين .

(٥) كذا في كلا الأصلين وديوان المعاني المحفوظة منه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة تحت رقم ٢٢٦٤ أدب ؛ والذي في ديوان أبي نواس : «حتى اذا» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين كما هو ظاهر .

(٦) «أخصف» أي اشتد في عدوه وأسرع ، ونقل صاحب التاج عن بعض اللغويين أنه يجوز فيه : «أحصف» بالحاء أيضا ، وقال الأزهري : إن صوابه بالحاء المهملة لا غير .

(٧) هو ابن هذيل الأندلسيّ ، كما في مباهج الفكر .

(٨) لم يرد هذا البيت في (ا) وقد أثبتناه عن (ب) ومباهج الفكر . والأغضف من الغضف بالتحريك ، وهو استرخاء أعلى الأذن على المحارة من اتساعها وعظمها ، وهو محمود في كلاب الصيد .

وقال أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ خفاجة :

ومُورَّس(١) السربال يُخْلَع قِـــدُّه(٢) * عن نجمِ رَجمٍ فى سماء غبارِ

يستنّ فى سَنَن الطريق وقد عفا * قِـــدَما فيَقـــرأ أحرفَ الآثارِ

عَطَفَ الضُّـــمورُ سَراتَه(٣) فكأنّه * والنَّقْعُ يحجُبه هـــلالُ سَـــرارِ(٤)

يَفترّ عن مثلِ النِّصال وإنّما * يمشى على مثـــل القَنا الخطّار

وقال آخر :

ومؤدَّب الآساد يُمسِك صـــيدَه * متوقِّفًا(٥) عن أكله كالصـائمِ

صبٌّ(٦) اذا ما صاد عانَق صـــيدَه * طـــرَبَ المقيمِ إلى لقـاء القادمِ

---

(١) المورّس : المصبوغ بالورس ، وهو صبغ أصفر مثل اللطخ . يخرج على الرمث بين آخر الصيف وأوّل الشتاء ، إذا أصاب الثوب لوّنه ، قال أبو حنيفة : الورس ليس ببرىّ ، يزرع سنة فيجلس عشر سنين ، أى يقيم فى الأرض ولا يتعطل ، قال : ونباته مثل نبات السمسم ، فاذا جف عند إدراكه تفتقت خرائطه فتنفض فينتفض منها الورس .

(٢) القدّ بالكسر : سير يقدّ من جلد ، يريد أن هـذا الكلب اذا انطلق من رباطه مضى مضىّ النجم ، ونفذ نفوذ الشهاب .

(٣) سراته ، أى ظهره ، والسراة من كل شىء : أعلاه .

(٤) السرار : الليـلة التى يستسرّ فيها القمر آخر الشهر ، وربما كان ليلة ، وربما كان ليلتين ، وهو بفتح السين وكسرها ، إلا أنّ الكسر لغة ليست بجيدة عند اللغويين ، كما قاله الأزهرىّ .

(٥) متوقفا : نصب على الحال .

(٦) كذا فى مباهج الفكر ؛ والذى فى كلا الأصلين : «طب» وهو بفتح الطاء : الماهر الحاذق بعمله ، وهـذا اللفظ وإن استقام به المعنى إلا أنّ ما أثبتناه أولى بسياق البيت ، لذكره العناق بعـده .

وقال آخر :

وما الظّبيُ منه فى حُشاشة[1] نفسه * ولكنّه كالطفل فى حِجر أمّه
يلازمه دون آختراما[2] كأنّما * تعلّق خصمٌ عند قاضٍ بخصمه

وقال آبن المرغرىّ[3] النصرانىّ الأندلسىّ منشدا :

لم أر ملهًى لذى آقتناصٍ * ومكسبا مُقنِعَ الحريص
كمثل خطّلاء[4] ذاتِ جيدٍ * أتلع[5] مصفرّة القميص
كالقوس فى شكلها ولكن * تنفُذ كالسهم للقنيص
لو أنّها تستثير برقا * لم يجد البرقُ من محيص
محبُولة[6] الظهر لم يخُنْه * لحوقُ بطنٍ به خميص
اتّخذتْ أنفها دليلا * قاد إلى الكانس العويص

(١) الحشاشة بالضم : بقية الروح فى الجريح والمريض ؛ يريد أن هذا الظبي ليس فى آخر رمق من حياته من هذا الكلب حينما يتصيده ، فلا يودى بحياته ، بل يبقى عليه و يرفق به ، كما ترفق الأم بطفلها ، و يوضح هذا المعنى قوله فى البيت الثانى : « يلازمه دون اختراما » .

(٢) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : « احترام » بالحاء ؛ وهو تصحيف ؛ والآختراما : الإهلاك .

(٣) كذا فى نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٠ طبع أوربا والذى فى (أ) « ابن المزعز » وفى (ب) : « ابن المزعر » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ، وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن هذه القصيدة فى كلبة أهداها آبن المرغرىّ إلى المعتمد بن عباد .

(٤) الخطلاء من الكلاب : المسترخية الأذن لسعتها وطولها ، وهو محمود فى كلاب الصيد ، قال فى اللسان : « وكلاب الصيد خطل لآسترخاء آذانها » .

(٥) الأتلع : الطويل .

(٦) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ؛ ولم نجد فى كتب اللغة التى بين أيدينا من معانيه ما يصح أن توصف به ظهور الكلاب ؛ فلعل صوابه : « مجبولة » بالجيم ، يريد وصف ظهرها بالقوة والآجتماع يقال : « رجل مجبول » أى مجتمع الخلق ، كما فى اللسان ؛ أو لعله « محبوكة » ؛ والمعنى فى كلا اللفظين واحد .

✦
✦ ✦

وكلبـــةٍ[1] تاهت على الكلابِ * بجـلدةٍ صـــفراءَ كالزِّرياب[2]
تنساب مثلَ الحيّـة المُنْسابِ[3] * كأنّهـا تنظر من شهابِ[4]

وقال أحمدُ بنُ زيادِ بنِ أبى كَريمَةَ يصف كلبَ صَيْدٍ من قصيدة طويلة، أوّلُها :

وغِبَّ غمامٍ مَزَّقتْ عن سمائه * شآميةٌ[5] حَصّاءُ جُونَ[6] السحائبِ
مُواجِهِ[7] طَلْقٍ لم يُرَدِّدْ جَهامَهُ * تَذاؤبُ[8] أرواحِ الصَّبا والجنائبِ
بَعثتُ وأثواب الدّجى قد تقلّصتْ * بغرّة مشهورٍ من الصبح ثاقبِ

(١) لم يرد فى كلتا النسختين نسبة هذا الشعر الى قائله، فلعل قائله ابن المرغرىّ النصرانىّ السابق ذكره ولم يذكره المؤلف هنا اكتفاء بما سبق، ولم نقف على هذه الأبيات فيما بين أيدينا من الكتب الأخرى .

(٢) الزرياب : الذهب أو ماؤه، وهو معرّب .

(٣) تذكير الوصف هنا لأن الحية لا تختص بالأنثى، وإنما تطلق على الذكر أيضا . وإنما دخلته التاء لأنه واحد من جنس، فهى فيه للوحدة لا للتأنيث، كبطة ودجاجة .

(٤) فى كلا الأصلين : «تهاب» بالتاء؛ وهو تحريف .

(٥) «شآمية حصاء» صفتان للريح، والمراد بها ريح الشمال؛ وتزعم العرب أنها هى التى تمزق السحاب قال فى (شرح القاموس مادة صبا) : تزعم العرب أن الدبور تزجّ السحاب وتشخصه فى الهواء ثم تسوقه، فإذا علا كشفت عنه، واستقبلته الصبا فوزعت بعضه على بعض حتى يصير كسفا واحدا، والجنوب تلحق روادفه به وتمدّه، والشمال تمزق السحاب اه والحصاء من الرياح : الصافية بلا غبار .

(٦) فى (أ) «جوز» وفى (ب) «جور» وهو تحريف؛ والجون جمع جون بفتح الجيم، وهو الأسود المشرب حمرة .

(٧) مواجه طلق : صفة للغمام السابق ذكره فى البيت الأول، أى أن هذا الغمام يواجه فى سيره جوّا طلقا، أى سهلا لينا لا حر فيه ولا برد ولا ريح ولا شىء يعوقه عن السير، وفى بقية البيت ما يوضح هذا المعنى .

(٨) فى كلا الأصلين : «تدادب» بدالين مهملتين؛ وفى الحيوان ج ٢ ص ١٣٣ : «تذاب بأرواح» وهو تحريف فى هذه المصادر الثلاثة؛ والتذاؤب : اختلاف الرياح واضطرابها ومجيئها من هنا وهنا، وأصله من الذئب، لأنه إذا حذر من وجه جاء من آخر .

وقــد لاح ناعى الليــل حتّى كأنّه * لِسارى الدجى فى الفجر قنديلُ راهبِ
بها ليــلَ لا يَثنيهمُ عن عزيمــةٍ * وإن كان جَمَّ الرُّشــدِ لومُ الأقاربِ (١٣)
لتجنيب غُضْفٍ كالقِــداح لطيفةٍ * مشرَّطــةٍ آذانُها بالمخالبِ
تخــال سياطا فى صَلاها منوطــةً * طوال الهوادى كالقــداح الشوازبِ
اذا افترشتْ خَبْتًا أثارت بمتنــه * عَجاجا وبالكَذّانِ نارَ الحُباحبِ

(١) بهاليــل بالنصب : مفعول لقوله فى البيت الثالث : « بعثت » والبهاليل : الأعزاء الكرماء، واحده بهلول، والمراد بهم هنا أصحاب الكلاب المتصيدون بها والقائمون عليها .

(٢) «لوم» بالرفع، فاعل لقوله : «يثنيهم» .

(٣) كذا ورد هــذا اللفظ فى كلا الأصلين والحيوان للجاحظ؛ ولعل صوابه : « لتحريب » ؛ والتحريب : التحريش، كما فى اللسان ؛ يقول : بعثت هؤلاء البهاليل لتحريب هذه الكلاب الغضف ؛ أى لإغرائها بالصيد . والغضف من الكلاب : المسترخية الآذان من طولها وسعتها، واحده أغضف .

(٤) « مشرطة آذانها » الخ يريد وصف هذه الكلاب بالسرعة وشدّة العدو حتى انها تقطع آذانها بمخالبها حين ترفع قوائمها فى العدو .

(٥) الصلا : مغرز الذنب (المصباح) .

(٦) الهــوادى : الأعناق، واحده هاد، وأصل معناه : المتقدم من كل شىء، وسمى العنق هاديا لتقدمه على سائر البدن .

(٧) الشوازب : الضوامر، والذى فى كلا الأصلين « الشوارب » بالراء؛ وهو تصحيف .

(٨) الخبت : المطمئن من الأرض فيــه رمل ، وقيل : هو سهل فى الحزّة؛ وفى كلا الأصــلين «جنبا» وفى الحيوان ج ٢ ص ١٣٣ « جبنا » ؛ وهو تصحيف فى هذه المصادر الثلاثة؛ وسياق البيت يقتضى ما أثبتنا .

(٩) فى كلا الأصلين والحيوان : « وبالكدان » بالدال المهملة؛ وهو تصحيف، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا ؛ والكذان بالذال المعجمة : حجارة كأنها المدر ليست بصلبة، واحده كذانة .

(١٠) نارالحباحب : ما أقتــدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة؛ وقيل : الحباحب بضم الحاء، هو ذباب يطير بالليل كأنه نار، له شعاع كالسراج .

تفوت خُطاها الطَّرفَ سبقا كأنّها * مهامُ مُغالٍ[1] أو رجومُ الكواكبِ
طِرادُ الهَوادِي[2] لاحها[3] كلَّ شَتوة * بطامسة الأرجاء مَرْتِ[4] المَسارِبِ
تكاد من الأَخْراج[5] تنسلّ كلّما * رأت شبحا لولا اعتراض المَناكِبِ
تَسُوفُ[6] وتُوفِي[7] كلَّ نَشْزٍ[8] وفَدْفَدٍ[9] * مَرابضَ أبناءِ[10] النِّفاق الأرانبِ
كأنّ بها ذُعْرا يُطيِّر قلوبَها * أنينُ المَكاكِي[11] أو صريرُ الجنادبِ

(١) المغالى بالسهم : الرافع به يده يريد به أقصى الغاية .

(٢) هوادى الوحش وهادياتها : أوائلها .

(٣) لاحها ، أى غيرها وأضمرها .

(٤) المرت : القفر الذى لا نبات فيه .

(٥) فى كلا الأصلين والحيوان : « الاخراج » بالخاء المعجمة ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ، والأخراج : قلائد الكلاب ، واحده خرج بكسر فسكون ، ويقال : « كلاب مخرّجة » ، أى مقلدة (اللسان) .

(٦) تسوف ، أى تشم .

(٧) « توفى كل نشز » أى تأتيه وتشرف عليه ، يقال : «أوفيت المكان» ، إذا أتيته ؛ والنشز : المكان المرتفع ؛ وفى (أ) «نشر» وفى (ب) «نسر» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٨) الفدفد : الفلاة التى لا شىء بها .

(٩) مرابض بالنصب : مفعول لقوله : « تسوف » .

(١٠) قيل للأرانب : أبناء النفاق ، لأنها تنافق ، أى تدخل النافقاء ، أى الجحر الذى تستتر فيه ، يقال : «نافق اليربوع نفاقا» ، اذا دخل نافقاءه ، ومنه سمى المنافق منافقا ، لأنه ينافق كاليربوع .

(١١) المكاكى : جمع مكاء بضم الميم وتشديد الكاف ، وهو طائر فى ضرب القنبرة ، إلا أن فى جناحيه بلقا ، سمى بذلك لأنه يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيرا حسنا ، وجمعه مكاكىّ بتشديد الياء وإنما خففت هنا لضرورة الوزن .

تُدير عيـــونا رُكِّبتْ فى بَراطِـــلٍ (١) * بكمـــر الغضى خُزْرًا (٢)، ذِرابُ الأنايبِ (٣)
إذا ما آستُحثّتْ لم يُجِنَّ (٤) طريدَها * لهـــنّ ضَراءٌ (٥) أو مَجارِى المَـــذانبِ (٦)
وإن باصَها صَلْتًا (٧) مدى الطَّرف أمسكتْ (٨) * عليـه بدون الجُهْدِ سُبلَ المـذاهبِ
تكاد تُفـرِّى (٩) الأُهْبَ عنها إذا آنتحتْ * لِنَبْأةِ (١٠) شَخْتِ (١١) الجِـرْمِ عارِى الرواجبِ (١٢)

(١) البراطل : حجارة مستطيلة صلبة تنقر بها الأرحاء، واحده برطيل بكسر الباء، شبه العظم المستدير حول العين الذى ينبت عليـه الحاجب بهذه الحجارة فى الصلابة ؛ كما قال بعض الأعراب يصف عينى الأسد : « كأنما نقرتا بالمناقير فى عرض حجر » انظر ص ٢٣٥ س ٦ من هذا السفر؛ وكان قياس جمعه براطيل، وانما حذفت الياء منه هنا جريا على لغة من يجوّز ذلك، ومنه قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب)، وهو مذهب الكوفيين .

(٢) الخـزر : من الخزر بالتحريك، وهو النظر كأنه فى أحد الشقين، وقيـل : هو ضيق العين وصغرها، وقيل غير ذلك .

(٣) ذراب الأنايب، أى حداد الأنياب، وقد نقل صاحب اللسان عن سيبويه أن الأنايب جمع أنياب، فهو جمع جمع كأبيات وأبايت اهـ وانما حذفت الياء الثانيـة هنا جريا على لغة من يجوّز ذلك، وهو مذهب الكوفيين، ومنه قوله تعالى : «وعنده مفاتح الغيب» .

(٤) فى كلا الأصلين والحيوان ج٢ ص ١٣٣ « لم يحن » بالحاء ؛ وهو تصحيف ؛ «ولم يجن»، أى لم يستر، يقال : «أجنه» (وجنه) من باب «نصر»، أى ستره .

(٥) الضراء بفتح الضاد : الشجر الملتف فى الوادى الذى يستتر فيه الصيد، يقال : توارى الصيد منه فى ضراء .

(٦) المذانب : مسايل الماء، واحده مذنب وزان منبر .

(٧) باصها، أى فاتها وسبقها؛ وفى كلا الأصلين : « ناصها » بالنون؛ وهو تصحيف .

(٨) صلتا، أى ركضا، يقال : « صلت الفرس »، اذا ركضته .

(٩) تفرى الأهب، أى تشقق الجلود .

(١٠) النبأة : الصوت الخفىّ .

(١١) الشخت : الضامر الدقيق لا من هزال، ويريد به صاحب الكلاب المتصيد بها .

(١٢) الرواجب : مفاصل أصول الأصابع؛ وقيل : هى قصب الأصابع؛ وقيل غير ذلك؛ واحدتها راجبة ورجبة بضم الراء .

كأنّ غصونَ الخَيزُران متونُهـا * إذا هى جالت فى طِراد التّعالبِ
كواشر عن أنيابهـنّ كوالح * مذلّقة الآذان[1] شُوس[2] الحواجبِ
كأنّ بنـات القفر[3] حين تفرّقتْ * غدون عليها بالمنايا الشواعبِ

ذكر ما قيل فى الذئب

والذئب له أسماءٌ نطقت بها العرب، ذَكَرُه ذئب، والأنثى ذئبة وسِلْقة وسِيدانة[4]، ويُكنَى أبا جَعْـدة، ومن أسمائه: نَهْشَل، وأُوَيْس، وذُؤالة، وأُشْـبَة، ونُشْبَة، وكَسـاب، وكُسَيْب[5]، والعَسْعاس، والعَسّـاس، والخَيْعل، والعَمَلّس، والطِّمِّل[6]، والشَّيْذَمان[7]، والشَّيْمُذان، والخَيْتعُور، والقِلّيب، والعِلّوْش، ورِئبال، والسِّرحان

(١) مذلقة الآذان، أى محدّدتها.

(٢) الشوس: جمع أشوس، مشتق من الشوس بالتحريك، وهو أن ينظر بإحدى عينيه ويميل وجهه فى شق العين التى ينظر بهـا، يكون ذلك خلقة، ويكون من الكبر والتيه والغضب؛ وإسناد الشوس إلى الحواجب فى هذا البيت إسناد مجازىّ.

(٣) يريد ببنات القفر: الوحوش.

(٤) فى كتب اللغة ما يفيد أن بعض اللغويين يطلق السيدانة على الذكر والأنثى من الذئاب، وهو ما تفيـده عبارة القاموس، ومنهم من جعـل السيدانة أنثى السيد، كما هنا، وهو ظاهر سياق الصاغانىّ (انظر تاج العروس مادّة سود).

(٥) هذا الأسم ربمـا جاء فى الشعر، كما نص على ذلك فى اللسان والتاج.

(٦) يقال فيه أيضا: «الطمل» بسكون الميم وتخفيف اللام، كما فى المخصص ج ٨ ص ٦٧.

(٧) كذا ضـبط هـذا اللفظ بضم الذال وفتحها فى المخصص ج ٨ ص ٦٧ ضـبطا بالقـلم لا بالعبـارة.

ومصدَّر ، والعَسُول ، والنَّسُول ، والخاطف ، والأزَلّ ، والأَرسَح : القليلُ لحم الوركين ، والعَمَرَّد . ويقال لولد الذئب : جُرْمُوز ، والأنثى : جَعْدة (١) .

ويقال : إن الذئب إذا لم يجد ما يأكله آستعان بإدخال النسيم فى فيه ، فيَقتات به ؛ وجوفُه يذيب العَظْم ، ولا يذيب نوى التمر ؛ وقال بعض من آعتنى بسرّ طبائع الحيوان : إنه لا يَلتحم عند السِّفاد إلا الذئبُ والكلب ، وهو يَسفَد مضطجعا على الأرض ، وذَكَرُه عَظْم ؛ والذئبُ موصوفٌ بالآنفراد والوُحْدة وشدّةِ التوحّش ؛ وإذا خفِىَ عليه موضع الغنم عَوَى ليؤذنهم بمكانه ، ويُعلِمَهم بقربه ، فاذا حضرت الكلابُ إلى الناحية التى هو فيها راغ عنها الى جهة الغنم التى ليس فيها كلب ؛ وهو لا يعود إلى فريسةٍ بعد أن يشبع منها ؛ وهو ينام بإحدى عينيه ويفتح الأخرى ، فإذا آكتفت النائمةُ وأخذتْ حقَّها من النوم فتحها ونام بالأخرى ؛ فهذا أبدا دأبُه فى نومه ؛ وهو قوىُّ حاسّةِ الشّمّ ، قيل : إنّه يَشُمّ من فرسخ ؛ وأكثرُ ما يَعترِض الغنمَ وقت الصبح عند توقُّعِه فَتْرَةَ الكلاب ونومَها ؛ ومن عادة الذئاب أنّه إذا آفترس ذئبان شاةً قسماها على شطرين بينهما بالسويّة ؛ والذئبُ إذا وطئ ورقَ العُنْصُل (٢) مات لوقته ؛ وبينه وبين الغنم معاداةٌ عظيمة ، فمنها أنّه إذا جُمِع بين وَتَرٍ عُمِل من أمعاءِ ذئب وبين أوتارٍ عُمِلتْ من أمعاء الغنم وضُرِب بها

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ومبادئ اللغة للإسكافى ص ١٤٨ ؛ والذى فى (اللسان والتاج مادة جعد) أنه ليس للذئب بنت تسمى (جعدة) ، فقد جاء فيهما أن الذئب يكنى (أبا جعدة) و(أبا جعادة) وليس له بنت تسمى بذلك ، قال الكميت يصفه :

ومستطعم يكنى بغير بناته * جعلت له حظا من الزاد أوفرا

وزاد فى التاج أن الذئب إنما كنى (أبا جعدة) لبخله ، من قولهم : فلان جعد اليدين ، إذا كان بخيلا ؛ وفى المخصص : للزمه ، لأن الجعد اللئيم .

(٢) العنصل : البصل البرّىّ ؛ وقال أبو حنيفة : العنصل ورق مثل الكراث يظهر منبسطا سبطا ، وقيل أيضا فى تفسيره : إنه شجيرة سهلية تنبت فى مواضع الماء والندى نبات الموزة ، ولها نور كنور السوسن الأبيض .

لا يُسـمع لهـا صوت ؛ واذا آجتمع جلدُ شاةٍ مع جلد ذئب تَمَعَّطَ[1] جلدُ الشـاة ؛ والذئب إذا كدّه الجوعُ عَوَى ، فتجتمع له الذئاب ، ويقف بعضها إلى بعض ، فمن ولّى منها وثب الباقون عليـه فأكلوه ، وهو إذا تعـرّض لإنسان وخاف العجزَ عنه عَوَى ، فيسمعه غيرُه من الذئاب ، فتُقبِـل على الإنسـان ، فإذا أدمَى الإنسانُ منهـا واحدا وثب الباقون على المُدْمَى فمزّقوه وتركوا الإنسـان ، ولذلك قال بعض الشعراء[2] يعاتب صديقا له أعان عليه فى مصيبة نزلت به :

وكنتَ كذئب السوء لمّـا رأى دما * بصاحبـــه يوما أعان على الدّمِ

والذئبُ لا يواجه الإنسان ، وإنما يأتيه من ورائه ، فإن وجد الإنسانُ ما يُسنِد ظهرَه إليه عجز الذئبُ عن آفتراسه .

ذكر ما وصف به الذئب

وقد وصف الشعراء الذئبَ بما ذكرناه من عادته وطبعه ، فقال حُمَيْد بنُ ثَوْر :

ونمتُ كنوم الذئبِ عن ذى حفيظة * أكلتُ طعاما دونه وهـو جائعُ
تَرَى طَرَفيـه يَعسِلان[3] كِلَيْهِما[4] * كما آهـتزّ عُودُ النَّبْعـةِ المتتابِـعُ
ينام بإحـــدى مقلتيه ويَتّـقِى * بأخرى المنايا فهو يقظانُ هاجـعُ

وقال إبراهيمُ بنُ خفاجة :

ولَرُبّ روّاغٍ هنـالك أنبَـــطٍ[5] * ذَلِقِ[6] المسـامعِ أطلسِ[7] الأطمارِ

(١) تمعط الجلد ، أى تساقط الشعر عنه . (٢) هو الفرزدق ، كما فى الحيوان ج ٦ ص ٩٧
(٣) يعسلان ، أى يضطربان ويهتزان ، يقال : عسل الذئب عسـلا وعسلانا ، أى مضى مسرعا واضطرب فى عدوه وهز رأسه . (٤) كليهما بالنصب : تأكيد لقوله «طرفيه» ؛ ويجوز أن يقرأ كلاهما بالألف على أنه تأكيد للفاعل فى قوله : « يعسلان » . (٥) الأنبط : من النبط بالتحريك ، وهو البياض الذى يكون تحت الإبط والبطن ، وربمـا عرض حتى يغشى البطن والصـدر ، وقيل : الأنبط ، هو الذى فى بطنه بياض ما كان وأين كان منه ، وقيل غير ذلك . (٦) الذلق : من الذلاقة ، وهى الحدّة . (٧) الأطلس ، هو الذى فى لونه غبرة إلى السواد ، وفعله ككرم وفرح ، قاله آبن القطاع .

يجرى على حذرٍ فيجمع بَسْطَه[1] * يَهوِى فينعطف انعطافَ سِوارِ

والعربُ تقول فى أمثالها : "أحمقُ من جهيزة" قالوا : وجَهيزة عِرْسُ الذئب، لأنّها تدع ولدَها وترضع ولدَ الضَّبُع[2]، وهو معنى قولِ ابنِ جِذْل[3] الطِّعان :

كمرضِعةٍ أولادَ أخرى وضَيّعتْ * بنيها ولم تَرقَع بذلك مَرقَعا

وقولِ الآخر :

كانوا كتاركةٍ بنيها جانبا * سفها وغيرهمُ تَرُبّ وتُرضِعُ

ويقولون : إنّ الضَّبُع إذا قُتِلتْ أو صيدتْ فإنّ الذئب يأتى أولادَها باللحم وأنشدوا قولَ الكُمَيْت :

كما خامرتْ فى حِضْنِها[4] أمُّ عامرٍ * لَدَى الحَبْل[5] حتى عالَ[6] أوسٌ عيالَها

وأَوْس[7]، هو الذئب كما تقدّم فى أسمائه .

(١) يجمع بسطه، أى أنه يتقبض ويجمع ما انبسط منه لحذره .

(٢) هذا التعليل الذى ذكره لهذا المثل هو قول الجاحظ ؛ وقيل فى تعليله غير ذلك، وهو أن جهيزة اسم امرأة رعناء حمقى، وهى أم شبيب الخارجى، وكان أبوه من مهاجرة الكوفة، واشترى جهيزة هذه من السبى، وكانت حمراء طويلة جميلة، فأدارها على الإسلام فأبت، فواقعها فحملت، فتحرّك الولد فى بطنها فقالت : «فى بطنى شىء ينقز» فقيل : «أحمق من جهيزة» قال ابن برى : هذا هو المشهور من هذا المثل .

(٣) فى كلا الأصلين : «ابن حدل» بمهملتين ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، كما فى (اللسان مادّة جهـــز) .

(٤) الحضن : وجار الضبع .

(٥) لدى الحبل، أى عند الحبل الذى تصاد به، ويروى «لذى الحبل»، أى لصاحب الحبل وقد أورد صاحب اللسان هاتين الروايتين مع التفسير الذى ذكرناه فى مادّة «حضن» .

(٦) فى رواية «غال» بالغين المعجمة، كما فى اللسان مادّة «حضن» وإذن فلا شاهد فيه لما ذكره المؤلف .

(٧) الذى تقدّم فى أسماء الذئب «أويس» لا «أوس» انظر ص ٢٧٠ س٦ فمن المحتمل أن يكون المؤلف قد أورده ضمن أسماء الذئب وسقط من الناسخ .

ذكر ما قيل فى الضُبع

يقال : إنّ الضَّبُعَ كالأرنب، تكون مرّةً[1] ذكرا ومرّةً[1] أنثى، وهم يسمّون الذكر والأنثى : الضبعَ[2] والذِّيخَ[3]، ومن أسمائها : حَضاجِر، وجَيْأل، وجَعارِ، وقَثَامِ، ونَقاثِ، والعَرْفاء، لطول عُرْفِها، والعَثْواء لنُفُولِ[4] شعرِها، والعَرْجاء، والخامعَـة، وأمُّ عامر وأمُّ هِنْبِر[5]، وأمُّ خَنُّور ؛ وولدُها الفُرْعل ؛ وجُحرُها الوِجار . والضبعةُ[6] مولَعـةٌ بنبش القبور، وإنّمـا ذلك لشهوتها فى لحوم الناس ؛ ومن عاداتها إذا كان القتيلُ بالعراء ووَرِم وانتفخ ذَكَرُه تأتيه فتركبه وتقضى حاجتَها منـه، ثم تأكله ؛ وهى متى رأت إنسانا نائما حفرتْ تحت رأسِه، فاذا مال رأسُه وظهر حَلْقُه ذبحته بأسنانها، وشَربتْ دمه ؛ وهى فاسقة، لا يمرّ بها حيوانٌ من نوعها إلاّ تعرّضتْ له حتّى يعلوَها ؛

(١) فى صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧ «سنة» مكان قوله «مرة» فى الموضعين .

(٢) إطلاق الضبع على الذكر والأنثى كما تفيـده عبارته قول لبعض اللغويين نقله صاحب المصباح ونقله أيضا صاحب اللسان عن الأزهرى، فارجع اليهما .

(٣) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أن الذيخ يطلق على الذكر والأنثى من الضباع كما تفيده عبارته، والذى وجدناه أن الذيخ إنما هو الذكر منها، ولا يطلق على الأنثى انظر اللسان والتاج والمخصص وغيرها، وعبارة مبادئ اللغة ص ١٤٩ : « والضبع : الأنثى، والذكر : الضبعان والذيخ » وفى كلا الأصلين : « والريح » ؛ وهو تحريف .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى (ب)؛ ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا، وهو الزيادة والكثرة، والذى ورد بهذا المعنى إنمـا هو النفل لا النفول، وفى (أ) « لتعرك » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى اللسان مادة هنبر والمخصص ج ٨ ص ٧٠ : وغيرهمـا « أم الهنبر » بزيادة « ال » والهنبر : ولدها .

(٦) كذا ورد هذا اللفظ بالتاء فى كلا الأصلين ، وقد أجازه بعض اللغويين، قال فى المصباح : « وربما قيل فى الأنثى ضبعة بالهاء، كما قيل سبع وسبعة بسكون الهاء للتخفيف » . وأنكره بعضهم، قال فى اللسان : « ولا تقل ضبعة » .

والعربُ تضرب المثلَ بها فى الفساد ، فإنّها إذا وقعتْ فى الغنم عاثت ، ولم تكتفِ بما يكتفى به الذئب؛ وإذا آجتمع الذئبُ والضَّبُعُ فى الغنم سَلِمتْ ، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما يمنع صاحبه ، ولذلك تقول العرب فى دعائها للغنم : « اللّهمّ ضبعا وذئبا » ؛ والضبعُ إذا وطئتْ ظلَّ الكلب فى القمر وهو على سَطح وقع فتأكله؛ وإذا دخل الرجُل وَجارَها ولم يُسُدَّ منافذَ الضوء، ثمّ صار إليها من الضياء ولو بقدر سَمِّ الخِياط ، وثبتْ إليه فقتلته؛ وان أخذ معه حَنظَلا أَمِنَ سطوتَها؛ وتوصف بالحُمْق والمُوق(١)، وذلك لأنّ من يريدون صيدَها يقفون على باب وَجارِها ويقولون : «أطرقَ أمّ طريق(٢)، خامِرى(٣) أمَّ عامر » فاذا سمعت كلامَهم آنقبضتْ، فيقولون : « أَبشرى بكَمِرِ(٤) الرِّجال، أَبشرى بشاءٍ هَزْلَى وجرادٍ عَظْلَى(٥)» وهم مع ذلك يشدّون يديها ورجليها وهى ساكنةٌ لا تتحرّك، ولو شاءت لأجهزت عليهم وقتلتهم وخلّصت نفسَها ؛ وهذا

(١) فى (أ) «والموت» ؛ وهو تحريف؛ ولم يرد هذا اللفظ فى (ب) . والموق : الحمق فى غباوة ، يقال : « أحمق مائق » .

(٢) أم طريق : من كنى الضبع .

(٣) خامرى، أى آستترى، وأم عامر : من كنى الضبع، كما سبق ذلك فى هذا السفر ضمن اسمائها ؛ وهذا المثل يضرب لمن عرف الدنيا فى نقضها عقود الأمور بايراد البلاء عقيب الرخاء ثم يسكن اليها مع ماعلم من عادتها، كما تغتر الضبع بقول القائل : خامرى أم عامر .

(٤) الكمر : جمع كمرة ، وهى رأس الذكر ، يزعمون أن الضبع اذا وجدت قتيلا قد انتفخ جردانه ، — أى قضيبه — ألقته على قفاه ثم ركبته وقضت حاجتها منه ، قال العباس بن مرداس :

ولو بات منهم من جرحنا لأصبحت * ضباع بأعلى الرقتين عرائسا

انظر مجمع الأمثال ج ١ ص ٢١٠ طبع المطبعة الأميرية . وفى (أ) : « بكم » بسقوط الراء ؛ وفى ب : « بكر » بسقوط الميم؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٥) الجراد العظلى، هى التى ركب بعضها بعضا كثرة، وأصل معناه لزوم بعضها بعضا فى السفاد، ورواه الميدانى : «عظال» انظر مجمع الأمثال ج ١ ص ٢١٠ طبع المطبعة الأميرية، والذى فى كلا الأصلين : «وجرادة» ؛ والتاء زيادة من الناسخ .

القول فيما أظنّ من خُرافات العرب ؛ والضَّبُع تَلِد من الذئب جِرْوا[1] يسمَّى العِسْبارَ، ويكون منفردا بنفســه ، لا يألف السِّباع ، ويثب على الناس والدوابّ ؛ وهى توصف بالعرج، وفيها يقول بعض الأعراب[2] :

من العُثْو[3] لا يُدرَى أرِجْلُ شِمالِها * بها الظَّلْعُ[4] لمّا هرولتْ أم يمينُها

ذكر ما قيل فى النِّمس

والعربُ تسمِّى النِّمَس الظَّرِبان، وسمّاه أبو عُبَيْد[5] الظَّرِباءَ[6]؛ وهو على قدر الهِرّ، وفى قدر الكلب القَلَطِىّ[7]؛ وهو منتنُ الرِّيح ظاهرا وباطنا، ولونُه إلى الشُّهبة، طويلُ الخَطْم[8] جدّا ، وليس له أذنان إلّا صِماخان، قصيرُ اليدين، وفيهما براثنُ حِداد، طويلُ الذَّنَب ، ليس لظهره فَقَار ، ولا فيه مَفْصِل ، بل عَظْمٌ واحدٌ من مَفْصِل

(١) فى كلا الأصلين : «خروفا» ؛ وهو تحريف ، إذ الخروف إنما هو للذكر من الضأن خاصة .

(٢) هو مدرك بن حصن ، كما فى (التاج مادّة ظلع) .

(٣) فى كلا الأصلين : «من العثر» بالراء، وهو تحريف ؛ والعثو : جمع عثواء، وهى الضبع ، سميت بذلك لكثرة شعرها . وفى رواية : «من الملح» ، كما فى اللسان والتاج مادة ظلع ؛ والملح بضم فسكون : جمع ملحاء، وهى التى فى لونها بياض الى حمرة، وقال أبو عبيدة : هى بياض ليس بخالص فيه عفرة . ولم تثبت هذه الرواية فى صلب الكتاب مع استقامة المعنى بها لبعد حروفها فى الرسم عما ورد فى الأصول .

(٤) الظلع : العرج والغمز فى المشى ؛ وفى كلا الأصلين : «من الصلع» ؛ وهو تحريف .

(٥) فى كلا الأصلين : «أبو عبيدة» والتاء زيادة من الناسخ، وما أثبتناه عن المخصص ج ٨ ص ٨٤ ، وأبو عبيد هذا ، هو القاسم بن سلام صاحب كتاب الغريب المصنف .

(٦) كذا قال أبو عبيد الظرباء بالمدّ ، ونقل صاحب اللسان عن أبى الهيثم أنه الظربا بالقصر ، والظرباء بالمدّ لحن .

(٧) القلطى : القصير جدّا ، المجتمع .

(٨) الخطم : مقدّم الأنف والفم .

الرأس إلى مَفْصِل الذَّنَب، وربّما ضربه من ظفر به من الناس بالسيف فلا يعمل فيه حتى يصيبَ طرف أنفه، لأنّ جلده فى قوّته كالقِدّ؛ ولفسوِه ريحٌ كريهةٌ حتّى إنّه يصيبُ الثوبَ فلا تذهب رائحتُه منه حتّى يَبلَى، وهو يَفسو فى الهَجْمة[1] من الإبل فتتفرّق ولا تجتمع لراعيها إلّا بعد تعب؛ والعربُ تضرب المثلَ فى تفريق الجماعات به، فيقولون: "فسا بينهم الظَّرِبان"؛ وهو لأهل مصرَ كالقنافذ لأهل سِجِسْتانَ فى قتلِه الثعابين؛ قالوا: ولولاه لأكلتْهم؛ ومن عادتِه أنّه إذا رأى الثعبانَ دنا منه ووثب عليه، فاذا أخذه تضاءلَ فى الطول حتّى يبقى شبيها بقطعة حبل، فينطوى الثعبانُ عليه، فاذا انطوى نفخ الظَّرِبانُ بطنَه ثم زَفَر زَفْرةً فيتقطّع الثعبانُ قِطَعا؛ قال الجاحظ: وفسوُ الظَّرِبان أحدُّ أسلحتِه، لأنّه يدخل على الضّبّ فى جحرِه وفيه حُسولُه[2] وبَيضُه، فيأتى أضيقَ موضع فى الجحر فيسُدّه بيَدِه، ويحوّل دُبُرَه فلا يفسو ثلاثَ فَسَوات حتّى يَخِرَّ الضّبُّ سكرانَ مغشيّا عليه، فيأكلَه؛ وله جراءة على تسلُّق الحيطان فى طلبِ الطير، فان هو سقط نفخ بطنَه حتّى يمتلئ جِلدُه، فلا يضرُّه السقوط؛ قالوا: وهو يشبه السَّمُّورَ[3]، وذهب بعضهم إلى أنّه هو، وإنّما البقعةُ التى هو فيها غيّرتْ وَبَرَه.

(١) الهجمة من الابل: الجماعة منها، أوّلها أربعون الى مازاد، وقيل: هى ما بين السبعين الى المائة.

(٢) الحسول: أولاد الضب حين تخرج من البيض، واحده حسل بكسر أوّله وسكون ثانيه.

(٣) السمور: دابة ببلاد الروس، تشبه النمس، منها أسود لامع وأشقر، يتخذ من جلدها فراء غالية الأثمان.

البـاب الثـالث من القسم الأوّل من الفنّ الثالث

مما قيل فى السِّنجاب والثعلب والدُّبّ والهرّ والخنزير

فأما السِّنجاب — فهو حيوانٌ معروفٌ، حَسنُ الوَبَر، ظهرُه أزرقُ اللّون، و بطنُه أبيضُ، ومنه ما يكون ظهرُه أحمرَ، وهو ردىءُ الجنس؛ مبخوسُ الثّمن؛ وهذا الحيوان سريعُ الحركة، فاذا أبصر الانسانَ صَعِد الشجرةَ العالية، وهى مأواه؛ وهو كثير ببلاد الصَّقالبة والخَزَر، "ومِزاجُه باردٌ رَطب، وقيل[1] : حارٌّ رَطبٌ لسرعة حركته"؛

ما وصف به السنجاب

قال أبو الفرج البَبْغاء :

قد بلونا الذَّكاءَ فى كلِّ نابِ[2] * فوجدناه صنعةَ السِّنجاب

حركاتٌ تأبى السكونَ وألحا * ظُّ حِدادٌ كالنار فى الالتهابِ

خفَّ جدّا على النفوس فلوشا * ء تـرامَى[3] مجاورا للتصابى

وٱشتهت قربَه العيونُ إلى أن * خِلتُـه عندها أخًا للشبابِ

لابسٌ جلدةً إذا لاح خلنا * ه بها فى مُزرّةٍ[4] من سحابِ

لو غدا كلُّ ذى ذكاءٍ نَطوقا * رَدّ فى ساعة الخطاب جوابى

---

(١) عبارة مباهج الفكر : «ومزاجه بارد رطب بالإضافة إلى مزاج السباع ، و بالإضافة إلى مزاج الإنسان حار رطب ، لسرعة حركته على حركة الإنسان» .

(٢) «فى كل ناب» ، أى فى كل ذى ناب ، وفى كلا الأصلين «باب» بباءين ؛ وهو تصحيف .

(٣) كذا ورد هـذا اللفظ فى كلا الأصلين ومباهج الفكر ؛ وهو و إن صح معناه إلا أننا نلمح فيه شيئا من الضعف ، ولعل صوابه «تراءى» كما لا يخفى ؛ ولم نجد هذه الأبيات ضمن ما آختاره الثعالبى من شعر أبى الفرج البيغاء فى يتيمة الدهر .

(٤) المزرّة : اسم مفعول من أزرّه ، أى جعل له أزرارا ، يريد جبة ذات أزرار .

ذكر ما قيـــل فى الثعلب

هو ذو مكرٍ وخديعةٍ وتحيُّلٍ فى طلب الرزق، فمن تحيُّلِه أنّه يتماوت وينفخ بطنَه ويرفع قوائمه، حتّى يُظَنَّ به أنه قد مات، فاذا قرب منه حيوانٌ وثب عليه فصاده؛ ومنه أنه إذا دخل بُرْجَ الحمام وكان شبعانَ قتلَها ورمَى بها، فاذا جاع عاد[1] إليها (١٦) فأكلها، وكذلك يفعل مع الدَّجاج؛ وهو أيضا من الحيوان الذى سِلاحُه سُلاحُه، وهو أنتنُ من سُلاح الحُبارَى[2]، فاذا تعرّض للقُنفُذ لقيه القُنفُذ بشوكه واستدار كالكُرة، فيَسلَح الثعلبُ عليه، فلا يتمالكُ القُنفُذ أن ينسدخ[3]، فيقبِض الثعلبُ على مراقّ[4] بطنِه؛ ومن ظريف ما يُحكَى عنه أنّ البراغيث إذا كثرتْ فى فروته تناول صوفةً بفمه، ثم يدخل النهرَ برفقٍ وتدريج، والبراغيثُ تَصعَد إذا قاربَها الماءُ حتّى تجتمعَ فى تلك الصوفة التى فى فيه، فعند ذلك يلقيها فى الماء ويخرجُ منه؛ والذئبُ يطلب أولادَ الثعلب، فإذا وُلِد له وَضَع ورقَ العُنْصُل[5] على باب وَجارِه فلا يصل الذئبُ إليه، لأنّه متى وطئ العُنْصُل[5] مات لوقته؛ ويقال: إنّ قضيب الثعلب فى خلقة الأُنبوب، وأحد شطريه عَظْم، والآخر عصبٌ ولحم؛ وربّما

---

(١) فى (ا) «وعاد» والواو زيادة من الناسخ، كما هو ظاهر.

(٢) الحبارى: طائر طويل العنق، رمادى اللون، فى منقاره طول، وهو على شكل الإوزة، ومن شأنها أنها تصاد ولا تصيد؛ ويضرب بها المثل فى السلح فيقال: "أسلح من حبارى" و"أذرق من الحبارى" قال الشاعر:

وهم تركوه أسلح من حبارى * رأى صقرا وأشرد من نعام

(٣) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر «ينشدخ» بالشين المعجمة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق؛ والانسداخ: الانبساط على وجه الأرض، كالانسداح بالحاء المهملة أيضا.

(٤) مراق البطن: أسفله وما حوله مما استرق منه، ولا واحد له.

(٥) العنصل: البصل البرى، وقال أبو حنيفة: العنصل هو ورق مثل الكراث يظهر منبسطا سبطا.

يَسـفَد الثعلب الكلبةَ فتأتى منه بولدٍ فى خلقة السُّلُوقىّ الذى لا يُقـدَر على مِثـله ؛ وفروُ الثعلب من أجودِ الأوبارِ وأفضلِها ، ومنه الأسودُ والأبيضُ والخَلَنْجىّ[(١)] ، وأدونُه الأعرابىّ لقلّة وَبَرِه ، وما كان منـه ببلاد الترك يسمَّى البُرْطاسىّ[(٢)] لكثافة وَبَرِه وحُسنِ لونِه ، ووَبَرُه أنواع ، منهـا السارسينا[(٣)] [والبُرْطاسىّ[(٢)] والغبب[(٣)] والنيفق[(٣)] ؛ قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا[(٤)]] : والثعلب فيه تحليل ، وفراؤه أسخَنُ الفراء ، تنفع المرطوبين لتحليلها [آلاتِ المفاصل][(٥)] ؛ قال : واذا طُبِخ الثعلب فى المـاء وطليتْ به المفاصلُ الوَجِعَـةُ نفع نفعا جيّدا ، وكذلك الزيتُ الّذى يُطبَخ فيـه حيّا أو مذبوحا فإنّه يحلّل ما فى المفاصل ، وشحمُه يُسكّن وجعَ الأذن إذا قُطر فيها ؛ ورئتُه المجفَّفـةُ نافعةٌ لصاحب الرّبو جدّا ، والشّربةُ منها وزنُ درهمين[(٦)] [والله أعلم بالصواب[(٧)] ، وإليه المرجع][والمآب] .

(١) الخلنجى : نسبة الى الخلنج ، وهو خشب ذو طرائق وأساريع موشاة ، وهذا الخشب تتخذ منه الأوانى ؛ وهو فارسىّ معرّب .

(٢) البرطاسىّ : نسبة الى برطاس بضم الباء ، وهو اسم لأمة ذات ولاية واسعة تعرف بهم ، تنسب اليها الفراء البرطاسية ، وهم متاخمون للخزر ، ولأهل برطاس لسان مفرد ليس بتركىّ ولا خزرىّ ولا بلغارىّ ، وهم مسلمون ؛ وبين (إتل) مدينة الخزر وبين برطاس مسيرة عشرين يوما (ياقوت) .

(٣) كذا ورد فى إحدى النسختين هذه الألفاظ الثلاثة التى تحت هذا الرقم ؛ ولم نقف عليها فيما راجعناه من كتب اللغـة ولا فيما بين أيدينـا من الكتب الكثيرة المؤلفـة فى الحيوان ، كما أننا قلبنا حروفهـا على وجوه كثيرة ممـا يحتمله الرسم الموجود فى الأصل فلم نقف على وجه منها فى هذه الكتب .

(٤) لم يرد هذا الكلام الموضوع بين مربعين فى (١) .

(٥) لم ترد هـذه التكملة فى كلا الأصلين ، وقـد أثبتناها عن القانون لابن سينا ج ١ ص ٤٥١ طبع بولاق .

(٦) فى القانون ج ١ ص ٤٥١ طبع مطبعة بولاق : «درهم» .

(٧) لم يرد هذا الكلام الموضوع بين مربعين فى (ب) .

ذكر ما وصف به الثعلب

قال أبو الفرج الببغاء يصفه :

وأعفرِ المَسْك تلقاه فتحسَبه * من أَدْكَنِ[1] الخَزِّ مخبوءٍ بخَيْفانِ[2]

كأنّ أذنيه فى حسن انتصابهما * إذا هما انتصبا للحِسّ[3] زُجّانِ[4]

يَسْرى ويتبعه من خلفه ذنَبٌ * كأنّه حين يبدو ثعلبٌ ثانى

فلا يشُكّ الّذى بالبعد يبصره * فردا بأنّهما فى الخلقة اثنانِ

وقال آخر :

جاؤا بصيدٍ عَجَبٍ من العَجَبْ * أَزْيرقِ العينين طُوَالِ[5] الذّنَبْ

* تبرُق عيناه إلى ضوء الشُّهُبْ *

(١) الادكن من الخز وغيره ، هو الذى يضرب لونه الى الغبرة بين الحمرة والسواد ؛ والفعل كفرح .

(٢) فى كلتا النسختين : «محبو بجفتان» ؛ وفى مباهج الفكر : «لخفتان» ؛ وفى كلتا العبارتين تحريف لا يتضح به المعنى ، ولعل صوابه ما أثبتنا ؛ والخيفان : حشيش ينبت فى الجبل ، وليس له ورق ، وهو يطول حتى يكون أطول من ذراع صعدا ؛ يريد أن الثعلب مختبئ فى هذا الحشيش ؛ ولم يورد الثعالبى هذه الأبيات ضمن ما اختاره من شعر أبى الفرج الببغاء فى يتيمة الدهر .

(٣) فى كلا الاصلين ومباهج الفكر : « للحسن » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما هو ظاهر ، والحس : الصوت الخفى ، أو هو الاحساس ، يقال : حس بالشىء حسا بفتح الحاء وكسرها بمعنى أحس به ؛ والأسم من ذلك الحس بالكسر .

(٤) فى كلتا النسختين : «رجان» وفى مباهج الفكر : «دخان» ؛ وفى كلتا الكلمتين تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه السياق ؛ والزجان : تثنية زج ، وهو الحديدة التى تركب فى أسفل الرمح يركز بها فى الأرض .

(٥) الطوال بضم الطاء وتشديد الواو : الزائد فى الطول .

ذكـر ما قيـــل فى الدُّبّ

والدُّبُّ مختلفُ الطبـائع ، يأكل ما تأكله السّباع ، ويرْعَى ما ترعاه الدوابّ ، ويتناول ما يأكله الناس ؛ وفى طبعه أنّه إذا كان أوانُ السِّفاد خلا كلُّ ذكرٍ بأنثاه ، والذكرُ يَسفَد أنثاه مضطجعةً على الأرض ، وهى تضـعُ جِروَها فِدْرَة لحمٍ غيرَ مميَّزِ الجوارح ، فتهرُب به من موضعٍ إلى آخرَ خوفا عليه من النمّل ، وهى مع ذلك تلحَسه حتى تتفرجَ أعضاؤه ويتنفّس ، وفى ولادتها صـعوبة ، فيزعم بعضُ مَن فَحَص عن طبائع الحيوان أنّ الدُّبّةَ تَلِدُ مِن فيها ، وأنّها إنّما تَلِدُه ناقصَ الخَلق شوقا إلى الذَّكَر وحرصا على السِّفاد ، وهى لشدّة شهوتِها تدعو الآدميَّ الى وطئهـا ؛ وفيما حُكِى لى أنّ إنسانا كان سائرا فى بعض الغِياض لمقصده ، فصادف دُبّة ، فأخذتْه وأومأتْ إليه بالإشارة أن يواقعَها ، ففَهِم عنهـا وفعل ، فلمّا فرغ عَمَـدتْ الى أقدامه فلَحَستْ مَواطئَها حتى نَعِمتْ[1] ، ولم تزل تكرّر لحسَها وتمرّ بلسانها عليها حتّى بقِىَ الرجلُ يَعجِز عن الوطء بها على الأرض ، فعند ذلك أَمِنتْ هَرَبه وتركتْه ، فكانت تغدو وتتكسّب وترجع إليه بما يأكله وهو يواقعها ، وهى تتعاهد[2] لحسَ رجليه ، فلم يزل كذلك حتّى مرّ عليه جماعةٌ من السَّفْر ، فناداهم ، فأتَوه وحملوه على دوابّهم وساروا به . قالوا : والأنثى اذا هَرَبتْ من الصيّادين جعلتْ جِراءَها بين يديها ، فإذا اشتدّ خوفها عليهم بأن أدركها من يطلبها صَعِدتْ بأولادها إلى الأشجار ؛ وفى الدُّبّ من القوّة والشـدّة ما يقطع العُودَ الضخمَ من الشجرة العادية[3] التى لا تقطعها الفأسُ إلّا بعـد تعب ،

(١٧)

(١) كذا ضبط هذا الفعل فى اللسان ضبطا بالعبارة .

(٢) فى كتب اللغة أن قولهم : «يتعهد» بدون ألف أفصح من «يتعاهد» بل إن بعض اللغويين قد أنكر قولهم «يتعاهد» ، وأجازه بعضهم .

(٣) العادية ، أى القديمة .

ثم يأخذه بيديه، ويقف على قدميه كالإنسان، ويشُدّ به على الفارس، فلا يصيب شيئا إلا أهلكه[1]؛ وفى طبع هذا الحيوان من الفطنة العجيبة لقبول التأديب والتعليم ما هو مشاهَدٌ لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، هـذا مع عظم جثّته، وثِقَل جسمه، لكن لا يطيع معلّمَه إلّا بعُنْف وضربٍ شديد وتعميةٍ لذُكورِه؛ وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا: إنّ دمَ الدُّبّ يُنضِج الأورامَ الحارّةَ سريعا؛ والله أعلم بالصواب.

ذكر ما قيل فى الهـرّ

والهـرّ ضربان: وحشىّ وأهلىّ، وهو يشبه الأسـدَ فى الصورة والأعضاء والوثوبِ والافتراس والعـدوِ، إلّا أنّه أقلُّ جراءةً من الأسـد وأكثرُها من سائر الحيوان؛ وهو يناسب الانسانَ فى أحوال، منها: أنّه يَعطس ويتثاءب ويتمطّى، ويتناول الشىءَ بيَـدِه، ويغسل وجهَه وعينيه بلعابه؛ وفيـه[2] أنّ الأنثى تحدُث لهـا قوّةٌ وشجاعةٌ عنـد السِّفاد، ولهذا فإنّ الذكرَ يهرُب منها عند فراغه، وتكون هـذه الشجاعةُ فى الذّكر قبـل السِّفاد، فاذا سفَد انتقلتْ إلى الأنثى، والذّكرُ إذا هاج صرخ صُراخا منكرا يؤذى به من يسمعه لبَشاعته؛ والأنثى تحمِل فى السـنة مرتين، ومدّةُ حَملِها خمسون يوما، وفى أخلاقِ بعضِها أنّها اذا وَلدتْ تأكل أولادَها، ويقال: إنّها إنّما تأكلهم لفرط حبِّها لهم؛ وقيل: بل من جنونٍ يَعرِض لهـا عند الولادة وجوع؛ والله أعلم؛ وفى هـذا الحيوان من الأخلاق الحميدةِ أنّه يَرعى حقّ

(١) فى كلا الأصلين ومناهج الفكر «هتكه»؛ وهو تحريف اذ الهتك انما يكون للستر؛ وما أثبتناه هو ما يستفاد من عبارة صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨.

(٢) وفيه، أى فى طبعه، أو عادته، أو نحو ذلك مما يفيد هذا المعنى.

التربية والإحسانِ إليه، ويَقبَلُ التأديب ، وربّمـا رُبِّيَ فى حانوت السِّمّان[1] والجـزّار وفى الدُّور بين الدَّجاج والحمـام وغيرِ ذلك من المطاعم الّتى يحبّها الهـرّ ويأكلها فلا يتعرّض لها بفساد، ولا يأكل منها ما لم يُطعَمْه، وربّمـا حفظها من غيره، وقاتل دونها، مع مافيه من الأفتراس والاختلاس؛ وفى طبع الهرّ وعادتِه أنّه إذا أُطعِم شيئا أكَلَه فى موضعه ولم يهرُب، واذا خطِفه أو سرَقه هرَب به، ولا يقف إلّا أن يأمن على نفسه؛ وفى بعضها من الجراءة مايقتل الثعبانَ والعقرب؛ وإذا أرادت الهرّةُ مايريد صاحبُ الغائط أتت موضعَ ترابٍ فى زاويةٍ من زوايا الدّار، فتبحث حتّى تجعلَ لها حفرة، ثم تدفن فيها ما تلقيه ، وتغطّيه من ذلك التراب، ثم تَشَمّ أعلى التراب ، فإن وجدتْ رائحةً زادت عليه ترابا حتى تعلَمَ أنّهـا أخفت المرئىّ والمشموم، فإذا لم تجد ترابا خمَشتْ وجهَ الأرض، وزعم بعض الأطبّاء أنّ سَترَ الهرّةِ لذلك لحدّة رائحته ، فإنّ الفأرة إذا شمّته نفرتْ منه الى منقطَع تلك الرائحـة ؛ وهو يقبل التعليمَ ويؤدَّب حتى يألَف الفأرَ مع ما بينهما من شدّة العداوة، فيحصل بينهما من المؤالَفة الظاهرةِ والملاءمةِ ما إنّ الفأرَ يصعَد على ظهر الهـرّ ، وربّمـا عَضّ أذنَه، فيصرُخ الهـرُّ ولا يأكله، ولا يخدِشه لخوفه من مؤدِّبه، فإذا أشار إليه مؤدِّبُه بأكله وثب عليه على عادته وأكَلَه، وهذا أمرٌ مشاهَدٌ غيرُ منكور يفعله الطُّرُقيّة[2] ويفرِّجون[3] الناسَ عليه[4]؛

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين، والمعنى يستقيم عليه، كما أنه من المحتمل أيضا أن يكون محرّفا عن لفظ « السماك » فان حب الهرّ للسمك وحرصه على طلبه معروفان .

(٢) الطرقية : نسبة الى الطرق ، يريد الذين يلعبون فى الطرق ويأتون بأمور غريبـة تعجب الناس فيجتمعون عليهم .

(٣) استعمال التفريج بمعنى اجتماع الناس على اللاعب ومشاهدة ما يأتى به من الأمور العجيبة كما هنا استعمال شائع فى كلام العامة؛ ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة على كثرتها ، كما أننا لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ الدخيلة؛ ولعله أخذ من تفريج الهم ، فان فى مشاهدة ذلك تفريجا للهم وتسلية للنفس .

(٤) ضمن « يفرّجون » معنى « يجمعون » فسوّغ له هذا التضمين تعديته بـ« على » .

وفى طبع الهـرّ أنّه لا يأكل السُّخْنَ ولا الحامضَ، ومتى دُهن أنفُـه بدهن الورد مات سريعا ؛ وهو إذا قاتل الثعبانَ يضع يدَه على أنفه، ويقاتل بيَـدِه الأخرى ، وإنّما يفعل ذلك حذرا على نفسه، فإنّ الثعبان متى ضربه فى أنفه مات ، ويضربه فى سائر جسده فلا يضرّه ذلك، بل يلحَس مكانَ نَهْشِ الثّعبانِ بلسانه وهو يقاتله .

ذكر ما وصف به الهـرّ

٥ وقد وصفه الشعراء والأدباء برسائلَ وأبيات .

فمن ذلك رسالةٌ أنشأها أبو [جعفر](١) عمرَ الأوسيُّ الأندلسيُّ المعروفُ بآبن صاحب الصَّلاة(٢) — ونُسبتْ هـذه الرسالةُ لأبى [نصر](٣) الفتح بنِ خاقانَ صاحبِ قلائد العقيان — يخاطب بها بعضَ اخوانه ويوصيه على كُتُبه(٤)، وهى : وفى علمك — أعزّك الله — ما آستودعتُه ديانتَك، وآستحفظتُه أمانتَك، من كُتبى الّتى هى أنفسُ ذخائرى وأَسْراها(٥)، وأحقُّها بالصيانة وأحراها ؛ وما كنتُ أرتضى فيهـا بالتّغريب،

١٠

(١) كذا فى نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٦ طبع ليدن ؛ والذى فى كلا الأصلين : «أبو عمر» ولم نجد أبا عمر هـذا فيما راجعناه من الكتب التى بين أيدينا ، كقلائد العقيان والمعجب ومطمح الأنفس والمكتبة الأندلسية المطبوعة فى اسبانيا والذخيرة .

(٢) كذا فى نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٦ طبع ليـدن ؛ والذى فى كلا الأصلين : «الصلات» ؛ وهو تحريف .

١٥

(٣) لم ترد هـذه الكلمة التى بين مربعين فى كلا الأصـلين ، وقد أثبتناها عن وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٧ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

(٤) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغـة أنه يقال : «اوصى على كذا» ؛ والذى وجدناه أنه يقال : «اوصى بكذا» ولم تثبت الباء مكان «على» جريا على مقتضى اللغة لأمرين : أولهما عدم توهم التحريف ، لبعد ما بين الكلمتين فى الرسم ؛ ثانيهما أن تعدية «أوصى» «بعلى» مما يستعمله المؤلف كثيرا فى هذا الكتاب جريا على استعمال العامة فمن ذلك ما ورد فى ج ٨ ص ٧٥ س ١١ وغير ذلك من المواضع .

٢٠

(٥) أسراها ، أى أشرفها والفعل منه (ككرم) (ودعا) (ورضى) ثلاث لغات .

لولا التّرجّى لمعاوَدة الطلبِ عن قريب؛ ولا شكّ أنّهـا منك ببال، و بمكان تهمّـم[1] وآهتبال؛ لكن ربّمـا طرَقَها من مَرَدَة الفِئرَةِ طارق، وعاث فيها كما يَعيث الفاسق المـارق؛ فيتزِلّ[2] فيهـا قرْضا، و يفسدها طولا وعَرْضا؛ إلّا أن يطوفَ عليها هرٌّ نبيل، يَنتمِى من القِطاط إلى أنجَبِ قَبيل؛ له رأسٌ جُمْع[3] الكفّ، وأُذنان قد قامتا[4] على صفّ؛ ذواتا لطافةٍ ودقّه، وسَباطةٍ ورِقّه؛ يقيمهما عندالتشوّف، و يُضجعهما عنـد التخوّف؛ ومقلةٌ مقتطَعةٌ من الزجاج المجزّع[5]، وكأنّ ناظرَها من العيون البابليّة منتزَع؛ قد آستطال الشعرُ حول أشداقه، وفوقَ آماقه؛ كإبَرٍ مغروزةٍ على العيون، كما أحكمتْ[6] بَرْدَ أطرافها القُيون[7]؛ له نابٌ كحَدِّ المِطْرَد[8]، ولسانٌ كظهرِ المِبْرَد؛ وأنفٌ أخْنَس[9] وعنقٌ أوقَص[10]، وخَلْقٌ سـوىٌّ غيرُ منتقَص، أهْرَتُ[11] الشِّـدْقَين، موشّى

(١) التهمم: التطلب والتحسس. والاهتبال: الاغتنام.

(٢) كذا فى (ب)؛ وعليه فقوله «قرضا» حال من الضمير فى قوله: «يتزل»، أى فيتزل فيها قارضا؛ والذى فى (أ): «فيترك» والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٣) جمع الكف بضم الجيم؛ هو حين تقبضها.

(٤) كذا فى مباهج الفكر؛ والذى فى كلا الأصلين: «قلبتا»؛ وهو تحريف.

(٥) يريد بالمجزع: المختلف الألوان؛ وقد ذكر صاحب التاج مادة جزع أنه يقرأ بفتح الزاى المشدّدة وكسرها.

(٦) عبارة مباهج الفكر: «قد حدّدت أطرافها» الخ.

(٧) القيون: الحدّادون، واحده قين بفتح فسكون.

(٨) المطرد: رمح قصير تطعن به حمر الوحش.

(٩) الأخنس: من الخنس بالتحريك، وهو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة، وقيل: هو لصوق قصبة الأنف بالوجنة مع ضخم الأرنبة؛ وقيل غير ذلك، والفعل منه وزان "فرح".

(١٠) الأوقص: من الوقص بالتحريك، وهو قصر العنق.

(١١) أهرت الشدقين، أى واسعهما.

الساعدين والساقين [مُلَمْلَمُ اليدين](١) والرجلين ؛ يرجِّل بهـا وَبَرَه(٢)(٣) ترجيلَ ذوى الهِمم، لِمـا شَعِث(٤) من اللِّمَم ؛ فينفض ما لَصِق به من الغبار ، وعَلِق من الأوبار ، ثم يجلوه بلسانه جِلاءَ الصَّيقَلِ للحسام ، والحمّامِ للأجسام ؛ فيَنفِى قذاه ، ويوارِى أذاه ؛ ويُقعِى إقعاءَ الأسد إذا جلس ، ويَثب وثبةَ النَّمر(٥) إذا آختَلَس ؛ له ظهرٌ شديد ، وذنَبٌ مديد ؛ يَهُزّه هزَّ السَّمهرىِّ المثقَّف ، وتارةً يلويه لىَّ الصَّولج المعقَّف ؛ تجول يداه فى الخشب والأرائك ، كما تجول فى الكُسا يدُ حائك(٦) ؛ يُكبّ على المـاء حين يَلَغُه(٧) ، ويُدنِى منه فاه ولا يبلُغُه ؛ ويتّخذ من لسانه رِشـاءً ودَلوا ، ويعلم به إن كان المـاء ملحا أو حُلوا ؛ فتَسمع للمـاء خَضخَضةً من قَرْعِه ، وتَرى للّسان نَضنَضةً(٨) من جَرْعِه ؛ يَحمِى دارَه حمايةَ النَّقيب ، ويحرسها حراسةَ الرقيب ؛ فإن رأى فيها كلبا ، صار عليه إِلْبا(٩) ؛ وصعَّر خدَّه

---

(١) لم ترد هذه العبارة فى (ب) وقد أثبتناها عن (ا) ومباهج الفكر ، والململم : المجتمع ؛ أو لعله «منمنم» ، أى منقوش ، كما يقتضيه الوصف قبله .

(٢) «بهـا» أى بيديه ورجليه .

(٣) فى كلا الأصلين «دبره» بالدال ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٤) فى مباهج الفكر : «تشعث» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٥) فى مباهج الفكر : «الذئب» وهو أنسب لقوله بعد : إذا آختلس ، فان الأختلاس انما يناسب الذئب لا النمر .

(٦) فى كلتا النسختين : «شايك» ، وهو تحريف ، ولعل صوابه ما أثبتنا إذ هو مقتضى السياق ، ولم ترد هذه العبارة فى مباهج الفكر .

(٧) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة تعدية هذا الفعل بنفسه ، وانما يتعدّى بالحرف ، فيقال : «ولغ فيه وبه ومنـه» .

(٨) النضنضة : تحريك اللسان .

(٩) الإلب بالفتح والكسر : العدوّ ، والفتح أعرف .

وعَظُم قَدُّه، حتّى يصير نِدّه[1]؛ أنَفةً من جنابه[2] أن يُطرَق، وغَيرةً على حِجابه أن يُخرَق؛ وإن رأى فيها هِرّا، وَجَفَ[3] اليه مكفهِرّا؛ فدافَعه بالساعد الأشَدّ، ونازَعه منازعةَ الخصم الألدّ؛ فإذا أطال مفاوَضتَه، وأدام مراوَضتَه؛ أبرز بُرثُنَه لمبادَرته، وجَوشَنه[4] لمصادَرته؛ ثم تَسلّل إليه لِواذا، وآستَحوَذ عليه آستحواذا؛ وشَدّ عليه شَدّه، وضمّه من غير مودّه؛ فأنسَل وَبَرَه إنسالا[5]، وأرسَل دمَه إرسالا؛ بأنياب عُصْل[6]، أمضَى من نَصْل؛ ومِخلَب كِمِنقارِ[7] الصَّخر، دَرِبٍ بالاقتناص والعَقْر؛ فيُصَيِّر[8] قِرْنَه ممزَّقَ الإهاب، مستبصِرا[9] فى الذّهاب، قد أفلَت من بين أظفارٍ وأنياب، ورضِىَ من الغنيمة بالإياب؛ هذا وهو يخاتله دونَ جُنّه، ويقاتله بلا سيوفٍ ولا أسنّه؛ وإنّما جُنّته، مُنّته[10]؛ وشِفارُه،

(١) فى كلا الأصلين: «قده» بالقاف، وهو تحريف.

(٢) فى مباهج الفكر: «من حماه»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٣) وجف، أى أسرع.

(٤) الجوشن: الصدر.

(٥) فى كلا الأصلين: «فنسل وبره نسالا» بسقوط الألف فى الفعل والمصدر؛ والصواب إثباتها فيهما إذ لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أن «النسال» مصدر لـ «نسل» المتعدّى، والذى وجدناه أن مصدره النســـل.

(٦) العصل: جمع أعصل، وهو المعوج فى صلابة، والفعل منه وزان «فرح».

(٧) يريد بمنقار الصخر: الحديدة التى ينقر بها، وهى حديدة كالفأس مستديرة لها خلف يقطع به الحجارة والأرض الصلبة؛ يريد تشبيه مخلب المتربها فى الحدّة والصلابة، والذى فى مباهج الفكر «صقر» مكان قوله: «صخر».

(٨) فى مباهج الفكر: «ففر».

(٩) مستبصرا فى الذهاب، أى مستوضحا أى طريق يفر منها؛ أو لعله «مسبطرا» بتشديد الراء، أى مسرعا.

(١٠) فى (ا) ومباهج الفكر: «منته» بالتاء والنون؛ وفى (ب) «متبه» بالتاء والباء؛ وهو تحريف فى جميع هـــذه المصادر؛ والصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السجع الذى التزمه الكاتب فى جميع هـــذه الرسالة؛ والمنة بضم الميم وتشديد النون: القوّة.

أظفارُه ، وسِنانُه ، أسنانُه ؛ إذا سَمِعتْ الفِئْرَةُ منـه مُغاءً[1] ، لم تستطع له إصغاء ؛ وتصدّعتْ[2] قلوبُهـا من الحَذَر ، وتفرّقتْ جموعُها شَـذَرَ مَذَر ؛ تَهجَع العيـونُ وهو ساهر ، وتَستر الشخوصُ وهو ظاهر ؛ يَسرِى من عينيـه بنيِّرَين وضّاحَين ، تخالها فى الظـلام مصباحين ؛ يسُـوف[3] الأركان ، ويطوف بكلّ مكان ؛ ويَحكِى فى ضِجْعته السِوارَ تحنّيا ، وقضيبَ الخَيْزُران تثنّيا ؛ ثم يَغِطّ إذا نام ، ويتمطّى إذا قام ؛ ولا يكون بالنـار مستدفئا ، ولا للقِـدْر مُكفئا ؛ ولا فى الرّماد مضطجِعا ، ولا للجارِ منتجِعا ؛ بل يدبِّر بكيدِه ، ويَنتصر على صيدِه ؛ قد تَرَن[4] على قتلِ الخِشاش[5] ، وافترس الطيرَ فى المسارح والأعشاش ؛ يستقبِل الرياحَ بشَمِّه ، ويجعل الاستدلالَ أكبرَ همِّه ؛ ثم يكُن للفأر حيث[6] يَسمع لها خَبيبا[7] ، أو يَلمَح من شيطانها[8] دَبيبا ؛ فيلصَق بالأرض ، وينطوى بعضُـه فى بعض ، حتى يستوى[9] منـه الطُّولُ والعَرْض ؛ فاذا تَشوّفتْ الفَأرةُ من جحرِها ، وأشرفتْ بصدرِها ونحرِها ؛ دَبّ اليهـا دبيبَ الصِّـلّ

(١) المغاء : صياح الهر ، كالمغو .

(٢) فى كلا الأصلين : «وتصعدت» بتقديم العين على الدال ؛ وهو تحريف .

(٣) يسوف ، أى يشم .

(٤) فى كلا الأصلين ؛ « تمرق » بالقاف ؛ وهو تحريف ؛ ولم ترد هذه العبارة فى مباهج الفكر .

(٥) الخشاش بالكسر ، وقد يفتح : الهوام والحشرات وما أشبهها .

(٦) فى مباهج الفكر زيادة على ما هنا ، فقـد جاء فيه : « حيث يجد لها عبثا ، أو يعلم لهـا لبثا أو يسمع » إلى آخر ما هنا .

(٧) الخبيب : المشى السريع ؛ والذى فى كلا الأصلين «صيبا» ؛ ولم نجد له معنى يناسب السياق .

(٨) فى مباهج الفكر : «من شياطينها» بصيغة الجمع .

(٩) فى كلا الأصلين : «يستوفى» ؛ والفاء زيادة من الناسخ .

وٱمتدّ إليها ٱمتـدادَ الظِّلّ ؛ ثم وَثب فى الحِين عليها [وجَلَب الحَيْنَ اليها](١)؛ فأثخنهـا جراحا ، ولم يعطِها بَراحا ؛ فصاحت من شـدّة أسره ، وقوّة كسره ؛ وكلّمـا كانتْ صيحتُها أمدّ، كانت قبضتُه عليها أشـدّ، حتّى يستأصِلَ أوداجَها فَـرْيا، وعظامَها بَرْيا، ثم يدعُها مُخرجةَ الذِّماء(٢)، مضرَّجةً بالدّماء؛ وان كان جُرَذا مُسِنّا ، لم يضع عليه سِنّا ؛ وإن كان دِرصا(٣) صغيرا فغَرَ عليه فاه، وقَبَض مترفِّقا على قفاه؛ ليزدادَ منه تشهّيا وبه تلهّيا؛ ثم تلاعَبَ به تلاعبَ الفُرسانِ بالأعنّة، والأبطالِ بالأسنّة؛ فإذا أوجَعه عضّا، وأوعبه(٤) رَضّا؛ أجهَز فى الفَورِ عليه، وعَمد بالأكل اليه؛ فٱزدَرد منه أطيبَ طُعْمَه، وٱعتدّه أهنأَ نعمَه؛ ثم أظهَرَ بالٱلتعاق(٥) شكرَه، وأعمَلَ فى غيره فكرَه؛ فرجع إلى حيث أثارَه، ويتبَع(٦) فيه آثارَه؛ راجيا أن يجدَ فى رِباعِه، ثانيا من أتباعِه، فيُلحقَه بصاحبه فى الرَّدَى، حتّى يفنىَ جميع العُـدى؛ وربّمـا ٱنحرف عن هـذه العوائد(٧)، وٱلتقط فُتاتَ الموائد(٨)، بِلاغا(٩) فى الاحتماء، وبِرًّا بالنّعماء، فمـالَه على خصـالِه ثمن(١٠)، ولا جاء

(١) لم ترد هذه العبارة فى (ا) .

(٢) الذماء بالفتح : بقية الروح ، وفى كلتا النسختين «الدما» بالدال ؛ وهو تصحيف ؛ ولم ترد هذه العبارة فى مباهج الفكر . (٣) الدرص بالكسر — وهى اللغة الفصحى — : ولد الفأر .

(٤) أوعبه ، أى عمه وٱستقصاه .

(٥) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة : «التعقه التعاقا» ؛ والذى وجدناه : «لعقه لعقا» .

(٦) كذا فى مباهج الفكر؛ والذى فى كلا الأصلين : « وسمع » ؛ وهو تحريف ، إذ الآثار لاتسمع وإنما تتبع .

(٧) أورد صاحب المصباح هذا الجمع ضمن الجموع التى تجمع عليها « عادة » ؛ ولم نجـده فى غيره من كتب اللغة التى بين أيدينا .

(٨) فى كلا الاصلين : « الوائد » بسقوط الميم ؛ وهو تحريف .

(٩) البلاغ بكسر الباء : مصدر « بالغ فى الامر » ، اذا اجتهد فيه ولم يقصر .

(١٠) يريد بهذه العبارة أن الخصال المحمودة التى فيه انمـا يدعوه اليها البرّ والوفاء لمن هو عندهم ، لا يأخذ عليها جزاء .

بمثاله زمن؛ وقد أوردتُ — أعزّك الله — من وصفه فصلا مُغربا، وهزلا مُطربا؛ إخلاصا من الطويّة وآسترسالا، وتسريحا للسجيّة وإرسالا، على أنّى لو آستعرت فى وصفه لسانَ أبى عُبَيْد[1]، وأظهرتُ فى نعته بيانَ أبى زُبَيْد[2]؛ ما آنتهيتُ فى النطق إلى خطابك، ولا آحتويتُ فى السّبق على أقصابك؛ والله يبقيك لثمر النُّبل جانيا، ولدَرَج الفضل بانيا.

وقال آبن طَباطَبا يصف هرّةً بلقاء:

فتنتْنى بظلمةٍ وضياءٍ * إذ تبدّت بالعاج والآبنُوس
تَتلقّى الظلامَ من مقلتيها * بشعاعٍ يَحكى شعاعَ الشُّموس
ذاتُ دَلٍّ قصيرةٌ كلّما قا * مت تهادت، طويلةٌ فى الجلوس
لم تزل تُسبِغ الوضوءَ وتُنْقِى * كلَّ عضوٍ لها من التنجيس
دأبُها ساعةَ الطهارة دفنُ الـ * ـعنبر الرَّطبِ فى الحَنوط اليَبيس[3]

(١) لعل المراد بأبى عبيد هنا: القاسم بن سلام اللغوى المعروف، وقد اشتغل أبو عبيد هذا بالحديث والأدب، وكان متفننا فى أصناف علوم الاسلام من القراءات والعربية والأخبار وحسن الرواية صحيح النقل، وله كتاب (الغريب المصنف) (والأمثال) (ومعانى الشعر)، وغير ذلك من الكتب النافعة؛ ويقال: إنه أول من صنف فى غريب الحديث؛ وكانت ولادته فى سنة خمسين ومائة؛ وقيل فى سنة أربع وخمسين ومائة، وكانت وفاته فى المحرّم سنة اثنتين وعشرين أو ثلاث وعشرين ومائتين، اهـ ملخصا من وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٩ طبع المطبعة الميمنية. أو لعل صوابه «ابن عبيد» والمراد به عمرو بن عبيد بن وهب، ويعرف بالحزين من بنى نانة، وهو شاعر حجازىّ مطبوع من شعراء الدولة الأموية، وكان ذرب اللسان يتكسب بالشر وهجاء الناس، وليس من فحول طبقته، وكان خبيثا ساقطا، يرضيه اليسير انظر ترجمته فى الأغانى ج ١٤ ص ٧٦ طبع بولاق والوافى بالوفيات جزء ٥ قسم ٣ ورقة ٥٢٦

(٢) يريد أبا زبيد الطائى، وهو حرملة بن المنذر بن معد يكرب بن حنظلة، وهو شاعر معروف من مخضرمى الجاهلية والاسلام، وكان نصرانيا، ومات على دينه، وهو معروف بوصف الآساد ونعتها فى شعره.

(٣) يريد بهذا البيت: أنها تدفن رجيعها فى التراب إخفاء لرائحته؛ وقد تقدّم فى ص ٢٨٤ من هذا السفر أن ذلك من عادات الهرّة وطبائعها.

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِىُّ من أبيات ــ وذَكَرَ الجُرْذان[1] ــ :

ذاد همّى بهنّ[2] أَورقُ[3] تُـــركىُّ[4] * السِّـــبالَين أنمَـــرُ[5] الجلبـابِ

ليثُ غابٍ خَلْقا وخُلْقا فمن عا * ينَـــه قال : إنّـــه ليثُ غابِ

قنفُـــذٌ فى أزبرارِه[6] وهـــو ذئبٌ * فى اغترارٍ[7] وحيّـــةٌ فى انسيابِ

ناصب طـــرفَه إزاءَ الـــزّوايا * وإزاء السّـــقوفِ والأبـــوابِ

يَنتضِى الظُّفْرَ حين يَظفَر فى الحر * ب وإلا فظُفْـــرُه فى قِـــرابِ

يسحب الصّـــيدَ فى أقلّ من الدّ * ح ولو كان صـــيدُه فى السحابِ

ومنهـــا[8] :

قـــرّطـــوه[9] وقـــلّدوه وعالـــو[10] * ه أخـــيرا وأوّلا بالخضـــاب

(١) ضبط صاحب التاج هذا اللفظ بضم الجيم ضبطا بالعبارة، ثم نقل عن الزمخشرىّ أنه بالكسر ؛ وضبطه صاحب المصباح بالكسر أيضا ؛ ولهذا ضبطناه بالوجهين .

(٢) بهن، أى بالجرذان .

(٣) الأورق ، هو الذى فى لونه سواد فى غبرة كلون الرماد ؛ وفى كلا الأصلين « أزرق » ؛ وهو تحريف .

(٤) تركى السبالين ، أى أبيضهما ، والسبالان : تثنية سبال ، والسبال : جمع سبلة بالتحريك ، وهى ما على الشارب من الشعر، أو هى طرفه .

(٥) الأنمر، هو الذى فى لونه نمر، أى نكت من ألوان مختلفة .

(٦) كذا فى مباهج الفكر ؛ والذى فى كلا الأصلين : « فى ازبواره » بالواو ؛ وهو تحريف ، والمراد بالأزبرار : الازبئرار وإنما حذف الهمزة هنا لضرورة الوزن ، إذ لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال : « ازبرّ ازبرارا » ، والذى وجدناه : الأزبئرار، وهو انتفاش الشعر حتى تظهر أصوله .

(٧) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : « فى افترار » بالفاء ؛ وهو تحريف ، إذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق ؛ والاغترار : الإتيان على غرة، أى غفلة .

(٨) لم ترد هذه الكلمة فى (أ) .

(٩) قرطوه ، أى ألبسوه القرط ، وهو معروف ؛ والذى فى كلا الأصلين : «قرطقوه» ؛ والقاف الأخيرة زيادة من الناسخ .

(١٠) فى كلا الأصلين : « وغالوه » بالغين المعجمة ؛ وهو تصحيف ، إذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق .

فهو طورا يبدو بنحر عروس * وهو طورا يمشى على عُنّابِ
حبّذا ذاك صاحبا فهو فى الصحـ * ـبة أوفَى مِن سائر الأحبابِ

وقال أبو بكرِ بنُ العلّاف يرثى هرّا — ، وقد قيل: إنما رثى بها ابنَه، لأنه تعرّض إلى حريم بعض الأكابر فاغتالوه وقتلوه؛ وقيل: بل رثى بها عبدَ الله بنَ المعتزّ، ووَرّى بهِرٍّ خوفا من المقتدر بالله[1]، فقال:

يا هرُّ فارقتنا ولم تَعُدِ * وكنتَ منّا بمنزل الولدِ
وكيف ننفكّ عن هواك وقد * كنتَ لنا عُدّةً من العُدَدِ
تمنع عنّا الأذى وتحرسُنا * بالغَيب من خُنفس[2] ومن جُرَدِ[3]
وتخرج الفأرَ من مكامنها * ما بين مفتوحِها إلى السُّدُدِ[4]
يلقاك فى البيت منهمُ عَدَدٌ[5] * وأنت تلقاهمُ بلا عَدَدِ
وكان يجرِى — ولا سَدادَ لهم — * أمرُك فى بيتنا على سَدَدِ
حتى اعتقدتَ الأذى لجيرتِنا * ولم تكن للأذى بمعتقِدِ
وحُمْتَ حول الرّدى بظلمهمُ * ومن يَحُمْ حول حوضه يَرِدِ
وكان قلبى عليك مرتعِدا * وأنت تنساب غيرَ مرتعِدِ

(١) ذكر الصفدىّ فى «نكت الهميان» ص ١٤٢ بعد ان أورد هذه القصيدة أنه شديد التعجب ممن يزعم أن هذه القصيدة رثى بها غير هرّ .

(٢) فى رواية «من حية» انظر حياة الحيوان ج ٢ ص ٣٢٠ طبع المطبعة الميمنية بمصر ووفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٨ طبع المطبعة الميمنية أيضا .

(٣) سياق البيت يدل على أنه يريد بالجرد : الجرذ بالذال المعجمة، وهو الذكر من الفئران، فأبدل أحد الحرفين من الآخر لضرورة القافية؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة نصا على هذا الإبدال فى هذه الكلمة .

(٤) «إلى السدد»، أى إلى المكامن ذوات السدد، والسدد بضمتين : جمع سداد بكسر السين ككتب وكتاب، وهو ما يسدّ به الشىء .

(٥) فى رواية «مدد» بالميم فى كلتا الكلمتين؛ والمعنى يستقيم عليها أيضا انظر حياة الحيوان ج ٢ ص ٣٢٠ طبع المطبعة الميمنية بمصر ووفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٨ طبع المطبعة الميمنية أيضا .

تـدخُل بُرجَ الحمـام متئـدا * وتُخرِج الفـرخَ غيرَ متئـدِ
وتطرح الرِّيشَ فى الطريق لهم * وتبلـعُ اللحـمَ بلعَ مُزدردِ
أطعمـك الغىُّ لحمَهـا فـرأى * قتلَك أربابُهـا من الرَّشَـد
كادُوك دهـرا فمـا وقعتَ وكمْ * أفلتَّ من كيـدهم ولم تُكَدِ (١)
حـتى إذا خاتلوك وٱجتهـدوا * وساعدَ النفسَ كيـدُ مجتهـدِ (٢)
صادوك غيظا عليك وٱنتقموا * منك وزادوا ومن يَصِدْ يُصَدِ
ثم شـفَوا بالحـديد أنفسهم * منـك ولم يربعـوا على أحدِ (٣)
لم يَرحموا صوتَك الضعيفَ كما * لم تَرثِ منها لصوتهـا الغـرِدِ
فحين كاشـفتَ وانتهكتَ وجا * هرتَ وأسرفتَ غيرَ مقتصـدِ (٤)
أذاقك الموتَ من أذاق كما * أذقتَ أطيـارَه يـداً بيـدِ (٥)
كأنهـم يقتـلون طاغيـةً * كان لطاغُوتِه من العُبُـدِ (٦) (٧)

(١) هذا اللفظ يحتمل أن يقرأ بفتح التاء، أى ولم تكد تفلت؛ والمعنى أنه كان يوشـك أن يقع فى مكايدهم؛ وبضم التاء، أى ولم يكيدوك .

(٢) فى رواية « النصر » مكان قوله : « النفس » ، وهى أظهر انظر حياة الحيوان ووفيات الأعيان .

(٣) لم يربعوا، أى لم ينتظروا ولم يمهلوا .

(٤) كاشفت، أى كاشفتهم بالعداوة؛ وقد ورد هذا البيت فى وفيات الأعيان قبل قوله : «صادوك» وهو البيت الخامس عشر من هذه القصيدة، وهو مستقيم الوضع فى كلا المكانين؛ ورواية وفيات الأعيان : « فحين أخفرت وانهمكت وكاشفت » الخ وأخفرت، أى نقضت العهد .

(٥) فى رواية « ربهن » ؛ والمعنى يستقيم عليها أيضا وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩٥ طبع بولاق .

(٦) فى كلا الأصلين « كانت لطاغوتها » بصيغة المؤنث؛ والصواب ما أثبتنا، إذ التاء فى الطاغية ليست للتأنيث، وانما هى للمبالغة فى الوصف بالطغيان .

(٧) العبد بضمتين : جمع عبد .

فلو أكبّوا على القَرامِطِ (١) أو * مالوا على زكرويه (٢) لم يَزِدِ
يا من لذيذُ الفراخ أوقعه * ويحك هلّا قنعتَ بالقِدَدِ (٣)
ما كان أغناك عن تسوُّرِك الـ * بُرجَ ولو كان جنّةَ الخُلُدِ
لا بارك الله فى الطعام إذا * كان هلاك النفوس فى المَعِدِ
كم أُكلةٍ داخلتْ حَشا شَرِهٍ * فأخرجتْ روحَه من الجسدِ
أردت أن تأكل الفراخ ولا * يأكلك الدهر أكلَ مضطهِدِ
هذا بعيدٌ من القياس وما * أعزّه (٤) فى الدّنوّ والبُعُدِ

(١) القرامط والقرامطة : طائفة مشهورة من الزنادقة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك ومانى ؛ وكانوا يبيحون المحرمات ، وكان ابتداء أمرهم فى سنة مائتين وثمان وسبعين راجع عقد الجمان للعينى فى حوادث هذه السنة ، ومن هذه الطائفة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى ، وهو الذى أظهر مذهبهم ؛ وكان دقاقا فنفى عن بلده (جنابة) ، فخرج إلى البحرين وأقام بها تاجرا ، وجعل يستميل العرب بها ويدعوهم إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها ، وقتل سنة إحدى وثلثمائة ؛ ثم ولى الأمر بعده ابنه أبو طاهر سليمان ، فكان من قتله حجاج بيت الله الحرام وانقطاع طريق مكة فى أيامه بسببه والتعدّى فى الحرم وانتهاب الكعبة ونقله الحجر الأسود الى القطيف والأحساء من أرض البحرين ماقد اشتهر ذكره ، وقد بقى الحجر الأسود عندهم إحدى وعشرين سنة ، ثم ردّ ببذول بذلت لهم . وقد استوفى الطبرى وابن الأثير وغيرهما أخبار هذه الطائفة فى كتبهم فارجع اليها وانظر معجم البلدان فى الكلام على «جنابة» بتشديد النون ، وتاج العروس (مادة جنب) .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى قسم ٣ ص ٢١٢٧ ، ٢١٣٠ ، ٢٢١٧ وغيرها من المواضع ، والذى فى كلا الأصلين : «ذكرويه» بالذال ؛ وهو تحريف ؛ وزكرويه هذا ، هو ابن مهرويه ، كان من دعاة قرمط .

(٣) يريد بالقدد : القطع اليسيرة التى تلقى إليه من فضول الطعام من اللحم وغيره ، واحدها قدّة بكسر أوّله وتشديد ثانيه ؛ والذى فى كلا الأصلين ووفيات الأعيان : «الغدد» بالغين ؛ وهو تحريف إذ لم تجد من معانيه ما يناسب السياق .

(٤) كذا فى وفيات الأعيان ؛ والمعنى ما أقل حصوله ؛ والذى فى كلا الأصلين «أقربه» ؛ وهو تحريف اذ لا يناسب معناه سياق البيت .

ولم تكن لى بمن دهاك يدٌ * تقوى على دفعـــه يدَ الأبـدِ (١)

ولا تبـيَّنَ حَشْـوُ جلدك عِنـ * ـد الذّبح من طاقةٍ ومِن جَـلَدِ (٢)

كأنّ حبلا حَوَى ـ بجوزته (٣) ـ * جِيـدَك للذّبح (٤) كان من مَسَـدِ

كأنّ عيـنى تراك مضـــطربا * فيـــه وفى فيـك رُغْوةُ الزَّبَدِ

وقد طلبتَ الخلاصَ منـه فلم * تقـدرْ على حيـلةٍ ولم تَجِـــدِ ٥

فجُدتَ بالنفسِ والبخيلَ بهـا * كنتَ ومن لم يَجُـدْ بها يَجُـدِ (٥)

عشتَ حريصا يقـوده طمَـعٌ * ومِتَّ ذا قاتـــلٍ بـلا قَـــوَدِ

فمـا سمعنا بمثـــلِ مـوتِك إذ * مِتَّ ولا مِثـلِ عيشِـك النَّكِدِ

عشـــنا بخـير وكنتَ تكلؤنا * ومات جيرانُنـا من الحســـدِ

ثـــمّ تقلّبتَ فى فراخهـــمُ * وانقلب (٦) الحاسدون بالكمدِ ١٠

قـد انفـــردنا بمأتمٍ ولهـــم * بعـــدك بالعُرْسِ أىُّ منفـرَدِ

قـد كنتَ فى نَعمةٍ وفى سَـعةٍ * من المليـكِ المهيمنِ الصّـمدِ

---

(١) يد الأبد، أى الدهر كله .

(٢) فى كلا الأصلين « بعد » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق، إذ الطاقة والجلد إنما يتبينان عند المصيبة لا بعدها . ١٥

(٣) فى كلا الأصلين : «بجدته» وفى وفيات الأعيان وحياة الحيوان وغيرهما : «بجوذته» ؛ وهو تحريف فى جميع هذه المصادر؛ ولعل صوابه ما أثبتنا، أو لعله : «بحوذته» بالذال، أى بضمته، يقال : «أمر محوذ»، أى مضموم، كمحوز؛ ويقال : « أحوذ ثوبه »، أى ضمه إليـه، انظر اللسان مادة « حوذ » .

(٤) فى رواية : «للخنق»، وهى المناسبة للحبل انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩٥ طبع المطبعة الأميرية. ٢٠

(٥) يريد بهذه العبارة أن من لم يجد بنفسه طائعا جاد بها كارها .

(٦) فى كلا الأصلين «وانقلبت» ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا، ولم يرد هـذا البيت فى وفيات الأعيان .

تأكل من فأر بيتنا رغدا * وأين بالشاكرين[1] للرغدِ
قد كنتَ بدّدتَ شملَهم زمنا * فاجتمعوا بعد ذلك البَدَدِ
وفتّتوا الخبزَ فى السِّلالِ[2] فكمْ * تفتّتتْ للعيال من كبِدِ
فلم يبقُّوا لنا على سَبَدٍ * فى جوف أبياتنا[3] ولا لَبَدِ
وفرّغوا قعرَها وما تركوا * ما علّقتْه يدٌ على وَتِدِ
ومزّقوا من ثيابنا جُدُدا * فكلُّنا فى مصائبٍ جددِ
فاذهب من البيت خيرَ مفتقدٍ * واذهب من البُرج شرَّ مفتقدِ
ألم تخفْ وثبةَ الزمانِ وقد * وثبتَ فى البُرج وثبةَ الأسدِ؟
أخنَى على الدار فيه بالأمسِ[4] * ومن قبلها على لُبَدِ[5]

(١) كذا فى وفيات الأعيان وغيره، وقوله: «وأين بالشاكرين»، أى أين نعثر بالشاكرين، فالجار والمجرور متعلق بمحذوف كما هو ظاهر؛ ولا يجوز أن تكون الباء هنا زائدة، اذ لم نجد فيما راجعناه من الكتب ان هذا الموضع مما تجوز فيه زيادة الباء، بل إنه يستفاد من مغنى اللبيب ج ١ ص ١٠٢ أن زيادة الباء فى الخبر الموجب كما هنا موقوفة على السماع. والذى فى كلا الأصلين «وكنت للشاكرين بالرغد»؛ وهو تحريف إذ لا يظهر له معنى.

(٢) كذا فى وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩٦ وحياة الحيوان ج ٢ ص ٣٢١ والذى فى كلا الأصلين: «فى التلال» بالتاء؛ وهو تحريف.

(٣) فى كلا الأصلين: «أبوابنا»؛ وهو تحريف.

(٤) كذا ورد هذا البيت فى كلا الأصلين؛ وهو غير مستقيم الوزن، كما لا يخفى؛ ولم نجده فى المصادر التى وردت فيها هذه القصيدة، (كوفيات الأعيان) (ونكت الهميان) فى ترجمة أبى بكر بن العلاف (وحياة الحيوان) فى الكلام على الهرّ (وعقد الجمان) (وشذرات الذهب) فى الكلام على وفيات سنة ثمان عشرة وثلثمائة، وغير ذلك من المصادر الكثيرة؛ ولم نوفق إلى إصلاحه إصلاحا يقرب فى رسم ألفاظه من هذا الرسم الوارد فى كلا الأصلين على أن الشعر من الأمور التى يجب الاعتماد فيها على الرواية المنقولة، لا على الظن.

(٥) لبد: اسم نسر من نسور لقمان، وهى سبعة، ولبد هذا آخرها، وكان كل نسر منها يعيش ثمانين سنة، وعاش لقمان مقدار أعمار هذه النسور جميعها.

ولم يدعْ فى عِراصِـــها أحدا * ما بين عَلياءِهـا إلى السَّـنَدِ (١)
عاقبـةُ البغِى لا تَنـام وإن * تأخرتْ مدّةً من المُـدَدِ
من لم يُمت يومَـه يمُتْ غدَه * أو لا يمُتْ فى غدٍ فبعـدَ غدِ
والحمـد لله لا شريك لـه * فكلُّ شىءٍ يُرَى إلى أمـدِ

وفيـه (٢) أيضا :

يا هرُّ بعتَ الحـقَّ بالباطِلِ * وصرتَ لا تُصـغِى إلى عاذِلِ
إذا أتيتَ الـبرجَ من خارجٍ * طارت قلوبُ الطّير من داخِلِ
علمـا بمـا تَصنع فى بُرجِهـا * فهى على خوفٍ من الفـاعِلِ
قد كنت لا تَغفُل عن أكلِها * ولم يكن ربُّـك بالغـافِلِ
فانظر إلى ما صـنَعتْ بعد ذا * عقـوبةُ المـأكول بالآكلِ
مازلتَ يا مسكينُ مسـتقتلا * حـتّى لقـد مُنيتَ (٣) للقـاتِلِ
قد كنتَ للرحمـة مسـتأهِلا * إذ لم أكن منك بمسـتاهِلِ

وقال أيضـا :

يا رُبَّ بيـتٍ ربُّـه * فيـه تَضايَق مسـتقَرُّه
لمّـا تَكاثَر فـأرُه * وجفاه بعد الوصل هِرُّه

(١) العلياء والسند : موضعان ورد ذكرهما فى شعر النابغة الذبيانى ، قال :

يا دار ميـة بالعلياء فالسند * أقوت وطال عليها سالف الأمد

والسند بالتحريك : ماء لبنى سعد ، كما فى معجم البلدان ؛ ولم يرد فيه تعيين لموقع العلياء .

(٢) كذا فى (أ) والذى فى (ب) : « وقال » ؛ ولعل صواب العبارة « وقال فيه أيضا » ، جمعا بين ما ورد فى كلتا النسختين .

(٣) منيت للقاتل : أى جعل قتلك أمنية له ، يقال : «مناه الشىء ومناه به» : اذا جعله أمنية له والذى فى الأصول : «عينت» ؛ وهو تحريف .

وسَعى إلى بُرجٍ آمرئٍ * فيه الفراخُ كما يسـرُّه.
ظَنَّ المنافعَ أكلَها * فإذا منافعُها تضـرُّه.

ذكر ما قيل فى الخنزير

والخنزيرُ مشترَكٌ بين السَّبُعيّة والبهيميّة، فالذى فيه من السَّبُعيّة الناب، وأكلُ الجِيَف؛ والذى فيه من البهيميّة الظِّلْف، وأكلُه العشب والعَلَف؛ والخنزيرُ موصوفٌ بالشَّبَق وكثرةِ السِّفاد، حتى إنّ الأنثى يركبها الذّكر وهى تُرْجِع[1]، فربّما قطعتْ أميالا وهو على ظهرِها، ويَرَى الرائى أثرَ ستّةِ أرجلٍ ممّن لا يَعرِف ذلك، فيَظُنّ أنّ فى الدّوابّ ماله ستّةُ أرجل؛ والخنزيرةُ تضع عشرين خِنْوصا[2]، وتَحمِل من ماء واحد[3]، وتضع لمضىّ ستّةِ [أشهرٍ][4] من حَمْلِها؛ وقال الجاحظ: إنّها تضع فى أربعة أشهر؛ والخنزيرُ ينزو إذا تمّت له ثمانيةُ أشهر، والخنزيرةُ إذا تمّت لها ستّةُ أشهرٍ اشتهت السِّفاد، ولكن لا تجىءُ أولادُها كما يريدون[5]؛ وأجودُ النزوِ أن يكون ذلك منه وهو ابنُ عشرة أشهرٍ إلى ثلاثِ سنين؛ وإذا كانت الخنزيرةُ بِكرا وَلدتْ جِراءً ضعافا[6]

(١) ترجع، أى تروث.

(٢) فى (أ) «حنوصا» بالحاء وفى (ب) «جنوصا» بالجيم؛ وهو تصحيف فى كلتا النسختين.

(٣) عبارة مباهج الفكر «من نزوة واحدة».

(٤) فى كلا الأصلين: «لمضىّ سنة من حملها»؛ وفى هذه العبارة تصحيف ونقص؛ وما أثبتناه عن مباهج الفكر وحياة الحيوان ج ١ ص ٢٦٣ طبع المطبعة الميمنية بمصر.

(٥) يريدون، أى يريد أصحابها.

(٦) كذا فى الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٩ ؛ طبع مطبعة السعادة؛ والذى فى كلا الأصلين: «صغارا»؛ وهو تحريف، فان هذا الوصف وإن استقام معناه، إلا أنه غير مفيد، إذ الجراء حين الولادة لا تكون إلا صغارا.

وكذلك البِكرُ من كلِّ شيء، وإذا بلغت الخِنزيرةُ خمسةَ عشرَ سنةً لا تلد بعدها، وهى أنسلُ الحيوان، والذّكرُ أقوى الفحول على السِّفاد، وأطولُها مكثا فيــه؛ ويقال: إنه ليس شيء من ذوات الأنياب ما للخِنزيرِ من القوّة فى نابِه، وربّما طال ناباه[1] حتّى يلتقيا، فيموتَ عند ذلك جوعا، لأنّهما يمنعانه من الأكل، وهو متى عضّ كلبا سقط شعرُ الكلب، وإذا أراد محاربةَ الأَسَــدِ جرّب نفسَه قبل الإقدام عليه بأن يضرب شجرةً بنابِه، فإن قطعها حارب الأسدَ، وإلا هرب منه ولم يقاتله؛ وأخبرنى من رآه وقد جرّب نفسَه فى شجرةٍ وضربها بأنيابِه، فتمكّنتْ أنيابُه منها وثبتتْ فيهــا، فأراد الخلاص فعجَز، فجاء الأسدُ إليه وهو على تلك الحالة فافترسه؛ قالوا: ويَعترِى ذكورَه داءُ الحُلاق[2] واللِّواط، فربّما يُرَى الخِنزيرُ وقد ألجأه أكثرُ من عشرين خِنزيرا إلى مِضيق، ثم يغزو عليه الأمثلُ فالأمثل، إلى أن يبلغَ آخرهم؛ والخِنزيرُ إذا قُلعتْ إحدى عينيه هلك عاجلا؛ ويقول الأطبّاء: إنه متى فسد من عظامِ الإنسان عظمٌ ووُضِع فى مكانه عظمٌ من عظام الخِنزير قبلتْه الطبيعةُ ونبت عليه اللّحم؛ وحكى أَرِسطو أنّ عُمرَ الخِنزيرِ من خمسةَ عشر سنةً إلى عشرين سنة؛ وقلّما ذَكر الفضلاءُ والشعراءُ الخِنزيرَ فى رسائلهم وأشعارِهم، وسأثبت فى هذا الموضع ما وقفتُ عليــه فى هذا المعنى.

(٢٢)

(١) فى كلا الأصلين «أنيابه» بصيغة الجمع؛ وهو تحريف؛ والكلام الآتى بعد يقتضى صيغة التثنية كما أثبتنا وانظر مباهج الفكر.

(٢) فى كلتا النسختين: «الخلاف»؛ وفى مباهج الفكر: «الخلاق»؛ وهو تصحيف فى هذه المصادر الثلاثة، إذ لم نجد من معانى هاتين الكلمتين ما يناسب السياق؛ والحلاق: صفة سوء يدل سياق الكلام الآتى بعد على المراد بها.

ذكر ما وصف الخنزير

فمن ذلك ما كتب به عطاء بنُ يعقوبَ الغَزْنوىُّ يعرِّض فيها بقاض، قال منها: وما مَثَلُ فلانٍ فى ٱستنابته[1] إلا كمَثَلِ رجلٍ رأى فى المنام أنّه يضاجع خِنزيرا، فبكَر إلى المعبِّر ليعبِّر منامَه تعبيرا؛ فقال المعبِّر: يابرذعة الحَمير، ما غرّك بالخنزير؟ أَلِيُن مَلْمَسه، أم حسنُ[2] مَعْطِسه؛ أم شَكلُه الرّشيق، أم طَرْفُه العشيق[3]؛ أم لقاؤه البَهِج، أم قِباعُه[4] الغَنِج؛ أم شعرُه الرَّجِل، أم ثغرُه الرَّتِل[5]؟ .

وقال القاضى [محيي الدّين بنُ] عبد الظاهر فى الخنزير:

وخنزيرٍ له نابٌ تراه * اذا عَنّ ٱفتراسُ غيرَ نابِى
كمثلِ الكلبِ لا بلْ منه أجرا[6] * ويحقر أن يشبَّه بالكلابِ
فذاك لنَخوةٍ يُعزَى وهذا * يقلِّل نَخوةَ الرجلِ المُهابِ
بنَصٍّ للكتاب غدا حراما * وحلَّل أكلَه أهلُ الكتابِ

(١) استنابته، أى جعله نائبا فى القضاء.

(٢) فى كلا الأصلين: «أو»؛ وقواعد اللغة تقتضى ما أثبتنا.

(٣) يريد بالعشيق: المعشوق، فعيل بمعنى مفعول.

(٤) فى كلتا النسختين ومباهج الفكر: «قناعه» بالنون؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا، والقباع بكسر القاف: نخير الخنزير.

(٥) الرتل بفتح التاء وكسرها من الثغور: الحسن التنضد، الشديد البياض، الكثير الماء، المستوى نبات الأسنان.

(٦) أجرا، أى أجرأ.

القسم الثـانى من الفنّ الثـالث فى الوحوش والظّباء وما يتّصل بها من جنسها، وفيه ثلاثة أبواب

البـاب الأوّل من هـــذا القسم فيما قيـــل فى الفيـــل والكَرْكَدَّنِ والزَّرافة والمهَـا والإِأْيَّل

ذكر ما قيل فى الفيل

٥

يقال : إنّ الفيلَ مولَّدٌ بين الجاموس والخنزير، ولذلك يزعم بعضُ من بحث عن طبائع الحيوان أنّ الفِيَلَةَ مائيّةُ الطباع بالجاموسيّة والخنزيريّة اللّتين فيها، وبعضُها يسكن المـاء، وبعضُها لا يسكنه؛ ويقال : إنّ الفِيَلَةَ صنفان : فيل، وزَنْدَبِيل[1]، وهما كالبُخْت والعِراب، والبقرِ والجاموس، والخيلِ والبَراذين، والفَأْر والجُرْذان، والنملِ والذَّرّ؛ وبعضُهم يقول : إنّ الفيلَ الذّكَر، والزَّنْدَبِيلَ[1] الأنثى؛ وقال بعضهم : إنّ الزَّنْدَبِيلَ[1] هو عظيم الفِيَلةِ والمقدَّمُ عليها فى الحرب، وفيه يقول بعض الشعراء :

١٠

ذاك الذى مِشفَرُه طويلُ * وهو من الأفيال زَنْدَبِيـلُ[1]

وقال آخر :

* وفيلُه كالطَّودِ زَنْدَبِيـلُ[1] *

وقال آخر :

١٥

* من بين أفيالٍ وزَنْدَبِيلِ[1] *

(١) فى كلا الأصـلين ومباهج الفكر : « وزندفيل » بالفاء؛ وهو تحريف صـوابه ما أثبتنا، كما فى كتب اللغة .

وخُرطومُ الفيل أنفُـه، وبه يوصل الطعامَ والشرابَ إلى فيـه، وبه يقاتِل وبه يَصيح، وليس صوتُ الفيل على مقدارِ جثّته؛ ولسانُه مقلوب، طَرَفُه إلى داخل فيه، وأصلُه خارج، وهو على العكس من سائر الحيوانات؛ والهندُ تزعم أنّه لولا ذلك لتكلّم، وهم يعظّمون الفِيَلَة ويشرّفونها على سائر الحيوانات؛ والفيلُ يتولّد فى أرض الهند والسِّند والزِّنج، وبجزيرة سَرَنديب(١)؛ وهو أعظمُها خَلْقا، وينتهى فى عِظم الخَلْق الى أن يبلغ فى الارتفاع عشرة(٢) أذرع؛ وفى ألوانها الأسودُ والأبيضُ والأبلقُ والأزرق؛ وهو اذا اغتلم أشبه الجمل(٣) فى ترك المـاء والعَلَف حتى ينضمّ(٤) إبطاه، ويَتورّم رأسُه، وربّمـا استوحَش لذلك بعد استئناسه، والفيـل ينزو إذا مضى له من العمر خمسُ سنين، والأنثى تحمِـل سنتين، وإذا حَملت لا يَقربهـا الذَّكر، ولا ينزو عليها إذا وَضعت إلّا بعد ثلاث سنين، ولا ينزو إلّا على فيلةٍ واحدة، وله عليها غَيْرةٌ شديدة؛ وإذا أرادت الفيلةُ أن تضع دخلت النهرَ فتضع ولدَها فى المـاء، لأنّها تلد قائمة؛ والذكرُ يحرسها ويحرس ولدَها من الحيّات، وذلك لعداوة بينهما؛ قالوا: وأنثيا الفيل داخلَ بدنه قريبا من كُلْيتيـه، ولذلك هو يَسفِد سريعا كالطير، لأنهما قريبتان من القلب فتنضحان المنىّ بسرعة؛ ويقال: إنّ الفيلَ يحقِد كالجمل؛ والهند يجعلون نابَى الفيل قَرْنيه، وفيها الأعقفُ والمستقيم؛ قال المسعودىُّ فى مروج الذهب: وربّمـا بلغ

(٢٣)

(١) سرنديب: جزيرة عظيمة فى بحر هركند، بأقصى بلاد الهند طولها ثمانون فرسخا فى مثلها (ياقوت).

(٢) أثبت التاء فى قوله: «عشرة» جريا على قول من يجوّز التذكير فى الذراع؛ وهو قليل؛ ولم يعرف الأصمعى التذكير فيها، وهى عند سيبويه أيضا مؤنثة لا غير، والتذكير هو مذهب الخليل، انظر تاج العروس؛ وقال فى المصباح: «إن بعض عكل يذكر الذراع».

(٣) فى كلا الأصلين: «الخيل»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، انظر حياة الحيـوان ج ٢ ص ١٨٨ ومباهج الفكر.

(٤) فى كلا الأصلين: «ينظم» بالظاء؛ وهو تصحيف.

النابُ الواحدُ منها خمسين ومائةَ مَنّ[1] ؛ ورأيت أنا من أنياب الفِيَـلة ما طولُه يزيد على أربعةِ[2] أذرعٍ ونصف ، وهو معقَّف ، شاهدتُ ذلك بمدينة قُوصَ فى سنة سبع وتسعين وستّمائة ، ورأيتُ فيها نابين أظنّهما أخوين بهـذه الصفة ، وهما معقَّفان ، وغلظُهما مناسبٌ لطولها ؛ والفيـلُ يحمل بنابيه على الجدارِ الوثيقِ فيهدِمُه ؛ ولم تزل ملوكُ غَزْنةَ[3] إلى سُبُكْتِكينَ ومن بعدهم من الملوك الغَزْنويّة تفتتح بالفِيَلة المُدُن ، وتَهدِم بصَدَماتها الحصون ، وأشهرُهم بذلك يمينُ الدّولة محمودُ بنُ سُبُكْتِكين ، على ما ستقف — إن شاء الله تعالى — عليه فى تاريخ الدّولة الغَزْنويّة ؛ والفيلُ سريعُ الاستئناس بالنـاس ؛ وفى طبعـه أنّه إذا سمع صوتَ الخنزير ارتاع ونفر واعتراه الفزع ؛ وقال المسعودىّ : إنّه لا يثبُت للهرّ ، وإذا رآه فرّ منه ؛ وقال : إنّ رجلا كان بالمُولْتان[4] من أرض الهنـد[5] يُدعَى هارونَ بنَ موسى مولى الأَزْد[6] ، وكان شاعرا شجاعا ذا رِياسةٍ فى قومه ومَنَعة بأرض السِّنْد مما يلى بلادَ المُولْتان[4] [وكان[7]] فى حصن له هناك ، فالتقى مع بعضِ ملوكِ الهند ، وقد قدّمت الهندُ أمامَها الفِيَلة ، فبرز هارونُ أمامَ الصفّ

(١) قيل فى المنّ : إنه رطلان .

(٢) أثبت التاء فى قوله : «أربعة» جريا على مذهب من يجوز تذكير الذراع ، وهو قليل ، والأكثر فى الذراع التأنيث ؛ ولم يعرف الأصمعى غيره ؛ والتذكير هو قول الخليل انظر تاج العروس .

(٣) ذكر ياقوت أن الصحيح عند العلماء فى هذا الاسم (غزنين) ، وأما غزنة فانها من ألفاظ العامة ويقال لمجموع بلادها : (زابلستان) ، وغزنة قصبتها ، وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان ، وهى الحدّ بين خراسان والهند ، وكانت منزلا لبنى محمود بن سبكتكين .

(٤) مولتان : مدينة من نواحى الهند على سمت غزنة ، ويسمى مرج بيت الذهب ؛ قال ياقوت : وأكثر ما يسمع فيه «ملتان» بغير واو ، وأكثر ما يكتب بالواو كما هنا .

(٥) فى مروج الذهب ج ٣ ص ١٤ طبع باريس «السند» .

(٦) يقال فى هـذا اللفظ الأزد بالزاى كما هنا ، وهو أكثر ؛ والأسد بسكون السين ، وهو أفصح ، وهو الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان .

(٧) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن مروج الذهب ج ٣ ص ١٤ طبع باريس .

وقَصَدَ عظيمَ الفِيَلة، وقد خبأ سِنَّوْرا تحتَ ثيابِه ؛ فلمّا دنا فى حَملتِـه من الفيل أبرز الهِرَّ له ، فٱنهزم الفيلُ وولّى عند مشاهدتِه للهِرّ، فٱنهزم الجيش وقُتِل الملكُ الهندىّ، ولهارونَ بنِ موسى قصـيدةٌ فى ذلك نذكرها — إن شاء الله تعالى — عنـد ذكر وصف الفيل ؛

٥ والفيـلُ إذا ورد المـاء الصافىَ كدّره قبل أن يشربه كعادة الخيل، وهو قليل الٱحتمالِ للبَرْد، واذا عام فى المـاء ٱستتركُّله إلّا خُرطومَه؛ ويقال : إنّه يصاد باللّهوِ والطربِ والزّينةِ وروائحِ الطِّيب ؛ والزُّنوجُ تصـيده بحيلةٍ غيرِ ذلك ، وهى أنّهـم يَعمِدون إلى نوعٍ من الأشجار ، فيأخذون ورقَه ولِحـاءَه ويجعلونه فى المـاء ٱلذى تشربه الفِيَلة، فاذا وردتْه وشربتْ منه سكِرتْ ، فتسقط إلى الأرض، ولاتستطيع

١٠ القيام ، فتقتلها الزُّنوجُ بالحِراب ، ويأخذون أنيابَها ويحملونها إلى بلادِ عُمانَ ، وتُنقَل منها إلى البلاد؛ وأمّا أهل النُّوبة فإنّهم اذا أرادوا صيـدَها للبَقاء عَمَدوا إلى طُرقِها الّتى تَرِد المـاء منها ، فيَحفِرون هناك أخاديدَ ويُسقِّفونهـا بالخشب الضعيف ، ويسترونها بالنبـات والتراب ، فاذا مرّ الفيلُ عليهـا ٱنكسرت به تلك الأخشاب الضعيفة، فيسقط فى الأُخدُود ، فعند ذلك يَتبادر اليه جمـاعةٌ من الرجال بأيديهم

١٥ العِصىُّ الرِّقاق، فيضربونه الضربَ الوجيع ، فاذا بلغ به الألمُ خرج اليهم رجلٌ منهم مغايرٌ للباسِهم ، فيضربهم، ويصرفهم عنـه، فينصرفون، ويقف هو بالقرب من الفيل ساعة، ثم ينصرف، فإذا أَبعَد وغاب عن الفيل رجع أولٰئك القومُ وعاوَدوا ضربَه حتى يؤلموه، فيعودَ ذلك الرجلُ فيريَه أنّه ضربهم، فيتفرّقوا عنـه ، يفعلون ذلك به أياما والرجلُ يؤانس الفيل، ويأتيه بالمأكل والمـاء حتّى يألَفَه ويقرُبَ منه،

٢٠ فيقال : إنّه ينام بالقرب منـه ، ويخرج أولٰئك، فإذا رآهم الفيل قـد أقبلوا أيقظه بخُرطومِه برِفق، وأشار اليه أن يردّهم عنـه، فيفعل على عادته ، فاذا عُلِم أنّ الفيل

ٱستأنس وزال ٱستيحاشُه وأَلِف ذلك الرجلَ، حفَروا أمامه بتدريج وتوطئة، فيَطلَع وقد سَلِسَ قيادُه، وزال عنادُه، ثم يحملونه فى المَرْكَب إلى الديار المصريّة فى جملة التَّقادِم(١) الموظَّفةِ عليهم؛

وبأرض الهند فِيَلَةٌ غيرُ وحشيّة تَستأنس إلى الناس، وتتناتج بينهم، ويقاتلون عليها فى حروبهم، فيجتمع للمَلِكِ الواحد من ملوك الهند منها عِدّةٌ كثيرة، وأكثرُها يأوِى المُروجَ والغِياضَ كالبقرِ والجاموس فى بلادِنا؛ قال المسعودىّ: وهى تهرُب من المكان الّذى فيه الكَرْكَدَّن، فلا تَرعى فى موضعٍ تَشُمّ فيه رائحتَه؛ وللفِيَلةِ بأرض الهند آفةٌ عظيمةٌ من الحيوان، وهو الّذى يُعرَف بالزبرق(٢) أصغرُ من الفَهْد، أحمرُ اللّون برّاقُ العينين، سريعُ الوثبة، يبلُغ فى وثبتِه إلى خمسين ذراعا وأكثر، فإذا أَشرَف على الفِيَلةِ رَشّ عليها ببولِه، فيُحرِقها، وربّما لحِق الإنسانَ فمات؛ وهذا الوحشُ اذا أَشرَف على أحد من أهل الهند ٱلتجأ إلى أكبرِ شجرِ السّاج، وٱرتقَى الى أعلاها، فيأتى هذا الوحشُ اليها ويَثِب، فإن أدركه رَشّ عليه ببولِه، فأحرقه وإن عجز عنه وضع رأسَه بالأرض وصاح صياحا عجيبا، فتخرج من فِمه قطع من الدّم، ويموت من ساعته، ويَحترِق من الشجرة ما يقع بولُه عليه؛ قالوا: وللهند طِيبٌ يجمعونه من جباه الفِيَلة ورءوسِها، فإنّها إذا ٱغتَلَمَتْ عَرُفَتْ(٣) هذه الأماكنُ

(٢٤)

(١) يريد بالتقادم: الضرائب التى يقدمونها الى السلطان فى كل سنة، وهى كلمة كان يستعملها كتّاب الدواوين فى عصر المؤلف، وقد ورد استعمالها كثيرا فى السفر الثامن من هذا الكتاب كما ورد فى غيره من الكتب.

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ومروج الذهب للمسعودى (ج ٣ ص ١١ طبع باريس) ولم نقف على ضبطه فيما لدينا من كتب اللغة ولا فى الكتب المؤلفة فى الحيوان؛ وقد سبق فى هذا السفر فى الكلام على البربر ذكر هذا السبع بأسم «الزبرقان» بزيادة ألف ونون، كما ورد ذلك فى نسخة مروج الذهب طبع مصر؛ ولم نقف على نص يرجح إحدى هاتين الروايتين فى هذا الأسم.

(٣) كذا ضبط هذا الفعل بضم الراء فى اللسان.

منها عَرفا كالمسك ، فهم يستعملونه لظهور الشَّبَق فى الرجال والنساء، وهو يقوِّى النَّفس، ويشجِّع القلب؛ قالوا : والفيل يَشِبّ إلى تمام ستّين سنة، ويُعمَّر مائتى سنة؛[وأكثر؛(١) وحَكَى أَرِسطو أنّ فيلا ظهر عُمرُه أربعمائةِ سنة؛ وحَكَى بعضُ المؤرِّخين أنّ فيلا سجد لأَبْرَوِيز، ثم سجد للمعتضِد، وبينهما الزمانُ الّذى ذكره أَرِسطو] واعتُبِر ذلك بالوَسْم؛ ووقفتُ على حكايةٍ تُناسب ما نحن فيه ، أحببتُ أن أثبتها فى هذا الباب ، وهى : حَكَى الامام الحافظ أبو نُعَيْم أحمدُ بنُ عبد الله الأصفهانىُّ فى كتابه الموسومِ (بحلية الأولياء)، قال : حدّثنا محمدُ بنُ الحسن، قال : حدّثنا عبدُ الوارث ابنُ بُكَيْر: أنّ أبا عبدِ الله القَلانسىّ ركب البحر، فعَصَفتْ عليهم الرِّيحُ فى مَرْكَبهم، فدعا أهلُ المَرْكَب وتضرّعوا، ونذَروا النُّذور، فقالوا : أَىْ عبدَ الله؛ كلُّنا قد عاهد اللهَ ونذَر نَذْرا إن أنجانا الله، فأَنذُر أنت نذرا، وعاهدْه عهدا؛ فقلت : أنا مجرَّدٌ من الدنيا ، مالى وللنَّذْر؛ فألحّوا علىّ فيه؛ فقلت : لله علىّ إن خلّصنى ممّا أنا فيه لا آكل لحمَ الفيل؛ فقالوا : ماهذا النّذر؟ وهل يأكل لحمَ الفيل أحد؟ فقلت: كذا وقع فى سرّى ، وأجراه الله على لسانى؛ فانكسرت السفينة، ووقعتُ فى جماعةٍ من أهلها الى الساحل، فبقينا أيّاما لم نذقْ ذَواقا، فبينا نحن قعودٌ إذا نحن بولَدِ فيل، فأخذوه فذبحوه وأكلوا من لحمِه، وعرضوا علىّ أكلَه، فقلت : أنا نذرت وعاهدت اللهَ أن لا آكلَ لحمَ الفيل، فاعتلّوا علىّ بأنّى مضطر، ولى فسخُ العهد لاضطرارى، فأَبَيتُ عليهم ، وثبتُّ على العهد ، فأكلوا وامتلأوا وناموا، فبينما هم نيامٌ إذ جاءت الفيلةُ تطلب ولدَها، وتتبع أثره، فلم تزل تَشُمّ الرائحةَ حتّى انتهت إلى عظام ولدِها، فشمّتها، ثم جاءت وأنا أنظر اليها، فلم تزل تَشُمّ واحدا واحدا، فكلّما شمّت من

(١) لم ترد هذه التكملة التى بين مربعين فى كلتا النسختين؛ وقد أثبتناها عن مباهج الفكر، إذ قوله بعد : «واعتبر ذلك» الخ متصل بما تضمنته هذه التكملة دون ما قبلها ، كما هو ظاهر .

واحدٍ رائحةَ اللحم داسته برجلها أو بيَدِها فقتلته ، حتّى قتلتهم كلَّهم ، ثم أقبلت الىّ ، فلم تزل تشُمّنى فلم تجد منّى رائحةَ اللحم ، فأدارت مؤخَّرَها وأومأت إلىّ بخُرطومِها أن آركبْ ؛ فلم أقف على ما أومأتْ به ، فرفعتْ ذنَبَها ورجلَها ، فعلمتُ أنّها تريد منّى ركوبَها ، فركبتها وآستويت عليها ، وأومأتْ إلىّ أن آستوِ ، فآستويت على شيءٍ وطىء ، فسارت سيرا عنيفا إلى أن جاءت بى فى ليلتى الى موضع زرعٍ وسواد ، فأومأتْ الىّ أن آنزلْ ، وبركتْ برجلِها حتّى نزلتُ عنها ، فسارت سيرا أشدَّ من سيرِها بى ، فلمّا أصبحت رأيت زرعا وسَوادا (١) وناسا ، فحملونى إلى مَلِكهم ، وسألنى تُرجُمانُه ، فأخبرته بالقصّة وبما جرى على القوم ، فقال لى : أتدرى كم المَسيرُ الّذى سارت بك اللّيلة ؟ فقلت : لا ، فقال : مَسيرةَ ثمانيةِ أيّام سارت بك فى ليلة ، فلبِثتُ عندهم إلى أن حُمِلتُ ورجعتُ ؛ والله أعلم بالصواب .

ذكر شىء مما وصف به الفيل نظما

من ذلك ما قاله الأَرّجانىُّ من أبياتٍ وصف فيها مجلسَ ممدوحه ، فقال :

والفيـــلُ فى ذيل السِّماط (٢) له * زَجَـــلٌ (٣) يُهال له الفتى ذُعْرا
فى موقف الحُجّاب يؤمَر أو * يُنهَى فيُمضِى النهىَ والأمرا
أُذُنان كالتُّرسين تحتهـــما * نابان كالرّمحين إن كرّا
يعـــلو له فيّالُه ظَهَـــرا (٤) * فيَظَلّ مِثـلَ من آعتلى قَصْرا

(١) يريد بالسواد : الريف . (٢) فى كلا الأصلين : «النماط» بالنون ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (أ) «رحل» وفى (ب) «رجل» وهو تصحيف فى كلتا النسختين ؛ والزجل : الصوت العالى والجلبة .

(٤) كذا فى كلا الأصلين ومباهج الفكر ؛ وتحريك الهاء فيه للوزن ؛ وفى ديوان الأرّجانى : «قصرا» بفتح أوّله وثانيه ، والمراد به : العنق ، وهذه الرواية الثانية هى أشبه بشعر الأرجانى لما فيها من الجناس بين هذا اللفظ وبين قوله فى آخر البيت : «قصرا» .

وقال عبد الكريم النَّهشلىُّ يصفه :

وأضخم هِنْدىّ النِّجارِ تُعِدّه * ملوكُ بنى ساسانَ إن نابها دهرُ
يجىء كطودٍ جائلٍ فوق أربعٍ * مضبَّرةٍ (١) لُمّت كما لُمّت الصَّخرُ
له فخذان كالكَثِيبَين لُبِّدا * وصدرٌ كما أوفَى من الهَضْبةِ الصدرُ
٥ ووجهٌ به أنفٌ كراووقِ خمرةٍ (٢) * يَنال به ما تدرِك الأنمُلُ العشرُ
وجُبّان (٣) لا يُروِى القَليبُ صداهما * ولو أنّه بالقاع مُنْهَرِتٌ (٤) حفرُ (٥)
وأُذْنٌ كنصف البُردِ تُسمعه النِّدا * خفيًا وطَرْفٌ ينفض العيبَ مُزْوَرُّ
ونابان شُقًّا لا يُريد سواهما * قناتَين سمراوَين طعنُهما بَتْرُ
له لونُ ما بين الصباح وليلِه * إذا نطق العصفورُ أوصوّت الصقرُ

١٠ وقال ابنُ طَبَاطَبَا :

أَعْجِبْ بفيلٍ آنسٍ وحشىٍّ * بهيمةٍ فى فطنة الإنسىِّ
يَفهمُ عن سائسه الهِنْدىِّ (٦) * غيبَ معانى رمزِه الخفىِّ
مثل السدى الموثَّقِ المبنىِّ (٧) * منزَّهٍ فى خُلْقِه السَّوِىِّ

(١) المضبرة : المجتمعة الموثقة ، وكذلك معنى قوله بعد : «لمت» إلى آخر البيت ؛ وفى كلا الأصلين
١٥ «مصيرة» ؛ وهو تصحيف .

(٢) الراووق : ناجود الشراب ، أى الإناء الذى يروّق فيه .

(٣) فى كلا الأصلين : «وحيتان» ؛ وهو تصحيف ؛ ويريد بالجبين : خرطومه وفمه .

(٤) المنهرت : الواسع .

(٥) الحفر : البئر الموسعة فوق قدرها .

٢٠ (٦) فى (ا) «شانه» وفى ب «سايه» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٧) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ؛ والذى فى مباهج الفكر «الدلى» ، وفى كلتا الكلمتين تحريف ، إذ لم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على معنى لهما يناسب سياق ما هنا ، كما أننا قلبنا حروفهما على وجوه كثيرة مما يحتمله الرسم الموجود فى هذه المصادر فلم نقف على ما نطمئن الى معناه منها .

عن لينِ مشيِ رُكُبِ المطىِّ * ذى ذنَبٍ مطوَّلٍ ثَـــوْرىِّ
فى مِثْـلِ رِدْفِ الجملِ البُخْتىِّ(١) * منخفضِ الصوتِ طويلِ العِىِّ
يَطُوف كالمزدجِرِ المَنهىِّ * يرنو بطرْفٍ منـه شـادِنىِّ(٢)
فى قبـحِ وجهٍ منـه خِنزيرىِّ * خُرطومُه كجَعْبـةِ التّركىِّ
حَكَى فمًا من سمكٍ بَحْـرىِّ * تُبصِـرُه فى فيـه ذا هُوِىِّ
كالدَّلو إذ تهوى إلى القَرِىِّ(٣) * يَصُبّ فى مصهرَجٍ مطوىِّ
ناباه فى هولها المخشـىِّ * كمِثْـلِ قرنَىْ ناطحٍ طُورِىِّ(٤)
أُذْناه فى صِبْغِهما الفضّـىِّ * كطَيلسانَىْ ولدَىْ ذِمّىِّ
سالسُـه عليـه ذو رُقىٍّ * منتصبٌ منـه على كرسىِّ
يطيعـه فى أمرِه المـأبىِّ * كطاعة القُرقُورِ(٥) للنوتىِّ(٦)

وقال آخرُ منشدا :

من يَرْكَب الفيلَ فهذا الفيلُ * إنّ الّذى يحمـله(٧) محمولُ
على تهاويلَ لهـا تهـويلُ * كالطَّود إلّا أنّه يجـولُ

(١) الجمل البختى ، هو الخراسانى ؛ وهذه الجمال تنتج ما بين عربية وفالج ، وهى طوال الأعناق ، وهذا اللفظ أعجمىّ معرّب .

(٢) الشادنىّ : نسبة إلى الشادن ، وهو من أولاد الظباء الذى قد قوى وترعرع وطلع قرناه وآستغنى عن أمه .

(٣) القرىّ : مسيل الماء من التلاع .

(٤) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : «طودى» بالدال ؛ وهو تحريف ؛ والطورى بضم الطاء : الوحشىّ .

(٥) القرقور : السفينة العظيمة .

(٦) فى كلا الأصلين : «للنوبى» بالباء ؛ وهو تصحيف .

(٧) فى رواية : «يركبه» انظر الحيوان ج ٧ ص ٥١

وقال ابن الرومى :

يقلّب جُثمانا عظيما موثّقا * يهُدّ بركنيه الجبالَ إذا زَحَمْ
ويسطو بخُرطوم يطاوِعُ أمرَه * ومشتبِهات(١) ما أصاب بها غَيْم(٢)
ولستَ ترى بأسا يقوم لبأسه * إذا أعمل النابين فى الباس أو صَدَمْ

٥ وقال هارون بنُ موسى مولى الأَزْد يصفه ويذكر خوفَه من الهِرّ :

أليس عجيبا بأن خِلقةً(٣) * لها فِطَنُ الإنسِ فى جِرمِ فِيلْ
وأظرفُ من مشيه زَوْلُه(٤) * بحِلمٍ يَجِلّ عن الخَنْشَليلْ(٥)
وأَوقَصُ(٦) مختلفٌ خَلقُه * طويلُ النُّيوب قصيرُ النَّصيلْ(٧)
ويلقى العدوّ بنابٍ عظيم * وجوفٍ رحيبٍ وصوتٍ ضئيلْ
١٠ وأشبهُ شيءٍ إذا قستَه * بخِنزيرِ برٍّ وجاموسِ غِيلْ
ينازعه كلُّ ذى أربَع * فما فى الأنام له من عديلْ

(١) يريد بالمشتبهات : أنيابه ، والمراد بالجمع هنا ما فوق الواحد ، إذ الفيل له نابان لا أنياب .

(٢) رواية مباهج الفكر وغيره من الكتب : « حطم » ؛ وهى أنسب بالسياق .

(٣) كذا فى الحيوان ج ٧ ص ٢٤ ، وقد ضبطناه بالرفع على الابتداء ، وآسم « أن » المخففة ضمير
١٥ الشأن ، كما تقتضيه القواعد ؛ والذى فى كلتا النسختين : « تلقه » ؛ وهو تحريف .

(٤) الزول : الحركة ، يقال : « رأيت شبحا ثم زال » ، أى تحرك (اللسان) .

(٥) الخنشليل : المسنّ الهرم ، يريد بهذا الشطر أن حلمه وترويه وتؤدته أجل وأعظم من حلم الشيوخ المسنين ؛ هذا ما يظهر لنا من معناه ؛ وقد ذكر الجاحظ فى الحيوان فى تفسير هذا اللفظ كلاما لم يعين فيه معنى الخنشليل تعيينا شافيا ، ولكنه ذكر أبياتا ورد فيها هذا اللفظ ولم يزد على ذلك ، فارجع اليه .

٢٠ (٦) الأوقص : القصير العنق .

(٧) النصيل : مفصل ما بين العنق والرأس من باطن ، أى تحت اللحيين .

وَيَعصِفُ بالبَبْرِ بعـد النُّمـور (١) (٢) * كما تَعصِفُ الريحُ بالعَنْدَبِيـلْ (٣)

وشخصٌ تُرَى يـدُه أنفَـه * فإن وصـفوه فسيفٌ صَقيلْ (٤)

وأقبلَ كالطَّود هادى الخَمِيس * بهَـولٍ شـديدٍ أمامَ الرَّعيـلْ

ومَرَّ يسـيل كسـيلِ الأتِىِّ (٥) * بوطءٍ خفيفٍ وجسمٍ ثقيـلْ

فإن شِمتَـه زاد فى هـوله * بشاعةُ أُذْنينِ فى رأسِ غُولْ ٥

وقـد كنتُ أعددتُ هِرَّاله (٦) * قليـلَ التَّهيُّبِ (٧) للزَّنْدَبِيـلْ (٨)

فلمّـا أحسّ بـه فى العَجاج * أتانا الإلٰه بفَتحٍ جليـلْ

فسبحانَ خالِقِـه وحده * إلٰهِ الأنام وربِّ الفُيـولْ

وقال أبو الحسن الجوهرىُّ يصف الفيلَ من قصيدته التى أوّلُها :

قـل للوزيرِ وقـد تَبـدَّى (٩) * يَستعرِضُ الكرَمَ المُعَـدَّا ١٠

(١) فى كلا الأصلين : « يعطف » فى كلا الموضعين ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى كلا الأصلين : « باليد بعـد النمّو » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين صوابه ما أثبتنا انظر الحيوان ج ٧ ص ٢٥

(٣) ذكر الجاحظ فى تفسير العندبيل أنه طائر صغير جدا ، والريح تعصف به لصغره ، فهو يعرف ذلك من نفسه ، فاذا قويت الريح دخل جحره ؛ ويقال فيه «عندليب» أيضا انظر الحيوان ج ٧ ص ٢٥ ، وقال ابن الأعرابى : هذا الطائر هو البلبل ؛ وقال الجوهرى : هو الهزار . ١٥

(٤) فى كلا الأصلين : « فان وصلوه بسيف » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى كلا الأصلين : «بسيل» بالباء ؛ وهو تحريف .

(٦) يشير بهذا البيت وما بعده الى قصته مع الفيل السابقة فى ص ٣٠٤ من هذا السفر فانظرها .

(٧) فى كلا الأصلين « التثيب » ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق وانظر الحيوان للجاحظ . ٢٠

(٨) الزندبيل : عظيم الفيلة والمقدّم عليها .

(٩) يريد بالوزير : الصاحب اسماعيل بن عباد ، وكان الصاحب قد حصل فى واقعة جرجان على الفيل الذى كان فى عسكر خراسان ، فأمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه على وزن وقافية قصيدة عمرو بن معد يكرب التى أوّلها : أعددت للحدثان سا * بغة وعداء طندى

انظر يتيمة الدهر ج ٣ ص ٦٨ ٢٥

أفنيتَ أسبابَ العُلا * حتّى أبت أن تُستجدّا
لو مَسّ راحتُك السحا * بَ لأمطرتْ كرما ومجدا
لم ترضَ بالخيل التى * شَدّت إلى العلياء شدّا
وصرائمِ الرأى التى * كانت على الأعداء جندا
حتّى دعوتَ إلى العِدى (١) * ما لا يلام إذا تعدّى
متقمّصا تيهَ العُلو * ج وفطنةً أعيتْ معدّا
متعسّفا طُرُقَ العوا (٢) * لى حين لا يُستاق (٣) قصدا
فيلا كرَضْوى (٤) حين يَلـ * ـبَس من رِقاقِ الغيم بُردا
مثلَ الغمامة مُلِئتْ * أكنافُها برقا ورعدا
رأسٌ (٥) كقُلّةِ شاهقٍ * كُسيتْ من الخُيَلاء جِلدا
فتراه من فرطِ الدّلا * ل مصعّرا فى الناس خدّا
يُزهى (٦) بخُرطومٍ كمِثـ * ـلِ الصّولجان يُردّ ردّا
متمدّدٍ كالأفعُوا * ن تمُدّه الرّمضاء مَدّا
أو كُمّ راقصةٍ تشيـ * ـر به إلى النّدمان (٧) وجدا

(١) فى كلا الأصلين : «الهدى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق وانظر يتيمة الدهر ج ٣ ص ٦٩

(٢) طرق العوالى ، أى طرق القنا والرماح فى الحرب .

(٣) فى كلا الأصلين : «يستاف» بالفاء ؛ وهو تصحيف .

(٤) رضوى : جبل بالمدينة على سبع مراحل منها ، وعلى يوم من ينبع .

(٥) رأس بالرفع ، أى له رأس .

(٦) ورد هذا البيت فى كلا الأصلين بعد البيت الآتى ، والسياق يقتضى نقله فى هذا الموضع كما أثبتنا ، إذ قوله بعد : «متمدد» وصف لخرطوم .

(٧) الندمان : جمع نديم ، وفى تاج العروس ما يفيد أنه يصح أن يضبط بضم النون أيضا .

أو كالمصلّب شُـــدّ جنـ * ـباه إلى جِذعين شَـــدّا
وكأنّه بُـــوقٌ يحـــزّ * كه لينفُخَ فيـــه جـــدّا
يســـطو بساريتَىْ لُجَيـ * ـنٍ يحطِمان الصّخرَ هـــدّا
أُذناه مِروَحتـان أُسـ * ـندتا الى الفَـــوْدين عقـــدا
عيناه غائرتان ضُـــيّـ * ـقتا لجَمـع الضـوء عَمـــدا
فـــكُّ كفُوّهة الخليـ * ـج يلوك طولَ الدهر حِقدا
تلقـاه من بعـــدٍ فتحـ * ـسَبه غمـاما قـد تبـدّى
مَتنـا[1] كبنيان الخَـــورْ[2] * نَـقِ ما يـلاقِي الدّهرَ كَدّا
رِدْفا كدَكّة عنـــبرٍ * متمـايلَ الأوراك نَهْـــدا
ذَنَبـا كمثلِ السـوطِ يَضـ * ـرِب حولَه ساقا وزَنـــدا
يخطـــو على أمثـال أعـ * ـمدةِ الخبـاء إذا تصـدّى
أو مثـــلِ أميـالٍ[3] نُضِـــدْ * ـن من الصخورِ الصُّمِّ نَضْدا
متـــوردٌ[4] حـــوضَ المنيّـ * ـة حين لا يُشتاق وِرْدا
متمـــلّقٌ[5] فكأنّـــه * متطلّبٌ ما لن يُـــوَدّا[6]

(١) متنا بالنصب : بدل من الهاء فى قوله السابق : «تلقاه» .

(٢) الخورنق : قصر كان بظهر الحيرة، وقد اختلف فيمن بناه، فقيل : هو بهرام جور، وقيل : هو النعمان بن آمرئ القيس .

(٣) الأميـال : المنارات، أى الأعلام التى تبنى فى أنشاز الأرض لهداية المسافرين، واحده ميل بكسر الميم .

(٤) فى كلا الأصلين «متمرد حوض الدنية» ؛ وهو تحريف فى الكلمتين : الأولى والثالثة .

(٥) فى كلا الأصلين «متملك» بالكاف، وهو تحريف إذ لا يستقيم به معنى البيت ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا ؛ ولم يرد هذا البيت ضمن هذه القصيدة فى يتيمة الدهر .

(٦) «ما لن يود» بضم الياء مبنيا للمجهول، أى ما ليس يودّه المطلوب منه ولا يرغب فيه .

متلفِّعٌ بالكبريا * ء كأنّه ملكٌ مفدّى
أدنى إلى الشيء البعيـ * ـد يراد من وَهْمٍ وأهدَى
أذكَى من الإنسان حتّى * لو رأى خَلا لسَدّا
لو أنّه ذو لهجةٍ * وَفَّى كتابَ الله سَرْدا
عقّته أرضُ الهند حتّى * حلّ من زهوٍ هَرَنْدا (١)
قل للوزيرِ : عُبِدتَ حتّى * قد أتاك الفيلُ عبدا
سبحان من جمع المحا * سنَ عنده قربا وبُعدا

ذكر ما قيل فى الكَرْكَدَّن

والكَرْكَدَّنُ من الحيوان الشديدِ القوّة، القليلِ العَدد، وهو شبيه بالجاموس إلا أنه أغلظ (٢) وأعتى وأنبَلُ (٣) منه، وله قرنٌ غليظٌ غيرُ طويلٍ فى جبهته، وقرنٌ آخرُ ألطفُ منه؛ وقد ذكره صاحبُ المنطق فى كتاب الحيوان وسمّاه الحمارَ الهندىّ؛ وقال الجاحظ فى كتاب الحيوان : وإنّما قلّ عدد هذا الجنس لأنّ الأنثى منه منها ما تكون نَزُورا (٤)، وأيّامُ حَمْلِها ليست أقلّ من أيّام حَمْلِ الفيلة؛ وهذا الحيوان يكون بأرض الهند وبلادِ الحبشة؛ وتزعم الهندُ أنّه اذا كان ببلادٍ لم يَرْعَ شيءٌ من الحيوان شيئا فى أكناف تلك البلاد هيبة له وخضوعا وهربا منه، وليس هو ببلاد الحبشة كذلك، بل يختلط به غيرُه من الحيوان؛ قال الجاحظ : وقد قالوا فى ولدِها وهو

(١) هرند : مدينة من نواحى أصبهان بينهما نحو ثلاثة أيام .

(٢) فى مباهج الفكر وحياة الحيوان ما يفيد خلاف ما تفيده هذه العبارة ، فقد ورد فى هذين الكتابين أن الكركدن دون الجاموس .

(٣) أنبل، أى أجسم وأضخم .

(٤) النزور : القليلة الولد .

فى بطنها قولا لولا أنّه ظاهرٌ على ألسنة الهند لكان أكثرُ النـاس بل كثيرٌ من العلماء يُدخلونه فى الخُرافة، وذلك أنّهـم يزعمون أنّ أيّام حَملِهـا اذا كادت أن تَتمّ ونَضِجت[1] وسخُنت وجاء وقت الولادة فربّمـا أخرج الولدُ رأسَـه من ظَبْيتِها[2] فأكل من أطراف الشجر، فاذا شبع أدخل رأسَه، حتى اذا تمّت أيّامُه، وضاق به مكانُه، وأنكرتْه الرحم، وضعتْه مطيقا قويّا على الكسب والحُضْر، لا يَعرِض له شىء من السباع؛ وهذا القولُ أيضا ذكره المسعودىّ؛ قال: واذا اغتلَمَ الفيلُ فى بلاد الهند لا يقوم له شىءٌ من الوحوش إلّا الكَرْكَدن، فإنه يَقتحِم عليه، فيُحجِم عنه ويَذهب عنه سكرُ الاغتلام؛ وقيل: إنّه يطعن الفيلَ بقرنه فيموتا جميعا، فمنهم من يقول: إنّه يَثقُل عليه فلا يستطيع أن يُخرِج قرنَه من جوفِه، فيكون ذلك سببَ حتفِهما؛ ومنهم من يقول: إنّ قرنَه من السّموم الّتى تقتل الفيلَ، ودمَ الفيلِ من السّمومِ الّتى إذا وقعتْ على قرنِ الكَرْكَدّنِ مات؛ وحَكَى لى من يُرجَع إلى قـوله، ويُعتمَد على نقلِه من الحُبوش[3] أنّ الكَرْكَدّنَ ببلاد الحبشة إذا رأى الرجل قصده ليقتلَه، فيعمِد الرجلُ إلى شجرةٍ فيتعلّق بها، فيحاوله الكَرْكَدّن، فربّمـا كسر تلك الشجرةَ وأهلكه، فان بال الرجلُ على أذن الكَرْكَدّن هَرَب وأسرع الحُضْرَ فلا يقف ولا يعود اليه، فيَسلَم منه؛ والله أعلم بالصواب.

(١) نضجت بتخفيف الضـاد ونضجت بتشديدها، أى جاوزت وقت الولادة، وهو أقوى للولد وأحكم له.

(٢) الظبية: الفرج؛ وفى كلا الأصلين: «طيبها»؛ وهو تصحيف لا يستقيم به المعنى، إذ لا يعقل أن يخرج الولد رأسه من طيبها، وهما ضرعاها.

(٣) ورد هذا الجمع فى أساس البلاغة، ولم يرد فى اللسان ولا فى التاج.

ذكر ما قيل فى الزَّرافة

والزَّرافةُ فى كلام العرب : الجماعة، وإنّما سُمّيت الزَّرافةُ زَرافةً لاجتماع صفاتٍ عِدّةٍ من الحيوان فيها، وهى عنقُ الجمل، وجلدُ النَّمِر، وقرنُ الظّبى ، وأسنانُ البقر، ورأسُ الإُيَّل(١)؛ وزعم بعضُ من تكلّم فى طبائع الحيوان أنّها متولّدةٌ من حيوانات ، ويقال: إنّ السببَ فى ذلك اجتماعُ الوحوشِ والدوابّ فى القيظ فى شرائع(٢) المياه ، فتتسافد، فيَلقح منها ما يَلقح، ويمتنع ما يمتنع، فربّما سَفِد الأنثى من الحيوان ذكورٌ كثيرة، فتختلط مياهها، فيجىء فيها خَلْقٌ مختلفُ الصّورِ والألوانِ والأشكال؛ والفُرْسُ تسمّى الزَّرافة (أُشْتُرْكَا وْبِلَنْك) وتفسير (أُشْتُرْ): بعير؛ وتفسير (كَاوْ)(٣): بقرة؛ وتفسير (بِلَنْك) : الضبُع(٤)؛ وهذا موافق لما ذهبت إليه العربُ من كونها مركَّبةَ الخَلْق من حيوانات شتّى؛ والجاحظ ينكر هذا القول، ويقول : هو جهل شديد ، لا يصدُر عمّن لديه تحصيل ، لأنّ الله عزّ وجلّ يخلق ما يشاء على ما يشاء، وهو نوعٌ من الحيوان قائمٌ بنفسه كقيام الخيل والحُمُر، وما يحقّق ذلك أنه يلد مثلَه ؛ وهذا غيرُ منكور، فإنّا نحن رأينا زَرافةً بالقاهرة ولدتْ زَرافةً أخرى شبهَها ، وعاشت إلى

(١) فى كلا الأصلين : «الابل» بالباء الموحدة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يرشد اليه ما يأتى بعد فى أبيات لابن حمديس فى وصف الزرافة؛ والإيل بكسر الهمزة وضمها — واختار بعض اللغويين فتح الهمزة مع كسر الياء المشدّدة وزان سيد — : صنف من البقر الوحشىّ، كما سيأتى فى الكلام عنه قريبا فى هذا السفر، فانظره .

(٢) الشرائع : جمع شريعة، وهى مورد الشاربة .

(٣) عبارة الأصل : وتفسير كا : بقرة وتفسير و «بلنك» الخ فنقل الواو من الكلمة الأولى إلى الثانية؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا نقلا عن تاج العروس مادة (زرف) .

(٤) كذا ورد تفسير هذا اللفظ فى كلا الأصلين والحيوان ج ٧ ص٧٦ والذى فى التاج (مادة زرف) : أنه النمر؛ وهذا هو الموافق لما وجدناه فى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستانجاس .

الآن؛ وصفةُ الزَّرافة أنّها طويلةُ اليدين والعنق جدّا، منها ما يزيد طوله على عشرة أذرع[1]، قصيرةُ الرجلين جدّا، وليس لرجليها رُكَب[2]، وإنّما الرُّكَب[2] ليديها كسائر البهائم؛ وهى تَجْتَرّ وتَبعَر، وفى طبع هذا الحيوان التودُّدُ للناس والتآلُفُ بهم.

ذكر ما وصفت به الزرافة

وقد وصفها الشعراء وشبّهوها فى أشعارهم، فمن ذلك ما قاله عبد الجبّار بنُ حَمْديس الصِّقِلّىّ:

(٢٨) ونُوبيّةٍ فى الخَلْق فيها خلائقٌ * متى ما تَرَقَّ العينُ فيها تَسَفَّلِ
اذا ما اسمُها ألقاه فى السمع ذاكرٌ[3] * رأى الطَّرْفُ منها ما عناه بمِقْوَلِ[4]
لها فخذا قَرِمٍ[5] وأظلافُ قَرْهَبٍ[6] * وناظرتا رِئْمٍ وهامةُ إِيَّلِ[7]
كأنّ الخطوطَ البيضَ والصفرَ أشبهتْ * على جسمِها ترصيعَ عاجٍ بصندلِ
ودائمةَ الإقعاء فى أصل خَلقِها * اذا قابلت أدبارُها عينَ مقبلِ
تلفّتُ أحيانا بعينٍ كحيلةٍ * وجيدٍ على طول اللِّواء المظلَّلِ

(١) أثبت التاء فى قوله: «عشرة» جريا على لغة من يجوز التذكير فى الذراع، وهو قليل، والأكثر فى الذراع التأنيث، بل إن بعض اللغويين ينكر التذكير فيها، والتذكير هو قول الخليل انظر تاج العروس.

(٢) المراد بالجمع هنا ما فوق الواحد، إذ المراد ركبتان.

(٣) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر: «زاجر» وهو تحريف لا يستقيم به المعنى.

(٤) فى كلا الأصلين: «قد»؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى صوابه ما أثبتنا نقلا عن مباهج الفكر؛ ويريد بهذه العبارة أن العين ترى من الزرافة معنى اسمها فى اللغة، وهو الجماعة، فان فى الزرافة عدّة أوصاف من أنواع شتى من الحيوان؛ وقد فصل ذلك فى البيت الآتى بعد.

(٥) القرم: الفحل من الجمال.

(٦) القرهب: الثور الكبير الضخم؛ وفى كلا الأصلين "فرهب" بالفاء؛ وهو تصحيف.

(٧) الإيل بكسر الهمزة وضمها — واختار بعض اللغويين فى ضبطه فتح الهمزة مع كسر الياء المشدّدة — : صنف من البقر الوحشىّ، كما سيأتى فى هذا السفر عند الكلام على هذا الحيوان.

وتَنفُض رأسا فى الزّمام كأنّما * تريك [له (١) فى الجوّ نِفْضةَ أجدَلِ (٢)
اذا طلع النَّطْحُ (٣) آستجادت نطاحَه * برأسٍ (٤)] له هادٍ على السُّحبِ معتلى
وعُرْفٌ (٥) رقيقُ الشعر تحسَب نبتَه * اذا الريحُ هزّته ذوائبَ سنبلِ
وتحسَبها من مشيها إن تبخترتْ * تُزَفّ الى بعلٍ عروسا وتنجلى
فكم منشدٍ قولَ آمرئ القيس عندها * (أفاطمُ مهلًا بعضَ هذا التدلُّلِ)

وقال عُمارةُ اليمنىّ — وقد وصف تصاوير دارٍ منها زَرافة — :

وبها زَرافاتٌ كأنّ رقابَها * فى الطول ألويةٌ تؤمّ العسكرا
نُوبيّةُ المَنْشَا تريك مِن المَها * رَوْقا ومن بُزْل المَهارِى مِشْفَرا
جُبِلتْ على الإقعاء من إعجابِها * فتخالُها للتِّيهِ تمشى القهقرَى

وقال أبو علىّ بنُ رَشيق منشدا :

ومجنونةٍ أبدا لم تكن * مذلّلةَ الظهر للراكبِ
قد آتصل الجيدُ من ظهرها * بمثلِ السّنام بلا غاربِ
ملمّعةٍ مثلما لُمّعتْ * بحِنّاء وشى يدُ الكاعبِ

---

(١) لم ترد هذه التكملة التى بين هذين المربعين فى كلا الأصلين ولا فى مباهج الفكر، وقد أثبتناها عن ديوان ابن حمديس اذ بدونها لا يستقيم الإعراب بالرفع فى قوله : "هاد" وقوله "معتلى" إذ كان مقتضاهما النصب على المفعولية لقوله قبل هذه التكملة : «تريك» كما هو ظاهر .

(٢) الأجدل : الصقر .

(٣) النطح : الشرطان، وهما نجمان من برج الحمل، وهما قرناه .

(٤) الهادى : العنق .

(٥) كذا ورد هذا البيت فى كلا الأصلين ومباهج الفكر فى هذا الموضع؛ وقد ورد فى ديوان ابن حمديس بعد قوله السابق : «تلفت أحيانا» الخ البيت؛ وهو مستقيم الوضع فى كلا المكانين .

كأنّ الجـوارىَ كَنّفنَها (١) * تَخَلّجُ (٢) من كلِّ ما جانبِ

وقال أيضا :

وأنتك (٣) من كَسْبِ المـلوك زَرافـةٌ * شـتّى الصـفاتِ للونِهـا (٤) أثنـاءُ (٥)

جَمعتْ محاسنَ ماحكت فتناسبت * فى خُلْقِها وتنـافت الأعضـاءُ

تحتثُّهـا (٦) بين الخوافـق مِشـيَةٌ * بادٍ عليهـا الكبرُ والخُيَـلاءُ ٥

وتَمـدّ جيـدا فى الهواء يَزِينهـا * فكأنّه تحت اللّـواء لـواءُ

حُطّت مآخرُها وأَشرفَ صـدرُها * حتّى كأنّ وقوفَهـا إقعـاءُ

وكأن فِهْـرَ الطِّيبِ (٧) مارَجمتْ به * وجهَ الـثّرى لو لُمّتْ (٨) الأجزاءُ

وتَخَيَّرتْ دون المـلابس حُلّةً * عَيّتْ بصـنعة مثلِهـا صَنْعـاءُ

---

(١) فى كلا الأصـلين ومباهج الفكر : « كففنها » ؛ وهو تصحيف صـوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق البيت وانظر العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢١٩ طبع مطبعة السعادة بمصر «وكنفنها» بتشديد النون ، أى أحطن بها . ١٠

(٢) تخلج ، أى تمايل يمينا وشمالا .

(٣) وأتتك ، يخاطب ملك المغرب ، وكانت هـذه الزرافة التى يصفها قد أتت فى هدية من مصر الى ملك المغرب . انظر العمدة ج ٢ ص ٢٢٨ ١٥

(٤) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر والعمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٢٨ "لكونها" بالكاف ؛ وهو تحريف ، والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٥) كذا فى كتاب العمدة ؛ والذى فى كلا الأصلين ومباهج الفكر «أنباء» ؛ وهو تصحيف لا يستقيم به المعنى ؛ ويريد بالأثناء : ما انثنى وانعطف من الخطوط التى ترى فى الزرافة .

(٦) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر « لجينها » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق البيت وكما فى كتاب العمدة . ٢٠

(٧) فهر الطيب ، أى الحجر الذى يدق به الطيب ؛ يريد تشبيه حوافرها به فى الصلابة والقوة .

(٨) «لو لمت الأجزاء» أى لو لم تكن لها أظلاف مشقوقة .

لونًا كلونِ الذِّبْلِ[1] إلّا أنّه * حَلًّى وجَزَّع بعضَه الجَلّاءُ
أو كالسحابِ المكفهِرّة خَطَّطَتْ[2] * فيها البروقُ وميضُها إيماءُ
أو مثلَما صَدِئَتْ صفائحُ جَوْشَنٍ[3] * وجرى على حافاتهنّ جِلاءُ
نعم التجافيفُ[4] التى قد دُرِّعَتْ[5] * من جِلدِها لو كان فيه وِقاءُ

٥ وقال محمدُ بنُ شرف القَيْرَوانىّ :

غريبةُ أشكالٍ غريبةُ دارِ * لها لونُ خَطَّىْ فضّةٍ ونُضارِ
فلونٌ لها لونُ البياض وصفرةٍ * كما مُزجتْ بالماء كأسُ عُقارِ
وآخَرُ ما بين آسودادٍ وحمرةٍ * كما آحمرّ مسودُّ الدخان بنارِ
أعيرت شخوصا وهى فى شخص واحد * تحيّر فى نَشْزٍ لها وقِفارِ
١٠ تَقُوم على ما بين ظِلفٍ وحافرٍ * له جسمُ جُلمودٍ وصِبغةُ قارِ
وأربعةٍ تَحكى سبائكَ عسجدٍ * تطير بها فى الأرض كلَّ مَطارِ
لها عنقٌ قد خالط الجوَّ تحتَه * طوالٌ لها تخطو أمام قصارِ
وذات قَرًى وَعْرِ الركوبِ وإنّما * أُجِلَّتْ بذا[6] عن ذِلّةٍ وصَغارِ
لها عِجْبةُ[7] التّياهِ عُجْبا بنفسِها * ولكنّ ذاك العُجْب تحت وقارِ

١٥ (١) الذبل : جلد السلحفاة البحرية ، أو عظام ظهر دابة بحرية تتخذ منها الأسورة والأمشاط .

(٢) فى كلا الأصلين والعمدة ص ٢٢٩ ؛ «خيطت» ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) الجوشن : الدرع .

(٤) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : « التحاقيق » ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما تقتضيه بقية البيت ، وكما فى العمدة ؛ والتجافيف : جمع تجفاف ، وهو آلة للحرب من حديد وغيره يلبسه الفرس ، وقد يلبسه الانسان للوقاية فى الحرب .

٢٠ (٥) رواية العمدة : «التى آدرعت بها» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٦) فى كلا الأصلين : «بدا» ؛ وهو تصحيف .

(٧) عجبة التياه ، اى هيئة عجبه ؛ ولهذا ضبطناه بكسر العين .

ذكر ما قيل فى البقر الوحشية — وهى المها — والإِيَّل[1]

ولنبدأ بذكرِ ترتيبِ سنّها، ثم نذكر ما قيل فيها؛

أمّا سنُّها — فقد قالت العرب : ولدُ البقرة الوحشيّةِ مادام يَرضَع فهو فَزٌّ وفَرْقَدٌ وفَرِير، فإذا ٱرتفع عن ذلك فهو يَعْفُورٌ وجُؤْذُرٌ، و بَجْزَج[2]؛ فإذا شبّ فهو مَهاة فإذا أسنّ فهو قَرْهَب؛ هذا ما قيل فى سنّها . ٥

وأمّا ماقيل فى المَهَا — فذكر من بحث عن طبائع الحيوان أنّ من طباعِها الشَبَقُ والشهوة؛ وأنّ الأنثى إذا حَملتْ هَرَبتْ من الذّكر خوفا من عبثِه بها فى الحمل ؛ والذكر لفرط شهوته يركب الذكر؛ واذا رُكب واحدٌ منها شمّ الباقى روائحَ الماء منه ، فيَثِبْنَ[3] عليه ، ولا يَمنع ما يثب عليه بعد ذلك؛ ولم أقف من أحوالِه على غير هذا ٱلذى أوردته، فلنذكرْ ما وُصِف به . ١٠

ما وصفت به المها

فمن ذلك ما قاله كاتبٌ أندلسىٌّ من رسالةٍ طَرَديّةٍ، جاء منها : وعَنّ لنا سِرْبُ نعاجٍ يمشين رَهْوا[4] كمشى العذارى ، و يتثنّين زَهْوا تثنّىَ السُّكارى ؛ كأنّما تُجَلَّلُ[5] بالكافور جلودُها ، وتُضمَّخُ بالمسك قوائمُها وخدودُها[6]؛ وكأنّما لبسن الدِّمَقْس سِربالا، وٱتّخذن السّندسَ سِروالا .

(١) فى كلا الأصلين : « والإبل » بالباء الموحدة؛ وهو تصحيف . ١٥

(٢) فى كلا الأصلين : «ويخرج» ؛ وهو تصحيف صوابه ماأثبتنا نقلا عن المخصص ج ٨ ص ٣٤

(٣) « فيثبن » ، أى الثيران ؛ وفى كتب القواعد ما يفيد جواز أن يعامل جمع الذكور غير العقلاء معاملة جمع المؤنث الحقيقى فيسند فعله الى نون الإناث كما هنا فتقول : « الأيام فعلن » كما تقول : الزينبات فعلن انظر شرح الرضى ج ٢ ص ١٥٩ طبع الآستانه . (٤) الرهو : السير السهل .

(٥) فى كلا الأصلين : «تخلخ» ؛ وهو تحريف لامعنى له صوابه ما أثبتنا أخذا مما يأتى فى ص ٣٣٦ س ١٠ من هذا السفر ضمن رسالة لبعض الأندلسيين يصف أرنبا ، إذ قال فى مثل هذا المعنى : « وجلل بالكافور متنه » . ٢٠ (٦) فى كلا الأصلين « وحدودها » بالحاء؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا؛ فانه يريد أن فى خدودها نقطا سوداء تشبه المسك .

من كلِّ مهضَمةِ الحَشا وحشيّةٍ * تَحمِي مَـداريهـا (١) دماءَ جلودِها
وكأنّمـا أقـلامُ حبرٍ كَتَبتْ * بمـدادِ عينيهـا طُروسَ خدودِها

فأرسلنا أُولَى الخيـل على أخراها (٢)، وخلّيناها وإيّاها (٣)؛ فمضت مُضيَّ السِّهام، وهوتْ هُوِيَّ السَّمام (٤)؛ فجالت فى أسرابهـا يمينا وشِمـالا؛ فكأنّمـا أهدتْ لآجالِهـا (٥) آجالا؛ فمن متّقٍ بروْقِه (٦)، وكابٍ أتاه حتفُه من فوقِه.

وقال الأخطل يصف ثورا:

فمـا به (٧) غـيرُ مَـوشيٍّ أكارعُه * إذا أحسّ بشخصٍ ما ثِلٍ (٨) مِثْـلا (٩)
كأنّ عطّارةً باتت تُطيف به * حتّى تَسربلَ ماءَ الوَرْسِ وآنتعَلا
كأنّه ساجدٌ من نَضْحِ دِيمتِـه * مقـدِّسٌ (١٠) قام تحت اللّيلِ فآبتهَلا
يَنْـفِي الـترابَ بَرْوقيـه وكَلكَلِه * كما آستمـاز (١١) رئيسُ المِقْنَب (١٢) النَّفَـلا

(١) مداريها، أى قرونها، واحده مدرى بكسر الميم وفتح الراء، ومدراة.
(٢) أخراها، أى أخرى النعاج.
(٣) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر: «وحلبناها وأباها»؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين.
(٤) السمام بفتح السين: ضرب من الطير دون القطا فى الخلقة، واحدته سمامة.
(٥) الآجال: جمع إجل بكسر فسكون، وهو القطيع من بقر الوحش.
(٦) الروق: القرن.
(٧) فما به، أى بالطلل الذى ذكره فى أول القصيدة انظر ديوان الأخطل.
(٨) فى رواية: «نابئ» انظر ديوان الأخطل ص ١٣٨ طبع بيروت والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا، والنابئ: المصوّت صوتا خفيا.
(٩) مثل، أى قام منتصبا.
(١٠) فى رواية «مسبح قام نصف الليل» انظر ديوان الأخطل ص ١٤٠
(١١) المقنب بكسر الميم: جماعة الخيل والفرسان، قيل: دون المائة.
(١٢) النفل بالتحريك: الغنيمة.

وقال عَدِىُّ بنُ الرِّقاع يصف ثورين يعدوان :

يَتعاوران من الغبارِ مُـلاءةً * بيضاءَ محكَمَةً هما نسـجاها
تُطوَى إذا وردا مكانا جاسـيا (١) * وإذا السـنابكُ أَسهلَتْ نشراها

وقال الطِّرِمّاح يصف عدوَه بسرعة :

يبـدو وتُضمِره البـلاد كأنّه * سيفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ و يُغمَدُ ٥

(٣٠)

وأما ما قيل فى الإِيَّل (٢) — فهو من أصناف البقر الوحشيّة ، وهـذا الحيوان يَسمَن كثيرا ، واذا سَمِن آختَـفى خوفا أن يصادَ لِسمَنِه ؛ وهو مولَعٌ بأكل الحيّات ، يطلبها فى كلِّ موضع ، فإن آنجحرت أخذ المـاءَ بفمِه ، ونفخه فى آلجُحر ، فتُخرِج له ذنبَها فيأكلها ، حتّى اذا آنتهى إلى رأسِها تركه خوفا من السّم ، وربّما لسَعتْه فتسـيل دموعُه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه تَدخُل فى كلِّ واحدةٍ منهما ١٠ الإصبع ، فتَجمُد تلك الدموع فتصـير كالشَّمَع ، تُتّخذ دِرْياقا لسمّ الحيّات ، وهو البازَهْرُ (٣) الحيوانىّ ؛ قالوا : واذا لسَعتْه الحيّات أكل السَّراطين (٤) فيبرأ و يبرئه أكلُ التفّاح أيضا وورقُ شجره ؛ وهو لا تَنبُت له قرونٌ إلّا بعد أن تمضىَ له سنتان من عمـره ، فاذا نبتَ قرناه نبتا مستقيمين كالوتِدين ، وفى الثالثـة يتشعّبان ، ولا يزال التشعّبُ فى زيادةٍ الى تمام ستّ سنين ، وحينئذ يكونان كالشجرتين على رأسِه ، ثم ١٥

(١) يريد بالجاسى : ما صلب من الأرض .

(٢) كذا ضبط هذا اللفظ بكلا الضبطين فى كتب اللغة ، واختار بعض اللغويين فيه ضبطا ثالثا وهو فتح الهمزة مع كسر الياء المشدّدة وزان (سيد) .

(٣) فى شفاء الغليل أن هذا اللفظ معرّب بادزهر ، وانه مولد .

(٤) السراطين : جمع سرطان بالتحريك ، وهو حيوان من خلق الماء ويسمى : عقرب الماء أيضا ، وكنيته أبو بحر ، وهو يعيش فى البر أيضا وهو جيـد المشى سريع العدو ذو مخالب وأظفار حداد . انظر حياة الحيوان ج ٢ ص ١٦ ٢٠

بعد ذلك يُلقِي قرونَه فى كلِّ سنة، ثم تنبت، واذا نبتا عرّضهما للشمس حتى يَصلُبا، وهما اذا كَبُرا على رأسه منعاه من الجرى؛ ولا يكاد يُفلِت اذا طلبته الخيل؛ واذا ألقى قرونَه علم أنّه ألقى سلاحه، فهو لا يَظهر؛ قال الجاحظ: قال صاحب المنطق[1]: إنّ أنثى الإِيَّل اذا وضعتْ ولدا أكلت مَشيمَتَها فتظنّ أنّه شيءٌ تتداوى به من علّة النّفاس؛ وزعم أرسطو أنّ هذا النوعَ يصاد بالصفيرِ والغِناء، وهو لاينام مادام يسمع ذلك، ومن أراد صيدَه من الصيّادين شَغَله[2] بعضُهم بالتّطريب، ويأتيه البعضُ مِن خلفِه، فاذا رأوه مسترخيةً أذناه وثبوا عليه؛ واذا اشتدّ عليه العطشُ من أكل الحيّات أتى غديرَ الماء واشتمّه، ثم انصرف عنه، يفعل ذلك أربعةَ أيّام، ثم يشرب فى اليوم الخامس، وإنّما يمتنع من شرب الماء خوفا على نفسِه من سَرَيان السّمّ فى جسده مع الماء؛ والله أعلم.

ذكر ما قيل فى امتناعه عن شرب الماء مع حاجته اليه

قال بعض الشعراء:

هجرتك لاقِلًى منّى ولكن * رأيتُ بقاءَ وُدِّك فى الصّدودِ
كهجرِ الظامئات الماءَ لمّا * تيقّنَ المنايا فى الورودِ
تذوب نفوسُها ظمأ وتَخشى * هلاكا فهى تنظر من بعيدِ

وقال آخر فى مثل ذلك:

وما ظامئاتٌ طال فى القيظ ظِمئُها[3] * فجاءت وفى الأحشاء غَلْىُ المَراجِلِ
فلمّا رأين الماء عذبا وقد أتت * إليه رأين الموتَ دون المناهلِ

(١) يريد بصاحب المنطق: أرسطوطاليس.

(٢) فى (ا): «صغى له»؛ وهو تحريف.

(٣) الظمئ بالكسر: مابين الشربين، ويجوز أن يضبط هذا اللفظ أيضا بفتح الظاء وسكون الميم، وهو مصدر «ظمئ».

فولّت ولم تَشفِ[1] صداها وقد طوت * حشاها على وَخْزِ الأفاعى القواتِلِ
بأعظمَ من شـوق إليكِ وحسرتى * عليـكِ ولم ألتـذَّ منكِ بطائلِ

الباب الثانى من القسم الثانى من الفن الثالث فيما قيل فى الحمر الوحشيّة والوَعْل واللّطّ[2]

ذكر ما قيل فى الحُمُـر الوحشيّة

والحمارُ الوحشىُّ يسمّى العَيْرَ والفَرَأ؛ وبه[3] ضَرَب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المثـل[4]، فقال: "كلُّ الصّـيدِ فى جوف الفَرَإ"؛ ويقـال: إنّه ينزو إذا بلغ ثلاثين شهرا من عمره؛ وهو يوصف بشـدّة الغَيرة؛ ويقال: إنّ الأنثى إذا وَلدت

(١) لم تحذف الياء من هذا الفعل كما يقتضيه الجزم «بلم» جريا على لغة من يرفع الفعل بعدها، ومنه قول الشـاعر:

لولا فوارس من نعم وأسرتهم * يوم الصليفاء لم يوفون بالجار

وقال بعض النحويين: إن رفع الفعل بعدها فى هذا البيت ضرورة؛ وقال ابن مالك: هى لغة، راجع مغنى اللبيب ج ١ ص ٢١٧ طبع المطبعة الميمنية بمصر.

(٢) لم نجد اسم هذا الحيوان فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى الحيوانات، كما اننا لم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة؛ ولهذا لم نضبطه.

(٣) فى (أ) «رية»؛ وهو تحريف.

(٤) ورد فى مجمع الأمثال ج ٢ ص ٦٩ طبع بولاق أن أبا سفيان استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم، فحجب قليلا، ثم أذن له، فلما دخل قال: ما كنت تأذن لى حتى تأذن لحجارة الجلهتين — وهما جانبا الوادى — فقال صلى الله عليه وسلم: يا أبا سفيان، أنت كما قيل: «كل الصيد فى جوف الفرا». الخ وهذا المثل يضرب لمن يفضل على أقرانه؛ وأصله أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين، فاصطاد أحدهم أرنبا، والآخر ظبيا، والثالث حمارا، فاستبشر الأولان بما نالا وتطاولا على الثالث فقال: "كل الصيد فى جوف الفرا".

جحشا كَدَم[1] الذكرُ قضيبَه ، فالإناث تُعمِل الحيلةَ فى إبقائه ، فتهرُب به من أبيه ، وتكسِر رجلَه ليستقرَّ بذلك المكان ، وهى تتعهده وتُرضِعه ، فاذا انجبرت رجلُه وقويت وصحّت ، وأمكنه المشى عليها ، يكون قد حصل فيه من القوّة والجرى ما يدفع به عن نفسه ، ويهرُب إذا أبوه أو من هو أقوى منه أراد خِصاءه ؛ ويقال : إنّ الحمارَ الوحشىّ يُعمَّر مائتى سنة وأكثرَ من ذلك ، وكلّما بلغ مائة سنة صارت له مبولة[2] ثانية ؛ قالوا : وشوهد منها ما له ثلاثُ مباولَ وأربع ؛ ومعادنُه بلاد النُّوبةِ وزُغاوة ، ويوجد منه ما تكون شِيَتُه معمَّدةً ببياض وسوادٍ فى الطول من أعضائه المستطيلة ، ومستديرةً فيما استدار منها بأصحّ قسمة ؛ ومنها صِنفٌ يسمَّى الأَخْدَرىّ وهو أطولُها أعمارا .

(٣١)

ذكر ما وصفت الحمر الوحشية النثر والنظم

وقد وصفها أبو الفرج الببّغاءُ من رسالةٍ ذكر فيها أتانا معمَّدةً ببياض وسواد كانت قد أُهديتْ لعزّ الدولة بُختيار بنِ بُوَيْه من جهة صاحب اليمن ، قال : وأما الأتان ، الناطقةُ فى كمال الصنعة بأفصح لسان ؛ فإنّ الزمانَ لاطف مولانا — أيّده الله — منها بأنفسِ مَذْخور ، وأحسنِ منظور ؛ وأعجبِ مرئىّ ، وأغربِ مَوْشىّ ؛ وأفخرِ مركوب ، وأشرفِ مجنوب ؛ وأعزِّ موجود ، وأبهى مخدود[3] ؛ كأنّما وسَمَها الكمالُ بنهايته ، وأولحظَها الفَلَكُ بعنايته ؛ فصاغها من ليله ونهاره ، وحلّاها بنجومه وأقماره ، ونقشها ببدائع آثاره ؛ ورمقها بنواظرِ سعوده ، وجعلَها[4] أحدَ جدوده ؛ ذات إهابٍ

(١) الكدم : العض بأدنى الفم .

(٢) يريد بالمبولة : المكان الذى يبول منه ؛ ولم نجد المبولة بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة والذى وجدناه بهذا المعنى : « مبال » فقد ورد فى مستدرك التاج (مادّة بول) أن المبال : الفرج .

(٣) المخدود : الموسوم فى الخدّ ، واسم ذلك الميسم الخداد بكسر الخاء .

(٤) « جعلها أحد جدوده » ، أى جعل هذه الأتان حظا من حظوظه السعيدة لمن يملكها .

مسيرٌ[(١)]، وقُرْبٍ[(٢)] محبَّر، وذنَبٍ مشجَّر، وشَوًى[(٣)] مسورٌ[(٤)]، ووجهٍ مزجَّج[(٥)]، ورأسٍ متوَّج؛ تكنُفه أذنان، كأنهما زُجّان[(٦)]؛ سُبْجِيّة[(٧)] الأنصاف، بَلُّوريّة الأطراف، جامعة شِيَتها بالترتيب، بين زمنَى الشبيبةِ والمشيب؛ فهى قَيْدُ الأبصار، وأمدُ الأفكار، ونهايةُ الاعتبار؛ غنىٌّ عن الحَلْيِ عطَلُها، مُزريةٌ بالزَّهرِ حللُها؛ واحدةُ جنسِها، وعالَمُ نفسِها صنعةُ المنشئ الحكيم، وتقديرُ العزيز العليم. ٥

وقال ابن المعتزّ:

شغلتْه[(٨)] لواقحٌ ملأتْه * غيرةً فهو خلفهنّ كَمِيُّ
قابضٌ جمعَها إليه كما يجـ * ـمع أيتامَه إليه الوصيُّ
كلّما شمّ لاقحًا شُمَّ منها[(٩)] * رأسُ فحلٍ برجلِها مَفْلِيُّ[(١٠)]

(١) مسير، أى أن شيته مستطيلة تشبه السيور. ١٠

(٢) القرب بضمٍ وبضمتين: الخاصرة، وقيل: هو من لدن الشاكلة الى مراق البطن.

(٣) الشوى: اليدان والرجلان؛ والذى فى كلا الأصلين ومباهج الفكر: «وسوى»؛ وهو تصحيف وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا.

(٤) مسوّر، أى محاط بمثل السوار من النقش.

(٥) سياق الكلام يدل على أن المراد بالمزجج هنا: الذى تشبه شيته الزجاج بكسر الزاى، وهى نصال السهام، واحده زج بضم أوله وتشديد ثانيه. ١٥

(٦) الزجان: تثنية زج، وهو الحديدة التى تركب فى أسفل الرماح تركز بها فى الأرض.

(٧) السبجية: نسبة إلى السبجة بضم فسكون، وهى بردة من صوف فيها سواد وبياض.

(٨) يريد بهذا البيت أن الأتن اللواقح قد شغلت هذا الحمار بالدفاع عنها وحمايتها من الحمير التى تريد طرقها. ٢٠

(٩) فى كلا الأصلين: «سىء منها»؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا نقلا عن ديوان ابن المعتز المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٤ أدب

(١٠) مفلىّ، أى محكوك، يقال: «تفالت الحمر» أى احتكت كأن بعضها يفلى بعضا؛ والمعنى أن هذا الحمار كلما شم لاقحا من هذه الأتن شم رائحة فحل قد حك رأسه برجلها يريد طرقها.

خارجٌ من ظلالِ نَقْعٍ كما فَـرَّقَ جلبابَه الخليـعُ الغَـوِىُّ
قدطواها التسويقُ[1] والشدُّحتّى * هى قُبٌّ[2] كأنّهنّ القِسِىُّ
هرَبتْ من رءوسهنّ عيـونٌ * غائراتٌ كأنّهنّ الرُّكِىُّ

ذكر ما قيل فى الوَعْل

الوعْل، هو التيس الجبلىّ، والأنثى تسمّى أُرْوِيّة؛ وهى شاةُ الوحش؛ وفى طباع هذا الحيوان أنّه يأوى الأماكنَ الوَعْرةَ والخشنةَ من الجبال؛ ولا يزال مجتمعا، فإذا كان فى وقت الولادة تفرّق؛ وإذا آجتمع فى ضَرْع الأنثى لبنٌ آمتصّته؛ والذكرُ إذا ضعف عن النّزو أكل البَلُّوط فتقوَى شهوتُه، ومتى فقد الأنثى آنتزَع منيَّه بفيه بالآمتصاص، وذلك لشدّة الشَّبَق؛ وهو إذا جُرح عَمَد إلى الخَضِرة الّتى تكون على الحجارة، فيمضَغها ويجعلها على الجرح فيبرأ؛ واذا أحَسّ بقنّاصٍ وهو فى مكانه المرتفع آستلقى على ظهره، ثم يُزجّ بنفسِه فينحدر من أعلى الجبل إلى أسفلِه، وقَرناه يقيانه ألمَ الحجارة، ويُسرعان هبوطَه لملاستهما فإنّهـما [من رأسِه][3] إلى عَجُزِه؛ وفى طبع هذا الحيوان الحنوُّ على ولده والبرُّ بوالديه؛ أمّا حنوُّه على ولدِه فإنّه إذا صيد منها شىءٌ تبعته أمّه وآختارت أن تكون معـه فى الشّرك؛ وأمّا برُّه بوالديه، فانّهما إذا عجزا عن الكسب لأنفسهما أتاهما بما يأكلانه، وواساهما من كسبه، فإن عجزا [عن الأكل][3] مَضَغ لهما وأطعمهما؛ ويقال: إنّ فى قرنيه ثَقْبين يتنفس منهما، فمتى سُدّا جميعا هلك.

(١) التسويق: السوق، يقال: سوّقه بتشديد الواو، أى ساقه، قال آمرؤ القيس: «لنا غنم نسوّقها غزار» الخ البيت.

(٢) القب: الضوامر، واحده قباء.

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب).

ما وصف به الوعل

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك ما قاله الصاحب بنُ عبّاد :

وأعين[1] كالذّرّىّ[2] فى سَـفِلاته * سوادٌ وأعلى ظاهرِ اللّون واضحُ
موقّف[3] أنصافِ اليـدين كأنّه * إذا راح يجـرى بالصريمةِ[4] رامحُ[5]

وقال أبو الطيّب المتنبّى :

وأوفت[6] القُدْرُ[7] من الأوعالِ * مرتدياتٍ بقِسىِّ الضّـالِ[8] ٥
نواخسَ الأطرافِ[9] للأكفالِ * يكدن يَنفُـذن من الآطالِ[10]
لهـا لحًى سـودٌ بلا سبالِ * يَصلُحن[11] للإضحاكِ لا الإجلالِ[12]
كلُّ أثيثٍ[13] نَبتُـه متفـالِ[14] * لم يُغـذَ[15] بالمسكِ ولا الغوالى
* يَرضَى من الأدهانِ بالأبوالِ *

(١) الأعين؛ هو عظيم سواد العين فى سعة، والفعل منه وزان فرح . ١٠

(٢) الذرّىّ : السيف الكثير المـاء؛ قال فى التاج : كأنه نسبة الى الذرّ، وهو النمل .

(٣) موقف، أى كأنه ألبس الوقف، وهو سوار من عاج .

(٤) الصريمة : القطعة الضخمة من معظم الرمل .

(٥) رامح، أى صاحب رمح . (٦) أوفت، أى أشرفت .

(٧) كذا فى شرح العكبرى على ديوان المتنبي ج ٢ ص ٢٤٨ طبع بولاق؛ والذى فى كلا الأصلين : ١٥
« وأوقب القـدر » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين، والقدر : الوعول المسنة الضخمة، واحدها قادر وقدر بالتحريك .

(٨) الضال، هو شجر السدر البرىّ، تعمل منه القسىّ؛ يريد تشبيه قرونها فى طولها وصلابتها بالقسىّ من هذا الشجر . (٩) «نواخس الأطراف» الخ أى أن أطراف قرونها تخس أكفالها من طولها .

(١٠) الآطال : الخواصر، واحدها إطل بكسر أوله وسكون ثانيه، ويكسر الثانى أيضا، يريد أن ٢٠
هذه القرون قد انعطفت على الأكفال وكادت تنفذ من خواصرها .

(١١) فى (أ) «يضحكن» ؛ وهو تحريف . (١٢) فى (أ) «الآجال» ؛ وهو تحريف .

(١٣) الأثيث من الشعر : الكثير الملتف .

(١٤) المتفال : المتغير الريح المنتن، والفعل منه وزان فرح .

(١٥) لم يغذ، أى شعر لحاها . ٢٥

ذكر ما قيل فى اللّطّ[1]

واللّطّ[1] حيوانٌ وحشىٌّ يكون ببلاد الغَرْب الجَوّانىّ[2]، فى قدرِ المُهر اللّطيف، له قرونٌ غيرُ متشعّبة، ولا مفاصلَ لرُكبِه، فهو لا يستطيع النومَ إلّا مستندا الى شجرةٍ أو جدار، فاذا أريد صيدُه عَمَد من يريد ذلك الى تلك الشجرة التى هى فى محلّ مظانّ نومه، فينشُر أكثرها، ويترك منها يسيرا لا يحمله، فاذا آستند اليها سقطتْ وسقط بسقوطها، فيؤخذ ويُذبح وتُتّخذ من جلده دَرَقٌ تباع بالأثمان الغالية، تردّ طعنةَ الرّمح ورشقةَ السّهم، ومهما أصابها من الحديد آنطوى، فان تمكّن منها ونُزِع وبقِىَ أثره التَحم فى اليوم الثانى وخَفِىَ أثرُه؛ أخبرنى بذلك من أثق بقوله .

(١) كذا ورد اسم هذا الحيوان فى كلا الأصلين ، ولم نجد كلاما عنه فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى الحيوانات ، كما أننا لم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة ، ولهذا لم نضبطه ، وانما نرجح أن يضبط بفتح اللام وسكون الميم ، وسيأتى وجه هذا الترجيح فى الحاشية التى بعد هذه ، فانظرها .

(٢) الجوّانى : نسبة الى الجوّ ، وهو من كل شىء داخله وباطنه ، وزيادة الألف والنون للتأكيد ؛ والظاهر أن الأرض التى يوجد فيها هذا الحيوان هى أرض (لمطة) بفتح اللام وسكون الميم ، فقد ذكر ياقوت فى معجمه فى الكلام على هذه الأرض أنها أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم ، وإليهم تنسب الدرق اللطية التى اذا ضربت بالسيف نبا عنها الخ ، وسيذكر المؤلف هنا فى الكلام على هذا الحيوان أنه تتخذ من جلوده درق تباع بالأثمان الغالية تردّ طعنة الرمح ورشقة السهم الخ ما ذكر ؛ ولهذا فاننا نرجح أن يضبط اسم هذا الحيوان بفتح اللام وسكون الميم .

البـاب الثـالث من القسم الثـانى من الفن الثالث
فى الظَّبى والأرنب والقِرد والنَّعام

ذكر ما قيل فى الظَّبى

للظِّباء أسماءٌ نطقت بها العرب ، واحدُها ظَبْى، والأنثى ظَبْيـة ، وولدُها طَلا وغَزَال؛ فاذا تحـرّك ومشى فهو رَشَأ؛ فاذا نبت قرناه فهـو شادِنٌ وخِشْف ؛ فاذا قَوِىَ فهو شَصَر، والأنثى شَصَرة، ثم هو جَذَع، ثم ثَنِىّ، ولا يزال ثَنِيًا حتّى يموت. والظِّباءُ أنواعٌ تختلف بحسب مواضعها؛ فصِنفٌ منها يسمَّى الآرام، وهى الخالصةُ البياض، ومساكنُها الرمل، وهى أشـدُّها حُضْرا ؛ وصِنفٌ يسمَّى العُفْر، وألوانُها بيضٌ تعلوها حمرة؛ وصِنفٌ يسمَّى الأُدْم، وألوانُها أيضا كذلك(١)، ومساكنُها الجبال؛ ومن طبع هـذا الحيوان أنّه اذا فقد المـاءَ آستنشَق النسيمَ فآعتاض به عنه ؛ وهو إذا طُلِب لم يَجهَد نفسَه فى الحُضْر لأوّلِ وهـلة، ولكنّه يَرفُقُ بنفسـه ، فاذا رأى طالبَه قد قَرُب منه زاد فى حُضْرِه حتّى يفوتَ الطالب ؛ وهو يَخْضَم(٢) الحنظَلَ حتّى يُرَى ماؤه يسيل من شِدْقيه؛ ويَرِدُ المـاءَ المِلحَ الأُجاجَ فيَغمِس لحيتَه فيـه كما تفعل الشّاةُ فى المـاء العذب، يطلب النّوى(٣) المُنْقَعَ فيه؛ وهو لا يَدخل كِناسَه إلّا مستدبِرا، يَستقبِل بعينيه ما يخـافه على نفسِه ؛ وله نَومَتان فى مَكْنِسين : مَكْنِس الضُّحى ،

(١) يستفاد من كلام المؤلف أن الأدم ، هى التى يعلو بياضها حمرة كالعفر، وهو مخالف لما وجدناه فى كتب اللغة التى بين أيدينا ، فقـد ورد فيها أن الأدم هى الظباء البيض التى تعلوها جدد فيهن غبرة انظر المخصص ج ٨ ص ٢٥ واللسان مادة (أدم) .

(٢) يخضم ، أى يأكل .

(٣) فى كلا الأصلين : « الهواء » ؛ وهو تحريف .

وَمَكْنِسِ العشيّ؛ وهو يصاد بالنّار، فإنّه إذا رآها ذَهِل لها ودُهِش، سيّما[1] إذا أضيف الى إشعالِ النارِ تحريكُ الجَرَس، فإنّه يخذل ولا يَبقَى به حِراكٌ ألبتّة؛ وبين الظَّبي والحَجَلِ ألفةٌ ومحبّة؛ وهو يوصف بحدّة النظر.

فصـــل

٥ ومما يَلتحق[2] بهذا النوع غزالُ المِسْك، ولونُه أسود، وله نابان خفيفان أبيضان خارجان من فيه فى فكّه الأسفل، قائمان فى وجهه كنابَى الخنزير، كلُّ واحدٍ منهما دون الفِتْر، على هيئة ناب الفيل؛ ويكون هذا الغزالُ ببلاد التُّبّت[3] و بالهند؛ ويقال إنه يسافر من التُّبّت[3] الى الهند بعد أن يَرعَى من حشيش التُّبّت[3] — وهو غيرُ طيّب — فيُلقِي ذلك المِسْكَ بالهند، فيكون رديئا لأنه يَحُصل عن ذلك المَرعَى، ثمّ يَرعَى

١٠ حشيشَ الهند الطّيّبَ ويعقِد منه مِسكا، ويأتى بلادَ التُّبّت[3] فيلقيه فيها، فيكون أجودَ ممّا يلقيه فى بلاد الهند؛ وسنذكر إن شاء الله تعالى خبرَ المِسْك فى بابه فى آخرِ فنّ النبات فى القسم المذيَّلِ به مستوفًى، فلا فائدةَ فى تكراره؛ فلنذكرْ ما وُصف به الغزالُ من الشعر.

ذكر ما وصف الغزال من الشعر

---

(١) « سيما »، أى « لا سيما »، فحذفت « لا » للعلم بها وهى مرادة، لكن هذا الحذف قليل (التاج مادة سوا).

١٥ (٢) فى مستدرك التاج مادّة لحق أن « التحق به بمعنى لحق »، من كلام المولدين، قال الصاغانى: لم أجده فيما دوّن من كتب اللغة، فليجتنب ذلك.

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ فى القاموس ومعجم البلدان، وذكر ياقوت أيضا أن الزمخشرى كان يقوله بكسر ثانيه، وبعضهم يقوله بفتح ثانيه، ورواه أبو بكر محمد بن موسى بفتح أوّله وضم ثانيه، وهو

٢٠ بتشديد الباء فى جميع هذه الروايات؛ وهو بلد بأرض الترك؛ ثم ذكر بعد ذلك: أنه قرأ فى بعض الكتب أن تبت مملكة متاخمة لمملكة الصين، ومتاخمة من احدى جهاتها لأرض الهند، ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة، ومن جهة المغرب لبلاد الترك الخ.

قال ذو الرُّمّة — وذَكَر محبوبتَه — :

ذكرتُكِ أن مرّتْ بنا أمُّ شادنٍ * أمامَ المطايا تَشرئبّ وتَسـنَحُ
من المؤلِفـاتِ الرمل أدْماءُ حُرّةٌ * شـعاعُ الضُّحى فى متنِها يَتوضّحُ
هى الشِّبْهُ أعطافا وجِيدا ومقلةً * ومَيْـتُ(١) أبهى بعـدُ منها وأملحُ

وقال آخر : ٥

وحاليـةٍ بالحسن والجِيـدُ عاطلٌ * ومكحولة العينين لم تَكتحلْ قطّ
على رأسِها من قرنِها(٢) الجَعْـدِ وَفرةٌ * وفى خدِّها من صُدْغِها شاهدٌ(٣) سبْطُ(٤)
وقد أُدمجتْ بالشّحم حتّى كأنّمـا * مُلاءتُها من فرطِ ما اندمجتْ قُمْطُ(٥)

ذكر ما قيل فى الأرنب

قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان : إنّ قضيبَ الأرنب كذَكَر الثعلب، ١٠ أحدُ شـطريه عَظْم، والآخَرُ عَصَب؛ وربّمـا رَكبت الأنثى الذكرَ حين السِّفاد لمـا فيها من الشَّبَق، وتُسفَد وهى حبلى؛ وهى قليـلةُ الإدرار على ولدِها؛ ويزعمون أنّه يكون شهرين ذكرا، وشهرين أنثى؛ وحَكَى ابنُ الأثير فى تاريخه (الكامِل) فى حوادث

(١) فى (ا) : « مسبة أنهر يعديها » ؛ وهو تحريف فى جميع هذه الألفاظ .

(٢) يريد بقرنها فى هذا الموضع : شعرها ، بدليل وصفه بعد بالجعودة والوفرة ، كما هو ظاهر . ١٥

(٣) كذا ورد هـذا اللفظ فى كلا الأصلين ومباهج الفكر؛ ولم نجد من معانى الشاهد ما يصلح جعله وصفا للشعر، ولعل صوابه : «وارد» ، وهو الطويل المسترسل من الشعر؛ ولم نثبته فى صلب الكتاب لبعد حروفه فى الرسم مما ورد فى الأصول .

(٤) فى كلا الأصلين : « يسـطو » ، وهو تحريف صـوابه ما أثبتنا كما تقتضيه المقابلة بالجعد فى الشطر الأول، وكما فى مباهج الفكر . ٢٠

(٥) القمط : جمع قماط بكسر القاف ، وهو الخرقة العريضة التى تلف على الصبىّ اذا قمط ، يريد أن هذه الظبية مشدودة فى جلدها لفرط سمنها كما يشد الصبىّ فى القماط ويلف فيه .

سنةِ ثلاث وعشرين وستّمائة، قال : وفيها آصطاد صديقٌ لنا أرنبا، فرآها لها أنثيان وذكرٌ وفرجُ أنثى ، فلما شقّوا بطنَها رأوا فيه خُرَيْقين (١) . والأرنبُ تنام مفتوحةَ العينين، وسببُ ذلك أنّ حِجَاجَىْ (٢) عينيها لا يلتقيان ؛ ويقال : إنّ الأرنبَ اذا رأت البحرَ ماتت، ولذلك لا توجد بالسواحل ؛ وتزعم العرب أنّ الجنّ تهرُب منها اذا حاضت؛ ويقال : إنّها تحيض كالمرأة، وتأكل اللحم وغيرَه، وتَجْتَرّ وتَبعَر، وفى باطن أشداقها شعر، وكذلك تحت رجليها، وليس شيءٌ قصيرُ اليدين أسرعَ منها حُضْرا، ولقَصَرهما يَخفّ عليهما الصعود؛ وهى تطأ الأرضَ على مؤخَّرِ قوائمها تعميةً لأثرِها حتّى لا يعرفه الطالبُ لها، واذا قُربتْ من المكان الذى تريد أن تَجثِمَ فيه وثبتْ إليه.

منافع الأرنب

وفى الأرنب منافعُ طبّيةٌ ذكَرها الشيخُ الرئيسُ أبو علىّ بنُ سينا، قال : إنّ اِنْفَحةَ الأرنبِ حارّةٌ يابسةٌ ناريّة، تحلّل كلَّ جامدٍ من دمٍ ولبنٍ متجبّنٍ وخِلْطٍ غليظ ، وتجمّد كلَّ ذائب، وتَمنع كلَّ سيلانٍ ونَزْفٍ من النساء؛ قال : ولا شكّ أنّها مع ذلك مجفّفة ، واذا شُربتْ مَنَعتْ من الصَّرْع ، وكذلك سائرُ الأنافح ، وهى رديئة للمعدة وإذا حُملتْ (٣) بعد الطُّهر ثلاثةَ أيّام بالخَلّ مَنَعت الحبلَ ونفت الرّطوبةَ السائلةَ من

(١) خريقين، أى خرقين صغيرين ؛ والذى فى الكامل لابن الأثير ج ١٢ ص ١٩٣ طبع مصر : « حريفين » بالحاء والفاء؛ وهو تحريف إذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق .

(٢) أطلق الحجاجين هنا وأراد بهما شفرى العين مجازا مرسلا علاقته المجاورة، لمجاورة شفرى العين لحجاجيها ، وهما العظمان اللذان ينبت عليهما شعر الحاجب إذ لا يتصور الالتقاء فى الحجاجين بهذا المعنى المذكور فى كتب اللغة .

(٣) فى القانون ج ١ ص ٢٥٩ طبع بولاق فى الكلام على الأرنب « شربت » ؛ وعبارته : « إنفحة البرىّ اذا شربت ثلاثة أيام بالخل بعد الطهر منعت الحبل » . وجاء فى موضع آخر منه فى باب الإنفحة ج ١ ص ٢٥٠ : « إذا احتملت — أى الإنفحة — بعد الطهر أعانت على الحبل ، وان شربت قبل الطهر منعت الحبل » . ومؤدى هاتين العبارتين مخالف كل المخالفة لما نقله المؤلف عنه فى هذا الموضع كما هو ظاهر .

الرِّحم، وتنفع من آختناق الرِّحم؛ قال : ودمُ الأرنبِ يَنفِي الكَلَف[1]؛ ورمادُ رأسِـه جيّـدٌ لداء الثعلب ؛ واذا أُخذ بطنُ الأرنبِ كما هو بأحشائه وأُحرِق قَلْيا على مِقْـلًى كان دواءً منبِتا للشـعر اذا سُحق وآستُعمل بدهن الورد ؛ ودماغُه مشويّا ينفع من الرِّعشـة الحادثةِ عقيبَ المرض؛ وإذا حُلَّ دِماغُ الأرنبِ بسمنٍ أو زبدٍ أو عسـلٍ أَسرَعَ إنباتَ الأسـنان ، وسهل بغيرِ وجع؛ ودمُ الأرنبِ مقلوًّا ينفع من السَّحج[2] وورمِ الأمعاء والإسهالِ المزمِن ، وينفع من السّهام الأَرْمَنِيّة ؛ هذا ما قاله الشـيخُ الرئيسُ فى الأرنب .

ذكر ما وصف به الأرنب

وقـد وصف بعضُ كتّاب الأندلس عدّةً من الأرانب، فقـال : أفرادٌ[3] إخوان كأنّهنّ أولادُ غِزلان ؛ بين رَوَاغٍ ينعطف آنعطافَ البُرَه[4] ، ووثّابٍ يجتمع آجتماعَ الكُرَه؛ حاكَ القَصَب إزارَه، وصاغ التبرطوقَه وسِوارَه؛ قد غُلِّل بالعنبر بطنُه، وجُلِّل بالكافورِ متنُه ؛ كأنّمـا تَضَمَّخَ بعَبير، وتلفَّعَ فى حرير؛ ينام بعينَىْ ساهر، ويَفُوت بجناحَىْ طائر؛ قصـير اليدين، طويل السّاقين ؛ هاتان فى الصعود تُنجدانه ، وتانِكَ عند الوثوب تؤيّدانِه ؛ والله أعلم .

ذكـر ما قيـل فى القـرد

القردُ عنـد المتكلّمين فى الطبائع مركَّبٌ من إنسانٍ وبهيمة ؛ وهو إذا سـقط فى المـاء غَرِق مثلَ الإنسان الّذى لا يُحسِن السِّـباحة ؛ وهو يأخذ نفسَـه بالزواج والغَـيرةِ على الأنثى ؛ وهو يَقْمَل ، واذا قَمِل تَفَلَّى ، ويأكل ما ينتزعه من بدنه

(١) الكلف : شىء يعلو الوجه ، كالسمسم .

(٢) السحج ، هو انقشار ظاهر الجلد من شىء يصيبه .

(٣) فى مباهج الفكر : « جيران » .

(٤) البرة : الخلخال .

من القمل ؛ وهو كثيرُ الشَّبَق ، واذا اشتدّ به الشَّبَقُ استمنى بفيه ؛ والأنثى تلد عدّةً نحوَ العشرة وأكثر ، كما تلد الخنزيرة ؛ وهى تحمل بعضَ أولادها كما تحمل المرأة ؛ ويقال : إن الطائفةَ من القرود اذا أرادت النومَ ينام الواحدُ فى جنب الآخرِ حتى يكونوا سطرا واحدا ، فاذا تمكّن النومُ منها نهض أوّلُها من الطَّرَف الأيمن ، فيمشى وراء ظهورِها حتى يقعدَ من وراء الأقصى من الطَّرَف الأيسر ، فاذا قعد صاح ؛ فينهَض الذى يليه ، ويفعل مثلَ فعلِه ، فهذا دأبُهم طولَ اللّيل ؛ فهم يبيتون فى أرضٍ ويُصبِحون فى أخرى ؛ وفى القرد من قبول التأديب والتعليم [ما لا خفاء به عن أحد](١) حتى إنه دُرِّب قردٌ ليزيدَ بنِ معاوية على ركوبِ الحمير والمسابقةِ عليها ؛ وحكى المسعودىُّ فى كتابه المترجَم بمروج الذهب : أن القردَة فى أماكنَ كثيرةٍ من المعمور ، منها (وادى نخلة) بين (الجَند)(٢) وبلاد (زَبيد) ، وهو بين جبلين ، وفى كلِّ جبلٍ منهما طائفةٌ من القرود يسوقها هزرٌ(٣) ، وهو القردُ العظيمُ المقدَّمُ فيها ؛ قال : ولها مجالسُ يجتمع فيها خلقٌ كثير منها ؛ فيُسمَع لها حديث والاناثُ بمعزِلٍ عن الذكور ، والرئيسُ متميِّزٌ عن المرءوس ؛ وباليمن قرودٌ كثيرةٌ فى نواحٍ متعدِّدة ؛ منها فى ذَمارِ(٤) من بلاد صنعاء فى برارىَّ وجبالٍ كأنّها السحب ؛ وتكون القرود

(١) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن مباهج الفكر .

(٢) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : «الجبل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مروج الذهب (ج ١ ص ٥٣) طبع باريس والجند بالتحريك : بلد باليمن بين عدن وتعز ، وهو أحد مخاليفها المشهورة كما فى تاج العروس . وذكر ياقوت أن بين الجند وصنعاء ثمانية وخمسين فرسخا .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى مروج الذهب المنقول عنه هذا الكلام ج ٣ ص ٥٣ طبع باريس ، وضبط فى هذه النسخة بفتح أوله وثانيه ضبطا بالقلم ، وكذلك فى (ب) ومباهج الفكر إلا أنه لم يضبط فيهما ؛ وفى (ا) «هرز» بمعجمتين ولم نجد الهزر ولا الهرز بالمعنى المذكور هنا فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أننا لم نجدهما فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ المعرّبة والدخيلة .

(٤) فى كلا الأصلين : «دمار» بالمهملة ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن معجم البلدان وقد ورد فيه أن ذمار هذه على مرحلتين من صنعاء ، وأنها بفتح الذال وكسرها .

أيضا بأرض النُّوبة وأعلى بلادِ الحبشة، وهذا الصِّنفُ من القرود حسنُ الصورة، خفيفُ الروح، مدوَّرُ الوجه، مستطيلُ الذَّنَب، سريعُ الفهم، ويسمّونه النَّسناس؛ ومنها أيضا بجُلجان الزّانج[1] فى بحرِ الصين[2] وبلادِ المهراج[3] وفى ناحية الشّمال نحو أرض الصَّقالبة ضرب من القرود منتصبُ القامات، مستديرُ الوجوه، والأغلبُ عليهم صورُ الناس وأشكالُهم، ولهم شعور، وربّما صيد منها القردُ فى النادرِ بالحيلة، فيكون فى نهاية الفهم والدِّراية، إلّا أنّه لا لسانَ له يعبِّر به عمّا فى نفسِه، لكنّه يفهم كلَّ ما يخاطَب به بالإشارة؛ ومن النّواحى الّتى بها القرود جبلُ موسى، وهو الجبل المُطِلُّ على مدينة سَبْتَة[4] من بلاد المَغرب، والقرودُ الّتى فيها قباحُ الصور جدّا، عظامُ الجثث، تشبه وجوهُها وجوهَ الكلاب، لها خُرطوم، وليس لها أذناب، وأخلاقُها صعبةٌ لا يكاد ينطبع فيها تعليمٌ إلّا بعد جَهْد؛ وحَكى لى بعضُ المغاربة أنهم اذا أرادوا صيدَ هذه القرود يتحيّلون عليها بأن يصنعوا لها زَرابِينَ بقدرِ أرجلِها، ويلطّخوا نعالَها

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين وتقويم البلدان لأبى الفداء ص ٣٧٢ طبع أوربا وقال أبوالفداء: الظاهر أنه بالراء المهملة والألف والنون ثم جيم فى الآخر. وفى نسخة مروج الذهب للسعودى طبع باريس ج ٢ ص ٥١، ٥٢ ومعجم البلدان لياقوت: «الزابج»، وضبطه ياقوت بفتح الباء وكسرها وهى جزيرة فى أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند فى حدود الصين انظر معجم البلدان.

(٢) كذا فى مروج الذهب للسعودى المنقول عنه هذا الكلام؛ والذى فى كلا الأصلين ومباهج الفكر: «وبحر» بالواو؛ وهو تحريف.

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ومروج الذهب للسعودى وتقويم البلدان لأبى الفداء ص ٣٧٤ و ٣٧٥ وذكر أبو الفداء أن جزيرة المهراج هى جزيرة سريرة، ونقل عن المهلبى أنها فى أعمال الصين.

(٤) سبتة: بلدة مشهورة من بلاد المغرب، وهى على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذى هو أقرب ما بين البر والجزيرة.

بالصابون، ويأتوا إلى مكانِ هـذه القرودِ فيقعدوا حيث تراهم، ويَلبَسوا زَرابينهم[1] ويمشـوا بها، ويتركوا تلك الزَّرابينَ[1] الصغار، فتأتى القرودُ وتَلبَس الزَّرابين[1]، فتخرج عليها الرجال، فتعدو القرودُ بتلك الزَّرابين[1]، فلا تثبت أرجلُها على الأرض، وتَزلَق، فتدركُها الرجالُ ويأخذوها. ولم أقف على شعرٍ يتعلّق بوصف القرد فأثبتَه، والله أعلم.

ذكر ما قيل فى النَّعام

والنعامة تسمّى بالفارسية: أُشْتُرْمُرْغ[2]، ومعنى أُشْتُرْ: جَمَل، ومُرْغ[2]: طائر، فكأنّهم قالوا: جملٌ طائر، ومن أعاجيبها أنّها تضع بيضَها عند الحِضان، وتعطى كلَّ بيضةٍ منها نصيبَها من الحَضْن، لأنّ بدنَها لا يشمل جميعَ ما تَحضُنه، فانّها تَحضُن أربعين بيضـةً أو ثلاثين، وتَخرُج لطلب الطُّعم، فتمرّ فى طريقها ببيضِ نعـامةٍ أخرى فتَحضُنه وتَنسَى بيضَها، قال ابنُ هَرْمَةَ:

وإنّى وتركى ندى الأكرمين * وقَدْحى بكفَّىَّ زَنْدا شَحـاحا[3]
كتاركةٍ بيضَها بالعَـراء * وملبِسةٍ بيضَ أخرى جَناحا[4]

ويقال: إنها تقسم بيضها أثلاثا، منه ما تَحضُنه، ومنه ما تجعل صفارَه[5] غِذاء، ومنه ما تفتحه وتتركه فى الهواء حتى يَعفَن، وتتولّد من عُفونتِه دواب[6]، فتُغذى بها

(١) الزرابين: النعال التى تلبس فى الأرجل، واحده زربون والأصل فيه زربول باللام؛ وكلتا الكلمتين عامية مبتذلة انظر شفاء الغليل ومستدرك التاج.

(٢) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر: «اشترموك» بالواو والكاف؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا نقلا عن المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستانجاس.

(٣) الزند الشحاح: الذى لا يورى كأنه يشح بالنار.

(٤) هذا البيت يضرب مثلا لمن ترك ما يجب عليه الاهتمام به واشتغل بما لا يلزمه ولا منفعة له فيه.

(٥) لم نجـد الصفار فيما راجعناه من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا، وهو ع البيض، أى الصفرة التى تكون فيه؛ والظاهر أنه استعمال عامىّ، وهم ينطقونه بفتح الصاد.

(٦) كذا فى كلا الأصلين؛ والذى فى مباهج الفكر: «دود».

فراخَها اذا خرجتْ ، وكلُّ ذى رجلين اذا آنكسرت إحداهما آستعان فى نهوضه وحركته بالثانية إلّا النَّعامة، فانّها تَبقَى فى مكانها جاثمةً حتى تَهلِك جوعا؛ قال الشاعر:

إذا آنكسرتْ رجلُ النَّعامة لم تجِد * على أختِها نهضا ولا بآستِها حبْـوا (١)

والعربُ تزعم أنّ الظَّليمَ أصـلم (٢)، وأنه عُوِّض عن السَّـمع بالشَّمّ ، فهو يَعرِف بأنفِه ما لا يحتاج معه الى سَمع، والعربُ تقول فى أمثالها : « أحمقُ من نَعامة » ، قالوا : لأنّهـا إذا أدركها القانصُ أدخلتْ رأسَها فى كَثيبِ رملٍ وتقـدَّر فى نفسها أنّها قد آستخفت منـه؛ والنَّعامُ قوىُّ الصبر على العطش ، شديدُ العَـدْو ، وأشدّ ما يكون عَدْوُه اذا آستَقبَل الريح، وهو فى عَدْوِه يضع عنقَه على ظهرِه، ثم يخـترِق الريح ؛ والنَّعامةُ تَبتلِـع العظمَ والحجـرَ والحـديدَ فيصير فى جوفها كالمـاء، وتبتلِـع الجمر؛ وهو يصاد بالنارِ كسائر الوحش ، فإنه إذا رأى النارَ دُهِش ووقف فيتمكّن منه الصائد .

وقد وصفها إبراهيمُ بنُ خفاجةَ الأندلسىُّ فقال : — كرما وصفت به النعامة

ولربّ طيّارٍ خفيفٍ قـد جـرى * فشـلّا (٣) بجـارٍ خلفَـه طيّـارِ

من كلِّ فاجرةِ (٤) الخُطا مختـالةٍ * مشىَ الفتاةِ تَجُـرّ فضـلَ إزارِ

مخضـوبةِ المِنقارِ تحسَب أنّهـا * كَرَعتْ عـلى ظمإٍ بكاسِ عُقـارِ

(١) فى (أ) : « جبرا » ، وفى (ب) «حبرا» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ؛ وما أثبتناه عن مباهج الفكر وغيره .

(٢) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : «أصلح» بالحاء ؛ وهو تحريف ؛ وسياق الكلام الآتى بعد يقتضى ما أثبتنا ؛ والأصلم : الذى استؤصل أذناه ، والعرب تصف النعام بذلك ، لأنها لا آذان لها ظاهرة .

(٣) شلا ، أى رفع ، ويريد بالجار الذى خلفه : الجناح ، أى أنه جرى رافعا جناحه .

(٤) فاجرة الخطا ، أى أنها تمايل فى مشيها ، يقال : فجر فلان ، أى مال ؛ وفى رواية : «قاصرة» انظر ديوان ابن خفاجة ص ٥٣ طبع مطبعة المحروسة بمصر : والرواية الأولى هى المناسبة لقوله : « مختالة » الخ البيت .

لا تَستقرّ بها الأَداحى[1] خشيةً * من ليلِ ويلٍ أو نهارِ بَوارِ

[وقال الحِمّانىّ[2]] :

قد أَلبَس الليلَ حتى يثنى خَلَقا * وأَركَب الهول بالغرّ الغرانيقِ[3]

وأَنتحى لنعام الدَّو[4] مُلهِبةً[5] * كأنّها بعضُ أحجارِ المَجانيقِ

٥ تُسدِى الرياحُ بها ثوبا وتُلحِمُه * كما تلبَّسُ مِن نسجِ الخَداريقِ[6]

كأنّما ريشُها والريحُ تَفرِقُه * أسمالُ راهبةٍ شِيبتْ بتشقيقِ

كأنّها حين مَدّتْ رُؤْسَها[7] فَرَقا * سُودُ الرجالِ تَعادَى[8] بالمَزاريقِ

كأنّ أعناقَها وَهْنا اذا خَفقتْ[9] * بها البلاقعُ أَدْقالُ[10] الزواريقِ

فما أَستلذّ بلحظِ العينِ ناظرها * حتّى تَغصّصَ أعلاهنّ[11] بالرّيقِ

(١) فى كلا الأصلين : «الأراحى» بالراء؛ وهو تحريف ؛ والأداحى : المواضع التى يبيض فيها النعام ويفرخ ، واحده أدحى وأدحية ، والمعنى انها لايستقر بها مكان تكون فيه ، فهى تنتقل من مكان الى آخر؛ وإسناد الاستقرار الى الأداحى كما فى هذا البيت إسناد مجازىّ ؛ كما لا يخفى ، إذ المستقر إنما هى النعامة لا الأداحى ، وفى رواية « الأيادى » انظر ديوان ابن خفاجة .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (ا) وقد أثبتناها عن (ب) .

(٣) الغرانيق : جمع غرنوق ، وهو الشاب الناعم الأبيض الجميل ، وفيه لغات أخرى ؛ والمعنى أنه يركب الهول مع فتيان هذه صفتهم . (٤) الدو : الفلاة المستوية الواسعة .

(٥) الملهبة : الشديدة الجرى المثيرة للغبار فى عدوها ، يقال : «الهب الفرس» ، أى اضطرم جريه .

(٦) الخداريق : جمع خدرنق ، وهو العنكبوت ، و يقال بالذال المعجمة أيضا .

(٧) فى كلا الأصلين : «ريشها» ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى مباهج الفكر ، وهو ما يقتضيه التشبيه الآتى بعد فى عجز البيت ؛ والرؤس : جمع رأس ، قال امرؤ القيس :

فيوما الى أهلى ويوما اليكم * ويوما أحط الخيل من رؤس أجبال

(٨) تعادى ، أى تتعادى ، من العدو ، وهو الجرى .

(٩) فى (ا) «خفيت» بالياء ؛ وهو تحريف .

(١٠) الأدقال : جمع دقل بالتحريك ، وهو خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يمد عليها الشراع ، وفى (ا) «اذقان» وفى (ب) «أدقان» ؛ وهو تحريف فى كلتيهما .

(١١) الظاهر أنه يريد بهذا البيت وصف أعناق النعام بالاضطراب وأنها تعلو وتخفض ، فيقول : ان رءوسها لا تكاد تعلو وتنظر الى فوق حتى تخفض كأنها غصت بريقها ، فتخفض أعناقها لذلك .

القسم الثالث من الفن الثالث فى الدوابّ والأنعام، وفيه ثلاثة أبواب

البـاب الأوّل من هذا القسم فى الخيل

وٱبتداء خَلقِها، وأوّل من ذلّلها وركبها، وما ورد فى فضلها وبركتها من الآثار الصحيحه، والأحاديثِ النبويّةِ الثابتةِ الصريحه، وما ورد فى فضل الإنفاق عليها، وما جاء فى ٱلتماس نَسلِها، والنهيِ عن خِصائها والرّخصةِ فيه؛ وما قيل فى أكل لحومِها من الكراهة، وما ورد من النهيِ عن عَسبِ[1] الفـرس وبيع ماء الفحل، وما نُدب إليه من إكرامِ الخيـل ومنع إذالتِها[2]، والأمرِ بٱرتباطها، وما يُستحَبّ من ألوانِهـا وشِياتِها وذكورها وإناثِها، وما ورد فى شؤم الفرسِ، وما يُذَمّ من عَصَمِه[3] ورَجَلِه، وما جاء فى سباق الخيل، وما يحلّ منه وما يحرم، وكيفيّةِ التّضميرِ[4] عند السّباق، وأسماءِ السوابق فى الحَلْبة، وما يُقسَم لصاحب الفرس من سهام الغنيمة، والفرقِ فى ذلك بين العِرابِ والهُجُنِ والبَراذين، والعفوِ عن سقوط الزّكاةِ فى الخيل، وما وَصَفت

(١) عسب الفـرس: كراؤه للضراب، وأصل العسب نفس الضراب والعرب تسمى الشىء باسم غيره اذا كان معه أو من سببه.

(٢) إذالتها، أى إهانتها.

(٣) العصم بالتحريك: البياض الذى يكون فى يدى الفرس. والرجل بالتحريك أيضا: البياض الذى يكون فى إحدى رجليه.

(٤) تضمير الخيل، هو أن تعلف قوتا بعد سمنها؛ وذكر أبو منصور فى تضمير الخيل معنى آخر، وهو أن تشدّ عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتد لحمها، ويحمل عليها غلمان خفاف يجرونها ولا يعنفون بها، فاذا فعل ذلك بها أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ولم يقطعها الشدّ، قال: فذلك التضمير الذى شاهدت العرب تفعله.

العربُ به الخيلَ من ترتيبها فى السنّ، وتسميةِ أعضائها وأبعاضِها وألوانِها وشياتِها، والمحمودِ من صفاتِها ومحاسنِها، وعدِّ عيوبِها الّتى تكون فى خلقتها وجريها، والعيوبِ الّتى تَطرأ عليها وتحدُث فيها، وذكرِ خيلِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعِدّتِها وأسمائِها، وكرامِ الخيلِ المشهورةِ عند العرب، وما وُصِفت به الخيلُ فى أشعار الشعراء ورسائلِ الفضلاء الّتى تتضمّن مدحَ جيّدِها وذمَّ رديئِها، وغيرِ ذلك على ما نوضحه — إن شاء الله تعالى — ونبيّنه، ونأتى به على الترتيب والتحقيق، فنقول وبالله التوفيق، [وإليه المآب][1].

ذكر ما ورد فى ابتداء خَلْقِ الخيل وأوّلِ من ذلّلها وركبها

قال أبو إسحاقَ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ النّيسابوريُّ المعروف بالثّعلبيِّ فى تفسيره: أخبرنا أبو محمدٍ عبدُ الله بنُ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ عَقيل الأنصاريّ، وأبو عبدِ الله محمدُ بنُ عبدِ الله الحافظ، قالا: أخبرنا أبو منصورٍ محمدُ بنُ القاسم العتكىّ، قال: حدّثنا محمدُ بنُ الأَشْرَس، قال: حدّثنا أبو جعفر المَدينىّ، قال: حدّثنا القاسمُ ابنُ الحسنِ بنِ زيدٍ، عن أبيه، عن الحسينِ بنِ علىٍّ رضى الله عنهما، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لمّا أراد الله أن يخلق الخيلَ قال للريح الجَنوب: إنّى خالقٌ منكِ خَلْقا فأجعلُه عزّا لأوليائى، ومَذَلّةً على أعدائى، وجَمالا لأهلِ طاعتى؛ فقالت الريح: أُخلُقْ، فقبَض منها قبضةً فخَلَق فرسا، فقال له: خلقتُك عربيّا وجعلتُ الخير معقودا بناصيتِك، والغنائمَ مجموعةً على ظهرِك، وعَطَفتُ عليك صاحبَك، وجعلتُك تطير بلا جناح، فأنت للطّلب، وأنت للهرب،

(١) لم ترد هذه العبارة فى (ب).

وسأجعل على ظهرك رجالا يسبّحونى[(١)] ويحمدونى[(١)] ويهلّلونى[(٢)]، تسبّحن[(٣)] اذا سبّحوا، وتهلّلن[(٣)] اذا هلّلوا، وتكبّرن[(٣)] اذا كبّروا؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ما من تسبيحة وتحميدةٍ وتكبيرةٍ يكبّرها صاحبُها فتَسمعه[(٤)] إلّا فتجيبه بمثلها، ثم قال: لمّا سمعت الملائكةُ صفةَ الفرسِ وعاينتْ خَلْقَها، قالت: ربِّ، نحن ملائكتُك نسبّحك ونحمدك، فماذا لنا؟ فخلق الله لها خيلا بُلْقا، أعناقُها كأعناق البُخت[(٥)]، فلمّا أرسل الله الفرسَ الى الأرض، واستوت قدماه على الأرض صَهَلَ، فقيل: بوركتِ من دابّة، أذِلُّ بصهيلِك المشركين، أُذِلُّ به أعناقَهم، وأملأُ به آذانَهم، وأُرْعِبُ به قلوبَهم؛ فلمّا عرض الله على آدمَ من كلِّ شيء قال له: اِخترْ من خَلْقِ ما شئتَ، فاختار الفرس، فقال له: اِخترتَ عزَّك وعزَّ ولدِك خالدا ما خَلَدوا، وباقيا ما بقُوا، بَرَكتى عليك وعليهم، ما خلقتُ خَلْقا أَحَبَّ إلىّ منك ومنهم[(٦)]".

(١) حذفت نون الرفع من هذه الأفعال الثلاثة تخفيفا لاتصال هذه الأفعال بنون الوقاية، والحذف فى مثل هذا الموضع جائز بكثرة نحو (تأمرونى)، بناء على الصحيح من أن المحذوف هو نون الرفع لا نون الوقاية؛ وإذن فيجوز أن تقرأ هذه الأفعال الثلاثة بتشديد النون إدغاما لإحدى النونين فى الأخرى انظر حاشية الصبان ج ١ ص ١٠١ طبع بولاق.

(٢) انما عدّى هذا الفعل الى المفعول لتضمنه معنى «ينزهوننى»، وإنما حملناه على هذا الوجه إذ لم نجد هذا الفعل فيما لدينا من كتب اللغة إلا لازما، يقال: هلل، أى قال: لا إله إلا الله.

(٣) «تسبحن» و «تهللن» و «تكبرن»: خطاب لجماعة الأفراس.

(٤) فى رواية «فتسمعه فرسه» انظر رشحات المداد ص ٤ طبع حلب.

(٥) البخت: الابل الخراسانية تنتج بين عربىّ وفالج، وهى طوال الأعناق.

(٦) كذا ورد هذا الحديث بهذه الرواية فى كلا الأصلين وكتاب فضل الخيل للحافظ الدمياطى وهو الذى نقل عنه المؤلف أكثر هذه الأحاديث الواردة فى هذا الباب، وقد أورده الدميرىّ فى حياة الحيوان فى الكلام على الخيل، والبخشى الحلبىّ فى أول كتاب رشحات المداد، وفيه زيادات واختلافات فى بعض العبارات؛ ولم نثبتها هنا فى الحواشى لكثرتها.

وروى المسعودىُّ فى كتابه المترجَم بمروج الذهب بسنده إلى ابن عبّاس — رضى الله عنهما —، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إن الله لمّا أراد أن يخلق الخيلَ أوحى الى الرِّيح الجَنوب أنّى خالقٌ منكِ خَلْقًا فاجتمعى، فاجتمعتْ، فأمر جبريلَ عليه السلامُ فأخذَ منها قبضة، قال: ثمّ خلق الله تعالى منها فرسا كُمَيْتا[1]، ثم قال الله تعالى: خلقتُكَ فرسا، وجعلتُك عربيّا، وفضّلتُكَ على سائرِ ما خلقتُ من البهائم بسَعةِ الرزق، والغنائمُ تقاد على ظهرِك، والخيرُ معقودٌ بناصيتِك؛ ثم أرسله فصهَلَ، فقال له: باركت فيك، فصهيلُك أُرعِب به المشركين وأملأ مسامعهم، وأزلزِل أقدامَهم؛ ثم وَسَمَه بغُرّةٍ وتحجيل، فلمّا خلق الله تعالى آدم، قال: يا آدم، أخبرنى أىَّ الدّابّتين أحببت؟ — يعنى الفرسَ والبُراق، قال[2]: وصورةُ البُراق على صورةِ البغلِ لا ذكرٌ ولا أنثى — فقال آدم: يا ربِّ اخترتُ أحسنَهما وجها، فاختار الفرس، فقال الله له: يا آدم، اخترت أحسنهما، اخترتَ عزَّك وعزَّ ولدِك باقيا ما بقُوا، وخالدا ما خلَدوا". هذا ما ورد فى ابتداء خَلْق الفرس؛ والله أعلم بالصواب؛ واليه المرجع والمآب.

وأما أوّلُ من ذلّل الخيلَ وركبها — فإسماعيل بنُ إبراهيمَ عليهما السلام، ودليلُ ذلك ما رواه الزُّبَيرُ بنُ بَكّارٍ فى أوّلِ كتابه فى أنسابِ قريش من حديث داودَ بنِ الحُصَين، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عبّاس — رضى الله عنهما — قال: كانت الخيلُ وحوشا لا تُركَب، فأوّلُ من ركبها إسماعيل، فلذلك سُمّيتْ

(١) الكميت: من الكمتة، وهى لون بين السواد والحمرة، والكميت يستوى فيه المذكر والمؤنث؛ وإنما صغروه لأنه بين الحمرة والسواد ولم يخلص لواحد منهما فيقال له: أسود أو أحمر.

(٢) «قال»، أى قال ابن عباس.

العِراب . وما رواه أحمدُ بنُ سليمانَ النَّجّادُ فى بعض فوائده[1] من حديث ٱبنِ جُرَيج، عن ابنِ أبى مُلَيْكةَ، عن ٱبنِ عبّاس — رضى الله عنهما — قال : كانت الخيلُ وحشا كسائرِ الوحوش، فلمّا أذن اللهُ عزّ وجلّ لإبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلامُ برفع القواعدِ من البيت، قال الله عزّ وجلّ : إنّى معطيكما كنزا ذخرتُه لكما ؛ ثم أوحى الله تعالى إلى إسماعيلَ أن ٱخرجْ فٱدعُ بذلك الكنز، فخرج إسماعيلُ إلى (أَجْيَاد[2]) — وكان مَوطِنا له — وما يَدرِى ما الدّعاء ولا الكنز، فألهمه الله عزّ وجلّ الدعاء، فلم تبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلّا أجابتْه، فأمكنتْه من نواصيها، وذلّلهاله ؛ فٱركبوها واعتقِدوها، فإنّها ميامين، وإنّها ميراثٌ عن أبيكم إسماعيلَ عليه السلام. والله أعلم .

ذكر ما ورد فى فضل الخيلِ وبَرَكتِها، وفضلِ الإنفاق عليها

قال الله عزّوجلّ : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ قال ٱبنُ عبّاس — رضى الله عنهما — : « نزلتْ فى عَلَفِ الدوابّ » . ورُوِىَ عن أبى أُمامةَ الباهلىّ أنّه قال : « هى النّفقةُ على الخيلِ فى سبيل الله » ، قال الواحدىّ : « هذا قولُ أبى الدّرداءِ ومكحولٍ والأَوزاعىّ » ؛ ومن فضل الخيلِ وشرفِها أنّ اللهَ أقسم بها فى كتابه العزيز، فقال : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ؛ وسمّاها اللهُ تعالى الخيرَ فى قوله عزّ وجلّ إخبارا عن سليمانَ عليه السلام :

---

(١) فى كلا الأصلين : « فرائده » ؛ وهو تحريف . وما أثبتناه عن كتاب فضل الخيل ص ٢٧ طبع حلب .

(٢) أجياد : موضع بمكة يلى الصفا ، و يقال فيه أيضا : (جياد) بكسر الجيم .

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ؛ وفى الحديث الصحيح عن مالكِ بنِ أنس، عن نافع، عن عبدِ الله بنِ عمرَ — رضى الله عنهم — عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " الخيلُ فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة " رواه البخاريّ ؛ وفى لفظٍ آخر : " معقودٌ فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة "؛ ومن طريقٍ آخَرَ عن الشَّعْبيّ، عن عُروةَ — هو ابنُ أبى الجَعْدِ[1] الأزديُّ البارقيّ — قيل يا رسولَ الله : وما ذلك الخير ؟ قال : "الأجرُ والغنيمة" رواه مسلم .

وعن عُروةَ رضى الله عنه، قال: رأيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أتى فرسا أَشْقَرَ فى سوق المدينة مع أعرابىّ، فلوى ناصيتَها بإصبعيه وقال : " الخيلُ معقودٌ فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة" . (٣٧)

وعن جَرير بنِ عبد الله — رضى الله عنه، — قال : رأيتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يَلوِى ناصيةَ فرسِه بإصبعه ويقول : "الخيرُ معقودٌ بنواصى الخيلِ إلى يوم القيامة "؛ رواه مسلمٌ والنَّسائىّ؛ وفى لفظ النَّسائىّ : « يَفتِل ناصيةَ فرسٍ بين أصبعيه » ؛ وفى حديثٍ آخَرَ موضعَ "معقود" : "معقوص"، وهو بمعناه، أى ملوىٌّ بها ومضفورٌ فيها، والعِقْصةُ : الضَّفيرة .

وفى حديثٍ آخَرَ عن نُعَيم بنِ زِيادٍ، عن أبى كَبْشَةَ — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الخيلُ معقودٌ فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وأهلُها مُعانُون عليها، والمنفقُ عليها كالباسطِ يدَه بالصدقة" ؛ وفى لفظٍ آخَرَ : "فامسحوا نواصيَها، وادعوا لها بالبركة" .

(١) يقال فيه : ابن أبى الجعد، كما هنا، وابن الجعد، وابن عياض بن أبى الجعد انظر شرح النووى على صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٩٥ طبع مصر وكتاب فضل الخيل للحافظ الدمياطى ص ٦ طبع حلب .

وعن أسماءَ بنتِ يزيدَ — رضى الله عنها — أنّ رسـول الله صلّى الله عليـه وسلّم قال : "الخيلُ فى نواصيها الخيرُ معقودٌ أبدا إلى يوم القيامة، فمَن ربطَها عُدّةً فى سبيل الله فانّ شِبعَها وجوعَها ورِيّها وظمأَها وأَرواثَها وأبوالَها فلاحٌ فى موازينِهِ يوم القيامة"(١)؛ رواه الامامُ أحمدُ فى مُسندِه .

وعن جابر — رضى الله عنه — عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الخيلُ معقودٌ فى نواصيها الخـيرُ إلى يوم القيامة وأهلُها مُعانُون عليها، فخذوا بنواصيها، وآدعوا بالبركة ، وقلّدوها ولا تقلّدوها الأوتار"؛ وفى لفظ : "فى نواصيها الخيرُ والنَّيْل"؛ وكانوا يقلّدون الخيلَ أوتارَ القِسِيِّ لئلّا تصيبَها العين، فنهاهم صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك، وأعلَمَهم أنّ الأوتارَ لا تَرُدّ من قضاء الله تعالى شيئا؛ وقيل : نهاهم عن ذلك خوفا على الخيـلِ من الاختناق بها؛ وقيـل : المراد بالأوتار الذُّحولُ التى وُتِرتمْ بها فى الجاهلية؛ وقد آختلف الناس فى تقليدِ الدوابِّ والإنسانِ أيضا ما ليس بتعاويذَ قرآنيّةٍ مخافةَ العين؛ فمنهم من نَهَى عنه ومَنَعه قبلَ الحاجةِ إليه ، وأجازه بعد الحاجةِ إليه، لدفعِ ما أصابه من ضررِ العينِ وشبهِه؛ ومنهم من أجازه قبلَ الحاجةِ وبعدَها، كما يجوز الآسـتظهارُ(٤) بالتّداوى قبلَ حلولِ المرض؛ وقَصَرَ بعضُهـم النهىَ على الوَتَرِ خاصّة، وأجازه بغير الوَتَرِ؛ وقال بعضُهم فيمن قلّد فرسَـه شيئا ملوّنا فيه خرز : إن كان للجَمَالِ فلا بأس به .

(١) زاد فى كتاب فضل الخيل ص ٩ قبل هذه العبارة قوله : «وانفق عليها احتسابا فى سبيل الله» فإنّ الخ .

(٢) فى كتاب فضل الخيل : «فى ميزانه» .

(٣) زاد فى كتاب فضل الخيل بعد هذه الكلمة قوله : «ومن ربطها رياء وسمعة وفرحا ومرحا فان ظمأها وأرواثها وأبوالها خسران فى موازينه يوم القيامة» .

(٤) الآستظهار : الآحتياط .

وعن أبي هريرةَ — رضى الله عنه — عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "الخيلُ لثلاثة: لرجلٍ أجْرٌ، ولرجلٍ سِتْرٌ، وعلى رجلٍ وِزْرٌ؛ فأمّا الّذى هي له أجرٌ فرجلٌ ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مَرْجٍ أو روضةٍ، فما أصابت فى طِيَلِها ذلك من المَرْجِ أو الروضةِ كانت له حسنات، ولو أنّها قطعتْ طِيَلَها فاستَنَّتْ شَرَفا أو شَرَفين كانت آثارُها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنّها مرّت بنَهَرٍ فشربت منه ولم يُرِدْ[1] أن يسقيها كان ذلك حسناتٍ له، فهى لذلك أجر؛ ورجلٌ ربطها تَغنِّيًا[2] وتعفُّفًا، ثم لم يَنسَ حقَّ الله فى رقابها ولا ظهورها، فهى لذلك سِتْر؛ ورجلٌ ربطها فخرا ورِياءً ونِواءً لأهلِ الإسلام، فهى على ذلك وِزْر".

وفى حديث آخر: "الخيلُ لثلاثة، هى لرجل أجْر، ولرجلٍ سِتْر، وعلى رجلٍ وِزْر؛ فأمّا الّذى هى له أجرٌ فالّذى يتّخذها فى سبيل الله ويُعِدّها له، فلا تُغيِّب شيئًا فى بطونها إلّا كُتِب له به أجْر، ولو رعاها فى مَرْجٍ فما أكلتْ شيئا إلا كُتِب له به أجر؛ ولو سقاها من نهرٍ كان له بكلِّ قطرةٍ تُغيِّبُها فى بطونها[3] — حتّى ذكرَ الأجرَ فى أبوالِها وأرواثِها — ولو استنّتْ شَرَفا أو شَرَفين كُتِب له بكلِّ خطوةٍ تخطوها أجر؛ وأمّا الذى هى له سِتْرٌ فالّذى يتّخذها تعفّفا وتكرّما وتجمّلا، ولم ينسَ حقَّ ظهورِها وبطونِها فى عسرِها ويسرِها؛ وأمّا الّذى هى عليه وِزْرٌ فالّذى يتّخذها أشَرا وبَطَرا وبَذَخا ورِئاء الناس، فذلك الّذى هى عليه وِزْر".

---

(١) ولم يرد أن يسقيها، أى أنها شربت بغير قصد من صاحبها.

(٢) فى (ا) «تعنبا»، وفى (ب) «تغنيا»؛ وهو تصحيف فى كلتا النسختين و «تغنيا»، أى استغناء بها عن الطلب من الناس انظر اللسان مادة «غنى».

(٣) حذف اسم كان هنا، وهو أجر، أو حسنة، أو نحو ذلك، للعلم به من سياق الكلام.

شرح غريب هٰذين الحديثين

الطِّوَلُ والطِّيَلُ بالواو والياء : الحَبْل، وكذلك الطَّويلة. وقوله : «استنّتْ»، أى عَدَتْ لمَرَحِها ونشاطِها ولا راكبَ عليهـا . والشَّرَفُ : ما يعلو من الأرض، وقيل : الطَّلَق، فكأنّه صلّى الله عليه وسلّم يقول : جَرَتْ طَلَقا أو طَلَقين، بمعنى شَوْطٍ أو شَوْطين . والأَشَرُ[1] والبَطَرُ : شدّةُ المَرَح . والبَـذَخُ بفتح الذال وبالخـاء المعجمتين : الكِبْر . ونِواءً لأهلِ الإسلام : معاداةً لهم، مِن ناوأه نِواءً ومناوأة، وأصلُه من ناءَ إليكَ ونُؤْتَ إليه، أى نَهضتَ .

وعن زِيادِ بنِ مُسلم[2] الغِفارىّ — رضى الله عنه — أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول : "الخيلُ ثلاثة، فمن ٱرتبطها فى سبيلِ ٱللهِ وجهادِ عدوِّه كان شبعُها وجوعُها وريُّهـا وعطشُها وجريُها وعَرَقُها وأرواثُها وأبوالُها أجرا فى مـيزانه يومَ القيامة ؛ ومن ٱرتبطها للجَمَالِ فليس له إلّا ذاك ؛ ومن ٱرتبطها فخرا ورِياءً كان مِثْلَ ما قُصَّ فى الأوّلِ وِزْرا فى ميزانه يومَ القيامة" .

وعن حُبابٍ — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الخيلُ ثلاثة : فَرَسٌ للرحمٰن، وفَرَسٌ للإنسان، وفَرَسٌ للشيطان ؛ فأمّا فرسُ الرحمٰن فمـا أُعِدَّ فى سبيل الله، وقوتل عليـه أعداءُ الله ؛ وأمّا فَرَسُ الإنسان فمـا ٱستُبِطن وتُجُمِّل[3] عليه، وأما فَرَسُ الشيطان فما قومر عليه" ؛ رواه الآجُرّىُّ[4] فى (النصيحة) .

(١) هـذه الواو ساقطة من كلا الأصلين ؛ والسياق يقتضى إثباتها، إذ المراد تفسير هذين اللفظين بأنهما شدّة المرح لا تفسير الأشر بانه البطر، كما هو ظاهر .

(٢) فى (ا) ابن معلم ؛ وهو تحريف إذ لم نجده فيما بين أيدينا من معجمات الأسماء ؛ وما أثبتناه عن (ب) وكتاب فضل الخيل ص ١٤ طبع حلب .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى كتاب فضل الخيل ص ١٤ ، ويؤيد هذه الرواية قوله فى الحديث الذى قبله : «ومن ارتبطها للجمال» الخ والذى فى كلا الأصلين : «ويحمل» .

(٤) فى كلا الأصلين : «الأحرى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما فى كتاب فضل الخيل .

والقِمارُ فى السِّباق : أن يكون الرِّهانُ بين فرسين لا محلِّلَ معهما[(١)] . والاستبطانُ : طلب ما فى البطن والنِّتاج .

وعن عبدِ الله بنِ مسعودٍ — رضى الله عنهما — عن النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم، قال : "الخيلُ ثلاثة، فَفَرسٌ للرحمن، وفَرسٌ للإنسان، وفَرسٌ للشيطان؛ فأمّا فَرسُ الرحمٰن فالّذى يُرتبَط[(٢)] فى سبيل الله، فعَلَفُه ورَوْثُه وبولُه[(٣)] — وذَكَرَ ما شاء الله — ؛ وأمّا فَرسُ الشيطان فالذى يقامَر[(٤)] ويراهَن عليه؛ وأمّا فَرسُ الإنسان فالفَرسُ يرتبطها الإنسانُ يَلتمِس بطنَها، فهى سِترٌ[(٥)] من فقر" رواه الإمامُ أحمدُ فى مُسنَده .

ورَوَى ابنُ أبى شيبةَ فى مُسنَدِه أنّ النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "الخيلُ ثلاثة : فَرسٌ يرتبطه الرجلُ فى سبيل الله، فثمَنُه أجر، وركوبُه أجر، ورِعايتُه أجر، وعلَفُه أجر؛ وفَرسٌ يغالق[(٦)] عليه الرجلُ ويراهِن عليه، فثمَنُه وِزر، وعلَفُه وركوبُه وِزر؛ وفَرسٌ للبِطنةِ فعسى أن يكون سِدادا من فقرٍ إن شاء الله" .

(١) المحلل من الخيل : الفرس الثالث من خيل الرهان ؛ وذلك أن يضع الرجلان رهنين بينهما ، ثم يأتى رجل سواهما فيرسل معهما فرسه ولا يضع رهنا ، فان سبق أحد الأوّلين أخذ رهنه ورهن صاحبه ، وكان حلالا له من أجل الثالث ؛ وهو المحلل ، وإن سبق المحلل ولم يسبق واحد منهما أخذ الرهنين جميعا ، وإن سبق هو لم يكن عليه شىء ، وهذا لا يكون إلا فى الذى لا يؤمن أن يسبق ، وأما إذا كان بليدا بطيئا قد أمن أن يسبقهما فذلك القمار المنهىّ عنه ؛ ويسمى أيضا الدخيل .

(٢) فى مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٩٥ : «يربط» .

(٣) حذف الخبر هنا للعلم به ، أى فعلفها الخ أجر فى ميزانه يوم القيامة أونحوذلك مما يفيد هذا المعنى كما يرشد الى ذلك ما ورد فى الأحاديث السابقة .

(٤) فى رواية : «أو يراهن» انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٩٥ .

(٥) فى رواية : «تستر» انظر مسند الامام أحمد .

(٦) كذا فى (ب) واللسان (مادة غلق) وكتاب فضل الخيل ص ١٥ طبع حلب . ويغالق» أى يراهن ؛ والذى فى (ا) «يغالب» بالباء .

وعن أَنسِ بنِ مالكٍ — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم : "البركةُ فى نواصى الخيل" رواه البخارىُّ ومسلمٌ والنّسائىّ . والناصيةُ : الشعر المسترسِل على الجبهة، وقد يُكنَى بها عن النَّفس، نحو قولهم : «فلانٌ مباركُ النّاصية» ، أى النَّفس؛ قال شيخنا الشيخُ الإمامُ المحدِّثُ النّسّابةُ القدوةُ شرفُ الدّين أبو محمّدٍ عبـدُ المؤمن بنُ خَلَف الدِّمياطىُّ فى كتاب الخيل، قال أبو الفضل : واذا كان الخـيرُ والبركةُ فى نواصيها فبعيدٌ أن يكون فيها شؤمٌ على ما جاء فى الحـديث؛ وقد تأوّلَ العلمـاء ذلك أنّ معناه على اعتقادِ الناسِ فى ذلك ، لا أنّه خبرٌ من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عن إثباتِ الشّؤم .

وعن مكحول، قال : قيـل لعائشة — رضى الله عنهـا — : إنّ أبا هريرةَ يقول : قال رسول الله صـلّى الله عليه وسـلّم : "الشؤمُ فى ثلاثة : فى الدّار والمرأة والفرس"؛ فقالت : لم يَحفَظ أبو هريرة، لأنّه دخل ورسولُ الله صلّى الله عليـه وسـلّم يقول : "قاتل اللهُ اليهـودَ، يقولون : الشؤمُ فى ثلاثة : فى الدّار والمـرأة والفَرَس"؛ فسَمِع آخِرَ الحديثِ ولم يَسمَع أوّلَه . وسنذكر الحـديثَ والكلامَ عليـه — إن شاء الله تعالى — فى موضعِه .

وعن أَنَسٍ — رضى الله عنـه — قال : لم يكنْ شىءٌ أحبَّ إلى رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم بعدَ النّساء من الخيل .

وعن مَعْقِـل بنِ يسارٍ — رضى الله عنـه — قال : ما كان شىءٌ أحبَّ إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم من الخيل، ثمّ قال : اللّهمّ غفْرا إلّا النّساء .

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ — رضى الله عنه — [قال] : سمعت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "من حبّس فرسا فى سبيل الله كان سِتْرَه من النّار" .

وعن محمد بن عُقْبة، عن أبيه، عن جدّه، قال: أتينا تميما الدّاريّ وهو يعالج عَلِيقَ فرسه بيده، فقلنا له: يا أبا رُقَيّة، أما لك من يكفيك؟ قال: بلى، ولكنّنى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "من ارتبط فرسا فى سبيل الله فعالج عَلِيقَه بيده كان له بكلّ حبّة حسنة".

٥ ورُوِىَ أنّ رَوْحَ بنَ زِنْباع الجُذاميّ زار تميما الداريّ فوجده ينقّى لفرسه شعيرا، ثم يَعلِفه عليه وحولَه أهلُه، فقال له رَوْح: أما كان لك من هؤلاء من يكفيك؟ قال تميم: بلى، ولكنّنى سمعت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "ما من امرئٍ مسلمٍ ينقّى لفرسه شعيرا ثم يَعلِفه عليه إلّا كتب الله له بكلّ حبّة حسنة" رواه الإمام أحمدُ فى مُسنَده.

١٠ ورُوِىَ أنّ معاويةَ بنَ أبى سفيانَ قال لابن الحَنْظَلِيّة: حدّثنا حديثا سمعتَه من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، [قال: سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم](1) يقول: "من ارتبط فرسا فى سبيل الله كانت النفقةُ عليه كالمادّ يدَه بصدقةٍ لا يقطعها"؛ وفى حديثٍ آخر عنه: ["لا يَقبضها"](1).

ذكر ما جاء فى فضل الطَّرْق

١٥ رُوِىَ عن أبى عامر الهَوْزَنىّ، عن أبى كَبْشةَ الأنمارىّ، أنه أتى رجلا(2) فقال: أطرِقنى من فرسك، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "من أطرق مسلما فرسا فأَعقَب له الفرسُ كتب الله له أجرَ سبعين فرسا يُحمَل عليها

(1) هاتان العبارتان اللتان بين مربعات لم ترد فى (ب).

(2) فى رواية: «أنه أتاه فقال» الخ وقد أورد الدمياطى هاتين الروايتين فى كتاب فضل الخيل ص ٢٢ ٢٠

فى سبيل الله، وإن لم يُعقِب[1] كان له كأجرِ فرسٍ حُمِل عليه فى سبيل الله عزّوجلّ" رواه الطَّبَرانىُّ فى المعجم الكبير .

(٣٩) وعن ٱبنِ عمر — رضى الله عنهما — قال : ما تَعاطَى النـاسُ بينهم شيئا قطُّ أفضلَ من الطَّرْق، يُطرِق الرجلُ فرسه فيُجرَى له أجرُه، ويُطرِق الرجلُ فحلَه فيُجرَى له أجرُه، ويُطرِق الرجلُ كبشَه فيُجرَى له أجرُه . [والله الموفِّق للصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا ٱلله وكفى] .

ذكر ما جاء من دعاء الفرس لصاحبه

حَكَى الأَبِيوَرْدىُّ فى رسالتـه ، قال : حكى عبدُ الرحمن بنُ زيادٍ أنّه لمّـا نزل المسـلمون مصرَ كانت لهم مَراغةٌ للخيل، فمرّ حُدَيْجُ[2] بنُ صَوْمى[3] بأبى ذرٍّ — رضى الله عنـه — وهو يُمرِّغ فرسَه الأَجْدَلَ ؛ فقال : ما هـذا الفـرسُ يا أبا ذَرّ ؟ قال : هذا فرسٌ لى، لا أراه إلّا مستجابا، قال : وهل تدعو الخيلُ فتجاب؟ قال : نعم، ما من ليلةٍ إلّا والفرسُ يدعو فيها ربّه يقول : اللّهم إنّك سخّرتنى لٱبن آدم، وجعلتَ

(١) فى رواية : « وان لم يعقب له كان » الخ انظر كتاب فضل الخيل ص ٢٢ طبع حلب .

(٢) فى (ا) وكتاب فضل الخيل ص ٢٣ « خديج » ، وفى (ب) : «حديج» ؛ وهو تحريف فى هذه المصادر الثلاثة ؛ وما أثبتناه عن كتاب المؤتلف والمختلف للحافظ عبد الغنى ص ٤٦ طبع الهند وتاج العروس مادة « حدج » .

(٣) كذا ورد هذا الاسم بالصاد والواو فى كلا الأصلين وكتاب فضل الخيل والإكمال لابن ماكولا ج ١ ورقة ١٩٠ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨ مصطلح وقد ضبطناه بفتح الصاد تبعا لضبطه بالقلم لا بالنص فى نسخة الإكمال ، وهى نسخة تغلب عليها الصحة لما كتب فى آخرها من العبارات الدالة على ذلك . والذى فى التاج مادة حدج : « ابن ضرمى » وفى المؤتلف والمختلف ص ٤٦ طبع الهند : « ابن صرمى » تقييدا بالقلم لا بالنص فى كلا الكتابين .

رزق بيده، فاجعلنى احبَّ اليه من أهلِه ومالِه ، اللّهمّ ٱرزقه منّى، وٱرزقنى على يده. ورُوِىَ أن هـذا الخبَر عن معاويةَ بنِ حُدَيْج ، عن أبى ذَرّ ، وكلاهمـا رَوَى عن عبدِ ٱلله بنِ عمرو؛ ومعاويةُ هذا يُعَدّ من الصحابة الّذين سكنوا مصرَ؛ وفى حديثه عن أبى ذَرّ « أحبَّ إليه من أهلِه وولدِه » الحديث، وزاد فيه: "فمنها المستجاب، ومنها غيرُ ٱلمستجاب، ولا أرى فرسى هذا إلّا مستجابا". ورواه النّسائىّ فى كتاب الخيل من سُنَنِه ؛ ولفظُه : قال رسولُ الله صـلّى الله عليه وسـلّم : "ما من فرسٍ عربىٍّ إلا يؤذَن له عند [كلِّ[1]] سَحَر — وفى رواية : عنـد كلِّ فجر — بدعوتين : اللّهمّ خوّلتَنى من خوّلتَنى من بنى آدم ، وجعلتَنى له ، فٱجعلنى أحبَّ أهـلِه ومالِه ؛ أو من أحبِّ أهلِه ومالِه اليه"؛ [والله أعلم] .

ذكر ما ورد من أنّ الشيطان لا يَخْبِلُ[2] من فى دارِه فرسٌ عَتِيق، ولا يدخل دارا فيها فرسٌ عَتِيق

عن عبـدِ الله بنِ عَرِيب المُلَيْكىّ ، عن أبيه — رضى الله عنهما — أنّ النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "لن يَخْبِلَ[2] الشيطانُ أحدا فى داره فرسٌ عَتِيق". وفى لفظٍ آخَر : "الجنُّ لا تَخْبِـلُ[2] أحدا فى بيته عَتِيقٌ من الخيل" . ورواه ٱبنُ قانعٍ أيضا فى معجمه من حديث عَرِيب المُلَيْكىّ، عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى قوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ قال : "الجنّ" ، ثم قال رسولُ الله صلّى الله

(١) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن كتاب فضل الخيل ص ٢٤

(٢) لا يخبل بكسر الباء وضمها ، أى لا يفسد انظر النهاية لابن الأثير مادة (خبل) .

عليه وسلّم : " إنّ الشيطانَ لا يَخبُل أحدا فى دارٍ فيها فرسٌ عَتِيق" وقيل : [المرادُ][(١)] [أنّ][(٢)] الشيطان لا يدخُل دارا فيها فرسٌ عَتِيق .

ورُوِىَ أنّ رجلا أتَى النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال : يا رسول الله، إنّى أُرجَم باللّيل، فقال النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " ارتَبِط فرسا عتيقا " قال : فلم يُرجَم بعد ذلك؛ رواه محمدُ بنُ يعقوبَ الخَيْلىّ فى (كتاب الفروسيّة وعلاجات الدوابّ) . ٥

ذكر ما جاء فى التماس نسلِ الخيـــل والنهىِ عن خِصائها والرخيصةِ [فيه][(٣)] والنهىِ عن هَلْبِها[(٤)] وجَزِّ أعرافِها[(٥)] ونواصيها

رُوِىَ عن عبـدِ الله [بنِ] عمرِو بنِ العـاص — رضى الله عنهما — قال : أصاب رســولُ الله صلّى الله عليه وســلّم فرسا من جَدَس[(٦)] ، (حىٌّ باليمن)، فأعطاه رجلا من الأنصار، وقال : " إذا نزلتَ فأنزل قريبـا منّى فإنى أتسارُّ[(٧)] إلى صهيله" ١٠ ففقده[(٨)] ليلة، فسأل عنه، فقال يا رسول الله : إنا خصيناه، فقال : "مَثّلتَ به"،

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (ب) ولا فى كتاب (فضل الخيل) .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب) وكتاب فضل الخيل .

(٣) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (أ) .

(٤) الهلب : استئصال الأذناب بالجز والقطع . ١٥

(٥) فى كلا الأصلين : «أعراقها» ؛ وهو تصحيف .

(٦) فى (أ) : «جديس» ، وفى (ب) «حدس» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين . وجدس : بطن من لخم، وهو جدس بن أريش بن إراش السكونى .

(٧) «أتسارّ الى صهيله» ، أى أستلذه .

(٨) فى كلا الأصلين : «فقصده» ؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتاب (فضل الخيل) ٢٠

يقولها ثلاثا، "الخيلُ معقودٌ فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، أعرافُها أدفاؤها، وأذنابُها مَذابُّها، اِلتمِسوا نسلَها، وباهوا بصهيلها المشركين" .

وعن مكحولٍ — رضى الله عنه — قال : نَهَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عن جَزِّ أذناب الخيلِ وأعرافِها ونواصيها، وقال: "أمّا أذنابُها فمَذابُّها، وأمّا أعرافها فأدفاؤها، وأمّا نواصيها ففيها الخير".

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ — رضى الله عنه — عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: "لا تَهلُبوا[1] أذنابَ الخيل، ولا تجزّوا أعرافَها ونواصيها، فإنّ البركة فى نواصيها، ودَفاؤها فى أعرافِها، وأذنابُها مَذابُّها" .

وعن عائشةَ أمِّ المؤمنين — رضى الله عنها — قالت : نَهَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عن خصاء الخيل . [عن عبدِ الله[2] بنِ عمرَ —، قال : نَهَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عن خصاء الخيل] والإبل والغنم؛ قال ابنُ عمر — رضى الله عنهما — : «فيها نشأةُ الخَلْق، ولا تصلُح الإناثُ إلّا بالذكور» .

ورَوَى عِكْرِمة[3] عن ابنِ عبّاس — رضى الله عنهم — أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "لا خِصاء فى الإسلام ولا بنْيانَ كنيسة" .

وكتب عمرُ بنُ الخطّاب — رضى الله عنه — الى سعدِ بنِ أبى وقّاصٍ — رضى الله عنه — يَنهى عن حذفِ أذناب الخيلِ وأعرافِها وخِصائها . ومن العلماءِ من رأى

(١) «لا تهلبوا أذناب» الخ أى لا تستأصلوها بالجز والقطع .

(٢) لم ترد هذه التكملة التى بين مربعين فى كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن كتاب فضل الخيل ص ٣١ اذ بدونها يفهم أن قوله بعد : «والإبل» الخ بقية حديث عائشة .

(٣) لم يرد فى كتاب فضل الخيل المنقولة عنه هذه الأحاديث ذكر عكرمة فى رواية هذا الحديث الآتى بعد؛ والذى ورد فيه عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله)، قال : «يعنى خصاء البهائم» .

الخصاء، وذَكَر أنّ عروةَ بنَ الزُّبيرِ خصَى بغلا له ؛ وأنّ عمرَ بنَ عبـدِ العزيز خصَى بغلا له فى زمن خلافته، وأنّ الحسنَ سـئل عن الخصاء فقال : «لا بأس به»، وأنّ ٱبنَ سيرينَ قال : «لا بأس بخصاء الخيل، لو تُركت الفحولُ لأكل بعضُها بعضا»، وأن عطاء قال : «ما خِيفَ عِضاضُه وسوءُ خُلقه فلا بأس» . قال البيهقىّ : ومتابَعةُ قولِ ابنِ عمرَ وٱبنِ عبّاس — رضى الله عنهم — مع ما فيه من السنّة المرويّة أولى، ويُحتمَل جوازُ ذلك اذا ٱتصل به غرضٌ صحيح .

ذكر ما قيل فى أكل لحوم الخيل من الإباحة والكراهة

قد أباح أكلَها جماعة، منهم شُرَيحٌ والحسنُ وعطاءٌ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ وحمّادُ بنُ أبى سليمانَ والثّورىُّ وأبو يوسفَ ومحمدُ بنُ الحسن وٱبنُ المباركِ والشافعىُّ وأحمـدُ وإسحاقُ وأبو ثَوْرٍ فى جماعة من السّلف؛ ودليلُهم على ذلك ما ٱتفق عليه البخارىُّ ومسلمٌ من حديث أسماءَ بنتِ أبى بكر الصـدّيق وجابرِ بنِ عبد الله — رضى الله عنهم — ؛ فأمّا حديث أسماءَ فقالت : «نحرنا فرسا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأكلناه» . وأمّا حديث جابرٍ — رضى الله عنه — فقال : «نَهَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ خَيبرَ عن لحوم الحُمُرِ، ورَخَّص — أو أَذِن — فى لحوم الخيل» .

وذهب مالكٌ وأبو حنيفةَ والأَوْزَاعىُّ إلى أنّها مكروهة ، إلّا أنّ كراهيتَها عنـد مالكٍ كراهيـةُ تنزيه، لا تحريمٍ فى إحدى الروايتين عنه ؛ ودليلُهم ما رواه أبو داودَ والنّسائىُّ وٱبنُ ماجةَ من حديث بَقيّـةَ بنِ الوليد الحِمْصىّ ، عن ثورِ بنِ يزيد ، عن صالحِ بنِ يحيى بنِ المقدام بنِ مَعْدِيكَرِبَ، عن أبيه، عن جدّه، عن خالدِ بنِ الوليد — رضى الله عنـه — أنّ رسولَ الله صلّى الله عليـه وسلّم نَهَى عن أكل لحوم الخيلِ والبغالِ والحمير . وما تضمّنته الآيةُ من قولِه تعالى : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا

وَزِينَةً ﴾ . قال صاحب الهداية الحنفيّ : خَرَجتْ — أى الآية — [مَخرجَ][1] الامتنان ، والأكلُ من أعلى منافعِها ، والحكيمُ لا يَترك الامتنانَ بأعلى النِّعم ويَمتنُّ بأدناها ؛ ولأنّها آلةُ إرهابِ العدوّ ، فيُكرَه أكلُه احتراما له ، ولهذا يُضرَب له بسهم فى الغنيمة ؛ ولأنّ فى إباحتِه تقليلَ آلة الجهاد ، وحديثُ جابرٍ معارَضٌ بحديث خالد ابنِ الوليد ، والترجيحُ للحرِّم ؛ ثم قيل : الكراهيةُ عنده كراهيةُ تحريم ؛ وقيل : كراهيةُ تنزيه ؛ والأوّلُ أصحّ ؛

وأمّا لبنُه — فقد قيل : لا بأس به ، إذ ليس فى شربِه تقليلُ آلة الجهاد ؛ انتهى كلامُ صاحب الهداية .

وقد عورض فى أدلّته بأقوال ؛ أمّا الآية ، فقد قيل : الغالبُ فى الانتفاع بهذه الدوابّ ما أشار الله تعالى اليه فيها من الركوب والزينة ، فأمّا أكلُها فنادر ، فخرجتْ الآيةُ مَخرجَ الغالب ؛ وقالوا : ألا تَرى أنّ الأنعامَ لمّا كانت متقارِبةَ الحال عند العرب فى الانتفاع بها أكلا وتجمّلا ورُكوبا وتحميلا ، منّ الله عليهم بتفصيل أحوالِها المألوفةِ والمعتادةِ عندهم المعروفةِ فى الآية قبلَها ، فقال تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؛ وأما حديثُ خالد فإنّه وإن كان أحوطَ من حديث جابرٍ وأسماءَ [فإنّ حديثَ جابرٍ وأسماءَ][2] أسندُ وأصحّ ؛ وحديثُ خالدٍ لا يُعرَف إلّا من رواية بَقيّة

(١) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن كتاب فضل الخيل ص ٣٤

(٢) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (أ) ؛ وقد أثبتناها عن (ب) وكتاب (فضل الخيل) ص ٣٥

ابنِ الوليد الحِمْصىّ، وفيــه مقال، حتّى إنّ بعضَهم قال : « إنّ أحاديثَ بَقِيّــةَ غيرُ نقيّه، فكن منها على تَقيّــه » ؛ وصالحُ بنُ يحيى بنِ المقدامِ بنِ مَعْدِيكَرِبَ الكِنْدىّ الحِمْصىّ، قال البخارىّ : « فيه نظر » ؛ وقال موسى بنُ هارون : « لا يُعرَف صالحٌ ولا أبوه إلّا بجــدّه » ؛ وقال أبو داودَ فى سُنَنِه : «وحديثُ خالدٍ هذا منسوخ، قد أكله[1] جماعةٌ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم » ؛ وهــذا الاعتراضُ على الحنفيّة أورده شيخنا الشيخ شرفُ الدّين الدِّمياطىُّ عليهم فى (كتابِ الخيــل) له ؛ هذا ما قيل فى أكل لحومِها .

ذكر ما جاء فى النّهى عن عَسْب الفحلِ وبيعِ مائه

رُوِىَ عن عبدِ الله بنِ عمر — رضى الله عنهما — قال : «نَهَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عن عَسْب الفحل» . وعن أَنَسِ بنِ مالك — رضى الله عنه — أنّ رجلا من كلابٍ سأل النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم عن عَسْب الفحل ، فنهاه، فقال : يا رســول الله، إنّا نُطرِق الفحلَ فنُكرم، فرَخّص له فى الكرامــة ؛ رواه الترمذىّ، وقال : «حَسَنٌ غريب» . والعَسْبُ : الضِّراب؛ والنهىُ عنه، أى [عن] كِرائه ؛ وقيل : العَسْب، ماء الفحل .

ذكر ما جاء فى إكرام الخيل ومنع إذالتها

رَوَى أبو داودَ فى المَراسيل، عن نُعَيم بنِ أبى هندٍ — رضى الله عنه — أنّ النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم أُتِىَ بفَرس، فقام إليه يَمسح وجهَه وعينيه ومَنخريه بكُمِّ قميصه، فقيل : يا رسول الله، تمسح بكُمِّ قميصك؟ فقال: "إنّ جبريلَ عاتبنى فى الخيل" . وفى حديثٍ آخَرَ : أنّ رســولَ الله صــلّى الله عليه وســلّم مسح بطَرَف ردائه وجهَ

(١) أكله، أى أكلوا لحم الخيل .

فرسه، وقال : "إنّى عوتبتُ اللّيلةَ فى إذالة الخيل" . وعن الوَضِين بنِ عطاءٍ — رضى الله عنه — قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "لا تقودوا الخيلَ بنواصيها فتُذلّوها" . وعن مكحولٍ — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "أكرموا الخيلَ وجلّلوها" . وعن مجاهدٍ — رضى الله عنه — قال : «أبصرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم إنسانا ضرب وجهَ فرسه ولعَنه، فقال : "هذه مع تلك؟ لتَمَسّنك النارُ إلّا أن تُقاتِل عليه فى سبيل الله"، فجَعل الرجلُ يقاتِل عليه إلى أن كَبِر وضَعُف، وجعل يقول : اِشهدوا اشهدوا . وعن زيدِ بنِ ثابت — رضى الله عنه — أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قضَى فى عين الفرسِ ربعَ ثمنه . وعن عروةَ البارقىّ قال : كانت لى أفراسٌ فيها فحْلٌ شراؤه عشرون ألفَ درهم ، ففقأ عينَه دُهْقان(١)، فأتيت عمرَ — رضى الله عنه — فكتَب إلى سعدِ بنِ أبى وقّاص أنْ خَيِّر الدُّهْقانَ بين أن يعطيَه عشرين ألفا ويأخذَ الفرس ، وبين أن يَغْرَم ربعَ الثمن ؛ فقال الدُهْقان : ما أصنع بالفَرس ؟ فغُرِّم ربعَ الثمن . وعن أبى هريرةَ — رضى الله عنه — قال: ما من ليلةٍ إلّا يَنزِل مَلَكٌ من السماء يَحُسّ(٢) عن دوابّ الغُزاة الكَلالَ إلّا دابّة فى عنقها جَرَس .

ذكر ما ورد من الأمر بارتباط الخيل وما يُستَحبّ من ألوانِها وشِياتِها وذكورِها وإناثِها

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾؛ قال الزمخشرىّ فى تفسيره : اِصبروا على الدِّين وتكاليفِه؛ وصابروا أعداءَ الله فى الجهاد، أى غالِبوهم فى الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقلَّ صبرا منهم وثباتا ؛ ورابِطوا : أقيموا

(١) الدهقان : زعيم فلاحى العجم . (٢) «يحس عن دواب» الخ أى يذهب عنها التعب بحسها بفتح الحاء، وهو نفض التراب وإسقاطه عنها ، كما فى (اللسان مادة حس) .

فى الثغور رابطين خيلَكم مترصِّـدين مستعدِّين للغزو . وقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

وعن قيس بنِ باباه، قال : سمعتُ سلمـانَ — رضى الله عنـه — يقول : [سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول](١) : "ما من رجلٍ مسلمٍ إلّا حَقّ عليه أن يَرتبِط فرسا إذا أطاق ذلك" . ٥

وعن [أبى] وَهب الجُشَمىّ — وكانت له صحبـة، رضى الله عنـه — قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "تسمَّوْا بأسماء الأنبياء، وأحبُّ الأسماء إلى الله عزّ وجلّ عبدُ الله وعبدُ الرحمن، وٱرتبِطوا الخيـل ، وٱمسحوا نواصيها وأكفالها وقلِّدوها ولا تقلِّدوها الأوتارَ، وعليكم بكلِّ كُمَيْتٍ أغرَّ محجَّل، أو أشقرَ أغرَّ محجَّل، أو أدهَم أغرَّ محجَّل" . هكذا ساقه النَّسائىُّ فى سُنَنِه . ١٠

وعن عقبةَ بنِ عامرٍ — رضى الله عنه — قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "إذا أردتَ أن تغزوَ فٱشترِ فرسا أدهمَ(٢) محجَّلا مطلَقَ اليمنى فإنّك تغنَم وتَسلَم" رواه الدِّمياطىُّ بسنده فى (كتاب الخيل) له .

وعن ٱبنِ عبّاس — رضى الله عنهما — عن النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم، قال : "يُمْنُ الخيلِ فى شُقْرِها" . واليُمْـنُ : البَرَكة . رواه أبو داودَ والترمذىّ؛ ولفظُ الترمذىّ : "يُمْنُ الخيلِ فى الشُّقْر" . ١٥

ورَوَى الواقدىُّ، عن سعيدِ بنِ خالد، عن دوادَ بنِ علىِّ بنِ عبدِ الله بنِ عبّاس عن أبيـه، عن جدّه — رضى الله عنهم — عن رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم قال : "خيرُ الخيلِ الشُّقْر" .

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب) وكتاب فضل الخيل . ٢٠

(٢) سيأتى رواية هذا الحديث مرة أخرى عن عقبة بن عامر أيضا ، وفيه مكان قوله هنا « أدهم » قوله هناك : «أغر» انظر ص ٣٦٤ من هذا السفر؛ ولعل هذا الاختلاف هو السبب فى تكراره .

وعن عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاص — رضى الله عنهما — قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "خيرُ الخيلِ الشُّقْر وإلّا فأدهمُ أغرُّ محجَّلُ ثلاث، مُطلَقُ اليمنى".

وذكر سليمانُ بنُ بَنِينَ النحوىُّ المصرىُّ فى كتاب (آلات الجهاد، وأدوات الصافنات الجياد)، عن ابنِ عبّاس — رضى الله عنهما — قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطريق تَبُوكَ، وقد قلّ الماء، فبعث الخيلَ فى كلِّ وجه يطلبون الماء، فكان أوّلَ من طلع بالماء صاحبُ فرسٍ أشقَرَ، والثانى صاحبُ أشقَرَ، وكذلك الثالث، فقال صلّى الله عليه وسلّم : "اللّهمّ بارك للشُّقْر".

وعن عمرو بنِ الحارث الأنصارىّ، عن أشياخ أهلِ مصرَ، قالوا : قال النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "لو أنّ خيلَ العرب جُمِعتْ فى صعيدٍ واحدٍ ما سبقها إلّا أشقرُ". وكان صلّى الله عليه وسلّم يحبّ الشُّقْر.

(٤٢)

وعن أبى قَتادةَ الأنصارىّ — رضى الله عنه — عن النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم، قال : "خيرُ الخيلِ الأدهَمُ الأقرَحُ[1] الأرثَمُ[2]، ثمّ الأقرَحُ[1] المحجَّل طَلْقُ[3] اليمين، فإن لم يكن أدهمَ فكُمَيْتٌ على هذه الشِّيَة[4]" هكذا ساقه الترمذىّ؛ ورواه أيضا ابنُ ماجة، ولفظُه : "خيرُ الخيلِ الأدهَمُ الأقرَحُ[1] الأرثَمُ[2] المحجَّلُ طَلْقُ[3] اليدِ اليمنى، فإن لم يكن أدهمَ فكُمَيْتٌ

(١) الأقرح من الخيل، هو ما كان فى جبهته قرحة بضم القاف، وهى بياض قليل فى وجه الفرس دون الغرّة؛ وقيل : الأقرح، هو ما كانت غرّته مثل الدرهم أو أقل بين عينيه أو فوقهما من الهامة.

(٢) الأرثم، هو الذى أنفه أبيض وشفته العليا.

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ فى (القاموس) (والنهاية) مادة طلق بفتح الطاء وسكون اللام ضبطا بالقلم وضبط فى اللسان مادّة طلق بضمتين وفى مادّة (شكل) بفتح فسكون، ضبطا بالقلم لا بالعبارة فى كلا الموضعين. وقال فى التاج : إن الجوهرىّ ضبطه بضمتين. وطلق اليمين، أى لا تحجيل فيها.

(٤) فى رواية أخرى : «الصفة» انظر (التاج مادة طلق).

على هـذه الشِّيَة" . وفى بعض ألفاظه عن يزيدَ[1] بنِ أبى حَبِيب ، قال : قال النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم : "الخيرُ فى الأدهَمِ الأقرحِ[2] الأرثمِ[2] محجَّلِ ثلاث، طَلْقِ[3] اليمنى ثم أغرّ بهيم — [وفى لفظ[4] : الأدهَمِ [البهيم][5]، أو أغرّ بهيم] — ويسلم[6] ان شاء الله، فإن لم يكن أدهمَ فكُمَيْتٌ فى هذه الشيَة" وروَى أبو عُبَيدةَ من حديثِ ابنِ شُبْرُمةَ، قال: حدّثنى الشّعبىُّ فى حديثٍ رفعَه ، أنّه قال : "التمسوا الحوائجَ على الفَرِسِ الكُمَيْتِ الأدهَمِ المحجَّلِ الثلاث، المطلَقِ اليـدِ اليمنى" . وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صـلّى الله عليه وسـلّم : "إذا أردتَ أن تغزوَ فاشترِ فرسا أغرَّ[7] محجّلا مُطلَقَ اليمنى، فإنك تَسـلَم وتَغنَم" . وعن موسى بنِ علىّ بنِ رَباح عن أبيـه — رضى الله عنهما — قال : جاء رجلٌ إلى رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال : إنّى أريد أن أبتاعَ فرسا، أو أُفنِدُ[8] فرسا، فقال له رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "عليك به كُمَيْتا أو أدهَمَ أقرحَ[2] أرثمَ[2] محجّلَ ثلاث، طَلْقَ[3] اليمنى" .

(١) فى كلا الأصلين «زيد» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن طبقات ابن سعد جزء ٧ قسم ٢ ص ٢٠٢ طبع أوربا .

(٢) قد سبق تفسير الأقرح والأرثم فى الحاشيتين رقم ١ ورقم ٢ من صفحة ٣٦٣ من هذا السفر، فانظرهما .

(٣) قد سبق بيان معنى قوله : « طلق اليمنى » والكلام على ضبط هـذا اللفظ فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٦٣ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (ا) .

(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعـين فى (ب) المنقولة عنها هذه التكملة ؛ وقد أثبتناها عن كتاب فضل الخيل ص ٤٨ (٦) « ويسلم » ، أى يسلم صاحبه .

(٧) سبقت رواية هذا الحديث فى ص ٣٦٢ من هذا السفر عن عقبة بن عامر أيضا ، وفيه مكان قوله هنا : « أغر » قوله هناك : « أدهم » ولعل هـذا الاختلاف هو السبب فى تكرار هذا الحديث .

(٨) « أفند فرسا » ، أى أرتبطه وأتخـذه حصنا ألجأ اليه وملاذا اذا دهمنى عدوّ، مأخوذ من فند الجبل بكسر الفاء وسكون النون ، وهو الشمراخ العظيم منه ، أى ألجأ اليه كما يلجأ الى الفند من الجبل ، وهو أنفه الخارج منه .

وعن عطاء — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إنّ خيرَ الخيلِ الحُوّ". الحُوّ : جمع أحوى[1] . وسيأتى شرحُ لونِه فى ذكرِ الألوان والشّيات .

وعن نافِع بنِ جُبَير، عن النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : "اليُمْنُ فى الخيلِ فى كلِّ أحوى[1] أحَمّ" .

ذكر ترجيح إناثِ الخيلِ على فحولِها وترجيح فحولِها على إناثِها وما جاء فى ذلك

عن يحيى بنِ كَثير — رضى الله عنه — قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "عليكم بإناث الخيل، فإنّ ظهورَها عزّ، وبطونَها كنز" . وفى لفظ : "ظهورها حِرز" .

ورُوِىَ أنّ خالدَ بنَ الوليد — رضى الله عنه — كان لا يقاتِل إلّا على أنثى ، [لأنّها][2] تَدفع البولَ وهى تجرِى ،والفحل يحبِس البولَ فى جوفِه حتّى ينفتق[3]،و[لأن][4] الأنثى أقلّ صهيلا .

(١) ذكر فى اللسان أن الأحوى ، هو الكميت الذى يعلوه سواد ؛ ونقل عن أبى عبيدة أن الأحوى هو أصفى من الأحم . وقال الحافظ الدمياطىّ فى كتاب فضل الخيل فى تفسير الأحوى : إنه أهون سوادا من الجون .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى (ب) .

(٣) فى (ا) ينفقق . وفى (ب) ينفق ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) .

ورُوِىَ عن عُبادةَ بنِ نُسَىّ[(١)]، أو ابنِ محيريز[(٢)] أنّهم كانوا يستحبّون إناثَ الخيـلِ فى الغارات والبَيات[(٣)] ولِمـا خَفِىَ من أمور الحرب، وكانوا يَستحبّون فحولَ الخيـلِ فى الصُّفوفِ والحُصونِ والسِّيرِ والعسكر ولِمـا ظهر من أمور الحرب[(٤)]، وكانوا يَستحبّون خِصيانَ الخيل فى الكَمينِ والطلائع، لأنّها أصبرُ وأبقَى فى الجَهْد.

وعن أَنَسِ بنِ مالك — رضى الله عنـه — قال: كان السلفُ يَسـتحبّون الفُحولةَ من الخيل، ويقولون: هى أجسرُ[(٥)] وأجرأ. وحكاه البخارىُّ فى جامعِه عن راشدِ بنِ سعد قال: كان السلفُ يَستحبّون الفحولَ من الخيل، لأنّها أجرأُ وأجسر.

ذكر ما ورد فى شؤم الفرس وما يُذَمّ من عَصَمِها ورَجَلِها

رُوِىَ عن عبدِ الله بنِ عمرَ — رضى الله عنهما — أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسـلّم قال: "الشؤمُ فى الدّارِ والمرأةِ والفرس". وفى لفظٍ عنه صلّى الله عليـه وسلّم: "الشؤمُ فى ثلاثة: فى الفرسِ والمرأةِ والدّار". وقد قيل فى هذا الحديث: إنّ المرادَ بالشؤم: شؤمُ المرأة اذا كانت غيرَ ولود، وشؤمُ الفَرسِ اذا لم يُغْزَ عليهـا وشؤمُ الدارِ جارُ السوء؛ قاله مَعْمَر.

وقد صحّ عن النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "البركةُ فى ثلاث: فى الفَرسِ والمرأةِ والدّار". وسئل سالمُ بنُ عبدِ الله — وهو راوى هذا الحديث عن رسول الله

(١) كذا ضبط هذا الاسم فى الخلاصة ضبطا بالعبارة.

(٢) يوهم ظاهر العطف على ماقبله أن ابن محيريز اسمه عبادة، وليس كذلك، وانما اسمه عبد الله، وهو تابعىّ كما فى (التاج مادة حرز) (وطبقات ابن سعد).

(٣) البيات: الإغارة على العدوّ ليلا.

(٤) فى كلا الأصلين: «العرب»؛ وهو تحريف.

(٥) فى كتاب فضل الخيل من رواية أنس بن مالك: «أحسن» مكان قوله: «أجسر».

صلّى الله عليه وسلّم — ما معناه ؟ فقال : قال النبي صلّى الله عليه وسلّم : " اذا كان الفرسُ ضَرو با فهو مشئوم ، واذا كانت المرأةُ قد عَرَفتْ زوجا قبلَ زوجِها فحنّت إلى الزوج الأوّلِ فهى مشئومة ، واذا كانت الدارُ بعيدةً من المسجد لا يُسمَع منها الأذانُ والإقامةُ فهى مشئومة ، واذا كنّ بغير هذا الوصف فهنّ مباركات" .

٥ وعن أبى هريرةَ — رضى الله عنه — قال : كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يَكرَه الشِّكالَ من الخيل . والشِّكال : أن يكون للفرسِ فى رجلِه اليمنى بياضٌ وفى يدِه اليسرى ، أو فى يدِه اليمنى وفى رجلِه اليسرى ؛ قال أبو داودَ : أى مخالف ؛ رواه مسلمٌ وأبو داودَ وابنُ ماجة ؛ ورواه الترمذىُّ والنّسائىّ ، ولفظُهما : أنّه كان يَكرَه الشِّكالَ فى الخيل ؛ وزاد النّسائىّ : والشِّكالُ من الخيل : أن تكون ثلاثُ قوائمَ ١٠ محجّلةً وواحدةٌ مطلَقة ، أو تكون الثلاثُ مطلَقةً وواحدةٌ محجّلة . وقال شيخُنا شرفُ الدّين الدِّمياطىُّ — رحمه الله — : وليس يكون الشِّكالُ إلّا فى الرِّجل ، ولا يكون فى اليد . وهذا الذى زاده النّسائىُّ هو قولُ أبى عُبَيدة . وقال ابنُ دُرَيد : الشِّكال : أن يكون الحِجْل[1] فى يدٍ ورجلٍ من شِقٍّ واحد ، فان كان مخالفا قيل : شِكالٌ مخالف . وقال أبو عمرَ المطرِّز : وقيل ، الشِّكالُ : بياضُ الرِّجل اليمنى واليدِ ١٥ اليمنى ؛ وقيل : بياضُ اليدِ اليسرى والرِّجلِ اليسرى ؛ وقيل : بياضُ الرجلين ويدٍ واحدة . قال الشيخ : والصحيحُ من صفة الشِّكالِ ما ذكره أبو عُبَيدةَ مَعْمَرُ بنُ المثنّى وغيرُه : أنه البياضُ الّذى يكون بيَدٍ ورجلٍ من خلافٍ قلَّ أو كثر ، وهو الّذى ورد فى صحيح مسلمٍ وسُنن أبى داودَ ؛ قال الشيخ : وكراهتُه تحتمِل وجهين : إما تفاؤلا ، لشَبَهِه المشكولَ المقيَّدَ الّذى لا نهوضَ فيه ، وإمّا لجواز أن

٢٠ (١) الحجل : بياض التحجيل ؛

يكون هـذا النوعُ قد جُرِّب فلم توجد فيه نجابة ؛ وقيـل : إذا كان مع ذلك أغرّ زالت الكراهةُ لزوال شَـبَهِه الشَّكال . والرَّجَلُ : إذا كان البياضُ بإحدى رجليـه فهو أرجَل، ويُكرَه إلّا أن يكون به وضحٌ غيرُه؛ وقيل : لا يُكرَه إلا إذا كان البياضُ فى رجلِه اليسرى خاصّـة؛ وقيل : الأرجل، هو الّذى لا يكون فيه بياضٌ سـوى قطعـةٍ فى رجلِه غيرِ دائرةٍ حوالى الإكليل[1] ؛ يقال : رَجِلَ الفرسُ ، إذا ابيضّت إحدى رجليـه؛ وسيأتى بيانُ التحجيل والعَصَمِ وغيرِهما عنـد ذكرنا للشِّيَات ؛ والله أعلم .

ذكر ما جاء فى سِباق الخيل وما يَحِلّ منه وما يَحرُم وكيفيّةِ[2] التضميرِ عند السِّباق، وأسماءِ السّوابق فى الحَلْبة

رُوِىَ عن أبى هريرةَ — رضى الله عنه — قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "لاسَبَقَ[3] إلّا فى خُفٍّ أو حافرٍ أو نَصْل" رواه أبو داودَ والترمذىُّ والنّسائىّ . وفى رواية أخرى للنّسائىّ : "لا يَحِلّ سَبَقٌ[3] إلّا على خُفٍّ أو حافرٍ"، وسئل[4] ابنُ عمرَ — رضى الله عنهما — أكنتم تُراهِنون على عهد رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ فقال : لقد راهن رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على فَرَسٍ له .

---

(١) الإكليل، هو ما أحاط بالظفر من اللحم .

(٢) كان الأولى فى هـذه الترجمة تأخير كيفية التضمير عن أسماء السوابق ليوافق الترتيب الآتى عند الكلام عليهما .

(٣) السبق بالتحريك : ما يجعل من المال رهنا على المسابقة ؛ والمعنى أنه لا يحـل أخذ المال بالمسابقة إلا فى هذه الثلاثة .

(٤) السائل، هو موسى بن عبيدة انظر كتاب فضل الخيل ص ٧٠

وعنه — رضى الله عنه — أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم سابَقَ بين الخيل التى قد ضُمِّرت[1] من (الحَفْياء)[2]، وكان أمَدُها (ثَنِيَّة الوَداع)، وسابَقَ بين الخيلِ التى لم تُضمَّر[1] مِن (الثَّنيَّة) إلى (مسجد بنى زُرَيق)[3]، وأنّ ٱبنَ عمرَ كان ممّن سابق بها. قال سفيانُ الثَّورىّ: بين الحَفْياءِ[2] إلى (ثَنيَّةِ الوَداع) خمسةُ أميالٍ أو ستّة، ومن (الثَّنيّة) إلى (مسجد بنى زُرَيق)[3] مِيل. وقال موسى بنُ عُقْبة: بين (الحَفْياء)[2] (وثَنِيَّةِ الوَداع) ستّةُ أميالٍ أو سبعة، وبين (الثَّنيّةِ) (والمسجد) مِيل أو نحوه؛ رواه البخارىُّ وغيرُه.

وفى لفظٍ آخر، عن ٱبنِ عمر — رضى الله عنهما — أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم سَبَّق بين الخيل، فجعل غاية المضمَّرة[1] من (الحَفْياء)[2] الى (ثَنيّةِ الوَداع)، ومالم يضمَّر[1] من (ثنيّة الوَداع) إلى (مسجد بنى زُرَيق)[3]؛ قال ٱبنُ عمر: فجئتُ سابقا فطفَر بى الفَرسُ المسجدَ.

وذَكَر ٱبنُ بَنِينَ فى كتابه أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم سابَقَ بين الخيل على حُلِلٍ أتته من اليمن، فأعطى السابقَ ثلاثَ حُلَل، والمصلِّىَ حُلّتين، والثالثَ حلّة، والرابعَ دينارا، والخامسَ درهما، والسادسَ قصبة، وقال: "بارك الله فيك وفى كلّكم وفى السابقِ والفِسْكِل[4]". وروى البَلاذُرىُّ عن ٱبنِ سعدٍ عن الواقدىّ، عن سليمانَ بنِ الحارث، عن عبدِ المهيمن بنِ عبّاس بنِ سهل بنِ سعد عن أبيه عن جدّه، قال:

(١) سيأتى بيان المراد بالتضمير فى الكلام على كيفيته انظر ص ٣٧٥ من هذا السفر.

(٢) الحفياء بالمد: موضع بالمدينة، ورواه بعضهم بالقصر، وبعضهم بتقديم الياء على الفاء.

(٣) زريق، هو أخو بياضة، وكلاهما ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ابن جشم بن الخزرج انظر كتاب فضل الخيل ص ٧٣

(٤) الفسكل بكسر الفاء والكاف، وبضمهما: الفرس الذى يجىء آخر الخيل فى الحلبة.

أَجرَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الخَيلَ ، فسَبقتُ على فرسِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم (الظَّرِبِ)[1] ، فكسانى بُردا يمـانيّا .

وعن الواقدىّ ، عن سليمانَ بنِ الحارث ، عن الزبيرِ بنِ المنذرِ بنِ أبى أُسَـيْد ، قال : سَبَق أبو أُسَـيْدٍ الساعدىُّ على فَرسِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسـلّم (لِزَاز)[2] ، فأعطاه حُلَّةً يمـانيّة . وعن مكحولٍ — رضى الله عنـه — قال : طلعت الخيلُ وقد تقدّمها فَرسٌ للنبى صلّى الله عليه وسـلّم ، فَبرك على رُكبتيه ، وأطلع رأسَـه من الصفّ ، وقال : "كأنّه بحر" . وفى لفظٍ عن مكحولٍ : فجاء فرسٌ له أدهَمُ سابقا ، وأشرَف على الناس ، فقالوا : الأدهمُ الأدهم ، وجئنا رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلّم على رُكبتيه ومرّ به وقد انتشر ذنَبُه وكان معقودا ، فقال رسـولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "البحر" .

وأوّلُ مسابَقةٍ كانت فى الإسلام سنةَ ستٍّ من الهجرة ، سابَقَ رسـولُ الله صلّى الله عليه وسـلّم بين الخيل ، فسَبَق فَرسٌ لأبى بكر الصّـدّيق — رضى الله عنه — فأَخَذ السَّبَق[3] . والمسابَقةُ ممّـا كان فى الجاهليّة فأقرّه الإسـلام ؛ وليس هو من باب

(١) فى كلا الأصلين : «الطرب» بالطاء المهملة ؛ وهو تصحيف ؛ والظرب بفتح فكسر ، وروى بفتح فسكون على الثقل والتخفيف : اسم فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من أشهر خيله صلى الله عليه وسلم وأعرفها . سمى بذلك لقوته وصلابته ، تشبيها له بالجبل ؛ وقد قالوا : إن الذى أهداه له فروة ابن عمرو الجذامىّ .

(٢) لزاز بكسر اللام : اسم فرس النبى صلى الله عليه وسلم ، سمى بذلك لشدّة تلززه واجتماع خلقه ، وهو الذى أهداه المقوقس مع مارية القبطية .

(٣) السبق بالتحريك : ما يجعل من المال رهنا على المسابقة ؛ ونقل الدمياطى فى كتاب فضل الخيل عن جمهرة ابن دريد أن فى السبق بمعنى الجعل لغتين : فتح الباء وإسكانها .

تعذيب البهائم[(١)]، بل من تدريبها بالجري وإعدادها لحاجتها للطّلب والكرّ ؛ واختُلف فيه، هل هو من باب المُباح، أو من باب المرغَّب فيه والسُّنن .

وعن سعيد بن المسيِّب أنه قال : ليس برهان الخيل بأسٌ اذا أدخلوا فيها محلّلا[(٢)] ليس دونها، إن سَبَق أخذ السَّبق[(٣)]، وإن سُبق لم يكن عليه شيء .

٥ وعن أبي هريرةَ — رضى الله عنه — عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال : "من أدخل فرسا بين فرسين — يعنى وهو لا يؤمَن أن يَسبِق — فليس بقِمار، ومن أدخل فرسا بين فرسين وقد أُمِن أن يَسبِق فهو قِمار" ؛ رواه أبو داودَ فى الجهاد فى باب المحلِّل، ورواه ابنُ ماجة .

قال الشيخ شرفُ الدّين الدِّمياطيُّ — رحمه الله تعالى — قولُه : "من أدخل فرسا"، هو فَرسُ المحلِّل اذا كان كفؤا يخافان أن يسبقهما فيُحرِزَ السَّبق[(٣)]، فهو جائز؛ ١٠ وان كان بليدا مأمونا أن يَسبِق فيُحرِزَ السَّبق[(٣)] لم يحصل به معنى التحليل ، وصار إدخالُه بينهما لغوًا لا معنى له ، وحَصَل الأمرُ على رِهانٍ من فرسين لا محلِّل بينهما، وهو عينُ القِمار . وقال القاضى أبو الفضل : لا خلافَ فى جواز المراهَنة فيها — يعنى المسابَقة — وأنّها خارجةٌ من باب القِمار ، لكن لذلك صور : إحداها ١٥ متّفَقٌ على جوازها ، والثانيةُ متّفَقٌ على منعِها ، وفى الوجوه الأُخَر خلاف ؛ فأمّا المتّفَقُ على جوازه فأنْ يُخرِج الوالى سَبَقا[(٣)] يجعلُه للسابق من المتسابقين ولا فرسَ له

(١) فى (ب) : «الحيوان» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٢) سيأتى بعد فى هذه الصفحة ما يستفاد منه معنى المحلل ، كما سيأتى أيضا وجه تسميته «المحلل» فى ص ٣٧٢ س ١٢ من هذا السفر، فلا نرى مقتضيا لبيان ذلك .

٢٠ (٣) تقدّم بيان معنى السبق بالتحريك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٧٠ من هذا السفر، فانظرها .

فى الحَلْبة، فمن سَـبَق فهو له ؛ وكذلك لو أخرَج أسباقا أحدُها للسابق ، والثـانى للصلِّى، والثالثُ للثـالث، وهكذا ، فهو جائز، ويأخذونه على شروطهم؛ وكذلك لو فَعَل متطوِّعا رجلٌ من الناس ممّن لا فرسَ له فى الحَلْبة، لأنّ هـذا قد خرج من معنى القِمار الى باب المكارَمة والتفضّـلِ على السابق ، وقـد أخرجه عن يدِه بكلّ حال؛ وأمّا المتّفَقُ على منعِه فأن يُخرِج كلُّ واحدٍ من المتسابقَين سَبَقا ، فمن سَـبَق منهما أخَذ سَـبَق صاحبِه وأمسَك متاعَه، فهـذا قمـار عند مالكٍ والشافعىِّ وجميع العلمـاء ما لم يكن بينهما محلِّل [فان كان بينهـما محلِّلٌ (١)] فجعلا له السَّبَق إن سَبَق ولا شىءَ عليـه إن سُبِق فأجازه ٱبنُ المسيِّب ، وقاله مالكٌ مرّة ، والمشهور عنه أنّه لا يجوز ؛ وقال الشافعىُّ مثلَ قولِ ٱبنِ المسيِّب ؛ فإن سَـبَق أحدُ المتسابقَين أحرَزَ سَبَقه وسَـبَق صاحبِه ، وإن تساوَيا كان لكلّ واحد منهما ما أخرَج ، وإن سَـبَق المحلِّلُ حاز السَّبَقين ، وان سَبَق أحدهمـا مع المحلِّل أحرَزا سَبَق المتأخّر ؛ وسُمّى المحلِّلُ محلِّلا لتحليله السبق بدخوله ، لأنّه عُلِم أنّ المقصِـدَ بدخولِه السَّـبْقُ لا المـال، وان لم يكن بينهما محلِّلٌ فمقصِدُهما المـالُ والمخاطَرةُ فيه ؛ وقال محمدُ بنُ الحسن نحوَه والأَوْزاعىُّ وأحمدُ وإسحاق؛ ومن الوجوه المختلَف فيها أن يكون الوالى أو غيرُه ممّن أخرَج السَّـبَقَ له فرسٌ فى الحَلْبة، فيُخرِج سَـبَقا على أنّه إن سَبَق هو حَبَس سبَقَه، وإن سُبِق أخَذه السابق، فأكثر العلماء يجيزون هذا الشرط ، وهو أحدُ أقوال مالكٍ وبعضِ أصحابِه، وهو قولُ الشافعىِّ واللّيثِ والثَّوْرىِّ وأبى حنيفة قالوا : «الأسباقُ على مِلك أربابِها ،وهم فيها على شروطهم» ؛وأبى ذلك مالكٌ فى الرواية الأخرى وبعضُ أصحابِه ورَبيعةُ والأَوْزاعىّ ، وقالوا : «لا يَرجِع اليه سَبَقُه» ؛ قال

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن كتاب فضل الخيل .

مالك : وإنما يأكله من حضر إن سَبَق مُخرِجُه إنْ لم يكن مع المتسابقَين ثالث ، فإن كان معهما ثالثٌ فللّذى يلى مُخرِجَه إن سَبَق ، فإن سَبَق غيرُه فهو له بغير خلاف ، فخرج هذا عندهم عن معنى القِمار جملة ؛ ولَحِق بالأوّل ، لأن صاحبَه قد أخرجه عن ملكه جملة ، وتَفضّل بدفعه ؛ وفى الوجوه الأخر معنًى من القِمار والخَطَر ، لأنها مرّةً ترجِع الأسباقَ لمُخرِج أحدِها ، ومرّةً تخرج عنه إلى غيرِه .

ومِن شرط وضعِ الرِّهان فى المسابَقةِ أن تكون الخيلُ متقاربةَ الحال فى سَبْق بعضِها بعضا ، فمتى تَحقّق حالُ أحدِها فى السَّبْق كان الرِّهان فى ذلك قِمارا لا يجوز ، وإدخالُ المحلِّلِ لغوا لا معنى له ؛ وكذلك إن كانت متقاربةَ الحال ممّا يُقطَع غالبا بِسَبْق جنسِها ، كالمضمَّرة مع غيرِ المضمَّرة ، والعِرابِ مع غيرِها ، فلا تجوز المراهَنةُ فى مثلِ هذا ؛ وقد ميّز النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم ما ضُمِّرَ فى السِّباق ، وأفرده عن ما لم يضمَّر ، وتجوز فيها المسابَقةُ بغير رِهان ، وإنّما يَدخُل التحليلُ والتحريمُ مع الرِّهان .

[ومِن شرطِها أيضا] (١) الأَمَدُ لِسباقِها ؛ وحَكى عبدُ الله بنُ المبارَك عن سفيانَ قال : اذا سَبَق الفَرسُ بأُذُنِه فهو سابق ، هذا إذا تساوت أعناقُ الخيل فى الطُّول ، فإن اختلفتْ أعناقُها بالطُّول والقِصَر كان السَّبْقُ بالكاهل .

وأمّا أسماء السوابق فى الحَلْبة — فالسوابق عند أبى عُبَيدة عشرة : أوّلُها السابق ، ثم المصلِّى ، ثم الثالثُ والرابع كذلك إلى التاسع ، والعاشر السُّكَيْت ، ويقال بالتشديد . وقال ابنُ قُتَيبة : « فما جاء بعد ذلك لم يُعتدَّ به » ؛ والفِسْكِل : الذى يجىء فى الحَلْبة آخِرَ الخيل . وأمّا الأصمعىُّ فإنّه يقول : أوّلُها المجلِّى ، وهو المقصِّب ، أى محرِزُ قَصَبَ السَّبْق ، ثم المصلِّى ، ثم المسلِّى ، ثم التالى ، ثم المؤمِّل ،

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (ا) .

ثم المرتاح ، ثم العاطف ، ثم الحَظِىّ ، ثم اللَّطيم ، ثم السُّكَيْت . وقال ابنُ الأنبارىّ فى (الزاهر) : الأوّلُ المجلّى ، الثانى المصلّى ، الثالثُ المسلّى ، الرابعُ التالى ، الخامسُ المرتاح ، السادسُ العاطف ، السابعُ الحَظِىّ ، الثامنُ المؤمّل ، التاسعُ اللَّطيم ، العاشرُ السُّكَيْت ، والكاف منه تخفّف وتشدّد ، قال الشاعر :

جاء المجلّى والمصلّى بعدَه * ثمّ المسلّى بعدَه والتالى ٥
نَسَقا وقاد حَظِيَّها مرتاحُها * من قَبل عاطفها بلا إشكالِ

وقال أبو الغوث : أوّلُها المجلّى ، وهو السابق ، ثم المصلّى ، ثم المسلّى ، ثم التّالى ، ثم العاطف ، ثم المرتاح ، ثم المؤمّل ، ثم الحَظِىّ ، ثم اللَّطيم ، ثم السُّكَيْت ؛ وأنشدَ بعضُهم فى العشرة :

أتانا المجلّى والمصلّى بعدَه * مُسلٍّ وتالٍ بعدَه عاطفٌ يَجرِى ١٠
ومرتاحُها ثمّ الحَظِى ومؤمّلٌ * وجاء اللَّطيمُ والسُّكَيْتُ له يَبرِى (١)

وقال الجاحظ : كانت العربُ تَعُدّ السوابقَ ثمانية ، ولا تجعل لما جاوزها حظّا ، فأوّلُها السابق ، ثم المصلّى ، ثم المقفّى ، ثم التالى ، ثم العاطف ، ثم المذمّر ، ثم البارع (٢) ، ثم اللَّطيم ؛ وكانت العربُ تَلطِم وجهَ الآخِرِ وان كان له حظّ . وقال ابنُ الأَجْدابىّ : المحفوظُ عن العرب السابق والمصلّى والسُّكَيْت الّذى هو العاشر ، وأمّا باقى الأسماء فأراها محدَثة ، والفِسْكِل : الّذى يأتى آخِرَ الخيلِ ١٥

(١) يبرى ، أى ينبرى له ويعرض .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين وكتاب فضل الخيل ص ٨٣ ورشحات المداد ص ٧٧ وعقد الأجياد ص ٢٨٥ ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة مادة « برع » بمعنى السابع من خيل السباق ، كما هنا ، والذى وجدناه ان البارع بمعنى الفائق وهو يناف معناه هنا ؛ فلعله سمى البارع تهكما ، كما قال صاحب رشحات المداد ص ٧٦ طبع حلب فى وجه تسمية المؤمل والمرتاح أنها تسمية تهكمية أو ضدية ، كتسمية الأشقر زنجيا . ٢٠

فى الحَلْبَـة . وقال غيرُه : وما يجىء بعـد هذه -- يعنى العشرة — فهو المقَـرْدِح؛ وأنشد على ذلك :

قد سبقَ الخيلَ الهِجان الأقرحُ (١) * وأقبلتْ من بعـده تُقردِحُ

والفِسْكِل : الذى يجىء فى أخريات الخيـل، والذى يجىء بعـده القاشور، وما جاء بعد ذلك لا حظّ له ولا آعتداد به؛ وقيل : السُكَيْتُ والفِسْكِلُ والقاشورُ بمعنًى واحد .

ومِمّـا يتّصل بهذا الفصل ترتيبُ عَدْوِ الفرس — وأوّلُه الخَبَب، ثم التقريب، ثم الإمجاج، ثم الإحضار، ثم الإرخاء، ثم الإهذاب، ثم الإهماج .

كيفية تضمير الخيل

قد حَكَى آبنُ بَنِينَ أنّ رسولَ الله صـلّى الله عليه وسـلّم كان يأمر بإضمار خيلِه بالحشيش اليابس شيئا بعد شىء ، وطيّا بعد طىّ، ويقول : "أَرووها من المـاء، وآسقوها غُدوةً وعشيّا، وألزموها الجِلالَ (٢) ... (٣) فتصفوَ ألوانُها، وتتّسعَ جلودُها". وأمَر صـلّى الله عليه وسـلّم أن يقودوها فى كلِّ يومٍ مرّتين ، ويؤخذَ منهـا من الجرِى الشَّوْطُ والشَّوْطان، ولا تُركَض حتّى تنطوىَ . قال الشـيخ — رحمـه الله — : والتضميرُ : تقليـلُ علفِها مدّة ، وادخالُهـا بيتا كَنينا، وتجليلُها فيـه لتعرَقَ ويَجِفَّ عَرَقُها، فيصلُبَ لحمُها ويخِفّ ، وتقـوَى على الجرى؛ يقال : « ضمّرتُ الفـرَسَ وأضمرتُه » .

(١) الأقرح من الخيـل ، هو ما كان فى جبهتـه قرحة بضم القاف ، وهى بياض قليـل فى وجهه دون الغرّة : وقيل : الأقرح، هو الذى غرته مثل الدرهم أو أقل بين عينيه أو فوقهما من الهـامة .

(٢) الجلال : جمع جل بضم الجيم وفتحها، وهو ما يلبسه الفرس وغيره من الدواب ليصان به .

(٣) زاد فى كتاب فضل الخيل ص٧٦ موضع هذه النقط قوله : «فانها تلقى الماء عرقا تحت الجلال» .

ذكر ما يُقسَم لصاحب الفرسِ من سهام الغنيمة والفرقِ في ذلك بين العِرابِ والهُجُن والبراذين

عن عبدِ الله بنِ عمر — رضى الله عنهما — أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم جعل للفرس سهمين، ولصاحبه سهما . وفى لفظٍ : قَسَم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يوم خَيبَرَ للفَرَسِ سهمين ، وللرجلِ سهما؛ رواه البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داودَ والترمذيُّ وابنُ ماجة . وفى لفظ أبى داودَ : أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أَسهَم لرجلٍ ولفرسِه ثلاثة أسهم : سهما له ، وسهمين لفَرَسِه؛ ولفظُ ابن ماجة : أنّ النّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم أَسهَم يومَ خَيبَرَ للفارس ثلاثةَ أسهم : للفَرَس سهمان، وللرّجلِ سهم .

وعن مكحول — رضى الله عنه — أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم هَجَّن الهجينَ يومَ خَيبَرَ، وعَرَّب العَرب، للعربيِّ سهمان، وللهجين سهم . وعن خالدِ ابنِ مَعْدَان — رضى الله عنه — قال : أَسهَم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم للعربيِّ سهمين، وللهجين سهما .

وعن أبى موسى أنّه كَتَب الى عمرَ بنِ الخطّاب — رضى الله عنهما — «إنا وجدنا بالعراق خيلا عِراضا دُكّا[1]، فما يرى أميرُ المؤمنين فى سهامها»؟ فكَتَب : «تلك البراذين، فما قارب العِتاقَ فاجعل له سهما واحدا، وألغِ ما سوى ذلك» .

وعن أبى الأقمر قال : أغارت الخيل على الشأم، فأدركتْ العِرابُ من يومِها، وأدركت الكوادنُ ضحى الغد ، وعلى الخيلِ رجلٌ من هَمْدانَ يقال له المنذرُ بنُ

(١) الدك : جمع أدك، وهو العريض الظهر القصير .

أبى حَمْضة[1]، فقال : «لا أجعل التى أدركتْ من يومِها مثلَ التى لم تُدرِك»، ففضّل الخيل، فكتَب فى ذلك الى عمرَ بنِ الخطّاب — رضى الله عنه — فقال : «هَبِلتْ الوادعىّ[2] أمُّه ، لقد أذكرنى أمرا كنتُ أُنسيتُه، أُمضوها على ما قال». والكوادن : جمع كَوْدَن، وهو البِرْذَوْن ؛ ومذهبُ مالكٍ والشافعىّ وأبى حنيفةَ التسويةُ بين العربىّ وغيرِه، إلّا أنّهم جعلوا[3] لكلِّ واحدٍ منهما سهما واحدا ؛ قال مالك : ولا أرى البراذين والهُجُن إلّا من الخيل لأنّ الله تعالى قال فى كتابه :﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، وقال : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ قال: «فأنا أرى البراذين والهُجُنَ من الخيل اذا أجازها الوالى». قال ابنُ حبيب : البراذينُ هى العظام ، يريد الجافيةَ الخِلْقة، العظيمةَ الأعضاء، وليست العِرابُ كذلك، فإنّها أضمَرُ وأرقُّ أعضاءً وأعلى خِلْقةً ؛ وأمّا الهُجُنُ فهى التى أبوها عربىٌّ وأمّها من البراذين. قال الشيخُ — رحمه الله تعالى — : ومذهبُ جمهور العلماء أنه يُقسَم للفرس سهمان ، ولصاحبِه سهمٌ على ما فرضه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ

(١) المنذر بن أبى حمضة هو الذى يقول فيه الشاعر مشيرا الى هذه القصة :

ومنا الذى قد سنّ فى الخيل سنة * وكانت سواء قبل ذاك سهامها

انظر رشحات المداد ص ٦٧ طبع حلب .

(٢) الوادعى : نسبة الى وادعة ، وهو بطن من همدان ، وهو وادعة بن عمرو بن عامر بن ناجح بن رافع ابن مالك بن ذى بارق بن مالك بن جشم الى آخر النسب انظر أنساب السمعانى .

(٣) كذا وردت هذه العبارة فى كلا الأصلين، وهى تفيد أن مالكا والشافعى وأبا حنيفة متفقون على أن لكل واحد من الخيل والهجن سهما واحدا فى الغنيمة ؛ وليس كذلك ، فان عبارة الحافظ الدمياطى فى كتاب فضل الخيل الذى نقل عنه المؤلف هذا الكلام ، تفيد خلاف ما ذكر، وهو أن مالكا والشافعى يجعلان لكل واحد من الخيل والهجن سهمين ، وأن أبا حنيفة وحده يجعل لكل واحد منهما سهما واحدا ، وأنّ الاتفاق بينهم إنما هو فى التسوية بين العربىّ وغيره لا فى المقدار ؛ وعبارته بعد أن ذكر مذهب الامام أحمد فى احدى الروايات عنه أن الهجين سهمين مطلقا كالعربى ؛ قال : « وهو مذهب مالك والشافعى ؛ ومذهب أبى حنيفة فى التسوية بين العربى وغيره كذلك ، إلا أنه جعل لكل واحد منهما سهما واحدا» .

مؤونة الفرس أكثرُ من مؤونة فارسِه، وغَناءَه أكثرُ من غَناء الفارس، فاستحقّ الزيادةَ فى القَسْم من أجل ذلك؛ قال: وذهب أبو حنيفةَ إلى أنّه يُقسَم للفـرس كما يُقسَم للرجل؛ وقال: «لا يكون أعظمَ منه حرمة»؛ ولم يتابعْه أحدٌ على ذلك إلّا شيءٌ يُرْوَى عن علىٍّ وأبى موسى؛ وذهب مالكٌ وأبو حنيفةَ ومحمـدُ بنُ الحسنِ والشافعىُّ إلى أنّه لا يُقسَم إلّا لفرسٍ واحد، ودليلُهم ما رواه ابنُ سعدٍ فى طبقاته: أنّ النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم أمر زيدَ بنَ ثابتٍ يومَ حُنين بإحصاء النـاس والغنائم فكان السَّبىُ ستّةَ آلافِ رأس، والإبلُ أربعةً وعشرين ألفَ بعير، والغنمُ أكثرَ من أربعين ألفَ شاة، وأربعة آلافِ أوقيّةٍ فضّة، فأخَذ من ذلك الخُمس، ثم فضّ الباقىَ على الناس، فكانت سهامُهم لكلِّ رجلٍ أربعٌ من الإبل وأربعون شاة، وإن كان فارسا أخَذ اثنَىْ عشر من الإبل وعشرين ومائةَ شاة، وان كان معه أكثرُ من فرسٍ لم يُسهَم له. وذهب الأَوْزاعىُّ والثَّوْرىُّ واللَّيثُ بنُ سعدٍ وأبو يوسفَ وأحمدُ ابنُ حنبل — رحمهم الله — الى أنه يُسهَم لفرسين، ورُوِىَ مثلُه عن مكحولٍ ويحيى ابنِ سعيدٍ وابنِ وهبٍ ومحمدِ بنِ الجَهْم[1] من المـالكيّة، وحكاه محمدُ بنُ جَرير الطبرىُّ فى تاريخـه، فقال: «ولم يكن يُسهَم للخيـل اذا كانت مع الرجل إلّا لفرسـين» ودليلُهم ما ذكره ابنُ مَنْدَةَ فى ترجمة البراءِ بنِ أَوْسِ بنِ خالد أنّه قاد مع النّبىّ صلّى الله عليه وسـلّم فرسين، فضَرَب له النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم خمسةَ أسهم؛ ولم يقل أحدٌ إنه يُسهَم لأكثرَ من فرسين إلّا شيئا يُرْوَى عن سليمانَ بنِ موسى أنه يُسهَم لمن غزا بأفراسٍ لكلِّ فرسٍ سهمان؛ واختلفوا فى الإسهام للفرس المريض الذى يُرجَى برؤه على قولين، أحدُهمـا: يُسهَم له نظرا إلى الجنس؛ والثـانى: لا يُسهَم له، لأنه لا غَناءَ فيه كالبغل والحمار؛ والله الموفِّق للصواب.

(١) فى كلا الأصلين: «ابن الحسن»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتاب فضل الخيل ص٩٩.

ذكر سقوط الزكاة فى الخيل

رُوِىَ عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "ليس على المرء المسلِم فى فرسِهِ ولا مملوكِهِ صدقة" متّفقٌ عليه. وفى لفظٍ عنه : "ليس على المسلِم فى عبدِهِ ولا فى فرسِهِ صدقة". وفى لفظ : "ليس فى الخيل والرَّقيق زكاةٌ إلّا زكاةُ الفطر فى الرَّقيق" . وعن عائشةَ — رضى الله عنها — قالت : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "إنّ الله وضع الصدقات فليس على الخيلِ صدقة، وليس على الحُمر صدقة، وليس على البغالِ صدقة، وليس على الإبل التى يُسقَى عليها الماءُ للنّواضح صدقة" .

وعن أبى عمرو عبدِ الله بنِ يزيدَ الحَرّانىّ، قال : حدّثنى سليمانُ بنُ أرقَمَ، عن الحسن، عن عبدِ الرحمن بنِ سَمُرَةَ أنّ النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "لا صدقةَ فى الكُسْعة والجَبْهة والنَّخّة"؛ فسّره أبو عمرو، الكُسْعة : الحمير . والجَبْهة : الخيل. والنَّخّة : العبيد . ويقال : النَّخّة، البقر العوامل؛ قال ثعلب : هذا هو الصواب، لأنّه من النّخّ، وهو السَّوْقُ الشديد؛ وقال الكسائىّ : إنما هو النُّخَةُ بالضمّ، قال: وهو البقرُ العوامل؛ وقال الفرّاء : النَّخّةُ بالفتح، أن يأخذ المصدِّقُ دينارا لنفسِه بعد فراغه من أخذ الصدقة، وأنشد :

عمّى الّذى مَنَعَ الدّينارَ صاحبَه * دينـارَ نَخّـةِ كلبٍ وهو مشهودُ

وعن علىٍّ — رضى الله عنه — قال : قال النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "عفوتُ لكم عن الخيلِ والرَّقيق" . وعنه — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "قد عفوت لكم عن الخيـلِ والرَّقيقِ فهاتوا صدقةَ الرِقَةِ من كلِّ أربعين درهما درهما، وليس فى تسعين ومائةٍ شىء، فإذا بلغتْ مائتين ففيها خمسةُ

دراهم". وفى لفظ آخر عنه، عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "فإذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحَوْل ، ففيها خمسةُ دراهمُ ، وليس عليك شىء — يعنى فى الذهب — حتّى يكونَ لك عشرون دينارا وحال عليها الحَوْل، ففيها نصفُ دينار، فما زاد فبحساب ذلك" . قال الجوهرىّ : الوَرِق، الدراهمُ المضروبة، وكذلك الرِّقَة، والهاء عِوضٌ من الواو ؛ وفى الوَرِق ثلاثُ لغاتٍ حكاهنّ الفرّاء : وَرِق، ووِرْق، ووَرْق . ٥

وعن جابرِ بنِ عبدِ الله — رضى الله عنه — قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : " إنّ الله عزّ وجلّ تجوّز لكم عن صدقة الخيل والرَّقيق" .

وعن عبدِ الله بنِ دينار قال : سألتُ سعيدَ بنَ المسيِّب، فقلت : أفى البراذين صدقة ؟ فقال : أفى الخيل صدقة ؟ . وعن حارثةَ بنِ مضرِّب قال : جاء ناسٌ من أهل الشأم إلى عمرَ فقالوا : إنا قد أصبنا أموالا خيلا ورقيقا نحبّ أن يكون لنا فيها زكاةٌ وطَهور، فقال : ما فعله صاحباى فأفعلَه، فاستشار أصحابَ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم وفيهم علىّ — رضى الله عنه — فقال علىّ : « هو حسنٌ إن لم تكن جزيةٌ يؤخَذون بها بعدك »(١) . ١٠

وعن مالكِ بنِ أنَس ، عن ابنِ شهاب ، عن سليمانَ بنِ يسار أنّ أهلَ الشأم قالوا لأبى عُبَيْدة : خذ من خيلِنا ورقيقِنا صدقة ، فأبَى ؛ ثمّ كتب إلى عمرَ بنِ الخطّاب، فأبَى، فكلّموه أيضا، فكتب إلى عمر، فكتب اليه أيضا عمر : إن أحبّوا فخذها منهم وارددها، يعنى فى فقرائهم . ١٥

(١) زاد فى كتاب فضل الخيل ص ١٠٨ بعد هذه الكلمة قوله : « راتبة » .

فدلّت هذه الأحاديثُ والأخبارُ على أن لاصدقةَ فى الخيلِ السائمةِ ولا فى الرَّقيق إذا كانوا للخدمة ، إلّا أن يكونوا للتجارة ، فان كانوا للتجارة ففى أثمانهم أو قِيَمِهم الزكاةُ إذا حال عليها الحَوْل ، وعلى هذا مذهبُ الجمهور ؛ وذهب أبو حنيفةَ — رحمه الله — دون صاحبَيْه إلى وجوب الزّكاةِ فى الخيلِ السائمةِ إذا كانت إناثا، أو إناثا وذكورا، وقال : هو مخيَّر بين أن تُقَوَّمَ وتؤخَذَ الزكاةُ من القيمة، وبين أن يُخرِج عن كلِّ فرسٍ دينارا؛ واحتجّوا له بقوله عليه السلام : "ثم لم ينَس حقَّ الله فى رقابِها وظهورِها"؛ قال المخالِف لهم : وليس فيه دليلٌ من وجهين : أحدُهما أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا ذَكَرَ الإبلَ السائمةَ وقال : "فيها حقّ" سئل عن ذلك الحقِّ ما هو ؟ فقال : "إطراقُ فحلِها، وإعارةُ دَلوِها، ومِنحةُ لبنِها أو سمنِها، وحَلبُها على الماء، وحَمْلٌ عليها فى سبيل الله" ؛ فلمّا كانت الإبلُ فيها حقٌّ سوى الزكاة احتُمِل أن يكون فى الخيل أيضا حقٌّ سوى الزكاة؛ وقد روى التِّرمذىُّ[1] وابنُ ماجةَ حديثَ فاطمةَ بنتِ قيس، قالت : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : "إنّ فى المال حقّا سوى الزّكاة" وتلا هذه الآية ﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ الخ الآية ؛ فيجوز أن يُحمَل الحقُّ فى رقابِها وظهورِها على هذا الوجه . الثانى أن يُحمَل الحقُّ فيها على التأكيد لا على الوجوب، كقولِه[2] صلّى الله عليه وسلّم فى حديث مُعاذ : "وحقُّ العباد[3] على اللهِ عزّ وجلّ أن لا يعذّبهم اذا فعلوا

(١) فى كلا الأصلين : « الزبيدى » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتاب فضل الخيل ص ١٠٩

(٢) فى كلا الأصلين : « لقوله » باللام مكان الكاف؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا اذ المراد التمثيل لا التعليل، كما هو ظاهر .

(٣) فى كلا الأصلين : «وحق الله عز وجل على العباد» ، وفى هذه العبارة تقديم وتأخير يغيران المعنى المقصود من الحديث، وما أثبتناه عن كتاب فضل الخيل ص ١٠٩ كما أن سياق الحديث يقتضيه .

ذلك "، فهذا تحمل قوله عليه السلام : " ثم لم ينس حق الله فى رقابها " وتأويله .
قال شيخنا شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى — رحمه الله — : ولنا أن
نقول فيه أيضا : هو مجمل ، والأحاديث المتقدمة مفسرة تقضى عليه (١)، وظواهرها
حجج متضافرة على ترك الزكاة فى الخيل؛ قال: فهذا وجهه من طريق السنة والأثر؛
وأما وجهه من طريق النظر فمن وجهين : أحدهما أن السوم فى الخيل نادر عند ٥
العرب، فلا زكاة فيها كالبغال والحمير، الثانى أن الزكاة لو وجبت فى الخيل
لتعدى ذلك إلى ذكورها قياسا على المواشى من الإبل والبقر والغنم . وقال الطبرى
والطحاوى : والنظر أن الخيل فى معنى البغال والحمير التى قد أجمع الجميع على أن
لا صدقة فيها، ورد المختلف [فيه] إلى المتفق (٢) عليه إذا اتفقا فى المعنى أولى . وقال
أبو عبيد : وكان بعض الكوفيين يرى فى الخيل صدقة اذا كانت سائمة يبتغى منها ١٠
النسل، فقال : إن شاء أدى عن كل فرس دينارا، وإن شاء قومها ثم زكاها؛ ٤٨
قال : وإن كانت للتجارة كانت كسائر أموال التجارة يزكيها؛ قال أبو عبيد : أما قوله
فى التجارة فعلى ماقال؛ وأما إيجابه الصدقة فى السائمة فليس هذا على اتباع السنة،
ولا على طريق النظر، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عفا عن صدقتها،
ولم يستثن سائمة ولا غيرها ؛ وأما فى النظر، فكان يلزمه اذا رأى فيها صدقة أن ١٥
يجعلها كالماشية تشبيها بها ، لأنها سائمة مثلها، فلم يصر إلى واحد من الأمرين؛
وقد جاء عن غير واحد من التابعين إسقاط الزكاة من سائمتها ، فروى عن الحسن

(١) « تقضى عليه » ، أى أن الأحاديث الواردة باسقاط الزكاة من الخيل تحكم على هذا المجمل وتخصص الحق الوارد فى الحديث السابق ببعض مايحتمله من المعانى، وهو ماعدا الزكاة فيها .

(٢) فى كلا الأصلين : « الى أن المتفق » وقوله : « أن » زيادة من الناسخ يجب حذفها، كما هو ظاهر . ٢٠

أنّه قال: « ليس فى الخيلِ السائمةِ صدقة»؛ وعن عمرَ بن عبدِ العزيز قال: « ليس فى الخيلِ السائمةِ زكاة »؛ وقال أبو عبيد: وقد قال مع هذا بعضُ من يقول بالحديث ويَذهب اليه: إنه لا صدقة فى سائمتِها ولا فيما كان منها للتجارة أيضا؛ يَذهَب الى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: " قد عفونا لكم عن صدقة الخيلِ والرَّقيق »؛ فجَعَلَه عامّا، فلا زكاةَ فى شىءٍ منها؛ قال أبو عُبَيد: فأَوْجَب ذلك الأوّلُ الصدقةَ عليها فى الحالين جميعا، وأسقطها هذا منهما كلتيهما؛ وأحدُ القولين عندى غلوّ، والآخَرُ تقصير، والقصدُ[1] فيما بينهما هو أن تجبَ الصدقةُ فيما كان منها للتجارة، وتَسقُطَ مِن السائمة؛ على هذا وجدنا مذهبَ العلماء، وهم أعلمُ بتأويل حديثِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو قول سفيانَ بنِ سعيد ومالكٍ وأهلِ العراق وأهلِ الحجاز والشأم، لا أعلم بينهم فى هذا اختلافا؛ والله أعلم بالصواب.

كمل الجزء التاسع[2] من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

— رحمه الله تعالى — ويليه الجزء العاشر، وأوّله:

ذكر ما وصفت به العرب الخيل من ترتيبها فى السنّ وتسمية أعضائها

وأبعاضها وألوانها وشياتها الخ والحمد لله رب العالمين

---

(١) فى رواية: « والفصل » انظر كتاب الأموال لأبى عبيدة المنقول عنه هذا الكلام.

(٢) هذه التجزئة مخالفة فى ابتداءات الأجزاء وانتهاءاتها لتجزئة النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسىّ المحفوظة بدار الكتب المصرية، وهذا الاختلاف من نهاية آخر الجزء السابع، وذلك مراعاة لتناسب الأجزاء وتقاربها فى عدد الصفحات؛ ولم ننبه على هذا الاختلاف فى الجزأين السابقين اكتفاء باثبات أعداد الصفحات الفوتوغرافية محاطة بدوائر على الهوامش.

الخطأ والصواب

وقعت فى هذا الجزء أغلاط مطبعية قليلة رأينا أن ننبه على أهم ما عثرنا عليه منها .

صفحة	خطأ	صواب
١٨٤ ح ١	أربع	أربعة
٢٥٩ سطر ٣	تَقَدُّر	تَقَذُّر
٢٧٨ سطر ٢	ممّا	فيما
٣٢٧ سطر ١١	(بُخْتيار)	(بَخْتيار)

(مطبعة الدار ١٠١٧/١٩٣١/٢٥٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر التاسع

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان

عن الجزء التاسع من نهاية الأرب

فى دار الكتب من نسخ هـذا الجزء نسخةٌ واحدةٌ كاملةٌ مأخوذةٌ بالتصوير الشمسىّ ، وقطعةٌ من نسخة أخرى مأخوذةٌ بالتصوير الشمسىّ أيضا ، تبتدئ من (الفن الثالث فى الحيوان الصامت) فى صفحة ٢٢٤ ، وقد شمل التحريف والتصحيف ألفاظ هـذا الجزء فى كلتا النسختين بظلمة كثيفة لا يكاد يبدو فيها الصواب إلا بالتفكير الطويل والبحث المستقصى ، فما زلنا نستخرج الصحيح من المعتلّ ، ونتعرّف الصواب من الخطإ بما يجاوره ويتصل به من الألفاظ الصحيحة التى لم يمسّها مسخٌ ولا تحريف ، مراعين فى ذلك سياق الكلام وما تقتضيه أساليب الكتّاب والشعراء فى مختلف العصور والبيئات ، مستعينين بعد ذلك بالمصادر الكثيرة التى بين أيدينا ، من دواوين الشعراء ورسائل الكتّاب وكتب المحاضرات والمنتخبات الأدبية ومصنّفات اللغة وغيرها من علوم العربية ، والمعجمات المختصّة بأسماء الرواة وأنسابهم ، وما ألّفه العلماء فى الأمكنة والبلاد وضبط أسمائها وتعيين مواقعها ، وغير ذلك من أنواع المؤلّفات التى تراها مفصّلة بعدُ فى بيان الكتب والمصادر التى رجعنا اليها فى تصحيح هـذا الجزء ، كلُّ نوع منها فيما يتعلّق به من أغراضه وأبوابه ، غيرَ مكتفين من كلّ كتاب بنسخة واحدة ، بل جمعنا ما استطعنا جمعه من نُسَخِه لنتخيّر أصحّها رواية وأقوَمَها لفظا ؛ منبّهين فى الحواشى على اختلاف

هذه النُّسَخ فى رواياتها وعلى ما نرجّحه منها؛ وعسى أن نكون قد وفّقنا فى هذا الجزء الى ما نقصد إليه فى جميع أجزاء هـذا الكتاب من إصـلاح المحرّف من ألفاظها، وتكميل ما نقص من عباراتها، وتفسير غريبها، وشرح ما أشكل من جُمَلِها وأبياتها، وضبط ما ٱلتبس من ألفاظها، وتحقيق ما ٱشتملت عليه من أسمـاء الأمكنة والبلاد والقبائل والأشخاص وضبطها على الوجه الصحيح، والتنبيهِ على كثير مما ورد فيها من الألفاظ والصِّيَغ والعبارات الدّخيلة والعاميّة، وغير ذلك من الأغراض .

ومما ينبغى التنبيه عليـه فى هذا الموضع أننا لم نضع لفظا مكان لفظ آخر فى الأصل إلا إذا كان التحريف فى لفظ الأصل ظاهرا لايستقيم به المعنى على وجه من الوجوه، بشرط أن يتقارب اللفظان فى رسم الحروف تقاربا يجعلهما كالمتّفقَين، ليكون الظنُّ أرجحَ فى ٱشتباه اللّفظين على الناسخ، والاحتمالُ أقربَ فى تحريف أحدهما عن الآخر، مؤثِرين فى ذلك النقل عن المصادر الموثوق بمؤلّفيها، منبّهين فى الحواشى على ما كان فى الأصـل من حروف هذا اللّفظ ووجه ٱختيار غيره والمصـدر الذى أخذناه عنه؛ سواء أكان هـذا اللفظ منقولا عن كتاب، أم كان من عندنا؛ فاذا أفاد لفظ الأصل معنى يستقيم به الكلام على وجه من الوجوه ولو كان ضعيفا أبقيناه على حاله لم نغيّر منه حرفا، وإن بدا لنا من الألفاظ ما هو أفضـلُ منه وأقربُ إلى السـياق أثبتناه فى الحواشى، كما أننا لم نضبط علما من الأعلام المشتمل عليها هـذا الجزء إلا إذا ورد بضبطه نصّ صريح لا يحتمل التأويل فيما لدينا من الكتب الموثوق بمؤلّفيها ومصحّحيها، فاذا ورد هـذا الاسم فى الكتب مضبوطا بالقلم ولم نجد من النصوص الدالّة على ضـبطه ما نطمئن إليه، نبّهنا على ذلك فى الحواشى، فنقول : «كذا ضبط هذا الاسم بالقلم لا بالعبارة فى كتاب كذا» .

وإنّ من النعم الكبرى على العلم والأدب التى لا يفى بحقّها شكر، ولا يقوم بحمدها نثر ولا شعر، تلك العناية العظيمة والرعاية الكبرى من مولانا مليك البلاد، وشبلِ إسماعيل (صاحبِ الجلالة فؤاد الأوّل) أيّد الله ملكَه، وأدام ظِلّه، وحرس للبلاد ولىّ عهده (سموّ الأمير فاروق) فقد تمّ فى عهده السعيد طبعُ كثير من الكتب النافعة فى مختلِف الفنون، والكشفُ عن ثروة علميّة واسعة مما تركه السلف تذكرةً للخلف .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر بالشكر والثناء هذا الجهد العظيم الذى بذله ويبذله المدير الحازم والمربّى الفاضل الأستاذ (محمد أسعد برّادة بك) مدير دار الكتب المصريّة، واهتمامَه الصادق باخراج هذه الكتب فى أقرب وقت ممكن على أحسن وجهٍ وأكملِه؛ تحقيقا لما تَتُوق إليه الأمّة العربيّة جمعاءَ من إحياء لغتها وآدابها بنشر الكتب الثمينة فى الدين واللغة والأدب والتاريخ، وغيرها من أنواع العلوم .

كما لا يفوتنا أن نثنى الثناء الجميل على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ (السيد محمد الببلاوى) مراقب إحياء الآداب العربية على ما يسديه الى مصحّحى هذه الكتب من الإرشادات القويمة، والآراء السديدة؛ ونسأل الله سبحانه التسديد فى القول، والتوفيق فى العمل ؟

مصحّحه

أحمد الزين

تحريرا بالقاهرة فى يوم الأربعاء { ١٥ محرّم سنة ١٣٥٢ / ١٠ مايو سنة ١٩٣٣ }

فهرس

السفر التاسع

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

ذكر كتابة الحكم والشروط وما يتّصف به الكاتب ويحتاج اليه ١

أما اشتراط العدالة والديانة والأمانة ٢

وأما طلاقة العبارة وذلاقة اللسان... ... ... ٣

وأما حسن الخط ٣

وأما معرفة العربية ٤

وأما معرفة الفقه ٤

وأما علم الحساب والفرائض... ... ... ٥

وأما معرفة صناعة الوراقة... ... ... ٦

ذكر صورة ما آصطلح عليه الكتّاب من أوضاع الوراقة ٦

ذكر كيفية ما يصنعه الكاتب فى كلّ واقعة ٩

أما الإقرارات وما يتّصل بها من الرهن والضمان ١٠

وأما الحوالة... ... ... ١٧

فصل وأما الشركة ١٧

وأما القراض ١٩

صفحة

وأما العـارية ٢٠

وأما الهبة والنحلة ٢٠

وأما الصدقة والرجوع ٢٢

وأما التمليـك ٢٣

وأما البيـوع ٢٤

وأما الرد بالعيب والفسخ... ... ... ٧٣

فى مقايلة تكتب على ظهر المبايعـة ٧٣

وأما الشـفعة ٧٤

وأما السلم والمقايلة فيه ٨٤

وأما القسمة والمناصفة ٨٥

وأما الأجائر ٨٨

وأما المساقاة ١٠٣

وأما الوصايا والشهادة على الكوافل بالقبوض ١٠٤

وأما العتق والتدبير وتعليق العتق ١١٠

وأما الكتابة ١١٣

وأما النكاح وما يتعلق به ١١٥

وأما أقرار الزوجين بالزوجية واعتراف الزوج بمبلغ الصداق وما يتصل بذلك
من فرض الزوجة والإشهاد عليها بقبض الكسوة ١٢٤

وأما الطلاق وما يتصل به من الفروض الواجبة ١٢٦

وأما تعليق الطلاق وفسخ النكاح... ... ... ١٣١

وأما نفى ولد الجارية والإقرار باستيلاد الأمة ١٣٤

صفحة

وأما الوكالات ١٣٥

وأما المحاضر على اختلافها ١٣٧

وأما الإسجالات ١٤٥

وأما الكتب الحكمية ١٥٢

وأما التقاليد الحكمية ١٥٥

وأما الأوقاف والتحبيسات ١٥٦

المؤتلف والمختلف من أسماء نقلة الحديث ١٦٠

المؤتلف والمختلف من نسب رجال الحديث ١٧٩

وأما من ينسخ العلوم ٢١٤

وأما من ينسخ التاريخ ٢١٤

وأما من ينسخ الشعر ٢١٧

ذكر كتابة التعليم وما يحتاج من تصدّى لها إلى معرفته — فأما تعليم الابتداء ٢١٨

وأما تعليم الانتهاء ٢٢٠

الفن الثالث فى الحيوان الصامت ٢٢٤

القسم الأول

من هذا الفن فى السباع وما يتصل بها من جنسها، وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأول

فى الأسد والببر والنمر

أما أسماء الأسد... ... ... ٢٢٦

وأما أصناف الآساد وأجناسها ٢٢٧

*

صفحة
وأما عاداتها فى حملها و وضعها وحضانتها ٢٢٨
وأما عادتها فى وثباتها وثباتها وأفعالها وصبرها وسرعة مشيها وأكلها ٢٢٩
وأما ما فى الآساد من الجراءة والجبن ٢٣٠
ذكر شىء مما وصف به الأسد نظما ونثرا ٢٣٤
وأما البر وما قيل فيه ٢٤٢
ذكر ما قيل فى النمر ٢٤٣
ما قاله الشعراء فى وصف النمر ٢٤٥

الباب الثانى

من القسم الأول من الفن الثالث فيما قيل فى الفهد والكلب والذئب والضبع والنمس — ذكر ما قيل فى الفهد

ما قيل فى وصف الفهود من النظم والنثر ٢٤٨
ذكر ما قيل فى الكلاب ٢٥٤
(فصل) قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٢٥٥
ذكر دلائل النجابة والفراهة فى كلاب الصيد ٢٦٠
ذكر شىء مما وصفت به كلاب الصيد نظما ونثرا ٢٦١
ذكر ما قيل فى الذئب ٢٧٠
ذكر ماوصف به الذئب ٢٧٢
ذكر ما قيل فى الضبع ٢٧٤
ذكر ما قيل فى النمس ٢٧٦

صفحة

الباب الثالث

من القسم الأوّل من الفنّ الثالث فيما قيل فى السنجاب والثعلب والدب والهرّ والخنزير — فأما السنجاب

ذكر ما وصف به السنجاب ٢٧٨
ذكر ما قيل فى الثعلب ٢٧٩
ذكر ما وصف به الثعلب ٢٨١
ذكر ما قيل فى الدبّ ٢٨٢
ذكر ما قيل فى الهرّ ٢٨٣
ذكر ما وصف به الهرّ ٢٨٥
ذكر ما قيل فى الخنزير ٢٩٩
ذكر ما وصف به الخنزير ٣٠١

القسم الثانى

من الفن الثالث فى الوحوش والظباء وما يتصل بها من جنسها وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأوّل

من هذا القسم فيما قيل فى الفيل والكَرْكَدّن والزرافة والمها والإِيَّل

ذكر ما قيل فى الفيل ٣٠٢
ذكر شىء مما وصف به الفيل نظما ٣٠٨
ذكر ما قيل فى الكَرْكَدّن... ... ... ٣١٥
ذكر ما قيل فى الزرافة ٣١٧

صفحة
ذكر ما وصفت به الزرافة ٣١٨
ذكر ما قيل فى البقر الوحشية — وهى المها، والإُيَّل — أما سنّها ٣٢٢
وأما ما قيل فى المها ٣٢٢
ذكر ماوصفت به المها ٣٢٢
وأما ماقيل فى الإُيَّل... ... ... ٣٢٤
ذكر ماقيل فى امتناعه عن شرب الماء مع حاجته إليه ٣٢٥

الباب الثانى

من القسم الثانى من الفن الثالث فيما قيل فى الحمر الوحشية والوعل واللط

ذكر ما قيل فى الحمر الوحشية... ... ... ٣٢٦
ذكر ما وصفت به الحمر الوحشية من النثر والنظم ٣٢٧
ذكر ما قيل فى الوعل ٣٢٩
ذكر ما وصف به الوعل... ... ... ٣٣٠
ذكر ما قيل فى اللط ٣٣١

الباب الثالث

من القسم الثانى من الفن الثالث فى الظبى والأرنب والقرد والنعام

ذكر ما قيل فى الظبى ٣٣٢
فصل وممّا يلتحق بهذا النوع غزال المسك ٣٣٣
ذكر ما وصف به الغزال من الشعر ٣٣٣
ذكر ما قيل فى الأرنب ٣٣٤
منافع الأرنب ٣٣٥

صفحة
ذكر ما وصف به الأرنب ٣٣٦
ذكر ما قيل فى القرد ٣٣٦
ذكر ما قيل فى النعام ٣٣٩
ذكر ما وصفت به النعامة ٣٤٠

القسم الثالث

من الفن الثالث فى الدواب والأنعام ؛ وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأوّل

من هذا القسم فى الخيل

ذكر ما ورد فى ابتداء خلق الخيل ٣٤٣
ذكر ما ورد فى فضل الخيل وبركتها وفضل الإنفاق عليها ٣٤٦
ذكر ما جاء فى فضل الطَّرْق ٣٥٣
ذكر ما جاء من دعاء الفرس لصاحبه ٣٥٤
ذكر ما ورد من أن الشيطان لا يخبِل من فى داره فرسٌ عتيق ولا يدخل دارا فيها فرسٌ عتيق ٣٥٥
ذكر ما جاء فى التماس نسل الخيل والنهى عن خصائها والرخصة فيه والنهى عن هَلْبها وجزّ أعرافها ونواصيها ٣٥٦
ذكر ما قيل فى أكل لحوم الخيل من الإباحة والكراهة ٣٥٨
ذكر ما جاء فى النهى عن عَسْب الفحل وبيع مائه ٣٦٠
ذكر ما جاء فى إكرام الخيل ومنع إذالتها ٣٦٠
ذكر ما ورد من الأمر بارتباط الخيل وما يستحبّ من ألوانها وشياتها وذكورها وإناثها ٣٦١

صفحة

ذكر ترجيح إناث الخيل على فحولها وترجيح فحولها على إناثها وما جاء فى ذلك ٣٦٥

ذكر ما ورد فى شؤم الفرس وما يذمّ من عَصَمِها ورَجَلِها ٣٦٦

ذكر ما جاء فى سباق الخيل وما يحلّ منه وما يحرم ٣٦٨

وأما أسماء السوابق فى الحَلْبَة ٣٧٣

ومما يتصل بهذا الفصل ترتيب عدو الفرس ٣٧٥

كيفية تضمير الخيل ٣٧٥

ذكر ما يقسم لصاحب الفرس من سهام الغنيمة والفرق فى ذلك بين العراب والهُجُن والبَرَاذِين ٣٧٥

ذكر سقوط الزكاة فى الخيل ٣٧٨

تمّ الفهـــرس

بيان اهمّ الكتب والمصادر التى رجعنا إليها فى تصحيح هذا الجزء مرتّبة على حروف المعجم

(إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى) لشهاب الدين القسطلّانى .

(الإرشاد الشافى على متن الكافى فى علمى العروض والقوافى) للدمنهورى .

(أساس البلاغة) للزمخشرى .

(أسماء الوحوش) للاصمعى .

(الإصابة فى تمييز الصحابة) لأبن حجر العسقلانى .

(الأغانى) لأبى الفرج الأصفهانى .

(أقرب الموارد) لسعيد الخورى الشرتونى اللبنانى .

(الإكمال فى رفع الأرتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والانساب) لأبن ماكولا .

(الأنساب) للسمعانى ،

(الأموال) لأبى عبيدة .

(بدائع الزهور فى وقائع الدهور) وهو تاريخ مصر لأبن إياس .

(تاج العروس) وهو شرح القاموس للزبيدى .

(تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهرى .

(تاريخ ابن الأثير) .

(تاريخ الأدب او حياة اللغة العربية) للرحوم حفنى بك ناصف .

(تاريخ بغداد) للخطيب .

(تاريخ الطبرى) .

(تبصير المنتبه بتحرير المشتبه) لابن حجر العسقلانى .

(تقريب التهذيب فى أسماء الرجال) له أيضا .

(التبيان) وهو شرح ديوان أبى الطيب المتنبّى، للعكبرىّ .

(تحفة ذوى الأرب فى مشكل الأسماء والنسب) لابن خطيب الدهشة .

(تقويم البلدان) لأبى الفداء .

(تكملة القواميس العربية) لدوزى .

(تهذيب الكمال فى أسماء الرجال) لأبى الحجاج المزّى .

(جواهر العقود ومعين القضاة والموقّعين والشهود) لأبى عبد الله الأسيوطىّ .

(حاشية الصبّان) على شرح الأشمونى .

(الحيوان) للجاحظ .

(حياة الحيوان) للدميرى .

(الخطط) للقريزى .

(خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال) لصفىّ الدين الخزرجىّ .

ديوان أبى نواس .

ديوان ابن حمديس .

ديوان الحيوان، للسيوطى .

ديوان ابن هانئ الأندلسىّ .

ديوان عروة بن الورد .

ديوان الأخطل .

ديوان الأرّجانى .

ديوان ابن خفاجة .

ديوان ابن المعتز .

(ديوان المعانى) لأبى هلال العسكرى .

(الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة) لأبن بسام .

(رشحات المداد فيما يتعلّق بالصافنات الجياد) للبخشىّ الحلبىّ .

(شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) لأبن العماد الحنبلى .

(شرح الأشمونى) على ألفية آبن مالك .

(شرح الرضى) على الكافية .

(شرح ابن هشام) على قصيدة بانت سعاد .

(شرح المنهج) لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى .

(شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى) للأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده .

(شرفنامه — وهو كتاب باللغة الفارسية فى تاريخ الأكراد) — للأمير شرفخان البدليسى .

(شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل) لشهاب الدين الخفاجىّ .

(شرح النووى) على صحيح مسلم .

(صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء) للقلقشندى .

صحيح البخارى .

(طبقات الشافعية الكبرى) لابن السبكىّ .

(الطبقات الكبرى) لأبن سعد .

(عقد الأجياد فى الصافنات الجياد) للسيد محمد الجزائرى الحسنى .

(العقد الفريد) لأبن عبد ربه .

(عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان) لبدر الدين العينى .
(العمدة فى صناعة الشعر ونقده) لأبن رشيق القيروانى .
(فتح العزيز وهو الشرح الكبير للرافعىّ على كتاب الوجيز) للغزالى .
(الفتاوى الهندية) لجماعة من أفاضل الهند رئيسهم الشيخ نظام الدين .
(فهرست ابن النديم) .
(فضل الخيل) للحافظ شرف الدين الدمياطى .
(القاموس المحيط) لمجد الدين الفيروزابادى .
(قوانين الدواوين) للأسعد بن مماتى .
(القانون) لأبن سينا .
(قلائد العقيان) للفتح بن خاقان .
(كشف الظنون عن أسمـاء الكتب والفنون) لحاجى خليفة .
(الكوكب المشرق فيما يحتاج اليه الموثّق) لمحمد بن عبد الله الحسن الجروانى .
(الكامل للمبّرد) .
(لب اللباب فى تحرير الأنساب) للجلال السيوطى .
(لسان العرب) لأبن منظور .
(المصباح المنير) للفيومى .
(معجم ما آستعجم) للبكرى .
(معجم البلدان) لياقوت الحموى .
(المشترك وضعا والمختلف صقعا) له أيضا .
(مختصر أخبار مصر) لعبد اللطيف البغدادى .
(محيط المحيط) لبطرس البستانى .

(مبادئ اللغة) لأبى عبدالله الخطيب الإسكافى .

(المخصّص) لابن سيده .

(المغرب فى ترتيب المعرب) للمطرزى .

(المعرّب والدخيل) للشيخ مصطفى المدنى .

(المعرّب من الكلام الأعجمى) لأبى منصور الجواليقى .

(المعجم الفارسى الإنجليزى) لستاينجاس .

(المؤتلف والمختلف من أسماء نقلة الحديث) للحافظ عبد الغنى بن سعيد المصرى .

(مشتبه النسبة) له أيضا .

(المشتبه فى أسماء الرجال) لشمس الدين الذهبىّ .

(المكتبة الأندلسية) طبع أسبانيا، وهى تشتمل على عدّة كتب، وهى (الصلة) لابن بشكوال ، (والتكملة لكتاب الصلة) للقضاعى، (والمعجم) لابن الأبار ، (وبغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس) للضبى، (وتاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضى .

(المكتبة الجغرافية) طبع ليدن، وهى تشتمل على عدّة كتب، وهى (مسالك الممالك) للإصطخرى ، (والمسالك والممالك) لابن حوقل ، (وأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) للبشّارى المقدسى ، (ومختصر كتاب البلدان) لابن الفقيه ، (والمسالك والممالك) لابن خرداذبة، (والتنبيه والإشراف) للمسعودىّ .

(ما خالف فيه الإنسان البهيمة) لقطرب .

(المرصّع فى الآباء والأمهات والأبناء والبنات والأدواء والذوات) لابن الأثير .

(مباهج الفكر ومناهج العبر) لجمال الدين الوطواط الورّاق .

(محاضرات الأدباء) للراغب الأصبهانى .

(مروج الذهب) للمسعودى .

(ما يعوّل عليه فى المضاف والمضاف إليه) للحبّى الحموى .

(مجمع الأمثال) للميدانى .

(المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) لمحيي الدين عبد الواحد التميمى المراكشى .

(مطمح الأنفس ومسرح التأنّس فى مُلَح أهل الأندلس) للفتح بن خاقان .

(مسند الإمام أحمد) .

(نهاية الأرب) لشهاب الدين النويرىّ .

(النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية وهى سيرة السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبى) للقاضى ابن شدّاد .

(نسب عدنان وقحطان) لأبى العباس المبرّد .

(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للمقّرى .

(نكت الهميان فى نكت العميان) لصلاح الدين الصفدى .

(الوافى بالوفيات) له أيضا .

(النهاية فى غريب الحديث) لابن الأثير .

(وفيات الأعيان) لابن خلّكان .

(الوجيز) للغزالى .

(يتيمة الدهر) للثعالبى .

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ما وصفت به العربُ الخيلَ :

من ترتيبها فى السنّ، وتسمية أعضائها، وأبعاضها، وألوانها، وشِيَاتها، وغُرَرها، وحُجُولها، وعُصَمِها، ودوائرها، وما قيل فى طبائعها وعاداتها، والمحمودِ من صفاتها ومحاسنها، والعلامات الدالّة على جَوْدتها ونجابتها، وعدّ عيوبها التى تكون فى خَلْقها وجريها، والعيوبِ التى تطرأ عليها وتَحدُث فيها

أما ترتيبها فى السنّ — فالعرب تقول : سِنّ الفرس إذا وضعته أمه فهو "مُهْر" . ثم هو "فُلُوٌّ"(1) . فإذا آستكمل سنةً فهو "حَوْلِىّ" . ثم هو فى الثانية "جَذَع" . ثم فى الثالثة "قَنِىٌّ" . ثم فى الرابعة "رَبَاعٍ" . ثم فى الخامسة "قارِحٌ" . ثم هو الى نهاية عمره "مُذَكٍّ" .

وأما ما قيل فى تسميتها، وتسمية أعضائها وأبعاضها — فقد قالوا : الخيل مؤنّثةٌ، ولا واحد لها من جنسها، وجمعها خيول . ويقال فى صفاتها : "أُذُنٌ مُؤَلَّلةٌ" و"مُرْهَفةٌ"، أى محدّدة الطرَف . قال عَدِىّ بن الرِّقَاع :

ملاحظة — يبتدئ هذا الجزء فى صفحة ٤٨ من الجزء التاسع الفتوغرافى من هذا الكتاب وهو أحد أجزاء النسخة التى اصطلحنا على تسميتها بالحرف « ا » والتى سيرد ذكرها كثيرا فى التعليقات .

(1) ويقال فيه أيضا "فلو" (وزان حمل) .

تَخُوضُ فى فُرُجاتِ النَّقْع دامية * كأنّ آذانَهـا أطـرافُ أقـلامِ[(١)]

و"حَشْرَةٌ" : صغـيرة مُستديرةٌ . و"مَقْـدودةٌ" : مُدَوَّرةٌ . وأُذُنٌ "غَضَنْفَـرَةٌ" أى غليظةٌ . و"زِبَعْرَاةٌ" أى غليظـةٌ شَعْرَاءُ . و" خُذَاوِيَّةٌ " أى خفيفـةُ السمع . قال عَدِىّ بن زيد :

له أُذُنانِ خُـــذَاوِيَّتا * نِ والعينُ[(٢)] تُبصِرُ ما فى الظُّلَمْ ٥

ثم "الناصية" وهى الشعرُ السائلُ على الجبهة ، يقال : "واردَةٌ" وهى الطويلة . و"جَثْلة" وهى الكثيرةُ الملتفَّةُ . و"الفاشِغة" و "الغَمَّاء"[(٣)] وهى الكثيرةُ المنتشِرةُ . و"السَّفْوَاءُ"[(٤)] وهى القليلة . و"عُصفُورُها" : أصلُ مَنْبِتِ شَعْرِها . و"قَوْنَسُها"[(٥)] : العَظْمُ الناتئُ بين الأُذُنين[(٦)] .

وأما الوجهُ وما فيه مما لم يُذكر فى خَلْق الإنسان — "النَّواهِقُ"[(٧)] ١٠ وهما عَظْمان شاخِصان فى وجهه من الجَبْهة الى المَنْخَرَيْن . و"اللَّهْزِمَتَان" : ما اجتمع من اللحم فى مُعظَم الجَبِين . و" عَيْنٌ مُغْرَبَةٌ " أى بيضاءُ الحَمَاليق وما حَوْلها . و" خَيْفاءُ " : إذا كانت إحداهما سـوداءَ والأخرى زرقاء . و"المُحَمْلِقَةُ" : التى حَوْلَ مُقْلَتيها بياضٌ لم يُخالِفِ السَّوَادَ .

---

(١) ورد هذا الشطر فى كتاب رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد للبخشى (ص ٢٤ طبع حلب) ١٥ هكذا : «يخرجن من مستطير النقع...الخ» . (٢) فى التكملة للصاغانى : «وبالعين يبصر...الخ» .
(٣) فى الأصلين : « الغم » ، وهو تحريف . (٤) فى الأصلين : «الشغواء» بالشين والغين المعجمتين ، وهو تصحيف . (٥) فى الأصلين : «قويسها» بالياء المثناة بدل النون ، وهو تصحيف .
(٦) فى الأصلين : « من » وهو تحريف . (٧) عبارة القاموس : « والناهقان : عظمان شاخصان من ذى الحافر فى مجرى الدمع ويقال لهما : النواهق أيضا » . ٢٠

و"أنفٌ مُصَفَّحٌ" أى مُعتدِلُ القَصَبة . و"السَّمُّ" : ثَقْبُهُ[1]، قال[2] :

* ومَنْخِرًا واسِعةً سُمومُه *

وقال مُزَاحِم بن طُفَيل العَنَوىّ، وقيل : العبّاس بن مِرْداس السُّلَمىّ، :

مِلْءُ الحِزامَيْنِ[3] ومِلء العيْن * ينفُش عنـد الرَّبْوِ[4] مَنْخَرين

٥ * كَنَفْش كِيرَيْن بكَفَّىْ قَيْنِ[5] *

و"الجَحْفَلَةُ" : الشَّفَة . و"الفَيْد" : الشَّـعر النابت عليها . و"الشِّدْقان" : مَشَقّ الفَم إلى حدّ اللجام .

وأما العُنُق وما فيه — "فالمَعْرَفة" : موضع العُرْف . و"العُرْفُ" : شـعر أعلى العُنُق . و"العُذْرَةُ" : ما على المِنْسَج يَقبِضُ عليه الفارسُ اذا ركب .

١٠ و "العُرْشانِ" : اللحمان من جانبَي العُرْف . و"الحِرَانُ"[6] : جِلْدُ أسفلِ العنق . و"الدَّسِيعُ" : مُرَكَّب العُنُق فى الكاهل . قال سَلَامةُ [بن جَنْدَل][7] :

يَرْقَى الدَّسِـيعُ الى هادٍ له بَتِـعٍ[8] * فى جُؤْجُؤٍ[9] كَمَدَاكِ الطِّيبِ مَخْضُوبِ

(١) فى الأصلين : « نقبا » بالنون وهو تحريف . قال الأصمعىّ : «سمومه منخراه وعيناه وأذناه وكل ثقب سم » . (٢) فى الأصلين : « يقال » .

١٥ (٣) نسب هذا الشعر فى ديوان المعانى لأبى هـلال العسكرى (ج ٢ ص ٧٤ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب) للعباس بن مرداس . ونسب فيه لمزاحم بن طفيل شاهد آخر وهو : * من منخر كوجار الثعلب الخرب *

وقال : «بجعله خربا ليكون أوسع» .

(٤) الربو : البهر وانتفاخ الجوف . (٥) القين : الحداد .

٢٠ (٦) كذا فى المخصص ولسان العرب (مادة جرن) . وفى أ : « الحرار » وفى ب : « الحراز » ، وكلاهما تحريف . (٧) الزيادة عن المخصص ولسان العرب مادة « بتع » .

(٨) كذا فى المخصص ولسان العرب مادة « بتع » وكتاب الخيل للأصمعى (ص ١٣ طبع أوربا) . والبتع (بالتحريك) : شدة العنق وإشرافها . والوصف منه أبتع وبتع (وزان فرح) . وفى رواية أخرى : «تلع» والتلع : طول العنق . وفى الأصلين : «تبع» بتقديم التاء المثناة على الباء الموحدة ، وهو تصحيف .

٢٥ (٩) الجؤجؤ : الصدر . والمداك : حجر يسحق عليه الطيب .

(٤٩) و"اللَّبَان": ما جرى عليه اللَّبَبُ. ويقال: "عُنُقٌ قَوْدَاء" أى طويلةٌ. و"سَطْعَاء" أى طويلةٌ منتصبةٌ غليظةٌ. و"تَلْعاء": منتصبةٌ غليظةُ الأصـل مَجْدُولةُ الأعلى. و"دَنّاء" أى مطمئنّةٌ من أصلها. و"هَنْعاءُ": مُطمَئنّةٌ من وَسَطها. و"وَقْصاءُ": قصيرةٌ. و"مُرْهَفَةٌ": رَقيقةٌ[1].

وأما الظهر وما آتصل به من الوَرِكَين ـــ فمنه: "المَتْنان" وهما لحمان يَكتنِفان الظهرَ من مُرَكَّب العُنُق الى عُلْوة ظَهْر الذَّنَب. و"الحارِك": عَظْمٌ مشرفٌ من بين فَرْعَي الكَتِفَيْن. و"القُرْدُودةُ": حدّ الفَقَار. و"الفَقَار": المنتظمة فى الصُّلْب. و"الصَّهْوَةُ": مَقْعَدُ الفارس. و"القَطَاة": مَقْعَدُ الرِّدْفِ خَلْفَه. "والمَعَدّانِ": موضع السَّرْج من جَنْبَيْه. قال شاعر[2]:

فإمّا زالَ سَرْجِى[3] عن مَعَـدٍّ * وأَجْدِرْ[4] بالحوادث أن تَكُونا

و"الصُّرَد": بياضٌ[5] على الظهر. و"الغُرَابانِ": مُلْتَقَى أعالى الوَرِكَينِ فى ناحية الصُّلْب. و"الصَّلَوانِ": ما أَسْهَلَ من جانبى الوَرِكَيْن. و"العَجْبُ": ما آرتفع من أصل الذَّنَب. و"العُلْوَةُ": أصله. و"العَسيبُ": عَظْمُ الذَّنَب. والأعوجُ العَسيبِ: "أَعزَلُ".

---

(١) لعلها «دقيقة» بالدال المهملة. (٢) هو عمرو بن أحمر الباهلى يخاطب امرأته، كما فى لسان العرب (مادّة معد). (انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ص ٢٠٧ طبع أوربا).

(٣) فى الأصلين: «سرح» بالحاء المهملة. والتصويب عن لسان العرب. ثم استطرد صاحب اللسان فى تفسير البيت قائلا: «وقال ابن الأعرابى: معناه إن عزّى فرسى من سرجى ومت». وجواب الشرط مذكور فى البيت بعده وهو:

فـلا تصلى بمطروق اذا ما * سرى فى القوم أصبح مستكينا

(٤) فى الأصلين: «فأجدر» بالفاء بدل الواو، وهو تحريف.

(٥) فى الأصلين: «بيض» وهو تحريف.

وأما الصدر وما اتصل به من البطن — فمنه: "الكَلْكَلُ": ما مسّ الأرضَ من فَهْدَتَيْه. و"الفَهدَتان": اللحمتان الناتئتان فى الصدر. و"المَحْزِمُ": ما شُدَّ عليه الحِزَامُ. "والناحِرانِ"(١): عِرقَانِ يُودَجُ منهما.

وأما الذِّراعانِ ومادونهما — "المِرْفَقانِ": مآخيرُ رءوسِ الذِّراع. و"الخَصِيلة"(٢): لحمة الذراع مع العَصَب. و"الصّافِنُ": عِرْقُ الذراع. و"الحِبَالُ": عَصَبُها. و"الرُّقْتانِ"(٣): لحمتان فى باطنهما لا تُنبِتَانِ شَعْرًا. و"الرُّكْبَةُ"(٤): مَوْصِلُ ما بينَ الذِّراع والوَظِيف. و"الوَظِيفانِ": العظمانِ تحت الركبتين والعُرقُوبَيْنِ. و"الرَّضْفَتانِ"(٥): عَظمانِ مُستديرانِ على الرُّكبة. و"السُّنبُكُ": طَرَفُ مُقَدَّمِ الحافر. و"النَّسْرُ": ما يَتَطايَرُ من أسفله كالنَّوَى. و"المَنقَلُ": مُجتمَعُ الحافِر من باطنه. و"أَلْيَة الحافر": مُؤَخَّرُه. ويقال: حافِرٌ أَرَحُّ(٦): مُنبَطِحُ السَّنابِك. و"فِرْشاحٌ" أى مُنبَطِحٌ. و"وَأْبٌ": مُقَعَّبٌ. و"مَضْرُورٌ": مَضمُومٌ صغيرٌ. و"مُكْنَبٌ"(٧) أى كثيفٌ. والله أعلم بالصواب.

* * *

وأما ألوانُها وشِيَاتُها وغُرَرُها وحُجُولُها وعُصَمُها وما فيها من الدوائر — من أَلْوانِها: "البَهِيمُ والمُصْمَتُ": كلُّ ذى لَونٍ واحدٍ لا شِيَةَ فيه،

(١) فى الأصلين: «الناجزان» بالجيم والزاى المعجمتين، وهو تصحيف.

(٢) فى الأصلين: «الحصيلة» بالحاء المهملة، وهو تصحيف.

(٣) فى الأصلين: «والرقتان: جثمان فى باطنها لا ينبتان شعرا».

(٤) فى الأصلين: «الركوبة»، وهو تحريف.

(٥) فى الأصلين: «الرصفتان» بالصاد المهملة، وهو تصحيف.

(٦) فى الأصلين: «أزج» بالزاى والجيم المعجمتين، وهو تصحيف.

(٧) فى الأصلين: «مكشب» بالشين المعجمة، وهو تحريف.

إلا الأشهبَ فإنه لا يقال له بَهِيمٌ . يقال : فرسٌ مُصْمَتٌ ، والأنثى مُصمَتَةٌ ، والجمع مَصَامِتُ . وكذلك يُقال فى قوائم الفرس اذا لم يكن بهنّ تَحجيلٌ . قال أبو حاتم[(١)] :

* مُبهَمةٌ مُصْمَتةُ القوائمِ *

ومن ألوانِ الخيـل : "الدُّهْمُ"، وهى ستة : "أدهَمُ غَيهَبٌ" وهو أشدّها سوادا ، والأنثى غَيهبةٌ . والغيهَبُ : الظلمةُ ، والجمع غَياهِبُ . وكذلك "الغِرْبِيبُ" . و"الحالِكُ" . و"أدهَمُ دَجُوجِىٌّ" : صافِى السَّوَادِ ؛ وقيل : هو مأخوذ من الدُّجَّة ، وهى شِدَّة السوادِ والظّلمةِ . وَ"أدهَمُ يَحْومٌ وأدهم أَحَمُّ" وهو الذى أشرِبَتْ سَراتُه[(٢)] وحُجْزَتُه حُمرةً . قال أبو تمـام :

أو أدهم فيـه كُمْتةٌ أَمَمٌ[(٣)] * كأنه قِطعةٌ من الغَلَسِ

ثم "أَدهَمُ أَكْهَبُ" وهو إلى الكدرة .

ثم "أَحْوَى" والجمع حُوٌّ ؛ وهو أهونُ سوادا من الجَوْنِ ، ومَنَاخِرُه مُحمَرَّةٌ ، وشاكِلَتُه مُصفَرَّةٌ . والأحوَى أربعةُ ألوانٍ : "أحوَى أَحَمُّ" وهو المُشَاكِلُ للدُّهْمة والخضرة ؛ ولا فرق بينه وبين الأخضرِ الأحمرِ إلا باحمرار مناخِره واصفرار شاكِلته . و"أحوى أَصبَحُ" وهو الذى تَقِلُّ حمرةُ مناخره فتصيرُ الى السواد ويكون البياضُ فيه غالبا على أطراف المَنخَرين . و"أَحْوَى أَطحَلُ" وهو الذى تَعتَريه صُفرةٌ وخضرةٌ

(١) فى كتاب فضـل الخيـل للامام الحافظ شرف الدين الدمياطى المصرى المتوفى سـنة ٧٠٥ هـ (ص ٤٨ طبع حلب) : «أنشد أبو حاتم» .

(٢) سراة الفرس : أعلى متنه . وفى الأصلين «سبراته» ، وهو تحريف .

(٣) كذا فى ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٨٨٩ م (ص ١٥٠) وشرحه للعلامة التبريزى (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش ص ٣٢٨) . وفى الأصـلين : « أدهم فى كتة تزينه » ، وهو تحريف .

مُخالطتان لكُدرةٍ. و"أَحْوَى أَكْهَبُ" . والكَهَبُ: قِلَّةُ ماءِ اللَّونِ وكُدرتُه فى موضع المنخرين فى حمرتهما وفى سواد السَّراةِ فى بياض الأَقْراب .

ومنها الخُضر[1] — وهى أربعةٌ: "أخضرُ أحمُّ" وهو أدناها إلى الدُّهمة. قال الشاعر :

٥ * خَضراءُ حَمَّاءُ كلَونِ العَوْهَقِ *

وهو اللَّازَوَرْدُ . و "أخضرُ أدغَمُ" وهو الأخطبُ لونِ وجهه وأذنيـهِ ومَناخرِه. وهذا اللَّونُ يُسمَّى بالفارسيَّة "دِيزَجاً"[2]. و"أخضرُ أطحَلُ" وهو الذى تعلو خُضرتَه صُفرةٌ . و"أخضرُ أورَقُ" وهو الذى كلون الرَّماد .

ومنها الكُمَيْتُ — والجمع كُمْتٌ، والذكر والأنثى فيه كُميتٌ، وهى تسعةٌ . (٥٠)

١٠ قالوا: وكُميتٌ من الأسماء المصغَّرة المرخَّمة التى لا تكبيرَ لها، من أكمتَ بمنزلة حُميدٍ من أحمدَ، غير أن أكمتَ لم يُستعمَل. والكميتُ بين الأحوَى والأصدأ، وهو أقربُ من الشُّقْر والوِرَادِ الى السواد وأشـدّ منها حمرةً . والفرقُ ما بين الكُميت والأشقَر بالعُرف والذَّنَب، فإن كانا أحمَرَيْنِ فهو أشقرُ، و إن كانا أسودين فهو كُميتٌ، والوَرْدُ بينهما . والكُميتُ أحبُّ الألوانِ الى العَـرَب . ومن ألوانه : "كُميتٌ أحمُّ"

١٥ وهو الذى يُشاكل الأحْوَى، غيرَ أنه تَفصِلُ بينهما حُمرةُ أَقرَابِهِ ومَرَاقِّه ومُرَيْطَائِه . والمُرَيْطَاءُ: الجلدةُ التى بين العانَةِ والسُّرَّةِ . والأقرابُ: من الشاكلة التى هى الخاصرةُ

(١) فى الأصلين: «ومنها الخضرة» . وقد حذفنا التاء ليتسق كلام المؤلف؛ فقد ذكر سائر الألوان بصيغة الوصف .

(٢) جاء فى كتاب قطر السـيل فى أمر الخيل للبلقينى (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٤ فنون حربية) : «ويقال : إنّ الحجاج قال لصاحب دوابه : أسرج الأدغم . فخرج الرجل لا يدرى ما قال له ، فسأل يزيد بن الحكم (لعله يعنى يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ومستشاره) . فقال : أفي دوابه ديزج؟ قال : نعم فيها ديزج . قال : أسرجه له» .

الى مَرَاقِّ البطن، واحدها : قُرْبٌ وقُرُبٌ . قال الأصمعىّ : أشـدّ الخيـل جُلودًا وحوافرَ الكُمْتُ الحُمُّ . و"كُمِيتٌ أصْحَمُ"[1] وهو الأسودُ الذى يضرب الى الصُّفرة . و"كُمِيتٌ أطحَمُ" والطُّحْمَةُ : سَوادٌ فى مُقدّم الأنف . و"كُمِيتٌ مُدَمًّى" وهو الشديد الحمـرةِ وكلّما انحدر الى مَرَاقِّ البطن يزدادُ صفاءً . و"كميتٌ أحمرُ" وهو أشدُّ حمرةً من المدَمّى، وهو أحسنُ الكُمْتِ . و"كُمِيتٌ مُذْهَبٌ" وهو الذى تعلو حمرتَه صُفرةٌ . و"كُمِيتٌ مُحلِفٌ" وهو أدنى الكُمت الى الشُّقرة وظاهِرُ شَعر ذنبِهِ وعُرفِه كلون جسدِه وباطنُه أسودُ، والأنثى مُحلِفَةٌ . وأنشدوا[2] :

كُمَيتٌ غيرُ مُحْلِفَةٍ[3] ولكن * كَلَوْنِ الصِّرفِ[4] عُلَّ به الأَديمُ

قال أبو خَيرَةَ : المُحلِفُ بين الأصهب والأحمر، وهو من الإبل الأصحَرُ . و"كُمِيتٌ أكلَفُ" وهو الذى لم تَصفُ حُمرتُه ويُرَى فى أطرافِ شَعره سوادٌ . و"كُمِيتٌ أصدَأُ" وهو الذى فيه صُدْأَةٌ أى كُدرةٌ بصُفرةٍ قليلة، شُبِّهَتْ بلونِ صدأ الحديد .

ومنها الوِرَادُ — وهى جمع وَرْدٍ وهى ثلاثةٌ — والوَرْدُ هو الذى تَعْلُوه حمرةٌ الى الشُّقرة الخَلُوقِيَّـةِ[5] وجِلدُه وأُصولُ شَعْرِهِ سُودٌ . وقيل : الوُرْدَة : حمرةٌ تضرِبُ

(١) فى الأصلين : « أضخم » بالمعجمتين، وهو تصحيف .

(٢) قائل هـذا البيت هو ابن كلحبة اليربوعى واسمه هبيرة بن عبد مناف وكلحبة أمه، كما فى لسان العرب مادة « حلف » .

(٣) قال صاحب اللسان فى تفسير كلمة محلفة : « يعنى أنها خالصـة اللون لا يحلف عليها أنها ليست كذلك » .

(٤) الصرف (بالكسر) : صبغ أحمر يصبغ به شرك النعال . يعنى أنها خالصة الكمتة كلون الصرف .

(٥) الخلوقية (بالخاء المعجمة) : نسبة الى الخلوق، وهو ضرب من الطيب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب .

الى الصُّفرة . وتحقيقه أنه بين الكُميتِ الأحمرِ و بين الأشقرِ — منها : "وَرْدٌ خالصٌ" و "وَرْدٌ مُصامِص" وهو الخالص أيضا ، والأنثى مُصامِصَةٌ . و "وَرْدٌ أَغْبَسُ"(١) تَدعوه العجمُ "السَّمَنْدَ" وهو الذى لَونُه كلون الرّماد .

ومنها الشُّقْر — وهى تسعةٌ — والأشقَرُ : أَشدُّ حُمرةً من الوَرْدِ — يقال : "أشقَرُ أَدْبَسُ" وهوالذى لونُه بين السوادِ والحمرةِ . و"أشقرُ خَلُوقِىّ" . و"أشقرُ أَصْبَحُ" وهوقريبٌ من الأصهَب . والصُّهبَةُ : الشُّقرةُ فى شَعْرِ الرأس . و"أشقَرُ سِلَّغْدٌ" وهو الذى خَلَصَتْ شُقْرتُه ، والأنثى سِلَّغْدَةٌ ، والجمع سِلَّغْدَاتٌ . قال شاعرٌ :

أَشْقَرُ سِلَّغْدٌ وأَحْوى أدعَجُ * أَصَكُّ أَظْمَى(٢) وحِيَفْسٌ(٣) أَفلجُ(٤)

و "أشقَرُ قَرِفٌ" والأنثى قَرِفَةٌ ، والجمع قُروفٌ وقِرَافٌ وأقرافٌ وهو كالسِّلَّغْد . و"أشقَرُ مُدَمًّى" وهو الشديدُ الحمرة . و "أشقَرُ أَقْهَبُ" . والقُهبة : غُبرةٌ إلى سوادٍ . وقال ابن الأعرابىّ : الأَقْهَبُ : الذى فيه حُمرةٌ فيها غُبرةٌ . و "أشقَرُ أمغَرُ" ، وهو الذى تعلو شُقْرتَه مُغْرةٌ ، أى كدرةٌ . و "أشقَرُ أفضَحُ" : بيّن الفُضْحَة ، وهى البياض ليس بالشديد .

ومنها الصُّفْرُ — وهى أربعةٌ : "أصفَرُ فاقِعٌ" . و "أصفَرُ أعفَرُ" وهو بياضٌ تعلوه حمرةٌ . و "أصفَرُ ناصِعٌ" . و "أصفَرُ ذَهَبِىٌّ" وهو الذى يَضرِبُ إلى البياض ، وهو السُّوسَنِىُّ(٥) .

(١) فى الأصلين : «أغبش» بالغين والشين المعجمتين ، وهو تصحيف .

(٢) كذا فى كتاب فضل الخيل للدمياطى . والأظمى : الذى ليس به رهل (استرخاء اللحم من السمن) . وفى الأصلين : «أطمى» بالطاء المهملة ، وهو تصحيف .

(٣) كذا فى كتاب فضل الخيل للدمياطى ومعاجم اللغة . والحيفس : القصير الغليظ . وفى الأصلين : «وحفيش» بالشين المعجمة وتقديم الفاء على الياء ، وهو تحريف . (٤) الفلج : تباعد ما بين الساقين .

(٥) كذا فى كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الأندلسى (ص ٢٢ طبع باريز سنة ١٩٢٢م) والسوسنى : نسبة الى السوسن ، وهو نبات طيب الرائحة ، وأجناسه كثيرة وأطيبه الأبيض . وفى الأصلين : « السوسى » بدون النون ، وهو تحريف .

ومنها الشُّهْبُ — وهى خمسـةٌ . والأشهَبُ : كلُّ فرس تكونُ شَعْرتُه على لونين ثم تفترق شعراتُه[(١)] فلا تجمع واحدا من اللّونين شعراتٌ تَخلُصُ بلون كقَدرِ[(٢)] النُّكتة فما فوقها . وقيـل : الأشهَبُ الأبيضُ الشَّعْرَةِ ليس بالبياض الصَّافِي القِرطَاسِيّ وجلدُه أسـودُ يقال له " أشهبُ أبيضُ " . والشُّهبةُ فى الألوان : البياضُ الذى يَغلب على السَّوَاد . ويقال للأشهب أيضا : أَضحَى ، والأنثى ضحياء . وأسماء ألوانه : "أشهبُ ناصِعٌ" . و"أشهبُ أحمُّ"[(٣)] وهو أسودُ تَنفُذُه شَعَراتٌ بيضٌ . و" أشهبُ زُرْزُورِىّ" وهو الذى آعتدل فيه السواد والبياض . و"أشهبُ مُفَلَّسٌ" وهو الذى خالط بياضَه سوادٌ أو حُمرة . و"أشهبُ سامِرِىّ" وهو الذى شُهْبته بسواد أَوْرَق .

ومنها الجَحْونُ[(٤)] — وهو آختلاط بياض بحُمْرة الأشقر أو الكُمَيت .

ومنها الصِّنَابِىّ — وهو دُهْمة فيها شُهْبة ، أو كُمْتة فيها شُهْبة أقلّ من بياض الأشهب . نُسِبَ الى الصِّنَاب وهو الخَرْدَل بالزبيب .

ومنها الأغبرُ — وهو أشقرُ شَمِلَت شُقرتَه شُهبةٌ .

ومنها الأبرشُ — وهو الذى فيه لُمَع[(٥)] بياض كالرُّقَط[(٦)] ، وقيل : هو الذى يكون فى شَعْره نُكَتٌ صِغارٌ تُخالفُ سائرَ لَوْنه ، وإنما يكون ذلك فى الدُّهْم والشُّقْر خاصّةً ، وربما أصابها ذلك من شدّة العطش . فإذا عَظُمَت النُّكَت فهو "مُدَنَّرٌ" . واذا كان فى جسده بقعٌ متفرّقةٌ مخالفةٌ للونه فهو "مُلَمَّعٌ" و"أَبقَعُ" و"أشيمُ" . وقيل : الأَشيَمُ : أن تكون

(١) كذا فى كتاب رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد . وفى الأصلين : « تفرق شعرته » .
(٢) كذا فى كتاب فضل الخيل للدمياطى وقطر السيل للبلقينى . وفى الأصلين : « كمدد » ، وهو تحريف .
(٣) كذا فى ب . وفى أ : « أحمر » بزيادة الراء المهملة .
(٤) فى الأصلين : « الجلجون » ، وهو تحريف .
(٥) كذا فى اللسان والمخصص . وفى الأصلين : «لدع» .
(٦) الرقط : جمع أرقط ، والرقطة : سواد يشوبه نقط بياض أو بياض يشوبه نقط سواد .

فيه شامةٌ بيضاءُ، وقيل : قد تكون الشّامةُ غيرَ بيْضاء . واذا كان فى الشامة آستطالةٌ فهو "مُوَلَّعٌ" . وقال آبن بنين[(١)] : إذا كان فى الدابّة عدّةُ ألوان من غير بَلَقٍ فذلك التوليعُ، يقال : بِرْذَوْنٌ مُوَلَّعٌ . واذا كانت الشامة فى مُؤَخّره أو شِقّه الأيمن كُرِهَت .

ومنها العِرْسىّ — وهو الذى يشبه لَوْنَ آبنِ عِرْس .

ومنها الأنمرُ — وهو الذى يكون فيه بقعةٌ بيضاءُ وبقعةٌ أخرى من أىّ لَوْن كان .

ومنها الأبلقُ — وهو ما يكون نصفُ لَوْنِه أو ما قارب النصفَ أبيضَ، والنصفُ الآخر أسودَ أو أحمرَ .

ومنها الأغشَى (بالغين المعجمة) — وهو ما آبيضّ رأسُه دون جسده مثل الأرخَم[(٢)] .

ومنها الأبيضُ — وهو الذى آبيضّ شعرُه بياضا مثلَ بياض الأوضاح أشدّ ما يكون من البياض وأصفاه لا يخالطه شىءٌ من الألوان فيقال، فيه : أبيض قرطاسىّ . وربما كان أزرقَ العين أو أسودَ[(٣)] أو أكحلَ . ويدعى بما فى عينيه من زُرْقة وسَوَاد وكَحَلٍ، ولا يكون أكحلَ حتى تسودَّ أشفارُ عينيه وجفونُه .

قال الشيخ رحمه الله تعالى فى كتابه "[فضل] الخيل" : «وألوانُ الخيل أدهمُ، وأخضرُ، وأحْوَى، وكُمَيت، وأشقرُ، وأصفرُ، وأشهبُ، وأبرشُ، ومُلَمَّع، ومُوَلَّع،

(١) هو سليمان بن بنين بن خلف النحوى المصرى المتوفى سنة ٦١٤ هـ . له عدّة مؤلفات ذكرها السيوطى فى كتابه بغية الوعاة : منها كتاب آلات الجهاد وأدوات الصافنات الجياد الذى نقل عنه الحافظ الدمياطى فى كتابه فضل الخيل . (٢) أورد صاحب اللسان للأغشى معنيين أولهما : الذى غشيت غرته وجهه واسعت وثانيهما ما ذكره المؤلف . (٣) كذا فى كتاب رشحات المداد . وقد ورد فى الأصلين وكتاب فضل الخيل هكذا « ... لا يخالطه شىء من الألوان وربما كان أزرق العين أو أسود أو أكحل فيقال فيه أبيض قرطاسى . ويدعى ... الخ » . (٤) المراد به الامام الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطى المصرى المتوفى سنة ٧٠٥ هـ مؤلف كتاب فضل الخيل . وقد طبع بمدينة حلب سنة ١٣٤٩ هـ . وما ساقه عنه المؤلف هنا يقع فى ص ٤٧ من الكتاب المذكور .

وأشيمُ . هـذا قول أبى عُبَيدة . وقال الأَبِيوَرْدِىّ فى رسالته : الدُّهْمَةُ، ثم الحُوَّةُ، ثم الصُّدْأَةُ، ثم الخُضْرةُ، ثم الكُمْتَةُ، ثم الوُرْدةُ، ثم الشُّقْرةُ، ثم الصُّفْرةُ، ثم العُفْرةُ، ثم الشُّهْبة» . هذا ما وقفنا عليه من ألوانها . والله أعلم .

* * *

وأما الشِّيَة وجمعها شـيَات — فقالوا : كلّ لَوْن يُخالفُ مُعظَمَ لَوْنِ الفَرَس فهو "شِيَةٌ" . فإذا لم يكن فيه شِية فهو "أصمّ" و"بَهِيمٌ" من أىّ الألوان كان، والأنثى أيضا بَهِيم . وكذلك فرس "مُصْمَتٌ" بمنزلة البَهِيم من أىّ لون كان، والأنثى مُصْمَتة، والجمع مَصامِتُ . وقد تقدّم ذكر ذلك . فلنذكر الشِّيَات .

من الشِّية — : الغُرَّةُ، والقُرْحةُ، والرُّثْمةُ، والتَّحجِيلُ، والسَّعَفُ، والنَّبَطُ، والصَّبَغ، والشَّعَلُ، واللَّمَظُ، واليعسوبُ، والتعميمُ، والبَلَق .

فالغُرَّةُ — : البياضُ فى الوجه؛ وهى أنواع : لَطِيمٌ، وشادخةٌ، وسائلةٌ، وشِمراخ، ومُتَقَطِّعة[1]، وشَهْباء .

و"اللَّطِيمُ": الذى يُصيب البياضُ عينيه أو إحداهما أو خدّيه أو أحدهما، والأنثى أيضا لَطِيم . فإذا فَشَت فى الوجه ولم تُصب العينَ فهى "شادِخةٌ". فإذا اعتدلت على قَصَبة الأنف وإن عَرُضت فى الجَبْهة فهى "سائلةٌ". واذا دقّت وسالت فى الجبهة وعلى قَصَبة الأنف ولم تَبْلُغ المجفلةَ فهى "شِمْراخٌ". وكلّ بياض فى جبهة[2] [الفرس] فَشا أو قلّ ينحدر حتى يبلُغَ المَرْسِن[3] ثم ينقطع فهى غُرّة "مُتَقطعةٌ". واذا كان البياضُ فى مَنخَرَيه ثم ارتفع مُصعِدًا حتى يبلُغَ بين عَيْنيه ما لم يَبلُغ جَبْهته فهى أيضا غرّة متقطعة .

(١) كذا فى لسان العرب والقاموس (مادة قطع) . وفى الأصل : «منقطعة» بالنون، وهو تصحيف .

(٢) التكملة من كتاب فضل الخيل وكتاب قطر السيل .

(٣) المرسن (بفتح الميم وكسر السين) : موضع الرسن من أنف الفرس .

وإذا كان فى الغرّة شعر يخالف البياضَ فهى غُرَّة "شهباء". وقال ٱبن قتيبة: «إن سالت غُرّته ودقّت فلم تُجاوِز العينين فهى "العُصفُور". وإن أَخَذَتْ جميعَ وجهه غير أنه يَنظُر فى سوادٍ فهى "المبرِقعَةُ". فإن فَشَتْ حتى تأخذ العينين فتبيضّ أشفارُهما فهو "مُغْرَبٌ". فإن كانت إحدى عَيْنيه زرقاء والأخرى كحلاء فهو "أَخْيَفُ"».

٥ وأما القُرْحةُ — وهى دُون الغُرّة، فقال ٱبن قتيبة: الغُرّة: ما فوق الدِّرهم، والقُرْحة: قدرُ الدرهم فما دونه. قالوا: والقَرَح: كلّ بياض كان فى جَبْهة الفرس ثم ٱنقطع قبلَ أن يبلُغ المَرْسِن. وتُنْسَب القُرْحة الى خِلْقتها فى الاستدارة والتثليث والتربيع والاستطالة والقِلّة؛ فإذا قَلّتْ قيل: "خَفِيَة". وإذا كان فى القُرْحة شَعر يخالفُ البياضَ فهى "قُرحةٌ شهباء".

١٠ وأما الرُّثْمة (بالثاء المثلثة) — فكلُّ بياض أصاب الجَحْفَلة العُلْيا قَلّ أو كَثُر فهو "رَثَمٌ" إلى أن يبلُغ المَرْسِن. وتُنسَب الرُّثْمة إذا هى فَشَت الى الشُّدُوخ. وإذا لم تُجاوز المَنْخَرين نُسِبت الى الاعتدال. وإذا قَلّت وٱشتدّ بياضُها نُسِبت الى الاستنارة. وإذا لم يظهر بياضُها للناظر حتى يدنو نُسبت الى الخُفْية.

واللُّمْظَة — كلّ بياض أصابَ الجَحْفلة السُّفْلى قَلّ أو كثر فهو "لَمَظٌ"

١٥ والفرس ألمظ.

واليعسوب — : كلّ بياض يكون على قَصَبة الأنف قَلّ أو كَثُر ما لم يبلُغ العينين. وإذا شاب الناصيةَ بياضٌ فهو "أسعَفُ". فإذا خَلَص البياضُ فى الناصية فهو "أصبغ". فإذا ٱنحدر البياضُ الى مَنبِت الناصية فهو "المعَمَّم". وإذا كان فى عرْض الذَّنَب بياضٌ فهو "أشعل". والعرب تكره شُعْلة الذَّنَب. وإذا كان

٢٠ فى قَمَعة الذَّنَب، وهى طَرَفه، بياض فهو "أصبَغُ". وإذا ٱرتفع البياضُ حتى يبلُغ البطنَ

فهو "أَنبط" . وإذا ظهر البياضُ و زاد فهو "أَبلَقُ" . وقال آبن قُتَيبة[1] وآبن الأجدابى[2] : إذا كان الفرس أبيضَ الظَّهْر فهو "أَرْحَلُ"، وإن كان أبيضَ البطن فهو "أَنْبَط" . وقال غيرهما : "الأدرَع" من الخيل والشاء : الذى آسودّ رأسُه ولونُ سائره أبيضُ ، والأنثى "دَرْعَاء" ، من الدُّرْعة[3] . و "الأَخصَفُ" من الخيـل والغنم : الأبيضُ الخاصرتينِ الذى آرتفع البَلَقُ من بطنه الى جنبيه ، ولَوَنُه كلون الرّماد فيـه سوادٌ وبياضٌ . وقيل : كلُّ ذى لَوَنينِ مجتمعين فهو خصيفٌ وأخصفُ ؛ وأكثر ذلك السوادُ والبياضُ . ويقال : فرسٌ "آزرُ" إذا كان أبيضَ العَجُز .

٥

* * *

ومن الشِّية التحجيلُ — وهو البياضُ فى قوائم الفرس الأربع، أو فى ثلاث منها، أو فى رجليـه قلّ أو كثُر إذا استدار حتى يُطيفَ بها . وأصـل الحُجْلة من الحِجْلِ (بفتح الحاء وكسرها) وهو القيدُ والخلخالُ . قال آبنُ الأجدابىّ : فإن كانت قوائمُه الأربعُ بيضاءَ لا يبلغُ البياضُ منهـا الركبتين[4] فهو "مُحَجَّلٌ" . وطَليقُ اليـدِ وطلق اليدِ (بفتح الطاء وإسكان اللام وبضمهما أيضا) : إذا كانت على لون البدن ولم يكن بها بياضٌ . فإذا أصاب البياضُ القوائمَ كلها فهو "مُحَجَّلُ أربعٍ" . وإن

١٠

(١) راجع كتابه أدب الكاتب (ص ٤٩ طبع مطبعة الوطن بمصر سنة ١٣٠٠ هـ) .

(٢) هو أبو اسحاق ابراهيم بن اسماعيل بن عبد الله المعروف بابن الأجدابى الطرابلسى . (راجع ما كتبه على ألوان الخيل فى كتابه كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ ص ٢٦ طبع مطبعة وادى النيل) .

(٣) الدرعة : اسم من الدرع (بالتحريك) وهو سواد مقـدم الفرس أو الشاة وبياض سائرها ؛ وقيـل : هو سواد الجسد وبياض الرأس . وإنمـا سميت بذلك تشبيها بالليالى الدرع وهى ليلة ست عشرة وسبع عشرة وثمـان عشرة اسودت أوائلها وابيض سائرها . أو هى الليالى التى يطلع القمر فيها عنـد وجه الصبح وسائرها أسود مظلم .

(٤) كذا فى كفاية المتحفظ لابن الأجدابى وكتاب فضل الخيـل للدمياطى . وفى الأصلين : «الوركين» وهو تحريف .

١٥

٢٠

كان فى ثلاثِ قوائمَ فهو "محجَّلُ ثلاثٍ" مُطلَقُ يدٍ أو رجلٍ يُمنى أو يُسرى . وكلّ قائمةٍ بها بياضٌ فهى "مُمسَكةٌ". وكلّ قائمة ليس بها وضَحٌ فهى "مُطلَقةٌ". فإن كان البياض فى الرجلين جميعا فهو "مُحجَّلُ الرجلين". وإن كان فى إحداهما فهو "الأَرْجَلُ"؛ وقد ذكرناه .

٥ ولا يكون التَّحجيلُ واقعا بيدٍ ما لم يكن معها رجلٌ أو رِجلانِ ، ولا بيدَين مالم يكن معهما رِجلٌ أو رجلان أو وَضَحٌ بالوجه . فإن كان التحجيلُ فى يد ورجل من شِقٍّ واحدٍ فهو مُمسَكُ الأيامن مُطلَقُ الأياسر، أو مُمسَكُ الأياسرِ مُطلَقُ الأيامنِ ، ويقال : الأيمنَينِ والأيسَرينِ . وإن كان من خلافٍ قلّ أو كثر فهو "مَشكُولٌ"؛ وهو مكروه فى الحديث(١) . وقد تقدّم ذكره .

١٠ ✦ ✦ ✦

ومنها العَصَمُ — وهو إذا كان البياض بإحدى يديه قلّ أو كثُر فهو "أَعْصمُ" اليمنى أو اليسرى . وآسم العُصمةِ مأخوذٌ من المِعْصَم وهو مَوضِعُ السِّوار من الساعد . فإن كان البياضُ فى يده اليسرى قيل : "مَنكُوسٌ"؛ وهو مكروه . وإن كان البياضُ بيديه جميعا فهو أعصمُ اليدينِ، إلا أن يكون بوجهه وَضَحٌ فهو "مُحجَّلٌ"

١٥ ذهب عنه العَصَمُ . فإن كان بوجهه وضَحٌ وبإحدى يديه بياضٌ فهو أعصَمُ، لا يُوقِعُ عليه وَضَحُ الوجه آسمَ التّحجيل اذا كان البياضُ بيد واحدة .

ووَضَحُ القوائمِ : الخاتَمُ ، والإنعالُ ، والتَّخديمُ ، والصَّبَغُ ، والتَّجبيبُ ، والمُسَرْوَلُ، والأَخرَجُ، والتَّسريحُ. فأقلُّ وَضَحِ القوائمِ "الخاتَمُ" وهو شَعَراتٌ بيضٌ. فإذا جاوز ذلك حتى يكون البياضُ واضحا فهو "إنعالٌ" ما دام فى مؤخّر رُسْغِه

٢٠ مما يلى الحافرَ. فإذا جاوز الأرساغَ فهو "تَخْديمٌ". وإذا آبيضّتِ الثُّنّةُ(٢) كلُّها ولم يتّصِلْ

(١) لعله يريد ما رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة : كان النبى صلى الله عليه وسلم يكره الشكال فى الخيل . (٢) الثنة : الشعرات التى فى مؤخر رسغ الدابة .

بياضُها ببياض التحجيل فهو " أصبَغُ "[1]. وإذا ارتفعَ البياضُ فى القوائم الى الجُبَبِ فما فوق ذلك ما لم يَبلُغ الركبتينِ والعُرقوبَينِ فهو " التّجبيبُ ". فإذا بلغ التجبيبُ الركبتين والعرقوبين فهو "مُسَرْوَلٌ" حتى يَخرُجَ من الذراعينِ والسّاقينِ . فإذا خرج من الذراعين والساقين فهو " أخرَجُ " . وكلّ بياضٍ فى التحجيل مُستطيلٍ فهو "تَسريحٌ" . والله أعلم .

٥

* * *

وأما ما فى الفرس من الدوائر — فمنها : "دَائِرَةُ المحيا" وهى اللّاصقة بأسفلِ الناصية . و"دائرةُ اللَّطْمَةِ" فى وسَط الجبهة، فإن كانت دائرتان فى الجبهة قيل : فَرَسٌ نَطيحٌ[2] . و "دائرةُ اللّاهِزِ": التى تكون فى اللَّهْزِمَةِ . و "دائرةُ العَمُودِ" وتُسَمَّى المعوَّذَ أيضا وهى فى موضع القلادة . و "دائرةُ السَّمامة" فى وسَط العنق . و "دائرتا البَنِيقَتَين[3]" وهما اللّتان فى نَحْرِ الفرس . و "دائرةُ النَّاحِر[4]": التى فى الجِران إلى أسفل من ذلك . و "دائرةُ القالِع": التى تكون تحت اللِّبْد . و "دائرةُ الهَقْعَة" فى الشِّقَّتَين[5] ، وتُدعى النافذةَ أيضا ، وقيل : هى التى تكون فى عُرْض زَوْرِه . و "دائرةُ النّافِذة" وهى دائرة الحِزام . و "دائرتا الصَّقْرين" فى الجَبَبَيْن والقُصْرَيَيْن —

١٠

١٥

(١) الجبة : مغرز الوظيف فى الحافر .

(٢) فى الأصلين : « بطيح » بالباء الموحدة، وهو تصحيف .

(٣) كذا فى ا وقد جاء فى المخصص (ج ٦ ص ١٤٧) : « والدائرتان اللتان فى نحر الفرس يقال لهما : البنيقان، الواحدة بنيقة بالهاء، والتثنية بغير هاء » وفى ن واللسان (مادة بنق) : « البنيقتين » باثبات هاء التأنيث فى التثنية .

٢٠

(٤) الناحران (بالحاء المهملة) : عرقان فى صدر الفرس . والجران : باطن العنق، وقيل : مقدم العنق من مذبح البعير الى منحره .

(٥) كذا فى لسان العرب (مادة نفذ) وكتاب فضل الخيل للدمياطى . وفى الأصلين : « الشفتين » بالفاء والتاء، وهو تحريف .

والجَبَهَةُ : رأس الوَرِك . والقصْرَى : الضِّلَع التى تلى الشاكلة — و"دائرةُ الخَرَب" تكون تحت الصَّقْرين . و"دائرةُ الناخِس" تكون تحت الجَاعِرتين الى الفَائلَين . وهما عِرْقان فى الفَخِذ . والجاعِرتان : حَرْفا الوَرِكين المُشرفان على الفخِذَيْن ، وهما مَضْرِبُ الفرس بذنبه على فخذيه ، وهما موضع الرُّقْتين من آسْتِ الحمار . (٥٣)

٥ وكانت العرب تَستحِبّ من هذه الدوائر : المُعَوَّذ ، والسَّمامة ، والهَقْعة . وقيل : آستحبّوا الهقعةَ ثم كرِهوها . يقال : إن المهقوع لا يَسْبِق أبدا . وكانوا يكرهون النَّطيحَ ، واللَّاهِزَ ، والقالِعَ ، وقيل : الناخس أيضا . وما سوى هذه الدوائر فغير مكروه .

* * *

١٠ وقال آبن قُتَيْبة[1] : «والدوائر ثمانىَ عشرةَ دائرةً . تُكره منها "الهقعة" وهى التى تكون فى عُرْض زوره ، ويقال : إنّ أبق الخيل المهقوع . و"دائرة القَالِع" هى التى تكون تحت اللَّبد . و"دائرة النّاخِس" هى التى تكون تحت الجَاعِرتين الى الفائلين . و"دائرة اللَّطَاة" فى وسط الجَبهة ، وليست تُكره إذا كانت واحدةً ؛ فإذا كانت هناك دائرتان قالوا : فرس نَطِيحٌ ؛ وذلك مكروه . وما سوى هذه الدوائر غير مكروهة» .

١٥ ومن الدوائر التى ذكرتها الهند فى البركة والشؤم — قالوا : إذا كان فى موضع حَكَمته دائرةٌ أو على جَحْفَلته العُليا دائرةٌ كان مما يُرْتَبط . وما كان منها ليس فى وجهه ولا فى صدره دارةٌ[2] فمكروه آرتباطُه . وما كان فى صدره دارةٌ الى التَّربيع ، أو كان فى رأسه دَارَتَان ، أو على خاصِرته أو على مَذْبَحه دارة ، أو فى عنقه أو على خَطْمه أو على أُذُنه شَعَرٌ نابت كزهرة النبات ، كان ذلك مما يُرتبط وتُقضى عليه ٢٠ الحوائجُ ، ويكون صاحبُه مظفَّرا فى الحروب ولا يَرى فى أموره إلّا خيرا .

(١) راجع كتابه أدب الكاتب (ص ٥١ طبع مصر) . (٢) الدارة بمعنى الدائرة .

وذكروا أيضا : أنه لا ينبغى أن يُرتبَط من الدَّوابّ ما كان منها فى مُقَدَّم يده دارةٌ، وما كان أسفل من عينيــه دارة، أو فى أصــل أذنيه من الجانبين دَارَتان، أو على مَأْبِضِه[1] دارة، أو على مَحْجِره[2] دارة ، أو فى خدّه أو فى جَحْفَلته السُّــفلى أو على ملتقى لَحْيَيه دارة، أو فى بطنه شعر منتشرٌ، أو على سُرّته دارة، أو كانت أسنانه طالعةً على جحفلته، أو له سنّان ناتئان بمنزلة أنياب الخنزير، أو فى لسانه خُطَط سُودٌ لا خُضر، وما كان منها أدْبَس[3] أو أبيض أو أصفر أو أشهب تعلوه حمرةٌ وداخل جَحَافِله ولَهَواته[4] وخارج لَحْيَيه سواد، وما كان منها أدهم وداخل جحافله أبيض، أو فى لهواته وداخل شِدْقه نُقَطٌ سُــود وجَحْفلتُه خارجُها مُنَقّط كحَبّ السمسم، أو على مِنْسَجِه دارَتان، أو على خُصْيَيْه وبَرٌّ أسودُ مخالِفٌ للونه، أو كان فى جَبْهته شَعَراتٌ [مُخَالِفةٌ للونه][5]، أو ما كان منها حين يُنْتَج يُرى خُصْياه ظاهرين[6] — فهذه العلامات زعم حنة[7] الهندىّ أنه لا ينبغى لأحد أن يرتبط دابّةً بها شىءٌ منها . وزَعم أنه يُستحبّ أن يُرتبَط ما كان فى صــدره أربعُ نُقَطٍ فى أربعــة مواضع ، أو شَــعَر ملتفّ عَرْضــا وطولا ، أو شعر ملتوٍ .

(١) المأبض : باطن الركبة .

(٢) محجر العين (بتقديم الحاء على الجيم مثال مجلس) : ما يبدو من النقاب .

(٣) الدبسة : حمرة مشربة سوادا ، وتكون فى الشاء والخيل .

(٤) اللهوات جمع اللهاة : لحمة حمراء فى الحنك معلقة على عكدة اللسان .

(٥) التكملة عن كتاب رشحات المداد .

(٦) فى الأصلين : «ظاهرة» .

(٧) كذا فى كتاب فضل الخيل للدمياطى (ص ٦٩) ورشحات المداد (ص ١٠٣) . وفى الأصلين : «جنة» بالجيم المعجمة .

وأما ما قيل فى طبائعها، وعاداتها، والمحمودِ من صفاتها، ومحاسنها، والعلاماتِ الدالّة على جَوْدة الفرس ونجابته :

قالت العرب : والخيل نوعان : عتيقٌ وهو المسمى فرسا، وهجين وهو المسمّى برذونا . والفرق بينهما أنّ عَظْم البرذون أغلظُ من عظم الفرس ؛ وعظم الفرس أصلب وأثقلُ من عظم البرذون؛ والبرذون أحملُ من الفرس، والفرس أسرعُ من البرذون ؛ والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذون بمنزلة الشاة .

وفى طبع الفرس: الزَّهْو، والخُيَلاء، والعُجْب، والسرورُ بنفسه، والمحبّةُ لصاحبه. وفى طبعه : أنه لا يشرب الماءَ إلا كَدِرًا؛ حتى إنه يرد الماءَ وهو صافٍ فيضرب بيده فيه حتى يُكدِّره ويعكّره . وربما ورد الماءَ الصافى وهو عطشان فيرى خيالَه فيه فيتحاماه ويأباه، وذلك لفزعه من الخيال الذى يراه فى الماء. وهو يُوصف بحدّة البصر . وفى طبعه : أنه متى وطِئ أثر الذئب خَدِرت قوائمُه حتى لا يكاد يتحرّك، ويخرج الدُّخانُ من جلده؛ وإذا وطِئته الأُنثى وهى حامل أزْلَقَتْ[1] . والأُنثى من الخيل تحمِل سنةً كاملةً ؛ هذا هو المعروف من عادتها . وأخبرنى بعضُ من أثق الى قوله أنه كان يملك حِجْرًا[2] تحمل ثلاثةَ عشر شهرا . وسمعتُ أن عند التَّتَر[3] جنسا من خيلها تحمل الفرسُ منها تسعةَ أشهر وتَضَعُ . وقال لى الناقلُ : إنّ هذا أمر مشهور عندهم معروف مألوف لا ينكرونه ولا يتعجبون .

(١) أزلقت الفرس : أسقطت حملها لغير تمامه .

(٢) الحجر (بالكسر) : الأنثى من الخيل .

(٣) كذا فى شرح القاموس ، وهم جيل بأقاصى بلاد المشرق يتاخمون الترك . وفى الأصلين : « التتار » .

فصل — والعلامات الجامعة لنجابة الفرس الدالّة على جَوْدته، ماذكره أيّوب[1] ابن القِرِّيّة وقد سأله الحجّاجُ عن صـفة الجَوَاد من الخيل فقال : القصيرُ الثلاث، الطويلُ الثلاث، الرَّحْب الثلاث، الصافى الثلاث . فقـال : صِفْهنّ ؛ فقال : أما الثّلاث الطِّوال فالأُذُن[2] والعُنُقُ والذِّراع . وأما الثلاث القصـار فالظَّهْر والسّاق والعَسيب . وأما الثلاث الرَّحبة فالجَبْهة والمنخر والجوف . وأما الثلاث الصافيـة فالأديمُ والعَيْنان والحافر . وقد جمع بعضُ الشعراء ذلك فى بيت واحد فقال :

وقد أغتدى قبل ضوء الصّباح * ووِرْد القَطَا فى الغَطَاط[3] الحِثَاث

بصافى الثّلاث عريضِ الثلاث * قصيرِ الثلاث طويلِ الثـلاث

وهذه الحكاية أيضا نُقِلت عن صَعْصَعةَ بن صُوحَان وقـد سأله معاوية : أىّ الخيل أفضل؟ فقال : الطويلُ الثلاث، العريضُ الثلاث، القصيرُ الثلاث، الصافى الثلاث . قال معاوية : فسِّرْ لنا ؛ قال : أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحِزَام . وأما القصير الثلاث فالصُّلب والعسيب والقضيب . وأما العريض الثلاث فالجبهة والمَنْخَر والوَرِك . وأما الصافى الثلاث فالأديم والعين والحافر .

وقال عمر بن الخطّاب رضى الله عنـه لعمرو بن مَعْـدِ يكرِب : كيف معرفتُك بعِرَاب الخيل ؟ قال : معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده ؛ فأمَر بأفراسٍ فعُرِضَتْ

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس، والقرّية أمه . وهو من بنى هلال . وكان لسنا خطيبا . قتله الحجاج لاتهامه بالميل الى ابن الأشعث . (راجع ترجمته فى تاريخ ابن خلكان ج ١ ص ١١٥ طبع بولاق) .

(٢) كذا فى كتاب نخبة عقد الأجياد فى الصافنات الجياد (ص ١١١ طبع بيروت) . وفى الأصلين : « فالأنف » .

(٣) الغطاط : ضرب من القطا، الواحدة غطاطة .

عليه ، فقال : قدِّموا اليها المـاءَ فى التِّراس[(١)] ، فمن شرب ولم يَكْتِفْ[(٢)] فهو من العراب ، وما ثَنَى سُنْبُكَه[(٣)] فليس منها .

وقيل : أهدى عمرو بن العاص لمعاوية بن أبى سـفيان ثلاثين فرسًا من خيل مصر ، فعُرِضَتْ عليه وعنده عُتْبة بن سفيان بن يزيد الحارثى ، فقال له معاوية : كيف ترى هذه يا أبا سفيان؟ فإن عمرًا قد أطنب فى وصفها ، فقال : أراها يا أمير المؤمنين كما وَصَف ، و إنها لساميةُ العيون ، لاحقةُ البطون ، مُصْغِيةُ الآذان ، قَبَّاء[(٤)] الأسنان ، ضِخَامُ الرُّكَبات ، مُشْرِفات الحَجَبات ، رِحابُ المناخر ، صِلابُ الحوافر ، وضعُها تحليل[(٥)] ، و رفعُها تقايـل ، فهى إن طُلِبَتْ سَبَقَتْ ، وان طَلَبت لَحِقَتْ . فقـال معاوية : اِصْرِفها الى دارك ، فإن بنا عنها غنًى ، و بفتيانك اليها حاجة .

وقال أبو عبيدة : يُستدلّ على عِتق الفرس برقّة جحافله وأرْنَبته ، وسَعَةِ مَنْخَرَيْه ، وعُرْيِ نواهقه ، ودِقّة حَقْويه وما ظهر من أعالى أُذُنيه ، و رقّة سالفتيه وأديمه ، ولِين شعره ؛ وأبينُ من ذلك كلِّه لِينُ شَكِير[(٦)] ناصيته وعُرْفه .

---

(١) التراس : جمع ترس وهو صفحة مستديرة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه .

(٢) كتفت الخيل : ارتفعت فروع أكتافها .

(٣) قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد (ج ١ ص ٥٨ طبع بولاق) بعد سياقه هذا الخبر : «قلت : إنما المحفوظ أن عمر شك فى العناق والهجن فدعا سلمان بن ربيعة الباهلى بطست من ماء فوضع بالأرض ثم قدم اليها الخيل فرسا فرسا ، فما ثنى سنبكه وشرب هجنه» اهـ .

(٤) فى الأصلين : «أقباء» وهو تحريف . يقال : قبت نابه اذا صوّتت وقعقعت .

(٥) يريد : أن مواصلتها بين خطواتها كمواصلة الحالف يمينه بالتحلة لا تراخى بينهما . والتحلة قول الحالف : ان شاء الله عقب اليمين . (عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى — الكتاب العاشر) .

(٦) كذا فى كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هـذيل الأندلسى (ص ١٧) . وقد ورد فى الأصلين محرّفا . والشكير : ما أطاف بالناصية من قصير الشعر ، وهو مما يستدل به على العتق .

وكانوا يقولون : إذا اشتدّ نَفَسُه، ورَحُب مُتَنَفَّسُه ، وطال عنقه ، وآشتدّ حِقْوه، وآنهرتَ شِدْقُه، وعظُمَتْ فخِذاه، وآنشنجَتْ[1] أنساؤه، وعَظُمت فصوصُه، وصَلُبت حوافره ووحِقَتْ[2]، لحِق بجياد الخيل . والله أعلم .

ومما يستحبّ من أوصافها فى الخَلْق — الأُذُن المؤلَّلة، والناصية المعتدلة التى ليست بسَفْواء ولا غَمّاء، والجبهةُ الواسعة، والعين الطامحة السامية، والخدّ الأسيل، ورُحْب المَنْخرين، وهَرَت الشِّدقين — قال الشاعر[3] :

هَرِيتٌ[4] قصيرُ عِذَارِ اللِّجام * أسيلٌ طويلُ عِذَارِ الرَّسَنْ

قوله[5] : "قصير عِذار اللجام": لم يُرِد به قِصَرَ خدّه، وإنما أراد طولَ شَقّ الفَم . ويدلُّ على ذلك قولُه فى البيت :

* أسيلٌ طويلُ عِذَارِ الرَّسَنْ *

(١) الشنج : تقلص الجلد والأصابع وغيرهما ، يقال : فرس شنج النسا : متقبضه . وهو مدح له . والنسا بالفتح : عرق من الورك الى الكعب .

(٢) كذا فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ١ ص ٥٨ طبع بولاق) . ووحقت (من باب ضرب وعلم وكرم) : صلبت . وورد فى الأصلين محرفا .

(٣) هو تميم بن أبىّ بن مقبل ، كما فى شرح القاموس (مادة قبل) ولسان العرب (مادة رسن) وهو أحد شعراء الجاهلية ، مخضرم عاش مائة وعشرين سنة .

(٤) الهريت : الواسع الشدقين الطويل شق الفم ، كما فى كتاب شرح أدب الكاتب لموهوب بن أحمد ابن محمد الجواليقى (ص ١٩٢ من النسخة الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤٢٦ أدب) . وقد جاء هذا البيت فى كتاب الخيل للأصمعىّ طبع فينا هكذا :

وأحوى قصير عذار اللجا * م وهو طويل عذار الرسن

(٥) هذا التفسير لابن قتيبة فى كتابه أدب الكاتب (ص ٤٢) طبع مطبعة وادى النيل . وقد نقله ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد (ج ١ ص ٥٨ طبع بولاق) .

يريد طولَ خَدّه — وقَوَدُ العنق (لينها حتى لا تكون جاسئةً[1]) ، ورِقّة الجَحْفلتَيْن ، وآرتفاع الكَتِفين والحارك والكاهل .

قالوا : ويستحبّ أن يشتدّ مُرَكّبُ عنقه فى كاهله لأنه يتساند إليه اذا أَحْضَر ، وعِرَضُ الصدر ، وضيق الزَّوْر ، وآرتفاع اللسان ، وأن يشتدّ حَقْوه لأنه مُعَلَّق وَرِكَيْه ورجليه فى صُلْبه ، وعِظَمُ جوفه وجنبيه ، وآنطواء كَشْحه ، وإشراف القَطَاة ، وقصر العَسِيب ، وطول الذنب ، وشَنَج النَّسا ، وآستواء الكَفَل حتى لا يكون أقرنَ ، وملاسَةُ الكَفَل ، وقصر الساقين ، وطول الفَخِذَيْن ، وتوتير الرِّجلين حتى لا يكون أفسطَ[2] ، وتأنيف العرقوبين[3] حتى لا يكون أقمَعَ ، وغِلَظ الرُّسْغ ، وأن تكون الحوافر صِلابًا سُودا أو خُضرا .

وحكى أن هارون الرشيد ركِب فى سنة خمس وثمانين ومائة الى المَيدان لشهود الحَلْبة ، قال الأصمعىّ : فدخلت الميدانَ لشهودها[4] ، فجاء فرسٌ أدهمُ لهارون الرشيد سابقا يقال له "الرّبد"[5] ، فسُرّ به الرشيد وآبتهج وقال : علىّ بالأصمعىّ ، فنُودِيتُ من كل جانب ، فأقبلتُ سريعا حتى مَثَلْتُ بين يديه ، فقال : يا أصمعىّ ، خذ بناصيةِ "الرّبد" ثم صِفْه من قَوْنَسِه الى سُنْبُكه ، فإنه يقال : إن فيه عشرين آسما من أسماء الطير ، فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، وأُنشدك شعرا جامعا لها من قول أبى حَزْرة[6] ، قال : فأنشدنا لله أبوك ! ، فأنشدته :

(١) كذا فى كتب اللغة . والجاسئة : الصلبة الخشنة . ووردت فى الأصلين محرفة .

(٢) سيذكر المؤلف « الأفسط » ويفسره فى العيوب التى تكون فى الخلقة .

(٣) تأنيف العرقوبين : تحديد طرفيهما . ويستحب فى الفرس أن يكون حديد طرف العرقوب . والقمع فى العرقوب : غلظ قمعته (رأسه) ، وهو عيب .

(٤) فى العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ١ ص ٦١ طبع بولاق) : « ... لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين ، والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون ولسليمان بن أبى جعفر المنصور ولعيسى ابن جعفر فجاء ... الخ » .

(٥) كذا فى الأصلين وحلية الفرسان لابن هذيل . وفى العقد الفريد : « الربيذ » . ولعل صوابه « الربذ » (وزان فرح) . بالذال المعجمة . والربذ من الخيل : السريع .

(٦) هى كنية جرير بن عطية الخطفى الشاعر المشهور .

وأقبَ كالسِّرحان تمّ له * ما بين هامته الى النَّسْر[1]

الهامَةُ : أعلى الرأس . والنَّسر : ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه . وهما من أسماء الطير .

رَحُبَتْ نَعامتُه ووُفِّرَ فَرْخُه * وتمكّن الصُّرَدَانِ فى النَّحر[2]

النعامة : جلدة الرأس التى تُغَطِّى الدِّماغَ . والفرخ : الدِّماغُ . والصُّرَدَان : عِرْقان فى أصل اللسان، ويقال : إنهما عرقان يكتنفان باطنَ اللسان. وفى الظهر أيضا صُرَد يكون فى موضع السَّرج من أثر الدَّبَر . والنعـامة والفرخ والصُّرَدان من أسماء الطير .

وأناف[3] بالعصفور فى سَعَفٍ * هـامٍ أشمّ موثّق الجَـذْر[4]

العصفور : أصلُ مَنْبِت شعر النـاصية ، وهو أيضا عظْم ناتئ فى كل جبين ، وهو أيضا من الغُزَر . والسَّعَف : يقال : فرس أسعف اذا سالت ناصيتُه . وهام أى سائل . والشَّمَمُ : ارتفاع قصبة الأنف . وموثق الجذر أى شديد . والجذر : الأصل من كل شىء .

وآزدان بالدِّيكين صَلْصَلُه * ونَبَتْ دَجَاجتُه عن الصَّدْر[5]

الديكان : واحدهما ديك وهو العظم الناتئ خلف الأذن ، وهو الذى يقال له الخُشّاء والخُشَشَاءُ . والصلصل : بياض فى طرَف النـاصية ، ويقال : هو أصل

(١) الأقب : الضامر . والسرحان : الذئب . وقد ذكر ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد هذه القصيدة وشرح الألفاظ الغريبة فى أبياتها عند ذكره «سوابق الخيل» (راجع ج ١ ص ٦١ — ٦٣ طبع بولاق).

(٢) رحب : اتسع . ووفر : تم وكمل .

(٣) أناف : أشرف . ويروى : «هاد أشم» ، يريد عنقا مرتفعا .

(٤) قال الأصمعىّ وغيره : هو بالفتح ، وقال أبو عمرو بن العلاء : هو بالكسر .

(٥) كذا فى العقد الفريد وحلية الفرسان . وفى الأصلين : «على» .

الناصية . والدَّجاجة : اللَّحمُ الذى على زَوْره بين يديه . والدِّيكُ والصَّلصلُ والدّجاجةُ من الطير .

والنَّاهِضَان أُمِرّ جَلْزُهما * فكأنما عُثِما على كَسْر

الناهضان : واحدهما ناهض ، وهو لحم المنكبين ، ويقال : هو اللحم الذى يلى العَضُدين من أعلاهما . والناهض : فرخ العُقَاب . وقوله : « أُمِرّ جَلْزهما » أى فُتل وأُحْكِم ، يقال : أمررتُ الحبل أى فتلتُه . والجَلْز : الشدّ . وقوله :

* فكأنما عُثِما على كسر *

أى كأنهما كُسِرا ثم جُبِرا . والعَثْم : الجبر على عُقْدة وعَوَج .

مُسْحَنْفِر الجنبين مُلتئم * ما بين شيمته الى الغُرّ

قوله : « مسحنفر الجنبين » أى منتفخهما . ملتئم أى معتدل . والشيمة[1] : من قولك : فرس أشيم : بيّن الشامَة . والغرّ[2] فى الطير الأغلب الذى يسمّى الزَّخمة . وهى من الفرس عَضَلةُ السّاق .

وصَفَتْ سُمَاناه وحافِرُه * وأديمُه ومنابتُ الشعر

السُّمَانَى : طائر وهو[3] موضع من الفرس ربما أراد به السَّمَامَة ، وهى دائرة تكون فى سالِفة الفرس . والسَّمامة[4] أيضا من الطير . وأديمُه : جِلدُه .

(١) عبارة ابن عبد ربه فى العقد الفريد : « وشيمته : منخره ، والشيمة أيضا من قولك فرس بين الشيمة وهى بياض فيه » .

(٢) عبارة العقد : «والغرّ فى الأغلب على الذى يسمى الزخمة من الفرس وهى عضلة الساق» . وكلتا العبارتين غير واضحة .

(٣) عبارة ابن عبد ربه فى كتاب العقد : «وهو موضع من الفرس لا أحفظه إلا أن يكون أراد السمامة وهى دائرة ... الخ» .

(٤) فى الأصلين : « السمانة » بالنون ، وهو تحريف .

وسما الغرابُ لموقِعَيْه معًا * فأُبِينَ بينهـما على قَـدْر

الغراب : رأس الوَرِك ، ويقـال للصَّلَوَيْن الغرابان ، وهما مُكْتَنِفَا عَجْم[1] الذنب ، ويقال : هما ملتقى أعلى الوَرِكين . والموقعان : ما فى أعالى الخاصرتَيْن . وقوله :

* فأُبِين بينهـما على قدر *

أى فُرِّق بينهما على آستواء وآعتدال .

وآكتنّ دون قَبِيحِه خُطّافُه * ونأت سَمَـامتُه على الصَّقر

قوله : واكتنّ أى آستتر . والقبيحُ : ملتقى الساقين ، ويقـال : إنه مُرَكّب الذراعين فى العَضُدَيْن . والخطّاف : هو حيث أدركتْ عَقِبُ[2] الفـارسِ اذا حرّك رجليه ؛ ويقال لهـذين الموضعين من الفرس المَرْكَلان . ونأت أى بَعُـدَت . والسَّمامةُ : دائرة تكون فى عنق الفرس . والصـقر[3] : دائرة فى الرأس . والخُطّاف والسّمامة والصقر من أسماء الطير .

وتقدّمت عنه القَطاةُ له * فنأتْ بموْقِعهـا عن الحُتْر

القَطاة : مَقْعَدُ الردف . والحُتْر : سوادٌ فى ظاهر أذنى الفرس . وهما من الطير . يقال : إن الحُتْر ذَكَر الحمام .

وسما على نِقْويه دون حِداته * خَرَبانِ بينهما مَدَى الشِّبْر

النِّقْوان : واحدهما نِقْو والجمـع أنْقاء ، وهو عظمٌ ذو مُخّ . وعَنَى هاهنـا عظامَ الوَرِكين ، لأن الخَرَب هو الذى تراه مثل المُدْهُن[4] فى ورِك الفرس . وهو من الطير ذكَر الحُبارى . والحِدَأةُ : سالفة الفرس . وهى من الطير .

(٥٦)

(١) العجم : أصل الذنب ، وهو العصعص ، لغة فى «العجب» بالباء الموحدة .

(٢) العقب : مؤخر القدم .

(٣) عبارة ابن عبد ربه فى كتاب العقد : «والصقر : أحسبها دائرة فى الرأس وما وقفت عليها» وقد جاء فى اللسان : أن الصقرين : دائرتان من الشعر عند مؤخر اللبد من ظهر الفرس .

(٤) كذا فى العقد الفريد . والمدهن : ما يجعل فيه الدهن . وفى الأصلين : «الدهن» بدون ميم .

يدع الرَّضِيمَ اذا جَرى فِلَقًا * بتَـوائم كمواسم سُمْـرِ

الرَّضيم : الحجـارة ، يَفْلِقها بتَوائم أى بحوافره . والمواسم : جمع مِيسَم الحديد؛ أى أنها كمواسم الحديد فى صلابتها . وقوله : سُمْر أى لون الحافر . والحافر الأسمر هو الصُّلْب .

٥ رُكِّبْن فى مَحْضِ الشَّوَى سَبِط * كَفْتِ الوثوب مُشَدَّدِ الأَسْر

الشوى هاهنا : القوائم ، يقال : فرس مَحْضُ الشَّوى إذا كانت قوائمه معصوبة . سبِط : سهل . كَفْت الوثوب أى مُجْتَمِعٌ . مشدّد الأَسْر أى الخَلْق .

قال الأصمعىّ : فأمر لى بعشرة آلاف درهم .

فهذه جُمَلٌ من أوصاف محاسنها . وسنذكر إن شاء الله تعالى ما وصفها به

١٠ الشعراء فى أشـعارها والفضلاءُ فى رسائلها ، على ما تقف على ذلك فى موضـعه . فلنذكر عيوب الخيل :

✦
✦ ✦

وأما عيوبها التى تكون فى خِلْقتها، وفى جَرْيهـا ، والتى تطرأ عليها وتَحدُث فيها — فهى مائة نذكرها :

١٥ فأما التى فى خِلْقتها — فهى أن يكون الفـرس "أخْذَى" وهو المُسترْخى أصول الأُذُنين . و"أَمْعَر"[1] وهو الذى ذهب شعر ناصيته . و"أسْـفَى" وهو الخفيف الناصية، وهو محمود فى البغال . و"أغَمّ" وهو الذى غَطّتْ ناصيتُه عينيه . و"أَسْعَفَ" وهو الذى فى ناصيته بياض . و"أحْوَلَ" وهو الذى أبيضّ

(١) فى الأصلين : «أمعز» بالزاى المعجمة ، وهو تصحيف .

مُؤْخرعينـه وغار السوادُ من قِبَل مآقِيه . و "أزْرَقَ" وهو الذى فى إحدى عينيْـه بياضٌ أو زُرْقة . و "أقنَى" وهـو الذى فى أنفـه آحديدَابٌ . و "مُغْـرَبًا" وهو الذى أشفارُ عينيه بِيضٌ مع زُرْقتها . و "أدَنّ"[1] وهو الذى آطمأنّ عُنُقه[2] من أصله . و "أهْنَعَ" وهو الذى آطمأنت عنقه من وسطها . و "أوْقَصَ" وهو الذى فى عنقه قِصَرٌ ويُبْسٌ مَعْطَف . و "أكْتَفَ" وهو الذى فى أعالى كتفيْه آنفراج . و "أزْوَرَ" وهو الذى تدخل إحدى فَهْدَتَىْ[3] صدره وتخرج الأخرى . و "أقْعَصَ" وهو المطمئن الصُّلْبِ من الصهوة المرتفـعُ القَطَاةِ . و "مُخْطَفًا" وهو الذى لَحِق ما خَلْف مَحْزِمه من بطنه . و "أهْضَمَ"[4] وهو المستقيم الضلوع الذى دخلت أذاليه . و "صَقِلًا" وهو الطويل الصُّقْلة[5] . و "أنْجَلَ"[6] وهو الذى خرجت خاصِرته ورقّ صِفَاقُه[7] . و "أفْرَقَ" وهو الذى قد أشرفت إحدى وِرِكَيْه على الأُخرى . و "أرْسَحَ"[8] وهو قليـل لحم الصَّلَا . و "أعْزَلَ" وهو المُلْتَوى عسيبِ الذَّنَب حتى يبرُزَ بعضُ باطنه . و "أكْشَفَ" وهو الذى آلتوى عسيبُ ذنبه . و "أصْبَغَ" وهو المُبَيَّض الذَّنَب . و "أشْـعَلَ" وهو الذى فى عُرْض ذنبه بياض . و "أشْرَجَ"[9] وهو الذى بَيْضة واحدة . و "أفْـجَ" وهو الذى تَباعَد كَعْباه . و "أبَدّ" وهو الذى تباعدت

(١) فى الأصلين : «أذن» بالذال المعجمة ، وهو تصحيف .

(٢) العنق يذكر ويؤنث .

(٣) كذا فى لسان العرب (مادّة زور) . وفى الأصلين : «احدى نهدى صدره» ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصلين : «أهظم» بالظاء المعجمة ، وهو تحريف .

(٥) الصقلة : الخاصرة .

(٦) فى الأصلين : «أنحل» بالنون والحاء المهملة ، وهو تصحيف .

(٧) الصفاق : جلد البطن .

(٨) فى الأصلين : « أرشح » بالشين المعجمة ، وهو تصحيف .

(٩) فى الأصلين : « أشرح » بالحاء المهملة ، وهو تصحيف .

يَداه . و "أَصَكّ" وهو الذى تَصِكُّ كَعْباه اذا مشى . و"أَحَلّ" وهو مُتَمَسِّح[1] النَّسا رِخْوُ الكَعْب . و "أَقْفَدَ" وهو المُنْتَصِبُ الرُّسْغ المُقْبل على الحافر ويكون فى الرِّجل خاصَّةً . و "أَصْدَفَ" وهو الذى تدانى ذِرَاعاه وتباعد حافِراه . و "مُوَجَّهًا" وهو الذى به صَدَفٌ يسير . و "أَفْسَطَ" وهو الذى رجلاه منتصبتان غير منحنيتين . و "أَمْدَشَ" وهو المُصْطَكّ بواطن الرُّسغين . و "أَحْنَفَ"[2] وهو المُلتوى الحافرين يُقْبِل[3] كلٌّ منهما على صاحبه . و "مُتَلَقِّفًا" وهو الذى يَخْبِط بيده . و "أَرْجَزَ"[4] وهو المضطرب الرِّجل والكَفَل فإذا قام اضطربت فَخِذُه . و "شَخْتًا" وهو القليل اللحم الحَميش[5] العظام . و "رَطِلًا" وهو الضعيف الخفيف . و "مَكْبُونًا" وهو القصير الدَّوارج[6] الفريب من الأرض الرحيب الجوف . و "عَشًّا" وهو الضاحى العظام لقلّة لحمه . و "سَغِلًا" وهو الصغير الجِرْم . قال الواسانى[7] رحمه الله :

ليس بأَسْفَى ولا أَحَقّ[8] ولا * أهضَمَ طاوى الحَشا ولا سَغِل

و "جَأْبًا" وهو القصير الغليظ . و "مِلْوَحًا" وهو السريعُ العَطَش . و "صَلُودًا" وهو البطىء العَرَق . و "ضَاوِيًا" وهو الذى أضواه أبواه . و "مُقْرِفًا" وهو الذى أُمّه

(١) متمسح النسا : ضعيف النسا .

(٢) فى الأصلين : «أخيف» بالخاء المعجمة والياء المثناة ، وهو تصحيف .

(٣) فى الأصلين : « يفتل » بالفاء والتاء . وهو تصحيف .

(٤) كذا فى كتاب رشحات المداد . وفى الأصلين : « أ ز » ، وهو تحريف .

(٥) الحميش العظام : دقيقها .

(٦) دوارج الدابة : قوائمها ، الواحدة دارجة .

(٧) هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن دانه بن محمد المعروف بالواسانى ، أعجوبة الزمان ونادرته ، وفريد عصره وباقعته ؛ وهو أحد الفضلاء المجيدين فى الهجاء ؛ وكان فى زمانه ، كابن الرومى فى أوانه . (راجع ترجمته فى يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٢٦١ طبع بيروت) .

(٨) الأحق : الذى يضع حافر رجله موضع يده .

عتيقة وأبوه غير عتيق . و"هَجِينًا"[1] وهو الذى أبوه عتيق وأمه بِرْذَوْنَة . و"مُحْمِقًا" وهو الذى لا يُنْتَج منه [إلا أحمق] . و"كُوسِيًّا"[2] وهو الذى اذا جرى نَكَس كالحمار. و"جَاسِئًا"[3] وهو الذى تُرى معاقِدُه وفَقارُ ظهره وعنقُه جاسِئةً[4] غيرَ لَيِّنةٍ . والله أعلم .

* * *

وأما العيوب التى فى جريها — فمنها : "الطَّمُوحُ" وهو السامى ببصره صُعُدًا. "والمُنَكِّسُ" وهو الذى يُطاطئ رأسَه إذا جرى . و"المُعْتَرِمُ" وهو الذى يَجْمَحُ أحيانا . و"الجَمُوح": الصُّلْبُ الرأس . و"الغَرْبُ" : المدّاد المَرامى. و"الشَّمُوس": الذى يمنع السرجَ والمسَّ . و"الحَرُون" : الذى اذا أُدِرّ جَرْيُه قام لا عن كلال[5] . و"البَالِحُ"[6] إذا قطع جَرْيه ضَعْفًا. و"الضَّغِنُ" هو الذى يَتَلكأ[7] [فى] الحُضر ويَقْصُر عن الجِرَان . و"الحَفّاش"[8] هو الذى يَشِبّ[9] حُضْرًا ثم يرجع القَهْقَرى . و"الرَّوَّاغُ"[10] هو الذى يَحِيد فى حُضْره يمينا وشمالا . و"الفَيُوش" هو الذى يُظَنّ به الجرىُ وليس عنده شىء منه . و"الحَيُوص" وهو الذى يَعْدِل يمينا وشمالا فى استقامة[11] حُضْره .

(١) التكملة عن رشحات المداد (ص ٢٥) .
(٢) فى الأصلين : « كوشيا » بالشين المعجمة ، وهو تصحيف .
(٣) فى الأصلين : « حاشئا » بالحاء المهملة والشين المعجمة ، وهو تصحيف .
(٤) فى الأصلين : « جاشية » بالشين المعجمة ، وهو تصحيف .
(٥) يريد : إذا طلب منه الجرى وقف عصيانا لا إعياء . وفى الأصلين : « إذا درّ جريه قام إلا عن كلال » .
(٦) فى الأصلين : « النابح » ، وهو تحريف .
(٧) زيادة يقتضيها السياق .
(٨) كذا فى الأصل ورشحات المداد. والذى فى كتب اللغة أن الحفاش هو الذى يعقب جريا بعد جرى ولم يزدد إلا جودة .
(٩) فى الأصلين : « يستتب » .
(١٠) فى الأصلين : « الرواع » بالعين المهملة ، وهو تصحيف.
(١١) عبارة رشحات المداد : « فى حضره » .

و"المُشْتَقّ" هو الذى يدَع طريقَه و يعدِل ثم يمضى على عُدوله لا يَروغُ . و"الشَّبُوبُ": الذى يقوم على رجليه و يرفع يديه . و"العاجِر" و"المُعاجِر": الذى يَعجِرُ برجليْه كقِصاص الحمار . و "العَدُومُ" و "العَضوضُ" : الذى يَعَضُّ ما سَايَره . و "الشَّادِخُ" : يَعدِل عن طريقه ولا يُبالى ما رَكِب . و "الجَرُور": البَطِىء . و "المُنْعَثِلُ": الذى يفرِّق بين قوائمه فإذا رفَعها فكأنما ينزِعها من وَحَل يَخْفِق برأسه ولا تتبعه رِجْلاه . و "المُجَرْبِذُ"(١): الذى يُقارِب الخطوَ يقرِّب سنابكه من الأرض ولا يرفعها رفعًا شديدا . و "المُساعِر"(٢): الذى يُطيح قوائمَه جميعًا متفرِّقة ولا ضَبْر(٣) له . و "المترادّ": الذى ينقص حُضْره من ابتداء جريه . و "الفاتِرُ" إذا فتر(٤) فى حُضْره ولم تساعده قوائمُه على ما تطالبه به نفسُه . و "المُواكِلُ" : الذى لا يسير إلا بسير غيره . "والخَرُوطُ" : الذى يَخْرِط رَسَنَه عن رأسه . و "الرَّمُوحُ": الذى يَرْمَح(٥) بإحدى رجليه . و "الضَّروحُ": الذى يَرْمَح بكلتيهما . قال : وهذه الزيادة على الأربعة والعشرين إنما هى من سوء العادة وفساد الرياضة .

* * *

وأما العيوبُ التى تَطْرَأ عليها وتحدُث فيها — فمنها : "الانتِشارُ" وهو انتفاخ العَصَب . و "الشَّظَى" : تحرّك(٦) العظم اللاصق بالرُّكبة . و "الفُتُوق":

(١) فى الأصلين : « المجربد » بالدال المهملة ، وهو تصحيف .

(٢) كذا فى لسان العرب مادة «سعر» و يقال فيه : « مسعر » (كمنبر) . وفى ا «والشاعر» . وفى ب : «والمشاعر» بالشين المعجمة ، وكلاهما تحريف .

(٣) كذا فى لسان العرب . والضبر (بالضاد المعجمة) : الوثب مع جمع القوائم . وفى الأصلين : «صبر» بالصاد المهملة ، وهو تصحيف .

(٤) هذه عبارة رشحات المداد . وفى الأصلين : « والفاتر اذا عجز عن نفسه وفتر ... الخ » .

(٥) يرمح : يضرب .

(٦) فى الأصلين : « تحريك » .

انفتاق من العصب على الأَرْضفة[1] . و" الدَّخَسُ " : ورم فى [أُطْرة[2]] الحافر . و" الزوائد " : أطراف عصب تَفَرّق عند العُجَاية[3] [وتنقطع عندها وتَلْصَق بها][3] . و" العَرَنُ " : جُسوءٌ[4] فى رُسْغ الرِّجل خاصّة لشُقاقٍ أو مشقة . [" والشُّقَاق " : يصيبه[5] فى أرساغه] وربما ارتفع الى أوظفته ، [وهو تشقق يصيبها[5]] ، وتسمى الحلامة[6] . « والجَرَدُ[7] » ، ما حدث فى عُرْض عُرْقوبَيْه ظاهرًا وباطنًا من تزيّد وانتفاخ عَصَبٍ ويكون مع المِفْصل طولا كالمَوْزة . و" المَلَحُ[8] " : انفتاقٌ من العَصَب أسفلَ العُرقوب لمادّة تَنصَبّ إليه كالبَلّوطة[9] . و" القَمَع " هو عِظَم قَمَعة العُرقوب . و" المَشَشُ " : كلّ ما شخص فى الوظيف وله حَجْمٌ وليست له صلابةُ العظم . و" الارْتِهاشُ " : أن يَصُكّ بعُرض حافره عُرْضَ عُجايته من اليَدِ الأخرى . و" الرَّهْصةُ[10] " : ما يَصير فى الحافر . و" الوَجَا " : ما يُصيب الحافرَ من

(١) رضف الركبة ورضافها : ما كان تحت الداغصة (عظم يموج فوق رأس الركبة) .

(٢) التكملة عن المخصص وأدب الكاتب . وأطرة الحافر : ما أحاط به من اللحم .

(٣) فى الأصلين : « الفحانة » . والتصويب والتكملة عن المخصص وأدب الكاتب . والعجاية : عصبة باطن الوظيف من الفرس .

(٤) فى الأصلين : « حشو » ، وهو تحريف .

(٥) التكملة عن المخصص وأدب الكاتب .

(٦) كذا وردت هذه الجملة فى ا . وفى ب : « وتسمى الخلافة » . ولم نجد فى المظان ما يوضح هذه العبارة أو يبرر وجودها فى هذا الموضع .

(٧) ويقال فيه «الجرذ» بالذال المعجمة أيضا . وفى الأصلين : «الجراد» بزيادة ألف بعد الراء، وهو تحريف .

(٨) فى اللسان : «والملح (بالتحريك) : ورم فى عرقوب الفرس دون الجرد ، فان اشتدّ فهو الجرد» .

(٩) البلوط : ثمر شجر يؤكل ويدبغ بقشره .

(١٠) فى العبارة قصور . وفى اللسان « ... والرهصة أن يدوى باطن حافر الدابة من حجر تطؤه مثل الوقرة » . وفى الأصلين : «الرهضة» بالمعجمة ، وهو تصحيف .

الخشونة . و"الرَّقَق" : ضَعْفٌ ورِقّة فى الحافر . و"النَّمْلَة" : شقّ فى الحافر من الأَشْعَر[1] إلى طرف السُّنْبُك . و"السَّرَطان" : داءٌ يأخذ فى الرُّسغ فيُيَبِّس عروقَه حتى يقلب حافرَه . و"العَزَل" : أن يعزِل ذنبَه فى شقٍّ عادةً[2] . و"الخِقاق" : صوت من ظَبية[3] الأنثى . و"البَجَر" : أن تكون الرُّهابة[4] غيرَ مُلتئمةٍ فيعظم ما والاها من جلد السُّرّة .

وحيث ذكرنا العيوبَ فلنَذْكُر الخيلَ النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

ذكر أسماء خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم

أوّلُ فرس ملكه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فرسٌ ابتاعه بالمدينة من رجل من بنى فَزَارة بعشر أَوَاقٍ[5]، وكان اسمُه عند الأعرابىّ "الضَّرِس" فسمّاه النبىّ صلى الله عليه وسلم "السَّكْب" . فكان أوّل ما غزا عليه أُحُدًا، ليس مع المسلمين فرسٌ غيرُه وفرس

(١) أشعر الفرس : ما بين حافره الى منتهى شعر أرساغه .

(٢) لا خلقة .

(٣) الظبية : الحياء من المرأة وغيرها . وعبارة أبى عبيدة فى كتاب الخيل : «الخقاق صوت يكون فى ظبية الأنثى من الخيل من رخاوة خلقتها وارتفاع ملتقاها . فاذا تحرّكت لعنق أو غيره احتشت رحمها الريح فصوّتت فذلك الخقاق ، و يقال للفرس من ذلك الخاق» .

(٤) الرهابة (بضم الراء وفتحها) : غضروف كاللسان معلق فى أسفل الصدر مشرف على البطن .

(٥) الأواق بالتخفيف ومثله الأواقىّ بالتشديد : جمع أوقية بالتشديد ، وهى أربعون درهما . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة» . وهى مائتا درهم ، والدرهم = ٣٫٠٨٩٨ من الجرامات كما قدّره رجال المجمع العلمى المصرى الذى انعقد فى عهد محمد على باشا للبحث فى ذلك . (راجع رسالة مخطوطة للامام تقى الدين أحمد الشهير بابن المقريزى فى المكاييل والأوزان الشرعية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٥ رياضة و رسالة فى المقاييس والمكاييل العملية بالديار المصرية لمؤلفها محمود باشا الفلكى طبع مطبعة الجوائب بالأستانة) . و يقدّر فى كتب الحساب المتداولة الآن ب ٣٫١٢ من الجرامات .

لأبى بُردة بن نِيَار يقال له مُلاوح . وكان السَّكْبُ كُمَيْتًا أغَرَّ مُحجَّلا مُطْلَق اليمنى، وقيل : إنه أدهم . رواه الطَّبَرانى (١) فى المعجم الكبير .

وعن عُمَارة بن خُزَيْمة الأنصارىّ أن عمّه حدّثه — وهو من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم — : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ٱبتاع فرسًا من أعرابىّ (٢)، فٱستتبعه النبىُّ صلى الله عليه وسلم ليُقْبِضَه ثمنَ فرسه، فأسرع النبىّ صلى الله عليه وسلم المَشْىَ وأبطأ الأعرابىُّ؛ فطفِق رجالٌ يعترِضون الأعرابىَّ فيُساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ٱبتاعه، حتى زاد بعضُهم الأعرابىَّ فى السَّوْم على ثمن الفرس الذى ٱبتاعه به النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فنادَى الأعرابىُّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقال: إن كنتَ مبتاعًا هذا الفرسَ فٱبتعه و إلا بعتُه؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "بَلَى قد ٱبتعتُه"؛ فطفِق الناسُ يَلُوذون بالنبىّ صلى الله عليه وسلم و بالأعرابىّ وهما يَتَرَاجَعان (٣)، وطفِق الأعرابىُّ يقول : هَلُمَّ شهيدًا يشهد أنى قد بايعتُك . فمن جاء من الناس قال للأعرابىّ : ويلك ! إن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يكن ليقول إلا حقًّا ! حتى جاء خُزَيْمةُ بن ثابت فٱستمع لمُرَاجَعة النبىّ صلى الله عليه وسلم ومراجعةِ الأعرابىّ؛ فطفِق الأعرابىُّ يقول : هَلُمَّ شهيدًا يشهد أنى قد بايعتُك؛ فقال خُزَيمةُ بن ثابت : أنا أشهد أنك قد بايعتَه . فأقبل النبىّ صلى الله عليه وسلم على خزيمة فقال : "بِمَ تشهدُ" ؟ فقال : بتصديقك يا رسول الله؛ فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "شهادةُ

(١) هو الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى الحافظ المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كان ثقة صدوقا واسع الحفظ بصيرا بالعلل . ومعجمه الكبير رتبه فى الصحابة على الحروف وهو مشتمل على نحو خمسمائة وعشرين ألف حديث . والطبرانى نسبة الى طبرية مدينة بالأردن . وفى الأصلين : «الطبرى» ، وهو خطأ .

(٢) هو سواء بن قيس المحاربى ، كما فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير الجزرى فى ترجمته له ولخزيمة بن ثابت .

(٣) يتراجعان : يتحاوران .

خزيمة بن ثابت بشهادةِ رجلين". وفى لفظٍ : فقال خزيمة بن ثابت : أنا أشهد أنه قد باعك الفرسَ يا رسول الله ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وهل حَضَرْتنا ياخزيمة"؟ فقال: [لا ؛ فقال:][1] "فكيف شهدت بذلك"؛ فقال خزيمة: بأبى أنت وأمّى! يارسول الله ، أُصَدِّقك على أخبار السماء وما يكون فى غَدٍ ولا أصدّقك فى ٱبتياعك هـذا الفرس ! . فقـال النبيّ صلّى الله عليـه وسلم : "إنك لذو الشهادتَيْن يا خزيمـة" .

وقد ٱختُلف فى ٱسم هذا الفرس، فقال محمد بن يحيى بن سَهْل بن أبى حَثْمَةَ : هو "المُرْتَجِز"[2]؛ وعن ٱبن عباس رضى الله عنهـما أنه المُرْتَجِـزُ . قال ٱبنُ الأثير : وكان أبيضَ . وقال ٱبنُ قتيبة فى المعارف : المرتجز ، وفى أخرى : "الطَّرْف"[3] ، وفى أخرى : "النّجيب" .

ومنها "البحر"، وهو الذى سبَق الخيلَ لمّـا سابَق به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فسمّاه البحرَ فى ذلك اليوم . وكان النبيّ صلى الله عليـه وسلم قد ٱشتراه من تَجْرٍ قدِموا من اليمن، فسبَق عليه مرّات . قال ٱبنُ الأثير : وكان كُمَيْتاً ، وقيـل : كان أدهمَ .

ومنها "سَبْحة"، ذكرها ٱبن بنين فقال : وكانت فرسًا شقراءَ ابتاعها النبيّ صلى الله عليه وسلم من أعرابىّ من جُهينة بعشر من الإبل، وسابَق عليها يوم خميس

(١) التكملة عن كتاب فضل الخيل للدمياطى ورشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد للبخشى .

(٢) سمى المرتجز لحسن صهيله .

(٣) هـذا يوافق ما فى كتاب فضل الخيل الذى ينقل عنـه المؤلف . ويلاحظ أن المؤلف لم يذكر «الطرف» ضمن جملة خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم التى ذكرها فى آخر كلامه عليها .

ومدّ الحبلَ بيده ثم خلّى عنها وسُبِحَ عليها؛ فأقبلت الشقراءُ حتى أخذ صاحبُها العلمَ وهى تُنَبِّرُ[1] فى وجوه الخيل؛ فسمِّيت سبحةَ . وسبحة من قولهم : فرس سابح إذا كان حسنَ مَدّ اليدين فى الجرى . وسَبْحُ الفرس : جَرْيُه .

ومنها "ذو اللِّمة"، ذكره ٱبنُ حبيب فى أفراس النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ومنها "ذو العُقَّال"، قال بعضُ العلماء: كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم فرس يقال له ذو العُقَّال. وكان له صلّى الله عليه وسلم فرس يقال له "اللَّحِيف"[2] وقيل : "اللَّخيف" بالخاء، وقيل فيه : "النَّحيف" . أهداه له فَرْوةُ[3] بن عمرو من أرض البَلْقاء، وقيل : أهداه له ٱبن أبى البَرَاء[4]، وكان صلى الله عليه وسلم يركبه فى مَذَاهبه . وسمّى اللَّحيفَ لطول ذَنَبه .

و روى ٱبنُ مَنْدَه من حديث عبد المهيمن بن عباس بن سهل عن أبيه عن جدّه قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أفراس يسميهنّ : "اللِّزاز" و"اللَّحيف" و"الظَّرِب" . فأمّا لِزاز فأهداه له المُقَوْقِس . وأما اللَّحيف فأهداه له رَبيعة بن أبى البَرَاء، فأثابه عليه فرائضَ[5] من نَعَم بنى كلب . وأما الظَّرِبُ فأهداه له فَرْوة بن عمرو بن النافرة الجُذَامىّ . الظَّرِبُ واحد الظِّراب وهى الرَّوابى[6] [الصغار]. سمّى به لكبره وسِمَنه، وقيل : لقوّته وصلابة حافره .

(١) تنبر فى وجوه الخيل : تسبقها .

(٢) فى كتاب فضل الخيل : « ... وقيل فيه أيضا : اللحيف بضم اللام وفتح الحاء مصغرا ... الخ » .

(٣) كان فروة هـذا عاملا للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام . فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم ضربوا عنقه وصلبوه .

(٤) أبو البراء : كنية ملاعب الأسنة عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب .

(٥) جمع فريضة وهى ما فرض فى السائمة من الصدقة .

(٦) فى الأصلين : « الرواسى » بالسين المهملة . والتصويب والتكملة عن كتاب فضل الخيل ومعاجم اللغة .

وأهدى تميمٌ الدَّارِىّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرسًا يقال له "الوَرْدُ"، فأعطاه عمرَ، فحَمَل عليه عمرُ رضى الله عنه فى سبيل الله .

وذكر علىّ بن محمد بن حُنَين[1] بن عَبْدُوس الكوفىّ فى أسماء خيل النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : وكانت له أربعة أفراس : أحدُها يقال له "السَّكْبُ" و"المُرْتَجِزُ" و"السِّجْل"[2] و"البحرُ" . وقال ابن الأثير : وكان له أفراس : "المرتجز" و"ذو العُقَال" و"السَّكْب" و"اللَّحِيف" و"اللِّزَاز" و"الظَّرِب" و"سَبْحَة" و"البحرُ" و"الشَّحَاء"[2] (بالشين المعجمة والحاء المهملة) .

وحكى ابنُ بَنِين عن ابن خالويْه قال : كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم من الخيل : "سَبْحة" و"اللَّحيف" و"لزاز" و"الظَّرِب" و"السَّكْب" و"ذو اللِّمَّة" و"السِّرْحان" و"المُرْتَجِل" و"الأَدْهَم" و"المُرْتَجز" . وذكر فى موضع آخر: و"مُلاوِح" و"الورد" و"اليَعْسوب" .

وذكر قاسم بن ثابت فى كتاب الدلائل : "اليعسوب" و"اليَعْبوب" فرسين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر ابن سعد فى وِفادات العرب عن محمد بن عمر

(١) كذا فى شرح الزرقانى على المواهب (ج ٣ ص ٤٦٣ طبع بولاق) وورد فيه أنه : «اسم بلفظ الوادى المذكور فى القرآن» . يريد قوله تعالى : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) . وفى الأصلين : «الحسن» وهو تحريف .

(٢) قال الإمام الدمياطى فى كتابه فضل الخيل : «... والسجل بكسر السين المهملة وسكون الجيم ، كذلك ألفيته مضبوطا . فإن كان محفوظا غير مصحف فلعله مأخوذ من قولك : سجلت الماء فانسجل ، أى صببته فانصب ، وأسجلت الحوض : ملأته ... إلى أن قال : والشحا بالشين المعجمة والحاء المهملة من قولهم : فرس بعيد الشحوة ، أى بعيد الخطوة ... ... وأخاف أن يكون السجل مصحفا من الشحا أو العكس . والله أعلم» . وفى اللسان (مادة شحا) : «... كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرس يقال لها الشحاء ، هكذا روى بالمد ، وفسر بالواسع الخطوة ...» .

قال : حدّثنى أُسامة بن زيد عن زيد بن طَلْحة التَّيْمىّ قال: قدِم خمسة عشر رجلا من الزُّهَاويين (وهم حىّ من مَذْحِج) على رســول الله صلى الله عليه وسلم، [فنزلوا[1] دارَ رَمْلَةَ بنت الحارث ؛ فأتاهم رسولُ الله صلى الله عليــه وسلم] فتحدّث عنــدهم طويلا ؛ فأهدَوْا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدايا ، منها فرس يقال له "المِرْواح" ؛ فأمر به فشُوِّر[2] بين يديه فأعجبه ؛ فأسلموا وتعلّموا القرآنَ والفرائضَ ؛ وأجازهم كما يُجيز الوفد : أرفعَهم[3] ثنتىْ عشرةَ أوقيّة ونَشًّا[3] وأخفضَهم[4] خمسَ أواق .

فقد ظهر من مجموع هذه الروايات أن خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تسعةَ عشرَ فرسا ، وهى : "السَّكْب" و "المرتجز" و "البحر" و "سَبْحة" و "ذو اللِّمَّة" و "ذو العُقّال" و "اللّحيف" — وقيل فيه بالخاء المعجمة ، وقيل : "النحيف" بالنون — و "اللّزاز" و "الظَّرِب" و "الوَرْد" و "السِّجْل" و "الشَّحَاء" و "السِّرْحان" و "المُرْتجِل" و "الأدهم" و "مُلاوِح" و "اليَعْسوب" و "اليَعْبوب" و "المِرْواح" .

وقد يكون الأدهم هو السكب أو البحر ، فتكون ثمانية عشر فرسا . والله عز وجل أعلم .

(١) الزيادة عن طبقات ابن سعد (ج ١ قسم ٢ ص ٧٦ طبع أوروبا) .

(٢) شار الدابة وشوّرها : عرضها أو أجراها ليعرف قوتها . وفى الأصلين : « فتور » بالتاء المثلثة ، وهو تحريف .

(٣) كذا وردت هــذه العبارة فى طبقات ابن ســعد . ووردت فى الأصلين هكذا « ... لرفيعهم ثنتى عشرة أوقية ونشا ولبعضهم ... الخ» .

(٤) النش : نصف أوقية والأوقية أربعون درهما ، سئلت عائشــة رضى الله عنها : كم كان صداق النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان صداقه اثنتى عشرة ونشا ، قالت : والنش نصف أوقية . وفى النش أقوال أخرى . (راجع لسان العرب مادة «نشش») .

ذكر أسماء كرام الخيل المشهورة عند العرب

من أقدم خيل العرب "زادُ الرَّاكِب"[1]، وكان من خيل سليمان بن داود عليهما السلام. حكى محمد بن السائب الكلبيّ[2]: أن الصافِنات الجِياد المعروضة على سليمان ابن داود صلى الله عليهما وسلم كانت ألف فرس ورِثها عن أبيه؛ فلما عُرِضَت عليه ألْهَتْه عن صلاة العصر حتى توارت الشمسُ بالحجاب، فردّها وعَرْقَبها إلّا أفراسا لم تُعرَض عليه؛ فوفَد عليه قوم من الأَزْدِ، وكانوا أصهارَه، فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبيّ الله، إنّ أرضنا شاسعة فزوِّدنا زادا يبلِّغنا؛ فأعطاهم فرسًا من تلك الخيل وقال: اذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما واحتطبوا، فإنكم لا تُورُون ناركم حتى يأتيكم بطعام؛ فساروا بالفرس، فكانوا لا ينزلون منزلا إلا ركِبه أحدُهم للقَنْص، فلا يُفلِت شيءٌ تقع عينُه عليه من ظبي أو بقرة أو حمار، إلى أن قدِموا بلادَهم؛ فقالوا: ما لفرسنا هذا اسم إلا "زاد الراكب" فسمّوْه به. فأصلُ فحول العرب من نتاجه. ويقال: إن "أعوج" منها. قال امرؤ القيس:

إذا ما ركِبنا قال وِلْدانُ أهلنا * تعالَوْا إلى أن يأتيَ الصيدُ نَحْطِبِ[3]

وقال عُمارة:

---

(١) كذا فى الأصلين وأنساب الخيل لابن الكلبي والعقد الفريد (ج ١ ص ٥٩ طبع بولاق) وقطر السيل للبلقيني. وفى كتاب أسماء الخيل لابن الاعرابي (ص ٥٠ طبع ليدن) ولسان العرب مادة «زود»: «زاد الركب». وقال: وإياه عنى الشاعر بقوله:

فلما رأوا ما قد رأته شهوده * تنادوا ألا هذا الجواد المؤمل

أبوه ابن زاد الركب وهو ابن أخته * معم لعمرى فى الجياد ومخول

(٢) راجع كتابه أنساب الخيل (ص ١٢ طبع بولاق و ص ٤ طبع ليدن).

(٣) فى الأصلين «نحتطب» وهو تحريف؛ اذ هذا البيت من قصيدته التى مطلعها:

خليليّ مرّا بي على أم جندب * لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

وأرى[(١)] الوحشَ عن يمينى اذا ما * كان يومًا عِنانُه فى شمـالى

ومن خيل العرب المشهورة ماحكاه أبو علىّ الحسن بن رَشيق الأَزْدىّ فى كتابه المترجم بالعمدة عن ٱبن حَبيب عن أبى عُبيـدةَ قال : "الغُرَاب" و "الوَجيه" و "لاحِق" و "المُذْهَب" و "مكتوم" كانت كلّها لغَنِىّ .

وقال أحمد بن سعد الكاتب : كان "أعوجُ" أوّلا لِكِنْدَةَ، ثم أخذتْه سُلَيْم، وصار لبنى [عامر][(٢)] ثم لبنى هلال. قال ٱبن حَبيب : رُكِبَ رَطْبًا فٱعوجّت قوائمُه، وكان من أجود خيل العرب. وأمّه "سَبَل" لغَنِىّ. وأمّ سبل ["سَوَادة"[(٣)] . وأم سـوادة] "القَسَامة"[(٤)]، وكانت لجَعْدة .

وحكى أحمد بن محمد بن عبد ربّه صاحب العقد فى كتابه : أنه لمـا أنتجتْه أُمُّه ببعض بيوت الحىّ نظروا الى طِرْف يضـع جَحْفَلَته على كاذَتها (على الفَخِذ ممـا يلى الحَيَاء)؛ فقالوا : أدركوا ذلك الفرس لا يَنزو فرَسكم؛ لعظم "أعوج" وطول قوائمه؛ فقاموا إليه فإذا هم بالمهر؛ فَسمّوْه "أعوج" . ولهم أيضا "الفيّاض" .

قال ٱبن سعد : "الوجيه" و "لاحق" لبنى أسد، "وقَيْد" "وحَلّاب"[(٥)] لبنى تغلِب، "والصَّرِيح" لبنى نَهْشَل — وزعم غيره أنه كان لآل المنذر —

(١) فى الأصلين : «وأى» بدون راء مع تشديد الياء . والتصويب عن كتاب ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٨٧٤ أدب) .

(٢) التكملة عن كتاب العمدة لابن رشيق (ص ١٨٢ ج ٢ طبع مصر) .

(٣) التكملة عن كتاب أنساب الخيل (راجع فيه ص ١٥، ٢١، ٢٦، ٤٣ طبع بولاق) .

(٤) وردت « القسامة » فى بعض أصول كتاب أنساب الخيل بالألف واللام كما فى الأصلين هنا ، وفى بعضها بدونهما . وفى بعضها «القسامية» . وضبطها الغندجانى « قسام » بضم القاف . (راجع كتاب أنساب الخيل ص ١٥، ٢١) .

(٥) كذا فى ب، وهو الموافق لما فى القاموس . وفى أ : «جلاب» بالجيم، وهو تصحيف .

و "جَلْوَى" لبنى ثَعْلبة بن يَرْبوع، و "ذو العُقّال"[1] لبنى رِياح بن يَرْبوع، وهو أبو "داحِس". وكان "داحِس"[2] و "الغَبْراء" لبنى زُهَير. والغبراء خالة داحس وأخته من أبيه. و "ذو العُقّال" و "قُرْزُل" و "الخَطّار" و "الحَنْفاء"[3] لحُذَيْفة بن بَدْر. والحَنْفاء هى أخت داحِس من أبيه وأمه. و "قُرْزُل" آخَرُ للطُّفَيْل[4] بن مالك. و "حَذْفَة"[5] لخالد بن جعفر بن كِلاب. و "حَذْفَة" أيضا لصَخْر بن عمرو بن الشَّرِيد. و "الشَّقْراء" لزُهَيْر بن جَذِيمة العَبْسِىّ.

(١) وفيه يقول جرير:

إن الجياد يبتن حول قبابنا * من نسل «أعوج» أو «لذى العقال»

(راجع النقائض ص ٨٤ طبع أوربا).

(٢) راجع فى النقائض (ص ٨٦) تفصيله الوافى لحديث «داحس» و «الغبراء».

(٣) كذا فى اللسان (مادة حنف). وفى الأصلين: «الحيفاء» بالياء المثناة من تحت وهو تصحيف.

(٤) قال سلمة بن الخرشب يخاطب عامرا ابنه:

فانك يا عام ابن فارس «قرزل» * معيد على قيل الخنا والهواجر

وقال فيه ضبيعة بن الحارث العبسى:

وفعلت فعل أبيك فارس «قرزل» * إن الندود هو ابن كل ندود

الندود: المنهزم الذى اذا لقى الحرب فر. ولصاحبه الطفيل يقول أوس بن حجر:

هربت وأسلمت ابن أمك عامرا * يلاعب أطراف الوشيج المزعزع

ونجاك تحت الليل شدّات «قرزل» * يمر كخذروف الوليد المقزع

المقزع: السريع الخفيف من كل شىء. (راجع كتاب أسماء خيل العرب لابن الأعرابى ص ٧٥ طبع ليدن، وكتاب أنساب الخيل لابن الكلبى ص ٧٧ طبع بولاق وص ٢٦ طبع ليدن).

(٥) وفيها يقول خالد المذكور من قصيدة:

أريغونى إراغتكم فانى * و«حذفة» كالشجا تحت الوريد

أسويها بجارى أو بجزء * وألحقها ردائى فى الجليد

(راجع أنساب الخيل لابن الكلبى ص ٦٦ طبع بولاق).

و "الزَّعْفَران" لِبِسْطَام بنِ قَيْس . و "الوَرِيعة"(١) و "نِصاب" و "ذوالخِمَار"(٢) لمالك بن نُوَيْرة . و "الشَّقْراء" أخرى لأَسِيد بن حِنَّاءة(٣) . و "الشَّيِّط"(٤) لأُنَيف بن جَبلة(٥) الضَّبِّيّ . و "الوُحَيف"(٦) لعامر بن الطُّفَيْل . و "الكَلْب" و "المَزْنُوق"(٧)

(١) هذه الفرس وهبها الأحوص بن عمرو لمالك بن نويرة ، فقال فى ذلك مالك :

سأهـدى مدحتى لبنى عدىّ * أخص بهـا عدىّ بنى جناب
شكوت اليهـم رجلى فقالوا * لسـيدهم أطعنا فى الجـواب
وردّ حليفنا بعطاء صـدق * وأعقبـه الوريعة من نصاب
تراث الأحوص الخير بن عمرو * ولا أعنى الأحاوص من كلاب
فأصبح خلتى قد حش مرجى * بسلهـبة وساع فى الجنـاب

(راجع أنساب الخيل لابن الكلبي ص١٠٣ طبع بولاق وأسماء الخيل لابن الأعرابى ص ٦٤ طبع ليدن) . وفى الأصلين : «الوديعة» بالدال المهملة ، وهو تحريف .

(٢) قال فيه مالك المذكور :

جزانى دوائى ذو الخمار وصنعتى * اذا نام أطـواء بنىّ الأصاغر

(راجع أسماء الخيل لابن الأعرابى ص ٦٤ طبع ليدن) .

(٣) كذا فى كتاب أنساب الخيل لابن الكلبي (ص٤٧ طبع بولاق) وكتاب أسماء الخيل لابن الأعرابى (ص ٦٥ طبع ليدن) والقاموس (مادة شقر) . وفى أ : «حنارة» . وفى ب : «جناره» وكلاهما تحريف .

(٤) كذا فى المخصص (حـ ٦ صـ ١٩٥) وأنساب الخيل لابن الكلبي (صـ ٤٥ طبع بولاق) وأسماء الخيل لابن الأعرابى (صـ ٥٨ طبع ليدن) . وفيه يقول أنيف :

أضر بخير الشيط الطعن فانثنى * فأجشمته الإصعاب حتى تقدّما

وفى الأصلين : «السايط» وهو تحريف .

(٥) كذا فى كتاب أنساب الخيل لابن الكلبي وأسماء الخيل لابن الأعرابى والقاموس واللسان (مادة شيط) . وفى أ : «حلة» وفى ب : «حلقة» وكلاهما تحريف .

(٦) فى شرح القاموس (مادة وحف) نقلا عن ابن الأعرابى أن الوحف فرس عامر بن الطفيل . وفيه يقول يوم الرقم :

وتحتى «الوحف» والجلواء سيفى * فكيف يمـل من لومى المليم

ثم جاء فيه أيضا : «والوحيف كزبير فرس عقيل بن الطفيل أو عمرو — وفى نسخة عامر — بن الطفيل . والصواب الأوّل ، قال جبار بن سلمى :

يدعو عقيلا وقد مر الوحيف به * على طواله يمرى الركض بالعقب»

(٧) كذا فى أنساب الخيل لابن الكلبي (صـ ٦٤ طبع بولاق) وأسماء الخيل لابن الأعرابى (صـ ٧٦ طبع ليدن) والقاموس واللسان (مادة زنق) . وفيه يقول عامر المذكور : =

و"الوَرْد"(١) له أيضا. و"الخُنْثَى"(٢) لعمرو بن عمرو بن عُدَس. و"الهَدَّاج"(٣) فرس الرَّيب(٤)

= لقـــد علم المزنوق أنى أكرّه * على جمعهم كر المنيح المشهر
اذا أزورّ من وقع الرماح زجرته * وقلت له أرجع مقبلا غير مدبر
وأنبـأته أن الفـــرار خزاية * على المرء ما لم يبل عذرا فيعذر
ألست ترى أرماحهم فىّ شرّعا * وأنت حصان ماجد العرق قاصبر
فبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا * جبانا فما أرجى لدى كل محضر
لعمرى وما عمرى علىّ بهين * لقد شان حر الوجه طعنة مسهر

وفى أ : «المرنون» . وفى ب : «المزنون» وكلاهما تحريف .

(١) وفيه تقول تميمة بنت أُهبان العبسية فى يوم الرقم :

ولو لا نجاء «الورد» لا شىء غيره * وأمر الإله ليس لله غالب
اذا لسكنت العام نفثا ومنعجا * بلاد الأعادى أو بكتك الحبائب

(منعج : قرية فى طريق البصرة إلى مكة . ونفث : مكان بالقرب منها) . (راجع أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٦٥ طبع بولاق وص ٢١ طبع ليدن) .

(٢) لعمرو بن عمرو بن عدس هذا فرسان : إحداهما هذه وهى التى طلبه عليها مرداس بن أبى عامر السلمى يوم جبلة ففات، فقال مرداس :

تمطت كميت كالهـــراوة صلدم * بعمرو بن عمرو بعد ما مس باليد
فلولا مدى الخنثى وطول جرائها * لرحت بطىء المشى غير مقيـــد

والأخرى الحشاء، وكان لهـا ما للفحل وما للأنثى، وكانت لا تجارى، وكانت ضبوبا .

وقد أورد هاتين الفرسين صاحب شرح القاموس كل منهما فى مادّتها، وأورد الأخيرة ابن الكلبي فى كتابه أنساب الخيل .

(٣) وفيه تقول الحـارثية ترثى من قتل من قومها فى يوم أرمام وكان لباهلة على بنى الحـارث ومراد وخثعم :

شـــقيق وحرىّ أراقا دماءنا * وفارس «هدّاج» أشاب النواصيا

(راجع أنساب الخيل لابن الكلبي ص ١٠١ طبع بولاق) .

(٤) كذا فى كتاب العمدة لابن رشيق الذى اعتمد عليه المؤلف فى النقل وكتاب أنساب الخيل لابن الكلبي (ص ١٠١ طبع بولاق وص ٣٥ طبع ليدن) والقاموس (مادة هدج) . وفى الأصلين : «لزينب بنت شريق»، وهو تحريف .

ابن شَرِيق السَّعْدى و"وَجْزَة"(١) فرس يزيد(٢) بن سِنان المُرِّى فارس غَطَفان . و"النَّعَامة"(٣) للحارث بن عُبَاد(٤) . و"ابن النَّعَامة" لعَنْتَرة . و"النَّحَّام"(٥) فرسٌ للسُّلَيْك ابن السُّلَكة السَّعْدىّ . و"العَصَا"(٦) فرس جَذِيمة بنِ مالك الأَزْدىّ . و"الهِراوة"(٧)

(١) وفيها يقول يزيد المذكور :

لما أن رأيت بنى حيى * عرفت شناءتى فيهم ووترى

رميتهم «بوجزة» اذ تواصوا * ليرموا نحرها كثبا ونحرى

(راجع أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٦٩ طبع بولاق وأسماء الخيل لابن الأعرابى ص ٧٠ طبع ليدن) .

وقال فى اللسان : «سمى من الوجز وهو السرعة» .

(٢) كذا فى الأصلين وكتاب أسماء الخيل لابن الأعرابى (ص ٧٠ طبع ليدن) والأغانى (حـ ١٠ ص ٤٦ طبع بولاق) والنقائض (ص ٥٧٦ و ١٠٦٨ طبع ليدن) ولسان العرب والقاموس وشرحه (مادة وجز) وفى أنساب الخيل لابن الكلبي : «زيد» .

(٣) وفيها يقول الحارث المذكور :

قرّبا مربط النعامة منى * لقحت حرب وائل عن حيال

(راجع أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٨٤ طبع بولاق) .

(٤) قد ورد هذا الاسم بما يوجب هذا الضبط فى قول الفرزدق :

تريك نجوم الليل والشمس حية * كرام بنات الحارث بن عباد

(٥) وفيه يقول سليك المذكور :

قدّم «النحام» وأعجل يا غلام * وأطرح السرج عليه واللجام

وقال فيه :

قطعت وتحتى «النحام» يهوى * كما انقضت على الخرز العقاب

(راجع أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٦١ و ٦٢ طبع بولاق ، وأسماء الخيل لابن الأعرابى ص ٦٢ طبع ليدن) .

(٦) ولها يقول عدى بن زيد :

فخبرت "العصا" الأنباء عنه * ولم أر مثل فارسها هجينا

(راجع أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٩٤ طبع بولاق) .

(٧) قال فى شرح القاموس (مادة هرو) : الهراوة فرسان : إحداهما فرس الريان بن حويص العبدى ، والأخرى هراوة الأعزاب لعبد القيس بن أفصى . وقال فى (مادة عزب) : هراوة الأعزاب فرس للريان بن حويص العبدى ، وهذا ما ذهب اليه المؤلف وسيذكره بعد قليل ، وفيها يقول لبيد : =

لعبد القَيْس بن أَفْصَى . و "اليَحْمُوم"(١) فرس النُّعْمان بن المنذر . و "كامِل"(٢) فرس زَيْد الخيـل . و "الزَّبِد"(٣) فرس الحَوْفَزَان وهو أبو "الزَّعْفَران" فرس بِسْطام . و "الحِمَالَة"(٤) فرس الكَلْحَبة اليَرْبُوعى . هذا ما أورده أحمد بن سعد .

لا تســقنى بيديك إن لم ألتمس * نعم الضــجوع بغارة أسراب

تهـدى أوائلهن كل طمـرة * جرداء مثل "هراوة الأعزاب"

وكانت لا تدرك جعلها موقوفة على الأعزاب من قومه فكانوا يغزون عليها ويستفيدون المال ليتزوجوا فاذا استفاد واحد منهم مالا وأهلا دفعها الى آخر منهم فكانوا يتداولونها كذلك فضربت مثلا فقيل : أعز من هراوة الأعزاب . وفى الأصلين : «اهراوة» .

(١) سمى باليحموم لشدّة سواده . وفيه يقول الأعشى :

ويأمر "لليحموم" كل عشية * بقتّ وتعليق فقـد كاد يستق

ويستق ، أى تصيبه تخمة من كثرة الشرب ومن كثرة الأكل . (راجع أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٩٢ طبع بولاق) .

(٢) فى الأصـلين : « كابل » بالباء الموحدة وهو تحريف ، والتصـويب عن القاموس وشرحه واللسان (مادة كمل) وإياه عنى زيد الخيل بقوله :

* ما زلت أرميهم بثغرة كامل *

وكامل أيضا أفراس لموسى بن ميمون المرثى والرقاد بن المنذر الضبي وقد أورده ابن الأعرابى فى أسماء الخيل ، والطفام الكلبي ، والحوفزان بن شريك الشيبانى ، وسنان بن أبى حارثة المرى ، وشيبان النهدى ، وزيد الفوارس الضبي وقد أورده ابن الكلبي فى أنساب الخيل . واستشهد بقول العائف الضبي فيه :

نعم الفوارس يوم جيش محرّق * لحقـوا وهم يدعون بالضرار

زيد الفـوارس كرّ وابنا منذر * والخيـل تصنعها بنو الأحرار

يرمى بغرة "كامل" وبنحـره * خطر النفوس وأى حين خطار

ولعمـر جدّك ما الرقاد بطائش * رعش بديهتـه ولا عـوّار

(٣) كذا فى شرح القاموس (مادة زعفر) . وفى الأصلين : «الريد» بالراء المهملة والياء المثناة من تحت ، وهو تصحيف .

(٤) الذى أورده ابن الكلبي وابن الأعرابى فى كتابيهما أن لكلحبة اليربوعى فرسا اسمه «العرادة» وفيه يقول :

تسائلنى بنو جشم بن بكر * أغراء العرادة أم بهيم

وقال ابن دُرَيد: "القَطِيب"(١) و"البَطِين"(٢) فرسان كانا للعرب . و"اللَّعَّاب"(٣) و"العَبَايَة"(٤) فرسا حَرِىّ(٥) بن ضَمْرة . و"المِدْعاس"(٦) فرس النَّوّاس(٧) بن عامر

= وأما الحمالة فأفراس لبنى سليم وللطفيل بن مالك (ثم صارت لابنه عامر بن الطفيل) ولمطر بن الأشيم ولعباية بن شكس وللطفيل بن خويلد (راجع القاموس وشرحه واللسان «مادة حمل» وأنساب الخيل لابن الكلبي ص ١٠ و ١٢ و ٢٥ طبع ليدن وأسماء الخيل لابن الأعرابي ص ٥٦ و ٧٢ و ٧٦ و ٨٣ طبع ليدن) .

(١) القطيب فرسان ، الأول وزان أمير وهو لصرد بن حمزة بن شداد اليربوعى (عم مالك ومتمم ابنى نويرة) سابق به أبا سواج الضبى على فرسه بذوة فسبقه أبو سواج ؛ فقال :

ألم تر أن بذوة إذ جرينا * وجد الجدّ منا والقطيبا

كأن قطيبهم يتلو عقابا * على الصلعاء وازمة طلوبا

والآخر وزان زبير وهو لسابق بن صرد .

(٢) ضبطه شارح القاموس كأمير ، وذكر أنه وأباه بطانا (ككتاب) فرسان لمحمد بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان .

(٣) ذكره الهذلىّ فى قوله :

وطاب عن "اللعاب" نفسا وربة * وغادر قيسا فى المكرّ وعفزرا

(اللسان مادة لعب) .

(٤) كذا فى القاموس وشرحه (مادة عبى) . وفى الأصلين : «العباءة» .

(٥) كذا فى شرح القاموس (مادة عبى) والعمدة لابن رشيق وأسماء الخيل لابن الأعرابى (ص ٦٦ طبع ليدن) وكذلك ورد فى النقائض (ص ٩٤٣ طبع أوربا) فى بيت الفرزدق :

ولو كان حرىّ بن ضمرة فيكم * لقال لكم لستم على المتخير

وشرح أشعار الحماسة للتبريزى (ص ٢٥٥ طبع أوربا) . وفى الأصلين وشرح القاموس واللسان (مادة هدج) وأنساب الخيل لابن الكلبي (ص ١٠١ طبع بولاق) : «حرمىّ» .

(٦) والمدعاس أيضا فرس الأقرع بن حابس كما فى القاموس وشرحه واللسان (مادة دعس) .

(٧) كذا فى العمدة والنقائض . وفى الأصلين : «لرايس» وهو خطأ .

المُجَاشِعى. و"صُهْبِى"[(١)] فرس النَّمِر بن تَوْلَب. و"حافل"[(٢)] فرس مشهور. و"العَسْجدى"[(٣)] لبنى أسد. و"الشَّمُوس"[(٤)] فرس يزيد بن خَذَّاق[(٥)] العَبْدىّ. و"الضَّيْف"[(٦)] لبنى تَغْلب. و"هِرَاوة العُزَّاب"[(٧)] فرس الرَّيّان بن حُوَيْص العَبْدىّ[(٨)]، يقال إنها جاءت سابقةً طولَ أربعَ عشرةَ سنة، فتصدّق بها على العُزّاب يتكسّبون عليها فى السِّباق

(١) ولها يقول النمر المذكور :

أيذهب باطلا عدوات "صهبى" * وركض الخيل تختلج اختلاجا

وكرى فى الكريهة كل يوم * اذا الأصوات خالطت العجاجا

كميت اللون شائلة الذنابى * تخال بياض قرحتها سراجا

(راجع أسماء الخيل لابن الأعرابى ص ٥٨ طبع ليدن وأنساب الخيل لابن الكلبى ص ١١٠ طبع بولاق وص ٤٠ طبع ليدن) .

(٢) فى كتاب العمدة : «فرس مشهور ذكره حرب بن ضرار فى قوله :

كميت عبناة السراة نمى بها * الى نسب الخيل الصريح و«حافل»

(٣) وفيه قال النابغة الذبيانى :

فيهم بنات "العسجدى" و"لاحق" * ورق مراكلها من المضمار

ويروى : «ورقا» بالنصب . والمراكل : جمع مركل كجعفر وهو الموضع الذى يصيب رجل الفارس من الجانبين اذا استوى على السرج . (راجع أنساب الخيل لابن الكلبى ص ٣٣ طبع بولاق) .

(٤) وفيها يقول يزيد المذكور :

ألا هل أتاها أن شكة حازم * لدىّ وأنى قد صنعت "الشموسا"

وداويتها حتى شتت حبشية * كأن عليها سندسا وسندوسا

(راجع هذين البيتين وتفسيرهما فى لسان العرب مادة «سندس») .

(٥) كذا فى لسان العرب وتاج العروس وأنساب الخيل لابن الكلبى وأسماء الخيل لابن الأعرابى . وفى الأصلين : «حلاق» وهو تحريف .

(٦) سيذكر المؤلف بعد أسطر قول الشمردل اليربوعى فيه .

(٧) راجع الحاشية (٥) ص ٤٤ من هذا الجزء .

(٨) كذا فى كتب اللغة . وفى الأصلين : «العنبرى» ، وهو تحريف .

والغارات . و"الحَرُونُ"[1] فرس تنسب اليه الخيلُ، وكان لمسلم بن عمرو بن أسد الباهِلىّ . و"الزائد" فرس مشهور وهو من نسـل الحرون . "ومُنَاهِب" فرس تُنسب اليه الخيل أيضا، قال الشَّمردل[2] :

[تَلْقَ[3] الجِيادَ المُقْرَباتِ[4] فينا] * لأَفْـلِ ثـلاثةٍ يَمْنِينـا

* "مُنَاهِبا" و"الضَّيْف" و"الحَرُونا" *

و"العَلْهَانُ"[5] فرس أبى مُلَيْلٍ[6] عبد الله بن الحارث اليَرْبُوعى .

هذا ما آتفق إيرادُه من أسماءِ كِرام الخيل ومشهورها . فلنذكر ما ورد فى أوصافها وتشـبيهها .

ذكر ما قيل فى أوصاف الخيل وتشبيهها نظما ونثرا

أوّلُ من شبّه الفرسَ بالظبى والسِّرْحان والنَّعامة، ثم آتّبعه الشعراء وحذَوْا مثالَه وآقتدَوْا به، هو آمرؤ القيس بن حُجْر حيث قال :

(١) راجع ما ورد من الكلام عليه فى كتاب أنساب الخيل لابن الكلبى (ص ١١٧ طبع بولاق)، وفيه يقول بعض الشعراء لما رأى غلبة مسلم بن عمرو على السبق :

اذا ما قريش خوى ملكها * فإن الخـلافة فى باهله

لرب «الحرون» أبى صالح * وما تلك بالسـنة العـادله

(٢) كذا فى كتاب أنساب الخيـل لابن الكلبى (ص ١٢١ طبع بولاق) . وفى الأصـلين : «السمول» ، وهو تحريف .

(٣) الزيادة عن كتاب أنساب الخيل لابن الكلبى .

(٤) المقربات من الخيل : التى ضُمِّرت للركوب .

(٥) كذا فى شرح القاموس ولسان العرب (مادة عله) وأسماء الخيل لابن الأعرابى (ص ٦٤ و ٦٥ طبع ليدن) . وفى الأصلين : «العلها» وهو تحريف .

(٦) كذا فى لسان العرب وشرح القاموس (مادة عله) وأسماء الخيل لابن الأعرابى . وفى الأصلين : «مليك» بالكاف فى آخره، وهو تحريف .

له أَيْطَلا[1] ظَبْيٍ وساقا نعامةٍ * وإرخاءُ[2] سِرْحَانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[3]
كأنّ على المَتْنَيْنِ[4] منه اذا انتحى * مَدَاكَ عَرُوسٍ أو صَرَايَةَ حَنْظَلِ
مكرٍّ مفرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا * كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطّه السَّيْلُ من عَلِ
دَرِيرٍ[5] كخُذْرُوفِ[6] الوليد أمرّه[7] * تَقَلُّبُ كَفَّيْه بخَيْطٍ مُوَصَّلِ
٥ كُمَيْتٍ يَزِلّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِه[8] * كما زلّت الصَّفواءُ[9] بالمُتَنَزَّلِ[10]

وقال أيضا :

وأَرْكَبُ فى الرَّوْع خَيْفَانَةً[11] * كَسَا وجهَها سَعَفٌ[12] مُنْتَشِرْ

(١) الأيطل : الخاصرة، وهى ما بين الأضلاع الى الورك .

(٢) الإرخاء : السير دون الحضر الشديد . والسرحان : الذئب .

١٠ (٣) التقريب : ضرب من العدو . والتتفل : ولد الثعلب .

(٤) كذا فى المعلقات . وفى الأصلين : «الكتفين» . والمتنان : ما اكتنفا فقار الظهر . والانتحاء : الاعتماد والقصد . والمداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب . والصراية : الحنظلة الخضراء البراقة (كما فى شرح أبى جعفر النحاس لمعلقة امرئ القيس) أو هى الحنظلة الصفراء (كما يقول الأصمعى) . ويروى : «صلاية حنظل» . والصلاية : الحجر الأملس الذى يسحق عليه حب الحنظل . ويروى الشطر الأول : «كأن سراته

١٥ لدى البيت قائما» .

(٥) الدرير : الفرس السريع العدو .

(٦) الخذروف : عود أو قصبة مشقوقة يفرض فى وسطه ثم يشدّ بخيط فاذا أُمِرّ دار وسمعت له حفيفا يلعب به الصبيان و يوصف به الفرس لسرعته . وهو الذى يسمى «الخرارة» .

(٧) أمرّه : قلبه ثم أداره بين كفيه . ويروى : «تتابع كفيه» .

٢٠ (٨) الحال : وسط الظهر . يريد أن لحمه قد اكتنز على ظهره فأملس ، فاذا ألقى عليه اللبد زل فلم يثبت عليه .

(٩) الصفواء : الصخرة الملساء التى لا ينبت فيها شىء .

(١٠) المتنزل : الذى ينزل عليها فيزلق عنها .

(١١) الخيفانة : الجرادة . شبه الفرس بها فى الخفة والسرعة .

٢٥ (١٢) السعف : يريد به الناصية . شبه ناصية الفرس بسعف النخل .

لهـا حافرٌ مثلُ قَعْبِ الوليـ (١) ـد رُكِّب فيه وَظِيفٌ عَجُرْ (٢) (٣)
لهـا عَجُزٌ كصَفَاةِ المَسِيـ (٤) ـلِ أبْرَزَ عنها جُحَافٌ مُضِرّْ (٥) (٦) (٧)
لهـا ذَنَبٌ مثـلُ ذيلِ العرو * س تَسُدُّ به فرجَها من دُبُرْ
لهـا جَبْهَةٌ كسَرَاةِ المَجَنّ (٨) * حَذَّفَه الصـانعُ المُقْتَـدِرْ (٩)
إذا أقبلتْ قلتَ دُبَاءَةٌ (١٠) * من الخُضْرِ مغموسةٌ فى الغُدُرْ ٥
وإن أعْرَضَتْ قلتَ سُرْعُوفَةٌ (١١) * لهـا ذَنَبٌ خلفَها مُسْبَطِرّْ (١٢)
وإن أدبرتْ قلتَ أُثْفِيَّـةٌ * مُلَمْلَمَةٌ ليس فيهـا أُثُـرْ (١٣)

(١) القعب : القدح . شبه حافر الفرس بقعب الوليد لأنه صغير لطيف .

(٢) الوظيف : عظم الساق والرجل .

(٣) العجر ككتف ورجل : الصلب الشديد . ١٠

(٤) صفاة المسيل : الحجارة التى تكون فى الماء وهى أصلب من غيرها .

(٥) أبرز : كشف .

(٦) كذا فى ديوانه ، أى عن الصفاة . وفى الأصلين : «عنه» .

(٧) الجحاف : السيل الذى لا يمر بشىء إلا حمله وقشره .

(٨) السراة : الظهر . والمجن : الترس . ١٥

(٩) حذفه : أخذ من جوانبه ما يسويه به . وقيل : هيأه وصنعه .

(١٠) الدباءة : واحدة الدباء وهو القرع . وشبه الفرس بها لسعة مؤخرها ودقة مقدّمها ، وذلك محبوب فى إناث الخيل . يقول : هى مجتمعة الخلق ، دقيقة الصدر ، عظيمة العجز . مغموسة فى الغدر : يريد أنها ريا .

(١١) السرعوفة : الجرادة . ٢٠

(١٢) مسبطر : طويل .

(١٣) الأثفية : الحجر المدوّر الصلب الذى يوضع عليه القدر . والململمة : المستديرة الصلبة . يقول : مؤخرها كأنه صخرة مدوّرة مجتمعة . والأثر (بالضم وبضمتين) : أثر الجرح . يريد أنها ليس بها خدش .

وقال أبو دُوَاد[1] الإيَادِى [يصف فرسا][1] :

له ساقا ظَلِيم خَا[2] * ضِبٍ فُوجِئَ بالرُّعْبِ
حديدُ الطَّرْف والمَنْكِـ * ـب والعُرْقوب والقلب

وقال آخر :

له صدرُ طاوُسٍ ونَخْدُ نعامةٍ * ووَثْبةُ نِمْرٍ والتفاتُ غزالِ
وأعجب من ذا كلما حَطّ حافرًا * يَخُطُّ هلالا من وراء هلال

وقال البُحترِىّ وكان وَصّافًا للخيل :

وأغرَّ فى الزمن البَهيم مُحَجَّلٍ * قد رُحْتُ منه على أَغَرَّ مُحَجَّلِ
كالهَيْكل المَبْنىّ إلا أنه * فى الحسن جاء كصورة فى هيكلِ
ذَنَبٌ كما سُحِب الرِّدَاءُ يَذُبّ عن * عُرفٍ، وعُرْفٌ كالقِناع المُسْبَلِ
جَذْلانَ يَنْفُض عُذْرَةً[3] فى غُرّةٍ * يَقِقٍ[4] تَسِيل حُجُولُها فى جَنْدَلِ
كالرائح النَّشْوانِ أكثرُ مَشْيه * عرضًا[5] على السَّنَن البعيد الأطولِ
تَتَوهّمُ الجوزاءَ فى أَرْساغه * والبدرَ[6] غُرّةَ وجهه المُتَهلِّلِ

(١) فى ب : « وقال زهير » . وقد سقط اسم الشاعر من أ . والتصويب والزيادة عن لسان العرب (مادة خضب) وشرح أدب الكاتب لأبى منصور موهوب بن أحمد الجواليقى (ج ١ ص ١٩٠ من النسخة الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤٢٦ أدب) .

(٢) الخاضب : الظليم الذى اغتلم فاحمرت ساقاه . وقيل : هو الذى قد أكل الربيع فاحمر ظنبوباه أو اصفرا أو اخضرا .

(٣) العذرة : عرف الفرس وناصيته .

(٤) اليقق (محركة وككتف) : المتناهى فى البياض .

(٥) عرضا : يحتمل أن يكون بالفتح من قولهم : عرض الفرس يعرض عرضا اذا عدا عارضا صدره ورأسه مائلا من النخوة والنشاط ، وأن يكون بضمتين وهو السير فى جانب ، وهو محمود فى الخيل مذموم فى الإبل .

(٦) رواية الديوان (ج ٢ ص ٢١٨ طبع مطبعة الجوائب بالقسطنطينية) :

* والبدر فوق جبينه المتهلل *

صـافِى الأَديم كأنّمـا عُنِيَتْ[1] به * لصَفاء نُقْبتِـه[2] مَدَاوِسُ[3] صَيْقَـلِ
وكأنمـا نَفَضتْ عليـه صِبْغَها * صَهْباءُ للبَرَدانِ[4] أو قُطْـرُبُّلِ[5]
وتَخَـالُه[6] كُسِىَ الخدودَ نواعمًـا * مهما تواصـلْها بلَحْـظٍ تَخْجَلِ
وتراه يَسْـطَع فى الغُبار لهيبُـه * لونًا وشَـدًّا[7] كالحريق المُشْعَلِ
هَـزِجُ الصَّهيـلِ كأنّ فى نَغَماتِه * نَبَرات مَعْبَـد[8] فى الثّقيل الأوّلِ
ملَك العيـونَ فإن بدا أعطيْنَه * نَظَرَ [المحِبّ][9] إلى الحبيب المُقبِلِ

وكتب إلى محمد بن حُمَيْد[10] [بن عبد الحميد] الطُّوسِىّ يَستهديه فرسا ، ووصف له أنواعا من الخيل؛ فقال من أبيات :

(١) كذا فى ديوانه . وفى الأصلين : « عنيت له * بصفاء ... الخ » .

(٢) النقبة : اللون .

(٣) المداوس : جمع مدوس وهو المصقلة . والصيقل شحاذ السيوف وجلاؤها .

(٤) البردان : قرية من قرى بغداد على شاطىء دجلة الشرقى وبينها و بين بغداد فراسخ .

(٥) اسم قرية بين بغداد وعكبرا تنسب اليها الخمر .

(٦) رواية الديوان : «وكأنما» .

(٧) شـدا : مصدر، وشـدّت النار ارتفعت . أى وترى لهيبه يسطع فى الغبار كالحريق المشـعل فى اللون والشدّ ، أى ارتفاع اللهب ، وقد أجمعت كل نسـخ الديوان المطبوعة والمخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية على هذه الرواية ، على أنه لا يبعد أن تكون الرواية فيـه : « يسطع فى الغبار إهابه » .

(٨) قال أبو العلاء المعرّى فى كتابه عبث الوليد عند كلامه على هذا البيت (ص ١٢٧) : «الذى يوجبه رأى أهل البصرة كسر الدال فى معبد ، ويجوز الفتح على مذهب أهل الكوفة» .

(٩) التكملة عن ديوانه .

(١٠) فى الأصلين : « سـعيد بن حميد الطوسى » والزيادة والتصويب عن الديوان . وقد ذكر فى الديوان جملة قصائد مدح بها محمد بن حميد هذا ، ومنها هـذه القصيدة التى اقتبس المؤلف بعض أبياتها ، وبين هذه القصائد قصيدة دالية صرح فيها باسم محمد هذا فى أحد أبياتها وهو :

محمد بن حميـد أى مكرمة * لم تحوها بيد بيضاء بعد يد

فأعِنْ على غزو العدوّ بمُنْطَوٍ * أحشاؤُه طَيَّ الرِّداءِ المُدْرَجِ (١)
إمّا بِأشقرَ ساطع أغشَى الوَغَى * منه بمثل الكوكب المُتَأَجِّجِ
مُتَسربِلٍ شِيَةً طَلَتْ أعطافَه * بدَمٍ فما تلقاه غيرَ مُضرَّجِ
أو أدهمٍ صافى الأديم (٢) كأنه * تحتَ الكَمِيّ مُظَهَّرٌ بِيَرَنْدَجِ (٣)
ضَرِمٍ يَهيج السَّوطُ من شُؤْبُوبِه (٤) * هَيْجَ الجَنائِبِ (٥) من حَرِيقِ العَرْفَجِ (٦)
خَفَّتْ مَواقِعُ وَطْئِه فَلَوَ أنّه * يَجْرى بَرْمَلَةِ (٧) عالجٍ لم يُرْهِجِ (٨)
أو أشْهبٍ يَقَقٍ يُضِيء وراءَه * مَتْنٌ كَمَتْنِ اللُّجّةِ المُتَرَجْرِجِ
تَخْفَى الحُجُولُ ولو بَلَغْنَ لَبَانَه (٩) * فى أبيضٍ مُتَأَلِّقٍ كالدُّمْلُجِ (١٠)

---

(١) رواية الديوان : «طىّ الكتاب» .

(٢) فى ديوانه : « صافى السواد » .

(٣) كذا فى ديوانه ، واليرندج : السواد يسود به الخف أو هو الزاج يسوّد به . وفى الأصلين : « بالنبرج » .

(٤) الشؤبوب : شدّة العدو .

(٥) الجنائب : جمع جنوب وهى التى تقابل الشمال .

(٦) العرفج : ضرب من النبات سهلى طيب الريح . قال أبو حنيفة : وأخبرنى بعض الأعراب أن العرفجة أصلها واسع يأخذ قطعة من الأرض تنبت له قضبان كثيرة بقدر الأصل ، وليس لها ورق له بال إنما هى عيدان دقاق وفى أطرافها زمع يظهر فى رءوسها شىء كالشعر أصفر ولهبه شديد الحمرة ويبالغ بحمرته فيقال كأن لحيته ضرام عرفجة .

(٧) عالج : رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طىء ، وهى متصلة بالثعلبية على طريق مكة لا ماء بها ولا يقدر أحد عليهم فيها .

(٨) لم يرهج : لم يثر الغبار من خفة وطئه .

(٩) اللبان : الصدر .

(١٠) الدملج : حلى يلبس فى المعصم .

أوْفَى بعُـرْفٍ أسودٍ متفـــردٍ (١) * فيما يَليـــه وحافرٍ فَـيْرُوزَجِى
أو أبلقٍ ملأ العيـونَ إذا بدا * من كلّ لونٍ مُعْجِب بمُـوذَجِ
جَذْلان تحسُده الجيادُ إذا مشى * عَنَقًا (٢) بأحسن حُلَّةٍ لم تُنْسَـــجِ
وعريض أعْلَى المَتْن لو علَّيتَـه * بالزِّئْبَـــق المُنْهال لم يتَـدَحْرَجِ (٣)
خاضتْ قوائمُـه الوَثِيقُ (٤) بناؤُها * أمواجَ تَحنِيب (٥) بهنّ مُـــدَرَّجِ
ولأنتَ أبعـدُ فى السماحةِ (٦) هِمّةً * من أن تَضِنّ بمُلْجَمٍ (٧) أو مُسْرَجِ

وقال أيضا يصف فرسًا أدهم :

بأدهمَ (٨) كالظلام أغرَّ يَجْلُو * بغُـــرَّته دَياجِيرَ الظـــلامِ
ترى أَحْجَالَه يَصْعَدن فيـــه * صعودَ البرق فى جَوْن (٩) الغمامِ

---

(١) رواية الديوان : «متغربب» .

(٢) العنق (بفتحتين) : ضرب من السير فسيح سريع .

(٣) فى ديوانه : « يترجرج » .

(٤) فى الأصلين : « القويم » .

(٥) التحنيب : احديداب فى وظيفى يدى الفرس وليس ذلك بالاعوجاج الشديد ، وهو مما يوصف صاحبه بالشدّة . وقيل : هو بعد ما بين الرجلين من غير فحج ، وهو مدح .

(٦) رواية الديوان : « فى المكارم » .

(٧) رواية الديوان : «بموكف» والموكف : ما وضع عليه الوكاف (ويقال فيه الإكاف على الإبدال) وهو : البرذعة .

(٨) كذا فى ديوانه : وهو متعلق ببيت قبله وهو :

أراجعتى يداك بأعوجى * كقدح النبع فى الريش اللؤام

(الأعوجى : نسبة الى الأعوج وهو فرس لبنى هلال تنسب اليه الأعوجيات . وليس فى العرب فحل أشهر ولا أكثر نسلا منه) . وفى الأصلين : «وأدهم» بالواو .

(٩) الجون : الأسود . ورواية الديوان : «فى الغيم الجهام» .

وقال أيضا فى أدهم :

أمّا الجَـوَادُ فقـد بَلَوْنا يومَه * وكفى بيـومٍ مخبِرًا عن عامِهِ
جارَى الجيادَ فطار عن أوهامها * سَبْقًا وكاد يطيرُ عن أوهامِهِ
جذلان تَلْطِمُه(١) جوانبُ غُرّةٍ * جاءتْ مَجِىء البدرِ عند تَمامِه
وآسودّ ثم صفَتْ لعَيْنَىْ ناظرٍ * جَنَباتُهُ فأضاء فى إظلامِه
مالتْ نواحى عُرْفِه فكأنّها * عَذَباتُ أَثْلٍ مال تحتَ حَمامِهِ
ومقدّم الأُذُنَيْن تحسَب أنّه * بهما يرى الشخصَ الذى لأمامِه
وكأنّ فارسَه وراء قَذَالِه * رِدْفٌ فلستَ تراه من قُدّامِه
لانَتْ معاطِفُه فخيّل أنه * للخَيْزُران مَناسِبٌ لِعظامِه
فى شُعْلةٍ كالشَّيْب مرّ بمفرِقٍ * غَزِلٍ(٢) لها عن شَيْبه بغرامِه
وكأن صَهْلَتَه إذا آستعلَى بها * رَعْدٌ يُقَعْقِع فى آزدحام غَمامِه
مثل الغراب غَدا(٣) يُبارِى صَحْبَه * بسواد صِبْغته وحسنِ قَوامِه
والطَّرْفُ أجلبُ زائرٍ لمؤونةٍ * مالم تُزِرْه بسرجه ولِجامِه

وقال علىّ بن الجَهْم :

فوق طِرْفٍ(٤) كالطَّرْف فى سرعة الطَّرْ * فِ وكالقلب قلبُه فى الذكاءِ
لا تراه العيونُ إلّا خيالًا * وهو مثل الخيالِ فى الانطواءِ

---

(١) لطمت الغرة الفرس : سالت فى أحد شقى وجهه فهو لطيم ، الذكر والأنثى فيه سواء .

(٢) لها : من اللهو .

(٣) رواية الديوان : «مشى يباهى» .

(٤) الطرف (بالكسر) من الخيل : الكريم العتيق . والطرف (بالفتح) : العين . والطرف الأخيرة (وهى بالفتح أيضا) : إطباق الجفن على الجفن . أى فوق جواد كريم يشبه فى جريه البصر فى سرعة الغمض .

وقال العباس بن مِرْداس :

جاء كلمع البرق سام ناظـرُهْ (١) * تَسْبَح أُولَاه ويَطْفو آخِرُهْ
* فما يَمَسّ الأرضَ منه حافِرُهْ *

وقال أبو الطيّب المتنبّي :

وجُرْدًا (٢) مَدَدْنا بين آذانِها القَنَا * فبِتْنَ خِفافًا يَتَّبِعْنَ العَوَالِيَا
تَمَاشَى بأيْدٍ كلّما وافتِ الصَّفَا (٣) * نَقَشْنَ به صدرَ البُزاةِ حوافِيَا
ويَنْظُرْنَ من سُودٍ (٤) صوادقَ في الدُّجى * يَرَيْنَ بعيداتِ الشُّخوصِ كما هيا
وتَنْصِبُ للجَرْسِ (٥) الخفيّ سوامعاً * يَخَلْنَ مُناجاةَ الضميرِ تَنَادِيا
تُجاذِبُ فُرْسانَ الصَّباحِ (٦) أعنّةً (٧) * كأنّ على الأعناقِ منها أفاعيا

(١) كذا في العقد الفريد (ج ١ ص ٦٤) . وفي الأصلين : « جاش ناظره » وفي ديوان المعاني لأبي هلال العسكري : «جاش ماطره» وجاش ماطره : اضطرب أو تدفق بالماء .

(٢) الجرد من الخيل : القصار الشعر . والقنا : الرماح . والعوالي : جمع عالية وهي صدر الرمح مما يلي السنان .

(٣) الصفا : الصخر، واحده صفاة . والبزاة : جمع باز . وحوافيا : جمع حاف نصب على الحال من فاعل «تماشى» . أي إن هذه الخيل تمشي بأيد اذا وطئت الصخر وهي حافية من غير نعال نقشت حوافرها فيه أثرا مثل صدور البزاة لشدّة وطئها .

(٤) من سود، أي من أعين سود . أي وتنظر هذه الجرد من عيون سود صوادق فيما تنظره في ظلمة الليل، فترى الشخص البعيد عنها كهيئته اذا كان قريبا منها .

(٥) الجرس : الصوت أو الخفيّ منه . والسوامع : الآذان، واحدتها سامعة . ويخلن : يحسبن . وصفها بحدة السمع، فهي إذا سمعت الخفي نصبت آذانها فسمعته . وهذا من عاداتها أنها اذا سمعت أخفى ما يكون نصبت آذانها حتى إن ما يناجي به الضمير عندها كالمناداة لحدة سمعها .

(٦) المراد بالصباح هنا الغارة لأنهم كانوا أكثر ما يغيرون في ذلك الوقت؛ فسميت الغارة به .

(٧) الأعنة : سيور اللجم . يصف هذه الخيل بالقوة والنشاط وأنها تجاذب فرسانها أعنتها . ثم شبه أعنتها في طولها وامتدادها بالأفاعي .

وقال أيضا :

وجِيَادٍ[1] يَدْخلن فى الحرب أَعْرا[2] * ءً ويَخْرجن من دمٍ فى جِلَالِ
واستعار الحديدُ لونًا وأَلْقَى * لونَه فى ذوائب الأطفالِ[3]

وقال أبو الطيِّب أيضا :

٥ ويومٍ[4] كليلِ العاشقين كَمَنْتُه * أُراقِبُ فيه الشمسَ أَيَّانَ تغرُبُ
وعَيْنى على أُذْنَىْ[5] أغرَّ كأنه * من الليل باقٍ بين عينيه كوكبُ
له فضلةٌ عن جسمه فى إهابِه[6] * تَجِيء على صدرٍ رَحِيبٍ وتذهبُ
شَقَقْتُ به الظَّلْماءَ أُدْنى عِنانَه * فيَطْغَى[7] وأُرْخِيه مِرارًا فيلعبُ

(١) فى شرح العكبرى لديوان المتنبي : «لجياد» باللام الجارة؛ إذ هو متصل بالبيت الذى قبله وهو
١٠ واغتفار لو غيّر السخط منه * جُعلتْ هامهم نعال النعال
وعلى هذا فالجار والمجرور متعلق بالبيت الذى قبله، ويكون فيه تضمين، وهو مما عيب على المتنبي .

(٢) أعراء : جمع عرى (بالضم) . يقال : دابة عرى، وأفراس أعراء، ولا يقال : رجل عرى، وإنما يقال : رجل عريان وامرأة عريانة اذا عريا من ثيابهما . ورجل عار اذا أخلقت أثوابه . (عن اللسان مادّة عرا) . والجلال : ما يوضع على الدابة من غطاء . واحده جل . ويجمع جلال على أجلة .

١٥ (٣) يقول : إن السيوف والرماح اكتست الدم لما باشرت القتل فاستعارت لونا غير لونها، وألقت لونها، وهو البياض، فى رءوس الأطفال؛ فانهم يشيبون من شدّة ما ينالهم من الفزع .

(٤) يقول : رب يوم طال علىّ كما يطول ليل العاشقين اختفيت فيه خوفا على نفسى أراقب حين تغرب الشمس حتى أسير اليكم .

(٥) يقول : إنه كان ينظر الى أذنى فرسه؛ وذلك أن الفرس أبصر شىء، فاذا أحس بشخص من بعيد
٢٠ نصب أذنيه نحوه، فيعلم الفارس أنه أبصر شيئا . ثم وصف فرسه بأنه أسود فى وجهه غرة؛ وذلك قوله : «... كأنه * من الليل باق بين عينيه كوكب» أى كأنه قطعة من الليل غمت نجومها فلم يبق فيها إلا كوكب .

(٦) الإهاب : الجلد ما لم يدبغ . يريد أن يصف الفرس باتساع الجلد وأن له فضلة عن جسمه فى إهابه تجىء وتذهب على صدره الرحيب . واتساع الجلد مما ييسر للحيوان شدّة العدو .

(٧) يطغى، أى ينشط ويمرح . يقول : شققت ظلام الليل بهذا الفرس أجذب عنانه إلى فيطغى
٢٥ ويثب مرحا ونشاطا، وأرخيه له فيلعب كما يشاء .

وأَصْرَعُ أىَّ الوحش قَفَّيتُه به (١) * وأَنْزِل عنه مثـلَه حين أركبُ

وقال أيضا يصف فرسًا :

إن أدبرتْ قلتَ لا تَلِيلَ لهـا (٢) * أو أقبلتْ قلتَ ما لهـا كَفَلُ

وقال أبو الفَرَج الببَّغاء :

إن لاحَ قلتَ أَدُمْيَةٌ أم هيكلُ * أو عَنَّ قلتَ أسـابح أم أَجْدَلُ (٣) ٥

تَتَخاذل الألحـاظُ فى إدراكه * ويَحـار فيـــه الناظرُ المتأمِّلُ

فكأنه فى اللطف فَهْمٌ ثاقِبٌ * وكأنه فى الحسن حظٌّ مُقْبِـلُ (٤)

وقال أيضا من أبيات :

رماهم بألحـاظ الجِيادِ ولم تكن * لِيَنْأى عليهـا المَنْزِلُ المتباعِـــدُ

مِن اللَّاءِ يَهْجُرن المياهَ لدى السُّرَى * ويَعْتَضْن شَمَّ الجوّ والجوُّ راكدُ ١٠

مَرَنَّ على لَذْعِ (٥) القَنَـا فكأنمـا * عليهن من صـبْغ الدّماء مَجَاسِـدُ (٦)

نَسَجْنَ مُلَاءَ النَّقْع ثم خَرَقْنَـــه (٧) * بكَـرٍّ لهـا منه إلى النصر قائدُ

عليهنّ مِـن نَسْج الغُبار غلائلٌ * رِقاقٌ ومن نَضْح الدماء قلائدُ

(١) قفيته : أتبعته . يقول : إنه يلحق أى الوحش يتبعه به فيصرعه دون أن يناله تعب فهو حين ينزل عنه مثله حين يركبه . ١٥

(٢) التليل : العنق . يقول : إنها مشرفة الكفل عريضة الصدر، فاذا أدبرت منع إشراف كفلها من رؤية عنقها، واذا أقبلت منع اتساع صدرها من رؤية كفلها . (راجع شرح الديوان لليازجى ص ١٣٦ طبع بيروت سنة ١٨٨٣ م) .

(٣) الأجدل : الصقر .

(٤) كذا فى يتيمة الدهر للثعالبى (ج ١ ص ٢٠٤ طبع بيروت) . وفى الأصلين : «خيط يفتل» . ٢٠

(٥) فى الأصلين : «لدع» بالدال المهملة، وهو تصحيف .

(٦) المجاسد : الثياب المصبوغة بالزعفران .

(٧) فى أ : «خرفنه»، وفى ب «حرفنه» وكلاهما تصحيف .

وقال أبو الفَتْح كُشَاجِم :

ماءٌ تَدفَّق طاعةً وسَلَاسةً * فإذا آسْتُدِرّ الحُضْرُ منه فنارُ
وإذا عَطَفْتَ به على نَاوَرْدِه (١) * لتُدِيرَه (٢) فكأنه بِرُكَارُ (٣)
قَصُرَتْ قلادةُ نحره وعِذارُه * والرُّسْغُ، وهى من العَتيق قِصارُ
يَرِدُ الضَّحَاضِحَ (٤) غيرَ ثانٍ سُنْبُكًا (٥) * ويَرُودُ طرفُك خَلْفَه فيَحارُ
لو لم تكن للخيل نسبةُ خَلْقِه * خالَتْه من أشكالها الأطيارُ

وقال آخر :

وأقبُّ (٦) تحمِلُه رياحٌ أربعٌ * لولا اللِّجامُ لطار فى المَيْدان
من جُمْلة العِقْبان (٧) إلّا أنّه * من حُسْنه فى طلعة الغِزْلانِ
يمشى إلى مَيْدانه متبخترًا * من تِيهه كتَبَخْتُر النَّشْوانِ

وقال آبن المعتزّ :

وخَيلٍ طواها القَوْدُ (٨) حتى كأنّها * أنابيبُ سُمْرٌ من قَنَا الخَطّ ذُبَّلُ

---

(١) فى شفاء الغليل : «ناورد : لفظ فارسىّ هو فى لغتهم بمعنى القتال وجولان الخيل فى الميدان . وفى اللغة الجديدة ناورد جنك وجولان أسب . وبالمعنى الثانى استعمله المولدون كالبحترى وغيره» . واستشهد بهذا البيت ، وورد الشطر الثانى فيه هكذا : « فكأنه من لينه بركار » .

(٢) كذا فى ديوان كشاجم وفى الأصلين : «لتردّه» .

(٣) بركار (بالكسر) : آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر ، وهو فارسىّ معرّب .

(٤) الضحاضح : جمع ضحضح وهو الماء القليل يكون فى الغدير وغيره .

(٥) السنبك : طرف الحافر وجانباه من قدم ، وجمعه سنابك .

(٦) الأقب من الخيل : الدقيق الخصر الضامر البطن .

(٧) العقبان : جمع عقاب وهو طائر من الجوارح تسميها العرب الكاسر . وقيل : تقع على الذكر والأنثى .

(٨) القود : نقيض السوق ، يقود الدابة من أمامها ويسوقها من خلفها ، أو لعله يريد مطلق السير . والأنابيب : الرماح ، واحدها أنبوب . والخط : موضع باليمامة تنسب اليه الرماح الخطية . وذبل : دقاق ، واحدها ذابل .

صَبَبْنا عليهـا ظالمين سِـياطَنا * فطارتْ بها أيْدٍ سِراعٌ وأرجُلُ (١)

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِىّ :

طِرْفٌ نأتْ سماؤه عن أرضـه * وما نأى كاهلُه عن الكَفَلْ

ذو أربعٍ من أربعٍ من القَبُو * لِ والدَّبُورِ والجَنُوبِ والشَّـمَلْ

وهْـو إذا أعملهـا ألْقَى لهـا (٢) * فوق الذى يطلبـه من العمَلْ

كالبرقِ إن أومَضَ أو كالرّعد إن * أجلبَ (٣) أو صوبِ الحَيَا (٤) إذا آحتملْ

وقال آخر :

يَجْرِى فَيبْعُد من مَدًى متقارِبٍ * أبدًا ويدنو من مدًى مُتَباعِدِ

إن سار فهـو غديرُ ماءٍ مائجٍ * أو قام (٥) فهـو غديرُ ماءٍ جامِدِ

وقال أبو الفضل المِيكَالى :

خيرُ ما آستطرف الفوارسُ طِرْفٌ * كلُّ طَرْف بحسنه مبهوتُ

هو فوق الجِبال وَعْلٌ وفى السهـ * ـلِ نَعـامٌ وفى المَعَـابر حُوتُ

وقال آخر :

وطِرْفٍ إذا ما جرى خلتَـه * عُقَابًا من الوَكْرِ يَبْـغِى المَزارا

ترى فى الجَبين له سَوْسَـنًا (٦) * وتَلْمَح فى لونه الجُلَّنَـارا (٧)

(١) ذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه ديوان المعانى فى معنى هذا البيت ما نصه : «ذكر أنهم ضربوها من غير أن تمنع شيئا من مطلوب سيرها فكانوا ظالمين لها» .

(٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «الفاءها» ، وهو تحريف .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «أوكالبرق إن * أخلب...الخ» بالخاء المعجمة ، وهو تحريف .

(٤) الحيا : المطر .

(٥) قام : وقف ولم يسر .

(٦) السوسن : نبات طيب الرائحة .

(٧) الجلنار : زهر الرمان .

ويمشى على الماء من خفّة * ويقدح فى الجلمد الصخر نارا
فلو كان يبغى به راكبٌ (١) * إلى مطلع الشمس سيرًا لطارا

وقال عبد الجبّار بن حمديس :

ومُجرٍّ فى الأرض ذيلَ عسيبه * حمل الزبرجدَ منه جسمُ عقيقِ
يجرى ولمعُ (٢) البرق فى آثاره * من كثرة الكبوات غيرُ مفيق
ويكادُ يخرج سُرعةً من ظلّه * لو كان يرغب فى فراقِ رفيق (٣)

وقال ابن طباطبا :

عجبًا لشمسٍ أشرقتْ فى وجهه * لم تمحُ منه دُجَى الظلام المُطْبِقِ
وإذا تمطّر (٤) فى الرِّهان رأيتَه * يجرى أمام الريح مثلَ مُطَرِّقِ (٥)

وقال تاج الملوك بن أيّوب :

وخيل كأمثالِ السّعالِى (٦) شَوازِب (٧) * تكاد بنا قبل المجال تجولُ
سوابق تكبو الريحُ قبل لحاقها * لها مرحٌ (٨) من تحتنا وصهيلُ

وقال إبراهيم بن خفاجة يصف فرسًا أشهب :

رُبَّ طِرْفٍ كالطَّرْف ساعةَ عَدْوٍ * ليس يَسْرِى سُراه طيفُ الخيالِ

(١) فى الأصلين : «راكبا» بالنصب .
(٢) كذا فى ديوانه . وفى الأصلين : «فلمع» .
(٣) هذه رواية الديوان . وفى الأصلين : « صديق » .
(٤) تمطرت الخيل : ذهبت مسرعة .
(٥) المطرّق : الذى يمهد الطريق ليسلك .
(٦) السعالى : الغيلان أو سحرة الجن .
(٧) الشوازب : الضوامر من الخيل . وقد وردت فى الأصلين : « شوارب » بالراء المهملة ، وهو تصحيف .
(٨) المرح : التبختر والاختيال .

إن سَرى فى الدُّجَى فبعضُ الدَّرارِى * أو سَعَى فى الفَلَا فإحدى السَّعَالِى
لستُ أَدْرِى إن قِيـدَ ليلة أَسْرِى * أو تَمَطَّيْتُـه غـداةَ قِتـالِ
أَجَنـوبٌ تُقتـادُ لى أم جَنِيبٌ (١) * أم شَمـالٌ عِنـانُهـا بشِـمالى
أشهبُ اللّون أثقلتْـه حُلِىٌّ * خَبَّ (٢) فيهن وهو مُلْقَى الجِلالِ (٣)
فبـدا الصـبحُ مُلْجَمًا بالثُّرَيَّا * وجَرى البرقُ مُسْرَجًا بالهـلال

وقال أيضا فى أشهب :

وظلام ليلٍ لا شِهابَ بأُفْقِه * إلّا لنَصْـلِ مُهَنَّدٍ أو لَهْـذَمِ
لاطَمتُ لُجَّتَه بموجَةِ أشهبٍ * يَرمى بهـا بحرَ الظلام فيَرْتمى
قد سال فى وجه الدُّجُنَّةِ غُرَّةً * فالليلُ فى شِبْهِ الأَغرّ الأَدْهَم
أطلعتُ منه ومن سِنانٍ أزرقٍ * ومهنَّـدٍ عَضْبٍ ثلاثةَ أَنْجُمِ

وقال أبو الصَّلْت يصف فرسًا أشهب :

وأشهبٍ كالشِّهاب أضحى * يَجُول فى مُذْهَبِ الجِلالِ
قال حسودى وقـد رآه * يُجْنَبُ خَلْفى إلى القتـال
من أَلْجَم الصـبحَ بالثريّا * وأسرج البرقَ بالهـلالِ

وقال ابن خَفَاجة وقد أَهدى مُهرًا بهيمًا :

تَقبّلِ المُهْرَ من أخى ثِقةٍ * أرسـل ريحًا به الى المَطَرِ
مُشتمِلًا بالظلام من شِـيَةٍ * لم يَشْتمل ليلُها على سَحَـرِ
مُنتسِـبًا لـونُه وغُـرّتُه * الى سـوادِ الفـؤاد والبصر

(١) الجنيب : الفرس الذى يقاد الى جنب الراكب .
(٢) خب الفرس : راوح بين يديه ورجليه أى قام على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة .
(٣) الجلال (بالكسر) : جمع جل (بالضم) وهو ما تلبسه الدابة لتصان به .

تَحْسَبه من عُلاكَ مُسترِقًا * بهجةَ مَرْأًى وحسنَ مُخْتَبَرِ
حَنَّ إلى راحةٍ تَفيضُ نَدًى * فمالَ ظِلٌّ به على نَهَرِ
ترى به والنشاطُ يَحْفِزُه * ما شِئتَ من فَخْمةٍ ومن شَرَرِ
لو حَمَلَ الليلُ حسنَ دُهْمتِه[1] * أَمْتَعَ طَرْفَ المحبِّ بالسَّهَرِ
أحمَى من النجم يومَ مَعْرَكةٍ * ظَهْرًا وأَجْرَى به من القَدَرِ
إسْوَدَّ، وابيضَّ فعلُه كَرَمًا * فالتفتَ الحسنُ فيه عن حَوَرِ
فازدَدْ سَنَا بهجةٍ بدُهْمتِه * فاللّيلُ أَذْكَى لِغُرّةِ القمرِ
ومثلُ شكرى على تَقَبُّله * يجمع بين النسيم والزَّهَرِ

وقال فى فرس أَشْقر :

ومُطَهَّم شَرِق الأديمِ كأنما * أُلِفتْ مَعاطِفُه النجيعَ[2] خِضابا
طَرِبٌ إذا غَنَّى الحُسَامُ، مُمَزَّقٌ * ثوبَ العَجاجةِ جَيئةً وذَهابا
قَدَحتْ يد الهيجاءِ منه بارقًا * متلهِّبًا يُزْجِى القَتامَ سَحابا
[ورمى الحِفَاظُ به شياطينَ العِدَا * فانقضَّ فى ليل الغُبارِ شِهابا[3]]
بَسَّامُ ثغرِ الحَلْيِ تحسب أنّه * كأسٌ أثار بها المِزاجُ حَبابا

وقال[4] فى أدهمَ أغرَّ محجَّل :

وكأنما لَطَمَ الصباحُ جَبِينَه * فاقتصَّ منه فخاضَ فى أحشائِه

(١) كذا فى ديوانه (ص ٦٧ طبع مصر سنة ١٢٨٦ هـ) . وفى الأصلين : « لو وهب الليل جود همته » . (٢) النجيع : الدم، وقيل : هو دم الجوف خاصة، وفيه أقوال غير ذلك .
(٣) زيادة عن ديوانه . (٤) السياق يدل على أن هذا البيت لابن خفاجة . والصواب أنه لابن نباتة السعدى كما سيذكره له المؤلف بعد أسطر ضمن أبيات . وقد وردت هذه الأبيات فى ديوانه (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢ أدب ش) كما وردت له فى كتاب عنوان المرقصات والمطربات (ص ٤٠ طبع مصر) وابن خلكان واليتيمة، يمدح بها سيف الدولة وقد حمله على فرس أدهم أغرّ محجل .

وقال ابن نُبَاتة[1] السَّعْدىّ فى أدهم :

وأدهمَ يستمِدّ الليلُ منه * وتطلُع بين عينيه الثريّا
سَرى خلفَ الصباحِ يطير مشيا * ويَطْوِى خَلْفَه الأفلاكَ طَيّا
فلمّا خاف وَشْكَ الفَوْتِ منه[2] * تَعَلّق بالقوائم والمُحَيّا

وقال فى فرس أدهم أغرّ محجّل أُهدِى له :

قد جاءنا الطِّرْفُ الذى أهديتَه * هادِيه يَعقِد أرضَه بسمائِه[3]
أوِلايةً ولّيتنا فبعثتَه * رُمْحًا سَبِيبُ العُرْفِ عقدُ لوائه
تختال منه على أغرّ محجّل * ماء الدَّيَاجى قطرةٌ من مائه
وكأنما لَطَم الصباحُ جبينَه * فاقتصّ منه فخاض فى أحشائِه
مُتَمَهِّلًا والبرقُ من أسمائه * مُتَبرقِعًا والحسنُ من أكفائه
ما كانت النيران يكُن حرُّها * لو أن للنيران بعضَ ذكائِه
لا تَعْلَق الألحاظُ فى أعطافه * إلا إذا كفكفتَ من غُلَوائِه

(١) قال ابن خلكان فى ترجمته (ج ١ ص ٤١٨ — ٤١٩) مانصه : « أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدى . كان شاعرا مجيدا جمع بين حسن السبك وجودة المعنى، طاف البلاد ومدح الملوك والوزراء والرؤساء، وله فى سيف الدولة بن حمدان غرر القصائد ونخب المدائح ... ومعظم شعره جيد وله ديوان كبير، وكان قد وصل الى الرىّ وامتدح أبا الفضل محمد بن العميد ... ولد سنة ٣٢٧ هـ وتوفى فى ثالث شوال سنة ٤٠٥ ببغداد ودفن فى مقبرة الخيزران من الجانب الشرقى» . وراجع ترجمته أيضا فى يتيمة الدهر (ج ٢ ص ١٤٣ — ١٥٧)

(٢) كذا فى الديوان . وفى الأصلين : « منها » .

(٣) ورد هذا البيت فى عنوان المرقصات والمطربات هكذا :

قد جاءنا المهر الذى أهديته * جذلان يخلط أرضه بسمائه

وقال محمد بن الحسين الفارسيّ[1] النحويّ أحد شعراء اليتيمة فى فرس أدهمَ أغرّ :

ومطهّم ما كنت أحسَب قبله * أنّ السروجَ[2] على البوارق تُوضَعُ
وكأنما الجوزاءُ حين تَصَوّبتْ * لَبَبٌ عليه والثريّا بُرقُعُ

طرائف فى ذم الخيل

بالهُزال والعجز عن الحركة

كتب بعضهم إلى صديق له :

ما فعلتْ حِجْرُكَ[3] تلك التى * أفضلُ من فارسها الراجِلُ
عَهْدِى بها تبكى وتشكو الضَّنَى * لِما احتشاه البدن الناحِلُ
وهى تغنّينى غِنا صَبّةٍ * غايتُها وِجْدانُ ما تأكُلُ :
يارَبِّ لا أقوَى على كلّ ذا * موتٌ وإلّا فَرَجٌ عاجِلُ

وقال آخر :

يا نصر حِجْرُكَ أبلَى الجوعُ جِدّتَها * وأصبحتْ شبحًا تشكو تجافِيكا

(١) هو أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسى النحوى أحد أفراد الدهر، وأعيان العلم، وأعلام الفضل، وهو الامام اليوم فى النحو بعد خاله أبى على الحسن بن أحمد الفارسى، ومنه أخذ، وعليه درس، حتى استغرق علمه، واستحق مكانه ... » وكان خاله أوفده على الصاحب بن عباد الى جهة الرى فارتضاه وأكرم مثواه وقد نزل نيسابور دفعات وأملى بها من الأدب والنحو ما سارت بذكره الركبان وآل أمر الى أن وزر للأمير شاد عرسى سنان ثم اختص بالأمير اسماعيل بن سبكتكين بغزنة ووزر له ثم توجه الى عدّة جهات واستوطن جرجان الى أن مات وقرأ عليه أهلها، منهم الامام عبد القاهر الجرجانى وليس له أستاذ سواه . وللصاحب بن عباد مكاتبات اليه مدوّنة . مات سنة ٤٢١ هـ . (راجع يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٧٠ ومعجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٣ و بغية الوعاة للسيوطى) . وفى الأصلين : «الحسن» وهو تحريف .

(٢) كذا فى اليتيمة . وفى الأصلين : «عن» وهو تحريف .

(٣) الحجر (بالكسر) : الأنثى من الخيل .

إذا رأتْ تِبنـةً قالت مُجـاهرةً * يا تِبنُ لى حسرةٌ ما تنقضِى فيكا
ترجـوه طَوْرًا وتبكى منـه آيسـة * حـتى إذا عرَضتْ باتت تغنّيكا:
هذِى — فديتُك — حالِى قد علمتَ بها * فلِمْ يكون الجفا أَفْـديك أَفْـديكا (٦٦)

وقال آخر :

أعطيتَنى شَـهْباءَ مَهْـلُوبةً[1] * تُـذْكِرُ نُمْـروذَ[2] بنَ كَنْعانِ
سـفينةُ الحَشْر إلى عَدْوِها * أَسْـبقُ من أَشْـقرِ[3] مَرْوانِ
كأننى منهـا على زَوْرَقٍ * بـلا مجَاديفَ وسُكّانِ[4]
فانظر إلى حِجْرِى ترى شهرةً * أخبـارُها جامعُ[5] سُـفْيانِ

وقال آخر :

حملتَنى فوق مُقْرِفٍ زَمِنٍ * ليس لذى رِحلة بنَفّاعِ
جِلْدٌ على أعظُـمٍ محلَّلةٍ * فليس يمشى إلّا بدَفّاعِ
كأننى إذ علوتُ صَهْوتَه * ركبتُ منه سريرَ فُقّاعِ[6]

(١) يقال : فرس مهلوب : مستأصل شعر الذنب ، قد هلب ذنبه ، أى استؤصل جزا .

(٢) اسم ملك من الجبابرة معروف .

(٣) أشقر مروان فرس مشهور كان لمروان بن محمد آخر ملوك بنى مروان ، وكان يعدل شبديز أبرويز فى الحسن والكرم واستيفاء أقسام الجودة والعتق ثم فى اشتهار الذكر حتى صار مثلا لكل طرف عتيق وفرس كريم . ويريد به هنا السخرية (راجع ما يعوّل عليه فى المضاف والمضاف اليه للحبى المحفوظ منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٨ أدب م) .

(٤) السكان : ذنب السفينة الذى به تعدّل .

(٥) هو جامع سفيان الثورى وهو كتاب فى الفقه كبير يضرب به المثل للشىء الجامع كل شىء ، وكان أبو بكر الخوارزمى إذا رأى جامعا أو كتابا قال : ما هو إلا سفينة نوح ، وجامع سفيان ، ومخلط خراسان . (راجع ما يعوّل عليه فى المضاف والمضاف اليه) .

(٦) الفقاع : نبات يابس .

وكتب زُهَير بن محمد[1] الكاتب :

وفـرسٍ على المَسَا * وِى كلِّها مُحْتَـوِيَهْ
راكبُهـا فى نَجْـلة * كأنه فى مُخْـزِيَهْ
مُسْـتقبِحًا ركوبَها * مثلَ ركوبِ المَعْصِيَهْ
فـا مَسَاوِيها لمَنْ * عدّدها مسـتويَهْ
يا قُبْحَها مُقْبِـلةً * وقبحَهـا موليَّـهْ

وقال برهان الدين ابن الفقيه نصر :

لصاحبِ الديوانِ بِرْذَوْنَـةٌ[2] * بعيـدةُ العهـدِ من القُرْطِ[3]
إذا رأت خيلًا على مَرْبَطٍ * تقول سُـبْحانَك يا مُعْطِى
تمشِى إلى خَلْفٍ إذا ما مشتْ * كأنهـا تكتب بالقِبْـطِى

❖

هذا ما اتّفق إيرادُه مما قيل فى أوصاف الخيل من النظم . فلنذكُرْ ما وُصِفتْ به فى الرسائل المنثورة، والفِقَر المسجوعة، والألفاظ المزدوجة؛ مع ما يتصل بذلك من الأبيات فى ضمنها .

(١) قال ابن خلكان فى ترجمته (ج ١ ص ٢٧٢ — ٢٧٥) ما نصه : «أبو الفضل زهير بن محمد ابن على الملقب بهاء الدين الكاتب، من فضلاء عصره وأحسنهم نظما ونثرا وخطا، ومن أكبرهم مروءة . كان قد اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى الفتح أيوب بن الملك الكامل بالديار المصرية، وتوجه فى خدمته الى البلاد الشرقية ... أنشدنى شيئا كثيرا من شعره، وشعره كله لطيف، وهو كما يقال السهل الممتنع . وأجازنى رواية ديوانه، وهو كثير الوجود بأيدى الناس ... توفى رابع ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ ودفن بالقرافة الصغرى بتربته بالقرب من قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه فى جهتها القبلية » .

(٢) فى الأصلين : «يوذونه» وهو تحريف .

(٣) القرط : نبات تألفه الدواب وهو شبيه بالرطبة إلا أنه أجل منها وأعظم ورقا .

فمن ذلك ما حُكى أن المهـدىّ سأل مَطَر بن دَرَّاج عن أىّ الخيـل أفضلُ ؛ فقال : الذى إذا استقبلتَه قلتَ نافِر ، و إذا آستدبرتَه قلتَ زاخِر[1] ، و إذا آستعرضتَه قلتَ زافِر[2] . قال : فأىّ هذه أفضل؟ قال : الذى طَرْفه إمامُه ، وسَـوْطُه عِنانُه .

ومن هذا أخَذ المتنبي وعلىّ بن جبَلة والعسكرىّ . فقال المتنبي :

* إن أَدْبرتْ[3] قلتَ لا تَلِيلَ لهـا * ٥

وقد تقدّم .

وقال علىّ بن جَبَلة :

تحسَـبُه أقْعِـد فى آسـتقبالِه * حتى إذا آستدبرتَه قلتَ أَكَبّ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

طِرْفٌ إذا آسـتقبلتَه قلتَ حَبَا * حتى إذا آسـتدبرتَه قلتَ كَبَا ١٠

ووصف أعرابىّ فرسا أُجْرِىَ فى حَلْبة فقال لمـا أُرْسِلت الخيـلُ : جاءوا بشيطان ، فى أَشْطان[4] ؛ فأرسلوه فلمَـع لَمْعَ البرق ، وآستَهَلّ آستهلالَ الوَدْق[5] ؛ فكان أقربُ الخيلِ إليه ، تقع عينُه من بُعْدٍ عليه .

---

(١) كذا فى العقـد الفريد (ج ١ ص ٥٨) . وفى ا : « ناجز » وفى ب : « ناجر » وكلاهما تحريف . ١٥

(٢) كذا فى ديوان المعانى . وفى الأصلين : « زاخر » بالخاء المعجمة .

(٣) كذا فى ديوانه شرح العكبرى وفيما تقدّم من هذا الكتاب . وفى الأصلين هنا : « أقبلت » وهو خطأ .

(٤) أشطان : جمع شطن ، وهو الحبل الطويل الشديد الفتل يستقى به وتشدّ به الخيل .

(٥) الودق : المطر كله ، شديده وهينه . ٢٠

(٦٧) ووصف محمد بن الحسين بن الحَرُون فرسا فقال : هو حَسَن القميص ، جيِّد الفُصوص[(١)] ، وَثِيقُ القَصَب ، نقيّ العَصَب ، يبصر بأذنيه ، ويتبوّع[(٢)] بيديه ، ويداخل رجليــه .

ووصف آخرُ فرسا فقال : الريح أَسـيرةُ يديه ، والظَّلِيم[(٣)] فَريسة رجليه ؛ إن حَرّ[(٤)] ٱستعرَ فى ٱلتهابه ، وإن جَدّ مَرَق من إهَابه .

وكتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون مع فرس أهداه اليــه : قد بعثت إلى أمير المؤمنين فرسًا يَلْحق الأرنبَ فى الصَّعْداء[(٥)] ، ويُجَاوِز الظباءَ فى الٱستواء ، ويَسْبِق فى الحُدُور جَرْىَ المـاء ؛ إن عُطِف حار ، وإن أُرْسِـل طار ؛ وإن حُبِس صَفَن[(٦)] ، وإن ٱستُوقِف فَطِن ؛ فهو كما قال تأبَّطَ شَرًّا :

ويَسْبِق وَفْدَ الريح من حيث يَنْتَحِى * بمُنْخَـرِقٍ من شَـدِّه المتتابِع

ووصف آخر فرسا فقال : كأنه إذا علا دعاء ، وإذا هبَط قضاء . كأنه محلولٌ من قول الشاعر فى صفة فرس :

مِثْلُ دعاء مُستجابٍ إن علا * أو كقضاءٍ نازِلٍ إذا هبَـطْ

ووصف أيّوب بن القِـرِّيَّة فرسا فقال : أَسِيل الخـدّ ، حَسَن القَدّ ، يَسْبِق الطَّرْف ، ويَسْتغرِق الوصف .

(١) الفصوص من الفرس : مفاصل رديتيه وأرساغه ، وفيها السلاميات وهى عظام الرسغين . (راجع لسان العرب مادة فصص) .

(٢) تبوّع الفرس فى جريه : أبعد الخطو بيديه . قال اللحيانى : والله لا تبلغون تبوّعه ، أى لا تلحقون شأوه فى خطاه .

(٣) الظليم : الذكر من النعام .

(٤) كذا فى أ وحرّ : اشتدّ . وفى ب : «حرك» .

(٥) يقال : أكمة ذات صعداء : يشتدّ صعودها على الراقى .

(٦) صفن الفرس : قلب أحد حوافره وقام على ثلاث قوائم .

وقال محمد بن عبد الملك لصديق له : اِبْغِ لى فرسًا بِرِذَوْنًا، وَثيق اليدين، قائم الأذنين، ذَكَر العينين، يأنَف من تحريك الرجلين .

ومن الكلام الجيِّد فى وصف الخيل ما أنشأه الشـيخ ضياء الدين بن القُرْطُبىّ من رسالته التى كتبها إلى الصاحب الوزير شرف الدين الفائِزِىّ ، وقد تقدّم ذكرها فى باب الكتّاب فى الرسائل، فلا فائدة فى إعادتها؛ وإنمـا أوردنا ذكرَ الخيل هناك لأن الرسالة تشتمل على أوصاف الخيل والعساكر والسلاح وغير ذلك، فأردنا بإيرادها بجملتها ثمّ أن يكون الكلام فيها سياقُه يتلو بعضُه بعضا. وهذه الرسالة فى السِّفْر السابع[(١)] من هذه النسخة .

* * *

ومن إنشاء المولى الفاضـل العالم الأديب البليـغ شِهاب الدين أبى الثَّناء محمود ابن سليمان الحَلَبى الكاتب رسالةً[(٢)] فى الخيل عمِلها تجربةً ورياضةً لخاطره، ولم يكتب بهـا[(٣)]؛ سمعتُها من لفظه، ونقلتُها من خطّه؛ وهى :

أدام الله إحسان الجناب الفلانى، ولا زالت الآمال فى أمواله مُحَكَّمه، والأمانى كالمحامِدِ فى أبوابه مخيِّمه، والمعالى كالموالى إليه دون غيره مسلَّمه، والمكارم تُغريه فى الندى حتى يبـذُل ماحُبِّب إليه من الخيـل المسوَّمه . المملوك يقبّل اليـد التى ما زالت بَسْـطتُها فى الكرم عَلِيَّه ، وقَبْضتُها بتصريف أعِنَّة الزمن مَلِيّـه؛ ومواهبُها تتنوّع فى الندَى، ومذاهبُها فى الكرم تَهَب الأولياء ماتهابه العِـدا . ويُنْهِى وصولَ

(١) راجع هذه الرسالة ونسب منشئها فى الجزء الثامن من هذه الطبعة (ص ٦٣)

(٢) راجع هـذه الرسالة فى كتاب حسن التوسل الى صناعة الترسل لمنشئ هذه الرسالة (ص ٩٩ طبع المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٨٨١ م) وصبح الأعشى للقلقشندى (ج ٨ ص ٣٨٦ طبع بولاق) .

(٣) فى العبارة نقص . والذى فى حسن التوسل « ... فمن ذلك كتاب أنشأته فى أوصاف الخيل، ولم يكتب به على وجه امتحان الخاطر وهو ... » .

ما أَنْعم به من الخيـل التى وُجِد الخيرُ فى نَوَاصِيها، وأُدِّخِرتْ صَهَواتُها حصونًا[1] يعتَصَم فى الوَغَى بصَيَاصِيها :

فمن أشهبَ غَطّاه النهـار بحُلّته ، وأوطاه الليـلُ على أَهِلّته؛ كأنّ أذنَه جِلْفَـة[2] قَلَم، أو شَـقّةُ جَلَم؛ يُدْرِك بها الوَهْم، ويحقِّق فى الليـل البَهِيم مواقعَ السهم؛ يتموّج أَدِيمُه رِيًّا؛ ويتأرَّج رَيًّا ، ويقول مَن ٱستقبله فى حَلْيِ لجامه : هذا الفجر قد طلَع بالثريّا ؛ إن ٱلتفّت المَضَايِقُ ٱنسابَ ٱنْسِيَابَ الأَيْم، وإن ٱنفرجت المسالكُ مَرّ مرورَ الغَيْم ؛ كم أبصر فارسُه يومًا أبيض بطلعتِه، وكم عاين [طَرْفُ[3] السِّنان] مقاتِلَ العِدا فى ظلام النَّقْع بنور أشِـعّتِه؛ لا يَسْتَنُّ داحِسٌ[4] فى مِضْماره، ولا تطمَع الغَـبْراءُ فى شَقّ غُباره، ولا يظفَر لاحِقٌ من لَحَاقه بِسِوى آثارِه؛ تُسابِق يداه مَرامِيَ طَرْفِه، ويُدرِك شَوارِدَ البروق ثانيًا من عِطْفِه .

ومن أدهمَ حالى الشَّكِيم، حالِكِ الأَدِيم، له مقلةُ غانيةٍ وسالفةُ رِيم؛ قد ألبسه الليلُ بُرْدَه، وأطلع بين عينيه سعدَه؛ يظنّ مَنْ نظر إلى سواد طُرّتِه، وبياضِ حُجوله وغُرّته؛ أنه توهّم النهارَ نهرًا فخاضه، وألقى بين عينيه نقطةً من رَشَاش تلك المَخَاضه؛ ليّن الأعطاف، سريع الٱنعطاف؛ يُقْبِل كالليل، ويَكُرّ كجُلْمود صخرٍ حَطّه السَّـيْل؛ يكاد يَسبِق ظِلَّه، وإذا جارَى السهمَ إلى غَرَضٍ بلَغه قبله .

ومن أشـقرَ غَشّاه البرقُ بلَهَبِـه، ووشّاه الأصيلُ بذَهَبِـه ؛ يتوجّس ما لديه برَقِيقتَـين، وينفُضُ وَفْرَتيـه عن عَقِيقتين، ويُنزل عذارَ لجامه من سالِفتَيْـه على

(١) كذا فى حسن التوسل وصبح الأعشى . وفى الأصلين : «حصنها حصونا» ، وهو تحريف .

(٢) الجلفة من القلم : من مبراه الى سنه .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل وصبح الأعشى .

(٤) داحس والغبراء ولاحق : أسماء أفراس تقدّم الكلام عليها .

شَقيقتين؛ له من الرّاح لونُها، ومن الرياح لِينُها؛ إن جرى فَبَرْقٌ خَفَق، و إن أسرع[(١)] فَهِلالٌ على شَفَق؛ لو أدرك أوائلَ حربِ آبنِ وائلٍ لم يكن للنَّعامة[(٢)] نباهه، ولا للوَجيهِ وجَاهـه، ولكان[(٣)] تركُ إعارة سَكَابِ[(٤)] لؤماً وتحريمُ بيعها سَـفاهه؛ يركُض ما وجد أرضا، ولو آعترض [به][(٥)] راكبُه بحرًا وثَبه عَرْضا .

ومن كُمَيْتٍ نَهْد، كأنّ راكِبَه فى مَهْد؛ عَنْدَمِيّ الإهاب، شَمَالِيّ الذَّهاب؛ "يَزِلّ الغـلامُ[(٦)] الخِفُّ عن صَهَواته"[(٧)]، وكأنّ نَغَمَ الغَرِيض ومَعْبَدٍ فى لَهَواتِه؛ قصير المَطَا، فَسيح الخُطَا؛ إن رُكِب لصَيْدٍ قَيَّدَ الأوابِد، وأعجَلَ عن الوثوب الوَحْشَ اللّوابِد؛ و إن جُنِبَ إلى حربٍ لم يَزْوَرَّ من وَقْعِ القَنَا بلَبَانِه، ولم يَشْكُ لو عُلِّم الكلامَ بلسانه، ولم يُردون بلُوغِ الغاية — وهى ظَفَرُ راكِبِه — ثانياً من عِنَانِه؛ و إن سار فى سَهْلٍ آختال براكِبِه كالثَّمِل، و إن أَصْعَد فى جبل طار فى عِقَابِه كالعُقَابِ وآنحطّ فى مَجَارِيه كالوَعِل؛ متى ما تَرَقّ العينُ فيـه تَسَهّل، ومتى أراد البرقُ مجـاراتَه قال له الوقوفُ عند قَدْرِه : ما أنت هناك فَتَمَهّل .

---

(١) كذا فى حسن التوسل وصبح الأعشى . وفى الأصلين : «أسرح» بالحاء المهملة .

(٢) النعامة : فرس الحارث بن عباد . والوجيه : من خيل غنى بن أعصر .

(٣) فى الأصلين : « ولكن ترك إغارة ... » ، وهو تحريف .

(٤) سكاب (كقطام) : فرس عبيدة بن ربيعة . وهو يشير الى قوله فيها :

أبيت اللعن إن سكاب ليست * بعـلق يستعار ولا يباع
سليلة سابقين تناجلاها * يضمهما اذا نسبا كراع
ولا تطمع أبيت اللعن فيها * ومنعكها بوجه يستطاع

(٥) الزيادة عن حسن التوسل وصبح الأعشى .

(٦) هذا شطر بيت من معلقة امرئ القيس ، وهو :

يزل الغلام الخف عن صهواته * و يلوى بأثواب العنيف المثقل

(٧) المطا : الظهر .

ومن حبشيّ أصفر يروقُ العَيْن ، ويَشُوق القلبَ بمشابهته العَيْن[1]؛ كأنّ الشمس ألقتْ عليه من أشعّتها جِلالا ، وكأنه نَفَر من الدُّجَى فاعتنق منه عُرْفًا واعتلق أحْجالا ؛ ذى كَفَلٍ يَزين سَرْجه ، وذَيْلٍ يَسُدّ إذا استدبرتَه منه فَرْجه ؛ قد أطلعتْه الرياضةُ على مُرَاد فارسِه ، وأغناه نُضَارُ لونِه ونَضارتُه عن ترصيع قَلائِده وتوشيع مَلابِسه ؛ له من البَرْق خِفّةُ وطْئِه وخَطْفُه ؛ ومن النسيم لِينُ طُرُوقه[2] ولُطْفُه ، ومن الريح هَزِيزُها إذا ما جرى شأوَين وابتَلّ عِطْفُه ؛ يطير بالغَمْز ، ويُدْرِك بالرِّياضة مَواقِعَ الرَّمْز ، ويغدو كألِف الوصل فى استغنائه مِثلَها عن الهمْز .

ومن أخضَرَ له من الروض تَفْوِيفُه ، ومن الوَشْى تقسيمُه وتأليفُه ؛ قد كساه الليلُ والنهارُ حُلّتَىْ وَقَارٍ وسَنَا ، واجتمع فيه من البياض والسواد ضِدّانِ لمّا استجمعا حَسُنَا ؛ ومَنَحه البازِى حُلّةَ وَشْيِه ، وأعطته[3] نُفُوحُ الرياحِ ونَسَماتُها قوّةَ رَكْضِه وخِفّةَ مَشْيِه ؛ يُعطِيكَ أفانِينَ الجرِى قبل سُؤاله ، ولمّا لم يُسابِقْه شىء من الخيل أغراه حبُّ الظَّفَر بمسابقة خَيالِه ؛ كأنه تفارِيقُ شيب فى سَوادِ عِذَار ، أو طلائِعُ فجرٍ خالط بياضُه الدُّجَى ، فما سَجَى ، ومازج ظلامُه النهار ، فما أنار ؛ يختال لمشاركة اسم الجرى بينه وبين الماءِ فى شدّة السَّيْر كالسيل ، ويَدُلّ بسَبْقه على المعنى المشترك بين البروق اللَّوامِع وبين البَرْقِيّة من الخيل ، ويُكَذِّب المَانَوِيّة[4] لتولُّد اليُمْن فيه بين إضاءةِ النهارِ وظُلْمة الليل .

ومن أبلَقَ ظَهْرُه حَرَم ، وجَرْيُه ضَرَم ؛ إن قَصَد غايةً فوجودُ الفضاء بينه وبينها عَدَم ، وإن صُرِّف فى حربٍ فعَمَلُه ما يشاء البَنانُ والعِنانُ وفِعلُه ما تريد الكَفُّ

(١) العين هنا : الذهب المضروب .

(٢) فى حسن التوسل وصبح الأعشى : «مرورِه» .

(٣) فى حسن التوسل وصبح الأعشى : «ونحلته الرياح ... » .

(٤) المانوية : قوم ينسبون الى مانى ، وهو رجل يقول : الخير من النهار والشرّ من الليل .

والقَدَم؛ قد طابَقَ الحسنُ البديعُ بين ضِدّىْ لونِه، ودلّت على اجتماع النَّقيضَيْن علّةُ كَوْنِه؛ وأشـبَهَ زَمَنَ الرَّبيعِ باعتدال الليلِ فيه والنهار، وأخذ وَصْفَ حُلَتَى الدُّجَى فى حالَتَيِ الإبدارِ والسِّرار(١)؛ لا تَكِلُّ مَنَاكِبُه، ولا يَضِلّ فى حَجَرات(٢) الجيوش راكِبُه، ولا يحتاج ليلُه المشرِقُ بمجاورة نهارِه إلى أن تُسترشَدَ فيه كواكِبُه؛ ولا يُجارِيه الخيال فضـلًا عن الخيـل، ولا يَمَلّ السُّرَى إلّا إذا ملّ مُشيِهاه: النهارُ والليل، ولا تَتَمَسّك البروق اللوامع من لَحَـاقِه بسوى الأثرِ فإنْ جهـدتْ فبالذَّيْل؛ فهو الأَبْلَق الفَرْد، والجواد الذى لُمجَـاريه العكسُ وله الطَّرْد؛ قد أغنته شُهْرةُ نَوْعِه فى جِنْسه عن الأوصاف، وعدَلَ بالرياح عن مباراته سلوكُها له(٣) فى الاعتراف جادّةَ الإنصاف.

فَتَرَقَّى المملوكُ إلى رُتَب العِزّ من ظهورها، وأعدّها لِخِطْبة الجنان إذ الجهادُ على(٤) مثلها من أنفس مُهُورِها؛ وكَلِفَ بركوبها فكلّما أكمله عاد، وكلّما أمّله شَرِهَ إليـه فلو أنه زَيْدُ(٥) الخيلِ لمَـا زاد؛ ورأى من آدابها مادل على أنها من أكرم الأصائل، وعَلِمَ أنها ليومَىْ سِلْمه وحَرْبِه حَنِيّة(٦) الصائدِ وُجَّنةُ الصائل؛ وقابلَ إحسانَ مُهْـدِيها بثنائه ودُعائِه، وأعدّها [فى الجهاد](٧) لمقارعة أعداء الله تعالى عليها وأعدائه؛ والله تعالى

(١) الابدار: امتلاء القمر وكماله، ويكون ذلك ليلة يكون القمر بدرا. والسرار: الليلة التى يستسر فيها القمر، أى يغيب، وهى آخر ليلة فى الشهر. (٢) الحجرة (بالفتح): الناحية.

(٣) كذا فى حسن التوسل وصبح الأعشى. وفى الأصلين: «سلوكه فى الاعتراف له».

(٤) فى حسن التوسل وصبح الأعشى: «إذ الجهاد عليها».

(٥) هو زيد بن مهلهل بن يزيد، كان فارسا مغوارا مظفرا شجاعا بعيد الصوت فى الجاهليـة وأدرك الاسلام، ووفد الى النبى صلى الله عليه وسلم فلقيه وسرّ به وقرظه وسماه زيد الخير، وهو شاعر مقلّ مخضرم معدود فى الشعراء الفرسان. وسمى زيد الخيل لكثرة خيله (راجع ترجمته فى الأغانى ج ١٦ ص ٤٧ – ٦٢ طبع بولاق).

(٦) الحنية: القوس. وفى الأصلين: «حنة» بالحاء المهملة، ولعلها محرفة عما أثبتناه.

(٧) الزيادة عن حسن التوسل وصبح الأعشى.

يشكر بِرّه الذى أفرده فى الندى بمَذَاهِبِه، وجعل الصّافِناتِ الجِيادَ من بعض مواهبِه. والله أعلم بالصواب .

* * *

ومن إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقى[1] بن عبد المجيد اليمانى رسالةٌ (٦٩)
٥ فى مثل ذلك أنشأها فى سنة ستٍّ أو خمسٍ وسبعمائة . وسمعتُها من لفظه، ونقلتها من إملائه؛ وهى :

يقبِّل اليد العاليةَ الفلانيّة، لا زالت تُرْسِل إلى الأولياء سحائبَ كرمها، وتقلِّد الأَوِدّاءَ قلائدَ نِعَمِها، ولا بَرِح المُرْهَفانِ طِرازَىْ حاشِيتِها وخَدَمِها، حتى يَنُوب القلمُ عن صَلِيل مُرْهَفِها والصَّمْصَامُ عن صَرِير قَلَمِها، لتتساوى فى الإنفاذ مَواقِعُ كَلِمِها
١٠ ومَرَاسِمُ كَلِمِها؛ ولا فتِئ ظاهِرُها قِبْلةَ القُبَل وغايةَ الآمال، و باطنُهَا مَوْرِد الكرمِ ومصدرَ الأموال .

ويُنْهِى أنه لما كانت العزائم الفلانيّة طامحةً إلى أَسْنَى المَعَالى، مُطْلِعةً من مناقبها أهلّةً تُخْجِل بدورَ الليالى؛ متيِّمةً بٱكتساب المَفاخر، عميدةً بتشييد المآثر؛ مائلةً الى ما يزيِّن المَقَانِب[2]، ويطرِّز الكتائب؛ مُصْغِيةً إلى ما يرد جنابها من جنايتها لاغير[3]،

١٥ (١) هو الأديب البارع تاج الدين أبو المحاسن عبد الباقى بن عبد المجيد بن عبد الله . ولد بمكة المشرفة فى رجب سنة ٦٨٠هـ . وكان إماما فاضلا أديبا بليغا . قدم القاهرة ثم رحل إلى دمشق وأقام بها مدة سبع سنين يقرئ الطلبة المقامات الحريرية والعروض وغير ذلك من علوم الأدب ، ثم سافر إلى اليمن وأقام بها مدة ، وولى الوزارة ثم عزل وصودر، ثم عاد إلى القاهرة وولى التدريس بالمشهد النفيسى وشهادة البيمارستان المنصورى ، ثم توجه إلى طرابلس ودمشق فلم تطل مدته وعاد إلى القاهرة ومات بها سنة ٧٤٣ ؛ وله عدّة
٢٠ تآليف منها : مطرب السمع فى شرح حديث أم زرع ، ولقطة العجلان المختصر فى وفيات الأعيان . وعمل تاريخا للنحاة واختصر الصحاح . وسمع منه البرزالى والذهبى — وذكراه فى معجميهما — وابن رافع وخلائق وكتب عنه الشيخ أبو حيان وأثنى عليه كثيرا (راجع شذرات الذهب والمنهل الصافى) .

(٢) المقانب : جمع مقنب، وهو من الخيل مابين الثلاثين الى الأربعين، وقيل : زهاء الثلاثمائة .

(٣) كذا بالأصلين .

وكيف لا تكون كذلك وحبُّ الخيـلِ من الخير؛ ناظرةً إلى ما يصل من كرائمها، مهتديةً بنجوم غُرَرها مشـغوفةً بتحجيل قوائمها؛ عاشقةً لاتساع صدورها، ورِقّة نحورها.

خدَم المـلوكُ الرِّكابَ العـالى بإنفاذ خيلٍ اتّحدتْ فى الصـفات، وتباينت فى الشِّيات؛ وصدَرتْ كروضةٍ تفتَّحتْ أزهارُها، وزها نُوَّارُها، وأشرقتْ أنوارُها؛ بل كعرائس تَختالُ فى بُرُودِها، أو كجواهرَ تنافستْ فى عقودِها؛ ملكتْها يمينُ المملوك فكانت كعدد أصابعها، وأحرزتْها هِمّتُه فنزعتْ فى الحزم إلى مَنازِعها؛ لها من الظباء أعناقُها، ومن النعام أسـواقُها[1]؛ ومن البأس قوةُ جَنانِها، ومن الظفر مَثْنَى عِنانِها؛ ومن الإقبال غُرَر نَواصِيها، ومن إدراك الغرض جُلُّ أمانيها؛ ذَوَاتُ ضَـبْح[2]، ومُورِياتُ قَدْح[3]؛ تَكْبُو الريحُ فى غاياتها، ويُقِرّ البرقُ بمُعْجِزاتِها؛ مداخَلةُ الخَلْق رَحْبة اللَّبَان[4]، مستغنيةٌ عن الهَمْز بتحريك العِنان؛ تَقارَب ما بين قَطَاها[5] ومَطَاها[6]، وتَباعَد ما بين قَذَالِها[7] وصَلَاها[8]؛ سما عنقُها وأطرق جبينها[9]، وتنزّهتْ عن المعايب فلا صَكَكٌ يَشِينُها؛ يا حَبَّذا أَشْهَبُها وقد تجلَّلتْ بالشُّهُب ذاتُه، وادّرعتْ أَشْهَبَ الصبح شِيَاتُه؛ زَبَرْجَدِىّ الحـافِر لؤلؤىّ الأَدِيم، له أَيْطَلا ظبى وساقا ظَليم[11]؛ كغمامةٍ بارِقُها قَـدْحُ سَنَابِكِه، أو كسَيْلٍ طَمَّ مُفْعِمُه واسِعَ مسالِكِه؛ استغنَى بجَوْهر شِيَاتِه عن كل مُذْهَب،

(١) لم ينص فى كتب اللغة على هذا الجمع، والذى فيها سوق وسيقان وأسوق.

(٢) الضبح: صوت أنفاس الخيل عند عدوها. (٣) الايراء: إخراج النار. والقدح: الضرب، أى التى تورى النار من صدم حوافرها للحجارة. (٤) اللبان: الصدر.

(٥) القطا: العجز، وقيل: هو ما بين الوركين، وقيل: هو مقعد الردف.

(٦) المطا: الظهر. (٧) القذال: جماع مؤخر الرأس. (٨) الصلا: وسط الظهر.

(٩) فى الأصلين: «أطرب حنينها». (١٠) الصكك: اضطراب الركبتين والعرقوبين.

(١١) الظليم: ذكر النعام.

فما لمُذْهَب فى الانتساب عنه مَذْهب ؛ إن آمتطَى الفارسُ قَطَاتَه طار بنَسْر حافِره ، وإن أشار إلى غَرَض أدركه بمجرّد الوَهْم لا بِالنظر إلى ناظِره ؛ أميالُ البَيْداءِ كِيلٍ بين عينيه ، وترادُفُ رمالِها كذَرُورٍ بين جفنيه ؛ اِستولَى على السَّبق[1] وأَحْرز خَصْلَه ، وكيف لا وقد حاز اثنتَىْ عشرةَ خَصْله .

يتلوها أشقرُها وقد نُجِّد[2] عقيقا ، أو آلتحف شَقِيقا[3] ؛ أو كوَجْنة قد آحمرّتْ من الخجل ، أو كوردة ناظرتْ بخَفَرِها نَرْجِسَ المُقَل ؛ تناسبتْ أجزاؤه فى المَلاحه ، وتساوت مراتبُه فى الصَّباحه ؛ وجاهةُ الوجيه ناطقة من المُحَيّا ، ومَسيلُ غُرّته كتصويب الثريّا ؛ حُجِّل بالجَوْزاء وأُسْرِج بالهِلال ، وأُلْجِم بالمَجَرّة فما لابن ذُكاء[4] فى الإشراق عليه مَجَال ؛ إن أُطْلق والريحَ فى سَنَن مَيْدان ، رأيتَ الريحَ كُمَيتٍ خَلَفته الجيادُ يومَ الرِّهان ؛ تَنْهَب الفَلاةَ حوافرُه ، وتُحْرِز قَصَبَ السبقِ بوادِرُه . يَتْبعه كُمَيت كقطعة جمر ، أو ككأس خمر ؛ اسودَّ ذَنَبُه وعُرْفُه ، وآختال كالنَّشْوان فكأنما أسكره وصفُه ؛ حكَتْ أُذُناه قادِمتَىْ حَمَامَه ، أو المحرَّف من أقلام قُدَامَه ؛ قصرتْ عن سعيه الخيول فسابَق الظِّلال ، ونشأ مع النَّعام فلا يألَف غيرَ الرِّئال ؛ كأنّ الصَّبا ألقتْ إليه عِنانَها قَسْرا ، فتَخُبّ بسَرْجه مرّةً وتُناقِل أُخرى . مقرونًا بأصفرَ كالدِّينار ، قد أُفرِغتْ عليه حُلّةُ نُورٍ لانار ؛ طال منه الذيلُ واتّسع الدِّبَان ، فكأنما هو نارٌ على يَفَاعٍ شُبّت للضِّيفان ؛ جلّلته الشمس بأنوارها ، وأهدتْ إليه الرِّياضُ آصفرارَ أزهارها ؛ تُشهدك عند رؤيته يومَ العَرْض ، فروجُ قوائمه سماءً على أرض ؛ إن هَمْلَجَ لا ذِتِ الريحُ بالشّجر ، وإن عدا قَصُر عن إدراكه رؤيةُ

(١) السبق (محرّكة) : الخطر يوضع بين أهل السباق وهو ما يتراهنون عليه . وأحرز خصله : غلب على الرهان . (٢) نجد : زين . (٣) الشقيق : نور أحمر . (٤) ابن ذكاء : الصبح .

(٧٠) البصر، نَجَاشِيّ النِّجار[١]، وحَليف الوِجار[٢]، كأنما خُلق من الحَزْم شطرُه، ومن العِزّ ظهرُه، ومن الإقبال غُرّتُه، ومن كنوزِ المَفاخرِ سُرّتُه، يُقِرّ أعوجُ[٣] بنى هِلالٍ بفضله، ويَقْفو حَرُونُ[٤] مُسْلِمٍ أثرَ ظِلّه. مختـوماً بأدهمَ كصَخْرةِ سَيْل، أو كقِطْعةِ ليـل، خاض فى أحشاء الصَّباح فلطَم جَبِينَه، وسابَق الفلكَ فقيّد بالجَوْزاء رِجلَيْه ويسارَه وأطلَق يمينَـه، عَرِيضُ الكَفَل والمَنْخَرَيْن، دقيقُ القَـوائم والساقَيْن، كأنمـا أُشْرِب لونُه سوادَ القلب والبصر، وكأنما النصرُ قَيْسٌ[٥] وهو ليلى يَحْضُره حيث حضَر، لو كُتِب اسمُه على رايةٍ لم تَزَلْ تَقْدُم فتوحا، أو لَمَعَتْ بوارقُ سَنَابِكه رأيتَ زِنْجِيًّـا جَرِيحا، طابقتْ أخبارُه لَخَبَره، وسبقتْ رِجلاه فى العَـدْوِ مَوَاقِـعَ نَظَره، لا يَعْلَق غُرَابٌ[٦] بغباره، ولا تستنّ[٧] النَّعامة فى مضماره.

ولنختم هذا الباب بذكر فائدة، وهى دواء للخُلْد[٨]: يؤخذ خمسون طائرًا من الدَّراريح تُسحَق بحجر ولا تُمَسّ باليد، وتجعل فى قِدْر صغيرة جديدة، ويُصَبّ عليها من المـاء والزيت ما يغمُره، ويُغْلَى عليه حتّى ينعقد، ويُضاف إليه يسيرٌ من القَطِران الأسود، ويوضع على النار، فإذا فتَر فتُلَفّ مُشَاقةٌ على عُود ويُدْهَن به أمّ الخُلْد قبل قطعه بالنار، ثم يدهن بعد ثلاثة أيام بالشَّيْرَج والصِّيلَقون وماء الورد، فإنه مجرّب.

---

(١) النجار: اللون، ويطلق أيضا على الأصل والحسب.

(٢) كذا بالأصلين، والوجار: الجحر للضبع والأسد ونحوهما من الوحوش.

(٣) فرس انجبت منه خيول العرب، وعامة جيادها تنسب اليه. وقد تقدّم ذكره.

(٤) كذا فى أنساب الخيل لابن الكلبى والمخصص واللسان وتاج العروس، وهو فرس مسلم بن عمرو الباهلى (والد قتيبة بن مسلم) وقد سبق ذكره. وفى الأصلين: «آخرون»، وهو تحريف.

(٥) يريد قيس بن الملوح وهو مجنون بنى عامر صاحب ليلى. (٦) غراب: اسم فرس لغنىّ.

(٧) يقال: استن الفرس فى المضمار: اذا جرى فى نشاط.

(٨) الخلد: داء من أخطر الأدواء، وهو فى الفرس بمنزلة الجذام فى الإنسان.

الباب الثانى من القسم الثالث من الفن الثالث
فى البغال والحمير

ذكر ما قيل فى البغال

قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان: إنّ البغل لا يعيش له ولد، وليس بعقيم؛ ولا يبقى للبغلة ولد، وليست بعاقر. وهو أطول عمرا من أبويه وأصبر. ويقال: إنّ أوّل من نتج[1] البغال "قارون"، وقيل: "أفريدون"[2] أحد ملوك الفرس الأُوَل. والبغل يوصف برداءة الأخلاق والتلوّن. ومن أخلاق البغال الإلْف لكل دابّة. ويقال: إنّ أبوال الإناث تنقية لأجسادها. والإناثُ أجملُ من الذكور. قال بعض الشعراء[3]:

عليكَ بالبغلةِ دون البَغْلِ * فإنها جامعةٌ للشَّمْلِ
مَرْكب قاضٍ وإمامٍ عدلِ * وعالِمٍ وسيِّدٍ وكَهْلِ
تصلُح للرَّحْل وغيرِ الرحل

والبغال من مراكب الرؤساء، والسادة النجباء، والقضاة والعلماء. وهم يُرَجِّحون إناثَها على ذكورها؛ حتى إن المغاربة لا يركبون البغال الذكور ألبتة وإنما

(١) فى الأصل: «اسحب» ولعلها محرفة عما أثبتناه. (راجع حياة الحيوان للدميرى ج ١ ص ١٧٣ طبع بولاق).

(٢) أفريدون هو سادس ملوك الطبقة الأولى من الفرس وهى الفيشدادية. وفى نسبه اختلاف. وهو الذى قتل الضحاك الظالم ونمرود بن يالش وشرّد النبط. وهو أوّل من ذلل الفيلة وامتطاها، وأنتج البغال واتخذ الاوز والحمام وعمل الترياق، وردّ المظالم، وأمر الناس بعبادة الله تعالى والإنصاف والاحسان، وردّ على الناس ما كان الضحاك قد غصبه من الأرض، وجعل دار مملكته بابل. (راجع دائرة المعارف للبستانى ج ٤ ص ٢٦).

(٣) كان الأنسب أن يقال: «بعض الرجاز».

يجعلونها برسم حمـل الزِّبْل . أخبرنى قاضى القضاة جمال الدين أبو محمـد بن سليمان بذلك، وقال : وإذا طلب ولىّ الأمر البغـل لأحدٍ كان ذلك دلالةً على إشهاره (١) وتجريسه (٢) عليه . قال : فلا يركب البغل الذكَر عندنا إلا زبّالٌ أو مُجَرَّس . وأعظم ما تُفضّل به إناثُ البغال على ذكورها أنّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ركبها وملكها، وماورد أنه ملك بغلًا ولا ركبه . ٥

ولنذكرْ بَغَلاتِ رسول الله صلى الله عليه وسـلم تفضيلًا لهذا الحيوان وتشريفا، وتنويهًا بذكره وتعريفا، والله أعلم .

ذكر بَغَلات رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغلةٌ شَهْباء يقال لها "دُلْدُل"، أهداها له المُقَوْقِس . ذكر ذلك ابن قُتَيبة وابن سعد، فقال ابن سعد ما هذا نصه : "وبعث رسول الله صـلى الله عليه وسلم حاطِبَ بن أبى بَلْتَعَةَ اللَّخْمِى (٣)، وهو أحد الستة، إلى ١٠

(١) فى شرح القـاموس (مادة شهر) : « ومن المجـاز أشهرت فلانا استخففت به وفضحته وجعلته شهرة » اهـ . (٢) التجريس بالقوم : التسميع بهم والتشهير .

(٣) هم كما أوردهم البخشى فى رشحات المداد : عمرو بن أميـة الضمرى بعثه إلى نجاشى الحبشة، ودحيـة بن خليفة الكلبى بعثه إلى هرقل الروم ، وعبـد الله بن حذافة السهمى بعثـه إلى كسرى ملك فارس، وحاطب بن أبى بلتعة اللخمى بعثه إلى مقوقس مصر، وشجاع بن وهب الأسـدى بعثه إلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى ملك دمشق ، وسليط بن عمرو العامرى بعثه إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة . وزاد ابن هشام فى السيرة أنه بعث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعياذ ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان، وبعث العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، وبعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى الى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن . ١٥ ٢٠

قال البخشى : إن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية سنة ست أراد أن يكتب الى الأطراف فاتخذ خاتما من فضة نقشه «محمد رسول الله» ثلاثة أسطر وختم به الكتب ووجه بها الرسل، فخرج منهم ستة فى يوم واحد وذلك فى المحرم سنة سبع . وقد أورد من هذه الكتب كتابه الى النجاشى وكسرى والحارث الغسانى وهوذة بن على . فارجع اليها فيه (ص ١٢٩ — ١٣٣) .

المُقَوْقِس صاحب الإسكندريّة عظيم القِبط يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابا[1]؛ فأوصل إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأه وقال له خيرا؛ وأخذ الكتابَ فجعله فى حُقّ من عاج وختَم عليه ودفَعه إلى جاريته؛ وكتب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم: «قد علمتُ أن نبيًّا قد بَقِيَ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان فى القِبْط عظيم، وقد أهديت إليك كُسْوة وبغلة تركبها». ولم يَزِدْ على هذا ولم يُسْلِم. فقبِل رسول الله صلى الله عليه وسلم هدِيّتَه، وأخذ الجاريتيْن: مارِيَةَ أمَّ إبراهيمَ ابنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأختَها سِيرِينَ، وبغلةً بيضاءَ لم يكن فى العرب يومئذ غيرُها وهى "دُلْدُل". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضَنّ الخبيثُ بمُلْكه ولا بقاءَ لمُلْكه".

وذكر ابن سعد أيضا قال: كانت "دُلْدُل" بغلةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّلَ بغلة رُئِيتْ فى الإسلام، أهداها له المُقَوْقِس وأَهْدى معها حماراً يقال له "عُفَير"؛ فكانت البغلة قد بقيت حتى كان زمنُ معاوية. وفى لفظ: وكانت

(١) نص هذا الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك إثم كل القبط (يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)». قال المرحوم حفنى بك ناصف فى كتابه تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية: وقد عثر الباحثون على الكتابين المرسلين إلى المقوقس والمنذر بن ساوى وأخذوا صورتيهما بالتصوير الشمسى وطبعوهما. أما الكتابان أنفسهما فمحفوظان فى الآستانة وفينا، فى الأولى كتاب المقوقس وفى الثانية كتاب المنذر. ونسخة كتاب المقوقس محفوظة بدار الآثار النبوية وكان قد عثر عليها عالم فرنسى فى دير بمصر قرب إخميم فى زمن سعيد باشا والى مصر، وسمع بحديثها السلطان عبد المجيد فاستقدم ذلك العالم وعرضها على العلماء فقرروا أنها هى بعينها كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس، فاشتراها منه بمال عظيم.

شهبـاءَ، وكانت بيَنْبُع حتى ماتت ثَمَّ . وفى لفظ : وكانت قد كَبِرتْ حتى زالت أسنانها، وكان يُحَشّ لها الشعير .

وروى ابن سعد أيضا عن محمد بن عمر الأَسْلَمىّ قال: حدّثنا أبو بكر بن عبد الله ابن أبى سَبْرة عن زامِل بن عمرو قال : أَهْـدى فَرْوة بن عمرو إلى النبىّ صـلى الله عليه وسلم بغلة يقال لهـا "فِضّة" فوهبها لأبى بكر . وكذلك قال البَـلَاذُرِىّ . وقد يقال: إن "دُلْدُل" من هديّة فَرْوة، وإن "فِضّة" من هدية المُقَوْقِس .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما قال : أُهْدِى للنبىّ صلى الله عليـه وسلم بغلة أهداها له كِسْرَى؛ فركِبها بجُلٍّ[1] من شعر ثم أَرْدفنِى خَلْفَه . رواه الثَّعَالِبِىّ فى تفسيره فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ . قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن الدِّمياطى رحمه الله : قوله «أهداها له كسرى» بعيدٌ؛ لأنه مزّق كتاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وأمر عاملَه باليمن بقتله وبعثِ رأسِه إليه؛ فأهلكه [الله] بكفره وطغيانه .

وروى مسلم بن الحَجّاج رحمه الله من حديث أبى حُمَيد الساعِدىّ قال : غزونا مع رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم تَبُوكَ ؛ فذكر الحديثَ؛ وقال فيـه : وجاء رسول ٱبن العَلْماء صاحب أَيْلةَ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب وأهدى له بغـلة بيضاء ؛ فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهـدى له بُرْدًا . رواه البخارىّ فى كتاب الجِزْية والمُوادعةِ بعـد الجهاد ؛ ورواه أبو نُعَيم فى المستخرج . ولفظهما : "وأَهْدَى مَلِكُ أَيْلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء فكساه بُرْدًا"؛ وقال أبو نعيم : بُرْدَةً .

(١) كذا فى كتاب فضـل الخيل للدمياطى (ص ١٢٤ طبع حلب) . والجل (بالضم والفتح عن ابن دريد) : ما تلبسه الدابة لتصان به . وفى الأصلين : « بحبل » .

وقال ابن سعد : وبعث صاحب دُومةِ الجَنْدَلِ[1] لرسول الله صلى الله عليه وسلم ببغلة وجُبّة من سُنْدُس[2] .

وروى إبراهيم الحَرْبىّ فى كتاب الهدايا عن علىّ رضى الله عنه قال : وأَهْدى يُحَنَّةُ[3] بنُ رُوبَةَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلته البيضاء .

٥ وروى يوسف بن صُهَيب عن ابن بُرَيدة[4] عن أبيه قال : انكشف الناسُ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم يومَ حُنَين ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته الشَّهْباء التى أهداها له النَّجاشِىّ وزيدٌ آخذٌ بِرِكاب بغلته . وذكر علىّ بن محمد بن حُنَين[5] بن عَبْدُوس الكُوفِىّ فى أسماء خيله وسلاحه وأَثاثه : وكان اسم بغلته "دُلْدُل" أهداها إليه المُقَوْقِس صاحب الإسكندريّة وكانت شَهْباء ؛ وهى التى ١٠ قال لها يوم حنين : « ارْبِضِى » فربَضَتْ . ويقال : إن علياً ركِبها بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم ثم ركبها الحسن ثم ركبها الحسين ثم ركبها محمد بن الحنفيّة

(١) هو أكيدر بن عبد الملك ، كما فى شرح المواهب .

(٢) دومة الجندل (بضم أوله وفتحه وقد أنكر ابن دريد الفتح وعدّه من أغلاط المحدّثين) : على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبنىّ ١٥ بالجندل .

(٣) ضبطه الزرقانى بالعبارة فقال : بضم التحتانية وفتح المهملة وتشديد النون . وروبة بضم الراء وسكون الواو بعدها موحدة . وهو ابن «العلماء» صاحب أيلة المتقدم . قال فى فتح البارى : ولعل «العلماء» اسم أمه . وهو الذى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى الى تبوك وصالحه وأعطاه الجزية وأهدى له البيضاء ، وكانت طويلة مخندقة حسنة السير ، فأعجبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى له بردا . (راجع ٢٠ شرح الزرقانى على المواهب ج ٣ ص ٤٦٥ طبع بولاق) . وقد ورد فى الأصلين : « يوحنا بن روزنة » ، وهو تحريف . (٤) هو عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمى ، كما فى الخلاصة وتهذيب التهذيب .

(٥) كذا فى المواهب (انظر الحاشية رقم ١ ص ٣٧ من هذا الجزء) . وفى الأصلين : «الحسين» ، وهو تحريف .

رضى الله عنهم؛ ثم كبِرتْ وعَميتْ، فوقعتْ فى مَبْطَخة[1] لبعض بنى مُدْلج فخبطتْ[2] فيها، فرماها بسهم فقتلها .

وكانت له بغلة يقال لها " الأَيْلِيّة "؛ أهداها إليه ملِكُ أَيْلة، وكانت طويلة مُخَنْدِفَةً[3] كأنما تقوم على رِمال حسنةَ السير؛ فأعجبتْه ووقعتْ منه . وهى التى قال له فيها علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه حين خرج عليها : كأنّ هذه البغلة قد أعجبتْك يا رسول الله؟ قال : " نعم " قال : لو شِئْنا لكان لك مثلُها؛ قال : "وكيف"؛ قال : هذه أمّها فرس عربيّة وأبوها حمار، ولو أَنْزَيْنا حمارًا على فرس لجاءت بمثل هذه؛ فقال : " إنما يَفعل ذلك الذين لا يعلمون " .

وعن دِحْيـة بن خَليفة الكَلْبىّ رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله، ألا أَحمِل لك حمارًا على فرس فتُنْتَج لك بغلة ؟ فقال : " إنما يفعل ذلك الذين لا يعقلون " . رواه ابن مَنْده فى كتاب الصحابة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدا مأمورا، ما اختصّنا دونَ الناسِ بشىء إلا بثلاث : أمَرَنا أن نُسْبِغ الوُضوء، وألّا نأكل الصَّدَقة، وألا نُنْزِىَ حمارًا على فرس . رواه التِّرْمِذىّ فى الجهاد . وفى لفظ آخر عنه رضى الله عنه : كان عبدا مأمورا بَلّغ ما أُرْسل به، وما اختصّنا دون الناس بشىء إلا بثلاث خصال : أمرَنا أن نُسْبِغ الوضوء، وألّا نأكلَ الصَّدَقة، وألا نُنْزِىَ الحمارَ على الفرس . وهذا على هذين الحديثين يختصّ بآل النبىّ صلى الله عليه وسلم دون غيرهم .

(١) المبطخة : منبت البطيخ . (٢) خبطت : مشت على غير هدى لا تتوقى شيئا .

(٣) كذا فى شرح المواهب . والخندفة : مشية كالهرولة . وفى الأصلين : «محذوفة» ، وهو تحريف .

والذى يظهر من مجموع هذه الأحاديث المَرْوِيّة التى أوردناها أن بَغَلاتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت سبعا، وهى : "الدُّلْدُل" التى أهداها له المُقَوْقِس، و"فِضّة" التى أهداها له فَرْوة بن عمرو، و بغلة أهداها له كسْرَى، و بغلته الأَيْلِيّة التى أهداها له ابن العَلْماء صاحب أيلة، و بغلة بعثها له صاحب دومة الجَنْدَل، و بغلة أهداها له يُحَنَّةُ ابن رُوبَةَ، و بغلة أهداها له النَّجَاشِىّ صاحب الحَبَشة. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر شىء مما وُصفت به البغال

قد ألّف الجاحظ كتابا فى البغال مفردًا عن كتاب الحيوان، قال فيه ما نصه : « نبدأ إن شاء الله بما وصَف الأشرافُ من شأن البغلة فى حسن سِيرتها، وتمامِ خِلقتها، والأمورِ الدالّة على السرّ فى جوهرها، وعلى وجوه الارتفاق بها، وعلى تصرّفها فى منافعها، وعلى خفّة مؤُونتها فى التنقُّل فى أمكنتها وأزمنتها، ولِمَ كَلِفَ الأشرافُ بارتباطها مع كثرة ما يزعُمون من عيوبها، ولِمَ آثَرُوها على ماهو أدومُ طهارةَ خَلْقٍ منها، وكيف ظهر فضلها مع النقص الذى هو فيها، وكيف اغتفروا مكروهَ ما فيها لِمَا وجَدوا من خصال المحبوبِ فيها .

قال : ولقد كَلِفَ بارتباطها الأشرافُ حتى لُقِّب بعضهم من أجل اشتهاره بها بِـ «رَوّاض البِغال» ؛ ولقّبوا آخر بـ «عاشِق البغل» . فبسَط القول فى الترجمة ثم لم يأتِ من أخبار البغال بطائلٍ، بل اقتصر على حكاياتٍ واستطرد منها إلى غيرها، على عادته فى مصنَّفاته . فكان مما حكاه من ذلك :

قال مَسْلَمةُ بن عبد الملك : ما رِكب الناسُ مثلَ بغلةٍ طويلةِ العِنَان، قصيرةِ العِذَار، سَفْواءِ العُرْف[1]، حصّاءِ الذَّنَب[2] .

(١) السفا (مقصورا) : خفة شعر الناصية، وهو يستحب فى البغال دون الخيل، والوصف للذكر منه أسفى . وفى استعمال «سفواء» منه للأنثى بهذا المعنى خلاف بين أئمة اللغة (راجع معاجم اللغة مادة سفى) .

(٢) حصّاء الذنب : قليلة شعره .

قال : وكتب رَوْحُ بن عبـد الملك إلى وكيل له : ابْغِنِي بغلةً حَصّاءَ الذنَب، عظيمةَ المَحْزِم، طويلةَ العُنُق، سَوْطُها عِنانُها، وهواها إمامُها .

قال : وعاتب صَفْوان بن عبد الله بن الأَهْتَم عبدَ الرحمن بن عبّاس بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطّلب فى ركوب البغال، وكان رَكّابا للبغلة، فقال له : مالك ولهذا المَرْكَب الذى لا يُدرَك عليه الثار، ولا يُنَجِّيك يومَ الفِرار؟ ! فقال : إنها نَزلتْ عن خُيَلاء الخيل، وارتفعتْ عن ذِلّة[1] العَيْر، وخيرُ الأمور أوساطُها. فقال صَفْوان : إنا نعلِّمكم ، فإذا عَلِمتُم تعلَّمنا منكم . وهو الذى يلقَّب "رَوَّاضَ البِغال"، لحِـذْقه بركوبها ، ولشَغَفِه بها، وحُسْن قيامه عليها . وكان يقول : أُريدها واسعة الجُفْرة[2]، مُنْدَحَّةَ[3] السُّرّة ، شديدة الغَلْوة[4]، بعيـدةَ الخَطْوة، لَيِّنةَ الظهر، مَلْوِيّةَ الرُّسْغ، سَفْوَاء جَرْداء عَنْقاء، طويلةَ الأنقاء[5] .

قال : وقال ابن كُنَامة : سمعتُ رجلا يقول : إذا اشتريتَ بغلةً، فاشْـتَرِها طويلةَ العُنُق، تجده[6] فى نجائها؛ مُشْرِفةَ الهادِى ، تجده[6] فى طباعها؛ ضَخْمة الجوف ، تجـده[6] فى صَبْرها .

قال : ولمـا خرج قَطَرِىّ بن الفُجَاءة أحبَّ أن يجمع إلى رأيه رأىَ غيره ؛ فـدَسّ إلى الأَحْنَف بن قَيْس رجلًا يُجْرِى ذكرَه فى مجلسه ويحفظ عنـه ما يقول؛ فلمّا قعد قال الأحنف : أمَا إنهم إن جنبوا بَناتِ الصَّهّال ، وركِبوا بناتِ النَّهّاق[7]، وأمسَوْا بأرضٍ وأصبحوا بأرض، طال أمرُهم .

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «دكة» ، وهو تحريف . (٢) الجفرة : وسط الفرس . وفى الأصلين : « الحفرة » بالحاء المهملة ، وهو تصحيف . (٣) مندحة : متسعة .

(٤) الغلوة : أمد جرى الفرس وشوطه . (٥) الأنقاء : العظام ذوات المخ ، مفردها نقو ونقى .

(٦) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «نجدة» . (٧) يلاحظ أن المؤلف عقد هـذا الفصل للكلام فى البغال ، و بنات الصهال الخيل ، و بنات النهاق الحمير؛ وأما البغال فبنات الشَّحّاج .

قال الجاحظ : فلا ترى صاحبَ الحربِ يَسْتغنِي عن البغال ، كما لا ترى صاحبَ السِّلْم يستغنى عنها ، وترى صاحبَ السفر كصاحب الحَضَر . انتهى كلام الجاحظ .

وحُكى أنّ عبد الحميد الكاتب سايَر مَرْوانَ بن محمد الجَعْدىّ على بغلة ؛ فقال له : لقد طالت صحبةُ هذه الدابّة لك ! ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، من بركة الدابّة طولُ صحبتها . فقال : صِفْها ؛ فقال : همُّها إمامُها ، وسَوْطُها زِمامُها ، وما ضُرِبتْ قطُّ إلّا ظلما .

وقال بعضُ الكتّاب من رسالة : " قد اخترتُ لسيّدى بغلةً وَثيقة الخَلْق ، لَطيفة الخَرْط ، رَشيقة القَدّ ، موصوفةَ السير[1] ، ميمونة الطير ، مُشْرِفةَ العُنُق ، كريمةَ النِّجار ، حميدةَ الآثار .

إن أدبرتْ قلتَ لا تَليلَ لها * أو أقبلتْ قلتَ ما لها كَفَلُ

قد جمعتْ إلى حسن القميص ، سلامةَ الفُصُوص[2] ؛ فسُمِّيَتْ قَيْدَ الأَوابِد ، وقرّةَ عين الساهِد ؛ تُزْرِى فى انطلاقها ، بالبروق فى انثلاقها " .

قال البُحْتُرِىّ يصف بغلا :

وأقبَّ نَهْدٍ للصَّواهل[3] شَطْرُه * يومَ الفَخار وشطرُه للشُّحَّجِ

خَرِقٍ يَتِيهُ[4] على أبيه ويدَّعى * عصبيّةً لبنى الضُّبَيْب[5] وأَعْوَجِ

(١) يقال للهر إذا توجه لشىء من حسن السير : قد وصف ، معناه : أنه قد وصف المشى أى أجاده ، فالسير موصوف ، ومنه قول الشماخ :

إذا ما أدلجت وصفت يداها * لها الإدلاج ليلة لا هجوع

يريد : أجادت السير (راجع لسان العرب مادة وصف) .

(٢) الفصوص من الفرس : مفاصل ركبتيه وأرساغه . (٣) الصواهل : الخيل . والشحج : البغال .

(٤) كذا فى ديوانه (طبع مطبعة الجوائب ج ٢ ص ٢٠) . وفى الأصلين : « بنيه » وهو تحريف .

(٥) كذا فى ديوانه . والضبيب : فرس حسان بن حنظلة الطائى . وهو الذى كان حمل عليه كسرى أبرويز حين انهزم من بهرام جوبين يوم النهروان فنجا . وفيه يقول حسان :

مثل المُذَرَّع(١) جاء بين عُمُومةٍ * فى غَافِقٍ(٢) وخُـؤولة للخَـزْرَج

وقال أبو الفرج الوَأْوَاء من قصيدة يشكر بعضَ أصحابه وقد أَهْدى له بغلةً :

قد جاءت البغلةُ السَّـفْواء يَحْنُبُها * للـبرق غيثٌ بدا ينهلُّ ماطِـرُهُ

عَرِيقـةٌ ناسبتْ أخوالَهَـا(٣) فلها * بالعتْق(٤) من أكرم الجنسين فاخرُهُ

ملءُ الحِـزامِ وملء العينِ مُسْـفِرةٌ * يُرِيك غائبَهـا فى الحسـن حاضِرُهُ

أَهْدَى لها الرَّوْضُ من أوصافه شِيَةً * خَضْراء ناضرةً إن زال ناضرُهُ

ليسـت بأوّل حُمْـلانٍ(٥) شَرَيْتَ به * حمدى ولا هى ياذا الجـودِ آخِرُهُ

كم قد تقـدَّمها من سابح بيـدِى * عِنـانُه وعلى الجَـوْزا حـوافِرُهُ

وقال أبو المَكَارِم بن عبد السّلام :

كأنها النارُ فى الحَلْفاء إن ركَضتْ * كأنها السيلُ إن وافتْكَ من جبلِ

كأنها الأرضُ إن قامت لمُعْتَلِفٍ * كأنها الريح إن مرّتْ على القُلَلِ

ما يعرِف الفكرُ منها منتهَى حُضُرٍ * ما صوَّر الوهمُ فيها وصْمةَ الكَسَلِ

إذا اقتعدتَ مَطَاها وهى ماشـيةٌ * تَهْلانُ تُبْصِره فى زِىّ مُنْتَقِلِ

هذا ما اتّفق إيراده من صفات البغال التى تقتضى المدح .

= تلافيت كسرى أن يضام ولم أكن * لأترك فى الخيـل يعثر راجلا

بذلت له صـدر الضبيب وقد بدت * مسوّمة من خيـل ترك وكابلا

(انظر أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٩٥ طبع بولاق) وفى الأصلين : « الصبيب » بالصاد المهملة، وهو تصحيف . (١) المذرّع : الذى أمه أشرف من أبيه . (٢) غافق : قبيلة من الأزد .

(٣) فى الأصلين : «أحوالها» بالحاء المهملة، وهو تصحيف .

(٤) فى الأصلين : «العنق» بالنون، وهو تصحيف .

(٥) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب فى الحبة خاصة .

فأمّا ما جاء فى ذمها فالمثل المضروب فى بغلة أبى دُلَامة. وقال أبو دلامة فى بغلتـــه :

أبعدَ الخَيْـلِ أركبُها وِرَادًا * وشُقْرًا فى الرَّعِيـــل[1] إلى القتـالِ
رُزِقتُ بُغَيـلةً فيهـا وَكَالٌ[2] * وخـيرُ خِصـالِها فَرْطُ الوَكَالِ
رأيتُ عيوبهـا كثُرتْ وعالتْ * ولـو أَفْنيتُ مجـتهِدًا مقـالِي
تقـوم فما تَرِيم[3] إذا استُحِثَّتْ * وتَرْمَحُ باليمين وبالشِّمالِ
رياضـة جاهلٍ وعُلَيجِ سَـوْءٍ * من الأَكْراد أَحْبَنَ[4] ذى سُعَالِ
شَـتيمِ الوجهِ[5] هِلْبَاجٍ[6] هِدَانٍ[7] * نَعُـوسٍ يومَ حِلٍّ وارتحالِ
فأدّبَهـا بأخـلاقٍ سِمَـاجٍ * جزاه الله شرًّا عن عِيَالِي
فلمّـا هَـدّنى ونفَى رُقَادى * وطـال لذاك همّى واشـتغالى
أتيتُ بهـا الكُنَاسَـةَ[8] مستغيثًا * أُفـكِّر دائبًا كيف احتِيَالى
بعُهْـدةِ سِـلْعةٍ رُدّتْ[9] قديمًا * أَطُمُّ بهـا على الداء العُضَـالِ

(١) الرعيل : القطعة المتقدمة من الخيل. (٢) الوكال : البطء والبلادة . (٣) فما تريم : فما تبرح مكانها. (٤) الأحبن : العظيم البطن . وفى الأصلين : «أجبن» بالجيم، وهو تصحيف .
(٥) شتيم الوجه : كريه الوجه قبيحه . (٦) الهلباج : الوخم الأكول الشروب .
(٧) الهدان : الوخم الثقيل فى الحرب . (٨) الكناسة : اسم موضع بالكوفة .
(٩) فى الأصلين : «ودت» بالواو، وهو ظاهر التحريف . والعهدة : الرجعة . وفى حديث عقبة ابن عامر : عهدة الرقيق ثلاثة أيام . هو أن يشترى الرقيق ولايشترط البائع البراءة من العيب، فما أصاب المشترى من عيب فى الأيام الثلاثة (وهى مدّة الخيار فى البيع) فهو من مال البائع ويرد إن شاء بلا بينة، فإن وجد به عيبا بعد الثلاثة فلا يرد إلا ببينة . وطم الركية : دفنها وسواها، يريد به ستر هذا الداء وإخفاءه .
والمعنى كيف يحتال فى هذه السلعة التى ردت عليه قديما بعد تجربتها والتى كان يرجع بها عليه المشترى عند معاينة عيوبها، فهو لذلك يودّ الخلاص منها بحيلة ليتخلص من هذا الداء العضال وهو ارتباط هذه البغلة وصحبتها .

فبينـا فـكرتى فى القوم تُسْـدَى * إذا ما سُمْتُ أُرْخِصُ أم أُغَالِى
أتانِى خائبٌ حَمِـقٌ شـقِىٌّ * قـديمٌ فى الخَسَارة والضَّـلالِ (١)
ورَاوَغَـنِى ليَخْـلوَ بى خِداعًا * ولا يَدْرِى الشَّقِىُّ بمن يُخَالِى
فقلتُ بأربعين فقال أَحسِن * فإن البيـع مرتخَصٌ وغالِى
فلمـا ٱبتـاعها مـنِّى وبُتَّتْ * لـه فى البيـع غير المستقالِ
أخذتُ بثـوبه وبَرِئتُ مما * أَعُدُّ عليـك من شَنِعِ الخِصَالِ
بَرِئتُ إليـكَ من مَشَشٍ (٢) قديم * ومن جَرَدٍ (٣) وتخريقِ الجِـلالِ
ومن فَرْط الحِرَانِ ومن جِمَاحٍ * ومن ضعفِ الأسافلِ والأعالِى
ومن عَقْرِ اللسـان ومن بيـاضٍ * بناظرها ومن حلِّ الحِبَـالِ
وعُقَّـالٍ (٤) يُلازِمُهـا شـديدٍ * ومن هَـدْمِ المَعَالِفِ والرِّكَالِ (٥)
تُقَطِّـع جِلْدَها جَرَبًا وحَـكًّا * إذا هُزِلتْ وفى غـير الهُزَالِ
ومن شَدِّ العِضَاضِ (٦) ومن شِبَابٍ (٧) * إذا مـا هَمَّ صَحْبُـك بالرِّقَالِ

(١) ورد هذا البيت والخمسة الأبيات التى بعده فى الأغانى (ج ٩ ص ١٣٦ طبع بولاق) باختلاف فى بعض الكلمات . ولم يذكر صاحب الأغانى غيرها من هذه القصيدة ، فرأينا إثباتها هنا إتماما للفائدة :

أتانى بغـلة يسـتام منى * عريق فى الخسارة والضـلال
فقـال تبيعها قلت ارتبطها * بحكمك إن يبعى غير غالى
فأقبـل ضاحكا نحوى مرورا * وقال أراك سمحا ذا جمـال
هـلم إلىّ يخـلو بى خداعا * وما يدرى الشـقىّ لمن يخـالى
فقلت بأربعين فقـال أحسن * إلىّ فإنّ مثـلك ذو سجـال
فأترك خمسـة منها لعـلى * بمـا فيه يصير من الخبال

(٢) المشش : ورم يأخذ فى مقدّم عظم الوظيف أو باطن الساق فى إنسيّه .

(٣) الجرد فى الدواب : ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى يمنعه المشى والسعى .

(٤) العقال : داء يأخذ فى قوائم الدابة . (٥) الركال : أن يضرب برجله الأرض .

(٦) يقال : برئت إليك من العضاض : إذا باع دابة و برئ الى مشتريها من عضها الناس .

(٧) الشباب (بالكسر) : رفع الفرس يديه جميعا من الأرض .

وأَقْطَفُ[1] من دَبِيبِ الذَّرِّ مَشيًا * وتَنْحَطُ[2] من مُتابعةِ السُّعَالِ
وتكسِر سرجَها أبدًا شِمَاسًا[3] * وتسقط فى الوُحول وفى الرمالِ
ويَهْزِلُها الجَمَام[4] إذا خَصِبْنا * ويُدْبِرُ ظهرَها مَسُّ الجلالِ
تَظَلُّ لرَكْبةٍ منها وَقِيذًا[5] * يُخاف عليك من وَرَمِ الطِّحَالِ
وتَضْرِط أربعين إذا وَقَفنا * على أهلِ المجالس للسؤال
فتُخْرِس منطقى وتَحُول بينى * وبين كلامهم مما تُوالِى
وقد أعيتْ سياستُها المُكارِى * وبَيْطارًا يُعَقِّل بالشِّكَالِ
حَرُونٌ حين تركبُها لحُضْرٍ * جَمُوحٌ حين تَعْزِم للتَّزَالِ
وذئبٌ حين تُدْنِيها لسَرْجٍ * ولَيْثٌ عند خَشْخَشَةِ المَخَالِى
وفِيلٌ إن أردتَ بها بُكُورًا * خَذُولٌ عند حاجاتِ الرِّجالِ
وألفُ عصًا وسَوْطٍ أَصْبَحِىٍّ[6] * ألذُّ لها من الشُّرْبِ الزُّلالِ
وتُصْعَقُ من صِياحِ الدِّيك شهرًا * وتُذْعَر للصَّفير وللخَيالِ
إذا آستعجلْتَها راثتْ وبالتْ * وقامت ساعةً عند المَبالِ[7]
ومِثفارٌ[8] تقدِّمُ كلَّ سَرْجٍ * تصيِّر دَفَّتَيْه على القَذالِ[9]

(١) القطوف من الدواب : البطىء السير . (٢) النحط : صوت الخيل من الثقل والإعياء.
(٣) يقال : شمست الدابة اذا شردت وجمحت . (٤) الجمام (بالفتح) : الراحة . يقال : جم الفرس يجم : اذا ترك فلم يركب فعفا من تعبه وذهب إعياؤه . (٥) الوقيذ : الشديد المرض.
(٦) نسبة الى ذى أصبح : ملك من ملوك حمير، وإليه تنسب السياط الأصبحية .
(٧) كذا فى مباهج الفكر الذى أورد مؤلفه من هذه القصيدة بعض أبيات اختارها . وقد ورد هذا البيت فى الأصلين هكذا :
اذا استعجلتها عثرت وقامت * ساعة عند المبال
(٨) المثفار : الدابة ترمى بسرجها إلى الوراء . وفى الأصلين : «منقار» وهو تصحيف، ويريد الشاعر بوصفها بأنها تقدم كل سرج التهكم. (٩) القذال : جماع مؤخر الرأس، وفيه معان أخرى.

وتَحْـفَى فى الوقوف إذا أَقَمْنَـا * كما تَحْفَى البغال من الكَلَال
ولـــو جَمَّعْتَ من هَنّا وهَنّـا * من الأَتْبَـان أمثـالَ الجبـالِ
فإنـــك لســـتَ عالفَـــها ثلاثًا * وعنـــدك منـــه عُودٌ للخِـــلَالِ
وكانت قارِحًا[1] أيّامَ كِسْرَى * وتذكر تُبَّعًا قبـــلَ الفِصَـالِ[2]
وقـــد قَرَحتْ ولُقْمان فَطِيمٌ * وذو الأَكْتَاف[3] فى الحِجَج الخَـوالِي
وقـــد أُبْلِي بهـا قَرْنٌ وقَـرْنٌ * وآخِـــرُ يومِها لِهَـــلَاكِ مالِي
فأَبْدِلْنِي بهـا يا رَبِّ بَغْـــلًا * يَزِين جَمَالُ مَرْكَبِه جَمَالِي
كريمٌ حـــين يُنْسَب والداه * إلى كَرَم المَنَاسِب فى البِغَـال

وقال القاضى بهاء الدين زهير الكاتب :

لك ياصـــديق بغـــلةٌ * ليست تُساوى خَرْدَلَهْ
مقـــدار خُطْوتهـا الطويـ * ـلة حـين تُسْرِع أَنْمُـــلَهْ
وتُخَـال مُـــدْبِرةً إذا * ما أقبلتْ مســـتعجلَهْ
تمشى فتحسَبهـا العيـــو * نُ على الطريق مشـكَّلَهْ
تهـــتزُّ وهى مكانَهـا * فكأنما هى زَلْزَلَـــهْ

(١) القارح من ذى الحافر : الذى شق نابه وطلع ، وهو بمنزلة البازل من الإبل .

(٢) الفصال : الفطام من الرضاع .

(٣) ذو الأكتاف : ملك من ملوك الفرس واسمه سابور بن هرمز ، مات أبوه وهو حمل ، فعقد التاج على بطن أمه يرتقبون ولادته رجاء أن يكون ذكرا ، وانما سمى ذا الأكتاف لأنه كان مشتهرا بعلم الكتف فيما يقال . وقيل : خرج عليه قوم من العرب فسار اليهم ونزع أكتافهم فسمى به . (راجع ما يعول عليه فى المضاف والمضاف اليه) .

ذكر ما قيل فى الحمر الأهلية

قال المتكلمون فى طبائع الحيوان : إنّ الحمار لا يولد له قبل أن تتمّ له ثلاثُ سنين ونصف . قالوا: والحمار إذا شمّ رائحةَ الأسد رمى بنفسه عليه لشدّة خوفه منه . ولذلك قال أبو تمّام [يخاطب عبد الصمد بن المعذّل[1] وقد هجاه] :

أقدمتَ ويلكَ من هَجْوِى على خَطَرٍ * والعَيْرُ يُقْدِمُ من خوفٍ على الأَسَدِ

والحمار يُوصف بحدّة حاسّة السمع . وهو إذا نَهَق أضرّ بالكلب، قالوا : حتى إنّه يُحدِث له مَغْسًا[2]، فلذلك يطول نُباحه . والبرد يضرّ الحمارَ ويُؤذيه، ولهذا لا يوجد فى بلاد الصَّقَالبة . وقال الجاحظ : وحلف أحمد بن العزيز أن الحمار ما ينام . فقيل له : ولم ذلك؟ قال : لأنّى أجدُ صِيَاحَه ليس بصِياح من نام وانتبَه فى تلك الساعة، ولا هو صياحُ من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه .

وأجود الحمير المصريّةُ . وأهلُ مصر يعتنون بتربيتها ، ويحتفلون بأمرها ويُسابقون عليها ، ويسمّون مكانَ سِباقها "الطابق" . والجيِّد منها يُباع بالثمن الكثير . نقل صاحب كتاب مَبَاهج الفِكَر ومناهج العِبَر فى كتابه قال : لقد بيع منها حمارٌ بمائة دينار وعشرة دنانير . وأمّا الذى رأيناه نحن منها فأُبيع[3] بألف درهم، وربما زاد بعضها على ألف . وكثيرٌ من أهل مصر يركبونها ويتركون الخيل والبغال . فَمَنْ ركبها من الأعيان مع وجود القدرة والإمكان على ركوب الخيل والبغال، يَقصِد بذلك التواضعَ وعدمَ الكبرياء . ومَنْ إركبها من ذوى الأموال وترك الخيلَ والبغالَ

(١) الزيادة عن حياة الحيوان للدميرى (ج ١ ص ١٩٧ طبع بولاق) .

(٢) المغس : لغة فى المغص بالصاد . (٣) من أباع بزيادة الألف وهى لغة فى باع وردت عن ابن القطاع كما فى المصباح المنير . وربما كان من أباعه اذا عرضه للبيع . قال الهمدانى :

فرضيت آلاء الكميت فمن يبع * فرسا فليس جوادنا بمباع

ربما يفعـل ذلك توفيرًا لمـاله وضِنّةً به . ومَنْ ركبها من الشباب والسُّوقة يقصـد بذلك التنزّه عليها لفَراهَتها وسرعة مشيتها .

وقد كان لرسول الله صلى الله عليـه وسلم حمارٌ من حمير مصر اسمه "يَعْفُور" وقيل : "عُفَير"؛ أهداه له المُقَوْقِس صاحب الإسكندريّة مع ما أهدى . وقد ورد أيضا فى الحديث أنه كان لرسـول الله صلى الله عليه وسلم حماران : "يَعْفُور" و "عُفَير" . فأمّا "عُفَيْر" فأهداه له المقوقس . وأمّا "يَعْفُور" فأهداه له فَرْوة ابن عمرو الجُذَامىّ . ويقال : إنّ حمار المقوقس "يَعْفُور" وحمار فَرْوة "عُفَيْر" .

قال الواقدىّ : مات "يعفور" عند مُنْصَرَف النبىّ صلى الله عليه وسلم من حِجّة الوَدَاع . وذكر السُّهَيْلِىّ[(١)] : أن "يعفورا" طرح نفسه فى بئرٍ يوم مات النبىّ صلى الله عليه وسلم فمـات . وذكر ابن فُورَك[(٢)] [فى كتاب الفصول][(٣)] أنه كان فى مَغَانم خَيْبَر، وأنّه كلّم[(٤)] النبىّ صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسولَ الله، أنا زِياد[(٥)] بن شِهاب، وقد كان

(١) هو الامام أبو القاسم عبـد الرحمن بن عبـد الله بن الخطيب الخثعمى ثم السهيلى مؤلف كتاب «الروض الأنف» . ولد بمدينة مالقة سنة ٥٠٨ هـ وتوفى بمراكش فى شعبان سنة ٥٨١

(٢) هو الأستاذ أبو بكر محمـد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولى النحوى الواعظ الأصبهانى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ . أقام بالعراق مدّة يدرّس العلم، ثم توجه الى الرىّ فسعت به المبتدعة، فراسله أهل نيسابور والتمسوا منه التوجه اليهم ففعل، وورد نيسابور فبنى له بها مدرسـة ودارا وأحيا الله تعالى به أنواعا من العلوم . (راجع ترجمته فى تاريخ ابن خلكان ج ١ ص ٦٨٧ طبع بولاق) .

(٣) الزيادة عن كتاب فضل الخيل للدمياطى . (٤) قال فى المواهب اللدنية وشرحها للزرقانى فى كتاب معجزات النبى صلى الله عليه وسلم وخصائصه (ج ٥ ص ١٧٥ طبع بولاق) بعد أن ذكر هذا الخبر بتفصيل : لكن هذا الحديث مطعون فيه . أخرجه ابن حبّان فى الضعفاء وقال : لا أصل له وليس سنده بشىء . وقال أبو موسى المدينى : هذا حديث منكر جدا إسنادا ومتنا لا أحلّ لأحد أن يرويه عنى إلا مع كلامى عليه . وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات . وتعقب بأنه شديد الضعف فقط كما قال فى الاصابة : إسناده واه لا موضوع . (٥) فى المواهب اللدنية : «يزيد» .

فى آبائى ستون حمارًا كلُّهم[(١)] ركبهم نبىٌّ، فأركبنى أنت . وزاد الجُوَيْنىّ[(٢)] فى كتاب الشامل : أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أحدًا من أصحابه أرسل هذا الحمارَ إليه ؛ فيذهب حتى يضرب برأسه الباب؛ فيخرج ذلك الرجل، فيعلم أنه أرسل اليه، فيأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم .

٥ وفى الحمار منافعُ طبيّة[(٣)] ذكرها الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا ، قال : رمادُ كَبِدِ الحمار بالزّيت ينفع من الخنازير[(٤)]، قال : ويُبرئُ من الجُذَام . وهذا دواءٌ رخيص إن صحّ . قال : وكَبِدُه مَشْوِيّةً على الرِّيق تنفع من عِلّة الصَّرْع . قال : والمَكْزوز[(٥)] من اليُبُوسة يجلس فى مرقة لحمه . وقيل : إنّ بوله نافع من وَجَع الكُلَى . قال : وبولُ الحمار الوحشىّ يُفتّت الحصاةَ فى المَثَانة .

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الحمار

١٠ تقول العرب : "العَيْرُ أوقَى لِدَمِهِ[(٦)]" . وقالوا : "نَجَى[(٧)] عَيْرًا سَمَنُه" . وقالوا :

(١) قال فى شرح المواهب اللدنية : « عبر بكلهم بميم الجمع الموضوعة للعقلاء تشبيها لأصوله بالعقلاء لشرفهم بركوب الأنبياء لهم » اه . (٢) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . كان أعلم المتأخرين من أصحاب الامام الشافعى على الاطلاق، مجمع على إمامته، متفق على غزارة مادته وتفننه فى العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك . وله عدّة مؤلفات ، منها كتابه الشامل فى أصول الدين . والجوينى : نسبة الى جوين، وهى ناحية كبيرة من نواحى نيسابور .

(٣) فى الأصلين «طيبة» بتقديم الياء المثناة من تحت على الباء الموحدة وهو تصحيف .

(٤) الخنازير : علة معروفة وهى قروح صلبة تحدث فى الرقبة .

(٥) المكزوز: من أصابه الكزاز، وهو تشنج يصيب الانسان من البرد الشديد أو من خروج دم كثير .

(٦) كذا فى مجمع الأمثال للميدانى (ج ١ ص ٤٠١ طبع بولاق) . وقال : يضرب للموصوف بالحذر؛ وذلك أنه ليس شىء من الصيد يحذر حذر العير اذا طلب . ويقال : هذا المثل لزرقاء اليمامة ، وذلك أنها نظرت جيش العدوّ على بعد مغيرا على قومها ، فحذرتهم فلم يستمعوا لها ، فنفر حمار، فقالت : « العير أوقى لدمه من راع فى غنمه » فذهبت مثلا . وفى الأصلين : « أوفى لذمة » وهو تصحيف .

(٧) فى مجمع الأمثال للميدانى (ج ٢ ص ٢٤٤) : «قال أبو زيد : زعموا أن حمرا كانت هزلى فهلكت فى جدب ونجا منها حمار كان سمينا فضرب به المثل فى الحزم قبل وقوع الأمر، أى انج قبل ألا تقدر على ذلك . ويضرب لمن خلصه ماله من مكروه » اه .

"الجحش إذا فاتك الأَعْيارُ"[(١)] . وقالوا : "أصحّ[(٢)] من عَيْرِ أبى سَيّارة"؛ لأنه كان دفع بأهل المَوْسِم على ذلك العَيْر أربعين عاما . وقالوا: "إنْ ذهب عَيْرٌ فعَيْرٌ فى الرِّبَاط[(٣)]". وقالوا : "العَيْرُ يضرِط[(٤)] والمِكْواةُ فى النار" . وقالوا : "حمارٌ يحمل سِفْرا" . (٧٦)

ومن أنصاف الأبيات :

* وقد حِيل[(٥)] بين العَيْر والنَّزَوان *

---

(١) فى مجمع الأمثال للميدانى : « ... لما فاتك ... » يضرب فى قناعة الرجل ببعض حاجته دون بعض . ونصب الجحش بفعل مضمر، أى اطلب الجحش .

(٢) كذا فى مجمع الأمثال للميدانى . وفى الأصلين : «أصبر» . وأبو سيارة رجل من بنى عدوان اسمه عميلة بن خالد بن الأعزل ، وكان له حمار أسود ، أجاز الناس عليه من المزدلفة الى منى أربعين سنة .

(٣) الرباط هنا : حبالة الصائد . يقال للصائد : ان ذهب عير فلم يعلق فى الحبالة فاقتصر على ما علق . يضرب فى الرضا بالحاضر وترك الغائب .

(٤) الذى فى مجمع الأمثال : « قد يضرط العير ... ... الخ » قاله عرفطة بن عربجة الهزانى سيد بنى هزان فى رجلين أمر بقتلهما من بنى عكل فى حرب كانت بينهما ، فلما تقدّم أحد الرجلين ليقتل جعل الآخر يضرط ، يضرب للرجل يخاف الأمر فيجزع قبل وقوعه فيه . (راجع الكلام عليه مفصلا فى مجمع الأمثال ج ٢ ص ٣٥) .

(٥) أوّل من قال ذلك صخر بن عمرو أخو الخنساء حين ملته امرأته وكان يكرمها وقد لبث حولا مريضا . وهو من قصيدة مطلعها :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى * وملت سليمى مضجعى ومكانى

وصدر البيت : * أهم بأمر الحزم لو أستطيعه *

(راجع الكلام عليه مفصلا فى مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٣٦) .

ذكر شيء مما وصفت به الحمير على طريق المدح والذم

قال أبو العيناء[1] لبعض سماسرة الحمير : اشترِ لى حمارًا لا بالطويل اللاحق ، ولا بالقصير اللاصق ؛ إنْ خلا الطريقُ تدفّق ، وإن كثُر الزحامُ ترفّق ؛ لا يُصادِم بى السَّوارِى ، ولا يدخل تحت البَوارِى[2] ؛ إن كثُرتْ علفه شكر ، وإن قلّتْه صبر ؛ وإنْ ركبتُه هام ، وإن ركبه غيرى قام[3] . فقال له السمسار : إنْ مسَخ الله بعضَ قُضاتِنا حمارًا أصبتُ حاجتك ، وإلّا فليستْ موجودة .

قيل للفضل الرَّقاشىّ : إنك لتُؤْثِر الحمير على جميع الدوابّ ؛ قال : لأنها أرفق وأوفق ؛ قيل : ولم ذاك؟ قال : لأنها لا تَستبدِل بالمكان ، على طول الزمان ؛ ثم قال : هى أقلُّ داءً ، وأيسرُ دواءً ، وأخفضُ مَهْوًى ، وأسلمُ صَرْعًا[4] ؛ وأقلُّ جِماحًا ، وأشهرُ فَرَهًا ، وأقلُّ بَطَرًا ؛ يُزْهَى راكبُه وقد تَواضَع بركوبه ؛ ويُعَدّ مقتصدًا وقد أسرف فى ثمنه .

وقال أحمد بن طاهر يصف حمارًا :

شِيَةٌ كأنّ الشمسَ فيها أشرقتْ * وأضاء فيها البدرُ عند تَمامِهِ
وكأنّه من تحت راكبه إذا * ما لاحَ ، بَرْقٌ لاحَ تحت غَمامِهِ
ظَهْرٌ كجَرْيِ الماءِ لِينُ رُكُوبِهِ * فى حالتَىْ إتعابِه وجَمامِهِ
سَفِهَتْ يداه على الثَّرَى فتلاعبتْ * فى جَرْيِهِ بسُهُولِهِ وإكامِهِ

(١) هو أبو عبدالله محمد بن القاسم بن خلاد الضرير مولى أبى جعفر المنصور ، صاحب النوادر والشعر والأدب ، كان ظريفا ماجنا . انظر ترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٧١٩ طبع بولاق) .

(٢) البوارى : جمع بارية (فارسىّ معرّب) ، وهى الحصير المنسوج من القصب . ولعله يريد بالبوارى هنا مظلّات كانت تصنع من الحصر وتثبت الى وجوه الحوانيت أو أخرى تنشر على السوارى فى الأسواق . يريد حمارا يسلك به وسط الطريق ويتجنب السير تحت هذه البوارى حتى لا تصادمه وهو راكب عليه .

(٣) قام : وقف . (٤) فى الأصلين : «صريعا» .

عن حافرٍ كالصَّخْر إلّا أنّه * أقوى وأصلَبُ منه فى آستحكامِه
ما الخَيْزُرانُ إذا آنثنتْ أعطافُه * فى لِينِ مَعْطِفِه ولِينِ عظامِـــه
عُنُقٌ يطولُ بهـا فضولَ عِنَـانِه * ومُحَـزَّمٌ يَغْتالُ فضـــلَ حِزَامِـه
وكأنّه بالـــرِّيح مُنْتَعِـلٌ، وما * جَرْىُ الرياحِ بِجَـــرْيِه ودَوَامِه
أخذ المَحَاسِنَ آمِناً من عَيْبِـه[1] * وحوَى الكمالَ مُبَرَّأً من ذَامِه[2] ٥

وقال آخر :

لا تَنْظُـرنّ إلى هُزَال حمـارِى * وآنظُـرْ إلى مَجْراهُ فى الأَخْطارِ[3]
مُتَوَقِّدٌ جعـل الذكاء إمامَـه * فكأنمـا هو شُعْلَةٌ من نارِ
عادتْ عليه الريحُ عند هُبُوبها * فـكأنه رِيحَ الدَّبُورِ يُبَـارِى

هذا ما ورد فى مدحها . ١٠

✦
✦ ✦

وأمّا ما جاء فيها على سبيل الذم — فمن ذلك قولهم : «أضَلُّ من حمـارٍ أهلُه» . وقولهم : أخزى[4] الله الحمارَ مالًا، لا يُزَكَّى ولا يُذَكَّى . ومنـه قول جَرير[5] بن عبد الله : لا تَركَبْ حماراً ، فإنه إن كان حديداً[6] أتعب يَدَيْك[7] ، وإن كان بليداً أتعب رِجْليْك . ١٥

(١) فى الأصلين : «عينه» بالنون، وهو تصحيف . (٢) الذام : العيب والذم . فعله : ذام يذيم .
(٣) كذا فى مباهج الفكر . والأخطار : جمع خطر وهو ما يتراهن عليه . وفى الأصلين : «الإحضار» .
(٤) ورد فى مباهج الفكر ما نصه : «سئلت أعرابية عنه فقالت : لعنه الله لا يذكى ولا يزكى، وإن أطلقته ولّى، وإن ربطته أدلى؛ عظيم الحرارة، بطىء الغارة؛ لا ترقأ به الدماء، ولا تمهر به النساء، ولا يحلب فى الإناء» . (٥) فى مباهج الفكر : «جرير بن عبد الحميد» . (٦) فى مباهج الفكر : «فارها» . (٧) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «بدنك»، وهو تصحيف . ٢٠

والمثلُ مضروبٌ فى الحمير المهزولة بحمار طَيّاب[1] ، كما يُضْرَب المثلُ ببغلة أبى دُلَامة .

قال شاعر :

وحمارٍ بكتْ عليه الحَمِيرُ * دَقّ حتى به الرياحُ تَطِيرُ
كانَ فيما مَضَى يَسِيرُ بضعفٍ * وَهُوَ اليومَ واقِفٌ لا يَسِيرُ
كيف يمشِي وليس شيءٌ يراه[2] * وهو شيخٌ من الحمير كبيرُ
لَمَح القتَّ[3] مرّةً فتغنَّى * بحَنِينٍ وفى الفؤادِ زَفِيرُ :
«ليس لى منك ياظلومُ نصيبٌ * أنا عبدُ الهوى وأنت أميرُ»

وقال خالد[4] الكاتب :

وقائلٍ إنّ حمارِى غَدَا * يمشِى إذا صَوَّبَ أو أَصْعَدا
فقلتُ لكنّ حمارى إذا * أَحْثَثْتُه لا يَلْحَق المُقْعَدا
يَستعذِبُ الضربَ فإنْ زدتُه * كاد من اللّذّة أنْ يَرْقُدا

وقال أبو الحُسين[5] الجَزّار :

هذا حِمَارِى فى الحَمِير حمارُ * فى كلّ خَطْوٍ كَبْوةٌ وعِثارُ

(١) هو طياب السقاء ، شاعر . وله مقاطيع مشهورة فى حماره القديم الصحبة الشديد الهزال . (انظر شرح القاموس مادة طيب) . (٢) رواية مباهج الفكر : * كيف يمشى وليس يعلف شيئا *
(٣) القت : علف الدواب . (٤) هو خالد بن يزيد ويكنى أبا الهيثم ، من أهل بغداد ، وأصله من خراسان . وكان أحد كتّاب الجيش ، ووسوس فى آخر عمره . (انظر ترجمته فى الأغانى ج ٢١ ص ٤٥ — ٥٤ طبع ليدن) . (٥) هو أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار المصرى ، ختمت به دولة شعراء الفسطاط . كان فى أول أمره قصابا مثل أبيه وقومه ، ثم اشتغل بالأدب والشعر ففاق أهل عصره وكان ممتعا بالحياة فى سنة ٦٤٦ هـ . ونزل ضيفا عليه ابن سعيد المغربى المؤرخ المشهور فأكرم مثواه ، وأفرد له ترجمة وافية وأثنى عليه ثناء جميلا فى كتابه «المشرق فى محاسن أهل المشرق» واختار له من شعره جملة صالحة مما أورده فى ديوانه المسمى : «تقطيف الجزار» وذكره أيضا ابن شاكر الكتبى فى الجزء الثانى من كتابه فوات الوفيات (ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٨٣ هـ) .

قنطارُ تِبْنٍ فى حَشَاه شَعِيرةٌ * وشَـعِيرةٌ فى ظَهْـره قِنطارُ

ولمّـا مات حمار هـذا الشاعر داعبه شعراءُ عصره بمراثٍ وهَزْليّات ؛ فقال بعضهـم :

مات حمارُ الأديبِ قلتُ قَضَى * وفات من أمره الذى فاتا

مات وقد خَلّف الأديبَ ومَنْ * خَلَّف مثـلَ الأديبِ ما ماتا

ونحو هذين البيتين قولُ الآخر :

قال حمـارُ الحكيم تُـوماً[1] * لو أَنْصفونى لكنتُ أَركبْ

لأننى جاهـلٌ بسـيطٌ * وصاحبى جاهـلٌ[2] مُرَكَّبْ

وكتب[3] أبو الحسن بن نَصْر الكاتب إلى صديق له آشترى حمـارًا، يُداعبه .

قال من رسالة : «قد عرفتَ — أبقاك الله — حين وجدتَ من سَكْرة الأيّام إفاقه ، وآنستَ من وجهها العَبُـوس طَلَاقه ؛ [كيف[4]] أجبتَ داعىَ هِمّتـك ، وأطعتَ أمرَ مُرُوءتك ؛ فسُررتَ بكُمُونِ هـذه المَنْقَبة التى أضمرها الإعدام ، ونَمّ على كريم سِرِّها الإمكان ؛ وآستدللتُ[5] منها على خَبَايا فَضْل ، وتَنَبَّهْتُ منها على مَزَايا نُبْـل ؛ كانت مأسورةً فى قَبْضة الإعسار ، وكاسِفةً عن سُدْفة[6] الإقتار ؛ وقلت : أىُّ

(١) هو طبيب يتمثل بحماره فى الجهل . وقيل فيه :

إليه بالجهل راح يوما * مثل حمار الطبيب توما

(انظر المضاف والمضاف اليه فى حرف الحاء) . (٢) فى أ : « جهله » .

(٣) لم نوفق الى مصدر آخر لهذه الرسالة ، وقد صححنا ما صححناه منها اعتمادا على الذوق فيما يقتضيه السياق ونبهنا على ذلك فى مواضعه . (٤) هذه الكلمة ساقطة فى الأصلين والسياق يقتضيها .

(٥) فى الأصلين : «استدلك» . (٦) السدفة (بالفتح ويضم فى لغة بنى تميم) : الظلمة ، وفى لغة قيس الضوء . وحكى الجوهرىّ عن الأصمعىّ أنها فى لغـة نجد الظلمة وفى لغـة غيرهم الضـوء ، وهو من الأضداد . والمراد هنا الظلمة .

قَدَمٍ أحقُّ بوُلُوجِ الرَّكْب من قَدَمَيْه ، وحاذٍ[1] أولَى ببُطون القُبِّ[2] من حاذَيه ؛ وأىُّ أناملَ أبهَى من أنامله إذا تَصَرَّفتْ فى الأعِنَّةِ يسراها ، وتحتَّمتْ[3] بالمَخَاصرِ يُمْناها ؛ وكيف يكون ذلك الخُلُق العظيم ، والوجهُ الوسيم ؛ وقد بهرَ جالسا ، إذا طلعَ فارسا ! . ثم اتَّهمتُ[4] آمالى بالغلوّ فيك ، واستبعدتُ مناقضةَ الزمان بإنصاف معاليك ؛ فقبضتُ ما انبسط من عنانها ، وأخمدتُ ما اشتعل من نيرانها ؛ حتى وقفتُ على صحيحة الشك . أرجو عُلُوَّ هِمّتك بحسن اختيارِك ، وأخشَى منافسةَ الأيّام فى دَرْك أوطارِك ؛ فإنها كالظِّنَّةِ فى ولدها ، والمجاذَبَةِ بالسُّوء فى واحدها ؛ يُدنِى الأملُ مَسَارَّها ، ويُرجئ القَلَقُ حِذارَها ؛ حتى أنتنا الأنباءُ تَنْعَى رأيَك الفائل[5] ، وتَفُلّ[6] عَزْمَك الآفِل ؛ بوقوع اختيارك على فاضح[7] صاحِبِه ، ومُسْلِم راكِبِه ؛ الجامدِ فى حَلْبة الجِياد ، والحاذِقِ بالحِران[8] والكِياد[9] ؛ السُّوم[10] دينُه ودأبه ، والبلادة طبيعته وشأنه ؛ لا يُصلحه التأديب ، ولا تُقْرَع له الظَّنابيب[11] ؛ إن لَحَظ عَيْرًا نَهَق ، أو لَمَح أتانًا شَبِق ، أو وجدَ رَوْثًا شمّ وانتشق ؛ فكم هَشَم سِنًّا لصاحبه ، وكم سَعَط أنفَ راكِبه ؛ وكم استردّه خائفًا فلم يَرْدُدْه ، وكم رامَه خاطبًا فلم يُسعِدْه ؛ يعجَل إن أحبَّ الأناةَ والإبطاء ،

(١) الحاذ : واحد الحاذين وهما لحمتان فى ظاهر الفخذين تكونان فى الانسان وغيره . وفى الأصلين : « حاد ... حاديه » وهو تصحيف . (٢) القب : جمع أقب وقباء وهو الدقيق الخصر الضامر البطن من الخيل . (٣) كذا فى الأصلين . ولعله : «تحكمت» . (٤) فى الأصلين : «أبهمت» . (٥) الرأى الفائل : الخاطئ الضعيف . فعله : فال يفيل . (٦) فى الأصلين : «تثل» بالثاء المثلثة . (٧) فى الأصلين : «ناضح» بالنون ، وهو تحريف . (٨) الحران وكذلك الحرون : كلاهما مصدر لحرنت الدابة إذا وقفت ولم تنقد . وفى الأصلين : «بالحرن» ، وهو تحريف . (٩) الكياد : المكر والخبث . وفى الأصلين : «الكجاد» (بالباء الموحدة) وهو تصحيف . (١٠) فى الأصلين : « الشؤم » . (١١) الظنابيب : جمع ظنبوب وهو حرف الساق من قدم ، وقيل : عظمه اليابس من قدم ، وقيل : حرف عظمه . وقرع الظنبوب : أن يقرع الرجل ظنبوب راحلته بعصاه إذا أناخها ليركبها ركوب الجادّ المسرع إلى الشىء .

ويرسَخ إن حاول الحثّ[1] والنّجَاء، مطبوعٌ على الكَيْد والخلاف، موضوع للضّعَة والاستخفاف؛ عزيزٌ حتى تُهينَـه السِّيَاط، كسولٌ ولو أبطره[2] النّشـاط؛ ما عرَف فى النّجابة أبا، ولا أفاد من الوَعْىِ أدَبا؛ الطالبُ به محصور، والهارِبُ عليه مأسور؛ والممتطِى له راجِل، والمستعلِى بذِروتِه نازِل؛ له من الأخلاق أسوؤها، ومن الأسماء أشـنؤها، ومن الأذهان أصدؤها، ومن القُدود أحقرُها؛ تجحَده المَرَاكِب، وتجهله المَوَاكب؛ وتعرفه ظهورُ السوابك[3]، وتألفه سُبَاطات[4] المَبَارك . والله الموفّق .

(١) فى الأصلين : «الحديث» ولا معنى له .

(٢) فى الأصلين : «بطره» .

(٣) كذا فى الأصلين ولم تتبين المراد منها .

(٤) السباطة : الموضع الذى يرمى فيه التراب والأوساخ وما يكنس من المنازل، وقيل : هى الكناسة نفسها . وفى الأصلين : « سياطات » بالياء المثناة من تحت، وهو تصحيف .

الباب الثالث من القسم الثالث

من الفنّ الثالث فى الإبل والبقر والغنم

ذكر ما قيل فى الإبل

الإبل جمع لا واحدَ لها من لفظها . والذَّكر منها جَمَل ، والأُنْثى ناقة . والبعير يقع عليهما . ودليل ذلك قول بعض الشعراء :

لا تَشْتهِى لبنَ البعير وعندنا * عَرَقُ الزُّجاجة(٣) واكفُ المِعصار

والإبل من منن الله الجسيمة على خلقه، ومما منحهم به من إرفاقه ورزقه . قال الله تعالى : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ .

ولنذكر ماجاء من لغة العرب فى الإبل من تسميتها(٤) من حين تُولد إلى أن تتناهى سِنُّها ، وأسماء ما يُرْكَب منها ويُحمل عليه ، وما اختصّت به النوقُ من الأسماء والصِّفات ؛ ونذكر ألوان الإبل وماقالوه فى ترتيب سَيْرها ، وفى المَسير عليها والنزول ؛ ثم نذكر بعد ذلك

(٣) عرق الزجاجة : ما نتج به من الشراب وغيره مما فيها . يريد به الخمر . وقد ورد هذا البيت فى الأغانى (ج ٤ ص ٣٧٣ طبع دار الكتب المصرية) هكذا :

لا نبتغى لبن البعير وعندنا * ماء الزبيب وناطف المعصار

(٤) فى الأصلين : «نسبتها» .

أصناف الإبل وما قيل فى عاداتها وطبائعها . فإذا [أوردنا](١) ذلك، ذكرنا ما ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهـا، وما جاء فى أوصاف الإبل من الشعر؛ فنقول وبالله التوفيق .

٭٭٭

أمّا تسميتُها من حين(٢) تُولَد إلى أن تتناهى سِنُّها — فقـد قالت العرب : ولدُها حين يُسَلّ من أُمّه "سَلِيلٌ"(٣) ثم "سَقْب" و"حُوَار"(٤) إلى سـنة، وجمعه أحْوِرة وحِيران . وهو "فصيل" إذا فُصِل عن أمّه . وهو فى السنة الثانية "ٱبنُ مَخاضٍ" — لأن أمّه تَلْقَح فَتلْحق بالمَخاض وهى الحوامل، وواحدتها من غير لفظها "خَلِفَة" — والأنثى "بنت مخاض" . فإذا دخل فى الثالثة فهو "ٱبنُ لَبُون"، والأنثى "بنت لَبُون"؛ لأن أُمّه صارت ذاتَ لبنٍ . وهو فى الرابعة "حِقٌّ"؛ لأنه ٱستحقّ أن يحمل عليه . وهو فى السنة الخامسة "جَذَعٌ" . وفى السادسة ["ثَنِىٌّ" لأنّه يُلقى ثَنِيَّته؛ والأنثى "ثَنِيّة"](٥) . و[هو فى](٥) السابعة "رَبَاعٌ". وفى السنة الثامنة "سَدِيس"

(١) فى ب : « فاذا أقو . ذلك ذكرنا ... » . وفى أ : « فاذا . ذلك ذكرنا .. » . ولعـل الكلام محرّف عما أثبتناه .

(٢) فى الأصلين : «من حيث» .

(٣) اذا وضعت الناقة فولدها ساعة تضعه سليل قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى . فاذا علم، فان كان ذكرا فهو سقب . ولا يقال للأنثى سقبة، ولكن حائل . (راجع المخصص ج ٧ ص ١٩ واللسان مادّة سقب) .

(٤) فى المخصص : « ويسمى حوارا من حين يولد الى حين يفطم » .

(٥) التكملة عن المخصص (ج ٧ ص ٢٢) ومعاجم اللغة .

و "سَدَس" للذكر والأنثى[١] . وهو فى التاسعة "بازلٌ" إذا فَطَر نابه، أى طلَع . قال الشاعر[٢] :

وابنُ اللبون إذا ما لُزّ فى قَرَنٍ[٣] * لم يستطع صولةَ البُزْل القَناعيس[٤]

ثم هو بعدها بسنة "مُخْلِفُ عامٍ" و "بازلُ عامٍ" ثم "مُخْلِفُ عامين" و "بازلُ عامين"؛ ثم يُعَوَّد، أى يصير عَوْدا وهَرِمًا وماجًا[٥] .

قالوا : والقَلُوص[٦] منها كالجارية من الناس، والقَعُود كالغلام، والجمع قلائصُ وقعْدانٌ[٧] . والبَكْر : الفَتِىُّ، والبِكارةُ جمع، والأنثى بَكْرةٌ . ويقال : جملٌ رَاشٌ[٨] وناقة راشَةٌ[٨] إذا كثُر الشَّعر فى آذانهما .

* * *

وأمّا أسماءُ ما يُرْكَبُ منها ويُحمل عليه — فقد قالوا : المطيّةُ اسمٌ جامع لكل ما يُمْتَطَى من الإبل . فإذا اختارها الرجلُ لمَرْكبه لتمام خِلْقتها ونجابتها فهى راحلة .

---

(١) المؤنث فى جميع أسنان الابل بالهاء الا السدس والسديس والبازل والمخلف فانها فى المؤنث بغير هاء . (راجع المخصص ج ٧ ص ٢٥) .

(٢) هو جرير بن عطية الخطفى الشاعر الإسلامى المشهور .

(٣) لز : قرن وشدّ . والقرن : حبل يجمع به البعيران .

(٤) القنعاس (والجمع قناعيس) : الناقة العظيمة الطويلة السنمة، وقيل : الجمل العظيم .

(٥) الماج : الذى سال لعابه من الكبر .

(٦) القلوص : أول ما يركب من إناث الابل الى أن تثنى، فاذا أثنت فهى ناقة . والقعود : أول ما يركب من ذكور الابل الى أن يثنى، فاذا أثنى فهو جمل . (راجع اللسان مادة قلص وثنى) .

(٧) ويجمع أيضا على قلاص وقلص، وقلصان جمع الجمع . كما يجمع قعود أيضا على أقعدة وقعد وقعائد .

(٨) فى الأصلين : « راس ... راسة » بالسين المهملة فيهما، وهو تصحيف . (راجع شرح القاموس مادة روش) .

وفى الحديث النبوىّ صلوات الله تعالى وسلامه على قائله : "الناسُ كإبلٍ مائةٍ[1] لا يكاد يوجد فيها راحلة". فإذا ٱستظهر[2] صاحبُها بها وحَمَل عليها فهى "زاملة" — والناس يقولون فى الرجل العـاقل الثابت فى أموره : رجل زاملةٌ، يريدون بذلك مدحه . ووصف ابنَ بشير رجل فقال : ليس ذلك من الرواحل إنمـا هو من الزَّوامِل — فإذا وجّهها مع قوم ليَمْتاروا عليها فهى "عَلِيقةٌ". ٥

✦✦✦

وأمّا ما ٱختُصّت به النوقُ من الاسماء والصِّفات — فإنهم يقولون فيها: "كَهَاةٌ" و"جُلَالةٌ" وهى العظيمة، و"عُطْمُوس" و"دِعْبِلة"[3] وهى الحسنة الخلقة التامّة الجسم، و"كَوْمَاء" وهى الطويلة السَّنام، و"وَجْنَاء" وهى الشديدة القويّةُ اللحم. وٱشتقاقُه من الوَجِين، وهى الحجارة. فإن ٱزدادت شدّتُها فهى "عِرْمِسٌ"[4] ١٠

(١) كذا فى الأصلين . وقد ورد هذا الحديث فى النهاية واللسان (مادتى أبل ورحل) بهاتين الروايتين : "الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة" و"تجدون الناس بعـدى كإبل مائة ليس فيها راحلة" . وقيـل فى شرحه : يعنى أن المرضىّ المنتخب من النـاس فى عزة و جوده كالنجيب من الإبل القوىّ على الأحمال والأسفار الذى لا يوجد فى كثير من الإبل . وقال الأزهرى : الذى عندى فيه أن الله ذم الدنيا وحذر العباد سوء مغبّها وضرب لهم فيها الأمثال ليعتبروا و يحـذروا ... وكان النبى عليه الصلاة والسلام يحذرهم ماحذرهم الله و يزهدهم فيها فرغب أصحابه بعـده فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهد فى النادر القليل منهم ، فقال الرسول : « تجدون ... الخ » أى إن الكامل فى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة قليل كقلة الراحلة فى الإبل . والراحلة : البعير القوى على الأسفار والأعمال النجيب التام الخلق الحسن المنظر . و يقع على الذكر والأنثى . والهاء فيه للمبالغة . ١٥

(٢) استظهر : استعان .

(٣) فى الأصلين : «دغلبة» (بالدال المهملة والغين المعجمة)، وهو تحريف . والتصويب عن اللسان (مادة دعبل) والمخصص (حـ ٧ صـ ٦٢) . والشرح الذى ذكره المؤلف لهـذه الكلمة يبعد أن تكون مصحفة عن ذعلبة بالذال المعجمة والعين المهملة ، وهى الناقة السريعة . ٢٠

(٤) فى الأصلين : «عرسن» ، وهو تحريف .

و "عَيْرانَةٌ" . فإذا كانت شديدةً كثيرةَ اللحم فهى "عَنْتَرِيسٌ" و "عَرَنْدَسٌ" و"مُتَلاحِكَةٌ" . فإذا كانت ضخمةً شديدةً فهى "دَوْسَرةٌ" و "عُذَافِرةٌ". فإذا كانت حسنةً جميلةً فهى "شَمَرْدَلَةٌ" . فإذا كانت عظيمةَ الجوف فهى "مُجْفِرةٌ" . فإذا كانت قليلةَ اللحم فهى "حُرْجُوجٌ"(١) و "حَرْفٌ" و "رَهْبٌ" . (٧٩)

٥

* * *

ومن أوصافها فى السَّيْر — إذا كانت لَيِّنَةَ اليدين فى سيرها فهى "خَنُوفٌ". فإذا كان بها هَوَجٌ من سرعتها فهى "هَوْجَاءُ" و"هَوْجَلٌ". فإذا كانت تُقارِبُ الخَطْو فهى "حاتِكَةٌ" . فإذا كانت تَمشى وكأنها مقيَّدةُ الرِّجل وهى تضرب بيديها فهى "راتِكَةٌ". فإذا كانت سريعة فهى "عَصُوفٌ" و"مُشْمَعِلَّةٌ" و"عَيْهَلٌ" و"شِمْلالٌ"

١٠ و "يَعْمَلَة" و"هَمَرْجَلَة"(٢) و "شَمْذَرٌ"(٣) و "شِمِلَّة" و"شَمَرْدَلَةٌ". فإذا كانت تجرّ رِجليْها فى المشى فهى "مِزْحافٌ"(٤) و "زَحُوفٌ". فإذا كانت لا تقصِد فى سيرها من نشاطها فهى "عَجْرَفِيّة" . قال الأعشى :

وفيها إذا ما هَجَّرتْ(٥) عَجرفِيــة * إذا خِلْتَ حِرْبَاءَ الظَّهيرة أصْيَدَا

---

(١) ومن معانى « الحرجوج » — كما ورد فى اللسان (مادة حرج) — الناقة الجسيمة الطويلة على وجه الأرض . (٢) فى الأصلين : «هرجلة» ، وهو تحريف .

(٣) كذا فى اللسان والمخصص . وفى الأصلين : «سمندر» ، وهو تحريف .

(٤) كذا فى المخصص . وفى الأصلين : « مرحاف ورحوف » بالراء المهملة فى الكلمتين ، وهو تصحيف .

(٥) هجرت : سارت فى الهاجرة . والعجرفية كما تطلق على السرعة فى المشى تطلق أيضا على الناقة التى لا تقصد فى سيرها من نشاطها . والحرباء : دويبة أكبر من العظاءة شيئا ، يستقبل الشمس برأسه ويكون معها كيفما دارت . يقال : إنما يفعل ذلك ليق جسده برأسه . ويتلوّن ألوانا بحرّ الشمس . والأصيد : الذى لا يستطيع الالتفات .

✣

وأمّا ألوانُ الإبل — فإنهم قالوا: إذا لم يُخالط حمرةَ البعير شيءٌ فهو "أحمرُ". فإن خالَطها السوادُ فهو "أَرْمَكُ". فإذا كان أسودَ يخالِط سوادَه بياضٌ كدُخانِ الرِّمْثِ[1] فهو "أَوْرَقُ"[2]. فإذا اشتدّ سوادُه فهو "جَوْنٌ". فإن كان [أبيضَ][3] فهو "آدَمُ". فإن خالط بياضَه حمرةٌ فهو "أَصْهَبُ". فإن خالطته شُقْرةٌ فهو "أَعْيَسُ"[4]. فإن خالطت خُضْرتَه[5] صفرةٌ وسوادٌ فهو "أَحْوَى". فإذا كان أحمرَ يخالِط حمرتَه سوادٌ فهو "أَكْلَفُ".

✣

وأمّا ترتيبُ سَيْرِها — "فالعَنَقُ" وهو السير المُسْبِطِرّ[6]. فإذا ارتفع عنه قليلا فهو "التَّزَيُّدُ". فإذا ارتفع عن ذلك فهو "الذَّمِيلُ". فإذا ارتفع فهو "الرَّسِيمُ". فإذا دارَك المشيَ وفيه قَرْمَطَةٌ[7] فهو "الحَفْدُ". فإذا ارتفع عن ذلك وضرب بقوائمه كلِّها فذاك "الارْتِباعُ" و"الالْتِباطُ". فإذا لم يَدَعْ جُهدًا فذاك "الإدْرِنْفَاقُ".

---

(١) الرمث (من الحمض): شجر يشبه الغضى لا يطول ولكنه ينبسط ورقه، وله هدب طوال دقاق وله حطب وخشب، ووقوده حار، وينتفع بدخانه من الزكام.

(٢) كذا فى المخصص. وفى الأصلين: «أزرق»، وهو تحريف.

(٣) مكان هـذه الكلمة بياض بالأصلين. وقد وضعناها لاطرادها مع السـياق. وفى المخصص واللسان: «والآدم من الابل: الأبيض. فان خالطته حمرة فهو أصهب».

(٤) فى ب «أغبش» وفى أ: «أعبس»، وكلاهما تصحيف.

(٥) فى الأصلين «حمرته»، وهو تحريف. (راجع شرح القاموس واللسان والصحاح مادة حوى والمخصص ج ٧ ص ٥٦).

(٦) المسبطر: السريع، يقال: اسبطرت الابل فى سيرها اذا أسرعت وامتدت.

(٧) القرمطة: مقاربة الخطو.

***

وأما ما قيل فى المسير عليها والنزول للرّاحة والإراحةِ — فقد قالوا: إذا سار القومُ نهارا ونزلوا ليلا فذاك "التَّأْوِيبُ". فإذا ساروا ليلًا ونهارًا فذاك "الإِسْآدُ". فإذا ساروا من أوّل الليل فهو "الإِدْلَاجُ". فإذا ساروا من آخر الليل فهو "الإِدِّلَاجُ". فإذا ساروا مع الصبح فهو "التَّغْلِيسُ". فإذا نزلوا للاستراحة فى نصف النهار فهو "التَّغْوِيرُ". فإذا نزلوا فى نصف الليل فهو "التَّعْرِيسُ".

ذكر أصناف الإبل وعاداتها وما قيل فى طبائعها

والإبلُ ثلاثةُ أصنافٍ: يَمانىٌّ، وعِرابىٌّ، وبُخْتِىٌّ. فاليمانىُّ هو النَّجيبُ، ويُنَزَّل بمنزلة العتيق من الخيل. والعِرَابِىُّ كالبِرْذون. والبُخْتِىُّ[1] كالبغل. ويقال: البُخْتُ[2] ضأنُ الإبلِ. وهى متولِّدةٌ عن فساد منىّ العِراب. وحكى الجاحظُ أنّ منهم من يزعُم أنّ فى الإبل ما هو وَحْشِىٌّ وأنها تسكن أرضَ وَبَارٍ[3]، وهى غير مسكونة بالناس. وقالوا: ربما نَدّ الجملُ منها فى الهِياجِ[4] فيحمِلُه ما يَعْرِض له منه على أن يأتى أرض

(١) البختى: واحد البخت وهى الإبل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج (والفالج: الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من السند للفحلة).

(٢) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين: «النجيب»، وهو تحريف.

(٣) وبار: أرض ما بين الشحر الى صنعاء، مساحتها زهاء ثلثمائة فرسخ. ويزعم علماء العرب أن الله تعالى لما أهلك عادا وثمود أسكن الجن فى منازلهم، وهى أرض وبار، فحمتها من كل من يريدها، وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجرا ونخلا وخيرا.

(٤) هاج الفحل هياجا: هدر وأراد الضراب.

عُمَانَ، فيَضْرِبَ فى أدنى هَجْمةٍ[(١)] من الإبل ؛ فالإبل المَهْرِيّةُ من ذلك النِّتاج . وتُسمّى الإبلُ الوحشيّةُ "الحُوشَ"[(٢)]. ويقولون : إنها بقايا إبلِ عادٍ وثمود ومَنْ أهلَكه اللهُ من العرب . والمَهْرِيّةُ منسوبة إلى مَهْرة[(٣)] (قبيلة باليمن)؛ وهى سريعة العَدْو . ويعلِفونها من قَديد سمكٍ يُصاد من بحر عُمَان .

وأمّا البُخْتُ — فمنها ما يُرَهْوِكُ[(٤)] مثلَ البَراذِين ؛ ومنها ما يَجْمِزُ[(٥)] جَمْزًا ويُرْقِلُ[(٦)] إرْقَالًا . وفى البُخت ماله سَنامانِ فى طول ظهره كالسَّرْج، ولبعضها سَنامانِ فى العَرْض عن اليمين وعن الشمال، وتسمّى "الخُراسانية" .

قالوا : والجملُ لا يَنْزو إلّا مرّةً واحدةً يُقيم فيها النهار أجمع ويُنْزِل فيها مِرارًا كثيرة، فيجىء منها ولدٌ واحدٌ . وهو يخلو فى البرارى حالةَ النَّزْو، ولا يدنو منه أحدٌ من الناس إلا راعِيه الملازِم له . وذَكَرُه صُلْبٌ جدًّا ؛ لأنه من عَصَبٍ . والأنثى تحمل سنة كاملة؛ وتَلْقَح لمُضِىّ ثلاثِ سنين، وكذلك الذكر يَنْزو فى هذه المدّة، ولا ينزو عليها إلا بعد سنةٍ من يوم وضْعها . وفيه من كرمِ الطِّباع أنه لا ينزو على أمّهاته ولا أخواته . ومتى حُمِل على أن يَفعل حقَد على من ألْزَمه ؛ وربما قتله . وليس فى الحيوان من يحقِد حِقدَه . وقد قالوا : إنّ العرب إنما اكتسبت الأحقادَ لأكلها لحوم الجمال ومداومتها .

(٨٠)

(١) الهجمة من الابل : أولها أربعون الى مازادت، أو مابين السبعين الى المائة، أو الى دونها .

(٢) فى أ : « الجوش » بالجيم المعجمة . وفى ب : « الجوشى » ، وكلاهما تحريف .

(٣) هو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة أبو قبيلة وهم حىّ عظيم، تنسب اليهم الابل المهرية، وهى نجائب تسبق الخيل . وقيل : لا يعدل بها شىء فى سرعة جريانها . ومن غريب ما ينسب اليها أنها تفهم ما يراد منها بأقل أدب تعلمه . ولها أسماء إذا دعيت بها أجابت سريعا .

(٤) الرهوكة : مشى الذى كأنه يموج فى مشيته .

(٥) جمز : عدا وأسرع . (٦) أرقل : أسرع .

وفى طبع الجمل الاهتداءُ بالنَّجم، ومعرفةُ الطُّرُق، والغَيْرةُ، والصولةُ، والصبرُ على الحِمْل الثقيل وعلى العطش . والإبلُ تَميل إلى شُرب المياه الكَدِرة الغليظةِ؛ وهى إذا وردت ماءَ الأنهار حرّكته بأرجُلِها حتى يتكدّر . وهى من عشّاق الشمس . وهى تتعرّف النباتَ المسمومَ بالشّمّ من مرّة واحدةٍ فتتجنّبه عند رَعْيه ولا تَغْلَط إلا فى البِيبِس[1] خاصّةً . وزعم أرسطو : أنها تعِيش ثلاثين سنة فى الغالب . وقال صاحبُ كتاب مباهج الفكر ومناهج العِبر ينقل عن غيره : وقد رُئِى منها ما عاش مائة سنةٍ . وكانت للعرب عوائدُ فى إبلها أنها اذا أصاب إبلَهم العُرّ[2] كَوَوُا السليمَ ليذهبَ العُرُّ عن السقيم . وكانوا إذا كثُرت إبلهم فبلغتِ الألف فقَئوا عين الفحل؛ فإن زادت على الألف فقئوا عينه الأخرى . وقد ذكرنا ذلك فى أوابد العرب، وهو فى الباب الثانى من الفن الثانى من هذا الكتاب فى السفر الثالث من هذه النسخة . والله أعلم بالصواب .

ذكر ما ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإبل

كانت ناقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال لها "القَصْواءُ" . ذكر ابن سعد عن محمد بن عمر قال حدثنى موسى بن محمد بن إبراهيم التَّيْمىّ عن أبيه قال : كانت القصواء من نَعَم بنى الحَرِيش، ابتاعها أبو بكر رضى الله عنه وأخرى معها بثمانمائة درهم فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه بأربعمائة؛ فكانت عنده حتى نَفَقَت[3] . وهى التى هاجر عليها صلى الله عليه وسلم . وكانت حين قدِم المدينة رَبَاعِيةً، وكان اسمها "القَصْواء" و"الجَدْعاء" و"العَضْباء"، وكان فى طَرَف أُذُنها جَدْع[4]، وكانت لا تُسبَق

---

(١) البيبس : ما يبس من العشب، والبقول التى تتناثر اذا يبست، وقيل : عام فى كل نبات يابس .

(٢) العر (بالضم) : الجرب . (٣) نفقت : هلكت .

(٤) الجدع : القطع البائن فى الأنف والأذن والشفة واليد .

كلما دُفِعتْ فى سِباق . فلما كان فى سنة ستٍّ من الهجرة سابقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين الرَّواحل، فسبق قَعُودٌ لأعرابىّ "القَصْواءَ"، ولم تكن تُسْبَق قبلها؛ فشَقّ ذلك على المسلمين؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حقٌّ على الله ألّا يرفعَ شيئا من الدنيا إلّا وضعه" . وعن قُدَامة بن عبد الله قال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حِجّته يرمى على ناقة صَهْباء . وعن سَلَمة بن نُبَيْط عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حِجّته بعرفةَ على جمل أحمرَ . وذكر أبو إسحاق أحمد ابن محمد بن إبراهيم الثَّعْلبىّ فى تفسيره: أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم بعث يوم الحُدَيْبِيَة خِرَاش بن أُميّة الخُزَاعِىّ قَبْـل عثمانَ[1] إلى قريش بمكة، وحمَـله على جمل له يقال له "الثَّعْلَب"؛ ليبلِّغ أشرافَهم عنه ما جاء له؛ فعقَروا جملَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتلَه؛ فمنعته الأَحَابِيشُ[2]، فخلَّوْا سبيلَه . وكان للنبىّ صلى الله عليه وسلم عشرون لِقْحة[3] بالغابة (وهى على بَريد من المدينة من طريق الشام) وكان فيها أبو ذَرٍّ، وكان فيها لقائحُ غُزرٌ[4]: الحَنَّاء" و"السَّمْراءُ" و"العُرَيْس"[5] و"السَّعْدِيّةُ" و"البَغُوم"[6]

(١) يريد عثمان بن عفان رضى الله عنـه ، وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته .

(٢) الأحابيش: جمع أحبوش (بضم الهمزة والباء) وهم بنوالهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة وبنو المصطلق من خزاعة، كانوا تحالفوا مع قريش، قيل تحت جبل يقال له الحبشى أسفل مكة، وقيل: سموا بذلك لتحبشهم أى تجمعهم .

(٣) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

(٤) الغزر: (جمع غزيرة)، وهى الكثيرة الدر من الإبل والشاء وغيرهما من ذوات اللبن .

(٥) كذا ورد مضبوطا بالعبارة فى شرح المواهب اللدنية للزرقانى (جـ ٣ ص ٤٦٨)، وضبط فى طبقات ابن سعد بالقلم (ج ١ ق ٢ ص ١٧٧) بفتح العين وكسر الراء المهملتين .

(٦) كذا وردت مضبوطة بالقلم فى تاريخ الطبرى (ص ١٧٨٥ من القسم الأول) وطبقات ابن سعد وشرح المناوى على ألفية العراقى (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨، ١٢ حديث) بفتح الموحدة وضم المعجمة . وضبطت بالعبارة فى شرح المواهب للزرقانى (بضم الموحدة والغين المعجمة) . ونحن نستبعد هذا الضبط .

و"اليُسَيرة"[١] و"الرَّيّا"[٢] . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فرّقها على نسائه؛ فكانت "السَّمْراء" لقحةً غزيرة لعائشة؛ وكانت العُرَيّس لأمّ "سَلَمة"؛ فأغار عليها عُيَيْنةُ بنُ حِصْن فى أربعين فارسًا فاستاقوها وقتلوا ابنَ[٣] أبى ذَرٍّ؛ ثم ركب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه حتى انتهَوْا إلى ذى قَرَد[٤] فاستنقذوا منها عَشْرًا وأَفْلت القومُ بما بقى؛ وقيل : بل استنقذها كلَّها منهم سَلَمةُ بن الأَكْوَع[٥] حين يقول : ما خلَق اللهُ شيئا من ظَهْر[٦] النبىّ صلى الله عليه وسلم إلا خلفتُه وراء ظهرى واستنقذتُه منهم؛ وذلك فى شهر ربيع الأوّل سنة ستّ .

وكانت لِقاحُه صلى الله عليه وسلم، التى كان يرعاها يَسارٌ مولاه بذى الجَدْر ناحيةَ قُبَاءَ قريبًا من عَيْر[٧] على ستة أميال من المدينة ، خمسَ عَشْرةَ لِقْحةً غِزارًا استاقها

(١) كذا وردت مضبوطة بالعبارة فى شرح المواهب للزرقانى (بياء مضمومة فى أوّله ، وقيل بالعين المهملة ، وفتح السين المهملة) وبالقلم فى شرح المناوى على ألفية العراقى كذلك (بضم الياء وفتح السين المهملة) . وضبطت بالقلم فى طبقات ابن سعد والطبرى (بفتح الياء) .

(٢) كذا وردت فى تاريخ الطبرى مضبوطة بالقلم بدون مدّ . ووردت مضبوطة بالعبارة فى شرح الزرقانى (ج ٣ ص ٤٦٨ طبع بولاق) وبالقلم فى شرح المناوى على ألفية العراقى بفتح الراء وتشديد الياء ومدّ . وضبطت بالقلم فى طبقات ابن سعد بالدال المهملة وتشديد الباء الموحدة ومدّ .

(٣) هو ذر بن أبى ذر الغفارى ، وكان هو وأبوه وزوجته (زوجة أبى ذر واسمها ليلى) يرعون اللقاح معا ، كما جاء فى شرح المواهب اللدنية (ج ٢ ص ١٧٩) .

(٤) ذو قرد (بالتحريك وقيل بضمتين) : ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر .

(٥) هو سلمة بن عمرو، والأكوع لقب جدّه واسمه سنان . وفى يوم ذى قرد هذا يقول سلمة وهو يرمى :

خذها وأنا ابن الأكوع * واليوم يوم الرضّع

(٦) الظهر : الابل والغنم .

(٧) كذا فى ياقوت ومعجم ما استعجم للبكرى . وعير : جبل بناحية المدينة . وفى أ : « عيز » بالزاى . وفى ب : « غير » بالغين المعجمة والراء . وكلاهما تصحيف .

العُرَنِيّون[١] وقتلوا يَسارًا وقطعوا يدَه ورِجْلَه وغرَزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات .
فبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى إثرهم كُرْزَ[٢] بن جابر الفِهْرىّ فى عشرين فارسا ؛
فأدركوهم وربطوهم وأرْدَفوهم على الخيل حتى قدِموا بهم المدينةَ . فقُطِّعت أيديهم
وأرجلهم وسُمِلَت[٣] أعينُهم وصُلِبوا . وفيهم نزل : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ ﴾ الآية ؛ وذلك فى شوّال سنةَ ستّ . وفقَد النبىُّ صلى الله عليه وسلم ٥
منها لِقْحةً تُدْعى "الحَنّاء" ؛ فسأل عنها فقيل : نحروها .

(٨١) وقيل : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبع[٤] لقائحَ تكون بذى الجَدْر ؛
وتكون بالجَمّاء[٥] : لِقْحةٌ تدعى "مُهْرَةَ" وكانت غزيرةً ، أرسل بها سعدُ بن عُبادةَ من
نَعَم بنى عُقَيل ، ولِقْحة تدعى "بُرْدَةَ" تُحلَب كما تُحلَب لِقْحتان غزيرتان ، أهداها له
الضحّاك بن سُفْيان الكِلابىّ ، "والشَّقْراء" "والرَّيّا" "والسَّمْراء" "والعُرَيِّس" ١٠
"واليُسَيرة" "والحَنّاء" يُحلَبن ويُراح إليه بلبنهنّ كلَّ ليلة .

وفى غَزاة بدر غَنِم رسول الله صلى الله عليه وسلم جَمَلَ[٦] أبى جَهْل وكان مَهْرِيًّا
يغزو عليه ويضرب فى لِقاحه . ذكره الطبرىّ .

---

(١) العرنيون : قوم ارتدوا ، ينسبون إلى عرينة (كجهينة) قبيلة من العرب فى بجيلة .

(٢) كذا فى الطبرى والسيرة لابن هشام والاستيعاب والقاموس (مادة كرز) . وفى الأصلين : ١٥
« كريز » ، وهو تحريف . (٣) سمل عينه : فقأها .

(٤) كذا فى الأصلين وفى طبقات ابن سعد (القسم الثانى ج ١ ص ١٧٨) . ويلاحظ أن اللقائح التى ذكرت هنا وهناك ثمان لا سبع .

(٥) كذا فى سيرة ابن هشام (ص ٩٩٨) والطبرى (ص ١٧٨٥ من القسم الأوّل) وطبقات ابن سعد (ج ١ ق ٢ ص ١٧٧) . والجماء . اسم لمواضع كثيرة بجوار المدينة . وفى الأصلين : «بالحمى» ٢٠
وهو تحريف .

(٦) كان اسمه المكتسب (على صيغة اسم المفعول) . (راجع شرح المواهب للزرقانى) .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما : أنّ رسـول الله صلى الله عليه وسلم أهدى عام الحُدَيْبِيـة فى هداياه جملًا[1] لأبى جهل فى رأسه بُرَةٌ[2] من فضّة؛ ليغيظَ بذلك المشركين . ذكره ٱبن إسحاق .

وقيل : كانت للنبى صلى الله عليه وسلم لِقْحة اسمها "مَرْوَة" .

٥ وقال ٱبن الكلبىّ : إن عِيَاض بن حَمّاد أهـدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم نَجِيبة، وكان صديقا له إذا قدِم عليه مكةَ لا يطوف إلا فى ثيابه؛ فقال له : "أسْلَمْتَ"؟ قال : لا؛ قال : "إن الله نهانى عن زَبْد[3] المشركين" . فأسلم؛ فقبِلها .

ذكر شىء مما وُصِفت به الإبلُ نَظْمًا وَنثْرا

قال بعض من عظّم شأنَ الإبل : إن الله تعالى لم يخلق نَعَمًا خيرًا من الإبل؛

١٠ إن حَملت أَثْقَلَتْ، وإن سارت أَبْعَدَتْ، وإن حُلِبت أَرْوَتْ، وإن نُحِرتْ أشبعتْ .

وقال بَشَامَةُ[4] يَصف ناقةً :

كأنّ يديها إذا أَرْقَلَتْ * وقد حَرْنَ ثم ٱهتـدينَ السَّبيلا

يَدا سابح خَرّ فى غَمْـرةٍ * وقد شارَف الموتَ إلا قليـلا

---

(١) الهدى (بالتخفيف و بتشديد الياء، و يقال فيه هديّة) : ما يقدّم الى البيت الحرام من النعم لتنحر .

١٥ (٢) البرة : حلقة تكون فى أنف البعير .

(٣) الزبد : الرفد والعطاء .

(٤) هو بشامة بن الغدير . وقد عدّه ابن سلّام الجمحى فى كتابه طبقات الشـعراء فى الطبقة الثامنة من الشعراء الاسلاميين وذكر له شعرا . (راجع ص ١٤٦ — ١٤٨ من كتاب طبقات الشعراء طبع أوربا) .

إذا أقبلتْ قلتَ مشحونةٌ * أطاعت لها الرِّيحُ قِلْعًا جَفُولا
وإنْ أدْبرتْ قلتَ مذعورةٌ * من الرُّبْد تَتْبَعُ هَيْقًا ذَمُولا (١)

وقال أبو تمّام :

وبدّلها السُّرَى بالجهل حِلْمًا * وقَـدّ أديمَها قـدَّ الأديم
بدَتْ كالبـدر فى ليـلٍ بهيمٍ * وآبَتْ مثـلَ عُرْجُونٍ قديم (٢)

وقال الخَطِيمُ الخَزْرَجِىُّ (٣) :

وقـد ضُمِرتْ حتى كأن وَضِينَها (٤) * وِشاحُ عَروسٍ جالَ منها على خَصْرِ

وقال ابن دُرَيْد :

خُوصٌ كأشباح الحَنَايَا ضُمَّرٌ * يَرْعُفْنَ بالأَمْشَاجِ من جَذْب البُرَى (٥)
يَرْسُبْنَ فى بحر الدُّجَى، وفى الضُّحَى * يَطْفُون فى الآلِ إذا الآلُ طفا (٦)

وقال عبد الجبّار بن حَمْدِيس :

ومِن سُفُنِ البَرّ سَبّاحةٌ * من الآل بحـرًا إذا ما اعترَضْ

---

(١) الربد : النعام ، من الربدة وهى لون بين السواد والغبرة . والهيق : الظليم (ذكر النعام) . وفى الأصلين : «هيفا» بالفاء، وهو تصحيف . والذمول : السريع .

(٢) العرجون : أصل العذق الذى يعوج وتقطع منه الشماريخ . يريد أنها عادت مهزولة مقوّسة .

(٣) كذا فى مباهج الفكر وشرح القاموس (مادة خطم) . وفى الأصلين : « الحطيم الجزرى » وهو تحريف .

(٤) الوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر، وهو للرحل بمنزلة الحزام للسرج .

(٥) خوص : غائرات العيون جمع خوصاء . والأشباح : الأشخاص ، واحدها شبح (بفتح الباء وسكونها) . والحنايا : جمع حنية ، وهى القوس لأنها محنية أى معطوفة . ويرعفن : من الرعاف وهو انبعاث الدم من الأنف . والأمشاج : ما يسيل من أنوفها من المخاط المتغير اللون . والبرى : جمع برة وهى حلقة تكون فى أنف البعير من فضة أو غيرها .

(٦) يرسبن : يغصن . ويطفون : يعلون . والآل : السراب .

لها شِرَةٌ[1] لا تُبالى بها * أطالَ بها سَبْسَبٌ[2] أم عَرُضْ
إذا خفَق البُرْدُ[3] خِلْتَنى * على كُورِها طائرًا يَنْتَفِضْ
وإن يَعْرِضِ البعضُ[4] من سَيرها * ترَى العِيسَ من خلفها تَنْقَرِضْ[5]
هى القوسُ إنّى لَسَهْمٌ لها * أُصيبُ بكل فلاة غَرَضْ

وقال الشريف البَياضِىّ :

نُوقٌ تَراها كالسَّفِيـ * ـن إذا رأيتَ الآلَ بَحْرا
كَتَبَ الوَجا[6] بدمائها[7] * فى مُهْرَقِ[8] البَيْداء سَطْرا
لا تَستَكِينُ من اللُّغُو * ب إذًا ولا يَعْرِفْن زَجْرا
وكأن أرْجُلَهن تط * لب عند أيديهنّ وِتْرا

---

(١) كذا فى ديوانه (المطبوع برومة ص ٢٥٦) . وفى الأصلين وهامش ديوانه : « سيرة » بالسين المهملة والياء المثناة .

(٢) السبسب : القفر والمفازة .

(٣) كذا فى الديوان . وفى الأصلين : «البردى» وهو تحريف .

(٤) كذا فى ديوانه . وفى أ : «نقض البعض» . وفى ب : «نفر البعض» ، وكلاهما تحريف . ولعله « وان تعرض البعض الخ » بتاء التأنيث .

(٥) كذا فى ديوانه . وفى الأصلين وهامش ديوانه : «تنفرض» بالفاء وهو تصحيف .

(٦) الوجا : الحفا وهو أن يشتكى البعير باطن خفه . وفى الأصلين : « الوحى » بالحاء المهملة ، وهو تصحيف .

(٧) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « بزمامها » .

(٨) المهرق (بضم أوله وتسكين ثانيه وفتح ثالثه) : الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، فارسى معرب . وفى أ : « المهرب » بالباء . وفى ب : «مهرات» ، وكلاهما تحريف .

وقال أبو عُبَادة البُحْترى[١] : (٨٣)

وخَدَانَ[١] القِلَاصِ حُـولًا إذا قا * بَلْنَ حُولًا من أنْجُـمِ الأسْحارِ

يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّراب[٢] وقـد خُضْـ * ـنَ غِمارًا من السَّراب الجَارِى

كالقِسِيِّ المُعَطَّفَـات بل الأسْـ * ـهُـمِ مَـبْرِيَّةً بل الأوتارِ

وقال ذو الرُّمّة يصف ناقةً : ٥

رَجيعَـةَ[٣] أسفارٍ كأن زِمامَهـا * شُجاعٌ[٤] على يُسرى الذِّراعين مُطْرِقُ

ومنه اخذ المتنبي فقال :

* كأنّ على الأعناق منها الأفَاعِيَا *

وقال أبو نُوَاس يصفها بالسرعة :

وتَجشَّمتْ بى هولَ كلِّ تَنُوفَةٍ[٥] * هوجاءُ فيهـا جُرْأةً[٦] إقْـدامُ ١٠

تَذَرُ المَطِىَّ وراءَها[٧] وكأنهـا * صـفٌّ تَقَـدَّمُهُنَّ وهى إمامُ

---

(١) وخد البعير وخدا ووخدانا : أسرع ووسع الخطو . وهذا البيت مرتبط ببيت قبله وهو :

وإذا ماتنكرت لى بلاد * أو خليـل فإننى بالخيار

(٢) كذا فى ديوانه (ج ٢ ص ٣٠ طبع مطبعة الجوائب) . وفى الأصلين : «بالسحاب» .

(٣) رجيعة أسفار : معاودة أسفار . والشجاع : الحية الذكر . ومطرق : ساكن لايتحرك . ١٥

(٤) رواية ديوانه المطبوع بأوربا : «لدى» .

(٥) التنوفة : الأرض القفر، وقيل : البعيدة الماء .

(٦) الذى ظهر لنا هو نصب «جرأة» على أن تكون مفعولا لأجله . ويكون المعنى : فيها إقدام لجرأتها .

(٧) كذا فى ديوانه . وفى الأصلين : «أمامها» وهو تحريف . ٢٠

وقال الفرزدقُ منشدا :

تَنْفى يدَاها الحَصَى فى كلّ[1] هاجرة * نَفْىَ الدَّرَاهيم[2] تَنْقَادُ الصَّيَارِيف[3]

وقال آخر :

تطـيرُ مَنَاسِمُها بالحَصَى * كما نَقَد الدرهمَ الصَّيْرَفُ

وقال الغَطَمَّشُ[4] :

كأن يَدَيْها حين جَدّ نَجاؤها * يدَا سابح فى غَمـرة يَتَبوّعُ[5]

وقال آخر فى نُوقٍ :

خُوصٌ نَواجٍ إذا حثّ الحُداةُ بها * حَسِبتَ أَرْجُلَهـا قُـدّامَ أيديها

وقال القَطامىُّ :

يَمْشِين رَهْوًا[6] فلا الأعجازُ خاذلةٌ * ولا الصـدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ

فهنّ مُعْتَرِضَاتٌ[7] والحصى رَمِضٌ[8] * والرِّيحُ ساكِنةٌ والظِـلّ مُعْتَدِلُ

---

(١) فى الأصلين : «من كل» ، وهو تحريف .

(٢) كذا رواه سيبويه باثبات الياء فى « الدراهيم » ، على أنه جمع لدرهام لغة فى درهم أو جمع شاذ لدرهم . ويروى «نفى الدنانير» كما فى شواهد العينى لشروح الألفية .

(٣) كذا فى اللسان ، وقد جىء بهذا الجمع على الضرورة ، لأنه لما احتيج إلى تمام الوزن أشبعت الحركة ضرورة حتى صارت حرفا . وفى الأصلين : «التصاريف» ، وهو تحريف .

(٤) هو الغطمش بن عمرو بن عطية من بنى شقرة بن كعب بن ثعلبة بن سعد بن ضبة . وقال ابن الكلبى : هو من بنى معاوية بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن كعب بن ضبة . والغطمش يعنون به الظالم .

(٥) يتبوّع : يمد باعه .

(٦) الرهو : السير السهل المستقيم .

(٧) كذا فى الأصلين (بالضاد المعجمة) . والظاهر أنها مصحفة عن «معترصات» بالصاد المهملة . والاعتراص : الأون والنشاط .

(٨) الرمض (بالتحريك) : حر الحجارة من شدة حر الشمس .

وقال أبو نُوَاس :

ولقد تجوب بىَ الفـلاةَ إذا * صامَ[1] النّهـارُ وقالَتِ العُفْرُ[2]

شَـدَنِيَّةٌ[3] رَعَتِ الحِمى فأتَتْ * مثـلَ الجبـال كأنها قصرُ

وقال الأحمر[4] :

حمراءُ من نَسل المهارِى نسلُها * إذا ترامَت يَـدُها ورجلُهـا

حسبتَهـا غَيْرَى ٱستَفِزّ عقلُهـا * أَنْىَ[5] التى كانت تخاف بعلُهـا

ذكر ما قيل فى البَقَر الأَهْلية

عن أبى هُرَيرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : "بينا رجل يسوق بقرةً إذ ركِبها فضرَبهـا فقالت إنّا لم نخلق لهـذا إنما خُلِقنا للحرث"؛ فقال النـاس : سبحان الله بقرةٌ تَكَلَّم ! قال : "فإنى أُومِن بهذا أنا وأبو بكر وعمر" وما هما ثَمّ[6] .

(١) صام النهار : اعتدل وقام قائم الظهيرة .

(٢) قالت : سكنت وقت القائلة . والعفر من الظباء : ما يعلو بياضها حمرة ، وقيل : البيضاء التى ليست شديدة البياض . (٣) شدنية : نوق تنسب إلى شدن (موضع باليمن) .

(٥) فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى (ج ١ ص ٨٣ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدارالكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب) : «وقال الآخر» .

(٦) كذا فى ديوان المعانى . وفسر أبو هلال البيت بقوله : «أى كأنها من عملها بيديها ورجليها وسرعة تحريكها إياهما غيرى تخاصم وتشير بيديها لا تفتر» . وفى الأصلين : «أى» . وقد ضبطناه بهذا الضبط ، على أن يكون «أتى» مصدرا منصوبا على أنه مفعول له ، مضافا لمفعوله ، وفاعله «بعلها» ، ويكون المعنى : استفز عقل هذه المرأة الغيرى من أجل إتيان بعلها ضرتها التى تخافها .

(٦) قوله : «وما هما ثم» يعنى أن العمرين لم يكونا حاضرين هناك . (انظر هامش صحيح الامام مسلم ج ٧ ص ١١١ طبع مصر) .

وقال أصحابُ الكلام فى طبائع الحيوان : إنّ الفحل من البقر ينزو إذا تمّت له سنةٌ من عمره؛ وقد ينزو لعشرة أشهرٍ . والبقرة إذا ولَدت تَحَدَّر لبنُها من يومها، ولا يوجد لها لبنٌ قبل أن تضع . وهى تحمل تسعةَ أشهر وتَضَعُ فى العاشر؛ فإن وضعت قبل ذلك لا يعيش ولدها . و ربما وضعت آثنين ،وهو نادر . وهم يتشاءمون بها إذا وضعت آثنين . و إذا مات ولدها أو ذُبح لا يَسكُن خُوارُها ولا يدرّ لبنُها؛ ولذلك الرِّعاءُ يسلخون جلدَ ولَدِها ويحشونه لتدِرّ له وتسكُنَ، ويسمونه « البَوّ » . والبقر يُحبّ الماء الصافىَ، بضدّ الخيل والجمال . وقال المسعودىّ فى كتابه المترجم بمروج الذهب : رأيت بالرَّىّ نوعًا من البقر تَبْرُك كما تبرُك الإبلُ وتحمِل فتثور بحملها، والغالب عليها حمرةُ الحَدَقِ . وحكى أُسامةُ[1] بن مُنْقِذ[2] فى كتابه[3] أن فى بعض البلدان بقرًا لها أعرافٌ كالخيل . ولعلّها الأبقار التى توجد فيها البَراجِم . والبَراجم فى أطراف أذنابها وفى أكتافها . ويقال : إنّ أبقار البراجم تخرج من بحر الصّين

(١) هو أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى ،كان من مشهورى الكتّاب والشعراء. وقد ترجم له ابن خلكان فى تاريخه وقال : إنه من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ،له تصانيف عديدة فى فنون الأدب . وذكره العماد الكاتب فى الخريدة وقال بعد الثناء عليه : سكن دمشق ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر فبقى بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم الى أيام الصالح بن رزيك ، ثم عاد الى الشام وسكن دمشق ،ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين . وقال غير العماد : إن قدومه مصر كان فى أيام الظافر ابن الحافظ والوزير يومئذ العادل بن السلار فأحسن اليه . ولد سنة ٤٨٨هـ وتوفى سنة ٥٨٤ بدمشق . (راجع تاريخ ابن خلكان ج ١ ص ٨٨ — ٩٠ طبع بولاق) .

(٢) اسمه : «أزهار الأنهار» ، كما فى مباهج الفكر وكشف الظنون .

(٣) وردت هذه العبارة فى كتاب مباهج الفكر نقلا عن ابن منقذ هكذا : «أن فى بعض البلدان بقرا لها أعراف كأعراف الخيل ؛ قال ابن منقذ : وأظنها الأبقار التى يوجد فيها البراجم ، وسمعت من يقول : إنها أبقار عمالة فى بلاد يقال لها « جم وتانة وبلخشان » وهى ملونة : بيض وسود وبلق . والبراجم تكون فى وموس أذنابها وهى الكبار وعلى كتفها وهى الصغار؛ وسمعت من يقول : إنها أبقار تخرج من بحر الصين» .

وهى تَلد وتُرْضِـع[1]، ولذلك يقال البراجم البحريّة . وبأرض مصر بناحيتىْ دمْياط وتِنِّيس بقر تُسمى بقر الخِليس[2]، ضخامٌ حسانُ الصُّوَر والشِّيات، ولها قرون كالأَهِلّة، وفيها نفورٌ وتوحّشٌ، لا يُنتفع بهـا فى العمل وإنما يُنتفع بألبانها . وهى لا تُعْلَف الحَبَّ، ومأواها حيث يكون العُشْبُ والمـاءُ الدائمُ؛ ولها أسماء يدعونها بها إذا أرادوا حَلْبها، فتتقدّم إليهم .

وقد وصف الشـعراءُ البقرَ فى أشعارها ؛ فمن ذلك قولُ أحمد بن[3] علّويه الأَصْبَهانىّ :

يا حبّـذا مَحْضُها[4] ورائبُها * وحبّذا فى الرّجال صاحبُها
عِجْـولةٌ[5] سَمْحةٌ مباركةٌ * ميمونةٌ طُفَّـحٌ محالِبُهـا
تُقبِل للحَلْب كلما دُعِيتْ * ورامَهـا للحِلاب حالِبُهـا
فتيّـةٌ سِنُّهـا، مهـذّبةٌ * مُعنَّفٌ فى النَّدِىّ[6] عائِبُهـا

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «توضع» بالواو، وهو تحريف .

(٢) الخليس (بالفتح ويكسر) : من كور الحوف الغربى بمصر من فتوح خارجة بن حذافة، وكان أهلها ممن أعان على عمرو بن العاص فسباهم، ثم أمر عمر بردهم الى بلادهم على الجزية أسـوة بالقبط . (راجع معجم البلدان ج ٢ ص ٧٠٥) .

(٣) كان من شعراء أصبهان فى القرن الثالث للهجرة وكان له سنة ٣١٠ من العمر ٩٨ سنة، وقد عمر الى ما بعـد ذلك . وكان يقول الشـعر الجيد . وله قصيدة على ألف قافية شيعية عرضت على أبى حاتم السجستانى فأعجب بها وقال : يأهل البصرة غلبكم أهل أصبهان . وأول هذه القصيدة :

ما بال عينك ثرة الانسان * عبرى المحاظ سقيمة الأجفان

(راجع معجم الادباء لياقوت ج ٢ ص ٣) .

(٤) المحض : اللبن الخالص بلا رغوة .

(٥) العجولة : أنثى العجول، وهو ولد البقرة .

(٦) فى الأصلين : «الثدى» بالثاء المثلثة، وهو مصحف عما أثبتناه . وفى مباهج الفكر : «البذاء» .

كأنها لُعْبَةٌ مُزَيَّنَةٌ * يَطِير عُجْبًا بها مُلاعِبُها

كأنّ ألبانَها جَنَى عَسَلٍ * يَلَذُّها فى الإناء شارِبُها

عَرُوس باقُورةٍ[1] إذا بَرَزَتْ * من بين أحبالها ترائِبُها

كأنها هَضْبَةٌ إذا انتسبت[2] * أو بَكْرَةٌ قد أناف[3] غارِبُها

٥ تُزْهى بِرَوْقَيْن كالنُّجَيْن إذا * مسَّهما بالبنان طالِبُها

لو أنها مُهْرَةٌ لما عَدِمت * من أن يَضُمّ السرورَ راكِبُها

وأنشدنى شمس الدين بن دانيال لنفسه :

لله عِجْلَةُ خَيْسٍ * صفراءُ ذاتُ دَلالِ

تُريك عَيْنَىْ مَهاةٍ * من تحت قَرْنَىْ غزال

١٠ قد سُرْبِلَتْ بأصيلٍ * وتُوِّجت بهلال

وقال شاعر[4] يصف صوت الحَلْب :

كأنّ صوت شَخْبِها[5] المُرْفَضّ * كَشِيشُ[6] أفْعَى أجْمَعَتْ لعَضّ

* وهى تَحُكّ بعضَها ببعض *

وقال :

١٥ كأن صوت شَخْبِها غُدَيَّه * هفيفُ ريح أو كَشيشُ حيّه

(١) الباقورة والباقور : جماعة البقر .

(٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « ابتسمت » .

(٣) أناف : ارتفع وأشرف .

(٤) الأنسب للسياق أن يكون « وقال الراجز » وهو معتمر بن قطبة ، كما فى شرح القاموس مادة

٢٠ « كشش » .

(٥) الشخب (بفتح الشين وضمها) : ما يخرج من الضرع من اللبن اذا احتلب .

(٦) الكشيش صوت جلد الأفعى . وأما صوتها من فيها فيقال له الفحيح .

ذكر ما قيل فى الجاموس

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :

والجواميسُ هى ضأنُ البقرِ . والجاموسُ أجزعُ الحيوان من البعوض وأشدّها هرَباً منه إلى المـاء؛ وهو يمشى إلى الأسد رَخِىّ البال، رابطَ الجأش، ثابتَ الجَنان. وقد حُكى عن المعتصم بالله العباسىّ أنه أبرز للا سد جاموسـتَيْن فغَلَبتاه، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولَدُها فغلَبتْه وحَمَتْ ولَدَها ، ثم أبرز له جاموسا مفردا فواثبه ثم أدبر عنه . هـذا على ما فى الأسد من القوّة فى فمه وكَفِّه والجرأةِ العظيمة والوَثْبة وشدّة البطش والصبرِ والحُضْرِ والطَّلَب والهَرَبِ؛ وليس ذلك فى الجاموس، ولا يَستطيل بغير قرنه، وليس فى قرنه حِدّةُ قرنِ بقرِ الوحش؛ فإذا قوِى الجاموسُ مع ذلك حتى يقاوم الأسدَ دَلّ على قوّة عظيمة . ولذلك قدّم الجاحظُ الجاموسَ على الأسد، وعلّل تقديمَه عليه بهذه العِلّة . وليس ما حُكِى عن المعتصم فى أمر الجاموس وغَلَبته للأسد بعجيب؛ فإنّ الجواميس بالأغْوَار تُقاتِلُ الأسدَ وتُمانِعه وتَدْفعُه فلا يقدِر على قهرها. وأصحابُ الجواميس هناك منهم مَنْ يُغلِّف قُرونَها بالنُّحاس ويُحدِّدون أطرافَه ، يقصدون بذلك إعانتَه على حرب الأسد وقتالِه .(١)

والجاموسُ عنـدنا بالديار المصرية يقاتل التِّمساحَ الذى هو أسد البحر ويتمكّن منه ويَقْهَره فى المـاء ؛ فهو قـد جمع بين قِتال أسد البَرّ وأسـد البحر . وله قُدرةٌ عظيمة على طول المُكث فى قعر البحر . والتماسيحُ لا تَكاد تأوِى مواردَ الجواميس من بحر النيل وتَتجنّبُ أماكنَها .

(١) فى الأصلين : « ويقصدون » بالواو .

والجواميسُ فى أرض الشأم من الأغوار والسواحل والأماكن الحارّة الكثيرة المياه يُنْتَفع بها فى الحرث والحُمُولة وجَرِّ العَجَل وحَلْب ألبانها. وأمّا [فى] (١) الدّيار المصرية فلا يستعملونها ألبتّةَ (٢) ولا يَنتفعون بها إلا بما يَتَحَصَّل من ألبانها ونِتاجها .

وفُحُولُ الجواميس يكون بينها قتالٌ شديدٌ ومحاربةٌ ؛ فأيُّما فحلٍ غُلب وقهره خَصْمُه، لا يأوِى ذلك المُراحَ ، بل ينفرد بنفسه فى الجزائر الكثيرة العُشْب شهورًا وهو يأكل من تلك الأعشاب ويشرب من ماء النيل ، وينفرد خصمُه بالإناث ؛ فإذا علم الهاربُ من نفسه القوّةَ والجَلَد، رجع إلى المُراح وقد توحّش وآستطال، ويكون خَصمُه قد ضَعُفَتْ قواه فلا يقوم (٣) بمحاربته ؛ ولكنه لا يُولِّى عنه إلا بعد محاربته . فإذا قهَره ترك الآخرُ المُراحَ وتوجّه إلى جزيرة وفعَل كما فعل الأوّلُ وعاد إلى خَصْمه .

ولبنُ الجاموس من ألذّ الألبان وأدْسَمِها . والرِّعاءُ يُسمُّون كلَّ جاموسة بآسم تعرفه إذا دُعِيت به إلى الحَلْب، فتُجيب وتأتيه وتقِف حتى يَحْلُبَها .

ذكر ما قيل فى الغَنَم الضَّأْن والمَعَز

رُوِى عن أَنَس بن مالك وعَطَاء رضى الله عنهما : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : "الغَنَم بَرَكةٌ موضوعةٌ" . وعن أبى سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) يلاحظ أن الحال فى مصر ليست الآن كما ذكر المؤلف ، إذ الجواميس تستعمل فوق الانتفاع بألبانها ونتاجها فى الحرث كما تستعمل فى حمل الأثقال أحيانا .

(٣) يقال : ما قام فلان لهذا الأمر ولا يقوم له ، إذا لم يطقه . ويقال أيضا : فلان لا يقوم بهذا الأمر أى لا يطيق عليه ، وإذا لم يطق الانسان شيئا قيل : ما قام به . (راجع اللسان مادة قام) .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُوشِك أن يكون خيرُ مالِ المُسلم[1] غنماً يتبع بها شَعَفَ[2] الجبال ومواقعَ القَطْر يَفِرّ بدينه من الفِتَن" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رأسُ الكفر نحو المشرقِ والفخرُ والخُيَلاءُ فى أهل الخيلِ والإبلِ والفَدّادِين[3] أهل الوبر والسكينةُ فى أهل الغَنَم" .

ومن فضل الغنم ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما بعث اللهُ نبيًّا إلا وَرَعَى الغَنَم" . فقال له أصحابه : وأنت يارسول الله ؟ قال : " نعم [كنت أرْعاها على قَرَارِيطَ لأهل مكة][4] " . وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنم مائةُ شاةٍ لا يريد أن تزيدَ كلما وَلَد الراعى بَهْمَةً ذبح مكانها شاةً . وقال ابن الأثير فى تاريخه : وكان له شاةٌ تُسمى "غَوْثَة"[5]، وقيل "غَيْثَة"، وعنزٌ

(١) كذا فى القسطلانى (ج ١ ص ١٣٦ طبع بولاق) . وفى الأصلين : «مال المرء» . (٢) شعف الجبال : رءوسها . (٣) أورد الجاحظ فى كتاب الحيوان فى كلامه على المعاز (ج ٥ ص ١٤٨) هذا الحديث، ونصه فيه : « رأس الكفر قبل المشرق والفخر والخيلاء فى أهل الابل والخيل والفدادين أهل الوبر والسكينة فى أهل الغنم والايمان يمان والحكمة يمانية » . وفسر الفداد بالجافى الصوت والكلام، وأنشد قول أبى الرديني العكلى :

* جاءت سليم ولها فديد *

وقال ثعلب : الفـدادون : أصحاب الوبر لغلظ أصواتهم وجفائهم (يعنى بأصحاب الوبر أهل البادية) .

وقال الأصمعى فى تفسير قوله صلى الله عليـه وسلم : " الجفاء والقسوة فى الفـدادين" هم الذين تعلو أصواتهم فى حروثهم وأموالهم ومواشيهم وما يعالجون منها . وقال أبو العباس المبرد فى تفسيره له : « هم الحمالون والرعيان والبقارون والحمارون » . والفدادون أيضا : أصحاب الابل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الابل الى الألف، وهم جفاة أهل خيلاء، كان أحدهم إذا بلغ ذلك قيل له : فدّاد . وهو فى معنى النسب كسراج وعوّاج لبائعى السروج والعاج .

(٤) الزيادة عن القسطلانى (ج ٤ ص ١٥٢) .

(٥) كذا فى ألفية العراقى والمواهب اللدنية وعيون الأثر . وفى الأصلين : «غوث» ولم يذكر ابن الأثير هذا الاسم فيما ذكره من منائحه صلى الله عليه وسلم (فى ج ٢ ص ٢٣٩ طبع أوربا) .

تسمى "اليَمَن" . وذكر بعض المتأخرين من أهل الحديث أنّ مكحولًا سُئل عن جِلد المَيْتة، فقال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة تسمى "قَمَر"؛ ففقدها فقال : "ما فعلتْ قمرُ"؟ فقالوا : ماتت يا رسول الله ؛ قال : "ما فعلتم بإهابها"؟ قالوا : مَيْتَة؛ قال : "دِباغُها طُهُورُها" .

٥ قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطى رحمه الله تعالى فى كتاب [فضل] الخيل : وكانت منائح رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنم سَبْعًا : "عَجْرَةَ" و"زَمْزَمَ"(١) و"سُقْيا" و"بَرَكَة" و"وَرْشَة" و"أَطْلَال" و"أَطْرَافَ"(٢) . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبعُ أَعْنُز مَنائح ترعاهُنّ أُمُّ أَيْمن . قال : والمَنِيحةُ : الناقةُ والشاةُ تُعطيها ١٠ غيرَك فيحلُبها ثم يردّها عليك . قال أبو عُبَيد : للعرب أربعةُ أسماء تَضَعُها مواضعَ العاريةِ، وهى : المَنيحةُ، والعَرِيَّةُ، والإفقارُ(٣)، والإخبالُ(٤) .

ذِكر ترتيب سِنّ الغنم

ولَدُ الشاةِ حين تَضَعُه ذكرًا كان أو أنثى "سَخْلَةٌ" و"بَهْمَةٌ" . فإذا فُصِل عن أمّه فهو "حَمَلٌ" و"جَرُوفٌ" . فإذا أكل واجْتَرّ فهو "بَذَجٌ"(٥) و"فُرْفُورٌ" . فإذا

١٥ (١) كذا فى الطبرى وابن الأثير . وفى أ : « رمزه » . وفى ب : « زنزه » وكلاهما تحريف .

(٢) كذا فى الطبرى وابن الأثير والمواهب اللدنية . وفى الأصلين : «أطواف» بالواو، وهو تحريف .

(٣) يقال : أفقر الرجل بعيره إذا أعاره غيره للحمل أو للركوب حتى إذا ما انتهى منه رده . مأخوذ من ركوب فقار الظهر . (٤) كذا فى لسان العرب (مادة منح) . والاخبال : أن تعطى الرجل البعير أو الناقة ليركبها ويجتز وبرها ثم يردّها . وفى الأصلين : « الإحبال » بالحاء المهملة، وهو تصحيف .

٢٠ (٥) كذا فى المخصص (ج ٧ ص ١٨٩) واللسان (مادة بذج) . وفى أ : «بذح» بالحاء المهملة . وفى ب : «بدح» بالدال والحاء المهملتين، وكلاهما تصحيف .

بلغ التَّنْوَ فهو "عُمْروسٌ" . وكلّ أولاد الضأن والمعز فى السـنة الثانية "جَذَعٌ"؛ وفى الثالثة "ثَنِىٌّ"؛ وفى الرابعة "رَبَاع"؛ وفى الخامسة "سَدِيسٌ"؛ وفى السادسـة "سالِغٌ"(١) . وليس له بعد هذا اسم . ويقال لولد المعز : "جَفْر" ثم "عَرِيضٌ" "وعَتُود" و"عَنَاقٌ" . والغنم، الضأن والمَعَز، تضع حملَها فى خمسة أشهر . وتَلِد النعجةُ رأسًا إلى ثلاثة ، والعنز من الرأس إلى أربعة . ويتزو الذكرُ بعد مضىّ ستة شهور من ميلاده . وتحمل الأنثى بعد مضىّ خمسة أشهر من يوم وُلِدَت . ويُجَزّ صوف الضأن عنهـا فى كل سنة . ولحومُ الضأن من أطيب اللُّحمانِ؛ وكذلك ألبانُهـا . وقد أطنب الجاحظُ فى المفاخرة بين الضأن والمعز وأطال وأتى بالغثّ والسّمين .

٨٥

وكتب أبو الخَطّاب الصابِى إلى الحسين بن صَبْرة جوابًا عن رقعة أرسلها إليه فى وصف حَمَلٍ أهداه إليه، جاء منها :

«وصلَتْ رقعتُك؛ ففضضتُها عن خَطٍّ مشرق، ولفظٍ مُؤنق؛ وعبارة مُصيبة، ومعانٍ غريبـة؛ واتّساع فى البلاغة يَعجِزُ عنه عبد الحميد فى كتابته ، وسَحْبانُ فى خَطابته . وذكرتَ فيهـا حَمَلا، جعلتَه بصفتك جَمَلا؛ وكان كالمُعَيْدِىّ أسمع به ولا أراه(٢) . وحضر، فرأيتُ كبشًا مُتَقامِ المِيـلاد، من نِتاج قوم عاد؛ قـد أفنتْه الدهور، وتعاقبت عليه العصور؛ فظننتُه أحَدَ الزوجينِ(٣) اللذين حملهما نوح فى سفينته، وحفِظ بهما جنسَ الغنم لذريّته . صَغُر عن الكبر، ولَطُف فى القدر؛ فبانَت دَمامتُه،

(١) كذا فى اللسان والمخصص . وفى أ : «صالع» بالصاد والعين المهملتين . وفى ب : «ضالع» بالضاد المعجمة والعين المهملة، وكلاهما تحريف .

(٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «اسمع به لا أن تراه» .

(٣) يشير بذلك الى قوله تعالى : (حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) .

وتقاصرتْ قامتُــه، وعاد نحيفًا ضئيلا، باليًا هزيلا، بادِيَ السَّقام، عارِيَ العِظام، جامعًا للمعايب، مُشتمِلا على المثالب، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الروح فيه، لأنه عظم مُجَلَّد، وصوفٌ مُلَبَّد، لا تَجِد فوق عظامه سَلَبًا(١)، ولا تَلْقَى اليدُ منه إلا خَشَبًا، لو أُلْقِيَ للسَّبُع لأباه، أو طُرِح للذئب لعافه وقَلاه، وقد طال للكلأ فَقْدُه، وبَعُد بالمرعى عَهْـدُه، لم يَرَ القَتَّ(٢) إلّا نائمـا، ولا الشعيرَ إلا حالمـا. وقد خيّرتنى بين أن أَقْتَنِيَه فيكون فيه غِنَى الدهر، أو أذبحَه فيكون فيه خِصْب الشَّهر، فملتُ إلى آستبقائه، لِمَـا تعلَمه من محبّتى فى التوفير، ورغبتى فى التَّثْمير، وجَمْعى للولد، وآدِّخارى لغَد، فلم أجد فيــه مُسْتَمْتَعًا للبقاء، ولا مَدْفَعًا للفناء، لأنه ليس بأُنثى فَيَحمِل، ولا بِفَتِيٍّ فَيَنْسُل، ولا بصحيحٍ فيَرْعَى(٣)، ولا بسـليم فيَبْقَى، فملتُ إلى الثانى من رأييك، وعملت بالآخر من قوليك، وقلتُ: أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأُقيمه رَطْبًا مُقامَ قديدِ الغزال، فأنشدنى وقد أضرمت النار، وحُدِّدتِ الشِّفار، وشمَّر الجزّار:

أعيذُها نظراتٍ مـنك صادقةً * أن تَحْسَبَ الشَّحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ

وما الفائدة لك فى ذبحى! وإنما أنا كما قيل:

لم يَبْقَ إلّا نَفَسٌ خافِتُ * ومُقلةٌ إنسانُها باهِتُ

ليس لى لحم يَصلُح(٤) للأكل، فإنّ الدهرَ أكلَ لحمى، ولا جِلْدٌ يصلُح للدَّبْغ، فإن الأيام مزّقَتْ أديمى، ولا صـوفٌ يصلُح للغَزْل، فإن الحوادثَ حَصَّت(٥) وبَرى.

---

(١) كذا فى مباهج الفكر. وفى أ: «لا يوجد فيها فوق عظامه سلبا». وفى ب: «لا يوجد فوق عظامه تسلبا»، وكلاهما تحريف. والسلب: ما على الرجل من اللباس. يريد به هنا اللحم لأنه يكسو العظم ويستره كما يستر اللباس الرجل. (٢) القت: نبات رطب تعلفه الدواب.

(٣) فى الأصلين: «يرعى ... يبق». من غير فاء. (٤) فى الأصلين: «فيصلح» بالفاء.

(٥) حصت وبرى: حلقته وأذهبته.

وإن أردتنى للوَقُود فكَفُّ بعَر أدْفأ من نارى، ولم تَفِ حرارةُ جَمْرى برائحة قُتَارى[1] . ولم يَبْق إلّا أن تُطالبنى بذَحل[2] أو بينى و بينك دَم . فوجدْته صادقاً فى مقالته، ناصحًا فى مشورته . ولم أعلم من أىِّ أموره أعْجَب : أمِن مُماطَلته الدّهرَ على البقاء، أم من صبره على الضُّر والبلاء، أم مِن قُدْرتِك عليه مع عَوَزِ مثله ، أم من إتحافك الصديقَ به على خَسَاسة قَدْره . و ياليت شـعرى إذا[3] كنتَ والىَ سوق الأغنام ، وأمْرُك ينفُذُ فى المَعَز والضأن؛ وكلُّ حَمَلٍ سمين، وكَبْش بطين ؛ مجلوبٌ[4] إليك، وموقوفٌ عليك، تقول فيه فلا تُرَدّ ، وتُريد فلا تُصَدّ ؛ وكانت هديتُك هذا الذى [كأنه[5]] انْشِر من القبور، أو أُقِيم عند النَّفخ فى الصُّور؛ فما كنتَ مُهْدِياً لو أنك رجل من عُرْض الكُتّاب، كأبى علىّ وأبى الخطّاب! ما تُهدى إلّا كلبا أجرب، أو قردًا أحْدَب .

وقال شاعرٌ فى هذا المعنى :

ليت شِعْرى عن الحروفِ الهَزيلِ * ألَكَ الذَّنْبُ فيـه أم للوَكِيلِ
لم أجِدْ فيـه غيرَ جِـلْدٍ وعَظْمٍ * وذُنَيْبٍ له دَقِيـقٍ طويـلِ
ما أُرانى أراه يَصـلُح إذ أصـ * ـبَح رَسْمًا على رسومِ الطُّلولِ
لا لِشَيٍّ ولا لِطَـبْخ ولا بيـ * ـع ولا بِرِّ صاحب وخليـلِ
أعجفٌ لو مُطَفِّـلٌ نال منـه * لغـدا تائبًا عن التَّطْفِيـلِ[6]

(١) القتار (بالضم) : الدخان من المطبوخ . (٢) الذحل : الثأر . (٣) فى الأصلين : «إذ» . (٤) كذا فى مباهج الفكر . وفى أ هكذا : «بحلوت» . وفى ب : «محلوب» بالحاء المهملة . وكلاهما تصحيف . (٥) التكملة عن مباهج الفكر .

(٦) الأعجف : المهزول . والمطفل : الطفيلىّ . يقال : طفّل الرجل أى صار طفيليا . وقد ورد هذا البيت فى الأصلين هكذا :

أعجف أو مطفل قال منه * لغدا تابيا عن التطفيـل

وفيه تحريف .

وقال شرفُ الدين بن عَيْن وقد أهدى له بعضُ أصدقائه خروفا بعد ما مَطَلَه به :

أتانى خروفٌ ما تشكّكت أنّه * حليفُ جَوًى قدشَفَّه الهجرُ والمَطْلُ
إذا قام فى شمس الظهيرةِ خلتَه * خيالًا سَرَى فى ظُلْمةٍ ما له ظِلُّ
فناشدته : ما تَشتهى؟ قال : قِتَّةً * وقاسمتُه(١) : ما شفَّه؟ قال لى : الأَكْلُ
فأحضرتُها خَضْراء مجّاجةَ الثرى * مُنَعَّمةً ما خَصّ أطرافَها فَتْلُ
وظَلّ يُراعيها بعينٍ ضعيفةٍ * ويُنْشدها والدّمعُ فى الخدّ مُنْهَلُّ :
«أتَت وحِياضُ الموت بينى و بينها * وجادت بوصلٍ حين لاينفع الوصلُ»

وقال الحمْدونىّ فى المِعْزَى :

أبا سعيدٍ لنا فى شَاتِك العِبَر * جاءت وما إن بها بَوْلٌ ولا بَعَرُ
وكيف تَبْعَرُ شاةٌ عندكم مَكَثَتْ * طَعامُها الأبيضان : الشمسُ والقمرُ
لو أنّها أبصرتْ فى نومها عَلَفًا * غنّت له ودموعُ العين تَنْحدِرُ :
« يا مانعى لذّةَ الدنيا بما رَحُبَتْ * إنى ليُقْنِعُنى من وجهك النظرُ »

وقال أيضا :

ما أرَى إنْ ذبحتُ شاةَ سعيدٍ * حاصِلًا فى يَدَىّ غيرُ الإهاب
ليس إلّا عظامها ، لو تَراها * قلتَ هذى أرَازِنٌ(٢) فى جِراب

(١) قاسمه : أحلفه .

(٢) الأرزن : شجر صلب تتخذ منه عصىّ صلبة .

وقال فيها :

لِســـعيدٍ شُوَيْهَـــةٌ * سَلَّها الضُّرُّ والعَجَفْ

قـد تغنّتْ وأبصرتْ * رجـلا حامِلًا عَلَفْ :

بأبى مَنْ بكفّه * بُرْءُ دائى من الدَّنَفْ

فأتاهـا مُطَـــعِّمًا * فأتَتْـــه لتعتَـــلِفْ

فتـــولّى وأقبـــلتْ * تَتَغنّى من الأسَفْ :

ليتَه لم يكن وقَفْ * عذَّب القلبَ وانصرفْ

القسم الرابع من الفن الثالث

فى ذوات السموم، وفيه بابان

البـاب الأوّل

من هذا القسم فى ذوات السموم القَواتل . ويَشتمل هذا البابُ على ما قيـل
٥ فى الحيّات والعقارِبِ .

ذكر ما قيل فى الحيّات

الحيّاتُ مختلفاتُ الجهات جِدًّا . وهى من الأمم التى يكثُرُ اختـلافُ أجناسها فى الصُّورِ والشِّيَم ، والصِّغَرِ والعظَم ، وفى التعرّض للناس وفى الهرب منهم . فمنهـا[1] ما لا يُؤذى إلا أن تَطَأَها . ومنها ما يؤذى إذا وُطِئتْ فى حِماها . ومنها ما لا يؤذى
١٠ فى تلك الحال إلا أن تكون على بَيْضها أو فراخِها . ومنها ما لا يؤذى إلّا أن يكون النـاسُ قد آذَوْها مرّة . فامّا "الأسودُ" فإنه يَحقِدُ ويُطالِب ويَكُمن فى المتـاع حتى يُدْرِكَ ؛ وله زمانٌ يقتُل فيه كلَّ شىء نَهَشه . وأما "الأفعى" فليس ذلك عندها ، ولكنها تظهر فى الصيف مع أوائل الليـل إذا سكنَ وَهَجُ الرَّمل أو ظاهرُ الأرض ، فتأتى قارعةَ الطريق حتى تَستديرَ كالرَّحى وتُشْخِص رأسَها ؛ فمَنْ وَطِئ عليها أو مسَّها
١٥ نَهَشَتْه . وهى من الحيّات التى تَرصُد ؛ وهى تقتُل فى كل زمان وعلى كل حال . و"الشُّجاع" يُواثِب ويقوم على ذَنَبـه . والحيّاتُ أصنافٌ كثيرة سنذكر ما أمكن ذكره منها إن شاء الله .

(١) فى الأصلين : « فيها » .

والعرب تضرب المثلَ فى الظلم بالحيّة فيقولون : " أَظلَمُ من حَيَّةٍ " ، لأنها لا تتخذ لنفسها بيتا، وكل بيت قَصدتْ نحوَه هرَب أهلُه منه وأخلَوْه لها .

والحيّةُ مشقوقةُ اللسان ، ولسانُها أسودُ . وزعم بعض المفسرين لكتاب الله عز وجل أنّ الله تعالى عاقَب الحيّةَ، حين أدخلتْ إبليسَ فى فمها حتى خاطب آدمَ وحواءَ وخدعهما، بعشرة أشياء: منها شَقُّ لسانها؛ فلذلك ترى الحيّةَ إذا ضُرِبتْ لِتُقْتَلَ كيف تُخرِج لسانَها لتُرِىَ الضاربَ لها عقوبةَ الله تعالى، كأنها تَسترحِمُ . ويقال : إن من خصائص الحيّة أنّ عينها إذا قُلِعَتْ عادت، وكذلك نابُها إذا قُلِع أو قُطِع بالكاز[1] عاد بعد ثلاث ليالٍ؛ وكذلك ذنَبُها إذا قُطع عاد . وفى طباعها أنها تهرب من الرجل العُرْيان، وتَفرَح بالنار وتطلُبها وتُعْجَب بها ، وباللبن والبطيخ واللُّفّاح[2] والخَرْدل . وهى لا تَضْبِط نفسَها عن الشّراب إذا شمّته؛ وإذا وجدَتْه شرِبت منه حتى تسكَرَ؛ فربما كان السُّكرُ سببَ حتفها؛ لأنها إذا سَكِرتْ خَدِرتْ . وتَكرَهُ الحيّةُ ريحَ السَّذاب[3] ولا تملِكُ نفسَها [معه][4]، وربما اصْطِيدَتْ به؛ وتَكرَهُ ريحَ الشِّيح . والحيّةُ تُذبَح حتى تُفْرَى أوداجُها فتبقى أيامًا لا تموت . ومتى ضُربت بالقصَب الفارسىّ ماتت، وإن ضُرِبت بسوط قد مسّه عَرَقُ الخيل ماتت . ويقال : إنها لا تموت حَتْفَ أنفها إلا أن تُقْتَلَ .

(٨٧)

---

(١) الكاز : المقص بالفارسية .

(٢) اللفاح : هو المعروف فى مصر بالشمام .

(٣) السذاب : نوعان : برّىّ وبستانى، فالبستانى يفترع فروعا تطلع من ساق له قصيرة تتشعب عليه شعب مثل الأغصان ويحمل فى أطراف أغصانه رءوسا تتفتح عن ورد صغار الورق أصفر واذا انتشر سقط منه الحب . وأما البرىّ فهو أصغر ورقا من البستانى وزهره مثل زهر البستانى .

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

ومن أعجب ما شاهدتُه أنا من الأفاعى أنها قُطِّعت بحضورى بالبِيمارستان[1] المنصورى بالقاهرة المُعِزِّيّة فى شهور سنة ستّ وسبعمائة بسبب عمل الدِّرْياق الفَارُوق[2]؛ وقُطِع من رأسها وذنبها ما جرتِ العادةُ بقطعه، وسُلِختْ وشُقّ بطنُها ونُظِّفَتْ وهى تختلج، ثم سُلِقَتْ وجُرِّد لحمُها عن العظم، فنظرتُ إليه فإذا هو يختلج؛ فعَجِبتُ لذلك؛ وذكرته لرئيس الأطبّاء عَلَم الدِّين[3] المعروف بابن أبى حُلَيْقة وهو حاضر فى المجلس، فقال: ليس هذا بأعجبَ مما تراه الان، وقال لى: استَدْعِ أقراصَ الأفاعى التى عُمِلت من أكثرَ من سنة؛ فاستدعيتُها، فأحضرها الخازنُ وهى فى العسل وقد دُقّ لحم الأفاعى بعد سَلْقه وعُجِن بالسِّميذ وجُعل أقراصًا ووُضِع فى العسل من أكثر من سنة؛ فقال لى: تأمّل الأقراصَ؛ فتأملتُها فإذا هى تضطرب اضطرابا خفيفا[4].

وقال الجاحظ: وزعم صاحب المَنْطِق أنّ الحيّات تَنْسلخ عن جلودها فى كل عام فى أوّل فصل الربيع أو الخريف؛ وتبتدئ بالسَّلْخ من عيونها ويتمّ سَلْخُها فى يوم وليلة، ويصير داخلُ الجلد هو الخارج. وإذا هَرِمت وعَجَزت عن السلخ

(١) هو بيمارستان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى، وبعضه باق الى الآن ويعرف بمستشفى قلاوون، وهو تابع لوزارة الأوقاف المصرية. (راجع ما كتبه عنه المقريزى بتفصيل واف فى خططه ج ٢ ص ٤٠٦ وعلى باشا مبارك فى خططه ج ٥ ص ٩٩ — ١٠١).

(٢) الدرياق الفاروق أحدّ الدرايق وأجل المركبات، لأنه يفرق بين المرض والصحة.

(٣) هو علم الدين ابراهيم بن الرشيد بن أبى الوحش المعروف بابن أبى حليقة رئيس الأطباء بالديار المصرية والبلاد الشامية، كان بارعا فى الطب محظوظا عند الملوك والأمراء، ونالته السعادة من ذلك حتى إنه لما مات خلف ثلثمائة ألف دينار غير القماش والأثاث. وهو أوّل حكيم ركب بدمشق شراب الورد الطرى ولم يكن يعرف بدمشق قبل ذلك. رحمه الله. توفى بمصر سنة ٧٠٨ هـ. (راجع عيون التواريخ لابن شاكر والسلوك للمقريزى وعقد الجمان للعينى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى فيمن توفى سنة ٧٠٨ هـ).

(٤) كذا فى ب. وفى أ: «خفيا».

وٱرتخى جسمُها أدخلت جسمَها بين عودين أو فى صَـدْعٍ ضيقٍ حتى تنسلخ، ثم تأتى إلى عين ماء فتنغمس فيها فيشتدّ لحمُها ويعود إلى قوّته وشدّته .

قال الجاحظ : وليس فى الأرض مثـل جسم الحيّة إلا والحيّة أقوى بدناً منه أضعافا . ومن قوّتها أنها إذا أدخلتْ صـدرَها فى جُحْر أو صَـدْع لم يستطع أقوى الناسِ وقد قبض على ذَنَبها بكلتا يديه أن يخرجها ، لشدّة ٱعتمادِها وتعاون أجزائها ؛ ٥ وربما ٱنقطعت فى يد الجاذب لهـا . فإذا أراد أن يُخرِجها أرسلها بعضَ إرسالٍ ثم يجذِبها كالمُختَطِف لهـا . قال : ومن أصناف الحيّات ما هو أزْعَر ، وما هو أزَبّ (ذو شعر)، ومنها ذواتُ قرون. ومنها ما يسمى الأسود وهو ما إذا كان مع الأفاعى فى جُونةٍ[1] وجاع ٱبتلَعها من قِبَل رءوسها، ومتى رام ذلك من غير جهة الرأس عضّته فقتلته. ومن أصنافها ما يسمى "الأَصَلَة"، وهو ثعبان عظيم جدّا، وله وجه كوجه ١٠ الإنسان؛ ويقال : إنه يصير كذلك إذا مرّت عليه ألوف من السنين . وهو يقتل بالنظر وبالنفخ . ومنهم من يسمّى هذا النوعَ الصِّـلّ ، ويقول : إنّ أصل خِلْقته على هذه الصفة. قال : وفى البادية حيّة يقال لها "الحُفّاث" تأكل الفأرَ وأشباهَه. وهى عظيمةٌ، ولها وعيدٌ مُنكَر ونفخٌ وإظهار للصولة، وليس وراء ذلك شىء؛ والجاهل ربما مات من الفزع منها . ١٥

قالوا : والثعبان[2] والأفعى فإنه يقتل بما يُحدثه من الفزع؛ لأن الرجل إذا فزِع تفتّحت مَسامُّه ومنافِسُه، فيتوغّل السمُّ فى موضع الصّميم[3] وأعماق البدن . فإن

(١) الجونة : سليلة مستديرة مغشاة أدما (الجراب) .

(٢) كذا فى الأصلين . والسياق يقتضى أن يكون : « قالوا : والثعبان والأفعى يقتلان بما يحدثانه من الفزع ... الخ» . ٢٠

(٣) الصميم : العظم الذى به قوام العضو . وفى الأصلين : « الصمم » ، وهو تحريف .

نَهَشت[1] النائمَ والمُغْمَى عليه والمجنونَ والطفلَ الصغير لم تقتله البتّة[1] . وزعم صاحبُ المنطق أنّ بالحبشة حيّاتٍ لها أجنحةٌ . وأخبرنى المولى شرفُ الدين أحمد بن اليَزْدِىّ قال : كنت بمدينة الرَّمْلة[2] فى شهور سنة اثنتين وسبعمائة صحبةَ الصاحب شرف الدين بن الخليل ومعه القاضى الحاكم وجماعةٌ كثيرة من الناس وفيهم عَدَوْلَى[3] وغيرهم ؛ فنظرنا نحو السماء فإذا نحن بحيّتين عظيمتين طائرتين فى الهواء قاصدتين صوبَ البحر، كلّ منهما فى غِلَظ الثنيانة[4]، وإن إحداهما مستقيمة فى طيرانها والأخرى تتعوّج من قِبَل رأسها ووسَطِها وذَنَبها، وكانتا من الأرض بحيث لا يبلغهما السهم، قال : فسطّرنا بذلك محضرًا على عدّة نسخ .

وحكى بعضُ المؤرّخين : أنه وُجِد فى خزائن المستنصر بالله[5] العُبَيْدى أحدِ خلفاء مصر بَيْضَةٌ مجلّاةٌ بالذهب ظنّوا أنها بيضةُ نعامة ؛ فجعل الناس يتعجّبون من تحليتها

(١) كذا فى الأصلين . وعلى ما استدركناه فى حاشية رقم ٢ ص ١٣٦ يقتضى أن يكون السياق : «فان نهشا ... ... لم يقتلاه البتة» .

(٢) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين، نسب اليها قوم من أهل العلم .

(٣) العدولى : الملاحون، مفرده عدولىّ .

(٤) كذا فى الأصلين . والسياق يدل على أنه يريد أن يشبه هاتين الحيتين بشىء غليظ . ويحتمل أن تكون هذه الكلمة محرفة عن الثناء (بالكسر) وهو عقال البعير ونحوه من كل حبل مثنىّ .

(٥) هو أبو تميم معدّ بن الظاهر لإعزاز دين الله . ولد سنة ٤٢٠ هـ وبويع له بالخلافة سنة ٤٢٧ هـ وعمره يومئذ سبع سنين وأقام فى الخلافة ستين سنة وأشهرا وجرى فى أيامه مالم يجر فى أيام أحد من أهل بيته ممن تقدّمه ولا ممن تأخر عنه . وتوفى سنة ٤٨٧ هـ . (راجع ترجمته بتفصيل واف فى تاريخ ابن خلكان ج ٢ ص ١٥١ طبع بولاق والمقريزى ج ١ ص ٣٥٥) .

بالذهب؛ فذكروا ذلك للمستكفى، فقال : إنها بيضةُ حيّة كان بعضُ الملوك أهداها لجَدّى القائم بأمر الله[(١)] .

ومن كتاب نَشْوار المحاضرة قال حدّثنا أبو إسحاق إبرهيم بن الورّاق قال حدّثنى عمى أبو الحسين[(٢)] : أن الحُصَيْنىّ حدّثه عن أبى العبّاس بن الفُـرات قال حدّثنى أبى قال : قال لى جعفر الخيّاط[(٣)] : أمرنى المأمون ونحن بالروم أن أقتص[(٤)] الطريقَ لئلا يكون به جواسيس للعدوّ؛ فأخذتُ معى جماعةً من أصحابى فُرسانًا ورَجّالةً وسلكتُ الطـريقَ، فعَنّ لى شِعْب فقصدتُه لئلا يكون فيه كمينٌ من الجواسيس، وتقدّمنى الرَّجّالة فرأيتهم قد وقفوا؛ فأسرعت اليهـم وسألتُهم عن خبرهم، فقالوا : انظر؛ فنظرتُ فإذا رجلٌ من الرجّالة قد قعد لقضاء حاجته، ومشى أصحابُه، فقصدتْه حيّةٌ من وراء ظهره فآبتلعته من رجليه إلى صدره وهو يستغيث ويصيح؛ فلم يكن لنا فيه حيلةٌ وخِفتُ أن آمُرَ الرجّالةَ برمى الحيّة بالنُّشّاب فيصيب الرجلَ فأكون أنا قتلتُه . فبسَط الرجلُ يديه وآنتهى بَلْعُ الحيّـة إلى إبْطَيْه، فرأيتُها وقد آنضمّت على

(١) هو القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، ولى الأمر بعد موت أبيه المهدى عبيد الله بعهد منه اليه . سار الى مصر مرتين ووقع له مع أصحاب مصر حروب وخطوب . وكانت وفاته بالمهـدية من بلاد المغرب فى شوّال سـنة ٣٣٤ هـ . (راجع ترجمته فى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٨٧ طبع دار الكتب المصرية والمقريزى ج ١ ص ٣٥١) .

(٢) كذا فى أ . وفى ب : « عمر أبو الحسين » . وقد بحثنا عن هـذا الاسم فى الجزء الأوّل المطبوع من كتاب نشوار المحاضرة (طبع مطبعة أمين هندية بمصر) ، فلم نعثر عليه . فلعل هذه الحكاية التى ورد فيها هذا الاسم جاءت فى الأجزاء التالية التى لم تطبع بعد .

(٣) هو جعفـر بن دينار بن عبد الله الخياط، كان من كبار القوّاد فى عصر المأمون وابنه المعتصم . وجهه المأمون على رأس جيش فى سـنة ٢١٥ هـ الى صاحب حصن سنان فأخضعه؛ وكان مع الأفشين فى حرب بابك الخرّمى وأبلى معه بلاء حسنا .

(٤) الاقتصاص : تتبع الأثر .

ما ٱبتلعته منه ضمةً سمعنا تكسيرَ عظامه فى جوفها ، فمات وسقطت يداه فٱبتلعته حينئذ بأسْرِه . فقلت : الآن أَقْصِدوها بالنُّشّاب ؛ فرشقْناها جميعا فأثبتْناها فى موضعها حتى قتلناها ؛ فأمرتُ بشَق بطنها لأُعاينَ جسمَ الرجل ، فلم نجد فى بطنها من جِلْد ولا عَظْمٍ ولا غيرهما إلا شيئاً كالخيط الأسود ، فإذا هى قد أحرقته فى لحظةٍ واحدةٍ .

٥ ويقال : إن بجزائر الصين حياتٍ تبتلع الإبلَ والبقرَ وشِبهها .

قال الجاحظ : حدّثنى أبو جعفر المكفوف النحوىّ العَنْبرىّ وأخوه رَوْح الكاتب ورجالٌ من بَنِي العنبر : أنّ عندهم فى رمال بَلْعَنْبَر حيةً تصيد العصافيرَ وصغارَ الطير بأعجب حيلةٍ ؛ وزعموا أنها إذا ٱنتصف النهارُ وٱشتدّ الحرُّ فى رمال بَلْعَنْبَر وٱمتنعت الأرضُ على الحافى والمُنْتَعِل ، غمَست هذه الحيّةُ ذَنَبها فى الأرض ثم

١٠ ٱنتصبت كأنها عُودٌ مركوزٌ أو عود ثابت[1] ، فيَجىء الطائرُ الصغيرُ والجرادةُ ، فإذا رأى عودًا قائمًا وكرِه الوقوعَ على الرمل لشدّة حرّه وقع على رأس الحيّة على أنها عود ، فإذا وقع على رأسها قبَضَتْ عليه . فإن كان جرادةً أو جُعَلًا أو بعضَ ما لا يُشبعها ٱبتلعتْه وبقيتْ على ٱنتصابها ؛ وإن كان طائرًا يُشبِعُها أكلته وٱنصرفتْ ؛ وإن ذلك دأبُها مامنع الرملُ جانبَه فى الصيف والقيظ .

١٥ قال : وزعم لى رجالٌ من الصَّقالبة خِصْيانٌ وخولٌ أنّ الحيّةَ فى بلادهم تأتى البقرةَ المُحَفَّلةَ[2] فتَنْطوِى على فَخِذَيها وركبتيها إلى عَراقيبها ثم تُشخِصُ صدرَها نحو أخلافِ ضَرْعها حتى تلتقمَ الحِلْفَ ، فلا تستطيع البقرةُ مع قوّتها أن تَترمرَم[3] ؛ فلا تزال الحيّةُ

(١) فى كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٤ ص ٣٨) : «ثابت» بالثاء المثلثة .

(٢) المحفلة : المملئة الضرع التى تركت أياما من غير حلب ليتجمع لبنها . وفى الحديث "من اشترى شاة محفلة فلم يرضها ردّها وردّ معها صاعا من تمر" .

٢٠ (٣) تترمرم : تتحرك .

تَمُصّ اللبنَ ، وكلما مَصّت آسترخت؛ فإذا كادت تَتْلَف أرسلتها . وزعموا أنّ تلك البقرةَ إما أن تَتلَف، وإما أن يُصيبها داءٌ فى ضرعها وفسادٌ شـديد يعسُر دواؤه .

وهذا البـاب طويل؛ وقد أوردنا منه ما فيه غُنْيَةٌ . فلنذكر ما قيل فى أصناف الحيّات وأوصافها .

ذِكرُ أسماء الحيّات وأوصافها — يقال : "الجانّ"[1] و"الشيطان" هى الحيّة الخبيثة . و"الحَنَش" : ما يصاد من الحيّات . و"الحَيُّوتُ" : الذكر منها . و "الحُفّاتُ" و "الحِضْبُ"[2] : الضخم منها . و "الأسود" : العظيم وفيه سواد؛ ويقال : الأسود هو الداهية؛ وله خُصْيتانِ كخُصْيتى الجَدْى ، وشعر أسود، وعُرفٌ طويل، وصُنانٌ كصُنانِ التَّيْس . و "الشُّجاعُ" : أسود أملَس يضرب إلى البياض، خبيث؛ ويقال : إنه دقيق لطيف . و "الأُعَيْرِج" : حيّـةٌ صَمّاءُ لا تَقْبَـلُ الرُّقَى وتَطفِر كما تَطفِر الأفعى . ويقال : الأُعَيْرِجُ : حيّـةٌ أُرَيْقِط نحوٌ من ذراع ، وهو أخبثُ من الأسود . وقال ٱبن الأعرابىّ : الأعيرِجُ أخبثُ الحيّات، يقفِـز على الفارس حتى يصيرَ معـه فى سَرْجه . وقال الليث عن الخليل : الأفعى التى لا تنفع معها رُقْيَةٌ ولا دِرْياقٌ، وهى دقيقة العنق عريضة الرأس . وقال غيره : هى التى إذا مشت مُنْثَنِيَةً جَرَشَتْ بعضَ أسنانها ببعض . وقال غيره : هى التى لها رأس عريضٌ ولها قَرْنانِ . والأُفْعُوانُ": الذكر من الأفاعى . و"العِرْبِدُّ" و"العِسْوَدُّ" حية تَنْفُخ ولا تُؤذى . و "الأَرْقَم" : الذى فيـه سواد وبياض ، و "الأَرْقَش" نحوه . و "ذو الطُّفْيَتَيْن" : الذى له خَطّان أسودان . و "الأَبْتَرُ" : القصير الذنب . و "الخَشْخَاشُ" : الحيّة الخفيفة . و "الثعبان" : العظيم منها، وكذلك "الأَيْم"

(١) فى الأصلين : «الحيات» . والتصويب عن المخصص .

(٢) كذا فى اللسان والمخصص . وفى الأصلين : «الحصب» بالصاد المهملة، وهو تصحيف .

و "الأَيْنُ". و "ابن قِتْرة": حيّة شبيهة بالقضيب من الفضّة فى قَدْر الشِّبْر والفِتْر، وهى أخبثُ الحيّات، فإذا قَرُبَ من الانسان تَراءَى فى الهواء فوقَع عليه من أعلاه. و "ابنُ طَبَق": حيّةٌ صفراءُ، ومن طبعها أن تَنام ستةَ أيام ثم تنتبه فى اليوم السابع. ولا تَنْفُخُ شيئا إلا أهلكتْه قبل أن يتحرّك. وربما مرّ بها الرجلُ وهى نائمة فيأخذها كأنها سِوار من ذهب، فإن استيقظت وهى فى كفّه خرّ ميتاً. ومن أمثال العرب "أصابته إحدى بناتِ طَبَق". قال الليث: "السِّفُّ"[1]: الحيّةُ التى تطير فى الهواء. وأنشد:

وحتى لَوَانّ السِّفَّ ذا الريشِ عَضَّنى * لما ضَرَّنى من فِيه نابٌ ولا ثَغْرُ[2]

و "النَّضْناضُ"[3]: الذى لا يسكن فى مكان.

ومن أسمائها "القُزَة"[4] و "الهِلال" و "الرَّعاصَةُ"[5].

ذكر ما فى لحوم الحيّات من المنافع والأدوية

قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا: والحيّة يُستعمل مطبوخُها بالماء والملح والشِّبْث، وقد يُزاد عليها الزَّيْت. قال: وأجودُ لحمه لحمُ الأُنثى، وأجودُ سِلْخِه[6] سلخُ

(١) كذا فى اللسان والمخصص. وفى الأصلين فى الموضعين: «السيف» بزيادة الياء، وهو تحريف.

(٢) كذا فى اللسان مادة (سفف)، والثعر: السم. وفى الأصلين: «ثغر» بالغين المعجمة، وهو تصحيف.

(٣) كذا فى اللسان والمخصص. وفى أ: «الفضفاض». وفى ب: «الفضاص»، وكلاهما تحريف.

(٤) كذا فى اللسان والمخصص. وفى الأصلين: «الغرة»، وهو تحريف.

(٥) فى الأصلين: «الرعامة» بالميم. ولم نجدها فى كتب اللغة ولا فى المخصص (فى الكلام على الحيات) فلعلها محرفة عما أثبتناه. يقال: ارتعصت الحية إذا التوت.

(٦) السلخ (بالكسر): الجلد.

الذَّكَر . وطبع الحيّـة[1] إلى التجفيف فى لحمها قوىّ ؛ وأما التسخين فليس بشديد ؛ وسِلْخُه شـديد التجفيف أيضا . وخاصيّةُ لحمه أنه يُنْفِذ الفضولَ إلى الجلد ، سيّما إذا كان الإنسانُ غيرَ نَقِىّ . قال : ولحمه إذا ٱستُعْمِل أطال العمرَ ، وقوّى القوّة ، وحفظ الحواسّ[2] والشباب — أمّا قولُه : « أطال العمر » فيَرُدّ هذا القولَ ما ورد فى الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " فرغ ربُّك من أربَع خَلْقٍ وخُلُقٍ ورزقٍ وأجَلٍ[3] " . وأما ماعدا ذلك فغيرُ مردودٍ عليه — . قال : وأكْلُه ينفع من الجُذَام نفعًا عظيما ؛ وإذا ٱستُعمل على داء الثعلب[4] نفع نفعًا عظيمًا . ولحمها ومرقُها بعد إسـقاط طرفها يمنع تزيُّدَ الخنازير[5] ، وكذلك سِلخها . ومرقتها إذا تُحُسِّيت[6] وأُكِل لحمها نفع من أوجاع العصب ، وكذلك سِـلخها . قال : وسِلْخُها إذا طُبِخ فى شراب وقُطِّر منه فى الأُذُن سكّن وجعُها ؛ ويُتَمَضْمَضُ بخلٍّ طُبِخ فيه السِّلْخ لوجَع السِّن . قال : وزعم جالِينوس أنه إذا أُخِذت خيوط كثيرة ، وخصوصا المصبوغة بالأُرْجُوان ، وخُنِق بها أفعى ولُفّ واحدٌ منها على عنق صاحب أو رام اللَّهاة والحَلْق ظهر نفعٌ عجيبٌ . ومرقتُه ولحمُه يقوّيان البصرَ . قال : وٱتفقوا على أنّ شحم الأفعى يمنع نزول المـاء إلى العين ، ولكنّ الإنسان لا يجسُر على ذلك . وإذا شُقّت الحيّـةُ ووُضِعت على نهش الأفاعى سكّن الوجعُ .

(١) يريد أن لحم الحية يجفف البدن ويسخنه ، إلا أنه فى التجفيف أقوى منه فى التسخين .

(٢) كذا فى كتاب القانون . وفى الأصلين : « الجواشر » ، وهو تحريف .

(٣) الذى ورد فى كتاب الجامع الصغير (ج ٢ ص ١٢٠) : "فرغ إلى ابن آدم من أربع الخلق والخلق والرزق والأجل" .

(٤) داء الثعلب : علة معروفة يتناثر منها الشعر . وسمى داء الثعلب لأن الثعلب يتساقط شعره كل سنة .

(٥) الخنازير : قروح صلبة تحدث فى الرقبة وهى علة معروفة .

(٦) كذا فى كتاب القانون . وفى الاصلين : « إذا نخست » ، وهو تحريف .

ذكر شيء مما وُصِفَت به الأفاعى

قال بعضُ الشعراء يصف حيّةً :

لا يَنْبُتُ العُشْبُ فى وادٍ تكون به * ولا يُجاوِرُها وَحْشٌ ولا شَجَرُ
جَرْدَاءُ شابِكَةُ الأنيابِ[1] ذابِلَةٌ * ينبو من اليُبْسِ عن يافُوخِها[2] الحجَرُ
لو شُرِّحَتْ بالمُدَى ما مَسَّها بَلَلٌ * ولو تَكَنَّفَها[3] الحاوُون ما قَدَروا
قد جاهدوها فما قام الرُّقاةُ[4] لها * وخاتَلوها[5] فما نالوا[6] ولا ظَفِروا
يكبو لها الوَرَلُ[7] العادى إذا نفَخَتْ * جُبْناً[8] ويهرُبُ منها الحيّةُ الذَّكَرُ

وقال خَلَفٌ الأحمر :

وكأنّما لَبِسَتْ بأعلَى جِسْمِها * بُرْدًا من الأثواب أَنْهَجَه[9] البِلى
فى عينها قَبَلٌ[10] وفى خَيْشُومِها * فَطَسٌ وفى أنيابها مثلُ المُدَى

(١) كذا فى مباهج الفكر (القسم الثانى المجلد الثانى ص ١٥٧) والحيوان للجاحظ (ج ٤ ص ١٠٢). يقال : أسد شابك أى مشتبك الأنياب . وفى الأصلين : «شابكة الأذناب» . على أنه يحتمل أن تكون «شائكة» .

(٢) اليافوخ : الموضع الذى يتحرك من رأس الطفل ، يهمز ولا يهمز .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «تكيفها» .

(٤) كذا فى مباهج الفكر والحيوان للجاحظ . وفى الأصلين : «فما قام الرق بها» . والرق : كالرقية .

(٥) كذا فى الحيوان . وفى مباهج الفكر : «حايلوها» . وفى الأصلين : «حاولوها» .

(٦) كذا فى الحيوان . وفى الأصلين ومباهج الفكر : «آبوا» .

(٧) الورل (بالتحريك) : دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه ، يكون فى الرمال والصحارى ، يأكل العقارب والحيات والحرابى والخنافس .

(٨) فى الأصلين ومباهج الفكر : «حينا» . ورواية البيت فى الحيوان :

تقصر الورل العادى بضربتها نكزا ويهرب منها الحية الذكر

ونكز الحية : طعنها بأنفها ، وخص بعضهم به الثعبان والدساسة . ومنه قيل لضرب من الحيات النكاز ، لأنه ينكز بأنفه ولا يعض بفيه ، ولا يعرف رأسه من ذنبه لدقة رأسه .

(٩) كذا فى مباهج الفكر . وأنهجه : أخلقه وأبلاه . وفى الأصلين : «أبهجه» بالباء الموحدة ، وهو تصحيف .

(١٠) القبل فى العين : إقبال السواد على الأنف ، وقيل : هو مثل الحول ، وقيل : إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى ، وقيل غير ذلك .

وقال آخر :

أَرْقَمُ كالدِّرع فيــه وَشْمٌ * مُمَنْمَـنُ الظَّهْـرِ واللَّبَـانِ[1]

يَزْحَفُ كالسَّيْل من تِلاعٍ * كأن عينيـه كوكبانِ

يَهِشم ما مسَّ من نَبَـاتٍ * ويَجـذِبُ النَّفسَ بالعِنانِ

وقال ابن المعتزّ :

أَنْعَتُ رَقْشَـاءَ لا تَحْيـا لَدِيغـتُها * لو قَـدّها السـيفُ لم يَعْلَقْ به بَلَلُ

تُلْقِي إذا انسلختْ فى الأرض جلدتَها * كأنهـا كُمُّ دِرْعٍ قـدّه بطـلُ

وقال الظاهر[2] البصرىّ شاعر اليتيمة :

سِرْتُ وصَحْبي وسط قاعٍ صَفْصَفِ * إذ أشْرَفَتْ من فوق[3] طَوْدٍ مُشْرِفِ

رَقْشَاءُ تَرْنو من قَلِيبٍ أجْوفِ * تُومِي[4] برأس مثـلِ رأسِ المِجْرَفِ

وذَنَبٍ مُنْـدمِجٍ[5] مُعَـقَّفِ * حـتى إذا أبصرتُهـا لا تَنْـكَفِي[6]

علوتُهـا بحـدّ سـيفٍ مُرْهَفِ * [فظـلّ[7] يَجـرى دَمُها كالقَرْقَفِ[8]]

* أتلفتُها لمـا أرادتْ تَلَفِى *

---

(١) اللبان : الصدر . (٢) كذا فى كتاب اليتيمـة (ج ٢ ص ١٣٥ طبع الشـام) فى ذكر شعراء البصرة . وكنيته « أبو الحسين » . وفى أ : « الظاهر المصرى » بالميم . وفى ب : « الطاهر المصرى » بالطاء المهملة والميم . وكلتاهما تحريف .

(٣) فى الأصلين : «... من كل طود... ...» . والتصويب عن اليتيمة .

(٤) كذا فى اليتيمة . وفى الأصلين : «ترمى» بالراء، وهو تحريف .

(٥) كذا فى اليتيمة . وفى الأصلين : «مدبج» ، وهو تحريف .

(٦) لا تنكفى : لا ترجع . (٧) التكملة عن اليتيمة .

(٨) القرقف : الخمر .

وقال خَلَفٌ الأَحْمر :

له عُنُقٌ مخضرَّةٌ مدّ ظهرِه * وُشُومٌ كتحبيرِ اليَمانِي المُرَقَّمِ
إلى هامةٍ مثلِ الرَّحَى مستديرةٍ * بها نُقَطٌ سُودٌ وعينانِ كالدَّمِ

وقال آخر[1] :

وحَنَشٍ كحَلْقةِ السِّوارِ * غايتُه شِبْرٌ من الأشبارِ
كأنه قضيبُ ماءٍ جارِى * يَفْتَرّ عن مِثْلِ تَلَظِّى النَّارِ

وقال خلف الأحمر[2] :

صِلٌّ صَفًا لا تَنْطوِى من القِصَرْ * طويلةُ الإطْرافِ من غير حَسَرْ[3]
داهِيةٌ[4] قد صَغُرَتْ من الكِبَرْ * مَهْروتَةُ الشِّدْقَيْن حولاءُ النَّظَرْ
* تَفْتَرّ عن عُوجٍ حِدادٍ كالإبَرْ *

---

(١) هو أشجع السلمى ، كما فى مباهج الفكر . (٢) فى الأصلين : «النابغة» وهو تحريف . والتصويب عن كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٤ ص ٩٥) . وفيه يقول الجاحظ : «وما علمت أن أحدا وصف عين الأفعى على معرفة واختبار غيره» . ثم أورد هذه الأبيات بزيادة عليها وعلى غير هذا الترتيب وهى :

أفعى زحوف العين مطراق البكر * داهية قد صغرت من الكبر
صل صفا لا ينطوى من القصر * طويلة الإطراف من غير حسر

(الإطراف : مصدر أطرف وهو أن يطابق ما بين الجفنين . والحسر : الإعياء والكلال)

كأنما قد ذهبت به الفكر * شقت له العينان طولا فى شتر

(الشتر : أن يكون جفن العين منقلبا من أعلى وأسفل ومنشقا ، أو أسفله مسترخيا ، أو انقلب جفنه الأسفل فلا يلق الأعلى فظهرت حماليقه) .

مهروتة الشدقين حولاء النظر * جاء بها الطوفان أيام زخر

(الهرت : سعة الشدقين) .

كأن صوت جلدها إذا استدر * نشيش جمر عند طاه مقتدر

(٣) فى الأصلين : «الحفر» بالفاء ، وهو تحريف .

(٤) فى المخصص (ج ٨ ص ١٠٩) بعد أن ذكر رواية الأصل هنا : «قال أبو علىّ : روايته * حارية قد صغرت من الكبر * » .

والحارية : الأفعى التى كبرت ونقص جسمها ولم يبق الا رأسها ونفسها وسمها ، وهى أخبث ما تكون .

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وخفيفة الحركات تفترعُ الرُّبَى * كالـبرق يلمَـعُ فى الغمام الرائح
منقُوطةٌ تحكِى صدورَ صحائِف * إبَّانَ تبـدو من بطـون صفائح
ترضَى من الدنيا بِظـلّ صُخَيرةٍ * ومن المعيشـة بآشتمامِ روائح (١)

وقال ٱبن المعتز :

كأننى ساورَتْنِى يـوم بينِهـمُ * رقشاء مجـدولةٌ فى لونهـا برقُ
[كأنما حين تبدو من مكامنها * غصن تفتح فيه النَّوْرُ والورق] (٢)
ينسـل منها لسان تستغيثُ به * كما تعـوّذ بالسـبّابة الفَـرِقُ (٣)

وقال الهذلىّ فى مَزَاحِف الحَيّات :

كأنّ مزاحفَ الحيّاتِ وهْنًا (٤) * قُبيلَ الصبح آثارُ السِّـياط

وقال آخرُ :

كأنّ مزاحِفَـه أَنْسُـعٌ (٥) * جُرِرنَ فُرَادَى ومنها ثُنَى (٦)

---

(١) ذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه (ديوان المعانى) بعد ذكر هـذه الأبيات ما نصه : «وهذا من قولهم : إن الحية إذا هرمت لم تحتج إلى الطعم واكتفت بالنسيم» .

(٢) الزيادة عن ديوان المعانى . (٣) الظاهر أنه يريد بالفرق : المصلى الخاشع ؛ أى إنها تحرك لسانها كما يحرك المصلى الخاشع سبابته فى الصلاة .

(٤) فى اللسان (مادة زحف) : « ... الحيات فيه » . وفى الحيوان : «فيها» . والوهن : جزء من الليل ، واختلف فيه : أهو نحو من نصفه أو بعد ساعة منه أو هو حين يدبر الليل أو هو ساعة تمضى منه .

(٥) الأنسع : جمع نسع وهو سير مضفور يجعل زماما للبعير وغيره .

(٦) كذا بالأصلين . ولعل « ثنى » مقصور ثناء بالمد . يقال : جاء القوم ثناء ومثنى أى اثنين اثنين . وروايته فى الحيوان :

كأن مزاحفه أنسع * جررن فرادى ومثناتها

ذكر ما قيل فى العقارب

قال الجاحظ : والعقاربُ أصنافٌ : منها الجرّارة، والطيّارةُ، وماله ذَنَبٌ كالحربة، وماله ذنب معقّفٌ؛ وفيها السُّودُ، والخُضر، والصُّفْر . وهى من ذوات الذَّرْو[1] . ويقال : إنّ الأنثى من هـذا النوع إذا حملَتْ يكون حتفُها فى ولادتها ؛ لأن أولادَها إذا آستوى خَلْقُها أكلَتْ بطونَ الأُمّهات حتى تَنقُبَها، وتكون الولادة من ذلك النَّقب، فتخرجُ والأمهاتُ ميتةٌ . وفى ذلك يقول الشاعرُ :

وحامِلةٍ لا تحمِـل الدَّهرَ حملَها * تموت ويحيا[2] حملُها حين تَعطَبُ

وقال أيضا : إنها تلِدُ من فيها مرّتين ، وتحمل أولادَها على ظهرها وهى فى قَدْرِ القمل كثيرة العدد . قال : والعقرب شرُّ ما تكون إذا كانت حبلى؛ ولها ثمانُ أرجلٍ لها أظلافٌ مثل أظلافِ الثور ، وعيناها فى ظهرها . ومن عجيب أمرها أنها لا تضرِبُ الميتَ ولا المغشِىَّ عليه ولا النائمَ ، إلا أن يَتحرّكَ شىء من بدنه ؛ فإنها عند ذلك تَضرِبه ؛ وضربُها له إنما هو من خوفها منه . وهى تأوِى إلى الخنافس وتُسالِمها ، وتُصادِق من الحيّات كلَّ أسودَ سالخٍ . وربما لسَعتِ الأفعى فتموت . وفيها ما يلسع بعضُه بعضًا فيموتُ الملسوعُ . ويقال : إنها تُستَخرجُ من بيوتها بالجراد ؛ لأنها تحرِص على أكله . ومتى أُدخِل الكُرّاثُ فى جُحْرها وأخرِج تبِعتـه وما معها من نوعها . وهى إذا خرجت من جُحرها تضرِب كلَّ ما لقِيتْه من حيـوانٍ أو نباتٍ أو جمادٍ .

(١) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٥ ص ١٠٧ من النسخة الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ أدب) . وفيها يقول الجاحظ : « وفى العقارب أعجوبة أخرى لأنه يقال : إنها مائية الطباع وإنها من ذوات الذرو والإنسال وكثرة الولد » . والذرو : كالذرية ، وقيل : الذرو عدد الذرية . وفى الأصلين : « الدور » وهو تحريف .

(٢) كذا فى كتاب الحيوان (ج ٥ ص ١٠٩) . وفى الأصلين : «ويمى» .

وقيـل لبعض الأطبّـاء : إنّ فلانًا يقول : إنمـا أنا مثـلُ العقربِ أضرُّ ولا أنفـعُ ؛ فقال : ما أقلّ علمـه بها ! إنها تنفـع إذا شُقّ بطنُها ووُضِعَتْ على مكان اللّسعة . وقد يُجعَلُ فى جوفِ فخّـارٍ مسدودِ الرأس مُطيَّنِ الجوانب ، ثم توضع الفخّارةُ فى تَنُّـورٍ ؛ فإذا صارت العقربُ رمادًا سُـقِى من ذلك الرمادِ مَن به حصاةٌ نصفَ دانِقٍ فتفتِتُها من غير أن تَضُرَّ شيئا من الأعضاء . وقد تلسَـعُ مَنْ به حُمّى عتيقةٌ فتُقلِـعُ عنه . وقد تلسع المفلوجَ فيذهبُ عنه الفالجُ . وقد تُلقَى العقربُ فى الدُّهْنِ وتترك فيه حتى يأخذَ منها ويَحتذِبَ قُواها ، فيكون ذلك الدُّهن مُصَرِّفًا للأورام الغليظة . وقال الشيخ الرئيس : زَيتُ العقارب نافعٌ من أوجاع الأذن . فهذه منافعها .

وقال الجاحظ : ومن أعاجيب العقرب أنها لا تَسبَحُ ولا تتحرّكُ إذا أُلقيت فى المـاء ، كان المـاء جاريا أو ساكنا . قال : وهى تطلُبُ الإنسان وتَقصِـده ؛ فإذا قصدها فرّتْ منه . وهى إذا ضربتِ الإنسانَ هرَبتْ هَرَبَ مَنْ قد أساء . قال : ومن أعاجيب ما فى العقرب أنا وجدنا عقارب القاطول[1] يموت بعضُها من لَسْعِ بعضٍ ، ثم لا يموتُ من لسعتها شىء [غير العقارب][2] ، ونجدُ العقربَ تلسعُ إنسانا فيموتُ وتلسعُ آخرَ فتموتُ هى ، فدلّ ذلك على أنها كما تعطِى تأخُذ . ويقال : إن الذى تموت هى إذا لَسعَتْه تكونُ أُمّه قد لَسِعَتْ وهى حامِلٌ به . قال : ومن أعاجيبها أنها تَضرِبُ الطَّسْتَ والقُمْقُمَ النُّحاسَ فتخرِقُه ، وربمـا ضربتْه فثبتَتْ إبرتُها فيه . قال : والعقاربُ القاتلةُ تكون فى موضعين : بشَهْرَزُور من بلاد الجبل ، وعَسكَرِ مُكْرَم[3] من بلاد الأهواز ، وهى جرّارات ؛ وإذا لَسَعَت قتلَت ؛ وربمـا تناثر لحمُ من

(١) القاطول : اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة ، وكان الرشيد أوّل من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصرا سماه أبا الجند .

(٢) الزيادة من كتاب الحيوان (ج ٥ ص ١١٠) .

(٣) عسكر مكرم : بلد مشهور بنواحى خوزستان ؛ منسوب إلى مكرم بن معزاء .

لسعته أو تعفّن و يسترخى حتى لا يدنو منه أحدٌ إلا وهو يُمسِكُ أنفه مخافة إعدائه . وهى فى غاية الصغر ؛ فإن أكبرَ ما يُوجد منها تكون زِنتـه دانقًا واحدا ؛ والذى يوجد منها كبيرا تكون زِنته ثلاثَ حبّاتِ أرزٍ ؛ فإن وُزِنت بشعيرةٍ رجَحَتْ الشعيرةُ عنها . وهى مع نزارتها تقتل الفيلَ والبعيرَ بلسعتها . قال : وبِنَصِيبِينَ عقاربُ قتّالةٌ يقال : إن أصلَها من شَهْرَزُورَ، و إن بعضَ الملوك حاصر نَصِيبِينَ فأتى بالعقارب من شهرزور و رمى بها فى كيزانٍ بالمجانيق إلى البلد ، فأعطى القومُ بأيديهم (١) .

وقد وصف الشعراء العقرب وشبّهوها فى أشعارهم ؛ فمن ذلك قولُ السَّرِىّ الرفّاء :

سارِيَةٌ فى الظّلام مُهدِيَةٌ * إلى النفوس الرَّدَى بلا حَرَجِ
شائلةٌ (٢) ، فى ذُنَيْبِها حُمَةٌ * كأنها سَبْجَةٌ (٣) من السَّبَجِ

وقال آخر :

ونِضْوةٍ (٤) تُعرَفُ باسم ولَقَبْ * ما بين عينيها هِلالٌ مُنتَصِبْ
موجودةٌ معدومةٌ عند الطلبْ * تَطعَنُ مَن لاقَتْه من غير سبَبْ
بِخَنجَرٍ تَسُلُّه عند الغضبْ * كأنه شُعلةُ نارٍ تَلتَهِبْ

وقال آخر :

تحمِلُ رمحًا ذا كُعوبٍ مُشتَهِرْ * فيه سِنانٌ بالحريق مُستَعِرْ
أُنُفٌ (٥) تأنيفًا على حينَ قُدِرْ * تأنيفَ أنفِ القوسِ شُدَّتْ بالوَتَرْ

(١) أعطى القوم بأيديهم : ذلوا وخضعوا . (٢) شائلة : رافعة ذنبها .
(٣) كذا فى ديوانه . والسبج : خرز أسود . وفى الأصلين : «سبحة من السبح» بالحاء المهملة فى الكلمتين ، وهو تصحيف . (٤) نضوة : مهزولة ضعيفة . (٥) أنف : حدد وسوّى . وأنف القوس : حدها الذى فى باطن سيتها (ما عطف من طرف القوس) وهما أنفان .

وقال عبد الصمد بن المعذَّل : [يدعو بها على عدوٍّ له](١) .

يارُبَّ ذى إفــكٍ كثيرٍ خُـدَعُهْ(٢) * مُستجهَلِ الحلمِ(٣) خبيثٍ مَرتَعُــهْ

[يَسْرِى إلى عِرْضِ الصديق قَذَعُه * صُبَّتْ عليـه حين جَمَّتْ بِـدَعُه](١)

ذاتُ ذُنَابَى مُتْلِفٍ مَنْ يلســعه * تَخفِضُـه طـوراً وطوراً ترفَعُــه

أســوَدُ كالسَّبْجة فيـه مِبضَعُهْ * يَنطُف منــه سُمُّــه وسَلْعُــهْ(٤) ٥

تُسرِعُ فيـه الحتفَ حين [تشرَعه * يَبرُزُ كالقَرْنين حين](١) تُطلِعُـه

فى مثل صدر السِّبت(٥) حين تَقطعُه * لا تَصنَع الرقشاءُ ما قد تصنَعُه

وقال ابن حَمْدِيس :

وُمشرِعَةٍ بالموت للطعن صَعْدةً(٦) * فلا قِـرنَ إن نادتْه يوماً يجيبها

تُذيقُك حرَّ السمّ من وَخزِ إبرةٍ * إذا لَسَبتْ(٧) ماذا يـلاقى لسيبُها ١٠

إذا لم يكن لونَ البَهارَةِ لونُهـا * فمن يَرَقانٍ(٨) دَبّ فيهـا شُحوبُها

لها سَوْرةٌ خُصَّتْ بمُنكَرِ صُورةٍ * ترى العينُ فيها كلَّ شىء يَرِيبُها

لهـا طَعنةٌ لا تَستبِينُ لناظرٍ * ولا يُرسِل المِسْبارُ(٩) فيها طبيبُها

(١) الزيادة عن مباهج الفكر . (٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «جدعه» بالجيم المعجمة ، وهو تصحيف . (٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «الحكم» بالكاف ، وهو تحريف . (٤) كذا ا . ولعله محرف عن « سلعه » والسلع : ضرب من السم . وفى ب و مباهج الفكر : « لسعه » . (٥) السبت : الجلد المدبوغ .

(٦) الصعدة : الرمح . (٧) لسبت : لدغت .

(٨) فى الأصلين : « فمن زبرقان » والتصويب عن ديوانه ومباهج الفكر .

(٩) المسبار : ما يسبر به الجرح . وفى ا : « المستار » وفى ب : « المسار » ، وكلتاهما تحريف .

نَسِيتُ بها قَيْسًا[1] وذكرَى طَعِينِهِ[2] * وقد دقّ معناها وجلّ نُدوبُها[3]

تجيء كأُمّ الشِّبْلِ غَضْبَى تَوَقَّدتْ * وقد تَوَّج اليَأْفُوخَ[4] منها عَسِيبُها[5]

عدوٌّ مع الإنسان يعمُر بيتَه * فكيف يُوالِي رقدةً يَستطيبها

ولو لا دِفاعُ الله عنّا بلُطفه * لصُبّتْ من الدنيا علينا خطوبُها

(١) لعله يريد قيس بن عاصم المنقرى وطعينه الحارث بن شريك الشيبانى، وذلك أنه هاجت الحرب بين قبيلتيهما يوم جَدُود، فظهرت بنو منقر (قبيلة قيس) على بكر بن وائل (قبيلة الحارث بن شريك)، فهزمت بكر بن وائل وتبعهم بنو منقر، فقصد قيس بن عاصم الحارث بن شريك والحارث على فرس قارح وقيس على مهر، فخاف قيس أن يسبقه الحارث فحفزه بالرمح فى آسته فتحفزبه فرسه فنجا، فسمى الحوفزان؛ ثم انتقضت طعنة قيس على الحوفزان بعد سنة فمات. (راجع الأغانى ج ١٢ ص ١٥٢ — ١٥٣ طبع بولاق).

(٢) فى الأصلين: «وذكر طعينة». والتصويب عن الديوان.

(٣) الندوب: آثار الجرح. وفى الديوان: «وجلت خطوبها».

(٤) اليأفوخ: الموضع الذى يتحرك من رأس الطفل، يهمز ولا يهمز.

(٥) العسيب: عظم الذنب، وقيل: منبت الشعر منه.

البـاب الثـانى من القسم الرابع من الفن الثالث

فيما هو ليس قاتلا بفعله من دوابّ السموم

ويشتمل هـذا الباب على ما قيل فى الخنافس، والوَزَغ، والضبّ، وابن عِرْس، والحِرْباء، والقَنَافذ، والفيران، والقُرَاد، والنمل، والذرّ، والقَمْل، والصُّؤاب. ٥

✣

فأمّا الخنافس وما قيل فيها — قالوا: والخنافس تتولّد من عفونة الأرض. وهى أصناف، منها الخُنْفُس المعروف؛ ومنها "الجُعَل" ويسمّى "الكَبَرْتَل". وهو يتولّد من أَخْثاء البقر، وهو يموت إذا شمّ رائحـة الطِّيبِ، وإذا دُفِن فى الورد مات، وإذا أُخرِج منـه ودُفِن فى الرَّوْث عاش. والغالبُ أنه لا يموت حقيقـةً وإنما يَخْدَر وتبطُل حركته؛ فإذا عُولج بما نشأ منه قَوِى. والله أعلم. وله سِتُّ أرجلٍ، وسَـنامٌ مرتفع. وهو لا يصـير كَبَرْتَلًا حتى يصير له جناحان. وجناحاه يظهران إذا أراد الطيران ويَخفَيان إذا مشى. ومن عادة الجُعَل أن يحرُسَ النِّيام؛ فمن قام منهم لقضاء الحاجةِ تَبِعه طمعًا أنه إنما يُريد الغائط؛ والغائطُ قوت الجُعَل. ١٠

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر: وزعم الأعراب أنّ بين ذُكور الخنافِس وإناثِ الجِعْلان تَسَافُدًا، وأنهما يُنتجان خَلْقًا يَنزِع إليهما جميعًا. قال: وأنشـد سيويه لبعض الأعراب يهجو عدوًّا له: ١٥

عَادَيتنـا يا خُنْفُسا أمّ الجُعَـلْ * عداوَةَ الأوعالِ حَيّاتِ الجَبَـلْ

ويقال : إنّ الجُعَل يظلّ دهرًا لا جَناحَ له ، ثم ينبُت له جناحان . والعرب تقول فى أمثالها : «أَلَجّ من خنفساء» و «أفحش من فاسِية» وهى الخنفساء . وفى لجاجةِ الخنفساء يقول الأحمر[1] :

لنا صاحِبٌ مُولَعٌ بالخِلافِ * كثيرُ الخَطاءِ[2] قليل الصوابِ
ألجُّ لَجَاجًا من الخنفساءِ * وأزهَى إذا ما مشى من غُرابِ

ومن أصناف الخَنافِس صِنفٌ يقال له "حِمارُ قَبّان" . وهو يتولّد فى الأماكن النديّة[3] [على ظهره شِبْهُ المِجَنّ . ومنها صنفٌ يسمّى "بَنَاتِ وَرْدان" . وهى أيضا تتولّد فى الأماكن النديّة[4]] ، وأكثر ما تكون فى الحَمّامات والسِّقايات . وفيها من الألوان الأسودُ ، والأصهب ، والأبيض . قال بعض الشعراء يصف بناتِ وَرْدان :

بناتُ وَرْدانَ جنسٌ ليس يَنْعَته * خَلْقٌ كنعتِى فى وصفى وتشبيهى
كمثل أنصافِ بُسْرٍ أحمرٍ تُرِكَتْ * من بعد تشقيقه أقماعُه فيه

* * *

ومنها "الصَّرَاصِر والجَنَادِب[5]" . ولها صوتٌ لا يفتُر بالليل ، فإذا طلع الفجر فُقِد . وفيه من الألوان الأسودُ وهو جُنْدُب[5] الجبال والآكام السُّود ، والأبرق[6] وهو جندب الطلح والسَّمُر والغضا ، والأبيض وهو جندب الصحارِى . قال السَّرِىّ الزفّاء يصف جُنْدَبةً :

(١) فى لسان العرب (مادة زها) : «قال الأحمر النحوى يهجو العتبىّ والفيض بن عبد الحميد» .
(٢) كذا فى لسان العرب وفرائد اللآل (ج ٢ ص ٢١٤) وكتاب الحيوان (ج ٣ ص ١٥٧) . وفى الأصلين : « الخلاف » .
(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « من » .
(٤) التكملة عن مباهج الفكر .
(٥) فى الأصلين : « الجنابذ ... جنبذ » ، وهو تحريف .
(٦) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « ... والبرق » ، وهو تحريف .

وجُنْـــدَبةٍ تمشى بساقٍ كأنّها * على نَخْـذٍ كالعُود[1] مِنشارُ عَرْعَرِ
مُمَسَّكةٌ[2] تجلو الجَنـاحَ كأنّها[3] * عَرُوسٌ تجلّت فى عِطافٍ[4] مُعَنْبَرِ

* * *

(٩٣) وأمّا الوَزَغ وما قيل فيه — والوَزَغ يسمّى "سامّ أَبْرَص". وزعموا أنه أصمُّ، وأنّ السبب فى صَمَمِه وبَرَصِه أن الدوابَّ كلَّها حين أُلقِى إبراهيمُ عليه السلام فى نار النُّمْرود كانت تُطْفِئُ عنه، وأنّ هذا كان ينفُخ عليه، فصَمّ وبَرِص. ورُوى عن عائشة أُمّ المؤمنين رضى الله عنها أنّها قالت: دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يدى عُكّاز فيه زُجٌّ[5]، فقال: "ياعائشةُ ما تصنعين بهذا"؟ قلتُ: أقتل به الوَزَغَ فى بيتى؛ قال: "إنْ تَفْعلى فإنّ الدوابَّ كلَّها حين أُلقِى إبراهيمُ فى النار كانت تُطْفِئُ عنه وإنّ هذا كان ينفُخ عليه فصَمّ وبَرِص". وفى حديث آخر عنها رضى الله عنها: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوَزَغ الفُوَيْسِقَ.

قالوا: وفى طبع الوَزَغ أنه لا يدخل إلى بيتٍ فيه زَعْفران. والحيّات تألف الوزَغ، كما تألف العقاربُ الخنافِسَ. وهو يُطاعِم الحيّاتِ ويُزاقُّها. وهو يَقْبَـل

---

(١) كذا فى ديوانه. والعرعر: شجر السرو. وفى الأصلين:

* على نخذ من عود ميسان عرعر *

(٢) كذا فى الأصلين ومباهج الفكر. والممسكة: المطيبة بالمسك. ولعله يريد أنها سوداء كالمسك. وفى ديوانه: «مكتبـة». والمكتبة: المحزمة؛ وفى حديث المغيرة: «وقد تكتّب يُزَف فى قومه» أى تحزم وجمع ثيابه.

(٣) كذا فى ديوانه. وفى الأصلين ومباهج الفكر: «الصباح»، وهو تحريف.

(٤) العطاف: الرداء. (٥) الزج: الحديدة فى أسفل الرمح.

اللِّقاحَ بفيه، و يبيض كما تبيض الحيّة . وقيل: إنّ نصيبه من السمّ نصيبٌ متوسّط، لا يكمُل أن يقتل، ومتى دبر[1] جاء منه سمٌّ قاتل . ومتى قُتل ووُضع على جُحْر حيّة هَرَبت منه . وهو يُقيم فى جُحْره أربعةَ أشهر الشتاء .

وقال الشيخ الرئيس : إذا ضُمِد به على الشوك والسُّلاء[2] جذَبه، وعلى التآليل[3] يقلَعها . قال : وقيل : إنّ المجفَّف منه إذا خُلِط بالزيت أنبت الشعرَ على القَرَع . وبولُه ودمه عجيب النّفع من فَتْق الصِّبيانِ إذا جلسوا[4] فى طبيخه . وقد يُجعل فى بوله أو دمه شىء من المسك ويُجعل فى إحْليل الصبىّ فيكون بالغَ النفع فى الفتق . وقيل : إنّ كبِده تُسَكِّن وجعَ الضِّرْس ، وتُشَقّ وتوضع على لَسْع العقرب فيسكُن .

✦

وأمّا الضبّ وما قيل فيه — قال الجاحظ فى كتاب الحيوان : إنّ من أعاجيب الضبّ أنّ له أيرين وللضبّة حِرَيْن ؛ قال : وهذا شىء لا يُعرف إلّا لهما . هذا قول الأعراب فى تخصيصهما بذلك . وقالت الحكماء : إنّ السقنقور[5]

(١) دبر : شاخ وولى .

(٢) السلاء (بضم السين وتشديد اللام) : شوك النخل .

(٣) التآليل : جمع ثؤلول وهو خراج يكون بجسم الانسان ناتئ صلب .

(٤) كذا فى كتاب القانون (ج ١ ص ٣٨٩ طبع بولاق) . وفى الأصلين : « واذا جلسوا... الخ » . وظاهر أن الواو زيادة من الناسخ .

(٥) السقنقور : حيوان شديد الشبه بالورل ، وهو مما يسعى فى البر و يدخل فى الماء ؛ ولذلك قيل له الورل المائىّ . وهو يغتذى فى الماء بالسمك وفى البر بحيوان آخر كالعظايات . وهو مما يتولد من ذكر وأنثى . و يوجد للذكور بالتشريح خصيتان تحصيتى الديوك فى خلقتهما ومقدارهما وموضعهما . و إناثه تبيض فوق العشرين بيضة وتدفنه فى الرمل فيكمل كونه بحرارته . (راجع مفردات ابن البيطار ج ٣ ص ٢٠ ، وحياة الحيوان ج ٢ ص ٢٨) .

له أيْرانِ، والحِرْذَوْن[1] كذلك . قال: وقال جالينوس: الضب الذى له لسانان يصلُح لحمه لكذا وكذا . ومما يستدلّ به على أنّ للضبّ أيرين قولُ الفَزَارىّ :

سِبَحْلٌ[2] له نِرْكانِ كانا فَضِيلةً * على كل حافٍ فى البلاد وناعِلِ

وٱسم أير الضبّ : النِّرْكُ . وسئل أبو حَيَّة النُّمَيرىّ عن ذلك، فزعم[3] أنّ أير الضبّ كلسان الحيّـة، الأصلُ واحد والفرع ٱثنان . وللأُنثى مَدْخَلان . وعلى ذلك أنشد الكِسائىّ رحمه الله تعالى :

تَفَـرَّقتمُ لازِلتمُ قِرْنَ واحدٍ * تَفَرُّقَ أير الضبِّ والأصلُ واحدُ

ويقال : إنّ الضبّة إذا أرادت أن تبيض حَفَرتْ فى الأرض حفرةً ثم رمتْ بالبيض فيها وطَمّته بالتراب، وتتعاهده كل يوم حتى يخرج، وذلك فى أربعين يوما . وهى تبيض سبعين بيضـةً وأكثر . وبيضها يُشبه بيضَ الحمام . ويخرُج الحِسْلُ وهو مُطِيقٌ للكسب .

قالوا: والضبّ يخرج من جُحْره كَلِيلَ البصر، فيجلوه بالتحدُّق فى الشمس . وهو يغتذى بالنسيم، ويعيش ببرد الهواء، وذلك عند الهَرَم .

قال الجاحظ : وزعم عمرو بن مُسَافِر : أنّ الضبّة تبيض ستين بيضـةً وتَسُدّ عليهنّ باب الجُحْر ثم تَدَعهنّ أربعين يومًا، فيتفقّص[4] البيضُ ويظهر ما فيـه، فتَحْفِر عنهنّ عنـد ذلك . فإذا كشفتْ عنهن أَحْضرنَ[5] وأَحْضرتْ فى أثَرِهنّ ، فتأكل

(١) الحرذون : دويبة تشبه الضب .

(٢) السبحل (وزان قطر) : الضخم من الضب والبعير والسقاء والجارية .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « يزعم » .

(٤) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ (ج٦ ص ٣٦) . وتفقصت البيضة عن الفرخ : انفلقت عنه . وفى الأصلين : « فيتفضض » .

(٥) أحضرن : عدون .

ما أدركت منهن . ويحفر المُنفلِتُ منها لنفسه جُحْرًا ، ويرعَى من البَقْل . فلذلك توصف بالعقوق . ويُضرب به المثلُ فى أكل حُسُوله . وفى ذلك يقول الشاعر :

أكلت بَنِيك أكْلَ الضبّ حتى * تركت بَنِيك ليس لهم عَدِيدُ

قالوا : وفى ذَنَب الضبّ من القوّة ما يَضرِب به الحيّةَ فربما قطعها . والضبّ طويل العمر . وفى طبعه أنه يَرجِع فى قَيْئه . وهو شديد الإعجاب بالتمر . ويقال: إنه يمكث ليلةً بعد الذَّبْح ثم يُقرَّب إلى النار فيتحرّك .

قال الجاحظ : وزعمت العرب أنّ الضبّ يُعِدّ العقربَ فى جُحْره ؛ فإذا سمع صوتَ الحَرْش[1] استنفرها[2] فألزقها بأصل عَجْب[3] ذنبه وضمّه عليها ، فإذا أدخل الحارش يدَه ليقبض على أصل ذنبه لسعتْه . وقيل : بل العقارب تألَف الضِّباب وتُسالمها وتأوِى إليها . قال التَّميمىّ :

أتأنَس بى ونَحْرُكَ غيرُ نَحْرِى * كما أنِسَ العَقارِبُ والضِّبابُ[4] (٩٤)

والضبّ من الحيوان المأكول ؛ إلّا أنّ العرب تعيِّر بنى تميم بأكل لحم الضبّ . والدليل على إباحته ما جاء فى الحديث الصحيح : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى بيت ميمونةَ[5] رضى الله عنها ، فقُدِّمتْ له مائدةٌ وعليها ضبٌّ مَشْوِىّ ، فأهْوَى بيده ليأكل منه ؛ فقيل له : يارسول الله ، إنه ضبّ ؛ فرفع يده . فقال له

(١) حرش الضب : صيده ، وذلك أن الصائد يحك الجحر الذى هو فيه ويتحرش به ، فاذا أحسه الضب حسبه ثعبانا فأخرج اليه ذنبه ، فيصطاده .

(٢) كذا فى كتاب الحيوان . واستنفرها : جعلها بين فخذيه . وفى الأصلين : «استنفرها» بالنون ، وهو تصحيف .

(٣) العجب (بالفتح والضم) : أصل الذنب وعظمه ، وهو العصعص .

(٤) رواية كتاب الحيوان : «كما بين ... الخ» .

(٥) كذا فى صحيحى البخارى ومسلم (فى كتاب الذبائح) . وفى الأصلين : «بيت أم حبيبة» .

خالد بن الوليد : يارسول الله ، أحرامٌ هو ؟ قال : "لا ولكنه ليس فى بلاد قومى فأنا لا آكله"؛ فأكله خالد بن الوليد بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يَنْهَه؛ ولو كان حراما لنهاه صلى الله عليه وسلم عن أكله ولأخبر بتحريمه لمـّا سُئِل عنه .

وقال أبو نُوَاس يعيِّر بأكل الضبّ :

إذا ما تميمىٌّ أتاك مُفاخِـــرًا * فقُلْ عَدِّ عن ذا[1] كيف أكلُكَ للضَّبِّ ٥

وقال عمرو بن الأَهْتم[2] من أبيات :

ورَدَدْناهـــمُ إلى حَرَّتَيْهِـــمْ[3] * حيث لا يأكلون غيرَ الضِّبابِ

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا : زِبْلُ الضبِّ نافع لبياض العين، وينفع من نزول المـاء .

وقد وصفه الحِمَّانىّ فقال وذكر أرضًا : ١٠

ترى ضَبَّهَا مُطْلِعًا رأسَه * كما مدّ ساعِدَه الأقطعُ

له ظاهرٌ مثلُ بُرْدٍ مُوَشًّى[4] * وبطنٌ كما حَسَر الأصلعُ

هو الضبّ ما مدّ سُكَّانَه * وإن ضمّه فهو الضِّفْدِعُ

---

(١) كذا فى ديوانه . وفى الأصلين : « عدّ عنى ... » .

(٢) هو عمرو بن سنان بن سمىّ من بنى تميم . وسمى أبوه سنان الأهتم لأن قيس بن عاصم المنقرى ضربه بقوس فهتم فمه . وأخوه عبـد الله بن الأهتم جدّ خالد بن صفوان . وهو جاهلى إسلامى ، وكان فى الجاهلية يدعى المكحل لجماله ، ووفد على رسول الله صـلى الله عليه وسـلم . (انظر الشعر والشعراء ص ٤٠١ طبع أوربا) . ١٥

(٣) الحرّة : أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار .

(٤) فى الأصلين : « برد الوشى » . ٢٠

* * *

وأما الحِرْباء وما قيل فيها — والحِرْباء لها أصابع، وأظنها لنبش التراب. ولونها أسود وأصفر ومختلط الألوان كالفهد. وهذه التسمية تقع على ذكورها وإناثها[1]. والحرباء إذا كان فى الشمس كان كثير التلوّن، فإذا انتقل إلى الظل كان أقل تلوّنا. وإذا قارب الموت أو مات اصفرّ. وهو أبدًا يطلُب الشمس، فإذا طلعتْ وجّه وجهه نحوَها. فمتى غاب عنه حِرْمُها فلا يراها أصابه نوع من الجنون. وإذا غابت الشمس ذهب ليطلب معاشَه ليلَه كلَّه حتى يُصبح. ولسانه طويل جدًّا، يقال: إنه مِقدار ذراعٍ، فهو يبلُغ به ما بَعُد عنه من الذُّباب. والأنثى منه تُكنى أُمَّ حُبَيْنٍ. وهو يُوصف بالحزم لأنه حيث ينظر إلى الشمس يَقْبِض بيده على خُوطٍ[2]، فإذا تقلّب نحوَ الشمس حيث ماملت [لا][3] يُرسل ذلك الخُوط من يده حتى يَقْبِض بيده الأخرى خُوطًا آخر. وفيه يقول الشاعر[4]:

أَنَّى أُتِيحَ له[5] حِرْباءُ تَنْضُبَةٍ[6] * لا يُرسِلُ السّاقَ إلا مُمْسِكًا ساقا

---

(١) ذهب المؤلف هنا الى أن الحرباء يطلق على الذكر والأنثى من هذا النوع من الحيوان. ولهذا صح له أن يرجع الضمير اليه مؤنثا مرة ومذكرا أخرى. والذى فى اللسان: أن الحرباء ذكر أم حبين، وأنه يقال للأنثى حرباءة.

(٢) الخوط: الغصن الناعم. (٣) التكملة عن مباهج الفكر.

(٤) هو أبو دراد الإيادى، كما فى لسان العرب (مادة حرب).

(٥) ذكر صاحب لسان العرب (مادة حرب) بعد أن استشهد بهذا البيت مانصه: «قال ابن برى: هكذا أنشده الجوهرى، وصواب إنشاده: أنى أتيح لها ... لأنه وصف ظعنا ساقها وأزعجها سائق مجدّ. فتعجب كيف أتيح لها هذا السائق المجدّ الحازم» اهـ. ورواية المخصص: «لكم».

(٦) التنضب: شجر له شوك قصار، وليس من شجر الشواهق، تألفه الحرابى.

وكتب بعض الفضلاء إلى بعض أصدقائه يلومه على مُقامه بوطنه حين نبا به[(١)]؛ فقال من رسالة :

«أعجزتَ فى الإباء، عن خُلق الحِرْباء؛ أدْلَى لسانًا كالرِّشَاء، يبلغ به ما يشاء؛ وناطَ همّته بالشمس، مع بُعدها عن اللمس؛ وأنِف من ضِيق الوِجَار، ففرّخ فى الأشجار؛ وسئم العيشَ المسخوط، فاستبدل خُوطًا بخُوط؛ فهو كالخطيب، على الغصن الرَّطِيب .

وإنّ صوابَ الرَّأيِ والحَزْمِ لامرئٍ * إذا بلغتْه الشمسُ أن يتحوّلا

وقال ذو الرُّمّة :

كأنّ يَدَىْ حِرْبائِها مُتَشَمِّسًا * يَدَا مُذْنِبٍ[(٢)] يَستغفِرُ اللهَ تائِبِ

وقال فيه أيضا :

وقد جعل الحِرْباءُ يصفرّ لونُه[(٣)] * وتَخْضرّ من لَفْحِ الهَجير غَبَاغِبُهْ[(٤)]

ويَشْبَح[(٥)] بالكَفَّيْن شَبْحًا كأنه * أخو فَجرةٍ عَالَى به الجِذْعَ صالِبُهْ

---

(١) فى الأصلين : « حيث » . (٢) كذا فى ديوانه (ص ٥٩ طبع أوربا) واللسان (مادة شمس) . وفى الأصلين : ومباهج الفكر «محرم» بالحاء المهملة . وفى الحيوان للجاحظ (ج٦ ص١٢١) : « مجرم » بالجيم المعجمة .

(٣) فى ديوانه (ص ٤٧) واللسان (مادة غبب) : « يبيض رأسه » .

(٤) الغباغب : جمع غبغب ، وهو ما تغضن من جلد منبت العثنون (الذقن) الأسفل ، وخص بعضهم به الديكة والشاء والبقر ، واستعاره العجاج فى الفحل فقال :

* بذات أثناء تمس الغبغبا *

(يعنى شقشقة البعير) كما استعير هنا للحرباء .

(٥) كذا فى ديوانه . وشبح يديه يشبحهما : مدّهما . وتشبح الحرباء على العود : امتد . وفى الأصلين : « ويسبح ... سبحا » بالسين المهملة فى الكلمتين ، وهو تصحيف .

وقال فيه أيضا :

يُصلِّى[1] بها الحرباءُ للشمس ماثلًا * على الجِذْعِ إلّا أنّه لا يُكبِّرُ
إذا حوّل[2] الظلُّ العشيَّ رأيتَه * حَنِيفًا وفى وقت[3] الضُّحَى يتنصَّرُ

* * *

وأمّا ٱبن عِرس وما قيل فيه — وٱبن عِرْس من حيوان البيوت، وهو حديد النفس شجيعٌ فَطِنٌ . وأكثرُ ما يكون بمصر فى المنازل . وله صوت قوىٌّ يدُلّ على شجاعته . وقيل : إنه الحيوان المسمّى "بالدَّلَق"[4]، وإنما يختلف وَبَرُه ولونُه بحَسَب البلاد . وفى طبعه أنه يَسرِق ما يظفَر به من الذّهب والفِضّة، وأنه متى وجد حبوبًا متفرّقةً خلَطها . وهو عدوّ الفأر يَصيده ويقتله، والفأرُ يخافه .

وقال الجاحظ : وٱبنُ عِرْسٍ يُقاتل الحيّةَ ؛ وإذا قاتَلها بدأ بأكل السِّذَاب ؛ لأنّ الحيّة تؤلمها رائحةُ السِّذَاب ؛ كما قدّمنا . وٱبنُ عِرس يفعل فى الطير ما يفعل الذئبُ فى الغنم من الذّبح . وهو إذا عجَز عن الوصول إليها ٱستدار بعَجُزه وفسا إلى جهتها، فربما قتل الفراريجَ رائحةُ فُسائه .

---

(١) كذا فى الأصلين ومباهج الفكر . وفى ديوانه (ص ٢٢٩ طبع أوربا) واللسان (مادة حول) والحيوان للجاحظ (ج ٦ ص ١٢٠) : « يظل ... * على الجذل » .

(٢) قال فى اللسان (مادة حول) : «يعنى تحوّل . هذا اذا رفعت الظل على أنه الفاعل وفتحت العشىّ على الظرف . ويروى الظل العشىّ (بنصب الظل ورفع العشى) على أن يكون العشى هو الفاعل والظل مفعولا به . قال ابن برى : يقول : اذا حوّل الظل العشى وذلك عند ميل الشمس الى جهة المغرب صار الحرباء متوجها للقبلة فهو حنيف ؛ فاذا كان فى أوّل النهار فهو متوجه للشرق لأن الشمس تكون فى جهة المشرق فيصير متنصرا ؛ لأن النصارى تتوجه فى صلاتها جهة المشرق » .

(٣) كذا فى الأصلين ومباهج الفكر . وفى ديوانه واللسان (مادة حول) والحيوان للجاحظ : «وفى قرن الضحى » .

(٤) هو معرب « دله » بالفارسية .

ومن ذكائه وفِطنته ما حُكِى : أنّ رجلا صاد فرخًا منها فجعله فى قفص؛ فرأته أُمّه فذهبتْ وعادتْ بدينار فى فِمها فألقته بين يَدَى الرجل كأنهـا تريد فِداءَ ولدِها منه به، فتركه ولم يَتناوله، فذهبت وأتت بدينارٍ آخر فلم يأخذه، فلم تزل تذهب وتعود فى كل مرّة بدينار إلى خمسة دنانير وهو لا يُمسك الذهبَ، فذهبتْ وعادت بصُرّ فارغةٍ وألقتها بين يديه كأنهـا تقول : إنه لم يبـق شىء ؛ فلم يُطلق ولدَها ولا ضَمّ الدنانيرَ . فلمّا رأته على ذلك عمَدتْ إلى دينار منها فأخذته وعادت به إلى جحرها؛ فخشِى أن تفعل ذلك ببقيّة الدنانير، فأخذها وأطلق فرخَها؛ فأعادت إليه الدينار .

وقالت الحكماءُ : لحُم ابن عرس نافعٌ من الصَّرْع . والله أعلم .[1]

* * *

وأمّا القَنافِذ وما قيل فيها — وواحدُها قُنْفُذٌ . وهى صِنفانِ : قنفذٌ ودُلْدُلٌ . فالقنفذ يكون بأرض مصر فى قَدْر الفأر . والدلدل يكون بالشأم والعراق وخُراسان فى قَدْر الكلب القَلَطِىّ[2] . ويقال : إنه يَسْفِد[3] قائمًا وبطنُ الأنثى لاصِقٌ ببطن الذكر . والأنثى تَبيض خمسَ بيضـاتٍ ؛ وليس هو كالبيض الذى له قِشر يابسٌ بل هو شبيه باللحم . وتَصَرُّفُ القنافذِ بالليـل أكثرُ من تصرّفها بالنهار . قال أيْمَنُ بن خُرَيم :

كقُنْفُذِ الرَّمِلِ لا تَخْفَى مَدارِجُه * حتى إذا نام عنـه النـاسُ لم يَنِمِ

---

(١) هذه العبارة ساقطة من « ب » . (٢) القلطى (كعربى) : القصير .

(٣) كذا فى الأصلين . وفى مباهج الفكر : « يسفد قائمـا وظهر الأنثى لاصق بظهر الذكر » . وفى حيـاة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٣١٣) : « تسفد قائمة وظهر الذكر لاصق ببطن الأنثى » . والظاهر أن جميع الروايات محتملة .

والقنفذُ يَستأنِس فى البيوت، ويَختفى أياماً ثم يظهر . وهو إذا جاع صعِد إلى الكروم وقطَع العناقيدَ ورَمى بها ثم ينزل فيأكل منها ما أطاق ؛ فإن كان له فراخ تمرّغ على ما بَقِى فيشتَبِك فى شوكه، وذلك بعد تفريطه من عُمْشُوشِه[1]، ويذهب به إلى فراخه. وهو مولَعٌ بأكل الأفاعى، ولا يُبالى قَبَض على رأسها أو غيره من بَدَنها، فإنه إن قبض على رأسها أكلَها بغير كُلْفة عليه ولا مَشَقّةٍ ؛ وإن قبض على وسطها أو ذنبها آستدار وتجمّع ونفَخ بدنَه ، فمتى ضربتْه أصابها شوكُه، فهى تهرُب منه ؛ وطلبُه لها بقدْر هَرَبها منه .

والدُّلْدُل إذا رأى مايكرهه آنقبض فيخرج منه شوكٌ كالمَدَارى فى طول الشِّبْر، فيجرَح ما يُصيبه من الحيوان . ويقال : إنّ شوكَه شَعَرٌ، وإنما لمّا غَلُظ وغلَب عليه اليُبْس صار شوكًا .

وقال آبنُ سينا : فى رماد القُنْفُذِ جِلاءٌ وتحليلٌ . ومِلْحه ينفع[2] من داءِ الفِيل. ولحمُه ينفع من الجُذام ؛ لشدّة تحليله وتجفيفه . ولحمُه المُمَلَّح ينفع من الفالج والتَّشنُّج وأمراض العَصَب كلِّها وداءِ الفيل، وينفع من السّلّ ومن سوء المِزاج . ومملوحُه مع السَّكْبِينَج[3] جيّدٌ للآسْتِسْقاء ووجَع الكُلَى، وينفع مَنْ يبول من الصبيان فى الفراش؛ حتى إنّ إدمانَ أكلِه ربما عسَّر البولَ . ولحمُه ينفع من الحُمَّيَات المزمنة ومن نهش الهوامّ . والله أعلم .

(١) كذا فى اللسان (مادة عمش) . والعمشوش : العنقود يؤكل ماعليه و يترك بعضه . وفى الأصلين : « عرموشه » ، وهو تحريف .

(٢) لعله يريد أن لحمه المملح ينفع من داء الفيل ، وسيصرح بذلك فى السطرين التاليين .

(٣) السكبينج (بفتح السين والنون معرب سكبينه) : نبات شبيه بالخيار له صمغ ، وهو دواء .

وقد وصفَه البلغاءُ والشعراءُ فى رسائلها وأشعارِها — فمن ذلك ما قاله الأميرُ شمس المَعـالى[(١)] من رسالة كتَبها إلى بعض أصـدقائه وقد أهدى له دُلْدُلًا : « قد أتحفتُك يا سـيِّدى بِعلْقٍ نفيس ، وتُحْفـةِ رئيس ؛ يتعجّب المتأمِّلُ من أحواله ، ويَحار الناعتُ فى أوصافه وأعمـاله ؛ ويتبلّد المُعتَـبِر فى آياته ، ويكِلّ الناظر فى معجزاتِه ؛ فمـا يَدرِى ببديهـة النظر والفؤاد ، أمِن الحيوانِ هو أم من الجَمـاد ؛ حتى إذا أعطى مُتَدَبِّرُه النّظـرَ أَوْفَى حقوقِـه ، والفحصَ أكمل شروطه ، علِم أنه كمىٌّ سلاحُه فى حِضْـنِه ، ورامٍ سهامُه فى ضِمْنه ؛ ومقاتِلٌ رِماحُه على ظهره ، ومخاتِلٌ سِرُّه خلافُ جَهْره ، ومحارِبٌ حِصنُه من نفسه ؛ يَلقاك بأخشنَ من حدّ السيف ، ويستتِر بألْيَن من وَبَرِ الخَيْف[(٢)] . متى جمّع أطرافَه ، وضمّ إليه أصوافَه ؛ حسبتَه رابيةً ناتيَةً ، أو تَلْعةً باديَةً . وهو أمضَى من الأجَل ، وأرْمَى من بنى ثُعَـل[(٣)] . إن رأته الأراقمُ رأتْ حتفَ نفسها ، أو عاينتـه الأساودُ أيقنَتْ بفناء جنسها ؛ صعلوكُ ليـلٍ لا يُحجِم عن دَامِسه ، وفارسُ ظلامٍ لا يَخاف من حنادِسه ؛ فيه من الضَّبّ مِثْل ، ومن الفأر شَكْل ؛ ومن الوَرَل نَسَب ، ومن الدُّلْدُل سَبَب . ومن أوابده أنه يَسودّ إذا هَرِم وشاب ، ويصير كأكبر ما يكون من الكلاب .

---

(١) هو الأمير شمس المعالى أبو الحسن قابوس بن أبى طاهر وشمكير بن زياد بن وردان شاه الجيلى ، كان أميرا لجرجان وبلاد الجبل وطبرستان . توفى مقتولا فى سنة ٤٠٣ هـ ودفن بظاهر جرجان . جمع رسائله العلامة عبد الرحمن بن على اليزدادى ، وقد طبعت بمصر سـنة ١٣٤١ هـ مع ترجمة المؤلف وسيرته وترجمة جامعهـا . (٢) الخيف : جلد الضرع . (٣) بنو ثعل : حى من طىء ، وهو ثعل بن عمرو بن الغوث ، وهم الذين عناهم امرؤ القيس بقوله :

رب رام من بنى ثعـل * مخرج كفيه من سَتره

وقال أبو محمد اليزيدى[1] [يذكر قنفذًا[2] رآه، فأطعمه وسقاه] :

وطارقِ ليـلٍ جاءنا بعد هَجْعةٍ * من الليل إلّا ما تحدّث سامرُ
قَرَيْناه صَـفْوَ الزاد حين رأيتُه * وقد جاء خَفّاقَ الحَشَى وهو سادِرُ[3]
جميـلُ المُحَيّا فى الرِّضا فاذا أَبَى[4] * حَمَتْه من الضَّيْم الرِّماحُ الشَّواجِرُ
ولستَ تراه واضِـعًا لسـلاحِه * مَدَى الدّهر موتورًا ولاهو واتِرُ

وقال [آخر[2]] من أبيات يرثيه فيها ويصفه :

عجِبتُ له من شَـيْهمٍ[5] مُتَحَصِّنٍ * بِنَبْـلٍ من السَّرْد[6] المُضَاعَفِ تَبْرُق
وأنّى اهتـدَى سهمُ المنيّةِ نحـوَه * وفى كلّ عُضْـوٍ منـه سَهْمٌ مُفَوَّقُ
ولوكان كفُّ الدهر تَسْتَخشِنُ الرَّدَى * لكان بكفّ الدّهر لا يتعـلّق

وقال أبو بكر الخُوَارَزْمِىّ[7] يصفه :

ومُدَجَّج وسـلاحُه من نفسه * شاكى الدَّوابِرِ أعْزَل الأقْبَـالِ

---

(١) هو يحيى بن المبارك بن المغيرة أبو محمد مولى بنى عدى بن عبد مناة . قيـل له اليزيدى لأنه صحب يزيد بن منصور خال المهدى مؤدّبا لولده فنسب اليه ، ثم اتصل بالرشيد فجعله مؤدّبا للأمون . وكان صحيح الرواية ثقة صدوقا ، من أكابر القرّاء وأديبا شاعرا مجيدا . مات بخراسان سنة ٢٠٢ هـ عن أربع وستين سنة . (راجع ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٨٩ ، وبغيـة الوعاة للسيوطى ص ٤١٤ طبع مصر وتاريخ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٤١ طبع بولاق) .

(٢) الزيادة عن مباهج الفكر .

(٣) السادر : المتحير .

(٤) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « أتى » بالتاء المثناة من فوق وهو تصحيف .

(٥) الشيهم : ذكر القنفذ .

(٦) كذا فى مباهج الفكر . والسرد : اسم جامع للدروع . وفى الأصلين : « السود » بالواو ، وهو تحريف .

(٧) هو أبو بكر محمـد بن العباس الخوارزمى أحد الشعراء المجيدين . كان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة ، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة ، ويأتى بكل فقرة ودرّة . أقام بالشام مدّة ، وسكن بنواحى حلب ، وكان يشار اليه فى عصره . ومن الملح والنوادر التى تحكى عنه : أنه قصد الصاحب بن عباد وهو بأرّجان ، فلما وصل الى بابه قال لأحد =

يُمسِى ويُصبح لم يُفـارِقْ بيتَـــه * ولقـد سَرَى عددًا من الأميـالِ
وتراه يكمُنُ بعضُـــه فى بعضـــه * فتَطِيش عنـــه أسهمُ الأهـــوالِ
عينـاه مثل النقطتين وخَطْمُه * يَحكِى ثُـــدِىَّ رِضاعةِ الأطفـالِ
وكأنّ أقلامًا غُرِزْنَ بظهـره * مَسّ المِـــدادُ رُءوسَها بِبِـــلالِ
تَتَهارَبُ الحيّـاتُ حين يَرَيْنَـــه * هَرَبَ اللصوصِ رأتْ سوادَ الوالى ٥
وكأنّه الخـــنزيرُ إلّا جِـــلْدَه * وصِـــياحَه وتقـارُبَ الأوصال

✦
✦ ✦

وأمّا الفِئْرانُ وما قيل فيها — قد سمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم الفُوَيْسِـقَةَ . والفأر ضروب تقـع على جميعها هـذه التّسمِيةُ وهى "الجُـرَذ" (٩٧)
و "الفأر" معروفان — وهما كالجواميس والبقر — و "الزَّبَاب" و "الخُلْد" ١٠
و "اليَرْبوع" و "فأرة البِيشِ"(١) و "فأرة المِسْك" و "فأرة الإبل" .

فأمّا الجُرَذُ والفأرُ — وهما من حيوان البيوت والبرّ. قال المتكلمون فى طبائع الحيـوان : إنّ الفأرَ ممـا جُمِـع له بين حاسّـة السمع والبصر . وليس فى الحيوان أفسدُ منه . ومن فساده أنه يجـد قارورةَ الدُّهن وهى ضيّقة الفَمِ فيُدخِل ذَنَبه فيها

= حجابه : قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول ، فدخل الحاجب وأعلمه ؛ فقال ١٥
الصاحب : قل له : قد ألزمت نفسى ألا يدخل علىّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر : ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ؛ فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى ، فأذن له فى الدخول فدخل عليه فعرفه وانبسط له . وأبو بكر هذا له ديوان رسائل وديوان شعر . ولد سنة ٣٢٣ هـ
وتوفى فى شوّال سنة ٣٨٣ هـ . (راجع يتيمة الدهر ج ٤ ص ١١٤ — ١٥٤ وتاريخ ابن خلكان ج ١ ٢٠
ص ٧٤٦) .

(١) البيش : نبات سام تأكله هذه الفأرة ولا يضرها .

ويَمتصُّه . فإن قَصُر ذنبُه عن بلوغ الدُّهن عَمَد إلى النَّوى والأحجار الصِّغار فيُلقيهما فيها، فيطفو ما فيها فيمتصُّه بذَنَبه، ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يَنْفَد جميعُ ما فيها . وهو إذا سرقَ البيضَ يَعجِز عن كَسْره بِسنِّه ، فيُدحرج البيضةَ إلى أن تسقُطَ من مكان مرتفع إلى مُستَفِلٍ فتنكسر ؛ فإن عجَّزه ذلك استعان بفأر آخر فيعتنقها أحدُهما بيديه ورجليه وينقلِب على قفاه ؛ ويَقْبِض الآخرُ على ذنَبِه ويتسلّق به في حائط ؛ فإذا ارتفع به عن الأرض ألقاها الحاملُ لها فتنكسِر فيأكلانها جميعا . أخبرني بذلك من شاهَدَه . والمثل يُضرب به في الفساد والسَّرِقة والنسيان والحذَر. وفي طبع الجُرَذ البَرِّيّ وعادته أنه لا يحفِر بيتَه على قارعة الطريق خوفاً من الحافر[1] [أن يهدِم عليه بيتَه][2] . ويقال : إنه يُخْلَق من الطّين، وإنه يتولّد بأرض مِصر إذا نضَب ماءُ النيل عنها[3] . وقال صاحب كتاب مباهج الفِكر[4]: إنه رأى ذلك عِيانا في سَفْط[5] مَيْدُومَ من جِيزة مصر .

وقال الجاحظ : لعمري إن جِرْذانَ أنطاكِيَة لتُساجِل السَّنانيرَ في الحرب، ولا تقوم لها ولا تَقْوَى عليها إلا الواحدَ بعد الواحد . قال : وهي بخُراسان قويّةٌ جدًّا، وربما قطعت أُذُن النائِم . قال : ومن الفأر ما إذا عضَّ قتل . قال : ومن الأعاجيب

(١) الحافر من الفرس والبغل والحمار : كالقدم من الإنسان . (٢) الزيادة عن مباهج الفكر .

(٣) هذه العبارة نقلها المؤلف عن مباهج الفكر، وهي عبارة الجاحظ في الحيوان ونصها : «وقد أنكرنا أن تكون الفأر تخلق إلا في أرحام إناثها من أصلاب ذكورها ومن أرحام بعض الأرضين كطينة القاطول فان أهلها يزعمون أنهم رأوا الفأرة لم يتم خلقها بعد وإن عينيها لتباصّان ثم لا يريمون حتى يتم خلقها وتشتد حركتها» . (٤) يلاحظ أنا لم نجد في مباهج الفكر في كلامه عن الفأر شيئا من ذلك .

(٥) سفط ميدوم : قرية من مديرية بني سويف بقسم الزاوية (وهي الآن إحدى قرى مركز الواسطة) واقعة غربي النيل بالقرب من الجبل الغربي وفي الجنوب الغربي لناحية الرقة بنحو ألفين وستمائة متر . وأكثر مبانيها بالآجر وبها جامع ، وهي على تلول قديمة . وفي غربيها على بعد سبعمائة متر بالجبل الغربي هرم عظيم يضاف الى اسمها . (راجع الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٣٩) .

فى قرض الفأر أنّ قوماً من أهل الفِراسة ينظرون إلى قَرْضه ويتفرّسون منه أحوالا. ويزعمون أنّ أبا جعفر المنصور نزل فى بعض القُرَى فقرَض الفأرُ مِسْحًا له كان يجلس عليـه، فبعث به ليُرفأ؛ فقال لهم الرُّفَّاء: إنّ هاهنا أهلَ بيت يَعْرِفون بقرض الفأر ما ينال صاحبَ المتاع من خير وشرّ، فما عليكم أن تعرِضوه عليهم قبل إصلاحه؟ فبعث المنصور إلى شيخهم؛ فلما نظر إلى موضع القَرْض وثَب قائمـا ثم قال: من صاحبُ هـذا المِسْح؟ فقال المنصور: أنا؛ فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ والله لَتَلِيَنّ الخلافةَ أو أكون جاهلا أو كذّاباً. ٥

وفى الفأر منافعُ ذكرها الشيخ الرئيس ابن سينا، فقال: دَمُ الفأر يقلع الثآليلَ، وزِبلُه نافع على داء الثعلب وخصوصا لَطْخاً بالعسـل، وخصوصا المُحْرَق. قال: وإذا شُوِى الفأرُ وجُفِّفَ وأُطعِم الصبيّ انقطع سَيَلانُ اللُّعَابِ من فمه. قال: واتّفق الناسُ أنّ الفأر إذا شُقّ ووضع على لَدْغ العقرب نفع. والله أعلم. ١٠

وقد وصف الشعراء الفأر وشبّهوه فى أشعارهم وذكروا سـوءَ فعله. فمن ذلك قولُ أعرابىّ [وقد دخل البصرةَ فاشترى خبزا فأكله الفأر](١):

عَجَّـلَ ربُّ الناسِ بالعِقابِ * لعامِراتِ البيتِ بالخـرابِ

حتى يُعَجِّلْنَ إلى التَّبَابِ * كُحْلَ العيونِ وُقُصَ(٢) الرِّقابِ ١٥

مُجَرَّراتٍ فُضُـلَ الأذنابِ * مثلَ مَدَارِى(٣) الطَّفْلةِ الكَعَابِ

(١) الزيادة عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى (ص ١٨٤ من الجزء الثانى المخطوط والمحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٦٤ أدب).

(٢) وقص: جمع أوقص. والوقص (بالتحريك): قصر العنق.

(٣) المدارى: جمع مدراة، وهى شىء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه، يسرح به الشعر المتلبد. ٢٠

كيف لها بأنمرٍ وثّاب[1] * مُنهرتِ الشِّدْق حديدِ النّابِ
كأنما يَكْشِر عن حِرابِ * يَفْرِسُها كالأسد الوثّابِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ[2] :

يالحُدْبِ الظُّهورِ قُعْسِ[3] الرِّقابِ * لِدِقاقِ الخُرْطومِ والأذنابِ
٥ لِلطافِ آذانِها[4] والخراطيـ * ـمِ حِدادِ الأظفارِ والأنيابِ
خُلِقتْ للفساد مُذْخُلِق الخَلْـ * ـقِ وللعَيْثِ والأذى والخراب
ناقباتٍ في الأرض والسقفِ والحا * ئطِ نَقْبًا أعيا على النُّقّابِ
آكلاتٍ كلَّ المآكل لا تَسْـ * ـأمُها شارباتِ كلَّ الشَّرابِ
آلفاتٍ قرضَ الثياب وقد يَعْـ * ـدِل قرضَ القلوب قرضُ الثياب

١٠ وقال في فأرة بيضاء :

وفأرةٍ بيضاءَ لم تُبْتَذَلْ * يومًا لإطعام السَّنانير
إذ فأرةُ المسك سَمِعنا بها * وهذه فأرةُ كافورِ

(٩٨)

---

(١) في كتاب الحيوان (ج ٥ ص ٨٠) :

* أهوى لمن أنمر الإهاب *

١٥ وقد فسر الجاحظ «أنمر الإهاب» بالسنور .

(٢) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار أبو بكر الضبي المعروف بالصنوبري الحلبي ، شاعر محسن أكثر أشعاره في وصف الرياض والأنوار . قدم دمشق وله أشعار في وصفها ووصف متنزهاتها . وسئل عن السبب الذي نسب جدّه الى الصنوبر حتى صار معروفا به فقال : كان جدي صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون ؛ فجرت له بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدّة ذكائه وقال له : إنك لصنوبري
٢٠ الشكل ، يريد بذلك الذكاء وحدّة المزاج . (راجع تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ٤٥٦ طبع الشام) .

(٣) قعس الرقاب : مائلتها نحو الظهر .

(٤) كذا في مباهج الفكر . وفي الأصلين : « أذنابها » .

***

وأمّا الزَّبَابُ — فإنه فأرٌ أصمُّ، يكون فى الرمل . والعرب تضرب به المثَل فى السرقة . يقولون : «أسرقُ من زَبَابة» .

***

وأمّا الخُلْد — فهو أعمى لا يُدرِك شيئاً إلّا بالشَّمّ[1]، [إلا أن][2] عينيه كاملتان، لكن الجفن مُلْتَحِمٌ على الناظر لا يَنْشَقّ . وهو تُرابِىٌّ مستقِرٌّ فى باطن الأرض ؛ وهى له كالماء للسمك . وليس له على ظهر الأرض قوّةٌ ولا نشاط ؛ بل يَبْقَى مطروحًا كالميّت فتخطّفه الجوارحُ أو يموت . وهو حديدُ حاسّةِ الشمّ . ومتى شمّ رائحةً طيّبةً هرَب . وهو يحبّ رائحةَ الكُرّاث والبصل ؛ وربما صِيد بهما . ومن دأبه طولُ الكَدّ ودوامُ الحَفْر . وفى تركيبه أنه لا يُفْرِط فى الطّاب ولا يقصِّر عنه . وله وقت يظهر فيه لا يُخْطئه ولا يَغْلَط[3] فى المِقدار . ويُضرب به المثلُ فى حدّة السمع ؛ فيقال : «أسمع من خُلْدٍ» .

***

وأما اليَرْبُوع — فهو حيوان طويلُ الرِّجْلين ، قصيرُ اليدين جدّا . وله ذَنَبٌ كذنب الجُرَذ، يرفعه صُعُدًا، فى طَرَفِه شبهُ النُّوّارة . ولونُه لونُ الغزال . ويقال لولده "دِرْصٌ" ، والجمع أَدْراص . قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان : كلُّ دابة حشاها الله خُبْثاً فهى قصيرةُ اليدين . وهو يسكن بطنَ الأرض لتقوم رطوبتُها

(١) فى ب : « بالسمع » . (٢) التكملة عن مباهج الفكر .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « ولا يغلب » بالباء الموحدة . ولعلها « يغلت » بالتاء المثناة . والغلت كالغلط ، وقيل : الغلت فى الحساب والغلط فى القول .

له مقامَ الماء . وهو يُؤْثِر النسيمَ ويكره البخارَ[1] . وهو يَتخذ جُحْره على نَشَزٍ من الأرض ويحفِره ، ويفتح له أبوابا على مَهَبّ الرياح وتُسمَّى "النَّافِقاء"[2] و "القاصِعاء" و "الدَّاماء" و "الرَّاهِطاء" . فإذا طُلِب من أحد هذه الأبواب خرج من الآخر . وهو يَجْتَرّ ويَبْعَر . وله كَرِشٌ وأسنان وأضراس . وهو من الحيوان الذى ينقاد إلى رئيس منه . والرئيسُ منها إذا كان فيها يرتفع عنها فيكون فى مكان مُشْرِفٍ أو على صخرة ينظر منه إلى الطريق . فإن رأى ما يَخافه عليها صَرّ بأسنانه وصوّت ، فتسمعه فتنصرف إلى جِحَرَتها ، وإن أغفل ذلك ورأتْ ما تخافه قبل أن يراه قتلته ، لتضييعه الحزمَ وغَفْلتِه ، ونصبت غيرَه لرياستها . وإذا أرادتِ اليرابيعُ الخروجَ من جِحَرتها لطلب المعاش خرج الرئيسُ قبلها وأشرف ، فإذا لم ير ما يخافُه عليها صَرّ لها وصوّت فتخرج . قالوا : ويتولّد من اليربوع والفأرة ولدٌ يسمى "القَرْنَب" .

* * *

وأما فأرةُ المسك — فقال الجاحظ : إنها دُوَيْبَّةٌ تكون فى بلاد تُبَّت[3] تصاد لِنَوَافِجها وسُرَرِها . فإذا اصْطِيدتْ عُصِبَتْ سُرّتُها بِعصابٍ وهى مُدَلّاة فيجتمع فيها دَمُها ، فإذا اجتمع ذُبِحتْ ، ثم تُقَوَّر السُّرَّة المعصوبةُ وتدفَن فى الشَّعير حيناً

(١) فى كتاب حياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٤٨٠) : « البحار » بالحاء المهملة . وكلتاهما غير واضحة .

(٢) ورد فى المخصص (ج ٨ ص ٩٢) فى الكلام على جحرة اليرابيع : «قال أبو حاتم : هى سبعة : القاصعاء ، والنافقاء ، والداماء ، والراهطاء ، والعانقاء ، والحاثياء ، واللغز» . ثم جاء فيه بعد ذلك تفسير لها جميعها . فانظره هناك . وانظر لسان العرب أيضا (مادة نفق) .

(٣) تبت (كسكر وفيها روايات أخرى) : إقليم ضمن الجمهورية الصينية متاخم للهند يقع منها فى شمالها والى الجنوب الغربى من الصين الأصلية . وهى هضبة تخترقها الجبال تعتبر أعلى صقع فى العالم . ومن أشهر نباتها الكلأ وترعاه الوعول البرية والمعز والأغنام . ومن صادراتها الصوف والمسك .

فيستحيلُ ذلك الدّمُ المختنقُ الجامد مِسْكًا ذكيًا بعد أن كان مُنْتِنًا . ويقال : إن هذه الفأرةَ تُوجد فى بلاد الزّابج[1] وتُحمَل إلى السِّند، وإن المسك يَخرج من خُصْيَتَىْ ذكورها بالعصر، ومن ضُروع إناثِها بالحَلْب . ويقال : إن الفأرَ الفارسىّ أطيبُ رِيحًا من كل طِيبٍ، وربما ضاهَى ريحَ المسك . وهو أجْرَدُ أشقرُ، شَعَرُه إلى الصُّفْرة، شديدُ كَحَل العينين، طويلُ الأذنين، قصيرُ الذَّنَب .

٥

❖

وأما فأرة الإبل — فليست بحيوان، وإنما هى رائحةٌ تسطَع من الإبل عند صدورها من الوِرْدِ يُنتِجها طِيبُ الرَّعْى . قال الشاعر[2] :

لها فأرةٌ ذَفْراء[3] كلَّ عَشِيّةٍ * كما فَتَقَ الكافورَ بالمسك فاتِقُهْ

١٠

❖

وأمّا القُراد وما قيل فيه — فقد قالوا : أوّل ما يكون "قَمْقَامَة"[4] وهو الذى لا يكاد يُرَى من صِغَرِه، ثم يصير "حَمْنَانَة" ثم يصير "قُرَادًا" ثم يصير "حَلَمًا". ويقال للقراد : "العَلُّ" و "الطَّلْحُ" و "القَتِينُ" و "البُرَام" و "القِرْشَامُ" .

---

(١) كذا فى مباهج الفكر وياقوت . والزابج : جزيرة فى أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند فى حدود الصين، يوجد بها فأر المسك والزباد (دابة شبه الهر) . وفى ا « الرانج » . وفى ب : « الرابج » ، وكلتاهما تصحيف . (٢) هو الراعى، كما فى اللسان (مادة فأر) . واسمه عبيد بن حصين بن معاوية من بنى نمير . وسبب تسميته بالراعى أنه كان يصف رعاة الإبل فى شعره ولم يكن راعيا، بل كان سيدا من سادات العرب ومن وجوه قومه . (٣) ذفر الشىء (كفرح) : ظهرت رائحته واشتدّت، طيبة كانت أو خبيثة، فهو ذفر وأذفر وهى ذفرة وذفراء . (٤) كذا فى اللسان (مادة قم) والمخصص (ج ٨ ص ١٢٢) . وفى الأصلين : « قنقامة » ، وهو تحريف .

١٥

٢٠

والقـراد يُخْلَق من عَرَقِ البعيرِ ومن الوَسَخ والتَّلَطُّخ بالثَّلْط[1] والأبْوَال؛ كما يُخلق القمل من عَرَق الإنسان . وفى طبع القُراد أنه يسمع رُغَاءَ الإبل من فراسخ فيقصِدُها ؛ حتى إنّ أصحاب الإبل يبعثون إلى الماء من يُصْلح لإبلهم الأرْشِيَةَ[2] وآلاتِ السَّقْى ، فتَبِيتُ الرجالُ عند البئر تنتظر مجيءَ الإبلِ ، فيعرفون قربَها من القُرَاد بأنبعاثه فى جوف الليل وسُرعةِ حركته ومرورِه ، فإذا رأَوْا ذلك منه تهيّئوا للعمل .

ويقول من أعتنى بالحيوان وتكلّم فى طبائعه : إنّ لكل حيوانٍ قُرَاداً يناسب مِزاجَه .

وهم يَضرِبون المثل بالقراد فى أشياء ، فيقولون : "أسمعُ من قُرَادٍ" ، و"ألزقُ[3] من قرادٍ" ، وما هو إلا قراد ثُغْرٍ[4] . وأنشد الجاحظُ لبعض الشعراء فى القراد :

ألَا يا عبادَ الله هل لقبيلةٍ * إذا ظهرتْ فى الأرض شَدّ مُغيرُها
فلا الدِّينُ ينهاها ولا هى تَنْتَهِى * ولا ذو سلاحٍ من معدٍّ يَضيرُها

(٩٩)

* * *

وأمّا النَّمْلُ والذَّرُّ وما قيل فيهما — قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . وجاء فى الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم نزل منزلًا

(١) الثلط : الرقيق من الرجيع . (٢) الأرشية : (جمع رشاء) ، وهو حبل الدلو .
(٣) الذى فى مجمع الأمثال : «ألزق من هل» و «ألزق من برام» . وهما من أسماء القراد كما تقدّم .
(٤) الثغر (بالضم وبالفتح أيضا) لضروب السباع ولكل ذات مخلب : كالحياء للناقة .

فانطلق لحاجةٍ فجاء من حاجتـه وقد أوقد رجلٌ على قَرْيةِ نملٍ إمّا فى شجرةٍ وإمّا فى الأرض؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ فَعَـل هذا أطْفِئْها أطفئها أطفئها" . وعن أبى هُرَيرة رضى الله عنـه عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلّم قال : "نزل نبىٌّ من الأنبياء تحت شجرةٍ فعضّـته نملةٌ فقام إلى نملٍ كثيرٍ تحت الشـجرةِ فقتلهنّ فقيل له : أَفَلَا نملةً واحدةً" . وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسـلّم يقول : "نزل نبىٌّ من الأنبياء تحت شجـرةٍ فقرَصَتْه نملةٌ فأمر بجَهازه فأُخْرِج من تحتها ثم أمر بقرية النّمل فأُحْرِقت فأوحى الله إليـه أَنْ قَرَصَتْك نملةٌ أهلكتَ أُمّةً من الأمم يُسبِّحن اللهَ فهـلّا نملةً واحدةً" . وجاء فى الأثر : أنّ سليمان بن داود عليهما السلام خرج يَسْتَسْقِى ، فرأى نملةً مُستَلْقِيةً على ظهرها رافعةً قوائمَها إلى السماء وهى تقول: اللهم إنّا خَلْقٌ من خَلْقك، ليس لنا غِنًى عن سَقْيك؛ فإما أن تَسْـقِينا وترزُقَنا، وإما أن تُميتَنا وتُهلِكَنا . فقـال للناس : ارجِعوا ، فقد سُقِيتم بدُعاء غيركم .

وقال الجاحظ : وكان ثُمَـامةُ يزعُم أنّ النمل ضأنُ الذَّرّ . قال : والذى عندى أنّ النمل والذرَّ مثـلُ الفأر والجُرَذ، والبقرِ والجواميس . قال : والذّرّ أجودُ فَهْـمًا وأصغرُ جثّةً .

وزعم ابن أبى الأشعث أنّ النملَ لا يَتزاوجُ ولا يتوالَد ولا يتلاقَح، وإنما يسقط منه شىءٌ حقير فى الأرض فينمو حتى يصير بيْظًا[1] فيتكوّن منه .

والنمل من الحيوان المحتال فى طلب المعاش يتفرّق لذلك؛ فإذا وجد شيئاً أنذر الباقين فيأتين إليـه ويأخذن منـه . وكلّ واحد مجتهـد فى إصـلاح شأن العامّة

(١) كذا فى حياة الحيوان للدميرى . وفى الأصلين : «بيضا» بالضاد . والبيض كله بالضاد إلا بيظ النمل فإنه بالظاء لاغير .

غيرُ مختلِس لشيء من الرزق دون صحبه . ويقال : إنما يفعل ذلك منها رؤساؤها ومن تحيّله فى طلب الرزق أنه ربما وُضِع بينه وبين ما يُخاف عليه منه ما يمنعه من الوصول إليه من ماءٍ أو شَعْر، فيتسلّق فى الحائط ويمشى على جِذْع من السَّقف حتى يُسامِتَ ما حُفِظ منه ثم يُلقِى نفسه عليه . وفى طبعه وعادته أن يحتكرَ فى زمن الصيف لزمنِ الشتاءِ، وهو إذا خاف على ما يدَّخره من الحبوب من العَفَن والسُّوس أو التَنَدّى من مجاورةِ بطن الأرض ، أخرجها إلى ظاهر الأرض حتى تَيْبَس ثم يُعيدها . وإن خاف على الحبّ أن يَنْبُتَ من نَداوةِ الأرض نقر فى موضع القِطْمير من وَسَط الحَبّة (وهو الموضع الذى يبتدئ منه النَّباتُ)، ويَفْلِقُ جميعَ الحبِّ أنصافًا ؛ فإن كان من حبّ الكُزْبُرة فَلَقه أرْباعًا ، لأن أنصاف حبِّ الكُزْبُرة تَنْبُت . فالنملُ من هذا الوجه فى غاية الحزم . فسبحان المُلهِم لا إله غيرُه .

وليس شيءٌ من الحيوان يَقْوَى على حَمْل ما يكون ضِعْفَ وزْنه مرارًا غير النملة . والنّملُ يَشمّ ما ليس له ريحٌ ممّا لو وضعه الإنسانُ عند أنفه لما وجد له ريحًا . ومن أسباب هلاك النملة نباتُ الأجنحة لها ؛ فإذا صار النمل كذلك صادته العصافيرُ وأكلته . وفى ذلك يقول أبو العَتَاهِيَة :

وإذا آستوت للنَّمْلِ أجنحةٌ * حتّى يطيرَ فقد دنا عَطَبُهْ

ومن أصناف النّمل صِنفٌ يسمّى « نملَ الأسد » ؛ سمّى بذلك لأن مُقَدَّمَ النملة يُشبه وجهَ الأسد ومؤخَّرها كالنّمل . وزعم بعضُ من تكلّم فى طبائع الحيوان أنه متولّد، وأن أباه أكل لحما، وأمّه أكلت نباتا، فَنُتِج بينهما على هذه الصفة .

وقد وصَفه الشعراءُ؛ فمن ذلك قول شاعر[1] :

غُزَاةٌ يولّى الليثُ عنهنّ هاربًا * وليست لها نَبْلٌ حدادٌ ولا عَمَدْ

(١) هو إبراهيم بن سناه، كما فى مباهج الفكر .

قِصارُ الخُطا حُمْشُ القوائم ضُمَّـــرٌ * مُشَمِّرةٌ لا تَشْتكى الأيْنَ والحَرَدْ (١)
وتعـــدو على الأقران فى حَوْمة الوَغَى * نِشاطًا كما يعدو على صَيْده الأَسَـــدْ
إذا ذَكَرتْ طِيبَ الهِياج تنفَّستْ * تَنَفُّسَ نَكْلَى قـــد أُصِيبَ لها وَلَدْ
كأكرادِ زَنْجانٍ (٢) تريد قضاضـــةً * وتلك الصَّعَالِيك الغرائب فى البلَدْ (٣)
وفيهنّ أجناسٌ تَشابَهْنَ صـــورةً * وبايَنَّ فى الهِمَّاتِ واللون والجسَدْ (٤) ٥
فمنهنّ كُمْتٌ كالعَناكيب أرْجُـــلًا * وسَاعُ الخُطا قد زان أجيادَها الغَيَـدْ
إذا آنْتُهِرت طارتْ وإن هِىَ خَلَّدتْ * رأتْ وِرْدَ أحواضِ المنايا من الرَّشَدْ
وسودٌ خِفافُ الجسم لو عَضّتِ الصَّفَا * رأيتَ الصَّـــفا من وقع أسنانها قِـــدَدْ (٥)
يَفِـدْنَ علينـا مُفْسِـداتٍ جِفانَنـا * وأزوادَنا أبغضْ إلينا بمـا وفَـــدْ

وقال أبو هلال العسكرىّ : ١٠

وحىٌّ أناخـــوا فى المنـازِلِ باللِّوَى * فصاروا به بعـد القَطِين قَطِينا
إذا آختلفـوا فى الدار ظَلّتْ كأنها * تُبَـــدِّد فيهـا الريحُ بِزْرَ قَطُـــونا
إذا طرقوا قِدْرِى مع الليل أصبحتْ * بواطنُها مثـــلَ الظواهر جُـــونا
لهم نظـرةٌ يُسْرَى ويُمْنَى إذا مَشَـــوْا (٦) * كما مرّ مرعوبٌ يَخاف كَمِينا
ويَمشون صـــفًّا فى الديار كأنما * يَجُرّون خيطًـا فى التراب مَنِينا (٧) ١٥

(١) حمش القوائم : دقاقها . والحرد : داء يصيب عصب يدى الدابة .
(٢) زنجان : بلد كبير مشهور بنواحى الجبال بين أذربيجان وبينها ، وهى قريبة من أبهر وقزوين والعجم . (٣) ورد هذا البيت هكذا بالأصلين ، ولم نتبين المراد منه .
(٤) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « الجلد » ، وهو تحريف .
(٥) القدد : جمع قدّة وهى القطعة من الشىء . ٢٠
(٦) كذا فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى . ، وفى الأصلين : « مشت » .
(٧) المنين : الحبـل الضعيف ، وقيـل : القوى ، فهو من الأضداد . وفى ا : « متينا » . وفى ب وديوان المعانى : « مينا » . ولعل الكلمتين مصحفتان عما أثبتناه .

وفى كل بيتٍ من بيوتى قَرْيةٌ * تَضُمّ صنوفًا منهمُ وفنونا
فيا مَنْ رأى بيتًا يَضيق بخمسةٍ * وفيه قُرَيَّاتٌ يَسَعْن مِئينا

* * *

وأمّا القَمْل والصُّؤاب وما قيل فيهما — قال الجاحظ : ذكروا عن إياس بن معاوية أنه يزعُم أنّ الصِّئبان ذُكُورةُ القمل، وأنّ القمل من الشكل الذى تكون إناثُه أعظمَ من ذُكُورته .

قال الجاحظ : والقملُ يَعْترى من العَرَق والوَسَخ إذا علاهما ثوبٌ أو ريشٌ أو شعَر، حتى يكون لذلك المكانِ عَفَنٌ وخُمُوم . والقملةُ يكون لونُها بحسب لون الشعر فى السَّوَادِ والبياض والشَّمَط وفى لون الخِضاب، ويَنْصُل إذا نَصَل . قال: والقمْل يَعْرِض لثياب كل إنسانٍ إذا عرَض لها الوسَخُ أو العرقُ أوالخُمُومُ، إلا ثيابَ المُجذَّمين فإنهم لا يَقْمَلُون . وإذا قَمِل إنسانٌ وأفرط عليه القملُ زَأْبَق رأسَه فيتناثر القملُ . قال : وربما كان الإنسانُ قَمِلَ الطِّباع وإن تنظّف وتعطّر وبدّل أثوابه؛ كما عرَض لعبد الرحمن بن عوف والزُّبير بن العوّام رضى الله عنهما ، حتى آستأذنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى لِباس الحرير؛ فأذِن لهما فيه لهذه الضرورةِ ولدَفْع هذا الضرر .

وقد وصف الشعراءُ القملَ فى أشعارهم؛ فمن ذلك قولُ بعضِ العُقَيْلِيِّين وقد مرّ بأبى العَلَاء العُقَيلىّ وهو يَتَفلَّى، فقال :

وإذا مررتَ به مررتَ بقانِص * مُتَصَيِّدٍ فى شَرْقَةٍ[1] مَقْرورِ
للقمل حولَ أبى العَلَاءِ مَصارِعٌ * ما بين مقتولٍ وبين عَقِيرِ[2]

(١) الشرقة : الشمس . والمقرور : من أصابه القر، وهو البرد . (٢) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٥ ص ١١٤) . وفى الأصلين : «عفير» بالفاء، وهو تصحيف .

فكأنهنّ إذا علَوْن قميصَـــه * فَـــذٌّ وتَوْءَمُ سِمْسِمٍ مَقْشـــورِ
ضَرَج الأنامِلَ من دماء قَتِيلِهـا * حَنِقٌ على أُخرى بِعَـدْوٍ مُغِـير(١)

وقال الحسن بن هانئ فى رجل آسمه أيّوب :

مَنْ يَنْأَ عنـه مَصَادُه * فَمَصَادُ أيُّوبٍ ثيـابُهْ(٢)
يكفيه منهـا نظرةٌ * فتُعَـلّ من علقٍ(٣) حِرابُهْ
يا رُبَّ مُحـــترِزٍ بجَيْـ * ـبِ الرُّدْنِ تَكْنُفُه صُؤابُهْ(٤)
فاشِى النِّكايةِ(٥) غيرِ معـ * ـلومٍ إذا دَبَّ آنسيابُهْ
أو طـامِرِىٍّ(٦) واثِبٍ * لم يُنْجِـــه عنـه وِثابُهْ
أهـــوى له بمُزَلَّقِ الْـ * ـعِرْنِينِ إصبعه نِصابُهْ(٧)
لله درّك من أخى * قَنَصٍ أصابِعُـه كلابُه

(١) كذا فى كتاب الحيوان . وفى الأصلين : « لعدو ... » .

(٢) لم نجد هذه الأبيات فى ديوانه .

(٣) كذا فى كتاب الحيوان . والعلق : الدم . وقد وردت هذه الشطرة فى الأصلين محرفة .

(٤) كذا فى كتاب الحيوان . وقد ورد هذا البيت فى الأصلين محرفا .

(٥) كذا فى الحيوان . وفى ا : «الكناية» . وفى ب : «الحناية» ، وكلاهما تحريف .

(٦) كذا فى الحيوان . وطامر بن طامر : البرغوث ، سمى بذلك لكثرة وثو . فى الأصلين : «أو ضامرى» بالضاد المعجمة ، وهو تحريف .

(٧) مزلق : محدّد . يريد الظفر . والعرنين : الأنف . وعرنين كل شىء : أوله . وهو المراد هنا . والنصاب : المقبض .

القسم الخامس من الفن الثالث

فى أجناس الطير وأنواع السمك

وفيه سبعة أبواب : ستة منها فى الطير، وباب فى السمك . وذيّلتُ عليه بباب ثامنٍ أوردتُ فيه ذكرَ شىء مما قيل فى آلات صيد البرّ والبحر .

٥ قال الجاحظ فى كتاب الحيوان : إنّ الحيوان على أربعة أقسام : شىءٌ يطير، وشىء يعوم، وشىء ينْساح ، وشىء يمشِى؛ إلّا أنّ كل طائر يمشِى ، وليس كلّ شىء يمشِى طائرا . قال : واسم طائر يقع على ثلاثةِ أشياء : صورةٍ ، وطبيعةٍ، وجَناحٍ ؛ وليس بالرِّيش والقَوادم والأَبَاهِر(١) والخَوَافى يسمى طائرًا ولا بعَدَمِه يسقُط ذلك عنه . ألَا تَرى أنّ الخُفّاشَ والوَطْواط من الطير وإن كانا أمْرَطَيْن ليس لهما ريشٌ ولا ١٠ زَغَب ولا شَكِير .

قال : والطيرُ كلُّه سَبُعٌ وبَهيمةٌ وهَمَجٌ . والسِّباع من الطير على ضربين : فمنها العِتاقُ ، والأحرارُ ، والجوارحُ . ومنها البُغاث ، وهو كلّ ما عَظُم من الطير سَبُعًا كان أو بهيمة إذا لم يكن من ذوات السِّلاح والمخالب المُعَقَّفة كالنّسور والرَّخَم والغِرْبَانِ وما أشبهها من لئام السّباع . ثم الخِشَاشُ وهو ما لَطُف جِرْمُه وصغُر شخصُه ١٥ وكان عديمَ السلاح .

وقال : إذا باض الطائرُ بيضًا لم تخرج البيضةُ من حدّ التحديد والتلطيف بل يكون الجانبُ الذى يبدأ بالخروج الجانبَ الأعظمَ . وما كان من البيض مستطيلًا

(١) الأباهر : ما يلى الكلى من ريش الطائر. وأول الريش : القوادم، ثم المناكب، ثم الخوافى، ثم الأباهر، ثم الكلى .

محـدَّدَ الأطراف فهو للإناث، وما كان مستديرا عريضَ الأطراف فهو للذكور . والبيضةُ عنـد خروجها تكون ليِّنةَ القشر غير جاسئةٍ ولا يابسةٍ ولا جامدةٍ . قال : والبيض الذى يتولّد من الريح والتراب أصغرُ وألطفُ، وهو فى الطِّيب دون الآخر . ويكون بيضُ الريح من الدّجاج والقَبج[1] والحمام والطاوس والإوَزّ . قال : وحَضْنُ الطائر وجُثومه على البيض يكون صلاحًا لبدن الطائر كما يكون صلاحًا لبدن البيض . قال : وزعم ناسٌ أنّ بيض الرِّيح إنمـا يكون عن سِفادٍ مُتَقَدِّمٍ . وذلك خطأ من وجهين : أمّا أحدُهما، فإن ذلك قد عُرِف من فراريج لم تَرَ ديكًا قطُّ . والآخرُ أن بيض الرِّيح لم يكن منـه فُرُوخٌ قطّ . وبيضُ الصَّيْفِ المحضونُ أسرعُ خروجًا منه فى الشـــتاء .

فهذه جمـلٌ من أحوال الطير فرّقها الجاحظ فى كتابه فى عدّة مواضـع جمعناها وألّفنا بعضَها إلى بعض . فلنذكر كلَّ جنسٍ من الطير، ونشرح ما يخصّه من الكلام وما قيل فيـه . وغيرُ الجاحظ قَسّم الطيرَ إلى أقسام ، فجعـل منها سِباعًا ، وكلابا ، وبهائمَ ، وبُغاثًا، ولَيْلِيًّا، وهَمَجا؛ وعلى ذلك بوّبنا هذا القسمَ؛ على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

---

(١) ضبط فى القاموس واللسان بفتح فسكون . ونقـل شارح القاموس عن شيخه إنكار هذا الضبط وقال : بل هو محرك كالجمل وزنا ومعنى . وهو فارسى معرب ، أصله فى الفارسية كبج ، وواحده قبجة . وفراخ القبج تخرج كما تخرج الفراريج . وإناثه تبيض خمس عشرة بيضة . ويوصف الذكر بقوّته على السفاد ، وهو لهـذا يكسر البيض لئلا تشتغل الأنثى بحضنه عنه ، كما أن الأنثى تهرب وتختبئ إذا جاء أوان بيضها . والقبج يغير أصواته بأنواع شتى ، ويعمر خمس عشرة سنة . (راجع حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ٢٨٢ طبع بولاق) .

الباب الأوّل من القسم الخامس

من الفن الثالث فى سِباع الطير

ويشتمل هذا البابُ على ما قيل فى العُقاب والبُزَاة والصقور والشَّواهين ، وأصناف ذلك ، وما يَتصف به كلُّ طير منها ومافيه من الطبائع والعادة ، وما يَصيد ، (١٠٢) وما فيه من الأمارات الدّالّة على نجابته وفَراهته ، وغير ذلك مما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

ذكر ما قيل فى العُقَاب

يقال : إنّ العُقَاب جميعه أُنْثى وليس فيه ذكر . ويُسمى عند أهل اللغة "العَنْقاء" . وهى "عُقَابٌ" و "زُمَّجٌ" . فأما العُقاب فيقال : إنّ ذكورها من طيرٍ آخر لطيفِ الجِرْم . وهى تبيض فى الغالب ثلاث بيضاتٍ فيخرج لها فرخان . قال الجاحظ : ثم آختلفوا ، فقال بعضهم : لأنها لا تحضُن إلّا بيضتين ؛ وقال آخرون : قد تحضُن ويخرج لها ثلاثة أفراخ ولكنها ترمى بالواحد آستثقالًا للتكليف على ثلاثة ؛ وقال آخرون : ليس ذلك إلّا لما يعتريها من الضعف عند الصيد ، كما يعترى النُّفَسَاءَ من الوَهْن والضعف . وهى تحضُن ثلاثين يوما . وما عداها من الجوارح تبيض بيضتين فى كل سنة وتحضُن عشرين يوما .

قالوا : وفى طبع الذكر أنه يمتحن أُنْثاه هل هى محافظة له أو مؤاتية لغيره من غير جنسه ، بأن يصوّب نظر فرخيه إلى شُعَاع الشمس ، فإن ثبت عليه تحقّق أنها فراخه وأمسكها ، وإن نبا بصرُه عن شعاع الشمس ضرب الأنثى كما يضرب الرجلُ المرأة الزانيةَ وطردها من وَكْره ورمى بالفرخين .

والعُقاب خفيفة الجَناح ، سريعةُ الطيران ، فهى إن شاءت ٱرتفعت على كل شيء وإن شاءت كانت بقربه . يقال : إنها تتغدّى بالعراق وتتعشّى باليمن. وربما صادت حُمُرَ الوحش، وذلك أنها إذا نظرت الحمارَ رمتْ نفسها فى المـاء حتى يبتلّ جناحاها، ثم تتمرّغ فى التراب وتطير حتى تقع على هامة الحمار، ثم تصفّق على عينيه بجناحيها فتملؤهما تراباً، فلا يرى الحمـارُ أين يذهب فيؤخذ . وهى مُولَعة بصـيد الحيّات. وفى طبعها قبل أن تتدرّب أنها لا تراوغُ صيدًا ولا تَعْنَى فى طلبه، ولا تزال مُوفِيـةً على شَرَف عالٍ ؛ فإذا رأت سِباعَ الطير قد صادت شيئا ٱنقضّتْ عليـه، فتتركه لها وتنجو بنفسها . ومتى جاعت لم يمتنع عليها الذئبُ . وهى شديدة الخوف من الإنسان . ويقال : إنها إذا هَرِمت وثَقُل جَناحُها وأظلم بصرُها التمستْ غديرا؛ فإذا وجدته حَلّقتْ طائرةً فى الهواء ثم تقع من حالِقٍ فى ذلك الغدير فتنغمس فيه مرارًا، فيَصِحّ جسمُها ويَقْوَى بصرُها ويعود ريشُها ناشئًا إلى حالته الأولى . وهى متى ثَقُلت عن النهوض أو عَمِيتْ حملتْها الفِراخُ على ظهورها ونقلتْهـا من مكان إلى آخرَ لطلب الصيد وتعولهـا إلى أن تموتَ . ومن عجيب ما أُلْهِمتْ أنهـا إذا ٱشـتكت كَبِدَها رفعت[1] الأرانبَ والثعـالبَ فى الهواء وأكلت أكبادَها فتـبرأ . وهى تأكل الحيّاتِ إلّا رُءوسَها، والطيرَ إلا قلوبَها . قال ٱمرؤ القيس :

كأنّ قلوبَ الطـيرِ رَطْبًـا ويابِسًا * لَدَى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالِي

ومَنْسِرُها الأعلى يعظُم ويتعقّفُ حتى يكون ذلك سببَ هلاكها ؛ لأنها لاتنال به الطُّعْم إذا كان كذلك . وأوّلُ مَنْ صاد بهـا أهلُ المَغْـرِب . وحُكِى أنّ قيصر أهدَى إلى كِسْرَى عُقَابًا، وكتب إليه : علّمها فإنها تعمَلُ عَمَلًا أكثر من الصقـور

(١) فى الأصلين : « من رفع ... فى الهواء أكلت ... الخ » ، وهو غير واضح .

التى أعجبتك . فأمر بها فأُرسلتْ على ظَبْيٍ عَرَض لها فقدَّتْه ، فأعجبه ما رأى منها ؛ ثم جوّعها لِيَصيدَ بها ، فوثَبتْ على صبيّ من حاشيته فقتلته ؛ فقال كسرى : غَزَانا قيصر فى بلادنا بغير جيش . ثم أهدى له نَمِرًا وكتب إليه : قد بعثتُ إليك بما تقتل به الظِّبَاء(١) وما قَرُبَ منها من الوحش ؛ وكتَم عنه ما صنعتِ العقابُ . فأُعْجِب به قيصرُ . فغَفَل عنه يومًا فافترس بعضَ فِتْيانه ؛ فقال : صادنا كِسرى ؛ فإن كنّا صِدناه فلا بأس . فلمّا اتّصل ذلك بكسرى قال : أنا أبو سَاسَان .

وأجودُ العُقاب ما جُلِب من سُرْت(٢) و بلادِ المغرب .

وقد وصفها الشعراءُ فمن ذلك ما قاله أبو الفَرَج الببَّغاء :

ما كلُّ ذاتِ مِخْلَبٍ ونابِ * من سائر الجارِحِ والكلابِ
بمُدْرِكٍ فى الحِدّ(٣) والطِّلَابِ * أيسرَ ما يُدْرَك بالعُقَابِ
شريفةُ الصِّبغةِ والأنسابِ * تطير من جَناحها فى غابِ
وتستُر الأرضَ عن السَّحَابِ * وتحجُبُ الشمسَ بلا حِجَابِ
يَظَلُّ منها الجوُّ فى اغترابِ * مُسْتَوْحِشًا لِلطير كالمُرْتابِ
ذكيّةٌ تنظر من شِهابِ * ذاتُ جِرانٍ(٤) واسع الجِلْبابِ
ومَنْكِبٍ ضَخْمٍ أَثِيثٍ(٥) رابِى * ومَنْسِرٍ مُوَثَّقِ النِّصابِ

(١) كذا فى حياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ١٥٣) . وفى الأصلين : «الظبى» .

(٢) سرت : مدينة على ساحل بحر الروم بين برقة وطرابلس الغرب .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى ا : « فى الحدق الطلاب » . وفى ب : « فى الحدق الطالب » وكلاهما تحريف .

(٤) الجران : باطن العنق ، وقيل : مقدّم العنق .

(٥) الأثيث : الكثير والعظيم من كل شىء .

وراحتَى ليثِ شَرًى غَلّابِ * نِيطتْ إلى بَرَاثِنٍ صِـلَابِ
[مُرْهَفَةٍ أمضى من الحِرابِ * وكلُّ ما حلَّق فى الضِّبابِ] (١)
* لِمُلْكِهـا خاضعةُ الرِّقابِ *

وأمّا الزُّمَّج — فهو الصِّنف الثانى من العُقّاب، ويُعَدّ من خِفَاف الجوارح. ٥
وهو سريعُ الحركةِ شديدُ الوَثْبة . ويُوصف بالغدر . ومن عادته أنه يتلقّف الطائرَ كما يتلقّفه البازى، ويَصيد على وجه الأرض كما تصيد العقابُ . ويُحمد من خَلْقه أن يكون أحمرَ اللون، ولا يُحمد ما قُرْنِص (٢) منه وَحْشيًّا .

وقد وصفه أبو الفَرَج الببّغاء فقال :

يا ربَّ سِرْبٍ آمِنٍ لم يُزْعَجِ * غاديتُه قبلَ الصَّـباح الأَبْلَجِ ١٠
بُزُجٍّ (٣) أدْلَقَ (٤) حُـوشٍ أَهْـوَجِ * مُضَبَّرِ (٥) المَنْكِبِ صُلْبِ المَنْسِجِ (٦)

(١) التكملة عن مباهج الفكر .

(٢) المقرنص : المقتنى للاصطياد .

(٣) كذا بالأصلين . ولعله يريد أن يصفه بالسرعة وشدّة الدفعة والهجوم، على أن يكون مأخوذا من الدلق وهو خروج الشىء من مخرجه سريعا . يقال : اندلق السيل على القوم أى هجم، واندلقت الخيل فهى دُلُق ومندلقة، أى شديدة الدفعة سريعة السير . قال طرفة : ١٥

دُلُق فى غارة مسـفوحة * كرعال الطير أسرابا تمـرّ

وفى مباهج الفكر : « أولق » من « الولق » وهو السرعة أيضا . يقال : جاءت الخيل تلق أى تسرع . ويحتمل أن يكون : «أذلق» بالذال المعجمة، أى حديد ماض .

(٤) الحوش : القوىّ . ٢٠

(٥) كذا فى كتب اللغة . والضبر والتضبير : شدّة تلزيز (تلصيق) العظام واكتناز اللحم . يقال : جمل مضبور ومضبر . وفى الأصلين : «مصبر» بالصاد المهملة، وهو تصحيف .

(٦) منسج الدابة : ما بين العرف وموضع اللبد .

ذى قَصَبٍ عَبْلٍ[1] أصمَّ مُدْمَجِ * وجُؤْجُؤٍ[2] كالجَوْشَنِ[3] المُدَرَّجِ
وعُنُقٍ سامٍ طويلٍ أعوجِ * ومَنْسِرٍ أقْنَى فَسيحٍ مُسْرَجِ
مُنْخَرِقِ المَدْخَلِ رَحْبِ المَخْرَجِ * ومقلةٍ تَشِفُّ عن فَيْرُوزَجِ
ناظرةٍ من لَهَبٍ مؤجَّجِ * وهامةٍ كالحجرِ المُدَمْلَجِ
ومِخْلَبٍ كالمِعْوَلِ المُعَوَّجِ

(١) كذا فى مباهج الفكر . والعبل : الضخم الغليظ . يقال : رجل عبل الذراعين أى ضخمهما ، وفرس عبل الشوى أى غليظ القوائم . والأصم : القوى الصلب . يريد أن يصف ساقيه بالغلظ والقوة . وفى الأصلين : « ذى قصب على أصم ... » ، وهو تحريف .

(٢) الجؤجؤ : الصدر .

(٣) الجوشن : الدرع .

ذكر ما قيل فى البازى

قالوا : والبازى خمسة أصناف، وهى البازى، والزُّرَّقُ، والباشَقُ، والعَفْصِىُّ، والبَيْدَقُ .

فأمّا البازى — فهو الثانى من الجوارح، وهو أحَرّ هذه الأصناف الخمسة مِزاجًا، لأنه قليلُ الصبر على العطش . ومأواه مَساقِطُ الشجر العاديّة الملتفّة والظلُّ الظَّليل ومُطَّرَدُ المياه . وهو لا يتّخذ وَكْرًا إلّا فى شجرة لها شَوْك . وإذا أراد أن يُفرِّخ بَنَى لنفسه بيتًا وسقّفه تسقيفًا جيِّدًا يقيه من المطر ويدفع عنه وَهَجَ الحرّ (١) . وسبيله فى البرد أن يُدْفأ بالنار ويُجعَل تحت كَفّيه وبُرِ الثعالب واللُّبودُ؛ وفى الصيف أن يُجعل فى بيت كَنِينٍ (٢) باردِ النّسيم ويُفرَش له الرَّيْحانُ والخِلَافُ (٣) . وهو خفيف الجَناح، سريع الطيران، يَلُفُّ طيرانَه كالتفافِ الفَواخِتِ (٤)؛ ويَسهُل عليه أن يَزُجَّ بنفسه (٥) صاعدًا

(١) هذه العبارة منقولة عن مباهج الفكر، ونصها فيه : « وهو لا يطيق البرد ولا الحرّ لرقة جوانحه . فسبيله فى البرد أن تقرب منه النار ليدفأ ويجعل تحت كفيه فى الشتاء وبر الثعالب واللبود، وسبيله فى الحرّ... الخ » .

(٢) كذا فى مباهج الفكر . والكنين : المستور . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصلين محرّفة .

(٣) الخلاف : صنف من شجر الصفصاف .

(٤) الفواخت : جمع فاختة، وهى من ذوات الأطواق، ويقال لها الصاصل أيضا (بضم الصادين المهملتين) . يقال : إن الحيات تهرب من أصواتها . وهى عراقية وليست حجازية، وهى حسنة الصوت . وفى طبعها الأنس بالناس، وتعيش فى الدور . والعرب تصفها بالكذب فان صوتها عندهم : « هذا أوان الرطب » وتقول ذلك والنخل لم يطلع . قال الشاعر :

أكذب من فاختة * تقول وسط الكرب
والطلع لم يبد لها * هذا أوان الرطب

(راجع حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ٢٣٢ طبع بولاق) .

(٥) فى الأصلين : « يزج نفسه » . وهذا الفعل لا يتعدّى إلا بالباء .

وهابطًا وينقلبَ على ظهـره حتى يلتقِفَ فريسـتَه . والإناثُ منه أجرأ على عِظام الطير من الذُّكور . ويقال : إن الإناث إذا كان وقتُ سِفَادِها يغشاها جميعُ أنواع الضَّوَارى : الزُّرَّق والشاهين والصَّـقْر ، وإنها تبيض من كل طائر يغشاها ؛ ولهذا تجيء مختلفةَ الأخلاقِ[1] . والبازى يصيد ما بين العصفور والكُرْكِىّ[2] . ومن عادته أنه إذا أخطأ صيدَه رفاتَه وكان فى بَرِّيَّةٍ لا شجر فيها ولّى مُمْعِنًا حتى يجدَ كهفًا أو جِدارًا يأوِى اليه ؛ ولهذا عُلِّق عليه الجرسُ ليَدُلَّ على مكانه إذا خَفِى .

وصفةُ الجيّد منه المحمودِ فى فعله أن يكون قليلَ الريش ، أحمرَ العينيْن حادَّهما ، وأن تكونا مُقْبِلتين على مِنْسَره وحِجَاجَاهما[3] مُطِلَّين عليهما ، ولا يكون وضعهما فى جنبىْ رأسـه كوضع عينِى الحمـام . والأزرقُ منه دون الأحمر العينِ ؛ والأصفرُ دونهما . وسَعَةُ أشداقه تدلُّ على قوّة الافتراس . ومن صفاته المحمودة أن يكون طويلَ العنق ، عريضَ الصدر ، بعيدَ ما بين المَنْكِبين ، شديدَ الانخراط الى ذَنَبه ، وأن تكون فِخذاه طويلَتين مُسَرْوَلَتين بريش ، وذراعاه قصيرتَين غليظتَين ، وأشاجِـعُ[4] كفّيه عاريةً ، وأصابعُه متفرّقةً [ولا تكون مجتمعةً ككفِّ الغراب][5] ، ومِخلَبُه أسود ، ويكون طويل المِنْسَر دقيقـه . وأفخرُ ألوانه الأبيضُ ثم الأشهبُ ، وهما لونان يدُلّان على الفراهة والكرم . وأما الأسود الظهرِ المُنَقَّش الصدرِ بالبياض والسواد فهو يدلّ على الشدّة والصَّلَابة . وإن اتّفق أن يكون هـذا أحمرَ العين كان نِهايةً . وهذا اللونُ فى البُزاة

(١) عبارة مباهج الفكر : « ولهذا تجيء مختلفة الأخلاق من الجبن والجرأة والحب والغدر والذكاء والقوّة والضعف والحسن والقبح والشراهة » . (٢) الكركىّ : طائر يقرب من الوز أبتر الذنب رمادىّ اللون فى خدّه لمعات سود قليـل اللحم صلب العظم يأوى الماء أحيانا .

(٣) الحجاج : العظم المستدير حول العين . وفى الأصلين : «هجاجتهما» . وهو تحريف .

(٤) الأشاجع : رءوس الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف .

(٥) الزيادة عن مباهج الفكر .

كالكُمَيْت فى الخيـل . والأحمرُ فى البُزاة أخبثُها . وبعضُ النـاس يقول : أشرفُ البُزاة الطُّغْرُل، ثم البَازى التامُّ وهو الذى وصفناه آنفًا . والطُّغْرُل : طائرٌ عزيزٌ نادرُ الوقوع لا يعرِفه غيرُ التُّركِ ، لأنه يكون فى بلاد الخَزَر وما والاها وما بين خُـوارَزْم إلى أرمِينِيَة ، وهو يجمع صيدَ البازى والشاهين . وقيـل : إنه لا يَعْقِر شيئا بمِخْلَبه إلّا سمّه .

وأوّلُ من صاد البـازى "لُذَرِيقُ" أحدُ ملوك الروم الأُوَل؛ وذلك أنه رأى بازيًا إذا علا كَتَفَ(١)، وإذا سـفَل خَفَق ، وإذا أراد أن يسمو دَرَق(٢)؛ فاتّبعه حتى اقتحم شجرةً ملتفّة كثيرةَ الدَّغَل ؛ فأعجبته صورتُه، فقال : هذا طائر له سلاحٌ تتزيّن بمثله الملوك؛ فأمر بجمع عدّة من البُزاة فجُمِعت وجُعِلت فى مجلسه . فعرَض لبعضها أَيْم(٣) فوثَب عليه ؛ فقال : مَلِكٌ يغضَب كما تغضب الملوكُ . ثم أمرَ به فنُصِب على كُنْدُرةٍ(٤) بين يديه؛ وكان هناك ثعلبٌ فمرّ به مجتازًا ، فوثَب عليه فما أفلتَ منه إلّا جريحًا ؛ فقال لُذَرِيقُ : هـذا جَبّارٌ يمنع حِمَاه . ثم أمر به فضُرِّىَ على الصيد؛ واتخذته الملوكُ بعده .

وقد وصفته الشعراءُ والأدباءُ؛ فمن ذلك قولُ الناشِى :

لمـا تعرّى الليـلُ عن أَنْسَاجِه * وارتاح ضوءُ الصبح لانْبِلَاجِه
غَدَوْتُ أبغى الصيدَ من مِنْهاجِه * بأقْمَـرٍ أبْـدِع فى نِتاجِـه
ألبَسه الخالقُ من ديباجِه * ثوبًا كفى الصانعَ من نِسَاجِه

(١) الكتف والكتفان : ضرب من الطيران، كأنه يردّ جناحيه ويضمهما الى ما وراءه .
(٢) درق : أسرع . (٣) الأيم : الحية .
(٤) كندرة البازى : مجثمه الذى يهيأ له من خشب أو مدر؛ وهو دخيل ليس بعربى .

حالٍ من الساق إلى أوْدَاجِه (١) * وَشْيًا يَحار الطَّرْفُ فى ٱندِرَاجِه
فى نَسَقٍ منــه وفى ٱنعــراجِه * وزانَ فَوْدَيْه إلى حِجَاجِــه (٢)
بزينــةٍ كَفَتْه عِزَّ تاجه * مَنْشِرُه يُثْــنى على خِلَاجِــه
وظُفْــره يُخْــبر عن عِلاجِــه * لو ٱستضاء المـرء فى إدلاجِه
* بعينه كفتْه عن سِرَاجِه *

وقال ٱبنُ المعتزّ يصف عينَ البازى :

ومقلة تَصْدُقُه إذا رَمَقْ (٣) * كأنها نَرْجِسةٌ بلا وَرَقْ

وقال أيضا فيه :

وفتيانٍ غَدَوْا والليــلُ داجٍ * وضوءُ الصبح مُتَّهَمُ الطلوعِ
كأن بُزَاتَهــم أُمراءُ جيشٍ * على أكتافها صــدأُ الدُّروعِ

وقال أيضا :

ومَنْسِرٍ عَضْبِ الشباةِ دامى * كعَقْدِك الخمسين بالإبهــامِ (٤)
وخافقٍ للصّيد ذى ٱصْطِلامِ * ينشرُه للنَّهْض والإقــدامِ
* كَنَشْرِكَ البُرْدَ على المُسْتامِ *

(١) كذا فى ب ومباهج الفكر . وفى ا : « أدراجه » ، وهو تحريف .

(٢) الحجاج : العظم المستدير حول العين .

(٣) كذا فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى . وفى ا : «زيق» . وفى ب : «ربق» ، وكلاهما تحريف .

(٤) كان للعرب حساب غير ما هو معهود اليوم وهو حساب عقود الأصابع وقد وضعوا كلا منها بازاء عدد مخصوص ثم رتبوا لأوضاع الأصابع آحادا وعشرات ومئات وألونا . وقد ألفت فى ذلك عدّة رسائل . وقد ذكر بعض الفضلاء فى بيان مراتب الأعداد فى العقد ما نصه : عند العشرة تجعل السبابة حلقة ، والعشرين تجعل الإبهام بين السبابة والوسطى ، والثلاثين تجعل رأس السبابة على رأس الإبهام ، والأربعين تجعل رأس الإبهام خلف السبابة ، والخمسين تجعل الإبهام جالسا ، والستين تجعل ظهر رأس الإبهام =

ووصفه أبو إسحاق إبراهيم بن خَفَاجة الأندلسى فقال من رسالة :

«طائرٌ يُستدلّ بظاهر صِفاته، على كرم ذاته؛ طورًا ينظر نظرَ الخُيَلاء فى عِطْفِه كأنما يُزْهَى جبّار، وتارةً يَرمِى نحوَ السماء بِطَرْفه[1] كأنما له هناك آعتبار . وأخلِقْ به أن ينقضّ على قَنِيصه شِهابا، ويَلْوِى به ذَهابا، ويُحْرِقه تَوَقُّدا وآلتهابا . وقد أُقيم له سابِغُ الذُّنَابَى والجَناح، كَفِيلَيْن فى مطالبه بالنّجاح . جيّد العين والأَثَر، حديدُ السمع والبصر . يكاد يُحِسّ بما يَجرى ببال، ويَسْرِى من خيال . قد جمع بين عزّة مليك، وطاعةِ مملوك . فهو بما يَشتمل عليه من علو الهمه، ويَرجع إليه بمقتضى الخدمه؛ مُؤَهَّل لإحراز ما تقتضيه شمائلُه، وإنجازِ ما تَعِدُ به مَخَايِلُه . وخليق بمُحْكَم تأديبه، وجَوْدةِ تركيبه؛ أن لو مَثَل له النجمُ قَنَصا، أو جرى [بذكره][2] البرقُ قَصَصا؛ لآختطفه أسرعَ من لَحْظه، وأطوعَ من لَفْظه؛ وآنتسفه[3] أمضى من سهم، وأجرى من وَهْم . وقد أقسم بشرف جوهره، وكريم عُنْصره؛ لا يُوجِّه مُسَفَّرا، إلا غادر قَنِيصَه مُعَفَّرا، وآبَ إلى يد من أرسله مُظَفَّرا؛ مُوَرَّد المِخْلَب والمِنقار، كأنما آختَضَب بحِنّاء أو كَرَع فى عُقَار» .

[وله من أبيات يمدح بها][2] :

طَرَدَ القنيصَ بكلّ[4] قَيْدِ طريدةٍ * زَجِلَ[5] الجَناح مورَّدَ الأظفارِ

= على الفصل الأعلى من باطن السبابة، والسبعين تجعل رأس الإبهام على الفصل الأسفل من باطن السبابة، والثمانين تجعل رأس السبابة على ظفر الإبهام والتسعين تجعل السبابة حلقة غير مجوّفة، والمائة تجعل رأس السبابة اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرة . الخ . (انظر بلوغ الأرب فى أحوال العرب للآلوسى ج ٣ ص ٣٩٦ — ٣٩٩ ففيه بيان تام لعلامات الأعداد من الواحد الى الألوف) .

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « ... نحو السماء وطرفه » ، وهو تحريف .

(٢) الزيادة عن مباهج الفكر . (٣) انتسف الطائر الشىء عن وجه الأرض : قلعه .

(٤) كذا فى ديوانه (ص ٥٣) ومباهج الفكر . وفى الأصلين : «فكل» — بالفاء .

(٥) الزجل : رفع الصوت والجلبة .

مُلْتَفَّـــة أعطافُـــه بحَبِـــيرةٍ (١) * مكحولة أجفانُه بنُضَـارِ
يَرمى به الأمـــدَ البعيدَ فيَنْثنى * مخضـوبَ راءِ الظُّفْـر والمنقارِ

* * *

وأما الزُّرَّقُ — وهو الصِّنف الثانى من البازى . هو باز لطيفٌ، إلا أن مِزَاجَه أحرُّ وأيْبَس، وهو لذلك أشـدُّ جَناحا وأسرعُ طَيَرانًا وأقوى إقدامًا . وفيه خَتْلٌ وخُبْثٌ؛ وذلك أنه إذا أُرسِل على طائر طار فى غير مَطَاره ثم عطَف عليه وأظهر الشدّةَ بعد اللين. وخيرُ ألوانه الأسودُ الظهرِ الأبيضُ الصدرِ الأحمرُ العين . ووصفُه المحمود منه أن يكون أعدلَهـا خَلْقا، وأقلَّها رِيشا، وأثقلَها تَحْمِلا، وأملأَها فَخِذا، وأرحبَها شِدْقا، وأوسعَها عيْنا، وأصغرَها رأسًا، وأصفاها حَدَقةً، وأطولَها عُنُقًا، وأقصرَها خافِيةً، وأشدَّها لَحْما، وأن يكون أخضرَ الرجلين، وسيعَ المخالب، مُتعريًا (٢) من اللحم . والله أعلم .

* * *

وأمّا الباشَق — وهو الصنف الثالث من البازى . وهو أحرّ وأيْبَسُ من الزُّرّق، وهو هَلِـعٌ قَلِقٌ ذَعِر، يأنَس وقتًا ويَستوحِش وقتًا . ونفْسُه قويّة جافيةٌ (٣). فإذا أنِس منه الصغيرُ بُلِـغ منـه كلَّ المراد . وأجودُ الباشَق ما أخِذ فرخًا لم يُلْقِ من قوادِمه رِيشة . وهو متى تمّ تأنيسُه وُجِد منه بازٍ خفيفُ المَحْمِل ظريفُ الشمائل .

ومن صفاته المحمودةِ أن يكون صغيرَ المَنْظَر، ثقيـلَ المَحْمِل، طويلَ الساقينِ والفخِذين، عظيمَ السِّلاح بالنسبة إلى جسمه .

(١) الحبير من البرود : الموشّى المخطط .

(٢) فى الأصلين : «متعر»، وهو تحريف .

(٣) فى ا ومباهج الفكر : «خائفة» . وفى ب : «خافية» . ولعل كليهما محرف عما أثبتناه .

وقال بعضُ الشعراء يصفه :

إذا بارك اللهُ فى طـائرٍ * نخَصّ من الطـير إسْبَهْرَقِى
له هامـةٌ كُلِّلَت باللُّجَيْنِ * فسال اللُّجَيْنُ على المَفْـرِقِ
يُقَلِّب عينين فى رأسـهِ * كأنهما نقطتا زِئبَـقِ
واشْرِبَ لونًا له مُذْهَبًـا * كلون الغَـزالة فى المَشْرِق
حِمامُ الحَمـامِ وحَتْفُ القَطا * وصاعِقـةُ القَبْـجِ والعَقْعَقِ
وأحنى عليك إلى أن يعود * إليـك من الوالد (١) المُشْـفِقِ
فأكرِمْ به وبكفِّ الأمير * وبالدَّسْتَبَانِ (٢) إذا يَلْتَقِ

وقال أبو الفتح كُشَاجِم :

يسمو فيَخْفَى فى الهـواء ويَنْكَفِى * عَجَلًا فينقضُّ انقضـاضَ الطارق
وكأن جُؤْجُؤَه وريش جناحِه * خُضِبا (٣) بنَقْش يدِ الفتـاةِ العـاتِقِ (٤)
وكأنما سكَن الهوى أعضـاءَه * فأعارهنّ نحـولَ جسمِ العاشـقِ
ذا مقـلةٍ ذهبيّـةٍ فى هامـةٍ * محفوفةٍ من ريشها بحـدائقِ
ومخالبٍ مثـلِ الأهِـلّةِ طالمـا * أدْمَيْنَ كفَّ البَـازيارِ الحاذِقِ
وإذا انبرَى نحـوَ الطريدةِ خِلْتَـه * كالرِّيح فى الأسمـاع أو كالبـارق

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «الولد» .

(٢) الدستبان : الضارب بالدستان ، وهو من اصطلاحات أصحاب الموسيقى ، ومعناها : النغمة بالفارسية . كذا ذكر فى كتاب الألفاظ الفارسية (ص ٦٤ طبع بيروت) . وكان من عادتهم إذا أرادوا أن يصطادوا بالجوارح ضربوا لها الطبول وهيجوها بذلك .

(٣) كذا فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٩٧ أدب . وفى ا : «خصا» بالخاء المعجمة والصاد المهملة . وقد سقطت هذه الكلمة من الناسخ فى ب .

(٤) العاتق : الجارية أول ما أدركت والتى لم تتزوج ، وقيل : التى بين الادراك والتعنيس .

وإذا دعاه البَازِيارُ رأيتَه * أَدْنَى وأطوعَ من محبٍّ وامقِ
وإذا القَطاةُ تخلّفتْ من خوفه * لم يَعْدُ أن يهوى بها من حالِقِ

ومن رسالة لبعض فضلاء الأندلس، جاء منها :

« كأنما آكتحلَ بلَهَب ، أو آنتعل بذهب . ملتفٌّ فى سِبْرِه (١)، وملتحفٌ بحِبْرِه . من سيوفه مِنقارُه، ومن رماحه أظفارُه . ومن اللواتى تَتنافس الملوكُ فيها، تُمسكها عُجْبا بها وتِيها . فهى على أيديها آيةٌ باديه ، ونعمةٌ من الله ناميه . تَبذُل لك الجهدَ صُراحا ، وتُعيرك فى نَيْل بُغْيتك جَناحا . وتَتّفق معك فى طلب الأرزاق ، وتأتَلِف بك على آختِلاف الخَلْق والأخلاق . ثم تلوذ بك لِياذَ من يَرْجوك ، وتفِى لك وفاءً لا يلتزمه لك آبنُك ولا أخوك » . ثم ذكَرَ حمامةً صادها، فقال : « اِختطفَها أسرعَ من اللَّحظ، ولا مَحِيدَ لها عنه، وآنحدر بها أعجلَ من اللَّفظ ، وكأنها هى منه؛ ثم جعل يتناولها بعَقْد السبعين ، ويُدْخلها فى أضيقَ من التسعين (٢) . وكان لها موتاً عاجلا، وكانت له قُوتا حاصِلا » . والله الهادى للصواب .

* * *

وأمّا العَفْصِىُّ — وهو الصنف الرابع من البازى . وهو من الباشَق كالزُّرّق من البازى، إلا أنه أصغرُ الجوارح نَفْسًا، وأضعفُها حِيلةً، وأشدُّها ذُعرًا، وأيْبَسها مِزاجًا . وربما صاد العصفورَ وتركه لخوفه وحَذَره . ومن عادته أنه يَرْصُد الطيرَ

(١) كذا فى مباهج الفكر . والسبر : حسن الهيئة ، ومنه الحديث : "يخرج رجل من النار وقد ذهب حبره وسبره" . والحبر : البهاء والحسن والوشى . وفى الأصلين : «شرره» .

(٢) راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٨٩ من هذا الجزء .

أيام حِضَانه[1]، فإذا طار عن وَكْره خلَفه فيه وكَسر بيضَه ورماه وباض مكانَه وطار عنه فيحضُنه صاحبُ الوكر؛ فهو أبدًا لا يحضُن ولا يُرَبِّى .

***

وأمّا البَيْدَق — وهو الصنف الخامس من البازى ، وهو لا يصـيد غيرَ العصافير . وقد وصفه كُشَاجِمُ فقال : ٥

حَسْبى من البُزاةِ والزَّرَارِقِ[2] * بِبَيْدَقٍ يصيد صيدَ الباشَقِ
مُؤَدَّبٍ مُـدَرَّبِ الخَـلَائِقِ * أَصْيَد من معشوقةٍ لعاشِقِ
يَسْبِق فى السُّرعة كلَّ سابِقِ * ليس له عن صيده[3] من عائقِ
رَبَّيْتُـــه وكنتُ عين الواثِقِ[4] * أنّ الفَـرَازِينَ[5] من البَيَادق

(١) الحضان (بالكسر) : مصدر من قولك : حضن الطائر بيضه حضنا وحضانا إذا ضمه تحت جناحيه . ١٠

(٢) فى حياة الحيوان (ج ١ ص ١٣٧) : «واليادق» .

(٣) فى حياة الحيوان : « فى صيده » .

(٤) فى ديوانه وحياة الحيوان : « غير واثق » .

(٥) الفرازين : جمع فرزان ، معرب فرزين بالفارسية وهو الملكة فى لعبة الشطرنج . تقول : تفرزن البيدق ، أى صار فرزانا . ١٥

ذكر ما قيـــل فى الصقر

والصقر ثلاثة أصناف، وهى صقرٌ، وكَوْنَجٌ، ويُؤْيُؤٌ .

فأمّا الصقر — فهو النوع الثالث من الجوارح. والعرب تُسمِّى كل طائرٍ يصيد صقرًا، ما خلا النّسر والعُقَاب، وتسمّيه "الأكدرَ" و"الأجدل". وهو من الجوارح بمنزلة البِغال من الدّوابّ، لأنه أصبر على الشدّة وأشدُّ إقداما على جلّة الطير كالكَرَاكىّ والحَبَارِج[1] . قالوا : ومِزاجُه أبردُ من سائر ما تقدّم ذِكْرُه من الجوارح وأرطب . وهو يُضَرَّى على الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى على الطير لأنها تفوتُه . وفعلُه فى صيده الانْقِضاض[2] والصَّدْمُ . وهو غير صافٍّ[3] بجناحه ولا خافقٍ به . ومتى خفَق بجَناحه كانت حركتُه بطيئةً بخلاف البازى . ويقال : إنه أَهْدأُ نفسًا من البازى ، وأسرع أُنْسًا بالناس[4]، وأكثر رِضًا وقناعةً . وهو يَغْتذى بلحوم ذواتِ الأَرْبَع . وهو يَعاف المياهَ ولا يَقْرَبُها ، وذلك لبَرْد مِزاجِه . وفى طبعه أنه لا يركب الأشجارَ ولا الشواخَ من الجبال ، ولا يأوى إلّا المقابرَ والكهوفَ وصدوعَ الجبـال . وهو يَنْقَى بالتَّمَعُّك[5] فى الرّمل والتراب .

ومن صفاته المحمودة الدّالّة على نجابته وفراهتِه : أن يكون أحمرَ اللّون ، عظيمَ الهامة، واسعَ العينين، تامَّ المنسر، طويلَ العنق والجناحين، رَحْبَ الصدر، ممتلئ (١٠٧)

(١) الحبارج : جمع حبرج (بالضم)، وهو من طير الماء .

(٢) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين : «الانقباض» وهو تحريف .

(٣) صف الطائر جناحيه فى السماء : بسطهما ولم يحركهما .

(٤) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «أسرع إيناسا من الناس» .

(٥) التمعك : التمرغ . وفى الأصلين : «باليعمل» ، وهو تحريف .

الزَّوْر، عريضَ الوســط ، جليلَ الفخذين، قصيرَ الساقين والذَّنَب، قريبَ القَفْدَة[1] من الفَقَار، سَبْطَ الكفّ، غليظَ الأصابع فَيْرُوزجَها، أسودَ اللسان. والله الموفّق .

وأوّلُ مَنْ صاد بالصقر وضَرَّاه الحارثُ بن معاوية بن ثَوْر بن كِنْدَة . وسببُ ذلك أنه وقف فى بعض الأيّام على صيّاد قد نَصَب شبكةً للعصافير، فانقضّ أَكْدَرُ على عصفور قد عَلِق فى الشبكة فجعل يأكله وقد عاق الأكدر وانْدقّ جناحاه، والحارثُ ينظر إليه ويَعْجَبُ من فعله ؛ فأمر به فحُمِل فرُمِى به فى كِسْر بيتٍ ووُكِّل به من يُطْعمه ؛ وأنِس الصقرُ بالموكَّل به، حتى صار إذا جاءه باللحم ودعاه أجاب ؛ ثم صار يُطْعِمه على يده وصار يحمله . فبينما هو يومًا حامِلُه إذ رأى حمامةً ، فطار عن يده إليها فأخذها وأكلها . فأمر الحارثُ عند ذلك باتّخاذها وتَدْريبها والتصيّد بها . فبينا هو يسير يومًا إذ لاحت أَرنبٌ فطار الصقرُ إليها وأخذها ؛ فلما رآه يصيد الطيرَ والأرانبَ ازداد به إعجابا واغتباطا . واتخذته العرب بعده .

ووصفه الشعراء ؛ فمن ذلك ما قاله كُشَاجِم يصفه :

غَدَوْنا وطَرْفُ النجمِ وَسْنَانُ غائرُ * وقد نزل الإصباحُ والليل سائرُ[2]
بأجْدَلَ من حُمْرِ الصقور مؤدَّبٍ * وأكرمُ ما قَرَّبْتَ منها[3] الأحامرُ[4]
جرىءٌ على قتل الظِّباء وإنّنى * ليُعْجِبنى أن يَكْسِرَ الوحشَ طائرُ
قصيرُ الذَّنابَى والقُدامَى كأنّها * قَوادِمُ نَسْرٍ أو سيوفٌ بواترُ

(١) الذى يستنبط من معاجم اللغة (مادة قفد) أن القفد جزء من جانب الرأس الخلفى . ولم يفسره أحد من الأئمة أو يحدّد موضعه . (راجع اللسان مادة قفد) .

(٢) فى مباهج الفكر : « والليل ساتر » بالتاء المثناة من فوق .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « منه » .

(٤) جمع أحمر على أحامر لأنه أخرج مخرج الأسماء، كما جمع أجدل، وهو الصقر، على أجادل .

ورُقِّش منــه جُؤْجُؤٌ فكأنّه * أعارتْه إعجامَ الحروف الدّفاترُ
فما زلتُ بالإضمارِ حتى صنعتُه * وليس يحوز السبقَ إلّا الضّوامرُ
وتحمِــله منّا أكفٌّ كريمــةٌ * كما زُهِيت[1] بالخاطِبين المنابرُ
وعَنّ لنا من جانب السَّفْح رَبْرَبٌ * على سَنَنٍ تَسْتَنّ منه الجآذرُ
فخَلّى[2] وحُلّت عُقْدةُ السير فانْتحى[3] * لأوّلها إذ أمكنته الأواخرُ
يَحُتّ جناحيــه على حُرّ وجهها[4] * كما فُصِّلَتْ فوق الخدود المَعاجِرُ[5]
وما تمّ رَجْعُ الطَّرْف حتى رأيتُها * مُصَرَّعةً تَهْــوِى إليها الخَنَاجِرُ

وقال عبد الله بن المعتزّ :

وأجدلٍ يفهم نُطْقَ الناطِقِ * مُلَمْلَمِ[6] الهامةِ نَخْــمِ العاتِقِ
أقنى المَخَاليبِ طلوبٍ مارِقِ * كأنها نُونَاتُ كفِّ ماشِــقِ
ذى جُؤْجُؤٍ لابِسِ وَشْيٍ رائِقِ * كَمُبْتَدا اللّاماتِ فى المَهارِقِ[7]
أو كامتدادِ الكحل فى الحَمَالِقِ * ونَجَّمَتْ باللّحظ عينُ الرامِقِ
عَشْرًا من الإوَزِّ فى غَلَافِقِ[8] * فــرّ كالرِّيحِ بعَــزْمٍ صادِقِ

---

(١) فى الأصلين : « رهبت » .

(٢) جلى البازى : أبصر الصيد فرفع رأسه وطرفه . وفى الأصلين : « فحلى » بالحاء المهملة ، وهو تصحيف .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « فامحى » بالميم ، وهو تحريف .

(٤) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « وجهه » .

(٥) المعاجر : جمع معجر وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ، ثم تجلبب فوقه بجلبابها .

(٦) الململم : المجتمع المدوّر المضموم .

(٧) المهارق : جمع مهرق (بالضم) وهى الصحيفة البيضاء يكتب فيها .

(٨) الغلافق : جمع غلفق وهو الطحلب أو هو نبت ينبت فى الماء ورقه عراض .

حتى دنا منهنّ مثـــلَ السارقِ * ثم علاها بجَنـاحِ خافِـــقِ
* فطَفِقَتْ من هالكٍ أو فائِقِ * (١)

وقال أيضا :

وأجدلٍ لم يَخْـــلُ من تأديبِ * يَرى بعيـــدَ الشيء كالقريبِ
يَهْوِى هُـوِىَّ الدَّلْوِ فى القليبِ * بنـاظرٍ مُسْتَعْجِمٍ مقـــلوبِ ٥
كناظِرِ الأقبَـــلِ (٢) ذى التَّقْطِيبِ * رأى إوَزًّا فى ثَرًى رَطِيبِ (٣)
فطار كالمُسْـــتَوْهِلِ المرعوبِ * ينفُـــذ فى الشمال والجَنـوبِ

* * *

وأمّا الكَوْنَجُ — وهو الصنف الثـانى من الصقر . ويُسمَّى بمصر والشام
السّقاوية (٤) . ونسبتُه من الصقر كنسبة الزُّرَّقِ من البازى ، إلا أنه أحَرُّ منه ؛ ولذلك هو ١٠
(١٠٨) أخفُّ منه جَناحا . وهو يصيد الأرنبَ ، و يعجز عن الغزال لصغره ؛ و يصيد أشياء
من طير المـاء . وشدّةُ نَفْسه أقلُّ من شدّة بدنه ؛ ولأجل ذلك هو أطول فى البيوت
لُبْثًا ، وأصبرُ على مقاساة الشقاء من الصقر . وفى وصفه يقول بعضُ الشعراء :

إن لم يكن صقرٌ فعندى كَوْنَجْ * كأنّ نَقْشَ ريشه المُـــدَرَّجْ
بُرْدٌ من المَوْشِىّ أو مُـــدَبَّجْ * فكم به للطـــير قلبٌ مُزْعَجْ ١٥
ممـــزَّقٌ بدَمِـــه مُضَرَّجْ * بمثـــله عنّا الهمـــوم تُفْرَجْ

---

(١) يقال : فاق الرجل فواقا اذا كانت نفسه على الخروج .

(٢) الأقبـل : الذى أقبلت حدقتاه على أنفه . وقال الليث : القبـل فى العين : إقبال السواد على المحجر .

(٣) كذا فى ديوانه (ص ٩٧ طبع مصر) . وفى الأصلين : « وطيب » وهو تحريف . ٢٠

(٤) فى مباهج الفكر : « السقاوة » .

***

وأمّا اليُؤْيُؤ — وهو الصِّنف الثالث من الصقر . ويسمّيه أهل مصر والشأم "الجَلَم" لخفّة جناحَيه وسرعتهما . وهو طائر قصير الذَّنَب . ومِزاجُه بالإضافة الى الباشَق باردٌ رَطْبٌ ، لأنه أصبرُ منه نَفْسًا وأثقلُ حركةً . ويشرب الماءَ شربا ضروريًّا كما يشربه الباشَقُ . ومِزاجُه بالنسبة الى الصقر حارٌّ يابس ، ولذلك هو أشجع منه ، لأنه يتعلّق بما يفترسه ، ويصيد ما هو أجلّ منه كالدُّرّاج . ويقال : إنّ أوّل من صاد به واتّخذه لِلّعب بَهْرام جُور[1] ؛ وذلك أنه شاهد يُؤْيُؤًا يُطارد قُبَّرةً ويُراوِغها ويرتفع معها إلى أن صادها ؛ فأعجبه واتّخذه وصاد به .

وقال عبد الله النّاشي يصفه :

ويؤيؤٍ مهذَّبٍ رشيقِ * كأنّ عينيه على التحقيقِ[2]
* فَصّانِ مخروطانِ من عَقيقِ *

وقال أبو نُوَاس :

قَدْ[3] أغتدِى والصبحُ فى دجاه * كطُرّة البُرْد[4] على مَثْنَاهُ
بِيؤيؤٍ يُعْجِب من رآه * ما فى اليآيى يؤيؤٌ شَرْواه[5]

(١) راجع ترجمته بتفصيل واف فى تاريخ الطبرى (ص ٨٥٤ — ٨٧١ من القسم الأوّل) .

(٢) فى مباهج الفكر وحياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٨٠) : «لدى» .

(٣) وردت هذه القصيدة فى ديوان أبى نواس المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٥ أدب م ص ٧٨) على غير هذا الترتيب وبزيادة أبيات عليها .

(٤) كذا فى الأصلين وديوانه . وفى حياة الحيوان للدميرى : « كطرة البدر لدى مثناه » . والطرة : الجبهة . وقد تكون هذه الرواية الأخيرة أقرب الروايات الى الصحة اذا صح أن كلمة « مثناه » يراد بها ميل القمر وانعطافه الى مغيبه ، ويكون المراد تشبيه الصبح فى غلسه بصفحة البدر عند مغيبه .

(٥) كذا فى ديوانه ومباهج الفكر . وشروى الشىء : نظيره . وفى الأصلين : «يؤيؤ سواه» .

أزرقُ لا تكذِبه عينـاه * فلو يرى القـانصُ ما يراه
[* فدّاه بالأُمّ وقـد فَدّاه (١) *]

وقال أبو اسحاق الصّابى يصفه من رسالة :

«وكم من قُبّرٍ (٢) أطلقنا عليه يؤيؤًا (٣) لنا فعَرَج إلى السماء عُروجا ، و لجّج فى أثَره تلجيجا ؛ فكان (٤) ذلك يعتصم منـه بالخَلَاق ، وهذا يَستطعِمُه من الرّزّاق ؛ حتى غابا عن النُّظّـار ، وآحتجبا عن الأبصار ؛ وصارا كالغَيْب (٥) المُرَجّم ، والظنّ المتوهَّم ؛ ثم خطِفه (٦) ووقع به وهما كهيئة الطائر الواحد ؛ فأعجَبنا أمرُهما ، وأطربَنا منظرُهما» .

ذكر ما قيل فى الشاهين

والشاهين ثلاثة أصناف ، وهى شاهين ، وأَنِيق ، وقَطَامِىّ .

فأما الشاهين — وآسمه بالفارسية شَوْذَانه ، فعرّبته العربُ على ألفاظ شَتّى منها : شُوذانِق وشَوْذَق وشَوْذَنيق وشَيْذَنُوق (٧) . و يقال : إنه من جنس الصقر إلا أنه أبردُ منه وأيبس ؛ ولذلك تكون حركتُه من العُلْو إلى السُّفْل شـديدةً . وليس يحلّق

(١) زيادة عن ديوانه ومباهج الفكر وحياة الحيوان للدميرى .
(٢) كذا فى يتيمة الدهر (ج ٢ ص ٣٥) . وفى الأصلين : «وطار منه قبرا» .
(٣) فى اليتيمة : «بازيا» .
(٤) كذا فى اليتيمة . وفى الأصلين : «كان» .
(٥) كذا فى اليتيمة . وفى الاصلين : «كالغيث المرجم والظن الموهم» ، وهو تحريف .
(٦) كذا فى اليتيمة . وفى الاصلين : «ورفع» وهو تحريف .
(٧) قد وردت هذه المترادفات فى إحدى روايات المخصص بالسين المهملة . والسين والشين كلتاهما لغة فيها . راجع القاموس وشرحه واللسان (مادتى سذق وشذق) والمخصص (ج ٨ ص ١٥٠) .

فى طلب الصّيد على خطّ مستقيم إنما يحوم لِثقل[1] جَناحه، حتى إذا سامتَ الفريسةَ انقضّ عليها هاوياً من عُلوٍ فضربها وفارقها صاعدًا؛ فإن سقطتْ على الأرض أخذها، وإن لم تسقُط أعاد ضربَها [لتسقط][2]؛ وذلك دليلٌ على جُبْنه وفتورِ نَفْسه وبَرد مِزاجِ قلبه. ومع ذلك كلّه فهو أسرعُ الجوارح وأخفُّها وأشدُّها ضَراوةً على الصيد.

٥ إلّا أنهم عابوه بالإبَاق وبما يعتريه من الحِرْص؛ حتى إنه ربما ضرب بنفسه الأرضَ فمات. ويزعمون أنّ عظامَه أصلبُ من عظام سائر الجوارح؛ ولذلك هو يضرِب بصدره ويعلَق بكفِّه.

وقال بعضُ من تكلّم فى هذا النوع: الشاهين كاسمه. يريد [شاهين][3] الميزان؛ (١٠٩) [لأنه][4] لا يحتمل أدنى حال من الشِّبَع ولا أيسرَ حالٍ من الجوع.

١٠ والمحمودُ من صفاته: أن يكون عظيمَ الهامَة، واسعَ العينين حادّهما، تامَّ المِنْسَر، طويلَ العنق، رَحْبَ الصدر، ممتلئَ الزَّوْر، عريضَ الوسط، جليلَ القِخذين[5]، قصيرَ الساقين، قريبَ القَفْدة[6] من الظهر، قليلَ الرِّيش ليِّنَه، تامَّ الخوافى، دقيقَ الذَّنَب، إذا صَلَّب عليه[7] جناحيه لم يفضُل عنهما شيءٌ منه. فإذا كان كذلك فهو يقتل الكُرْكىَّ [ولا يفوته][2]. وزعم بعضُهم[8] أنّ السُّودَ من الشواهين هى المحمودة؛ وأن السواد

١٥ أصل لونها، وإنما أحالته التُّرْبة. ويكون فى الشواهين المُلَمَّع. والله أعلم.

(١) كذا فى مباهج الفكر، وفى الأصلين: «بثقل».

(٢) زيادة عن مباهج الفكر.

(٣) هذه التكملة عن كتاب شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل. وشاهين الميزان: لسانه.

(٤) زيادة عن شفاء الغليل وحياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٥٨) ومباهج الفكر.

٢٠ (٥) فى حياة الحيوان للدميرى: «جليد».

(٦) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٩٦ من هذا الجزء.

(٧) عبارة حياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٥٨): «إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنه منهما شىء».

(٨) فى مباهج الفكر: «وزعم أهل الاسكندرية».

وأوّل من صاد بالشَّوَاهِين قسطنطين [ملك عَمُّورِيَّة][1] . حُكِى أنه خرج يومًا يتصيَّد ، حتى إذا أتى إلى مَرْج فَسيح نظر إلى شاهين يَنْكفِئُ على طير الماء؛ فأعجبه ما رأى من سرعته وضَرَاوته و إلحاحه على صيده ، فأخذه وضَرّاه؛ ثم رِيضتْ له الشَّوَاهين بعد ذلك وعُلِّمت أن تَحُوم على رأسه إذا رِكب فتُظِّله من الشمس؛ فكانت تنحدِر مرّة وترتَفِع أخرى ، فإذا نزل وقعتْ حولَه . ٥

وقد وصف الشعراءُ الشواهينَ وشبّهوها؛ فمن ذلك قولُ النَّاشى :

هل لك يا قَنّاصُ فى شاهينِ * شُـوذَانِقٍ مؤدَّبٍ أمينِ
جاء به السائسُ من رَزِينِ[2] * ضَـرّاه بالتَّخشـين والتَّلْيِين
حتى لأغْنَـاه عن التلقينِ * يكاد للتثقيف والتَّمْـرينِ
يَعـرِف معنى الوَحْى بالجفونِ * يَظَلُّ من جَنـاحِه المَزِينِ ١٠
فى قُرْطَقٍ[3] من خَزِّه الثمينِ * يُشـبه من طِرَازِه المَصُونِ
بُرْدَ أَنُوشِرْوانَ أو شِـيرِينِ[4] * أحْوَى مَجارِى الدَّمعِ والشؤونِ
ذى مِنْسَـرٍ مُؤَلَّلٍ مَسْنونِ * وافٍ كشَطْر الحاجب المَقْرونِ
مُنْعَطِفٍ مثـلَ ٱنعطافِ النونِ * يُبـدِى ٱسمُه معناه للعيونِ

وقال أبو الفتح كُشَاجم وبدأ بالكُرْكِىّ : ١٥

ياربَّ أسراب من الكَرَاكِى * مُطْمِعة السكون فى الحَرَاكِ
بعيـدةِ المَنَالِ والإدْراكِ * كُدْرٍ وبِيضِ اللّون كالأفْنَـاكِ[5]

(١) زيادة عن مباهج الفكر . وعمورية (بفتح أوّله وتشديد ثانيه) : بلد فى بلاد الروم غزاه المعتصم فى سنة ٢٢٣ هـ وكانت من أعظم فتوح الإسلام .

(٢) كذا بالأصلين ولم نجد فى معاجم البلدان موضعا بهذا الاسم . ٢٠

(٣) القرطق : قباء ذو طاق واحد ، تعريب كرته بالفارسية .

(٤) شيرين : اسم حظية كسرى أبرويز؛ وتطلق أيضا على أسماء فارسية كثيرة .

(٥) الأفناك : جمع فنك ، وهو دويبة يؤخذ منه الفرو ، يجلب من بلاد الصقالبة .

تَقْصُـــر عنها أسهُمُ الأتراكِ * ذُعِرْن[1] قبـــل لَغَطِ المَكَاكِى[2]
وقبلَ تغريد الحمـامِ البـاكى * بفـاتكٍ يُرْبِى على الفُتّـاك
مؤدَّبِ الإطلاق والإمْسـاكِ * مُلَمْـلَمِ الهـامَة كالمَـداك[3]
مثل الكَمِىّ فى السّلاح الشّاكى * ذى مِنْسَرٍ ضخـمٍ له شَـكَّاكِ
ومِخْـلَبٍ بحـدّه بَتّـاكِ[4] * للحُجْبِ عن قلوبهـا هَتّاكِ
حـتى إذا قلتُ له دَرَاكِ * وحَلَّقتْ تسـمو إلى الأفلاكِ
مُمْتَـدَّةَ الأعنـاق والأوْراك * مُوقِنـةً بعـاجِلِ الهَـلاكِ
غادرها تهـوِى على الدِّكَاكِ[5] * أسْـرَى بكفَّيْه بلا فَكَاكِ
ياغدوات الصـيد ما أحلاك * ومُنّـةَ الشاهين ما أقواكِ
لم تَكْذِبِى فِراسـةَ الأمـلاكِ * إيّاك أعـنى مادحًا إيّاكِ

❖
❖ ❖

وأمّا الأنِيقىّ — وهو الصِّنف الثـانى من الشاهين. وتسميه أهلُ العراق الكترك . وهو دون الشاهين فى القوّة، إلا أنّ فيه سرعة . وهو يصيد العصافيرَ .

وفيه يقول الشاعر :

غَنِيتُ عن الجَـوَارح بالأنِيقِى * بمثـل الرِّيح أولمع البـرُوقِ
أَصُبُّ به على العُصْـفور حَتْفًا * فأرْميـه بصـخرة مَنْجَنِيقِ

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « دعوت » .

(٢) المكاكى : جمع مكاء (بضم الميم وتشديد الكاف) وهو طائر فى ضرب القبرة إلا أن فى جناحيه بلقا ، وهو يألف الريف ، سمى بذلك لأنه يمكو أى يصفر .

(٣) المداك : حجر يسحق عليه الطيب .

(٤) بتاك : قطاع .

(٥) الدكاك : جمع دكة وهى ما استوى من الرمال وسهل .

وأمّا القُطَامىّ — وهو الصِّنف الثالث من الشاهين ، وتسميه أهل العراق " البَهْرَجَة " . يقال : إنه فى طبع الشاهين ،والعرب تُخالف ذلك ، وتسمّى بعضَ الصقور القُطامىّ ، والمُمْتَنُون بالجوارح يخالفونهم فى ذلك .

فصـــل

ومِمّا ناسَب الجوارحَ فى الافتراس وأكل اللحم الحىّ " الصُّرَدُ " ، ويُسَمَّى " الشَّقْرَاق "(١) و " الأَخْطَب " و " الأَخْيَل " . وقيل : إنّ من أسمائه " الواق "(٢) وبعضُهم يسمّيه "بازى العصافير". [وهوطائرٌ مُوَلَّعٌ بسواد و بياضٍ ،ضخمُ المِنقار](٣) . وفى طبعه شَرَهٌ وشراسة وسرقةٌ لفراخ غيره ونفورٌ من الناس . وهو [يصيد الحيّات و](٣) يغتذى باللّحم ، و يأوِى الأشجارَ ذواتِ الشَّوْك وفى رءوس التِّلاع ، حَذَراً على نفسه [ممن يَصيده](٣) . وهو يتحيّل فى صيد ما دونه من الطير كالعصفور(٤) .

هذا ما ظَفِرت به فى أثناء المطالعة من سِباع الطير ممّا تكلّم عليه أربابُ هذا الفن . وقد أهملوا أصنافًا ، منها ما هو أجلُّ من جميع ما ذكرناه ، وهو " السُّنْقر" .

(١) كذا فى مباهج الفكر والمخصص (ج ٨ ص ١٥١) . وفى الأصلين « الشـقران » بالنون بدل القاف ، وهو تحريف .

(٢) الواق بكسر القاف بلا ياء ، سمى بذلك لحكاية صوته . و يقال فيه أيضا « الواقى » كالقاضى بإثبات الياء .

(٣) زيادة عن مباهج الفكر .

(٤) وردت هـذه العبارة فى مباهج الفكر كما يأتى : « وله من التحيـل فى صـيده ما دونه من الطير كالعصفور والصعو وغير ذلك من تغير صوته وحكاية كل صوت لذى جثة صغيرة ، فيدعوها ما تسـمع منه الى التقرّب منه ظنا منها أنه من جنسها ، فاذا اجتمعن اليه شدّ على بعضهنّ فأخذه وأكله ، وله نقر شـديد واذا نقر شيئا منها أكله من ساعته » .

والسّنقر — طائر شريف ، حسنُ الشّكل، أبيضُ اللّون بنقط سود . والملوك تتغالى فيه وتَشْتَريه بالثمن الكثير. وكان فيما مضى من السنين القريبة يُشْتَرى من التّجار بألف دينار ؛ ثم تناقَص ثمنُه حتى آستقر الآن بخمسةِ آلافِ درهم . ولهم عادةٌ : أنّ التّجار إذا حملوه وأتَوْا به من بلاد الفِرِنْج فمات منهم فى الطريق قبل وصولهم أحضروا ريشَه إلى أبواب الملوك، فيُعْطَوْن نصفَ ثمنه إذا أتَوْا به حيًّا؛ كل ذلك ترغيبًا لهم فى حملها ونقلها إلى الديار المصريّة . وهذا الطيرُ لا يشتريه غير السلطان ولا يلعَب به غيرُه من الأمراء إلا من أنعم السلطانُ عليه به . والله أعلم .

وممّا أهملوا الكلام فيه "الكوهيّة" و"الصيفيّة" و"الزغزغى"، وهو يُعَدّ من أصناف الصقر . ولم أجد مَنْ أثق بنقله وعلمه بهذه الأصناف فأنقل عنه أخلاقَها وطبائعها وعاداتها .

* * *

وقال أبو إسحاق الصابى فى وصف الجوارح من رسالةٍ طَرْدِيّة جاء منها :

«وعلى أيدينا جوارحُ مؤلّلةُ المخالب والمَناسر، مُذَرَّبةُ[1] النِّصال والخناجر، طامحةُ الألحاظ والمناظر؛ بعيدةُ المَرامى والمطارح؛ ذكيّة القلوب والنفوس، قليلة القُطُوب والعُبُوس؛ سابغةُ الأذناب، كريمةُ الأنساب؛ صُلْبةُ[2] الأعواد، قويّةُ الأوصال؛ تزيد إذا أُلْحِمَتْ[3] شرهًا وقَرَمًا، وتَتَضاعف إذا أُشْبِعتْ كَلَبًا ونَهَمًا . ثم خرج إلى وصف الحمام فقال : «فلما أوفينا عليها، أرسلنا الجوارحَ إليها؛ كأنها رسلُ المنايا، أو سِهام القضايا؛ فلم نَسْمَع إلا مُسمِّيًا، ولم نَرَ إلا مُذَكِّيًا» .

(١) ذرّب السيف ونحوه (بالتضعيف) وذربه (بالتخفيف) وأذربه : أحدّه .

(٢) فى الأصلين : «طيبة الأعواد» .

(٣) ألحمت : أطعمت اللحم .

البـاب الثـانى من القسم الخامس

من الفن الثالث فى كلاب الطَّيْر

ويشتمل هذا البابُ على ما قيل فى النَّسر، والرَّخَم، والحِدَأة، والغراب .

وإنمـا سمّيت هـذه الأصناف بالكلاب لأنها تأكل المَيْتَةَ والحِيَفَ وتقصِدها وتقع عليها، فهى فى ذلك شبيهة بالكلاب . ٥

ذكر ما قيل فى النَّسْر

والنَّسر ذو مِنْسَر وليس بذى مِخْلَب، وإنما له أظفار حِدادٌ [كالمخالب . وهو يَسْفِد كما يسفِد الديكُ][1] . وزعم من تكلّم فى طبائع الحيوان أنّ الأُنثى من هذا النوع تَبِيضُ من نظر الذَّكَر إليها، وأنهـا لا تحضُن [بيضَها][2] وإنمـا تبيضُ فى الأماكن العاليـة التى يَقرَعُها حرُّ الشمس وهَجِيرُها، فيقوم ذلك للبيض مقامَ الحَضْن . ١٠

والنَّسر يُوصف بحدّة حاسَّـة البصر؛ حتى إنه يقال : إنه يرى الجِيفـةَ عن مسافة أربعمائةِ فرسخ . وكذلك حاسَّـة الشَّمّ؛ إلا أنّه إذا شمّ الطِّيبَ مات . وهو أشـدُّ الطيرِ طيَرانًا وأقواها جَناحًا؛ حتى زعموا أنه يطير ما بين المَشرق والمَغـرب فى يوم واحد . وهـذا القولُ أراه من التّغالِى فيـه . وسائرُ الجوارح تخافُه . وهو [شَرِهٌ نَهِمٌ رَغِيبٌ][3]؛ إذا سقط على الجِيفة وامتلأ منها لم يَستطع عنـد ذلك الطيرانَ ١٥

(١) زيادة عن مباهج الفكر وحياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٤١٠) .

(٢) التكملة عن كتاب صبح الأعشى للقلقشندى (ج ٢ ص ٦٥)

(٣) زيادة عن مباهج الفكر .

حتى يثِبَ عِدّةَ وَثَبات يرفع فيها نفسَه فى الهواء طبقةً بعد طبقةٍ حتى تدخل تحته الرِّيحُ . ومَنْ أصابه بعد امتلائه وأعجلَه عن الوثوب أمكنه ضربُه إن شاء بعصا[1] وإن شاء بغيرها . قالوا : والأنثى تخاف على بيضها وفِراخها من الخُفّاش فتفرِش فى وَكْرها وَرَق الدُّلْب[2] لِيَفِرَّ منه . والنّسرُ أشدُّ الطير حُزنًا على [فِراق][3] إلْفِه؛ يقال : إن الأنثى إذا فقدتِ الذَّكرَ امتنعت عن الطُّعْم أيامًا ولَزِمتِ الوكر؛ وربما قتلها الحزنُ . وهو طويل العمر؛ يقال : إنهُ يُعَمَّر ألف سنة . وفيه ألوان : منها الأسودُ البهيم ، والأَرْبَد وهو لون الرَّماد ، والأَكْدر مثله . وهو يتبع الجيوشَ طمَعًا فى الوقوع على جِيف القَتْلى والدَّوابّ .

ذكر ما قيل فى الرخم

يقال : إنّ لئام الطير ثلاثة : الغِربانُ ، والبُومُ ، والرَّخَمُ .

والرخمةُ تلتمس لبيضها المواضعَ البعيدةَ والأماكنَ الوحشيّةَ والجبال الشامخةَ وصُدُوعَ الصخر؛ ولذلك يُضرب المثل ببيْض الأَنُوق . قال الشاعر :

طلَب الأَبْلَقَ[4] العَقُوق فلمّا * لم يَنَلْهُ أرادَ بيْضَ الانُوقِ

والرَّخَم من أحبّ الحيوان فى العَذِرة ، لا شىءَ يحبّها كحبّه إلّا الجُعَل . وقال المفضّل لمحمد بن سَهْل : إنّا لا نعرف طائرًا ألأمَ لؤمًا ولا أقذرَ طُعمةً ولا أظهرَ

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « أمكنه ضربه بالسلاح العصا وغيرها » .

(٢) الدلب : شجر الصنار وهو عريض الورق واسعه شبيه بورق الكرم ، مثل كف الانسان ، ولا نور له ولا ثمر .

(٣) زيادة عن مباهج الفكر .

(٤) يضرب هذا لطلب المستحيل ، فيقال : « أعز من الأبلق العقوق » ، وذلك أن الأبلق من صفات الذكور ، والعقوق : الحامل ، والذكر لا يكون حاملا . وكذلك يضرب المثل ببيض الأنوق لما لا يظفر به لصعوبة الوصول اليه . والأنوق : الرخم .

مُوقًا من الرَّخمة . فقال محمد بن سهل : وما حُمْقُها وهى تحضُن بيضَها، وتَحْمِى فراخَها، وتُحِبّ ولَدَها، ولا تمكّن إلّا زوجَها، وتقطع فى أوّل القَوَاطِع[1]، وتَرجِع فى أوّل الرّواجع ، ولا تطير فى التّحسير[2]، ولا تغتّر بالشّكير ، ولا تُرِبّ[3] بالوُكُور، ولا تسقط على الجَفِير ! .

قال الجاحظ : أمّا قوله : «تقطع فى أوّل القواطع وتَرجِع فى أوّل الرّواجع»، فإنّ الرُّماةَ وأصحابَ الحبائل والقُنّاص إنما يطلبون الطيرَ بعد أن يعلموا أنّ القواطعَ قد قطعت ، فبقَطْع الرخمة يستدلّون، فلا بدّ للرّخمة من أن تنجو سالمةً إذ كانت أوّل طالع عليهم . وأمّا قولُه : «ولا تطير فى التّحسير ولا تغترّ بالشّكير» ؛ فإنها تدعُ الطيرانَ أيامَ التحسير، فإذا نبَتَ الشّكيرُ وهو أوّل ما ينبت من الريش فإنها لا تنهض حتى يصير الشكيرُ قَصَبًا . وأما قوله : «ولا تُرِبّ بالوكور»، فإن الوكور لا تكون إلا فى عُرْض الجبل ، وهى لا ترضى إلا بأعالى الهِضاب ثم بمواضع الصُّدوع وخِلالِ الصخور حيث يَمتنِع على جميع الخَلْق المصيرُ إلى أفراخها ؛ ولذلك قال الكُمَيْت :

ولا تجعلونى فى رجائى وُدَّكم * كَرَاجٍ على بَيْض الأنُوق احتبالَها[4]

وأمّا قولُه : «ولا تسقط على الجَفِير»، فإنما يعنى جَعْبةَ السهام . يقول : إذا رأتْه علمتْ أنّ هناك سهامًا فلا تسقُط فى موضع تخاف فيه وقْعَ السّهام .

(١) قطعت الطير تقطع قطوعا : اذا جاءت من بلد الى بلد فى وقت حر أو برد ، فهى قواطع .

(٢) حسّرت الطير : سقط ريشها .

(٣) رب بالمكان وأرب إربابا : لزمه وأقام به .

(٤) احتبل الصيد : أخذه بالحبالة .

قال : والرَّخَمُ من الطير التى تتبع الجيوشَ والحُجّاجَ لِمَا يسقُط من كَسرى[1] الدّوابّ . وإذا فقدت المَيْتَةَ عمَدَت إلى العَظْم فحملَتْه وارتفعتْ به فى الهواء ثم تُلْقِيه فيقع على الصخور فينكسر فتأكل ما فيه . والله أعلم بالصواب .

ذكر ما قيل فى الحِدَأة

٥ قالوا : والحِدَأةُ تَبيض بيضتين، وربما باضت ثلاثًا وخرج منها ثلاثةُ أفرخ. وهى تحضُن عشرين يوما . ومن ألوانها الأسودُ والأَرْبَدُ . ويقال : إنها لا تَصيد وإنما تخطَف . وهى تَقِف فى الطيران، وليس ذلك لغيرها من الكواسر . وزعم ابنُ وحشيّة : أنّ العُقَاب والحِدَأة يَتبدّلان، فتصير الحِدَأةُ عُقابًا والعقابُ حِدأةً . وهذا أراه من الخُرافات . ويقال : إنّ الحِدَأة من جوارح سليمان عليه السلام وإنها ١٠ امتنعت من أن تُؤلَّف أو تُمْلَك لغيره، لأنها من المِلك الذى لا ينبغى لأحد من بعده. وهى لا تَختطِف إلا من يمين مَنْ تختطِف منه دون شماله . وليس فيها لحمٌ ، وإنما عظامٌ وعَصَبٌ وجِلْدٌ وريشٌ . ولم أقف على شعر فيها فأضعه .

ذكر ما قيل فى الغراب

قالوا : والغراب أصنافٌ، وهى "الغُدَافُ" و"الزّاغُ الأكحل" و"الزاغ (١١٢) ١٥ الأورق" . والغراب يَحْكى جميعَ ما يسمعه، وهو فى ذلك أعجبُ من البَيْغاء . ويقال : إنّ متولّى ثغر الإسكندريّة أهدى إلى السلطان الملك الظاهر رُكْنِ الدين بيبَرس غُرَابًا أبيض ؛ وهو غريبٌ نادر الوقوع . ويقال فى صوت الغراب : نَغَقَ يَنْغِق نَغِيقا، ونعَب يَنْعِب نَعِيبا . فإذا مرّت عليه السنون الكثيرة وغَلُظ صوتُه

(١) كسرى : جمع كسير .

قيل فيه: شَحَجَ يَشْحَجُ شَحِيجا . وفى طبعه الاستتارُ عند السِّفاد وهو يَسْفِد مُوَاجَهةً[1]، ولا يعود إلى الأُنْثى إذا سفِدها أبدا، وذلك لقلّة وفائه .

قال الجاحظ : واذا خرج الفرخُ حضَنته الأنثى دون الذكر، ويأتيها الذَّكَر بالطُّعم . قال : والغراب من لِئام الطير وليس من كِرامها ، ومن بُغَاثِها وليس من أحرارها، ومن ذوات المخالب المعقَّفَة والأظفار الجارحةِ، ومن ذوات المناقيرِ وليس من ذوات المَنَاسِر؛ وهو مع ذلك قوىُّ البـدن، لا يَتعاطى الصيدَ، وربمـا راوغَ العُصفورَ . ولا يصيد الجرادةَ إلا أن يلقاها فى سُدَّةٍ[2] من جراد . وهو إن أصاب جِيفةً نال منها وإلا مات هُزَالا . ويتقَمَّم كما تَتقَمَّم بهائمُ الطير وضِعافُها . وليس ببهيمة لمكان أكلِه الجِيَف؛ وليس بسبُعٍ لعجزه عن الصيد .

قال: وهو إمّا أن يكون حالكَ السواد شديدَ الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزِّنْجُ لأنهم شِرار الناس وأردأُ الخَلْق تركيبا ومِزاجًا، فلا تكون له معرفة ولا جمال؛ وإما أن يكون أبقعَ فيكون اختلافُ تركيبه وتضادُّ أعضائه دليلًا على فساد أمره . والبُقْعُ ألأمُ من السُّود وأضعف .

قال : ومن الغِربان غرابُ الليـل ، وهو الذى ترك أخلاقَ الغِربان وتشبّه بأخلاق البـوم . وقد رأيتُ أنا ببُلُنْياس[3] — وهى على ساحل البحر الرومىّ — غِربانًا كثيرة جدّا، فإذا كان وقتُ الفجر صاحت كلّها صِياحًا عظيما مُزْعِجًا؛ فهم يعرفون طلوعَ الفجر بصياحها .

(١) قال الجاحظ : «وناس يزعمون أن تسافدها على غير تسافد الطير وأنها تزاق وتلقح من هناك» . (راجع الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ٢١٤ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ أدب) .

(٢) السّدّة : القطعة من الجراد، تسدّ الأفق . يقال : جاءنا سدّ من جراد، وجراد سدّ .

(٣) بلنياس : مدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر .

قال : ومنها غراب البَيْن؛ وهو نوعان : أحدُهما غِربان صغار معروفة بالضَّعْف واللؤم . والآخرُ إنما لزِمه هذا الاسم لأنّ الغُرابَ إذا بان أهلُ الدار للنُّجْعة وقع فى مواضع بيوتهم يتلمّس ويَتقمَّم، فتشاءموا به وتَطيَّروا منه، إذ كان لا يُلِمّ بمنازلهم إلا إذا بانوا منها؛ فسمَّوْه غرابَ البين . ثم كَرِهوا إطلاقَ ذلك الاسم مخافةَ الزَّجْر والطِّيَرة، وعلموا أنه نافذُ البصر صافى العين، فسمَّوْه الأعورَ؛ من أسماء الأضداد .

قال : والغِدْفانُ جِنسٌ من الغِربان؛ وهى لئام جدًّا . ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقّوا من اسمه الغُرْبة والاغترابَ والغريبَ . والعرب يتعايَرُون بأكل لحوم الغِربان . وفى ذلك يقول وَعْلَةُ الجَرْمِىّ[1] :

فما بالعار ما عيَّرْتُمونا * شِواءُ النَّاهضاتِ[2] مع الخَبِيص

فما لحمُ الغرابِ لنا بزادٍ * ولا سَرَطانُ[3] أنهار البَرِيص[4]

والغربانُ من الأجناس التى تُقتَل فى الحِلّ والحَرَم، وسُمِّيت بالفسقِ .

قال الجاحظ : وبالبصرة من شأن الغِربان ضروبٌ من العجب، لو كان ذلك بمصر أو ببعض الشامات كان عندهم من أجود الطِّلَّسْمات؛ وذلك أنّ الغربان تَقْطَع إلينا فى الخريف فترى النخيلَ وبعضُها مصرومٌ وعلى كل نخلة عددٌ كثير من الغربان؛

---

(١) هو وعلة بن عبد الله الجرمى الشاعر، أحد فرسان قضاعة . (راجع الكلام عليه وعلى ابنه الحارث بن وعلة فى الأغانى ج ١٥ ص ١٣٩ طبع بولاق) .

(٢) الناهضة : أنثى فرخ العقاب . والخبيص : ضرب من الحلواء .

(٣) السرطان : حيوان من خلق الماء ذو فكين ومخالب وأظفار حداد، يمشى على جنب واحد، ويسمى عقرب الماء .

(٤) البريص : نهر دمشق . ذكر ذلك ياقوت، ثم ساق أبياتا لحسان بن ثابت وذكر الشطر الأخير من قول وعلة هذا، وقال : « وهذان الشعران يدلان على أن البريص اسم الغوطة بأجمعها، ألا تراه نسب الأنهار الى البريص » .

وليس فيها شيء يقرب نخلةً واحدةً من النخيل التى لم تُصْرَم ولو لم يبق عليها إلا عِذْق واحد . قال : فلو أنّ الله تعالى أذِن للغراب أن يسقُط على النخلة وعليها التمرُ لذهب جميعُه . فإذا صرَموا ما على النخلة تسابقَ الغِربانُ إلى ما سقَط من التمر فى جوف القُلْب[1] وأصول الكَرَب[2] تَستخرجه وتأكله .

ومما يُتمثّل به فى الغـراب : يقولون : « أحْذَرُ من غراب » . و « أصحُّ من غراب » . و « أصفى نظرًا من غراب » . و « أسودُ من غراب » .

ومما وُصِفَتْ به الغِربانُ — فمن ذلك قولُ عنترة :

حَرِقُ[3] الجَناح كأن لَحْيَيْ رأسِه * جَلَمـان بالأخبـار هَشٌّ مُولَعُ

وقال الطِّرِمَّاح بن حَكِيم :

وجرى بينهمُ غَـداةَ تَحمّلوا * من ذى الأثارِب[4] شاحِجٌ يتعبدُ

شَنِجُ[5] النَّسـا أَدْفَى[6] الجَناح كأنه * فى الدار إثْرَ الظاعنين مُقَيَّـدُ

(١١٣)

(١) قلب النخلة (مثلث القاف) : الخوص الذى يلى أعلاها . وفى كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٣ ص ١٤١) : « فى جوف الليف » .

(٢) الكرب : أصول السعف الغلاظ العراض التى تقطع معها .

(٣) كذا فى ديوان عنترة المخطوط بخط المرحوم الشنقيطى المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٣٧ أدب واللسان (مادة حرق) . وحرق الجناح : انحص ريشه ونسل . وفى الأصلين : « زرق الجناح » بالخاء المعجمة ، وهو تصحيف .

(٤) الأثارب : قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها . ويريد بوصفه بالتعبد أن الغراب اذا صاح أخذ يرفع رأسه ويخفضه ، شأن المتعبد .

(٥) الشنج : تقبض الجلد والأصابع وغيرهما . والنسا (بالفتح) : عرق من الورك الى الكعب .

(٦) كذا فى اللسان (مادة دفا) . وأدفى الجناح : طويله . وفى الأصلين : « أوفى الجناح » . وقد روى فى اللسان (مادتى حرق وشنج) : « شنج النسا حرق الجناح ... الخ » .

وقال أبو يوسف بن هارون الزّيادىّ الأندلسىّ :

أبا حاتم ما أنت حاتمُ طـيِّئٍ * وما أنتَ إلا حاتمُ الحَـدَثانِ
خطَبتَ ففرّقتَ الجميعَ بلُكْنةٍ * فما الظنُّ لو تُعْطَى بيانَ لِسانِ
كأنّهمُ من سُرعةِ البين أُودِعوا * جَناحَيْك وٱسْتُحْثِثْتَ[1] للطيرانِ

وقال أحمد بن فرج الجُبّائى :

أمّا الغرابُ فمؤذِنٌ بتَغرُّب * وَشْكًا[2] فصدِّقْ بالنَّوَى أو كذِّبِ
داجى القِناع كأن فى إظلامه * إظلامَ يوم تفـرّقٍ وتغـرّبِ

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «استحييت» ، وهو تصحيف .
(٢) وشك الفراق : سرعته .

البـاب الثـالث من القسم الخامس

من الفن الثالث فى بهائم الطير

ويَشتمل هذا الباب على ما قيل فى "الدُّرّاج" و"الحُبَارَى" و"الطاوُس" و"الدِّيك" و"الدَّجاج" و"الحَجَل" و"الكُرْكِىّ" و"الإوَزّ" و"البَطّ" و"النُّحام"(١) و"الأَنيس" و"القَاوَنْد" و"الخُطّاف" و"القِيق" و"الزُّرْزُور" و"السُّمَانَى" و"الهُدْهُد" و"العَقْعَق" و"العَصَافِير" .

قال الجاحظ : والبهيمةُ من الطير ما أكل الحبَّ خالصا .

* * *

فأمّا الدُّرّاج وماقيل فيـه — قال الجاحظ : إنه يبيض بين العُشْب، ولا سيما فيما طال منه وآلتوى .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا : لحمُ الدُّرّاج أفضلُ من الفواخِت وأعدلُ وألطف وأيبس . قال : وهو يزيد فى الدِّماغ والفهم، ويزيد فى المَنِىّ .

وقال أبو طالب المأمونىّ :

قد بعثنا بذاتِ حُسْـنٍ بَديعٍ * كَنَباتِ الرَّبيع بل هى أحسنْ
فى رِدَاءٍ من جُلَّنارٍ وآسٍ * وقميص من ياسَمِينٍ وسَوْسَـنْ

وقال آخر :

صدورٌ من الدُّرَّاج نُمِّق وَشْيُها * وُصِلْنَ بأطراف اللُّجَيْنِ السَّوادِجِ
وأحداقُ تِبْرٍ فى خدود شقائِقٍ * تَلألأُ حُسناً كاشتعال المَسارِجِ

(١) النحام (بالضم) : طائر أحمر على خلقة الإوز، واحدته نحامة .

وأذنابُ طَلْع فى ظهورِ مَلاعِقٍ * مُجزَّعة الأعطاف صُهْب الدَّمالِج
فإن فَخَـر الطاوُس يومًا بحسنه * فلاحُسْنَ إلّا دون حسن الدَّرارِج

* * *

وأمّا الحُبَارَى وما قيل فيه — وتسمِّيه أهلُ مصر الحُبْرُج[1] .

قال الجاحظ: وا لُحُبَارَى أشدُّ الطير طَيَرانًا وأبعدُها[2] سقطا وأطولها شوطا وأقلُّها عَرْجةً[3] ؛ وذلك أنه يُصاد بالبصرة فيُشَقّ عن حَوْصَلته بعد الذَّبْح فتُوجَد فيها الحبّة الخضراء لم تتغيّر ولم تَفسـد ؛ والحبّةُ الخضراءُ من شجـر البُطْم[4] ومنابتُها جبال الثغور الشاميّة . والحُبَارى له خِزانة بين دُبُرِه وأمعائه ، لا يزال فيها سَلْحٌ رقيق لَزِجٌ ؛ فمتى ألحّ عليه جارِحٌ ذَرَق عليه فتمعط[5] رِيشُه . ولذلك يقال : الحُبَارى سِلاحُه سُلاحُه .

قال الشاعر :

وهم تركوك أسْلَحَ من حبارَى * رأى صَقْرًا وأشرَدَ من نَعَـامِ

وهو يغتذِى بِسَلْحه إذا جاع . ويقال: الحُبَارى دجاجةُ البرّ تأكل كل ما دَبّ حتى الخنافس ؛ فلذلك يُعاف أكلُه .

ووصف أبو نُوَاس الحُبَارَيات فقال :

يَخْطِـرن فى بَرانِسٍ قُشُوبِ * من حِبَرٍ ظُوهِرْنَ بالتَّذْهيبِ
* فهنّ أمثالُ النّصارى الشِّيبِ *

(١) فى اللسان (مادة حبرج) : «الحبرج والحبارج : ذكر الحبارى» .
(٢) لعلها : «وأنفذها سقطا» . والسقط (بالكسر) : الجناح .
(٣) العرجة : المقام .
(٤) البطم : (بالضم وبضمتين) : شجر كالفستق جرما سبط الأوراق وله حب مفرطح فى عناقيد كالفلفل . ويسمى الأخضر منه بالحبة الخضراء .
(٥) تمعط : تساقط .

(١١٤) وأما الطاوُس وما قيل فيه — فهو ألوان منها الأخضرُ، والأرقطُ، والأبيضُ؛ ويوجد فى كلها الخُيَلاء . ولا تُعْرَف هذه الألوان إلا فى بلاد الزَّابج . وفى طبع الطاوُس الخيلاء والإعجاب بريشه . والأُنثى تبيض بعد أن يمضى من عمرها ثلاث سنين . ولا يحصُل التلوّنُ فى ريش الذّكر إلا بعد مضىّ هذه المدّة . وتبيض الأُنثى[1] مرتين فى السنة، فى كل مرّة أثنتى عشرة بيضة .

وقال الجاحظ : أوّلُ ما تبيضُ ثمانى بيضات، وتبيض أيضا بيضَ الرِّيح . ويَسْفَد الذّكرُ فى أوان الربيع . ويُلْقِى ريشَه فى فصل الخريف، كما يُلقِى الشجرُ ورقَه فيه؛ فإذا بدأت الأشجارُ تَكْتسِى الأوراقَ بدأ الطاوس فأكتسى ريشًا . والذكرُ كثير العَبَث بالأُنثى . والفرخُ يخرج من البيضة [كاسيا][2] كاسبا .

وزعم أرسطو أن الطاوس يُعمَّر خمسًا وعشرين سنة . وقال أبو الصَّلْت [امية بن عبد العزيز الأندلسىّ][3] يصفه :

أبدى لنا الطاوُسُ عن مَنْظَرٍ * لم تَرَ عينى مثلَه مَنْظَرا
متوَّجُ المَفْرِق إلّا يكن * كِسْرَى بنَ ساسان يكن قيصرا
فى كل عُضْو ذَهَبٌ مُفْرَغٌ * فى سُنْدُسٍ من ريشه أخضرا
نُزهةُ من أبصر، فى طَيِّها * عِبْرةُ من فكّر وٱستبصرا
تبارك الخالقُ فى كلِّ ما * أبدعه منه وما صَوَّرا

(١) فى حياة الحيوان للدميرى (ج٢ ص١٠٦ طبع بولاق) : «وتبيض الأنثى مرة واحدة فى السنة إثنتى عشرة بيضة وأقل وأكثر ولا تبيض متتابعا» .

(٢) الزيادة عن حياة الحيوان للدميرى عند الكلام على الطاوس .

(٣) الزيادة عن مباهج الفكر .

وقال فيه أيضا :

أهلًا به لمّا بدا فى مَشْيِهِ * يَخْتال فى حُلَلٍ من الخُيَلاءِ
كالرَّوضةِ الغنّاء أشرف فوقه * ذَنَبٌ لـه كالدَّوْحةِ الغَنّاءِ
ناديتُـه لو كان يفهم مَنْطِق * أو يستطيع إجابةً لِنِدائِى
يا رافعًا قوسَ السماء ولابِسًا * للحسن روضَ الحَزْن غِبَّ سماءِ
أيقنتُ أنك فى الطيور مملَّك * لمّا رأيتُك منه تحت لِوَاءِ

وقال أبو الفتح كُشَاجِم من قصيدة ذكر فيها طاوسًا :

[وأىّ عُذْر لمُقْلة بَعُـدَ الـطّـاوسُ عنها إن لم تَفِض بدَمِ] (١)
رُزِئْتُـه روضـةً تروق ولم * أَسْمَعْ بروْضٍ سَعى على قَدَمِ
مُتَوَّجًا خِلْعَـةً (٢) حباه بها * ذو الفِطَر المعجزاتِ والحِكَمِ
كأنه يَزْدَجِرْدُ مُنْتَصِبا * يَبْنى فيُعْلِى مآثرَ العجم
يُطْبِق أجفانَه ويحسُرُ عن * فَصَّيْن يُستصحبان (٣) فى الظُّلَمِ
أدَلّ بالحسن فاستذال له * ذيلًا من الكبر غير محتَشِم
ثم مشى مِشيةَ العروسِ فمن * مستظرِفٍ مُعْجَبٍ ومُبْتَسِم

* * *

وأما الدِّيك والدَّجاجُ وما قيـل فيهما — قالوا : والدَّجاجُ ثلاثة أصناف : "نَبَطِىّ" وهو ما يُتّخذ فى القُرى والبيوت ، "وهِنْدِىّ" وهو عظم

(١) زيادة عن ديوانه ومباهج الفكر .
(٢) كذا فى ديوانه . وفى مباهج الفكر : «حلية» . وفى الأصلين : «خلقة» بالقاف وهو تحريف .
(٣) لعله «يستصبحان» أى يستضاء بهما .

الخَلْق يُتخذ لحسن شكله، و"حَبَشِىّ" وهو نوعٌ بديع الحسن أرقط : نقطةٌ سوداء ونقطةٌ بيضاء، وله قُرطانِ أخضرانِ .

قالوا : والدَّجاجة تجمع البيضَ بعد السِّفاد فى أحدَ عَشَرَ يومًا؛ وهى تبيض فى السنة كلها ما خلا شهرين شتويين . والذى عرَّفناه نحن بديار مصر أنّ البيض لا ينقطع أبدًا فى الفصول الأربعة ، فيدلّ على أنها تبيض دائما . ومن الدَّجاج ما يبيض فى اليوم مرّتين. والبيضةُ تكون عند خروجها لينَةَ القِشر جدًا؛ فإذا أصابها الهواء يَبِستْ . وربما وُجِد فى البيضة مُحّانِ . وقال أرسطو : باضت دجاجةٌ فيما مضى ثمانىَ عَشْرةَ بيضةً لكل بيضة مُحّان ، ثم حضنتِ البيضَ فخرج من كل بيضة فرخان، أحدُهما أعظمُ جثةً من الآخر .

والدّجاجةُ تحضُن عشرين يوما . وخَلْق الفَرُّوج يتبيّن إذا مضت عليه ثلاثةُ أيام . ويُعرَف الذَّكَرُ من الأُنثى بأن يُعلَّق الفَرُّوجُ برأسه[1] فان تحرّك فذَكَرٌ، وإن سكَن فأُنْثى .

قال الجاحظ : والفرخُ يُخْلَق من البياض ويَغْتذِى بالصُّفرة ويتمّ خلقُه لعشرة أيام؛ والرأس وحدَه يكون أكبرَ من سائر جسده . والدّجاجةُ إذا هَرِمَتْ لم يكن لبيضها مُحّ، وإذا لم يكن له مُحّ لا يُخلق منه فَرُّوجٌ .

والدّجاجةُ تخشى ابنَ آوى دون سائر السِّباع؛ وذلك أنه يمرّ عليها فى القُرى ما يمرّ من السباع وغيرِها فلا تخشاه؛ فإذا مرّ عليها ابنُ آوى وهى على سطحٍ نالَها

(١) الذى فى حياة الحيوان للدميرى (ج ١ ص ٤١١ طبع بولاق) : «بأن يعلق بمنقاره فان تحرك فذكر الخ ...» .

من الفَزَع منه ما تُلقِي [به][(١)] نفسها إليــه . وهى إذا قابلتِ الدِّيكَ تشهَّتْــه[(٢)] ورامت السِّفادَ . والدَّجاجةُ تُوصف بقلّة النوم . والفَرُّوجُ يخرج من البيضة كاسِيًا كاسِبًا، سريعَ الحركةِ ، يُدْعَى فيُجيب ويَتبع من يُطْعِمه؛ ثم هو كلّما كَبِر ماق وحَمُقَ وزال كَيْسُه . وهو مشترَكُ الطبيعة : يأكل اللحمَ، ويحْسو الدَّمَ، ويصيد الذُّبابَ، وذلك من طباع الجوارح؛ ويَلْقُط الحبوبَ، ويأكل البقولَ، وذلك من طباع بهائم الطير. والله أعلم بالصواب .

ذكر ما جاء فى الدِّيكةِ من الأحاديث
وما عُدّ من فضائلها وعاداتها ومنافعها

جاء فى الحديث عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة : أنّ ديكًا صرَخ عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فسبَّه بعضُ أصحابه، فقال : "لا تَسُبَّه فإنّه يدعو إلى الصلاة". وعن زيد بن خالد الجُهَنِيّ : أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم نَهى عن سبِّ الدِّيك وقال: «إنّه يؤذِّن للصلاة». وعن سالم بن أبى الجَعْد يرفعه : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ ممّا خَلَق اللهُ لَدِيكًا عُرْفُه تحت العرش وبَرَاثِنُه فى الأرض السُّفْلَى وجَناحاه فى الهواء فإذا ذهب ثُلُثا الليل وبقى ثُلُثٌ ضرَب بجناحيه ثم قال سبِّحوا الملكَ القُدُّوس سُبُّوح قُدُّوس لا شريك له فعنــد ذلك تضرب الطيرُ بأجنحتهــا وتَصيح الدِّيكَة". وعن كعب : "إنّ لله دِيكا عُنُقُه تحت العرش وبراثنُه فى أسفل الأرض فإذا صاح صاحت الدِّيكَةُ يقول سبحان القُدُّوس الملك الرحمن لا إله غيره". ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وســلم أنه قال : "إنّ الدِّيك الأبيض صــديق

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) فى الأصلين : «تشهت به» .

وعدوٌّ عدوّ الله يحرُس دارَ صاحبه وسبعَ دور" . وكان النبيّ صلى الله عليـه وسلم يبيّته معه فى البيت . ورُوى أنّ أصحاب النبيّ صلى الله عليـه وسلم كانوا يسافرون بالدِّيكة .

قال الجاحظ : وزعم أصحابُ التَّجْرِبة أن كثيرًا ما يَرَوْن الرجلَ إذا ذَبَحَ الدّيكَ الأبيض الأفْرَق[1] إنه لا يزال يُنكَب فى أهله وماله . ٥

وقال فى كتاب الحيوان فى المناظرة بين الدِّيك والكلب : وفى الديك الشّجاعة والصبرُ والجَوَلانُ والثّقافة والتّسـديدُ ؛ وذلك أنه يقدِّر إيقاعَ صِيصِيتِه[2] بعين الديك الآخر أو مَذْبَحـه فلا يُخطئ . قال : ثم مَعْرِفتُه بالليـل وساعاتِه وارتفاقُ بنى آدم بمعرفتـه وصوتِه ، يتعرَّف آناءَ الليـل وعَدَدَ الساعات ومقاديرَ الأوقات ثم يقسِّط أصواتَه على ذلك تقسيطًا موزونا لا يُغادر منـه شيئًا . فليعـلم الحكماءُ أنه فوق ١٠ الإسْطرْلاب وفوق مقدار الجَزْر[3] والمَدّ على مَنَازِل القمر ، حتى كأن طَبْعَه فَلَكٌ [على حِدّته][4] .

ومن عجيب أحوال الدِّيكة أنها إذا كانت فى مكان ثم دخل عليها ديكٌ غريب سَفَدَتْه جميعا . والدِّيك يُضرب به المثل فى السخاء ، وذلك أنه ينقُر الحبَّ ويحمله بطرَفَىْ مِنقاره إلى الدّجاج ، فإذا ظَفِر بشىء من الحبّ والدَّجاجُ غَيبٌ دعاهنّ إليـه ١٥ وقنِـع منه بدون حاجته توفيرًا[5] عليهنّ . قالوا : والدِّيكةُ تعظُم بدَبِيـل[6] السِّنْد حتى تكون مثلَ النّعام .

---

(١) الأفرق : ذو العرفين لافتراق ما بينهما ؛ وهو أيضا الأبيض . (٢) الصيصية والصيصة : شوكة الديك . (٣) كذا فى الحيوان للجاحظ (ج ٢ ص ٨٨) . وفى أ : « الزجر » وفى ب : « الرجز » ، وكلاهما تحريف . (٤) الزيادة عن مباهج الفكر والحيوان للجاحظ . ٢٠
(٥) فى الأصلين : « توفرا » . (٦) دبيل : مدينة من مدن السند .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا : إنّ مَرَقَة الديوك العُتق لها خاصّيّات، سنذكرها . قال : والوَجْهُ الذى ذكره جالِينُوس فى طبخها أن تُذْبَح بعد عَلْفِها وبعد إعدائها إلى أن تَنْبَتّ[1] فتسقُط فتُذبح، ثم يُخرَج ما فى بطنها ويُملأ بطنُها مِلْحًا ويُخاط ويُطبخ بعشرين قسطًا ماءً حتى ينتهى إلى الثُّلُث ويُشرب . قال : ثم يُزاد فى ذلك ماذكره . قال : وأجودُ الدِّيَكة ما لم يَصْقَع[2] بعدُ . وأجودُ الدّجاج ما لم يَبِض، والعتيقُ ردىءٌ . قال : ولحمُ الفراريج أحرُّ من لحم الدّجاج الكبير . وخَصِىُّ الدُّيوك محمودٌ سريعُ الهَضْم . ومرقةُ الدّيوك المذكورة تُوافِق الرِّعشةَ ووجعَ المفاصل . ولحمُ الدّجاج الفتىّ يزيد فى العقل، ودماغُها يمنع النَّزْفَ الرُّعافىّ العارضَ من حُجُب الدِّماغ . ومرقةُ الدُّيوك المذكورة نافعةٌ من الرَّبْو . ولحمُ الدّجاج يُصفِّى الصوت . ومرقةُ الدِّيك الهَرِم المعمولة بالقُرْطُم والشِّبِت تنفع من جميع ذلك . ومرقةُ الديوك نافعة لوجع المَعِدة من الرِّيح، وتنفع القُولَنْج جدًّا . ولحمُ الدّجاج الفتىّ يزيد فى المَنِىّ، والمرقةُ المذكورة [مع البسفايج][3] تُسهِّل السَّوْداءَ، ومع القرطم تسهِّل البَلْغم . وقد تُطبخ بالأدوية القابِضة للسَّحج[4]، وباللّبن لقروح المثانة . والمرقةُ نافعةٌ من الحُمَّيات المزمنة . قال : والدَّجاجُ المشقوقُ عن قلبه أو الديك يوضع على نَهْش الهوامّ ويُبدَّل كلَّ ساعة فيمنع من فُشُوِّ السمّ . وفى السموم المشروبة يُتحَسّى طبيخُه[5] بالشِّبِت والملح ويُتَقيّأ .

(١) تنبت : تنقطع إعياء وتعبا . (٢) صقع الديك : صاح .

(٣) الزيادة عن كتاب القانون . والبسفايج : نبات ينبت بين الصخور التى عليها الخضرة وفى سوق شجر البلوط العتيقة (انظر مفردات ابن البيطار ج ١ ص ٩٢ طبع بولاق) .

(٤) السحج : قشر الجلد من شىء يصيبه .

(٥) كذا فى كتاب القانون . وفى الأصلين : «يحسى طبيعة»، وهو تحريف .

ومن الحكايات التى تُعَـدّ من خرافات العـرب ما حكاه بعضُهم عن الرِّياشىّ[(١)] قال : كنّا عند الأصمعىّ ، فوقف عليه أعرابىّ فقال : أنت الأصمعى؟ قال: نعم ؛ قال : أنت أعلم أهل الحَضَر بكلام العرب ؟ قال : يزعمون؛ قال : ما معـنى قول أميّةَ بن أبى الصلْت :

وما ذاك إلّا الدِّيكُ شارب خمرةٍ * نديم غراب لا يَمَـلّ الحَوَانيـا[(٢)] ٥

فلما آستقلّ الصبح نادى بصوته * أَلَا يا غرابُ هل رَدَدتَ ردائيا

فقـال الأصمعىّ : إنّ العـرب كانت تزعُم أنّ الدِّيك كان ذا جَناحٍ يطير به فى الجوّ وأنّ الغراب كان ذا جَناح كجناح الدِّيك لا يطير به وأنهما تنادَما ليـلةً فى حانة يشربانِ فنفِد شرابُهما؛ فقال الغراب للدِّيك : لو أعَرْتَنِى جناحَك لأتيتُك بشرابٍ؛ فأعاره جناحَه ، فطار ولم يرجِع إليـه ؛ فزعموا أنّ الديك إنمـا يصيح عنـد الفجر ١٠ آستدعاءً لجناحه من الغراب ؛ فضحك الأعرابىُّ وقال : ما أنت إلا شـيطان . وهذه الحكاية ذكرها الجاحظُ فى كتاب الحيوان بنحو ما حُكِى عن الأصمعىّ ، وساق أبياتَ أُميّة بن أبى الصَّلْت، وهى :

ولا غَرْوَ إلّا الديكُ مُدْمِن خمـرةٍ * نديم غرابٍ لا يَمَـلّ الحوانيـا[(٣)]

ومرهنـــه عند الغـــراب جبينه * فأوفيت مرهوناً وخان مسابيـا[(٤)] ١٥

أدلّ عـــلىّ الدِّيكُ أنّى كما تَرى * فأقبِـلْ على شأنى وهـاكَ رِدَائيـا

---

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « الناشى » ، وهو تحريف .

(٢) الحوانى : الحانات .

(٣) لم يرد هذا البيت فى كتاب الحيوان للجاحظ .

(٤) كذا ورد هذا البيت فى الأصلين ، وهو غير ظاهر المعنى . ولم نعثر على هذه القصيدة فى مصدر آخر، غير كتاب الحيوان ، نستأنس به فى تصحيحها . ٢٠

أمنتك لا تَلْبَث من الدهر ساعةً * ولا نصفَها حتى تؤوبَ مآبِيا (١)
ولا تُدْرِكَنْك الشمسُ عند طلوعها * فأَغْلَق فيهم أو يطول ثَوائيا (٢)
فردّ الغرابُ والرداءُ يحوزه * إلى الديك وعدًا كاذبًا وأمانيا
بأيّة ذنبٍ أو بأيّة حُجّةٍ * أدَعْك فلا تدعو عليّ ولا لِيا (٣)
٥ فإنى نذرتُ حِجّةً لن أعوقها * فلا تدعُونّى دعوةً من ورائيا
تطيّرتُ منها والدّعاءُ يعوقنى * وأزمعتُ حَجًّا أن أطيرَ أماميا
فلا تَيْأَسَنْ إنى مع الصبح باكرًا * أُوافِى غدًا نحوَ الحجيج الغَوَاديا
كحب آمرئٍ فاكهته قبل حجّتى * وآثرت عمدًا شأنه قبل شانيا
هنالك ظنّ الدِّيك أن زال زَوْله * وطال عليه الليل أَنْ لا مُفَادِيا
١٠ فلما أضاء الصبحُ طرَّب صرخةً * أَلَا يا غراب هل سمعتَ ندائيا
على وُدّه لو كان ثَمَّ يجيبُه * وكان له نَدْمانَ صِدْقٍ مُوَاتيا
وأمسى الغرابُ يضرب الأرضَ كلَّها * عتيقًا (٤) وأضحى الدّيك فى القِدّ عانيا
فذلك مما أسْهَتِ الخمرُ لُبَّه * ونادَم نَدْمانًا من الطير عاديا (٥)

ومن الحكايات التى لا بأس بإيرادها فى هذا الموضع ماحكاه الجاحظُ قال:

١٥ قال أبوالحسن: حدّثنى أعرابىٌّ كان نزل البصرةَ قال: قدِم علىّ أعرابىٌّ من البادية فأنزلتُه، وكان عندى دَجاجٌ كثير ولى آمرأةٌ وآبنان وآبنتان منها، فقلتُ لآمرأتى: بادِرِى وآشوِى لنا دجاجةً وقدِّميها إلينا نتغدّها. فلما حضر الغَداءُ جلسنا جميعا أنا وآمرأتى

(١) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ. وفى الأصلين: «أمنيك».
(٢) يقال: غلق الرهن يغلق اذا لم يفك وآستحقه المرتهن.
٢٠ (٣) كذا ورد هذا البيت فى كتاب الحيوان مقدما على الذى يليه.
(٤) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ. وفى الأصلين: «عقيقا» وهو تحريف.
(٥) كذا فى أ وكتاب الحيوان. وفى ب: «غاويا».

وأبناى وأبناى والأعرابىُّ . قال: فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا له: اقسمها بيننا، نريد بذلك أن نَضْحك منه؛ فقال: لا أُحْسِن القسمةَ، فإن رَضِيتم بقسمتى قسمتُها بينكم؛ قلنا: فإنّا نَرْضى. فأخذ رأسَ الدجاجةِ فقطَعه وناوَلَنيه وقال: الرأسُ للرئيس، وقطَعَ الجناحين وقال: الجناحان للابنَيْن، ثم قطع الساقين وقال: الساقان للابنتَيْن، ثم قطع الزِّمكّى[1] وقال: العَجُز للعجوز، وقال: الزَّوْر[2] للزائر، قال: فأخذ الدجاجةَ بأسْرها وسخِر بنا. قال: فلمّا كان من الغَدِ قلت لامرأتى: أشْوِى لنا خمسَ دجاجات، فلما حضر الغَداءُ قلنا له: أقسِم بيننا؛ فقال: إنى أظن أنكم وجَدْتم فى أنفسكم؛ قلنا: لم نَجِدْ فأقسِم بيننا؛ قال: أقسِمُ شَفْعًا أو وِتْرًا؟ قلنا: أقسم وِترًا؛ قال: أنت وامرأتُك ودجاجة ثلاثة، ثم رمى إلينا بدجاجة؛ ثم قال: وأبنـاك ودجاجة ثلاثة، ورمى إليهما بدَجاجة؛ ثم قال: وأبناك ودجاجة ثلاثة، ورمى إليهما بدجاجة؛ ثم قال: وأنا ودجاجتان ثلاثة وأخذ دجاجتـيْن وسخِر بنا. فرآنا ننظر إلى دجاجتيـه فقال: ما تنظرون! لعلكم كَرِهتم قِسْـمتى! الوِترُ لا يجىء إلّا هكذا، فهل لكم فى قسـمة الشَّفْع؟ قلنا نعم؛ فضمّهنّ[3] إليه ثم قال: أنتَ وأبناك ودجاجة أربعة، ورمى إلينا بدجاجة؛ ثم قال: والعجـوزُ وابنتاها ودجاجة أربعـة، ورمى إليهنّ بدجاجةٍ؛ ثم قال: وأنا وثلاثُ دَجاجات أربعة وضمّ إليه الثلاث، ورفع يَديه إلى السماء فقال: اللهـمّ لك الحمـد، أنت فهّمْتَنيها. هكذا ساقها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وحكى غيره هـذه الحكاية عن الأصمعىّ وفيها زيادةٌ، قال: حكى الأصمعىّ: بينا

(١) الزمكى: أصل ذنب الطائر.

(٢) الزور: وسط الصدر، وقيل: ما ارتفع منه إلى الكتفين، أو ملتقى أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت.

(٣) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ. وفى الأصلين: «فضمنى اليه»، وهو تحريف.

أنا فى البادية إذا أنا بأعرابىّ على ناقةٍ وهى ترقُص به فى الآل ؛ فلمّا دنا منّى سلّم علىّ ، فسلّمتُ عليه وقلت : يا أخا العرب

قوم بخَفّان[1] عَهِدناهُمُ * سقاهم الله من النَّوْ

ما النّو ؟ فقال :

٥ نَوْءُ السِّماكَيْن وريَّاهُما * نُورٌ تلالَا بعد إيماضه ضَوْ[2]

فقلت : ما الضَّو ياأخا العرب؟ فقال :

ضوءٌ تلالا فى دُجَى ليلةٍ * مُقْمِرةٍ مُسْفِرة لَوْ

فقلت : لو إيش يا أخا العرب؟ فقال :

لو مرّ فيها سائرٌ راكبٌ * على نجيب الأرض مُنْطَوْ

١٠ فقلت : منطو إيش يا أخا العرب ؟ فقال :

مُنْطَوى الكَشْح هضيمُ الحَشَى * كالبازِ يَنْقَضّ من الجَوْ

فقلت : ما الجوّ يا أخا العرب ؟ فقال :

جَوّ السما والريحُ تعلو به * فاشتمّ ريحَ الأرض فأعلَوْ

فقلت : فأعلو إيش يا أخا العرب؟ فقال :

١٥ فأعلو لِما قد فات من صيده * لا بدّ أن تُلْقى ويُلْقَوْا

فقلت : ماذا يُلْقَوْا يا أخا العرب؟ فقال :

يُلْقَوْا بأسيافٍ يَمانِيَةٍ * وعن قليلٍ سوف يَفْنَوْا

---

(١) خفان : موضع قرب الكوفة وهو مأسدة .

(٢) كذا فى الأصلين ولعله : * نور تلا إيماضه ضو * .

فقلت : ما يَفْنَوا ياأخا العرب؟ فقال :

إن كنتَ تُنكر ما قلتُـه * فأنتَ عنـــدى رجلٌ بَوْ[1]

فقلت : وما البوّ ياأخا العرب؟ فقال :

البَـــوُّ من يُفْقَد عن أمّه * يا أحمق النـاس فَرُحْ أوْ

قلت : أو إيش؟ فقال :

تَنْدَفِعُ الكفُّ بصَفْع القفا * تَسـمع ما بينهما قَـــوْ

فقلت : يا أخا العرب، هل لك فى الضيافة ؟ فقـال : لا يأبى الكرامةَ إلّا لئيم؛ فأتيت به منزلى . ثم ساق الحكايةَ بنحو ما تقـدّم، إلا أنه قال : فأتيتُـه فى اليوم الثانى بثلاث دَجاجات،وقلت: نحن كما علمتَ، اقْسِمها بيننا أزواجًا؛ فقال : أنت وأبناك ودجاجة زوج، وآمرأتُك وابنتـاها ودجاجة زوج، وأنا ودجاجة زوج . وساق خبر الخمسة فى اليوم الثالث كما تقدّم .

ذكر شىء مما وصفت به الشعراءُ البيضةَ والدَّجاجة والدِّيك

فمن ذلك ما وصفوا به البيضةَ . قال أبو الفرج الأصبهانىّ من أبيات :

فيهـا بدائعُ صَنْعةٍ ولطائفٌ * أُلِّفْنَ بالتَّقـدير والتلفيقِ

خِلْطان مائيّانِ ما آختلطا على * شكل ومختلف المِـزاج رقيقِ

فبياضُها وَرِقٌ وزِئْبَـق مُحِّهـا * فى حُقّ عاج بُطِّنَتْ بِدَبِيـقِ[2]

(١) لعله : « تستنكر » .

(٢) الدبيق : نسبة الى دبيق وهى بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر، و إليها تنسب الثياب الدبيقية . (عن معجم البلدان لياقوت) .

(١١٨)

وقال شاعر :

وصفراءَ فى بيضاءَ رَقّتْ غِلالةٌ * لها وصفًا ما فوقها من ثيابها

جمادٌ ولكن بعد عشرين ليلةً[1] * ترى نفسَها معمورةً من خرابها

وقال كُشَاجِم من أبيات يذكر فيها جُونةً[2] أُهْدِيت إليه وفيها بيض مسلوقٌ مصبوغٌ أحمر :

وجاءنا فيها ببيض أحمرِ * كأنه العقيقُ مالم يُقْشَرِ

حتى إذا قدّمه مُقَشَّرا * أبرز من تحت عقيقٍ دُرَرَا

حتى إذا ما قطَّع البيضَ فِلَقْ * رأيتَ منه ذهبًا تحت وَرِقْ

يَخَال أنّ الشطرَ منه مَنْ لَمَحْ * أعاره تلوينَه قَوْسُ قُزَحْ

ومما قيل فى الدّجاجة والدّيك

قال الشاعر :

غدوتُ بشَرْبةٍ من ذَاتِ عِرْقٍ[3] * أبا الدَّهْناء من حَلَبِ العَصِيرِ

وأخرى بالعَقَنْقَلِ[4] ثم رُحْنا * نرى العصفورَ أعظمَ من بعيرِ

كأن الديك ديكَ بنى نُمَيْرٍ * أميرُ المؤمنين على السَّرير

كأن دَجاجهم فى الدار رُقْطًا * وفودُ الروم فى قُمُص الحريرِ

(١) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين : «حجة»، وهو تحريف .

(٢) الجونة (بالضم، وربما همز) : سليلة مغشاة بالأدم تكون عند العطارين .

(٣) ذات عرق : مهلّ أهل العراق وهو الحدّ بين نجد وتهامة، وقيل : هو جبل بطريق مكة .

(٤) العقنقل : كثيب ببدر .

فبِتّ أرى الكواكبَ دانياتٍ * يَنَلْنَ أناملَ الرجل القصيرِ
أُدافِعهـنّ بالكفّيْن عنّى * وأمسح جانب القمرِ المنـيرِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرىّ من أبيات يصف ديكًا :

مُغرِّد الليـــل ما يألُوك تغـريدا * ملّ الكَرَى فهو يدعو الصبح مَجْهودا
لمـا تطرَّب هَزّ العِطفَ من طَرَبٍ * ومدّ للصوت لمّـا مَدّه الجِيـدا ٥
كلابِسٍ مُطْرَفًا مُرْخٍ جوانبَـه (١) * تُضاحِك البيضُ من أطرافه السُّودا
حالِى المُقَـلَّد لو قِيست قِلادتُه * بالوَرْد قصّر عنها الوَرْدُ توريدا
رَانٍ بفَصَّىْ عَقيـقٍ يُدركانِ له * من حِدّةٍ فيهما ما ليس مَحْدودا
تقول هـذا عقيـدُ (٢) الملك منتَسِبا * فى آل كسرى عليـه التاجُ معقودا
أو فارسٌ شَدّ مِهْمازَيْه حين رأى * لـواءَ قائده للحـرب معقودا ١٠

وقال أبو هلال العسكرىّ :

متـوَّجٌ بعقـيق * مُقَـرَّطٌ بِلُجَـيْن
عليـه قُـرْطَقُ وَشْيٍ * مشـمّر الكُمَّيْنِ (٣)
قد زَيّن النّحرَ منه * ثِنْتـانِ كالوردتيْن
حتى إذا الصبحُ يبـدو * مطـرَّز الطُّـرَّتيْن ١٥
دعا فأسمَـع منّـا * من كان ذا أُذُنَيْن
يُزْهَى بطـوقٍ وتاجٍ * كأنه ذو رُعَيْن (٤)

(١) فى مباهج الفكر : « ذؤابته » .
(٢) العقيد : الحليف .
(٣) كذا فى ديوان المعانى ، وفى الأصلين « الكمين » .
(٤) ذورعين : من ألقاب ملوك اليمن . ٢٠

وقال الأسعد بن بِلِّيطة[(١)] :

وقام لنا يَنْعَى الدُّجَى ذو شَقِيقةٍ[(٢)] * يُدير لنا من بين أجفانه سَقْطا[(٣)]

إذا صاح أصغى سمعُه لِنِدَائِه * وبادَرَ ضَرْبًا من قوادمه الإِبْطَا

ومهما آطمأنت نفسُه قام صارخًا * على خيزران[(٤)] نِيطَ من ظُفره خَرْطا

كأنّ أَنُو شِرْوانَ أعلاه تاجَه * وناطت عليه كفُّ مارية[(٥)] القُرْطا

[سَبَى حُلَّةَ الطاوس[(٦)] حسنَ لباسها * ولم يَكْفِه حتى سبَى المِشْيةَ البَطَّا]

وقال أبو عبد الله المالكىّ :

رَعَى اللهُ ذا صوتٍ أنِسْنا بصوته * وقد بان فى وجه الظلامِ شُحُوبُ

دعا من بعيدٍ صاحبًا فأجابه * يُخَبِّرُنا أنّ الصباحَ قريبُ

وقال آبن المعتزّ :

بَشِّر بالصبح هاتِفٌ هتفا * صاح[(٧)] من آللّيل بعد ما آنتصفَا

---

(١) ضبطه ابن خلكان بالعبارة فقال : بكسر الباء الموحدة واللام المشدّدة وسكون الياء المثناة وفتح الطاء المهملة (انظر ج ٢ ص ٥٣ فى ترجمة المعتصم بن صمادح) .

(٢) كذا فى نفح الطيب ، والشقيقة واحدة الشقائق : نبات على نوعين كل واحد منهما أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كثيرة غير أن زهر الواحد منهما أرق من الآخر . ويريد بالشقيقة هنا عرف الديك . وفى الأصلين : « ... الدجى وشقيقه » ، وهو تحريف . (٣) سقط الزند : ما يقع من النار عند القدح . (٤) كذا فى خريدة القصر للعماد الأصفهانى (النسخة الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٥٥ أدب بالمجلد الأخير ص ٢١٦) . وفى الأصلين : «خرزات» ، وهو تحريف .

(٥) مارية : علم آمرأة قيل كان فى قرطها درتان كبيضتى حمامة لم ير مثلهما قط ، فأهدتهما الى الكعبة . وقيل كان فى قرطيها مائتا دينار . وفى المثل : «خذه ولو بقرطى مارية» . يضرب ذلك مثلا فى الشىء الثمين يؤمر بأخذه على كل حال . (٦) زيادة عن الخريدة ونفح الطيب ومطمح الأنفس للفتح آبن خاقان . (٧) فى الأصلين : «ماج» وهو تحريف . ورواية البيت فى ديوانه :

بشر بالصبح طائر هتفا * مستوفيا للجدار مشترفا

مُذَكِّرٌ بالصَّبُوح صاح لنا * كأنّه فوقَ مِنْبرٍ وقَفَا
صَفَّقَ إمّا ارتِيَاحةً لِسَنَا الْـ * ـفَجْرِ وإمّا على الدُّجى أسَفَا

وقال أيضا فيه :

وقام فوقَ الجِدار مُشْتَرِفٌ * كمثل طِرْفٍ علاه أُسْوارُ (١)
رافعُ رأسٍ طوراً وخافِضُه * كأنما العُرْف منه مِنْشارُ

وقال السَّرِىّ الرِّفّاء :

كشف الصباحُ قِناعَه فتألَّقا * وسطَا على اللّيل البهيم وأبرقا (٢)
وعلَا فلاحَ على الجِدار مُوَشَّحٌ * بالوَشْيِ تُوِّج بالعَقيق وطُوِّقا
مُرْخٍ فضولَ التاج من لَبّاتِه * ومُشَمِّرٌ وَشْياً عليه مُنَمَّقا

وقال أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ يرثى ديكًا ويصفه :

أُبَنِّىَّ منزلنا ونَشْوَ مَحَلِّنا * وغَذِىَّ أيدينا نِدَاءَ مَشُوقِ
لَهْفِى عليك أبا النَّذِير (٣) لَوَ انّه * دفَع المنايا عنك لهفُ شَفِيقِ
وعلى شمائلك اللّواتى ما نَمَتْ * حتى ذَوَتْ من بعد حسنِ سُمُوقِ
لما بَقِعْتَ (٤) وصِرْتَ عِلْقَ مَضِنَّةٍ (٥) * ونَشأْتَ نَشْوَ المُقْبِلِ المَوْمُوقِ
وتكاملَتْ جُمَلُ الجَمال بأسرها * لك من جَليلٍ خالصٍ ودَقيقِ

(١) الأسوار (بالضم وبالكسر) : قائد الفرس، والثابت على ظهر الفرس، والرامى بالنبال .

(٢) الذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤١٦ أدب : «فأشرقا» .

(٣) أبو النذير وأبو المنذر : كنية الديك .

(٤) كذا فى الأغانى (فى ترجمة أبى الفرج الأصفهانى التى ذكرت فى مقدمة الجزء الأول طبع دار الكتب المصرية) . وبقع الطير: اختلف لونه فهو أبقع . وفى الأصلين : «ينعت» . وفى مباهج الفكر: «يفعت» .

(٥) يقال للشىء النفيس الذى يضن به ويحرص عليه : علق مضنة (بفتح الضاد وكسرها) .

وكُسِيتَ[1] كالطاوُس رِيشًا لامعًا * مُتلألِئًا ذا رَوْنَقٍ وبَرِيقِ
من صُفْرةٍ مَعْ خُضْرةٍ فى حُمْرةٍ * تَخْيِيلُها[2] يخفَى على التَّحقيقِ
عَرَضٌ يَجِلّ عن القياس وجوهرٌ * لُطفتْ معانيه عن التَّدقيقِ
وكأنّ سالِفَتَيْك تِبْرٌ سائلٌ * وعلى المَفَارِقِ منك تاج عَقِيقِ
٥ وكأنّ مَجرى الصوت منك، إذا نَبَتْ * وجَفَتْ[3] عن الأسماع بُحٌّ حُلُوقِ،
نايٌ رقيقٌ[4] ناعمٌ قُرِنتْ به * نَغَمٌ مؤلَّفةٌ من المُوسِيقِ
تَزْقُو وتَصْفِق بالجَنَاح كُمُنْتَشٍ * وصلت يداه الصوتَ بالتَّصفيقِ
وخطَرتَ[5] مُلتحفًا بمِرْطٍ حَبَّرتْ * فيه بديعَ الوَشى كفُّ أنيقِ
كالجُلَّنَارَة أو ضِياءِ[6] عقيقةٍ * أو لَمْعِ نارٍ أو وميضِ بُروقِ
١٠ أو قهوةٍ تَختالُ فى بِلَّوْرَةٍ * بتألُّقِ اللَّمَانِ والتَّزْوِيقِ[7]
وكأنما الجادِىُّ جادَ بصِبْغِهِ * لك أو غدَوْتَ مُضمَّخًا بخَلُوقِ (١٢٠)

وقال شاعر أندَلُسِىّ :

وكأنْ نَفى النومَ من عين فانٍ * بديعُ الملاحةِ حلوُ المعانى
بأجفان عينَيْه ياقوتَتانِ * كأنّ وَميضهما جَمْرتانِ

---

١٥ (١) كذا فى الأغانى . وفى الأصلين : « ولبست » . (٢) رواية الأغانى :

من حمرة فى صفرة فى خضرة * تخييلها يغنى عن التحقيق

(٣) فى الأصلين : « اذا خفت ونبا عن الأسماع فح حلوق » وما أثبتناه عن الأغانى . وبح : جمع أبح من البحة وهى خشونة وغلظ فى الصوت . (٤) فى الأغانى : « ناى دقيق » .

(٥) فى الأصلين : « وخطوت » . والتصويب عن الأغانى .

٢٠ (٦) فى الأغانى : « أو صفاء عقيقة » .

(٧) فى الأغانى : « بتألق الترويق والتصفيق » . والترويق : التصفية . والتصفيق : تحويل الشراب من إناء إلى إناء ليصفو .

على رأســه التـاجُ مُستشرِفًا * كتاج ابن هُرْمُزَ فى المِهرَجَانِ
وقُرطانِ من جوهرٍ أحْمَـرٍ * يَزِينـانه زَيْنَ قُرْطِ الحَصَانِ
له عُنُـقٌ حولهـا رَوْنَـقٌ * كما حوتِ الخمرَ إحدى القَنَانِى
ودار بُرَائِـلُه(١) حـولَهـا * لهـا ثوبُ شَعْرٍ من الزعفران
ودارتْ بجُؤْجِئِـه حُـلَّةٌ * تَروقُ كما راقـكَ الخُسْرَوَانِى
وقام له ذَنَبٌ مُعْجِبٌ * كبَاقةِ زَهْرٍ بدَتْ من بَنَـانِ
وقاس جناحًا عـلى سـاقه * كما قِيس سِـتْرٌ على خَيْزُرانِ
وصفّق تَصـفيقَ مسـتَهتِرٍ * بُحْمَرَّةٍ من بَنَـاتِ الدِّنانِ
وغرّد تغـريدَ ذى لَوْعـةٍ * يبوحُ بأشـواقه للغَـوانِى

وقال أبو علىّ بن رَشِيق حيث مزّق عنـه جِلبابَ المـادح ، وتركه من شمل الذمّ فى الرأى الفاضح :

قام بلا عقـلٍ ولا دينِ * يَخلِطُ تصـفيقًا بتـأذِينِ
فنبِّـه الأحبابَ من نومهم * ليخـرُجوا من غير ما حِينِ
بصرخةٍ تبعثُ موتَى الكَرَى(٢) * قـد أذكرت نَفْخَ سَرَافِينِ
كأنّهـا فى حَلْقـه غُصَّـةٌ * أغصَّـه الله بسكّينِ

(١) فى الأصلين : «دارت» . والبرائل : ما استدار من ريش الطائر حول عنقه .

(٢) هذه التسمية عبرية الأصل ، وكانوا يقصدون بها عامة الملائكة . مشتقة من (سرف) بمعنى (أحرق) وهى تسمية مجازية ، لاعتقاد اليهود أن الملائكة مخلوقون من نار . وسرافين : جمع سراف وهو الملك . وقد جاءت هـذه التسمية فى سفر يوشع (إيشعيا) فى الفصل السادس من كتب العهد القديم . والظاهر أن العرب من المسلمين نقلوا هـذه التسمية فقالوا : (إسرافيل) أو (إسرافين) على أنه مفرد وهو الملك الخاص بالنفخ فى الصور .

❖

وأما الحَجَلُ وما قيل فيه — والحَجَلُ طائرٌ يسمّى: "دَجاجَ البَرّ" وهو صنفان: نَجْدِىّ، وتِهامِىّ. فالنجدىّ أخضر أحمرُ الرجلين. والتِّهامىّ فيه بياضٌ وخضرةٌ. وسمّى الذكر "يعقوب"، والفرخ الذّكر "السُّلَك"، والأنثى "السُّلَكة".

٥ وهو من الطير الذى يخرج فرخُه كاسيًا كاسبًا. ويقال: إنّ الحجلةَ إذا لم تَلْقَح تمرّغت فى التراب ورشّته على أصول ريشها فتلقح. ويقال: إنها تبيض بسَماعِ صوتِ الذّكر وبريحٍ تَهُبّ من ناحيته.

قال أبو عثمان الجاحظ: وإذا باضت الحَجَلَةُ ميّز الذكرُ الذكورَ منها فيحضُنُها، وميّزت الأُنثى الإناثَ فتحضُنُها، وكذلك هما فى التربيـة. قال: وكلّ واحد منهما

١٠ يعيش خمسًا وعشرين سنةً. ولا تَلْقَح الأنثى بالبيض، ولا يُلْقِح الذكر إلّا بعد مُضِىّ ثلاث سنين. والذكرُ شديد الغَيْرةِ على الأُنثى. فإذا آجتمع ذكرانِ آقتتلا، فأيُّهما غلَب ذَلّ له الآخرُ، وذهبت الأنثى مع الغالب. والأنثى إذا أُصيب بيضُها قصدتْ عُشَّ أُخرى وغلَبتها على بيضها. وقد وصف أبو علىّ بن رَشِيق القَيْرَاوانىّ الحَجَل فقال:

١٥ ما أغْـرَبَتْ فى زِيِّهـا[1] * إلّا يَعَـاقِيبُ الحَجَـلْ
جاءتك مُثْقَـلَةَ الـتَّرا * ئِبِ بالحُـلِىِّ وبالحُلَـلْ
صُـفْرَ الجفـون كأنمـا * باتَتْ بتِـبْرٍ تَكْتَحِلْ

(١) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين: «وصفها».

(٢) ورد بعد هذا البيت فى مباهج الفكر بيتان زيادة عما هنا وهما:

٢٠ وتخالها قـد وُكِّلت * بالقوت والصوت الزجل
صفرى أنابيب من الـ * مرجان محكمة العمل

مشقوقةً شـــقَّ الزُّجا * جِ لمن تأمَّـــل أو عقَلْ
وصَلَتْ مذابحُهـا الرءو * سَ بجُمرة فيهـا شُـعَلْ
لولا آختلافُ الجنس والـتـركيب جاءتْ فى المَثَلْ
كَلِحَى الثمـانين التى * خُضِبت ومنها ما نَصَلْ
أو كاللِّثـام أزالَهُ * فَرْطُ التَّلَفُّتِ والعَجَلْ ٩
وتَخالُهنّ جَـــوارِيًا * لا يُزْدَرَيْن من العَطَلْ
رَمَتِ الثِّيـابَ الى وَرَا * ءَ عن المناكب تَجْـدِلْ
وبدَتْ ســـراويلاتُهـا * يَسحَبْنَ وَشْـيًا من قُبُلْ
حُمْـــرٌ من آلرُّكْبَات فى * لون الشـقائق أو أَجَلّ
عَقَّدْنَهَا فـوق الصـدو * ر مُخَالِسـاتٍ لِلْقُبَـلْ ١٠ (١٢١)
وشَدَدْنَ بالأعْضَادِ من * حَذَرٍ عليهـا أن تُحَـلّ
وكأنمـا باتَتْ أصـا * بعُهـا بحِنَّاءٍ تُعَـلّ(١)
مَنْ يَستحلّ لصيدها * فأنا آمرؤٌ لا أسْـتَحِلّ

✦ ✦ ✦

وأمّا الكُرْكِىّ وما قيل فيه — ويقال : إنه " الغِرْنِيق "؛ ويقـال : ١٥
إن الغـرنيقَ صِنف منه . وهو طائر أخضَر طـويلُ المِنْقار والرجلين . وسِفادُه
فى السُّرعة كالعصـفور . وله مَشَاتٍ ومَصَايف . وفى طبعه التَّناصُر؛ ولهـذا أنّه
لا يطيرُ متقطِّعا ولا متُباعِدا بل صَفًّا واحدًا، يقدُمها واحدٌ منها كالرئيس لها المقدَّم

(١) تعل بحناء : تخضب مرة بعد أخرى .

عليها وهى تتبعه، يكون كذلك حينا، ثم يخلفه آخرُ منها . وفى طبع الكُرَكىّ وعادته أنّ أبوَيْه إذا كَبِرا عالَجا .

وقال أرسطو : إن الغرانيقَ من الطير القواطع وليست من الأوابِد، وإنها إذا أحسَّت بتغيّر الزمان اعترمَتْ على الرجوع إلى بلادها . وكلّ منها ينام على إحدى رجليه قائما . ويقال : إن الكَرَاكىّ إذا كَبِرت اسودّ ريشها وهو فى شيبتها رَمادِىٌّ . وقد ظهر بالديار المصريّة فى شهور سنة خمس عشرةَ وسبعمائة صِنْفٌ من الكَرَاكىّ أبيضُ اللون ناصعُ البياض حَسَنُ الصورة ، وهو أكبرُ جُثَّةً من الكركىّ المعتاد . وقال النّاشِى فى وصف الكراكىّ :

وَمَوْرِدٍ يُخْذِل قلبَ الوامِقِ * مُنَظَّمٍ بالغُرِّ والغَرانِقِ
وكلِّ طيرٍ صافرٍ أو ناعِقِ * مكتهِلٍ وبالغٍ ولاحِقِ
مَوْشِيّةِ الصدورِ والعواتِقِ * بكل وَشْيٍ فاخرٍ وفائقِ
تختالُ فى أجنِحَةٍ خَوافِقِ * كأنما تَختالُ فى قَراطِقِ
يَرْفُلْن فى قُمْصٍ وفى يَلامِقِ (١) * كأنهنّ زَهَرُ الحدائقِ
حُمْرِ الحِداق كُحِّلِ الحَمالِقِ * كأنما يَجُلْن فى مَخانِقِ (٢)

* * *

وأمّا الإِوَزّ وما قيل فيه — والإِوَزّ ثلاثة أصناف : بَطائحىّ وهو الطويل الأسود [بُزرقة] (٣) ، وتركىّ وهو المُدَوَّر المائل إلى البياض، وخبىّ (٤) وهو

(١) يلامق : جمع يلمق، وهو القباء المحشو .

(٢) المخانق : القلائد .

(٣) الزيادة عن مباهج الفكر .

(٤) كذا فى الأصلين . ولم نجد فى مصدر آخر من المصادر التى بين أيدينا ما نعتمد عليه فى بيانه .

الضخم الكبير منها . ويقال : إن الإوَز إذا فرغ من السِّفاد وسبَح فى المـاء فإنمـا يفعل ذلك لتَمـامِ اللذة . والأُنثى تحضُن بيضَها ثلاثين يوما . والذكور تَحنُو على الفراخ . ولكلّ منها قَضيبٌ يَسـفِدُ به كالبَطّ . والإوَزّ البطائحىّ، وهو المعروف بمصر بالعِراقىّ، يخالف الحبىّ فى الصياح؛ لأن الحبىّ تصيح ذكورها ولا تصيح إناثُها، والبطائحىّ بخلاف ذلك. والحبىّ من الطير الأوابِدِ التى لا تبرَح من الأماكن التى تُرَبَّى فيهـا لثِقَل أجسامها ، وإذا نهَضت فلا ترتفع من الأرض إلّا يسيرًا. والعراقيّاتُ من الطير القَـوَاطِعِ التى تنتقلُ من مكان إلى آخر، وتُرى فى وقت دون وقتٍ .

وقال ابن رَشيق يصِف فحلَ إوَزّ :

نظـرتُ إلى فحـل الإوزّ فخِلتُـه * من الثِّقـل فى وَحْلٍ وما هو فى وَحْلِ
يُنَقِّـلُ رجليـه على حين فَتْرةٍ * كمُتْعَلٍ لا يُحسِن المشىَ فى النَّعْلِ
له عُنُـقٌ كالصَّـوْلَجانِ ومَخْطِمٌ * حكى طَرَفَ العُرْجون من يانِـعِ النَّخْلِ
يُداخِـله زَهْوٌ فيلحظ من عِلٍ (١) * جوانِبَـه ألحاظَ مُتَّهَـمِ العقل
يَضُمّ جناحيـه إليـه كما ارتدى * رداءً جديدًا من بَنِى البَدْوِ ذو جهلِ

* * *

وأمّا البطّ وما قيل فيه — وهو أصناف : منها الوَحْشِىّ، والأهلىّ . ومن الوحشِىّ "اللَّقْلَق" (٢)، ومن الأهلىّ "الصِّينىّ" . وفراخُه تَخرُج كاسيةً كاسبةً .

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «من على * جوانبه ...» .

(٢) اللقلق : طائر أعجمى طويل العنق . وكنيته عند أهل العراق أبو خديج . وهو يأكل الحيات، والجمع اللقالق . وربما قالوا : اللقلغ بالغين المعجمة .

وقيل : إن بالزَّابج بطًّا بيضًا وحمرًا ورُقْطا طِوالَ الأعناق قِصارَ الأرجُل . والبطّ يطير على وجه الماء ، وليس من طير الماء ، لأنه لا يَأوِيه دائمًا ولا يَغتذى بالسمك . وهو يأكل النباتَ والبُذور، وله قضيبٌ يخرج من دُبُره كذكر الكلب عظيمٌ جدًّا بالنسبة إليه، فى رأسه زِرٌّ كالفَلْكة[1]، فإذا سَفِد لم يُخرِجْه حتى ينقلبَ لجنبِه، ويحصُل له عند السِّفادِ من الالتحام ما يحصُل للكلب .

وقال أبو علىّ بن سينا : وطبع البطّ حارٌّ أسخن من جميع الطيور الأهلية . قال قال بعضهم : هو يسخّن المبرودَ ويُورث المحرور[2] حمّى . قال : وشحمه عظيم فى تسكين الوجع وتسكين اللذع من عمق البدن، وهو أفضلُ شحُومِ الطيرِ . ولحمه يُكثِر الرِّياحَ، وقانِصتُه كثيرةُ الغِذاءِ، ولحمه يُسَمِّنُ، وهو بطِىءٌ فى المعدة ثقيلٌ، وإذا انهضم كان أغذى من جميع لحوم الطير، وهو يزيد فى الباه ويُكثر المنِىّ .

✦
✦ ✦

وأمّا النُّحَام[3] وما قيل فيه — قالوا : والنُّحام يكون أفرادًا وأزواجًا . وإذا أراد المبيتَ اجتمع رُفُوفًا[4] فنام ذُكُوره ولا تنام إناثُه . وتُعِدّ لها مبَاتاتٍ ، إذا ذُعِرتْ فى واحد منها طارت إلى آخر . ويقال : إنه لا يَسْفِد ولا يُخرج فراخه بالحَضْن وإنما تبيض الأنثى من زَقّ الذكر . وإذا باضت تغزبَتْ وبقِى الذَّكَرُ عند البيض يذرُق عليه ليس إلّا، فيقوم ذَرْقُه مقامَ الحَضْن . فإذا تمّت مدّةُ ذلك خرجت

(١) فلكة المغزل : رأسه .

(٢) كذا فى كتاب القانون لابن سينا . وفى الأصلين : «المبرود» بالدال المهملة .

(٣) النحام كغراب : طائر أحمر كالإوز . قال الجوهرى : يقال له بالفارسية «سرخ آوى» وهكذا ضبطه الأزهرىّ وابن خالويه وغلط الجوهرىّ فى فتحه وشدّه . (انظر القاموس وشرحه مادّة نحم) .

(٤) الرفوف : جمع رف، وهو القطيع من الطير .

الفـراخُ لا حَرَاكَ بها ؛ فتجيء الأُنثى فَتَنْفُخُ فى مناقيرها حتى يُجـرى ذلك النفخُ فيها رُوحًا، ثم يتعاون الذّكَرُ والأُنثى جميعًا على التربيـة . وإذا قَوِيَت الفراخُ على الطُّعْم وأمكنها التكسُّبُ لنفسها طردها الذّكَر .

✦ ✦ ✦

وأمّا الأنيس وما قيل فيه — فقال أرسطو: إنّه حادُّ البصر، وصوتُه يُشبه صوتَ الجَمـل ويُحاكيه . ومأواه فى قرب الأنهار وفى الأماكن الكثيرة المياه الملتفّة الشجرِ . وله لونٌ حسنٌ وتدبيرٌ فى معاشه . والناس يَتغالَوْن به إذا وقع لهم ويجعلونه فى بيوتهم .

✦ ✦ ✦

وأمّا القَاوَنْدُ وما قيل فيه — قال صاحبُ كتاب مباهج الفكر ومناهج العِبَر فى كِتابه : كنتُ أسمع بشَحْم القاوَنْد ولم أدرِ ما هو : حيوانٌ هوائىّ أم مائىّ أم أرْضِىّ، حتى وقفتُ على كتابٍ موضوعٍ فى طبائع الحيوان وخواصّه ليس عليـه آسم المُصنِّف، فرأيته قد قال : « القاوند طائر يتّخذ وكره على ساحل البحر ويحضُن بيضَه سبعةَ أيّامٍ، وفى اليوم السابع يُخرج فِراخَه ثم يَزُقّها سبعةَ أيام . والمسافرون فى البحر يتيمّنون بهذه الأيام ويُوقنون بطِيبِ الرِّيح وحلول أيام السفر» .

✦ ✦ ✦

وأمّا الخُطّاف وما قيل فيه — والخُطّاف يسمّى "زَوّارَ الهنـد" . وهو من الطيور القواطع التى تَقطع البلاد البعيدة إلى الناس رغبةً فى القرب منهـم والإلْف بهم، وهو مع ذلك لا يَبْنِى بيتَه إلّا فى أبعد المواضع حيث لا تناله أيديهم . ومن عجيب حاله أنّ عينَه تُقْلَع فترجع ؛ وهو لا يُرَى أبدًا يقف على شىءٍ يأكله،

ولا يُرى يُسافِدُ ولا يجتمع بأُنثاه . والأنثى تبيض مرّةً واحدةً فى السنة ، وقيل : مرتين ؛ وكلاهما قاله الجاحظ . والخُفّاش عدوُّ الخُطّاف ؛ فهو إذا فرّخ وضع فى أعشاشه قُضْبان الكَرَفْس ، فلا يُؤذِى فراخَه إذا شمّ رائحة الكَرَفْس . وهو لا يُفرِّخ فى عُشٍّ عتيقٍ حتى يُطيِّنه بطينٍ جديدٍ . وهو يَبنى عُشّه بالطين والتِّبْن . فإذا لم يجد طينا مُهيّأً ألقى نفسه فى الماء ثم تمرّغ فى التّراب حتى يمتلئَ جَناحاه ثم يجمعه بمِنقاره . وهو يُسوِّى فى الطُّعْم بين فراخه . ولا يترك فى عُشِّه زِبْلًا بل يُلقيه خارجًا . وأصحابُ اليَرَقان يُلطِّخون فِراخَ الخُطّاف بالزعفران ؛ فإذا رآها صُفْرًا ظنّ أنّ اليَرَقانَ أصابَها من شدّة الحرّ ، فيذهبُ ويأتيها بحَجَر اليَرَقان فيَطْرحُه على الفِراخ ، وهو حَجَرٌ أصفَرُ ، فيأخذه المُحتالُ فيعلّقه على نفسه أو يَحُكُّه ويشربَ من مائه [يسيرًا](١) فيبرأ . (١٢٣)

والخطّاف متى سمع صوتَ الرّعد مات .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا : قال ديسقوريدس : إنّ أوّل بطن للخُطّاف إذا شُقّ وُجد فيه حَصاتان ، إحداهما ذاتُ لونٍ واحد والأخرى ذاتُ ألوانٍ كثيرة ، إذا جُعلتا فى جِلد عجلٍ قبل أن يصيبه ترابٌ ورُبِط على عَضُد المصروع ورقبته انتفع به ، قال : وقد جرّبت ذلك وأبرأ المصروعَ . قال : وأكلُ الخُطّاف يُحِدّ البصرَ ، وقد يُجفَّفُ ويُسْقَى . والشربةُ منه مثقالٌ . وقيل : إنّ دماغه بعسل نافعٌ من ابتداء الماء ، وكذلك دماغُ الخُفّاش . قال : وإن مُلِّح الخُطّاف وجُفِّف وشُرِب منه درهمانِ نفَع من الخُناق . قال بعضُ الأطباء : المشهور عند الأطباء أن عُشَّ الخَطاطيف إذا حُلّ فى ماء وصُفِّىَ وشُرِب سهّل الولادة .

(١) الزيادة عن مباهج الفكر .

وقد ألمّ الشـعراءُ فى أشعارهم بوصف الخُطّاف ؛ فمن ذلك ما قاله أبو إسحاق الصّـابى :

وهنـــديّة الأوطان زَنْجيّة الخِلَق * مُسَـوَّدة الأثواب مُحْمَرّة الحَـدَق
كأنّ بهـا حُزْنًا وقـــد لَبِستْ له * حِدادًا وأذْرَت من مدامعها العَلَق (١)
إذا صَرْصَرَتْ صَرّت بآخر صوتها * كما صَرّ مَلْوَى العود بالوتَر الحَزَق (٢) ٥
تَصِيفُ لدينـا ثم تشتو بأرْضِهـا * ففى كلّ عامٍ نَلْتقى ثم نَفْـتَرِق

وقال السّرىّ الرّفّاء يصفها من أبيات ويذكر غرفةً :

وغرفتُنا بين السـحائب تَلْتقى * لهنّ عليهـا (٣) كِلّةٌ ورِوَاقُ
تَقَسَّمَ زُوّارٌ من الهند سَـقْفَها * خِفافٌ على قلب النديم رِشاقُ
أعاجِمُ تَلْتَـذُّ الخِصَـامَ كأنهـا * كواعبُ زَنْجٍ راعَهنّ طَـلاقُ ١٠
أَنِسْنَ بنـا أُنْسَ الإماء تحبّبتْ * وشيمتُهـا غَدْرٌ بنـا وإباقُ
مُواصِلةٌ والوَرْدُ فى شَجَـراته * مُفارِقةٌ إن حان منـــه فِراقُ

وقال أيضا :

وغرفتُنا الحسناء قد زاد حسـنُها * بزائرةٍ فى كلّ عام تَزُورُهـا
مُبيّضَـة الأحشاءِ حُمـر بطونُهـا * مُزَبْرَجة الأذناب سود ظهـورُها ١٥
لهنّ لُغَـاتٌ مُعْجَمَاتٌ كأنهـا * صَرِيرُ نِعـالِ السِّبْتِ (٤) عالٍ صَرِيرُها

---

(١) العلق : الدم الشديد الحمرة .

(٢) كذا فى كتاب حياة الحيوان للدميرى . والحزق (بالتحريك) : اسم من حزق الشىء يحزقه حزقا إذا شدّه وضغطه . وفى الأصلين : «الخلق» . وهو تحريف .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «علينا» . ٢٠

(٤) نعال السبت : نعال تتخذ من جلود البقر المدبوغة بالقرظ .

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وزائرةٍ فى كلّ عام تزورُنا * فيخبر عن طِيبِ الزمان مَزَارُها
تُخَبِّرُ أنّ الجَوّ رَقّ قميصُه * وأنّ رِياضًا قد توشّى إزارُها
وأنّ وجوهَ الغُدْرِ رَاقَ بياضُها * وأنّ مُتونَ الأرض رَاعَ آخضرارُها
تَحِنّ إلينا وهى من غير شَكْلنا * فتدنو على بُعْدٍ من الشكل دَارُها
ويُعْجِبنا وسْطَ العِراصِ وُقوعُها[1] * ويؤنِسُنا بين الدّيار مَطارُها
أغار على ضَوْء الصباح قميصُها * وفاز بألوانِ الليالى خِمارُها
تَصِيح كما صَرّت نِعالُ عرائسٍ * تمشت إلينا هِندُها ونَوَارُها

وقال آخَرُ :

أهلًا بخُطّافٍ أتانا زائرًا * غَرِدًا يُذَكِّر بالزمان البَاسِمِ
لَبِستْ سرابيلَ الصباحِ بُطونُه * وظهورُه ثوبَ الظلام العاتِمِ

وقال أبو نُوَاس :

كأن أصواتَها فى الجوّ طائرةً * صوتُ الجِلامِ[2] إذا ما قَصّتِ الشَّعَرَا

* * *

وأمّا القِيقُ والزُّرْزُور وما قيل فيهما — والقِيقُ : طائر فى قَدْر الحَمَام اللطيف ؛ وأهلُ الشأم يُسمّونه "أبا زُرَيْق"[3] . وفى طبعه كثرةُ الإلْف بالناس ، وقبولُ التعليم ، وسرعةُ الإدراك لما يُلَقّن من الكلام مُبيّنًا حتى لا يشك سامعه (١٢٤)

(١) فى أ : «وفوقها» .
(٢) الجلام (بالكسر) : جمع جلم ، وهو المقص .
(٣) كذا فى حياة الحيوان للدميرى . وفى الأصلين : «زريق» .

إذا لم يَرَه أنه إنسانٌ ؛ وربمـا زاد على البَبَّغَاء . وله حكاياتٌ وأخبـارٌ فى الذكاء والفِطْنة يطول شرحها ، وهو طائر مشهور بذلك .

***

وأمّا الزُّرْزُور — فيقال : إنه ضَرْبٌ من الغراب يسمّى "الغُدَاف"؛ ويقال: إنه "الزّاغ" . وهو يقبل التعليم ، ولا يُرى إلّا فى أيام الربيع . ولونه أرقطُ لكن السواد أغلب . وقد يوجد فى لونه الأبيض، وهو قليل جدّا .

وقال بعض شعراء الأندلس :

يا رُبَّ أعجَمَ صـامتٍ لقّنتُـــه * طُرَفَ الحديثِ فصار أفصحَ ناطقِ
جَوْنَ الإهابِ أُعِيرَ قوّةَ صُفْرةٍ * كالّليـل طـرّزه وَمِيضُ البـارقِ
حِكَمٌ من التّـدبير أعجزتِ الورى * ورأى بهـا المخلوقُ لُطفَ الخالِقِ

وقال آخر :

أمِنْـبَرٌ ذاكَ أم قَضِيبُ * يَقْـرَعُه مِصْقَعٌ خطيبُ
يَختالُ فى بُرْدَتَىْ شَباب * لم يَتَـوَضَّحْ بهـا مَشيبُ
أخرسُ لكنّه فصيحٌ * أبـلَهُ لكنّه لبيبُ

وقال الوزير أبو القاسم بنُ الجَدّ[1] الأندلسىّ من رسالة[2] كتبها إلى الوزير أبى الحسن ابن سِراج جواباً عن رُقعةٍ وصلتْ منه إليه، يشفَعُ لرجل يُعرف بالزُّرَيْزِير ؛ ابتدأها بأن قال :

(١) فى الأصلين : « الحداد » . والتصويب عن الذخيرة لابن بسام .

(٢) فى هذه الرسالة تحريف كثير فى الأصلين . وقد صححناها عن كتاب الذخيرة لابن بسام (يوجد منها جزآن الأول والثانى مخطوطان بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٤٧ أدب . والرسالة تقع فى الجزء الثانى ص ٢١٨) .

حسُنتْ لك أبا الحسن ضرائبُ الأيام ، وتشوّفتْ نحوكَ غرائبُ الكلام ، وآهتزّت لمكاتبتك[1] أعطافُ الأقلام ، وجادت على مَحْلك[2] ألطافُ الغَمام ، وأشادت[3] بفضلك ونُبْلك أصنافُ الأنام . فإن[4] كان روض العهد أعزّك الله لم يُصِبْه من تَعهُّدنا[5] طَلٌّ ولا وابل ، ولا سَجَعتْ[6] على أيْكه وُرْقٌ ولا بَلابِل ؛ فإن[7] أزهارَه على شِرْب الصّفاء نابتـه ، وأشجارَه فى تُرْب الوفاء راسخةٌ ثابته . وقد آن الآن لعُقْم[8] شجره أن تُطلِع من الثمر ألوانا ، ولعُجْمِ طيره أن تسجَعَ من النَّغَم ألحانا ؛ بما سقط لدىّ ووقع علىّ من طائرٍ شَهِىّ الصفير ، مبنىّ الاسم على التصغير ؛ فإنه رَجّع بآسمك حِينا ، وآبتدع فى نوبة شكرك تَلْحِينا ، وحرّك من شوق إليك سكونا ، ودمث[9] فى قلبى لوُدِّك وُكُونا[10] . ثم أسمعنى أثناء ترنّمه كلاماً وصف به نفسه ، لو تغنّت به الوَرْقاء ، لأَذِنت[11] له العنقاء ؛ أو ناح بمثله الحمام ، لبكى لِشَجْوه الغَمام ؛ أو سَمِعه قيسُ ابن عاصم فى ناديه ، وبين أعاديه ، لحَلّ الزِّمعُ[12] حُبَاه ، وآستردّ الطَّرَبُ صِباه :

كلاماً[13] لو آن البقْلَ يُزْهَى بمثله * زها البقل وآخضرّ الغضا بمَصيف

فتلقّيتُ فضلَ صاحبه بالتّسليم ، وآعترفتُ بسَبْقه آعترافَ الخبير العليم .

---

(١) فى الأصلين : « لمكانتك » . (٢) فى الأصلين : « نحلك » .

(٣) فى الأصلين : « أشارت » . (٤) فى الأصلين : « إن كان » .

(٥) فى الأصلين : « بعدها » . (٦) فى الأصلين : « سمعت » .

(٧) فى الأصلين : « كأن » . (٨) فى الأصلين : « لعتم » .

(٩) دمث : هيأ وسهل . يقال : دمث لى هذا الحديث أى اذكر لى أوله حتى أعرف وجهه .

(١٠) فى الأصلين : « ركونا » بالراء . (١١) أذنت : أصغت وآستمعت .

(١٢) الزمع : الخفة والطيش . و يعنى بهذا أن قيس بن عاصم ، وهو أحد حلماء العرب المشهورين ، لو سمع هذا الكلام لاستخفه و بادر اليه .

(١٣) قد سقط هذا البيت من الذخيرة .

وبعدُ، فإنى أعود إلى ذكر [ذلك](١) الحيوان الغريد، والشيطان المَرِيد؛ فأقول: لئن سُمِّى بالزُّرَيْزِير، لقد صُغِّر للتكبير(٢)؛ كما قيل: حُرَيْقِيصٌ وسَقْطُه(٣) يُحرِق الحَرَج، ودُوَيْهِيَةٌ وهى تلتهم الأرواحَ والمُهَج. ومعلومٌ أنّ هـذا الطائرَ الصافر يفوق جميعَ الطيور فى فَهْم التلقين، وحسن اليقين. فإذا عُلِّم الكلامَ لهِج بالتسبيح، ولم يَنْطِق لسانُه بالقبيح، وتراه يقُوم كالنصيح، ويدعو للخير بلسان فصيح. فمن أحبّ الاتّعاظ، لقى منه قُسَّ إيادٍ(٤) بعُكَاظ؛ أو مال إلى سماع البسيط والنشيد، وجَد عنـده نُخَبَ المَوْصلىّ للرشـيد. فطوراً يُبكيك بأشجى من مراثى أَرْبَد(٥)، وحينًا يُسَلِّيك بأحلى من أغانى معبَد(٦). فسبحان من جعله هادِيا خطيبا، وشاديا مُطْرِبًا مُطِيبا. ولمـا طار ببلاد الغرب ووقع، وَرَقِىَ فى أكنافها وصقَع؛ وعاين ما اتّفق(٧) فيهـا فى هذا العام من عدم الزيتون، فى تلك البطون والمتون؛ أزمع عنها فِرارا، ولم يجد بها قرارا؛ لأن هذا الثمر(٨) بهذا الأُفُق هو قِوامُ معاشـه، ومِلاكُ انتعاشه؛ إليه يَقْطَع، وعليه يقع؛ كما يقع على العسل الذُّبَاب، وتقطع إلى العَرَادِ(٩) الضِّباب؛ فاستخفَّه هائجُ التذكار، نحو تلك

(١٢٥)

(١) الزيادة عن الذخيرة. (٢) فى الأصلين: «الكبر». (٣) السقط: ماسقط بين الزندين قبل استحكام الورى. والحرج: جمع حرجة، وهى الغيضة لضيقها أو هى الشجر الملتف.

(٤) هو قس بن ساعدة الإيادى حكيم العرب وخطيبها، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم بعكاظ على جمل أحمر يخطب خطبته المعروفة. (٥) هو أربد بن قيس أخو لبيد بن ربيعة لأمه، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وأراده بشرّ فأصابته صاعقة فرثاه أخوه لبيد بقصائد عدة. (راجع الأغانى ج ١٥ ص ١٣٦ — ١٤٠ طبع بولاق). (٦) هو معبد بن وهب المغنى المعروف (راجع ترجمته فى الأغانى طبع دار الكتب المصرية ج ١ ص ٣٦ — ٦١). (٧) فى الأصلين والذخيرة: «أنفق». (٨) فى الأصلين: «الثمن».

(٩) العراد: حشيش طيب الريح. قال أبو الهيثم: تقول العرب: قيل للضب وِرْدًا وِرْدا؛ فقال:

أصبح قلبى صردا * لايشتهى أن يردا
إلا عرادا عِردا * وصـــليانا بَردا
* وعَنْكَثًا مُلْتَبِدا *

الأوكار؛ حيث يَكْتسى ريشُه حريرا، ويَحْتَشِى جَوفُه بَرِيرا[1]، ويحتسى قُرَاخا[2] نميرا، ويَغتدِى على رَهْطِه[3] أميرا . نخذه إليك، نازلًا لديك، ماثلًا بين يديك؛ يترنّم بالثّناء، ترنُّم الذبابِ فى الرّوضــة الغَنّاء ؛ وقد هَزّ قَوادِمَ الجناح ، لعــادة الاستمناح ؛ وحَبَّر من لُمَع الأسْجَاع ، ما يصلُح للانتجاع ؛ واثقًا بأن ذلك القُطْر الناضر سَتَنْفَحه[4] حدائقُه ، ولا تَلْفَحه[5] ودَائِقُه ؛ لا سيما وفضلُك دليله إلى تُرَع رياضِه ، وفُرَض حِياضه ؛ مع أنه لا يَعْدَم فى جنابكَ حَبًّا نثيرا ، وخِصبًا كثيرا ، وعُشًّا وثيرا ..

فإذا ما أرادكُنتَ رِشَــاءً * وإذا ما أرادكُنتَ قَلِيبَــا

والله تعالى يَكْفيه فيما ينوبه شرّ الجوارح ، ويقيه شؤم السانح والبارح ؛ بمَنّه وكرمه .

* * *

وأمّا السمَانَى وما قيــل فيه — يقال : إن السُّمَانَى هو السَّلْوَى . وهو من الطيور القواطع التى لا يُعْلَم من أين تأتى . ويقال : إنه يخرج من البحر المــالح ؛ فإنه يُرى وهو يَطِير عليه أوانَ ظهوره وأحدُ جَناحيه منغمسٌ فى المــاء والآخرُ منتشرٌ كالقلْع . وأكثرُ من يعتنى بتربيته أدلُ مصر ويتغالَوْن فى ثمنــه ويحتفلون بأمره ، حتى ينتهى ثمن جَيّده إلى ألف درهم بعد أن يباع كلُّ عشرة منها بدرهم وأرخص . وهو صِنْفان : رَبِيعىّ وطِرْمَاهِىٌّ ؛ فالرَّبِيعىّ القــادم الراحل . والطِّرماهىّ القاطن فى الأرض والبــلاد الخصيبة ، وبَيِيض ويُفَرِّخُ فيها كالحَجَــل . وسببُ مُغالاتهم فى أثمانها لأجل كثرة صِيَاحِها وعددِ أصــواتها . وقد وُجد فيها ما صاح فى الليــلة

(١) فى ا : «صوفه» . وفى ب : «هونه» والبريرِ : أول ما يظهر من ثمر الأراك وهو حلو .
(٢) فى الأصلين : «فراخه» . (٣) فى الأصلين : «رهط» . (٤) فى الأصلين : «تستحقه» . (٥) فى الأصلين : «تلحقه» . والوديقة : حرّ نصف النهار ، وقيل : شدّة الحرّ ودنو حمى الشمس .

الواحدة إلى الثـانية من النهار أربعـة آلاف وستمائة صوت . والصـوتُ عندهم أن يُفْصَلَ بينه وبين الصوت الثانى بسَكْتة . وهم فى تربيته يبدءون بإطعامه دُقاق القَمح (وهو القمح الصـغير الذى لا يُمسكه الغِرْبال لِصِغَرِه) مدّةَ شهر ؛ وتكون ذلك الوقت مجتمعةً فى قَفَص كبير يسمّونه "المرح" ؛ ثم يُفْرَدُ بعد ذلك كلُّ سُمَانَى بمفرده فى قفص ويُطْعَمُ الدُّخْنَ والشَّادَانِق[1] . ويَصيح فى مبتـدأ أمره مقدارَ شهر ثمّ يسكت مدّة شهرين . ويُنقَلُ إلى أقفاصٍ أُخَر يعتنون بجودتها ويرفعونهـا على البَرَارِيد (والبراريدُ عِصِيٌّ تُعلّق عليها الأقفاص) فيصيح بعد تلك السكتة أربعةَ أشهرٍ . فإذا دخل فصـل الخريف وهَبط المـاءُ سكت مـدّةَ شهرين وتَقَرْنَص ، ثم يصيح أحيانا ويسكت أحيانا . وهو لا يطولُ عمره أكثر من سـنة ونصف . وأوّل مايصيح قبل أن يتفصّح بالوَعْوَعَة ، وحكاية صوته : "وَعْ وَعْ" ؛ ثم يصيح بعد ذلك : "شَقْشَلَق" .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سِينا فى كتاب الأدوية المفردة : إنه يُخاف من أكل لحوم السُّمَانَى من التمدّد والتَّشنّج .

✦
✦ ✦

وأمّا الهُدْهُد وماقيل فيه — والهدهدُ طـائرٌ معروف . وقال الجاحظ فيه : والعرب كانوا يزعمون أن القُنْزُعَةَ التى على رأسه ثوابٌ من الله عزّ وجلّ على ما كان من بِرّه لأُمّه ، لمـّا ماتت جعل قبرها فى رأسـه ؛ فهذه القُنْزُعَةُ عِوَضٌ عن تلك الوَهْدة . وهو طائر مُنْتِنُ البَدَنِ من جوهره وذاته . والأعراب يجعلون ذلك

(١) الشادانق : بزر العنب .

النَّتْنَ شيئًا خامَرَه بسبب تلك الجِيفةِ التى كانت على رأسه . ويستدلّون على ذلك بقول أُميَّةَ بنِ أبى الصَّلْت حيث يقول من أبيات :

غيمٌ وظَلْماء وغيثُ سَحَابةٍ * أزمانَ كَفَّنَ وآستراد الهُدْهُدُ
يَبْغِى القرارَ لأُمِّه ليُجِنَّها * فبنى عليها فى قفاه يَمْهَدُ
مَهْدًا وطيئًا فآستقلّ بحمله * فى الطير يَحْمِلُها ولا يتأوّدُ
من أُمِّه فَجُزِى بصالح حملِها * ولَدًا وكَلَّف ظهرَه ما يَعْقِدُ
فتراه يُدْلِج ماشيًا بجنازةٍ * بقفاه ما آختلف الجديدُ المُسْنَدُ

وزعم صاحبُ الفِراسَة : أن سبَبَ نَتْنِه أنّه يطلب الزِّبْلَ ؛ فإذا وجده نقل منه وآبتنى بيتا منه ؛ فإذا طال مُكثه فى ذلك البيت ، وفى مثله وُلِد ، آختلَط رِيشُه وبدنُه بتلك الرائحة فورِث آبنُه النَّتْنَ ، كما وَرِثه هو من أبيه ، وكما وَرِثه أبوه من جَدّه . قال شاعرٌ :

وأنْتَنَ من هُدْهُدٍ ميّتٍ * أُصِيبَ فَكُفِّنَ فى جَوْرَبِ

ويقال عنه : إنه يرَى الماءَ فى باطن الأرض كما يراه الإنسانُ فى باطن الزُّجاج . وزعموا : أنه كان دليل سليمان عليه السلام على الماء ولذلك تَفَقَّده ، على أحد أقوال المفسرين لكتاب الله تعالى .

وقال الجاحظ فيه : إنه وَفِىٌّ حَفُوظٌ ؛ وذلك أن الذكر إذا غابت عنه أُنثاه لم يأكل ولم يشرب ، ولا يزال يصيحُ حتى تعودَ إليه ، فإن لم تَعُدْ لا يَسْفِد بعدها أُنثى أبدًا ، ولا يزال يصيحُ عليها ماعاش ، ولم يَنَلْ بعدها من طُعْم بل ينال منه ما يُمْسك رَمَقَه .

ووصفه أبو الشِّيص[1] فقال :

لا تأمَنَنْ على سرِّى وسِرِّكُمُ * غيرى وغيرَك أوطَى القراطيسِ
أو طَـائرٍ سأُجَلِّيـه وأُنْعِتُـه * ما زال صاحبَ تنقير وتدْسِيسِ
سُـودٍ بَرَاثِنُه مِيـلٍ ذَوائِبُـه * صُفْرٍ حَمَالِقُه فى الحسن مغموسِ
قد كان همَّ سليمانٌ لِيَذْبَحَهُ * لولا سِعايتُه فى مُلْك بِلْقِيسِ

وقال آخر من أبيات :

كأنّه إذ أتاه من قُرَى سَـبَإٍ * مُبَشِّرًا قـد كساه تاجَ بِلْقِيسِ
يبدو له فوق ظهرِ الأرض باطنُها * كما تَبَدَّت لنا الأقذاءُ فى الكُوسِ[2]

* * *

وأمّا العَقْعَقُ وما قيل فيه — ويسمى العقعق أيضا "كُنْدُشًا" . وهو طائرٌ لا يأوِى تحت سَقْفٍ ولا يَستظِل به ، بل يُهَيِّئُ وَكْرَه فى المواضع المشرفة الفسيحة . وفى طبعه الزِّنا والخيـانةُ والسرقةُ والخُبْث ، والعرب تَضرِبُ به المثلَ فى ذلك كلّه . وإذا باضت الأنثى أخْفَت بيضَها بورق الدُّلْب خوفًا عليـه من الخُفَّاش ، فإنه متى قَرُبَ منه مَذِرَ[3] وفَسَـد وتغيّر من ساعته . وتقول العرب فى أمثالها : « أمْوَقُ من عَقْعَق » . وهو شـديدُ الاسـتلاب والاختطاف لمـا يراه من الحَلْى الثمين . قال إبراهيم الموصلىّ فيه :

إذا بارك اللهُ فى طـائرٍ * فلا بارك اللهُ فى العَقْعَقِ

(١) هو محمد بن عبد الله بن رَزِين الخزاعى شاعر معروف ، كان فى زمن الرشيد ، وهو ابن عم دعبل ابن على الخزاعى الشاعر ، توفى سنة ١٩٦ هـ .

(٢) يريد الكئوس جمع كأس .

(٣) مذر البيض : فسد وتغير .

قصيرُ الذُّنابَى طويلُ الجناح * متى ما يَجِدْ غَفْلةً يَسْرِقِ
يُقلِّبُ عَينَيْنِ فى رأسه * كأنهما قَطْرَتَا زِئْبَقِ

وكان سببُ قوله لهذا الشعرِ فيه ماحكاه إسحاق بن إبراهيم قال : كان لى عَقْعَقٌ وأنا صبيٌّ قد ربَّيتُه، وكان يتكلّم بكلّ شيءٍ يسمعه ؛ فسُرِقَ خاتم ياقوتٍ كان أبى قد نزَعه من إصْبَعِه ودخل الخَلاءَ ثم خرج فلم يجده، فضرب الغلام الذى كان واقفا، فلم يَقِفْ له على خبر . فبينا أنا ذات يوم فى دارنا إذ أبصرت العَقْعَق قد نبَش تُرابًا وأخرج الخاتمَ منه، فلَعِب به طويلًا ثم دفَنه؛ فأخذتُه وجئتُ به الى أبى، فَسُرَّ به وقال هذا الشعر .

✦ ✦ ✦

وأمّا العصافير وما قيل فيها — والعصافير ضروبٌ كثيرةٌ : منها "العصفور البُيوتِىّ" و"عصفور الشَّوْك" و"عصفور النَّوْفَر"(١) . ومن ضروبها "القُبَّرَة" و"حَسُّونٌ" و"البُلْبُل" .

فأمّا العصفور البُيوتىّ — ففى طباعه آختلافٌ : ففيه من طبائع سِباع الطير أنه يُلْقِم فِراخَه ولا يَزُقّها، ويَصيدُ أجناسًا من الحيوان كالنَّمل إذا طار والجرادِ، ويأكل اللَّحمَ . والذى فيه من طباع بهائم الطير أنه ليس بذى مِخْلَبٍ ولا مِنْسَرٍ؛ وهو إذا سقط على عُودٍ قَدم أصابعه الثلاثَ وأخَّر الدّابِرَةَ؛ وسباعُ الطير تُقدِّم إصبعين وتُؤخِّر إصبعين ؛ ويأكل الحبَّ والبقولَ . ويَتَمَيَّزُ الذكرُ منها من الأُنْثى بلِحْيةٍ سوداء . وهو لا يعرِف المشىَ وإنما يرفع رجليه ويَثِبُ . وهو كثيرُ السِّفاد،

(١) كذا فى الأصلين . وقد أورده المؤلف هنا على لهجة العامة . والفصيح فيه : « نيلوفر » « ونينوفر » بابدال اللام نونا . والنيلوفر : ضرب من الرياحين ينبت فى المياه الراكدة ، ويسميه أهل مصر البشنين . (راجع القاموس وشرحه مادة نيلوفر) .

وربمـا سفَد فى الساعة الواحدة خمسين مرّةً ، ولذلك عمره قصيرٌ فإنّه لا يُعَمَّر غالباً أكثرَ من سنةٍ ؛ وإناثُها تُعمَّر أكثر من ذكورها . والمثل يُضرب فى التحقير والتصغير بأحلام العصافير .

قال دُرَيْد بن الصِّمّة :

يا آلَ سفيانَ ما بالى وبالُكُمُ * أنتم كبيرٌ وفى الأحلام عصفورُ (١)

وقال حسّان بن ثابت :

لا بأسَ بالقوم من طولٍ ومن عِظَمٍ * جِسمُ البغـال وأحلامُ العصـافير

* * *

وأما عصفور الشَّوْك — فزعم أرسطو أنّ بينـه وبين الحمـار عداوةً ، لأن الحمـارَ إذا كان به دَبَرٌ حكّه بالشَّوْك الذى يأوِى إليـه هذا العصفورُ فيقتله ؛ وربمـا نَهَق الحمارُ فتسقط فراخُه أو بيضه خوفًا منه ؛ فلذلك هذا العصفور إذا رأى الحمار رَفْرَف (٢) فوق رأسه وعلى عنقه وآذاه ونقَره فى عَقْره أنّى كان .

* * *

وأما عصفور النَّيْلَوْفَر — وهو لا يوجد غالبا إلا بثَغْر دِمْيـاط ، وشأنُه غريب ؛ وذلك أنه عصفورٌ صـغير جدًّا ، فإذا كان قبل غروب الشمس جاء إلى بِرَك النَّوْفَر (٣) فيجد النَّوْفَرَةَ وهى طافحةٌ على وجه المـاءِ مفتوحة فيقعد فى وسطها ، فإذا

(١) كذا ورد هذا الشطر فى كتاب الحيوان (ج ٥ ص ٧٣) والأغانى (ج ٩ ص ٧ طبع بولاق) . وفى الأصلين : * أنتم كثير وفى أحلام عصفور *

(٢) فى الحيوان للجاحظ : «ذرق» . وفى مباهج الفكر : «قرب منه فوق رأسه» .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٤٩ من هذا الجزء .

حصَل فيها انطبقتْ عليه وانغمست فى الماء طول الليل ؛ فإذا طلعت الشمسُ طفَت النَّوفرةُ على وجه الماء وانفتحت، فيخرج منها ويطير الى غروب الشمس، فيأتى ويفعل كفعله .

* * *

٥ وأما القُبَّرة — فقد عَدُّوها من أنواع العصافير . وهى غَبْراءُ كبيرة المِنْقار على رأسها قُبَّرةٌ . وهذا الضرب قاسى القلب . وفى طبعه أنّه لا يَهولُه صوت صائح به ، ورُبّما رُمِى بالحجر فاستخفَّ بالرامى وَلَطِئَ إلى الأرض حتى يتجاوزَه الحجرُ . وهو يَضَع وَكْره على الجَادَّةِ رغبةً فى الأُنس بالناس .

* * *

١٠ وأما حَسُّونُ — وتُسميه أهل الأندلس " أمّ الحسن " والمصريون " السقاية " لأنه إذا كان فى القفص استقى الماءَ من إناء[1] بآلةٍ لطيفةٍ يُوضع له فيها خيطٌ، فتراه يَرفعُ الخيطَ بإحدى رجليه ويضعه تحت رجله الأُخرى حتى يصل إليه ذلك الإناء اللطيف فيشرب منه . وهو ذو ألوانٍ حسنةِ التركيبِ والتأليفِ من الحمرةِ والصفرةِ والسوادِ والبياضِ والخضرةِ والزُّرقةِ . وله صوتٌ حسنٌ مُطْرِبٌ . ووصفه ١٥ أبو هلال العسكرىّ فقال :

ومُفْتَنَّةِ الألوانِ بِيضٍ وجوهها * ونُمْرٍ تَرَاقيها[2] وصفرٍ جُنُوبُها
كأنّ دَرَارِيعًا[3] عليها قصيرةً * مُرَقَّعَةً أعطافُها وجُيوبُها

(١) فى الأصلين : « ... من إناء الى إناء بآلة ... الخ » . وعبارة مباهج الفكر : « وربما علم استقاء الماء من إناء بآلة لطيفة، يطبق حلها دبرت له » .

٢٠ (٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « موافيها » ، وهو تحريف .

(٣) الدراريع : جمع دراعة، وهى جبة مشقوقة المقدّم .

❖

وأما البُلْبُل — وهـو "العَنْدَلِيب"، وتُسميه أهلُ المدينـة "النُّغَر". وهو طائرٌ أغبرُ الرأس لطيف القَدِّ، مأواه الشجرُ.

قال الجـاحظ: البلبل موصوفٌ بحسن الصـوتِ والحنجرةِ. ومن شأنه[1] إذا كان غيرَ حاذقٍ أن يطارِحه إنسان بشكلِ صوتِه، فيتدرّب ويتعلّم ويحسُن صوتُه. ٥

وقد وصَف أبو هلال العسكرىّ البلابلَ فقال:

مررتُ بدُكْنِ القُمْصِ سُودِ العمائم * تُغَنِّى على أطراف غِيـدٍ نواعِمِ
زُهِين بأصـداغ تَرُوق كأنّهـا * نجـومٌ على أعضاد أسـودَ فاحمِ
تَرى ذهبًـا منهنّ تحت مآزِرٍ * لهـا ولُجَيْنًـا نُطْنَـه بالقَوادِمِ

وقال آخر: ١٠

كيف أُلْحَى وقد خَلَعتُ على اللهـ * ـو عِذارى وقد هَتَكْتُ قِناعى
وتعشّقتُ بلبـلًا أنا منـه * فى ٱنزعاج إلى الصِّبا وٱلْتِيـاع[2]
أنا من رِيشـه المـدبَّج فى زَهْـ * ـرٍ ومن شَجْو صـوته فى سماع

(١٢٨)

ومن رسالة ذكرها العِماد الأصفهانىّ الكاتب فى الخريدة، وهى لبعض فضلاء أصبهان، ذكر فيها وصفَ الرِّياض ومفاخرةَ الرَّياحين، وفضّل فيها الورد، وٱنتهى بعد ذكر الورد إلى وصف البلابل، فقال: ١٥

(١) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين: «ومن شأنه أنه إذا ... الخ» بزيادة كلمـة «أنه» ولا يستقيم بها الكلام.

(٢) كذا فى مباهج الفكر. وفى الاصلين: «واتباع».

"فلما ٱرتفع صدرُ النّهار، وٱنقطع جِدالُ الأزهار، سُمِع من خَلَل[1] الحديقة زَقْزقةُ[2] عَندليب، قد ٱتخذ وَكْرًا على حاشية قَليب[3]، كان يستتر به عن الجمع، ويجعله دريئةً لٱستراق السّمع. وحين أتقن ما وعاه، وأوْدَعه سمعَه وأَرْعاه[4]، ٱنتحى غُصْنًا رطيبا، فأوفَى عليه خَطيبا، ثم قال: يا فتنـة الخَليقه، لقد جئتِ بالشَّنْعاء الفَليقه[5]، وربّ بَسْمٍ ٱستحال ٱحتداما، ولن تَعْدَم الحسناءُ ذاما. إلامَ ترفُل فى دَلَال زَهْوك، وتغفُل عن رذائل سهوك! وحَتّامَ تَتيه على الأكفاء والأقران، كأنّك أنت صاحب القرآن! ألستَ من عُجْبك بنفسك، وٱسترابتك بأبناء جِنسك، لاتزال مشتملًا شَوْك الغصون، معتصمًا منها بأشباه المعاقل والحصون!. لكنّك متى ٱنقضى مَهَبُّ الشّمال، وعَدَل عن اليمين إلى الشِّمال، خِيف عليك نَفْحُ الإحراق، وتعرّيتَ من حُلَل الأوراق، وأصبحتَ للأرض فِراشًا، وتلعّب بك الهواء فعُدت فَراشًا. ثم ما قدرُ جَوْرتك حتى تجور! وهل ينتج حضوره[6] إلا الفجور!. هذا إذا كنتم على الأصل الثابت، وعُرِفتم فى أكرم المغارس والمنابت، فكيف وأنتم بين رَمْلىّ وجَبَلىّ، ونُهْبُورىّ[7] أو تَيْهورىّ. وهَبْ أنك ورَهْطَك تفرّدْتم بمُمَايلة القُدود، وتَوَحّدتم[8] بمشابهة الخدود، وصِرْتم درر البحور، وعُلِّقتم على الحِباه والنّحور، وتحوّلتم جُمانًا ومَرْجانا، وحُلِّيتم مناطق وتيجانا، أقَدَرْتم على

(١) فى الأصلين: «حلك الحديقة»، وهو تحريف.

(٢) الزقزقة: صـدح الطائر عند الصبح. وقد وردت هذه الكلمة فى ا: «زهزهته» وفى ب: «زهزهقه». ولعلها محرفة عما أثبتناه.

(٣) القليب: البئر. والحاشية: الجانب.

(٤) فى الأصلين: «وآدعاه».

(٥) الفليقة: الأمر العجب والداهية. وفى الأصلين: «القليقة» بالقاف، وهو تصحيف.

(٦) لعلها «حضورك».

(٧) النهبور: واحد النهابير، وهى جبال رمال مشرفة. والتيهور من الرمل: ماله جُرُف.

(٨) فى الأصلين: «واتحدتم»، وهو لا يستقيم به الكلام.

مباراة الشَّحارِير[١]، ومجاراةِ القَمارِى النَّحارير! أم ملكتم تَهييجَ البلابل[٢]، قبل أصوات البلابل! أم وجدتم سبيلًا إلى ولوج القلوب والأسماع، واتخاذ[٣] الطَّربَ والسَّماع؟! هيهات هيهات، بُعـد عنكم ما فات! بل نحن ذوات الأطواق، وبنات الغُصون والأوراق؛ إنما يكمُل صِيتُكم بنَغَمات أصواتنا، ويزهو غناؤكم بصحة غنائنا؛ ويحسُن تمايُلُ دَوْحِكم بترنّمنا ونَوْحنا، ويَرُوق غديرُكم بهديرنا، ويَشُـوق تهديلكم[٤] بهديلنا. لم تزالوا حَمَلَةَ أثقالنا، ومُهُودَ أطفالنا؛ وجِيادَ شُجْعاننا، ومنابرَ خطبائنـا. فُروعُكم مَحَطُّ أَرْحُلنا، ورءوسكم مساقِطُ أرجلنا. إذا أوفى مُطْرِبُنـا على عُوده، وعبِث بمَلْوَى عُوده؛ وشدّ المثالث والمثانى، شدَّ الثَّقيلين الأوّل والثانى؛ فقد أحيا بالمحن الأَيْكِىّ، وبَذّ يحيى المَكّىّ[٥]؛ وأعاد إبراهيم[٦]، لخاطِب الليل البَهيم؛ وخرق له[٧] أثواب

(١) الشحارير: جمع شحرور، وهو طائر أسود فوق العصفور يصوّت أصواتا.

(٢) البلابل: الأشجان.

(٣) لعل الصواب فيها: «وإيجاد الطرب...» فانها أنسب بالمقام.

(٤) كذا بالأصلين. ولعلها محرفة عن: «تهويلكم». والتهويل: ما يعلو الرياض من نورها وأزاهيرها من بين أصفر وأحمر وأبيض وأخضر. ويجمع على تهاويل. ويحتمل أيضا أن يكون صوابه: «ويشوق تهدلكم». وتهدّل الشجر: تدلى أغصانه وثمره.

(٥) هو يحيى بن مرزوق مولى بنى أمية، وكان يكتم ذلك لخدمته الخلفاء من بنى العباس خوفا من أن يجتنبوه ويحتشموه؛ فاذا سئل عن ولائه انتمى الى قريش ولم يذكر البطن الذى ولاؤه لهم واستعفى من سأله عن ذلك. ويكنى أبا عثمان، عمّر مائة وعشرين سنة، وأصاب بالغناء مالم يصـبه أحد من نظرائه. (راجع ترجمته فى الأغانى ج ٦ ص ١٦ — ٢٤ طبع بولاق).

(٦) هو إبراهيم الموصلى المغنى المعروف. (راجع ترجمته فى الأغانى ج ٥ ص ١٥٤ — ٢٦٧ طبع دار الكتب المصرية).

(٧) كذا فى الأصلين. ولعل صوابه: «وخرق له الأثواب مخارق... الخ».

مُخَارِق[1] طَرَبًا وحسدا، ولم يسلَمْ منه سُلَيم[2] غيظًا وكَمَدا، وأخذ قلبَ ابن جامع[3] بمجامعه، وطوّقه من الإقرار غُلّا بمجامعه؛ حتى كأنّه بصحّة ضربه وإتقان أوتاره، يطلب عندهم قديمَ أحقاده وأوتاره.

فهى تُصْبِي[4] الأبصارَ لونًا قريبا * وتَسُرّ الأسماعَ ضَرْبًا بعيدَا
خضَب الكفّ من دم القلب وابتَزّ سُوَيداءَه فطوّق جيدَا
أعجميُّ اللّسان مُستعرِبُ الله * ـن يُعيدُ الحَلِيَّ صَبًّا عَميدا
كلَّ وقتٍ تراه من فَرْط شَجْوٍ * مُظْهِرًا فى الغِناءِ لحنًا جديدَا
تارةً يجعل النَّشيدَ بَسيطًا * ويُعيد البسيطَ طورًا نَشيدا
مَعْبَدٌ لو رآه أصبح عبدًا * ولَبِيدٌ[5] أمسى لديه بليدا
ضلّ عن إلْفه وأَقْلَقه الوَجْـ * ـدُ فأمسى بكاؤه تغريدا

(١) هو مخارق بن يحيى الجزار المغنى المشهور. كان أبوه جزارا مملوكا لعاتكة بنت شهدة، وهى من المغنيات المحسنات المتقدمات فى الضرب. وكان مخارق وهو صبى ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم. فلما بان طيب صوته علمته مولاته طرفا من الغناء، ثم أرادت بيعه فاشتراه إبراهيم الموصلى منها وأهداه للفضل ابن يحيى، فأخذه الرشيد منه ثم أعتقه. وكانت له مكانته العظيمة فى الغناء وعند الرشيد. وكناه الرشيد أبا المهنا. (راجع الأغانى ج ٢١ ص ٢٢٠ — ٢٤٩ طبع أوربا):

(٢) هو سليم بن سلام الكوفى، ويكنى أبا عبد الله، وكان حسن الوجه حسن الصوت، انقطع الى إبراهيم الموصلى فآل اليه وعلمه وناصحه. (راجع ترجمته فى الأغانى ج ٦ ص ١٢ — ١٥ طبع بولاق).

(٣) هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع، وهو من قريش. وكان أحفظ خلق الله لكتاب الله، وكان مغنيا مجيدا. قال: لولا أن القمار وحب الكلاب قد شغلانى لتركت المغنين لا يأكلون الخبز. وكان إبراهيم ابن المهدى يفضله فلا يقدم عليه أحدا. (راجع ترجمته فى الأغانى ج ٦ ص ٦٨ — ٩١ طبع بولاق).

(٤) كذا فى الأصلين. ولعله: «فهو يصبى الأبصار لونا قريبا * ويسر الخ» وأول الكلام وآخره مرجح ذلك.

(٥) قد تكون هذه الكلمة محرفة عن «عبيد». وعبيد اسم ابن سريج المغنى المشهور؛ فإن المقام مقام غناء وسجع، ولبيد كان شاعرا.

لو عارض الخليل[1] فى عروضه لبكّته ، أو ناظر ابنَ السِّكّيت[2] فى إصلاحه لسبكّته ؛ أو جادل الفارسىّ[3] لفَرَسه وجَدَله ، أو نازل الكُوفِىّ[4] لأكْفأه عن رُتْبته وأنزله" .

(١) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم ، أوّل من استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها ، وكان آية فى الذكاء . وهو أستاذ سيبويه والأصمعى والنضر بن شميل . توفى سنة ١٧٥ هـ . (راجع ترجمته فى بغية الوعاة للسيوطى و وفيات الأعيان لابن خلكان) .

(٢) هو يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت ، كان عالما بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر ، وله تصانيف كثيرة ذكرها ابن النديم فى الفهرست ، ومنها كتاب « إصلاح المنطق » . توفى فى رجب سنة ٢٤٤ هـ . (راجع ترجمته فى بغية الوعاة للسيوطى وفهرست ابن النديم) .

(٣) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبو على الفارسى واحد زمانه فى علم العربية . كان أعلم من المبرد وهو أستاذ ابن جنى . توفى ببغداد سنة ٣٧٧ هـ . (راجع ترجمته فى بغية الوعاة للسيوطى) .

(٤) لعله يريد إسحاق بن مرار أبا عمرو الشيبانى الكوفى راوية أهل بغداد ، كان واسع العلم باللغة والشعر . توفى سنة ٢٠٦ هـ . (راجع ترجمته فى بغية الوعاة للسيوطى) .

الباب الرابع من القسم الخامس

من الفن الثالث فى بُغَاث الطير

ويشتمل هذا الباب على ما قيل فى القُمْرىّ، والدُّبْسِىّ، والوَرَشان، والفَوَاخِت والشُّفْنِين، واليعتبط، والنَّوَّاح، والقَطَا، واليَمَام وأصنافه، والبَبَّغاء. وهذه الأصناف قد عدّها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أو أكثرَها فى الحمام، فقال: الحمام وَحْشِىّ، وأهلىّ، وبُيُوتىّ، وطُورَانِىّ. وكلّ طائر يُعرف بالنُّوَاح وحسنِ الصَّوت والدّعاء والتَّرجيع فهو حَمام وإن خالف بعضُه بعضًا فى الصُّورة واللون وفى بعض النَّوْح ولَحْن الهَدِيل.

قال: وزعم أفليمون[1] صاحبُ الفِراسة أنّ الحمام يُتّخذ لضروب، منها ما يُتّخذ للأُنْس والنِّساء[2] والبيوت، ومنها ما يُتّخذ للفِراخ، ومنها ما يتخذ للزِّجَال والسِّبَاق. والزِّجال: إرسال الحَمام الهَوَادِى. ثم ذكر من أوصاف الحمام وما فيه من ضروب المعرفة والمنافع ما نُورِدُه عند ذكرنا للحمام المشتهِر بهذه التَّسمية، وهو الذى أشار الجاحظ إليه. فلنذكر تفصيلَ ما قدّمناه من هذه الأصناف، فنقول وبالله التوفيق:

(١) كان فاضلا كبيرا عالما فى فن من فنون الطبيعة وكان معاصرا لبقراط. قال القفطى: وأظنه شامىّ الدار. وكان خبيرا بالفراسة عالما بها، إذا رأى الشخص وتركيبه استدل بتركيبه على أخلاقه؛ وله فى ذلك تصنيف مشهور خرج من اليونانية إلى العربية، وهو كتاب الفراسة. (راجع تاريخ الحكماء للقفطى ص ٦٠ طبع أوربا وفهرست ابن النديم).

(٢) أورد الجاحظ فى باب الحمام فى غير هذا الموضع عن أفليمون قال: اجعل حمام النساء المسرولات العظام الحسان ذوات الاختيال والتبختر والهدير. ثم ساق هو بعد ذلك قصة لرجل علق فتاة فتزوجها فامتنعت عليه فشكا ذلك لبعض معارفه فأشار عليه أن يتخذ لها حماما بحيث تراه، ففعل فما زال الحمام يثيرها بغزله ومطاعمه وتشكله حتى أجابت. (انظر ج ٣ ص ٨٣ – ٨٩ من كتاب الحيوان).

✦ ✦ ✦

أمّا القُمرىّ وما قيل فيه — فقـد قالوا : إنمـا سُمّى القمرىُّ بهـذه التسمية لبياضه، والأقمر : الأبيض . وحكاية صوته تشـبه ضحك الإنسان . وهو شديد المودّة والرحمـة. أما مودّته فإنه يُفرِّخ على فَنَنٍ من أفنان شجرةٍ عليها أعشاش لأبناء جنسـه ، فيُصَابحها فى كلّ يوم . وأمّا رحمته فإنه يربّى ولدَه ويَعِفّ عن أُنثاه مادام ولدُه صغيرًا . ومن عادته أنه يعمل عُشَّه فى طرَف فَنَنٍ دائِم الاهـتزاز، احترازًا على فرخه لئلا يسعى إليه من الحيوان المـاشى ما يقتله .

وقال أبو الفتح كُشَاجِم [يصفه من أبيات رثاه بها أوّلها](١) :

ومطوَّقٍ من حسن صَنْعة ربه(٢) * طوقين خِلتُهما من النُّـوّارِ

[منهـا(١) :]

لَهْـفِى على القُمْرِىّ لَهْفًا دائمـا * يَكْوِى الحَشَا بجَوًى كلَذْعِ النار

لونُ الغمامةِ لونُه ومُناسِبٌ * فى خَلْقِـهِ الأقـلامَ بالمنقـار

✦ ✦ ✦

وأمّا الدُّبْسِىّ وما قيل فيه — وإنمـا سمّى الدُّبْسِىّ بذلك للونه، لأنّ الدُّبْسَـة حمرةٌ فى سواد . قالوا : والدُّبْسِىّ أصـناف، منها المصرىّ ، والحجازىّ ، والعِراقىّ . وأفخر هذه الأصناف المصرىّ [ولونه الدكنة](١) . وهو لا يُرى ساقطا على وجه الأرض، بل له فى الشتاءِ مَشْتًى، وفى الصيف مَصِيفٌ . ولا يُعرف له وكر(٣) .

(١) زيادة عن مباهج الفكر .

(٢) يحتمل أيضا أنه « صبغة ربه » .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « ذكر » ، وهو تحريف .

***

وأمّا الوَرَشَانُ وما قيل فيه — والورشان أصناف منها النُّوبِيّ وهو ورشان أسود، ومنها الحِجازيّ . والنوبِيّ أشجاها صوتا . وهذا الطائر يوصف بالحُنُوّ على أولاده، حتى إنه ربما قتل نفسَه إذا رآها فى يد القانص (١) .

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ فيه :

أنا فى نزهتين من بستانى (٢) * حين أخلو به ومِن ورَشَانِ
طائرٌ قلبُ مَنْ يغنّيه أوْلى * منهُ عند الغِناء بالطّيرانِ
مُسْمِع (٣) يُودِع المسامعَ ما شا * ءت وما لم تشأْ من الألحانِ
فى رداءٍ من سَوْسنٍ وقميصٍ * زرَّرتْه عليه تشْرينانِ (٤)
قد تغشّى لونُ السماء قَراه (٥) * وتراءى فى جيده الفَرْقَدانِ

***

وأمّا الفواخِتُ وما قِيل فيها — والفواختُ عراقيّةٌ ليست حجازيّة. وفيها فصاحةٌ وحسنُ صوت . وفى طبعها أنها تأْنَس بالناس، وتُعَشِّش فى الدُّور .

---

(١) فى أ : «فى أيدى الناس» .

(٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «بستان» بدون ياء .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «سمع» ، وهو تحريف .

(٤) كذا فى الأصلين . وفى مباهج الفكر : « وزرته عليه بسرمتان » . ولم نوفق مع البحث الى ما نطمئن الى أنه الصواب .

(٥) كذا فى مباهج الفكر . والقرا : الظهر . وفى الأصلين : «تراه» .

والعرب تضرب بها فى الكذب المثـلَ ، فيقولون : «أكذبُ من فاختةٍ» ؛ فإنّ حكاية صوتِها عندهم : «هذا أوانُ الرُّطَبِ» . قال شاعرٌ : (١٣٠)

أكذبُ من فاختـــةٍ * تقول وســـطَ الكَرَبِ
والطَّلْـعُ لم يَبْـدُ لنـا * هـذا أوانُ الرُّطَبِ

وهو يُعمَّر . وحكى أرسطو أن منه ما عاش أربعين سنة . ٥

وقال أبو هلال العسكرىّ :

مَرَرتُ بمِطْرابِ الغَـداةِ كأنها * تُعَلّ من الإشراق راحًا مُفَلْفَلا
مُنَمَّرةٍ كَدْراء تحسَب أنهـا * تُجَلّل من جِلد السَّحاب[1] مُفَصَّلا
بَدَت تجتلى للعين طوقًا ممسَّكًا * وطرْفًا كما ترنو الغزالةُ أَكْحَـلا
لهـا ذَنَب وافى الجوانبِ مثلما * تُقشَّر[2] طَلْعًـا أو تجرَّد مُنْصُـلا ١٠
إذا حلَّقتْ فى الجوّ خِلْتَ جناحَها[3] * يَرُدّ صَـــفِيرًا أو يحرِّك جُلْجُلا

✣ ✣ ✣

وأمّا الشُّفْنِين وما قيل فيه — والشفنين من الطير التى تترنّم ؛ وصوتُه فى ترنّمه يُشْبِه صوتَ الرَّبَاب . وفى طبعه أنه إذا فقد أُنْثاه لم يَزل أعْزَبَ[4] ، يأوِى الى بعض فراخه حتى يموت ؛ وكذلك الأنثى إذا فقَدت الذّكَر . وهو متى سمن سقَط ١٥ ريشُه وامتنع من السِّفاد ؛ فهو لذلك لا يَشْبَع . وهو طائر يؤثِر[5] العُزْلَة .

(١) كذا فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى فى الكلام على الطير . وفى الأصلين : «السحابة» ، وهو تحريف . (٢) كذا فى ديوان المعانى . وقد جاءت فى الأصلين محرّفة .
(٣) كذا فى ديوان المعانى . وفى الأصلين : «صياحها» . (٤) فى اللسان (مادّة عزب) : رجل عزب ومعزابة : لا أهل له . ثم قال : «ولا يقال رجل أعزب ، وأجازه بعضهم» . ٢٠
(٥) كذا فى مباهج الفكر . وفى أ : «يورث» وهو تحريف . ولم ترد فى ب .

❖

وأمّا اليعتبط وما قيل فيه — وإنما سمّى اليعتبط بهذه التسمية لصوته، وهو شريف فى طيور الحجاز. وحاله حال القُمْرىّ، ولكنه أحرّ منه مِزاجًا وأعلى صوتًا. قال كُشَاجِم:

وناطقٍ لم يَخْشَ فى النطق غَلَطْ * ما قال شيئًا قطُّ إلا يعتبطْ

❖

وأمّا النَّوّاح وما قيل فيه — والنوّاح: طائر كالقُمْرىّ، وحالُه كحاله؛ إلّا أنّه أحرّ منه مِزاجًا وأرطبُ وأدمثُ وأشرفُ.(١) قالوا: يكاد النوّاح يكون للأطيارِ الدَّمِثةِ مَلِكا، وهو يَهيجها إلى التّصويت لأنه أشجاها صوتا؛ وجميعُها تهوَى آستماع صوته. وهو أيضا يَسُرُّه آستماعُ صوتِ نفسه. والله أعلم بالصواب.

❖

وأمّا القَطَا وما قيل فيه — والقطا نوعان: "كُدْرِىّ" و"جُونىّ". والكُدْرِيّة غُبْرُ الألوان، رُقْشُ الظهور والبطونِ، صُفْرُ الحُلوقِ، قِصارُ الأذناب؛ وهى ألطف من الجُون. والجونيّةُ سُود بطونِ الأجْنِحةِ والقوادِمِ بِيضُ اللَّبَان(٢) وفيه طوقان أسودُ وأصفرُ؛ وظهورُها غُبْرٌ رُقْطٌ تعلوها صفرةٌ. وتسمّى الجُونيّة غُتْمًا(٣)؛ لأنها لا تُفصِح بصوتها إذا صوّتت إنما تُغَرْغِر بصوتٍ فى حَلْقها. والكُدْرِيّةُ فصيحةٌ تنادى بآسمها تقول: قَطَا قَطَا؛ ولهذا يُضرب بها المثلُ فى الصدق.

(١) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين: «أترف».

(٢) فى الأصلين: «اللبات».

(٣) الغتمة (بالضم): العجمة فى المنطق.

وتُوصف القطا بحسن المشى لِتقارُب خُطاها . والعرب تشبّه مشىَ النّساء الخفِرات بمشيها إذا أرادوا مدحَهنّ . قال شاعر يصف القطـاةَ — واخْتُلِف فى الشاعر من هو، فقيل : هو [أَوْس بن (١)] غَلْفاء الهُجَيْمىّ، وقيل : مُزَاحِم العُقَيْلى، وقيل : العباس بن يَزيد بن الأسود الكِنْدىّ ، وقيل : العُجَيْر السَّلُولىّ، وقيل : عمرو بن عقيل بن الجَعْد الهُجَيْمىّ ؛ قال أبو الفرج الأصفهانىّ : وهو أصحّ الأقوال — : ٥

أمّا القَطَاةُ فإنّى سوف أنْعَتها * نَعْتًا يوافق نعتى بعضَ ما فيها
سَكّاءُ (٢) مخطوبةٌ (٣) فى ريشها طَرَقٌ (٤) * سُودٌ قوادمُها صُهْبٌ خَوافِيها
مِنقارُها كنَوَاة القَسْب (٥) قلّمها * بِمِبْرَدٍ حاذِقُ الكفّيْن بارِيها
تمشِى كمشى فتاةِ الحىّ مُسرِعةً * حِذَارَ قومٍ إلى سِتْرٍ يُوارِيها
تَسقِى الفِراخَ بأفواهٍ مرقّقةٍ * مثلِ القَوارِيرِ سُدّت من أعاليها ١٠
كأن هَيْدَبةً (٦) من فوق جُؤْجُئِها * أو جِرْوَ (٧) حنظلةٍ لم يَعْدُ راميها (٨)

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسىّ :

ولُرُبّ طيّارٍ خفيفٍ قد جَرَى * فَشَلا بجارٍ خلفَه طيّارِ

---

(١) التكملة عن الأغانى (ج ٧ ص ١٥٨ طبع بولاق) .

(٢) السكك : صغر الأذن ولصوقها بالرأس، يقال للقطاة : سكاء لأنه لاأذن لها . ١٥

(٣) فى الأصلين : «مخطومة» بالميم ، ولعله محرف عما أثبتناه . والخطبة : لون يضرب إلى الكدرة مشرب حمرة فى صفرة كلون الحنظلة الخطباء قبل أن تيبس وكلون بعض الحمر الوحشية .

(٤) طرق الريش : أن يغطى الريش الأعلى منه الأسفل .

(٥) القسب : التمر اليابس الصلب النواة .

(٦) الهيدب : خمل الثوب وهدبه واحدته هيدبة . ٢٠

(٧) الجرو : الصغير من الحنظل .

(٨) كذا فى الأغانى . وفى الأصلين : «راعيها» . قال فى الأغانى : «أى لم يعد عليها فيكسرها» .

من كلّ قاصرةِ الخُطا مُخْتالةٍ * مَشْيَ الفتاةِ تجرُّ فضلَ إزارِ
مخضوبةِ المِنْقارِ تحسب أنها * كَرَعَتْ على ظَمَإٍ بكأسِ عُقارِ
لا تستقرّ بها الأيادى خشيةً (١) * من ليلِ وَيْلٍ أو نهارِ بَوارِ

وقال المَزار أو العِكَبُّ (٢) التغلبيّ — وهى أجود قصيدةٍ قِيلتْ فى القطا — :

بلادُ مَرْوَراةٍ (٣) يَحارُ بها القطا * ترى الفرخَ فى حافاتها يتحرّقُ
يَظَلُّ بها فرخُ القطاة كأنّه * يَتيمٌ جفا عنه (٤) مَواليه مُطْرِقُ
بديمومةٍ (٥) قد بات فيها وعينُه * على مَرَهٍ (٦) تُغْضى مراراً وترمُقُ
شبيهٌ بلا شيءٍ هنالك شخصُه * يُواريه قَيْضٌ (٧) حولَه مُتفلّقُ
له مَحْجرٌ (٨) نابٍ وعينٌ مريضةٌ * وشِدْقٌ بمثل الزعفران مُخَلّقُ
تُعاجيه (٩) كَلْاءُ المَدامعِ حُرّةٌ * لها ذَنَبٌ ساجٍ وجِيدٌ مُطوّقُ

(١) كذا فى ديوانه (ص ٥٣ طبع مصر) . وفى الأصلين : « الأراحى » .

(٢) كذا فى الحيوان للجاحظ (ج ٥ ص ٢٠٨ من النسخة الفوتوغرافية) . وفى الأصلين : « أبو الغلب » . ولم نعثر فى المراجع التى بين أيدينا على مسمى بهذا الاسم . وقد صححنا هذه القصيدة عن النسخة الفوتوغرافية والمطبوعة منه .

(٣) فى الأصلين : « ثلاث مرورات تجاذبها القطا » . والمروراة : المفازة التى لا شىء فيها .

(٤) فى الأصلين : « تناجيه » بدل « جفا عنه » .

(٥) الديمومة : المفازة الدائمة البعد .

(٦) فى الأصلين : « مرة » . ولعله مصحف عما أثبتناه . والمره : مرض فى العين لترك الكحل .

(٧) القيض : قشرة البيضة العليا اليابسة ، وقيل : هى التى خرج فرخها أو ماؤها كله .

(٨) محجر العين : ما دار بها . وفى الأصلين : « عجز » ، وهو تحريف .

(٩) كذا فى الحيوان النسخة الفوتوغرافية . من معاجاة الفصيل وهو أن يرضع بغير لبن أمه إذا كان لا لبن لها أو ماتت أو إذا علله بشىء أو منعته اللبن وغذيته بالطعام . وفى الأصلين : « نعاجية » وهو تصحيف . وفى النسخة المطبوعة من الحيوان : « تناجيه » .

سِمَاكِيَّةٌ[1] كُدْرِيَّةٌ عَرْعَرِيَّةٌ[2] * سُكَاكِيَّةٌ[3] عَفْرَاء سَمْرَاءُ عَسْلَق[4]

إذا غادَرَتْه تَبتغى ما يُعِيشُـه * كفاها رَذَاياهَا الرَّقِيعُ[5] الهَبَنَّقُ

غدتْ تَسْتَقِى من مَنْهَلٍ ليس دونَه * مسيرة شهرٍ للقَطَا مُتَعَـلَّق

لأَزْغَبَ مطروحٍ بجَـوْزِ تَنُوفةٍ * تَلَظَّى سَمُومًا قَيْظُـه فهو أَوْرَق[6]

تَراه إذا أمسى وقـد كاد جِلدُه * من الحـر عن أوصاله يتمزَّق

غدت فاستقلَّتْ ثم ولَّت مُغِيرةً * بها حين يَزْهاها الجناحان أَوْلَقُ[7]

تَيَمَّمُ ضَحْضَاحًا من الماءقد بَدَتْ * دَعَامِيصُه[8] فالمـاءُ أَطْحَلُ[9] أَطْرَقُ[10]

فلمـا أتتْـــه مُقْدَحِرًّا[11] تغوَّثتْ[12] * تغوُّثَ مخنوقٍ فتطفو وتَغْـرَق

---

(١) سماكية : نسبة إلى السماك . والسماكان : كوكبان نيران يقال لأحدهما : السماك الرامح وللآخر : السماك الأعزل .

(٢) عرعرية : منسوبة الى العرعر، وهو شجر السرو، فارسية .

(٣) السكاكية : منسوبة الى السكاكة كثمامة . والسكاكة : الصغير الأذن، وهى أيضا الهواء الملاقى عنان السماء . (٤) العسلق : الخفيف أو الطويل العنق .

(٥) كذا فى اللسان مادة « هبنق » . وقد نسب هذا البيت لذى الرمة، ولكننا لم نجده فى ديوانه . وقال : قيـل : أراد بالرقيع الهبنق القمرى ، وقيـل : بل هو الكروان وهو يوصف بالحمق لتركه بيضه واحتضانه بيض غيره . وفى الأصلين وكتاب الحيوان : « النجاء الهبنق » .

(٦) الورقة : سواد فى غبرة . (٧) الأولق : الجنون .

(٨) الدعاميص جمع دعموص ، وهو دويبة أو دودة سوداء تكون فى الغدران إذا نَشَّت، وقيل : دودة لها رأسان تراها فى المـاء إذا قل .

(٩) الطحلة : لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد .

(١٠) الطرق : التراكب .

(١١) المقدحرّ فى أصل معناه : المتهيئ للسباب والشرّ تراه الدهر منتفخا شبه الغضبان، وهو بالدال والذال جميعا . ولعله وصف المـاء بهذا الوصف على ضرب من التجوّز لثورانه واضطرابه .

(١٢) كذا فى الحيوان . وفى الأصلين : « تعوّبت تعوّب » .

تَجِرّ وتُلْقِى فى سِقَاءٍ كأنّه * من الحَنْظَل العَامِىّ جِرْوٌ مُعَلَّقُ (١)
فلمّا ارتوتْ من مائها لم يكن لها * أناةٌ وقد كادت من الرّىّ تبصُقُ
طَمَتْ طَمْوةً صُعْدًا ومَدّتْ جِرانَها * وطارت كما طار الشِّهابُ المُحَلَّقُ (٢) (٣)

ذكر شىء من الأوصاف والتشبيهات الشعريّة الجامعة لمجموع هذا النوع الذى ذكرناه

من ذلك قول بعض الشعراء :

وقبلَ أَبْكَى كلَّ من كان ذا هوًى * هَتوفُ البَوَاكِى والدِّيارُ البلاقعُ
وهنّ على الأَفْلاق (٤) من كلِّ جانب * نوائحُ ما تَخْضَلُّ منها المدامعُ
مُزَبْرَجَة الأعناقِ نُمْرٌ ظهورُها * مُخَطَّمةٌ بالدُّرّ خُضْرٌ روائعُ
تَرى طُرَرًا بين الخَوافِى كأنّها * حَوَاشِى بُرودٍ زيّنتها الوشائعُ
ومن قِطَعِ الياقوت صِيغتْ عيونُها * خواضبُ بالحِنّاء منها الأصابعُ

وقال أبو الأسود الدؤلىّ من أبيات : (١٣٢)

وساجع فى فروع الأَيْك هيّجنى * لم أدْرِ لمْ ناح ممّا بى ولِمْ سَجَعا
أبا كيًا إلْفَه من بعد فُرْقَتِه * أم جازعًا للنَّوَى من قبل أن تقعا
يدعو حمامتَه والطيرُ هاجعةٌ * فما هَجَعتُ له ليلًا ولا هَجَعا

(١) فى الحيوان (النسخة الفوتوغرافية) : « تحير » . وليست إحدى الكلمتين بأولى من أختها فى اتساق النسج .

(٢) طمت : ارتفعت .

(٣) كذا فى الحيوان (النسخة الفوتوغرافية) . وفى الأصلين : « السحاب » .

(٤) الأفلاق : جمع فلق ، وهو المطمئن من الأرض بين ربوتين .

موشّح[1] سُـــندُسًا خُضْر مناكبُه * تَرَى من المســـك فى أذياله لُمَعا
له من الآس طَوْقٌ فوقَ لَبّته * من البَنَفْسَـج والخَـيْرَى[2] قد جُمعا
كأنمـا عَبّ[3] فى مُسْـوَدّ غاليـــةٍ * وحَلّ من تحتـه الكافـورُ فانتُقِعا[4]
كأنّ عينيه من حسن آصفرارهما * فَصّانِ من حَجَر الياقوت قد قُطِعا
كأنّ رجليه من حسن آحمرارهما * ما رَقّ من شُعَبِ المَرْجان فآتّسعا
شكا النَّوَى فبكى خوفَ الأَسَى فرمَى * بين الجوانح من أوجاعه وجعا
والريحُ تَخْفِضُـه طورًا وترفَعـــه * طـورًا فمنخَفِضًا يدعو ومرتفِـعا
كأنه راهبٌ فى رأس صومعـــةٍ * يتلو الزَّبُورَ ونجمُ الصبح قد طلعا

وقال آبنُ اللبّانة[5] الأندلسىّ :

وعلى فروع الأَيْك شادٍ يَحْتوى * طَـرْفِى لآخرَ تحتـويه الأَضْلُعُ
يَنْدَى له رَطْبُ الهواء فيغتَدِى * ويُظِـلّه وَرَقُ الغصون فيهجَعُ
تَخِـذَ الأَرَاكَ أريكةً لمنـامِه * فـله إلى الأسحار فيهـا موضِعُ
حتى إذا ما هزّه نَفَسُ الصَّـبَا * والصبح، هَزَّكَ منه شَدْوٌ مُبْدَعُ
فكأنمـا تلك الأَرَاكةُ مِنْـبَرٌ * وكأنه فيهـا خَطيب مِصْـقَعُ

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «موشحا» .

(٢) الخيرى : نور، معرب (عن الجوهرىّ) . وقد شرح خواصه ابن البيطار فى مفرداته، فراجعه .

(٣) فى الأصلين : «غب» بالغين المعجمة . وفى مباهج الفكر : «غاب» .

(٤) انتقع الرجل وامتقع وابتقع (على صيغة المبنى للمجهول) : تغيّر لونه، وبالميم أجود .

(٥) هو الوزير الأديب أبو بكر بن اللبانة الدانى أحد شعراء دولة المعتمد فى الأندلس، المرتضعين دررها، والمتجعين دُررها . وكان المعتمد — رحمه الله — يميزه بالشفوف والإحسان، ويجوزه فى فرسان هذا الشان . (راجع نفح الطيب ص ٤١٣، ٥٧٨ من المجلد الثانى طبع أوربا) .

وقال بعضُ الأعراب [يصف مُطَوَّقَةً](١) :

دعَتْ فوق ساقٍ دعوةً لو تناولتْ * بها الصَّخْرَ من أعلى أَبَانَ(٢) تَحَدَّرا
تُبَكِّى بعين ليس تُذْرِى دموعَها * ولكنّها تُذْرِى الدموعَ تذكُّرا
محلّاة طَوْقٍ ليس تَخْشَى انفصامَه * إذا همّ أن يَبْلَى تُجَدِّدُ آخَرا
لَهَا(٣) وُشُحٌ دونَ التَّراقِى وفوقَها * وصَدْرٌ كمقطوف البَنَفْسَج أخضرا
تَنَازَعُها الألوانُ(٤) شتّى صِقالُها * بدا لتَلَالِى الشمس فيه تحيرا(٥)

وقال شاعر أندلسىّ :

وما شاقنى إلا ابْنُ وَرْقاء هاتِفٌ * على فَنَن بين الجزيرة والجسرِ
مُفَتَّقُ طوْقٍ لازوردىُّ كَلْكلٍ * موشّى الطُّلَى أَحْوَى القوادمِ والظهرِ
أدار على الياقوت أجفانَ لؤلؤٍ * وصاغ على الأجفان طوقًا من التِّبرِ
حديدُ شَبَا المِنقارِ داجٍ كأنه * شَبَا قلمٍ من فِضَّة مُذ مِن حِبْرِ
توسّد من فرع الأراك أريكةً * ومال على طىّ الجناحِ مع النَّحرِ
ولمّا رأى دمعى مُراقًا أرابه * بكائى فاستولى على الغُصُن النَّضْرِ
وحثّ جناحيه وصفّق طائرًا * فطار بقلبى حيث طار وما يَدرى

وقال آخر :

كأنّ بنحرها والجيدِ منها * إذا ما أمكنتْ للنّاظرينا
مَخَطًّا كان من قلمٍ لطيفٍ * فخطّ بجيدها والنحرِ نُونا

(١) زيادة عن مباهج الفكر .
(٢) أبان : جبل .
(٣) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «له» .
(٤) فى الأصلين ومباهج الفكر : «ألوان» .
(٥) كذا فى الأصلين ومباهج الفكر ، ولعله محرف عن «محبرا» أى مزينا .

وقال ٱبنُ الرومى :

مُطوَّقَـةٌ تبكى ولم أر باكيًا * بدا ما بدا من شجوها لم يُسَلَّبِ[1]

وقد أوردنا فى باب الغزل والنَّسيب من هـذا المعنى فيما قيل على لسان الورقاء ما يُستغنَى عن تكرَاره .

٥

❖

وأمّا اليمـامُ وأصـنافُه وما وُصف به وما قيل فيه — فالعـربُ تقول : إن هذه التسميةَ واقعةٌ على النوع الذى تسـمّيه عامّةُ الناس الحمـامَ؛ وهو أصنافٌ مختلفةُ الأشكالِ والألوانِ والأفعال، منها "الرّواعبُ" و "المرَاعِيشُ" و"العَدّاد" و "المِساقُ" و "الشَّدّادُ" و "القَلّاب" و "الشَّقّاق" و "المَنْسوب".

١٠

❖

فأمّا الرّواعبُ — وهو ألوان كثيرةٌ . وزعم الجـاحظُ أنه تولّد بين وَرَشانٍ ذكرٍ وحمـامٍ أنثى، فأخذ من الأب الجُثّة ومن الأمّ الصوتَ، وفاتَه سرعةُ الطيران فلم يشبههما فيه؛ وله من عِظَم البدنِ وكثرة الفراخِ والهَديلِ والقَرْقَرة ماليس لأبويه، حتى صار ذلك سببًا للزيادة فى ثمنه والحرصِ على ٱتّخاذه .

١٥

❖

وأمّا المرَاعيشُ — وهى تَطير مرتفعةً حتى تغيبَ عن النظر فتُرى فى الجوّ كالنّجم .

(١) سلّبت المرأة : إذا لبست ثياب الحداد .

❖ ❖ ❖

وأمّا العَدّاد — فهو طير ضخم، قليل الطيران [كثير الفِراخ][1] .

❖ ❖ ❖

وأمّا المِيساق — وهو أضخم من العَدّاد وأنبل ، ثقيل الجسم لا يستطيع الطيرانَ إلّا قليلا .

❖ ❖ ❖

وأمّا الشدّادُ — فهو لا يَلْزم الطيرانَ فى الجوّ، وله قوّة فى جَناحه [حتى يقال إنّه ربما يكسِر الجَوْز به، ولا يأتى من الغاية لِبَلَهٍ فيه][1] . وأصحابُ الرَّغَبات فى تربية هـذا الصِّنفِ يُلْقونه على البَصْريّات فيخرج من بينهما حمـامٌ يُسمّى "المضرّب" يجتمع فيه هدايةُ البصرىّ وشدّةُ الشّدّادِ . والشدّادُ يطير صُعُدًا حتى يُرى كالنّجم . وفى ذنبه إحدى وثلاثون ريشة .

❖ ❖ ❖

وأمّا القَلّاب — فتسمّيه العراقيون "المَلّاح"؛ وسمّى بذلك لتقلّبه فى طيرانه .

والشّقّاق[2] — وطيرانُه تَحْويمٌ .

❖ ❖ ❖

وأمّا المنسوب[3] — ويسمّيه العراقيّون "الهوَادى"، والمصريون[4] يسمونه "البَصَارِى" [يعنون[1] البصرية]، وهو بالنسبة إلى ما تقـدّم ذكرُه كالعِتاق من

(١) زيادة عن مباهج الفكر. (٢) تدل عبارة مباهج الفكر على أن العراقيين يسمون «القلاب» «الملاح» و «الشقاق» وأن الشقاق ليس بضرب آخر . (٣) زاد فى مباهج الفكر عند الكلام على هذا الصنف من الحمام زيادات كثيرة عما هنا ، فراجعها . (٤) فى مباهج الفكر : «والبصريون» .

الخيل، وما عداه فيها كالبراذين . وفيها "العلوىّ" وهو ألطفُ جِرْمًا وأسرعُ طيرانًا؛ وهو يطلب وكَرَه ولو أرسل من مسافةِ ألف فرسخ، ويحمِلُ البطائقَ ويأتى بها من المسافة البعيدةِ فى المدّة القريبة . قالوا : وفيه ما يقطعُ ثلاثةَ آلافِ فرسخٍ فى يوم واحد . وسِباعُ الطير تطلُبه أشدَّ طلبٍ. وخوفُه من الشاهين أشدّ من خوفه من غيره . وهو أطير منه ومن سباع الطير كلّها؛ لكنه يُذْعَر فيجهل بابَ المَخْلَص . ٥

والمحمودُ منه ما وصفَه الجاحظُ عن أفليمون صاحبِ الفِراسةِ أنه قال :

جميعُ الفراسة لا تخرجُ عن[1] أربعة أوجه : أوّلها التقطيعُ ، والثانى المجسّة ، والثالث الشمائل، والرابع الحركة .

فأمّا التقطيع — فانتصابُ العُنُق والحَلْقةِ ، واستدارةُ الرأس من غير عِظَمٍ ولا صِغَرٍ، وعِظَمُ القِرْطِمَتَين[2] ونَقَاؤهما ، واتّساعُ المَنْخَرَيْن، وانهراتُ الشِّدقَيْن ، وسَعَةُ الجوف ، ثم حسنُ خِلْقة العينين مع توقّدهما ، وقِصَرُ المِنْقار فى غير دِقّةٍ، ثمّ اتّساعُ الصدر ، وامتلاءُ الجُؤْجُؤ ، وطولُ العُنُق ، وإشرافُ المَنْكبين ، وانكماشُ الجناحين، وطولُ القوادم فى غير إفراطٍ ، ولُحُوق بعض الخوافى ببعض، وصَلابةُ القَصَبِ فى غير انتفاخ ولا يُبْس ، واجتماعُ الخَلْق فى غير الجُعُودة والكَزازة[3]، وعِظَمُ الفَخِذَين[4]، وقِصَرُ الساقين والوَظِيفين، وافتراقُ الأصابع، وقِصَرُ الذَّنب وخفّتُه من غير تَفْنينٍ[5] وتفريق، ثم توقّدُ الحدقتين وصَفاءُ اللّون. فهذه علامة الفِراسةِ فى التقطيع . ١٠ ١٥

(١) فى الأصلين : « من » . (٢) القرطمتان : نقطتان على أصل منقار الحمام .

(٣) كز الشىء : يبس وانقبض . (٤) فى المخصص ومباهج الفكر : «وعظم الفخذين والساقين» .

(٥) من غير تفنين : من غير اختلاط . يقال : فنن الشىء إذا خلطه . وعبارة المخصص : «وقصر الذنب وخفته فى غير تفريق من الريش ولا تفنين» . وقد أورد المخصص هذا الموضوع مع اختلاف يسير فى بعض الكلمات فراجعه (ج ٨ ص ١٧٠) طبع بولاق . ٢٠

وأمّا علامة المَجسّة — فَوَثَاقَةُ الخَلْق، وشدّةُ اللحم، ومَتانةُ العَصَب، وصلابةُ القَصَب، ولينُ الرِّيش فى غير رِقّةٍ، وصلابةُ المِنقار فى غير دِقّةٍ .

وأمّا علامة الشمائل — فقلّة الاختيال، وصفاءُ البصر، وثباتُ النظر، وشِدّة الحَذَر، وحسنُ التَّلَفُّتِ، وقِلّةُ الرِّعْدَة عند الفزع، وخفّةُ النهوض إذا طار، وتركُ المبادرةِ إذا لَقَط .

وأمّا علامة الحركة — فالطيران فى عُلُوّ، ومدُّ العُنُق فى سُمُوّ، وقلّةُ الاضطراب فى جوّ السماء، وضمُّ الجناحين فى الهواء، وتتابُعُ الرَّكْض فى غير اختلاطٍ، وحسنُ القصد فى غير دَوَرانٍ، وشدّةُ المدّ فى الطيران . فإذا أصبتَه جامعاً لهذه الصفات فهو الطائر الكامل . (١٣٤)

وقد وصف الجاحظُ الحمامَ فى كتاب الحيوانِ وبسط فيه القولَ ووسّعَ المجالَ . ونحن الآن نُورِدُ ملخّصَ ما قاله فيه، قال :

ومن مناقب الحمام حبّهُ للناس وأُنْسُ الناس به، وهو من الطير المَيامين . وهو إذا عَلِمَ الذكرُ منه أنّه قد أودَعَ رحِمَ الأُنْثى مايكون منه الولدُ، تقدّما فى إعداد العُشّ، ونقْلِ القَصَبِ وشِقَق(١) الخُوص، وأشباه ذلك من العِيدان الخَوّارة(٢) الدِّقاق، حتى يَعملا أُخْفُوصةً وينسجاها نسجًا متداخلا فى الموضع الذى اتّخذاه واصطنَعاهُ عشًّا بقدر جُثْمانِ الحمامة؛ ثم أشخصا لتلك الأُخْفُوصةِ حروفًا غيرَ مُرتفعةٍ لتحفَظ البيضَ وتَمنَعَه من التدحُرج، ولتَلْزَم كَتِفَي الجُؤْجُؤ، ولتكونَ رِفْدًا لصاحب الحَضْن، وسندًا للبيض؛ ثم يتعاوَران ذلك المكانَ ويتعاقبان تلك الأُخْفُوصةَ يُسَخِّنانها

(١) كذا فى كتاب الحيوان (النسخة الفوتوغرافية) . وشقق : جمع شقة . وفى الأصلين وكتاب الحيوان المطبوع : «وتشقيق» .

(٢) الخوارة : الضعيفة الرخوة .

ويُدفِئانِها ويُطَيِّبانها[1] ويَنفِيان عنها طباعَها الأوَل ويُحْدِثانِ لها طبيعةً أُخرى مُشـتقّةً من طبائعهما ومُستخْرَجةً من رائحة أبدانهما وقُواهما، لكى تقعَ البيضةُ إذا وقعت فى موضع يكون أشبهَ المواضع طِباعًا بأرحام الحمام مع الحضانةِ [والوَتارة][2]، كى لا تنكسرَ البيضـةُ بيُبْس الموضع، ولئـلا تُنكِرَ طباعُها طباعَ المكان، وليكونَ على مقـدارٍ من البَرْد والسُّخُونة والرَّخاوَةِ والصَّـلابةِ. ثم إنْ ضرَبها المخاضُ وطَرَّقَتْ بيضها، بدَرَتْ إلى الموضع الذى قد أعدّته وتحامَلَت إليـه، إلّا أن يقرَعَها رَعْدٌ قاصفٌ أو ريحٌ عاصفٌ فإنها ربمـا رمَت بها دون الأُفْحوصة. والرَّعد ربّمـا أفسد البيضَ. فإذا وضعتِ البيض فى ذلك المكانِ الذى أعدّاه لا يزالان يتعاقبانِ الحَضْنَ ويتعاورانه حتى تنتهِى أيّامُه ويَتمّ مِيقاتُه؛ فعند ذلك يَنصدِعُ البيضُ عن الفرخ، فيخرج عارىَ الجلد صـغيرَ الجَناح مُسْـتَدَّ الحُلْقوم؛ فيعلَمانِ أنّه لا يَتّسع حَلْقُـه وحوْصلتُه للغِـذَاء، فلا يكون لهما همٌّ إلّا أن يَنفُخَا فى حَلْق الفَرْخ الرِّيحَ لتتّسع الحوصلةُ بعـد ٱلتحامها. ثم يعلمانِ أنه وإن ٱتّسـعت الحوصلةُ لا يَحْمِـلُ فى أوّل ٱغتذائه أن يُزَقّ بالطُّعْم، فيُزَقّ باللُّعاب المختلِط بقُواهمـا وقُوَى الطُّعْم. ثم يَعلمـانِ أنّ الحوصـلةَ تضعُف عن ٱستمراء الغِـذاء وهضم الطُّعْم فيأكلان من شُرُوج[3] أصـول الحيطان — وهو شىء من المِلح المَحْض والـترابِ الخالِص، وهـذا هو السَّبَخُ — فيَزُقّانِه به. حتى إذا علما أنه قد ٱندبغ[4] وٱشتدّ زَقّاه بالحَبّ الذى قد غَبّ فى حواصلهما؛ ثمّ يَزُقّانه بعـد ذلك بالحَبّ والمـاء. حتى إذا علمـا أنه قد أطاق

(١) كذا فى الحيوان للجاحظ. وفى الأصلين: «ويطينانها» بالنون بدل الباء الموحدة.

(٢) زيادة عن كتاب الحيوان.

(٣) الشروج: الشقوق والصدوع.

(٤) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٣ ص ٤٧) طبع مصر. وفى الأصلين: «اندفع».

اللَّقْطَ منعاه بعضَ المنع ليَحتاج إلى اللقط فيتعوّده . فإذا علما أنّ إرادتَه قد تمّت وأنه قد قوِى على اللَّقْط وبلغ بنفسه مُنتهى حاجته ، ضَرَباه إذا سألها الكفاية ، ونَفَياه متى رجع إليهما ، وتُنْتَزَعُ تلك الرحمةُ العجيبةُ منهما ويَنْسَيانِ ذلك التعطّف . ثم يبتدئان العمل ثانيًا على ذلك النظام وتلك المُقَدِّمات . فسبحان الهادى الملهم .

٥ قال : ثمّ يَبتدئ الذّكَرُ بالدُّعاء والطِّراد ، ويَبتدئ الأُنثى بالتَّأتِّى والاستدعاء ، ثم تَزِيفُ[1] وتَشْكَل[2] ، وتُمَكِّن وتَمْنَع ، وتُجِيبُ وتَصْدِفُ بوجهها ؛ ثمّ يَتَعاشقان ويَتطاوعان ويكون بينهما قُبَلٌ وارتشافٌ وإدخالُ فَمِها فى فمه ؛ وذلك هو التَّطَاعُم والمُطَاعَمَةُ . قال الشاعر :

لم أَعْطُها[3] بيدى إذْ بِتُّ أَرْشُفُها * إلّا تَطَاوُلَ غُصْنِ الجيدِ بالجيدِ

١٠ كما تَطَاعَمَ فى خَضْرَاء ناعمةٍ * مُطَوَّقانِ أصاخَا بعد تَغْرِيدِ

قال أبو عثمان : ومما أشبه فيه الحمامُ الناسَ أن ساعات الحَضْن على البيض أكثرُها على الأُنثى ، وإنما يحضُن الذكرُ حَضْنًا يسيرًا . والأُنثى كالمرأة فى كفالة الصبىّ ، حتى إذا ذهب الحَضْنُ وصار البيضُ رِاخًا كالأطفال فى البيت يحتاجون إلى الطعام والشَّراب صار أكثرُ ساعات الزّقّ على الذكر .

١٥ وقال : قال مُثَنَّى بن زُهَير — وهو إمام الناس فى البصرة بالحمام — : لم أر شيئًا قطّ فى رجلٍ ولا امرأةٍ إلّا وقد رأيتُ مثله فى الذكر والأنثى من الحمام . رأيت حمامةً لا تُريد إلّا ذكرَها ، كالمرأة لا تُريدُ إلّا زوجها أو سيّدها . ورأيتُ حمامةً لا تَمنعُ شيئا من الذّكُورة ؛ ورأيت امرأة لا تمنع يَدَ لامسٍ . ورأيتُ

(١) يقال : زافت الحمامة تزيف اذا مشت مدلّة متبخترة بين يدى الحمام الذكر .

٢٠ (٢) شكلت المرأة : كانت ذات شكل أى غنج ودلال وغزل .

(٣) عطا فلان الشىء يعطوه : أخذه وتناوله .

حمامةً لا تَزِيفُ إلّا بعد طِرادٍ شديدٍ وشـدّةِ طلبٍ ، ورأيتهـا تَزِيف لأول ذكر يريدها ، ورأيت من النساء كذلك . ورأيتُ حمامةً لها زوج وهى تُمكِّن ذكرًا آخر لا تَعدُوه، ورأيت مثل ذلك فى النساء . ورأيتها تَزِيف لغير ذكرها وذكرُها يراها، ورأيتها لا تفعل ذلك إلّا وذكرُها يطيرُ أو يحضُن . ورأيت الحمامةَ تَقْمِطُ الحمامة ، ورأيتُ الحمامَ الذكرَ يَقْمِطُ الذكر . ورأيتُ أُنثى كانت لا تَقْمِط إلّا الإناث، ورأيت أخرى تقمِط الإناثَ فقط ولا تَدَعُ أنثى تقمِطها، ورأيت ذكرا يَقْمِطها ويَدَعُها حتى تَقْمِطَه . ورأيتُ ذكرًا يَقْمِطُ الذكورَ وتَقْمِطُه ؛ ورأيت ذكرًا يَقْمِطُ الذكورَ ولا يَدَعُها تَقْمِطه ؛ ورأيت أنثى تَزِيف للذكور ولا تدع شـيئًا منها يقمِطُها؛ ورأيت هذه الأصناف كلّها فى السَّحاقات واللّاطَة . قال : وامتنعت علىّ خَصْلةٌ فوالله لقد رأيتها؛ لأنى رأيتُ من النساء من تَزْنِى أبدًا وتُسَاحِقُ أبدًا ولا تتزوّج؛ ومن الرجال مَنْ يَلُوط أبدًا ويزنى أبدًا ولا يتزوّج،ورأيت حمامًا ذكرًا يَقْمِط ما لَقِيَ ولا يُزاوِج، ورأيت حمامةً تُمكِّن كلَّ حمام أرادها من ذكر أو أنثى وتقمِط الذكورةَ والإناثَ ولا تُزاوِجُ، ورأيتها تُزاوِج ولا تبيضُ، وتبيض فيفسدُ بيضُها، كالمرأة. قال: ورأيت ذكرًا له أُنْثَيَان وقد باضتَا منه ، وهو يحضُن مع هذه ومع تلك ويَزُقّ مع هذه ومع تلك ، ورأيت أنثى تبيض بيضـةً ، ورأيت أنثى تبيض فى أكثر حالاتهـا ثلاثَ بَيْضات . قال : ورأيت حمامةً تُزَاوِج هـذا الحمامَ ثم تتحوّل منه إلى آخر، ورأيت ذكرًا فعل مثل ذلك فى الإناث ، ورأيت الذكر كثيرَ النَّسْل قويًّا على القَمْط .

قال الجاحظ : والحمـام يبيضُ عشرةَ أشهر من السنة ؛ فإذا صانوه وحفظوه وأقاموا له الكفايةَ وأحسنوا تعهُّدَه باض فى جميع السنة . والفواخت والأُطْرُغُلّاتُ(١)

(١) قال فى اللسان نقلا عن التهـذيب : « ... فى كتاب شمر : الأطرغلات هى الدباسى والقمارى والصلاصل ذات الأطواق، قال : ولا أدرى أمعرب هو أم عربى» .

والحمام البَرِّىّ تَبيضُ مرّتين فى السنة. قال: ويَتِمّ خلْقُ الحمام فى أقلّ من عشرة أيامٍ. والحمامةُ فى أكثر أمرها يكون[1] أحدُ فرخيها ذكرًا والآخر أنثى؛ وهى تَبيضُ أوّلًا البيضة التى فيها الذكر ثم تُقيم يومًا وليلةً وتبيض الأخرى. وتحضن ما بين السبعةَ عَشَرَ يوما إلى العشرينَ. والأنثى أبرُّ بالبيض، والذكرُ أبرُّ بالفراخ. ولقد أطنب أبو عثمان الجاحظ وأَوْغل وبسَط القول فى ذكْر الحمام وأوصافه ومناقبه والمغالاة فى ثمنه والحرص على اقتنائه، حتى إنه قال: وللحمام من الفضيلة والفخر أنّ الحمام الواحد يباع بخمسمائة دينار؛ ولم يبلغ ذلك باز ولا شاهين ولا عُقابٌ. قال: وأنت إذا أردت أن تتعرّف مبلغ ثَمَن الحمام الذى جاء من الغاية ثم دخلتَ بغدادَ والبصرة، وجَدتَ ذلك بلا معاناة. وهذا يدلّ على أنّ قوله فيه كان مشهورًا عندهم فى وقته.

ثم قال: والحمامُ إذا جاء من الغاية بِيع الذَّكرُ من فراخه بعشرين دينارا وأكثر، وبِيعت الأنثى بعشرة دنانير وأكثر [وبِيعتِ البيضةُ[2] بخمسة دنانير]؛ فيقوم الزوجُ منها من الغَلّة مقام ضَيْعةٍ، حتى ينهضَ بمؤونة العيال وبقضاء الدَّيْن، وتُبْنَى من غَلّاته[3] وأثمان رِقابِه الدُّورُ والجِنانُ وتُبتاع الحوانيتُ. ثم وصف حُجَرَ الحمام ومقاصيرَها المبنيّة فى ذلك الزمان وما يُعانيه أهلُها من حديثها[4] والاحتفال بها فى المسابقة وغيرها. وأطال فى ذلك. وقال: وللحمام من حُسْن الاهتداء، وجَوْدةِ الاستدلال، وثباتِ الحفظ والذّكر، وقوّةِ النزاع إلى أربابه، والإلْفِ لوَطَنه، أن يكون طائرا من بهائم الطير يجىء من مسافة كذا إلى مسافة كذا. قال: ولن ترى جماعةَ طيرٍ أكثرَ طيرانا

(١) فى الأصلين: «والحمامة فى أكثر أمرها إذ أن يكون ... الخ». ولا يستقيم الكلام بهذه الزيادة.

(٢) زيادة عن كتاب الحيوان.

(٣) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ. وفى الأصلين: «من غلات رقابه... الخ».

(٤) لعله محرف عن «خدمتها».

إذا كَثُرن من الحمام؛ فإنّهنّ كلما ٱلتففن[1] وضاق موضعُهنّ كان أشدَّ لطيرانهنّ .

قال النابغـة :

وٱحكُم كُحكْم فتاةِ[2] الحىّ إذْ نظرَتْ * إلى حَمامٍ شِراعٍ[3] واردِ الثَّمَدِ

يَحُفُّه[4] جانبَا نِيقٍ[5] وتُتْبِعُه * مثلَ الزُّجاجةِ لم تُكْحَلْ من الرَّمدِ

قالت أَلَا ليتَما هذا الحمامُ لنا * إلى حمامتنا ونصفُهُ فَقَدِ ٥

فَحَسَبُوه فألفَوْهُ كما حَسَبَتْ * تسعًا وتسعين لم تَنْقُص ولم تَزِدِ

فأكملَتْ مائةً فيها حَمامَتُها * وأسرعَتْ حِسْبةً فى ذلك العَدَدِ

قال الأصمعىّ : لما أراد أن يمدح الحاسِبَ وسُرعةَ إصابته شدَّدَ الأمرَ وضيّقه عليه ليكون أحمدَ له إذا أصاب؛ فجعله حَزَرَ طيرًا والطيرُ أخفّ من غيره؛ ثم جعله (١٣٦)

(١) كذا فى كتاب الحيوان للجاحظ . وفى الأصلين : «التفتن» . ١٠

(٢) فتاة الحى هى بنت الخسّ ، عن الأصمعى . وعن أبى عبيدة : هى «زرقاء اليمامة» . ولقبت الزرقاء لزرقة فى عينيها . قالوا : إنه كان لها قطاة ومرّ بها سرب من القطا بين جبلين فقالت :

ليت الحمام ليه * إلى حمامتيه

ونصفه قديه * تم الحمام ميه

وهى التى يضرب بحدّة بصرها المثل ، وكانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام ، وقد أنذرت قومها بمجىء العدوّ فلم يصدّقوها ولم يستعدّوا لملاقاته حتى صبحهم وأعمل فيهم حتى هلكوا وأخذ كبيرهم الزرقاء فشق عينيها فاذا فيهما عروق سود من الإثمد ، وكانت أوّل من اكتحل به من العرب . ١٥

(٣) شراع (بالشين المعجمة) : مجتمعة . ويروى «سراع» بالسين المهملة . والثمد : الماء القليل الذى يكون فى الشتاء ويجف فى الصيف .

(٤) يحفه : يحيط به . ٢٠

(٥) النيق : الجبل . قال الأصمعى : إذا كان الحمام بين جانبى نيق ضاق عليه فركب بعضه بعضا فكان أشد لعدّه وحزره ، وإذا كان فى موضع واسع كان أسهل لعدّه فكان أحكم لها ، اذا أصابته فى هذه الحال . ويريد بقوله : «مثل الزجاجة» عينا صافية لم يصبها رمد قط فتحتاج إلى كحل (عن شرح ديوان النابغة للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى ضمن مجموعة طبع مصر رقم ١٧٨٥ أدب) .

حماما والحمامُ أسرعُ الطير وأكثر اجتهادا فى السرعة إذا كَثُر عددهنّ، وذلك أنه يشتدّ طيرانُهُ عند المسابقة والمنافسة . وقال : « يحفّه جانبا نِيقٍ وتُتبعه » ، فأراد أن الحمام إذا كان فى مَضيق من الهواء كان أسرع من أن يتسع عليه الفضاءُ . والله أعلم بالصواب .

ذكر ما قيل فى طوق الحمامة

يقال : إنّ نوحًا صلّى الله عليه وسلّم لمّا كان فى السفينة بعث الغرابَ ليَكْشِف له هل ظَهَر من الأرض موضعٌ، فوقع على جِيفة فلم يرجِع إليه ؛ فبعث بالحمامة، فاستَجْعَلَتْ على نوح الطَّوْقَ الذى فى عُنُقها لجعل لها ذلك جُعْلا . وفى ذلك يقول أُمَيّةُ بن أبى الصّلْت :

وأُرسِلتِ الحمامةُ بعد سَبْعٍ * تَدُلُّ على المهالك لا تَهابُ
تَلَمَّسُ هل ترَى فى الأرض عينًا * وعاينه من الماء العباب (١)
فجاءت بعد ما ركَضتْ بقِطْفٍ * عليه (٢) الثَّأْطُ (٣) والطِّينُ الكُبَابُ (٤)
فلمّا فَرَّسُوا الآياتِ صاغوا * لها طَوْقًا كما عُقد السِّخَابُ (٥)
إذا ماتت تُوَرِّثُه بَنِيها * وإن تُقتَل فليس لها (٦) آستِلابُ

(١) كذا فى الأصلين . على أنه ورد فى كل الشعر الذى أورده المؤلف لأمية بن أبى الصلت بعض كلمات غير واضحة المعنى ؛ وقد ورد أكثر هذا الشعر فى الحيوان للجاحظ (ج ٢ ص ١١٧ — ١٢٠) وآثرنا أن نثبتها كما وردت فى الأصلين لأنها غير واضحة كذلك فى الحيوان .

(٢) كذا فى اللسان . وفى الأصلين : «عليها» .

(٣) كذا فى لسان العرب (مادة ثأط) . والثأط : الحمأة . وفى الأصلين : « الناط » بالنون، وهو تصحيف .

(٤) الكباب : الثرى والتراب والطين اللازب .

(٥) السخاب : قلادة تتخذ من قرنفل وسكّ ومحلب ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شىء .

(٦) لعله : « فليس له » اذ الظاهر أن مرجع الضمير الطوق .

وقال أيضا فيها :

سَمِـعَ اللهُ لابْنِ آدمَ نـــوحٍ * رَبُّنـا ذو الجـلال والإفضالِ

حين أَوْفَى بذى الحمـامةِ والنـا * سُ جميعا فى فُلْكِهِ كالعِيَالِ

حابِسًـا خوفه عليـه رسولًا * من خِفاف الحَمَـامِ كالتِّمثالِ

فَرَشَاها على الرِّسـالة طَـــوْقًا * وخِضـابًا علامةً غـــيرَ بالِ ٥

فأتتـــه بالصِّـدق لمّـا رشاها * وبِقِطْفٍ لمّـا بدا عِنْكَالِ (١)

قوله : "فرشاها" أى جَعل لها جُعْلا .

وقال فيها :

وما كان أصحابُ الحمـامة خِيفةً * غداةَ غَدَتْ منهم تَضُمُّ الخوافيَـا

رســـولًا لهم والله يُحكِم أمرَه * يُبين لهـم هل برنس التُّرب باديَا ١٠

فجـاءت بقِطْفٍ آيةً مسـتبينةً * فأصبح منها موضعُ الطينِ جاديا (٢)

على خَطْمِها واستوهبتْ ثمّ طوقها * وقالت ألا لا تجعل الطوق حاليا

ولا ذَهَبًـا إنى أخاف نِبَـالهم * يَخالونـــه مالى وليس بماليـا

وزِدْنى على طوق من الحَلْى زينةً * تُصيب إذا أتبعت طوقى خِضابيا

وزدنى لِطرف الطين منك بنعمةٍ * ووَرِّث إذا ما مُتُّ طوقى حماميَا ١٥

يكون لأولادى جمالًا وزينةً * وعنوانَ زَيْنى زِينةً من تُرابيـا

---

(١) العنكال : العذق ، وقيل : هو الشمراخ وهو ما عليه البسر من عيدان الكباسة ، وهو فى النخل بمنزلة العنقود فى الكرم .

(٢) الجـادى : الزعفران .

ذكر شيء مما وصف به هذا النوع نظماً ونثراً

قال عبد الواحد بن فتوح الأندلسيّ يصف حماماً بسرعة الطيران والسَّبْق :

يجتابُ أودِيَةَ السّحاب بخافقٍ * كالبرق أَوْمَضَ فى السّحابِ فأَبْرَقَا
لو سابَقَ الريحَ الجنوبَ لغايَةٍ * يوماً لجاءك مثلَها أو أَسْبَقَا
يَستقرِبُ الأرضَ البسيطةَ مَذْهَباً * والأُفْقَ ذا السُّقُفِ الرفيعةِ مُرْتَقَى
ويظلّ يَسترق السماءَ بخافقٍ * فى الجوّ تحسبه الشّهابَ المُحْرِقَا
يَبْدُو فيُعْجِب مَن رآه لحُسْنِه * وتكاد آيةُ عُنْقِه أن تَنْطِقَا
مُتَرقرقاً من حيث دُرتَ كأنما * لبِسَ الزجاجةَ أو تَجَلْبَبَ زِئْبَقَا

(١٣٧)

وقال أبو هلال العسكريّ فى حمام أبلق :

ومُتَّفقات الشكل مُختلفاته * لَبِسنَ ظلاماً بالصباح مُرقَّعَا
أَخَذْن من الكافور أَنْفاً ومَنْسِراً(١) * وخَضَّبْنَ بالحِنّاء كفّاً وإصبعَا
وترنو بأبصارٍ إذا ما أَدَرْنَها * جَلَوْنَ عقيقاً للعيون مُرصَّعَا
تطيرُ بأمثال الحِلَام كأنّها * جنادِلُ تَدْحوها ثلاثاً وأربعَا
تَبُوعُ(٢) بها فى الجوّ من غير فَتْرةٍ * كأنّ مجاديفاً تَبُوعُ بها معَا
إذا هى عَبَّتْ فى الغدير حَسِبتَها * تَزُقُّ فراخاً فى المغاور جُوَّعَا

وقال القاضى الفاضل عبد الرحيم البَيْسانىّ من رسالة يصف طائراً جاء من غاية :

"وكان هذا الطائر أحدَ الرسل المُسَيَّرة بل المُبَشِّره، والجنود المجرّدة بل المسخّره؛ فإنها لاتزال أجنحتُها تحمِل من البطائق أجنحه، وتُجهِّز من جيوش المقاصد والاقلام

(١) المنسر : منقار الطائر .

(٢) تبوع بها ، أى تبسطها فى الجوّ ، يقال : باع يبوع إذا بسط باعه .

أسلحه ؛ وتحمـل من الأخبار ما تحمـل الضمائر، وتَطْوِى الأرضَ إذا نَشَرتِ الجناحَ الطائر؛ وتُزْوَى لها حتى تَرَى ما سَيَبْلُغُهُ مُلْك هذه الأُمّه، وتَقْرُب بها السماءُ حتى ترى ما لا يَبْلُغُه وَهْم ولا هِمّه؛ وتكون مراكبَ للأغراض لمّـا كانت الأجنحة قُلوعا ، وتركب الجوَّ بحرًا يُصفِّق فيـه هبوبُ الرياح مَوْجًا مرفوعا ؛ وتُعلَّقُ الحاجاتُ على أعجازها ، فلا تَعْرِفُ الإراداتُ غير إنجازها . ومن بلاغات البطائق استعارت ماهى به مشهورة من السَّجْع ، ومن رياض كتبها أَلِفَتِ الرياضَ فهى إليهـا دائمة الرَّجْع . وقد سكنت البروج فهى أَنجم ، وأُعِدَّت فى كنائنها فهى للحاجات أسهُم . وقد كادت تكون ملائكةً فإذا نِيطت بالرِّقاع ، صارت أُولِى أجنحةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاع . وقد باعدَ اللهُ بين أسفارها وقرَّبها ، وجعلها طَيْفَ اليَقَظة الذى صدَق العينَ وما كَذَبها . وقد أخذت عهـودَ الأمانة فهى فى أعناقها أطواقا ، فأدّتها من أذنابهـا أوراقا ؛ فصارت خَوَافِىَ وراء الخَوَافِى ، وغَطّت سِرّها المُودَع بكتمانٍ سحبت عليه ذيولَ ريشها الضوافى[1] ؛ تُرغِم النَّوَى بتقريب العهود ، وتكاد العيونَ تَلاحظها تَلاحُظَ أنجمِ السعود ؛ فهى أنبياء[2] الطير لكثرة ما تأتى به من الأنباء ، وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان مَقامَ الخطباء" . والله أعلم بالصواب .

٥ ١٠ ١٥

* * *

وأما البَبَّغاء وما قيل فيها ـــ والبَبَّغاء طائرٌ هندىّ ، وحبشىّ . حَسَنُ الخَلْق ، دَمِثُ الخُلُق ، ثاقب الفهم ، له قوّةٌ على حكاية الأصوات بالتلقين والتعليم ؛ تتخذه الملوكُ وأكابرُ الناس فى منازلهم . وفى لونه الأخضرُ والأغبرُ والأسودُ والأحمرُ

(١) الضوافى : السابغة الكثيرة .

(٢) فى الأصلين : «أثناء» وهو تحريف .

٢٠

والأصفرُ والأبيضُ . وهذه الألوان كلّها قليلة نادرة الوجود إلّا الأخضر والأغبر . وقد شاهدتُ أنا بالقاهرة المُعِزّيّة دُرّة[1] بيضاء . وحكى أنه أُهْدِى إلى معزّ الدولة[2] ابن بُوَيْه ببغداد هديّةً من اليمن كان فيها ببّغاءُ بيضاء، سوداء المنقار والرجلين، وعلى رأسها ذؤابة فُسْتُقِيّة . وهذا الطائر يتناول الطُّعْمَ برجله . وله منقار مُعَقَّف قصير يكسر به ما صَلُب ويَنقُب به ما تعسّر نَقْبه . وهو فى مأكله ومشربه كالإنسان التَّرِف الظريف . والناس يحتالُون على تلقينه بأن ينصبوا تجاهه مرآةً يرى خَيالَه فيها ويتكلّم الإنسان من ورائها ، فيتوهّم الطائر أنّ خياله فى المرآة هو المتكلّم فيأخُذ نفسه بحكاية ما يسمعه من ذلك الصوت .

وقال المولى تاج الدين عبد الباقى اليمانىّ رحمه الله فيها مُلْغِزًا :

يا سيّدًا أبدعَ فى المقالِ * ويارئيسًا فاق فى المعالى
ما حيوانٌ مشبهُ الإنسانِ * مُرَتِّلُ الآياتِ فى القرآنِ
ذو مَبْسِمٍ صِيغَ من النُّضَار * ومُقلةٍ قد رُكِّبتْ من قارِ
ومِخْلَبٍ يُكَسِّر الصَّلِيبَا * ومَنْطِقٍ يُفَاخِر الخطيبا
ذو حُلّةٍ بَنْدِيّةِ البُرودِ * منسوجةٍ من أخضر البنود
كروضةٍ قد أينعتْ أزهارُها * وأدهشتْنا بالغِنَا أطيارُها

(١) الدرة : البيغاء .

(٢) هو معز الدولة أحمد بن أبى شجاع بويه أحد ملوك الديلم ، ملك العراق والأهواز . وكانت مدّة ملكه إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا . وكان فى أوّل أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو وأخواه : عماد الدولة على بن بويه وركن الدولة الحسن بن بويه البلاد وآل أمرهم الى ما آل . وكان معز الدولة أصغر الإخوة الثلاثة . ولد سنة ثلاث وثلثمائة وتوفى سنة ست وخمسين وثلثمائة ودفن فى داره ثم نقل الى مشهد بنى له فى مقابر قريش .

قد جُمعت فى ذاته ألوانُ * كأنّه فى خَلْقــه بُستانُ
فـذَاتُه من ناصـع الزَّبَرْجَدِ * ونَوْرُه مُركَّبٌ من عَسْـجَدِ
وتارة يُبصـرُ من أقاحى * خِلْقَتَــه[1] فى سائر النـواحى
وعُرْفُه من خالص المِـدادِ * ونُطقُــهُ مُســتحكِم الإيراد
يأكل بالكفّ خلافَ الطير * ويَغْتَـدِى وهو قـديرُ السَّـيْر ٥
إن لَقَطَ الحَبَّ لدى تفريقـه * رأيتَ دُرًّا جال فى عَقِيقِــهِ
يحفـظ بيتَ المـرء فى المغيبِ * ويغتـدى كالحارس المرهوب
سميُّــه فى أســفل البحار * مُســتودَعٌ فى آخر التيّـار
إليه يُعــزَى الشاعرُ المَجيــدُ * والكاتبُ النِّحــريرُ والمُجيـدُ
فاكشف مُعمّى ما لغزتُ يا إمامْ * وآسلم على مرِّ الدهور فى الدّوامْ ١٠

(١) فى أ : « حلقه » . وفى ب : « حلته » وكلاهما تحريف .

الباب الخامس من القسم الخامس

من الفن الثالث فى الطير الليلىّ

ويشتمل هذا الباب على ذكر ما قيل فى الخُفّاش ، والكَرَوان ، والبُوم ، والصَّدَى .

٥

فأمّا الخُفّاش وما قيل فيه — فالخُفّاش ليس من الطير فى شىء؛ فإنه ذو أذنين ظاهرتين وأسنان وخَطْم وخُصيتين بارزتين، ويبول كما تبول ذواتُ الأَرْبع، ويَحيض، ويَلِد، ويُرضِع، ولا رِيش له . قال بعض المفسّرين لكتاب الله عزّ وجلّ : إنّ الخُفّاش هو الطائر الذى خلقه عيسى بن مريم عليه السلام بإذن الله تعالى؛ ولذلك هو مباين لصنعة الخالق؛ ولهذا سائرُ الطير تَقهره وتُبْغضه؛ فما كان منها يأكل اللحمَ أكله، ومالا يأكل اللحم قتلَه؛ فلذلك لا يطير إلّا ليلا . وطعامُه البعوضُ والفَراشُ يصيدهما وقتَ طَيَرانه، ولا يبلغ ذلك إلا بما فيه من سرعة الاختطاف وشِدّة الطيران ولِينِ الأعطاف . وهومع ذلك ليس بذى رِيشٍ وإنما هو لحم مُغشًّى بجِلْد صُلبٍ كأنّه جِلد ضِفْدَع، وهو يطير بغير ريشٍ؛ وهذا من العَجَب . وهو لا يطير فى ضوءٍ ولا ظلمةٍ . وسببُ ذلك أنه ضعيف حاسّةِ البصر، قليلُ شُعاع العين؛ فالشمس تُضعِف بصرَه عن التحديق فى شعاعها، والظلمة تغمُر ضياءَ بصره؛ فهو يجعل طيرانَه لطلبِ قُوتِه وقتَ غروب الشمس وظهور الشّفق . [وذلك وقت هيَج البعوض وانتشاره][1] . ومنازله تكون فى الجبال وصُدوعِ الصخور وبسيطِ

(١) زيادة عن مباهج الفكر .

الفَيَافى وجزائر البحر والأماكِن الخَرِبة المهجورة . وهو يَطلب قُرب الناس ؛ فإذا كان فى بيوتهم قصـد أرفعَ مكانٍ وأحْصَنه فيكون فيـه . ويُذكر بطول العُمر ، ويكبُر حتى يكون فى قـدر الجِدَأة وأكبر . وهو يلد ما بين الثلاثة إلى التسـعة . ويَسفِد غالبًا وهو طائر فى الهواء . وهو يحمل ولده تحت جناحه ، وربما قبض عليه بفِيهِ لإشفاقه عليـه . وربّما أرضعتِ الأنثى ولدَها وهى طائرة . أخبرنى مَن شاهد ذلك ممن يُعتمد على نقله . وهو متى أصابه شجر الدُّلْب خَدِر .

قال الجاحظ : والخُفّاش يأتى الرُّمّانة وهى على شجرتها فينقُب عنها ويأكل جميع ما فيها حتى لا يَدَعَ إلا القشرَ وَحْده . قال : ولحوم الخفافيش موافقـةٌ للشواهين والصُّقور والبَوَازى ولكثير من جوارح الطير ، وهى تَسْمَن عنها وتصِحّ أبدانها عليها ، ولها فى ذلك عملٌ محمود ناجع عظيم النفع بيّن الأثر .

وقال بعض الشعراء فى الخُفّاش مُلْغِزًا :

وطائرٍ جَنـاحُه فى رِجْـلِهِ * أبعد شىءٍ فَصُّه من وُصلِهِ (١)
لم يُوصف (٢) اللهُ بخلقِ مِثْـلِهِ * وهو على تآلف فى شكلِهِ
لو بيع فى سُوقٍ له لم أُغْلِهِ

وقال آخر :

أبَى علماءُ الناس أن يُخبرونِنى * وقد ذهبوا فى العلم فى كلّ مذهبِ
بجـلدةِ إنسـانٍ وصـورةِ طائرٍ * وأظفارِ يَرْبُـوعٍ وأنيـابِ ثَعْلبِ

---

(١) الوصـل (بالكسر والضم) : كلّ عظم على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره ، جمعه أوصال . وقال الجوهرى : الأوصال المفاصل . وقال غيره : مجتمع العظام .

(٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «لو يوصف» وهو تحريف .

❖

(١٣٩) وأمّا الكَرَوان وما قيل فيه — والكروان طائرٌ من طبعه وعادته الطيرانُ فى الليل، والإدْلاجُ والصِّيَاح بالأسحار، والإشراف على مواضع العساكر. ويوصف بالحُمْق؛ ومن حمقه أنه يقال له: أَطْرِق كَرَا، فيَلْصَق بالأرض حتى يُرْمَى. وتقول العرب: «أَطْرِق كَرَا أطرق كرا إنّ النَّعَامَةَ فى القُرَى»[1].

❖

وأمّا البُومُ وما قيل فيه — ويقال: إنه الصَّدَى، ويقال: بل الصَّدَى ذكَرُ البوم، وللبوم ذكر له منه. ويقال: إنه خمسة أصناف: منه ما يصيد الأرنبَ. ومنه صِنْف له لونان يأوِى الآكامَ والبَرِّيَّةَ. ومنه المديَّج بالصُّفرة، وله حواجبُ وقرونٌ من ريش، ويسكن الجُدْرانَ. ومنه الهَامُ ويسمّى "الغبشيّة"[2]. ومنه "القن" وهو يصيح كالهامِ لكنّ صوته أدقّ. وكل هذه الأصناف تحب الخَلْوَةَ بنفسها. وهى تُبغِض الغربان، وسائرُ أصناف الطير تُبغِضها؛ فإنّ الطيور إذا رأينها يَطِرْنَ حولَها ويَنتِفْنَ ريشَها؛ فلذلك صيّادو الطيور يجعلونها فى مصايدهم؛ لأن الطيور إذا رأوْها آجتمعوا عليها، فتُصاد عند ذلك.

---

(١) يضرب مثلا للرجل يخدع بكلام يلطف له ويراد به الغائلة. وقيل: يضرب مثلا للرجل يتكلم عنده فيظن أنه هو المراد بالكلام، أى اسكت فانى أريد من هو أنبل منك وأرفع منزلة. وقال أحمد بن عبيد: يضرب للرجل الحقير اذا تكلم فى الموضع الذى لا يشبهه وأمثاله الكلام فيه؛ فيقال: اسكت ياحقير فان الأجلاء أولى بهذا الكلام منك. والمراد بقولهم: «إن النعامة فى القرى» تخويفه بأن النعامة حاضرة فتدوسه بأخفافها. (راجع اللسان مادة كرا ومجمع الأمثال).

(٢) كذا فى مباهج الفكر. ولعل الغبشية: نسبة الى الغبشة (بالضم) أى الظلام، على أن يكون قد نسب هذا الضرب من البوم الى ظلام الليل. وفى أ: «العقشنة». وفى ب: «العفشة».

❖ ❖ ❖

وأما الصَّدَى وما قيل فيه — فالعرب تزعم أن الإنسان إذا مات أو قُتِل تتصوّر نفسُه فى صورةِ طائرٍ تصرُخ على قبره مستوحِشةً لجسدها . وفى ذلك يقول تَوْبة :

ولو أنّ ليـــلَى الأخْيَلِيّةَ سَلَّمَتْ * علىّ ودُونِى جَنْـدَلٌ وصـــفائحُ ٥
لسـلّمْتُ تسليمَ البَشَاشةِ أو زَقَا * إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ

ويحكون على ذلك حكايةً[1] . وتقول العـرب : إن هـذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يصـيرَ فى قَدْر البُوم، ويسـمُّونه الهامَ، واحدُه هامَةٌ . وهو يتوحَّش ويصـيح ويوجد فى الدّيار المعطَّلة والنَّواويس[2] وحيثُ مَصَارعُ القَتْـلَى وأجداثُ الأموات . ويقولون : إنه لا يزال عنـد وَلدِ الميّت ومُخْلِفِه ليعـلم ما يكون بعـده ١٠ فيخبره . وهذا كلُّه أراه من خُرافات العربِ وأكاذيبِها . وما زالوا على ذلك حتى جاء الإسـلام فنهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم عنـه فقال : " لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ ولا هامةَ" الحديثَ . والله أعلم .

---

(١) جاء فى الأغانى أن هـذا الشعر كان سببا فى مقتل ليلى هذه ، وذلك أنها مرت على قبر توبة بن الحيّر وذكرت هـذا الشعر وقالت : والله ما عرفت له كذبة قبل هذه فما باله لم يسلم علىّ ! ؛ وكانت بومة الى جانب القبر كامنة ، فلما رأت هودجها فزعت وطارت فى وجه الجمل فرمى بها على رأسها فماتت . (انظر الأغانى ج ١٠ ص ٨٢ طبع بولاق) . ١٥

(٢) النواويس : مقابر النصارى ، مفرده ناووس .

الباب السادس من القسم الخامس

من الفن الثالث فى الهَمَج

وقد قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فيه : إنه ليس من الطير، ولكنّه مما يطير كالحشرات مما يمشى . والذى أُطلِق عليه اسمُ الهَمَج هو مما يَشتمل عليه هذا الباب، وهو النّحل، والزُّنْبور، والعنكبوت، والجَرَادُ، ودودُ القَزّ، والذُّباب، والبَعُوض، والبراغيثُ، والحُرْقُوص .

فأمّا النحل وما قيل فيه — قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وعن أبى سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه : أنّ رجُلًا أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى يشتكى بطنَه يا رسول الله ؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : "اِسقِهِ عَسَلا" . ثم أتاه فقال : قد فعلْتُ ؛ فقال : "اِسقِهِ عسلا" . ثم أتاه فقال : قد فعلت ؛ فقال : "اِسقِهِ عسلا" . ثم أتاه فى الرابعة ؛ فقال : "صَدَق اللهُ وكَذَب بطنُ أخيك اِسقِه عسلا" ؛ فسقاه فبَرِئ الرجل .

وقال أرسطو : النحل تسعة أصناف : ستّةٌ منها يأوى بعضُها إلى بعض ، وذكر أسماءها باليونانيّة . وغِذاءُ النحلِ من الفضول[1] الحُلْوةِ[2] والرُّطُوباتِ . والنحلُ

(١) كذا فى حياة الحيوان للدميرى ومباهج الفكر . وفى الأصلين : «وعدّ» وهو تحريف .

(٢) فى مباهج الفكر : « من الطل الحلو والرطوبات» .

لا تقعُـد على أزهارٍ مختلفةٍ بل على زهرٍ واحدٍ ؛ وإن قعَدت على زهرٍ آخر فإنما تقعُد عليه بعد أن تنصرف إلى الخليّة . وبيوتُها من أعجب المبانى ؛ لأنها مبنيّة على الشكل الذى لا يُنتَهك ولا يَنخَرِق ، كأنه حُرِّر بآلةٍ وقياسٍ هندسىّ . وإذا هلك شىء من النحل فى باطن الخلايا أخرجَتْـه الأحياء إلى خارجِها . وهو يعمل فى فصـل الربيع والخريفِ . والرَّبيعىّ أجود من الخَريفىّ . والصغير منه أعمَلُ من الكبير . وهو يشرب من المـاء النقىّ العذبِ الصّافى ، ويطلبه حيث كان . وهو يَسْلُخ جلدَه كالحيّات . وتوافقه الأصـوات المُطرِبة . ويجتمع للتصفيق بالأيدي والرَّقص . والسوسُ يضرُّه . ودواؤه أن يُطرَح فى كل خليّةٍ كفٌّ من الملح ، وأن تُفتحَ فى كلّ شهر مرّةً وتُدَخَّنَ بأخْثَاءِ البقرِ .

وقد وصف الشـعراء الشُّهد والعسلَ فى أشـعارها ؛ فمن ذلك قولُ إبراهيم بن خَفَاجة الأندلسىّ يصف شُهْدَةً بعث بها إليه بعضُ أصدقائه :

لِلّهِ ريقـةُ نحـــلٍ * رعَى الرُّبَى والشِّعابَا
وجاب أرضًا فأرضا * يَغْشَى مَصابا مَصابا (١)
حتّى ارتوى من شِفاءٍ * يمُجّ منـــه رُضَابا
إن شئتَ كان طعاماً * أو شئت كان شرابا

وكتب مع هـذه الأبيات رسالة ، جاء منها : " وكفَى النّحلةَ فضيلةَ ذات ، وجَلالةَ صفات ؛ أنّهـا أُوحِىَ إليها ، وأُثنِىَ فى الكتاب عليها ؛ تعلم مساقِطَ الأنْداء ، وراء البَيْداء ؛ فتقع هناك على نُوارةٍ عَبِقه ، وبَهَارةٍ (٢) أنِقه ؛ ثُمّ تصدُر عنها [بما تَطبعه

(١) المصاب : موقع الغيث .

(٢) البهار : نبت طيب الريح جعد له فقاحة صفراء ينبت وقت الربيع .

شمعه، وتُبدعه صنعه، وتَرتشف منها[1] ما تحفظه رُضابا، وتَلفظه شَرابا، وتتجافى بعدُ منه عن أكرم مُجتنَى، وأحكم مُبتنَى .

* * *

وأمّا الزُّنبور وما قيل فيه — والزنبور يُسمّى "الدَّبْر" . وهو جَبَلِيّ وسُهْلِيّ . فالجبليّ يأوِى الجبالَ والأماكنَ الخشِنةَ، وقد يُعشِّش على الشّجر، ولونه إلى السواد . والسُّهْليّ أحمرُ اللونِ ويتّخذ عُشّه تحت الأرض ويُخرج الترابَ منه كما يفعل النَّمْلُ، وهو يختفى فى الشتاء فلا يظهر، وأكثرُه يهلِك . ومن السُّهْليّ صِنف مختلِفُ الألوانِ مستطيلٌ؛ وفى طبعه الشَّرَه يطلب المطابخَ ويأكل اللحم، ويطير مفردًا ويسكن بطنَ الأرض .

وصِنف الزنبورِ جميعُه مقسومٌ فى وسطه؛ وهو لذلك لا يتنفّس من جوفه ألبتّة، ومتى غُمِس فى الدُّهنِ سكنت حركاته وذلك لِضيقِ منافِذه .

وقد وصفه الشعراءُ . فمن ذلك قولُ السُّلامىّ :

ولابِس لونٍ واحدٍ وهو طائرٌ * ملوّنة أبرادُه وهو واقِعُ
أغرّ تردّى طَيْلَسانا مُدَبَّجًا * وسودُ المنايا فى حشاه ودائِعُ
إذا حكّ[2] أعلى رأسِه فكأنما * بسالِفتيه من يديه جوامِعُ[3]
يُخاف إذا ولّى ويُؤمَنُ مُقْبِلًا * ويُخفِى عن الأقران ماهو صانِعُ
بدا فارسىّ الزِّىّ يعقِد خَصْرَه * عليه قَباءٌ زيّنتْه الوشائِعُ[4]

(١) زيادة عن مباهج الفكر .

(٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «حل» باللام وهو تحريف .

(٣) الجامعة : الغل لأنها تجمع اليدين الى العنق .

(٤) الوشائع : جمع وشيعة وهى الطريقة فى البُرد .

فمِعجَرُه الوَرْدِىُّ أحمر ناصِـعٌ * ومِـئْزَرُه التِّبْرىّ أصفر فاقـعُ
يرجّع ألحـانَ الغَريضِ ومَعْبَـدٍ * ويَسْقِى كؤوسًا مِلؤها السمّ ناقِـع

وقال السَّرِىُّ الرِّفَّاء يصفه :

ومُخْطَفِ الخَصْرِ بُرده حَـبِرُ * نَحـذَرُه وهو خائف حـذِرُ
مُجَنَّـح طـار فى مُجَنَّحَـةٍ * تصـعَد طـورًا به وتنحـدر
كأنّهـا والرياح تنـثُرها * غرائبُ الزَّهْرِ حين تُنْتَـثر
لهـا حُمَـاتٌ كأنها شـعر * تَظْهَـر مسـودّة وتسـتتر
قد أُذهبتْ فى الجبين غُرّتُه * إذ فُضِّضتْ فى جيـادنا الغـرر
سِـلاحُه الدّهـرَ فى مؤخّره * يطعَنُ طـورًا به وينتصِـر
كأنّ شـطر الذى يُجـرّده * من بين فكّيه حيّـة ذكر

٥

١٠

✦✦✦

(١٤١) وأمّا العنكبوت وما قيل فيه — قد ضرب اللهُ عزّ وجلّ المثلَ فى الوَهْن بالعنكبوت ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . والعنكبوتُ أصنافٌ : منها صِنْفٌ يُسمّى "الرُّتَيْلا"(٦) من ذوات السموم القواتل ، وهو عنكبوتٌ

١٥

(١) المعجر : ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها .

(٢) مخطف الخصر : لاحقه وضامره .

(٣) الحبر (ككتف) : الناعم الجديد .

(٤) كذا فى ديوانه . وفى الأصلين : «... تنشرها * ... ... تنتشر» بالشين المعجمة فى الكلمتين .

(٥) كذا فى ديوانه . وفى أ : «المجين» . وفى ب : «الحين» وكلاهما تحريف .

(٦) كذا فى الأصلين والمخصص واللسان وشرح القاموس مادة « رتل » . وقد ضبطها الدميرى بالعبارة فى كتابه حياة الحيوان (بضم الراء المهملة وفتح التاء المثلثة . وهو يمدّ ويقصر) .

٢٠

صغير. ومنه صنفٌ طويل الأرجل. ومنه صنف يُسمّى "اللّيث" يصيد الذّبابَ، وله ست عيون وثمانى أرْجُلٍ. وقال الجاحظ: ولَدُ العنكبوت يَقْوَى على النَّسْج ساعةَ يُولد، وذلك من غير تلقينٍ ولا تعليم. وأوّل ما يولد دودًا صغارًا، ثمّ يتغيّر ويصير عنكبوتًا. وهو يُطاوِلُ فى السِّفاد(١). ومنه ما هو كبيرٌ ونسجُه ردىءٌ، ومنه ما هو دقيق. وهو فى نَسْجه يَمُدّ السَّدَى ثم يعمَل اللُّحمَة، ويبتدئ من الوسط؛ ويُهيِّئ موضعًا لِمَا يصيده يكون له كالخزانة. والأنثى منه هى التى تَنْسِجُ، والذكر يَحُلُّ ويَنقُضُ. والتى تَنْسِجُه لا تُخْرِجه من جوفها بل من خارج جسدها. وفَمُ العنكبوت مشقوقٌ بالطول. وهو إذا صاد الذّبابَ يَثِبُ عليه وثُوبَ الفَهْد.

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا: إنّ نَسْجَ العنكبوت يَقْطَعُ نَزْفَ الدّم إذا جُعِل على الجراحة، وإذا وُضع نَسْجُه على القروح منَعَها أن تَرِم وعلى الجراحات(٢). وإذا طُبِخَ العنكبوتُ الذى هو غليظ النَّسْج أبيضُه بدُهْن الوَرْد وقُطِّر فى الأُذن سَكَّن وجعَها. قال: وقال بعضُهم: إنّ نسج العنكبوت إذا خُلِط ببعض المراهم ووُضع على الجَبْهة والصُّدْغين أبرأ حُمَّى الغِبّ. قال: وزعم بعضهم أنّ نسج الصِّنف الذى يكون نسجُه كثيفًا أبيضَ إذا شُدّ فى خيط وعُلِّق على العنق والعَضُد أبرأ حُمَّى الغِبّ.

وقال ابن الرومىّ يَصِف فهدَ العنكبوت:

أَعْجَبُ مُسْتَفَادٍ * أفادنى زمانى
من الفهود فَهْدٌ * فى الاسم والعِيانِ

(١) إذا أراد العنكبوت السفاد جذب الذكر بعض خيوط نسج الأنثى من الوسط، فاذا فعل ذلك فعلت الأنثى مثله فلا يزالان يتدانيان حتى يتشابكا فيصير بطن الذكر قبالة بطن الأنثى.

(٢) كلمة «وعلى الجراحات» ليست فى القانون. وهى نابية فى السياق، فلعلها من زيادات النساخ.

تلك ذواتُ أربعٍ * وذاك ذو ثمـان
كأنما ارْجُـلُه * مَخَـالِبُ النَّغْـرانِ (١)
سَيْفاه سَـيْفا بَطَلٍ * والدرعُ درعُ جانِ
مستأنِسٌ ما إنْ بَنَى * والإنْسَ فى مكان
وصائدٌ وهْو من الـ * مَصـيد (٢) فى أمان
ذُبَابُه فى كَفِّه الـ * طـائرُ مثـل العـانِ
وليس يبـغى بدلًا * بطائر الحوَان
إذا دَنَا فـلم يكن * بينهـما عقـدان
عانقَـه أسْرَعَ من * تعانُقِ الأجفـان
بخفّـة الوثوب بل * بجُـرْأَة الجَنَان
فهـو عزيزٌ عزّةً * فى غاية الهَـوان

وقال خَلَف الأحمر فى الرُّتَيلاءِ :

اِبعَث له يا ربِّ ذاتَ أرْجُلِ * فِى فَمِهـا أحْجَنُ (٣) مثـلُ المِنْجَلِ
دَهْماءَ مثلَ العنكبوت المُحْوِلِ * تَأخـذُه من تحتـه ومن علِ

* * *

وأمّا الجراد وما قيل فيه — فالجراد أحد جُنْد الله الذى عذّب اللهُ به قومَ فرعون ؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ

(١) النغران : جمع نغر، وهى فراخ العصافير، وقيل : البلبل أيضا .
(٢) فى مباهج الفكر : «من الصائد» .
(٣) الأحجن : المعوج ويعنى به السِّن .

وٱلضَّفَادِعَ ﴾ . والعرب تقول : سَرَأَ الجرادةُ إذا باضت . فإذا خرج من بيضه فهو "دَبًى" ، ويخرج دودًا أصهبَ إلى البياض . فإذا تلوّنت فيه خطوطٌ صُفْرٌ وسُودٌ وبِيضٌ فهو "المُسَيَّحُ" . فإذا ضمّ جناحيه فذاك "الكُتْفَانُ" ؛ لأنه حينئذ يَكْتِفُ [فى] (١) المشى . فإذا ظهرت أجنحتُه وصار أحمرَ إلى الغُبْرة فهو "الغَوْغاء" والواحدة غَوْغاءة ؛ وذلك حين يستقلّ فيموج بعضُه فى بعض و[لا] (٢) يتوجّه إلى جهة . فإذا بدت فى لونه الحمرةُ والصفرةُ وٱختلف فى ألوانه فهو "الخَيْفَان" . فإذا ٱصفرّت الذكور وٱسودّت الإناث سُمّى حينئذ "جَرَادا" .

[وهو إذا أراد أن يبيض التمس لبيضه المواضعَ الصَّلْدةَ والصخور الصُّلْبة التى لا تعمل فيها المعاول فيضربها بذنبه فتنفرج له ، ثم يلقى بيضه فى ذلك الصَّدع فيكون له كالأُفْحُوص ويكون حاضنا له ومربِّيا (٢)] .

والجرادة لها ستّ أرْجُل : يَدان فى صدرها ، وقائمتان فى وسطها ، ورجلان فى مؤخّر جسدها . وطرفا رجليها مِنْشاران . والجرادُ من الحيوان الذى ينقاد إلى رئيس [يجتمع إليه كالعسكر ، إن ظَعَن أوّله تتابع كلّه ظاعنا ؛ وإذا نزل أوّله نزل جميعُه (٢)] . ولُعابُه سمّ على الأشجار ، لا يقع على شىء منها إلا أهْلَكه . والجرادة فيها شَبَهٌ من عشرة من جَبَابرة الحيوان ، وهى : وجهُ فرس ، وعينا فِيل ، وعُنُقُ ثور ، وقرْنا إيِّل ، وصدرُ أسد ، وبطنُ عَقْرب ، وجناحَا نَسْر ، وفَخِذا جَمَل ورِجْلا نَعَامة ، وذنبُ حَيّة . قال شاعر (٣) :

لها فَخِذَا بَكْرٍ وساقا نَعامةٍ * وقادِمتَا نَسْرٍ وجُؤْجُؤُ ضَيْغَمِ
حَبَتْها أفاعى الرمل بطناً وأنْعمت * عليها جيادُ الخيل بالرأس والفَمِ

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) زيادة عن مباهج الفكر . (٣) هو القاضى محيى الدين الشهرزورى المتوفى سنة ست وثمانين وخمسمائة . (انظر حياة الحيوان للدميرى فى الكلام على الجراد) .

وقال أبو علىّ بن سينا : أجودُ الجراد السمينُ الذى لا جَناح له ؛ وأرجلُ الجراد تَقْلَع الثآليلَ فيما يقال . قال : يؤخَذ من مُسْتَدِيراتِها اثنتا عشرة وتُنْزع رُءوسُها وأطرافُها ويُجعل معها قليلُ آسٍ يابسٍ وتُشرب للاستسقاء كما هى . قال : والجراد نافع لتقطير البول ؛ وإذا بُخِّر به نفع عسرَه وخصوصا فى النساء . ويُتَبَخَّر به من البواسير . والذى لا أجنحة له يُشْوَى ويُؤكل لِلَسْع العقرب . ٥

وقال بعضُ الأعراب وذكر فساده : « بَاكَرنا وَسْمِىٌّ (١) ، ثم خَلَفه وَلِىٌّ ؛ حتى كأنّ الأرض وَشْىٌ منشور ، عليه لؤلؤٌ منثور ؛ ثمّ أتتنا غيومُ جراد ، بمَناجِلَ حداد ، فأخْرَبَت البلاد ، وأهلكت العباد . فسبحان من يُهلِكُ القوِىَّ الأكول ، بالضعيف المأكول » .

وقال العسكرىّ يصف جرادةً : ١٠

أجنحةٌ كأنّها * أرديةٌ من قَصَبِ
لكنّها منقوطة * مثل صدور الكُتُبِ
بأرجلٍ كأنّها * مَناشِرٌ من ذَهَبِ

وقال أيضا :

وأعرابيّة تَرْتاد (٢) زادا * فتَمْرُق من بلاد فى بلادِ ١٥
غَدَتْ تمشِى بمِنْشارٍ كليلٍ * تَبُوع (٣) به قَرارةَ كلّ وادِ
وتَنْشرُ فى الهواء رِداء شَرْىٍ (٤) * على أطرافه نُقَطُ المِدَاد

(١) الوسمىّ : أوّل المطر . والولىّ : المطر بعده .
(٢) كذا فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى . وفى الأصلين : « تزداد دارا » .
(٣) باع الشىء يبوعه : أدرك غايته . ٢٠
(٤) كذا فى ديوان المعانى . والشرى : الحنظل . وفى الأصلين : « وتنشر فى الهوا عذبات شرب » .

وقال يَعْلَى بن إبراهيم الأندلسىّ :

وخيفانةٍ صفراءَ مسودّةِ القَرا[1] * أتتكَ بلَوْنٍ أسـودٍ فوقَ أصفرِ
وأجنحة قـد ألحقتها لرؤيةٍ[2] * تقاصَرُ عن أثناء بُرْدٍ مُحَـبَّرِ

وقال آخر :

٥ جرادةٌ حَنّتِ[3] القلوبُ لها * حين أشارت بناظِرَىْ رَبْرَبْ
صفراءُ جسمٍ يَشُوبُها رَقَطٌ * فى نُقَطٍ من عَبيرها الأشهبْ
كأنها والجَناحُ حُلّتُها * راقصةٌ فى مُمَسَّكٍ مُذْهَبْ

ووقفتُ على حكاية عجيبة فى أمر الجراد، نقلها ابنُ حلب[4] راغب فى تاريخه فى حوادث سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، قال : قال القاضى الفاضل عبد الرحيم

١٠ البَيْسانىّ : حدّثنا القاضى بهاء الدّين بن شَدّاد قاضى حلب فى يوم الثلاثاء من عشر [شهر] رَبيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، وقدِم علينا فى صفر منها ، قال : كان الجراد بالشأم قد زاد أمرُه وعظُم خَطْبه وأمحلت السّنةُ بعد السّنة ولم يسلم من الزرع إلا أقلُّه ؛ فأَعْلِم الملكَ الظاهرَ[5] غازى صاحب حلب عن طائر يسمى "السَّمَنْدَل"،

(١) القرا : الظهر . (٢) كذا فى الأصلين . وفى مباهج الفكر : « كِرْدِية » .

١٥ والرِّدْيَةُ : اسم من الارتداء . ولعله « أُلحقتها كردية » من ألحقه الخاف : ألبسه إياه .

(٣) كذا فى مباهج الفكر ، وقد وردت هذه الكلمة محرفة فى الأصلين .

(٤) لم نجد فى كشف الظنون فيمن ألفوا فى التاريخ هذا الاسم .

(٥) هو أبو الفتح غازى الملقب بالملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . كان ملكا مهيبا حازما متيقظا ، كثير الاطلاع على أحوال رعيته وأخبار الملوك ، عالى الهمة ، حسن التدبير

٢٠ والسياسة ، باسط العدل ، محبا للعلماء ، مجيزا للشعراء ، أعطاه والده مملكة حلب فى سنة ٥٨٢ هـ بعد أن كانت لعمه الملك العادل فنزل عنها وتعوّض غيرها . ولد بالقاهرة فى منتصف رمضان سنة ٥٦٨ هـ وهى السنة الثانية من استقلال أبيه بمملكة الديار المصرية ، وتوفى بقلعة حلب فى جمادى الآخرة سنة ٦١٣ هـ (راجع تاريخ ابن خلكان ج ١ ص ٥٧٢ طبع بولاق) .

إذا ظهر الجرادُ ببلاد أُحْضِر إليها ماءٌ من مكان مخصوص فتبعه ذلك الطائرُ ووقع على الجراد فأتلفه وآستخرج بيضَه من التراب ونَظَّفَ البلادَ منه . قال : فنـدب ثلاثة نفـرٍ من العجم ذوى قوّة فى أبدانهم وصَبْرٍ على مشـقّةِ المَشْى فى أسفارهم ، وأزاح عِلّتهم بنفقة وسَّـعَها عليهم ، وساروا على خُوزِسْتان ، واسـتدلّوا على الضَّيْعة التى هى من عملها وفيها هذا المـاءُ ، فوصلوا إليها وحملوا من المـاء ، ووجدوا هـذه العين على وجه الأرض لا تبلغ إلى أن تَفِيض فتسيح ولا إلى أن تَغِيضَ فتُسْـتَقَى . ومن تدبير هذا المـاء إلى أن يتمّ به المرادُ ان يحمِـله المـاشى ولا يركب ، وإذا نَزل بمنزلة علّقه ولا يضعه على الأرض ؛ وكان الملك الظاهر قد سيّر معهم دوابَّ يركبُها من لم يحمل المـاء بالنّوبة ويمشى من يحمله ؛ ومن عادة من يحمله ألّا ينفردَ بنفسـه وألّا يسـيرَ إلّا فى قافلةٍ وأن يُعلم أهلَها بمـا معه ويُشهِدَهم أنه ما ركِب ظهرَ دابّةٍ فى حال حمله ، وأنه مشى والمـاءُ فى إنائه فى يده ؛ وكلّمـا وصلَتْ قافلةٌ إلى بلد أدّى شهودُ القافلة ما شَهِدوا به عند الحاكم ؛ ويَتَنَجّزُ حاملُ المـاء كتبًا حُكميّةً من قُضاة البلاد فى أمر المـاء بصحّة نسبه وكيفيّة حَمـلِه . قال : ولم يزالوا على ذلك إلى أن وصلوا إلى حلب ، فعُلّق ذلك المـاء ووصل ذلك الطائرُ فى جمع كجَمع الجَراد وأكثر ، وهو يشبه السُّمَانَى فى قَدْره ولونه ، ووقَع على الجراد فأتلفه وآستأصله . قيل : إنّه كان يأكل الجرادةَ والثنتين والثلاث والأربع فى دَفْعَة ويرميها فى الحال من بطنه ، وإنه يتتبّع مكانَ بيضـه فى الأرض فيبحث عنـه بمناقيره وأخرجه ، حتى صارت الأرض كالغِرْبال من أثر نقره ، وإنّ الجراد آرتفع من الشام وكُشِفَتْ به البلوى . قال : وأمرُ هـذا المـاء مشهور معلوم مستفيض .

❖

وأمّا دُودُ القَزّ وما قيل فيه — ودود القَـزّ وإن لم يكن من الهَمَج الذى له جَناح ، فمـآلُ أمرِه أن يصير له جناحٌ؛ ولذلك أوردناه فى هذا البـاب وألحقناه بهذا النّوع .

٥ ودُودُ القَـزّ أوّلُ ما يكون بِزْرًا فى قَدْر حبّ التين، وهو البيض الذى يتكوّن فيه الدُّودُ . ويكون خروجُه منه فى أوّل فصل الربيع . ويخرجُ أصغرَ من الذَّرّ ، وفى لونه . وإذا تأخر خروجُه وضَـعه النسـاء تحت ثُدِيِّهِنّ فى صرر . فإذا خرج غُذِّىَ بورق التوت . ويأخذ فى النموّ إلى أن تصـير الدودةُ منـه فى قَدْر الإصْـبَع وينتقل من السواد إلى البياض [أوّلًا فأوّلا](١) ، وذلك فى مدّة ستين يوما فما دونها .

١٠ وله فى غضون هذه المدّة نَوماتٌ لا يأكل فيها شـيئًا ألبتّةَ، كلُّ نومةٍ يومان؛ فإذا استيقظ أكل أضـعاف ما كان يأكل قبـل النوم . فإذا أكل المدّةَ امتلأ حريرا فلا يبقى فيـه مَساغٌ لما كل، فيقطع الأكلَ عند ذلك ويَهيج للنَّسْـج؛ فأىّ شىء تعلّق به نسَج عليـه . وهو يَنْسِجُ على نفسه بمـا يُخرِجه من فيه إلى أن يُخْرِجَ ما فى جوفه، وهو أرقّ من العنكبوت(٢)، ويُكمل عليه ما يبنيه، فيكون كهيئة اللَّوزَةِ(٣) .

١٥ ويبقى محبوسا فى غَزْله قريبًا من عشرين يوما ، ثم ينقُب عن نفسه ويخرج فَراشًا أبيض ذا جناحين لا يَسكُنان عن الاضـطراب وقرنين وعينين . وهو إذا نقَب عن نفسـه وخرج لا يُنتفع من نسـجه بحرير لأنه يقطع طاقاته . وعنـد خروجه

(١) زيادة عن مباهج الفكر وحياة الحيوان للدميرى .

(٢) كذا بالأصلين . ولعله يريد : « من نسج العنكبوت » .

٢٠ (٣) فى مباهج الفكر وحياة الحيوان : « الجوزة » .

يهيج للســفاد فيُلصِق الذكرُ ذنبه بذنب الأنثى ويلتحمان ساعة زمانيّــة ثم يفترقان ، وتنثر الأنثى البِزر على الصــفة التى ذكرناها على خِرَقٍ بِيض تكون قد فُرِشت له . فإذا نفِــد ما فيهما من السفاد والبِزر ماتا . هذا إذا أريد من الدود البِزرُ . وإذا أريد منه الحرير تُرِك ذلك النسج فى الشمس بعض يومٍ فيموت .

وقد جعله بعض الشعراء مثلا للحريص على جمع المــال، فقال : ٥

يُفْنِي الحريصُ لجمع المــال مُدّتَهُ * وللحــوادث والوُرّاثِ ما يَدَعُ
كدودة القَــزّ ما تَبْنيــه يُهلِكُها * وغيرُها بالذى تَبنيــه ينتفــعُ

وهو كثيرُ العوارض . وأكثرُ ما يَعْــرِض له الفسادُ إذا اطعِم ورَقَ التُّــوت الحامض . ويَهْلِكُ من صوت الرعد وضرب الطَّسْت والهَاوُن، ومن رائحة الخَــلّ والدُّخان . وكثرة الحرّ تُهلكه وتُذيبه؛ وكذلك البردُ الشديدُ فإنه يبطئ به . ويُؤذيه ١٠ مَسُّ الجُنُب والحائض، ويُخشَى عليه من الفأر والعصفور والنمل والوَزَغ .

✦
✦ ✦

وأمّا الذُّباب وما قيل فيه — فقد ضرب اللهُ عزّ وجلّ به المثلَ فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَــلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُــوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْــهُ ضَعُفَ ١٥ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ . فهذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ تعالى لضَعْف الناس وعجزِهم عن الإتيان بمخلوقٍ . وجاء فى الحديث : "إذا سَقَطَ الذّبابُ فى طعام أحدكم أو شرابِه فلْيَغْمِسْه فإنّ فى أحد جناحيه داءً وفى الآخر شفاءً" . ويقال : إنه يَغْمِس جناحَ الداء ويَرفعُ جناحَ الشــفاء، فلهذا نُدب إلى غَمْسه . والعرب تجعل النحلَ والفَرَاش والدَّبْر من الذباب . ٢٠

قال الجاحظ : " والذبابُ ضروبٌ سوى ما ذكروا[١] من الفَرَاش والنحل والزَّنابير" ؛ فمنها الشَّعراء[٢] . قال الراجز[٣] :

* ذبابُ شَعْرَاء ونبتٌ مائل[٤] *

وللكلاب ذبابٌ على حِدة يتخلّق منها فلا يريد سواها . ومنها ذباب الكَلَأ والرِّياض ؛ وكلُّ نوع منها يألف ما خُلِق منه" .

ومنها الذّباب الذى يقتل الإبل وهو أزرق . والذّبابُ الذى يسقط على الدّوابّ وهو أصفر . ويقال : إنّ الذّباب يكثر إذا هاجت ريحُ الجَنوب وإنّه يُخْلق فى تلك الساعة ؛ وإذا هبّت ريحُ الشمال خَفّ وتلاشَى . وهو من ذوات الخراطيم ، وكذلك البعوض . ويقال : إن الذّباب لا يُعَمّر أكثر من أربعين يوما .

قال الجاحظ : " وليس بعدَ أرض الهند أكثرُ ذُبابًا من واسِط[٥] ، وربّما رأيت الحائطَ وكأنّ عليه مِسْحًا شديدَ السواد من كثرة [ما عليه من][٦] " الذباب .

ويقال : إن اللّبَن إذا ضُرِبَ بالكُنْدُس[٧] ونُضِح به بيتٌ لم يدخله ذُبابٌ . ومن عجيب أمر الذباب أنّه يُلْقِي رجيعَه على الشيءِ الأبيضِ أسودَ وعلى الأسودِ

(١) كذا فى الحيوان للجاحظ (ج ٣ ص ٩٧ طبع مصر ، لوحة ١٤٣ من النسخة الفوتوغرافية) . وفى الأصلين : «سوى ذلك» .

(٢) كذا فى الحيوان للجاحظ . وفى الأصلين : « ذباب الشعراء » .

(٣) كذا فى الحيوان للجاحظ . وفى الأصلين : « قال الشاعر » .

(٤) كذا فى النسخة الفوتوغرافية من الحيوان للجاحظ . وفى النسخة المطبوعة : « وبيت ماذل » . وفى الأصلين : « ونبت مادل » بالدال المهملة .

(٥) واسط : بلد متوسط بين البصرة والكوفة بناها الحجاج بن يوسف الثقفى .

(٦) زيادة عن الحيوان للجاحظ .

(٧) الكندس : الخرشف البستانى ، وهو عروق نبات داخله أصفر وخارجه أسود .

أبيضَ . ويقال : إنه لا يظهر إلّا فى مواضع العُفُونات والقاذُورات[1]، ومُبْتَدَأ خلقه منهـا، ثم يكون من السِّفاد .

قال الجاحظ : ويقال : إنّ الذّباب لا يَقْرَب قِدْرًا فيه كَمْأَةٌ .

والذّباب بطىء فى سِفاده ، وربّمـا بقِى الذّكرُ على ظهر الأنثى عامَّةَ النّهـار ؛ فهو يتجاوز فى ذلك البعيرَ والخنزيرَ. وهو من الحيوان الشّمسىّ لأنه يَخفى فى الشتاء ويظهرُ فى الصيف . وللذّباب يدان زائدتانِ فى مُقَـدَّم يديه يتّقى بهما الأذى عن عينيه فإنهما بغير أجفان .

والعرب تضرب به المثلَ فى الزَّهْو فتقول : « أَزْهَى من ذُبَابٍ » . قالوا : لأنّه يسـقط على أنف الملك الجبّار وعلى مُوقِ عينيه ويطرُدُه فلا ينطرد . ويُضرب به المثلُ فى القَذَرِ واستطابة النَّتْنِ . فإذا عجَز الذُّبابُ عن شمّ شىء فلا شىء أنتن منه .

وقال ابن عَبْدَل فى محمد بن حَسّان بن سعد ورماه بالبَخَر :

وما يدنو إلى فيـه ذُبابٌ * ولو طُلِيَتْ مَشَافِرُه بقَنْـدِ[2]
يَرَيْنَ حَلاوةً ويَخَفْنَ موتاً * ذُعَافًا إن هَمَمْنَ له بِوِرْدِ

ويقال لكلّ أبخر : أبو ذِبّان؛ وكانت من كُنَى عبد الملك بن مروان .

وقد وصف الشعراءُ الذّبابَ؛ فمن ذلك قولُ عنترةَ :

جادتْ عليهـا كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ * فتَرَكْنَ كلَّ حديقـةٍ[3] كالدِّرهمِ
فترى الذّبابَ بها يُغنِّى وحدَه * هَزِجًا كفعل الشارب المُتَرَنِّمِ
غَرِدًا يَحُـكُّ ذراعَه بذراعه * فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجْذَمِ

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين «من» .

(٢) القند (بالفتح) : عسل قصب السكر .

(٣) ويروى « كل قرارة » (انظر اللسان مادتى « ثرو حدق » .

وقال العسكرىّ وجمع بين البراغيث والبَعُوض والذُّباب :

وبدا فغنّانى البعوضُ تَطَرُّبًا * فهرقتُ كأسَ النوم إذ غنّانى
ثمّ آنبرى البُرغوث ينقُط أضْلُعى * نقطَ المعلِّم مُشْكِلَ القرآنِ
حتى إذا كَشَف الصباحُ قِناعَه * قرأَتْ لِىَ الذِّبّانُ بالألحانِ

٥

وأمّا البَعُوض وما قيل فيه — والبعوضُ صِنفان: صنفٌ يُشْبِه القُرَاد، لكن أرجُله خفيّةٌ ورطوبته ظاهرة، يُسمَّى بالعراق والشام "الحِرْجِس" و"الفُسَافِس"، وبمصر "البَقّ". ويَشَمُّ رائحةَ الإنسان ويتعلّق به. وله لَسْعٌ شديد. ولدمِه إذا قُتل رائحةٌ كريهة. ويقال: إنّه يتولّد من النَّفَس الحارّ [ولشدّة رغبته فى الإنسان لا يتمالك إذا شمّ رائحته، فإذا كان فى السقف رمى بنفسه عليه فلا يخطئه][1]. وهذا الصنف ليس من الطير. والصنف الثانى طائر ويُسمّيه أهلُ العراق "البَقّ" و"البَعُوضَ". ويسمّيه أهلُ مصر "الناموس". وهو يتولّد من الماء الراكد، فإذا صار الماءُ رَقْراقًا آستحال دَعَامِيص[2]، ثمّ تستحيل الدعاميصُ فَرَاشًا. والبَعُوض فى خِلْقة الفيل إلّا أنّه أكثرُ منه أعضاءً، فإنّ للفيل أربعَ أرْجُلٍ وخُرطومًا وذَنَبًا، وله مع هذه الأعضاء يدانِ زائدتانِ وأربعةُ أجنحة. وخُرطومُ البعوض [أجوف][1] نافذُ الخَرْق؛ فإذا طعَنَ به جلدَ الإنسان آستقى به الدَّمَ وقذف به إلى جوْفه. وفيه من الشَّرَه أن يمتصّ من دم الإنسان إلى أن ينشقّ ويموتَ، أو يمتصّ إلى أن يَعجِزَ عن الطيران. ومن عجيب أمره أنه ربّما قتل البعيرَ وغيرَه من ذوات الأربع، فيبقى

(١) زيادة عن مباهج الفكر.

(٢) الدعاميص: جمع واحده دعموص، وهو دويبة أو دودة سوداء تكون فى الغدران إذا نشت (يبس ماؤها).

طريحا فى الصحراء فيجتمع حوله السّباعُ والطيرُ التى تأكل الجِيَف، فمن أكل منها منه مات لوقته فى موضعه . ويقال : إنّ بعضَ جبابرة الوُلاة بالعراق كان يقتـلُ بالبعوض ، فيأمر بمَنْ يريد قتـلَه أن يُجَرَّدَ من ثيـابه ويُرْبَطَ ويُخْـرَجَ إلى بعض الآجام التى بالبطائح فيوجد فى أسرعِ وقتٍ عظامًا عاريةً من جلدٍ ولحمٍ .

وقال الجاحظ : بَعُوض البطائح كجَرَّارات[1] الأهواز وعقاربِ شَهْرَزُور . وربّما ظَفِر بالسكران النائم فلا يُبقِى فيه إلّا العِظامَ العارية .

وقد أكثر الشعراء فى وصف البَعوض ؛ فمن ذلك قولُ فرج بن خَلَف الأندلسىّ :

بعوضٌ جَعَلْنَ دمى قهـوةً * وغنَّيْنَنى بصـنوف الأغانْ[2]

كأنّ عُرُوقِىَ أوتارُهنّ * وجسمى الرَّبابُ وهنّ القِيانْ[3]

وقال آخر :

إذا البَعُوض زَجِلَتْ أصواتُها * وأخَـذ اللحنَ مُغنِّياتُهـا

لم تُطْـرِب السامعَ خافِضاتُها * وأزرق العينين رافِعاتُهـا

صـغيرةٌ كبيرة أذَاتُهـا * تنفَضُّ عن بُغيتها بُغَاتُهـا

ولا يُصـيب أبدًا رُماتُهـا * رامِحـةٌ خُرطومُهـا قَناتُهـا

وقال أبو هلال العسكرىّ :

غِنـاءٌ يُسْخِن العينَ * ويَنـفِى فَـرَحَ القلبِ

ولا يَأتى عـلى الزَّمْرِ * ولا يَجـرِى مع الضربِ

غِنـاءُ البَـقِّ باللّيـل * يُنـافِى طَـرَب الشَّرْبِ

(١) الجرّارات ، جمع جرارة : عقيرب صفراء على شكل التينة تجرّ ذنبها .

(٢) فى الأصلين : «الأغانى» بالياء .

(٣) فى مباهج الفكر : «البنان» .

إذا ما طـرَقَ المَـرْءَ * جرى فى طَلَقِ الكربِ
إذا ما نقَب الجـلدَ * ةَ أخْـفَى أثرَ النَّقبِ
سوى حُمْـرٍ خَفِيَّاتٍ * تُحاكى نُقَطَ الكُتْبِ

٥ وأمّا البراغيث وما قيل فيها — والبُرْغوث أسودُ أحدبُ . وهو من الحيوان الذى لا يَمشى؛ وإنمـا أوردناه مع ذى الجَناح لأنه ذو وَثْبٍ لا يَقْصُر عن الطيران؛ ومنـه أيضا ما يمشى ولا يَثِبُ . وقالوا : إنه يُطيل السِّـفادَ ، ويبيض ويُفَرِّخ . وأصـلُه متولّد من التراب فى المواضع المظلمة . وهو يكثُر ويستطيل ويؤذِى فى أواخر الشتاء وفصلِ الربيع . وإذا آشتدّ عليه الحرُّ هلك .

١٠ ومن جِناس الكلام فيه قولهم : أذى آلبراغِيث إذا آلْبَرى غِيث . يعنُونَ بآلبَرى التراب إذا نزل عليه المطر .

والبرغوثُ يكُنُ بالنهار ويظهر بالليل . ويشتدّ أذاه للإنسان إذا أخذ مَضْجَعَه . وهو يطول لُبْثُه بمصر؛ ولا يُوجد فى البلاد الحارّة مثـل صعيد مصر ولا فى البلاد الشديدة البرد .

١٥ وقـد أكثر الشعراءُ فى وصـف البراغيث وأفعالها؛ فمن ذلك قولُ أبى الرَّمّاح الأسدىّ وكان قد سكن مصر :

تَطاول بالفُسْطاط ليلِى ولم أكن * بِحَنْوِ الغَضَى ليـلى علىّ يطولُ
يؤرّقنى حُـدْبٌ صغـارٌ أذِلّةٌ * وإنّ الذى يُوقِظْنـه لذليـلُ
إذا ما قتلنـاهنّ أُضْعِفن كثرةً * علينـا ولا يُنْـعَى لهنّ قتيلُ
٢٠ أَلا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةً * وليس لبرغوث إلىّ سبيـلُ

وقال العسكرىّ من أبيات :

ومن براغيثَ تَنْفِي النومَ عن بصرى * كأنّ جَفْنىَّ عن عينى قصيرانِ
يَطْلُبن منّى ثأرًا لستُ أعرفه * إلّا عداوة سودانٍ لبيضانِ

وقال أبو [الحسن أحمد بن](١) أيّوب البصرى المعروف بالناهى :

لا أعذُلُ الليلَ فى تطاوُله * لو كان يَدرى ما نحن فيه نَقَصْ ٥
لى فى البراغيث والبعوض إذا * يُلْحِفُنا حِنْدِسُ الظلام قَصَصْ
إذا تَغَنّى بَعُوضُه طَرَباً * ساعد برغوثَه الغِنا فرَقَصْ

وقال عبد المؤمن بن هبة الله الأصبهانىّ :

بات البراغيثُ فى الفراش معى * تَقْسِمُنِي قسمةَ المواريثِ
أكلننى بعد ما شَرِبن دمى * فَمَن مُغِيثى من البراغيثِ ١٠

وقال أيضا فيها : (١٤٦)

إنّ البراغيثَ إذا ساوَرت * من كِنّها ترقُص أو تَقْرُصُ
وكلّما غَنّت بَعُوضٌ لها * فهى على شُرْب دمى أحرصُ
تَقفِز من ثَمّ إلى هاهنا * كأنها زِنجيّة تَرْقُصُ

وقال عبد الله بن عبد الرحمن الدِّينَوَرِىّ : ١٥

وحُمْش القوائم حُدْب الظهورِ * طَرَقْن فِراشِى على غِرّةِ
وينقُطْنَنى بخراطيمهنّ * كنَقْط المصاحف بالحُمْرة

وقال ابن المعتزّ :

وبراغيثَ إن ظَفِرْنَ بجسمى * خِلْتَ فى كلّ موضع منه خالا

(١) فى الأصلين : « أبو أيوب النصرى » . والتصحيح والزيادة عن يتيمة الدهر . ٢٠

❖

وأمّا الحُرْقُوص وما قيل فيه — فقد ذكره الجاحظ فى كتاب الحيوان فقال : وزعموا أنه دُوَيْبّة أكبرُ من البرغوث ؛ وأكثرُ ما يَنْبُت لها جَناحانِ بعد حين . وعَضّةُ الحُرْقوص أشدُّ من عَضّة البرغوث . قالوا : والحرقوصُ يُسمَّى النُّهَيْكَ . وأكثرُ ما يَعَضّ أَحْرَاحَ النساء وخُصَى الرجال . قال أعرابى وقد عَضّ الحرقوصُ خُصيتيه :

لقد منَع الحَرَاقِيصُ القَرَارا * فلا ليلًا نَقِرّ ولا نَهارا
يُغالِبْن الرجالَ على خُصاهُمْ * وفى ٱلأحْراحِ دَسًّا وٱنْجِحارا

وقالت ٱمرأة تشير إلى زوجها :

يَغَارمن الحُرْقوص إن عَضّ عَضّةً * بفَخْذَىَّ منها ما يجدّ غَيُورُ[1]
لقد وقَع الحرقوصُ مِنِّىَ موقِعًا * أرى لذّةَ الدّنيا إليه تَصِير

(١) كذا ورد هذا الشطر فى الأصلين .

البـاب السابع من القسم الخـامس

من الفن الثالث فى أنواع الأسماك

قال ٱبن أبى الأَشْعث : السمكُ يَستَنْشِقُ ٱلمـاءَ بأصداغه فيقوم له مَقامَ الهواء للإنسان . والسمكُ كلُّه شَرِهٌ كثيرُ الأكل، وحاسّـةُ السمع والشمّ فيه أقوى منهـا فى الإنسان . وٱستدلّ على ذلك بأدلّة يطول شرحها . وحاسّةُ البصر فيه ليست كالسمع والشمّ وإنمـا أضعف . ولسانُه غليظ قصير شبيه باللسان وليس لسانا . وله أضراس ليست للمضغ عليها وإنما لقتل ما يفترسه من حيوان المـاء، ويُفْرِغ فيه سُمّـا يكون سببا لقتله . وصِغار السمك تحـترز من كباره بأن تطلب المـاءَ القليل الذى لا يحمِل الكبارَ .

وٱختلف الناس فى سِفاد السمك ، فالأكثرُ على أنه يسفِد مثلَ الحيّة . وقال الجـاحظ : وفى السمك القواطعُ والأوابدُ كالطير . ومن أصـناف السمك ما هو فى شكل الحيّـات . قال : وهى إما أن تكون كانت بَرّيّة أو جبليّـة فٱكتسحتها السيولُ وألقتها فى المـاء الدائم فتوالَدَتْ فيه ؛ وإما أن تكون أمهاتهـا وآباؤها من دوابّ المـاء .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سـينا فى الأدوية المفردة : أفضـلُ السمك فى جثّتـه ما كان ليس بكبير جدّا ولا صُلْب اللحم ولا يابسـه، لا دُسُومة فيـه كأنه يتفتّت، والذى لا مُخَاطيّة ولا سُهُوكة فيه وطعمُه لذيذ، فإن اللذيذَ مناسبٌ، وما هو دَسِمٌ دسومةً غيرَ مُفرطةٍ ولا غليظةٍ ولا شحميّة ولا حِرّيفة، والذى لا يُسْرِع إليه النَّتْن إذا فُصل عن المـاء . ويُختار من السمك الصُّلْبِ اللحمِ ما هو أصغر، ومن الرَّخْص

اللحم ما هو أكبرُ إلى حدٍّ ما . وصُلْبُ اللحم مملوحًا خيرٌ منه طَرِيًّا . وأمّا فى الأجناس فالشَّبَابِيطُ أفضلُها ، ثم البِنِّىّ ، والبِيَاحُ[1] البحرىُّ لا بأس به . وأما فى مأواه[2] فالذى يأوِى الأماكنَ الصخريّةَ ثم الرمليّةَ والمياه العَذْبَةَ الجاريةَ التى لا قَذَر فيها ولا حَمْأة وليست بَطِيحيّةً[3] ولا نَزِّيّةً ولا من البحيرات الصغار التى لا تَسقِيها الأنهارُ ولا فيها عيونٌ . قال : والسمكُ البحرىّ محمودٌ لطيف ، وأفضلُ أصنافه الذى لا يكون إلا فى البحر واللُّجة . والذى يأوِى ماءً مكشوفا ترفرفُ الرِّياحُ عليه أجودُ من الذى بخلافه . والذى يأوِى ماءً كثير الاضطراب والتموّج أجودُ من الذى يأوِى الماءَ الراكدَ . والسمكُ البحرىّ لطيف اللحم لا سيما إذا كان مأواه فى الشطوط صخراً أو رملًا ، والذى يصير من البحر الى أنهارٍ عذبةٍ يعارض جِريةَ الماء بالطبع لطيفٌ كثيرُ الرِّياضة .

وأمّا غِذاؤه ، فالذى يغتذى بالحشيش وأصولِ النبات خيرٌ من الذى يَغتذى الأقذارَ التى تُطرح من البلاد إلى المستنقعاتِ . وأفضلُ ما يُؤكل السمك اسفيدباجا[4] ثم المشوىّ على الطّابَق . وأما المَقلِىّ فيصلُح لأصحاب المِعَدِ القويّة ومعه الأبازير[5] . والمشوىُّ أغذى وأبطأ نزولًا ، والمطبوخُ بالضدّ . وأفضلُ طبيخه أن يُطبخَ الماء حتى يَغْلِى ثم يُلقَى فيه .

(١) ضبطه فى القاموس ككتاب وكتان .

(٢) كذا فى قانون ابن سينا . وفى الأصلين : « مياهه » .

(٣) البطيحية : نسبة الى البطيحة وهى الماء المستنقع .

(٤) الاسفيدباج : نوع من طعام السمك . (راجع طريقة صنعه فى كتاب الأطعمة النسخة الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢ ٥ علوم معاشية) .

(٥) الأبازير : التوابل التى منها الكسبرة والمصطكا والفلفل والدارصينى والكراويا والزنجبيل وزرّ الورد .

وأمّا المـالحُ، فخيرُه ما كان طريًّا قريبَ العهد بالتمليح . وأحمدُه المَمْقُور[1] بالخلّ والتّـــوَابِل .

وأمّا طبعُـه ، فجميعُ السمك باردٌ رطبٌ ، لكن بعضــه أسخنُ بالقياس إلى مِزاج السمك مثل الكَوْسَج[2] والمـارماهيج[3] .

وأمّا أفعالُه وخواصُّه ، فالطَّرِيّ منه يولِّد البلغمَ المـائيَّ مُرْخٍ للأعصاب ، غيرُ موافقٍ إلا للمَعِدةِ الحارّةِ جدًّا . قال : وجِلدُ السمك المعروف "بسيفيانوس"[4] فى ناحية بيت المقـدس إن ذُرّ رمادُ جلدِه فى عيـون[5] المواشى أذهَب بياضَها . والمـالحُ من أصناف السمك يُخرج السُّلّاء[6] من المَناشب[7] . قال : ورأس "سماريس"[8] مُحرِقًا يَقلَعُ اللحمَ

(١) الممقور : المقوع .

(٢) الكوسج : نوع من السمك له خرطوم كالمنشار يفترس ، وهو فى الماء شرّ من الأسـد فى البرّ . والحيوانات البحرية تنفر منه .

(٣) المـارماهيج : هو السليناج المعروف بالنون ، وهو حوت طويل .

(٤) كذا فى القانون طبع بولاق . وفى الأصلين : «بسفياس» .

(٥) كذا فى القانون . وفى الأصلين : «عنق» ، وهو تحريف .

(٦) السلاء : شوك النخل ، الواحدة سلاءة . وذلك أنه إذا تضمد بلحم السمك المـالح وخصوصا « الجرى » منه أخرج السلاء من عمق البدن . ويقال : إن لحم « الجرى » قوته قوة جاذبة ، فاذا قدّد ودق ووضع من خارج أخرج السلاء كما أنه يخرج النصول والزجاج . (راجع مفردات ابن البيطار فى اسم «جرى») . وفى الأصلين : «السل» وهى لغة عامة مصر فى السلاء .

(٧) المناشب : جمع منشب ، وهو اسم مكان من النشوب .

(٨) وردت هذه الكلمة فى الأصلين هنا : «سمارس» ، وفيما يأتى : «سماريوس» . وقد أثبتناها كما وردت فى مفردات ابن البيطار (طبع مصر سنة ١٢٩١ هـ) . ووردت فى كتاب القانون لابن سينا : «سماريس» و «سماروس» فى أكثر من موضع .

الزائدَ فى القروح ويمنع سَعَتَها ويقلع التآليلَ[1] والأليوث[2] . وماء السمك المالح ينفع من القروح العَفِنة ويَغسِلها . قال : واذا احتُقِن بسُلاقة المالح مرارًا نفع من وجع الوَرِك . والسمكُ الصغار الذى تسمّيه أهلُ الشام[3] ومصر "الصِّيرَ" إذا تمضمض صاحبُ القُلاع[4] الخبيثِ بالمُرّى[5] الذى يُتّخذ منه نفعه . و"الرّعّاد" الحىّ إذا قُرِّب من رأس المصدوع أخدَره [عن الحس بالصداع][6] . قال : وجلد "سيفيانوس" تُحَكّ به الأجفانُ الجرِبةُ فينفع ، وجلدُه المحرَقُ أيضا يدخل فى أدوية العين ؛ ويُذهِب[7] الأكتحال به مع الملح الظُّفرَة[8] ، وأكلهُ مقليًّا[9] يورث غِشاوةَ العين بل جميعُ السمك ؛ ورءوسُ

(١) التآليل : جمع تؤلول . قال العلامة السمرقندى : هى بثور صغيرة شديدة الصلابة مستديرةٌ ، وهى على ضروب شتى فمنها منكوسة ، ومنها متشققة ذات شظايا ، ومنها مسمارية وهى غليظة الرءوس مستديرة الأصول تأخذ الى داخل العضو وكأنها مسمار (عن قاموس الأطباء للقيصونى المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٣٢ طب) . (٢) وردت هذه الكلمة فى الأصلين غير واضحة الإعجام . وقد أعجمناها كما وردت فى مفردات ابن البيطار . ونص عبارته : «... سماريس وهو صنف من السمك رأس المملوح منه اذا أحرق قلع اللحم الزائد فى القروح ومنع القروح الخبيثة من أن تسعى فى البدن ، ويقلع التآليل التى يقال لها أبلو واللحم الزائد فى الأبدان الذى يقال له باليونانية بومو وتسميه الأطباء بالعربية اليوث ... » .

(٣) كذا فى القانون . وفى ا : «أهل مصر الخ» . وفى ب : «أهل الشام الخ» .

(٤) القلاع (كغراب) : قرحة تكون فى جلدة الفم واللسان مع انتشار واتساع ، وتعرض للصبيان كثيرا لرداءة اللبن أو لسوء انهضامه فى المعدة . (عن قاموس الأطباء للقيصونى) .

(٥) فى مفردات ابن البيطار : «المرىّ المعمول من السمك المالح والحوم الجافة اذا صب على القروح الخبيثة منعها أن تسعى فى البدن ويبرئ عضة الكلب الكلب ويحتقن به لقرحة الأمعاء لتكويها» .

(٦) زيادة عن القانون . (٧) فى القانون : «ويذيب» .

(٨) الظفرة (بالتحريك) : جليدة تنبت عند المآق وقد تمتدّ الى السواد فتغشيه ؛ كذا فى كتب اللغة . وفى كتب الأطباء : الظفرة زيادة من الملتحمة أو من الحجاب المحيط بالعين تبتدئ فى الأكثر من المآق الإنسىّ ، وهى ثلاثة أنواع : نوع منها غشائى رقيق يبتدئ من جوانب الملتحمة . والثانى يبتدئ من لحمة المآق وينبسط الى أن يلحق حدّ السواد فيقف هناك ويغلظ . والثالث يغشى فيضر بالبصر بل يبطله البتة (عن قاموس الأطباء للقيصونى) .

(٩) كذا فى القانون . وفى الأصلين هكذا : «وأكل طريغلا» ، وهو تحريف .

السَّمَكات المملوحة المجفَّفــة تنفع اللَّهاة[1] الوارمةَ، وعلاجٌ جيّـدٌ من شُقَاقِ المقعدة[2] . وغِراءُ السمك يُلقَى فى الأَحْسَاءِ فينفَع نَفْثَ الدّمِ . قال : وحَوْصلةُ سيفيانوس تُلَيِّن البطن مع صعوبة انهضامها . قال : ورأس المـالح [من][3] سماريس مُحْرَقًا يُجعل على عضّة الكلبِ الكلِب ولسعةِ العقرب فينفع ذلك ، وكذلك كلّ سمكةٍ . ومرقةُ كلِّ سمكٍ تنفع من السموم المشروبة والنُّهُوش . قال : [والسمك[4] ينفع من عُسْر النَّفس والرَّبو واليَرَقَان ويسهِّل البلغمَ وينفع من خُنَاق الرَّحِم] .

وقد وصف الشعراء السمكَ فى أشعارها ؛ فمن ذلك قول ابنِ الرُّومى يخاطب رئيسا[5] ويستدعى منه سمكًا :

عَسُرَتْ علينـا دعوةُ السَّمَكِ[6] * أنَّى وجُـودك ضامِنِ الدَّرَكِ
اِعــلم وُقِيتَ الجهلَ أنك فى * قَصْرٍ تَلَتْــه مطـارحُ الشَّـبَكِ
وبنـاتُ[7] دِجْــلةَ فى فِنائـكم * مأســورةٌ فى كلِّ مُعْــتَرَكِ

(١) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق . وقيل : هى لحمة حمراء فى الحنك معلقة على عكدة اللسان ، ومنفعتها تدريج الهواء لئـلا يقرع ببرده الرئة فجأة ولتمنع الدخان والغبـار ولتكون مقرعة للصوت يقوى بها ويعظم كأنها باب موصد .

(٢) كذا فى القانون . وفى الأصلين : «المعدة» ، وهو تحريف .

(٣) التكملة عن القانون .

(٤) هذه العبارة المحصورة بين مربعين ذكرها المؤلف ضمن منافع السمك ونسبها لابن سينا . وقد راجعنا ما قاله ابن سينا عن السمك فلم نجدها فيه بل ذكرها أثناء كلامه على « سفيدوليون » أو « سفندوليون » كما قال ابن البيطار فى مفرداته وهو اسم نبات .

(٥) هو ابن أبى بشر المرثدى ، كما فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب .

(٦) كذا فى ديوانه ومباهج الفكر . وفى الأصلين : «عودة» وهو تحريف .

(٧) قال الثعالبى فى ثمار القلوب (ص ٢٢٠ طبع مصر) : وجعـل ابن الرومى السمك بنات دجلة واستشهد بهذا البيت .

بِيضٌ كأمثال السبائك بل * مشحونةٌ بالشحم كالعُكَك (١)
حَسُنَتْ مناظرُها وساعَدَها * طعـم لكلّ معاقِدِ التِّكَك
فليَصْطَدِ الصـيّادُ حاجتَنا * يَصْطَدْ مودّتَنـا بلا شَرَكِ

وقال أبو الفتح كُشَاجم :

٥ ومحجوبةٍ بالمـاء عن كل ناظرٍ * ولكنهـا فى حَجْبهـا تُخَطَّفُ
أخذنا عليهنّ السبيل بأعيُنٍ * رواصِد إلّا أنّها ليس تَطْرِف
فجئنا بهـا (٢) بِيضَ المتونِ كأنّهـا * خَنـاجِرُ فى أيمـاننا تَتعطّف

وقال أبو عُبَادة البُحْتُرىّ وذكر بركةً :

لا يبلُغ السمكُ المقصورُ (٣) غايتَها * لِبُعدِ ما بين قاصِيهـا ودانيهـا
١٠ يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مجنَّحةٍ * كالطير تنفُضُ فى جَوٍّ خَوَافيها

١٤٨

وقال أبو طالب المأمونىّ فى المَقْلِىّ منه :

ماوِيّةٌ فِضـيّةٌ لحمُـها * ألذّ ما يأكلُه الآكِلُ
يضمّها من جلدها جَوْشَنٌ (٤) * مُـذَيَّلٌ (٥) فهو لهـا شامِل
لَوّنتُ من فِضّتها عسـجدًا * بالقَـلْيِ لمـا ضافنى نازِل

---

١٥ (١) العكك : جمع عكة ، وهى وعاء للسمن من الجلد .

(٢) فى الأصلين : «لجاء بها» وهو لا يلتئم مع بقية الشعر . وقد بحثنا عن هـذا الشعر فى عدّة نسخ خطية ومطبوعة من ديوان كشاجم فلم نجده .

(٣) كذا فى الأصلين ومباهج الفكر . وفى ديوانه : « المحصور » بالحاء المهملة .

(٤) الجوشن : الدرع .

٢٠ (٥) كذا فى يتيمة الدهر للثعالبى . وفى الأصلين : «مدبل» بالدال المهملة والباء الموحدة .

وقال أيضا :

مائيّـــة فى النار مَصْـــلِيَّةٌ[1] * يُصْبَغ من فِضّتهـا عَسْجَدُ
كأنّمـا جلدتُها جَوْشَنٌ * مُزَرْفَنُ[2] الصَّـــنْعةِ أو مِبْرَدُ

وقال عطاءُ بن يعقوب يصف سمكةً من رسالة يَستدعى بهـا صديقا ، جاء منها : " قد أهدى لنا صديق سمكه ، قـد لبِست من جلدها شبكه ، تُشبِه حَمَلا شَكَلا وقَدّا ، أو جِرابًا قد آمتلأ زُبْدا ، كأنها أرادت أن تحارِبَ نجمَ السِّماك ، أو حُوتَ الأفلاك ، فلبِست من جلدها جَوْشـنًا مزرّدا[3] . وسَلّت من ذنَبهـا سيفا مجـــرّدا " .

وقال خالد بن صفوان ليزيدَ بن المهلّب يصـف سمكا : " أتيتُ ببناتٍ بيضِ البطون ، زُرْقِ العيون ، سُـودِ المتون ، حُدْبِ الظهور ، مُعَقَّفاتِ الأذناب ، صِغارِ الرءوس ، غِلاظِ القَصَر[4] ، عِراضِ السُّرَر " .

هذا ما آتفق إيرادُه فى السمكِ المُطْلَقِ . فلنذكر أصنافا من أنواع الأسماك .

ذكر شىء من أنواع الأسماك

وأنواعُ الأسماكِ كثيرةٌ جدّا ، منها ما يعرِفه الناسُ ، ومنهـا مالم يعرفوه ، ومنها ما يكون فى أماكنَ من البحار دون غيرها . وقد ذهب بعضُهم أنّ كلّ حيوانٍ

(١) كذا فى يتيمة الدهر . وفى الأصلين : «مصلوبة» .

(٢) الزرفين (بالكسر والضم) : حلقـة الباب أو هو عام ، والجمع : زرافين . ومنه الحديث : كانت درع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ذات زرافين إذا علقت بزرافينها سترت واذا أرسلت مست الأرض ، وهو معرّب كما فى الصحاح .

(٣) فى الأصلين : «موردا» .

(٤) القصر : جمع قصرة وهى أصل العنق .

فى البرّ يكون مثلُه فى البحر . فلنُورِد فى هذا الفصل ما أمكن إيرادُه، وهو الدُّلْفِين، والرَّعّاد، والتمساح، والسَّقَنْقُور، والسُّلَحْفَاة، والجَمَّاةُ، والفرس النهرىّ، والجندبيدستر والقُنْدُس[1]، والقَاقُم، والضَّفَادِع، والسَّرَطانُ، وشىءٌ من عجائب الحيوان المائىّ، على حكم الاختصار حيث تعذّر الاستيعاب .

فأمّا الدُّلْفِين — وهو كالزِّقّ المنفوخ، وله رأس صغير جِدًّا . وهو يُوجد فى بحر النيل يَقذِفه البحرُ المِلْحُ إليه . ويقال : ليس فى دوابّ البحر ماله رئةٌ[2] غيرُه؛ فلذلك يُسمع له التنفُّس والنَّفخُ، وهو إذا ظفِر بالغريق كان أقوى الأسباب فى نجاته؛ فإنه لا يزال يدفعه الى البرّ [حتى ينجيه][3] . وهو من أقوى الدوابّ المائيّة . ولا يؤذِى ولا يأكل غيرَ السمك . وربما ظهر على وجه الماء وهو نائم كالميّت . وهو يَلِد ويُرضِع . وأولادُه تتبعه حيث ذهب؛ ولا يَلِد إلّا فى الصيف . وفى طبعه الأُنْس بالناس وخصوصا الصبيان . وإذا صِيد جاءت الدّلافين لقتال صائده، فإذا أطلقه لها انصرفت . وأهلُ المراكب فى البحر الفارسىّ اذا رأَوه استبشروا به وأيقنوا ببلوغ الأرب سيّما الغُزاة .

* * *

وأمّا الرَّعّاد — ويكون فى نيل مصر، ولم أسمع به فى غيره . وفيه من الخاصيّة أنه لا يستطيع أحدٌ من الناس أن يَمَسّه . ومتى وضَع الانسانُ يدَه عليه

(١) فى الأصلين : « القندر » بالزاء بدل السين، وهو تحريف؛ إذ القندر من أسماء الجندبيدستر، فلا معنى إذا لتكراره . والتصويب عن مباهج الفكر وحياة الحيوان فى كلامهما على « القندس » .

(٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « ألية » وهو تحريف .

(٣) زيادة عن مباهج الفكر .

نزعها بحركته وصاح صيحةً مُنْكَرَةً ربما دَهِش الإنسان لهـا، ويجد الرجلُ فى فؤاده خَفَقاناً من ذلك . وهو متى وقع فى شبكة الصيّاد ارتعدت يداه عند إخراج الشبكة من المـاء أو جذب الحبل، فيعلم أنه قد وقع له السمك الرَّعّاد .

* * *

وأمّا التِّمساحُ — وهو أيضا لا يكون إلا فى نيل مصر؛ وزعم قوم أنه يوجد فى مِهران السِّند[1]، لِزعمهم أنه من النيل . وهو شديدُ البطش فى المـاء . وهو يعظُم إلى أن ينتهى فى الطـول إلى عشرين ذراعاً فى عرض ذراعين . ويفترِس الفرسَ والإنسـانَ . ولا يَقْوَى على قتاله من الحيوان إلّا الجـاموس . وله يدان ورجلان وذَنَب طويل يضرِب به ويَلُفّ . وهو لا يُصاد إلّا أن يُضرب فى إِبطيه، ومنهما مقتـلُه . ويقال : إنه إذا أراد السِّـفادَ خرج هو والأنثى إلى البَرّ فيقلِبها على ظهرها ويستبطِنها؛ فإذا فرَغ قلَبها لأنها لا تتمكّن من الانقلاب لِقِصَر يديها ورِجليها ويُبْس ظهرها . وهى تبيض فى البرّ، فما وقَع فى المـاء صار تمسـاحًا وما بقِى فى البرّ صـار سَقَنْقُورا . والتِّمساحُ يحرّك فَكَّه الأعلى دون الأسفلِ، ولسانُه معلَّقٌ به . ويقال : إنه ليس له مَخرَجٌ ، وإنّ جوفَه إذا امتلأ خرج إلى البرّ وفتح فَمَه فيجىء طائرٌ صغير أرْقَطُ فينقُر بمنقاره ما فى جوفـه ويُخرِجه، وذلك غِذاءُ الطـائر وراحةٌ للتمساح . (١٤٩)
وفى رأس هذا الطائر شوكةٌ فإذا غلّق[2] التمساحُ فَمَه عليه نَخَسه بها فيفتحه . ويقال : إن للتمساح ستين سِنًّا وستين عِرْقًا ، ويسفِد ستين مرّةً، ويبيض ستين بيضةً .

(١) مهران السند : نهر عظيم بالسند بقدر دجلة تجرى فيه السفن ويسقى بلادا كثيرة ويصب فى البحر عند الدَّيْبُل (مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند) . وماؤه عذب جدّا . وهو مثل النيل فى الكبر وجريه مثل جريه، ويرتفع على وجه الأرض ثم ينصب فيزرع عليه مثل ما يزرع بأرض مصر .

(٢) غلق (بالتضعيف) كأغلق، وغلق (بالتخفيف) لغة نادرة أو رديئة متروكة .

ويُوجد فى جلده مما يلِي بطنَه سِلْعة[1] كالبيضة فيها رطوبةٌ لها رائحةٌ كالمسك، وتنقطع رائحتُها بعد أشهر .

ووصَفه شاعرٌ فقال :

وذِى هامةٍ كالتُّرْسِ يَفْغَر عن فَمٍ * يُضَمّ على مثلِ الحُسَامِ المثلَّمِ
وَيَفْتَرُّ عن مثل المَنَاشِير رُكِّبت * على مِشْفَرٍ مثلِ القَلِيبِ المُهَدَّمِ
مَشَى فى شَوَاةٍ من فَقَارة غَيْلَمٍ * وسَقَّفَ لحيًا[2] عن مناكب شَيْهَمِ

٥

* * *

وأما السَّقَنْقُور — ويسمى الحِرْذَوْنَ البحرىّ . ويقال : إنه ورَلٌ مَائىٌّ. ومنه ما هو مصرىّ، وما هو هندىّ، وما يتولّد فى بحر القُلْزُم وببلادِ الحبشة . وهو يغتذِى فى الماء بالسمك وفى البرّ بالقَطَا . وأنْثاه تبيض عشرين بيضةً وتدفِنها فى الرَّمل ، فيكون ذلك حضنَها . وجِلْده خَشِنٌ مُدَبَّج بالسواد والصفرةِ . وهو إذا عضّ إنسانا وسبَقه الإنسان إلى الماء فاغتسل منه مات السقنقورُ ؛ وإن سبَق السقنقورُ الإنسانَ إلى الماء مات الإنسانُ . وبين السقنقورِ وبين الحيّة عداوةٌ عظيمةٌ، متى ظفِر أحدهما بصاحبه قتله .

١٠

١٥

وقال الشيخ الرئيس : أجودُ السقنقورِ ما صِيد فى الرَّبيع وقتَ هيجانِه . وأجودُ أعضائه السُّرّة . وهو ينفع من العلل الباردةِ فى العَصَب . وملحُه يَهِيج الباهَ فكيف لحمُه، وخصوصا لحمُ سُرَّتِه وما يلِي كُلْيَتَيْه وخصوصًا شحمها .

(١) السلعة : زيادة تحدث فى الجسد مثل الغدّة .

(٢) كذا فى ب . وورد فى ا مهمل الإعجام . ولعله يريد به أنه طوّل لحيا من قولهم : لحى سقف أى طويل مسترخ والمسقف كمعظم : الطويل . والغيلم : السلحفاة الذكر . والشيهم : ذكر القنافذ أو ما عظم شوكه من ذكورها .

٢٠

❖

وأمّا السُّلَحْفَاةُ واللَّجَأَةُ — يقال : إنّ اللَّجَأَة تبيض فى البرّ ، فما أقام به سُمِّى سُـلَحْفاةً ، وما وقع فى البحر سُمِّى لَجَأَةً . فأمّا ما يبقى فى البرّ فإنه يعظُم حتى لا يكاد الرجلُ الشـديد يحمِله . وقد رأيتُ فى سنة سبع وسبعمائة بالقاهرة المُعِزِّيّة سُـلَحفاةً تحمِل الرجلَ وتمشِى به وهو قائم على ظهرها . وما ينزِل البحرَ يعظُم حتى لا يكاد الحمار يحمِـله ؛ وربمـا وُجِد منهـا ما زِنَتُـه أربعُمائةِ رِطلٍ . وتبيض أُنْثاه أربعمائةِ بيضة . وهى تحضُن بيضها بالنظر إليه والرَّصْدِ له لا غيرُ . وللذّكر نِزْكانِ وللأنثى فرجانِ . والذكر يُطيل المُكْثَ فى السِّفاد . والعرب تكنِيها « أمّ طَبَقٍ » . ويزعمون أنها تبيض تِسعًا وتسعين بيضةً ، وتَبيضُ تمـامَ المـائةِ بيضةً يخرج منها أسود (أى ثعبان) . وهو مولَعٌ بأكل الحيّات ؛ وإذا أكل الأفعى أكلَ صَـعْترا جَبَلِيًّا ؛ فإذا أكثر من أكل الحيّات والصَّـعْترِ هلَك . وله تحيُّـلٌ فيما يصـيده من الطائر ، وهو أنه يصـعَد من المـاء ويتمرّغ فى التراب ويأتى موضِـعًا قد سـقط الطيرُ عليه ليشربَ ، فيَخْفَى على الطير بكُدْرةِ لونِه التى اكتسبها من المـاء والتراب ، فيصيد منها ما يكون له قوتاً ويدخل به المـاءَ فيموت الطائرُ فيأكله .

ووصفها شاعر فقال :

وسُـلْحفاة سَمِج * سكونُها والحَـرَكَهْ
شَـبّهتُها بِدَيْـلَمِىٍّ ساقِط فى معـركَهْ
مُسْـتَتِرٍ بتُرْسِـه (١) * عمّن عسى أن يُهلِكَهْ

(١) فى الأصلين : «بتربه» . والتصويب عن مباهج الفكر .

وقال أبو بكر الخُوارَزْمِىّ يصف لَحَأَة :

بِنْتُ ماءٍ بَدَتْ لنا من بعيدٍ * مثل ماقد طوى البحارىّ(١) سفرهْ
رأسُها رأسُ حيّةٍ وقَرَاها(٢) * ظهرُ تُرسٍ وجِلدُها جِلدُ صَخْرهْ
مثلُ فِهرِ(٣) العَطّارِ دُقّ به العِطـ * ـرُ فَخَلّت(٤) طرائقُ الطِّيب ظهرَهْ
يقطع الخوفُ رأسها فإذا ما * أمِنَتْـه فرأسُها مستقرّه

وقال آخـر :

لحى الله ذاتَ فمٍ أخرسٍ * تُطيل من العِىّ وسْواسَها
تَكُبّ على ظهرها تُرسَها * وتُظهِر من جُلّها فاسَها(٥)
إذا الحِذْرُ أقلق أحشاءَها * وضيّق بالخوف أنفاسَها
تَضُمّ الى نَحْرها كفَّها * وتُدْخِل فى جوفها راسَها

❖ ❖ ❖

وأمّا الفرسُ النَّهرىّ — وهو عظيم الجثة، وخَلْقه خلقُ الفرس، إلا أنّ وجهه أوسعُ؛ وله أظلافٌ كالبقرة؛ وذنبُه مثلُ ذنبِ الخنزير؛ وصوتُه يُشبه صوتَ الفرس . وهو لا يوجد إلّا فى نيل مصر . وهو يخرج من الماء الى البرّ، ويَرعى (١٥٠)

(١) كذا فى أ وفى ب هكذا « البجادى » ولم نتبين المراد منها .
(٢) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « وقفاها » .
(٣) الفهر : الحجر الرقيق الذى تسحق به الأدوية على الصلاية .
(٤) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « فجلّت » بالجيم .
(٥) كذا فى كتاب الألفاظ الفارسية (ص ٩٢ طبع بيروت) . وفى الأصلين ومباهج الفكر وحياة الحيوان : « وتظهر من جلدها رأسها » . وقد آثرنا رواية الألفاظ الفارسية لتحاشى الإيطاء الظاهر بين البيت الثانى والرابع . والفأس : طرف مؤخر الرأس المشرف على القفا .

الزرعَ . واذا قصد الزرع لا يبتدئ من أوّله ، ولكنه يجوز منه قطعةً بقدر ما يأكل ويبتدئ منهـا بحيث يكون وجهُه إلى البحر . وهو يقتل التمساحَ ويَقْهَره . وأهلُ الديار المصريّةِ إذا رأَوا أثرَ حافره فى البرّ تبـاشروا بزيادة النيل وكثرةِ الخصب . وفى سـنة اثنتين وسبعمائةٍ طلَـع الفرسُ النهرىُّ إلى البرّ بالجيزة وأبعـد عن البحر ، فتُحيِّل عليه وقُتِل . وأهلُ النُّوبةِ يَصيدونه كثيرا ، ويتّخذون من جلده سِياطًا يسوقون بها الإبل .

٥

* * *

وأمّا الجندبيدستر — وهـو السَّمُّور ، ويسـمى "كلبَ المـاء" . ولا يُوجد إلا ببلاد القفجاق[1] وما يليها . وهو على هيئةِ الثعلبِ ، أحمر اللّون ، لا يدانِ له ، وله رِجلانِ وذنَبٌ طويل ، ورأسُـه كرأس الإنسان ، ووجهُه مستديرٌ . وهو يمشى متّكئًا على صـدره كانه يمشى على أربع ، وله أربعُ خُصًى : ثِنتانِ ظاهرتانِ وثِنتان باطنتانِ . وهو إذا رأى الصيّادين يَجِدّون فى طلبه لأجل الجندبيدستر ، وهو خُصْيَتاه الظاهرتانِ ، قطعهما بفيه ورمى بهما إليهـم ؛ إذ لا حاجة لهم إلا بهما . فإن لم يرهما الصيّادون وداموا فى الجِدّ فى طلبه استلقى على ظهره ليُريَهم الدَّم ، فيعلمون أنه قطعهما فينصرفون عنه . وهو إذا قطع الظاهرتَين ظهر الباطِنتانِ وعُوِّض عنهما غيرهمـا . وفى داخل الخصية شِـبهُ الدَّم أو العسـلِ زَهِمُ الرائحة سريعُ التفرُّك إذا جفّ . ويقال : إنه يُوكِّر[2] على الأرض ويُولِد[3] عليها ويَرعى فيها ، ويهرُب إلى المـاء ويعتصم به ؛ ويُمكنه أن يَلْبَث فى قعره حابسًا لنفسه زمانا ثم يخرج [إلى الهواء][4] .

١٠

١٥

(١) القفجاق : قوم كانوا يعرفون بالخفشاخ غربوا إلى بلاد القسطنطينية وكان لهم ملوك كثيرة فى بلاد المغرب ففرق التتر شملهم (عن تقويم البلدان ص ٢٠٦ طبع أوربا) . (٢) وكر : اتخذ وكرا .

(٣) يقال : أولدت الشاة إذا وضعت . (٤) زيادة عن مباهج الفكر .

٢٠

وأمّا حيوانُ القُنْدُس[1] والقَاقُم — فالقُنْدُس يغتـذى بالسمك والنّبات . ويقال: إنّ فيه سادةً وعبيدًا، وإنه يتخذ مساكنَ مرتّبةً على ترتيبِ مساكنِ الناسِ . والسادةُ يتخذون فى بيوتهم صُفَفًا[2] مُرتفعةً يكونون عليها، وفى أسفلها مواضعَ للعبيد، ولبيوتهم أنفاقًا إلى البرّ وأبوابًا إلى النهر . وبعضُ هـذا الحيوان يُغير على بعض . والسادةُ لا تتكسّب، وإنما يتكسّب لهـا العبيدُ . ويُعرف جِلْدُ السيّد من جِلْد العبد بحسن لونه وبَصِيصِه[3] . وأهلُ تلك البلاد يسلُخون خراطيمَ القُنْدُس والسَّمُّور ويتعاملون بهـا كما يُتَعامَلُ بالدّنانير والدراهم بحيث يكون عليها خَتْمُ الملِك . وجِلْدُ هذا الحيوان هو الذى يُعْمَل شَرابِيشُ[4] الأُمراء وأطواقَ التّشاريف ودوائرها .

والقَاقُم : حيوان يُشبه السِّنْجابَ إلّا أنه أبردُ منه وأرطبُ ؛ ولهذا هو أبيضُ يَقَقٌ . وهو يُجلَب من بحر الخَزَر . وجلدُه يُشبه جلدَ الفَنَك[5] .

وأما الضفادع — وهى أصناف كثيرة، تكون من سِفادٍ وغيرِ سِفادٍ . وهى تبيض فى البرّ وتعيش فى المـاء . والذى من غير سِفادٍ يتولّد من المياه الضـعيفةِ ، ومن العُفُونات، وغِبِّ الأمطار الغزيرةِ، حتى يتوهّمَ المتوهِّم أنه يسقط من السَّحاب لكثرةِ ما يُرى منه على الأسطِحةِ عَقِيبَ المطرِ . ويقال: إنه يُخلق فى تلك الساعة .

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٣١٣ من هذا الجزء .

(٢) الصفة من البنيان : شبه الهو الواسع الطويل السمك .

(٣) البصيص : البريق واللمعان .

(٤) الشرابيش : جمع شربش (كجعفر) وهو هدب الثوب .

(٥) الفنك : دابة يؤخذ منها الفرو .

والضِّفْدع من الحيوان الذى لا عظمَ له . وفيه مايَنِقُّ وماليس يَنِقّ . وليس صوتُ ما يَنِقُّ من فِيه ولكنه من جلودٍ رِقَاقٍ تكون إلى جانبِ أُذُنيـه ؛ فإذا أراد النقيقَ انفتحت فيخرُج الصوتُ منهـا . وهى تَنْطِبِق فى زمن الشـتاء فلا تَنْفَتِح حتى يعتدل الجوّ .

قال الجاحظ : والضِّـفْدَعُ لا يَصيح ولا يُمكِنه الصـياحُ حتى يُدخِلَ حَنَكَه الأسفلَ المـاءَ، فإذا صار فى فِيـه بعضُ المـاء صاح ؛ ولذلك لا تَسـمع للضفادع نَقِيقًا إذا كنّ خارجاتٍ من المـاء . قال : والضـفادع تَنِقُّ ، فإذا أبصرت النـار أمسكتْ . وتُوصف بحدّة السـمع إذا كانت خارجَ المـاء . ويُضرب بهـا المثلُ فى السمع والحذر، فيقال : « أحذَرُ من ضِفْدَعٍ » و « أسمعُ من ضِفْدَعٍ » . وقال شاعر يصف الضفادعَ :

وُمقْعَـداتٍ زانَهنّ أرْجُلُ * كقِعْدةِ النا كِحِ حين يُنْزِل
* يُكْسَيْن وَشْـيًا وعيونٌ تُكْحَلُ *

وقال آخرُ:

دَعَتْـك فى فاضَـةٍ[1] مُـدَنَّرةٍ * ليس لهـا طُرّةٌ ولا هُـدُبُ
قد نُسِجَتْ من زَبَرْجدٍ فجَرَى * بين تَضَاعِيفِ نَسْجِها الذّهَبُ
يَظَـلّ صَمْتًـا نهـارَه فإذا * أدركه الليـلُ بات يَصْطَخِبُ
وهو وإن لم يُغَطِّ مقلتَـه * جفنٌ ولا آمتـدّ خَلْفَه ذنَبُ
يُعجِـبُنى ما أراه منـه فَفِى * خِلْقتِـه وآختـلافِها عَجَبُ

(١) الفاضة : القميص الواسع البراق . ومدنرة : يشبه وشيها الدنانير .

وأمّا السَّرَطانُ وما قيل فيه — وهو ذو فكَّيْن ومَخالِبَ وأظفارٍ حِدادٍ، كثيرُ الأسنانِ، صُلْبُ الظَّهر، سريع العَدْو، وعيناه على كَتِفيه، وفَمُه فى صدره، وفكّاه مشقوقانِ من جانبين . وله ثَمانى أرْجُلٍ . وهو يمشى على جانبٍ واحدٍ، ويَستنشق الماءَ والهواءَ معًا . وهو يسلُخ جلْده فى السنة ستَّ مراتٍ . ويتّخذ بجُحْره بابين، أحدُهما إلى الماء والثانى إلى البرّ . فإذا سلَخ جلده سدّ عليه ما يلى الماءَ خوفًا من السمك وترك ما يلِى البرَّ مفتوحا؛ فإذا جفَّتْ رطوبتُه واشتدَّ، فتح ما يلى الماءَ وطلب مَعاشَه .

قال شاعر يصفه :

فى سَرَطانِ الماءِ أُعجوبةٌ * ظاهرةٌ للخَلْق لا تَخْفَى
مُسْتَضعَفُ المُنَّة لكنّه * أبطشُ من حاربتَه كَفّا
يُسْفِر للناظر عن جملة * متى مشى قدّرها نِصْفا

وقال أبو عُبَيْد[1] البَكْرىّ فى كتابه المترجم بالمسالك والممالك : إنّ ببحر الصين سَرَطاناتٍ تخرج كالذراع والشبر، فإذا صارت الى البرّ عادت حجارةً وانقلبت عن الحيوانيّة؛ والأطباء يتخذون منها كحْلا يجلو البياضَ .

(١) هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ، وكان مولده سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) . وقد طبع جزء من كتابه المسالك والممالك هذا فى الجزائر سنة ١٨٥٧ م بعنوان "كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب" . وقد نقل الى الفرنسية وطبع تباعا فى المجلة الأسيوية الباريزية فى سنتيها ١٨٥٨ م و ١٨٥٩ م . وله مؤلفات كثيرة : منها "كتاب معجم ما استعجم" و "أعيان النبات والشجيرات الاندلسية" وغيرهما . (راجع ترجمته بتفصيل فى كتابه "التنبيه على أوهام أبى علىّ فى أماليه" طبع دار الكتب المصرية) .

ذكرُ شيء من عجائب الحيوان المـائىّ

وعجائبُ البحر كثيرةٌ جِدّا لا يُستغرب ما نذكر منها؛ ولذلك قيـل : «حدِّث عن البحر ولا حَرَج» . وقد حكى صاحبُ كتاب مَباهِج الفِكَر ومَناهِج العِبَر فى كتابه، قال : رأيتُ فى بعض المجاميع المجهولةِ أنّ فى بعض البحار شاةً شَعْراءَ تكون فى البرّ مع البهائم حين الرَّعْى؛ فإذا فرغت من رَعْيها عادت إلى المـاء، وتأكل السـمك . قال : وذكر لهـا خواصّ . قال : وذكر بعضُهم دابّة سمّاها "خَزّ المـاء" ولم يُسَمّ المكانَ الذى تكون فيه، وقال : إنهـا مثال ٱبنِ عِرْس أو أكبرُ قليـلًا، سِباحتُها فى المـاء بجَرْيها فى البرّ، لهـا وبَرٌ ناعمٌ تُعمل منـه ثِيابُ الخَزّ، وهذا الوَبَرُ موجودٌ تأتى به التّجّار من البحر الرومىّ يُباع بالقاهرة، ويُسمُّونه صوفَ السمك؛ وهو أخضرُ اللّون؛ ويقـال : إنه إذا طلع من البحر يكون أبيضَ يَقَقًا، فإذا صار إلى البرّ وأصابه النسيمُ ٱنقلب إلى الخُضْرة . وهم يَغزِلونه ويُلْحِمُون به الثيابَ المُسداةَ بالحرير، وقيمتُه لا تقصرُ عن قيمة الحرير وربما يزيد عليـه . وأرخصُ ما ٱبتعتُه أنا حسابًا عن وزن كلّ مائة درهم أربعين درهمًا . وبه تُخْنق الأفاعى بمصر، تُفتل منـه خيوطٌ تُسمَّى إذا خُنِق بهـا الأفاعى حبالَ الخُنَاق، لها نفعٌ فى تحليل مرض الخُنَـاق .

ويقال : إن ببحر الرّوم — وربما بغيره أيضا — حيوانًا يُسمُّونه "بناتِ المـاء" يُشْبِهن[1] النساءَ، لهنّ شعورٌ سِباط[2]، ألوانهنّ إلى السُّمْرة، ذوات فروجٍ عظامٍ وثُدِىٍّ، ولهنّ قهقهة وضَحِكٌ وكلامٌ لا يُفهم؛ وربمـا يَقَعْن لأصحـاب المراكب وغيرهم

(١) فى الاصلين ومباهج الفكر : « يشبهون » . وفى حياة الحيوان للدميرى (ج ١ ص ١٩٦ طبع بولاق) : « شبيهة بالنساء » .

(٢) فى الأصلين : « سبط » .

فينكحونهنّ فيجدون لنكاحهنّ لذّةً عظيمة ثم يعيدونهنّ إلى البحر . وفى البحر أيضا أمثالُ الرجال ، يقال : إنّهم يظهرون [بالإسكندريّة[1] و] بالبُرُلُّس ورَشيد فى صورة الإنسان بجلودٍ لَزِجَةٍ، لهم بكاءٌ وعويل إذا وقعوا فى أيدى الناس؛ [وذلك أنهم ربما بَرَزوا عن البحر إلى البرّ يتشمّسون فيقع بهم الصيّادون[1]]؛ فإذا سمع الناس بكاءَهم أطلقوهم رحمةً لهم .

(١) زيادة عن مباهج الفكر .

البـاب الثامن وهو الذيل على القسم الخامس

من الفن الثـالث

[ويشتمل[(١)] هذا الباب] على ذكر شيء مما وُصفت به آلاتُ الصيد فى البرّ والبحر ووصفِ رُماةِ البندق، وما يَجرى هذا المَجرى .

ذكر شيء ممـا قيل فى رُماة البندق — ومما وُصفت به الجُلاهِق[(٢)] ٥ وهو قِسيّ البنـدق . من ذلك ما كَتَب به أبو إسحـاق الصّابى من رسالة إلى [أبى الفرج][(٣)] محمـد بن العباس [بن فُسَانَجْش][(٤)]، جاء منها : " أقبلت رُفْقـةُ الرُّماةِ قد برَزت قبل الذُّرور[(٥)] والشروق، وشمّرتْ عن الأَذْرع والسُّوق ؛ مقلّدين خرائطَ شاكلت السيوفَ بحمائلها ونِياطاتِها[(٦)]، وناسَبَتها فى آثارها ونِكاياتها ؛ تحمِل من البُنْدُق المَلْمُوم ، ما هو فى الصحّة والاستدارة كاللؤلؤ المنظوم؛ كأنمـا خُرِط بالجَهْر[(٧)]، فجاء ١٠

(١٥٢)

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) الجلاهق : قوس تتخـذ من القنا ويلف عليها الحرير وتغزى . وفى وسط وترها قطعـة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمى .

(٣) زيادة عن رسائل الصابى المخطوطة والمحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٢٧ أدب .

(٤) زيادة عن رسائل الصابى ومباهج الفكر . ١٥

(٥) كذا فى مباهج الفكر . وذرّت الشمس تذر ذرورا (من باب نصر) : طلعت وظهرت . وفى الأصلين : «الدود» ، وهو تحريف .

(٦) الذى فى كتب اللغة أن النياط الذى هو معلق القوس يجمع على أنوطة ونوط .

(٧) كذا فى الأصلين . ولعـله يريد بالجهر الرابية الغليظة ، وبينات الفهر الحجارة الصـغيرة ؛ إذ الفهر : الحجر قدر ما يدق به الجوز ونحوه، وقيل : هو الحجر ملء الكف . ٢٠

كبنات الفِهْـر، قد آختِيرَ طينُـه، ومُلِكَ عجينُه[1]؛ فهو كالكافور المُصَّاعِد[2] فى اللّمس والمَنْظَر، وكالعنبر الأَذْفَر فى الشمّ والخَبَر؛ مأخوذٌ من خير مواطنه، مجلوبٌ من أطيب معادنه؛ كافلٌ بمطاعم حامِليه، مُحقِّقٌ لآمال آمِليه؛ ضامنٌ لحِمام الحَمَام، مُتَناوِلٌ لها من أبعد مَرَام؛ يعرُج إليها وهو سمٌّ ناقع، ويهبِط بها وهى رزقٌ نافع".

٥ ومنها فى وصف القِسِىّ: "وبأيديهم قِسِىٌّ مكسوّةٌ بأغشية السُّندس، مشتملة منها[3] بأحسن مَلْبَس؛ مثل الكُمَاة فى جَوَاشِنها ودُروعها، والجِيادِ فى جِلالها[4] وقُطُوعها؛ حتى إذا جُرِّدت من تلك المطارف، وآنتُضِيَت[5] من تلك المَلاحف؛ رأيت منها قُدودًا مُخْطَفةً[6] رشيقه، وألوانًا مُعْجِبة أنيقه؛ صُلْبةَ المَكاسِر[7] والمَعَاجِم، نجيبةَ المنابت والمَناجم؛ خَطِّيَّةَ الأسماء والمَناسب، سَمْهَرِيَّةَ الأعراقِ والمَناصب؛ رُكِّبت من شظايا الرِّماح

١٠ الداعسه، وقرون الأوعال الناخسه[7]؛ فحازت الشرفَ من طَرَفَيْها، وآستولت عليه

---

(١) ملك العجين: عجنه فأنعم عجنه وأجاده.

(٢) الكافور: هو صمغ شجر ولونه أحمر ملمع أو أسمر، وخشبه أبيض رخو يضرب إلى السواد. وهو يوجد فى أجواف قلب الخشب فى خروق فيها ممتدّة مع طولها، وهو أنواع، ويكون على قدر الدرهم أو اللوز أو الحمص أو الفول أو العدس. وهو مختلط فيه شظايا من خشب الكافور. وتصفى هذه الكوافير كلها بالتصعيد

١٥ فيخرج منها كافور أبيض صفائح يشبه فى شكله صفائح الزجاج التى يصعد فيها.

(٣) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين: «فيها».

(٤) الجلال: جمع جل (بالضم) وهو للدابة كالثوب للانسان تصان به. والقطوع: جمع قطع (بالكسر) وهو ضرب من الثياب الموشاة.

(٥) فى الأصلين: «انبضت»، وهو تحريف.

٢٠ (٦) قدود مخطفة: ضامرة قليلة لحم الجنب.

(٧) يقال: فلان صلب المكسر والمعجم إذا كان قويا شديدا عند المختبر.

(٨) الوعل الناخس: هو الذى نخس قرناه استه من طولها. وفى الأصلين: «الباخسة» (بالباء الموحدة)، وهو تصحيف.

بكلتـا يديها ؛ قد آنحنتِ آنحناءَ المَشيخةِ النُّسَّاك، وصالت صِيالَ الفِتية الفُتّـاك ؛ وآستبدلت من قديمها فى عزّ الفوارس[1]، بحديثها من نفيس الملابس؛ وآنتقلت من جِدّها فى طِراد المَغارات[2]، إلى هَزْلها فى طَرْد المُسْهِرات[3]؛ ظواهرُها صفرٌ وارِسه[4]، ودواخِلُها سودٌ دامِسه؛ كأنّ شمسَ أصيلٍ طلعت على مُتونِهـا، أو جنحَ ليل آعتكر فى بطونها ؛ أو زعفرانًا جرى فوق مناكبها، أو غاليةً جَمَدت على ترائبها[5]؛ أو قضبانَ فضةٍ أُذْهِب شَطْرُها وأُحْرِق شطر، أو حَبّاتِ رَمْل آعتنق[6] السودَ منها صفر" .

وجاء منها فى وصف الوتر :

"فلمّا توسّطوا تلك الروضه، وآنتشروا فى أكناف[7] تلك الغَيْضَه؛ وثَبَتَتْ للرّمْى أقدامُهم، وشَخَصت للطير أبصارهم؛ وتَرُوها[8] بكل وَتَرٍ فُوق[9] سهمِه منه، وهو مفارِقٌ للسهم وخارجٌ عنه؛ مُضَاعَفٌ عليها من وَتَرَيْن، كأنّه شخص ذوجسدين، أو عِناقٌ[10] ضمّ

(١) فى مباهج الفكر : «هز الفوارس» بالهاء .

(٢) المغارات : جمع مغارة (بفتح الميم وضمها) : مصدر بمعنى الغارة . والطراد : أن يحمل الأقران بعضهم على بعض، ويقال : هم فرسان الطراد .

(٣) كذا فى مباهج الفكر . والطرد : الصيد . والمسهرات : طيور يلتذ بها كل من يسمعها ويسهر عليها ولا يشتهى النوم من لذة سماعها . وفى الأصلين : « طرد المستنزهات » .

(٤) أورس الشىء : اصفر فهو وارس، وهو من النوادر، ويقال : مورس .

(٥) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «ترامها» .

(٦) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « أعتق السود منها صفرا » .

(٧) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : « اب»، وهو تحريف .

(٨) وتره : أدركه بمكروه وأصابه .

(٩) كذا فى الأصلين . ولعله يريد « أوفق سهمه منه » أو « فيق سهمه منه » . فانه يقال : فقت السهم وأوفقته إذا وضعته فى الوتر لترمى به .

(١٠) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «عنانا» ، وهو تحريف .

ضجيعين؛ فى وسطه عينٌ كشَرْجة كيسٍ مختوم، أو سُرّة بطنٍ خميص مهضوم؛ تروعُ قلب الطير بالإنْباض، وتُصيب منها مواقعَ الأغراض".

وقال ضياءُ الدين بن الأثير الجَزَرىّ من رسالة فى وصف القِسىّ. وذكر الرُّماة، جاء منها:

٥ "وإذا تناولوها بأيديهم قلتَ: أهلّةٌ طالعةٌ فى أكُفّ أقمار، وإذا مُثِّل غَنَاؤها وغَنَاؤهم قلتَ: منايا مسوقةٌ[(١)] فى أيدى أقدار؛ وتلك قِسِىٌّ وُضِعت للّعب لا للنّضال، ولرَدَى الطير لا لردى الرجال. فإذا نعتها ناعتٌ قال: إنها جَمَعَتْ بين وصْفَى اللين والصلابه، وصِيغَتْ من نوعين[(٢)] غريبين فحازت معنى الغرابه؛ فهى مركّبةٌ من حيوان ونبات، مؤلّفةٌ منهما [على][(٣)] بُعْد الشّتات؛ هذا من سكان البحر وسواحله، وهذا من

١٠ سكان البرّ ومجاهله. ومن صفاتها أنها لا تمكّن من البطش إلا حين تُشَدّ، ولا تنطلق فى شأنها إلا حين تُعْطَف وتردّ. ولها بناتٌ أُحكم تصويرُها، وصُحّح تدويرُها؛ فهى فى لونها صَنْدليّة الإهاب، وكأنها صِيغت لقوّتها من حجر لا من تراب؛ فإذا حَذَفها[(٤)] نحو الأطيار [أحد][(٥)]، قيل: وتصعّد من الأرض من جبال فيها من بَرَد، فلا ترى حينئذ إلا قتيلا بالمَقْتل الذى لا يجب فى مثله من قَوَد؛ فهى كافلةٌ من تلك الأطيار بقبض

١٥ نفوسها، ومُنزِلةٌ لها من السماء على أُمّ رءوسها".

---

(١) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين: «مسبوقة».

(٢) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين: «وصبغت لونين غريبين».

(٣) زيادة عن مباهج الفكر.

(٤) كذا فى مباهج الفكر. وفى الأصلين: «فأوجد منها نحو الأطيار فتد وتصعد... الخ»، والتحريف

٢٠ ظاهر فى العبارة.

(٥) لعل هذه الكلمة أو ما فى معناها ساقطة من العبارة.

ومن إنشاء المولى الفاضـل شهـاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الكاتب — أمتع الله ببقائه، وزاد فى علوّه وارتقائه — رسالةٌ فى رمى البندق، وصفَ فيها الرّماةَ، ومواضعَ الرَّمْى ووقتَه، والقِسيَّ، وأفعالَ الرُّماة، وجميعَ طير الواجب(١)، لم أقف فيما طالعتُه لمتقدِّم ولا متأخِّر [على](٢) أجمعَ لهذا الفن منها؛ وهى ممـا يستعين بها الكاتبُ على إنشاء ما يقصده من قِدَم(٣) البندق فى أى نوع أراد من طير الواجب. وقد أوردتُها بجملتها؛ لحسن انتظامها، واتّساق نظامِها؛ وجودة ترتيبها، وبديع تهذيبها. وهى : (١٥٣)

"الرّياضة — أطال اللهُ بقاء الجناب الفلانىّ، وجعل حُبَّه كقلب عدوّه واجبا، وسعدَه كوصف عبدِه للسارّ جالبا وللضارّ حاجبا — تبعث النفسَ على مجانبة الدَّعَة والسكون، وتصونها عن مشابهة الحمـائم فى الرُّكون إلى الوكون(٤)؛ وتحضُّها على أخذ حظّها من كل فنّ حسن، وتحثّها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللَّسَن؛ وتأخذ بها طورًا فى الجِدّ وطورًا فى اللّعِبْ، وتُصَرِّفها فى مَلاَذِّ السموّ فى المَشاقّ التى يستروح إليها التَّعِب؛ فتارةً تحمل الأكابر والعظماء فى طلب الصـيد على مواصلة السُّرَى(٥)، ومقاطعةِ الكَرَى؛ ومهاجرةِ الأوطار، ومهاجمةِ الأخطار؛ ومكابدةِ الهواجر،

(١) طيور الواجب أربعة عشر طائرا وهى على ضربين : الضرب الأوّل طيور الشـتاء وهى التى يكثر وجدانها فيـه وهى عشرة طيور : الكركى، والإوز، واللغلغ، والحـبرج، والتم، والعناز، والعقاب، والنسر، والأنيسة. والضرب الثانى طيور الصيف وهى التى يكثر وجودها فيه، وهى أربعة أطيار: الكى، والغرنوق، والمرزم، والشبيطر. (راجع صبح الأعشى ج ٢ ص ٦٢). (٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قدم : جمع قديمة (بكسر القاف وسكون الدال المهملة) وهى رسائل تشتمل على حال الرمى بالبندق وأحوال الرماة وأسماء طير الواجب واصطلاح الرماة وشروطهم. (راجع صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٨٢). (٤) الوكون : جمع وكن، وهو عش الطائر فى جبل أو جدار.

(٥) الهواجر: جمع هاجرة، وهى نصف النهار فى القيظ خاصة عند زوال الشمس مع الظهر أو من زوالها الى العصر، لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا.

ومبادرة الأوابد التى لا تُدرَك حتى تبلغُ القلوبُ الحناجر؛ وذلك من محاسن أوصافهم التى يُذَمّ المُعرِض عنها، وإذا كان المقصودُ من مثلهم جِدَّ الحربَ فهذه صورةُ لَعِب يُخرَج إليها منها؛ وتارةً تدعوهم إلى البروز إلى المَلَق(١)، وتحدوهم فى سلوك طريقها مع من هو دونهم على ملازَمة الصدق ومجانبةِ المَلَق؛ فيَعتَسفون إليها الدُّجَى، إذا سَجَى؛ ويقتحمون فى بلوغها حُرَقَ(٢) النهار، إذا آنهار؛ ويتنعّمون بوعثاء السفر، فى بلوغ الظَّفَر؛ ويستصغِرون ركوبَ الخطَر، فى إدراك الوَطَر؛ ويُؤثِرون السهر على النوم، والليلةَ على اليوم؛ والبندقَ على السهام، والوَحْدةَ على الآلتئام.

ولمّا عُدنا من الصيد الذى آتّصل بعلمه حديثُه، وشُرح له قديمُ أمره وحديثُه؛ تُقْنا إلى أن نَشفَع صيدَ السَّوانح برَمْى الصوادح، وأن نفعل فى الطير الجوانح بأهلّةِ القِسىّ(٣) ما تفعل الجوارح؛ تفضيلًا لملازمة الآرتحال، على الإقامة فى الرِّحال؛ وأخذًا بقولهم:

لا يُصلِحُ النفسَ إذ كانت مُدَبِّرةً * إلّا التَّنقُّلُ من حالٍ إلى حالِ

فبرزنا وشمسُ الأصيلِ تجود بنَفْسها، وتَسيرُ من الأُفُق الغربىّ إلى جانب رَمْسها؛ وتُغازِلُ عيونَ النُّوّار بمُقلة أرْمَد، وتنظر إلى صفحات الوردِ نظرَ المريض الى وجوه العُوّد؛ فكأنها كئيبٌ أضحى من الفِراق على فَرَق، أو عليلٌ يقضى بين صَحْبه بقايا مدّةِ الرَّمَق؛ وقد آخضلّت عيونُ النَّوْر لوَداعها، وهمّ الروض بخلع(٤) حلّته المُموّهة بذهب شُعَاعِها.

(١) الملق: الصفوح اللينة الملتزقة من الجبل، واحدتها ملقة؛ وقيل: هى الآكام المفترشة.

(٢) كذا فى صبح الأعشى. وفى الأصلين وحسن التوسل إلى صناعة الترسل: «جرف».

(٣) كذا فى حسن التوسل وصبح الأعشى. والرحال: جمع رحل وهو المنزل والمأوى. وفى الأصلين: «الارتحال»، وهو تحريف.

(٤) كذا فى صبح الأعشى وحسن التوسل. وفى الأصلين: «وهم الروضة تخلع ...».

والطلُّ فى أعين النُّوار تحسَـبه * دمعًا تحـيَّر لم يَرْقأْ ولم يَكِف
كلُؤلـؤٍ ظَلّ عِطْفُ الغصن مُتَّشِحًا * بعِقْـده وتبَـدّى منه فى شَنَف(١)
يُضَمّ من سندس الأوراق فى صُرَر * خُضْرٍ ويُخْبَأ من الأزهار فى صَدَف
والشمسُ فى طَفَل الإمساء تنظـر من * طَرْفٍ غدا وهو من خوف الفِراق خَفِى
كعاشـقٍ سار عن أحبابه وهَفَا * به الهـوى فتَرَاءَاهم عـلى شَرَف
إلى أن نضا المغـربُ عن الأُفُق ذهبَ قلائدها ، وعوّضه عنها من النجوم بخَدَمها وولائدها(٢) ؛ فلبِثْنَا بعـد أداء الفرض لُبْثَ الأهِلّه ، ومنعنا جفونَنـا أن تَرِدَ النـوم إلّا تَحِلّه ؛ ونهضنا وبُرْدُ الليل مُوَشَّع(٣) ، وعِقدُه مرصَّع ؛ وإكليلُه مُجَوْهَر ، وأديمُه مُعنبَر(٤) ؛ وبدرُه فى خِدْر سِراره مُسْتَكِنّ ، وبحْرُه فى حَشَى مطالعـه مُسْتَجِنّ ؛ كأنّ آمتزاج لونه بشفق الكواكب خليطَا مِسْكٍ وصَنْدَل ، وكأن ثُرَيّاه لامتـداده مُعلقةٌ بأمراس كَتّانٍ إلى صُمّ جَنْدل .

ولاحتْ نجومُ الليل زُهْرًا كأنّها * عقودٌ على خَـوْدٍ(٥) من الزَّنج تُنْظَمُ
مُحَلِّقَـةً فى الجوّ تحسَب أنهـا * طيـورٌ على نهـر المَجرّة حُـوَّمُ
إذا لاح بازى الصبح وَلَّتْ يؤمّها(٦) * إلى الغرب خوفًا منه نَسْرٌ ومِرْزَمُ

(١) الشنف (بالفتح ، ولعله حرك هنا لضرورة الشعر) : الذى يلبس فى أعلى الأذن ، والذى فى أسفلها يقال له قرط ورعثة ، وقيل : القرط والشنف سواء .

(٢) الولائد : جمع وليدة وهى الصبية والأمة .

(٣) وشع الثوب : أعلمه .

(٤) كذا فى حسن التوسل . وفى الأصلين : « معفر » .

(٥) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة ما لم تصر نصفا .

(٦) كذا فى صبح الأعشى . وفى أ : « توفها » . وفى ب : « نومها » بالنون ، وكلاهما تحريف . والنسر : كوكب وهما اثنان يقال لأحدهما : النسر الواقع ، وللآخر : النسر الطائر . والمرزمان : نجمان مع الشعريين .

إلى حدائقَ ملتفّـه، وجداولَ مُحْتفّـه؛ إذا جَمَش النسيمُ غصونَهـا آعتنقت اعتناقَ الأحباب ، و إذا فَرَك من الميـاه متونَها آنسابت فى الجـداول آنسيابَ الحُبَاب[1] ، ورقصَتْ فى المناهل رقصَ الحِباب[2]؛ و إنْ لَثِمَ ثغورَ نَوْرها حيّته بأنفاس المعشوق ، و إن أيقظ نواعسَ وُرْقِها غنّته بألحان المشوق؛ فنسيمُها وان، وشميمُها لعَرْف الجنان عُنوان،ووَردُها من سَهَر نَرْجسها غَيْرَان،وطَلُّها فى خدود الورد مُنْبَثٌّ[3] وفى طُرَر الريحـان حَيران؛ وطائرُها غَرِد، وماؤها مُطَّرِد ؛ وغصنُها تارةً يَعْطِفُه النسيمُ اليـه فَينعطِف ، وتارةً يعتدل تحت وَرَقاته فتحسب أنها همزةٌ على أَلِف؛ مع ما فى تلك الرياض من تَوافُق المحاسن وتبايُن الترتيب؛ إذ كلّما آعتلّ النسيم صحّ الأَرَجُ وكلّما خرّ المـاء شمَخ القضيب .

فكأنّمـا تلك الغصونُ إذا ثَنَتْ * أعطافَها رسـلُ[4] الصَّبا أحبابُ
فلها إذا افترقت من آستعطافها * صُلْحٌ ومن سَجْعِ الحَمَـام عِتَابُ
وكأنّها حولَ العيـون مَوائسًـا * شَرْبٌ وهاتيك الميـاهُ شَرابُ
فغـديرُها كأْسٌ وعَذْبُ نِطَافِها[5] * راحٌ وأضـواءُ النجوم حَبابُ

تُحيط بمَلَقٍ نِطافُها صَاف، وظِلال دوحِها ضَاف ، وحصاها لصفاء مائهـا فى نفس الأمر راكد وفى رأى العين طاف؛ إذا دغدغها[6] النسيمُ حسبت ماءها بتمايُل الظّلال فيـه يتبرّج ويميل ؛ و إذا آطّردتْ عليه أنفاسُ الصَّـبا ظننت أفياءَ تلك الغصون

(١) الحباب (بالضم) : الحية .
(٢) الحباب (بالكسر) : القرط من حبة واحدة .
(٣) كذا فى حسن التوسل . وفى الأصلين : « منبعث » .
(٤) فى صبح الأعشى : « ريح الصبا » .
(٥) النطاف : جمع نطفة ، وهى القليل من الماء ، وقيل : هى الماء الصافى قل أو كثر .
(٦) دغدغها : جمشها و زغزغها .

فيه تارة تمتوج وتارة تسيل ؛ فكأنّه محبٌّ هام بالغصون هوًى فمثّلها فى قلبه، وكأنّ النسيم كَلِفٌ بها غار من دُنوّها إليه فمثّلها عن قربه .

والسَّرْو مثلُ عرائسٍ * لُفّتْ عليهنّ ٱلمُلاءْ
شَمَّرنَ فَضْلَ ٱلأُزْر عن * سُوقٍ خلاخِلُهنّ ماءْ
والنهـرُ كالمـرآة تُبْـ * ـصر وجهَها فيه ٱلسماءْ

وكأنّ صَوافَّ(١) الطير المُبيضة بتلك المَلَقِ خيام ، أو ظباءٌ بأعلى الرَّقْمَتين قيام، أو أباريقُ فضّة رءوسُها لها فِدام(٢) ، ومناقيرُها المحمرّة أوائلُ ما ٱنسكب من المُدام ؛ وكأنّ رقابَها(٣) رماحٌ أسِنّتُها من ذَهَب، أو شموعٌ أسودُ رءوسها ما ٱنطفأ وأحمره ما ٱلتهب . وكأنّا كالطير الجليل عِدّه، وكطِراز العُمْر الأوّل جدّه .

من كلّ أَبْلَجَ كالنَّسيم لَطَافةً * عَفِّ الضّمير مُهَذَّبِ ٱلأَخلاقِ
مثلُ البـدورِ مَلاحةً وكعُمْرِها * عَدَدًا ومثلُ الشّمس فى الإشراقِ

ومعهم قِسِيّ كالغُصون فى لطافتها ولِينها ، والأهِلّة فى نَحافتها وتكوينها ، والأزاهِر فى تَرافتها وتَلْوينها ؛ بطونها مُدَبَّجه ، ومتونها مُدَرَّجه ؛ كأنّها الشَّوْلَة(٤) فى ٱنعطافها، أو أرْواقُ الظِّباءِ(٥) فى ٱلتِفافها ؛ لأوتارها عند القوادم أوتار(٦)، ولبنادقها

(١) الصواف من الطير : هى التى تصفّ أجنحتها فلا تحركها .

(٢) الفدام (بالفتح وبالكسر) : المصفاة تجعل على فم الإبريق ليصفى به ما فيه .

(٣) كذا فى صبح الأعشى . وقد وردت فى الأصلين محرّفة .

(٤) كذا فى مسالك الأبصار ج ٨ قسم أوّل ص ١١٨ من النسخة الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة . وفى الأصل وصبح الأعشى : « كأنها كواكب الشولة الخ» . والشولة : إحدى منازل القمر فى برج العقرب، وهى كوكبان نيران متقابلان ينزلها القمر، يقال لها : حمة العقرب .

(٥) كذا فى صبح الأعشى وحسن التوسل . وفى الأصلين : « الظبى » .

(٦) أوتار : جمع وتر (بالكسر ويفتح) وهو الذحل أو الظلم فيه . وأكثر ما يستعمل فى العداوة بسبب القتل .

فى الخواصل أوكار؛ إذا انتصبتْ لطيرٍ ذهب من الحياة نصيبُه، وإنْ أُنبِضَتْ[1] لرمى بدا[2] لها أنها أحقُّ به ممّن يُصيبه . ولعل ذاك الصّوت زجرٌ لبندقها أن يُبطِئ فى سيره ، أو يتخطّى الغَرَضَ إلى غيره ؛ أو وَحْشةٌ لمفارقة أفلاذ[3] كَبِدها، أو أسفٌ على خروج بنيها عن يدها ؛ على أنها طالما نبذتْ بَنيها بالعَراء، وشفعت لخَصْمِها التحذيرَ بالإغراء .

مثل العقاربِ أذنابًا مُعَقَّدةً * لمن تأمّلها أو حقّق النّظرا
إنْ مدّها قمرٌ منهم وعاينَه * مُسَافِرُ الطير فيها أو نوى[4] سفرا
فهو المسيءُ اختيارًا إذ نوى سفرًا * وقد رأى طالعًا فى العقرب القمرا

ومن البنادق كُرَاتٌ مُتّفقة السَّرْد ، متّحدة العَكْس والطَّرْد ؛ كأنّما خُرِطتْ من المَنْدَل[5] الرَّطْب أو عُجِنتْ من العنبر الوَرْد ؛ تسرى كالشُّهُب فى الظلام ، وتَسبِق إلى مَقَاتل الطير مُسَدّداتِ السِّهام .

مثلُ النجوم إذا ما سِرْنَ فى أُفُقٍ * عن الأهِلّةِ لكن نونُها راءُ[6]
مافاتَها من نجوم اللّيل إنْ رُمِقتْ * إلّا ثَباتٌ[7] يُرَى فيها وأضواءُ

(١) أنبض الرامى القوس وعن القوس : جذب وترها لتصوّت . وأنبض بالوتر : جذبه ثم أرسله ليرن وأنبض الوتر : جذبه بغير سهم ثم أرسله .

(٢) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصلين وحسن التوسل : «بدت لها أنها أحق بها من تصيبه» .

(٣) كذا فى صبح الأعشى وحسن التوسل . وفى الأصلين : « أولاد كبدها » وهو تحريف .

(٤) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصلين وحسن التوسل : « وأنبرى » .

(٥) المندل : العود، وقيل : أجوده .

(٦) يريد أن «النجوم» اذا أبدلت بنونها راء صارت «رجوما» .

(٧) فى الأصلين : « سوى ثبات » . ويترتب عليه أن يكون فى الشعر إقواء . والتصويب عن صبح الأعشى وحسن التوسل .

تَسْرِى ولا يشعُر الليلُ البهيم بهـا * كأنّها فى جفون الليـلِ إغفاء

وتسمَع الطـــيرَ إذ تَهْفـو قوادمُه * خَـوَافِقًا فى الدَّياجى وهى صَمّـاء

تَصُونها جِرَاوَةٌ[1] كأنّهـا جُرج[2] دُرَر ، أو دُرْج غُرَر ، أو كِمامة ثَمَر ، أو كِنانةُ نَبْل ، أو غَمـامة وَبْل ، حالكة الأديم ، كأنّمـا رُقِمَتْ بالشَّفَق حُلّةُ ليلها البهيم .

كأنّها فى وصـــفها مَشْرِقٌ * تَنْبَتُّ منه[3] فى الدُّجَى الأنجمُ

أو دِيمةٌ قد أطلعتْ قَوْسَها * مُلَوَّنًا وانبثقتْ تَسْـجُمُ

فاتخـذ كلٌّ له مركزا ، وتقاضى من الإصابة وَعْدًا مُنْجَزا ، وضَمِن له السـعدُ أن يُصبِح لمُراده مُحْرِزا .

كأنّهـــمْ فى يُمْنِ أفعالهم * فى نظرِ المُنْصِفِ والجاحدِ

قد وُلِدوا فى طالعٍ واحدٍ * وأشرقوا فى مطلعٍ واحدِ

فسَرَتْ علينا من الطيرِ عِصَابه ، أظلّتنا من أجنحتهـا سَحَابه ؛ من كلّ طائرٍ أقلع يرتاد مَرْتَعا ، فوجد ولكنْ مَصْرَعا ، وأَسَفّ[4] يبغِى ماءً جُماما فورد ولكن السمّ مُنْقَعا ، وحلّق فى الفضاء يبتغى ملعبًا فبات هو وأشـياعُه سُجّدًا للقِسِىّ ورُكّعا ؛ فتبرّكنا بذلك الوجه الجميل ، وتداركْنا أوائلَ ذلك القَبيل .

---

(١) الجراوة : آلة من جلد يجعـل فيها البندق الطين الذى يرمى به عن الجلاهق (انظر ما كتب عن الجلاهق فى الحاشية رقم ٢ ص ٣٢٤ من هذا الجزء) .

(٢) كذا فى حسن التوسل (ص ١٠٥) . والجرج : وعاء من أوعية النساء . وفى الأصلين : « درج » .

(٣) كذا فى صبح الأعشى . وفى أ : « فيها » . وفى ب : « منها » .

(٤) سف الطائر وأسف : دنا من الأرض فى طيرانه حتى كادت رجلاه تصيبانها .

فاستقبل أوّلنا "تمّا"[1] تمّ بدره، وعظم فى نوعه قدره؛ كأنه برقٌ كرع فى غسق؛ أو صبحٌ عطف على بقيّة الدُّجى[2] عطف النّسق؛ تحسبه فى أسداف المُنى غُرّة نُجْح، وتخاله تحت أذيال الدُّجى طُرّة صُبْح؛ عليه من البياض حُلّةُ وقار، وله كُرَةٌ من عنبرٍ فوق مِنقارٍ من قار. له عنقُ ظليم، والتفاتةُ رِيم، وسُرى غَيْم يُصرّفه نسيم.

كَلَوْنِ المَشيبِ وعَصْرِ الشَّباب * ووقتِ الوِصالِ ويومِ الظَّفَرْ
كأنّ الدُّجى غار من لونه * فأمسك مِنقارَه ثمّ فرّ

فأرسل إليه عن الهلال نجما، فسقط منه ما كبُر بما صغُر حجما؛ فاستبشر بنجاحه، وكبّر عند صياحه، وحصّله من وسط الماء بجناحه.

وتلاه "كُكىّ"[3] نَقِىّ اللّباس، مُشتعِلُ شَيْب الراس، كأنّه فى عرانينِ شَيْبه لاوَبْله كبير أُناس؛[4] إن أسفّ فى طيرانه فغمام، وإن خفق بجناحه فقِلْعٌ له بيد النّسيم زِمام؛ ذُو غَبيةٍ[5] كالحِراب ومِنقارٍ كالحِراب، ولونٍ يغُرّ فى الدُّجى كالنّجم ويخدَعُ فى الضُّحى كالسَّراب؛ ظاهرُ الهَرَم، كأنّما يُخبر عن عادٍ ويُحدِّثُ عن إرَم.

إن عامَ فى زَرَق الغدير حَسِبتَه * مُبيضَّ غَيْمٍ فى أديم سَماءِ

---

(١) التم (بفتح التاء وتشديد الميم): طائر فى قدر الإوز أبيض اللون طويل العنق أحمر المنقار وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرا. (عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٦٤).

(٢) كذا فى صبح الأعشى وحسن التوسل. وفى الأصلين: «الرجا» بالراء وهو تحريف.

(٣) الكىّ (بضم الكاف): أحد طيور الواجب، وهو من طيور الصيف التى يكثر وجودها فيه. وهو طير أغبر اللون إلى البياض أحمر المنقار والحوصلة رجلاه تضربان إلى السواد. (عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٦٦).

(٤) يشير إلى قول امرئ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله * كبير أناس فى بجاد مزمل

(٥) الغبية: اللحم المتدلى تحت الحنك من الديك والبقر.

أوطار فى أُفُـــق السماء ظننتَه * فى الجوّ شـــيخًا عائمًـا فى ماءِ

مُتناقِضُ الأوصاف فيه خِفَّةٌ آلْ * جُهَّـالِ تحت رَزَانةِ العلمـاءِ

فثنَى الثـانى إليه عِنانَ بُنْدُقِه ، وتوخّاه فيما بين رأسه وعُنُقِه ، فخرّ كمارِدٍ آنقضّ عليه نجمٌ من أُفُقِـه ؛ فتلقّاه الكبيرُ بالتكبير ، وآختطفه قبل مصافحته المـاءَ من وجه الغَـــدير . ٥

وقارنته "إوزّةٌ" حُلَّتها دَكْناء ، وحِلْيَتُها حَسْناء ؛ لهـا فى الفضـاء مَجَال ، وعلى طَيَرَانها خِفّةُ ذواتِ التبرُّج وخَفَرُ رَبّاتِ الحِجال ؛ كأنّما عَبَّتْ فى ذهَب ، أو خاضَتْ فى لَهَب ؛ تَخْتَالُ فى مِشْيتها كالكاعب ، وتتأنّى فى خَطْوِها كاللّاعب[1] ؛ وتَعْطُو بجيدها كالظَّبْى الغَرِير ، وتَتدافعُ فى سَيْرها مَشْىَ القَطَاةِ إلى الغَدير .

إذا أقبلَتْ تَمْشِى تَخَـطْرَةَ كاعبٍ * رَدَاحٍ[2] وإن صاحتْ فصَوْلةُ حازمِ[3] ١٠

وإن أقلعت قالتْ لها الريح ليت لى * خفَا ذى الخَوَافى أو قُوَى ذى القَوَادمِ

فأنْعِم بهـا فى البُعـد زادَ مُسـافرٍ * وأحْسِن بها فى القُرْب تُحْفَةَ قادمِ

فلَوى الثالثُ جِيـدَه إليها ، وعطَف بوجه قوســه عليها ؛ فلجّت فى تَرَفُّعها مُمْعِنـه ، ثمّ نزلتْ على حُكمه مُذْعِنه ؛ فأعجلها عن آستكمال الهبوط ، وآستولى عليها بعد آستمرار القُنُوط . ١٥

---

(١) لعلها اللاغب (بالغين المعجمة) ، وهو الذى أعيا من التعب فيتأنى فى خطوه تعبا .

(٢) الرداح : المرأة الثقيلة الأوراك .

(٣) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصلين : « خادم » بالخاء المعجمة والدال المهملة ، وهو تحريف .

وحاذتها "لغلغة" تحكى لونَ وَشْيها ، وتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِها ؛ وتُرْبِي عليها بغُرّتها ، وتُنافسها فى المحاسن كضَرّتها ؛ كأنها مُدامةٌ قُطِبَتْ[1] بمائها ، أو غمامةٌ شَفَّتْ عن بعض نجوم سمائها .

بِغُرّةٍ بيضاءَ مَيْمونةٍ * تُشرِقُ فى اللّيل كبدر التّمام
وإن تبدّتْ فى الضُّحى خِلْتَها * فى الحُلّة الدّكْناء بَرْقَ الغمام

فنهض الرابعُ لاستقبالها ، ورماها عن فَلَك سعدِه بنجم وبالها ؛ فجَدّتْ فى العُلُوّ مُغِذّةً[2] ، وتطاردَتْ أمامَ بُندقِه ولولا طِرادُ الصَّيْد لم تَكُ لَذّه ؛ وانقضّ عليها من يده شِهابُ حَتْفها ، وأدركها الأجلُ لِحِفّة[3] طيرانها من خَلْفِها ؛ فوقعَتْ من الأُفُق فى كفّه ، ونفَر ما فى بقايا صفّها[4] عن صفّه . (١٥٦)

وأتت فى أثرها "أنيسةٌ" آنسه ، كأنها العَذْراء العانسه ، أو الأدْماء الكانسه[5] ؛ عليها خَفَرُ الأبكار ، [وخِفّةُ ذَوَاتِ الأوكار[6]] وحلاوةُ المعانى التى تُجْلَى على الأفكار ؛ ولها أُنْسُ الرّبيب ، وإدلالُ الحبيب ، وتلفُّتُ الزائر المُريب ، من خوف الرّقيب ؛ ذاتُ عُنُقٍ كالإبريق ، أو الغُصْنِ الوَرِيق ، قد جمع صُفْرَةَ البَهار إلى حُمْرة الشّقيق ؛ وصدرٍ بَهِيّ الملبوس ، شهِيّ إلى النُّفوس ، كأنّما رُقِم فيه النّهارُ باللّيل أو نُقِشَ فيه العاجُ بالآبنوس[7] ؛ وجَناحٍ يُنجيها من العَطَب ، يحكى لونُه المَنْدَل الرَّطْبَ إلّا أنّه حَطَب[8] .

مُدَبّجة الصّدرِ تَفْوِيفُه * أضاف إلى اللّيل ضوء النهار
لها عُنُقٌ خالَه مَنْ رآه * شقائقَ قد سُيِّجَتْ[9] بالبَهار

(١) قطبت : مزجت . (٢) مغذة : مسرعة . (٣) فى الأصلين : « بحفة » ؛ وهو تحريف . (٤) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصلين : « من » . (٥) الكانسة : التى دخلت فى كناسها . (٦) زيادة عن صبح الأعشى . (٧) ضبط فى شرح القاموس بكسر الباء ، وضبط فى المصباح المنير بضمها . (٨) فى حسن التوسل وصبح الأعشى : «لولا أنه حطب» . (٩) سيجت بالبهار أى جعل لها البهار سياجا . وفى مباهج الفكر : «وشحت» .

فوثب الخامسُ منها[1] إلى الغَنيمه، ونظَمَ فى سلك رميه تلك الدُّرَّة اليَتيمه[2]؛ وحصل بتحصيلها بين الرُّمَاة على الرتبة الجسيمَه .

وأتى على صَوْتها "حُبْرُجٌ" تسبِق همّتُه جناحَه ، ويغلب خَفْقُ قوادمه صياحَه؛ مديحُ المَطَا، كأنما خَلَعَ حُلّةَ مَنْكِبيْه على القطا؛ يَنظُرُ من لَهَب، ويخطو على رجلَينِ من ذَهَب . ٥

يَزُورُ الرياضَ ويَجْفُو الحياض * ويُشبِهُ فى ٱللونِ كُدْرَ ٱلقَطَا
ويهوَى الزُّروعَ ويَلْهُو بها * ولا يَرِدُ الماءَ إلا خَطَا

فبدَره السادسُ قبل ٱرتفاعِه ، وأعان قوسَه بٱمتداد باعِه؛ فخَرّ على الألاءة[3] كبِسْطَامِ بن قَيْس[4]، وٱنقضّ عليه رامِيه فخَصَله[5] بحِذْقٍ وحَمَلَه بكَيْس .

وتعذّر على السابع مَرَامُه ، ونَبَا به عن بلوغ الأرَب مقامُه؛ فصَعِد هو وتِرْبٌ له إلى جبل، وثبت فى موقفه من لم يكن له بمرافقتهما قِبَل . فعنّ له "نَسرٌ" ذو قَوَادِمَ شِدَاد، ومَنَاسِرَ حِدَاد، كأنه من نسور لُقْمان بن عاد؛ تحسَبه فى السماء ثالثَ أخويْه، وتخالُه فى الفَضَاءِ قبّته المنسوبةَ إليه ؛ قد حلَق كالفُقراء راسَه ، وجعل ممّا قَصُر من الدُّلُوق الدُّكْن لِباسَه؛ وٱشتمل من الرِّيَاش العَسَلىّ إزارا، وٱختار ١٠

(١) كذا فى صبح الأعشى وحسن التوسل . وفى الأصلين : «فيها» . ١٥

(٢) فى الأصلين وحسن التوسل : «الثمينة» . وما أثبتناه عن صبح الأعشى .

(٣) الألاء (بوزن العلاء) : شجر ورقه وحمله دباغ؛ يمدّ ويقصر . وهو حسن المنظر مرّ الطعم . ولا يزال أخضر شتاء وصيفا . واحدته ألاءة بوزن ألاعة . وقال أبو زيد : هى شجرة تشبه الآس لا تتغير فى القيظ ولها ثمرة تشبه سنبل الذرة ومنبتها الرمل والأودية .

(٤) يشير بذلك الى قول عبد الله بن غنمة الضبىّ يرثى بسطام بن قيس وقد قتله بنو ضبة : ٢٠

نخرّ على الألاءة لم يوسد * كأن جبينه سيف صقيل

(٥) خصله : أصابه .

العزلةَ فلا يجد له إلّا فى قُنَنِ الجبال الشواهِقِ مَزَارا؛ قد شابت نواصى الليالى وهو لم يَشِب، ومضت الدهورُ وهو من الحوادث فى مَعْقِلٍ أَشِب .

مَلِيكُ طيورِ الأرضِ شرقًا ومغرِبًا * وفى الأُفُقِ الأعلى له أَخَـوانِ
له حالُ فَتّاكٍ وحِلْيَـةُ ناسِكٍ * وإسراعُ مِقْـدام وفَتْرَةُ وَانِ

٥ فدنا من مَطاره، وتوخّى بُنْدُقِه عنقَه فوقَع فى مِنْقاره؛ فكأنما هَدَّ منه صخرا، أوهدَم بِناءً مشمخِرّا؛ ونظر إلى رَفيقه، مبشرا له بما آمتاز به عن فريقه .

وإذا به قد أظلّته "عُقَابٌ" كاسر، كأنما أَضَلَّتْ صيدًا أَفْلَتَ من المَنَاسِر؛ إن حَطّتْ فسَحَابٌ آنكشف، وإن قامتْ[1] فكأنّ قلوب الطير رَطْبًا ويابسًا لَدَى وَكْرِها العُنّاب والحَشَف؛ بعيـدةُ ما بين المناكب، إذا أَقْلعتْ لَحَتْ فى عُلُوٍّ كأنّما ١٠ تحاوِل ثأرًا عند بعضِ الكواكِب .

تَرَى الطيرَ والوحشَ فى كَفِّها * ومِنْقـارِها ذا عِظامٍ مُزَالَهْ
فلو أمكن الشمسَ من خوفها * إذا طلعتْ ما تَسمّتْ غَزَالَهْ

فوثَب إليها الثامنُ وَثْبَة ليثٍ قد وَثِق من حركاته بنجاحها، ورماها بأوّلِ بُنْدُقةٍ فما أخطأ قادمةَ جناحِها؛ فأهْوَتْ كعَوْدٍ صُرِع، أوطَود صُدِع؛ قد ذهب بأسُها، ١٥ وتذهّب بدمها لباسُها؛ وكذلك القَدَر يُخَادِع الجوَّ عن عُقابه، ويَسْتنزل الأعصمَ[2] من عِقابه؛ فحَمَلَها بجناحها المَهِيض[3]، ورفعها بعد الترفّع فى أَوْج جَوّها من الحَضيض؛ ونزلا إلى الرُّفْقه، جَذِلَيْن بربح الصَّفْقه .

---

(١) فى حسن التوسل : « وإن طارت » .

(٢) كذا فى حسن التوسل وصبح الأعشى . وفى الأصلين : «العصم» .

٢٠ (٣) المهيض : المكسور .

فوجدا التاسعَ قد مرّ به "كُرْكِىّ" طويلُ السِّفَار، سريع النِّفار، شَهِىّ الفراق[1]، كثيرُ الاغتراب يَشْتو بمصر ويَصيف بالعِراق ؛ لقَوادمه فى الجَوّ هَفِيف[2]، ولأَدِيمِه لونُ سماءٍ طَرَأ عليها غيمٌ خفيف ؛ تَحِنّ إلى صوته الجَوارح، وتَعْجَب من قوّته الرِّياح البوارح ؛ له أثرُ حمرةٍ فى رأســه كوَمِيض جمرٍ تحت رماد ، أو بقيّــةِ جُرْح تحت ضِمَاد ؛ أو فَصٍّ عقيقٍ شَفّت عنــه بقايا ثِمــاد ؛ ذو مِنْقارٍ كِسنَان ، وعُنُقٍ كعنان[3] ؛ كأنّمــا يَنُوس، على عودين من آبنوس[4] .

إذا بدا فى أُفُقٍ مُقْلِعًــا * والجــوُّ كالمــاء تَفَاويفُهُ
حَسِبْتَه فى لُجّــةٍ مَرْكَبًا * رجلاه فى الأُفْق مجاديفُهُ

فصــبَر له حتى جازه مُجَلِّيًا[5]، وعطَف عليــه مُصَلِّيًا ؛ فخــرّ مُضَرَّجًا بدمه، وســقط مُشْرِفًا على عَدَمه . وطالمــا أَفْلت لَدَى الكواسِر من أظفار المَنُون ، وأصابه القدرُ بحبــةٍ من حمًا مسنون ؛ فكثُر التكبير[6] من أجله ، وحمله راميه من على وجهِ الأرض برِجْــلِه .

وحاذاه "غِرْنَوْق" حكاه فى زِيّه وقَدْره ، وآمتاز عنه بسواد رأسه وصَدْره ؛ له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى خَلْفه، معقودتان من أُذُنَيْه مكان شَنْفه .

له من الكُرْكِىّ أوصــافُه * سِوَى سَوَادِ الصدرِ والرّأسِ
إن شال رِجلًا وآنبرى قائمًا * ألفيتَــه هيئــةَ بِرْجاسِ

(١) فى حسن التوسل : « شديد العراق » .
(٢) الهفيف : صوت هبوب الريح .
(٣) فى الأصلين : « كقبان » . وما أثبتناه عن حسن التوسل وصبح الأعشى .
(٤) راجع الحاشية رقم ٧ ص ٣٣٧ من هذا الجزء .
(٥) فى حسن التوسل : « حتى حاذاه » .
(٦) فى الأصلين : « فكبر الكبير من أجله » . والتصويب عن حسن التوسل وصبح الأعشى .

فأصغى العاشر له مُنْصِتا ، ورماه ملتفتا ؛ فخرّ كأنّه صريعُ الألحان، أو تَرِيفُ[1] بنتِ الحان ؛ فأهوَى إلى رِجله بيده وأَيْدِه[2]، وانقضّ عليه انقضاضَ الكاسر على صيده .

وتَبِعه فى المَطَار "صُوغ"[3] ، كأنّه من النُّضَار مَصُوغ ؛ تحسبه عاشِقاً قد مدّ صَفْحته، أو بارِقًا قد بثّ لَفْحته .

طويلةٌ رِجلاه مسودّةٌ * كأنّما منقارُه خَنْجَرُ
مِثلُ عجوزٍ رأسُها أشمطُ * جاءت وفى قُمّتها[4] مِعْجَرُ[5]

فاستقبله الحادِى عَشَرَ ووثَب ، ورماه حين حاذاه من كثَب ؛ فسقط كفارِسٍ تقطّر عن جَوَاده، أو وامِقٍ أُصِيبتْ حَبّةُ فؤادِه ؛ فحَمَله بساقه، وعدَل به إلى رِفاقه .

وأقترن به "مِرْزَمٌ" له فى السماء سَمِىٌّ معروف، ذو مِنقارٍ كصُدْغٍ[6] معطوف ؛ كأنّ رياشَه فَلَقٌ[7] اتّصل به شَفَق، أو ماءٌ صافٍ عَلِق بأطرافه عَلَق .

له جِسمٌ من الثّلْج * على رِجلَيْنِ من نارِ
إذا أقلع ليلاً قلـ * ـتَ برقٌ فى الدُّجَى سارِى

(١) التريف : السكران الذى ذهب عقله .

(٢) الأيد : القوّة .

(٣) ذكره صاحب كتاب صبح الأعشى (ج ٢ ص ٦٤) فقال : « الصوغ — بضم الصاد المهملة وغين معجمة فى الآخر — هو طائر مختلط اللون من السواد والبياض أحمر الصدر، وأكثر ميله الى الخضرة والأشجار » .

(٤) كذا فى حسن التوسل، وهو أصح وزنا وأنسب معنى . وفى الأصلين : « وفى رقبتها » .

(٥) المعجر (بالكسر) : ثوب تعتجر به المرأة أى تشدّه على رأسها .

(٦) الصدغ : الشعر المتدلى على ما بين العين والأذن .

(٧) الفلق (محركة) : الصبح، وقيل : الفجر .

فأنتحاه الثانى عشرَ مُيَمِّما ، ورماه مصمِّما ؛ فأصابه فى زَوْرِه ، وحصَّلَه من فَوْره ، وحصل له من السرور ما خرج به عن طَوْره .

وآلتحق به "شُبَيطِر"(١) كأنه مُدْية مُبَيْطِر(٢) ؛ يخطُّ كالسيل ويكُرّ على الكواسر كالخيل ؛ ويجمع من لونه بين ضِدّين يُقْبِل منهما بالنهار ويُدْبِر بالليل ؛ يتلوّى فى مِنقاره الأيم(٣) ، تلوِّىَ التِّنّين فى الغَيْم .

تراه فى الجـوِّ ممتدًّا وفى فمـه * من الأفاعى شُجاعٌ أرقمٌ ذكر
كأنه قوسُ رَامٍ عُنقُـه يدُها * ورأسُـه رأسُها والحيّـةُ الوَتَرُ

فصوّب الثـالثَ عشرَ إليـه ببندُقه ، فقطَع لَحْيَـه(٤) وعُنُقَه ؛ فوقع كالصَّرْح الممـرَّد ، أو الطِّرَاف(٥) الممدَّد .

وآتبعه "عُنَّاز"(٦) أصبح فى اللون ضِدّه ، وفى الشكل نِدّه ؛ كأنه ليلٌ ضمّ الصبحَ إلى صدره ، أو آنطوى على هالة بدره .

تراه فى الجوّ عند الصبح حين بدا * مُسْـوَدَّ أجنحةٍ مبيضَّ حَيْزُومِ
كأســودٍ حبشىٍّ عام فى نَهَـرٍ * وضَمّ فى صـدره طفلًا من الرُّومِ

---

(١) الشبيطر (بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة وكسر الطاء المهملة . ويسمى اللقلق . وكنيته عند أهـل العراق أبو خديج) : هو طائر أبيض أسـود طرف الجناحين ورجلاه ومنقاره حمر . وهو يأكل الحيات ويوصف بالفطنة والذكاء . (راجع صبح الأعشى ج ٢ ص ٦٧) .

(٢) المبيطر : معالج الدواب .

(٣) الأيم : الحية .

(٤) فى الأصلين : « فقطع الحية ... » والتصويب عن حسن التوسل وصبح الأعشى .

(٥) الطراف : بيت من أدم .

(٦) العناز (بضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة فى الآخر) : طائر أسـود اللون أبيض الصدر أحمر الرجلين والمنقار . (راجع صبح الأعشى ج ٢ ص ٦٤) .

فنهض تمامُ القوم إلى التتمّه ، وأسفرت عن نُجح الجماعة تلك الليلة المُدلهمّه ؛ وغدا ذلك الطير الواجِبُ واجِبا (١) ، وكَلّ العددُ به قبل أن تُطلِعَ الشمسُ عينًا أو تُبرِزَ حاجِبا ؛ فيالها ليلةً حصَرْنا بها الصوادحَ فى الفضاء المتّسع ، ولقيت فيها الطير ما طارت به من قبل على كلّ شَمِلٍ مجتمِع ؛ وأضحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائدَ خانها النِّظام ، أو شَرْبٍ كأنّ رقابَهم من اللّين لم يُخلق لهنّ عِظام ؛ وأصبحنا مُثنِينَ على مقامنا ، مُنثنِين بالظَّفَر إلى مستقرّنا ومُقامنا ؛ داعِين للمولى جَهْدَنا ، مُذعِنِين له قبلَنا أو ردّنا ؛ حامِلين ما صرعْنا الى بين يديه ، عامِلين على التشرّف بخدمته والانتماء إليه .

فأنت الذى لم يُلْفَ من لا يَوَدُّه * ويدعو له فى السرّ أو يَدّعِى لَهُ
فإن كان رَمْىٌ أنت تُوضِح طُرْقَه * وإن كان جيشٌ أنت تَحْمِى رَعِيلَه (٢)

والله تعالى يجعل الآمالَ مَنُوطةً به وقد فعل ، ويجعلُه كَهْفًا للأولياء وقد جعل . (١٥٨)

* * *

ومن إنشاء المولى عَلاء الدّين علىّ بن عبدالظاهر (٣) [فى] قِدْمة بندق .

ابتدأها بأن قال : « الحمد لله مُهَيِّئ أسباب الارتياح ، ومُهَنِّئ أوقاتِ الانشراح ، ومُطلِق الأيدِى فى الاقتناص فليس عليها فى صيد ذوات الجَناح جُناح ؛

(١) واجبا : ميتا . يقال : ضربه فوجب ، اذا خر ميتا .

(٢) الرعيل : مقدمة الجيش والخيل .

(٣) هو علاء الدين على بن فتح الدين محمد بن محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر رئيس الكتّاب وسيد الرؤساء وجليس الملوك . أورد له المؤلف فيما تقدّم من الرسائل البليغة والتقاليد البديعة والعهود الوثيقة ما جعله يعتذر من التقصير فى الانتهاء الى وصف محاسنه ويعترف بالعجز عن إدراك كنه مناقبه ومياسمه .
(راجع الجزء الثامن من هذا الكتاب ص ١٢٦ — ١٤٩) .

ومزيِّنِ السماء بمصابيح[1] أنوارِها، ومُوَشِّى الأرض برَوْضهـا ونُوَّارها ؛ ومنوِّر الأيام بشـموسها والليالى بأقمـارِها ، ومطَرِّز مطارِف الآفاق بمَطَار أطيارها . والصـلاةُ والسـلام على سيِّدنا محمد وآلِه وصَحْبه الذين أنجدهم الله من ملائكته بأُولِى أجنحه، وأهْوَى بصَرائعهم[2] وأَوْهَى قُوَى مُمَـانِعهم بعزائمهم المُنْجِحه .

وبعـد، فإنّ القنصَ شُغِفتْ به قلوبُ ذوِى العزائم؛ وصيّرته عُنوانًا للحرب إذ حَمام الحِمامِ فيـه على الفرائس حوائم؛ تلتذّ نفوسُهم بالمطاردة فيه وترتاح، وتهواه فلو تمكنت لرِكبت اليه أعناقَ الرياح؛ تَرِد منه موردَ الظَّفَر، وتمتّع فيه بنُزَهٍ تقسّم الحسنُ فيهن بين السمع والبصر، وتتملّى عنـد السرور إليه برياضٍ ديّجها صَـوْبٌ من المطر لا صوب من الفِكَر، ويَطْوِى من الأرض ما نشرت أيدِى السماء به برودًا أَبْهَى من الحِبَر[3]؛ فتارةً تستنزِل من العواصم الظباءَ العَوَاصِى، وآونةً تقتنِص الطيرَ وقد تحصّنتْ من بروج السُّحُب فى الصَّيَاصِى[4] ببُعوثِها الدّانيـةِ من كلّ قاصى . وأحسَنُ أنواعه الذى جَمع لُمَعايِنه بين رَوْضـةٍ ورياضه، وغُدُرٍ مُفَاضه؛ ومغازلة عيون النَّور وهى تدمَع حين طرَفَها بذيله نسيمُ الصباح، ومباكرة اللذّات من قبل أن ترشُـف شمسُ الضحى ريقَ الغـوادى من ثغور الأَقَاح ؛ رمى البندق الذى هو عُقْـلة المستوفِز[5]، وانتهازُ غَفْلة الطائر المتحرِّز؛ ونزهةُ القلوب التى إن طالت لا تُمَلّ؛ وإن اجتاز المتنزِّه بموطنها لم يؤجر[6] . أحلى من صيد الظبـاء ، وأشهى من لَمْح مُلَح الحسناء ؛

(١) فى الأصلين : « بمصباح » .

(٢) لعله يريد « صرعاهم » جمع صريع .

(٣) الحبر : جمع حبرة : ضرب من برود اليمن مخطط .

(٤) الصياصى : الحصون وكل شىء امتنع وتحصن به .

(٥) المستوفز : المتهيئ للوثوب .

(٦) كذا بالأصلين . ولعلها : «لم يوجل» .

لا يحتاج إلى رَكْض جَواد، ولا يحتاج فيه خَفْض العيش جُوَاد[1]، ولا يُهاجر متعاطيه إلى الهواجر، ولا يحجُر على نفسه فى الإفضاء إلى المَحَاجر[2]؛ أربابُه يرتاضون فى الروضة الغَنَّاء، ويسمعون من نَغَمات الأوتار وشدْو الأطيار مختلِف الألحان والغِناء؛ ويَمْتطُون الليلَ طِرْفا، ويستنيرون من النجوم شُمُوعا لا تَقُطّ ولا تُطْفا؛ قد اتخذ كل منهم مُقاما أكرِم به من مُقام، وهام باللذة فترك كرائم كَرَاه وكذا عادةُ المُسْتَهام؛ وسبَح فى لُجَج الليل وكَرَع فى نهر النهار، وتجلّى فى حُلَل الصدق وتخلى عن خَلَل العار. يهوَوْن لَذّةَ القَنْص فى الليل إذا عَسْعَس، والصبح إذا تنفّس، ويرسلون رُسُلَ المَنَايا إلى صرائعهم فما تتنفّس. إذا برَزوا عند الغروب توارتْ شمسُ الأَصِيل حياء، وذهبتْ فى حُلّتها الذهبيّة حين بَهروها سَنًا وسَنَاء؛ تراهم كالزُّهر أو الأزهار، أو عِقْدٍ نُظِم باللُّجَين والزُّمُرّد والنُّضَار؛ أوجُهُهم فى أفلاك قِسِيِّهم أقمار، كوِلْدان جِنان، وأعطاف أَغْصان؛ قد طاف بهم سِيَاجُ المَسَرّة وأَحْدق، وحُلّوا بثياب سُنْدُس خُضْر واستَبْرَق؛ كأنّ الأرض ضاهت بهم السماء، فصيّرتْ قِسيَّهم أفلاكَها، وغُرَرَهم نجومَها، وعزائمَهم صواعقَها وبنادقَهم رُجُومَها؛ يَخْفِق منهم قلبُ كلّ خافقه، وتقدُم بعوثُهم على ذوات القَوادم فبينا هى مترافِقة إذا بها متفارِقه، وكأن صَوَافّ الطير لديهم فى جوّ السماء، سطورٌ فى صفيحةٍ زَرْقاء؛ أو كأنها فى ائتلافها، عقودُ دُرٍّ فى نظامها؛ يَفْرُطون سلكَها، ويقرِّبون هُلْكها، ويَغْدِرون بها فى الغُدُر، ويَجْسُرون عليها فى الجسور، وتُقَايِض بنادقُهم صرائعَهم فيصير وَكْر الطير الجراوةَ وجراوةُ البنادق حواصلَ الطيور. وإذا أسْفَروا وجهَ صباح، سمعتَ للطير صياحًا والطربُ كلُّه فى ذلك الصياح؛ وإن عشَوْا مقاماتِهم وجهَ عِشَاء رأيت الطيرَ وهى لَدَى مَحَاريب

(١) الجواد (بالضم): جهد العطش، يريد أنه عيش ناعم لا يشوبه كدر.

(٢) المحاجر: جمع محجر وهو الحديقة، أو الموضع فيه رعى كثير وماء.

قسيّهم وهى سُجُود ورُكّع، طرائحَ من بيضٍ وسُودٍ كأنّ أديمَ الأرض منهنّ أبقـع .
وإن تعلّقوا بأذيال الليـل وسجفه ، وباتوا فى عِطْفه ؛ احتمى منهم بشُهُبِه ، وتستّر
فى حُجُبِه ؛ وتوارَى عنهم البدرُ بذَيْل الغمام، وهال هالتَه أن تبدوَ لقسيّهم الموتّرة بالحِمَام .
إلى غير ذلك ممـا آلتزموه من محاسنِ أوصاف وأوصافِ محاسن، ووردوه من مناهل
مصافاةٍ ماؤها غيرُ آسِن، ووجَدوه من طيب عَيْش مالانوا معـه ولا آستكانوا ٥
إلى المساكن ؛ وحفظوه من صناعتهم من شروطٍ وأوْضاع ، ووقفوا فى مقاماتهم (١٥٩)
من مُطِيع ومُطَاع ؛ يرعَوْن قدرَ كبيرهم، ولا يُراع بينهم قلبُ صغيرهم ؛ ويتناصفون
فى أحكامهم، فالحكم واحد على آمرِهم ومأمورهم . إن تفرّقوا فهم على قلب رجل
واحد ، وإن آختلفتْ منهم المقاعد فقـد آتفقتْ منهـم المقاصد . ماأخلا جوُّهم
من واجب الطاعه، ولا علا بينَهم كبيرٌ إلّا بذَلوا فى خدمته جُهْدَ الاستطاعه؛ وأضحوْا ١٠
وأمرُهم عليهم محتوم، وأمسوْا وما فيهم إلا من له مَقَامٌ معلوم؛ بأيديهم قِسِيٌّ قاسِيه،
قُضْبانُها قاضِيه ؛ منعطفةٌ جافيه ، بعوثها فى الخوافِى خافِيه ؛ تمثّلُها الأفكار فى ساحة
الفضاء، كزَوَارِقَ مبثوثةٍ فى لُجّة المـاء . وكيف لا ! وهى تحمـل المنايا إلى الطير،
وإن لم تكن سائرةً فلها بُعوثٌ سريعـةُ السير ؛ كأنّ صانعها قصَد وَضْعها كالأهلّة
واقترَح، أو حكَى بمديج أثوابها قوسَ قُزَح؛ وكأن ظهرها (١) وقد تنوّعتْ به من الغروز ١٥
مَدارجُه، مَدَرُ سَحِيقٍ وَرْسٍ دَبّ عليه من النمل دَارِجُه ؛ إذا حُطّت عنهـا أوتارُها
كانت عصًا لربّها فيها مآربُ ومغانم، يُوجِسُ الطيرُ فى نفسه منها خِيفةً وكيف لا !
وهى فى شكل الأَرَاقِم؛ متضادّة تجْفو وتَلِين، موتورةٌ وغيرها حَزِين؛ تضمُّها أنامِلُ

(١) فى الأصلين : «ظهورها» .

من يُسْراهم هى أيْمَنُ من يَمين عَرَابة[1] بن أوْس ، ويَطْلُع كلٌّ منهم فى فَلَكها والطّالعُ القمرُ فى القوس؛ لا تعتصِم منها الطّرائدُ بالحِبَاء فى وَكْر الدّجُنّه، ولا يُخْفيها اتخاذُها الظّلماءَ جُنّـه ؛ ولا يُوَقّيهـا نَزْقُها ، ولا ينقيها[2] مَلَقُها ولا تَنْجح بخفْـق الجَناح ، ولا تَسْتروح بمساعدة الرياح؛ لها بنادق كأنها حبات القلوب لونا ، وأشكال العقود كونا؛ كأنمـا صُبِغتْ من ليل وصِيغتْ من شُهُب، أو صُنعت من أديم للسُّحُب؛ تُفْرِد من الطير التُّؤَام، وتجمع بين رُوحها والحِمام؛ قد تحاماها النّسْران فاتخـذا السماء وكْرا، واتفقا أن يصبحا شفعا ويُمْسِيَا وَتْرا؛ تَقْبِض منها الأيدى عند إطلاقِها رائحةً رابحـه، جارحةً من الطير كلّ جارحه، لا ترى صادحةً إلا صيّرتْهـا صائحه . قلبُ كلّ طير منهـا طائر، وكيف لا وهى للسِّهام ضرائر؛ تُضْرَم النار لإشْواء الطّريدة قبل مفارقتها للأوْتار، وتَقْتنص من الجوارح كلّ مُسْتَخْفٍ بالليل وسارٍ بالنّهار؛ تَهيج كامنَ الغنيمة وتَسْتثير، وتبدو كأنما عُجِنت من صَنْدَل وعَبير .

ولمـا كان مَنْ هو واسطة عِقْدِ هـذه الأوصاف، والرافلُ فى بُرُودها المَوْشِيّة للأطراف؛ والمُبْدِع فى فنّه، والجـامع بين فضيلة الرمى وحُسْنه؛ والمستنطِق لسانَ قومه بالإحسان، والحافظُ شروطَه فى طهارة العِرْض وصِدْق اللسان؛ والرامى الذى

(١) هو عرابة بن أوس بن قيظىّ الأنصارى . ويشير بهذا الى مدح الشماخ بن ضرار المزنى لعرابة . وسببه أن عرابة قدم من سفر فجمعه الطريق والشماخ فقال له عرابة : ما الذى أقدمك المدينـة ؟ قال : قدمت لأمتار منها ، فلا له عرابة رواحله برا وتمرا وأتحفه بغير ذلك فقال الشماخ :

رأيت عرابة الأوسى يسمو * الى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجـد * تلقـاها عرابة باليمين
إذا بلغتـنى وحملت رحلى * عرابة فاشرقى بدم الوتين
ومثل سراة قومك لم يجاروا * الى ربع الرهان ولا الثمين

(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « ولا ينقها » . ولعل كلتيهما محرفة عن : « ولا ينفعها » .

بلغ بهمّته غاية المرام ، وضاهَى بُنْدُقِه السِّهَام ؛ وكان يوم كذا وكذا خرج إلى بَرْزَته المبارَكة وصرَع طيرَيْن فى وجه واحد ، وأبان عن حُسْن الرمى وسَدَادِ الساعد ؛ وأضحَى بينهما كثيراً بين قومه ، وجعَلهما لهم وليمةً فى يومه ؛ وهما "تَمٌّ"[1] كأنما صيغ من فضّه ، أو تَدَرَّع من النهار حُلّةً مبيضّه ؛ أو غاير بياضُه الليلَ فلطَم وجهَه بيد ظَلْمائه ، فاقتصّ منه وخاض فى أحشائه ؛ لجناحه هَفِيفٌ فى المَطَار ، تسمَع منه نغمةَ الأوتار . و"لَغْلَغَةٌ" كأنها كُوِّنت من شَقِيق وغَمَام ، أو مُزِج لونُها بماءٍ ومُدَام ؛ لها غُرَّةٌ لو بَدَت فى الليل خِلْتَها بَدْرا ، وإن أسفرتْ عند الصباح حَسِبتَها فَجْرا ؛ وحملها فلان وفلان ، وقطع شَبَقَه[2] فلان وادَّعى لفلان ؛ وعاد الرامى قَرِيرَ العين ، مملوءَ اليدَين ؛ إذا فخَر غيرُه بواحدة فخر بآثنتين ؛ معظَّما بين أترابه ، مُكَرَّما لَدى أحبابه ؛ ألبسه الله من السرور أزهى أثوابه . بمنّه وكرمه .

ومما ورد فى وصف الجُلاهِق نَظْماً — قال أبو الفرج الببّغاء يصفها :

ومِرْنانٍ[3] معبِّسةٍ ضَحُوك * مُهـذَّبةِ الطبائع والكِيَانِ
مُغالِبةٍ وليس بها حَرَاكٌ * وباطشةٍ وليس لها يدَانِ
لها فى الجارح النَّسبُ المعلَّى * وإن هى خالفتْه فى المعانى
تطير مع البُزَاة بلا جَنَاح * فتَسْبِقُها إلى قَصَب الرِّهانِ
وتُدرِك ما تشاء بغير رِجْلٍ * ولا باعٍ يَطُولُ ولا بَنَانِ
وتلحَظ ما يَكِلّ الطرفُ عنه * بلا نَظَرٍ يَصِحّ ولا عِيَانِ
لها عُضْوانِ من عَصَب ولَحْم[4] * وسائرُ جسمها من خَيْزُرانِ

(١٦٠)

(١) فى الأصلين : « صبغ » بالباء الموحدة ، ولعلها مصحفة عما أثبتناه .
(٢) فى ب : « سبقه » . (٣) المرنان : القوس وصف من رن إذا صوّت .
(٤) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «وعظم» .

يُخاطَبُ فى الهواء الطيرُ منها * بلفظٍ ليس يصدُر عن لسانِ
فإن لم تُصغِ أَرْدَتْها بطَعْنٍ * يَنُوبُ الطينُ فيه عن السِّنانِ
مُقَرْطَقة ممنطقة خَلُوب * مُهَفْهَفَة مخفَّفة الحِرَانِ
مذكَّرة مؤنَّثة تَهادَى * من الأصباغ فى حُلَل القِيَانِ
٥ مُعمَّرة تَزايدُ كلَّ يوم * شَبِيبتُها على مَرّ الزمانِ
كأنّ الله ضمّنها فبانت * لنا فى الرِّزق عن أوفى ضَمانِ
أعزّ على العيون من المَآقى * وأحلى فى النفوس من الأمانى
إذا ما آستَوْطنتْ يومًا مكانًا * تولّى الجَدْبُ عن ذاك المكانِ

وقال أبو الفتح كُشَاجِم :

١٠ وثيقةٌ مُدْمَجةُ الأوصالِ * مَحْنِيَّةٌ عَوْجاءُ كالهِلالِ
تعود إن شئتَ إلى آعتدال * باطنُها(١) لِعَاقل الأوعالِ
والظهر منها لقَنَا الأبطال * يجمعها أَسْمَرُ ذو آنفتالِ
فى وَسْطه من صنعة المحتال * مثالُ عينٍ غيرِ ذى آحْوِلالِ
تَقْذِى(٢) بصَدْفَات من الصَّلْصال * أمضَى من السِّهام والنِّبَالِ
١٥ قَذًى يُقِرّ أَعيُنَ الآمالِ * فاقعةُ الصُّفرة كآلجِرْيالِ(٣)
رَخِيصةٌ تَغْنَمُ كلَّ غالِ * تُؤمَن منها وَنْيَةُ الكَلالِ
تَعُول فى الجدب وفى الإمْحالِ * وقد يكون الصَّقْر كالعِيالِ

(١) يريد أن وترها منسوب لعاقل الأوعال كما أن ظهرها منسوب لقنا الأبطال . ويؤيد هذا المعنى بيته الثانى من القصيدة التالية . ويقال : وعل عاقل اذا تحصن بوزره عن الصياد فى الجبل العالى .

(٢) يقال : قذت العين تقذى اذا قذفت مافيها من قذى . وقد شبه الجوزة التى فى وسط الوتر بالعين ، فصح له لذلك أن يستعمل القذى فى قذف الجوزة لما فيها من بندق . وفى الأصلين : « تعدى » وهو تحريف .

(٣) الجريال : الخمر أو لونها .

مَطِيُّهـا عَوَاتِـقُ[1] الرجـاءِ * فى غُلُفٍ ممـدودةٍ طِـوَالِ
كم أَفْضلَتْ على ذوى إفضال * وكم أنالتْ من أخى نَوَالِ
* وقرَّبت للطَّيْر من آجالِ *

وقال أيضا فيها من أبيات :

وفى يَسَارِى من الخَـطِّىّ مُحْكَمَةٌ * متى طَلَبتُ بهـا أدركتُ مطلوبى ٥
للوَعْلِ باطنُ شَـطْرَيْها ومُعْظَمُها * من عُودِ شَجْراءَ ظَمْياءِ الأنابيبِ
تأنَّقَ القَيْنُ[2] فى تزيينها فغَـدَتْ * تُومِى بأَحْسنِ تفضيضٍ وتذهيبِ
فى وسْـطها مُقْلةٌ منها تُبيِّنُ ما * يُرمى فما مَقْتَـلٌ[3] عنهـا بمحجوبِ
فقمتُ والطيرُ قد حُمَّ الحِمامُ لها * على سـبيلىَ فى عادِى وتجـويبِى[4]
حتى إذا آكتحلَتْ بالطين مُقْلتُها * صَبَّتْ عليهنّ حتفًا جِدّ مَصْبوب ١٠
فرُحتُ جَذْلانَ لم تكدِرْ مشارِبُ لَذّاتى ولم تُـلْقَ آمالى بتَخْيِيبِ

ذكر شىء مما قيل فى سَبَطَانَة[5]

قال أبو الفرج البَبَّغاء :

وجَـوْفاءَ حامِلةٍ تهتـدِى * إلى كل قلبٍ بمَقْـروحِهِ
مُقَوَّمةِ القَـدِّ ممشـوقَةٍ * مُهَفْهَفةِ الجسمِ ممسـوحِهِ ١٥

(١) كذا فى مباهج الفكر . وفى الأصلين : «عراتق» ولا معنى لها . (٢) القين : الحداد ويطلق على كل صانع . (٣) فى الأصلين : «مقبل» ولا يستقيم بها المعنى .
(٤) كذا بالأصلين . ولعلها محرفة عن : «فى عدوى وتجويبى» .
(٥) السبطانة (وتسمى أيضا : الزبطانة بالزاى بدل السين) : آلة من آلات الصيد تتخذ من خشب، مستطيلة كالرمح مجوفة الداخل يجعل الصائد بندقة من طين صغيرة فى فيه، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدّة فتصيب الطير فترميه، وهى كثيرة الإصابة (عن صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٨) . ٢٠

مُثَقَّفَةٍ فُهَا عينُهَا * تُبَشِّر قلبِي بتصحيحه (١٤١)
فإن هى والجارح آستُنْهِضَا * الى الصَّيد عاقته عن رِيحه
إذا آلمرء أودعَها سِرَّه * لتُخْفِيه باحتْ بتصريحه
مَوَاتٌ تعيشُ إذا ما أعاد * لها النافخُ الرُّوح من روحه
هى السَّبطانة فى شكلها * ففى القلب جِدُّ تَبارِيحه
تحُطّ أبا الفَرْخ عن وَكْره * وتستنزِلُ الطيرَ من لُوحِه (١)

وقال أبو طالب المأمونىّ :

مُثَقَّفَة جَوْفاء تُحسَب زَانَةً (٢) * ولكنها لازُجَّ فيها ولا نَصْلُ
تُسدَّد نحوَ الطير وهو محلّق * فينفُذُ عنها للردَى نحوه الرُّسْلُ
يطير إلى الطير الرَّدَى فى ضميرها * فيَجْرِى كما يَجْرِى ويعلو كما يعلو
فيَعْقِل ما تنجو به فكأنما * يُمَدّ إليه (٣) من بنادقها حَبْلُ

ذكر شىء مما قيل فى عيدان الدَّبق (٤)

قال عبد الله بن المعتز فيها مُلْغِزًا :

وما رِماحٌ غيرُ جارحاتِ * ولَسْنَ (٥) فى الدِّمَاء والغاتِ
ولَسْنَ (٥) للطِّرَاد والغاراتِ * يُخْضَبْن لا من عَلَقِ الكُماةِ

(١) اللوح : الفضاء بين السماء والأرض ، يضم ويفتح والضم أعلى .
(٢) كذا فى اليتيمة . وفى الأصلين « راية » .
(٣) كذا فى اليتيمة . وفى الأصلين : « اليها » .
(٤) الدبق : شىء يلتزق كالغراء يصاد به الطير .
(٥) فى الأصلين وديوانه : « وليس » .

بريق حتف منجز العِدات * مكتمن ليس بذى إفلات[1]

يَنْشَب فى الصدور واللَّبَاتِ * فِعْـــلَ إسار فُلِّقِ السِّيَاتِ[2]

على عَوَالِيهـا مُرَكَّبَاتِ * أسِـــنَّةٌ لَسْنَ مُوَقَّعَاتِ[3]

من قَصَب الريش مجرَّداتِ * يُحْسَبْن فى الهواء شائِلاتِ

* أذنابَ جِرْذانٍ مُنَكَّساتِ *

وقال أبو الفتح كُشَاجِم :

وآسِراتٍ مثلِ مأسُـوراتِ * مُمَكَّنَاتٍ غـــيرِ مُمْكَنَاتِ

مؤمَّلاتٍ غـــيرِ مُكْذِبات * صـوادِقِ التعجيلِ للعِداتِ

نواظر الأشـكالِ ذاهباتِ * كواسِرٍ ولَسْنَ ضارِياتِ

ولا بمـا يَصِـدْن عالمـاتِ * بمثـل رِيقِ النحلِ مَطْلِيَّاتِ

أقتَـلُ من سمائم الحَيَّـاتِ * لو صلحت شيئاً من الآلاتِ

ووُصِـلت بالزُّجِّ والشَّباةِ * كانت مكانَ النَّبْـل للرُّماةِ

حواملٍ للطـــير مُمسِكاتِ * تَعَـــلُّقَ الأحباب بالحِبَّاتِ

كأنها فى النعت والصفاتِ * أذنابُ ما دَقَّ من الحَيَّاتِ

أغدرُ بالوُرْقِ المغـــرِّداتِ * فيهـا من الفتيان بالقَيْناتِ

فهنَّ من قَتْلَى ومن عُنَاةِ * بلا فَكَاكٍ وبلا دِياتِ

---

(١) كذا فى ديوانه . وفى الأصلين :

تذبق حتف منجز العداة * ممكن ليس بذى إفلات

(٢) الإسار : ما شدّ به وهو الرباط . وسية القوس : ما عطف من طرفيها .

(٣) موقعات : محدّدات . و رواية الديوان : «أسنة غير منكسات» .

ذكر شىء مما قيل فى الشِّبَاك

قال السَّرِىّ الرَّفَّاء يصف شَبَكة :

وجدولٍ بين حديقتَيْن * مُطَّرِدٍ مثلِ حُسَامِ القَيْنِ
كَسَوْتُه واسعةَ القُطْرَيْنِ * تنظر فى الماء بألفِ عَيْنِ
راصِدةً كلَّ قريبِ الحَيْنِ * تُبْرِزه مُجَنَّح الجنبيْن
كُمْدِيةٍ مصقُولةِ المَتْنَيْنِ * كأنما صِيغَ من اللُّجَيْنِ

وقال أبو الفرج الببَّغَاء يصف شبكة العصافير :

رَقْراقةٌ فى السَّرابِ تحسَبُها * على الثَّرَى حُلَّةً من الزَّرَدِ
كالدِّرع لكنها مُعَوَّضَةٌ * عن المسامير كثرةَ العُقَدِ
سائرها أعينٌ مُفَتَّحةٌ * لا تَرْتَضِى نِسبةً إلى جسدِ

ذكر ما قيل فى الشُّصِّ ، وهو الصَّنَانِير — قال كاتب أندلسىّ

يصفه من رسالة : « صَنَانِير ، كأظفار السِّنَانِير ، قد عطفها القَيْن كالراء ، وصيّرها الصَّقْل كالماء ، فجاءت أحدَّ من الإبَر ، وأرقّ من الشَّعَر ، كأنها مِخْلَبُ صُرَد (١) ، أو نصفُ حَلْقةٍ من زَرَد » .

وقال أبو الفتح كُشَاجِم :

من كان يَحْوِى صيدَه الفضاءُ * وللبُزَاة عندَه ثَوَاءُ
وطال بالكلب له العَنَاءُ * فإن صَيْدِى ماحواه الماءُ
بِمِخْلَبٍ ساعِدُه رِشَاءُ * يَظَلُّ والماءُ له غِطاءُ

(١) الصرد : طائر أبقع أبيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار .

كما طوتْ هِـلالَهـا السماءُ * كأنه من الحروف راءُ
فهو ونصفُ خاتَمٍ ســواء * يحمـــل سمًّا اسمُه غِذاءُ
وعَطَبًا فيـــه لنـا إحيـاءُ * تَدْمَى به القلوبُ والأحشاءُ
عادٍ إذا ساعده القضـاءُ * أمتعنـا القَرِيسُ[1] والشِّـواءُ

٥

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

كمل الجزء التاسع[2] من كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للشـيخ العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبـد الوهاب البَكْرى التَّيْمىّ القرشىّ نسبا المعروف بالنُّوَيرى رحمه الله . ويليه الجزء العاشر[2] المتعلق بالنباتات، على يد كاتبه، فقير رحمة ربه المعين، الفقير نور الدين بن شرف الدين بن أحمد العاملىّ بلدا، الشافعىّ مذهبا، وذلك فى مستهلّ شهر رمضان المعظم قدره سنة ٩٦٦ هـ .

١٠

(١) القريس : سمك يطبخ ويتخذ له صباغ و يترك فيه حتى يجمد .

(٢) يلاحظ أن الأجزاء المطبوعة من هذا الكتاب اختلفت عن الأجزاء الفتوغرافيـة المحفوظة بدار الكتب المصرية ابتداء من الجزء السابع فليعلم .

استدراكات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	١٤	قال الشيخ رحمه الله	قال الشيخ[٤] رحمه الله
١٤	٧	فصل بعد قوله : « إذا كان أبيض العجز » بثلاث نجوم ويستحسن اتصاله بالذى بعده بدون فصل .	
١٥	٩	فصل بعد قوله : « وقد تقدّم ذكره » بثلاث نجوم ويستحسن اتصاله بالذى بعده بدون فصل .	
١٥٢	٢	دوابّ	ذوات

(مطبعة الدار ١٠٢٠/١٩٣١/٢٥٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر العاشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

فهرس

السفر العاشر

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

ذكر ما وصفت به العرب الخيل

من ترتيبها فى السن، وتسمية أعضائها، وأبعاضها، وألوانها، وشياتها، وغررها، وحجولها الخ

صفحة

أما ترتيبها فى السن ١

وأما ما قيل فى تسميتها، وتسمية أعضائها وأبعاضها ١

وأما الوجه وما فيه مما لم يذكر فى خلق الانسان ٢

وأما العنق وما فيه ٣

وأما الظهر وما آتصل به من الوركين ٤

وأما الصدر وما آتصل به من البطن ٥

وأما الذراعان وما دونهما ٥

وأما ألوانها وشياتها وغررها وحجولها وعصمها وما فيها من الدوائر ٥

وأما الشية ١٢

وأما ما فى الفرس من الدوائر ١٦

وأما ما قيل فى طبائعها، وعاداتها، والمحمود من صفاتها ومحاسنها والعلامات الدالة على جودة الفرس ونجابته ١٩

صفحة

ومما يستحب من أوصافها فى الخلق ٢٢
وأما عيوبها التى تكون فى خلقتها وفى جريها والتى تطرأ عليها وتحدث فيها... ٢٧
فأما التى فى خلقتها ٢٧
وأما العيوب التى فى جريها ٣٠
وأما العيوب التى تطرأ عليها وتحدث فيها ٣١
ذكر أسماء خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٣
ذكر أسماء كرام الخيل المشهورة عند العرب ٣٩
ذكر ما قيل فى أوصاف الخيل وتشبيهها نظما ونثرا ٤٨
طرائف فى ذم الخيل بالهزال والعجز عن الحركة ٦٥
ذكر ما وصفت به فى الرسائل المنثورة ٦٧

الباب الثانى

من القسم الثالث من الفن الثالث فى البغال والحمير

ذكر ما قيل فى البغال ٧٩
ذكر بغلات رسول الله صلى الله عليه وسلم ٨٠
ذكر شىء مما وصفت به البغال ٨٥
ذكر ما قيل فى الحمر الأهلية ٩٣
ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الحمار ٩٥
ذكر شىء مما وصفت به الحمير على طريق المدح والذم ٩٧

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الثالث فى الإبل والبقر والغنم

ذكر ما قيل فى الإبل ١٠٣
أما تسميتها من حين تولد الى أن تتناهى سنها ١٠٤
وأما أسماء ما يركب منها ويحمل عليه ١٠٥

صفحة

وأما ما اختصت به النوق من الأسماء والصفات ١٠٦

ومن أوصافها فى السير ١٠٧

وأما ألوان الإبل ١٠٨

وأما ترتيب سيرها ١٠٨

وأما ما قيل فى المسير عليها والنزول للراحة والإراحة ١٠٩

ذكر أصناف الإبل وعاداتها وما قيل فى طبائعها ١٠٩

ذكر ما ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإبل ١١١

ذكر شىء مما وصفت به الإبل نظما ونثرا ١١٥

ذكر ما قيل فى البقر الأهلية ١٢٠

ذكر ما قيل فى الجاموس... ... ... ١٢٤

ذكر ما قيل فى الغنم الضأن والمعز ١٢٥

ذكر ترتيب سنّ الغنم ١٢٧

القسم الرابع

من الفن الثالث فى ذوات السموم، وفيه بابان

الباب الأوّل

ويشتمل على ما قيل فى الحيات والعقارب

ذكر ما قيل فى الحيات ١٣٣

ذكر ما فى لحوم الحيات من المنافع والأدوية ١٤٠

ذكر شىء مما وصفت به الأفاعى ١٤٣

ذكر ما قيل فى العقارب ١٤٧

*

الباب الثانى

من القسم الرابع من الفن الثالث فيما هو ليس قاتلا بفعله من ذوات السموم ويشتمل على ما قيل فى الخنافس والوزغ والضب وآبن عرس والحرباء والقنافذ والفئران والقراد والنمل والذر والقمل والصؤاب

صفحة

فأما الخنافس وما قيل فيها ١٥٢

وأما الوزغ وما قيل فيه ١٥٤

وأما الضب وما قيل فيه ١٥٥

وأما الحرباء وما قيل فيها ١٥٩

وأما آبن عرس وما قيل فيه... ... ... ١٦١

وأما القنافذ وما قيل فيها ١٦٢

وأما الفئران وما قيل فيها وأنواعها ١٦٦

فأما الجرذ والفأر ١٦٦

وأما الزباب ١٧٠

وأما الخلد ١٧٠

وأما اليربوع ١٧٠

وأما فأرة المسك ١٧١

وأما فأرة الإبل ١٧٢

وأما القراد وما قيل فيه ١٧٢

وأما النمل والذر وما قيل فيهما ١٧٣

وأما القمل والصؤاب وما قيل فيهما ١٧٧

القسم الخامس
فى أجناس الطير وأنواع السمك

وفيه سبعة أبواب : ستة منها فى الطير وباب فى السمك وذيل لذكر شيء مما قيل فى آلات صيد البر والبحر وهو باب ثامن

الباب الأول

من القسم الخامس من الفن الثالث فى سباع الطير، ويشتمل على ما قيل فى العقاب والبزاة والصقور والشواهين وأصناف ذلك

صفحة

ذكر ما قيل فى العقاب ١٨١

وأما الزمج وهو الصنف الثانى من العقاب... ... ... ١٨٤

ذكر ما قيل فى البازى وأصنافه ١٨٦

فأما البازى ١٨٦

وأما الزرق... ... ... ١٩١

وأما الباشق... ... ... ١٩١

وأما العفصى ١٩٣

وأما البيدق... ... ... ١٩٤

ذكر ما قيل فى الصقر وأصنافه ١٩٥

فأما الصقر... ... ... ١٩٥

وأما الكونج وهو الصنف الثانى من الصقر ١٩٨

وأما اليؤيؤ وهو الصنف الثالث من الصقر ١٩٩

ذكر ما قيل فى الشاهين وأصنافه ٢٠٠

فأما الشاهين ٢٠٠

وأما الأنيق وهو الصنف الثانى من الشاهين ٢٠٣

وأما القطامى وهو الصنف الثالث من الشاهين ٢٠٤

فصل فى ذكر ما ناسب الجوارح فى الافتراس وأكل اللحم الحى ٢٠٤

الباب الثانى

من القسم الخامس من الفن الثالث فى كلاب الطير، ويشتمل على ما قيل فى النسر والرخم والحدأة والغراب

صفحة

ذكر ما قيل فى النسر ٢٠٦

ذكر ما قيل فى الرخم ٢٠٧

ذكر ما قيل فى الحدأة ٢٠٩

ذكر ما قيل فى الغراب وأصنافه ٢٠٩

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الثالث فى بهائم الطير، ويشتمل على ما قيل فى الدراج والحبارى والطاوس والديك والدجاج والحجل والكركى والإوز والبط والنحام والأنيس والقاوند والخطاف والقيق والزرزور والسمانى والهدهد والعقعق والعصافير

فأما الدراج وما قيل فيه ٢١٤

وأما الحبارى وما قيل فيه... ... ... ٢١٥

وأما الطاوس وما قيل فيه ٢١٦

وأما الديك والدجاج وما قيل فيهما ٢١٧

ذكر ما جاء فى الديكة من الأحاديث وما عدّ من فضائلها وعاداتها ومنافعها ٢١٩

ذكر شىء مما وصفت به الشعراء البيضة والدجاجة والديك ٢٢٦

ومما قيل فى الدجاجة والديك ٢٢٧

وأما الحجل وما قيل فيه ٢٣٣

وأما الكركىّ وما قيل فيه ٢٣٤

وأما الإوز وما قيل فيه وأصنافه ٢٣٥

وأما البط وما قيل فيه وأصنافه ٢٣٦

صفحة

وأما النحام وما قيل فيه ٢٣٧
وأما الأنيس وما قيل فيه ٢٣٨
وأما القاوند وما قيل فيه... ... ... ٢٣٨
وأما الخطاف وما قيل فيه ٢٣٨
وأما القيق والزرزور وما قيل فيهما ٢٤١
ما قيل فى القيق... ... ... ٢٤١
وأما الزرزور ٢٤٢
وأما السمانى وما قيل فيه... ... ... ٢٤٥
وأما الهدهد وما قيل فيه... ... ... ٢٤٦
وأما العقعق وما قيل فيه ٢٤٨
وأما العصافير وما قيل فيها وأنواعها ٢٤٩
فأما العصافير البيوتى ٢٤٩
وأما عصفور الشوك... ... ... ٢٥٠
وأما عصفور النيلوفر ٢٥٠
وأما القبرة ٢٥١
وأما حسون ٢٥١
وأما البلبل ٢٥٢

الباب الرابع

من القسم الخامس من الفن الثالث فى بغاث الطير
ويشتمل على ما قيل فى القمرى والدبسى والورشان والفواخت
والشفنين واليعتبط والنواح والقطا واليمام وأصنافه والببغاء

أما القمرى وما قيل فيه ٢٥٨
وأما الدبسى وما قيل فيه ٢٥٨
وأما الورشان وما قيل فيه ٢٥٩

صفحة

وأما الفواخت وما قيل فيها ٢٥٩

وأما الشفنين وما قيل فيه ٢٦٠

وأما اليعتبط وما قيل فيه ٢٦١

وأما النوّاح وما قيل فيه ٢٦١

وأما القطا وما قيل فيه ٢٦١

ذكر شيء من الأوصاف والتشبيهات الشعرية الجامعة لمجموع هـذا النوع ٢٦٥

وأما اليمـام وأصنافه وما وصف به وما قيل فيه ٢٦٨

فأما الرواعب ٢٦٨

وأما المراعيش ٢٦٨

وأما العدّاد ٢٦٩

وأما الميساق ٢٦٩

وأما الشدّاد ٢٦٩

وأما القلّاب ٢٦٩

وأما المنسوب ٢٦٩

ذكر ما قيل فى طوق الحمامة ٢٧٧

ذكر شيء مما وصفت به هذا النوع نظما ونثرا ٢٧٩

وأما الببغاء وما قيل فيها ٢٨٠

البـاب الخامس

من القسم الخامس من الفن الثـالث فى الطير الليلى ويشتمل على ما قيل فى الخفاش والكروان والبوم والصدى

فأما الخفاش وما قيل فيه ٢٨٣

وأما الكروان وما قيل فيه ٢٨٥

صفحة

وأما البوم وما قيل فيه ٢٨٥
وأما الصدى وما قيل فيه ٢٨٦

الباب السادس

من القسم الخامس من الفن الثالث فى الهمج وهو مما يطير كالنحل
والزنبور والعنكبوت والجراد ودود القز والذباب
والبعوض والبراغيث والحرقوص

فأما النحل وما قيل فيه ٢٨٧
وأما الزنبور وما قيل فيه ٢٨٩
وأما العنكبوت وما قيل فيه ٢٩٠
وأما الجراد وما قيل فيه ٢٩٢
وأما دود القز وما قيل فيه ٢٩٧
وأما الذباب وما قيل فيه ٢٩٨
وأما البعوض وما قيل فيه ٣٠١
وأما البراغيث وما قيل فيها ٣٠٣
وأما الحرقوص وما قيل فيه ٣٠٥

الباب السابع

من القسم الخامس من الفن الثالث فى أنواع الأسماك

ذكر شيء من أنواع الأسماك ٣١٢
فأما الدلفين ٣١٣
وأما الرعاد ٣١٣
وأما التمساح ٣١٤
وأما السقنقور ٣١٥

صفحة

وأما السلحفاة والجأة ٣١٦

وأما الفرس النهرى ٣١٧

وأما الجندبيدستر ٣١٨

وأما حيوان القندس والفاقم ٣١٩

وأما الضفادع ٣١٩

وأما السرطان وما قيل فيه ٣٢١

ذكر شيء من عجائب الحيوان المائى ٣٢٢

الباب الثامن

وهو الذيل على القسم الخامس من الفن الثالث ويشتمل على ذكر شيء مما وصفت به آلات الصيد فى البر والبحر ووصف رماة البندق وما يجرى هذا المجرى

ذكر شيء مما قيل فى رماة البندق ٣٢٤

ومما ورد فى وصف الجلاهق نظما ٣٤٨

ذكر شيء مما قيل فى سبطانة ٣٥٠

ذكر شيء مما قيل فى عيدان الدبق ٣٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه التوفيق[1] [والإعانة، وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما][2]

الفنّ الرابع[3] فى النّبات

وهذا الفنُّ وإن جلّ مقدارُه، وحسنت آثارُه، وأشرقتْ أنوارُه، وزها نُوارُه؛ وتفيّأتْ خاماتُ[4] زروعِه، ونبتت أصولُه تحت فروعِه؛ وتديّجت[5] خمائلُه، وتأرّجتْ بُكَرُه وطابت أصائلُه؛ وابتهج إغريضُه[6]، واتّسق نضيدُه؛ وتسلسلت غُدرانُ مائه وزهت[7] أرضُه على سمائه؛ وتعدّدت منافعُه، وعذُبتْ منابعُه؛ وكان منه ما هو للنفس

(١) كذا فى (أ)؛ والذى فى (ب): "توفيق"؛ ولم ترد هذه العبارة فى (ج) وقد ورد مكانها قوله: "وهو حسبي ونعم الوكيل".

(٢) وردت هذه العبارة التى بين مربعين فى (أ)؛ ولم ترد فى النسختين الأخريين.

(٣) لم ترد هذه الترجمة فى (١).

(٤) الخامات: جمع خامة، وهى الطاقة الغضة اللينة من النبات.

(٥) لم نجد فيما بين أيدينا من كتب اللغة أنه يقال: "تديج" والمعروف فى كتب القواعد أن صيغ الزوائد كلها سماعية، وليست قياسا مطردا، انظر شرح الرضى على الشافية ص ٣٣ طبع الآستانة؛ ولعل المؤلف قد استعمل هذا اللفظ هنا لموازاته لقوله فى الجملة الآتية: (وتأرجت).

(٦) الإغريض: ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات البيض، ويشبه به البرد — بفتح الباء والراء —، والثغور.

(٧) فى كتب اللغة أن «زها» بمعنى افتخر أكثر ما يستعمل بضم أوله وكسر ثانيه مبنيا للمجهول، وأنه يقل استعماله مبنيا للفاعل كما هنا.

قوتا، وما حكت ألوانُه زمرّدا وياقوتا؛ وما أشبه اللُّجَيْنَ والعِقْيان، وما غازل بعيونه مُقَلَ الحِسان؛ وما نُسِبتْ إليه الوَجَناتُ فى احمرارِها، وألوانُ العشّاق فى اصفرارِها؛ وأشبهتْه القدودُ عند تمامِها، والثغورُ فى انتظامِها؛ والنّهودُ فى بروزِها وارتفاعِها والخصورُ فى هَيَفِها والسُّرَرُ فى اتّساعِها؛ وما اختلفتْ ألوانُه وطعومُ ثمارِه وإن ائتلفتْ أراضى مَغارِسه ومجارى أنهارِه؛ وما تَضَوَّعَ عَرْفُه وفاح نشرُه، وحَسُنَ وصفُه ولاح بِشْرُه؛ وبقيتْ آثارُه بعد ذُبوله أحسنَ منها يومَ زِفافِه(١)، وحصل الانتفاع به فى حالتَى غَضاضتِه وجَفافِه؛ ووصفَه الطبيبُ فى دوائه وعلاجِه، ونَصَّ عليه الحكيمُ فى أقراباذِينِه(٢) ومنهاجِه؛ وكان هذا الفنّ أحدَ شطرَى النّامى، وقَسيمَ النوع الحيوانىّ؛ فإنّا(٣) لم نقصدْ بإيرادِه استيعابَ نوعِه، واستكمالَ جنسِه، واستيفاءَ منافعِه والإحاطةَ بجموعِه، ولا تصدّينا لذلك، ولا تعرّضنا لخوض هذه اللُّجَج وطُروقِ هذه المهالك، لأمور: منها تعذُّرُ الإمكان، وضيقُ الزّمان؛ ولأنّ هذا الفنَّ عجز عن حصرِه فلاسفةُ الحكماء، ومشاهيرُ(٤) الأطبّاء؛ وسكّانُ البوادى، ومن جمعتْهم الرّحابُ

(١) يوم زفافه، أى يوم نضارته وبهجته، فاستعار له الزفاف بالمعجمة لما بينهما من الشبه فى ذلك.

(٢) الأقراباذين والقراباذين: علم تركيب الأدوية؛ وفى (أقرب الموارد) أنها كلمة فارسية؛ وفى (الشذور الذهبية) أنها يونانية الأصل.

(٣) «فإنا» الخ جواب للشرط السابق فى قوله فى ص ١ س ٥ «وإن جل».

(٤) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة جمع (مشهور) على (مشاهير)، كما أننا لم نجد فى كتب القواعد ما يسوّغه، بل قد ورد فى شرح الرضىّ على الشافية ص ٦١ طبع الآستانة وغيره من الكتب أن كل ما جرى على الفعل من اسمى الفاعل والمفعول وأوّله ميم (كمضروب ومكرم) فبابه أن يجمع جمع تصحيح، ولا يكسر لمشابهته الفعل لفظا ومعنى، وذكروا ألفاظا شذت عن هذه القاعدة ليس منها (مشاهير)؛ إلا أن هذا الجمع مما شاع استعماله وكثر فى كلام الكتّاب والمؤلفين.

وضمّتهم النّوادى[1]، ومن لازموا النبات من حين آستهلّت عليه الأنواءُ و باكرته الغوادى؛ فآطّلع كلٌّ منهم على ما لم يطّلع الآخرُ عليه، وشاهَدَ مالم تنته فكرةُ غيره اليه؛ وعَلِم التُّرْكُمانىُّ منه مالم يعلمه البَدَوىّ، وعَرَفَ آلجبلىُّ مالم يعرفه النَّبَطىّ؛ وصنّف فيه آلحكماءُ الكتبَ المطوّله، وأظهروا من منافعه ومضارّه كلَّ فائدة خفيّة وخاصّيّة مهمَله؛ وتعدّدتْ فيه تصانيفُهم، وتواردتْ وآشتهرتْ تآليفُهم؛ ومع ذلك فما قَدَروا على حصره، ولعلّهم لم يقفوا إلّا على جزءٍ يسيرٍ من شطره؛ بل قصدْنا بإيراده أن نذكرَ منه ما عليه وصفٌ للشّعراء، و رسائلُ للبلغاء والفضلاء؛ لأنّ ذلك ممّا لا يَستغنِى عنه المُحاضِر، و يُضطرُّ اليه آلجليسُ والمُسامِر؛ و ينتفع به الكاتبُ فى كتابته، و يتّسع به على المنشئ مجالُ بلاغته؛ فأوردنا منه ماهو بهذه السبيل، وآستقصَينا ماهو من هذا القَبيل؛ وان كنّا زدنا فى بعضه على هذا الشّرط، وخرجنا عن هذا آلخطّ؛ وتعدّينا من وصفه الى ذكر منافعه ومضارّه، وآنتهينا إلى إيراد بارده وحارّه؛ و رَطبه ومعتدِله ومحرِقه وقابضه وملّينه ومطلِقه؛ ونبّهنا على توليده وأصله، وخساسته وفضله؛ فهذه الزيادةُ إنّما وردت على سبيل الآستطراد، لا على حُكْم الآلتزام والآستعداد، وهى مما تزيد هذا الفنّ إلى حُسْنه حُسْنا، وتبدو بها فضائلُه فُرادَى ومَثْنَى؛ ووصلْنا فنَّ النّباتِ بالصُّموغ والأمنان[2]، لأنّهما من توابعه وفروعه، وحلبْنا ألبانَ[3] التكملة[4] له بهما من ضُروعه؛ وألحقْنا

(١) ورد فى خطبة القاموس آستعمال (النوادى) جمعا (لناد)، كما آستعمله كثير من الكتّاب؛ ولم نجده فى مادّة (ندا) فيما راجعناه من كتب اللغة.

(٢) الأمنان: جمع (منّ) بفتح الميم وتشديد النون، وهو طل ينزل من السماء على الأشجار والأحجار ويحلو و ينعقد عسلا، و يجف جفاف الصمغ؛ وهو أنواع، منها الشيرخشت والترنجبين وغيرهما مما سيذكره المؤلف فى موضعه من هذا الفنّ.

(٣) فى الأصول: "لبان"؛ ولم نجده فيما لدينا من الكتب جمعا "للبن" انما اللبان بالكسر: الرضاع وجمع لبون، وليس واحد من هذين المعنيين بمراد هنا.

(٤) «له»، أى لفن النبات؛ و «بهما»، أى بالصموغ والأمنان.

ذلك بقسمٍ يشتمل على أصنافِ الطِّيبِ والبَخُورات ، والغوالى والمستقطَرات ؛ فختمْنا الفنَّ منه بمِسك[(١)]، ونظمناه معه فى سِلك؛ وحصرنا هذا الفنَّ وما يتعلّق به فى خمسة أقسامٍ تندرج تحتها أبواب، ونخّصناه من أكرمِ أصولٍ وأعرقِ أنسابٍ وأوثقِ أسباب .

القسم الأوّل من هذا الفنّ فى أصل النّبات وما تختصّ به أرضٌ دون أرض

وتتّصل به الأقوات والخَضْراوات[(٢)] والبُقولات ، وفيه ثلاثة أبواب :

البـاب الأوّل من هذا القسم من هذا الفنّ فى أصل النّبات وترتيبه

قال المسعودىُّ فى كتابه المترجَم (بمـروج الذهب ومعادن الجوهر) : إنّ آدمَ عليه السلامُ لمّـا أهبطه الله تعالى الى الأرض خرج من الجنّة ومعـه ثلاثون قضيبا مودَعةً أصنافَ الثمـرة، منها عشرةٌ لها قِشر، وهى الجَوْزُ واللَّـوْزُ والجِلّوْزُ والفُسْتُقُ والبَلُّوطُ والشَّاهبَلُّوطُ والصَّنَوْبَرُ والنارَنْجُ والرُّمّانُ والخَشْخاش .

ومنها عشرةٌ لثمرِها نوى، وهى الزّيتونُ والرُّطَبُ والمِشْمِشُ والخَوْخُ والإجّاصُ والغُبَيْراءُ والنَّبِقُ والعُنّابُ والمُخَيْطُ[(٣)] والزُّعْرُور ؛ ومنها عشرةٌ ليس لها قِشرٌ ولا نـوى

---

(١) «مـ» ، أى من هذا القسم السابق ذكره .

(٢) الخضراوات : جمع خضراء ؛ وفى كتب اللغـة أن قياس ما كان على وزن فعلاء من الصفات ألا يجمع هذا الجمع ، وانما يجمع به ما كان اسما لا صفة ، نحو صحراء وخنفساء ، وانما جمعه هذا الجمع لأنه قد صار اسما لهذه البقول لا صفة .

(٣) يسمى هذا النبات أيضا : المخاطة ، والدبق ، وهو السبستان بالفارسـية (ابن البيطار ج ٤ ص ١٤٢ طبع بولاق .

وهى التُّفّاحُ والسَّفَرْجَلُ والكُمَّثْرَى والعنبُ والتِّينُ والأُتْرُجُّ والخُرْنُوبُ والتُّوتُ والقِثّاءُ والبِطِّيخُ؛ وقال أبو عبيد البكرىُّ فى كتابه المترجَم (بالمسالك والممالك) : إنّ إسحاقَ بنَ العبّاس بنِ محمّد الهاشمىّ حَكَى عن أبيه أنّه تصيَّد يوما بناحية (صَنْعاءَ)(١) فأصابته السماء فمال الى أَحْوِيَةِ(٢) أعرابٍ فمكث عندهم يوما وليلةً والغيثُ منسجِم، لا ينحسم، فلمّا أصبح قال : لقد أنزل اللهُ الليلةَ خيرا كثيرا ؛ فقام ربُّ البيت الى كِساءٍ كان قد نصبه بين أربع أخشابٍ يصيبه المطر، فلمسه بيَدِه ، فقال ؛ ما أنزل اللهُ الليلةَ خيرا؛ ثمّ ليلةٌ أخرى كذلك، وليلةٌ أخرى ؛ فلمّا كان فى اليوم الثالثِ قال : نعمْ قد أنزل الله خيرا فى هذه اللّيلة ؛ فسأله العبّاسُ بنُ محمّدٍ عن ذلك ، فأتاه بكَفٍّ من البُزور تَناوَلَها من جوف ذلك الكِساء ، وقال : إنّ حَبَّ البَقْلِ والعُشْبِ والكلإِ إنّما ينزل من السماء . هذا ما ورد فى أصل النّبات .

وأمّا ترتيبُه من ابتدائه إلى انتهائه — فقد حَكَى الثّعالبىُّ فى (فقه اللغة) قال : أوّلُ ما يبدأ النّبتُ فهو بارِض ، فاذا تحرّك قليلا فهو جَمِيم ؛ [فاذا عمّ(٣) الأرضَ فهو عَميم] فاذا اهتزّ وأمكن أن يُقبَض عليه قيل: "اجتألّ"، فاذا اصفرّ ويبِس فهو هائج، فاذا كان الرَّطْبُ تحت اليابس فهو غَمِيم ، فاذا كان بعضُه هائجا وبعضُه أخضرَ

(١) صنعاء : بلدة باليمن معروفة ، وهى قصبتها ؛ وبين صنعاء وعدن ثمانية وستون ميلا ؛ والنسبة اليها صنعانىّ على غير قياس .

(٢) فى الأصول : "أجونة" بالجيم والنون ؛ وهو تصحيف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق ؛ والأحوية : جمع حواء ككتاب ، وهو مجتمع بيوت الحى المتدانية بعضها من بعض ؛ تقول : « هم أهل حواء واحد » .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى (ا) .

فهو شَمِيط ، فاذا تهشّم وتحطّم فهو هَشِيم وحَطِيم[1] ، فاذا آسودّ من القِدَم فهو الدِّنْدِن[2] فاذا يَبِس ثم أصابه المطرُ فآخضرّ فذاك النَّشْر .

وقيل فى مثله : اذا طلع أوّلُ النَّبْت قيل : " أَوْشَمَ ، وطَرّ " ، فاذا زاد قليلا قيل : " طَفَّرَ " فاذا غطّى الأرضَ قيل : " آستحلَسَ " ؛ واذا صار بعضُه أطولَ من بعضٍ قيل : " تَناتَل " ، فإذا تهيّأ لليُبْس قيل : " اقطارّ " فاذا يَبِس وآنشقّ قيل : " تَصوّحَ " ، فاذا تمّ يُبْسُه قيل : هاجت الأرضُ هِياجا ؛ والله أعلم بالصواب .

فصل فى ترتيب أحوال الزرع

هو ما دام فى البَذْر فهو آلحَبُّ ، فاذا آنشق الحَبُّ عن الورقة فهو الفَرْخُ والشَّطْء ، فاذا طلع رأسُه فهو الحَقْل ، فاذا صار أربعَ ورقاتٍ أو خمسا قيل : كَوَّثَ[3] تكويثا ، فاذا طال وغلظ قيل " استأسَد " ، فاذا ظهرت قصبتُه قيل " قَصَّب " ، فاذا ظهرتْ فيه السُّنبلةُ قيل : " سَنْبَلَ " ثم آكتهَل . وأحسنُ من جميع ذلك وأبلغُ قولُه عزّ وجلّ : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَآسْتَغْلَظَ فَآسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ ، قال الزّجّاج : " آزَرَ الصّغارُ الكِبارَ حتّى آستوى بعضُه ببعض " . وقال غيرُه : " فساوى الفِراخُ الطِّوالَ فآستوى طولُها " وقال آبنُ الأعرابىّ : أشطأ الزرعُ ، اذا فرّخ (وأَخْرَجَ شَطْئَهُ) فراخَه ، (فَآزَرَهُ) ، أى أعانه ؛ والله أعلم .

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع الأصول ؛ والذى فى فقه اللغة المنقول عنه هذا الكلام ص ٣١٠ طبع بيروت " حطام " ؛ والحطيم والحطام كلاهما بمعنى واحد ، كما يفيده كلام صاحب المخصص ج ١٠ ص ٢٠١ فقد ذكر فى تفسير الهزم والهزيم : أنه ما تهشم فذرته الريح وسفته ؛ ثم قال : « وهو الحطام والحطيم » الخ وفى اللسان أن الحطيم هو ما بقى من نبات عام أوّل ليبسه وتحطمه .

(٢) فى الأصول : « الديدن » بالياء ؛ وهو تصحيف ، إذ لم نجده فيما لدينا من كتب اللغة بالمعنى المذكور هنا .

(٣) فى الأصول وفقه اللغة طبع بيروت : « كوت تكويتا » بالتاء المثناة فى كلا اللفظين ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما فى كتب اللغة .

الباب الثانى من القسم الأوّل من الفنّ الرابع

فيما تختصّ به أرضٌ دون أرض وما يَستأصِل شأفةَ النّباتِ الشاغلِ للأرض عن الزراعة

أمّا ما تختصّ به أرضٌ دون أرض. — فقد حَكَى أبو بكر بنُ وحشيّة أنواعا من النّبات توجد فى أرضٍ ولا توجد فى غيرِها، فقال: إنّ فى بلاد سِجِلْماسَةَ[1] شجرةً ترتفع نصفَ قامةٍ أو أرجح، ورقُها كورق الغار، إذا عُمِل منها إكليلٌ ولبسه الرجلُ على رأسه ومشى أو عدا أو عمل عملا لم يَنَمْ ما دام ذلك الإكليلُ على رأسِه، ولا ينالُه من ضرر السهرِ وضعفِ القوّة ما ينال من سهرٍ وعمل؛ وقال: وفى بلاد الإفرَنْجة[2] شجرةٌ إذا قعد إنسانٌ تحتها نصفَ ساعةٍ من النّهار مات، وإن مسّها ماسٌّ أو قطع منها غصنا أو ورقةً أو هزّها مات؛ وفى جزيرةٍ[3] من جزائر الصّقالبة نباتٌ فى قدر البَقْل[4]، ورقُه يشبه ورقَ السّذاب، إذا أُلقِىَ الأصلُ منه بورقِه وأغصانِه بعد غسلِه من التراب الذى فيه، وجُعِل فى الماء البارد، وتُرِك فيه ساعةً من نهار، سَخُنَ ذلك الماء كسُخونتِه إذا أُوقِدتْ تحته النار، وكلّما دام فيه اشتدّت حرارتُه حتى لا يمكن أن يُمَسّ، وإذا خرج من الماء بَرَدَ الماء لوقتِه؛ وقال: فى بلاد رُومِيَةَ شجرةٌ لطيفةٌ تنبُت على شاطئ نهرٍ[5] هناك، ورقُها كورق الحِمّص

(١) سجلماسة: مدينة فى جنوب المغرب، فى طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهى فى منقطع جبل درن، وبين سجلماسة ودرعة أربعة أيام.

(٢) فى القاموس وشرحه أن القياس فى هذا اللفظ كسر الراء اخراجا له مخرج الإسفنط بكسر الفاء، وهو نوع من الخمر:

(٣) عبارة الفلاحة النبطية لابن وحشية: «وان فى بلاد الصقالبة» الخ.

(٤) عبارة الفلاحة النبطية: «فى قدر بعض البقول».

(٥) فى كتاب الفلاحة النبطية: "البحر".

طولُها ذراعان، إذا جُمِع شيءٌ من ورقِها وأغصانِها ودُقَّ وأُعتُصِرَ ماؤه، وجُفِّفتْ العُصارة، فإن شرب منها رجلٌ مقدارَ دانِقٍ ونصفٍ بخمرٍ[1] أنعَظ إنعاظا شديدا ويجامع ما شاء من غير كَلالٍ ولا ضُعف، فاذا أحبّ أن يزول ذلك الإنعاظُ عنه قام فى ماء باردٍ إلى نصفِ صدرِه ساعة، فإنّ ذلك يزول عنه، ويرجع إلى حالتِه الأولى؛ قال: وفى بلدٍ من بلاد الرّوم يقال له : (سفانطس)[2] نباتٌ يرتفع عن الأرض نحوَ الذراع له ورقٌ كورق السِّلْق، الورقةُ نحو ذراع، وليس له ساقٌ يقوم عليها، إذا أُخذ أصلُ هذا النّبات — وهو أصلٌ كبيرٌ مستديرٌ الى الطُّول — وقُشِر وطُبِخ، وأُكِلَه الّذى يُحَمّ زالت عنه الحمّى بعد أكلةٍ أو أكلتين أىّ حمّى كانت، وكذلك إن بُخِّر بورقِه بعد تجفيفه مرّةً أو مرّتين؛ قال : وببلاد الهند نباتٌ لا تُحرِقه النار؛ وفيها شجرةٌ إذا قُطِع شيءٌ

(١) زاد فى كتاب الفلاحة النبطية بعد قوله : « بخمر » قوله : «عتيق» .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى جميع الأصول ؛ والذى فى كتاب ابن وحشية المعروف بالفلاحة النبطية «صطفايس» ؛ ولم نجد واحدا من هذين الاسمين ضمن أسماء البلاد فيما راجعناه من الكتب، كمعجم البلدان ومعجم ما استعجم، وتقويم البلدان، والكتب السبعة المشتملة عليها المكتبة الجغرافية طبع ليدن؛ ويلوح لنا أن الصواب فى اسم هذا البلد "أصطفانس" أو "أصطفانوس" فان هذا الاسم وان لم يرد فيما راجعناه من الكتب ضمن أسماء البلاد الرومية، الا أنه من الأسماء المشهورة عند الرومان للأشخاص، فيحتمل أن يكون هذا البلد قد سمى باسم شخص منهم، كما سميت إحدى المحلات فى البصرة باسم أصطفانوس أيضا وهو كاتب نصرانىّ قديم كان فى أيام زياد أو ما قاربها، كما فى معجم البلدان ج ١ ص ٣٣ طبع أوربا . وفى (ج) ما يفيد أن سفانطس اسم شجرة ؛ لا اسم بلد، فقد ورد فيها ما نصه "وفى بلد من بلاد الروم شجرة يقال لها : "سفانطس" ؛ وهو غير صحيح لأمور ثلاثة، أولها أن لفظ "شجر" لم يرد فى النسخة المنسوب خطها الى المؤلف، وهى المشار إليها فى الحواشى بحرف (ب) ؛ ثانيها أن عبارة ابن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية المنقول عنه هذا الكلام تؤيد أنه اسم بلد، لا اسم شجرة، فقد ورد فى هذا الكتاب ورقة ١٤٥ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية ما نصه : "وان فى بلاد الروم شجرة لطيفة تنبت فى بلدة يقال لها : "صطفايس" ؛ ثالثها أننا لم نجد هذا الاسم ضمن أسماء الشجر والنبات الواردة فى الكتب التى بين أيدينا على كثرتها .

من أغصانها وأُلقِيَ على الأرض تحرّك، وربّما سَعى كما تسعى الحيّات ودَبّ[(١)]؛ وفيما يلى مَهَبّ الشّمال شجرةٌ تُسمَع منها فى فصلَى الربيع والخريف[(٢)] همهمةُ إنسان يريد أن يتكلّم وربّما نطقت بلغة الهند كلمةً بعد كلمة، وتسمّى هذه الشجرةُ شجرةَ الشّمس، وصورتُها على صورة الإنسان؛ وفى بلاد التّاكِيَان[(٣)] شجرةٌ تضىء باللّيل كالسِّراج، بحيث إنّ النّاسَ إذا سلكوا بقربها باللّيل آستغنَوا بضوئها عن مصباح، ويسمّونها شجرةَ القمر. ومن الشجر والنّبات المشهور الّذى لا يوجد إلّا ببقاعٍ مخصوصة: البَلَسان، وهو فى أرض المطريّةِ على ساعةٍ من القاهرةِ المعزّيّة، فى بقعةٍ مخصوصةٍ معروفة، تُسقَى من بئرٍ مخصوصٍ هناك؛ والفُلْفُل، يقال: إنه لا يَنبُت الّا بالمَنيبارات[(٤)] من بلاد الهند والمراد بالنّبات هنا: كمالُه وتحصيلُ مُغَلِّه، وإلّا فقد رأيتُه أنا وقد زُرِع ببستانٍ بأرض (أُشْمُوم طَنَاح[(٥)]) من الدّيار المصريّة فى سنة أربعٍ وتسعين وستّمائة، ونَبَت وصار نباتُه بقدر الذّراع، وكاد يَعقِد الحَبّ؛ وأخبَرَنى من آختبره فى غير هذه السنة المذكورة أنّه لا يَتمّ عَقدُ حَبِّه ولا يتكوّن، وأنّهم يستعملون فروعَه فى الطّعام فتقوم مَقامَ الفُلْفُل؛ وشجرُ الكافور لا يَنبُت إلّا فى بقاعٍ مخصوصةٍ يأتى ذكرُها إن شاء الله

(١) زاد فى الفلاحة النبطية بعد قوله: «ودب» قوله: «كما يدب الدبيب».

(٢) الذى فى الفلاحة النبطية: «والصيف».

(٣) التاكيان: بلد بالسند.

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع الأصول بالألف والتاء فى آخره، والذى فى تقويم البلدان ص ٣٥٣ طبع أوربا "المنيبار" بدونهما؛ وقد ورد فيه أن الهند ثلاثة أقاليم: الأوّل وهو الذى إلى جهة الغرب ويتصل ببلاد السند وكرمان — يقال له الجزرات ...؛ والثانى: المنيبار بفتح الميم وكسر النون وسكون الياء آخر الحروف، وفتح الباء الموحدة، ثم ألف وراء مهملة فى الآخر، وهو شرقىّ الجزرات، والمنيبار هى بلاد الفلفل» الى آخر كلامه؛ واذن فيلوح لنا أن جمعه بالألف والتاء هنا ملاحظ فيه أجزاء هذا الإقليم ونواحيه.

(٥) أشموم طناح: بلد قرب دمياط.

فى موضعِها من هذا الكتاب فى هـذا الجزء، وكذلك اليَبْرُوحُ[1] الصَّنَمىُّ لا يوجد إلّا فى بلدٍ بعينه، والبابُ فى هذا متّسع، وليس فى آستقصائه فائدةٌ توجب البحثَ عنه أو إيرادَه .

ومّما يناسب هذا الفصل ما حُكِى عن أبى بكر بنِ وحشيّةَ أيضا أنّه إذا خُلِط بِزْرُ الكُرْنُبِ ببِزْرِ السَّلْجَم — والسَّلْجَم، هـو اللّفت — وتُرِكا ثلاثةَ أشهرٍ ثمّ زُرِعا خرج البِزْرُ كلُّه سَلْجَما، فاذا أُخِذ من بِزْرِ هذا السَّلْجَم وزُرِع خرج كُرْنُبا .

وحُكِى عنـه أيضا أنّه اذا أُحرِق النُّعْنُـعُ والجِرْجِيرُ فى موضـعٍ ندٍ بقرب شجرةٍ أو زَرْعٍ، وخُلِط الرَّمادُ بالتُّراب، وأُضيف إليهما قِشرُ بَيض الحمـام، ودُفِن ذلك فى الأرض على مقدارٍ دونَ الشِّبر، وصُبَّ عليـه المـاءُ أربعةَ أيّام، ثمّ يُسقَى على عادة النُّعْنُعِ والجِرْجِير، أَخرَج شجـرَ الدُّلْب[2]، فاذا نبت فليحوَّلْ ويُغرَسْ فى موضعٍ آخر، فإنّه يَثبُت، وزعم أنّ ذلك لا يَتمّ إلّا أن يكون فى نَيْسانَ إذا قارب القمـرُ الشّمسَ فى بُرج الحَمَـل أو الثَّور، واللّه أعلم .

(١) فى (ا) و(ج): "بيروح" بتقديم الباء الموحدة على الياء المثناة، وفى (ب): «بتروخ»؛ وهو تحريف فى جميع هذه الأصول صوابه ما أثبتنا نقلا عن تاج العروس مادة "برح"، ومفردات ابن البيطار فى الكلام على سراج القطرب؛ وهو أصل اللفاح البرّىّ، وهو المعروف بالفاوانيا وعود الصليب، وهو شبيه بصورة الإنسان، ومنه ذكر وأنثى؛ وذكر ابن البيطار فى مفرداته ج٣ ص ١١ فى الكلام على سراج القطرب أن أصل هذه الشجرة الكائن فى بطن الأرض فى صورة صنم قائم ذى يدين ورجلين، وأن ورقها مثل ورق العليق سواء بسواء، وهو أيضا يتعلق بما يقرب منه من الشجر، ينفرش عليه ويعلوه، وله ثمرة أحمر لونها، طيب ريحها، ورائحتها كرائحة عسل اللبنىّ، ومنبتها يكون فى الجبال والكروم؛ وسيأتى الكلام عنه أيضا فى اللفاح

(٢) الدلب: شجر عظيم، ورقه يشبه ورق الخروع، إلا أنه أصغر منه، ومذاقه مر عفص بفتح فكسر وله نوار صـغير، خفيف أصفر. وقشر خشبه غليظ أحمر، ولون خشـبه اذا شق أحمر خلنجىّ؛ وقال أبو حنيفة. هو شجر يعظم ويتسع ولا نوار له ولا ثمر، وهو مفرّض الورق واسعه، شبيه بورق الكرم. انظر المفردات والتاج واللسان .

وأمّا ما يستأصل النّباتَ الشاغلَ للأرض عن الغِراسةِ[1] والزّراعة — فقد ذكر أبو بكر بنُ وحشيّةَ من ذلك أشياءَ كثيرة، ثم قال: وأجودُ ذلك أن يُزرَع البَنْج[2] فى الأرض الّتى تَنبُت فيها هـذه الحشائش، ويُسقَى الماءَ، فاذا كَبُر وأزهَرَ يُقلَع، ويؤخذ التُّرْمُس وورقُ الخِلاف[3] فيُلقَيان على البَنْجِ وهو رَطْب، ويُدَقّ الجميعُ جملةً حتّى يختلط، ويُنثَر منـه فى تلك الأرض، فإنه يُحرِق الثِّيل[4] والشَّوكَ وجميعَ الحشائش الّتى هى أعداء الزّرع؛ قال: أو يُسحَق التُّرْمُس وثمرُ الطَّرْفاءِ وورقُ الخِلافِ مع أغصانه سحقا ناعما، ويُعتصَر ماءُ البَنْج الرَّطْبِ وماءُ ورقِ الآس ويُخلَط الماءان، ويُبَلّ بهما المسحوقُ يوما وليلة، ثمّ يُصَبّ على الثِّيلِ وعلى أصولِ الشَّوْك وغيرِ ذلك من الحشائش الدَّغِلة، فإنّه يأكلها ويجفّفها؛ قال: أو يُعمَل

(١) لم نجد فى مادة «غرس» فيما راجعناه من كتب اللغة ما يفيد أنه يقال: «غراسة» مصدر «غرس» إلا أن هذا اللفظ قد ورد فى اللسان ومستدرك التاج مادة «خرج» نقلا عن أبى حنيفة ضمن عبارة له، لا أنه منقول عن العرب، فقد جاء فيهما ما نصه: «استخرجت الأرض»: أصلحت للزراعة والغراسة.

(٢) البنج، هو الشيكران بالعربية، بفتح الشين وضم الكاف؛ وقيل السيكران بالسين المهملة، وهو نبات مخدّر مخبط للعقل، له قضبان غلاظ، وورق عراض، صالحة الطول، مشققة الأطراف الى السواد، عليها زغب، وعلى القضبان ثمر شبيه بالجلنار فى شكله، متفرق فى طول القضبان واحد بعد واحد، وفى هذا الثمر بزر شبيه ببزر الخشخاش انظر مفردات ابن البيطار ج ١ ص ١١٧ طبع بولاق؛ وذكر ابن سينا فى القانون ج ١ ص ٢٧٣ طبع بولاق أن أردأه وأخبثه الأسود ثم الأحمر، والأبيض أسلم، وهو الذى يستعمل والأوّلان لا يستعملان.

(٣) الخلاف: صنف من الصفصاف، وهو بأرض العرب كثير، ويسمى السوجر، وأصنافه كثيرة وهو خوّار ضعيف؛ قال أبو حنيفة، سمى خلافا لأن السيل يجىء به سيبا فينبت من خلاف أصله.

(٤) فى الأصول: «الثبل» بالباء الموحدة؛ وهو تصحيف؛ والثيل هو المعروف بالنجيل، وهو نبات له أغصان ذات عقد، طعمه حلو، وله ورق طوال حادة الأطراف صلبة مثل ورق الصعتر، يعتلفه البقر وسائر المواشى انظر مفردات ابن البيطار ج ١ ص ١٥٣ طبع بولاق، وذكر صاحب التاج أنه نبات يفرش على شطوط الأنهار، يذهب ذهابا بعيدا، ويشتبك حتى يصير على الأرض كالليدة، وله عقد كثيرة وأنابيب قصار، ولا يكاد ينبت إلا على أدنى موضع تحته ماء.

مِعْوَلٌ من نحاس، ويُحمَى بالنّار حتّى يصيرَ كالجمر، ثم يُغمَس فى دم تيس كما يُسقَى الحديد، يُصنع به ذلك مرارا، ثمّ يُقطَع به النِّيلُ والشَّوكُ والعَوسَجُ والقصبُ وغير ذلك من الحشائش الكبارِ الغلاظِ المضرّةِ بالزرع؛ فإنّ كلّ نباتٍ قُطِع به لا ينبُت بعد ذلك أبدا، لكنّه متى أصاب المِعْوَلُ شيئا من كرمٍ أو نباتٍ فإنّه يؤذيه؛ قال: أو تُقلَع أصولُ النّبات المُضِرّةُ بالزّراعة والغِراسة[1]، ويؤخذ الماءُ العَذْبُ فيُغْلَى فى قِدْرِ نحاسٍ غليانا جيّدا مرارا، يوقَد عليه بخشب الصَّنَوْبَر، ويُدَقّ الحِلْتِيتُ[2] والخَرْدَلُ والخَرْبَقُ[3] دقًّا ناعما، وتضاف الى الماء، ويُصَبُّ منه وهو حارٌّ فى الأصول[4] التى قُلِعت، فإنّ نباتَها لا يعود أبدا؛ أو يُلقَى الزِّفتُ والخمرُ فى ماءٍ عذبٍ، ويُغلَى فى قِدر نحاسٍ حتّى يذوبَ الزّفت، ويُصَبُّ وهو حارٌّ فى تلك الأصول المقلوعة، ومقدارُ ما يُصَبُّ منه فى كلّ أصلٍ ربعُ رِطْل؛ قال: وأمّا ما يَقلَع الحَلْفاءَ فهو أن يُزرَع التُّرمُسُ والخَرْبَقُ[3] فى الأرض التى تظهر فيها، فاذا انتهيا فى بلوغ غايتهما يُقلَعان

(١) لم نجد فى مادة غرس فيما راجعناه من كتب اللغة ما يفيد أنه يقال: «غراسة» مصدر «غرس» إلا أن هذا اللفظ قد ورد فى اللسان ومستدرك التاج مادة «خرج» نقلا عن أبى حنيفة ضمن عبارة له، لا أنه منقول عن العرب، فقد جاء فيهما ما نصه: «استخرجت الأرض»: أصلحت للزراعة والغراسة.

(٢) الحلتيت، هو صمغ الأنجذان، وهو المعروف فى مصر بأبى كبير، وأجوده المأخوذ من جبال كرمان وأعمالها، الأحمر الطيب الرائحة الذى إذا حل فى الماء ذاب سريعا وصار كاللبن (تذكرة داود) ج ١ ص ١٨١ طبع بولاق؛ وفى التاج واللسان أنه ينبت بين بست وبلاد القيقان، وهو نبات يسلنطح، ثم تخرج من وسطه قصبة تسمو، فى رأسها كعبرة، والحلتيت صمغ يخرج فى أصول ورق تلك القصبة، وأهل تلك البلاد يطبخون بقلة الحلتيت ويأكلونها.

(٣) الخربق: نبات له ورق كلسان الحمل، وهو أبيض وأسود، وزهره أحمر اللون، وله ساق جوفاء طولها نحو من أربع أصابع، اذا ابتدأ أن يجف تقشر، وله عروق كثيرة دقاق مخرجها من رأس واحد صغير مستطيل شبيه بالبصلة المستطيلة، وينبت فى مواضع جبلية (المفردات ج ٢ ص ٥٤) طبع بولاق.

(٤) «فى الأصول»، أى فى مواضع الأصول من الأرض؛ وكذلك قوله بعد: «فى تلك الأصول المقلوعة».

بأصولها، ويُلقيان على الأرض، ويُضرَبان بالخشب حتى يتهرّآ، ويُجرَى عليهما الماء، ويُترَكان حتى يعفنا، فإنهما يأكلان أصولَ الحَلْفاء وما عداها من الحشائش المضرّة؛ قال: ومن أراد قلعَ شجرةٍ عظيمةٍ لا يمكن الأَكَرَة[1] قلعُها، فليَحفِر حول أصلِها، فإذا انكشف صَبّ فيه خَلّا قد أُغلِيَ فيه الزِّفت، ثم يُطمَر[2] بالتُّراب فإنه يُهترئ ذلك الأصلَ ويفتّته ويبيّسه، وإن كان يابسا سقط بنفسه؛ والله أعلم.

الباب الثالث من القسم الأوّل من الفنّ الرابع

فى الأقوات والخضراوات

ويشتمل هذا البابُ على الحِنطةِ والشّعيرِ والحِمّص والباقِلّى والأُرُز، وما قيل فى الخَشْخاشِ والكَتّانِ والشّهدانِج[3] والبِطّيخ والقِثّاءِ والخيارِ والقَرْعِ والباذِنْجانِ والسِّلْقِ والقُنّبيط والكُرُنْبِ والسّلْجَمِ والفُجْلِ والجَزَرِ والبصلِ والثُّومِ والكُرّاثِ والريباسِ والهِلْيَوْن والهِندَبا والنُّعنُعِ والجِرْجيرِ والسّذابِ والطَّرْخُونِ والإسْفاناخِ والبقلةِ الحَمْقاءِ والحُمّاضِ والرّازِيانَجِ والكَرَفْس.

فأمّا الحِنطةُ وما قيل فيها — فقد حَكَى الشيخُ أبو الحسن الكسائىُّ — رحمه الله — فى بدء الدنيا؛ أنّ الحَبّةَ أوّلَ ما خرجتْ من الجنّة كانت قدرَ بَيض النّعام، ألْيَنَ من الزُّبد، وأحلى من العسل، ولم تزل زاكيةً زمنَ آدمَ وشيثَ

---

(١) الأكرة: الحرّاثون والزرّاع.

(٢) يطمر، أى يغطى ويستر.

(٣) ضبط صاحب التاج لفظ الشهدانج بكسر النون ضبطا بالعبارة، وضبطه صاحب المصباح بفتحها. وهو معرّب «شاهدانه» بالفارسية، ومعناه سلطان الحب بفتح الحاء، وآسمه بالعربية النوم بتشديد النون المضمومة، وأهل مصر تسميه «الشرانق».

— عليهما السلام — الى زمن إدريس — عليه السلام — فلمّا كثر الناسُ نَقَص الحَبُّ عن مقـدارِه إلى أصغرَ منه، ثمّ كان كذلك إلى أيامِ فرعونَ، فنَقَص عن مقدارِه إلى أيّام إلياس — عليه السلام —، ثمّ نَقَص حتى صار قدرَ بَيض الدّجاج الى أيّام عيسى بنِ مريم — عليه السلام — فنَقَص فى زمنِه حتّى صار مِثلَ بَيض الحمام، الى أن قُتِل يحيى بنُ زكريّا — عليهما السلام — فصار قدرَ البُنْدُق، فكان كذلك الى أيّام عُزَيْر، فلمّا قالت اليهود: (عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ) نَقَص إلى ما ترى، وقيل: بل صار قدرَ الحِمَّص، ثمّ صار إلى هذه الغاية .

وقال وهبُ بنُ منبِّه : وكان الزرعُ فى زمن آدمَ — عليه السلام — على طول النخـــل .

وقال الشـيخُ الرئيسُ أبو علىّ بنُ سينا : أجوَدُ الحِنْطةِ المتوسّطةُ فى الصّـلابة العظيمةُ السَّمينةُ المَلْساء[1]، التى بين الحمراء والبيضاء؛ والحِنطةُ السوداءُ رديئةُ الغِذاء؛ وطبـعُ الحِنطةِ حارٌّ معتدلٌ فى الرّطوبة واليُبوسة، وسَوِيقُها[2] الى اليُبْس، وهو بطىءُ الانحدار، كثيرُ النَّفْخ، لابدّ من حلاوةٍ تَحْدُره بسرعة، وغسلٍ بالمـاء الحارّ حتّى يُزيل نَفْخَه؛ وقال فى الأفعال والخواصّ : الحِنطةُ الكبيرةُ والحمراءُ أكثرُ غذاء، والحِنطةُ المسلوقةُ بطيئةُ الهضم نَفّاخة، لكنّ غِذاءَها إذا ٱستُمرِئَتْ كثير؛ والحُوّارى[3] قريبٌ من النَّشا، لكنّه أسخَن؛ والنَّشا باردٌ رَطْبٌ لَزِج؛ قال : والحِنطةُ تنقّى الوجه، ودقيقُها والنَّشا خاصةً بالزّعفران دواءٌ للكَلَف[4]؛ قال : والحِنطةُ النِّيئـةُ والمطبوخةُ المسلوقةُ

(١) زاد فى القانون قبل هذه الكلمة قوله : «الحديثة» انظر الجزء الأول صفحة ٣١٨ طبع بولاق .

(٢) السويق : الناعم من دقيق القمح والشعير؛ و يقال بالصاد أيضا .

(٣) الحوّارى : لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .

(٤) الكلف : شىء يعلو الوجه كالسمسم، أو هو حمرة كدرة تعلو الوجه .

من غير طَحْنٍ ولا تهريةٍ كالهَرِيسة، والهَرِيسةُ إن أُكِلتْ وَلَدتْ الدّود ، قال : والحِنطةُ مدقوقةً مذرورةً على عضّةِ [الكَلْب الكَلِب](١) نافعة .

وأمّا الشَّعير — فقد قال الشيخُ الرئيس : طبعُ الشّعير باردٌ يابسٌ فى الأُولى وهو جِلاء، وغِذاؤه أقلُّ من غذاء الحِنطة، وماءُ الشَّعير أغذَى(٢) من سَوِيقه، وكلاهما يَكسِر حِدّةَ الأخلاط؛ وهو نافخ(٣)، قال : واذا طُبِخ بخَلٍّ ثَقِيف(٤) ووُضِع ضِمادا على الجرب المتقرِّح أبرأه ، ويُضْمَد به مع السَّفَرْجَل والخَلّ على النِّقْرِس(٥)؛ ويَمنع سيلانَ الفُضول الى المفاصل ؛ قال : وماؤه ينفع من أمراض الصدر ؛ واذا شُرِب بِبِزْرالرازِيانَج(٦) أغزَر اللّبن ؛ ويُضْمَد بدقيقه و إكليلِ المَلِكِ(٧) وقِشر الخَشْخاش لوجع الجنب ؛قال : وماؤه ردىءٌ للمعدة ،وسَوِيقُه يُمسِك البطنَ ؛وماؤه مبرِّدٌ يُرطِّب الحُمّيات : أمّا الحارّة فساذَجا ، وأمّا الباردة فمع الكَرَفْس والرّازِيانَج ؛ والله أعلم .

(١) لم ترد هذه العبارة فى (ا) .

(٢) فى القانون : «أقوى» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع الأصول، وليس فى القانون المنقول عنه هذا الكلام فى كلتا نسختيه المصرية والأوربية ما يفيد أن ماء الشعير نافخ؛ والذى ورد فيه أن جميع مائه نافع؛ وما هنا هو الموافق لما فى مفردات ابن البيطار فى الكلام على ماء الشعير ج ٤ ص ١٣٤ طبع بولاق .

(٤) الثقيف من الخل : الحامض جدا؛ ويقال بكسر أوله وتشديد ثانيه ، كسكين .

(٥) النقرس بالكسر : وجع وورم يحدث فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، لا سيما مفصل الإبهام؛ وهو الأصل فى التسمية؛ قال ابن هبل من الأطباء : مفصل إبهام الرجل يسمى نقوروس — أى باليونانية؛ ومن هذا اللفظ أخذ منه اسم النقرس تسمية للحال باسم المحل قاموس الأطباء للقيصونى .

(٦) الرازيانج؛ هو المعروف بالشار والشمر بالتحريك فى مصر والشأم ، والشمرة بحلب ، والبسباس بالمغرب ، وهو برىّ وبستانىّ عطرىّ ذكىّ الرائحة . وسيأتى الكلام عنه فى هذا السفر .

(٧) إكليل الملك : حشيشة ذات ورق مدرهم أخضر غض ، وأغصان دقاق جدا ، ولها زهر أصفر صغير تخلفه مزاود دقاق جدا ، مدورة تشبه أسورة الصبيان الصغار ، فيها حب صغير مدور أصفر من حب الخردل ، وطعم هذا النبات الى المرارة ، وله رائحة فيها عطرية المفردات ج ١ ص ٥٠ طبع بولاق .

وأمّا ما وَصَف به الشعراءُ الزّرعَ وشبّهوه به — فمنه قولُ القاضى عِياض :

أُنظُرْ إلى الزرعِ وخاماتِه[1] * تَحكِى وقد مالت أمامَ الرّياحْ
كتائبا تَجفِل مهزومةً * شقائقُ[2] النُّعمانِ فيها جِراحْ

وقال ظافر الحدّادُ الإسكندَرىّ :

كأنّ سنابلَ حَبِّ الحَصيد * وقد شارفتْ وقتَ إبّانِها
مَكانسُ[3] مضفورةٌ رُبِّعت * وأرنجَ فاضلُ خيطانِها

وقال ابنُ رافع :

أُنظرْ الى سُنبلِ الزُّروعِ وقد * مرّتْ عليه الجَنُوبُ والشَّمَلُ[4]
كأنّه البحرُ فى تموّجِه * يعلو مرارا به ويَستفِلُ

(١) الخامات : الطاقات الغضة اللينة من الزرع .

(٢) شقائق النعمان : نبت له نور أحمر، واحدتها شقيقة ؛ وقيل : الواحد والجمع سواء ؛ وسميت شقائق لحمرتها تشبيها لها بشقيقة البرق ؛ وأضيفت الى النعمان ، لأن النعمان بن المنذر نزل على شقائق رمل قد أنبتت الشقر الأحمر، فاستحسنها ، وأمر أن تحمى ؛ وقيل : النعمان : اسم الدم ، وشقائقه قطعه ، فشبهت حمرتها بحمرة الدم . وذكر ابن البيطار أن شقائق النعمان صنفان ، برىّ وبستانىّ ، ومن البستانىّ ما زهره أحمر، ومنه ما زهره الى البياض ، وله ورق شبيه بورق الكزبرة ، وساقه أخضر دقيق ، وورقه منبسط على الأرض وأغصانه شبيهة بشظايا القصب رقاق ، على أطرافها الزهر مثل زهر الخشخاش ، وأصله فى عظم زيتونة وأعظم ، وكله معقد ، وأما البرىّ فإنه أعظم من البستانى ، وأعرض ورقا منه وأصلب ، ورءوسه أطول ولون زهره أحمرقانىّ ، ومنه ما لونه وورقه أسود وأصفر الخ .

(٣) فى الأصول ومباهج الفكر : « كنائس » ؛ وهو تحريف اذ لا يناسب معناه سياق ما هنا ؛ والمكانس جمع مكنسة ، وهى ما يكنس به .

(٤) الشمل بالتحريك : ريح الشمال ، وفيها لغات : شمال ، كسلام ، وهو الأكثر ، وشمال ، وشأمل ، وشمل وزان سبب ، وشمل بفتح فسكون .

وقال آخر:

يا حبّذا سُنبلةٌ * تبدو لعين المبصِر
كأنّها سِلسِلةٌ * مضفورةٌ من عنبرِ

[وأمّا الحِمَّص][1] — فقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا فى (كتاب[2] الأدوية المفردة): الحِمَّصُ أبيضُ وأحمرُ وأسودُ وكِرْسِنّىّ[3]؛ ومن الأصناف بستانىٌّ وبرّىّ والبرّىُّ أحدُّ وأمرُّ وأشدُّ تسخينا، ويَفعَل أفعالَ البستانىِّ فى القوّة، ولكنّ غِذاءَ البستانىِّ أجوَدُ من غِذاء البرّىّ، وقال فى طبعه: الأبيضُ حارٌّ يابسٌ فى الأُولى، والأسوَدُ أقوى؛ وقال فى خواصِّه: كلاهما مفتِّح[4] ملينٌ، وفيه تقطيع، ولا شىءَ فى أشكالِه أغذَى منه للرِّئة؛ ورَطْبُه أكثرُ توليدا للفُضول من يابسِه؛ قال: والحِمَّصُ يجلو النَّمَش[5]، ويحسِّن اللّون طِلاءً وأكلا، وينفع من الأورام الحارّةِ والصُّلْبةِ وسائرِ الأورامِ و[ما كان[6] منها فى] الغُدَد، ودُهنُه ينفع من القُوباء؛ ودقيقُه للقروح الخبيثةِ والسَّرَطانيّةِ والحِكّة؛ قال: وينفع من وجع الظهر، ومن البُثُورِ الرَّطْبةِ فى الرأس؛ ونَقيعُه ينفع من وجع الضِّرس وأورامِ اللِّثة الحارّةِ والصُّلْبة، والأورامِ الّتى تحت

(١) لم ترد هذه التكملة فى (ا).

(٢) يريد بكتاب الأدوية المفردة الكتاب الثانى من الكتب الخمسة المشتمل عليها كتاب القانون وهى: الكتاب الأول فى الأمور الكلية من علم الطب، والكتاب الثانى فى الأدوية المفردة، والكتاب الثالث فى الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الانسان من الرأس الى القدم، والكتاب الرابع فى الأمراض الجزئية التى اذا وقعت لم تختص بعضو وفى الزينة، والكتاب الخامس فى الأدوية المركبة.

(٣) الكرسنى: نسبة الى الكرسنة، وهى شجيرة صغيرة دقيقة الورق والأغصان، لها ثمر فى غلف، ابن البيطار؛ وقال داود فى التذكرة إن حبها فى عظم العدس، غير مفرطح، بل مضلع، ولونه ما بين الغبرة والصفرة، وطعمه ما بين طعم الماش والعدس، يعتلفه البقر.

(٤) فى جميع النسخ: «منفخ»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ صفحة ٣١٧ طبع بولاق.

(٥) النمش: نقط بيض وسود تقع فى الجلد تخالف لونه.

(٦) لم ترد هذه العبارة فى الأصول؛ وقد أثبتناها عن قانون ابن سينا ج ١ ص ٣١٧ طبع بولاق.

الأذنين ؛ قال : وهو يصفّى الصّوت ؛ قال : وطبيخُه نافعٌ للاستسقاء واليرقان[1] ويفتّح سُدَدَ الكَبِد والطّحال، خصوصا الكِرْسِنّىّ والأسوَدَ، قال : ويجب ألّا يؤكل الحِمّص فى أوّل الطعام ولا فى آخره؛ بل فى وسطه؛ قال : وطبيخُ الأسودِ يفتّت الحَصاةَ فى المَثانةِ والكُلَى بدُهن اللّوزِ والفُجْلِ والكَرَفْس؛ وجميعُ أصناف الحِمّص تُخرِج الجَنِين؛ وهو ردىءٌ لقروج المَثانَة؛ ويزيد فى الباه جدّا؛ ونَقيعُه اذا شُرِب على الرّيق أنعَظ بقوّة؛ وكلُّه ملَيِّنٌ للبطنِ؛ وقال بعضهم : إنّه إن نُقِع فى الخَلّ وأُكل منه على الرّيق، وصُبِر عليه نصف يومٍ قَتَل الدّود . ٥

وأمّا الباقِلّى[2] — فقد قال فيه الشيخ الرئيس : منه مصرىّ[3]، ومنه نَبَطىّ والنَّبَطىّ أشدُّ قبضا، والمصرىُّ أرطَبُ وأقلُّ غِذاء، والرَّطْبُ أكثرُ فُضولا؛ قال : ولولا بطءُ هضمِه وكثرةُ نفخِه ما قَصَر فى التغذيةِ عن كَشْكِ الشَّعير، بل دمُه[4] أغلظُ وأقوَى ؛ قال : وأجوَدُه السَّمينُ الأبيضُ السالمُ من السُّوس ؛ وأردأُه الطرىُّ ؛ وإصلاحُه إطالةُ نَقعِه وإجادةُ طبخِه وأكلُه بالفُلْفُل والملحِ والحِلْتِيتِ[5] والصَّعْتَر[6] ١٠

(١) اليرقان : داء يتغير منه لون البدن تغيرا فاحشا الى صفرة أو سواد لجريان الخلط الأصفر أو الأسود الى الجلد وما يليه بلا عفونة .

(٢) الباقلى : الفول، وهو اسم سوادىّ ؛ واذا شددت اللام قصرت، واذا خففتها قلت : « الباقلاء » بالمدّ . ١٥

(٣) زاد الشيخ الرئيس فى القانون صنفا ثالثا وهو الهندى .

(٤) عبارة القانون طبع مصر : « بل المتولد منه دمه أغلظ » الخ وما هنا موافق لما فى النسخة الأوربية .

(٥) الحلتيت وهو صمغ الأنجدان، وهو المعروف فى مصر بأبى كبير، وأجوده المأخوذ من جبال (كرمان) وأعمالها، الأحمر الطيب الرائحة الذى اذا حل فى الماء ذاب سريعا وصار كاللبن، تذكرة داود ج ١ ص ١٨١ طبع بولاق . وفى التاج واللسان أنه ينبت بين بست وبلاد القيقان، وهو نبات يسلنطح ثم تخرج من وسطه قصبة تسمو، فى رأسها كمرة، والحلتيت : صمغ يخرج فى أصول ورق تلك القصبة وأهل تلك البلاد يطبخون بقلة الحلتيت ويأكلونها . ٢٠

(٦) فى جميع الأصول : والشعير ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ ص ٢٧٨ طبع بولاق . ٢٥

وطبعُه قريبٌ من الاعتدال ، ومَيلُه الى البَرْدِ واليُبْسِ أكثر ؛ وفيه رطوبةٌ فَضْلِيّة خصوصا فى الرَّطْب منه ؛ قال والقومُ الّذين يجعلون بَرْدَ الباقِلّى فى الدرجة الثانيةِ[(١)] يُفْرِطون .

وأمّا أفعالُه وخواصُّه — فإنّه يجلو قليلا ، وينفخ ، والمقلىُّ منه قليل النَّفخ ، ولكنّه أبطأ انهضاما ؛ والمطبوخُ فى قِشرِه كثيرُ النّفخ ، والنَّبَطىُّ أشدُّ قبضا ولا يجلو ؛ قال : والباقِلّى يولِّد أخلاطا غليظة ، وقد قَضَى إبْقْراطُ[(٢)] بجُودةِ غِذائه واذا قُشِر وشُقَّ نصفين ووُضع على نَزْفٍ قطعَه ؛ ومن خواصِّه أنّه يَقطَع بَيضَ الدَّجاج اذا عُلِفتْ منه ، وأنّه يُرِى أحلاما مشوَّشة[(٣)] ، وأنّه يُحدِث الحِكّةَ ، خصوصا طريّه ؛ ومن خواصِّه أنّه اذا عُمِدت به عانةُ الصّبىِّ مَنَع نباتَ الشَّعر ، وكذلك اذا كُرِّر على الموضع المحلوق ، ويجلو البَهَق من الوجه والكَلَف والنَّمَش ، ويحسِّن اللّون لا سيّما مع قشورِه ، واذا ضُمِد به بالشّراب على الخُصْية نَفَع ورمَها ؛ وينفع من تشنّج المَفصِل ؛ ويُضْمَد بمطبوخه النِّقرِسُ مع شحم الخنزير ، وان خُلِط مع عسلٍ ودقيقِ الحُلبةِ[(٤)] نَفَع من أورام الحَلْق ؛ وضِمادُه جيّدٌ لورم الثّدىِ وتجبُّن اللّبن فيه ؛ والمطبوخُ منه بخَلٍّ وماءٍ ينفع من الإسهالِ المُزمِن ، وخصوصا اذا كان بقشرِه

(١) فى مفردات ابن البيطار ج ١ ص ٧٨ «الثالثة» وما هنا هو الموافق لما ورد فى القانون ج ١ ص ٢٧٨ طبع بولاق .

(٢) ضبطنا هذا الأسم بكسر أوله وضم ثانيه مع التشديد تبعا للنطق به فى اللغة الإفرنجية ؛ وضبط بضم الباء مع التشديد فى الشعر والشعراء ص ١٤ طبع أوربا ضبطا بالقلم لا بالعبارة .

(٣) فى القاموس وشرحه أن التشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ، صوابه : التهويش والمهوّش والتهوّش ، ولكن الشارح قد ذكر بعد ذلك أن الزوزنىّ قد أثبت لفظ التشويش فى مصادره وكذلك غيره .

(٤) فى الأصول : «للحكة» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، نقلا عن القانون .

وينفع من السَّحج[1]، ولا سيّما النَّبطىّ، وسَوِيقُه أيضا ينفع من ذلك حَسْوا وضِمادا هذا [ما قاله فيه[2] .

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه به — فمن ذلك قولُ الصَّنَوْبَرِىّ]:

فصوصُ زمرّدٍ فى غُلْفِ دُرٍّ * بأقماعٍ حكتْ تقليمَ ظُفْرِ

وقد خاط الرَّبيعُ لها ثيابا * بديعِ[3] اللّون من خُضرٍ وصُفرِ ٥

وقال أيضا فيه :

ونباتٍ باقلاءَ[4] يُشبِه نَوْرُها * بُلْقَ الحمامِ مُشيلةً[5] أذنابَها

وقال العسكرىّ :

ويُزهَى وَردُ باقلّى * كأطواق الشَّفانِينِ[6]

(١) قال القيصونى فى قاموس الأطباء : السحج بالفتح يقال عند الأطباء حقيقة على تفرق اتصال منبسط فى سطح عضو يزول معه شىء من ظاهره عن موضعه ؛ ومجازا على ما كان من هذا التفرق فى السطح الباطن من الأمعاء، ثم اشتهر هذا المجاز عندهم حتى اذا أطلق لفظ السحج انصرف الى هذا المجاز؛ ثم نقل عن الشيخ الرئيس أن السحج وجع انجراد من سطح المعى، وذلك الجارد إما مواد صفراوية أو دموية حادّة أو صديدية أو مدّية تنبعث من نفس الأمعاء أو مما فوقها ، فتصير الى الأمعاء . ونقل عن السمرقندى أيضا ما يفيد هذا المعنى، وسياق الكلام يقتضى أن المراد بالسحج هنا المعنى الثانى المجازىّ دون المعنى الأول الحقيقى .

(٢) لم يرد هذا الكلام الموضوع بين مربعين فى (١) .

(٣) تذكير الوصف هنا لضرورة الوزن ، وإلا فقد كان سبيله التأنيث تبعا لموصوفه ، وهو الثياب وفى رواية : «لها وجهان من بيض وخضر» ؛ وهى أنسب لموافقتها القواعد راجع مباهج الفكر ورقة ٣٣٨ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥٩ طبيعيات .

(٤) المدّ فى الباقلاء مع تشديد اللام فى هذا الشعر لضرورة الوزن ، وإلا فقد ورد فى كتب اللغة أن الباقلاء بالمدّ مخفف اللام لاغير ، وبالقصر : مشدّد اللام لا غير .

(٥) مشيلة ، أى رافعة .

(٦) فى الأصول : «الشفافين» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ؛ والشفانين : جمع شفنين بضم الشين المعجمة كما فى مستدرك التاج ، وهو اسم طائر . وضبطه الدميرى فى حياة الحيوان ج ٢ ص ٤٦ بكسر الشين وقال : إنه متولد بين نوعين مأكولين ؛ وعدّه الجاحظ فى أنواع الحمام ، وبعضهم يقول : الشفنين ، هو الذى تسميه العامة : اليمام ، وصوته فى الترنم كصوت الرباب ، وفيه تحزين .

وقال أبو الفتح كُشاجِم :

وباقــلاءَ حَسَنِ المجــرَّدِ * مِسْكِ الثَّرَى شُهْدِ الجَنَى[1] غَضِّ نَدى
كالعِقــدِ إلّا أنّه لم يُعقَــدِ * أو الفصــوصِ فى أكفِّ الخُرَّدِ
أو كبناتِ[2] اللؤلؤ المنضَّــدِ * فى طىِّ أصــدافٍ من الزَّبرجدِ

٥ وقال فيه[3] أيضا :

وكأنّ وَردَ الباقلاءِ دراهمٌ * قد ضُمِّخَتْ أوساطُها بالعنبرِ
وكأنّه من فــوقِ متنِ[4] غصونِه * يرنو بمقــلةِ أقبلٍ[5] أو أحــوَرِ

وقال أيضا[6] :

ولاح وَردُ البــاقلاءِ ناظــرا * عن مقلةٍ تفتح جفنا عن حَوَرْ

١٠ وقال أبو طالب المأمونىّ :

وباقــلاءَ أزهَرِ * مِثلِ سُموطِ الجوهرِ
تضــمُّه أوعيــةٌ * مِثلُ الحريرِ الأخضرِ
أوساطُه مُخطَفــةٌ[7] * مِثل خُصورٍ ضُمَّــرِ

---

(١) فى (ا) : « الندى » .

١٥ (٢) فى مباهج الفكر : « أو كفريد » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٣) لم نجد هذين البيتين الآتيين فى ديوان أبى الفتح كشاجم ؛ والذى فى مباهج الفكر نسبتهما الى ابن وكيع .

(٤) فى مباهج الفكر : « خضر » .

(٥) الأقبــل : من القبل بالتحريك ، وهو اقبال احدى حدقتى العين على الأخرى ، وقيل : القبل مثل الحول ؛ وقيل فى معناه غير ذلك . والأحور : من الحور بالتحريك ، وهو اشتداد البياض فى بياض

٢٠ العين والسواد فى سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها و يبيض ما حواليها ؛ وقيل فى معنى الحور غير ذلك .

(٦) لم نجد هذا البيت فى ديوان أبى الفتح كشاجم ؛ والذى فى مباهج الفكر وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٨ نسبته الى ابن وكيع ؛ وقد ورد فى كلا الكتابين ضمن أبيات ابن وكيع الآتية بعد بدل البيت الأول منها .

(٧) المخطفة : الضامرة .

أطـرافُه مـذروبةٌ[1] * مسروقـةٌ من أُنمُرِ
فَطـرَفٌ كِمِخْلَبٍ * وطَـرَفٌ كِمِنْسَرِ[2]

وقال ابنُ وَكِيع التِّنِّيسىّ[3] :

كأنّ وَردَ البـاقِلاءِ إذ بدا * لناظـرِيه أعينٌ فيهـا حَـوَرْ
كِمثلِ [ألحاظ][4] اليَعافِـيرِ[5] إذا * رَوَّعَها مِن قانِصٍ فرطُ الحَذَرْ
كأنّه مَداهنٌ من فضّـةٍ * أوساطُها بهـا من المِسـك أثَرْ

وقال أيضا فيه :

كأنّ أوراقَ وَردٍ * للبـاقِلاءِ بهيّـهْ
خواتمٌ من لُجَينٍ * فصوصُها حبشيّهْ

وقال آخَر :

لى نحـوَ وَردِ البـاقِلا[6] * إدمانُ لهـوٍ ولَهَـجْ
كأنّمـا مُبيضُّـه * يـلوح من ذاك الدَّعَجْ[7]

(١) المذروبة : المحدّدة .

(٢) المنسر وزان منبر ومجلس ، هو لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها .

(٣) التنيسى : نسبة الى تنيس بكسر التاء ، وهى جزيرة فى بحر الروم بين الفرما ودمياط ، وكانت تشهر قديما بعمل الثياب الفاخرة .

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) .

(٥) اليعافير : الظباء التى لونها كلون التراب ، أو هى أولاد البقر الوحشى ، واحده يعفور بفتح الياء وضمها .

(٦) قصر الباقلاء فى هذا الشعر مع تخفيف اللام لضرورة الوزن ، والا فقد ورد فى كتب اللغة أن الباقلى بالقصر مشدد اللام لا غير ، والباقلاء بالمد مخفف اللام لا غير .

(٧) الدعج : شدّة سواد العين .

خــواتمٌ من فضّــةٍ * فيها فُصوصٌ من سبج (١)

وأما الأُرُزّ — فقال الشيخ : هو حارٌّ يابس ، ويُبسُــه أظهرُ من حرّه ؛ وقالوا : إنّه أحرُّ من الحِنطة ؛ وهو يغذو غذاءً صالحا ؛ واذا طُبِخ باللّبن ودُهنِ اللّوزِ كان غِذاؤه أكثرَ وأجوَدَ ، وسَقَط تجفيفُــه وعَقْلُه ، وخصوصا اذا نُقِع ليلةً فى ماء النُّخالة ؛ قال : وفيه جِلاء ؛ ومطبوخُه بالمـاء يَعقِل ؛ والمطبوخُ باللّبن يزيد فى الباه ولا يَعقِل . ولم أقف على شيءٍ من الشِّعر فيه فأُورِدَه .

وأمّا الخَشخاشُ وما يُنتَج عنه مِن عُصارته — فقال الشيخ الرئيس (٢) : وعُصارةُ الخَشخاش المصرىِّ الأسوَدِ هى الأَفيون ؛ قال : والمختارُ منه الرّزينُ الحادُّ الرائحةِ الهَشُّ السّهلُ الانحلالِ فى الماء ، لا ينعقــد فى الذَّوْب وينحلُّ فى الشّــمس والأصفرُ منه الصّافى اللّون الضعيفُ الرائحة مغشوش ، وغِشُّه بالمـاميثا (٣) ؛ وهو يُغَشّ بلبن الخَسّ البَرّىّ ؛ ويُغَشّ بالصَّــمْغ فيكون بزاقا صافيا جدّا ؛ وطبعُه باردٌ يابسٌ فى الرابعــة ؛ وأفعالُه وخواصُّه ، هو مخدِّرٌ مُسكِّنٌ لكلّ وجع سواءٌ شُرِب أم طُلِىَ به والشَّرْبةُ منــه مقدارُ عَدَسةٍ كبيرة ، ولا تُزاد شَربتُــه على دانِقين (٤) ؛ ويَمنَع الأورامَ

(١) السبج : خرز أسود ؛ وهو دخيل معرّب ، وأصله « سبه » .

(٢) نقل المؤلف هذا الكلام الآتى عما أورده الشيخ الرئيس فى الأفيون لا فى الخشخاش ، فليلاحظ انظر القانون ج ١ ص ٢٥٦ طبع بولاق .

(٣) الماميثا : نبات قريب من الأرض ساطع الرائحة ، مر الطعم ، زعفرانى العصارة ، وورقه شبيه بورق الخشخاش المقرن ، إلا أن فيه رطوبة تدبق باليد ، وله زهر الى الزرقة ، وهو ينبت بمدينة منبج .

(٤) الدانق سدس الدرهم . وفى المصباح أنه عند اليونان وزن حبتى خرنوب ، لأن الدرهم عندهم اثنتا عشرة حبة خرنوب ، والدانق الاسلامى حبتا خرنوب وثلثا حبة ، فان الدرهم الاسلامى ست عشرة حبة خرنوب ؛ وتفتح نونه وتكسر .

الحارّة؛ وفيه تجفيفٌ للقُروح، " واذا طُلِيَ[1] به باللّبن سكّن وجعَ النِّقْرِس[2] "؛ قال : وامّا أفعالُه فى الرأس، فهو منوِّم ؛ واذا أُذيب بدُهنِ الوَردِ وقُطِر منه فى الأذن سكّن وجعَها إذا أضيف إليه المرّ والزّعفران، ويسكِّن الصُّداعَ المزمن؛ ويسكِّن السُّعالَ المبرِّح؛ وهو يحبس الإسهال، وينفع من السَّحج[3] وقروح الأمعاء؛ وإذا عُدِم كان بدلَه ثلاثةُ أضعافِه مِن بِزْرِ البَنْج وضِعفُه من بِزْرِ اللُّفّاح[4] .

(١) عبارة القانون المنقول عنه هذا الكلام ج ١ ص ٢٥٧ : « يخلط بصفرة بيضة مشوية ، ويطلى به النقرس ، فيسكن الوجع ، وخصوصا باللبن » اهـ. وفى هذه العبارة زيادة ظاهرة على ما هنا .

(٢) النقرس : وجع وورم يحدث فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، لا سيما مفصل الإبهام ، وهو الأصل فى التسمية ؛ قال ابن هبل من الأطباء : مفصل ابهام الرجل يسمى نقوروس — أى باليونانية — ومن هذا اللفظ أخذ اسم النقرس تسمية للحال باسم المحل (قاموس الأطباء) .

(٣) السحج ، هو انقشار ظاهر الجلد وتسلخه من شىء يحتك به . وقال القيصونى فى قاموس الأطباء : السحج بالفتح يقال عند الأطباء حقيقة على تفرق اتصال منبسط فى سطح عضو يزول معه شىء من ظاهره عن موضعه ؛ ومجازا على ما كان من هذا التفرق فى السطح الباطن من الأمعاء ، ثم اشتهر هذا المجاز عندهم حتى اذا أطلق لفظ السحج انصرف الى هذا المجاز؛ قال الشيخ : إن السحج وجع انجراد من سطح المعى وذلك الجارد إما مواد صفراوية أو دموية حادّة أو صديدية أو مدّية تنبعث من نفس الأمعاء أو مما فوقها فتصير الى الأمعاء ؛ ثم نقل عن السمرقندى نحوا من ذلك أيضا ؛ ولا يخفى أن المراد هنا المعنى الثانى المجازىّ دون المعنى الأول ، كما يقتضيه سياق الكلام .

(٤) اللفاح ، هو على التحقيق ثمر اليبروح كما فى المفردات ج ٤ ص ١١٠ طبع بولاق . وقد سبق تفسير اليبروح فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٠ من هذا السفر ، فانظره . وذكر داود فى التذكرة ان اللفاح نبت عريض الورق ، يفرش على الأرض ، وله ثمر فى حجم التفاح الا أنه أصفر شديد العفوصة والقبض ، فاذا نضج مال الى حلاوة ما ، وداخله بزر كبزر التفاح ، ويسمى بالشأم تفاح الجن ؛ وفى قاموس الأطباء أن اللفاح نبات يقطينى أصفر يشبه الباذنجان ، طيب الرائحة يشم .

وأمّا ما وُصِف به من الشِّعر — فمن ذلك قولُ الشِّمْشاطىّ[1] :

وخضراءَ قد نِيطتْ على حُسْنِ حالِها * بإكليلِها لمّا آستطالتْ قَناتُها
مضمَّنةً حَبّاتِ دُرٍّ كأنّها * لهم خيرُ ما أمٌّ وهنّ بَناتُها

وقال الحَصْكَفِىّ[2] :

وغادةٍ زاد فيها اللَّحظُ تكريرًا * قَدٌّ يُضيف[3] إلى التأنيث تذكيرًا
لها على الرأس إكليلٌ يحيط به * أو جُمّةٌ[4] قُصّ أعلاها شَنوابيرًا[5]
كأنّها قُبّةٌ من فوقِها شُرَفٌ * جَوفاءُ قسّمها البانى مَقاصيرًا
حُبلَى بعدّة أولادٍ وما آقترعتْ * عَذراءُ تَحكى لنا العَذراءَ تطهيرًا
تَضُمّ شَملَ أُطَيفالٍ اذا دَرَجوا * رأيتَ شَملَهم المنظومَ منثورًا
عهدى بها فوق ساقٍ تَرجحنُّ[6] بها * زمرّذًا ثم عادت بعدُ كافورًا

(١) ضبط ياقوت فى معجمه شمشاط بكسر أوله ، وهى مدينة بالروم على شاطئ الفرات ، شرقيها (بالوية) ، وغربيها (خرتبرت) .

(٢) كذا ضبط هذا اللفظ ضبطا بالعبارة فى أنساب السمعانى ورقة ١٧٠ ووفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥٥ طبع بولاق وهذه النسبة الى حصن كيفى بكسر الكاف ، وهى مدينة من ديار بكر مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر : وقال ابن خلكان : هى قلعة بين جزيرة ابن عمر وميافارقين .

(٣) فى جميع النسخ : « وقد يضاف » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

(٤) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع النسخ ومباهج الفكر؛ ولم نجد له معنى يناسب السياق ، ولعل الصواب « شبابيرا » ، أى أن هذه الجمة قد قص أعلاها على هيئة الشبابير وهى المزامير ، واحدة شبور بفتح الشين وتشديد الباء المضمومة ، يريد تشبيه أطراف ثمر الخشخاش بأطراف المزامير؛ أى أطرافها العليا التى تكون فى فم الزامر ، فان أطراف الخشخاش على هيئة أطراف هذه المزامير ، كما هو مشاهد؛ ولم نجد هذه الأبيات ضمن ما آختاره العماد الأصفهانى من شعر الحصكفى فى خريدة القصر ولا فيما بين أيدينا من الكتب الأخرى .

(٦) ترجحن ، أى تميل وتهتز .

وقال ابنُ وكيع :

وخشخاشٍ كأنّا منه نَفْرِى * قميصَ زبرجدٍ عن جسمِ دُرّ
كأقداحٍ من البَلُّور صِينت * بأغشيةٍ من الدِّيباج خُضرِ

وأمّا الكَتّانُ وما قيل فى بِزْرِه وتشبيهِه — فقال الشيخ الرئيس : بِزْرُ الكَتّان حارٌّ فى الأُولى ، معتدلٌ فى الرّطوبة واليُبوسة ، وإنّه مع النَّطْرون والتِّينِ ضِمادٌ للكَلَف[1] والبُثُور اللَّبَنيّة[2] ؛ وينفع من تَشَنُّج[3] الأظفار وتَشقُّقها وتَقشُّرِها اذا خُلِط بشَمَع وعسل ؛ ودخانُه ينفع من الزُّكام ، وكذلك دُخانُ الكَتّان ؛ وينفَع من السُّعال البَلْغَمىّ ، وخصوصا المحمَّص منه ؛ وهو ردىءٌ للعِدة ، عَسِرُ الهَضْم ، ومقلِيُّه يَعقِل البطن ؛ واذا طُبِخ وجُلِس فيه نَفَع من لذعٍ يكون فى الرَّحِم وأورام ؛ وكذلك الأمعاء ؛ وينفع من قُروح المَثانة والكُلْية ؛ قال : وطبيخُ بِزْرِ الكَتّان اذا حُقِن به مع دُهنِ الوَردِ عظمتْ منفعتُه فى قُروح الأمعاء .

«ونباتُ الكَتّان فى غاية ما يكون من البهجةِ والنَّضارةِ وحُسْنِ الألوان»[4] .

وقد وصفه الشعراءُ بأوصافٍ وشبَّهوه بأشياءَ ؛ فمن ذلك قولُ ابنِ الرومىّ :

---

(١) الكلف : شىء يعلو الوجه كالسمسم .

(٢) سميت البثور اللبنية لخروجها فى زمن اللبن ، أى الرضاع ؛ أو لأنها تشبه البثور التى تخرج فى زمن الرضاع انظر التذكرة ج ٣ ص ٦٣ طبع بولاق . وفى الجزء الثالث من قانون ابن سينا صفحة ٢٩٠ طبع بولاق ما يفيد أنها سميت اللبنية لمشابهة لونها لون اللبن ، فقد ورد فيه ما نصه : قد تتبثر على الأنف والوجه بثور بيض كأنها نقط لبن الخ وكذلك فى كتاب الأسباب والعلامات للسمرقندى ورقة ٢١٩ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ طب م .

(٣) التشنج : التقبض .

(٤) ليست هذه العبارة من تتمة كلام ابن سينا كما يتوهم ، بل هى من كلام المؤلف .

ما وصف به الكتان من الشعر

وحِلْسٍ[1] من الكَتّان أخضرَ ناضرٍ[2] * يباكره[3] دانى الرَّبابِ[4] مَطِيرُ

اذا دَرَجتْ فيه الرِّياحُ تتابعت[5] * ذوائبُه حتّى يقالَ غَديرُ

وقال أبو الفتح كُشاجِم :

كأنّما الكَتّان فيه إذ عَقَدْ * ونَشَرَ الأوراقَ زرقا فى المدد[6]

٥ * آثارُ قَرْصٍ من محبٍّ فى جسدْ *

وقال ابنُ وَكيع :

ذوائبُ كَتّانٍ تمايَلُ فى الضّحى * على خضرِ أغصانٍ من الرِّىِّ مُيَّدِ

كأنّ اصفرارَ الزّهرِ فوق اخضرارِها * مَداهنُ تِبرٍ رُكِّبتْ فى زبرجدِ

وقال آخرُ فى الأزرق .

١٠ كأنّه حين يبدو * مَداهنُ اللّازوَردِ

اذا السماء رأته * تقول هذا فِرِندى

---

(١) يريد بالحلس : النبات الذى يغطى الأرض كثرة تشبيها له بالحلس ، وهو الكساء الذى يبسط فى البيت تحت حرّ الثياب والمتاع ، أو الكساء الذى يغطى به ظهر الدابة ؛ ويؤيد ذلك ماورد فى كتب اللغة من قولهم : «استحلس النبات» اذا غطى الأرض بكثرته وطوله ؛ «وأرض محلسة» ، أى صار عليها النبات كالحلس لها من كثرته . وفى (ب) وديوان ابن الرومى « وجلس » بالجيم ، والجلس بفتح الجيم وسكون ١٥ اللام ما ارتفع من الأرض ، يقول : وأرض هذه صفتها فيها كتان صفته كذا وكذا .

(٢) فى رواية «ناعم» انظر ديوان ابن الرومى ورقة ١١١ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب .

(٣) فى ديوان ابن الرومى : « توسنه » والمعنى يستقيم عليه أيضا ؛ يقال : « توسن الفحل الناقة » ، اذا أتاها وهى باركة فضربها ، ويستعار ذلك للسحاب يمطر الأرض ، قال الشاعر : ٢٠

* بكر توسن بالخميلة عونا *

(٤) الرباب : السحاب المتعلق الذى تراه كأنه دون السحاب .

(٥) فى ديوان ابن الرومى « الشمال » .

(٦) كذا ورد لفظ المدد فى جميع النسخ ومباهج الفكر ، ولم نجد من معانيه ماينناسب السياق ؛ ولعل ٢٥ صوابه (فى الجدد) بالجيم المفتوحة ، وهو ما استوى من الأرض وانبسط ؛ ولم يرد هذا الشعر فى ديوان كشاجم .

وأمّا الشَّهْدانِج[1] — ويقال فيه : الشاهْدانق[2] — فورقُه الحشيش[3]، وهو بِزْرُ شجرة القُنَّب؛ قال الشيخ الرئيس : ومن الشَّهْدانِج[4] بستانى معروف، ومنه برّىّ؛ قال حُنَين : إن البَرّىّ شجرة تخرج فى القِفار على قدرِ ذراع ، ورقُها يَغلِب عليه البياض، وثمرُها كالفُلفُل، ويُشبِه حَبُّها حبَّ السُّمنة[4]، وهو حَبٌّ ينعصر منه الدُّهن؛ قال : وطبعُه حارٌّ يابسٌ فى الثالثة ؛ وهو يَطرُد الرِّياح، ويجفِّف ، وهو عَسِرُ الانهضام، ردىءُ الخِلْط، قوىُّ الإسخان، ومقلوُّه أقلُّ ضررا؛ قال : واذا طُبِخَتْ أصولُ القُنَّب البَرّىّ وضُمِدت بها الأورامُ الحارّةُ فى المواضع الصُّلْبة التى فيها كَيْموسات[5] لاحجةٌ[6] سكّنت الحارّةَ وحلّلت الصُّلبة، وهو مصدِّعٌ بحرارته، وعُصارتُه تُقطَر لوجع الأُذُن السُّدُدىّ[7]، ولرطوبة الأُذُن، وكذلك ورقُه ودُهنُه قلّاعٌ للحَزاز[8] فى الرأس

(١) ضبط صاحب التاج الشهدانج بكسر النون ضبطا بالعبارة؛ وضبطه صاحب المصباح بفتحها، وهو معرب شاهدانه بالفارسية، ومعناه سلطان الحب بفتح الحاء، واسمه بالعربية التنوم، وأهل مصر تسميه : الشرانق.

(٢) فى جميع الأصول : « الشادانق » بسقوط الهاء من هذه الكلمة؛ ولم نجده فيما بين أيدينا من الكتب؛ وما أثبتناه عن شرح القاموس .

(٣) يريد بالحشيش هنا : المخدّر المعروف .

(٤) حب السمنة، هو حب شجرة تنبت فى القفار على قدر الذراع، ورقها أبيض ليس بشديد البياض تحمل ثمرة على قدر الفلفل، لها لبن ولحبها زهر، وحب هذه الشجرة يسمن ويحسن. ابن البيطار فى الكلام على حب السمنة .

(٥) الكيموسات : الأخلاط ، واحده كيموس بفتح الكاف، وهو لفظ سريانى ؛ وفى الشذور الذهبية نقلا عن الهروى أنهم يسمونه أيضا الكيلوس وهذا غلط اه .

(٦) لاحجة، أى لازمة ثابتة؛ يقال : لحج بالشىء اذا نشب فيه ولزمه .

(٧) السددى : نسبة الى السدد؛ جمع سداد بكسر السين، وكان مقتضى القواعد أن ينسب الى الواحد لا إلى الجمع .

(٨) الحزاز بفتح الحاء وتخفيف الزاى : الحبرية؛ وهى ما يتعلق بأسفل شعر الرأس مثل النخالة من وسخ ونحوه، وهو المعروف بقشرة الرأس، وواحد الحزاز حزازة .

وهو يُظلِم البصَر، ويُضعِف المعدة، ويجفّف المنيّ، ولبُ الشَّهْدانج البَرّيّ يُسْهِل برفق، ونصفُ رِطلٍ من عصيرِه يَحُلّ الاعتقال، ويُطلِق البَلْغَم والصّفراء، ويَذهبُ مذهبَ القُرْطُم(١)، هذا ما قاله فيه.

ذكر ما قاله الشعراء في وصف ورق الشهدانج — وهو المعروف بالحشيش

وقال بعضُ الشّعراء في ورقه:

عاطيتُ من أهوى وقد زارنى * كالبدر وافَى ليلةَ البدرِ
والنّهرُ قد مَدَّ على متنِه * شعاعُه جسرا من التِّبرِ
خضراءَ كافوريّةً رَنّحتْ * أعطافَه من شدّة السُّكْرِ
يَفعل منها دِرهمٌ فوق ما * تَفعل أرطالٌ من الخمرِ
فراح نشوانَ بها غافلا * لا يَعرف الحلوَ من المُرِّ
قال وقد لان بها أمرُه * فبات مردودا إلى أمرى
قتلْتَنى، قلتُ: نعم سيّدى * قتلين بالسُّكْرِ وبالنَّجْرِ(٢)

وقال آخَر:

يا ساقَ القومِ أدرْ بينهم * خضراءَ تغنيهم عن الخمرِ
حشيشةً تجعل كلَّ امرئٍ * منهم حشيشيّا ولا يدرى

وقال آخَر:

رُبّ ليلٍ قطعتُه ونديمى * شاهدى وهو مُسمِعى وسميرى
مَجلسى مسجدٌ وشربى من خضـ * ـراءَ تُزْهَى حسنا بلونٍ نضيرِ

(١) القرطم: حب العصفر.

(٢) فى جميع الأصول: «البحر»، وهو تصحيف اذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق؛ ولعل صوابه ما أثبتنا؛ والنجر: الجماع.

قال لى صاحبى وقد لاح منها (١) * نَشْرُها مزريا بنَشْر العبيرِ
أمن المِسكِ؟ قلت: ليست من المِسـ * ـكِ ولكنها من الكافورِ

وأمّا البِطّيخُ وما قيل فيه — فقال الثّعالبىّ فى فقه اللغة: أوّل ما يخرج البِطّيخُ يكون قَعْسَرا، ثمّ خَضَفا، وهو أكبرُ من ذلك، ثم يكون خُنّا، ثم يكون بِطّيخا.

ذكر البطيخ البرىّ وهو الحنظل

وهو نوعان: بَرّىٌّ وبستانىّ؛ فالبَرّىّ، هو الحنظل، ومنه ذكرٌ ومنه أنثى؛ فالذّكرُ لِيفىّ، والأنثى رِخْوٌ أبيضُ سَلِس؛ والمختار منه الأبيضُ الشديدُ البياض اللّين، فإنّ الأسوَدَ منه ردىء، والصُّلبَ ردىء؛ وذَكَر فيه الشيخ الرئيس خواصّ ومنافعَ يطول شرحها؛ قال: وطبعُه حارٌّ فى الثالثة؛ (٢) زعَمَ الكِنْدىُّ أنّه باردٌ رَطْب؛ قال: وقد بَعُد عن الحقّ بعدا شديدا.

وأما البستانىّ — فهو ثلاثةُ أصناف: هندىٌّ (٣) وصِينىٌّ وخُراسانىّ؛ فالهندىُّ (٣) هو الذى يسمّى بمصرَ: الأخضر، وبالمغرب: الدُّلّاع، وبالحجاز: الحَبْحَب، وبالشأم: الزَّبَش (٤)؛ والصِّينىُّ هو الّذى يسمّى بمصرَ والشأم: الأصفر (٥)؛ والجيّدُ منه الثقيلُ الخشنُ الأصفر؛ وفيه يقول بعضُ الشّعراء:

(١) لعله: «فاح» اذ هو المناسب للرائحة؛ وفى عبارات اللغويين ما يفيد أن لاح خاص بما يبدو ويظهر للبصر.

(٢) كذا فى القانون صفحة ١٧٥ طبع أوربا وج ١ ص ٣١٧ طبع مصر؛ والذى فى جميع الأصول: «فى الثانية»؛ فلعله هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف؛ وزاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله: «يابس».

(٣) فى تاج العروس مادة حبب أن الفرس يسمون هذا النوع الهندى، لأنه يأتيهم من جهة الهند أو لأن أصله من هناك.

(٤) كذا ضبط هذا اللفظ ضبطا بالعبارة فى المنهج المنير فى معرفة أسماء العقاقير، وهو كتاب لم يكتب عليه اسم مؤلفه مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٩ طب وضبط ضبطا بالقلم لا بالعبارة فى معجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى صفحة ٥٠ والذى فى جميع الأصول: «الريش»؛ وهو تصحيف اذ لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب اسما لنوع من البطيخ.

(٥) هذا النوع هو المعروف اليوم بمصر بالعجور.

ثلاثٌ هنّ فى البِطّيخ زينٌ * وفى الإنسان مَنقصةٌ وذِلّة
خشونةُ جسمِه والثِّقْلُ فيه * وصفرةُ لونِه من غيرِ علّة
اذا شققتَه يوما تراه * بدورا أشرقت منها أهلّة

والخُراسانىّ هو الّذى له رقبةٌ مستطيلةٌ معوجّة ، ويسمّى بمصرَ : العَبْدَلىّ نسبةً الى عبد الله بنِ طاهر ، فإنّه الّذى نقله من خُراسانَ اليها ؛ وقد عَدّ بعضُ الأطبّاء فى البِطّيخ صِنفا آخر ، وهو لطيفُ الشكل ، عَطِرُ الرائحة ، منقوشٌ بالحمرةِ والصفرةِ والسّواد ؛ منه ما يكون بقَدْر الكفّ ، وأكبرَ من ذلك ، ومنه المستطيل ، ويسمّى بالعراق : الدَّسْتَنْبُوى[1] ، واحدته دَسْتَنْبُوَيه ؛ وفى الشأم[2] : الشَّمّام ، واحدتُه شَمّامة ؛ وفى الصّعيد الأعلى يسمّونه : اللُّفّاح ، وهو خطأ ، لأنّ اللُّفّاحَ صِنفٌ آخر ؛ ولهم فى بعض بلاد الصّعيد الأعلى من الدّيار المصريّة صِنفٌ آخَرُ من أصناف البِطّيخ الأصفرِ يسمّونه : الشَّتْوىّ ، وهو مستطيل الشّكل ، غيرُ جافّ ، يُشبِه القِثّاء ، رقيقُ الجلد جدّا ، وهم غالبا لا يقطعونه بالسّكّين ، وإنّما يمتصّون البِطّيخةَ فيَخرُج ما فيها ، ويَبقَى جلدُها شبهَ الظّرف ؛ وأكثر ما رأيت هذا الصنف بإِسْنَى من عمل مدينة قُوص .

قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا فى البِطّيخ — ولم يميّزه بأصنافه ، بل أطلق اسمَ البِطّيخ ، فقال : طبعُه باردٌ فى أوّل الثانية ، رَطْبٌ فى آخرِها ؛ وإذا جُفّف بزرُه لم يكن مرطّبا ، بل يجفّف فى الأولى ، وأصلُه مجفف ؛ وقال فى أفعالِه وخواصّه :

---

(١) أصل هذا اللفظ بالفارسية : « دستبوى » بدون نون ؛ وهو مركب من كلمتين : « دست » ومعناه اليد ، « وبوى » ومعناه الرائحة انظر الألفاظ الفارسية المعرّبة صفحة ٦٣ طبع بيروت .

(٢) كذلك أهل مصر يطلقون الشمام على هذا النوع .

النَّضيجُ منه لطيف، والنِّىءُ كثيف، وغيرُ النَّضيج فى طبع القِثّاء، وفيه تفتيحٌ كيفما كان؛ قال: والنَّضيجُ منه وغيرُ النَّضيج جاليان؛ وبزرُه أقوى جِلاء؛ ويستحيل إلى أىِّ خِلْطٍ وافق فى المعدة؛ وهو إلى البَلْغَم أشدُّ ميلا منه إلى الصَّفراء، فكيف إلى السوداء! وهو ينقّى الجلد، وينفع من الكَلَف(١) والبَهَق والحَزاز(٢)، وخصوصا إذا عُجِن جوفُه كما هو بدقيق الحِنطة وجُفِّف فى الشمس؛ وإذا أُلصِق قِشرُه بالجبهة مَنَع من النوازل إلى العين؛ قال: وإذا أُكِل وجب أن يُتبَع طعاما آخر(٣)، فإنه اذا لم يُتبَع شيئا آخر غثّى وقيّأ، وليشرب عليه المحرورُ سِكَنْجَبِينا(٤)، والمرطوب كُنْدُرا(٥) أو زنجبيلا: مربًّى أو شرابا؛ قال: وهو يُدِرّ البولَ نَضيجُه ونِيئُه؛ وينفع من الحَصاة فى الكُلْية؛ قال: وإذا فسد البِطّيخُ فى المعدة استحال الى طبيعة سمّيّة، فيجب إخراجُه بسرعةٍ إذا ثَقُل؛ هذا ما قاله الشيخ.

وأمّا ما جاء فى وصفِه وتشبيهه — فقد وصفه الشعراء وشبّهوه؛ فمن ذلك ما قيل فى الأخضر منه، قال أبو طالب المأمونىّ:

ومبيضّةٍ فيها طرائقُ خُضرةٍ * كما اخضرّ مَجْرَى السيل من صيّب المُزْنِ
كُقّةِ عاجٍ ضُبِّبَتْ بزبرجدٍ * حوتْ قِطَعَ الياقوت فى عُطَبِ(٦) القطنِ

(١) الكلف: شىء يعلو الوجه كالسمسم.

(٢) الحزاز بفتح الحاء: الهبرية، وهو ما يتعلق بأصول شعر الرأس مثل النخالة من وسخ ونحوه وهو المعروف بقشرة الرأس، واحده حزازة.

(٣) فى جميع الأصول "بدهن"؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ ص ٢٧٠ طبع بولاق ومفردات ابن البيطار، ج ١ ص ٩٨ طبع بولاق.

(٤) السكنجبين: شراب يتخذ من العسل والخل، أو من كل حلو وحامض غيرهما؛ وهو معرّب.

(٥) الكندر، هو المعروف باللبان.

(٦) العطب: جمع عطبة بضم فسكون، وزان غرفة، وهى القطعة من القطن. وفى رواية: «فى قطع»؛ والمعنى يستقيم عليها أيضا كما هو ظاهر. انظر محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٣٤٤

وقال آخر :

رأيتُها فى كفّ جلّابها * وقد بدت فى غاية الحُسنِ
كسَلّةٍ خضراءَ مختومةٍ * على الفصوص الحمر فى القطنِ

وقال محمدُ بنُ شرف القَيْرُوانىّ :

٥ ما أطفأتْ جمرَ الوَقَ * يدٌ لمشتكٍ(١) وَقْدا ووَهْجا
كإداوةٍ(٢) أكْريّةٍ(٣) * مملوءةٍ ماءً وثلجا
رَتْقاءَ لم يَسلُكْ بها * غَرْزُ الأشافى(٤) قطُّ نَهْجا
تزهو بلونَىْ خُضْرةٍ * هذا انتهى وأخوه لجّا
كزمرّدٍ وزبرجدٍ * رَصَّعن للكافور دُرْجا
١٠ أو وجهِ ذى خجلٍ تبرقعَ * بالمصبّغ أو تَسجّى(٥)

وقال آخر :

ومال إلى بِطيخةٍ ثمّ شقّها * وفرّقها ما بين كلّ صديقِ
صفائح بَلّورٍ بدت فى زبرجدٍ * مرصّعة فيها فصوصُ عقيقِ

ومنه ما قيل فى الأصفر — قال أبو طالب المأمونىّ :

١٥ وبِطّيخةٍ(٦) مِسكيّةٍ عسليّةٍ * لها ثوبُ دِيباجٍ وعَرْفُ مُدامِ

(١) فى جميع الأصول : «المشتكى» بالألف واللام ؛ وهو تحريف .

(٢) الإداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء .

(٣) فى كتب اللغة أن الأكرة بمعنى الكرة لغة قليلة مسترذلة .

(٤) الأشافى : جمع إشفى ، وهو مخيط الإسكاف ومثقبه .

٢٠ (٥) تسجى ، أى تغطى .

(٦) فى مباهج الفكر : «رياضية» مكان قوله هنا : «وبطيخة» ؛ وقد ورد هذا البيت فى مباهج الفكر بعد أربعة أبيات من هذا الشعر .

محقّقةٍ مِلءِ الأكفّ كأنّها * من الجَزْعِ[1] كُبرَى لم تُرَضْ بنظامِ
لها حُلّةٌ من جُلّنارٍ[2] وسوسنٍ[3] * معمّدةٌ[4] بالآسِ غبَّ غمامِ
تمازَجَ فيها لونُ حبٍّ وعاشقٍ * كساه الهوى والبينُ لونَ سَقامِ
وأبدَى لنا التحزيزُ تخضيبَ كاعبٍ * خلاميّةٍ ذاتِ اعتدالِ قوامِ
إذا فُصِّلتْ للأكل كانت أهلّةً * وإن لم تُفصَّل فهي بدرُ تمامِ

وقال آخر:

أتانا الغلامُ ببطّيخةٍ * وسكّينةٍ جمّلوها[5] صِقالَا
فقطّع بالبرق شمسَ الضُّحى * وناوَلَ كلَّ هلالٍ هلالَا

وقال آخر:

خلناه لمّا حزّز البطّيخ في * أطباقه بصقيلةِ الصَّفَحاتِ

(١) الجزع ضرب من الخرز، وقيل هو الخرز اليماني تشبه به الأعين.

(٢) الجلنار: زهر الرمان، وهو فارسي معرب؛ وأصله: كلنار بالكاف المزوجة بالقاف.

(٣) السوسن: نبات طيب الرائحة، وهو بستاني وبري؛ والبستاني صنفان، وهما الأزاذ — وهو الأبيض، وهو أطيب — والإيرساء، وهو الإسمانجوني (التاج). وذكر ابن سينا في القانون ج ١ ص ٣٨٢ طبع بولاق أن هذا النبات له ساق عليه زهر منحن، فيه ألوان يشبه بعضها بعضا، وهي مختلفة، فمنها بياض وصفرة وفرفير ولون السماء، ومن أجل اختلاف الألوان فيه شبه بالإيرسا؛ وهي قوس قزح، وله أصول صلبة ذات عقود طيبة الرائحة؛ ومنه صنف آخر لونه أبيض، مرّ الخ.

(٤) الآس: ضرب من الرياحين؛ قال أبو حنيفة: إنه بأرض العرب كثير، ينبت في السهل والجبل وخضرته دائمة أبدا، ويسمو حتى يكون شجرا عظاما، وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة، وثمرة سوداء اذا أينعت تحلو.

(٥) في جميع الأصول: «أجملوها»؛ ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة أنه يقال «أجمله» أي جعله جميلا كما هو المراد هنا؛ والذي وجدناه بهذا المعنى «جمله» بالتشديد كما أثبتنا. وفي رواية: «قد أجيدت»؛ وهي أنسب. انظر مباهج الفكر المأخوذة منه نسخة بالتصوير الشمسي محفوظة بدار الكتب المصرية.

بدرا يَقُدّ من الشموس أهلّةً * بالبرق بين الشُّهْبِ فى هالاتِ

وقال قاضى القضاة نجمُ الدّين بنُ البارزىّ :

[يقطّع بالسّكّين بِطّيخةً ضُحًى (١) * على طبقٍ فى مجلسٍ لان صاحبُه

كشمسٍ ببرقٍ قَدَّ بدرا أهلّةً * لدى هالةٍ فى الأفق شتّى (٢) كواكبُه

وقد تقدّم إيرادُهما (٣) فى تشبيهِ سبعةِ أشياءَ بسبعةِ أشياء .

وقال أبو هلال العسكرىّ] :

وجامعةٍ لأصناف المعانى (٤) * صَلَحْنَ (٥) لوقتِ إكثارٍ وقِلّهْ

فإحداهنّ تَبرُزُ فى عَباءٍ * وأخراهنّ فى حِبَرٍ وحُلّهْ

ومنها ما تشبّهه بدورا * فإن قطّعتَها رجعتْ أهلّهْ

وقال أيضا :

ولونٍ واحدٍ يُلْقَى * فيأتينا بألوانِ

(١) لم يرد هذا الكلام الموضوع بين مربعين فى (ا) وقد أثبتناه عن (ب) المنسوب خطها الى المؤلف ؛ وقد ورد بعضه فى (ج) مع اختلاف فى بعض الألفاظ والعبارات ، ونصه : «وقال القاضى نجم الدين بن البارزى — وقد تقدّم إيرادهما فى تشبيه سبعة أشياء بسبعة أشياء — وهى : « يقطع بالسكين بطيخة » وذكرها فى الأصل ، ولم أر تكرارها ؛ وقال أبو هلال العسكرى» . اهـ ويلاحظ أن قوله فى هذا الكلام « وذكرها فى الأصل ولم أر تكرارها » من كلام النسخ ؛ ويريد بالأصل : الأصل الذى نقل عنه نسخته .

(٢) فى (ب) « بين » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى السفر السابع من هذا الكتاب ص ٤٦ إذ به يستقيم الكلام .

(٣) «تقدّم ايرادهما» ؛ أى فى السفر السابع من هذا الكتاب صفحة ٤٦

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى ديوان المعانى ج ٢ ورقة ٢٨ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب ؛ والذى فى الأصول : « لأوصاف » ؛ وهو تحريف .

(٥) الضمير فى قوله : «صلحن» يعود على قوله : « جامعة » باعتبار أن المراد عدّة من البطيخ جامعة الخ كما يدل على ذلك سياق البيتين الآتيين بعد .

بسُمرانٍ وسُـــودانٍ * وحُمْـــرانٍ وصُفْرانِ
كوشيٍ فى يدىْ واشٍ * وشُهْدٍ فى يدَىْ جانِى
فمِن أُدْمٍ ومِن بَقْـلٍ * ورَيْحانٍ وأُشْـــنانِ

وقال آخر :

بِطّيخةٌ تعطيك مِن لونها * حظّين من ريحٍ ومن طَعمِ
كأنّهـا فى ذوقها شُهدةٌ * أو جُونةُ(١) العطّار فى الشّمّ

وقال أبو الفتح كُشاجِم :

وزائرٍ زار وقـــد تعطّـرا * أَسَـــرّ شُهدا وأذاع عنـبرا
وأُودعتْ منـــه اللّهاةُ سكّرا * يَنفُث فى الأنوف مِسكا أذفرا
ملتحفا للحَـرِّ ثوبا أصـــفرا * معمّدا من الحرير أخضـــرا
يظنّـه الناظرُ إن تَصوّرا * دَبَّ الدَّبَى بمتنِـــه فأثّرا

وقال أيضا فيه :

يا جانىَ البِطّيخ مِن غَرْسِـه * جَنيتَ منـــه ثمـــرَ الحمـدِ
لم يأتنـا حـــتّى أتتنـــا له * روائحٌ أذكَى من النَّـــدِّ
بظاهرٍ أَخشنَ من قُنفُـــذٍ * وباطنٍ أنـــعَم من زُبْدِ
كأنّمـا تكشِف منـه المُدَى * عن زعفـــرانٍ شِيبَ بالشُّهْدِ

ومنه ما قيل فى الدَّسْتَنْبُويَه — فمن ذلك ما قاله مؤيّدُ الدّين الطُّغْرائىّ :

كُراتُ دَسْتَنْبُويَةٍ نُضِّـدتْ * مختلفاتُ الشّـــكل والمَنظَرِ
فمستديرُ الشّـكل ذو سُمرة * كأنّه جُمجُمـــةُ العنـــبرِ

(١) الجونة : سليـلة مستديرة مغشاة أدم تكون للعطارين يجعلون فيهـا الطيب ونحوه ، وربمـا قيل فيها : « جؤنة » بالهمز .

ولابسٌ للنّـــور ذو نُمْـــرةٍ * والحُسنُ كلُّ الحُسنِ فى الأنمرِ (١)

وعسجدىُّ اللّونِ ذو صـفرةٍ * ضُمَّ إلى تِرْبٍ له أحمـــرِ

كأنّه المِـــرّيخُ فى لونِـــه * قارنه فى برجِـــه المشـــترِى

وقال آخر (٢) :

٥ يا حبّـــذا (٣) تحيّـــةٌ * رحتُ بهـا مسرورا

مَخـــزَنَةٌ (٤) من ذهبٍ * قـــد مُلئت كافـــورا

وقال السرىّ :

وأغنّ كالرِّشإِ (٥) الرَّبيد * ـبِ نشا (٦) خلالَ الرَّبربِ (٧)

فى خدِّه وَردٌ حَمـا * ه من القِطاف بعقربِ (٨)

١٠ (١) الأنمر، هو الذى فيه نمر بضم النون، أى نكت مختلفة الألوان .

(٢) كذا فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف؛ والذى فى (ا)، (ج) : « وقال أيضا » وهو يفيد ان قائل هذين البيتين الآتيين هو مؤيد الدين الطغرائى السابق ذكره؛ ولم نجدهما فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٠ أدب والذى وقفنا عليه انهما للسرىّ الرفاء فقد وردا فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤١٦ أدب .

١٥ (٣) يلاحظ أن المؤلف سيورد هذين البيتين مرة أخرى مع بيتين آخرين فى وصف الأترج منسوبة الى السرى الرفاء، بدون اختلاف بين الألفاظ فى كلا الموضعين ما عدا لفظ « تحية » فقد ذكر مكانه هناك « أترجه » .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف وديوان المعانى ج ٢ ورقة ٢٢ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية؛ ولم نجد المخزنة بالتاء فيما راجعناه من كتب اللغة، كما أن

٢٠ فى كتب القواعد ما يفيد أن زيادة التاء فى اسم المكان مقصورة على السماع، وليست قياسا مطردا . على أنه لو قال : « خزانة » لم يختل وزن البيت . والذى فى (ا) «محربة»، وفى « ج » «محرمة»؛ وهو تصحيف فى كلتيهما .

(٥) الرشأ بالتحريك : الظبى اذا قوى ومشى مع أمه .

(٦) ربيب : فعيل بمعنى مفعول من «ربه يربه»، أى رباه . وفى رواية : « الغرير » انظر ديوان

٢٥ المعانى ج ٢ ورقة ٢٤ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب . «والغرير» : الغافل الذى لا علم له بالأمور لحداثته .

(٧) الربرب : القطيع من الظباء .

(٨) فى (ا) و (ج) : « بعنبر » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن (ب) وديوان المعانى .

حيّا بدَسْتَنْبُويةٍ * مِثلِ السِّنانِ المُذْهَبِ

وقال فيها :

صفراءُ ما عَنَتْ لعينىْ ناظرٍ * إلّا توهّمها سِنانا مُذْهَبا[1]

(١١) وأمّا القِثّاءُ والخيارُ وما قيل فيهما — فقد قال الشيخ الرئيس : طبعُ القِثّاء باردٌ رَطْبٌ فى الثانيةِ[2]، وهو يسكّن[3] الحرارةَ والصّفراء ، ولكنّ كَيْمُوسه[4] ردىءٌ مستعدٌّ للعفونة ، ومهيّجٌ لحُمّياتٍ صعبة ؛ وبِزْرُه خيرٌ من بِزْرِ الخيار ، قال : واذا وُضِع ورقُه[5] مع العسل على الشَّرَى[6] البَلْغَمىّ نفع منه ؛ واذا شمّه صاحبُ الغَشْيِ[7] الحارّ انتفع به وانتعش ؛ وهو مسكّنٌ للعطش ، جيّدٌ للمعدة ، وفيه إدرارٌ وتليين ، وينفع من أوجاع المذاكير ؛ وهو يوافق المَثانة ؛ قال : وورقُه ينفع من عضة الكلبِ الكَلِب .

وأمّا ما جاء فى وصفِهما وتشبيهِهما من الشِّعر — فمن ذلك ما قيل فى القِثّاء ، قال عبد الرّحيم بنُ رافع القَيْرَوانىّ[8] :

أَحِبْ بقِثّاءٍ أتا * نا فوق أطباقٍ منضّدْ

(١) يلاحظ أن هذا البيت سيورده المؤلف فى وصف الأترج الآتى وقد نبهنا على ذلك أيضا فى موضعه .

(٢) عبارة ابن سينا : «الى الثانية» القانون ج ١ ص ٤٢٥ طبع بولاق .

(٣) فى جميع الأصول : «يسل» ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ صفحة ٤٢٥ طبع بولاق .

(٤) الكيموس بفتح الكاف : الخلط ، وهو لفظ سريانى .

(٥) فى جميع الأصول «قرعة» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ؛ كما فى القانون .

(٦) الشرى : اسم لشىء يخرج على الجسد كالدراهم ، أو لبثور صغار حمر حكاكة ، تحدث دفعة واحدة غالبا ، وقد تكون بالتدريج : ويشتد كربها ليلا لبخار حار يثور فى البدن دفعة واحدة .

(٧) الغشى : الإغماء .

(٨) كذا ورد قوله القيروانى فى جميع الأصول وفى عدة مواضع من حسن المحاضرة للسيوطى ؛ والذى فى مباهج الفكر : «الأندلسى» .

كَمضاربٍ قد حُدِّدتْ * أجرامُهنّ من الزَّبَرْجَدْ
نعم الدّواءُ إذا الهوا * ءُ من الهواجر قد توقّدْ

وقال السَّرىُّ الرِّفّاء :

وعَقْفاءَ مِثلِ هلال السماء * ولكنّها لبِستْ سندسا
عراقيّة لم يَذُبْ جسمُها * هُزالا ولم تَجْسُ[1] فيما جَسَا
زبرجدة حَسُنتْ مَنظَرا * وكافورة بَرُدَتْ مَلمَسا
على رأسها زهرةٌ غَضّةٌ * كنجم الظلام اذا عَسعَسا
حبانا بها مَغرِسٌ طيّبٌ * من الأرض أُكرِمْ به مَغرِسا
لها أخواتٌ لطافُ القُدود * اذا ما تبرّجنَ خُضرُ الكُسا
محجّبةٌ عن شموس النهار * وبارزةٌ لنسيم المَسا
تُقوَّسُ فى حين ميلادها * ولَمْ أَرَ ذا صِغرٍ قُوِّسا
يطول اللّسانُ بإطرائها * ويُصبِح عن ذمّها أخرسا

وقال أبو بكر الخُوارَزْمىّ :

يا رُبَّ قِثّاءٍ قريبِ المَورِدِ[2] * دُرِّ الحَشا زُمُرُّدِ المجرَّدِ

(١) فى (ا) و (ب) : « ولم يحس فيها » وفى (ج) « ولم نجش فيها جنا » ؛ وفى سباهج الفكر : « ولم يحش فيها مجسا » ؛ وهو تحريف فى جميع هذه المصادر، صوابه ما أثبتنا كما فى ديوان السرى الرفاء. ويريد بقوله : « لم تجس فيها جسا » ، أنها لينة غضة وليست صلبة ولا غليظة ، يقال : جسا ، بمعنى صلب ، وأيضا ضد لطف انظر اللسان وغيره .

(٢) فى رواية : « برود » بفتح الباء وضم الراء ؛ والمعنى يستقيم عليها أيضا انظر محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٣٤٤ طبع جمعية المعارف بمصر .

شَخْتُ الرءوسِ أَصورِ المقلَّدِ (١) (٢) * مِثلِ ذُنابَى ريشِ ديكٍ أعقَدِ (٣)
قد ألتوى فوق الثَّرَى الرَّطْبِ النَّدِى * كما يلوذ أسودٌ بأسودِ (٤) (٥)
ذى زَغَبٍ وفيه لِينُ الأجردِ * كالخدِّ بين الملتحى والأمرَدِ
كأنه فى اللون والتأوُّدِ * صوالجٌ رُكِّبنَ من زبرجدِ
يكاد للِّين وللتقصُّدِ (٦) * تجنيه ألحاظُ الفتى قبل اليدِ
لمّا حصدناه قريبَ المَحْصَدِ (٧) * هَشًّا وجدنا منه ما لم يوجدِ
ماءً كطَعمِ السُّكَّرِ الطَّبرزَدِ (٨) * وذَوْبَ شُهْدٍ سائلا فى جَمَدِ (٩)

وقال شاعرٌ فى الخيار :

أُنظرْ إلى عَرْفِ الخيارِ ولونِه * كَروائحِ الرَّيحانِ للمخمورِ

(١) الشخت : الدقيق الضامر لا من هزال ؛ والذى فى (ب) «شجب» وفى (ا)، (ج) «شحب» وفى مباهج الفكر «سحت» ، وهو تصحيف فى جميع هذه الكتب .

(٢) فى جميع الأصول : « أصون » بالنون ؛ وهو تحريف . والأصور : المائل ، من الصور بالتحريك ، وهو الميل .

(٣) الأعقد : الملتوى الذنب .

(٤) فى رواية : « كما تلوّى» والمعنى يستقيم عليها أيضا انظر مباهج الفكر قسم النبات ورقة ٣٥٧ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية ومحاضرات الأدباء ج ٢ ص ٣٤٤ طبع جمعية المعارف بمصر .

(٥) الأسود : العظيم من الحيات وفيه سواد . (٦) التقصد : التكسر .

(٧) يريد بالمحصد : زمان الحصد ؛ وقد ضبطناه بفتح الصاد وكسرها لمجىء فعله من بابى نصر وضرب .

(٨) قال ابن البيطار : الطبرزد : لفظ فارسى معرب ، واصله « تبرزد » أى أنه صلب ، ليس برخو ولا لين ، والتبر : الفأس بالفارسية ؛ يريدون أنه نحت من نواحيه بالفأس المفردات ج ٣ ص ٩٧ ؛ وكذلك قال الجواليقى فى كتابه المعرب من الكلام الأعجمى وذكر أنه يقال فيه أيضا « طبرزل » و «طبرزن » ثلاث لغات . وذكر داود أن الطبرزد من السكر والعسل : ما طبخ بعشره من اللبن الحليب حتى ينعقد ، وفيه لطف وتبريد (التذكرة ج ٢ ص ٦٦ طبع بولاق) .

(٩) الجمد بالتحريك : الثلج .

فكأنّ ظاهرَه زَبَرْجَدُ[1] أخضرٌ * وكأنّ باطنَه من البَلُّورِ

وقال آخَر:

خيارٌ حين تنسُبه خِيارُ * ورَيحانُ السرور به آخضرارُ
كأنّ نسيمَه أنفاسُ حِبٍّ * فليس لمُغرَمٍ عنه آصطبارُ

٥ وقال أبو هلال العسكريّ:

زبرجدةٌ فيها قُراضةُ فضّةٍ * فإن رَجعتْ تِبْرا فقد خَسَّ أمرُها
تُلِمُّ بنا طَورين فى كلِّ حِجّةٍ * فيكثُر فينا خيرُها ثمّ شرُّها
فعند المَصيف ليس يُفقَد نفعُها * وعند الخريف ليس يُعدَم ضَرُّها[2]

وأمّا القرع وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس: القرعُ باردٌ رَطْبٌ
١٠ فى الثانية؛ والمسلوقُ منه يغذو غذاءً يسيرا؛ وهو سريعُ الآنحدار؛ وإن لم يَفسُد قَبْل الهضمِ بسببٍ لم يتولّد منه خِلْطٌ ردىء؛ ويَفسُد فى المعدة بمخالطة خِلْطٍ ردىء أو إبطاءِ مُقامٍ كسائر الفواكه؛ والخِلْط الّذى يتولّد منه تَفِهٌ إلّا أن يَغلِب عليه شىءٌ يخالطه؛ وان خُلِط بالسّفرجل كان خِلْطُه محمودا للصّفراويّين؛ وكذلك ماءُ الحِصْرِمِ وماءُ الرّمّان، لكن ضررُه بالقُولُونِ[3] يتضاعف، قال: ومن خاصّيّته أنّه يتولّد منه غِذاءٌ

١٥ (١) لم ينون الشاعر لفظ «الزبرجد» فى هذا البيت لضرورة الوزن.

(٢) كذا فى الأصول؛ والذى فى ديوان المعانى "ليس يؤمن"؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

(٣) القولون والكولون: معى غليظ صفيق يتصل بالمستقيم؛ وهو لفظ يونانى. وفى الشذور الذهبية نقلا عن الهروى أن القولون معى متصل بالأعور وأكثر تولد القولنج فيه، والقولنج مشتق منه؛ ثم نقل عن الأوربيين أن القولون هو جزء من الأمعاء الغلاظ يمتدّ من الأعور الى المستقيم، ومن القسم الحرقفىّ
٢٠ الأيمن الى القسم الحرقفىّ الأيسر.

مجانِسٌ لما يَصحَبه؛ فاذا أُكِل بالخردلِ تولَّد منه خِلْط حِرِّيف، أو بالملح تولَّد منه خِلْطٌ مالح، أو مع القابض تولَّد منه خِلْطٌ قابض؛ وهو بالجملة ضارٌّ لأصحاب السَّوداء والبَلْغَم، جيِّدٌ للصَّفراويّين؛ قال: والمُرَبَّى منه لايَدخُل فى الأدوية، ولا يؤثِّر شيئا من تبريدٍ ولا تسخين، ولكن يُستعمَل للّذة؛ وعُصارتُه تسكِّن وجعَ الأُذُن الحارّ، وخصوصامع دُهن الوَرد؛ وينفع الأورامَ الدَّماغيّةَ[1] والسِّرسام[2]، وهو نافع لوجع الحَلْق؛ ٥

قال: وسَويقُ القرعِ[3] مانعٌ من السُّعال ووجعِ الصَّدر الكائنَين [من حرارة][4]؛ وطبيخُه ينفع من الفُضول الحارّةِ فى المعدة ويُزلِقها؛ وكذلك شرابٌ صُبَّ فى تجويفِه ثمّ استُعمِل، ويُسْعَط بعُصارتِه لوجع الأسنان؛ وهو ممّا يُولِّد بِلّةَ المعدة جدّا، ويقطع العطش؛ والنِّيءُ منه ضارٌّ بالمعدة جدّا حتّى للصِّبيان[5] والفِتْيان؛ واذا طُبِخ ماؤه بالعسل

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف و(ج) والقانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوربية؛ والذى فى (ا) ومفردات ابن البيطار ج ٤ ص ١٠ «البلغمية»؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين، ويؤيد ما اخترناه عطف السرسام عليه، وهو ورم دماغى كما سيأتى بيانه فى الحاشية التى بعد هذه، فانظرها. ١٠

(٢) السرسام: لفظ فارسى، وهو ورم فى حجاب الدماغ تحدث عنه حمى دائمة، وتتبعها أعراض رديئة كالسهر واختلاط الذهن وغير ذلك، وهو مركب من «سر» بمعنى «رأس»، و«سام» بمعنى «ورم» راجع الألفاظ الفارسية المعربة ص ٩٠ وأقرب الموارد والمعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستاين جاس وضبط هذا اللفظ فى كتاب الالفاظ الفارسية وأقرب الموارد بكسر السين؛ وضبط فى المعجم الفارسى الانجليزى بفتحها. ١٥

(٣) فى القانون «نافع» والمؤدّى واحد.

(٤) لم ترد هذه العبارة فى (ا). ٢٠

(٥) فى جميع الأصول: «الشباب»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما فى قانون ابن سينا المنقول عنه هذا الكلام ج ١ ص ٤٢٥ طبع بولاق، وعبارته: «حتى بالمعدة للصبيان والفتيان» وأيضا فلا مقتضى لقوله «الشباب» مع ذكر الفتيان بعد.

وجُعِل فيه نَطْرونٌ لَيِّن البطن، فهو ينفع من الحُمَّيات . ولم أقف فيه على شيءٍ من الشِّعر فأُورِده[1] .

وأما الباذِنْجان[2] وما قيل فيه — فقد قال ابنُ وحشيَّة فى كتاب (أسرار القمر) فى توليده : وإن أردتم الباذنجانَ فخذوا خُصيتَى التَّيس وعروقا من عروق الباذنجانِ فألقُوها على الخُصيتين بعد أن تجعلوا الخُصيتين فى الأرض، وخذوا إحدى كُلْيتيه واجعلوها فوق العروق، واطمِروا[3] ذلك فى الأرض ، فإنّه بعد أربعةِ أسابيعَ تَنبُت منه شجرةُ [الباذِنجان][4]، فاذا نبتتْ فحوِّلوها إلى موضعٍ آخَر فإنّها تنمو؛ هذا ما قيل فى توليده، والله أعلم بالصّواب .

وقال الشيخ الرئيس : إنّ العتيقَ منه ردىء، والحديثَ أسلم . كأنّه أراد بالعتيق : الّذى طال مُكثُه فى الأرض ؛ والحديثِ : الّذى قَرُب عهدُه بالغِراسة[5] . وقال فى طبعه : الصحيحُ أنّ قوّته الغالبةَ عليه الحرارةُ واليُبوسة[6] . وردّ بهذا القول

(١) قد وقفنا على بيتين لعبد الرحيم بن رافع فى وصف القرع، وهما :

وقرع تبدى للعيون كأنه * خراطيم أفيال لطخن بزنجار
مررنا فعايناه بين مزارع * فأعجب منها حسنه كل نظار

حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٣٨

(٢) الأكثر فى هذا اللفظ كسر الذال، وبعض العجم يفتحها، وهو من الألفاظ الفارسية التى لمسماها أسماء فى لغة العرب : منها الأنب محركة والمغد والوغد والحيصل انظر شفاء الغليل .

(٣) فى القاموس وشرحه أن هذا الفعل من باب « ضرب » ؛ وفى المصباح أنه من باب قتل ؛ والطمر : الدفن . (٤) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) و(ج)؛ وقد أثبتناها عن (ب) .

(٥) لم نجد فى مادة «غرس» فيما راجعناه من كتب اللغة ما يفيد أنه يقال : «غراسة» مصدر «غرس» إلا أن هذا اللفظ قد ورد فى اللسان ومستدرك التاج مادة «ن ج» نقلا عن أبى حنيفة ضمن عبارة له، لا أنه منقول عن العرب، فقد جاء فيهما مانصه : « استخرجت الأرض » : أصلحت للزراعة والغراسة . (٦) زاد ابن سينا بعد هذه الكلمة قوله « فى الثانية لمرارته وحرافته » الجزء الأول صفحة ٢٧٢ طبع بولاق .

على من زعم أنّه بارد ؛ وقال فى أفعاله وخواصّه : إنّه يولّد السّوداء ، ويولّد السُّدد ، وإنّه يُفسد اللّونَ ويصفّره ، ويسوّد البَشَرة ، ويورث الكَلَف ، ويولّد السَّرطاناتِ والصّلاباتِ والجُذَامَ والصُّداع فى الرأس ، ويُنتّن[1] الفم ، ويولّد سُدَدَ الكبدِ والطّحال ، إلّا المطبوخَ منه بالخَلّ فانّه ربّما فتح سُدَدَ الكبد ؛ قال : والباذِنجانُ يولّد البواسير ، لكنّ سحيقَ أقماعِه المجفّفةِ فى الظّلّ طلاءٌ نافعٌ للبواسير ، قال : وليس للباذِنجان نسبةٌ الى عقلٍ أو إطلاق ، ولكنّها[2] اذا طُبِخَتْ فى الدُّهن أطلقَتْ[2] ، أو فى الخَلّ حَبَسَتْ[2] ؛ هذا ما قاله الشيخ فيه .

وأمّا ما وُصِف به من الشّعر — فقال بعضُ الشعراء يصف المدوَّرَ منه :

أهدتْ لنا الأرضُ من عجائبِها * ما سوف يزهو بمثلِه وقتى
اذا أجاد الّذى يشبّهه * وأحكمَ الوصفَ منه فى النّعت
قال : كُراتُ الأَدِيمِ قد حُشِيَتْ[3] * بسمسمٍ قُمِّعت بكِيمُخْتِ[4]

(١) كذا ورد قوله : «وينتن» فى جميع الأصول ؛ والذى فى قانون ابن سينا «ويبثر» الجزء الأول صفحة ٢٧٢ طبع بولاق ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا ؛ ولعل ماهنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٢) أنث الضمائر العائدة على الباذنجان فى هذه العبارة باعتبار أن المراد وحداته .

(٣) فى جميع الأصول : «محشوة السمسم قد قمعت» ؛ وهو غير مستقيم الوزن ، كما لايخفى ؛ وما أثبتناه عن مباهج الفكر قسم النبات ورقة ٣٥٩ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥٩ طبيعيات .

(٤) الكيمخت : لفظ فارسى ، وهو ضرب من الجلود المدبوغة يتخذ من ظهور الخيل والحمير . انظر المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستا نجاس ؛ واقتصر صاحب التذييل والتكميل على أن الكيمخت جلد الفرس اذا دبغ ؛ وضبط هذا اللفظ فى المعجم الفارسى الانجليزى بكسر الكاف وضم الميم كما أثبتنا ؛ وقد ورد هذا اللفظ أيضا فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٩ طبع دار الكتب وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٤ الا أنه ضبط فى صبح الأعشى بفتح الكاف والميم ضبطا بالقلم ، ولعلهم لما نقلوه من الفارسية نطقوا به هكذا .

وقال آخر[1] :

وابذَنْجٍ[2] بستانٍ أنيقٍ رأيتُــه * على طبقٍ يَحكِى لمقــلة رامقِ
قلوب ظباءٍ أُفرِدتْ عن جُسومِها * على كلِّ قلبٍ منهمُ كفُّ باشقِ[3]

وقال آخر :

٥ ومستحسَنٍ عند الطّعام مدحرَجٍ * غذاهُ نَمِيرُ المـاء فى كلِّ بستانِ
تَطلَّــعَ من أقماعِه فكأنّه * قلوبُ نِعاجٍ فى مَخالِب عِقْبانِ

وقال آخر :

وكأنّما الابذَنْجُ ســودُ حمائمٍ * أوكارُها روضُ الرّبيعِ المُبكِرِ
لَقطتْ مَناقــرُها الزبرجدُ سمسما * فاستودعته حواصــلا من عنبرِ

١٠ وأمّا ما قيل فى السِّلْق — فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ فى توليده : وإن أردتم السِّلْقَ فخذوا من ورق الخَسِّ وورقِ الخَطْمِىِّ فدُقّوهما حتّى يختلطا، وليكونا[4] رَطبين، ثمّ خذوا عروقا من عروق التِّين فالبسوها ذلك المخلوط، ثمّ اطمروها[5] فى الأرض، فإنّه يَخرُج من ذلك السِّلْق .

قال الشيخ الرئيس : والسِّلْقُ صنفان : أسوَدُ لشدّةِ الخُضرة[6]، وهو المعروف

١٥ (١) قائل هذين البيتين هو عبد الله بن المعتز انظر مطالع البدور ج ٢ ص ٣١

(٢) يريد بالابذنج : الباذنجان؛ ولعلها لغة فيه ؛ ولم نجد نصا على ذلك فيما راجعناه من الكتب .

(٣) الباشق بفتح الشين — وروى السيوطى فى ديوان الحيوان كسر الشين فيه أيضا — وهو اسم طائر حار المزاج ، قوى الزعارة ، قوى النفس ، يأنس وقتا ، ويستوحش وقتا ، خفيف المحمل ظريف الشمائل ، وهو أصغر الجوارح جثة وهو معرب «باشه» بالفارسية .

٢٠ (٤) فى جميع الأصول : «ويكونا» بدون اللام؛ والسياق يقتضى اثباتها اذ لا يصح عطف «يكونا» على قوله «يختلطا» . فانه يقتضى أن كونهما رطبين نتيجة لدقهما؛ وليس كذلك، كما هو ظاهر .

(٥) فى القاموس وشرحه ان هذا الفعل من باب ضرب . وفى المصباح انه من باب قتل .

(٦) لم يرد فى القانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية قوله : «لشدّة الخضرة» ولعله وارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف ؛ وقد ورد ذلك فى شرح الأدوية المفردة من قانون ابن سينا للكازرونى .

[وأبيض][1]؛ وطبعُه عند بعضهم حارٌّ يابسٌ فى الأُولى؛ وفى الحقيقة أنّه مركَّبُ القوّة، وعند بعضهم هو بارد؛ قال: ولا شكّ أنّ فى أصلِه رطوبة؛ قال: وفيه بُورقيّة[2] مُلطِّفة؛ وفيه تحليلٌ وتجفيفٌ[3] وتليين؛ وفى الأسودِ قَبْض، وخاصّةً مع العَدَس[4]؛ قال: وجميع السِّلْقِ ردىءُ الكَيْمُوس[5]، وجميعُه قليلُ الغِذاء كسائرِ البُقول؛ وعُصارتُه وطبيخُ ورقِه ينفعان من شُقاق[6] البَرْد، ومن داء الثَّعلب[7]، ومن الكَلَف إذا استُعمِل ورقُه ضِمادا بعد غَسل الموضع بنَطْرون؛ ويَقلَع الثآليل[8]، وعَصيرُه يقتل القَمْل، وتُضمَد به الأورامُ مسلوقا فيحلِّلُها ويُنضِجُها، وينفع من التُّوثِ[9] ضِمادا يحلِّلها؛ وورقُه

(١) لم يرد هذا اللفظ فى الأصول، وقد أثبتناه عن القانون ج ١ ص ٣٨٧ طبع بولاق اذ لا يتم الكلام بدونه، فانه ذكر أن السلق صنفان، ولم يرد فى الأصول غير صنف واحد وهو الأسود.

(٢) بورقية: نسبة إلى البورق بضم الباء. وهو أصناف كثيرة: فنه الأرمنى، يؤتى به من أرمينية، ومنه النطرون ويؤتى به من الواحات؛ وهو ضربان: أحمر وأبيض، ويشبه الملح المعدنى، ومذاقه بين الملوحة والحموضة، كما ذكره ابن البيطار فى المفردات ج ١ ص ١٢٥ نقلا عن اسحاق بن عمران.

(٣) كذا فى جميع الأصول، والذى فى القانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية "وتفتيح" وكذلك ورد فى القاموس وشرحه عن السلق أنه يفتح بتشديد التاء؛ ولعل ماهنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف.

(٤) فى جميع الأصول: "الغذى"؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا كما فى القانون ج ١ ص ٣٨٧ طبع بولاق. (٥) الكيموس: الخلط، وهو سريانى.

(٦) الشقاق بضم الشين: تشقق الجلد من برد أو غيره فى اليدين والوجه.

(٧) داء الثعلب: علة معروفة يتناثر منها الشعر؛ وأضيف الى الثعلب لعروضه للثعالب.

(٨) الثآليل: جمع ثؤلول، وهو بثر صغير صلب مستدير على صور شتى: فنه منكوس ومتشقق ذو شظايا ومتعلق، ومسمارى عظيم الرأس مستدق الأصل، وطويل معقف، ومنفتح.

(٩) التوث: جمع توثة، وهى بثرة متقرحة تأخذ فى عمق الخد والوجنة فى أكثر الأمر؛ وقد تحدث فى الفرج والمقعدة من خلط غليظ فيه حدّة، ولذلك تتقرح (الأسباب والعلامات) ورقة ٢٢١ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ طب م. وفى الشذور الذهبية أن التوثة نوع من البواسير.

جيدٌ مطبوخا لحَرْق النّار، وينفع من القَوابِي[1] طِلاءً بالعسل، ويُسعَط ماؤه مع مرارة الكُرْكيّ فيُذهِب اللّقوة[2]، وينفع من قُروح الأنف؛ وماؤه فاترا يُقطَر فى الأُذُن فيسكّن الوجع؛ ويُغسَل بمائه الرأسُ فيُذهِب النُّخالة[3]؛ وأصلُه ردىءٌ للمعدة، مُغثٍ[4]، وأكثرُ ذلك لبُورقيّتـه؛ قال: وتفتيحُه لسُـدَدِ الكبدِ أشدُّ من تفتيح المُلُوخيا[5]، خاصّةً مع الخردل والخَلّ، وكذلك الطّحال، ويجب أن يؤكل بالمُرّى[6] والتّوابل؛ قال: وجميعُه يولّد النّفخَ والقَراقر[7] ويُمغِص؛ وهو جيدٌ للقُولَنج[8] إذا أُخذ بالتّوابل والمُرّى[6]. ولم أقف على شيءٍ من الشّعر فيه فأُورِدَه.

(١) لم نجد فيما لدينا من الكتب أن القوباء تجمع على قواب؛ والذى وجدناه أن جمعها «قوب» بضم أوله وفتح ثانيه، إلا أن القوابي شائع الاستعمال فى كتب الطب كالقانون والمفردات وغيرهما.

(٢) اللقوة: مرض يجذب له شق الوجه الى جهة غير طبيعية، فتتغير سحنته وتزول جودة التقاء الشفتين والجفنين؛ وقال الأوروبيون: هى اعوجاج الفم سواء كان من نفسه أو بسبب تشنج الشذور الذهبية فى الاصطلاحات الطبية.

(٣) يريد بالنخالة: ما يشبه النخالة من القشر الذى يتعلق بأصول الشعر فى الرأس.

(٤) مغث: من الغثيان بالتحريك، وهو خبث النفس واضطرابها حتى تكاد تتقيأ من خلط ينصب الى فم المعدة.

(٥) فى (شفاء الغليل) نقلا عن (مطالع البدور) وكتاب الأطعمة أن الملوخيا لم تكن معروفة قديما — يريد بمصر — وحدثت بعد سنة ثلاثمائة وستين من الهجرة؛ وسبب ذلك أن المعز بانى القاهرة لما دخل مصر لم يوافقه هواؤها، وأصابه يبس فى مزاجه، فدبر له الأطباء قانونا من العلاج منه هذا الغذاء فوجد له نفعا عظيما فى التبريد والترطيب، وعوفى من مرضه، فتبرك بها، وأكثر هو وأتباعه من أكلها، وسموها: ملوكية، فحرفتها العامة وقالت: "ملوخيا".

(٦) المرّى بتشديد الراء — والعامة تخففها —: إدام كالكامخ يؤتدم به، كأنه منسوب الى المرارة وهو يتخذ إما من السمك المالح والحوم المالحة؛ وإما من خبز الشعير أو خبز الحنطة المحروق، أو من الفوتنج والملح والزاز بانج، كما فى قاموس الأطباء: وقال داود فى التذكرة: إنه من الأدوية القديمة التى استخرجها الكلدانيون والقبط، وأجوده المتخذ من دقيق الشعير والفوتنج البرى، المعمول صيفا.

(٧) القراقر عند الأطباء: أصوات تقلب الريح فى الأمعاء.

(٨) القولنج بفتح اللام، وقد تكسر، وتفتح قافه وتضم: مرض معوى يعسر معه خروج الثفل والريح؛ وهو من الألفاظ الأعجمية.

وأمّا القُنَّبِيط والكُرْنُب — فقال ابنُ وحشيّة: وإن أردتم توليدَ القُنَّبِيط فخذوا منه رأسًا بعد موته، فاغمسوه فى عَكِرِ الخَلّ غمستين بينهما ساعة، ثمّ اتركوه فى الأرض، ودُقّوا كفًّا من جُبْنٍ عتيق، واجعلوه فوقه، واطمروه بالتراب، فإنّه بعد أربعةِ أسابيعَ يخرج القُنَّبِيط. ومن خصائص هذا النبات أنّه إذا وقع عليه خلُّ العنب قبل طبخِه لم ينضَج، وكذلك إذا سُلِق وعُمِل عليه الخلُّ فإنّه يَصلُب؛ ومتى زُرِع تحت كَرْمٍ فسد الكَرْم؛ ويقال: إنّ بزره إذا قَدُم على أربعِ سنينَ وزُرِع بعد ذلك تحوّل سَلْجَمًا، فإن زُرِع ذلك السَّلْجَمُ تحوّل كُرْنُبًا[1].

وقال فى توليد الكُرْنُب: وإن أردتم الكُرْنُبَ فخذوا أظلافَ التّيس الأربعة فانقعوها فى السّمن ثلاثًا؛ ثمّ اجعلوها فى الأرض؛ وغطّوها بشعر لحية التيس ثمّ اطمروا ذلك فى رمل، واطرحوا فوقه التراب، فإنه ينبت منه الكُرْنُب.

وقال الشيخ الرئيس فى طبع الكُرْنُب: الأصلُ[2] أرطَبُ من الورق؛ والبَرّىُّ أسخنُ وأيبس، وجملتُه حارٌّ فى الأُولى، يابسٌ فى الثانية؛ قال: والكُرْنُب منه بستانىّ ومنه بحرىّ[3]، ومنه برّىّ، ومنه كُرْنُبُ الماء، والبَرّىُّ أمَرُّ وأحَدُّ وأبعدُ من أن يكون غذاء؛ وطبيخُ أصلِ الكُرْنُبِ بماء الرّمّان طَيِّب؛ والقُنَّبِيطُ غليظُ الغِذاء، مغلِّظٌ للدّم

(١) كذا فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف و (ج)؛ والذى فى (ا) «كرفنا»؛ وهو تحريف.

(٢) كذا فى قانون ابن سينا ج ١ ص ٣٤٧ طبع بولاق والذى فى جميع الأصول: «اليبض»؛ وهو تحريف، اذ اليبض بفتح الباء إنما يكون للقنبيط، وهو جماره، أى الزهر المعروف فيه، كما يستفاد من مفردات ابن البيطار ج ٤ ص ٥٩ طبع بولاق، وليس للكرنب هذا الجمار كما هو معروف.

(٣) لم يرد فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية قوله: «ومنه بحرى»؛ ولعله ورد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف.

إذا لم يفحل رَمَخ إلى نواحى الثُّنْدُؤَةِ[1] والجَنبِ وأَوجَع، ولا يكون متقلا كالرِّيحىّ[2]؛ قال: وأمّا أفعالُه وخواصُّه، فهو مُنضِجٌ ملينٌ مُجفِّف، خصوصا إذا طُبِخ وصُبّ عنه الماءُ الأوّل؛ ورَمادُ قُضبانِه قوىُّ التجفيف، وله خاصّيّةٌ فى تسكين الأوجاع؛ وغِذاؤه يسير؛ ودمُه ردىء؛ وإذا طُبِخ بلحمِ سمينٍ أو دَجاجٍ جاد قليلا؛ قال: والبَرّىُّ والبحرىُّ والبستانىُّ يُنضِج الفَلْغَمونيات[3]، وهو يَدْمُل[4]، ويَمنع سعىَ الخبيثة[5] ويُجعَل بياض البَيض على الحَرْق؛ قال: وهو ينفع من الرِّعشة؛ ومع الحُلْبة قد

(١) الثندؤة، هى مغرز الثدى؛ قاله الأصمعى؛ وقال ابن السكيت: إن ضممت الثاء قلت: «الثندؤة» بالهمز، وإن فتحتها قلت: «الثندوة» بدون همز.

(٢) كالريحى، أى كالغذاء الريحى، أى المولد للريح.

(٣) كذا فى جميع الأصول. والذى فى القانون المنقول عنه هذا الكلام فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية: «الصلابات»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الكلمتين؛ ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف. والفلغمونيات: جمع فلغمونى، وهو لفظ كان يطلق فى لسان اليونان على كل حرارة والتهاب يحصلان فى العضو، ثم أطلق على كل ورم حار، ثم سمى به الورم الدموى لما يلزمه من الحرارة والالتهاب انظر كتاب (الأسباب والعلامات) لنجيب الدين السمرقندى ورقة ٢٠٤ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ طب م وقانون ابن سيناج ٣ ص ١١٤ طبع بولاق؛ وضبط هذا اللفظ بفتح الفاء ضبطا بالعبارة فى الشذور الذهبية نقلا عن الهروى؛ وفى الأسباب والعلامات أن الرازى أورد هذا الاسم فى جدول القاف فى كتابه المسمى (الحاوى الكبير).

(٤) يدمل، أى يبرئ القروح.

(٥) يريد بالخبيثة: النملة الخبيثة، وهى بثرة صفراوية تخرج وتحدث ورما يسيرا. وتسعى، وربما آنحلت، وربما تقرحت؛ وسببها إما صفراء رقيقة جدا، وهى الساعية؛ وإما صفراء غليظة، وهى المتأكلة؛ ولونها إلى الصفرة، وتكون ملتهبة، ويحس فى كل نملة كعض النمل؛ وبالجملة فان كل ورم جلدى ساع لاغوص له فهو نملة؛ وقال السمرقندى: النملة بثرة تخرج مع التهاب واحتراق، ويرم مكانها ورما يسيرا، وتدب وتسعى من موضع إلى موضع كما تدب النملة انظر قاموس الأطباء للقيصونى صفحة ٥٤٤ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٠ طب م.

يُجعَل على النِّقرِس[1]؛ قال : وطبيخُه وبزرُه يبطئ[2] بالسُّكر؛ وإذا استُعطِت[3] عُصارتُه نقّى الرأس ، ومن خواصّه تجفيفُ اللّسان ، وهو منوِّم ، وهو مظلِمٌ للبصر مع أنّه يقع فى الأكحال؛ قال : ويُتغرغَرُ بعصيرِه أو طبيخِه مع دُهن الخَلّ من الخَوانق[4]؛ وأكلُه يصفّى الصّوت؛ وهو ردىءٌ للمعدة؛ وعَصيرُه بالنّبيذ نافعٌ من الطّحال واليَرَقان[5]؛ وبَيضُه[6] بطىءُ الهضم؛ وهو يُدِرُّ البولَ والطّمث : "وإذا احتُمِل[7] هو أو عُصارتُه مع دقيق الشّيلَم[8]" أو زَهرُه[9] قتَل الجنين، وإذا احتُمِل بزرُه بعد الجماع أفسَد المنىّ؛

(١) النقرس : وجع وورم يحدث فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين، لاسيما مفصل الإبهام ، وهو الأصل فى التسمية؛ قال ابن هبل من الأطباء : مفصل إبهام الرجل يسمى نقوروس — أى باليونانية — ومن هذا اللفظ أخذ اسم "النقرس" تسمية للحال باسم المحل . انظر قاموس الأطباء .

(٢) يبطئ بافراد ضمير الفاعل، أى كل من طبيخه وبزره .

(٣) فى الأصول والقانون : «بعصارته» ، ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة تعدية استعط بالحرف .

(٤) الخوانق، أى العلل الخوانق، جمع خانقة .

(٥) اليرقان : داء يتغير منه لون البدن تغيرا فاحشا الى صفرة أو سواد لجريان الخلط الأصفر أو الأسود الى الجلد وما يليه بلا عفونة .

(٦) يريد بيضه : جماره، أى الزهر المعروف فى القنبيط، كما يستفاد من كلام ابن البيطار فى المفردات ج ٤ ص ٥٩ طبع بولاق؛ ولم نجد البيض بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة .

(٧) لم ترد هذه العبارة الموضوعة بين هاتين العلامتين فى القانون المنقول عنه هذا الكلام فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية والذى ورد فيه وفى المفردات أن زهره إذا عمل منه فرزجة واحتملته المرأة بعد الحمل قتل ما فى بطنها ، انتهى كلامهما ؛ أما احتمال الكرنب مع دقيق الشيلم فقد ورد فى المفردات أن خاصيته إدرار الطمث؛ ولم يرد فيه ولا فى القانون أن من خواصه قتل الجنين كما تفيده عبارة المؤلف هنا؛ وعبارة المفردات : ج ٤ ص ٥٨ «وإذا احتملته المرأة مع دقيق الشيلم أدرّ الطمث» فلعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف أو لعله قد سقط من الناسخ قوله : « أدرّ الطمث » بعد قوله : «مع دقيق الشيلم» ليوافق ما فى المفردات .

(٨) الشيلم، هو الزؤان الذى يكون فى البر، وهو لفظ سوادى، ويقال فيه : الشالم والشولم أيضا؛ وقال أبو حنيفة : الشيلم حب صغار مستطيل أحمر، كأنه فى خلقة سوس الحنطة، ولا يسكر، ولكنه يمر الطعام إمرارا شديدا انظر تاج العروس . ونقل القيصونى فى قاموس الأطباء عن بعض العلماء عبارات تفيد أن الشيلم غير الزؤان الذى يكون فى البر .

(٩) زهره بالرفع : معطوف على الضمير فى قوله : «احتمل» .

قال : ورَمادُ أصلِه يفتّت الحَصاة، وعُصارتُه مع الشَّراب للنُّهوش[1]، وهو نافعٌ من عضّة الكلب الكَلِب .

ولم أقف على شعرٍ [فيهما][2] فأذكره، والله الموفّق .

وأمّا السَّلْجَم — وهو اللِّفت — فقال ابنُ وحشيّة فى توليده : وإن أردتم السَّلْجَم فخذوا عِرقَ الشّوك المعقَّد فحُزّوا من عُقَدِه ثلاثا كبارا، ثم خذوا رأسَ عَنْزٍ بعد موتها فأدخلوا الثلاثَ عُقَدٍ فيه، ثمّ اطمِروه فى الأرض، واجعلوا فوقه كَيْلَه[3] من الماء، فإنّه بعد أربعين يوما ينبت الورق ظاهرا، ويعمل الأصل بعد ذلك وأكثِروا من سقيه الماءَ فإنّه ينمى ... .[4]

ما وصف به السلجم من الشعر

وقال شاعرٌ[5] يصفه :

كأنّما السَّلْجَمُ لمّا بدا * فى حسنِه الرائقِ من غيرِ مَيْنْ
قطائعُ[6] الكافورِ ملمومةً * لمبصِريها أو كُرات اللُّجَيْنْ

(١) عبارة ابن سينا المنقول عنه هذا الكلام : « تنفع من لسعة الأفعى » ومؤدّى العبارتين واحد القانون ج ١ ص ٣٤٧ طبع بولاق .

(٢) «فيهما» ، أى فى القنبيط والكرنب؛ ولم ترد هذه الكلمة فى (ا) .

(٣) « كيله من الماء» ، أى كفايته منه؛ يقال : « هذا طعام لا يكيلنى » ، أى لا يكفينى؛ وهو مجاز انظر أساس البلاغة .

(٤) يلاحظ أن المؤلف لم يورد هنا كلام ابن سينا فى طبع السلجم وخواصه كما جرت بذلك عادته فى أنواع النبات التى أوردها فى هذا الجزء؛ وكان محل ذكره هذا الموضع ، أى بين كلام ابن وحشية وما قيل فى وصف هذا النبات من الشعر؛ فلعل المؤلف قد ترك ذلك اختصارا ، أو لعله لما لم يجده ضمن الأدوية التى ذكرها ابن سينا فى حرف السين المهملة ظن أنه أهمل ذكره فى كتابه ، وليس كذلك ، فقد ذكر ابن سينا هذا النبات فى حرف الشين المعجمة باسم الشلجم ، وهى لغة قليلة حكاها بعضهم؛ وقال أبو حنيفة : السلجم معرّب ، وأصله بالشين المعجمة ، والعرب لا تتكلم به إلا بالسين المهملة .

(٥) قائل هذين البيتين هو ابن رافع الأندلسى ، كما فى مباهج الفكر .

(٦) القطائع جمع قطيعة ، وهى ما اقتطعته من الشىء انظر اللسان .

وقال آخر :

يا حبّذا السَّلْجَم من ماكلٍ * بنفعِـه فاق جميـعَ البُقول
كم فيـه من منفعةٍ جَمّـةٍ * إحصاؤها من غير مَيْنٍ يطول

وأمّا ما قيل فى الفُجْل — فقال ابنُ وحشيّة فى توليده : وإن أردتم الفُجْل فخذوا من قرون المَعْز قرنين فأنقعوهما فى بول النّاس سبعةَ أيّام، ثم أغرِسوهما فى الأرض، وذُرّوا عليهما شيئا يسيرا من حِلْتِيت[1]، وأسقوهما ماءَ المطر يوما بعـد يوم فإنّ ذلك يُنبِت لكم الفُجْل بعد أحد وعشرين يوما .

وقال الشيخ الرئيس : أقوى ما فى الفُجْل بِزرُه، ثمّ قِشرُه، ثمّ ورقُه، ثمّ لحمُه، ودُهنُه فى قوّة دُهْن الخِرْوَع، إلّا أنّه أشـدُّ حرارةً منه . وقال فى طبعه : الرَّطْب[2] منـه حارٌّ فى الأُولى ؛ وبِزرُه حارٌّ فى الثالثة ؛ وهو يولّد الرياح، لكنّ بِزرَه يحلّلها ؛ وفيـه تلطيف ؛ وغِذاؤه بَلغَمىّ ؛ وهو قليـلٌ مع ذلك ؛ وفيـه جوهرٌ سريعٌ إلى التّعفُّن ؛ قال : وإن خُلِط معـه دقيقُ الشَّـيْلَم[3] أنبت الشعرَ فى داء الثعلب[4] ؛

(١) تقدّم تفسير الحلتيت فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصول، وهو مخالف لما فى قانون ابن سينا المنقول عنه هذا الكلام ج ١ ص ٤١١ طبع بولاق، وعبارته : «أصله حار فى الأولى رطب» ؛ ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٣) الشيلم، هو الزؤان الذى يكون فى البر؛ وهو لفظ سوادىّ ؛ ويقال فيه : الشالم والشولم أيضا ؛ وقال أبو حنيفة : الشيلم حب صغار مستطيل أحمر كأنه فى خلقة سوس الحنطة ولا يسكر، ولكنه يمر الطعام إمرارا شديدا انظر تاج العروس ؛ ونقل القيصوفى فى قاموس الأطباء عن بعض العلماء عبارات تفيد أن الشيلم غير الزؤان الذى يكون فى البر .

(٤) داء الثعلب : علة يتناثر منها الشعر ؛ وسميت « داء الثعلب » لأنها تعرض للثعالب .

وإذا ضُمِد به مع عسلٍ قلعَ الآثارَ العارضةَ تحت العين والقروحَ الخبيثةَ واللَّبِنيّة[1]؛ وبزرُه مع الخَلّ يقلع قَرْحة غَنْغرانا[2] قلعا تاما، وكذلك على القُوْباء؛ وبزرُه ينفع من التَّمَش الكائن فى الأعضاء وسائرِ الألوان الغريبة وآثارِ الضَّرب والكَلَف؛ وهو مع الكُنْدُس[3] [بخَلّ][4] طِلاءٌ يُذهِب البَهَق الأسود، وخصوصا فى الحمّام؛ وهو يُكثِر القملَ فى الجسد؛ قال: وبزرُه يدفع الضَّرَبانَ الّذى فى المفاصل؛ وهو جيدٌ لوجع المفاصل جدّا؛ وهو يضرّ الرأسَ والأسنانَ والحَنَك؛ وعُصارتُه ودُهنُه نافعان من الرِّيح فى الأُذُن جدّا؛ وهو ضارٌّ بالعين، إلّا أنّه يبلو اذا قُطِر ماؤه فيها، ويُذهِب الآثارَ التى تحت المآق؛ وقال ابن ماسَوَيه: إنّ ورقَه يُحِدّ البصر؛ قال: والمطبوخُ

(١) يريد باللبنية: البثور اللبنية؛ وسميت اللبنية لخروجها فى زمن اللبن، أى الرضاع؛ أو لأنها تشبه البثور التى تخرج فى زمن الرضاع انظر تذكرة داود ج٣ ص٦٣ طبع بولاق. وفى الجزء الثالث من قانون ابن سينا صفحة ٢٩٠ طبع بولاق ما يفيد أنها سميت اللبنية لمشابهة لونها لون اللبن، فقد ورد فيه مانصه: «قد تتبثر على الأنف والوجه بثور بيض كأنها نقط لبن» الخ وكذلك فى كتاب الأسباب والعلامات للسمرقندى ورقة ٢١٩ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ طب م.

(٢) يستفاد من الكتب التى راجعناها أن غنغرانا نوع من الورم الدموى اذا كان فى الابتداء ولم يترتب عليه فساد الحس فى العضو الذى له حس؛ ولا تحمود الحرارة الغريزية فيه، فاذا كان هذا المرض من الاستحكام بحيث يبطل حس العضو الذى له حس، وذلك بأن يفسد اللحم وما يليه حتى العظم فانه يسمى: «سفاقلوس» انظر القانون ج ٣ ص ١٢٠ طبع بولاق والأسباب والعلامات ورقة ٢٠٥ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ طب م والشذور الذهبية فى الاصطلاحات الطبية المأخوذة منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٥٧ طب وهو لفظ يونانىّ.

(٣) الكندس: نبات له ورق بين البياض والخضرة، وعروق داخلها أصفر وخارجها أسود، والمستعمل منه عروقه، وهو مهيج للقىء مسهل للبلغم، كما فى قاموس الأطباء للقيصونى ومفردات ابن البيطار.

(٤) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى جميع الأصول؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٤١١ طبع بولاق.

منه صالحٌ للسُّعال العتيقِ والكَيْموس[1] الغليظِ المتولِّدِ فى الصّدر ؛ قال : وإن طُبِخ بسِكَنْجَبِينٍ[2] وتُغُرغِر به نَفَع من الخُنَاق[3]، وفيه مع ذلك مَضَرَّةٌ بالحَلْق ؛ قال : وهو ردىءٌ للمعدة مُجَشِّئ، وبعد الطعام ملينٌ للبطنِ، مُنفِذٌ للغذاء ؛ وقبل الطعام يُطْفى الطّعامَ ولا يَدَعُه يستقرّ ؛ وهو يسهّل القَىء، وخصوصا قِشرَه بالسِّكَنْجَبِين ؛ ويوافق الجَنْبَ والطِّحالَ ضِمادا ؛ وبزرُه بالخلّ يقىء[4] جدّا، ويحلّل ورمَ الطِّحال ؛ قال ابنُ ماسَوَيه : وإن أُكل بعد الطعام هَضَم، وخاصّة ورقه ؛ وماءُ ورقِه يفتّح سُدَدَ الكبد، ويزيل اليَرَقان[5] ؛ وقال بعضُهم : ورقُه يَهضِم ؛ وبزرُه وجِرمُه[6] محلّلان للنَّفْخ فى البطن، ويسهّلان خروجَ الطّعام، ويشهّيان، ويُذهِبان وجَعَ الكبد ؛ وماؤه جيّدٌ للاستسقاء ؛ قال : وهو ينفع من نَهْشِ الأفاعى، وبالشراب من لسعِ العقرب ؛ وبزرُه ينفع من السُّموم

(١) الكيموس بفتح الكاف : لفظ سريانى معناه الخلط بكسر الخاء ؛ ويسميه بعضهم : الكيلوس باللام ؛ وهو غلط كما فى الشذور الذهبية نقلا عن الهروى .

(٢) السكنجبين بكسر السين : شراب يتخذ من الخل والعسل ؛ وهذا اللفظ فى لغة الفرس مركب من كلمتين : «سك» بمعنى خل «وانكبين» . ومعناها العسل ، ويراد بهذا الاسم كل حامض وحلو انظر كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة .

(٣) الخناق بضم الخاء وتخفيف النون : داء يمتنع معه نفوذ النفس الى الرئة .

(٤) فى جميع الأصول : « ينق » ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون فى كلتا طبعتيه : المصرية والأوروبية ، وهو ما يستفاد أيضا من مفردات ابن البيطار ج ٣ ص ١٥٦

(٥) اليرقان : داء يتغير منه لون البدن تغيرا فاحشا الى صفرة أو سواد لجريان الخلط الأصفر أو الأسود الى الجلد وما يليه بلا عفونة .

(٦) كذا وردت هذه العبارة فى الأصول ، وعبارة القانون المنقول عنه هذا الكلام ج ١ ص ٤١٢ طبع بولاق «وجرمه يغثى ، وبزره يحلل النفخ» الخ ومؤدّى العبارتين مختلف ، فان عبارة الأصول تفيد أن تحليل النفخ من خواص بزر الفجل وجرمه ؛ وعبارة ابن سينا تفيد أن ذلك من خواص البزر وحده ، وأن خاصية جرمه أنه يغثى ؛ ويؤيد ما فى نسخة القانون أن ابن البيطار لم يذكر فى مفرداته أن جرم الفجل يحلل النفخ فى البطن كما تفيده عبارة المؤلف هنا ، بل ذكر أن لحمه يغثى كما تفيده عبارة ابن سينا انظر المفردات ج ٣ ص ١٥٧ طبع بولاق .

والهَوامّ؛ وإن وُضِعتْ شَدْخَةٌ منه على العقرب ماتت، وجُرّب ماؤه فى ذلك فكان أقوى؛ وإن لَدَغت العقربُ من أكل فُجْلا لم تضرّه؛ هذا ماورد من منافعه ومضارّه.

ما وصف به الفجل من الشعر

وقال بعضُ الشعراء يصفه:

أَحببْ بفُجْلٍ قد أتتنى به * عند مَسائى ذاتُ أوقارِ (١)

كأنّه فى يدها إذ بدا * مقشّرا فى وقت إفطارى

قُضبانُ بَلُّورٍ وإلّا فما * يَجْمُد (٢) من قَطْرِ النّدى الجارى

وقال آخر:

أَحببْ بفُجْلٍ قد أتانا به * طبّاخُنا من بعد تقشيرِ

منضّدٍ فى طبقٍ خِلتُه * من حسنِه قُضبانَ بَلُّورِ

وأمّا الجَزَر وما قيل فيه — فقال ابنُ وحشيّةَ فى توليده: إن أخذتم نابَى الخنزير فدهنتموهما بالزّيت، وجعلتم فى كلّ جانبٍ من جانبى النابَين الحادّين بَعرةَ جمل، وطَمَرتموهما فى الأرض خرج عن ذلك الجَزَرُ الحلوُ الجيّد؛ وإن طَمَرتم قرنين من كبشين من كلّ واحدٍ قرنا مدهونا بالزّيت خرج من ذلك الجَزَر. وقال أيضا: وأن أردتم الجَزَر فخذوا أصلَ السَّلْجَم فشقّوه نصفين، واجعلوا فى جوفه من البصل فى كلّ رأسٍ بصلتين، واحدة فى أعلاه، وأخرى فى أسفلِه، وليكونا أصلين، ثمّ ادهنُوهما بالزّيت، واطمُروهما (٣) بالتراب، فانّ ذلك يَعمَل أصلا هو الجَزَر، ويَظهَر ورقُه على وجه الأرض.

(١) الأوقار: الأحمال، أى ذات أحمال من مختلف الطعام، واحده وقر بكسر فسكون؛ والذى فى الأصول: «وقار» بسقوط الألف الأولى، والصواب إثباتها إذ بها يستقيم الوزن والمعنى.

(٢) فى جميع الأصول: «يحمد» بالحاء؛ وهو تصحيف.

(٣) فى القاموس وشرحه ان هذا الفعل من باب «ضرب» وفى المصباح أنه من باب «قتل»؛ ولهذا ضبطناه بالوجهين.

وقال الشيخ الرئيس : قال دِيسْقُورِيدُوس : من الجَزَر صِنفٌ ورقُه أصغرُ من ورق الرَّازِيانَج وفى صورتِه ، وساقُه إلى شبر ، وفُقّاحُه[1] أصفر ، وله كَصَومعة الكُزْبُرة[2] والشِّبْث[3] ، وله ثمرٌ أبيضُ حادٌّ طيّبُ الرائحة والمضغ ؛ والثانى[4] يشبه الكَرَفْس الرومىّ حِرِّيفٌ مُحرِقٌ طيّبُ الرّائحة ؛ والثالثُ ورقُه كورق الكُزْبُرة ، أبيضُ الفُقّاح ، شِبْثىُّ الصَّوْمَعةِ والثمرة ، وله كأقماع الجوز محشوّة بِزرا كَمُونيّا فى هيئتِه وحِدّتِه ؛ قال : وطبعُ الجَزَرِ حارٌّ فى آخِر الثانيــة ، رَطبٌ فى الأولى ؛ وينفع بِزرُه ، وورقُه اذا دُقّ وجُعِل على القروح المتأكّلةِ نفع منها ؛ والجَزَر ينفع من ذات الجَنب ، ومن السُّعال [المُزمِن][5] ؛ وهو عَسِرُ الهضم ؛ والمُربّى[6] أسهلُ هضما ، وينفع من الاستسقاء ؛ ويسكّن المَغْص ، ويُدِرّ ، خصوصا البَرّىّ ، وخصوصا بِزرَه ، وكذلك ورقُه ؛ ويهيج الباه ، وخاصّةً البستانىّ[7] ، فإنه أشدُّ نفخا ، وليس يَفعل ذلك بِزرُ البَرّىّ .

وأمّا الشَّقاقُل[8] — وهو الجَزَرُ البَرّىُّ إن عُدّ فى الجَزَر — فهو أهيَجُ للباه

(١) الفقاح من كل نبت : زهره حين يتفتح .

(٢) يريد بصومعة الكزبرة والشبث : الاكليل الذى عليهما ؛ قال ابن البيطار فى الكلام على الجزر نقلا عن ديسقوريدوس «وله ساق مستو خشن عليه إكليل شبيه بإكليل الشبث» اه .

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ بكسر الشين وسكون الباء فى تاج العروس ؛ والذى فى اللسان أنه بكسر الشين والباء . ويقال فيه أيضا : شبت بكسر الشين والباء وتشديد التاء المثناة ؛ والبحرانيون يقولون فيه : سبت بالسين المهملة والتاء المثناة ، وهى بقلة معروفة .

(٤) فى القانون ج ١ ص ٢٨٨ : «والبستانى» .

(٥) وردت هذه الكلمة التى بين مربعين فى (ب) ؛ ولم ترد فى النسختين الأخريين .

(٦) فى جميع الأصول : «وبالمرى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون فى كلتا طبعتيه : المصرية ج ١ ص ٢٨٨ والأوروبية صفحة ١٥٥

(٧) عبارة القانون : «وخاصة بزر البستانى» بزيادة قوله : «بزر» .

(٨) يقال فيه أيضا : الشقاقل والاشقاقل بتشديد اللام ؛ وفى قاموس الأطباء أنها أسماء نبطية لعروق منها الغليظ ومنها الرفيع ، وهى طوال معقدة تنبت فى كل عقدة ورقة تشبه ورقة البسيلة ، وفى طرف =

من البستانىّ ؛ ويُدِرّ الطَّمْثَ والبول . ورايتُ على حاشية (كتاب الأدوية المفردة) للشيخ الرئيس فى النسخة التى نَقَلتُ منها بخطّ من لعلّه آستدرك على الشيخ ما صورتُه : الجَزَرُ نوعان : بستانىٌّ وبَرّىّ ؛ والمحلّى[1] عند دِيسْقُورِيدُوس ها هنا هو (دُوقو)؛ وله ثلاثة أصناف ، وليس هو من الجَزَر، ولمّا خَلَط الشيخُ فى الماهيّة خَلَط فى المنافع . ودُوقو، هو الجَزَرُ البَرّىّ[2]؛ هذا ما رأيتُه فى الجَزَر .

ما وصف به الجزر من الشعر

وقال شاعرٌ يصفُه ويشبّهه :

أُنظرْ إلى الجَزَرِ الّذى * يَحكِى لنا لهبَ الحريقْ
كُدَيّةٍ من سندسٍ * فيها نِصابٌ من عقيقْ

وقال آبنُ رافع :

أُنظرْ الى الجَزَر البديع كأنّه * فى حسنِه قُضُبٌ من المَرجانِ
أو رأقُه كزبرجدٍ فى لونِها * وقلوبُه صيغتْ من العِقيانِ

وأمّا البصل وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : إنّه حارٌّ فى الثالثة ، وفيه رطوبةٌ فَضْليّة ، وأمّا أفعالُه ، فهو ملطِّفٌ مقطِّع ، وفيه مع قبضِه جِلاءٌ وتفتيحٌ قوىّ ، وفيه نفخٌ وجذبٌ للدّمِ إلى خارج ، ولا يتولّد من غير المطبوخ منه غِذاءٌ يُعتدُّ به ، وغِذاءُ الذى طُبِخ أيضا خِلْطٌ غليظ ؛ قال : وللبصلِ المأكولِ خاصيّة ، ينفع من ضرر المياه ؛ وهو يحمّر الوجه ، وبزرُه يُذهِب البَهَق

= القضيب تخرج زهرة فى آخر الربيع فى لون نوار البنفسج واذا سقط الزهر أخلف بزرا أسود كالحمص مملوءا رطوبة سوداء ، وهو حلو الطعم .

(١) المحلى ، أى الموصوف .

(٢) فى الكتب التى راجعناها أن دوقو هو بزر الجزر البرى انظر تذكرة داود ج ١ ص ٢٢٧ طبع بولاق ومفردات ابن البيطار ج ٢ ص ١٢٠ طبع بولاق وقانون ابن سينا ج ١ ص ٢٩٤ طبع بولاق وفى الشذور الذهبية أن (دوقو) ، (ودوقوس) ، (ودوق سراج) هو الجزر البرى ؛ وقيل : هو الكرفس اهـ ، وهو لفظ يونانى .

ويُدْلك به حولَ موضع داء الثّعلب[1] فينفع جدّا؛ وهو بالملح يَقلع الثّآليل[2]؛ وماؤه ينفع القروحَ الوَسِخة، وينفع مع شحم الدّجاج لسَحْج[3] الخفّ؛ واذا سُعِط ماؤه نقّى الرأس؛ ويُقطَر فى الأذن لِثقَل الرأسِ والطّنينِ والقيحِ فى الأُذنين؛ والإكثارُ منه يُسْبِت[4]؛ وهو ممّا يضرّ العقلَ لتوليده الخِلْطَ الرّدىء؛ وهو يُكثِر اللّعاب، وعُصارتُه تنفع من الماء النازلِ فى العين، وتجلو البصر؛ ويُكتَحَل[5] بِزرِه بالعسل لبياض العين؛ وماؤه مع العسل ينفع من الخُناق؛ قال: والبصلُ يفتّح أفواهَ البواسير؛ وجميعُ أنواع البصل تهيّج الباه؛ وماؤه مُدِرٌّ للبول[6] وملَيِّنٌ للطّبيعة، وينفع من عضّةِ الكلب الكَلِب اذا نُطِل عليها ماؤه بملحٍ وسَذاب؛ قال: والبصلُ المأكولُ يدفع ضرر السّموم[7]؛ قال بعضُهم: لأنّه يولّد فى المعدة خِلْطا رَطْبا كثيرا يَكسِر عاديةَ السّموم[7].

(١) داء الثعلب: علة يتناثر منها الشعر، وسميت داء الثعلب لعروضها للثعالب.

(٢) الثآليل: بثور صغيرة شديدة الصلابة مستديرة، واحدها ثؤلول، وهى على ضروب شتى فنها منكوسة، ومنها متشققة ذات شظايا، ومنها متعلقة، ومنها مسمارية غليظة الرءوس، مستديرة الأصول تأخذ الى داخل العضو كأنها مسمار، ومنها طوال معوجة، وتسمى قرونا؛ ومنها متقيحة تكون المدّة تحتها وتسمى طرسيوس (قاموس الأطباء).

(٣) يريد بسحج الخف: انقشار ظاهر الجلد فى الرجل بسبب الخف.

(٤) يسبت، أى ينوم.

(٥) كذا فى جميع الأصول ونسخة القانون المطبوعة فى أوربا ص ٢٤٢؛ والذى فى نسخة القانون المطبوعة فى مصر ج ١ ص ٢٦٨: «بعصارته» وقد ورد ما يفيد ذلك أيضا فى كتاب (مطالع البدور فى منازل السرور) ج ٢ ص ٣٣ طبع مطبعة الوطن نقلا عن المنهاج لابن جزلة.

(٦) كذا فى جميع الأصول؛ والذى فى القانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية: "الطمث"؛ ولعل ماهنا رواية النسخة التى نقل عنها المؤلف؛ على أنه قد ورد فى كتب الطب الأخرى مايصحح كلتا الروايتين، فقد قال داود فى الكلام على البصل: انه يدر البول والحيض، انظر التذكرة ج ١ ص ١٠٨ طبع بولاق. (٧) السموم، أى ريح السموم، وهى عبارة القانون.

ما وصف به البصل من الشعر

قال شاعرٌ يصفه :

يُكثِرن من لُبس الثّياب تستُّرا * كتم الحسود ليطمئنّ(١) الحارسُ

فاذا نظرتَ الى الثّياب وجدتَها * أثوابَ زورٍ ليس فيها لابسُ

وقال ٱبنُ وَكيع يصفه من أرجوزة :

فٱعمِد الى مدوَّرٍ من البصلْ * فإنّه أكثرُ أعوانِ العملْ

يَحكِي لعينيك ٱحمرارُ قشرِه * إذا رماه ناظرٌ بفكرِه

فلائلا حمرا على جسومِ * بيضٍ رِطابٍ من جسومِ الرّومِ

وأمّا الثُّوم وما قيل فيه — فقال الشيخ : منه البستانيُّ المعروف، ومنه الثُّوم الكُرّاثيّ ، والثُّوم البَرّيّ؛ وفى البَرّيّ مرارةٌ وقبض، وهو المسمّى ثُومَ الحيّة؛ والكُرّاثيُّ مركّبُ القوّة من الثُّوم والكُرّاث؛ مسخّنٌ ومجفّفٌ فى الثالثة إلى الرابعة، والبَرّيُّ أكثرُ من ذلك؛ والثُّومُ ملّينٌ يحُلّ النفخَ جدّا، مقرّحٌ للجلد، ينفع من تغيُّر البلاد(٢)؛ واذا شُرِب بطبيخ الفُوتَنْج(٣) الجبليِّ قتل القَمْلَ والصِّئبان؛ ورَمادُه اذا طُلِيَ بالعسل (١٧)

(١) "ليطمئن الحارس" تعليل لقوله : « يكثرن من لبس الثياب » يريد تشبيه البصل بالغانيات اللاتى يبالغن فى التستر بالثياب وكتمان أمرهن كما يكتم الحسود حسده، وذلك ليطمئن عليهن الموكل بحراستهن فلا يتوهم فيهن ريبة ولا يظن بهن الظنون .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع الأصول؛ والذى فى القانون فى كلتا طبعتيه «المياه»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين، اذ المراد أن الثوم نافع من الانحرافات والأمراض التى تحدث من تغير البلاد والمياه على المسافر المتنقل من بلد إلى آخر .

(٣) ضبط هذا اللفظ فى (تاج العروس) بضم الفاء كما أثبتنا ضبطا بالعبارة؛ وضبطه القيصوفى فى قاموس الأطباء بفتحها ضبطا بالعبارة أيضا؛ ويقال فيه : «الفودنج» أيضا وهو معرّب «بوتنك» بالفارسية؛ وهو الحبق بالعربية، وأنواعه ثلاثة : برى، وورقه مستدير كالصعتر، وعامة مصر تسميه «الفلية» بضم الفاء وفتح اللام وتشديد الياء؛ ومن هذا النوع — وهو البرى — نوع ناعم الورق فيه بياض وزغب ما، ولا زهر له ولا ثمر؛ ونهرى، وفى ورقه حرافة بينة، ومرارة يسيرة؛ وجبلى، وورقه كورق =

على البَهَق نَفَع ؛ وينفع من داء الثعلبِ الكائنِ من المواد العَفِنة ؛ والثُّومُ البَرّىُّ يُلصِق الجراحاتِ الخبيثةِ إذا وُضِع عليها طريًا ؛ واذا آحتُقِن بالثُّوم نَفَع من عِرْق النَّسا[1] ، لأنّه يُسهِل دما وأخلاطا ، قال : والثُّومُ مصدِّع للرأس ، وطبيخُه ومشويُّه يُسكِّن[2] وجعَ الأسنان ، وكذلك المضمضةُ بطبيخِه ، وخصوصا اذا خُلِط بالكُنْدُر[3] ؛ قال : والثُّوم مضعِفٌ للبصر ، ويَجلِب بُثورا فى العين ، ويصفِّى الحَلْقَ مطبوخا ؛ وينفع من السُّعال المُزمِن ، ومن أوجاعِ الصّدر من البَرْد ، ويُخرِج العَلَقَ من الحَلْق ؛ واذا جُلِس فى طبيخ ورقِ الثُّومِ وساقِه أَدَرَّ البولَ والطَّمْثَ وأَخرَج المَشِيمة ، وكذلك إذا آحتُمِل أو شُرِب ؛ واذا دُقَّ منه مقدارُ دِرْهَمين[4] مع ماء العسل أخرج البَلْغَم ؛ وهو يُخرِج الدّود ؛ وفيه إطلاقٌ للطّبع ؛ وأمّا فعلُه فى الباه فإنّه لشدّة تجفيفِه وتحليلِه قد يضرّ ، فإن طُبِخ فى الماء حتّى آنحلّت فيه حدّتُه لم يَبعُد أن يكون ما يَبقَى منه فى مسلوقِه قليلَ الحرارة لا يجفِّف ، وتتولّد منه مادّةُ المَنِىّ ؛ قال : والثُّومُ نافعٌ لِلَسْع

= الزوفا ، وله بزر كانه رءوس متكاثفة ، وإكليل ليس بمستدير انظر قاموس الأطباء . وفى تذكرة داود أن هذا النبات أنواع كثيرة ترجع الى برى وبستانى ، وكل منهما جبلى — يعنى لا يحتاج الى سقى — أو نهرى لا ينبت بدون الماء ، وآختلافه بالطول ودقة الورق والزغب والخشونة ونظائرها » الخ وسيأتى الكلام عنه فى هذا السفر عند الكلام على النعنع .

(١) فى كتب اللغة أن الزجاجى وجماعة من اللغويين انكروا أن يقال : « عرق النسا » لأن الشىء لا يضاف الى نفسه ؛ وأجاز بعض اللغويين ذلك ، وحملوه على أنه من اضافة العام الى الخاص ، أو أنه من اضافة المسمى إلى آسمه ، كما يقال : « حبل الوريد » ونحوه .

(٢) « يسكن » بافراد ضمير الفاعل ، أى كل من طبيخه ومشويه .

(٣) الكندر : ضرب من العلك ؛ وقال ابن البيطار : الكندر بالفارسية ، هو اللبان بالعربية .

(٤) الذى فى القانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية : « درخمين » مكان قوله : « درهمين » ودرخمين تثنية درخمى ، وهو ضرب من الموازين ، مقداره اثنتان وسبعون شعيرة ، كما فى مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٧٩ طبع أوربا ؛ وهو لفظ يونانىّ .

الهوامّ ونَهْشِ الحيّاتِ إذا سُقِيَ بشراب[1]؛ قال: وقد جرّبنا ذلك؛ وكذلك من عضّة الكلب الكَلِب؛ وإذا ضُمِد بالثُّوم وبورَقِ التّينِ وبالكمّونِ على عضّة مُوغالِي[2] نفَع؛ هذا ما أَوردَه الشيخُ فيه.

ما وصف به الثوم من الشعر

وقال شاعرٌ[3] يصفه:

يا حبّذا ثُومةٌ فى كفِّ طاهيةٍ * بديعة الحُسنِ تَسبي كلَّ من نَظرا
أبصرتُها وهى من عُجْبٍ تُقلِّبها * كُصُرّةٍ من دَبِيقِيٍّ[4] حَوَتْ دُررا

وقال آخَر:

الثُّومُ مِثــلُ اللّوزِ إن قشّرتَه * لولا روائحُــه وطَعمُ مَذاقِــه
كالنَّذْلِ غرّك مَنظَرا فإذا ادّعَى * لفضــيلةٍ يُنمَى إلى أعراقِــه

وأمّا الكُرّاث وما قيل فيه — فمنــه الشّامىُّ والنَّبطىّ، ولكلٍّ منهما توليدٌ ذكره أبو بكرِ بنُ وحشيّةَ فى كتاب (أسرار القمر) فقال: وان أردتم الكُرّاثَ الشّامىَّ

(١) كذا فى القانون المنقول عنه هذا الكلام فى كلتا طبعتيه المصرية ج ١ ص ٤٥٠ والأوروبية ص ٢٦٦ وورد ما يفيد ذلك أيضا فى مفردات ابن البيطار ج ١ ص ١٥١؛ والذى فى جميع الأصول «مرات»؛ وهو تحريف.

(٢) موغالى، هو الحيوان المعروف بابن عرس بكسر العين وسكون الراء نقلا عن المنهج المنير فى معرفة أسماء العقاقير المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٩ طب. وقال ابن سينا: «هذا الحيوان أصغر من ابن عرس فى قدره، ولونه أميل الى الرمدة، مع لطافة ودقة وطول فم فى الغاية وسعته فى الغاية، واذا رأى حيوانا طفر اليه وتعلق بخصيه، ولأسنانه طبقات ثلاث بعضها فوق بعض معقفة تعقيفا يسيرا القانون ج ٣ ص ٢٥٤ طبع بولاق؛ وهو لفظ غير عربى؛ ولم نجد نصا على ضبطه فيما راجعناه من الكتب؛ ولهذا لم نضبطه.

(٣) الشاعر، هو ابن رافع الأندلسى، كما فى مباهج الفكر.

(٤) الدبيقى: نوع من دق الثياب تنسب الى دبيق، وهى بليدة مصرية كانت بين الفرما وتنيس ثم خربت، وكانت تصنع بها هذه الثياب.

فخذوا مُقْلَةً[1] واحدةً فاغمسوها فى سَكْبِينَجٍ[2] محلولٍ ببولٍ أىِّ بولٍ اتّفق، ثمّ اطمروها فى التراب، واسقوها الماء، فإنها تنبت بعد ثلاثين يوما، وتعمل أصولا جيادا .

وإن أردتم الكُرّاثَ النَّبَطىَّ فخذوا قِشرَ الجَوزِ فألقُوه على قِيرٍ[3] مغلىّ، واتركوه قليلا بقدر ما يعلق به من القِيرِ[3] شىءٌ يسيرٌ على أطرافه وجوانبه، وما لم يعلق به شىءٌ فردّوه الى أن يعلق، ثمّ اجمعوا ذلك القشرَ وادفنوه فى التراب، وألقُوا عليه قبل التراب شيئا من خردلٍ مسحوق، ثمّ اسقوه الماء، فإنّه يُنبِت فى أحد وعشرين يوما كُرّاثا نَبَطيًّا .

قال الشيخ الرئيس : الكُرّاثُ منه شامىّ، ومنه نَبَطىّ، ومنه الّذى يقال له : كُرّاثٌ برّىّ، وهو بين الكُرّاثِ والثُّوم، وهو أشبهُ بالدّواء منه بالطعام؛ والنَّبَطىُّ أدخَلُ فى المعالجات من الشّامىّ؛ وطبعُ النَّبَطىِّ حارٌّ فى الثالثة، يابسٌ فى الثانية؛ والبَرّىُّ أحرُّ وأيبس، ولذلك هو أردأ؛ والشّامىُّ مع السِّماق[4] للتّآليل[5]، ويُذهِب الشَّرَى[6]

(١) المقلة : واحدة المقل بالضم، وهو ثمر شجر الدوم .

(٢) السكبينج : صمغ شجرة بفارس، ويقال فيه أيضا : سكنبيج التذكرة؛ وقال فى كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة ص ٩٢ سكبينج : معرّب سكبينه، وهو نبات شبيه بالخيار، له صمغ .

(٣) القير والقار : كلاهما بمعنى واحد، وهما شىء أسود تطلى به السفن والإبل؛ أو هما الزفت .

(٤) السماق : ثمر شجر ينبت فى صخور، طوله نحو ذراعين، وفيه ورق طويل لونه الى حمرة الدم ما هو مشرف الأطراف على هيئة المنشار، وله ثمر شبيه بالعناقيد كثيف، وفى عظم الحبة الخضراء، الى العرض ما هو، ومنه نوع يستعمل فى دبغ الجلود (ابن البيطار) . وقال أبو حنيفة : انه من شجر القفاف والجبال وله ثمر حامض، عناقيد فيها حب صغار يطبخ، قال : ولا أعلمه ينبت بشىء من أرض العرب إلا ما كان بالشأم .

(٥) قد سبق تفسير التآليل فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٨ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) الشرى : بثور صغار مسطحة حمر حكاكة تحدث دفعة غالبا، ويشتد غمها وكربها ليلا .

ومع الملح للقروح الخبيثة؛ والبَرِّىُّ لقَرْح[1] الثدى ؛ قال : وهو يَقطع الرُّعاف . وقال غيرُه : ماء الكُرّاثِ النَّبطىِّ يَقطع الرُّعافَ وسيلانَ الدّمِ اذا خُلِط به شىءٌ من كُندرٍ[2] مسحوق . قال الشيخ : ويُبخَّر بِبزرِه مع القَطِران للسِّنّ التى فيها دود ؛ وأكلُه مصدَّع ، يخيِّل أحلاما رديئة ؛ ورَمادُه مع [دُهن][3] وَردٍ وخلِّ خمرٍ لوجع الأُذن وطنينِها؛ وهو ممّا يُفسِد اللِّثةَ والأسنان، وخصوصا [الشامىُّ؛ وهو يضرّ البصر؛ وهو مع ماء الشّعير للرَّبو الكائنِ من مادّةٍ غليظة، وخصوصا النَّبطىّ، وخصوصا][4] مع العسل؛ وينفع من أورام الرِّئة ويُنضِجها ، ويُعطَى من بِزرِه درهمان مع مِثلِه حَبِّ الآسِ لنَفْث الدّم؛ والبَرّىُّ منه ردىءٌ للمعدة، أردأ من الشّامىّ[5]؛ والكُرّاثُ كلُّه نَفّاخ؛ وقال رُوفُس : إنّه يَقطع الجُشاء الحامض؛ قال الشيخ : وهو بالجملة بطىءُ الهضم؛ وهو يُدِرُّ البولَ والطَّمْث، لاسيّما النَّبطىّ والبَرّىّ[6]؛ ويضُرّان المثانةَ والكُلْية؛ ومسلوقُه ينفع البواسيرَ ماكولا وضمادا، ويحرّك الباه ، وكذلك بِزرُه مقلوّا؛ قال : وبِزرُه مقلوّا مع حَبِّ الآسِ للزَّحِير[7] ودمِ المقعدة؛ ويُجلَس فى طبيخ ورقِه بماء؛

(١) كذا فى (ج) ونسخة القانون المطبوعة فى أوروبا ص ١٩٦ وفى النسخة المطبوعة فى مصر ج ١ ص ٣٤٧ « لقروح» ؛ والذى فى (أ) و(ب) " يقرح " بالياء مكان اللام ؛ وهو تحريف .

(٢) الكندر بالضم : ضرب من العلك ؛ وقال ابن البيطار : الكندر بالفارسية ، هو اللبان بالعربية .

(٣) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصول ؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٣٤٧ طبع بولاق .

(٤) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (أ) .

(٥) فى القانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية : « من البستانى » وهو أنسب ، إذ البستانى هو المقابل للبرى ؛ ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٦) زاد فى القانون بعد قوله : " المثانة والكلية " قوله : " القرحتين " .

(٧) الزحير : تقطيع فى البطن يمشى دما ، كما فى القاموس وشرحه ؛ وفى قاموس الأطباء أن الزحير هو وجع ممدّدى وانجرادى فى المعى المستقيم ؛ وقال السمرقندى : هو حركة من المعى المستقيم تدعو الى البراز اضطرارا ، ولا يخرج منه إلا شىء يسير من رطوبة مخاطية يخالطها دم ناصع .

وهو نافعٌ من انضمام الرَّحِم والصَّلابة فيها؛ وطبيخُ أصولِه إسْفِيذْباجَةً[1] بدُهن القِرْطِم أو دُهن اللَّوز أو شَيْرَج[2] نافعٌ للقُولَنْج[3]؛ ولم أقف فيه على شعرٍ فأُورِدَه .

وأمّا الرِّيباس[4] وما قيل فيه — فقال الشيخ : الرِّيباسُ له قوّةُ حُمّاض[5] الأُتْرُجّ والحِصْرِم؛ وهو باردٌ يابسٌ فى الثانية؛ وهو مطفئ، قاطعٌ للدم، يسكِّن الحرارة، وينفع من الطاعون، ويُحِدّ البصرَ إذا اكتُحِل بعُصارتِه؛ وينفع من الإسهالِ الصَّفراوىّ؛ وينفع من الحَصْبة والجُدَرىّ والوباء[6] . ٥

ما وصف به الرياس من الشعر

قال أبو بكر الخُوارَزْمىّ يصفه :

ولُعْبةِ عاجٍ فى قميصٍ موردٍ * أسافلُه خضرٌ وأزرارُه حمرُ
كأنّ يديها والأناملَ خُضِّبتْ * وشُدّتْ على أطرافِها خِرَقٌ خُضْرُ

(١) الإسفيذباجة : المرقة التى ليس فيها شىء من التوابل والأبازير وغيرها من الأشياء التى لها طعوم غالبة من حرافة وحموضة، كما فى الشذور الذهبية فى الاصطلاحات الطبية المأخوذة منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٥٧ طب؛ وهو لفظ فارسى . وقال داود فى صنعة الاسفيذباج مانصه : وصنعته أن يقطع الدجاج أو اللحم صغارا، ويطبخ حتى تنزع رغوته، ويلقى عليه من الحمص والبصل المسحوق بالكسفرة والمصطكى حتى تستوعب أجزاؤه، ويحمض بيسير ليمون أو خل، ويغطى حتى ينضج، وينزل التذكرة ج ١ ص ٦٥ طبع بولاق، وفى المنهاج لابن جزلة فى صنعة الاسفيذباج ما يقرب من هذا الكلام الذى ذكره داود، فارجع اليه . ١٠ ١٥

(٢) الشيرج دهن السمسم ولا يجوز كسر الشين، والعوام ينطقون به بالسين المهملة مكسورة؛ وهو معرب «شيره» بالفارسية انظر شفاء الغليل ومستدرك التاج مادة «شرج» .

(٣) القولنج بضم القاف وفتحها مع فتح اللام : مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح؛ وهو لفظ أعجمى . ٢٠

(٤) الرياس : نبات له أضلاع وورق عريض كالسلق وليس كخضرته، وفى وسطه ساق رخصة مملوءة رطوبة، وزهره أحمر، ووجوده كثير بالبلاد الشامية ومواضع الثلوج (تذكرة داود) (وقاموس الأطباء) .

(٥) حماض الأترج، هو ما فى جوفه . (٦) فى القانون : «والطاعون» .

وقال آخر :

ونباتٍ لم يَكتسِ[(١)] الورقَ الخُضـ * ـرَ ولم يَغـذُه نسيمُ الهـواءِ
لاولا كان فى الثّرى فتغـذّيـ * ـه بتَسكابِها يـدُ الأنواءِ
جاء مِثلَ السِّياط[(٢)] أو كالمساويـ * ـكِ وبعضٌ يَحكِى عصىَّ الرِّعاءِ
لَذَّ طعما وعَمَّ نفـعا فأىَّ الـ * ـنَّقلِ[(٣)] منه نَلْقَ وأىَّ الدّواءِ

قوله : "لا ولا كان فى الثّرى"، يشير إلى أنّه لا يَنبُت إلّا فى الثّلج .

وقال آخر :

ومكنونةٍ من بناتِ الثّرَى * تَجمَّعَ بالبـاب خُطّابُها
تمدّ يدا أُبرِزتْ كفُّها * يجـرّ الزّمرّدَ عُنّابُها

وأمّا الهِلْيَوْن[(٤)] وما قيل فيه — فقال ابنُ وحشيّةَ فى توليده : متى دُفِنتْ أطرافُ قرونِ الكِباشِ مع ورق السِّلْق، وسُقِيا[(٥)] بالمـاء، نبتَ من ذلك الهِلْيَوْن؛

(١) كذا فى ب و (ج)؛ والذى فى (أ) : «لم يلبس»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) فى (أ)، (ب) : «البساط»؛ وفى (ج): «النباط»؛ وهو تصحيف فى جميع هـذه الأصول صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه سياق البيت .

(٣) النقل بفتح النون : ما يتنقل به على الشراب؛ وقد تضم النون، وقيل : الضم خطأ .

(٤) الهليون : نبات مشهور بالشأم، له قضبان تميل الى صفرة، تمتد على وجه الأرض، فيها لين يتوعى، الى الحدّة، وورق كالكبر، وزهر الى البياض، يخلف بزرا دون القـرطم، ويبلغ بنيسان (التذكرة) . وذكر ابن البيطار أن منـه بستانيا ورقه كورق الشبث، ولا شوك له ألبتة، وله بزر مدوّر أخضر، ثم يسودّ ويحمـرّ، وفى جوفه ثلاث حبات كأنها حب النيل صلبة؛ ومنه ما يكون كثير الشـوك وهو الذى يسمى بالأندلس : أسرعين .

(٥) فى كتب اللغـة ما يفيـد أن «سق» يتعدّى بالباء كما هنا فقد ورد فى اللسان : زرع سق : «يسق بالمـاء»؛ وورد فيه أيضا : المسقوىّ : ما يسق بالسيح .

قال : وإن أُخِذ من الهِلْيَوْن قضيبٌ واحدٌ وطُلِيَ بالعسل، ومُرِّغَ فى رَماد البَلُّوط[(١)] وأُلبِس طينا، وطُمِر فى الأرض، خرجتْ منه عدّةُ عيدانٍ كثيرة القضبان، بيضٍ فى غاية البياض، وربّما كان فى بعضها حمرةٌ حولها صفرة، وربّما خالطها خضرةٌ وتوريد .

وقال الشيخ الرئيس فيه : طبعُه معتدلٌ عند جالِينُوس؛ قال : إنّه ليس فيه إسخانٌ ولا تبريد إلّا الصَّخْرىّ[(٢)]؛ قال الشيخ : أقول : لا يَبعُد عن الحرارة، وكلّما أخذ يَصلُب اشتدّ حرُّه؛ وقال فى أفعالِه وخواصِّه : قوّتُه جالية، تُفتِّح سُدَدَ الأحشاء كلِّها، خصوصا الكبدَ والكُلْيَة؛ وفيه تحليل، خصوصا الصَّخْرِىّ[(٢)]؛ قال : ويُشْرَب طبيخُه لوجع الظّهر وعِرْق النَّسَا[(٣)]؛ واذا طُبِخ أصلُه بالخَلّ وكذلك بِزْره[(٤)] فهو جيّدٌ لوجع الضِّرس؛ وينفع من اليَرَقان[(٥)]؛ قال : والأغلبُ يقولون فيه : إنّه ينفع من القُولَنْج[(٦)] البَلْغَمىّ؛ وطبيخُ أصولِه يُدِرُّ البولَ وينفع عُسْرَه، ويزيد فى الباه؛ وبِزْرُه إذا احتُمِل[(٧)] أَدَرَّ الطَّمْث، ويُفتِّح سُدَدَ الكُلَى؛ قال : واذا طُبِخ بالشّراب نَفَع من نَهْشة الرُّتَيْلاء[(٨)]؛ وطبيخُه يَقْتل — فيما يقال — الكلاب .

(١) عبارة ابن وحشية فى الفلاحة النبطية ورقة ١٠٦ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية : «فى رماد فحم بلوط» بزيادة قوله «فحم» .

(٢) فى مفردات ابن البيطار ج ٤ ص ١٩٦ طبع بولاق : «الصحراوى» .

(٣) فى كتب اللغة أن الزجاجى وجماعة من اللغويين أنكروا أن يقال : «عرق النسا»، لأن الشىء لا يضاف الى نفسه؛ وأجاز بعض اللغويين ذلك، وحملوه على أنه من إضافة العام الى الخاص، أو أنه من اضافة المسمى الى اسمه، كما يقال : «حبل الوريد» ونحوه .

(٤) عبارة القانون : «وكذلك نفس أصله وبزره»؛ وفيها زيادة ظاهرة .

(٥) تقدم تفسير اليرقان فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٥٠ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) تقدّم تفسير القولنج فى عدّة حواش من هذا السفر منها ماسبق فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٦٤

(٧) الاحتمال عند الأطباء، هو أن تضع المرأة الدواء فى فرجها .

(٨) الرتيلاء بالمدّ والقصر : جنس من الهوام، وهو أنواع كثيرة، أشهرها شبه الذباب الذى يطير حول السراج، ومنها ما هى سوداء رقطاء، ومنها صفراء زغباء؛ ولسع جميعها مورم مؤلم، وربما قتل .

ماوصف به الها
من الشعر

وقال شاعرٌ يصفه :

وباقةِ هِلْيَوْنٍ أتت وهى غضّةٌ * فشبّهتُها تشبيهَ ذى اللُّبِّ والفضلِ
برَشقِ نِبالٍ جُمِّعَتْ من زبرجدٍ * مشنَّفةِ الأعلى مفضَّضةِ الأصلِ

(١٩)

وقال أبو الفتح كُشاجِم :

لنا رماحٌ فى أعاليها أَوَدْ[١] * مثقَّفاتُ الجسمِ فُتْلٌ كالمَسَدْ[٢]
منتصباتٌ فى انفراجٍ كالعَمَدْ * مكسوّةٌ من صِبْغةِ[٣] الفردِ الصَّمَدْ
ثوبا من السّندسِ من فوقِ جسدْ * قد أُشرِبتْ حُمرةَ لونٍ نَتِقَدْ[٤]

وأمّا الهِنْدَبا وما قيل فيها — فقال ابنُ وحشيّة: إن أردتم الهِنْدَبا فخذوا من أصول الأُشْنان[٥] فدُقّوه وأخلِطوا به ورقَ الهِنْدَبا مدقوقا ، وصُبّوا عليه اليسيرَ من الزّيت، وخمِّروه فى إناءٍ ثلاثةَ أيّام ، ثم اجعلوه فى الأرض ، واطمروه بالتراب فانّه يُخرِج بعدَ أربعةَ عشرَ يوما هِنْدَبا؛ قال: وان أردتموه أيضا فخذوا رِجلَ ديكٍ فانقعوها فى خَلٍّ ممزوجٍ بماءٍ يوما وليلة، ثمّ انقعوها فى بول البقرِ ثلاثةَ أيّام ، ثم اطمِروها فى الأرض، فإنّه يَخرُج من ذلك نوعٌ آخرُ من الهِنْدَبا ؛ والّذى يَنْبُت من أصول الأُشنان[٥] أشدُّ مرارةً وأغلظُ ورقا، لكنّه أنفعُ للكبد .

(١) فى جميع الأصول : «أمد» ؛ وهو تحريف ؛ ولم يرد هذا الشعر فى ديوان كشاجم .

(٢) زاد فى مباهج الفكر بعد هذا البيت قوله :

مستحسنات ليس فيها من عقد * لها رءوس طالعات فى جسد

(٣) كذا فى الأصول ؛ والذى فى مباهج الفكر : «صنعة» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) زاد فى مباهج الفكر بعد هذا البيت قوله :

كأنها ممزوجة حمرة خدّ * قد قرصت وجنته كف جرد

(٥) الأشنان بالضم والكسر: نبات له أجناس كثيرة، وكلها من الحمض ؛ والأشنان هو الحرض الذى تغسل به الثياب ، قاله أبوحنيفة . وقال البكرى : هو نبات لا ورق له ، وله أغصان دقاق ، فيها شبيه بالعقد وهى رخصة كثيرة المياه ، ويعظم حتى يكون له خشب غليظ يستوقد به ، وطعمه الى الملوحة .

قال الشيخ الرئيس : الهِنْدَبا منه بَرِّىٌّ ومنه بستانىّ ؛ وهو صنفان : عريضُ الورق، ودقيقُه ؛ وأنفعُه للكبد أمرُّه ؛ وقال فى طبعِـه : إنّه باردٌ فى [آخِر](١) الأُولى ويابسُه يابسٌ فى الأُولى، ورَطْبُه رَطْبٌ فى آخِر الأُولى ؛ والبستانىُّ أبرَدُ وأرطَب ؛ قال : وقد تشتدّ مرارتُه فى الصّيف فيميل الى حرارةٍ لا تؤثّر؛ والبَرِّىُّ أقلُّ رطـوبة وهو الطَّرْخَشْقُوق(٢)؛ وقال فى أفعالِه وخواصِّه : انّه يفتّح سُدَدَ الأحشاء والعروق، وفيه قبضٌ صالحٌ وليس بشديد، وماؤه مع الإسْفِيدَاج(٣) والخَلّ عجيبٌ فى تبريد ما يُراد تبريدُه طِلاءً؛ قال : ويُضمَد به النَّقْرِس(٤)، وينفع من الرّمد الحارّ؛ ولبُن الهِنْدَبا البَرِّىّ يجلو بياضَ العين؛ ويُضْمَد به مع دقيق الشـعير للخفقان، ويقوّى القلب؛ واذا حُلّ خيارُ شَنْبَر(٥) فى مائه وتُغُـرْغِرَ به نَفَع من أورام الحَلْق؛ وهو يسكّن الغَثْىَ، ويقوّى المعدة؛ وهو خيرُ الأدوية(٦) لمعدةٍ بها مِزاجٌ حارّ؛ والبَرّىُّ أجودُ للمعدة من البستانىّ ؛

(١) لم ترد هذه الكلمة فى جميع الأصول ؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٢٩٨ طبع بولاق وكذلك فى النسخة الأوربية .

(٢) كذا ضبط هذا اللفظ فى القاموس الفارسى الانجليزى تأليف ستانجاس، وكذلك فى اللسان مادة (عضد) ضبطا بالقلم، ونقل عن التهذيب أنه طرنجقوق بالجيم مكان الشين وذكر أنه هو اليعضيد ؛ وفى مفاتيح العلوم للخوارزمى صفحة ١٦٧ طبع أوربا طلخشقوق بفتح أوّله وثانيـه وسكون ثالثه وفتح رابعـه ضبطا بالقلم أيضا ؛ وقد ورد هذا اللفظ على وجوه أخرى كثيرة فى كتب متعدّدة غير ما ذكرنا .

(٣) الاسفيداج : طين يجلب من اصفهان يكتب به الصغار، ورماد الرصاص والآنك، وأصـل معناه : الماء الأبيض ؛ وهو فارسى معرب . انظر كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة .

(٤) النقرس : وجع وورم يحدث فى مفاصـل الكعبين وأصابع الرجلين، لا سيما مفصل الابهام وهو الأصل فى التسمية ؛ قال ابن هبل : مفصل إبهام الرجل يسمى نقورومس — أى باليونانية — ، ومن هذا اللفظ أخذ اسم النقرس تسمية للحال باسم المحل انظر قاموس الأطباء .

(٥) خيار شنبر — ويسمى البكتر الهندى — وهو شجر فى حجم الخرنوب الشامى، ولا ينجب إلا فى البلاد الحارة، وله زهر أصفر عجيب الى بياض مبهج، ويزداد بياضه عند سقوطه، ويخلف قرونا خضرا تطول نحو نصف ذراع، داخلها رطوبة سوداء، وحب كحب الخرنوب ؛ والجزء الأخير من هذا اللفظ معرب .

(٦) عبارة ابن سينا «وهو من خيار الأدوية لمعدة بها سوء مزاج حار» القانون ج ١ ص ٢٩٨ طبع بولاق .

وقيل : إنّه موافقٌ لِمزاج الكبد كيف كان؛ أمّا الحارُّ فشديدُ الموافقة له، وليس يضرّ البارِدُ ضررَ سائرِ أصنافِ البقول الباردة؛ قال : واذا أُكِل مع الخَلّ عَقَل البطن؛ وهو نافعٌ لحمّى الرِّبْع[1] والحُمَّيات الباردة؛ وإذا جُعِل ضِمادا مع أصولِه للسع العقربِ والهَوامّ والزنابيرِ والحيّةِ وسامّ أبرَص نفع، وكذلك مع السَّويق .

٥ وأمّا النُّعْنُع وما قيل فيه — فقال ابنُ وحشيّة : هو أحد مَنابتَ[2] أنواعٍ تحت جنسٍ واحد يسمَّى الفُودَنْج[3]؛ والفُودَنْجُ خمسة ضروب : جبليّ[4] وصخريّ، وبريّ[5]، ونهريّ[6]، وبستانيّ؛ فالجَبليّ والصَّخريُّ والبَرِّيُّ واحد؛ وأمّا النَّهريّ فالنَّمّام[7]؛ والبستانيُّ : النُّعْنُع، وكلاهما نوعٌ واحد، وذلك أنّ النَّمّام لمّا نُقِل من شطوط الأنهارِ إلى البساتينِ صار نُعْنُعا، ونقَص رِيحُه، وكبُر ورقُه وطال ١٠ لكثرةِ رِيِّه وشُربِه .

(١) حمى الربع، هى التى تأخذ يوما وتدع يومين ثم تجىء فى اليوم الرابع، كما فى القاموس وغيره؛ والذى فى أقرب الموارد أنها تأخذ فى الأيام الثلاثة ثمانى عشرة ساعة، وهى ربع ساعات الأيام فسميت باعتبار الساعات اه وهو تعليل حسن .

(٢) كذا وردت هذه العبارة فى (ا) و(ب) المنسوب خطها الى المؤلف؛ والذى فى (ج) ومباهج ١٥ الفكر للكتبى والفلاحة النبطية لابن وحشية : «أحد أنواع منابت» بتقديم قوله : «أنواع» ويريد بالمنابت هنا أنواع النبات، وهو اطلاق مجازى من اطلاق المحل وإرادة الحال، اذ المنابت فى الأصل : مواضع النبات؛ وقوله : «أنواع» بالكسر : بدل من «منابت» ويجوز أن يقرأ بالرفع على الخبرية أى هى أنواع الخ . (٣) الفودنج والفوتنج : كلاهما من الألفاظ الفارسية المعرّبة .

(٤) يريد بالجبلى : الذى لا يحتاج الى سقى، كما فى التذكرة فى الكلام على الفوتنج .

٢٠ (٥) هذا النوع — وهو البرى — يسمى : «اللبلابة» بعجمية الأندلس، وعامة مصر تسميه : «فلية» بضم الفاء وفتح اللام وتشديد الياء، وهى المسماة باليونانية : «غليجن» بفتح الغين وكسر اللام وضم الجيم (ابن البيطار) فى الكلام على الفودنج .

(٦) يريد بالنهرى : الذى لا ينبت بدون سقى، كما فى التذكرة فى الكلام على الفوتنج .

(٧) سمى النمام، لسطوع رائحته .

وقال فى توليـده : وإن أردتم فُودَنْجا بستانيًا فخـذوا رِجلىْ دَجاجةٍ وآدهنُوهما بعَكر الزّيت ، وآدفِنوهما فى التراب ثلاثةَ أيّام ، ثمّ آغرِسوهمـا فى الأرض واجعلوا الأصابعَ إلى فوق، ثمّ آجعلوا فوقَها[1] عودَ سَـذابٍ عَرْضا، ثمّ نَقّطوا عليه زيتا، ثم ألقُوا عليه التراب، وآتركوه ثلاثا، ثمّ صبّوا عليه زيتا فى اليوم الرابع مقدارَ ما تعلمون أنّ شيئا من الزّيت قد وصـل إليه ، فإنّه يُخرِج بعد أحدٍ وعشرين يوما نُعْنُعا ذكىّ الرائحة .

وقال الشيخ الرئيس فى النّمّام : النّمّـام، هو السِّيسَنْبَر ؛ وطبعُه حارٌّ فى الثالثـة يابسٌ إليهـا ؛ وهو يقاوم العفونات، ويقتل القمل، وينفع من الأورام الباردة[2]؛ وإذا طُبِخ بالخَلّ وخُلِط بدُهن الوَرْدِ [ولُطِخ[3] به الرأسُ نَفَع من النِّسيان ومن آختلاط الذِّهن]؛ ويُتضمَّد بورق البَرِّىّ منه على الجَبْهةِ للصُّداع ؛ وهو نافعٌ للفُواقِ[4] إذا شُرِب بشراب[5]، وبِزْرُه أقوى، وينفع من أورام الكبد الباردة، ويُخرِجُ الجَنِينَ الميّت ؛ والبَرِّىُّ منـه اذا شُرِب بشرابٍ[5] مَنَع من تقطير البول ، وأَخرَج الحَصـاة وينفع من المَغْص، ويُضمَد به لسعُ الزّنابير، ويُشرَب للسعها منـه وزنُ درهمين فى سِكَنْجبِين[6] .

(١) فوقها، أى فوق الأصابع .

(٢) كذا ورد هـذا اللفظ فى جميع الأصول ومفردات ابن البيطار فى الكلام على النام نقلا عن ابن سينا ؛ والذى فى نسختى القانون المصرية والأوربية فى الكلام على النام : «الباطنة» ؛ فلعل ما هنا هو رواية النسخة التى نقل عنها المؤلف والنسخة التى نقل عنها صاحب المفردات .

(٣) هذا الكلام الموضوع بين مربعين لم يرد فى (ا) .

(٤) فى كتب اللغة ما يفيد أنه يقال فيه الفواق كما هنا والفؤاق بالهمز .

(٥) اذا أطلق الشراب كما هنا فالمراد به ما يسكر من ماء العنب كما فى رسالة الحسـين بن نوح القمرى فى تفسير المصطلحات الطبية ، وهى ضمن مجموعة مخطوطة محفوظة بالمكتبة التيمورية تحت رقم ١١٩ طب .

(٦) السكنجبين : شراب يتخذ من الخل والعسل ، أو من كل حامض وحلو غيرهما ، وهو لفظ فارسىّ مركب من «سك» بمعنى خل «وانكبين» بمعنى عسل .

وقال فى النَّعناع : هو حارٌّ يابسٌ فى الثانية، وفيه رطوبةٌ فَضْليّة، وقوّةٌ مسخّنةٌ قابضة؛ وهو ألطفُ البقول المأكولةِ جوهرا ، واذا تُرِكتْ طاقاتٌ منه فى اللّبن لم يتجبّن ، واذا شُرِبتْ عُصارتُه بالخَلّ قَطَعتْ سيلانَ الدمِ من الباطن؛ وهو مع السَّوِيقِ ضِمادٌ للدُّبَيْلات (١) ؛ وتُضْمَد به الجَبْهة للصُّداع ، وخصوصا مع سَويق الشّعير، وتُدلَك به خشونةُ اللّسان فتزول، ويمنع قذفَ الدّمِ ونَزْفَه ، ويَعقِد اللّبنَ فى الثّدي ضِمادا، ويسكِّن ورمَه ؛ وهو يقوّى المعدةَ ويسخّنها ، ويسكِّن الفُواقَ ويَهضِم، ويمنع القيءَ البَلْغَميَّ والدّمويّ، وينفع من اليَرَقان (٢) ، وخصوصا شرابَه ؛ وهو يعين على الباه لنفخ فيه، ويقتل الدِّيدان؛ واذا احتُمِل قبلَ الجماع منع الحَبَل؛ وهو نافعٌ لعضّة الكلب الكَلِب .

ما قيل فى و
نبات التمام
الشعر

قال أبو إسحاقَ الحَضْرَميُّ فى التَّمّام :

أَرَى التَّمّامَ بالصّوت الفصيحِ * ينادى الشَّرْبَ (٣) حيَّ على الصَّبوحِ
بدا لك فى مَطارفه وأَبْدَى * روائحَ تَستقِلّ بكلِّ رِيحِ
فقُمْ وأَعصِ النّصيحَ وكن مطيعا * لنا فالعيش عصيانُ النَّصيحِ

وقال آخر :

حَيَّيْتُها بتحيّةٍ فى مجلسٍ * بقضيب تمّامٍ من الرَّيحانِ
فتطيّرتْ منه وقالت : ألقِه * لا تقرَبنّ مضيِّعَ الكتمانِ

(١) كذا فى نسختى القانون : المصرية والأوربية و(ب) المنسوب خطها الى المؤلف؛ والذى فى (أ)، (ج) الرتيلات؛ وهو تحريف؛ والدبيلات : جمع دبيلة، وهى كل ورم كبير يتفرغ فى باطنه موضع تنصب إليه مادة رديئة غليظة ذات أجسام مختلفة قاموس الأطباء مادتى « دبل » و «خرج» .

(٢) تقدم تفسير اليرقان فى عدة حواش منها ما سبق فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٥٠ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) الشرب بفتح الشين : القوم يجتمعون على الشراب .

وقال آخـــر :

لا بارك اللهُ فى النَّمّام إنّ له * اسما قبيحا من الأسماء مهجورا

لو لم يَنُمّ على العشّاق سرّهـــم * ما كان فيهم بهذا الاسمِ مشهورا

وقال ابن رَشيق — وخالَف الأوّلَ[1] فيه — :

لِمْ كَرِه النَّمّامَ أهلُ الهوى * أَسـاء إخوانى وما أحسَـنوا

إن كان نَمّاما فتنكيسُه * من غير تكذيبٍ لهم مأمنُ[2]

وأمّا الجِرْجِير وما قيل فيه — فقال ابنُ وحشيّة : وان أردتم جِرْجِيرا فخذوا خُنْفَساءَ كبيرة ، ومن ورق الباذَرَنبُويه[3] ثلاثةَ قُضبان ، واسحقوه مع الخُنْفَساء ، ثم خذوا سبعَ حَبّاتِ حِمّصٍ أسود ، واقلوها ، وألبسوها الذى سحقتم ، واطمُروه[4]

(١) يريد بالأول : الشاعر الذى قبله ، لا الأول من الشعراء الذين اختار لهم فى هذا الموضع ، وهو أبو اسحاق الحضرمى ، اذ ليس فى شعره ما يصح أن يجعل ما فى هذين البيتين الآتيين مخالفا له .

(٢) يلاحظ أن المؤلف اقتصر على ما وصف به النمام من الشعر ، ولم يورد شعرا فى وصف النعناع الذى سبق الكلام عليه ؛ وقد وقفنا على بيتين لبعض الشعراء فى وصفه وهما :

وجاءت بنعناع كأن غصـونه * وأوراقه مخـلوقة من زبرجد

اذا مسه لفح الحرور رأيتـه * كاصداغ زنج فلفلت من تجعد

انظر حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٤٠ ولعل قائل هذين البيتين متأخر فى الزمن عن عصر المؤلف .

(٣) كذا ورد هذا الاسم فى جميع الأصول ؛ ويقال فيه أيضا باذرنجبويه وبذرنبوذ ؛ وهذه الأسماء الثلاثة ذكرها داود فى التذكرة ج ١ ص ٩٣ طبع بولاق كما ورد الاسمان الأولان فى المنهاج لابن جزلة وقال ابن البيطار فى المفردات ج ١ ص ٧٤ طبع بولاق إنه اسم فارسىّ معناه الأترجىّ الرائحة ، ويسمى أيضا : البقلة الأترجية ، وهو الترجان عند عامة الناس ؛ ثم قال نقلا عن ديسقوريدس : إنها عشبة وورقها وقضبانها يشبهان ورق البلوط وقضبانه ، إلا أن ورقها أكبر من ذلك الورق ، وليس عليه زغب مثل ما عليه ، ورائحتها مثل رائحة الأترج الخ . وقال داود : هى بقلة تنبت وتستنبت ، خضرة ، لطيفة الأوراق ، بزهر الى الحمرة ، عطرية ربيعية وصيفية الخ .

(٤) فى القاموس وشرحه أن هذا الفعل من باب ضرب ، وفى المصباح أنه من باب قتل ولهذا ضبطناه بالوجهين .

فى الأرض، ولا تسقوه الماء، ولتكن أرضا نديّةً بالقرب من نباتٍ يُسقَى دائما فإنّه يَخرُج من ذلك الجِرْجِير .

وقال الشيخُ الرئيس : الجِرْجِيرُ منه برّىٌّ ومنه بستانىّ، وبِزْرُ الجِرْجِير هو الّذى يُستعمَل فى الطّبيخ بدلَ الخَرْدَل، وهو حارٌّ فى الثالثة، يابسٌ فى الأولى، وفى رَطْبِه رُطوبةٌ فى الأُولى، وهو ملّينٌ منفّخ، وماؤه بمرارة البقر ينفع لآثار القروح، وهو مصدّع، خصوصا اذا أُكِل وحدَه، والخَسّ يمنع هذا الضررَ منه، وكذلك الهِنْدَبا والرِّجْلة، وهو مُدِرٌّ للّبن، وفيه هضمٌ للغذاء، والبَرّىُّ منه مُدِرٌّ للبولِ محرِّكٌ للباه والإنعاظ، خصوصا بِزْرَه، واذا أُكِل وشُرِب عليه الشّرابُ الرّيحانىُّ[1] فهو دِرْياقٌ لعضّة ابنِ عِرْس .

وأمّا السَّذابُ وما قيل فيه — فقال ابنُ وحشيّة : ان أردتم سَذابا فخذوا رِجلَىْ ديكٍ فأنقعوهما فى عُصارة الفُودَنْج[2] البَرّىّ أربعةَ أيّام، ثم اغمِسوهما فى الزّيت وأغرِزوهما فى الأرض، واجعلوا فوق أصابع كلِّ رِجلٍ حجرين[3] من الكُنْدُر أكبرَ ما تقدرون عليه، ثمّ طاقةً من سَذابٍ يابسٍ عَرْضا، واطمِروه فى التراب، فإنّه بعد أحد وعشرين يوما يخرج منه السَّذاب، فحوّلوه من منبِته الى بقعةٍ أخرى، فانّه يشتدّ ويقوَى، ومن خاصّيّة السَّذاب أنّ الحائضَ اذا مسّته بيَدِها جفّ، وهو اذا زُرِع فى أصل شجرة التينِ نَقَصتْ حرارتُه وحَرافتُه لما بينهما من الموافقة .

(١) الشراب الريحانى هو الذى ألقى فيه العود والقرنفل ونحوهما، كما فى رسالة الحسين بن نوح القمرى فى تفسير المصطلحات الطبية، وهى ضمن مجموعة مخطوطة محفوظة بالمكتبة التيمورية تحت رقم ١١٩ طب .

(٢) تقدم ما يستفاد منه معنى الفودنج فى ص ٦٩ من هذا السفر فى الكلام على النعنع .

(٣) يريد بقوله « حجرين من الكندر » حصاتين كبيرتين من العلك، وهو اللبان، وقد فسرناه بهذا المعنى اذ لم نجد ضمن أنواع الأحجار الكثيرة التى راجعناها فى القانون والمفردات والتذكرة والشذور الذهبية وغيرها حجرا منها يقال له : حجر الكندر .

وقال الشيخ الرئيس : أوفقُ السَّذابِ البستانىِّ ما يَنبتُ عند شجرة التّين ؛ وطبعُ السّذابِ الرَّطبِ منه حارٌّ يابسٌ فى الثانية ، واليابسُ حارٌّ يابسٌ فى الثالثة : واليابسُ البَرّىُّ حارٌّ يابسٌ فى الرابعة ؛ وهو مقطِّعٌ محلِّلٌ مُفِشٌّ(١) جدّا ، منقٍّ للعروق مقرِّحٌ قابض ؛ وهو مع النَّطرون على البَهَق الأبيض وعلى الثآليل(٢) والتُّوث(٣) نافع ويُذهِب رائحةَ الثُّوم والبصل ، وينفع من داء الثّعلب(٤) ؛ واذا دُقّ(٥) وضُمِد به مع الملح عضوٌ أحدث عليه ورما حارّا ؛ واذا جُعِل على خنازير(٦) الحَلْق والإبط حلّلها

(١) كذا فى القانون المنقول عنه هذا الكلام ج ١ ص ٣٧٨ طبع بولاق وكذلك فى النسخة الأوربية ؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أنه يقال : «أفشة» ؛ والذى وجدناه تعدية هذا الفعل بنفسه لا بالهمز ، فيقال : « فشه » ، أى ازال انتفاخه ، وهو المراد هنا ؛ والذى فى جميع الأصول : «مقشر» ؛ وهو تحريف .

(٢) الثآليل : بثور صغيرة شديدة الصلابة مستديرة ؛ وهى على ضروب شتى ، فمنها منكوسة ، ومنها متشققة ذات شظايا ، ومنها متعلقة ، ومنها مسمارية ، غليظة الرءوس ، مستديرة الأصول ، تأخذ الى داخل العضو كأنها مسمار ، ومنها طوال معوجة ، وتسمى قرونا ، ومنها منقيحة تكون المدّة تحتها ، وتسمى طرسيوس (قاموس الأطباء) .

(٣) التوث : جمع توثة ، وهى بثرة متقرحة تأخذ فى عمق الخد والوجنة فى أكثر الأمر ، وقد تحدث فى الفرج والمقعدة ، وحدوثها من خلط غليظ فيه حدّة ، ولذلك تتقرح (الأسباب والعلامات للسمرقندى ورقة ٢٢١ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ طب م وقال ابن سينا : إن أكثر هذا الورم فى المقعدة والفرج (القانون ج ٣ ص ١٢٩ طبع بولاق) وهو مخالف لما تفيده عبارة السمرقندى السابقة .

(٤) داء الثعلب : علة يتناثر منها الشعر ؛ وسمى داء الثعلب لعروضه للثعالب .

(٥) عبارة القانون «والبرى اذا دق» الخ .

(٦) الخنازير : أورام صلبة مستديرة تحدث فى اللحم الرخو ، وخاصة فى العنق ، وتكون فى الأكثر جماعة وعدة يجمعها كيس واحد ، وقد يكون لكل واحدة منها كيس خاص ؛ وسميت هذا الاسم لكثرة عروضها للخنازير ، كما فى قاموس الأطباء . وقال فى الشذور الذهبية : ان داء الخنازير هو احتقان الغدد اللينفاوية ، لا سيما غدد العنق والبطن احتقانا لا ألم معه ؛ ثم قال : ويظهر أولا فى جزء من البدن ثم يمتد فى جملة أجزاء منه الخ .

والصَّمغُ أقوى فى جميع ذلك؛ واذا جُعِل مع السَّمن (١) والعسل على القوابى (٢) ومع الخلّ والإسْفِيداج (٣) على النَّمْلة (٤) والحُمْرة (٥) [نَفَع] (٦) وينفع من الفالج وعِرْق النَّسا وأوجاع المفاصل شربا وضمادا بالعسل، ويُضمَد به مع السَّويق للصُّداع المُزمِن؛ وعُصارتُه المسخَّنةُ فى قشور الرّمّان تُقطَر فى الأُذُن فتنفعها (٧)، وتسكِّن الوجعَ والطَّنِينَ والدَّوِىّ، وتَقتُلُ الدّود، وتُطلَى بها قُروحُ الرأس؛ وهو يُحِدّ البصر، وخصوصا عُصارتَه مع عُصارةِ الرازِيَانَج والعسل كحلا وأكلا، وقد يُضمَد به مع السَّوِيقِ على ضَرَبان العين، وطبيخُ الرُّطْب منه مع الشِّبْث (٨) اليابِس نافعٌ لوجع الصّدر وعُسر النَّفَس على ما شَهِد به رُوفُس

(١) فى مفردات ابن البيطارج ٣ ص ٦ «الشب» مكان قوله : «السمن» .

(٢) كذا ورد هذا الجمع فى جميع الأصول والقانون وغير ذلك من كتب الطب؛ ولم نجد فيما لدينا من الكتب أنه يقال فى جمع القوباء : «القــوابى» والذى وجدناه أنه يقال فى جمعه : «قوب» بضم أوله وفتح ثانيه .

(٣) الاسفيداج : طين يجلب من اصفهان يكتب به الصغار، ورماد الرصاص والآنك؛ وهو معرب اسفيداب بالفارسية، ومعناه المـاء الأبيض . انظر الألفاظ الفارسية المعرّبة .

(٤) النملة : بثرة أو بثور تخرج وتحدث ورما يسيرا، وتسعى، وربمـا انحلت، وربمـا تقرحت وسببها إما صفراء رقيقة جدا، وهى النملة الساعية، وإما صفراء غليظة، وهى النملة المتأكلة، ولونها الى الصفرة، وتكون ملتهبة، ويحس فى كل نملة كعض النمل؛ وبالجملة فان كل ورم جلدى ساع لاغوص له فهو نملة . انظر قاموس الأطباء .

(٥) الحمرة : ورم من جنس الطواعين؛ قاله الأزهرى . وقال الأطباء : الحمرة، هى الورم الصفراوى؛ كما فى قاموس الأطباء . وقال داود : هى ورم حار شـفاف براق، يسهل غمـزه ويبيض به، ثم يعود وهى فى الأصح ما كان عن الدم؛ وعند الأكثر عن الصفراء التذكرة ج ٣ ص ٢١٤ طبع بولاق .

(٦) هذه الكلمة أوما يفيد معناها ساقطة من جميع الأصول؛ والسياق يقتضى اثباتها، اذ هى جواب الشرط السابق . وعبارة ابن سينا : «يجعل مع السمن والعسل على القوابى ومع الخل والاسفيداج على النملة والحمرة» القانون ج ١ ص ٣٨٨ طبع بولاق .

(٧) كذا فى الأصول؛ والذى فى القانون : «فتنقيها»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٨) كذا ضبط هذا اللفظ فى القـاموس وشرحه ضبطا بالعبارة؛ والذى فى اللسان أنه بكسر الشـين والباء؛ ويقال فيه أيضا شبت بكسر الشين والباء وتشديد التاء المثناة، والبحرانيون يقولون فيه : صبت؛ وهو معرّب .

ويُضمَد به مع التين للاستسقاء اللحمىّ[1]، ويُسقَى شرابٌ طُبِخ فيه السَّذاب، واذا شُرِب من بِزْره من درهمٍ إلى درهمين للفُواق البَلْغَمىّ سكّنه؛ وهو يُمْرئ ويشهّى ويقوّى المعدة، وينفع من الطِّحال؛ وهو مجفِّفٌ للمنىّ ويقطعه، ويُسقِط شهوةَ الباه ويُحقَن به مع الزّيت لأوجاع القُولَنْج، ويوضع بالعسل على قروح المقعدة، ويُغلَى فى الزّيت ويُشرَب للدِّيدان؛ قال: والنوعان يَستفرِغان فضولَ البدن بالإدرار؛ ويُضمَد به وبورق الغار[2] على الأنثيين لأورامهما، وأكلُه ينفع من الحمّى النافض[3] والتمريخُ بدُهنِه؛ وهو يقاوم السُّموم، والإكثارُ من أكل البَرِىّ قاتل[4]. ولم أقف على وصفٍ فيه فأُورِدَه.

وأمّا الطَّرْخُون[5] وما قيل فيه — فهو صِنفان: بابلىّ، وهو طويل الورق؛ ورومىّ، وهو مدوَّر؛ قال ابنُ وحشيّة فى توليده: وان أردتم الطَّرْخُون فخذوا

(١) زاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله: «والزق». والاستسقاء اللحمى: مرض ذو مادة باردة غريبة تتخلل الأعضاء فتربو بها، ويقع فى خلل الأعضاء الظاهرة كلها؛ أما إن كان فى خلل المواضع الخالية التى فيها أعضاء تدبير الغذاء — وهى فضاء الجوف الأسفل — فهو الزق والطبلى، فان العظم يحصل فى البطن، لا فى نفس تلك الأعضاء. انظر قاموس الأطباء.

(٢) الغار هو الذى يسميه أهل الشأم: الرند، وهو شجر عظام له ورق طوال أطول من ورق الخلاف، وحمل أصغر من البندق، أسود القشر، له لب يقع فى الدواء، وورقه طيب الريح يقع فى العطر، وهو من نبات الجبال؛ وقد ينبت فى السهل.

(٣) الحمى النافض، هى ذات الرعدة. والذى فى جميع الأصول: «النافضة» والتاء زيادة من الناسخ انظر تاج العروس وغيره.

(٤) كذا فى القانون المنقول عنه هذا الكلام؛ والذى فى جميع الأصول: «ماسك»؛ وهو تحريف.

(٥) الطرخون: اسم يونانىّ كما فى معجم أسماء النبات، وهو بقلة معروفة عند أهل الشأم، قليلة الوجود بمصر؛ وقال على بن محمد: هو نبات طويل الورق، دقيق السوق، يعلو على الأرض نحوا من شبر الى ذراع وهو من بقول المائدة، تقدّم عليها أطرافه الرخصة مع النعنع وغيره من البقول فينهض الشهوة ويطيب النكهة (ابن البيطار).

من عروق العُشَّر[1] وورقه فدُقّوا ذلك دقّا يسيرا بلا سحق، ثمّ صرّوه فى صُرّة واحدة أو صُرَر فى ورق الفُجْل الكبار، وآطمروه فى الأرض، فإنه يَخرُج لكم منه الطَّرْخُون.

وقال الشيخ الرئيس: قالوا: إن العاقرَقَرحا هو أصلُ الطَّرْخُون الجبلىّ؛ قال: وطبعُه الظاهر أنّه حارٌّ يابسٌ الى الثانية، وإن كانت فيه قوّةٌ مخدِّرة؛ قال: وقال بعضُ من لا يُعتَمد عليه: إنّه باردٌ يابس. قال الشيخ: وهو مجفِّفٌ للرّطوبات، وفيه تبريدٌ ما، واذا مُضِغ وأُمسِك فى الفم نفع القُلاع[2]؛ وهو يُحدِث وجعَ الحَلْق؛ وهو عَسِر الهضم؛ وهو يقطع شهوةَ الباه.

وأمّا الإسفاناخُ وما قيل فيه — أمّا توليده فقال ابنُ وحشيّة فيه: خذوا عروقَ الخَطْمىّ[3] ولُفّوا عليها من ورق الخَسّ الرَّطْب، وآنقعوها فى الشَّيْرَج يوما ثمّ آطمروها فى التراب، فإنّها تُنبِت بعد سبعة أيّام إسفاناخا.

وأمّا طبعُه وأفعالُه — فقال الشيخ: هو باردٌ رَطْبٌ فى آخِر الأولى، وهو ملَيِّن، وفيه قوّةٌ جاليةٌ غسّالة، ويَقمَع الصّفراء، وينفع من أوجاع الظّهر الدّمويّة ونافعٌ من وجع الصّدر والرّئة.

---

(١) العشر: شجر فيه حراق كالقطن يستجود الاقتداح به، ويحشى فى المخاد، وهو من كبار الشجر، وله صمغ حلو وورق عريض، وسكر يخرج من زهره ومن فصوص شعبه معروف بسكر العشر، فيه مرارة ما، وله نوار كنوار الدفلى حسن المنظر.

(٢) القلاع بضم القاف: قرحة تكون فى جلدة الفم واللسان مع انتشار واتساع، وتعرض للصبيان كثيرا لرداءة اللبن أولسوء انهضامه فى المعدة.

(٣) الخطمىّ، قال القيصونى فى قاموس الأطباء إنه يعرف فى مصر بشجر ورد الحمار، وهو نبات له ورق مستدير، وزهر شبيه بالورد، وساق طويلة لزجة، وبزر مستدير فى غلاف مستدير اه وفى كتب اللغة أنه نبات يغسل به الرأس.

وأمّا البَقلةُ الحَمْقاء[1] — وهى اليرسا[2]، وتسمّى الرِّجْلة[3] والفَرْفِين[4] — .

أمّا توليدها — فقد قال[5] : وان أردتم يرسا[2] — وهى البقلةُ الحَمْقاء — فخذوا عروق القطن وورقَه رطبين فدقّوهما دقّا يسيرا وغرّقوهما باللّبن الّذى قد أُنبِذ[6] فيه الحِمّص، ثمّ اطمروه فى الأرض، فإنّه بعد أسبوعٍ تَنبُت منه هذه البقلة. والذى نعرفه نحن من أمرها أنّها تَنبُت فى أرضٍ قصب السكّر من غير معالجَة .

وأمّا طبعُها وفعلُها — فقال الشيخ الرئيس : إنّ طبعَها باردٌ فى الثانية[7] رَطْبٌ فى آخرها، وإنّ فيها قبضا يمنع النَّزْف والسَّيَلاناتِ المُزمِنة، وغِذاؤها قليلٌ غيرُ

(١) سميت هذه البقلة البقلة الحمقاء لأنها تنبت فى مجرى السيل فيقتلعها ؛ أو لأنها تنبت فى طرق الناس فتداس ؛ و يقال فيها أيضا بقلة الحمقاء على الاضافة .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع الأصول ؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب الكثيرة المؤلفة فى النبات ولا فى معجمات اللغة العربية والفارسية ؛ والذى فى عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٤ ص ٦٩٥ أن البقلة الحمقاء تسمى باللسان النباتى : «لراسيا» وكذلك فى دائرة المعارف للبستانى ج ٥ ص ٢٨ ء وهو أقرب الأسماء التى وجدناها لهذا النبات من الرسم الوارد فى الأصول . وفى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة أن هذه البقلة تسمى بالفارسية فرفه و پرپريم وفرفين وفرفينة و پرپهن وفرفهن ؛ و بالعربية الفرفخين والفرفين والفرفير .

(٣) «وتسمى الرجلة» ، أى بالسريانية والبربرية كما فى تذكرة داود ج ١ ص ١١٤ طبع بولاق .

(٤) كذا ضبط هذا اللفظ ضبطا بالقلم فى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ؛ وفى معجم أسماء النبات ص ١٤٧ فرجخين بالجيم .

(٥) قال ، أى أبو بكر بن وحشية ، وهو الذى ينقل عنه المؤلف توليد أنواع النبات التى ذكرها فى هذا السفر .

(٦) فى تاج العروس ما يفيد أن (انبذته) بالألف لغة ضعيفة ، والأكثر فيه «نبذته» بدون ألف .

(٧) كذا وردت هذه العبارة فى جميع الأصول ، وعبارة ابن سينا : «بارد فى الثالثة رطب فى آخر الثانية» القانون ج ١ ص ٢٧٥ طبع مصر وكذلك فى النسخة الأوربية ص ١٤٦ ؛ ومؤدّى العبارتين مختلف ؛ ولعل ما هنا هو الموجود فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

مذموم؛ (١) وهى قامعةٌ للصّفراء جدا؛ قال: ومن خاصّيّتها أنّها تُحَكّ بها الثّآليلُ (٢) فتقلعُها؛ وهى ضِمادٌ للأورام الحارّة الّتى يُتخوّف عليها الفساد، وللحُمرة (٣)، وتنفع البُثورَ فى الرأس غسلا بها، وتسكّن الصُّداعَ الحارَّ الضَّربانىّ؛ وتنفع من الرَّمَد، وتَدخُل فى الأكحال والإكثارُ منها يُحدِث الغِشاوة؛ وتنفع التهابَ المعدةِ شربا وضِمادا؛ وتنفع الكبدَ الملتهبة، وتمنع القىء، وتنفع من أوجاع الكُلَى والمَثانةِ وقروحِهما، وتقطع شهوةَ الباه؛ وزعم ما سرجويه أنّها تزيد فى الباه. قال الشيخ: ويشبه أن يكون ذلك فى الأمزجة الحارّةِ اليابسة؛ وهى تحبس نَزَفَ الدّمِ من الحيض؛ وينفع ماؤها من البواسير الدّامية، ومن الحُمّيات الحارّة؛ قال: وإن شُوِيتْ وأُكِلتْ قطعت الإسهال.

وأمّا الحُمّاض وما قيل فيه — فقال ابنُ وحشيّةَ: وإن أردتم الحُمّاض فخذوا من اليرسا (٤) ثلاثا أو أربعا فأنقعوها فى ماءٍ وخَلٍّ ثلاثةَ أيّام، ثمّ خذوا عِرْقا

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع الأصول؛ والذى فى القانون ج ١ ص ٢٧٥ طبع مصر: «غير موفور» وكذلك فى النسخة الأوربية ص ١٤٦؛ وهذه الرواية هى المناسبة لوصف الغذاء قبل بأنه قليل؛ ولعل ما هنا هو رواية النسخة التى نقل عنها المؤلف.

(٢) تقدّم تفسير الثآليل فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٤ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) الحمرة: ورم من جنس الطواعين، قاله الأزهرى؛ وقال فى قاموس الأطباء: إنها ورم صفراوى؛ وقال داود: هى ورم حار شفاف براق يسهل غمزه ويبيض به، ثم يعود، وهى فى الأصح ما كان عن الدم، وعند الأكثر عن الصفراء. التذكرة ج ٣ ص ٢١٤ طبع بولاق.

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع الأصول، ويريد به: البقلة الحمقاء كما يستفاد من ص ٧٨ س ١ من هذا السفر؛ وقد سبق التنبيه فى الحاشية رقم ٢ منها على أننا لم نجد اليرسا بهذا المعنى فيما راجعناه من الكتب الكثيرة المؤلفة فى مفردات الأدوية ولا فى معجمات اللغة العربية والفارسية، كما نبهنا أيضا على أنه قد ورد فى (عمدة المحتاج) المعروف بالمادة الطبية ج ٤ ص ٦٩٥ (دائرة المعارف للبستانى) ج ٥ ص ٥٢٨ أن البقلة الحمقاء تسمى باللسان النبانى «لراسيا»، وهو أقرب الأسماء التى وجدناها لهذا النبات من الرسم الوارد فى الأصول.

من عروقها أو عِرْقين فاجعلوهما فى الأرض، واجعلوا الطاقاتِ المنقوعةَ فوقهما ثم صبّوا عليها ذلك الخَلّ الممزوج، واطمروها، فإنّها تُنبِت لكم الحُمّاض.

وقال الشيخ الرئيس: الحُمّاضُ منه بستانىٌّ[1] ومنه برّىّ. يقال له: السِّلْقُ البرّىّ، وليس فى البرّىّ كلّه كما يقال حموضة، بل لعلّ فى بعضه حموضة؛ والبرّىُّ أقوى فى كلّ شىء؛ وطبعُه باردٌ يابسٌ فى الثانية، وبزره باردٌ فى الأولى، يابسٌ فى الثانية، وفيه قبض، وفى التّفه منه تحليلٌ يسير، والحامضُ أقبَض؛ والذى ليس شديدَ الحموضةِ أغذَى، وهذا هو الشبيهُ بالهِنْدَبا؛ وكلُّه يقمع الصّفراء؛ وخلّطُه محمود؛ وأصلُه بالخَلّ ينفع لتقشير الأظفار؛ وإذا طُبِخ بالشّراب نفع ضمادُه من البرص والقُوْباء؛ وقيل: إنّ أصلَه إذا عُلِّق فى عنق صاحبِ الخنازير[2] انتفعَ به؛ وأصلُه بالخلّ للجرب المتقرّح والقَوابى[3]؛ وطبيخُه بالماء الحارّ ينفع من الحِكّة، وكذلك هو نفسُه فى الحمّام؛ وإذا تُمضمِض بعُصارتِه نفع من وجع السّنّ، وكذلك بمطبوخه فى الشّراب؛ وينفع من الأورام الّتى تحت الأذن؛ وينفع من اليَرَقان الأسوَدِ بالشّراب؛ ويسكّن الغَثَيان؛ ويؤكل لشهوةِ الطّين؛ وبزره يعقِل البطن؛ وقد

(١) ذكر ابن سينا فى القانون ج ١ ص ٣١٨ طبع بولاق نقلا عن ديسقوريدوس فى الحماض أنه أصناف كثيرة، وأورد منها خمسة، ووصف كل صنف منها، وكذلك ابن البيطار فى مفرداته ج ٢ ص ٣٢ ولم يورد المؤلف منها هنا غير البستانى والبرّىّ، كما صنع ابن جزلة فى (المنهاج)؛ فلعل أصناف الحماض كلها ترجع الى هذين الصنفين؛ أو لعل الباقى قد ترك اختصارا.

(٢) الخنازير: أورام صلبة مستديرة تحدث فى اللحم الرخو، وخاصة فى العنق، وتكون فى الأكثر جماعة وعدة يجمعها كيس واحد، وقد يكون لكل واحدة منها كيس خاص؛ وسميت هذا الاسم لكثرة عروضها للخنازير. انظر قاموس الأطباء.

(٣) كذا ورد لفظ القوابى جمعا لقوباء فى جميع الأصول وغيرها من كتب الطب التى بين أيدينا ولم نجد هذا الجمع فيما راجعناه من كتب اللغة؛ والذى وجدناه أن قوباء تجمع على قوب بضم أوله وفتح ثانيه.

قيل : إنّ فى ورقه تليينا ما، وفى بزره عَقْلٌ مطلق ؛ وقال بعضهم : إنّ بزرَ الحُمّاض خيرَ مقلوّ فيه إزلاقٌ وتليين ؛ وأصلُه مدقوقا لسَيَلان الرَّحِم وتفتيتِ حَصاةِ الكُلْيـة إذا شُرِب فى شراب، واللُّزوجةُ الّتى فيه تنفع من السَّحْج العارِض من يُبْس الثُّفْل[1]؛ وهو ينفع من لسع العقرب، وخصوصا البَرّىّ ؛ وإن آستُعمِل بزرُه قبلَ لسع العقرب لم يضرَّ لسعُها .

وأمّا الرّازِيانَج[2] وما قيل فيـه — فقـال آبنُ وحشـيّة : ان أخذتم أختاء[3] الخنزيرِ فخلطتموها بدمه، ولففتموها فى شيءٍ من جِلده، ثم طمرتموها بالتراب الّذى له نَزٌّ وفيه رطوبة، خرج عن ذلك الرّازِيانَج[2] .

قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : "والرّازِيانَج[2] نَبَطىٌّ ورُومىّ .

فأمّا النَّبَطىُّ — فمنه بَرّىّ، ومنه بستانىّ[4]"؛ والبَرّىُّ أشدُّ حرارةً ويُبْسا، وأولى بالثالثـة؛ وأمّا البستـانىُّ فتكون حرارتُه فى الثانيـة؛ قال : والرّازِيانَج[2] يفتّح السُّدَد

(١) الثفل بالضم : الرجيع .

(٢) الرازيانج، هو المعروف بالشمار والشمر بالتحريك فى مصر والشام، والشمرة بحلب، والبسباس بالمغرب؛ وهو عطرىّ ذكىّ الرائحة .

(٣) الأختاء : جمع خثى بكسر أوله وسكون ثانيه، وهو الروث؛ قال أبو زيد فى كتابه : الخثى — والجمع أختاء — لكل باعر : لخف والظلف اذا ألقاه مجتمعا ليس بسلح ولا بعر، فالبقرة تخثى والشاة تخثى وكل ذى ظلف أو خف انظر تاج العروس مادة (خثى) .

(٤) لم يرد هـذا الكلام الموضوع بين هاتين العلامتين فى نسختى القانون المصرية ج ١ ص ٤٢٩ ولا الأوربية صفحة ٢٥٣ فى الكلام على الرازيانج؛ ولعله ورد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف، كما أنه من المحتمل أيضا أن يكون قوله قبـل : « قال الشيخ الرئيس أبو على بن سينا » مقدّما من تأخير، وكان مكانه بعد قوله : « ومنه بستانى »، ويكون هذا الكلام الموضوع بين العلامتين من كلام المؤلف لا من كلام الشيخ الرئيس .

ويُحِدّ البصر، خصوصا صَمْغَه؛ وينفع من ٱبتداء الماء، وزعم إبقراطيس[1] أنّ الهوامّ ترعَى بِزرَ الرّازِيانَج الطّرىّ ليقوِّىَ بصرَها، والأفاعىَ والحيّاتِ تَحُكّ أعيانَها عليه إذا خرجتْ من مآويها بعد الشتاء ٱستضاءةً للعين، ورَطْبُه يُغْزِر اللّبن، وخصوصا البستانىّ، ويُدِرّ البولَ والطّمْث؛ والبرّىُّ خاصّةً يفتّت الحصاة؛ وفيهما[2] منفعةٌ للكُلْية والمَثانة؛ والبرّىُّ ينفع من تقطير البول، وينقّى النُّفَساء؛ واذا أُكِل بِزرُه مع أصلِه عَقَل؛ وينفع من الحُمّيات المُزمِنة؛ وطبيخُه بالشّراب[3] ينفع من نهشِ الهوامّ؛ ويُدَقّ أصلُه ويُجعَل طِلاءً من عضّة الكلب الكَلِب.

"وأمّا الرّومىّ[4] — وهو الّذى بِزرُه الأَنِيسُون" — فقال جالِينُوس: هو حارٌّ فى الثانية، يابسٌ فى الثالثة. وقال الشيخ: هو مفتّحٌ مع قبضٍ يسير؛ وهو مسكّنٌ للأوجاع، محلّلٌ للرّياح، وخصوصا إن قُلِىَ، وفيه حدّةٌ يقارِب بها الأدويةَ المحرِقة وينفع من التهيّج فى الوجه، وورمِ الأطراف؛ واذا بُخِّر به وٱستُنشِق برائحتِه[5] سكّن الصُّداع؛ وإن سُحِق وخُلِط به دُهنُ الورد وقُطِر فى الأذن أبرأ ممّا يَعرِض فى باطنِها

(١) ضبطنا هذا الاسم بكسر أوله وضم ثانيه مع التشديد تبعا للنطق به فى اللغة الافرنجية؛ وضبط فى دائرة المعارف البستانية ج ١ ص ٣٢٣ بفتح أوله وضم ثانيه بدون تشديد؛ وضبط بضم الباء مع التشديد فى الشعر والشعراء ص ١٤ طبع أوربا ضبطا بالقلم لا بالعبارة فى كلا الكتابين؛ ولم ينص القفطىّ ولا ابن أبى أصيبعة فى كتابيهما على ضبطه.

(٢) عبارة القانون ج ١ ص ٤٣٠ طبع بولاق «وفى البرى والنهرى منفعة» الخ.

(٣) يطلق الشراب ويراد به ما أسكر من ماء العنب انظر رسالة الحسين بن نوح القمرى فى تفسير المصطلحات الطبية، وهى ضمن مجموعة مخطوطة محفوظة بالمكتبة التيمورية تحت رقم ١١٩ طب.

(٤) لم ترد هذه العبارة فى نسختى القانون المصرية والأوربية فى الكلام على الرازيانج، ولكن ورد ما يفيد معناها فى الكلام على الأنيسون ج ١ ص ٢٤٣ طبع مصر.

(٥) فى القانون ج ١ ص ٢٤٤ طبع مصر فى الكلام على الأنيسون: «بجاره» وكذلك فى النسخة الأوربية ص ١٢٥

من صَدْعٍ عن صدمةٍ أو ضربة، وينفع من السَّبَل[1] المُزمِن، "ويسهّل النَّفَس"[2] ويُدِرّ اللّبن، ويقطع العطشَ الكائنَ عن الرّطوبات البُورَقيّة، وينفع من سُدُدِ الكبدِ والطِّحال، ومن الرّطوبات؛ ويُدِرّ البولَ والطَّمْثَ الأبيض، وينقّى الرَّحِمَ من سَيَلان الرّطوبات البيض؛ ويحرّك الباه، وربّما عَقَل البطن؛ وهو يفتّح سُدُدَ الكُلَى ويدفع ضررَ السُّموم والهَوامّ، والله أعلم.

ما وصـ
الرازيانج
الشـ

وقال ابنُ وكيع فى الرّازيانَج:

أَخَذتُ من كفِّ الغزالِ الأحوَرِ * غصنا من البَسباسِ[3] ممطورا طرِى[4]
كأنّه فى عين كلِّ مبصِرِ * مِذبّةٌ من الحرير الأخضرِ

وأمّا الكَرَفْس وما قيل فيه — فقال الشيخُ الرئيس: الكَرَفْسُ منه جَبَلىّ ومنه بَرّىّ، ومنه بستانىّ، ومنه ماينبُت فى الماء وبقُربِه؛ وهو أعظمُ من البستانىّ

(١) السبل بالتحريك: غشاوة فى العين أوشبه غشاوة كأنها نسج العنكبوت تعرض من انتفاخ عروقها الظاهرة فى سطح الملتحمة والقرنية وانتساج شىء فيما بينهما كالدخان يشبه الغشاء الرقيق الأبيض.

(٢) لم ترد هذه العبارة الموضوعة بين هاتين العلامتين فى نسختى القانون المصرية والأوربية فى الكلام على الأنيسون، كما أنه لم يرد فى كلتا النسختين ما يفيد معناها.

(٣) البسباس، هو الرازيانج فى بلاد المغرب وانظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٨١ من هذا السفر.

(٤) الوقف على السكون فى هذا اللفظ إما لضرورة الشعر؛ وإما جريا على لغة ربيعة، فانهم يقفون على المنصوب المنوّن كما يقفون على المرفوع والمجرور، فيحذفون التنوين مع الفتحة التى قبله، قال شاعرهم:

* وآخذ من كل حىّ عصم *

(شرح الرضى على الكافية) ص ١٩٢ طبع الآستانة.

وقوّته كقوّته "ومنه[1] نوعٌ يسمّى سُمُرْنِيُون[2]" أعظمُ من البستانىّ أجوفُ السّاق إلى البياض، وقد يختلف بالبلاد، فمنه رومىّ، ومنه غيرُه؛ قال: وأقواه الرومىّ ثمّ[3] الجَبَلىّ؛ وطبعُه فى أولى الحرارة، وثانية اليُبوسة. وقال رُوفُس: البستانىُّ رَطْبٌ إلّا أصلَه، فهو يابسٌ اتّفاقا؛ قال: وهو محلِّلٌ للنّفخ، مفتّحٌ للسُّدد، مسكّنٌ للأوجاع؛ ومُرَبّاه أوفق للحرور؛ والبَرّىُّ ينفع لداء الثّعلب[4]، ولتشقيق الأظفار والتآليل[5] وشُقاقِ البَرْد[6]؛ والبستانىُّ مطيّبٌ للنّكهة جدّا؛ والبَرّىُّ مقرّحٌ إذا ضُمِد به ولذلك ينفع من الجربِ والقُوباءِ، ومن الجراحاتِ الى أن تختم، خصوصا سُمُرْنِيُون[7] وسُمُرْنِيُون يوافق جميعُ أجزائه عِرْقَ النّسا؛ والكَرَفْسُ البستانىُّ يَدخُلُ فى أضمدةِ[8] أوجاعِ العين؛ وينفع من السُّعال، وخصوصا سُمُرْنِيُون؛ وكذلك ضيقُ النَّفَس

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى (ج) ولا فى نسخة القانون المطبوعة فى أوربا.

(٢) فى (ا) و(ب): «شمرنيون» بالشين المعجمة؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل على ذلك أن ابن سينا وابن البيطار قد أورداه فى كتابيهما ضمن الأدوية التى فى حرف السين المهملة؛ وكذلك ورد فى الشذور الذهبية؛ وهو يونانى؛ وقد ضبطناه هكذا نقلا عن معجم أسماء النبات ص ١٧١

(٣) عبارة القانون فى الكلام على الكرفس: «أقواه الرومى الجبلى» بحذف كلمة «ثم» انظر الجزء الأول صفحة ٣٤٥ طبع مصر و ١٩٥ طبع أوربا.

(٤) تقدّم تفسير داء الثعلب فى عدة حواش من هذا السفر، منها ما سبق فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧٤ فانظرها.

(٥) تقدم تفسير التآليل فى عدة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٤ فانظرها.

(٦) يريد بشقاق البرد: التشقق العارض من البرد. وهو يصيب الانسان فى أطرافه وفى وجهه وشفتيه ومقعدته، ويصيب الدواب فى أرساغها، وربما ارتفع الى أوظفتها.

(٧) سمرنيون: لفظ يونانى، معناه الكرفس البرى، وقد ورد مضبوطا هكذا ضبطا بالقلم فى معجم أسماء النبات ص ١٧١

(٨) لم نجد فى كتب اللغة جمع ضماد على أضمدة كما هنا، إلا أن فى كتب القواعد ما يفيد اطراد هذا الجمع فى فعال بكسر الفاء وفعال بفتحها كحمار وأحمرة وزمان وأزمنة، وهو جمع قلة.

وعُسْرُه ؛ وهو من أدوية[1] أورام الثدى الحارّة ؛ وينفع الكبدَ والطّحال ؛ ويحرّك الجُشاءَ لتحليله ؛ وليس سريعَ الانهضام والانحدار ؛ وفى بزر الكَرَفْس تغثيةٌ وتقيّؤٌ إلّا أن يُقلَى ؛ قال : وقال بعضهم : إنّ جميعَ أصله نافعٌ للعدة . ويقولُ رُوفُس : لا ، بل قد يجلب إليها رطوباتٍ رديئةً حادّة ؛ وقال جالينوس : إنّه ممّا يصلُح أن يؤكَل مع الخَسّ ، فإنّه يعدِل بَرْدَ الخَسّ ؛ وبزرُه ينفع من الاستسقاء ، وينقّى الكبدَ ويسخّنها ؛ وهو يُدِرّ البولَ والطّمْث ؛ وهو ردىءٌ للحوامل ؛ وهو ينقّى الكُلْيةَ والمَثانةَ والرّحِم ، وينفع من عُسر البول ، ويُخرِج المَشيمة ، خصوصا سُمْرُنيُون ويملأ الرّحِمَ رطوبةً حرّيفةً إذا أُدمِن أكلُه . قال : وقال بعضُهم : الكَرَفْس يهيّج الباه ، حتى قال : يجب أن تُمنَع المُرضِعةُ من تناوله لئلّا يفسد لبنها لهيجان شهوة الباه ؛ والرّومىّ جيّدٌ لقُولون[2] والمَثانةِ والكُلْية ؛ وطبيخُه مع العَدَس يُتقيّأ به بعد شرب السّمّ ؛ وإذا لسعت العقربُ مَن أكلَه اشتدّ به الأمر . انتهى القسم الأوّل .

---

(١) فى القانون ج ١ ص ٣٤٥ طبع مصر : «من أضمدة» والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٢) قولون : معى متصل بالأعور ، وأكثر تولد القولنج فيه ، ومنه اشتق لفظ القولنج ، وقال الأورو بيون : قولون : جزء من الأمعاء الغلاظ يمتد من الأعور الى المستقيم ، ومن القسم الحرقفىّ الأيمن الى القسم الحرقفىّ الأيسر ، انظر الشذور الذهبية فى الاصطلاحات الطبية ؛ و فى كتاب المعرب والدخيل المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ لغة ما يفيد أن قولون هو القولنج اه والظاهر أنها تسمية مجازية من إطلاق اسم المحل ، وهو المعى المتصل بالأعور ، و إرادة ما يحل فيه ، وهو القولنج .

القسم الثانى من الفنّ الرابع فى الأشجار
وفيه ثلاثة أبواب

البابُ الأوّلُ من هذا القسم من هذا الفنّ فيما لثمره قشرٌ لا يؤكل

(٢٤)

ويَشتمِل هذا البابُ على اللَّوْزِ والجَوْزِ والجِلّوْزِ والفُسْتُقِ والشّاه بَلُّوط والصَّنَوْبَر والرّمّان والمَوْزِ والنّارَنْج واللَّيْمُون .

فأمّا اللَّوْزُ وما قيل فيه — فقال الشيخُ الرئيس فى طبيعته : الحلوُ معتدِلٌ إلى رُطوبة، والمُرّ حارٌّ يابسٌ فى الثانية؛ وقال فى أفعالِه وخواصّه : فى جميع أصناف اللَّوْزِ جِلاءٌ وتنقيةٌ وتفتيح، لكن الحلو أضعفُ من المرّ فى تفتيحه، لأنّه ملطِّف، ودُهنُه أخفُّ من جِرْمِه؛ والمُرّ ينفع من الكَلَف والنَّمَش والآثار، ويَبسُط تَشنُّجَ الوجه؛ وأصلُ المُرّ إذا طُبِخ وجُعل على الكَلَف كان دواءً قويًّا؛ وأكلُ اللَّوْزِ الحلوِ يسمِّن؛ والمُرَبّى بالشّراب جيّدٌ للشَّرَى (١)، ويُطلَى به بالعسل الساعية (٢) والنَّمْلة ويُطلَى به بالخَلّ أو بالشّرابِ على القَوابى (٣)، والمُرُّ أبلغُ فى ذلك؛ وهو جيّدٌ لوجع

(١) الشرى : بثور صغار مسطحة تحدث دفعة ، ويشتد غمها وكربها ليلا ، وسببها بخار حار يثور فى البدن دفعة .

(٢) يريد بالساعية : النملة الساعية ؛ وهى بثرة تخرج بالتهاب واحتراق ، ويرم مكانها يسيرا ، وتدب الى موضع آخر كما تدب النملة (تاج العروس) مادة نمل . وإذن فعطف النملة على الساعية من عطف العام على الخاص ، اذ النملة إما ساعية أو متأكلة ، فان كان سببها صفراء رقيقة جدا فهى الساعية ؛ وان كان سببها صفراء غليظة فهى المتأكلة ، ولون النملة الى الصفرة ؛ وبالجملة فكل ورم جلدى لاغوص له فهو نملة انظر قاموس الأطباء مادة « نمل » .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى جميع الأصول وكتب الطب الأخرى ؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة القوابى جمعا لقوبة ، كما أننا لم نجد فى كتب القواعد ما يسوّغه ؛ والذى وجدناه أن جمع قوباء قوب بضم القاف وفتح الواو .

الأُذُن والدَّوِىِّ فيها ، وخصوصا المُرّ دهنا ومسحوقا [بحاله](١) وممسوحا(٢) ؛ واذا غُسِل الرأسُ به و بالشرابِ نقّى الرّطوبةَ والحَزَاز(٣) ونوّم ؛ واذا شُرِب المُرّ قبلَ الشرابِ منَع السُّكْر، وخصوصا خمسين عددا ؛ وشجرُ اللَّوْزِ المُرِّ إذا دُقّ ناعما وخُلِط بالخَلّ ودُهْن الوردِ وضُمِد به الجبينُ نفع الصُّداع ، وكذلك دُهنُ اللَّوْز المُرِّ ينفع منه ؛ وهو يقوّى البصر؛ واللَّوْزُ المُرُّ مع نَشا(٤) الحِنطةِ جيّدٌ لنَفْثِ الدّم ؛ وينفع من السُّعال المُزمِن والرَّبْو وذاتِ الجَنْب ، وخصوصا دُهنَ الحلو؛ وسَوِيقُ اللَّوْزِ نافعٌ من السُّعال ونَفْثِ الدّم؛ وهو يفتّح سُدَدَ الكبد والطِّحال ، وخصوصا المُرّ، فإنّه يفتّح السُّدَدَ العارضةَ فى أطراف العروق؛ واذا أُكِل الطرىُّ بقشره نقّى بِلّةَ المعدة؛ وهو عَسِرُ الهضم ، جيّدُ الخِلْط ، قليلُ الغِذاء؛ واذا كان بالسّكّر انحَدَر سريعا ؛ ودُهنُ المُرِّ ينقّى الكُلْيةَ والمَثانة ويفتّت الحَصاة ، خصوصا مع الإِيرِساء(٥) شُربا ، وربّما نفع ضِمادا معه ومع دُهن

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصول ؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٣٥٤ طبع مصر وص ٢٠١ طبع أوربا اذ لا يستقيم الكلام بدونها ، فان قوله بعد : (ممسوحا) معطوف على قوله : « بحاله » ، أى إن هذا المسحوق اما أن يكون مسحوقا بحاله — أى بقشره — وإما أن يسحق ممسوحا ، أى مجردا عن القشر ؛ هذا ما يظهر لنا من معنى هذه العبارة ؛ ولم يرد فى القانون قوله : «دهنا» ولا قوله : «ممسوحا» ؛ وعبارته : خصوصا المر مسحوقا بحاله .

(٢) تقدّم بيان المراد بقوله : « وممسوحا » فى الحاشية التى قبل هذه ، فانظرها .

(٣) الحزاز بفتح الحاء : الحبرية ، وهى ما يتعلق بأصول الشعر من الوسخ ويشبه النخالة ، وهو المعروف بقشرة الرأس .

(٤) النشا معروف ، وهو معرب نشاسته بالفارسية .

(٥) كذا ضبط هذا اللفظ فى القاموس مادة «سوسن» ؛ والايرساء : أصل السوسن الاسمانجونى ومعناه فى الأصل قوس قزح ، وسمى هذا النبات إيرساء لاختلاف ألوانه انظر معجم أسماء النبات ص ١٠٠ والقانون ج ١ ص ٢٥٥ طبع مصر ؛ وورد فى القانون أيضا أنه من الحشائش ذات السوق ، وعليه زهرة مختلفة مركبة من ألوان من بياض وصفرة واسمانجونية وفرفيرية ، وهذه الأصول عقدية ، وورقه دقاق واذا عتق تسوّس» الخ .

الورد[1]، وينفع لأوجاع الرَّحِم وأورامها الحارّة وصلابتها وعُسْر البول ووجع الكُلَى، ويُحتمل[2] فيُدِرّ الطَّمْث، والحلو نافعٌ من القُولَنْج لجلائه، والمُرُّ أنفع، ودُهنُه أخفُّ من جِرمِه[3]. قال: وينفع من عضّة الكلب الكَلِب.

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه — فمن ذلك قولُ ابن المعتزّ:

ثلاثةُ أثوابٍ على جسدٍ رَطْبِ * مُخالِفةُ الأشكالِ من صنعة الرَّبِّ

تقيه الرَّدَى فى ليلِه ونهارِه * وان كان كالمسجون فيها بلا ذنبِ

وقال آخر:

أما تَرَى اللَّوزَ حين تُرْجِله[4] * عن الأفانين كَفُّ مقتطِف

وقشره قد جلا القلوبَ لنا * كأنّها الدُّرّ داخلَ الصَّدَفِ

وقال آخر[5]:

جاء بلوزٍ أخضرِ * أصغَرُه ملءُ اليدِ

كأنّما زِئْبِرُه * نَبْتُ عذارِ الأمردِ

كأنّما قلوبُه * من توأمٍ ومفرَدِ

جواهرٌ لكنّما الـ * أصدافُ من زبرجدِ

---

(١) كذا فى القانون ج ١ ص ٣٥٤ طبع مصر وكذلك فى النسخة الأوروبية؛ والذى فى الأصول: «اللوز» وهو غير مستقيم، فان قوله قبل: «وربما نفع» يريد به دهن اللوز المر، ولا معنى لأن يجعل دهن اللوز مع دهن اللوز.

(٢) المراد بالاحتمال عند الأطباء: أن تضع المرأة الدواء فى فرجها.

(٣) قد يتوهم أن هذه العبارة مكررة مع ما سبق فى السطر التاسع من صفحة ٨٦ من هذا السفر؛ والذى يلوح لنا أنه لا تكرار، إذ من المحتمل أن يكون مراده فى العبارة الأولى: دهن اللوز الحلو وفى هذه العبارة دهن اللوز المر.

(٤) ترجله، أى تنزله، يقال: أرجله؛ أى أنزله عن دابته.

(٥) هو ظافر الحداد الإسكندرى، كما فى مباهج الفكر.

وقال أبو طالب المأمونى :

ومستجنّ عن الجانين ممتنع * بحُلّةٍ لم تحُكها كفُّ نسّاج
دُرٌّ تكوّنَ من عاجٍ تضمّنه * فى البرّ لا البحرِ أصدافٌ من السّاج

وقال آخر فى لوزةٍ بقلبين :

٥ ومُهدٍ إلينا لوزةً قد تضمّنتْ * لمبصرها قلبين فيها تلاصقا
كأنّهما حِبّان فازا بخلوةٍ * على رِقْبةٍ فى مجلسٍ فتعانقا

وأمّا الجَوْزُ وما قيل فيه — فقال الشيخ : هو حارٌّ، ودِرْياقُه للمحرورين (٢٥)
السِّكَنْجَبِين، ولضعفاءِ المعدةِ المُرَبّى بالخَلّ؛ وهو حارٌّ فى الثانيـة[1] يابسٌ فى أوّلها
ويُبْسُه أقلّ من حرّه، وفيه رطوبةٌ غليظةٌ تذهب إذا عتق .

١٠ وأمّا أفعالُه وخواصُّه — ففى مقلوّه قبض ؛ وورقُه وقشرُه كلُّه قابضٌ للنّزف ؛
وقشرُه المحرَقُ مجفِّفٌ بلا لَذْع ؛ ودُهنُ العَتيقِ منه كالزّيت العَتيق ، وجِلاءُ العَتيقِ
قوىّ ، ولُبُّه الممضوغُ يُجعَل على الورم السّوداوىّ المتقرّح فينفع ؛ وصَمْغُه نافعٌ للقُروح
الحارّةِ منثورا عليها وفى المَراهم ؛ وهو مع عسلٍ وسَذابٍ ينفع التواءَ العَصَب ؛
وعُصارةُ ورقِه تُفتّر وتُقطَر فى الأُذُن فتنفع من المِدّة . وقيل : إنّه منقّلٌ للسّان
١٥ مبثّرٌ للفم ، وعُصارةُ قشرِه وربّه[2] يمنع[3] الخُنَاقَ ، ويضرّ بالسُّعال ؛ وهو عَسِرُ الهَضْم
ردىءٌ للمعدة ، والمُرَبّى والرُّطْبُ أجودُ للمعدة وأقلُّ ضررا ؛ والمُرَبّى بالعسل نافعٌ للمعدة

(١) كذا وردت هذه العبارة فى جميع الأصول ؛ وعبارة القانون المنقول عنه هذا الكلام ج ١ ص ٢٨٠ طبع مصر : « فى الثالثة يابس فى أول الثانية » وكذلك فى المنهاج لابن جزلة ؛ وفى قاموس الأطباء أنه حار فى الثانية يابس فى الأولى ؛ ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

٢٠ (٢) الرب ، هو دبس كل ثمرة ، وهو سلافة خثارتها بعد الاعتصار والطبخ ، والجمع ربوب ورِباب .

(٣) « يمنع » « ويضر » بإفراد ضمير الفاعل فى كلا الفعلين ، أى كل من عصارة قشره وربه يمنع الخ وقد ورد هذا الاستعمال كثيرا فى القانون .

الباردة؛ وقشره يحبس نزف الطمث؛ والمربى نافع للكلية الباردة؛ ورماد قشره يمنع الطمث شربا بالشراب وحملا[1]؛ والجوز مع التين والسذاب دواء لجميع السموم ومع البصل والملح ضماد على عضة الكلب الكلب وغيره .

وأما ما وصفه به الشعراء وشبهوه — فمن ذلك قول شاعر :

جاء[2] بجوز أخضر * مكسر[3] مقشر
كأنما أرباعه * مضغة علك الكندر[4]

وقال آخر :

والجوز مقشور يروق كأنه * لونا وشكلا مصطكى ممضوغ

وقال أبو طالب المأموني :

ومحقق التدوير يبعد نفعه * من كف من يجنيه ما لم يكسر
در يسوغ لآكليه يضمه * صدف تكون جسمه من عرعر[5]
متدرع في السلم فوق غلالة[6] * درعا مظاهرة بثوب أخضر

(١) الحمل : كناية عن أن تضع المرأة الدواء في فرجها كما هو معروف في كتب الطب .

(٢) في رواية «أحب بجوز» مباهج الفكر .

(٣) في رواية : «مفصص» (مباهج الفكر) .

(٤) الكندر بالفارسية : ضرب من العلك، وهو اللبان بالعربية .

(٥) قال في اللسان : العرعر شجر عظيم جبلي لا يزال أخضر، تسميه الفرس السرو . وقال داود : العرعر : برّي السرو، ولا فرق بينهما، غير أن العرعر أشد استدارة، وأصفر، يميل الى حلاوة التذكرة ج ٢ ص ٧٥ طبع بولاق . وذكر ابن البيطار أن ثمره منه ما يوجد عظمه مثل عظم البندق، ومنه ما يوجد على عظم الباقلاء، غير أنه كله مستدير طيب الرائحة حلو، فيه شيء من مرارة المفردات ج٣ ص ١٢٠ طبع بولاق .

(٦) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع أيضا .

وأمّا الجِلّوْز وما قيل فيه — فالجِلّوْز، هو البُنْدُق؛ وقد سمّى ابنُ سينا الصَّنَوْبَر بالجِلّوْز، وقال فى البُنْدُق : هو إلى حرارةٍ ما ويُبوسةٍ قليلة[1]، وفيه من القبض أكثرُ ممّا فى الجَوْز؛ وفيه نَفْخ، ويولّد الرّياحَ فى البطن؛ وإذا قُلِىَ وأُكِلَ مع فُلْفُلٍ قليلٍ أنضج الزُّكام؛ وقال إبقراط[2] : البُنْدُقُ يزيد فى الدّماغ، وإذا أُكِل بماءِ العسل نفعَ من السُّعال المُزمِن، وهو بطىءُ الهَضْم، ويهيّج القىء، وينفع من النُّهوش وخصوصا مع التِّين والسَّذاب[3] للدغ العقرب .

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه — فمن ذلك قولُ شاعر :

ولقد شربتُ مع الغزال مُدامةً * صفراءَ صافيةً بغيرِ مِزاجِ
فتفضّل الظّبىُ الغريرُ ببُنْدُقٍ * شبّهتُه ببنادقٍ من ساجِ
وكسرتُه فرأيتُ صوفا أحمرا * قد لُفّ فيه بنادقٌ من عاجِ

وقال ابنُ رافع :

جِلّوْزَةٌ من كفِّ ظبيٍ غَزِلِ * رَمَى بها نحوى كِشِلِ جُلْجُلِ
أو كُرَةٍ قد ثُلِّثَتْ من صَندَلِ * تُكسَر عن حريرةٍ لم تُغزَلِ

---

(١) عبارة ابن سينا : « هو الى الحرارة واليبوسة أميل » القانون ج ١ ص ٢٧٥ طبع مصر .

(٢) ضبطنا هذا الاسم بكسر أوله وضم ثانيه مع التشديد تبعا للنطق به فى اللغة الافرنجية ؛ وضبط فى دائرة المعارف البستانية ج ١ ص ٣٢٣ بفتح أوله وضم ثانيه بدون تشديد ضبطا بالقلم لا بالعبارة ؛ وضبط فى الشعر والشعراء ص ١٤ طبع أوربا بضم الباء مخففة ضبطا بالقلم أيضا ، ولم ينص القفطىّ ولا ابن أبى أصيبعة فى كتابيهما على ضبطه .

(٣) فى جميع الأصول : «والشراب» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ ص ٢٧٥ طبع مصر وص ١٤٧ طبع أوربا .

محمرة فوق بياض يعتلى * من حسنها المستظرف المستكمل (١)
* فى مطعم الشهد وعرف المندل *

وأما الفستق وما قيل فيه — فقال ابن وحشية فى توليده: وإن أردتم فستقا فخذوا كبد الماعز فشقوها، وادفنوا فيها عظم صلب الطاووس، وأهرقوا فوقها عصارة الشاهترج (٢)، وأطمروها (٣) فى الأرض، فإنه بعد سبعة وعشرين يوما تخرج منها شجرة الفستق. ٥

(٣٦)

وقال الشيخ الرئيس: طبعه أشد حرارة من الجوز، وهو حار يابس (٤) فى آخر الثانية، وفيه رطوبة، وزعم بعضهم أنه بارد، وقد أخطأ، وهو يفتح سدد الكبد لمرارته وعطريته، وفيه عفوصة، وغذاؤه يسير جدا، وهو جيد للمعدة، خصوصا الشامى الشبيه بحب الصنوبر، وهو يفتح منافذ الغذاء، ودهنه ينفع من وجع الكبد الحادث من الرطوبة والغلظ. قال [فإن] (٥) قال قائل: "لم أجد له فى المعدة كبير ١٠

(١) كذا فى جميع الأصول؛ وهو غير مستقيم، اذ لم نجد فى الكلام السابق ما يصح أن يعلق به قوله: «من حسنها». ولعل صوابه: «بحسنه» اذ به يستقيم المعنى، كما لا يخفى؛ أى أن هذا البياض يعتلى بحسنه؛ ولم نثبته فى صلب الكتاب لبعده فى الرسم عما ورد فى الأصول.

(٢) كذا ضبط هذا اللفظ فى القاموس بفتح التاء والراء مخففة ضبطا بالقلم لا بالعبارة؛ وضبط فى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ص ١٠٣ طبع بيروت بتشديد الراء المفتوحة؛ وهو معرب «شاهتره» بالفارسية ومعناه: سلطان البقول. قال ابن البيطار «هذا النبات صنفان: أحدهما ورقه صغار، لونه مائل الى لون الرماد، والثانى أعرض ورقا، ولونه أخضر الى البياض، وزهره أبيض، وزهر الأول أسود الى الفرفيرية، ويسميان كزبرة (الحمام) الخ وفى التذكرة: كزبرة الحمار. ١٥

(٣) كذا ضبط هذا الفعل فى القاموس وشرحه بكسر الميم ضبطا بالعبارة، فقد ورد فيهما أنه من باب ضرب، وذكر صاحب المصباح أنه من باب قتل. ٢٠

(٤) لم يرد فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية قوله: «يابس» ولعله ورد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف. (٥) لم ترد هذه الكلمة فى الأصول؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٤١٢ طبع مصر، فإن سياق العبارة يقتضى إثباتها.

مَضَرّةٍ ولا منفعة" أقول : بل يَمنع الغَثَيانَ، وَتقلُّبَ المعدة، ويقوِّى فَمَها؛ وهو ينفع من نَهْشِ الهَوامّ، خصوصا اذا طُبِخ بالشّراب .

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه — فمن ذلك ما قاله أبو إسحاقَ الصّابى :

٥ والنَّقْل[1] من فُستُقٍ حديثٍ * رَطْبٍ تَبدَّى به الجَفافُ
لى فيه تشبيهُ فيلسوفٍ * ألفاظُه عذبةٌ خِفافُ
زُمُرُّدٌ صانه حريرٌ * فى حقّ عاجٍ له غِلافُ

وقال آخَر :

زُمُرُّدةٌ[2] ملفوفةٌ فى حريرةٍ * لها حُقُّ عاجٍ فى غِلافٍ أديمِ

١٠ وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرىّ :

وحظّىَ من نَقْلٍ اذا ما نَعَتُّه * نَعَتُّ لَعمرى منه أحسنَ منعوتِ
من الفُسْتُق الشامىّ كلُّ مَصونةٍ * تُصان عن الأحداق فى بطن تابوتِ
زبرجدة ملفوفة فى حريرةٍ * مضمَّنة دُرّا مغشّى بياقوتِ

وقال آخَر :

١٥ وفُسْتُقٍ مستَلَذٍّ * من بعد شُرب الرَّحيقِ
كأنه حين ترنو * إليه عينُ الرَّموقِ
حُقٌّ من العاج يَحوِى * زبرجدا فى عقيقِ

(١) النقل بفتح النون : ما يتنقل به على الشراب؛ وقد يضم أوّله، وهو المشتهر على الألسنة؛ وذكر بعض اللغويين أن الضم خطأ .

٢٠ (٢) ضبطنا هذا اللفظ بفتح آخره لأنه مفعول لفعل سابق فى بيت قبله وهو :

وفستقة شبهتها مذ رأيتها * وقد نظرتها مقلتى بنعيم

انظر مباهج الفكر .

وقال آخَرُ يصف الضّاحك :

ومُهـدٍ إلينا فُسْـتُقا غيرَ مُطْبَقٍ * به زاد إحسانا على كلِّ محسـنِ
كأنّ آنفتاحا منـه دَلَّ على الّذى * به من كَمينٍ فى حَشاه مضـمَّنِ
ظُماءٌ من الأطيار حامت ففتّحتْ * مناقيرَها ثم آسـتعانت بألسُنِ

وقال آخَر : ٥

أُنظر الى الفُسْتُق المجلوبِ حين أَتى * مشـقَّقا فى لطيفاتِ الطَّـواميرِ[1]
والقلب ما بين قشرَيه يلوح لنـا * كألسُنِ الطّـير من بين المناقـيرِ

وقال آخَر :

كأنّمـا الفُسْتُق المـلوحُ حين بدا * مفتَّحَ القشر موضـوعا على طبقِ
وقد بدا لُبُّـه للعين ، ألسنةٌ * للطّيرِ عطشَى بهـا شيءٌ من الرَّمَقِ ١٠

وقال آخَر[2] :

وضاحـكٍ أجفـانُه * لم تَكتحِلْ بالوَسَنِ
لم أدرِ عن أفئـدةٍ * تَبسِم أم عن ألسُنِ
كعاشقٍ كلّفـه الـ * ـغـرامُ ما كلّفـنى
إذا أَخـذتَ قلبَـه * لم ينتفـع بالبدنِ ١٥

وقال أبو بكر بنُ القُرْطُبيّة :

صدفٌ أبيضُ نَقِى * ذو بهـاءٍ ورونقِ

---

(١) فى جميع الأصول ومباهج الفكر : «الطوافير» بالفاء ، ولم نجد له معنى يناسب السياق ؛ والطوامير : الأوراق ، واحده طومار وطامور ؛ وهو معرّب .

(٢) قائل هذا الشعر هو الزين عبد الكريم المعروف بابن الشهرزورى (مباهج الفكر) . ٢٠

مسفر عن جوهر (١) * أخضر فيه مطبق
كل صبغ يعزى الى * لونه قيل فستق

وأما الشاه بلوط (٢) وما قيل فيه — فالشاه بلوط هو القسطل ؛ قال ابن وحشية : وان أردتم الشاه بلوط فخذوا كليتى الخنزير وقرنى غزال ، فاغرزوا فى طرفى القرنين الكليتين ، وادفنوا ذلك فى الأرض ، واسقوه من الماء بقدر وصوله إليه ، فإنه ينبت فى أربعة وعشرين يوما شجرة تحمل الشاه بلوط (٣) ..... (٤) .

قال شاعر يصفه :

يا حبذا القسطل المجرد عن * قشريه بعد الجفاف فى الشجر
كأنه أوجه الصقالبة الـ * بيض وفيها تكرمش الكبر (٥)

(١) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أنه يقال : «أسفر عن الشىء» بمعنى كشف عنه وأظهره كما هو المراد هنا ؛ والذى وجدناه أنه يقال : «أسفر» بمعنى أضاء وأشرق ، وهو خاص بالألوان ، ولا تصح ارادته هنا ؛ ولو قال : «سافر» مكان قوله «مسفر» لم يختل وزن البيت ، وكان جاريا على مقتضى اللغة ؛ يقال : «سفرت المرأة عن وجهها» ، أى كشفته .

(٢) الشاه بلوط : لفظ فارسى ؛ قال داود : هو أنثى البلوط ينبت بجزيرة قبرس والبندقية ، ويرتفع فوق قامتين كثير الفروع ، مشرف الورق فيه شوك ما ، وحمله الى تفرطح كأنما قسم نصفين ، وقشره طبقتان ، داخل الأولى كالصوف ، ولذلك يسمى : «أبا فروة» (هذه التسمية مصرية) ، وتحت هذا قشر رقيق ينقشر عن حبة إسفنجية تقسم نصفين ، لدن حلو (التذكرة ج ٢ ص ٣٤ طبع بولاق) .

(٣) «تحمل الشاه بلوط» ، أى تحمل ثمره .

(٤) لم يجر المؤلف فى هذا النبات على عادته من تلخيص كلام الشيخ الرئيس أبى على بن سينا فى طبائع أنواع النبات وخواصها ، وكان محل ذكره هذا الموضع ، أى بين كلام ابن وحشية وما قيل فى وصفه ؛ ولعل المؤلف قد ترك ذلك اختصارا ؛ أو لعله لما لم يجد الشاه بلوط ضمن الأدوية التى أوردها ابن سينا فى حرف الشين المعجمة ظن أنه لم يورده فى كتابه ، مع أنه قد ذكره فى البلوط فى حرف الباء .

(٥) التكرمش معروف ؛ وهو عربى صحيح ذكره صاحب التاج بعد مستدركه على مادة كرش .

وأمّا شجر الصَّنَوْبَر وما قيل فيه — فشجر الصَّنَوْبَر صِنفان ، ذَكَرٌ وأنثى؛ فالذَّكَر هو الأَرْز، وهو لا يُثمِر، ومنه القَطِران؛ والأنثى صِنفان، صِنفٌ كبيرُ الحَبّ، وصِنفٌ صغيرُه، يسمّى قَضْم قريش (١)

وقال أبو بكر بنُ وحشيّة فى توليده : خذوا من شجرة الخُرْنُوب الشامىّ من عروقها الطّوال، فلُفّوها على قرنَىْ ثور، وأنقعوها فى الزّيت سبعةَ أيّام، ثمّ اجعلوها فى الأرض، وأسحقوا الكُنْدُر (٢) وذُرّوه عليها اذا غُرِست، فانّها تُنبِت شجرَ الصَّنَوْبَر .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا (٣) فيه — وسمّاه الجَلّوز وقال : هو حَبُّ الصَّنَوْبَر الكبار، وهو أفضلُ (٤) غِذاءً من الجَوز، لكنّه أبطأ انهضاما؛ وهو مركَّبٌ من جوهرٍ مائىٍّ وأرضىّ، والهوائيّةُ فيه قليلة؛ قال : وفى لِحاءِ شجرِه قبضٌ كثير؛

(١) كذا ضبط هذا اللفظ بفتح القاف ضبطا بالعبارة فى الشذور الذهبية ورقة ٨٧٨ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسىّ المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٥٧ طب ولم يذكره صاحب اللسان ولا صاحب التاج مادة «قضم» وقد اختلف كلام داود فى معنى هذا اللفظ فقد ذكر فى ج ٢ ص ٥٨ طبع بولاق فى الكلام على الصنوبر ما يوافق كلام المؤلف هنا ، وهو أنه صنف من أثى الصنوبر دقيق الورق صغير الحب؛ وقال فى ج ٢ ص ١٠٩ فى الكلام على قضم قريش : إنه حمل ذكر الصنوبر اه ولعلهما قولان للأطباء فيه . وفى مفردات ابن البيطار فى الكلام على قضم قريش : أنه يسمى فم قريش أيضا .

(٢) الكندر لفظ فارسىّ ، وهو ضرب من العلك ، وهو اللبان بالعربية .

(٣) يلاحظ أن ما نقله المؤلف عن الشيخ الرئيس أبى على بن سينا فى خواص الصنوبر لم ينقله عن موضع واحد من كتابه (القانون) بل عن موضعين منه ، أحدهما كلامه فى الجلوز فى حرف الجيم ، والثانى كلامه فى الصنوبر فى حرف الصاد .

(٤) فى جميع الأصول : «أثقل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ ص ٢٨٣ ويدل على ذلك أيضا الاستدراك الآتى بعده ، كما أن عبارة ابن البيطار تفيد هذا المعنى أيضا فقد ذكر فى الجزء الثالث صفحة ٨٧ أنه يغذو البدن غذاء قويا .

والدُّودُ الذى فيه فى قوّة الذَّراريح(١)؛ ولحاؤه(٢) ينفع من إحراق الماء الحارّ، "ويُلصِق(٣) الجراحات ذَرُورا" ومن القُروح(٤) الحَرَقيّة(٥)؛ وفيه قوّةٌ مُدْمِلة(٦)؛ وفى لحائه من القبض ما يَبلُغ أن يشفِىَ السَّحج(٧) إذا وُضِع عليه ضِمادا أو ذَرُورا؛ ويَصلُح لمواقع الضربة ويَدْمُل؛ وورقُه أصلح لذلك لأنّه أرطب؛ والغَرغَرةُ بطبيخ قشره تجلِب بلغما كثيرا؛ واذا سُلِق لحاؤه بالخَلّ وتُمضمِض به نفع وجعَ الأسنان؛ ودخانُه نافعٌ من انتثار الأشفار. قال: ويغذو غِذاء قويّا غليظا غيرَ ردىء؛ ويَصلُح للرّطوبات الفاسدةِ فى الأمعاء؛ وهو بطىءُ الهضم، ويُصلِحُ هضمَه: أمّا للبرودين فالعسل وللحرورين فالطَّبرزَذ(٨)، ويَزداد بذلك جُودةَ غِذاء؛ والمنقوعُ منه فى الماء تَذهَب

(١) الذراريح: جمع ذراح بضم أوّله وتشديد ثانيه كرمان، وذروح بفتح أوله كسفود، وذريح بكسر أوله كسكين، وذروح بفتح أوله وتخفيف الراء كصبور، وغير ذلك من اللغات، وهى دويبة أعظم من الذباب حمراء منقطة بسواد، قال ابن عديس: مجزعة مبرقة بحمرة وسواد وصفرة، لها جناحان تطير بهما، وهى من السموم القاتلة. وقال ابن الدهان اللغوى: الذروح ذباب منمّم بصفرة وبياض، وفرنده الديلم. وقال الترمذى فى شرح الفصيح نقلا عن بعض حذاق الأطباء: إنه حيوان دودى فى قدر الأصبع، وهو صنوبرى الشكل، ورأسه فى أغلظ موضع منه.

(٢) عبارة القانون «وذروروحائه» انظر الجزء الأول صفحة ٤١٥ طبع مصر.

(٣) تفيد هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين أن الصاق الجراحات من خواص الحاء السابق ذكره، والذى تفيده عبارة ابن سينا فى القانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية أن ذلك من خواص الورق، فقد قال: ويلزق ورقه الجراحات ذرورا».

(٤) «ومن القروح» معطوف على قوله: «من إحراق» السابق، أى أن لحاءه ينفع من إحراق الخ ومن القروح.

(٥) يجوز أن يقرأ قوله: «الحرقية» بسكون الراء كما أثبتنا نسبة الى الحرق بمعنى الإحراق، كما يجوز أن يقرأ بفتح الراء نسبة الى الحرق بالتحريك بمعنى النار.

(٦) مقتضى اللغة أن يقول: «داملة» من «دمله الدواء»، أى أبرأه؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أنه يقال: «أدمله الدواء».

(٧) السحج، هو انقشار ظاهر الجلد من شىء يصيبه.

(٨) الطبرزذ، هو السكر الأبيض الصلب؛ وهو فارسىّ، وأصله: تبرزذ بالتاء «وتبر» بالفارسية: الفأس وزذ، أو زد، الضرب، أى كأنما نحت هذا السكر من نواحيه بالفأس لصلابته. والطبرزن والطبرزل =

حِدّتُه وحَرافتُه ولَذعُه ؛ ويُبرِئ من أوجاع العَصَبِ والظّهرِ وعِرْقِ النَّسا ؛ وهو نافعٌ للاسترخاء ، وينقّى الرِّئةَ ويُخرِج ما فيها من القَيح والخِلْطِ الغليظ ، ويهيّج الباه ، وخصوصا المُرَبّى منه ؛ وينفع من القَيْح والحَصاة فى المَثانة ؛ وهو مع التّمر والتّين ينفع من لدغ العقرب .

وقال فى قَضْمِ[1] قريش : إنّه جيّدٌ لقروح الكُلَى والمَثانة . ٥

وأمّا ما وُصِف به الصَّنَوْبَر وشُبِّه به من الشعر — فمن ذلك قولُ بعض الشعراء :

صَنَوْبَرٌ أطيَبُ موجودِ * نلتُ به غايةَ مقصودى
كأنّه حين حبانى به * من خُصّ بالإنعام والجُودِ
حَبٌّ لآلٍ مُشرِقٌ لونه * فى جَوْفِ أدراجٍ من العُودِ ١٠

ونحوه قول الشاعر :

صَنَوْبَرٌ ظَلْتُ به مُولَعا * لأنّه أطيَبُ موجودِ
كأنّه الكافورُ فى لونِه * تحويه أدراجٌ من العُودِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِىّ — وذَكَر انتسابَه إليه — :

وإذ عُزِينا إلى الصَّنَوْبَر لم * نُعْزَ إلى خاملٍ من الخشبِ ١٥

= لفتان فيه ؛ وقيل : هو السكر أو العسل الذى طبخ بمثل عشره من اللبن الحليب حتى ينعقد ؛ وكما يطلق هذا اللفظ على السكر الأبيض يطلق على الملح اه ملخصا من كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة ص ١١١ طبع بيروت والشذور الذهبية المأخوذ منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٥٧ طب ومفردات ابن البيطار ج ٣ ص ٩٧ طبع بولاق .

(١) قضم قريش ، هو الصغير من حب الصنوبر ، كما نبه المؤلف على ذلك فى ص ٩٦ س ٣ من هذا السفر وقد ذكره ابن سينا فى حرف القاف . ٢٠

لا بل الى باسِقِ الفروعِ علا (١) * مناسِبا فى أُرُومة الحَسَبِ
مِثل خِيامِ الحريرِ تحملها * أعمدةٌ تحتها من الذهبِ
كأنّ ما فى ذُراه من ثمرٍ * طيرٌ وقوعٌ على ذُرا القُضُبِ
باقٍ على الصّيفِ والشّتاءِ إذا * شابت رءوسُ النّباتِ لم يَشِبِ
محصّن الحَبّ فى جَواشِنَ قد (٢) * أَمِنَ (٣) فى لُبْسِها من الحَرَبِ
حَبٌّ حكى الحُبَّ صِينَ فى قُرُبِ (٤) الـ * أصداف حتّى بدا من القُرُبِ
ذو نَثّةٍ (٥) ما يُنال من عنبٍ * ما نِيلَ من طِيبِها ولا رُطَبِ
يا شجرا حَبُّه حدانى أن * أفدى بأمّى محبّةً وأبى
فالحمد لله إنّ ذا لقبٌ * يزيد فى حسنِه على النّسبِ

وقال ابنُ رافع القَيْرُوانىّ :

يا حسنَه فى العين من صَنَوْبَرِ * يَحكى لنا جماجما من عنبرِ
يُفلَق عن حَبٍّ إذا لم يُكْسَرِ * مُصَنْدَلٍ إن شئتَ أو مُعَصْفَرِ
* كمِثلِ أصدافِ نفيسِ الجوهرِ *

(١) فى جميع الأصول : «من لى إلى يابس» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مباهج الفكر ج ٢ قسم ٣ ورقة ٣٨٧ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥٩ علوم طبيعية .

(٢) الجواشن : الدروع ، واحده جوشن بكوهر . (٣) أمنّ ، أى حبات الصنوبر .

(٤) القرب بضمتين : جمع قراب بكسر القاف ، وهو شبه الجراب ، شبه بها الأوعية التى يكون فيها حب الصنوبر ؛ ومعنى البيت أن هذا الحب قد صين فى أوعيته حتى بدا منها كما يصان الحب فى القلب حتى يغلب على صاحبه فيبدو للناس .

(٥) فى جميع الأصول : « دوية » ؛ وفى مباهج الفكر : « ذوبثة » بالباء مكان النون ؛ وكلاهما تصحيف إذ لم نجد لهما معنى يناسب السياق ؛ والصواب ما أثبتنا ؛ والمراد بالنثة هنا ما يرشح به حب الصنوبر من الدهن ، يقال : نث الزق ينث : اذا رشح بما فيه من السمن « ونث الرجل » : عرق من سمنه فرأيت على سحنته وجلده مثل الدهن .

وأمّا الرّمّان والجُلّنار[1] — فقال الشيخُ الرئيسُ أبوعلىّ بنُ سينا : الرمّان الحلوُ منه باردٌ إلى الأُولى رَطْبٌ فيها ؛ والحامضُ يابسٌ[2] فى الثانية ؛ والحامضُ يَقمَع الصّفراء ، ويَمنع سَيَلانَ الفُضول إلى الأحشاء ، وخصوصا شَرابَه ؛ وهو جَلاء مع القبض ؛ وحَبُّ الرّمّان مع العسل طِلاءٌ للدّاحِس[3] والقُروح الخبيثة ؛ وأقماعُه للجراحات ، ولا سيّما المُحرَقة . قال : والحلوُ ملينٌ ؛ وجميعُه قليلُ الغِذاء جيّدُه ؛ والمُزُّ[4] منه ربّما كان أنفعَ للمعدة من التُّفّاح والسّفرجل ، لكنّ حَبّه ردىء ؛ وأقبَضُ أجزائه الأقماع . قال : وحَبُّ الرّمّان بالعسل ينفع من وجع الأُذُن ؛ وهو طِلاءٌ لباطن الأنف ؛ وينفع حبُّه مسحوقا مخلوطا بالعسل من القُلاع[5] طِلاء ؛ وان طُبِخت الرّمّانةُ الحلوةُ بالشراب ثم دُقّت كما هى وضُمِدت بها الأُذُنُ نَفَعَ من ورمها منفعةً جيّدة ؛ وشَرابُ الرّمّان ورُبُّه نافعان من الخُمار ؛ وعُصارةُ الحامض تنفع من الظُّفرة[6] ؛ وهو يخشّن الصّدرَ والحَلْق ؛ والحلوُ يليّنهما ويقوّى الصّدر ؛ واذا سُقِىَ حَبُّ الرّمّان فى ماء المطر مَنَع نَفْثَ الدّم ؛ وجميعُه ينفع من الخفقان ، ويجلو الفؤاد ؛ والمُزُّ ينفع

(١) سيأتى بيان معنى الجلنار فى ص ١٠١ س٧ من هذا السفر .

(٢) عبارة ابن سينا « بارد يابس » القانون ج ١ ص ٤٣١ طبع بولاق .

(٣) الداحس ، ورم حار يعرض عند الأظفار مع شدّة ألم وضربان ، وربما يبلغ ألمه الإبط ؛ وربما اشتدّت معه الحمى ، واذا عرض فى أصل الظفر عرض عنه انقلاعه ، وقد يتقرح .

(٤) المز من الرمان : ما كان طعمه بين الحلاوة والحموضة .

(٥) القلاع بضم القاف : قرحة تكون فى جلدة الفم واللسان مع انتشار واتساع ، وتعرض للصبيان كثيرا لرداءة اللبن أو لسوء انهضامه فى المعدة .

(٦) الظفرة والظفر بالتحريك فيهما : جليدة تنبت عند المآق ، وقد تمتد الى سواد العين فتغشيه ؛ كما فى كتب اللغة ؛ والذى فى كتب الاطباء أن الظفرة زيادة من الملتحمة أو من الحجاب المحيط بالعين تبتدئ فى الأكثر من المآق الإنسى ، وهى ثلاثة أنواع : نوع منها غشائى رقيق يبتدئ من جانب الملتحمة ، والثانى يبتدئ من لحمة المآق ، وينبسط الى أن يلحق حدّ السواد فيقف ويغلظ ، والثالث يغشى فيضر بالبصر ، بل يبطله ألبتة (قاموس الأطباء) .

من التهاب المعدة؛ والحلوُ يوافق المعدة؛ والحامضُ يضرّها، ومع ذلك فحَبُّ الرّمّان يضرّ المعدة؛ وسَوِيقُه مصلِحٌ لشهوة الحَبالَى، وكذلك رُبُّه؛ خصوصا الحامضَ؛ ويُمصُّه المحمومُ بعد غِذائه فإنّه يمنع صعودَ البخار. قال: والحامضُ أكثرُ إدرارا للبول من الحلو؛ وكلاهما مُدِرّ؛ وسَوِيقُ الرّمّان ينفع من الإسهال الصَّفراوىّ؛ وقُشورُ أصلِ الرّمّان بالنَّبيذ تُخرِج الدِّيدان. قال: والحلوُ يضرّ أصحابَ الحُمّيات الحارّة.

وقال فى الجُلّنار[1]: هو زهرُ رُمّانٍ بَرّىّ، فارسىّ او مصرىّ، قد يكون أحمرَ وقد يكون أبيضَ، وقد يكون موردًا، وعُصارتُه فى طبعها كعُصارة لحية التَّيس[2]؛ قوّتُه قوّةُ شحم الرّمّان؛ وطبعُه باردٌ فى آخر الأُولى، يابسٌ فى الثانية؛ وأفعالُه وخواصُّه، هو مُغَرٍّ، حابسٌ لكلّ سَيلان، ويولّد السَّوداء؛ وهو جيّدٌ للثّة الدّامية ويَدْمُل الجراحاتِ والقُروحَ والعُقورَ والشُّجوجَ ذَرُورا؛ وهو يقوّى الأسنانَ المتحرّكة؛ وهو يَعقِل، وينفع من قروح الأمعاء وسَيلانِ الرَّحِم ونَزْفِها.

وأمّا ما قيل فيهما من الشعر — فمن ذلك ما وُصِف به الرّمّان وشُبِّه به، قال أبو هلال العسكرىّ:

(١) قال صاحب التاج إن جلنار معرب كلنار بالفارسية بضم الكاف الممزوجة بالقاف، وهذه هى القاف التى يقال لها: المعقودة، لغة مشهورة لأهل اليمن، ثم نقل عن ابن حجر أنه سأل شيخه عن هذه القاف ووقوعها فى كلام العرب فقال: هى لغة صحيحة، وقد ذكرها العلامة ابن خلدون فى تاريخه وأطال فيها الكلام، وقال: إنها لغة مضرية.

(٢) نقل ابن البيطار فى المفردات ج ٤ ص ١٠٤ طبع بولاق عن أبى حنيفة أن لحية التيس تسمى ذنب الخيل، وهى بقلة جعدة، ورقها كالكراث لا يرتفع كورقه، ولكن يتسطح، والناس يأكلونها ويتداوون بعصيرها. ثم نقل بعد ذلك عن حنين أنه يطلق هذا الاسم على نبات آخر ليس من قبيل النبات الأول ولا من أنواعه، وليس بينهما أدنى مناسبة، وقال: إنه هو المعروف عند عامتنا بالأندلس بالسوراص. ونقل عن ديسقوريدس أنه شجرة تنبت فى أماكن صخرية كثيرة الأغصان خشنة، ليست طويلة، لها ورق مستدير عليه زغب وزهر شبيه بالجلنار.

حَكَى الرّمّانُ أوّلَ ما تَبَدّى * حِقاقَ زبرجدٍ يُحشَون دُرّا
فجاء الصيفُ يحشوه عقيقا * ويكسوه مُرورُ القيظِ تِبْرا
ويَحكِى فى الغصون ثُدِىَّ حُورٍ * شَقَقن غلائلا عنهنّ خُضْرا

وقال آخَر :

خذوا صفةَ الرّمّان عنّى فإنّ لى * بيانا عن الأوصاف غيرَ قصيرِ ٥
حِقاقٌ كأمثال الكُراةِ تَضمّنتْ * فصوصَ بَلَخْشٍ[1] فى غشاءِ حريرِ

وقال آخَر :

لله رمّانةٌ من فوق دَوْحتِها * مِثالُها ببديع الحُسنِ منعوتُ
فالقِشرُ حُقٌّ نُضارٍ ضُمّ داخِلُه * والشَّحمُ قطنٌ له والحَبُّ ياقوتُ

وقال آخَر : ١٠

رمّانةٌ صَبَغَ الزّمانُ أديمَها * فتبسّمتْ فى خُضرةِ[2] الأغصانِ
فكأنّما هى حُقّةٌ من صَندَلٍ[3] * قد أُودِعتْ خَرَزا من المَرْجانِ[4]

وقال ابنُ قَسِيم الحموىّ :

ومحمّرةٍ من بناتِ الغُصو * نِ يمنعها ثِقْلُها أن تميدا
منكّسةِ التّاج فى دَسْتِها * تفوق الحدودَ وتَحكِى النُّهودا ١٥
تُفَضُّ فتَفْتَرُّ عن مَبسِمٍ * كأنّ به من عَقيقٍ عُقودا

(١) البلخش : جوهر يجلب من بلخشان ، والعجم تقول : بذخشان ؛ وبذخشان هذه ولاية بين خراسان وهندستان فيها معادن الذهب والأحجار الكريمة (الألفاظ الفارسية المعربة ص ٢٦ طبع بيروت) ونقل صاحب صبح الأعشى ج ٢ ص ٩٩ عن مسالك الأبصار أن هذا المعدن يسمى « اللعل » ؛ ثم ذكر بعد ذلك أنه ثلاثة أضرب : أحمر معقرب ، وأخضر زبرجدى ، وأصفر ؛ والأحمر أجوده . ٢٠

(٢) فى مباهج الفكر : «فى ناضر» .

(٣) فى مباهج الفكر : «عسجد» . (٤) فى مباهج الفكر «من العقيان» .

كأنّ المَقابِلَ[1] من حسنِها * ثُغورٌ تقبِّلُ منها خدودا

وقال آخر :

رمّانةٌ مِثلُ نَهْدِ الكاعب الرِّيم * تُزهَى بشَكلٍ ولونٍ غيرِ مذمومِ
كأنّها حُقّةٌ من عسجدٍ مُلِئَتْ * من اليواقيت نَثْرًا غيرَ منظومِ

وقال محمّدُ بنُ عمرَ[2] المقرئُ[3] الكاتب :

ورمّانٍ رقيقِ القشرِ يَحكِي * ثُدِيَّ[4] الغيدِ في أثوابِ لاذِ[5]
إذا قشّرتُه طلعتْ علينا * فصوصٌ من عَقيقٍ أو بَجاذِي[6]

وقال آخر :

ولاحَ رمّانُنا فأبهجَنا * بين صحيحٍ وبين مفتوتِ
من كلِّ مصفرّةٍ مزعفَرةٍ * تفوق في الحُسنِ كلَّ منعوتِ
كأنّها حُقّةٌ فإن فُتِحتْ * فصُرّةٌ من فصوصِ ياقوتِ

وقال آخر :

ولابسةٍ صدفا أصفرًا * أتتك وقد مُلِئتْ جوهرًا
حُبوبا كمِثلِ لِثاتِ الحبيب * رُضابا إذا شئتَ أو مَنظَرًا

(١) يريد بالمقابل هنا : المواضع المقبلة من الرمان .

(٢) كذا ورد هذا الاسم في ب وخاص الخاص للثعالبي ص ١١٢ طبع مطبعة السعادة بمصر والذي في (أ) و (ج) «ابن عبد الله» .

(٣) في (أ) «القوى» ؛ وفي (ب) «المنقرى» ؛ وهو تحريف في كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا نقلا عن خاص الخاص للثعالبي ص ١١٢ طبع مطبعة السعادة بمصر .

(٤) في مباهج الفكر «نهود» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٥) اللاذ : ثياب حمر من الحرير كانت تنسج في الصين ، واحده لاذة .

(٦) في كلا الأصلين : «تحاذى» ؛ وهو تصحيف ؛ والبجاذى حجر فيه حمرية وذلك أنه أحمر تعلوه بنفسجية وأجوده ما اشتدت حمرته وكثر بريقه أزهار الأفكار للتيفاشي .

وقال آخر :

طعمُ الوصالِ[1] يَصُونُه طعمُ النّوى * سبحان خالقِ ذا وذا من عُودِ
فكأنّها والخُضْرَ من أوراقِها * خُضْرُ الثّياب على نهود الغيدِ

وأنشدنى الشيخ شهابُ الدّين أحمدُ بنُ الجبّاس[2] الدِّمياطىُّ لنفسه فى ذى الحِجّةِ سنةَ ثلاث عشرة وسبعمائةٍ فى رمّانةٍ مشقوقةٍ يتساقط منها الحَبّ :

كَتَمتْ هوًى قد لجَّ فى أشجانِها * وحشتْ حَشاها من لظى نيرانِها
فتشقّقتْ من حُبِّها عن حَبِّها * وجدًا وقد أبدتْ خفا كتمانِها
رمّانةٌ تَرمِى[3] بها أيدى النّوى * من بعد ما رُمِّتْ[4] على أغصانِها
فاعجَبْ وقد بكَتْ[5] الدموعَ عقائقا * لا مِن مآقيها ولا أجفانِها

ومنه ما وُصِف به الجُلّنار — قال أبو فِراس الحمدانىّ :

وجُلّنارٍ مُشرِقٍ * على أعالى الشجرَه
كأنّ فى أغصانِه * أحمرَه وأصفرَه

(١) يريد بهذا الشطر أن حب الرمان الذى يشبه طعم الوصال فى حلاوته يصونه قشر كطعم النوى فى مرارته .

(٢) كذا ورد هذا الاسم بالجيم فى (أ) وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ج ١ ص ٩٦ طبع الهند .

(٣) كذا فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف ؛ والذى فى (أ) و(ج) (ترقى) ؛ وهو تحريف .

(٤) رمت ، أى اجتمعت ؛ والمعنى أن هذه الرمانة قد فرقتها أيدى النوى بعد اجتماعها على غصنها .

(٥) « بكت الدموع » ، أى أسالت الدموع ؛ قال فى التاج نقلا عن الراغب : إن « بكى » يقال فى الحزن وإسالة الدمع معا ، ويقال فى كل واحد منهما منفردا عن الآخر » انتهى كلامه ؛ وظاهر هذه العبارة أن « بكى » يتعدى الى المبكىّ به — وهو الدمع — بنفسه ، ومنه قول الشاعر :

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته * عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وفى جميع الأصول : « تلت » ؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى .

قُراضةٌ من ذهبٍ * فى خِرْقةٍ معصفَرَه

وقال ٱبنُ وَكيع :

وجُلَّنارٍ بهىٍّ * ضِرامُه يَتوقّدْ
بدا لنا فى غصونٍ * خضرٍ من الرِّىِّ مُيدْ
يَحكِى فصوصَ عَقيقٍ * فى قُبّةٍ من زبرجدْ

وقال آخر :

كأنّما الجُلَّنار لمّا * أظهَرَه العَرْضُ للعيونِ
أنامِلٌ كلُّها خَضيبٌ * تَنشُر لاذًا[1] على الغصونِ

وقال أبو ٱلحسن الشَّمْشاطىّ[2] :

وبدا الجُلَّنارُ مِثلَ خدودٍ * قد كساها الحياءُ لونَ عُقارِ
صِبغةَ الله كالعَتيق تراه * أحمرا ناصعا[3] لدى الأخضرارِ

وأمّا الموزُ وما قيل فيه — فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ فى توليده : وان خلطتم بالبَيْبَروح[4] مِثلَ وزنِه من التّمر، وعجنتموهما عجنا جيّدا ، ثمّ زرعتموهما

(١) اللاذ : ثياب حمر من الحرير كانت تنسج فى الصين، واحده لاذة .

(٢) فى اليتيمة ج ١ ص ٧٧ « أبو الفتح الحسن » .

(٣) فى كتب اللغة ما يفيد أن النصوع وصف عام لجميع الألوان ، وهو الخلوص والصفاء فى أى لون كان ؛ قال الشاعر :

من صفرة تعلو الياض وحمرة * نصاعة كشقائق النعمان

إلا أن هذا الوصف أكثر ما يقال فى الأبيض .

(٤) البيروح : أصل المقد ، وهو اللفاح البرى ؛ وهو سبعة أنواع أفضلها أصل سراج القطرب ؛ وهو شبيه بصورة إنسان ، ولذلك سمى يبروحا لأنه ٱسم صنم ، وهو لفظ سريانى (قاموس الأطباء) ، وقال ٱبن البيطار أيضا إن أصل هذه الشجرة الكائن فى بطن الأرض فى صورة صنم قائم ذى يدين و رجلين ، وله جميع أعضاء الإنسان ، و ورقها شبيه بورق العليق ، وهو أيضا يتعلق بما يقرب منه من الشجر ينفرش عليه و يعلوه ، وله ثمرة أحمر لونها طيب ريحها ، ومنبت هذه الشجرة يكون فى الجبال والكروم المفردات ج ٣ =

وتعاهدتم ذلك بالسقى الكثير، خرج منه شجر الموز؛ وكذلك إن لجن القُلقاس بالتمر خرج منهما الموز، إلّا أنّ ما ينبتُ عن اليَبْرُوح أكبرُ موزا، وأشدُّ حلاوة .

وقال الشيخ الرئيس : الموزُ ملينٌ؛ والإكثارُ منه يورث السُّدد، ويزيد فى الصّفراء والبَلْغَم بحَسَب المِزاج؛ وهو نافعٌ للحَلْق[1] والصّدر؛ وهو ثقيلٌ على المعدة؛ ويجب أن يَتناولَ المحرورُ بعدَه سِكَنْجَبِينا[2] بُزُوريّا، والمبرودُ عسلا . قال : وهو يزيد فى المنىّ، ويوافق الكُلَى، ويُدِرّ البول .

وأمّا ما وُصِف به وشُبِّه من الشّعر — فمن ذلك قولُ ابنِ الرُّومىّ :

إنّما الموزُ إذ تُمُكِّنَ منه * كاسمِه مُبدَلا من الميم فاءَا
وكذا فقدُه العزيزُ علينا * كاسمِه مُبدَلا من الزاى تاءَا
فهو الفوزُ مِثلَما فقدُه الموتُ لقد عمّ فضلُه الأحياءَا
ولهذا التأويلِ سمّاه موزًا * مَن أفادَ المعانىَ الأسماءَا

= ص ١٠ طبع بولاق عند الكلام على سراج القطرب . وقال داود فى التذكرة : إنه نبات ورقه كورق التين لكنه أدق، له زهر أبيض يخلف كالزيتونة ويطول نحو ذراع التذكرة ج ٢ ص ٢٢٥ طبع بولاق .

(١) عبارة القانون ج ١ ص ٣٧٢ طبع مصر «لحرقة الحلق» الخ .

(٢) قال ابن سينا فى صنعة السكنجبين البزورى : يؤخذ خل خمر جيد عتيق عشرة أرطال، ويلقى عليه من الماء العذب الصافى عشرون رطلا أو أكثر أو أقل على قدر حموضة الخل وجودته، ويصير فيه من قشور أصول الرازيانج وقشور أصول الكرفس من كل واحد ثلاث أواق، وبزر الرازيانج والأنيسون وبزر الكرفس من كل واحد أوقية، ويترك يوما وليلة، وبعد ذلك يطبخ بنار لينة حتى يذهب منه السدس، ثم ينزل عن النار، ويترك حتى يبرد، ثم يصفى، ويلقى عليه لكل جزأين من هذا الماء والخل المطبوخين مع الاصول والبزور جزء من السكر الطبرزذ كيلا، أو من العسل لكل جزأين ونصف من الخل والماء المطبوخين مع الأصول والبزور جزء، ويطبخ بنار لينة حتى يبقى منه النصف، وينزل عن النار، ويبرد، ويصفى، ويستعمل وقد التقطت رغوته فى وقت غليه (القانون ج ٣ ص ٣٦٤ طبع مصر) .

نَكْهةٌ عذبةٌ وطعمٌ لذيذٌ * فنعيمٌ مُتابِعٌ نعماءَا
لو تكونُ القلوبُ مأوى طعامٍ * نازعتْه قلوبُنا الأحشاءَا

وقال فيه أيضا :

لِلوزِ إحسانٌ بلا ذنوبِ * ليس بمعدودٍ ولا محسوبِ
يكاد من موقعِه المحبوب * يُسلِمُه البلعُ إلى القلوبِ

وقال الصّاحب جمالُ الدّين عليُّ بنُ ظافر :

كأنّما الموزُ إذا * ما جاءنا بالعَجَبِ
أنيابُ أفيالٍ صِغا * رٍ طُلِّيتْ بالذّهبِ

ونحوُه قولُ الآخر — وكأنّه مأخوذٌ منه — :

مَوزٌ حلا فكأنّه * عسلٌ ولكن غيرُ جارِى
ذو باطنٍ مِثلِ الأقا(١) * حِ وظاهرٍ مِثلِ النُّضارِ
يَحكِى إذا قشَّرتَه * أنيابَ أفيالٍ صِغارِ

وحَكَى صاحبُ (بدائع البدائه) أنّ الحسنَ بنَ رَشيقٍ ومحمّدَ بنَ شرف القَيْرُوانىّ اجتمعا فى مجلس المعزِّ بنِ باديسَ وبين يديه مَوز، فاقترَح على كلِّ واحدٍ منهما أن يَعمَل فيه شيئا، فقال ابنُ شرف :

يا حبّذا المَوزُ وإسعادُه * مِن قَبلِ أن يمضُغه الماضغُ
لانَ إلى أن لا مُحَسَّ له * فالفمُ ملآنُ به فارغُ

(١) الذى فى كتب اللغة أن الأقحوان يجمع على أقاحىّ بثبوت الياء مشددة، ويجوز تخفيفها فيكون من الأسماء المنقوصة؛ وقد حذف الشاعر الياء من هذا اللفظ جريا على مذهب من يجوز حذف الياء من المنقوص المعرف « بأل » فى الوصل، ويوجب حذفها فى الوقف، كما يستفاد ذلك من شرح الرضى على الشافية صفحة ٢٠١ طبع الآستانة، فقد جاء فيه ما نصه « ومن حذف الياء فى الوصل نحو (الكبير المتعال سواء منكم) أوجب حذفها وقفا بإسكان ما قبلها اهـ .

سِيَّانِ قلنا مأكلٌ طيّبٌ * فيه وإلّا مَشْرَبٌ سائغُ
إن قيل فيما قد حَلا طيّبٌ * فالمَوزُ حُلوٌ طيّبٌ بالغُ
أحلَى مَذاقا مِن دماء العِدا * أُمكِنَ منها أسدٌ والِغُ

وقال ٱبنُ رَشِيقٍ — وتَواردًا فى المعنى والقافية — :

مَوزٌ سريعٌ سَوْغُه * من قبلِ مَضغِ الماضغ
مأكَلةٌ لاكلٍ * ومَشرَبٌ لسائغ
فالفمُ من لِينٍ به * ملانٌ مِثلُ فارغ
يُخالُ وهو بالغٌ * للحَلْق غيرَ بالغ

ثمّ سألهما فى مِثل ذلك، فقال محمدُ بنُ شرف :

هل لك فى مَوزٍ إذا * ذقناه قلنا حبّذا
فيه شرابٌ وغِذا * يُزيل كالماء القَذَى
لو مات من تَلذّذا * به لقلنا : ذا بذا

وقال ٱبنُ رَشِيق :

لله مَوزٌ لذيذٌ * يُعيذُه المستعيذُ
فواكهٌ وشرابٌ * به يُفيقُ(١) الوَقِيذُ(٢)
تَرَى القَذَى العينُ فيه * كما يُريها النَّبيذُ

فانظر إلى هذا التّوارد العجيبِ المرّةَ بعد المرّة .

وقال نجمُ الدّين بنُ إسرائيلَ يصفه :

أَنعتُ لى مَوزا شهىَّ المَنظَرِ * مستحكِمَ النُّضْجِ لذيذَ المَخبَرِ

(١) فى بدائع البدائه : «يداوى» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .
(٢) الوقيذ : الشديد المرض الذى قد أشرف على الموت .

كأنّه فى جِلدِه المعصفَرِ * لفّاتُ زُبْدٍ عُجِنتْ بسكّرِ

وأنشدنى الشيخُ الفاضلُ شهابُ الدّين أحمدُ بنُ منصور الدِّمياطىُّ — عُرِف بابن الجَبّاس — فى ذى الحِجّةِ سنةَ ثلاث عشرةَ وسبعمائةَ لنفسه وأجاد :

كأنّما الموزُ فى عراجينه (١) * وقد بدا يانعا على شجره

فروعُ شَعرٍ برأس غانيةٍ * عُقِّص من بعد ضَمِّ منتشِره

كأنّ مَن ضَمَّه وعَقَّصَه * أرسَلَ شَرّابةً (٢) على أثره

كأنّ أمشاطَه مَكاحلُ من * زمرّدٍ نُظِّمتْ على قَدَره

كأنّما زَهرُه الأنيقُ وقد * شُقِّق عنه كِمامُ مستتِره

نِظامُ ثغرٍ يَزينُه شَنَبٌ (٣) * مُمتزِجٌ شُهدُه بمعتصَره

كأنّ قاماتِ سُوقِه عَمَدٌ * حَنَتْ (٤) أواوينَها على جُدُره

كأنّ أشجارَه وقد نَشَرَتْ * ظِلالَ أوراقِها على ثمره

حاملةٌ طفلَها على يدها * تقيه حرَّ الهَجيرِ فى خُمُره

كأنّما ساقُه الصَّقيلُ وقد * بدت عليه رُقومُ معتبِره (٥)

---

(١) حذف الياء من هذا الجمع لضرورة الوزن ؛ أو جريا على مذهب الكوفيين من جواز حذف الياء من مماثل مفاعيل وجواز إثباتها فى مماثل مفاعل ، فتقول فى عصافير : عصافر ، وفى جعافر : جعافير .

(٢) الشرابة معروفة شائعة الاستعمال فى مصر ، وهى جملة من خيوط أو شعر مجتمع بعضها الى بعض تتخذ لتشرّب الرطوبات وتجفيفها ؛ ولهذا ضبطناه بفتح الشين ، وقد تتخذ من الحرير للزينة وتجمع على شراريب ، ولم نجدها فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أننا لم نجدها فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة .

(٣) الشنب : ماء الأسنان ورقتها وعذوبتها .

(٤) فى (ا) و(ب) : «جنت» وفى (ج) «حيت» ؛ وهو تصحيف فى هذه الأصول الثلاث وسياق البيت يقتضى ما أثبتنا .

(٥) يريد بقوله : «رقوم معتبره» : العقد التى تكون فى شجر الموز يعتبر بها المعتبر عمره ، ويحسب بعددها عدد أيامه ، كما يستفاد ذلك من تذكرة داود ج ٢ ص ٢٠٣ طبع بولاق والشذور الذهبية .

ساقُ عروسٍ أُميطَ مئزرُها * فبان وشىُ الخضاب فى حبِرِه (١)

تصاغ من جوهرٍ خلاخلُها (٢) * فتنجلى والنّثارَ من زَهَرِه

حدائقٌ خفّقتْ (٣) سَناجِقُها (٤) * كأنّها الجيشُ أمّ فى زُمَرِه

وكلُّ آياتِه فباهرةٌ * تَبين فى وِرْدِه وفى صَدَرِه

كأنّما عُمرُه القصيرُ حَكَى * زمانَ وصلِ الحبيب فى قِصَرِه

كأنّ عُرجُونَه المَشيبُ أتى * يُخْبِر أنْ حانَه (٥) انقضا عُمُرِه

كأنّه البدرُ فى الكمال وقد * أُصيبَ بالخَسْف فى سَنا قمرِه

كأنّه بعد قطعِه وقد اصفرّ * لِما نال مِن أذى حَجَرِه (٦)

متيّمٌ قد أذابه كمدٌ * يَبيت من وجدِه على خطرِه

معلّقٌ بالرّجاء ، ظاهرُه * يُخْبِر عمّا أَجَنّ من خبرِه

يَطيب رِيحا ويُستلَذُّ جَنًى * على أذًى زاد فوقَ مصطبَرِه

كأنّه الحُرُّ حالَ محنتِه * يزيد صبرا على أذى ضررِه

(١) الحبر بفتح أوله وكسر ثانيه : الناعم (اللسان) .

(٢) فى جميع الأصول : « جدول » ؛ وهو تحريف اذ لا يناسب معناه سياق ما هنا ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٣) شددت الفاء فى قوله : « خفقت » للتكثير .

(٤) السناجق : الألوية ، واحدها سنجق بكسر السين ؛ وهو فارسى ، شبه بها أوراق الموز .

(٥) حانه ، أى حان له ، ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة تعدية هذا الفعل الى المفعول بنفسه كما فى هذا البيت .

(٦) يريد بالحجر هنا : الحجر الذى يوضع على الموز ليكبس به بعد قطعه من شجره الى أن يتم نضجه ، فان العادة فى مصر أن الموز يقطع من شجره غير ناضج ثم يكبس فى أوراقه أياما حتى ينضج انظر المادة الطبية ج ١ ص ٨١٠ طبع بولاق وتذكرة داود ج ٢ ص ٢٠٣ طبع بولاق .

وأمّا ما وُصِف به وشُبِّه النّارَنْج[1] — فمن ذلك قولُ شاعر :

لله أنجُمُ نارَنْجٍ توقَّدُها * يكاد ينجاب عن لألائه الغَسَقُ
تبدو لعينيك فى لألائها ولَهَا * من الغصون بُروجٌ دَوْحُها[2] الأُفُقُ
تَجنى به اليدُ جمرا ليس يطفئه * غيثٌ ولا اليدُ إذ تجنيه تحترِقُ
كأنّه مستعارُ الشِّبهِ من سَفَنٍ[2] * مذهّبٍ أو حَباه لونَه الشَّفَقُ

وقال آخر :

تأمّلها كُراتٍ من عَقيقٍ * تَروقُك فى ذُرا دَوْحٍ وَرِيقِ
صَوالِجُ من غصونٍ ناعماتٍ * غذتها دِرّةُ العيشِ الأَنِيقِ
تَخال غصونَها فيها نَشاوَى * بأيديهم كئوسٌ من رَحيقِ
عجبتُ لها شربن الماءَ رِيًّا * وفى لبّاتِها لهبُ الحريقِ

وقال آخر يصف نارَنْجة :

يارُبَّ نارَنْجةٍ يلهو النديمُ بها * كأنّها كُرَةٌ من أحمر الذّهبِ
أوجَذْوةٌ حملتها كفُّ قابسِها * لكنّها جَذْوةٌ معدومةُ اللَّهَبِ

وقال آخر :

ومُورِقةٍ فى صيفِها وشتائها * يَحارُ النُّهَى فى أرضها وسمائها
اذا ما زَهَى الكانونُ يوما بجمرِه * نظرتَ إليه تحت فضلِ ردائها
أرى الماءَ يُطفِى كلَّ نارٍ ونارُها * تزيد حياةً ما تغذّتْ بمائها

---

(١) لم يرد ذكر النارنج فى حرف النون من كتاب الأدوية المفردة فى قانون ابن سينا الذى ينقل عنه المؤلف طبع كل نبات وخواصه الطبية ، ولهذا لم يذكر المؤلف هنا شيئا من خواصه ولا طبائعه .

(٢) السفن بالتحريك : جلد أخشن غليظ يجعل على قوائم السيوف ، كما فى الصحاح والتهذيب ، شبه به قشر النارنج .

كُرات عَقيقٍ أم خدودُ كواعبٍ * بدت وهى حُمْرٌ من صباغِ حيائها (١)

وقال آخَر :

أُنظُرْ إلى مَنظَرٍ يلهيك مَنظَرُه * بمثلِه فى البرايا يُضرَب المَثَلُ
نارٌ تلوح على الأغصان فى شجرٍ * لا الماءُ يُطفِى ولا النِّيرانُ تَشتعِلُ

وقال آخَر يصف نارَنْجَةً نصفُها أحمرُ ونصفُها أخضر : ٥

وبنتِ أيكٍ دنا مِن لمسِها قُزَحٌ (٢) * فلاح منها على أرجائها أثرُ
يبدو لعينيك منها مَنظَرٌ عَجَبٌ * زبرجدٌ ونُضارٌ صاغه المطرُ
كأنّ موسى كليمَ الله أقبَسَها * نارا وجَرَّ عليها كفَّه الخَضِرُ

وقال الصّاحبُ بنُ عَبّاد :

بَعثْنا من النارَنْج ماطاب عَرْفُه * ونَمّتْ على الأغصان منه نَوافِجُ (٣) ١٠
كُراتٍ من العِقْيان أُحكِمَ خَرْطُها * وأيدى النَّدامَى حولهنّ صوالجُ

وقال أبو الحسن الصِّقِلّىّ : (٣٣)

تَنعَّمْ بنارَنْجِكَ المجتَنَى * فقد حضر السعدُ لمّا حضرْ
فيامرحبا بقُدود الغصون * ويامرحبا بخدود الشجرْ
كأنّ السماءَ هَمَتْ بالنُّضار * فصاغت لها الأرضُ منه أُكَرْ ١٥

(١) الصباغ بكسر الصاد : ما يصبغ به .

(٢) يريد قوس قزح ؛ وفى كتب اللغة أنه لا يجوز فصل «قزح» من « قوس » فلا تقول : « تأمل قزح » تريد قوس قزح .

(٣) النوافج : أوعية المسك ، واحده نافجة ؛ وهو معرّب نافه بفتح الفاء ، فارسية ، ولذلك جزم بعضهم بفتح الفاء فى نافجة ؛ وزعم بعضهم أنه عربى . ٢٠

وقال ابنُ المعتزّ :

كأنّما النّارَنْجُ لمّا بدت * صُفرتُه فى حُمرةٍ كاللّهيبْ
وجنةُ معشوقٍ رأى عاشقا * فاصفرّ ثمّ احمرّ خوفَ الرّقيبْ

وقال السّرىُّ الرّفّاء :

٥ وبديعةٍ أضحى الجمالُ شِعارَها * صَبَغَ الحَيا[1] صِبْغَ الحياءِ إزارَها
حلّتْ عِقالَ نسيمِها وتوشّحتْ * بالأُرْجُوانِ وشدّدتْ أزرارَها
فالعينُ تحسِر إن رأت إشراقَها * والنفسُ تنعَم إن رأت[2] أخبارَها
فكأنّها فى الكفّ وجنةُ عاشقٍ * عَبِث الحياءُ بها فأضرَمَ نارَها
محمولةٌ حَمَلتْ عجاجةَ عنبرٍ * فإذا سَرَى رَكْبُ النّسيمِ أثارَها
١٠ أَمِنتْ على أسرارِها ريحَ الصّبا * وهْنا[3] فضيّعت الصّبا أسرارَها
وكأنّما صافحتَ منها جمرةً * أَمِنتْ يمينُك حرَّها وشَرارَها
ما أحسَب النّارَنْجَ إلّا فتنةً * هتك الزّمانُ لناظرٍ أستارَها
عَشقتْ محاسنَه العيونُ فلو رنتْ * أبدا اليه ما قضت أوطارَها

وقال آخر[4] :

١٥ سَقْيًا لأيّامنا ونحن على * رءوسِنا نَعقِد الأكاليلا
فى جنّةٍ ذُلّلت لقاطفِها * قُطوفُها الدّانياتُ تذليلا

---

(١) الحيا بالقصر : المطر .

(٢) فى رواية « إن بلت » ؛ والمعنى يستقيم عليها أيضا انظر ديوان السرى الرفاء ومباهج الفكر .

(٣) الوهن من الأوقات : نحو من نصف الليل .

٢٠ (٤) نسب الثعالبى هذه الأبيات إلى كشاجم انظر كتاب من غاب عنه المطرب صفحة ٤٢ طبع بيروت .

كأنّ نارَنْجَها[1] يلوح على * أغصانِها حاملا ومحمولا
سلاسلٌ من زبرجدٍ حَمَلَتْ * من ذهبٍ أحمرٍ قناديلا

وقال آخر[2]:

وأشجارِ نارَنْجٍ كأنّ ثمارَها * حِقاقُ عَقيقٍ قد مُلِئن من الدُّرِّ
تُطالِعنا بين الغصون كأنّها * خدودُ غَوانٍ[3] فى مَلاحفها الخُضْرِ
أتت كلَّ مشتاقٍ بريّا حبيبِه * فهاجت له الأحزانَ من حيث لايدرِى

وقال آخر:

حدائقُ أشجارٍ كإقبالِ دولةٍ * عليكَ أو البشرى أتت لقعيدِ
أنارت بنارَنْجٍ لرَياه[4] فى الحَشا * مَواقعُ وصلٍ من فؤادِ عميدِ
اذا ما حَنَى أغصانَه فكأنّه * صَوالجةُ الأصداغ فوق خدودِ

وقال آخر:

وأغصانٍ مقوَّمةٍ حسانٍ * ومنها ما يُرَى كالصَّوْلَجانِ
كأنّ بها ثُدِيًّا ناهداتٍ * غلائلُها صُبِغن بزعفرانِ

وقال آخر[5] يصف نارَنْجا مختلفَ الألوان:

رياضٌ من النّارَنْج كالأمن والمنى * جُمِعن ومِثْلُ النّوم بعد التسهُّدِ

(١) فى رواية: «أترنجها» انظر كتاب (من غاب عنه المطرب) للثعالبى.

(٢) قائل هذا الشعر هو أبو هلال العسكرى انظر ديوان المعانى ج ٢ ورقة ٢١ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب.

(٣) فى ديوان المعانى: «عذارى».

(٤) فى الأصول: «لرؤياه» ؛ وهو تحريف ، اذ الرؤيا ما يراه النائم فى منامه ؛ ولا تصح ارادته هنا.

(٥) أورد الراغب الأصفهانى الشطر الثانى من البيت الأخير من هذه الأبيات الآتية ونسبه الى التنوخىّ. انظر محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٣٤٠ طبع جمعية المعارف ، وكذلك أورد أبو هلال العسكرى البيت الأخير من هذه الأبيات ونسبه الى التنوخى أيضا. انظر ديوان المعانى ورقة ٢١ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب.

تُجلّى العَشا عن ناظرَىْ كلِّ ناظرٍ * وتجلو الصَّدَى عن قلب ذى اللّوعة الصّدِى
فمِن أخضرٍ غَضِّ النّباتِ كأنّه * مَشارِبُ مِينا[1] أو حِقاقُ زمرّدِ
ومِن أحمرٍ كالأُرْجُوان إذا بدا * وكالرّاح صرْفا أو كخدٍّ مُوَرَّدِ
ومِن أصفرٍ كالصَّبِّ، يبدو كأنّه * كُراتٌ أديرتْ من خلاصة عسجدِ
٥ اذا لاح فى أشجارِه[2] فكأنّه * شموسُ[3] عَقيقٍ فى قِبابِ[4] زبرجدِ

وقال آخر :

أهدَى لنا النّارَنْجُ عند قِطافِه * أُكَرا تَرُوق بمَنظَرٍ وبمَخْبَرِ
ببواطنٍ من ياسَمينٍ أبيضٍ * وظواهرٍ من جُلّنارٍ أحمرِ

وقال آخر :

١٠ كانت هديّتُه لنا نارَنْجةً * كالفِهْرِ[5] لُفّتْ فى حريرٍ أصفرِ
صفراءَ تحسَب أنّها قد جُدِّرتْ * فترى ببهجتها[6] انتثارَ مجدّرِ[7]
فسألتُها عمّا يغيِّر لونَها * قالت سألتَ فخذ جوابَ مُخبِّرِ
كحّا حبائبَ فوق غصنٍ ناعمٍ * أوراقُه مِثلُ الفِرِنْدِ الأخضرِ

(١) الميناء بالهمز : جوهر الزجاج .

١٥ (٢) فى رواية : «فى أغصانه» كما فى ديوان المعانى .

(٣) لعل صوابه « فصوص » كما يقتضيه سياق البيت ، ويؤيد ذلك ماسبق فى وصف الجلنار من أبيات لابن وكيع اذ قال :

يحكى فصوص عقيق * فى قبة من زبرجد

وقد وردت كلمة «شموس» فى جميع الأصول وديوان المعانى ومباهج الفكر .

٢٠ (٤) فى جميع الأصول «أو» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق البيت ، وكما فى مباهج الفكر .

(٥) الفهر : الحجر الذى يدق به الطيب .

(٦) فى الاصول : « بمهجتها » بالميم ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، فإن هذه الحبيبات التى يشبهها بالجدرى انما تكون فى ظاهر قشر النارنج لا فى الباطن .

(٧) المراد بالمجدر هنا نفس الجدرى ، فهو مصدر ميمى كما تقتضيه إضافة الانتثار اليه ، لا اسم مفعول .

فَرَمَى الزّمانُ وصالَنا بتفرُّقٍ * فلِذاك صفرةُ وجنتى وتَغيُّرى

وقال ٱبنُ وَكيع التِّنّيسىّ :

أُنظرْ إلى النّارَنْج فى بهْجاته * يَلُوح فى أفنان هاتيك الشّجرْ

مِثلَ دَبابيس[1] نُضارٍ أحمرٍ * أو كعَقيقٍ خُرِطتْ منه أُكَرْ

وقال أبو الحسن الصِّقلّىّ :

ونارَنْجةٍ بين الرياض نظرتُها * على غُصُنٍ رَطْبٍ كقامة أَغيَدِ

اذا ميّلتْها الرّيحُ مالت كأُكْرةٍ * بدت ذهبا فى صَوْلَجانٍ زمرّدِ

وأمّا ما وُصِف وشُبِّه به اللَّيْمو[2] — فمن ذلك قولُ الشاعر :

أُنظرْ إلى اللَّيْمُون فى شكله * وحسنِه لمّا بدا للعيانْ

كأنّه بَيضُ دَجاجٍ وقد * لطّخه العابثُ بالزّعفرانْ

وقال السرىُّ الرّفّاء :

وٱصْطَبَحناها على نهـ * ـرٍ بصفو الماء يَجرى

ظَلّلتْه شجراتٌ * عطرُها أطيَب عِطْرِ

فَلَكٌ أنجُمُه اللَّيْـ * ـمُو[3] فمن بِيضٍ وصُفرِ

أُكَرٌ من فضّةٍ قد * شابَها تلويحُ تِبرِ

وقال آخر :

يا رُبَّ ليمونةٍ حيّا بها قمرٌ * حلوُ المقبَّلِ ألمَى باردُ الشَّنَبِ[3]

كأنّها كُرَةٌ من فضّةٍ خُرِطتْ * فٱستَوْدَعوها غلافا صِيغَ من ذهبِ

(١) الدبابيس معروفة ، واحدها دبوس ، وقد ضبطه صاحب القاموس بفتح الدال ، وصوّب صاحب التاج أن تكون بالضم ، ونقل ذلك عن غير واحد من اللغويين .

(٢) فى كتب اللغة أنه قد تسقط النون من الليمون فيقال : ليمو ، كما هنا ؛ وهو لفظ معرّب .

(٣) الشنب : الرقة والعذوبة والبرودة فى الأسنان .

البابُ الثانى من القسم الثّانى من الفنّ الرابع
فيما لثمره نوًى لا يؤكل

ويشتمل هذا البابُ على عشرة[1] أصناف ، وهى النّخلُ وما يشبهه ، وهو النّارَجيل ، والفُوفَلُ والكاذِىُّ[2] والخَزَم ، ثمّ الزّيتونُ والخُرْنُوبُ والإجّاصُ والقَراسِيا[3] والزُّعرُورُ والخَوْخُ والمِشمِشُ والعُنّابُ والنَّبِق .

فأمّا النّخلُ وما قيل فيه — فقال الله تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ ؛ وقال عبدُ الله بنُ عمرَ — رضى الله عنهما — : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : " إنّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها ، وإنّها مثلُ المُسلِم ؛ فحدّثونى ما هى " ؟ فوقع النّاسُ فى شجر البوادى ؛ قال عبدُ الله : ووقع فى نفسى أنّها النّخلة ، فاستحييت ؛ ثمّ قالوا : حدّثنا ماهى يارسول الله؟ قال : « هى النخلة » ؛ قال عبدُ الله : فحدّثتُ أبى بما وقع فى نفسى ؛ فقال : لأن تكونَ قُلتَها أحبُّ إلىّ من كذا وكذا .

وفى لفظ عنه ، قال : كنّا عند النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم فأُتِىَ بجُمّار ، فقال : " إنّ من الشجر شجرةً مَثَلُها كمَثَل المُسلِم " الحديث .

(١) عشرة أصناف ، أى بجعل النخل وما يشبهه من النارجيل والفوفل والكاذى والخزم صنفا واحدا وإلا فالأصناف التى ذكرها فى هذا الباب أربعة عشر صنفا .

(٢) فى قاموس الأطباء للقيصونى ما يفيد أنه يقال فى هذا اللفظ الكاذى بالذال المعجمة ، والكادى بالمهملة ، فقد ذكره فى مادتى « كذ » و « كدى » وقال عنه فى المادة الأولى إن هذا الاسم عربىّ من لغة أهل اليمن ؛ وقيل : إنه اسم هندى .

(٣) يقال فيه أيضا : قراصيا بالصاد ؛ وهو معرّب .

وفى لفظ عنه — رضى الله عنه — أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " إنّ من الشجر لما بركته كبركة المُسلِم " وساق الحديث .

أسماء النخلة من حين تبدو صغيرة الى أن تكبر وكذلك الرطب من حين يكون طلعا الى أن يصير رطبا

وللنّخلة أسماءٌ نطقتْ بها العرب من حينِ تبدو صغيرةً إلى أن تَكبُر، وكذلك الرُّطَب من حِين يكون طَلْعا إلى أن يصير رُطَبا ؛ تقول العرب لصغار النخل : الجَثِيثُ والهِرَاءُ والوَدِىُّ والفَسِيلُ والأَشاء[1] .

وقال الثّعالبىّ فى (فقه اللّغة) : إذا كانت النخلةُ صغيرةً فهى الفَسِيلةُ والوَدِيّة . فاذا كانت قصيرةً تَنَاوَلُها اليدُ فهى القاعد ؛ «وفى[2] (غريب المصنّف) : العَضِيد، والجمع : عِضْدان » . فإذا صار لها جِذع [لا][3] يتناوَل منه المتناوِل فهى جَبّارة . فإذا ارتفعتْ عن ذلك فهى الرَّقْلَةُ والعَيْدانة . فاذا زادت فهى باسِقة . فاذا تناهت فى الطُّول مع انجراد فهى سَحُوق .

فصل فى نعوتها

اذا كانت النخلةُ على الماء فهى كارِعةٌ ومُكْرَعة . فاذا حَملتْ فى صغرها فهى مهتَجِنة . فاذا كانت تُدرِك فى أوّل النخل فهى بَكُور . فاذا كانت تَحمِل سنةً وسنةً

(١) كذا فى كتب اللغة ؛ والذى فى جميع الأصول : «والارشاد» ؛ وهو تحريف .

(٢) لم ترد هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى النسخ التى بين أيدينا من فقه اللغة ؛ فهى إما من زيادات المؤلف ؛ وإما أن تكون واردة فى نسخته التى نقل عنها .

(٣) فى جميع الأصول «يتناول» بسقوط (لا) النافية ، وكذلك فى (فقه اللغة للثعالبى) المنقول عنه هذا الكلام فى كلتا نسختيه : البيروتية ص ٣١٢ والباريسية ص ١٦٢ ؛ وهو خطأ فى جميع هذه المصادر كما يستفاد من كتب اللغة الأخرى ، فقد ورد فيها أن الجبارة هى النخلة الطويلة العظيمة التى فاتت اليد أن تنالها ، وأنها سميت جبارة لطولها عن متناول اليد ؛ كما فى المخصص ج ١١ ص ١١١ واللسان والتاج مادة (جبر) على أن سقوط (لا) النافية من هذه العبارة يفيد أن الجبارة والقاعد السالفة الذكر بمعنى واحد ؛ ولم نجد من قال به .

لا تحمل فهى سَنْهاء . فاذا كان بُسْرُها يَنتثر وهو أخضرُ فهى خَضِيرة . فاذا دَقّت من أسفلها وانجرد كَرَبُها فهى صُنْبُور . فاذا مالت فبُنِيَ تحتها دُكّانٌ تعتمد عليه فهى رُجبيّة[1] . فاذا كانت منفردةً عن أخواتها فهى عَوَانة .

ويقال للطَّلْع[2] : الكافور، والضَّحك[3]، والإغريض . فإذا انعقد سمّته[4] السَّيّاب[5] . فاذا اخضرّ قبل أن يشتدّ سمّته[4] الجَدَال . فإذا عظم فهو البُسْر. فإذا صارت فيه طرائق فهو المُخَطَّم . فاذا تغيّرت البُسْرةُ إلى الحمرة فهى شَقْحة . فاذا ظهرت الحُمْرة فهو الزُّهْو[6]، وقد أزهى . فاذا بدت فيه نُقَطٌ[7] من الإرطاب نصفها فهى المجزِّع[8] . فإذا بلغ ثلثيها فهى حُلْقانة . فإذا جرى الإرطاب فيها فهى مُنسَبِتة .

ما وصف به النخل من الشعر

وللشّعراء فى النّخل أوصاف، فمن ذلك ما أنشده الأصمعىّ[9] :

غدتْ سَلْمَى تعاتبنى وقالت * رأيتك لا تُريغ[10] لنا مَعاشا

---

(١) الرجبية : نسبة الى الرجبة بضم الراء، وهو الدكان الذى يبنى تحت النخلة لتعتمد عليه .

(٢) يلاحظ أن هذه الأسماء الآتية للطلع ليست من تتمة ما نقله المؤلف عن الثعالبى فى (فقه اللغة) كما يتوهم .

(٣) سمى ضحكا تشبيها له بالثغر فى بياضه عند الضحك ؛ قاله أبو حنيفة .

(٤) «سمته» ، أى العرب .

(٥) فى جميع الأصول : « السيداء » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن المخصص ج ١١ ص ١٢١ وغيره من كتب اللغة ؛ ويقال فيه أيضا : «سياب» بضم السين المهملة وتشديد الياء وزان رمّان .

(٦) كذا ضبط هذا اللفظ بضم الزاى وفتحها فى المخصص ج ١١ ص ١٢٣

(٧) عبارة المخصص نقلا عن أبى عبيد : « اذا بلغ الإرطاب نصفها » الخ .

(٨) كذا ضبط هذا اللفظ بفتح الزاى وكسرها فى المخصص ج ١١ ص ١٢٣

(٩) لم نجد هذا الشعر فى (مجموع الأصمعيات) المطبوع فى أوربا ؛ كما أننا لم نجده فيما راجعناه من الكتب الأخرى .

(١٠) تريغ، أى تطلب .

فقلت لها : أما يكفيكِ دُهْمٌ * اذا أَمْحَلتِ[1] كنّ لنا رِيَاشا[2]
بَوارِكُ ما يبالين اللّيالى * ضَرَبْنَ[3] لنا وللأيّام جاشا[4]
اذا ما الغادياتُ ظَلَمْنَ[5] مَدّتْ * بأسبابٍ نَنال بها آنتعاشا
تَرَى أمطاءَها[6] بالبُسْرِ هُدْلا[7] * من الألوان تَرتعِش آرتعاشا

وعن الشّعبيّ قال : كَتب قيصر إلى عمرَ بنِ الخطّاب — رضى الله عنه — إنّ رسلى[8] أخبَرونى أنّ بأرضك شجرةً كالرجل القائم تَفَلَّقُ عن مِثلِ آذانِ الحُمُر، ثمّ يصير مِثلَ اللّؤلؤ، ثم يعود كالزّمرّد الأخضر، ثمّ يصير كالياقوت الأحمر والأصفر

(١) أمحلت : من المحل بفتح فسكون، وهو الجدب واحتباس المطر .

(٢) الرياش : الخصب والمعاش .

(٣) فى جميع الأصول «صرمن» ؛ وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب سياق البيت ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا ؛ يقال : «ضرب لذلك جأشا» ، أى ثبت له كما يضرب البعير بصدره الأرض اذا برك وسكن كما يستفاد ذلك من اللسان مادة (جأش) نقلا عن مجاهد والأزهرى .

(٤) الجاش : الجأش بالهمز ؛ وهو معروف .

(٥) فى جميع الأصول : « اذا ما القاريات طلبن » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين إذ لم نجد لهما معنى يناسب السياق ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا إذ به يستقيم المعنى ؛ والمراد بظلم الغاديات : احتباس المطر ووقوع القحط ؛ يقال : أرض مظلومة ، اذا لم تمطر ؛ يقول : اذا ظلمتنا السحب الغاديات فلم تمطرنا أغنتنا هذه النخلات وأنعشتنا .

(٦) الأمطاء : شماريخ النخل ، واحده مطا .

(٧) فى (أ) و(ج) : «هزلا» بالزاى ؛ وهو تحريف ؛ والهدل من الأغصان : المتهدلة ، أى المسترخية المتدلية من ثقل ما عليها من الثمر .

(٨) ورد هذا الكلام فى مباهج الفكر ورقة ٤٠٩ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية ، وفيه اختلاف كثير فى الألفاظ والعبارات مع الاتحاد فى المعنى ؛ وماهنا موافق لرواية أبى هلال العسكرىّ فى (ديوان المعانى) .

ثمّ يُرطِب فيكونُ كأطيَبِ فالُوذٍ[1] أتُّخِذ، ثمّ يَجِفُّ فيكون عصمةً[2] للمقيم، وزادًا للمسافر فإن كان رسلى صدَقونى فهى الشجرةُ الّتى نبتت على مريمَ بنت عمران. فكتب اليه عمر — رضى الله عنه — : إنّ رسلَك صدَقوك، وهى الشجرةُ الّتى نبتت على مريم، فاتّق الله، ولا تتّخذ عيسى إلٰها من دون الله.

أخَذ عبدُ الصّمد بنُ المعذّل هذه التشبيهات، فقال يصف النّخلَ فى أُرجوزة أوّلُها :

حدائقٌ ملتفّةُ الجنانِ * رَستْ بشاطى تَرِعٍ رَيّانِ
تمتار[3] بالأعجازِ للأذقانِ * لا ترهب المَحلَ من الأزمانِ
إن هى أبدت زينةَ المُردانِ[4] * لاحت بكافورٍ على إهانِ[5]
يَطلُع منها كيدِ الإنسانِ * إذا بدت ملمومةَ البَنانِ
عُلّت بورسٍ[6] أو بزعفرانِ * حتّى اذا شُبِّه بالآذانِ

(١) الفالوذ : نوع من الحلواء يسوّى من لب الحنطة، وفى (قاموس الأطباء) أنه يتخذ إما من السكر، أو العسل والنشا؛ وهو فارسىّ معرّب.

(٢) فى مباهج الفكر «قوتا».

(٣) «تمتار بالأعجاز» الخ أى أنها تجلب الغذاء من باطن الأرض الى أعاليها بأعجازها.

(٤) يريد بالمردان : المرد بضم فسكون جمع أمرد؛ وفى مباهج الفكر وديوان المعانى (الرهبان)؛ ولعله تحريف اذ لا يناسب معناه ما هنا؛ ويدل على مناسبة المردان قوله بعد : «لاحت بكافور» الخ وكافور النخل : طلعه، وهو أبيض، ولا تخفى مناسبة ذلك للأمرد. ولم نجد هذا الشعر ضمن ترجمة عبد الصمد بن المعذل فى الجزء الثانى عشر من كتاب الأغانى.

(٥) الإهان : العرجون.

(٦) الورس، هو الكركم؛ وقيل : هو أصله؛ وهو نبت يزرع فيخرج كعروق القطن، وحمله كالسمسم مائىّ، اذا بلغ تشقق عن شعر بين حمرة وصفرة، وهو اليمنىّ الأجود؛ ومنه خالص الصفرة، ولا يكون إلا استنباتا، وتبقى شجرته عشرين سنة، تجنى كل عام أوائل تشرين. وفى كتب اللغة أنه نبات يصبغ به فاذا جف عند إدراكه تفتقت خرائطه فينفض فينتفض منه؛ قاله أبو حنيفة.

مِن حُمُر الوحشِ لَدَى العِيانِ * شقَّقه عِلْجانِ ماهرانِ
عن لؤلؤٍ صِيغَ على قُضبانِ * مَصُوغةٍ (١) من ذهبٍ خلصانِ
ثمّ يُرَى للسّبعِ والثّمانى * قد حالَ مِثلَ الشّذْرِ (٢) فى الجُمانِ
يَضحَك عن مشتبِهِ الأقرانِ * كأنّه فى ناضرِ الأغصانِ
زمرّدٌ لاحَ على تيجانِ * حتّى إذا تمّ له شهرانِ
وانسدلتْ عثاكلُ القِنوانِ * كأنّها قُضْبٌ من العِقْيانِ
فُصِّلنَ بالياقوت والمَرْجانِ * رأيتَه مختلِفَ الألوانِ
مِن قانىءٍ أحمرَ أُرْجُوانى * وفاقعٍ أصفرَ كالنِّيرانِ
* مِثلِ الأكاليلِ على الغَوانى (٣) *

ونحوُه قولُ أبى هلال العسكرىّ :

ونخيلٍ وقفن فى مَعطِف الرّمـ * ـل وقوفَ الحُبْشانِ فى التّيجانِ
شَرِبتْ بالأعجازِ حتّى تروّتْ * وتراءت بزينةِ الرّحمٰنِ
طَلَعَ الطَّلْعُ فى الجماجم منها * كأكُفٍّ خرجن من أردانِ
فتراها كأنّها كُمُتُ (٤) الخيـ * ـلِ توافتْ مُصِرّةَ (٥) الآذانِ

(١) فى جميع الأصول : « موضوعة » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ؛ ورواية مباهج الفكر « مصنوعة » ؛ والمعنى يستقيم عليها أيضا .

(٢) الشذر : قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة .

(٣) فى جميع الأصول : «التيجان» ؛ وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا نقلا عن ديوان المعانى ج ٢ ورقة ٢٧ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب .

(٤) حركت الميم فى هذا اللفظ لضرورة الوزن . والكمتة : لون بين السواد والحمرة يكون فى الخيل والإبل وغيرهما .

(٥) مصرة : من «أصرّ الفرس بأذنه» ، اذا سوّاها ونصبها للاستماع ؛ يقال : « جاءت الخيل مصرة آذانها » ، أى محدّدة آذانها رافعة لها .

أهو الطَّلْعُ أم سلاسلُ عاجٍ * حُمِلتْ فى سفائن العِقْيانِ
ثمّ عادت شبائها تتباهى * بأعالى شبابه أقرانِ
خرزات من الزبرجد خُضْر * وَهبتْها السلوكُ للقُضبانِ
ثمّ حالَ النِّجارُ وٱختلف الشكلُ فلاحت بجوهرٍ ألوانِ
بين صفرٍ فواقعٍ تتباهى * فى شماريخها وحمرٍ قوانى

وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب :

ضَرَبن العِرْقَ فى يَنبوعِ عَيْنٍ * طَلَبن مَعِينَه حتّى رَوِينا
بَناتُ الدهرِ لا يخشَين مَحْلا * اذا لم تَبقَ سائمةٌ بقينا
كأنّ فروعَهنّ بكلِّ ريحٍ * عَذارَى بالذوائب يَنتَضِينا (١)

وقال النابغة :

صِغارُ النّوى مكنوزةٌ ليس قِشرُها * اذا طار قِشرُ التمرِ عنها بطائرِ
مِن الواردات الماءَ بالقاع تَستقِى * بأعجازها قبلَ ٱستقاء ٱلحناجرِ

وقال السّرىُّ الرّفّاء :

وكأنّ ظِلَّ النّخل حولَ قِبابِها * ظلُّ الغمام إذا الهجيرُ توقّدا
من كلِّ خضراءِ الذوائب زَيَّنَتْ * بثمارِها جِيدًا لها ومُقلَّدا
خَرقتْ أسافلُهنّ أعماقَ الثَّرَى * حتّى ٱتّخَذن البحرَ فيه (٢) مَوْرِدا

(١) كذا ورد هذا اللفظ بالضاد المعجمة فى جميع الأصول وديوان المعانى؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة تعدية «انتضى» بالباء كما فى هذه العبارة؛ ولعل صوابه «ينتصينا» بالصاد المهملة أى يأخذ بعضهن بنواصى بعض؛ وهذا الفعل وإن لم يرد فى كتب اللغة التى بين أيدينا بهذا المعنى إلا أن سياق البيت يقتضيه، على أنه قد ورد فى كتب اللغة (الانتصاء) بالصاد بمعنى الاختيار، وهو راجع الى الأخذ بالناصية، وذلك لأن المنتصى يأخذ نواصى الأشياء، أى أشرفها وأعلاها .

(٢) «فيه»، أى فى الثرى .

شجرٌ إذا ما الصّبح أسفر لم يَنُحْ * لِلأمنِ طائرُه ولكن غرّدا

وقال شهابُ الدّين الشّطَنُوفىّ :

كأنّ النّخيلَ الباسقاتِ وقد بدتْ * لِناظرِها حُسنا قِبابُ زبرجدِ
وقد عُلّقتْ من حولِها [زينةً لها] * قناديلُ ياقوتٍ بأمراسِ عَسْجَدِ

وأمّا الجُمّارُ وما قيل فيه — فالجُمّار ، هو رأسُ النّخل ، واذا قُطِعت الجُمّارةُ لا تعيشُ النخلةُ بعدَها أبدا . ٥

وقال الشيخُ الرئيس : طبعُه باردٌ فى الثانية ، يابسٌ فى الأُولى ، وهو قابض ؛ وينفع من خشونة الحَلْق ؛ ويَقبِض الإسهالَ والنّزْف ؛ وينفع مِن لَسْع الزُّنبُور ضِمادا .

وصف به الجمار الطلع من الشعر

وقال شاعرٌ يصفه : ١٠

جُمّارةٌ كالماءِ تبدو لنا * ما بين أطمارٍ من اللِّيفِ
جسمٌ رَطيبُ اللّمْس لكنّه * قد لُفّ فى ثوبٍ من الصّوفِ

وأمّا ما وُصِف به الطَّلْع — فمن ذلك قولُ كُشاجِم :

أفدِى الّذى أهدَى إلينا طَلْعةً * أهدتْ إلى قلبِ المَشُوق بَلابِلا
فكأنّما هى زَوْرَقٌ من صندلٍ * قد أودَعوه من اللُّجَين سلاسلا ١٥

وقال ابنُ وَكِيع :

طَلْعٌ هَتَكْنا عنه أستارَه * من بعد ما قد كان مستورا
كأنّه لمّا بدا ضاحكا * فى العين تشبيها وتقديرا
[دُرْجٌ من الصّندلِ قد أودَعتْ (١) * فيه يدُ العطّار كافورا]

(١) لم يرد هذا البيت فى النسختين : (ا)، (ج) . ٢٠

وقال محمدُ بنُ القاسم العَلَوىّ :

وطَلْعٍ هتكا عنه جيبَ قميصه * فيا حُسنَه فى لونه حين هُتِّكا
حَكَى صدرَ خَوْدٍ من بنى الرّوم هَزَّها * سَماعٌ فَشقّتْ عنه ثوبا ممسَّكا

وقال كُشاجِم[1] :

٥ ولابِس ثوبا من الحريرِ * مضمَّخ الظاهرِ بالعَبير
مضمَّن الباطنِ ثوبَ نُور[2] * يَفْتَرّ عن مكنونةِ الثُّغورِ
* كأنّما فُتَّ من الكافورِ *

وقال أيضا :

قد أتانا الّذى بَعثتَ إلينا * وهو شىءٌ فى وقتنا معدومُ
١٠ طَلْعةٌ غضّةٌ أتتنا تُحاكِى * سَفَطا فيه لؤلؤٌ منظومُ

وقال الرّبيعُ بنُ أبى الحُقَيْق اليهودىُّ يَرثِى كعبَ بنَ الأشرف :

ذو نَخيلٍ[4] فى تِلاعٍ جَمّةٍ * تُخرِج الطَّلْعَ كأمثال الأكُفّ

---

(١) لم يرد هذا الشعر فى ديوان كشاجم فى كلتا نسختيه المطبوعة والمخطوطة .

(٢) كذا ورد لفظ (الثوب) فى جميع الأصول ومباهج الفكر؛ ويلوح لنا أنه تحريف، فان الذى
١٥ فى باطن الطلع ليس شيئا منبسطا يصح تشبيهه بالثوب، وإنما هو دقيق أبيض كدقيق الحنطة، كما هو مشاهد ومنصوص عليه فى المفردات والتذكرة؛ ولعل صوابه «ذوب» .

(٣) فى ديوان المعانى نسبة هذا البيت الآتى الى كعب بن الأشرف، ولم نجده فى ترجمة الربيع بن أبى الحقيق فى الجزء الحادى والعشرين من كتاب الأغانى؛ ولا فى ترجمة كعب بن الأشرف فى الجزء التاسع عشر من الأغانى أيضا .

٢٠ (٤) فى ديوان المعانى «ونخيل» .

وأمّا البلحُ والبُسْرُ والتّمر — فرُوِىَ عن عامر بنِ سعدٍ عن أبيه قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : " من تَصبّح كلّ يومٍ سبعَ تمرات — يعنى عجوةً[1] — لم يضرّه فى ذلك اليومِ سمٌّ ولا سِحْر " خرّجه البخارىُّ فى صحيحه .

وقال الشيخ الرئيسُ أبو علىّ بنُ سينا : إنّ طبعَهما[2] باردٌ يابسٌ فى الثانية ؛ والبُسْرُ أقبَضُ من القَسْب[3] ؛ واذا أُكِل وشُرِب الماءُ على أثرِه نَفَخ ، وان كان أوّلَ ما يحلو قرقَرَ أكثر ، ويُحدِثان السُّدَدَ فى الأحشاء ؛ وطبيخُ البُسْرِ يسكّن اللهيبَ مع حفظ الحرارةِ الغريزيّة ؛ والإكثارُ منهما يولّد فى البدن أخلاطا غليظة ؛ والبُسْرُ يصدّع ، وكثيرُه يُسكِر ؛ وهما رديئان للصّدر والرّئة ، ويُحدِثان السُّدَدَ فى الكبد ، وهضمُهما بطىء ؛ والهَشُّ أقلُّ هضما ؛ وغِذاؤهما يسير ، وكلُّ واحد منهما يَعقِل البطن . قال : والبلحُ يُغزِر البول ؛ واذا شُرِب بخلّ عَفِص منعَ سيلانَ الرّحِم ونَزْفَ البواسير ؛ وكثرةُ استعمالها تُوقِع فى القُشَعْرِيرة[4] .

ما قيل فى وصف البلح والبسر من الشعر

وقد وصف الشعراءُ البلحَ والبُسْرَ فى أشعارهم — فمن ذلك ما قاله ابنُ وَكيع التِّنّيسىُّ فى البلح :

أما تَرى النّخلَ طارحا[5] بلحا * جاء بشيرا بدولة الرُّطَبِ

(١) فى القسطلانى ج٨ ص٢٨٦ ، ٤٨٦ ، ٤٩٣ طبع بولاق : « تمرات عجوة » بدون قوله : (يعنى) .

(٢) طبعهما ، أى طبع البلح والبسر ، كما يستفاد من القانون ج ١ ص ٢٧٠ طبع مصر .

(٣) القسب : التمر اليابس ينفتت فى الفم صلب النواة ؛ والذى فى الأصول : « القصب » بالصاد ؛ وهو تحريف .

(٤) عبارة القانون : « فى النافض والقشعريرة » .

(٥) استعمال الطارح بمعنى المثمر استعمال شائع فى كلام العامة بمصر ؛ يقولون للثمر : « طرح » بفتح الطاء وسكون الراء ؛ ولم نجده فى كتب اللغة التى بين أيدينا ، ولكن يسوّغه أن فى إخراج الشجرة لثمرها طرحا له ، أى قذفا به . وفى مباهج الفكر . « أبرزت » وفى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٦ « ثمّرت » ؛ ولا يستقيم الوزن إلا بتشديد الثاء ، وهذا التشديد للتكثير والمبالغة .

كأنّه والعيونُ تنظُره * إذا بدا زهرُه على القُضُبِ
مَكاحِلٌ من زمرّدٍ خُرِطتْ * مقمّعاتُ الرءوسِ بالذّهبِ

وقال عبدُ الصمد :

كأنّه فى ناضِرِ الأغصانِ * زمرّدٌ لاحَ على تيجانِ

٥ وقال كمالُ الدّين بنُ بشائرَ الإنجيمىّ — وهو عصرىّ — :

حيًّا بها رائحةً * كالمِسك للمستنشِقِ
وقال شَبِّهْها لنا * فقلتُ غيرَ مُطرِقِ
مُكحُلةٌ مخروطةٌ * من دَهْنجٍ(١) موثّقِ
سِدادُها من ذهبٍ * ومِيلُها مِن وَرِقِ(٢)

١٠ وقال شاعرٌ يصف البُسْرَ الأحمر :

أما تَرى النّخلَ حاملاتٍ * بُسْرًا حَكَى لونُه الشّقيقا
كأنّما خُوصُه عليه * زمرّدٌ مثمِرٌ عَقيقا

[وقال ابنُ المعتزّ](٣) :

كَقطَعِ الياقوت يانعاتٍ * بخالص التِّبر مقمّعاتِ

١٥ [وقال فى الأصفر](٣) :

أما تَرَى البُسْرَ الّذى * قد حاز كلَّ العَجَبِ
كيف غدا فى لونِه * كعاشقٍ مكتئبِ
مَكاحلٌ من فضّةٍ * قد طُليتْ بالذّهبِ

(١) الدهنج : جوهر كالزمرد ، وهو حصى أخضر تحلى به الفصوص ، وليس من محض العربية .
٢٠ (٢) الورق بكسر الراء وفتحها : الفضة .
(٣) هاتان العبارتان لم تردا فى (أ) .

ووصفوا الرُّطَبَ والتَّمر — فمن ذلك ما قاله محمدُ بنُ شرف القَيْرُوانىّ :

ومطبوخٍ بغيرِ عَقيدِ[1] نارٍ * عَزَمتُ على جَناه بآبتكارِ
تَوابيت تبدّت من عقيقٍ * مقمّعة بمسبوك النُّضارِ
تَرَى لصفاء جوهرِها نواها * كألسنة العصافير الصِّغارِ

وقال ٱبنُ الرّومىّ : ٥

بَعثتَ ببَرْنىٍّ[2] جَنِيٍّ كأنّه * مَخازنُ تِبْرٍ قد ملئن من الشَّهْدِ
مختّمة الأطرافِ تَنقدُّ قُمْصُها * عن العسل الماذِىِّ[3] والعنبرِ الهندى
تُنقَّلُ من خُضرِ الثياب وصُفرِها * الى حُمرِها ما بين وَشيٍ الى بُرْدِ
فكم لبثتْ فى شاهقٍ لا تُرَى به * ولا تُجتَنَى بالحظ إلّا من البعدِ
ألذّ من السّلوَى وأحلى من المنى * وأعذبُ من وصل الحبيب على الصَّدِّ ١٠

وقال محمدُ بنُ شرف القَيْرُوانىّ [فى التَّمر][4] :

أما تَرى التَّمرَ يَحكِى * فى الحُسنِ للنُّظّارِ
مَخازنا من عقيقٍ * قد قُمِّعتْ بنُضارِ
كأنّما زعفرانٌ * فيه مع الشُّهْد جارِى
يَشِفّ مِثلَ كئوسٍ * مملوءةٍ من عُقارِ ١٥

---

(١) لعله : « وقيد » وقد ورد لفظ «عقيد» بالعين هكذا فى جميع الأصول ومباهج الفكر؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أن العقيد بالعين مما توصف به النار .

(٢) البرنى : ضرب من التمر أصفر مدوّر، وهو أجود التمر، واحدته برنية ؛ وقال الأزهرى : إنه أحمر مشرب بصفرة؛ وهو معرّب ؛ وأصله : «برنيك» أى الحمل الجيد .

(٣) الماذى من العسل : الأبيض السهل الرقيق . ٢٠

(٤) وردت هذه العبارة فى (ب) ولم ترد فى النسختين الأخريين .

[وحيث[1]] انتهينا من وصف النخل وثمرته على اختلافها إلى ما وصفناه فلنذكر أعجوبةً نقلها محمدُ بنُ علي[2] بنِ يوسفَ بنِ جَلَب راغب فى تاريخ مصرَ فى حوادث سنةِ اثنتين وسبعين وثلاثمائة فقال : اتفق يومُ النَّوْرُوز[3] فى هذه السنة لسبعٍ خلون من شهر ربيع الأوّل، فأكل الناسُ الرُّطَبَ قبلَ النَّوْرُوز[3]، ولم يبق فى النخل شيءٌ من الرُّطَب ، ثمّ حَمَل النَّخلُ حَمْلا ثانيا ، فأكل الناسُ البلحَ والبُسْرَ مرّةً ثانيةً ؛ ولم يتّفق مِثلُ هذا فى سنةٍ من السّنين ، ولا سُمِع فى تاريخٍ إلى وقتنا هذا .

ولنصِلْ ذكرَ النخلِ بما يشبهه ، وهو النّارَجيلُ والفُوفَلُ والكاذىُّ والخَزَم .

فأمّا النّارَجيل — ويُسمّى الرّانج ، وسمّاه ابنُ سينا الجوزَ الهندىّ ، وهو المشهورُ من أسمائه على ألسنة العوامّ — فهى نخلةٌ طويلةٌ تَميل بمرتقيها حتّى تُدنيه من الأرض للينها ، ولها أقناء ، يكون فى القِنْو الكريم ثلاثون نارَجيلة ، ولها لبنٌ يسمّى

(١) وردت هذه الكلمة فى (ب) ولم ترد فى النسختين الأخريين .

(٢) محمد بن على هذا هو المعروف بابن ميسر المتوفى بالقاهرة سنة ٦٧٧ هجرية ، وكتابه (تاريخ مصر) المشار اليه هنا هو تاريخ الفاطميين ، جعله ذيلا على تاريخ مصر للعلامة عز الملك محمد بن عبد الله المسبحى الحرّانى المتوفى سنة ٤٢٠ هجرية ؛ ورتّب ابن ميسر كتابه هذا على ترتيب السنين ، وقد طبع منه الجزء الثانى بمطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، ويبتدئ هذا الجزء من سنة ٤٣٩ هجرية وينتهى بالكلام على آخر سنة ٥٥٣ هجرية .

(٣) النوروز بالواو ، هو الاسم الأعجمى ، وعربيته نيروز بالياء ، وهو أول يوم من السنة عند الفرس ، وهو عند نزول الشمس أوّل الحمل ، وعند القبط أول توت ؛ ومعنى نوروز بالفارسية اليوم الجديد ، وربما أريد به يوم فرح وتنزه ؛ وقال المعرّىّ فى عبث الوليد : النيروز فارسىّ معرّب ، ولم يستعمل إلا فى دولة بنى العباس ، فعند ذلك ذكرته الشعراء ، ولم يأت فى شعر فصيح ، اذ كان نقل عن أعياد فارس .

الأطواق[1]، يُشرَب، حلوٌ يُسكِر سُكْرا معتدلا؛ وأهلُ الهنـد يصنعون من النّارَجيل الرَّطْب سُكّرا، إلّا أنّه لا ييبسُ ويكونُ كالرَّمْل[2] .

وقال الشيخ الرئيسُ أبو علىّ بنُ سينا فيه : جيّـدُه الطرىُّ الشـديدُ البياض ؛ ويجب أن يؤخذَ عنه قِشرُ لبِّه. قال : وطبعُه حارٌّ فى أوّل الثانية، يابسٌ فى الأولى، وفيه رطوبةٌ فَضْليّة؛ والرَّطْبُ منه رَطْبٌ فى الأُولى . وقال فى أفعالِه وخواصِّه : هو ثقيل، غيرُ ردىء الغِـذاء؛ وقِشرُ لُبِّه لا ينهضِم . قال : ويجب ألّا يُتناوَلُ عليـه الطعامُ إلّا بعد ساعة؛ ودُهنُه الطرىُّ أفضلُ كَيْمُوسا من السَّمْن، ولا يُلزِج المعدة؛ ودهنُـه للبواسير، وخصوصا دُهنَ العتيق منه ، لا سيّما مع دُهن المِشمِش مشروبا من كلِّ واحدٍ مثقال .

ما قيل فى وصف النارجيل من الشعر

وقال كُشاجِم يصفه :

وذاتِ قشرٍ أسوَدٍ حشوُها * كافورةٌ موموقةُ المَنظـرِ
قـد نُشِرتْ فى رأسها وَفْرةٌ * تَستُرها عن ناظر المبصِرِ
كأنّهـا جمجمـةٌ أُلبِستْ * ذوائبا من خالص العنبرِ

وأمّا الفُوفَل — فقال أبو حنيفة : هى نخلةٌ مِثلُ نخلة النّارَجيل ، تحمِـل كبائسَ فيها الفُوفَل مِثلُ التمر، فمنه أسوَد، ومنه أحمر . وقال الشيخ الرئيس : قوّةُ الفُوفَل قريبةٌ من قوّة الصَّندَل؛ وهو مبردٌ بقوّة، قابض؛ وهو جيّدٌ للأورام الحارّة الغليظة؛ وموافِقٌ لمن به التهابٌ فى عينه .

(١) فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف : « الأطواف » بالفاء، وفى (ا) « الأطراف » بالراء ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى كتب اللغـة مادة (طوق) ؛ وقد ورد فى القاموس وشرحه فى الكلام على النارجيل : الاطراق بالراء؛ وهو تحريف أيضا .

(٢) كذا فى (ب)، (ج) والذى فى (ا) : « كالرطب » ؛ وهو تحريف .

وأمّا الكاذِىّ[1] — فقال[2] : هى نخلة، إلّا أنّها لا تطول طولَ النّخل ، فاذا أُطلِعَت الطَّلْعَةَ قُطِعتْ قبلَ أن تنشقّ، ثمّ تُلقَى فى الدُّهن، وتُترَك حتّى يأخذَ الدُّهنُ رائحتَها، فيُتطيَّب به، فإن تُرِكت الطَّلعةُ حتّى تنشقّ صار بلحا، ويتناثر ولم توجد له رائحة .

وأمّا الخَزَم[3] — فقال[2] : هو شجرةٌ كالدَّوْم، له أفْناءٌ وبُسْرٌ أسوَدُ إذا أينع إلّا أنّه مرٌّ عَفِصٌ لا يأكله الناس، وتُتّخَذُ من خُوصِه وعُسُبِه[4] الحبال ، فلا يكون شىءٌ أقوى منها .

وأمّا الزّيتون وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس : الزّيتونُ يغذو قليلا، وورقُ البَرّىّ جيّدٌ للدّاحس[5]، ويَمنَع العَرَق مَسْحا، وصَمْغُ البرّىّ ينفع من

(١) ذكره القيصونى فى (قاموس الأطباء) فى مادة « كد » باسم « الكادى » بالدال المهملة، وفى مادة « كذى » باسم «الكاذى» بالمعجمة ؛ وقال فى المادة الأولى : إن هذا الاسم عربى من لغة أهل اليمن وقيل إنه اسم هندى الخ .

(٢) فقال، أى أبو حنيفة السابق ذكره فى الفوفل وقد نقل هذا الكلام عنه صاحب مباهج الفكر ولم يرد ذكر الكاذى ولا الخزم فى قانون ابن سينا .

(٣) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : « الخرّم » بالراء المهملة، وهو تصحيف صوابه ماأثبتنا نقلا عن كتب اللغة . أما الخرم بالراء فسيأتى الكلام عنه فى باب الأزهار من هذا السفر .

(٤) العسب : جمع عسيب، وهو جريد النخل .

(٥) فى الشذور الذهبية نقلا عن بحر الجواهر أن الداحس هو ورم حار يعرض بالقرب من الأظفار مع وجع شديد وضربان قوى وتمدّد يسقط الأظافير؛ وربما أحدث الحمى ؛ وورد فيه أيضا أن الأوروبيين عرّفوا الداحس بأنه التهاب النسيج الخلوىّ الغليظ المندمج، الداخل فيه خيوط عصبية كثيرة، وهو يحدث فى أطراف الأصابع، ولا خطر فيه إلا بسبب شدّة وجعه بما يحصل للمريض به من الاختناق، وإطلاق هذا الاختناق يزيل هذه العوارض فى الحال .

الجرب المتقرّح والقوابى[1]، وينفع الغِشاوةَ والبياض، ويجلو العين ووسخَ قروحِها ويُخرِج الجنين .

وماءُ الزّيتون المملّح يُحقَن به لعِرق النّسا، وورقُه يُطبَخ بماء الحِصرِم حتّى يصيرَ كالعسل، وتُطلَى به الأسنان المتآكِلةُ فينفعها[2]، وعُصارةُ ورقِه للجُحوظ . قال: والزّيتونُ الأسوَدُ مع نواه من جملة البَخورات للرّبْو وأمراضِ الرئة، والزّيتونُ الغليظُ المملوحُ يثير الشهوةَ، ويقوّى المعدةَ، ويولّد كَيْموسا قابضا، والمخلّلُ أقبلُ الجميع للهضم وأسرعُه .

وقال ابنُ وَكيع يصفه :

أُنظُرْ إلى زيتونِنا * فيه شفاءُ المُهَجِ
بدا لنا كأعيُنٍ * شُهْلٍ[3] وذاتِ دَعَجِ
مخضرُّه زبرجدٌ * مسودُّه من سبَجِ[4]

وأمّا الخُرْنُوب وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس: أصلَحُه الخُرْنُوب الشامىُّ المجفّف، وهو قابض، والرَّطْبُ منه مُطلِق . قال : واذا دُلِكت التآليلُ

(١) كذا ورد هذا الجمع فى جميع الأصول وكتب الطب الأخرى، ولم نجد فيما لدينا من كتب اللغة القوابى جمع قوباء، والذى وجدناه أن جمعه قوب بضم القاف وفتح الواو .

(٢) فى القانون : «فيقلعها» الجزء الأوّل صفحة ٣١٠

(٣) الشهل : من الشهل بفتحتين، وهو أقل من الزرق فى الحدقة وأحسن منه، وقيل : هو أن تشرب الحدقة حمرة حتى كأن سوادها يضرب الى الحمرة، وقيل غير ذلك . والدعج شدّة سواد العين، والمراد أن من هذا الزيتون ما هو كالعيون الشهل فى أنه غير خالص السواد، ومنه ما هو كالعيون الدعج فى شدّة السواد وخلوصه .

(٤) السبج بالتحريك : الخرز الأسود، فارسىّ معرّب .

بالخُرْنُوب النَّبَطِىِّ الفجِّ دلكا شديدا أذهبها ألبتّة ؛ والمضمضةُ بطبيخه جيّدةٌ لوجع الأسنان ؛ والرُّطْب من الشامىِّ ردىءٌ[1] للمعدة ، لا ينهضم ؛ واليابسُ أبطأ انهضاما . قال : والجلوسُ فى طبيخه يقوِّى المعدة[2] ؛ وفيه إدرار ؛ والنَّبَطىُّ نافعٌ من سيلان الطَّمْث المُفْرط أكلا واحتمالا[3] . وقال جالينوس : ليت[4] هذه الشجرةَ لم تُجلَب إلى بلادٍ[5] أخرى . وحُكِى أنّ سليمانَ عليه السلامُ كان من عادته أن يعتكفَ فى البيت المقدَّس المُدَدَ الطِّوال ، وكانت تخرج له فى كلِّ يوم من محرابه شجرة ، فيسألها عن اسمها فتخبره ، فخرجتْ له شجرةُ الخُرْنُوب ، فسألها عن اسمها ، فأخبرتْه ، فبكى ، وقال : نُعِيتْ إلىَّ نفسى ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : الخُرْنُوب خراب ؛ ومات بعد ذلك بقليل ؛

ما وصف به الخرنوب من الشعر

وقال شاعرٌ فيه :

لمّا أتى الخُرْنُوبُ فى طبقٍ * حنّت اليه النّفوسُ والمُهَجُ
كأنّه فى كمال حالتِه * حَبٌّ عقيقٍ أصدافُها سَبَجُ

---

(١) فى (أ) « جيد » ؛ وهو خطأ من الناسخ اذ هو ينافى قوله بعد : « لا ينهضم » .

(٢) فى القانون طبع أوربا صفحة ٢٧٢ : «الأمعاء» .

(٣) المراد بالاحتمال فى كلام الأطباء : أن تضع المرأة الدواء فى فرجها .

(٤) فى القانون ج ١ ص ٤٥٩ طبع مصر : «نبت» ؛ وهو تحريف ؛ وما هنا هو الموافق لما تؤديه عبارة ابن البيطار الآتى ذكرها فى الحاشية التى بعد هذه ، فانظرها .

(٥) معنى هذه العبارة أنه يتمنى أن شجرة الخرنوب لم تجلب من البلاد المشرقية التى كانت تزرع فيها الى بلاد أخرى ، وهى بلاد اليونان ، كما يستفاد ذلك من عبارة ابن البيطار فى المفردات ج ٢ ص ٥١ طبع بولاق ؛ فقد قال نقلا عن جالينوس ما نصه : «ولقد كان الأجود والأصلح ألا يجلب هذا الخرنوب إلينا من البلاد المشرقية التى يكون فيها» اه .

وأمّا الإجّاص[1] وما قيل فيه — فقال أبو بكر بنُ وحشيّة فى توليده : إن خلطتم اليَبْرُوحَ[2] بورق العُنّاب ومثلِ نصفِ وزنِ اليَبْرُوح[2] كُنْدُسا[3]، وزرعتموه فى أىّ البلاد، خرج عن ذلك شجرُ الإجّاص الحامض؛ وإن أردتموه حُلوا فاخلطوا مع اليَبْرُوح[2] خميرَ دقيقِ الشعير والحنطة مختلطَين، وقد طال آختمارهما حتى حَمُضا، فإنّه يخرج عنه شجرُ الإجّاص الحلو، وذلك بعد أن يُخلَط بما تقدّم، ومن الخمر الحديث برِطل .

وقال الشيخ الرئيسُ فى الإجّاص : البستى منه أقوى من الأسوَد، والأصفرُ أقوى من الأحمر، والأبيضُ الكبير[4] ثقيلٌ قليلُ الإسهال، والأَرْمَنِىُّ أحلى الجميع

(١) الإجاص والإنجاص والإنجاس أسماء لهذا النوع من الفاكهة فى سوريا، وآلو، وكازرك وآلوجة، أسماء فارسية لهذا النوع، وهو البرقوق فى مصر والمغرب (معجم أسماء النبات) .

(٢) اليبروح : أصل المغد، وهو اللفاح البرى؛ وهو سبعة انواع، أفضلها أصل سراج القطرب وهو شبيه بصورة انسان؛ ولذلك سمى يبروحا، لأنه اسم صنم؛ وهو لفظ سريانى (قاموس الأطباء) وفى التاج أنه هو المعروف بالفاوانيا، وعود الصليب؛ وقال ابن البيطار : إن أصل هذه الشجرة الكائن فى بطن الأرض فى صورة صنم قائم ذى يدين ورجلين، وله جميع أعضاء الانسان، وورقها شبيه بورق العليق، وهو أيضا يتعلق بما يقرب منه من الشجر، ينفرش عليه ويعلوه، وله ثمرة أحمر لونها، طيب ريحها، ومنبت هذه الشجرة يكون فى الجبال والكروم (المفردات ج ٣ ص ١٠ طبع بولاق فى الكلام على سراج القطارب) . وقال داود : انه نبات ورقه كورق التين، لكنه أدق، له زهر أبيض يخلف كالزيتونة ويطول نحو ذراع التذكرة ج ٢ ص ٢٢٥ طبع بولاق .

(٣) الكندس بالضم : نبات له ورق بين البياض والخضرة، وعرق داخله أصفر وخارجه أسود؛ وهو المستعمل؛ ويقال فيه أيضا : قندز، وخوندس، وأسطروتيون، وكلها أسماء يونانية؛ ويقال له فى المغرب : « عرنة » و « عود العطاس » و « سراج الظلام » و « شجرة أبى مالك »، كما فى معجم أسماء النبات ص ٩٠

(٤) فى نسخة القانون طبع مصر : « الكمد »، وهو بفتح الكاف وكسر الميم غير الصافى من الألوان .

وأشدُّه إسهالا، وأجوَدُه الكبارُ السَّمينة؛ وطبعُه باردٌ فى أوّل الثانيـة رَطْبٌ فى آخرها . وقال فى أفعالِه وخواصِّـه : صَمْغُه ملطِّف قطّاعٌ مُغَرٌّ؛ وفى الدِّمَشْقىّ عَقْلٌ وقبضٌ عنـد دِيسْقُورِيدُس؛ وقال جالِينُوس[1] : والذى لم يَنضَج فيـه قبض وغِذاؤه قليل، وليؤكل قبلَ الطعام، ويشرب المرطوبُ بعـدَه ماءَ العسلِ والنَّبيذ وَصَمْغُه مُلحِمٌ للقروح، وبالخلِّ يقلَع القُوباء . وخاصّـةً إن كان معـه عسلٌ أو سكّر وخصوصا فى الصِّبيان؛ وورقه اذا مُضمِض بمـائه مَنَع من النـوازل الى اللَّوزتين[2] واللَّهاة؛ واذا اكتُحِل بصَمْغِه قوّى البصر؛ والمُـزُّ[3] منه يسكِّن التهابَ القلب، وهو أشدُّ قَمْعا للصّفراء؛ والحلوُ منه يُرخى المعدةَ بترطيبِه ويُبردها؛ وبالجملة لا يلائمها؛ والحلوُ منه أشدُّ إسهالا للصّفراء؛ والرَّطْبُ أشدُّ إسهالا من اليابس؛ والدِّمَشْقىُّ يَعقِل البطنَ عند بعضهم؛ والبَرّىُّ ما دام لم يَنضَج جدّا[4] ففيـه قبضٌ إجماعا . وقال جالِينُوس : إنّ دِيسْقُورِيدُس أخطأ فى قوله : إنّ الدِّمَشْقىَّ يَقبِض، بل هو مُسْهِل وصَمْغُه يفتِّت الحَصاة، وماؤه يُدِرّ الطَّمْث، وكلّما صغُر كان أقلَّ إسهالا .

وقال سليمانُ بنُ بطّال[5] الأندلسىّ يصفه :

بَعثتُ ما يَنـدُرُ لكنّه * فى وصـفه النّاعتُ لم يَبرِرِ[6]

(١) كذا فى جميع الأصول؛ وهذه العبارة تفيد أن ما يأتى بعد هو قول جالينوس؛ وعبارة القانون «عند ديسقوريدوس دون جالينوس» انظر الجزء الأوّل ص ٢٥٨ طبع مصر وص ١٣٤ طبع أوربا وهى تفيد أن ما يأتى ليس من كلام جالينوس، كما هو ظاهر .

(٢) كذا فى القانون ج ١ ص ٢٥٨ طبع مصر؛ وص ١٣٤ طبع أوربا؛ والذى فى جميع الأصول : «الى الوريدين»؛ وهو تحريف .

(٣) المز : الذى يجمع فى طعمه بين الحلاوة والحموضة .

(٤) فى جميع الأصول : «جيـد وفيه»؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ ص ٢٥٨ طبع مصر وص ١٣٤ طبع أوربا .

(٥) فى نفح الطيب : «سليمان بن محمد بن بطال»، انظر الجزء الثانى ص ١٩٨ طبع أوربا .

(٦) يريد بهذا الشطر أن واصف الاجاص لم يصدق فى وصفه لتقصيره فى الوصف عما يستحق من المدح .

جيشا من الزِّنْج ولكنّه * جيشٌ متى يَلق العِدا يُقهَرِ
يَنفِى لك الصّفراءَ مهزومةً * والزِّنْجُ أعداءُ بنى الأصفرِ

وقال آخر :

كأنّما الإجّاصُ فى صِبغِه * مستَرِقٌّ فى اللّون صِبْغَ المُهَجْ
لم يَخْطُ(١) فى لونٍ وفى منظرٍ * مستحسَنِ الوصف وعَرْفٍ(٢) أرِجْ
قطائعُ(٣) العنبر ملمومةً * أو خرزاتٍ خُرِطتْ من سَبَجْ(٤)

ومّما وُصِف به القَراسِيا(٥) — قال شاعر :

وحبوبٍ كأنّها حَدَقُ الأعـ * ـين سُودٍ دموعهنّ دماءُ
مائلاتٍ(٦) مِثل النّجوم علينا * فى بُروج لها الغصونُ سماءُ
واذا ما نثرتَها ففصوصٌ * صَبَغَتْها بمائها الظّلماءُ
من يذُقْها يذُقْ رُضَابَ غزالٍ * فهى والخمرُ فى المَذاق سواءُ

(١) «لم يخط» أى لم يجاوز الاجاص فى لونه ومنظره وعرفه قطائع العنبر؛ فقوله فى البيت الآتى بعد «قطائع» مفعول لقوله فى هذا البيت : «لم يخط» .

(٢) «عرف» بالكسر : معطوف على قوله : «لون» .

(٣) تقدم بيان وجه النصب فى قوله «قطائع» انظر الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة؛ والقطائع جمع قطيعة بمعنى القطعة من الشىء، كما فى اللسان .

(٤) السبج : خرز أسود؛ وهو معرّب .

(٥) يقال هذا اللفظ بالسين والصاد؛ وهو أعجمى؛ وفى معجم أسماء النبات أنه يسمى فى الجزائر حب الملوك، وفى سوريا : كرز. ولم يرد كلام عنه فى حرف القاف من كتاب الأدوية المفردة فى قانون ابن سينا الذى ينقل عنه المؤلف فى هذا السفر؛ ولهذا لم يذكر هنا شيئا من الخواص الطبية لهذا النبات .

(٦) فى الأصول : «من ثلاث»؛ وهو تحريف .

وأمّا الزُّعْرور وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس : الزُّعْرور يُسمّى مثلّث العجم[1]، ومنه نوعٌ تسمّيه اليونانيّون هيقيليمون[2]، وربّما سمّوه التّفاح البرّىّ؛ وشجرُه يُشبِه شجرَ التّفاح حتّى فى ورقه، إلّا أنّه أصغرُ منه، عَفِصُ الطّعم؛ وهو قابض، يَقمَع الصّفراء، ويَحبِس السيلاناتِ أكثرَ من كلّ ثمرة .

ما وصف الزعرور من الـ

وفى وصفه يقول ابنُ رافع :

كأنّما الزُّعْرورُ لمّا بدا * فى حُسنِ تقديرٍ ومَرأًى أنيقْ
جلاجلٌ مخضوبةٌ عَنْدَماً[3] * أو خرزاتٌ خُرِطتْ من عقيقْ
يَضُوع من رَيّاه إمّا هفا * به نسيمُ الرّيح مِسكٌ فَتيق

(١) العجم بالتحريك، هو نوى كل شىء؛ وقد وردت هذه التسمية فى شرح الأدوية المفردة للكازرونى ولم ترد بنصها فى قانون ابن سينا فى كلتا طبعتيه المصرية ج ١ ص ٣٠٨ والأوربية ص ١٧٠، ولكن ورد ما يفيد معناها، فقد قال فى ثمر الزعرور ما نصه : « فى كل واحد منه ثلاث حبات، ولذلك سماه قوم : طريقونيقون، ومعناه ذو الثلاث حبات » اهـ وقد ورد قوله : « طريقونيقون » هكذا فى كلتا نسختى القانون المصرية والأوربية والذى فى معجم أسماء النبات ص ١٥١ : «طريققن» .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى المنهج المنير وكتاب الشذور الذهبية فى الاصطلاحات الطبية؛ ولم نجد نصا على ضبطه فيما راجعناه من الكتب؛ ولهذا لم نضبطه؛ والذى فى نسخة القانون طبع أوربا ص ١٧٠ « هيقلمون » بدون ياء بعد القاف وبعد اللام؛ وفى الأصول هيقيمليون بتقديم الميم على اللام؛ وهو تحريف .

(٣) العندم، قال أبو حنيفة : هو البقم، كما فى مفردات ابن البيطار ج ٣ ص ١٤١ وقال فى البقم بفتح الباء وتشديد القاف : هو خشب شجر عظام ورقه مثل ورق اللوز الأخضر، وساقه وأفنانه حمر، ونباته بأرض الهند والزنج، ويصبغ بطبيخه . وقال داود فى البقم : هو بالعربية العندم، وبالهندية الكهرم؛ وهو خشب هندى ورقه كاللوز؛ وزهره شديد الصفرة، وثمره مستدير الى خضرة ثم حمرة، فاذا نضج اسودّ وحلا، ويؤكل كالعنب، واذا نقع ليلتين أو ثلاثا كان مدادا لا يعدل سواده شىء؛ وتصبغ به أنواع الثياب الحمر .

وقال أيضا فيه :

أُنظرْ إلى زُعْرورنا المنعوتِ * نَكْهتُه كالعنبر المفتوتِ
كأنّه فى الوصف والنُّعوتِ * بنادقٌ من أحمرِ الياقوتِ

وأمّا الخَوْخُ وما قيل فيه — فالشاميّون يسمّونه الدُّراقِن — ؛قال الشيخ الرئيس : طبعُ الخَوْخ باردٌ فى أوّل الثانية، رَطْبٌ فى الأُولى دون آخرها،ورطوبتُه سريعةُ العفونة؛ وهو ملينٌ، وفيه قبض ما، وأقبَضُه المقدَّد، وفيه منعٌ للسّيلان ؛ والفجُّ منه قابضٌ أيضا ؛ واذا قُطِر ماءُ ورقِه فى الأُذُن قَتَل الدِّيدان ؛ ودُهنُه ينفع من الشَّقِيقةِ(١) وأوجاعِ الأُذُن الحارّةِ والباردة؛ والنّضيجُ منه جيّدٌ للمعدة(٢) ، وفيه تشهيةٌ للطّعام ؛ ويجب ألّا يؤكَل على غيرِه فيَفسُد عليه ويُفسِدَه، بل يقدَّم على الطّعام؛ وقَدِيدُه بطيءُ الهَضْم ليس بجيّد الغِذاء . قال : واذا ضُمِدتْ بورقِه السُّرّةُ قَتَل دِيدانَ البطن، وكذلك إن شُرِبتْ عُصارةُ فُقّاحِه(٣) وورقِه؛ والنّضيجُ منه يليِّن البطن ؛ والفجُّ عاقل . قال : وقد قال بعضهم : إنّه يزيد فى الباه ، ويُشبِه أن يكون ذلك للأبدان الحارّة(٤) . (٤١)

وأمّا ما وُصِف به من الشّعر — فمن ذلك قولُ شاعر :

فى الخَوْخِ أُعجوبةٌ لناظرِه * ما مِثلُها جاء فى الأحاديثِ

(١) الشقيقة : وجع يأخذ فى أحد شقى الرأس ويهيج بأدوار غالبا هيجانا شديدا لأدنى سبب، إما عن حركة أو شرب خمر، أو تناول مبخر ؛ وعرّفها جالينوس بأنها السائرة المتوسطة ، أى السائرة فى الرأس الى وسطه ؛ وسميت شقيقة لاختصاصها بشق .

(٢) الى هنا انتهت الأوراق الموجودة من النسخة المشار اليها بحرف (ج) .

(٣) فقاح كل نبات زهره .

(٤) فى القانون ج ١ ص ٤٦١ طبع مصر : «اليابسة الحارة» .

كأنّه وجنةُ الحبيب وقد * أثّرَ فيها قَرْصُ البراغيثِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِىّ :

أَهْدَى الينا الزمانُ خَوْخًا * مَنظَرُهُ مَنظَرٌ أنيقُ
من كلِّ مخصوصةٍ بحُسْنٍ * معناه فى مِثلِها دقيقُ
صفراء حمراء مستفيدٌ * بهجتَها (١) التِّبْرُ والعقيقُ
ذاتُ أديمَين ذا بَهارٌ (٢) * لمجتنيه ، وذا شَقيقُ (٣)
كوجنةٍ أُلبِستْ خَلُوقًا (٤) * فزال عن بعضِها الخَلُوقُ

(١) فى كلا الأصلين : «منحتها» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مباهج الفكر .

(٢) البهار، هو الأقحوان الأصفر؛ وكانت عامة الأندلس تسميه خبز الغراب، وهو نبات له ساق رخصة وورق شبيه بورق الزازيانج وزهر أصفر أكبر من زهر البابونج شبيه بالعيون، ولذلك يسمى عين البقرة؛ وينبت بالدمن ؛ وسيأتى ذكره فى باب الأزهار من هذا السفر .

(٣) الشقيق، هو المعروف بشقائق النعمان، وأضيف هذا النبات الى النعمان بن المنذر لمحبته إياه حتى ملأ به ما حول قصره المعروف بالخورنق، وهو نبت يرتفع نحو ذراع، له فروع مزغبة خشنة، ويعقد رءوسا كأنها الورد، ثم يتفتح عن زهرة مستديرة كأنها الورد فى وصفها، وألوانه حمرة وصفرة وزرقة وسواد، وأكثره الأحمر، وداخل هذا الورق بزر أسود مستدير دون السمسم، وطعمه الى حدّة وقبض، يدرك بمارس وأبريل (التذكرة) ج ٢ ص ٤٧ طبع بولاق، وقال ابن البيطار فى المفردات ج ٣ ص ٦٤ : شقائق النعمان صنفان : برىّ وبستانىّ، ومن البستانى ما زهره أحمر، ومنه ما زهره الى البياض والى الفرفيرية، وله ورق شبيه بورق الكزبرة، إلا أنه أدق تشريفا، وساقه أخضر دقيق، وورقه منبسط على الأرض، وأغصانه شبيهة بشظايا القصب، رقاق، على أطرافها الزهر مثل زهر الخشخاش، فى وسط الزهر رءوس لونها أسود وكحلى الى السواد؛ وأصله فى عظم زيتونة وأعظم، وكله معقد؛ وأما البرىّ منه فانه أعظم من البستانى وأعرض ورقا منه وأصلب، ورءوسه أطول؛ ولون زهره أحمر قانئ، وله أصول دقاق كبيرة، ومنه ما لونه وورقه أسود وأصفر، وهو أشد حرافة من غيره من البرىّ؛ وسيأتى ذكره أيضا فى باب الأزهار من هذا السفر .

(٤) الخلوق : ضرب من الطيب مركب فيه زعفران، قاله الحافظ ابن حجر .

وقال أبو بكر بنُ القُرْطُبيّة :

وطيّبِ الرِّيقِ عذبٍ آبَ فى آبِ[1] * وزار مشتمِلا فى زِىِّ أعرابِ
فى مُخْمَلِ الثوب لم تَخْمُل رَآستُه * بين الفواكه من نقصٍ ولا عابِ
خالستُه نظرى فآحمرّ من خَجَلٍ * ثمّ آنثنى مُعرِضا عنّى كمرتابِ
مَن آسمُه فيه مقلوبا ومبتدأً * أربَى على اللّوز فى تطريز جِلبابِ

وقال أيضا :

وبنتِ ندًى مخطَّطةِ الأعالى * بمحمرٍّ كلَون الأُرْجُوانِ
كوجنةِ غادةٍ خافت رقيبا * فغطّتها بمحمرّ البَنانِ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وخُوخةٍ مِلءِ يدِ الجانيهْ * تَملِك لحظَ الأعيُنِ الرّانيهْ
مصفرّةِ الوجنةِ محمرّةٍ * كأنّها عاشقةٌ ساليهْ

وأمّا المِشمِش وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس : أجوَدُ المِشمِش الأرمَنىّ، فإنّه لا يُسرِع إليه الفسادُ ولا الحُموضة؛ واذا أُكِل المِشمِشُ فيجب أن يؤخذَ من المُصْطَكا والأَنيسُون بالسويّة وزنُ درهم أو درهمين فى خمرٍ صِرْفٍ أو نبيذِ زبيبٍ أو نبيذِ عسل . قال : وطبعُه باردٌ رَطْبٌ فى الثانية، ودُهنُ نواه حارٌّ يابسٌ فى الثانيةِ[2]، وخِلْطُه سريعُ العفونة؛ وهو[3] يسكّن العطش؛ ودُهنُ نواه ينفع

(١) آب : اسم شهر من الشهور الرومية ؛ وقد جاء ذكره فى أشعار العرب كثيرا .

(٢) كذا فى كلا الأصلين؛ والذى فى القانون : «فى الثالثة» الجزء الأوّل صفحة ٣٧٢ طبع مصر وكذلك فى النسخة الأوروبية ص ٢١٣

(٣) عبارة القانون : « نقيعه يسكن » الخ الجزء الأوّل ص ٣٧٢ طبع مصر وكذلك فى النسخة الأوروبية ص ٢١٣

من البواسير ؛ وهو يولّد الحُمّيات لسرعةِ تعفُّنه ؛ وتَقيعُ المقدَّد منه ينفع من الحُمّيات الحارّة .

ما وصف المشمش من الش

وقد وصفه الشعراءُ وشبّهوه — فمن ذلك قولُ بعض الشعراء :

أَفدِى حبيبا جاءنى متحفًا * بمشمشٍ أحلَى من السّكّرِ
نخلتُه حين تأمّلتُه * بنادقا من ذهبٍ أحمرِ

وقال ٱبنُ وَكيع :

بدا مِشمِشُ الأشجارِ يذكو شِهابُه * على خُضرِ أغصانٍ من الرِّىِّ مُيَّدِ
حَكَى وحكت أشجارُه فى ٱخضرارِها * جلاجلَ تِبْرٍ فى قِبابِ زبرجدِ

وقال ٱبنُ رَشيق :

كأنّما المِشمشُ لمّا بدت * أشجارُه وهو بها يَلتهِبْ
خضرُ قِبابِ المُلك حَفّت بها * جلاجلٌ مصقولةٌ من ذهبْ

وقال ٱبنُ المعتزّ : (٤٢)

ومِشمِشٍ بان منه أعجَبُ العَجَبِ * يدعو النفوسَ الى اللّذّات والطّربِ
كأنّه فى غصون الدَّوْح حين بدا * بنادقٌ خُرِطتْ من خالص الذّهبِ

وقال ٱبنُ الرّومىّ :

قِشرٌ من الذّهب المصفّى حشوُه * شُهدٌ لذيذٌ طعمُه للجانى
ظَلّنا لديه نديرُ فى كاساتِنا * خمرا تُشعشَع[1] كالعقيق القانى
وكأنّما الأفلاكُ من طربٍ بنا * نَثرتْ كواكبَها على الأغصان

(١) تشعشع ، أى تمزج .

وقال أيضا يذمّه :

اذا ما رأيتَ الدّهرَ بستانَ مِشمِشٍ * فأيقِنْ يقينا أنّه لِطبيبِ
يُغِلّ له ما لا يُغِلّ لِرَبّه * يُغِلّ مريضا حَمْلُ كلِّ قضيبِ

وأمّا العُنّابُ وما قيل فيه — فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ فى توليده : وإن أردتم العُنّابَ الكِبارَ فخذوا بِطّيخةً هنديّةً فقوّروا رأسَها من جهة الرأس، وأحشوا اليَبْرُوحَ[1] فيها، وأعيدوا القُوارةَ فى موضعِها ، وصبّوا اللّبنَ الحامضَ بزُبْده عليها وازرعوها فى الأرض، وعمّقوا لها الحفرَ قليلا، وأسقوها فى أوّل زرعها، فإنّها تُخرِج شجرةً تحمِل عُنّابا كِبارا كأمثال الإجاص اللّطيف .

وقال الشيخ : أجودُ العُنّاب أعظَمُه؛ وطبعُه باردٌ إلى الأُولى معتدلٌ فى اليُبوسة والرطوبة، وهو إلى قليلِ رطوبة؛ وينفع حِدّةَ الدّم الحارّ . قال: أظنّ[2] ذلك لتغليظه الدّم، وتلزيجِه إيّاه . قال : والّذى يُظَنّ من أنّه يصفّى الدّمَ ويغسله ظنٌّ لستُ أميل اليه؛ وغِذاؤه يسير، وهضمُه عسير. قال: والقولُ الجيّدُ فيه ما قاله جالِينُوس : « ما وَجدتُ للعُنّاب فى حفظ الصّحّة ولا إزالةِ المرض أثرا ، لكن وجدتُه عسيرَ الهضمِ، قليلَ الغِذاء » . قال الشيخ : والعُنّابُ ينفع الصّدرَ والرِّئة، وهو ردىءٌ للمعدة . وقيل : إنّه نافعٌ لوجع الكُلْية والمَثانة؛

ما وصفه العناب من الشعر

وقد وصفه الشعراءُ وشبّهوه — فمن ذلك قولُ ابنِ القُرْطُبيّة :

أما تَرَى شجرَ العُنّاب مُوقَرةً * بكلِّ أحمرَ لمّاعٍ من الخَرَزِ

(١) تقدّم تفسير اليبروح فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٠ من هذا السفر، فانظرها؛ وسيأتى وصفه أيضا فى هذا السفر انظر الكلام على اللفاح .

(٢) فى كلا الأصلين : «لتعطيله» ؛ وهو تصحيف .

وقد تدلّت به الأغصانُ مائلةً * مِثلَ العَثاكِلِ من صدرٍ إلى عَجُزِ
وقد حمتْه عن الأيدى أسنّتُها * حِذارَ مفترِسٍ أو خوفَ منتهِزِ

وقال أبو طالب المأمونىّ :

يَرُوقُنى العُنّابُ * فبى اليه انصبابُ (١)
اذ لاح لى منه أطرا * فُ من أُحبُّ الرِّطابُ
يَحكى فرائدَ دُرٍّ * لها العقيقُ إهابُ

وقال ابنُ رافع :

أَحببْ بعنّابٍ بدا أَنيقِ * كمِثلِ لونِ وجنةِ المعشوقِ
أو خَرزٍ لُمّتْ من العقيقِ * أو كقلوبِ الطّيرِ فى التحقيقِ
جاءت بها شَغْواءُ (٢) رأسَ نِيقِ (٣) * كأنّما اشتُقّ من الشّقيقِ
أو كان يُسقَى بجَنَى الرّحيقِ * أحلَى من السّكّرِ فى الحُلوقِ
* فى نَكْهَةِ العنبرِ والخَلُوقِ *

وقال أيضا فيه :

كأنّما العُنّابُ لمّا بدا * يَلوح فى أعطافِ غصنٍ أَنِيقْ
تطريفُ مَن تطريفُها مِن دمى * أو خَرَزاتٌ خُرِطتْ من عَقيقْ
أو كقلوبِ الطّيرِ جاءت بها * أفراخَها شَغْواءُ (٢) فى رأسِ نِيقْ (٣)

وقال فيه :

كأنّما العُنّابُ فى دَوْحِه * لمّا تَناهَى حُسنُه واستَتَمْ
أقراطُ ياقوتٍ تبدّت لنا * أو انملٌ قد طُرِّفتْ بالعَنَمْ

(١) شبه ميله الشديد الى العناب بالانصباب، وهو النزول من علو الى سفل .
(٢) الشغواء : العقاب، سميت بذلك لفضل منقارها الأعلى على الأسفل ؛ وقيل لتعقف منقارها .
(٣) النيق بالكسر : أرفع موضع فى الجبل .

(٤٣) وأمّا النَّبِق وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس : الرَّطْبُ من النَّبِق واليابسُ فيهما تجفيفٌ وتلطيف؛ ودخانُ السِّدْرِ شديدُ القبض؛ والنَّبِقُ قابض وخصوصا سَوِيقه(١)، ويمنع تَساقُط الشَّعر، ويطوِّله، ويقوّيه، ويلينُه؛ وورقُ السِّدْرِ يليّن الورمَ الحارَّ ويحلّله؛ وينفع من الرَّبْو وأمراضِ الرِّئة؛ وهو مقوٍّ للمعدة عاقلٌ للطبيعة؛ وينفع من نَزْفِ الحيضِ والطَّمْثِ، ومن قُروح الأمعاء، خصوصا سَوِيقه(١)؛ وينفع من الإسهال الكائنِ بسبب ضَعف المعدة . قال : والسِّدْرُ يُحتَقَن بطبيخه، ويُشرَب لهذه العِلل، ولسَيَلان الرَّحِم .

ما وصف به النبق من الشعر

وقد وصفه الشعراءُ وشبّهوه — فمن ذلك قولُ شاعر :

وأشجارِ نَبْقٍ قد تكامَل حُسنُها * أتت بغريبٍ فى الثمار بديع
فمن أحمرٍ قانٍ وأصفرَ فاقعٍ * ويانعٍ مخضرٍّ كزهرِ ربيع

[وقال آخر] :

وسِدْرةٍ كل يومٍ * من حُسنِها فى فنونِ
كأنّما النَّبْقُ فيها * وقد بدا للعيونِ
جلاجلٌ من نُضارٍ * قد عُلِّقتْ فى الغصونِ

وقال كُشاجِمُ من أبيات :

فى ظلِّ سِدْرٍ مثمرٍ دانى العَذَبْ * فيه لأنواعٍ من الطّير صَخَبْ
اذا الرِّياحُ زعزعَتْ تلك الشُّعَبْ * أهدَى لنا بنادقا من الذّهبْ

(١) السويق، هو حب أجيد تحميصه وطحنه، ثم غسل دفعة بماء حار وأخرى ببارد ليزول ما اكتسبه فى القلى من اليبس والحرارة . قال الهروى : السويق يتخذ من سبعة أشياء، وهى : الحنطة والشعير والنبق والتفاح والقرع وحب الرمان والغبيراء .

وقال عبدُ الله بنُ المعتزّ :

أُنظُرْ إلى النَّبْق الّذى * فيه الشّفاءُ لكلِّ ذائقْ
فكأنّه فى دَوْحِه * واللّيلُ ممدودُ السُّرادقْ
ذهبٌ تُبهرِجُه الصّبا * رفُ صار حَبًّا للمَخانق(١)

وقال أبو الفرج البَبْغاء :

أُنظرْ إلى النَّبْق البديع المنظَرِ * الطّيّبِ الرّيحِ اللّذيذِ المَخْبَرِ
أحلَى مَذاقا من مَذاق السّكّرِ * نَحَرِزٍ من كهرَباءٍ أصفرِ

(١) كذا فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف ومباهج الفكر؛ والذى فى (ا) "للناطق".

الباب الثالثُ من القسم الثانى من الفنّ الرابع
فيما ليس لثمره قشرٌ ولا نوى

ويَشتمِل هذا البابُ على ثمانية أصناف، وهى العِنَب والتِّينُ والتوتُ والتُّفّاح والسَّفَرْجَلُ والكُمَّثْرَى واللُّفّاحُ والأُتْرُجّ

فأمّا العِنَبُ وما قيل فيه — فشجرةُ العنب : الكَرْمة، والجمعُ كَرْمٌ وكُروم. والجَفْنةُ : الكَرْمة ؛ ويقال فيها : الجَفَنةُ بفتحتين[1]. ويقال للقضيب منها : الحَبَلة وقيل : الحَبَلةُ، أصلُ الكَرْمة : والقضيب : السَّرْغ بغين معجمة، والجمعُ سُروغ، رواه أبو عمرو عن ثعلب ؛ وقال أبو بكر : السَّرْع بعينٍ غيرِ معجمة : قضيبٌ من قُضبان الكَرْم . وفى القضيب الأُبْنة، والجمعُ أُبَن ، وهى العُقَد التى تكون فيه . فاذا أَخرَج القضيبُ ورقَه قيل : قد أَطلَعَ . فاذا ظهر حَمْلُه قيل : قد أَحْثَر[2] وحَثِر . فاذا صار حِصْرِما قيل : حَصْرَم ؛ ويقال للحِصْرِم : الكَحْب، الواحدة كَحْبة ؛ ولِما تَساقَطَ من العنب : الهَرُور . فاذا آسودّ نصفُ حَبِّه[3] قيل : شَطَّر تشطيرا . فإذا آسودّت الحَبّةُ إلّا دون نصفِها قيل : قد حَلْقَم يُحلقِم . فاذا آسودّ بعضُ حَبِّه قيل : قد أَوْشَم

---

(١) لم يرد فى المخصص ج ١١ ص ٦٦ ولا فى التاج ولا فى اللسان مادة « جفن » أنه يقال : الجفنة بفتحتين كما هنا .

(٢) فى كلا الأصلين : « أحثر وحثر » بالحاء المعجمة ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى كلا الأصلين : « حده » بالدال ؛ وهو تحريف .

إيشاما ؛ ولا يقال للعنب الأبيض : أَوْشَم . فاذا فشا فيه الإيشام قيل : قد أَطعَم . فاذا أَدرك غايةَ الإدراك قيل : يَنَعَ وأَيْنَعَ وطاب . والعُنقودُ معروفٌ ما دام عليه حَبُّه . فاذا أُكِل فهو شِمْراخ . ويقال لمَعْلَق الحَبِّ من الشِّمْراخ : القِمَع ؛ ويقال اذا جُنِيَ : قد قُطِف قِطافا . فاذا يَبِس ، فهو الزَّبيب والعُنْجُد[1] . والقِطْفُ : العُنقود ؛ وفى التنزيل : (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) .

قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : الأبيضُ أحمدُ من الأسود اذا تساوَيا فى سائر الصّفات من المائيّةِ والرِّقّةِ والحلاوةِ وغيرِ ذلك ؛ والمتروكُ بعد القَطْفِ يومين أو ثلاثةً خيرٌ من المقطوف فى يومِه .

وأمّا طبعُه — فإنّ قِشرَه باردٌ يابسٌ بطىءُ الهضم ؛ وحَشْوُه حارٌّ رَطْب ؛ وحَبُّه باردٌ يابس ؛ والمقطوفُ منه فى الوقت ينفخ ؛ والمعلَّقُ حتّى يَضمُر قِشرُه جيّدُ الغِذاء ، مقوٍّ للبدن ؛ وغِذاؤه شبيهٌ بغِذاء التّين فى قلّة الرّداءةِ وكثرةِ الغِذاء ، وان كان أقلّ من غِذاء التّين ؛ والنَّضيجُ أقلُّ ضررا من غيرِ النَّضيج ؛ واذا لم ينهضم العنبُ كان غِذاؤه فِجًّا نِيئا ؛ وغِذاءُ العنب بحالِه أكثرُ من غِذاء عصيرِه ، ولكنّ عصيرَه أسرعُ نفوذا وانحدارا . قال : والزَّبيب صديقُ الكبدِ والمعدة ؛ والعنبُ والزَّبيب بعَجَمهما جيد[2] لأوجاع المِعَى ؛ والزَّبيب ينفع الكُلَى والمَثانة ؛ والعنبُ المقطوفُ فى الوقت يحرِّك البطنَ وينفخ ؛ وكلُّ عنب فإنّه مضرٌّ للمَثانة ؛ والله أعلم .

(١) فى كلا الأصلين : «العنجل» باللام ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن المخصص فى الكلام على صفة الكرم ونباته ، وغيره من كتب اللغة .

(٢) جيد بصيغة المفرد ، أى كل منهما جيد ، وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الخبر ؛ وقد ورد هذا الاستعمال كثيرا فى قانون ابن سينا .

وأمّا ما وُصفتْ به الكُرومُ والأعنابُ نظما ونثرا — فمن ذلك ما قاله مؤيّدُ الدِّين الطُّغرائىّ :

وكَرْمةٍ أعراقُها فى الثَّرَى * بعيدةِ المَنْزع والمَضرِبِ
كريمةٍ تلتفّ أغصانُها الـ * ـغَضّةُ بالأقربِ فالأقربِ
تَمتاحُ مِن قَعرِ الثَّرَى رِيَّها * أشطانُها(١) عَفوا(٢) ولم تُجذَبِ(٣) ٥
أَلقَحها الرِّيحُ وصَوْبُ الحَيا * والشمسُ فى المشرِقِ والمغرِبِ
فأَعقَبتْ حائلُها(٤) بعد ما * عاشت زمانا وهى لم تُعقِبِ
ووضعتْها(٥) نُجَبا تَنتمِى * الى أبٍ أكرِمْ به من أبِ
وأَلحَفتْها خضرَ أوراقِها * مغذوّةً بالحَلَبِ الأعذَبِ
وأسلمتْها الشمسُ من صِبغةِ التـ * ـلويحِ للأغربِ(٦) فالأغربِ ١٠
فَهَرتْ(٧) فيها وجاءت بما * يَبهَر من مستحسَنٍ معجِبِ

(١) الأشطان : الحبال الطويلة الشديدة الفتل التى يستقى بها ، واحده «شطن» بالتحريك .

(٢) فى كلا الأصلين : «عقرا» ؛ وهو تحريف .

(٣) ورد فى ديوان الطغرائى بعد هذا البيت زيادة على ما هنا قوله :

اذا ارتوت من مائها أسبلت * جفونها بالواكف الصيب ١٥
وإن تغشى سفلها بالندى * أخصب أعلاها ولم يجدب

(٤) الحائل ، هى التى لم تلقح ، أو التى تأخر عنها الحمل سنة أو سنتين ، جمعه حيال بكسر أوّله ، وحول بالضم ؛ وفى كلا الأصلين «حاملها» ؛ بالميم ؛ وهو تحريف .

(٥) «وضعتها» ، أى ولدتها ؛ والذى فى (ا) «ورضعتها» بالراء ؛ وفى (ب) «ورصعتها» بالراء والصاد ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين . ٢٠

(٦) فى كلا الأصلين وديوان الطغرائى : « فى الأغرب » ؛ واللغة تقتضى اللام كما أثبتنا ، فانه يقال : « أسلمته لكذا » « والى كذا » ، أى دفعته إليه ؛ ولا يقال : أسلمته فى كذا .

(٧) «فهرت فيها» ، أى مهرت الشمس فى هذه الصبغة .

وبَدَلتْ خضرَ عناقيدِها * بالأدهمِ اليَحْمومِ والأشهَبِ (١)
واستَسلَفتْ ماءً وجاءت به * مُدامةً كالقَبَسِ المُلهَبِ
ولم تَزَل بالرِّفقِ حتّى اكتَسَى * لُجَينُها من صِبغِها المُذهَبِ
فالأشقرُ المَتُوجُ من نسلِها * سَليلُ ذاك الأشهبِ المُنجِبِ
٥ تَرَى الثريّا من عناقيدِها * تلوح فى أخضرَ كالغيهَبِ
ألقابُها شتّى وألوانُها (٢) * متّفقاتُ النَّجْرِ والمَنصِبِ
كم دُرّةٍ فيها وكم جَزْعةٍ (٣) * صحيحةِ التدويرِ لم تُثقَبِ
كأنّما الحالِكُ منها لدى * أبيضِها اللامعِ كالكوكبِ
جيلانِ (٤) من زِنجٍ ورُومٍ غدت * فى جُنَنٍ خضرٍ لها تَختَبِي (٥)
١٠ كأنّما تَحمِلُ حَبّاتِها * أكارعُ النِّغرانِ (٦) بالمِخلَبِ
أطيبُ بها حِلًّا (٧) ومحظورةً * فى كَرْمِها أو كأسِها أطيَبِ

(١) اليحموم : الأسود .

(٢) كذا ورد هذا الشطر فى كلا الأصلين ؛ والذى فى ديوان الطغرائى : «ألوانها شتى وأنواعها» .

(٣) الجزعة : واحدة الجزع ، وهو خرز يمانى فيه سواد و بياض ، تشبه به الأعين ؛ سمى بذلك لأنه
١٥ مجزع الألوان .

(٤) جيلان ، أى صنفان ؛ والذى فى ديوان الطغرائى : «خيلان» بالخاء ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا إذ المراد بالخيلين : الجيشين ؛ وهو اطلاق مجازى ؛ ويرجح هذه الرواية قوله بعد : « فى جنن » اذ الجنن جمع جنة بالضم ، وهى كل ما وقى من السلاح ، و إنما يكون ذلك للجيوش .

(٥) ورد هذا البيت فى كلا الأصلين بعد البيت الذى يليه ؛ والسياق يقتضى تقديمه عليه كما أثبتنا
٢٠ فان أداة التشبيه فى البيت الذى قبله تقتضى اتصال البيتين وألا يفصل بينهما بآخر .

(٦) النغران : فراخ العصافير ، واحده نغر بضم ففتح .

(٧) فى كلا الأصلين : «خلا» بالخاء المعجمة ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق البيت .

وقال آخر[1] :

رُحْنا إلى حديقةٍ * بكلِّ حُسنٍ مُحدِقَهْ
كأنّما عُنقودُها * زَنْجٌ جَنَوا فى سَرِقَهْ
فأصبحتْ رءوسُهم * على الذُّرا مُعلَّقَهْ

وقال ٱبنُ المعتزّ :

ظلّت عنا قيدُها يَخرُجن من ورقٍ * كما ٱحتَبَى الزَّنْجُ فى خُضرٍ من الأُزُرِ

وقال النّاجم :

مُعرَّشٌ للكُرومِ منتشِرٌ * أوراقُه الخُضرُ دونَ مَرآها
فكلُّ كَرْمٍ هو السماءُ دُجًى * وكلُّ عُنقودِه[2] ثُرَيّاها

وقال الرّقّاء :

يَحمِلن[3] أوعيةَ المُدام كأنّما * يحملنها بأكارعِ النِّغْرانِ[4]

وقال الصّاحبُ بنُ عَبّاد :

وحَبّةٍ من عنبٍ قطفتُها * تحسُدها العقودُ فى التّرائبِ
كأنّها من بعد تميزى لها * لؤلؤةٌ قد ثُقِبتْ من جانبِ

وقال ٱبنُ المعتزّ :

وحَبّةٍ من عنبٍ * من المُنَى متّخَذَه
كأنّها لؤلؤةٌ * فى بطنِها زمرّذه

(١) قال صاحب مباهج الفكر : «أظنه كشاجم» .

(٢) كل عنقوده، أى كل عنقود منه ؛ وقد كان المقام يقتضى اضافة (كل) فى هذا الموضع الى نكرة، فيقال : «وكل عنقود» لولا المحافظة على الوزن .

(٣) يحملن، أى شجرات الكرم . ويريد بأوعية المدام : حبات العنب .

(٤) النغران : فراخ العصافير، واحده نغر بضم ففتح .

وقال البادَنىّ[1] :

وعناقيـــدٍ تراهـا * اذ تمـايَلن مَيلا
رُكِّبتْ فيها لآلٍ * لم تُثقَبْ فـــتزولا

وقال عبدُ المحسن الصورىّ يصف عنبا أُهدِىَ إليه وهو مغطًّى بورقه :

٥ جاءنا منكَ تُحفةٌ أنا[2] منهـا * أبدا فى تَضـاعُفِ السَّرّاءِ
عنبٌ أسـودٌ كأنّ عليـــه * حُللا من حَنـادِسِ الظَّلْماءِ
خِلتُه فى خِلال أوراقِه الخُضـ * ـرِ ولونِ آسوداده والصَّفاءِ
كقُموعٍ[3] على أناملِ خَوْدٍ * لُحْنَ من كُمِّ لاذةٍ[4] خضراءِ

وقال ٱبنُ الرومىّ يصف العنبَ الرّازقىّ[5] :

١٠ كأنّ الرازقىّ[5] وقـــد تَباهى * وتاهت بالعناقيد الكُرومُ
قَـواريرٌ بمـاءِ الوَردِ ملآى * تَشِـــفّ ولؤلؤٌ فيهـا يعـومُ

---

(١) البادَنىّ : نســبة الى بادن بفتح الدال : ، وهى بلدة ببخارى أو سمرقند ، منها أبو عبد الله محمد ابن الحسن بن جعفر بن غزوان البادنى البخارى الشاعر المجوّد ؛ وكان ضريرا ؛ توفى فى صفر سنة ٢٦٨ وضبطه الحافظ الذهبى بذال معجمة .

١٥ (٢) فى (ب) ومباهج الفكر : «نحن» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا ، كما هو ظاهر .

(٣) لعله يريد بالقموع : قطع الخضاب على الأنامل ؛ يقال : قمعت المرأة بنانها بالحناء ، أى خضبت به أطرافها فصار لها كالأقماع . وفى نسخة «كقود» ؛ وهو تحريف ، اذ العقود لا تكون على الأنامل ؛ ولم نجد هذه الأبيات ضمن ما اختاره الثعالبى فى (اليتيمة) لعبد المحسن الصورى .

(٤) اللاذة : ثوب من حرير كان يصنع فى الصين ، وجمعه لاذ .

٢٠ (٥) الرازقى : ضرب من عنب الطائف أبيض طويل الحب ؛ ولم يرد فيما بين أيدينا من الكتب وجه هذه النسبة .

وتحسَبُه من العسل المصفّى * اذا آختلفتْ عليك به الطُّعومُ
فكلُّ مجمّع منه ثُريّا * وكلُّ مفرّقٍ منه نجومُ

وقال فيه أيضا :

ورازقٌ مُخطَفِ[1] الخصورِ * كأنّه مَخازنُ البَلُّورِ
قد ضُمّنتْ مِسْكا إلى الشُّطورِ * وفى الأعالى ماء وَردٍ جُورِى[2] ٥
لم يُبقِ منه وَهْجُ الحَرورِ * إلّا ضياءً فى ظروفِ نُورِ
له مَذاقُ العسلِ المَشُورِ[3] * ورِقّةُ الماء على الصّدورِ
ونَفحةُ[4] المِسكِ مع الكافورِ * لو أنّه يَبقَى على الدّهورِ
قَرَطَ آذانَ الحِسانِ الحُورِ * بلا فريدٍ وبلا شُذورِ

وقال أبو الوليد بنُ زيدون وقد أهداه : ١٠

قد بعثناه ينفع الأعضاءَ * حين يحلو بلطفه السَّخْناءَ[5]
جاء يُزهَى بمستشفٍّ رقيقٍ * خَدَعَ العينَ رِقّةً وصفاءَ
تَنفُذ العينُ منه فى ظَرفِ نُورٍ * ملأتْه أيدى الشُّموسِ ضياءَ
أكسبتْه الأيّامُ بَرْدَ هواءٍ * فهو جسمٌ قد صيغَ نارا وماءَ[6]
مَنظَرٌ يُبهِج القلوبَ وطَعمٌ * يُسكِر النفسَ شُهدُه آستمراءَ ١٥

(١) المخطف : الضامر .

(٢) « جورى » نسبة الى جور بالضم ، وهى مدينة من مدن فارس كانت فى القديم قصبة فيروزاباذ من أعمال شيراز ، ينسب اليها الورد ، ويعمل فيها ماؤه ، وبينها وبين شيراز عشرون فرسخا .

(٣) المشور : اسم مفعول من شار العسل يشوره ، اذ استخرجه من الوقبة وآجتناه .

(٤) فى ديوان ابن الرومى : «ونكهة» . ٢٠

(٥) السخناء : الحمى ؛ والذى فى كلا الأصلين : «الشحناء» ؛ وهو تصحيف .

(٦) فى كلا الأصلين : «هباء» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن ديوان ابن زيدون .

فَضَلَ السابقَ المقدَّمَ فى السِّنْخِ[1] فأزرَى بطعمه إزراءَ
غيرَ أنّى بعثتُ هذا غِذاءً * يشتهيه الفتى وذاك دواءَ
مُلْطِفٌ يَبرُدُ المِزاجَ اذا جا * شَ بحَرٍّ ويَقمَع الصفراءَ
ومُعينٌ لواصلِ الصّومِ يَسرِى * بَرْدُه فى الحشا ويُروِى الظَّماءَ
فاقبَلِ التَّزْرَ شافعا لأياديك التى بعضُها يفوت الثناءَ

وقال أبو طالب المأمونىُّ يصف الزّبيبَ الطّائفىّ :

وطائفىٍّ من الزّبيب به * يَنتقِل الشُّرْبُ[2] حين يَنتقِلُ
كأنّه فى الإناء أوعيةٌ * من النّواجيد[3] ملؤها عسلُ

وأمّا التّين وما قيل فيه — فقال ابنُ وحشيّةَ فى توليده : وإن خلطتم من اليَبْرُوح[4] الرَّطب أصلا وفرعا، ومثلَ وزنه من العسل والشَّمع، وزرعتموه فى الأرض كما تزرعون سائر الأشياء، وصببتم عليه وقت زرعه من الماء ما تعلمون أنه قد وصل اليه، ثمّ تركتموه ولم تزيدوه، خرج من ذلك التينُ الأصفرُ الشديدُ الحلاوة؛ وإن خلطتم باليَبْرُوح[4] أربعَ ثُوماتٍ وبصلةٍ، وسحقتم الجميع، وزرعتموه

(١) كذا فى مباهج الفكر؛ والذى فى (ب) « فى السبج » بالباء والجيم؛ وفى (ا) «السنج» بالجيم؛ وهو تصحيف . والسنخ بالكسر : الأصل؛ وفى رواية «فى النضج» كما فى ديوان ابن زيدون فى كلتا نسختيه المخطوطة والمطبوعة؛ والمعنى يستقيم عليها كما هو ظاهر؛ ولم نثبتها هنا فى الصلب لبعدها فى الرسم عما ورد فى كلا الأصلين .

(٢) الشرب : الجماعة يشربون .

(٣) فى كلا الأصلين : « من النجاد وملؤها » ؛ وهو تحريف؛ صوابه ما أثبتنا . والنواجيد : جمع ناجود، وهو باطية الشراب .

(٤) تقدم تفسير اليبروح فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٠ من هذا السفر؛ وسيأتى الكلام عليه أيضا فى اللفاح، وهو ثمر اليبروح، فارجع اليه .

خرج عن ذلك التّينُ الأسودُ المتوسّطُ بين السواد الشديد، والأحمر، وهو الّذى يُنْفِط الفم[1] . وأخبَرنى من يُرجَع إلى قولِه ويُوثَق بنقلِه من حكّام المسلمين أنّ بثغر الإسكندريّة صِنفا من التّين أسودَ يسمّى الغُرابىّ ، اذا نَضَج يُكْتَبُ بالبياض فربّما وُجِد فى بعضِه مكتوبا اسمُ الله تعالى؛ وأخبَرنى أيضا أنّه رأى ذلك كثيرا؛ وأخبَرنى أنّه أُخبِر من ثقاتٍ أنّه فيه ما يُوجَد مكتوبا عليه : ﴿ لا إله إلّا الله محمد رسول الله ﴾؛ وسألتُه : هل يُتحيَّل على ذلك بشىء؟ فقال : لا، وأنّه خلقةٌ من الله تعالى؛ فسبحان القادرِ على كلّ شىء .

وأمّا المختار من التّين وما قيل فى طبعه وخواصّه — فقد قال الشيخُ الرئيس : أجوَدُ التّين الأبيضُ ثمّ الأحمرُ ثمّ الأسود؛ والشديدُ النُّضْج منه خيرُه، وقريبٌ من ألّا يضرّ؛ واليابسُ محمودٌ فى أفعاله ، إلّا أنّ الدّمَ المتولّد منه غيرُ جيّدٍ إلّا أن يكونَ مع الجَوْزِ فيَجُودَ كَيْمُوسُه ، وبعد الجَوْزِ اللّوز؛ وأخفُّ الجميع الأبيض. وطبعُه : الرّطبُ منه حارٌّ قليلا؛ ورَطْبُه كثيرُ المائيّة، قليلُ الدّوائيّة؛ والفجُّ منه جَلّاءٌ إلى البَرْدِ ما هو إلّا لبنُه؛ واليابسُ منه حارٌّ فى الأُولى فى آخرها لطيف . قال : واليابسُ منه قوىُّ الجِلاء ، مُنضِجٌ محلّل؛ والّلحِيمُ أكثرُ إنضاجا ؛ وفيه تغريةٌ وتقطيعٌ وتلطيف . قال : والتينُ أغذَى من سائر الفواكه ؛ وعُصارةُ ورقِه قويّةُ التسخين والجِلاء ؛ وفيه تليينٌ نافعٌ[2] يدفع العُفونات إلى الجلد . قال : وفى تَناوُلِه تسكينٌ للحرارة؛ ولبنُه يُجمِد الذوائبَ من الدّماء والألبان، ويُذيبُ الجامد؛ والرّطْبُ منه سريعُ الغَوْرِ والنّفوذ فى المعدةِ وفى البدن . قال : وشرابُ التّين لطيفٌ

(١) ينفط الفم، أى يجعل فيه بثورا مائية تكون بين الجلد واللحم، وهذه البثور تقف تحت الجلد ولا تنفذ منه .

(٢) فى القانون : « بالغ » الجزء الأوّل صفحة ٤٤٧ طبع مصر .

ردىءُ الخلط . قال : ولقُضبان التّين من اللّطافة ما يبرّئ اللّحم إذا طُبِخ بها ؛ وفى الجُمّيز قوّةٌ جاذبةٌ من عُمق البدن وتحليلٌ لما جُذِب . قال : والفجُّ منه يُطلَى به ، ويُضمَد به على الخيلانِ[1] والثّآليل[2] وأصنافها والبَهَق ، وكذلك ورقُه ؛ وتناوُلُه يُصلِح اللّونَ الفاسد ، ويُنضِج الدّماميل . قال : ولبنُ الجُمّيز وعُصارةُ ورقِه يقلعان آثارَ الوَشْم وبقَيْروطىّ[3] على شُقاق[4] البَرْد . قال : وتُضمَد به الأورامُ الصُّلبة ، وبالجُمّيز مطبوخا مع دقيق الشّعير ، والفجُّ منه على البَهَق ؛ ويُنضِج الدّماميل ، ويجذب رَطْبُه الحَصَف[5] ؛ وطبيخُه ينفع لأورامِ الحَلْق وأورامِ أصولِ الأُذنين غَرْغَرةً كذلك مع قُشور الرّمّان ، وللدّاحسِ[6] مع الفانيذ[7] ، ويضرّ اليابسُ أورامَ الكبدِ والطّحالِ بحلاوته ؛ وأمّا اذا كان الورمُ صُلْبا لم يضرّ ولم ينفع ، إلّا أن يُخلَط بالمُلطّفاتِ المحلّلات فينفع جدّا ؛

---

(١) الخيلان : نكت سوداء فى البدن ، واحدها خال .

(٢) تقدم تفسير الثآليل فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٤ من هذا السفر ، فانظرها .

(٣) القيروطى بفتح القاف : مرهم معروف عند الأطباء يتخذ من الشمع المذاب فى دهن الورد أو اللوز أو البنفسج ونحوها ، ويضاف الى ذلك ماء الهندبا وماء الكزبرة وماء البقلة الحمقاء والكافور وبياض البيض ، مفردة أو مجموعة بحسب الحاجة الى التبريد ؛ وهو فارسىّ معرّب .

(٤) شقاق البرد : تشقق يعرض من البرد يصيب الدواب فى أرساغها ، وربما ارتفع الى أوظفتها ؛ ويصيب الانسان كثيرا فى أطرافه وفى وجهه وشفتيه ومقعدته .

(٥) الحصف : بثور صغار شوكية تنفرش فى ظاهر الجلد .

(٦) الداحس ، هو ورم حار يعرض بالقرب من الأظفار مع وجع شديد ، وضربان قوى ، وتمدد يسقط الأظافير ، وربما أحدث الحمى . وورد فى الشذور الذهبية نقلا عن الأوربيين أنه التهاب النسيج الخلوى الغليظ المتدمج ، الداخل فيه خيوط عصبية كثيرة ، وهو يحدث فى أطراف الأصابع ، ولا خطر فيه إلا بسبب شدّة وجعه لما يحصل للريض به من الاختناق ، وإطلاق هذا الاختناق يزيل هذه العوارض فى الحال .

(٧) الفانيذ والفانيد : فارسىّ معرّب بانيد ، وهو ضرب من الحلواء ؛ ونقل فى الشذور الذهبية عن المنهج المنير أنه من السكّر والعسل ؛ وقيل : هو عصارة قصب مطبوخة .

والجُمّيزُ شديدُ التحليلِ للأورام العَسِرة . قال : وطبيخُ التّين برُغْوة الخردلِ يُطْلَى به على الحِكّة : وورقُه ينفع من القُوباء ، وإن استُعمِل مع قشور الرّمّان أبرأ الداحس[1] ومع القَلْقَنْد[2] لقُروح الساقَين الخبيثة ، ولبنُ الجُمّيز مُلزِقٌ للجراحات . قال ورَطْبُ التّينِ ويابسُه ينفع الصَّرْع[3] ، ويُقطَر طبيخُه مع رُغْوة الخَرْدَلِ فى الأُذُن التى بها طنين ، وينفع لبنُه أو عُصارةُ قُضبانِه قبل أن تُورِق اذا جُعل فى السِّنّ المتآكلة ، وينفع استعمالُه على أورام ما تحت الأُذُن ضِمادا ، والفِجُّ منه يبرئ قُروحَ الرأس ذَرُورا ، ولبنُه مع العسل ينفع الغِشاوةَ الرَّطْبةَ فى العين وابتداءَ الماء وغِلَظَ الطّبقات ، وتُدلَك بورقه خُشونةُ الأجفان وجَرَبُها ، والرَّطْبُ واليابسُ ينفعان من خشونة الحَلْق ويوافقان الصّدرَ وقصبةَ الرئة ، وشرابُ التّينِ يُدِرّ اللّبن ، وينفع من السُّعال المزمن وأوجاعِ الصّدر ، وينفع من أورامِ القصبةِ والرّئة . قال والتّين يفتّح سُدَدَ الكبد

(٤٧)

(١) تقدّم تفسير الداحس فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ١٥٥ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) ضبط هذا اللفظ فى بحر الجواهر بالفتح ضبطا بالعبارة ، وفسره فى الشذور الذهبية بأنه هو الأبيض من الزاج . والذى فى مفردات ابن البيطار ج ٢ ص ١٤٨ فى الكلام على الزاج أن القلقند هو الأخضر من أنواعه ، وكذلك فى قاموس الأطباء والقانون ج ١ ص ٣٠٣ طبع بولاق فى الكلام على الزاج أيضا . وقال داود : « إنه هو الأحمر منه » انظر التذكرة ج ١ ص ٢٤٦ ؛ أما الزاج ففى تاج العروس مادة (زوج) أنه ملح معروف ، ونقل عن الليث أنه يقال له الشب اليمانى ، وهو من أخلاط الحبراء وفى تذكرة داود أن الزاج من ضروب الملح الشريفة ، يكون فى الأغوار عن كبريت صابغ وزئبق يسير رديئين ؛ ثم ذكر له عدة أنواع .

(٣) الصرع : علة دماغية تمنع الإحساس والانتصاب منعا تاما ، وتمنع الحركة منعا غير تام ، ويسمى بالصبيانىّ ، لعروضه للصبيان كثيرا . ونقل فى الشذور الذهبية عن الأوربيين « أن الصرع مرض مجلسه المجموع العصبىّ ، يأتى على نوب ، وفى كل نوبة تفقد الحواس إحساسها ، وتعترى المصاب به تشنجات عضلية ، والغالب أن نوبه تأتى بغتة ، وقد تسبق بأعراض ، كالدوار ، والإحساس بتعب ، والسبات ، وفى جميع الأحوال يفقد الاحساس ، ويسقط المريض إن كان واقفا ، وينطرح على الأرض إن كان قاعدا ، ويتلوى ويتخبط ويحمرّ وجهه احمرارا بنفسجيا » الخ .

والطِّحال . وقال جالينوس : رَطْبُه ردىءٌ للمعدة، ويابسُه ليس بردىء، فإن أُكل بالمُرّى[1] نقّى فُضولَ المعدة ؛ وهو ممّا يقطع العطشَ الّذى يكون من بَلْغَم مالح ؛ و[يابسُه][2] يَهيجُ العطش، وينفع من الاستسقاء، خصوصا بالأَفْسَنْتِين[3]، ورُبُّ[4] شرابِه نافعٌ للمعدة، ويقطع شهوةَ الطعام . قال : والتّينُ سريعُ النّفوذ بجِلائه، واليابسُ يضرّ بالكبد والطِّحال الوَرِمَين بجِلائه فقط، فإن كان الورمُ صُلْبا لم يضرّ ولم ينفع . قال : ولاستعماله على الرّيق منفعةٌ عجيبةٌ فى تفتيحه مَجارىَ الغِذاء، وخصوصا مع الجَوْزِ واللَّوْز . قال : وجميعُ أصناف التّين غيرُ موافقٍ لسَيَلان الموادّ إلى المعدة ؛ ورَطْبُه ويابسُه ينفع الكُلَى والمثانة[5]، وعُصارةُ ورقِه تُفتّح أفواهَ عُروقِ المقعَدة ؛ ورَطْبُه يلَيِّن ويُسهِل قليلا[6]، خصوصا اذا أُكل منه بلوزٍ مدقوق، وكذلك لصلابة

(١) المرّى بتشديد الراء : إدام كالكامخ يؤتدم به ؛ والعامة تخفف الراء ؛ وكأنه منسوب الى المرارة . وهو دواء من الأدوية القديمة التى استخرجها الكلدانيون والقبط ؛ وأجوده المتخذ من دقيق الشعير والفوتنج البرىّ، المعمول صيفا .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين ولا فى نسخة القانون المطبوعة فى أوربا ؛ وقد أثبتناها عن النسخة المطبوعة فى مصر ج ١ ص ٤٤٨ إذ بدونها تكون هذه العبارة مناقضة لما ذكره قبل من أنه يقطع العطش .

(٣) الأفسنتين، هو نبات ملس، ويلحق بالشجر الصغير قدر نباته، ويقوم على ساق واحدة، ويتفرع منها أغصان كثيرة، وعلى الأغصان أوراق كثيرة متكاثفة، بيض الألوان ؛ له زهر أقحوانى صغير أبيض فى وسطه صفرة، تخلفه رءوس صغار، فيها بزر دقيق، وفى طعمه قبض ومرارة ؛ وقال أبو عبيد الله البكرى : ورق الأفسنتين يشبه فى هيئته ورق الجزر، وهو لاحق بالأشجار التى لا تعلو، وزهرته صفراء لماعة، وهى المستعملة ابن البيطار ج ١ ص ٤١ . وقال داود : إن الأفسنتين بالنون لفظ يونانى ؛ ومما قاله فيه إن أجوده الطرسوسى، فالسورى، وباقيه ردىء، لكن المصرى الأصفر الزهر المعروف بالدمسيسة لا بأس به التذكرة ج ١ ص ٧٢

(٤) رب شرابه، أى الشراب الغليظ الخاثر منه ؛ والذى فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوربية : «شرب» مكان قوله «رب» .

(٥) ينفع، أى كل منهما ينفع ؛ وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الخبر ؛ كما انه من المحتمل أيضا أن يكون قد حذف الخبر من الأول لدلالة الثانى عليه، كما قال الشاعر : * فإنى وقيار بها لغريب *

(٦) لصلابة، أى ينفع لصلابة، كما هو ظاهر .

الرِّحم، وكذلك إن خُلِط بالنَّطْرُون والقِرْطِم وأُخِذ قبلَ الطعام؛ ويُحتَمل لبنُه بصُفرةِ البيضِ فينقِّى الرَّحِمَ ويُدرُّ الطَّمْث؛ ويُتَّخَذ فى ضِماد الأرحامِ مع الحُلْبـة، وفى حُقَن المَغْص مع السَّذاب؛ ويُسقَى من ماءِ رَمادِ خشبِه المكرَّرِ لمن به إسهالٌ ودُوسِنْطاريا[1] أوقيَّةٌ ونصف . قال : ولبنُه ينفع من لَسعة العقربِ مَرُوخا[2]، وكذلك الرُّتَيْلاء[3]؛ ويُجعَل الفِجُّ منه أو الورقُ الطَّرِىُّ على عضّةِ الكلب الكَلِب فينفع؛ ويُضمَد به مع الكِرْسِنّةِ على عضّةِ آبنِ عِرْسٍ فينفع، هذا ملخَّص ما أَوردَه الشيخُ فى أفعالِه وخواصِّه؛ والله أعلم بالصَّواب .

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه — فمن ذلك قولُ أُسامةَ بنِ مرشد[4] آبن منقذ :

أما تَرَى التِّينَ فى الغصون بدا * ممـزَّقَ الجِلْدِ مائلَ العُنُـقِ[5]
كأنّه رَبُّ نِعمـةٍ سُـلِبتْ * أَصبَح بعـد الجـديدِ فى خَلَقِ

(١) الدوسنطاريا، هو هذا النوع المعروف من الإسهال المختلط بالدم المصحوب بزحير؛ وفى الشذور الذهبية نقلا عن الأوربيين أنه لفظ يونانى معناه عندهم ثقل الأمعاء .

(٢) المروخ بفتح الميم : ما يمرخ به، أى يدهن .

(٣) الرتيلاء بالمد وتقصر من الهوام، وهى أنواع، أشهرها شبه الذباب الذى يطير حول السراج، ومنها ما هى سوداء رقطاء، ومنها صفراء زغباء، ولسع جميعها مورم مؤلم . وقال فى الشذور الذهبية : إن الرتيلاء دابة تشبه العنكبوت، تصيد الذباب، وأصنافها كثيرة، وشرها المصرية؛ فمنها حمراء كأنها العنكبوت، مستديرة، ومنها سوداء دخانية، ومنها رقطاء، ومنها بيضاء مدورة البطن، صغيرة الفم، محدودة الظهر بخطوط براقة، ومنها الصفراء، ومنها العنابيـة، وفمها فى وسط رأسها؛ ثم نقـل عن الأوروبيين أن الرتيلاء توجد كثيرا بجنوب ايطاليا .

(٤) كذا ورد هذا الاسم بالشين فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف ومعجم الأدباء ج ٢ ص ١٧٣ وخريدة القصر ج ١ ورقة ٩٩ من النسـخة المأخوذة بالتصوير الشـمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٥٥ أدب؛ والذى فى (أ) (مرثد) بالثاء؛ وهو تحريف .

(٥) فى رواية : «منكس الرأس» مباهج الفكر .

أوكأنحى شِرّةٍ أُغيظ وقد * مَزَّقَ جِلبابَهُ من الحَنَقِ
مِثلُ نُهودِ الأبكارِ صورتُه * لو لم يُنادَ عليه فى الطُّرُقِ
قد عَقَدتْه يدُ السَّموم لنا * فالوُذَجَ الدَّوْحِ غيرَ محترِقِ
فالشُّهْدُ والزّعفرانُ مَعْ عَرَقِ الـ * ـوَرْدِ وحَبُّ الخَشخاشِ فى نَسَقِ
فقُمْ بنا نحوه نباكِرُه(١) * قبلَ جَفافِ النَّدى عن الورقِ
ولا تَمِلْ بى إلى سواه فلا * أَمِيلُ عنه ما دمتُ ذا رَمَقِ

وقال إبراهيمُ بنُ خفاجةَ :

وسُودِ الوجوهِ كلَونِ الصُّدودْ * تَبسَّمن تحت عُبوسِ الغَبَشْ(٢)
اذا ما تَجلَّى بياضُ الضُّحى * تَطلَّعن فى وجهِه كالنَّمَشْ
كأنّى أقطِّف منها ضُحًى * ثُدِىَّ صِغارِ بناتِ الحَبَشْ

وقال أبو الفتح كُشاجِمُ يصف تينا أصفرَ وأسوَد :

أهلا بتينٍ جاءنا * منضَّدا على طَبَقْ
يَحكِى الصّباحَ بعضُه * وبعضُه يَحكِى الغَسَقْ
كسُفرةٍ(٣) مضمومةٍ * قد جُمِّعت بلا حَلَقْ

وقال أيضا فى تينٍ أصفر :

قم قد أتى ضوءُ الصّباح المُسفِرِ * ياصاحِ نَغتنم الحياةَ وبَكِّرِ
نُلْمِمْ بتينٍ لذَّ طَعما وآكتَسى * حُسنا وقارَبَ مَنظَرا من مَخبَرِ
لُطفتْ معانيه لطافةَ عاشقٍ * فى لونِ مشتاقٍ حليفَ تَفكُّرِ

(١) كذا فى (أ) والذى فى (ب) ومباهج الفكر «سحرة» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) الغبش بفتحتين : ظلمة آخر الليل مما يلى الصبح .

(٣) السفرة : جلد مستدير يحمل فيه طعام المسافر ، وأصل السفرة نفس الطعام الذى يكون للمسافر فسمى به الوعاء الذى يكون فيه تسمية مجازية ، كما سميت المزادة راوية .

كالثَّلج بَرْدا فى صفاءِ التِّبْرِ فى * رِيحِ العَبِيرِ وفوقَ طعمِ السُّكَّرِ

يَحكِى لَنا ما صُفَّ فى أطباقه * خِيَماً تلوح من الحرير الأخضرِ (٤٨)

[وقال آخر](١) :

ما التِّينُ إلّا سيِّدُ الثِّمارِ * بلا امتراءٍ وبلا مُمارِى

كأنّه إذ لاح فى الأشجارِ * أطرافُ أثداءٍ من الجوارِى

* أو أُكَرٌ صيغتْ من النُّضارِ *

وأمّا ما وُصِف به على سبيل الذّم — فمنه قولُ محمد بن شرف القَيْرَوانىّ :

لا مرحبا بالتّين لمّا أتى * يَسحَب كاللّيل عليه وِشاحْ(٢)

ممزَّقَ الجلبابِ يَحكِى لنا * هامةَ زِنْجىٍّ عليها جِراحْ

[وقال آخر](١) :

لا أشتهِى ما عشتُ تينا فما * أقبحَه مذ كنتُ فى عينى

لأنّه بَيْنٌ ومن ذا الّذى * يحبّ أن يَسمَع بالبَيْنِ

وأمّا التُّوتُ وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : التُّوتُ صِنفان : أحدُهما هو الفِرْصادُ الحلو، وهو يَجرى مَجرى التّين فى الإنضاج

(١) لم ترد هذه التكملة فى (ا) .

(٢) الوقف على هذا اللفظ بالسكون لضرورة القافية، وإلا فقد كان مقتضى القواعد أن يقف عليه بالألف فيقول : « وشاحا » كما هى قاعدة الوقف على المنصوب المنون فى اللغة الفصحى؛ اما الوقف بالسكون على المنصوب المنون فلغة ربيعة، فانهم يقفون على المنون بحذف تنوينه وسكون آخره مطلقا، أى سواء أكان مرفوعا أم منصوبا أم مجرورا؛ ومنه قول الشاعر :

* وآخذ من كل حىّ عصم *

إلّا أنّه " أردأ غِذاء "[(١)] وأفسَدُ دما، وأقلُّ، وأردأ للعدة ؛ وله سائرُ أحوال التّين ولكنّه دونَه ؛ وأمّا المُزّ الّذى يُعرَف بالتُّوتِ الشّامىّ فليكن أكثرُ كلامِنا فيه ؛ وطبعُه الحلوُ حارٌّ رَطْب ؛ والحامضُ الشامىُّ هو الى البَرْد والرّطوبة ؛ وفى التُّوت قبضٌ وتبريد ؛ وعُصارتُه قابضة ؛ خصوصا إذا طُبِخَتْ فى إناء نحاس ؛ ويَمنَع سَيلانَ المَوادِّ إلى الأعضاء، وخصوصا الفِجّ منه . قال : واذا طُبِخ ورقُه وورقُ الكَرْم وورقُ التّين الأسوَدِ بماء المطر سَوّد الشَّعر ؛ والحامضُ يَحبِس أورامَ الفمِ والحَلْق وورقُه ينفع للذُّبحَةِ والخوانق ؛ والحامضُ ينفع القروحَ الخبيثةَ مجفّفُه وعُصارتُه ؛ ورُبُّ[(٢)] الحامض نافعٌ لبُثور الفم ؛ والتّمضمُض بعُصارة ورقِ الحامِض جيّدٌ للسِّنّ الوَجِعة ؛ والتُّوتُ ردىءٌ للمعدة يَفسُد فيها ، وخصوصا الفِرْصاد ؛ واذا لم يَفسُد الفِرْصادُ فى المعدة بسرعةٍ لم يضرَّ ؛ ويجب أن تؤكل جميعُ أصنافه قبلَ الطعام وعلى معدةٍ لافسادفيها ؛ وأمّا الشامىُّ فلا يضرّ معدةً صفراويّةً ؛ وليس فيه من رداءة الموافَقة للعدة ما فى الفِرْصاد ؛ وهو يشهّى الطعامَ ويُزْلِقه ، ويُخرِجه بسرعة ؛ والعَفِصُ المجفَّفُ المُلَّحُ من التُّوت يَحبس البولَ شديدا ، وينفع من الدُّوسِنْطاريا ؛ ودمعةُ التُّوت تُسهِل ؛ وفى لِحائه تنقيةٌ وإسهال ؛ وفى الحلو سرعةُ انحدار ؛ وفى جميع أصناف التُّوت إدرارٌ للبول ؛ واذا شُرِب من عُصارةِ ورقِه أوقيّةٌ ونصف نَفَع من لَسْع الرُّتَيْلاء[(٣)] ، ولَيَّن الطبيعة .

(١) كذا وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى قانون ابن سينا المنقول عنه هذا الكلام ص ٢٦٥ طبع أوربا وج ١ ص ٤٤٨ طبع مصر ؛ والذى فى كلا الأصلين : «إلا أنه أغذى» ؛ وهو خطأ من الناسخ لمخالفته لكلام ابن سينا ومنافاته لسياق ما بعده من الكلام .

(٢) فى كتب الأطباء أن الرب اسم للعصارة النقية المأخوذة من الثمر ، المركزة الى قوام العسل قبل وصولها الى التخمر .

(٣) تقدم تفسير الرتيلاء فى الحاشية رقم ٨ من صفحة ٦٦ من هذا السفر ، فانظرها .

وأمّا ما وصفه به الشّعراء — فمن ذلك قولُ محمد بن شرف القَيْرُوانىّ:

أُنظُرْ إلى تُوتِ الجِنانِ الّذى * وافَى به النّاطُورُ(١) فى جامِ
يَحكِى جراحا دمُها سائلٌ * لدى جُسومٍ من بنى حامِ

وقال بعضُ الأندلسيّين وقد أهداه :

تفاءلتُ بالتُّوت التأتّى لزورةٍ * وذلك فألٌ ما علمتُ صَدوقُ
فأهدَيتُه غضّا حكَى حَدَقَ المَها * له مَنظَرٌ بالحُسن منه يَرُوقُ
فذا سَبَجٌ لمّا يُرَى بأسوادِه * وذا لِأحمرارِ اللّونِ منه عَقيقُ

وقال ابنُ الرّومىّ(٢) :

ومختضِباتٍ من نَجيعِ دمائها * اذا جُنِيتْ فى بُكْرةِ الغَدَواتِ
تَكاد بأن تُفْطا(٣)(٤) إذا ما لمستُها * فأرحمُها من سائر الثّمراتِ

وأمّا التّفّاحُ وما قيل فيه — فقال الشيخ: أعدَلُ التُّفّاح الشامىّ، والتّفّهُ منه ردىءٌ قليلُ المنافع، وكذلك الفِجّ، وطبعُه، العَفِصُ والقابضُ والحامضُ باردٌ غليظ، والحلوُمائىُّ أميَلُ(٥) إلى الحرارة من غيرِه، وان كان الغالبُ البَرْد، فهى مختلفة؛

(١) الناطور والناظور : حافظ الكرم والنخل والزرع، وهو من ألفاظ أهل السواد، وليس بعربى محض .

(٢) لم يرد هذان البيتان فى النسخة المخطوطة من ديوان ابن الرومى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب .

(٣) لم نجد فيما راجعناه من كتب القواعد أن خبر كاد من المواضع التى تجوز فيها زيادة الباء كما فى هذا البيت .

(٤) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر: (تطفا)، ولم نجد له معنى يناسب السياق؛ ولعل فى حروفه قلبا صوابه ما أثبتنا، و «تفطا» أى تفطأ بالهمز، بمعنى تشدخ، يقال : (فطأت الشىء اذا شدخته)؛ يصفها بشدّة النضوج حتى إنها تكاد تشدخ بمجرد اللمس .

(٥) فهى، أى ثمرة التفاح .

وكذلك أوراقُها وأشجارُها مختلفـة؛ وبالجملة فإنّ الغالبَ فى جوهره رطوبةٌ فضليةٌ باردة . قال : وفيه منعٌ للفُضول ، وخصوصا فى ورقه؛ وفى التّفاح نَفْخٌ فيما ليس بحُلو؛ والحامضُ والفِجُّ مولِّدٌ[1] للعفونات والحُمّيات الحاميةِ[2] خلْطِهما وفجاجتِهما؛ وخلْطُ الحامض ألطفُ من خِلْطِ القابض؛ وشرابُ التّفاح عتيقُه خيرٌ من طريِّه ، لتحليل البخارات الرديئـة؛ وورقُه ولِحاؤه يَدملان، وكذلك عُصارةُ القابض منه؛ وإدمانُ أكلِ التُّفاح يُحـدِث وجعَ العَصَب ؛ والتّفاحُ يقـوّى القلب ، خصوصا العَطِـرَ الشّامىّ؛ والمشوىُّ فى العجين نافع لقلّة الشّهوة؛ وينفع من الدّود ومن الدُّوسِـنْطاريا[3] وأوفقُه للدُّوسِنْطاريا العِفِص[4]؛ وسَوِيقُ[5] التّفاح يقوّى المعـدة، ويمنع القَىء؛ والحلوُ والحامضُ إذا صادف[6] فى المعـدة خِلْطا غليظا ربّمـا حَدَره فى الـبِراز ، وان كانت خاليةً حَبَس؛ والتُّفّاحُ نافعٌ من السُّموم، وكذلك عُصارةُ ورقِه .

(١) أفرد الخبر وهو قوله : «مولد» مع أنه خبر عن اثنين إما باعتبار تقدير مبتدإ ثان، أى كل منهما مولد، أو أن يكون قد حذف خبر أحدهما اكتفاء بالخبر عن الآخر، وهو كثير فى كلامهم .

(٢) يريد بحامية الخلط أنه فج؛ وقد ورد تفسير الخام بهذا المعنى فى كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٤٥٧ طبع كلكته؛ وإذن فعطف الفجاجة عليه عطف تفسير .

(٣) الدوسنطاريا : نوع معروف من الإسهال المختلط بدم مصحوب بزحير . وفى الشذور الذهبية نقلا عن الأورو بيين أن هذا اللفظ يونانى، معناه عندهم ثقل الأمعاء .

(٤) فى كلا الأصلين : «العفن»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ ص ٤٤٦ طبع مصر وص ٢٦٤ طبع أوربا .

(٥) السويق، هو حب أجيد تحميصه وطحنه، ثم غسل دفعة بماء حار وأخرى ببارد، ليزول ما اكتسبه فى القلى من اليبس والحرارة؛ وهو يتخذ من سبعة أشياء : الحنطة، والشعير، والنبق، والتفاح، والقرع، وحب الرمان، والغبراء .

(٦) «صادف» أى كل من الحلو والحامض؛ ولإرادة هذا المعنى ساغ له أن يسند الفعل الى ضمير المفرد، كما هو ظاهر .

وأمّا ما وصفه به الشّعراء — فمن ذلك قولُ ابن المعتزّ :

وتُفّاحةٍ حمراءَ خضراءَ غَضّةٍ * مضمّخةٍ بالطِّيب من كلِّ جانبِ
تكامَلَ فيها الحُسنُ حتّى كأنّها * تَوَرُّدُ خدٍّ فوق خُضرةِ شاربِ

وقال العسكرىّ :

وتُفّاحةٍ صفراءَ حمراءَ غَضّةٍ * تخدُّ مُحِبٍّ فوقَ خدِّ حبيبِ
أُحيّا بها طَوْرا وأشرَبُ مِثلَها * من الراحِ من كفَّىْ أغَنَّ رَبيبِ

وقال الرَّقّىّ :

وتُفّاحةٍ غَضّةٍ * عقيقيّةِ الجوهرِ
تَنَدّت بماء الرَّبيـ * ـعِ فى روضِها الأخضرِ
فجاءت كِمثلِ العَرو * سِ فى لاذها (١) الأحمرِ
ذَكرتُ بها الجُلّنا * رَ فى خدّك الأزهرِ
فمِلتُ سرورا بها * إلى القَدَحِ الأكبرِ
وأنت لنا حاضرٌ * وان كنتَ لم تَحضُرِ

وقال آخر :

تُفّاحةٌ تُذكِر صفوَ الوُدِّ * وتَبعث النفسَ لحفظِ العهدِ
كأنّها مقطوفةٌ من خدٍّ * نسيمُها يَحكِى نسيمَ الوَردِ

وقال أبو بكر بنُ دريد :

وتُفّاحةٍ من سُوْسَنٍ صِيغَ نصفُها * ومن جُلّنارٍ نصفُها وشقائقِ
كأنّ النّوى قد ضَمّ من بعد فُرقةٍ * بها خدَّ معشوقٍ الى خدِّ عاشقِ

(١) اللاذ : ثياب من الحرير كانت تصنع فى الصين، واحده لاذة .

وقال أبو الوليد بنُ زَيدونَ وقد أَهدَى تُفّاحا :

أتتك بلَونِ الحبيبِ الخجِلْ * تُخالِط لونَ المُحِبّ الوَجِلْ
ثِمارٌ تَضمَّنَ إدراكَها * هواءٌ أحاط بها معتدِلْ
تأتّى لتدريج تلطيفِها * فمِن حرِّ شمسٍ إلى بَرْدِ ظِلْ
إلى أن تناهتْ شفاءَ العَليلْ * وأنسَ الخليلِ ولهوَ الغَزِلْ (١)
فلو يَجُد الراحُ لم يَعدُها * وان هى ذابت فراحٌ يَحِلْ
قَبولُكَها نعمةٌ غَضّةٌ * وفضلٌ بما جئتَه متّصلْ

وقال أبو نُواس — ومنه أَخَذ ٱبنُ زَيدون — :

الخمرُ تُفّاحٌ جرى ذائبا * كذلك التُّفّاحُ خمرٌ جُمِّدْ
فاشربْ على جامِدِها ذَوْبَها * ولا تدَعْ لذّةَ يومٍ لِغَدْ

وقال ٱبنُ المعتزّ :

تُفّاحةٌ معضوضةٌ * كانت (٢) رسولَ القُبَلِ
كأنّ فيها وجنةً * تنقّبتْ بالخجَلِ
تناولتْ كفِّى بها * ناحيةً من أمَلِي
لستُ أرجّى غيرَ ذا * ياليت هذا دام لى

وقال آخَر :

فَدَّيتُ من حيّا بتُفّاحةٍ * فى خِلَعِ التّوريدِ من وجنتِهْ
نسيمُها يُخبِرنى أنّها * تَسترِق الأنفاسَ من رِيقتِهْ
لمّا حكتْ نوعين من حسنِه * قَبّلتُها شوقا إلى نَكْهتِهْ

(١) فى كلا الأصلين : «ولون» ؛ وهو تحريف .
(٢) فى رواية «صارت» انظر محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٣٤٦ طبع جمعية المعارف .

وقال الصَّنَوْبَرِىّ :

فتناولتُ منــه صادقــةَ الرِّيـ * ـحِ تُسمَّى صديقــةَ الأرواحِ

وَشَّحتْهـا يداه من خالص التِّبْـ * ـرِ بسـطرٍ يَحُول جَوْلَ الوِشاحِ

كُسِيتْ صِـبغةَ المَلاحةِ لمّـا * صُبِغتْ صِبغةَ الخـدودِ الملاحِ

وقال آخَر :

تُخـالُ تُفّـاحتُهـا * فى لَونِهـا وقَــدِّها

تَناولتْهـا كفُّها * من صدرِها وخدِّها

وقال ٱبنُ رَشيق :

وتُفّاحةٍ من كفِّ ظبيٍ أخذتُهـا * جَناها من الغصنِ الّذى مِثلُ قَدِّهِ

حَكتْ لَمْسَ نَهدَيه وطِيبَ نسيمِه * وطَعمَ ثنـاياه وحُمــرةَ خَــدِّهِ

وقال ٱبنُ عَبّاد :

ولمّـا بدا التُّفّاحُ أحمــرَ مُشــرِقا * دعوتُ بكأسى وهى مَلآى من الشَّفَقْ

وقلتُ لسـاقينـا أدِرْهـا فإنّهـا * خدودُ عَذارَى قــد جُمِعن على طَبَقْ

وقال محمّدُ بنُ سعيد :

بديعــةُ اللّونِ مِن نُور السُّرور بها * فى كلِّ حُسنٍ وطِيبٍ يُضرَب المَثَلُ

جاءتكَ فى حُلّةٍ بيضاءَ مُشرِقــةٍ * فى حُمــرةٍ كاتّقادِ النـار تَشــتعِلُ

أو قهوةٍ مُزِجتْ أو نصفِ لؤلؤةٍ * بنصفِ ياقوتةٍ حمـراءَ تتّصــلُ

وقال آخَر :

قال جالينُـوسُ فى حِكمتِــه * لك فى التُّفّاح فكرٌ وعَجَبْ

هو رَوْحُ(١) النّفس، مِن جوهرِها * وبهـا شــوقٌ اليــه وطَرَبْ

(١) الروح بالفتح : الراحة والسرور؛ والذى فى مباهج الفكر : «هو روح الروح» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

ومزاج القلبِ[(١)] يَنفِى همَّه * ويُجَلِّى الحزنَ عنه والكُرَبْ

وقال ابنُ الرّومىّ — وهو ممّا يُكتَب على تُفّاحة — :

أرسلَنى عاشقٌ بحاجتِه * فجئتُ بين الرّجاء والوجَلِ[(٢)]

لا تُخجِلنّى بالردّ حسبُك ما * تَرَى بخدّى من حُمرةِ الخجَلِ

٥ وقال أبو الفتح البُسْتىّ :

فتًى جَمَعَ العَلياءَ علما وعفّةً * وبأسا وجُودا لا يُفيق فُواقا[(٣)]

كما جَمَع التفّاحُ حُسنا ونَضْرةً * ورائحةً محبوبةً ومَذاقا

[وقال آخر][(٤)] :

أكلتُ تُفّاحةً فعاتبنى * خِلٌّ رآها بخدِّ معشوقِهْ

١٠ وقال خدُّ الحبيب تأكُله * فقلتُ لا، بل أمُصُّ من ريقِهْ

وقال آخر :

لا آكُلُ التُّفّاحَ دهرى ولو * جنتْه كفّى من جِنان الخُلودْ

تالله لا أتركه عن قِلًى * لكنّنى أتركه للخُدودْ

---

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين بالزاى والجيم، ولعله يريد أن التفاح يخالط القلب ويمتزج به، لما فيه من الصفات والمزايا التى تصل بينهما؛ أو لعله : «ومراح القلب» بضم الميم، أى الذى يستريح إليه . والذى فى مباهج الفكر : «ودواء القلب»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا، كما هو ظاهر .

١٥

(٢) كذا فى ديوان ابن الرومى ورقة ٢١١ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب؛ والذى فى كلا الأصلين : «والأمل»؛ وهو تبديل من الناسخ لا يستقيم به المعنى، اذ الرجاء والأمل واحد، فلا يصح أن يكون الشىء بينهما .

٢٠

(٣) يريد بقوله : «لا يفيق فواقا»، أنه لا يستريح من العمل للعلياء قدر فواق الناقة، وهو الوقت الذى ما بين الحلبتين، وذلك أن الناقة تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدرّ، ثم تحلب؛ أو الفواق، هو ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع .

(٤) لم ترد هذه العبارة فى (أ) وقائل هذين البيتين هو نصر بن أحمد كما فى ديوان المعانى ج ٢ ورقة ٢٥ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب .

وأمّا السّفرجَلُ وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس : السَّفَرْجَلُ إذا غُسِل برَمادِ أغصانِه وورقِه كان كالتُّوتِياء[(١)] ؛ والمشوىُّ منه أخفُّ وأنفع ؛ وصورةُ شَيِّه أن يقوَّرَ ويُخرَجَ حَبُّه ويُجعَلَ فيه العسل ، ويُطيَّنَ خُرْمُه ، ويودَعَ الرّماد ؛ قال : وطبعُ السَّفَرْجَلِ باردٌ فى آخِر الأُولى ، يابسٌ فى أوّل الثانية ؛ وهو قابض مقوٍّ ، وزهرُه قابض ، وكذلك دُهنُه ؛ والحلوُ أقلُّ قبضا ، وحَبُّه ملَيِّنٌ بلاقبض ؛ وهو يمنع سَيلانَ الفُضول إلى الأحشاء ، ويَحبِس العَرَق ؛ ودُهنُه ينفع من شُقاق[(٢)] البَرْد ، ومن النَّمْلة[(٣)] والقُروح الجَرِبة[(٤)] . قال : وكثرة أكله تولِّد وجع العَصَب ، ومشويُّه يوضع على أورام العين الحارّة ؛ وعُصارتُه نافعة من انتصاب[(٥)] النَّفَس والرَّبْو ، وتَمنَع نَفْثَ الدّم ؛ وحَبُّه ينفع من خشونة الحلق ، ويلَيِّن قصبة الرئة ؛ ولُعابُه[(٦)] أيضا يُرطِب يُبس القصبة ؛ والسفرجل ينفع من القىء والخُمار ، ويسكِّن العطش ، ويقوِّى المعدة القابلة للفُضول شرابُه ونقيعُه ومطبوخُه ؛ وشرابُه مقوٍّ للشهوة الساقطة جدّا ، ونِيئُه[(٧)] يقوِّى المعدة ،

(١) التوتياء : حجر معروف يكتحل به ؛ وهو لفظ معرب ، كما فى تاج العروس ؛ وورد فى قاموس الأطباء أن منه معدنى يوجد فى سواحل بحر الهند والسند ، وهذا منه الأبيض ، وهو الأفضل ، ومنه الأصفر المشرب بحمرة ، ومنه الأخضر ، ومنه ما يوجد فى مسابك النحاس ، ومادته الدخان المرتفع بحيث يخلص النحاس من الشوائب الحجرية والرصاصية . وقال فى الشذور الذهبية : إن التوتياء فى اصطلاح المتأخرين ، هى أوكسيد الخارصين ، ويحصل بحرق الخارصين المذكور .

(٢) تقدم تفسير الشقاق فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٨٤ من هذا السفر ، فانظرها .

(٣) تقدم بيان المراد بالنملة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧٥ من هذا السفر ، فانظرها .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ونسخة القانون المطبوعة فى أوربا ص ٢٢٨ والذى فى نسخة القانون المطبوعة فى مصر ج ١ ص ٣٩٤ «الخبيثة» .

(٥) انتصاب النفس ، هو مرض يجعل صاحبه لا يقدر على النفس إلا بعد أن ينتصب ويمدّ عنقه إلى فوق ، فينفتح المجرى بسبب ذلك ، فيخرج النفس ؛ وهو المعبر عنه بالتنفس الانتصابى .

(٦) يريد باللعاب هنا : لب السفرجل ، كما يفيده كلام داود فى التذكرة .

(٧) فى كلا الأصلين «والمية» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ ص ٤٩٣ طبع مصر .

ويمنع القَيء البَلْغَمىّ ؛ والسفرجل مُدِرّ ؛ والمطبوخ بالعسل أشدُّ إدرارا ، وربّما أطلَق ولم يَعقِل ؛ ويولِّد القُولَنج والمَغس ، وينفع من الدُّوسِنطاريا ؛ ويَحبِس نَزف الطَّمث ؛ وينفع من حُرْقة البول اذا قُطِرتْ عُصارتُه ودُهنُه فى الإحليل ؛ ودُهنُه ينفع الكُلَى والمَثانة ؛ واذا أُكل من السفرجل على الطّعام أطلَق ، حتّى إنّه إذا آستُكثر منه أخرج الطعام قبل الانهضام ؛ ويُحقن بطبيخه لُتوء المقعدة والرحم ؛ هذا ما قاله الشيخ فى السفرجل .

وأما ما وُصف به نظما ونثرا — فمن ذلك ما قاله السّرىُّ الرَّفّاء[1] :

لك فى السفرجل مَنظَرٌ تَحظَى به * وتفوزُ منه بشَمِّه ومَذاقِه
هو كالحبيب سَعِدتَ منه بحسنِه * متأمِّلا وبلَثمِه وعِناقِه
يَحكِى لك الذّهبَ المصفَّى لونُه * وتزيدُ بهجتُه على إشراقِه
فالشَّكْلُ من أعلاه يَحكِى شكلَه[2] * ثَدىَ الكَعابِ الى مَدار نِطاقِه
والشَّكْلُ من سُفلاه يَحكِى سُرّةً * من شادنٍ يُزهَى على عشّاقِه

وقال آخَر :

سفرجلاتٌ خَرْطُها * مِثلُ الثَّدِىِّ النَّهِدِ
زُهْرٌ[3] حكت بلونِها * صِبغة ماء العَسجدِ

وقال أبو محمد الدّاودىّ :

غصون السفرجل ملتفّةٌ * فمعتدلُ القَدِّ أو منثنِي

(١) لم نجد هذا الشعر فى ديوان السرى الرفاء المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤١٦ أدب ؛ والذى فى مباهج الفكر نسبته إلى أبى بكر الصنوبرى .

(٢) فى رواية : «اذ بدا» انظر مباهج الفكر .

(٣) زهر : من الزهرة ، بضم أوّله وسكون ثانيه بمعنى الحسن والبهجة ، لا بمعنى البياض ، إذ ليس البياض لون السفرجل .

وقد لاح فى زِئبرٍ شامل * كصفراءَ فى مِعْجَرٍ[1] أدكَن[2]

وقال مؤيِّد الدِّين الطُّغرائىّ :

وسفرجلٍ عُنِىَ المَصيف بحفظه * فكساه قبل البَرْد خزًّا أغبرا[3]

صَوْغٌ من الذّهب المصفّى، نَشْره * مِسكٌ اذا حَضَر النّدىّ تعطّرا

يَحكى نهود الغانيات وتحتها * سُررٌ لهنّ حُشين مِسكا أذفرا

يُزهَى بملمَسه وطِيبِ مَذاقه * ومَشَمّه ويَروقُ عينَك مَنظَرا

وقال شاعرٌ أندلسىّ :

سفرجلة جَمعتْ أربعا * نَظَمن لها كلَّ معنًى عجيبِ

صفاءَ النُّضار وطَعمَ العُقار * ولَونَ المُحبِّ وريحَ الحبيبِ

وقال آخر :

ومصفرّةٍ تختال فى ثوبِ سندسٍ * وتَعْبَق عن مِسكٍ ذَكىِّ التنفّسِ

لها رِيحُ محبوب وقسوة قلبه * ولونُ محِبٍّ حُلّةَ السُّقْم قد كُسِى

وقال آخر :

مُتحِفِى بالسفرجلِ * لا أُحبّ السفرجلَا

اسمُه لو عقَلتَه * سَفَرْجَلٌ واعتَلَى

[وقال آخر][4] :

أتحفتَنا بهديّةٍ * نَقضَتْ وصالَك أوّلا

(١) فى الأصول ومباهج الفكر «معجن» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ، والمعجر بكسر الميم وفتح الجيم ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة ، وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تجلبب فوقه بجلبابها .

(٢) الأدكن : من الدكنة بضم فسكون ، وهى لون يضرب إلى الغبرة ، بين الحمرة والسواد .

(٣) فى (أ) «أخضرا» . (٤) لم ترد هذه العبارة فى (أ)

أرأيتَ من يُهدِى إلى * من يصطفيه سفرجلا
أو ما علمتَ بأنّه * سَفَرٌ وآخره جَلا

ومن رسالة لأبى عبد الله محمّد بن أبى الخصال الأندلسىّ، جاء منها فى السفرجل: وقد بَعثتُ منه [ما يقوم](١) مَقامَ الشاهد، وينوبُ عن ثَدْيِ الناهد؛ فدونكها مخلَّفةَ(٢) البَدْر، محلَّقةَ(٣) الصَّدْر، قد لَبست الحُسن باطنا وظاهرا، واستوفت الطِّيبَ أوّلا وآخرا؛ كأنّها من طباعك طُبعت، أو من فضائلك أُلِّفتْ وجُمعتْ؛ كلّا إنها بذكرك غُذيَت، وعلى غاياتك حُذيَتْ(٤).

ومنها: من كلِّ ساهرة الشَّذا، نائمةٍ عن الأذى؛ دَوحُها لَدْن، وفَوحُها عَدْن؛ من وسائط السلوك، وندامَى الملوك؛ لو ألفاها جَذيمةُ(٥) لاستغنَى عن مالكٍ

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى كلا الأصلين؛ ولا تستقيم العبارة بدونها؛ ويؤيد ذلك عطف الفعل عليه فى قوله: «وينوب»؛ ولم نجد هذه الرسالة فيما بين أيدينا من المظان.

(٢) مخلفة البدر، أى أنها فى حسنها وبهائها كأن البدر قد جعلها تخلفه اذا غاب، يقال: «خلفه» بتشديد اللام، اذا جعله خليفة بعده.

(٣) «محلقة الصدر» يريد النقرة المستديرة التى تشبه الحلقة فى وسط السفرجلة؛ وقد شبه الشعراء هذه الاستدارة بالسرة، كما ترى ذلك فى شعر الطغرائى السابق.

(٤) «على غاياتك» الخ أى أن هذه الفاكهة قيست فى طيبها وحسنها على مثال غاياتك اللاتى تطمح إليها وتبتغيها من طيب الذكر وحسن الأحدوثة ونحوهما و «حذيت»، من الحذو بمعنى القياس والتقدير.

(٥) يريد جذيمة بن مالك بن عامر التنوخى، وقيل الأزدى، وهو أول من قاد العرب، وملك على قضاعة؛ وكانت منازله الحيرة والأنبار، وولايته من قبل أردشير بن بابك، وكان أبرص، فعدلوا عن هذا الاسم وقالوا: الأبرش والوضاح. ومالك وعقيل هما ابنا فارج من أهل الشام، وهما نديما جذيمة اللذان يضرب بهما المثل فى الاجتماع وعدم التفرق، قال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا:

وكنا كندمانى جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

اهـ ملخصا من سرح العيون ص ٣٨

وعَقيل، أو ظَفِر بها بِلالٌ لَسلاعن شامةَ وطَفيل[1]، ولم يَعبأ بإذْخِرٍ وجَليل[2]، أما إنها لو حَلّت نَديّا، وتَمثّلتْ بَشَرا سويّا، لنطقتْ بالصّواب، وأتت بالحكمة وفصل الخطاب؛ وتَثرت فى الطبّ دقائق، ووَضعتْ فى الزهد رقائق؛ ولِمَ لا! وهى تَهدِى للإيمان، وتدلّ على الجِنان؛ وتَحكى طُوبَى طِيبا[3]؛ وحسبُك بها أُولَى ما سَمَتْ بها النّفس، وواحدةٌ مُيِّزَ بها الجنس، وها كَها قد تعرّضتْ لقبولك، وانفردتْ كما انفردتُ بتأميلك. [والله أعلم][4].

وأمّا الكُمَّثْرَى وما قيل فيها — فقال الشيخ الرئيس: وفى بلادنا[5] نوع يقال له: شاه أَمْرُود كثير اللحم، شديد الأستدارة، رقيق القشرة، حَسنُ اللون؛ كأنه

(١) شامة وطفيل: جبلان على نحو من عشرة فراسخ من مكة؛ ويشير بهذا الكلام إلى شعر بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم فاجتوى المدينة (أى كرهها) فقال يحن الى مكة:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * بفخ وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة * وهل يبدون لى شامة وطفيل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "حننت يا ابن السوداء"؛ ثم قال: "اللهم إن خليلك ابراهيم دعا لمكة، وأنا عبدك ورسولك أدعو للمدينة؛ اللهم صححها وحببها الينا مثلما حببت إلينا مكة، اللهم بارك لهم فى مدّهم وصاعهم وانقل حماها الى خيبر أو إلى الجحفة".

(٢) يشير الى الإذخر والجليل الوارد ذكرهما فى بيتى بلال السابقين فى الحاشية التى قبل هذه؛ والإذخر: حشيش أخضر طيب الرائحة تسقف به البيوت فوق الخشب؛ قال أبو حنيفة: الإذخر له أصل مندفن وقضبان دقاق، ذفر الريح، وله ثمرة كأنها مكانس القصب، إلا أنها أدق وأصغر، وتطحن وتدخل فى الطيب؛ وينبت فى الحزون والسهول، وقلما تنبت الإذخرة مفردة، فانك متى نظرت واحدة فحدقت رأيت غيرها. قال: واذا جف الإذخر أبيض. والجليل: الثمام — وهو نبت ضعيف تحشى به خصاص البيوت — وهو كثير ببلاد الحجاز، وهو من المرعى، وهيئة ورقه على هيئة ورق الزرع، ويخرج سنابل على شكل سنابل الدخن البرى، وطعمه كله حلو.

(٣) فى كلا الأصلين: «طينا» بالنون؛ وهو تصحيف.

(٤) لم ترد هذه العبارة فى (ب).

(٥) «فى بلادنا» يريد بلاد خراسان، كما سيأتى ذلك فى ص ١٧٣ س ٥ فقد ولد الشيخ الرئيس =

ماء سكّر معقود، طيّب الرائحة جدّا، اذا سقط من شجرته إلى الأرض اضمحلّ؛ وهذا لا مَضرّةَ فيه من أصناف الكُمّثْرَى . وقال فى طبعه[1] : الكمثرى المعروف[1] بالصِّينىّ بارد فى الأولى، يابس فى الثانيــة ، والشاه أَمْرُود معتــدِل رَطْب ؛ وقال فى أفعــاله[1] وخواصــه : جميعُ أصــنافِه قابض [يَدخل][2] فى ضِمادات حبس المواد، وقــد يجلو يســيرا؛ وأما المعروف بشاه أَمْرُود فى بلاد خُراسان دون غيرها فهو ملِّينٌ للطّبيعة، حَسَنُ الكَيْمُوس[3] جدّا. قال : وهو يَدْمُل الجراحات ، خصوصا البَرّىّ المجفّف؛ وهو يَدبُغ المعــدة؛ والصِّينىُّ خاصّــة يقوّى المعــدة، ويَقطع العَطش ، ويسكّن الصفراء . قال : وهو يَعقِل البطن، خصوصا المجفّف منــه، قال : وفى الكمثرى خاصّيّةُ إحداث القُولَنْج[4]، فيجب أن يُشرب بعده ماءُ العسل بالأَفاوِيه[5] .

وأمّا ما وصفه به الشّعراء — فمن ذلك قول ظافر الحدّاد الإسكندرىّ :

لله وافــدُ كُمّثْرَى ذَكَرتُ به * ما كنتُ أعهــد فى أيّامىَ الأُوَبِ

= بقرية من ضياع بخارى يقال لها : (خرميثن) بفتح أوله وثالثه وخامسه، وتسكين ثانيه ورابعه، وهى من أمهات قراها، ثم انتقل الى بخارى مع أبيــه، وكانت ولادته فى سنة سبعين وثلاثمائة، ووفاته بهمذان فى سنة ثمــان وعشرين وأربعمائة .

(١) تذكير الضمائر العائدة على الكمثرى فى هذه الألفاظ وما بعدها من الضمائر والأوصاف جرى على لغة من يذكر الكمثرى، فقد ورد فى تاج العروس أن الكمثرى مؤنثة، وقد تذكر .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) .

(٣) تقدم تفسير الكيموس فى عدة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٤ فانظرها .

(٤) القولنج بضم القاف، وتفتح : مرض معوى مؤلم يعسر معــه خروج الثفل والريح ؛ وهو من الألفاظ المعربة . وقال فى الشذور الذهبية : القولنج اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى بالرومية : «قولون» .

(٥) الأفاويه : أنواع الطيب، وهو جمع أفواه، والواحد فوه .

لَمْ أُدْنِه من فمى إلا وأحسَبُه * من النهود لذيذَ العَضّ والقُبَل
فذقتُ من طعمِه ما كاد يَبلُغ بى * ما ذقتُ من رَشْف محبوب على عجل
أَكرِمْ بزَوْرته لو أنها آتصلتْ * أو أنه كان فيها غيرَ منفصل
لو كنت آملك حُكمَ الأرض ما حَمَلتْ * نبتا سواه على سهل ولا جبلِ

وقال أبو الفتح كُشاجِم[1] : ٥

أحضَرَنا النّاطُور من بستانِهِ * فى طَبَقٍ ينطق عن إحسانِهِ
لونا من الرائع فى أوانِهِ * أَهدَى له[2] الجوهرُ من ألوانِهِ
ما آحمرّ أو ما آصفرّ من مَرجانِهِ * مثل تُرُوكِ[3] الجيش فى مَيْدانِهِ
مُذْهَبةً فى آلهام من فُرسانِهِ * شِيبَ بريق الشُّهْد فى أغصانِهِ
* أنوَرُ فى الناظر من إنسانِهِ * ١٠

وقال آخر — وقد أهداه — :

بَعثتُ بها ولا آلوك حمدا * تحيّةَ[4] ذى آصطناع وآعتلاقِ
خدودَ أحبةٍ راءَين صبّا * وعُدن على آرتماضٍ وآحتراقِ

---

(١) فى ديوان كشاجم أن هذه الأبيات وصف للرمان لا للكمثرى ، انظر النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٩٧ أدب ولم يرد هذا الشعر فى نسخته المطبوعة . ١٥

(٢) فى كلا الأصلين : «لنا» ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا نقلا عن مباهج الفكر .

(٣) التروك : بيض الحديد التى تلبس على الرأس فى الحرب ، وهو جمع ترك بفتح أوله وسكون ثانيه وهو على التشبيه ببيض النعام ؛ والذى فى كلا الأصلين وغيرهما من المصادر التى راجعناها : «نزول» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد «مذهبة فى الهام» وأيضا فتشبيه الكمثرى بنزول الجيش غير واضح فيه وجه الشبه . ٢٠

(٤) فى (ا) «تحته» وفى (ب) «سحبه» ؛ وهو تصحيف .

فحَمَّرَ بعضَها نجـلُ التّلاقى * وصَفَّرَ بعضَها وجلُ الفـراقِ

وأمّا اللُّفّاح وما قيل فيه — فاللفاح هو ثمر نبات يسمّى اليَبْرُوح (١) الصَّنَمىّ، وليس هو اللفّاحَ المعدودَ فى صِنف البِطيخ الّذى يقال له الدَّسْتَنْبُو ؛ ويقال : إنّها شجرة سليمان بن داود — عليهما السلام — التى كان منها تحت فص خاتَمِه ؛ ومَنبِتُ قُضُبِها وورقِها الظاهرِ وسطُ رأسِ الصنم ؛ وتكون منابتها فى الجبال والكروم ؛ وقال التَّيمىّ : اليَبارِيحُ سبعة ، وسيّدُها الصنمىّ . وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا فى كتاب الأدوية المفردة من القانون فى اليبروح (١) : هو أصلُ اللُّفّاح البَرّىّ، وهو أصلُ كلِّ لُفّاح، "كبير" (٢) شبيهٌ بصورة الناس، فلهذا سُمّىَ باليبروح، فإنّ اليبروح اسمُ الصنم الطبيعى (٣) . قال : وطبعه بارد فى الثانية (٤) يابس اليها ؛ وفيه قليل حرارة على ما ظن بعضُهم . قال : وأما الأصل فقوىّ مجفِّف ، وقشر الأصل ضعيف ، والورقُ يُستعمل مجفَّفا ورَطْبا فينفع الفالج (٥) . وقال فى خواصه : هو مخدِّر ، وله دَمْعة وعُصارة ؛ وعصارته أقوى من دَمعته ، ومن أراد أن يُقطَع له عضو سُقِىَ ثلاثةَ

(١) اليبروح : لفظ سريانى ، وهو اسم صنم كما سيأتى ، ومعناه : يعوزه الروح .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوربية ؛ ولعلها وردت فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٣) قال ابن سينا فى تفسير قوله الصنم الطبيعى ما نصه : أى لنبات هو فى صورة الناس ، سواء أكان معنى هـذا الاسم موجودا أم غير موجود ، وكثير من الأسماء يدل على معان غير موجودة القانون ج ١ ص ٣٣٢ طبع مصر .

(٤) كذا فى كلا الأصلين ؛ والذى فى القانون : «فى الثالثة» الجزء الأول صفحة ٣٣٢ طبع مصر وصفحة ١٨٧ طبع أوربا .

(٥) لم يرد قوله : «الفالج» فى القانون ج ١ صفحة ٣٣٣ طبع مصر ولا فى النسخة الأوربية صفحة ١٨٧ ؛ ولعله ورد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

أو بُولُوسات[(١)] فى شرابٍ فيَسبُت[(٢)] . وقيل : إنّ الأصل منه اذا طبخ به العاجُ ستّ ساعات ليّنه وأسلَس قِيادَه . قال : واذا دُلِك بورقه البَرَش أسبوعا ذهب من غير تقريح، وخصوصا إن وُجد رَطْبا، ولبنُ اللفاح يَقلَع الثَّمَش والكَلَف بلا لذع؛ قال: ويُستعمل على الأورام الصُّلْبة [والخنازير][(٣)] فينفع؛ واذا دُقّ الأصل ناعما وجعل بالخلّ على الحُمرة أبرأها؛ وأصله بالسّويق[(٤)] ضِماد لأوجاع المفاصل؛ والإكثار من شَمّ اللفاح يورث السَّكْتة؛ وخصوصا الأبيض الورق؛ وقد يُتّخذُ منه شراب يزيل السَّهَر، وهو أن يُجعل من قشور أصله ثلاثةُ أمناءٍ[(٥)] فى مطر يطوس[(٦)] شرابٍ حلو،

(١) الأوبولوس فى موازين الأطباء : ثلاثة قراريط؛ وقال الشيخ الرئيس : هو دانق ونصف وهو يونانى؛ والذى فى كلا الأصلين : (انولوسات) بالنون ولكن ترتيب الهروى فى كتابه يقتضى أنه بالباء كما أثبتنا وإن لم ينص على ذلك؛ وقد ورد هذا اللفظ فى مواضع كثيرة من مفردات ابن البيطار بالثاء المثلثة مكان الباء، وهى لغة فيه، كما فى بحر الجواهر، فقد قال : أوبولوس، وجاء «أوبولو»؛ وقيل : «أوثولوس» .

(٢) يسبت بضم الباء، أى ينام .

(٣) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (أ) . وقال فى الشذور الذهبية : إن داء الخنازير هو احتقان الغدد الليمفاوية، لاسيما غدد العنق والبطن احتقانا لا ألم معه؛ ثم قال : ويظهر أولا فى جزء من البدن، ثم يمتد فى جملة أجزاء منه؛ وقال بعضهم : هو اسم للالتهاب المزمن، أو للاحالة الدرنية للعقد التى تحت الجلد الخ . وفى قاموس الأطباء أن الخنازير هى أورام صلبة مستديرة تحدث فى اللحم الرخو وخاصة فى العنق وتكون فى الأكثر جماعة وعدة يجمعها كيس واحد، وقد يكون لكل واحد منها كيس كالسلع؛ وسميت بذلك لكثرة عروضها للخنازير .

(٤) السويق : هو حب أجيد تحميصه وطحنه ثم غسل دفعة بماء حار وأخرى ببارد ليزول ما اكتسبه فى القلى من الحرارة واليبوسة والسويق يتخذ من سبعة أشياء وهى الحنطة والشعير والنبق والتفاح والقرع وحب الرمان والغبيراء .

(٥) الأمناء : جمع منا بفتح الميم والنون؛ قال القيصونى فى قاموس الأطباء : هو كيل أو ميزان، وتثنيته منوان ومنيان، والأول أعلى؛ قال : وهو أفصح من المن بتشديد النون؛ ثم نقل عن الشيخ ابن سينا أن المن الرومىّ عشرون أوقية، وقال فى الإرشاد : المن وزن رطلين، وعند التجار اثنتان وعشرون أوقية الخ وفى مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٤ أن المنا وزن مائتين وسبعة وخمسين درهما وسبع درهم، وبالمثاقيل مائة وثمانون مثقالا، وبالأواقى أربع وعشرون أوقية .

(٦) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ونسختى القانون المصرية والأوربية فى الكلام على =

ويُسقى منه ثلاثة قواثوسات[(١)]، وقد تُطبخ القشورُ ايضا فى الشراب طبخا يأخذ الشراب قواها، ويُستعمل للإسبات[(٢)] منه شىء كثير، وللإنامة[(٢)] أقلّ، وقوم من الأطباء يُجلسون صاحبه فى الماء الشديد البرد حتّى يُفيق. قال: ودَمعته من أدوية العين، تسكّن الوجع المفرط، ويُضمد بورقه أيضا، واذا احتُمِل نصف أُو بُولُوس[(٣)] من دَمعته أخرج الجنين، وبزرُه ينقّى الرّحم إذا شُرِب، واذا احتملته المرأة قَطَع نَزْف الرّحِم، ولبن اللفّاح يُسهِل البَلغم والمِرّة، وإذا تناول الصبىّ الطفل اللفّاحَ بالغلط حصل له قَىءٌ وإسهال.

وأمّا ما وصفه به الشعراء — فمن ذلك قول بعض الشعراء:

أتانا المَصيفُ بلُفّاحِه * فطابَ ولو فاتَه لم يَطِبْ
نجومٌ بلا فَلَكٍ دائرٍ * ولكنّ أوراقَه كالقُطُبْ
روائحُه مِن شَذا مِسْكةٍ * وأجسامُه أُكَرٌ من ذهبْ

وقال أبو هلال العسكرىّ:

أُنظُرْ إلى اللفّاح تَنظُرْ مُعجِبا * يجلو عليك مفضّضا فى مُذْهَبِ

= اليبروح؛ والذى فى بعض الرسائل المخطوطة المحفوظة بالخزانة التيمورية «منطرطيس»؛ فلعله تحريف من الناسخ، أولعل بعض الأطباء نطق به هكذا؛ وذكر صاحب هذه الرسالة أن مقداره اثنان وتسعون قسطا انظر المجموعة المخطوطة المحفوظة بمكتبة تيمور تحت رقم ٦٦٧ طب ورقة ١٥٠ ولم يذكره ابن سينا فى المكاييل والموازين التى أوردها فى آخر كتاب القانون.

(١) القواثوس: أوقية ونصف القانون ج ٣ ص ٤٤١ طبع مصر؛ وهو لفظ يونانى؛ والذى فى كلا الأصلين: «قوانسات» بالنون؛ ولم نجده فيما راجعناه من المصادر.

(٢) يستفاد من هذه العبارة أن السبات أثقل من النوم؛ وهو ما يستفاد من كلام ابن سينا أيضا، فقد ذكر أنه يقال سبات للنوم المفرط الثقيل، لا لكل مفرط ثقيل، ولكن للذى يكون ثقله فى المدّة والكيفية معا حتى تكون مدته أطول وهيئته أقوى فيصعب الانتباه منه وإن نبه، فالنوم منه طبيعى فى مقداره وكيفيته، ومنه ثقيل، ومنه سبات مستغرق الخ الجزء الثانى من القانون ص ٥٤ طبع مصر.

(٣) تقدم تفسير الأوبولوس فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٧٦ من هذا السفر، فانظرها.

تعلو مَفارقَه قَلانسُ أُخفِيَتْ * مِن تحتهنّ دراهمٌ لم تُضرَبِ

[وقال آخر][1] :

لِلعَين والعِرْنين فى يبروحةٍ * لونُ المُحبّ وعَبقةُ[2] المعشوق

صفراء طيّبة النّسيم كأنها * بَلّورةٌ محشوّةٌ بخَلُوقِ[3]

وأمّا الأُتْرُجّ وما قيل فيه — فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ فى كتاب (أسرار القمر) : وإن خلطتم بأصل اليبروح وفروعِه أصلَ الجَزَرِ وورقَه أجزاءً سواء وطمرتموه فى الأرض ، خرج عن ذلك شجر الأترجّ ؛ وإن أضفتم اليهما[4] البِطّيخَ الفِجّ[5] خرجتْ عنه الشجرة الحاملة للأترجّ الكبير الطيّبِ الرائحة؛ وإن أردتم أترجًا إلى البياض شديدَ الرّيح فأخلِطوا باليبروح والجَزَر أصلا وورقا [عِرْقَ][6] شجرة التّين الأصفر .

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (ا) .

(٢) فى (ا) «وعنقه» بالنون والهاء ، وورد هذا اللفظ فى (ب) مهمل الحروف من النقط وسياق البيت يقتضى ما أثبتنا نقلا عن مباهج الفكر مع أننا لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة العبقة بفتح فسكون والتاء فى آخره بمعنى الرائحة كما هو المراد هنا ؛ والذى وجدناه (العبق) محركة ، والعباقة كسحابة ، والعباقية كثمانية ؛ أما العبقة بسكون الباء وفتحها والتاء فى آخره فهى وضر السمن يبقى فى الإناء ؛ ولا تصح إرادته هنا .

(٣) الخلوق : نوع من الطيب مركب مائع فيه صفرة ، لأن أعظم أجزائه من الزعفران .

(٤) اليهما ، أى الى اليبروح والجزر .

(٥) فى كلا الأصلين : «البوفنج» ؛ وفى حروفه زيادة من الناسخ صوابه ما أثبتنا اذ لم نجد البوفنج فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أننا لم نجده فى الكتب المؤلفة فى النبات ضمن أصناف البطيخ ؛ والفج : الذى لم ينضج ؛ ويطلق أيضا على البطيخ الشامى ؛ وهو الذى تسميه الفرس : الهندى انظر تاج العروس والمنهج المنير فى أسماء العقاقير .

(٦) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (ا) .

وقال الشيخ الرئيس فى طبع الأترج: قِشْره حارّ فى الأولى، يابس فى آخر الثانية؛ ولحمُه حارٌّ فى الأولى؛ رَطْبٌ فيها؛ وقال قوم: بل هو بارد رَطب فى الأولى، وبردُه أكثر؛ وهو الأصحّ؛ وحُمّاضُه[1] بارد يابس فى الثالثة؛ وبِزره حارٌّ فى الأولى، مجفّف فى الثالثة.

٥ وأمّا أفعاله وخواصّه — فإنّ لحمَه يَنفُخ، وورقه يسكّن النَّفْخ، وفُقّاحه ألطف، وحُمّاضه[1] قابض كاسر للصّفراء، وبِزره وقِشره محلّل[2]؛ واذا جُعل قشره فى الثياب منَع السُّوس؛ ورائحتُه تُصلح فساد الهواء والوباء؛ وحُمّاضُه[1] يجلو اللّون ويُذهب الكَلَف؛ وحُراقة قشره طِلاءٌ جيّدةٌ للبَرَص؛ وطبيخه يطيّب النَّكْهة؛ وهو مسمّن؛ وقِشْره يطيّب النَّكْهَة أيضا إمساكا فى الفم؛ وحُمّاضُه نافع من القُوباء

١٠ طِلاء؛ ودُهنه نافع من استرخاء العَصَب والفالج[3]. وحُمّاضه ردىء للعَصَب، واذا اكتُحِل بحُمّاضه ازال يرقانَ العين؛ وحُمّاضه يسكّن الخَفَقانَ الحارّ، والمُربّى جيّدٌ للحَلْق والرِّئة، لكن حُمّاضه ردىء للصدر؛ ولُبّ الأترجّ اذا طُبخ بالخلّ وسُقِىَ منه نصفُ أُسْكُرُّجَةٍ[4] قتَل العَلَقة المبلوعة وأخرجها؛ ولحمُه ردىءٌ للمعدة، ينفخ، بطىءُ

(١) حماض الأترج: ما فى جوفه داخل اللب؛ وفى المنهج المنير أن حماض الأترج والليمون هو ماؤهما.

١٥ (٢) محلل بصيغة المفرد، أى كل من بزره وقشره محلل؛ وهذا الاعتبار هو الذى سوغ له إفراد الخبر فى هذه العبارة، مع أن السياق يقتضى تثنيته، كما أنه من المحتمل أن يكون من قبيل حذف الخبر من الأوّل لدلالة الثانى عليه، كما قال الشاعر:

« فإنى وقيار بها لغريب »

(٣) وردت هذه الكلمة فى كلا الأصلين بعد قوله الآتى: « ردىء للعصب » وقد أثبتناها فى هذا

٢٠ الموضع تبعا لما تفيده عبارة القانون المنقول عنه هذا الكلام انظر الجزء الأوّل صفحة ٢٥٧ طبع مصر وصفحة ١٣٣ طبع أوربا.

(٤) الاسكرجة والسكرجة بضم السين والكاف والراء مع التشديد: لفظ فارسىّ معرّب، وهى كبرى وصغرى؛ فالكبرى تحمل ست أواق، والصغرى ثلاث أواق؛ وقيل: أربع مثاقيل؛ ومعنى ذلك أنها كانت =

الهضم ، لكن ورقه مقوٍّ للمعدة والأحشاء؛ وقشرُه اذا جُعل فى الأطعمة كالأبازير[(١)] أعان على الهضم؛ ونفسُ قشره لا ينهضم لصلابته؛ وطبيخه يسكّن القَىء؛ ورُبُّه — وهو رُبُّ الحُمّاض — نافع للمعدة[(٢)]؛ قال : ويجب أن يؤكل الأترجّ مفردًا لا يُخلط بطعام لا قبله ولا بعده؛ ولحمه يورِث القُولَنْج؛ وحُمّاضه يحبس البطن ، ويمنع[(٣)] من الإسهال الصفراوىّ؛ وبزره ينفع من البواسير؛ وفى بزره قوّة مسهِلة؛ وعصارة حُمّاضِه تسكّن غُلْمة النساء؛ ووزن درهمين من بزره بالشراب والطِّلاء والماء الحارّ مقاوِمٌ للسُّموم كلِّها، وخصوصا سمّ العقرب شربا وطلاء؛ وقِشرُه قريب من ذلك؛ وعُصارةُ قشره تنفع من نَهْش الأفاعى شُربا؛ و[قِشرُه][(٤)] ضِمادا .

وأمّا ما وصفه به الشعراء — فمن ذلك قول ابن الرومىّ :

كلُّ الخِلال التى فيكم محاسنُكم * تشابهت منكم الأخلاق والخِلَقُ
كأنكم شجرُ الأُتْرُجّ طاب معا * حَمْلا ونَوْرا وطاب الأصل[(٥)] والورقُ

وقال جَحْظة :

أترجّةٌ كالمِسك فى طيبِه * والتِّبر فى بهجة إشراقِه

= تستعمل فى الكوانخ وأشباهها من الجوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهى والهضم ، وفى كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة ص ١٠ طبع بيروت أن الأسكرجة إناء صغير معناه مقرّب الخل ، وفارسيته أسكره ، وهو إناء صغير من خزف . وفى مفاتيح العلوم ص ١٨٠ طبع أوربا أن الأسكرجة الصغيرة ثلاث أواق ، والكبيرة تسع أواق .

(١) الأبازير : التوابل ، واحده أبزار ، وهو جمع بزر بالكسر ، فالأبازير جمع الجمع .

(٢) فى القانون : «دايغ» الجزء الأول صفحة ٢٥٨ طبع مصر وص ١٣٤ طبع أوربا .

(٣) فى القانون : «وينفع» .

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٢٥٨ طبع مصر وص ١٣٤ طبع أوربا .

(٥) فى ديوان ابن الرومى : «العود» ؛ والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا .

كأنّها فى كفّ أستاذنا * مخلوقةٌ من طِيب أخلاقِهِ

وقال علىّ بن سعيد الأندلسىّ :

ومصفرةِ اللّون لا من هوًى * تُكابِد منه عَلاقاتِ هَمْ
ولكن كَساها سَمومُ الهَجير * جلابيبَ تِبرٍ بتضريح دَمْ
وأكسَبها طِيبَ نَشْرِ العَبير * وريحَ الحبيب إذا ما يُشَمْ
عروسٌ تُزَفّ إلى شاهها[1] * على كفِّ أغيَدَ مِثلِ الصّنمْ

وقال علىّ بنُ رشيق فى المعزّ بنِ باديس :

أُتْرُجّةٌ سَبْطَةُ الأطراف ناعمةٌ * تَلقى النفوس بحظٍّ غيرِ منحوسِ
كأنّها بَسطتْ كفًّا لخالِقها * تدعو بطول بقاء لابن باديس

وقال آخر :

كأنّما الأترجُّ فى لونه * وشكلِه المستظرَف المنظرِ
أبارقٌ تَسقُط عنها العُرَا * مسبوكةٌ من ذهبٍ أحمرِ

وقال آخر[2] :

يا حبّذا أُترجّةٌ * تُحدث فى النفس الطّرَبْ
كأنّها كافورةٌ * لها غِشاءٌ من ذهبْ

وقال السرىُّ الرّفّاء :

وقريبةٍ من كلِّ قلب إن بدت * للمرء أدناها إليه وقرّبا
أروَى القلوب نسيمُها وتَلهّبتْ * حُسنا فأذكتِ فى القلوب تَلهُّبا

(١) الشاه : الملك ؛ وهو لفظ فارسىّ ، والمراد به هنا الزوج ، لما له من السلطان على زوجه .

(٢) قائل هذين البيتين هو ابن المعتز ؛ وقد وردا فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٤ أدب ؛ وذكر جامع الديوان أنها فى وصف الليمون ، وأورد صدر البيت الأول هكذا « يا حبذا ليمونة »

فكأنّها ذهب حوى كافورةً * فغدا بريّاها وراح مطيّبا
صفراء ما عنّتْ لعينَىْ ناظرٍ (١) * إلّا توهّمها سنانا مُذهَبا

وقال فيه :

يا حبّذا (٢) أُتْرُجّةٌ * رُحتُ بها مسرورا
اذ جاءنى يحملها * ظبيٌ يباهى الحُورا
شبّهتُها فى كفّه * وقد كساها النُّورا
مخزنةً (٣) من ذهب * قد مُلئتْ كافورا

وقال الزاهى :

وذاتِ جسم من الكافور فى ذهب * دارت عليه حواشيه بمقدارِ
كأنّها وهى قُدّامى ممثّلةً * فى رأسِ دَوْحتها تاج من النّارِ

وقال ابنُ دُرَيْد :

جسمُ لُجَيْنٍ قميصُه ذهبٌ * زُرّ على لُعْبةٍ من الطِّيبِ
فيه لمن شَمّه وأبصَره * لونُ محبٍّ وريحُ محبوب

(١) يلاحظ أن المؤلف قد سبق أن أورد هذا البيت فى صفحة ٣٨ من هذا السفر فى وصف الدستنبويه من أصناف البطيخ منسوبا الى السرى الرفاء أيضا كالبيتين الآتيين اللذين نبهنا عليهما فى الحاشية التى بعد هذه، وكذلك ورد هذا البيت وما قبله من الأبيات فى ديوان السرى الرفاء مع ذكر أنها فى وصف دستنبويه .

(٢) يلاحظ أن المؤلف قد سبق أن أورد هذا البيت الأول والبيت الأخير من هذا الشعر فى صفحة ٣٧ من هذا السفر فى وصف الدستنبويه من أصناف البطيخ منسوبين الى السرى الرفاء أيضا بدون اختلاف بين الألفاظ فى كلا الموضعين ما عدا لفظ « أترجة » فقد ذكر مكانه هناك : «تحية» وكذلك وردت هذه الأبيات جميعها فى ديوان السرى الرفاء مع ذكر أنها فى وصف دستنبويه .

(٣) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أنه يقال : « مخزنة » على أنه لو قيل : « زانة» لم يختل وزن البيت .

وقال أبو الفتح كُشاجِم :

يا حبذا يومُنا ونحن على * رءوسنا نَعقِد الأكاليلا (١)

فى جنّة ذُلّلت لقاطفها * قُطوفُها الدّانياتُ تذليلا

كأنّ أُتْرُجّها تَميس به * أغصانُها حاملا ومحمولا

٥ سلاسلٌ من زبرجد حَملتْ * من ذهب أصفر قناديلا

وقال أبو بكر بن القُرْطُبيّة :

جسمٌ من النور فى ثوبٍ من النّار * كأنّه ذهبٌ من فوق بُلّارِ (٢)

وأبيضٌ باطنُه وأصفرٌ ظاهرُه * كأنّه دِرهمٌ من تحت دينارِ

وقالت عُلَيّة بنتُ المهدىّ متطيّرةً به :

١٠ أُتْرُجّةٌ قد أتتك لطفا * لا تَقبَلنْها وإن سُرِرتَ

لا تَهْوَ أُتْرُجّةً فإنّى * رأيت مقلوبَها هُجِرتَ

وقال العباس بن الأحنف :

أهدى له أحبابُه أُتْرُجّةً * فبكَى وأشفَق من عِيافةِ زاجرِ

خافَ التلوّنَ إذ أتته لأنّها * لونان باطنُها خلافُ الظاهرِ

١٥ وقال آخر :

أماتَ إذ حيّا بأُتْرُجّة * فهمتُ منها كنه تأويله

لمّا تطيّرتُ بمنكوسها (٣) * ضَمّ بنانا لى بتقليله

(١) يلاحظ أن المؤلف قد سبق أن أورد هذه الأبيات فى وصف النارنج مع اختلاف يسير جدا فى بعض الألفاظ .

٢٠ (٢) لم نجد البلار بمعنى البلور المعروف فيما راجعناه من الكتب ، فلعلها لغة فيه .

(٣) « منكوسها » أى مقلوب لفظ أترجة ، وهو « هجرت » كما سبق فى شعر علية بنت المهدىّ ، ويريد بهذا البيت أنه لما تطير بمقلوب لفظ « أترجة » ضم بنانه إشارة إلى تقليل هذا الهجر ؛ وفى كلا الأصلين : « ضمت » ؛ والتاء زيادة من الناسخ .

ومن الأترجّ صِنف صغير مخطّط بخضرة وصفرة ، وفيه طول ، يسمّى شمّام[(١)] الأترجّ ، وفيه يقول ابنُ طَباطَبا :

ومُخطَفاتٍ كأنّ الحُبَّ أخطَفَها * هِيف الخصور ثقيلات المآخيرِ
صُفر الثياب كأنّ الدهر ألبسها * بناضر النبت[(٢)] ألوانَ الدنانيرِ[(٣)]

القسم الثالث

من الفنّ الرابع فى الفواكه المشمومة، وفيه بابان

الباب الأول من هذا القسم من هذا الفنّ فيما يُشَمّ رَطْبا ويُستَقطر

ويشتمل هذا الباب على أربعة أنواع ، وهى الوَرْد والنَّسْرين والخِلاف[(٤)] والنَّيْلَوْفَر .

فأمّا الوَرْد وما قيل فيه — فالورد ألوان ، أشهرها الأحمر والأبيض ؛ وقال صاحب كتاب (نِشْوار المُحاضَرة) : إنه رأى وردا أصفر ، ووردا أسودَ حالكَ

(١) فى كلا الأصلين : « شماخ » بالخاء ؛ وهو تحريف ؛ وسمى بهذا الاسم لشبهه بالشمام المعروف فى أصناف البطيخ .

(٢) الباء هنا بمعنى «مع» يريد أن الدهر ألبسها ألوان الدنانير وهى الصفرة ، مع الخضرة التى تكون فى ناضر النبت .

(٣) فى كلا الأصلين : «الزنابير» وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله : «صفر الثياب» انظر مباهج الفكر .

(٤) سيأتى فى تفصيل هذه الأنواع ذكر الخلاف باسم البان ، فليلاحظ ولا يفهم من ذلك أن البان الآتى نوع آخر غير هذه الأربعة المذكورة ، كما سيأتى أيضا توضيح ذلك وبيان وجهه فيما كتبناه على قول المؤلف الآتى : «وأما البان» .

السواد، له رائحة ذكية، ورأى بالبَصرة وردةً نصفها أحمر قانئ، ونصفها أبيض ناصع، وكأنّها مقسومة بقلم؛ وفيه ماله وجهان : أحمرُ وأبيض؛ ويقال : إنه ربما وُجِد وَردٌ أحدُ وجهَى الورقة منه أحمرُ قانئ، والآخرُ أصفر، ومن ألوان الورد الأزرق، وهذا اللون يقال إنّه يُتحيَّل فيه، بأن تُسقَى شجرةُ الورد الأبيض الماءَ المخلوط بالنيل[1]، فيصير الورد أزرق، وقد يُتحيَّل على الأسود بمثل ذلك؛ والله تعالى أعلم. ٥

ومما يدلّ على وجود هذه الألوان وأنّها غير منكورة أن الشعراء وصفوها فى أشعارهم فذكروا الأصفر والأزرق والأسود على مانورده ان شاء الله [تعالى][2] بعد ذكر منافع الورد وخواصّه .

قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : والورد مركّب من جوهرٍ مائىّ وأرضىّ وفيه حرارة[3] وقبض، ومرارة مع قبض، وقليلُ حلاوة، وفى مائيّته انكسارُ حَرافة[4] بسبب الشىء الذى لأجله [حلا][5] ومَرّ، وفيه لطافة تُنفِذ[6] قبضه، فكثيرا ما يُحدث الزُّكام . قال : والقوّة المُرّة تَثبت فيه ما دام طريّا، فاذا يَبِس قلّت مرارتُه، ورَطبُه ١٠

(١) النيل : نبت معروف يصبغ بورقه؛ وفى بعض النسخ : «بالثيل» بالثاء؛ وهو تصحيف، إذ الثيل، هو النجم والنجيل، وهو نبات له أغصان ذات عقد، طعمه حلو، وله ورق طوال حادة الأطراف صلبة مثل ورق الصعتر يعتلفه البقر وسائر المواشى؛ وقال فى تاج العروس : النيل بالكسر والنيل ككيس أى بفتح الثاء وتشديد الياء المثناة المكسورة : نبات يفرش على شطوط الأنهار، يذهب ذهابا بعيدا، ويشتبك حتى يصير على الأرض كاللبدة، وله عقد كثيرة وأنابيب قصار، ولا يكاد ينبت إلا على أدنى موضع تحته ماء . ١٥

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى (ب) .

(٣) فى القانون : «حرافة» .

(٤) فى نسختى القانون المصرية والأوربية «حرارة» . ٢٠

(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (أ) .

(٦) فى نسخة القانون طبع مصر «فينفع قبضه» ، وما أثبتناه هنا هو الوارد فى كلا الأصلين ونسخة القانون المطبوعة فى أوربا ص ١٦٤ ، وشرح الأدوية المفردة للكازرونى، وعمدة المحتاج ج ١ ص ٤٧٩ طبع بولاق .

يُسهِل اذا شُرِب منه و زنُ عشرة دراهم؛ والمسمّى منه بالوَرد المنتن حارّ، وأصله كالعاقِر قَرْحا مُحرِق؛ وقال فى طبعه :(١)

ذكر جالِينُوس أن الورد ليس بشديد البَرْد بالقياس [إلينا](٢)، ويقول : يجب أن يكون باردا فى الأولى؛ قال الشيخ، أقول : ويُيبِّسه فى أوّل الثانية، لاسيّما فى الجافّ؛ وقال فى أفعاله وخواصّه : تجفيفُه أقوى من قبضه، لأنّ مرارته أقوى من قبضِ طَعمه؛ وهو مفتِّحٌ جَلّاء، ويسكِّن حركة الصفراء؛ وبزره أقوى ما فيه قبضا، وكذلك الزَّغَب الّذى فى وسطه؛ وفى جميعه تقوية للأعضاء الباطنة، ولا يجاوِز قبضُه منعَ التحليل؛ واليابس أقبض وأبرد. قال : واذا آستُعمل الورد فى الحمّام أصلح نتْنَ العَرَق؛ ويُتّخذ منه غَسول على هذه الصفة، وهى أن يؤخذ من الورد الّذى لم تصبه نداوة — ويُترك حتى يَضمر — أربعون مثقالا، ومن سنبل(٣)

(١) العاقر قرحا، هو نبات يشبه فى شكله وقضبانه وورقه وزهره جملة النبات المعروف بالبابونج الأبيض الزهر، إلا أن قضبان العاقر قرحا عليها زغب أبيض، وهى ممتدة على وجه الأرض، وهى كثيرة، ومخرجها من أصل واحد، على كل قضيب منها رأس مدوّر كشكل رأس البابونج الصغير، أصفر الوسط، وله أسنان دائرة بالأصفر منه، باطنها مما يلى الأرض أحمر، وظاهرها الى فوق الأرض أبيض، وله أصل فى طول فتر، فى غلظ اصبع، حارّ حرّيف محرق، هذا ما آختاره ابن البيطار فى تفسير العاقر قرحا، ولم يختر ما نقله التراجمة عن ديسقوريدوس انظر المفردات ج ٣ صفحة ١١٥ طبع المطبعة الأميرية.

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن قانون ابن سينا فى كلتا نسختيه المصرية والأوربية؛ إذ بها تتم العبارة «و إلينا» أى الى نوع الإنسان، كما تفيد ذلك عبارة الكازرونى فى شرح الأدوية المفردة، فقد قال بعد ذلك ما نصه : يعنى أنه ربما كان شديد البرد بالقياس الى بدن الأسد والفرس.

(٣) السنبل ثلاثة أصناف : هندى، وهو سنبل الطيب والعصافير، ويسمى الناردين أيضا، وهو جنسان : سورى، لا لأنه ينبت بسوريا، بل لأن الجبل الذى ينبت فيه يوجد منه ما يلى سوريا، ومنه ما يلى بلاد الهند والسورى خفيف أشقر طيب الرائحة جدا، وفيه شىء من رائحة السعد، وسنبله صغيرة، يجفف اللسان، ويمكث طيب رائحته فى الفم بعد المضغ طويلا؛ أما الهندى فهو صنفان : أحدهما أطول وأكبر سنبلا، ويخرج سنبله =

الطِّيب خمسةُ مثاقيل، ومن المُرّ ستّةُ مثاقيل، تُعمل أقراصا صغارا. قال: وربّما زادوا فيها من القُسْط[1] والسُّوسَن درهمين درهمين، فربّما جعلها النساء فى المَخانق علاجا من ذَفَرِ العَرَق. قال قوم: إنّه يَقطَع الثّآلِيل[2] كلّها اذا استُعمل مسحوقا، وهو ينفع من القروح، ولا سيّما السَّحج[3] بين الأفخاذ وفى المَغابِن[4]، ويُنبِت اللحم فى القروح العميقة[5]

= من أصل واحد، وهو زهم الرائحة، مانف بعضه ببعض، والآخر اطيب رائحة، وهو قصير السنبل سعدى الرائحة وفيه كل ما وصفنا فى السورى؛ ومن السنبل رومى، وهو الإقليطى، وهو على قول أكثرهم: نبات شجرى يقتلع بأصوله، وتعمل منه حزم تملأ الكف، وله ورق طويل لونه الى شقرة ما وزهر أصفر وأصل مر طيب الرائحة، وهؤلاء ذكروا أن المستعمل منه أصله وساقه، دون ورقه وزهره؛ وعلى قول أقلهم: نبات شبيه بالثيل اه ملخصا من عمدة المحتاج ج ٢ ص ٥٤٤ طبع بولاق.

(١) القسط ثلاثة أصناف: أبيض خفيف طيب الرائحة، وهو الهندى، وأسود خفيف أيضا، وهو الصينى، وأحمر رزين، وكله قطع خشبية تجلب من نواحى الهند، قيل هو شجر كالعود؛ وقيل: هو نجم لا يرتفع، وله ورق عريض؛ ولعله الأظهر التذكرة ج ٢ ص ١٠٧ طبع بولاق وفى قاموس الأطباء أنه ثلاثة أصناف: هندى، وهو الأسود؛ وعربى، وهو البحرى، وهو الأبيض؛ وشامى، وهو يشبه خشب البقس؛ وقيل: هو الراسن وفى تاج العروس أنه يقال له كسط وكشط أيضا وقال فى عمدة المحتاج ج ٢ ص ٣٨٥: ذكر أطباؤنا أن هذا الاسم يونانى، وقيل: سريانى ثم قال بعد ذلك: والقسط يسمى باللسان النباتى الأوربى قسطوس الخ.

(٢) الثآليل: جمع ثؤلول، وهى بثور صغيرة شديدة الصلابة مستديرة، وهى على ضروب شتى فمنها متشققه ذات شظايا؛ ومنها متعلقة؛ ومنها مسمارية، وهى غليظة الرءوس مستديرة الأصول تأخذ الى داخل العضو كأنها مسمار؛ ومنها طوال معوجة، وتسمى قرونا؛ ومنها متقيحة تكون المدة تحتها. وقال فى الشذور الذهبية انها بثور صلبة مندملة غير مؤلمة توجد فى جميع الجسم، لكن أكثرها فى اليدين؛ وعرّفها بعضهم فقال: هى تولدات جلدية خشنة من سطحها عريضة من قاعدتها، وهى نصف ليفية.

(٣) السحج: تقشر ظاهر الجلد من شىء يحتك به.

(٤) المغابن: الآباط والأرفاغ، واحده مغبن كمجلس؛ والأرفاغ هى بواطن الأفخاذ عند الحوالب؛ وقيل: المغابن معاطف الجلد.

(٥) فى كلا الأصلين: «العتيقة» بالتاء؛ وهو تحريف؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا نقلا عن القانون ج ١ ص ٣٠٠ طبع بولاق.

وادّعى قوم أنه يُخرِج السُّلاء[1] والشَّوك مسحوقا ؛ وهو مسكّن للصُّداع رَطْبُه وطبيخُ مائه ، ودُهنُه معطّس بل شَمُّه نفسِه ؛ وقال قوم : تعطيسُه لحبسه البُخار، ولعلّ ذلك لتضادّ قوّتيه : الجالية[2] والمانعة فى الأدمغة الرقيقة الفضول ؛ وشمّه نفسِه معطّسٌ لمن هو حارّ الدماغ ؛ وبزرُه يَشُدّ اللّثة ؛ وهو يسكّن وجع العين من الحرارة ، وكذلك طبيخ يابسه صالحٌ لغلَظ الجفون اذا اكتُحل به ، وكذلك دُهنه وعُصارتُه ؛ قال : وإنما ينفع من الرّمد اذا قُطعت منه زوائده البِيض[3] . قال : واذا مُجُرِّع ماءُ الورد نفع من الغَشْى ؛ قال : والوردُ جيّدٌ للكبد والمعدة ؛ ومُربّاه بالعسل يقوّى المعدة ، وهو الجَلَنجبين[4] ، ويعين على الهضم ؛ ودهن الورد يطفئ التهاب المعدة ، وكذلك طلاء المعدة بالورد نفسِه ؛ وشرابه نافع لمن فى معدته استرخاء ؛ قال : وهو يسكّن وجع المقعدة طَلْيا عليها بريشة ، ووجعَ الرحم من الحرارة ، وكذلك طبيخ يابسه[5] ؛ وهو نافع لأوجاع المِعى[6] ، ويُحتقن بطبيخه لقروح المِعى[7] ، وشرابُه يُشرب لذلك ؛ قال : والنّومُ على المفروش منه يقطع الشّهوة ؛ هذا ما قاله الشيخ فى الورد ، والذى جرّبتُه أنا منه أنّ زهر الورد الأصفر يُجفّف ويُسحق بالملح فيكون دواءً جيّدا للجراح يَلحُمها بسرعة .

(١) السلاء وزان رمّان : شوك النخل .

(٢) فى نسخة القانون طبع أوربا «الجالبة» بالباء الموحدة ؛ وهى أنسب .

(٣) فى كلا الأصلين : «من البيض» وقوله «من» زيادة من الناسخ .

(٤) الجلنجبين : لفظ فارسى معرب مركب من كلمتين : وهما «كل» ، أى الورد ، «وانكبين» ، أى العسل .

(٥) فى كلا الأصلين «مائه» ؛ وهو تبديل من الناسخ ؛ وما أثبتناه هو الوارد فى القانون المنقول عنه هذا الكلام فى كلتا نسختيه المصرية ج ١ ص ٣٠٠ والأوربية ص ١٦٤

(٦) عبارة القانون : المعى المستقيم .

(٧) فى القانون : «الأمعاء» بصيغة الجمع .

وأمّا ما جاء فى وصف الورد نظما ونثرا — فقال أبو العلاء صاعد الأندلسىّ :

ودونَك يا سيّدى وردةً * يذكّرك المِسكُ أنفاسَها
كعذراءَ أبصَرها مبصرٌ * فغطّت بأكمامِها راسَها

٥ وقال أبو عُبادة البحترىّ :

أتاك الربيعُ الطّلْق يختال ضاحكا * من الحُسن حتى كاد أن يتكلّما
وقد نبّه النَّوْرُوز(١) فى غَسَق الدُّجى * أوائلَ وَرد كُنّ بالأمس نُوّما
يفتّحه بَرْدُ النَّدَى فكأنّما * بَثَثْنَ حديثا بينهنّ مكتّما

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر — ويُروَى لعلىّ بن الجَهْم — :

١٠ أما تَرَى شجراتِ الورد مظهرةً * لنا بدائعَ قد رُكِّبن فى قُضُبِ
كأنّهنّ يواقيتٌ يُطيف بها * زبرجدٌ وسطَه شَذْرٌ من الذهبِ

وقال الناشى :

قُضُب الزبرجد قد حَمَلن شقائقا * أثمارُهنّ قُراضةُ العِقْيانِ
وكأنّ قَطْرَ الطَّلّ فى أهدابه * دمعٌ مَرَتْه فواتر الأجفانِ

١٥ وقال ابن طاهر — ويُروَى لابن بسام :

أما تَرَى الورد يدعو للوُرود الى * خمر معتّقة فى لونها صَهَبُ
مَداهِنٌ من يواقيت مركّبة * على الزّبرجد فى أجوافها ذهبُ

---

(١) النوروز والنيروز — والثانى أشهر — : أوّل يوم من السنة الشمسية ، وعند الفرس يوم نزول الشمس أوّل الحمل ، ومعنى نوروز بالفارسية : يوم جديد ، وفى البرهان القاطع أن النوروز يطلق على يومين من أيام السنة ، يقال للأوّل نوروز العامة ، وللثانى : نوروز الخاصة ؛ فنوروز العامة هو اليوم الأوّل من شهر فروردين عند نزول الشمس أوّل الحمل ، ونوروز الخاصة هو اليوم السادس من شهر فروردين .

كأنّه حين يبدو من مَطالِعه * صبٌّ يقبِّـــل حِبّا وهو يَرتقبُ
خاف المَلالَ اذا طالت إقامتُـه (١) * فظلَّ يَظهـر أحيـانا ويَحتجبُ

[وقال العماد الأصفهانىّ (٢)] :

قلتُ للوَرد ما لشوكِك يُدمِى * كلَّ ما قد أَسوتَه من جراحِ
قال لى هـذه الرياحينُ جندٌ * أنا سلطانُها وشوكى سلاحى

وقال آخر :

الورد أحسَنُ منظَـرٍ * تَستمتِـع الألحاظ منه
فاذا انقضت أيّامُـه * أتت الخدود تنوب عنه

وقال أبو طالب الرَّقّىّ :

ووردةٍ فى بَنانِ مِعطارِ * حيّت بها فى بديع أسرارِ
كأنّها وجنةُ الحبيب وقد * نقّطها عاشـق بدينـارِ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

مرّ بنـا يهـتزّ فى خطـوِه * كالغصن (٣) غِبَّ العارض السارى
شَمِمتُ (٤) فى وجنتـه وردةً * جاءت من المِسـك بأخبارِ

(١) نسب الراغب الأصفهانى هذا البيت الى ديك الجن وذكر قبله بيتا آخر لم يرد فى هذه الأبيات، وهو:

للورد حسن وإشراق اذا نظرت * اليه عين محب هاجه الطرب

انظر محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٣٣٨ طبع جمعية المعارف بمصر .

(٢) لم ترد هذه العبارة التى بين مرسمين فى (١) .

(٣) فى رواية « ما بين أغصان وأمـار » انظر ديوان المعانى ج ٢ ورقة ١٥ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٧٤ أدب .

(٤) فى ديوان المعانى « يدير فى أنمله وردة » وهو الصواب فى رواية الشـطر، فان الشاعر يريد وصف وردة حقيقية، لا حمرة الوجنة المشبهة بالوردة ، كما يدل على ذلك سياق الأبيات، وإلا لما ساغ للمؤلف ذكرها فى وصف الورد .

تلوح فى حمرتها صفرةٌ * كالخد منقوطا بدينارِ

وقال آخر :

كأنما الوردة لما بدت * فى كف من أهوى ويهوانى
حُمرةُ خديه وفى وَسْطِها * صُفرةُ لونى حين يلقانى

٥ وقال آخر :

جَمَع الورد خصالا * لم تكن فى نُظرائهْ
حُسنَ لون جعل الزُّهْـ(١) * ـرةَ من تحت لوائهْ
ونسيما عَطَّر المجـ * ـلسَ من فرط ذكائهْ
فاذا غاب وولَّى * عَوَّض الناس بمائهْ

١٠ وقال آخر :

وذى لونين لونُ المسك فيه * يروق بحمرة فوق اصفرارِ
كمعشوقَين ضمّهما اعتناقٌ * على حدْثان عهدٍ بالمزارِ

وقال الطُّغْرائىّ :

ألم تر أنّ جندَ الورد وافَى * بصُفر(٢) فى مَطاردِه وحُمرِ
١٥ أتى مستلئما بالشوك فيه * نِصالُ زمرّدٍ وتِراسُ تِبرِ
فحلَّى بالسرور همومَ قلبى * وطارَدَ بالنشاط بناتَ صدرى
فما عذرى إذا أنا لم أقابِلْ * أياديَه بسُكرٍ أو بشكرِ

---

(١) فى كتب اللغة أن الزهرة وزان تؤدة ، أى بضم الزاى وفتح الهاء ، فتسكين الهاء هنا لضرورة الوزن .

٢٠ (٢) « بصفر » الخ أى برايات صفر وحمر فى مطارده ، أى رماحه ، واحده مطرد وزان منبر ، وهو الرمح القصير .

ومما قيل فى ذم الورد ومدحه — قال ابنُ الرّومى :

يا مادحَ الورد لا تنفكّ عن غلطٍ * ألستَ تنظره فى كف ملتقطهْ
كأنّه سُرْمُ بغل حين يُخرجُه * عند البراز وباقى الرّوث فى وَسَطهْ

وقال ابن المعتزّ فى الردّ عليه :

يا هاجىَ الوَرد لا حُيّيتَ من رجلٍ * غَلِطتَ والمرء قد يُؤْتَى[1] على غَلطهْ
هل تُنبت الأرض شيئا من أزاهرها * اذا تحلّت يُحاكى الوَشْىَ[2] فى نَمَطهْ
أحلَى وأشهرَ من وردٍ له أرَجٌ * كأنّما المِسك مذرورٌ على وسَطهْ
كأنّه خدُّ حِبّى حين مَلّكنى * حَلّ السراويل بعد الطُّول من مَخَطهْ

وقال العسكرىّ :

أفضّل الورد على النرجسِ * لا أجعل الأنجم كالأشمُسِ
ليس الذى يَقعد فى مجلسٍ * مِثلَ الّذى يَمْثُل فى المجلسِ

وكتب أبو دُلَف الى عبد الله بن طاهر .

أرى وُدّكم كالورد ليس بدائم * ولا خير فيمن لا يدوم له عهدُ
وحُبّى لكم كالآسِ[3] حُسنا ونَضرةً * له زهرةٌ تَبقَى اذا فَنِىَ الوَردُ

---

(١) يقال : «أتى فلان» بالبناء للمجهول ، أى وهى وتغير عليه حسه فتوهم ما ليس بصحيح صحيحا . (مستدرك التاج) .

(٢) كذا فى (ب) ومباهج الفكر والذى فى (أ) « الورد » وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه البيت الآتى :

(٣) يضرب المثل بالآس فى دوام الود ، وذلك لدوام خضرته ؛ قال أبو حنيفة : الآس بأرض العرب كثير ، ينبت فى السهل والجبل ، وخضرته دائمة ، وينمو حتى يكون شجرا عظاما ، وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة ، وثمرة سوداء اذا أينعت تحلو ، وفيها مع ذلك علقمة .

فأجابه ابن طاهر [يقول](١)

وشَبّهتَ وُدّى الوردَ وهو شبيهُه * وهل زهرةٌ إلّا وسيّدُها الوَردُ

ووُدُّك كالآسِ المَريرِ مَذاقُه * وليس له فى الطِّيب قبلٌ ولا بَعدُ

(٥٨) ومِمّا وُصِف به الوردُ الأبيض [قولُ](٢) محمد بنِ قيس :

٥ جاءتِ بوَرد أبيضٍ * شبّهتُه عند العِيان

بمَداهنٍ من فضّةٍ * فيها بقايا زعفران

وقال السّرىّ الرّفّاء :

وروضٍ كساه الغيثُ اذ جادَ(٣) دمعُه * مَجاسدَ وشيٍ من بَهارٍ(٤) ومنثورِ(٥)

بدا أبيضُ الوَردِ الجنىّ كأنّما * تَنَسَّمَ(٦) للنّاشِي(٧) بمسكٍ وكافورِ

١٠ كأنّ اصفرارا منه تحت ابيضاضِه * بُرادةُ تِبرٍ فى مَداهنِ بَلّورِ

---

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (ب) .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) .

(٣) فى كلا الأصلين «جاء» ؛ وهو تحريف .

(٤) البهار بفتح الباء : نبت طيب الريح ، وهو الأقحوان الأصفر ، وهو ضرب من البابونج ؛ و يقال له : عين البقر ، قال بعض الأطباء : ويسمى عند عامة الأندلس خبز الغراب ، كما فى قاموس الأطباء . ١٥ وورد فى مفردات ابن البيطار ج ١ ص ١٢١ نقلا عن ديسقوريدوس انه نبات له ساق رخصة وورق شبيه بورق الرازيانج ، وزهر أصفر أكبر من زهر البابونج شبيه بالعيون ، وينبت بالدمن .

(٥) المنثور ، هو الخيرى ، وهو نبات له زهر مختلف ، بعضه أبيض ، وبعضه فرفيرى ، وبعضه أصفر والأصفر نافع فى أعمال الطب .

٢٠ (٦) فى كلا الأصلين «تبسم» بالباء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله بعد : «للناشى» .

(٧) الناشى : اسم فاعل من قولهم : «نشيت منه ريحا طيبة نشوة ونشوة» بكسر النون وفتحها ، أى شممت ؛ والنشا بالقصر : نسيم الريح الطيبة .

وقال ابنُ المعتزّ :

أتاك الوَردُ مبيضّا مَصُونا * كمعشوقٍ تَكنّفه صُدودُ
كأنّ وجوهَه لمّا توافت * بدورٌ فى مَطالعها سعود
بياضٌ فى جوانبه احمرارٌ * كما احمرّت من الخجل الخدودُ

ومِمّا وُصف به الأصفر قولُ شاعر :

رعى اللهُ وَردا غدا أصفرا * بهيّا نَضيرا يُحاكِى النُّضارا
وسُقِّى غصونا به أثمرتْ * وحُمِّلن منه شموسا صِغارا

وقال الطُّغرائىّ :

شجراتُ وَردٍ أصفرٍ بَعثتْ[1] * فى قلبِ كلِّ متيَّمٍ طَرَبا
سَبكتْ[2] يدُ الغَيْمِ اللُّجَيْنَ لها * وكسته صِبغا مُونِقا عَجَبا
مَن ذا رأى من قبلِها شجرا[3] * سُقِىَ اللُّجَيْنَ فأثمرَ الذّهبا
خَرَطتْ[4] نهودَ زبرجدٍ حَملتْ * أجوافُها من عَسْجَدٍ لُعَبا
فاذا الصَّبا فَتَقتْ كمائمَها * سَحَرا وماد الغصنُ وانتَصَبا
شَبّهتُها بخريدةٍ طَرَحتْ * فى الخُضر من أثوابها لَهَبا[5]

(١) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : «بحذت» ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا نقلا عن ديوان الطغرائىّ .

(٢) ورد هذا البيت والذى يليه فى ديوان الطغرائى ومباهج الفكر فى آخر هذه المقطوعة .

(٣) ورد فى (١) قبل هذا البيت قوله : « وقال أيضا فيه » ووردت هذه العبارة أيضا فى (ب) بعد هذا البيت ، وهى زيادة من الناسخ لا مقتضى لها هنا ، فان ما قبلها وما بعدها قصيدة واحدة لا قصيدتان كما توهمه هذه العبارة انظر ديوان الطغرائى ورقة ٩٢ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٢٨ أدب .

(٤) خرطت بالبناء للفاعل ، أى شجرات الورد السابق ذكرها ؛ وقد ورد هذا البيت فى ديوان الطغرائى ومباهج الفكر بعد البيت الأول .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ فى (ب) ومباهج الفكر وديوان الطغرائى ؛ والذى فى (ا) : «ذهبا» والمعنى =

وممّا وُصف به الوَردُ الأزرق — قال بعضُ الشعراء وقد وَصف بستانا :

وبه واردٌ من الوَرد قد أيـ * ـنَعَ فى رِقّة الهـواء اللّطيف
شبّهوه بدَمعـة العاشق الآ * لِف نالته جفوةٌ من أليف
فهو يَحكيه رِقّةً ومثـالُ الـ * ـقَرْص(١) لونا فى خدِّ ظبيٍ تَريف(٢)
ورقٌ أزرقٌ كزُرق يواقيـ * ـتَ تَطلّعن من لُجَيْنٍ مَشُوف(٣)

وممـا قيل فى الوَرد الأسود قول(٤) مُؤيِّد الدّين الطُّغرائى(٥) :

لله أسـودُ وَردٍ ظلَّ يَلحَظنا * من الرّياض بأحداق اليَعافيرِ(٦)
كأنّهـا وجَناتُ الزّنْج نقّطها * كفُّ الإمام(٧) بأنصاف الدّنانيرِ

= يستقيم عليه أيضا ولا يلزم عليه الإيطاء بذكر لفظ الذهب فى القافية مرتين فى هذه المقطوعة ، فانهم اشترطوا فى الإيطاء أن يتحـد اللفظان فى التعريف والتنكير أيضـا كاتحادهما فى اللفظ والمعنى ، كما فى تاج العروس واللفظان هنا مختلفان ، اذ الذهب فى البيت الثالث معرفة ، وفى هذا البيت نكرة . على أن أبا عمرو بن العلاء يرى أن الإيطاء ليس بعيب فى الشعر عند العرب ، وهو اعادة القافية مرتين . وروى عن ابن سلام الجمحى أنه قال : اذا كثر الإيطاء فى قصيدة مرات فهو عيب عندهم اه ومقتضى هذا أنه اذا لم يكثر كما هنا فليس بعيب .

(١) فى كلتا النسختين : «الفرض» بالفاء والضاد ؛ وهو تصحيف .

(٢) يريد بالتريف : المترف بفتح الراء ، أى المتنعم ، فعيل بمعنى مفعول ، وهو من الترف بالتحريك .

(٣) المشوف : المجلو .

(٤) فى (أ) : « قال » .

(٥) لم نجد هذين البيتين فى نسختى ديوان الطغرائى المخطوطتين المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٣٩٠ ، ١٥٢٨ أدب ؛ والذى فى مباهج الفكر وحسن المحاضرة نسبتهما الى أبى أحمد الطرارى .

(٦) اليعافير : الظباء التى بلون العفر بالتحريك ، وهو التراب ؛ أو هى الظباء كلها ؛ وقيل : اليعافير أولاد البقر الوحشى ، واحده يعفور .

(٧) كذا فى حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٢٠ ويريد بالإمام : الخليفة ؛ والذى فى (أ) و(ب) : « الأنام » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه إفراد الكف .

وقال آخر فيه :

وَوَرْدٍ أسْـوَدٍ خلناه لمّـا * تَنَشّـقَ نَشْرَه مَلِكُ الزّمانِ
مَداهنَ عنبرٍ غَضٍّ وفيهـا * بقايا من سَحيـق الزعفرانِ

وأما ما جاء فيه نثرا — فقال أبو حفص عمرُ بنُ بُرْد الأصغر رسالةً قدّم فيها الوَردَ على سائر الرّياحين، وهى رُقعةٌ خاطب بها ٱبنَ جَهْوَر : أمّا بعـدُ ياسيّدى ومن أنا أفديه ، فإنّه ذَكَر بعضُ أهـل الأدب المتقدِّمين فيـه ، وذوى الظَّرْف المُعْتَنِين بمُلَح معانيه ؛ أنّ صنوفا من الرّياحين، وأجناسا من نُوَار البساتين، جمَعها فى بعض الأزمنـةِ خاطرٌ خطرَ بنفوسِها، وهاجسٌ هجَسَ فى ضمائرِها، لم يكن لهـا[1] بدٌّ من التفاوض فيه والتّحاور ، والتحاكُم من أجلِه والتناصُف ؛ وأجمعتْ على أنّ ما ثبت فى ذلك من العهد ، ونَفَـذ من الحِلْف؛ ماضٍ على من غاب شخصُـه، ولم يَئِن[2] منهـا[3] وقتُه؛ فقام قائمُها فقال : يامعشر الشّجر، وعامّةَ الزّهَر؛ إن اللّطيف الخبير الّذى خَلَق المخلوقات ، وذَرَأ[4] البريّات ؛ باينَ بين أشكالهـا وصفاتها، وباعدَ بين مِنَحِها وأعطياتِها؛ فجَعل عبـدا ومَلِكا، وخَلَق قبيحا وحَسَنا؛ فَضّل على بعضٍ بعضا حتى ٱعتدل بعدله الكلّ، وٱتّسق على لطفِ قدرته الجميع ؛ وانّ لكلّ واحد منها جمالا فى صورتهِ، ورِقّة فى محاسنه، وٱعتدالا فى قَدِّه، وعَبَقا فى نسيمه، ومائيّةً فى ديباجتِـه ؛ قد عُطِفتْ علينا الأعين ، وثُنِيتْ إلينا الأنفُس ، وزهتْ بمحاضرتِنا المجالس؛ حتّى سَفَرْنا بين الأحبّة ، ووصلْنا أسبابَ القلوب ، وتحمّلْنا لطائفَ

(١) فى كلا الأصلين : «له» بتذكير الضمير؛ والسياق يقتضى تأنيثه كما أثبتنا .

(٢) يجوز أن يقرأ هذا اللفظ أيضا بسكون الهمزة وكسر النون ، من أنى يأنى ؛ والمعنى واحد فى كلا اللفظين .

(٣) «منها» أى من الأزهار؛ والذى فى (ا) «عنها» ؛ وهو تحريف .

(٤) ذرأ ، أى خلق .

الرّسائل، وصِيغَ فينا القَرِيض، ورُكِّبت فى محاسِننا الأعاريض، فطَمح بنا العُجْب، وأزدهانا الكِبْر، وحَمَلَنا تفضيلُ من فضّلَنا، وإيثارُ من آثَرَنا، على أن نَسِينا الفكرَ فى أمرِنا، والتمهيدَ لعواقِبِنا، والتّطييبَ لأخبارِنا؛ وأدّعينا الفضلَ بأسرِه، والكمالَ بأجمعِه؛ ولم نعلم أنّ فينا من له المزيّةُ علينا، ومن هو أَوْلَى بالرآسة منّا؛ وهو الوَرد الذى إن بذلنا الإنصافَ من أنفسِنا، ولم نَسبَحْ فى بحرِ عمانا، ولم نَمِلْ مع هوانا؛ دِنّا له، ودَعَونا اليه؛ فمن لقيَه منّا حيّاه بالمُلْك؛ ومن لم يدرك زمن سلطانِه، ودولةَ أوانه؛ اعتقَد ما عُقِد عليه، ولَبّى الى مادُعِىَ اليه؛ فهو الأكرمُ حَسَبا، والأشرفُ زمنا؛ إن فُقد عينُه لم يُفقَدْ أثرُه، أو غاب شخصُه لم يَغِبْ عَرْفُه؛ وهو أحمرُ والحُمرةُ لونُ الدّم، والدّمُ صديقُ الرُّوح؛ وهو كالياقوت المنضّد، فى أطباق الزّبرجد، عليها فريدُ العسجد؛ وأمّا الأشعارُ فبمحاسنه حَسُنتْ، وباعتدال زمانِه وُزِنتْ.

وفى فصل منها: وكان ممّن حضر هذا المجلس من رؤساء النُّوّارِ والأزهار، النّرجِس الأصفر والبنفسَجُ والبَهار؛ والخِيرِىُّ — وهو النّمّام[1] — فقال النرجس

(١) الذى وجدناه فى كتب النبات أن الخيرى غير النمام، وليس هو، كما فى هذه العبارة، فان الخيرى هو النبات المعروف بالمنثور، وهو الخزامى، كما فى مباهج الفكر؛ ونقل ابن البيطار عن ديسقوريدوس فى الكلام على الخيرى: أنه نبات له زهر مختلف، بعضه أبيض، وبعضه فرفيرى، وبعضه أصفر؛ وذكر صاحب عمدة المحتاج ج ٢ ص ٤٤١ نقلا عن أطباء العرب أن الخيرى اسم يونانى أو نبطى، ثم ذكر أن معنى اسمه بالافرنجية القرنفل الأصفر، أو المنثور الأصفر، وأنه مربع القوى، قرنى الثمر، يحتوى على أنواع كثيرة عطرية مزينة للبساتين؛ ومما قاله فى الصفات النباتية للنوع المقصود من الخيرى أنه نبات جميل استنبت بالبساتين لجماله والرائحة المقبولة لأزهاره، وساقه متينة تقرب من أن تكون خشبية مبيضة، وتخرج منها جملة أغصان تصل أحيانا الى خمسة ديسيمترات، وأوراقه سهمية؛ فيها بعض ضيق، وهى فى غاية الكمال، ومخضرة، وأحيانا تغطى بوبر يسير، ويحمل هذا النبات أزهارا لونها أصفر محمر، وبالزراعة والفلاحة تكتسب نموّا عظيما؛ ثم بالنظر للألوان ميز البستانيون هذا النبات الى أصناف كثيرة؛ وهذا النبات ينبت طبيعة على الحيطان والسقوف والأماكن الحجرية، أما النمام فهو نوع من النعنع كما سبق فى ص ٧٠ من هذا السفر فى الكلام على النعنع؛ فارجع اليه؛ وفى عمدة المحتاج ج ٢ ص ٥٩٢ أن النمام هو المعروف بالسيسنبر، وهو مأخوذ من الاسم اللاتينى: سيسنبريون، وسمى نماما لسطوع =

الأصفر : والذى مَهَّد لى فى حَجْر الثَّرَى ، وأرضَعَنى ثَدْىَ الحَيا ؛ لقد جئتُ[(١)] بها أوضحَ من لَبَّة الصَّباح ، وأسطَعَ من لسان المصباح ؛ ولقد كنتُ أَسْتُر[(٢)] من التعبُّد له ، والشغف به ، والأسف على تعاقُب[(٣)] الموت دون لقائه ؛ ما أنحل جسمى ومَكَّن سُقْمى ؛ وإذ قد أَمكَن البَوْحُ بالشَّكوَى ، فقد خَفَّ ثِقَل البلوَى ؛ ثمّ قام البنفسَجُ فقال : على الخبير واللهِ [سَقطتَ ، أنا واللهِ][(٤)] المتعبَّدُ له ، والداعى اليه والمشغوفُ به ، وكفى ما بوجهى من نَدَب[(٥)] ؛ ولكن فى التأسِّى بك أُنس ؛ ثم قام البَهار فقال : لا تنظرنّ الى غَضارةِ نَبْتى[(٦)] ، ونَضارةِ وَرَقى ؛ وانظرْ إلىّ وقد صرت حَدَقةً باهتة[(٧)] تشير اليه ، وعينا شاخصة تَندَى بكاءً عليه .

= رائحته ، فكأنه ينم بريحه على نفسه ؛ وورد فى هذا الكتاب نقلا عن ديسقوريدوس أن النمام صنفان : بستانىّ فى رائحته شىء من رائحة المرزنجوش ، ويدب على الأرض ، ويضرب فيها عروقا كثيرة ، وله ورق كورق أور يغانس ، وهو الصعتر ، وأغصانه كأغصانه ، إلا انها أشدّ بياضا منه ، ومنه برى ليس يدب فى نباته ، بل هو قائم ، وله أغصان دقاق مملوءة ورقا كورق السذاب ، غير انه أطول وأصلب ، وله زهر حريف المذاق ، تفوح منه رائحة طيبة جدا ، وهو أقوى من البستانى وأصلح فى أعمال الطب ؛ انتهى ديسقوريدوس ؛ ثم ذكر المؤلف فى صفة هذا النبات أنه نبات صغير منفرش ، وساقه خشبية قليلا فى القاعدة ، متفرعة ، وطول فروعها من خمسة قراريط الى ستة ، وهى نائمة على الأرض ، زغبية قليلا مربعة ، قائمة فى جزئها العلوىّ ، والأوراق صغيرة متقابلة منفرجة الزاوية ، كاملة ضيقة من الأسفل ، وهى خالية من الزغب ؛ ثم قال : انه يكثر فى الغابات الجافة وبطون الأودية والطرق الخ .

(١) جئت بضمير الخطاب ، يريد القائل المتقدّم . وقوله : « بها » ، أى بالحجة على فضل الورد .

(٢) فى كلا الأصلين « أسر » بسقوط التاء المثناة ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام الآتى .

(٣) تعاقب الموت ، يريد ذهابه وانتهاء زمانه عاما بعد عام .

(٤) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (أ) .

(٥) الندب بالتحريك : آثار الجراح ، واحده ندبة بالتحريك أيضا ، وهو هنا على سبيل الاستعارة .

(٦) فى ب « منبتى » .

(٧) باهتة ، أى متحيرة من البهت بفتح فسكون ؛ وقد ورد فى القاموس أنه يقال : « مبهوت » ولا =

ولولا كثرةُ الباكين حولى * على إخوانهم لقتلتُ نفسى

ثمّ قام الخيرىُّ فقال : والّذى أعطاه الفضل دونى ، ومَدّ له بالبَيْعة يمينى ، ما اجترأتُ قطُّ إجلالا له ، واستحياءً منه ، على أن أتنفّس[1] نهارا ، أو أساعدَ فى لذّة صديقا أو جارا ، فلذلك جعلتُ اللّيل سِتْرا ، واتّخذتُ جوانحه كِنّا . فلمّا استوت آراؤها قالت : إنّ لنا أصحابا ، وأشكالا وأترابا ، لا نلتقى بها فى زمن ، ولا نجاورها فى وطن ، فهلم فلنكتبْ بذلك عَقدا يَنفُذ على الأقاصى والأدانى ، فكتبوا رُقعة نُسختُها : هذا ما تحالَف عليه أصنافُ الشجر ، وضُروبُ[2] الزّهر ، وسَمِيُّها[3] وشَتْوِيُّها ، ورَبِيعيُّها وقَيْظِيُّها ، حيث ما نجمتْ من تَلْعةٍ[4] أو رَبْوة ، وتفتّحتْ فى قَرارة[5] أو حديقة ،

= يقال «باهت» إلا أن شارحه قد نص بعد ذلك على أنه يقال «باهت» أيضا ، وذكر أن اقتصارهم على مبهوت مبنى على الاقتصار فى فعله على بهت بضم الباء وكسر الهاء مبنيا للمجهول ، وأما من قال فى فعله «بهت» كنصر مبنيا للفاعل فلا مانع له فى القياس ؛ وقد نقله المبلىّ فى شرح الفصيح : قالوا باهت وبهيت يصلح لكونه بمعنى المفعول ، كمبهوت ، وبمعنى الفاعل كباهت ، والأول أقيس وأظهر .

(١) يشير بقوله «على أن أتنفس نهارا» وقوله بعد : «فلذلك جعلت الليل» الخ الى ماورد فى خواص الخيرى من أنه لا تعبق رائحته إلا ليلا ، وقد ذكر الشعراء ذلك فى شعرهم ؛ قال أبو إسحاق بن خفاجة :

وخيرية بين النسيم وبينها * حديث اذا جن الظلام يطيب
تبدت مع الإمساء حتى كأنما * لها خلف أستار الظلام حبيب
وتخفى مع الإصباح حتى كأنما * عليها لأنوار الصباح رقيب

مباهج الفكر قسم النبات .

(٢) كذا فى (ب) والذى فى (ا) «وصنوف» وهو وإن استقام المعنى به إلا أنه مكرر مع قوله «أصناف» السابق فى الجملة التى قبلها .

(٣) وسميها ، أى التى نبتت على الوسمى ، وهو مطر الربيع الأول ، وهو بعد الخريف لأنه يسم الأرض بالنبات فيصير فيها أثرا فى أول السنة ، ثم يتبعه الولىّ فى صميم الشتاء ، ثم يتبعه الربعىّ .

(٤) التلعة : ما ارتفع من الأرض وتردد فيها السيل ، وهى مكرمة للنبات .

(٥) القرارة : كل مطمئن من الأرض يندفع اليه الماء ، وهى من مكارم الأرض اذا كانت سهولة ، ويقال للروضة المنخفضة : القرارة أيضا .

عنـد ما راجعتْ من بصائرِها ، وأُلهمتْ من رشادِها ، وٱعترفتْ بمـا أسلفتْ من هفواتِهـا ؛ وأعطت للوَرد قيادَها ، وملّكته أمرَها ؛ وعَرفتْ أنّه أميرها المقـدَّم بخصالِه فيها ، والمؤمَّرُ بسوابقه[1] عليهـا ؛ وٱعتقدتْ له السمعَ والطاعة ، وٱلتزمتْ له الرِّقّ والعُبوديّة ، وبرئتْ من كلِّ زَهر نازعته نفسُه المباهاةَ له ، والٱنتزاء[2] عليه ؛ فى كلِّ وطن ، ومع كلِّ زمان ؛ فأيّةُ زَهرةٍ قَصّ عليها لسانُ الأيّام هـذا الحِلْف ، فلتتعرّف إرشادَها منه[3] ، وقِوامَ أمرِها به ؛ [والله أعلم][4] .

٥

❖

ومن رسالةٍ لبعض فضـلاءِ أصبهانَ ممّن ذكرهم العِمادُ الأصبهانىّ[5] فى الخريدة وَصَف فيها الرياضَ والرياحين ، وفضّـل الوَردَ على جميعِها ، وهى رسـالةٌ مطوّلةٌ فى هذا النوع وغيرِه ، جاء منها : فى يومٍ ٱستعار نَضارتَه من عصرِ الصِّبا ، وٱكتسى صحّتَه من عليلِ الصَّبا ؛ ونَجَتْ فيه نجومُ التربيع ، خاليةً من المقابَلة[6] والتّربيع ؛

١٠

(١) فى كلا الأصلين : «سوابقه» بهقوط باء الجر ؛ والسياق يقتضى إثباتها . أى بسوابق فضائله ومحاسنه .

(٢) الانتزاء ، التوثب والتسرع والسوران ، وهو من النزو ، يريد الوثوب على الورد لمنازعته فى الإمارة .

١٥

(٣) « منه » ، أى من هذا الحلف والعهد .

(٤) لم ترد هذه العبارة فى (ب) .

(٥) لم نجد هـذه الرسالة الآتية ضمن الأجزاء المحفوظة بدار الكتب المصرية من خريدة القصر للعماد الأصبهانى ، كما أننا لم نجدها فيما راجعناه من الكتب الأخرى .

(٦) المقابلة عنـد المنجمين ، هى كون الكوكبين بحيث يكون البعد بينهما بقدر نصف فلك البروج ككون الزهرة فى أوّل درجة الحمـل ، والمريخ فى أوّل درجـة الميزان ، كما ذكره التهانوىّ فى كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٢٠٥ طبع كلكته . والتربيع عندهم هو أن يكون البعد بين الكوكبين ربع الفلك ، أى تسعين درجة ؛ وان كان البعد بينهما ثلث الفلك — أى مائة وعشرون درجة — يسمى نظر =

٢٠

وتقابل[1] إشراقُ زَهرِه ونهارِه، فَراقَ يجرى[2] جداولِه وأنهارِه، وأقبل فيه جيشُه بفوارسِه وجِيادِه، وعساكرِه وأجنادِه، بين رافعِ لواءٍ زبرجدىّ، وحاملِ مِطْرَدٍ[3] عَسجَدىّ، وصاحبِ رِداءٍ لازَوَرْدىّ[4]، ومُعْلِمٍ[5] قد أطلَق عِنانَه، ورامحٍ قد خَضَب سِنانَه؛ وأخذت الأرضُ زينتَها وزخارفَها، ولَبِستْ حِليتَها ومَطارفَها[6]؛ ومادت كُثْبانُها

= التثليث كما فى كشاف اصطلاحات الفنون أيضا ج ٢ ص ١٣٨٦ فى الكلام على النظر عند المنجمين. وأشار بقوله: خالية من المقابلة الخ الى ما زعمه المنجمون من أن المقابلة فى الكواكب أثرها المجادلة والخصومة، وان أثر التربيع الهم والغم والمحنة. قال صاحب دستور العلماء ج ٣ ص ٤٠٨ طبع الهند ما نصه: اعلم أن الكوكبين اذا اجتمعا فى برج واحد ودرجة واحدة منه يسمى هذا الاجتماع عند أرباب النجوم قرانا ونظرا؛ وان كان كل منهما ناظرا الى الآخر بأن يكون أحدهما فى برج والآخر فى برج آخر فان كان أحدهما من الآخر فى البرج الثالث والآخر منه فى الحادى عشر فتسديس، وأثره الانشراح والسرور؛ وان كان أحدهما من الآخر فى الرابع والآخر منه فى العاشر فتربيع، وأثره الهم والغم والمحنة؛ وان كان أحدهما من الآخر فى الخامس والآخر منه فى التاسع فتثليث، وأثره المحبة والوداد؛ وان كان كل واحد من الآخر فى السابع فمقابلة، وأثرها المجادلة والخصومة؛ فالمقابلة حينئذ شر من المقارنة الخ.

(١) فى كلا الأصلين «وقابل» وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا فان قوله: «قابل» يحتاج الى مفعول كما هو واضح؛ وليس فى الكلام الآتى ما يصلح جعله مفعولا له.

(٢) فى (أ) «بحر» بالحاء، وفى (ب) «بجر» بالجيم؛ وكلا اللفظين غير ظاهر المراد؛ ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٣) المطرد: رمح قصير يطعن به الوحش.

(٤) اللازوردى: نسبة الى اللازورد، وهو معدن يوجد بجبال أرمينية وفارس فى وجوه المعادن وأجوده الصافى الرزين الشفاف، الضاربة زرقته الى خضرة ما وحمرة؛ ومادته زئبق قليل جيد، وكبريت كثير ليس بالردىء، قاله داود.

(٥) المعلم، هو الفارس الذى جعل لنفسه علامة الشجعان فى الحرب.

(٦) المطارف: جمع مطرف بضم الميم وكسرها كمكرم ومنبر، وهو رداء من خز مربع ذو أعلام، قال الفراء: وأصله الضم، لأنه فى المعنى مأخوذ من أطرف بالبناء للمجهول، أى جعل فى طرفيه العلمان، ولكنهم استثقلوا الضمة فكسروه.

بخمائلها ، وماست قُضبانُها فى غلائلها ؛ فبرَزَتْ بين جبينٍ متوّج ، وخدٍّ مضرّج ؛ وصُدْغٍ مخلّق[(١)] ، وخَصْرٍ ممنطَق ؛ ونادت الشمسُ بلسان الجذَل :

* يا بُعدَ ما بين برج الجَدْيِ[(٢)] والحَمَلِ *

وفَصَّل فصلُ الرّبيع الرياض * عقودا ورَصَّع منها حُلِيّا

وفاخَرَ بالأرض أُفقَ السّماء * فحَلّى الثّرَى بنجوم الثُّرَيّا

وَنثر منثورُه[(٣)] ياقوتا ودرّا وزمرّذا ، و جَمَع بين ضدّين : من بَرْدٍ بَرَدٍ وتَوقُّدٍ جُذا ؛ فَشَمَخ بالمناكب ، على الكواكب ؛ وتاه بالضّوج[(٤)] ، على الأَوْج ؛ وطاوَلَ بالا كام عُلا الرُّكام[(٥)] ؛ فهنالك برز النرجسُ من بين الرّياحين ، وقال : الصمتُ لا يُحمَد

(١) مخلق ، أى كأنما طلى بالخلوق بفتح الخاء ، وهو ضرب من الطيب مائع فيه صفرة ، لأن أعظم أجزائه من الزعفران .

(٢) يشير بهذه العبارة الى أن الجدى من البروج الشتوية ، والحمل من البروج الربيعية ؛ فقد ذكر علماء الهيئة أن البروج اثنا عشر برجا ، وهى الحمل والثور والجوزاء ، وتسمى هذه بروجا ربيعية ؛ والسرطان والأسد والسنبلة ، وتسمى هذه بروجا صيفية ، وهذه الستة تسمى بروجا شمالية وعالية ؛ والميزان والعقرب والقوس ، وتسمى هذه بروجا خريفية ؛ والجدى والدلو والحوت ، وتسمى هذه بروجا شتوية ؛ وهذه الستة الأخيرة تسمى بروجا جنوبية ومنخفضة .

(٣) المنثور ، هو الخيرى ، وقد سبق تفسير الخيرى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٩٧ من هذا السفر فارجع اليها ؛ ونزيد هنا ما ذكره صاحب مباهج الفكر فى الخيرى ، فقد قال بعد أن ذكر أن الخيرى هو المنثور : ان المنثور نوعان : برى وبستانى ، ويسمى الخزامى . قال أبو حنيفة الدينورى : ليس فى الزهور البرية أطيب رائحة من الخزامى ، وهى طويلة العيدان ، صغيرة الورق ، حمراء اللون ، ونباتها الرمل ، وهى خيرى البر ؛ وقال التميمى فى المرشد : والخزامى لا تعبق إلا ليلا ، ولونها حمرى مشوب ببياض ، ورائحتها كرائحة القرنفل الذكى الرائحة ؛ وقال : الخيرى ذو ألوان مختلفة ، فمنه الذهبى ، وهو يعبق ليلا ونهارا ، ذكى الرائحة جدا ، ومنه الحمرى والبنفسجى والأكحل والأبيض ، وهو أردأها ، والأبرش الملمع ببياض الخ .

(٤) الضوج : منعطف الوادى .

(٥) الركام : السحاب المتراكم .

فى كلّ حين؛ ومن لم يُفصح بتعريف نفسه، وتفضيل يومه على أمسه، فهو مغبونٌ فى جنسه؛ أنا حَدَقُ الحدائق، ونزهةُ الرّامق؛ أُخطر بين جسدٍ زبرجدىّ، وفرع كافورىٍّ وعَسْجَدىّ؛ إلىّ يُنسَب حُسنُ العيون، وعندى يوجَد ضعفُ الجفون:

تَنافَسْ فىَّ نفوسُ الكرامِ * اذا ما أديرت كُئوسُ المُدامِ

٥ فأَسْبِي الجليسَ اذا ماحضرتُ * بلَحظ الفتاةِ وقَدِّ الغلامِ

فأيقظ لمباهَلتِه الأُخْوان، وقال: الآنَ آنَ ظهورى وحان؛ ما هذه العجرفةُ والتّباهى! لقد نطقتَ بعجائب النّواهى؛ وتالله ماصدقتَ سِنَّ بَكْرِك(١)، ولا آمتاز عُرفُك من نُكْرِك؛ فبم تَتِيه على أقرانِك، وتتكبّر على سُجَرائك(٢) وأخدانِك؟! أنسيتَ تنكيسَ رأسِك بين النُّدَماء، وإمساكَ رَمَقِك بِبِلّةٍ من الماء، وأنّك لا تبيت

١٠ إلّا مُوثَقا محبوسا، ولا تُشَمّ إلا صاغرا منكوسا، ولاتُستخدَم إلّا قائما، و ياسوءَ يومِك اذا أصبحتَ نائما؟! ألا عَطَفتَ علىَّ جِيدَ الالتفات، وأشرتَ إلىَّ بأحسن الصِّفات، فقلتَ: لله دَرُّك من زهرٍ كَمُلَتْ محاسنُه، وصفا من غَديرِه آسِنُه، وتبسّم عن مؤشّر(٣) الثغور، وجمع فرعُه بين لونَى التبر والكافور؛ فتتوّجَ بالتيجان المشرقه

(١) «ما صدقت سن بكرك» يريد لم تصدق فى حديثك؛ ومن أمثالهم فى الصادق فى حديثه وخبره:

١٥ «صدقنى سن بكره» قال الأصمعى: أصله أن رجلا ساوم رجلا ببكر أراد شراءه، فسأل البائع عن سنه، فأخبره بالحق؛ فقال المشترى «صدقنى سن بكره» فذهب مثلا؛ وهذا المثل يروى عن على — كرم الله وجهه — أنه تكلم به فى الكوفة. وقال فى القاموس وشرحه: إن أصل هذا المثل أن رجلا ساوم فى بكر فقال ما سنه؟ فقال: بازل؛ ثم نقر البكر، فقال صاحبه له: (هدع هدع) بكسر ففتح فسكون؛ وهذا لفظ يسكن به الصغار من ولد الناقة؛ فلما سمعه المشترى قال: «صدقنى سن بكره». وقوله: «سنّ»

٢٠ يقرأ بالنصب، أى عرفنى سنّ بكره؛ وبالرفع على أنه جعل الصدق للسنّ توسعا.

(٢) السجراء: الأخلاء الأصفياء، واحده سجير كأمير؛ يقال ساجره، أى صاحبه وصافاه.

(٣) المؤشر من الأسنان: المحدّد المحزز يكون ذلك خلقة ومستعملا؛ وهو من جمال الأسنان.

المرصّعة بخلاصة النُّضار والرِّقَه[1]؛ ألم تعلم أنّى فوز المَغانى، ونزهةُ الرانى، ومَباه الغوانى؟ لا يُحكم لشاعر بالإحسان، أو يَنسُبَ إلىّ حُسنَ ثغور الحسان.

أنا زهر الرُّبا ونَوْرُ الرياض * وعيون ترنو بغير اغتماض

لن ترانى إلّا بشاطِى غديرٍ * باسما أو مضاحكا لحياض

فشُقّ الشقيق عن زفير ووَجيب، ولدَغه بحُمَة لسانٍ مجيب، وقال: لقد تجاوزتَ بنفسك مدى الحدّ، وضربتَ فى افتخارك بكَهامٍ فَليلِ الحدّ؛ أليس ندى الطّلّ يَزينُك، وإغبابُه يَشينُك؟ ومتى نَضب غديرُك، بدا تغييرُك؛ ما أراك بغير مضاهاة الثغور تفتخر، فهل هى على الحقيقة إلّا عَظم نَخِر؟ بل أنا نزهة الناظر، وبُغية الحاضر[2]؛ جسدى من قُضبان الياقوت، وفرعى من المسك المفتوت.

أفوق اذا مِستُ بين الريا * ض زهوا على مائسات القدودِ

وأَفضُل لونا وحُسنا اذا * حضرتُ على حُسنِ لونِ الخدودِ

فمالت اليه الخُزامى[3]، وكادت تميل به جِذابا وآلتزاما؛ وقالت: "أسمع جعجعةً[4] ولا أرى طِحنا" وقَعقعةً[5] ولا أنظر إلّا شَنّا، لقد آرتكبتَ جَللا، وآستَغزرتَ[6] غَللا؛

(١) الرقة: الفضة؛ والهاء فيها عوض عن الواو.

(٢) الحاضر: ساكن الحاضرة، وهو خلاف البادى، أى الذى يسكن البادية.

(٣) الخزامى، هى المنثور والخيرى؛ وقد تقدّم الكلام عليهما فى الحاشيتين رقم ٥ من صفحة ١٩٣ ورقم ١ من صفحة ١٩٧ من هذا السفر، فانظرهما.

(٤) هذا مثل يضرب لمن يكثر الكلام ولا يعمل، والذى يعد ولا يفعل؛ والجعجعة: صوت الرحى، والطحن بالكسر: الدقيق، فعل بمعنى مفعول، كذبح وفرق بكسرهما بمعنى مذبوح ومفروق.

(٥) من أمثالهم «لا يقعقع لى بالشنان» بكسر الشين، أى لا أخدع ولا أروّع؛ وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع، قال النابغة:

كأنك من جمال بنى أقيش * يقعقع خلف رجليه بشن

والشن والشنة بفتح الشين: القربة الخلق.

(٦) فى كلا الأصلين «واستفررت»؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق العبارة. =

ما أقبحَ عاقبةَ العجل ، وأقربَ الواثقَ[1] من الخجل! حتّام تُنبِض[2] ولا ترمى، وإلام تومِض ولا تَهمى ؟ أبكُمْتَة لونك تفتخر ، وبعظم كونك تشمخر ، ألستَ الخشنَ الجِلده، الدموىَّ البرده، البعيدَ عن محلّ التقريب والشَّمّ، الطريدَ عن رتبة التقبيل والضَّمّ؟ لكن أنا الملبَس[3] المشار اليه، والعِطرُ المنصوص عليه، مُدحتُ بالطِّيب واللّون، وتُخيّرتُ للتسربل والصَّون؛ وجُمِّعت منّىَ الحُلل، وتُوجتْ منّىَ الكِلل .

فَضَلتُ على زهر الربيع برتبـــةٍ * بها صَدق الراوون للشعر إذ قالوا

كأنّ الخُـــزامَى جُمِّعت لك حُلّةً * عليك بها فى الطِّيب واللّون سربالُ

فأنهضتْ لمعارضتها البنفسَج ، وألجَمَ جواد مناضَلتها وأسرَج، وقال: يا ساكنةَ الشَّهباء[4]، لقد جئتِ بالداهية الدَّهياء، أضبَحَ[5] الثعالب ، وإرسالَ[6] الأرانب، ما يغنى عنكِ وصفُ الشعراء، وأنتِ منبوذةٌ بالعَراء ؛ بَعُدتِ عن محاسن أخلاقِ البريّه وقَرُبتِ من مَراتع البهائم البَرّيّه ؛ وحُرِمتِ بَرْدَ نسيمِ العراق؛ وضَعُفتْ[7] ساقكِ عن

= والغلل بالتحريك : الماء القليل الذى ليست له جرية ، وانما يظهر على وجه الأرض ظهورا قليلا فيخفى مرة و يظهر مرة .

(١) يريد بالواثق هنا : الواثق بنفسه المعتد بما عنده غرورا وزهوا .

(٢) يقال : «أنبض فلان القوس» اذا جذب وترها لترنّ ؛ وقال اللحيانى : الإنباض أن تمدّ الوتر ثم ترسله فتسمع له صوتا ؛ ومعنى هذه العبارة والتى بعدها أنه يتكلم ولا يعمل .

(٣) لعل المراد بقوله : « أنا الملبس» أنهم كانوا يتخـذون ألوان الثياب الفاخرة على مثال ألوان الخزامى لحسنها و بهائها كما يدل عليه البيت الآتى بعد فى س ٧ من هذه الصفحة : « كأن الخزامى جمعت لك حلة» الخ .

(٤) الشهباء : الأرض التى لا خضرة فيها لقلة المطر، وهو من الشهبة، أى البياض ؛ وأشار بهذه العبارة الى أن الخزامى منبتها الرمل ، كما نقله ابن البيطار عن أبى حنيفة .

(٥) الضبح والضباح بالضم : صوت الثعالب ، كما فى المخصص ج ٧ ص ٧٦ .

(٦) لعل صوابه «وانسلال» أى الانطلاق فى استخفاء خوفا وجبنا اذ لم نجد للإرسال فى هذه العبارة معنى يناسب السياق .

(٧) يريد بهذه العبارة أنها ليست من الأشجار التى تقوى على صعود الناس عليها ، بل هى نبات ضعيف .

حَمْل ساق؛ إنما أنا نزهةُ الأمصار، ومَسرّةُ الأبصار؛ وطِيبُ النّفوس، ورَيبُ الكئوس، المحمولُ على الرءوس، المحبوبُ الى الرئيس والمرءوس؛ ذو العِرق الذكىّ والعَرف المِسكىّ :

رئيسُ الرّياحين المُضيفُ بلونِه * جَمالا الى وَردِ الخدود المضرَّجِ
اذا ماجِنان الأرض بالنّور[1] زُخرفتْ * فتعريفُها من طِيب زهر البنفسَجِ

فغضب لذلك جُورىّ[2] الوَرد، ووثب لو استطاع وَثبةَ الوَرد[3]؛ ثم قال : أرِكزا[4] كأحاديث الضّبع[5] . وزمجرةً كزَمجرة السَّبُع . ذَهب بك الشتاءُ وبَردُه . وشُغِل عنك الرّبيع ووَردُه . أطعتَ هوى النفس الأمّاره، ونطقتَ بحضرة الإماره؛ وأنت لا تنقضى ساعتُك حتّى تَرْبدّ، ولا ينصرم يومك حتى تَذبل وتسوَدّ؛ ثم تستحيل أوراقُك، ويفارقك وَراقُك[6] . وتَشْعَث قِمّتُك . وتَنْزُر قيمتُك . أتُراك لولا قرصُ الخدود، هل كنتَ فى الألوان[7] بمعدود ؟ . أما علمتَ أنّى مدعوٌّ بالأمير المقدَّم

(١) كذا فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف، والذى فى (ا) : « بالزر » وصوابه « بالزهر » وإنما سقطت الهاء من الناسخ .

(٢) الجورى : نسبة الى جور، وهى مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخا، وإليها ينسب الورد الجورى، وهو أجود أصناف الورد، وهو الأحمر الصافى .

(٣) الورد : الأسد، وهو من أسمائه، لمشابهة لونه لون الورد .

(٤) الركز : الصوت الخفىّ .

(٥) فى كلا الأصلين : «السبع» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا؛ وأحاديث الضبع مثل يضرب للخلط فى حديثه ؛ وذلك أنهم يزعمون أن الضبع تمرغ فى التراب ، ثم تقعى فتتغنى بما لا يفهمه أحد، فتلك أحاديث الضبع انظر (ما يعول عليه فى المضاف والمضاف اليه) .

(٦) الوراق بفتح الواو : الشارة والهيئة؛ يقال : ما أحسن وراقك وأو راقك، أى شارتك ولبسك وهو على التشبيه بالورق؛ وفى كلا الأصلين : «ورقك» بسقوط الألف التى بعد الراء؛ وما أثبتناه هو ما يقتضيه السجع الذى التزمه الكاتب فى جميع هذه الرسالة .

(٧) فى كلا الأصلين : « للألوان » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

والميمونِ المِقدام . أنا الزائر فى كلّ عام، القادمُ بمسرّة الخاصّ والعـامّ . لا تَشْرُف الأيّام إلّا بآسمى ؛ ولا تفتخر الأجسامُ إلّا بمشابَهـة جسمى ؛ فبى يُفتَن[1] النظر ، وأنا السيّد المنتظَر . واذا آنقضت مدّتى ، وقُضِيت عِدّتى . أقصدَتْنى حَنِيّة[2] الفُرقة بسِهام الفَرَق، وآستولى علىّ والِى[3] الحَرَق . فولّد تلهّبى رشحا من العَرَق ، قام لهم مَقامى . وساوَى عندهم بين رِحلتى ومُقامى؛ يعرض كلّ وقت بذكرِى، ويُعرِّف لديهم نُكرِى، ويجدِّد عندهم شكرِى .

أخلِّفُ نفسى عندهم بعد رِحلتى * فسيّان قربى ان تأمّلتَ والبُعـدُ
وقد فَضّل الكِندىُّ[4] بى عند قولِه * فإنّك[5] ماءُ الوَردِ إن ذهب الوَردُ

ومن انشاء المولى الفاضل تاجُ الدين عبدُ الباقى بنُ عبد المجيد اليمـانىّ فى شهور سـنةِ ستٍّ وسبعِمائة ، رسالةً ترجمها (بأنوار السعد، وتُوار المجـد، فى المفاخَرة بين النّرجِس والورد)، قال: الحمد لله الذى أضحك ثغورَ الأزهار، ببكاء عيون الأمطار، وأَنطَق خطباءَ الأطيار، على منابر الاشجار؛ وعقد عليها من النُّوار إكليـلا ، وأَمَر الغزالةَ أن تَسُلّ عليها عند بروزِها من الإبريز سيفا صَقيلا ؛ حَمَى حدائقها بأحداق نرجسِها ، فَمَّ لسانُ النسيم بطيب نَفَسِها ؛ أَبدَع فى تركيب حَلّها وعَقـدِها ، فثغور

(١) فى كلا الأصلين : «يفتق» ؛ وهو تحريف .

(٢) الحنية : القوس .

(٣) يريد بوالى الحرق : من يتولى استخراج ماء الورد بواسطة النار .

(٤) يريد بالكندى : أبا الطيب المتنبي الشاعر المشهور ، وهو أحمـد بن الحسن بن عبـد الصمد الجعفى الكندى الكوفى؛ وقيل : هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار

(٥) هذا الشطر عجز بيت من قصيدة للمتنبي يمدح بها محمد بن سيار بن مكرم التميمى؛ وصدر البيت :

فان يك سيار بن مكرم انقضى * فإنـــك ماء الـــورد الخ

وماء الورد يقال فى تفضيل البعض على الكل ، أو الفرع على الأصل انظر (شرح العكبرى على ديوان المتنبي) و (ما يعوّل عليه فى المضاف والمضاف اليه) .

الأُقْحُوان تقبِّل خدودَ وَرِدِها ؛ خَلخلتْ سُوقَها فَضَلاتُ الجداول ، وآطّردت أنهارُها كالأَيْم[(١)] وقد حُفَّ بأطراف العوامل[(٢)] ، فحكَت المَبارِدَ متونا ، والحيّاتِ بطونا ؛ أحمده على نعمه التى تأرّجَ نَشرُها ، وبدا على جبين الدهر بِشرُها ؛ حمدا تخضَلّ من ترادف سَيبِها[(٣)] أغصانُه ، وتُثمِر بأنواع السعادة أفنانه ؛ وأصلّى على سيّدنا محمد الذى عَطّر الكون مسكُ رسالته ، ووطّد القواعد الشرعيّـةَ مُرهَفُ بَسالته ؛ صلّى الله عليـه وعلى آله وأصحابه ما تَوجت الغمائم رءوسَ الرُّبا ، وسَحَب ذيلَ الصَّبا على أزهار روضِها مَهبُّ الصَّبا ؛ وبعد ، فإنّ أَولى ما وقعت المفاخَرةُ بين غصنين نشآ فى جَنّـه ، وبارقتين تألّقتا فى دُجُنّـه ؛ وزهرتين تفتّحتا فى كِمامَه ، وقطرتين صـدرتا من غمامَه ؛ ولمّا كان النرجسُ والوردُ قَرينَىْ هذه الصِّفات ، وقارعَى هذه الصَّفاة ، تَطاوَل كلٌّ منهما الى انه النـديم ، والخلّ الّذى لا يَملّه الحميم ؛ طالمـا عَطّر بنشره الأكوان ، وغازل بعيونِه الغِزلان ؛ وأنارت شموس سعودِه ، وقُبِّلت حُمرةُ خدودِه ؛ أحببتُ أن أقيمَهما فى موقف المناضَلة ، وأشخِّصهما[(٤)] فى مَعرِض المفاضَله ؛ ليبرهن كلٌّ منهما على ما ادّعى أنّه فى وِطابه ، ويبدىَ شعائرما تَقلّده وتَحلّى به ؛ فبالامتحان يَظهَر الزَّيْف ، ولا يُقبَل الحَيْف ؛ فعندها حَدّق النرجسُ بأحداقه ، وقام على قصـبة ساقِه ؛ وتهيأ لمناضَـلة خَصمِه ، وشرع يُبـدى شرائع حُكمِه ؛ وقال : أشبهتُ العيونَ وأشبهتَ الخـدود فلا فَرْق ، ولقـد علمتَ ما بينهما مِثـلَ ما بين القَدمِ والفَرق[(٥)] ؛ فأنا حارسُ مجلس

(١) الأيم : بفتح الهمزة وسكون الياء وتشدد : الحية الأبيض ، أو هو عام فى جميع الحيات .

(٢) العوامل : صدور الرماح ، الواحد عامل وعاملة ، وهو ما يلى السنان دون الثعلب ؛ وقيل : سنان الرمح عامله .

(٣) سيبها : بتأنيث الضمير ، أى سيب النعم السابق ذكرها ؛ والسيب : العطاء .

(٤) أشخصهما ، أى أمثل شخصيهما .

(٥) الفرق : الطريق فى شعر الرأس .

الشراب، والنديمُ المعوَّل عليه بين الأحباب؛ تَسمّيتُ بأحسن الأسامى، فلستَ لى بمُسامِى؛ تَسمّت بى الحسان، ومِستُ فى حُلِلٍ مصبّغات الألوان؛ ولو اعتبرتَ بحمرة خجلك، وتشقيقِ جيوب حُللك؛ ما قمتَ فى موقف المُفاخِر، ولا فهتَ ببنت شفة فى مَعرِض المَفاخر؛ فتضرّج خدُّ الورد حُمره، وأوقدَ من الغيظ لمناضَلته جمرَه؛ وقال: مُتْ بداء الحسد فقد علاك اصفرارُه، وأين منك الطَّرْف كما ادّعيتَ ولم يَبدُ عليك احورارُه؛ صدقتَ، ولكن أنت أشبه بالعين المخصوصةِ باليَرَقان والصفرةِ المنوطةِ بالأَيْهُقان(١)؛ فلقد عَشَتْ عيونُك السقيمةُ من أشعّة شُموسى ووقفتَ على قَصَب ساقِك حيث استقرّ كرسىُّ جلوسى؛ فأنا دائرةُ الجَمال، المشتملةُ على قُطب الكمال، ربّتنى الدرارىُّ(٢) بدَرّها، وقلّدتْنى نفيسَ دُرّها؛ فنشرتُ أعلامى العقيانيّةِ على زُهَرتها، وأشبهتُ شكلها وحُسنَ زَهرتِها؛ فهزّ النرجسُ رماحَه الزبرجديّه، فتلقّاها الورد بجَحَفته(٣) الذهبيّه، وقال(٤): أُردد هذه العقودَ النفيسةَ الى هَواديها، فقد علِم كَذِبَك حاضرُها وباديها؛ واطلِم خدودَك حزنا على فَوات مَقامى وقصورِك عن بلوغ مَرامى؛ من أين لك مَداهنُ دُرٍّ حشوُهنّ عَسجَد؛ لستُ أبالى

(١) الأيهقان: عشب يطول طولا شديدا، وله وردة حمراء، وورقه عريض، ويؤكل، وقيل: هو الجرجير البرى، زهره كزهر الكرنب، وبزره كبزره. وقال ابن البيطار نقلا عن أبى العباس النباتى: إن ورقه فيما بين ورق السرمق وورق الكرنب المتوسط، تخرج من بين تضاعيفه سوق طويلة نحو قعدة الانسان وأكبر وأقل، شكلها شكل ساق السرمق أيضا ولونها، يتشعب منه شعب كثيرة يكون فى أطرافها زهر مثل زهر الكرنب وعلى شكله، إلا أنه أصغر منه، وطعم هذا النبات كله كطعم الجرجير والخردل الأبيض معا، ورائحته كذلك. والسرمق السابق ذكره فى كلام ابن البيطار: نبات كالرجلة، إلا أنه يطول، وله بزر رزين الى الصفرة.

(٢) الدرارىّ: الكواكب العظام، والعرب تنسب الأمطار والرياح اليها.

(٣) الجحفة بالتحريك: الترس، جمعه جحف.

(٤) وقال: أى النرجس، لا الورد، كما يتوهم.

بنَفَسِك تَصوّبَ أم تَصعّد؛ أما ترانى قد نُشرتُ على رماحٍ من زبرجدٍ طالما حَرستْ حِمى الرياض، ولبستُ أحسنَ اللّباس وهو البياض؛ وقمتُ خطيبا على منبر الصين[1] وقُلّدتُ إمرةَ الرياحين؟ فأنا ناظر[2] هـذا الفضل، وناظر هذا الفصل؛ سبقتُك الى الوجود مكانا[3] أعدمَ مكانَك، ولم يَرضَ زمانى يجاورُ زمانَك، لُبثُك[4] على وجه البسيطةِ قليل، وحالُك — كما علمتَ — ليس بالجليل؛ تَتلوّن كما يتلوّن الغُول، من أحمرِك وأصفرِك وأبيضِك المملول[5]؛ فلقد رماك آبنُ الرومىّ بسهام هجائه، وجعلَك عرضةً لنوائب الدهر ولأوائه[6]؛ حيث قال :

كأنه سُرْمُ بغلٍ حين يُخرِجه * الى البِراز و باقى الرَّوْث فى وَسَطه

وحيث مدحنى وقال :

أين العيونُ من الخدود نَفاسةً * ورَآسةً لولا القياسُ الفاسدُ

فمِثلُ هذه المَسَبّة لا يضمحلّ أثرُها، ولا ينقطع خبرُها؛ ولله دَرّ القائل :

النرجس الغضُّ له رتبـــةٌ * أشبهُ شىء بالعيون المِراضْ

قام على قُضبانِه مبـــديا * نَخارَه المشهودَ بين الرياضْ

---

(١) لعله يريد بهـذه العبارة بعد صيته واتساع شهرته وبلوغ ذكره أقصى البـلاد حتى بلاد الصين وكثيرا ما تذكر الصين ويراد بهـا بعد المسافة وعظم الشقة على المسافر، وإلا فاننا لم نجد فيما راجعناه من الكتب ارتباطا خاصا بين النرجس و بلاد الصين .

(٢) (ناظر هذا الفضل)، أى حافظه وحارسه، وهى كلمة نبطية، وعن ابن دريد أنها بالظاء من النظر لكن النبط يقلبونها طاء .

(٣) مكانا بالنصب على التمييز، أى منزلة .

(٤) فى كلا الأصلين : «لبوثك»؛ والواو زيادة من الناسخ .

(٥) فى (ا) «المأمول»؛ وهو تحريف .

(٦) اللأواء : الشدّة والمحنة .

ولو لم أُغمِض عن مَساويك عينى ، وأترك للصلح [موضعا](١) بينك و بينى ؛ لكنتُ أبديتُ أضعافَ مَساويك، لأننى فى الرتبة غيرُ مُساويك؛ فعندها آشتعل الورد من كَلامِه ، وظهر على جسدِه أثرِ كلامِه ؛ وقال : لقد تَعدّيتَ طَورَك وستعرف جَوزَك وكَورَك(٢)؛ لكن قِحَة العيون مخصوصةٌ بالأنذال، والتجرّى على الملوك من شعائر الجهّال ؛ فأنا سلطان الرياحين، و بذلك وُقِّع لى فى سائر الدواوين؛ كأننى وجنةُ حِبٍّ وقد نقّطتْ بدينار ، أو أناملُ خَوْد عَنْدَمِيّةٍ ضُمّت على قُراضةِ نُضار ؛ أشبهتُ الشموسَ شكلا، وفقتُ البدور مثلا؛ أُنظَم كما تُنظَم العقود، وأَصِل كما يصل الحبيب بعد الصدود، وأمّا آفتخارك بالحِراسة فهى محلُّ الأسقاط ، والوظيفةُ المنوطةُ بالأنباط؛ وأمّا كونُك سبقتنى فهو على حُكم الحَجَبه ، والمبشّر بوصولى و إن كان أضمَر بغضَه لا حُبّه؛ فلمّا عَلم أوان حَطّ رحالى حَثّ رِحالَه ، وأشاع فى أصحابه آرتحالَه ؛ وقال : قد أظلّنا وصولُ مَلِكٍ لا يجارَى، ورئيسٍ لا يُبارَى؛ وأين زمانك من زمانى، ومكانُك من مكانى؟ لا أظهر إلا والثرى قد آكتسَى سندسيَّ أديمه وفاح مسكيُّ نسيمِه؛ وخَطبتْ أطيارُه، وآخضلّت أزهارُه؛ وصَدحتْ بلابلُه، وتأرّجت خمائلُه ؛ وآطّردت أنهارُه ، وتعانقتْ أغصانُه وأشجارُه ؛ بزغتْ شموسى فى فَلَك غِياضِه، وتكلّل خدّى عَرَقا من أنداءِ رياضه؛ فأنا بينها الطِّراز المذهّب، والمَلِك المعظّم المهذّب؛ اذا برزتَ فى لياليك المُعتِمه، وظهرتَ فى أراضيك المُقتِمه؛ وسهرتْ عيونُك فى ليل شتائك(٣)، وقاسيتَ بَرْدَ مائك وطولَ عَنائك؛ ولكَم بين الشتاء والربيع، كما بين الرئيسِ والوضيع ؛ يا جبلىَّ الطباع، لقد صَرّتك(٤) رياحى، وصَفّرتْ

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (أ) .

(٢) الكور بالفتح : الزيادة، يريد الزيادة فى الأدعاء والفخر .

(٣) فى كلا الأصلين : «شبابك» ؛ وهو تصحيف .

(٤) «صرتك رياحى» يحتمل معنيين : أحدهما أنه من قولهم : «صر النبات» بضم الصاد =

عينَك حُمرةُ خمرة ٱرتياحى؛ وأمّا ثَلْبُك بقِصَر مُدّتى، وسرعةِ بلى جِدّتى؛ فدليلٌ على عدم عقلِك؛ وسقوط معقولِك ونَقْلِك؛ أما علمتَ أنّ المكثر للزيارة مملول، وعَقدُ وُدّه محلول؛ لو بقيت الشمسُ على الدوام، لمَلّتها أنفُس الأنام؛ ولك بذلك عِبره، وأنت فى هذا الموطن من أهل الخبره؛ لمّا أقمتَ مَلَك الناشق، ولم يعرّج عليك العاشق؛ ولقد عجبتُ من رَقاعةٍ عَصّبتْ رأسَك بالحماقه، وٱدّعيتَ شبهَ العيون وأنت أشبهُ شىء بصُفرةِ بَيض على رُقاقه؛ إن ذهبتْ عينك لم يَبق لك أثر، كلّا ولا يوجد لمجدك خَبَر؛ لكن أنا ان ذهبتْ عينى فأثرى على أردان الأماجد يفوح، وعلى ممرّ الأعصُر يغدو ويروح؛ فأنا أثرٌ بعدَ عين، فدع عنك التحلّى بالمَيْن؛ ولله درّ القائل :

يا حَبّذا الورد مذ حيّا بطلعته * وعَطّر الأفق منه نشرُه العَبِقُ

كالشمس شكلا ونشرِ المسك رائحةً * واللؤلؤِ الرّطب فى تضريجه عَرَقُ

فعَميتْ عيونُ النرجس من بزوغ أنواره، ونُكّستْ أعلامُه الزبرجديّة لنضارة نُواره؛ فعندها قال الورد : هذه الشقراء(١) والمَيْدان، ان كانت لك خبرة بمبارزة الأقران؛ فلمّا أورده لظى الحرب، ولم يكن من رجال الطّعن والضرْب، وألزمه الحجّة، وعرّفه المَحَجّه؛ وبان بهرَجُه من إبريزه، وتحقّق موادّ تبريزه؛ دمعت عينه أسفا، على ما أبداه من الجفا؛ ثم قال : ما أنا أوّل من بحث بظِلفه عن حَتْفه وجَدَع مارن أنفه بكفّه؛ لقد قيل : عادات السادات، سادات العادات؛ وعادة المَلِك — أدام الله ٱنهمار السُّحُب على خمائله الذهبيه، وأَطلَع فى فَلَك الاعتلاء أنواره الشمسية — الصفحُ عمّن كثر ندمه، وزلّت قدمه؛ ومَن نشرَ أعلام

= مبنيا للمجهول، أى أصابه الصر بكسر الصاد وتشديد الراء، وهو البرد. الثانى أنه من الصر بفتح الصاد بمعنى التجمع والتقبض؛ يقول : ان رياحى الطيبة الزكية قد جعلتك متقبضا غير منبسط كمدا وحزنا على ضعف منزلتك وخسة قدرك.

(١) يريد بالشقراء : الفرس التى يركبها المحارب.

الاستغفار، خليق أن يُقبَل منه ما يبديه من الاعتذار ؛ وما أنا أوّل من هفا ولا أنت أوّل من عفا؛ ليت شعرى، أين حياؤه من وقاحتى، وأين رشاقته من كثافتى؛ الخفارة لائحةٌ عليه، وأمور الرياحين تساق اليه ؛ فعندها قال الورد : من شأننا الصفحُ عما أتيتَه، فقد جنيتَ ثمار الندم بما جنيتَه ؛ فكن قرير العين، ولا تعد لمثلها فالمؤمن لا يُلدَغ من جُحْر مرتين[1] ؛ واحذر أن تطاول من هو أعلى منك محلّه وأبهجُ فى ارتداء السيادة حُلّه ؛ والآن فقد تولّد من بياضك وحُمرتى اجتماع[2]، والتأم شعث أمرنا بعد أن طار شَعاع[3]؛ أما علمت أنّ الامتحان، يظهر رتبة الإنسان؛ ومن سعادة جَدِّك، وقوفُك عند حدِّك؛ فكن لما قلتُه بالمرصاد، وان عدت لمثلها فترقّب أوّل النحل وآخرَ صاد[4]؛ ونسأل الله تعالى أن يهدينا الى الرُّشد، وأن يذهب عنا ضغائن الحسد؛ بمنّه وكرمه ؛ [انه على ما يشاء قدير، وبالإجابة[5] جدير] .

(١) «لا يلدغ من جحر» الى آخره، أى المؤمن لا يقع فى المكروه مرتين، أى ينبغى للمؤمن أن يكون حازما حذرا لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى ؛ وسبب هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر أبا عزة الشاعر يوم بدر، فمنّ عليه، وعاهده ألا يحرّض عليه ولا يهجوه، فأطلقه، فلحق بقومه ثم رجع الى التحريض والهجاء، ثم أسر يوم أحد، فسأله المنّ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا يلدغ المؤمن» الخ ارشاد السارى ج ١٩ صفحة ٩٥ طبع بولاق .

(٢) فى كلا الأصلين : «اجتماعا» بالنصب؛ ومقتضى العبارة رفعه على الفاعلية، كما لا يخفى .

(٣) فى كلا الأصلين : « شعاعا » بالألف ؛ وهو وان كان مقتضى اللغة الفصحى فى الوقوف على المنصوب المنون إلا أنه لا يتم به السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته ؛ ولهذا رجحنا الوقوف عليه بالسكون جريا على لغة ربيعة، فانهم يقفون على المنون بحذف تنوينه وسكون آخره مطلقا أى سواء أكان مرفوعا أم منصوبا أم مجرورا، قال الشاعر :

* وآخذٌ من كل حىّ عصم *

(٤) يشير بقوله : «أول النحل وآخر صاد» الى يوم القيامة، والمعنى إن عدت لمثلها فترقب عذابا يشبه عذاب القيامة ؛ وأول سورة النحل : (أتى أمر الله) وآخر سورة صاد : (ولتعلمن نبأه بعد حين) .

(٥) لم يرد هذا الكلام فى (ب) .

وأما النَّسْرِين[1] وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : طبع النسرين حار يابس فى الثالثة[2] ؛ وهو منقٍّ ملطِّف ، وزهره أخصُّ بذلك ، وينفع من برد العَصَب ، ويقتل الديدان فى الأذن ؛ وينفع من الطَّنين والدَّوىّ ؛ وينفع من وجع الأسنان ؛ والبرّىّ تُلطَخ به الجبهةُ فيسكِّن الصُّداع ؛ وهو يفتِّح سُدَدَ المَنْخَرَين ؛ واذا شُرب مع أربع دَرْخَمِيَات[3] سَكّن القىء ، ويسكّن الفؤاق وخصوصا البرّىّ منه ؛ والله أعلم .

وأما ما جاء فى وصفه — فقال شاعر [منشدا][4] :

أَكرِمْ بنِسرينٍ تُذيع الصَّبا * من نشره مسكا وكافورا
ما إن رأينا قطّ مِن قَبلِه * زبرجدا يُثمر بَلُّورا

وقال آخر :

أُنظر لنِسرينٍ يلو * ح على قضيب أملَدِ
كَمداهنٍ من فضّةٍ * فيها بُرادةُ عسجدِ
حيّتك من أيدى الغصو * ن بها أكُفُّ زبرجدِ

---

(١) النسرين : هو نور ابيض وردىّ يشبه شجره شجر الورد ، ونواره كنواره ؛ وسماه بعض الناس وردا صينيا ، وكلما بعد عن الماء قويت رائحته .

(٢) كذا فى كلا الأصلين ونسخة القانون المطبوعة فى أوربا ؛ والذى فى القانون طبع مصر : « فى الثانية » .

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ بفتح الدال والخاء وسكون الراء فى هامش مفاتيح العلوم صفحة ١٧٩ طبع أوربا ضبطا بالقلم لا بالنص ؛ وورد فيه أن مقدار الدرخمى اثنتان وسبعون شعيرة . وقال ابن هبل : الدرخمى درهم ونصف ، وقال صاحب مفتاح الطب : إن الدرهم يشبه أن يكون معرّبا عن الدرخمى .

(٤) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (ب) .

وقال عبدُ الرحمن بنُ علىّ النحوىّ[(١)] :

زان حُسنَ الحدائق النِّسرينُ * فالجا فى رياضه مفتونُ

قد جرى فوقه اللُّجين وإلّا * فهو من ماء فضّة مدهونُ

أشبهتْه طُلَى الحسان بياضا * وحوتْه شبهُ القُدود غصونُ

٥ وقال آخر فيه مُلغزا :

ومشمومٍ له عَرف ذكىٌّ * وفى تصحيفه بعضُ الشُّهورِ[(٢)]

اذا أسقطتَ خمسَيه تراه * عِيانا فى السماء[(٣)] وفى الطّيورِ

وأوّلُه[(٤)] وآخِرُه سواءٌ * وباقيه يَشَحّ به ضميرى

وأما البانُ[(٥)] وما قيل فيه — فقال أبو على بن سينا فى ماهية البان : حَبّه

١٠ أكبر من الحِمّص، الى البياض، وله لُبٌّ ليّن دُهنىّ؛ وطبعه حارّ فى الثالثة، يابسٌ

---

(١) كذا ورد هذا الاسم فى كلا الأصلين؛ والذى فى حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٣٠ : عبد الرزاق، وهو الصواب، فقد ذكر السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣٠٥ عن عبد الرزاق بن على هذا نقلا عن ابن رشيق أنه كان شاعرا مولعا بالطباق والتجنيس والقوافى العويصة . وقد راجعنا فى هذا الكتاب تراجم من تسموا باسم عبد الرحمن بن على فلم نجد من بينهم من وصف بالشعر .

١٥ (٢) بعض الشهور : يريد «تشرين» بالتاء والشين؛ وهو معروف .

(٣) «فى السماء» الخ، يريد النسر الذى هو الكوكب المعروف والنسر الطائر .

(٤) أوّله وآخره : يريد بهما النون؛ والمراد بباقيه : السر الذى يكتمه الإنسان .

(٥) يلاحظ أن المراد بالبان هنا شجر الخلاف؛ ويدل على ذلك أمور ثلاثة أوّلها أنه لو أريد بالبان هنا غير الخلاف لكانت الأصناف التى ذكرها المؤلف خمسة، وهو خلاف ماذكره فى أول هذا الباب

٢٠ من أنها أربعة انظر صفحة ١٨٤ . ثانيها ما يأتى بعد فى وصف الخلاف، فقد أورد المؤلف بيتين لشهاب الدين أحمد المعروف بأبى جلنك الحلبى، ثانيهما :

والبان تحسبه سنانير رأت * بعض الكلاب فنفشت أذنابها

انظر صفحة ٢١٨ من هذا السفر . ثالثها ماقاله السيوطى فى كوكب الروضة عند الكلام على البان فقد =

فى الثانية . وقال : إنه منقٍّ ، خصوصا لُبّه ، يقطع الأخلاط الغليظة ، ويفتّح مع الخَلّ والماء سُدَدَ الأحشاء . قال : وقشره قابض ، ولا يخلو دُهنُه من قبض وفى جميعه جِلاءٌ وتقطيع ؛ وحَبُّه ينفع من البَرَش والنَّمَش والكَلَف والبَهَق وآثارِ القُروح وكذلك دُهنه . [قال[1] : وينفع من الأورامِ الصُّلبة كلِّها إذا وقع فى المراهم ، ومن التّآليل[2] ، وهو بالخَلّ ينفع من التقشّر والجَرَب المتقرّح والبُثُور اللَّبَنِيّة[3] ؛ وهو يسخّن العَصَب ، ويليّن التشنّج وصلابات العَصَب ، وخصوصا دُهنَه] . قال : وينفع من الرّعاف لقبضه ، ودُهنه يوافق وجعَ الأذن والدوىّ فيها ، خصوصا مع شحم البطّ ؛ وطبيخ أصله ينفع من وجع الأسنان مضمضة ؛ وهو ينفع من صلابة الطِّحال والكبد اذا شُرب بخلٍّ ممزوج وزن درهمين منه ؛ والمثقالُ من حَبّه يُسهل بلغما خاما[4] اذا شُرب بالعسل ، وكذلك دُهنُه اذا احتُملتْ فتيلةٌ مغموسةٌ فيه .

= ذكر أن البان يسمى خلافا أيضا انظر ورقة ١٤٠ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٤ تاريخ . وفى قاموس الأطباء للقيصونى أن فقاح الخلاف — وهو زهره — هو الذى يسمى عند العامة بالبان اهـ . أما عند الأطباء والنباتيين فالبان غير الخلاف ، فقد أفردوا كلا منهما بباب خاص ، وقالوا البان شجر يسمو ويطول فى استواء مثل نبات الأثل وورقه ، له هدب كهدب الأثل ، وخشبه خوّار رخو خفيف ، وقضبانه سمحة خضر ، وهو طويل أخضر شديد الخضرة ، وثمرته تشبه قرون اللوبياء ، إلا أن خضرتها شديدة ، وفيها حبه ، واذا انتهى انفتق وانتثر ، حبه أبيض أغبر مثل الفستق ، ومنه يستخرج دهن البان . أما الخلاف فقال الغافقى : هو أصناف كثيرة منها الصفصاف . وقال التميمى فى المرشد : هو صنف من الصفصاف وليس به . وقال داود : الخلاف هو الصفصاف بأنواعه انظر الكلام على الخلاف فى المفردات والتذكرة وقاموس الأطباء والشذور الذهبية وغيرها من الكتب .

(١) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (أ) .

(٢) تقدم تفسير التآليل فى عدة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٨٧ فانظرها .

(٣) تقدم تفسير البثور اللبنية فى عدة حواش من هذا السفر ، منها ما سبق فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٣ ، فانظرها .

(٤) الخام : بلغم غير طبيعى اختلفت أجزاؤه فى الرقة والغلظة ، كما فى بحر الجواهر .

وأما ما جاء فى باكورة الخلاف — قال شاعر :

أوّل ثغر الربيع مبتسما * نَوْرِخلاف درٌّ مَضاحكُه
قضبانُه القانئات فى لُمَعٍ * من لؤلؤ وُضّحٍ(١) مَسالكُه
بشيرُ صدق جاء الربيع به * يخبر أن زُيِّنت مَمالكُه

٥ وقال آخر :

عُود خِلاف أتى وفاقا * من المَلاهى بلا خِلاف
مرصّعٌ قشرُه بنَوْرٍ * أُلِّف من لؤلؤ وِلافِ(٢)

وقال أبو عُبادة البحترىّ(٣) :

هذا الربيع كأنما أنوارُه * أولادُ فارسَ فى ثياب الرومِ
١٠ وترى الخِلاف كشارب من قهوة * ثمِلٍ الى شرب المدامة يُومِى
بَسَط البسيطة سندسا وتبرقعت * قلل المياه(٤) بلؤلؤ منظومِ

وقال مؤيّد الدّين الطُّغْرائىّ :

غصون الخِلاف آكتست فأنبرتْ * لها الطير دارسةً شدوَها
مقدِّمةٌ لورود الربيـ * ـع تشخص أبصارنا نحوَها
١٥ أَحسّت برحلة فصلِ الشتا * فجاءت وقد قَلَبتْ فَروَها

(١) الوضح : جمع أوضح، وهى صفة على وزن أفعل، من الوضوح .

(٢) الولاف : المتتابع اللمان، كالوليف؛ ويجوز أن يكون أراد بالولاف المتألف بعضه الى بعض، وهو وصف بالمصدر؛ قال فى مستدرك التاج : «توالف الشىء موالفة وولافا» : ائتلف بعضه الى بعض .

(٣) لم ترد هذه الأبيات الآتية فى ديوان البحترى المطبوع فى مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هجرية .

(٤) صوابه « الجبال » أو ما يفيد هذا المعنى، اذ القلل انما تناسب الجبال لا المياه؛ ولم نثبت هذا اللفظ فى صلب الكتاب لبعده فى الرسم مما ورد فى كلا الأصلين؛ وقد سبق التنبيه فى الحاشية رقم ٣ من هذه الصفحة؛ على أننا لم نجد هذا الشعر فى ديوان البحترى .

وقال [آخر، وهو شهاب الدين أحمد، عُرف بأبى] جَلْنَك[(٢)] الحلبىّ[(١)] :

لله[(٣)] بستانٌ حللنا دَوحَه * فى لذة[(٤)] قد فتّحتْ أبوابَها

والبان تحسَبه سنانيرَ رأت * بعضَ[(٥)] الكلاب فنَفّشتْ أذنابَها

وكتب الصاحبُ بنُ عَبّاد — وقد أهدَى باكورةَ خِلاف — قد نَوّرتْ[(٦)] لتنوير الخلاف فضائلُ لا تحصَى، ومحاسن يطول أن تُستقصَى؛ منها أنه أوّل ثغر يتبسم عند الربيع ويَضحك، ودرّ يُعقَد على القُضبان ويُسلك؛ ولتمايله[(٧)] آدكار لقدود الأحباب، وتهييج لسواكن الأضطراب؛ وحُمل الىّ قضيب منه ذاته متعادله، ولذّاته متقابله؛ فأنفذتُه مع رقعتى هذه اليك، وسألت اللهَ أن يعيده ألفَ حول عليك. قال، وقلتُ[(٨)] :

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (أ).

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى كلا الأصلين وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٣١ وفوات الوفيات لابن شاكر ج ١ ص ٤١ والوافى بالوفيات للصفدى ج ٢ قسم أوّل وقد ضبطناه هكذا تبعا لضبطه بالقلم فى عدة مواضع من الوافى بالوفيات؛ ولم نجد من نص على ضبطه فيما راجعناه من الكتب.

(٣) أورد السيوطى هذين البيتين فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣١ وابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات ج ١ ص ٤٢ طبع بولاق وذكرا أنهما فى هجاء قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان؛ وذكر ابن شاكر أيضا أن سبب ذلك أن أبا جلنك مدح شمس الدين بن خلكان، فوقع له ابن خلكان برطلى خبز كل يوم، فكتب هذين البيتين على لسانه وقد دخل بستانا فيه منظرة للقاضى.

(٤) فى حسن المحاضرة «فى جنة» والمعنى يستقيم على هذه الرواية أيضا.

(٥) فى حسن المحاضرة وفوات الوفيات «قاضى القضاة»، يريد شمس الدين بن خلكان، كما سبق فى الحاشية رقم ٣ من هذه الصفحة.

(٦) لم ترد هذه الرسالة ولا الأبيات الآتية بعد ضمن ما اختاره الثعالبى فى اليتيمة من كلام الصاحب ابن عباد ولا فيما اختاره صاحب زهر الآداب من كلامه، كما أنها لم ترد فى مجموعة رسائل الصاحب بن عباد المحفوظة منها نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى فى المكتبة التيمورية.

(٧) فى كلا الأصلين «بقدود» بالباء؛ والسياق يقتضى اللام كما أثبتنا.

(٨) «وقلت» معطوف على قوله قبل «أنفذته» أى أنفذته مع رقعتى هذه الخ وقلت فى وصفه.

وقضيبٍ من الخلاف بديعٍ * مستخصٍّ بأحسن الترصيع
قد نعى شِرّةَ الشتاء الينا * وسعى فى جِلاء وجه الربيع
وحكى مَن أُحبُّ عَرفا وظَرفا * واهتزازا يثير نار الضلوع

وأمّا النَّيْلَوْفَر[1] وما قيل فيه — فقال ابن التلميذ : النَّيْلَوْفَر اسم فارسىّ معناه النيلىّ الأجنحة ، والنيلىّ الأرياش . وربما سمى بالفارسية[2] اسما معناه كرنب الماء ، وسماه جالينوس : كرنب الماء ، وحَبّه يسمّى حَبَّ العروس ، وفيه جلاوة . وقال أبو بكر بن وحشيّة فى توليده : ان أخذتم ظِلفَى الغزال من يديه ، وقرنيه جميعا ، وطمرتم ذلك فى التراب الندىّ ، خرج من ذلك النباتُ الذى يسمّى شاكريا[3] ، وهو النَّيْلَوْفَر ، وقال أيضا : وان أخذتم عينى الغزال وقرنيه وظِلْفا واحدا من يديه ، وطمرتم ذلك فى التراب ، خرج منه الشاكريا[3] الأزرق ؛ فان طمرتم ظِلفيه من رجليه وقرنَه الأيسر مع كفّ من بعره ، خرج منه الشاكريا الأحمر ؛ فان نقصتم من هذا أحدَ ظِلفى رجليه ، خرج الشاكريا الأصفر . قال : والهندُ

(١) ضبط صاحب التاج هذا اللفظ بفتح النون ضبطا بالعبارة ، وقال : إنه هو المعروف فى مصر بالبشنين اه وذكر القيصونى فى قاموس الأطباء أنه بكسر النون ؛ ثم نقل عن النووى أنه بفتح النون واللام ولهذا ضبطناه بالوجهين ويرجح كسر النون فيه مانقله المؤلف عن ابن التلميذ من أن معناه «النيلى الأجنحة» ، نسبة الى النيل الذى يصبغ به ؛ وقال داود فى التذكرة : إنه نبت مائى ، له أصل كالجزر ، وساق ملساء ، تطول بحسب عمق الماء ، فاذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر زهرا أزرق ، هو الأصل والأجود والمراد عند الاطلاق ، فالأصفر يليه ، فالأحمر ، فالأبيض ؛ يسقط اذا بلغ عن رأس كالتفاحة داخلها بزر أسود ، والهندى الى الحمرة ، ومنه برّىّ ، يعرف بمصر بعرائس النيل .

(٢) فى مفردات ابن البيطار : (بالسريانية) الجزء الرابع ص ١٨٥ طبع بولاق .

(٣) لم نجد نصا على ضبط هذا اللفظ فيما راجعناه من الكتب ، إلا أنهم ينطقون به فى مصر مضموم الكاف ؛ وقد ورد فى معجم أسماء النبات ص ٤٨ لفظ شكوريه بكسر الشين وضم الكاف وكسر الراء وتشديد الياء ضبطا بالقلم مرادا به الهندبا ؛ وهو غير ماهنا .

تسمّيه نِينوفَر ، والنَّبط تسمّيه نِيلَوفَريا ، والعـرب تسميه نِيلَوفه ، والفُرس تسميه نِيـلُوفَر (١) .

وقال الشيخ الرئيس أبو على بن سينا : والنِّيلوفَر (٢) الهنـدىُّ فى حُكم اليَبْروح (٣) ؛ وأقواه الأبيض الأصـل ؛ وبزره أقوى من حبه (٤) . قال : وطبعه بارد رَطْب فى الثانية (٥) ؛ وشرابُه شديد التطفئة ، ملطِّف جدّا ؛ وأصـله بالمـاء على البَهَق نافع خصوصا الأسوَد ، وأصله مع الزفت على داء الثعلب (٦) ، وخصوصا الأسود ؛ وشرابه جيّد للسُّعال والشَّوْصـة (٧) . قال : وأصله ينفع من الأورام الحارّة ؛ وأصله وبزره للقُروح ؛ وأصله ينفع أورام الطِّحال شربا وضِمادا ، وينفع الاحتلام (٨) ، ويَكسِر شهوة

(١) كذا ضبط هذا اللفظ فى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستاين جاس .

(٢) عبارة القانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية : « وأصل النيلوفر » .

(٣) تقدّم الكلام على اليبروح فى ص ١٧٥ من هذا السفر عند الكلام على اللفاح ، فارجع اليه .

(٤) قال الكازرونى فى الفرق بين بزر النيلوفر وحبـه : إن بزره هو الرءوس الصغار التى فى جوف ورده ، شبيهة بما يكون فى وسط الورد . وحب النيلوفر : حب كبير يحصل بعـد سقوط ورده فى أصله انظر شرح الأدوية المفردة المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩٣ طب .

(٥) كذا فى كلا الأصلين وشرح الأدوية المفردة للكازرونى ؛ والذى فى القانون ج ١ ص ٢٧٥ طبع بولاق : « فى الثالثة » ولم يرد فيه قوله : « رطب » ونقل ابن البيطار عن عيسى بن ماسة « أنه بارد فى الدرجة الثالثة رطب فى الثانية » .

(٦) حذف الخبر وهو قوله : « نافع » من هذه الجملة ، للعلم به مما سبق .

(٧) الشوصة : ورم فى حجاب الأضلاع من داخل ؛ وقيل هى ريح تعتقب فى الأضلاع يجد صاحبها كالوخز فيها ؛ وعبارة القيصـونى فى قاموس الأطباء « الشوصة بالفتح : ورم يحدث فى الحجاب الذى على أضلاع الخلف تحت الحجاب الحاجز ، وعلامته أن العليل لا يمكنه أن ينام على شكل من الأشكال » ثم نقل عن الشيخ الرئيس أنه قد يعرض فى الحجب والصفاقات والعضل التى فى الصدر والأضلاع ونواحيها أورام مؤذية جدا موجعة تسمى شوصة وبرساما وذات الجنب .

(٨) فى نسخة القانون طبع مصر ج ١ ص ٢٧٥ « وينقص » .

الباه اذا شُرب منه درهم بشراب الخَشخاش؛ وهو يُجمِد المنىّ بخاصيّة فيه، وخصوصا أصلَه؛ وهو منوّم، مسكّن للصّداع الحارّ الصفراوىّ، لكنّه يُضعف؛ وأصله ينفع من الإسهال المزمن وقُروح المِعَى وأوجاع المَثانة ضِمادا؛ وبِزره أقوى فى كل شىء، حتى إنه يَمنع نَزَف الحيض؛ وأصل الأصفر منه و بزرُه اذا شربا[1] نفعا سيلان الرطوبة المزمنة من الرحم؛ وشرابه ملينّ للبطن، نافع من الحُمّيات الحارّة، شديد التطفئة[2]؛ [والله المستعان][3] .

وأمّا ما جاء فى وصفه — فقال أبو بكر الزُّبيدىُّ[4] الأندلسىّ :

وبِركةٍ[5] أحيا بها ماؤها * من زهرها كلَّ نبات عجيبْ

كأنّ نَيْلوفَرَها عاشق * نهارَه يَرقُب وجهَ الحبيبْ

حتى اذا الليل بدا نجمُه * وانصرف المحبوب خوف الرقيبْ

(١) عبارة ابن سينا (اذا شرب باللبن مرات) القانون ج ١ ص ٣٧٥ طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أنه قد سبق فى ص ٢٢٠ س ٥ التنبيه على أن شرابه شديد التطفئة، فهو تكرار؛ وقد وقع هذا التكرار فى القانون أيضا .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى (ب) .

(٤) ضبط هذا اللفظ هكذا ضبطا بالعبارة فى وفيات الأعيان ترجمة أبى بكر الزبيدى وضبط فى عدّة مواضع من نفح الطيب طبع أوربا ضبطا بالقلم .

(٥) الذى ورد فى مباهج الفكر وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٤ منسوبا الى أبى بكر الزبيدى أبيات أخرى غير هذه، وهى :

وبركة تزهو بنيلوفر * نسيمها يشبه ريح الحبيب

حتى اذا الليل دنا وقته * ومالت الشمس لوقت المغيب

أطبق جفنيه على حبه * وغاص فى البركة خوف الرقيب

وقد أوردها المؤلف فيما يأتى مع اختلاف فى بعض الألفاظ ولم ينسبها الى أحد انظر ص ٢٢٤ من هذا السفر . أما هذه الأبيات التى نسبها المؤلف هنا الى أبى بكر الزبيدى فقد وردت فى مباهج الفكر وحسن المحاضرة غير منسوبة الى أحد .

أَطبَق جفنيه عسى فى الكرى * يبصر من فارقه عن قريبْ

وقال آخر[1] :

يا حبّذا بِركةُ نَيْلَوْفَرٍ * قد جمّعت من كلّ فنّ عجيبْ
أزرقَ فى أحمرَ فى أبيضٍ * كقَرصة فى صحن خدّ الحبيب
كأنه يَعشَق شمس الضحى * فانظره فى الصبح وعند المَغيب
اذا تجلّت يتجلّى لها * حتى اذا غاب سَناها يغيب
يرنو اليها مبصرا يومَه * ولا يحاشِى نظراتِ الرقيب
لا يَبتغى وجها سوى وجهِها * فِعلَ محبّ مخلص فى حبيب

وقال التّنُوخىّ[2] :

فكأنّه فى الماء صاحبُ مذهب * أغراه وِسواس بأن لم يَطهُرِ

وقال آخر[3] :

كلّنا باسط اليد * نحو نَيلَوْفَرٍ ندى
كدبابيس عسجدٍ * نُصْبُها من زبرجدِ

وقال آخر[4] :

اِشرب على بِركة نَيلَوْفر * محمّرةِ الأوراق خضراءِ
كأنّما أزهارُها أُخرجتْ * ألسنةَ النار من الماءِ

---

(١) فى مطالع البدور نسبة هذا الشعر الى ابن صابر الجزء الأوّل صفحة ١١٢

(٢) نسب أبو هلال العسكرى هذا البيت الآتى الى ابن الرومى انظر ديوان المعانى ج ٢ ص ٣٧ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٦٤ أدب ولم نجده فى ديوان ابن الرومى المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب .

(٣) قائل هذا الشعر هو أبو بكر الصنوبرى كما فى كتاب من غاب عنه المطرب للثعالبى ص ٣٧

(٤) قائل هذا الشعر هو ابن حمديس كما فى مطالع البدور ج ١ ص ١١٢

وقال آخر :

ونيلوفر صافحته الرياح * وعانقه الماء صفوا ورنقا
تخيل أوراقه فى الغدير * سر ألسنة النار حمرا وزرقا

وقال آخر :

صفر الدّرارى (١) تضمّها شُرَفٌ * مفتضح عند نشرها العطرُ
تحملها خيزُرانة ذَبُلت * ذبولَ صبّ أذابه الهجرُ

وقال ابنُ الرومىّ (٢) :

يرتاح للنيلوفر القلبُ الذى * لا يستفيق من الغرام وجهده
والورد أصبح فى الروائح عبده * والنرجس المسكىّ (٣) خادمُ عبده
يا حسنه فى بركة قد أصبحت * محشوّةً مسكا يشاب بنده
وكأنّه فيها وقد لحظ الصّبا * ورمى المنام ببعده وبصده
مهجورُ حبٍّ ظلّ يرفع رأسه * كالمستجير بربّه من ضده
وكأنّه إذ غاب عند مسائه * فى الماء فانحجبت نضارة قدّه
صبّ يهدّده الحبيب بهجره * ظُلما فغرّق نفسه من وجده

وقال مؤيّد الدّين الطُّغرائىّ :

ونيلوفرٍ أعناقُه أبدا صُفرُ * كأنّ به سُكرا وليس به سُكْرُ

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ؛ والذى فى مباهج الفكر وحسن المحاضرة : «المدارى» ؛ ولعله شبه الشىء الأصفر الذى يكون فى وسط زهر النيلوفر بالمدارى ، وهى القرون ، واحده مدرى بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء .

(٢) لم نجد هذه الأبيات فى ديوان ابن الرومى المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب .

(٣) فى مباهج الفكر : «النيلى» .

اذا انفتحتْ أوراقُه فكأنّها * وقد ظهرت ألوانُها البِيض والصُّفرُ
أناملُ صبّاغ صُبِغن بنِيلِهِ * وراحتُها بيضاء فى وَسْطها تبرُ

وقال السّرىّ الرّفّاء :

وبِركةٍ حُفّت بِنَيلوفرٍ * ألوانُه بالحُسن منعوتهْ
نهارَه ينظر عن مقلة * ساجيةِ الألحاظ مبهوتهْ
وإن بدا الليل فأجفانُه * فى لُجّة البِركة مسبوتهْ
كأنّما كلُّ قضيب له * يَحمِل فى أعلاه ياقوتهْ

وقال آخر[1] :

وبِركةٍ تزهو بِنَيلوفرٍ * نسيمُه يشبه نشرَ الحبيبْ
مفتّح الأجفان فى يومِه[2] * حتى اذا الشمسُ دنت للمَغيبْ
أطبَق جفنيه على حِبّه * وغاض فى البِركة خوفَ الرقيبْ

وقال آخر[3] :

تحبّ[4] الشمسَ لا تبغى سواها * وتلحظها بمقلة مستهامِ
اذا غابت تَكنّفها اشتياقٌ * فنامت كى تَراها فى المنامِ

وقال الرّفّاء :

يا حُسنَ نَيلوفَر شُغِفتُ به * يمنحه الماء صفوَ مشروبِهْ
كأنّه عاشق به ظمأٌ * توهّمَ الماءَ ريقَ محبوبِهْ

(١) تقدّم التنبيه على أن صاحب مباهج الفكر وحسن المحاضرة قد نسبا هذه الأبيات الى أبى بكر الزبيدى انظر الحاشية رقم ٥ من صفحة ٢٢١ .

(٢) فى كلا الأصلين : «نومه» بالنون ؛ وهو تحريف .

(٣) قائل هذا الشعر هو الخباز البلدى انظر كتاب من غاب عنه المطرب للثعالبى ص ٣٨

(٤) «تحب» أى زهرة النيلوفر .

وقال آخر :

وشاخصٍ نحوَ عين الشمس يَرمُقها * حتى اذا غَرَبتْ أَغضَى بتنكيسِ
تَراه من قِطَع المَرجان فى قُضُب * زرقِ الشـوابير (١) أمثالِ الدّبابيسِ
كأنّه ودُروعُ المـاء تَشـمَله * تحت الشُّعاع أَكاليلُ الطّواويسِ

٥ وقال آخر :

ونَيـلَوْفَرٍ قـد لاح فى زِىٍّ فاقـدٍ * حبيبا فمنـه يسـتعير لباسَـهُ
يَظَلّ نهارا شاخصَ الطَّرف لاحظا * ويَغمِس جنحَ الليلِ فى المـاء راسَهُ
كأنّ عليـه للظّلام مراقبا * فيَهرُب منـه أو يَخاف اختلاسَـهُ

وقال مؤيّد الدّين الطُّغرائىّ :

١٠ نَيْـلَوْفَرٍ يَسـبَح فى لُجّـةٍ * عليـه ألوانٌ من اللّبْسِ
مُظاهِرٌ ثوب حِـدادٍ على * ثوبِ بيـاضٍ عُلّ بالوَرْسِ
فالشّـطر من أعلاه فى مأتَمٍ * وشَطره الأسـفلُ فى عُرسِ
مغمِّضٌ طُولَ الدّجى ناعسٌ * جفونُه تُفتَـحُ فى الشـمسِ

---

(١) الشوابير : جمع شوبر، وهو ما يلبس على الرأس، كما فى كتاب (الملابس عند العرب لدوزى)،
١٥ ويؤخذ من وصفه له أن هـذا الملبس مخصوص بالنساء، وليس كذلك، بل قد يطلق على العمائم أيضا، كما يستفاد من قول بعض الشعراء فى وصف الآس :

والآس فى كفى أحيهم * مثـل شوابير بنى هاشم

فان المراد بهذا البيت تشبيه الآس فى خضرته بالعمائم الخضر التى يلبسها الأشراف علامة على نسبتهم الى بنى هاشم ؛ ولم نجد هذا اللفظ فيما راجعناه من كتب اللغة .

البابُ الثانى من القسم الثالث من الفنّ الرابع

فيما يُشمّ [رَطْبا](١) ولا يُستَقطَر، ويشتمل هذا البابُ على ما قيل فى البنفسَج والنرجِس والياسَمين والآس والزعفران والحَبَق

فأما البنفسَج وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : طبعُ البنفسَج باردٌ رَطْب فى الأُولى . وقال قوم : إنه حارٌّ فى الأُولى . قال : ولا شكّ فى برودته .

وأمّا أفعاله وخواصّه ، فقيل : انه يولّد دما معتدلا ؛ وهو يسكّن الأورامَ الحارّةَ ضِمادا مع سَويق الشعير ؛ وكذلك ورقُه . قال : ودُهنُ البنفسَج طلاءٌ جيّدٌ للجرب ؛ وهو يسكّن الصُّداع الدّمويّ شَمّا وطِلاء(٢) . قال : وينفع من الرمد الحارّ ومن السُّعال الحارّ ؛ ويليّن الصدر ، خصوصا المربّى منه بالسكّر ؛ وشرابُه نافع من ذات الجَنْب والرِّئة والتهاب المعدة ؛ وشرابه ينفع من وجع الكُلَى ؛ ويابسُه يُسهِل الصفراء ؛ و[شرابُه أيضا](٣) يليّن الطبيعةَ برفق .

وأما ما جاء فى وصفه — فقال أبو القاسم بنُ هُذَيْل الأندلسىّ — ويُروَى لابن المعتزّ — :

بنفسَجٌ جُمّعتْ أوراقُه فحكت(٤) * كُحلا تَشرَّبَ دمعا يومَ تشتيتِ

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (أ) .

(٢) زاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله : «طلاء وشربا» .

(٣) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٢٦٦ طبع بولاق ، فان سياق الكلام يقتضيها ، كما هو ظاهر .

(٤) كذا فى مباهج الفكر وحسن المحاضرة وديوان المعانى ؛ والذى فى كلا الأصلين : «فغدت» ؛ وهو تحريف .

أو لازَوَرْدِيّةٍ أوفت[1] بزُرقتِها * وَسْطَ الرياض على زُرقِ اليواقيتِ
كأنّه وضعافُ القُضب تحمله * أوائلُ النار فى أطراف كِبريتِ

وقال آخَرُ فى معناه :

بنفسَجٌ بذكىّ الريح مخصوصُ * ما فى زمانك إذ وافاك تنغيصُ
كأنّما شُعَل الكِبريت مَنظَرُه * أو خدُّ أغيَدَ بالتخميش مقروصُ

وقال أبو الحسن العُقَيلىّ :

اِشربْ على زَهرِ البنفسَج قهوةً * تنفى الأسى عن كلّ قلب مُكمَدِ
فكأنه قَرْصٌ بخدّ خَريدةٍ * أو أعينٌ زُرق لِحُلن بإثمِدِ

وقال آخَر :

ماس البنفسَجُ فى أغصانه فحَكَى * زرقَ الفصوص على بِيض القراطيس
كأنّه وهُبوب الريح يَعطفه * بين الحدائق أعرافُ الطّواويس

وقال آخَر :

أهدت إلىّ بنفسَجا * أَحبب بمُهدية البنفسَجْ
فكأنّه هى فى اللّطا * فة والذّكاء إذا تأرَّجْ
أوراقُه اللّهب[2] المُطِلّ * على الذُّبالة حين تُسرَجْ
أو إثْرُ[3] قَرْص مؤلِم * فى وجنة الخدّ المضرَّجْ

(١) فى مباهج الفكر وحسن المحاضرة : «أربت» .

(٢) فى كلا الأصلين : «الذهب» ؛ وهو تحريف .

(٣) ورد فى تاج العروس نقلا عن صاحب الواعى ما يفيد ان الإثر بكسر الهمزة وسكون الثاء المثلثة بمعنى الأثر محركة ؛ فقد قال بعد أن ذكر معنى الأثر بالتحريك ما نصه : (وكذلك الإثر ساكن الثانى مكسور الهمزة ، فان فتحت الهمزة فتحت الثاء ، تقول : « جئتك على أثره و إثره » .

وقال آخَرُ فى الأبيض منه — وذكر ممدوحا — :

كأنّ البنفسَجَ فيما حَكَى * من الطِّيب أخلاقَك المونِقهْ
يــلوح فتَحسَب طاقاتِه * فصوصا من الفضّة المحرَقهْ

وقال أبو الحسن الشاطبىّ — ويروَى لابن الرومىّ — :

اِشربْ على زَهر البنف * سَج قبل تأنيب الحسود ٥
فكأنّمــا أوراقُــه * آثارُ قَرْصٍ فى الخدود

[وقال آخَر](١) :

وكأنّ البنفسَجَ الغضَّ يَحكى * أثَرَ اللَّطم فى خدود الغِيــد

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وبحافاتها البنفسَــجُ يَحــكى * أثَرَ القَرْص فى خدود العَذارَى ١٠

وقال المِيكالىُّ فيه متفائلا به :

يا مُهــديا لى بنفسَجا أرِجا * يرتاح قلبى له وينشــرحُ
بشّرَنى عاجــلا مصحَّفُه * بأنّ ضِــيقَ الأمور ينفسحُ

وتَطيَّرَ آخَرُ به فقال :

يا مُهــديا لى بنفسَجا سَمِجا * أوَدُّ لو أنّ أرضَه سَبَخُ ١٥
أنذَرَنى عاجــلا مصحَّفُه * بأنّ عَقدَ الحبيب ينفســخُ

وقال صالحُ بنُ يونس :

بنفسَــجٌ جاء فى حِــدادٍ * ووَردنا فى معصــفَراتِ
فاشربْ على مأتَمٍ وعُرْسٍ * جلّا جميعا عن الصِّفاتِ

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (أ) . ٢٠

ومن رسالةٍ لأبى العَلاء عطاءِ بنِ يوسفَ السِّندىِّ يصف طاقةَ بنفسَج، قال: سماويّةُ اللِّبـاس ، مِسكيّةُ الأنفاس ؛ واضـعةٌ رأسَها على ركبتها كعاشقٍ مهجور ينطوى على قلبٍ مسجور ؛ كبقايا النَّقش فى بَنـان الكاعب، أو النِّقس فى أصابع الكاتب ؛ أو الكُحْل فى ألحـاظ الملاح ، المراضِ الصِّحاح؛ الفاترات الفاتنات، المحيياتِ القاتلات ؛ لا زَوَرْدِيّةٌ أَوفَتْ زُرقتُها على زُرق اليواقيت، كأوائل النـار فى أطراف كِبريت؛ أو كأَثَر القَرْص فى خدود العَذارَى

* أو عِذارٍ خَلعتُ فيه العِذارا *

وأمّا النَّرجِسُ وما قيل فيه — فقال أبو بكر بنُ وحشيّة فى توليده : ان أردتم النرجِسَ فخذوا قرنَى الغزال، فأقطعوا كلَّ قَرْن نصفين، وأنقعوهما فى بول البقر سبعةَ أيّام، ثم أقلعوا عينَى الغزال، وأجعلوهما فوق رءوس القرون، وأطمِروهما فى الأرض فى أوّل ساعةٍ من يوم الجمعة ، فإنّه بعد خمسـةَ عشر يوما ينعقد نرجِسا مفتّحا . وإن أردتموه مضعّفا فخذوا الثُّوم، ثم شُقُّوا البصـل، وأجعلوا الثُّومة فى وَسَطها ، ولتكن سِـنّا واحدة ، ثم ضُمّوا على الثُّومة نصفَى بصـلة النرجِس ، وأغرِسوها فى الأرض، فإنّه ينبت النرجس المضاعَف؛ وان أردتم المضاعَف الذى بعضُ ورقِه أخضرُ وبعضُـه أصفر، فخذوا سِـنّا من الثُّوم، وخذوا عُصارةَ ورق بصـل النرجِس ، وأنقَعوا السِّنَّ فى العُصارة ثلاثةَ أيام ، ثمّ أدخِلوها فى البصـلة، وأغرِسوها فى الأرض ، فإنّها تنبت بعد أيّام قلائل . وقال أبو علىّ بنُ سينا : انّ أصل النرجِس يُخرِج الشَّوْكَ والسُّلاء[1]، وخصوصا مع دقيق الشَّيْلَم[2] والعسل . قال:

(١) السلاء : شوك النخل .

(٢) قال أبو حنيفة : الشيلم ، هو الزؤان الذى يكون فى الحنطة فيفسدها ؛ ونباته سطاح يذهب على الأرض ؛ وورقه كورق الخلاف ، شديد الخضرة ، والناس يأكلونه اذا كان رطبا ، وهو طيب لا مرارة =

والنرجس يجلو الكَلَف والبَهَق ، وخصوصا أصلَه بالخَلّ ، وينفع أصلُه من داء الثَّعلب (١) ؛ ويُعجَن أصلُه مع العسل والكِرْسِنّة فيفجّر الدّماميل (٢) العَسِرةَ النُّضج ؛ ويُضمَد بأصله على أورام العَصَب . قال : والنرجس يجفّف الجراحات ، ويُلزقها إلزاقا شديدا ؛ ودُهنُه ينفع للعَصَب . قال : وينفع من الصُّداع الرَّطب السّوداوىّ (٣) وكذلك دُهنُه ، وهو أوفق ؛ ويصدّع الرءوسَ الحارّة ؛ واذا أُكِلَ أصلُه هيّج القَىء ؛ واذا شُرِب منه أربعةُ دراهمَ بماء العسل أَسقَط الأجنّةَ الأحياءَ والأموات ؛ ودُهنه يفتّح انضمامَ الرَّحِم ، وينفع من أوجاعِها .

وأمّا ما جاء فى وصفه — فقال أبو نُواس الحسنُ بنُ هانئ :

لَدَى نرجِسٍ غضِّ القِطاف كأنّه * اذا ما منحناه العيونَ عيونُ

مخالفــة فى شَكلهنّ بصُفرةٍ * مكانَ سوادٍ والبيــاض جفون

وقال أبو الفتح محمود كُشاجِم (٤) :

كأنّمــا نرجِسُــنا * وقد تبدّى من كَثَبْ

أناملٌ من فضّةٍ * يحمِلن كأسا من ذهبْ

= له ، وحبه أعصى من الصبر ؛ وقال ابن الكتبي : هو حب معروف يطعم للطيور ، وليس شديد المرارة ، بل هى يسيرة ، وكل من تكلم عليه فقد خلط بسبب عدم تمييزه بين الزؤان و بينه ؛ وهو غيره .

(١) داء الثعلب : علة يتناثر منها الشعر ، وسمى داء الثعلب لعروضه للثعالب .

(٢) فى القانون : « الدبيلات » والدبيلة بضم الدال وفتح الباء : كل ورم كبير يتفرغ فى باطنه موضع تنصب اليه مادة رديئة غليظة ذات أجسام مختلفة .

(٣) فى كلا الأصلين : « والسوداوى » وقد أسقطنا الواو تبعا لعبارة القانون المنقول عنه هذا الكلام .

(٤) فى مباهج الفكر نسبة هذين البيتين الى عبد الله بن المعتز .

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِىّ[1] :

أَضعَفَ قلبي النرجِسُ المُضْعَفُ * ولا عجيبٌ إن صَبا مُدنَفُ

كأنّه بين رياحينِنا * أعشارُ آى ضَمَّها مصحَفُ

وقال آخر[2] :

٥ ونرجِسٍ الى حدا * ئِقِ الرياض مُحدِقِ

كأنّما صُفرتُه * على بياضٍ يَقَقِ

أعشارُ جُزءٍ ذُهِّبتْ * من وَرِقٍ فى وَرَقِ

وقال أبو بكر بنُ حازم :

ونرجسٍ ككئوس التِّبر لائحةً * من الزّبرجد قد قامت بها سَاقُ

١٠ كأنهنّ عيونٌ هُدْبُها وَرِقٌ * لهنّ من خالص العِقْيان أحداقُ

وقال الصَّنَوْبَرِىّ :

ونرجسٍ مُضْعَفٍ تَضاعَفَ منـ * ـه الحُسنُ فى أبيضٍ وفى أصفرْ

الدُّرُّ والتِّبر فيه قد خُلِطا * للعين والمِسكُ فيه والعنبرْ

وقال أيضا يصفُه فى مَنابِته :

١٥ أرأيتَ أحسنَ من عيون النرجِسِ * أو من تَلاحُظِهنّ وَسْطَ المجلِسِ

دُرٌّ تَشقَّقَ عن يواقيتٍ على * قُضُبِ الزبرجدفوق بُسْطِ السُّندسِ

أجفانُ كافورٍ حُشِين بأعيُنٍ * من زعفرانٍ ناعمات المَلمَسِ

مغرورِقات فى تَرقرُقِ طَلِّها[3] * ترنو بعين الناظر المتفرِّسِ

(١) كذا فى (ب)؛ والذى فى (ا) : «وقال آخر» .

٢٠ (٢) فى مباهج الفكر نسبة هذين البيتين الى ابن مكنسة .

(٣) زاد فى مباهج الفكر قبل هذا البيت قوله :

وكأنها أقمار ليل أحدقت * بشموس دجن فوق غصن أملس

فاذا تَنشّقَها تَنفّسَ ناشقٌ * عن مِثل ريح المِسك أىَّ تَنفُّسِ
وحَكَى تَدانِى بعضِها مِن بعضِها * يوما تَدانِى مؤنِسٍ من مؤنِسِ
واذا نَعَستَ من المُدام رأيتَها * ترنو اليك بأعين لم تَنعَسِ

وقال ابنُ الرُّومىّ[1] :

ونرجِسٍ كالثغور مبتسِم * له دموعُ المحدِّق الشّاكى ٥
أبكاه قَطْرُ النَّدَى وأضحكَهُ * فهو من القَطْر ضاحكٌ باكى

[وقال آخر][2] :

قد عكَفنا على عيونٍ من النّر * جِسِ بِيضٍ مصفرّةِ الأحداقِ
ذابلاتِ الأجفانِ كالعاشق الوا * قف يشكو الهوى على فَردِ ساقِ

وقال شاعر أندلسىّ : ١٠

أُنظرْ الى نرجِسٍ فى روضةٍ أُنُفٍ * غَنّاء[3] قد جَمَعتْ شتّى من الزّهَرِ
كأنّ ياقوتةً صفراءَ قد طُبعتْ * فى غصنه حولها ستٌّ من الدُّررِ

[وقال آخر][2] : ٧٠

أبصرتُ باقةَ[4] نرجِسٍ * فى كفِّ من أهواه غَضّهْ
فكأنّها قُضُبُ الزّبر * جد قُمِّعتْ ذهبا وفِضّهْ ١٥

(١) لم نجد هذين البيتين فى ديوان ابن الرومى المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (أ) .

(٣) فى كلا الأصلين : «عناقد» ؛ وهو تحريف .

(٤) فى مباهج الفكر : «طاقة» وهو الصواب ، فان الباقة ، هى الحزمة من البقل ؛ أما الطاقة فهى من الريحان . ٢٠

[وقال ابنُ عبّاد[1]] :

عَمْرى لقد راق طرفى حُسنُ زاهرةٍ * تميس فى سُندسيّاتٍ من الوَرَقِ
أبدت لنا عَجَبًا منها حديقتُها * عينًا من التِّبْرِ فى جَفنٍ من الوَرِقِ[2]

وقال أبو الفضل الميكالىّ :

أهلا بنرجِسِ روضٍ * يُزهَى بحُسنٍ وطِيبِ
يرنو بعينَىْ غزالٍ * على قضيبٍ رَطيبِ
وفيه معنًى خفىٌّ * يَزينُه فى القلوبِ
تصحيفُه إن نَسَقتَ الـ * ـحروفَ بِرُّ حبيبِ

[وقال آخر[3]] :

لمّا أطلنا عنه تغميضا * أهدَى لنا النّرجسَ تعريضا
فدلّنا ذاك على أنّه * قد اقتضانا الصُّفرَ والبيضا

وقال أبو هلال العسكرىّ :

ونرجسٍ مِثلِ أكُفِّ خُرَّدٍ * دُرنَ علينا بكُئوس الذهبِ
ناوَلنيه مِثلُه فى حسنِه * فحَلّ من قلبىَ عَقدَ الكُرَبِ
مبتسِمٌ عنه وناظرٌ به * هذا لَعَمرى عَجَبٌ فى عَجَبِ

وقال أيضا فيه[4] :

ونرجسٍ قام فوق مِنبَرِه * مثل عَروسٍ تُجلَى وتشتهِرُ

---

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (ا)؛ والذى فى مباهج الفكر : «وقال ابن سارة» .

(٢) الورق : الفضة .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى (ا) .

(٤) يستفاد من هذه العبارة أن قائل هذا الشعر هو أبو هلال العسكرى ؛ والذى وجدناه فى ديوان المعانى لأبى هلال يفيد أن القائل غيره ؛ وعبارته بعد أن أورد أبياتا له فى وصف النرجس : «وقول الآخر» .

نام النَّدَى فى عيونه سَحَرا * فاعتاده فى منامه سَهَرُ
لم يَغتمض والظلامُ حَلّ به * كأنّما فى جفونه قِصَرُ
تَحيَّرَ الطَّلُّ فى مدامعه * فليس يَرقا وليس ينحدرُ
كَدمعةِ الصَّبّ كاد يَسكُبُها * فردّها فى جفونه الحَذَرُ

وقال ٱبنُ المعتزّ :

وعُجنا الى الرَّوض الذى طَلَّه النَّدَى * وللصّبح فى ثوب الظّلام حريقُ
كأنّ عيونَ النرجس الغَضِّ بينه * مَداهنُ دُرٍّ حشوهنّ عقيقُ
اذا بَلَّهنّ القَطْرُ خِلتَ دموعَها * بكاءَ جفونٍ كلهنّ خَلوقُ

وقال ٱبنُ الرومىّ يفضّله على الوَرد :

خَجلتْ خدودُ الوَرد من تفضيلِه * خَجَلا تَوَرُّدُها عليه شاهدُ
لم يَخجَل الوَردُ المورَّدُ لونُه * إلا وناحِلُه الفضيلةَ عائدُ
للنرجس الفضلُ المبين و إن أبَى * آبٍ وحادَ عن الطريقة حائدُ
فَصْلُ القضيّة أنّ هذا قائدٌ * زَهرَ الرّبيع وأنّ هذا طاردُ
شتّانَ بين ٱثنين هذا مُوعِدٌ * بتَسلّب الدنيا وهذا واعدُ
واذا ٱحتَفَظتَ به فأمتعُ صاحبٍ * بحياته لو أنّ حيًّا خالدُ
يَحكى مصابيحَ السماء وتارةً * يحكى مصابيحَ الوجوه تُراصِدُ
يَنهَى النديمَ عن القبيح بلحظه * وعلى المدامةِ والسَّماع يساعِدُ
إن كنتَ تطلب فى ٱلملاح سميَّه * يوما فإنك لا محالةَ واجدُ
والوَردُ إن فَتّشتَ فَردٌ فى ٱسمِه * ما فى الملاح له سَمِيٌّ واحدُ
هذى النجومُ هى التى رَبَّيْنها * بحَيا السحابِ كما يربِّى الوالدُ
فٱنظر الى الولدين مَن أوفاهما * شَبَها بوالده فذاك الماجدُ

أين العيونُ من الخدود نَفاسةً * ورَآسةً لولا القياسُ الفاسدُ

وقال أيضا فيه :

وأحسَنُ ما فى الوجوه العيون * وأشبهُ شىء بها النَّرجِسُ (١) (٧١)

[وقال أيضاً (٢)] :

٥ وزعفرانيّةٍ فى اللّون تحسَبُها * اذا تأملتَها فى ثوبِ كافورِ

كأنّ حَبَّ سَقيط الطَّلِّ بينهما * دمعٌ تحيَّرَ فى أجفان مهجورِ

وقال عبدُ الله بنُ المعتزّ :

عيونٌ اذا عاينتَها فكأنّما * مَدامعُها من فوق أجفانها دُرُّ

مَحاجرُها بِيضٌ وأحداقُها صُفرٌ * وأجسامُها خُضرٌ وأنفاسُها عِطرُ

١٠ [وقال محمدُ بن يزيدَ المبرِّد (٣)] :

نرجسةٌ لاحظنى طَرفُها * تُشبِه دينارا على دِرهمِ

وقال عُبَيد الله بنُ عبد الله :

ترنو بأحداقِها اليك كما * ترنو اذا خافت اليَعافِيرُ

مِثل اليواقيت قد نُظِمن على * زبرجدٍ بينهنّ كافورُ

١٥ كأنّها والعيونُ ترمُقُها * دراهمٌ وَسْطَها دنانيرُ

---

(١) زاد فى ديوان ابن الرومى بعد هذا البيت قوله :

يظل يلاحظ وجه النديـ * ـم فردا وحيدا فيستأنس

(٢) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى (ا) كما أننا لم نجد هذين البيتين فى ديوان ابن الرومى المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩ أدب .

٢٠ (٣) لم ترد هذه العبارة فى (ا) .

وأمّا الياسَمين وما قيل فيه — فالياسَمين والياسَمون اسم[1] فارسىّ؛ وهو نوعان : برّىّ ، ويسمّى بهرانج[2] ، وتسمّيه العرب الظّيّان[3]؛ وبستانىّ، وهو أصفرُ وأبيض، والأبيضُ أطيَبُ رائحة . قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : طبعُ الأبيض أسخَنُ من الأصفر، والأصفر من الأُرْجُوانىّ[4]؛ وهو بالجملة حارٌّ يابسٌ فى الثانية . قال : وهو يلطّف الرّطوبات؛ ودُهنُه ينفع المشايخ . قال : وهو يُذهِب الكَلَف رَطْبُه ويابسُه، وكثرةُ شمّه تورث الصُّفار[5]؛ ودُهنُه نافعٌ للأمراض الباردة فى العَصَب؛ ورائحتُه مصدِّعة، لكنّها مع ذلك تَحُلّ[6] الصُّداع الكائنَ عن البَلْغَم اللّزِج اذا شُمّت؛ والخالص من دُهنه يُرعِف المحرورَ اذا شمّه لوقتِه .

وأما ما جاء فى وصفِه — فقال أبو إسحاقَ الحَضْرَمىُّ يصفه قبل تفتُّحه :

---

(١) اسم، أى كل من اللفظين اسم، وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الخبر؛ كما أنه من المحتمل أن يكون من قبيل حذف الخبر من الأوّل اكتفاء بالخبر عن الثانى، كما قال الشاعر :

* فإنى وقيار بها لغريب *

وقد سبق هذا الاستعمال فى عدّة مواضع من هذا السفر .

(٢) القول بأن البهرانج هو الياسمين البرى كما هنا قول لبعض النباتيين؛ وقال بعضهم إنه الخلاف البلخى، وهو من أشجار الجبال؛ وقال أبو حنيفة : البهرانج نوعان : نوع منه مشرب لون شعره حمرة، ومنه أخضر هيادب النور، وكلا النوعين طيب الرائحة . وهو لفظ فارسىّ؛ ويقال له : الزنف أيضا .

(٣) فى (أ) «الصيان» بالمهملة؛ وفى (ب) «الضيان» بالمعجمة، وهو تحريف فى كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا نقلا عن اللسان وغيره من كتب اللغة . وقال ابن البيطار فى وصف الظيان هذا : انه نبات ينبت فى البرارى ورءوس التلال الرطبة، وكأنه ضرب من اللبلاب يلتف بعضه ببعض، وله زهر ياسمينى الشكل صغير، وله على قضبانه شوك شبيه بشوك الورد، وكثيرا ماينبت مع العليق أبدا لا يفارقه، وله أصل أسود طويل تتشعب منه شعب دقاق سود .

(٤) «من الأرجوانى» أى أسخن من الأرجوانى، فحذف الخبر للعلم به مما قبله .

(٥) الصفار : بالضم، والصفر بالتحريك : صفرة تعلو اللون والبشرة، قاله الهروى .

(٦) فى (أ) «على»؛ وهو تحريف .

خليلىّ هُبّا وانفُضا عنكما الكَرَى * وقُوما الى روض وكأس رحيق[1]

فقد لاح رأسُ الياسَمينِ منوّرا * كأقراط دُرٍّ قُمِّعت بعقيق

يميل على ضَعْفَى الغصونِ كأنّما * له حالتا ذى غَشْيةٍ ومُفيق

اذا الرّيحُ أدّته الى الأنف خِلتَه * نسيمَ جَنوبٍ ضُمِّخت بخَلوق

٥ وقال آخر :

وروضةٍ نَوْرُها يَرِفُّ * مثل عروسٍ اذا تُزَفّ

كأنّما الياسَمينُ فيها * أناملٌ مالها أكُفّ

[وقال آخر][2] :

كأنّ الياسَمينَ الغَضَّ لمّا * أدَرتُ عليه وَسْطَ الرَّوض عيني

١٠ سماءٌ للزبرجد قد تبدّت * لنا فيها نجومٌ من لُجَيْنِ

وقال آخر :

ويا سَمينٍ عَبِقِ النَّشْرِ * يُزرى بريح العنبر الشَّحْرى[3]

يلوح من بين غصونٍ له * كمثل أقراطٍ من الدُّرِّ

وقال المعتمد بنُ عبّاد :

١٥ كأنّما ياسمينَنا الغَضُّ * كواكبٌ فى السماء تبيَضُّ

والطُّرُقُ الحُمرُ فى بواطنه * نكدٌ عذراءَ مَسَّه عَضُّ

---

(١) فى كلا الأصلين : « بكأس » بالباء مكان الواو ؛ وهو تحريف .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (١) .

(٣) الشحرى : نسبة الى الشحر ، وهو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . قال الأصمعى :

٢٠ هو بين عدن وعمان ، وينسب اليه العنبر .

وقال الشَّمشاطىُّ فى دوحةٍ[1] جَمعتْ بين الأبيض والأصفر :

ويا سَمينٍ قد بدا لونين * قُراضة من وَرِقٍ[2] وعَيْنِ
رُكِّب فى زبرجدٍ نوعين * فالبِيضُ منه فى عِيان العَيْنِ
مِثْلُ ثغور البِيض غيرَ مَيْنِ * والصُّفْرُ لون عاشقٍ ذى بَيْنِ

وقال أحمدُ بنُ عبد الرحمن القُرطُبىّ : ٥

ولَقَاءَ خلناها سماءَ زبرجدٍ * لها أنجمٌ زُهرٌ من الزَّهَر الغَضِّ
تَناوَلَها الجانى من الأرض قاعدا * ولم أر من يَجنى النجومَ من الأرضِ

(٧٢)

وقال شاعرٌ يتطيّر به :

أصبحتُ أذكر بالرَّيحان رائحةً * منكم وللنفس بالرَّيحان إيناسُ
وأهجرُ الياسَمين الغضَّ من حَذَرِ الـ * ـياس إذ قيل فى شطر اسمه ياسُ ١٠

وقال آخر :

لا مرحبا بالياسَمين وان غدا للرَّوض زَينا
صحَّفتُه فوجدتُه * متقابلا ياسًا ومَيْنا

ونظيرُه قولُ الآخَر :

ويا سَمين إن تأمّلتَه * حقيقةً أبصرتَه شَيْنا ١٥
لأنّه ياسٌ ومَيْنٌ ومَن * أَحَبَّ قطُّ الياسَ والمَيْنَ

---

(١) لم نجد فيما راجعناه من كتب النبات أن شجرة الياسمين فى العظم والاتساع بحيث يصح أن يطلق عليها اسم الدوحة بالمعنى اللغوى ، وهو أنها الشجرة العظيمة المتسعة ذات الفروع الممتدة ؛ بل الياسمين شجيرات صغيرة ، كما هو مشاهد ، وكما وصفه علماء النبات فى كتبهم انظر الكلام على الياسمين فى عمدة المحتاج ج ٢ ص ١٧٢ طبع بولاق و إذن فالمراد بالدوحة هنا الشجرة مطلقا . ٢٠

(٢) الورق : الفضة . والعين : الذهب عامة .

وقال [ابنُ][1] الحَدّاد فى عكس ذلك :

بَعثتُ بالياسَمينِ الغضِّ مبتسِما * وحسنُه فاتنٌ للنّفس والعينِ
بَعثتُه منبئا عن صدق مُعتقَدى * فانظر تجد لفظَه ياسا من المَيْنِ

وأمّا الآسُ وما قيل فيه — فالآسُ نوعان : بَرّىّ وبستانىّ ؛ فالبَرّىّ هو الّذى يسمّى بدِمَشقَ : قِف انظُر[2] ، سُمّىَ بذلك لحُسنه ؛ وورقُه يشبه ورقَ البستانىّ ، إلا أنّه أعرضُ منه ؛ وطَرَفُه محدَّد ، يشبه سِنانَ الرُّمح ؛ واليونانُ تسمّى الآس : مَرْسِينَى ؛ وتسمّيه العامّة : مَرْسِينًا[3] . وقال ابن وحشيّة فى توليده : وإن خلطتم بأصل اليَبْرُوح عيدانَ الشِّبْث وورقَ الجرجير وسحقتم ذلك سحقا جيّدا وزرعتموه فى الأرض ، وهو كهيئة الكُبّة ، وصببتم فوق الكُبّة الماء ، وطمرتموه فى التراب ، خرجتْ عن ذلك شجرةُ الآس الطويلِ الورق . وإن أردتم المدوَّرَ الورق فاخلطوا مع أصل اليَبْرُوح ورقَ الآس الطويل ، ونصفَ وزن أصل اليَبْرُوح من ورق النَّبْق ، فإنه يخرج الآس المدوَّر الورق . قال : وإن أردتم الآسَ الأزرقَ اللّون ، فاخلطوا بأصل اليَبْرُوح ورقَ النّيل ، وأعجنوا معهما من أصل الزيتون وعروقِه ، وأطمِروه[4] فإنّه يَخرُج عنه الآسُ الأزرق .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا فى الآس : أقواه الذى يَضرِب الى السواد ، لا سيّما الخُسْرُوانىُّ[5] المستديرُ الورق ، لا سيّما الجبلىّ[6] ؛ وأجودُ زهرِه الأبيض ؛ وعُصارةُ ثمرتِه أجوَد .

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (أ) .
(٢) فى التذكرة والشذور الذهبية ومعجم أسماء النبات «قف وانظر» بزيادة الواو .
(٣) كذا ضبطه صاحب التاج فى مستدرك مادة «مرس» بفتح الميم ، وقال : هو ريحان القبور .
(٤) فى تاج العروس أن هذا الفعل من باب ضرب ؛ وفى المصباح أنه من باب قتل ؛ ولهذا ضبطناه بالوجهين .
(٥) الخسروانىّ : نسبة الى خسروشاه ، من الأكاسرة .
(٦) زاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله : «من جميعه» .

وأمّا طبعُه ففيه حرارةٌ لطيفة ، والغالب عليه البَرْد، ويُشبِه أن يكون بَرْدُه فى الأُولى، ويُبْسُه فى حدود الثانية .

وأمّا أفعالُه وخواصُّه، فإنّه يحبس الإسهالَ والعَرَقَ وكلَّ نَزْفٍ وكلَّ سَيَلانٍ الى عضو؛ واذا تُدُلِّك به فى الحمّام قوّى البـدن، ونَشّف الرطوبات التى تحت الجلد؛ وهو ينفع من كل نَزْف لَطوخا وضِمادا ومشروبا، وكذلك رُبُّه ورُبُّ ثمرته؛ وقبضُه أقوى من تبريده؛ وهو يُسرِع جبرَ العظام؛ وليس فى الأشربة ما يَعقِل وينفع أوجاعَ الرئةِ والسُّعال غيرُ شرابِه ؛ ودُهنُه وعُصارتُه [وطبيخُه](١) تقوّى أصولَ الشَّعر؛ وورقه اليابسُ يمنع صُنان الآباط؛ ورَمادُه ينقّى الكَلَف ، ويجلو البَهَق . قال : والآسُ يسكّن الأورامَ والحُمرةَ(٢) والنَّملةَ(٣) والبُثورَ والقُروحَ والشَّرى(٤) وحَرَقَ النار(٥)؛ وورقُه يُضمَد به بعد تخبيصه بزيتٍ وخمر؛ ويابسُه اذا ذُرَّ على الدّاحس(٦) نفعَه ؛ واذا طُبِخَتْ

(١) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٢٤٥ طبع بولاق .

(٢) الحمـرة : التهاب وورم وأحمرار شديد اذا ضغط عليـه بالاصبع يزول، ثم يعود، ويصحب ذلك ألم شديد مجرق، مع سرعة النبض، ثم تظهر حويصلات فيها مادّة مصلية تجف فيما بعد، ثم تسقط قشورا، وهى من أمراض الجلد الحادّة، وقد تظهر فى الوجه وفى بقية أجزاء البدن .

(٣) النملة : بثرة صغيرة صفراء تخرج فى الجسد مع التهاب واحتراق، ويرم مكانها يسيرا، وتدب الى موضع آخر كما تدب النملة؛ وسببها صفراء حارّة، تخرج فى أفواه العروق الدقاق، ولا تحتبس فيما هو داخل الجلد .

(٤) الشرى : داء يأخذ فى الجلد أحمر كهيئة الدراهم؛ وقيل : هو بثور صـغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة غالبا، وتشتد بالليل فى البدن . (٥) زاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله : «بالزيت» .

(٦) الداحس : ورم يأخذ فى الأظفار، ويظهر عليها، وهو شديد الضربان؛ وفى بحر الجواهر أن الداحس ورم حار يعرض بالقرب من الأظفار مع وجع شديد وضربان قوى وتمدّد يسقط الأظافر؛ وربمـا أحدث الحمى . وقال الأوربيون : إنه التهاب النسيج الخلوى الغليظ المندمج الداخل فيه خيوط عصبية كثيرة؛ وهو يحدث فى أطراف الأصابع، ولا خطر فيه إلا بسبب شدة وجعه، لما يحصل للريض به من الاختناق، واطلاق هذا الاختناق يزيل هذه العوارض فى الحال .

ثمرتُه بالشراب واتُّخذتْ ضمادا أبرأت القروحَ الّتى فى الكفّين والقدمين وحَرَق النار وتمنعه عن التنفُّط، ومن[(١)] استرخاء المَفاصل . قال : والآس يَحبِس الرُّعاف ويجلو الحَزاز[(٢)]، ويجفِّف قُروحَ الرأس، وقروحَ الأذن ؛ وينفع شرابُه من استرخاء اللِّثة؛ وورقُه اذا طُبخ بالشراب وضُمد به سَكّن الصُّداع الشديد؛ واذا شُرب شرابه قبلَ الشراب مَنَع الخُمار ؛ والآس يسكِّن الرمد والجُحوظ ؛ واذا طُبخ مع سَويق الشَّعير أبرأ أورامَ العين؛ والآس يقوّى القلب، ويُذهب الخفقان؛ وثمرته تنفع من السُّعال ؛ وهو يقوّى المعدة، خصوصا رُبُّه ؛ وحَبُّه يَمنع سيلان الفُضول الى المعدة ؛ وهو جيِّد فى منع دُرور الحيض ؛ وماؤه يَعقُل الطبيعة، ويَحبس الإسهال؛ وطبيخ ثمرته ينفع من سيلان رطوبات الرَّحِم؛ وينفع تضميده للبواسير؛ وينفع من ورم الحُصية ؛ وطبيخه ينفع من خروج المقعدة والرَّحِم؛ وهو ينفع من عَضِّ الرُّتَيلاء[(٣)]، وكذلك ثمرته اذا شُربت بشراب، وكذلك من العقرب .

وأما ما جاء فى وصفه — فقال الأخيطل الأهوازىّ :

للآسِ فضلُ بقائه ووفائه * ودوامِ نَضْرتِهِ على الأوقاتِ

(١) «ومن استرخاء» الخ أى «وتنفع من استرخاء» فالجار والمجرور متعلق بمحذوف هو هذا الفعل المذكور أو ما يفيد معناه وعبارة ابن سينا ج ١ ص ٢٤٥ طبع مصر : يوافق التضميد بثمرته مطبوخة بالشراب من استرخاء الخ ولم ينقل المؤلف هذه العبارة بنصها حذرا من تكرار هذا الكلام مع ما سبق من قوله قبل ذلك : « واذا طبخت ثمرته بالشراب واتخذت ضمادا » .

(٢) الحزاز، هو الهبرية التى تكون فى الرأس تشبه النخالة، وهى الوسخ الذى يعلق بأصول الشعر ويسمى قشرة الرأس .

(٣) الرتيلاء : دابة تشبه العنكبوت؛ تصيد الذباب؛ وأصنافها كثيرة؛ وشرّها المصرية، فمنها حمراء كأنها العنكبوت، مستديرة، ومنها سوداء دخانية؛ ومنها رقطاء؛ ومنها بيضاء مدوّرة البطن، صغيرة الفم، محدودة الظهر، بخطوط براقة؛ ومنها الصفراء؛ ومنها العنابية، فها فى وسط رأسها . وقال داود : الرتيلاء من العناكب كبير البطن قصير الأرجل، بين صفرة وسواد؛ وهو من السموم؛ نهشته تؤلم، وربما أضعفت . وقال الأوروبيون : هو نوع من العنكبوت كثير الوجود فى جنوب ايطاليا يحدث من عضه مرض عصبى عجيب لما يحصل لمعضوضه من التشنج بحيث إنه دائما يميل الى الرقص .

الجوُّ أغبر وهو أخضرُ والثرى * يَبْسٌ ويبدو ناضرَ الورَقاتِ
قامت على قُضبانِه ورَقاتُه * كنِصال نَبْلٍ جِدّ مؤتلِقاتِ

وقال آخَر :

وغادةٍ أهـدت الى إلفِها * قضيبَ آسٍ زاد فى ظَرفِها
كأنّما خُضـرةُ أوراقِه * بقيّـةُ الحِنّا على كفِّها

وقال آخَر[1] فى باقة[2] آس :

ومشمومةٍ مخضرّةِ اللّون غَضّـةٍ * حوت مَنظَـرا للنـاظرين أَنيقا
اذا شمّها المعشوقُ خِلتَ اخضرارَها * ووجنتَـه فَيْرُوزَجا وعَقيـقا

وقال ابنُ وكيع :

خليـلىَّ ما للآسِ يعبـق نَشرُه * اذا هَبَّ أنفاس الرِّياحِ العواطـرِ
حَكَى لونُه أصـداغَ رِيمٍ معـذَّرٍ * وصورتُه آذانَ خَيـلٍ نوافرِ

وأمّا الزّعفران وما قيل فيه — فالزّعفران يسمّى الجادِىّ[3] بالدالين المهملة والمعجمة، والجِساد، والرَّيْهَقان، والكُرْكُم .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا : جيّدُه الطرىّ، الحَسَنُ اللون ، الذكىُّ الرائحة ، على شَعرِه قليـلُ بياضٍ غير كثير ، ممتـلئٌ صحيحٌ سريعُ[4] الصّبْغ، غير متكرِّج[5]

(١) سيأتى فى صفحة ٢٥٤ من هذا السفر نسبة هذين البيتين الى أبى سعيد الأصفهانى .

(٢) مقتضى اللغة أن يقول : «فى طاقة» فان الطاقة من الريحان؛ وهذا هو المراد هنا . أما الباقة فهى الحزمة من البقل .

(٣) الجادى نسبة الى جادية، وهى قرية من عمل البلقاء من أرض الشأم .

(٤) فى كلا الأصلين ونسخة القانون المطبوعة فى أوربا «غير سريع» وقوله «غير» زيادة من الناسخ ويدل على هذا عبارة ابن البيطار فى صفة الزعفران الأقوى فى الطب : «واذا ديف صبغ اليد سريعا من ساعته» اه ولم يرد قوله : «غير» فى نسخة القانون المطبوعة فى مصر .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين والذى فى نسختى القانون المصرية والأوروبية «غير=

ولا متفتّت ؛ وطبعه حارٌّ فى الثانية، يابسٌ فى الأُولى . وقال فى أفعاله وخواصّه : هو قابضٌ محلّل مُنضِج مفتّح . قال : وقال الخُوزىّ : إنّه لا يغيّر خِلْطا ألبتّة (١) بل يحفظها (٢) على السوية (٣)، ويُصلِح العفونة، ويقوّى الأحشاء؛ وشُربُه يحسّن اللّون؛ وهو محلّل للأورام، وتُطلَى به الحُمْرة . قال : وهو مصدّع ، يضرّ الرأس؛ وهو منوّم، وإذا سُقِى فى الشّراب أسكَر؛ وينفع من الورم الحارّ فى الأُذُن ؛ وهو يجلو البصر ، ويمنع النوازلَ اليه ، وينفع من الغِشاوة، ويُكتحَل به للزُّرقة المكتسَبة من الأمراض؛ وهو مقوٍّ للقلب، مفرِّح يشمّه المبرسَم (٤) وصاحبُ الشَّوْصة (٥) للتنويم، وخصوصا دُهنَه، ويُسهِّل النَّفَس، ويقوّى (٦) النفس . قال : وهو مُغْثٍ يُسقِط

= ملزج» الجزء الأول صفحة ٣٠٦ طبع مصر وص ١٦٩ طبع أوربا وقد ورد فى مفردات ابن البيطار ما يوافق كلتا الروايتين ؛ فقد قال فى صفة الزعفران الأقوى فى الطب : « ليس بمتكرج ولا ند » الخ ، فأوّل العبارة يوافق ما هنا ، وقوله بعد : « ولا ند » يوافق ما فى القانون ، إذ معناه أنه غير ملزج ، والمتكرج : الفاسد : يقال تكرج الخبز اذا فسد وعلته خضرة .

(١) فى كلا الأصلين : «لا يعدّ» بالعين والدال؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون والمفردات .

(٢) يحفظها ، أى يحفظ الأخلاط ، كما هى عبارة ابن البيطار .

(٣) الذى فى القانون : « على اليبوسة » وما هنا هو الوارد فى كلا الأصلين ومفردات ابن البيطار وهو مقتضى سياق العبارة أيضا .

(٤) المبرسم : الذى أصابه البرسام ، وهو لفظ فارسى معناه ورم الصدر؛ وهذا المرض ورم حار فى الحجاب المعترض بين الكبد والمعدة يحصل معه الهذيان ؛ وسببه إما دم صرف ، وعلامته التمدد وحمرة الوجه وعظم النبض وضيق النفس ؛ وإما دم صفراوى ، وعلامته شدة النخس والوجع ، وشدة الحمى ، وسرعة النبض ؛ وإما دم سوداوى ، وعلامته شدة النخس مع يبس الفم وقوة الحمى وخشونة اللسان وسواده؛ وأكثره قاتل . وقال الهروى : إنه ورم فى الحجاب المعترض بين القلب والمعدة .

(٥) الشوصة : ورم يحدث فى الحجاب الذى على اضلاع الخلف تحت الحجاب الحاجز، وعلامته أن العليل لا يمكنه أن ينام على شكل من الأشكال وألا يتحرك بسهولة . وقال ابن سينا : إنه قد تعرض فى الحجب والصفاقات والعضل التى فى الصدر والأضلاع ونواحيها أورام مؤذيه جدا موجعة تسمى شوصة وبرساما وذات الجنب .

(٦) عبارة القانون والمفردات : «ويقوّى آلات النفس» .

الشهوة بمضادّته[1] الحموضةَ التى فى المعدةِ وبها[2] الشّهوة، لكنّه يقوّى المعدة لما فيه من الحرارة والدّبْغ والقَبْض . وقال قوم : الزعفرانُ جيّدٌ للطّحال . قال : وهو يهيج الباه، ويُدِرّ البول، وينفع من صلابة الرِّحِم وانضمامِها والقروحِ الخبيثةِ فيها اذا استُعمِل بمُومٍ[3] أو مُحٍّ مع ضِعفِه زيتا . وزعم بعضُهم أنّه سقاه للطّلْق المتطاوِل فوَلدتْ للساعة . قال : وثلاثة مثاقيلَ منه تَقتُل بالتفريح؛ واذا عُدِم فبدله وزنه قُسْط[4]، وربعُ وزنه قشورُ السّليخة[5] .

وأما ما جاء فى وصفه — فقال مؤيّد الدّين الطُّغرائىّ :

وحديقةٍ للزعفران تأرّجتْ * وتَبرّجتْ فى نسجِ وشيٍ مُونِقِ
شكت الحِيالَ[6] فألقحتْها[7] نطفةٌ * من صَوبِ غاديةِ الغمامِ المُغدِقِ
حتى اذا ما حان وقتُ وِلادِها * فَتَق الصَّبا منها الذى لم يُفتَقِ
عذراء حُبلَى قَمَّطتْ أولادَها * حُمرا وصُفرا فى الحريرِ الأزرقِ

(١) فى كلا الأصلين : «لمصادقة» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى القانون ج ١ ص ٣٠٧ طبع بولاق وص ١٦٩ طبع أوربا، وهو ما تفيده عبارة ابن البيطار أيضا اذ قال : ويبطل الحموضة التى تكون فى المعدة المفردات ج ٢ ص ١٦٣ طبع بولاق .

(٢) «وبها»، أى بالحموضة .

(٣) الموم : شمع العسل، قال الأزهرى : هى فارسية . والمح : صفرة البيض .

(٤) القسط ويقال فيه : «الكسط والكشط» أيضا، وهو عود هندى يتبخر به .

(٥) السليخة : عطر تراه كأنه قشر منسلخ كما فى القاموس وشرحه . وقال ابن البيطار : السليخة أصناف كثيرة تكون فى بلاد العرب المنبتة للأفاويه، ولها ساق غليظة القشر وورق شبيه بورق النوع من السوسن الذى يقال له إيرساء، واختير منها ما كان يافوتيا حسن اللون دقيق الشعب أملس غليظ الانابيب طويلها، يلذع اللسان ويقبضه، عطر الرائحة، طيبها، عفص الطعم، دقيق القشر، مكتنز، فيه شىء من رائحة الخمر . وقال داود : السليخة : قشر شجر هندى ويمنى؛ وقيل : من خواص بلاد عمان، وذكر لها أنواعا سبعة فارجع الى تفصيلها فى التذكرة .

(٦) الحيال : عدم الحمل .

(٧) فى كلا الأصلين : «فالحقتها» بتقديم الحاء على القاف؛ وهو تحريف .

وكأنّما اقتتلوا فأصفرُ خائفٌ * بحـــذاء قانٍ بالدّماء مغـرّقِ

وقال آخر :

وكأنّ وَردَ الزعفران مَضاحكٌ * قد جمّعتْ لَعَسٌ[1] المقبّل واللّمى[2]

أو أنصُلٌ فوق التراب سديدةٌ * قد فارقتْ بعد الرِّماية أسهُما

٥ وقال آخر :

للزعفـران اذا ما قاسـه فَطِنٌ * فضـــلٌ على كلّ وَرد زاهرٍ أنِقِ[3]

كأنه ألسُنُ الحيّـات قد شُدِختْ * رءوسُها فاكتست من حُمرة العَلَقِ

مِن لابسٍ حُمرةً من وجهِ ذى خجلٍ * ولابسٍ صُفرةً من وجهِ ذى فَـرَقِ

لا شيءَ أعجبُ من لونَيهما وهمـا * نَشْوانِ[4] تِرْبانِ[5] فى مَهدٍ وفى خِرَقِ

١٠ فرعانِ مختلِفٌ معناهما وهمـا * نتيجتا جوهرٍ فى الأصـل متّفِقِ.

وقال آخر[6] :

طلَعَ الزعفرانُ مِثلَ زِجاجٍ[7] * قد تُنُضِّلْن[8] من سهامِ غِلاءِ[9]

(١) اللعس بالتحريك : سواد مستحسن فى الشفة واللثة . وقيل : هو سواد فى حمرة .

(٢) اللمى : سمرة فى الشفة مستحسنة .

١٥ (٣) فى رواية : «عبق» انظر مباهج الفكر .

(٤) نشوان : تثنية نشو بمعنى نشء بسكون الشين فيهما . وفى كتب اللغة أنه يقال : أترجة نشوة ، أى حديثة لسنتها ؛ ويقال : « نشوت فى بنى فلان نشوا ونشوة » ، أى كبرت .

(٥) فى كلتا النسختين : «ريان» ؛ وفيه تصحيف ونقص .

(٦) قائل هذا الشعر هو محمد بن عبد الله البربرى ، كما فى مباهج الفكر .

٢٠ (٧) الزجاج : نصال السهام ، واحده زج بالضم .

(٨) تنضلن بالضاد مبنيا للمجهول ، أى استخرجن ؛ يقال : تنضله ، أى أخرجته ؛ ويجوز أن يقرأ بالصاد المهملة مبنيا للمجهول أيضا ، وهى رواية مباهج الفكر ، وهو بمعناه ؛ يقال : تنصلت الشىء بمعنى أخرجته ، كما يجوز أن يقرأ «تنصلن» مبنيا للفاعل ؛ أى خرجن ، يقال : تنصل من الذنب ؛ أى خرج منه .

(٩) الغلاء بالكسر : مصدر غالى السهم وغالى به : اذا رفع به يديه مريدا لأقصى الغاية ، أو اذا =

وتَراءى كأنّه شُعَلُ الكبْـ * ـريتِ ليلا ضياؤها فى غِطاءِ
ورقٌ فيه زرقةٌ تجلب اللهـ * ـو ويَسْبى عِيانُه كلَّ رائى
يَتفرّى عن قانئاتٍ حسانٍ * مثلِ هُدْبٍ معصفرٍ من رِداءِ
قائماتٍ كأنّها أَلِفاتٌ * خُطِّطتْ فى الطِّراز ذات آستواءِ
يَتنقّبن للرجال غُدُوًّا * ثم يَسفِرنَ ضَحوةً للنّساءِ
يَتبرّجن فى ثياب الشّكالَى * ويُعرّين منه بعدَ آكتساءِ
زِىُّ عُرْسٍ ومأتَمٍ ذا لدَى خـ * ـيرِ عِشاءٍ وذا لِشَرِّ عِشاءِ[1]
مثلُ غمٍّ قد آنجلَى عن سرورٍ * ونعيمٍ قد آنتُضِى عن بلاءِ

وقال أبو بكر الخُوارَزمىّ :

أما تَرَى الزعفرانَ الغَضَّ تحسَبه * جمرا بدا فى رَماد الفحم مضطرِما
كأنّه بين أطراف تُحُف به * طرائقُ الدّم فى خدّين قد لُطِما
دمٌ عيانا ومِسكٌ نَشْرَ رائحةٍ * فى طيبه وكذاك المِسكُ كان دما

[وقال آخر][2] :

شَبّهتُ روضَ الزّعفران بشاطرٍ[3] * سَلَب النّصارى واليهودَ شِعارَها
كصحيفةٍ من سندسٍ عُنِيتْ[4] بها * كفٌّ صَناعٌ قَوّمتْ أسطارَها

= رمى به أقصى الغاية ؛ ويجوز أن يقرأ غلاء بفتح الغين ، وهو المغالى بالسهم ، أى سهام رام بعيد الرمى ، ولهذا ضبطناه بالوجهين .

(١) فى كلا الأصلين : «فشر» بالفاء ؛ والسياق يقتضى اللام كما أثبتنا .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (أ) . (٣) الشاطر ، هو الذى أعيى أهله ومؤدبه خبثا ومكرا وأخذ فى نحو غير الاستواء والاستقامة ؛ وقيل : إنه لفظ مولد .

(٤) فى كلا الأصلين : «عبثت» بالباء الموحدة والثاء المثلثة ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا بدليل وصف الكف بعد بأنها صناع ، وبأنها تقوّم الأسطار ، فان هذين الوصفين لا يكونان ليد عابثة . وانظر مباهج الفكر .

وكأنّما ألفاتُها قد تُوِّجتْ * بمجامرٍ تُذكى النسائمُ نارَها[1]
من كلِّ فاقعةٍ تَلَفَّعُ دائما * بدخانِ كِبريتٍ تجرّ إزارَها
متقنّعاتٍ فى الدّجى فاذا بدا * للصّبح إسفارٌ سَفَرْنَ خِمارَها
والشمس طالعةٌ على أخواتها * واذا توارت أسبلتْ أستارَها

وأمّا الحَبَقُ وما قيل فيه — فالحَبَقُ أنواع، تُطلِق عليها العامّةُ الرَّيحان؛ ومن[2] أسمائه الباذَرُوج، وهو[3] الحَماحِم. ويسمّى[4] الباذَرَنْجَبُويَه والباذَرَنْبُويَه،

(١) فى (ا) «المجامر»؛ وهو تبديل من الناسخ صوابه ماأثبتنا نقلا عن مباهج الفكر.

(٢) «ومن أسمائه»، أى ومن أنواعه؛ أو أن الكلام على تقدير مضاف محذوف، أى من أسماء أنواعه؛ فان ما يأتى بعد ليست أسماء للحبق تدل على ما يدل عليه هذا اللفظ كما توهمه هذه العبارة، بل هى أنواع منه، والحبق اسم يعمها جميعا؛ كما يؤخذ ذلك من الكتب التى بين أيدينا كالمفردات والتذكرة وغيرهما، وسنذكر فى الحواشى الآتية تعريف كل صنف من هذه الأصناف.

(٣) الذى وجدناه فيما راجعناه من الكتب أن الباذروج ليس هو الحماحم كما ذكره المؤلف هنا، بل كل منهما صنف متميز عن الآخر وان كان كلاهما من الحبق، فقد أفرد الأطباء والنباتيون كلا منهما بباب مستقل، ولم يذكروا فى أحدهما أنه هو الآخر؛ فالباذروج بقلة تستنبت فى البيوت، وقد تنبت بنفسها، ويسمى هذا النبات الريحان الأحمر والسليانى، وهو عريض الأوراق مربع الساق حريف غير شديد الحرافة. وذكر داود أن هذا الاسم نبطى؛ وقال ابن الكتبى إنه فارسى، وهو بالعربية الحوك، ويسمى باليونانية أوقيمون انظر عمدة المحتاج ج ٢ ص ٥٩٣ والتذكرة ج ١ ص ٩٤. أما الحماحم فهو الحبق الكرمانى كما فى المفردات (وفى قاموس الأطباء الحبق البستانى) وهو عريض الورق، ويسمى الحبق النبطى، له أغصان خضر مربعة خوارة ونور أبيض. وقال أبو حنيفة: الحماحم بأطراف اليمن كثير، وليس ببرى، ويعظم عندهم.

(٤) «ويسمى» أى ونوع من الحبق يسمى الخ فان الباذرنجبويه والباذرنبويه ليسا اسمين للحبق يدلان على ما يدل عليه كما تفيده عبارة المؤلف، بل هما اسمان لنوع متميز بنفسه من أنواعه؛ والحبق لفظ يعم هذا النوع وغيره، فقد ذكر الأطباء والنباتيون أن الباذرنجبويه والباذرنبويه لفظان فارسيان معناهما الأترجية الرائحة؛ وهذا الصنف هو الترنجان والبقلة الأترجية؛ ويقال له مفرح القلب أيضا، وهو عشبة يشبه ورقها وقضبانها ورق البلوطى وقضبانه (البلوطى غير البلوط، وهو المعروف بعشبة الكلاب) =

وأسمه بالفارسية: المَرْماحُوز(١)، ومنه ما سمّى الفَرَنْجَمَشْك(٢) بالفاء والباء(٣)، ورائحته كرائحة القَرَنْفُل؛ ويقال فيه فَلَنْجَمَشْك، وأَفْلَنْجَمَشْك؛ وكلّها فارسيّة. ومنه ما يسمّى

= إلا أن ورقها أكبر من ذلك الورق، وليس عليه زغب مثل ما عليه، ورائحتها مثل رائحة الأترج، والنحل تستطيبها وتحل عليها. وقال داود: هى بقلة تنبت وتستنبت خضرة، لطيفة الأوراق، بزهر الى الحمرة عطرية، ربيعية وصيفية.

(١) واسمه، أى اسم بعض أنواع الحبق، فان المرماحوز الآتى ليس مرادنا الحبق كما يفيده ظاهر كلام المؤلف، بل هو اسم لنوع منه كما يفيده كلام ابن البيطار وداود وغيرهما وانظر تعريف هذا الصنف فى الحاشية الآتية.

(٢) قال ابن البيطار فى المفردات ج ٤ ص ١٤٨ طبع بولاق ضمن الكلام على المرو الذى من أقسامه المرماحوز: إن المرماحوز يرتفع عن الأرض شبرا وزيادة، ساقه خشبية، وعروقه نابتة متقاربة، ويتفرع ورقه على تلك الساق بشىء يمتدّ منها الى الورقة؛ وريح ورقه طيب قليلا، وطعمه مرّ، وفيه أدنى بشاعة تخالط مرارته أول ما يخالط الفم، له بزر فى ظرفه يلقط فى تموز كبزر الكتان، وفى ورقه أدنى تحديد فى رأسه، منكسر الخضرة نحو السلق والآس. وقال داود: المرماحوز هو السرو الجبلىّ خشبي، خشن الأوراق، يقارب النبات المعروف بلسان الثور إلا أنه أطول، وفى أوراقه ميل الى أسفل، وبزره فى ظروف كالكتان. وفى المادة الطبية ج ٢ ص ٥٥٥ أن المرماحوز شجيرة تنبت فى حوض البحر المتوسط، وأنه قد يسمى حبق الشيوخ وحشيشة الهرّ، لأن الهرّ يحب الرائحة التى تتصاعد منه؛ ويسمى باللسان النباتى طقريون مارون، وأن ساقه أسطوانية، وفى بعض الأصناف تكون مربعة، وهى مغبرة مبيضة، وطولها قدم بل أكثر، وهى دقيقة خيطية، والأوراق متقابلة صغيرة بيضاوية كاملة خضر زاهية من الأعلى، وبيض بالكلية من الأسفل، والأزهار حمر أرجوانية. ثم ذكر مؤلف هذا الكتاب نقلا عن أطباء العرب أن عروق هذا النبات، أى أغصانه، تطول بقدر طول الساق، وورقه على الساق بين التدوير والمطاول، وبين الخضرة والغبرة، زهره يميل الى غبرة وصفرة الخ ما ورد من صفات هذا النبات.

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ فى القاموس مادة (حبق) ضبطا بالقلم لا بالعبارة — وضبط فى المعجم الفارسى الانجليزى بضم الميم؛ وورد فى معجم أسماء النبات ص ١٢٧ مرة بالسين المهملة، ومرّة بالشين المعجمة؛ ومعناه: مسك الإفرنج، وهو عشب دقيق القضبان يستعمل فى الأكاليل شبيه بالباذروج، طيب الرائحة، كأن فيه زغبا؛ وقد يزرعه بعض الناس فى البساتين، كما قاله ديسقوريدوس. وقال غيره؛ الفلنجمشك صنفان: أحدهما بستانى، ويقال له الهندى؛ والآخر برى، ويقال له الصينى؛ والأول مربع العيدان، ورقه كورق الباذروج، ولونه بين الخضرة والصفرة، ورائحته كرائحة القرنفل. والصينى ينبت فى الصخور دقيق الورق، شبيه بورق الثمام البرى، ورائحته أشد وأحدّ من رائحة البستانى. وقال داود: الفلنجمشك القرنفل البستانى، وهو شجر كثير الفروع، عريض الأوراق، مربع الساق خشن، طيب الرائحة، له بزر كالريحان، ينبت ببساتين مصر كثيرا.

بالفارسيّة : الشاهِسْفَرم[١]، ومعناه مَلِكُ الرّياحين[٢]؛ والعرب تسمّيه : الضَّيْمَران[٣] والضَّوْمَران؛ ومنه حَبَقُ الفتى[٤]: المَرْزَجُوش[٥] والمَرْزَنْجُوش[٦] والمَرْدَقُوش[٧] والعَبْقَر[٧]، ومنه ما يسمّى المَرْوَ والزَّغْبَر والزَّبَغْر، وهو المَرْوُ الدقيقُ الورق . والصَّعْتَرىّ[٨]، وريحان[٩]

(١) الشاهسفرم، هو الحبق الكرمانى، وهو دقيق الورق جدا، يكاد يكون كورق السذاب، عطر الرائحة، وله وشائع فرفيرية كوشائع الباذروج؛ ويبقى نواره فى الصيف والشتاء . وذكر داود أن هذا الصنف هو الأخضر الضارب الى الصفرة، ويعرف بالريحان المطلق، ويغرس فى البيوت، واذا رش عليه الماء اشتدت رائحته .

(٢) ورد فى التاج مادة «شاهسفرم» أن معناه ريحان الملك . وفى مادة « حبق » أن معناه سلطان الرياحين؛ وهذا الأخير هو الموافق لما هنا .

(٣) ما ذكره المؤلف من أن الضيمران والضومران من أسماء الشاهسفرم قول لبعض العلماء أورده صاحب التاج فى مادة « ضمر » . ويؤخذ من كلام ابن البيطار أنه غير الشاهسفرم فقد ذكر فى الكلام على الضيمران أنه ضرب من حبق الماء، وهو الفوتنج النهرى . أما الشاهسفرم فهو الحبق الكرمانى، كما سبق فى الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة، فانظرها .

(٤) يلاحظ أن هذا اللفظ قد ورد فى بعض الكتب بالقاف والنون كما فى قاموس الأطباء؛ وهو تحريف صوابه بالفاء والتاء كما هنا وكما فى القاموس وشرحه مادة «حبق»؛ ويرجح ذلك أيضا أن من أنواع الحبق نوعا آخر يسمى : حبق الشيوخ، فيناسب أن يسمى هذا النوع الذى نحن بصدده : حبق الفتى .

(٥) المرزنجوش : نبات كثير الأغصان، ينبسط على الأرض فى نباته، وله ورق مستدير عليه زغب، وهو طيب الرائحة جدا . وقال داود إنه من الرياحين التى تزرع فى البيوت وغيرها، ويفضل النمام فى كل أفعاله؛ وهو دقيق الورق، بزهر أبيض الى الحمرة، يخلف بزرا كالريحان، عطرى . وفى القاموس وشرحه أن عربيته سمسق بكمفر .

(٦) العامة يبدلون الميم من هذا اللفظ باء فيقولون : بردقوش (التاج) فى الكلام على المردقوش ومعجم أسماء النبات ص ١٣٠

(٧) ذكر صاحب المنهج أن هذا اللفظ يقال بالموحدة كما هنا؛ ثم ذكره مرة أخرى فى باب العين والنون : «عنقر» وكذلك نص صاحب المادة الطبية على أنه بباء موحدة وتبدل نونا الجزء الثانى ص ٥٨٥

(٨) فى المفردات والتذكرة والتاج فى الكلام على أنواع الحبق : أن الحبق الصعترى هو الشاهسفرم، وقد تقدم الكلام عليه فى الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة، فانظرها وكلام المؤلف يفيد أن كلا منهما غير الآخر تبعا لما فى مباهج الفكر .

(٩) ريحان الكافور يسمى الكافور اليهودى، ويسمى بالفارسية سوسن، وهو بفارس كثير؛ وهو نوع =

الكافور، ويسمّى[1] بالفارسيّة (سُوسَن) واناه[2]، وشكلُه شكلُ المنثور، ورائحتُه رائحةُ الكافور الرِّياحىّ[3].

كلام لابن سينا فى طبع الباذروج وخواصه

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا فى طبائع الرّياحين: الباذَرُوجُ[4] طبعُه حارٌّ فى الأُولى الى الثانية، يابسٌ فى أوّل الأُولى، وفيه رطوبةٌ فَضْليّة. قال: وفيه قَبْض وإسهال، فإنّه يَقبِض، إلّا أن يصادفَ فَضْلا مستعدّا، فاذا صادف خِلْطا أسهَله؛ وفيه تحليل وإنضاج ونَفْخ، ويُسرِع الى التعفّن؛ ويولّد خِلْطا رديئا سَوداويّا؛ وبزرُه ينفع مَن تتولّد فيه السّوداء؛ واذا طُلِىَ بالخَلّ ودُهن الوَرد على الأورام الحارّة نَفَع؛ وعُصارتُه قَطورا تنفع الرُّعاف، لا سيّما بخَلّ خمرٍ وكافور؛ وهو مما يسكّن المُطاسَ مِن مِزاج، ويحرّكه من مِزاج؛ وهو ينفع من ضربان العين ضِمادا: ويُحدِث ظُلمةَ البصر مأكولا لتخليط رطوبته وتبخيرها؛ وعُصارتُه تقوّى

(٧٥)

= من الشجر ينبت فى أرض خراسان فى شكل شجر المنثور وزهره أيضا شبيه بزهر المنثور والخزامى، لا يغادر منه شيئا، وورقه فى صورة صغار ورق الهندبا أو فى صورة الهندبا البرى، وزهر هذه الشجرة وورقها جميعا يؤديان روائح الكافور الرياحى القوى الرائحة، اذا شم أو فرك باليد يابسا كان أو رطبا. وقال داود: إن شجر ريحان الكافور كشجر الرمان ورقا وحجما إلا أنه يزهر الى الزرقة والبياض، ويوجد بجبال فارس، وليس له زمن مخصوص.

(١) يسمى، أى ريحان الكافور.

(٢) كذا ورد هذا اللفظ بالنون فى كلا الأصلين والمنهج المنير فى أسماء العقاقير؛ والذى فى المفردات ج ٢ ص ١٤٨ «أتاه» بالتاء؛ ولم يذكره استاين جاس فى معجمه الفارسى الانجليزى.

(٣) يجوز أن يقرأ هذا اللفظ الرياحىّ بالياء المثناة كما هنا، وأن يقرأ الرباحى بالباء الموحدة نسبة الى رباح أحد ملوك الهند، وهو أوّل من عرفه، كما قاله داود فى الكلام على الكافور ج ٢ ص ١١٦ طبع بولاق.

(٤) تقدّم الكلام على صفة الباذروج فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر فانظرها.

البصر كُحلا ؛ وهو يقوّى القلبَ جدّا ، ويجفّف الرئةَ والصدر ، وسُكُرّجة[1] من مائه تنفع من سوء التنفّس ؛ وماؤه يُدِرّ اللّبَن ؛ و بزرُه ينفع من عُسر البول ؛ واذا وُضع على لَسْع الزّنابير والعقارب سكّنه .

وأمّا المَرْماحُوز[2] — فهو حارٌّ فى الثالثة ، يابسٌ فى الثانية ؛ وهو لطيفٌ محلّل مسكّن للرّياح ، مفتّحٌ للسُّدُد البَلْغَميّة حيث كانت ؛ والإكبابُ على نَطولِه يحلّل البُخار والصُّداع البارد ؛ وهو يقوّى المعدةَ وينشّف رطوبتَها ، ويقوّى الأمعاء .

وأمّا المَرْزَنْجُوش[3] — فهو حارٌّ يابسٌ فى الثالثة[4] ؛ وهو لطيف محلّلٌ مفتّح ؛ وهو طِلاءٌ جيّدٌ على الأورام البَلْغَميّة ؛ ودُهنُه ضِمادٌ للفالج المُيل العنقِ الى خَلْف ولغيره من الفالج ؛ ويفتّح سُدَدَ الدّماغ ؛ وينفع من الشّقيقة[5] والصُّداع والرّطوبة والرياحِ الغليظة ، ومن وجع الأُذُن نَطولا[6] وقَطورا ؛ وتُجعَل فيها قطنةٌ مغموسةٌ

(١) كذا ضبط الشهاب هذا اللفظ فى شفاء الغليل ضبطا بالعبارة ، فقال : « إنه بضم السين والكاف وفتح الراء المشدّدة ؛ ومنهم من ضمها ، والصواب الفتح » الخ ويستفاد من كلام صاحب التاج فى مستدركه أنه بضم الراء ، فقد قال : إنه بضم السين والكاف والراء مشدّدة ، وهى قصاع صغار يؤكل فيها ، وليست بعربية ، وهى كبرى وصغرى ، فالكبرى تحمل ست أواق ، والصغرى ثلاث أواق ؛ وقيل : أربع مثاقيل ؛ ثم قال : ومعنى ذلك أن العرب كانت تستعملها فى الكوانخ وأشباهها من الجوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهى والهضم . وقال ابن سينا : السكرجة : ستة أساتير وربع ، والاستار : ستة دراهم ودانقان .

(٢) تقدّم الكلام على صفة المرماحوز فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٤٨ من هذا السفر ، فانظرها .

(٣) تقدم الكلام على صفة المرزنجوش فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٢٤٩ من هذا السفر ، فانظرها .

(٤) فى قاموس الأطباء : « فى الثانية » .

(٥) الشقيقة : وجع يأخذ فى أحد شقى الرأس ، ويهيج بأدوار غالبا هيجانا شديدا لأدنى سبب ، إما عن حركة ، أو شرب خمر ، أو غير ذلك . وحدّها جالينوس بأنها السائرة المتوسطة ، أى السائرة فى الرأس الى وسطه ؛ وسميت شقيقة لاختصاصها بشق .

(٦) النطول عند الأطباء ، هو الماء الذى تطبخ فيه الأدوية ثم يصفى منها و يصب قليلا قليلا من علو على العضو المؤوف ، أى ذو الآفة .

فى دُهن المَرْزَنْجُوش فتنفع من انسدادها، وطبيخُه ينفع من الاستسقاء، ومن عُسْر البول، والمَغْص، ودُهنُه ينفع من انضمام الرِّحم المؤدِّى إلى احتقانها[1]، وهو مع الخَلّ ضمادٌ للسع العقرب .

وأمّا الفَلَنْجَمَشْك[2] — فهو أعدلُ من المَرْزَنْجُوش والنَّمام، وأقلُّ يُبْسا، وهو يفتّح السُّدَدَ العارضةَ فى الدّماغ والمَنَخِرَين شمّا وطِلاء وأكلا، وينفع الخفقانَ العارضَ من البَلْغَم والسَّوداء فى القلب[3]، وهو جيّدٌ للبواسير .

وأمّا ما وُصِفتْ به الرَّياحين — فقال السَّرىُّ الرَّفّاء :

وبساطِ رَيحانٍ كماء زبرجدٍ * عَبِثَتْ[4] بصفحته الجَنوبُ فأُرعِدا
يَسْتاقُه الشَّرْبُ[5] الكرامُ وكلَّما * مَرِض النَّسيمُ سَرَوا[6] إليه عُوَّدا

وقال أبو الفضل المِيكالىّ :

أعددتُ محتفِلا ليومِ فَراغى * روضا غدا إنسانَ عينِ الباغِ[7]

(١) الذى فى القانون «اختناقها» الجزء الأول صفحة ٣٦٧ طبع مصر وصفحة ٢٠٩ طبع أوربا . واختناق الرحم : مرض معروف ذكره الأطباء فى كتبهم انظر الأسباب والعلامات للسمرقندى فقد ورد فيه أن اختناق الرحم علة شبيهة بالغشى والصرع، وتبتدئ من الرحم الخ .

(٢) تقدّم الكلام على صفة الفلنجمشك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٤٨ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) زاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله : «أكلا» .

(٤) رواية مباهج الفكر : «عبثت به أيدى النسيم» .

(٥) الشرب : القوم يجتمعون على الشراب .

(٦) فى (ب) «سعوا» وفى مباهج الفكر : «أتوا» .

(٧) الباغ «البستان» كما فى شرح القاموس مادة «بوغ» . وما ذكرناه من معنى الباغ فى هذا البيت هو ما يستفاد من كلام صاحب شفاء الغليل، فقد أورد بيت الميكالى هذا شاهدا على الباغ بالمعنى السابق وقال : باغ فارسىّ عرّبه المولدون وأدخلوا عليه اللام اه . والمعنى أن هذا الروض خير ما فى البستان من مواضع النزهة .

روضا يَرُوض هموم قلبي حُسنُه * فيه لكأسِ اللهو أيُّ مَساغ
فاذا آنثنت قُضبانُ رَيحانٍ به * حيّت بمِثل سلاسلِ الأصداغ (١)

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وخُضرٍ تجمع الأعجازُ منها * مَناطقَ مِثلَ أطواقِ الحَمامِ
لها حُسنُ العوارض حين تبدو * وفيها لِينُ أعطاف الغلامِ

وقال مؤيِّد الدين الطُّغرائىّ :

مَراضيعُ من الرَّيحان تُسقَى * سَقيطَ الطَّلِّ أو دَرَّ العِهادِ
ملابسُهنّ خُضرٌ مشبعاتٌ (٢) * تشير بزيِّهنّ الى السواد
اذا ذَرّت عليها المِسكَ رِيحٌ * وجاد بفيضهنّ يدُ الغوادى
تخلَّلها الرياحُ فسرّحتْها * صنيعَ المُشط فى اللِّمَمِ الجِعادِ
جرت وَهْنا بها وسَرتْ عليها * فطاب نسيمُها فى كلِّ وادى

وقال آبنُ أفلحَ الأندلسىّ :

وحَماحِيمٍ (٣) كأسنّةٍ * فى كل معتدِلٍ قويمْ
أو أنجمٍ نَزعت (٤) لتحـ * ـرِق كلَّ شيطانٍ رجيمْ
أو مِثلِ أعرافِ الدُّيو * ك لدى مبارَزة الخصومْ

(١) فى كلا الأصلين : «جنت» بالجيم والنون ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى كلا الأصلين : «مسبغات» ؛ وهو تصحيف ، وسياق البيت يقتضى ما أثبتنا ، فان قوله بعد : «تشير بزيهن الى السواد» يقتضى الوصف بأنها مشبعة من الصبغ الأخضر ، أى رويت منه حتى شبعت ، لا بأنها «مسبغة» أى طويلة ضافية .

(٣) تقدّم الكلام فى صفة الحماحم فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر ، فانظرها .

(٤) نزعت ، أى انتقلت ؛ وبهذا المعنى فسر بعض اللغويين قوله تعالى : «والنازعات غرقا» فقال : هى النجوم تنزع من مكان الى مكان . وفى (ا) : «بزغت» .

أو كالشَّقيق تَحرّشتْ * بفروعِه أيدى النسيمْ
أو ثاكلٍ صَبَغتْ بَنا * نا من دم الخدّ اللَّطيمْ

وقال آخَر :

ورَيحانٍ تَميس به غصونٌ * يطيب بشَمِّه شُربُ الكُئوسِ
كسُودانٍ لَبسن ثيابَ خَزٍّ * وقد تُرِكوا[1] مَكاشيفَ الرُّءوسِ

وقال آخَر :

أما ترى الرَّيحانَ أهدَى لنا * حَماحِما منه فأحيانا
تحسَبه فى طَلِّه والنَّدَى * زمرّدا يَحمِل مَرجانا

وقال آخَرُ فى الشاهِسْفَرم[2] :

وقامةِ رَيحانٍ أنيقٍ نباتُها[3] * غذاها نميرُ الماء سَقيا على قَدْرِ
تَكلَّلَ أعلاها بنظمٍ محبَّرٍ * وضاق عليها الزِّىُّ بالوَرق الخضرِ
وفاحت بنَشْرٍ طيِّبِ الشَّمِّ عاطرٍ * له نَشَواتُ المِسكِ فى سائر العِطرِ
فأصبح شاهًا للرياحين كلِّها * فليس لها ما دام شىءٌ من الأمرِ

وقال أبو سعيد الأصفَهانىّ :

[وشَمّامةٍ مخضرّةِ اللّونِ غَضّةٍ * حوت مَنظَرا للناظرين أَنيقا[4]

(١) فى رواية : «قاموا» انظر كوكب الروضة للسيوطى ورقة ٢١٨ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٣ تاريخ .

(٢) تقدّم الكلام فى صفة الشاهسفرم فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٤٩ فانظرها .

(٣) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة القامة بمعنى الطاقة من الريحان كما هو المراد هنا ؛ ولعل القامة فى هذا البيت جمع قائم ، كبائع وباعة ، يريد أعواد الريحان القائمة فى مغارسها ؛ أولعل صوابه «رخامة ريحان» ؛ والخامة الطاقة اللينة الغضة من النبات ؛ وهو أظهر الوجهين .

(٤) هذان البيتان لم يردا فى (أ) وقد سبق إيرادهما فى وصف الآس .

اذا شمها المعشوقُ خلتَ آخضرارَها * ووجنتَــه فَيْروزَجا وعقيقـا]

وقال آبنُ وَكيع فى الصّعترىّ (١) :

صَعترىٌّ أدَقّ من أرجل النّمـ * ـل وأذكى من نفحة الزّعفـرانِ

كسطورٍ كُسِينَ نَقْطا وشَكْلا * من يَدَىْ كاتب ظـريفِ البَنانِ

٥ وقال أبو بكر الخُوارَزْمىّ :

وصَـفتُ رَيحانا اذا ما وَصَـفَهْ * واصفُه قيـل له : زِدْ فى الصِّفهْ

دقّقَــه صانعُــه ولَطّفَــهْ * كأنّه وَشْمُ يــدٍ مطــرَّفهْ

أو خـطٌّ ورّاقٍ أدَقّ أحرُفَــهْ * أو زَغَبـاتُ طائرٍ مصــفَّفهْ

* أو حُلّةٌ مخضرّةٌ مفوّفهْ *

١٠ وقال صاعد الأندلسىّ فى الأترنجانىّ (٢) :

لم أَدْرِ قبلَ تُرُنْجانٍ مررتُ به * أنّ الزمردَ أغصانٌ وأوراقُ

مِن طِيبِه سرقَ الأُتْرُجُّ نَكْهَتَه * ياقومُ حتّى مِن الأشجار سُرّاقُ

وقال آخَرُ وأجاد :

ذكىُّ العَرْف مشكورُ الأيادى * كريمٌ عِرقُه (٣) يُسلِى الحزينـا

١٥ أَغارَ على التُّرُنْج وقـد حكاه * وزاد على آسمِــه ألِفـا ونونا

---

(١) يستفاد من إيراد المؤلف وصف الصعترى بعد ذكر ما قيل فى وصف الشاهسفرم أن كلاهما غير الآخر ؛ وليس كذلك ، فان الذى وجدناه فى كتب الأطباء والنباتيين أنهما واحد ؛ وقد سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ٨ من صفحة ٢٤٩ من هذا السفر ، فارجع اليها .

(٢) الريحان الأترنجانى ، هو الباذرنجبويه ، كما فى تذكرة داود ج ١ ص ١٦٤ طبع مصر وقد سبق الكلام على الباذرنجبويه فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر ، فارجع اليها .

(٣) كذا فى (أ) ؛ والذى فى (ب) «عرفه» بالفاء .

القسم الرابعُ

من الفنّ الرابع فى الرّياض والأزهار، ويتّصل به الصُّموغ والأمنان والعصائر[1]، وفيه أربعة أبواب

البـاب الأوّل من هذا القسم من هذا الفن

فى الرياض وما وُصِفتْ به نظما ونثرا

٥

أتّفق جوّابو الأقطار أنّ مستنزَهاتِ[2] الدنيا أربعةُ مواضع؛ وهى صُغْدُ سَمَرْقَنْد[3]، وشِعبُ بَوّانَ، ونهرُ الأُبُلّة، وغُوطةُ دِمَشق؛ وقد رأيتُ أن أصفَ هذه المستنزَهات[2] بصفاتها التى شاهدتُها ونُقِلتْ إلىّ؛ وأخبارِها التى عاينتُها وقُصّتْ أنبـاؤها علىّ؛ فقلتُ فى ذلك : ألذُّ ما تمتّعتْ بحسـنه النواظر، وأبهى ما ارتاحت النفوس الى أزهارِه النّواضر؛ وصفُ رياضٍ تاهت الأرضُ على السماء بأزهارِها، وباهت أنوارَ الكواكب بنُورها ونُوارِها .

١٠

(١) فى (أ) : «والبصائر»؛ وهو تحريف .

(٢) لم نجد المستنزهات بمعنى أماكن التنزه فيما راجعناه من كتب اللغة . وقال المطرزى فى المغرب : الاستنزاه بمعنى التنزه غير مذكور إلا فى الأحاديث اهـ يريد أحاديث الناس وقد ورد ذلك فى شعر بعض المحدثين، قال الشاعر :

١٥

بديع الجمال اذا ما بدا * ترى فيه للعين مستنزها

انظر الجزء الثامن من نهاية الأرب صفحة ١٤٣ طبع دار الكتب المصرية . وقد ورد فى كتب اللغة الاستنزاه من البول بمعنى الاستبعاد منه، فيجوز أن يحمل عليه الاستنزاه بمعنى التنزه، لأن فى التنزه استبعادا عن البلد وجماعات الناس، فان أماكن النزهة فى كل بلد انما تكون بعيدة عنها .

(٣) ذكر ياقوت فى صغد سمرقند أنه قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند الى قريب من بخارى، لاتبين القرية حتى تأتيها لالتحاق الأشجار بها؛ ثم نقل عن بعضهم أن مساحته ستة وثلاثون فرسخا فى ستة وأربعين، وبعضهم يجعل بخارى أيضا من الصغد، وفى مباهج الفكر أن مقداره اثنا عشر فرسخا فى مثلها .

٢٠

فمنها صُغْدُ سَمَرْقَنْد — الذى تَحُفّ به بساتينُ كست زهرتُها من الأرض عاريها[(١)]، وأصبح للسماء بكاءٌ فى جوانبها وللرَّوض ابتسامٌ فى نواحيها؛ تتخلّلها قُصورٌ يتضاءل سَنا النّجم فى آفاقها، وتحتجب الغزالةُ عند طلوعها حياءً من بهجتها وإشراقها.

ومنها شِعْبُ بَوانَ[(٢)] — الذى غدت مغانيه[(٣)] مغانىَ للزّمان، وقَصُرتْ الألسنُ عن وصف محاسنه وطالت إلى اقتطاف ثمره البَنان؛ تكاد شمسُه تَغرُب عند الإشراق، ولا تتخلل أشجارَه إلا والحياءُ يعيدها فى قبضة الإطراق؛ يستغنى بغُدرانه عن صَوب الصَّيِّب، ولقد أبدَع فى وصفه أبو الطَّيِّب:

مَغانى الشِّعب طِيبا[(٤)] فى المَغانِى[(٥)] * بمنزلة الرّبيع من الزمانِ

(١) لم نضبط قوله «عاريها» بفتح الياء لفوات السجع به الذى التزمه المؤلف فى كتابته، مع أن القواعد تقتضى الفتح، ويشير المؤلف بهذه العبارة والتى بعدها الى قول البسامى:

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها * مخضرة واكتسى بالنور عاريها

فللسماء بكاء فى جوانبها * وللرياض ابتسام فى نواحيها

وقد ورد هذان البيتان فى صفحة ٢٦٧، ٢٦٨ من هذا السفر، فانظرهما.

(٢) شعب بوان، صقع بأرض فارس بين ارجان والنوبندجان. وقال صاحب مباهج الفكر: إنه بقعة من نواحى كورة سابور، ومقدارها فرسخان.

(٣) مغانيه، أى منازله التى غنى بها أهلها، أى أقاموا، واحده مغنى بفتح أوله وسكون ثانيه؛ أما قوله بعد «مغانى للزمان» فيحتمل أنه جمع مغنى بفتح فسكون أيضا مصدر ميمى بمعنى الغناء بفتح الغين وهو الاكتفاء بالشىء عن غيره؛ يقال: «أغنى مغناه وغناه»، أى ناب عنه وأجزأ مجزأه؛ والمعنى أن فى هذه المنازل من الحسن والبهجة ما فيه غناء وكفاية للزمان عن غيرها من المنازل، وجمع المصدر هنا باعتبار وحداته.

(٤) ذكر العكبرى فى شرحه لهذا البيت أن الشاميين ينصبون قوله «طيبا» باضمار فعل، أى تطيب طيبا. وأما البغداديون فيرفعونه على أن «مغانى» مبتدأ، و«طيب» خبره.

(٥) فى كلا الأصلين «للغانى» باللام؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن شرح ديوان المتنبى للعكبرى ج ٢ ص ٤٨٩ طبع المطبعة الأميرية.

ولكنّ الفتى العَرَبىَّ فيها * غريبُ الوجه واليدِ واللسانِ
مَلاعبُ جِنّةٍ لو سار فيها * سليمان لسار بتُرْجُمانِ
[طَبَتْ فُرسانَنا والخيلَ حتّى * خشيتُ وان كُرِمن من الحِرانِ] (١)
غدونا تَنفُض الأغصانُ فيه * على أعرافِها مِثلَ الجُمانِ (٢)
فسِرتُ وقد حَجَبن الشمسَ عنّى * وجئن من الضِّياء بما كفانى
وألقَى الشرقُ منها فى ثيابى * دنانيرا تَفِرُّ من البَنانِ (٣)
لها ثمرٌ تشيرُ اليك منه * بأشربةٍ وقفن بلا أوانى (٤)
وأمواهٌ يَصِلُّ بها حَصاها * صَليلَ الحَلْىِ فى أيدى الغَوانى (٥)
اذا غنّى الحَمامُ الوُرْقُ فيها * أجابتْها أغانىُّ القِيانِ
ومَن بالشِّعب أحوَجُ من حَمامٍ * اذا غَنّى وناح الى بيانِ (٦)

(١) لم يرد هذا البيت فى كلتا النسختين؛ وقد أثبتناه عن ديوان المتنبي، فان الضمير فى قوله فى البيت الذى بعده : « على أعرافها » يعود على « الخيل » فى هذا البيت . وطبت، أى دعت، يقال طباه يطبوه و يطبيه طبوا وطبيا إذا دعاه، والمعنى أن هذه المغانى دعت فرساننا وخيولنا الى المقام فيها لطيبها فاستمالت قلوبنا وقلوب خيلنا حتى خشيت على الخيل أن تقف فلاتبرح مكانها لشغفها بما ترى من حسن هذه المنازل .

(٢) يريد بهذا البيت أن أغصان الشجر فى هذا الشعب تنفض على أعراف الخيل مما يسقط عليها فى الليل من الندى مثل الجمان .

(٣) الشرق هنا بمعنى الشمس، يقال : « طلع الشرق » ولا يقال : « غاب الشرق » .

(٤) الأوانى : جمع آنية؛ ومعنى البيت أن هذه الأغصان لها ثمر رقيق القشر إلى حدّ أن الناظر يرى ما فى داخله من الماء، فكأن هذه الأشربة قد وقفت وحدها بلا إناء يحويها .

(٥) يصلّ، أى يصوّت .

(٦) يريد بهذا البيت أن أهل الشعب من الأعاجم أحوج الى البيان والإفصاح فى غنائهم ونوحهم من الحمام .

وقد يتقارب[1] الوصفان جدّا * وموصوفاهما متباعدان
يقول بشعب[2] بوّان حصانى * أعن هذا تسير الى الطّعان
أبوكم آدمٌ سنّ المعاصى * وعلّمكم مفارقة الجنان

وأجاد السّلامىّ حيث قال :

٥ اشربْ على الشّعب وأحلُل روضةً أنُفا[3] * قد زاد فى حسنه فازدد به شغفا
إذ ألبس الهيف من أغصانه حُللا * ولقّن العُجْم من أطياره نُتفا
ونمّرتْ[4] حُسنه الأغصانُ مثمرةً * من نازعٍ قُرُطا[5] أو لابسٍ شَنفا
والماءُ يثنى على أعطافها أُزُرا * والريحُ تعقد من أطرافها شُرَفا
والشمسُ تخرق من أشجارها[6] طَرَفا * بنُورها فترينا تحتها طُرَفا
١٠ من قائلٍ نَسجتْ دِرْعا مفضّضةً * أو قائلٍ ذهّبتْ أو فضّضتْ صُحُفا
ظلّت تزفّ الى الدنيا محاسنَها * وتستعيد لها الألطافَ والتُّحَفا
من عارضٍ وكَفا[7] أو بارقٍ خَطَفا * أو طائرٍ هتَفا أو سائرٍ وقَفا

(١) فى كلا الأصلين : «يتفاوت» ؛ وهو تحريف مفسد للمعنى ؛ ويريد بهذا البيت أن أهل الشعب والحمام الذى فيه متقاربان فى الوصف بالعجمة وعدم الإفصاح ، ومتباعدان فى الخلقة والصورة .

١٥ (٢) تقدّم الكلام على شعب بوّان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٥٧ من هذا السفر ، فانظرها .

(٣) الأنف من الرياض : التى لم توطأ ولم ترع .

(٤) « نمرت حسنه الأغصان » ، أى جعلت فيه نمرا بضم النون وفتح الميم ، أى نكتا مختلفة الألوان واحدها نمرة بضم فسكون ، وهى النكتة من أى لون كان .

(٥) حركت الراء فى «قرط» والنون فى «شنف» للضرورة ؛ والفرق بين القرط والشنف أن القرط

٢٠ يعلق فى أسفل الأذن والشنف فى أعلاها .

(٦) أشجارها بتأنيث الضمير ، أى أشجار الروضة السابق ذكرها فى البيت الأوّل .

(٧) الألف التى فى أواخر هذه الأفعال انما نشأت من إشباع الفتحة ؛ وذكر الثعالبى بعد أن أورد هذا البيت : «أنه ليس بمستحسن فى الوزن ، إلا أن أبا تمام قال : =

ولستُ أَحصِى حَصَى الياقوت فيه ولا * دُرًا أصادفه فى مائه صَدَفا
بَظُنّ من وقفتْ فيه الشجونُ به * أنّ الصّبابةَ شابت والهوى خَرِفا (١)
تَعسّف (٢) الشوقَ فيه كلُّ ذى شَجَنٍ * والشوقُ ألطفه ما كان معتَسَفا
فاحالُ عُرَا الهمّ وآشربها معتّقةً * رَقّ النسيمُ مباراةً لها وصَفا

ومنها نهرُ الأُبُلّة (٣) — الّذى طولُه أربعُ فراسخ، ورءوسُ نخلِه على وجه الأرض شوارفُ وأصولُها فى الثّرَى رواسخ؛ بجانبيه بساتينُ إن هَبَّ النسيمُ بأغصانها تعانقتْ وتمايلتْ، وإن لَعب بأفنانها تناظرتْ وتماثلتْ؛ كأنّما غُرِستْ فى يومٍ واحدٍ شجراتُه، وقامت على خَطّ الآستواء نَخَلاتُه؛ وفيه يقول التّنوخىّ شاعرُ اليتيمة :

= يقول فيسمع ويمشى فيسرع * ويضرب فى ذات الإله فيوجع

اليتيمة ج ٢ ص ١٧٣ طبع دمشق؛ وقال التبريزى فى قول أبى تمام هذا : انه من عجيب ماجاء فى شعر الطائى، لأنه أتبع العين الواو فى غير القافية، وانما آنسه بذلك أن العين فى آخر النصف الأول وفى آخر النصف الثانى؛ ولا ريب أنه كان يتبع العين واوا فى « يسمع » وقد يمكنون الحركة حتى تصير حرفا ساكنا مثل ما حكى أن بعض العرب يقول : «قام زيدو» فيثبت الواو؛ ومررت بزيدى، فيثبت الياء، وذلك ردىء مرفوض؛ قال الشاعر :

ولست بخير من أبيك وخالكى * ولست بخير من معاظلة الكلب

الخ . وما قاله التبريزى فى بيت أبى تمام يقال فى هذا البيت شرح التبريزى على ديوان أبى تمام ورقة ٣٧٧ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش .

(١) فى كلا الأصلين : «فى الهوى»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧٣ وكما يقتضيه السياق أيضا .

(٢) «تعسف الشوق» الخ يريد أن صاحب الشجن فى هذا المكان يتعسف الشوق، أى يركب فيه كل مركب ويسير فى هواه على غير هداية، لا يبالى بما فيه من خطر؛ يقال : «تعسفت الطريق» اذا سرت فيه على غير قصد .

(٣) الأبلة : بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى، فى زاوية الخليج الذى يدخل منه الى مدينة البصرة؛ وهى أقدم من البصرة؛ وأما نهر الابلة فهو الضارب الى البصرة، وقد حفره زياد .

وإذا نظرتَ إلى الأُبُلّة خِلتَها * من جنّة الفردوسِ حين تُخيَّلُ
كم منزلٍ فى نهرِها آلى السّرو * ر بأنّه فى غيرِه لا يَنزِلُ
فكأنّما تلك القصورُ عرائسٌ * والزهرُ وشىٌ فهى فيه تَرفُلُ
غنّت قِيانُ الطّير فى أرجائه * هَزَجا يَقِلّ له الثقيلُ الأوّلُ
وتعانقتْ تلك الغصونُ فأذكرتْ * يومَ الوَداع وعِيرُهم تترحّلُ
رَبَعَ الربيعُ بها فحاكت كفُّه * حُللا بها عُقَد الهمومِ تُحلَّلُ
فمُدبَّجٌ وموشّحٌ ومُدنَّرٌ * ومعمَّدٌ ومحبَّرٌ ومهلَّلُ (١)
فتخال ذا عَينا وذا ثَغرا وذا * خدّا يعضّض تارةً ويقبّلُ

ومنها غُوطةُ دِمَشقَ (٢) — التى هى شَرَكُ العقول وقَيْدُ الخواطر، وعِقالُ النفوس ونزهةُ النواظر، خَلَخلتْ الأنهارُ أسوُقَ أشجارِها، وجاست المياهُ خِلالَ ديارِها؛ وصافحتْ أيدى النسيم أكُفَّ غُدرانِها، ومُثِّلتْ فى باطنِها موائسُ أغصانِها؛ يَخال سالكُها أن الشمس قد نَثرتْ على أثوابه دنانيرَ لايستطيع أن يقبضها بَنان (٣)، ويَتوهّم المتأمِّل لثمراتها أنّها أشربةٌ قد وقفتْ بغير أوانٍ (٤) فى كلّ أوان؛ فيالها

(١) المهلل : الثوب الذى جعلت فيه صور على شكل الهلال .

(٢) قال ياقوت فى الغوطة : الغوطة فى الكورة التى منها دمشق ، استدارتها ثمانية عشر ميلا ، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ، ولا سيا من شماليها ، فان جبالها عالية جدّا ، ومياهها خارجة من تلك الجبال ، وتمد فى الغوطة فى عدة أنهر فتسقى بساتينها وزروعها ، ويصب باقيها فى أجمة هناك وبحيرة .

(٣) يشير بهذه العبارة الى قول المتنبى السابق فى شعب بوان :

وألقى الشرق منها فى ثيابى * دنانيرا تفر من البنان

(٤) أوان : جمع آنية ؛ ويشير بهذه العبارة الى قول المتنبى السابق فى شعب بوان ، وهو :

لها ثمر تشير اليك منه * بأشربة وقفن بلا أوانى

وقد سبق شرحنا لهذا البيت فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢٥٨ فانظره ، ومنه تتبين معنى هذه العبارة .

مِن رياضٍ مَن لم يَطُفْ بزَهرِها من قبل أن يحلّق[1] فقد قصّر، ومن غِياضٍ مَن لم يشاهدها فى إبّانِها فقد فاته من عمره الأكثر .

(٧٨) وهذه الأربعةُ الأماكن أجمَعَ جوّابُو الأقطار على تفضيلها على ما عداها، وتميزها على ما سواها .

وصفت به رياض نثرا ونظما

وللناس فى وصف الرياض محاسنُ سنذكر منها النَّزْرَ اليسير، ونقتصر على لُمْعةٍ ليس لنَضارتها نظير .

فمن ذلك قولُ الثعالبيّ فى (سحر البلاغة وسرّ البراعة) : روضةٌ رقّت حواشيها وتأنّقَ واشيها؛ أشجارُها كالعرائس فى حُلَلها وزخارفِها، والقيانِ فى وشيها ومَطارفِها؛ باسطةٌ زَرابيَّها[2] وأنماطَها، ناشرةٌ حِبَرَها ورِياطَها؛ كأنّما احتَفلتْ لوفد، أو هى من حبيبٍ على وعد .

ومن كلامه[3] أيضا : روضةٌ قد تَضوّعتْ بالأَرَج الطيِّب أرجاؤها، وتَبرّجتْ فى ظُلل الغمام صَحراؤها؛ وتنافحتْ بنَوافِجِ[4] المِسك أنوارُها، وتفاوضت[5] بغرائب المنطق أطيارُها؛ بها أشجارٌ كأنّ الخُرَّدَ أعارتْها قُدودَها، وكسَتْها بُرودَها، وحلّتْها عقودَها .

(١) المراد بالتحليق هنا : الارتفاع، أى من قبل أن يرتفع عن الغوطة ويرحل عنها إلى ما سواها، وذلك لأن الغوطة فى منخفض من الأرض؛ ولا يخفى ما فى هذه العبارة من التورية بما يفعل فى الحج من الطواف وحلق الرأس والتقصير .

(٢) الزرابى : البسط، واحده زربىّ بكسر الزاى وضمها؛ وفى اللسان نقلا عن ابن الأعرابى أن الواحد زربية بفتح الزاى وسكون الراء؛ ونقل عن بعضهم أن الزاى تفتح وتكسر وتضم .

(٣) فى (من غاب عنه المطرب للثعالبى ص ٢٤) نسبة هذا الكلام الآتى إلى الصابى .

(٤) النوافج : أوعية المسك، الواحد نافجة؛ وهو معرّب .

(٥) كذا فى كلا الأصلين : وفى رواية : «وتعارضت»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين؛ انظر (سحر البلاغة) المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٤ أدب مكتبة حليم و (زهر الآداب ج ٢ ص ٢٢٠) طبع المطبعة الرحمانية .

ومن كلام الفتح بنِ خاقانَ فى (قلائد العقيان) : حتى ٱستقَرّوا[1] بالرَّوض فحَلّوا منه ذَرا أيكٍ ربيع مفوَّفةٍ بالأزهار، ومطرَّزةٍ بالجداول والأنهار؛ والغصونُ تختال فى أدواحِها، وتنثنى فى أُكُفِّ أرواحِها .

ومن كلامه أيضا : روضٌ مفترُّ المَباسم، معطَّرُ الرياح النَّواسم؛ قد صَقَل الربيعُ حَوْذانه[2]، وأَنطق بلبلَه ورَشانُه[3]، وأَلحَفَ غصونَه بُرودا مخضرّه، وجَعل إشراقَه للشمس ضَرّه، وأزاهيرَه تنير على الكواكب، وتختال فى خِلَع الغمائم السَّواكب.

ومن كلامه : روضةٌ لم يَخُلْ فى مِثلِها ناظر، ولم تدَّعِ حُسنَها الخدودُ النَّواضر؛ غصونٌ تثنّيها الرياح، ومياهٌ لها ٱنسياح؛ وحدائقُ تُهدِى الأَرَجَ والعَرْف، وتُبهِج النفسَ وتُمتِع الطَّرْف .

ومن كلامه : روضةٌ قد تأرّجتْ نفَحاتُها، وتَدبّجتْ ساحاتُها، وتفتّحتْ كمائمُها، وأَفصحتْ حمائمُها؛ وتجرّدتْ جداولُها كالبواتر، ورمَقتْ أزهارُها بعيون الجَآذِر[4] .

وقد أكثر الشعراءُ فى وصف الرّياض والغصون — فمن ذلك قولُ ٱبنِ الرّومىّ :

---

(١) فى كلا الأصلين : «استقلوا» باللام؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن قلائد العقيان صفحة ١٠ .

(٢) الحوذان : من بقول الرياض، وله نور أصفر طيب الرائحة . وقال فى اللسان : الحوذان نبت يرتفع قدر الذراع، له زهرة حمراء فى أصلها صفرة، وورقته مدوّرة؛ وهو من نبات السهل حلو طيب الطعم .

(٣) الورشان : طائر شبه الحمام، وهو ساق حرّ، وهو من الوحشيات، الواحدة ورشانة؛ والجمع ورشان بكسر فسكون، وورشانين . وقال مؤلف هذا الكتاب فى الجزء العاشر صفحة ٢٥٩ : الورشان أصناف منها النوبى، وهو ورشان أسود؛ ومنها الحجازى؛ والنوبى أشجاها صوتا الخ .

(٤) الذى فى (ب) «يعيون فواتر»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

حيّتكَ عنّا شَمألٌ طاف طائفُها * فى جَنّةٍ قد حوت رَوحا ورَيحانا
هبّت سُحيرا فناجَى الغصنُ صاحبَه * سرّا بها وتداعَى الطيرُ إعلانا
وُرقٌ تغنّى على خضرٍ مهدّلةٍ * تسمو بها وتَشُمّ(١) الأرضَ أحيانا
تخال طائرَها نشوانَ من طربٍ * والغصنَ من هزّه عِطفيه نَشْوانا

وقال أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ خَفاجة :

سَقْيًا لها من بِطاحِ أنسٍ * ودَوْحِ حُسنٍ بها مُطِلّ
فما تَرَى غيرَ وجهِ شمسٍ * أطلّ فيه عِذارُ ظِلّ

وقال أيضا من أبيات :

والرّوضُ محنىُّ المَعاطف خِلتُه * نشوانَ تَعطفه الصَّبا فيَميلُ
ريّانُ فَضَّضه النّدى ثم انجلَى * عنه فذهّب صفحتيه أصيلُ

وقال الأخيطلُ الأهوازىُّ [منشدا] :

الروضُ يَنشُر رَفرفًا(٢) وحريرا * ومَطارفا من سندس وحَبيرا
حَلّ الربيعُ نِقابَ كلّ خَميلةٍ * فأراك من صوَر النبات سُفورا
غِيدُ القوام اذا النسيمُ أمالَها * ألقين عند صدورهنّ نُحورا
يخلّ عنهنّ النّدى فتخال ما * ينحلّ عنها لؤلؤا منثورا
كسلُ النعيم يَدِبّ فى حركاتها * فيريك فى أعطافهنّ فُتورا

وقال أبو عُبادةَ البحترىّ :

هذى الرياضُ بدا لطرفك نَوْرُها * فأرتك أحسنَ من رِياطِ السّندس

(١) استعمال الشم هنا استعمال مجازى، اذ المراد به دنو الأغصان من الأرض؛ ورواية زهر الآداب : «وتمس»؛ والمعنى يستقيم عليها أيضا .

(٢) الرفرف : ثياب خضر تبسط .

ينشرن وشيا مُذهبا ومدبّجا * ومَطارفا نُسِجتْ لغير المَلبَس
وأرتك كافورا وتبرا مُشرِقا * فى قائمٍ مثلِ الزّمردِ أملَس
متمايل الأعطاف فى حركاته * كسلُ النعيم وفترةُ المتنفِّس
متحلّيا من كلِّ حُسنٍ مُونقٍ * متنفِّسا بالمِسك أىَّ تنفُّس

٥ وقال التّنوخىّ :

أما ترى الروضَ قد وافاك مبتسما * ومدَّ نحوَ النّدامَى للسّلام يدَا
فأخضرٌ ناضرٌ فى أبيضٍ يَقِقٍ * وأصفرٌ فاقعٌ فى أحمرٍ نُضِدا
مِثل الرّقيب بدا للعاشقين ضُحًى * فأحمرَ ذا خَجلا وأصفرَ ذا كمدا

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرىّ :

١٠ تَشَبُّهُ الرَّوض بالحبائب قد * زاد المحبّين فى محبّتها
كم من قُدودٍ هناك مِن قُضُبٍ * تميل من لينِها ونَعمتها
كم وجنةٍ خالُها يلوح لنا * سوادُه فى صَفاء حُمرتها
وكم ثنايا تَسبِى بنَكْهتها * وكم عيونٍ تُصبِى بلحظتها
تُسارِق (١) الغَمزَ غَمزَ خائفةٍ * رقيبَها من خفاءِ نظرتها

١٥ وقال أبو طاهر [بنُ (٢)] الخُبْزَأرزىّ :

وروضةٍ راضَها النّدَى فغدا * لها من الزّهر أنجمٌ زُهُرُ
تَنشُر فيها أيدى الرّبيع لنا * ثوبا من الوشْيِ حاكَه القَطْرُ

---

(١) لم يورد صاحب مباهج الفكر هذا البيت الأخير، وأورد مكانه قوله :

كل صفات الجمال مجملة * بين تفاريقها وجملتها

٢٠ (٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٦٩ طبع دمشق .

وقال منصور بنُ الحاكم :

روضةٌ غَضّةٌ عَلاها ضَبابٌ * قد تجلّت خلالَهـا الأنوارُ
فهى تَحكِى مَجامرًا مُذكِّياتٍ * قد عَلاها من البَخور بُخارُ

وقال سَعيدُ بنُ حُمَيد مُقْسِما :

لا وزهرِ الرياضِ تَجرِى عليها * باكياتٍ[1] ضَـواحكَ النُّـوّارِ
صافحتْها الرياحُ فاعتَنَق الرو * ضُ ومالت طِوالُه للقِصارِ
لائذا بعضُه ببعضٍ كقوم * فى عتاب مُكرِّرٍ واعتـذارِ
ما خلفناك بالقبيح ولا الذ * مِّ على البُعد واقترابِ المَزارِ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

و روضـةٍ حاليةِ الصـدورِ * كاسـيةِ البطونِ والظهورِ
محمـودةِ المخبـورِ والمنظورِ * مُونِقـةِ المطوىِّ والمنشـورِ
معجبةِ الظاهرِ والمسـتورِ * ضاحكةٍ كالوافـدِ المحبـورِ
باكيةٍ كالعاشـقِ المهجورِ * شَذَّرها الغيثُ بلا شُـذورِ
شـقائقٌ كناظـرِ المخمورِ * وأُقحوانٌ كثُغورِ الحُورِ
ونرجسٌ كأنجمِ الدَّيْجُـورِ * والطَّلُّ منثـورٌ على المنثـورِ
* يرصِّع الياقوتَ بالبَلَورِ *

وقال أيضـا :

لَبِس المـاءُ والهواءُ صَـفاءً * واكتَسى الروضُ بهجةً وبَهاءَ
فكأنّ النِّهاءَ[2] صرن رياضـا * وكأنّ الرياضَ عُدن نِهـاءَ[2]

(١) باكيات ، أى سحب باكيات ؛ وقوله بعد : ضواحك : بالنصب ، حال من الرياض .

(٢) فى كلا الأصلين «بهاء» ؛ وهو تصحيف . والنهاء : جمع نهى بكسر النون وفتحها وتخفيف الياء ، وهو الغدير حيث يخير السيل فيوسع ؛ وقيل : النهى الغدير الذى له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه .

وكأنّ الهواءَ صار رحيقا * وكأنّ الرحيقَ صار هَواءَ
وتخال السماءَ بالليل أرضا * وترى الأرضَ بالنهار سماءَ
جلّلتها الأنوارُ زُهْرا وصُفْرا * يومَ ظلّت تُنادِمُ[1] الأنواءَ
فتراها ما بين نَوْرٍ ونَوْءٍ * تتكافا تبسّما وبُكاءَ
وتظلُّ الأشجارُ تتّخذ الحسن قميصا أو الجمالَ رِداءَ
وترى السَّرْوَ كالمنابر تُزْهَى * وترى الطيرَ فوقها خطباءَ

وقال كُشاجِم :

أرتك يدُ الغيث آثارَها * وأعلنت الأرضُ أسرارَها
وكانت أكنّت لِكانونِها * خبيئا فأعطته آذارَها
فما تقع العينُ إلّا على * رياضٍ تصنّف أنوارَها
يفتّح فيها نسيمُ الصَّبا * خِباها ويَهتِك أستارَها
ويَسفح فيها دماءَ الشَّقيق نَدًى ظَلَّ يفتضّ أبكارَها
ويُدنِي إلى بعضِها بعضَها * كضمّ الأحبّةِ زُوّارَها
كأنّ تفتُّحها بالضُّحى[2] * عَذارَى تُحلّل أزرارَها
تَغُضّ لنرجسها أعينا * وطَورا تحدِّق أبصارَها
اذا مُزْنةٌ سَكبتْ ماءها * على بقعة أشعلتْ نارَها

وقال البَسّامىّ[3] :

أما ترى الأرضَ قد أعطتك زهرتَها * مخضرّةً واكتسى بالنّور عارِيها

(١) فى كلا الأصلين : «بهادم» ؛ وهو تحريف .
(٢) فى ديوان كشاجم : «بالصبا» .
(٣) فى كتاب (من غاب عنه المطرب للثعالبي) نسبة هذين البيتين إلى ابن المعتز .

فالسماء بكاءٌ فى جوانبها * وللربيع ابتسامٌ فى نواحيها

وقال آخر :

قهقهَ زهرُ الربيع فاستبشرْ * وأكتست الأرضُ مُطْرَفا أخضرْ
ترى ربيعا نُوّارُه ذهبٌ * ماء لُجَيْن حَصْباؤه جوهرْ
عَطّل صبّاغُه الحدودَ بما * وَرَّدَ من صِبغها وما عَصفَرْ
لابسُ قُمصٍ من العقيق على * غلائلٍ من زبرجدٍ أخضرْ

وقال المعوّج :

حِقاقٌ من النُّوار مزرورةُ العُرَا * على قِطَع الياقوت واللؤلؤ الغَضّ
فهنّ على الأغصان أحقاقُ فضّةٍ * وبالأمسِ كانت مطبَقاتٍ على الغَمضِ

وقال ابنُ الساعاتىّ :

لله ما شُقّ من جَيب الرياض بها[1] * وحبّذا من ذُيول السُّحب ما سُحبا
يا ضاحكَ الوَمْض والأنواءُ باكيةٌ * أشبهتَ لَمْياءَ إلّا الظُّلْمَ والشَّنَبا[2]

وقال أيضا :

يا حبّذا زمنُ الربيع ودَوْحُه * قَيدُ النواظر بل عِقالُ الأنفُسِ
وافاك يَبسِم والغمامُ معبّسٌ * فاعجب لطلعة باسمٍ ومعبّسِ
جُليتْ عرائسُه فهمّ قلوبنا * واللهوُ بين مقوّضٍ ومعرّسِ[3]

(١) «بها» ، أى بالبقعة التى فيها هذه الرياض ؛ ولم نجد هذين البيتين فى ديوان ابن الساعاتى المعروف (بمقطعات النيل) المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٨ أدب .

(٢) الظلم بالفتح : ماء الأسنان وبريقها . والشنب : رقة وبرد وعذوبة فيها . وقيل : هو حدّة فى الأنياب تراها كالمنشار .

(٣) استعمل الشاعر فى هذا البيت اللف والنشر المرتب ؛ والمعنى أن الهم واللهو أحدهما مقوّض أى مرتحل ، وهو الهمّ ؛ والآخر معرّس ، أى مقيم ، وهو اللهو .

أنفاسُه من عنبرٍ وسماؤه * من لؤلؤ وبساطُه من سندسِ

وقال أبو عُبادةَ البحترىّ :

ولازال مخضرٌّ من الروض يانعٌ * عليه بحمرٌ من النَّوْرِ جاسدِ
يذكّرنى ريّا الأحبّة كلّما * تنفّس فى جُنحٍ من الليل باردِ

وقال السَّرِىّ[1] : (٨١)

غدونا على الرّوض الّذى طَلَّه النَّدَى * سُحيرا وأوداجُ الأباريق تُسفَكُ
فلم أَرَ شيئا كان أحسنَ منظرا * من النَّور يجرى دمعُه وهو يَضحكُ

وقال آخر :

حظُّ عينٍ وحظُّ سمعٍ ربيعا * نِ وتغريدُ بلبلٍ وهَزارِ
فى جِلاء من الزمان ووجهُ الأرض يُكسَى وشائعَ النُّوّارِ
بأبيضاضٍ محذَّقٍ[2] بأخضرارٍ * وأصفرارٍ مبطَّنٍ بأحمرارِ
كلّما أشرقت شُموسُ الأقاحِى * خِلتَ إحدى الشُّموس شمسَ النهار

وقال كُشاجِم :

وروضٍ عن صنيع الغَيثِ راضٍ * كما رضىَ الصديقُ عن الصديقِ
اذا ما القَطر أسعدَه صَبوحا * أتمَّ له الصنيعةَ فى الغَبوقِ
يُعير الرِّيحَ بالنفَحات رِيحا * كأنّ ثَراه من مِسكٍ سَحيقِ
كأنّ الطَّلَّ منتثرا عليه * بقايا الدّمع فى خدّ المَشوقِ
كأنّ غصونَه سُقيتْ رَحيقا * فماست مَيْسَ شُرّاب الرحيقِ

(١) فى ديوان المعانى نسبة هذين البيتين الى أبى الغضبان اليامى ، وما هنا هو الموافق لما فى يتيمة الدهر فى الكلام على أبى العلاء السروى .

(٢) المحذق : المقطع ، شدّد للمبالغة والتكثير .

كأنّ شقائقَ النُّعمان فيه * محضَّرةٌ كئوسا من عقيقِ
كأنّ النرجسَ البَرّىَّ فيه * مَداهنُ من لُجَين للخلوقِ
يذكّرنى بنفسَجه بقايا * صنيع اللّطم فى الخدّ الرقيقِ

وقال ٱبنُ سكّرةَ الهاشمىّ :

أما ترى الروضةَ قد نَوّرتْ * وظاهرَ الرّوضة قد أعشَبا ٥
كأنّما الأرضُ سماءٌ لنا * تَقطِف منها كوكبا كوكبا

وقال علىُّ بنُ عطيّةَ البَلَنْسىّ :

أَدِيراها على الزّهر المندّى * فحُكمُ الصّبح فى الظّلماء ماضِى
وكأسُ الراح تنظر عن حَبابٍ * ينوب لنا عن الحَدَق المِراضِ
وما غَرَبتْ نجومُ اللّيل لكن * نُقِلن من السّماء الى الرياضِ ١٠

وقال شاعرٌ أندلسىّ :

وفتيانِ صدقٍ عرّسوا تحتَ دَوْحةٍ * وما لهُم غير النبات فِراشُ
كأنّهم والنّورُ يَسقُط فوقهم * مَصابيحُ تَهوِى نحوهنّ فَراشُ

وقال أبو محمد الحسنُ بنُ علىِّ بنِ وَكيع التِّنّيسىّ :

أَسفَرَ عن بهجتِه الدهرُ الأغرْ * وٱبتَسم الروضُ لنا عن الزّهَرْ ١٥
أَبدَى لنا فصلُ الربيع مَنظَرا * بمثلِه تُفتَن ألبابُ البشرْ
وَشْيا ولكن حاكَه صانعُه * لا لٱبتذال اللّبس لكن للنظرْ
عاينَه طرفُ السماء فٱنثنت * عشقا له تَبكى بأجفان المطرْ
فالأرضُ فى زِىِّ عَروسٍ فوقَها * من أدمع القَطْر نِثارٌ من دُررْ
وَشىٌ طَواه فى الثّرى صيانةً * حتّى اذا مَلَّ من الطّىِّ نَشَرْ ٢٠

وقال أبو طاهر [ابنُ][1] أبي الرّبيع :

وكأنّ مَوْلِيَّ[2] الرياض ضرائرٌ * تُزهى بخُضرتها على الخضراءِ (٨٢)
قد أبرزتْ زَهَراتها وأزّينتْ * وتعطّرتْ وتبرّجتْ للرّائى
والنَّوْرُ منحسِرُ القِناع كما بدت * للناظرين محاسنُ العذراءِ
والنبتُ رَيّانُ المَهَزّة مائلٌ * شَرِقٌ محاجرُ زهرِه بالماءِ

البابُ الثانى

من القسم الرابع من الفنّ الرابع فى الأزهار

ويشتمل هذا البابُ على ما قيل فى الخِيرِى — وهو المنثور — والسُّوْسَن، والآذَرْيُون والخُرَّم، والشَّقِيق، والبَهار، والأُقْحُوان

فأمّا الخِيرِىُّ[3] وما قيل فيه — فالخِيرِىُّ هو المنثور — وهو مما أُولِع الشعراءُ بوصفه .

فمن ذلك قولُ ابن وَكِيع التِّنِّيسىّ :

أُنظر الى المنثور فى مَيدانِه * يرنو إلى الناظر من حيث نَظَرْ
بجوهرٍ مختلفِ ألوانُه * أسلَمَه سِلْكُ نظام فانتثرْ

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب) ويتيمة الدهر ج ٣ ص ٢١٠

(٢) المولى من النبات : الذى جاده الولى، وهو المطر الذى يلى الوسمى؛ يقال منه «ولى النبات» بالبناء للمجهول .

(٣) قد سبق وصف الخيرى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٩٧ من هذا السفر، فارجع اليها

وقال آخر :

أُنظرْ الى المنثور ما بيننا * وقد كساه الطلُّ قُمصانا
كأنّما صاغته أيدى الحيا * من أحمرِ الياقوت قُضْبانا

وقال أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ خفاجةَ يذكر كونَه لا تَظهَر رائحتُه إلّا ليلا :

وخِيريّةٍ بين النّسيم وبينَها * حديثٌ اذا جَنّ الظلامُ يَطيبُ
يَدِبّ مع الإمساء حتّى كأنّما * له خلَف أستار الظّلام حبيبُ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

ألوانُ منثورٍ يريك حُسنُها * ألوانَ ياقوتٍ زها فى عِقدِهِ
يا حُسنَها فى كفِّ مَن يشبهها * فأنظر إلى النِّدِّ بكفِّ نِدِّهِ
مِن أشهلِ(١) كعينِه وأبيضٍ * كثغرِه وأحمرٍ كخدِّهِ
وأصفرٍ مِثلِ صريعِ حُبِّه * إذا تغشّته غواشى صَدِّهِ

وقال آخر :

عَجِبتُ من الخِيرىِّ أمتَع فى الدّجى * وأصبحَ رَيّاه مع الصّبح تُحجَبُ
نِفاتُ الرِّيا طبعا له مِثلَ ناسكٍ * يرائى نهارا وهو باللّيل يَشرَبُ

وقال آخر :

ما أكرمَ الخِيرِىَّ فى فِعلِهِ * يَسهَر إذ نَوْرُ الرُّبا ناعسُ
كأنّما خاف عليه العِدا * فهو له فى ليلِهِ حارسُ

وقال ابنُ الحدّاد :

عافَ النهارَ مخافةَ الرقباءِ * فسَرَى يضمِّخ حُلّةَ الظّلماءِ

(١) الأشهل : من الشهل بالتحريك ؛ وهو أقل من الزرق فى حدقة العين وأحسن منه ، وقيل : هو أن تشرب الحدقة حمرة وليست خطوطا ، ولكنها قلة سواد الحدقة حتى كأن سوادها يضرب الى الحمرة .

يَطوِى شَذاه عن الأنوف نهارَه * ويجود فى الظَّلْماء بالإفشاءِ
متهتِّكٌ فى طبعِه متستِّرٌ * وكذا تكون شمائلُ الظُّرفاءِ
لمّا رأى حُبَّ الأُنوف لعَرفِه * لَبِس الغياهبَ خِيفةَ الرُّقباءِ
كالطَّيف لا يصل الجفونَ لسُهدِها * ويَهُبّ فيها ساعةَ الإغفاءِ

٥ وقال أبو العَلاء السَّروىّ :

أَهدَى إلىّ فنونَ الشّوقِ والأَرَقِ * نسيمُ رائحة الخِيرىِّ فى طبقِ
كأنّه عاشق يَطوِى صَبابتَه * صبحا ويَنشرها فى ظلمةِ الغسَقِ
وكلُّ ذى لوعةٍ فاللّيلُ راحتُه * والليلُ أَخفَى لويل الوالهِ القلِقِ

وقال آخر :

١٠ يَنِمّ مع الإظلام طيبُ نسيمِه * ويَخفَى مع الإصباح كالمتستِّرِ
كعاطرةٍ ليلا لوعدٍ محبِّها * وكاتمةٍ صبحا نسيمَ التعطّرِ

وقال ابنُ الرّومىّ :

خِيرِىٌّ وَردٍ أتاك فى طبقِهْ * قد ملأ الخافقَين من عَبَقِهْ
قد خَلَعَ العاشقون ما صنع الهـ * ـجرُ بألوانهم على ورقِهْ

١٥ وأما السُّوسَن(١) وما قيل فيه — فقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا

(١) قال فى التاج : السوسن فارسى معرّب؛ وهو صنفان : برى وبستانى؛ والبستانى صنفان : وهما الأزاذ ، وهو الأبيض ، وهو أطيبه؛ وفى مفردات ابن البيطار ج ٣ ص ٤٣ ما يفيد أن الأزاذ ليس صنفا من البستانى ، فقد قال ما نصه : السوسن ثلاثة أصناف ، فمنه أبيض : ونسميه السوسن الأزاذ ، ومنه بستانى وبرى . وفى قانون ابن سينا ج ١ ص ٣٨٢ طبع مصر نقلا عن ديسقوريدوس أن ٢٠ للسوسن ساق عليها زهر منحن فيه ألوان يشبه بعضها بعضا ، وهى مختلفة ، منها بياض وصفرة وفرفير ولون السماء ، ومن أجل اختلاف الألوان فيه شبه بالإيرساء ، وهى قوس قزح؛ وله أصول صلبة ذات عقد ، طيب الرائحة ؛ وينبغى اذا قلعت أن تجفف فى ظل ، وتنظم فى خيط كتان ، وتخزن ، وصنف آخر لونه أبيض مرّ الخ .

فى طبع السُّوسَن: الأبيضُ البستانىُّ منه حارٌّ يابسٌ فى الثانية؛ والإيرِساءُ[1] أشدُّ تسخينا وتجفيفا؛ والإيرِساءُ[1] هو أصلُ السُّوسَن الاسمانجُونى . قال وأصلُه جَلاء، مجفِّفٌ باعتدال؛ ودُهنُه ألطفُ وأشدُّ تحليلا وتليينا مطيِّبا كان أم غيرَ مطيِّب؛ والإيرِساءُ[1] أقوَى فى جميع ذلك؛ وهو قابض، وفيه شفاءٌ للأوجاع والعفونات؛ وينفع من الكَلَف والنَّمَش، وخصوصا أصلَه؛ وينقِّى الوجهَ غَسلا به ويَصقُله، ويزيل تشنُّجه[2]؛ وإن دُقَّ بِزرُه وورقُه ناعما وعُمل منه ضِمادٌ بالشراب على الحُمرة[3] نفعَها، وكذلك على الأورام البَلْغَمِيّة الفِجّة "والجربِ المتقرِّح[4] والخُشْكَرِيشات[5]" وأصلُه ينفع من حَرْق الماء الحارّ، لأنه مجفِّف مع جِلاء وباعتدال، وكذلك ورقُه مطبوخا، والأحسنُ أن يكون استعمالُه بدُهن الوَرد وعُصارةِ الإيرِساء، وغيرُه يُطبَخ فى الخَلّ والعسل فى إناءٍ من نحاسٍ للقُروح المُزمِنة والجِراحات . والبستانىُّ أفضلُ الأدوية لحَرْق

(١) تقدّم ما يستفاد منه معنى كلمة ايرساء فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧٣ فيما نقلناه عن ابن سينا فى ماهية السوسن، فانظره .

(٢) التشنج : التقبض .

(٣) الحمرة : ورم من جنس الطواعين، قاله الأزهرى؛ وقال الأطباء : الحمرة هى التهاب وورم واحمرار شديد اذا ضغط عليه بالإصبع يزول، ثم يعود، ويصحب ذلك ألم شديد محرق وسرعة النبض، ثم تظهر حويصلات فيها مادة مصلية تجف فيما بعد، ثم تسقط قشورا، وهى من أمراض الجلد الحادّة من الرتبة الأكزنتيمية؛ وقد تظهر فى الوجه وفى بقية أجزاء البدن .

(٤) وردت هذه العبارة فى كلا الأصلين بعد قوله فيما سيأتى : «للقروح المزمنة والجراحات»؛ أى فى السطر العاشر من هذه الصفحة؛ وقد نقلناها الى هذا الموضع تبعا لورودها فى القانون المنقول عنه هذا الكلام فى كلتا نسختيه المصرية ج ١ ص ٣٨٣ والأوربية ص ٢٢١ لما يلزم على رواية الأصلين من تغيير فى المعنى .

(٥) كذا ضبط هذا اللفظ فى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف استاين جاس؛ وهو من الألفاظ الفارسية؛ وقال صاحب الشذور الذهبية فى تفسير الخشكريشة : إنها جزء متغنغر من الأجزاء الرخوة يختلف فى اللون والقوام، وينفصل عن الأجزاء الحسية بواسطة الالتهاب . وفى بحر الجواهر للهروى ما ترجمته أن الخشكريشات هى القروح الجافة التى لا رطوبة فيها . وفى كتب الطب الأخرى ما يفيد ذلك أيضا .

الماء الحارّ؛ وهو جيدٌ لانقطاع العَصَب؛ وتُتَّخذ[1] من أصل البرّىّ مضمضةٌ لوجع الأسنان؛ ويوافق دُهنُه قُروحَ الرأس والنُّخالة؛ واذا قُطِر فى الأُذُن سكّن الدّوىّ؛ وهو ردىءٌ للمعدة، وخصوصا دُهنَه؛ ودُهنُه محلِّل ملِيِّن لصلابة الرَّحِم شُربا وتمريخا؛ وكذلك اذا طُبِخ أصلُه بدُهن الوَرد، ولا نظيرله فى أمراض الرَّحِم، وكذلك دُهنُ الإيرِساء؛ ويُخرِج الجنين؛ وينفع من المَغْص؛ [و][2] اذا طُبِخ أصلُه وحدَه بالخلّ أو مع بزر البَنْج[3] ودقيقِ الحنطةِ سكّن الأورامَ الحارّةَ العارضةَ للأُنثيين؛ واذا شُرب مِن دُهنِه مقدارُ أوقيّةٍ ونصفِ أسهَل؛ ويَصلُح لأصحاب إيلاوس[4] الصَّفراوىّ؛ ودُهنُ الإيرِساء يفتّح أفواهَ البواسير، وكذلك أصلُ السُّوسَن كيف كان؛ وهو ينفع من لسع الهَوامّ، خصوصا العقربَ هو وعُصارتُه وشرابُه وبزرُه شُربا؛ ودُهنُه دِرياقٌ [للبَنْج].

وأما ما جاء فى وصفه — فقال الأخيطل الأهوازىّ :

سَقيًا لأرض اذا ما نمتُ أرّقنى[5] * بعد الهدوء بها قرعُ النّواقيس

(١) عبارة القانون : «وتتخذ من طبيخ أصله مضمضة لوجع الأسنان خصوصا من البرى منه» .

(٢) أثبتنا الواو فى هذه العبارة عن مفردات ابن البيطار ج ٣ ص ٤٤ طبع مصر .

(٣) البنج بالفتح : معرّب بنك، وهو الشيكران بالعربية، وهو نبات له قضبان غلاظ وورق عريض طويل مشقق الأطراف، يميل إلى السواد، عليه زغب، وثمرته كالترس مملوءة ببزر كبزر الخشخاش؛ وهو أنواع : منه أبيض، وهو أجودها؛ ومنه أحمر، وهو دونها؛ ومنه أسود، وهو أخبثها .

(٤) إيلاوس، هو وجع معوى يعرض فى الأمعاء العليا فيمنع نفوذ الثفل حتى يخرج من الفم؛ وذكر جالينوس أن معنى هذا اللفظ : «يارب ارحم» . وذكر ابقراط أن معناه : (المستعاذ منه) (الهروى) . وفى الشذور الذهبية أن إيلاوس لفظ يونانى جعل اسما لمرض ينتقل من شخص الى آخر ومن بلد الى آخر انتقال الأمراض الوافدة؛ ثم نقل فى تعريفه ما نقلناه عن الهروى . وقال بعد ذلك : ومن حيث إنه مماثل للقولنج يعالج بما يعالج به القولنج، لكن يفرق بينه وبين القولنج بأن ايلاوس يكون وجعه تحت السرة، والحقنة لا تجدى فيه نفعا جيدا اهـ .

(٥) فى رواية : «نبهنى» مباهج الفكر .

كأنّ سُوسَنَها فى كلِّ شارفةٍ (١) * على الميادين أذنابُ الطّواويس

وقال أيضا فيه :

وكأنّ سَوسَنَها سبائكُ فضّةٍ * غضّ النبات فأزرقٌ أو أحمرُ
حُمِلتْ سقيطُ الطّلّ فى ورقاته * فكأنّه متبسّمٌ مستعبِرُ

وقال الصّنَوْبَرىّ — ويُروَى للرّقّاء — : ٥

أُنظرْ الى السّوسَن فى مَنبِتِه * فانّه نبت عجيبُ المَنظَر
كأنّه مَلاعقٌ من ذهبٍ * قد خُطّ فيها نُقطٌ من عَنبرِ

وقال آخر :

أُنظرْ الى السّوسَن فى * جمالِه المنعوتِ
مِثل كئوسٍ خُرِطتْ * من أزرقِ الياقوتِ ١٠

وقال آخر :

يارُبَّ سُوسنةٍ قبّلتُها شَغَفا * وما لَها غيرَ نَشْرِ المِسك من رِيقِ
مصفرّةِ الوجه مبيضٌّ جوانبُها * كأنّها عاشقٌ فى حِجْر معشوقِ

وقال آخر : (٨٤)

إن كان وجهُ الربيع مبتسِما * فالسُّوسَن المجتنَى ثناياهُ ١٥
يا حُسنَه ضاحكا له عَبَقٌ * كطِيب رِيح الحبيب رَيّاهُ

وقال شاعرٌ أندلسىّ :

سُوسَنةٌ بيضاءُ أوراقُها * فيها خطوطٌ من سوادٍ خَفِى
كأنّه دارسُ خَطٍّ بدت * أشكالُه فى الرّقّ من مصحَفِ

(١) يريد بالشارفة هنا : المشرفة من الأرض، أى العالية المرتفعة . ٢٠

وقال شاعرٌ متطيّرا بإهدائه :

[ياذا الذى أهدَى لنا السُّوسَنا * ما كنتَ فى إهدائه محسِنا] (١)

أوّلُه سوءٌ فقد ساءنى * ياليت أنّى لم أرَ السُّوسَنا (٢)

[وقال آخر] :

٥ سُوسَنةٌ أعطيتِنيها فما * كنتِ بإعطائى لها محسِنهْ

أوّلُها سوءٌ فان جئتِ با * لآخِرِ منها فهو سوءُ سنهْ

وأمّا الآذَرْيُون (٣) وما قيل فيه — فالآذَرْيُون وَردٌ أصفرُ لا ريحَ له ألبتّة؛ وهو صِنفٌ من الأُقحوان، ومنه ما نُوّارُه أحمر. وقال ابن البيطار فى جامعه: انّه نُوّارٌ ذهبىّ، فى وسطه [رأسٌ صغير] (٤) أسود، واسمُه بالفارسيّة : آذَرْكُون،

١٠ ومعناه لونُ النار.

وقال أبو علىّ بنُ سينا : طبعُه حارٌّ يابسٌ فى الثالثة؛ وانه ينفع من داء الثعلب مسحوقا بخَلّ؛ ورَمادُه بالخَلّ لِعرق النَّسا. وقال دِيسْقُورِيدُوس : إنّ الحُبلَى اذا مسّته أو تحمّلتْ منه أسقطَتْ من ساعتها؛ وهو ينفع من السُّمومات كلّها وخصوصا اللُّدوغ.

١٥ وأما ماجاء فى وصفه — فقال شاعرٌ يصفه :

تاه الربيعُ بآذَرْيُونِه وزها * لمّا بدا منه فى جُنح الدّجَى أرَجُ

(١) لم يرد هذا البيت فى (ا) وقد أثبتناه عن (ب). (٢) فى (ب) : «لا».

(٣) فى معجم اسماء النبات ص ٣٦ أن الآذريون يسمى حنوة وكحلة وزبيدة — وفى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة صفحة ٨ أن معنى آذريون وآذركون بالفارسية : (شبه النار) وأنه يسمى بالتركية (آى

٢٠ چيچكى) أى زهر القمر، (وقره كوز) أى العين السوداء.

(٤) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى كلتا النسختين؛ وقد أثبتناها عن ابن البيطار المنقول عنه هذا الكلام ج ١ ص ١٦ طبع بولاق.

كأنّ أغصانَه فَيْرُوزَجٌ[1] بَهِجٌ * من فوقه ذهبٌ فى وَسْطِه سَبَجُ[2]

وقال التّنوخىّ :

وآذَرْيُونٍ مِثْلِ خدٍّ متيَّمٍ * لأحشائه خوفُ[3] الفراق وَجيبُ
شموسٌ لها من حينِ تَطلُع شمسُها * [طلوعٌ] وفى وقت الغروب غروبُ
تُفتِّح إن لاحت سرورا بضوئها * كما سُرَّ بالرأى المصيبِ مصيبُ
وتنضمّ إن جاء الظلامُ كأنّه * رقيبٌ عليها والضياءُ حبيبُ

وقال ابنُ وَكِيع :

قم فاسقنى صافيةً * تَسلُب قلبى فِكَرْهْ
فى روضةٍ كأنّها * خريدةٌ فى حِبَرَهْ
كأنّ آذَرْيُونَها * أسودَه وأحمَرَهْ
سَحيقُ مِسكٍ مودَع * فى خِرَقٍ معصفَرَهْ

وقال عبدُ الله بنُ المعتزّ :

كأنّ آذَرْيُونَها * تحت[4] سماء هاميَهْ
مَداهنٌ من ذهبٍ * فيها بقايا غاليَهْ

(١) قال التيفاشى فى أزهار الأفكار : الفيروزج : حجر نحاسى يتكون من أبخرة النحاس الصاعدة من معدنه ، ويجلب من معدن جبل نيسابور ؛ ومنه نوع يوجد فى نشاور ، إلا أن النيسابورى خير منه ، ثم قال : وأجوده الأزرق الصافى اللون ، المشرق الصفاء ، الشديد الصقال ، المستوى الصبغ ؛ وأكثر ما يكون فصوصا ؛ ومن خواص هذا الحجر فى نفسه أنه يصفو لونه فى صفاء الجو و يكدر مع كدورته ؛ وأنه يقبل الجلاء أكثر من اللازورد ، ويحسن صفاؤه عليه الخ .

(٢) السبج : خرز أسود معرّب شبه بفتح الشين والباء . قال فى البرهان القاطع : شبه ، حجر أسود بارق يشبه الكهرباء خفة ؛ وهو نوعان : نوع منه موجود فى دشت قبجاق (فى تركستان) ؛ والنوع الثانى معدنى يؤتى به من بلاد جيلان .

(٣) فى (ب) : «فوق» ؛ وهو تحريف . (٤) فى رواية «غب» مباهج الفكر .

وقال آخر :

أَظْـرِف بآذَرْيُونةٍ أبصرتُها * فى الروض تلمع كاتّقاد الكوكبِ
وكأنّها لمّا تكامَل حسنُها * مِسكٌ تفتّتَ فى إناءٍ مُذْهَبِ
وكأنّما تشريفُها من فوقها * حَبَبٌ يفرّج عن رحيقٍ أكهَبِ (١)

٥ وقال السّرىُّ الرّفاء :

وروضةِ آذَرْيُونَ (٢) ذُرَّ بوَسْطِها (٣) * نوافجُ (٤) مِسكٍ هيّجتْ قلبَ مهتاجِ
تراها عيونا بالنّهار روانيا * وعندغروب الشمس أزرارَ ديباجِ

وقال الطُّغْرائىّ :

وكأنّ آذَرْيُونَ روضتِنا * كانونُ فحمٍ حولَه لَهَبُ
١٠ أوجامُ جَزْعٍ وَسْطَه سَبَجٌ * أوسُؤْرُ مِسكٍ جامُه ذَهَبُ

وأما الخُرَّمُ وما قيل فيه — فالخُرَّم هو الخُزَامى (٥)، وهو عند المَغاربة السُّوسَن الأزرق . (٨٥)

(١) الأكهب : من الكهبة بالضم، وهى الدهمة، أو الغبرة المشربة سوادا .

(٢) منع آذريون من الصرف فى هذا البيت لضرورة الوزن، اذ ليس فيه العلمية وان كان أعجميا؛
١٥ وقد أجاز الكوفيون والأخفش والفارسى منع المصروف من الصرف للضرورة، وأباه سائر البصريين؛ والصحيح الجواز؛ ومنه قول الشاعر :

وما كان حصن ولا حابس * يفوقان مرداس فى مجمع

(٣) فى ديوان السرى الرفاء : «قد ذر وسطها» .

(٤) النوافج : أوعية المسك، واحده نافجة، وهو معرّب نافه بفتح الفاء، ولذلك جزم بعضهم بفتح
٢٠ فاء نافجة أيضا . وقال بعضهم : إنه عربى، والصحيح أنه أعجمى معرّب .

(٥) لم نقف على أن الخرم هو الخزامى فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى النبات ومفردات الأدوية، (كمباهج الفكر) (والمفردات) (والتذكرة) (والمنهج المنير) (ومنهاج ابن جزلة) (ومعجم أسماء النبات) (والشذور الذهبية) (وعمدة المحتاج) المعروف بالمادة الطبية، وغيرها؛ كما أننا لم نجد ذلك أيضا فيما =

قال ابنُ الرّومىّ يصفُه :

وخُرّمٍ فى صِبغةِ الطيالسَهْ * يَحكِى الطّواويسَ غدت مُطاوِسَهْ (١)
كأنّما تلك الفروعُ المائسَهْ (٢) * تَغمِسها فى اللّازَوَرد (٣) غامسَهْ

وقال الشّمشاطىّ يصفه :

وخُرّمٍ مثلِ لونِ اللازورد (٣) جرى * منها (٤) على فضّةٍ بيضاءَ جارِيها
كأنّهنّ خدود اللّاطمات ضُحًى * أو الطّواويسُ حَلّتها خَوافيها
ما غُمِّضت لعيون (٥) الشمس أعينُها * إلّا على لُمَعٍ من نُورها فيها

وقال شاعر أندلسىّ :

عافَ لونَ البياض ثوبَ أخيه (٦) * وتَبدّى فى حُلّةٍ زرقاءِ
لِتراه العيونُ فى حُلّةٍ يَحكى سَنا نُورها أديمَ السماءِ

= راجعناه من كتب اللغة ، كالتاج واللسان وغيرهما . والذى وجدناه أنه يقال : إن الخزامى هى خيرى البرّ كما فى الشذور الذهبية فى الكلام على الخزامى ومباهج الفكر فى الكلام على الخيرى نقلا عن أبى حنيفة ؛ وقد ذكرنا ذلك فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٩٧ من هذا السفر ، فانظرها .

(١) يريد بالمطاوسة : المباهية بالطوس بفتح فسكون ، وهو الحسن والزينة .

(٢) فى كلا الأصلين : «اليابسة» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مباهج الفكر وديوان ابن الرومى .

(٣) ذكر التيفاشى فى أزهار الأفكار أن اللازورد ، حجر رخو طينى ، وأجوده أشدّه إشراقا وأصفاه لونا ، السماوى ، المستوى الصبغ إلى الكحلية ، ويجلب من خراسان من جبل بطخارستان فى موضع يسمى جستان من أرض فارس قريب من أرمينية الخ . وقال داود فى التذكرة : « اللازورد معدن مشهور يتولد مستقلا بجبال أرمينية وفارس ، ويوجد فى وجوه المعادن . ثم قال : وأجوده الصافى الرزين الشفاف الضارب زرقته الى خضرة ما وحمرة » الخ .

(٤) تأنيث الضمير فى قوله «منها» وما بعده باعتبار أن المراد أحجار اللازورد .

(٥) لعله : « لغيوب » ، والمراد : انقباض أزهاره وانضمامها عند الغروب .

(٦) يريد بأخيه : السوسن الأبيض ، فقد سبق أن الخرم عند المغاربة هو السوسن الأزرق .

لو حواها الطاووس أصبح لاشكّ مهنّا بمُلك طـيرِ الهـواءِ
عِزّةٌ فى طباعـه وعُـلُوٌّ * قـد أنافا به عـلى العَليـاءِ

وأما الشَّقيق وما قيل فيه — فالشـقيق يسمّى الشّقائق والشّـقِر .
قال أبو الخـير العشّاب : فى ألوانه الأبيضُ والأسودُ والأحمرُ والوَردىُّ والرَّمادىُّ والأصفر، وفيه بستانىٌّ وبَرّىّ، فالبستانىُّ، هو الخَشخاشُ الأبيض .

قال : ومن أنواعه شقائقُ النُّعمان[1]، ومن الشقائق نوعٌ يسمّى المـاميثا[2]، ولونُه أصفرُ فاقع .

وقال أبو علىِّ بنُ سينا : هو حارٌّ فى الثانية، رَطْب ؛ وهو جَلّاء محلِّل . قال : يسوِّد الشَّعرَ اذا خُلِط بقشر الجوز، واذا آستُعمِل ورقُه وقُضبانُه كما هو أو مطبوخا حسَّن الشَّعر . قال : ويابسُـه ينفع من القُروح الوَسِخة ؛ وعُصارتُه سَعوطٌ لتنقية الرأسِ والدّماغ ؛ وأصلُه يُمضَغ لجذب الرطوبات من الرأس ؛ وعُصارتُه[3] نافعةٌ من ظُلمة البصر وبياضِـه وآثارِ قُروح العينِ ؛ واذا طُبخ بالطِّلاء وتُضُمِّد به [أبرأ][4]

(١) سميت الشقائق لحمرتها تشبيها لهـا بشقيقة البرق ؛ وقيل : النعمان اسم الدم، وشقائقه قطعه، فشبهت حمرتها بحمرة الدم . ويقال إنمـا أضيفت الشقائق الى النعمان بن المنـذر لأنه حمى أرضا كثر فيها هذا النبات .

(٢) المـاميثا نبات تمتـدّ عروقه كالأوتار فى القوة أخضر الى صفرة عظيمة، عليه رطوبة دبقيـة تقارب الخشخاش المقرن، له زهر الى الزرقة يخلف كالخشخاش الأسود، وتبقى قوته سبع سنين، وكثيرا ما يكون بطبرية ؛ ورهبان النصارى يعظمونه كثيرا ويدخرونه لحدة أبصارهم .

(٣) عبارة القانون : «عصارته مع العسل نافعة» الخ .

(٤) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٤٣٣ طبع مصر اذ لا يستقيم الكلام بدونها .

الأورامَ الصُّلبة؛ واذا طُبِخ ورقُه بقُضبانِه بحشيش السَّعْتَر(١) وأُكِل أَدرَّ اللّبن؛ وهو يُدِرّ الطَّمْث(٢)؛ والله أعلم .

وأمّا ما جاء فى وصفه — فقال ابنُ الرّومىّ :

تَصُوغ لنا كفُّ الربيع حدائقا * كعِقدِ عقيقٍ بين سِمطٍ لآلِي

وفيهنّ نُوّارُ الشقائق قد حكَى * خدودَ غَوانٍ نُقِّطت بغَوالِي

وقال أبو الفتح كُشاجِم(٣) :

فَــرَّج القلبَ غايةَ التفريجِ(٤) * ابتهاجى ما بين روضٍ بهيجِ

فكأنّ الشَّقيقَ فيه أكاليـ * ـلُ عقيقٍ على رءوسِ زُنوجِ

[وقال آخر](٥) :

طَرِب الشقائقُ للحَمام وقد شجا * شجوَ القِيان فشَقَّ فضلَ ردائِهِ

(١) فى كلا الأصلين «الشعير» بالشين المعجمة والياء؛ وهو تصحيف . والسعتر — و يقال أيضا بالصاد و بالزاى؛ والأطباء يكتبونه بالصاد بدل السين لئلا يشتبه فى الرسم بالشعير — هو أصناف كثيرة، فمنه برى، وبستانى، وجبلى، وطويل الورق، ومدوره، ودقيقه، وعريضه؛ ومنه ما لونه أسود، وهو المعروف عند بعض الناس بالفارسىّ، ومنه أبيض، وأنواع أخر، وكلها متقاربة . وذكر داود أن منه بريا دقيق الورق الى السواد، يخرج فى شوك يسمى البلان؛ ومنه نوع أيضا يسمى صعتر الحمار؛ و يقال : جبلىّ، أعرض أوراقا من الأول وأقل حدّة؛ ومنه فارسى أحمر حادّ الرائحة حريف؛ وهذه كلها تنبت بنفسها؛ وأما البستانى فنبت يشبه النعنع، يزرع، ويدرك بهاتور وكيهك، قليل الحدّة، كثير المائية، طيب الرائحة؛ والصعتر كله حريف يضرب زهره الى الزرقة، ويخلف بزرا دون بزر الريحان، الى سواد وحمرة، وتبقى قوّته سنتين . (٢) زاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله : «اذا احتمل» .

(٣) هذان البيتان لم يردا فى ديوان كشاجم المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥٧٩ أدب .

(٤) فرّج القلب، أى فرّج هم القلب، فحذف المضاف فى هذه العبارة؛ وحذف المضاف كثير فى كلام العرب؛ ويجوز أن يحمل التفريج هنا على معنى التفتيح . والمراد : انشراح القلب وانبساطه .

(٥) لم ترد هذه العبارة فى (ا) وقائل هذا الشعر هو القصار، كما ذكره الراغب فى محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٣٤٠؛ وقد أورد البيت الأخير وحده من هذه الأبيات الثلاثة .

وتحيّرتْ ما بين إثمِدِ مآقِهِ * فى الخدّ دمعتُه وبين حيائه
فكأنّه الحبشىُّ يصبغ جسمه (١) * فثيابُه مخضلّةٌ بدمائهِ

[وقال القاضى عياض (٢)] :

أُنظُرْ (٣) الى الزّرع وخاماته * تحكِى وقد مالت أمامَ الرياحْ
كَتيبةٌ خضراءَ مهزومةً * شقائق النعمان فيها جِراحْ

[وقال الصَّنَوْبرىّ (٢)] :

كم خدودٍ مصونةٍ من شقيقٍ * لم تبدُّلْ لِلَّثم أو للعِضاضِ
اِعترضْ ناظرَ الشقيق ففيه * طُرَفٌ ما يَملُّها ذو اعتراضِ
جُمَمٌ (٤) سرحتْ بلا مُشُطٍ (٥) أو * طُرَرٌ قُصِّصت بلا مِقراضِ
حُمرةٌ فوق خضرةٍ وسوادٌ * بين هذين مُعلَمٌ ببياضِ

وقال أيضا فيه :

وجوهُ شقائقٍ تبدو وتخفَى * على قُضُبٍ تَميد بهنّ ضَعفا
تَراها كالعَذارَى مُسبِلاتٍ * عليها من عميم النّبت (٦) سَجْفا
تَنازعتِ الخدودَ الحمرَ حُسنا * فما إن أخطأت منهنّ حَرفا

(١) لعله «يبضع» بالبناء للمجهول . من البضع ، وهو تقطيع اللحم ؛ فان قوله بعد : «مخضلة بدمائه» يقتضى معنى تقطيع الجسم لا صبغه ؛ ويرجحه ما يأتى بعد فى شعر القاضى عياض من تشبيه الحمرة التى فى الشقيق بالجراح .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (أ) .

(٣) يلاحظ أنه قد سبق إيراد هذين البيتين فى ص ١٦ من هذا السفر فيما وصف به الزرع من الشعر .

(٤) الجمم : جمع جمة ، وهى مجتمع شعر الرأس .

(٥) المشط بضمتين : لغة فى المشط بسكون الشين .

(٦) فى رواية : «من جميم» بالجيم (مباهج الفكر) . والجميم : النبت الكثير ؛ أو هو الناهض المنتشر منه .

اذا طلعتْ أرتك السُّرجَ تُذْكَى * وان غَرَبتْ أرتك السُّرجَ تُطفَا
تُخال اذا هى اعتدلتْ قواما * زجاجاتٍ مُلئن الخمـرَ صِرفا
يزيد بهنّ روضُ الحَزْن حُسنا * اذا ما زهرُهنّ بهنّ حَفّا

وقال أيضا من أبيات :

وكأنّ محمـرّ الشّقيـ * ـق اذا تصوّبَ أو تصعّدْ
أعلامُ يا قـوتٍ نُشِر * ن على رماحٍ من زبرجدْ

[وقال آخر] :

شقيقةٌ شَقّ على الوَرد ما * قد لبست من كثرة الصِّبْغ
كأنّها فى حسنها وجنـةٌ * يلوح فيها طَرَفُ[1] الصُّدْغ

وقال الأخيطل الأهوازىّ :

هذى الشقائقُ قد أبصرتَ حُمرتَها * فوق[2] السـوادِ[3] على أعناقها الذُّلُلِ
كأنه دَمعـةٌ قـد غَسّلتْ[4] خُلا * جالت[5] بها وقفةٌ فى وجنتَىْ خَجِلِ[6]

وقال كُشاجِمُ من أبيات :

فانظر بعينك أغصانَ الشقائق فى * فـروعها زَهَرٌ فى الحسن أمثالُ

---

(١) فى كلا الأصلين : «طرق» بالقاف ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى كلا الأصلين « فرق » بالراء ؛ وهو تحريف .

(٣) يريد بالسـواد هنا الرءوس السـوداء التى فى وسط أزهار الشقيق ؛ وفى رواية أخرى لهـذا الشطر : «مستشرفات على عيدانها الذلل» (مباهج الفكر) و (ديوان المعانى) إلا أنه ورد فى (ديوان المعانى) مكان قوله «عيدانها» : «قضبانها» .

(٤) فى ديوان المعانى : «مسحت» .

(٥) كذا فى ديوان المعانى . والذى فى كلا الأصلين : «جادت» بالدال ؛ وهو تحريف . وفى مباهج الفكر : «حارت» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٦) فى (أ) «عجل» ؛ وهو تحريف .

من كلِّ مُشرِفة الأوراق ناضرةٍ * لها على الغصن إيقادٌ و إشعالُ
حمراء من صِبغةِ البارى بقدرته * مصقولة لم ينَلْها قطُّ صقّالُ
كأنّما وَجَناتٌ أربعٌ جُمِعتْ * فكلُّ واحدةٍ فى صحنِها خالُ

وقال مؤيِّد الدين الطُّغرائىّ :

٥ وتَرى شقائقَه خلالَ رياضِها * أوفَتْ مَطاردُها على أزهارِها
فكأنّها والريحُ تَصقُل خدَّها * والسُّحْبُ تملؤها بصَوْبِ قِطارِها
أقداحُ ياقوتٍ لِطافٍ أُترِعتْ * راحا فبات المِسكُ سُؤرَ قرارِها
وكأنها وَجَناتُ غِيدٍ أحدَقتْ * بخدودها حُمرا خطوطُ عِذارِها

وأمّا ما وُصِف به البَهار[1] — فمن ذلك قولُ الصَّنَوْبَرىّ :

١٠ وروضةٍ لا يزال يبتسم النُّوار* فيها ابتسامَ مسرورِ
كأنّما أوجهُ البَهار بها * وقد بدت أوجُهَ الدنانيرِ

وقال أحمدُ بنُ بُرْد الأندلسىّ :

تأمّلْ فقد شقّ البَهارُ مقلِّصا[2] * كمائمَه عن نَوْرِه الخَضِل النَّدى
مَداهن تِبرٍ فى أناملِ فضّةٍ * على أذرعٍ مخروطةٍ من زبرجدِ

---

١٥ (١) يلاحظ أن المؤلف لم ينقل فى البهار ما ذكره ابن سينا فى خواصه الطبية كعادته ؛ فلعله قد ترك ذلك اختصارا . والبهار، هو الأقحوان الأصفر عند بعضهم، ويسمى أيضا عين البقر؛ وكانت تسميه عامة الأندلس : خبز الغراب، ويسمى بالبربرية : أملال، وبالفارسية : كاوچشم، ومعناه عين البقر، وهو نبات له ساق رخصة وورق شبيه بورق الرازيانج، وزهر أصفر أكبر من زهر البابونج شبيه بالعيون؛ وينبت بالدمن .

٢٠ (٢) فى كلا الأصلين : «مفلسا» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه السياق .

وقال ابنُ دَرّاج[1] القَسْطَلّىّ[2] من أبيات :

بَهارٌ يَروق بمِسْكٍ ذكى * وصِبغٍ بديعٍ وخَلقٍ عَجَبْ
غصونُ الزبرجد قد أُورقتْ * لنا فضّةً مُوِّهتْ بالذهبْ

[وقال آخر] :

بَهَرَ البَهارُ عيونَنا فقلوبُنا * مسحورةٌ بجمالِه السَّحّارِ
كسواعدٍ من سُندسٍ وأكفُّها * من فضّةٍ حَمَلتْ كئوسَ نُضارِ

وأما الأُقْحُوان[3] وما قيل فيه — فقال أبو الخير العشّاب : الأقحوان هو البابونَج، وهو نوعان : نوع يَنبت فى الجبال الباردة جدّا، ونوع يزرع فى البساتين؛ فما كان جبليا فهو البابونج، وما كان مزروعا فهو أقحوان؛ ومنه ما زهرُه أصفرُ كلُّه؛ ومنه ما زهرُه أبيض، وفى وسطه لُمْعةٌ صفراء؛ ومنه الحَوْذان[4]، وورقُه يشبه ورقَ الخِيرىّ[5] الأصفر؛ وهو مشرَّفٌ تشريفَ المِنشار، ويُعرفُ برأس الذّهب؛ ويسمّى بمصر : الكَرْكاش؛ وأهلُ مصر يعتنون بأمره فى وقت نزول الشمس برجَ الحَمَل، ويَحتفِلون به، فيَخرُج كثيرٌ من عوامِّهم وبعضُ الجند وغيرهم الى البَرّ

(١) كذا ضبط ابن خلكان هذا الاسم فى (وفيات الأعيان) ضبطا بالعبارة .

(٢) القسطلى : نسبة الى قسطلة بتشديد اللام كما ذكره ياقوت فى معجمه، وصاحب التاج نقلا عن الحافظ، وابن خلكان فى الوفيات فى ترجمة ابن دراج هذا، وهى مدينة بالأندلس يقال لها قسطلة درّاج .

(٣) يسمى أيضا شجيرة مريم بالمغرب، ورجل الدجاجة؛ ويعرف فى أفريقية وأعمالها بالكافورية وفى الموصل بشجر الكافور؛ ويسمى باللاتينية «فرطينيوس» وباليونانية فرطانيون (عمدة المحتاج ج ٢ ص ٤٩٦) .

(٤) الحوذان : من بقول الرياض، وله نور أصفر طيب الرائحة، قاله الأزهرى . وقال فى اللسان : الحوذان نبت يرتفع قدر الذراع، له زهرة حمراء فى أصلها صفرة، وورقته مدوّرة؛ وهو من نبات السهل، حلو طيب الطعم .

(٥) قد سبق ذكر الخيرى فى أول هذا الباب انظر صفحة ٢٧١ من هذا السفر، كما سبق وصفه أيضا فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٩٧

ويقطعونه فى الساعة التى تَحُلّ الشمسُ فيها الحَمَل[(١)] بمناجلَ من الذهب يصوغونها برسمه، أو بدنانيرَ؛ ومنهم من يتكلّم بكلامٍ شِبهَ الرُّقية، لا ينطق بغيره ما دام يحصُده، ويجمعون ما يقطعونه من ذلك بالذهب، ويدّخرونه فى صناديقهم، ويزعمون أنّ مَن قطعه على وضعِه[(٢)] مَلَك فى تلك السنة بعدد ما يَقطعه منه دنانيرَ إن قَطعه بالذهب، ودراهمَ إن قطعه بالفضّة.

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا: طبع الأُخْوان حارٌّ فى الثالثة، يابس فى الثانية. قال: وهو مسخّنٌ مُنضِج، مفتّحٌ للسُّدد، وفى الأحمر منه قبضٌ ومنعٌ لأنواع السَّيلان، مع ما فيه من التحليل؛ وهو يُدِرّ العَرَق، وكذلك دُهنُه مَسُوحا؛ ويفتّح أفواهَ العروق، محلّل، ملطّف للأورام والبُثور، محلّل للورم الحارّ فى المعدة والدمِ الجامد فيها؛ وينفع جميعَ الأورام الباردة؛ وينفع من النَّواصير؛ ويقشّر الخُشْكريشات[(٣)] والقُروحَ النَّضيجة[(٤)]؛ وينفع من جراحات العَصَب، ومن ٱلتواء العَصَب اذا بُلّت صوفةٌ بطبيخه ووُضِعتْ عليه؛ وهو مُسْيِت؛ واذا شُمّ رَطْبُه نَوَّم؛ ودُهنُه نافعٌ من أوجاع الأُذُن؛ وهو ينفع من الرَّبو اذا شُرِب يابسُه[(٥)] كما يُشرَب الإفتيمون[(٦)].

(١) عبارة داود: «ويقطعونه بالذهب يوم تاسع عشر الحمل» (التذكرة ج ١ ص ٧٦).

(٢) على وضعه، أى على الطريقة الموضوعة لقطعه.

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ بضم الخاء فى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستاين جاس؛ وهو من الألفاظ الفارسية. وقال صاحب الشذور الذهبية فى تفسير الخشكريشة: إنها جزء متغنغر من الأجزاء الرخوة يختلف فى اللون والقوام، وينفصل عن الأجزاء الحسية بواسطة الالتهاب. وفى بحر الجواهر للهروى ما ترجمته أن الخشكريشات هى القروح الجافة التى لا رطوبة فيها. وفى كتب الطب الأخرى ما يفيد ذلك أيضا.

(٤) فى القانون: «الخبيثة» انظر صفحة ١٢٩ طبع أوربا والجزء الأول صفحة ٢٥٠ طبع بولاق.

(٥) عبارة ابن سينا «اذا شرب يابسا بالسكنجبين والملح كما يشرب الإفتيمون» القانون ج ١ ص ٢٥٠ طبع بولاق.

(٦) يستفاد مما ذكره صاحب كتاب عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية أن هذا الاسم بكسر=

قال : وهو ردىء لفم المعدة، إلا أنّه يحلّل يابسا[1]، ويجفّف ما يتحلّب[2] اليها؛ ويحلّل الدمَ الجامدَ فيها .

قال : وهو يُدِرّ بقوّة، ويحلّل الدمَ الجامدَ فى المَثانة بماء العسل، ويفتّت الحَصاة ، واذا شُرِب مع زهره وفُقّاحه فى الشّراب أدَرّ الطّمْث ، وكذلك احتمالُ دُهنه فانّه يُدِرّ بقوّة، واحتمالُ دُهنه يحلّل صلابةَ الرّحِم، ويفتّح الرّحِم ؛ ويُشرَب يابسا بالسّكَنْجَبِين كما يُشرَب الإفتِيمُون فيُسهل سوداءَ وبَلْغَما؛ وينفع من أورام

= الهمزة كما أثبتنا ، فقد قال ما نصه : أصل هذا الاسم من اليونانية ابتيمون بهمزة مكسورة وباء فارسية ، والعرب قديما كانوا يقلبون فى تراجمهم تلك الباء التى لا توجد فى لغتهم فاء ؛ والنون التى فى آخر هذا الاسم أصلها فى لغة اليونان ميم ، وتراجمة العرب تبدل الميم نونا ؛ وحق تائه أن تنطق فى الترجمة العربية ثاء مثلثة كما هى كذلك فى نطق اليونانيين . قال : وقد رأيتها فى مؤلفات عربية صحيحة وعليها نقط ثلاث ؛ وبالاختصار فان هذا الاسم يونانى يقينا . ثم قال فى معناه : إنه مركب من كلمتين : «إبى» بكسر الهمزة والباء الفارسية ، ومعناها بالعربية (على) الحرفية ، وثانيتهما «تيمون» ويقال له بالافرنجية «تيم» بكسر التاء فيهما ، أى سعتر؛ فمعنى الكلمتين : «على السعتر» لأن هذا النبات ينبت على غيره مما يجاوره من النبات لا سيما السعتر الخ انظر الجزء الثانى صفحة ٣٩٧ . وقال داود فى وصف هذا النبات : إنه نبات له أصل كالجزر شديد الحمرة وفروع كالخيوط الليفية تحف بأوراق دقاق خضر ، وزهر الى حمرة وغبرة ، وبزر دون الخردل أحمر إلى صفرة ، ويلتف هذا النبات بما يليه ، وأجوده الحديث المأخوذ فى بؤونة ، أعنى حزيران . وذكر داود أيضا أن معنى افتيمون باليونانية : دواء الجنون ، وقد ردّ عليه صاحب عمدة المحتاج هذا القول واختار فى معناه ما سبق أن نقلناه عنه فى هذه الحاشية ، ويستفاد مما سبق أن الافتيمون نوع من النبات . والذى ذكره صاحب مباهج الفكر أنه منّ من الأمنان التى تسقط من الهواء على الأشجار، وتبعه المؤلف فى هذا الكتاب فعدّ الافتيمون فى باب الأمنان الآتى بعد الصموغ . وقال إنه منّ يسقط من الهواء على صنف من الصعاتر برياض جزيرة أقريطش وبرقة وفى جبال بيت المقدس .

(١) لم يرد قوله : «يابسا» فى القانون المنقول عنه هذا الكلام فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية ولا فى شرح الأدوية المفردة من قانون ابن سينا للكازرونى .

(٢) فى القانون : «ما يجلب» .

المقعدة الحارّة ؛ ويفتّح البواسيرَ هو ودُهنُه ؛ وينفع من أُدْرةِ[1] الماء بعد أن تُشَقّ ؛ وينفع من القُولَنج[2] ووجع المَثانة، وصلابة الطّحال، هذه منافعُه الطّبيّة .

وأمّا ما وصفه[3] به الشعراء — فقد أكثر الشعراء من تشبيهه بالثغور وتشبيهِ الثغور به، وتشبيهُ الثغور به أكثرُ فى أشعارهم من تشبيهه بالثغور؛ وقد أجاد ظافر الحدّادُ الإسكندرىُّ فى وصفه حيث قال :

والأُقْحُوانةُ تحكِى ثغرَ غانيةٍ * تَبسّمتْ عنه من عُجْبٍ ومن عَجَبِ
فى القَدّ والبَرْد والرِّيق الشهىّ وطِيـ * ـب الرِّيح واللّون والتفليج والشّنَبِ
كشمسةٍ[4] من لُجَيْنٍ فى زبرجدة * قد شُرِّفتْ حول مسمارٍ من الذهبِ

[وقال آخر] :

والأُقْحُوانةُ تُجلَى[5] وهى ضاحكةٌ * عن واضحٍ غيرِ ذى ظَلْمٍ ولا شَنَبِ
كأنّها شمسةٌ[4] من فضّةٍ حُرِستْ * خوف الوقوع بمسمارٍ من الذهبِ

وهذا والذى قبلَه من بديع التشبيه ؛ وهو أجودُ من تشبيهها بالثغور وأصنَع فإنّها لا تشبَّه بالثغر حقيقةً إلّا من وجهٍ واحد ، وهذا قد شبّهها ووصَفها بجميع صفاتها وهيئتها .

---

(١) الأدرة : القيلة ؛ وهى انتفاخ الخصية وعظمها ، وصاحبها آدر، ومأدور .

(٢) القولنج بضم القاف وفتحها مع فتح اللام وقد تكسر : مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح .

(٣) كذا فى (أ) والذى فى (ب) : « وأما ما وصف به وشبه فقد أكثر » الخ ومؤدّى العبارتين واحد .

(٤) يريد بالشمسة : القطعة المدوّرة على هيئة الشمس .

(٥) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر : «تحكى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه قوله بعد : «عن واضح» .

وقال ابن عبّاد :

ومن لؤلؤ فى الأقحُوان منظّمٍ * على نُكَتٍ مصفرةٍ كالفرائدِ
يذكّرنا رَيّا الأحبّةِ كلّما * تنفّس فى جُنحٍ من الليل باردِ

وقال آخر :

كلّ يوم بأُقحُوانٍ جديدٍ * تضحك الأرضُ من بكاء السماءِ
وَسْطَها جُمّةٌ من الشّذْر حُفّت * بثغورٍ من فضّةٍ بيضاءِ

وقال جمالُ الدين علىُّ بنُ أبى منصور(١) المصرىّ :

أُنظرْ فقد أبدَى الأقاحُ(٢) مباسما * ضحكتْ بدُرٍّ فى قُدودٍ زبرجدِ
كفصوص دُرٍّ لُطّفتْ أجرامُها * قد نُظّمتْ من حَولِ(٣) شمسةِ عَسْجَدِ

[وقال آخر] :

ظفرتْ يدى للأُقحُوان بزَهرةٍ * باهت بها فى الرّوضة الأزهارُ
أبدت ذراعَ زبرجدٍ وأناملا * من فضّةٍ فى كفّها دينارُ

[وقال آخر] :

كأنّ نَوْرَ الأقاحى * إذ لاح غِبَّ القَطْرِ
أناملٌ من لُجَينٍ * أكفُّها من تِبْرِ

(١) فى كلا الأصلين : «أبى المنصور» بزيادة الألف واللام؛ وما أثبتناه عن فوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ ص ٦٤ طبع بولاق .

(٢) حذف الياء من الأقاحى فى هذا الموضع لضرورة الوزن ، أو جريا على رأى من يجيز حذف ياء المنقوص فى الوصل، فقد ورد فى شرح الرضى على الشافية ص ٢٠١ طبع القسطنطينية ما يفيد أن بعض العرب يجيز ذلك؛ وعبارته : ومن حذف الياء فى الوصل نحو (الكبير المتعال سواء منكم) أوجب حذفها وقفا بإسكان ما قبلها .

(٣) فى كلا الأصلين : «من فوق» ؛ وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا نقلا عن مباهج الفكر وكما هو مشاهد؛ فان البياض الذى فى زهر الأقحوان إنما هو حول الصفرة التى فى وسطه ، لا فوقها .

[وقال آخر] :

لَدَى أُقْحُوانات يطفن بناضرٍ * من الوَرد محمرِّ الثياب نَضيدِ
اذا الريحُ هزّتها توهّمتَ أنها * ثغورٌ هوت قصدا لعضِّ خدودِ

البابُ الثالث

من القسم الرابع من الفنّ الرابع[1] فى الصُّموغ

٥

ويشتمل هذا الباب من الصّموغ على ثمانيةٍ وعشرين صِنفا . وهى الكافُور والكَهْرَبا ، وعِلْكُ الأنباط ، وعِلْكُ الرُّوم — وهو المُصْطَكا — وعِلْكُ البُطْم وصَمْغُ اليَنْبُوت[2] ، وصَمْغُ قُوفِىّ[3] ، والكَثِيراء ، والكُنْدُر ، والفَرْبيُون ، والصَّبِر ، والمُرّ والكَمْكام[4] ، والضِّجاج ، والأُشَّق ، وترابُ التِّىء ، والقِنّة ، والحِلْتيت ، والأَزْرُوت والسِّكْبِينَج ، والسادَوْران[5] ، ودمُ الأخوَين ، والمَيْعة ، وصَمْغُ قبعرين[6] ، والمُقْل الأزرق والصَّمغُ العربىّ ، والقَطِران ، والزِّفت .

١٠

(١) فى (أ) : «الثالث» ؛ وهو خطأ من الناسخ .

(٢) صوابه « التنوب » بفتح التاء المثناة وضم النون مشدّدة ، وسيأتى بيان ذلك فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٩٩ من هذا السفر عند الكلام على هذا الصمغ .

(٣) فى كلا الأصلين : «فوفا» ؛ بفاءين ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مفردات ابن البيطار فقد ذكره فى حرف القاف ج ٤ ص ٤١ وقد ضبطناه هكذا نقلا عن أقرب الموارد ، وهو وإن ورد فى أقرب الموارد بمعنى البخور العطرى ، إلا أن ابن البيطار قد ذكر أنهم كما يسمون به البخور يسمون به أيضا شجر الأرز بفتح الهمزة ، لطيب رائحته ، وهذا هو المعنى الذى سيذكره المؤلف فيما سيأتى عند الكلام على هذا الصنف . (٤) فى كلا الأصلين : «والكركام» ؛ وهو تحريف .

١٥

(٥) ورد هذا اللفظ بتقديم الراء على الواو فى نسخ بعض الكتب ، كمفردات ابن البيطار ج ١ ص ٣ ومباهج الفكر ؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه العكس انظر القاموس الفارسى الانجليزى تأليف استاين جاس فقد ورد فيه هذا اللفظ هكذا : ساد أفران .

(٦) لم نجد نصا على ضبط هذا اللفظ فيما راجعناه من الكتب .

٢٠

فأما الكافورُ[1] وما قيل فيه — فهو أشرفُ الصُّموغ قَدْرا ، وأحقُّها بالتقديم وأَحرَى ؛ لفضلِه فى التركيب ، ودخولِه فى أصناف الأدويةِ والطِّيب ؛ ويقال فيه : (القافور) بالقاف بدل الكاف ؛ ويقال : إنّه صَمْغُ شجرةٍ سَفْحيّةٍ بحريّةٍ[2] عظيمةٍ تُظِلّ مائةَ رَجُل ، تكون بأطراف الهند . وتزعم التّجار أنّه يوجد فى الشجرة الواحدة أصنافٌ من الكافور ، فيميِّزون كلَّ صِنف على حدته ؛ وله مَظانّ : منها (فَنْصُور)[3] وهى جزيرةٌ محيطها سبعمائة فرسخ ، وتُعرَف أرضُها بأرض الذهب ؛ والكافور المنسوبُ اليها أفضلُ ممّا عداه ، ومن مَظانّه موضعٌ يُعرَف بأربشير[4] ، ومنها الزّايج[5] ؛ والمنسوبُ اليها أدنى أصنافِه . قالوا : وكيفيّةُ جمعِه أن تُقصَد شجرتُه فى وقتٍ معلومٍ من السنة فتُحفَر حولها حُفْرة ، ويُجعَل فى الحفرة إناءٌ كبير ، ثم يُقبِل الرَّجُل وبيَدِه فأسٌ عظيمة ، وهو ملثَّم ، مسدودُ الأنف ، ويمكِّن الإناءَ من أصل الشجرة ، ثمّ يضربها

(١) قال صاحب المادة الطبية : إن الكافور يسمى بالافرنجية كفر بفتح الكاف وسكون الميم وضم الفاء ؛ ويسمى باللاتينية كفورا (الجزء الثالث ص ٦٦٢) .

(٢) كذا ورد قوله « بحرية » فى كلا الأصلين وكتب أخرى ، وهو لا يتفق مع وصفها قبل بأنها « سفحية » ؛ فلعل صوابه « برية » أى أنها تنبت فى سفوح الجبال كما تنبت فى البرارى .

(٣) فى تقويم البلدان ص ٣٦٩ طبع أوروبا أن (فنصور) مدينة فى جنوبى جزيرة جاوة . ونقل ابن البيطار عن المسعودى فى الكلام على الكافور أن (فنصور) هى جزيرة سرنديب (المفردات ج ٤ ص ٤٢ طبع بولاق) وفى المنهج المنير ضمن الكلام على الكافور أنه يقال : فنصور بالفاء والنون كما هنا ، وقيصور بالقاف والياء .

(٤) لم نجد هذا الاسم فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى أسماء البلاد ، كمعجم البلدان لياقوت ، وتقويم البلدان لأبى الفداء ؛ ومعجم ما استعجم للبكرى .

(٥) الزايج بفتح الباء وكسرها ، كما فى معجم ياقوت : جزيرة فى أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند فى حدود الصين . وقال أبو الفداء فى تقويم البلدان صفحة ٣٧٢ طبع أوروبا : الظاهر أنها بالراء المهملة والألف والنون .

بالفأس ضربة ، ويَطرح الفأسَ من يده ، ويَهرُب خشيةَ أن يفور فى وجهه ما يخرج من الشجرة من الكافور، فانّه متى أصاب وجهَه قتَله ، ويجمع ما يخرج من الشجرة عقيبَ تلك الضربة فى ذلك الإناء الموضوع فى أصلها ، فاذا بَرُد فى الإناء جعلوه فى أوعيةٍ وقطعوا تلك الشجرة ، وتركوها حتى تجفّ، ثم تُقطع أجزاء صغارا أو كبارا. وذهب آخرون الى أنّه بين اللِّحاء والعُود مِثلَ الصَّمْغ قِطَعا صِغارا وكِبارا. وقال آخرون : بل يشقّون الخشب فيجدون الكافورَ فى قلب العُود منظَّما مِثلَ المِلْح، فيَقلعونه منه، وهذا هو الأصحّ عندهم. وقد زعم آخرون أنّ الكافورَ يُلتقَط من شجرٍ فى غِياضٍ ملتفّةٍ فى سُفوحِ جبال ، وبين تلك الغِياضِ والبحرِ مسيرةُ أيّام وأنّ البُبور[1] تألَف تلك الغِياض، ولا يصل أحدٌ إلى التقاطه خوفا منها إلّا فى وقتٍ معلومٍ من السنة، وهو زمنُ هِياج هذا الحيوان، لأنّه اذا هاج مرض، فتخرج إناثُه وذُكورُه الى البحر فتَستشفى بمائه نحوا من شهر، فيُلتقَط فى ذلك الوقت . قالوا : ولولا ذلك لكان الكافورُ كثيرا جدا .

والكافورُ أصناف : أفضلُها الرَّباحىّ[2]، وأجود الرَّباحىِّ الفَنْصُورىّ[3] . قالوا :

(١) البُبور : جمع ببر ، وهو سبع هندى فى صورة أسد كبير أزب ، ملمع بصفرة وسواد ، وفى طبعه أنه يسالم النمر وغيره من السباع ما لم يستكلب، فاذا استكلب خافه كل شىء كان يسالمه ، وهو والأسد متوادان أبدا؛ وهو سريع العدو، ولا يقدر أحد على صيده انظر الجزء التاسع من نهاية الأرب صفحة ٢٤٢ الطبعة الأولى . والذى فى مفردات ابن البيطار فى الكلام على الكافور وتاج العروس مادة (كفر) "النمورة" .

(٢) يجوز أيضا أن يقرأ الرياحى بالياء المثناة، لتصاعده مع الريح، كما ذكره داود فى التذكرة ج ٢ ص ١١٦ طبع بولاق . أما تسميته الرباحى بالباء الموحدة فسيذكر المؤلف سبب ذلك فيما يأتى .

(٣) الفنصورى نسبة الى فنصور؛ وقد سبق الكلام على هذا البلد فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٩٢ من هذا السفر، فانظرها .

ولا يوجَد هذا الصِّنفُ إلّا فى رُءوس الشجر وفروعِها، ولونُه أحمرُ مُلمَّع، ثم يُصعَّد هناك فيكونُ منه الكافورُ الأبيض، و إنّما سمّىَ الكافورُ رَباحيّا، لأن أوّلَ من وقع عليه مَلِكٌ يقال له : (رَباح)، فنُسِب اليه؛ ومن الرَّباحىِّ صِنفٌ يسمَّى المَهْنَشان[1] وهو حَبٌّ أبيضُ برّاق، ناعمُ الفَرْك، ذكىُّ الرائحة؛ ومنه صِنفٌ يُعرَف بالبرتك[2] ناعمُ الفَرْك، ذكىُّ الرائحة، وليس له صَفاءُ المَهْنَشان[1]، وبعدَه صِنفٌ يُعرَف بالسِّرحان[3] وهو أكبر حَبّا من المَهْنَشان، إلّا أنّه كثيرُ الخشب، ولونُه يَضرب الى السواد ناعمُ الفَرْك، ومنه صِنفٌ يسمَّى موطيان[2]، ناعمُ الفَرْك، يَضرِب الى الحُمرة، ومنه صِنفٌ يسمَّى المهاى لبصيصِه، وهو حبٌّ أحمرُ الظاهر أبيضُ فى الفَرْك، جافُّ الجوهر، ومنه صِنفٌ يُعرَف بالرقرق[4]، وصِنفٌ يُعرَف بالإسفرك[5]، وهو غُثاء الكافور، و بعده صِنفٌ يسمَّى الكندج[2]، يشبه لونُه نُشارةَ الساج[6]، إلّا أن فيه لِينا

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين . وضبط فى (ا) بفتح الميم وسكون الهاء ضبطا بالقلم كما أثبتنا .

(٢) لم نجد هذه الأسماء الثلاثة التى تحت هذا الرقم فيما راجعناه من كتب اللغة ومؤلفات الأدوية على كثرتها؛ وقد حرفناها الى وجوه كثيرة مما تحتمله الحروف الواردة فى كلا الأصلين فلم نقف عليها فى هذه الكتب أيضا لا فى أنواع الكافور ولا فى غيرها . وقد ذكر ابن البيطار وابن سينا عدة أصناف من الكافور ولم يذكرا منها هذه الأنواع ولا ما يقرب فى رسم الحروف مما هنا .

(٣) فى كلا الأصلين : « السوجان » بالواو والجيم ؛ وهو تحريف إذ لم نجده فيما راجعناه من الكتب الكثيرة ؛ وما أثبتناه عن المنهج المنير فى أسماء العقاقير . والذى فى مباهج الفكر المنقول عنه هذا الكلام «السرحانى» بياء النسبة ؛ والظاهر أن نسبته الى السرحان ، وهو الذئب ، لتشابههما فى اللون .

(٤) كذا فى المنهج المنير . والذى فى كلا الأصلين : «بالبرفرف» ؛ وهو تحريف اذ لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب .

(٥) كذا فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية ج ١ ص ٣٣٦ والأوربية ص ١٨٩ ، وشرح الأدوية المفردة للكازرونى . والذى فى كلا الأصلين والمنهج المنير : « الاسفزر » .

(٦) الساج ، هو شجر هندى خشبه أسود صلب ، ويسمو هذا الشجر فى الهواء كثيرا ؛ وفروعه تسمو =

ودهانة، وفى حبّه كبر، اذا كُسِر وُجِد داخلُه أسود، فاذا فُرِك وُجِد أبيض، وكلُّ هذه الأصناف لا تدخل إلّا فى الأدوية، إلّا الرّياحىّ المجلوب من أرض (فنصور) فانّه لا ينبغى أن يُستعمَل إلّا فى الطِّيب لجُودته وحُسنِه، وقد ذكر محمدُ بنُ أحمد ابنِ سعيد التّميمىُّ المقدسىُّ فى كتابه المترجَم (بجيب العروس) من الكافور أصنافا كثيرة، منها الذى أوردناه.

وقال أبو علىّ بنُ سينا: طبعُ الكافور باردٌ يابسٌ فى الثالثة، واستعمالُه يُسرع الشّيب، ويمنع الأورامَ الحارّة، واذا خُلِط بالخَلّ أو مع عصير البُسْر أو مع ماء الآس[1] أو ماءِ الباذَروج[2] مَنَع الرُّعاف؛ و[نَفَع][3] الصُّداعَ [الحارّ][3]؛ وهو يقوّى حواسّ المحرور؛ وهو يَقطع الباه، ويولّد حَصَى الكُلْية والمَثانة.

وأمّا الكَهْرَبا وما قيل فيه — فالكَهْرَبا يسمّى مصباحَ الرُّوم. وقال عبدُ الله بنُ البيطار فى مفرداته: من زعم أنّ الكَهْرَبا صَمْغُ الحَوَرِ الرُّومىّ فليس قولُه بصحيح. والكَهْرَبا صِنفان: منها ما يُجلَب من بلاد الرّوم والمشرق؛ ومنها ما يوجَد بالأندلس فى غربيّها عند سواحل البحر تحت الأرض، ويوجَد فى واحاتِ مصر. ويقال: إنّه رطوبةٌ تقطر من الدَّوْم من ورقِه، شبيهةٌ بالعسل، يكون

= وتمتد، وله ورق كبير، وخشبه لا يتغير مع القدم. وقال داود: الساج خشب هندى كأنه الدلب إلا أنه طيب الرائحة، له ثمر فى حجم الفوفل الى استطالة، وأظنه البندق الهندى، يستخرج منه دهن غليظ الى سواد. وقال أبو حنيفة: هو شجر يعظم جدا و يذهب طولا وعرضا، وله ورق أمثال التراس الديلمية، وله رائحة طيبة تشابه رائحة ورق الجوز، مع رقة ونعومة.

(١) فى (ا) «الأرض»؛ وهو تحريف.

(٢) الباذروج اسم نبطى؛ وقيل فارسى؛ ويسمى بالعربية «الحوك» بفتح فسكون؛ وقد تقدم الكلام عليه فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) هاتان الكلمتان لم تردا فى (ا).

منها الكَهْرَبا، وقد يوجَد فى داخلِها الذُّبابُ والتِّبْنُ والحِجارة . وأمّا من زعم أنّه صَمغُ الحَوَر[1] الرُّومىّ المعروفِ بالتُّوز[2]، فيقول : إنّ صَمغَته ذهبية، تسيل فى النَّهر الّذى يسمَّى أمريدانوس[3]، فتجمُد فيه ، فيكون منه الكَهْرَبا؛ ولهذا الشجر ثمرةٌ تسمَّى السدد[4] والكَهْرَبا يَجذِب التِّبْنَ الى نفسِه، ولذلك يسمَّى كاهْ رُبَا[5]، أى سالبُ التِّبْن؛ وأجودُه الشَّمَعىُّ اللّون .

وقال ابنُ سينا : طبعُ الكَهْرَبا حارٌّ قليلا ، يابسٌ فى الثالثة[6]؛ وهو قابضٌ وخصوصا للدّم من أىِّ موضع كان . قال، وقال بعضهم : إنّه يُعلَّق على الأورام

(١) الحور بالتحريك — والعامة تسكن الواو — قال ابن حسان : هو المعروف عندنا بالجوز، وشجره أزواج، وفيه مشابهة من الجوز، وله قشر أصفر تبطن به القسىّ، وله صمغة ذهبية؛ وقشره اذا وضع مع عيدانه بعضها على بعض وأضرم فيها النار وتحتها قدر، سال منها زيت لدن طيب الرائحة كدهن البلسان . وقال داود : إنه شجر يطول حتى يقارب النخل اذا صادف الماء الكثير، وخشبه من ألطف الخشب وأصبره على المطر اذا قطع فى بابة ، ورقه كورق الصفصاف ، لكنه أدق وأطول ، ويحمل حبا كالحنطة دهنا .

(٢) فى كلا الأصلين : «بالتون» بالنون؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القاموس والمنهج المنير ومعجم أسماء النبات؛ والتوز لفظ فارسى .

(٣) لم نجد اسم هذا النهر فيما راجعناه من الكتب، كمعجم البلدان ، وتقويم البلدان ، ومعجم ما استعجم .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ومناهج الفكر؛ ولم يرد فى القاموس ولا فى شرحه بالمعنى المذكور هنا ، كما أننا لم نجده فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى مفردات الأدوية ؛ والذى فى المنهج المنير بهذا المعنى (سرادن) (وسردولة) وذكر صاحب المادة الطبية أن سردولة هو اسم لبزر شجر الحور الرومى بلسان الأندلس الجزء الثانى صفحة ١٤٣ طبع بولاق . وفى تذكرة داود ج ١ ص ١٩٢ فى الكلام على الحور: السردلة . وفى مفردات ابن البيطار ج ٢ ص ٤٢ : «البرد» .

(٥) كاه ربا ، هذه تسمية فارسية . وضبط بضم الراء فى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف استاين جاس وكتاب الألفاظ الفارسية المعربة .

(٦) فى القانون : «فى الثانية» الجزء الأول صفحة ٣٣٨ طبع مصر وص ١٩٠ طبع أوربا وكذلك فى التذكرة ج ٢ ص ١٣٢ طبع بولاق ؛ ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

الحارّةِ فينفع منها ؛ وهو يَحبِس الرُّعاف؛ واذا شُرِب منه نصفُ مثقالٍ بماءٍ باردٍ نَفَع من الخَفَقان؛ ويَمنع من نَفْث الدّم [جدًّا(١)؛ وهو يَحبِس القَيء؛ ويَمنع الموادَّ الرديئةَ عن المعدة؛ ومع المُصْطَكا يقوِّى المعدة] وهو يَحبِس نَزْفَ الرَّحِم والمَقعَدة، وينفع من الزَّحير .

٥ وأمّا عِلْكُ الأنباط — فهو صَمْغُ شجرةِ الفُسْتُق، يُستخرَج منها كسائر الصُّموغ، وذلك أنّهم يَعقِرون الشجرةَ فى مواضعَ كثيرة، فيسيل من تلك العُقور فيُجمَع ويجفَّف فى الشمس، ولونُه أبيضُ كَمِد ، وفى طعمِه شيءٌ من مرارة .

وأمّا عِلْكُ الرُّوم — فهو المُصْطَكا — ويسمَّى مصطيجا(٢) — وأجوَدُه ما كان له بَريق، وكان أحمرَ مُشرَبا، وأبيض، والأصفرُ دونهما .

١٠ وقال أبو علىّ بنُ سينا فيه : الطبعُ حارٌّ يابسٌ فى الثالثة(٣)؛ وهو قابضٌ محلِّل؛ ودُهنُ شجرتِه ينفع من الجَرَب، حتّى جَرَب المواشى والكلاب؛ ويُصَبّ طبيخُ ورقِه وعُصارته على القُروح فتُنبِت اللّحم، وكذلك على العظام المكسورةِ فتُجبَر؛ ومَضغُه يَجلُب البَلْغَم من الرأس وينقّيه، وكذلك المضمضةُ به تَشدّ اللِّثة؛ وهو يقوِّى المعدةَ والكبد، ويَفتِق الشهوة، ويطيِّب المعدة، ويحرِّك الحُشاء، ويُذيب البَلْغَم؛ وينفع

١٥ من أورام المعدةِ والكبدِ فى الوقت؛ ويقوِّى الكبدَ والأمعاءَ وينفع من أورامهما؛ (٩٠)

(١) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (ا) .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ بالجيم فى كلا الأصلين ومباهج الفكر . والذى فى المادة الطبية ج ٢ ص ٨١١ مصطيخا بالخاء، ونص فيه على أنه لفظ يونانى .

(٣) فى القانون فى كلتا طبعتيه المصرية والأوروبية « فى الثانية » ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

٢٠

وطبيخُ أصلِه وقشرِه ينفع من دُوسِنْطَارِيا[(١)] والسَّحج[(٢)]، وكذلك نفسُ ورقِه ؛ وينفع من نَزْف الدّم من الرَّحِم وجميع أوجاع الأرحام وسيلانِ رطوباتِها الرّديئة، ومن نُتُوء الرَّحِم والمَقعدة، وكذلك دُهنُ شجرتِه . قال : ويُدِرّ[(٣)] .

وأمّا عِلْكُ البُطْم — فهو صَمْغُ شجرةِ الحبّةِ الخَضْراء[(٤)] . ويؤتَى به من بلاد المغرب وبلاد فِلَسْطِين وسُورِيَةَ وما جاورها . وقال ابنُ البيطار[(٥)] : العِلْك أنواع :

(١) الدوسنطاريا : لفظ يونانى معناه عندهم ثقل الأمعاء، وهو إسهال بطنى مخاطى أو مدمى مصحوب بزحير، ومحله الأمعاء الغلاظ، وهو داء ثقيل خطر .

(٢) السحج : يطلق عند الأطباء حقيقة على تفرق اتصال منبسط فى سطح عضو يزول معه شىء من ظاهره عن موضعه، ومجازا على ما كان من هذا التفرق فى السطح الباطن من الأمعاء، ثم اشتهر هذا المجاز عندهم حتى اذا أطلق لفظ السحج انصرف الى هذا المجاز . قال السمرقندى : السحج هو انجراد سطح الأمعاء، وذلك الجارد إما مواد صفراوية حادّة أو صديدية أو مدية تنبعث عن نفس الأمعاء أو مما فوقها فتصير الى الأمعاء. اه قاموس الأطباء ؛ ولا يخفى أن المراد هنا المعنى الثانى المجازى، بدليل عطفه على الدوسنطاريا .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين؛ والذى فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوربية « وبزره » ومؤدّى الروايتين مختلف إذ قوله : « وبزره » من تتمة الجملة السابقة. ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٤) هذه الشجرة فى حجم الفستق والبلوط، سبطة الأوراق والحطب، صخرية، تكثر بالجبال ولا تثمر ورقها، عطرية، وحبها مفرطح فى عناقيد كالفلفل لولا فرطحته، وعليه قشر أخضر داخله آخر خشبى يحوى اللب كالفستق، وكثيرا ما يركب أحدهما فى الآخر فينجب، ويدرك هذا الحب فى أبيب، ويقطف بمسرى . وذكر صاحب عمدة المحتاج ج ٢ ص ٨١٧ أنه يسمى بالافرنجية تربنت وباللسان النباتى بسطاقيا تربنطوس، أى الفستق التربنتينى؛ ثم نقل عن أطباء العرب نحوا مما ذكرنا فى أول الحاشية وان هذه الحبة ما دامت خضراء فهى الحبة الخضراء؛ فاذا بلغت وجفت سميت بطما .

(٥) راجعنا ما ذكره ابن البيطار فى العلك ج ٣ ص ١٣١ ، ١٣٢ فوجدنا اختلافا فيما نقله عن الأطباء فى تفضيل بعض العلوك على بعض، فمرة نقل عن جالينوس ما يوافق كلام المؤلف هنا فى النوعين الأولين، وهما علك الروم وعلك البطم » فقال : (وأفضل أنواع العلك وأولاها بالتقديم علك الروم — وهو المصطكا — ... وأما سائر أنواع العلك فأجودها علك البطم) اه ثم نقل مرة اخرى عن ديسقوريدوس =

أفضلُها علكُ الرُّوم، وبعدَه عِلْكُ البُطْم، وبعدَه صَمغُ اليَنْبُوت[١]، وهو صَمغُ شجرِ قَضْمِ قُريش، وهو الصَّنوبَر الصَّغير، وبعده صَمْغُ القُوفيّ، وهو الأَرْز. وقالوا: اليَنْبُوتُ هو الخُرْنُوب النَّبطيّ.

وأمّا الكَثِيراء — فقال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِيّ: الكَثِيراء ممدود؛ هكذا نطقتْ به العرب، وهو صَمغُ القَتاد. وهى شجرةٌ[٢] شَوكةٌ تكون بأرض خُراسان؛ وهى أيضا توجد فى الجبال المُطِلّة على طَرابُلُس الشأم، ورأيتُها أنا تَنبتُ بجبل[٣] الثَّلج، وهى جُمَم، لاترتفع عن الأرض أكثرَ من نصفِ ذراع، يكون فيها الكَثِيراء.

وقال ابنُ سينا: طبعُ الكَثِيراء باردٌ الى يُبْس؛ وفيه تجفيف.

وأمّا الكُنْدُر — فهو اللُّبَان[٤]. والكُنْدُر كلمةٌ فارسيّة. وهو لا يكون إلّا بالشِّحْر[٥] من اليَمَن؛ وشجرتُه لا ترتفع أكثرَ من ذراعين، ومنابتُها الجبال، وورقُها مِثلُ

= خلاف ذلك، فقال: «وأجود هذه الصموغ صمغ شجرة الحبة الخضراء — وهو البطم — وبعده صمغ المصطكا» الخ أما قوله بعد: "وبعده صمغ اليَنبوت" الخ فلم نجده فى كلام ابن البيطار.

(١) صوابه التنوب بتاء مفتوحة ونون مضمومة مشددة، اذ التنوب هو شجر قضم قريش، وهو الصنوبر كما قال، وكما فى المفردات والتذكرة والمنهج وغيرها من الكتب؛ أما اليَنبوت الذى ذكره فلم نجده فيما بين أيدينا من الكتب بهذا المعنى، وإنما ورد بمعنى الخرنوب النبطى كما نقله المؤلف فيما سيأتى عن بعض العلماء. ولم تثبت التنوب فى صلب الكتاب مكان قوله: "اليَنبوت" لأن ذلك التصحيف إنما وقع من المؤلف لا من الناسخ، بدليل نقله الآتى عن بعض العلماء أن اليَنبوت هو الخرنوب النبطى، ومعلوم فى كتب اللغة والطب أن هذا القول انما هو فى اليَنبوت لا التنوب.

(٢) «وهى شجرة» الخ هذه العبارة من كلام اسحاق بن عمران، لا من تتمة كلام أبى حنيفة كما يتوهم انظر مباهج الفكر المنقول عنه هذا الكلام. (٣) جبل الثلج بدمشق (القاموس).

(٤) فى عمدة المحتاج ج ٢ ص ٨٢١ أن لفظ اللبان معرّب عن لبانو باليونانية. ويقال له أيضا البستج. ويسمى بالافرنجية أنسنس بفتح الهمزة والسين الأولى؛ وبينهما نون ساكنة، كما أن بين السينين نون كذلك، وأولبان وأولبانوم. ويقال إن اسمه باليونانية أيضا «طوس» ومعناه معطّر.

(٥) الشحر: صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. قال الأصمعى: هو بين عدن وعمان.

ورقِ الآس، وثمرتُها مِثلُ ثمرته، لها مرارةٌ فى الفم؛ وعِلكُها يظهر فى أماكنَ تُقص بالفُئوس[1] .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا: أجودُ الكُنْدُر الأبيَض[2] المدحرَج؛ الدَّبِقُ[3] الباطن، الذهبىُّ المَكسِر؛ وطبعُه حارٌّ فى الثانية، مجفِّفٌ فى الأُولى؛ وقِشرُه مجفِّفٌ فى حدود الثالثة . قال: وهو حابسٌ للدّم؛ والاستكثار منه يحرِق الدّم؛ ودُخانُه أشدُّ تجفيفا وقبضا؛ وإذا خُلِط الكُنْدُر فى العسل ووُضع على النّاحس[4] أذهبه، وقُشورُه جيّدةٌ لآثار القُروح؛ وينفع بالخَلّ والزّيت لَطوخا من الوجع المسمّى مرميقيا[5]، وهو وجعٌ يعرِض منه[6] فى البدن كالثّآليل[7]، مع شىءٍ كدَبيب النمل؛ واذا خُلِط بالخَلّ والزِّفت ولُطِخ به فى ابتداء حدوث الثّآليل التى تسمّى النملةَ[8] ازالها، ويَدخل فى الضِّمادات المحلّلة لأورام الأحشاء؛ وهو مدملٌ[9] جدّا، وخصوصا للجراحات الطريّة، ويَمنع الخبيثةَ[10]

(١) عبارة ابن البيطار «تعقر بالفئوس وتترك فيظهر فى آثار الفئوس هذا اللبان فيجتنى» اهـ وهى أوضح.

(٢) عبارة القانون : «الذكر الأبيض» الجزء الأول صفحة ٣٣٧ طبع بولاق .

(٣) الدبق، أى الذى يدبق أى يلتزق بما يمسه فلا يفارقه .

(٤) تقدم تفسير الداحس فى عدة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٤٠ .

(٥) فى كلا الأصلين موكيا؛ وهو تحريف؛ وما أثبتناه عن مفردات ابن البيطار فى الكلام على الكندر. ويؤيد هذه الرواية الواردة فى المفردات ورودها فى عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٢ ص ٨٢٤ طبع بولاق؛ وهو لفظ يونانى .

(٦) لم يرد فى القانون فى كلتا نسختيه قوله «منه» على أنه لا يلزم من هذه الكلمة فساد فى العبارة .

(٧) تقدم تفسير الثآليل فى عدّة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٨٧ فانظرها .

(٨) تقدم تفسير النملة فى عدّة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٤٠ فانظرها .

(٩) كذا فى كلا الأصلين والقانون، ومقتضى اللغة : «داءل» اذ لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب أنه يقال (أدمل الدواء الجرح) والذى يقال «دمله» .

(١٠) يريد بالخبيثة المرض المسمى عند الأطباء بالنملة وقد تقدم بيان معناها فى عدّة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٤٠ فانظرها .

من الانتشار، ويَصلُح للقُروح الكائنة من الحَرْق، ويقطع نَزْفَ الدم الرُّعافَ اذا خُلِط بزفتٍ أو زيتٍ أو بلبن، ويَدمُل قُروحَ العين، ويُنضِج الورمَ المزمنَ فيها؛ ودخانُه ينفع من الورم الحارّ؛ ويقطع سيلانَ رُطوبات العين؛ ويَدمُل القُروحَ الرديئة؛ وينفع من السّرطان فى العين؛ وإذا خُلِط بقَيْموليا[1] ودُهن الوَرد نَفَع الأورامَ الحارّةَ التى تَعرِض فى ثَدى النُّفَساء[2]؛ ويَدخُل فى أدوية قصبة الرِّئة؛ وهو يَحبِس القَيء، وينفع الهضم، ويَحبِس نَزْفَ الدّم من الرَّحم والمقعدة؛ وينفع من دُوسِنْطاريا[3]؛ ويمنع من انتشار القُروح الخبيثة[4] اذا اتُّخِذتْ منه فَتيلة؛ وينفع من الحُمَّيات البَلْغَميّة.

وأمّا الفَرْبيُون[5] — ويسمّى اللُّبانةَ المَغربيّة — فشجرتُه تُشبه شجرةَ القِنا[6]

(١) القيموليا: صفائح كالرخام بيض براقة (القاموس). وقال داود: القيموليا هى الطفل بفتح الطاء وقال ابن البيطار إن طين قيموليا نوعان: أحدهما أبيض والآخر فيه فرفيرية؛ وهو دسم، واذا لحس وجد بارد المجسة، وهو أجود النوعين المفردات ج ٣ ص ١١٠ طبع بولاق وفى المادة الطبية ج ١ ص ٣١٩ أن هذا الطين يسمى بالافرنجية أرجيل والاسم المشهور له فى الكتب القديمة طين قيموليا، وهو الطين الطيطلى والبيلون، وهو مخلوط طبيعى من الألومين والسليس، ويكون غالبا ملوّنا بأوكسيد الحديد ومنضما بقليل من كربونات الكلس والمغنيسيا، وأنقاه الأبيض، ويسمى فى لسان العامة بالطفل الأبيض، ولبن العذراء ولبن مريم، وهو ينحل فى الماء، ويتكون منه عجينة تتيبس اذا جففت وتتصلب على النار أيضا الخ.

(٢) فى كلا الأصلين: «النساء»؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية، ويرجحه أيضا ما ورد فى مفردات ابن البيطار ج ٤ ص ٨٤ ولفظه: «فى الثدى فى النفاس».

(٣) تقدم تفسير الدوسنطاريا فى عدّة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم (١) من صفحة ٢٩٨ فانظرها.

(٤) زاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله: «المعقدة» الجزء الأول صفحة ٣٣٨ طبع مصر.

(٥) ذكر صاحب المادة الطبية ج ١ ص ٢٣١ أن الفربيون يسمى بالافرنجية «أوفربيه» وباللسان الأفرباذيق «أوفربيون» ثم ذكر بعد ذلك فى صفحة ٢٣٣ أنه يسمى بالحبشية «كول كال».

(٦) كذا فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف. والذى فى (ا) ومباهج الفكر ومفردات ابن البيطار ونسخة القانون المطبوعة فى مصر (القناه)؛ وهو تحريف. فالذى وجدناه فيما بين أيدينا من الكتب =

فى شكلها؛ وصَمغُها مفرطٌ فى الحِدّة، يَحذره من يستخرجه لإفراط حِدّته، فيَعمِدون إلى كُروش الغنم[(١)] فيغسلونها و يشدّونها على ساق الشجرة، ثم يطعنونها بعد ذلك بمزاريق، فينصبّ منها فى الكَرِش صَمغٌ كثير، كأنّه ينصبّ من إناء؛ ويَخرج من شجرِه صِنفان: منه ما هو صافٍ يشبه الأَنْزَرُوت[(٢)]؛ ومنه ما يشبه السكّر؛ وأكثر ما يوجد شجرُه ببلاد البَربَر، خصوصا بجبل دَرَن[(٣)]، وهو عَساليجُ عريضةٌ كالألواح، مِثلُ عَساليج الخَسّ، بيض، لها شُعَب، وهى مملوءةٌ لَبَنا، ولا يَنبت حولَ شجرِه نباتٌ آخر. ومنه صِنفٌ آخَر ينبت ببلاد السُّودان، وشجرتُه شَوكةٌ كثيرةُ الأغصان، تنبسط على الأرض. و يقال إن ببلاد إفريقيةَ شجرةً صَمغُها الفَرْبيُون، و إن الصَّمغَ يسيل منها فيَجمُد؛ و بعضُ أهل البلد يَشرُط الشجرة، و يعلّق على موضع الشَّرْط ما تسيل

= فى وصف شجر الفربيون أنه لا يشبه القثاء فى شىء، فان شجرة الفربيون ساقها قائمة لحمية ثخينة فى غلظ العضد وتعلو عليها أضلاع بارزة؛ وهى شوكية مستطيلة، ولا يوجد عليها أوراق، و يبلغ ارتفاع هذا الشجر فى بعض الجهات ثلاثين قدما، وله فروع، كل فرع ينتهى بزهرة حمراء، وفيه عقد يذهب منها شوكها الإبرى الخ ما ورد فى المادة الطبية ج ١ ص٢٣٣ أما نبات القثاء فليس له ساق قائمة، وانما يمتد هذا النبات على الأرض و ينفرش، وله أوراق عريضة، وليس له شوك كما هو مشاهد. والذى فى التذكرة فى الكلام على الفربيون أنه شجر كالخس.

(١) نقل صاحب المادة الطبية ج ١ ص ٢٣٤ عن أطباء العرب هذه الطريقة التى ذكرها المؤلف فى جنى الفربيون من أنهم يعمدون الى كروش الغنم الخ ثم قال: «ولا أصل لذلك كله».

(٢) الأنزروت، هو الكحل الفارسى والكرمانى، و يسمى زهر جشم يعنى ترياق العين، وهو صمغ شجرة شائكة تشبه شجر الكندر تنبت ببلاد الفرس، و يدرك بتموز، وأجوده الهش الزرين المائل الى البياض (داود) وسيأتى الكلام على الأنزروت أيضا فى هذا الباب.

(٣) قال ياقوت: درن بالتحريك: جبل من جبال البربر بالمغرب فيه عدّة قبائل و بلدان وقرى. وقال أبو الفداء: جبل درن هو جبل عظيم مشهور ببلاد المغرب، وهو جبل شاهق، و يظهر من مراكش، و بينهما مرحلتان، وفيه بلاد المصامدة و بلاد مشكورة، وهى فى شرقيه، وفيه بلاد هنتاتة غربى بلاد مشكورة.

فيه تلك الرطوبة، ولا يمسّون الشجرةَ بأيديهم، ولا تلك الرطوبة، لأنها سم قاتل مُشيط، يُحرِق كلَّ ما لامَسه أو باشره من أبدان الناس .

وقال الشيخ الرئيس : إنّ قوّةَ الفَرْبيُون تتغيّر بعد ثلاثٍ أو أربع سنين ؛ والعتيقُ منه يضرِب الى الشُّقْرة والصُّفرة ؛ ولا يُداف فى الزَّيت إلّا بصعوبة ؛ والحديثُ خلافُ ذلك. قال بعضهم : إنه اذا جُعل فى إناءٍ مع الباقلّى المقشَّر انحفظت قوّته . قال : وجيّدُه الحديثُ الصافى الأصفرُ الى الشُّقْرة، الحادُّ الرائحة، الشديدُ الحرافة؛ وغيرُ هذا فهو مغشوشٌ بالعَنْزَرُوت[1] والصَّمغ[2]؛ وهو جالٍ، وله قوّةٌ لطيفةٌ محرِقةٌ جَلّاءة؛ والحديثُ منه أشدُّ إسخانا من الحِلْتِيت[3]، على أنه لا صَمغَ كالحِلْتِيت فى إسخانه؛ ويُخلَط ببعض الأشربة المعمولة بالأفاويهِ فينفع من عِرْقِ النَّسَا ؛ ويُمرَخ به الفالجُ والخَدَرُ فينفع جدّا؛ واذا اكتُحِل به كان جاليا، ولكن يدوم لذعُه النّهارَ كلَّه، فلذلك يُخلَط بالعسل . قال : وينفع من بَرْد الكُلَى؛ وينفع أصحابَ القُولَنْج؛ والشَّربةُ منه مع بعض البُزور وماءِ العسل ثلاثةُ أُوبُولُوسات[4]. وقال بعضهم : إنّه يَضمّ فمَ الرَّحِم ضمّا شديدا حتّى يَمنع الأدويةَ المسقِطةَ أن تُسقِط الجنين؛ ويُسهِل البَلْغَمَ اللَّزِج الناشبَ فى الوَرِكين والظهر والامعاء فيما قالوا . قال، وقال بعضهم : إنّ من نهشه شيءٌ من الهَوامِّ فشَقَّ جلد رأسه وما يليه حتّى يظهر القِحْف، ويجعل فيه من هذا

(١) العنزروت بالعين : لغة فى الأنزروت؛ وقد تقدم تفسيره فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٣٠٢ فانظرها، وسيأتى ذكره فى هذا الباب أيضا .

(٢) اذا أطلق الصمغ ولم يضف الى شىء فالمراد به الصمغ العربى، وهو صمغ القرظ .

(٣) تقدم تفسير الحلتيت فى عدّة حواش من هذا السفر منها ماسبق فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٢ فانظرها، وسيأتى الكلام عليه أيضا فى هذا الباب .

(٤) الأوبولوس : من موازين الأطباء، وهو ثلاثة قراريط . وقال الشيخ الرئيس : هو دانق ونصف؛ ويقال فيه : أوبولو وأوثولوس انظر بحر الجواهر للهروى؛ وهو لفظ يونانى .

الصَّمْغ مسحوقا، ثمّ يَخيطه، لم يصبه مكروه. قال: وثلاثةُ دراهمَ منه تقتل فى ثلاثةِ أيّامٍ تقريحا للمعدة والمِعَى.

وأمّا الصَّبِر — فهو من الصُّموغ؛ وصفة شجرته فيما قيل: أن ورقها يشبه ورقَ الإسْقِيل(١)، عليه رطوبةٌ تلصق باليد، وفى حرفَ كلِّ ورقةٍ شبهُ الشَّوك، قصيرٌ متفرِّق، وعِرْقُها واحد؛ وهذه الشجرةُ تَنبُت ببلاد الهند كثيرا، وفى بلاد المغرب(٢). ويقال: إنّها ثلاثة أصناف: الأُسْقُطْرىّ، والعربىّ، والسِّمِنْجانىّ(٣)؛ ويقال أيضا: إن نباتَه كنبات الراسن(٤) الأخضر، غير أنّ ورقَ الصَّبِر أطولُ وأعرض وأغلَظ، وهو

(١) الإسقيل يقال فيه: الإسقال؛ وفى معجم أسماء النبات أنه يقال فيه: الإشقيل أيضا؛ ويقال له العنصل، وبصل الفأر، وبصل البر، وله ورق مثل ورق الكراث يظهر منبسطا، وله فى الأرض بصلة عريضة، ويعظم حتى يكون مثل الجمع، ويقع فى الدواء؛ وأصوله بيض (ابن البيطار فى الكلام على العنصل) وهو الإسقيل كما سبق. وقال داود فى الكلام على العنصل أيضا: إنه جبلى، يكون بالصخور من نواحى الشأم والعجم والبرلس من أعمال مصر، ويعظم حتى يبلغ مائتى درهم وأكثر، ومنه صغير والبصلة المفردة فى أرضها قتالة؛ وأجوده ما أخذ فى الصيف.

(٢) كذا فى كلا الأصلين؛ والذى فى مفردات ابن البيطار ومباهج الفكر: «العرب» وهو ما يستفاد مما سيذكره المؤلف بعد أنّ من أنواعه العربى، وكذلك فى القانون أيضا.

(٣) فى كلا الأصلين: «والشمحانى»؛ وهو تحريف. والسمنجانى: نسبة الى سمنجان: بلد بطخارستان وراء بلخ.

(٤) فى معجم أسماء النبات ص ٩٩ أن اسم الراسن باليونانية «الانيون» وبالفارسية: «راسن»، «وأله» وأن من أسمائه أيضا: بقلة الرماة، وجناح رومى، وعرق الجناح، وجناح شامى، وزنجبيل شامى وزنجبيل بلدى، وقسط شامى، لشبهه بالقسط. وقال داود: هو أصل خشبى بين ياقوتية وخضرة، تتفرع عنه أغصان ذات أوراق عريضة، ومنه ما أوراقه كالعدس، وله زهر الى الزرقة، وحب كأنه القرطم لولا فرطحة فيه، وطعمه بين حرافة وحدّة، عطرى، يدرك ببابة وبثونة. وفى المادة الطبية ج ٢ ص ١٠١ أن هذا النبات يسمى بالافرنجية: «أوتبه» بضم الهمزة ممدودة وفتح النون، وأنه يوجد بايطاليا وبالبلاد الشرقية بالنسبة لأوروبا. ثم قال فى صفاته النباتية: إنه نبات كبير معمر، جذره سميك، مخروطى قليلا، أو مغزلى، تخرج منه ساق قائمة مصمتة أسطوانية متفرعة القمة، مغطاة بوبر قطنى، وتعلو من أربع أقدام إلى ست الخ ما ذكره فى وصفه.

كثيرُ الماء جدّا؛ ويُلقَى فى المعاصر، ثم يُدَقّ بالخشب، ويداس بالأقدام حتّى يسيلَ عصيرُه، ويُترَك حتّى يَتخثّر، ثم يُجعَل فى الجُرُب[1]، ويشمّس حتّى يجفّ؛ وأجوَدُه الأُسْقُطْرىّ، وأُسْقُطْرَى جزيرةٌ قريبةٌ من ساحل اليَمَن. وقال إسحاقُ ابنُ عمران: الصَّبِر ثلاثةُ أصناف، فمنه الأحمر الأُسْقُطْرِىّ، ومنه الأسوَد الفارسىّ ومنه الأحمر الملمَّعُ بصُفرة، ويؤتَى به من اليمن.

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا: أجوَدُ الصَّبِر الأُسْقُطْرِىّ؛ وماؤه كماء الزّعفران، ورائحتُه كالمرّ، بصّاص[2]، منفرِك؛ نقىٌّ من الحصى؛ والعربىُّ دونه فى الصُّفرة والرزانة والبصيص؛ والسِّمنْجانىُّ ردىء، منتن الرائحة، قليلُ الصُّفرة، لا بَصيص له؛ واذا عَتُق الصَّبِر اسودّ. قال: وطبعُه حارٌّ فى الثانية[3] يابسٌ فيها، وقيل: حارٌّ يابسٌ فى الثالثة، وليس كذلك. وقوّتُه قابضةٌ مجفّفةٌ منوِّمة؛ والهندىُّ كثيرُ المنافع؛ مجفِّفٌ بلا لذع؛ وفيه قبضٌ يسير؛ وهو بالعسل يَدمُل الدّاحس[4] المتقرّح؛ وبالشراب إذا جُعِل على الشَّعر المتساقط مَنَع تساقطَه؛ وهو ينفع أورامَ الدُّبُر والمَذاكير، وخاصّةً أورامَ العَضَل الّتى على جانبَى اللّسان اذا كان بالشّراب أو العسل؛ وهو صالحٌ للقُروح العَسِرة الاندمال، وخصوصا فى الدُّبُر والمَذاكير والأنف والفم؛ وينفع من أوجاع المفاصل، وينقّى الفُضولَ الصّفراويّةَ الّتى فى الرأس؛ واذا طُلِى به على الجبهة والأصداغ[5]

(١) يريد بالجرب: الأوعية مطلقا؛ جمع جراب بكسر الجيم؛ ويوضح ذلك ما ورد فى المادة الطبية فقد ورد فى الجزء الرابع ص ٣٥٢ ما نصه "ويعرض السائل للتبخير فى أوانى مفرطحة معرّضة للشمس".

(٢) بصاص، أى براق لماع.

(٣) فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية: «الى الثانية» ومؤدّى هذه العبارة يخالف ما هنا، كما هو ظاهر.

(٤) تقدم تفسير الداحس فى عدّة حواش من هذا السفر منها ما ورد فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٢٤٠ فانظرها.

(٥) زاد فى القانون بعد هذه الكلمة قوله: "بدهن الورد" الجزء الأوّل ص ٤١٦ طبع مصر.

نَفَع من الصُّداع ، وهو من الأدوية النافعةِ من مرض الأُذُن[(١)] . قال : وفى الطِّبّ القديم أنّ الصَّبِر يُسهِل السوداء، وينفع من المالِيخُوليا[(٢)] ؛ والصَّبِر الفارسىُّ يذكّى العقل ، ويُحِدّ الفؤاد . قال : والصَّبِر ينفع من قُروح العين وجربها وأوجاعِها ومن حِكّة المآق ، ويجفِّف رطوبتَها ؛ وينقِّى الفُضولَ الصَّفراوِيّةَ والبَلْغَمِيّة التى فى المعدة اذا شُرِب منه مِلعقتان بماءٍ باردٍ أو فاتر ؛ ويُصلح الحُرْقةَ والالتهابَ الكائنَين فى اللَّهاة، وربّما نفع أوجاعَ المعدة فى يومٍ واحد ؛ ويفتّح سُدَدَ الكبد ؛ لكنّه يضرّ بالكبد، وهو يُزيل اليَرَقانَ بإسهاله . قال : ودَرْخَمى ونصف منه بماءٍ حارٍّ يُسهِل ، وثلاثُ دَرْخَميات[(٣)] تنقّى تنقيةً كاملة ؛ والمعتدِل دَرْخَميان بماءِ العسل يُسهِل بَلغما وصفراء ؛ وهو أصلحُ مُسهِلٍ للمعدة ؛ والمعسولُ[(٤)] أضعفُ إسهالا لكنّه أنفع للمعدة ؛ وخَلْطُه بالعسل يَنقُص قوّتَه حتّى يكاد لا يُسهِل . قال : وإذا شُرِب العربىُّ منه كَرَبَ وأَمغَص وأَسهَل ، وتَقَبَّتْ[(٥)] قوّتُه إلى صِفاقات المعدة إلى يومٍ

(١) فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية : «من رض» ؛ بفتح الراء وتشديد الضاد ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٢) المالِيخوليا : هى تغيير الظنون والفكر عن المجرى الطبيعى الى الفساد والى الخوف والرداءة وعلامته سوء الظن ، والخوف بلا سبب ، بل لمزاج سوداوى يوحش الروح ويفسده بظلمته ، وصاحبه لا يؤذى أحدا .

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ بفتح أوله وثالثه وسكون ما بينهما فى مفاتيح العلوم فى هامش صفحة ١٧٩ ضبطا بالقلم لا بالعبارة . والدرخمى ، من موازين الأطباء ، ومقداره ، اثنتان وسبعون شعيرة ، وهو لفظ يونانى . وقال فى بحر الجواهر : الدرخمى مثقال واحد ، وعند البعض درهم . وقال ابن هبل : هو درهم ونصف ؛ وقد ذكر أبو الفرج بن هندو فى مفتاح الطب أن الدرهم يشبه أن يكون معربا عن الدرخمى .

(٤) فى كلا الأصلين والقانون ج ١ ص ٤١٦ طبع مصر : «والمغسول» بالغين المعجمة ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : « وخلطه بالعسل » الخ .

(٥) الذى فى القانون : « وبقيت قوته فى صفاقات » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا . وقوله هنا : « وتقبت » هو المناسب لقوله بعد «الى صفاقات» .

أو يومين، وسَقْيُ الصَّبِرِ أيّامَ البَرد خطر؛ وربّما أسهَل دما؛ وقد يُجعَل بالشراب الحلو على البواسير النابتةِ وشُقاق المقعدة، ويقطع الدم السائلَ منها. قال: وبدلُه مِثلاه حُضُض[1].

وأمّا المُرّ — فهو صَمْغُ شجرةٍ تكون ببلاد المغرب شبيهةٍ بالشجرة التى تسمّى باليونانية: الشوكةَ المصريّة، تُشرَط فتخرج منها هذه الصَّمْغة، فتسيل على حُصُرٍ وبوارىَّ قد أُعدّت لذلك؛ ومنه ما يوجَد على ساق الشّجرة.

وقال أبو علىّ بنُ سينا: أجوَد المُرِّ ما هو الى البياض والحمرة، غير مختلِط بخشبِ شجرتِه، طيّبُ الرائحة، وطبعُه: حارٌّ يابسٌ فى الثانية؛ وهو مفتّحٌ محلِّلٌ للرياح؛ وفيه قبضٌ وإزاقٌ وتليين؛ ودخانه يَصلُح لما يَصلُح هو[2]، ولكنّه أشدُّ تجفيفا؛ وهو يمنع التعفُّن، حتى إنّه يُمسِك الميتَ ويحفظُه من التغيّر والنَّتْن، ويجفِّف الفُضول؛ واذا خُلِط بدُهن الآس واللّاذَن أعان على تقوية الشَّعر وتكثيفه، ويجلو آثارَ القُروح ويطيّب نَكْهةَ الفم اذا أُمسك فيه؛ ويُزيل البَخَر، ويُلطَخ بالشراب والشَّبّ على الآباط فيزيل صُنانَها، ويُلطَخ بالعسل والسَّليخةِ[3] على الثّآليل، وهو نافعٌ من الأورام

(١) الحضض: اسم عربى للخولان، وهو نوعان: مكىّ وهندى، وكل منهما يتخذ من عصارة الفيلزهرج والفيلزهرج معرّب «فيل زهرة» بالفارسية أى مرارة الفيل (القيصونى فى قاموسه). وقال داود: الحضض هو الخولان بمصر، وبالهندية فيلزهرج. وهو مكى وهندى؛ والمكىّ أجوده، وهو عصارة شجرة لها زهر أصفر وفروع كثيرة تثمر حبا أسود كالفلفل. وقال ابن البيطار نقلا عن ديسقوريدوس وسماه «لوفيون»: إنه شجرة شوكة لها أغصان طولها ثلاثة أذرع وأكثر، عليها الورق شبيه بورق شجر البقس ملزز، ولها ثمر شبيه بالفلفل أسود ملزز، مر المذاق أملس، وقشر الشجر أصفر، ولها أصول كثيرة ذاهبة فى جانب، وتنبت فى ماقدونيا وفى أماكن أخرى كثيرة، وتنبت أيضا فى الأماكن الوعرة.

(٢) لما يصلح هو، أى لما يصلح هو له، فحذف العائد فى هذه الجملة للعلم به؛ وهذا من المواضع التى يجوز فيها حذف العائد.

(٣) السليخة: نبات عطرى كأنه قشر منسلخ. وقال ديسقوريدوس: السليخة أصناف كثيرة تكون =

البَلْغَمِيّة، ويَدْمُل الجروحَ والقُروح، ويكسو العظامَ العارية، ويُستعمل بالخَلّ على القَوابى (١)، ويبرئ الجراحات المتعفّنة؛ ورائحته مصدّعةٌ للرأس (٢)؛ واذا تُمُضمِض به بشرابٍ وزيتٍ شدّ الأسنان جدّا وقوّاها، ومَنَع من تآكُلها؛ ويَشدّ اللّثة، ويُذهِب رطوبتَها؛ ويجفّف قُروحَ الرأس؛ ويُلطَخ به المنخران للنوازل المُزمِنة فيحبسها؛ وقد يُسعَط بوزن دانِقٍ (٣) منه فينقّى الدّماغ؛ وهو يجلو آثارَ القُروح فى العين، ويجلو البياض، وينفع من خشونة الأجفان، ويحلّل المِدّةَ فى العين بغير لذع، وربّما حلّل الماءَ فى ابتداء نزوله إذا كان رقيقا؛ وهو جيّدٌ للسُّعال المُزمِن الرَّطْب، ومن الرُّبو (٤)

٥

١٠

١٥

٢٠

٢٥

= فى بلاد العرب المنبتة للأفاويه، ولها ساق غليظة القشر، وورق شبيه بورق النوع من السوسن الذى يسمى إيرساء، واختير منها ما كان ياقوتيا حسن اللون، دقيق الشعب، أملس، غليظ الأنابيب، طويلها، يلذع اللسان ويقبضه، ويحذوه حذوا يسيرا، عطر الرائحة طيبها، عفص الطعم، دقيق القشر، مكتنز، فيه شىء من رائحة الخمر. وقال داود: السليخة قشر شجر هندى ويمنى، وقيل: من خواص بلاد عمان، وهى أنواع سبعة، أحدها الأصفر الغليظ الطيب الرائحة الزرين الأنابيب المشبه للقصب؛ وثانيها أحمر صلب طيب الرائحة، صفائحى، وثالثها أبيض الى صفرة لا رائحة فيه؛ ورابعها كمد بين حمرة وسواد، وليس بالغليظ؛ وخامسها رقيق أسما نجونى، يتفتت بسرعة، وسادسها قطع كالقسط، متكرجة غير براقة؛ وسابعها قشر رقيق شديد السواد أقوى من السادس متكرج، منتن الرائحة، وأجودها النوعان الأولان وأردؤها الأخيران.

(١) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة القوابى جمعا لقوباء، والذى وجدناه أن جمعه قوب بضم القاف وفتح الواو، إلا أن القوابى قد ورد استعماله كثيرا فى كتب الطب كالقانون والمفردات وغيرهما؛ وقد نبهنا على ذلك فى غير موضع من حواشى هذا السفر.

(٢) عبارة القانون «تصدّع الأصحاء فضلا عن المصروعين».

(٣) لم نجد فيما بين أيدينا من كتب اللغة تعدية سعط بالباء كما فى هذه العبارة، فلا يقال «سعطه بالدواء» وانما يقال «سعطه الدواء وأسعطه إياه» يتعدّى الى مفعولين بنفسه، إلا أن ورود هذا الفعل متعدّيا بالباء هو المستعمل فى جميع مواضعه من قانون ابن سينا المنقول عنه هذا الكلام وغيره من بعض كتب الطب، ولهذا لم نجر على مقتضى اللغة باسقاط الباء من هذه العبارة مراعين فى ذلك استعمال الأطباء.

(٤) فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية «ومن البرد»؛ ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف.

وأوجاع الجَنْب ، ويصفّى الصوت ، ويُجعَل تحت اللّسان ويُبلَع ماؤه لخشونة الحَلْق ؛ وينفع من استرخاء المعدة والنفخة فيها ؛ ويُدِرّ الحيض ، وخصوصا الاحتقان به بماء السَّذاب أو ماءِ الأَفْسَنْتِين[1] أو ماءِ التُّرْمُس ؛ ويُخرِج الأجنّة والدّيدان ؛ ويلَيِّن انضمامَ فم الرَّحِم ؛ ويُسقَى بالشراب للسع العقرب .

٥ وأمّا الكَمْكَامُ — فهو صَمْغُ شجرةِ الضَّرْو ؛ ويقال : إنّه ورقُها ؛ وقيل : لِحاؤها[2] ؛ وهو يسيل لَزِجا أسودَ مِثلَ القار ، وشجرتُه تُشبِه شجرةَ البُطْم[3] . وقيل : إنها تُشبِه شجرةَ البَلُّوط العظيمة ، إلّا أنّها ألينُ وأنعَم ، وتُثمِر عناقيدَ مثل عناقيد البُطْم إلّا أنّها أكبر .

وأمّا الضِّجَاج — فقال أبوحنيفةَ الدِّينَوَرِىّ : [الضِّجاج][4] ، مِثلُ شجر اللُّبان[5] ١٠ يكون فى جبل يقال له : (قَهْوان) من أرض عُمان ، وهو صَمْغٌ أبيَض تُغسَل به الثيابُ فينقّيها مثل الصّابون ؛ ولهذه الشجرة حَبٌّ مثل الآس ، أسود ، يَلذع اللّسان .

---

(١) الأفسنتين : هو نبات ملس ، ويلحق بالشجر الصغير قدر نباته ، ويقوم على ساق تتفرع منها أغصان كثيرة ، وعلى الأغصان أوراق كثيرة متكاثفة بيض الألوان تشبه الأشنة ، وله زهر أقحوانىّ صغير أبيض فى وسطه صفرة ، تخلفه رءوس صغار فيها بزر دقيق ؛ وفى طعمه قبض ومرارة . وقال أبوعبيد ١٥ البكرى : إنه أشهب ، ويشبه فى هيئته ورق الجزر ، وهو لاحق بالأشجار التى لا تعلو ، وزهرته صفراء لماعة ، وهى المستعملة ؛ وهذا النوع هو المعروف فى مصر بالدسيسة ، وهو كثير بها . وقال فى المادة الطبية ج ٢ ص ٤٧١ الأفسنتين اسم يونانى نقل الى اللغة الافرنجية والعربية ؛ وقد يوصف بالكبير ، ويسمى باللسان النباتى عند لينوس « أرطميسيا أفسنتيوم » .

(٢) فى كلا الأصلين : «بخارها» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مباهج الفكر وشرح ٢٠ القاموس مادة (كم) والمفردات فى الكلام على الضرو .

(٣) انظر الكلام على البطم ، وهو شجرة الحبة الخضراء فى الحاشية رقم ٤ صفحة ٢٩٨ من هذا السفر .

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) .

(٥) زاد فى المفردات بعد هذه الكلمة قوله «شائكة غير عظيمة» .

وأمّا الأُشَّق[1] — ويقال فيه وُشَّق وأُشَّج — ولصاق[2] الذهب، والكَلَخ، وهو صمغ[3] الطُّرْثُوث، وهو نباتٌ يَنبُت تحتَ أصولِ الحُمَّيض[4]؛ وهو صِنفان: حلوٌ يؤكل ولونُه أحمر، ومرّ، ولونُه أبيض. وقال الخليل: هو نباتٌ مستطيلٌ دقيقٌ يَضرب إلى حُمرة. وقيل: انّه صمغُ نباتٍ يشبه القَنا[5] فى شَوْكِه[6]، ينبت فى بلاد نِينَوى[7] على ما زعم دِيسْقُورِيدُوس. وقال أبو علىّ بنُ سينا: هو حارٌّ فى آخر الثانية، يابسٌ فى الأولى، وتجفيفُه وتحليلُه قوىّ[8]، وفيه تليينٌ وجذبٌ للأورام[9] والفُضول، واذا طُلِىَ به

(١) فى المادة الطبية ج ٣ ص ٦٨٠ أن هذا الاسم معرّب عن الفارسية بالجيم؛ ويسمى باليونانية «أمونياق».

(٢) فى القاموس مادة (لزق): «لزاق الذهب»، ولم يذكره فى (لصق) وكذلك فى المادة الطبية وقانون ابن سينا.

(٣) فى المفردات والقاموس مادة أشق أنه قد غلط من جعله صمغ الطرثوث، وفى هذا تعريض بالصاغانى حيث جعله صمغ الطرثوث كما فى التاج. وقد جرى المؤلف على أنه هو تبعا لما فى مباهج الفكر وقانون ابن سينا.

(٤) عبارة مباهج الفكر «وينبت تحت أصول تشبه أير الحمار».

(٥) فى القاموس وشرحه مادة أشق «القثاء»؛ وهو تحريف؛ وما هنا هو الموافق لما فى مفردات ابن البيطار ومباهج الفكر وغيرها فى الكلام على الأشق، ويقويه أيضا أن شجر الأشق يسمى القنا كما فى التذكرة ج ٢ ص ١١٥ والمنهج المنير.

(٦) فى المفردات «فى شكله» الجزء الأول صفحة ٣٤ طبع بولاق.

(٧) نينوى: ناحية بسواد الكوفة، منها كربلاء التى قتل بها الحسين — رضى الله تعالى عنه —.

(٨) «قوى» بصيغة المفرد، أى كل من تجفيفه وتحليله قوى؛ وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الخبر مع أن السياق يقتضى تثنيته؛ ومن المحتمل أيضا أن يكون من قبيل حذف الخبر من الأول لدلالة الثانى عليه، كما قال الشاعر: * فإنى وقيار بها لغريب *

وقد ورد هذا الاستعمال كثيرا فى القانون.

(٩) لم يرد قوله: «للأورام والفضول» فى نسختى القانون المصرية والأوربية فى الكلام على الأشق؛ والذى ورد فيه بعد قوله «وجذب» قوله: «الأورام والبثور» ووضعت هذه العبارة بين قوسين على أنها عنوان لما ذكره ابن سينا بعد من منفعة الأشق فى الأورام والبثور، لا أنها من تتمة الجملة =

أو ضُمِد نَفَع من الخنازير[1] والصّلابات والسِّلَع؛ وهو نافعٌ للجراحات الرديئة، يأكل اللحمَ الخبيث، وينبِت الجيّد؛ واذا سُقِيَ بالعسل أو بماء الشعير نفع أوجاعَ المفاصل؛ واذا ضُمِد به بالعسل والزفت حلّل تحجّرَ المفاصل؛ وهو يلين خشونةَ الأجفان والجَرَب، ويجلو البياض، وينفع رطوبات العين؛ وينفع من الرّبو وعُسر النَّفَس اذا لُعِق بعسلٍ أو بماء الشّعير؛ وينفع من الخوانق التى من البَلْغَم والمِرّة السّوداء؛ وإذا طُلِي به نفع من الاستسقاء؛ وهو يُدِرّ البول حتّى يبولَ الدم، ويقتل الدّود[2] ويُخرِج الجنين حيّا أو ميتا؛ وإذا لُطِخ به الأنثيان بخلّ[3] [لَيِّن] صلابتَهما .

وأمّا ترابُ القَيء — ويسمّى الكَنْكَرْزَد[4] — فهو صَمْغُ الحَرْشَف[5] والحَرْشَف يسمّى خَسّ الكَلْب؛ وهو ينبُت على شطوط الأنهار وسواقى المياه وعليه شَوكٌ مُتفشّج[6] .

= السابقة كما فى عبارة المؤلف هنا، وطريقة ابن سينا فى الكلام على الأدوية أن يقسم الكلام على كل دواء بحسب تأثيره ومنفعته فى الأمراض؛ كما يتبين ذلك من مراجعة كتابه، فلعل ماهنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(١) تقدّم بيان المراد بالخنازير فى عدة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٧٤ فانظرها .

(٢) فى القانون فى كلتا نسختيه «حب القرع» مكان قوله : «الدود»؛ والمعنى واحد فى كلا اللفظين، فإن حب القرع هو نوع من ديدان البطن، وهى الديدان العراض .

(٣) كذا فى (ب) وهو الموافق لما فى القانون والذى فى (أ) «واذا لطخ به الانثيان حل صلابتهما» .

(٤) هذا الاسم فارسى . وقال فى التاج مادة (حرشف) إن الكاف الثانية من هذا اللفظ معجمة .

(٥) الذى يقتضيه ترتيب صاحب المنهج أنه بالحاء المهملة والخاء المعجمة، فقد أورده فى كلا الحرفين .

(٦) متفشج بالشين والجيم، أى متفرج بعضه عن بعض كهيئة الفرشحة فى الرجلين .

وأمّا القِنّة — فهو بالفارسيّة البارْزَد[1]، وشجرُه صِنفان: صِنفٌ زُبْدىٌّ ضعيفُ الورق[2] أبيض؛ والآخَرُ كثيفٌ ثقيل؛ وهو ثلاثةُ أنواع بَرّىّ وعربىّ، وجبلىّ وأجوده العسلىُّ الصافى اللون. وقال دِيسْقُوريدُوس هو صَمْغُ نباتٍ يشبه القَنا فى شكلِه يَنبُت فى بلادِ سُورِيَةَ؛ وأجوَدُه ما كان شبيها بالكُنْدُر، وكان متقطّعا، نقيّا يَدبَق باليد؛ وهو يُغَشّ بالأشْق[3] ودقيقِ الباقلاء. وقال أبو علىّ بنُ سينا: طبعُه حارٌّ فى الثانية، مجفِّفٌ فى الثالثة؛ وقوّتُه ملّينةٌ محلّلة؛ وهو مما يُفسد اللحم، وفيه تسخينٌ وإلهابٌ وجَذْب؛ وهو يَقلَع العدسيّات، وينفع من الخنازير[4] ويُطلَى به على القُروح اللَّبَنيّة[5] بالخَلّ، وينفع من تشنُّج العَضَل، ومن الصُّداع؛ واذا شُمّه المصروع انتعَش؛ وينفع من وجع الضِّرس والسِّنّ المتآكِلة فى الحال؛ وينفع من الأوجاع الباردة فى الأُذُن، ويحلّل أورامَها وأوجاعَها بغير أذًى اذا حُلّ فى دُهن السُّوسَن وفُتِّر وقُطِر؛ وينفع من الرَّبو والسُّعال المُزمِن؛ ويُدِرّ الطَّمْث بقوّة؛ ويُسقِط الأجنّة، وينفع من اختناق الرِّحم سَقيا بالشراب؛ ويُزيل عُسرَ البول؛ وهو تِرياقٌ للسّمّ الّذى تسقاه السِّهامُ اذا سُقِى بشراب، ولسُموم الحيّات والعقارب؛ ودخانُه يطردَ الهوامّ؛ وبدلُه السَّكْبِينَج[6].

(١) يقال فيه أيضا: «بيرزد» كما فى القاموس مادة قنن؛ وقد ورد كلا اللفظين فى معجم أسماء النبات ص ٨٢. وذكر صاحب المنهج أنه يقال فيه بارزد بتقديم الراء على الزاى وبازرد بتقديم الزاى؛ والذى وجدناه فى المعجم الفارسى الانجليزى لاستاين جاس بارزد بتقديم المهملة، ولم يرد فيه غير هذا اللفظ.

(٢) عبارة المفردات ج ٤ ص ٣٧ «خفيف الوزن» وكذا فى القانون ج ١ ص ٤٢١ طبع مصر.

(٣) تقدم الكلام على الأشق فى صفحة ٣١٠ من هذا السفر، فانظره.

(٤) سبق بيان معنى الخنازير عند الأطباء فى عدّة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٧٤ فانظرها. (٥) يريد بالقروح اللبنية ما يسمونه البثور اللبنية وقد سبق بيان معناها عند الأطباء فى عدّة حواش من هذا السفر، منها ما سبق فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٣، فانظرها.

(٦) السكبينج — ويقال فيه: «سكنبيج» كما فى التذكرة — هو صمغ شجرة بفارس يخرج منها =

وأمّا الحِلْتِيت — فهو صَمْغُ شجرة الأَنْجُذان[1]، وهو نوعان : أحدُهما أبيض وهو المأكول؛ والآخر أسود، منتن الرائحة . وقال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِىّ : نباتُه الزمل الذى بين بُسْت[2] و بلاد القِيقان[3]، والحِلْتِيتُ صَمْغٌ يخرج من أصل ورقه بان يُشرَط أصلُه وساقُه . وقال أبو على بنُ سينا : طبعُه حارٌّ فى أوّل الرابعة، يابسٌ فى الثانية؛ وهو يُكثِر الرِّياحَ و يطردها بتحليله ،وهو مع ذلك نَفّاخٌ مقطِّع، و يحلّل الدمَ الجامدَ فى الجوف ، و ينفع من داء الثعلب[4] لَطوخا بالخَلّ والفُلْفُل؛ واذا آستُعمِل فى المأكولات حسّن اللّون ، و يقلع الثّآليل[5] المسماريّة، واذا جُعِل على الأورام الخبيثة نَفَعها؛ واذا شُرِب بماء الرّمّان نَفَع من شَدْخ العَضَل؛ و ينفع من أوجاع

= فى حزيران عند الورق ؛ وقيل يخرج بالشرط ، وأجوده الأبيض الظاهر الأحمر الباطن ، فالأصفر الظاهر الأبيض الباطن ، وما كانت رائحته بين الأشق والحلتيت ، وتبقى قوّته الى عشرين سنة . وقال ابن البيطار السكبينج صمغ نبات شبيه بالقنا فى شكله ، وأجوده ما كان صافى اللون ، وكان خارجه أحمر وداخله أبيض الخ و يلاحظ أن هذه العبارة الأخيرة مخالفة لما تفيده عبارة داود السابقة فى صفة أجود السكبينج .

(١) الأنجذان : فارسى و يسمى بالعراق الكاشم و بالمغرب المحروث؛ ومنه رومى ينبت بأرمينية وخراسانى، وأصله أغلظ من الأصابع ، و يفرع كثيرا ، وأوراقه كصفيحة مخرقة تحيط بجمة ذات زهر أبيض و بينها عساليج تخلف كقرون اللوبيا فيها بزر كالعدس أسود حارّ وأبيض لطيف ، و يدرك ببابة ، وفى المادة الطبية ج ٢ ص ٦١٣ : أن الأنجذان يسمى باللاتينية لازربسيون بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة بعد الراء . ونقل ابن البيطار عن بعض الأطباء أن الأنجذان هو ورق شجرة الحلتيت ، والحلتيت صمغه والمحروث أصله .

(٢) بست : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة .

(٣) القيقان : بلاد قرب طبرستان . وفى كتاب الفتوح أنها من بلاد السند مما يلى خراسان .

(٤) تقدّم بيان المراد بداء الثعلب فى عدّة حواش من هذا السفر منها ماسبق فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٣٠ فانظرها .

(٥) الثآليل : جمع ثؤلول ، وهو بثر صغير صلب مستدير على صورة ثدى ، فمنه منكوس ، ومنشقق ذو شظايا ومتعلق ، ومسمارى عظيم الرأس ، مستدق الأصل ، يأخذ الى داخل العضو كأنه مسمار؛ ومنها طوال معوجة ، وتسمى قرونا ؛ ومنها متقيحة تكون المدة تحتها ، وتسمى طرسيوس قاله السمرقندى . وفى الشذور الذهبية أن الثآليل بثور صلبة متدملة غير مؤلمة توجد فى جميع الجسم ، لكن أكثرها فى اليدين ؛ وهناك نوع آخر يسمى بذلك ، وعرّفها بعضهم فقال : هى تولدات جلدية خشنة من سطحها ، عريضة من قاعدتها ، وهى نصف ليفية .

العَصَب مثل التمدد والفالج بأن يؤخذ منه، [أُوبُولُوس](١) ويُخلَط بالشَّمع، ويُبلَع أو يُشرَب بالشراب مع فُلفُلٍ وسَذاب؛ واذا تُغُرغِرَ به قلَع العَلَق من الحَلْق وهو جيِّدٌ لابتداء الماء فى العين كُحلا بعسل؛ واذا أُدِيفَ(٢) فى الماء وتُجُرِّع صفّى الصوت، ونفع من خشونة الحَلْق المُزمِنة؛ وان تُحُسِّيَ بالبَيض نفَع من السُّعال المُزمِن والشَّوصة(٣) الباردة، وإن استُعمِل بالتِّين اليابس نفَع من اليَرَقان؛ وهو ممّا يضرّ بالمعدة والكبد؛ وينفع من البواسير؛ ويقوِّى الباه، ويُدِرّ البول؛ وينفع من المَغص، ومن قُروح الأمعاء، ومن حُمَّى الرِّبع(٤)، واذا جُعِل على عَضّة الكَلْب الكَلِب والهَوامّ خصوصا العقربَ والرُّتَيلاء(٥) فإنه ينفع من جميع ذلك شُربا وطِلاء بالزيت؛ ويدفع ضررَ السِّهام المسمومة :

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٣١٦ طبع مصر وقد تقدم تفسير الأوبولوس فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٣٠٣ من هذا السفر؛ فانظرها .

(٢) فى القانون «ديف» باسقاط الألف؛ وكل منهما لغة صحيحة، فقد ورد فى مستدرك التاج أن أدافه مثل دافه .

(٣) الشوصة : ورم فى حجاب الأضلاع من داخل؛ وفى الديوان : هى ريح تعتقب فى الأضلاع الهروى . وفى التاج أنها وجع فى البطن من ريح؛ وقيل : الشوصة ريح تأخذ الانسان فى لحمه، تجول مرة ههنا ومرة ههنا، ومرة فى الجنب، ومرة فى الظهر، ومرة فى الحواقن .

(٤) حمى الربع : هى حمى تنوب يوما وتترك يومين، وذلك لأنها تأخذ فى الأيام الثلاثة ثمانى عشرة ساعة، وهى ربع ساعات الأيام، فسميت باعتبار الساعات . وفى الشذور الذهبية أن حمى الربع هى التى تنوب بعد كل ثلاثة أيام يوما، يعنى أنها تغيب ثلاثة أيام وترجع فى الرابع . وقال داود إنها الحمى الكائنة عما تعفن من السوداء خارج العروق، وسميت بالربع لأنها تقع النوبة الثانية بعد النوبة الأولى بيومين فتكون فى اليوم الرابع .

(٥) الرتيلاء : دابة تشبه العنكبوت تصيد الذباب؛ وأصنافها كثيرة، وشرها المصرية، فنها حمراء كأنها العنكبوت، مستديرة؛ ومنها سوداء دخانية؛ ومنها رقطاء؛ ومنها بيضاء مدوّرة البطن، صغيرة الفم، كوكبية محدودة الظهر بخطوط براقة؛ ومنها الصفراء؛ ومنها العنابية، فها فى وسط رأسها . وقال داود : الرتيلاء من العناكب كبير البطن، قصير الأرجل، بين صفرة وسواد، وهو من السموم، نهشته تؤلم، وربما أضعفت . =

وأمّا الأَنْزَرُوت فهو صَمغُ شجرةٍ شائكة ، وفيه مرارة ، ومنه أبيضُ وأحمر ، ويكون بجبال فارس ، وأجوَده الشبيهُ باللُّبان .

وقال ٱبن سينا : قال بعضُهم : هو حارٌّ فى الثانيــة[1] ، يابسٌ فى الأولى ، وهو يسكِّن الأورامَ كلَّها ضِمادا ، ويأكل اللحمَ الميّت ، وينفع من الرَّمَد والرَّمَص ، وهو يُسهِل البَلْغَم الغليظ .

وأما السَّكْبِينَج[2] — فقال دِيسْقُوريدُوس : هو صَمغُ نباتٍ يشبه القَنا فى شكله ، يَنبُت فى البلاد التى يقال لها : (ماه)[3] ويسمّيه اليونان : (سكافتيون)[4] .

وقال ٱبنُ سينا : هو صمغُ شجرةٍ لا منفعة فيها ، بل فى صَمغِها . قال : وأجوَدُ نوعَيه الأكثفُ الأصفى ، الّذى يَضرب داخلُه الى الحُمرة ، وخارجُه الى البياض ، ويحلّ فى المـاء سريعا ، وخيرُه الأصفهانىّ . قال : وطبعُه حارٌّ فى الثالثة ، يابسٌ فى الثانية ،

= وقال الأوروبيون : إنها كثيرة الوجود بجنوب إيطاليا ، يحدث من عضها مرض عصبي عجيب ، لما يحصل لعضوضها من التشنج ، بحيث إنه دائما يميل إلى الرقص .

(١) فى (ا) «الثالثة» وهو مخالف لما فى القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية .

(٢) يقال فيه أيضا «سكنبيج» كما فى التذكرة وسكبينة وإسكبينة كما فى معجم أسماء النبات .

(٣) يقال لكل من الدينور ونهاوند : ماه ، ويطلق عليهما (الماهان) . والماه فى الأصل : قصبة البلد ، ومنه قيل : ماه البصرة ، وماه الكوفة ، وماه فارس ؛ ويقال لنهاوند وهمذان وقم : ماه البصرة . قال الأزهرى : كأنه معرّب ؛ وكذلك يسمون مدينة نهاوند : ماه دينار ، وخالف فى ذلك حمزة بن الحسن ، فذكر أن ماه دينار هى ماه الدينور ، وأن ماه اسم للقمر ، فقد قال فى كتاب الموازنة : كان فى ممالك الفرس عدة مدن مضافة الأسماء الى اسم القمر ، وهو ماه ، نحو ماه دينار ، وماه نهاوند ، وماه بهرا ذان ، وماه شهرياران ، وماه بسطام ، وماه كران ، وماه سكان ، وماه هروم ؛ فأما ماه دينار : فهو اسم كورة الدينور الخ ما أورده فى شرح هذه البلاد مما لا نرى مقتضيا لذكره هنا .

(٤) لم يرد هـذا الاسم فى كتاب الحشائش لديسقوريدوس ؛ كما أننا لم نجده فيما راجعناه من الكتب الأخرى ؛ والذى ورد فى المنهج المنير ساغفيلون . وفى معجم أسماء النبات ص ٨٢ ساغافنون وساجقينوس . وفى كتاب ديسقوريدوس : « ساعافنون » بالعين المهملة .

وهو محلّل ملطّف ، مُفِش[1]، مسخّن، جالٍ؛ وينفع من الفالج؛ ويُسهِل المادّة التى فى الوَركين حُقنةً وشُربا، وكذلك أوجاع المفاصل الباردة؛ ويحلّل الصُّداعَ الباردَ والرِّيحىّ[2]؛ وينفع من الصَّرع ، ومن ظُلمة العين كُحلا ، ومن غِلَظ الأجفان ومن الآثار فى العين ، وهو أفضلُ الأدوية للماء النازل فيها ، وإن سُحق بالخَلّ وجُعل على الشَّعيرة[3] أذهبها ؛ وهو نافع من وجع الصدر والجنب ، ومن السُّعال المُزمِن، يُسقَى بماء السَّذاب المعصور ثلاثة أرباعِ دِرهمٍ لسوءِ النَّفَس؛ وهو ينقّى الصدر، ويُخرج الأخلاطَ النِّيئة؛ وهو نافعٌ من الاستسقاء؛ ويُخرج الماءَ الأصفر؛ وينفع من القُولَنْج[4] حُقْنةً وشُربا ومن المَغْص؛ ويُخرج الحَصاة ، ويزيد [فى] الباه، وينفع مِن أوجاع الأرحام؛ وإذا شُرب أَدَرّ الطَّمْث ، وقَتَل الجنين؛ ويُخرج الخِلْطَ اللّزِجَ والماءَ الأصفر؛ وهو ينفع من الحُمَّيات الدائرة؛ وإذا سُقِىَ فى الشراب أفاد لسعَ الهَوامّ، ومن جميع السُّموم القاتلة .

(١) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أنه يقال : «أفشه» والذى وجدناه أنه يقال : «فشه» أى أزال انتفاخه ، وإذن فقوله «مفش» كما فى القانون وغيره من كتب الطب ، من استعمالات الأطباء؛ وقد سبق التنبيه على ذلك فى غير موضع .

(٢) يريد بانصداع الريحى : ما يكون عن رياح غليظة محتقنة فى الرأس ، وعلامته التمدد، وعدم الثقل ، والدوىّ ، وانتقال الوجع ، والضربان (الأسباب والعلامات ورقة ٤ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣ طب م) .

(٣) فى كلا الأصلين : «على الشعرة» والصواب ما أثبتناه نقلا عن القانون فى كلتا نسختيه المصرية ج ١ ص ٣٨٦ والأوروبية صفحة ٢٢٢ . والشعيرة : ورم مستطيل يظهر على حرف الجفن يشبه الشعيرة فى شكله، صلب ، يكون لونه كلون الجفن ؛ ومنه نوع أحمر رخو يسمى العروس ، كما قاله السمرقندى فى كتاب (الأسباب والعلامات) .

(٤) تقدم تفسير القولنج فى عدة حواش من هذا السفر منها ما سبق فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٨٩ فانظرها .

وأما السّادَوْرَان[١] — فهو شيءٌ أسـوَدُ شبيهٌ بالصّمغ مِثلُ حَصَى السَّبج[٢] يتكوّن فى التجويفات الكائنـةِ فى أصول أشجار الجَوْز[٣] الكبارِ العتيقةِ اذا تجوّفتْ أصولُهـا ، فإذا قُطعت الشجرةُ وُجدَ فى وسطِها ، ولونُه محلولا الى الصُّفرة[٤] ، وله بَصيصٌ اذا كُسِر .

٥ وأما دمُ الأخوَين[٥] — ويسمّى القاطِر[٦] — فقال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرىّ : هو صَمغٌ أحمرُ يؤتَى به من جزيرة سُقُطْرَى[٧] ، ويسـمّى الأَيْدَع ، ودمَ التِّنّـين ، ودمَ الثعبان . ويقال : إنّه دموعُ شجرةٍ كبيرةٍ ببلاد الهند ، معروفةٍ هناك .

(١) فى القانون : الساداوران بزيادة ألف بعد الدال ، وهو الموافق لما فى المعجم الفارسى الانجليزى فقـد ورد فيه هذا الاسم هكذا ساداڤران وفى التذكرة والمفردات ساذروان بتقـديم الراء على الواو .

١٠ وقال داود عنه : إنه معرب عن الفارسية ؛ وأصله ، سياه ذروان . وذكر ابن البيطار ان معناه بالفارسية سواد العصارة : وفى الشذور الذهبية أنه حجر الدم .

(٢) السبج : حجر يؤتى به من الهند ، وهو أسود شديد السواد ، براق شديد البريق ، رخو ينكسر سريعا (ابن البيطار) وقال داود : السبج حجر جبلى يكون عن ردىء الزئبق القليل والكبريت الكثير ، ولم يعـرف أولا بغير الهند ، ثم ظهر ببعض جبال الشأم منه معدن رأيناه جيـدا ، وأجوده الصقيل الأسـود البراق

١٥ الخفيف . وفى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ان أصله بالفارسية «شبه» بفتح أوله وثانيه . وفى البرهان القاطع أنه حجر أسود براق يشبه الكهربا خفة وملاءمة ، وهو نوعان . نوع منه موجود فى دشت قبجاق فى تركستان ، وهو فى الأصل ماء ثم تجمد ؛ والنوع الثانى معدنى يؤتى به من بلاد جيلان .

(٣) فى (ب) الحور بالحاء والراء المهملتين ، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما فى المفردات ومباهج الفكر والمنهج ، ويؤيده ما ورد فى التذكرة ج ٢ ص ٣ فقد جاء فيها ما نصه : أجوده ما كان بأصـل

٢٠ النارجيل الخ والنارجيل هو الجوز .

(٤) فى المفردات : «إلى الشقرة» وما هنا هو الموافق لما فى مباهج الفكر والتذكرة .

(٥) ذكر صاحب عمدة المحتاج ج ١ ص ٣٩٧ فى سبب تسمية هذا النوع بالدم أن هـذا الاسم آت من تصوّر القدماء فى الخرافات القديمة أن هذا النوع من الصموغ ناتج من تجمد دم حيوان . وفى التاج مادة (دمى) أنه هو المندم .

٢٥ (٦) ذكره صاحب التاج مادتى (قطر) (ودمى) باسم القاطر المكىّ ، ولم يبين وجه هذه النسبة .

(٧) تقدم الكلام على سقطرى فى سطر ٣ من صفحة ٣٠٥ من هذا السفر ، فانظرها .

(٩٤) وأمّا المَيْعة[1] — فهى صِنفان : سائلة، ويابسة، وكلاهما دِسِمٌ مرّ[2]؛ ومنها صِنفٌ هو صَمغُ شجرةٍ تشبه شجرةَ السّفرجل، أجودُه[3] ما كان لونُه أشقرَ دَسِما يميل الى البياض؛ ومن هذا الصِّنف ماهو أسوَدُ هَشٌّ كالنُّخالة، وهو رومىّ .

وقال اسحاقُ بنُ عمران : شجرةُ المَيْعة شجرةٌ جليلة كشجرة التُّفاح[4]، ولها ثمرةٌ بيضاءُ أكبرُ من الجَوز تشبه عيونَ[5] البقر الأبيض، يؤكل الظاهر منها، وفيه مرارة وثمرتُه التى داخل النوى دَسِمة، يُعتصَر منها دُهن هو المَيْعة[6] اليابسة ، ومنه تُستخرَج المَيْعة السائلة .

(١) فى عمدة المحتاج ج ٣ ص ٣٠ أن الميعة اسم عربى مشتق من الميع ، لأنه اذا أطلق أريد به الميعة السائلة . ويسمى النبات الذى تخرج منه هذه العصارة : لبنى بضم اللام وزان بشرى ، وباللسان النباتى « اصطرك أرفسنالس » .

(٢) عبارة المفردات ج ٤ ص ١٧١ نقلا عن ديسقوريدوس : «دسم المرّ الطرى» وهى تفيد خلاف ما تفيده عبارة المؤلف هنا ، فان عبارة المؤلف تفيد أن المرارة وصف لكلا الصنفين . وعبارة ابن البيطار تفيد أن كلا صنفى الميعة نوع من المرّ السابق ذكره فى صفحة ٣٠٧ من هذا السفر بدليل قوله بعد ذلك : «وتستخرج من المربأن تدق بماء يسير» الخ وهذا ما تفيده أيضا عبارة المادة الطبية ج ٣ ص ٣١ فقد جاء فيها نقلا عن ديسقوريدوس أيضا أن الميعة السائلة هى دسم المر الطوسى المستخرج بالعصر ، وليلاحظ الاختلاف فى كلتا العبارتين بين قوله "الطرى" فى الأولى ، و "الطوسى" فى الثانية .

(٣) فى كلا الأصلين : « أجودها » بتأنيث الضمير؛ والسياق يقتضى تذكيره لعوده على قوله «صنف» أو «صمغ» وكما فى مفردات ابن البيطار أيضا .

(٤) عبارة ابن البيطار : لها خشب يشبه خشب شجرة التفاح المفردات ج ٤ ص ١٧١ .

(٥) يريد بعيون البقر : الإجاص ، وهو نوع من الفاكهة معروف ؛ وقد سبق الكلام عليه فى الباب الثانى من القسم الثانى من هذا السفر؛ وتسميه بهذا الاسم أهل الأندلس والمغرب ، كما فى المفردات فى الكلام على عيون البقر ج ٣ ص ١٤٤ (٦) تفيد هذه العبارة أن الميعة اليابسة هى دهن الثمرة المذكورة ، وكذلك فى مباهج الفكر المنقول عنه هذا الكلام . والذى تفيده عبارة ابن البيطار ج ٤ ص ١٧١ أن الميعة اليابسة هى قشر شجرة الميعة ، لا دهن هذه الثمرة ، فقد ذكر هذا الكلام له بنصه ، ثم قال بعد قوله : « يعتصر منها دهن» : «وقشر هذه الشجرة الميعة اليابسة» وكذلك فى عمدة المحتاج ج ٣ ص ٣١

وقال ابنُ جُرَيج : الميعةُ تسيل من شجرةٍ تكون فى بلاد الرّوم تُحلّب منها ، ثم تؤخذ فتُطبَخ ، وتُعتصَر أيضا من لِحاء تلك الشجرة، فما عُصر فهو المَيْعةُ السائلة وما طُبِخَ فهو المَيعةُ اليابسة .

وقال الشيخ الرئيس أبو علىّ بنُ سينا فى المَيْعة — وسماها لبنى — قال : ويقال للسائلة : عسل اللُّبْنَى والأَصْطُرَك[1]، وهو دَمعة شجرةٍ [كالسّفرجل][2] . قال: وأجوَدُ أصناف الميعة السائلُ بنفسه ، الشُّهْدىّ ، الصَّمْغىّ ، الطيّبُ الرائحة الضاربُ الى الصُّفرة . قال : وطبعُ الميعة حارٌّ فى الأُولى يابسٌ فى الثانية ، وله قوّةٌ مُنضِجة ، ملينةٌ جدّا ، مسخّنةٌ محلّلة ، ودخانُه شبيهٌ بدُخان الكُنْدُر ؛ وفيه تخديرٌ بالطبع ، ودُهنُه الذى يُتّخَذ بالشأم ملينٌ تليينا قويّا ؛ وينفع الصّلابات فى اللّحم ، ويُطلَى به على البُثور الرَّطْبة واليابسةِ مع الأدهان ؛ ويُطلَى به على الجَرَب الرَّطب واليابس ؛ وهو طِلاءٌ جيّدٌ عليه ؛ وهو يقوّى الأعضاء وينفع تشبُّكَ المَفاصل جدّا شُربا وطِلاء؛ ورَطْبُه ويابسُه يحبس[3] النّزلةَ تبخيرا ؛ وهو غايةٌ للزُّكام؛ وفيه قوّةٌ مسبِتة[4]، لاسيّما فى دُهنه؛ وينفع من السُّعال المُزمِن والبلغمِ ووجعِ الحَلْق ويصفّى صوت الأبحّ مع تليين شديد ؛ وهو يَهضم ، ويليّن الطبيعة ، ويُدِرّ البول والطَّمْث إدرارا صالحا شُربا واحتمالا ؛ ويليّن صلابة الرَّحِم ؛ واليابسة تَعقِل البطن ؛

(١) كذا ضبط هذا اللفظ فى معجم أسماء النبات ص ١٧٥

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٣٥٠ طبع مصر .

(٣) «يحبس» أى كل من الرطب واليابس يحبس الخ وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الضمير ، على أنه يحتمل أيضا أن يكون ذلك من قبيل حذف الخبر من الأوّل لدلالة الثانى عليه ، كما قال الشاعر :

* فإنى وقيار بها لغريب *

وقد ورد هذا الاستعمال كثيرا فى القانون .

(٤) مسبتة ، أى منوّمة .

قال : واذا شُرب من الميعة السائلة [مثقال][1] مع مثلِه[2] من صَمغ اللّوز أسهَل بلغما من غير أذى . وبدلُ المَيْعة جُندَبادَسْتَر[3]، ومثلاه من دُهن الياسَمين .

وأمّا صَمغُ قبعرين[4] — : فقال دِيسْقُورِيدُوس : هو صَمغُ شجرةٍ تكون ببلاد

(١) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن القانون ج ١ ص ٣٥١ طبع مصر إذ بها تستقيم الجملة .

(٢) فى كلا الأصلين " ثلثه " وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن القانون فى كلتا نسختيه المصرية والأوروبية .

(٣) الجندبادستر، يقال فيه جندبيدسر، وباليونانية : أكسيانوس — وهو خصية حيوان بحرىّ يعيش فى البر والبحر، وأكثر ما يكون هذا الحيوان فى النهر مع الحيتان والتماسيح، ويغتذى بالسمك، وهو على صورة الكلب، لكنه أصغر، غزير الشعر، أسود بصاص، أى (براق) وعبارة المنهج جند بادستر هو خصية كلب الماء. قال : وفى نسخة أخرى هو خصية حيوان يعرف بالسمور؛ ويسمى عند الترك قندس . وقال فى عمدة المحتاج ج ٣ ص ٧٧٨ الجندبادستر بالافرنجية واللاتينية قسطوريون وهو مادّة حيوانية مفرزة من غدد تحت جلد بطن الحيوان المسمى : قسطوريين أصل الذنب والجزء الخلفى من الفخذين، ... ... وقامة هذا الحيوان كقامة كلب الصيد، ورأسه مستدير، وأذناه قصيرتان، وفكاه خاليان من الأنياب وفى كل منهما سنان قاطعتان، ... ... ويبحثون عن هذا الحيوان بشراهة لأجل فروته الجميلة المستعملة فى صناعة اللبوديين . ثم قال : ويظهر أنه يعيش بالمواد النباتيــة دون غيرها فيتغذى من قشور الأشجار ويحمل بين الشرج والأعضاء التناسلية جيبين كبيرين غدديين ينفتحان فى القلفة، ويفرزان المادة المسماة بالجندبادستر، وهما غير الخصيتين خلاف ما كانوا يظنون سابقا الخ . وانظر الكلام على هــذا الحيوان فى الجزء العاشر من نهاية الأرب أيضا ص ٣١٨ طبع دار الكتب .

(٤) لم نجد ضبط هذا اللفظ فيما راجعناه من المظان . وقد ورد لفظ قبعرين هــذا فى المناهج والمنهج ولم نجده فى غيرهما من الكتب الأخرى كالمفردات والقانون وعمدة المحتاج والشذور الذهبية ومعجم أسماء النبات ؛ ولكن ورد الكلام على هذا النوع من الصموغ فى هذه الكتب باسم " القيقهن " فلعلهما اسما له لأمرين : أولهما ، ما نقــله المؤلف هنا عن ديسقوريدوس هو ما ذكره ابن البيطار فى القيقهن نقلا عن ديسقوريدوس أيضا، وكذلك ذكره صاحب عمدة المحتاج نقلا عن ابن البيطار فى الجزء الأوّل صفحة ٤١٧ ثانيهما أن ما نقله المؤلف بعــد عن ابن البيطار من أن قوما يزعمون أنه هو " السندروس ، وآخرين أنه اللك " قد ذكره ابن البيطار فى الكلام على القيقهن .

العرب[١]، وفيه شبهٌ يسيرٌ من المرّ[٢] إلّا أنّه كريهُ المطعم زَهِم[٥]. وزعم قومٌ أنّه السَّنْدَرُوس[٣]. وقال آخرون : هو اللُّك[٤] . قال ابنُ البيطار : وليس كما زعموا .

وأمّا المُقْـــلُ[٦] الأزرق — فيسمّى كُورا[٧]، ويُعرَف بالمُقْل المكّيّ، وبمُقْل اليهود، والمُقْل الهنديّ، وإن كان لا يوجد إلّا بأرض العرَب، ومنه صِقِلّيّ؛ ومنه عربيّ؛ وهو صَمغٌ يشبه الكُنْدُر، طيّب الرائحة، وشجرتُه كشجرة اللُّبان، وأكثرُ نباتِه بأرض اليمن فيما بين الشِّحْر وعُمانَ بجبل هنـاك ، ولشجره ثمرٌ يسمّى ديميس[٨]

(١) فى المفردات "الغرب" بالغين المعجمة (الجزء الرابع ص ٤١) .

(٢) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر «المن» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مفردات ابن البيطار وعمدة المحتاج فى الكلام على القيقهن الذى هو صمغ قبعرين كما أشرنا الى ذلك فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٣٢٠

(٣) السندروس : ثلاثة أنواع : أصفر يضرب باطنه الى الحمرة رزين براق ، ومنـه أزرق هش ؛ وأسود خفيف صلب ، وأجوده الأوّل ؛ ويجلب من نواحى أرمينية ، ويسمى الصابى ؛ والجيد منه يلقط التبن كالكهربا ؛ والفرق بينهما أن السندروس يلقط القش من غير حك فى صوف ونحوه بخلاف الكهربا (داود) . وفى عمدة المحتاج ج ٢ ص ٧٨٦ أنه يسمى بالافرنجية (سندراك) .

(٤) اللك : هو صمغ نبات هنـدى يقوم على ساق ، ويتفرّع ، وله زهر أصـفر يخلف بزرا يقرب من القرطم ، ومنه يستنبت ، واللك صمغه فى الصحيح ، أو هو طل يسقط عليه ، كما سيذكره المؤلف بعد فى صفحة ٣٢٦ من هذا السفر ، وأجوده الرزين الأحمر ، الحديث ، الشبيه بالملح ؛ وهو من الصموغ التى يصبغ بهـا ؛ وتبقى قوّته عشر سنين .

(٥) يلاحظ أن ابن البيطار ذكر هـذه العبارة فى الكلام على القيقهن لا على صمغ قبعرين إذ لم يرد فى المفردات ذكر قبعرين وقد سبق التنبيه فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٣٢٠ على ظننا أنهما أسمان لمسمى واحد .

(٦) هذا النوع من الصموغ هو المسمى فى مصر باللبان الشامى (داود فى الكلام على المقل) .

(٧) كورا : اسم بربرى للقل كما فى معجم أسماء النبات ص ٥٥ والتذكرة ج ٢ ص ١٩٨ وفى كتب اللغة مادة مقل : « كور » بحذف الألف .

(٨) كذا ورد هذا اللفظ بالدال فى كلا الأصلين ؛ والذى فى مباهج الفكر «ريميس» بالراء ؛ ولم نجد واحدا منهما فيما راجعناه من كتب اللغـة ولا فى مؤلفات الأدوية المفردة على كثرتها واستيعابها ، والذى وجدناه أن هذا الثمر يسمى البهش بفتح أوله وسكون ثانيـه اذا كان رطبا كما فى القاموس مادتى «وقل» «وبهش» والسين المهملة لغة فيه ، كما فى التاج . وقد ذكر ابن البيطار فى البهش أنه يسمى باليونانية برنيس كما فى بعض النسخ من كتابه . وفى نسخة « برنقس » .

اذا كان رَطْبا، فاذا يبس فهو الوَقْل، والّذى يؤكل منه يسمّى الحَتِيّ[(١)]. وقال أبوالخير العشّاب : المُقْل المكّىّ هو صمغُ الدَّوْم، لأنّ الدَّوم هنـاك يدرِك ويُصمِغ، وليس فى سائر البلاد كذلك إلّا بمكّةَ لا غير.

وأما الصمغ العربىّ — فهو صمغ القرظ، وهو الّذى يُستعمَل فى المركّب ولا يَصلح بغيره، فإنّه ينحلّ فى المـاء بسرعة من غير تعقيد، وما عداه من الصُّموغ التى تُجمَع من أشجـار الفواكه متى جُعِل فى المركّب أفسده. ولهم أيضا صمغ السُّماق[(٢)] وصَمغُ السَّذاب[(٣)]، وصَمغُ الخَطْمىّ[(٤)]؛ ومن الصُّموغ التى جرت عليها التسمية بالعربىّ صمغ الإجّاص، وصَمغُ الدّاميثا، وهو شجرٌ ببلاد فارس؛ وصَمغُ اللّوز، وصمغُ الزَّيتون البرّىّ والبستانىّ، والبرىّ يشبه السَّقَمُونيا[(٥)] فى لونه، ومنـه ما هو أحمر، وصَمغ السَّرْو؛

(١) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر «الجنى» بالجيم والنون؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة.

(٢) السماق شجر يقارب الرمان طولا إلا أن ورقه مزغب لطيف المس، طويل الى عرض ما وأجزاء الشجرة الى الحمرة وأكثر ما ينبت فى الطين الأحمر، ومتى علق بأرض عسر قطعه منها. وهو أنواع : منه سماق الدباغين، والسماق الخراسانى، والسماق الشامى. وذكر ابن البيطار أنه شجر ينبت فى صخور، طوله نحو من ذراعين، وفيه ورق طويل، لونه الى حمرة الدم ما هو مشرف الأطراف على هيئة المنشار، وله ثمر شبيه بالعناقيد كثيف وفى عظم الحبة الخضراء، الى العرض ما هو.

(٣) تقدّم الكلام على السذاب فى ص ٧٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) الخطمى : نبات يغسل به الرأس. وقال القيصونى إنه يعرف فى مصر بورد الحمار، وهو نبات له ورق مستدير، وزهر شبيه بالورد، وساق طويلة لزجة، وبزر مستدير فى غلاف مستدير اه. وقال ديسقوريدوس إنه صنف من الملوخية البرية، وله ساق طولها نحو ذراع وأصل لزج، لون باطنه أبيض.

(٥) السقمونيا — ويقال لها : المحمودة — وهى رطوبة نبتة لها أغصان كثيرة تخرجها من أصل واحد، طولها نحو ثلاثة أذرع، ولها زغب وورق يشبه ورق اللبلاب، وزهر أبيض مستدير ثقيل الرائحة وأجود هذه الرطوبة ما كان صافيا خفيفا سريع الفرك (القيصونى فى قاموسه). وقال فى الشذور الذهبية السقمونيا تستخرج من جذور النبات المسمى كونولولوس سقمونيا، وهو ينبت فى الشأم والأناضول، وهى نوعان : أحسنهما ما يجلب من حلب، وهذا النوع سنجابى اللون الى الرمادية أو الى الأحمرار أو الى البياض =

ومن الصُّموغ الرَّاتِينج[1] وهو القُلْفُونِيا[2]، ومنه ما هو أبيض، ومنه ما هو أسود وهو صَمغُ الصَّنَوْبَر الذَّكر.

وأما القَطِران — فهو معدودٌ من الصُّموغ، وشجرته تسمَّى شَرْبِين، وهى شجرةٌ عظيمة، لها ثمرٌ يشبه ثمرَ السَّرْو، غيرَ أنّه أصغر منه، والقَطِران دُهنٌ يَخرج منه، فأجوَدُه ما كان صافيا، كريهَ الرائحة: وقال الزمخشرىّ فى تفسير قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾، هو ما يُحلب من شجرٍ يسمَّى الأَبْهَل[3] فيُطبخ، فتُدهَن به الإبلُ الجُرْب فيحلق الجربَ لحدّته وحرّه، وهو أسوَدُ اللون، مُنْتِن الرائحة.

= هش قليلا، براق، كثير المسام، كريه الرائحة، وطعمه يكون ضعيفا أولا ثم يصير حريفا مرا. والنوع الثانى يجلب من أزمير، وهو أسمر الى السواد، وفيه هشاشة، وهو أدنى درجة مما قبله، والنبات الذى تستخرج منه السقمونيا من فصيلة العليق. وفى عمدة المحتاج ج ٤ ص ٣٢٢ أن السقمونيا اسم عربى ويونانى وافرنجى لمستنتج صمغى راتينجى مسهل، ويسمى نباته باللسان النباتى عند لينوس قنفلفلوس سقمونيا، وكما يخرج من هذا النوع يخرج نحوه أيضا من نباتات أخر من الفصيلة الدفلية الخ.

(١) نقل صاحب عمدة المحتاج أن الراتينج اسم فارسى، ويقال فيه الراتيانج أيضا الجزء الثانى صفحة ٧٧٢.

(٢) كذا ضبط هذا اللفظ فى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستاين جاس. وذكر صاحب عمدة المحتاج أن تسمية القلفونيا بهذا الاسم تسمية قديمة، لأنها منسوبة الى مدينة من بلاد اليونان تسمى قلوفون الجزء الثانى صفحة ٧٧٣.

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ بفتح الهمزة والهاء فى القاموس واللسان ضبطا بالقلم لا بالعبارة. وقال داود: انه بكسر الهمزة والهاء أو بفتح الهمزة وضم الهاء التذكرة ج ١ ص ٥٠ طبع بولاق وزاد فى معجم أسماء النبات ص ١٠٢ الضم فيهما. وذكر صاحب عمدة المحتاج ج ٢ ص ٧٣٤ ان الأبهل يسمى بالافرنجية «سابين» وباللسان النباتى «بونفيروس سابينا» ثم نقل عن قدماء الأطباء أن الأبهل صنفان: صنف صغير الورق تشبه أوراقه أوراق الطرفاء والأثل، وصنف كبير الورق تشبه أوراقه الكبار أوراق السرو؛ وزاد أطباؤنا — أى اطباء العرب — أن الصغير أعرض شجرة وأقصر، وأن الكبير أطول وأدق. ثم ذكر أن ثمره يشبه النبق، ويكون أحمر اذا كان رطبا، وفى داخله نوى، واذا بلغ غايته فى النضج مال الى السواد وكان فيه حلاوة ما مع قبض وحدّة وعطرية الخ.

وقال أبو علىّ بنُ سينا : القَطِرانُ حارٌّ يابسٌ فى الرابعة ، وهو يقتل القملَ والصِّئبان ؛ وهو يقوّى اللحمَ الرِّخو ، وخصوصا دُهنَه من الجَرَب ، حتّى جرب الحيوان من ذوات الأربع ، وينفع من شَدْخ العَضَل وٱجتماع الدّم والقيح فيها ، وهو دواء لداء الفيل[1] ، لَعوقا ولَطوخا . قال : وهو أعظمُ شيءٍ فى تسكين الصُّداع البارد طِلاءً للرأس ويُقطَر فى الأذن فيقتل دودَها ، ويُقطَر فيها بماء الزُّوفا[2] للطّنين والدّوىّ ، وينفع الأسنانَ المتآكلة ، وهو يحُدّ البصر ، ويجلو آثارَ القُروح فى العين ، ولَعْقُ أوقيّةٍ ونصف منه ينفع لقُروح الرئة ، وينفع من السُّعال العتيق ، ويَقتُل الدودَ فى الأمعاء وخصوصا الأحتقانَ به ؛ ويُدِرّ الطَّمث ، ويَقتل الجنين ، ويُفسد المنىّ ، واذا لُطخ به الذّكر قبل الجماع مَنَع الحَبَل ، وينفع من تقطير البول ، ويُضمَد به على نَهْش الحيّة ذاتِ القرن ، واذا أذيبَ فى شحم الأُيّل[3] ومُسِحتْ به الأعضاءُ لا تقرَبها الهَوامّ .

وأمّا الزِّفت — فيكون من شجر التَّنُّوب[4] وغيرِه من ضروب الصَّنَوْبَر ، وهو قريبٌ من دُهن القَطِران .

(١) داء الفيل ، هو زيادة فى القدم والساق ، وانما سمى به لأن المصاب به تصير رجله كرجل الفيل فى العظم ، أولأن هذا المرض يعرض للفيل ؛ وقال بعضهم : هو ورم يابس يحدث فى الأوعية اللينفاوية يصحبه احمرار وورم غير متساوى السطح ، وتعسر معه حركة العضو المصاب ، وأغلب حدوثه فى القدمين والساقين واليدين والوجه والصفن .

(٢) الزوفا وزان طوبى : اسم لنبات تنفرش أغصانه على وجه الأرض نحو الذراع ، وله ورق كورق المرزنجوش ورائحة طيبة ، وطعم مر ، وهو نوعان : جبلى ، وهو أقوى وأحدّ ، ويوجد كثيرا بجبال بيت المقدس ؛ وبستانى ، وهو ألطف وأقل حدة .

(٣) الأيل : ذكر الأوعال ، وأكثر أحواله شبيهة ببقر الوحش . وقيل : هو الكبش الجبلى (الشذور الذهبية) وقال صاحب نهاية الأرب ج ٩ ص ٣٢٤ : الأيل من أصناف البقر الوحشية ، وهذا الحيوان يسمن كثيرا ، واذا سمن اختفى خوفا أن يصاد لسمنه ، وهو مولع بأكل الحيات ... ... وهو لا تنبت له قرون إلا بعد أن تمضى له سنتان من عمره ، فاذا نبت قرناه نبتا مستقيمين كالوتدين ، وفى الثالثة يتشعبان ولا يزال التشعب فى زيادة الى تمام ست سنين ، وحينئذ يكونان كالشجرتين على رأسه الخ .

(٤) فى كلا الأصلين ومباهج الفكر "الينبوت" ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله =

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفنّ الرابع فى الأمنان

ويشتمل هذا الباب على العسل والشَّمَع واللُّكّ والقِرْمِز واللّاذَن والأُفْتِيمُون والقِنْبِيل والوَرْس والتَّرَنْجُبِين والشِّيرَخُشْك والمَنّ والكَشُوث وسُكّر العُشَر

فأما العسل والشَّمَع — فقد قال التميمىُّ فى المرشد : إنّ العسلَ مَنٌّ يَسقط من الهواء بكلّ بلد وبكلّ إقليم من الأمصار المسكونة ، وسقوطُه على أنواع كثيرة من الأزهار والنُّوّار والأوراق يلتقطه النّحل الّذى قد ألهمه الله جمعَه وإلقاءَه إيّاه فى كَوائره التى هو ساكنها ، وهى أقرصةُ شَهدِه[٣] ، ويدّخره لقُوته عند حلول الشتاء عليه وانقطاعه عن الطَّيَران وعند حِصار الأمطار والثلوج له . وزعم كثيرٌ من الفلاسفة والأطبّاء أن الشَّمَع الّذى تتخذ منه النحلُ مساكنَها ، وتربِّى فيه فراخَها ، وتُوعِى فيه أعسالها ، نوع من المَنّ الساقط من الهواء ؛ والله تعالى أعلم .

= بعد "وغيره من ضروب الصنوبر" إذ الينبوت شجر الخروب أو شجر الخشخاش ، وليس من أنواع الصنوبر ، أما التنوب فهو الصنوبر الذى يقال لحمله : قضم قريش ، كما فى مفردات ابن البيطار . وقال داود : التنوب شجر يشبه الصنوبر حتى قيل إنه ذكره ، وهو أحمر الرائحة جبلى الخ .

(١) كذا ضبط هذا اللفظ بفتح أوّله وثانيه وضم رابعه فى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ص ٣٥ طبع بيروت والمعجم الفارسى الانجليزى لاستاين جاس ؛ وضبط فى القاموس مادة (من) بفتح الجيم ؛ وضبط فى ذيل أقرب الموارد بضم التاء والراء والجيم .

(٢) ضبط هذا اللفظ فى المعجم الفارسى الانجليزى تأليف ستاين جاس بسكون الراء . وضبط فى القاموس مادّة (من) بفتحها ضبطا بالقلم لا بالعبارة .

(٣) لم نجد الأقرصة جمعا لقرص بضم القاف فيما راجعناه من كتب اللغة ؛ والذى وجدناه أن جمعه قرصة بكسر أوّله وفتح ثانيه وزان عنبة وأقراص وقراص بكسر أوّله . وجمع القرصة بالضم قرص ، كغرفة وغرف .

*

وأمّا اللُّكّ — فيقال إنّه يَسقط على قُضبان الكُروم فى بلاد الهند فينعقد عليها . وزعم قومٌ أنّه صَمغٌ يُلقَط من قُضبان الكُروم؛ والله أعلم .

وقال ابنُ سينا : إنّه ينفع من الخَفَقان ، ويقوّى الكَبد ، وينفع من اليَرَقان والاستسقاء .

وأمّا القِرْمِز — فقد قال أبو الخير فى كتاب النبات : القِرْمِزُ طَلٌّ يقع فى العام الكثيرِ الرُّطوبات والأنداء على شجر البَلُّوط والتَّنُّوب فينعقد على خشبه حَبٌّ أبيضُ اللّون مِثلُ حَبِّ الكِرسِنّة[1] ، فاذا انتهى ونَضِج وكان فى قَدر الحِمّص صار لونُه أحمرَ قانئا بَرّاقا ، فيُجمع فى شهر ابريل ومايه ، فيجفَّف ويُخزن لتُصبَغ به الثياب؛ ومن خاصيّته أنّه لا يُصبَغ به إلّا ما كان من حيوان ، كالحرير ، والصوف ، وان هو لم يُجمع خرج منه دود صِغار ، ويَصنع على نفسه نَسْجا مِثلَ نسج العنكبوت ، ويموت فيه .

وأما اللّاذَن — فهو مَنٌّ يسقط بجزيرة قُبْرُس على شجرٍ ترعاه الأغنام ، فاذا باكرت الرَّعىَ من تلك الأشجار عَلِق اللّاذَن بلِحَى التُّيوس وخراطيمها وأظلافها ، فيُجمع منها بأمشاط معدّة له . وأمّا ما يُجمع من الشجر فإنّه يكون فى خزائن الملوك لِطيب رائحته .

وقال ابنُ سِينا : أجوَدُه الدَّسِم الرّزين القُبْرُسىُّ الطيّبُ الرائحة ، الّذى هو الى الصُّفرة ولا رمليّةَ فيه ، ويحلّ كلُّه فى الدُّهن فلا يَبقى منه ثُفْل؛ والاسوَدُ القارىُّ غيرُ جيّد ، وطبعه حارٌّ فى آخِر الأُولى ، يابسٌ فى الثانية ؛ والذى يكون فى البلاد الجنوبيّة أسخن . قال : وقال الخوزى : إنه بارد قابض ؛ وليس كذلك . قال : وهو لطيفٌ جدّا ، فيه يسيرُ قبض ، منضِج للرطوبات الغليظة اللّزِجة يحلّلها باعتدالٍ فيه ؛

(١) تقدّم تفسير الكرسنة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٧ فانظرها .

وفيه قوّةٌ حادّةٌ[(١)] مسخّنةٌ مفتّحةٌ لأفواه العروق؛ ويَدخل فى تسكين الأوجاع؛ وهو يُنبت الشّعر ويكثّفه ويكثّره ويحفظه، خصوصا مع دُهن الآس ومع الشّراب؛ ويُقطَر منه مع دُهن الورد فى الأذن الوَجِعة؛ ويَدخل فى علاج الصُّداع والضَّربان وينفع من السُّعال، ويحلّل أورامَ الرَّحِم محتملا[(٢)]؛ ويُخرج الجنين الميّتَ والمَشيمةَ تدخينا[(٣)] به؛ وإذا شُرب بشرابٍ عتيقٍ عَقَل البطنَ وأدرَّ البول.

وأمّا الأُفْتِيمُون — فهو مَنٌّ يَسقط من الهواء على صِنفٍ من الصَّعاتر[(٤)] برياض[(٥)] جزيرة أَفْرِيطِش[(٦)] وبُرْقة[(٧)] وفى جبال بيت المقدس.

وأمّا القِنْبِيل — فهو شبيه بالوَرْس، يَسقط فى اليمن مثل الرمل الأحمر وتُمازِج حمرتَه صُفرةٌ ظاهرةٌ فيه. ويقال: إنّه يوجد أيضا بخُراسانَ على وجه الأرض غِبَّ المطر فيجمع.

(١) فى القانون: «جاذبة» الجزء الأول صفحة ٣٥٠ طبع مصر وكذلك فى النسخة الأوروبية صفحة ١٩٨

(٢) عبارة القانون «محتملا فى فرزجة» اه والفرزجة قطعة من قطن أو كتان أو نحوهما توضع فى المهبل بعد دهنها بالدواء.

(٣) عبارة القانون: «تدخينا فى قمع».

(٤) فى كلا الأصلين: «العضاه»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى مباهج الفكر المنقول عنه هذا الكلام، وهو الموافق لما فى مفردات ابن البيطار أيضا ج ١ ص ٤٠ طبع بولاق فقد نقل عن بولس ما نصه: وأما الافتيمون فهو شىء يتكون على الصعتر الخ.

(٥) فى مباهج الفكر «بأرض».

(٦) افريطش جزيرة فى بحر المغرب يقابلها من بر أفريقية لوبيا، وغزاها المسلمون فى سنة أربع وخمسين فى زمن معاوية؛ وغزيت أيضا فى خلافة الرشيد وخلافة المأمون.

(٧) برقة: اسم لصقع كبير بين الاسكندرية وإفريقية، وهذا الصقع مما افتتحه المسلمون صلحا وبينه وبين الاسكندرية مسيرة شهر.

(٩٦) وأمّا الوَرْس — فهو مَنْ يَسقط بأرض الصِّين والهند والحبشة وأرض [اليمن](١) على ورق شجرٍ يشاكل الباذَرُوج(٢)، فتُجمَع الشجرةُ بما عليها منه، وتُلقَى فى الشمس حتى تَنشَف، ثم تُنفَض على أنطاع الأَدَم فيَسقط ورقُها وعليه الوَرْس متعلِّقًا به، ولونُه أحمر، فاذا طُحن صار أصفرَ، وأجوَدُه الهندىّ، ثم الحبشىّ، ثم اليمانىّ.

وأما التَّرَنْجُبِين(٣) — فمعناه عسل النَّدَى، وهو يَسقط ببلاد خُراسانَ وما وراءَ النهر على العاقول، ويسمَّى(٤) الحاج(٥)؛ وقد يقع على سَعَف النخل ببلاد قَسْطِيلِيَة(٦)، وعلى ورق الأَثْل. وورقِ الطَّرْفاء.

وقال ابنُ سينا: أجوَدُه الطرىُّ الأبيض؛ وطبعُه معتدِلٌ الى الحرارة؛ وهو ملَيِّن، صالحُ الجِلاء، وينفع من السُّعال؛ ويلَيِّن الصدر، ويسكِّن العطش، ويُسهِل الصَّفراء برفق، وإسهالُه بخاصيّةٍ فيه؛ والشَّربةُ عشرةُ مَثاقيلَ الى عشرين مثقالا.

وأما الشِّيرْخُشْك(٧) — فقال ابن البيطار، قال(٨) علماؤنا الشِّيرْخُشْك طَلٌّ يقع من السماء بهَراةَ من بلاد خُراسانَ على شجر الخلاف، حلو الى الاعتدال. وقال

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (أ).

(٢) تقدم تفسير الباذروج فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر، فارجع اليها.

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ فى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة والمعجم الفارسى الانجليزى لاستانلى جاس.

(٤) يسمى، أى العاقول لا الترنجبين.

(٥) كذا فى معجمات اللغة الفارسية. والذى فى (ب) الحاخ وفى (أ) الجاخ، وهو تصحيف فى كلتا النسختين. (٦) قسطيلية: مدينة بالأندلس، وهى حاضرة كورة البيرة (ياقوت). ونقل صاحب التاج عن بعضهم أنها من إقليم إفريقية، غربىّ قفصة.

(٧) ذكر صاحب عمدة المحتاج ج ٤ ص ٥٤٦ ان الشيرخشك اسم فارسى، معناه شيرين خشك أى الحلاوة اليابسة. (٨) لفظ ابن البيطار: «بعض علمائنا».

التّميمىّ : أمّا كيفيّتُـه فإنّه حَبٌّ أبيَضُ مِثـلُ حَبّ التّرَنْجُبِين، بل هو أكبر، وهو قريب من مِزاج الكافور وطعمِه و رائحتِه، واذا بقى فى اليد أنحلّ ودَبِقَ باليد .

وأمّا المَنّ[1] — فهو يسـقط على ورق البَلّوط[2] والسِّدْر والخَوْخ والمِشمِش مِثلَ العسل، فما تخلّص منه كان أبيضَ، وما لم يتخلّص وجُمع بورقه كان أخضرَ وسقوطُه يكون بجبال ربيعةَ ومُضَرَ وجبال الشأم الى نحو دِمَشقَ والساحل .

وأما الكَشُوثُ[3] — فقال التّميمىّ : الكَشُوث يَسقط بأرض العراق على شجرِ يشاكل الباذَرُوج[4]، وهو مركّبٌ من قُوًى مختلفة من مرارة وعُفوصة :

وقال ابنُ سينا : طبعُه حارٌّ قليلا فى أوّل الأُولى يابسٌ فى آخِر الثانية؛ وهو منقٍّ يُخرج الفُضول اللّطيفةَ من العروق وينقّيها؛ وهو يقوّى المعـدة، وخصوصا المقلّ منه؛ وإذا شُرب بالخل سَكّن الفُوَاق؛ وهو يفتّح سُدَدَ الكبد والمعدة ويقوّيهما؛ وماؤه عجيبٌ للبَرَقان؛ وهو ينقّى الأوساخَ عن بطن الجنين؛ ويُدِرّ البولَ والطّمْث؛ وينقّى سيلان الرّحِم؛ وبِزرُه وماؤه ينفع[5] من الحُمّيات العتيقة جدّا .

(١) قال صاحب عمدة المحتاج فى الكلام على المن : يظهر أن لفظ المن بتشديد النون عبرانى، ومعناه المغذى الإلهىّ حسبما ذكره المترجمون للتوراة (الجزء الرابع ص ٥٤٦) .

(٢) فى مباهج الفكر « على ثمر الطرفاء » ولم يرد فيه ذكر البلوط ولا ما بعده .

(٣) قال ابن سينا فى تعـريف الكشوث : هو شىء يلتف على الشوك والشـجر يشبه الليف المكى لاورق له، وله زهر صغار بيض فيه مرارة وعفوصة، والغالب عليه الجوهر المرّ (القانون ج ١ ص ٣٥) ويسـتفاد من كلام ابن سينا هذا وابن البيطار فى المفـردات وداود فى التـذكرة وغيرهم من الأطباء والنباتيين أن الكشوث ليس منا من الأمنان كما ذكره المؤلف هنا إذ أورده فى هـذا الباب، بل هو نوع من النبات يتعلق بأغصان الشجر كالخيوط .

(٤) تقدم تفسير الباذروج فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢٤٧ من هذا السفر، فارجع اليها .

(٥) ينفع، أى كل من بزره وماثه ينفع، وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الضمير . أو لعله من قبيل الاكتفاء فى الخبر عن أحد الأمرين بالخبر عن الثانى، كما قال الشاعر : * فإنى وقيار بها لغريب *

وقد مر هذا الاستعمال كثيرا فى هذا السفر ونبهنا عليه فى مواضعه .

وأمّا سكّر العُشَر — فقال التّميمىّ: هو طَلٌّ يَسقط على شجر العُشَر بأرض اليمن والحجاز، فان أصابه الهواء جَمَد . وقال أبو حنيفةَ الدِّينَورىّ : العُشَر ضربٌ من العِضاه، يَنبت صُعُدا، عريض الورق، وله سكّر يَخرج من فصوص شُعبه(١)؛ والله أعلم بالصواب .

٥

كمل الجزء الحادى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النُّوَيْرىّ — رحمه الله —

ويليه الجزء الثانى عشر، وأوّله :

القسم الخامس من الفنّ الرابع فى أصناف الطِّيب والبَخورات والغَوالى والنُّدود والمستقطَرات والأدهان والنضوحات وأدوية الباه والخواصّ

١٠

والحمد لله رب العالمين

(١) زاد فى مباهج الفكر بعد هذه الكلمة قوله : « ومواضع زهره » .

استدراك

ورد فى صفحة ٢٥ سطر ٦ لفظ "شوابير" وذكرنا فى الحاشية رقم ٥ من هذه الصفحة أننا لم نجد للشوابير معنى يناسب السياق ، واستظهرنا أنه محرف عن لفظ آخر. وقد رأينا بعد ذلك فى بعض الكتب مايفيد أن لفظ الشوابير صحيح لاتحريف فيه، وقد بيّنّا المراد به فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٢٥، فانظرها .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٩	٩	ونقص ريحه	ونقصت ريحه
٣٢٠	حاشية ٤	أوّلها ما نقله	أوّلها أن ما نقله

(مطبعة الدار ١٦/١٩٣٣/٢٥٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

السِّفر الحادى عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٥

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

بيان

عن أصول السفر الحادى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

فى دار الكتب المصرية من نُسَخ هذا السفر نسختان كاملتان مأخوذتان بالتصوير الشمسىّ ، كُتبت إحداهما فى شوّال سنة ٩٦٦ هجرية بخط نور الدين العاملىّ ، وهى المشار اليها فى الحواشى بحرف (ا) ، ونُسبت الأخرى الى خط المؤلّف فى جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هجرية ؛ وهى المشار اليها فى الحواشى بحرف (ب) وقطعة من نسخة أخرى مأخوذةٌ بالتصوير الشمسىّ تبتدئ من الفنّ الرابع فى النبات صفحة ١ وتنتهى فى السطر الثامن من صفحة ١٣٨ فى الكلام على الخوخ ، وقد نبهنا على ذلك فى موضعه ، ولم يُكتب عليها اسمُ كاتبها ، ولا تاريخُ نَسْخِها ، وهذه القطعة هى المشار اليها فى الحواشى بحرف (ج) ، وليس التحريف والطمس والنقص فى إحدى هذه النسخ الثلاث بأقلّ من الأخريين ، بل إن هذه النسخ تكاد تكون متفقةً فى ذلك بالرغم من اختلافها فى الخط ونسبةِ إحداها الى خط المؤلّف ، كما يتبين ذلك من مراجعة الحواشى الكثيرة التى ذيلنا بها صفحات هذا السفر . وعسى أن نكون قد وُفِّقنا فى تصحيحه الى ما نقصد اليه فى جميع الكتاب ، من إصلاح التحريف ، وتكميل الناقص ، وضبط الملتبِس ، وتفسير الغريب ، وغيرِ ذلك من الأغراض التى بيّنّاها فى الأجزاء السابقة .

وقد تم طبع هذا السفر فى عهد من يفتخر العلم والأدب بعنايته الوافية الوافره ورعايته السامية الساهره ؛ وأياديه الجسيمه ، ونعمه العظيمه ، التى لا يحيط بهـا عدّ ولا إحصاء ، ولا يقوم بحقها حمد ولا ثناء :

" مولانا صاحب الجلالة الملك فؤاد الأوّل "

أدام الله ظلّه ، وأيّد ملكه ، وأقرّ عينه وعين شعبه بحراسة ولىّ عهده :

" أمير الصعيد صاحب السموّ الأمير فاروق "

وفى هذا المقام نرى — عرفانا بالجميل ، وتقديرا لجهود المخلصين — أننا مدينون بجزيل الثناء وعظيم الحمـد لتلك العناية المشكوره ، والجهود الموفّقة المبروره ؛ التى بذلها ويبذلها حضرة صاحب العزة المربّى الكبير (الأسـتاذ محمد أسعد برادة بك) مدير دار الكتب المصرية ، فقـد خطت هذه الدار فى عهـده الميمون خطوات واسعة فى سبيل التقدّم والرقىّ ، حتى أصبح مَنهلُها العذب أقربَ مَوردا ، والأنتفاعُ بمـا فيها من الذخائر أيسَر على الطالب .

كما أنه من الحقّ علينا أن نقـدّم عظيم الشـكر ووافر الثناء الى العالم الجليـل حضرة صاحب الفضيلة (السيد محمد الببلاوى) مراقب إحياء الآداب العربية .

وإلى حضرة الأديب الفاضـل (الأستاذ أحمـد زكى العدوى) رئيس القسم الأدبى ، على ماأسدياه الينا فى هذا العمل من الآراء القيّمة ، والإرشادات السديدة .

واللهَ نسأل أن يجعل عملَنا خالصا لوجهه ، وأن يلهمنا السداد فيما نقول ونعمل .

مصحّحه

أحمـد الزين

فهرس

السفر الحادى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

الفن الرابع - فى النبات ١

القسم الأول — فى أصل النبات وما تختص به أرض دون أرض، وتتصل به الأقوات والخضراوات والبقولات ٤

الباب الأول — فى أصل النبات وترتيبه

فى ترتيبه من ابتدائه الى انتهائه ٥ — فى ترتيب أحوال الزرع ٦

الباب الثانى — فيما تختص به أرض دون أرض ، وما يستأصل شأفة النبات الشاغل للأرض عن الغراسة والزراعة ٧

ما تختص به أرض دون أرض ٧ — ما يستأصل النبات الشاغل للأرض عن الغراسة والزراعة ١١

الباب الثالث — فى الأقوات والخضراوات : ١١

الحنطة وما قيل فيها ١٣ — الشعير ١٥ — ما وصف به الشعراء الزرع وشبهوه به ١٦ — الحمص ١٧ — الباقلى ١٨ — أفعاله وخواصه ١٩ — ما وصفه به الشعراء وشبهوه به ٢٠ — الأرز ٢٣ — الخشخاش وما ينتج عنه من عصارته ٢٣ — ما وصف به من الشعر ٢٥ — الكتان وما قيل فى بزره وتشبيهه ٢٦ — ما وصف به من الشعر ٢٧ — الشهدانج ٢٨ — ما قاله الشعراء فى وصف ورقه وهو المعروف بالحشيش ٢٩ — البطيخ وما قيل فيه ٣٠ — البرى منه وهو الحنظل ٣٠ — البستانى ٣٠ — ما جاء فى وصفه وتشبيهه ٣٢ — ما قيل فى الأصفر ٣٣ — ما قيل فى الدستنبويه ٣٦ — القثاء والخيار وما قيل فيهما ٣٨ — ما جاء فى وصفهما وتشبيههما من الشعر ٣٨ — القرع وما قيل فيه ٤١ — الباذنجان وما قيل فيه ٤٣ — ما وصف به من الشعر ٤٤ — ما قيل فى السلق ٤٥ — القنبيط والكرنب ٤٨ — السلجم — وهو اللفت — ٥١ ما وصف به السلجم من الشعر ٥١ — ما قيل فى الفجل ٥٢ — ما وصف به الفجل من

*

صفحة

الشعر ٥٥ — الجزر وما قيل فيه ٥٥ — الشقاقل — وهو الجزر البرّى — ٥٦ ما وصف به الجزر من الشعر ٥٧ — البصل وما قيل فيه ٥٧ — ما وصف به البصل من الشعر ٥٩ — الثوم وما قيل فيه ٥٩ — ما وصف به الثوم من الشعر ٦١ — الكراث وما قيل فيه ٦١ — الرياس وماقيل فيه ٦٤ — ما وصف به الرياس من الشعر ٦٤ — الهليون وما قيل فيه ٦٥ — ما وصف به الهليون من الشعر ٦٧ — الهندبا وما قيل فيها ٦٧ — النعنع وما قيل فيه ٦٩ — ما قيل فى وصف نبات النمام من الشعر ٧١ — الجرجير وما قيل فيه ٧٢ — السذاب وما قيل فيه ٧٣ — الطرخون وماقيل فيه ٧٦ — الاسفاناخ وما قيل فيه ٧٧ — طبعه وأفعاله ٧٧ — البقلة الحمقاء ٧٨ — توليدها ٧٨ — طبعها وفعلها ٧٨ — الحماض وما قيل فيه ٧٩ — الرازيانج وما قيل فيه ٨١ — النبطى ٨١ — الرومى ٨٢ — ما وصف به الرازيانج من الشعر ٨٣ — الكرفس وما قيل فيه ٨٣

القسم الثانى — فى الأشجار

الباب الأوّل — فيما ثمره قشر لا يؤكل : ٨٦

اللوز وما قيل فيه ٨٦ — ما وصفه به الشعراء وشبهوه ٨٨ — الجوز وما قيل فيه ٨٩ — أفعاله وخواصه ٨٩ — ما وصفه به الشعراء وشبهوه ٩٠ — الجلوز وما قيل فيه ٩١ — ما وصفه به الشعراء وشبهوه ٩١ — الفستق وما قيل فيه ٩٢ — ما وصفه به الشعراء وشبهوه ٩٣ — الشاهبلوط وما قيل فيه ٩٥ — قال شاعر يصفه ٩٥ — شجر الصنوبر وما قيل فيه ٩٦ — ما وصف به الصنوبر وشبه به من الشعر ٩٨ — الرمان والجلنار ١٠٠ — ما قيل فيهما من الشعر — فن ذلك ما وصف به الرمان وشبه به ١٠١ — ماوصف به الجلنار ١٠٤ — الموز وما قيل فيه ١٠٥ — ما وصف به وشبه من الشعر ١٠٦ — ما وصف به وشبه النارنج ١١١ — ما وصف به وشبه (الليمو) (الليمون) ١١٦

الباب الثانى — فيما ثمره نوى لا يؤكل : ١١٧

النخل وما قيل فيه ١١٧ — أسماء النخلة من حين تبدو صغيرة الى أن تكبر وكذلك الرطب من حين يكون طلعا الى أن يصير رطبا ١١٨ — فصل فى نعوتها ١١٨ — ما وصف به النخل من الشعر ١١٩ — الجمار وما قيل فيه ١٢٤ — ما وصف به الجمار والطلع من الشعر ١٢٤ — ما وصف به الطلع ١٢٤ — البلح والبسر والتمر ١٢٦ — ما قيل فى وصف البلح والبسر من الشعر ١٢٦ — ووصفوا الرطب والتمر ١٢٨ — النارجيل ١٢٩ — ما قيل فى وصف النارجيل من الشعر ١٣٠ — الفوفل ١٣٠ — الكاذى ١٣١ — الخزم ١٣١ — الزيتون وما قيل فيه ١٣١ — ما وصف به الزيتون من الشعر ١٣٢ — الخرنوب وما قيل فيه ١٣٢ — ما وصف به الخرنوب من

صفحة

الشعر ١٣٣ — الإجاص وما قيل فيه ١٣٤ — ما وصف به الإجاص من الشعر ١٣٥ — ومما وصف به القراسيا ١٣٦ — الزعرور وما قيل فيه ١٣٧ — ما وصف به الزعرور من الشعر ١٣٧ — الخوخ وما قيل فيه ١٣٨ — ما وصف به من الشعر ١٣٨ — المشمش وما قيل فيه ١٤٠ — ما وصف به المشمش من الشعر ١٤١ — العناب وما قيل فيه ١٤٢ — ما وصف به العناب من الشعر ١٤٢ — النبق وما قيل فيه ١٤٤ — ما وصف به النبق من الشعر ١٤٤

الباب الثالث — فيما ليس لثمره قشر ولا نوى : ١٤٦

العنب وما قيل فيه ١٤٦ — طبعه ١٤٧ — ما وصفت به الكروم والأعناب نظما ونثرا ١٤٨ — التين وما قيل فيه ١٥٣ — المختار من التين وما قيل فى طبعه وخواصه ١٥٤ — ما وصفه به الشعراء وشبهوه ١٥٨ — ما وصف به على سبيل الذم ١٦٠ — التوت وما قيل فيه ١٦٠ — ما وصفه به الشعراء ١٦٢ — التفاح وما قيل فيه ١٦٢ — ما وصفه به الشعراء ١٦٤ — السفرجل وما قيل فيه ١٦٨ — ما وصف به نظما ونثرا ١٦٩ — الكمثرى وما قيل فيها ١٧٢ — ما وصفها به الشعراء ١٧٣ — الفاح وما قيل فيه ١٧٥ — ما وصفه به الشعراء ١٧٧ — الأترج وما قيل فيه ١٧٨ — أفعاله وخواصه ١٧٩ — ماوصفه به الشعراء ١٨٠

القسم الثالث — فى الفواكه المشمومة

الباب الأول — فيما يشم رطبا و يستقطر : ١٨٤

الورد وما قيل فيه ١٨٤ — ما جاء فى وصف الورد نظما ونثرا ١٨٩ — ومما قيل فى ذم الورد ومدحه ١٩٢ — ما وصف به الورد الأبيض ١٩٣ — ما وصف به الورد الأصفر ١٩٤ — ماوصف به الورد الأزرق ١٩٥ — ماقيل فى الورد الأسود ١٩٥ — ما جاء فيه نثرا ١٩٦ — النسرين وما قيل فيه ٢١٤ — ما جاء فى وصفه ٢١٤ — البان وما قيل فيه — وهو شجر الخلاف — ٢١٥ ماجاء فى باكورة خلاف ٢١٧ — النيلوفر وما قيل فيه ٢١٩ — ما جاء فى وصفه ٢٢١

الباب الثانى — فيما يشم رطبا ولا يستقطر : ٢٢٦

البنفسج وما قيل فيه ٢٢٦ — أفعاله وخواصه ٢٢٦ — ما جاء فى وصفه ٢٢٦ — النرجس وما قيل فيه ٢٢٩ — ما جاء فى وصفه ٢٣٠ — الياسمين وما قيل فيه ٢٣٦ — ما جاء فى وصفه ٢٣٦ — الآس وما قيل فيه ٢٣٩ — طبعه ٢٤٠ — أفعاله وخواصه ٢٤٠ — ما جاء فى وصفه ٢٤١ — الزعفران وما قيل فيه ٢٤٢ — ما جاء فى وصفه ٢٤٤ — الحبق وما قيل فيه ٢٤٧ — كلام لابن سينا فى طبع الباذروج وخواصه ٢٥٠ — المرماحوز ٢٥١ — المرزنجوش ٢٥١ — القلنجمشك ٢٥٢ — ما وصفت به الرياحين ٢٥٢

صفحة

القسم الرابع — فى الرياض والأزهار ويتصل به الصموغ والأمنان والعصائر ٢٥٦

الباب الأوّل — فى الرياض وما وصفت به نظما ونثرا : ٢٥٦

منزهات الدنيا الأربع فنها صغد سمرقند ٢٥٧ — شعب بوان ٢٥٧ — نهر الأبلة ٢٦٠ — غوطة دمشق ٢٦١ — ما وصفت به الرياض نثرا ونظما ٢٦٢ — قد أكثر الشعراء فى وصف الرياض والغصون ٢٦٣

الباب الثانى — فى الأزهار : ٢٧١

الخيرى وما قيل فيه ٢٧١ — ما وصف به من الشعر ٢٧١ — السوسن وما قيل فيه ٢٧٣ — ما جاء فى وصفه ٢٧٥ — الآذريون وما قيل فيه ٢٧٧ — ما جاء فى وصفه ٢٧٧ — الخرم وما قيل فيه ٢٧٩ — ما وصف به الخرم من الشعر ٢٨٠ — الشقيق وما قيل فيه ٢٨١ — ماجاء فى وصفه ٢٨٢ — ما وصف به البهار ٢٨٥ — الأقحوان وما قيل فيه ٢٨٦ — ماوصفه به الشعراء ٢٨٩

الباب الثالث — فى الصموغ : ٢٩١

الكافور وما قيل فيه ٢٩٢ — الكهربا وما قيل فيه ٢٩٥ — علك الأنباط ٢٩٧ — علك الروم ٢٩٧ — علك البطم ٢٩٨ — صمغ الينبوت (صوابه التنوب) ٢٩٩ — صمغ قوفى ٢٩٩ — الكثيراء ٢٩٩ — الكندر ٢٩٩ — الفربيون ٣٠١ — الصبر ٣٠٤ — المر ٣٠٧ — الكمكام ٣٠٩ — الضجاج ٣٠٩ — الأشق ٣١٠ — تراب التى ٣١١ — القنة ٣١٢ — الحلتيت ٣١٣ — الأنزروت ٣١٥ — السكبينج ٣١٥ — السادوران ٣١٧ — دم الأخوين ٣١٧ — الميعة ٣١٨ — صمغ قبعرين ٣٢٠ — المقل الأزرق ٣٢١ — الصمغ العربى ٣٢٢ — القطران ٣٢٣ — الزفت ٣٢٥

الباب الرابع — فى الأمنان : ٢٢٥

العسل والشمع ٣٢٥ — اللك ٣٢٦ — القرمز ٣٢٦ — اللاذن ٣٢٦ — الافتيمون ٣٢٧ — القنبيل ٣٢٨ — الورس ٣٢٨ — الترنجبين ٣٢٨ — الشيرخشك ٣٢٩ — المنّ ٣٢٩ — الكشوث ٣٢٩ — سكر العشر ٣٣٠

بيان

أهمّ الكتب والمصادر التى رجعنا اليها فى تصحيح هذا الجزء مرتَّبة على حروف المعجم

إخبار العلماء بأخبار الحكماء — للقفطى .

إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى — لشهاب الدين القسطلّانى .

أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار — للتيفاشى .

الأسباب والعلامات — لنجيب الدين السمرقندى .

الأغانى — لأبى الفرج الأصبهانى .

أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد — لسعيد الخورى الشرتونى اللّبنانى .

الألفاظ الفارسية المعرّبة — للسيد أدّى شير .

بحر الجواهر — لمحمد بن يوسف الطبيب المعروف بالهروى .

بدائع البدائه — للوزير جمال الدين أبى الحسن على بن ظافر الأزدى المصرى .

البرهانُ القاطع — وهو معجم فارسى تأليف محمد حسين بن خلف التبريزى .

بغية الوعاة فى طبقات اللغويّين والنحاة — للجلال السيوطى .

تاج العروس من جواهر القاموس — لمحب الدين أبى الفيض السيد محمد مرتضى الزبيدى الحنفى .

تاج اللغة وصحاح العربية — لأبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهرىّ الفارابى .

تذكرة داود .

تقويم البلدان — لأبى الفداء .

التهذيب فى اللغة — للأزهرى .

حسن المحاضرة — للجلال السيوطى .

الحشائش — لديسقوريدوس .

حياة الحيوان — للدميرى .

خاص الخاص — للثعالبي .
خريدة القصر وجريدة أهل العصر — للوزير أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي الرجاء الكاتب الأصبهاني .
دائرة المعارف — للبستاني .
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة — لابن حجر .
دستور العلماء، ويُعرف بجامع العلوم — للأحمد نكري .
ديوان البحتري .
ديوان ابن الرومي .
ديوان ابن زيدون .
ديوان الحيوان — للسيوطي .
ديوان السريّ الرفّاء .
ديوان ابن الساعاتي، المعروف بمقطّعات النيل .
ديوان المتنبّي .
ديوان ابن المعتز .
ديوان مؤيّد الدين الطُّغرائيّ .
ديوان المعاني — لأبي هلال العسكري .
ديوان أبي الفتح كشاجم .
رسالة الحسين بن نوح القمري في تفسير المصطلحات الطبية .
رسائل الصاحب بن عباد .
رسالة في تفسير بعض المصطلحات الطبية لم يعرف مؤلّفها، وهي ضمن مجموعة مخطوطة ومحفوظة بمكتبة تيمور تحت رقم ٦٦٧ طب .
زهر الاداب وثمر الألباب — للحصري القيرواني .
سحر البلاغة وسر البراعة — للثعالبي .
سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون — لابن نباتة .

الشذور الذهبية فى الاصطلاحات الطبية — لمحمد بن عمر بن سليمان التونسى .
شرح الأدوية المفردة من قانون ابن سينا — للكازرونى .
شرح الرضى على الشافية .
شرح الرضى على الكافية .
شرح ديوان أبى تمام — للخطيب التبريزى .
شرح العكبرىّ على ديوان المتنبى .
الشعر والشعراء — لابن قتيبة الدينورى .
شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل — لشهاب الدين أحمد الخفاجى .
صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء — للقلقشندى .
عبث الوليد — لأبى العلاء المعرّى .
عمدة المحتاج فى علمى الأدوية والعلاج، ويعرف بالمادة الطبية — للسيد أحمد افندى الرشيدى .
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء — لابن أبى أصيبعة .
فقه اللغة — للثعالبى .
الفلاحة النبطية — لأبى بكر بن وحشية .
فوات الوفيات — لابن شاكر الكتبى .
قلائد العقيان — للفتح بن خاقان .
قاموس الأطباء وناموس الألبّاء — للشيخ مدين بن عبد الرحمن الطبيب الشهير بالقيصونى .
قاموس المحيط — لمجد الدين الفيروزابادى .
القانون فى الطب — للشيخ الرئيس أبى على بن سينا .
كشاف اصطلاحات الفنون — للتهانوى .
كوكب الروضة — للسيوطى .
لسان العرب — لابن منظور .
مباهج الفكر ومناهج العبر — للورّاق الكتبى .
مجموع الأصمعيّات .
محاضرات الأدباء — للراغب الأصبهانى .

المخصص — لابن سيده .
المصباح المنير — للفيومى .
مطالع البدور فى منازل السرور — لعلاء الدين على بن عبد الله البهائى .
معجم البلدان — لأبى عبد الله ياقوت الحموى .
معجم ما استعجم — للبكرى .
معجم أسماء النبات — للدكتور أحمد عيسى .
مفاتيح العلوم — للخوارزمى .
معجم الأدباء — ويعرف بارشاد الأريب لمعرفة الأديب — لياقوت .
المشتبه فى أسماء الرجال — للحافظ الذهبى .
مايعوّل عليه فى المضاف والمضاف اليه — للحبّى .
أسماء الملابس عند العرب — لدوزى .
المغرب فى ترتيب المعرب — للطرّزى .
المعرّب والدخيل — للشيخ مصطفى المدنى .
المعرّب من الكلام الأعجمى — لأبى منصور الجواليقى .
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار — لابن فضل الله العمرى .
من غاب عنه المطرب — للثعالبى .
المعجم الفارسى الانجليزى — لاستاين جاس .
مفتاح الطب — لأبى الفرج بن هندو .
مفردات ابن البيطار .
المنهج المنير فى معرفة أسماء العقاقير — لم يُعلم اسمُ مؤلّفه .
المنهاج — لابن جزلة .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — لأبن تغرى بردى .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — للمقرى .
نهاية الأرب فى فنون الأدب — للنويرى .
وفيات الأعيان — لابن خلّكان .
يتيمة الدهر — للثعالبىّ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الخامس من الفنّ الرابع

فى أصناف الطِّيب والبَخورات والغَوالى والنُّدود والمستقطَرات والأدهان والنَّضُوحات وأدوية الباه والخواصّ، وفيه أحد عشر بابا

الباب الأوّل من هذا القسم من هذا الفنّ

فى المِسْك[1] وأنواعه

قال محمدُ بنُ أحمدَ[2] بنِ الخليل[3] بنِ سعيد التَّميمىُّ المَقْدِسىُّ فى كتابه المترجَم

(١) ذكر صاحب (المادة الطبية ج ٣ ص ٧٧٢) أن الاسم الافرنجى للسك مأخوذ من اسمه العربى ولكنهم يضمون الميم .

(٢) كذا فى (ب) (وعيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ج٢ ص٨٧) (وإخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى صفحة ١٠٥ طبع أوربا) . والذى فى (ا) : « ابن محمد » ؛ وهو تحريف . وقد ذكر ابن أبى أصيبعة فى ترجمة هذا الطبيب أن مقامه كان أولا بالقدس ونواحيها ، ثم انتقل الى الديار المصرية وأقام بها الى أن توفى رحمه الله تعالى ؛ وكانت له معرفة جيدة بالنبات وماهياته والكلام فيه ؛ وكان متميزا أيضا فى أعمال صناعة الطب والاطلاع على دقائقها . ويستفاد من كلامه أنه كان فى القرن الرابع .

(٣) الذى ذكره القفطى وابن أبى أصيبعة فى كتابيهما أنه محمد بن أحمد بن سعيد ، ولم يذكرا الخليل هذا فى نسبه ؛ وهو الموافق لما ذكره المؤلف بعد فى الباب الثامن من هذا السفر فى (عمل الرامك والسك) ص ٧٠ وقد ورد ذكر الخليل فى نسبه كما هنا فى الجزء السابع من المكتبة الجغرافية ص ٣٦٤ طبع ليدن نقلا عن نسخة من كتاب (نهاية الأرب) محفوظة فى ليدن ، فقد نقل ناشر المكتبة الجغرافية عن هذه النسخة هذا الكلام الآتى بنصه ، ونبه على ذلك النقل فى الجزء والصفحة السابق ذكرهما .

(بجيب العروس وريحان النفوس)[1] : المِسْك أصنافٌ كثيرة ، وأجناسٌ مختلفة ؛ فأرفعُها وأفضلُها التُّبَّتىّ ، ويؤتَى به من موضع يقال له : (ذو سَمْت)[2] ، بينه وبين (التُّبَّت)[3] مَسيرةُ شهرين ، فيُصار به إلى (التُّبَّت)[3] ، ثم يُحمَل إلى خراسان . قال : وأصل المِسك من بهيمةٍ ذاتِ أربع ، أشبهِ شىء بالظَّبى الصغير . وقد ذكرنا غزالَ المِسك فى (الباب الثالث من القسم الثانى من الفنّ الثالث) ، وهو فى السفر التاسع[4] من هـذه النسخة

(١) ذكر هـذا الكتاب فى صبح الأعشى باسم « طيب العروس » الجزء الثانى صفحة ١١٣ ولم يذكره ابن أبى أصيبعة ضمن ما أورده من مؤلفات محمد بن أحمد التيمى انظر (عيون الأنباء ج ٢ ص ٨٩ طبع المطبعة الوهبية) . وكذلك لم يذكره صاحب (كشف الظنون) ؛ ولم نجده فيما بين أيدينا من الفهارس الجامعة لما فى خزائن الكتب .

(٢) كذا ورد هـذا اللفظ مضبوطا بالقلم فى كلتا النسختين والجزء السابع من المكتبة الجغرافية ص ٣٦٤ طبع ليدن ؛ ولم نجده فى غير ذلك من الكتب التى راجعناها فى أسماء البلاد (كمعجم ياقوت) و(معجم البكرى) و(تقويم البلدان لأبى الفداء) ، وغيرها .

(٣) التبت بالضم — وكان الزمخشرى يقوله بكسر ثانيه ؛ وبعض يقوله بفتح ثانيه ؛ ورواه أبو بكر محمد بن موسى بفتح أوله وضم ثانيه ، وهو مشدّد الباء فى الروايات كلها — : مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند ، ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة ، ومن جهة المغرب لبلاد الترك .

(٤) انظر صفحة ٣٣٣ الطبعة الأولى من السفر التاسع المشار اليه ، وسيأتى وصف هذا الحيوان أيضا فى صفحة ١١ من هـذا الجزء ، فانظره ، ويحسن أن نورد هنا ملخص ما ذكره أرباب العلم الحديث فى الكلام على هـذا الحيوان ، فقد ذكر صاحب (عمدة المحتاج ج ٣ ص ٧٧٢) أن اسم هـذا الحيوان باللسان الطبيعى (مسكوس) و(مسكفيروس) بضم الميم فى كليهما . ثم قال فى صفاته الحيوانية : إنه حيوان من ذوات الثدى ، من قسم الحيوانات المجترة العديمة القرن ، وليس له أسنان قواطع إلا فى الفك الأسفل ؛ وأرجله الأربع قصيرة ، تنتهى كل رجل منها باصبعين أو ظلفين ؛ وحيث كان من الحيوانات المجترة يكون له أربع معد ، وقناة معوية طويلة ، وغير ذلك من صفات الحيوانات المجترة . ثم قال : وله فى كل جانب من الفك العلوى ناب طويل يخرج من الفم وينحنى بحيث يدافع =

فلا فائدة فى إعادته . وقد ذكروا فى صفة تحصيل المسك من هذا الحيوان أقوالا نحن نذكرها ؛ فزعم قوم أن الغزلان تُذْبَح وتؤخذ سُرَرُها[1] بما عليها من الشَّعر[2] ويكون فيها دمٌ عبيط[3] ، وربما كانت السرّة كثيرةَ الدم ، وربما كانت كبيرةً واسعةً قليلةَ الدم ، فيُجمَع فيها دمُ عدّة سُرَر ، ويُصَبّ فيها الرِّصاص وهو ذائب وتُخيَّط بالخوص ، وتُعلَّق فى حَلْق مُستَراح مدّة أربعين يوما ، ثم تُخرَج وتُعلَّق فى موضع آخَر حتّى يتكامل جفافها ، وتشتدّ رائحتها ، ثم تُصيِّر النوافِجُ[4] فى مَزاوِدَ

= به عن نفسه ؛ وقامة هذا الحيوان كالظبي ، ويكاد يكون عديم الذنب ، وكله مغطى بصوف غليظ ، أى شعر يكون أسمر من طرفه كلون القرفة ، وأبيض من قاعدته ؛ وهو شديد التجعد ، صلب غليظ ، شبه بإبر القنفذ أكثر من شبهه بالشعر الحقيق ؛ وهذا الحيوان ليلى ، أى لا يخرج إلا بالليل ، ويعيش وحيدا فى جبال تبيت وبلاد التتار والساحة الواسعة بين (سبيريا) (والصين) . وبالجملة ، هو ظريف الشكل ، جميل القامة خفيف الجرى الخ أما الكلام على الجيب المفرز للمسك فى هذا الحيوان فقد نقلنا ما ذكره مؤلف هذا الكتاب فى وصفه عند الكلام على صفة تحصيل المسك من سرر هذا الحيوان . انظر الحاشية رقم ٢ من هذه الصفحة .

(١) فى « ب » : « سرارها » بزيادة ألف بعد الراء ؛ ولم نجد هذا الجمع للسرة فيما راجعناه من الكتب .

(٢) ذكر أرباب العلم الحديث فى صفة هذا الجيب المفرز للمسك فى هذا الحيوان أنه يختص بالذكر البالغ منه ، وهو موضوع أسفل بطن الحيوان ، ومحفور بقلم يمتد فيه القضيب ، وفيه قناة قاذفة للإفراز فتحتها أمام القلفة ، ويكون صغيرا فى الحيوان المسن ، وكبيرا زمن التعشير ، فكأنه مرتبط بعمل التناسل ؛ وهو غشائى رقيق جاف ، محاط بمنسوج خلوى مملوء بعروق ، وفيه من الباطن غضون شبه صمامات تتكون منها حواجز غير تامة ، وهو ملتصق من الخارج بجزء من جلد الحيوان ، بل ربما أحاط به كله ، حتى إنه يباع معه ، وفيه تفرطح واستدارة أو استطالة ، وهو يختلف فى الشكل والحجم والوزن الخ ما ذكره صاحب (المادة الطبية ج ٣ ص ٧٧٣) .

(٣) العبيط من الدم : الطرى الخالص الذى لا خلط فيه .

(٤) النوافج : أوعية المسك ، واحده نافجة ، وهى الجلدة التى يجتمع فيها ؛ وهو معرب « نافه » بالفارسية ؛ ولهذا جزم بعضهم بفتح الفاء فى « نافجة » ؛ وزعم صاحب (المصباح) أنه لفظ عربى .

(٩٧) صِغار ، وتُخيَّط ، وتُحمَل من التُّبَّت إلى خُراسان . قال : وقال أحمدُ بنُ أبى يعقوب مولى بنى العبّاس : ذَكر لى جماعةٌ من العلماء بمعدن المِسْك أنّ معادنَه بأرض (التُّبَّت) وغيرِها معروفة ، قد ابتَنَى الجلّابون فيها بناءً يشبه المَنار فى طول عَظْم الذّراع ، فتأتى هذه البهيمة الّتى مِن[1] سُرَرِها يتكوّن المِسك فتحُكّ سُرَرَها بتلك المنار، فتَسقط السُّرَرُ هنالك، فيأتى إليه الجلّابون فى وقتٍ من السنة قد عرفوه، فيَلتقطون ذلك مباحا لهم، فإذا وردوا به إلى (التُّبَّت) عُشِّر[2] عليهم. وقال قوم : إنّ[3] هذه الدابّة خلَقها الله تعالى معدِنا للمِسك، فهى تُثمِره فى كلِّ سنة وهو فَضلٌ دموىٌّ يجتمع من جسمها إلى سُرَرِها فى كلِّ عام فى وقتٍ معلوم، بمنزلة الموادّ التى تنصبّ إلى الأعضاء ؛ فإذا حصل فى سُرَرِها ورمٌ وعِظَم، مرضتْ له وتألّمتْ حتّى يتكامل ؛ فإذا بلغ وتَناهَى حكّته بأظلافها[4]، فيَسقط فى تلك المَفاوِز والبَرارىّ، فيَخرج اليه الجلّابون فيأخذونه . قال : وهذا أصحّ ما قيل فى باب المِسك . قال : ويشهد بصحّة ذلك ويوافقه ما حكاه محمدُ بنُ العبّاس المسكىُّ فى كتابه : أنّ تجار المِسك من أهل الصُّغْد[5] يذكرون أنّ المِسك سُرّةُ دابّة

(١) لعله «فى» مكان قوله «من» كما يقتضيه سياق العبارة، أى يتكون فى سررها ، أو لعل المؤلف ضمن « يتكون » معنى « يخرج » فسوغ له هذا التضمين ذكر «من» ، أى يخرج من سررها .

(٢) عشر، أى أخذ عليه العشر .

(٣) فى (ا) « فى » مكان قوله : « إن » ؛ وقد يتكلف تصحيحه باعتبار أن مقول القول يبتدئ من قوله : « خلقها الله » .

(٤) فى (ا) : « بأظفارها » .

(٥) الصغد — ويقال بالسين أيضا — وهى كورة قصبتها (سمرقند)، وهى قرى متصلة من (سمرقند) الى قريب من بخارى . وقال الجيهانى : إن مساحته ستة وثلاثون فرسخا فى ستة وأربعين ؛ وبعضهم يجعل (بخارى) من (الصغد) ؛ وهو من متنزهات الدنيا الأربعة ، وهى (غوطة دمشق) و (صغد سمرقند) =

فى صورة ضخامة الظَّبى ، لها قَرن واحد فى وسَط رأسها . قال : ومِن قَرنها وعَظْم جبهتها تُتَّخَذ النُّصُب المعروفةُ بنُصُب (الخُتُو)[1] . قال : وذَكروا أنّها تَهيج فى وقتٍ معلوم من السنة ، فتَرم مواضعُ سُرَرِها ، ويجتمع إليها دم غليظ أسودُ يفيض إليها من سائر أجسادها ، وأنه يشتدّ وجعُها ، فتأتى مواضعَ فيها ترابٌ ليّن كهيئة المَراغة فى تلك البرارىّ ، بين المراغة منها وبين الأخرى مسافة ليست بالقريبة وتلك الظُّبى[2] لا تَنزِع سُرَرَها فى غير تلك المَراغات ، قد أَلِفت التَّمَكُّكَ فيها ، والتمرُّغَ فى تُرْبِها ، واعتادته على مَمَرّ السنين ؛ فإذا نالها ذلك أَمسكتْ عن الرَّعيِ وعن ورود المياه ، ولا تزال تتقلّب فيه حتّى تَسقط تلك السُّرَر عنها ، وهى دمٌ عبيط . قال : وربّما سقطتْ قرونُها أيضا كما يَفصِل الإِيَّل[3] قَرنَه فى كلّ سنة . قال : وربّما اجتمع فى المَراغة الواحدة مائتان من تلك الظِّباء ، فإذا ألقت تلك السُّرَرَ خرج شبابُ أهلِ الصُّغْد وأهلِ التُّبَّت[4] فى وقت الإمكان إلى تلك المَفاوز التى فيها تلك المَراغات

= و(نهر الأبلة) و(شعب بوان) . وقال اليعقوبى فى (كتاب البلدان ص ٢٩٣ طبع ليدن) : إن بالصغد مدنا جليلة منيعة حصينة ، منها (دبوسية) و(كشانية) و(كش) و(نسف) — وهى نخشب — وقد افتتح كور الصغد قتيبة بن مسلم الباهلى أيام الوليد بن عبد الملك .

(١) فى (أ) « الحبو » ؛ وفى (ب) « الجبو » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين . ويريد بنصب الختو) بالخاء والتاء مضمومتين : مقابض السكاكين التى تتخذ من الختو ، فقد ورد فى (المعجم الفارسى الانجليزى لآستانجاس) أن الختو قرن حيوان صينى ، كما ورد فيه أيضا أنه يطلق على حيوان صينى تتخذ من عظامه مقابض للسكاكين .

(٢) الظبىّ : جمع ظبى ، وزان ثدىّ ، جمع ثدى .

(٣) قال فى الشذور الذهبية : الأيل ذكر الأوعال ، وأكثر أحواله شبيهة ببقر الوحش . وقيل : هو الكبش الجبلى . وقيل : هو معزى الجبل . وقيل : هو حيوان كالمعز غزير الشعر ، طويل القرون ، يلقى قرناه وينبتان ، ونظره مقلوب الى فوق ، فلذلك ينحدر من أعالى الجبال فيلقى قرونه ثم يصعد .

(٤) تقدّم الكلام على التبت فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢ من هذا السفر فانظرها .

فيتفرّقون فى طلب النَّوَافِج، فربّما وجدوا فى ٱلمَرَاغة ألوفا من تلك السُّرَر : من بين رَطْب وجامد ويابس . قال : واذا سقطت السُّرّة عن الظَّبى كان فى ذلك إفاقتُه وصحّتُه فيَثبُت حينئذ فى الرَّعْىِ وورودِ المـاء . وقال محمد بنُ العباس : أجودُ المِسْك الصُّغْدىّ، وهو ما ٱشتراه تُجـار خُراسانَ من التُّبَّت[1] وحملوه على الظهر الى خُراسان ثم يُحمَل من خُراسانَ إلى الآفاق؛ ثم[2] يتلوه فى ٱلجُودة ٱلمسك الهندىّ، وهو ماوقع من التُّبَّت إلى أرض الهنـد، ثم حُمِل إلى الدَّيْبُل[3]، ثم حُمِل فى البحر الى سِيرافَ[4] وعَدَنَ[5]

(١) تقدم الكلام على التبت فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) فى ب، « ويتلوه » بالواو مكان « ثم » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٣) الديبل والديبلان : قصبة بلاد السند، كما فى القاموس . وقال أبو الفداء فى (تقويم البلدان) : الديبل على شط ماء السند، وهو بلد صغير شديد الحر، وبه سمسم كثير . وقال ابن حوقل : الديبل على البحر، وهى فرضة تلك البلاد، وهى شرقى مهران . وكذلك قال فى (اللباب) : إنها على البحر الهندى، قريبة من السـند . قال ابن سعيد : هى فى دخلة من البر فى خليج السـند، وهى أكبر فرض السند وأشهرها . وبين الديبل والمنصورة ست مراحل، ومن الديبل الى بيرون أربع مراحل . وقال الإدريسى : بين الديبل وموقع نهر مهران ثلاث مراحل، وهى فى وسط الطريق الى المنصورة .

(٤) سيراف : من بلاد فارس، على ساحل البحر مما يلى (كرمان)، كما فى (اللباب) . وقال ياقوت : هى مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديما فرضة الهند . وقيل : كانت قصبة (كورة أزدشير خره) من أعمال فارس، والتجار يسمونها : (شيلاو)، وهى فى لحف جبل عال؛ وبين سيراف والبصرة اذا طاب الهواء سبعة أيام؛ ومن سيراف الى (شيراز) ستون فرسخا .

(٥) عدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، وتضاف الى (أبين) فيقال : « عدن أبين » وأبين هذا مخلاف من مخاليف اليمن، وعدن من جملته . وقال أبو محمد الهمدانى اليمنى : عدن، جنوبية تهامية، وهى أقدم أسواق العرب . وقال أبو الفداء : هى مدينة حط وإقلاع لمراكب الهند، وهى بلدة تجارة؛ وبين عدن وصنعاء ثمانية وستون فرسخا . وقال ابن حوقل : بل بينهما ثلاث مراحل .

وعُمان[1]، وغيرها من النواحى، وهو دون الصُّغْدِىّ؛ ويتلو الهندىّ المسكُ الصِّينىّ وهو دونه، لطول مُكثه فى البحر، وما يلحقه من عفونة هوائه، ولعلّة أخرى وهى اختلاف المرعَى فى الأصل. قال: وأفضل المسك ما كان مَرعَى غزلانه حشيشا يقال له: الكدهمس[2]، ينبُت بالتُّبّت وقَشْمير، أو بأحداهما. وذكر أحمدُ بنُ أبى[3] يعقوب أنّ اسم هذه الحشيشة الكندهسة[2]. قال: وأفضل ما يرعَى هذا الحيوانُ بعد هذه الحشيشة السُّنْبُلُ الهندىّ، يريد سُنْبُلَ[4] الطِّيب، فإنّه ينبُتُ بأرض

(١) عمان: اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند، وهى تشتمل على بلدان كثيرة؛ وبحرها يضرب به المثل. وقال أبو الفداء: عمان مدينة جليلة بها مرسى السفن من السند والهند والصين والزنج وليس على بحر فارس مدينة أجل منها؛ وأعمالها نحو ثلاثمائة فرسخ، وهى ديار الأزد.

(٢) كذا ورد هذان اللفظان اللذان تحت هذا الرقم فى كلا الأصلين والجزء السابع من (المكتبة الجغرافية) ص ٣٦٥ طبع ليدن؛ ولم نجدهما ضمن أسماء الحشائش وأنواع النبات الواردة فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى النبات، (كمفردات ابن البيطار) (وتذكرة داود) (ومعجم أسماء النبات للدكتور احمد بك عيسى) وكتاب (الحشائش لديسقوريدوس) (والمنهج المنير) وغيرها من الكتب الكثيرة. كما أننا لم نجدهما فيما راجعناه من كتب اللغة.

(٣) فى (ا) «ابن يعقوب» باسقاط لفظ «أبى» وما أثبتناه عن (ب)؛ ويؤيده ما فى (عيون الأنباء ج ٢ ص ٨٧ طبع المطبعة الوهبية) فانظره.

(٤) ذكر صاحب (عمدة المحتاج) ج ٢ ص ٥٤٤ نقلا عن بعض المؤلفات القديمة أن السنبل ثلاثة أصناف: منه هندى، وهو سنبل الطيب؛ ويقال له العصافير أيضا؛ ويسمى الناردين؛ وهو جنسان: سورى، وهو يجلب من جبل بأرض الهند ممتد الى حد سورية، وهو خفيف أشقر، طيب الرائحة جدا وفيه شىء من رائحة السعد، وسنبله صغيرة، يجفف اللسان، ويمكث طيب رائحته فى الفم بعد المضغ طويلا؛ وهندى، وهو صنفان: أحدهما أطول وأكبر سنبلا، ويخرج سنبله من أصل واحد، وهو زهم الرائحة، ملتف بعضه ببعض؛ والآخر أطيب رائحة، وهو قصير السنبل، سعدى الرائحة، وفيه كل ما وصفنا فى السورى، ومنه رومى — وهو الإقليطى — وهو على قول أكثرهم نبات شجرى يقتلع بأصوله =

الهنـد وبأرض التُّبّت كثيرا، وما كان يَرعى السُّنبلَ فإنّ المِسكَ المتكوّنَ منه يكونُ وَسَطا دون الصِّنف الأوّل . قال : وأدنى المِسك ما كان مَرعَى حيـوانِه حشيشةٌ يسمّى أصلُها: "المَرْوُ"(١)، ورائحة تلك الحشيشة كرائحة المِسك، إلا أنّ المِسكَ أقوى

= وتعمل منه حزم تملأ الكف ، وله ورق طويل لونه الى شقرة ما ، وزهر أصفر، وأصل مر، طيب الرائحة ؛ وهؤلاء ذكروا أن المستعمل منه أصله وساقه ، دون ورقه وزهره . وعلى قول أقلهم هو نبات شبيه بالثيل ؛ ومنه صنف آخر مرفوض ، وهو أبيض اللون ، ربما كانت له فى وسـطه ساق ؛ وأجوده السورى ، ثم الصنف القريب منـه . وسنبل الطيب هو المسمى باليونانية « ناردين » . وقال داود : السنبل يطلق على كل نحل رفيع خشن . ثم ذكر فى صفة السنبل الهنـدى أنه الى السواد ، طيب الرائحة ناعم الملمس ، صلب الأصول . ثم قال : ويدرك فى الخريف ؛ وتبقى قوته ثلاث سنين . وذكر فى صفة السنبل الرومى أنه نبت يشبه الهندى فى رائحته وأفعاله ، لكنه أضعف ؛ وسنبل الجبـل هو المشهور بسنبل الأسد اه ملخصا من التذكرة ج ٢ ص ٢٦ طبع بولاق .

(١) فى (أ) : «المرق» بالقاف ؛ وهو تحريف ، إذ لم نجـده فيما بين أيدينا من الكتب . وورد هذا اللفظ فى (ب) والحرف الأخير منه برسم الفاء ، إلا أنه غير منقوط . وقد أثبتناه هكذا بالواو نقلا عن (شرح الأدوية المفردة من قانون ابن سينا) للكازرونى . والمرو: ضرب من الرياحين . وقد ذكره صاحب (نهاية الأرب) ضمن أنواع الحبق — وهو الريحان — فى (باب ما يشم ولا يستقطر) انظر الجزء الحادى عشر صفحة ٢٤٩ الطبعة الأولى . وقد ذكر ابن البيطار للمروعدة أصناف : منها المرماحوز ، وهو أجودها وأكثرها دخولا فى الأدوية ؛ ومنهـا مرو أطوس ، ومرو أهان ، ومرو مريدان ، ومرو الهرم ، ومرو كلائل وهو أصغرها نباتا وأقلها دخولا فى الأدوية ؛ وكلها تتشابه فى الصورة قليلا ، إلا أن المرماحوز أشرفها وأنفعها ، ويرتفع عن الأرض شبرا وزيادة ؛ وساقه خشبية ، وعروقه نابتة متقاربة ، وهى قريبة من مقدار فروعه ، ويتفرع ورقه على تلك الساق بشىء يمتد منها الى الورقة ؛ وريح ورقه طيبة قليلا ، وطعمه مر ، وفيه أدنى بشاعة تخالط مرارته أول ما يخالط الفم ؛ ويبزر فى طرفه بزرا يلقط فى تموز كبزر الكمّان ؛ وفى ورقه أدنى تحديد فى رأسه ، منكسر الخضرة ، نحو السلق والآس . ومن المرو ثلاثة أصـناف ورقها مدوّر : أحدها ورقه كورق الخبازى إلا أن فيـه تشريفا ، وآخر أصغر منه ، وآخر ورقه كورق الكبر سواء المفردات ج ٤ ص ١٤٨ طبع بولاق .

وأذكى رائحة . قال محمدُ بنُ أحمدَ بنِ العبّاس المِسْكيّ[1] [2] : وقد ذكر بعضُ العرب أنّ دابّة المِسك ترعى شجرَ الكافور، واستدلّ على ذلك بقول الشاعر العُكْليّ[3] :

تكسو المَفارِقَ واللِّبّاتِ ذا أَرَجٍ * من قُصْبِ مُعْتلِفِ الكافورِ دَرّاجِ[4]

والقُصْب : المِعَى ؛ ومنه قولُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "رأيتُ عَمرو بنَ[5]

(١) كذا فى (ب) المكتوبة بخط المؤلف . والذى فى (ا) « أحمد بن محمد » ، وفيه تقديم وتأخير وقعا من الناسخ ، ويرجح ما أثبتنا وروده فى عدة مواضع من هذا السفر فى كلتا النسختين باسم « محمد » لا « أحمد » وكذلك فى (صبح الأعشى) فى الكلام على المسك والعود .

(٢) فى كلتا النسختين : « الحسكى » بالحاء ، وقد ورد ذلك فى عدة مواضع من هذا الباب والذى يليه ، إلا أنه مرة يكتب بالسين المهملة ومرة بالشين المعجمة ؛ ولعل فيهما تحريفا إذ لم نجد « الحسكى » ولا « الحشكى » فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى الأسماء المنسوبة على كثرتها واستيعابها (كأنساب السمعانى) (ولب اللباب) (ومشتبه النسبة) (وتبصير المنتبه) وغيرها ، كما أننا لم نجد ترجمته فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى طبقات الأطباء ولا فى غيرها من كتب التراجم ؛ ولعل محمد بن العباس هذا كان من العلماء المختصين بصناعة العطر وأعمال الطيب الذين لم يحفل العلماء بذكر تراجمهم فى الكتب . ويرجح ما أثبتنا ثلاثة أمور : أولها وروده فيما سبق هكذا فى ص ٤ س ١٢ من هذا السفر فى كلتا النسختين ، ثانيها ورود هذه النسبة فى كتب الأنساب وكتب اللغة ؛ ثالثها أن المؤلف بصدد الكلام فى المسك وغيره من أنواع الطيب ، فلفظ المسكى أقرب النسب الى العلماء المشتغلين بهذه الصناعة .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ؛ والذى وجدناه فيما راجعناه من الكتب أن قائل هذا البيت هو الراعى ، وهو نميرى لا عكلى . انظر (اللسان) مادة (قصب) و (الشعر والشعراء صفحة ٢٤٧ طبع أوربا) . وقال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) : إن هذا البيت مما أخذ على الراعى .

(٤) فى كلا الأصلين : «أراج» ؛ وهو تحريف ، إذ لم نجد من معانيه ما يناسب السياق ؛ والصواب ما أثبتنا نقلا عن (اللسان) مادة (قصب) و (الشعر والشعراء صفحة ٢٤٧ طبع أوربا) . والدرّاج : الذى يذهب ويجىء ، كما قاله ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) فى تفسير هذا اللفظ .

(٥) عمرو بن لحى هذا ، هو أول من بدّل دين إسماعيل عليه السلام ، ونصب الأوثان ، وأمر الناس بعبادتها . قال ابن هشام فى السيرة : حدّثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة الى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ؛ فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ؛ فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنما يقال له (هبل) ، فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لُحَىٍّ يجرّ قُصْبَه فى النار" . وقال محمدُ بنُ أحمد : هذا رأىُ بدوىّ، وليس برأيِ عالم يُعتمَد على نقلِه . وقال الحسين بنُ يزيدَ السِّيرافىُّ — وهو من أهل الخبرة ببرّ الصِّين وبحرِها، ومَسالِكِها ومَمالِكِها — : إنّ الأرض الّتى بها ظِباءُ المِسك الصِّينىّ والتُّبَّتىّ أرضٌ واحدة لا فرق بينهما ، وأهلُ الصِّين يَجمَعون من المِسك ما قَرُب منهم وكذلك أهلُ التُّبَّت . قال: وإنما فُضِّل المِسكُ التُّبَّتىُّ على المِسك الصِّينىّ لأمرين: أحدُهما أنّ ظِباءَ المِسك الّتى فى حدود التُّبَّت تَرتعِى سُنْبُلَ[1] الطِّيب ، وما يلى منها أرضَ الصِّين تَرتعِى سائرَ الحشائش ؛ والثانى أنّ أهلَ التُّبَّت يتركون النَّوافِج بحالها ؛ وأهلَ الصِّين ربّما يَغُشّون فيها ، ولسلوكهم بها فى البحر وما يَلحقها من الأنداء ؛ فأمّا إذا تَرَك أهلُ الصِّين المِسكَ فى نَوافِجِه من غير غِشٍّ ، وأحرِزَ فى البَرَانىّ، وحُمِل إلى أرض العرب ، فلا فرق بينه وبين التُّبَّتىّ فى الجُودة . قال وأجودُ المِسك كلِّه ما حكّته الظِّباء على أحجار الجبال ، وذلك أنّ المادّة الغليظةَ الدّمويّةَ اذا انصبّت إلى سُرَر الظِّباء اجتمعتْ[2] فيها كاجتماع الدم فيما يَعرِض من الدَّماميل ، فاذا أدرَكَ وأضجَرَ الظِّباءَ ، حكّت السُّرَرَ بالحجارة بحِدّةٍ وحُرقة فيَسيل ما فى السُّرَر على أطراف الحجارة ؛ فاذا خرج عنها جَفّت السُّرَر واندمَلَتْ وعادت المادّة[3] فاجتمعتْ فيها[4] ، فيَخرج أهلُ التُّبَّت فى طلب هذا الدم السائل ولهم به معرفة، فيلتقطونه ويجعلونه فى النَّوافِج، ويحملونه إلى ملوك خُراسان، وهو نهاية المِسك جُودةً وفضلا، إذ هو ممّا أدرَك على حيوانه ، فصار فضلُه على غيره من المِسك

(١) انظر الكلام على السنبل فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ من هذا السفر .

(٢) فى كلتا النسختين . «واجتمعت» ؛ والواو زيادة من الناسخ ؛ والصواب إسقاطها ، إذ الفعل بعدها جواب الشرط ، كما هو ظاهر .

(٣) لم ترد هذه الفاء فى كلتا النسختين ؛ وسياق العبارة يقتضيها .

(٤) فى كلتا النسختين : «فيه» بتذكير الضمير ؛ والصواب ما أثبتنا ، إذ الضمير يعود على السرر .

كفضل ما يُدرِك من الثّمار على أشجاره على ما يُقطَف قَبل بلوغه وإدراكه . قال : وغيرُ هذا من المِسك فإنّما[1] تصاد ظِباؤه بالشُّرُك وبالسِّهام، وربّما قُطِعت النّوافِج عن الظِّباء قبل إدراك المِسك فيها . قال : على أنّه إذا قُطِع عن ظِبائه كان كريهَ الرائحة مدّةً طويلة إلى أن يجفّ على طول الأيّام، فيستحيل مِسكا . قال : وظِباء المِسك كسائر الظِّباء المعروفةِ فى القَدْر واللّون ودقّة القوائم، وافتراق الأظلاف، وانتصاب القرون وانعطافِها، غير أنّ لكلّ واحد منها نابين رقيقين أبيضين، خارجين مِن فيه فى فَكِّه الأسفل، قائمَين فى وجه الظَّبْي كنابَى الخنزير، فى طول الفِتر أو دونَه، على هيئة ناب الفيل .

وقال أحمدُ بنُ أبى يعقوب : أفضل المِسك التُّبَّتىّ، ثم بعده [المِسك] الصُّغْدى، وبعد الصُّغْدىِّ المِسكُ الصِّينىّ، وأفضلُ الصِّينى ما يؤتَى به من خانقو[2]، وهى المدينةُ العظمَى التى هى مَرْفَأُ الصِّين التى تُرْسَى بها مَراكب تجار المسلمين، ثم يُحمَل فى البحر الى الزُّقاق[3]، فإذا قَرُب من بلد الأُبُلّة[4] ارتفعتْ

(١) هذه الفاء فى قوله : « فإنما » زائدة ؛ وقد أجاز الأخفش زيادتها فى الخبر مطلقا كما هنا ؛ وقيد بعضهم جواز زيادتها فى الخبر بكونه أمرا أو نهيا (مغنى اللبيب ج ١ ص ١٤١) .

(٢) قال فى (تقويم البلدان) : إن موضع (خانقو) على شرق (نهر حمدان) . وذكر أيضا أن الخنساء من بلاد الصين هى خانقو . ونقل عن بعض المسافرين أنها كانت فى هذا الزمان أعظم فرض الصين .

(٣) كذا فى كلا الأصلين والجزء السابع من المكتبة الجغرافية ص٣٦٥ طبع ليدن . والمراد بالزقاق هنا ما يسمى الآن (مضيق هرمز) الذى هو مدخل الخليج الفارسى، كما يؤيد ذلك ما ورد فى صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢١ وعبارته : «الى بحر فارس» مكان قوله هنا « الزقاق » وتسميته بالزقاق لضيقه . والزقاق الطريق الضيقة سواء أكانت نافذة أم غير نافذة . وليس المراد بحر الزقاق الذى كانت القدماء تطلقه على بوغاز (جبل طارق)، لاستحالة أن يكون ذلك طريق السفن من الصين إلى الأبلة بالعراق .

(٤) الأبلة : بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة، واليها ينسب (نهر الأبلة)؛ وهو نهر مخرجه من دجلة من تحت (نهر معقل) بأربعة فراسخ؛ (والأبلة) بليدة عند فوهته .

رائحتُـه ، فلا يمكن التجارَ أن يسـتِرُوه من العَشّارين[(١)] ، فإذا خرج من المركَب جادت رائحتُـه ، وذهبتْ عنه رائحـةُ البحر . [ثم المِسـكُ[(٢)] الهندىّ ، وهو ما يقع من التُّبّت الى الهند ، ثم يُحمَل إلى الدَّيْبُل ، ثم يجهَّز فى البحر] ، وهو دون الأوّل ؛ وبعد الهندىّ من المسك القِنْبارى[(٣)] ، وهو مِسكٌ جيّد ، إلا أنّه دون التُّبّتىّ فى القيمة والجَوهر واللّون والرائحة ، يؤتَى به من بلد يقال له : قنبـار[(٤)] بين الصِّـين[(٥)] والتُّبّت ؛ وربّمـا غالَطوا به فنسبوه إلى التُّبّت . قال : ويتلوه فى الجُودة المسك الطُّغُزْغُزِىّ[(٦)] ، وهو مِسكٌ رزينٌ يَضرب إلى السواد ، يؤتَى به من أرض التُّرك الطُّغُزْغُز تجلبـه التجار فيغالِطون به ، إلا أنّه ليس له جوهر ولا لون ؛ وهو بطىء السَّـحق لا يَسـلم من الخشونة ؛ ويتلوه فى الجُودة المِسك القَصارىّ[(٧)] ، يؤتَى به من بلد يقال لهـا[(٧)] قَصار[(٨)] ، بين الهند والصِّين . قال : وقد يُلحَق بالصِّينى ، إلاّ أنّه دونه فى القيمة

(١) فى كلا الأصلين : «العطارين» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن الجزء السابع من المكتبة الجغرافية ص ٣٦٥ طبع ليدن .

(٢) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (أ) وقد أثبتناه عن (ب) .

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ فى «ب» المنسوب خطها الى المؤلف ضبطا بالقلم ؛ ولم نجد نصا على ضبطه فيما راجعناه من الكتب الأخرى .

(٤) لم نقف على ضبط هذا اللفظ فيما راجعناه من الكتب ؛ وقد ورد فى (صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٩) نقلا عن (تقويم البلدان) ما يفيد أن كثيرا من بلاد الصين ومواضعها وأنهارها مجهولة الضبط .

(٥) فى كلا الأصلين «من» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن (صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢١) فى الكلام على المسك ؛ وهو الموافق لسياق العبارة .

(٦) يقال فيه : «الطغزغز» بالطاء والمعجمتين كما هنا ، والتغزغز بالتاء ، والطغرغر بالطاء والمهملتين والتغرغر بالتاء ؛ وهم جيـل من الترك يسكنون فى أرض واسـعة على حدود الصين ، وهم أصحاب خيام كأعراب البادية .

(٧) فى (المصباح المنير) أن البلد يذكر ويؤنث ، ولهذا ساغ تأنيث الضمير العائد على البلد فى هذا اللفظ .

(٨) كذا ضبط هذا اللفظ فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف بفتح القاف ضبطا بالقلم ؛ ولم نجد نصا على ضبطه فيما راجعناه من الكتب الكثيرة .

والجَوهر والرائحة . قال : والمسك الجرجيرى[1]، وهو مسكٌ يشاكل التُّبَّتىّ ويشبهه وهو أصفر حسن ، زَعِر[2] الرائحة . وبعده المسك العِصْمارى[3]، وهو أضعف أنواع المسك كلّها ، وأدناها قيمة ، يَخْرج من النافِجَة[4] التى زنتُها أوقيّةٌ زنةُ درهم واحد من المسك . ثم المسك الجبلىّ ، وهو ما يؤتَى به من ناحية أرض السِّند من أرض المُولتان[5]، وهو كبيرُ النَّوافِج، حَسَنُ اللون، إلّا أنّه ضعيف الرائحة . وقال : أجوَدُ المسك فى الرائحة والمَنظَر ما كان تُفّاحيّا، تشبه رائحتُه رائحةَ التّفّاح اللُّبْنانىّ، وكان لونُه تَغلِب عليه الصُّفرة ، وكان بين الجِلال والدِّقاق وسَطا ؛ ثم الذى يليه وهو أشدُّ سوادا منه، إلّا أنّه يقارب فى الرائحة والمَنظَر ، وليس مِثله؛ ثم الذى هو

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين والقانون ج ١ ص ٣٦٠ طبع مصر . ويستفاد مما ذكره المحبي فى كتاب (ما يعوّل عليه) المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٨ أدب م . والثعالبي فى كتاب (المضاف والمنسوب صفحة ٤٣٣ طبع مطبعة الظاهر) أنه بلد من بلاد الترك ، إلا أن هذا الأسم قد ورد فى كلا الكتابين بخاءين معجمتين ؛ ولم نقف على ضبطه فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى أسماء البلاد ، كما أننا لم نجده فيما بين أيدينا من كتب اللغة .

(٢) زعر الرائحة ، أى حادّها ؛ واستعماله فى هذا المعنى استعمال جار على سبيل الاستعارة ، إذ الزعارة فى الأصل : الشراسة وسوء الخلق ، وهو بتشديد الراء ، وتخفف .

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ فى الجزء السابع من (المكتبة الجغرافية ص ٣٦٦ طبع ليدن) ضبطا بالقلم .

(٤) تقدم الكلام على معنى النافجة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٣ من هذا السفر، فارجع اليها .

(٥) فى كلا الأصلين « المولیان » بالياء ؛ وهو تصحيف . والمولتان — ويقال فيه : «ملتان» بغير واو، وأكثر مايكتب بها — : بلد من بلاد الهند على سمت غزنة — وتسمى (فرج بيت الذهب) . وفى (نزهة المشتاق) : « بيت فرخ الذهب » وذكر مؤلفه السبب فى تسميتها بهذا الأسم ، وهو أن محمد ابن يوسف أخا الحجاج أصاب بها ذهبا كثيرا ، وكله فى بيت يسمى (فرخ الذهب) . وذكر فى (تقويم البلدان) أن المولتان من السند ، وأن أهل تلك البلاد يقولون : « ملطان » بالطاء مكان التاء . وقال المهلبي فى العزيزى : أعمال الملتان واسعة ، من الغرب إلى حدّ مكران ، ومن الجنوب إلى حدّ المنصورة . ومن (المولتان) إلى غزنة مائة وستون فرسخا .

أشدُّ سوادا منه، وهو أدناه قدرا وقيمة . وقال : بلغنى أنّ العلماء بالمِسك من تجار أهل الهند يذكرون أنّ المِسك ثلاثةُ أنواع ، لا يُخرِجونه عن ذلك، فالنوع الأوّل — وهو أفضلُه وأجوَدُه — المِسكُ الأصلىُّ الخِلقة المعروف؛ ونوعان آخران متّخَذان: أحدهما يُتخَذ من أخلاطٍ يابسةٍ تكون عندهم من نباتِ أرضِهم، وليس فيه من المِسك الأصلىِّ شىء، وهم يأمرون باستعماله وابتياعِه من مواضع أصوله وما يليها من البلاد ومن الّذين يعرفونه، وهم أهل التُّبَّت ؛ والآخَر يتّخذونه وينهَون عنه وعن ابتياعه والمتَّجَرِ فيه، وذلك أنّه يتغيّر ويَفسُد إذا أقام . قال : ونوع آخَرُ، وهو مِسكٌ يُجلَبُ من قَشْمِير[1] الداخلة وما حولها ، وليس بجيّد ؛ وهو يقارب المِسكَ المصنوعَ المنهىَّ عنه، ويكون هو أيضا متّخَذا وغيرَ متّخَذ ، وهو على نصف القيمة من المِسك الجيّد . قال : والمِسك فى طبعه حادٌّ لطيفٌ غوّاص[2]، جيّدٌ لوجع الفؤاد ، مقوٍّ للقلب ، قاطعٌ للدّم إذا ضُمِد به الجُرح؛ ويدخل فى أكحال

(١) فى كلتا النسختين «قشمين» بالنون؛ وهو تحريف إذ لم نجده فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى أسماء البلاد على كثرتها . وقشمير، ضبطها ياقوت بكسر القاف . وضبطها صاحب التاج فى المستدرك بفتحها؛ ولهذا ضبطناه بالوجهين — ويقال بالكاف أيضا — قال ياقوت : هى مدينة متوسطة لبلاد الهند . وقال صاحب التاج فى مادة «قشمر» : (قشمير)، كورة ببلاد الهند؛ وبها نشأ برمك أبو خالد . وقال فى مادة «كشمر» : (كشمير)، ناحية متسعة من الهند، وقصبتها هو هذا البلد، وتنسب اليها الثياب الجيدة . وذكر الإدريسى فى (نزهة المشتاق) قشمير الداخلة هذه فقال : إن بينها وبين القنوج نحو سبع مراحل وهى مدينة كبيرة حسنة، كثيرة التجارات . قال : وهى على نهر كبير يمر نحو (نهر ملى) . انظر ورقة ١٢٥ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٠٤ جغرافيا .

(٢) يريد بالغواص أنه نفاذ الى جميع أعضاء البدن، كما يفهم من عبارة القيصونى فى (قاموس الأطباء)، فقد قال فى المسك : إنه يوصل قوى الأدوية إلى جميع أعضاء البدن .

العين وفى كثير من ٱلمَعاجين الكبار ؛ واذا جُعِل بدلا من ٱلجُنْدَبِيدَسْتَر[1] فإنّه أقرَبُ الأشياء إليه فى طبعه وفعلِه . وقال محمدُ بنُ أحمد : فأمّا المِسك المنسوبُ الى دارِينَ ، فهو من نوع المسك الهندىّ ؛ تجلبه التجار الى دارِينَ : جزيرةٌ[2] بالبحرين تُرْفَأُ اليها سُفُن تجّار ٱلهند ، ويُحمَل منها إلى ٱلمواضع ؛ وليست دارِينُ بمعدِنٍ للمِسْك .

(١) الجندبيدستر ، يقال فيه جندبادستر بالألف بعد الباء الموحدة مكان الياء ؛ وباليونانية اكسينانوس ؛ وهو خصية حيوان بحرى يعيش فى البر والبحر؛ وأكثر ما يكون هذا الحيوان فى النهر مع الحيتان والتماسيح ؛ ويتغذى بالسمك ؛ وهو على صورة الكلب ، لكنه أصغر ، غزير الشعر ، أسود بصاص (أى براق) . وعبارة المنهج : جندبادستر ، هو خصية كلب الماء . قال : وفى نسخة أخرى : هو خصية حيوان يعرف (بالسمور) ؛ ويسمى عند الترك (قندس) هذا ما قاله القدماء فيه . وأما ما ذكره أرباب العلم الحديث ، فقد قال صاحب المادة الطبية ج ٣ ص ٧٧٨ الجندبادستر بالافرنجية واللاتينية (قسطوريون) ، وهو مادة حيوانية منفرزة من غدد تحت جلد بطن الحيوان المسمى قسطور ، بين أصل الذنب والجزء الخلفى من الفخذين ... ... وقامة هذا الحيوان كقامة كلب الصيد ؛ ورأسه مستدير وأذناه قصيرتان ، وفكاه خاليان من الأنياب ، وفى كل منهما سنان قاطعتان ... ... ويجثون عن هذا الحيوان بشراهة لأجل فروته الجميلة المستعملة فى صناعة اللبوديين . ثم قال : ويظهر أنه يعيش بالمواد النباتية دون غيرها ، فيتغذى من قشور الأشجار ؛ ويحمل بين الشرج والأعضاء التناسلية جيبين كبيرين غدديين ، ينفتحان فى القلفة ، ويفرزان المادة المسماة بالجندبادستر ، وهما غير الخصيتين خلاف ما كانوا يظنون سابقا الخ . وانظر الكلام على هذا الحيوان فى الجزء العاشر من نهاية الأرب أيضا صفحة ٣١٨ طبع دار الكتب .

(٢) عبارة ياقوت : «فرضة بالبحرين» ؛ وقد فتحت فى أيام أبى بكر — رضى الله تعالى عنه — فى سنة آثنتى عشرة ، والنسبة اليها دارىّ .

البابُ الثانى من القسم الخامس من الفنّ الرابع
فى العنبر[1] وأنواعِه ومعادنِه

قال محمد بنُ أحمدَ التَّيمىُّ : حدَّثنى أبى عن أبيه عن أحمدَ بنِ أبى يعقوبَ أنه قال : العنبر[1] أنواع كثيرة ، وأصناف مختلفة ، ومعادنُه متباينة ؛ وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره ؛ فأجودُ أنواعه وأرفعُه وأفضلُه وأحسنُه لونا وأصفاه جوهرا وأغلاه قيمة ، العنبرُ الشِّحْرىّ ، وهو ما قذفه بحرُ الهند إلى ساحل الشِّحْر من أرض اليَمَن ؛ وزعموا أنّه يَخرج من البحر فى خِلقة البعير أو[2] الصخرة الكبيرة . قال التَّيمىّ : والأصل الصحيحُ فيه أنه يَنْبُع من صخورٍ فى قرار الأرض ومن عيون ، ويَجتمع فى قرار البحر ؛ فاذا تَكاثف وثَقُل جذَبتْه[3] طبيعةُ الدَّهانة[4] التى فيه ، واضطرّته إلى الانقطاع من المواضع التى يتعلّق بها عند خروجه من الأرض ، وطلعتْ به إلى وجه الماء

(١) فى عمدة المحتاج ج ٣ ص ٧٨٥ أن العنبر يسمى باللسان الافرنجى (أنبر جريس) ، وهو مأخوذ من اللغة العربية ؛ وإنما يقلبون العين همزة ؛ ومعنى « جريس » : سنجابى ؛ ويسمى باللاتينية « أنبروم » ، وباللسان الطبيعى « أنبر أجريسيا » .

(٢) الذى فى كلا الأصلين : «والصخرة» بالواو ؛ والسياق يقتضى العطف « بأو » كما أثبتنا نقلا عن (المكتبة الجغرافية ج ٧ ص ٣٦٦ طبع ليدن) .

(٣) فى (ب) : « خدمته » ؛ وهو تحريف .

(٤) لم نجد الدهانة فيما راجعناه من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا ، كما أن القياس لا يجيزه ، فإن فعالة بفتح الفاء إنما تكون مصدرا (لفعل) بفتح الفاء وضم العين ؛ ولم نجد فى كتب اللغة أنه يقال (دهن) بفتح الدال وضم الهاء ، أى صار دهنيا بطبعه حتى يقال منه «دهانة» ؛ والذى وجدناه أن الدهانة هى قلة اللبن فى الناقة ، ولا يخفى عدم إرادته فى هذا الموضع .

فطفا على وجه الماء وهو جارٍ ذائب؛ ومنه ما تقطّعه الأمواج فتُخرِجه الى السواحل قِطعا كبارا وصغارا . قال : وحدّثنى أبى عن أبيه عن أحمدَ بنِ أبى يعقوبَ قال : تقطّعه الرِّيح وشدّةُ الموج فترمى به إلى السواحل وهو يفور، لا يدنو منه شىءٌ لشدّة حرّه وفَوَرانِه؛ فاذا أقام أيّاما وضرَبه الهواء جَمَد، فيجمعه الناسُ من السواحل المتّصلةِ بمعادنه . قال : وربّما أتت السمكةُ العظيمةُ التى يقال لها : «البال»(١) فابتلعتْ من ذلك العنبر الصافى وهو يفور، فلا يستقرّ فى جوفها حتى تموت وتطفو، ويطرحها البحرُ إلى الساحل؛ فيُشَقّ جوفُها، ويُستخرَج ما فيه من العنبر، وهو العنبر السَّمَكىّ

(١) فى (أ) : "الكيال"؛ وفى «ب» (وصبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٢) : «اكيال»؛ وهو تحريف فى هذه المصادر الثلاثة، اذ لم نجده فيما راجعناه من الكتب بالمعنى المذكور هنا؛ والصواب ما أثبتنا نقلا عما كتبه مصحح المكتبة الجغرافية ج ٧ ص ٣٦٦ فقد ورد فيها هذا اللفظ موافقا لما فى الأصول التى لدينا، ثم كتبه المصحح (البال) كما أثبتنا . والبال : الحوت العظيم من حيتان البحر وهو اسم غير عربى، ويدعى جمل البحر؛ وهو معرّب «وال» كما فى العباب . أما ما ذكره أرباب العلم الحديث فى هذا الحيوان، فقد ذكر صاحب (المادة الطبية المعروفة بعمدة المحتاج ج ٤ ص ٨٩٦) أن اسم هذا الحيوان : قشلوت بفتح القاف والشين، وباللسان الطبيعى : قسيترمكروسيفالوم أى القيطس الكبير الرأس، وقد يسمى بالة وبالا . ثم نقل عن القزوينى ما يفيد كبر هذا الحيوان وعظم جثته، وأن الزنج يصيدون هذه السمكة بكلاليب تجذبها الى الساحل، ويشقون بطنها، ويستخرجون العنبر منها . ثم قال فى الصفات الحيوانية للقيطس، (وهو البال المذكور) : إنه من قسم الأسماك الكبيرة ولا ينقص طول جسمه عن ستين بل ثمانين قدما؛ ويوجد هذا النوع فى جميع البحار، والصغار منه تألف الأقسام الاعتدالية من الأوقيانوس الكبير ... وأما الكبار من الأنواع فلا تقرب هذه المنطقة؛ وهذا الحيوان هو المجهز للعنبر الذى هو فضلة إفراز مرضى منه، يوجد سابحا كلا على سطح الماء فى شبه مرقة برتقالية قاتمة، بل حمراء، كما توجد تلك المرقة أيضا فى باطن الحيوان؛ ويوجد فى ذلك العنبر فكوك من الحيوانات التى اسمها سيفالوبود، أى التى أرجلها فى رأسها، وذلك يفيد أنها من أغذية هذا الحيوان اه ملخصا .

ويسمّى أيضا : ٱلمبلوعَ . قال : وربّما طَرَح البحرُ قِطعةَ[(١)] العنبر فيبصرها طير أسوَدُ شبيهٌ بالخُطّاف ، فيأتى اليها ويرفرف بجناحيه ، فإذا دنا منها وسقط عليها تعلّقتْ مَخاليبُه ومِنقارُه فيها فيموت ويَبلَى ، ويَبقى مِنقارُه ومَخاليبُه[(٢)] فى العنبر ، وهو العنبر المَناقيرىّ[(٣)] . قال التّميمىّ : وزَعَم ٱلحسينُ بنُ يزيدَ السِّيرافىُّ أنّ الذى يقع من العنبر الى سواحل الشِّحْر شىءٌ تَقذِفه الأمواج إليها من بحر الهند ، وأنّ أجوَدَه وأفضلَه ما يقع الى بحر البَرْبَر وحدودِ بلاد الزِّنْج وما والاها ، وهو[(٤)] الأبيضُ المدوّر ، والأزرقُ النادر . قال : ولأهل هذه النواحى نُجُبٌ يركبونها مؤدَّبةٌ يركبون[(٥)] عليها فى ليالى القمر على سواحلهم ، وهذه النُّجُب تَعرِف العنبر ، وربّما نام الراكب عليها أو غَفَل ، فإذا رأى النجيبُ العنبرَ على الساحل بَرَك بصاحبه ، فينزل ويأخذه . قال : ومنه ما يوجد فوق البحر طافيا فى عِظَم

(١) فى كلتا النسختين وصبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٢ : « القطعة العنبر » بزيادة « أل » فى كلتا الكلمتين ؛ والقواعد تقتضى حذفها من المضاف كما أثبتنا ، اذ الإضافة هنا معنوية ، وشرطها تجريد المضاف من التعريف .

(٢) فى عمدة المحتاج ج ٣ ص ٧٨٦ ما يفيد خطأ هذا الزعم المذكور ؛ فقد ورد فيه أن الذى يرى فى هذا العنبر انما هى فكوك حيوانات بحرية صغيرة ، وليست أظفار طيور تنزل عليه فيجذبها كما ذكره المؤلف هنا وغيره من مؤلفى العرب . ونص عبارة عمدة المحتاج : كما كانوا يظنون (أى العرب) فى فكوك الحيوانات البحرية الصغيرة التى توجد فيه (أى فى العنبر) أنها أظفار طيور تنزل عليه وهو سابح أو على الشاطئ فيجذبها ؛ ولا أصل لذلك اهـ وقد سبق أن نقلنا فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٧ من هذا السفر عبارة أخرى من كتاب عمدة المحتاج أيضا تفيد هذا المعنى ، فانظرها .

(٣) هذه النسبة على غير القياس ، إذ القياس فى النسبة إلى الجمع أن ينسب الى الواحد .

(٤) فى كلتا النسختين « والأبيض » بسقوط كلمة « هو » ؛ والصواب إثباتها ، كما فى كتاب (أخبار الهند والصين للسيرافى) نفسه المنقول عنه هذا الكلام . انظر (سلسلة التواريخ صفحة ١٣٨ طبع أوربا) .

(٥) فى « ب » ، « يسيرون » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

الثَّوْر . قال : وبعد العنبر الشِّحْرِيِّ العنبرُ الزَّنْجِيّ ، وهو الذى يؤتَى به من بلاد الزِّنْج إلى عَدَن ، وهو عنبرٌ أبيض ؛ وبعده العنبرُ الشَّلاهِطِيّ[1] ، وهو يتفاضل ، وأجودُ الشَّلاهِطِيِّ الأزرقُ الدَّسِمُ الكثيرُ الدُّهن ، وهو الذى يُستعمَل فى الغَوالى[2] . وبعد الشَّلاهِطِيِّ العنبرُ القاقُلِّيّ ، وهو أشهب[3] ، جيِّدُ الرِّيح ، حَسَنُ المَنظَر ، خفيف ، وفيه يُبْس يسير ، وهو دون الشَّلاهِطِيّ لا يَصلُح للغَوالى ولا للتَّغْلِيَة[4] والتَّطهير[5] إلّا

(١) فى كلا الأصلين (وصبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٣) : «السلاهطى» بالسين المهملة ؛ ولم نجد نصا على أنها بالسين فيما راجعناه من المظان ؛ وقد أثبتناه بالشين المعجمة تبعا لياقوت ، فقد ذكره فى باب الشين المعجمة ولم ينبه على أن السين المهملة لغة فيه . وقال : الشلاهط بحر عظيم بعد بحر (هركند) مشرقا فيه جزيرة (سيلان) . وقال الكازرونى (فى شرح الأدوية المفردة من قانون ابن سينا) : إن شلاهط جزائر فى البحر . وقد ورد هذا الاسم بالشين المعجمة أيضا فى (التنبيه والإشراف ص ٦٨ طبع ليدن) ، وكتبه ناشره فى الحواشى بالسين المهملة . والذى ذكره (كون رادميلر) فى تعليقاته على خرائط الإدريسى أن شلاهط هذه هى المعروفة الآن (بجزيرة بلاوان) ، وهى إحدى جزر الفلبين .

(٢) الغوالى : جمع غالية ؛ وهى ضرب من الطيب ؛ أول من سماه بذلك سليمان بن عبد الملك ؛ وسمى هذا النوع بذلك لأنه أخلاط تغلى على النار بعضها مع بعض . قال عبد القادر البغدادى : «الذى سماه بذلك معاوية ، وذلك أن عبد الله بن جعفر دخل عليه ورائحة الطيب تفوح منه ؛ فقال : ما طيبك يا عبد الله ؟ فقال : مسك وعنبر جمع بينهما دهن بان ؛ فقال معاوية : غالية ، أى ذات ثمن غال . وفى (المادة الطبية ج ٣ ص ٣٤٥) أنه يقال إن أول من ابتدع الغوالى جالينوس لفيلحوس الملكة وقد سألته عما يصلح أبدان النساء وأرحامهن من نحو البرودة ؛ ثم توسع فيها فصنعت لبعض الأمراض كالفالج واللقوة وعرق النسا والخدر عند كراهة تعاطى الأدوية من الباطن . وسيأتى الكلام فى هذا الجزء على الغوالى وأصنافها وكيفية عملها فى الباب السابع من القسم الخامس من الفن الرابع انظر صفحة ٥٢

(٣) فى ب « أسهب » بالمهملة ؛ وهو تصحيف .

(٤) فى كلتا النسختين : « للتعلية » بالعين المهملة ؛ وهو تصحيف . والتغلية : التطيب بالغالية ؛ يقال : « تغلى » و « تغلل » و « تغلغل » و « اغتل » ، كلها بالمعنى السابق .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين والمكتبة الجغرافية ج ٧ ص ٣٦٧ طبع ليدن ، ولم نتبين للتطهير معنى يناسب السياق هنا ؛ فلعل صوابه : «والتطييب» إذ هو المناسب لقوله قبل : «للتغلية» .

عن ضرورة؛ وهو صالح للذّرائر[1] والمُكَلَّسات[2]؛ ويؤتَى بهذا العنبر من بحر قاقُلَّة إلى عَدَن؛ وبعد القاقُلّى العنبرُ الهندىّ، يؤتَى به من سواحِل الهنـد الداخلة، فيُحمَل إلى البَصْرة وغيرِها؛ وبعده الزَّنْجِىّ، يؤتَى به من ساحل الزَّنْج؛ وهو شبيه بالهندىّ ويقاربه. هكذا ذَكَر التّيمىُّ فى (جيب العروس)، فإنّه يَجعل الزَّنْجىَّ بعد الشَّحْرىّ وذَكر الزَّنْجىَّ أيضا بعد الهندىّ. قال: وعنبر يؤتَى به من الهند يسمَّى الكرك[3] بالوس ٥ وينسَب إلى قوم من الهنـد يجلبونه، يُعرَفون بالكرك[3] بالوس، يأتون به الى قرب عُمان، يشتريه منهم أصحابُ المراكب. قال: وأمّا العنبر المَغرِبىّ، فإنّه دون هذه الأنواع كلِّها، يؤتَى به من بحـر الأندلس، فتحمله التجّار إلى مصر؛ وهو شبيه فى لونه بالعنبر الشَّحْرىّ، وقد يغالَط به فيه. قال التّيمىّ: وأفضلُ العنبر وأجوَدُه ما جَمَع قوّةَ رائحةٍ وذَكاءً بغير زَعارَة[4]. وقال أحمـد بن أبى يعقوب: قال لى جماعةٌ ١٠ من أهل العلم بالعنبر: إنه بجبال ثابتةٍ فى قرار البحر، مختلفةِ الألوان، تَقتلعه الرياح وشدّةُ اضطراب البحر فى الأشتية الشديدة، فلذلك لا يكاد يَخرج فى الصيف. قال: وألوانُ العنبر مختلفـة، منها الأبيض، وهو الأشهب؛ ومنهـا الأزرق، والرّمادىّ

(١) الذرائر: جمع ذريرة، وهى نوع من الطيب يجمع من أخلاط، وسميت بذلك لأنهـا تذرّ على البدن أو الثوب. ١٥

(٢) المكلسات: من التكليس، وهو إذابة الأجسام حتى تصير كالكلس (مستدرك التاج): والكلس بكسر فسكون: الصاروج، أى النورة وأخلاطها. وقال فى (مفاتيح العـلوم) ص ٢٦٥ طبع أوربا: التكليس أن يجعل جسد فى كيزان مطينة، ويجعل فى النار حتى يصير مثل الدقيق.

(٣) كذا ورد هـذا اللفظ فى كلتا النسختين وصبح الأعشى ج ٢ صفحة ١٢٤ والمكتبة الجغرافية ج ٧ ص ٣٦٧ طبع ليدن؛ ولم نجد ضبطه فيما راجعناه من الكتب. ٢٠

(٤) يريد بالزعارة هنا: حدة الرائحة؛ واستعماله فى هذا المعنى على سبيل الاستعارة، إذ الزعارة فى الأصل: الشراسة وسوء الخلق.

والحِرارىّ، وهو الأبرش؛ والصّفائح، وهو الأصفر والأحمر، وهما أدنى العنبر قَدْرا؛ [والله أعلم][1].

ومن العنبر صِنفٌ يسمَّى المَنْد[2]، ويوجد على سواحل من البحر — قال التَّميمىّ: أخبرَنى جماعةٌ من أهل المعرفة بالعِطْر وأصنافِه وأنسابِه أنّ دابّةً تخرج من البحر فترمِى به من دُبُرِها، وأنّ تلك الدابّةَ فى صورة البقر الوحشىّ، فيؤخذ وهو ليّن يمتدّ، فما كان منه عَذْبَ الرائحة حَسَنَ الجوهر، فهو أفضلُه وأجوَدُه. والمَنْد أصناف، أجوَدُها الشَّحْرىّ وهو أسوَد، فيه صُفْرةٌ تَخضِب اليدَ إذا لُمِس؛ ورائحتُه كرائحة العنبر اليابس، إلّا أنّه لا بقاء له على النار؛ ويُستعمَل فى الغَوالى[3] اذا عَزّ العنبرُ الشّلاهِطىّ[4]؛ ومن المَنْد الزِّنْجىّ، وهو نظيرُ الشِّحْرىّ فى المَنظَر، ودونه فى الرائحة؛ وهو أسوَدُ بغير صُفرة؛ ومنه الخَمْرىّ، وهو يَخضِب اليدَ وأصولَ الشَّعر خِضابا جيّدا، ولا ينفع فى الطِّيب؛ ومنه السَّمَكىّ، وهو المبلوعُ كما قدّمنا ذِكْرَه، وهو فى لونه شبيهٌ بالقار، وهو ردىءٌ فى الطِّيب، للسُّهوكة[5] التى يكتسبها من السَّمَك[6]. وقال

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى «ب».

(٢) كذا فى (ب) المنسوب خطها الى المؤلف وكتاب (ما لا يسع الطبيب جهله) و(المعجم الفارسى الانجليزى) تأليف استانجاس. والذى فى (المفردات) و(القانون) و(شرح الأدوية المفردة من القانون): «المندة» بزيادة الهاء. والذى فى (أ) وصبح الأعشى ج٢ ص ١٢٤ «الند» بغير ميم؛ وهو تحريف.

(٣) انظر الكلام على الغوالى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٩ من هذا السفر.

(٤) قد سبق الكلام على شلاهط المنسوب اليها هذا الصنف من العنبر فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٩ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) لم نجد السهوكة بالمعنى المراد هنا، وهو ريح السمك فيما راجعناه من كتب اللغة؛ والذى وجدناه بهذا المعنى «السهك» بالتحريك، وقد ورد فى (أقرب الموارد) وحده أن السهوكة ريح كريهة ممن عرق وليس هذا مرادا هنا، كما لا يخفى.

(٦) فى (أ): «من المسك»؛ وهو تحريف.

التَّميمىّ: طبعُ العنبر حارّ، وفيه شىءٌ من يُبْس؛ وهو مقوٍّ للقلب، مُذَكٍّ للحواسّ محلِّلٌ للرّطوبات، نافعٌ للشيوخ؛ وقد تُضمَد به المَفاصل المنصبُّ اليها الرُّطوبات فتَنتفع به نفعا جيّدا، ويقوّيها؛ ويُستعمَل فى الجُوارِشنات(١) وكبار المَعاجين وفى المَعاجين المقوّية للمعدة والقلب؛ ويُسعَط(٢) به فيحلِّل عللَ الدِّماغ. قال: وقد تُصطَنع منه شَمّامات فيشُمُّها مَن بهم اللَّقْوة(٣) والفالج، فينتفعون بروائحها. ٥

(١) الجوارشنات بالنون، هى الجوارشات بحذفها؛ وقد ضبط هذا اللفظ بضم الجيم ضبطا بالعبارة فى (الشذور الذهبية) و(كشاف اصطلاحات الفنون). وضبط بفتحها فى (المعجم الفارسى الانجليزى) تأليف استانجاس، ولهذا ضبطناه بالوجهين. وقد ذكر داود أن الجوارش بالفارسية معناه: المسخن الملطف. قال شارح الأسباب فى أقرباذينه: هى لغة قديمة، والجديد عندهم المقطع للأخلاط. ثم قال: وسألت خبراء الفرس فأنكروا ذلك. وقال: والجوارشات هنا عبارة عن الدواء الذى لم يحكم سحقه ولم يطرح على النار بشرط تقطيعه رقاقا الخ (التذكرة ج ١ ص ١٦٠ طبع بولاق). وفى (الشذور الذهبية) أنه الهاضم للطعام؛ وكذلك فى (كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٣٢٠ طبع كلكتة). ١٠

(٢) تعدية «سعط» بالباء كما هنا: استعمال شائع فى كتب الأطباء؛ ولم يذكره اللغويون؛ فقد ورد فى كتب اللغة ما يفيد أن هذا الفعل يتعدّى بنفسه لا بالحرف، فيقال: «سعطه الدواء»، «وأسعطه إياه». وقد سبق التنبيه على ذلك فى عدة مواضع من السفر الحادى عشر من هذا الكتاب. ١٥

(٣) اللقوة: داء فى الوجه ينجذب له شق منه الى جهة غير طبيعية، فتتغير سحنته، وتزول جودة التقاء الشفتين والجفنين فى شق، وتخرج النفخة والبزقة من جانب؛ وسببها إما استرخاء أو تشنج لعضل الأجفان والوجه؛ ويقال منه «لقى فلان» بضم اللام وكسر القاف مبنيا للمجهول فهو ملقو بتشديد الواو. وقال الأوربيون فى تفسير هذه العلة: هى اعوجاج الفم سواء أكان من نفسه أم بسبب تشنج كما فى الشذور الذهبية. ٢٠

الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الرابع
فى العود وأنواعه ومعادنه وأصنافه

قال محمدُ بنُ أحمدَ التَّميمىّ: أخبَرَنى أبِى عن أبيه عن جماعةٍ من أهل العلم والمعرفة بالعُود أنّه شجرٌ عظام بمواضعَ من أرض الهند؛ وهى معادنُ له، وأنّ منه ما يُجلَب من أرض (قِشْمِير) الداخلة، [و](١) من أرضِ (سَرَنْدِيب) ومن (قَمَارِ)(٢) وما اتّصلَ بتلك النواحى؛ وذكروا أنّه لا تصير له رائحةٌ إلّا بعد أن يَعتُق و يُبخَر ويُقشَر، فاذا نُفِىَ عنه قشرُه وجُفِّف حُمِل(٣) إلى كلّ ناحية(٤). قال: وأخبَرَنى بعضُ العلماء به أنه يكون من قلب الشجر، وأنّه ليس كلُّ ما فى الشجرة عُودا، وأنّه بمنزلة قلب شجرةِ الآبَنُوس(٥)

(١) هذه الواو ساقطة من كلتا النسختين وصبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٥؛ والسياق يقتضى إثباتها إذ بدونها تفيد العبارة أن قشمير من أرض سرنديب، وليس كذلك، فبينهما بعد عظيم كما هو معروف فى علم تقويم البلدان. أما سرنديب، فهى جزيرة عظيمة فى بحر هركند، بأقصى بلاد الهند؛ طولها ثمانون فرسخا فى مثلها (ياقوت). وذكر صاحب تقويم البلدان ص ٣٧٥ طبع أوربا: أنها يقال لها جزيرة سنكاديب أيضا. ثم قال: وكأنه باللسان الهندى.

(٢) «قار» ضبط فى القاموس وشرحه بفتح القاف. وقال ياقوت: انه يروى بالكسر أيضا؛ ولهذا ضبطناه بالوجهين. وفى تقويم البلدان أنها جزيرة غربى جزيرة الصنف؛ وكلتاهما ينسب اليها العود.

(٣) فى كلتا النسختين: «وحمل»؛ والواو زيادة من الناسخ، إذ لايستقيم بها الكلام، كما هو ظاهر وانظر صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٥.

(٤) فى كلتا النسختين: «من»؛ وهو تبديل من الناسخ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا نقلا عن صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٥.

(٥) ضبط هذا اللفظ فى القاموس واللسان مادة «سسم»: بكسر الباء فى الأوّل وفتحها فى الثانى ضبطا بالقلم فى كلا الكتابين. وضبط فى مادة «شيز» بفتح الباء ضبطا بالقلم فى كلا الكتابين أيضا وكذلك فى معجم أسماء النبات ص ٧٠.

والعُنّاب والزيتون والأنواع التى داخلها من جوهر الخشب فيه دَهانة[1]، وما فى خارجها خشب أبيضُ لا دَهانةَ فيه، وربّما كان فيه كِثل الطرائق والشامات فى الشجرة فيُقطَع، ويُقشَر البياضُ منه، ويُدفَن فى التراب، فيقيم سنينَ حتى يأكل التّراب ما عليه وما فى داخله من الخشب، ويَبقَى العُود، ولا يَعمل التراب فيه. وإلى نحو هذا القول ذهب محمد بن العبّاس. وقال محمدُ بنُ العبّاس أيضا: وأخبرنى جماعةٌ من أهل (الأُبُلّة[2]) أنّ العُودَ المعروفَ بالهندىّ يكون فى أوديةٍ بين جبالٍ شواهقَ متوعِّرة، لا وصولَ لأحد اليها لصعوبة المسلك، وأنّ العُود يكون فى غِياض بتلك الأودية، فيتكسّر بعضُ ذلك الشجر على طول الأيّام، وتتعفّن منه أصولُ بعض الشجر من الأمطار والسُّيول، فيأكل الترابُ والماءُ والهواءُ ما فيه من الخشب، ويَبقَى صميمُ العُود وخالصُه وجوهرُه، فإذا كثرت الأمطار وجرت السُّيول أخرجتْه من تلك الأودية إلى البحر، فتقذِفه الأمواج إلى الساحل فيجمعه الناس ويلتقطونه وينقُلونه الى الجهات. وقد حَكَى بعضُ من تردّد إلى بلاد الهند من التجّار قال: لم أرَ شجر العود، ولا رأيتُ مَن رآه؛ قيل له: وكيف لم تَرَه وقد تردّدتَ الى بلاد الهند، ومنها يُجلَب؟ قال: لأنّ التجّار الذين يَجلبونه إلى الهند[3] اذا قَدِموا بمَراكبهم إلى المَوانى بالهند يقفون بالمَراسى بحيث يَرى

(١٠١)

(١) قد سبق التنبيه على أننا لم نجد الدهانة بالمعنى المراد هنا فيما راجعناه من كتب اللغة، انظر توضيح ذلك فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٦ من هذا السفر.

(٢) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى، فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة (البصرة) واليها ينسب (نهر الأبلة)، وهو نهر مخرجه من (دجلة) من تحت (نهر معقل) بأربعة فراسخ؛ والأبلة بليدة عند فوّهته.

(٣) يفيد قوله: «الى الهند» أن الهند ليست بلادا أصلية لشجر العود، وإنما يجلب اليها من نواحٍ أخرى، وهو ما يفيده سياق القصة المذكورة.

مَن بالمَوانى مراكبَهم ، ولا يَرون من فيها ، فإذا شاهدوها أخلَوا الفُرْضَة والمِينَا مِن عشيّة ، ولا يَظهَر منهم أحد بها ، فيأتى أصحابُ تلك المراكب إلى المِينَا ويَنقُلون جميعَ ما معهم الى الفُرْضة ، ويُفْرِد[1] كلُّ تاجر منهم بضاعتَه ، ويتركونها ويخرجون فيقفون على مَراسيهم ، ويُصبح أهلُ المدينة فيأتون الى تلك البضائع ، [ويجعلون[2] الى جانب كلِّ بِضاعةٍ بِضاعةً نظيرَها ، ويتركونها ، ويُخلون الفُرْضة ، فيعود التجّار وينظرون الى ما جُعِل لهم بدلَ بضائعهم ، فمن رضىَ بالعِوَض أخَذَه وترَك بضاعته ومن لم يَرضَ به تركَهما جميعا ؛ ويُصبِح أهلُ المدينة فيأتون إلى تلك البضائع] فما وجدوه منها قد أخِذ عِوَضُه علموا أنّ صاحبَه رضىَ بالبيع ، وما وجدوه باقٍ هو وعِوَضُه علموا أنّ صاحب البضاعة لم يَرْضَ بالعِوَض ، فيزاد حتّى يَرضى ؛ فهذا دأبهم مع الذين يَجلبون العُود ، وليس فيهم من رآهم . وحَكَى الحاكى ، أنّه حُكِىَ أنّ بعض أهل المدينة كَمَنَ لهم فى مكان يراهم منه ولا يَرونه ، فرأى وجوهَهم وجوهَ كلاب ، وبقيّةَ أجسامهم أجسامَ الآدميّين .

وأمّا أنواع العُود ومعادنُه وأصنافُه — فهو أنواعٌ كثيرة ، وأصنافٌ متباينة ؛ فأفضلُه وأجلُّه وأنفَسُه المَنْدَلىّ ، وهو الهندىّ ؛ وإنّما سُمِّىَ المَنْدَلِىَّ نسبةً الى معدِنه[3] .

(١) يريد بإفراد البضاعة هنا : بسطها للبيع ونشرها ليراها الناس ؛ واستعمال الإفراد بمعنى البسط والنشر كما هنا استعمال شائع فى لسان العامة ، واللغة لا تأباه ، باعتبار أن التاجر حين ينشر بضاعته انما يجعل كل جزء منها منفردا عن الآخر .

(٢) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (ا) ، وقد أثبتناه عن (ب) .

(٣) فى المادة الطبية ج ٣ ص ٣٤٣ أن هذا الصنف منسوب الى (مندل) ، وهو فى وسط بلاد الهند ، وكذلك فى (صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٦) .

« والمَنْدَلىُّ هو الهندىّ »[(١)] . قالوا : وهو يُجلَب من ثلاثة مواضعَ من أرض الهند، فأفضلُ ذلك القامِرُونىّ، وهو ما جُلِب من القامِرُون؛ والقامِرُون[(٢)] : مكان مرتفِعٌ من الهند . وقيل : بل هو منسوبٌ إلى نوع من شجر العُود يسمَّى القامِرُون وهو أغلى العُود ثمنا، وأرفعُه قَدْرا . قال: وهو قليل لايكاد أن يُجلَب[(٣)] إلّا فى [بعض][(٤)] الحِين ؛ وهو عُودٌ رَطْبٌ جدّا، شديدُ سواد اللّون ، رزين، كثيرُ الماء . وقال الحسين بنُ يزيدَ السِّيرافىُّ فى (أخبار الهند): إنّ الصنم المعروفَ بالمُولْتان[(٥)] — وهو بقرب المنصورة[(٦)] — يقصده الرجل من مَسيرةِ ثلاثةِ أشهر يَحمِل على ظهره أفخرَ العُود الهندىّ

(١) يلاحظ أن هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين مكررة مع ما سبق فى السطر الرابع عشر من صفحة ٢٥ فلعلها من زيادات النساخ، اذ لاتفيد فائدة زائدة على ما سبق فى العبارة المشار اليها، وان كانت واردة فى كلتا النسختين .

(٢) ذكر أبو الفداء أن جبال قامرون هى حجاز بين الهند والصين . ثم نقل عن المهلبى أن مدن قامرون منها (كوكرا) (وأكشميون) (ومراس) ، وهى كورة فى آخر بلاد قامرون وأول الصين (تقويم البلدان صفحة ٣٦١ طبع أوربا) .

(٣) ثبوت « أن » المصدرية فى خبر « كاد » كما فى هذه العبارة قليل ؛ والأكثر حذفها ؛ ومن ثبوتها قول الشاعر :

* كادت النفس أن تفيض عليه *

(٤) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى كلتا النسختين ؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٧ إذ السياق يقتضيها .

(٥) فى كلتا النسختين « بالموليان » بالياء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن (معجم البلدان) وغيره . والمولتان، يقال فيه «ملتان» بغير واو، وأكثر ما يكتب بها؛ ويطلق هذا الاسم على الصنم السابق ذكره، كما يسمى به البلد الذى فيه هذا الصنم، وقد سبق الكلام على هذا البلد فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٣ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) المنصورة : مدينة بالسند، واسمها القديم : « بمنهو » ؛ وسميت المنصورة لأن عمر بن حفص المعروف بهزارمرد المهلبى بناها فى أيام أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس، وسماها بلقبه . وقال المسعودى : سميت المنصورة بمنصور بن جمهور الكلبى عامل بنى أمية . ويحيط بها خليج من نهر مهران، =

والقامِرُونىّ . قال : وقامِرُون : بلد يكون فيه فاخرُ العُود، ويَتجشّم الهندىُّ المَشَقَّةَ فى حملِه حتى يأتىَ به إلى هذا الصنم فيدفعُه إلى السَّدَنة ليبخِّروا به الصّنم ، وإنّ هذا العُودَ القامرُونىّ فيه ماقيمةُ المنّ[1] منه مائتا دينار، وإنّه ربّما خُتم عليه فانطَبَع وقَبِل الخَتْمَ [للينِه][2] . قال: والتّجار يَبتاعونه من هؤلاء السَّدَنة ؛ ولمّا غَلَب المسلمون على المُولْتان[3] قَلَعوا هذا الصنمَ وكسروه، فأصابوا تحته من هذا العُود ، فأخذوه .

والصِّنف الثانى من الهندىّ، السَّمَنْدُورِىّ[4]، ويُجلَب من بلاد سَمَنْدُور[5] ، وهى

= فهى منه فى شبه الجزيرة ،وهى بلدة شديدة الحرّ، كثيرة البق ، وبها النخيل وقصب السكر . وقال حمزة : وهمنا باذ : اسم مدينة من مدن السند، سموها الآن المنصورة؛ وبينها وبين الديبل ست مراحل، وبينها وبين المولتان اثنتا عشرة مرحلة ، والى طوران خمس عشرة مرحلة . ومن المنصورة الى أول حدّ البدهة خمس مراحل اهـ ملخصا من (تقويم البلدان) و(معجم البلدان) .

(١) المنّ : يقال فيه : (المنا) أيضا . وفى مفاتيح العلوم صفحة ١٤ طبع أوربا أنه وزن مائتين وسبعة وخمسين درهما وسبع درهم ، ووزنه بالمثاقيل مائة وثمانون مثقالا ، وبالأواقى أربع وعشرون أوقية . وفى (بحر الجواهر) أن المنّ والمنا : رطلان بوزن بغداد . ثم قال بعد أن ذكر وزنه بالدراهم والمثاقيل والأواقى كما سبق نقله عن مفاتيح العلوم : إن المنّ المصرى ست عشرة أوقية ؛ والمنّ الرومى عشرون أوقية . وفى (منهاج الدكان) صفحة ١٤٥ أن المن المصرى أربعون إستارا ، وإستار هذا المن أربعة مثاقيل ودانقان .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى (أ) وقد أثبتناها عن (ب) .

(٣) تقدّم الكلام على (المولتان) فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٣ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) سمندور، يقال فيه : (سمندر) بحذف الواو (وسمندو) بحذف الراء ، وهى مدينة شرقى نهر مهران ؛ وبينها وبين النهر فرسخان ؛ وبين (سمندور) و(المولتان) نحو مرحلتين ، وبينها وبين (الرور) نحو ثلاث مراحل .

(٥) أنث الضمير فى هذا الموضع جريا على لغة من يؤنث البلد ، فقد ذكر صاحب المصباح أن البلد يذكر ويؤنث .

بلدُ سُفالةِ الهند[1]، والسَّمَنْدُورىُّ يتفاضل، فأجوَدُه الأزرق، الكثيرُ الماء، الصُّلب الرزين، الذى يصبر على النار، ومن الناس من يفضِّل الأسوَدَ على الأزرق، ومنهم من يفضِّل الأزرقَ على الأسوَد، وتكون القِطعةُ الضَّخمةُ منه مَنًّا[2] واحدا، ويسمَّى لطيب رائحتــه رَيْحانَ العُود، وأفضــلُ العُود بعد السَّمَنْدُورىّ [العُودُ] القَمارِىّ ويؤتى به [من] قَمارِ[3]، وهى أرض سفالة الهند، وهو أيضا يتفاضل، وأجوَدُه الأسوَد والأزرق، الكثيرُ المــاء، الرزينُ الصُّلب، الذى لا بياض فيــه، ويَبقَى على النــار ويكون فى القطعة منه نصفُ رطل الى ما دون ذلك. قال أحمد بنُ أبى يعقوب: وله سِنٌّ نضيج جيِّد، كثيرُ المــاء. قال: ولا يَجتمع فى صِنفٍ من أصناف العُود ما يَجتمع فى العودُ الهندىِّ من الحلاوة والمرارة والخُمْرة[4] والبقاء والصبر على النــار. وحَكَى محمدُ بنُ العبَّاس المِسْكِىُّ فى كتابه فى سبب تفضيل العُود الهندىِّ وتقديمِه على غيره، واستعمالِ الخلفاء له، فقال: العُودُ الهنــدى أرفع أجناس العُود وأفضلُها

(١) المراد بسفالة الهند: بلد من بلاد الصين آخر بلاد الهند، كما ذكره ابن سينا فى القانون ج ١ ص ٣٩٨ طبع مصر، فى الكلام على العود السمندورى الذى نحن بصدده اه. وورد فى المادة الطبية ج ٣ ص ٣٤٣ ما يفيد ذلك أيضا، وعبارته: ثم السمندورى نسبة لبلده، ويجلب من سفالة التى هى بلد فى أقصى الهند اه. وسمى هــذا البلد سفالة، لأنه أسفل الهند؛ ويقال فيه: سوفارة بالراء أيضا. قال الإدريسىّ: سوفارة مدينة عامرة، كثيرة المساكن، وهى فرضة من فرض البحر الهندى؛ وبينها وبين مدينة سندان خمس مراحل. تقويم البلدان ص ٣٥٩ طبع أوربا.

(٢) تقدم الكلام على مقدار المن فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) تقدم الكلام على قمار فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) فى كلتا النسختين: «والحمرة» بالحاء المهملة؛ وهو تصحيف، إذ الحمرة ليست لونا من ألوان العود، وإنما هو أســود وأزرق كما سبق؛ والصواب ما أثبتنا. انظر تفســير الخمرة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٣٠.

وأجودُها ، وأبقاها على النـار ، وأعبقُها بالثياب . قال : ولم تكن التُّجار تجلبُـه في الجاهليّة ولا ما بعدها ، إلى آخر أيّام بني أُميّة ، ولا ترغب في حَمله ، لأجل المرارة التي في رائحته ؛ وإنّما كانت الأكاسرةُ تتبخّر بالمَنْدَلىّ والقَمارِىّ[1] والسَّمَنْدُورىّ والصَّنفِىّ لشـدّة حلاوة روائحها . وزَعم أنّ تلك الحـلاوةَ تولّد القمل في الثّياب . قال : ولم يكن الهندىُّ يُعرَف في هذه الأمصار ، ولا كانت التّجار تجلُبُه مع معرفتها بفضـله فلمّا كان في آخر أيّام الدّولة الأُمَويّة عند ما كثر الاختلاف بينهم ، وقلّت الأموالُ في أيديهـم ، شرعوا في مصادرات الرّعايا ، وأخذوا الأموالَ من غير وجوهها وتعرّضوا إلى أموال الأوقاف والأيتـام ، فتعرّض وُلاةُ خُراسانَ لبَرْمَكَ ولولده وطالَبوهما بالأموال ، وكان تحت يد بَرْمَكَ أوقافٌ جليـلة ، فهرَب هو وولدُه من أعمال خُراسانَ الى بلاد الهند ، فأقاموا بها الى أن ظهرت الدّولةُ العبّاسـيّة ، فرأى الحسينُ بنُ بَرْمَكَ طِيبَةَ العُود الهندىّ وزُهدَ التّجار فيه ، فاستجاده ، واشـترَى منه واستكثَر ؛ ثم قَدِم خالدُ بنُ بَرْمَكَ وأخوه الحسينُ وأهلُهما على المنصور أبي جعفر لمّا أفضت الخلافةُ اليه ، فاصطَنعهم وأدناهم وقرّبهـم ؛ فدخل الحسينُ يوما على المنصور وهو يتبخّر بالعُود القَمارىّ[1] ، فأعلَمَه أنّ عنده ما هو أطيَبُ منه رائحةً [وأنه[2] حَمَله معه من الهنـد ؛ فأمَرَه المنصور بحمل ما عنده منه ، فحمله اليه ، فاستجاده المنصـور ، وأمَر أن يُكتَب إلى الهند في حَمْـل الكثير منه ، ولم تُكرَه تلك المَرارةُ

(١) تقدم الكلام على (قار) التي ينسب اليها هذا النوع من العود في الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) هذا الكلام الذي بين مربعين لم يرد في (أ) .

والزَّعارَةُ[1] التى فى رائحتــه] ، لأنّها تقتل ٱلقمل ، وتَمنع مِن تكوُّنه فى ٱلثّياب ؛ وله عَبَقٌ بالثياب وبقاءٌ فيها . قال : فلمّا ٱختارت ٱلخلفاءُ والملوكُ العُودَ الهندىّ وآثرت البَخورَ[2] به ، سقط قدرُ ما عداه من أصناف العُود ، وعَزَّ العُودُ الهندىّ . قال محمد ٱبن أحمد : وبعد العُود القَمارىِّ فى الفضل والجُودة العُودُ القاقُلِّىّ ، ويُجلَب من جزائرَ فى بحرِ قاقُلَّة ، وهو عُودٌ دَسِمٌ له بقاء فى الثياب ، وفى رَيْحانيِّه[3] خُمْرة[4] ؛ وهو حَسَنُ اللّون شديدُ الصَّلابة ، إلّا أنّ قُتارَه[5] ربّمــا تغيَّر على ٱلنّار ، فينبغى أنّه إذا ٱستُعمِل وبُخِّر به لا يُستَقصَى إلى أن تَنتهىَ النّــار إلى ٱلقُتار . قال ٱبن أبى يعقوب : وبعــد العُود القاقُلِّىِّ العُودُ الصَّنْفىّ ، ويُجلَب من بلد يقــال له الصَّنْف بناحيــة الصِّين ؛ وبين

(١) يريد بالزعارة هنا : حدّة الرائحة ، وهو ٱستعمال جار على سبيل الٱستعارة ؛ إذ الزعارة فى الأصل : الشراسة وسوء الخلق .

(٢) استعمال البخور فى هــذا الموضع بمعنى التبخر كما يفهم من السياق ، اســتعمال شائع فى لغة العامة وهم يضمون الباء ، وقد جرى المؤلف عليه ؛ ولم نجد ذلك فيما راجعناه من كتب اللغة ؛ والذى وجدناه أن البخور بفتح الباء هو ما يتبخر به .

(٣) ريحانيه ؛ يريد الشراب الريحانى الذى أضيف اليه بعض هــذا الصنف من العود . والشراب الريحانى : نوع من الخمر . قيل : هو الشراب الصرف الطيب الرائحة . وقيل : هو ما كان خالص الصفرة أو الحمرة أو الخضرة ، المتوسط القوام ، العطر الرائحة ، الطيب الطعم ، (الشذور الذهبية) .

(٤) الخمرة بضم الخاء : الرائحة الطيبة ؛ يقال : وجدت منه خمرة طيبة ، اذا اختمر الطيب ، أى وجدت ريحــه . قال أبو ثروان يصف مأدبة وبخور مجمــرها : « فتخمّرت أطنابنا » أى طابت روائح أبداننا بالبخور (اللسان) .

(٥) قال الفراء : القتار هو آخر رائحة العود إذا بخر به ، ويدل على ارادة هذا المعنى سياق الكلام الآتى بعد ، وهو النهى عن استقصائه الى أن تنتهى النار إلى قتاره . وفى التهذيب ، القتار عند العرب : ريح الشواء اذا ضهب على الجمــر ؛ وأما رائحة العود فإنها لا يقال لهــا : القتار ، ولكن العرب وصفت استطابة المجديين رائحة الشواء بأنه عندهم لشدّة قربهم إلى أكله كرائحة العود ، لطيبه فى أنوفهم .

الصِّنف والصِّين جبلٌ لا يُسلَك، وهو أجلُّ[1] الأعواد وأبقاها فى الثياب؛ ومنهم من يفضِّله على القاقُلِّىّ، ويَرَى أنّه أطيَبُ وأعبَقُ وآمَنُ مِن القُتَار؛ ومنهم أيضا من قَدَّمه على القَمَارِىّ. قالوا: وأجوَدُ الصِّنفىّ الأسوَد، الكثيرُ الماء، ويكون فى القِطعة منه المنّ[2] والأكثرُ والأقلّ. قالوا وشجرُ العُود الصِّنفىّ أعظمُ من شجر الهندىّ والقَمارىّ. وبعد الصِّنفىّ العُود الصَّنْدَفُورىّ[3]. ويُجلَب من بلد الصَّنْدَفُور. ويقال: إنّه صِنفٌ من الصِّنفىّ، إلّا أنّه ليس بالقِطَع الكبار؛ وهو حلوُ الرائحة حَسَنُ اللّون، رزينٌ صُلب، لاحقٌ بقيمة الجيّد من الصِّنفىّ. وبعد الصَّنْدَفُورىّ العودُ الصِّينىّ، وهو عودٌ حَسَنُ اللّون، أوّلُ رائحتِه يُشاكل رائحةَ الهندىّ، إلّا أنّ

(١) فى كلتا النسختين «أجلا» بزيادة الألف بعد اللام؛ وهو خطأ من النّاسخ صوابه ما أثبتنا نقلا عن (المكتبة الجغرافية ج ٧ ص ٣٦٧) طبع ليدن. وفى (معجم البلدان) لياقوت فى الكلام على الصنف ما يخالف هذا الكلام، فقد ورد فيه أن العود الصنفى من أردإ العود، لا فرق بينه وبين الخشب إلا فرق يسير.

(٢) تقدّم الكلام على مقدار المن فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) كذا ورد هذا اللفظ مضبوطا بالقلم فى المكتبة الجغرافية ج ٧ ص ٣٦٨ طبع ليدن؛ وفى صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٨ فى الكلام على هذا الصنف من العود أن صندفور من بلاد الصين. ولم يذكرها ياقوت ولا أبو الفداء ولا البكرى فى كتبهم. وفى التنبيه والإشراف صفحة ٥٥ طبع ليدن: صندابور بالباء مكان الفاء. وفى تقويم البلدان ص ٣٥٩ طبع ليدن: سندابور بالسين مكان الصاد؛ وكذلك فى (نزهة المشتاق للادريسى ورقة ١٢٤) من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٠٣ جغرافيا؛ فلعل هذه الألفاظ الثلاثة لغات فى اسم هذا البلد. وقد ذكرها الإدريسى فى الجزء الثامن من الإقليم الثانى وقال: مدينة سندابور على خور كبير ترسى به المراكب، وبها تجارات وعمارات ومقاصد أرزاق؛ ومنها الى مدينة (نابة) على الساحل أربعة أيام.

قُتَارُه[1] غيرُ محمود ، وأفضلُه نوع منه يسمَّى القطعىّ[2]، وهو رَطْبٌ حلو، طيّبُ الرائحة ؛ ويؤتَى به من الصِّين ؛ وتكون القِطعة منه نصفَ رطل وأكثرَ وأقلّ .

قال أحمد بن أبى يعقوب : ومن العُود أيضا صِنفٌ يسمَّى القُشُور ، رَطْب أزرق ؛ وهو أعذبُ رائحةً من القطعى ، ودونه فى القيمة . قال : ومن الصِّينىّ أيضا أصنافٌ أُخَر، وهى دونَ كلِّ هذه الأصناف : منها المَنْطائىّ[3]، وهو المانطائىّ قِطَعُه كبار مُلْس سود ، لا عُقَد فيها ، ليست روائحها بمحمودة ، تَصلُح للأدوية والسَّفوفات والجُوَارِشنات . ومنه صِنفٌ يُعرَف بالجُلّابىّ[4]؛ وصِنفٌ يُعرَف باللُّواقىّ وهو اللُّوقِينىّ؛ وهى أعوادٌ متقارِبةٌ فى القيمة .

قال التَّميمىّ : ومن الناس من رَتّب العُود الصِّينىّ غيرَ ترتيب أحمدَ بنِ أبى يعقوب فقالوا : إنّ أفضلَ العُود الصِّينىّ العودُ القطعىّ[5]، وبعده العودُ الكَلَهِىّ[6]، وهو عُودٌ رَطْب

(١) القتار : آخر رائحة العود؛ قاله الفراء .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ بالعين فى كلتا النسختين وعدّة كتب أخرى موثوق بتصحيحها (كالمادة الطبية) (والمكتبة الجغرافية) و(مجموعة فى علم البحر مأخوذة بالزنكوغراف محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٥ جغرافيا) وغيرها ؛ والذى فى المفردات والقانون طبع مصر فى الكلام على العود : «القطفى» بالفاء؛ وهو تحريف ، ولم نجد نصا على ضبط هذا اللفظ فيما راجعناه من الكتب .

(٣) سيأتى ذكر الجزيرة المنسوب اليها هذا الصنف من العود فى ص ٣٤ س ١ من هذا السفر؛ وقد ورد هذا اللفظ هكذا فى صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٩ والذى فى (المكتبة الجغرافية ج ٧ ص ٣٦٨ طبع ليدن) : «المنطاوى» بزيادة الواو بعد الألف. وقد اختلفت نسخ الكتب التى بين أيدينا فى الحرف الأخير الذى قبل ياء النسبة من هذا اللفظ ؛ ولم نقف على نص يرجح بعضها على بعض .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ فى (ا) مضموم الجيم مشدّد اللام وباء موحدة بعد الألف؛ ولم نجد هذا الضبط فيما راجعناه من الكتب الأخرى .

(٥) تقدّم الكلام على هذا اللفظ فى الحاشية رقم ٢ من هذه الصفحة فانظرها .

(٦) الكلهى نسبة الى «كله» وهى جزيرة فى بحر الهند ، موقعها فى الجنوب من الإقليم الأوّل . قال فى تقويم البلدان : وهى فرضة ما بين عمان والصين ، وبها معادن الرصاص ومنابت الخيزران وشجر الكافور؛ وبينها وبين جزائر المهراج عشرون مجرى انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٧٩ الطبعة الأولى . =

يُمضَغ، وفيه زَعارَة[1] وشدّةُ مرارة، للدّهانة[2] الّتى فيه، وهو مِن [أَعبَق] الأعواد فى الثّياب وأبقاها. و بعد الكَلَهِىّ العُودُ العَولانى[3]، وهو عودٌ يُجلَب من (جزيرة العولات)[4] بناحية قَمَار[5] من أرض الهند. و بعده اللُّوقِينىّ، ولُوقِين: طَرَف من أطراف الهند، وهو دون هذه الأعواد فى الرائحة والقيمة؛ وله حُمْرَة[6] فى الثّياب. و بعدَ اللُّوقِينىّ المانطائىّ[7]، وهو

= وفى (نخبة الدهر صفحة ١٥٥) أن طول جزيرة «كله» ثمانمائة ميل، وعرضها ثلاثمائة وخمسون ميلا. وقال ياقوت: «كله» فرضة بالهند، وهى منتصف الطريق بين عمان والصين، وموقعها فى طرف خط الاستواء» اهـ و يلاحظ هنا أن ياقوت لم يذكر أن العود يجلب منها، وانما ذكر ذلك فى بلد آخر اسمه «كلاه» بزيادة الألف بعد اللام، فقال: كلاه، بلد بأقصى الهند يجلب منه العود، وأنشد لأبى العباس الصفرى:

لها أرج يقصر عن مداه * فتيت المسك والعود الكلاهى

(١) تقدّم الكلام على معنى الزعارة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) قد سبق التنبيه على أننا لم نجد الدهانة فيما راجعناه من كتب اللغة بالمعنى المرادهنا، كما أن القياس لا يجيزه. انظر توضيح ذلك فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٦ من هذا السفر؛ على أنه من الألفاظ الشائعة الاستعمال فى كتب الطب القديم.

(٣) كذا فى صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٨؛ والذى فى كلتا النسختين «العلاقى»؛ وهو تحريف لمخالفة هذه النسبة لاسم الجزيرة الآتى بعد المجلوب منها هذا الصنف من العود. وقد ضبطناه بفتح العين تبعا لضبطه بالقلم فى (ب) المنسوب خطها إلى المؤلف.

(٤) لم نجد اسم هذه الجزيرة فيما راجعناه من المظان (كمعجم البلدان) و (تقويم البلدان) والكتب المشتملة عليها (المكتبة الجغرافية) طبع ليدن (ونخبة الدهر) و (عجائب الهند) وغيرها.

(٥) تقدم الكلام على قمار فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٦) فى كلتا النسختين: «حمرة» بالحاء المهملة؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٩ وانظر معنى الخمرة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٣٠

(٧) قد سبق ذكر اختلاف الكتب التى بين أيدينا فى رواية هذا اللفظ انظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٢ من هذا السفر.

من شجرٍ بجزيرة تسمَّى مانطاء، وقيمتُه مثلُ قيمة اللُّوقِينىّ (١)؛ وهو خفيف، ليس بالحَسَن اللّون. وبعد المانطائىّ العُودُ الريطائىّ (١)، وهو من جزيرة تسمَّى ريطاء، وهو دون المانطائىّ فى الرائحة والقيمة، يدخل فى أعمال المثلَّثات (٢) والبَرْمَكِيّات (٣). وبعد العود الرّيطائىّ العُودُ القُندغلى (٤)، ويؤتَى به من ناحية (كَلَه) (٥) وهو ساحل الزَّنْج، وهو يشبه القَمارىّ، إلّا أنّه لا طِيبَ لرائحته. وبعده العُودُ السَّمولىّ، وهو عُودٌ حَسَنُ المَنظَر فيه حُمْرة (٦)، وله بقاءٌ فى الثياب وعلى النار؛ وقُتارُه (٧) غيرُ محمود، وهو سريع القُتار. وبعد السَّمولىّ العُود الرانجىّ (٨)، وهو عُودٌ يُشبِه قرونَ الثور، لاذَكاء له ولا بقاء؛ وهو ساقط

(١) اختلفت روايات الكتب التى بين أيدينا فى هذه النسبة وآسم الجزيرة المنسوب اليها الآتى بعد؛ ولعل الصواب فى هذه النسبة «المرطبانى» نقلا عن المنهج المنير وفى اسم الجزيرة الآتى بعد «مرطبان» نقلا عن مجموعة فى علوم البحر مأخوذة بالزنكوغراف محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٥ جغرافيا وغيرها من الكتب الموثوق بتصحيحها.

(٢) يريد بالمثلثات: أنواعا من الند المثلث الذى سيأتى ذكره وكيفية عمله فى الباب السابع من القسم الخامس من الفن الرابع، انظر صفحة ٦٦ سطر ١٤

(٣) يريد بالبرمكيات أنواعا من الطيب كانت يعملها آل برمك.

(٤) كذا ضبط هذا اللفظ بضم القاف ضبطا بالقلم فى «ب» المنسوب خطها الى المؤلف.

(٥) تقدّم الكلام على «كله» فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٣٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٦) تقدّم تفسير الحمرة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٣٠ من هذا السفر، فانظرها.

(٧) القتار: آخر رائحة العود.

(٨) الرانجى: نسبة الى الرانج، وهى جزائر فى بحر الهند. قال فى تقويم البلدان ص ٣٦٨: جزائر الرانج مشهورة فى ألسن التجار والمسافرين، وأعظمها جزيرة سريرة، وطولها من الشمال الى الجنوب أربعمائة ميل، وعرضها فى كل طرف من الجنوبى والشمالى نحو مائة وستين ميلا؛ وفيها من البحر دخلات؛ ومدينتها سريرة فى وسطها؛ يدخل اليها خور من البحر، وهى على نهر اه وقد اختلف فى اسمها، فقال صاحب تقويم البلدان فى صفحة ٣٧٢: الظاهر أنها بالراء المهملة والألف والنون، ثم جيم فى الآخر، وكذلك فى نخبة الدهر صفحة ١٥٢ فقد ورد فيه ما نصه: وبها جزائر الرانج، وهو النارجيل المسمى جوز الهند. =

القيمة، وهو أردأ أنواعه وأدناها. وبعده صِنفٌ يقال له: المحرَّم، سُمِّيَ بذلك لأنه كان قد وقع الى البَصْرة، فشكَّ الناسُ فيه، فحرّمه السلطان، فسمِّيَ المحرَّم، وهو من أدنى أصناف العود. وقال محمد بنُ العبّاس المِسْكيُّ[1] فى كتابه[2]: أفضل العُود كلِّه وأجوَدُه المَنْدَلىّ، وبعده العُود السَّمَنْدُورىّ، وأجوَدُ السَّمَنْدُورىِّ الأزرق، الكثير الماء الرزين، الصُّلب، الغليظ، الذى لا بياض فيه، الباقى على النار، الكثيرُ الغَلَيان وقوم يفضِّلون الأسوَدَ منه، وآخرون يفضِّلون الأزرق؛ ويكون فى القطعة الضخمة منه مَنّ[3]. ثمّ العُود القَمارىّ، وأجوَدُ القَمارىِّ الأسوَد، النقىُّ من البياض، الرَّزين الباقى على النار. قال: وربّما كان فيه شُهْبةٌ يسيرة؛ وبعد القَمارىِّ الصِّنْفىّ الغليظُ الكثيرُ الماء، وقد يوازِى القَمارىَّ فى بعض الحالات، وربّما فُضِّل عليه، وهما عُودان يتقاربان فى الصِّفة، وتكون القِطعة من الصِّنْفىِّ رِطلين وأقلّ. وبعد الصِّنْفىِّ القاقُلِّىّ، وهو عُودٌ أسوَد، فيه بعضُ شُهْبة، أشبه شىءٍ بالعُود

(١٠٣)

= وورد ذكرها فى معجم البلدان بالزاى المعجمة والباء والجيم. وذكر ياقوت أن باءها تفتح وتكسر وقال: إنها جزيرة فى أقصى بلاد الهند، وراء بحر هركند، فى حدود الصين؛ وقيل: هى بلاد الزنج.

(١) فى كلتا النسختين: «أحمد»؛ وقد أثبتناه هكذا لوروده فى عدّة مواضع من هذا السفر باسم «محمد»؛ وقد سبق التنبيه على أننا لم نقف على ترجمته فيما راجعناه من كتب التراجم الكثيرة التى بين أيدينا (كعيون الأنباء) (وأخبار الحكماء) (وشذرات الذهب) (والوافى بالوفيات) وغيرها من الكتب.

(٢) فى كلتا النسختين: «الحشكى»؛ وهو تحريف إذ لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب على كثرتها واستيعابها ولا فى كتب اللغة، ولعل صوابه ما أثبتنا كما سبق توضيح ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٩ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) تقدم بيان مقدار المن فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر، فانظرها.

القَمارىّ فى مَنظَره ؛ وهو عُودٌ حلو، طيّب الرائحة . وبعد القاقُلّىّ العُودُ الريركى وهو عُودٌ صُلْب، خفيف ، قليلُ الصّبر على النار، حَسَنُ المَنْظَر واللّون ، ويشبه القاقُلّىّ ؛ ويؤتَى به من بلاد سُفالة الهند . وبعده العُود العطكىّ، يؤتَى به من الصِّين وهو عُودٌ رَطْبٌ حلو طيّب ، دون الصِّنْفىّ، وفوق القاقُلّىّ[1] . ثم صِنفٌ من العُود يسمَّى : القُشُور، وهو عُودٌ طيّبُ الرائحة، رَطْب، أزرق ، عَذْب ، رائحتُه مِثل رائحة القطعى ، وهو دونه فى القيمة، وبعده المانطائىّ[2]، وهو جنس من العُود الصِّينىّ، وهو قِطَع كبارٌ مُلْسٌ لا عُقَد فيها ، وليست رائحته طيّبة ، وهو يَصلُح للأدوية والجُوارِشنات[3] . قال: وكذلك الجُلّابى، واللّواقى، والبربطائىّ[4]، والبُوطاجىّ هذه الأصنافُ لاخير فيها، ولا طِيب لروائحها؛ وهذه الأجناس يسمونها: الأشباه. قال : وأمّا العُود المسمَّى : الإفليق، فإنّه يُجلَب من أرض الصِّين، ويكون فى العِظَم مِثلَ الخشب الرِّيحىّ[5] الغليظ، يباع المَنّ[6] منه بدينار وأقلّ وأكثر، والعُودُ من قشوره؛ وأمّا داخِلُه وقَلْبُه فخشبٌ أبيَضُ خفيف مِثل الخِلاف ؛ وإذا وُضِع على الجَمْر وُجِد

(١) نلاحظ أن جعله هذا الصنف من العود فوق القاقلى ناف لما يستفاد من سياق الترتيب من أن هذا الصنف بعد الريركى الذى هو بعد القاقلىّ .

(٢) تقدّم الكلام على اختلاف الكتب فى رواية الحرف الأخير الذى قبل ياء النسبة من هذا اللفظ فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٣٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدّم الكلام على معنى الجوارشنات فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) لعل صوابه « المرطبانىّ » كما سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٣٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٥) الريحى، أى الأجوف الذى تخترقه الريح . والذى فى صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٩ الرانحى، وهو نسبة الى جزائر الرانج السابق بيانها فى الحاشية رقم ٨ من صفحة ٣٤ من هذا السفر.

(٦) تقدّم الكلام على المن فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر، فانظرها .

له فى أوّله رائحةٌ حلوةٌ طيّبة، فإذا أَخَذت النـار منه ظهرتْ له رائحةٌ جُزازِيّةٌ[1] رديئةٌ كرائحة الشَّعر. هذا ما أَمكَن إيرادُه من أصناف العُود وأجناسِه ومعادنِه، وهو معنى ما أَوردَه التَّيمىُّ فى (جَيْبِ العَرُوس).

ذِكرُ تطرية العُود الأبيضِ وإظهارِ دَهانتِه وإكسابِه[2] سوادا

قال التَّيمىُّ فيما نقله عن أبى بكر بنِ محمد بنِ أحمدَ المُرَنْدِج[3] المعروفِ بابن البوّاب: يؤخذ من العود ما كان أبيضَ الظاهر، إلّا أنّ فيه رزانةً تدلّ على دَهانة[4] كامنةٍ فيه فيُبرَى بَرْيةً يسيرة، ويُعمَد إلى قعرِ قِدرِ برام[5] فيثقَّب[6] حتّى يصير كهيئة المُنْخُل، ويُعمَد

(١) جزازية: نسبة الى الجزاز بالضم، وهو ما جز من شعر أو صوف؛ ويؤيد ذلك قوله بعد «كرائحة الشعر»؛ والذى فى كلتا النسختين «حرارية»، وهو تصحيف إذ لم نجد له معنى يصح وصف الرائحة به، إلا أن يريد وصف الرائحة بالحرارة فنسبها اليها، وهو استعمال غريب وبعيد، إذ لو أراد ذلك لعبر عنه بقوله «حارّة» فهو أقرب من نسبتها الى الحرارة.

(٢) فى كلتا النسختين: «واكتسابه»؛ وعطفه على التطرية والإظهار اللذين قبله يقتضى ما أثبتنا كما هو واضح.

(٣) لعله كان يبيع اليرندج أو يصنعه، فلقب بذلك. واليرندج والأرندج جلد أسود تعمل منه الخفاف، وهو معرب «رنده» بالفارسية، وهو أيضا: السواد يسوّد به الخف؛ ولم نقف على ترجمة أبى بكر هذا فيما راجعناه من كتب التراجم الكثيرة التى بين أيدينا؛ كما أننا لم نجد من تلقب بالموندج ولا بما يقرب فى الرسم من هذه الحروف فيما راجعناه من معجمات الأعلام التى بين أيدينا على كثرتها.

(٤) تقدّم الكلام على لفظ الدهانة من الجهة اللغوية فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٦ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) قدر برام، أى قدر من جنس البرام بكسر الباء؛ والمراد به هنا: الفخار؛ وهو استعمال عامى إذ لم نجده بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة؛ والذى وجدناه أن البرام جمع برمة بضم فسكون وهى قدر من حجارة.

(٦) ضبطنا هذا اللفظ بالتشديد لأن المراد الكثرة، لا ثقب واحد، كما يعلم ذلك من قوله بعد: «كهيئة المنخل».

إلى قِدرٍ من نحاس أو غير نحاس يكون رأسُها بمقدار قعر القِدر المبخَّش[(١)]، بحيث إنها متى انطبقت عليها لا يَخرج من البخار شيء، ويُصَبّ فى القِدر ماء، ويُجعَل ذلك المثقَّب على فم القِدر، ويطيَّن، ويُجعَل العُود فيها[(٢)]، وتُغطَّى بغِطاءٍ مُحكَم، ويوقَد تحت القِدر السُّفْلَى وقيدا جيّدا حتّى يصعَد بُخار الماء إلى العُود من تلك الأبخاش[(٣)] ويفتقده بعد مضىّ ساعة، ثم يكشفه ويقلّبه تقليبا جيّدا، ثم يغطّيه، ويتعاهده ساعةً بعد ساعة إلى أن يظهر له أنّ دُهنَ العُود قد ظهر، ويمتحن ذلك بأن يمسح القطعة منه فى خِرقة، فإذا أثّرت الدّهانةُ[(٤)] فيها فليُخرَج ويُنْشَر فى طَسْت حتّى يَبرُد ويرفعه.

(١) يريد بالمبخش: المثقب. والبخش: الثقب، وهو لفظ عامى شائع الاستعمال فى مصر وينطقونه بضم أوله وسكون ثانيه؛ ولم نجده فيما راجعناه من المظان، بل إن مادته لم ترد فيما لدينا من كتب اللغة. وقد ضبطنا المبخش بتشديد الخاء لأن المراد كثرة البخوش، كما يعلم مما سبق.

(٢) «فيها»، أى فى القدر العليا.

(٣) الأبخاش: جمع بخش بضم أوّله وسكون ثانيه، وهو الثقب فى لغة العامة، كما سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة، فانظرها.

(٤) تقدّم الكلام على لفظ الدهانة من الجهة اللغوية فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٦ من هذا السفر، فانظرها.

الباب الرابع من القسم الخامس من الفنّ الرابع
فى الصَّنْدَل (١) وأصنافه ومعادنه

والصَّنْدَل (١) أصناف : أفضلُها الأصفر الدَّسِم ، الرزينُ العُود ، الّذى كأنّه قد مُسِح بالزّعفران ، الذكىّ الرائحة ؛ ويسمَّى المَقاصِيرىّ ، واختُلف فى سبب تسميته بهذا الاسم ونسبتِه اليه ، فقال قوم : هى نسبةٌ إلى بلد تسمَّى (مَقاصِير) . وقال قوم : إنّ بعض الخلفاء من بنى العبّاس أمَر بأن تُصنَع منه مَقاصيرُ لأمّهات أولادِه وخواصّ سَراريِّه ، فسمِّىَ بذلك ؛ والأوّل أصحّ . وقيل : إنّه يُجلَب من بلدَين من أطراف الهند ، إحداهما مَقاصِير ، والأخرى تسمَّى الجُور ؛ فما جُلِب من مَقاصِيرَ فهو المَقاصِيرىّ ، وما جُلِب من الجُور فهو الجُورِىّ . قالوا : وهو شجرٌ عظام ؛ وإنّه يُقطَع وهو رَطْب ، ويُقشَر ؛ وله من فوق قلبه الأصفر خشبٌ ليس بالذّكىّ الرِّيح إلّا أنّه صَنْدَلٌ يَضرِب إلى البياض ، وهو الصَّنْدَل الأبيض ؛ وفى روائحه ضَعفٌ

(١) فى معجم أسماء النبات صفحة ١٥٠ أن هذا اللفظ باللغة السنسكريتية : «چندل» . وذكر صاحب (المادة الطبية ج ٣ ص ٣٣٦) أن لفظ الصندل اسم عربى ، أخذه الافرنج من العرب وأبدلوا الدال تاء أو طاء ، فقالوا «صنتال» أو «صنطال» . واللاتينيون يقولون «صنتالوم» . ثم ذكر أنه شجر منظره كمنظر الآس ؛ وسوقه تنقسم الى فروع منفرشة خشنة مستقيمة ، تقرب للاسطوانية ، وتحمل أوراقا متقابلة ذنيبية سهمية محفوفة الزاوية قليلا ، كاملة ، عديمة الزغب فى وجهيها ، ومغبرة فقط من الأسفل وفيها أعصاب جانبية شبكية ، والأزهار صغيرة ، مهيأة بهيئة عناقيد الخ . وقال داود : هو شجر يشبه شجر الجوز إلا أنه سبط ، ويحمل ثمرا كعناقيد الحبة الخضراء ، وورقه كورق الجوز ناعم دقيق (التذكرة ج ٢ ص ٥٩ طبع بولاق) .

عن رائحة القلب الدَّسِم . وأجوَدُه ما آصفر وذكت رائحتُه ولم يكن فيه زَعارَة[1] .
ويلى الصندلَ الأصفرَ الصندلُ الأبيض، الطّيبُ الرِّيح، الّذى هو من جنس
المَقاصِيرىّ ، لا يخالفه إلّا بالبياض ؛ وبعده الصَّندلُ الأبيض الّذى يَضرِب لونُه
الى السُّمْرة، وهو آلجُورىُّ السَّبْط، الصُّلْب العُود، الّذى يُجلَب من آلجُور، وهو
صَنْدَلٌ صُلْبٌ سَبْط ، ضعيفُ الرائحة، وله رائحةٌ طيّبة، إلّا أنّها دون رائحةِ ٥
ما قَبلَه . ويلى الجُورىَّ صِنفان : أحدهما أصفرُ فيه زَعارَةٌ وطِيب ؛ والآخَرُ
يَضرِب فى لونه الى الحُمرة، وفيه أيضا زَعارَةُ رِيح وحِدّة، وما لونه منهما الى الصُّفرة
فإنّه يسمَّى "الساوس"[2]؛ وقيل : "الكاوس"[2]، وقد تُفْتَق[3] بهما الذَّرائر؛ ويَدخلان
فى المثلَّثات[4] والبَخُورات . وبعدهما صَندلٌ جَعْدُ الشَّعرة، لا سَباطةَ له، اذا شُقِّق
كان جَعْدا كتجعيد خشب الزيتون ؛ وهو أذكى أصناف الصَّندل، ولا يُستعمَل ١٠
فى شىءٍ سوى البَخُورات والمثلَّثات؛ وبعده الصَّنْدل الأحمرُ الشديدُ الحُمرة؛ ويُستعمَل
لتبريد الأورام الحارّة ؛ وهو حَسَنُ اللّون ، ثقيلُ الوزن، لا رائحةَ له ولا خاصّيّةَ
غيرَ تحليل الأورام آلحارّة ، وتُتَّخَذ منه المَنْجُورات وآلمخروطات، كالدُّوِىِّ[5]، والعتائد

(١) انظر الكلام على معنى الزعارة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣

(٢) كذا ورد هذان اللفظان اللذان تحت هذا الرقم فى (ا) و(ب) المنسوب خطها الى المؤلف ١٥
وصبح الأعشى ج ٢ ص ١٣١ ؛ ولم نقف عليهما فيما راجعناه من الكتب الأخرى .

(٣) تفتق بتخفيف التاء وتشديدها ، اى تستخرج رائحة الذرائر بهما . يقال : «فتقت الطيب بغيره» اذا أدخلت غيره عليه لآستخراج رائحته .

(٤) يريد بالمثلثات : أنواعا من الند المثلث الذى سيأتى ذكره وكيفية عمله فى الباب السابع من القسم الخامس من الفن الرابع انظر صفحة ٦٦ سطر ١٤ ٢٠

(٥) العتائد . جمع عتيدة ، وهى الحقة يجعل فيها طيب الرجل والعروس وأدهانهما .

وأدواتِ الشِّطْرنج ومَهارِك[1] النَّرد وأشباهِ ذلك ؛ ويُتَّخَذ ذلك من الأبيض فيما يَحتاج إلى لونين . والصندل الأحمرُ أيضا يُحَكّ على الحجارة الخشنة بالماء ، ويُطلَى به على الأورام الحارّة كما ذكرنا ، وعلى الماشِرا[2] ، وعلى كلّ موضع من الجسد تَظهر فيه حُمْرةٌ دمويّة ، وعلى النِّقرِس[3] الحادّ المتولّد من فساد الدم فى بدء العِلّة ، ليقوّىَ العضو

(١) المهارك ، هى هذه القطع المدوّرة التى يلعب بها النرد ، وينقلها المتلاعبان من مكان الى مكان ؛ واحدها مهركة ، ولم تنطق به العرب ؛ قال محاسن الشواء فى غلام يلعب بالنرد :

ياليتنى مهركة لم يزل * يعبث بى فى الأخذ والرد

(المعرب والدخيل للدنى) المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ لغة . وذكر صاحب (مطالع البدور ج ١ ص ٧٥) أن أزدشير بن بابك أول ملوك الفرس الأخيرة هو الذى وضع النرد ، ولذلك قيل النردشير ؛ وضعه مثالا للدنيا وأهلها ، فرتب الرقعة اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة . والمهارك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر ؛ والفصوص مثل الأفلاك ؛ ورميها مثل تقلبها ودورانها ، والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة ، كل وجهين منها سبعة : "الشش" ويقابله "اليك" و"البنج" ويقابله "الدو" و"الجهار" ويقابله "الثاء" وجعل ما يأتى به اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر ؛ والجهار تارة له وتارة عليه ؛ وهو يصرف المهارك على ما جاءت به النقوش ، لكنه اذا كان عنده حسن نظر عرف كيف يتأتى وكيف يتحيل على الغلب وقهر خصمه مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص» اه . وكذلك فى صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الماشرا : لفظ سريانى ، معناه الورم الحادث من دم وصفراء مجموعين فى أى موضع كان . وقد يطلق على الورم الفلغمونى الحادث فى الوجه والرأس ، أو الحادث فى جوهر الدماغ . وأطلقه بعض الأطباء على الورم الصفراوى الصرف الحادث فى الكبد ، لكنه قد خص فى عرف الطب بورم الوجه ورما يكون حادثا عن الدم والصفراء .

(٣) النقرس بالكسر : وجع فى مفاصل مقدّم القدم ؛ لاسيما الابهام ، يحدث منه ورم لمواد تنصب فيها . وقال الأوربيون : هو وجع المفاصل ؛ ويسمى داء الملوك : ويكون مصحوبا بتنبه القناة الهضمية . وقال القيصونى : إنه وجع وورم يحدثان فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، لاسيما مفصل الابهام ؛ وهو الأصل فى التسمية ؛ قال ابن هبل من الأطباء : مفصل إبهام الرجل يسمى نقوروس (أى باليونانية) ومن هذا اللفظ أخذ اسم النقرس تسمية للحالّ باسم المحلّ . وقال الشيخ : إن النقرس قد يبتدئ من الأصابع من الإبهام ، وقد يبتدئ من العقب ، وقد يبدأ من أسفل القدم ، وقد يبدأ من جانب ثم يعم ، وربما صعد الى الفخذ ، وقد تتورم .

ويَمنَع من انصباب المادّة اليه . قال التّميمىّ : وبعد الصندل الأحمر صِنفٌ يُعرَف بالنّجارىّ (١) ، وهو خشبٌ صُلْبٌ لا رائحةَ له ، ولا يدخل فى شىء من الطِّيب ، وإنّما تُتّخَذ منه المَنْجُورات والمخروطات التى ذكرناها ، وذلك لصلابتِه ورزانتِه . قال : وجميعُ أنواع الصَّنْدل الّتى ذكرناها يؤتَى بها مِن سُفالة الهند .

فالأصفرُ الطيّبُ الرائحةِ المقَاصيرىّ يَدخل فى طِيب النساءِ الرَّطْبِ واليابس وفى البَرْمَكيّات والمثلّثات والذّرائر ، وتُتّخَذ منه قلائد ؛ ويدخل فى الأدوية وفى ضِمادات الكَبِد والمَعِدة ؛ وهو بارد منشِّف محلِّلٌ للأورام .

(١) يجوز أن يقرأ هذا اللفظ بفتح أوله وتشديد ثانيه ، نسبة الى النجار ، وأن يقرأ بكسر الأول وتخفيف الثانى ، نسبة الى النجارة .

الباب الخامس من القسم الخامس من الفنّ الرابع

فى السُّنْبُل الهِنْدىّ[1] وأصنافه والقَرَنْفُل وجوهره

فأمّا السُّنْبُل[1] الهندىّ — فقد قال أحمد بن أبى يعقوب : السنبل أصناف ، وأجوَدُه العصافير الحُمرُ الألوان ، المُسلَّل ، والمُسلَّل هو الذى قد نُقِّىَ من زَغَبه ومُسِح منه ، وبقىَ عصافيرَ مجرَّدة ، واذا أمسكه الإنسانُ بكَفِّه ساعةً ثم اشتمّه كانت رائحتُه كرائحة التفّاح أو نحوَها ؛ ثم الذى يليه ، وهو نوع من العصافير أصفرُ[2] كثيرُ البياض والشَّمَط ، طيّبُ الرائحة ، قريبٌ من الأوّل . ثم أدناه ، وهو دِقاقٌ من السُّنْبُل وجِلال ، ليس ممّا يدخل فى جيّد العِطْر .

وأمّا أصلُه — فهو حشيشة تَنبُت بأرض الهند ، وببلد التُّبّت[3] أيضا . وقيل : إنّها تَنبُت فى أوديةٍ بالهند كما يَنبُت الزّرع ، ثم تَجِفّ فيأتى قومٌ فيَحصُدونه ويجمعونه . وقيل : إنّ الأوديةَ التى يَنبُت فيها هذا السُّنْبُل كثيرةُ الأفاعى وليس يأتيها أحد إلّا وفى رِجله خُفٌّ طويل غليظ مُنعَّل بالخشب أو الحديد .

---

(١) قد سبق الكلام على أصناف السنبل وتوضيح أوصافها فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ من هذا السفر ، فانظرها . ونزيد هنا ما ذكره صاحب المادة الطبية ج ٢ ص ٥٤٣ من أن اسم السنبل بالافرنجية : (أسبيك) ؛ وقد يقال : سبيك ، أى سنبل ؛ وهما اسمان مأخوذان من سبيكا ، أى سنبلة بسبب هيئة أزهاره التى هى على شكل سنابل ؛ و يقال لهذا النوع : الخزامى المذكرة ؛ والخزامى الكبيرة ؛ ثم ذكر بعد كلام طويل أن أطباء العرب يطلقون لفظ السنبل على كل حمل رفيع خشن الخ .

(٢) فى المكتبة الجغرافية : « أحمر » الجزء السابع صفحة ٣٦٨ طبع ليدن .

(٣) تقدّم الكلام على التبت فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢ من هذا السفر ، فانظرها .

قالوا : وتلك الأفاعى ذواتُ قرون فيها السّمّ القاتل الذى يقال له : (البِيش) ؛ فيقال : إنّه من قرون الأفاعى . وقال قوم من أهل العلم : إنّه نبات يَنبُت[1] بتلك الأودية ؛ وهو ضربان : ضرب خَلَنْجِىّ ، يَضرِب فى لونِه إلى الصُّفرة ، وهو أفضله ؛ وضَربٌ آخَرُ يَضرب إلى السواد ، وهم يعرفونه فيتوقّونه ؛ وربّما جهِله بعضُهم فمات عند مَسِّه ، سيّما[2] إن كانت يدُه قد عَرِقتْ ، أو هى رَطْبة . وقد كان بعضُ الخلفاء يأمر بأن يُوَكّل بالمراكب التى تأتى من بلد الهند إلى الأُبُلّة وغيرها من الفُرَض من يَكشف السُّنْبُل ويعتبره ، فيُخرِج منه البِيش ، فيؤخذ بكَلْبَتَين من حديد وليس يَمَسُّه أحدٌ إلّا مات لوقته ، فكان يُجمع ذلك فى وِعاء ويُلقَى فى البحر .

(١) ذكر صاحب المادّة الطبية ج ٤ ص ١١٧ فى الكلام على هذا النبات السمىّ الذى يقال له : « البيش » أن اسمه أقونيطن ؛ أو أقونيط ، ونابيل بفتح الباء الموحدة ، و (طورا) بضم الطاء ، وأقونيط نابيل ؛ وقوقلوشون . ولفظ أقونيط معناه صخر ، لأن أنواع هذا النبات تسكن الجبال العالية . واسمه نابيل ؛ آت من نابوس ، ومعناه اللفت ، لأن جذر هذا النبات يشبه اللفت الصغير ؛ ولذا كان الغلط فيه خطرا ، لأن هذا الجذر هو الذى توجد فيه بالأكثر قوة النبات . واسمه باللسان النباتى : « أقونيطون نابيلوس » ؛ ثم ذكر بعد كلام طويل أن هذا النوع ينبت فى الأماكن الرطبة المظللة ، والمراعى المرتفعة بالجبال بأوربا وغيرها ، واستنبت فى البساتين لجمال أزهاره الزرق البنفسجية الكبيرة التى تخرج فى مايو ويونيو الخ . وقال داود : البيش نبت مشهور هندى وصينى ، يكون بكابل وهلاهل وأطراف السند ، يطول الى ذراع ، عريض الأوراق ، سبط ، له بزر كالشبث وزهر أسمانجونى ، يدرك بآب ، أعنى مسرى ؛ ومنه ماتو كالإكليل يسمى قرون السنبل لوجوده معه ؛ ومنه صنوبرى الشكل ، صغير الى الصفرة ، يحك بنفسجيا ؛ ومنه مايشبه القسط ، شديد السواد (التذكرة ج ١ ص ١٢٦ طبع بولاق) . وقال القيصونى : البيش نبات كالزنجبيل رطبا ويابسا ، يعلو عن الأرض قدر ذراع وورقه كورق الخس والهندبا . الخ (قاموس الأطباء) .

(٢) « سيما » ؛ أى لا سيما ، فحذف « لا » للعلم بها وهى مرادة ، لكن هذا الحذف قليل (التاج) مادة « سوا » .

وأمّا القَرَنْفُل[1] وجوهرُه — فقال أحمد بن أبي يعقوب : القَرَنْفُل كلّه (١٠٥)
جنس واحد، وأفضلُه وأجودُه الزَّهر، القويُّ اليابسُ الجافُّ الذكيّ، الحِرِّيف الطَّعم
الحلوُ الرائحة؛ ومنه الزَّهر، ومنه الثمر؛ والزَّهر منه هو ما صَغُر وكان مشاكلا لعيدان
فروع الخَرْبَق[2] الأسوَدِ فى المَنظَر . والثمر منه ما غَلُظ وشاكَلَ نوى التَّمر، أو عَجَم
٥ الزَّيتون . وقيل : هو ثمرُ شجرٍ عِظامٍ[3] يُشبِه شجرَ السِّدْر . وقال آخرون : يشبه شجرَ

(١) فى المادة الطبية ج ٢ ص ٣٢٨ أن اسم القرنفل بالافرنجية « جيرفل » ونباته « جيرفليير » وباللسان النباتى « كريوفيلوس أروماتيكوس » أو « أروما طيقوس » .

(٢) الخربق : نبات ورقه كلسان الحمل؛ ومنه أبيض وأسود (القاموس) . وفى (معجم أسماء النبات صفحة ٩٢) أن الأبيض منه يسمى : بقلة الرماة، وخانق الذئب، وقاتل الذئب؛ وأن اسم الأسود منه
١٠ بالهندية « شيرنج » و « شيرنجشير » . وذكر صاحب المادة الطبية ج ٤ ص ٣٨٥ فى الخربق الأسود الذى نحن بصدده أنه بالافرنجية « ايلبورنوار » . وباللسان النباتى (ايلبوروس نجرا) . وقال فى صفاته النباتية : إن ساقه التى هى الجذر فى الحقيقة أرضية أفقية لحمية كأنها مفصلية، فيها آثار واضحة لقاعدة أوراق، وهى متفرعة، وبيضاء من الباطن، وسوداء من الظاهر، وتتولد منها ألياف كثيرة اسطوانية لحمية قطنية؛ وتخرج من محال مختلفة من سعتها شروش جذرية بسيطة لحمية لونها أصفر مسمرّ، ثم تصير سوداء
١٥ اذا جفت؛ والأوراق تخرج مباشرة من الساق، وكأنها كلها جذرية ذنيبية ملساء، مقطعة الى سبعة فصوص أو ثمانية عميقة سهمية، تنتهى سريعا بنقطة دقيقة، وهى جلدية، خالية من الزغب، مسننة تسنينا منشاريا فى جزئها العلوى الخ . والذنيبات أسطوانية محمرة، طولها من قيراطين إلى ستة ... ... وحوامل الأزهار تعلو كالذنيبات، وهى اسطوانية، محمرة مثلها؛ وتحمل زهرة أو زهرتين كبيرتين ورديتين محولتين الخ ما أورده من كلام طويل فراجعه .

٢٠ (٣) ذكر أرباب العلم الحديث فى وصف هذا الشجر أنه شجر من ألطف وأجمل نباتات الأماكن المحترقة من الشمس بأرض الهند، وشكله غالبا كمخروط؛ ويكون أخضر دائما، ومزينا بكثير من أزهار جميلة وردية؛ وتنتشر من أزهاره رائحة عطرية مقبولة جدا، قوية النفوذ، تبقى محفوظة إلى تمام جفافها الخ . انظر المادة الطبية ج ٣ ص ٣٢٨ .

الأُتْرُجّ . وقال آخرون : هو ثمرُ شجرٍ ورقُه الساذَج[1] الهنـدىّ ، وآستدلّوا على ذلك بما فى طَعم الساذَج[1] من القَرَنْفُلِيّة . قال : ويُجلَب من بلاد سُفالة الهند وأقاصيها ، وله بالمواضع التى هو بها روائحُ ذكيّة ساطعةُ الطِّيب جدّا ، حتى إنّهم يسمُّون أماكن القَرَنْفُل : «رِيحَ الجنّة» ، لذكاء رائحته . وهو حارٌّ يابس ، لطيف غوّاص ، مقوٍّ للقلب نافعٌ لبعض الأكباد التى فيها عفونة ، قاطعٌ للغَثَيان المولَّد من الرّطوبة والقِىء الكائنِ من التُّخَمة والهَيْضة[2] ؛ وإذا دُقّ مع التفّاح الشامىّ وآعتُصِر ماؤه مع شىءٍ من قلوب النَّعناع وأُعطِىَ الوَصِبَ نَفَعَه ؛ وقَطَع عنـه الغَثَيان وآلقِىء ؛ وهو يطيِّب النَّكْهة ؛ والذَّكَر منـه — وهو الزَّهْر — أقوى من فعل الأنثى . قال : وقد يُصعَّد منه ماء يفوق فى الطِّيب ماءَ الورد ، ويَدخل فى كثير من مُكَلَّسات[3] الطِّيب والذَّرائر ، وفى كثير

(١) من أسماء الساذج أيضا (مالبثرون) (ومالبثرن) : وهو الرومى منه . واسم الهندى منه "مابهستان" ؛ ويسـمى أيضا بالعرنج البرى (معجم أسماء النبات ص ٤٩) . وقال داود : هو نبت يقـوم على خيوط شعرية تطول قدر الماء ، كالبشنين بمصر ؛ وموضعه منافع بالهند اذا جفت أشعلت بالنار فينبت من قابل حتى يفرش ورقه على الماء ؛ وهى سبطة لاخطوط فيها دون سائر الأوراق ؛ ولذا يسمى ساذجا ؛ وأجوده القوى الرائحة ، الضارب الى السواد . ومنه نوع يسمى الرومى ، له عروق دقاق كالزرنب ، يكون بباب المندب وما يليه ، لا بالروم ؛ وانما هو لقب ؛ وهذا هو الذى ينظم فى الخيوط ، لا الهندى ؛ ويدرك الساذج بمصرى وتوت ؛ وتبقى قوته ثلاثين سنة .

(٢) الهيضة : حركة من المواد الفاسدة غير المنهضة الى الانفصال من طريق المعى ، راجعات اليه من البـدن على حدة ، فيحدث إسهال وقىء معا . وقيـل : هى أن يصيب الانسان مغص وكرب يحدث بعدهما قىء وإسهال . وقال الأوربيون : هى قىء وإسهال يحدثان فجأة ؛ ويتكرران كثيرا ؛ وكل منهما من مادة خضراء أو بيضاء أو حمراء أو مخاطية أو صفراوية ، ويصحبها ألم شديد فى المعدة ؛ وتقطيع وثقل مؤلم فى القلب ؛ وإغماء ، وفى الغالب آعتقالات فى الأطراف (الشذور الذهبية) .

(٣) المكلسات : من التكليس ، وهو إذابة الأجسام حتى تصير كالكلس (مستدرك التاج) والكلس بكسر فسكون : الصاروج ، أى النورة وأخلاطها . وفى مفاتيح العلوم ص ٢٦٥ طبع أوربا : التكليس أن يجعل جسد فى كيزان مطينة ، ويجعل فى النار حتى يصير مثل الدقيق .

من المعاجين الكبار والأدوية، وفى عامة طيب النساء، وفى الخالخ[1] والمخمّرات كلّها .

وقال محمد بن العبّاس المسكى[2] : رأيت قوما ببغداد يدورون على الصّيارفة يشترون منهم الدّنانير المَرْوانيّة التى أمر بضربها عبد الملك بنُ مروان، وعلى سكّتها : "الله أحد"؛ فسألتهم عن ذلك، فذكروا أنّها تُحمَل فى البحر فى أكياس قد كُتِب على كلّ كيس منها اسمُ صاحبه ووَزْنُه ، فإذا صاروا بالقرب من جزيرة عظيمة بناحية سُفالة الهند وَضعوا الأناجر[3] ، وشدّوا المراكب ناحية[4] ، وركبوا قواربَ ومعهم تلك الأكياسُ وأنطاعٌ قد كُتِب على كلّ نِطْعٍ منها اسمُ صاحبه أيضا ؛ فيخرجون إلى موضع من تلك الجزيرة، فيَبسط كلُّ واحد منهم نِطْعَه، ويحمل كيسَه فوق النِّطْع مغطًّى ببعض النِّطْع، حتّى اذا فعل ذلك جماعتُهم، وعادوا إلى القوارب، ورجعوا إلى المراكب آخر النهار، باتوا ليلتَهم تلك فى مراكبهم ، ثمّ غدَوْا فى القوارب إلى الجزيرة ، فيجدون فوق كلّ نِطْع من أنطاعهم من القَرَنْفُل بحَسَبِ مالَه من

(١) الخالخ : جمع خلخة ، وهى ضروب من الطيب . « وقد أورد القيصونى فى قاموسه صفة نوع منها ، وهى أن يؤخذ من القرنفل نصف رطل ، ومن العود والسنبل من كل واحد ثلاث أواق ، ويسحق الجميع ، ويعجن بدهن السوسن ، ويعمل فى جام ، ويبخر بعود جيد يوما وليلة ، ويبرد ، ويضاف إليه صندل نصف أوقية ، ومسك وعنبر من كل واحد مثقال ، ويخلط الجميع جيدا ، ويحفظ فى إناء زجاج مسدود الرأس لوقت الحاجة .

(٢) فى كلتا النسختين : «الحشكى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما سبق توضيح ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) فى كلتا النسختين : «طبعوا» ؛ وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق فيما راجعناه من كتب اللغة والكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة .

(٤) الأناجر : مراسى السفن ، واحده «أنجر» معرب «لنكر» بالفارسية ، والكاف مشوبة بالجيم ؛ وهو خشبات يخالف بينها وبين رءوسها ، وتشد أوساطها فى موضع واحد ، ثم يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة ، ورءوس الخشب ناتئة تشد بها الحبال ، وترسل فى الماء ، اذا رست رست السفينة فأقامت .

ٱلمـال ، ولا يجدون الأكياس ؛ فإن رضىَ القومُ بمـا وَجدوا من القَرَنْفُل على أنطاعهم أَخذوه ، ومن لم يَرْضَ منهـم ترَكَه وعاد إلى مركَبه ، ثم يعـود فى اليوم الثانى فيجد كِيسَه بحاله ، ولا يَرى لِلقَرَنْفُل أثرا ، ولا تقع عينُ أحد من التّجار على أحد ممّن هو فى تلك ٱلجزيرة ، ولا يقفون على موضع القَرَنْفُل ولا على شجرِه . وهذه ٱلحكاية شبيهةٌ بمـا ذكرناه فى أمر العُود . قال التَّميمىّ : وقد كان وقع إلىّ ذِكرُ هذا بعينه ؛ وزعَم الّذى أخبرنى : أنّهم قديما كانوا يجِدون أكياسَهم مع القَرَنْفُل على الأنطاع بحالها ، فكان الرجلُ إن ٱختار القَرَنْفُل حَمَـلَه وترَك الكيس ، وإن ٱختار ٱلمـالَ أخَذَه وترَك القَرَنْفُل ، الى أن غَدَر التُّجار بهم فى بعض السنين ، فحملوا ٱلمـال والقَرَنْفُل ، وٱنقطَعَ جَلْب القَرَنْفُل سنينَ كثيرة ، وغلا حتّى لم يُقدَر عليه ، ثمّ عادوا ولزموا العدلَ مع أهل الجزيرة ، فصاروا عند ذلك لايجدون فوق الأنطاع غيرَ القَرَنْفُـل فإن رضُوا به حملوه ، وإن سَخِطوا تركوه ليلتهم ، ثم عادوا فى ٱليوم الثانى فوجدوا أموالهم . وهذه الحكاية نحو ما قدّمناه فى العُود .

الباب السادس من القسم الخامس من الفنّ الرابع

فى القُسْط[1] وأصنافه

ويقال فيه : الكُسْت[2] بالكاف والتاء، بدل القاف والطاء ؛ وقد تكرّرت الأحاديثُ الصحيحةُ النبويّة — على قائلها أفضل الصلاة والسلام — بمنافعه وما فيه من الأشفية؛ فمنها ما رواه البخارىُّ بسنده عن أمّ قيس[3] بنتِ مِحْصَنٍ أختِ عكاشة ، — وكانت من المهاجرات الأُوَل اللّاتى بايَعْنَ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم — أنّها قالت : أَتَيتُ[4] النّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم بآبن لى قد عَلَّقتُ[5] عليه من[6]

(١) ذكر أطباء العرب أن القسط اسم يونانى . وقيل : سريانى . وذكر ميرة من الأوربيين عن غوليوس أن اسم قسط عند الأوروبيين آت من اللغة العربية ؛ فمن المحتمل أن الأوربيين قد أخذوا هذا اللفظ من كتب العرب ونسبوه إليهم ؛ والعرب أخذوه من اليونانيين أو السريانيين ، ولكن يبعد ذلك أن الأطباء الأوربيين أدرى بلغة اليونانيين ، لأنهم ملزمون بتعلم هذه اللغة ، فلو كان القسط يونانيا لعلموه ؛ وإذن فيجوز أنه سريانى وأخذه العرب عن السريانيين ، وأخذه الأوربيون عن العرب . والقسط يسمى باللسان النباتى الأوربى ، « قسطوس » . انظر المادة الطبية ج ٢ ص ٣٨٥

(٢) يقال فيه أيضا : الكسط ، والكشط ؛ قاله أبو عمرو (التاج مادة قسط) ؛ ويقال فيه أيضا : « الكسد » بالكاف والدال (إرشاد السارى ج ٨ ص ٤٥٠) .

(٣) أم قيس ، يقال : إن اسمها آمنة (إرشاد السارى ج ٨ ص ٤٥٠ فى باب ذات الجنب) .

(٤) فى (إرشاد السارى ج ٨ ص ٤٤٦ فى باب اللدود) : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم » وفى (باب ذات الجنب ص ٤٥٠) «عن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أم قيس بنت محصن الأسدى ... ... أخبرته أنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٥) فى رواية لأبى ذر : « أعلقت » أى رفعت حنكه باصبعها ففجرت الدم . والهمزة فى أعلقت للإزالة ، أى أزالت الآفة عنه (إرشاد السارى ج ٨ ٤٥٠ فى باب ذات الجنب) .

(٦) فى رواية لأبى ذر «عنه» (ارشاد السارى ج ٨ ص ٤٤٦ فى باب اللدود) .

العُذْرة[(١)] فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " اتقوا الله، على ما[(٢)] تَدْغَرُون[(٣)] أولادكم بهذه الأعلاق[(٤)] ، عليكم بهـذا العُود الهندىّ فإنّ فيه سبعةَ أشفية ، منهـا ذاتُ الجَنْب " يريد الكُسْت ، يعنى القُسْط .

وللقُسْط أصنافٌ ذَكَرَها محمّدُ بنُ أحمـدَ التّيمىُّ فى جَيْب العَروس فقـال : منه ما يُجلَب من بلاد الحبشة؛ ومنه البحرىُّ الذى يسمَّى الجلود؛ وأجوَدُه الأبيض الرقيقُ القشرة الّذى هو كأمثال الأصابع وأكبر، والمشقَّق اليابس . ويقال : إنّهم يأكلونه فى بلادهم رَطْبا . وقال محمد بن العبّاس المِسْكىّ[(٥)] : أخبَرَنى بعضُ البحريّين أنّه يكون فى جبال المـاهات[(٦)] ، ينبُت فى شقوق الصُّخور وأعالى الجبال ؛ ويقال

(١) العـذرة : وجع الحلق من الدم، وذلك الموضع أيضا يسـمى عذرة ، وهو قريب من اللهاة ويقال : «عذر» مبنيا للمجهول : هاج به وجع الحلق . وقيل : العذرة، هى قرحة تخرج فى الخرم الذى بين الحلق والأنف، تعرض للصبيان عند طلوع العذرة، (كواكب تطلع فى الحرّ) فتعمد المرأة الى خرقة فتفتلها فتلا شديدا، وتدخلها فى أنفه، فتطعن ذلك الموضع فينفجر منه دم أسود ربما أقرحه، وذلك الطعن يسمى «الدغر»؛ وكانوا بعد ذلك يعلقون عليه علاقا كالعوذة .

(٢) «على ما» باثبات ألف ما الاستفهامية المجرورة؛ وهو قليل . وفى رواية لأبى ذر : «علام» بإسقاطها (إرشاد السارى) .

(٣) فى رواية للحموى والمستملى : «تدغرن أولادكن» ، وهى الموافقة لما فى (ب) أى تغمـزن بأصابعكن حلوق أولادكن . وقد تقـدم ما يفيد معنى الدغر أيضا فى الحاشية رقم ١ من هـذه الصفحة فى الكلام على معنى العذرة، فانظرها .

(٤) قال ابن الأثير : الصواب كسر الهمزة، مصدر «أعلق» (إرشاد السارى ج ٨ ص ٤٥٠ وروى فى صفحة ٤٤٦ فى (باب اللدود) : «العلاق» بكسر العين المهملة . وضبطه فى (التنقيح) بفتحها .

(٥) فى كلتا النسختين : «الحشكى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما سبق توضيح ذلك فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) المـاهات بالتاء، هى (ماهان) بالنون، وهى مدينة (بكرمان)، بينها وبين (السيرجان) — مدينة كرمان — مرحلتان، وبينها وبين (خبيص) خمس مراحل؛ والعـرب تسميها (المـاهات) بصيغة جمع المؤنث؛ قال القعقاع بن عمرو :

جدعت على المـاهات آنف فارس * بكل فـتى من صلب فارس خادر

له [الكى][1] ويؤكل[2]، غيرَ أنّه ردىء الجوهر، اذا جَفّ لا تكون له صلابة، ويشبه أصلُه أصلَ الكَرَفْس ٱلجبلىّ، وكذلك ورقُه يشبه ورقَ الكَرَفْس ٱلجبلىّ أيضا. قال المِسْكىّ: فلمّا صرتُ إلى الجبل جَرّبتُ ذلك فوجدتُه كما قال، ورأيتُه كثيرا فى جبال أَبْهَر[3] وزَنْجان[4]. قال التَّميمىّ: ومن القُسْط ٱلحلو أيضا صِنفٌ آخَرُ غليظ الرائحة يسمَّى القَرَنْفُل، ليس بطائل، ويدخل فى الدُّخَن[5].

وأمّا القُسْط المرّ — وهو ٱلهندىّ — فيُجلَب من أرض الهند؛ وأجوَدُه ما ٱبيضّ ورَزُن؛ ومن الهندىّ صِنفٌ يَضرب إلى السواد لا خير فيه. قال: ومن المرّ نوع يسمَّى القَرَنْفُلىّ، ليس بطائل. وهذا النوع من القُسْط والذى يَضرِب الى السواد أدناه وأسقَطُه ثمَنا وقيمةً. والقُسْط المرّ الأبيضُ يدخل فى كثير من الأدوية وٱلمَعاجين الكبار؛ ومنه يُعمَل دُهنُ القُسْط؛ ويُشرَب فيُنتَفَع به من أوجاع ٱلجنبين وٱلخَواصر ويُدِرّ البول ويفتّح سُدَدَ الكَبِد؛ وهو حارٌّ يابس قوىُّ ٱلحرارة [واليُبْس][6].

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) وقد أثبتناها عن (ب) المنسوب خطها الى المؤلف؛ وقد وردت هكذا بالكاف والياء، ولم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من كتب النبات الكثيرة التى بين أيدينا ولا فى كتب اللغة.

(٢) فى (ا): «ويولد»؛ وهو تحريف.

(٣) أبهر: مدينة بين قزوين وزنجان من نواحى الجبل؛ ومنها الى قزوين اثنا عشر فرسخا؛ ومنها الى زنجان خمسة عشر فرسخا (تقويم البلدان صفحة ٤١٩ طبع أوربا).

(٤) زنجان: أقصى مدن الجبال فى الشمال، وجنوبيها مدينة أبهر. قال فى اللباب: زنجان مدينة على حدّ أذربيجان من بلاد الجبل.

(٥) الدخن، جمع دخنة بالضم، وهى بخور تدخن به الثياب والبيوت، قاله القيصونى. وفى (المحكم) أنها شبه ذريرة تدخن بها الثياب أو البيت.

(٦) لم ترد هذه الكلمة فى (ا).

الباب السابع من القسم الخامس من الفنّ الرابع
فى عمل الغَوالى[1] والنُّدُود

أمّا عَمَلُ الغَوالى — فقد قال الزّهراوىُّ[2] فى كتابه : والغالية ينقسم عملُها إلى ثلاثةِ أقسام : الأوّل فى الوقتِ الذى تُعمَل فيه ؛ والثانى الآلةُ التى تصلُح أن تُعمَل فيها ؛ والثالث كيفيّةُ عملِها .

فأمّا الوقت الذى يَصلُح أن تُعمَل فيه — فوجهُ السَّحَر قبل طلوع الشمس، لاعتدال الهواءِ فيه ، وإن وافق أن يكون فصل الربيع فهو أفضل ويُتوقّى أن يكون حالةَ وقتِ هبوب الرِّيح، بل فى وقت سكونِه .

وأمّا الآلاتُ التى تَصلُح لعملها وسَحْقِ أجزائها فيها — فأَفضَلُ ما سُحِق المِسْك فى هاوُنِ ذهب خالص، أو صَلايةِ زُجاج، بِفِهْرِ زُجاج؛ وأن يذابَ العنبر فى مَحارةٍ من حجر، أو فى مُدْهُنٍ من حجرٍ أسوَد، أو زُجاج؛ أو فى مُدْهُنِ ذهب، او فضّةٍ مموّهةٍ بالذّهب، ويُرفع فى إناء من ذهب أو زُجاج .

(١) تقدّم الكلام على أول من عمل الغالية وسبب تسميتها فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) الزهراوى، هو خلف بن عباس؛ كان طبيبا فاضلا، خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة فى صناعة الطب، وأفضلها كتابه الكبير المعروف (بالزهراوى)؛ وله من الكتب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)؛ وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تام فى معناه (عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٢) .

وأمّا كيفيّةُ عَمَلِها [وأخذُ[1]] أجزائها — فهو أن يأخذ من ٱلمِسْك ٱلجيّد أوقيّة فيسحقَه برفق لئلّا يحترق من شدّة السَّحْق، ثم يخلّه بمُنْخُلٍ شَعرٍ صَفيق[2] وإن أمكَن نخلُه من غير سَحْقٍ فهو أجوَد، ثمّ يأخذ من العنبر الطيّب نصفَ أوقيّة فيذوّبه فى مُدْهُنٍ على ألطف ما يكون من النار، فاذا كاد يذوب قَطَّرَ عليه شيئا من دُهن البان المطيَّب، ثم يُنزِله بعد أن يذوب، ويعتبره بأنامله، فإن كان فيه رَمْلٌ أخرَجه، ثم يلقيه على ٱلمِسك فى الصَّلاية؛ ويَحذر أن يكون العنبر حارّا فإنّ حرارتَه تفسد ٱلمِسك؛ ثم يَسحق ٱلجميعَ فى الصَّلاية برفق حتّى يَمتزِجَ العنبرُ بالمسك، ويجردهما بصفيحةِ ذهبٍ لطيفة، ولا يجردهما بنحاس ولا بحديد فإنّهما يفسدانهما، ثم يَرفع الغالِيَةَ بالبان على حسب ما يُحِبّ من رقّتها أو ثخنها؛ وليس للبان حدٌّ يوقَف عنده. وإن أراد أن يَجعل المسك مِثلَ العنبر أو دونه فَعَل. هذا ما ذكره الزَّهْراوِىُّ فى الغالية. وقد ذكر محمدُ بنُ أحمدَ التَّميمىُّ فى كتابه المترجَم (بجَيْب العَروس) فى باب الغَوالى كثيرا منها، نذكر من ذلك ما كان يُعمَل للخلفاء والملوك والأكابر.

فمن ذلك غاليةٌ من غَوالى ٱلخلفاء عن أحمد بنِ أبى يعقوب: يؤخذ من المسك التُّبَّتىِّ النادرِ مائةُ مثقال، يُسحَق بعد تنقيته من أكراشه وشَعرِه، ويُنخَل بعد السَّحق بالحرير الصِّينىِّ الصَّفيق، ويعاد سحقُه ونَخْلُه، ويكرَّر[3] حتى يصير كالغُبار؛ (١٠٧)

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (ب)؛ والذى فى (ا) «وأبر» بالجيم والراء؛ وهو تحريف.

(٢) فى (ا) «سحيق»؛ وهو تحريف.

(٣) "يكرر"، أى يكرر ذلك؛ وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الضمير مع أن السياق يقتضى تثنيته لعوده على السحق والنخل.

ثم يؤخذ تَوْرٌ مَكِّىٌّ[1] أو زِبْدِيَّةٌ صِينِىٌّ[2]، فيُجعَل فى أيّهما حضر من البان الجيّد النادر قدرُ الكفاية، ويقطّع فيه من العنبر الشِّحْرِىِّ الأزرقِ الدَّسِمِ خمسون مثقالا وتُرفَع الزِّبْدِيَّة بما فيها من البان والعنبر على نارٍ فحمٍ ليّنةٍ لا دخان لها ولا رائحة فتفسده، ويحرَّك بملْعقة من ذهب أو فضة حتى يذوب العنبر، ثم يُنزله عن النار، فإذا فتر طُرِح المِسْك فيه، ويُضرَب باليد ضربا جيّدا حتى يصير جزءا واحدا، ثم يُرفَع ذلك فى إناءٍ من الذهب أو الفضّة، وليكن ضيّق الرأس ليمكن تصميمُه، أو فى برْنِيّةِ زُجاجٍ نظيفة، ويسدّ رأسها بصِمامةِ حريرٍ صِينِىٍّ محشوّةٍ بالقطن، لئلّا يتصاعد رِيحُها. قال: فهذه أجودُ الغَوالى كلِّها، وإن جعل العنبر نظير المسك فلا بأس. وهذه الغالية المتساوى فيها المِسكُ والعنبرُ كانت تُعمَل لحُميد الطُّوسىّ[3]؛ وكانت تُعجِب المأمونَ جدّا؛ وكانت هذه الغالية تُعمَل لأمّ جعفر[4]، إلّا أنّهم كانوا يُضيفون الى البان نظيرَ ربعه من دهن الزَّنْبَق

(١) التور: إناء من صفر أو حجارة كالإجانة؛ قيل: هو عربى؛ وقيل: دخيل.

(٢) كذا ضبط صاحب التاج فى مستدركه الزبدية بالكسر، وقال: «هى صحفة من فخار، والجمع الزبادى» اهـ ولم يذكر وجه النسبة فى هذا اللفظ، ويبعد نسبتها الى زبد اللبن لأنه بالضم، إلا أن يكون لفظ الزبدية من كلام العامة؛ ولم ينبه عليه صاحب التاج لشهرته؛ وإذن فتصح نسبتها الى زبد اللبن، لأن العامة ينطقونه بالكسر.

(٣) الأمير حميد الطوسى هو ابن عبد الحميد، وكنيته أبو غانم. وفى النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٩٠ الطبعة الأولى أنه كان من كبار قوّاد المأمون، وكان جبارا، وفيه قوّة وبطش وإقدام؛ وكان المأمون يندبه للمهمات. وكانت وفاته يوم عيد الفطر سنة عشر ومائتين.

(٤) فى قاموس الأطباء أن الزنبق هو الياسمين الأبيض. قال الأزهرى: وأهل العراق يقولون لدهن الياسمين: دهن الزنبق. وفى المادة الطبية ج ٢ ص ١٧٠ أن اسم الزنبق باللسان الافرنجى «ليلاس قون»، وهو من الفصيلة الياسمينية. قال: والنوع المقصود لنا (أى من أنواع الزنبق) شجيرة جميلة استنبتت بكثرة فى بساتين أوربا؛ وأصلها من فارس وبلاد المشرق بالنسبة لأوربا، وهى تعلو من عشر =

الرُّصافيِّ[1] النَّيْسابُوريّ ؛ وكانوا يصنعون هذه الغاليةَ لمحمد بنِ سليمان، إلّا أنّهم كانوا يجعلون مع البـان والزَّنْبَق شيئا من دُهن البَلَسان[2] الخالص ؛ وكانوا أيضا يصنعون لأمِّ جعفرٍ غاليةً يسمّونها غاليـةَ العنبر، وذلك أنّهـم يجعلون لكلّ ثلاثةِ أجزاءٍ من المِسك عشرةَ أجزاءٍ من العنبر، وترتيبُ عملِها كما تقدّم .

غالية حَجّاجيّةٌ تسمَّى الساهريّة[3]

يؤخذ من المِسك التُّبَّتيِّ عشرةُ مثاقيـل، ومن العنبر عشرةُ مثاقيل، ومن العُود الهنديِّ المسـحوقِ مثقالٌ واحد ، ومن الزَّعفران مثقالٌ واحد؛ فيُحَلّ العنبرُ بدُهن البان الكوفيِّ الجيّـد ودُهن الزَّنْبَق النَّيْسابُوريّ، فإذا ذاب العنـبرُ يُنزَل عن النـار

= أقدام الى اثنتى عشر بل أكثر، والأوراق متقابلة ذنيبية؛ قلبية الشكل، حادة كاملة جدا، عديمة الزغب من وجهيها؛ والأزهار بنفسجية زاهية جدا بحيث صارت أنموذجا لذلك اللون؛ فيقال : لون الليـلاس أى الزنبق؛ وتتكون من تلك الأزهار عناقيد غليظة الوسط، دقيقـة الطرفين، مخروطية، مركبة من عدد كثير من أزهار ملززة، وتنتشر منها رائحـة ذكية جدا، ومن الأصناف ما يكون محمر الأزهار، ومنها ما أزهاره مبيضة، نقية جدا، وكذلك الأوراق قد يقع فيها اختلاف من البياض الى الصفرة الخ .

(١) فى كلتـا النسختين « الرصاصى » ؛ وهو تصحيف . والرصافى : نسـبة الى الرصافة، وهى ضيعة بنيسابور .

(٢) البلسان : شجر ينبت جماجم كجماجم الريحان، ثم يتعاظم حتى يكون كشجر البطم اذا أحسنت تربيته، ويؤذيه ما يؤذى الإنسان من الحر والبرد والعطش والرى، فينبغى تدبيره بحسب الزمان . وأول ما نبت بعين شمس؛ من قرى مصر؛ والنصارى تعظمه، ويدخر عند البطارقة والرهبان (داود). وفى القاموس وشرحه أنه شجر صغار كشجر الحناء، كثير الورق، يضرب الى البياض، شبيه بالسذاب فى الرائحة، لا ينبت إلا بعين شمس ظاهر القاهرة . قال الشارح : وهى المطرية . ثم قال نقلا عن شيخه : وهذا غريب، بل المعروف المشهور أن أكثر وجوده ببلاد الحجاز بين الحرمين وينبع، ويجلب منها لجميع الآفاق . وقال صاحب المنهاج : دهنه أقوى من حبه، وحبه أقوى من عوده، وأجود عوده الأملس الأسمر الحاد الطيب الرائحة .

(٣) سميت هذه الغالية بالساهرية، لأنه يسهر فى عملها وتجويدها .

ويُترَك حتى يَفْتُر، ثم يُلقَى المِسكُ المسحوقُ المنخولُ والعُود والزَّعفران عليه ويُضرَب ضَرْبا جيّدا مُحكَما[1]، وربّما فُتِق[2] بشيءٍ من الكافور، ويُرفع فى ظَرف ويُسَدّ رأسُه كما تقدّم، والله أعلم بالصّواب.

غاليةُ هشام بنِ عبد الملك — وهى غاليةٌ صفراء

يؤخذ من السُّنْبُل[3] العصافير وزنُ أربعة دراهم، ومن الصَّنْدَل المَقاصِيرىّ[4] ثلاثةُ دراهم، ومن العُود الهِندىّ الجيّد أوقيّتان، وتُدَقّ هذه الأصناف، وتُنخَل بحريرة، وينعَّم سَحْقُها بعد النَّخْل، وتُلقَى عليها من الزعفران القُمّىّ[5] المطحون أوقيّةٌ منخولةٌ بحريرة، ويُخلَط جميعُ ذلك، ثمّ يؤخذ الزَّبيب الطائفىّ والمَرْزَنْجُوش[6] الرَّطْب

(١) «يضرب» بتذكير الضمير، أى يضرب ذلك.

(٢) «فتق» الخ أى استخرج ريحه بشىء من الكافور يدخل عليه ويخلط به.

(٣) تقدم الكلام على السنبل فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ من هذا السفر فانظرها وانظر الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الرابع أيضا ص ٤٣.

(٤) المقاصيرى: نسبة الى بلد بالهند يقال لها: «مقاصير» انظر ص ٣٩ س ٥ من هذا السفر.

(٥) القمى: نسبة الى «قم» بضم القاف وتشديد الميم؛ وهى مدينة مستحدثة اسلامية لا أثر للأعاجم فيها؛ وأوّل من مصرها طلحة بن أحوص الأشعرى، ومنها الى الرى مفازة سبخة، وفى وسط هذه المفازة حصن عظيم عادى يقال له: كردشير؛ ومنها الى الرى أحد وعشرون فرسخا، ومنها الى قاشان ستة عشر فرسخا. وقال ياقوت فى الكلام على قاشان: إن بين قاشان وبينها اثنى عشر فرسخا، وقال المهلبى: «قم» فى مرج تقدير سعته عشرة فراسخ فى مثلها، ثم تفضى الى جبالها، او هى من بلاد الجبل اه ملخصا من (معجم البلدان) و(تقويم البلدان).

(٦) المرزنجوش، يقال له أيضا «المردقوش» و«المردكوش»، ومعناه، آذان الفأر، وهو المعروف عند العامة بمصر بالبردقوش، وهى أسماء فارسية؛ واسمه بالعربية «سمسق» و«عبقر» بالباء و«عنقر» بالنون، وقد يسمى حبق الفتى، واسمه بالافرنجية مرجولين، وباللسان النباتى، أورجانوم =

والثّمام[1] الرّطب، فتنقع الثلاثة ليلة فى ماء وتُمرس وتُصفّى وتُعجن بها الأخلاط أو تُعجن بطلاء عتيق عجنا جيّدا، وتُلصق فى باطية[2]، وتُبخّر بالنّد ثلاثة أيام، وتُقلّب كلّ سبع تبخيرات مرّة، ثم يؤخذ لها من السّك[3] المثلّث أو المنصّف خمسة عشر مثقالا فتُسحق سحقا جيّدا، وتُنخل بحريرة، ويؤخذ نصف السّك[3] وتُعجن به وهو رطب

= مرجورانا، وسكّاه الطبيعية بلاد المشرق، واستنبت فى بساتين أوربا، وهو من الرياحين التى تزرع فى البيوت وغيرها، دقيق الورق بزهر أبيض الى الحمرة، يخلف بزرا كالريحان، طيب الرائحة. وقال ديسقوريدوس: هو نبات كثير الأغصان، ينبسط على الأرض فى نباته، وله ورق مستدير عليه زغب اه ملخصا من المادة الطبية ج ٢ ص ٥٨٥، وتذكرة داود ج ٢ ص ١٥٥ ومفردات ابن البيطار ج ٤ ص ١٤٤

(١) ذكر صاحب عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٢ ص ٥٩١ أن اسم الثمام بالافرنجية (سربوليت) ويقال (شرفوليت) وباللسان النباتى (تيموس سربيلوم) أو (سرفيلوم) أو (سرفولوم) وكلها بكسر السين وسكون الراء، ومعناها الزاحف ... ... ونقل عن أطباء العرب أن الثمام هو السيسنبر وهو مأخوذ من الاسم اللاتينى (سيسنبريون) وسمى ثماما لسطوع رائحته، وكأنه يثم بريحه على نفسه. قال: ونقلوا عن ديسقوريدوس أنه صنفان: بستانى، فى رائحته شىء من رائحة المرزنجوش، ويدب على الأرض، ويضرب فيها عروقا كثيرة، ومنه برى ليس يدب فى نباته، بل هو قائم، وله أغصان دقاق مملوءة ورقا كورق السذاب، غير أنه أطول وأصلب، وله زهر حريف المذاق، تفوح منه رائحة طيبة جدا، وهو أقوى من البستانى وأصلح فى أعمال الطب. ثم ذكر من صفاته النباتية أنه نبات صغير منفرش، وساقه خشبية قليلا فى القاعدة متفرعة، وطول فروعها من خمسة قراريط الى ستة وهى نائمة على الأرض، زغبية قليلا، مربعة، قائمة فى جزئها العلوى، والأوراق صغيرة متقابلة، منفرجة الزاوية، كاملة، ضيقة من الأسفل بحيث يتكون منها نوع ذنيب، وهى خالية من الزغب ... ... ثم قال: ويكثر هذا النبات فى الغابات الجافة وبطون الأودية والطرق، وغير ذلك؛ واستنبت بالبساتين الخ.

(٢) الباطية: الجفنة الكبيرة (منهاج الدكان ص ١٤٥ طبع بولاق). قيل: إن هذا اللفظ معرّب. وقال الأزهرى: الباطية من الزجاج عظيمة، تملأ من الشراب، وتوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون.

(٣) السك بالضم: طيب يتخذ من الرامك مدقوقا منخولا معجونا بالماء، ويعرك شديدا، ويمسح بدهن الخيرى لئلا يلصق بالاناء، ويترك ليلة ثم يسحق المسك، ويلقمه، ويعرك شديدا، ويقرص ويترك يومين، ثم يثقب بمسلة، وينظم فى خيط قنب، ويترك سنة، وكلما عتق طابت رائحته (القاموس). =

ثم يُقرّص[1] ويُترَك ثلاثةَ أيّام فى الظّل ، ولا يدنيه من الشمس ، فإذا جَفّ يُسحَق فى صَلاية ، ويُنخَل بحريرة ؛ ثمّ يذاب له من العنبر الأزرق أوقيّةٌ ببان الغالية المرتفع الجيّد ، . وتُلقَى عليه بقيّةُ السُّكّ وتلك الأخلاط ، ويُضرَب ؛ ثم تُلقَى عليه أوقيّةٌ ونصف من المِسك التُّبّتىّ المسحوقِ المنخولِ بالحريرة ، ويُضرَب فيه بالأصابع حتّى يختلط ، ثمّ يُوعَى ، ويُحكَم سَدُّه كما تقدّم . ٥

صفةُ غاليةٍ أخرى من كتاب محمّد بن العبّاس

يؤخذ من العُود الهندىّ الجيّد المطحونِ المنخولِ عشرةُ دراهم ، فيُجعَل فى قدح ويُصَبّ عليه ماءُ ورد ، ويُسحَق به ، ويُسقَى ماءَ الورد ثلاثَ مرّات ، ثم يؤخذ من سُكّ المِسْك خمسةَ عشر درهما ، فتُسحَق ، وتُنخَل ، وتُلقَى على العُود المحلولِ بماء الورد ، ويُسحَقان جميعا حتّى يَجِفّ ماءُ الورد ، ويُسقَيانِه ، ويُسحَقان ، ثم يُسقَيان ١٠ ثلاثَ مرّات حتّى يصيرا كالهَباء ، ثم يُحَلّ العنبرُ بدُهن البان ، ويُلقَى عليه العُودُ والمِسْكُ بعد أن يُنزَل عن النار ، ويحرَّك بعُود ، ولا يحرَّك بحريدة ولا ظُفر ، فإذا (١٠٨)

= وقال القيصونى : السك أنواع : منه ما يتخذ من الأملج ، ومنه ما يتخذ من العفص والبليلج ، ومنه ما يتخذ من الرامك والمسك ، وهو سك المسك ، وهو أن يضاف الى كل رطل من الرامك مثقال من المسك ، وهو أفضلها . ثم ذكر بعد ذلك صفة السك المتخذ من العفص والبليلج . وقال فى الشذور الذهبية والمنهاج المنير : السك أنواع ، وهو أن تؤخذ عصارة الأملج وعصارة العفص وعصارة البليلج الأخضر ، فان عجن بالمسك فهو سك المسك ، وهو الرامك ؛ وإن عجن بجلود الأناخ فهو سك الجلود ؛ وان عجن بماء نقيع الأناخ فهو سك الماء ؛ وان عجن بقطع الجلود مطلقا بعد سحقها فهو سك الأكراش ؛ وسيأتى الكلام على السك وأنواعه وكيفية عمله فى الباب الثامن من القسم الخامس من الفن الرابع انظر صفحة ٧٢ س ٥

(١) «يقرّص» بتذكير الضمير فى هذا اللفظ وما بعده من الألفاظ ، أى يقرّص ذلك ، كما هو ظاهر .

ٱختلط رُدَّ إلى الصَّلابة وسُحِق حتى يصير كالعِلْك، ثم يُذَرُّ عليه من المِسك المسحوقِ بحَسَب ما يريده صاحبُه .

غالية متوسِّطةٌ نسبها التَّميمىُّ الى كتاب أبى ٱلحسن ٱلمصرىّ[1]

يؤخذ من المِسك ثلاثةُ مثاقيل، ومن العنبر الأزرق مثقال، ومن سُكّ[2] ٱلمِسك المرتفع مثقالان، ومن العُود الهندىِّ مثقالان، ومن بان الغالية ثلاثُ أواقٍ؛ يُحَلّ العنبر فى البان بنارٍ لَيِّنة، ويُنعَّم سَحْقُ العُود والمِسك والسُّكّ[2]، وتُخلَط، وتُلقَى على العنبر المحلولِ وهو فاتر، وتُضرَب ضربا جيّدا حتّى تستوى .

غالية تسمَّى الساهريّة[3] خَتَم بها ٱلتَّميمىُّ بابَ الغَوالى

وقال فيها : من أَحَبَّ أن يَحُلَّها بالبان فهى غاليةٌ لا بَعْدها؛ ومن تَطيَّب بها يابسةً بماء الورد فهى أطيَبُ ما يكون من ٱلمَسوحات .

وصفةُ عملها، أن يؤخذ من ٱلمِسك التُّبَّتىِّ مثقال، ومن السُّكّ المثلَّث مثقالان ومن العُود الهندىِّ ثلاثةُ مثاقيل، ومن العنبر الشِّحْرىِّ مثقال؛ يُسحَق كلُّ واحد منها بمفرَده سحقا ناعما، ويُنخَل بحريرة، إلّا العنبرَ فإنه يُقرَض، ويُحَلّ فى تورٍ[4] من

(١) فى (أ) «البصرى» بالباء؛ وهو تحريف؛ وما أثبتناه عن «ب» المكتوبة بخط المؤلف وهو الموافق لما (فى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى)، وهو أبو الحسن على بن رضوان المصرى الطبيب كان عالم مصر فى أوانه فى الأيام المستنصرية فى وسط المائة الخامسة؛ وكانت وفاته فى حدود سنة ستين وأربعمائة .

(٢) تقدّم الكلام على سك المسك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدم سبب التسمية بالساهرية فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٥ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) التور : إناء صغير يشرب فيه .

حجارة، أو فى زِبْدِيَّةٍ[1] صِينىّ؛ ثم يُلقَى عليه العُودُ والسُّكّ، ويُخلَطان به خَلْطا جيّدا ويُجعَل ذلك على الصَّلاية؛ فاذا بَرُدَ وجَمَد يُسحَق ويُنخَل بحريرة، ويضاف اليه المسك المسحوق، ويُسحَق ذلك جميعا، ويُرفع؛ فمن أراد أن يَستعمل ذلك غالية يَحُلّ المثقالَ منه فى مثقال من دُهن البان المفتَّر، ومن أراد أن يستعملَه مَسُوحا يَحُلّه بماء الورد.

وأمّا عَمَل النُّدود — فقد ذكر التَّميمىُّ منها أنواعا كثيرة؛ فمنها النَّدّ المستعينىّ كان يُصنَع للمستعين بالله العبّاسىّ. قال: يؤخذ من العود الهندىّ خمسون مثقالا ومِثلُه من المسك التُّبَّتىّ، ومن العنبر الشِّحْرىّ الأزرقِ الدَّسِمِ خمسون ومائةُ مثقال ومن الكافور الرِّياحىّ[2] ثلاثةُ مثاقيل؛ يُسحَق العُودُ والمِسكُ والكافور سَحقا ناعما كلُّ واحد منها بمفرَده، ويُنخَل المِسكُ بالحريرة، ويحلّ العنبر فى عبّاسيّةٍ[3] صِينىّ أو فى بِرام[4]، ويُلقَى المسحوقُ عليه بعد أن ينزل عن النار، ويُعجَن به عجنا جيّدا

(١) تقدّم الكلام على معنى الزبدية فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٤ من هذا الجزء، فانظرها.

(٢) سمى هذا الصنف من الكافور بالرياحى، لتصاعده مع الريح، كما ذكره داود فى التذكرة ج ٢ ص ١١٦ طبع بولاق. ويجوز أن يقرأ «الرباحى» بالباء الموحدة، نسبة الى ملك يقال له: (رباح) وهو أول من وقف عليه، كما ذكره المؤلف فى الجزء الحادى عشر من هذا الكتاب صفحة ٢٩٤ الطبعة الأولى.

(٣) يريد بالعباسية آنية صغيرة؛ ولعل العباسيين كانوا يستعملونها فنسبت اليهم.

(٤) استعمل المؤلف البرام هنا مفردا، أى بمعنى البرمة بالضم، وهو استعمال عامى معروف؛ والذى وجدناه فى كتب اللغة أن البرام جمع برمة لا مفرد.

ثم يُمَدّ على الرَّخامة ، ويقطَّع شوابير[1] ، ويُصَفُّ على مُنْخُل حتّى يَجِفّ ويُرفَع . قال :

وأمّا النَّد الذى أجمعَ الناسُ عليه، فهو أن يؤخذ من العُود الجيّد خمسون مثقالا، ومثلُه من المِسك التُّبَّتِيّ، ويُحَلّ لذلك من العنبر الهندىّ أو الشِّحْرىّ مائةُ مثقال وثلاثةُ مثاقيل، ويُعجَن بالمسك، ويُمَدّ شوابير[1]، ويجفَّف، ويُرفَع .

صنعة نَدٍّ آخَر

قال التَّميمىّ، تركيبه لأبى سعيد يانس الفارسىّ، فجاء غايةً فى الجُودة؛ يؤخذ من العُود الهندىّ القامِرُونى[2] أو العُود القَارى[3] عشرةُ مثاقيل، ومن المِسك التُّبَّتِىّ المنقّى من أكراشه وشَعرِه عشرون مثقالا، يُسحَق كلُّ واحد منهما بمفرده، ويُنخَل بحريرة صِينيّة ثم يُجمَعان على الصَّلاية، ويضاف إليهما من الكافور الفَنْصُورى[4] مثقال واحد، ويُحَلّ

(١) الشوابير : القطع المستطيلة الدقاق، واحده شابور وشابورة ؛ وهو لفظ عبرىّ، كما أخبرنا بذلك من يوثق به فى علم هذه اللغة ؛ ويؤيد هذا التفسير قول داود فى الند : « ويقطع فتائل دقاقا » (التذكرة ج ٢ ص ٢٠٨ طبع بولاق) وقول المؤلف بعد فى هذه الصفحة : « ويمدّ شوابير » ، فان تعبيره بالمدّ يقتضى أن الشوابير هى قطع مستطيلة .

(٢) تقدم الكلام على العود القامرونى وعلى القامرون المنسوب اليه هذا الصنف من العود فى ص ٢٦ من هذا السفر، فانظرها وانظر الحاشية رقم ٢ منها أيضا .

(٣) تقدم الكلام على العود القارى وعلى قار المنسوب اليها هذا الصنف وأوصاف هذا العود فى صفحة ٢٨ من هذا السفر، فانظرها وانظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ٢٣ .

(٤) الفنصورى : نسبة الى فنصور . ذكر أبو الفداء فى (تقويم البلدان ص ٣٦٩ طبع أوربا) أنها مدينة فى جنوبى جزيرة جاوة . ونقل ابن البيطار عن المسعودى فى الكلام على الكافور ما يفيد أن فنصور هى جزيرة سرنديب (المفردات ج ٤ ص ٤٢ طبع بولاق) . وفى (المنهج المنير) ضمن الكلام على الكافور أنه يقال فنصور بالفاء والنون ، وقيصور بالقاف والياء ، وكذلك ورد بالقاف والياء فى قاموس الأطباء .

لذلك من العنبر الشِّحْرىّ[1] الأزرق ثلاثون مثقالا فى تَوْرِ حجر أو فى عبّاسيّةٍ صِينىٍّ حلّا لطيفا بنارٍ ليّنة، بعد أن يُقرَّض العنبر ليُسرِع انحلاله، وسبيل التَّوْرِ أن يُحمَل على النار قبل أن يُلقَى فيه العنبر، ليَقلّ مُكث العنبر على النار، فاذا انحلّ العنبر أُنزِل عن النار وأُلقِىَ فيه المسكُ والعودُ والكافور بعد إنعام سحقِها[2]، ويُضرَب ذلك مع العنبر فى التَّوْر بملعقة من فضّة أو حديد ضربا جيّدا حتى يصير جميعه جزءا واحدا؛ ثم تُبَلّ سِكّينٌ ويُمسَح بها ما تعلّق على المِلعقة، ويوضع على قطعة من الرُّخام مَلساءَ قد مُسح وجهُها بالماء، وتُبَلّ اليد، ويؤخذ بها من المعجون، ويُفتَل على الرُّخامة فَتْلا متساويا ويُقطَّع شوابيرَ بسكّين مبلولةٍ بالماء، على ما يراه من المقادير؛ وإن خشيتَ أن يَبرُد المعجون فيَجمُد، جَعلتَ التَّوْرَ الذى فيه المعجون على رَمادٍ حارّ.

صفةُ نَدٍّ كانت بنانُ[3] العطّارة تصنعه للواثق بالله

(١٠٩)

يؤخذ من العُود الجيّد الهندىِّ مائةُ مثقال، ومن سُكّ[4] المِسك خمسون مثقالا ومن المِسك التُّبّتىِّ ثلاثون مثقالا، ومن الكافور الرِّياحىِّ[5] تسعةُ مثاقيل؛ يُسحَق كلُّ واحد منها على انفراده سحقا ناعما، ثم تُجمَع كلُّها على الصَّلاية، وتُسحَق حتّى تختلط

(١) الشحرى: نسبة إلى (الشحر)، وهو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. قال الأصمعى: هو بين عدن وعمان، واليه ينسب العنبر الشحرى، لأنه يوجد فى سواحله.

(٢) فى كلا الأصلين: «سحقهم»؛ وهو تحريف؛ وقواعد اللغة تقتضى ما أثبتنا.

(٣) ضبط هذا الاسم فى النسخة المكتوبة بخط المؤلف بضم الباء؛ ولم نجد من ذكر ضبطه بالعبارة فيما راجعناه من الكتب؛ والذى وجدناه فيما بين أيدينا من معجمات الأسماء أن (بنان) بالضم: اسم لعدّة من الرجال؛ ولم نجد من سمى به من النساء. والذى وجدناه من أسمائهن: (بنانة) بضم الباء، وبالتاء فى آخره.

(٤) تقدم الكلام على السك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) تقدم الكلام على سبب تسمية هذا الصنف من الكافور (بالرياحى) فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٦٠ من هذا السفر، فانظرها.

وتلتئم ؛ ثم تؤخذ لها مائتا مثقال من العنبر الهندىّ أو الشّحرىّ[1] فيُحَلّ فى تَوْرِ بِرام أو غَضارةِ[2] صِينىّ[3] ؛ فاذا ذاب يُنزَل عن النار، وتُلقَى عليه المسحوقات، وتُخلَط به وتُعجَن عجنا جيّدا ، ثم تُعمَل منه[4] أقراص أو شوابير[5]، وَزْنُ كلّ قِطعة منها مثقال ، وتُجفّف .

٥ صفةُ نَدٍّ [آخَرَ] كانت تصنعه لجعفر المتوكّل على الله

يؤخذ من العُود الهندىّ القامِرُونىّ[6] عشرون مثقالا، ومن السُّكّ[7] المُثلّث خمسةَ عشر مثقالا، ومن الكافور الرِّياحىّ مثقالان، ومن المسك التُّبَّتىّ ستّةُ مثاقيل، ومن السُّكّ[8] الأصفر الطوامير مثقال واحد، ومن الزّعفران الرُّوذْراوَرِىّ المسحوق مثقال؛

(١) تقدم الكلام على الشحر المنسوب اليه هذا الصنف من العنبر فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٦٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) الغضارة : القصعة الكبيرة، كما فى أقرب الموارد، وتتخذ من الفضار، وهو الطين اللازب الأخضر الحرّ . وقال فى بحر الجواهر : إنها تطلق على الإناء الصينى أيضا كما هنا .

(٣) صينى : صفة لموصوف محذوف، أى غضارة فخار صينى .

(٤) منه، أى من ذلك، وبهذا الاعتبار ساغ له تذكير الضمير .

(٥) يريد بالشوابير : الفتائل الدقاق ، وقد تقدّم توضيح ذلك بما فيه كفاية فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٦١ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) تقدم الكلام على وجه تسمية هذا الصنف من العود بالقامرونى فى ص ٢٦ من هذا السفر فانظرها وانظر الحاشية رقم ٢ منها أيضا .

(٧) تقدم الكلام على السك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ من هذا السفر، فانظرها ؛ وانظر صفحة ٧٢ من هذا السفر أيضا .

(٨) الروذراورى : نسبة الى (الروذراور)، وهى كورة (بنهاوند) من أعمال الجبال، مسيرة ثلاثة فراسخ ؛ وهى منبت الزعفران . وقال فى تقويم البلدان ما نصه : روذراور : مدينة خصبة صغيرة كثيرة المياه والثمار . وروذراور فى الحقيقة اسم للرستاق، واسم للبلدة أيضا ؛ وبها الزعفران الكثير الجيد . وقال فى اللباب : روذراور : بلدة بنواحى همذان .

يُسحَق كلُّ واحد بمفرَده، ثم تُجمَع على الصَّلاية، وتُسحَق؛ ويؤخذ من العنبر الهندىِّ خمسون مثقالا، فيُقرَّض، ويذاب فى تَوْر مكىّ، وتُخلَط فيه الأصناف نحو ما تقدّم، ويقطَّع شوابير[1].

صفة النَّدّ الّذى كانت أمّ الخليفة المقتدر[2] بالله تصنعه وتُبخِّر به الكعبة وصخرةَ بيت المقدس فى كلّ جمعة

يؤخذ من المِسك التُّبَّتىِّ المنقّى من الأكراش مائةُ مثقال، يُسحَق، ويُنخَل ويُحَلّ له من العنبر الشِّحْرىّ، ويُنزَل عن النار، فاذا فَتَر أُلقِىَ عليه المِسكُ بمفرَده من غير عُودٍ ولا غيره، ويُضرَب ضَرْبا جيّدا، ثم يُمَدّ على الرَّخامة، ويقطَّع شوابير ويبخَّر به. قال التَّيمىّ: كان رئيسُ الخَدَم ببيت المَقْدِس يُهدِى إلى والدى مِن هذا النَّدّ فيَحُلّه والدى بالبان، فتجىء منه غاليةٌ لا شىءَ أطيَبُ منها.

صفةُ ندٍّ آخَرَ عن أمِّ[3] أبيها بنت جعفر بن سليمان — وهو الذى يسمَّى اللَّفيف[4] الشريف —

قال التَّيمىّ: ولا شىء فى النَّدّ أرفعُ منه — يؤخذ من العُود الهندىِّ القامِرُونىِّ[5]

(١) قد سبق بيان المراد بالشوابير فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٦١ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) فى (أ): «المعتمد»، وهو تحريف، اذ ليس من الخلفاء من لقب بالمعتمد بالله.

(٣) لم يرد فى تاريخ الطبرى ولا فى تاريخ ابن الأثير ذكر أم أبيها بنت جعفر بن سليمان هذه؛ والذى ورد فيهما أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر.

(٤) اللفيف: المخلوط من جنسين فصاعدا.

(٥) تقدم الكلام على القامرون المنسوب اليه هذا الصنف من العود فى صفحة ٢٦ من هذا السفر فانظرها، وانظر الحاشية رقم ٢ منها أيضا.

أوقيّة ، فيُدَقّ ويُنخَل ، ويُسحَق على الصّلاية ، ويؤخذ له من السُّكّ[(١)] المثلّث نصفُ أوقيّة ، ومن المسك التُّبَّتيّ المنقّى من أكراشه ، المسحوقِ المنخولِ نصفُ أوقيّة ويُجمَع الجميع ، ويُسحَق على الصّلاية ؛ ويؤخذ من العنبر الهندىّ الأزرقِ الدّسِمِ أوقيّتان ، ويُقرَّض ويذاب فى تَوْرٍ على نارٍ ليّنة نحو ما تقدّم ، ثم يُلقَى عليه العُود والسُّكّ والمسك ، ويُعجَن ذلك ، ويُمَدّ على صَلاية ، ويقطَّع شوابير[(٢)] ، ويجفَّف ويُرفَع . قال التّميمىّ : أجمَعَ العلماءُ بأمر العِطْر وأعمالِ الطِّيب أنّ السُّكّ اذا كان مُثلَّثًا فله فى النَّدّ معنًى جيّد وخُمْرة ، والبَخور الّذى يدخل فيه يكون له عَبَقٌ فى الثياب ، سيّما[(٣)] فى بلد مصر والبلادِ المعروفةِ بالعَفَن . قال : وملاكُ البَخور كلّه جُودةُ العنبر والمسك والعود والكافور والنار الّتى يُبخَّر بها ، وألّا يكون فى الفَحْم شىءٌ من الزُّهومة ، فإنّ ذلك يُفسِد البَخور ، ويقطع رائحتَه . وبسَطَ التّميمىُّ القولَ فى النُّدود ، وقد أوردنا منها ما فيه كفاية ؛ وهذه النُّدود كلُّها الّتى ذكرناها كانوا يصنعونها للبَخور خاصّة .

وأمّا الّذى يُصنَع فى عصرنا هذا بالديار المصرية — فهو نادر اذا عُنِىَ به يَصلُح للحَمْل والادّخار والبَخور على النار ، وتُعمَل منه عنابرُ[(٤)] مختلفةُ الأشكال والمقادير ، من الأُكَر والوَرْدات والشّوابير[(٥)] ، وغيرِ ذلك ، وتُنظَم قلائدَ

(١) تقدم الكلام على السك فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ من هذا السفر ، فانظرها ، وانظر صفحة ٧٢ من هذا السفر أيضا .

(٢) قد سبق بيان المراد بالشوابير فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٦١ من هذا السفر ، فانظرها .

(٣) سيما ، أى لا سيما ، فحذف (لا) للعلم بها وهى مرادة ، لكن هذا الحذف قليل .

(٤) يريد بالعنابر : النّدود ؛ وسيأتى فى ص ٦٦ س ١٢ من هذا السفر أن الند كان يسمى فى زمن المؤلف بالعنبر ، فاذا أطلق اسم العنبر كان الند هو المراد .

(٥) ذكره الأكر والوردات قبل الشوابير فى أشكال قطع الند يؤيد ما سبق فى تفسير الشوابير من أنها القطع المستطيلة ، انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٦١ من هذا السفر .

ومَعاضِدَ[1] ووِشاحات وسُبَحا، وغيرَ ذلك، ويجعلها النـاس بين ثيابهم اذا لبسـوها ويمشون بها، ويجلسون ويرقدون وهى لا تتغيّر ولا تتكسّر، ويُكسَر بعضُ الأكرة[2] منهـا أو الوردة أو الخـرزة فتُستَعمَل فى البَخور وغيره، وتَبقَى بقيّتها فى جملة العنبر المنظوم، ولا يضرها الكسر، ولا يتفتّت منهـا شىءٌ البتّـةَ إلّا إن قُرِض بالسِّنّ أو قُطِع بالشَّفْرة أو[3] المُدْية؛ وإذا طال مكثُه صَلُح وجاد وصَلُب، وعَبِق رِيحُه على النـار، إلّا أنّه متى اختلط بالياسَمِين ضَعُف رِيحُه؛ وإذا تمادت عليه المُدَدُ وكثر استعماله وأفسده العَرَق الردىء كُسِّر وأضيفَ اليه شىءٌ من العنبر الخام الشَّـحْرىّ وخُبِن به، ثم بالمسك المسحوق، وأعيد كما كان، أو على أىّ صفة أرادها صاحبُـه فيجىء غايةً فى الجُودة، وربّما كان أجوَدَ وأنفعَ من الأوّل؛ وها نحن نذكر كيفيّة عملِه ومفرداتِه ومقاديرَه؛ والله أعلم.

ذِكر كيفيّة عمل النَّدّ فى وقتنا هذا ومفرداتِه ومقاديرِه

والنَّدّ فى وقتنا هذا يسمَّى العنبر، فاذا أطلِق عندهم اسمُ العنبر كان هو المراد؛ ويميّز العنـبر الأصلىُّ إذا أُريدَ بأن يقال فيه: العنبر الخام؛ وهذا النَّدّ الّذى يتداوله الناس فى وقتنا هذا ثلاثةُ أنواع: فالنوع الأوّل المثلَّث، وهو أجوَدُها وأعطَرُها؛

(١) المعضد والمعضدة: ما يلبس فى العضد.

(٢) فى كتب اللغة أن الأكرة لغية فى الكرة التى يلعب بها، أى لغة مسترذلة.

(٣) العطف «بأو» فى هذه العبارة يقتضى أن المدية غير الشفرة؛ والذى وجدناه فى كتب اللغـة أنهما واحد، فقد ورد فى اللسان والمخصص وغيرهما تفسير المدية بأنها الشفرة، ولم يفرقوا بينهما، وقالوا فى الشفرة: إنها السكين العريضة العظيمة، إلا أن يحمل كلام المؤلف على أن المراد بالشفرة قطعة من الحديد تعرّض وتحدّد؛ وهو من المعانى الواردة فى كتب اللغة للشفرة؛ وبالمدية السكين؛ وإذن فالمغايرة بينهما ظاهرة؛ أو لعل «أو» العاطفة هنا محرفة عن (أى) التفسيرية.

وصفة تركيبه ومقادير أجزائه أن يؤخذ له من العنبر الجيّد الشِّحْرىّ[1] الرزين الدَّسِم جزء، ونظيرُه من العود الهندىّ الجيّد، ونظيرُه أيضا من المسك التُّبَّتىّ، ويُجعل العود بُرايةً أجزاءً صغارا، ثم يُقلَى على نار ليّنة، ويُطحَن بعد ذلك طحنا ناعما ويُسحَق المسكُ بعد تنقيته ممّا لعلّه فيه من شَعرٍ أو غيره، ثم يُقرَّض العنبر صغارا ويوضَع فى قِدْرٍ رام لطيفةٍ شبهِ رأس الخُوذة[2] على نارٍ فَحْمٍ ليّنة حتى يحمرّ، ويلقى ذلك العنبر الخام فى القدر، ويحرَّك بملعقةٍ من النّحاس مدوَّرةِ الرأس، ثقيلة، لها ساعد فاذا ذاب العنبر يُلقَى عليه العُودُ المطحون شيئا بعد شىء، ويحرَّكان حتّى يختلطا ويصيرا جزءا واحدا، ويُجعَل العنبر والعود فتائل، ويُقسَّم المسك على نسبة تلك الفتائل، وتُعجَن به عجنا جيّدا على حَجَرٍ يَمَنىٍّ مُعَدٍّ لذلك حتى تختلط به؛ ثم يقطَّع ويُجعَل أُكَرا بحَسَب ما يريد، ويُرفَع. وهذا أجوَدُ ما يُصنَع من أنواع النَّدّ فى وقتنا هذا، إلّا أنّه يكون ليّنا لا يكاد يُستعمَل لِلِّباس[3]، بل يُحمَل فى الجيوب ويبخَّر به، ويُشَمّ، ويوضع بين الثياب، ونحوِ ذلك.

وأمّا النوع الثانى — وهو المعتدل — فأجزاؤه أن يؤخذ من العنبر الخام الجيّدِ عشرةُ مثاقيل، ومن النَّدّ العتيق الجيّدِ عشرةُ مثاقيل، ومن العُود الجيّد المطحون عشرون مثقالا؛ ويؤخذ لذلك من المِسك الجيّد ما أَحَبَّ المستعمِل ويركّب على ما نذكره[4].

(١) تقدّم الكلام على (الشحر) المنسوب اليه هذا الصنف من العنبر فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٦٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) الخوذة: المغفر يلبس فى الحرب؛ وهى فارسية معرّبة.

(٣) يريد بهذه العبارة أنه لا تتخذ منه قلائد ولا معاضد ولا وشاحات، كما يتخذ ذلك من الند السابق فى صفحة ٦٥ من هذا السفر، فانظره.

(٤) سيذكر المؤلف تركيب الند فى صفحة ٦٨ من هذا السفر، فانظرها.

وأمّا النوع الثالث — وهو السُّوقىّ — فأجزاؤه أن يؤخذ لكلّ عشرة مثاقيلَ من العنبر الخام عشرةُ مثاقيلَ من العنبر العتيق ، وثلاثون مثقالا من العود المطحون ومن المسك .

ذكر صفة خَلط أجزاء النَّدّ وتركيبه

أوّل ذلك أن يضع القِدر البِرام[1] المعَدَّة لذلك على نار فَحْمٍ ليّنة ، ويكون وضعُه للقِدْر على جنبها ، ثم يكسِّر العنبر العَتيقَ ويضعه فى القِدر ، فاذا سَخُن هَرَسَه بالمِلعقة النّحاس المعَدّة لذلك ، فاذا انهرس ونَعُم رفعَه من القِدر الى وِعاءٍ آخَرَ نظيف ثم يَمسح القِدر ، ويكسِّر العنبر الخام قِطَعا صغارا ، ويوضع فى القِدر على أَثَر السّخونة ويحرِّك بالمِلعقة حتّى يذوب ؛ ثم توضع القِدرُ على النار ، ويُلقَى على العنبر من العود المطحون شىء بعد شىء الى أن يختلط بعضُه ببعض ويصيرا جزءا واحدا ، ثم يُلقَى عليه العنبر العتيق ، ويُخلَط بالمِلعقة حتى يختلط بهما[2] ، ثم يُصَبّ على ذلك ماء وَرْدٍ بقَدرٍ واعتدال ، ويُحَسّ بالإبهام والسّبّابة ، فإن قَبِل الفَتْل أَخَذ منه شيئا بعد شىء وفَتَله فتائلَ على الحَجَر اليَمَنىّ المُعَدّ لذلك ؛ فإذا صار جميعه فتائل — وهو الفَتْل الأوّل — وَضَع القِدرَ على النار ، ووضَع بعضَ الفتائل فيها ويَصبّ عليها ماءَ ورد بقَدر ، ويعجنها عجنا جيّدا ، ثم يعيدها على الحَجَر ، ويعجنها

(١) استعمل المؤلف البرام هنا بمعنى الفخار ، وهو استعمال عامى معروف عندنا فى مصر وغيرها ؛ والذى فى كتب اللغة أن البرام جمع برمة بضم الباء ، لا اسم جنس . أما كون البرام وصفا للقدر على انه اسم جنس كما فى هذه العبارة ، فقد ورد فى كتب القواعد ما يفيد أن وصف الشىء بالجنس المصنوع منه ذلك الشىء ، سماعى غير شائع .

(٢) « بهما » ، أى بالعنبر والعود .

بالمِسك حتى يختلط بها، بحيث لا يضع المسكَ على النار اللّيّنة، فاذا اختلط المسكُ بها فتَلَها فتائل، ثم يقطّعها أجزاءً متساويةً على قَدْر ما يريد، ويَضمّه[1] بأصابعه الثلاث: الإبهامِ والسّبّابةِ والوُسْطَى حتى يدخل بعضُه فى بعض، ثم يدوره تدويرا جيّدا فى كفّه حتّى يندمج ويصطحب[2]، ثم يَنخُسه[3] بمسَلّة برفق، وينقُشه بعد ذلك بالمِشْطاب[4] المُعَدّ له، وان كان ساذَجا دوّره على الرّخامة. هذه كيفيّة عملِه وأجزاؤه؛ فإنْ نقص عن ذلك مُنِع من بيعه.

(١) يضمه، أى يضم ذلك؛ وبهذا الاعتبار ساغ له تذكير الضمير فى هذا اللفظ وما بعده من الألفاظ الآتية.

(٢) فى (ب) «يطحب»؛ وهو تحريف؛ ويريد بالاصطحاب هنا، انضمام بعضه الى بعض.

(٣) ينخسه، أى يفرز جانبه بمسلة.

(٤) يريد بالمشطاب: قطعة من الخشب أو الجريد أو غيرهما فيها شطب، أى طرائق وخطوط بارزة يطبع بها على العجين الطرى فتظهر تلك الشطب فيه.

الباب الثامن من القسم الخامس من الفن الرابع
فى عمل الرّامك والسُّكّ من الرامِك والأدهان

(١١١) فأمّا عَمَلُ الرّامِك والسُّكّ — فالرامِك هو أصل السُّكّ الّذى لا يمكن عَمَلُه إلّا منه ، وصفة عَمَلِ الرامِك على ما أورده محمدُ بنُ أحمدَ بنِ سعيد التَّميمىُّ المَقْدِسىُّ فى كتابه المترجَم (بجَيْب العروس ورَيْحان النفوس) ، وقال : إنه ٱستنبطه ودبَّره برأيه — يشير الى هذه الصفة التى نذكرها الآن ، و إلّا فالرامِك قديم ، نقله هو عن غيره ممن كان قَبْلَه[1] — ؛ فقال التَّميمىّ فى هـذه النسخة[2] : يُعمَد إلى العَفْص النَّقىِّ الأبيضِ الجيِّد ، فيُدَقّ ويُنخَل ، ويُعتَّق بعد طحنه سَنة . قال : ومن الناس من يطبخه بالمـاء حتّى يَنشَف المـاء ، فيَستغنِى بطبخه عن تعتيقه ، و إنّما يراد تعتيقُه ليَسْلَس وتذهب منه زَعارَةُ[3] العَفْصيّة وطعمُها ، وطبيخُه يَفعل ذلك . قال : وتعتيقه أجوَد . قال : ثم يؤخذ لكلّ عشرةِ أرطال من العفص المنخول ٱلمعتَّقِ خمسةُ أرطال من الزَّبيب العَينُونىّ[4] اللَّحِيم المنقَّى مِن عيدانه ، ويؤخذ من البلح الحـديث ما قد لُقِط من تحت

(١) ذكر داود أن الرامك يونانى ، وهو من تراكيب جالينوس ، نقل فى كتبه الموثوق بها .

(٢) يطلق علماء العطر لفظ النسخة كثيرا على الأخلاط التى يركب منها بعض أنواع الطيب ؛ وهو إطلاق صحيح ، وعلة ذلك أن من عادتهم أن يكتبوا هذه الأخلاط ومقاديرها وكيفية عملها فى صحيفة لينقلها عنهم من أراد عمل ذلك الطيب . والنسخة فى اللغة هى المكتوب المنقول منه ، أى الأصل المنتسخ منه .

(٣) يريد بالزعارة هنا : الحدّة فى الرائحة والطعم ؛ وهو ٱستعمال جار على سبيل الاستعارة ، اذ الزعارة فى الأصل : الشراسة وسوء الخلق .

(٤) فى «ب» «العينوبى» بالباء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا . وعينون قرية من قرى بيت المقدس ؛ وفى عبارة أخرى هى : قرية من وراء البثنية من دون القلزم فى طرف الشـام . قال يعقوب : سمعت من يقول : هى عين أنا ، وهى بين الصلا ومدين ، على الساحل . وذكر ياقوت أن عينون كلمة عبرانية .

نخله بعد نُضْجه، ويجفَّف، ويُحكَم تجفيفه، ويُنزَع نواه، خمسةُ أرطال، فيُنقَع الزَّبيب والبلح فى الشّراب الرَّيْحانىّ[(١)] يوما وليلة، ومن لم ينقعهما فى الشراب فلينقعهما فى المَيْسُوس[(٢)] الطيّب، أو فى الماء القَراح، ثم يُرفَعان على النار، فيُغلَيان غليانا جيّدا حتّى يَنضَجا، ولا تَبقَى فيهما قوّة، ويُعتصَر ماؤهما، فتُعجَن به[(٣)] العشرة أرطال العفص المطحونِ المنخولِ عجنا جيّدا حتى يصير مثل الحَسَاء أو أرقّ منه ثم يُرفَع فى طِنْجِيرِ[(٤)] نحاس غليظ على نار ليّنة، فيُطبَخ وهو يحرّك بإسْطامِ[(٥)] حديد، ولا يَفْتُر تحريكه، ويَحترِز المتولّى لطبخه، بأن يتلثّم، ويَلُفّ على يديه ورجليه ما يصونهما أن يقع عليهما من ذلك، حتّى اذا غَلُظ وصار أشقَرَ أنزله عن النار. قال: ومن الناس من يضيف اليه وقت طبخِه من عَقيد[(٦)] العنب على كلّ عشرةِ أرطال رطلا واحدا مع ماء الزَّبيب وماءِ البلح؛ ومنهم من يقتصر على مائهما فقط، فإذا انتهى

(١) الشراب الريحانى: نوع من الخمر؛ قيل: هو الشراب الصرف، الطيب الرائحة؛ وقيل: هو ما كان خالص الصفرة أو الحمرة أو الخضرة، المتوسط القوام، العطر الرائحة، الطيب الطعم.

(٢) الميسوس: شراب طبخ فيه السوسن مع ماء الورد. ويقال له: الميسى. وقيل: هو مركب أحد أجزائه المثلث «يريد النّد المثلث» قاله الهروى. وفى المنهج: انه شراب السوسن الأبيض.

(٣) كان الأفصح أن يقول «عشرة أرطال العفص» باسقاط أداة التعريف من اسم العدد فان تعريف اسم العدد فى مثل هذه العبارة ونحوها من كل عدد مضاف الى معدوده، مذهب كوفى ضعيف قياسا واستعمالا؛ أما بالقياس فلأن تعريف المضاف يحصل بالمضاف اليه، فلا مقتضى لتعريف المضاف باللام، وأما الاستعمال فلأنهم نقلوه عن قوم غير فصحاء، والفصحاء على غيره، قاله الرضى فى شرح الكافية.

(٤) الطنجير: معروف؛ وهو من الألفاظ المعرّبة، وفارسيته (باتيله) القاموس وشرحه.

(٥) الإسطام والسطام بالكسر: المسعار؛ وهو حديدة مفطوحة الطرف، أى معرضة من طرفها، تحرك بها النار وتسعر.

(٦) عقيد العنب، أى ما انعقد من عصيره.

أنزَلَه عن النار، وصَبَّه على بَوارِىٍّ[1] قَصَب ، بعد أن يَبرُد، ويُبسَطَ عليها بسطا رقيقا مستويا بشىء قد دُهِن بدُهنِ خِيرِىٍّ[2]؛ ثم يعلِّق البَوارِىَّ بعد جفافه عليها فى سَقْف بيتٍ كَنينٍ من الغُبار سَنَةً كاملة ، بحيث يصل اليها مَهَبُّ ريح الشَّمال ؛ فهذا عَمَلُ الرامِك الذى هو أصل السُّكّ .

فإذا أحببتَ أن تصنع منه سُكًّا فاقلع الرامِكَ عن البَوارِىّ، ودُقَّه، واطحنه طحنا ناعما، واسقِه أمراقَ الأَفاوِيه التى يُطبَخ بها البان، وسنذكرها فى فصل الأدهان — إن شاء الله تعالى — ؛ واذا أردتَ ذلك تجمع أمراقَ الأَفاوِيهِ بعد تصفية البان عنها ، وغَسْلِها من دُهنيّة البان ، وسَلْقِها وتصفيتِها ، فيُعجَن بها عجنا جيّدا كما عُجِن أوّلا بماء الزَّبيب والبلح ، وترفعه على النار وأنت تحرّكه دائما بالإسْطام تحريكا جيّدا ، وقد تحرّزتَ ممّا يتطاير منه كما تقدّم، حتى إذا شَرِب

(١) البوارىّ : الحصر المنسوجة من القصب ، واحده بارىّ وبارية وبورىّ وبورية بتشديد الياء فى جميعها ؛ وهو لفظ معرّب .

(٢) الخيرى ، هو النبات المعروف بالمنثور، وهو الخزامى ، كما فى مباهج الفكر . ونقل ابن البيطار عن ديسقوريدوس فى الكلام على الخيرى أنه نبات له زهر مختلف ، بعضه أبيض ، وبعضه فرفيرى ، وبعضه أصفر . وذكر صاحب عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٢ ص ٤٤١ نقلا عن أطباء العرب أن الخيرى اسم يونانى أو نبطى . ثم ذكر أن معنى اسمه بالافرنجية : القرنفل الأصفر ، أو المنثور الأصفر وأنه مربع القوى ، قرنى الثمر ، يحتوى على أنواع كثيرة عطرية مزينة للبساتين . ومما قاله فى الصفات النباتية للنوع المقصود من الخيرى انه نبات جميل استنبت بالبساتين لجماله والرائحة المقبولة لأزهاره ؛ وساقه متينة تقرب من أن تكون خشبية ميضة ، وتخرج منها جملة أغصان تصل أحيانا الى خمسة ديسيمترات ؛ وأوراقه سهمية فيها بعض ضيق ، وهى فى غاية الكمال ومخضرة ؛ وأحيانا تغطى بوبريسير، ويحمل هذا النبات أزهارا لونها أصفر محمر، وبالزراعة والفلاحة تكتسب نموّا عظيما ؛ ثم بالنظر للألوان ميز البستانيون هذا النبات الى أصناف كثيرة ؛ وهذا النبات ينبت طبيعة على الحيطان والسقوف والأماكن الحجرية . الخ ما أورده من كلام طويل ، فانظره .

تلك الأمراق وقوِىَ ، بزّدتَه فى سُطُول[1] ، وصببتَه على البَوارِىّ كما فعلتَ أوّل مرّة ، فتعتّقه أربعةَ أشهر حتّى يجفّ ، ثم تدقّه وتطحنه وتنخُله ، وتأخذ لكلّ من[2] منه من الهَرْنُوَة[3] وزنَ ثلاثةِ دراهم ، ومن الصندل المقَاصِيرىّ[4] نصفَ أوقيّة

(١) فى كلتا النسختين : « سفول » بالفاء ؛ وهو تحريف ، إذ لم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة ولا فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة بمعنى آنية من الأوانى كما هو المراد فى هذه العبارة ؛ والصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق . والسطول : جمع سطل بفتح أوله وسكون ثانيه ، ويطلق عند العامة على الدلو كبيرة أو صغيرة ، وهذا هو المراد هنا ، كما هو ظاهر . والذى فى كتب اللغة أن السطل طسيسة صغيرة يقال إنها على هيئة التور ، لها عروة كعروة المرجل . ويقال فيه : سيطل ؛ وهو من الألفاظ المعرّبة .

(٢) المن : يقال فيه : المنا أيضا . وقد تقدّم بيان مقداره فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ فانظرها .

(٣) الهرنوة : تسمى شجرة العود أيضا ؛ وتنبت بين الشحر وعمان ؛ وتسمى هناك (القلنبك) . وفى معجم أسماء النبات أن القلنبك اسم فارسى . قال داود : وأصلها الى السواد طيب الرائحة ؛ ولها حب دون الفلفل أصفر حادّ ، يبلغ فى شمس السنبلة . وفى المفردات : الهرنوة ، ويقال : قرنوة ؛ ويقال لها ثمرة شجر العود ؛ ويقال إنها شجرة تشبه العود ، وهى حبة صغيرة أصغر من الفلفل تعلوها صفرة قليلة ، وتشم منها رائحة العود . وقال اسحاق بن عمران : هى الفليفلة ، وهى فى صورة الفلفل الصغير ، إلا أن لونها الى الصهوبة . وذكر صاحب عمدة المحتاج فى الكلام على الفليفلة ، وهو اسم من أسماء الهرنوة كما سبق ذكره ، أن اسم هذا النبات بالافرنجية (بيمان) بكسر الباء . ويقال : بيمنت ؛ وباللسان النباتى (مرطوس بيمنتا) من الفصيلة الآسية ، ويسمى أيضا (فلفل جمئيك) . وقال فى صفاته النباتية : انه شجر بجزائر انتيلة ، ولذلك سمى فليفلة جمئيك ؛ وجذعه مستقيم يعلو الى ثلاثين قدما ؛ وأوراقه بيضاوية كاملة لامعة خضر قاتمة ؛ والأزهار تخرج كلها من محور مشترك ، وتعلو الى علو واحد ، ولونها أصفر متقع ؛ والثمر عنبى أو كمى أى غلف كرى أسود لامع ثنائى المخزن ؛ وينبت هذا الشجر بأمريكا الجنوبية ، واستنبت فى جمئيك ، فأواه جزائر أنتيلة والهند الشرق ؛ والمستعمل منه الثمار . وقال فى صفاته الطبيعية : إن هذه الثمار فى حجم الحمص مسودّة مستديرة جافة مكرشة السطح ، سهلة التفتت ؛ وهى عطرية الرائحة ، فرائحتها فلفلية قرنفلية الخ .

(٤) قد سبق ذكر (مقاصير) التى ينسب اليها هذا الصنف من الصندل فى ص ٣٩ س ٥ من هذا السفر ، فانظرها .

ومن العُود القَمَارِىّ[(١)] الدَّقّ[(٢)] الجيّد نصفَ أوقيّة ، ومن الزعفران المسحوق وزنَ درهمين، ومثقالا واحدا أومثقالين — إن أحببتَ — من نافِجة[(٣)] مِسك طريّة الفِتاق قد نُتِف ما عليها من الشَّعر وحُلِق، وقُرِّضتْ تقريضا صغيرا ، ودُقّت دَقّا ناعما ومن دُهن الخِيرىّ[(٤)] الكوفىّ الخالِص نصفَ أوقيّة، ومن العسل الماذِىّ[(٥)] نصفَ أوقيّة ؛ يُعجَن جميعُ ذلك بالسُّكّ عجنا جيّدا ، ويُترَك ثلاثةَ أشهر أو أربعةً حتّى يجِفّ ويتكامل جَفافُه؛ ثم يُدَقّ ويُطحَن، ويُعجَن بميْسُوس[(٦)]، ويُطرَح فى كلّ مَنّ منه من المسك ثلاثةُ مثاقيل ، يُعجَن بها عجنا جيّدا ، ويُقرّص أقراصا صغارا ويُترَك حتّى يَجِفّ . قال : فهذا أذكى أبواب السُّكّ وأصلحُه .

فإن أردتَ أن تَصنع منه سُكّا مثلّثا أو منصّفا أو دون ذلك، فاعمِد إلى كلّ عشرة مثاقيلَ من السُّكّ الأصلىّ الّذى قدّمنا ذِكرَه ، فأنعِم دَقّها وسَحقَها ، وأضف إلى العشرة مثاقيلَ — ان أردتَه مثلّثا — من المِسْك خمسةَ مثاقيل؛ وإن أردته منصّفا فأضِف الى العشرة مثاقيلَ مِثلَها مِن المسك ؛ وان أردته دون المثلّث فأضف الى العشرة مثاقيلَ ثلاثةَ مثاقيل، وأنعِم عجنَه به، وقرِّصه، واختمه، وجفِّفه؛ فهذه صفة السُّكّ المنصّف والمثلّث وما دونه، وهو أفضل أنواع السُّكّ وأشرفُها .

(١) قد سبق بيان وجه النسبة فى لفظ القمارى فى ص ٢٣ من هذا السفر، فانظرها ، وانظر الحاشية رقم ٢ منها .

(٢) يريد بالدق من العود : الدقيق منه .

(٣) النافجة : الوعاء الذى يكون فيه المسك ، أى الجلدة التى يجتمع فيها وهو فى غزاله ؛ وهو معرّب نافه بالفارسية ، أى سرة غزال المسك ، ولذلك جزم بعضهم بفتح فائها ؛ ونقله الترتاشى فى (شرح تحفة الملوك) عن أكثر كتب اللغة ؛ وزعم صاحب المصباح أنها عربية .

(٤) تقدّم بيان الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٥) الماذىّ : العسل الأبيض الرقيق .

(٦) تقدّم الكلام على الميسوس فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧١ من هذا السفر، فانظرها .

صنعة سُكٍّ آخر

(١١٢) يؤخذ من الرامك بعد تجفيفه على البَوارىّ[(١)] كما تَقدَّم رطلان ، يُدَقّ[(٢)] ويُنخَل ويُسقَى من أمراق الأفاويه نحوَ ما ذكرناه ؛ ثم يؤخذ لذلك من العُود السِّنّ القَمارِىّ[(٣)] المسحوق أوقيّة ونصف ، ومن الصَّندلِ المقَاصِيرىّ[(٤)] الأصفر الدَّسِم ثلاثُ أواقٍ ومن السُّنبُل[(٥)] العصافير أوقيّة ، ومن الهَرْنَوة[(٦)] أوقيّة ، ومن القَرَنْفُل الزَّهر أوقيّة ، ومن الهال[(٧)]

(١) تقدم تفسير البوارى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٧٢ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) « يدق وينخل ويسق » بافراد الضمير فى هذه الأفعال الثلاثة ، لعوده على الرامك ؛ وكان الأولى تثنيته باعتبار عوده على قوله : « رطلان » لأنه أقرب مذكور ، فيقال : يدقان وينخلان ويسقيان .

(٣) انظر الكلام على هذا الصنف من العود فى صفحة ٢٣ من هذا السفر والحاشية رقم ٢ منها أيضا .

(٤) تقدم بيان وجه النسبة فى قوله : « المقاصيرى » فى باب الصندل ، انظر صفحة ٣٩ من هذا السفر .

(٥) تقدم الكلام على السنبل فى الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الرابع ، انظر صفحة ٤٣ وانظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ أيضا .

(٦) تقدم الكلام على (الهرنوة) فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٣ من هذا السفر ، فانظرها .

(٧) الهال : يسمى أيضا (هال بوا) و(هيل بوا) و(قردمانا) و(قاقلة صغيرة) و(حب الهال) وهو الذى تسميه العامة فى مصر حبهان ؛ ويسمى بالفارسية (شوشامير) (وشوشمير) ، وهو حب يخرج فى أصل نحو ذراعين عريض الأوراق خشن ، حادّ الرائحة ، يكون فيه هذا الحب كما يرى بهذه الصورة متفرقا ؛ وهو ذكر وأنثى ، فالذكر مثلث الشكل ، بين طول واستدارة ، ينفرك عن الشكل المذكور وقد رصعت فيه الحبات كل واحدة كالعدسة ؛ لكنها ليست مفرطحة ، والأنثى غلافها نحو اصبع مثلث أيضا ، ينفرك عن حب كالحمص ؛ ويدرك بشمس الأسد ، وتبقى قوته عشر سنين . هذا ما ذكره القدماء فيه انظر تذكرة داود . وذكر أرباب العلم الحديث أنه ثمر نبات اسمه بالإفرنجية قردموم ، وهى كلمة هندية دخلت فى اللغة اليونانية ، وانتقلت منهما الى اللغة النباتية ، وهو نوع من جنس أموم ، ولذا يقال لنباته باللسان النباتى : « أموموم قردموم » ، وهذا النوع ينبت على شواطئ (مليبار) و(جاوة) و(الهند) =

نصفُ أوقيّــة ، ومن الزّعفران المــائىّ[1] أوقيّتان ؛ يُدَقّ ذلك ، ويُطحَن ويُنخَــل ، ويُلقَى على السُّكّ فى الطّنْجيرِ وهو على نارٍ ليِّنة ، ويُصَبّ عليه من دُهن الخِيرىّ[2] الكوفىّ

= والمستعمل منه فى الطب ثمره . وذكروا فى صفاته النباتية أن جذره معمر زاحف ، مفصل ، سميك قليلا ، عقدى مبيض ، فيــه شروش كثيرة ؛ والساق مورّقة مستقيمة ، تعلو فى الأرض من ثمــان أقدام الى اثنتى عشرة ، والأوراق متعاقبة ضيقة سهمية ، وطولها نحو قــدم ، وعرضها من قيراطين الى أربعة والأزهار محمولة على زنبوخ متفرع يذهب مباشرة من الجذر ، ويتكون فيها شبه عنقود غير منتظم ، طوله أكثر من قدم ، وتلك الأزهار بيض ، وكأسها مزدوج ، وتخلف الزهرة كمّا ، أى محفظة صغيرة بيضاوية حادّة من ثلاثة جوانب ، وتحتوى على ثلاثة مساكن ، كل مسكن فيه جمــلة حبوب الخ . انظر المــادة الطبية ج ٢ ص ٣٧٣ فى الكلام على القاقلة .

(١) فى كلتا النسختين : « المــانى » بالنون ؛ وهو تحريف ، اذ لم نتبين وجه النسبة فى هذا اللفظ فيما راجعناه من المظان الكثيرة التى بين أيدينا . والمــائى : نسبة الى مواضع يقال لها « ماه » قلبت الهاء فى النسب همزة أو ياء ، كما فى مستدرك التاج مادة « موه » . وقد ذكر صاحب (الفلاحة النبطية) أن أكثر نبات الزعفران وأقواه ما نبت فى بلاد « ماه » . ثم ذكر بلادا أخرى ينبت فيها ، وقال : وما نبت منه فى اقليم بلاد « ماه » أجودها كلها (القسم الثانى ورقة ٢٥٨ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٠ زراعة) وماه : اسم يطلق على (نهاوند) و(الدينور) ، ويقال لهما : المــاهان . والمــاه فى الأصل : قصبة البلد ، ومنه قيل : (ماه البصرة) و(ماه الكوفة) و(ماه فارس) ويقال لنهاوند وهمذان وقم : ماه البصرة ؛ قال الأزهرى : كأنه معرّب ؛ وكذلك يسمون مدينة نهاوند : (ماه دينار) وخالف فى ذلك حمزة بن الحسن ، فذكر أن (ماه دينار) هى (ماه الدينور) ، وأن (ماه) اسم للقمر ، فقد قال فى كتاب (الموازنة) : كان فى ممالك الفرس عدة مدن مضافة الأسماء الى اسم القمر . وهو ماه ، نحو (ماه دينار) و(ماه نهاوند) و(ماه بهراذان) ، و(ماه شهر ياران) و(ماه بسطام) و(ماه كران) و(ماه سكان) و(ماه هروم) ، فأما ماه دينــار ، فهو اسم كورة الدينور ؛ وماه شهر ياران : اسم الكورة التى فيها طزر والمطامير والزبيدية والمرج ، وهو دون حلوان ؛ وماه بهرازان فى تلك الناحية ؛ وماه بسطام : أقدر تقدير الأسماء أنه بسطام التى هى حومة كورة قومس . وماه كران هو الذى اختصروه فقالوا : مكران ؛ وكران : اسم لسيف البحر ، وماه سكان : اسم لسجستان ، وسجستان يسمى سكان وماسكان أيضا ... وماه هروم : اسم كورة الجزيرة الخ .

(٢) قد سبق الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر ، فانظرها .

الخالِص أوقيّتان، ومن العسل المـاذِيّ[1] الأبيض أوقيّتان، ويحرَّك ساعة، ثم يوضع عن النار، ويُبسَط على بارِيَة[2] بعد أن يَبرُد، ويُعتَّق سنة، ثم يُقلَع فيُدَقّ دقّا ناعمـا ويُعجَن بمَيْسُوس أو بماءٍ قَراح، ويُلقَى على كلّ مَنٍّ[3] منه من المسك ربعُ مثقال بعد سحقِه، ومن العسل خمسةُ دراهم، ويقرَّص ويُختَم. قال التَّيمىّ: هذه الأَفاوِيهُ — فيما أَرَى — كثيرة لرطلين عَفْصا؛ وأنا أَرَى أن يكون العَفْص سبعةَ أرطال بالبَغدادىّ، فإنّه[4] يَحتمل ذلك.

صـنعة رامِكٍ وسُـكٍّ آخَرَ

ذَكر التَّيمىُّ عن أحمـدَ بنِ أبى يعقوب أنّه عَمِـلَه، وأنّه أجوَدُ ما يكون من السُّـكّ. قال ابن أبى يعقوب: صـفة عَمَلِ الرّامِك أن يؤخذ من العَفْص البالغ الجيّد، فيُرَضّ[5]، ويُصيَّر فى قِدْر كبيرة، ويُصَبّ عليه من المـاء ما يغمره، ثم يُطبَخ أيّاما، ويزاد فى مائه كلّمـا نَشِف حتى يَنضَج، ثم يُخرَج العَفْص فيُجعَل فى شمسٍ حارّةٍ حتّى يَجِفّ، ويُرفَع ذلك المـاء الذى طُبِخ فيـه، ويؤخذ ما جَلَس فيه من العفص فيجفَّف، ويضاف الى العفص، ويُدَقّ، ويُنخَل بمُنخُلِ شَعر، ثم يُرَدّ إلى القِدْر؛ ويُصَبّ عليه ماءٌ كثير، ويُطبَخ به يومين أو ثلاثةً حتى تَذهبَ العَفْصيّةُ

(١) المـاذى: العسل الأبيض الرقيق.

(٢) البارية: الحصير المنسوج من القصب؛ وهو لفظ معرب؛ ويقال فيه: «البارىّ» و «البورىّ» و «البوريّة».

(٣) تقدّم بيان المن فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) «فانه» أى هذا المقدار؛ وبهذا الاعتبار ساغ له تذكير الضمير.

(٥) فى (١): «قرص»؛ وهو تصحيف.

منه ، ثم يُسحَق على صَلايةٍ حتّى يَجِفّ ، ويُصنَع منه أمثالُ العِلْك ؛ فهـذا عمَلُ الرامِك، ولم يذكر فيه البلح ولا الزَّبيب .

قال : فاذا أردتَ أن تصنع من هذا الرامِك سُكّا فخـذ منه ستّةَ أجزاء، ومن نَوافِج المِسك جزءا واحدا، فتنزع الشَّعر عن النَّوافِج، وتقرِّضها، وتدقّها دقّا شـديدا وتطحنها ، ثم ٱخلطها بالستّة أجزاء، وٱسحق ٱلجميعَ على الصَّلاية بالمـاء أو بالشراب أو بالنَّضوح حتى يسـتوىَ ، ثم يقرِّص ، فاذا جَفّ فخذ منـه ستّةَ أجزاء ، ومن المسك التُّبَّتِىّ جزءا واحدا، وٱسحق المسك، وحُلّ السُّكّ بمـاءِ ورد ، وأضفه اليـه بالعجن ٱلجيّد، وقرِّصـه يأتك سُكّا طيّبا .

فإن أردتَ أن تعمل منه منصَّفا أو مثلَّثا أوغيرَ ذلك، فٱسحقه، وألق على كل مثقال منه نصفَ مثقال من ٱلمسك، أو ثلثَ مثقال، أو دون ذلك ، وٱعجنـه به وقرِّصـــه .

قال : فهذا أفضل ما يُعمَل من السُّكّ .

وأمّا ٱلأدهانُ[1] [وما قيل[2] فيها] — فهى كثيرة، نقتصر منها على ما يدخل فى أصناف الطِّيب والغَوالى ، مِثلِ دُهنِ البانِ ، ودُهنِ الزَّنْبَـق ، ودُهنِ الحَـاحِم ودُهنِ ٱلخِيرىّ، ودُهنِ التُّفّاح، والأدهانِ المرَكَّبةِ العَطِرة، وأدهانٍ تُصلِح الشُّعور .

ولنبدأ بذكر دُهن البـان وحَبِّـه ومعادنِه وكيفيّـةِ طبخِه — قال محمـد بنُ أحمدَ التَّميمىّ : شجر البان شجـر عظيم، يَحمل حَبّا ٱلطفَ من البنـدق

(١) نقل داود عن بعض العلماء أن الأدهان من ٱستخراج إبقراط ؛ ثم قال : ورأيت ما يدل على أنها من قبله ، فقد ذكر فى جوامع التراكيب أن (فيثا غورس) أخذ الفستق فٱعتصر دهنه ، وكان يستعطه مع مرارة الكركى تارة ويدهن به أخرى . وكان يدهن به عند الرياضة (التذكرة ج ١ ص ٢٢٢ طبع بولاق).

(٢) لم ترد هذه العبارة فى «ب» .

فى مقدار حَبّ البُنْق ، مستديرا ، ذا ثلاثة حدود كحدود[(١)] أزِجّة[(٢)] النُّشّاب ، يُكسَر فيَخرج من جوفه حَبّ أبيض دُهنىّ ، تعتريه مرارةٌ يسيرة ؛ ومنابتُه بيَنْبُع من أرض الحجاز ، وبأرض عُمَان[(٣)] ، وباليَمَن .

قال : ومنه شىء يَنبُت بأرض مصر ، وشىء يُجلَب من أرض الشَّراة[(٤)] وناحيةِ البَلْقاء[(٥)] ، وشىء يَنبُت على شاطئ البُحيرة[(٦)] المنتنةِ ما بين زُغَر[(٧)]

(١) هذه الكاف لم ترد فى كلتا النسختين ؛ ولا يستقيم الكلام بدونها ؛ والمعنى أن هذه الحدود مسننة كأسنان الأزجة .

(٢) الأزجة : نصال السهام ، واحده زج بضم الزاى وتشديد الجيم ؛ وهذا الجمع ذكره ابن سيدة وأنكره الجوهرى ، فقال : إن جمع الزج زجاج بكسر الزاى لاغير ؛ ولا تقل «الأزجة» .

(٣) عمان : كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند .

(٤) كذا ورد هذا اللفظ بالشين المعجمة فى ب المنسوب خطها الى المؤلف . والمراد بالشراة هنا : صقع بالشأم بين دمشق ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يدل على ذلك قوله بعد : وناحية البلقاء . وشىء ينبت على شاطىء البحيرة المنتنة الخ . إذ لا يخفى أن ذكر هذين الموضعين يعين أن المراد بالشراة هو ما ذكرنا . فقد ذكر أبو الفداء أن البلقاء إحدى كور الشراة ، انظر الحاشية الآتية بعد فى الكلام على البلقاء . وتطلق الشراة أيضا على موضع آخر ، وهو جبل شامخ مرتفع من دون عسفان ، وهو عن يسار عسفان . والذى فى (ا) : «السراة» بالسين المهملة ؛ وهو تصحيف لبعد ما بين السراة وبين ناحية البلقاء ، إذ السراة هى الجبل الذى فيه طرف الطائف الى بلاد أرمينية . وفى كتاب الحازمى أن السراة هى الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن ، ولها سعة ، وهى باليمن أخص .

(٥) البلقاء : كورة من أعمال دمشق ، بين الشأم ووادى القرى ، قصبتها عمان ، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة . وقال أبو الفداء فى تقويم البلدان : البلقاء إحدى كور (الشراة) وهى خصبة ، وقاعدتها (خسبان) بضم الخاء ، وهى بلدة صغيرة ..... و (البلقاء) من (أريحا) على مرحلة ، و (أريحا) فى جهة الغرب من البلقاء .

(٦) فى تقويم البلدان أن هذه البحيرة يصب فيها نهر الأردنّ ، وهو نهر الشريعة ، وأنها فى آخر الغور من جهة الجنوب ، ودورها أكثر من مسيرة يومين . وفى موضع آخر منه إنها جنوبى أريحا ، على بعد شوط فرس . وفى (معجم البلدان) أنها تسمى (المقلوبة) أيضا ، وأنها غربى (الأردن) .

(٧) زغر : قرية بمشارف الشأم .

وأَرِيحا[1]، وأجوده اليَمَنىّ والحجازى؛ وأجودُ حَبّه ما كان قِشرُه يَضرب الى السَّواد؛ وأمّا الأبيض القِشر فإنّه ردىء، يَعرِض له الفَوَرانُ عند طَبْخه .

وأمّا كيفيّة إخراجِ دُهنِه — فإنّه يؤخذ هذا الحَبّ فيُطحَن فى أَرْحيَةٍ مُعَدَّةٍ له، ثم يُجعَل فى قِدرِ نحاس كبيرة تَسَعُ عشرَ كَيالجَ وأكثرَ بالكِيلَجَة[2] الشاميّة، ومقدار كلِّ كِيلَجَةٍ ثُمُن[3] إردبّ بالكيل المصرىّ، ويكون الحَبّ المطحون قد ملأ ثلثى القِدر ويُصَبّ عليه من الماء ما يَغمُره، وزيادة أربع أصابع مفتوحة، ويوقَد تحته بالحطب الجَزْل[4] حتّى يغلِىَ، فيُطبَخ نصفَ يوم، وكلّما نقص الماءُ يزاد، حتى إذا انتصف النّهار يُقطَع عنه الوَقود، ويُترَك حتّى يَبرُد، ثم يُلقَط ما طلع فوقه من الدُّهن ويُجمَع فى آنيةٍ حتى لا يَبقَى من الدُّهن شىء؛ فهذا استخراج حَبِّ البان .

(١١٣) وأمّا كيفيّة [طبخِه[5]] بالأفاوِيهِ حتى يصير بانًا مرتفِعا — فمنه كوفىّ ومنه مَدنىّ .

---

(١) أريحا : قرية بالغور من بيت المقدس على مسافة يوم ؛ وعلى أربعة أميال منها مشرقا نهر الأردن، قال فى العزيزى : إن بينها وبين بيت المقدس اثنى عشر ميلا فى جهة الغرب (تقويم البلدان لأبى الفداء ص ٢٣٦ طبع ليدن) . وذكر ياقوت أن بعضهم يروى اسمها (أريخا) بالخاء المعجمة، لغة عبرانية، وقال : إن بينها وبين بيت المقدس يوما للفارس فى جبال صعبة المسلك .

(٢) كذا ضبط هذا اللفظ فى شرح القاموس ضبطا بالعبارة؛ ويقال فيه : « كِلقة » «وكِلكة» أيضا كما فى (شفاء الغليل) .

(٣) ماذكره المؤلف هنا هو مقدار الكيلجة الشامية؛ أمّا مقدارها فى واسط والبصرة فهو مائة وعشرون قفيزا، وكل قفيز أربعة مكاكيك، وكل مكوك خمسة عشر رطلا، وكل رطل مائة وثمانية وعشرون درهما (مفاتيح العلوم ص ١٥ طبع أوربا) .

(٤) الجزل : الغليظ العظيم من الحطب .

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى (ا)

أمّا الكُوفىّ — فقال أحمد بنُ أبى يعقوبَ مولى ولد العبّاس فيه : يؤخذ الدُّهن المستخرَج من حَبّ البان، فيُجعَل فى قِدْرِ برام[1] كبيرة، ويُطبَخ بمثلِه من الماء الصافى، ولا يزال يُطبَخ أيّاما، وكلّما نَشِف الماء نُقِل إلى قِدْر أخرى، ويُصَبّ عليه من الماء الصافى نظيرُ الدُّهن، ويُطبَخ حتّى يَنشَفَ الماء ويَبقَى الدُّهن؛ يُفعَل ذلك به ثلاثَ مرّات؛ ثم يُطبَخ بالماء الصافى والوردِ الذى لم يتفتّح ثلاثةَ أيّام؛ ثم يُطبَخ بالماء والصندلِ الأصفر المَقاصِيرىّ المخروطِ أيّاما ثلاثةً حتّى تَذهب عنه رائحةُ الدُّهن؛ ثم يُطبَخ بالعُود الهندىّ السِّنّ والماء الصافى يومين أو ثلاثة ثم يُطبَخ بسُكّ المِسْك المنصَّف المسحوق بماء الورد يوما، وهذا الطبخ الّذى بالسُّكّ وماءِ الورد يسمَّى : النَّشّ، ويسمَّى بانُه : البانَ المَنْشُوش .

قال : ثم يُنزَل ويصفَّى، ثم يُنَشّ بعد طبخه بالسُّكّ وماءِ الورد بالمِسْك التُّبَّتِىّ المسحوقِ المحلولِ بماء الورد الجُورىّ نَشّا جيّدا حتّى يَنشَف عنه ماء الورد، ويأخذَ البانُ قوّة المسك .

وأمّا البان المَدَنىّ — فإنّ أهل المدينة يطبخونه بالأفاويه الطيّبة مثلِ

(١) استعمل المؤلف لفظ البرام هنا بمعنى الجنس، أى الفخار؛ وهو استعمال عامىّ معروف فى مصر وغيرها، اذ البرام فى كتب اللغة جمع برمة بضم الباء، لا اسم جنس . قال الجواليقى فى كتاب ما تضعه العامة فى غير موضعه : من ذلك قدر برام، يعنون بالبرام الحجارة، وذلك غلط؛ وإنما البرام جمع برمة . ثم قال : والصواب أن تقول : برام الحجارة؛ أو تقول : برام، فيعلم أنها من حجارة المعرّب والدخيل للدنى المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ لغة .

السَّليخة[1] والسُّنبُل[2] والقَرَنْفُل والكَبَابة[3] والهَرْنُوة[4] والصَّنْدَل الأصفر المخروط، وسِنّ العود

(١) السليخة : نبات عطرى كأنه قشر منسلخ . وقال ديسقوريدوس : السليخة أصناف كثيرة تكون فى بلاد العرب المنبتة للأفاويه، ولها ساق غليظة القشر، وورق شبيه بورق النوع من السوسن الذى يسمى إيرساء، واختير منها ما كان ياقوتيا حسن اللون دقيق الشعب أملس غليظ الأنابيب طويلها يلذع اللسان ويقبضه، ويحذوه حذوا يسيرا، عطر الرائحة، طيبها، عفص الطعم، دقيق القشر، مكتنزفيه شىء من رائحة الخمر . وقال داود : السليخة قشر شجرى هندى ويمنى . وقيل : من خواص بلاد عمان الخ ومن أسمائها قسيا، وهو معرّب؛ ونجب بالتحريك، وهو اسم لكل قشر، وخص به قشر السليخة؛ وأسمها بالفارسية كسيلا، وكسيلة، وكهيلة . (معجم أسماء النبات ص ٤٩) وذكر أرباب العلم الحديث فى السليخة أنّ أسمها بالافرنجية كاس أنيواس، ومعناه قرفة خشبية، وأسمها باللسان النباتى عند لينوس : لوروس كاسيا وقد تسمى بالافرنجية : (قرفة مليبار)، وشجره يقرب من شجر القرفة الحقيقية، وبالجملة هى نوع من القرفة ينبت فى الأماكن التى تنبت فيها القرفة الحقيقية كبلاد جاوة وسمطرى ومليبار وسيلان والهند، وتأتى كثيرا من الصين حيث ينبت نباتها أيضا هناك، وكانت تسمى أيضا عند القدماء : اكسيلوكاسيا، أى خشب السليخة، لكونها أغلظ من قشرة القرفة الحقيقية، ولهذا تسمى بما معناه : القرفة الغليظة، وطعمها فى الفم دبق لزج مع بعض مرارة، وكأنها تذوب فيه، ولونها أسمر، ورائحتها أقل عطرية الخ المادة الطبية ج٢ ص ٢٩٤

(٢) تقدّم الكلام على السنبل فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ من هذا السفر، فانظرها وانظر الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الرابع من هذا السفر فى صفحة ٤٣ أيضا .

(٣) الكبابة : هى ثمر نبات يجلب من الصين، منها كبيرة، تسمى حب العروس، ومنها صغيرة تسمى الفلنجة؛ وشجرها كالآس، وأجودها الرزين، الطيب الرائحة . وقال الأوروبيون : هى نبت خالد من نبات الهند، والمستعمل منه فى الطب الثمر، ورائحته عطرية شديدة، وطعمه حريف حار (الشذور الذهبية). وقال فى (المادة الطبية ج ٢ ص ٣٤٩) إن أسم هذا الجوهر بالافرنجية : «كوبيب» بفتح الباء الأولى ويسمى بما معناه : الفلفل ذو الذنيب؛ ويسمى شجره باللسان النباتى : (بيركوبيبا)، وهو شجر ينبت بالهند وبلاد جاوة وافريقية . وقال فى صفاته النباتية : إن هذا النوع يعلق بما يجاوره، وجميع أجزائه خالية من الزغب؛ وساقه متسلقة متعوجة مفصلية، والأوراق ذنيبية بيضاوية مستطيلة، وأحيانا تكون سهمية كاملة جلدية، غير متساوية الأعصاب من الجانبين، والأزهار بهيئة سنبلة معلقة؛ وحواملها الأخيرة طويلة، ولذلك يسمى أيضا بالافرنجية بما معناه : الفلفل الطويل الذنب؛ والثمر حصى مسمر مكرش، محمول على ذنيب . وقال فى صفاته الطبيعية : إن هذه الحبوب الحصية الشكل أكبر حجما من الفلفل الأسود، وهى مسودة مكرشة، وتبقى حافظة لعنيقها، أى حاملها، بواسطة أعصاب قوية، وطعمها حار، فيه بعض مرارة الخ .

(٤) تقدّم الكلام على الهرنوة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٣ من هذا السفر، فانظرها .

الأسود، يطبخونه بكلّ واحد من هـذه الأصناف أيّاما مع المـاء الصافى؛ ثم يبرّد ويُطبَخ بالصّنف الآخر حتّى ينتهى — على ما نَصِفه إن شاء الله [تعالى] — إلّا أنّ هذا الدُّهن لا يَصلُح للغـوالى، لأنّه يتغلّب على روائح العنبر والمِسك بروائح الأفاويه وحِدّتها، فلا تستعمله الملوك إلّا أن تَدهُن به أيديَها فى الشـتاء، وتستعمله النساءُ فى أطيابهنّ وخُمُرِهنّ .

صنعة بانٍ آخَر — قال التّميمىّ فيه : هذا بانٌ رَكّبتُه أنا، واخترعتُه رأيا من ذات نفسى، فجاء غايةً فى الطِّيب؛ وهو أن ينقّى من حَبّ البـان البالغ فى شجره ما كان قِشرُه يَضرِب إلى السواد، فتنقّى منه مقدارَ ما يُخرِج لك من الدُّهن زيادةً على ثلاثين مَنّا، وذلك يَخرُج من مائةِ مَنٍّ من الحَبّ البالـغ إذا طُحِن وطُبِخ وأُحكِم طبخُه — على ما قاله أبو عمران موسى اليهودىّ المعروفُ بالبانىّ[1] . وقال أبو سعيد اليهـودىّ العطّار — وكان عالمـا بعمل البان وعلاجِه وطبخِه — : إنّ الكِيلَجة الفِلَسْطِينِيّة تُخرِج مَنّا[2] من الدُّهن، وكلُّ كِيلَجة وربع نصفُ وَيْبـة بالكيل المصرىّ والوَيْبـة سدسُ إردبّ، فتجعل من الثلاثين مَنّا[2] عشرين مَنّا[2] أوّلا، وعشرةَ أمناءٍ ثانيـا .

قال : فاذا حَصّلتَ من حَبّ البـان ما يُخرِج لك ذلك، وطحنتَه، وجمعتَ

(١) لم يذكر ابن أبى أصـيبعة ولا القفطى موسى اليهودى البانى، كما اننا لم نجـد فيمن لقب بالبانى من اسمه موسى انظر أنساب السمعانى وغيره من كتب الأنساب . وموسى اليهودى الوارد ذكره هنـا غير موسى بن ميمون الطبيب المعروف .

(٢) المنا بالألف المقصـورة، هو المن بتشديد النون ؛ وقد أوضحنا الكلام عليه فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ فأنظرها .

دُهنه كما تقدّم، تعمد الى قِدْرٍ برام[1] لم يدخُلها شيءٌ من الدنس، تَسَعُ أربعين مَنًا — فتَصُبّ فيها من دُهن البان عشرين مَنًا بعد أن يَجلِس[2]، وتصفّيه؛ ثم تعمد الى مَنَوَين من السَّليخة[3] الحمراء تكون قضبانا دِقاقا، فتغلى لها من الماء فوق غمرها، وتصُبُّه عليها فى إناءِ غَضارٍ[4] أو صُفْر، وتَكُمّ[5] الإناءَ ليرجع بُخار الماء اليها وتتركها منقوعةً يوما وليلة، أو يومين. ورأى أبو سعيد أن تُغلَى على النار بعد نَقْعها ثم يُصفَّى ماءُ السَّليخة على دُهن البان، وتعاوَد بماءٍ ثانٍ فتُغْلَى به أيضا حتى تَخرُج قوّتُها، وتصفّيه على دُهن البان أيضا، وتطبخه حتى يَنشَفَ الماء ويَبقَى الدُّهن فترفعه فى قراريب[6] بعد ترويقه؛ ثم تعمد إلى السَّليخة فتغمُرها بماءٍ ثالث[7]، وتطبخها به

(١) تقدّم الكلام على الاضافة فى قولهم: «قدر برام» فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨١ من هذا السفر، فأنظرها.

(٢) يجلس، أى يغلظ؛ يقال: «عسل جلس» بفتح أوله وسكون ثانيه، أى غليظ.

(٣) تقدّم الكلام على السليخة وأنواعها وصفاتها النباتية فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٢ من هذا السفر، فأنظرها.

(٤) الغضار كسحاب: الطين اللازب الأخضر الحرّ، يتخذون منه بعض الأوانى.

(٥) تكمّ الإناء، أى تحكم تغطيته لئلا يتصاعد البخار منه؛ واستعمال الكمّ بهذا المعنى استعمال عامىّ معروف فى مصر وغيرها؛ ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة بهذا المعنى؛ والعامة ينطقونه بتخفيف الميم وضمها فى المضارع؛ ولهذا ضبطناه بالضم تبعا لنطقهم. وقد ذكر صاحب التاج فى مستدركه ما يفيد أنهم يشدّدون الميم، فقد قال: التكمير: التكميد، مولدة.

(٦) تكرر ورود هذا اللفظ هكذا فى كلتا النسختين فى عدّة مواضع تكررا يدل على أنه غير محرّف عن لفظ آخر. والمراد به نوع من الأوانى معروف فى بعض أقاليم مصر، ويدل على ذلك سياق الكلام أيضا وواحده "قرابة" بتشديد الراء، ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة ولا فى كتب الطب ولا فى الكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة والمعرّبة على كثرتها من ذكر هذا النوع من الأوانى ولا من وصفه. وقد يتوهم أن هذا اللفظ محرّف عن "قوارير" وليس كذلك لما سبق.

(٧) فى كلتا النسختين "ثان"؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يتبين ذلك مما سبق، فقد ذكر الماء ان الأوّلان فى هذه الصفحة، الأوّل فى السطر الثالث والثانى فى السطر السادس.

طبخة خفيفة لتستخرج قوتها ، ثم تصفيها ، وتطبخ بالماء الذى يخرج منها العشرة[(١)] أمناء البان الثانية ، وتعزلها فى قراريب[(٢)] مفردة ؛ فإن كانت السليخة قد ضعفت بعد استخراجك منها الماء الأول فقوها بنصف من آخر لتطيب به العشرة أمناء الثانية ؛ وكذلك تفعل فى كل نوع من الأنواع التى نذكرها إذا استخرجت ماءه الأول ورأيته يضعف عن أن يطيب البان الثانى فقوه بشىء منه طرى ، ثم تنقع من السليخة[(٣)] الحمراء التفاحية المنسوفة منا ونصف من فى ماء حار يوما وليلة ، ثم تغليه وتصفيه على العشرين من بان[(٤)] المطبوخة بالسليخة فى القدر ، ثم صب عليه من الماء ما تكمله به حتى يصير الماء نظير الدهن ، واطبخه على الرسم حتى ينشف الماء ويبقى الدهن فأعده فى قراريبه ، ثم انقع السليخة أيضا فى ماء ثان ، وقوها إن ضعفت ، واطبخ بها العشرة أمناء[(٥)] الدهن الثانية كما تقدم ؛ ثم برده ، وأعده فى قراريبه ؛ ثم خذ من قرفة

(١) كان الأفصح أن يقول : «عشرة» باسقاط أداة التعريف من اسم العدد ، فان تعريف اسم العدد فى هذه العبارة ونحوها من كل عدد مضاف الى معدوده ، مذهب كوفى ضعيف قياسا واستعمالا ؛ أما القياس فلأن تعريف المضاف يحصل بالمضاف إليه ، فلا مقتضى لتعريف المضاف باللام ؛ وأما الاستعمال فلأنهم نقلوه عن قوم غير فصحاء ، والفصحاء على غيره ، قاله الرضى فى (شرح الكافية) .

(٢) تقدم بيان المراد بالقراريب فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٨٤ من هذا السفر ، فانظرها .

(٣) فى كلتا النسختين « الأمليخة » بالألف والميم ؛ وهو تحريف إذ لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب . وقد تقدم شرح السليخة وأنواعها وصفاتها النباتية فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٢ من هذا السفر فانظرها .

(٤) فى كلتا النسختين « المن البان » باثبات أداة التعريف فى كلتا الكلمتين ، وهو خطأ لا تجيزه القواعد .

(٥) قرفة القرنفل : نوع من الدارصينى ، وهى دقيقة صلبة ، الى السواد ماهى ، ليس فيها شىء من التحلحل أصلا ؛ ورائحتها وطعمها كالقرنفل ، وقوتها كقوته . وذكر إسحاق بن عمران غير هذا النوع أنواعا أخرى من الدارصينى لا نرى مقتضيا لذكرها انظر مفردات ابن البيطار فى الكلام على الدارصينى . وذكر =

القَرَنْفُل ٱلحـارّةِ الذّكيّةِ مَنَوين فدُقّهما تهشيما ، ثم ٱغلِ لها عشرين مَنًّا من المـاء وصُبّه عليهما ، وٱكمُره[1] بالغطاء يومين وليلتين ، ثم ٱغلِه بهما غَليةً واحدة ، وصفِّه على البان الأوّل ، وٱطبخه نصفَ يوم حتّى يَنشَفَ المـاء ويَبقَى الدُّهن ، فبرِّده ، وأوعِه وأَحكِم سَدَّه ، وٱنقع القرفةَ أيضا بمـاءٍ حارّ ، وقوِّها بربع مَنّ ، ودَعْها يوما وليـلة ثم ٱغلِهـا ، وصَفِّ ماءَها على البان الثانى حتّى يَنشَف المـاء ويَبقَى الدُّهن ، فبرِّده وأَعِدْه إلى ظروفه ، وأَحكِم سَدّها .

قال : فإن أَحببتَ أن ترفعه بالقَرَنْفُل — وهو أفضل — ، فخذ من القَرَنْفُل ٱلجيّد

= أرباب العلم الحديث أن ٱسم قشور القرفة بالافرنجية (قانيل) ، والشجرة (قانليير) ، وٱسمها باللسان النباتى لوروس سينا موموم فلوروس ، أى الغار ؛ ويقال : إن ٱسم (قانيل) بالافرنجية آت من الاسم اللاتينى (قانيلا) ، ومعناه المزمار الصغير ، بسبب الشكل الملتوى الذى لقشور القرفة . وشجر القرفة كثير الوجود فى جزيرة سيلان ، وينبت هناك بنفسه ، وٱستنبت فى حولها الى أربعة عشر فرسخا بين (ماتوها) و(نجمبو) وتسمى تلك المسافة بمزرعة القرفة ؛ وتوجد أيضا بالصين وبلاد الهنـد كلها وبلاد جاوة وجزيرة سمطرى ومليبار وجزائر فيليبين الخ ما ذكروه من المواضع التى ينبت فيها هذا الشجر . وقالوا فى الصفات النباتية لهذا الشجر : إن جذعه يعلو فى الأرض الجيدة الى خمسة وعشرين بل ثلاثين قدما ، وأحيانا يكون قطره ثمانية عشر قيراطا ، والقشرة الظاهرة سنجابية من الخارج ، محمرة من الباطن ؛ وقالوا فى كيفية ٱجتنائها : تفصل أوّلا بشرة القشرة ، ثم تصنع فى تلك القشرة شقوق مستطيلة ؛ ثم تزال وتجفف بسرعة فتلتوى الى الباطن ؛ وتستدير مدّة التجفيف ؛ وتموت فروع الشـجر المتعرية عن قشرتها ؛ فيقطع الجـذع ، فتخرج من الجذر أغصان كثيرة تنمو بسرعة ، ويمكن بعد خمس سنين أن تجنى منها القشرة جنيا جديدا ، فاذا بلغت الشجرة ثمان عشرة سنة كانت قشورها رديئة . انظر المـادة الطبيـة ج ٢ ص ٢٨٦

(١) قد سـبق التنبيه على أن ٱستعمال الكمر بمعنى إحكام التغطية ، كما هو المراد هنا ، ٱسـتعمال عامى اذ لم نجده فيما بين أيدينا من كتب اللغة . انظر توضيح ذلك وبيان الوجه فى ضبطه بضم الميم فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٨٤ من هذا السفر .

الحَبّ المنسوف نصفَ مَنّ، فهشّمه، وأغلِ له من الماء عشرين مَنًا، وصُبّه عليه وهو حارّ، وغطّه يومين وليلتين، ثم صفّه على البان الأوّل فى القدر، وأطبخه به وأفعل فى طبخه نحوَ ما تقدّم؛ وأنقع القَرَنْفُل المسلوقَ فى سبعة أَمْناء من الماء الحارّ ثم أغلِه، وأطبخ به البان الثانىَ كما تقدّم؛ ثم خذ من البَسْباسة (١) الحمراءِ نصفَ مَنّ فأنقعها فى عشرة أمنانٍ من الماء الحارّ يوما وليلة، وصَفِّ الماء على البان، وأطبخه به كما تقدّم، وأفعل فى البان الثانى كما تقدّم، ثم يُطبَخ بماء الورد بعد البَسْباسة (١)؛ ثم خذ من الورد الفارسىّ الأحمرِ المنقّى من أقماعه مَنَوَين، وأغل لهما من الماء الصافى عشرين مَنًا، وصُبّها عليهما، وأكمُره بما يَرِدّ بخارَه فيه، ودَعْه فيه يومين ثم صَفِّه على البان الأوّلِ من غير أن تغليَه، وأطبخه به على الرسم، وصُبّ على الورد عشرةَ أَمْناء من الماء الحارّ، وقوّه بنصفِ مَنّ مِنَ الورد الطرىّ، وصَفِّه على البان

(١) قال داود: البسباسة قشر جوز بوا، أو شجرته، أو أوراقها؛ وهو أوراق متراكمة شقر، حادة الرائحة، حريفة عطرية. وورد فى معجم أسماء النبات ص ١٢٢ ضمن أسمائها (داركيسه) (وجاركون) (وجاريكون) (وجارجون) وكلها فارسية. وذكر صاحب المادة الطبية ج ٢ ص ٣٢٦ أن اسمها بالافرنجية (ماسيس). قال: والأحسن أن يقال فى تعريبها: ماقيس، ولهذا قال أطباؤنا إنه يقال له باليونانية: (ماق)، واسمها بالرومية (عريسيا) وأهل الشأم يسمونها "الداركسته" وهى الغلاف المحيط بلوزة جوز بوا كلها إلى قاعدتها حيث يلتصق بها هناك وينفذ فى البزرة، وينقسم الى خيوط مسطحة متفرعة متشبكة وعروية، أى على هيئة عرا غير متساوية، غضروفية قابلة للتفتت، ولونها أحمر قوى اذا كانت رطبة صغيرة السن، وتصفر مع طول الزمن، وتحيط بالنواة من جميع الجهات، وتعانقها كأنها زاحفة عليه، وعادتهم أن يغمسوها فى ماء البحر قبل تجفيفها، وهى أكثر عطرية من جميع أجزاء الثمرة، بسبب كثرة الدهن الدسم الشحمى والدهن الطيار المحتوية عليهما ... وطعم هذه البسباسة حار عطرى، ذكى الرائحة، قوى الانتشار كطعم القرفة والقرنفل، ولكنها أقوى شدّة منهما، وأقل فلفلية من طعم جوز الطيب. ثم نقل عن أطباء العرب أن أجودها ما كان أشقر مائلا الى الحمرة، حادّ الرائحة؛ وفى ذوقها بعض قبض الخ.

الثانى، وأطبخه به كما تقدّم؛ ثم خذ من السُّنْبُل[1] العصافير الجيّد منًا واحدا، وأغل له من الماء عشرين منًا، وصُبّه عليه، وأكمُره بما يَرِدُ بخاره فيه يومين؛ ثم أسلقه سلقةً خفيفة، وصَفِّه على البان الأوّل، وأطبخه على الرسم، وقوِّ السُّنْبُل بثُمُن منّ وأنقعه يوما وليلة فى ثمانية أمنانٍ من الماء؛ وأغله على النار، وصَفِّه على البان الثانى، وأطبخه به كما تقدّم؛ ثم خذ من الهَرْنُوَة[2] منًّا وربع منّ فهشِّمه[3]، وأغلِ له من الماء عشرين منًا، وصُبّه عليها[4]، وأكمُره حتّى ينعكس بخارُه اليها، وأتركه يومين وصَفِّه على البان الأوّل، وأطبخه به؛ ثم قوِّ الهَرْنُوَة بثُمُن منّ منها، وأنقعها فى عشرة أمناء من الماء الحارّ؛ وصَفِّه على البانِ الثانى، وأطبخه به كما تقدّم؛ ثم خذ من الصَّنْدَل الأصفر المقاصيرىّ[5] الدَّسِم منًا وأوقيّتين، وأخرِطه خرطا رفيعا على نِطْع وأجعله فى سَفَن[6]، وأغلِ له عشرين منًا ماء، وصُبّه عليه، وأكمُره يومين وليلتين، ثم أغلِه به، وصَفِّه على البان الأوّل فى القِدر، وأطبخه به حتّى ينشَفَ الماء، وبَرِّده، وأعِدْه إلى ظروفه؛ ثم قوِّ الصَّنْدَل بأوقيّتين، وأنقعه يوما وليلة وأغلِه؛ ثم صَفِّه على البان الثانى، وأطبخه به نحوَ ما تقدّم؛ ثم خذ من العود

(١) تقدّم الكلام على السنبل فى الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الرابع، انظر صفحة ٤٣ وانظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ أيضا.

(٢) تقدّم الكلام على الهرنوة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) (هشمه واغل له) بتذكير الضمير فى هذين اللفظين وما بعدهما، أى هشم ذلك المقدار واغل له كما لا يخفى، وإلا فقد كان السياق يقتضى تثنية الضمير لعوده على قوله: «منا وربع منا».

(٤) «عليها»، أى على الهرنوة.

(٥) المقاصيرى، قيل إنها نسبة الى بلد بالهند يسمى (مقاصير)، وقيل: إن بعض الخلفاء من بنى العباس أمر بأن تصنع من هذا الصنف مقاصير لأمهات أولاده وخواص سراريه، فسمى بذلك.

(٦) السفن بالتحريك: جلد أخشن غليظ كجلود التماسيح يريد الوعاء منه.

الأسوَد السِّنّ نصفَ مَنٍّ أو ثلثى مَنٍّ إن أحببتَ فأنقعه فى الماء الحارّ، وأتركه فيه ثلاثةَ أيّام وثلاثَ ليال، ثم أغلِه على النار، وصفِّه على البان الأوّل، وثَنِّ العود وثلِّثه بالماء الحارّ والغليان، وأجمع ماءَه الثانىَ والثالث، وصُبّهما على البان الأوّل وأطبخه بالمياه الثلاثة حتى يَنشَف الماء ويَبقَى الدُّهن، ثم بَرِّده وأَعِدْه إلى ظروفه ثم أغلِ العودَ بخمسة أمناءِ ماءٍ غليانا جيّدا، وأطبخ به البانَ الثانىَ حتّى يَنشَف الماء ويَبقَى الدُّهن، فبرِّده وأَوْدِعْه فى ظروفه.

قال: فهذا البانُ الأوّلُ الذى لا بَعدَه، والثانى الذى دونه، ولم يَبقَ إلّا نَشُّه[1] بالمِسك وسُكِّ المِسك، على ما نصف إن شاء الله تعالى.

قال التّميمىّ: ورأيتُ أبا سعيد العطّارَ يُؤثِر أن يُهشِّم القرفةَ والقَرَنْفُلَ والهَرْنُوَةَ، ويَجمَع ذلك مع السُّنْبُل فى إناءٍ كبير، ويَصبّ عليه من الماء الحارّ ثلاثين مَنًّا، وينقعه فيه يومين وليلتين، ثم يصفّى ويُعزَل، ويَصُبّ على الأفواه[2] ماءً حارّا عشرين مَنًّا، ويصفّى على الماء الأوّل فى سفَن[3]؛ ثم يَطبخ به البانَ الأوّل فى ثلاث سَقَياتٍ وهو على النار، كلّما نَشِف ثلثُ الماء صبّ عليه الثلثُ الآخَر فإذا انتهى يبرَّد ويُوعَى فى ظروفه حتى تُثَنَّى الأفواهُ بماءٍ ثانٍ للبان الثانى، وتُطبَخ به على الرسم.

(١) وردت هذه الكلمة فى (أ) مهملة الحروف من النقط؛ ولم يرد فى (ب) من حروفها غير الشين والهاء؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا، يقال: نششت الدهن بالطيب، اذا ربيته به؛ وفى حديث الزهرى انه كره التوفى عنها الدهن الذى ينش بالريحان، أى يطيب بأن يغلى فى القدر مع الريحان حتى ينش.

(٢) فى كلتا النسختين: (الأمواه) بالميم؛ وهو تحريف؛ والأفواه: ما يعالج به الطيب. وعبارة بعض اللغويين: الأفواه ما أعد للطيب من الرياحين، واحده فوه بضم الفاء، وجمع الجمع أفاويه.

(٣) يريد بالسفن هنا: الوعاء المتخذ من السفن، وهو جلد أخشن غليظ كجلود التماسيح.

وقال : هذا أروَح وأخفُّ مؤونةً من تَكرار الطبخ بكلّ نوع على حدته إلّا الصَّنْدَلَ والعُود، فإنّه لا بدّ من طبخهما بماء، كلٌّ منهما على الانفراد .

قال : ورأى سعيدُ بنُ عمّار البانىُّ وأبو عمرانَ بنُ الحارث البانىُّ أن يُطبَخ البانُ بالماء والأفاويه جميعا بعد نقعها، ولا يصفَّى الماءُ عنها .

(١١٥) وقالا : طبيخه بالأفاويه مع الماء أقوى له ، لأن[1] البان يمحق[2] فى الأفاويه . ٥

وقال سعيدُ بنُ عمّار : تُسلَق الأفاويهُ بعد إخراجها من البان ، كلُّ صِنف منها على انفراده، ويؤخذ ماءُ كلّ صِنف منها على حدته، ويُترَك بما بَقِىَ فيه من البان ويُعجَن به السُّكُّ[3] كما ذكرناه قبلُ .

قال التَّميمىّ : وأنا أرى عجنَ السُّكِّ[3] بأفواهٍ[4] قويّةٍ منقوعةٍ خيرا وأفضل . وقال : عَرَضْتُ هذه النُّسْخةَ[5] التى اخترعتُها — وهى التى تقدَّم ذِكرُها — على أبى عمران موسى بن الحران البانىِّ فعَجِب من ذلك، وقال : والله إنّ هذه الطريقَ لَطريق فى عمل البان وطريقُ كلِّ حاذق ، ما عدوتَ منها شيئا ، وما كنت أظنّ أحدا يصل إلى عِلم مِثلِ هذا من عند نفسه من غير أن يأخذه عن صانع ؛ [والله أعلم] . ١٠

(١) فى كلتا النسختين " إلا " مكان اللام ، ولا معنى لهذا الاستدراك هنا ، إذ العبارة مسوقة لتعليل ما ذكره قبل من أن طبيخ دهن البان بالأفاويه مع الماء أقوى له ؛ وإذن فالسياق يقتضى ما أثبتنا . ١٥

(٢) أراد بالانمحاق هنا : ذوبان الدهن واختلاطه بالأفاويه إلى حد أنه لا يتميز عنها .

(٣) قد ذكر المؤلف فيما سبق فى ص ٧٢ من هذا السفر كيفية عمل السك وأنواعه ، فانظره ، وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا .

(٤) تقدم بيان المراد بالأفواه فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٨٩ من هذا السفر، فانظرها . ٢٠

(٥) تقدم بيان المراد بلفظ النسخة هنا وتعليل استعمال هذا اللفظ فى ذلك المعنى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٠ من هذا السفر، فانظرها .

صفة نَشّ[1] البان على رأى ابى عمران البانىّ

قال أبو عمران : إذا أردتَ (نَشّ[1]) البان فاسحق للعشرين مَنًّا منه بعد أن يَبرُد ويَجلِس[2] من المِسك التُّبَّتىّ مثقالين ، ومن سُكّ المِسك المرتفع أربعةَ مثاقيل وانخلهما بحريرة ، واعجنهما بماء ورد ، ثم حُلّهما بماء الورد بعد عجنهما حتى يصيرا مثلَ الحَسَاء ، وصُبّهما على البان[3] الذى تريد نَشّه فى قِدرٍ جديدةٍ مُعَدّةٍ للنَّشّ واجعله على الكانون الذى يسمّونه (نافِخَ نفسِه[4])، أو غيرِه، وأَوقِدْ تحته بنارِ فَحْمٍ، وحرِّكه بقصبةٍ فارسيّةٍ دائما وهو يغلى حتى يَنْشَف ماءُ الورد، وعلامة ذلك أن يَعلَق المِسكُ والسُّكُّ برأس القصبة مِثلَ الشَّمَع أو مِثلَ الغالية، فأنزِله عند ذلك عن النار واتركه حتّى يَبرُد ، وارفعه .

وأمّا نَشُّه على ما ورد فى كتاب[5] العطر المؤلَّف للمعتصم بالله — فهو أن تأخذ من البان الأصلىّ الأوّلِ الجيّدِ رطلين، فتجعلهما فى طِنْجِيرٍ بِرامٍ جديد لم يدخله شىءٌ غيرُ البان، ثم خذ لهما من السُّكّ[6] المثلّث المرتفع أوقيّة ، ومن العُود

(١) تقدم بيان المراد بالنش فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) « يجلس » أى يجمد و يغلظ بعد أن كان مائعا ؛ ومنه قولهم : «عسل جلس» بفتح فسكون أى غليظ .

(٣) فى (أ) : «على النار» ؛ وهو تحريف .

(٤) نافخ نفسه : تنور يكون له أسفل على ثلاث قوائم مثقب الحيطان والقرار، وله دكان من طين يوقد و يوضع عليه الدواء فى كوز مطين فى موضع يصفقه الريح، قاله الخوارزمى فى مفاتيح العلوم .

(٥) لم يذكر صاحب (كشف الظنون) ولا صاحب (الفهرست) هذا الكتاب ضمن ما أورداه من الكتب .

(٦) قد ذكر المؤلف فيما سبق فى ص ٧٤ من هذا السفر كيفية عمل السك وأنواعه من المثلث وغيره، فانظرها وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا .

الهندىّ أوقيّة ، وآسحق كلّ واحد منهما ، وآنخله بحريرة ، ثم آعجنهما بماء الورد حتّى يصيرا أرقّ من الحَسَاءِ المصنوعِ من الدقيق ، وصُبّهما على البان فى الطّنْجير وآرفعه على نارٍ ليّنةٍ حتى يغلىَ غليانا رفيقا وأنت تحرّكه دائما بأنبوبةِ قصبٍ فارسىٍّ حتّى يَنشَف ماءُ الورد ، ويَعلَق السُّكّ والعُودُ برأس الأنبوبة ، فأَنزِله حينئذ عن النار، ودَعْه حتّى يَبرُد ، وصَفِّه فى إنائه، ثم آنزِع ما فى أسفل الطّنْجير من السُّكّ والعُود برأسِ سكّين، أو بمِلعقةٍ من حديد، وآعزله لعمل الغالية ؛ ثم آغسل الطّنْجير غسلا جيّدا، وجفّفه، وأَعِد اليه البانَ الّذى نشّشتَه بالسُّكّ والعُود، وآسحق للرِّطلين من آلمِسك أوقيّة ، ومن العنبر الشَّحْرِىّ أوقيّة ، وآنخل آلمسكَ بحريرةٍ صفيقة ، والعنبرَ بخامة[1] ، ثم آجمعهما على الصَّلاية ، وآسحقهما جميعا ، ثم حُلّهما بماء الورد مثلما حللتَ السُّكّ والعود ، وصُبّهما فى الطّنْجير على البان ، وآرفعه على نارٍ ليّنة، وأَدِمْ تحريكه بأُنْبُوبة القَصَب. ولا تَغفُل عن تحريكه ، وتكون نارُه الآن ألْيَنَ من النار الأولى التى نَشَشتَ بها السُّكّ والعود ، فاذَا نَشِف ماءُ الورد وتَعلّق آلمِسكُ برأس القصبة، فأَنزِله عن النار، وبرِّده، وآرفعه .

قال : ونشّ على أَثَرِه بما بقى فى الطّنْجير من ثُفْل[2] آلمِسك والعنبر بانًا ثانيا يكون دون الأوّل .

وأمّا دُهن الزَّنْبَق[3] وما قيل فيه — فمنه أصلىٌّ خالص ، ومنه مولَّد ؛ فأمّا الخالص فمعروف، ولم أقِف على كيفيّة عملِه فأذكُرَها .

---

(١) الخامة : واحدة الخام ، وهو ما لم يستعمل ولم يعمل من الثياب ولم يقصر قاشه ، أى لم يدق ولم يبيض .

(٢) فى كلتا النسختين : « فعل » ؛ وهو تحريف .

(٣) قد سبق الكلام على الزنبق فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٥٤ من هذا السفر، فانظرها .

وأمّا المولَّد — فقد ذكره التَّيمىّ، ونَقَله عن الكتاب المؤلَّف للمعتصم فقال : تأخذ من الشَّيْرَج الرائق مَنًا، فتصبّه فى طِنْجِيرِ برام[1]، ثم تأخذ من ورد النِّسْرِين[2] أوقيّة، ومن بِزْر الشاهِسْفَرِم[3] غيرِ المفروك وورقِه من كلٍّ واحد منهما أوقيّة، ومن بِزر النِّسْرِين نصفَ أوقيّة، ومن زهر الياسَمِين الأبيض الطرىِّ الغَضِّ لُقاطِ يومِه نصفَ رطل، ومن بِزر الورد الأحمرِ الطرىِّ نصفَ أوقيّة، ومن قُضبانِ قلوب[4] شجر البَلَسان[5] الطريّة خمسةَ قُضبان أو ستّة، وإن تعذّرت الطرية فخذ من لحائه الجافّ

(١) قد سبق الكلام عن هذه الإضافة فى قولهم "قدر برام" انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٨١ من هذا السفر .

(٢) ذكر صاحب (عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ١ ص ٤٨٥) أن اسم النسرين بالإفرنجية "غلنسير" وهو نوع من الورد البرى جميل المنظر، ذكى الرائحة . ثم نقل عن أطباء العرب أنه ورد صغير أبيض وأصفر، تشبه شجرته شجرة الورد، ومنه صنف كبير يقال له بالافرنجية (غلنسرين)، ولشجرته شوك مثل شوك العليق، وكثيرا ما يوجد بالبرارى ذوات الأودية والجبال ؛ وهو عطرى قوى الرائحة، وكلما بعد عن الماء كان أقوى رائحة ؛ وحكمه فى الغرس والإدراك كالنرجس، لكنه فى البلاد الحارة يتأخر قطافه إلى الأسد . وقال إسحاق بن عمران : النسرين نوار أبيض، فشجره يشبه شجر الورد، ونواره يشبه نوار الورد، وسماه بعض الناس بالورد الصينى، وأكثر ما يوجد مع الورد الأبيض .

(٣) الشاهسفرم : لفظ فارسى معناه ريحان الملك، وهو الحبق الكرمانى، وهو دقيق الورق جدا يكاد يكون كورق السذاب، عطر الرائحة، وله وشائع فرفيرية كوشائع الباذروج، ويبقى نواره فى الصيف والشتاء . وذكر داود أن هذا الصنف هو الأخضر الضارب إلى الصفرة، ويعرف بالريحان المطلق ويغرس فى البيوت، وإذا رش عليه الماء اشتدت رائحته .

(٤) قلوب الشجر ما كان فى وسطها غضا طريا قبل أن يقوى ويصلب ؛ وفى عبارة أخرى أن قلوب الشجر ما رخص من أجوافها وعروقها، واحده قلب بالضم، للفرق بينه وبين القلب بالفتح .

(٥) تقدم الكلام على صفة البلسان وما قاله الأطباء واللغويون فيه فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٥ من هذا السفر، فانظرها .

أوقيّة ونصفَ أوقيّة ، ومن الصَّنْدَل الأصفر نصفَ أوقيّة؛ وٱقسم هـذه الأصناف وٱنقعها فى ماءِ ورد ونَضُوحٍ وماءِ رَيْحانٍ مصعَّد من كلّ واحد نصفُ رَطل، وٱتركها يوما وليلة منقوعة، ثم ألقِ ذلك على الدُّهن مع الياسَمين ٱلطرىِّ الأبيض، ثم ٱرفعه على نارٍ ليّنة،وحرِّكه بشِقَّةِ قَنا حتى تَنشَف المياه الّتى نقعت فيهـا الأصناف، فأَنزِل الطَّنْجِير عن النار ، وأَحكِم تغطيته لوقته ، وٱتركه إلى الغـد ، ثم صَفِّ ٱلدُّهن عن الثُّفل ، فاذا بَرُد فألق على كلِّ مَنٍّ مِنْ هذا الدُّهن رِطلا من الزَّنْبَق المصرىِّ ٱلجيّـد ثم بِعْه على أنّه زَنْبَقٌ خالص .

قال : وإن شئت فخذ من دُهن الشَّيْرَج الرائق العتيق ، وٱجعله فى دَسْتَجَةٍ[1] ،وألْقِ على كلِّ رِطلٍ منـه فى بُكرة النهـار الأوّل من زَهرِ الياسَمين الطرىِّ الأبيضِ الّذى لا نَداوة فيه أوقيّة، وسُدَّ رأسَـه[2] ، وٱجعله طولَ النَّهار فى شمسٍ حارّة ؛ ثم ٱفتحه من الغد، وألْقِ عليه من الياسَمين نصفَ أوقيّة، ودرِّجه فى كلِّ يوم بنقصِـه[3] درهما حتّى يَبقَى وزن درهم، فألْقِه فيـه فى كلِّ يوم إلى تمـامِ أربعة عشر يوما، ثم ٱقطع عنه اليـاسَمين، ودَعْه أربعـة عشر يوما فى الشمس حتّى ينطبخ ؛ فإذا ٱنضمّ الزَّهر الذى ألقيتَه فى الدُّهن ، فألْقِ عليـه فى كلِّ يوم وزنَ درهم أو درهمين من زهر الياسَمين سبعةَ أيّام، ثم دعه سبعة أيام، وألْقِ عليه سبعةَ أيّام،ثم ٱقطع الإلقاءَ عنـه ودَعْه فى الشمس تمـامَ ستّين يوما حتّى يَجِفّ الزهر؛ ثم صَـفِّه على شِـقَّةِ غِرْبال وخذ ما صفا منه فأَوْدِعه ٱلقَوارير، وأَحكِم سَدَّها؛ فهذا زَنْبَقٌ غايةٌ لا بعده .

---

(١) الدستجة : الإناء الكبير من الزجاج ؛ وهو «معرب» «دسته» بالفارسية (الألفاظ الفارسية المعربة صفحة ٦٣ طبع بيروت) .

(٢) ذكّر الضمير فى قوله «رأسه» العائد على الدستجة باعتبار معنى الإناء، وإلا فالقواعد تقتضى تأنيثه .

(٣) بنقصه، أى بنقص الياسمين الذى يلق فيه .

وأمّا دُهنُ الحَماحِم[1] [وما قيل فيه][2] — فقال محمدُ بنُ العبّاس : يؤخذ من رءوس الحَماحِم السُّود أوّل ما تَظهر قبل أن تَبرُز، ومن ورقِه[3] الصغيرِ الأخضرِ الذى يُجنَى منه ، فيُعزَل، ويؤخذ تَوْرٌ[4] حجارة، أو بُرْمَةٌ جديدة ، تُغسَل غسلا جيّدا ويُصَبّ فيها قَدْرُ رِطلٍ ماءَ وَردٍ جُورِىّ، ويُطرَح فيه الحَماحِمُ والورقُ مع عشرين حَبّةً من حَبِّ القَرَنْفُل الزّهر ، ويُصَبّ على ذلك من دُهن الخِيرِىّ[5] الكوفىّ الفائق والزَّنْبَق السابورىّ لكلّ عشرة رءوسٍ من الحَماحِم الضخمةِ رِطلٌ من الخِيرِىّ والزَّنْبَق ثم أغلِه بنارٍ فَحْمٍ لَيِّنةٍ حتّى يَنضَج الحَماحِم ؛ ثم خذ مثقالَ عُودٍ هندىٍّ مسحوق ومِثلَه من السُّكّ[6] المرتفع، ونصفَ مثقال من الكافور، ووزْنَ دانِقٍ[7] من المِسك

(١) الحماحم ، هو الحبق الكرمانى ، كما فى المفردات . وفى قاموس الأطباء : الحبق البستانى ويسمى الحبق النبطى ، وهو عريض الورق ، له أغصان خضر مربعة خوارة ونور أبيض . وسماه داود فى التذكرة ج ١ ص ٢٤٦ طبع بولاق : حبق السودان، ولم يصفه . وقال أبو حنيفة : الحماحم بأطراف اليمن كثير، وليس ببرى، ويعظم عندهم .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى «ب» ؛ والذى فى (ا) «فيها» بتأنيث الضمير؛ والسياق يقتضى تذكيره لعوده على الدهن .

(٣) تذكير الضمير العائد على الحماحم فى هذا اللفظ وما بعده باعتبار أن المراد بالحماحم النبات وإلا فقد كان السياق يقتضى تأنيثه ، فيقول : «من ورقها» إذ الحماحم جمع حماحمة ، كما فى القاموس .

(٤) التور : إناء صغير . وفى التهذيب هو إناء معروف يشرب به ؛ قيل : هو عربى ؛ وقيل : دخيل .

(٥) تقدم الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) تقدم الكلام على السك وكيفية عمله وأنواعه فى صفحة ٧٢ ، فانظرها وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا .

(٧) الدانق : سدس الدرهم .

يُعجَن ذلك بزَنْبَق، ويخمَّر، ويقلَّب بعد كلِّ ثلاثِ بندات[1]، ثم يصفَّى الدُّهن من فوق الحَماحِم؛ وتُعصَر حتّى لا يَبْقَى فيها شيءٌ من الدُّهن، ثم صُبَّ الدُّهنَ على الأفاويه المبخَّرة، ويحرَّك فى باطِية، ويُترَك أربعةَ أيّام حتّى يصفو؛ ثم تُبخَّر قارورةٌ نظيفةٌ بمسكٍ وكافورٍ وعُود؛ ثم صُبَّ فيها الدُّهن، وحُلَّ فيه من المِسك ثُلُثَ مثقال أو أكثر فإذا أردتَ استعمال شىء من الدُّهن فحرِّك القارورة. ومَن أَحَبَّ أن يزيده دُهنا مبخَّرا ويَفتِقه[2] بشىءٍ من كافورٍ فَعَل. ٥

وأمّا دُهن الخِيرىّ[3] — فمنه أصلىّ، ومنه مولَّد:

فأمّا الأصلىُّ الخالص فلم أقِف على كيفيّة عملِه.

وأمّا المولَّد — فقد ذَكَره التَّميمىُّ عن الكتاب المؤلَّف للمعتصم، فقال: تأخذ من الشَّيْرَج الصافى مَنًّا فتصبّه فى طِنْجِير[4] برام، وتأخذ له من بِزر الحَماحِم وزنَ ثلاثة ١٠

(١) تكرر هذا اللفظ فى عدّة مواضع من هذا السفر فى كلتا النسختين تكررا يفيد أنه غير محرّف عن لفظ ندّات، أى قطع من الند كما يتوهم؛ والظاهر من سياق الكلام أنه يريد بالبندات المرّات من التبخير فكل تجخيرة تسمى "بندة"؛ ويرجح ذلك تعبير المؤلف فيما يأتى فى ص ١٠٦ س ٦ بقوله: ثلاث تجخيرات. وقول المؤلف فى سطر ٧ من صفحة ١٠٦ أيضا: ثم تجخر الدهن على انفراده سبع بندات بالعود والكافور؛ وفى موضع آخر فى ص ١٠٧ س ١٦ "بعد أن تجخرها بالعود والكافور سبع مرات". ١٥ فسياق هذه العبارات يرجح ما أثبتنا من معنى البندات، ولم نجده بهذا المعنى فيما راجعناه من الكتب الكثيرة التى بين أيدينا من لغوية وطبية، كما أننا لم نجده فى الكتب المؤلفة فى مصطلحات العلوم ولا فى كتب الألفاظ المعربة والدخيلة، والظاهر أن هذه التسمية اصطلاح للعطارين وعلماء الطيب.

(٢) يفتقه، أى يستخرج رائحته.

(٣) تقدّم الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها. ٢٠

(٤) تقدّم الكلام على مثل هذه الاضافة فى قولهم «قدر برام» انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٨١ من هذا السفر.

دراهم، ومن بزر الأفرنجمشك[1] خمسةَ دراهم، ومن ورقه عشرةَ دراهم، ومن ورق الحَماحِم وقلوبه[2] ستةَ عشر درهما رَطْبا كان أو يابسا، ومن بزر الخيرى[3] الحَمْرىّ والاسمانجونىّ[4] الطرىّ النقىّ من خضرته من كلّ واحد خمسةَ دراهم، ومن بزر الخيرىّ الأصفرِ أربعةَ دراهم، ومن ورق الورد الأبيض ربعَ أوقيّة، ومن قلوب[5] الأُتْرُجّ الورق الرّطب ووَرْدِه المفتّح وورد النارَنْج الطرىّ وقشره من كلّ واحد

(١) ضبط هذا اللفظ فى القاموس مادة « حبق » بفتح الميم ضبطا بالقلم لا بالعبارة ؛ وضبط فى المعجم الفارسى الانجليزى بضم الميم . وورد فى معجم أسماء النبات صفحة ١٢٧ مرة بالسين المهملة ومرة بالشين المعجمة، ومعناه مسك الافرنج، وهو عشب دقيق القضبان، يستعمل فى الأكاليل، شبيه بالباذروج طيب الرائحة، كأن فيه زغبا، وقد يزرعه بعض الناس فى البساتين كما قاله ديسقوريدوس . وقال غيره : الفرنجمشك صنفان : أحدهما بستانى، ويقال له الهندى، والآخر برى، ويقال له الصينى والأول مربع العيدان، ورقه كورق الباذروج، ولونه بين الخضرة والصفرة، ورائحته كرائحة القرنفل والصينى ينبت فى الصخور، دقيق الورق، شبيه بورق النمام البرى، ورائحته أشد وأحدّ من رائحة البستانى. وفى المادة الطبية ج ٢ص ٥٣٦ أنه يقال له برنجمشك وفلنجمشك وافلنجمشك؛ واسمه بالافرنجية فلينو بود، ويسمى بما معناه رجل السرير، واسمه باللاتينية (فلينو بوديوم)، وباللسان النباتى (فلينو بوديوم وجارس) وهو من الفصيلة الشفوية ... ... والنوع الشهير من هذا الجنس وهو الذى نحن بصدده يكثر وجوده نحو أواخر الصيف فى الغابات، وساقه تعلو من خمسة ديسيمترات الى ستة، وهى زغبية بسيطة فى العادة وأزهاره مهيأة بهيئة إحاطية فى قمة النبات، والغالب كونها وردية، وقد يختلف هذا اللون أحيانا؛ بل قد يكون لونها أبيض الخ .

(٢) تذكير الضمير العائد على الحماحم كما فى هذا اللفظ انما هو على اعتبار معنى النبات، وإلا فقد كان السياق يقتضى تأنيثه، إذ الحماحم جمع حماحمة .

(٣) تقدّم الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) انظر تفسير الاسمانجونى فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٩٨

(٥) قلوب الشجر مارخص من أجوافها وعروقها؛ وفى عبارة أخرى ما كان فى وسطها غضا طريا قبل أن يقوى ويصلب، واحده قلب بالضم، للفرق بينه وبين القلب بالفتح .

نصف أوقيّة، ومن قلوب النّمامِ[1] الطرىّ أوقيّة ، ومن الصّندَل الأصفرِ ربعَ أوقيّة ؛ يُرَضّ الصّندَل مع ما كان من الأوراق اليابسة والبُزور، ويُنقَع بماء الورد وبماء زَهرِ الخِيرىّ[2] المصعَّد يومين ، وتُلقَى الأزهارُ والأوراقُ وماءُ الورد والخِيرىُّ المنقوعُ فيه على الدُّهن ، ويوقَد تحته[3] بنارٍ لَيّنة ، وأنت تحرّكه تحريكا مستمرّا بشِقّةِ قَنا ، حتى إذا علمتَ أنّ الدُّهنَ قد قبل روائح ما استودعتَه ، أنزلتَ الطّنجير وغطّيتَه ليلة ثم تصفّى الدُّهنَ فى القوارير ، وإن شئتَ خلطتَه بدُهنِ خِيرىٍّ فجعلتَ على المنّ منه من هذا الدُّهن رطلا ، أو على الرِّطل منه مَنّا ، فإنّه يأتى غايةً فى الطِّيب ؛ وقد يباع هذا الدُّهنُ مفرَدا بسعر الخِيرىّ الخالص . قال : وإن أردتَ أن تجعل منه غيرَ مطيّب ، فخذ الشَّيْرَج واجعله فى قارورة ، وألقِ على كلِّ رطل من الشَّيْرَج أوقيّةً ونصفا من زَهرِ الخِيرىّ الخَمْرىّ والاسْمانْجُونىّ[4] الطرىّ الّذى لُقِط عند غروب

(١١٧)

(١) النمام هو نوع من النعنع ، كما ذكره المؤلف فى الجزء الحادى عشر من هذا الكتاب صفحة ١٩٧ الطبعة الأولى . وذكر صاحب المادة الطبية ج ٢ ص ٥٩٢ أن اسمه بالافرنجية (سربوليت) أو يقال (سرفوليت) وباللسان النباتى (تيموس سر بيلوم) أو (سرفيلوم) أو (سرفولوم) وكلها بكسر السين وسكون الراء ، ومعناه : الزاحف ، فيكون المعنى : الحاشا الزاحف ، أو الدباب ، لأن أى غصن منه جاور الأرض أى لامسها ، ضرب فيها عروقا ودب ونمى ، وهو المعروف (بالسيسنبر) ، وهو مأخوذ من الاسم اللاتينى (سيسنبريون) ، وسمى نماما لسطوح رائحته ، فكأنه ينم بريحه على نفسه . ثم ذكر المؤلف فى صفة هذا النبات أنه نبات صغير منفرش ، وساقه خشبية قليلا فى القاعدة ، متفرعة ، وطول فروعها من خمسة قراريط الى ستة ، وهى نائمة على الأرض ، زغبية قليلا ، مربعة ، قائمة فى جزئها العلوى ، قال : وهذا النبات يكثر فى الغابات الجافة وبطون الأودية والطرق ؛ وهو نبات عطرى مقبول الرائحة جدا ، وفيه بعض حرافة ، ولهذا لا يأكله الحيوان ، بل لا تلمسه الأرانب أصلا الخ .

(٢) تقدّم الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر ، فانظرها

(٣) تحته ، أى تحت الدهن .

(٤) الاسمانجونى : الذى لونه لون السماء ؛ وهو لفظ فارسى مركب من كلمتين « آسمان » أى السماء « وكون » ، أى اللون (الألفاظ الفارسية المعربة ص ٨٤ طبع بيروت) (والمعجم الفارسى الانجليزى لاستانجاس) .

الشمس، وتلقيه فيه من أوّل الليـل ، ثم تعلّق القارورةَ فى بئرِ ماء عشرةَ أيّام، ثم تجعلها فى الشمس عشرةَ أيّام، وتضع فيه فى كلّ عشيّة من زَهر ٱلخيرىّ[1] الاسمانجونىّ[2] وٱلخمرىّ[3] لُقاطِ وقتِه فى كلّ[4] يوم وزنَ ثلاثة دراهم ، ثم يعاد الى البئر عشرةَ أيّام ؛ ثم يُخرَج ويعلّق فى الشمس، ويُجدّد[5] له زَهرٌ كرّةً[6] ثالثة، ويُترَك فى الشمس حتّى يَجِفّ ورقه، ويصفّى بمُنْخُل فيأتى دُهنَ خِيرِىّ يُضرَب ٱلمَثَلُ بطِيبه[7]؛ وٱلله أعلم بالصواب .

وأمّا دُهن التُّفّاح وما قيل فيه — فأجوَدُه ما ألّفه التَّيمىُّ فقال : تأخذ من دُهن ٱلخِيرِىّ ودُهنِ ٱلورد من كلّ واحد نصفَ مَنّ[8]، فتخلطهما فى ظَرف وتأخذ من ورق الآس الغَضّ ما أحببتَ، فتدقّه بشىء من ٱلماء القَراح، وتستقطره

(١) تقدم الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر فانظرها .

(٢) تقدّم الكلام على الاسمانجونى فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٩٨ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين هكذا «أوقية» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يرشد اليه ما سبق فى ص ٩٣ س ٥ .

(٤) يلاحظ أن قوله فيما سبق : «فى كل عشية» يغنى عن قوله هنا : «فى كل يوم» ويؤدى الغرض المقصود منها وزيادة، لأن العشية أخص من اليوم كما هو ظاهر ، إلا أن يحمل قوله هنا : «فى كل يوم» على التأكيد .

(٥) فى كلتا النسختين : «ويحدد» ؛ وهو تصحيف .

(٦) فى «ب» : «كبرة بالية» ووردت هذه العبارة فى «أ» مهملة الحروف من النقط ؛ والصواب ما أثبتناه فى كلتا الكلمتين .

(٧) يلاحظ أن قوله هنا «يضرب المثل بطيبه» ينافى قوله فيما سبق : س ٨ من صفحة ٩٨ «وإن أردت أن تجعل منه غير مطيب» إلا أن يحمل الطيب فى هذه العبارة على الجودة وما يفيد معناها . وذكر صاحب اللسان أن الطيب قد تتسع معانيه ، ثم أورد بعد ذلك من الأمثلة ما يفيد أن الطيب فى كل شىء بحسبه .

(٨) تقدّم الكلام على مقدار المن فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر، فانظرها .

فى قابلة[١]، وتأخذ مما قَطَر منه زنةَ مائة درهم، ومن ماء الزعفران المُصعَّد[٢] خمسين درهما، وتخلطهما فى بَرْنِيَّة، وتصبّ عليهما من ماء الورد ثلاثَ أواقٍ، وتدقّ من المحلب المقشّر مائةَ درهم، وتعجنه بنصف أوقيّة مَيْعةٍ حمراءَ سائلةٍ عجنا شديدا وتعزِله، ثم تأخذ من قشور التُّفّاح الشامىّ البالغ الطرىّ رِطلا فتلقيه فى المياه وتغلِيها عليه، ثم تَمرُسه مَرْسا جيّدا، وأَنزِله عن النار، ثم أَلقِ فيه أوقيّةً من فاغية[٣] الحِنّاء وجُزْءةً من ورق النَّمّام[٤] الطرىّ، وتُلقِى المَحْلَبَ المعجونَ بالمَيْعة فى الدُّهن وتضربه به ضربا جيّدا، وتسحق له من القَرَنْفُل مثقالين، ومن السُّنْبُل مثقالين وتنخل ذلك، وتضيف اليه أوقيّةَ ذَرِيرةٍ[٥] ممسّكةٍ مفتوقة، وتَعجِن الجميعَ بنَضُوح عتيق، وتخمّره يومين فى باطيةٍ بالعود والكافور، وأَلْقِه فى الدُّهن الّذى حَلّتَ فيه

(١) القابلة: إناء يحمل رطلا أو نحوه، يجعل فيه ميزاب الانبيق قاله الخوارزمى فى (مفاتيح العلوم).

(٢) يقال: "صعدت الشراب" بتشديد العين: اذا عالجته بالنار حتى يحول عما هو عليه طعما ولونا.

(٣) ذكر داود فى الكلام على شجر الحناء أن الفاغية اذا أطلقت فالمراد بها زهره؛ وذكر مرة أخرى فى الكلام على الفاغية أنها ثمر الحناء. وذكر صاحب (عمدة المحتاج ج ١ ص ٥٥٩) نقلا عن أطباء العرب أن هذا الشجر لا يوجد بدون الماء، ويعظم حتى يكون شجرا كبيرا. قال بعضهم: إنه قد يقارب السدر، أى النبق، ويوجد بجزائر السوس وما يليها، وهو كثير عندنا بمصر، كما يوجد أيضا بفارس والهند وأمريكا.

(٤) قد سبق بيان صفة النمام نقلا عن القدماء والمحدثين من الأطباء والنباتيين فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) الذريرة والذرور: نوع من العطر يجاء به من الهند، وهو ما انتحت من قصب الطيب؛ وقيل: هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط، كما فى (التاج)؛ وكلا المعنيين تصح إرادته هنا؛ كما أنه من المحتمل أن يراد بالذريرة النبات المعروف بقصب الذريرة، وهو نبات هندى، سمى بذلك لوقوعه فى الطيوب والذرائر، وأجوده الياقوتى اللون، المتقارب العقد، الذى يتهشم الى شظايا كثيرة، وأنبوبه مملوء من مثل نسج العنكبوت، وفى مضغه حرافة؛ ومسحوقه عطر، الى الصفرة والبياض (قاموس الأطباء) مادة (قصب).

المَحْلَب، وٱضربه به، ثم ٱقلبه على ٱلمياه التى فيها قشورُ التُّفّاح والفاغيةِ والثُّمّام[1] وأَحْكِمْ سَدَّ رأسِ ٱلإناء، وضَعْه فى شمسٍ حارّةٍ سبعةَ أيّام، وحرِّكه فى كلّ يوم ثم ٱرفعه بعد الأسبوع فى طِنْجِيرٍ على نارٍ ليّنة، وٱطبخه حتّى يَنشَفَ ٱلماء، ثم برِّده وٱقطِف ٱلدُّهن فى ظَرْفٍ مبخَّر، وٱفتُقه[2] بمسكٍ وكافورٍ من كلّ واحد سدس مثقال؛ فهذا دُهنُ التُّفّاح الفاخر.

وأما الأدهان المركَّبة العَطِرة — فقد ذَكَر منها التَّميمىُّ وغيرُه كثيرا؛ وقد ٱقتصرنا منها على أطيبِها وأجوَدِها وأعطَرِها.

فمنها دُهنٌ أَلَّفَه التَّميمىُّ لجاء غاية، وسمّاه: الدُّهنَ الفَيْح[3]، تُعمَل منه غالية رفيعة. قال: وهذا الدُّهن يفوق البان طِيبا، وتُدهَن منه فى الشتاء ٱلأطرافُ والوجهُ فيفوق كلَّ دُهنٍ طيّب؛ تأخذ من دُهن الورد الفارسىِّ الطرىِّ ثلاثَ أواقٍ، ومن الزَّنْبَق السابورىِّ الرُّصافىِّ[4] أو ٱلمصرىِّ أوقيّتين، ومن دُهن البنفسَج أوقيّتين، ومن دُهن ٱلخيرىِّ أوقيّتين، ومن البان المَنْشُوش[5] بالمسك أوقيّتين، ومن دُهن النرجس أوقيّة؛ تُجمَع هذه

(١) تقدّم الكلام على الثمام فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) وٱفتقه، أى طيبه بمسك الخ يقال: فتقت الطيب، اذا طيبته وٱستخرجت رائحته بشىء آخر تدخله عليه.

(٣) الفيح، أى الفائح، فهو من قبيل الوصف بالمصدر.

(٤) فى كلتا النسختين: «الرصاصى»؛ وهو تصحيف، اذ ليس من الزنبق ما لونه رصاصى. والرصافى: نسبة الى الرصافة، وهى ضيعة بنيسابور.

(٥) يقال: "نششت الدهن" اذا ربيته بالطيب وخلطته به؛ وفى حديث الزهرى أنه كره للتوفى عنها زوجها الدهن الذى ينش بالريحان، أى يطيب بأن يغلى فى القدر مع الريحان حتى ينش. وقد ذكر المؤلف كيفية نش البان فى صفحة ٩١ من هذا السفر، فانظرها.

الأدهانُ فى خماسيّة[1]، ثم تأخذ من العود الجيّد الفائق وزنَ درهم ونصف، ومن الصّندل الأصفر المحلولِ بماء الورد المخمّر بالزّهر والثّمّام[2] وزنَ درهم، ومن السُّكّ المرتفع وزنَ درهم، ومن زهر القرنفل الذكىّ نصفَ مثقال، ومن المرنوة[3] مثلَ ذلك ومن السّليخة[4] التّفّاحيّة وزنَ درهم، فتدقّ ذلك وتسحقه، وتنخله بحريرة، ثم تضيف إلى هذه الأصناف من الزّعفران القُمّىّ[5] المسحوقِ وزنَ دانقين، ومن الكافور الرّياحىّ[6] نصفَ مثقال، ومن المسك ربعَ مثقال، ومن النّدّ مثقالا، تسحق المسكَ والنّدّ وتضيف اليهما الكافورَ بعد سحقه على الانفراد والزّعفران؛ ثم تعجن الجميع بشىء من الدُّهن، وتُقطّر فيه من دُهن البَلَسان[7] زنةَ دانِق، ومن دُهن الأُتْرُجّ زنةَ دانقين وتضربه ضربا جيّدا، ثم تخلطه بالدُّهن، وتضربه به حتّى يختمر، وتقيم سبعةَ أيام تضربه كلّ يوم، وتبخّره فى السبعة أيّام إحدى وعشرين بندة برمكيّة رفيعة، وبمثلها

(١) يريد بالخماسية : نوعا من الأوانى لم نجد وصفه فيما راجعناه من كتب اللغة ولا فى الكتب المؤلفة فى الألفاظ المولدة والدخيلة ولعل سبب هذه التسمية أن هذه الآنية تسع خمسة من مقادير مخصوصة : أرطال أو أواق أو غيرها .

(٢) قد سبق بيان صفة الثمام نقلا عن القدماء والمحدثين من الأطباء والنباتيين فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٧ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدّم الكلام على المرنوة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٣ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) تقدّم الكلام على السليخة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٥) القمى : نسبة الى (قم) بضم القاف وتشديد الميم وقد تقدّم الكلام على هذا البلد فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٥٦ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) سمى هذا الصنف من الكافور بالرياحى لتصاعده مع الريح ، كما ذكره داود فى التذكرة ج ٢ ص ١١٦ طبع بولاق . ويجوز أن يقرأ الرباحى بالباء الموحدة ، نسبة الى ملك يقال له : رباح، وهو أول من وقف عليه ، كما ذكره المؤلف فى الجزء الحادى عشر من هذا الكتاب صفحة ٢٩٤ الطبعة الأولى .

(٧) تقدّم الكلام على صفة البلسان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٥ من هذا السفر، فانظرها .

من العود الصَّرف، و بمثلها من العود والكافور، وتضربه بالبَخور والثُّفل الّذى فيه ضربا جيّدا فى كلّ مرّة تبخّره ، فإنّه يأتى عجبا فى الطِّيب والذّكاء ؛ فإنْ أحببتَ رفعَه فحُلّ له نصفَ مثقال من العنبر الأزرق بشىء منه، وألقِ فيه ربعَ مثقال من المسك المسحوق ؛ واضربه به حتى يصير مِثلَ الغالية؛ ثم صُبّه عليه ، وأنعِمْ ضَرْبَه، فإنّه يرفعه و يطيّبه .

صنعة دُهن آخَرَ من الكتاب المصنَّف للمعتصم بالله

تأخذ من العود الهندىّ أوقيّة، ومن السُّنْبُل مثقالا، ومن الصَّنْدَل الأصفر مثقالا، ونصفَ مثقال من الورد؛ يُدَقّ ذلك، و يخمَّر بمثقالٍ من سُكّ[1] مِسْكٍ محلولٍ بماء الورد، مرفوعٍ على النار، فتخمّره به ليلة، ثم يُسحَق حتّى يَجِفّ بالسّحق ويُنخَل بحريرة، و يُعجَن بزَنْبَقٍ[2] سابُورىٍّ مرتفع، ويدخَّن بمثلّثة[3]، ثم تَهضِمه[4] بعودٍ وكافور، ثم يُفتَق بما أحبَّ صاحبُه من مِسكٍ وعنبر، و يؤخذ له من دُهن الخِيرىّ العراقىّ نصفُ رِطل ، ومن دُهن الزعفران نصفُ رِطل، ومن البان نصفُ رطلٍ مَنْشُوش[5] ؛ تجمَع هذه الأدهانَ فى إناء ، وتبخّرها بالعود والكافور ، ثم اخلطها

(١) تقدّم الكلام على صفة السك فى صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها ، وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا .

(٢) تقدّم الكلام على صفة الزنبق فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٥٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) فى (أ) « بمثله » وفى (ب) « بمثليه » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين إذ لا يستقيم معناه مع بقية الكلام؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا . والمراد بالمثلثة : قطعة من الند المثلث الذى سبق شرح أجزائه وكيفية عمله فى صفحة ٦٦ من هذا السفر، و إذن فتأنيث اللفظ هنا باعتبار معنى القطعة ، كما هو ظاهر .

(٤) عبارة كلتا النسختين "ثم تهضمه ثم" ولا مقتضى "لثم" الثانية فى هذا الموضع لا بالضم ولا بالفتح ، فهى زيادة من الناسخ .

(٥) تقدّم الكلام على كيفية نش البان فى صفحة ٩١ من هذا السفر، فانظرها : وانظر الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠١ أيضا .

بالمعجون المبخّر، وأضربها به ضربا جيّدا، وأستودعه القوارير، وأفتقه بما أحببتَ من مِسكٍ وعنبر .

صنعة دُهن آخَر يسمَّى دُهنَ السيّدة

تأخذ من الزَّنْبَق[1] الرُّصافىّ المرتفِع ثلاثَ أواقٍ ، ومن دُهن الورد الفارسىّ أوقيّةً ونصفا ، ومن دُهن الخيرىّ[2] الخالص أوقيّة ، تجمع هذه الأدهانَ الثلاثةَ فى إناء واحد ، ثم تأخذ لها من الهَرْنُوة[3] وزنَ درهمين ونصف ، ومن القَرَنْفُل الزَّهر مِثلَ ذلك ، ومن الكَبَابة[4] درهمين ، ومن جَوْزبُوا[5] مِثلَ ذلك

(١) تقدّم الكلام على صفة الزنبق فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٥٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) تقدّم الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدّم الكلام على الهرنوة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٣ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) تقدّم الكلام على الكبابة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٨٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٥) ضبط هذا اللفظ فى معجم أسماء النبات ص ١٢٢ بضم الباء ضبطا بالقلم . وضبط فى القاموس مادة (جوز) بفتح الباء وتشديد الواو ضبطا بالقلم أيضا . وقال صاحب التاج : جوز بوا فى مقدار العفص، سهل المكسر، رقيق القشر، طيب الرائحة، حاد، وأجوده الأحمر، الأسود القشر، الرزين . وقال داود : جوزبوا يسمى جوز الطيب، لعطريته ودخوله فى الأطياب، وهو ثمر شجرة فى عظم شجر الرمان، لكنها سبطة رقيقة الأوراق، وأوراقها هى الجيد من البسباسة ، وهذا الجوز يكون بها كالجوز الشامى داخل قشرين، خارجهما يباع بسباسة أيضا ، والداخل لا عمل له إلا فى الأطياب، وحجم هذا الجوز قدر البيض ، فاذا قشر قارب العفص فى حجمه ، وفيه طرق وأسارير وشعب ، ومما يلى الفرق قشرة ناعمة رقيقة ، وهو بجبال الهند وجزائر آسيا ؛ وأجوده الحديث ، السالم من التآكل ، الهش الذى لم يبلغ ثلاث سنين من يوم قطفه . هذا ما قاله القدماء فيه . وقال أرباب العلم الحديث : إن اسمه بالافرنجية مسكاد بضم الميم ، وشجره مسكادير . وقالوا فى صفاته النباتية : إنه شجر يعلو الى ثلاثين قدما تقريبا وفروعه متكاثفة جدا ، مستديرة حول الجذع بحيث يشبه شجر البرتقال . وذكروا فى صفاته الطبيعية أن ثمره فى حجم الخوخ الصغير، أو كبيضة الحمامة ، ولونه أولا أخضر، ثم يتغير شيئا فشيئا الى لون سنجابى رمادى ففى وقت النضج تتفتح الثمرة من نفسها فيشاهد الغلاف اللين السميك ، أى البسباسة أحمر اللون مغطيا للنواة وتلك النواة يحيط بها غلاف آخر ، وتحتوى على لوزة هى المسماة جوزبوا اهـ . ملخصا من عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٢ ص ٣٢١ .

وبَسْباسَةً[1] دِرهما، وزَعْفَرانا دِرهما، ومن الكافور ثُلثَ مثقال، تُسحَق الأفواه سحقا جيّدا، وتُعجَن بقليلٍ من الدُّهن، وتُلَطَّخ فى باطنِ بَرْنيّة، ويُبخَّر الدُّهْنُ بالعود والكافور، ثم تصبّه فى البَرْنيّةِ على الفِتاق[2] المبخَّر، وتضربه به ضربا جيّدا، وتطرح فيه ثلاثةَ قلوب من قلوب الأُتْرُجّ، وإن قَطّرتَ فيه وزنَ نصف دِرهم من دُهن الأُتْرُجّ أغناك عن قلوب الأُتْرُجّ وجاء أطيَبَ، فإذا بَرُد وجَلَس[3] فصَفِّ الدُّهن واستعمله على انفراده، ويؤخذ ثُفْلُه فيُعمَل فى غُمَر[4] الحمّام، فإنّه يكون عِطْرا طيّبا.

صنعة دُهن آخَرَ صُنِع للمأمون من كتاب يوحنّا بن ماسَوَيه

تأخذ من الزَّنْبَق السابوريّ خمسين درهما، ومن دُهن الورد الفارسيّ الرفيع مِثلَ ذلك، ومن دُهن الخِيرىّ[5] الرفيعِ مِثلَه؛ تجمع الأدهانَ الثلاثةَ فى باطيةٍ أو قدحِ زُجاجٍ أو بَرْنيّةٍ رحبةِ الفم، ثم يؤخذ من الورد خمسةُ مثاقيل، ومن الصَّنْدَل المَقاصِيرىّ[6] الأصفرِ خمسة مثاقيل، ومن القاقُلّة مثقال، ومن الكبابة[7] مثقال، ومن القَرَنْفُل مثقال؛

(١) قد سبق توضيح صفة البسباسة نقلا عن القدماء والمحدثين من الأطباء والنباتيين فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) الفتاق بالكسر: مافتق به الدهن، أى ماطيب به؛ يقال: فتق الطيب يفتقه فتقا: طيبه وخلطه بعود. وقيل: الفتاق أخلاط من أدوية تفتق، أى تخلط بدهن الزنبق كى تفوح ريحه.

(٣) جلس، أى غلظ بعد أن كان مائعا، يقال: عسل جلس، أى غليظ.

(٤) الغمر: جمع غمرة بضم الغين، وهو دواء مركب يجلو الوجه ويبيضه، كما فى (بحر الجواهر). وإضافته إلى الحمام لاستعماله فيه.

(٥) تقدّم الكلام على الخيرى نقلا عن القدماء والمحدثين من الأطباء والنباتيين فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٦) تقدّم وجه تسمية هذا الصنف من الصندل بالمقاصيرى فى صفحة ٣٩ من هذا السفر، فانظرها.

(٧) تقدّم الكلام على الكبابة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٨٢ من هذا السفر، فانظرها.

يُدَق ذلك ويُنخَل، ويُعجَن بزَنْبَق[1] سابُورىّ عجنا يابسا، ويُبسَط فى باطية أو قدح زُجاج أو بَرْنيّة بسطا رقيقا، وتبخّره بعود صَنْفىّ[2] وكافور رِياحىّ[3] وسُكّ[4] مِسْك فائق ثلاثةَ أيّام فى كلّ يوم ثلاث بندات[5] بالغداة، وثلاث بندات بالعشىّ؛ فاذا أردتَ أن تصبّ عليه الدُّهن فبخّره أيضا بنصف مثقالِ عود هندىّ، ونصف مثقالِ كافور رِياحىّ، ونصف مثقالِ عنبر؛ تجمَع ذلك جميعا، وتُقطّع عليه من الزعفران الشَّعْرِ زنةَ دانق؛ ثم تبخّر بجميعها الأفاويه الّتى عجنتَها فى بَرْنيّة رَحبة ضيّقة الفم ثلاث[6] تبخيرات، ثم تبخّر الدُّهنَ على انفراده سبعَ بندات بالعود والكافور، وتصبّه على إثْرِ تبخيرك للفتاق المسّك فى البرنيّة، وتسدّ رأسَها، وتَضرِب الدهنَ فيها بالفِتاق حتّى ينحلّ به ويمترِج، وتُسدّ رأسَ البَرْنيّة على الدُّهن والثُّفْل سَدّا جيّدا حتّى يَبْرُد[7]؛ ثم أفرِغ الدُّهنَ

(١) سبق الكلام على صفة الزنبق وما قاله فيه القدماء والمحدثون فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٥٤ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) تقدّم الكلام على صفة العود الصنفى والجزيرة المنسوب اليها هذا النوع فى صفحة ٣٠ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) تقدّم الكلام على سبب تسمية هذا الصنف من الكافور بالرياحى فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ١٠٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) تقدّم الكلام على كيفية عمل السك وأنواعه فى صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها، وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا.

(٥) تقدّم الكلام على الظاهر لنا من معنى البندات فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٩٦ من هذا السفر، فانظرها.

(٦) فى كلتا النسختين: «فى ثلاث» ولفظة: «فى» زيادة من الناسخ، إذ لا مقتضى لها هنا كما هو ظاهر.

(٧) يبرد، أى يبرد ذلك، وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الضمير، وإلا فقد كان السياق يقتضى تثنيته نعوده على الدهن والثفل.

فى قدح، وبخّر البَرْنيّة، وأَعِد الدُّهنَ اليها، تفعل ذلك حتى يَنفَدَ ما أعددتَه للتبخير من العود والعنبر والكافور والزعفران، فاذا فرغ ذلك فَحُلَّ الأَفاويهَ المبخَّرة فيه، وحرِّكها به حتّى تختلط به، ودعه يومين وليلتين، ثم صفِّه عن الأَفاويه، وارفعه فى قارورةٍ ضيّقةِ الفم، وأَحكِم سَدَّها، ثم صُبّ على الثُّفْل الذى صَفَّيتَ عنه الدُّهنَ من الزَّنْبق[1] السّابُورىّ ثلاثين درهما، ومن دُهن الورد الفارسىّ مِثلَ ذلك، ومن دُهن الخِيرىّ الكوفىّ مِثلَ ذلك بعد أن تجمع هذه الأدهانَ الثلاثةَ فى بَرْنيّة، وتبخّرها بالعود والكافور حتّى تشبع؛ ثم تصبّها اذا بَرَد بخورها على الثُّفْل، وتضربها به ضربا جيّدا، وتحرّكه تحريكا جيّدا سبعةَ أيّام، فى كلّ يوم ثلاثَ مرّات؛ فإذا أردتَ رفعَه أَلقيتَ فيه زنةَ دِرهم من الزعفران المطحون، وزنةَ دانِقٍ ونصفٍ من الكافور الرِّياحىّ[2] المسحوق، وزنةَ دانِقٍ من المِسك المسحوق، وزنةَ دِرهم من العنبر المحلول على النار بشىءٍ منه وتضربه بذلك ضربا جيّدا؛ ثم تصفّى الدُّهنَ الثانىَ عن الثُّفْل فى قَوارِيرَ، وتُحكِم سَدَّ رءوسها، ويؤخذ الثُّفْل ويُستعمَل فى لَخالِخ[3] الحمّام، فإنّه نهاية؛ والله أعلم.

---

(١) تقدم الكلام على صفة الزنبق نقلا عن القدماء والمحدثين فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٥٤ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) تقدم الكلام على وجه النسبة فى قوله: «الرياحى» فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ١٠٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) اللخالخ: جمع لخلخة، وهى ضرب من الطيب المركب من جملة أخلاط؛ وتصنع على كيفيات شتى مذكورة فى كتب الطب، فمنها صفة لخلخة ذكرها القيصونى فى قاموس الأطباء، وهى أن يؤخذ من القرنفل نصف رطل ومن العود والسنبل من كل واحد ثلاث أواق، يسحق الجميع، ويعجن بدهن السوسن ويعمل فى جام، ويبخر بعود جيد يوما وليلة، ويبرد؛ ويضاف الى ذلك صندل نصف أوقية، مسك وعنبر من كل واحد مثقال، ويخلط الجميع جيدا، ويحفظ فى إناء زجاج مسدود الرأس لوقت الحاجة. ويقال: «لخلخه»، اذا طيبه بها.

صنعة دُهنٍ برمكىٍّ مبخَّر من كتاب يُوحنّا بن ماسويه

تأخذ من البانِ الرفيع ثلاثين درهما، ومن الزَّنبقِ السابُورىِّ مِثلَه، ومن دُهن الوردِ الفارسىِّ مِثلَه، وتأخذ من العُود الهندىِّ أوقيّة، ومن الصَّندَل الأصفرِ أوقيّة ومن جَوْزِبُوا[1] أوقيّة، ومن القَرَنْفُل الزَّهر أوقيّة، ومن ٱلهَرْنُوَةِ[2] أوقية، ومن البَسْباسَة[3] نصفَ أوقيّة، ومن السُّكّ[4] ٱلمرتفع الأوّل أوقيّة، ومن المسك ثلاثةَ مثاقيل، ومن العنبر مثقالين؛ تدقّ جميع الأفواه كلّ واحد على حدته، وتُنخَل بحريرة، ويُحَلّ العنبرُ ببان الغالية، ويُعجَن به ٱلجميع بعد أن يُحَلَّ بزَنْبَقٍ سابُورىٍّ عَجْنا يابسا، ويصيَّرُ فى بَرْنِيّةٍ رَحبةِ ٱلجوف واسعةِ الفم، ويُبسَط فيها بَسْطا رقيقا، ويبخَّر يوما بالقُسْط[5] الحلو ويوما بالعُود النِّىء، ويوما بالصَّندَل الأصفر، ويوما بالزعفران، ويوما بالسُّكّ الرفيع، ويوما بالعُود، ويوما بالعُود والكافور والعنبر؛ ثم يؤخذ من كل واحد منها نصفُ مثقال، ويقطَّع ويبخَّر؛ فإذا ٱنتهى تبخيره فصُبَّ الدُّهنَ عليه، وحرِّكه فيه تحريكا جيّدا، وٱتركه يوما وليلة، ثم صَفِّ ٱلدُّهنَ عن الأثفال فى بَرْنِيّةٍ قد بخَّرتَها بمثقالِ مِسكٍ ومثقالِ عنبر، ونصف مثقالِ كافورٍ رِياحىّ، وسُدَّ رأسَها سَدّا جيّدا؛ فهذا الدُّهنُ البرمكىُّ الرفيعُ ٱلذى ٱتخذه جعفر بنُ يحيى لهارون الرشيد؛ ثم تأخذ بعد ذلك من الزَّنبَق السابُورىِّ ودُهنِ ٱلخيرى الكوفىِّ الرفيع ودُهنِ الورد الفارسىِّ من كلِّ واحد خمسين درهما، فتصبّ ذلك على الأثفال، وتضربها به بعد أن تبخّرها بالعود

(١) تقدّم الكلام على جوزبوا فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) تقدّم الكلام على الهرنوة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) تقدّم الكلام على البسباسة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) تقدّم الكلام على السك وكيفية عمله فى صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها، وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا.

(٥) انظر الكلام على القسط فى الباب السادس ص ٤٩ من هذا الجزء.

والكافور سبعَ مرّات ، وتضرب الأثفالَ بها[1] فى قارورةٍ نظيفة، وصَفِّه[2] عنها ويكون ذلك للخالج[3] ولشعور النّساء . والدُّهن الثانى يَلتَحق[4] بالأوّل . قال التّيميّ : وهذا الدُّهنُ البرمكيُّ يقوم مَقامَ الغالية .

صنعة دُهنٍ آخَرَ [كان] يُعمَل للعبّاس بنِ محمّد

يؤخذ من السُّنْبُل ثلاثةُ مثاقيل، ومثقالٌ من القَرَنْفُل، وثلاثةُ مثاقيلَ من بُرايةِ العود الهندىّ، ووزنُ نصفِ دِرهم بَسْباسة[5] ، ووزنُ دانِقين قاقُلّة[6] ، ومِثلُها من المَحْلَب[7] المقشَّر؛ تُدَقّ هذه الأصناف، وتُنخَل بمُنْخُلٍ صفيق، وتُعجَن بماء الورد الطيِّب والزَّنْبَق الخالص ، وتبخَّر بعودٍ مُطَرًّى سبعَ بندات[8] ، ثم يُترَك[9] حتّى يَبرُد

(١) بها ، أى بالزنبق والدهنين اللذين بعده .

(٢) «صفه» بتذكير الضمير، أى صف ذلك .

(٣) تقدّم الكلام على الخالج فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٠٧ من هذا السفر ، فانظرها .

(٤) قوله « يلتحق » بمعنى يلحق المبنىّ للمجهول، كلمة مولدة ؛ قال الصاغانى : لم أجده فيما دوّن من كتب اللغة ، فليجتنب ذلك .

(٥) تقدّم الكلام على البسباسة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) تقدّم الكلام على القاقلة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر فى صفة الهال وهو القاقلة، فانظرها .

(٧) قال أبوحنيفة : المحلب شجرة يابسة بيضاء النور، وثمره يقع فى الطيب، وقال صاحب الفلاحة : شجر المحلب يعلو كقامة الرجل ، وورقه شبيه بورق المشمش وأصغر منه بقليل، وينتشر شجره عرضا ويحمل حبا متبدّدا منتشرا على أغصانه، طيب الرائحة ، عطرى، يدخل فى كثير من الطيب . وقال ابن حسان : هو حب شجرة تشبه الصفصاف فى ورقها وعودها ، إلا أنها دونها فى الطول، وهو بالأندلس كثير، وحبه مدور عليه قشر إلى الحمرة والسواد، تحته قشر خشبي صلب داخله طعمة بيضاء عطرية فيها شىء من مرارة، وشجره يسمو، وله خشب غليظ صلب، ابن البيطار ج ٤ ص ١٤١ طبع بولاق .

(٨) تقدّم الكلام على معنى البندات فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٩٦ من هذا السفر، فانظرها .

(٩) يترك، أى يترك ذلك، وبهذا الاعتبار ساغ له التذكير فى هذا الضمير وما يأتى بعده .

فاذا بَرَد فأقلبه، ودخّنه سبعَ مرّات، ثم صُبّ عليه رِطلا من الزَّنْبَق السابُورىّ الخالص بعد تبخيره مفرَدا بالعود والكافور، وحرّكه به[1]، فاذا آختلط فدعه يوما وليلةً حتى يَجلِس[2]؛ ثم صَفِّه فى قارورةٍ جديدةٍ مبخَّرة، وآدّهِن منه متى أحببت .

صنعة دُهن العنبر من كتاب آبنِ العبّاس

تؤخذ قارورةٌ ضيّقةُ الرأس، فيُدهَن باطنُها بدُهن، وتُبخَّر بعنبرٍ قوىِّ الرائحةِ حتّى تَكمَد وتسودَّ من دخان العنبر؛ فإذا آسودّت فصُبّ فيها قدر ثلثيها من دُهن آلخيرىّ[3] المفتوقِ[4] بالمسك، وآضرب الدُّهنَ فى القارورة ضربا جيّدا حتّى يختلط به ذلك السواد الذى آكتسبتْه القارورة من دخان العنبر؛ ثم يُستعمَل، فمن أحبَّ تقويتَه حَلَّ مثقالا من العنبر بشىءٍ يسيرٍ منه، ثم يضربه [به][5] ضربا جيّدا .

وأمّا الأدهان آلّتى تُصلِح الشُّعور وتكثِّرها وتبسُطها[6] وتسوّدها وتُذهِب ما بها من الحاصّة[7] وتطوّلها وتقوّى أصولَها — فمنها دُهنٌ متّخَذٌ من حَبِّ القطن يكثِّر الشُّعورَ ويسوّدها ويَذهب بالحاصّة ويصفِّى اللون .

(١) فى ب "وحوّله"؛ وهو تحريف .

(٢) يجلس، أى يغلظ .

(٣) تقدّم الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) المفتوق بالمسك، أى الذى طيب وآستخرجت رائحته بالمسك .

(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى كلتا النسختين، والسياق يقتضى إثباتها، إذ المعنى أنه يضرب مثقال العنبر بالدهن الذى فى القارورة .

(٦) فى «ب» «وتسبطها»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٧) الحاصة : علة يتناثر منها الشعر .

يؤخذ من لُبّ حَبّ القطن مَنَوان ، فيُدَقّ حتّى يصير مثل المُحّ[1] [وتَستخرجُ دُهنه[2]] كما تَستخرج دُهنَ اللّوز ؛ فاذا آستخرجتَ من دُهنه منّا[3] فصيِّره فى طنْجير[4] برام وخذ له من السُّنْبُل[5] أوقيّة ، ومن القَرَنْفُل نصفَ أوقيّة ، ومن المَرْزَنْجُوش[6] المجفَّف نصفَ أوقيّة ، ومن الصَّنْدَل الأصفرِ نصفَ أوقيّة ، ومن القاقُلّةِ[7] أوقيّة ، ومن الورد الفارسىّ الأحمرِ أوقيّة ، ومن بِزْر الشاهِسْفَرَم[8] نصفَ أوقيّة ، ومن بِزْر الأَفْرَنْجَمْشْك[8] نصفَ أوقيّة ، ومن الزّعفران نصفَ أوقيّة ، ومن الإِذْخِر[9] أوقيّة ، ومن

(١) المح : صفرة البيض .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى (أ) .

(٣) المنا بالقصر والمن بالتشديد : كلاهما بمعنى واحد ؛ وقد تقدّم بيان مقداره فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر ، فانظرها .

(٤) قد سبق الكلام على مثل هذه الاضافة فى قولهم «قدر برام» وعلى المراد بالبرام فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨١ من هذا السفر ، فانظرها .

(٥) تقدّم الكلام على السنبل فى بابه انظر صفحة ٤٣ من هذا السفر ، وانظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ أيضا .

(٦) قد سبق الكلام على المرزنجوش نقلا عن الأطباء والنباتيين فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٥٦ من هذا السفر ، فانظرها .

(٧) تقدّم بيان صفة القاقلة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر فى الكلام على الهال ، وهو القاقلة ، فانظرها .

(٨) قد سبق الكلام على الشاهسفرم والافرنجمشك و بيان صفة كل منهما بإيضاح الأول فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٩٣ والثانى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٩٧ من هذا السفر ، فانظرهما .

(٩) الإذخر: حشيش أخضر طيب الرائحة ، تسقف به البيوت فوق الخشب. قال أبو حنيفة : الإذخر له أصل مندفن وقضبان دقاق ، ذفر الريح ، وله ثمرة كأنها مكانس القصب إلا أنها أدق وأصغر ، وتطحن وتدخل فى الطيب ، و ينبت فى الحزون والسهول ، وقلما تنبت الإذخرة مفردة ، فانك متى نظرت واحدة فحدقت رأيت غيرها . قال : واذا جف الإذخر أبيض . هذا ما قاله القدماء فيه . وذكر صاحب المادة الطبية ج ٣ ص ٤٧ أن اسمه بالافرنجية (أنخينطوس) أو يقال (أسخينط) و باللسان النباتى (أندرو بوغون =

السَّعْد[1] الكوفىّ المقشور ووَرِدِ الأُتْرُجّ ووَرِدِ النارَنْج ولُبّ حَبّ الأُتْرُجّ المقشّر وبِزر التُّمام وحَبّ الآسِ الرَّطْبِ من كلّ واحد أوقيّة ، ومن البلح الأحمرِ المنزوعِ النَّوى إن كان رَطْبا فأربع أواقٍ ، وإن كان يابسا فأوقيّة ، ومن الشِّيرِ[2] أَمْلَج الأسوَدِ بعد دقّه ونَخْلِه

= أسخينطوس) ، ويسمى بمصر (حلفاء مكة) و(الخلال المأمونى) ، لأن المأمون كان يتخلل بعيدانه ... ثم نقل بعد ذلك عن أبى حنيفة ما سبق ذكره ؛ وقال : إن أصله مدفون فى الأرض غليظ كثير الفروع ، ولونه الى حمرة وصفرة ؛ ورائحته قوية عطرية ؛ وطعمه حاد عطرى ، وزهره وقصب الأصول هما المستعملان فى الطب ؛ وهو من الفصيلة النجيلية ؛ وهو كثير الوجود فى البلاد العامرة من أراضى العرب وفى سفح جبل لبنان يستعمل هناك لعلف الجمال ، ويفرشونه لنوم الحيوان ، وهو مكون من جذر أبيض زغبى متثن فيه طول ؛ وساقه تعلو نحو قدم ، وتحاط من الأسفل بشوشة من ورق تبنى الطبيعة ، على شكل سنبلى ، الخ .

(١) السعد : نبت له أصل تحت الأرض أسود مدحرج صلب طيب الريح ، يقع فى العطار والأدوية ويكثر هذا النبات فى مصر ، ويستنبت فى البيوت فيسمى (ريحان القصارى) ؛ وهو عريض الأوراق مزغب دقيق الأغصان ، والمراد عند الاطلاق أصله ؛ وأجوده الشبيه بنوى الزيتون ، الأحمر الطيب الرائحة ، يقيم طويلا ؛ وإن قلع قبل إدراكه فسد . وذكر أرباب العلم الحديث أن اسمه بالإفرنجية (سوشيت) وباللاتينية (سيبروس) بكسر السين . قالوا : والنباتات السعدية حشيشية معمرة ، وجذورها زاحفة غالبا وتكون أحيانا مزينة بدرنات لحية ؛ وسوقها تكون أحيانا عظيمة الارتفاع ، اسطوانية أو ثلاثية بدون عقد ، ومملوء باطنها ، وعارية ، أو حاملة لأوراق متتالية ضيقة منتهية من الباطن بغمد كامل . وذكروا من أنواع السعد السعد الطويل والمستدير ، وأنواعا أخر ، وقالوا عن السعد الطويل : انه يسمى بالافرنجية (سوشيت لنج) كما يسمى أيضا (سوشيت أودورنت) ومعنى سوشيت فى الافرنجية الجذر أو الجذير أو الأصل ، أو الخشبية اهـ . ملخصا من المادة الطبية ج ٣ ص ٣٤٨ . وفى معجم أسماء النبات ص ٦٦ أنه يسمى (سعدى) (وسعادى) (وخلنجانا بريا) (وريحانا قصاريا) ؛ وأن اسمه بالبربرية (تيغللت) وبالفارسية (مشك زمين) .

(٢) « شير » بالفارسية معناه : اللبن الحليب ؛ واذا قالت الأطباء : شير أملج فانما يريدون به الأملج الذى ينقع فى اللبن ، والأملج والأمليجا هو المسمى فى مصر بالسنانير ، وهو معرّب (أمله) بالفارسية وأجوده ما أشبه الكمثرى الصغيرة ، الأملس مما يلى عنقه ، الحديث ، الضارب الى الاصفرار ؛ والأسود منه ردىء ؛ وقال بعضهم : الأملج ثمر شجرة سوداء اللون ، يجلب من الهند . وفى قاموس الأطباء أن لونه بين البياض والسواد ، يميل الى الصفرة .

ثلاثَ أواقٍ؛ تُجمَع هذه الأصناف ، وتُلقَى فى قِدْر ، وتَصبّ عليها من المـاء غَمْرَها وزيادة أربع أصابع ، وتصُب عليهـا أيضا من ماء الآس الأخضرِ رطلا ، ومن النّضوح المعتّق مَنّا، وتُنقَع فى ذلك يومين وليلتين، ثم يُصَبّ دُهنُ حَبّ القطن عليهـا ، وتُرفَع على نارٍ ليّنة، ويوقَد تحتها برفقٍ حتّى يَنشَف المـاء، وتدخُل روائح الأفاويه فى الدُّهن؛ فإذا آنتهى إلى هذا آلحدّ فخذ من آللاذَن الرَّطب نصفَ أوقيّـة وحُلّه على نارٍ ليّنةٍ بزَنْبَـقٍ رُصافىٍّ حتّى يصير مِثلَ الغالية، وأَلقِ من الكافور سدسَ مثقالٍ بعد سحقِه، ومن آلمِسك المسحوق قيراطين ، وإن أَحببتَ فسـدسَ مثقال وآضربهما جميعا فى آللاذَن آلمحلولِ بالزَّنْبَق ضربا جيّـدا، ثم أَنزِل الطِّنْجير عن النـار وغَطِّه بطبق ينطبق على رأسـه، وإن كان طبخُه فى قِدْرِ نحاسٍ فهو أجوَد وأَمكَن للتغطية، وأَلقِ فوق الطبق خشبة، ودَعْه بقيّةَ يومِه وليلتِه حتّى يَبرُد الدُّهن ويصـفو ثم آقطعه عن الثُّفْل، وآجعله فى إناءٍ واسع، وآضرب فيه اللّاذَن المحلولَ والكافورَ وآلمِسكَ ضربا جيّدا حتّى تختلط به؛ وان كان فاترا فهو أجوَد؛ ثم آرفعه فى قَواريرَ مبخَّرة ، وأَحكِم سَـدّها ، ودَعْه حتّى يَختَمِر[1] ، ثم آسـتعمِله ، فإنّه غايةٌ فى الطِّيب والنفـع .

(١) فى كلتا النسختين «يخمر» ؛ والذى وجدناه فيما بين أيدينا من كتب اللغة أن (خمر) لا يستعمل إلا متعديا ؛ يقال : «خمرت العجين ونحوه» اذا جعلت فيه الخمير ؛ وسياق العبارة يقتضى استعمال الفعل اللازم كما أثبتنا .

صنعةُ دُهنٍ يُصنَع من دُهنِ نوى المِشمِش يجوِّد الشَّعرَ ويكثِّره ويَذهَب بالحاصّة[1]، وينفع شعر الرأس واللِّحيـة

منقول من كتاب المعتصم

تَعصر من دُهنِ نوى المِشمِش منًّا[2]، وتدعه حتّى يروقَ ويصفوَ، ثم تأخذ له من المَحلَبِ[3] الأبيض المقشورِ والقَرَنْفُلِ وسُـكِّ[4] المِسكِ والبُنْكِ[5] والوردِ اليابسِ الأحمر والقاقُلّةِ[6] والمَرْوِ[7] الأبيضِ والمَرْزَنْجُوشِ[8] المجفَّفِ والأَفْرَنْجَمْشْكِ[9] المجفَّفِ والشّاهِسْفَرَمِ[10]

(١) الحاصة : علة يتنثر منها الشعر .

(٢) تقدم الكلام على مقدار المن فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدّم الكلام على المحلب فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ١٠٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) تقدم الكلام على سك المسك وكيفية عمـله فى صفحة ٧٢ من هـذا السفر، فانظرها وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا .

(٥) البنك : قشور عطرة شبيهة بقشور شجر التوت، تقع فى أخلاط الطيب والدخن، منها ما يجلب من الهند، ومنها ما يجلب من وادى عوسجة باليمن . ويقال : إنه ينبت من أصل خشب أم غيلان هناك؛ وأجوده الأصفر الخفيف، العذب الرائحة، الأبيض الرزين .

(٦) تقدم الكلام على القاقلة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر فى صفة الهال، وهو القاقلة، فانظرها .

(٧) المرو : ضرب من الرياحين؛ وقد ذكره مؤلف هذا الكتاب ضمن أنواع الحبق، وهو الريحان فى باب (ما يشم ولا يستقطر) انظر الجزء الحادى عشر صفحة ٢٤٩ الطبعة الأولى . وقد ذكر ابن البيطار للروعدة أصناف : منها المرماحوز، وهو أجودها وأكثرها دخولا فى الأدوية؛ ومنها مرو أطوس ومرو اهان، ومرو مريدان، ومرو الهرم، ومرو كلائل، وهو أصغرها نباتا وأقلها دخولا فى الأدوية وكلها تتشابه فى الصورة قليلا .

(٨) تقدم الكلام على المرزنجوش فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٥٦ من هذا السفر، فانظرها .

(٩) تقدم الكلام على الافرنجمشك فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٩٧ من هذا السفر، فانظرها .

(١٠) تقدم الكلام على الشاهسفرم فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٩٣ من هذا السفر، فانظرها .

المجفّف والصّندل الأصفر وورق الأُتْرُجّ المجفّف وورد الياسمين المجفّف والسُّنْبُل[1] العصافير والهَرْنَوة[2]، من كلّ واحد أوقيّة؛ تُدَقّ هذه الأصناف، وتُخَل نخلا جريشا[3] وتُعجَن بماء ورد ونضوح عتيق فى تَوْرِ برام، وتصبّ عليها من ماء الورد غَمْرها وزيادة إصبعين؛ فإن كان الثلثان ماءَ ورد والثلثُ نضوحا كان أطيب، وتُترَك فيه يوما وليلة؛ فإذا أصبحتَ فألقه فى طِنْجِير برام، وصُبّ عليه أيضا من ماء الورد والنّضوح، وأوقِد تحته، حتى إذا استحقّ صببتَ الدُّهن عليه وأوقدتَ تحت الطّنجير وأنت تحرّكه دائما تحريكا شديدا حتى ينشف ماءُ الورد والنّضوح ويبقَى الدُّهن وحدَه؛ فأنزِل الطّنجير عن النار، وصُبّ عليه من ماء الآس الرّطب الّذى قد رششتَ عليه الماء ودققتَه وعصرتَه ورققتَه بخِرقة رِطلا ونصفا؛ ثم أعِده إلى النار، وأوقِد تحته حتّى ينشف ماءُ الآس؛ ثم أنزِله، وألقِ فيه قيراطين[4] من المسك المسحوق، وثلاثةَ قراريطَ من الكافور المسحوق، وحرّكه تحريكا جيّدا؛ ثم غطّه وغمّه بخشبة، واتركه بقيّةَ يومه وليلته حتّى يبرُد ويصفوَ؛ ثم صفّه فى القوارير، وارفعه.

قال التّيمىّ: وإن حللتَ فيه وهو حارٌّ نصفَ أوقيّة من اللّاذَن الرّطب وفتقته[5] به زاد طِيبا ونفعا للشّعر. وهذا الدُّهن صنعتُه أنا بالقاهرة فى سنة خمس عشرةَ وسبعمائة بجاه غايةً فى الطّيب والنفع.

(١) تقدم الكلام على السنبل وأنواعه فى بابه انظر صفحة ٤٣ من هذا السفر وانظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ أيضا.

(٢) تقدم الكلام على الهرنوة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) «نخلا جريشا» أى نخلا غير ناعم.

(٤) القيراط عند الأطباء: وزن أربع شعيرات، وهو حبة خرنوب شامىّ، مفاتيح العلوم ص ١٧٩

(٥) فتقته، أى استخرجت رائحته به.

صنعة دُهن آخَرَ يجوِّد الشَّعر ويطوِّله ويكثِّفه ويقوِّى أصولَه ويَذهَب بالحاصّة، أَلَفْتُه[1] منه

يؤخذ من الإهْلِيلِج[2] الأَسوَدِ والبَلِيلِج[3] وشِيرأَمْلَج[4] ونَيلوفَر[5] أصفر وأحمر مجفَّفا

(١) ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين هكذا «ألفته» ؛ وهو تحريف إذ لا معنى له ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام ، وكما يؤخذ من قوله بعد فى صنعة الدهن الذى يليه : قال التميمى : «هذا مما ألفته» انظر ص ١١٨ س ٥ «وألفته منه» ، أى ألفت هذا الدهن من كتاب المعتصم السابق ذكره فى صفحة ١١٤ سطر ٣ .

(٢) الإهليلج بالخمز فى أوله ، وقد تحذف ؛ لفظ فارسى معرَّب ؛ وهو أربعة أصناف : الهندى المعروف فى مصر بالشعيرى ، وهو كالتمر المعروف عندهم بروائح الآس ، والأسود المعروف فى مصر بالصينى كالبسر ؛ والكابلى كالبلح ؛ والأصفر كالتمر ، وأصله كله من الهند ، وأكثره نفعا الكابلى . وذكر صاحب المادة الطبية ج ٤ ص ٤٩٤ أن اسم الفصيلة الإهليلجية : ميروبلنيه ، نسبة لميروبلنس ، أى الإهليلج الذى هو جنس منها . قال : والذى وضع للإهليلجات فصيلة طبيعية هو النباتى الشهير المسمى برون ... وقال : والاهليلجات خمسة : كابلى ، وبليلج ، وأصفر ، وهندى شعيرى ، وأملج . قال : وذكر أيضا فى كتب العرب نوع يسمى الصينى ، وهو دقيق ، يميل الى صفرة وسواد ، حسن ، وعوام العرب تزيد نوعا يطلقون عليه اسم (عباد) ، ولكنه لا يخرج عن تلك الأنواع . هذا ما قاله القدماء فيه . قال : وهذه الثمار زيتونية ، أى مؤلفة من شحم ونواة ، وهى عديمة الرائحة ، ولا تصل إليها الجافة فى قوام خشبى الخ ما ذكره من كلام طويل ليس هنا موضع استيفائه ، فارجع اليه .

(٣) البليلج : ثمر شجرة مستقلة لا من الإهليلج ، وبعضهم يجعله منه ؛ وهو فى حجم الزيتون وشكله ، لكنه أعظم يسيرا ، ومنابته الأقطار الهندية ، ويجنى بتموز ، يؤخذ بنواه ، وقد يؤخذ قشره فقط ؛ وأجوده الأصفر الرخو الأملس ؛ ولبه حلو قريب من البندق . وقال اسحاق بن عمران : هو ثمرة خضراء ترض وتجفف فتصفر ؛ وطعمه مر عفص ؛ والمستعمل منه قشره الذى على نواه ، وهو مشبه بالهليلج ، أصفر أملس القشر ، فيه رخاوة .

(٤) تقدم الكلام على الشيرأملج فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١١٢ من هذا السفر ، فانظرها .

(٥) ضبط صاحب التاج هذا اللفظ بفتح النون ضبطا بالعبارة ، وقال : إنه هو المعروف فى مصر بالبشنين اه . وذكر القيصونى فى قاموس الأطباء أنه بكسر النون ؛ ثم نقل عن النووى أنه بفتح النون =

وخَبَثِ[1] الحديد ، من كلّ واحد نصفُ أوقيّة ؛ يُدَقّ ذلك ويُنخَل ، ويُسحَق بماء الآس الأخضر ، ويربّب[2] حتى يصير عليه من ماء الآس نحوُ رِطل ؛ ثم يؤخذ من دُهن الحَلّ[3] الصافى الجيّد رطلان ، ومن ماء البئر ستّةُ أرطال ، ومن ماء ورق الآس رِطل آخر ؛ فيُجمَع ذلك فى قِدرٍ أو طِنجير ، وتوقِد تحته وقيدا ليّنا وأنت تحرّكه دائما بإسطامِ[4] حديدٍ صغيرٍ حتّى تعلم أنّ الماء قد نَشِف أو قارَبَ أن يَنشَف ، ثم تحلّ لذلك من اللاذَن الرَّطب أوقيّة بأوقيةِ دُهنٍ رازِقٍ[5] رُصافىٍّ[6] على نارٍ ليّنة ، فاذا انحلّ

= واللام ؛ ولهذا ضبطناه بالوجهين . وقال داود فى التذكرة : إنه نبت مائى له أصل كالجزر ؛ وساق ملساء تطول بحسب عمق الماء ، فاذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر زهرا أزرق هو الأصل والأجود والمراد عند الاطلاق ، فالأصفر يليه ، فالأحمر ، فالأبيض ؛ يسقط اذا بلغ عن رأس كالتفاحة داخلها بزر أسود ؛ والهندى إلى الحمرة ؛ ومنه برى يعرف فى مصر بعرانس النيل . هذا ما قاله القدماء فيه . وذكر أرباب العلم الحديث أن اسم النيلوفر بالافرنجية (نينوفر) ، وقد أخذوه من العرب مع قلب اللام نونا ؛ واسمه باللسان النباتى نمفيا أليا ، فاسم الجنس (نمفيا) ، أى عروس أو جميل ... وأنواع هذا الجنس نحو عشرين ، وهو أنواع مائية معمرة جذورها خوارة أفقية لحمية ... وهذا النيلوفر كثير بمصر وغيرها قرب الأنهر التى سيرها سريع ، ويزهر فى أعظم جزء من الصيف أزهاره الكبيرة البيض المفرحة ... وتلك الأزهار تخرج من الماء فى الساعة السابعة من ساعات النهار التى تبتدئ من نصف الليل ، ثم تنطبق وتدخل نحو الساعة الرابعة بعد الزوال شيئا فشيئا الخ انظر المادة الطبية ج ٢ ص ١٨٢ .

(١) خبث الحديد : ما نفاه الكير منه اذا أذيب ، وهو ما لا خير فيه .

(٢) يربب ، أى يغذى بماء الآس ، يقال : ربيت الدهن ، اذا غذوته ببعض الرياحين ليجود .

(٣) الحل بالفتح : السمسم .

(٤) الإسطام والسطام بالكسر فيهما : المسعار ، وهو حديدة مفطوحة الطرف ، أى معرضة من طرفها تحرّك بها النار وتسعر .

(٥) يريد بالدهن الرازق : دهن الياسمين أو دهن السوسن الأبيض ، كما فى المنهج المنير .

(٦) فى كلتا النسختين : « رصاصى » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا إذ لا يكون الدهن الرازق رصاصيا ؛ وقد سبق مثل هذا التحريف والتنبيه عليه ووجه نسبته إلى الرصافة بالفاء انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٥

فصبّه فى ٱلقِدر على النار، وٱغله غليةً حتّى تعلم أنّه قد بلغ ونَشِف ماؤه، ثم بَرْدَه[1] وصَفِّ ٱلدُّهن بخرقةِ حرير، وٱجعله فى قارورة، وتَدهُن منه فى كلّ مرّة بوزن درهمين، فإنّه نافعٌ لِما وُصِف .

صنعة دُهنِ فاغِيَة[2] ٱلحِنّاء يَصلُح لشعور النّساء

قال التّميمىّ : «هذا ممّا أَلَّفْتُهُ» ، وهو أن تأخذ من دُهن ٱلحَلّ[3] الطّرىّ المخلوعِ السِّمْسِم غيرِ ٱلملوح ، ومعنى المخلوع أن يُسلَق سِمْسِمُه بعد قَشرِه وغسلِه وتجفيفه سلقةً لَيّنة ، ويجفّف على مِسحٍ[4] فى الشمس، ولا يُقلَى ، فإنّ المقلوّ لا يقبل روائحَ الأزهار ، ولا يملّح فى سلقه بملح ، فإنّ ٱلملح يقطع روائحَ الطِّيب ؛ فإذا أخذتَ الدُّهن فصيِّره فى طِنْجِيرٍ أو قِدرِ حجارة، وأَلقِ فيه من فاغِيَة الحِنّاء فى أوّل يومٍ مَنًّا، وفى اليوم الثانى نصفَ مَنّ، ودرِّجه حتى تتمّ الفاغِيَة ثلاثةَ أمنان، ويسخّن الدُّهن فى كلِّ يوم حتى يحمى حين تُلقَى عليه الفاغِيَة، فاذا كَمُلَت فيه ثلاثة أمنانٍ فٱصبب عليه من ماء الآس المصعَّد نصفَ مَنّ ، ومن ماء الزعفران نصفَ مَنّ، ومن ماء الورد نصفَ مَنّ ؛ ثم ٱرفعه على نارٍ لَيِّنةٍ حتّى تَنشَف ٱلمياهُ عنه ويَبقَى الدُّهن ؛

---

(١) فى ب : « تَرده » ؛ وورد فى (ا) مهمل الحرف الأول من النقط .

(٢) الفاغية : ثمر الحناء، وهو المعروف فى مصر : « بثمر الحناء» بالثاء المثناة وسكون الميم . وفى القاموس أن الفاغية نور الحناء . وفى كتاب (مالا يسع الطبيب جهله) أن ورق الحناء شبيه بورق الآس، الا أنه أعرض منه وألين ؛ وله زهر يسمى فاغية الحناء عطر طيب حاد ، لونه الى البياض، فى عناقيد متراصة يتفتح فيها النوار، وهو يورّد فى السنة مرتين وينبت كثيرا بأرض المغرب، واذا أطلقت الفاغية يراد بها زهر الحناء، واذا أطلق الحناء أريد به الورق الذى يختضب بسحيقه الخ .

(٣) دهن الحل : أى دهن السمسم .

(٤) المسح : الثوب الغليظ .

فاذا نَشِفَ ٱلماءُ فأَنزِله، وغَمِّه بالغِطاء، وٱتركه حتّى يَبرُد، وٱستخرِجْ ما فيه من فاغِيَةٍ[1] بمِصْفاة، ثم ٱعصِرها حتّى يَخرُج ما فيها من الدُّهن بحريرة، وأَودِعْه القَوارير. ولم يَذكر التَّميمىُّ مقدارَ الدّهن.

وقال يُوحنّا بنُ ماسويه فى صنعة دُهن الفاغِيَة: تأخذ من دُهن ٱلحَلِّ الطرىِّ غيرِ ٱلمملوح ثلاثةَ أرطال، فٱجعلها فى طِنْجِيرٍ أو قِدْرِ حجارة، وخذ لذلك من فاغِيَةِ ٱلحِنّاء وقلوبه[2] زنةَ مَنَوَين فألْقِه فيه مفروكا، وإن كان يابسا فدُقّه جريشا وٱصبب عليه من ٱلماء ثلاثةَ أرطال، وٱرفع الطِّنْجير على نارٍ ليّنةٍ حتّى يَذهبَ الماء ويَبقَى الدُّهن، فٱرفعه فى قَوارير.

قال: وهو جيّدٌ لشعور النساء، مصلِحٌ لها، جيّدٌ للتّمريخ، يستعمله الرّجال والنساء، [والله أعلم].

(١) تقدم الكلام على الفاغية فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١١٨ من هذا السفر، فأنظرها.

(٢) قلوب الحناء، أى قلوب شجر الحناء، وهو مارخص من أجوافها وعروقها. وفى عبارة أخرى ما كان فى وسط الشجر غضا طريا قبل أن يقوى ويصلب، واحده قلب بالضم، للفرق بينه وبين القلب بالفتح.

الباب التاسع من القسم الخامس من الفنّ الرابع
فى عَمَل النَّضوحات والمياه المستقطَرة وغير المستقطَرة
مِثلِ ماءِ الجُورِين[1]، وماءِ الصَّندَل، وماءِ الخَلُوق، وماءِ المَيْسُوس وماءِ التُّفّاح، وماءِ العنب، وتصعيدِ المياه (١٢٢)

فأمّا النَّضوحات — فليس المراد بها فى هذا الباب النَّضوحاتِ التى تُصنَع للشُّرب، بل المراد بها النَّضوحاتُ التى تدخل فى أصناف الطِّيب. وقد ذكر التَّميمىُّ منها كثيرا، وهى غيرُ متباعدةٍ فى الأعمال، ولا متنافية فى المقادير؛ ثم اختار منها نَضوحا، قال: إنّه ألفه فجاء جيّدا، وهو: يؤخذ من التمر المنقّى من أقماعه، المنزوع النوى عشرون رطلا، فتُنقَع فى الماء يوما وليلة، ثم تُطبَخ فى قِدرٍ نحاسٍ مؤنّكة[2] فإذا نَضِج التَّمر فصفِّ عنه ماءَه من غير أن يُمرَس أو يُمَسّ؛ ثم يؤخذ من الاس الغضِّ الطرىِّ المخروطِ من عيدانه رِطلان، فيُدَقّ دَقّا جريشا، ويُعجَن بشىء من ماء التمر، ويبخَّر بقُسْطٍ مُرٍّ وبُرايةِ عُودٍ وصَندَلٍ وأظفارٍ[3] خمسةَ أيّام، فى كلّ

(١) ماء الجورين، أى الماء المصنوع من الورد الجورى وستأتى كيفية عمله فى صفحة ١٢٣ من هذا السفر، والياء والنون فى لغة الفرس تفيدان معنى أن الشىء مصنوع من كذا، فيقولون «زرين» و«سيمين» (وآهنين) بمعنى أن هذا الشىء مصنوع من «زر» وهو الذهب، أو «سيم» وهو الفضة، أو «آهن» وهو الحديد، انظر كتاب كلير تسديل الانجليزى صفحة ١٧٢

(٢) مؤنكة، أى مطلية بالآنك بضم النون؛ والمراد به هنا: القزدير. ويطلق الآنك أيضا على الرصاص القلعى، وليس مرادا هنا، إذ النحاس إنما يطلى بالأوّل عند تنظيفه، كما هو معروف؛ لا بالثانى.

(٣) أظفار الطيب: قشور صلبة كالأغطية على ظرف من الصدف قد حشى تقعيرها لحما رخوا، تخرج من بحر الهند أو آخر آذار فتؤخذ وتنزع، وأجودها الأبيض الصغير، الضارب الى حمرة، فالصافى البياض؛ والأغبر ردىء. (داود). وذكر صاحب المادة الطبية ج ٣ ص ٧٨٨ أن اسم هذه الأظفار بالافرنجية =

يـوم ثلاث بنـدات[(١)] بالغـداة ، وثلاثا بالعشيّ ، وتقلّبـه حتى يأخذ روائحَ البَخور ؛ ثم دُقّه بشيءٍ من ماء التمر ، وأَلقِه عليه ، وٱرفعه على النـار حتّى يَذهبَ من ٱلمـاء النصف ، ثم صَـفِّه براوُوق ، وٱتركه حتّى يَغـلىَ ، فإذا غَلَى وهـدأ غَلَيانُه فخـذ له من السُّنْبُل والأُفْلُنْجةِ[(٢)] والقَرَنْفُـلِ والقِرفةِ وٱلهـال بُوا[(٣)] والكَبابة[(٤)] والقاقُلّة[(٥)] ، من كلّ واحد ثلاثةَ دراهم ؛ ودُقّ هذه الأصنافَ دقّا جريشا ، ويضاف اليها من الزعفران نصفُ درهم ، وتُعجَن بشيءٍ من النَّضوح ، وٱبسـطها فى باطيةٍ أو قدح ، وبخِّرها بٱلقُسْط ٱلطَّيِّب والعُودِ والكافور ، ثم ٱضربها به ضربا جيّـدا وطَيِّنْ رأسَ الظَّرْف ، ولا تفتحه إلّا بعد ثلاثة أشهر .

= (أونجل أروماتيك) بضم الهمزة والجيم ، بينهما نون ساكنة فى الاسم الأوّل ، وتفتح الهمزة فى الاسم الثانى ، كما يسمى بالافرنجية أيضا بما معناه الظفر ذو الرائحة . قال : وهو دواء طبي معروف قديما ، وهذه الأظفار تطلق على أجزاء قرنية من حيوانات رخوة من جنس موركس وبوكسنوم ، الخ . وذكر صاحب القاموس أن الأظفار وكسحاب شيء من العطر كأنه ظفر مقتلع من أصله لا واحد له ؛ وربما قيل : أظفارة واحدة ، ولا يجوز فى القياس ، وجمعه أظافر ، فإن أفرد فالقياس ظفر .

(١) تقدم الكلام على معنى البندات فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٩٦ من هذا السفر ، فأنظرها .

(٢) فى المنهج المنير : أن الأفلنجة ، هى الزرنب ، وذكر داود فى الجزء الأول صفحة ٧٥ ما يفيد أنه يقال الأفلنجة والفلنجة ؛ وقال : هى ورق جوزبوا ؛ وقد سبق الكلام على جوزبوا فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤ من هذا السفر ، فانظرها . قال : أو هى حب هندى . وقال فى الفلنجة ص ٩٥ من هذا الجزء : إنها ليست من الكبابة ولا ورق الجوزبوا ، وانما هى نبت بالهند نحو ذراع ، له ورق كورق اللوز وزهر أبيض يخلف غلافا كالبنج داخله حب كأنه الخردل ، لكنه شديد الحمرة ، حاد الرائحة ، مر الطعم .

(٣) الهال بوا ، هو القاقلة الصغيرة ، وهى الأنثى ؛ وقد سبق الكلام عليه فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر ، فأنظرها .

(٤) تقدّم الكلام على الكبابة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٨٢ من هذا السفر ، فأنظرها .

(٥) يلاحظ أن المؤلف قد ذكر قبل القاقلة فى هـذا الموضع الهال بوا ، وهما اسمان لشيء واحد انظر الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر فى الكلام على صفة الهال وأسمائه ، إلا أن يكون قد أراد بالهال بوا السابق ذكره القاقلة الصغيرة ، كما فى مفردات ابن البيطار وغيره ، وأراد بالقاقلة هنا : القاقلة الكبيرة ؛ وإذن فلا تكرار .

صفة عَمَلِ نَضوح نقلتُه من كتاب الزَّهراوىّ يَدخُل فى أصناف الطِّيب، ويُستعمَل للشّرب، وهو :

يؤخذ من عصير العنب مائةُ رِطل فيُغلَى عليه (١) حتّى يظهر ريمُه (٢)، ويُقطَف عنه؛ فإذا صفا نخذ له من ورق الآس ثلاثةَ أرطال، ومن التُّفاح الشامىّ عشرين حَبّة ومن السفرجل المسوح مِن زَغَبه عشرين حَبّة، ومن قشور الأُتْرُجّ الأخضرِ ثلاثةَ أرطال؛ وأَلقِ ذلك على العصير، وأطبخه على النار حتّى يَبقَى منه النصف وأتركه حتّى يَبرُد، ثم أوعِه فى آنية الزُّجاج، ودُقّ الأفاوِيهَ الحارّةَ الوافرة، وأعجنها بشىءٍ منه، وبخِّرها بالقُسْط الطيِّب والعود والكافور، وأضربها به، وأضرب به أيضا شيئا من الكادِىّ (٣)، ومثقالا من دُهن الأُتْرُجّ، وطيِّبه (٤)، ويُستعمَل بعد تعتيقه.

---

(١) كان مقتضى اللغة أن يحذف قوله : «عليه» مكتفيا بقوله : «فيغلى» إذ لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة تعدية هذا الفعل بالحرف، فلا يقال «أغليت على الماء مثلا» وإنما يقال «أغليته» فهو يتعدّى بالهمزة وحدها .

(٢) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة إطلاق الريم على الرغوة الطافية على سطح الماء الذى يغلى على النار كما هو المراد هنا، إلا أن تكون هذه التسمية مأخوذة من الريم بفتح الراء : وهو الزيادة، وهذه الرغوة زيادة على سطح الماء لا فائدة منها؛ والعامة ينطقون الريم بكسر الراء .

(٣) ذكر القيصونى فى (قاموس الأطباء) الكادى فى مادة «كدّ» بالدال المهملة، وفى مادة "كذى" باسم الكاذى بالمعجمة، وقال فى المادة الأولى : إن هذا الاسم عربى من لغة أهل اليمن . وقيل : انه اسم هندى الخ . وقال أبو حنيفة : الكادى نخلة، إلا أنها لا تطول طول النخل، فاذا أطلعت الطلعة قطعت قبل أن تنشق، ثم تلق فى الدهن، وتترك حتى يأخذ الدهن رائحتها، فيتطيب به، فان تركت الطلعة حتى تنشق صار بلحا، ويتناثر، ولم توجد له رائحة . وفى (الشذور الذهبية) أنه شجر كالنخل فى ذاته وصفاته . وفى المنهج أنه شجر هندى ماؤه يسمى الكاد .

(٤) لعل الصواب وطينه بالنون، أى غط رأس الوعاء الذى هو فيه بالطين، كما يدل عليه السياق، وكما يؤخذ مما سبق فى ص ١٢١ س ٨ فانظره .

قال الزّهراوىّ فى كتابه : إنّه ينقُص النّصف ؛ ولم يزِدْ[1] على ذلك .

فمن أراده للطّيب فهو كاف ؛ وأمّا من أراده للشُّرب فلابدّ أن يغليَه حتّى يبقَى منه الثُّلُث ؛ ولا يجوز استعماله بأقلّ من ذلك .

وأمّا المياه المستقطَرة وغيرُ المستقطَرة — فمنها ماء الجُورِين[2] ، وهو الّذى كان يُصنَع للخلفاء ؛ يؤخذ من ماء الورد الجُورىّ خمسةُ أرطال ، تُجعَل فى زجاجة ويُطرَح عليها من العُود الطّيبِ الهندىّ أوقيّة بعد دقّه جريشا ؛ ثم يغطّى فمُ الزّجاجة ويُلفّ بملحَفةٍ نظيفة ، ويُترَك خمسةَ أيّام ؛ ثم تصفّيه بعد ذلك فى قرعة التقطير ويقطّر الماءُ برفق وحكمة ، ويُرفَع فى قارورة ؛ ثم يؤخذ رِطلان من الماء ، ويُطرَح فيهما من الزّعفران الشّعر خمسةُ دراهم ، وجوزبُوا[3] دِرهمان ، ويُجمَع الجميعُ فى قرعة التقطير وتُترَك القرعةُ مسدودة الفم يوما وليلة ، ثم تُجعَل فى فرن التقطير ، ويوقَد تحتها وُقودا معتدلا بنارِ حطبٍ لا دخانَ لها ؛ فاذا رأيتَ الماء قد بدأ يَقطُر فأقطع النار ساعة وتكون قد أعددتَ قيراطَ[4] مسك وقيراطَ[4] عنبر ، وحبّتين من الكافور ، كلّ ذلك مسحوقا ، وألقِه فى القرعة ، ثم سُدّ رأسها ، وأعِدْها إلى النار ؛ فإذا بدأ الماء أن يَقطُر فأغلِق باب الفرن ، فإنّ الماءَ يَقطُر أبيضَ ؛ فإذا تغيّر الى الصُّفرة فأرفع الأوّل فى قارورة ، وسُدّ رأسها بشَمَع ، وأجمع الماء الأصفرَ فى قارورة ثانية ؛ فاذا تغيّر الى الحُمرة فأرفع القارورةَ الثانية ، وأجعل قارورةً ثالثة ، فإنّه يَقطُر أحمرَ ، فاذا فتَرَ التقطير فأرفع الماءَ الثالث ، وأجعل كلّ ماء على حدة ؛ فهذا ماء الجُورِين .

(١) « ولم يزد » ، أى الزهراوى فى كتابه على ذلك فى عمل هذا النضوح ، فما يأتى بعد ذلك من كلام غيره .

(٢) تقدّم بيان معنى الجورين فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٢٠

(٣) تقدم الكلام على جوزبوا فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤ من هذا السفر ، فأنظرها .

(٤) القيراط عند الأطباء وزن أربع شعيرات ، وهو حبة خرنوب شامى (مفاتيح العلوم) .

وأمّا ماء الصَّنْدَل — فقال الزّهراوىّ: يؤخذ من الصَّنْدَل المَقاصِيرىّ[1] الأصفرِ أوقيّتان، تُنقَعان فى رطلٍ ونصفٍ من الماء المشروب يوما وليلة؛ ثمّ يُصعَّد مِثلَ ماء الجُورِين؛ وإن عملتَه من ماء الورد فهو أبلغ؛ وكذلك تصعيد العُود، ويكونان قد طُحِنا قبل نقعهما .

صفة تصعيد ماء القَرَنْفُل

يؤخذ من زهر القَرَنْفُل الذّكىّ الجَرِيف أوقيّة، تُدَقّ وتُنخَل، ويضاف اليها زِنةُ دانِقٍ من الكافور المسحوق، ويُحَلّ بمَنٍّ ونصفٍ من ماء الورد، ويُضرَب به ويُترَك يوما وليلة؛ ثم يصعَّد كما تقدّم .

صفة تصعيد ماء السُّنْبُل

يؤخذ من السُّنْبُل العصافيرِ الأحمرِ أوقيّتان، يُدَقّ، ويُعجَن بماء الورد وماءِ النَّمّام[2]، ويُترَك ليلةً مخمَّرا؛ ثمّ يضاف اليه من الغد من ماء الورد مَنّا[3]، ويُضرَب به ضربا جيّدا؛ ثم يصعَّد بنارٍ لَيِّنةٍ كما تقدّم .

صفة تصعيد ماء الكافور

يؤخذ من الكافور الرِّياحىّ مثقالان، يُسحَق سحقا جيّدا، ثم تصبّ عليه من ماء الورد رِطلا، أو رطلين إنْ أحببتَ الكثرة؛ وأضربه به ضربا جيّدا شديدا حتى

(١) تقدّم الكلام على وجه هذه النسبة فى صفحة ٣٩ من هذا السفر، فأنظرها .

(٢) قد سبق بيان صفة النمام فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٧ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) المنا بالتخفيف مقصورا : لغة فى المن بالتشديد؛ وقد سبق الكلام على مقداره فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ من هذا السفر، فأنظرها .

يصير أبيض؛ ثم طَيِّن له قرعةً بطين الحكمة (١)، وتفقَّدها ثلاثةَ أيّام حتّى لا يبقَ فى طينها شقّ؛ ثم تُنصَب على الأَتُون، ويُصَبّ فيها الماءُ الذى ضُرب به الكافور ويركَّب عليها الانبيق (٢)، ويوقد تحتها بنارِ فَحْمٍ لَيِّنةٍ حتّى يصعد، فإنّه يصعد منه ماءُ كافور يفوق كلَّ طِيب؛ ثم آثنِه (٣) بماء وردٍ بغير كافور، فيأتى ماءَ كافورٍ دون الأوّل.

تصعيد ماءِ الزّعفران عن ابن ماسويه

يؤخذ رِطْلُ زعفرانٍ مسحوق، ويُصَبّ عليه من الماء رِطلان، ويُترَك يوما وليلة؛ ثم يُضرَب بالغداة، ويحرَّك باليد، ويُدلَك دلكا جيّدا، ثم يصفَّى بخِرقة رقيقة، ويُجعل الماءُ فى قرعة، ويصعَّد؛ ومن أَحبَّ ألّا يصفّيَه يصعِّده بثُفْلِه.

تصعيدٌ آخَرُ استنبطَه التّميمىّ

قال: يؤخذ من الزعفران الشَّعر أوقيتان، فيُجعَل فى بَرْنِيّةِ زجاج، ويُصَبّ عليه من ماء الورد مَنّ، ويُسَدّ رأسُها، ويُترَك يوما وليلة؛ ثم يُسحَق له من القَرَنْفُل الزَّهر مثقال، ومن الكافور مثقال، ويُضرَبان به ضربا جيّدا؛ ثم يصعَّد بالقرعة

(١) فى المنهج المنير أن طين الحكمة أنواع كثيرة، أجودها أن يؤخذ طين خالص وفحم مسحوق وشعر مقصوص وملح مكلس وخطمى وخبث حديد، وكلس قشر البيض أجزاء سواء، تخلل وتعجن بالخل أو اللبن عجنا محكما، وكلما خمرت كانت غاية. وقال داود: طين الحكمة يحتاج اليه فى الطب لتوثيق آلات التقطير والطبخ به، ومع ذلك فهو يجبر الكسر، ويشدّ العصب والعظام، ويلصق بشدّة وقوّة؛ ثم ذكر فى صنعته ما سبق نقله عن (المنهج). وفى (بحر الجواهر) أنه طين يخلط بالشعر لئلا يتفتت.

(٢) الانبيق: إناء لصناع ماء الورد وغيره من المياه التى يراد تقطيرها، وهو يركب فوق قرعة التقطير، يشبه المحجمة.

(٣) اثنه، أى أعده وأرجعه مرة ثانية، يقال: ثنيته على وجهه، اذا رجعته الى حيث جاء كما فى الأساس، ولا يخفى أن ما هنا من هذا المعنى.

والانبيقُ على الماء ، فإنّه يَخرُج منه ماءٌ عجيب فى الطِّيب ؛ ثم يثنّى بالماء القَراح فيَخرُج منه ماءٌ ثانٍ دون الأوّل .

صفةُ تصعيد ماء الوَرد الطيّب الّذى يسمَّى الغَنج[1]

يؤخذ من ورق الوَرد الطرىّ الأحمر ، ويُسحَق لكلّ رِطلٍ منه نصفُ درهم جَوْزبُوا[2] ، ونصفُ درهم من القَرَنْفُل الزّهر ، ومن المسك قيراط[3] ، ومن الكافور نصفُ قيراط ، وتُذَرّ على ورق الورد بعد أن يُرَشّ عليه ماءُ وَردٍ جُورىّ ، ويُجعَل فى قرع[4] التقطير فى كلّ قرعةٍ رِطلان ؛ ويركّب عليها الانبيق ، ويُستقطَر بُخارُ الماء ؛ فإذا قَطَر من الرطلين ربعُ رطل عُزِل ذلك الماءُ الأوّل ؛ ثم تُركّب على القرعة قابلةٌ[5] أخرى ، ويُستقطَر فيها ما بقىَ فى الورق من الماء ، وهو نحو ربع رطل أو أكثر وارفعه على نوعين : أوّلَ وثانٍ ، وأحكِمْ سَدَّ رءوس القوارير ؛ وإن أردتَ أن تأمن

(١) كذا ورد هذا الاسم فى كلا الأصلين ، ولم نجده ضمن أسماء المياه المستقطرة فيما بين أيدينا من الكتب الكثيرة (كالقانون) ، (والتذكرة) ، و(المنهج المنير) ، (ومنهاج الدكان) ، (والشذور الذهبية) ، وغيرها ، كما أننا لم نجد ما يقرب منه فى رسم الحروف ؛ ويحتمل أنهم سموه بهذا الاسم لما تكتسبه المرأة المتطيبة به من الغنج ، وهو الدّل وحسن الشكل بكسر الشين ، فهى تسمية مجازية علاقتها السببية ، كما أنه لا يبعد أن يكون مصحفا عن الفيح المسمى به بعض الأدهان الطيبة كما سبق فى صفحة ١٠١ سطر ٨ من هذا السفر ، إذ لا يبعد أن يطلق الاسم الواحد على نوعين أو أكثر من أنواع الطيب .

(٢) كذا ضبط هذا اللفظ فى (معجم أسماء النبات) بضم الباء . وضبط فى القاموس بفتح الباء (مادة جوز) ضبطا بالقلم . وقد تقدم الكلام على جوزبوا فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤ من هذا السفر ، فانظرها .

(٣) تقدّم بيان مقدار القيراط عند الأطباء فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٢٣ من هذا السفر ، فانظرها .

(٤) فى كلتا النسختين : « قرعة » ؛ والصواب إسقاط التاء لإرادة الجمع ، بدليل قوله بعد : « فى كل قرعة » .

(٥) القابلة : شىء يجعل رطلا أو نحوه يجعل فيه ميزاب الانبيق .

عليه التعطّن[1] وأن يصفوَ، فاسحق لكلّ منّ من ماء الورد قدرَ حبّتين[2] نوشادرا[3] معدنيّا وألقِه فيه قبل سَدّ رأسِ القارورة، فإنّه يصفّيه؛ وإن جمعتَ الماءَ الأوّلَ فى إناء وألقيتَ النوشادر[3] فيه، وتركتَه ثم أوعيتَه فى القوارير كان أجوَد، وتَصنع بالثانى مِثلَ ذلك.

تصعيد ماءِ وردٍ آخَرَ ألّفه التّميمىّ يُستخرَج من الورد اليابس

يؤخذ من الورد الأحمرِ الفارسى الجيدِ فينقّى من أقماعه، ويُنقَع منه رطلٌ واحد فى منوَين ماءَ وردٍ جُورىّ يومين وليلتين، فى بَرانىّ مسدودةِ الرءوس؛ ثم يُصَبّ عليه من الماء العذب أربعةُ أمثالِ وزنِه، ويُسحَق له من الكافور مثقال، ومن القَرَنْفُل ثلاثةُ دراهم، ومن المسك قيراطان، ويُضرَب ذلك به، ثم يُقسَم فى قرعتين أو ثلاثة؛ تفعل ذلك قبل إلقائك الكافورَ والقَرَنْفُل، ثمّ تُلقِى فى كلّ قرعةٍ من الفِتاق[4] حقّها، وتَضرِب ما فيها من الورد والماءِ ضربا جيّدا، ويركّب عليها الانبيق ويُستقطَر ماؤه، فإنّه يأتى منه ماءُ وردٍ لا بعده فى الطّيب؛ ثم تَصُبّ على الثُّفْل ماءً ثانيا نحو ثلاثة أرطال، وتستقطره، فإنّه يخرج منه ماءُ وردٍ ثانٍ لاحقٌ بالأوّل.

(١) يريد بالتعطن: تغير الماء وإنتانه؛ والذى وجدناه فى كتب اللغة أن العطن إنما يكون فى الجلد اذا وضع فى الدباغ وترك ففسد وأنتن، واستعماله فى الماء المتغير المنتن استعمال شائع فى مصر؛ فلعله جار على طريق الاستعارة.

(٢) الحبة: سدس سدس مثقال.

(٣) ورد هذا اللفظ فى مفاتيح العلوم ص ٢٥٩ بالذال المعجمة مضمومة. وقال المدنى فى المعرب والدخيل: إنه لم يجد اسم النشادر فيما وقف عليه من كتب اللغة، قال: ولعله غير عربى. وذكره صاحب كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) باسم النشادر بدون واو بعد النون، وقال: إنه تعريب نوشادر. ونقل عن البرهان القاطع أن النشادر ضربان: معدنى ومصنوع. فالمعدنى يحصل عليه فى جبل من جبال سمرقند وفى مفازة على قمة جبل بقرب دمندان بكرمان ... ... والمصنوع يعمل من سواد الدخان المجتمع فى أتون الحمام ... ... قال: وهو أيضا نشادر بالتركية والكردية.

(٤) قد سبق بيان معنى الفتاق فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١١٥ من هذا السفر، فانظرها.

تصعيد ماءِ وردٍ ملوكىٍّ مرتفِع عن ٱبن العبّاس

(١٢٤) يؤخذ من حَبّ السّمسم المربّى بالمسك ، فيُسحَق مع شىءٍ من الكافور على صلاية ، ويُجعَل لكلّ عشرة مثاقيلَ من حَبّ السّمسم زِنةُ دانِق من الكافور ويُجعَل منه فى كلّ قرعة مثقالان مخلوطان بورق الورد الأحمر العربىّ ؛ ثم يُستقطَر فإنه يَقطُر منه ماءُ ورد أذكَى من كلّ طِيب ؛ وإن سَحقتَ لكلّ قرعةٍ زنةَ دانقَين من زَهر القَرَنْفُل ، أو نصفَ درهم ، خرج ماء عجيبا حسَنَ الرائحة عَبِقا (١) .

تصعيد ماءِ ٱلمِسْك وماءِ ٱلوَرْد

قال التّميمىّ : تأخذ من ٱلمِسك دانِقا ؛ ومن ماء الوَرد ٱلجُورىّ رِطلا بالبَغدادىّ فتَسحَق ٱلمِسك ، وٱضربه بماء الورد ، وٱتركه فيه ساعة ؛ ثم ٱجعله فى القرعة ورَكِّب على رأسها الانبيق ، وصَعِّده على هُباء (٢) الماء ، فإنّه يطلع منه ماءُ مِسْكٍ لا بعده ؛ ومن أَحَبَّ ٱلزيادةَ فى ٱلمِسك أو النقصانَ فعَل ؛ ويصعّد على أثره ماء وردٍ بغير مِسك ، فإنّه يأتى ماءَ مِسْكٍ دون ٱلماء الأوّل .

وأمّا تصعيد ماء ٱلخَلوق من كتاب الزَّهْراوىّ

قال : يؤخذ جَوْزُبوا وبَسْباسَة وسُكّ ، من كلّ واحدٍ أوقيّة ؛ كافور نصفُ أوقيّة ؛ قَرَنْفُل أوقيّة ، سُنْبُل وقاقُلّة (٣) وكبابة ، من كل واحد نصفُ أوقيّة ، زعفران أوقيّة ؛ تُدَقّ

(١) فى كلتا النسختين « خنث » ؛ وهو تصحيف إذ لم نجد الخنث فيما راجعناه من كتب اللغة صفة للروائح .

(٢) فى كلتا النسختين « هبال » ؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب الكثيرة بمعنى البخار الصاعد من الماء ، كما هو المراد هنا ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا ، إذ لا مانع من استعارة الهباء — وهو ما سطع من الغبار — للبخار الصاعد من الماء ؛ ويرجحه استعمال العامة فى مصر لفظ « الحبو » بفتح أوله وسكون ثانيه فى معنى البخار .

(٣) فى كلتا النسختين : « وقاقلا » بالألف المقصورة ؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا ، إذ القاقلة هى المستعملة فى أنواع الطيب والمياه المستقطرة ، كما سبق ذلك فى عدة مواضع من أبواب هذا القسم . =

هذه الأصناف، وتُحَلّ بماء الورد، وتُبخّر بالعود والكافور فى يوم وليلة خمس عشرة مرّة، ويكون العُود والكافور سواءً فى التجزئة، ثم تُلقَى على ذلك من ماء الورد عشرةُ أرطال، ويُجعَل فى قرعة التقطير، ويوقَد تحته بنارٍ فَحْمٍ لَيِّنةٍ حتّى يصعد جميعُ الماء ويَبقَى الثُّفْل، فإن أردتَ أن تزيده ماءً آخَرَ على الثُّفْل وتصعّده ثانيا فافعل، وارفع كلّ ماء على حِدة؛ والله أعلم.

تصعيد ماءِ خَلُوقٍ آخَرَ من كتاب أبى الحَسَن المصرىّ

يؤخذ من القَرَنْفُل والسُّنْبُل والهَرْنُوَة والصَّنْدَل والزَّعفران، من كلّ واحد جزء، ومن الورد الأحمر المنزوعِ الأقماعِ جزءان؛ يُدَقّ الجميع، ويُنخَل، ويُعجَن بزَنْبَق، ويبخّر بقُسْطٍ مُرٍّ وحلو وظُفْرٍ[1] ولاذَن ثلاثةَ أيّام، ويقلّب بين كلّ ثلاثِ بندات[2]؛ ثم يبخّر بعود وكافور ثلاثةَ أيّام؛ ثم يُفتَق بجَوْزبُوا وبَسْباسةٍ وسُكّ مِسْكٍ وعودٍ لكلّ رطلين منه نصفُ أوقيّة من جميع الفِتاق، ودرهمان من الكافور الرياحىّ ومثقالٌ من دُهن البَلَسان، ويُحَلّ بماءِ وردٍ حتّى يصير كالحَساء، ويُجعَل فى قرعة التقطير، ويُستقطَر، ثم يُخرَج وفيه نَداوة بعد أن يثنّى بماءِ وردٍ آخَر، ويُجعَل ثُفْلُه فى الخَلّ.

= وقد شرحنا صفتها فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ فى ذكر صفة الهال، فانظرها. أما القاقلى بتخفيف اللام والقصر فليست من الأفاويه المستعملة فى الطيب، وإنما هى نبات كنبات الأشنان فيه خضرة وملوحة ومرارة يسيرة، ربعى، يدرك بالجوزاء، وقد ترعاه الإبل. وفى معجم أسماء النبات ص ٢٧ أن هذا النبات يسمى (القطف البحرى) و(البقلة المالحة) و(الرغل).

(١) يؤخذ من كتب اللغة أن أكثر اللغويين على أنه يسمى أظفارا بلفظ الجمع، ولا واحد له؛ وقيل: واحده ظفر كما هنا؛ وقد سبق توضيح صفة هذا النوع من الطيب بما فيه كفاية نقلا عن القدماء والمحدثين من الأطباء والنباتيين فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢٠ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) تقدم الكلام على معنى البندات فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٩٦ من هذا السفر، فانظرها.

تصعيد ماءِ خَلُوق من كتابه أيضا

يؤخذ من الزّعفران عشرةُ دراهم، ومن القاقُلّة[1] والصّندَل وحَبّ العَروس[2] والقرَنفُل والمَحلَب، من كلّ واحد وزن درهمين، وسنبلٍ وقرفةِ قَرَنفُلٍ[3] ومَصْطَكاء وجَوْزبُوا من كلّ واحد وزن درهم، ومِثلُ الزعفران وسائرِ هـذه الأَفاوِيه من الورد الفارسيّ الأحمر، يُدَقّ الجميع، ويُنخَل، ويُعجَن بعسلِ نحلٍ صافٍ منزوعِ الرُّغوة، مضروبٍ بالنّضـوح المعتّق، ويبخّر بقُسْطٍ وظُفْـرٍ حتّى يشـبع، ثم بعُودٍ وكافورٍ ثلاثةَ أيّام ثم بزعفرانٍ وكافور ثلاثة أيّام؛ ثم يؤخذ من الرّيْحان الغَضّ الأخضر أربعةٌ وعشرون درهما، فتُدَقّ وتُعجَن بصَفْو النّضوح، ويبخّر الرّيْحان بقُسْطٍ وظُفْر[4]، ويخمّر ليـلة ثم يُخلَط بالخَلوق، ويُضرَب به ضربا جيّدا، وتُقطّر عليه قَطَرات من دُهن البَلَسان أو دُهن الكادىّ[5]؛ ويُسحَق من الكافور الرّياحىّ[6] مثقالٌ فيُعجَن به، ويُضرَب به ضربا جيّـدا، ويُحَلّ جميـعُ ذلك بمَنَوَين من ماء الورد، ومَنَوَين من ماء النّمّام[7] المصعّد؛ ثم يصعّد على ما تقدّم، فإنّه يأتى غايةً فى الطّيب والذّكاء. قال: وهذا أَطيَبُ ما يُستخرَج من ماء الخَلوق.

---

(١) تقدم الكلام على القاقلة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر عند ذكر الهال، فانظرها.

(٢) حب العروس، هو الكبابة. وقيل: هو النيلوفر الهندى، وقد سبق بيان صفة الكبابة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٨٢ والنيلوفر فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١١٦ من هذا السفر، فانظرهما.

(٣) تقدم الكلام على قرفة القرنفل فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٨٥ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) تقـدّم الكلام على الظفر وهو المعروف بالأظفار فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢٠ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) تقدّم الكلام على الكادى فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٦) قد سـبق الكلام على وجه تسـمية هـذا الصنف من الكافور بالرياحى فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ١٠٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٧) قد سبق بيان صفة النمام فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٧ من هذا السفر، فانظرها.

وأمّا ماء المَيْسُوس — فهو ممّا يدخل فى النّضوحات، وتُنقَع به الأفاوِيه وتبخّر به المَخالِخ[(١)]، وغيرُ ذلك من أصناف الطِّيب ؛ وعمَلُه على طرق كثيرة ، نذكر أقربَها وأجوَدَها إن شاء الله تعالى .

صنعة مَيْسُوسٍ نادرٍ أُخِذ عن بَخْتِيشُوع[(٢)] الطبيب من كتاب العطر المؤلَّف للخليفة المعتصِم بالله

قال : يؤخذ من القُسْط المُرّ وقَصَب[(٣)] الذّريرة والساذَج[(٤)] الهندىّ والقَرَنْفُل الزّهر

---

(١) تقدّم بيان المراد بالمخالخ فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٠٧ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) ذكر ابن أبى أصيبعة فى (عيون الأنباء) أن معنى بختيشوع : عبد المسيح ، فهو مركب من كلمتين : «بخت» ومعناها باللغة السريانية : «عبد» و «يشوع» ومعناها : المسيح .

(٣) قصب الذريرة ، نبات هندى ، سمى بذلك لوقوعه فى الأطياب والذرائر . وأجوده الياقوتى اللون ، المتقارب العقد ، الذى يتهشم الى شظايا كثيرة ، وأنبوبه مملوء من مثل نسج العنكبوت ، وفى مضغه حرافة ، ومسحوقه عطر الى الصفرة والبياض (قاموس الأطباء) مادة «قصب» . وقال داود : قصب الذريرة هو نبت كالقش ، عقد ، محشو بشىء أبيض . قال : ومنه نوع رزين يتشظى كالخيوط ، ردىء جدا . وذكر صاحب المادة الطبية ج ٢ ص ٦٦٥ أن اسمه باللسان النباتى « قلموس أروما طيقوس » ، وهو يقوم على سوق وجذور شقر عقدية ، سهلة الكسر مجوفة ، مملوءة بنخاع لزج ، واذا مضغ كان له طعم مر قابض ، وذلك النبات يعطر الهواء فى المحال التى ينبت فيها كالهند وبلاد العرب وغير ذلك الخ .

(٤) الساذج : تعريب «ساده» بالفارسية ، وهو نبت مائى يقوم على خيوط شعرية تطول قدر عمق الماء الذى تكون فيه ، كالبشنين بمصر ، وموضعه مناقع بالهند ، اذا جفت أشعلت بالنار ، فينبت من قابل حتى يفرش ورقه على الماء ، وهى سبطة لاخطوط فيها دون سائر الأوراق ، ولذلك يسمى ساذجا ؛ وأجوده القوى الرائحة ، الضارب الى السواد ؛ ومنه نوع يسمى (الرومى) له عروق دقاق كالزرنب ، يكون بباب المندب وما يليه ، لا بالروم ، وانما هو لقب . وفى معجم أسماء النبات ص ٤٩ أنه يسمى سادجا بالدال المهملة أيضا ، وأن اسم الرومى منه «مالبا ثارون» و«ما لبثرن» واسم الهندى منه (مابهستان) (والعرفج البرى) واسمه بالفارسية (البلمون) ولم يذكره صاحب المادة الطبية فى كتابه .

وقشورِ عيدان السَّليخة الحمراء والبَسْباسَةِ الذَّكيّة والأَشْنةِ الهنديّةِ واليَمانيّةِ بعيدانها (١) (١) (٢)
من كلِّ واحد ستُّ أواقٍ، ومن السُّنبُل العصافير أوقيّتان، ومن المَيْعة السائلة (٣) (٤)
الحمراءِ أو البيضاءِ ستُّ أواقٍ، ومن دُهن البَلَسان ستُّ أواقٍ، ومن الزَّعفران القُمّى (٥) (٦)
المسحوقِ خمسُ أواقٍ، ومن المِسك خمسةُ مثاقيل؛ تُدَقّ الأصنافُ اليابسة
وتُطحَن، ويُسحَق المِسكُ والزّعفرانُ سحقا ناعما، ويُدافَنِ بالطُّلاءِ الرَّيحانيِّ الذَّكيّ (٧)
وتُحَلّ المَيْعةُ بدُهن البَلَسان (٥)، ويُصَبّ على الجميع من عسل النحل ستُّ أواقٍ

(١) تقدّم الكلام على هذين اللفظين اللذين تحت هذا الرقم السليخة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٢ والبسباسة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ من هذا السفر، فانظرهما .

(٢) الأشنة، هى المعروفة بشيبة العجوز، وهى أجزاء شعرية تخلق بأصول الأشجار، وأجودها ما على الصنوبر، فالجوز . وفى القاموس أنها شىء يلتف على شجر البلوط والصنوبر كأنه مقشور من عرق؛ وهو عطر أبيض، وفى قاموس الأطباء أنها قشور بيض رقيقة توجد ملتفة على كثير من الشجر .

(٣) انظر الكلام على السنبل فى الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الرابع فى صفحة ٤٣ من هذا السفر والحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ أيضا .

(٤) ذكر صاحب عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٣ ص ٣٠ أن الميعة اسم عربى مشتق من الميع، لأنه اذا أطلق أريد به : الميعة السائلة : واسم هذه العصارة (اصطرك) بضم الطاء وكسرها، وهو اسمها بالافرنجية . ويسمى النبات الذى تخرج منه هذه العصارة : (لبنى) بضم اللام وزان بشرى ثم قال : إنه نبات ينبت فى برونسة وإيطاليا واسبانيا وبلاد الروم واليونان وآسيا الصغرى ومعظم بلاد المشرق بالنسبة لأوربا، ويألف المحال اليابسة، ويعلو من خمسة عشر قدما إلى خمسة وعشرين ... ... وتستخرج هذه العصارة من جذع هذا النبات بالشقوق فى البلاد الحارة من آسيا الصغرى وجزائر اليونان، فتتجمد هذه العصارة وتسمى بالميعة الخ . وقال إسحاق بن عمران : شجرة الميعة شجرة جليلة كشجرة التفاح، ولها ثمرة بيضاء أكبر من الجوز، تشبه عيون البقر الأبيض (الإجاص) يؤكل الظاهر منها وفيه مرارة، وثمرته التى داخل النوى دسمة، يعتصر منها دهن هو الميعة اليابسة، ومنه تستخرج الميعة السائلة .

(٥) تقدم الكلام على البلسان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٥ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) تقدم الكلام على (قم) المنسوب اليها هذا الزعفران فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٥٦ من هذا السفر، فانظرها .

ويُضرَب بالأصناف ضربا جيّدا وهو حارّ، ويُدافُ ذلك بالطِّلاء[(١)]، وتُعجَن به الأفواهُ عجنا جيّدا، ثم يؤخذ من ورد السُّوسَن الأبيض الطرىّ ثمانمائة وردة عددا فتُقطَع أصولُ ورقِها بالأظفار، ويُمسَح من الصُّفرة التى تكون فى داخله بخِرقةٍ ناعمةٍ كتّان جديدة، ثم تَفرِش الورقَ فى إناء، راقًا[(٢)] مِن الورق، وراقًا[(٢)] من الأدوية حتى تأتىَ على السُّوسَن والأدوية، ثم تصبّ على ذلك من الطِّلاء الذّكىّ خمسةً وعشرين رِطلا بالبغدادىّ، وتُغطّى الإناءَ بغِطاءٍ ينطبق عليه، وتستوثق منه ويطيَّن بطينٍ حُرٍّ مخلوطٍ بشَعر العَنْز المدقوقِ المنخول؛ ويُرفَع فى بيتٍ كَنين، فى ظِلٍّ ممّا يواجه ريحَ الشّمال، ويُترَك ستّةَ أشهر، ثم يُفتَح ويصفّى فى القوارير. قال: فإنّه ينفع — بإذن الله — من الإغماء الشديد، وفرطِ الغَثَيان والقِىء والاستطلاقِ والهُزالِ وضَعْفِ الطبائع، ومن الغمّ الشديد، وضعف المعدة والكبد؛ وقد ينفع فى الضِّمادات[(٣)]، وتُعصَب به المَفاصل، ويوضع منه على قرطاسٍ وتُضمَد به المَعِدة.

---

(١) يريد بالطلاء الريحانى هنا: نوعا من الخمر؛ وقد سبق الكلام على صفته فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٧١ من هذا السفر، فأنظرها. والذى فى كلتا النسختين: «طلى» مرسوما بالياء؛ وهو تحريف.

(٢) يريد بالراق: الطبقة الرقيقة، وهو استعمال عامى شائع فى مصر، ولم نجده بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة؛ كما أننا لم نجده فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة. والذى ذكره اللغويون أن الرق بفتح الراء وبدون ألف بعدها بمعنى الرقيق، كما فى القاموس، وكذلك الرق بالكسر، كما فى مستدرك التاج، وهذا هو المعنى المراد هنا.

(٣) فى (ب): «من» مكان قوله: «فى»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا.

صنعةُ نوعٍ آخَرَ من المَيْسُوس عن بَخْتِيشُوع[1] أيضا من الكتاب المذكور

تؤخذ من السُّوسَن الأبيض أربعمائة سُوسَنة، فيُقطع ورقُها، وتُمسَح الصُّفرةُ التى داخله[2]، ويُبسَط على ثَوْبِ كَتّانٍ جديد، ويُنثَر عليه من المِلْح الأَنْدَرانىّ[3] ويُجفَّف فى الظِّلّ؛ ثم خذ له من القُسْط المرّ والساذَج[4] الهندىّ والحَمَامَى الحمراء وقُشور

(١) فى كلتا النسختين : « ابن بختيشوع » وقوله : « ابن » زيادة من الناسخ ، فان قوله بعد ذلك : « أيضا » يفيد أن النقل عن بختيشوع نفسه الذى سبق النقل عنه فى ص ١٣١ س ٤ لا عن ابنه ..

(٢) فى القاموس وشرحه مادتى « ذرأ » و « ندر » أن قولهم : ملح أندرانى غلط مشهور من لحن العوام، صوابه « ذرآنى » بالذال المعجمة، ومنهم من يهملها، والراء ساكنة، وقد تحرك، أى شديد البياض، مأخوذ من الذرأة بالضم، وهى شدة البياض . وفى بحر الجواهر للهروى أن الأندرانى نسبة الى «أندران»، وهى قرية بناحية اليمن . وقيل : هو اندرانى بالمعجمة . وذكر داود بعد أن قال إن الفاعل فى أنواع الملح هى حرارة غلظت الرطوبات أو الماء لحل تلك الأجزاء فيها الخ : أنه اذا خفت الحرارة وصفت الأرض وكانت بيضاء، انعقد (أى الملح) صفائح بلورية، وهذا هو الأندرانى والدارانى . ثم ذكر أن أجود أصناف الملح هو الأندرانى، وهو من المعدنى .

(٣) تقدم الكلام على صفة الساذج وأنواعه ومنابته وأسمائه فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣١ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) الحامى، هى جنس من السليخة؛ واسمها باليونانية : «أمومن»؛ ويسمى زهرها باللوقائين (معجم أسماء النبات) . وقال ديسقوريدوس : هى شجرة كأنها عقود خشب مشتبك بعضه ببعض؛ ولها زهر صغير مثل الدواء الذى يقال له : لوقائين، وهو الخيرى، وأجود هذا النبات ما كان من أرمينية، لونه شبيه بلون الذهب ولون خشبه الى الياقوت؛ وهو طيب الرائحة جدا . وذكر داود أن هذا النبات حريف حادّ طيب الرائحة يتفرع من أصل واحد صلب المكسر، جيد العطرية، ينبت بأرمينية وطرسوس، والكائن منه بالشأم أخضر دقيق، ومنه أبيض مشرب بصفرة، سريع التفتت، وكلاهما ردىء؛ وينبت بنيسان، له زهر الى الحمرة كزهر الخيرى أو الساذج، وورق كالفاشرا، وكلما اشتدّ خلصت حمرته .

عيدان السَّليخة[1] الحمراء والقَرَنْفُل وقَصَب[2] الذَّريرة الطيِّبة من كلِّ واحد أوقيّتين ومن المَصْطَكاء وسُنْبُل الطِّيب والعودِ الهندىّ، من كلّ واحد أوقيّة، ومن الزّعفران نصفَ أوقيّة، ومن المَيْعة[3] الحمراء السائلة ودُهن البَلَسان من كلِّ واحد أربعَ أواقٍ ومن المِسك أربعةَ مثاقيل؛ تَدُقّ هذه الأصنافَ جريشا، وتُنْعِم سحقَ المِسك والزعفران، ويُجمَعان بالمَيْعة السائلة ودُهن البَلَسان، وتصبّ على ذلك أربعَ أواقٍ من عسل النحل، ويُعجَن به (يعنى الزعفران والمسك) عجنا جيّدا؛ ثم يُحَلُّ بالطِّلاء ويُعرَك، وتأخذ بَرْنِيَّةً من زجاج واسعةَ الرأس، كبيرة، فتَبْسُط فيها راقًا[4] من ورق السُّوسَن وراقًا[4] من الأخلاط حتّى ينتهىَ ذلك؛ ثم صُبّ عليه من الطِّلاء الجيّد العتيقِ الذكىِّ الرائحة الّذى لم يوضع فى الشمس عشرين رِطلا، وتصبّ عليه بعد ذلك الزعفرانَ والمِسكَ المُدافَين بدُهن البَلَسان والمَيْعة والعسل المحلول بالطِّلاء فوق رأس البَرْنيّة، وليكن للبَرْنِيّة غِطاءٌ ينطبق عليها، وتجعل تحت الغطاء خِرقةَ كَتّانٍ جديدة، وتشدّ فوق الخرقة بقرطاسٍ مصرىّ، ثمّ بالغِطاء، ثم تطيِّن البَرْنيّةَ بالطِّين الحُرّ والشَّعر وتبن الكَتّان، وتجعل البرنيّةَ فى طاقٍ يلى ريحَ الشّمال، ولا تقابل بها الريحَ استقبالا، بل اجعلها منحرفةً عنها أدنى انحراف، واتركها ستّةَ أشهر ثم استعمله.

(١) تقدّم الكلام على السليخة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) تقدّم الكلام على قصب الذريرة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٣١ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) تقدّم الكلام على صفة الميعة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) تقدّم الكلام على المراد بلفظ « راق » وبيان أنه من الألفاظ العامية فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣٣ من هذا السفر، فانظرها.

قال : وبعضُ ٱلحكماء الأطبّاء يزيد فيه كبابة[(١)] وفلَنْجة[(٢)] وزَرْنَبادا[(٣)] من كلّ واحد أوقيّتين .

وأمّا ماء التُّفّاح ونَضوحُه الّذى يُصنَع منه — فقال التّميمىّ عن أحمد ابنِ أبى يعقوبَ فى صنعة ماء التُّفّاح الشامىّ الطيّب : تؤخذ من التُّفّاح الشامىّ ٱلجيِّدِ السالِمِ من العَفَن والتشنّج[(٤)] خمسمائة حبّة، فتُمسَح، ثم تُشقّق كلُّ تُفّاحة أربعة ويُلقَى ما فيها من الحَبّ وما يجاوره، ثم تُقطّع صغارا فى مَراكِن[(٥)] خضر، ثم تُدَقّ دقّا جيّدا فى هاوُن حجارة، ثمّ تُعتَصر فى كِرْباسة[(٦)] نظيفةٍ طيّبةِ ٱلرِّيح مبخَّرة، ثم تُدَقّ مرّة ثانية، وتُعتصَر حتّى لا يَبقَى فيها شىء من ٱلماء، ثم يُروَّق، ويُصَبّ فى تَوْرِ حجارة، أو طِنْجِيرِ حجارة، ويُطبَخ بنارِ فَحْم لَيِّنةٍ من فَحْمِ كَرْم جَزْل، فإذا ذهب من ٱلماء أقلُّ من الثلث فٱطرح فيه قَرَنْفُلا صحيحا وقِطَعا من صندلٍ أصفرَ دقاقا

(١) تقدم الكلام على الكبابة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٨٢ من هذا السفر، فٱنظرها .

(٢) تقدّم الكلام على الفلنجة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٢١ من هذا السفر، فٱنظرها .

(٣) كذا ضبطه القيصونى فى قاموس الأطباء، وقال : هو عروق تعرف عند العامة بالزرنب . وقال فى مستدرك التاج مادة « زرد » هو عروق تجلب من الصين تشبه السعد، لكنه أعظم وأقل عطرية . وقال داود : هو عرق الكافور، ويسمى (كافور الكعك) و(عرق الطيب) . وأهل مصر تسميه الزرنبة، وهو عطرى حادّ لطيف، وليس مقسوما الى مستدير ومستطيل، بل كله مستدير، وانما تقطعه التجار طولا زاعمين أن ذلك يمنعه من التأكل، ويطول نحو شبرين، وله أوراق تقارب ورق الرمان وزهر أصفر يخلف بزرا كبزر الورد، وأصوله كالزراوند، وفى المادة الطبية ج ٢ ص ٣٧٢ أن آسم الزرنباد بالافرنجية (الزرنبيت) وباللسان النباتى زنجبير زرنبيت، أى الزنجبيل الزرنبادى، واسمه عند آخرين (أمومم زرنبيت) أى الحامى الزرنبادية .

(٤) التشنج : التقبض .

(٥) المراكن : جمع مركن، وهو شبه توريخذ للماء، أو شبه لقن بالتحريك .

(٦) المراد بالكرباسة : إناء يخذ لترويق الخمر فيه ؛ والذى وجدناه فى كتب اللغة بهذا المعنى الكرباس بلا تاء فى آخره .

وأغلِه بهما حتى ينقُص الثلث وزيادة يسيرة، ثم أرفُق بالنار حتّى يبلغ نقصُه النصف ثمّ أنزِله عن النّار، ودَعْه حتّى يبرُد، ثم صفِّه، وأعِدْه إلى الطّنْجير وأخرج الصندلَ والقَرَنْفُل منه، وأوقِد تحته برفق، فإذا غلى ثانيةً فأطرح فيه عُودا مَرْضوضا مِثلَ رَضّ الخَشْخاش، أو أجلّ منه قليلا، وأغله به حتّى يَذهَب ثلثُ ما بقى وزيادة فيكون نقصُه عن أصله قد زاد عن ثلثيه، ثم أطرح فيه من السُّكّ[1] المرتفِع سُكّ الغالية، ولا تُكثِر تحته النارَ إلّا بقدر ما يَغلى غَلَيانا رفيقا، فاذا رأيتَه قد انعقد وصار مِثلَ الخَلوق — وهو الى الرقّة ليس بخاثر[2] — فأنزِله عن النار، واتركه فى الإناء يوما وليلة، ثم خذ قارورةً ليست بالواسعة الرأس ولا بالضيّقة قدرَ ما تدخلها اليد، فبخّرها بسبع قِطَع عودٍ مخمَّر ونَدٍّ وقِطَع عنبر، ثم صَفِّ ذلك الماءَ وصُبّه فيها، وسُدّ رأسها ما استطعتَ بخِرقة، وطيِّنه، ثم اتركه ثلاثةَ أيّام، حتى إذا كان فى اليوم الثالث فاسحق له لكلّ رِطل من الماء مثقالا من مِسْك، ومثقالا من عنبرٍ شَحْرِىٍّ مُداف، واضرب ذلك بالماء ضربا جيّدا، وحرِّك القارورةَ سبعةَ أيّام، واتركها شهرا، ثم استعمِله بعد ذلك.

صنعة عقيد ماء التُّفّاح من كتاب أبى الحسن المصرىّ[3]

قال: يُعتصَر ماءُ التُّفّاح على ما تقدّم، ثم يُجعَل فى طِنْجيرٍ برام أو بُرْمة بعد ترويقه وتصفيته، ويُطبَخ على النار حتّى يذهب منه النصف والربع، ثم يُنزَل

(١) تقدّم الكلام على السك وأنواعه وكيفية عمل كل نوع منه فى الباب الثامن من القسم الخامس من الفن الرابع انظر صفحة ٧٢ وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا.

(٢) خاثر، أى غليظ، والخثورة ضد الرقة.

(٣) فى كلتا النسختين «البصرى»، ولم يرد فيما راجعناه من الكتب ما يفيد أن لأبى الحسن البصرى اتصالا بأعمال الطب أو العطارة. والذى وجدناه فى هذه الكتب أنه كان من العلماء. أما المصرى فقد ورد ذكره فى كتاب (إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٤٤٣ طبع اوربا) وقد سبق الكلام عنه فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٩ من هذا السفر، فانظرها.

عن النار، ويُبرَّد، ويُسحَق لكلّ رِطل منه وزنُ نصفِ درهم من القَرَنْفُل الزَّهر وحبّتَيْ مسك، وحبّتَيْ كافورٍ سحقا جيّدا، وتُضرَب به، ويُجعَل فى آنيةِ زجاج ويُحكَم سَدُّ رأسها، ويُرفَع إلى وقت الحاجةِ إليه.

صفةُ نَضُوح ماء التُّفّاح ممّا ألّفه التَّميمىُّ وركّبه لجاء غايةً فى الطِّيب

قال: تأخذ من التُّفّاح الشامىّ البالغ النَّضيج خمسمائة حبّة، فتَعصِر ماءها على ما تقدّم، وترفعه على النار فى قِدرِ نحاس مُؤَنَّكة[1]، وتُوقِد تحته حتى تَنشقّ عنه رُغوَته، فإذا تَشقّقتْ فألقطها عنه حتّى يصفوَ وينصقلَ وجهه، ثم خذ له من العُود الجيّد والسُّنْبُل العصافير والقَرَنْفُل الزَّهر والقاقُلّة[2] والهالبُوا والهَرْنُوة[3] والقرفة والجوزة[4]، من كلّ واحد وزنَ درهم، يُدَقّ ذلك دَقّا جريشا، ويُنخَل بمُنخُلٍ شعرٍ واسع، ويُشَدّ فى خِرقةِ شُرْبٍ[5] فيها عنه فَضْل، وتُدلَّى بخَيط فى قِدر ماء التُّفّاح

(١) مؤنكة، أى مطلية بالآنك بضم النون، والمراد به هنا القزدير. ويطلق الآنك أيضا على الرصاص القلعى، وليس مرادا هنا، إذ النحاس إنما يطلى بالأوّل عند تنظيفه كما هو معروف لا بالثانى.

(٢) ذكر القاقلة والهال بوا معا يفيد أن أحدهما غير الآخر، وليس كذلك، بل هما اسمان لمسمى واحد انظر معجم أسماء النبات ص ٧٤ والتذكرة والمفردات فى الكلام على الهال والقاقلة وتاج العروس (مادة ققل) والمنهج المنير؛ فلعله أراد بالقاقلة هنا القاقلة الكبيرة، وبالهال بوا القاقلة الصغيرة، وهى الأنثى، كما نص على ذلك فى المفردات والتذكرة فى تعريف الهال بوا وقد سبق بيان ذلك فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر، فى صفة الهال، فانظرها.

(٣) قد سبق بيان صفة الهرنوة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٧٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) الجوزة بالتاء فى آخره، هى جوز الطيب، وينطق به فى مصر بالتاء كما هنا، فيقولون «جوزة الطيب»، وقد تقدم الكلام على هذا الجوز فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) خرقة شرب، أى خرقة تتشرب الماء وينفذ الى ما فى داخلها بسهولة، كما يفيد ذلك ما يأتى بعد من قوله: «تدلى بخيط فى قدر ماء التفاح» ويدل على ارادة هذا المعنى أيضا قول المؤلف بعد فى ص ١٣٩ س ١٤ «فى خرقة شرب خفيفة».

ويُغلَى عليها، وتُمرَس الخِرقةُ ساعةً بعد ساعة حتّى تخرج قوّة الأفواه فى ماء التُّفّاح ولا تزال توقِد تحته وقيدا ليّنا حتّى يَذهب نصفُ الماء وربعُه، فإذا بقِىَ منه الربع فأنزِله عن النار، واعتصر الخِرقةَ فيه، ثم أخرِجها وجفِّف ما فيها من أثفال الأفواه فإنّها تصلح للضِّمادات الّتى تُصلِح المعدة، فإذا فتَر ماء التُّفّاح فاسحق له من المسك مثقالا، ومن الكافور نصفَ مثقال، ومن سُكّ المسك مثقالا، ومن الزعفران المطحون نصفَ مثقال، واجمع ذلك فى زِبدية[1]، وصُبّ عليه من مطبوخ ماء التُّفّاح ما تعجنه به، ثم أذِبه حتى يصير مِثلَ الخلوق، ثم صُبّه فيه، واضربه به ضربا جيّدا، واجعله فى ظروف، وأحكِم سَدّها، فإنه يأتى عجيبا فى الطِّيب.

وأمّا ماء العنب المطيّب والعقيدُ المصنوعُ منه — وقد سماه التّيمىُّ بهذه التسمية، ونقَله من كتاب العبّاس بن خالد وغيره — فقال فى عَمَل ماء العنب المطيّب: تأخذ من عصير العنب الأسوَدِ زِقّين أو ثلاثة، فتصبُّه فى إناء، وتتركه يومين، ثم تروِّقه فى إناء آخَر حتّى يصفوَ، واجعله فى طِنْجيرٍ بِرام، وأوقِد تحته بنارٍ ليّنة، وانزع رُغْوتَه، فإذا صفا فخذ له من الزَّرْنَب[2] والفَلَنْجة[3] من كلّ واحدٍ أوقيّة واجعلهما فى خِرقةِ شُرْبٍ خفيفة، وتُشَدّ وتُعلّق فى الطِّنْجير، ويُطبَخ وهى فيه

(١) كذا ضبط صاحب التاج فى المستدرك هذا اللفظ بكسر الزاى ضبطا بالعبارة. وقد سبق بيان معناه فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٤ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) الزرنب يسمى (الملكى) و(رجل الجراد) وللناس فيه خبط حتى قيل فى الفلاحة: إنه ضرب من الآس؛ والصحيح أنه نبات لا يزيد على ثلثى ذراع، مربع محرف، له ورق أعرض من السعتر وزهر أصفر، يوجد بجبال فارس، وهو الأجود، حريف حاد بين الدارصينى والقرنفل، وقد يوجد بالشأم، ولكنه لاحرافة فيه، ويدرك ببشنس، وتبقى قوّته أربع سنين. وقال أحمد بن داود: هو من أدق النبات وشجرته طيبة الرائحة عطرية؛ وليس من نبات أرض العرب. وقال خلف الطبى: هو مثل ورق الطرفاء أصفر.

(٣) تقدم الكلام على الفلنجة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢١ من هذا السفر، فانظرها.

ويُمرَس ساعةً بعد ساعة حتّى يذهب من ماء العنب النصف، ثم أنزِله عن النار وبرِّده يوما وليلة، ثم روِّقه، وخذ له من المسك مثقالين، ومن الكافور الرياحىّ مثقالا ونصفَ مثقال، ومن الزعفران نصفَ أوقيّة، ومن العود المسحوقِ المنخول نصفَ أوقيّة؛ ثم أجمع ذلك فى زِبديّة، وحُلّه بشىء من العصير المطبوخ، ثم صُبّه فيه، وأضربه ضربا جيّدا، وأجعله فى قوارير، وسُدّ رءوسها، ويكون أقلّ من ملْوِها[1]، فإنّه يَغلِى ويفور؛ وينبغى أن يحرَّك فى كلّ يوم تحريكا شديدا إلى أن يسكن غليانُه ويُستعمَل بعد شهور.

صنعةٌ أخرى لماء العنب المطيّب من كتاب محمد بنِ العبّاس

يؤخذ من العنب الأبيض الكثير الماء فيُعصَر فى إناء نظيف، ويُجعَل الماء فى طِنْجير، ويوقَد تحته وُقودٌ ليّن حتى تُنزَع رُغْوته ويصفو، ثم خذ له قِرفةَ قَرَنْفُل وسُنْبُل، فيُدَقّ ذلك دقّا ناعما، ويُلقَى فيه وهو على النار بعد أن يَنقُص نصفه ثم يُغلَى عليه[2] ساعة، ويُنزَل، ويُترَك حتّى يَبرُد يوما وليلة، ثم يُصفَّى[3] براووق ويُجعَل فى إناءِ غَضار[4]، ويُفتَق بمسك وكافورٍ رِياحىٍّ وعودٍ مطحون، فإن كان فى زمن

(١) استعمال الملو بالواو بمعنى الملء مهموزا استعمال عامى معروف فى مصر. وقد أبقيناه على حاله حرصا على استعمال المؤلف، فانه يبعد أن يكون تحريفا من الناسخ، للفرق البعيد بين اللفظين فى الرسم. والذى فى (أ): «حلوها» بالحاء؛ وهو تحريف.

(٢) مقتضى اللغة حذف قوله: «عليه» اكتفاء بقوله: «يغلى»، فان هذا الفعل يتعدى بنفسه لا بالحرف، فيقال أغليت الماء مثلا، ولا يقال: «أغليت عليه»، إلا أن هذا التعبير مما شاع استعماله فى كتب الأطباء واستعمله المؤلف كثيرا فى هذا السفر نقلا عن التميمى؛ فلعلهم ضمنوا «يغلى» معنى يوقد عليه حتى يغلى، فسوغ لهم هذا التضمين تعدية هذا الفعل بالحرف.

(٣) فى كلتا النسختين: «يسق»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما يدل عليه قوله بعد: «براووق».

(٤) الغضار: الطين اللازب الأخضر الحر تتخذ منه الأوانى.

ٱلحز فأخرجه بالليل إلى صحن الدار مغطًّى ، ويُردّ بالنهار إلى موضع باردٍ كنين ولا يُترَك فى مكانٍ نَدٍ[(١)] ، ثم يُجعَل بعد إحكام سَدِّه وتطيينه فى موضعٍ كنين إلى أن يُدرِك ، ويُستعمَل فى وقت ٱلحاجة اليه .

ووصَفَ التَّميمىُّ أعمالا كثيرةً لماء العنب ، إلّا أنّها لا تبعد عن هذه النُّسَخ ٱلّتى أوردناها ولا تنافيها إلا بكثرة ٱلأفاويه وقلّتها ، ولم يقل فى شىء منها : إنّه يَنقُص أكثرَ من النصف ؛ وفيه على هذه الصفة مافيه ، وبعيدٌ أن تفارقه النشاة[(٢)] مطلقا اذا لم يزد عن النصف ؛ فأمّا من أراد ٱستعماله على الوجه المباح عند أكثرهم فإنه يغليه حتى لا يَبقَى منه إلّا دون الثلث .

---

(١) فى كلتا النسختين «ندى» والياء زيادة من الناسخ .

(٢) لعل صوابه : « النشوة » بالواو مكان الألف ، أى السكر ، بدليل قول المؤلف بعد : فأما من أراد استعماله على الوجه المباح عند أكثرهم الخ اذ النشوة بالمعنى السابق هى التى تتعلق بها الإباحة والحرمة فى الشراب . أما النشاة فهى بمعنى الرائحة فى الشراب وغيره ، ولا تتعلق بالروائح إباحة ولا حرمة .

الباب العاشر من القسم الخامس من الفنّ الرابع

فى الأدوية التى تزيد فى الباه وتلذّذ الجماع[1] وما يتّصل بذلك من أدوية الذَّكَر والأدوية المُعينة على الحبل والمانعة منه وغيرِ ذلك

إعلم — وفّقنا الله وإيّاك — أنّ علاج الباه يحتاج إلى أدويةٍ لإصلاح باطن البدن وظاهره .

أمّا باطنُه فإصلاحه[2] بالأدوية المستعمَلة ، من الأطعمة والأدوية المركّبة والجوارِشنات[3] والمُربّيات والسّفوفات والحُقَن والحمولات .

وأمّا ظاهرُه فإصلاحه بالمَسوحات والضّمادات والأدوية الملذّذة بالجماع .

ذِكر الأطعمة النافعة لذلك — من ذلك صفة عُجّةٍ[4] تزيد فى الباه : يؤخذ حِمّص وباقِلاء[5] وبَيض[6] وبصلٌ أبيَض، يُطبَخ ذلك بلبنٍ حليبٍ حتّى يَتهرّأ

(١) مقتضى اللغة أن يقال «بالجماع» بزيادة الباء، أى الأدوية التى تلذذ الشخص به ، إذ معنى لذذه جعله يلتذ ، كما يستفاد من الأساس ومستدرك التاج ، ولم نجد فيما راجعناه من الكتب أنه يقال لذذ الشىء بنصب الشىء ، أى جعله لذيذا كما هو مراد المؤلف فى هذه العبارة ، وهو استعمال شائع فى كلام العامة .

(٢) فى (ب) «فلإصلاحه» ، ولا مقتضى للام هنا كما لا يخفى .

(٣) سبق توضيح المراد بهذا اللفظ عند الأطباء فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٢ من هذا السفر فانظرها .

(٤) فى (أ) «عجمة» ، والميم زيادة من الناسخ .

(٥) الباقلاء : الفول ، وهو اسم سوادىّ ، واذا شددت اللام قصرت ؛ واذا خففتها قلت : الباقلاء بالمد كما هنا .

(٦) لم ترد هذه الكلمة فى النسخة التى بين أيدينا من كتاب (الايضاح) المنقول عنه هذا الكلام كما سينبه المؤلف على هذا النقل بعد . انظر النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٦٣ طب فلعلها منقولة عن نسخة أخرى .

ويصفّى عنه اللبن ؛ ثم يُطرَح فى مِهْراس[1] ويُدَقّ ناعما حتّى يختلط ... [2] ؛ وتؤخذ صُفرةُ عشر بيضات فتُطرَح عليه ، ويُجعَل جميعُ ذلك فى مِقْلَى ، ويُقْلَى بزيت[3] ، وتُعمَل عليه الأبازير ، ولا يُترَك حتّى يحترق ، بل يؤكل قبل نُضجه .

صِفة عُجّة أخرى

يؤخذ هِلْيونٌ[4] رَخْص[5] ولُوبِياء[6] وبصل أبيض وحِمّص ؛ يُسلَق جميعُ ذلك

(١) وردت هذه الكلمة فى (أ) هكذا « براس » وفى ب « كهراش » ، وهو تحريف فى كلتا النسختين ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا . والمهراس : الهاون .

(٢) زاد فى (الإيضاح) المنقول عنه هذا الكلام فى موضع هذه النقط قوله : « ويعجن » .

(٣) عبارة (الإيضاح) المنقول عنه هذا الكلام « بزيت طيب مغسول » .

(٤) الهليون : نبات مشهور بالشأم ، له قضبان تميل الى صفرة ، تمتد على وجه الأرض ، فيها لين يتوعى ، الى الحدّة ، وورق كالكبر ، وزهر الى البياض ، يخلف بزرا دون القرطم ، ويبلغ بنيسان (التذكرة) وذكر ابن البيطار أن منه بستانيا ورقه كورق الشبث ، ولا شوك له البتة ، وله بزر مدوّر أخضر ، ثم يسود ويحمر ، وفى جوفه ثلاث حبات كأنها حب النيل صلبة . ومنه ما يكون كثير الشوك ، وهو الذى يسمى بالأندلس : « أسرعين » . وفى (معجم أسماء النبات) أنه يسمى (أقلام الديب) (والضغبوس) ويسمى فى مراكش (أذن الحلوف) واسمه بالبربرية (سكوم) واسمه باليونانية (أسفرانج) و(أسفراج) و(أسفرغس) وبالفارسية (ماريجويه) (ومرتشويه) . وقال صاحب المادة الطبية ج ٣ ص ١٥٢ : إن اسم الهليون هو الاسم المعروف فى كتب العرب . وذكر صاحب كتاب (ما لا يسع الطبيب جهله) أن هذا الاسم يونانى . قال صاحب المادة : لم أره كذلك فى القواميس اليونانية . ثم نقل عن ابن البيطار ما سبق ذكره ، وذكر أن اسمه بالافرنجية (أسفرغ) وباللاتينية (أسفرغوس) ، وباللسان النباتى (أسفرغوس أوفسنالس) ، واسمه الافرنجى آت من أسفير ، أى خشن ، لأن كثيرا من أنواعه شوكى .

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا ، فلعلها منقولة عن نسخة أخرى .

(٦) فى القاموس وشرحه أن اللوباء قيل هو اللوبياء عند العامة ، يقال هو اللوبياء واللوبيا واللوبياج ، مذكر ، يمدّ ويقصر . وقال أبو زياد : هى اللوباء ، وهكذا تقوله العرب . وزعم بعضهم أنها يقال لها التامر . وقال الفراء : هو اللوبياء والجوذياء والبورياء . قال : وهذه كلها أعجمية . وفى شفاء الغليل للخفاجى والمعرّب للجواليقى أنه غير عربى .

حَتّى يتهرّأ، ويؤخذ من صُفرة البيض ما يحتاج اليه، ويُجعَل على المسلوق بعد دقّه ويُطرَح عليه شيءٌ من شحم الإوزّ، ويُغلَى بزيت مغسول(١)، ويؤكل قبل نُضْجه، فإنّه غايةٌ فى زيادة الباه.

صفةُ لَونٍ يزيد فى الباه

تؤخذ فَراريجُ مسمَّنةٌ قد عُلِفتِ الحِمَّص والباقلاءَ واللُّوبياء، تُذبَح وتُغسَل ويؤخذ حِمَّص يُسلَق ببصل كثير، ويُنشَّف، ويُرَضّ بشَحْم ثلاثةِ فَراريج، ويُحشَى به فَروجٌ من المسمَّنة، ويُطبَخ إسْفِيدباجةً رَطْبة، ويكون ملحُها مِلحَ السَّقَنقُور(٢) ويُذَرّ عليه دارصِينيّ وزنجبيل وأبازير(٣)، ثم يُجعَل الفَروج بعدَ نُضْجه على رغيفٍ سَميذٍ(٤) قليلِ الملح والخمير، ويُترَك الرّغيف فى المَرَق حتّى يتشرّبه، ثم يؤكلان، فإنّ ذلك نهاية.

---

(١) الزيت المغسول، هو الذى يؤخذ زيتونه أوّل ما يخضب بالسواد، ويدق ناعما ويصب عليه الماء الحارّ، ويمرس حتى يطفو الزيت فوق سطح الماء. فحينئذ يقال للزيت: «المغسول» قاله داود وصاحب الشذور والذهبية فى الكلام على الزيت.

(٢) ملح السقنقور، أى الملح الذى يحشى به السقنقور المجفف، فان العادة فى هذا الحيوان أن يذبح بعد صيده، ويشق طولا، ويحشى ملحا، ويعلق منكوسا فى الظل إلى أن يستحكم جفافه. وفى الشذور الذهبية أن السقنقور ورل مائى، أى دابة على خلقة الضب، تصاد من نيل مصر. وقال الدميرى فى (حياة الحيوان): إنه نوعان: هندى ومصرى؛ ومنه ما يتولد ببحر القلزم، وما يتولد ببلاد الحبشة، ويتغذى بالسمك فى الماء وبالعظاء فى البر؛ وأنثاه تبيض عشرين بيضة تدفنها فى الرمل فيكون ذلك حصنا لها. وقال أرسطو: السقنقور جرذان بحرى. وفى (بحر الجواهر) أن الفرق بينه وبين الورل أن السقنقور يأوى الى شطوط النيل وما قرب منها، والورل يأوى البرارى الخ.

(٣) عليه، أى على الفروج السابق ذكره.

(٤) السميذ: الحوارى، وهو لباب الدقيق. ويقال بالدال المهملة، إلا أنه بالمعجمة أفصح.

صفة هريسة

يؤخذ من الحنطة النقية المقشورة، ثم تجعل فى قدر، ويجعل معها مثل خمسها من الحمص والباقلاء واللوبياء، ثم يجاد طبخها، ثم يؤخذ من عصارتها جزءان، ومن اللبن الحليب البقرى جزء، ومن النارجيل مثل ربع اللبن، ويلقى فيه من شحم الإوز والبط؛ ويسلق بلحم الهريسة، ويخلط جميع ذلك بالأول؛ ويضرب حتى يصير هريسة، ويكون ملحها ملح السقنقور، وتؤكل، فإنها تزيد فى الباه. (١٢٨)

صفة لون آخر

يؤخذ لحم حمل سمين، يطبخ إسفيدباجا[1]، ويطرح معه حمص وبصل كثير وخولنجان[2]

(١) الإسفيدباج، هو أن يقطع اللحم صغارا، ويطبخ حتى تنزع رغوته، ويلقى عليه من الحمص والبصل المسحوق بالكزبرة والمصطكاء حتى تستوعب أجزاؤه، ويحمض بيسير ليمون أوخل، ويغطى حتى ينضج، وينزل (داود). وقال صاحب (بحر الجواهر): إن الاسفيدباج هى مرقة اللحم التى ليس فيها شىء من التوابل والأبازير والأشياء التى لها طعوم غالبة من حرافة وحموضة، لئلا يكتسب الدم كيفية رديئة. ونقل عن غيره أن أصله اللحم والبصل والحمص.

(٢) كذا ضبطه الهروى فى (بحر الجواهر) بفتح الخاء نقلا عن المهذب ضبطا بالعبارة. وضبط هذا اللفظ فى كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة ص ٥٦) و(معجم أسماء النبات ص ١٠) بضم الخاء ضبطا بالقلم. وقال صاحب معجم أسماء النبات: إنها تسمية «سنسكريتية»؛ وذكر من أسمائه خاولنجانا وخولنجانا، وخسرودارو، وجوز السودان؛ وذكر أن الكندى أدخله فى الاستعمال الطبى فى القرن التاسع الميلادى اه وهو نبات رومى وهندى يرتفع قدر ذراع، وأوراقه كأوراق القرفة، وزهره ذهبى. وذكر صاحب المادة الطبية، أن اسمه بالافرنجية جلنجا، وهو جذر نبات يسمى باللسان النباتى عند لينوس «برنتاجلنجا» وعند (ولدنوف) «البنياجلنجا». وأنواع هذا الجنس تنبت طبيعة بأحر أقاليم الكرة. ثم ذكر بعد الكلام على صفاته النباتية أن هذا النبات حشيشى معمر، وينبت ببلاد جاوة وسمطرى وملبار وجزائر ملوك السند والصين، وبالجملة محله الهند حيث يسمى هناك «جلنجا»، والمستعمل من هذا النبات فى الطب جذره الخ. وفى الشذور الذهبية أن الخولنجان قطع ملتوية حمر وسود، حار المذاق، طيب الرائحة، يؤتى به من الصين. ثم نقل عن داود أنه نوعان: غليظ عقدى يسمى القصبى، وسبط دقيق يشبه العقرب فى شكله، فلذلك يسمى العقاربى، وهو الأجود والمستعمل.

وصُفرةُ البيض ، ويطيَّب بالأبازير وملح السَّقَنْقُور (١) ويؤكل فإنّه غاية .
قال صاحب كتاب (الإيضاح) : إنّ الأطعمة الّتى تزيد فى الباه هى الطَّباهِجات (٢)
والاسفِيذْباجات واللُّوبِياء والهرائس والمطَجَّناتُ والأمخاخ وما يجرى مجرى ذلك .

وأمّا الأشربة المركَّبة الّتى تزيد فى الباه — فقد وصف منها محمدُ
ابن زكريا الرازىُّ وغيرُه أصنافا ، فقال : يؤخذ من لبن البقر الحليب رطلان من ٥
بقرة فتيّةٍ صفراء ، يُجعَل فيه تَرَنْجُبِين (٣) أبيض ، ويُطبَخ بوُقود شديد حتّى يغلظ

(١) تقدم الكلام على المراد بملح السقنقور وصفة السقنقور فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٤ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) الطباهجات بفتح الطاء والهاء : أنواع من اللحم المشرح ، وهو الصفيف ، وباؤه بدل من الباء التى بين الباء والفاء عند الفرس ، والواحد طباهجة وطباهج ، وهو معرب ، فارسيته « تباهه » . ١٠ وفى (الألفاظ الفارسية) أن الطباهجة طعام من لحم وبيض وبصل . وقال الهروى : الطباهج والطباهجة هو أن يقطع اللحم ويقلى فى أى دهن كان . وقيل : هى مرقة متخذة من اللحوم المشوية فى الأدهان الطيبة . وقيل : هى كباب شامى ، وذلك بأن يدق اللحم دقا ناعما ، ويضاف اليه البصل ، ويفرطح ، ويقلى فى دهن الشيرج .

(٣) كذا ضبط هذا اللفظ فى كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) و (المعجم الفارسى الانجليزى لاستانجاس) . ١٥ وقال صاحب (الألفاظ الفارسية ص ٣٥ طبع بيروت) : الترنجبين طل أكثر مايسقط بخراسان وما وراء النهر ، وأكثر وقوعه على الحاج ، وهو العاقول ، ويجمع مثل المن ، وأجوده الأبيض ، وهو تعريب ترنكبين . وقال صاحب المادة الطبية ج ٤ ص ٥٥٥ : الترنجبين هو المن الفارسى ، وهو عصارة تخرج من النبات المسمى بالحاج ، أى العاقول ، وتقوم هذه العصارة فى بلاد الفرس مقام السكر فى الفطائر ونحوها من المآكل . ثم ذكر بعد الكلام على العاقول المفرز لهذه العصارة أن ساقه تفرز جوهرا سكريا يسمى منّ ٢٠ فارس ، يستعمل كثيرا بفارس الى بنقالة ، وأكثر ما يجنى الترنجبين بطورس : مدينة بفارس ، وفى أيام شدّة الحرارة يشاهد على الأوراق والأغصان شبه نقط عسلية تتجمد حبوبا يكون غلظها فى حجم حب الكزبرة الجافة ، وتجمع وتعمل أقراصا محمرة مائلة إلى السمرة ، مملوءة غبارا وأوراقا تغير لونها ، وربما قللت خواصها الخ . وقال صاحب نهاية الأرب فى الجزء الحادى عشر ص ٣٢٨ : إن معنى ترنجبين عسل الندى الخ .

ويصير مثلَ العسل ، وتؤخذ منه فى كلّ يومٍ أوقيّةٌ على الريق، وأكثر من ذلك .
وقال : هذا لأصحاب ٱلأمزجة ٱلحارّة اليابسة .

آخَرُ يصلح لأصحاب الأمزجة الباردة اليابسة

يؤخذ من اللّبن ٱلحليب رطل، وتُسحَق عشرةُ دراهمَ دارصِينىّ سحقا ناعما
٥ حتّى تصير مثلَ الكحل، وتُلقَى على اللّبن، ويُترك ساعة، ثم يُشرَب قدحا بعد قدح
ويخضخَض لئلّا يَرسُب الدارصِينىّ فيه ، وليَشرَبْ قبل الطعام وبعده قليلا قليلا
بدلَ الماء عند العطش حتّى يأتىَ على اللّبن والدارصِينىّ بكماله ، ويكون الغذاء طَباهَجا
بلحمِ ضأنٍ فَتِىّ ، ويَشرَب عليه نبيذا صرفا ، يَفعَل ذلك أسبوعا ، ولا يجامِع فيه ، فإنّه
يولِّد مَنِيّا كثيرا ، ويهيِّج تهييجا عظيما . قال : وينبغى أنّه اذا هاجت منه حِدّةٌ
١٠ وحرارة أن يقطَع ، فإن لم تسكن ٱلحِدّةُ والحرارةُ فُصِد وأُسهِل وسُقِىَ ماءَ الشّعير
ويَترُك ٱللحمَ والشرابَ أياما ، ويقلِّل الغذاء . قال الرازىّ : إلّا أنّ هذا التدبير
يَجمع ٱمتلاءً كثيرا ، ولا يَقرَب هذا الدواءَ مَن بدنُه غيرُ نقىّ ، فإنّه يُحَمّ لا محالة . فأما
النقىُّ البدن، القليلُ الدم، الساكنُ ٱلحِدّة، فنعم الدواءُ هُوَ له ، وهو دواء قوِىٌّ فى فعله .

صِفةُ شرابٍ آخَر

١٥ يؤخذ من حليب البقر رِطلان ، وقيل رطل ، ويُلقَى عليه من التَّرَنْجُبِين[1]
الأبيضِ ٱلخُراسانىِّ زنةُ عشرين درهما ، ويُطبَخ برفق حتّى يصير فى قِوامِ[2] العسل
ثم تؤخذ منه فى كلّ غداةٍ أوقيّةٌ على ٱلرِّيق، فإنّه نهايةٌ فى زيادة الباه .

(١) تقدّم الكلام على صفة الترنجبين وأسمائه فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٤٦ من هذا السفر، فٱنظرها .
(٢) يطلق القوام فى كتب الطب على صيرورة الشىء السائل ثخينا .

صفةُ شرابٍ آخر

يؤخذ ماءُ البصل وماءُ الهِلْيَوْن[1] وسمنُ البقر ولبنُها، من كلّ واحدٍ جزء، ومن بزر الجرجير وبزر اللّفت من كلّ واحدٍ كفّ؛ يُدَقّان ويُلقيان فى المياه واللّبن، ويُغلَى ذلك على النار، ويُصفّى؛ وتُشرَب منه أوقيّةَ وهو حارّ، فإنّه جيّد.

ذِكرُ الأدوية المركّبةِ النافعة لزيادة الباه وتغزير المنىّ

يؤخذ بزرُ رازيانج وبزر جرجير، من كلّ واحدٍ خمسةُ مثاقيل؛ يُسحَقان ويُعجَنان بلبن البقر، ويحبّب كالباقلاء، ويؤخذ منه مثقال، ويُدخَل بعده الحمّام، ويُمرَخ البدنُ فى الحمّام بزيتٍ وخلّ وعُصارةِ عنب الثعلب، فإنّه نافع.

صفةُ دواءٍ آخر

يؤخذ من ماء البصل الأبيض جزء، ومن العسل جزءان؛ يُطبَخُ ذلك على نار ليّنة حتّى يَذهب ماءُ البصل، ويؤخذ من العسل عند النوم ملعقتان، فإنّه نافع جيّد لأصحاب الأمزجة الباردة.

دواءٌ آخر

يؤخذ عاقِرُ قَرْحَى[2] وبزرُ الرشاد[3] وبزرُ الأُتْرُجّ وفُلْفُل، من كلّ واحدٍ مثقال؛

(١) تقدّم الكلام على صفة الهليون فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٤٣ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) العاقر قرحى، هو نبات يشبه فى شكله وقضبانه وورقه وزهره جملة النبات المعروف بالبابونج الأبيض الزهر المعروف بمصر بالكركاش، الا أن قضبان العاقر قرحى عليها زغب أبيض، وهى ممتدّة على وجه الأرض، وهى كثيرة، ومخرجها من أصل واحد، على كل قضيب منها رأس مدوّر كشكل رأس البابونج الصغير، أصفر الوسط، وله أسنان دائرة بالأصفر منه باطنها مما يلى الأرض أحمر، وظاهرها الى فوق أبيض ولم يختر ما نقله التراجمة عن ديسقوريدوس. وذكر أرباب العلم الحديث أن اسمه بالافرنجية بيرطر، وربما قيل له: (خاموميل بيرطر)، اى بابونج نارى، وباللاتينية (بيرطروم) وباللسان النباتى (أنطيمس بيرطروم). وذكروا فى صفاته النباتية أن جذره معمر، عمودى فى الأرض، تتولد منه سوق كثيرة بسيطة راقدة قليلا من قاعدتها، وقائمة فى جزئها العلوى، وتعلو عن الأرض من ثمانية قراريط الى عشرة، وتنتهى غالبا برأس وحيد زهرى، والأوراق مزدوجة الريش، مقسمة تقسيما خيطيا، وفيها بعض ثخن ولحمية، والزهيرات النصفية بيض، وفيها بعض احمرار من حافاتها ووجهها السفلى الخ. انظر المادة الطبية ج ٢ ص ٤٩٢

(٣) بزر الرشاد، هو الحرف بضم الحاء عند أهل العراق، سموه به تطيّرا، لأن الحرف معناه =

دارصِينيّ وشَقاقُل (١) وبِزرُ الجَزَر وزنجبيل، من كلّ واحد مثقالان. [حِلْتِيت (٢) نصف مثقال؛ تُجمَع هذه الأدويةُ بعد دقّها، وتُعجَن بعسلٍ منزوعِ الرُّغوة، وتُرفَع؛ الشربة منه مثقالان].

= الحرمان؛ كما فى التاج، وهو (الثفاء) بضم الثاء وتخفيف الفاء بالعربية، وبالبربرية (بلاشقين)؛ ويقال له (فلفل الصقالبة) أيضا، واسمه باليونانية (سيسنبريون) (وأقرنون) (معجم أسماء النبات). وهو برى وبستانى فالبرى شديد الحرافة مشرف الأوراق إلى استدارة، والبستانى دونه فى ذلك، يدرك أواخر الربيع (داود). وذكر ابن البيطار فى الكلام على الحرف — وهو حب الرشاد — أنه يسمى (المقلياثا) بالسريانية. وقال محمد بن عبدون: المقلياثا هو الحرف المذلوخاصة. وفى كتاب الفلاحة أن الحرف صنفان: أحدهما فى ورقه دقة وتفريق كثير، والآخر فى ورقه شبه استدارة مع تشقق وتفريق.

(١) الشقاقل يقال فيه: الشقاقل بفتح الشين الأولى وتسكين الثانية وتشديد اللام؛ والأشقاقل بزيادة الألف فى أوله. وفى الجزء الحادى عشر من هذا الكتاب ص ٥٦ أنه هو الجزر البرى إن عدّ فى الجزر. وفى قاموس الأطباء أن هذه الأسماء نبطية لعروق منها الغليظ ومنها الرفيع، وهى طوال معقدة تنبت فى كل عقدة ورقة تشبه ورقة البسيلة، وفى طرف القضيب تخرج زهرة فى آخر الربيع فى لون نوّار البنفسج، واذا سقط الزهر أخلف بزرا أسود كالحمص مملوءا رطوبة سوداء، وهو حلو الطعم.

(٢) الحلتيت، هو صمغ شجرة الأنجذان؛ وهو نوعان: أحدهما أبيض، وهو المأكول؛ والآخر أسود، منتن الرائحة. أما الأنجذان الذى يخرج منه هذا الصمغ فتسميته بهذا الاسم فارسية، ويسمى بالعراق (الكاشم)، وبالمغرب (المحروث)؛ ومنه رومى ينبت بأرمينية، وخراسانى؛ وأصله أغلظ من الأصابع، ويفرع كثيرا، وأوراقه كصفيحة مخرقة تحيط بجمة ذات زهر أبيض، وبينها عساليج تخلف كقرون اللوبياء، فيها بزر كالعدس، أسود حار، وأبيض لطيف؛ ويدرك ببابة. وذكر صاحب المادة الطبية ج ٢ ص ٦١٣: أن اسم الانجذان باللاتينية «لازربسيون» بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة بعد الراء. وذكر فى الجزء الثالث صفحة ٦٧٦ فى الكلام على الحلتيت أن هذا الصمغ يسمى بالافرنجية (أسافيتيدا)، وهو جوهر صمغى راتينجى يقوم من العصارة المستخرجة من النبات المسمى بالعربية أنجذانا، وباللسان النباتى (فيرولا أسافيتيدا)... ويقال إن هذا النبات عرف سنة ٦١٧ قبل التاريخ المسيحى، كما يقال إن لفظ (أسافيتيدا) السابق مركب من كلمتين «أسا» ومعناها شفاء بالعبرية (وفيتيدا) ومعناه نتن، بسبب رائحته النتنة.

ذِكرُ دواءٍ آخَرَ عجيبِ الفعل فى زيادة الباه

يؤخذ حَسَك[1] يابس ، يُدَقّ و يُسحَق سحقا ناعما ، ويُعتصَر من ماء الحَسَك[1] الرَّطْب ، ويُسقَى به المسحوق فى الشمس حتّى يشربَ ثلاثة أمثالِ وزنِ المسحوق ثم تؤخذ منه خمسةُ مثاقيل ؛ عاقِرْ قَرْحَى خمسةُ مثاقيل ، وزنجبيل مثقال ، وسكّر طَبَرْزَذ[2] خمسةُ مثاقيل ؛ يُدَقّ جميعُ ذلك ، ويُنخَل ، ويُعجَن بعسلٍ قد رُبِّيَ فيه الزَّنجبيل ويُرفَع ؛ الشربة منه مثقالان بماء فاتر ، أو بلبن حليب ، فإنّه لا مثالَ له فى معناه .

دواءٌ آخَـــر

يؤخذ من الحِمَّص اليابس ، يُنقَع فى ماء الجِرجِير حتّى يربو ؛ ثم يجفَّف ، ويُقلَى بسمنِ بقرٍ على نارٍ ليّنة ؛ وتؤخذ منه خمسةُ مثاقيل ، تُسحَق وتُنخَل وتُعجَن بعسل منزوعِ الرُّغْوة ؛ ويُلْقَى على العسل وهو حارٌّ دار صِينِيّ وقرفةٌ وقَرَنْفُلٌ ومَصْطَكاءُ ، من كلّ واحد مثقال ، ويُخلَط ذلك خلطا جيّدا ، ويُرفَع ؛ والشربة منه مثقالان بماءٍ حارٍّ أو بلبن البقر .

(١) الحساك : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم ، ورقه كورق الرجلة وأرق ، وعند ورقه شوك ملزز صلب ذو ثلاث شعب ، كما فى القاموس . وذكر داود أنه يسمى (ضرس العجوز) (وحمص الأمير) وهو أشبه شيء بشجر البطيخ الأخضر ؛ يمدّ على الأرض ، وأوراقه الى صفرة ، وحمله مثلث أو مدحرج ، مرصوف بالشوك ، يؤخذ أوائل حزيران . وقال ديسقوريدوس : الحسك صنفان : أحدهما برى ينبت فى الخربات وورقه شبيه بورق البقلة الحمقاء ، الا أنه أرق منه ، وله قضبان طوال منبسطة على الأرض . وعند الورق شوك ملززصاب ؛ ومنه صنف آخر ينبت على الأنهار ، خفى الشوك ، عريض الورق ، وله قضبان طوال فيها الورق ، وساق طرفها الأعلى أغلظ من الطرف الأسفل ، وعليها شيء نابت فى دقة الشعر ، مجتمع ، شبيه بسفا السنبلة ؛ وثمره صلب مثل ثمر الصنف الآخر .

(٢) الطبرزذ ، هو السكر الأبيض الصلب ؛ وهو فارسى ، وأصله تبرزذ بالتاء «وتبر» بالفارسية الفأس وزذ ، أو زد : الضرب ، أى كأنما نحت هذا السكر من نواحيه بالفأس لصلابته . والطبرزن والطبرزل لغتان فيه . وقيل هو السكر أو العسل الذى طبخ بمثل عشره من اللبن الحليب حتى ينعقد ؛ وكما يطلق هذا اللفظ على السكر الأبيض يطلق على الملح ا هـ ملخصا من كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ص ١١١ طبع بيروت والشذور الذهبية المأخوذة منه نسخة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٥٧ طب ومفردات ابن البيطار ج ٣ ص ٩٧ طبع بولاق .

صفةُ دواءٍ آخر يزيد فى الباه، ويصفّى اللّون، وينفع الكَبِد والمَعِدة

يؤخذ إهْلِيلَج كابُلىّ[1] وهندىّ[1] منزوعُ النّوى وبَلِيلَج[1] وأَمْلَج[1] وفُلْفُل ودار فُلفُل وزنجبيل وسُعْد وشِيطَرَج[2] وقشورُ الأُتْرُجّ المجفّف وبُرادةُ الإبَر وتُوبالُ[3] الحديد وسِمسِم مقشور، من كلّ واحد مثقال؛ تُجمَع هذه الأدوية مسحوقةً منخولة وتُلَتّ بسمن البقر، وتُعجَن بعسلٍ منزوعِ الرُّغْوة، وتُرفَع؛ والشّربة منه دِرهمٌ فى أوّل يوم، ثمّ دِرهمان فى اليوم الثانى، وثلاثةُ دراهمَ فى اليوم الثالث، هكذا إلى سبعة أيّام، يزيد فى كلّ يوم زنة درهم، ويكون استعماله لذلك عند النوم.

---

(١) تقدم الكلام على هذه الألفاظ الثلاثة التى تحت هذا الرقم الاهليلج فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١١٦ والبليلج فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١١٦ والأملج فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١١٢ من هذا السفر فارجع اليها فى مواضعها.

(٢) ذكر ابن سينا أن الهندى من الشيطرج خشب صغار دقاق وقشور كقشور الدارصينى، ومكسره الى الحمرة والسواد الخ. وذكر داود أنه نبات هندى، وهو الخامشة، وينبت بالقبور الخراب، له ورق عريض ودقيق ينتثر أعلاه إذا برد الزمان، وزهر أحمر الى بياض ما، يخلف بزرا أسود أصغر من الخردل، ورائحته ثقيلة حادة؛ وطعمه الى مرارة؛ وتبقى قوته خمس سنين، ثم تخلّ بالتأكل. وذكر ابن البيطار أنه هو العصاب بالبربرية. ونقل عن ديسقوريدوس أنه نبات يعمل باللبن مع الماء والملح. ثم نقل عن جالينوس أنه ينبت كثيرا فى القبور والحيطان العتيقة والمواضع التى لا تحرث، وهو ناضر أبدا، الا أنه أحمر، ورقه شبيه بورق الحرف، ويطول قضيبه نحوا من ذراع، ويجفه فى الصيف ورق دقاق لا يزال عليه حتى يضربه البرد، فاذا برد الهواء جف من الورق ما يجف قضيبه وانتثر، وبقيت منه بقايا نحو أصله فاذا كان فى الصيف خرج فى قضبانه زهر صغير، كثير الورق، ولونه لون اللبن، وردف ذلك بزر صغير فى غاية الصغر لا يمكن أن ترى له جسما لصغره؛ ولأصله رائحة حادة جدا، وهو أشبه شىء بالحرف. وفى القاموس أن هذا اللفظ معرب «جيترك» بالهندية.

(٣) توبال الحديد: ما تساقط منه عند الطرق، وكذلك ما تساقط من غيره من المعادن. وفى كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) أنه معرّب توپال.

دواءٌ آخَرُ يهيج شهوةَ الجِماع ويَصلُح لمن انقطعت شهوته فإنّه يقوّيها، ويزيد فيها

يؤخـــذ الحَنْـدُقُوق (١) وشَـقاقُل وبِزرُ اللِّفت وبِـــزرُ الزّراوَنْد (٢) وبِـــزرُ

(١) الحندقوق والحندقوق بفتح الحاء وقد تكسر، وضم القاف وفتحها، والدال فى الضبط تابعة للقاف إلا فى لغـة كسر الحاء، كما فى تاج العروس؛ وهما اسمان نبطيان لبقلة أو حشيشة يقال لهـا بالعربية: الذرق، وهى نبات له ورق كالظفر، فيـه تشريف ما، وزهره أصفر طيب الرائحـة، والبرى منتن وكثيرا ما يخـرج مع العـدس، ويؤخذ بحزيران، والمستعمل منـه بزره وأوراقه. وذكر ابن البيطار أن اسمـه (لوطس) أى باليونانية. ونقل عن ديسقوريدوس نوعين للحندقوق: وهما البستانى والبرى، فقال: منه ما ينبت فى البساتين، ويقال له عند بعض الناس طريفلن... ... وقال فى البرىّ: إنه هو الذرق والحباق أيضا ... وله ساق طولهـا نحو من ذراعين أو أكثر، وتتشعب منها شعب كثيرة، ولهـا ورق شبيه بورق الحندقوق الذى ينبت فى المروج؛ ويقال له: طريفان، وله بزر شبيه ببزر الحلبة، إلا أنه أصغر منه بكثير، وهو كريه الطعم.

(٢) الزراوند نوعان: مدحرج وطويل؛ فالمدحرج هو الأنثى؛ وله ورق طيب الرائحة مع شىء من الحدّة، وهو ذو شعب كثيرة مخرجها من أصل واحد، وأغصان طوال، وزهر أبيض، وما كان فى آخر الزهر أحمر فإنه منتن الرائحة؛ أما الزراوند الطويل فهو الذكر، وورقه أطول من ورق المدحرج، وأغصانه دقاق، طولها نحو من شبر، ولون زهره فرفيرى، منتن الرائحة؛ وعرف الأوربيون كلا من الطويل والمدحرج، فقالوا: الزراوند الطويل نبات خالد ينبت فى أوربا الجنوبية، والمستعمل منه فى الطب الجذور، وهى جذور أنبوبية، مغزليـة الشكل، طويلة، فى غلظ الإبهام، لحية، ظاهرها يميـل الى السنجابية، وباطنها أصـفر داكن، مر الطعم، كريه الرائحـة؛ أما المدحرج فهو نبات ينبت فى أوربا الجنوبية أيضا، وبينه وبين الزراوند الطويل مشابهة، إلا أن المدحرج يتميز عن الطويل بكون جذوره أنبوبية مدحرجة بغير انتظام، مسمرّة الظاهر، صفراء الباطن، والزراوند بقسميه أصل فصيلته من الرتبة المكملة للعشرين من ترتيب العالم (لينيو)، سداسى أعضاء التذكير. وذكر صاحب المـادة الطبية ج ٢ ص ٣٩٠ أن الزراوند اسم فارسى، ويسمى بالإفرنجيـة (أرسطولوخيا)، وهى كلمة يونانية مركبة من كلمتين: (أرسطو) ومعناها جيد جدا، و(لوخيا) أو يقال: (لوشيا)، ومعناها نفاس أو حيض، فمعناه مجيد النفاس والحيض، وذكر هذا أيضا أطباء العرب مثل ابن البيطار، وصاحب كتاب (ما لا يسع الطبيب جهله)، وعبارة الأول منهما: هـذا الاسم، أى (أرسطولوخيا) مأخوذ من (أرسطو)، وهو الفاضل ومن (لوخوس)، وهى المرأة النفساء، ويراد بذلك: الفاضل فى المنفعة للنفساء. وذكر نحو ذلك صاحب كتاب (ما لا يسع الطبيب جهله).

البصل الأبيض وحبّ الخشخاش وبزر الجرجير وبزر الأنجرة[1] وبزر خصى الثعلب[2]، من كلّ واحد مثقالان ونصف مثقال

(١) الأنجرة يقال لها أيضا : (أنجراه) (وتريص) وزان جميز، سميت بذلك لأن ورقها اذا أصاب عضوا أحدث به حكة وتقريصا . ومن أسماء هذا النبات (عقار) (وحريق) ومحرقه) (ونبات النار) (وفساء الكلاب) (وجرب الكلب) معجم أسماء النبات ص١٨٩ . وذكر سليمان بن حسان أنه نوعان : كبير وصغير، فالكبير كثير الورق، أصفر اللون، له بزر كالعدس، وهو المستعمل فى صناعة الطب . وقال الغافقى : الأنجرة على الحقيقة ثلاثة أصناف : فنها هذا المذكور قبل، وهو أكبرها بزرا، وهو بزر كالعدس فى قدره وشكله، أخضر اللون، برّاق، صلب، يكون فى رءوس مدوّرة خشنة لها معاليق رقاق طوال، والثانى هو الكبير من الصنفين اللذين ذكرهما ديسقوريدوس، وساقه حمراء الى السواد ولون ورقه الى السواد، وورقه كورق السيسنبر، إلا أنه أكبر وأخشن، وهو أكثر الثلاثة ورقا وأشدّها خشونة، وبزره فى قدر الخردل، إلا أنه مفرطح؛ وهو أبيض وأزرق، والنبات الثالث — وهو الصغير — هو أضعفها قوّة وأدقها بزرا، ابن البيطار ج ١ ص ٦٠ . وذكر صاحب المادة الطبية أن الأنجرة الصغيرة تسمى بالافرنجية (أورطى)، وباللاتينية «أورطيكا» وباللسان النباتى (أورطيكا أرونش). وذكر فى صفاتها النباتية أنها نبات صغير سنوى، وحيد المحل، يؤذى البساتين والمزارع؛ وساقه تعلو من قدم الى ثمانية عشر قيراطا، وتقرب للتربيع، وهى متفرعة فى جزئها العلوىّ، ومغطاة كالأوراق بوبر مؤلم الوخز، محرق؛ والأوراق متقابلة بيضاوية، مسننة تسنينا عميقا، ولونها أخضر وسخ الخ .

(٢) خصى الثعلب، هو نبات ربيعى ينبت بالجبال والأماكن الندية؛ ويكون الأصل الواحد فى الغالب ثلاث ورقات، والظاهر من ورقه كورق البصل أو أعرض يسيرا؛ وأصله كبيضتين مزدوجتين؛ ومنه نوع يخرج من كلتا بيضتيه عرق دقيق فى رأسه حبة كلما كبرت جفت البيضة، ويسمى قاتل أبيه، ولا بزر لهذين؛ ونوع له بزر صلب أسود براق، وكل من الثلاثة أبيض الباطن طويل؛ ونوع دقيق الورق منبسط، تقوم فى وسطه ساق عليها زهر أحمر كقشر أصله، وآخر فى رأسه نوارتان شديدتا الصفرة، داخلهما بزر أسود ... ، وهذا النبات يدرك بجزيران، ويقيم الى سنتين (داود) ج ١ ص ٢٠٢ ؛ وذكر ديسقوريدوس أن اسم هذا النبات (ساطورين)، واسمه عند بعض الناس : «طريفلن»، ومعناه باليونانية ذو الثلاث ورقات؛ ويسمى بهذا الاسم لأن أكثره له ثلاث ورقات، وهى مائلة نحو الأرض شبيهة فى شكلها بورق الحماض وورق السوسن، إلا أنها أصغر منها الخ .

ومن كُلَى السَّقَنْقُور[1] وعِلْك الأَنْبَاط[2] وقُسْط[3] وبصل الفأر[4] المشوى من كلّ واحد مثقالٌ واحدٌ ونصف ؛ فُلفُل أبيض وسِمسِم مقشور ودار فُلفُل[5]

(١) فى كلتا النسختين : « الأسقنقور » بالألف فى أوّله ؛ وهى زيادة من الناسخ ، إذ لم نجد فيما راجعناه من الكتب من ذكره بالألف فى أوّله ؛ وقد تقدم الكلام على صفة هذا الحيوان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٤ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) علك الأنباط ، هو صمغ شجرة الفستق ، يستخرج منها كسائر الصموغ ، وذلك أنهم يعقرون الشجرة فى مواضع كثيرة ، فيسيل من تلك العقور ، فيجمع ويجفف فى الشمس ؛ ولونه أبيض كمد ؛ وفى طعمه شىء من مرارة .

(٣) تقدّم الكلام على القسط فى الباب السادس من القسم الخامس من الفن الرابع فى صفحة ٤٩ وانظر الحاشية رقم ١ منها أيضا .

(٤) بصل الفأر ، سمى بذلك لأنه يقتل الفأر اذا طعم به ، ويسمى بالعنصل والإسقيل والإسقال والإشقيل وبصل البر ، واسمه بالفارسية (مرك موش) ، أى قاتل الفأر وسم الفأر ، ومن أسمائه أيضا بالفارسية (بياز عنصل) « وبياز دشتى » معجم أسماء النبات ص ١٦٤ ؛ وله ورق مثل ورق الكراث يظهر منبسطا وله فى الأرض بصلة عريضة ، ويعظم حتى يكون مثل الجمع ، ويقع فى الدواء ، وأصوله بيض (ابن البيطار فى الكلام على العنصل) . وقال داود فى الكلام على بصل العنصل — وهو بصل الفأر — إنه جبلى يكون بالصخور من نواحى الشأم والعجم والبرلس من أعمال مصر ، ويعظم حتى يبلغ مائتى درهم وأكثر ، ومنه صغير ؛ وأجوده الرزين الحديث ، والمفردة منه فى أرضها قتالة ، وأجوده ما أخذ فى الصيف . وذكر أرباب العلم الحديث ان اسمه بالافرنجية (شيل) . قال ميرة : وأصل هذا الاسم يونانى آت من الإيذاء والاضرار ، بسبب شدّة فاعلية نوعه الرئيس اه . وبالسان النباتى (شيلا مارتيا) أو يقال — وهو الأحسن — أسقيلامارتيا ... ... وقالوا فى الصفات النباتية للنوع المقصود منه : إن البصلة بيضاوية مستديرة فى غلظ قبضة يد أو قبضتين ، مكوّنة فى الباطن من أغشية لحمية بيض مغطاة من الظاهر بأغشية رقيقة لونها أسمر قاتم ؛ ... ... وهذا النبات معمر ؛ وينبت بالأراضى الرملية على شواطئ البحر المتوسط وأوقيانوس ؛ ويوجد أيضا بأوربا كفرنسا وانجلترا وأسبانيا والبرتغال وسيسيليا ، كما يوجد عندنا (أى فى مصر) كثيرا بالأراضى الرملية وغيرها الخ . المادة الطبية ج ٣ صفحة ١٤١ فى الكلام على بصل العنصل .

(٥) الدار فلفل ، هو المعروف فى مصر بعرق الذهب ؛ ويسمى أذناب الحرادين ؛ قيل إنه أوّل ثمر الفلفل ، والشجرة تكون بجزائر الزنج كالتوت تحمل غلفا محشوّة كاللوبياء ؛ وهو قليل الإقامة ، لا يتجاوز ثلاث سنين ، ويسرع العفن اليه (داود) وذكر صاحب المادة الطبية ج ٢ ص ٣٤٨ أن الدار فلفل يسمى بالإفرنجية =

وزنجبيل وزَعْفران، من كلّ واحد مثقال؛ أدمغةُ الدُّيوك الصِّغار، وأدمغةُ العصافير من كلّ واحد [ثلاثةُ مثاقيل، خُصَى الدُّيوك ثلاثةُ مثاقيل؛ أدمغةُ الحُمْلان الرُّضَّع خمسةُ مثاقيل؛ بَيضُ الشُّبُوط (اللَّجَاة)[٢] ولحمُه من كلّ واحد] خمسةُ مثاقيل؛ قِنَّة[٣] مثقالٌ واحد ونصف؛ تُدَقّ البُزورُ اليابسة، وتذاب القِنَّة[٣] مع العِلْك بخمسة مثاقيل عسل؛ وتُنقّى الأدمغةُ والخُصَى من العروق؛ ويُطرَح ذلك فى صَلاية؛ ويُخلَط

= بما معناه: الفلفل الطويل، واسمه باللسان النباتى (بيير لنجوم)، ومعناه ماسبق؛ وذكر أن ثماره تشبه التوت، أى إن الثمر مركب من عدد كثير من مبايض تنسب لأزهار متميزة عن بعضها، ولكنها ملززة، مرصوصة على طول محور عام، فاذا نمت التصقت ببعضها حتى لايتكون منها إلا ثمرة واحدة، وتجنى قبل تمام إزهارها وتجفف لأجل الاستعمال فتكون ثمارا غير تامة النمو الخ ما أورده من كلام طويل ليس هنا موضع ذكره.

(١) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (أ).

(٢) تفسير المؤلف الشبوط بأنه اللجأة تفسير مخالف لما نص عليه فى كتب اللغة وكتب الحيوان التى بين أيدينا، فقد ورد فيها أن الشبوط ضرب من السمك، والسبوط بالسين المهملة لغة فيه؛ وهو دقيق الذنب، عريض الوسط، لين المس، صغير الرأس، كأنه البربط، أى العود ذو الأوتار، ويشبهون البربط اذا كان ذا طول ليس بعريض بهذا الشبوط؛ وهو لفظ أعجمى. وقال داود فى الكلام على السمك: إن ألطف أنواعه الشبوط، وهو السمك المعروف فى مصر بالبورى. وكذلك فى المنهج المنير، وبيض هذا السمك هو المعروف فى مصر بالبطارخ، كما ذكره داود أيضا فى الكلام على السمك، ويكثر بدجلة كما فى (حياة الحيوان). أما اللجأة بالهمز — وقد تخفف فيقال لجاه — فهى نوع من السلاحف يعيش فى البر والبحر، وجلد اللجأة البحرية هو الذبل الذى تصنع منه الأمشاط والأساور انظر (حياة الحيوان) للدميرى فى الكلام على السلحفاة و (ناج العروس) مادة (لجأ). وقيل: اللجأة الضفدعة.

(٣) القنة هى بالفارسية (بارزد) و (بيرزد) كما فى القاموس مادة (قنن) وقد ورد كلا اللفظين فى معجم أسماء النبات ص ٨٢ وذكر صاحب المنهج أنه يقال فيه أيضا (بازرد) بتقديم الزاى؛ والذى وجدناه فى المعجم الفارسى الانجليزى لاستانجاس بارزد بتقديم المهملة، ولم يرد فيه غير هذا اللفظ. وشجره صنفان: صنف زبدى خفيف الوزن أبيض، والآخر كثيف ثقيل؛ وهو ثلاثة أنواع: برى وعربى وجبلى؛ وأجوده العسلى، الصافى اللون. وقال ديسقوريدوس: هو صمغ نبات يشبه القنا فى شكله ينبت فى بلاد سورية، وأجوده ما كان شبيها بالكندر، وكان متقطعا نقيا، يدبق باليد، ليس فيه كثير من الخشب، ولكن فيه شىء يسير من بزر نباته، وهو يغش بالأشق ودقيق الباقلاء.

بالسَّحق؛ فإن احتاج الى عسلٍ فزِدْه الى أن يترطّب؛ ثم يُجعَل فى إناء، ويُختَم رأسُه ويُرفَع مدّة أربعين يوما، ويُفتَح بعد ذلك، ويُستعمَل؛ الشربة منه مثقالٌ بأوقيّةٍ من ماء الجِرجِير، ويؤكل عليه اسفِيدباج[1] بحمّص وبصلٍ وسمنٍ بقر، فإنّه نهايةٌ فيما ذكرناه.

دواءٌ آخَر

يؤخذ جَزَر بَرّىّ وبزرُ اللّفت ودار فُلفُل وقاقُلّة[2] وبزرُ جِرجِير وقَرَنفُل وخَولَنجان[3] وزرُّ ورد وبزرُ كُرّاث وزنجبيل وبَسْباسة[4]، من كلٍّ واحد أربعةُ مثاقيل؛ تُجمَع هذه الحوائج مسحوقةً منخولة، وتُعجَن بقدر ما تحتاج اليه من العسل المنزوع الرُّغوة وتُرفَع؛ الشربة منه مثقالان بلبن البقر الحليب، أو بشرابٍ حلو.

صفة دواءٍ آخَرَ عجيبِ الفعل

يؤخذ عُودٌ هندىّ وكافور وزعفران وجَوْزبُوا وقرفة وقَرَنفُل وصَندَلان: أحمرُ وأبيَض، وسُعْد ودار صِينىّ وشِيطَرَج[5] ونارَمُشك[6]

(١) تقدّم الكلام على الاسفيدباج فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٤٥ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) تقدّم الكلام على القاقلة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) تقدّم الكلام على الخولنجان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٥ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) تقدّم الكلام على البسباسة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) تقدّم الكلام على الشيطرج فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥١ من هذا السفر، فانظرها.

(٦) نارمشك، تسمية فارسية، معناها مسك الرمان؛ ومن أسمائه أيضا (ناخبست) (وناغست) وهما اسمان فارسيان أيضا، ويسمى أيضا (ناراهنديا) (ورمانا بريا) (ورمانا مصريا) (معجم أسماء النبات) ص ١١٨. وفى (الشذور الذهبية) انه فقاح وقشور وأقماع تشبه البسباسة، بل أقل حمرة، الى الصفرة عطرة، وعفوصتها تقارب الناردين. ولفظه فارسىّ. وقيل: هو الجلنار، أو رمان صغار لا يفتح عن بزر، بل شىء أحمر يوجد بخراسان. وقال إسحاق بن عمران: هو رمانة صغيرة مفتحة كأنها وردة لونها تميل الى البياض والحمرة والصفرة، وفى وسطها نوار لونه كذلك، وطعمه عفص، ورائحته طيبة.

وساذَج[1] هنـدىّ ، وبصـلُ العُنْصُـل ، ولحـاءُ الغـار[2] ، ولحـاءُ أصـل الكَبَر[3] ، وخَرْبَق[4] أسـوَد ، وسَنْدَرُوس[5] ، وكُنْدُر[6] من كلّ واحد أربعةُ دراهم ؛

(١) تقدّم الكلام على الساذج فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣١ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) لحاء الغار ، أى قشره . والغار : الرند ، وهو شجـر عريض الأوراق ، أملس ؛ ومنه نوع دقيق ؛ والكل من الطعم ، طيب الرائحة ، ويجعل بين التين فى الشأم . وقال الأوربيون : الغار نبات من فصيلة هو أصلها ، تحتوى على أنواع كثيرة نافعة فى الطب ، منها الغار المعتاد ، والغـار الكافورى ، والغار القرفى وغير ذلك (الشـذور الذهبية) . وذكر أرباب العـلم الحديث أيضا أن اسمه بالافرنجية : « لوريير » وباللسان النباتى لوروس نوبلس ، أى الغار الجليل ؛ ويقال : إن اسمه باليونانية « دافنى » ولذلك يقال له بالتركية « دافنة » . ويقال له عند الأوربيين واليونانيين (غار أبو لون) ، واسمه اللاتينى « لوروس » . وينبت بأوربا كايطاليا واسبانيا وبلاد اليونان . ويوجد أيضا بشمال أفريقيا والشأم ، وانتقل الى مصر واستنبت فى بساتينها ، مع أنه كان سابقا لا يأتى اليها إلا ورقه الطيب الرائحة ، لأنه يجعل فى وسط التين فيطيبه ويمنع تولد الدود فيه بمرارته ؛ وكان القدماء يتوجون شجعانهم بأوراقه ، وكانوا ينسبون شجرته الى (أبو لون) الذى هو من آلهتهم الخرافية . وذكروا فى صفاته النباتية أن شجره جميل المنظر ، أخضر دائما ، يعلو عن الأرض أحيانا من عشرين الى ثلاثين قدما ؛ والساق قائمة متفرعة الخ المـادة الطبية ج ٢ ص ٢٩٧

(٣) الكبر نبت شائك كثير الفـروع دقيق الورق ، له زهر أبيض يفتح عن ثمر فى شكل البلوط ، وينشق عن حب أصفر وأحمر فيه رطوبة وحلاوة ، ويكثر بالخراب والجبال . وقال ديسقوريدوس : هو شجيرة مشوّكة ، منبسطة على الأرض باستدارة ، وشوكتها معقفة مثل الشصوص على شكل شوك العايق ؛ ولها ورق شكله مثل شكل السفرجل ؛ وثمر شبيه بالزيتون فى شكله ، اذا انفتح ظهر منه زهر أبيض ، واذا سقط منه الزهر كان شبيها بالبلوط مستطيلا ، اذا فتح ظهر من جوفه مايشبه حب الرمان صغير أحمر ؛ وأصوله بارز فى حدّ الخشب ؛ وينبت فى أماكن خشنة وأرض نباتها قليل ، وجزائر وخرابات .

(٤) انظر الكلام على الخربق فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٤٥ من هذا السفر .

(٥) ذكر صاحب المـادة الطبية ج ٢ ص ٧٨٦ أن اسم السندروس بالافرنجية : سندراك ، وبعد أن أطال فى ذكر الصفات النباتية لجنس الشجر الذى يخرج منه هذا النوع من الصمغ ، قال فى الصمغ نفسه ما نصـه : والسندروس الخارج منه يسمى صمغ الدهان ، وهو يسيل بنفسـه من الشجر مدّة الحرارة ؛ وهو قطع صغيرة سهلة الكسر ، مخلوطة بأجزاء صغيرة من فريعات الشجر ، وتشاهد منها قطع حبوبية تتزهر فى الهواء ، وسخة ، ليمونية اللون ، زاهية ، لامعة المكسر ، ورائحتها وطعمها كرائحـة الصنوبر ... ... ثم نقـل عن أطباء العرب ان أنواع السندروس ثلاثة : أصـفر يضرب باطنه الى الحمرة ، رزين براق وأزرق هش ، وأسود خفيف صلب ، والأول أجود ؛ ويجلب من أرمينية ، وكانوا يجهلون أصله هل هو صمغ شجر هناك ، أو معـدن أرضى ، بل منهم من عوّل على أنه معـدن ، لكن لايخفى أن ذلك غير صحيح والنوع الجيد منه يسمى (الصابى) ، يلقط التين كالكهربى ، والفرق بينهما ان السندروس يلقط القش من غير حك على صوف أو نحوه ، بخلاف الكهربى . كذا قالوا الخ .

(٦) الكندر بالفارسية ، هو اللبان بالعربية ؛ وشجرته شوكة ، لا تسمو أكثر من ذراعين ؛ ولا تنبت =

يُدَقّ كلُّ واحد منها على حدة، وتُخلَط جميعُ الأصناف بالسَّحق، ويعجَن بعسلٍ منزوعِ الرُّغوة، ويُرفَع فى إناء، ويُترَك ستّةَ أشهر، ثم يُستعمَل بعد ذلك، الشربة منه مثقالٌ بماء العسل.

صفة لُبانةٍ تُمضَغ تزيد فى الباه، وتُنعِظ إنعاظا شديدا، وتهيج فلا يَسكُن حتّى تُنزَع مِن فم الماضغ

قال شهابُ الدّين عبدُ الرحمن بنُ نصر الشّيرازىّ صاحبُ كتاب (الإيضاح): هذه اللُّبانة كان يستعملها بعضُ ملوك مصر.

قال: وله فيها قصّة طويلةٌ لم نذكرها رغبةً فى الاختصار. قال: وهذا من الأسرار الخفيّة [فاعرِفه][1].

يؤخذ من قشر البَلاذُر[2] الخارج أوقيّة، تُقرَّض بالمِقراض صغارا، ويُجعَل

= إلا بالجبال، ليس فى السهل منها شىء؛ ولها ورق مثل ورق الآس، وثمر مثل ثمره، له مرارة فى الفم؛ وعلكه الذى يمضغ يظهر فى أماكن منه تعقر بالفؤوس وتترك، فيظهر فى آثار الفؤوس هذا اللبان، فيجتنى؛ قاله أبو حنيفة نقلا عن بعض الأعراب. وقال صاحب المادة الطبية: إن تسمية الكندر باللبان معرّبة عن (لبانو)، وهى لفظة يونانية، ويقال له أيضا: البستج، وهو أفضل أنواع العلك واسمه بالافرنجية (أفسنس) بفتح الهمزة والسين الأولى بينهما نون ساكنة، كما أن بين السينين نون ساكنة أيضا الخ الجزء الثانى صفحة ٨٢١

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (ا).

(٢) البلاذر بالذال المعجمة، وبالدال المهملة أيضا؛ يسمى (تمر الفؤاد) و(تمر الفهم) و(حب الفهم) و(حب القلب) و(أنقر ذيا)، ومعناه الشبيه بالقلب (معجم أسماء النبات صفحة ١٦٦) وهو شجر هندى يعلو كالجوز، ورقه عريض أغبر، سبط؛ حاد الرائحة؛ وثمره فى حجم الشاه بلوط؛ وفى رأسه قمع صلب؛ وقشره إلى السواد، ينكسر عن جسم كالاسفنج، مملوء رطوبة عسلية هى عسله؛ وتحته قشر يحيط بلب مثل اللوز حلو. وقال اسحاق بن عمران: البلاذر هو ثمر شجر، وهذا الثمر يشبه قلوب الطير، ولونه أحمر الى السواد، على لون القلب؛ وفى داخله شىء شبيه بالدم؛ وهذا هو المستعمل منه؛ ويؤتى به من الصين، وقد ينبت بصقلية.

فى بُرمَةٍ فخّار ، ويُصَبّ عليه من دُهن البُطْم[1] مقدارُ ما يغمره ، ثم يؤخذ لبان ذَكَرٌ عشرون درهما ، يُسحَق ناعما ، ويُلقَى عليه فى البُرْمة ، ويوقَد تحته بنارٍ ليّنةٍ حتّى ينعقد ، ثم يُلقَى عليه من المحمودة[2] الصفراءِ على كلّ أوقيّة من الدّواء نصفُ دانِق ؛ فإذا انعقد جميعه فارفعه عن النار ، واجعله فى إناءِ زجاج ؛ فإذا أردتَ استعمالَه فخذ منه وزنَ درهم وامضُغه ، فإنّه يُنعِظ للوقت إنعاظا قويّا ؛ فإذا أردتَ الإنعاظ يسكن فأخرِجها مِن فيك ؛ والقطعة الواحدةُ منه تُستعمَل ثلاثَ مرّات ثم يُرمَى بها .

(١) البطم ، هو المعروف بالحبة الخضراء ، وهو شجرة فى حجم الفستق والبلوط ، سبطة الأوراق والحطب ، صخرية ، تكثر بالجبال ، ولا ينتثر ورقها ، عطرية ؛ وحبها مفرطح فى عناقيد كالفلفل لولا فرطحته ، وعليه قشر أخضر داخله آخر خشبي يحوى اللب كالفستق ، وكثيرا ما يركب أحدهما فى الآخر فينجب ؛ ويدرك هذا الحب فى أبيب ، ويقطف بمسرى . وذكر صاحب (عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٢ ص ٨١٧) أن اسمه بالافرنجية (تربنت) وباللسان النباتى (بسطاقيا تربنطوس) ، أى الفستق التربنتينى ؛ ثم نقل عن أطباء العرب أن هذه الحبة ما دامت خضراء فهى الحبة الخضراء فاذا بلغت وجفت سميت بطما الخ ما ذكره من كلام طويل ، فانظره .

(٢) المحمودة ، هى المعروفة بالسقمونيا ، وهى رطوبة نبتة لها أغصان كثيرة مخرجها من أصل واحد ؛ طولها نحو ثلاثة أذرع ؛ ولها زغب وورق يشبه ورق اللبلاب ، وزهر أبيض مستدير ، ثقيل الرائحة ؛ (القيصونى فى قاموسه) . وقال فى الشذور الذهبية فى الكلام على السقمونيا : إنها تستخرج من جذور النبات المسمى (كونو اولوس سقمونيا) ؛ وهو ينبت فى الشأم والأناضول ؛ وهى نوعان ؛ أحسنهما ما يجلب من حلب ، وهذا النوع سنجابى اللون ، الى الرمادية أو الى الاحمرار أو الى البياض ، هش قليلا براق ، كثير المسام ، كريه الرائحة ؛ وطعمه يكون ضعيفا أولا ، ثم يصير حرّيفا مرا ؛ والنوع الثانى يجلب من أزمير ، وهو أسمر الى السواد ، وفيه هشاشة ؛ وهو أدنى درجة مما قبله ؛ والنبات الذى تستخرج منه السقمونيا من فصيلة العليق . وفى عمدة المحتاج ج ٤ ص ٣٢٢ أن السقمونيا اسم عربى ويونانى وافرنجى لمستنتج صمغى راتينجى مسهل الخ .

قال : وربّما قُطِع ما هاج من الإنعاظ باستعمال هذه اللُّبانة ، وهى : يؤخذ من الشَّيْرَج الطرى[1] جزء، ومن السكّر جزء ، ومن اللُّبان الأبيض ثُلثُ جزء ويُطرَح فيه لكلّ أوقيّة من الدواء زنةُ دانق من الكافور، ويُعقَد الجميعُ على نارٍ ليّنة ثم يُنزَل ويُرفَع، ويُستعمَل منه عند الحاجة زنةُ درهم يُمضَغ، فإنّه يسكّن ما هاج .

(١٣٠)

ذِكْرُ الجَوارِشنات[2] التى تزيد فى الباه وتُغزِر المنىّ

صفة جُوارِش يُغزِر المنىّ

يؤخذ سُنبُل وقَرَنفُل ودار فُلفُل[3] ودار صينىّ وقاقُلّة، من كلّ واحد مثقال؛ شَلْجَم[4] مثقال ونصف، كمّون منقوع فى خلّ خمر يوما وليلة مقلوّ أربعةُ مثاقيل، ومَصْطَكاء مثقالان ونصف، مِسك سدسُ مثقال، سكّر طَبَرْزَذ خمسةُ مثاقيل؛ تُجمَع هذه الحوائج بعد سحقها ونخلها، وتُعجَن بعسلٍ منزوع الرُّغوة ، وتُبسَط على رُخام[5] ، وتُقطَّع وتُستعمَل .

(١) يريد بالطرى من الشيرج : الحديث القطف ، الذى لم يتغير؛ ويوضح إرادة هذا المعنى ماذكره داود فى الشيرج من أن أجوده المقطوف بعد الطحن الخ (يريد طحن السمسم) .

(٢) ضبط هذا اللفظ بضم الجيم فى الشذور الذهبية وكشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٣٢٠ طبع كلكته ضبطا بالعبارة فى كلا الكتابين ، وضبط بفتحها فى المعجم الفارسى الانجليزى لاستانجاس ومفاتيح العلوم ص ١٧٦ طبع أوربا ضبطا بالقلم؛ وقد سبق الكلام على معنى هذا اللفظ فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٢ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدّم الكلام على صفة الدار فلفل فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٥٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) الشلجم، هو اللفت، كما فى الجزء الحادى عشر من هذا الكتاب ص ١٥ الطبعة الأولى؛ ويقال بالشين المعجمة كما هنا، وهى لغة قليلة حكاها بعضهم، والأكثر بالسين المهملة . قال أبو حنيفة : السلجم معرّب؛ وأصله بالشين المعجمة؛ والعرب لا تتكلم به إلا بالسين المهملة .

(٥) فى كلتا النسختين : « جام » ؛ وفيه نقص وتصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن إحدى نسخ الإيضاح للشيرازى؛ وهو ما يقتضيه سياق العبارة أيضا .

صفة جُوارِش يقوِّى الباه ويزيد فى الشَّهوة

يؤخذ قَرَنْفُل وجَوْزبُوا وبَسْباسة وألسنةُ العصافير[1] وأصلُ الإذْخِر[2] وزنجبيل ودارصِينىّ ومَصْطَكاء وعودٌ هندىّ وزعفرانٌ، من كلٍّ واحد مثقالان؛ قاقُلّة ولُبانٌ ذكر من كلٍّ واحد مثقال، أُشْنَة[3] ثلاثةُ مثاقيل، مِسك ربعُ مثقال، سكّر عشرةُ مثاقيل؛ يُحَلّ السكّر بماء الورد على النار، ويُلقَى عليه عسلُ نحلٍ منزوعُ الرُّغوة، ويُعقَد بالأدوية بعد سحقها، ويُبسَط على رَخام، ويُقطَّع ويُستعمَل فإنّه غاية.

صفةُ جُوارِش التُّفّاح، يقوِّى المَعِدة ويزيد فى الباه

يؤخذ تُفّاحٌ شامىّ مقشَّرُ الخارج، منقّى الدّاخل، تُطبَخ منه خمسةُ أرطال بخمسة عشر رِطلا من الماء حتّى يَنشَف الماء؛ ثم يؤخذ رِطلُ عسلِ نحل، ورِطلُ سكّر ورطلُ ماء ورد، ويُلقَى جميعُ ذلك على التّفّاح حتّى ينعقد على النار؛ ثم يُلقَى عليه زعفران

---

(١) يحتمل أن يريد بألسنة العصافير هنا ألسنة هذا النوع من الطير المعروف، كما يحتمل أن يريد به ثمر الدردار؛ ويذكره بعض الأطباء فى كتبهم باسم لسان العصفور بصيغة المفرد لا بصيغة الجمع كما هنا، ويرجح إرادة هذا المعنى ما ذكره صاحب القاموس من أنه باهىّ؛ ويقال لحطبه: القندول، وهو شائك، يطول فوق ذراعين، طيب الرائحة، أصفر الزهر، يدوم على الحرّ والبرد؛ وله ثمر كقرون الدفلى، مملوء رطوبات، وحيوان كالناموس؛ وفيه بزر إلى الاستطالة حادّ حرّيف؛ وسمى ألسنة العصافير لشبهه بها (الشذور الذهبية). وقال ابن الكتبى: إن هذه الشجرة كثيرة الوجود بالجبال، وهى شجرة كبيرة، ورقها يشبه ورق اللوز؛ وثمرها عراجين، متفرقة الغصون، فيها حمل يشبه ورق الزيتون إلا أنه أصغر وأدق وأصلب، وفى جوف كل واحدة لب كأنه لسان العصفور خارجه أحمر، وداخله أبيض، مائل الى الصفرة؛ وطعمه فيه حرافة ومرارة ولذع، والمرارة أخفاها.

(٢) قد سبق الكلام على الإذخر فى الحاشية رقم ٩ من صفحة ١١١ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) تقدّم الكلام على الأشنة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣٢ من هذا السفر، فانظرها.

وسُنبُل وقَرَنْفُل ودار صِينى وزنجبيل ومَصْطَكاء، من كلّ واحد مثقال، لسانُ ثور[1] شامىّ مثقالان، عُودٌ هندىٌّ ثلاثةُ مثاقيل، تُدَقّ هذه الأصناف، وتنخل قبل إلقائها عليه؛ ثم تُبسَط على رَخام[2]، وتُقطّع، وتُستعمَل .

ذِكْرُ المُرَبَّيَات المقوِّية للشَّهوة والمَعِدة والباه

قال صاحب (كتاب الإيضاح) : لا بدّ لسائر المُرَبَّيَات من هـذه الأفاويه وهى : زنجبيل، ودار صِينى، وقرفة، وقَرَنْفُل، وهال[3]، وجوزبوا[4]، ومَصْطَكاء، وعُود هندىّ، من كلّ واحد أوقيّة، زعفران نصفُ أوقيّة، سُكّ[5] مثقالان، مِسك نصفُ

(١) لسان الثور : نبات ربيعى، غليظ الورق، خشن، الى السواد؛ يفرش على الأرض؛ وساقه مزغبة بين خضرة وصفرة، كرجل الجراد؛ وأصول فروعه دقاق بيض؛ وفى وجه الورق نقط بيض أيضا كبقايا شوك أو زغب؛ ترتفع من وسطه ساق نحو ذراع فيها زهر لازوردىّ؛ ويخلف بزرا مستديرا لعابيا يلغ بحزيران، وتبقى قوته سبع سنين؛ وموضعه جبال فارس وذروات جزيرة الموصل؛ داود . ومن أسمائه العربية (حمحم) وبالفارسية (كاوزبان) (معجم أسماء النبات صفحة ١٥) . وذكر أرباب العلم الحديث فى صفاته النباتية : أنه سنوى؛ جذره مستطيل، مسودّ من الظاهر، وأبيض من الباطن؛ وساقه تعلو من قدم الى قدمين، حشيشية، أسطوانية، لحيمة، مجوّفة، مغطاة بزغب خشن جدا كبقية أجزاء النبات؛ والأزهار زرق جميلة، وأحيانا وردية أو مبيضة، تجتمع على هيئة سنبلة متحلحلة فى طرف الأغصان، وكل منها محمول على حامل طويل نحو قيراط ... والثمار غير منتظمة، أى فيها ارتفاعات وانخفاضات الخ (المادة الطبية ج ٤ صفحة ٦٩٩) .

(٢) كذا فى كتاب (الإيضاح) للشيرازى المنقول عنه هذا الكلام؛ وهو ما يقتضيه سياق العبارة أيضا؛ والذى فى كلتا النسختين : « فى جام » ؛ وهو تحريف .

(٣) تقدّم الكلام على الهال، وهو القاقلة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا السفر، فأنظرها .

(٤) تقدّم الكلام على جوزبوا فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤ من هذا السفر، فأنظرها .

(٥) انظر الكلام على السك وأنواعه وكيفية عمل كل نوع منه فى الباب الثامن من القسم الخامس من الفن الرابع فى صفحة ٧٠ والحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا .

مثقال؛ تُدَقّ هذه الأصنافُ دَقّا جريشا، وتُجعَل فى خِرقةِ كَتّان، وتُشَدّ[1] شَدّا متحلحِلا[2] ويعلّق[3] منها فى كلّ مُرَبّى لكلّ رِطلٍ أوقيّة .

صفةُ عَمَل الرّاسَن[4] المُرَبّى، وهو مسخّنٌ للكُلَى والظَّهر محـــرِّكٌ لشَهْوَة البـاه

٥ تؤخذ عشرةُ أرطالِ راسَنٍ يقطّع بقـدر الإصبع ، ويُنقَع فى ماءٍ وملحٍ مـدّةَ عشرين يوما، ويغيَّر عليه المـاءُ والملحُ فى كلّ خمسة أيّام أو ثلاثة؛ ثم يصيَّر فى قدر

(١) فى كلتا النسختين : « وتسد سدا » بالسين المهملة فى كلتا الكلمتين؛ وهو تصحيف .

(٢) متحلحلا، أى لينا ضعيفا .

(٣) يريد بالتعليق هنـا : أن يعلق الطرف الأعلى من الخرقة التى فيهـا الأخلاط فى شىء ويكون
١٠ طرفها الأسفل المحتوى على الأخلاط فى المربى، كما يدل على ذلك ما سيذكره بعد فى آخر صفة كل مربى من المربيات الآتية . وعبارة الإيضاح : « ويلق منها فى كل مربى » .

(٤) الراسن : نبات يشبه الزنجبيل؛ ويسمى (القنس) أيضا بالتحريك انظر القاموس وشرحه مادة (رسن) . وفى معجم أسماء النبات ص ١٩٩ أن اسم الراسن باليونانيـة (الانيون) ، وبالفارسـية (الراسن) (والأله) ومن أسمائه (بقلة الرماة) و(الجناح الرومى) ، و(عرق الجناح) ، و(الجناح
١٥ الشامى) ، و(الزنجبيل الشامى) ، و(الزنجبيل البلدى) ، و(القسط الشامى) ، لشبهه بالقسط . وقال داود : هو أصل خشبي بين يافوتيـة وخضرة ، تتفرع عنه أغصان ذات أوراق عريضة ، ومنـه ما أوراقه كالعـدس ، وله زهر الى الزرقة ، وحب كأنه القرطم لولا فرطحة فيـه ؛ وطعمه بين حرافة وحدّة ، عطرى ؛ ويدرك ببابة وبؤونة . وذكر أرباب العـلم الحديث أن اسم هـذا النبات بالافرنجية « أونبه » بضم الهمزة ممدودة وفتح النون ، وأنه يوجد بايطاليا ، وبالبلاد الشرقية بالنسـبة لأوربا .
٢٠ وقالوا فى صفته النباتية : إنه نبات كبير معمر، جذره سميك، مخروطى قليـلا ، أو مغزلى تخرج منه ساق قائمة مصمتة أسطوانيـة متفرعة القمة ، مغطاة بوبر قطنى ؛ وتعلو من أربع أقدام الى ست؛ وهو ينبت بنفسه فى الأماكن التى فيها رطوبة، وفى المحال الجبليـة ، والأراضى الدسمة والمظللة بالأشجار؛ (المـادة الطبية ج ٢ ص ١٠١) .

ويُصَبُّ عليه من الماء الحلو ما يغمره، ومن العسل ثلاثةُ أرطال، ويُغلَى حتّى يلين؛ وتُلقَى عليه الأفاويه مصرورةً[1] فى خِرقةٍ كما وصفنا، ثم يُرفَعُ ويُستعمَل.

صفةُ عَمَل الشَّقاقُل[2] المُرَبَّى يقوِّى المعدةَ والشهوةَ ويزيد فى الباه

يؤخذ شَقاقُل[2] كبارٌ خمسةُ أرطال، يُنقع فى ماءٍ عشرةَ أيّام[3]، ثم يُلقَى فى قِدرِ حجارة، ويُغلَى عليه غليةً خفيفة، ثم يُخرَج ويقشَّر، ويُردُّ الى القِدر؛ ويُصَبّ عليه من العسل ما يغمره، ويُغلَى عليه[4]، وتُلقَى عليه الأفاويهُ معلَّقةً كما وصفنا ويُجعَل فى بَرْنيّةٍ مدهونة، ويُغسَل ظاهرُ البَرْنيّة بالماء فى كلّ خمسةِ أيّام حتّى يبرُد لئلّا يَحمُض ويَفسُد، ويُستعمَل عند الحاجة.

صفةُ عَمَل الجَزَر المُرَبَّى الّذى يزيد فى الباه

يؤخذ من نُحاتة أجواف[5] الجَزَر عشرةُ أرطال، فيُجعَل فى قِدرِ حجارة، ويُلقَى عليه من الماء ما يغمره، ثم يُلقى عليه ثلاثةُ أرطال من عسل النحل، ويُطبخ بنارٍ ليّنةٍ حتّى يَتهرّأ، ثم يُخرَج من الماء (والعسل)[6]، ويُنشَّف ويُبرَّد؛ ثم يُلقَى

(١) فى «ب»: (معرورة)؛ وهو تحريف.

(٢) تقدّم الكلام على صفة الشقاقل فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٤٩ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) كذا فى كلا الأصلين. والذى فى (الإيضاح): «عشرة أرطال» ومؤدّى العبارتين مختلف كما هو ظاهر.

(٤) مقتضى اللغة حذف قوله: «عليه» اكتفاء بقوله: «ويغلى»، فان هذا الفعل يتعدّى بنفسه لا بالحرف، فيقال: «أغليت الماء مثلا» ولا يقال: «أغليت عليه»؛ فلعل المؤلف ضمن قوله «يغلى» معنى يوقد مبنيا للمجهول، فسوغ له هذا التضمين تعدية هذا الفعل بالحرف.

(٥) لم يرد قوله: «أجواف» فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا؛ ولعله ورد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف.

(٦) لم يرد فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا قوله: «والعسل». ولعله وارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف.

عليه من العسل ما يغمره؛ ويُرَدّ الى القِدر، ويُغلَى عليه غليةً يسيرة، ويُبرَّد، ويُجعَل في إناء، ويُتعاهد غَسْلُ ظاهر الإناء حتّى يَبرُد ولا يَحْمُض، ويكون قد طَرحَ فيه الأفاوِيَه على الرسم [والله أعلم][1].

صفةُ عَمَل الإهْلِيلَج[2] الكابُلِيّ المُرَبَّى

يؤخذ من الإهْلِيلَج[2] الكابلىّ الغليظ[3] «ما أحبّ[4] الأخذُ» فيُجعَل في إناء[5]، ويُصَبّ عليه من الماء ما يَغمُره، ويُلقَى فيه من رَماد البَلُّوط ما يكفيه، ويُترَك ثلاثةَ أيّام ويُغيَّر عليه الماءُ والرَّماد؛ يُفعَل به ذلك أربع مرّات «الى تمام اثنَى[6] عشر يوما»؛ ثم يُغسَل بالماء العذب ثلاثَ مرّات، ثم يُطبَخ بماء الشَّعير طبخا ليّنا، ويُخرَج منه ويُمسَح مسحا رفيقا لئلّا ينسلخ، ثم تُثقَب كلُّ إهْلِيلَجة بالإبرة في عشرة مواضع ثم يُجعَل في بَرْنيّةٍ خضراء، ويُلقَى عليه من عسل[7] النحل ما يَغمُره بعد أن تُنزَع رُغْوَتُه ويُغسَل ظاهرُ الإناء مرارا على ما تَقدّم، وذلك بعد أن تُلقَى عليه الأفاوِيهُ في خِرقةٍ على الرسم.

(١) لم ترد هذه العبارة في «ب».

(٢) تقدّم الكلام على صفة الإهليلج وأنواعه في الحاشية رقم ٢ من صفحة ١١٦ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) في نسخة (الإيضاح) التي بين أيدينا: «الأصفر» مكان قوله: «الغليظ».

(٤) لم ترد هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين في نسخة (الإيضاح) التي بين أيدينا.

(٥) عبارة (الإيضاح) المنقول عنه هذا الكلام: «في إجانة خضراء».

(٦) لم يرد هذا الكلام الذي بين هاتين العلامتين في نسخة الايضاح التي بين أيدينا؛ فلعله منقول عن النسخة التي نقل عنها المؤلف.

(٧) في كلتا النسختين «العسل»، والقواعد تقتضي حذف الألف واللام من هذا اللفظ للإضافة كما هو ظاهر.

صفةُ عَمَل التُّفّاح المُرَبَّى

يؤخذ من التُّفّاح الجيّد الّذى لا عيب فيه [قدرُ][1] خمسين حبّة ، يُقشَر، ويُنقّى ما فى باطنه من الحَبّ وما يجاوره ، ويصيَّر فى قِدر ، ويُلقى عليه من عسل النحل ما يَغمُره ، ويُغلَى عليه[2] يسيرا، وتُعلّق فيه الأفاويه ، ويُجعَل بعد ذلك فى بَرْنيّة من الزجاج، ويُتعاهَد غسلُ ظاهرها بالماء فى كلّ ثلاثة أيّام حتّى يَبْرُد ، ويُستعمَل فإنّه يقوّى المَعِدةَ، ويشدّ القلب، ويزيد فى الباه .

صفةُ عَمَل الجَوْز[3] المُرَبَّى، وهو ممّا يزيد فى الباه

يؤخذ من الجَوْز[3] الطرىّ الأخضرِ الّذى لم يَصلُب قِشرُه ، فيُسلَب عنه قِشرُه الخارج، وإن كان داخلَه قِشرٌ قد صَلُب يُقشَر عنه أيضا، ويصيَّر فى قِدرِ حجارة ويُصَبّ عليه من عسل النحل ما يَغمُره، ويُغلَى عليه غَلَيانا خفيفا، ويصيَّر فى بَرْنيّةِ زجاج، وتُعلّق فيه الأفاويه، ويُتعاهَد غسلُ الإناء[4] كما تقدّم .

---

(١) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) .

(٢) تقدّم الكلام على مقتضى اللغة فى قول المؤلف «يغلى عليه» انظر الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٦٤ من هذا السفر .

(٣) فى (ب) «الجزر» فى كلا الموضعين ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى (ا) وكتاب الإيضاح .

(٤) زاد فى الإيضاح بعد قوله : «الإناء» قوله : «كل خمسة أيام» .

ذِكرُ السَّفوفات الّتى تزيد فى الباه

فمن ذلك صفةُ سَفوف

يؤخذ إِشْقِيلٌ[1] مشوىّ وفانِيذ[2] وبُوزَيْدان[3] وبِزرُ سَذاب ، وحبُّ الشَّهْدانج[4] وألسنةُ العصافير[5] من كلّ واحدٍ ثلاثةُ مثاقيل؛ شَقاقُل[6] مثقالٌ ونصف، خَشْخاش وبِزرُ البصل، وبِزرُ الجرجير من كلّ واحد مثقالان؛ تُجمَع هذه الأصنافُ بعد دقّها ونَخْلِها، ويُستفُّ منها مثقالٌ ونصف بشرابٍ حلوٍ ممزوج، فإنّه غاية .

---

(١) تقدّم الكلام على صفة الإشقيل وأسمائه نقلا عن القدماء والمحدثين من الأطباء والنباتيين فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٥٤ من هذا السفر فى تفسير بصل العنصل، فانظرها .

(٢) الفانيذ هو معرب بانيد (القاموس) . وفى بحر الجواهر أنه صنف من السكر الأحمر اللون، والفانيذ السجزى هو الجيد منه ، لا دقيق له ؛ والخزائنى دونه . وفى الشذور الذهبية أنه من السكر والعسل . وقيل : هو عصارة قصب مطبوخة .

(٣) بوزيدان ذكر داود أنه قد تزاد فيه ألف . وكذلك ورد ذكره فى القاموس (مادة زيد) بثبوت الألف فى أوّله ، وضبط فى القاموس ضبطا بالقلم بفتح الزاى . وضبط فى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ص ٣١ بكسرها ضبطا بالقلم أيضا . وقال صاحب التاج إنه المشهور عند الأطباء (بالفاوانيا) (وعود الكهنيا) (وعود الصليب) . وفى جزيرة أقريطش (بعبد السلام) . وفى المنهج المنير أنه بالزاى ثم الذال المعجمتين ؛ وهو عرق الانطراب . وفى الشذور الذهبية أنه دواء خشبى هندى ، فيه مشابهة بقوّة البهمن . قال داود : والصحيح أنه دواء مستقل لا نعرف نباته ، غير أن أجوده الغليظ الأبيض الخشن الكثير الخطوط . وقال ابن حسان : هو أصول صلبة بيض مصمتة تشبه البهمن الأبيض . وفى البرهان القاطع أن هذا النبات تصنع منه الحلواء بمزجه بحليب الغنم ودقيق الأرز .

(٤) ضبط صاحب التاج الشهدانج بكسر النون ضبطا بالعبارة . وضبطه صاحب المصباح بفتحها ضبطا بالعبارة أيضا ، وهو معرب شاهدانه ، ومعناه سلطان الحب بفتح الحاء ، واسمه بالعربية (التنوم) وأهل مصر تسميه : الشرانق .

(٥) تقدّم الكلام على صفة ألسنة العصافير فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٦١ من هذا السفر ، فانظرها .

(٦) تقدّم الكلام على صفة الشقاقل فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٤٩ من هذا السفر ، فانظرها .

سَفوفٌ آخَرُ يزيد فى الباه

تؤخذ ألسنةُ العصافير وبِزرُ الجرجير وبِزرُ اللِّفت، من كلّ واحد مثقالان[(١)]؛ يدقّ ذلك، ويُستَفّ منه مثقالٌ بشرابٍ حلو، أو بعقيد العنب، فإنّه جيّدٌ نافع إن شاء الله [تعالى].

ذِكرُ الحُقَن والحَمولات المهيِّجة للباه والمُغْزِرة للمنىّ والمسمِّنة للكُلَى

هذه الحُقَن والحَمولات إنّما جُعِلتا لمن عجز عن تناول ما قدّمناه من الأدوية إمّا لكثرة حرارتها، أو كراهيةً لمذاقها، أو لإحراقها[(٢)] مِزاجَ المستعمِل لها، فالحُقَن والحَمولات تنوبان مَنابَها، وتقومان مَقامَها فى الفعل، إلّا أنّ هذه الحُقَن لا بدّ أن تتقدّمها حُقْنةٌ تغسل الأمعاء، ثم يُحتقَن بها بعد ذلك فتكون أسرعَ فعلا وأنجحَ نفعا.

فمن ذلك [صفةُ[(٣)] حُقْنةٍ تغسل الأمعاءَ وتنقّيها

يؤخذ بابُونَج[(٤)] وبِزرُ كتّان وحُلْبة وشِبْث، من كلّ واحد سبعةُ مثاقيل،

(١) فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا: «مثقال».

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين بالقاف؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب الطب ما يفيد أن المزاج يوصف بالاحتراق، والذى وجدناه أنهم يصفون المزاج بالانحراف ضد الاعتدال؛ فلعل صواب الكلمة «أو لاحرافها» بالفاء بدل القاف، وان لم يرد فى كتب اللغة انه يقال: «أحرف الدواء مزاجه» مثلا، وإنما يقال: «حرفه» غير مبدوء بالألف؛ فلعل تعدية هذا الفعل بالهمز من استعمالات الأطباء.

(٣) هذا الكلام الموضوع بين مربعين ابتداء من قوله فى هذه الصفحة «صفة حقنة» الى قوله فيما سيأتى فى ص ١٧١ س ٢ «نافع لذلك» لم يرد فى (أ).

(٤) قال داود فى البابونج: إنه يقال أيضا بالقاف والكاف. وفى معجم أسماء النبات أن اسمه باليونانية «أنثيمى» (وخاماميلن)، ومعنى هذا الاسم تفاح الأرض، بسبب رائحته الشبيهة بالتفاح ويعرف عندنا فى مصر (بفراخ أم على). وذكر داود أنه ينبت حتى على الأسطحة والحيطان، وأكثره أصفر الزهر، وقد يكون فرفيريا وأبيض، وهو أسرع أنواع النبات جفافا. قال: فينبغى أن يؤخذ =

وبُطْم[1] وحَسَك[1] أربعةَ عشرَ مثقالا، تين[2] أربعةَ عشرَ مثقالا؛ يُطبَخ جميعُ ذلك بخمسة أرطالٍ من الماء، ويُغلَى حتّى يَبقَى منه رطل، ويصفّى، ويؤخذ من هذا الماء نصف رطل، ويضاف إليه من الشَّيْرَج خمسةَ عشرَ مثقالا، وسكّر أحمرُ سبعةُ مثاقيل ثم يُحقَن به .

صفةُ حُقْنة أخرى تغسل الأمعاء

يؤخذ لُعابُ بِزرِ قَطُونا[3]، ولُعابُ[4] بِزرِ كَتّان، ولُعابُ الحُلْبة، وماءُ السِّلْق[5] المعتصَر

= فى آذار . وذكر صاحب المادة الطبية ج ٢ ص ٤٨٦ أن البابونج اسم فارسى معرّب عن «بابونك» بالكاف أو بالقاف ؛ ونباتات هذا الجنس حشيشية لها رائحة نفاذة ناشئة من وجود دهن طيار كثير فيها، وأوراق هذا الجنس غالبا مقطعة جدا ؛ وأزهاره فى الغالب انتهائية، مختلفة اللون، أعنى أن الأشعة بيض أو صفر، والمركز أصفر، وقد تكون الأشعة صفراء أيضا . وذكر فى الصفات النباتية للنوع المقصود لنا هنا أن ساقه من ثمانية قراريط الى عشرة، وهى راقدة متفرعة، وأطراف الفروع قائمة، يحمل كل منها زهرة واحدة ؛ ... ... والأزهار وحيدة ؛ والقرص أصفر، والأشعة بيض، ... ... وهذا النبات معمر، يكثر ويتضاعف فى الأماكن اليابسة ... ... والمستعمل منه فى الطب رءوسه الزهرية، وتجنى زمن الربيع الخ .

(١) تقدّم الكلام على البطم والحسك فى حواشى هذا السفر البطم فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥٩ والحسك فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥٠ فانظرهما .

(٢) وردت هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط، وقد أثبتناها على هذا الوجه نقلا عن الإيضاح المنقول عنه هذا الكلام .

(٣) يقال قطوناء بالمد وقطونا بالقصر، والمد فيها أكثر . وذكر صاحب المادة الطبية ج ٤ ص ٦٩٨ أن اسم نبات هذه البزور بالافرنجية : (فسليون) بكسر الفاء والسين، وتسمى بما معناه حشيشة البراغيث . قال : وهذا النبات سنوى، وساقه متفرعة كبقية أصناف فسليون، وينبت ببلادنا (أى مصر) كثيرا، ويوجد بفرنسا فى المحال الرملية وغير المزروعة، ولا تستعمل إلا بزوره التى تنظرها فى اللون كالبراغيث، فهى شقر مستطيلة بيضاوية مقبّبة من جانب، ومحفورة من الجانب الآخر؛ وهى عديمة الرائحة، وطعمها تفه، تصير اللعاب لزجا ... ... قال : وذكر أطباء العرب لهذا البزر ثلاثة أنواع، أبيض، وقالوا : انه أجودها وأكثرها وجودا، ولعل ذلك بالشأم لا بمصر، وأحمر دونه فى النفع، وأكثر ما يكون بمصر، ويعرف بالبرلسىّ نسبة لإقليم البرلس، وأسود، وهو أردؤها بحيث لا يستعمل من الداخل، ويسمى الصعيدى، لأنه يجلب من الصعيد الأعلى، وكله فى أكمام مستديرة، وزهره كألوانه، ونبته لا يجاوز ذراعا، دقيق الأوراق والساق الخ .

(٤) لم يرد لعاب بزر الكتان فى الإيضاح المنقول عنه هذا الكلام ضمن نسخته التى بين أيدينا ؛ فلعله وارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٥) فى الأصل الذى نقلنا عنه هذه التكملة «الصلق» بالصاد، وهو تحريف إذ لم نجده فيما راجعناه من الكتب إلا بالسين كما أثبتنا .

ولُعابُ ٱلخِطْمىّ[1]، من كلّ واحدٍ خمسةُ[2] مثاقيل؛ ثم يُجعَل فى ذلك من ٱلبُورَق[3] والسكّر الأحمر من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل، ومن الشَّيْرَج عشرةُ مثاقيل، ثم يُحقَن به، فإنه نافع لِما ذكرناه إن شاء ٱلله؛ فهذه ٱلحُقَن ٱلتى تتقدّم أوّلا .

صفةُ حُقْنةٍ تسمِّن الكُلَى وتزيد فى الباه

يؤخذ من دُهن ٱلجَوْز نصفُ رِطل، يُلقَى فيه من ٱلحَسَك نصفُ رطل، ومن لبن البقر رِطل ونصف، وفانِيذ[4] وزنجبيل وبِزرُ هِلْيَوْن[5]، من كلّ واحد أوقيّة؛ يُغلَى

(١) قال صاحب عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٤ ص ٦٨٢ : إن الخطمى يقال له الخطمية أيضا ؛ واسمه بالافرنجية (جيموف) وهو نبات معمر ينبت فى المحال الرطبة وعلى شواطئ الأنهر وفى الصحارى التى ينزل عليها المطر ، واستنبت فى المزارع والبساتين عندنا (أى فى مصر) وبأوربا والمستعمل منه الجذور والأوراق والأزهار . وقال فى صفاته النباتية : إن الجذر مغزلى عمودى أبيض ، فى غلظ الإبهام والسبابة ، وتخرج منه ساق حشيشية تعلو من قدمين الى ثلاثة ، ... ... والأزهار مبيضة أو مائلة الى الوردية ، إبطية ، ويتكون منها شبه رأس فى طرف الساق ، ... ... والثمر مستدير منضغط قطنى الخ . وذكر ابن البيطار أن الخطمى نوعان : بستانى ، ويعرف فى الأندلس بورد الزوانى ومنه نوع آخر تعرفه عامتنا بشحم المزج ، وهو الذى ذكره ديسقوريدوس فقال : هو صنف من الملوخية البرية ، له ورق مستدير ، وزهر شبيه بالورد ، وساق طولها نحو من ذراع ، وأصل لزج لون باطنه أبيض .

(٢) فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا : «عشرة» .

(٣) قال اسحاق بن عمران فى البورق : إنه صنوف كثيرة ؛ فمنه صنف يقال له : البورق الأرمنى يؤتى به من «أرمينية» ، ومنه صنف يقال له : «النطرون» ، يؤتى به من «الواحات» ، وهو ضربان : أحمر وأبيض ، ويشبه الملح المعدنى ، ومذاقه بين الملوحة والحموضة . وذكر صاحب المادة الطبية ج ١ ص ٣٧٥ أن اسم البورق بالافرنجية : بوركس ، وقد أخذ هذا الاسم من العرب . ويسمى باللسان الكيلوى : (بورات الصود) و (تحت بورات الصود) ، ويوجد كثيرا بآسيا ... ... ويستخرج كثيرا من فارس والصين الخ ما أورده من كلام طويل لا نرى مقتضيا لذكره هنا ، فانظره .

(٤) تقدّم الكلام على الفانيذ فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٦٧ من هذا السفر ، فانظرها .

(٥) تقدّم الكلام على الهليون فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٤٣ من هذا السفر ، فانظرها .

على النار، ويصفّى ماؤه؛ ويؤخذ منه أربعةَ عشرَ مثقالا، ومن دُهن الزَّنْبَق أربعةُ مثاقيل، ومن دُهن البان أربعةُ مثاقيل، ثم يُحقَن به، فإنّه نافعٌ لذلك] .

صفة حقنة أخرى تسمِّن الكُلَى وتزيد فى الباه

يؤخذ رأسُ كبشٍ وأكارعُه ونصفُ أَلْيتِه، [ويُرَضُّ الجميع[1]، ويوضَع فى قِدْر؛ ثم يوضَع عليه ربعُ رطلِ حِمَّص]؛ ومِثلُ[2] ذلك حنطة ولُوبياءُ حمراء، ومن الشِّبْثِ والبابُونَج وبزرِ اللِّفت ومَرْزَنْجُوش[3]، من كلّ واحد سبعةُ مثاقيل، حَسَك خمسةَ عشرَ مثقالا؛ تُطبَخ بعشرةِ أرطالِ ماء حتى يتهرّأ الجميع، ويصفّى، ويؤخذ من ذلك الماءِ والدَّسَمِ رطل[4]، ويُلقَى عليه من سمن البقر أوقيّة، ومن اللّبن الحليب أوقيّتان ومن دُهن البان نصفُ أوقيّة؛ ثم يُحقَن به ثلاثَ ليالٍ متوالية عقيبَ تلك الحُقْنة التى تَغسل الأمعاء، فإنّه عجيب الفعل .

صفةُ حُقْنةٍ أخرى تنفع من انقطاع الجماع، وتقوِّى الشهوة وتسخِّن الكُلَى، وتزيد فى الباه زيادةً حسنة

يؤخذ بزرُ كتّان وبزرُ نَرْجس وبزرُ فُجل وبابُونَج[5] من كلِّ واحدٍ أوقيّة، حُلْبة

(١) لم ترد هذه التكملة فى كلتا النسختين؛ وقد أثبتناها عن الإيضاح المنقول عنه هذا الكلام .

(٢) فى كلتا النسختين « ومن » ؛ وهو تحريف .

(٣) تقدّم الكلام على المرزنجوش فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٥٦ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) فى نسخة الإيضاح التى بين أيدينا : «نصف رطل» فلعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٥) لم يرد ذكر البابونج فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا فى هذا الموضع الذى ورد ذكره فيه هنا وانما ورد ذكره فى هذه النسخة المشار اليها بعد لب حب القرطم البرى والبستانى ، أى فى السطر الثانى من صفحة ١٧٢ ؛ وقد سبق الكلام على البابونج فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٦٨ فانظرها .

ثلاثُ أواقٍ، أُنْجُرَة أوقيّة، حنطة أربعُ أواقٍ، سمنٌ[1] ثلاثُ أواقٍ، تمرٌ[2] عشرون عددا لُبُّ[3] القِرْطِم البرىّ والبستانىّ من كلّ واحد أوقيّتان، مَرْزَنْجُوش[4] ثلاثُ أواقٍ يُطبخ جميعُ ذلك بعشرة أرطالِ ماءٍ حتّى يَبقَى منه الثُّلث، ويُمرَس، ويُصفّى ويؤخذ دُهن سُوسَن ودُهن نرجس ودُهن زَنْبَق ودُهن خِيرِىّ[5] وعسل نحل من كل واحد أوقيّة، يخلط الجميع "بالماء الأوّل"، ويؤخذ منه نصف رطل ويحقن به فإنه نافع.

صفةُ حُقْنة أخرى

يؤخذ لبنُ ضأن وأذُنا الخروف وحنطة وشَعير وحُلْبة وشَحْمُ دَجاج، وشَحْمُ بطّ وفراخُ [حمام][6] وبابُونَج وخِطْمِىّ وحَسَك وشِبْث[7] وتين وعُنّاب وسَيْسَبان[8]

(١) لم يرد ذكر السمن ضمن أخلاط هذه الحقنة فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا، ولعل ذلك وارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف.

(٢) عبارة الإيضاح: «تين وتمر من كل واحد عشرون عددا».

(٣) فى كلتا النسختين «لبن» والنون زيادة من الناسخ، وما أثبتناه عن (الإيضاح) وعبارته: «لب حب القرطم».

(٤) قد سبق الكلام على صفة المرزنجوش فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٥٦ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) تقدّم الكلام على الخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٦) فى كلتا النسختين: «وشحم فراخ»؛ وفى هذه العبارة خطأ من الناسخ بزيادة كلمة «شحم» ونقص كلمة «حمام» والصواب ما أثبتنا، كما فى (الايضاح) المنقول عنه هذا الكلام.

(٧) فى الإيضاح: «وشب».

(٨) كذا فى (ا) والذى فى «ب» «وسبستان»؛ ولم نقف على ما يرجح احدى هاتين الروايتين على الأخرى، اذ لم يرد فى المفردات ولا فى التذكرة فى الكلام على السيسبان والسبستان ما يفيد أن أحدهما ينفع فى الباه؛ ولم يرد ذكر واحد منهما فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا؛ فلعله ورد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف. أما السيسبان المذكور فى (ا) فقد ذكر صاحب المادة الطبية ج ٤ ص ٧٨٦ أن اسمه بالافرنجية كاسمه العربى؛ واسمه النباتى «اسكنومين سبانيا» بكسر الهمزة والكاف وفتح الميم =

وبزر كتّان، من كلّ واحد جزء؛ ويُطبَخ جميعُ ذلك بماءٍ حتّى يتهرّأ، ويصفّى، ويُخلَط معه شَيْرَج ودُهن بَنَفْسَج ودُهن خِيرِىّ ودُهن بُطْم[1]، ودُهن جَوْز، وسمن بقر، ثم يُحقَن به على ما تقدّم فإنّه غايةٌ فى النفع. (١٣٢)

صفة حُقْنةٍ أخرى من كتاب الرّازىّ تهيج الباه

يؤخذ رطلٌ من دُهن الجَوْز، ويُلقَى فيه رطلُ حَسَك، وثلاثةُ أرطال من حليب البقر، وأوقيّةُ زنجبيل وأوقيّةُ فانيذ[2]، ويُطبَخ حتّى يغلى مرارا؛ ثم يصفّى ويؤخذ منه أوقيّتان، وزَنْبَق نصفُ أوقيّة، ودُهنُ بان نصفُ أوقيّة، ويُحتقَن به ولا يجامع عشرَ ليال، فإنّه عجيب. هذه الحُقَن.

= واسمه عندلينوس اسكنومين غرندفلورا، أى الكبير الأزهار ... ... ثم نقل عن أطباء العرب أن منه بستانيا يستنبت، وبريا ينبت بنفسه، ويطول قامتين؛ وأوراقه قد تتسع؛ وقد تدق على حسب الظلال الموافقة والأمكنة الندية، وعلى كل حال فزهره أصفر نضر، وخشبه متحلحل؛ وثمره فى عناقيده يقارب حجم الحلبة بين سواد وصفرة؛ ويعبر عنه (بحب الفقد)، (والبنجنكشت) فى غالب المفردات. وقال ابن البيطار: إن هذا النبات فى غلظ عصا الرمح، ويتدرج فى منبته ... ... قال: والشجر كله مليح المنظر، يغرسونه لتحصين البساتين والحيطان قريبا بعضه من بعض، تتداخل أغصانه وعصيه بعضها فى بعض. أما السبستان الوارد فى «ب» فهو المخيط. وذكر صاحب المادة الطبية ج ٤ ص ٧٠٩ أن اسمه بالافرنجية سبستير؛ وباللسان النباتى «قورديا سبستا»؛ وقد يسمى (قورديا مكسا)؛ ولفظة (مكسا) بكسر الميم موضوعة لنوع من البرقوق، بحيث يصح أن نسميه بالقورديا البرقوقى، لشبه ثمره بالبرقوق الصغير ... ... قال: وهذا النبات ينبت عندنا بمصر والهند وأميركا والبلاد الحارة؛ ويعلو علوا كبيرا؛ والمستعمل فى الطب ثمره الخ. وقال ابن البيطار: إن معنى سبستان بالفارسية: أطباء الكلبة؛ وهى شجرة تعلو على الأرض نحو القامة، لها خشب، ولون قشرها الى البياض، ولها أغصان قشرها الى الخضرة، ولها ورق مدور كبير ولها عنب وعناقيد طعمها حلو، وعنبها فى قدر الجلوز، وهو ثمر يصفر ثم يطيب؛ وفى داخله لزوجة بيضاء تمطط؛ وحبه كحب الزيتون يجمع ويجفف حتى يصير زبيبا، وهو المستعمل.

(١) تقدم الكلام على البطم فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥٩ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) تقدم الكلام على الفانيذ فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٦٧ من هذا السفر، فانظرها.

وأمّا الحَمولات التى تُحدِث الإنعاظَ الشديد — يؤخذ بزرُ جَزَر وبزرُ جرجير، ولُعْبة[1]، ولُبُّ حَبّ القطن، أجزاء متساوية، يُعجَن بماء الراسن[2] أو بماء الجرجير، وتُعمَل من ذلك فتيلة، ويُتحمَّل بها، فإنّها تُنعِظ إنعاظا عجيبا .

صفة أخرى

يؤخذ من شَحم كُلَى السَّقَنْقُور[3] فيذاب بدُهن السُّوسَن، ويُذَرّ عليه من لُبّ حَبّ القطن وعاقِر قَرْحَى[4] وزنجبيل بعد سحقِ ذلك ونخلِه، وتُعمَل منه فتيلة ويُتحمَّل بها .

(١) اللعبة بلا قيد كما فى هذا الموضع هى أصل اليبروح . انظر التذكرة والمفردات . واليبروح كلمة سريانية نقلت الى اللغة العربية، ويقال : إن معناها يعوزه الروح ؛ وذلك لزعمهم أن جذره على صورة آدميين متعانقين خاليين من الروح . واسم هذا النبات بالافرنجية «مندرجور» بفتح الميم والدال والراء، وقبلهما نون ساكنة، أى مؤذى الحيوانات . وباللسان النباتى « أطروبا مندرجورا » ... ... وينبت هذا النبات بايطاليا واسبانيا وبلاد اليونان وغيرها ، وهو عديم الساق، وأوراقه كلها جذرية تامة الكمال متعوجة الحافات ، ضيقة من جزئها السفلى بحيث يتكوّن منها شبه ذنيب قصير ؛ والأزهار بيض أو محمرة محمولة على حامل جذرى ناشئ من وسط الأوراق الجذرية ؛ وطوله من خمسة قراريط الى ستة ، والثمار بيض أو محمرة فى غلظ البيضة ، عنبية ، لحمية تحتوى على بزور كلوية الشكل ، وقد تكون الثمار غليظة مستديرة ، أو صغيرة بيضاوية ... ... والجذور غليظة لحمية مستطيلة ، تشبه جذور السلجم ، بيض تتفرع الى فرعين أو ثلاثة ، وتتصاعد منها رائحة سمية مخدّرة ، تكون أوضح فى الجذر الرطب منها فى الجذر اليابس ، وطعمها فيه حرافة ومرارة وتغثية ، وكان القدماء يشبهون تلك الجذور بفخذى الانسان ، ولذلك قيل لها « انترمرفون » أى شبيه الانسان ... ... وذكر ديسقوريدوس فى هذا النبات أنه صنفان : وأطال فى وصف كل واحد منهما بما لا نرى مقتضيا لذكره هنا انظر المادة الطبية ج ٤ ص ٣٤

(٢) قد سبق الكلام على صفة الراسن فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٦٣ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدّم الكلام على السقنقور فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) تقدّم الكلام على العاقرقرحى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٨ من هذا السفر، فانظرها .

[صفة أخرى[1]

يؤخذ من شحم كُلَى السَّقَنْقُور وشحم البقر، والشَّمَع، يُسْلَأُ[2] ذلك، وتُلقَى عليه أدمغةُ العصافير الدُّورِيَّة[3]، وتُعمَل منه فَتيلة، ويُتحمَّل بها] .

[صفة أخرى

يؤخذ قَنْطُرْيُون[4] مسحوق، وزفت، وشَمَع، يذاب بدُهن سُوسَن، وتُعمَل منه فَتيلة، ويُتحمَّل بها، فإنها تُنعِظ إنعاظا عجيبا .

(١) ورد هذا الكلام الذى بين مربعين فى «ب» وحدها، وهى المنسوب خطها إلى المؤلف، ولم يرد فى (أ) ولا فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا .

(٢) يسلأ، أى يطبخ و يذاب .

(٣) العصافير الدورية، هى تلك التى تعشش فى البيوت، كما فى مستدرك التاج مادة «دار» . وذكر صاحب (نهاية الأرب) هذا النوع من العصافير، وسماه العصفور اليبوتى الجزء العاشر ص ٢٤٩ الطبعة الأولى .

(٤) ورد هذا النبات فى التراكيب باسم (قنطوريون) بزيادة واو بعد الطاء؛ وضبط فى معجم أسماء النبات مرة بفتح القاف وضم الطاء وسكون الراء، ومرة بفتح الطاء وكسر الراء ضبطا بالقلم . انظر صفحة ٤٤ وصفحة ٧٨ . وورد فى أقرب الموارد باسم (قنطاريون) مضبوطا بكسر القاف مع زيادة ألف بعد الطاء وكسر الراء ضبطا بالقلم . وفى بحر الجواهر أنه معرب (جنتور)، وهو منسوب الى جنتوريس الحكيم، وهو أول من عرف هذا الحشيش؛ وهو صنفان : كبير وصغير . وقال ديسقوريدوس فى القنطريون الكبير : إن له ورقا شبيها بورق الجوز أخضر، مثل ورق الكرنب، وأطرافه مشرفة مثل تشريف المنشار، وله ساق شبيهة بساق الحماض، طولها ذراعان، أو ثلاث أذرع؛ وله شعب كثيرة من أصل واحد، عليها رءوس شبيهة بالخشخاش، مستديرة، الى الطول ماهى، وزهر لونه شبيه بلون الكحل؛ وثمر شبيه بالقرطم فى جوف الزهر؛ والزهر شبيه بالصوف؛ وأصل غليظ صلب ثقيل، طوله ذراعان، حريف مع قبض يسير، وفيه حلاوة يسيرة، ولونه إلى الحمرة الدموية، وعصارته مثل لون الدم؛ وقد ينبت فى أرض سهلة يطول مكث الشمس عليها، وفى جبال ذوات شجر ملتف، وفى تلال . وقال فى القنطوريون الصغير : إنه ينبت عند المياه، وهو شبيه بالعشب الذى يقال له : «هيوفاريقون» (والفودنج الجبلى)، وله ساق طولها أكثر من شبر، مزواة، وزهر أحمر الى لون الفرفير، وورق صغار الى الطول شبيه بورق السذاب، وثمر شبيه بالحنطة، وأصل صغير لا ينتفع به، وإنما قضبانه وأوراقه وزهره هى التى تنفع منفعة كثيرة جدا . وذكر أرباب العلم الحديث أن اسم القنطريون الكبير باللسان النباتى : قنطوريا قنطوريوم؛ وهو نبات معمر، وأصله من جبال الألب، وينبت فى جبال ايطاليا وغيرها؛ كما فى المادة الطبية ج ٢ ص ٧٩ .

صـــفة أخرى

تؤخذ قِطعةُ حِلتيتٍ[(١)] فتُجعَل فى ثَقْب الذَّكَر بقدر ما تَلذَع، ثم تُسال منه، فإنه يُنعِظ إنعاظا قويّا؛ وإذا حصل ٱللَّذْعُ يُقطَر فى ثَقْب الذَّكَر دُهنُ بَنَفْسَج .

هـذا ما يعالَج به الباطن؛ فلنذكر الأدويةَ ٱلنافعةَ للظاهر من ٱلمَسُوحات والضِّمادات والأدويةِ الملذِّذةِ للجماع[(٢)] . ٥

ذِكرُ ٱلمَسوحات والضِّمادات الّتى تزيد فى الباه، المقوِّية للذَّكَر

صفةُ مَسُوح يُمرَخ به القضيبُ فيهيج شهوةَ ٱلجماع ويزيد فى البـاه

يؤخذ عاقِرْ قَرْحَى[(٣)]، وبَسْباسة[(٣)]، ودار فُلفُل[(٣)]، من كلِّ واحد مثقالان؛ قِنّة[(٣)] وأَفْرَبيُون[(٤)]

---

(١) تقدّم الكلام على الحلتيت فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٩ من هذا السفر، فانظرها . ١٠

(٢) مقتضى اللغـة أن يقول : « بالجماع » بالباء مكان اللام، أى الأدوية التى تلذذ الشخص به وقد سبق توضيح ذلك وبيان الوجه فيه بمـا فيه كفاية انظر الحاشية رقم ١ من صفحة ١٤٢ من هذا السفر.

(٣) تقدّم الكلام على مسميات هذه الأسماء الأربعة التى تحت هذا الرقم العاقر قرحى فى الحاشية رقم ٢ من صـفحة ١٤٨ والبسباسة فى الحاشـية رقم ١ من صفحة ٨٧ والدار فلفل فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٥٤ والقنة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٥٥ من هذا السفر، فارجع إليه فى مواضعها . ١٥

(٤) الأفربيون، هو اللبانة المغربيـة، وهو عصارة متجمدة اسمها بالافرنجية (أوفربيو) وباللسان الأقرباذينى (أوفربيون)، وتأتى من النباتات الفربيونية، ولا سيما الفربيون الطبى الذى اسمه باللسان النباتى أوفربيا أوفسنالس... ... ويحتوى هذا الجنس على نحو أربعمائة نوع تحتوى كلها على تلك العصارة؛ وأقدم تلك الأنواع تجهيزا لها هو الفربيون الطبى، وهو ينبت بأفريقية، ولا سيما رأس الرجاء، وعلى حافة جبل الأطلس، وبالهند، وهو معمر، ومنظره كقند الشمع، وساقه قائمة لحمية ثخينة فى غلظ العضد وتعلو عليها أضلاع بارزة، وهى شوكية مستطيلة تتولد عليها مسافة فسافة حلمات بيضاوية تتغير الى فروع ولا توجد عليها أوراق إلا إذا اعتبرنا أنها هى الشوك الخشن المتسلحة به أضلاع الساق؛ والأزهار مصفرة صغيرة وحيدة موضوعة فى الجـزء العلوى من أضلاع الساق، وتكاد تكون عديمة الحامـل . وذكر بعض الجائين الى (مراكش) أن العرب تسميه فربونا؛ ويسميه سكان الأطلس : «درجموسا» حيث يبلغ هناك فى الارتفاع نحو ثلاثين قدما ... وكل فرع منه ينتهى بزهرة حمراء، وفيه عقد يذهب منها شوكه الإبرى، وتكون الساق فى الأبتداء طرية عصارية، ثم تتصلب بعد سنين، وحينئذ يعد هذا النبات تام النضج، وإذا شـق = ٢٠ ٢٥

من كلّ واحد مثقال ؛ جُندبا دَسْتَر[1] و بزر الجرجير، من كلٍّ واحد نصفُ مثقال ؛ دُهنُ النَّرجس عشرةُ مثاقيل ؛ شَمعٌ أبيضُ أربعةُ مثاقيل ؛ تُسحَق الأدويةُ اليابسة ويذوَّب الشَّمع والقِنَّة مع الدُّهن على النار ؛ ثم تُلقَى عليها الأدويةُ المسحوقة، ثم يُرفَع، ويُمرَخ به القضيبُ والعانة، فإنّه جيّدٌ مفيد لما ذُكِر .

صفةُ مَسوح آخَرَ يُمرَخ به الذَّكَر والعانة، يزيد فى الإنعاظ ويسخِّن الكُلَى والمثانة

تؤخذ عُصارةُ حشيشة الكلب — وهى الفُراسِيُون[2] — تُدَق وتُحَلّ بالدُّهن ويُمرَخ بها .

= خرجت منه عصارة لبنية أكالة تسلخ الأصابع ؛ وإذا عتق النبات وأبيض جفت عصارته، ولا تستخرج تلك العصارة إلا فى كل أربع سنين تقريبا اه ملخصا من المادة الطبية ج ١ ص ٢٣١ .

(١) تقدّم الكلام على الجندبادستر نقلا عن الأطباء القدماء والمحدثين فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) فى المادة الطبية ج ٢ ص ٥٧١ أن اسم الفراسيون بالافرنجية « ماروب » ؛ و يصفونه بالأبيض لأن لهم فراسيونا أسود من جنس آخر... ؛ وهو نبات معمر، يوجد فى المحال المزروعة الجافة الصخرية، وعلى حافات الطرق والأزقة والحفر بأوربا ؛ والمستعمل منه أوراقه وأطرافه المزهرة ... وجذره معمر، تتولد منه سوق قائمة طولها من قدم الى قدمين، متفرّعة، زغبية، مبيضة ... ... والأزهار بيض صغيرة مزنقة جدا تتكوّن منها محيطات متضاعفة الأزهار، متراكمة بعضها على بعض فى آباط الأوراق، ومصحوبة من الخارج بوريقات زهرية مخرازية حادة قصيرة ... ... ؛ و رائحة هذا النبات عطرية، كأنها مسكية، وطعمه حريف حار، مر، كريه اه ملخصا . وقال ديسقوريدوس : إن لهذا النبات أغصانا كثيرة مخرجها من أصل واحد، وعليه زغب يسير؛ ولونه أبيض، وأغصانه مربعة ؛ وله ورق فى مقدار الإبهام، إلى الاستدارة ما هو، عليه زغب مر الطعم ؛ و زهره و ورقه يتفرقان فى الأغصان اللتان فيها : وهى مستديرة، شبيهة بالفلك : خشنة ؛ وينبت فى الخراب من البيوت (المفردات ج ٣ ص ١٥٨) وفى (معجم أسماء النبات ص ١١٥) أن تسمية هذا النبات بالفراسيون تسمية يونانية ؛ وأن هذه الحشيشة تسمى أيضا (عشبة الكلاب)، لأن الكلاب متى وقعت بها لاترجع عنها حتى تتمرغ فيها ؛ (والكراث الجبلى) و (الشرير) وتسمى بالفارسية « الشنار » .

مَسوحٌ آخَرُ يُمرَخ به الذَّكَر يزيد فى الإنعاظ

تؤخذ مرارةُ ثورٍ فحل، وعسلُ نحل منزوعُ الرُّغوة، وقليلُ عاقِر قَرْحَى[1]؛ يُخلَط الجميع، ويُمسَح به .

مَسوحٌ آخَرُ ملوكىّ

يؤخذ أَفَرْبيُون وزنجبيل وعاقِر قَرْحَى[1]، من كلٍّ واحد مثقال، ومسك نصفُ مثقال؛ تُجمَع بدُهن البَلَسان[2]، ويُمرَخ بها القضيب وما يليه، فإنّها نهاية .

مَسوحٌ آخَرُ يُنعِظ ويزيد فى الباه، ويعين على الجماع إذا مُرِخ به القضيب والعانة

يؤخذ السَّقَنْقُور[3] وقضيبُ الإِيِّل[4] المجفَّف، والحشيشةُ المسمّاةُ خُصَى الثعلب[5] من كلٍّ واحد مثقال، ومن بزرِ العاقِر قَرْحَى[1] وبزرِ الجرجير، من كلّ واحد أربعةُ مثاقيل فَرْبيُون مثقالان، بَيضُ العصافير الدُّورِيّة[6] ثلاثُ بيضات، تُجعَل فى إناءِ زجاج ويُصَبّ عليها شىءٌ من قَطِرانٍ ودُهنِ سُوسَن مقدارَ ما يَغْمُرها ويطفو عليها؛ ويُسَدّ رأسُ الإناء، ويُدفَن فى الزِّبل مدّةَ أربعين يوما، يبدَّل عليه الزِّبلَ فى كلّ سبعة

(١) تقدم الكلام على العاقر قرحى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٨ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) تقدم الكلام على البلسان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٥ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) فى « ب » «الاسقنقور» مبدوءا بالألف ؛ وهى زيادة من الناسخ، إذ لم نجده فيما راجعناه من الكتب مبدوءا بالألف . وقد تقدّم الكلام على صفة هذا الحيوان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) تقدّم الكلام على الإيل فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥ من هذا السفر، فانظرها .

(٥) تقدم الكلام على خصى الثعلب فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥٣ من هذا السفر، فانظرها .

(٦) الدورية نسبة الى الدور، جمع دار، يريد العصافير المعروفة التى تعشش فى البيوت .

أيّام، ثم يُخرِجه بعد ذلك، ويصفّى عنها الدُّهن؛ ويُلقِى فى الدُّهن سبعةَ مثاقيلَ من عِلْكِ البُطْم[1]؛ وتُسحَق الأدويةُ اليابسة، ويُخلط الجميعُ بالعجن الجيّد؛ ويُصَبّ عليه من دُهن السُّوسَن حتّى يصير فى قوام المرهم الرَّطْب، ثم يُرفَع لوقت الحاجة؛ فاذا أراد العملَ به مَرَخَ به القضيبَ وما قرب منه، فإنّه يفعل فعلا عجيبا .

مَسوحٌ آخَر

يؤخذ دُهن خِيرِىّ ودُهنُ نرجس، من كلّ واحد نصفُ رطل؛ يُجعَل ذلك فى طِنْجِير، ويُلقَى عليه دارُ فُلفُل[2] وعاقِر قَرْحَى[3] وزنجبيل ودار صِينِىّ من كلّ واحد أوقيّة؛ جُنْدَبِيدَسْتَر[4] نصفُ أوقيّة؛ يُغلَى ذلك على النار غليانا جيّدا، ويُمرَس ويصفّى، ويُرفَع فى إناءِ زجاج، ثم يُدهَن به القضيبُ وماحوله، فإنّه يفعل فى الإنعاظ فعلا جيّدا قويّا .

مَسُوحٌ آخَر

تُؤخَذ مرارةُ التَّيْس ويُطلَى بها الذَّكَر وما حوله والحَقْوان، فإنّ ذلك يقوّى على الباه[5] ... أمرا عجيبا .

(١) تقدّم الكلام على البطم فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٢) تقدّم الكلام على الدار فلفل فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٥٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدم الكلام على العاقر قرحى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٨ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) قد سبق الكلام على صفة الجندبيدستر فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥ من هذا السفر، فانظرها .

(٥) يلوح لنا أن فى موضع هذه النقط عبارة ساقطة من كلتا النسختين تفيد أن من يستعمل ذلك يرى منه أمرا عجيبا، كما سيعبر المؤلف بذلك فى ص ١٨١ س ٥ فانظره، وذلك لأن مفعولية قوله «أمرا» لقوله قبل «يقوّى» غير ظاهرة كما لا يخفى، أو نعله استعمل لفظ الأمر فى معنى القوّة، أى يقوى على الباه قوة عجيبة .

مَسُوحٌ آخَرُ يُلطَخ به الذَّكَرُ المُرْخَى القليلُ القيام

يؤخذ بُورَق[1] ووَرْس[2]، ويُعجَنان بعسلٍ منزوعِ الرُّغوة، ثم يُلطَخ به الذَّكَر وما حوله، ويُدمَن ذلك أيّاما، فإنّه عجيب الفعل.

مَسُوحٌ آخَر

يؤخذ من شَحم الضَّبِّ ولحمِه فيُطبَخان، ويؤخذ دُهنُه ويُخلَط بزَنْبَق، ويُدهَن به الذَّكَر، فإنّه يزيد فى الإنعاظ، ويقوِّى الباه[3] ... أمرا عظيما.

مَسُوحٌ آخَر

تؤخذ العصافير وقتَ هيَجانها فتُذبَح على دقيق العَدَس، ويُلَتّ بدمها، ويُبنْدَق ويجفَّف، فإذا أراد الجماع فليأخذ بندقةً ويَحُلّها بزيت، ثم يَطلِى بها أسفلَ القدمين؛ ولا يطأ على الأرض، بل يكون على الفراش، فإنّه يُنعظ إنعاظا قويّا، وإن وَطئ على الأرض بطل فعلُ الدّواء.

---

(١) تقدّم الكلام على البورق فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٧٠ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) الورس، هو الكركم؛ وقيل: هو أصله؛ وهو نبت يزرع فيخرج كعروق القطن، وحمله كالسمسم اذا بلغ تشقق عن شعر بين حمرة وصفرة، وهو اليمنى الأجود، ومنه خالص الصفرة، ولا يكون إلا استنباتا وتبقى شجرته عشرين سنة، تجنى كل عام أوائل تشرين. وفى كتب اللغة أنه نبات يصبغ به، فاذا جف عند ادراكه تفتقت خرائطه، فتنفض فينتفض منها الورس، قاله أبو حنيفة. وقال إسحاق بن عمران: الورس صنفان: حبشى وهندى، فالحبشى أسود، وهو مرذول، والهندى أحمر قانئ. ويقال: إن الكركم عروقه يؤتى بها من الصين ومن بلاد اليمن، وله حب كالماش، وأجوده الأحمر الجيد، القليل الحب، اللين فى اليد، القليل النخالة الخ.

(٣) انظر الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٧٩ من هذا السفر.

مَسُوحٌ آخَر

تؤخذ مرائر العضافير الدُّوريّة الذكور وتُخلَط بدُهنِ زَنْبَق خالص، ثم يؤخذ باذَرُوج[1] وشَهْدَانِج فيُدَقّان جميعا دقّا ناعما، ثم يُخلَطان بالمرائر والدُّهن، ويُرفَع ذلك فى قارورة، فإذا أراد الجماعَ يمسح منه تحت القدمين وعلى القضيب والأنثيين ولا يطأ على الأرض، فإنّه يرى من قوّة الباه أمرًا عجيبا .

مَسُوحٌ آخَر

يؤخذ قضيب الإيّل فيُحرَق، ويُعجَن رَمادُه بشرابٍ عتيق، ثم يُطلَى به القضيب ويُمرَخ به، ويُطلَى ما حوله، فإنّه يُنعِظ إنعاظا شديدا جدّا؛ فهذه المَسُوحات .

وأمّا الضِّمادات التى تزيد فى الباه وتعين على الجماع

فيؤخذ رمادُ قضيب الإيّل وعاقِر قَرْحَى وفَرْبَيُون وفُلفُل أبيض، من كلّ واحد جزء؛ تُسحَق وتُجمع، وتُعجَن بشرابٍ عتيق، ويُضمَد الذَّكَر بها والأُنْثَيَان، فإنّها تزيد فى الباه .

صفةُ ضِماد يُجعَل على الظَّهر، يزيد فى الباه، ويقوِّى الإنعاظ

يؤخذ فُلفُل وعاقِر قَرْحَى وفَرْبَيُون، من كلّ واحد مثقالان ونصف؛ حِلْتِيت[2] مثقالٌ وربع؛ دُهنُ بَلَسَان[3] ودُهنُ قُسْط، من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل؛ دار فُلفُل[4]

(١) الباذروج، ذكر داود أنه اسم نبطى، وهو بقلة تستنبت فى البيوت، وقد ينبت بنفسه، ويسمى الريحان الأحمر، وبعضهم يسميه السليمانى، عريض الأوراق، مربع الساق حريف، غير شديد الحرافة .

(٢) قد سبق الكلام على الحلتيت فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) قد سبق الكلام على البلسان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٥ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) تقدّم الكلام على الدار فلفل فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٥٤ من هذا السفر، فانظرها .

وجوزبُوا، من كلّ واحد مثقالان؛ تُسحَق الأدويةُ اليابسةُ سحقا ناعما جدّا؛ وتُحَلّ بالأدهان؛ وتُمَدّ على خِرقة، وتوضَع على الظّهر، فإنّه يرى العجب .

صفةُ ضِماد يُجعَل على الإبهام من الرِّجل اليُمنَى ، يزيد فى الباه ويقوِّى الجماع

يؤخذ من عود اليُسْر[1] خمسةَ عشرَ مثقالا ، ومن صمغ البُطْم[2] وصمغ عربىّ وفُلفُل من كلّ واحد عشرةُ مثاقيل؛ خُرْء الفأر والحشيشةُ المسمّاة خصيةَ الثعلب، من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل، ومُقْل[3] أزرق وعاقِر قَرْحَى وزنجبيل وفَرْبيُون وسَكْبِينج[4] وجَوْزبُوا

(١) اليسر، والأسر . وقيل : إنه بالياء لحن؛ وفى الأساس، وقول العامة : « عود يسر » خطأ ، إلا بقصد التفاؤل؛ وهو قضبان تتولد ببحر عمان ، وهى عقد وسبط؛ ومنها غليظ جدا يمتد فى الأرض ، وتقلع فى الثانى من (تشرين الأول) فما بعده؛ وهو شديد السواد ، طيب الرائحة ، وكلما استعمل اشتدّ بريقه .

(٢) تقدّم الكلام على البطم فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) المقل هو صمغ راتينجى يأتى من الهند و بلاد العرب؛ وكان معروفا عند القدماء، مسمى باسم « بديليوم » ؛ وكذا سماه بذلك (ديسقوريدوس) اليونانى ، و (بلينياس) اللاتينى؛ وذكر (بلينياس) أنه ناتج من شجر يوجد (فى باطرياس) أو يقال « بقطرياس » ، وهو بلد كبير بآسيا شمال وشرق فارس وذلك الشجر مسودّ الخشب ، فى عظم الزيتون؛ وأوراقه تشبه أوراق البلوط ؛ وثمره كثمر التين البرىّ ... ... وقال بعض أطباء العرب : المقل عند الإطلاق يراد به صمغه ، فان كان إلى الحمرة والمرارة فهو المقل الأزرق ؛ أو الى الصفرة فهو مقل اليهود ؛ وكلا النوعين صمغ شجر كالكندر بأرض الشحر وعمان ، يعظم جدا؛ أو إلى غبرة وسواد فهو الصقلىّ ، وكثيرا ما يجلب هذا من المغرب . أما الصفات الطبيعية للمقل فيوجد منه بالمتجر نوعان : الأول يكون على شكل دموع ، أى حبوب مستديرة متراكمة بعضها على بعض ، فى حجم البندق ونحوه ... والثانى يكون كتلا حمراء مسودة معتمة ، لامعة السطح ، كأنها مذابة؛ اهـ ملخصا من كتاب عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية ج ٢ ص ٨٠٩ .

(٤) السكبينج يقال فيه أيضا سكنبيج ، وهو صمغ شجرة بفارس يخرج منها فى شهر حزيران عند الورق؛ وقيل : يخرج بواسطة الشرط؛ وأجوده الأبيض الظاهر ، الأحمر الباطن (داود) .

من كلّ واحد أربعةُ مثاقيل ، ويؤخذ سامُّ أبرصَ فيُنْقَعُ فى ٱلخَلّ ٱلحامض أربعين يوما، ويُخرَج ويجفَّف، ويؤخذ شحمُ وَدَكِ الكُلَى وقِنّة وشَمَع أبيض، من كلّ واحد عشرةُ مثاقيل ، تُجمَع الصُّموغ والأصناف، ويذوَّب ما يَذُوب منها، وتُخلط به بقيّتُها بعد دقّها، فإذا ٱختَلَطتْ خلطا جيّدا يُمَدّ منها على خِرقةِ حريرٍ أو صوف وتُوضَع على إبهام الرِّجل ٱليمنى، فإنّه يرى منه أمرا عجيبا .

ذِكْرُ الأدوية الملذّذة للجماع[1]

منها صفةُ دواءٍ يُطلَى به ٱلإحليل عند ٱلجماع يزيد فى الباه واللّذّة ، يؤخذ جَوْزبُوا[2] وفُلفُل ودار فُلفُل[3] وعاقِر قَرْحَى وزنجبيل وسُنْبُل وخَوْلَنْجان[4] وسُكّر، من كلّ واحد مثقالان[5]، فيُسحَق كلُّ صِنفٍ منها على ٱنفراده ثم تُجمَع بالسحق، وتُنخَل ، وتُعجَن بالعسل الّذى قد رُبِّىَ فيه الزنجبيل والشّقاقُل ويُمسَح بها الذَّكر، فإنّه يَرى منه عند ٱلجماع لذّةً عظيمة .

(١٣٤)

(١) كان مقتضى اللغة أن يقول : «بالجماع» بالباء مكان اللام ، وقد تقدم التنبيه على ذلك بإيضاح فى مثل هذه العبارة انظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٧٦

(٢) قد سبق الكلام على صفة جوزبوا فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) قد سبق الكلام على صفة الدار فلفل فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٥٤ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) قد سبق الكلام على صفة الخولنجان فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٥ من هذا السفر، فانظرها .

(٥) فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا «مثقال» .

صـــــفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ عاقِر قَرْحَى وزنجبيل ودار صِينىّ وسُكّر[1]، من كلّ واحد مثقالان[2] ونصف؛ تُجمع هذه الأصنافُ بعـد سحقِها ونخلِها، وتُعجَن بمـاء آلرازِيانَج[3] الرَّطْب، وتُحبَّب مِثلَ حَبّ الفُلفُل، وتُجفَّف فى الظِّـلّ؛ ثم تُسحَق ثانيـا، وتُطرَح فى دُهنِ رازِقىّ[4] ويُطلَى بها الذَّكَر، فإنّه جيّد. ٥

---

(١) زاد فى (الايضاح) وصف السكر بأنه طبرزذ؛ وقد تقدّم الكلام على السكر الطبرزذ فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥٠ من هذا السفر، فانظرها.

(٢) فى نسـخة (الايضاح) التى بين أيدينا "جزء" فلعـل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف.

(٣) الرازيانج، هو الأنيسون، ويسـمى الشمار بالشأم ومصر، والشمرة بحلب، والبسباس بالمغرب وتعرفه الصـيادلة بمصر بالعريض، وكأنه آحتراز من الأنيسون؛ وهو برى وبستانى، والكل معروف عطرى، ذكى الرائحة، ويوجد بمصر فى غالب الأزمنة (داود). وذكر أرباب العلم الحديث أن الرازيانج الرومى هو الأنيسون، وآسمـه بالافرنجية (أنيس) وباللسان النباتى عند لينوس (بمبنيلا أنيسـون)، وعند (منش): (أنيسون أوفسنالس). أما صفاته النباتيـة فهو نبات سنوى، جذره أبيض مغزلى، متفرّع قليلا، وساقه قائمة، تعـلو عن الأرض قدما فأكثر، وهى أسـطوانية متفرعة زغبية؛ والأزهار بيض صغيرة، وأصل هـذا النبات من بلاد المشرق وإيطاليا، وآستنبت فى بعض أقاليم أوربا، وحجم البزور كرأس دبوس تقـريبا، بيضاوية، ورائحتهـا واضحة جدا، وطعمها عذب بدون حرافة محسوسـة إذا مضغت اه ملخصا من المـادة الطبية ج ٢ ص ٦١٧ ١٠ ١٥

(٤) قال أمين الدولة بن التلميـذ: الرازقى هو السوسن الأبيض، ودهنه هو دهن الرازقى، ذكر ذلك أبو سهل المسيحى صاحب (كتاب المـائة)، وذكر ذلك من علماء اللغة صاحب (كتاب البلغة). وذكر داود أن الرازقى كما يطلق على السوسن الأبيض يطلق على الزنبق أيضا. ٢٠

صفةُ دواءٍ آخَرَ يزيد فى اللّذّة عند الجماع

يؤخذ [سكّر] طَبَرْزَذ[1] وكبابة[1] وعاقِر قَرْحَى[1]، من كلّ واحد مثقالان[2]؛ تُجمَع بعد سحقِها ونخلِها، وتُعجَن بماء الرازِيانَج الرَّطب، وتُحبَّب مِثلَ الفُلفُل، وتُجفَّف فى الظّلّ؛ فإذا احتاج اليها طَرَح منها فى الفم حبّة، واستعمَل ما انحلّ منها؛ أو تُحَلّ فى دُهن ويمسح بها الذّكر، ويجامع، فإنّه يرى منه لذّةً عظيمة.

صفةُ دواء آخَرَ يُحدِث من اللّذّة ما لا يوصَف

يؤخذ رازِيانَج يابس محمَّص، وفُلفُل، ودار فُلفُل، وزنجبيل، وعاقر قَرْحَى ودار صِينىّ، وجَوْزبُوا[3] وقَرْدَمانا[4] وسكّر طَبَرْزَذ، من كل واحد مثقالان[5]؛ تُجمَع

(١) تقدّم الكلام على مسميات هذه الألفاظ الثلاثة التى تحت هذا الرقم فى حواشى هذا السفر السكر الطبرزذ فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥٠ والكبابة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٨٢ والعاقر قرحى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٨ فارجع اليها فى مواضعها.

(٢) فى نسخة (الايضاح) التى بين أيدينا «جزء»، فلعل ماهنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف.

(٣) انظر الكلام على جوزبوا فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤ من هذا السفر.

(٤) القردمانا بفتح القاف، قال صاحب التاج: وضبط فى نسخ الصحاح بضمها؛ وهى الكراويا المعروفة. وذكر داود انها يقال لها: «قردايون». وفى الشذور الذهبية «قراديون» بتقديم الألف وقال: إنه هو البرى من الكراويا، ويقال: هو الجبلى منها، وهو قضبان وأوراق الى بياض وخضرة، نحو ذراع، له زهر الى زرقة يخلف بزرا أصفر طويلا الى مرارة وحرافة، وأجوده الحديث. وقال إسحاق بن عمران: إنها حشيشة تشبه حشيشة البابونج فى خلقتها، ولها ورق أخضر وقشر وقضبان مدوّرة معوجة صفراء الى البياض. وقال أبو العباس النباتى: هذا النبات كثير بالأندلس، ويسميه الشجارون بالكراويا الجبلية، لشبهه فى منبته بالكراويا وورقها وزهرها وثمرها، إلا أن ثمر القردمانا أطول وأصلب؛ وساقها أطول وأخشن، وهى نوعان: دقيقة وجليلة، فالدقيقة الثمرة هى النابتة فى الجبال وبين الصخور، وهى المعروفة بالجبلية.

(٥) فى نسخة (الايضاح) التى بين أيدينا: «مثقال ونصف».

مسحوقةً منخولة، وتُحَلّ بماء الرازِيانَج الرَّطْب أو بماء الباذَرُوج الرَّطْب حتّى تصير فى قوام الطِّلاء؛ ثم تُرفَع فى إناءِ زجاج، ويُسَدّ رأسُه عشرةَ أيّام، ويخضخَض فى كلّ يوم ثلاثَ مرّات، ثم يُمسَح منه الذَّكر بعد ذلك، ويُترَك حتّى يجفّ ثمّ يجامع بعد جفافه؛ ويحرص أن يحلّ وهو يجامع؛ ولا يترك رأس الإناء مفتوحا فإنّ الهواءَ يَذهَب بقوّة الدواء. قال: فمن استعمل هذا الدواءَ لم تصبر المرأةُ عنه. ٥

صفةُ دواءٍ آخَر يزيد فى اللّذّة

تؤخذ مرارة ذئب، وعسل نحل[1]، وماء الرازِيانَج الرَّطْب، من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل؛ فُلفُل ودار فُلفُل ودار صِينىّ وزنجبيل وغاقِر قَرْحَى، من كلّ واحد مثقال؛ تُسحَق الأدويةُ اليابسةُ، وتُنخَل، وتُلقَى فى المرارة والماء والعسل، وتُخضخَض فى إناءِ «زجاج»[2]، ويغطّى فمه حتّى لا يصل إليه الهواء؛ ويُمسَح منه على الذَّكر وقتَ الجماع، فإنّ المرأة تجد لذلك لذّةً عظيمة. ١٠

صفةُ دواءٍ آخَر

تؤخذ مرارةُ دَجاجةٍ سوداء، ويضاف إليها شىء [يسيرٌ][3] من الزنجبيل[4] المسحوق ويُطلَى بهما الذَّكَر، فإنّ المرأة تلتذّ به.

وحيث ذكرنا من أدوية الباه ما ذكرنا، فلنذكر ما قيل فى الأدوية الّتى تعظّم الذَّكَر وتصلّبه، والأدويةِ الّتى تضيّق فُروجَ النّساء وتجفّف رطوبتَها. ١٥

(١) كذا فى إحدى نسخ (الايضاح). والذى فى كلا الأصلين ونسخة أخرى من (الايضاح): «وعسل الزنجبيل»؛ ولم نجد فيما راجعناه من كتب المفردات من ذكر أن للزنجبيل عسلا، لا فى الكلام على الزنجبيل ولا فى الكلام على الأعسال.

(٢) لم ترد هذه الكلمة التى بين هاتين العلامتين فى نسخة (الايضاح) التى بين أيدينا؛ فلعلها واردة فى النسخة التى نقل عنها المؤلف. ٢٠

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى (ا).

(٤) زاد فى (الايضاح) قبل قوله «الزنجبيل» قوله: «فلفل».

ذِكرُ الأدوية التى تعظِّم الذَّكَر وتصلِّبه

قد أجمع (جالينوس) ومَن تابَعه من الحكماءِ على أنّ الدّلك الدائمَ والتّمريخَ بالأدهان والأشياءِ المليّنة والتنطيل[1] بالماء الحارّ والدّلكَ بالزيت والزفت، تُعظِّم كلَّ عضو فى الجسد؛ ولاخلاف عندهم أنّ هذا العضو اذا فُعِل به ذلك عَظُم ونما وزاد عن حالته الّتى هو عليها، فاذا اجتمع مع ذلك هذه الأدويةُ الّتى نذكرها — وهى ممّا اتّفق الأطباءُ على جُودتها وصحّتها — فإنّ ذلك أبلَغُ وأسرَع .

فمن ذلك صفةُ دواءٍ يعظِّم الذَّكَر ويصلِّبُه ويُعِينُ على الجماع

يؤخذ بُورَق[2] أرمنىّ وسُنْبُل، من كلّ واحد مثقالان، عَلَقٌ طِوال عشرٌ عددا؛ يجفَّف العَلق، ويُسحَق مع البُورَق والسُّنْبُل حتّى يصيرَ جميع ذلك كالهَباء؛ ثم يُصَبّ عليه لبنٌ حليب وعسلٌ أجزاء متساوية، من كلّ واحد منهما عشرة مثاقيل، ويُمرَس باليد حتّى يختلط، ثم يُطلَى به الذَّكر ليلة؛ ثم يُغسَل بالماء الحارّ من الغد، ويُدلَك بالخِطمِىّ[3] دَلْكا قويّا حتّى يحمرّ، ثم يُغسَل، ثم يعاد عليه الدواءُ والدَّلكُ قبل الدواء وبعده، فإنّه جيّد .

صفةُ دواءٍ آخَرَ يعظِّم الذَّكَر ويحسِّن مَنْظَرَه

يؤخذ شَمَع أحمر، وزفت، وعِلْكُ بُطْم، وزيتٌ فِلَسْطِينىّ، من كلّ واحد خمسةُ

(١) التنطيل: مصدر (نطله) بتشديد الطاء للمبالغة والتكثير فى النطل، كما هو ظاهر؛ ولم يرد هذا الفعل مشدّد الطاء فى (اللسان) ولا فى (التاج) ولا فى (الأساس)، وإنما ذكره صاحب (أقرب الموارد).

(٢) تقدّم الكلام على البورق فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٧٠ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) تقدّم الكلام على الخطمى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٧٠ من هذا السفر، فانظرها .

(١٣٥) مثاقيل، أَنْزَرُوت[1] وبُورَق أرمَنىّ مذوَّبان[2] بلبن الأتان أربعةُ مثاقيل — وهو أن تأخذ الأَنْزَرُوت والبُورَق فتسقيهما لبنَ الأتان ثم [تجفِّفهما][3] وتسحقهما، [وتسقيهما][3] ثمّ تجفِّفهما حتّى يشربا ثلاثةَ مثاقيلِ لبن — ويؤخذ من العَلَق الطّوال المجفَّف ثلاثةُ مثاقيل؛ ويُسحَق الجميع، ويذوَّب الشَّمَع والزِّفت والعِلْك والزيت، وتُلقَى عليها الأدويةُ المسحوقة، وتُخْلَط خَلْطا جيّدا، ويُمَدّ منها على خِرقة، وتوضع الخِرقة على الذَّكَر بعد دَلْكه إلى أن يحمرّ، وتُبيَّت عليه ليلة، ويُغسَل باكرَ النهار بالماء الحلو[4] الحارّ، ويُدْلَك أيضا، ويعاد عليه الدواءُ إلى أن يبلغ فى العِظَم ماتريد فاتركه.

(١) الأنزروت يسمى أيضا (الكحل الفارسى) و(الكرمانى)، وهو صمغ شجرة شائكة كشجر الكندر، ينبت بجبال فارس، ويدرك بتموز، وأجوده الهش الرزين المائل الى البياض، وأردؤه الأسود القليل الرائحة. وذكر أرباب العلم الحديث أن اسمه بالافرنجية «سرقوقول» بفتح السين، «وسرقو» معناه، لحم و(قول) معناه ملصق، فمعنى هذا الاسم ملصق اللحم، وهو اسم يونانى. أما صفة النبات المخرج لهذا الصمغ فهو ينبت فى (رأس الرجاء)، ومنظره مقبول، وترتفع ساقه نحو قدمين، وتكون معتدلة، وفروعها متعاقبة، والعليا تتفرع بازدواج وهكذا، والأوراق عديدة، عديمة الذنيب، والأزهار عديمة الحامل حزمية فى طرف كل فرع. أما صفة هذه العصارة الصمغية التى تخرج من هذا النبات فإن منظرها صمغى راتينجى، وتكون تارة على شكل حبوب صغيرة لامعة مصفرة أو محمرة، وبعضها يتشكل بأشكال وألوان بين ذلك، أو أقتم من ذلك، ومنظرها كحبوب الرمل، وتارة تكون حبوبا غليظة أغلظ مما ذكر، اهـ ملخصا من (المادة الطبية ج ٤ ص ٢٠٠ د).

(٢) فى الإيضاح: «مربيان» والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٣) هاتان الكلمتان اللتان بين مربعات ساقطتان من كلا الأصلين، وقد أثبتناهما عن (الايضاح) المنقول عنه هذا الكلام.

(٤) لم يرد قوله: «الحلو» فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا.

صفةُ دواءٍ آخَرَ لذلك

يؤخذ إشْقِيل[1] مشوىّ وفَرْبيون[1] وعاقِر قَرْحى[1] ودار فُلفُل[1]، من كلٍّ واحد جزء؛ يُسحَق ذلك سحقا ناعما، ويُعجَن بالعسل، ويُطلَى منه القضيب، ويُترَك ليلة، ثم يُغسَل باكرَ النهار بالماءِ الحارّ، ويُدهَن بدُهن زَنْبَق، فإنّه يَعظُم جدّا .

دواءٌ آخَر

يؤخذ باذَرُوج[2] أخضر، يُمضَغ حتّى ينعم مَضغُه، ويُدلَك به الذَّكر دَلْكا جيّدا فإنّه يعظّمه .

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ عَلَقٌ طِوال طريّة، تجفّف وتُسحَق، ثم تربّب بدُهنٍ حتّى تصير كالمرهم ثم يُطلَى بها الذَّكر، فإنّها تعظّمه جدّا .

صفةُ دواءٍ آخَر

يُطبَخ الزفت بالزّيت، ثم يُمَدّ على خِرقة، ويوضَع على الذَّكر، ثم يُقلَع بعد ساعة ويُغسَل بالماءِ الحارّ، ثم تعيد الدواءَ عليه حتّى يبلغَ من العِظَم ما تريد .

وإنْ تَقرَّح الذَّكر من بعض الأدوية التى تَقدَّم ذِكرُها، فامسحه بدُهنِ زَنْبَق ودُهنِ بَنَفْسَج[3] وشَمَع[3] أبيض . قال: وإن دُلِك الذَّكر باللّبن الحليب مِن ضَرْع الشاة ثلاثةَ أيّام فإنه يَعظُم؛ والله أعلم بالصواب .

(١) تقدّم الكلام بإيضاح على مسميات هذه الأسماء الأربعة التى تحت هذا الرقم فى حواشى هذا السفر الاشقيل فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٥٤ فى الكلام على بصل الفأر والفربيون فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٧٦ والعاقر قرحى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٨ والدار فلفل فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٥٤ فارجع اليها فى مواضعها .

(٢) تقدّم الكلام على الباذروج فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٨١ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) فى (الإيضاح) « أو » فى كلا الموضعين .

ذِكرُ الأدوية الّتى تضيِّق فُروجَ النِّساء وتسخِّنها وتجفِّف رُطوبَتها

قال عبد الرحمن بنُ نصر بنِ عبد الله الشِّيرازىّ : اعلم أنّ كمال لذّةِ الوَطْءِ لا تحصل للرجل حتّى تجتمع فى الفرج ثلاثةُ أوصاف، وهى الضِّيقةُ والسُّخونة والجَفاف من الرطوبة؛ فإذا نَقَص منها وصفٌ واحد أووصفان فقد نَقَص من اللّذّة الّتى تحصل للرجل عند الجماع بمقدار ذلك؛ وإن عدمتْ هذه الأوصاف الثلاثة من الفرج، لم يحصل بوطئه لذّةُ البتّة .

ثم قال : واعلم أنّ الوِلادةَ وكثرةَ الجماع يوسِّعان الفَرْج، ويُذهبان لذته؛ فينبغى أن يُتدارَك من هذه الأدوية بما يُصلِحه ليرجع إلى حالته الأولى .

فمن ذلك صفةُ دواء يضيِّق الفَرْج

يؤخذ جِلدُ ابنِ آوى[1] مُحرَقا، وأظلافُ المَعز مُحرَقة، وحافرُ حمار مُحرَق، وجَوْزُ ماثِل[2]

(١) ابن آوى : حيوان وحشى، يكنى (أبا أيوب) (وأبا ذؤيب)، طويل المخالب والأظفار، يعدو على غيره، ويأكل ما يصيده من الطيور وغيرها؛ وخوف الدجاج منه أشد من خوفها من الثعلب (الشذور الذهبية نقلا عن الدميرى) .

(٢) جوز ماثل، هو المعروف عند الأطباء (بالمرقد)، وفى مصر (بالداتورة)؛ وهو نبت لا فرق بين شجره وشجر الباذنجان، يكون بمجارى المياه وبالجبال، وقرب الضحضاحات، وله زهر أبيض وغلف خضراء، وقلما تحمل الواحدة منه أكثر من جوزة، وتكون بأعلى الشجرة، شائكة، الى غبرة قبل بلوغها فاذا بلغت اسودت؛ ويدرك بحزيران غالبا؛ وقد ثبت بالتجربة أن الكائن منه بالبلاد الحارة أقوى فعلا وكذا الكائن بالجبال . هذا ما قاله القدماء فيه نقلا عن داود وغيره . وذكر أرباب العلم الحديث أن اسمه الافرنجى (اسطراموان)، ويسمى أيضا بما معناه التفاح الشائك، واسمه باللاتينية (اسطرامنيوم) بكسر الطاء وضم الميم؛ أما صفاته النباتية فهو نبات حشيشى سنوى أو شجيرى صغير أو كبير، وساقه الحشيشية أسطوانية، كثيرة التفرع، وتعلو من متر الى مترين، والأوراق كبيرة بيضاوية ذنيبية، حادّة، مسننة فيها بعض زغب، والأزهار بيض أو بنفسجية كبيرة خارجة من آباط الأوراق ... أما الصفات الطبيعية لهذا النبات فإن رائحته كريهة زهمة مغثية؛ وطعمه حريف مر؛ واذا جف ذهبت رائحته اه ملخصا من (المادة الطبية) فى الكلام على الداتورة ج ٤ ص ٣٨ .

مُحرَق، وسَرطانٌ[1] بحرىٌّ مُحرَق، وبِسفايَج[2] مُحرَق، وسَعتَر[3] فارسىّ، من كلّ واحد وزن درهم؛ يُسحَق الجميع ناعما، ويُعجَن بدُهن البان، ويُرفَع؛ ثم تتحمّل منه المرأةُ بزِنةِ دانِقٍ فى كلّ شهرٍ ثلاثَ مرّات كلَّ عشرةِ أيّام مرّة، ولا يكون فى وقت الحيض ويكون حَرْقُ الأدوية بمقدار ما تُسحَق من غير مبالَغة فى الإحراق، فإنّه يضيِّق القُبُل حتّى تصير المرأة كالبِكْر.

(١) السرطان البحرى: حيوان من خلق الماء، ويسمى (عقرب الماء) أيضا، وكنيته (أبو بحر) وهو يعيش فى البر أيضا؛ وهو جيد المشى، سريع العدو، ذو مخالب وأظفار حداد انظر (حياة الحيوان). وقال داود: إن هذا الحيوان منه أبيض، وهو أجوده؛ ومنه ملوّن، وهو حيوان كثير الأرجل، ناتئ العظام، وأصحه ما وجد فى الماء المالح. وقد ذكره مؤلف هذا الكتاب فى الجزء العاشر ص ٣٢١ الطبعة الأولى، فارجع اليه.

(٢) ذكر صاحب التاج ما يفيد الاختلاف فى نطق هذا اللفظ، فقال أولا: إنه بسفانج بالفتح والنون قبل الجيم، كذا هو مضبوط: عروق داخلها شىء كالفستق عفوصة وحلاوة. ثم قال: والذى يعرف أنه بسفايج بكسر الأول والياء التحتية قبل الجيم. ولهذا ضبطناه بكسر الباء، أى كما ذكر الشارح أخيرا أن هذا الضبط هو المعروف. وفى معجم أسماء النبات ص ١٤٦ أنه بالفارسية بسبايج وأصلها بسبايك، فـ «بس» بمعنى كثير، و «باى» أو «بايه» بمعنى رجل بكسر الراء، ومن أسمائه (ثاقب الحجر) لنباته فى الحجر و (أضراس الكلب)، لشبهه بها، وقال داود: انه يدعى بمصر (الاشتيوان)، وهو نبات نحو شبر، دقيق الورق، أغبر، مزغب، فى أوراقه نكت صفر، يكون بالظلال، وقرب البلوط والصخور، بين صفرة وحمرة، وهو الأجود اذا كان فستق المكسر، وأردؤه الأسود، والكل عفص الى حلاوة، ربيعى يدرك بحزيران. وقال فى كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة ص ٢٣): إنه عروق دقاق الى السواد والحمرة اليسيرة، أو الى الخضرة، ذات شعب، كالدودة الكثيرة الأرجل، فى داخلها شىء كالفستق عفوصة وحلاوة، تلتقط من بين الصخور والأشجار الظليلة.

(٣) فى كلتا النسختين: «شعير»، وهو تصحيف. والسعتر الفارسى هو الأسود منه، كما فى (مفردات ابن البيطار). والذى فى (التذكرة) أن الفارسى أحمر، حاد الرائحة، حريف. ويقال بالصاد أيضا والزاى، وهو معروف. وفى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا «برى» مكان قوله: «فارسى».

صفةُ دواءٍ آخر

يؤخـــذ أفسَنتين (١) وحَمامى (٢) وعُصْـــفُر (٣) وصمـــغُ البُطْـــم (٤) وجُلّنار (٥) وقَيْصوم (٦) ودار شِيشَعان (٧)، من كلّ واحد زنةُ درهمين؛ تُدقّ وتُعجَن بزيت، وتتحمّل منها المرأة بصوفةٍ تسعة أيّام متوالية، فإنّه مجرَّب لذلك.

(١) الأفسنتين، هو نبات ملس، و يلحق بالشجر الصغير و يقوم على ساق تتفرع منها أغصان كثيرة، وعلى الأغصان أوراق كثيرة متكاثفة بيض الألوان، تشـبه الأشنة، وله زهر أقحوانى صغير، أبيض، فى وسطه صفرة، تخلفه رءوس صغار فيها بزر دقيق، وفى طعمه قبض ومرارة. وقال أبو عبيد البكرى: إنه أشهب، ويشـبه فى هيئته ورق الجـزر، وزهرته صفراء لماعة، وهى المستعملة، وهذا النـوع هو المعروف فى مصر بالدمسيسة، وهو كثير بها. هـذا ما قاله القدماء فيـه. وقال فى المادة الطبية ج ٢ ص ٤٧١: الأفسنتين اسم يونانى نقل الى اللغة الافرنجية والعربية، وقد يوصف بالكبير؛ ... ... وقال بعد الكلام على صفاته النباتية: إن المستعمل منه أوراقه وأطرافه المزهرة. قال: ورائحة هذا النبات قوية عطرية نفاذة غير مقبولة، وتقرب من أن تكون زهمة، وطعمه شـديد المرارة، عطرى، وكانت شدّة مرارته هى السبب فى تسميته بالأفسنتين، لأن الهمزة فى أول الاسم للنفى فى لغة اليونانيين، وبقية الاسم معناها العذوبة واللطف، فيكون معنى الاسم عديم العذوبة واللطف الخ.

(٢) تقدّم الكلام على الحمامى فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣٤ من هذا السفر، فأنظرها.

(٣) العصفر، هو الذى يصبغ به، ومنه ريفى، ومنه برى، وكلاهما ينبت بأرض العرب، و بزره القرطم، ويقال له (البهرم) (والبهرمان) قاله أبو حنيفة. وفى (الشذور الذهبية) أن العصفر هو زهر القرطم ويسمى (البهرمان)، (والزرد)، وهو يهرئ اللحم الغليظ، ولنباته ورق طويل خشن، وساق طولها نحو ذراعين ورءوس مدوّرة مثل رءوس العصىّ، وزهر يشبه الزعفران، و بزر أبيض، ومنه ما يضرب الى الحمرة.

(٤) تقدّم الكلام على البطم فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥٩ من هذا السفر، فأنظرها.

(٥) فى القاموس وشرحه أن الجلنار بضم الجيم وفتح اللام المشدّدة هو زهر الرمان، معرب عن (كلنار)، بضم الكاف الممزوجة بالقاف وهى القاف التى يقال لها: المعقودة، لغة مشهورة لأهل اليمن. وفى (الشذور الذهبية) أن الجلنار قد يكون أبيض، وقد يكون أحمر، وقد يكون موردا، وهو يكون ذكرا غير مثمر.

(٦) ذكر صاحب المـادة الطبيـة ج ٢ ص ٤٨٣ أن اسم القيصوم بالافرنجية «سترونيل»، أى الليمونى، بسبب الرائحة العطرية الليمونية التى فى أوراقه؛ و يقال له أيضا: أورون؛ وربما قيـل له: (الأورون الذكر)، أى القيصوم الذكر؛ واسمه باللسان اللاتينىّ (الأبروطانوم)، وهو نبات شجيرى صغير، ينبت فى جنـوب أوربا كايطاليا وفرنسا، وأرض المشرق وأرض العـرب؛ واستنبت بالبساتين بسبب جمال أوراقه المقطعة قطعا صـغيرة والرائحة الذكية الليمونية لتلك الأوراق. ونقل عن أطباء العرب أن القيصوم اسم عربى، وهو نبات يطول حتى يصير كالشجر، وتلك الشجيرة ملأى من أوراق صغار سذابية متشققة، دقيقة التشقيق؛ وعلى أطرافها زهر دقيق، ذهبى اللون الى الاستدارة، طيب الرائحة مع بعض ثقل؛ وهو مر الطعم؛ و يزهر فى الصيف؛ ومنه أنثى؛ والذكر أدق أغصانا، وأضعف زهرا وثمرا.

(٧) كذا ضبط هذا اللفظ بكسر الشين فى (القاموس الفارسى الإنجليزى لاستانجاس) وضبط بفتحها ضبطا =

صفةُ دواءٍ آخَرَ فيه منافع

يؤخذ بَسْباسة[(١)] ومَرْزَنْجُوش[(٢)] وسَعْتَر بَرّيّ وقشورُ الكُنْدُر وإِذْخِر[(٣)] وخِيرِيّ[(٣)] وورد أحمر، وقشورُ الرمّان وقشورُ الكَبَر[(٤)] والتُّرْمُس[(٥)] من كلّ واحد مثقال، يُسحَق ذلك، ويُعجَن بدُهن البان، وتتحمّل منه المرأة نهارا، وتُخرِجه ليلا .

= بالقلم فى (معجم أسماء النبات ص٣٧) وورد فيه من أسماء هذا النبات (عودالبرق)، (وعود شيشعان) الخ . وقال داود : الدار شيشعان فارسى . قال : وسمى (عود البرق) لأنه إذا وقع عليه البرق أو (قوس قزح) صار أذكى رائحة من العود الهندى ... قال : والنساء تجعله بين الثياب لطيب رائحته ، ويصبغ نارنجيا وهو صلب أحمر، طيب الرائحة، فوق ذراعين، شائك، جبلى، له زهر أصفر دكن، لايخنص وجوده بزمن، ولا تسقط قوته . وقال ديسقورديدوس : إنها شجرة ذات غلظ، فيها شوك كثير . قال : والجيد منه ما كان رزينا، واذا قشر رؤى لونه الى لون الدم ما هو، والى لون الفرفير، طيب الرائحة، فى طعمه شىء من المرارة، ومنه صنف آخر أبيض ذو غلظ خشبي، ليست له رائحة، وهو دون الصنف الأول .

(١) زاد فى نسخة (الايضاح) التى بين أيدينا بعد قوله : «يؤخذ» قوله « السنبل والسعد والسك » ولعل هذه الألفاظ الثلاثة الزائدة لم ترد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف، أو لعل المؤلف قد تركها اختصارا ولهذا لم نزد شيئا منها فى صلب الكتاب .

(٢) تقدّم الكلام على البسباسة والمرزنجوش فى حواشى هذا السفر البسباسة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ والمرزنجوش فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٥٦ فانظرهما .

(٣) تقدّم الكلام بايضاح على الإذخر والخيرى فى حواشى هذا السفر الإذخر فى الحاشية رقم ٩ من صفحة ١١١ والخيرى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٧٢ فانظرهما .

(٤) تقدّم الكلام بايضاح على صفة الكبر فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٥٧ من هذا السفر، فانظرها .

(٥) زاد فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا بعد قوله : « والترمس » قوله «والراسن»، فلعل هذا اللفظ لم يرد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

صفةُ دواءٍ آخَرَ يضيِّق القُبُل

يؤخذ سُكٌّ مِسْك وزعفران ، ويُصَبّ عليهما شرابٌ رَيْحانىّ ، ويُغْلى[1] غليانا جيّدا ، ثم تُشرَّب منه[2] خِرقةُ كتّان ، وتُرفَع لوقت الحاجة ؛ فاذا أرادت المرأةُ استعمالَها قَطعتْ قطعة ، وتحمّلتْ بها قبل الجماع بيوم وليلة ، فإنّه يضيِّق المحلّ ، ويطيّب رائحته .

دواءٌ آخَر

يؤخذ رامِك[3] وأَقاقِيا[4] وسُنْبُل وسُعْد ؛ يُسحَق الجميع ، ويُعجَن بشراب ، وتحمّل منه المرأةُ بصوفة .

دواءٌ آخَر

يؤخذ شَبٌّ وعَفْص وقَلْقَنْد[5] ، من كلّ واحد جزء ؛ يُدَقّ الجميع ، ويُعجَن بشراب ويصيِّر مِثلَ النَّوَى ، وتحمّل منه المرأة .

---

(١) يغلى ، أى يغلى ذلك ؛ وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الضمير .

(٢) منه ، أى من ذلك الدواء .

(٣) تقدّم الكلام على الرامك وكيفية عمله فى صفحة ٧٠ من هذا السفر ، فانظرها .

(٤) الأقاقيا : عصارة القرظ ، وتسمى شجرتها : الشوكة المصرية ، لكثرة وجودها بمصر ، وتؤخذ هذه العصارة من الثمرة بالعصر ، فتكون ياقوتية قبل نضج الثمرة ، وسوداء بعده .

(٥) ضبط هذا اللفظ فى (بحر الجواهر) بالفتح ضبطا بالعبارة ، وفسره (فى الشذور الذهبية) بأنه هو الأبيض من الزاج . والذى فى (مفردات ابن البيطار ج ٢ ص ١٤٨) فى الكلام على الزاج أن القلقند هو الأخضر من أنواعه . وكذلك (فى قاموس الأطباء) (والقانون ج ١ ص ٣٠٣ طبع بولاق) فى الكلام على الزاج أيضا . وقال داود : إنه هو الأحمر منه انظر (التذكرة ج ١ ص ٢٤٦) .

دواءٌ آخَـــر

يؤخذ زاج[(١)] وشَبّ، من كلّ واحد جزء، يُسحَقان، ثم يُعجَنان بماء الحِصْرِم ويصيَّران شبهَ النَّوى، وتتحمّل المرأة بواحدة منه قبل الجماع، وتمكث ساعةً حتّى تنحلّ فى فرجها، فهذه أدويةٌ تضيِّق الفرج. (١٣٦)

وأمّا الأدوية الّتى تسخِّن القُبُل

فيؤخذ شَحمُ الدَّجاج، وشحمُ البَطّ، وزِبلُ الغنم ودُهنُ ناردِين[(٢)]، وصمغُ اللَّوز، مِن كلِّ واحد جزء؛ زعفران ومُرّ، من كلِّ واحد ربعُ جزء؛ تذاب الشُّحوم بالدُّهن وتُذَرّ عليها الأدويةُ اليابسةُ بعد سحقها، وتتحمّل منه المرأة بصوفةٍ وهو فاتر، فإنّه جيّد مجرَّب.

دواءٌ آخَرُ مِثلُه

يؤخذ مَرْزَنْجُوش[(٣)]، وقشورُ الكُنْدُر، وصَعْتَرٌ بَرّىّ، وبَسْباسة[(٤)]، من كلِّ واحد

---

(١) قال (فى الشذور الذهبية) نقلا عن الهروى: إن الزاج معرب زاك، وهو معدنى، وأصنافه أربعة: أبيض، وأخضر، وأحمر، وأسود. وقيل: أصفر. ونقل صاحب (تاج العروس) عن الليث أن الزاج هو الشب اليمانى، وهو من أخلاط الحبر اه.

(٢) الناردين، هو السنبل الرومى، كما فى القاموس. والذى فى (المفردات لابن البيطار) أن الناردين اذا قيل مطلقا فهو السنبل الهندى، واذا قيل الناردين الاقليطى يراد به السنبل الاقليطى، وهو الرومى، واذا قيل ناردين أورى فهو السنبل الجبلى؛ والناردين لفظ يونانى.

(٣) قد سبق الكلام على صفة المرزنجوش فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٥٦ من هذا السفر فانظرها.

(٤) قد سبق الكلام على صفة البسباسة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ من هذا السفر فانظرها.

جزء؛ يُسحَق ٱلجميع ، ويُعجَن بدُهنِ ناردِين[1] أو دُهنِ بان ، ثم تتحمّل منه المرأة فإنّه بليغ جيّد الفعل .

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ أَفْسَنْتِينٌ[2] رومىّ وسُنْبُل[2] وذارصينىّ ومرارةُ ثورٍ يابسة وسَعْتَر ؛ يُسحَق ٱلجميع ، ويُعجَن بشرابٍ صِرف ، وتستعمله ٱلمرأة مِرارا فإنّه جيّد .

وأمّا الأدوية ٱلّتى تجفّف رُطوبةَ الفرج — فقال ٱلحكماء : إذا كثرتْ رطوبة فرج ٱلمرأة كان أنفع علاجِها ٱلإسهال بالإيارَجات[3] وٱلحبوب وٱستعمال هذه الأدوية .

فمنها [صفة][4] دواء يجفّف الرطوبة

يؤخذ شَبٌّ وإثْمِد[5] ، من كلّ واحد جزء ؛ يُسحَقان ، وتتحمّل ٱلمرأة منهما ذَرُورا ، فإنّه جيّد .

---

(١) تقدّم الكلام على الناردين فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٩٥ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) تقدّم الكلام بايضاح على الافسنتين والسنبل فى حواشى هذا السفر ، الافسنتين فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٩٢ والسنبل فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٧ وقد خصه المؤلف بالباب الخامس من هذا الجزء انظر صفحة ٤٣

(٣) الإيارجات بكسر الهمزة وفتح الراء ، هى المعجونات المسهلة ، كما فى (الشذور الذهبية) وقد وجدناه مضبوطا هكذا أيضا فى (مفاتيح العلوم ص ١٧٩ طبع أوربا) ضبطا بالقلم . وقال فى (بحر الجواهر) : إيارج بكسر الهمزة هو اسم للسهل المصلح ؛ وتفسيره الدواء الإلهى .

(٤) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (١) .

(٥) الإثمد هو الكحل الأصفهانى ؛ وقال داود : إنه يتولد بجبال فارس ، وقيل بالمغرب ؛ وأجوده الزرين البراق ، السريع التفتت ، اللاذع بين مرارة وحلاوة وقبض .

صفةُ دواءٍ آخَر مثلِه

يؤخذ صَنوبر[1] وسُعد[2]، من كلّ واحد جزء؛ يُدَقّ ذلك ناعما، ويُطبَخ بشراب وتُشرَّب منه خِرقةُ كتّان، وتتحمّل منه المرأة، فإنّه نافع.

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ عَفْص وجُفْتُ[3] البَلُّوط وجُلَّنار[4]، من كلّ واحد مِلءُ كَفّ؛ يُطبَخ ذلك بالماء طبخا جيّدا، ويُرفَع فى إناء، وتستنجى منه المرأةُ قبل الجماع، فإنّه غاية.

دواءٌ آخَر

يؤخذ تَمرٌ برنىّ[5] وسمن وعسل وأَنيسُون ولبن، من كلّ واحد جزء، ويُجعَل ذلك فى قِدْرٍ نظيفة، ويُغمَر بالماء أربعَ أصابع، ثم يُطبَخ طبخا جيّدا حتّى يَغلُظ وتتحمّل منه المرأة.

قال حنين بنُ إسحاق: ينبغى ألّا يُستعمَل فيه ماءُ البتّة، بل يُطبَخ بالعسل والسمن حتّى يَغلُظ ويُرفَع، ويُستعمَل، فإنّه يقطع الرطوبة من الفرج، ويسكّن الضربان، ويَصلُح للنُّفَساء؛ والله أعلم بالصواب.

---

(١) عبارة (الإيضاح) المنقول عنه هذا الكلام: «قشور الصنوبر».

(٢) تقدّم الكلام على السعد فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١١٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٣) جفت البلوط بضم الجيم، هو جلده الرقيق الذى تحت الجلد الغليظ، وهو قشره الداخل (الشذور الذهبية) و(بحر الجواهر) ولم يرد ذكره فيما راجعناه من كتب اللغة؛ فلعله لفظ اصطلاحى.

(٤) تقدّم الكلام على الجلنار فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٩٢ من هذا السفر، فانظرها.

(٥) البرنى: تمر أصفر مدوّر؛ وهو أجود التمر، واحدته برنية. وقال الأزهرى: البرنى هو ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة، كثير اللحاء، عذب الحلاوة؛ وهو معرب برنيك، أى الحمل. وقال أبو حنيفة: إنما هو «بارنى» فالبار: الحمل، و«نى» تعظيم ومبالغة (التاج).

ذكرُ الأدوية التى تطيِّب رائحةَ البدن وتعطِّره

فمنها [صفة](١) طِلاءٍ يطيِّب رائحةَ البدن

يؤخذ نَمّام(٢) ونُعنُع ومَرْزَنْجُوش وورقُ التُّفّاح، من كلِّ واحد جزء(٣)، ثم يُجعَل عليه(٤) من الماء ما يَغْمُره وزيادةُ أربع أصابع؛ ويُطبَخ حتّى يَنقُص الثُّلُث، ويصفَّى ويُطلَى به البدن، فإنّه يطيِّبه ويقطع سُهوكَتَه. ٥

دواءٌ آخَـــر

يؤخذ آس ومَرْزَنْجُوش وسُعْد وقشورُ الأُتْرُجّ وورقُه وأُشْنَة(٥) وصندل، من كلّ واحد جزء؛ يُسحَق جميعُ ذلك، ويُرفَع؛ فاذا أراد استعماله حَلَّ منه قليلا بدُهنِ آس أو دُهنِ وَرد، أو بماءٍ فاتر، ويَمرَخُ به البدن، فإنّه جيّد.

دواءٌ آخَرُ مثلُه ١٠

يؤخذ مُرْ داسَنْج(٦) وتوتياء ورمادُ ورق السُّوسَن ومُرّ وصَبر وورد، من كلِّ واحد جزء، يُدَقّ ذلك، ويُسحَق؛ ويُستعمَل مثل الأوّل لَطوخا أو ذَرورا.

---

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (ا).

(٢) تقدّم الكلام على النمام فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٥٧ من هذا الجزء، فانظرها.

(٣) فى الإيضاح «كف». ١٥

(٤) عليه، أى على ذلك السابق ذكره.

(٥) تقدّم الكلام على الأشنة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣٢ من هذا الجزء، فانظرها.

(٦) ورد هذا اللفظ فى القاموس وشرحه براء ثانية بعد الألف التى بعد الدال، أى مردارسنج. قال: وقد تسقط الراء الثانية تخفيفا أى كما هنا؛ قال الشارح: وهو معرب مردارسنك، ومعناه الحجر الخبيث اه وذكر أرباب العلم الحديث أن معناه الحجر المحرق، وأنه يسمى أيضا بالمرتك الذهبى؛ واسمه بالافرنجية ليترج، وباللسان الكيماوى: أوّل أوكسيد الرصاص، وهو الأوكسيد الأصفر للرصاص. الخ ما ذكره صاحب المادة الطبية ج ١ ص ٣٤٩. وقال فى الشذور الذهبية: إن المرد اسنج يكون من سائر المعادن المطبوخة إلا الحديد؛ وأجوده الرزين الصافى البراق الخ. ٢٠

صفةُ قُرْص حادٍّ يقطع الصُّنان

يؤخذ صندل وسَليخة وسُكّ مِسْك وسُنْبُل وشَبّ ومُرّ وورد أحمر، من كلٍّ واحد جزء، ومن التوتياء والمُرْداسَنْج، من كلٍّ واحد ثلاثةُ أجزاء، ومن الكافور نصفُ جزء؛ تُجمَع هذه الأصناف بعد سحقها، وتُعجَن بماء الورد، وتُقرَّص وتُستعمَل بعد التجفيف.

دواءٌ آخَرُ يقطع رائحةَ العَرَق

يؤخذ ورد وسُكّ وسُنْبُل وسُعْد وشَبّ ومُرّ، من كلٍّ واحد جزء؛ تُدَقّ هذه الأصنافُ دَقّا ناعما، وتُحَلّ بماء الورد، وتُستعمَل لَطوخا، فإنّه جيّد لما ذكرنا.

صفةُ دواءٍ آخَر

يُذهِب رائحةَ الإِبْط، ولا يُحتاج بعده إلى دواءٍ آخَر

يؤخذ راسَن مجفَّف مُحرَق وزَراوَنْد[1] طويل محرَق، وورقُ رَنْد[2] مُحرَق، ونَوَى زُعْرُور[3] مُحرَق، ونوى الزيتون الأخضر مُحرَقا، وقِرطاس[4] مُحرَق، وزُجاج[5] فرعونيّ

(١) تقدّم الكلام على صفة الزراوند فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥٢ من هذا الجزء، فانظرها.

(٢) فى الإيضاح: «الدلب» مكان قوله: «الرند» ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف. والرند: هو الغار الذى سبق الكلام عليه بإطالة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥٧ من هذا السفر، فانظرها. وقيل: الرند، هو الآس البرى. أما الدلب الوارد فى نسخة الإيضاح فلا مقتضى لذكر صفته هنا.

(٣) ذكر أرباب العلم الحديث أن اسم الزعرور بالافرنجية «أزيروليير»، وباللسان النباتى «قراطيموس أزارولوس» وأن شجره يعلو الى ثلاثين قدما؛ وثمره غليظ مستدير، لونه أحمر أو مصفر لبى، وطعمه مقبول، ويؤكل فى الأماكن التى ينبت فيها كأرياف جنوب أوربا والشام، وأستنبت أيضا بالبساتين، الخ انظر المادة الطبية ج ١ ص ٥٠٧. وقال داود: إنه يسمى بالتفاح الجبلى، وهو أعظم من التفاح شجرا، وله فروع كثيرة، وخشب صلب، وينشأ بالبلاد الجبلية الباردة، وله ثمر كأكبر البندق وأصغر التفاح، مثلث الشكل، ورائحته كالتفاح من غير فرق.

(٤) ذكر داود أن القرطاس يراد به هنا: المصرى المعمول من البردى وأصول البشنين.

(٥) الزجاج الفرعونى، هو زجاج أبيض بلورى.

مُحرَق، وزعفران، من كلٍّ واحد جزء؛ تُسحَق سحقا ناعما حتّى تصير مثل الكُحْل وتُعجَن بالماء المعتصَر من الآس، وتُحبّب، وتُجفّف فى الظِّلّ، ثم يُشرَط تحت الإبط شَرْطان يسيران، ويُسحَق ذلك الحَبّ، ويُدْلَك به ذلك الموضع والدّم يَجرى، ويُترَك عليه يوما وليلة، ثم يُغسَل، فلا تعود تَظهَر رائحته أبدا . (١٣٧)

صفةُ دواءٍ آخَرَ يطيِّب البدن، وينفع أصحاب الأمزجة الحارّة

يؤخذ سُعْد[1]، وساذَج[1]، وفُقّاح الإذْخِر[2]، وميْعة[1] سائلة[3]، من كلٍّ واحد عشرةُ مثاقيل، ورد يابس، وأطرافُ الآس، من كلٍّ واحد مثقالان، يُبَلّ السُّعْد وفُقّاح الإذْخِر[2] والساذَجُ بشرابٍ رَيْحانىّ[4]، ثم تُسحَق، وتُعجَن بالشّراب وتُقرَّص، وتُجفَّف، ثم تُسحَق، ويُطرَح عليها الورد وأطرافُ الآس مسحوقَين ويُذاب زعفرانٌ بماء الورد، ويُخلَط مع الأدوية، ويجفَّف ذلك كلُّه فى الظِّلّ ثم يُسحَق بعد جفافه، ويُجعَل ذَرُورا؛ فإذا أراد استعماله دخل الحمّام، وتَنظّف من كلّ دَرَن، ثم خرج وتَنشّف من العَرَق، ثم نثر على بدنه من هذا الدّواء، فإنّه نهاية فى قَطْع رائحة العَرَق .

صفةُ دواءٍ آخَرَ يقطع العَرَق، وينفع أصحاب الأمزجة الحارّة

يؤخذ دارصِينىّ وسُنْبُل[5] هندىّ[5]، وأظْفار[5] وقُسْط[5]، من كلٍّ واحد جزء؛ ومن

(١) تقدّم الكلام بإطالة على مسميات هذه الألفاظ الثلاثة التى تحت هذا الرقم فى حواشى هذا الجزء السعد فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١١٢ والساذج فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣١ والميعة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣٢ فارجع اليها فى مواضعها .

(٢) فقاح الإذخر : زهره .

(٣) فى نسخة الإيضاح التى بين أيدينا «شامية» مكان قوله : «سائلة» .

(٤) تقدّم الكلام على صفة الشراب الريحانى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٧١ من هذا الجزء، فانظرها .

(٥) تقدّم الكلام على الأظفار والقسط الأظفار فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٢٠ والقسط فى الباب السادس من القسم الخامس من الفن الرابع انظر صفحة ٤٩ من هذا السفر .

طين البحر و إسْفِيداج[1] مغسول[2]، من كلٍّ واحد نصف جزء، شيح وشَقاقُل[3] من كلٍّ[4] واحد ثلاثةُ أجزاء[5]، زعفران وورد يابس، من كلّ واحد ثُلُثُ جزء؛ تُسحَق الأدوية اليابسة بماء الزعفران والآس بعد أن تُحَلّ بشرابٍ رَيْحانيّ ويُستعمَل، فإنّه جيّد.

ذِكرُ الأدوية التى تجلو الأسنانَ من الصُّفرة والسواد وتطيِّب رائحةَ الفم والنَّكْهة

فأمّا السَّنُونات[6] التى تجلو الأسنان — فمنها، يؤخذ قَرْنُ إيّل[7] مُحرَق، وملحٌ أَنْدَرانيّ[8]، وزَبَد البحر، من كلٍّ واحد جزء؛ ورقُ أَثْل مُحرَق، وأصولُ القَصَب

(١) زاد فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا بعد قوله : « طين البحر » قوله « وخبث الأسرب » والأسرب بتخفيف الباء وتشديدها مع ضم الهمزة والراء : هو الرصاص . وخبثه بالتحريك، هو ما نفاه الكير منه وما لاخير فيه .

(٢) الاسفيداج أو الاسفيدبا : طين يجلب من أصفهان يكتب به الصغار، وهو فارسى معرب؛ وأصل معناه الماء الأبيض (الألفاظ الفارسية المعربة ص ١٠ طبع بيروت) .

(٣) تقدّم الكلام على الشقاقل فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٤٩ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) زاد فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا قبل قوله : « من كل واحد » قوله : « وسنبل رومى » .

(٥) فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا « جزء » ولعل ما هنا هو الوارد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٦) فى كلتا النسختين « السفونات » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه ما يأتى بعد . والسنونات جمع سنون بفتح السين ، وهو الدواء الذى تعالج به الأسنان ؛ قاله الراغب . والسنون أيضا ما يستن به ، أى يستاك .

(٧) تقدّم الكلام على صفة الإيل فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥ من هذا الجزء، فانظرها .

(٨) تقدّم الكلام على الملح الأندرانىّ فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣٤ من هذا الجزء فانظرها .

المُحرَق جزءان ؛ شاذَنج[1] ربع جزء ، خَزَفٌ صِينيٌّ جزء ؛ يُدَقّ الجميع ، ويُخلَط ويُستَنّ[2] به .

سَنُونٌ آخَر

يؤخذ من قشور الرمّان جزءان ، ومن عُروق الجُلَنار[3] والشَّبّ والعقيق[4] ، من كلٍّ واحد جزء ، يُدَقّ[5] ويُنخَل ، ويُستَنّ به ، فإنّه غاية .

(١) كذا ضبط هذا اللفظ فى القاموس بفتح النون ضبطا بالقلم ، وكذلك فى المعجم الفارسى الانجليزى لاستانجاس ، وهو معرب شاذنة ، ويقال فيه شادنة عدسية ، ويسمى حجر الدم ؛ ومنه معدنى ، ومصنوع من المغناطيس اذا أحرق ؛ وأجوده الرزين الأحمر المعرّق الشبيه بالعدس « داود » . وذكر أرباب العلم الحديث فى الكلام على حجر الدم الذى هو الشاذنج أنه نوع من الحجارة التى اسمها (يسب) بفتح الياء المثناة وسكون السين ، وآخره باء موحدة ؛ وباللاتينية يسبيس . قال ميرة : حجر الدم نوع من اليسب معمّ ، يأتى من اسبانيا الجديدة . وقال فى موضع آخر : اليسب حجر سليسى ، يكون فى العادة معمّا ، وهو قابل للصقل ، ويختلف لونه كثيرا . وكما هو معروف عند العرب بحجر الدم يعرف عندهم أيضا بالشادنج ، ويقال شاذنة بالمعجمة ؛ المادة الطبية ج ١ صفحة ٣١٥ . والذى فى نسخة (الايضاح) التى بين أيدينا «ساذج» مكان قوله شادنج ؛ وقد تقدّم الكلام على الساذج فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣١ من هذا السفر ، فانظرها .

(٢) يستن به ، أى يستاك .

(٣) فى كلتا النسختين ونسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا : «الجلنار» واللام التى بعد الجيم زيادة من الناسخ فى جميع هذه المصادر ، اذ الجلنار ليس إلا زهر الرمان ، وليس للزهر عروق . والجنار كسحاب كما فى شرح القاموس مادة (دلب) ، وضبط بكسر الجيم فى معجم أسماء النبات ص ١٤٣ ضبطا بالقلم ، وهو الدلب ؛ ويسمى الصنار أيضا . وقال داود فى الكلام على الدلب : هو جبلى ونهرى ، يعظم عند المياه جدا ، وورقه كورق التين ، لكنه أدق وأحدّ ، ووجهه مزغب ؛ وله زهر بين بياض وصفرة ، يخلف بكوز السرو لكنه صغير . وقال اسحاق بن عمران : شجر الدلب كبير متدوّح ، له ورق كبير مثل كف الإنسان يشبه ورق الخروع ، إلا أنه أصغر منه ؛ ومذاقه مرعفص ؛ وقشر خشبه غليظ أحمر ، ولون خشبه اذا شق أحمر خلنجى ؛ وله نوار صغير خفيف أصفر ، ويخلفه اذا سقط حب أخرش أصفر الى الحمرة والغبرة كحب الخروع ، وأكثر ما ينبت فى الصحارى الغامضة وفى بطون الأودية .

(٤) كذا فى كلتا النسختين ؛ والذى فى نسخة (الايضاح) التى بين أيدينا « والعفص » ؛ ولم نقف على ما يرجح إحدى الروايتين على الأخرى ، فقد ورد فى كتب الأطباء أن رماد العقيق يشد الأسنان واللثة وكذلك ذكرت هذه الخاصية فى العفص (التذكرة فى الكلام على العقيق والكلام على العفص) .

(٥) يدق ، أى يدق ذلك .

صفة سَنُونٍ آخَرَ يقوِّى الأسنانَ ويجلوها

يؤخذ مِلْحٌ أَنْدَرانىّ، يُسحَق، ويُشَدّ فى قِرطاس، ويُلقَى على الجَمْر، فإذا احمرّ أُخِذَ وأُطفِئَ فى قَطِران، ثم يؤخذ منه جزء، ومن زَبَد البحر ودار صِينىّ ومُرّ وسُعْد ورَماد الشُّنج[1]، من كلّ واحد جزء؛ ومن السُّكّر ثلاثةُ أجزاء، ومن الكافور عشرةُ[2] أجزاء؛ يُسحَق ويُستَنّ به، فإنّه جيّد.

وأمّا الأدوية الّتى تطيِّب رائحةَ الفم والنَّكْهَة — فمنها دواء

يؤخذ ورد أحمرُ منزوعُ الأقماع، وصَنْدَلٌ أبيض، وسُعْد، من كلّ واحد عشرةُ دراهم؛ سَليخة[3] وسُنْبُل وقِرْفة [وقَرَنْفُل][4] وجَوْزبُوا[5]، من كلّ واحد أربعةُ دراهم؛

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين. والذى فى (الايضاح) المنقول عنه هذا الكلام «والشيح»؛ ولم نقف على ما يرجح إحدى الروايتين على الأخرى. وقد ضبطنا «الشنج» بالتحريك تبعا لما يستفاد من كلام الهروى فى بحر الجواهر. والشنج يسمى الحلزون، وخف الغراب، وهو صدف داخله حيوان؛ وهو مختلف الأجناس؛ وأجوده الودع المعروف «بالكودة»؛ وأجود هذا الصنف المرقش الصقيل المجلوب من «كيلكوت»؛ وأردؤه الشحرى؛ ويلى الودع «الدنبلس» المعروف فى مصر «بأم الخلول» ويليها المفتول الصنوبرى الشكل المنقش، وما عدا هذا ردىء. هذا ما قاله القدماء. انظر التذكرة فى الكلام على الحلزون. وقال أرباب العلم الحديث: إن اسم هذه الأجناس بالافرنجية «ايليس» وباللاتينية «إيلكس» بكسر الهمزة واللام فيهما، وهو اسم لجنس من الحيوانات الرخوة ذوات البطن والرأس من قسم ذوات الرئة وذوات التنفس؛ وقوقعته حلزونية؛ وأنواع هذا الجنس كثيرة تعرف بأسماء كثيرة؛ وفيها خاصة تجديد الأجزاء المختلفة من جسمها حتى الأعين والفم اذا تلفت، كما ثبت ذلك من تجربات عديدة؛ وتعيش على سطح الأرض وعلى أوراق الأشجار والثمار والحشائش الممتدّة، والجذور العصارية، ولا تخرج إلا فى الليل أو فى أزمنة الأمطار الخ. انظر (المادة الطبية ج ٤ ص ٨٦٢) فى الكلام على الحلزون الذى هو الشنج كما سبق.

(٢) عبارة الإيضاح: «عشر جزء»؛ وهى أصوب، كما يستفاد ذلك من كتب الطب التى راجعناها.

(٣) انظر الكلام على السليخة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٢.

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى (ا).

(٥) انظر الكلام على جوز بوا فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٠٤.

قشورُ الأُتْرُجّ المجفّفة وورقُه، وإِذْخر[1] وأَشْنة[1]، من كلّ واحد خمسةُ دراهم سُكّر وعُودٌ هندىّ ومَصْطَكاء وبَسْباسة[2] وسُك[2]، من كلّ واحد درهمان، كافور نصفُ درهم؛ مِسْك نصفُ دانِق؛ تُدَقّ الأصنافُ دَقّا ناعما، وتُعجَن بماء ورد، أو بماء ورق الأُتْرُجّ، وتُحبّب بقَدْر الحِمّص، وتُمسَك فى الفم، فإنّه جيّدٌ مجرّب.

صفةُ حَبٍّ آخَرَ يزيل البَخَر

يؤخذ صَبِر صَمْغ[3] ثلاثةُ دراهم، وفُلفُل وقَرَنْفُل وخَوْلَنْجان[4] وعاقِر قَرْحى[4]، من كلّ واحد درهم؛ مِسْك وكافور من كلّ واحد دانِق؛ تُدَقّ هذه الأصنافُ دَقّا ناعما وتُعجَن بشرابٍ رَيْحانىّ[5]، وتُحبّب، وتُستعمَل كما تقدّم.

صفةُ حَبٍّ آخَرَ ينفع من البَخَر

يؤخذ هال[6] وقاقُلّة[7] وجَوْزبُوا ودارصِينى وخَوْلَنْجان، من كلّ واحد ثلاثةُ دراهم

(١) تقدّم الكلام على مسمى هذين اللفظين اللذين تحت هذا الرقم فى حواشى هذا الجزء: الإذخر فى الحاشية رقم ٩ من صفحة ١١١ والأشنة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣٢ فانظرهما.

(٢) تقدّم الكلام على البسباسة والسك: الأوّل فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ والثانى فى الباب الثامن انظر صفحة ٧٢ من هذا الجزء وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا.

(٣) لم يرد فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا كلمة «صمغ» فلعله ذكر الصمغ هنا حذرا من أن يتوهم أن المراد من الصبر شجرته، فذكر ما يفيد أن المراد به الصمغ لا نفس النبات. والصبر معدود من الصموغ كما ذكره المؤلف فى الجزء الحادى عشر ص ٣٠٤ الطبعة الأولى.

(٤) تقدّم الكلام على الخولنجان والعاقر قرحى: الأوّل فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٥ والثانى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٨ من هذا الجزء، فانظرهما.

(٥) تقدّم الكلام على المراد بالشراب الريحانى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٧١ من هذا الجزء، فانظرها.

(٦) تقدّم الكلام على الهال فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا الجزء، فانظرها.

(٧) لعل المراد بالقاقلة فى هذا الموضع: القاقلة الكبيرة، اذ لو أراد الصغيرة أيضا لكان تكرارا مع الهال السابق ذكره قبل القاقلة، وذلك لأن القاقلة الصغيرة هى الهال نفسه، كما فى مفردات ابن البيطار =

ورد أحمر وصَنْدَل أبيض من كلّ واحد خمسةُ دراهم، كافور نصفُ درهم، مِسْك زنةُ دانِق؛ يُدَقّ الجميع دقّا ناعما، ويُعجَن بماء ورد، ويحبَّب مِثلَ الحِمَّص، وتُمسَك فى الفم منه حَبّة واحدة.

صفةُ دواءٍ آخَر

تؤخذ سَلِيخة[1]، ودارصِينىّ[1]، ورامِك[1]، وهال[1]، وفُقّاح الإذْخِر[1]، وأصولُ السُّوسَن وكبابة[2] وأُشْنة[2]؛ تُسحَق هذه الأدوية، [وتُعجَن][3] بماءِ ورد، وتُحبَّب مِثلَ الحِمَّص وتُجعَل فى الفم منها تحت اللّسان فى كلّ يوم واحدة، فإنه جيّد.

صفةُ حَبٍّ آخَرَ ملوكىّ ذَكَره التَّميمىُّ فى كتابه، وقال: إنّه أخذه عن أحمد بنِ أبى يعقوب؛ وهو:

يؤخذ من العُود الهندىِّ سبعةُ دراهم، ومن القَرَنْفُل والبَسْباسة[4] من كلِّ واحد منهما أربعةُ دراهم، ومن الكَبابة والقاقُلَّة[5] من كلِّ واحد ثلاثةُ دراهم، ومن السُّعْد[6] (١٣٨)

= فى الكلام على الهال جزء ٤ ص ١٩٤ طبع بولاق ومعجم أسماء النبات ص ٧٤. أما القاقلة الكبيرة التى يظهر أنها هى المرادة هنا فقد قال ابن البيطار: إنها هى القاقلة الذكر، وهى حب أكبر من النبق بقليل، له أقماع وقشر، وفى داخله حب صغير مربع طيب الرائحة دسم أغبر، يؤتى به من أرض اليمن والهند؛ وهو حريف، يحذى اللسان كالكبابة مع قبض وعطرية؛ وقشره وأقماعه أشدّ قبضا.

(١) تقدّم الكلام على مسميات هذه الألفاظ الأربعة التى تحت هذا الرقم: السليخة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٢ والرامك فى الباب الثامن من القسم الخامس من الفن الرابع من هذا الجزء انظر صفحة ٧٠ والهال فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ والإذخر فى الحاشية رقم ٩ من صفحة ١١١، فارجع اليها فى مواضعها.

(٢) تقدّم الكلام على الكبابة والأشنة: الكبابة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٨٢ والأشنة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٣٢ من هذا الجزء، فانظرهما.

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى كلتا النسختين، وقد أثبتناها عن الايضاح، إذ السياق يقتضى إثباتها.

(٤) تقدّم الكلام على البسباسة فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٨٧ من هذا الجزء، فانظرها.

(٥) تقدّم الكلام على القاقلة فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ٧٥ من هذا الجزء فى ذكر صفة الهال.

(٦) تقدّم الكلام على السعد فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١١٢.

الكوفىِّ الأبيضِ والصَّنْدلِ المَقاصِيرىِّ[1] من كلّ واحد خمسةُ دراهم، ومن سُكِّ المِسْك[2] مثقال، ومن الكافور نصفُ مثقال؛ تُسحَق هذه الأصناف، وتُعجَن بماء الورد وتُحبَّب بقدر الحِمَّص أو أكبر، وتُجفَّف فى الظِّلّ، ويأخذ منه[3] حَبَّةً بالغداة فيديرها فى فمه حتّى تذوب، ويَفعل مِثلَ ذلك عند النوم.

وقال: هذا الحَبّ إن شئتَ استعملتَه على هذه الصفة. وإن شئتَ تبخَّرتَ منه. ٥

وإن شئتَ سَحَقتَ منه حَبَّةً وأذَبْتَها بماء ورد، وتطيَّبْتَ بها.

وإن شئتَ سحقتَها مِثلَ الذَّريرة وتطيَّبتَ بها يابسة.

وإن حَلَلْتَ منه بالبان المَنْشُوش[4] كان مَسُوحا طيّبا شبيها بالغالية[5].

وإن حَلَلْتَ منه ثلاثَ حَبّات أو أربعا بماء ورد ومَسحتَ به على جسدك فى الحمام، كان طِيبا لا بعده. ١٠

صفةُ حَبٍّ آخَرَ مِثلِه يُطيِّب النَّكْهَة، ويُستعمَل كما تقدّم أيضا

يؤخذ عنبرٌ ومِسْكٌ وسُكُّ مِسْكٍ وعُودٌ هندىّ، من كلّ واحد جزء؛ كافور رِياحىٌّ[6] ربعُ جزء، زعفران وقَرَنْفُل من كلّ واحد نصفُ جزء؛ تُسحَق هذه الأصناف، وتُجمَع، ويكون سَحْقُ العنبر مع العود، ثم يُعجَن جميعُ ذلك بماء الورد

(١) تقدّم الكلام على الصندل فى الباب الرابع من هذا الجزء انظر صفحة ٣٩. ١٥

(٢) تقدّم الكلام على السك فى الباب الثامن من هذا الجزء. انظر صفحة ٧٢ وانظر الحاشية رقم ٣ من صفحة ٥٧ أيضا.

(٣) منه أى من الحب أو من الدواء، وبهذا الاعتبار ساغ له تذكير الضمير، كما هو ظاهر.

(٤) المنشوش، هو المربب بالطيب. والنش: الخلط.

(٥) تقدّم الكلام على أصناف الغوالى فى الباب السابع من هذا الجزء فى صفحة ٥٢ فانظرها وانظر الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٩ أيضا. ٢٠

(٦) تقدّم الكلام على وجه هذه النسبة فى الكافور فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ١٠٢ من هذا الجزء، فانظرها.

ويحبّب كما تقدّم، ويُستعمَل حَبّةً بالغداة، وأخرى عند النوم، فانّه ينفع لما ذكرناه وينفع الخفقانَ وعِللَ القلب . وقد أخذ هذا الفصلُ حقّه، فلنرجع الى أدوية الباه.

ذِكرُ الأدوية التى تُعين على الحَبَل، والأدوية التى تمنعه

أمّا الأدويةُ التى تُعين عليه — فمنها صفة دواء : يؤخذ حبُّ البَلَسان[1] ومُقْلُ[2] أزرق وجاوْشِير[3] وباذاوَرْد[4]، من كلٍّ واحد مثقال ؛ تُدَقّ أفرادا ، وتُجمَع

(١) لم يرد قوله : «حب» فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا .

(٢) تقدّم الكلام على البلسان والمقل بأنواعه فى حواشى هذا الجزء : الأوّل فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٥ والثانى فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٨٢ فانظرهما .

(٣) جاوشير : معرب كاوشير بالفارسية، أى حليب البقر، سمى هذا النبات بهذا الاسم لبياضه، وهو شجر يطول فوق ذراع، خشن مزغب، ورقه كورق الزيتون ؛ وله أكاليل كالشبث ؛ ويخلف زهرا أصفر، وبزرا يقارب الأنيسون، لكنه كقشر أصله بين زرقة وسواد، مرالطعم ؛ تشرط هذه الشجرة فيسيل منها صمغ اذا جمد كان باطنه أبيض، وظاهره بين سواد وحمرة، وهو الجاوشير المستعمل ؛ هذا ما قاله القدماء فيه انظر التذكرة ج ١ ص ١٤٦ طبع بولاق . وقال أرباب العلم الحديث : إنه صمغ راتينجى، واسمه بالافرنجية أوبو بنكس، واسم نباته باللسان النباتى (بستنا كا أوبو بنكس) ؛ ويوجد ببلاد المشرق والهند وجنوب فرنسا وايطاليا واسبانيا والروم والشأم . وقالوا فى الصفات النباتية للشجر الذى ينتج هذا الصمغ : إن جذره معمر غليظ، وأوراقه طويلة الذنيب المتفرّع ثلاثة فروع، كل فرع يحمل ثلاث أوراق ؛ والساق تعلو من أربعة أقدام الى خمسة، اسطوانية، محززة بالطول، مجوّفة الباطن ؛ والأزهار صفر خيمية فى أطراف فروع الساق، وذكروا فى الصفات الطبيعية للصمغ المستخرج من هذا النبات أنه يكون قطعا بيضاوية أو غير منتظمة، فيها بعض استدارة، ورائحتها قوية، فيها بعض نتن مخصوص بها، وطعمها مرحريف اه ملخصا من كتاب المادة الطبية ج ٣ ص ٦٨٥ .

(٤) باذاورد، كلمة فارسية نبطية معناها، الشوكة البيضاء، وهو نبات مثلث الساق، مستدير الأعلى مشرف الأوراق، شائك، له زهر أحمر داخله كشعر أبيض، لا تزيد أوراقه على ست، اذا تفل مضيغه جمد، وتهواه الجمال ؛ ومنه ما يزيد على ذراعين، ويعظم الشوك الذى فى رأسه كالابر، ويعرف هذا بشوك الحية ؛ ومنه قصير يشبه العصفر، أعرض أوراقا من الأوّل، وفى زهره صفرة ما، يقشر ويؤكل طريا ويخلل، وأهل مصر تسميه الخلاح، وهو نبات يدرك بنيسان، وأجوده الطويل المفرطح الحب . هذا ما قاله القدماء فيه انظر التذكرة ج ١ ص ٩٤ طبع بولاق . وذكر أرباب العلم الحديث أن هذا النبات هو الشوكة المباركة، وان اسمه باللسان النباتى عند (لينوس) (قنطوريا بيندكتا)، أى القنطريون المبارك واسمه الأفرباذيخى (قردوس بيندكتوس) وهو معنى تسميته بالشوكة المباركة، وهو نبات سنوى من الفصيلة =

بالسَّحْق ، وتُحَلّ بشراب ، ويُطلَى بها الذَّكَر ، ويجامع بعد جفافه ، ويحرص على أن ينحلّ الدواء فى الفَرْج قبل الإنزال ، فإنّه نافعٌ مجرَّب .

صفةُ دواءٍ آخر

يؤخذ أَفَرْبيُون (١) وعاقِر قَرْحَى (١) وجُنْدَبِيدَسْتَر (١) وسُنْبُل (١) وقُسْط (١) ومَيْعة (١) سائلة ، من كلٍّ واحد مثقالان (٢) ؛ يُسحَق (٣) ويُنخَل ، ثم يُجمَع ، ويُحَلّ بالمَيْعة ، ويُرطَّب (٤) بشراب ٥ رَيْحانىّ (٥) ، ويُطلَى الذَّكَر منه ، وتُجامَع [المرأةُ بعد جفافِه ، فإنّه نافعٌ لذلك لا يَخْرِم (٢) سيما اذا كان عقيبَ طُهْر المرأة .

= الشوكية ، ينبت بنفسه فى جنوب أوربا ، ويكثر فى اسبانيا . وذكروا فى صفاته النباتية أن ساقه حشيشية متفرّعة ، مغطاة كبقية النبات بو بركانى ، وقريبة لأن تكون مربعة الزوايا محمرة ، والأوراق متعاقبة تعانق الساق نصف عناق ، وهى مستطيلة ، ومسننة تسنينا كبيرا غير منتظم ، وتنتهى بشوكة صغيرة . وذكروا ١٠ فى صفاته الطبيعية أنه نبات عديم الرائحة ، ومرارته قوية ، لكن غير دائمة اه ملخصا من المادة الطبية الجزء الثانى ص ٩٠

(١) تقدّم الكلام على مسمّيات هذه الألفاظ الستة التى تحت هذا الرقم فى حواشى هذا الجزء : الفربيون فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٧٦ والعاقر قرحى فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٨ والجندبيدستر فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٥ والسنبل فى الباب الخامس انظر صفحة ٤٣ وانظر الحاشية رقم ٤ ١٥ من صفحة ٧ والقسط فى الباب السادس **انظر** صفحة ٤٩ والحاشية رقم ١ منها والميعة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣٢

(٢) فى نسخة (الايضاح) التى بين أيدينا «منقد» .

(٣) يسحق ، أى يسحق ذلك .

(٤) تقدّم الكلام على الشراب الريحانى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٧١ من هذا السفر ، فانظرها . ٢٠

(٥) « لا يخرم » ، أى أنه مطرد فى نفعه وفائدته ، لا يشذ مرة واحدة ؛ ولعل أصله من قولهم : «خرم الدليل عن الطريق» أى عدل عنه الى غيره ، فكأن هذا الدواء لا يخرم عن القاعدة ، أى لا يعدل عنها .

(٦) سيما ، أى لا سيما ، فحذف «لا» للعلم بها وهى مرادة ، لكن هذا الحذف قليل .

دواءٌ آخَر

يؤخذ ورق الغُبَيراء[1]، يجفَّف، ويُسحَق سحقا ناعما، ويُعجَن بمرارة البقر، ويُطلَى به الذَّكَر، ويجامِع]، فإنه يزيد فى الباه ويعين على الحَبَل .

دواءٌ آخَر

يؤخذ بولُ الفيل، وتُسقَى منه المرأة وهى لاتعلم، ثمّ يجامعها، فإنّها تَحبَل لوقتها بإذن الله تعالى .

صـــفةُ دواءٍ آخَرَ وهو من الأسرار

يُطلَى الذَّكَر بلبنِ حليب، ويُترك حتّى يجفّ، ثم يجامع عقيب طهـر المرأة فإنّه غايةٌ لذلك . قال صاحب كتاب (الإيضاح) : ينبغى لمن آستَعمَل دواءً من هذه الأدوية أن يقصد آلجماعَ فى الوقت الذى تطهر فيه المرأة من طَمْثِها .

قال : وينبغى أن يَرفع وَرِكَيها عند الإنزال، ويكون رأسُها منكّسا إلى أسـفل فإنّ ذلك ممّـا يعين على آلحَبَل .

قال : وينبغى أنّه إذا أَحَسَّ بالإنزال أن يميـل على جنبه الايمن، وكذلك إذا نزَع فإنّ الولد يكون ذَكَرا إن شاء الله تعالى .

(١) ذكر داود فى الغبيراء أن هذا الاسم فيه خلاف كثير؛ فأهل الفلاحة يطلقونه على القراصيا، وقوم على السبستان، وآخرون على الأنجرة؛ وطائفة يقولون : إنه الزعرور الأسود . قال : والصحيح المراد فى هذه الصناعة أنه الزيزفون، وهو شجر كثير الوجود بالمشرق وأعمال أنطاكية، يقارب شجر العناب، خشن الأوراق، سبط العود، يقارب ورقه السعتر البستانى، لكنه مستطيل؛ وله زهر الى الصفرة؛ ومنه ذهبى يخلف ثمرا دون النبق فيه غضاضة؛ وعوده قليل القوّة وإن عظم، حاد الرائحة، طيب، عطرى، يزهر بالربيع، ويدرك ثمره وسط الصيف . وذكر صاحب المادة الطبية ج ٣ ص ٦٩٧ فى الكلام على الزيزفون ما يفيد أن تسمية الزيزفون بالغبيراء كما سبق نقله عن داود قد وقعت فى الترجمات غير الموثوق بها . قال : وليس هذا بأكيد . ونقل ابن البيطار عن (كتاب الرحلة) أنها شجرة معروفة ببلاد المشرق كلها، وهى بالعراق كثيرة جدا، وبالشأم كذلك ... ورأيت منها بالشأم مثمرة وغير مثمرة والشجرة واحدة؛ ويسمون الشجرة التى لاتثمر منها بدمشق : الزيزفون .

وأمّا الأدوية التى تمنع ٱلحَبَل — فيحتاج الرجل مع الأدوية أن يكون ٱعتمادُه [فى ٱلجماع][1] بضدّ[2] ما تقدّم، وذلك أن يجعل إنزالَه قبل إنزالِها، وأن يَنهَض عنها بسرعة، ولا يجامعها عقيب الطُّهر.

وأمّا الأدوية — فمنها صفةُ دواء يَمنع من ٱلحَبَل ويُسقِط الجنين:

يؤخذ سَذاب مجفّف ونَطْرُون، من كلٍّ واحد جزء؛ يُسحَقان ويُنخَلان ويُحَلّان بماء السَّذاب الرَّطْب، ويُطلَى بذلك الإحليل، ويجامع. ٥

دواءٌ آخَرُ مِثلُه

تؤخذ قِنّة[3]، تُسحَق بعُصارة السَّذاب وماءِ الكُسْبُرة الخضراء حتّى تترطّب ويُطلَى بها الذَّكر، ويجامع، فإنّه يمنع الحَبَل ويُسقِط ٱلجنين.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يَفعَل فِعلَ ما تَقدّم ١٠

يؤخذ أَبْهَل[4] مثقالان؛ ورقُ سَذاب مجفّف، وفُودَنْج[5] يابس، من كلّ واحد نصفُ

(١) لم ترد هذه العبارة فى (ا).

(٢) بضد، أى متلبسا بضد، فالباء هنا للملابسة.

(٣) تقدّم الكلام على القنة فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٥٥ من هذا السفر، فانظرها.

(٤) ضبط هـذا اللفظ فى القاموس بفتح الهمزة والهاء ضبطا بالقلم، وضبط فى معجم أسماء النبات ص ١٠٢ بفتح الهمزة وضم الهاء وبضمهما وبكسرهما ضبطا بالقلم أيضا. وقال القيصونى فى قاموسه: هو بالفتح. وقال داود: هو بكسر الهمزة والهاء وفتح الهمزة وضم الهاء. قال: وهو صنف من العرعار أو هو نفسه؛ منه صغير الورق كالطرفاء، وكبيره كالسرو، ويقارب النبق فى الحجم، أحمر اللون، فاذا تم استواؤه أسودّ، ينكسر عن أغشية كنشارة مسودة داخلها نوى مختلف الحجم، فيه حلاوة وقبض وحدّة؛ وذكر أرباب العلم الحديث أن اسم الأبهل بالافرنجية «سابين» وقالوا فى صفاته النباتية: هذه الشجيرة تعلو من الأرض كالعرعر من اثنتى عشر الى خمس عشرة قدما؛ وأوراقها صغيرة جدا، قشرية الشكل قائمة متقاربة، متراكبة على الساق، قالوا: ورائحة الأوراق قوية عطرية نفاذة، لاسيما اذا دلكت بين الأصابع، وطعمها حار حريف مر؛ وهى خضراء دائما. اهـ ملخصا من المادة الطبية ج ٢ ص ٧٣٤

(٥) زاد فى الايضاح وصف الفودنج بأنه جبلى؛ والفودنج يقال بالدال كما هنا وبالتاء أيضا، وهو الحبق =

مثقال ؛ فُوّة[(١)] وسَقَمُونيا[(٢)] ونَطْرُون ، من كلّ واحد مثقال ؛ يُدَقّ ذلك ويُنخَل ويُسحَق ، ثم يُجمَع ، ويُحَلّ بماء السَّذاب الرَّطْب ، أو بماءٍ طَفِئَ فيه الحديد [ويجامع به][(٣)] فإنّه شديد فى منع الحَبَل وإسقاطِ الأَجِنّة .

(١٣٩)

= وهو أنواع كثيرة ترجع الى برى وبستانى ؛ وكل منهما إما جبلى ، أى لا يحتاج الى سق ، وإما نهرى لا ينبت بدون الماء ، واختلافه بالطول ودقة الورق والزغب والخشونة ؛ فالجبلى البرى : رقيق الورق ، قليلها سبط حريف ؛ والبستانى أكثر أوراقا منه وأخشن وأغلظ ، وأقرب الى الاستدارة ؛ وأما النهرى فهو الفودنج المطلق ؛ وقد يسمى حبق التمساح ، وهو يقارب السعتر البستانى ، حاد الرائحة ، عطرى ؛ والبستانى منه هو النعنع ، وربما انقلب البرى من النهرى نعنعا ؛ وهذان النوعان يكثر وجودهما ؛ وكل له بزر يقارب بزر الريحان ، ويدوم وجوده ، خصوصا المستنبت (داود) وذكر أرباب العلم الحديث أن هذا الاسم معرب عن الفارسية ، وأن اسمه بالافرنجية (قلمنت) وباللاتينية (قلمنتا) . وقالوا فى صفاته النباتية : إن ساقه حشيشية متفرعة قائمة ، مربعة الزوايا ، زغبية ؛ والأوراق قلبية الشكل مستديرة ذنيبية ، مسننة رخوة زغبية ؛ والأزهار حمر فرفيرية ؛ وهذا النبات ينبت فى الغابات المرتفعة الجافة أواخر الصيف اهـ ملخصا من المادة الطبية ج ٢ ص ٥٣١

(١) الفوّة ، هى عروق حمر دقاق ، لها نبات يسمو ، فى رأسه حب أحمر شديد الحمرة ، كثير الماء يكتب بمائه وينقش (التاج) . وقال صاحب (المادة) ج ١ ص ٤٤٦ إن اسمه بالافرنجية (جرنس) وباللسان النباتى (روبيا منقطور يوم) . قال : وقد عدّ من أنواع هذا الجنس نحو عشرين ، بل أوصل بعضهم الأنواع الى أربعين ، وقال فى صفة النوع المقصود من هذا الاسم : إن جذوره معمرة خوارة ؛ وسوقه الزاحفة فى جوف الأرض أفقية متفرعة فى غلظ ريش الإوز الى حجم الخنصر ، والسوق الخارجة من هذه الجذور تعلو من ثلاث أقدام الى أربع ، وتتشبك ببعضها وبالأجسام القريبة منها بواسطة كلابات فيها ؛ وتلك السوق مربعة ، بارزة الزوايا ، ومغروزة فيها الكلاليب . قال : والأوراق تحيط بالجذع كالحلقة ؛ والأزهار صفر صغيرة تتكوّن منها طاقة متحلحلة فى أطراف الأغصان . قال : وهذا النوع ينبت بايطاليا والأندلس والروم وأطراف المغرب وشمال أفريقية وآسيا واليمن الخ .

(٢) تقدّم الكلام على السقمونيا وهى المحدودة فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥٩ من هذا السفر فانظرها .

(٣) لم ترد هذه التكملة فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن (الإيضاح) .

(٤) فى « ب » « نفع » ؛ وهو تحريف .

وحيث ذكرنا ماقدّمناه من الأدوية التى تزيد فى الباه وتُغزِر المنىّ، وأشباهِ ذلك، وما وصلناه به، فلنذكر الأدويةَ الّتى تَنقُص الباه، وتسكّن الشهوة، فإنّه قد يُحتاج الى ذلك فى بعض الأوقات .

ذِكرُ الأدوية الّتى تَنقُص الباه وتَمنع من الجماع وتسكّن الشهوة

وهذه الأدويةُ منها مفرَدةٌ ومنها مركَّبة

أمّا المفرَدة — فمنها البقلة الحَمْقاء، وهى الرِّجْلة، وتسمّى الفَرْفِخين[1] أيضا، ومنها الخَسّ[2]، والقرع، والشَّهْدانج[3]، والعَدَس، والجُمّار، والشَّعير[4]، والأشياء الحامضة كالحِصْرِم والتُّوت، والرّمّان الحامض، وحُمّاض[5] الأُتْرُجّ، والخَلّ، وعِنَب الثعلب[6]، ومنها البِطّيخ والخيار والقِثّاء والسَّفَرْجَل والمِشمِش[7] وأشباهُ ذلك؛ ومنها الفُودَنْج[8] والمَرْماحُوز[8] والمَرْزَنْجُوش[8]

(١) ورد فى كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة ص ١١٩ أنه بالفارسية پرپريم وفرفين وفرفينة وپرپهن وفرفهن، وبالعربية الفرفخين والفرفين والفرفير، وهذا النبات معروف، فلا مقتضى للكلام عليه .

(٢) زاد فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا بعد الخس قوله : « والخبازى » .

(٣) ضبط صاحب التاج الشهدانج بكسر النون ضبطا بالعبارة، وهو معرب شاهدانه بالفارسية، ومعناه سلطان الحب بفتح الحاء؛ واسمه بالعربية التنوم؛ وأهل مصر تسميه الشرانق؛ وقد سبق الكلام عليه باطالة فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٦٧ من هذا السفر، فانظرها .

(٤) زاد فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا بعد الشعير قوله : «والجاورس» وهو الذرة كما فى التذكرة. والذى فى المفردات أنه صنف من الدخن .

(٥) لم يرد فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا حماض الأترج ولا الخل . فلعلهما وردا فى النسخة التى نقل عنها المؤلف . وحماض الأترج ما فى جوفه . والذى فى كلا الأصلين حمض بسقوط الألف وانما هو حماض كما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة والكتب المؤلفة فى مفردات الأدوية .

(٦) زاد فى (الايضاح) بعد عنب الثعلب قوله : « والكرسنة » ؛ ولعل ذلك لم يرد فى النسخة التى نقل عنها المؤلف .

(٧) لم يرد لفظ المشمش فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا .

(٨) تقدّم الكلام على مسميات هذه الألفاظ الثلاثة التى تحت هذا الرقم فى حواشى هذا الجزء : الفودنج فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ٢١٠ والمرماحوز فى الحاشية رقم ٧ من صفحة ١١٤ فى الكلام على المرو والمرزنجوش فى الحاشية رقم ٦ من صفحة ٥٦ فارجع إليها فى مواضعها .

والحَرْمَل[1] والكَمُّون[2] وبزرُ قَطُونا[3] والكافور والبَنْج[4] والوَرْد والخِلاف والإسْفاناخ وكلُّ دواءٍ باردٍ يابس، فهذه المفرَدات .

وأمّا المركَّبات — فمنها أغذيةٌ وأدوية .

أمّا الأغذية — فمنها السُّمّاقيّات، والحِصْرِميّات[5]، واللَّيْمُونيّات، والسِّكْباج[6] والمَصُوص[7]، والمَضِيرة[8]، والعَدَس، والتَّمْريّة، والزَّبيبيّة، وما أشبه ذلك ممّا فيه خَلٌّ أو حُموضة .

(١) الحرمل نبت يرتفع ثلث ذراع، ويفرع كثيرا، وله ورق كورق الصفصاف، ومنه مستدير؛ وزهره أبيض، يخلف ظروفا مستديرة مثلثة (أى ثلاثية الفصوص) داخلها بزر أسود كالخردل، سريع الفرك، ثقيل الرائحة، يدرك أوائل حزيران، وتبقى قوته أربع سنين (داود) . وفى الكتب الحديثة أن اسمه بالافرنجية روسوفاج، وسماه لينوس (فيجنون حرمل)، واسم حرملى مأخوذ من العربية، وهو من الفصيلة السذابية؛ وهو نبات معمر متفرع، يحمل أوراقا متعاقبة بسيطة، أو متضاعفة التشقق بدون انتظام، عديمة الذنيب؛ والأزهار بيض ذوات حوامل ومعارضة للأوراق . وهذا النبات ينبت برمل مصر واسبانيا والترك وسيريا وغير ذلك، واستنبت أحيانا بالبساتين لأجل أزهاره البيض الجميلة وأوراقه المقطعة تقطيعا دقيقا؛ وهو لعابى لزج، ذو رائحة قوية كريهة، وطعم مر اه ملخصا من المادة الطبية ج ٣ ص ٣٦٧

(٢) زاد فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا بعد الكمون قوله : « والثوم » .

(٣) تقدم الكلام على بزر قطونا فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٦٩ من هذا الجزء، فانظرها .

(٤) انظر الكلام على البنج فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ٢١٤ الآتية .

(٥) زاد فى نسخة الايضاح التى بين أيدينا بعد الحصرميات قوله « والرمانيات » .

(٦) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل؛ وهو معرب « سكبا » وهو مركب من (سك) بمعنى خل، ومن «با» أى طعام (الألفاظ الفارسية المعربة ص ٩٢) . وفى شرح القاموس أنه لحم يطبخ بخل . وفى الشذور الذهبية أن السكباج هو الغذاء الذى فيه لحم وخل مع الأبازير الحارة والبقول المناسبة لكل مزاج .

(٧) المصوص بفتح الميم : طعام من لحم يطبخ وينقع فى الخل؛ وقيل : ينقع فى الخل ثم يطبخ؛ وقيل : المصوص يكون من لحم الطير خاصة، والعامة تضم الميم . وعبارة النهاية تقتضى أنه بضم الميم، فإنه قال : ويحتمل فتح الميم .

(٨) المضيرة : مريقة تطبخ باللبن المضير، وهو الذى حمض وأبيض، وربما خلط بالحليب . وقال أبو منصور : المضيرة عند العرب أن يطبخ اللحم باللبن البحت الصريح الذى قد حذا اللسان حتى ينضج اللحم وتخثر المضيرة؛ وربما خلطوا الحليب بالحقين، وهو حينئذ أطيب ما يكون .

وأمّا الأدوية — فمنها صفةُ دواء يقطع الشهوة، ويُجمد المنىّ .

تؤخذ كُسْبُرة يابسةٌ محمّصة ، وبزرُ قِثّاء ، وبزرُ نرجس ، وبزرُ كتّان ، وجُلّنار[1] ومُحمّص البُزورُ كلُّها .

ويؤخذ سُمّاق ، وحرمل[2] وبنج[3] أبيض ، وقلقطار[4] وقلقند[5] ، وصندل أبيض من كلّ واحد جزء؛ تُجمع هذه الأدويةُ بعد سَحْقِها ونَخْلِها ، وتُعجن بالماء المعتصر ٥

(١) الجلنار هو زهر الرمان، وهو معرب « كلنار » بالفارسية؛ وقد أوضحنا الكلام عليه فى الحاشية رقم ٥ من صفحة ١٩٢ من هذا الجزء، فانظرها .

(٢) تقدّم الكلام على الحرمل فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢١٣ من هذا السفر، فانظرها .

(٣) البنج، هو الشيكران بالعربية بفتح الشين وضم الكاف، وقيل : السيكران بالسين المهملة، وهو نبات مخدر مخبط للعقل ، له قضبان غلاظ وورق عراض ، صالحة للطول ، مشققة الأطراف الى السواد عليها زغب ، وعلى القضبان ثمر شبيه بالجلنار فى شكله متفرق فى طول القضبان ، وفى هذا الثمر بزر شبيه ببزر الخشخاش انظر مفردات ابن البيطار ج ١ ص ١١٧ طبع بولاق . وفى الكتب الحديثة أن اسمه بالافرنجية يوسقيام بضم الياء وسكون السين وكسر القاف ، وباللسان النباتى « إيسقوامس نجرا » ومعناه : البنج الأسود ، فجنسه إيسقوامس بكسر الهمزة وضم الياء وسكون السين وضم الميم؛ وهو مأخوذ من اللغة اليونانية ، ومركب من كلمتين معناهما فول الخنزير ، لأن الخنزير يرغب فى أكله ، وذكروا فى الصفات النباتية للنوع المقصود هنا أن جذره سنوى؛ والساق تعلو من ثمانية عشر قيراطا الى قدمين ، وهى اسطوانية مقوّسة متفرعة فى جزئها العلوى ، مغطاة بزغب طويل لزج؛ والأوراق متعاقبة متفرقة ، وأحيانا متقابلة ، وهى كبيرة بيضاوية . أما صفاته الطبيعية فان جذوره فى غلظ الإصبع ؛ ورائحة الأوراق منتنة مغثية ؛ والأزهار تتصاعد منها رائحة كريهة تدل على خواصه القتالة اه ملخصا من المادة الطبية ج ٤ ص ٥٤ .

(٤) القلقطار بالفتح كما ضبطه الهروى فى بحر الجواهر : ضرب من الزاج الروى . وقيل هو الأصفر منه . قال جالينوس : هو أعدل أصناف الزاج . وفى المنهج أنه الأخضر منه . وفى الكتب الحديثة أنه يسمى أيضا الأحمر الانجليزى ، وأحمر بروسيا ، وهو كتل سهلة التفتت ، لونها أحمر بنفسجى ، أو على هيئة مسحوق قوى الحمرة جميلها يلوث الأصابع ، عديم الرائحة والطعم ، لا يجذبه المغناطيس ، ومع ذلك يختلف منظره ، ولكن الغالب كونه أحمر ، وتكون حمرته أجمل كلما كان أنقى ، واذا عرض للهواء تحوّل الى كربونات ثالث أوكسيد ؛ وهو لا يذوب فى الماء ، ويذوب فى بعض الحوامض اه ملخصا من المادة الطبية ج ١ ص ٥٩٥

(٥) تقدّم الكلام على القلقند فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٩٤ من هذا الجزء، فانظرها .

من الورد والرِّجْلة[1]، وتُحبّب مِثلَ الحِمَّص، وتُجفَّف فى الظِّلّ، وتُرفَع فى إناء زجاج ويُسَدّ رأسُه من الهواء، فإذا احتيج اليه أُذيبتْ منه واحدةٌ بلُعاب بِزْرِ قَطُونا[2]، ويُطلَى به[3] الإحليل فى كلّ أسبوع ثلاث مرّات. وإن طُلِيَتْ به[3] فَقارُ الظَّهْر وتكرَّر ذلك أيّاما متواليات قَطَع النَّسْل وأماتَ شهوةَ الجماع.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يقطع شهوةَ الجماع البتّة، وهو من الخواصّ

تؤخذ خُصْية السَّقَنْقُور[4] اليمُنى، تُجفَّف، وتُسحَق، وتذاب بماء السَّذاب الرَّطْب، فمن شرب منه زِنةَ قيراط قطع شهوتَه ونسلَه.

صفةُ دواءٍ آخَر

يُضعِف الإحليلَ ويَكسِر حِدّته ولا يدعه ينتشر البتّة، وهو الذى يستعمله كثيرٌ من الرُّهْبان.

يؤخذ تُوبال[5] النحاس، وتُوبال[5] الحديد، وتُوتِيا هندىّ، وشعرُ دُبّ، وشعرُ ثعلب مُحرَقان، وجُلّنار مُحرَق، وجُفْت[6] البَلُّوط، وكافور، وجَوْزُ السَّرْو مُحرَقا، وصَنْدَل أبيض

(١) فى نسخة (الإيضاح) التى بين أيدينا «أو» مكان الواو هنا.

(٢) تقدّم الكلام على بزر قطونا فى الحاشية رقم ٣ من صفحة ١٦٩ من هذا الجزء، فانظرها.

(٣) «به» أى بهذا الدواء.

(٤) تقدّم الكلام على السقنقور فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٤٤ من هذا الجزء، فانظرها.

(٥) توبال النحاس والحديد: ماتساقط منهما عند الطرق وما ينفيه الكير منهما مما لاخير فيه.

(٦) جفت البلوط بالضم، هو جلده الرقيق الذى تحت الجلد الغليظ، وهو قشره الداخل «الشذور الذهبية».

من كلّ واحد جزء،[1] تُجمَع بعد سحقها ونخلها، وتُعجَن بالماء المعتصَر من السِّلق وتُحبَّب مِثلَ الحِمَّص، وتجفَّف فى الظِّلّ، وتُرفَع فى إناءٍ من الزّجاج، ويُسَدّ رأسُه فإذا احتيج اليه تؤخذ منه حَبّة تُحَلّ بماء الكُسْبُرة الخضراء، ويُطلَى بها الذَّكَر ويُرَشّ منها أيضا فى السّراويل .

(١) فى (الإيضاح) : « مثقال » .

الباب الحادى عشر من القسم الخامس من الفنّ [الرابع][1]

فيما يُفعَل بالخاصّيّة

إعلم — وفّقنا الله وإيّاك — أنّ الخواصّ كثيرةٌ لا تكاد تنحصر، ولا تتعلل أفعالُها، فأحببنا أن نذكرَ منها طَرَفا نختِم به هذا الفنّ .

٥ ولنبدأ بما هو متعلّق بالنكاح، ليكون القولُ فيه يتلو بعضُه بعضا .

ذِكرُ الخواصّ المختصّةِ بالنساء والنكاح الّتى استُقرِئَتْ بالتجرِبة

... ...

فى ذلك[1] سبعَ شَـعيرات ، وٱدفنه فى الأرض فى موضعٍ نَدٍ؛ فاذا نبت الشَّعيرُ وصار طولَ أربع أصابع ، فخذ منه ، ثم ٱدلُك به يَدَك ، وٱمسح به على وجهك وذراعيك ثم ٱستقبلْ به تلك المرأةَ ولا تكلّمها ، فإنها تسعى فى أثَرك ، ولا تطيق الصبرَ عنك .

قال : وهو من الأسرار ٱلخفيّة ، فٱعرفه .

سِـــرٌّ آخَـــر

قال صاحب الخواصّ : خذ أظفار الهُدْهُد وأظفارَ نَفْسِك ، فأحرِقْهما جميعـا وٱسحقهما حتّى يصـيرا ذَرُورا ؛ ثم ٱجعل ذلك فى قَدَحِ طِلاء ، وٱسـقه أىَّ ٱمرأة أردتَ وهى لا تعلم ، فإنّها تميل اليك ، وتحبّ القربَ منك جدّا .

سرٌّ آخَرُ لجعفرٍ الطّوسىّ

قال : إذا أخذتَ لسان ضِـفدِعةٍ خضراء ، ووضعتَه على قلب ٱمرأةٍ نائمـة أخبرتْك بجميع ما عملتْ فى ذلك اليوم .

قال : وإن بَخّـرتَ فِراشَ ٱمرأةٍ بشىء من ضِـفدِعةٍ خضراء وهى لا تعـلم ثم نامت عليه ، فإنّها تتكلّم فى نومها بجميع ما عملَتْه .

قال : وكذلك اذا أخذتَ عينَ الرَّخمـة أو عينَ كلبٍ ميّت وأصـلَ ٱلخَسّ ثم ربطتَ ذلك فى خِرقةِ كَتّان ، ووضعتَه على سُرّة ٱمرأة نائمة ، أخبرتْك بجميع ما عملتْه .

وقال حنين بنُ إسحاق : اذا أردتَ أن تعلم أنّ المرأة بِكْرٌ أو ثيّب ، فرها أن تأخذ ثُومَةً مقشورة وتَنْخُسها[2] فى عدّة مواضـع ، ثم تحملها فى فَرْجها ليـلة ، فاذا أصبحت

(١) ذلك ، أى ذلك التراب ، كما هى عبارة الإيضاح .

(٢) زاد فى الايضاح « بإبرة » .

فاستنكهها[١]، فإنْ وَجدتَ رائحةَ الثُّوم فى فيها فهى ثيِّب، وإن لم تجد فيه رائحةً فهى بِكر. وبذلك أيضا تَعرِف حَمْلَها، فإنْ وجدتَ للثُّوم رائحةً فهى غيرُ[٢] حامل وإن لم تجدها فهى حامل.

قال: وإذا أردتَ أن تختبر حالَ ٱمرأة، وهل بقيتْ تَحمِل أم[٣] لا فمُرْها أنْ تأخذ زَراوَنْدا[٤] مُدَحْرَجا، وتسحقه بمرارة البقر، ثم تحمله بعد طُهرِها ليلة، فاذا أصبحتْ، فان وجدتَ طعمَه فى فيها فهى تَحمِل، وإلّا فهى عاقر.

وقال صاحب كتاب (فردوس الحكمة): إذا تبخّرت المرأةُ بحافرِ فرس أو حافرِ بغل أو حافرِ حمار أسقطت الولد والمَشيمة؛ واذا تحمّلتْ[٥] به بعد ٱلجماع لم تَحبَل.

قال: ومن طَلَى ذَكَره بمَرارةِ دَجاجةٍ سوداءَ ثمّ جامع ٱمرأةً لَم تَحمِل بعد ذلك أبدا.

وقال جابر بنُ حيّان: إذا أخذت ٱلمرأةُ حَبّةَ خِرْوَعٍ وغَمّضتْ عينيها وٱبتلعتْها لم تَحبَل سنة.

قال: وإن ٱبتلعتْ حَبّتين لم تَحمِل سنتين؛ وإن ٱبتلعتْ ثلاثاً فثلاث، وكذلك كلّما[٦] زادت كانت كلُّ حَبّة بسَنة.

---

(١) استنكهها، أى شم نكهتها.

(٢) عبارة (ا) «لم تكن حاملا»؛ والمعنى يستقيم عليها أيضا.

(٣) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين؛ وقواعد اللغة تقتضى العطف «بأو» فى مثل هذا الموضع لا «بأم» فإن «أم» المتصلة كالتى هنا لا تقع بعد «هل» إلا شذوذا، نحو «هل زيد عندك أم عمرو» وإنما هى لازمة للهمزة فى الأغلب. انظر شرح الرضى على الكافية ج ٢ ص ٣٤٧ طبع الآستانة.

(٤) تقدّم الكلام على الزراوند فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ١٥٢ من هذا الجزء، فانظرها.

(٥) تحملت به: عبارة يستعملها الأطباء فى معنى إدخال الدواء فى فرج المرأة.

(٦) فى «ب» «مهما»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا.

قال : وإذا أُخِذ رأسُ خُشّاف[1] ووُضع تحت رأسِ امرأةٍ عند الجماع ، لم تحبَل من ذلك الوطء .

قال : وإن أُخِذ شَوْكُران[2] وسُحِق وعُجِن بلبن رَمكة[3] وجُعِل فى صُرّة ، ورُبِط فى عضد المرأة الأيسر ، لم تحبل أبدا ما دام عليها .

قال : وإن شربت المرأةُ بولَ كبش لم تحبَل أبدا . [وكذلك[4] إن شربتْ من رُغا[5] الجَمَل الهائج لم تحبَل أبدا] .

وقال شرك[6] الهندىّ : إذا أردتَ ذَهابَ غَيْرةِ المرأةِ فلا تغار من ضَرّتها ولا مِن وَطءِ جارية ، فأسقِها دِماغَ أرنب بشراب وهى لا تعلم .

قال : وإن سُقِيتْ مرارةَ ذئب بعسل وهى لا تعلم ذهبتْ غَيْرَتُها .

ومما يُذهِب غَيْرةَ المرأة أنْ تُسقَى غُبارَ دقيق الشَّعير من الرَّحَى الدائرة بماء المطر فإنّه جيّد فى ذَهاب الغَيْرة .

(١) الخشاف بتقديم الشين على الفاء وزان رمان ، هو الخفاش بعينه : طائر معروف ، سمى بذلك لخشفانه بالليل أى جولانه . وفى العباب أنه بتقديم الشين أفصح من الخفاش .

(٢) الشوكران ، قال الصاغانى فى (مادة شكر بالشين المعجمة) : إنه نبات ساقه كساق الرازيانج ، وورقه كورق القثاء ، وقيل كورق اليبروح وأصغر ، وله زهر أبيض ، وأصله دقيق لا ثمر له ، وبزره مثل النانخواة أو الأنيسون ، من غير طعم ولا رائحة ، وله لعاب . وذكر ابن البيطار نحوا من ذلك ، فقال : إن له ساقا ذات عقد مثل ساق الرازيانج ، وهو كثير ، وله ورق شبيه بورق القثاء ، وهو الكلخ ، إلا أنه أدق من ورق القثاء ، ثقيل الرائحة ، فى أعلاه شعب وإكليل فيه زهر أبيض ، وبزر شبيه بالأنيسون ، إلا أنه أشد بياضا منه ، وأصله أجوف ، وليس بغائر فى الأرض اهـ . وفى كتب اللغة أنه يقال فيه الشيكران بالشين المعجمة . وقال أبو حنيفة : الصواب السيكران بالسين المهملة ، والصواب فى الكاف الضم كما ذكره ابن هشام اللخمىّ .

(٣) الرمكة ، هى الفرس أو البرذونة تتخذ للنسل ، والجمع رمك بالتحريك .

(٤) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (ا) .

(٥) الرغا : جمع رغوة بضم الراء ، كمدية ومدى انظر شرح القاموس . يريد الزبد الذى يكون على شفتى الجمل حين يهيج .

(٦) ورد هذا الاسم فى جميع الأصول وفى (عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٣٢) . ولم نجد من ضبطه بالعبارة فيما راجعناه من الكتب .

قالوا : وإذا شُدَّت فى مِقْنَعة[1] امرأةٍ دودةٌ حمراءُ وهى لا تعلم هاجت شهوتُها واغتلمت[2] أمرًا عظيما .

وإذا أُخذ من الزِّنجار[3] جزء ، ومن النُّشادِر نصفُ جزء ، وجُعِلا فى الماء الذى تستنجى به المرأة ؛ اغتلمت وطلبت الجماع .

٥ وكذلك إذا أُخذ من الأُقْحُوان[4] والأَبْهَل[5] والأُشْنان[6] الأحمر من كلٍّ واحد جزء ودُقّ ذلك ، وسُحِق ، وعُجِن بدُهنِ البان ، وحملته المرأة ، ثارت بها شَهوةُ الجماع .

(١) المقنعة والمقنع : ما تقنع به المرأة رأسها ومحاسنها ؛ والقناع بالكسر أوسع منها . وقال الأزهرى : لا فرق عند الثقات بين القناع والمقنعة .

(٢) واغتلمت أمرا عظيما ، أى اغتلمت اغتلاما عظيما ، فقوله «أمرا» منصوب «باغتلمت» لإقامته ١٠ مقام المصدر الذى هو المفعول المطلق . وقد وردت هذه العبارة هكذا فى كلا الأصلين والإيضاح المنقول عنه هذا الكلام ؛ ولا يخفى ما فيها من الضعف .

(٣) قال فى مستدرك التاج : زنجار معرّب زنكار بالفتح ، وغير إلى الكسر حال التعريب ؛ وهو المتولد من النحاس ، وأقواه المتخذ من النوشادر . وفى كتب الطب أن الزنجار إما معدنى يوجد بمعادن النحاس بقبرص ، أو مصنوع من النحاس والخل ، أو نجير (ثفل) العنب الحامض بالتعفين . وقيل : إن الصناعى يتخذ ١٥ بتكريج النحاس فى دردى الخل ودفنه فى الندى . وقيل : يكفأ على إناء النحاس إناء فيه خل فيتزنجر ، ثم يحك الزنجار (الشذور الذهبية) وفى الكتب الحديثة أن اسم الزنجار بالافرنجية (ورديت) و « ويرد جرى » ؛ وسماه بعض المؤلفين (تحت خلات النحاس) واسمه فى (الدستور) ، (خلات النحاس الخام) انظر الكلام عليه فى المادة الطبية ج ١ ص ١٧٤

(٤) انظر الكلام على الأقحوان فى الجزء الحادى عشر من هذا الكتاب ص ٢٨٦ من هذه الطبعة ٢٠ وانظر الحاشية رقم ٣ منها .

(٥) قد سبق الكلام على الأبهل فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ٢١٠ من هذا الجزء ، فانظرها .

(٦) الأشنان بالضم والكسر : نبات له أجناس كثيرة ، وكلها من الحمض ؛ وهو الحرض الذى تغسل به الثياب ، قاله أبو حنيفة . وقال البكرى : هو نبات لا ورق له ؛ وله أغصان دقاق ، فيها شبيه بالعقد ؛ وهى رخصة ، كثيرة المياه ، ويعظم حتى يكون له خشب غليظ يستوقد به ؛ وطعمه الى الملوحة . وفى الكتب =

[واذا أخِذ قضيبُ الثَّور الأحمر وجُفِّف فى الظِّلّ، وسُحِق، وشربتْ منه المرأة وزنَ مثقال بنبيذٍ صِرف، قَطَع عنها شهوةَ الجِماع](١) .

واذا أخذتَ قضيب الذئب قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها بحيث لا تراه الشمس، وقطّعتَه، ثم جفّفتَه فى الظِّلّ، وسحقتَه، وأسقيتَه امرأة، فإنّها تُبغِض الرجال، وتذهَب عنها شهوةُ الباه .

واذا أخذتَ شجرة مريم(٢) وسحقتَها وعجنتَها بماء النَّعْناع، وحبّبتَها كلَّ حَبّةٍ زِنةُ نصفِ دانِق، وسَقيتَ منها امرأةً حَبّة، انقطعتْ شهوتُها سنَة .

وكذلك مهما زدتَ كانت كلُّ حَبّةٍ بسَنة .

= الحديثة أن اسمه بالافرنجية «صود» و باللاتينية (سلسولا)؛ ويسمى باللسان النباتى «سلسولا صودا». واسم (سلسولا) آت من (سلسوس)؛ أى ملحى، والنوع المخصوص بالذكر سنوى، يعلو نحو قدم؛ وهو خال من الزغب، والغالب كونه قائما؛ وساقه حشيشية محمرة متفرعة، وتحمل أوراقا لحمية ضيقة طولها من قيراط الى قيراطين؛ والأزهار مخضرة إبطية، عديمة الحامل : ومنفعته فى مصر إما أن يحرق ليستخرج منه الصود كما استنبت فى البلاد الغربيـة لذلك؛ وإما أن يهرس و يعمل أقراصا كبارا وتجفف ليغسل بها الجسم كما يغسل بالصابون اه ملخصا من المادة الطبية ج ١ ص ١٤٠

(١) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (ا) .

(٢) شجرة مريم، و يقال لها (شجرة الطلق)، لأنها تسهل الولادة على المطلقة، (وكف مريم) (وكف العذراء) وهى أصل كالكف، مستدير الى الغبرة، تقوم عنه فروع مشتبكة فى بعضها . وفى التاج (مادة كف) أن كف مريم هى أصول العرطنيثا، و يقال لها أيضا (الركفة) (وبخور مريم) . وفى الكتب الحديثة أن هذا النبات يسمى بالافرنجية بما معناه : شجرة مريم، أى «قردون ماريا» (وقردون نوتردام) ويسمى فى لسان العامة بالشوك الفضى والحرشف البرى . والصفات النباتية لهذا النوع هى أنه معمر، ينبت فى المحال المزروعة وغير المزروعة، و يعرف بأوراق كبيرة جدا متعرجة خالية من الزغب، يوجد فيها نكت بيض، والساق تعلو من ثلاث أقدام الى أربع، وتتفرع من جزئها العلوى، وهى أسطوانية عديمة الزغب؛ ورءوسها الزهرية كبيرة جدا، وتكون فى نهاية فروع الساق؛ والأزهار حمر أرجوانية؛ والثمر تعلوه شوشة عديمة الحامل مكونة من و بر بسيط؛ والمستعمل من هذا النبات جذوره وأوراقه حيث إن لها طعما مرا واضحا؛ وبالجملة، فالنبات كله مر الطعم اه ملخصا من (المادة الطبية ج ٢ ص ٩٦) . وذكر ابن البيطار ج ٣ ص ٥٥ أن شجرة مريم اسم مشترك بين جملة نباتات أوردها كلها وذكر منها بخور مريم، وهو المراد فى هذا الموضع . وقال عنه فى حرف الباء : إنه يعرف بأفريقية بخبز المشايخ، وأهل الشأم يعرفونه بالركف .

ذِكرُ شيءٍ من الخَواصّ غير ما تَقدّم ذِكرُه

من ذلك طِلَسْمٌ[1] يُجعَل على المائدة فلا يقربها ذُباب

يؤخذ كُندُس[2] وزِرْنيخ أصفر، وكَمْأة[3] يابسة، أجزاء متساوية؛ يُسحَق جميعُ ذلك، ويُعجَن بماء بصل العُنصُل[4]، ويُجعَل منه مثال[5]، «ويُدهَن بالزيت»[6] فإنّ الذُّباب لا يَقرُب من المكان الّذى يوضع فيه.

(١) كذا ضبط صاحب التاج هذا اللفظ ضبطا بالعبارة، فقال: طلسم كسبطر. وفى شفاء الغليل أنه بتشديد اللام. قال مؤلفه: وهو غير عربى، وكأنه مأخوذ من لغة اليونان.

(٢) الكندس بالضم: نبات له ورق بين البياض والخضرة، وعرق داخله أصفر وخارجه أسود؛ وهو المستعمل؛ ويقال فيه أيضا: «قندز» و«وخوندس» و«اسطرونيون» وكلها أسماء يونانية؛ ويقال له فى المغرب «عرنة» و«عود العطاس» (وسراج الظلام) (وشجرة أبى مالك) انظر هذه الأسماء فى (معجم أسماء النبات ص ٩٠).

(٣) قال ديسقوريدوس: الكمأة أصل مستدير لا ورق له ولا ساق، لونه الى الحمرة ما هو، ويوجد فى الربيع، ويؤكل نيّه ومطبوخه. وقال داود: إن الكمأة تكثر فى سنة المطر والرعد، وتنبت من الأرض بلا ورق ولا زهر، بل قطعا كالقلقاس؛ وأنواعها كثيرة باعتبار الاسم: منها الفطر؛ والمأكول منها الصغير الكائن فى الرمل والقفار، وغيره ردىء، خصوصا ما كان قريب الزيتون — أو أسود — فانه سم وقته هذا ما قاله القدماء. وفى الكتب الحديثة أن اسم هذا الجنس بالافرنجية (طروف) وباللاتينية النباتية (طوبير) وهى نباتات تنبت فى جوف الأرض بدون ساق وبدون أوراق وبدون جذور. ومن صفة الكمأة أن شكلها مستدير منتظم كثيرا وقليلا، وسطحها أملس أو درنى، وتنمو فى جوف الأرض بدون أن تثبت بجسم آخر، وبدون أن تأخذ تغذيتها بشىء آخر غير سطحها، ولون باطنها أسمر أو سنجابى، وأحيانا أبيض؛ والغالب أن يكون اللون مرمريا؛ وذلك المظر الباطن يختلف باختلاف الأنواع» اهـ ملخصا من المادة الطبية ج ٤ ص ١٦٦.

(٤) تقدّم الكلام على بصل العنصل فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٥٤ من هذا الجزء، فانظرها.

(٥) فى (ا): «مثقال»؛ والقاف زيادة من الناسخ.

(٦) وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى كلتا النسختين قبل الجملة السابقة: وسياق الكلام يقتضى وضعها فى هذا الموضع، اذ المناسب أن يدهن نفس المثال المتخذ من العجين بالزيت، لا أن يدهن العجين، كما يفيده الوضع السابق.

سامُّ أَبْرَصَ اذا جُعل فى قَصبةٍ فارسيّةٍ أحدُ رأسيها مسدود، ثم يُسَدّ الآخَر بشَمَعة، وتُعلَّق القصبة بما فيها على مَن به عِرْقُ النَّسَا على وَرِكه من الجانب الّذى به الوجع، فإنّ وجعه يتناقص بقدر ما يَضعُف سامُّ أَبْرَص، فاذا مات فى القصبة زال الوجعُ كلُّه.

الافْسَنْتِين[1] الرّومىُّ يمنع السوس عن الثياب، وفسادَ الهوامّ، ويمنع الحِبْرَ والمِدادَ أن يتغيّرا، والكاغَدَ أن يَعُثّ أو يُقَرَّض.

قشرُ الأُتْرُجّ اذا جُعِل فى الثّياب حَماها من السُّوس.

[السّاذَجُ[2] الهندىُّ اذا نُثِر فى الثّياب حفِظَها من السُّوس[3]].

الخَرْبَق[4] اذا جُعِل مع الثياب التى تُرفَع لم يقربها السُّوس.

عُودُ الرِّيح[5] وورقُ النَّعْناع مِثلُ ذلك.

يُكتَب على بيضتين بعد سَلْقِهما وقَشرِهما، على الأُولى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾؛ وعلى الثانية: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ ويُكتَب بعد ذلك على كلٍّ منهما

(١) تقدّم الكلام على الافسنتين فى الحاشية رقم ١ من صفحة ١٩٢ من هذا الجزء، فانظرها.

(٢) تقدّم الكلام على الساذج فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١٣١ من هذا الجزء، فانظرها.

(٣) لم يرد هذا الكلام الذى بين مربعين فى (ا).

(٤) تقدّم الكلام على الخربق فى الحاشية رقم ٢ من صفحة ٤٥ من هذا الجزء، فانظرها.

(٥) فى كتب المفردات أن هذا الاسم مشترك بين عدّة أنواع من النبات، وهى المامِيران، والوج والعاقر قرحى، والبار باريس، وهو الأمير باريس، وعود الفاوانيا، (انظر المفردات لابن البيطار) (وتذكرة داود) (والمنهج المنير) وغيرها. ولم نجد من الأدلة ما يرجح إرادة أحد هذه الأنواع الخمسة فى هذا الموضع حتى نشرحه كما هى طريقتنا؛ والكلام على جميع هذه الأنواع مما يطول شرحه، فارجع اليها فى كتب المفردات.

﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وتُعطَى ٱلأُولى للمرأة، والثانيةُ للرجل؛ ويُعطِى كلٌّ منهما لصاحبه ٱلبيضةَ ٱلتى أُعطِيَها يأكلُها، فإنّ ذلك يَحُلّ ٱلمعقود.

مَرارة ٱلخُطّاف إن شُرِبتْ وشُرِب فى عقبها ٱللّبنُ ٱلحليب، سوّدتْ شعرَ ٱللّحية والرأس.

إذا غُرِز فى طَرَف القـرع قِطَعٌ من حديد وهو متّصل بأصله، ولم يَنفُذ إلى ٱلجانب الآخَر، وطُلِيَ عليه بالطِّين الأصفر، وتُرِك فى أصـله إلى أن يُدرِك ويَجِفّ ويؤخذ ما فى جوفه، وهو كالحِبْر، ويُحَلّ بعسلٍ نحل من غير نار، ويُستعمَل منه فى كلّ غداة قدرَ ٱلبندقة — وانْ حُلّ بُرُبِّ العنب فهو أجوَد، وهو ٱلميبَخْتَج[1] — فإنّه يسوِّد الشَّعر إنْ داومَ عليه.

ذِكرُ نُبْذةٍ من خواصّ ٱلحروف والأسماء

خواصُّ ٱلحـروف والأسماءِ كثيرة، قد ذكرها البُونِىّ[2]؛ فمنها ما عرفوا تأثيراته بطوالع، وقيَّدوه بأوقات؛ ومنها ماليس له وقت مخصوص، وهو الّذى أُورِد منه فى هذا الموضع ما تقف عليه إنْ شاء ٱلله تعالى.

قال الشيخ جمال الدين أبو العبّاس أحمدُ بنُ أبى الحسن القُرَشىُّ البُونِىّ[2] — رحمه الله تعالى — فى كتابه ٱلمترجَم (بلطائف الإشارات فى أسرار ٱلحروف العُلْوِيّات)[3]:

(١) فى الألفاظ الفارسية المعرّبة ص ١٤٨ أن الميبختج مركب من كلمتين «مى» أى خمر، و «بخته» أى مطبوخ؛ وهو عسل العنب، لكن الأطباء يغلونه مرة ثانية بالسكر والعسل. وفى بحر الجواهر نقلا عن نجيب الدين أن الميبختج هو ماء العصير يغلى حتى يذهب ثلثاه، ثم يجعل عليـه سكر أو عسل؛ ومن أراد أن يجعـل فيه أفاويه فله ذلك.

(٢) البونى: نسـبة الى بونة بالضم، وهى بلد بافريقية منها أبو العباس هذا صاحب كتاب (لطائف الإشارات) المذكور هنا انظر شرح القاموس.

(٣) الذى كتب على النسخة التى بين أيدينا من كتاب (لطائف الإشارات) المذكور: "والعبارات" مكان قوله: "العلويات".

من نقش حرف الحاء فى فَصّ خاتَم ثمانىَ مرّات، ونَقَش معه "يا حىّ يا حليم يا حنّان يا حكيم"، أَمِن من ٱلحُمّيَات كلِّها .

وإنْ هو جعَله فى ماء وسَقَى منه ٱلمحمومين خَفّف ما بِهم .

وان داموا على شُرب ذلك ٱلمـاءِ والأبترادِ به ذهبت الحُمّيَات كلُّها .

وكذلك ينفع المحرورين من أهل الصَّفْراء . ٥

قال : ولا يُكثِر مِن لُبسِه كبيرُ السِّنّ .

قال : ومن خاصّيّته تعطيلُ حركة النّكاح .

قال : وإنْ حمَـلَه الشابُّ فهـو أوفق للتّختّم به ، ولا يحمـله فى يوم السبت، ولا فى يوم الاثنين، ويحمله فيما عداهما من الأيّام .

وفيه لمن أَمسَكَه ذَهابُ العطش وكثرةِ شرب المـاء . ١٠

وان عُلِّق فى بستانٍ نَمَى ثمرُه، وكثرتْ نَضارتُه .

قال : ومن قال عند طلوع الشمس : "يا حىّ يا حليم ياحنّان ياحكيم" ومن الأسماء ٱلمقدّسة ماأوّله حاء فى زمن القَيْظ، يذكر ذلك حتّى تنقلب الشمسُ فى رأى عينه خضراءَ وهو ناظرٌ اليها، لم يُحِسّ فى يومه [ذلك](١) ألمَ ٱلحَرّ .

قال : ومن كتب ٱسمَه(٢) "ٱلجبّارَ وذا ٱلجلَال" فى بِطاقةٍ أىّ وقتٍ شاء وهو على طهارة، وجعلَهـا فى خاتَمه أو بين عينيه وقت جلوسه بين الناس ، رزقه ٱلله ٱلهيبةَ والتعظـيم . ١٥

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى (ا) .

(٢) اسمه، أى ٱسم الله تعالى .

ومن كتب ٱسمَ ٱلله "الجميلَ وٱلجواد" فى بِطاقةٍ أىَّ وقتٍ شاء ، وتَختَّم بها أو حمَلَها وقتَ دُخوله بين أحبابِه أو منزلِه ، حَسّنه ٱلله تعالى ، وجَمَّل ظاهرَه و باطنَه .

قال : ومن كتب "مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ" خمسةً وثلاثين مرّة ، "أحمد رسولُ الله" خمسةً وثلاثين مرّة فى يومِ جمعة بعد صلاة ٱلجمعة وحملَها معه ، رزقه ٱلله تعالى قوّةً فى ٱلطاعة ، وتقويةً على البِرِّ كلِّه ، وكفاه ٱلله تعالى هَمَزات ٱلشياطين .

وإن هو أدام النظر الى تلك ٱلبِطاقة كلَّ يوم عند طلوع الشمس وهو يصلّى على محمّد صلّى ٱلله عليه وسلّم ، كثرتْ رؤياه للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ويسّر ٱلله تعالى عليه فى يومه ذلك أسباب ٱلسعادة ، وذلك بحُسْن القبول وعَقْد النيّة وصفاءِ ٱلباطن .

قال : ومَن نقش ٱسمَ ٱلله (الخبير) على فَصٍّ مهما[1] يكن يومَ ٱلجمعة أو يوم ٱلاثنين أوّلَ ساعةٍ من النهار ، وٱحتَمل هذا الفصّ فى فمه ، لم يَنَلْه وَصَب ٱلعطش .

وإن هو جعله فى كوزِ ماءٍ وشرب منه ، أَسرَعَ له الرِّىّ ، ولم يطلب ٱلماءَ بعده .

ومن كتب : ﴿إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ﴾ أربعَ مرّات ، وعلّقها عليه ، لم يقرُبه شيطان ، ولم يُصِبه ، ولا يَقرُب ٱلبيت ٱلّذى يكون فيه .

قال : ومن كتب الصاد ستّين مرّةً فى بِطاقةٍ وحمَلَها غَلَب خَصمَه .

ومن علّقها عليه وهو صائم ، أمن من ٱلجوع بإذن الله تعالى .

قال : ومن كتب الصاد ستّين مرّةً فى عصابة ، وعَصَّب بها من يشتكى الصُّداع ، بَرِئَ إن شاء الله تعالى .

(١) فى كلتا النسختين « منها » ؛ مع سقوط قوله بعد : « يكن » ؛ والتصويب والتكملة عن (لطائف الإشارات) المنقول عنه هذا الكلام انظر النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤ وفق م .

وقال : إذا نقش حرف الطاء فى لوح من مِشمِش[(١)] والشمس فى السعود تسعَ طاءات ، وخمسَ هاءات وحمَلَها إنسان ، قهر الله عنه قلوبَ الجبّارين من الشياطين والإنس ، وربّما أنه كثيرا[(٢)] ما يرى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

ومن استدام إمساكَه على غير طهارة ، أورثه ذلك حُمّى الدِّقّ[(٣)] .

قال : ولا بسُه يحبّ أعمالَ البِرّ كلَّها ، ولا يقدر أن يَبقَى ساعةً بغير طَهارة . وإن عُلِّق على من يشتكى ألمَ الرأس ، هوّن الله تعالى عليه ذلك .

وإن ألقاه فى كوز الماءِ وشرب من ذلك الماء ، رأى بركةً فى ذاته من محبّة الخير ، وانشراحِ الباطن ، واتساع الصّدر .

قال : ومن كتبها فى تسع من الشّهر ، أو ثمانيةَ عشر ، أو فى سبعةٍ وعشرين عَدَدها ، وخمسَ هاءات معها ، وعلّقها على نفسه ، أَمِن مِن الهَوامّ .

---

(١) من مشمش ، أى من شجره .

(٢) مقتضى القواعد دخول «ربما» على الجملة الفعلية كما قاله سيبويه وغيره . وأجاز بعضهم دخولها على الجملة الاسمية ؛ وهو قليل ؛ وإذن يجب فى هذه الجملة على قول سيبويه إذا فتحت همزة «أن» أن يقدّر فعل محذوف لتكون «أن» وما بعدها فى تأويل مصدر هو فاعل لهذا الفعل ، أى ربما وقعت له رؤية النبى صلى الله عليه وسلم . وإن كسرت همزة «إن» كانت «ربما» داخلة على جملة إسمية جريا على رأى من يجيز ذلك .

(٣) فى كلتا النسختين «الدقيقة» والياء والقاف الثانية زيادة من الناسخ ؛ وحمى الدق هى حمى تدوم ولا تكون قوية ، وليس لها أعراض ظاهرة مثل القلق وعظم التنفس ويبس اللسان وسواده ، لكن ينتهى الانسان منها الى ضنى وذبول ؛ وتنشأ غالبا عن مرض مزمن فى أحد الأعضاء الباطنة (انظر الشذور الذهبية) . وقال القيصونى فى قاموس الأطباء : حمى الدق هى أن تنشبث الحرارة الخارجة عن الطبع بالأعضاء الأصلية ، خصوصا القلب حتى تفنى رطوبات البدن .

قال : ومن نقش حرفَ العين سبعين مرّةً يومَ الجمعة وقت ٱلأذان، فى خِرقةِ حرير بيضاء، وركّبها على خاتَم قَلْعِيٍّ[1] أو قَمَر[2]، وتَختَّمَ[3] به، نطق بالحكمة، ويسّر الله عليه الفهمَ الثاقب ؛ ويكون تعليقه بإزاء قلبه، ولا يعلّقه عليه عند نومه ، فإنّه يرى خيالاتٍ كثيرة .

قال : ومن أكثر من ذكر ٱسمِه[4] (العزيز)، نال عزّةً فى دينه إن يكن من أهل الديانات، وعزّةً فى دنياه إن يكن من أهل الدنيا .

قال : ومن كتب حرف القاف فى زيادة ٱلهلال مائةَ مرّة ومحاه بماء وشَربه أَمِن من ٱلرُّطوبات العارضة ، وجاد فهمُه ، وقوِىَ حِفظُه؛ ولا يداومْ ذلك لئلّا يُفرِطَ به اليُبْس .

ومن كتبه فى ورقةِ رَنْدٍ مائةَ مرّة، وغلاها فى زيتِ زيتون، ودَهَنَ به المفلوجين وأهلَ النَّزَلات ٱلهوائيّة، نفَعَهم .

قال : ومَن ذكر من أسماء الله تعالى ما فيه قاف كٱسمه (القادر) و (القيّوم) و (القوىّ)، وما أشبه ذلك، فمن ٱستعمل ذلك الذِّكر ممّن يشتكى الضّعف والفزع واستدام عليه بعقد نيّة وجمعِ هِمّة، رزقه الله تعالى القوّة، ويسّر له أسبابَ الخروج من الجزع .

(١) خاتم قلعى ، أى بخاتم رصاص قلعىّ ، نسبة الى القلع ، وهو ٱسم معدن ينسب اليه الرصاص الجيد ، وهو الشديد البياض ، كما فى شرح القاموس . والذى ذكره ياقوت أنه منسوب الى القلعة بزيادة التاء . ونقل عن بعضهم أن القلعة هذه جبل بالشأم ، ونقل عن مسعر بن مهلهل أنه منسوب الى قلعة «بكله» أول بلاد الهند من جهة الصين . ثم ذكر ياقوت بعد ذلك إقليم القلعة من كورة قبرة بالأندلس ، وقال : وأنا أظن الرصاص القلعىّ اليها ينسب ، لأنه من الأندلس يجلب .

(٢) يريد بالقمر هنا : الفضة ؛ فقد ذكر صاحب مفاتيح العلوم ص ٢٥٨ طبع أوربا أن أصحاب صناعة الكيميا يكنون عن الذهب بالشمس ، وعن الفضة بالقمر ، وعن النحاس بالزهرة الخ .

(٣) فى كلتا النسختين «من تختم» ؛ وسياق الكلام يقتضى الواو كما أثبتنا .

(٤) اسمه ، أى ٱسم الله تعالى .

قال : ومن نقش حرف الكاف فى خاتَم عشرين مرّة ، أو كتبه فى خِرقةِ حرير، وطواها، وجعلَها تحت فصّ خاتَم ،فإنّ لابسَه لا يُرَدّ كلامُه إلا بخير، وينفع لملاقاة الجبّارين ودفع ضررهم .

قال : ومن نقش حرف النون بالعربىّ[1] فى فصّ خاتَم خمسَ نونات، وعلّقه على من يشتكى معدتَه أو خفقانَ قلبِه على موضع الألم، سَكَن بإذن الله تعالى .

قال : ومن كتب حرف الواو ستّ مرّات فى ورقة وعلّقها عليه ، أَمِن مِن الصُّداع العارِض من اليبوسة، وحَسْبه[2] .

ومن نقشه فى فصّ مها[3] أو فضّة وجعله فى فيه، وكان به بلغم يجفّف الفم، فإنّه يكونُ بُرْأَه إن شاء الله تعالى .

ومَن علّقه عليه أَمِن مِن حُمّى الرِّبْع[4] .

والخواصُّ كثيرة ؛ وفيما أوردناه منها كفاية .

---

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى النسخة المنسوب خطها الى المؤلف وغيرها ؛ ولم يتضح لنا وجه التقييد فى هذا الحرف بالعربى دون بقية الحروف المذكورة فى هذا الباب .

(٢) فى (أ) «وحبسه» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا . وفى «ب» «حسب» بحذف الواو والهاء والمعنى عليه يستقيم أيضا .

(٣) المها : حجر زجاجى شديد البياض وإن حك ، ولا فرق بينه وبين البلور إلا الصلابة فى المها فانه يقاوم الحديد فتخرج منهما النار . وفى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ص١٤٨ ما يفيد أنه لفظ فارسى فقد جاء فيه ما نصه : المهاة : البلورة ، تعريب مها ، وهو حجر شبيه بالبلور . وقيل : هو البلور نفسه .

(٤) حمى الربع ، هى حمى تنوب يوما وتترك يومين ، وذلك لأنها تأخذ فى الأيام الثلاثة ثمانى عشرة ساعة ، وهى ربع ساعات الأيام ، فسميت باعتبار الساعات . وفى الشذور الذهبية أن حمى الربع هى التى تنوب بعد كل ثلاثة أيام يوما ، يعنى أنها تغيب ثلاثة أيام وترجع فى الرابع . وقال داود : إنها الحمى الكائنة عما تعفن من السوداء خارج العروق ؛ وسميت بالربع لأنها تقع النوبة الثانية بعد النوبة الأولى بيومين ، فتكون فى اليوم الرابع .

كَمُل الجزء الثانى عشر[1] من كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب"
للنُّوَيْرِىّ رحمه الله تعالى ، ويليه الجزء الثالث عشر، وأوّله :
(الفنّ الخامس فى التاريخ) والحمد لله رب العالمين

(١) يلاحظ أن هذا هو آخر الجزء العاشر من نسختى نهاية الأرب فى فنون الأدب المأخوذتين بالتصوير الشمسى، المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٥٥١ ، ٥٤٩ معارف عامة .

(مطبعة الدار ٥٠/١٩٣٥/٢٠٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

الجزء الثانى عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٥٦هـ — ١٩٣٧م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

بيان عن الجزء الثانى عشر

من

كتاب نهاية الأرب

فى دار الكتب من نُسَخ هـذا الجزء نسختان مأخوذتان بالتصوير الشمسىّ كُتبت إحداهما فى القرن الثامن الهجرى قبـل وفاة المؤلف ، ونسب خطها إليه وهى المشار اليها فى الحواشى بحرف (ب) وكُتبت الثانية فى القرن التاسع بخط نورالدين العاملىّ ، وهى المشار إليها فى الحواشى بحرف (ا) وليست إحدى النسختين بأقل تحـريفا ولا تصحيفا من الأخرى ، بل التحريف فيهـما يكاد يكون متفقا كما نبهنا على ذلك فى الأجزاء السابقة ، غير أن النسخة المنسوب خطها الى المؤلف والمشار اليها فى الحواشى بحرف (ب) ، تمتـاز عن الأخرى بقلة النقص فى الألفاظ والعبارات ، فاذا وجدت كلمة أو جملة سقطت من الناسخ فى النسخة المشار اليهـا بحرف (ا) فكثيرا ما تجد هذه الكلمة أو الجملة ثابتة فى النسخة الأخرى .

ويلاحظ أن المؤلف قد لخص كتاب (جيب العـروس وريحـان النفوس) لمحمد بن أحمد التميمى المقدسىّ فى الأبواب التسعة الأوَل من هذا الجزء فى أصناف الطِّيب والبَخورات والغَوالى والنُّـدُود والمسـتقطَرات والأدهان والنَّضوحات ؛ ولم نقف على هـذا الكتاب فى خزانة من خزائن الكتب الموجودة فهـارسها بين أيدينا ، فكنا نرجع فى تصحيح ما ورد فى هـذا الجزء من التحريف والتصحيف الى ما بين أيدينـا من كتب القـدماء والمحـدثين فى علوم الطب والنبات وأنواع الطِّيب ، منبِّهين فى الحواشى على كل مصدر رجعنا اليه فى تصحيح الكلمة أو الجملة متحرِّين بقدر الإمكان وجه الصواب فى ضبط أسمـاء النبات والأدوية والعقاقير

التى وردت فى هذا الجزء ، فلا نضبط اسما من هذه الأسماء إلا إذا ورد بضبطه نص صريح لا يحتمل التأويل فيما لدينا من الكتب الموثوق بمؤلّفيها ومصحّحيها .

وعسى أن نكون قد وُفّقنا فى تصحيح هذا الجزء الى ما نقصد إليه فى جميع أجزاء هذا الكتاب : من إصلاح التحريف ، وتكميل الناقص ، وشرح الغريب ، وغير ذلك مما بيّناه من الأغراض فى أوائل الأجزاء السابقة .

وقد تم طبع هذا الجزء فى عهد (حضرة صاحب الجلالة)

فاروق الأوّل ملك النيل وحفيد إسماعيل

أدام الله على البلاد ظله ، وأعلى برعايته وعنايته العلم وأهلَه .

آمالُ أمّتِه به معقودةٌ * والله يكفل هذه الآمالا
لازال شعبك من سحابك يرتعى * روضا يمدّ على البلاد ظِلالا

وفى هذا المقام نرى عرفانا بالجميل ، وتقديرا لجهود المخلصين أننا مدينون بجزيل الثناء وعظيم الحمد لتلك العناية المشكورة التى بذلها ويبذلها حضرة صاحب العزة الأستاذ العالم ، والمدير الحازم (الدكتور منصور فهمى بك مدير دار الكتب المصرية) .

فقد خطت الدار فى عهده الميمون خطوات واسعة فى سبيل التقدّم والرقىّ ، حتى أصبح منهلُها العذبُ أقربَ موردا ، والانتفاعُ بما فيها من الذخائر أيسرَ على الطالب .

كما أنه من الحق علينا أن نقدّم عظيم الشكر الى حضرة صاحب الفضيلة (السيد محمد الببلاوى مراقب إحياء الآداب العربية) وإلى حضرة الأديب الفاضل (الأستاذ أحمد زكى العدوى رئيس القسم الأدبى) على ما يبذلان من جهد فى سبيل إنهاض هذا القسم وتقدّمه .

والله أسأل أن يوفّقنا إلى الخير فى القول والعمل ،

مصحّحه
أحمد الزين

فهرس

الجـــزء الثـانى عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

صفحة

القسم الخامس من الفن الرابع فى أصناف الطيب والبخورات والغوالى والندود والمستقطرات والأدهان والنضوحات وأدوية الباه والخواص ١

الباب الأول من هـذا القسم من هذا الفن فى المسك وأنواعه ١

الباب الثانى فى العنبر وأنواعه ومعادنه ١٦

الباب الثالث فى العود وأنواعه ومعادنه وأصنافه... ... ... ٢٣

ذكر تطرية العود الأبيض وإظهار دهانته وإكسابه سـوادا ٣٧

الباب الرابع فى الصندل وأصنافه ومعادنه ٣٩

الباب الخامس فى السنبل الهنـدى وأصنافه ، والقرنفل وجوهره — فأما السنبل الهندى ٤٣

وأما أصله ٤٣

وأما القرنفل وجوهره ٤٥

الباب السادس فى القسط وأصنافه... ... ... ٤٩

الباب السابع فى عمل الغوالى والندود — أما عمـل الغوالى — فأما الوقت الذى يصلح أن تعمل فيـه — وأما الالات التى تصلح لعملها وسحق أجزائها فيهـا... ... ... ٥٢

صفحة

وأما كيفية عملها وأخذ أجزائها ٥٣

غالية من غوالى الخلفاء ٥٣

غالية حجاجية تسمى الساهرية ٥٥

غالية هشام بن عبد الملك ٥٦

صفة غالية أخرى من كتاب محمد بن العباس ٥٨

غالية متوسطة نسبها التميمى الى كتاب أبى الحسن المصرى ٥٩

غالية تسمى الساهرية ختم بها التميمى باب الغوالى ٥٩

وأما عمل الندود — الند المستعينى ٦٠

وأما الند الذى أجمع الناس عليه ٦١

صفة ند آخر ٦١

صفة ند كانت "بنان" العطارة تصنعه للواثق بالله ٦٢

صفة ند آخر كانت تصنعه لجعفر المتوكل على الله ٦٣

صفة الند الذى كانت أم الخليفة المقتدر بالله تصنعه وتبخر به الكعبة
وصخرة بيت المقدس فى كل جمعة ٦٤

صنعة ند آخر عن أم أبيها بنت جعفر بن سليمان ، وهو الذى يسمى
اللفيف الشريف ٦٤

وأما الذى يصنع فى عصرنا هذا بالديار المصرية ٦٥

ذكر كيفية عمل الند فى وقتنا هذا ومفرداته ومقاديره — فالنوع الأول
المثلث ٦٦

وأما النوع الثانى وهو المعتدل ٦٧

وأما النوع الثالث وهو السوقى ٦٨

صفحة

ذكر صفة خلط أجزاء الند وتركيبه... ... ... ٦٨
الباب الثامن فى عمل الرامك والسك من الرامك والأدهان — فأما عمل
الرامك والسك ٧٠
وأما الأدهان وما قيل فيها ٧٨
ذكر دهن البان وحبه ومعادنه وكيفية طبخه ٧٨
وأما كيفية إخراج دهنه ٨٠
وأما كيفية طبخه بالأفاويه حتى يصير بانا مرتفعا — فمنه كوفى ومنه مدنى ٨٠
أما الكوفى ٨١
وأما البان المدنى... ... ... ٨١
صنعة بان آخر من تركيب التميمى ٨٣
صنعة نش البان على رأى أبى عمران البانى... ... ... ٩١
وأما نشه على ما ورد فى كتاب العطر المؤلف للمعتصم بالله ٩١
وأما دهن الزنبق وما قيل فيه — فمنه أصلى خالص، ومنه مولد —
فأما الخالص ٩٢
وأما المولد ٩٣
وأما دهن الحماحم وماقيل فيه ٩٥
وأما دهن الخيرى وما قيل فيه — فمنه أصلى ومنه مولد — فأما الأصلى
الخالص — وأما المولد ٩٦
وأما دهن التفاح وماقيل فيه ٩٩
وأما الأدهان المركبة العطرة ١٠١
صنعة دهن آخر من الكتاب المصنف للمعتصم بالله ١٠٣

صفحة
صنعة دهن آخر يسمى دهن السيدة ١٠٤
« « « صنع للأمون من كتاب يوحنا بن ماسويه ١٠٥
« « برمكى مبخر من كتاب يوحنا بن ماسويه ١٠٨
« « آخر كان يعمل للعباس بن محمد... ... ... ١٠٩
« « العنبر من كتاب ابن العباس ١١٠
وأما الأدهان التى تصلح الشعور وتكثرها الخ — فمنها دهن متخذ من حب
القطن يكثر الشعور ويسوّدها ويذهب بالحاصة ويصفى اللون ... ١١٠
صنعة دهن يصنع من دهن نوى المشمش يجود الشعر ويكثره ويذهب
بالحاصة، وينفع شعر الرأس واللحية منقول من كتاب المعتصم ... ١١٤
صنعة دهن آخر يجود الشعر ويطوله ويكثفه ويقوّى أصوله ويذهب
بالحاصة ١١٦
صنعة دهن فاغية الحناء يصلح لشعور النساء ١١٨
الباب التاسع فى عمل النضوحات والمياه المستقطرة وغير المستقطرة ... الخ
فأما النضوحات ١٢٠
صفة عمل نضوح نقلته من كتاب الزهراوى يدخل فى أصناف
الطيب، ويستعمل للشرب ١٢٢
وأما المياه المستقطرة وغير المستقطرة — فمنها ماء الجورين ١٢٣
وأما ماء الصندل ١٢٤
صفة تصعيد ماء القرنفل ١٢٤
« « « السنبل ١٢٤
« « « الكافور ١٢٤

صفحة

صفة تصعيد ماء الزعفران عن ابن ماسويه ١٢٥
تصعيد آخر استنبطه التميمى ١٢٥
صفة تصعيد ماء الورد الطيب الذى يسمى الغنج ١٢٦
تصعيد ماء ورد آخر ألفه التميمى يستخرج من الورد اليابس ١٢٧
تصعيد ماء ورد ملوكى مرتفع عن ابن العباس ١٢٨
« « المسك وماء الورد ١٢٨
وأما تصعيد ماء الخلوق من كتاب الزهراوى ١٢٨
تصعيد ماء خلوق آخر من كتاب أبى الحسن المصرى ١٢٩
« « « « « كتابه أيضا... ... ... ١٢٩
وأما ماء الميسوس ١٣٠
صنعة ميسوس نادر أخذ عن بختيشوع الطبيب من كتاب العطر
المؤلف للخليفة المعتصم بالله ١٣٠
صنعة نوع آخر من الميسوس عن بختيشوع أيضا من كتابه المذكور ... ١٣٤
وأما ماء التفاح ونضوحه الذى يصنع منه ١٣٦
صنعة عقيد ماء التفاح من كتاب أبى الحسن المصرى ١٣٧
صنعة نضوح ماء التفاح مما ألفه التميمى وركبه فجاء غاية فى الطيب ... ١٣٨
وأما ماء العنب المطيب والعقيد المصنوع منه ١٣٩
صنعة أخرى لماء العنب المطيب من كتاب محمد بن العباس ١٤٠
الباب العاشر فى الأدوية التى تزيد فى الباه وتلذذ الجماع وما يتصل بذلك من
أدوية الذكر والأدوية المعينة على الحبل والمانعة منه ، وغير ذلك —
ذكر الأطعمة النافعة لذلك ١٤٢

صفحة
صفة لون يزيد فى البـاه ١٤٤
صـفة هريسة ١٤٥
وأما الأشربة المركبة التى تزيد فى الباه ١٤٦
ذكر الأدوية المركبة النافعة التى تزيد فى الباه وتغزير المنىّ ١٤٨
ذكر دواء آخر عجيب الفعل فى زيادة المنىّ... ... ... ١٥٠
صفة دواء آخر يزيد فى الباه و يصفى اللون وينفع الكبد والمعدة ١٥١
دواء آخر يهيج شهوة الجمـاع و يصلح لمن انقطعت شهوته فإنه يقويهـا
ويزيد فيها ١٥٢
صفة لبانة تمضغ تزيد فى الباه الخ ١٥٨
ذكر الجوارشنات التى تزيد فى البـاه وتغزر المنى — صـفة جوارش
يغزر المنى... ... ... ١٦٠
صفة جوارش يقوى الباه و يزيد فى الشهوة... ... ... ١٦١
صفة جوارش التفاح يقوى المعدة و يزيد فى الباه ١٦١
ذكر المربيات المقوية للشهوة والمعدة والباه ١٦٢
صفة عمل الراسن المربى، وهو مسخن للكلى والظهر محرك لشهوة الباه ١٦٣
صفة عمل الشقاقل المربى يقوى المعدة والشهوة، و يزيد فى الباه... ... ١٦٤
صفة عمل الجزر المربى الذى يزيد فى الباه ١٦٤
صفة عمل الإهليلج الكابلى المربى... ... ... ١٦٥
صفة عمل التفاح المربى ١٦٦
صفة عمل الجوز المربى وهو مما يزيد فى الباه ١٦٦
ذكر السفوفات التى تزيد فى الباه ١٦٧

صفحة

ذكر الحقن والحمولات المهيجة للباه والمغزرة للمنى والمسمنة للكلى ١٦٨
وأما الحمولات التى تحدث الإنعاظ الشديد ١٧٤
ذكر المسوحات والضمادات التى تزيد فى الباه المقوية للذكر ١٧٦
وأما الضمادات التى تزيد فى الباه وتعين على الجماع ١٨١
ذكر الأدوية الملذذة للجماع ١٨٣
ذكر الأدوية التى تعظم الذكر وتصلبه ١٨٧
ذكر الأدوية التى تضيق فروج النساء وتسخنها وتجفف رطوبتها ... ١٩٠
وأما الأدوية التى تسخن القبل ١٩٥
وأما الأدوية التى تجفف رطوبة الفرج ١٩٦
ذكر الأدوية التى تطيب رائحة البدن وتعطره ١٩٨
صفة قرص حاد يقطع الصنان ١٩٩
دواء آخر يقطع رائحة العرق ١٩٩
صفة دواء آخر يذهب رائحة الإبط ولا يحتاج بعده الى دواء آخر ... ١٩٩
صفة دواء آخر يطيب البدن و ينفع أصحاب الأمزجة الحارة ٢٠٠
صفة دواء آخر يقطع العرق و ينفع أصحاب الأمزجة الحارة ٢٠٠
ذكر الأدوية التى تجلو الأسنان من الصفرة والسواد وتطيب رائحة الفم
والنكهة — فأما السنونات التى تجلو الأسنان ٢٠١
صفة سنون آخر يقوى الأسنان ويجلوها ٢٠٣
وأما الأدوية التى تطيب رائحة الفم والنكهة ٢٠٣
صفة حب آخر يزيل البخر ٢٠٤

صفحة
صفة حب آخر ملوكى ٢٠٥
صفة حب آخر يطيب النكهة ٢٠٦
ذكر الأدوية التى تعين على الحبل والأدوية التى تمنعه — أما الأدوية
التى تعين عليه ٢٠٧
صفة دواء آخر وهو من الأسرار ٢٠٩
وأما الأدوية التى تمنع الحبل ٢١٠
ذكر الأدوية التى تنقص الباه وتمنع من الجماع وتسكن الشهوة وهذه
الأدوية منها مفردة ومنها مركبة — أما المفردة ٢١٢
وأما المركبات — فمنها أغذية وأدوية — أما الأغذية ٢١٣
وأما الأدوية ٢١٤
صفة دواء آخر يقطع شهوة الجماع البتة وهو من الخواص ٢١٥
الباب الحادى عشر فيما يفعل بالخاصية ٢١٧
ذكر الخواص المختصة بالنساء والنكاح التى استقرئت بالتجربة ٢١٧
خاصية من خواص الهنود ٢١٧
سر آخر لجعفر الطوسىّ ٢١٨
ذكر شىء من الخواص غير ما تقدّم ذكره — من ذلك طلسم يجعل على
المائدة فلا يقرّبها ذباب ٢٢٣
ذكر نبذة من خواص الحروف والأسماء ٢٢٥

أهم المصادر التى رجعنا إليها فى تصحيح هذا الجزء

إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى .

أخبار الهند والصين للسيرافى .

إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى لشهاب الدين القسطلانى .

أقرب الموارد لسعيد الخورى الشرتونى اللبنانى .

الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدّى شير .

الأنساب للسمعانى .

الإيضاح فى أسرار النكاح للشيرازى .

بحر الجواهر للهروى .

البرهان القاطع وهو معجم فارسى تأليف محمد حسين بن خلف التبريزى .

البلدان لليعقوبى .

تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى .

تاريخ ابن الأثير .

تاريخ الطبرى .

تبصير المنتبه بتحرير المشتبه للحافظ شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى .

تذكرة داود .

تقويم البلدان لأبى الفداء .

التنبيه والإشراف للمسعودى .

حياة الحيوان للدميرى .

خرائط الإدريسىّ .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى .

الشذور الذهبية فى الاصطلاحات الطبية لمحمد بن عمر التونسى .

شرح الأدوية المفردة من قانون ابن سينا للكازرونى .

شرح تحفة الملوك للتمرتاشى .
شرح الرضى على الكافية .
الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى .
صبح الأعشى للقلقشندى .
عجائب الهند لبزوك الرامهرمزى .
عمدة المحتاج المعروف بالمـادة الطبية للرشيدى .
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة .
الفلاحة النبطية لأبى بكر بن وحشية .
الفهرست لابن النديم .
قاموس الأطباء للقيصونى .
قاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادى .
القانون لابن سينا .
كتاب (كليرتسديل) فى قواعد اللغة الفارسية .
كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى .
كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون لحاجى خليفة .
لب اللباب فى تحرير الأنساب للجلال السيوطى .
لسان العرب لابن منظور .
لطائف الإشارات فى أسرار الحروف والعبارات للبونى .
مالا يسع الطبيب جهله لابن الكتبى .
مايعول عليه فى المضاف والمضاف اليه للحبّى .
مجموعة فى أصول علم البحار لأحمد بن ماجد بن أبى الركائب النجدى .
المخصص لابن سيده .
مشتبه النسبة لعبد الغنى بن سعيد المصرى .
المصباح المنير للفيومى .

المضاف والمنسوب للثعالبي .
مطالع البدور فى منازل السرور للغزولى الدمشقى .
معجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى بك .
معجم البلدان لياقوت .
المعجم الفارسى الإنجليزى لاستاينجاس .
معجم ما استعجم للبكرى .
المعرب من الكلام الأعجمى للجواليقى .
المعرب والدخيل للدنى .
مغنى اللبيب لابن هشام .
مفاتيح العلوم للخوارزمى .
المفردات لابن البيطار .
المكتبة الجغرافيـــة .
منهـاج الدكان ودستور الأعيان لأبى المنى المعـروف بالكهيل العطـار الإسرائيـــلى .
المنهج المنير فى معرفة أسماء العقاقير لم يعلم اسم مؤلفه .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى .
نخبة الدهر لابن أبى طالب الأنصارى الصوفى .
نزهة المشتاق للإدريسى .
نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى .
الوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى .

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

وبه توفيق

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم .

الفنّ الخامس

فى التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ؛ وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ؛ إلى غير ذلك من الآى .

والتاريخ ممّا يحتاج إليه الملك والوزير ، والقائد والأمير ، والكاتب والمُشير والغنىّ والفقير ؛ والبادى والحاضر ، والمقيم والمسافر .

فالملك يعتبر بما مضى من الدّول ومن سلف من الأمم ، والوزير يقتدى بأفعال من تقدّمه ممّن حاز فضيلتى السيف والقلم ؛ وقائد الجيش يطّلع منه على مكايد الحرب ، ومواقف الطعن والضرب ؛ والمشير يتدبّر الرأى فلا يُصدره إلّا عن روية ويتأمّل الأمر فكأنه أعطى درجة المعيّة وحاز فضيلة الألمعيه (١) ؛ والكاتب يستشهد به فى رسائله وكتبه ، ويتوسّع به إذا ضاق عليه المجال فى سِربه (٢) ، والغنىّ يحمد الله تعالى

(١) الألمعية : توقد الذكاء . (٢) سربه ، أى طريقه فى الكتابة .

على ما أولاه من نعمه ورزقه من نواله ، وينفق مما آتاه الله إذا علم أنه لابدّ من زواله وٱنتقاله ؛ والفقير يرغب فى الزهد لعلمه أن الدنيا لا تدوم ، ولتيقّنه أنّ سَعتها بضيقها لا تقوم . ومن عَدا هؤلاء يسمعه على سبيل المسامره ، ووجه المحاضَرة والمذاكره ؛ والرغبة فى الٱطلاع على أخبار الأمم ، ومعرفة أيام العرب وحروب العجم .

فقد تبيّن بهذه المقدّمة تعويل الأمر عليه ، وميل المرء إليه . ٥

وسأورد إن شاء الله فى هـذا الفنّ جُمـلا من تواريخ الأمم السالفة والعصور الخاليه ، وأطرّزه من القصص والسِّيَر بمـا تصبح به صفحات الطروس حاليه .

ولمّـا رأيتُ غالب من أرّخ فى الملة الإسلاميّة وضع التـاريخ على حكم السنين ومَساقِها ، لا الدّول وٱتّساقها ؛ علمتُ أن ذلك ربمـا قطع على ٱلمُطالع لذّةَ واقعة ٱستحلاها ، وقضيّة ٱستجلاها ؛ فٱنقضت أخبار السنة ولا ٱستوعب تكملةَ فصولهـا ١٠ ولا ٱنتهى إلى جملتها وتفصيلها ؛ وٱنتقل المؤرّخ بدخول السنة التى تليهـا من تلك الوقائع وأخبارها ، والممالك وآثارها ، والدولة وسِيَرها ، والحالة وخبرها ؛ فتنقّل من الشرق إلى الغرب ، وعَدَل عن السّلم إلى الحرب ؛ وعطف من الجنوب إلى الشمال وتحوّل من البُكَر إلى الآصال ؛ وقد تجول به خيلُ الٱستطراد فيُبعِد ، وتحول بينـه و بين مقصده السِّنون فيغور (١) تارة وتارة يُنجِد ، فلا يرجع المُطالع إلى ما كان قد أهمّه ١٥ إلّا بعد مشقّة ، وقد يعدل عنه إذا طالت المسافة و بعُدت عليه الشُّقّة .

فٱخترتُ أن أقيم التاريخ دُوَلا ، ولا أبغى عن دولة إذا شرعتُ فيها حِوَلا ؛ حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها ، وأذكر جُملا من وقائعها ومآثرها ؛ وسِياقة أخبار ملوكها ، ونظم عقود سلوكها ؛ ومقرّ ممالكها ، وتشعُّب مَسالكها .

(١) « يغور و ينجـد » ، أى ينخفض و يرتفع . والغـور بفتح أوّله : ما انخفض من الأرض . ٢٠ والنجد : ماارتفع منها ؛ وهما فى هذا الموضع على سبيل الٱستعارة .

فإذا انقضت مدّتها، وانقرضت عِدّتها ؛ وانتقلت من العين إلى الأثر، ومن العِيان إلى الخبر ؛ رجعتُ إلى غيرها فقفوتُ أثرهـا ، وشرحت خبرَها ، وبيّنتُ خُبرها ؛ وذكرتُ أسبابها، وسردت أنسابها ؛ وبدأت بأصلها ، وتفوّهتُ بأخبار من نبغ من أهلها ؛ واستقصيتها دولة بعد دوله ، وجالت بى خيول المطالعة جَولة ناهيك بهـا من جوله ؛ ورغبتُ مع ذلك فى الاختصار دون الاقتصار[1]، وأوردت ما يُحتاج إلى إيراده من غير تكرار ولا إكثار .

فإن عرضتْ واقعة كانت بين ملكين كان وقتهما واحدا،وكان الدهر لأحدهما على الآخر مساعدا؛ شرحتها بجملتها فى أخبار الظافر منهما؛ وأحلت فى أخبار المغلوب عليها، واكتفيت بإيرادها فى أحد الموضعين ولم أعرّج فى الآخر إلا بالإشارة إليها .

وجريت فى تقسيم هـذا الفنّ على القاعدة التى تقدّمت فيما قبـله من الفنون ليكون أبسطَ للنفوس وأنشطَ للخواطر وأقرَّ للعيون ؛ وجعلتُه خمسة أقسام، ووضعتُه على أحسن اتّساق وأكمل انتظام .

القســـم الأوّل

فى مبدأ خلق آدم — عليه السلام — وحوّاء وأخبارهما ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرّس ، وفيه ثمـانية أبواب :

البـاب الأوّل — فى مبـدأ خلق آدم وحوّاء — عليهما السـلام — وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

البـاب الثـانى — فى خبر شيث بنِ آدم — عليهما السلام — وأولاده .

البـاب الثـالث — فى أخبار إدريس النبىّ عليه السلام .

(١) يستفاد من سياق هذه العبارة أن الفرق بين الاختصار والاقتصار أن المراد بالأول : الإيجاز فى شرح كل حادثة مع ذكر جميع الحوادث وعدم ترك واحدة منها . وبالثانى ، الاكتفاء بذكر بعض الحوادث عن بعض .

الباب الرابع — فى قصّة نوح — عليه السلام — وخبر الطُّوفان .

الباب الخامس — فى قصة هود — عليه السلام — مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم .

الباب السادس — فى قصّة صالح — عليه السلام — مع ثمود وعَقرهم الناقة وهلاكهم . ٥

الباب السابع — فى أخبار أصحاب البئر المعطَّلة والقصر المَشيد وهلاكهم .

الباب الثامن — فى خبر أصحاب الرّس ، وما كان من أمرهم .

القسم الثانى

فى قصة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبره مع النمروذ [لعنه الله] ١٠ وقصّة لوط وخبر إسحاق و يعقوب ، وقصّة يوسف وأيّوب وذى الكفل وشعيب — عليهم السلام — وفيه سبعة أبواب :

الباب الأوّل — فى قصة إبراهيم الخليل — عليه السلام — وأخبار نمروذ بن كنعان .

الباب الثانى — فى خبر لوط مع قومه وقلبِ المدائن . ١٥

الباب الثالث — فى خبر إسحاق و يعقوب عليهما السلام .

الباب الرابع — فى قصّة يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

الباب الخامس — فى قصّة أيوب — عليه السلام — وآبتلائه وعافيته .

الباب السادس — فى خبر ذى الكِفل بن أيوب عليهما السلام .

الباب السابع — فى خبر شُعيب — عليه السلام — وقصّته مع مَدين[1] . ٢٠

(١) مع مدين ، أى مع أهل مدين .

القســـم الثـالث

يشتمل على قصّـة موسى بن عمران — عليـه السلام — وخبره مع فرعون وخبر يوشع ومَن بعـدَه وخبر حِزْقِيلَ وإليـاس واليسع وغيلا وأشمويل وطالوت وجالوت وداود وسليمان وسَعْيَا وإِرْمِيَاءَ وخبر بُخْتُنَصَّرَ وخراب بيت المقدس وعمارته ٥ ومايتصل بذلك من خبر عُزَير وقصّة يونس بن متّى وخبر بلوقيا وخبر زكريا ويحيي وعمران ومريم وعيسى — عليهـم السلام — وخبرِ الحواريّين وما كان من أمرهم وخبر جِرجيسَ، وفيه ستة أبواب :

وذيّلتُ على هـذا القسم ذيلا يشتمل على أبواب أربعة ، ذكرتُ فيها ما قيل فى الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى — عليه السلام — إلى الأرض ، وأخبار ١٠ المهدىّ والدجّال، ونزول عيسى — عليه السلام — ومدّة إقامته فى الأرض ووفاته وما يكون بعده، وشيئا من أخبار الحشر والمعاد .

وإنمـا ذكرتُ هـذا الذيل فى هـذا الموضع — وإن كان غير داخل فى فنّ التاريخ — لأن النفوس لمـا كانت مائلةً إلى الاطّلاع على أخبار مامضى من الزمان ومن سلف من الأمم ، فميلُها إلى الاطّلاع على ما يظهر فى مسـتقبل الزمان أكثر ١٥ وتشوّقها إليه أوفر؛ فأوردتُ ما أذكره لهذا السبب، ولأنّ كتابنا هـذا ليس مبناه على مجرّد التاريخ بل هو كتاب أدب ، لا تُخرجه هذه الزيادة عن شرطه .

البـاب الأوّل — فى قصّـة موسى بن عمران وهرون عليهما السـلام وغرق فرعون، وأخبار بنى إسرائيـل وخبر قارون وحروب موسى وخبر الجبّارين وبلعم وغير ذلك .

الباب الثانى — فيما كان بعد موسى بن عمران — عليه السلام — وهو أخبار يوشع وخبر حِزْقِيلَ وإلياس واليسع وغيلا وأشمويل وطالوت وجالوت وداود وسليمان — عليهم السلام — ومَن بعدهم .

الباب الثالث — فى أخبار سَعْيَا وإِرْمِياءَ وخبر بُخْتُنَصَّرَ وخراب بيت المقدس وعمارته، وما يتّصل بذلك من خبر عُزَيْر . ٥

الباب الرابع — فى قصّة ذى النُّون يونس بن متّى — عليه السلام — وخبر بلوقيا .

الباب الخامس — فى خبر زكريّا ويحيى وعمران ومريم ابنته وعيسى ابن مريم عليهم السلام .

الباب السادس — فى أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسى وما كان من أمرهم وخبر جِرْجِيس . ١٠

التذييل على هذا القسم ، وفيه أربعة أبواب

الباب الأوّل — فى ذكر الحوادث التى تَظهر قبل نزول عيسى بن مريم عليه السلام .

الباب الثانى — فى خبر نزول عيسى إلى الأرض وقتل الدجّال وخروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام . ١٥

الباب الثالث — فى ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم الى النفخة الأولى .

الباب الرابع — فى أخبار يوم القيامة والحشر والمَعاد والنفخة الثانية فى الصّور . ٢٠

القســـم الرابـع

فى أخبار ملوك الأصقاع ، وملوك الأمم والطوائف ، وخبر سَيْلِ العَرِم ، ووقائع العرب فى الجاهليّة ، وفيه خمسة أبواب

البـاب الأوّل — فى أخبار ذى القرنين المذكور فى كتاب الله عزّ وجلّ.

٥ البـاب الثـانى — فى أخبار ملوك الأصقاع ، وهم ملوك مصر والهند والصين والترك وجبل الفتح .

البـاب الثـالث — فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم ، وهم ملوك الفُرس الأول ، وملوك الطوائف من الفُرس ، والملوك الساسانيّة منهم ، وملوك اليونان والسريان والكَلْدانيّين والروم والصقالبة والنُّوبرد[1] والفَرَنْجـة والجَلالِقة وطوائف

١٠ السودان .

البـاب الرابـع — فى أخبـار ملوك العرب ، وما يتّصل بهـا من خبر سَـيْلِ العَرِم .

البـاب الخامس — فى أيّام العرب ووقائعها فى الجاهليّة .

القســـم الخـامس

١٥ فى أخبار الملّة الإسلاميّة وذكرِ شىء من سيرة نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — وأيام الخلفاء من بعده — رضى الله عنهم — والدولة الأمويّة والعباسيّة والعَلَويّة ودُوَلِ ملوك الإسلام وأخبارهم ، وما فتح الله عليهم ، وفيه اثنا عشر بابا

(١) النوبرد ، هم اللونبرد سكان لومبرديا ، وهم الإقليم المعروف فى شمال إيطاليا انظر (تقويم البلدان) ص ٢٠٨ طبع أوربا . وفى بعض الكتب : النوكبرد .

الباب الاوّل — فى سيرة سيّدنا رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — .

الباب الثانى — فى أخبار الخلفاء من بعده : أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ، وآبنه الحسن — رضى الله عنهم — .

الباب الثالث — فى أخبار الدولة الأمويّة بالشأم وغيره .

الباب الرابع — فى أخبار الدولة العباسيّة بالعراق ومصر . ٥

الباب الخامس — فى أخبار الدولة الأُمويّة بالأندلس ، وأخبار الأندلس بعد آنقراض دولتهم .

الباب السادس — فى أخبار افريقية وبلاد المغرب ومن وَلِيَها من العمّال، ومن آستقلّ بالمُلك .

الباب السابع — فى أخبار من نهض فى طلب الخلافة من الطالبيّين ١٠ فى الدولتين : الأمويّة والعباسيّة فقُتل دونها بعد مقتل الحسين بن علىّ — رضى الله عنهما — .

الباب الثامن — فى أخبار صاحب الزِّنْج والقَرامطة والخوارج ببلاد المَوْصِل .

الباب التاسع — فى أخبار من آستقلّ بالمُلك والممالك فى البلاد الشرقيّة ١٥ والشّماليّة فى خلال الدولة العبّاسيّة ، وهم ملوك خُراسان وما وراء النهر والجبال وطَبَرِسْتانَ وغَزْنةَ والغُورِ وبلاد السِّند والهند ، كالدولة السامانيّة ، والدولة الصّفّارية ، والدّولة الغَزْنَوِيّة ، والدولة الغُوريّة ، والدولة الدَّيْلَمِيّة الخُتُلّيّة .

الباب العاشر — فى أخبار ملوك العراق وما والاه ، وملوك المَوْصِل والديار الجزيريّة والديار البَكْريّة والبلاد الشاميّة والحلبيّة ، كالدولة الحَمْدانيّة ، والدولة ٢٠ الدَّيْلَمِيّة البُوَيْهِيّة ، والدّولة السَّلْجُقيّة ، والدولة الأَتابكيّة .

الباب الحادى عشر — فى أخبار الدولة الخُوارَزْميّة والدولة الجنكزخانيّة وهى دولة التتار (جنكزخان وأولاده) وما تفرّع منها .

الباب الثانى عشر — فى أخبار ملوك الديار المصريّة الّذين ملكوا فى خلال الدولة العباسيّة نيابةً عن خلفائها، وهم الملوك الطُّولونيّة والملوك الإخْشيديّة، ومَن ٥ آستقلّ بمُلكها وآنتزعها وأخرجها من يد نوّاب خلفاء الدولة العباسيّة، وهم الملوك العُبَيْديّون الّذين آنتسبوا إلى العَلَويّين ، وما كان من أمرهم من آبتدائه إلى آنتهائه وما ملكوه من بلاد المغرب ، وكيف آستولَوا على الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والثغور الساحليّة ، وآنقراض دولتهم ، وقيام الدولة الأيّوبيّة وأخبار ملوكها بمصر والشأم إلى حين آنقراضها، وقيام دولة الترك ومن مَلَك منهم وما حازوه من الأقاليم ١٠ وما فتحوه من الممالك وآستنقذوه من أيدى الأفرنج والأَرْمَن والتّتار وغيرهم (١) وما آستقرّ فى مُلك هذه الدولة من الممالك إلى حين وضعِنا لهذا التأليف فى سنة ... وسبعمائة فى أيّام مولانا السلطان السيّد الأجلّ المالك (الملك الناصر)، ناصر الدنيا والدين، محمد آبن السلطان الشهيد المالك، الملك المنصور سيف الدنيا والدين (قَلاوون) الصالحىّ، خلّد الله تعالى مُلكَه على ممرّ الزمان، وسَقَى عهد والده صَوْبَ ١٥ الرحمة والرضوان .

هذا جملة ما آشتمل عليه هذا الفنّ من الأقسام والأبواب ، والله تعالى المرشد والهادى والموفّق إلى الصواب، بمنّه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

(١) موضع هذه النقط الثلاث بياض بالأصول؛ والظاهر أن هذا البياض من المؤلف نفسه؛ ولعل سبب ذلك أن كتابه هذا لم يوضع فى سنة معينة فيحدّدها، بل وضع فى سنين . والمعروف أن المؤلف ٢٠ توفى فى سنة آثنين وثلاثين وسبعمائة .

القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى مبدأ خلق آدم وحوّاء — عليهما السلام — ودخولهما الجنة، وما كان بينهما وبين إبليس — لعنه الله — وهبوطهما إلى الأرض وآجتماعهما بعد الفرقة، وخبر حرثه وزرعه، وحَمْلِ حوّاء ووضعها، وخبر ابنى آدم هابيلَ وقابيلَ، ونبوّة آدم — عليه السلام — ووفاته، وخبر شيثٍ وأولادِه، وقصّة إدريس ونوح وهود وصالح — عليهم السلام — وخبر أصحاب البئر المعطّلة والقصرِ المشيد، وخبر أصحاب الرسّ ٥

وفيه ثمانية أبواب

الباب الأوّل — من هذا القسم فى مبدأ خلق آدَم وحوّاء — عليهما السلام — وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

ذكر خَلق آدم عليه السلام ١٠

خلق الله تبارك وتعالى آدم — عليه السلام — من تراب، بدليل قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ وقولِه تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ ٱللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وقولِه تعالى إخبارا عن إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ وهذا أمر بيّنٌ واضح لاخلاف فيه، ولايحتاج إلى زيادة فى إقامة دليل وإيضاح . ١٥

وقيل : إنما سمّى آدم لأن الله تعالى خلقه من أديم الأرض .

وعن وهب بن منبّه أن راسه من الأرض الأولى، وعنقه من الثانية، وصدره من الثالثة، ويديه من الرابعة، وبطنه وظهره من الخامسة، وفخذه ومذاكيره وعجزه من السادسة، وساقيه وقدميه من السابعة .

وعن عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — أنّ الله تعالى خلقه من الأقاليم السبعة .

وقيل : إن عزرائيل أخذ من تراب الأرض كلّها أبيضها وأحمرها وأسودها وعَذْبها ومالحها، فهو مخلوق من ذلك التراب .

٥ قال : ولمّا خلقه الله — عزّ وجلّ — وصوّره على هذه الصورة الآدميّة، أمر الملائكة أن يحملوه ويضعوه على باب الجنّة عند ممرّ الملائكة ، وكان جسدا لا روح فيه، فكانت الملائكة يعجبون من خلقته وصورته، لأنّهم لم يكونوا رأَوا مِثله قط وكان إبليس يطيل النظر إليه ويقول : ما خلق الله تعالى هذا إلّا لأمر . وربما دخل فيه، فاذا خرج قال : إنه خَلْقٌ ضعيف، خُلِق من طين أجوف، والأجوف ١٠ لا بدّ له من مَطعَم ومَشرَب .

ويقال : إنه قال للملائكة : ما تعملون إذا فُضِّل هذا المخلوق عليكم ؟ فقالوا : نطيع أمر ربّنا ولا نعصيه . فقال إبليس : إنْ فضّله عليّ لأعصينّه ، وإنْ فضّلنى عليه لأُهلكنّه .

ذكر دخول الرُّوح فيه

١٥ قال : ولمّا أراد الله تعالى نفخ الرُّوح فيه أمر بروحه فغُمستْ فى جميع الأنوار وليست كأرواح الملائكة ولا غيرها من المخلوقات .

قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ الاية .

وقال تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ الآية .

قال : فأمرها الله تعالى أن تدخل فى جسد آدم بالتأنّى دون الاستعجال ٢٠ فرأت مدخلا ضيّقا حَرَجا ، فقالت : ياربّ ، كيف أدخل ؟ فنوديتْ « ادخلى كَرْها وآخرجى كَرْها » . فدخلتْ من يافوخه إلى عينيه ، ففتحها آدم ونظر إلى

نفسه طينا، ثم صارت إلى أذنيه، فسمع تسبيح الملائكة، وجعلت الروح تمر فى رأسه والملائكة ينظرون إليه، ثم صارت إلى الخياشيم، فعطس، فانفتحت المجارى المسدودة؛ وصارت إلى اللّسان؛ فقال آدم: «الحمد لله الذى لم يزل ولا يزول» وهى أوّل كلمة قالها. فناداه الرب: "يرحمك ربّك يا آدم، لهذا خلقتك، وهذا لك ولذرّيتك". وسارت الروح فى جسده حتى بلغت الساقين، فصار آدم لحما ودما وعظما وعروقا، غير أنّ رجليه من طين؛ فذهب ليقوم فلم يقدر وهو قولُه تعالى: ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾.

فلمّا صارت إلى الساقين والقدمين آستوى قائما على قدميه يوم الجمعة.

فقيل: إنّ الروح آستوت فى جسده فى خمسمائة عام عند نزول الشمس.

ذكر سجود الملائكة لآدم

قال: فلمّا آستوى قائما أمر الله الملائكة بالسجود له؛ فسجدوا كلُّهم إلّا إبليس، كما أخبر الله تعالى عنه؛ قال الله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ آسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ الآيات.

قال: وكان السجود لآدم يوم الجمعة عند الزوال، فبقيت الملائكة فى سجودها إلى العصر.

قال وعلّم الله تعالى آدم الأسماء كلّها واللغات بأجمعها.

قال آبن عبّاس — رضى الله عنهما —: علّمه حتى لغة الحيتان والضفادع وجميع ما فى البرّ والبحر، ثم أمر الملائكة أن يحملوه على أكتافهم، ويطوفون به فى طرائق السمٰوات؛ ففعلوا ذلك.

ثم أمر جبريلَ أن ينادى فى صفوف الملائكة أن يجتمعوا؛ فاجتمعوا واصطفّوا عشرين ألف صفّ ، ووُضع لآدم مِنبرُ الكرامة، وعليه ثياب السندس الأخضر وله ضفيرتان محشوّتان بالمسك والعنبر بطُوله ، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصّع بالدرّ والجوهر؛ فانتصب على المنبر، وسلم على الملائكة، فأجابته بردّ السلام وخطب فحمد الله، ثم ذكر علم السمٰوات والأرضين وما فيهما ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

ونزل آدم عن منبره ، فجىء بِقطف من عنب أبيضَ فأكله ، وهو أوّل شىء أكله من طعام الجنّة، ثم أخذته سِنةٌ فنام .

ذكر خَلْق حوّاء عليها السلام

قال : ولمّا نام آدم خلق الله تعالى حوّاء من جنبه الأيسر ، من ضلعه مما يلى الشُّرسوف، وهو ضِلْعٌ أعوَج ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ فكانت على طول آدم وحسنه وجماله ، إلّا أنها أرقّ جِلدا منه ، وأحسن صوتا ، ولها ضفائر مرصّعة محشوّة بالمسك تُسمع لذوائبها خَشخَشة ، فجلستْ عند رأسه، فانتبه فرآها، فتمكّن حبُّها من قلبه؛ فقال : ياربّ، مَن هذه ؟ قال : أَمَتى حوّاء . فقال : ياربّ لمن خلقتَها ؟ قال : لمن أخذها بالأمانة، وأصدقها الشكر . قال : ياربّ، أنا أقبلها على هذا فزوِّجنيها . فزوّجها إياه قبل دخول الجنة على الطاعة والتقوى والعمل الصالح ، ونثرتْ عليهما

الملائكة من نثار الجنّة، وأوحى الله إلى آدم، أن آذكر نعمتى عليك، فإنّى خلقتك ببديع فطرتى، وسوّيتك بَشرا على مشيئتى، ونفختُ فيك من رُوحى، وأسجدتُ لك ملائكتى، وحملتُك على أكتافهم، وجعلتُك خطيبهم، وأطلقتُ على لسانك جميع اللّغات، وجعلت ذلك كلّه فخرا وشرفا لك، وهذا إبليس قد أبلستُه[1] ولعنتُه حين أبى أن يسجد لك، وقد ختمتُ كرامتى لك بأمّتى حوّاء، وقد بنيتُ لكما دارَ الحيوان[2] من قبل أن أخلقكما بألفى عام، على أن تدخلاها بعهدى وأمانتى.

ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

قال: وهى أن يكافأوا على الإحسان، ويعذّبوا على الإساءة؛ فأبَوا؛ فعرضتْ على آدم، فقيل له: إن أطعتَ كافأتُك بالإحسان، وخلّدتك فى الجنان؛ وإن تركتَ عهدى أخرجتك من دارى، وعذّبتك بنارى. فقبل آدم الأمانة، فعجب الملائكة من ذلك؛ ثم مُثّل له ولحوّاء إبليس، وقيل له: ﴿ هٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾.

ثم ناداهما الرب: إنّ من عهدى إليكما وأمانتى أن تدخلا الجنة ﴿ فَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾. فقبلا هذه العهود كلّها.

ثم أمر الله تعالى بإدخالهما الجنّة، فحُمل آدم على الفرس الميمون، وحوّاء وراءه على الناقة، والملائكةُ عن اليمين والشمال وأمامهما وخلفهما حتى بلغوا باب الجنّة ودخلا وآستقرّا بجنّة عدن فى وسط الجنّة بعد أن طافا بالجنان، فقدّم إليهما من

(١) أبلسه الله: أيأسه من رحمته؛ يستعمل متعديا كما هنا ولازما.
(٢) دار الحيوان، أى دار الحياة الدائمة.

فواكه الجنّة فأكلا ، فكانا فى الجنّة خمسمائة عام من أعوام الدنيا فى أتمّ السرور وأنعم الأحوال .

ذكر خبر إبليس والطاوس والحيّة

قال : ولمّا سمع إبليس أن الله تعالى أباح لآدم أن يأكل من ثمار الجنّة إلّا شجرة واحدة ، فرح بذلك ، وقال : لأخرجنّهما من الجنة . ثم مرّ مستخفيا فى طرقات السمٰوات حتى وقف على باب الجنّة ، فإذا الطاوس قد خرج من الجنة وله جناحان إذا نشرهما غطّى بهما سِدرةَ المنتهَى ، وله ذَنَب من الزمرّد الأخضر على كلّ ريشة منه جوهرة بيضاء ، وعيناه من الياقوت الأحمر ، وهو أطيب طيور الجنّة صوتا وتغريدا ، وكان يخرج ويمرّ فى السموات يَخطِر فى مِشيته ويرجع إلى الجنّة .

فلما رآه إبليس كلّمه بكلام ليّن ، وقال : أيّها الطائر العجيب الخلق الطيّب الصوت ، مَن تكون من طيور الجنة ؟ فقال : أنا الطاوس ، فمالك أيها الشّخص كأنّك مرعوب تخاف من طالب يطلبك ؟ قال إبليس : أنا من ملائكة الصَّفيح[1] الأعلى من زُمرة الكَرُوبيين[2] ، وقد أحببتُ أن أنظر إلى الجنّة وإلى ما أعدّ الله فيها لأهلها فهل لك أن تُدخلنى الجنّة وأنا أعلّمك ثلاثَ كلمات من قالها لا يَهرَم ولا يَسقُم ولا يموت ؟ فقال له : وأهل الجنّة يموتون ؟ قال : نعم ويَسقُمون ويَهرَمون إلّا من كانت عنده هذه الكلمات ، وحلف له على ذلك ، فوثق به الطاوس ولم يظنّ أحدا يحلف بالله كاذبا ؛ فقال : ما أحوجنى إلى هذه الكلمات ، غير أنّى أخاف أن يستخبرنى (رضوان) عنك ، ولكنى أبعث إليك الحيّة فإنّها سيّدة دوابّ الجنة .

(٧)

(١) الصفيح : من أسماء السماء .

(٢) الملائكة الكروبيون بفتح الكاف ، هم سادة الملائكة ، وهم المقربون . قيل : إنهم سموا الكروبيين لأنهم هم المتصدون للدعاء بدفع الكرب عن الناس .

قال: وجاء الطاوس إلى الحية وهى يومئذ على صورة الجمل، ولها زغب كالعبقرى[1] ما بين أبيضَ وأحمر وأسود وأخضر، ولها عُرف من اللؤلؤ، وذوائبُ من الياقوت ورائحة كرائحة المسك والعنبر، وكان مسكنها فى جنّة المأوى، وكانت تساير آدم وحوّاء فى الجنة، وتخبرهما بالأشجار.

فلما أخبرها الطاوس بالخبر أسرعت الحية نحو باب الجنة، فتقدم إبليس إليها وقال لها كقوله للطاوس، وحلف لها؛ فقالت: حسبُك، ولكن كيف أُدخلك؟ فقال: إنى أرى ما بين نابيك فُرْجة، وهى تسعنى. ففتحت الحيّة فاهَا، فوثب وقعد بين نابيها، فصار نابها إلى آخر الدهر سمّا، وضمّت الحيّة شفتيها، ودخلتْ الجنّةَ ولم يكلّمها رضوانُ للقضاء السابق؛ فلمّا توسّطت الجنّة قالت: أُخرج وعجّل. قال: إن حاجتى من الجنة آدم وحوّاء، فانى أريد أن أكلّمهما مِن فيك، فإن لم تفعلى ذلك فما أعلّمك الكلمات، فجاءت إلى حوّاء فقال إبليس مِن فيها: ياحوّاء، ألست تعلمين أنّى معك فى الجنة، وأحدّثك بكلّ ما فيها، وأنا صادقة فى كلّ ما حدّثتُك به؟ قالت حوّاء: نعم؛ قال إبليس: ياحوّاء، أَخبرينى ما الّذى أحلّ لكما ربّكما من هذه الجنة وحرّم عليكما؟ فأخبرته بما نهاهما عنه؛ فقال إبليس: لماذا نهاكما عن شجرة الخُلد؟ فقالت حوّاء: لا أعلم بذلك؛ قال: أنا أعلم، إنما نهاكما لأنه أراد ألّا يفعل بكما ما فعل بالعبد الذى مأواه تحت شجرة الخلد.

هذا وحوّاء تظنّ أن الخطاب لها من الحيّة؛ فوثبتْ حوّاء عن سريرها لتنظر إلى العبد، فخرج إبليس مِن فيها كالبرق، فقعد تحت الشجرة، فأقبلتْ

(١) العبقرى: الطنافس الثخان، الواحدة عبقرية.

حوّاء فوقفت بالبعد منه ونادته : مَن أنت أيها الشخص ؟ قال : خَلْقٌ من خَلْق الله ، خلقنى من نار كما تَرِينى، وأنا فى هذه الجنة منذ ألفى عام ، خلقنى كما خلقكما بيده ، ونفخ فىّ من روحه، وأسجد لى ملائكته ، وأسكننى جنّته، ونهانى عن أكل هذه الشجرة ، فكنت لا آكل منها ، حتى نصحنى بعض الملائكة وقال لى : كلْ منها ، فإنّ من أكل منها كان مخلّدًا فى الجنّة أبدا . فأكلتُ منها ، فأنا فى الجنة إلى وقتى هذا، قد أمنتُ الهَرَم والسقم والموت والخروج من الجنّة .

ثم قال : والله (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ) ثم نادى : ياحوّاء اسبقِى وكلى قبل زوجك، فمن سبق كان له الفضل على صاحبه . فأقبلتْ حوّاء إلى آدم وهى مستبشرة فرحة ، فأخبرته بخبر الحيّة والشخص ، وأنه قد حلف لها بأنّه لهما لمن الناصحين ، فذلك قولُه تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ؛ وتقدّمت حوّاء إلى الشجرة ولها أغصان لا تحصى، وعلى الأغصان سنابل ، كل حبة منها مِثل قِلال هَجَر[1]، ولها رائحة كالمسك، أبيض من اللبن وأحلى من العسل ؛ فأخذتْ منها سبعَ سنابل من سبعة أغصان، فأكلت واحدة وآدّخرت واحدة، وجاءت بخمس إلى آدم .

قال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — : لم يكن لآدم فى ذلك أمر ولا إرادة بل كان فى سابق العلم ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . فتناول آدم السنابلَ من يدها، وقد نسى العهد الذى أخذ عليه من أجلها، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ فذاق من الشجرة كما ذاقت حواء؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ .

(١) هجر : ناحية البحرين كلها ؛ وهى معروفة بالقلال التى كانت تجلب منها إلى المدينة .

قال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : والذى نفسى بيده ماساغ آدم من تلك السنابل سنبلة واحدة حتى طار التاج عن رأسه، وعرى من لباسه، وانتُزعت عنه خواتمه، وسقط كلُّ ما كان على حوّاء من لباسها وحليّها وزينتها، وناداهما كلّ ما طار عنهما : « يا آدم طال حزنك، وعظمت رزيّتك، وعليك السلام إلى يوم اللّقاء » . ولم يبقَ عليهما من لباسهما شىء، ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ؛ ونظر كلٌّ منهما إلى سَوءة صاحبه ؛ وهربَ إبليس فسار مستخفيا فى طرائق السمٰوات، وصاح آدم صيحة عظيمة، ولم يبق فى الجنة شىء إلّا لامه، وانقبضت عنه الأشجار ؛ فلمّا كثرت عليه الملامات مرّ هاربا على وجهه، فالتفّت عليه شجرة الطَّلْح وأمسكته ونادته : إلى أين تهرب يا عاصى؛ واضطربت الملائكة لذلك؛ والله الموفّق للصواب .

ذكر خروج آدم وحوّاء من الجنة

قال : وأمر الله جبريل فجاء إلى آدم وقبض على ناصيته، وخلّصه من الشجرة؛ فلما صار به إلى باب الجنة وأخرج رجله اليمنى وبقيت اليسرى، نودى : ياجبريل قف به على باب الجنّة حتى يخرج معه أعداؤه الذين حملوه على أكل الشجرة لكى يراهم ويرى ما يُفعل بهم . فوقفه هنالك، فناداه الربّ : يا آدم إنّما خلقتك لتكون عبدا شكورا، لا لتكون عبدا كفورا . قال : يا ربّ أسألك أن تعيدنى إلى تُربتى التى خلقتنى منها لأكون ترابا كما كنتُ أوّل مرّة . قال : يا آدم، كيف أعيدك إلى تربتك وقد سبق علمى أن أملأ من ظهرك الجنّة والنار .

وأخرج آدمُ حوّاء وقد استترت بورقة من ورق الجنة بإذن الله؛ فلمّا رأت آدمَ صاحت وقالت : يالهـا من حسرة؟ فوقفتْ خارج الجنّة، ثم أتى بالطاوس وقد

طعنته الملائكة حتى قطعت ريشه، وجبريل يجرّه ويقول : اخرج من الجنة خروج الأبد، فإنّك شؤم أبدا ما بقيت؛ ثم أتى بالحية وقد جذبتها الملائكة جذبا شديدا، وهى ممسوخة "مبطوحة" على بطنها لا قوائم لها، وصارت ممدودة مشوّهة، ومُنعت النطقَ فصارت خرساء، مشقوقة اللسان، فقالت لها الملائكة : لا رحمك الله ولا رحم من يرحمك .

ثم حُجبتْ حوّاء عن آدم من هناك؛ ومرّ به جبريل فى طرائق السموات، ونظرت إليه الملائكة عريانا ففزعت منه، وقالت : إلهنا، هذا آدم بديع فطرتك أقله عثرته . وآدم قد ترك يده اليمنى على رأسه ، واليسرى على سَوأته ، ودموعه تجرى على خدّيه ، وكلّما مرّ على ملإ من الملائكة يوبّخونه على نقض عهد ربّه وميثاقه، وأكثروا عليه فى الملامة والتوبيخ؛ فقال لهم : يا ملائكة ربّى، ارحمونى ولا توبّخونى، فالّذى جرى علىّ بقضاء ربّى، حيث قال : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية .

ذكر سؤال إبليس — لعنه الله تعالى —

قال : وقال إبليس : ياربّ أضللتنى وأغويتنى وأبلستَنى، وكان ذلك فى سابق علمك ﴿فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهى النفخة الأولى، ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

قال الله تعالى ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

قال إبليس: أنظرتَنى فأين يكون مسكنى؟ قال: إذا هبطتَ إلى الأرض فمسكنك المزابل. قال : فما قراءتى؟ قال : الشعر والغناء . قال : فما مؤذّنى؟ قال : المزمار.

قال : فما طعامى؟ قال : مالم يُذْكر آسمى عليه . قال : فما شرابى ؟ قال : الخمور . قال : فما بيتى ؟ قال : الحمّامات ؛ قال : فما مجلسى ؟ قال : الأسواق . قال : فما شِعارى؟ قال : لعنتى . قال : فما دِثارى ؟ قال : سُخطى . قال : فما مَصايدى ؟ قال : النساء . قال : فوعزّتك لا أخرجتُ محبّة النساء من قلوب بنى آدم أبدا . قيل له : يا ملعون ، فإن ربّك لا ينزع التوبة من ولد آدم حتى يتغرغر بالموت ، ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

ذكر سؤال آدم — عليه السلام —

قال : فعند ذلك قال آدم : ياربّ هذا إبليس قد أعطيتَه النَّظِرة، وقد أقسم بعزّتك أنّه يُغوى أولادى ، فبما ذا أحترز من مَكايده ؟ فنودى ، ياآدم ، إنّى قد منتُ عليك بثلاث خصال ، واحدةٌ لى ، وهى أن تعبدنى لا تشرك بى شيئا ؛ وواحدة لك، وهى ماعملتَ من صغيرة أو كبيرة من الحسنات فلك بالحسنة عشر وإن عملتَ سيئة فواحدة بواحدة، وإن آستغفرتنى غفرتها لك وأنا الغفور الرحيم ؛ وواحدة بينى وبينك ، وهى أنّ منك المسألة ومنّى الإجابة، فآبسط يدك وآدعنى فإنّى قريب مجيب .

فصاح إبليس حسدا لآدم وقال : كيف أكيد ولد آدم الآن؟ فنودى : يا ملعون ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ . قال إبليس : زدنى يا ربّ ؛ قال لا يولد لآدم ولد إلّا يولد لك سبعة : قال : ربّ زدنى؛ قال : زدتك أن تجرىَ منهم مجرَى الدم فى عروقهم، وتسكنَ فى صدورهم . فقال : ياربّ حسبى ؛ ثم قال علام أهبِط إلى الأرض ؟ قال : على الإياس من رحمتى .

قال : ثم نظر آدم إلى الحيّة وقال : ربِّ هـذه اللعينةُ هى التى أعانت عدوّى علىّ، فبماذا أتقوّى عليها ؟ فقيل له : قد جعلتُ مسكنها الظلمات، وطعامها التراب فإذا رأيتَها فاشْدَخ رأسها .

وقيـل للطاوس : مسكنك أطرافُ الأنهار ، ورزقك ممّـا تنبته الأرض من حَبّها، وألقى عليك المحبّة حتى لا تُقتل .

ذكر سؤال حوّاء — عليها السلام —

قال : ثم قالت حوّاء : إلهى خلقتنى من ضِلَع أعوج، وجعلتنى ناقصة العقـل والدين والشهادة والميراث ، وضربتَنى بالنجاسة ، وحرمتَنى الجُمُعـة والجماعات ؛ — وذكرتْ مشقّة الحمل والولادة — فأسألك أن تعطينى مِثلَ ما أعطيتهم .

فقيل لهـا : قد وهبتُ لك الحياء والأنس والرحمة ، وكتبتُ لك من ثواب الحبـل والولادة مالو رأيته لقرّت به عيناك، فأىّ امرأة ماتت فى ولادتها حشرتُها فى زمرة الشهداء . قالت : حسبى ياربّ .

قال : ثم أمر الله بعد ذلك أن يهبطوا إلى الأرض؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . فهبَط آدم من باب التوبة ، وحوّاء من باب الرحمة ، وإبليس من باب اللّعنـة ، والطاوس من باب الغضب، والحيّة من باب السُّخط، وكان ذلك وقت العصر .

قال السّدّىّ : فمن هذه الأبواب تنزل التوبة والرحمة واللّعنة والغضب والسُّخط .

قال وهب : خلق الله آدم يوم الجمعة، وفيه دخل الجنّة وأقام فيها نصف يوم مقدار خمسمائة عام، وأهبط بين الظهر والعصر من باب يقال له (المبرم)(١) وهو حذاءَ البيت المعمور .

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصول الثلاثة وكتاب الكسائى المنقول عنه هذا الكلام .

قال كعب : أهبط آدم إلى بلاد الهند على جبل من جبالها يقال له (بُوذ) وهو جبل محيط بأرض الهند ؛ وأهبطتْ حوّاء بجُدّة ، وإبليس بدَسْتِميسان[1] ، والحيّة أَصفَهان ، والطاوس بالبحر ؛ ففرّق الله بينهم فلم ير بعضُهم بعضا حينا ، ولم يكن على آدم يوم أهبط إلّا ورقةٌ من أوراق الجنة ، فذَرَتْها الرياح فى بلاد الهند فصارت معدنا للطِّيب .

وأخذ آدم فى البكاء مائة عام حتى نبت من دموعه العُود والزنجبيل والصندل والكافور وأنواع الطِّيب ، وآمتلا ت الأودية بأطيب الأشجار ؛ وبكت حوّاء فنبت من دموعها القرنفل والأفاويه ؛ وكانت الريح تحمل كلامه إليها وكلامها إليه .

ثم أنبت الله — عزّ وجلّ — لآدم الشَّعر واللِّحية ، وكان قبل ذلك أمرد وجسده كالفضّة ، فتألّم لذلك ألما شديدا .

قال وهب : أوّل من علم بهبوط آدم من حيوان الأرض النَّسْر ، وكان قد أَلِف الحوت ، فجاء إليه وقال له : إنى رأيت اليوم خَلْقا عظيما ينقبض وينبسط ، ويقوم ويقعد ، ويجىء ويذهب . فقال الحوت : إن كان ما تقوله حقّا فقد حان ألّا يكون لى معه مقرّ فى البحر ولا لك فى البرّ ، وهذا الوداع بينى وبينَك . فجاء النَّسر إلى آدم وأَلِفه ، وجاءه الوحش والطير وأَلِفوه وبكَوا لبكائه دهرا طويلا ، فلمّا أضجرهم ذلك نفروا عنه ولم يبق عنده إلّا النَّسْر وحده وهو لا يَفْتُر عن البكاء .

قال وهب : بكى آدم حتى بكت الملائكة لبكائه وقالوا : « إلٰهنا أقله عثرتَه » .

(١) دستميسان : كورة بين واسط والبصرة والأهواز .

قال : وبقى من دموعه فى الأرض — بعد أن كَفّ عن البكاء — ما شربه الوحش والطير والهوامّ مائةَ عام ؛ وكان لدموعه رائحة كالمسك، ولذلك كثر الطيِّب فى الهنـــد .

وقال كعب : بكى آدم ثلاثمائة عام لا يرفع رأسه إلى السماء وهو يقول : " إلهى بأىّ وجه أنظر إلى السماء " . فألهم الله سائر الحيوانات أن تأتى لآدم وتعزّيَه فى مصيبته، فعزّاه جميعها ونهتْه عن البكاء، وأمرتْه بالتسبيح والتقديس .

ذكر توبة آدم عليه السلام

قال : فعند ذلك أمر الله تعالى جبريل أن يهبط على آدم، وقال له : « إن آدم بديعَ فِطْرتى قد أبكى أهل سمٰواتى وأرضى، ولا يَذكر غيرى، ولم يخَفْ سواى، وهو أوّل من حمدنى، وأوّل من دعانى بأسمائى الحسنى، وأنا الرحمن الّذى سبقت رحمتى غضبى، وهذه الكلمات قد خصصتُ بها آدم لتكون له توبة، وتخرجه من الظلمات إلى النور » . فهبط عليه جبريل بالكلمات ولها نور عظيم، فقال : « السلام عليك ياطويل البكاء والحزن » ؛ فلم يسمعه آدم لغليان صـدره ؛ فناداه بصوت رفيع : السلام عليك يا آدم . وأمرّ جناحَه على صدره ووجهِه حتى هدّأ من بكائه، وسمع الصوت فقال : أبنداء السُّخط تنادى ، أم بنداء الإحسان والغفران ؟ قال : بل بنداء الرحمة والغفران، يا آدم : لقد أبكيتَ ملائكة السمٰوات والأرض ، فدونك هذه الكلمات، فإنّها كلمات الرحمة والتوبة .

قال كعب : كانت الكلمات ما قالهـا يونس فى ظُلماتٍ ثلاث : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقال عبد الله بن عَمرو بن العاص — رضى الله عنهما — كانت : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَـا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وقال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : كانت « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُب علىّ يا خير التوابين » .

قال الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

قال : فلمّا قالها آدم آنتشر صوتُه فى الافاق، فقالت الأرض والشجر والجبال : « أقرّ الله عينَك يا آدم، وهنّاك الله بتوبتك » . وأمره الله أن يبعث بالكلمات إلى حوّاء ؛ فحملتْها الريح إليها ، فقالتها، فتاب الله عليها .

قال : ولمّا فرغ آدم من الدعاء والسجود قال له جبريل : ارفع رأسك . فرفعه وإذا قد رُفع له حجاب النّور ، وفُتحت له السمٰوات ، ونودى بالتوبة والرضوان وقيل له : يا آدم ، إنّ الله قد قبل توبتك . فذهب ليقوم فلم يقدر لأنه كان قد رَسَب فى الأرض كعروق الشجر ، فآقتلعه جبريل، فصاح صيحة شديدة للألم الذى أصابه، وقال : « ماذا تفعل الخطيئة » ؟

ثم ضرب جبريل بجناحه الأرض فآنفجرتْ عينُ ماءٍ مَعِينٍ برائحة كالمسك فآغتسل آدم منها، ثم كساه الله حُلّتين من سُندس الجنّة، وبعث الله تعالى ميكائيل إلى حوّاء، فبشرها بالتوبة، وكساها كذلك؛ وسأل آدم جبريلَ عنها؛ فأخبره أن الله قد قبل توبتها، وأنه يجمع بينهما فى أشرف الأعياد وأكرمِ البقاع .

قال : وأمر الله عزّ وجلّ الملائكة والحيوانات أن يَقرُبوا من آدم ليهنّئوه فأتوه وهنّأوه كما كانوا عزّوْه .

ثم أمر الله تعالى جبريل أن يضع يده على رأس آدم ليقصّر من طُوله ، وكان إذا قام وصل رأسُه إلى السماء ، فيسمَع تسبيح الملائكة ، فلمّا قصُر آغتمّ لفقد ذلك ، فقال له جبريل : لا يغمّك ذلك فإن الله يفعل ما يريد .

وامره الله ببناء بيت يحاذى البيت المعمور ليطوف به هو وأولاده من بعده كما رأى الملائكة تفعل حول البيت المعمور؛ فبناه .

وقد ذكرنا صفة بنائه فى الباب الثانى من القسم الخامس من الفن الأوّل من هذا الكتاب فى خصائص البلاد ، وهو فى السفر الأوّل، فلا حاجة إلى إعادته هاهنا . فلنذكر غير ذلك .

قال : وسار آدم من موضعه إلى موضع البيت؛ والله الهادى .

ذكر أخذ الميثاق على ذرّيّة آدم — عليه السلام —

قال : وأوحى الله تعالى إلى آدم : أنّى أريد أن آخذ على وديعتى الّتى فى ظهرك الميثاق ، فأحاطت الملائكة بآدم فى أحسن صُورهم ، فوقعت الرِّعدة على آدم من الخوف، فضمّه جبريل إلى صدره، وٱضطرب الوادى وٱرتجّ، فقال جبريل: اسكن فإنّك أوّل شاهد على الميثاق الذى يأخذه الله على ذرّيّة آدم . فسكن، ومسح الله تعالى على ظهر آدم كما شاء ، وقال : « انظر يا آدم إلى من يخرج من ظهرك » فأوّل من بادر وكان أسرعَ خروجا نبيُّنا محمد — صلّى الله عليه وسلّم — فأجاب بالتلبية ونادى إلى ذات اليمين وهو يقول : أنا أوّل من يَشهد لك بالتوحيد ، ويقرّ لك بالعُبوديّة ، وأشهد أنّى عبدك ورسولك . فهو — صلّى الله عليه وسلّم — أوّل الأنبياء فى الخَلق، وآخرهم فى البعث، وفى ذلك من الحكمة الإلٰهيّة والقدرة الربّانيّة ما لم يَخفَ على ذى لُبٍّ وفهْم، وليس هذا موضعَ ذكر ذلك . ثم أجابت الطبقة الثانية من النبيّين والمرسلين نبيّا بعد نبىّ فى نورهم وبهائهم، ثم خرجت زُمرة من المؤمنين بِيض الوجوه، معلنين بالتوحيد، فوقفوا دون النبيّين .

ثم مسح الله مسحة أخرى فخرج (قابيل) بن آدم مبادرا وقد تبعه أهل الشِّمال فوقفوا ذات الشِّمال كلُّهم سود الوجوه . ثم قيل لآدم : « انظر إلى ولدك هؤلاء

لتعرفهم بأسمائهم وأزمانهم» فنظر إلى أهـل اليمين فضحك منهـم، وبارك عليهم؛ ونظر إلى أهل الشِّمال فلعنهم وصرف وجهه عنهم؛ ثم ٱستنطقهم اللهُ تعالى فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ وأقررنا.

قال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — : أمّا أهل اليمين فأجابوا بالسرعة، وأمّا أهـل الشِّمال فأجابوا بالتثاقل. قال الله تعالى «يا ملائكتى ٱشهدوا على ذرّيّة آدم بأنهم أقرّوا أنّى ربّهم لا يجحدوننى شيئا، وأنّ آدم قد بارك على أهل يمينه، ولعن أهلَ شِماله، فأهل اليمين فى جنّتى برحمتى، وأهل الشِّمال فى النار بما جحدوا من حقّى».

ثم ردّهم الله إلى ظهره كما أخرجهم بقدرته.

قال وهب: إذا كان يوم القيامة وحُشر الخَلْق لفَصْل القضاء قيل: يا آدم، «ٱبعثْ بعْثَ الجنّة إلى الجنّة، وبعثَ النار إليها». فيعرفهم بصوَرهم وأسمائهم؛ فيقول: «نعَم يا ربّ»؛ ويراهم كما رآهم فى الذرّيّة، ويُقبِل عليهم بوجهه ويقول: أَنسيتم عهد ربِّكم وشهادتَكم له بأنّه الله الواحد الأحد؟ فيقولون ما أخبرنا الله تعالى به عنهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعنون قابيل بنَ آدم، لأنه أوّل من عصى ربَّه؛ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ يعنون إبليس وقابيل؛ فيقبض آدم بشِماله من كلّ ألفٍ تسعمائة وتسعةٍ وتسعين إلى النـار، وواحدا بيمينه إلى الجنـة؛ ثم يقول: ياربّ هل وفيتُ؟ فيقال له: نعم ادخل الجنّة برحمتى.

ذكر ٱجتماع آدم بحوّاء

قال: وأقبل ملَك إلى حوّاء وهى جالسة بجُدّةَ على ساحل البحر، فقال لها: «خذى لباسك وٱنطلقى إلى الحرم»؛ ثم رمى لها بقميص وخِمار من الجنّة، وتوارى

عنها حتى لبست القميصَ وتخمّرتْ بالخمار ، ومضت إلى مكّة فدخلت الحرم من شرقيّه يومَ الجمعة من شهر المحرّم ؛ فأمرها الملَك أن تقعد على جبل المروة؛ وإنّما سمّيت المروةَ لقعود المرأة عليها .

قال وهب : دخلتْ حوّاء الحرم قبل آدم بسبعة أيّام، ودخل آدمُ من غربيّ مكّة وحوّاء من شرقيّها، فصار آدم إلى جبل الصفا، فناداه : "مرحبا بك يا صفيّ الله" ، فسمّيَ الصّفا لذلك ؛ وناداه الربّ : يا آدم ، فقال : « لَبَّيك اللّهم لبّيك لبّيك لاشريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنّعمة لك والمُلكَ لا شريك لك » . فصار ذلك سنّة فى الحجّ والعُمرة .

ثم أوحى الله إليه : « اليوم حرّمتُ مكّة وما حولها » . فهى حرام إلى يوم القيامة . فقال آدم : يارب ، إنك وعدتنى أن تجمع بينى و بين حوّاء فى هذا المقام . فنودىَ : إنّها أمامك على المروة، وأنت على الصّفا، فانظر إليها ولا تمسّها حتى تقضىَ المناسك . فهبَط آدم إليها ، والتقيا، وفرِح كلّ منهما بصاحبه، وسعى هو من الصفا، وسعت هى من المروة، فكانا يجتمعان بالنهار، فإذا أمسَيا رجع إلى الصفا، ورجعتْ إلى المروة، فكانا كذلك حتى دخل ذو القعدة، فأعاد آدم التلبية وعقدَ الإزار . ولم يزل يلبّي حتّى دخل ذو الحجّة؛ فهبَط جبريل وعلّمه المناسك وكساه ثوبا أبيضَ لإحرامه ، وطاف به ، وعرّفه المناسك، وأمره أن يطوف بالبيت سبعا؛ فلمّا فعل ذلك قال له جبريل : « حَسْبُك يا آدم قد أحللتَ » ؛ فانطلق آدم إلى حوّاء فاجتمع بها فى ليلة الجمعة فحملتْ من ساعتها .

قال كعب : ما حملتْ حوّاء حتّى رأت الحيض ففزِعتْ وأخبرتْ آدم بذلك فمنعها من الصّلاة أيّامَ حيضها حتى ينقطع الدم ؛ ثم جاءها ملَك فوقَفها على زمزم

وقال لادم : أُركُض برِجلِك فى هذا الموضع . فركضها ، فانفجرتْ الأرض بإذن الله عينَ ماءٍ مَعين ؛ فكبّر آدم وحوّاء ، وهمّت أن تشرب فمنعها وقال : «حتى يأذن لى ربّى » . فآغتسلتْ حوّاء ، وكان فى ذوائبها بقيّة من مِسك الجنّة ، ففاحت الدنيا .

ذكر إبناء آدم وزرعِه وحرثِه

قال : ثم أَوحى الله تعالى إلى آدم : « أنك إن لم تَعمُر هذه الدنيا لم يَعمُرها أحد من أولادك ، فآعمرها » . فبنى له مسكنا يأوى إليه هو وحوّاء ؛ ثم أخذ بعد ذلك فى الحرث والزرع وحفر الآبار ؛ وجاءه جبريل بالحبة وهى على قدر بَيض النَّعام ، بيضاء فى لون الثلج وأحلى من العسل ؛ وجاءه بثورين من ثيران الفردوس وجاءه بالحديد ؛ فلمّا نظر آدم إلى الحَبّ صاح صيحة عظيمة ، وقال : مالى ولهذا الحَبّ الّذى أخرجنى من الجنّة .

قال : « هذا رزقك فى الدنيا ، لأنك آخترته فى الجنّة ، فهو غذاء لك ولذرّيّتك » .

ثم قال له جبريل : يا آدم ، قم فكن حرّاثا زرّاعا ، وأتاه بالنار وقد غمسها فى سبعين ماءً حتّى آعتدلتْ وكَمَنتْ فى الحديد والحجر ، وأمره أن يوقد النار ويُلين الحديد ، ويتّخذ منه مِطرَقة وسَنْدانا ، ففعل ؛ ثم آتخذ مُدية يذبح بها ، وفأسا يحفر بها ويكسر ، ومحراثا يحرُث به الأرض ، ونيرا ؛ كلّ ذلك وجبريل يعلّمه .

قال وهب : أوّلُ ما آتخذ آدم من الحديد سَنْدانٌ ومِطرَقة وكلبتان ؛ ثم اتخذ بعد ذلك آلة النجارة ، وأتاه جبريل بكبش من الجنّة ، فنحره آدم ، وأكل هو وحوّاء من لحمه ، وآتخذا مقراضا جزّا به الصوف من الكبش ، وغزلاه ، وآتخذا منه

جبّتين بغير كمّين، وكساءين، فاكتسى كلّ واحد منهما جبّة وكساء، فلما مسّت جلدهما خشونة الصوف بكيا شوقا إلى السندس والإستبرق؛ فقيل لهما: «هذا لباس أهل الطاعة فى الدنيا». وجىء بالأشجار التى ذكرناها فى الفن الرابع من هذا الكتاب، وهو فنّ النباتات؛ وقد قدّمنا ذكرها فيما سلف منه.

٥ وعن كعب أن الذى جاء بالحَبّ ميكائيل، لأنّه الموكّل بالحَبّ والقَطر والنبات.

قال: فقام آدم فعقد النِّير على عنقَ الثورين؛ ثم حرث وبذر، وكان يقف على الزرع ويقول: متى يُدرِك؟. فيسمع هاتفا يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ وكان الزرع فى طول النخل، والسنبلة فى طول مائة ذراع، بيضاء كالفضّة.

قال كعب: فلمّا استحقّ الزرع كان آدم يَحصُد، وحوّاء تجمع؛ ثم علّم آدم ١٠ الدّراسةَ والتذريةَ والطحن والعجن والخَبز؛ ثم أكلا وشربا فأصابتهما النفخة والقَرقَرة فى بطونهما؛ فتجشّأ آدم جُشاء متغيّرا، وتغيّر عليه بدنُه وثَقُل؛ فلمّا ثَقُلتْ عليهما بطونهما أمرهما الملَك أن يتبرّزا إلى الصحراء لقضاء الحاجة؛ فلمّا رأيا ذلك من أنفسهما بكيا بكاء شديدا، وقالا: «هذا الذى أورثنا ذنبنا».

ثم أمرهما الملَك أن يمسحا بالمَدَر، ثم يغتسلا بالماء؛ ثم علّمهما الوضوء ١٥ فتوضآ وضوء الإسلام؛ ثم أمرهما بالصلاة، فكان أوّل صلاة صلّاها آدم الظهر.

وكان آدم ربّما اشتغل عن صلاته ولا يعرف الأوقات، فأعطاه الله ديكا ودَجاجة، فكان الديك أبيضَ أفرقَ[1] أصفرَ الرجلين، كالثور العظيم، وكان يضرب بجناحه عند أوقات الصلاة ويقول: سبحان من يسبّحه كلُّ شىء سبحان الله وبحمده، يا آدم: الصلاة يرحمك الله.

٢٠ (١) الديك الأفرق: ذو العرفين، أى إن عرفه مفروق.

قال : وأَخذَ آدم فى الغـرس حتى غرس كلَّ ما على وجه الأرض من أنواع الثمار والأشجار، وأخذت الأرض زَهرتَها، وكان آدم يأكل من بقول الأرض ونباتها.

قال وهب : أوّل بقـلة زرعها آدم الهِنْدَبا ، وأوّل مازرع من الرياحين الحنّاء، ثم الآس .

ذكر حمل حوّاء — عليها السلام — وولادتها

(١٣) قال : وواقع آدم حـوّاء فى ليـلة الجمعة ، فحملتْ بذكر وأنثى ، وأسقطتهما فى الشهر الثامن، فكان أوّل سِقْط فى الدنيا، ثم حَملتْ ثانيا كذلك، فأصابهما مِثلُ الأوّل، ثم حملت ثالثة . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : فجـاء إبليس إلى حوّاء وقال : أتحبّين أن يعيش فى بطنك ؟ قالت : نعم . قال : سمّيه (عبد الحارث) .

وقال ٱبن حبيب عن ٱبن عباس : أنها لمّـا وضـعته جاء إبليس وقال : ألا تسمّيانه بٱسمى ؟ قالت له حـوّاء : ما ٱسمك ؟ فذهب ولم يتسمّ، ثم عاد إليهما فقال: كيف تريدان أن تسمّياه؟ قالا : نسمّيه (عبدالله) . قال : أفتظنّان أنّ الله يترك عبده عندكما إن سمّيتماه (عبد الله)، لا والله لايدعه عندكما حتى يقبضه، ولكن سمّياه (عبد شمس) فإنّه يبقى ما بقيت الشمس . فأطاعاه وسمّياه (عبد شمس) ؛ فمات صغيرا . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ .

قال وهب : أوحى الله إليهما « أنّكما أطعتما إبليس فى هـذه التسمية ، فهلّا سمّيتُماه عبـدالله أو عبد الرحمن أو عبد الرحيم » فجزِعا لذلك جزعا شديدا ، وقالا : « لاحاجة لنا فى هذا المولود » . فأماته الله .

ثم حملت بذكر وأنثى، فلما وضعتهما سمّتهما (عبد الله) (وأمة الله)؛ ثم وضعت بطنا آخر فسمّتهما (عبد الرحيم) (وأمة الرحيم)؛ ولم تزل كذلك حتى وضعت مائة بطن؛ ثم وضعت بعد ذلك هابيل وأختَه فى بطن، ثم قابيلَ وأخته فى بطن، حتى وضعت عشرين ومائةَ بطن ذكرٍ وأنثى، فتناسَلوا وكثُروا .

٥ ذكر مبعث آدم — عليه السلام — إلى أولاده

قال : ثم بعث الله عزّ وجلّ آدم إلى ذرّيّته رسولا ، وذلك فى أوّل ليلة من شهر رمضان، وخصّه بالوحى، وأنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة فيها سُور مقطّعة الحروف ، لا يتّصل حرف بحرف ، وهو أوّل كتاب أُنزِل ، وهو بألف لغة فيها الفرائض والسنن والشرائع والوعد والوعيد وأخبار الدنيا ، وبيّن له فيها أهل كل ١٠ زمان وصورَهم وسِيرَهم، وما يحدث فى الأرض حتى المأكل والمشرب .

ثم أمره الله تعالى أن يكتبها بالقلم ، فأخذ جلود الضأن فدبغها حتى صارت رَقّا ، وكتب فيها الحروف التسعة والعشرين ، وهى فى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، أوّلها (ا) : معناها، أنا الله الواحد الأحد الذى لم يزل . (ب) : بديعُ السمٰوات والأرض . (ت) : توحّد فى ملكه، وتواضع كلّ شىء لعظمته . (ث) : ١٥ ثابت لم يَزَل ولا يزال . (ج) : جميل الفعال، جواد، جليل المقال . (ح) : حليم على من عصاه، حميد عند من أنشاه . (خ) خبير ببواطن الأشياء وظواهرها، خالق كلّ شىء . (د) : ديّان يومِ الدين، دانَ مَن خَلَقه . (ذ) : ذو الفضل العظيم، والعرش المجيد، ذو الطَّول القديم . (ر) : ربّ الخلائق رزّاق رءوف رحمٰن رحيم . (ز) : زرّاع زرع من غير بَذْر، زائد لمن شكر، زيّن كلّ شىء برحمته . (س) : سريع ٢٠ الحساب، سميع الدعاء، سريع الإجابة . (ش) : شديد العقاب والبطش، شاهد

كلّ نجوى . (ص): صمد صادق الوعد. (ض) : ضياء السمٰوات والأرض، ضمن لأوليائه المغفرة . (ط) : طاب من أخلص له من المطيعين، طوبى لمن أطاعه . (ظ) : ظهر أمره، وظفر أهلُ محبّته بالجنّة . (ع) : عليم عالم علّام علا بالربوبيّة. (غ) : غياث المستغيثين، غنيّ لا يفتقر . (ف) : (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)، فرد ليس له شريك . (ق) : قيّوم، (قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)، قدير قاهر . (ك) كريم كان قبل كلّ شيء، كائن بعد كلّ شيء، كافى كلّ بليّة. (ل) : (لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ)، وله الخلق والأمر . (م) : مالك يوم الدين، متكبّر محسن محمود متين معبود منعم مِن قَبلُ ومِن بَعد . (ن) : نور السمٰوات والأرض ناره مُعَدّة لأهل عذابه . (و) : وليّ المؤمنين، ويل لمن عصاه، (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) . (ه) : هادٍ هدى من الضلالة من قدّر له ذلك برحمته ومشيئته ، (لا) : لا إله إلا الله الواحد القهّار، الّذى لا إله إلّا هو العزيز الحكيم . (ى) : يعلم ما فى السمٰوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وما تُخفِي الصدور .

قال : فلما نزلت هذه الحروف علّمها آدم لولده، فتوارثها ولده ، إلى أن بعث الله تعالى إدريس، وأنزل عليه خمسين صحيفة، وأنزل عليه هذه الحروف .

ذكر قتل قابيل هابيلَ

(١٤)

قال : ودعا آدم آبنيه (هابيل) (وقابيل) — وكان يحبّهما من بين أولاده — فذكر لهما ما كان من أمره ودخوله الجنة ، وسبب خروجه، وغير ذلك، ثم أمرهما أن يقرّبا قربانا ، وكان هابيل صاحب غنم ، وقابيل صاحبَ زرع ، فأخذ هابيل من غنمه كبشا سمينا لم يكن فى غنمه خير منه، فجعله قربانا؛ وأخذ قابيل من زرعه أدناه فقرّبه ؛ فنزلتْ من السماء نار بيضاء لا حرّ ولا دخان فيها ، فأحرقتْ قُربانَ

هابيل ، ولم تحرق قربان قابيل ، فداخله الحسد من ذلك، وقال : إن أولاد هذا تفتخر على أولادى من بعدى ، فوالله لأقتلنه . قال الله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال : ثم رجعا من مِنًى — وهو موضع القربان — يريدان أباهما وهابيل أمام قابيل؛ فعمَد قابيل إلى حجر فضرب به رأس أخيه (هابيل) فقتله ، ثم مرّ على وجهه هاربا . قال الله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾؛ وإذا هو بغرابين قد ٱقتتلا، فقتل أحدُهما الآخر، وجعل يبحث فى الأرض برجليه حتى حفر حفرة ودفن فيها المقتول؛ فقال قابيل فى نفسه ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

فلمّا أبطأ على آدم خرج فى طلبهما، فأصاب هابيلَ مقتولا ، فساءه ذلك وٱغتمّ غمّا شديدا، وكانت الأرض لمّا شربتْ دمه تغيّرت الأشجار عن نضارتها، فيقال : إن آدم قال :

تغيّرت البلادُ ومن عليها * فوجه الأرض مغبرّ قبيحْ
تغيّر كلُّ ذى لون وطعم * وقلّ بشاشة الوجه المليحْ
قتلْ(١) قابيلُ هابيلا أخاه * فوا أسفَى على الوجه الصبيحْ

(١) تسكين اللام فى قوله : « قتل » للضرورة؛ وقد ورد هذا البيت فى كثير من الكتب بروايات أخرى وزيادات على هذه الأبيات .

ثم حمل آدم هابيلَ على عاتقه وهو باك ، ثم دفنه ، وبكى عليه هو وحوّاء أربعين يوما ، فأوحى الله تعالى إليه أن كُفّ عن بكائك ، فإنّى سأهب لك غلاما زكيّا على صورة هابيل يكون أبا النبيّين والمرسلين . فسُرِّىَ عنه ، وجامع حوّاء فحَملتْ بشيثٍ وآسمه (هِبة الله) فلمّا وضعتْه كان على صفة هابيل وصورته ؛ فلمّا ترعرع وبلغ بعث الله تعالى له قضيبا من سدرة المنتهَى فى صفاء الجوهر ، ورزق الله شيثا الأولاد فى حياة آدم ؛ والله أعلم .

ذكر وفاة آدم — عليه السلام —

قال : وكان آدم لمّا أخرج الله تعالى الذرية من ظهره رأى داود — عليه السلام — وحُسنَ صورته ، فسأل عنه وعمّا رزقه الله تعالى من العمر ؛ فقيل له : إنه نبىّ الله داود ، وإنّ عمره الذى كتب الله له أربعون سنة . فقال : يا ربّ زد فى عمره . قال : ذلك الذى كتبتُ له . فقال : يا ربّ فإنّى قد وهبته من عمرى ستّين سنة . فلمّا آنقضى من عمره تسعمائة سنة وأربعون سنة أتاه ملَك الموت ، فقال له آدم : قد عَجِلتَ علىّ ، لأنّ ربّى كتب لى ألفَ سنة . قال : ألم تهَب منها لولدك داود ستّين سنة ؟ قال : لا . قال : فجحد آدم وجحدت ذرّيّته من بعده ، ونَسى فنَسيتْ .

وقيل فى عمر داود : ستون سنة ، وإن آدم وهبه أربعين سنة ؛ والله أعلم .

فلما استكمل عدّته أمر الله بقبض روحه ، فعَهِد إلى آبنه شيثٍ وأوصاه ، وسلّم إليه التابوت ، وكان فيه نَمَط من الجنّة أبيض أهداه الله تعالى لآدم ، فيه صور الأنبياء والفراعنة من ذرّيّته ؛ فنشر آدم النَّمَط وأراه لآبنه شيث ، فنظر إليه ، ثم أمر بطيّه ووضعه فى التابوت ؛ وعمد آدم إلى طاقات من شعر لحيته فوضعها فى التابوت وقال له : يا بنىّ ، إنك لا تزال مظفّرا على أعدائك ما دامت هذه الشعرات سودا

فاذا آبيضّت فاعلم أنّك ميّت ، فأوص إلى خير أولادك . وأوصاه بقتال أخيه قابيل . (١٥)

ثم قبض الله تعالى نبيّه آدم فى يوم الجمعة بعد أن آستكمل ألف سنة ، وصلّت عليه الملائكة صفوفا ، وصلّى عليه شيث ، ودُفن — عليه السلام — .

٥ وقيل : كانت وفاته بالهند ، فلما كان زمن الطوفان حَمل نوحٌ معه تابوت آدم فى السفينة ، ثم دفنه ببيت المقدس .

ذكر وفاة حوّاء

قال : ولمّا توفّى آدم — عليه السلام — لم تعلم حوّاء بموته حتى سمعت بكاءَ الوحش والسباع والطير ، و رأت الشمس منكسفة ؛ فقامت من قبّتها فزِعة أن

١٠ يكون حلّ بشيثٍ ما حلّ بهابيل ، وصارت إلى قبّة آدم فلم تره ، فصاحت صيحة عظيمة ، فأقبل إليها شيث وعزّاها وأمرها بالصبر ، فلم تصبر دون أن صرخت ولطمتْ وجهها ودقّت صدرها ، فأورثت ذلك بناتها إلى يوم القيامة ؛ ثم لزمت قبره أربعين يوما لا تَطعَم ؛ ثم مرضت مرضا شديدا ودام بها حتى بكت الملائكة رحمة لها ؛ ثم قُبضت — رحمة الله عليها — فغسلها بناتُها ، وكُفِّنت من أكفان الجنة

١٥ ودُفنت إلى جنب آدم — عليهما السلام — ورأسُها إلى رأسه ، ورِجلاها عند رجليه .

وقيل : كانت وفاتها بعد مضىّ سنة من وفاة آدم .

الباب الثانى من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى خبر شيث آبن آدم — عليهما السلام — وأولاده

قال : ولمّا مات آدم — عليه السلام — أسند وصيّته إلى آبنه شيث ، وكان ممّا

٢٠ أوصاه به آلتمسّكُ بالعروة الوثقى ، وشهادةُ أن لا إله إلا الله ، والإيمانُ بمحمّد رسول الله ؛

وقال له : يابنيّ ؛ إنى رأيت آسمه مكتوبا على سُرادق العرش وأبوابِ الجنان وأطباق السمٰوات وأوراقِ شجرة طوبى ؛ فهذه وصيّتى إليك . ثم نزع خاتَمَه من اصبعه ودفعه إليه ، وتسلّم منه التابوت ، ثم قال له : إن الله سيعطيك ثوب المجاهَدة ، فحارب أخاك قابيل ، فإن الله تعالى ينصرك عليه . وكان شيث حين الوصية إليه آبنَ أربعمائة سنة ، فأطاعه أولاد أبيه ، وصار إليه الفرس الميمون ، وكان أغرَّ محجَّلا إذا صَهَل أجابته الدوابّ كلُّها بالتسبيح .

ذكر قتال شيث قابيل

قال : ثم أمر الله تعالى شيث بن آدم بقتال قابيل ، وكان قابيل قد آعتزل فى ناحية من الأرض ، فعَمَرها ، وخدع أختا له فأحبَلها ، ورُزق منها أولادا كثيرة فسار إليه شيث بجميع أولاده ، وتقلّد سيف أبيه ، وكان بين يديه عمود من الياقوت تحمله الملائكة يضىء بالليل والنهار ؛ وسار وقد أحدقتْ به الملائكة ؛ فتوجّه إبليس إلى قابيل وأعلمه خبر أخيه ، فتأهّب للقائه وقد داخله الفزع ؛ ثم جاء شيث فقابله ، فآقتتلا ، فآنكبّ قابيل على وجهه ، فأخذه شيثٌ أسيرا ، وأسر جماعة من أولاده .

ثم أقبلت الملائكة إلى قابيل فسلكوه فى سلسلة من سلاسل جهنّم ، وغلّوا يده إلى عنقه ، وساقوه بين يدى شيث مُهانا وهو يقول : يا شيث احفظ الرَّحِم بينى وبينك . فقال : لا رَحِمَ بيننا بعد أن قتلْتَ أخاك ظلما .

ثم أمر شيث الملائكة فساقوه مغلولا إلى عين الشمس بالمغرب ، فلم يزل مواجها للشمس حتى مات كافرا ، وصارت ذريّته عبيدا وإماءً لشيث وأولاده .

ثم أخذ شيث بعد ذلك فى عمارة المدن حتى بنى نيّفا على ألف مدينة فى كلّ مدينة منارة ينادَى عليها : (لا إله إلا الله ، آدم صفوة الله ، محمد رسول الله) .

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر هو وأولاده ، حتى عمرت الدنيا ؛ وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة ، فكانوا يقرأونها ويعملون بما فيها من غير عداوة ولا تباغض ولا تحاسد ولا فسق بينهم ؛ وكان إبليس يحسد شيثا وأولادَه ، فأقبل إبليس إليه فى صورة آمرأة حسناء ، فقال لها : من أنتِ ؟ قالت : امرأة أرسلنى الله إليك لتتزوّج بى ، ولستُ من بنات آدم . فقال : إن ربى لم يأمرنى بذلك ولا أخبرنى عنك ، وما أظنك إلا إبليس . فضحك وقال : إنما أنا امرأة من نساء الجنة ، ولا تعصِ ربّك وتزوّجْ بى ؛ وجعل إبليس يتزيّن له حتى كاد يفتنه ؛ فنادته الملائكة : يانبىّ الله ، إنه عدوّك إبليس . فقبض شيث عليه وهمّ بقتله ؛ فقال : خلِّ عنّى فإنى من المنظَرين ، ولكن أعطيك الميثاق أنّى لا أتعرّض إليك بعدها . فأطلقه ولم يعد إليه .

وولد لشيث (أَنُوشُ) على طوله وحسنه ؛ فجعله شيث مكانه والخليفةَ من بعده ، وسلّم إليه التابوت ، وأوصاه بقتال أولاد قابيل .

ومات شيثٌ وله سبعمائة سنة وعشرون سنة .

وقيل : بل عاش بعد آدم مائتى سنة ، وعهد إلى آبنه (أَنُوشَ) فقام على أولاده بالطاعة ثلاثمائة عام .

وعهد من بعده إلى آبنه (قَيْنَان) ، فعُمِّر بعد أبيه مائتين وخمسين سنة .

وعهد إلى آبنه (مَهْلَائِيلَ) ، وكثر فى زمانه بنو آدم ، وكان منزلهم الحرم فضاق بهم ، فقسّم الأرض بينهم خمسة أقسام ، وأرسل خمسة نفر من صلحاء قومه يقيمون لهم شرائع آدم — عليه السلام — ويتولّون الحكومة بينهم ، وهم وَدٌّ وسُواعٌ ويَغُوثُ ويَعُوقُ ونَسْرٌ ، وهؤلاء الذين لمّا فُقِدوا بلغ من وَجْد قومهم

عليهم أن جعلوا لهم تماثيلَ يتسلّون بها ؛ وترامى الأمرُ إلى أن عبدها القَرن الذى تلاهم ، فكان ذلك هو السببَ لعبادة الأوثان .

ثم قام بالأمر بعد (مَهْلَائِيل) آبنُه (أَخْنُوخ) ، وهو إدريس .

الباب الثالث من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى أخبار إدريس النبى — عليه السلام —

وآسمه أخنوخ ، وإنّما سُمّى إدريس لكثرة دراسته الكتب ؛ وهو أوّل من بُعث من بنى آدم ؛ وهو أوّل من خطّ بالقلم بعد شيث ، وأوّل من كتب فى الصحيفة ؛ وكان مشتغلا بالعبادة ومجالسة الصالحين حتى بلغ فآنفرد للعبادة ، فجعله الله تعالى نبيّا ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وورّثه صحف شيث وتابوت آدم .

وكان يعيش من كسب يده ؛ وكان خيّاطا ، وهو أوّل من خاط الثياب ولبسها وكانوا قبل ذلك يلبسون الجلود ، حتى أتت عليه أربعون سنة ، فبعثه الله تعالى إلى أولاد قابيل ، وكانوا جبابرة ، وقد آشتغلوا باللّهو والغناء والمزامير والطنابير وغيرِ ذلك ، وعبدوا الأصنام ؛ وكان إدريس يدعوهم ثلاثة أيّام ، ويعبد الله أربعة .

وحُكى عن وهب أنه أوّل من آتّخذ السلاح ، وجاهد فى سبيل الله ، ولبس الثياب ، وأظهر الأوزان والأكيال ، وأنار علم النجوم .

وكان إدريس شديد الحرص على دخول الجنة ، وكان قد رأى فى الكتب أنّه لا يدخلها أحد دون الموت ، فبينما هو يسبح فى عبادته إذ عَرَض له مَلَك الموت فى صورة رجل فى نهاية الجمال ؛ فقال له إدريس : من أنت ؟ قال : عبدٌ من عبيد الله أعبده كعبادتك . وآصطحبا ، فكان إدريس يأكل من رزق الله ، وهو لا يَطعم شيئا ؛ فسأله عن ذلك ؛ فأخبره أنه ملَك الموت ؛ فقال له : جئتَ لقبض

رُوحى؟ قال: لا، ولو أمرنى الله بذلك ما أمهلتُك، ولكنّه أمرنى أن أصطحبك. فسأله إدريس أن يَقبض روحه؛ فقال له: وما تريد بذلك وللموت كربٌ عظيم؟ قال: لعل الله تعالى يحيينى فأكونَ أكثرَ فى عبادته. فأمره الله بقبض روحه فقبضها، وأحياه الله تعالى لوقته.

٥ ثم قال إدريس له بعد حين: هل تستطيع أن تَقِفَنى على جهنّم؟ قال: ما حاجتك إلى ذلك ولها من الأهوال ما لا تطيق أن تنظر إليه، وما لى سبيل إلى ذلك، ولكنى أَقِفُك على طريق مالكٍ خازنِها، والله أعلم بحاجتك. فاحتمله ووَقَفه على طريق مالك، فلما رآه كَشَر فى وجهه، فكادت رُوحه تخرج، فأوحى الله — عزّ وجلّ — إلى مالك: وعزّتى وجلالى لا رأى عبدى إدريس بعد كشرتك

١٠ سوءا، إرجع إليه وقِفْه على شَفير جهنّم ليرى ما فيها. فوقَفَه مالك على شفيرها ونظر إلى ما فيها من الأهوال، فلولا أن ثبّته الله تعالى لصعِق؛ ثم أعاده إلى مكانه، فاحتمله مَلَك الموت إلى الأرض، فعبد الله عزّ وجلّ حينا؛ ثم قال لمَلَك الموت: هل لك أن تدخلنى الجنّة لأرى ما أعدّ الله تعالى لأهل طاعته من النعيم؟ فقال: حاجتُك إلى الله تعالى، ولكنّى أحملك وأقف على طريق رضوان خازنِ الجنان

١٥ فسله حاجتك. ففعل ذلك؛ فلما رآه رضوان قال: مَن هذا؟ قال: إدريس نبى الله يريد أن ينظر إلى نعيم الجنان. قال: «ذلك إلى ربّى». فأَوحى الله تعالى إلى رضوان: أنّى قد علمتُ ما يريد عبدى إدريس، وقد أمرتُ غصنا من أغصان شجرة طوبى أن يتدلّى إليه فيلتفّ به ويدخلَه الجنّة، فإذا دخل فأقعِدْه فى أعلى موضع؛ فلمّا دخلها إدريس ورأى ما فيها من النعيم قال له رضوان: أُخرج الآن.

٢٠ قال له إدريس: أيدخل الجنّة من يخرج منها؟ فحاجّه فى ذلك، فأرسل الله تعالى له ملَك الموت، فقال له إدريس: ما حاجتك؟ إنك لن تُسلَّط على قبض روحى

مرّتين، فاذهب . فرجع مَلَك الموت إلى ربّه عزّ وجلّ وقال : إلهى قد علمتَ ما قال إدريس . قال الله تعالى : إنه حاجّك بكلامى، فذره فى جنتى . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

هذا ما أورده الكِسائىّ — رحمه الله — فى كتاب المبتدأ (١) .

ونقل الشيخ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبىّ — رحمه الله — فى كتابه المترجَم (بيواقيت البيان فى قصص القرآن) وفى تفسيره أيضا فى سبب رفع إدريس عليه السلام، قال : وكان سبب رفعه على ما قال ٱبن عَبّاس — رضى الله عنهما — وأكثرُ الناس : أنه سار ذات يوم فأصابه وَهَج الشمس، فقال : يارب إنى مشيتُ يوما فتأذّيتُ منها، فكيف من يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد؟! اللهم خفّف عنه من ثقلها، وٱحمل عنه حرّها . فلمّا أصبح المَلَك وجد من خفّة الشمس وخفة حرّها ما لا يَعرِف؛ فقال : يارب، خلقتنى لحمل الشمس، فما الّذى قضيتَ فىّ؟ فقال : أما إنّ عبدى إدريس سألنى أن أخفّف عنك ثقلها وحرّها، فأجبته . قال : يارب ٱجمع بينى وبينه، وٱجعل بينى وبينه خُلّة . فأذن الله تعالى له؛ فأتى إدريسَ حتى إنّ إدريس لَيسأله، فكان ممّا سأله أن قال : أُخبرت أنّك أكرم الملائكة عند مَلَك الموت وأمكنُهم عنده، فٱشفع لى إليه أن يؤخّر أجلى فأزداد شكرا وعبادة . فقال المَلَك : لا يؤخّر الله نفسا إذا جاء أجلُها . قال إدريس : قد علمتُ ذلك، ولكنّه أطيَب لنفسى . قال : نعم أنا مكلّمه لك، فما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك . ثم حمله ملك الشمس على جناحه، فرفعه إلى السماء

(١) كتاب الكسائى الموجود بدار الكتب المصرية غير مكتوب عليه هذا العنوان المذكور، بل كتب على إحدى نسختيه (كتاب العرائس قصص الأنبياء) وعلى نسخة أخرى (قصص الأنبياء) . وهو هذا الكتاب نفسه الذى ذكره المؤلف، وهذا الاختلاف فى التسمية إنما وقع من النساخ .

ووضعه عند مطلع الشمس؛ ثم أتى ملك الموت، فقال : لى إليك حاجة . قال : أفعلُ كلَّ شىء أستطيعه . فقال له : صديق لى من بنى آدم يتشفّع بى إليك أن تؤخر أجله . فقال : ليس ذلك إلىّ، ولكن إن أحببتَ أُعلِمه أجله متى يموت فيتقدّم فى نفسه . قال : نعم . فنظر فى ديوانه، فأخبره بآسمه، فقال : إنك كلّمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبدا . ثم قال : إنى لأجده يموت عند مطلع الشمس . قال : فإنّى أتيتك وتركتُه هناك . قال : فآنطلِق فإنّه قد مات، فوالله ما بقى من أجل إدريس شىء . فرجع الملك فوجده ميتا .

قال : وقال وهب : كان يُرفع له فى كلّ يوم من العبادة مثلُ ما يرفع لأهل الأرض فى زمانه . فعجبتْ منه الملائكة، فآشتاق إليه ملك الموت، فآستأذن الله تعالى فى زيارته، فأذن له، فأتاه فى صورة غلام؛ وكان إدريس يصوم الدهر كلّه فلمّا كان فى وقت إفطاره دعاه إلى الطعام، فأبى أن يأكل معه، وفعل ذلك ثلاث ليال، فقال له إدريس فى الليلة الثالثة : إنّى أريد أن أعلم من أنت . قال : أنا ملَك الموت، استأذنت ربّى أن أزورك وأن أصاحبك، فأذن لى فى ذلك . فقال له إدريس : فلى إليك حاجة . قال : وما هى؟ قال : اقبض رُوحى؛ فأوحى الله تعالى إليه : «اقبض روحه» . ففعل، ثم ردّها الله تعالى إليه بعد ساعة، فقال له ملَك الموت : فما الفائدة فى سؤالك قبضَ الروح؟ قال : لأذوق كرب الموت وغمّه فأكونَ له أشدّ آستعدادا .

ثم قال : لى إليك حاجة أخرى، قال : وما هى؟ قال : ترفعنى إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنّة والنار . فأذن الله تعالى له فى ذلك، فلمّا قرب من النار قال : لى إليك حاجة . قال له : وما تريد؟ قال : تسأل مالكا حتى يفتح لى أبوابها فأردها . ففعل؛ ثم قال له إدريس : فكما أريتنى النار فأرنى الجنّة . فذهب إلى

الجنّة فاستفتح، ففُتحتْ له أبوابها، فأدخله الجنـة؛ فقال له ملَك الموت : اخرج منها لتعود إلى مَقَرِّك . فتعلّق بشجرة وقال : لا أخرج منهـا . فبعث الله تعـالى ملَكا حَكما بينهما؛ فقال له الملَك : مالكَ لا تخرج ؟ قال : لأنّ الله تعالى قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وقد ذقتُه . وقال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ وقـد وردتُها . وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فلستُ أخرج . قال الله تعالى لملك الموت : دعه فإنه بإذنى دخل الجنة، وبأمرى يخرج . فهو هناك، فتارة يعبد الله فى السماء الرابعة، وتارة يتنعّم فى الجنة .

البـاب الرابع من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى قصة نوح — عليه السلام — وخبر الطوفان

(١٨)

قال الكسائىّ — رحمه الله تعالى — قال وهب بن منبِّه : لمّـا رفع الله تعالى إدريس — عليه السلام — ترك إدريسُ فى الأرض ولدَه متوشلح، فتزوّج بآمرأة يقال لهـا : (ميشاخا)؛ فولدت له ولدا سمّاه (لَمَك)، وكان يرجع إلى قوّة وبطش وكان يضرب بيده الشجرة العظيمة فيقتلعها من أصلها، وكان على وجهه نور نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فخرج فى يوم إلى البرّيّة فرأى آمرأة فى نهاية الجمال وبين يديها غنم ترعاها، فأعجبتْه، فسألها عن نفسها، فقالت : أنا قينوش بنة برا كيل بن محويل من أولاد قابيل بن آدم . فقال : ألك زوج؟ قالت : لا . قال : فما سنُّك؟ قالت : مائة وثمانون . قال : لو كنتِ بالغة لتزوّجتك — وكان البلوغ يومئذ لآستيفاء مائتى سنة — فقالت : كان عندى أنك تريد أن تفضحنى، فأمّا إذا أردتَ الزواج فقد أتى علىّ مائتا سنة وعشرُ سنين . فخطبها من أبيها، وأرغبه بالمـال؛ فزوّجه بها فحملت منه بنوح — عليه السلام — فلما كان وقت الولادة ولدتْه فى غارٍ خوفا على

نفسها وولدها من الملك لكونها تزوّجتْ بمن ليس منهم؛ فلمّا وضعتْه هناك وأرادت الانصراف قالت : وانُوحاه . وانصرفت، فبقى فى الغار أربعين يوما؛ ثم توفّى أبوه لَمَك؛ فاحتملته الملائكة ووضعتْه بين يدى أمّه مزيّنًا مكحولا، ففرحتْ به وربّته حتى بلغ .

٥ وكان ذا عقل وعلم ولسان وصوت حسن، واسع الجبهة، أسيل الخدّ، وكان يرعى الغنم لقومه مدّة، وربما عالج التجارة؛ ثم كره مجاورة قومه لعبادتهم الأصنام .

وكان لهم ملك يقال له درمشيل؛ وكان جبّارا عاتيا قويّاً، وهو أوّل من شرب الخمر واتّخذ القِمار وقعد على الأسرّة واتّخذ الثياب المنسوجةَ بالذهب وأمر بصنعة الحديد والنحاس والرصاص؛ وكان هو وقومه يعبدون الأصنام الخمسة :

١٠ وَدًّا وسُواعا ويغوثَ ويَعُوقَ ونَسْرا؛ ثم اتخذ ألف صنم وسبعمائة صنم على صور شتّى، واتخذ لها كراسيَّ من الذهب والفضة، وأقام لها الخدم يخدُمونها؛ فاعترلهم نوح إلى البَرارىّ ولم يخالطهم حتى بعثه الله تعالى نبيّا؛ والله أعلم بالصواب .

ذكر مبعث نوح عليه السلام

قال: فأمر الله تعالى جبريل — عليه السلام — أن يهبط إلى نوح ويبشره بالنبوّة

١٥ والرسالة؛ فهبط جبريل عليه، وجاءه بوحى الله أن يسير إلى درمشيل الملكِ وقومه ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى؛ فأقبل نوح إلى قومه من يومه — وكان يوم عيدهم وقد نصبوا أصنامهم على أسرّتها وكراسيّها، وهم يقترِبون القرابين لها، وكانوا إذا فعلوا ذلك يخرّون لها سجّدا ويشربون الخمر، ويضربون بالصَّنْج، ويأتون النساء كالبهائم من غير تستّر — فجاءهم وهم يزيدون على تسعين زمرة، كلّ زمرة لا يُحصَون

٢٠ كثرة، فاخترق الصفوف حتى صار فى وسط القوم، وسأل الله تعالى أن ينصره

عليهم ؛ فلما أرادوا السجود للأصنام نادى : أيها القوم ، إنى قد جئتكم بالنصيحة من عند ربّكم أدعوكم إلى عبادته وطاعته ، وأنهاكم عن عبادة هذه الأصنام (فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ) . فخرقتْ دعوته الأسماع ، وهوت الأصنام عن كراسيّها ، وسقط الملك عن سريره مغشيّاً عليه ، فلمّا أفاق قال : يا أولاد قابيل ، ما هذا الصوت الّذى لم أسمع مثله ؟ قالوا : أيّها الملك ، هذا صوت رجل منّا ٱسمُه نوح بن لَمَك كان يجانبنا قبل ذلك بجنونه ، والآن قد ٱشتدّ عليه فقال ما قال . فغضب الملك وٱستدعاه ، فأتوه به بعد أن ضربوه الضرب الشديد ؛ فقال له : من أنت ، فقد ذكرتَ آلهتنا بسوء ؟ قال : أنا نوح بن لَمَك رسولُ ربّ العالمين ، جئتكم بالنصيحة من عند ربّكم لتؤمنوا به و برسوله ، وتهجروا هذه الأصنام والقبائح . فقال درمشيل : إنّك قد جئتنا بما لا نعرفه ، ولا نعتقد أنك عاقل ، فإن كان بك جِنّة فنداويك أو فقر فنواسيك . قال : يا قوم ، ما بى جنون ولا حاجة إلى ما فى أيديكم ، ولكنّى أريد أن تقولوا : لا إله إلا الله و إنى نوحٌ رسول الله . فغضب درمشيل وقال : لولا أنه يوم عيد لقتلناك .

فأوّل من آمن به ٱمرأة من قومه يقال لها : (عَمرة) فتزوّجها فأولدها (ساما) (وحاما) (ويافثَ) وثلاثَ بنات ؛ ثم آمنت به ٱمرأة أخرى من قومه يقال لها : (والعة) فتزوّجها فأولدها كنعانَ ؛ ثم نافقتْ وعادت إلى دينها . (١٩)

وكان نوح يخرج فى كلّ يوم فى أندية لقومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى فيضربونه حتى يُغشَى عليه ، ويجرّون برجله فيُلقُونه على المزابل ، فاذا أفاق عاد إليهم بمثل ذلك ، ويعاملونه بمثله ؛ حتى أتى عليه ثلاثمائة سنة وهو على هذه الحال ؛ ثم مات ملِكهم درمشيل ، وملك بعده ٱبنه بولين ، وكان أعتى وأطغى من أبيه — وكان نوح يدعوهم فى القرن الرابع على عادته ، فيضربونه ويشتمونه ، وربما سَفَوْا

عليه التراب ويقولون : إليك عنا يا ساحر يا كذّاب . ويضعون أصابعهم في آذانهم ؛ فينصرف عنهم ويعود إليهم ، وإذا خلا بالرجل منهم دعاه ، وهم لا يزدادون إلّا عتوّا وتمرّدا وآستكبارا ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ﴾ الآيات .

ثم دعاهم حتى آستكمل ستّة قرون ؛ فلمّا دخل القرن السابع مات ملكهم (بولين) وآستخلف عليهم آبنه (طفردوس) — وكان على عتوّ أبيه — وكان نوح يأتى أصنامهم بالليل وينادى بأعلى صوته : يا قوم ، قولوا (لا إله إلا الله ، وإنى نوح رسول الله) . فتُنكّس الأصنام ؛ وكانوا يضربون نوحا ضربا شديدا ، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أنفه وأذنيه ؛

وكان الرجل منهم عند وفاته يوصى أولاده ويأخذ عليهم العهد ألا يؤمنوا به ؛ ويأتى الرجل بآبنه إلى نوح ويقول : يا بنىّ آنظر إلى هذا فإنّ أبى حملنى إليه وحذّرنى منه ، فآحذره أن يزيلك عمّا أنت عليه فإنّه ساحر كذّاب . وهو بعد ذلك يدعوهم ؛ فضجّت الأرض إلى ربّها وقالت : ما حلمك على هؤلاء ؟ وضجّ كلّ شىء إلى ربّه من عتوّهم ، ونوح يدعوهم ويذكّرهم بآيات الله ؛ فلمّا كان فى بعض الأيّام إذا هو برجل من كبار قومه قد أقبل بولده يحذّره منه ؛ فضرب الغلام بيده إلى كفّ تراب وضرب به وجهَ نوح ، فعند ذلك قال نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . فآمنت الملائكة على دعوته ، فمنع الله عنهم القَطر والنبات ؛ فعلم نوح أنّ الله مُهلكَ قومه ؛ فأحبّ أن يؤمن بعضُهم إن لم يؤمنوا كلُّهم ؛ فأوحى الله تعالى

إليه : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ .

ذكر عمل السفينة

قال : وأوحى الله تعالى إليه أن يتخذها فى ديار قومه، وأن يجعلها ألف ذراع طولا وخمسمائة عرضا وثلاثمائة ارتفاعا، فأعدّ آلاتِ النّجارة ، وشرع فى عملها وأعانه أولادُه ومن آمن من قومه ، والناس يسخرون منه ويقولون : بعد النبوّة صرت نجّارا، ونحن نشكو القحط، وأنت تبنى للغرق . قال الله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ وكانوا يأتون السفينة بالليل فيشعلون فيها النار ولا تحترق، فيقولون : هذا من سحرك يا نوح .

وجعل نوح رأسَ السفينة كرأس الطاوُس، وعنقَها كعنق النَّسر، وجؤجؤَها كجؤجؤ الحمامة، وكَوْثَلَها كذنَب الديك، ومنقارَها كمنقار البازى ، وأجنحتَها كأجنحة العُقاب ؛ ثم غشّاها بالزفت ، وجعلها سبعَ طبقات لكلّ طبقة باب؛ فلمّا فرغ من بنائها نطقت بإذن الله وقالت : لا إله إلا الله إله الأوّلين والآخرين ، أنا السفينة، من ركبنى نجا، ومن تخلّف عنّى غرق، ولا يدخلنى إلّا أهل الإخلاص. فقال نوح لقومه : أتؤمنون ؟ قالوا : هذا قليل من سحرك . ثم استأذن ربّه فى الحج، فأذن له ؛ فلمّا خرج همّ القومُ بإحراقها، فأمر الله الملائكة فاحتملوها إلى الهواء ، فكانت معلّقة حتى عاد من حجّه . ولمّا قضى مناسكه رأى تابوت[1] آدم عن يمين الكعبة، فسأل ربّه فى ذلك التابوت فأمر الملائكة فحملوه إلى دار

(١) كذا فى كتاب الكسائى المنقول عنه هذا الكلام . والذى فى الأصول : «تنورا من أدم» ؛ وهو تحريف، إذ لا يعقل أن يتخذ التنور من الأدم وهو الجلد .

نوح — وكانت يومئذ فى مسجد الكوفة — فلمّا رجع من حجّه نزلت السفينة من الهواء، ثم أوحى الله إليه : أن قد دنا هلاكُ قومك ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ . ثم أمره الله تعالى أن ينادى فى الوحش والسباع والطير والهوامّ والأنعام؛ فوقف على سطح منزله، ونادى : "هلمّوا إلى السفينة المنجّية" . فمرّت دعوته إلى الشرق والغرب والبعد والقرب، فأقبلتْ إليه أفواجا .

فقال : إنّما أمرتُ أن أحمل من كلّ زوجين ٱثنين ؛ فأقرع بينهم، فأصابت القُرْعةُ مَنْ أذن اللهُ فى حَمْله ، وكان معه من بنى آدم ثمانون إنسانا بين رجل وٱمرأة؛ فلما كان فى مستهلّ شهر رجب نودى من التنّور وقت الظهر : قم يا نوح فٱحمل فى سفينتك من كلّ زوجين ٱثنين من الذكر زوجا ومن الأنثى زوجا، فحملهم. وكان معه جسد آدم وحوّاء ؛ وتباطأ عليهم الحمار فى صعوده، لأن إبليس تعلّق بذَنَبه؛ فقال نوح بالنبطيّة : على سيطان ، يعنى ٱدخل يا شيطان ؛ فدخل ومعه إبليس فرآه نوح فقال : يا ملعون، من أدخلك؟ قال : أنت حيث قلت : على سيطان : فعاهده ألا يغوىَ أهل السفينة ما داموا فيها ؛

ثم أوحى الله إلى جبريل أن يأمر خَزَنة الماء أن يرسلوه بغير كيل ولا مقدار وأن تُضرَب المياهُ بجناح الغضب . ففعل ذلك ، ونبعت العيون ، وهطلت السماء (فَٱلْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) وكان ماء السماء أخضر، وماء الأرض أصفر؛ وأمر الله الملائكة أن يحملوا البيت الى سماء الدنيا ؛ وكان الحجر يومئذ أشدّ بياضا من الثلج؛ فيقال إنه ٱسودّ من خوف الطُّوفان؛ وقال نوح عند ركوبه السفينة ما أخبرنا الله عنه فى كتابه العزيز : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِٱسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ

فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

قال : كان ٱبنه هذا كنعان .

قال : وكانوا لا يعرفون الليل من النهار إلّا بخرزة كانت مركّبة فى صدر السفينة بيضاء، فاذا نقص ضوءها علموا أنّه النهار، واذا زاد علموا أنّه اللّيل؛ وكان الديك يصيح عند أوقات الصلاة ؛ وعلا الماء على الجبال أربعين ذراعا ؛ وسارت السفينة حتى بلغت موضع الكعبة، فطافت سبعا ، ونطقت بالتلبية ؛ وكانت لا تقف فى موقف إلّا وتناديه : يا نوح هذه بقعة كذا، وهذا جبل كذا ؛ حتى طافت به الشرق والغرب و رجعتْ الى ديار قومه، فقالت : يانبيّ الله، ألا تسمع صلصلة السلاسل فى أعناق قومك؟ قال الله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾؛ ولم تزل السفينة كذلك ستّة أشهر آخرها ذو الحجة .

وقيل : كان ركوب نوح ومن معه السفينةَ لعشر خلون من شهر رجب وذلك لتتمّة ألفَى سنة ومائتى سنةٍ وخمسين سنةً من لدن أهبط الله تعالى آدم — عليه السلام — وخرجوا منها فى العاشر من المحرّم بعد مضىّ ستة أشهر ؛ ثم ٱستقرّت على جبل الجُودِىّ ، قال الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ .

قال : ثم فتح نوح باب السفينة، فنظر الى الأرض بيضَاء من عظام قومه ؛ وبعث الغراب لينظر ما بقى على وجه الأرض من الماء؛ فأبطأ ، فبعث الحمامة

فانطلقت شرقا وغربا وعادت مسرعة، فقالت : يانبيّ الله، هلكت الأرض ومن عليها، وأما الماء فإنى لا أراه إلّا ببلاد الهند، ولم تَبق على وجه الأرض شجرة إلّا الزيتون، فإنّها على حالها . فأوحى الله تعالى الى نوح : ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ فخرج من السفينة وأخرج من فيها، وأعاد الله الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأشجار والنبات كما كانت، وتفرّق الوحش والسباع والطيور وغيرُها فى الأرض؛ وأمر نوح فبُنيت قرية فى أسفل جبل الجُودِىّ وسمّيتْ (قريةَ ثمانين) على عددهم .

قيل : هى الجزيرة ؛ وهى أوّل قرية بُنيتْ على وجه الأرض بعد الطُّوفان ثم قسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة : سامٍ وحامٍ ويافِثَ، فأُعطِىَ سامٌ الحجازَ واليمن والشأم، فهو أبو العَرَب ، وأُعطِىَ حامٌ بلادَ المغرب فهو أبو السّودان وأعطِى يافثُ بلادَ المشرق، فهو أبو الترك .

ثم أوحى الله — عزّ وجلّ — الى نوح أن يردّ التابوت الى المكان الذى أخذ منه، فردّه .

ذكر خبر دعوة نوح على ابنه حام ودعوته لابنه سام (٢١)

قال : ولما استقرّ الأمر قال نوح لبنيه : إنى أحب أن أنام، فإننى لم أتهنّأ بالنوم منذ ركبتُ الفُلك . فوضع رأسه فى حجر ابنه حام، فهبّت الريح فكشفت عن سوءته، فضحك حام، وغطّاه سام؛ فانتبه فقال : ما هذا الضحك ؟ فأخبره سام ، فغضب وقال لحام : أتضحك مِن سوءة أبيك ؟ غيّر الله خِلقتَك ، وسوّد وجهك . فاسودّ وجهه لوقته . وقال لسام : سَترتَ عورة أبيك ، ستر الله عليك فى هذه الدنيا، وغفر لك فى الآخرة، وجعل من نسلك الأنبياء والأشراف، وجعل من نسل حام الإماء والعبيد، وجعل من نسل يافثَ الجبابرةَ والأكاسرةَ والملوكَ العاتية .

ذكر وصيّة نوح ووفاته

قال كعب : بعث الله — عزّ وجلّ — نوحا إلى قومه وله مائتان وخمسون سنة ولبث فيهم ألفَ سنة إلّا خمسين عاما، وعاش بعد الطُّوفان مائتى سنة؛ فلمّا حضرته الوفاة دعا بآبنه سام وقال له : أوصيك يا بُنىّ بآثنين، وأنهاك عن آثنين : أوصيك «بشهادة أن لا إله إلا الله»، فإنّها تخرق السمٰوات السبع، لا يحجبها شىء، والثانية أن تُكثِر من قولك : « سبحان الله وبحمده »، فإنها جامعة الثواب؛ وأنهاك عن الشِّرك بالله، والآتّكال على غير الله . فلمّا فرغ من ذلك أتاه ملَك الموت، فسلّم عليه فقال : من أنت ؟ فقد آرتاع قلبى من سلامك . قال : أنا ملَك الموت، جئتُ لقبض رُوحك. فتغيّر وجهه وجزِع، فقال له : ما هذا الجزع، ألم تشبع من الدنيا فى طول عمرك ؟ قال : ما شبّهتُ ما مضى من عمرى فى الدنيا إلّا بدارٍ لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر . فناوله ملَك الموت كأسا فيها شراب وقال : اشرب هذا حتى يسكن روعك . فلمّا شربه خرّ ميتا — عليه السلام — والله الموفّق .

ذكر خبر أولاد نوح — عليه السلام — من بعده

فأما حام فإنه واقع زوجته فولدتْ غلاما وجارية سُودًا[1]، فأنكرهما حام؛ فقالت آمرأته : " لحقتك دعوة أبيك " . فلم يقربها حينا؛ ثم واقعها فولدت مثلهما فتركها حامٌ وهرب على وجهه؛ فلما كَبِر الولدان الأوّلان خرجا فى طلب أبيهما حتى بلغا قرية على شاطئ البحر، فنزلاها، وواقع الغلام أخته فحملت منه وولدت غلاما وجارية؛ وأقاما فى ذلك الموضع لا مأكل لهما إلّا السمك؛ فرجع

(١) أراد بالجمع هنا ما فوق الواحد فقال : « سودا » .

حامٌ فى طلب ولديه فلم يجدهما، فاغتمّ لذلك، ثم ماتت امرأته، فخرج الولدان الآخَران فى طلب أخوَيهما حتّى صارا الى قرية أخرى على الساحل خَرِبة، فنزلاها فسمع بهما الأخوان اللّذان فى البطن الأوّل، فلحقا بهما، ونزلوا هناك، ووطئ كلٌّ منهما أختـه، فرُزِقوا أولادا، وكثر منهم النسـل، وانتشروا فى أعلى الأرض على ساحل البحر، فمنهم النُّوبة والزِّنْج والبربر والهند والسند وجميع طوائف السودان.

وأمّا يافثُ بن نوح، فإنه صار إلى المشرق، فوُلد له هناك خمسةُ أولاد[1]: جومر وتِيرس وأشار وسفويل ومياشخ، فمن جومر جميع الصَّقالبة والروم وأجناسهم، ومن تِيرس جميع الترك والخَزَر وأجناسهم، ومن مياشخ جميع أصناف العجم، ومن أشار يأجوج ومأجوج، ومن سفويل جميع الأرمن:

وأما سام بن نوح فولد خمسةَ أولاد: أرفخشـذ، وهو أب العرب، ولاوَذ وهو أبو العمالقة، وأشور، وهو أبو النسناس، وعيلم، وهو أبو العادية [الأولى]، وإرم، وهو أبو عاد وثمود، ورُزِق غيرَهم ممّن لم يُعقب.

البـاب الخامس من القسم الأوّل من الفن الخامس

فى قصة هود — عليه السلام — مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم

(٣٣)

قال وهب: كان ملِكُ عادٍ الأكبر اسمه الخَلَجان بن عاد بن العَوْص بن إرَم ابن سام، وكان قومه يَرجِعون إلى فصاحة وشعر، وكان له ثلاثة أصـنام: صَدَا وَهبا، وصَمُو، وكان مَلِكُهم قد حلّى هذه الأصنام بأنواع الحلىّ، وطيّبها، وجعل لهـا عدّة من الخـدم بعدد أيّام السـنة، فعتوا فى المعاصى، وانهمكوا على عبادة

(١) يلاحظ أن كتب التاريخ مختلفة تمام الاختلاف فى رواية كثير من هذه الأسماء العشرة أولاد يافث وسام حتى إنه لاصلة بين رواية وأخرى. ومن المتعذر الوصول الى تحقيق كثير من هذه الأسماء.

الأصنام؛ وكان فيهم رجل من أشرافهم آسمه الخلود بن معيد بن عاد، وكان له بَسْطة فى الخَلْق وقوّة فى الجسم، مع آلحُسن والفصاحة؛ وكان إذا قيل له : لم لا تتزوّج وقد بلغتَ سنّ أبيك ؟ يقول : رأيت فى المنام كأن سلسلة بيضاء قد خرجتْ من ظهرى، ولها نور كالشمس، وقيل لى : إذا رأيت هذه السلسلة قد خرجتْ من ظهرك ثانية فتزوّج بالتى تؤمر بتزوّجها؛ ولم أرها بعد، وقد عزمتُ على التزوّج . وقام ليعبر بيتَ الأصنام يدعو بالتوفيق فى التزوّج، فلما همّ بالدخول لم يقدر، وسمع هاتفا يقول : ياخلود، ما لمن فى ظهرك والأصنام؟ فلم يعد إليها . ثم رأى بعد ذلك فى منامه السلسلة وقد خرجت من ظهره وقائلا يقول : « قم يا خلود فتزوّج بآبنة عمك » فآنتبه وخطبها وتزوّجها، وواقعها فحملتْ بهود؛ وأصبح القوم وهم يسمعون من جميع النواحى : هذا هود قد حملت به أمّه، ويلكم، إن لم تطيعوه هلكتم .

ووضعتْه أمّه فى ليلة الجمعة، فوقعت الرِّعدة على قبائل عاد، ولم يعلموا ماحالهم؛ فعلموا أنه قد ولد لخَلود ولد، فقال بعضهم لبعض : ليكونن لهذا الولد شأن فآحذروه . فخرج أحسنَ الناس وجها، وأكملهم عقلا، وسمّته أمّه عابرَ، فرأته أمّه ذات يوم يصلّى، فقالت : لمن هذه العبادة يابنىّ ؟ قال : لله الذى خلقنى وخَلَقَ الخَلْق . قالت : أليس هى لأصنامنا؟ قال : إنّ أصنامكم لا تضرّ ولا تنفع وإنما الشيطان قد زين لكم عبادتها . قالت : أُعبد إلٰهك يا بنىّ، فقد رأيت منك حين كنتَ حَمْلا وطفلا عجائبَ كثيرة .

ذكر مبعث هود عليه السلام

قال : ولم يزل هود فى ديار قومه يجادلهم فى أصنامهم، حتى أتت عليه أربعون سنة؛ فبعثه الله — عزّ وجلّ — إلى قومه رسولا، وأتاه الوحى، فآنطلق إليهم وهم

متفرّقون فى الأحقاف، وهى الرمال والتِّلال — وكانت مساكنهم ما بين عُمان إلى حضرموتَ إلى الأحقاف إلى عالجة — فأتاهم فى يوم عيد لهم وقد آجتمع الملوك على الأسرّة والكراسىّ ، ومَلِكهم الخلجانُ على سرير من ذهب وهو متوّج وقد أحدقت به قبائل عاد، وهم فى اللهو والطرب؛ فلم يشعروا إلا وهود ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ وهذه الأصنام التى تعبدونها هى التى أغرقتْ قوم نوح ، ولستم أكرمَ على ربّكم منهم ؛ فآستغفروا ربّكم من عبادة هذه الأصنام . والأصنام ترتجّ ؛ فقال له ملِكهم : ويحك يا هود ، أَقبِل إلىّ . فتقدّم إليه ، فلما صار بين يدى الملِك صاح صيحة أجابه الوحش والسباع : أَبلِغ[1] ولا تخف . فامتلأت قلوبُ الناس خوفا، فقام إليه رجل منهم وقال : ياهود ، صِف لنا إلٰهك . فوصف عظمة الله ، وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ — وكان الذى سأله عمرو بن الحلى — فلمّا فرغ من كلامه قال له الملك : ياهود، أتظن أنّ إلٰهك يقدر علينا وهذه كثرة جموعنا وشدّةُ قوّتنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ .

فأوّل من آمن بهود رجل من قومه يقال له جُنادة بن الأصمّ وأربعون من بنى عمّه؛ ثم آنصرف إلى منزله .

فلمّا كان من الغد أقبل جُنادة وبنو عمّه حتى وقفوا على جماعة من سادات قومه، فقال: ياقوم لاتمنعكم مرارةُ الحق أن تقبلوه، ولا حلاوةُ الباطل أن تتركوه؛ وهذا آبن عمّكم هود قد عرفتم صدقَه، وقد أتاكم من عند الله رسولا وواعظا فآتقوا الله وأطيعوه . وحذّرهم، فحصبوه وشتموه، فرجع إلى هود .

(١) فى (ج) : « أقبل » .

فلما كان من الغد خرج هود فوقف عليهم وقال : ياقوم لاتبدّلوا نعمة الله كفرا . وأخذ يعظهم ؛ فكذّبوه وواجهوه بالقبائح ؛ فبقىَ على ذلك دهرا طويلا يلاطفهم وهم على كفرهم وعتوّهم ؛ فأعقم الله أرحام نسائهم ، فلم تحمل آمرأة منهم ؛ فشكَوا ذلك إلى الملِك ، فأمرهم أن يُخرجوا أصنامهم ويقرّبوا القرابين إليها ؛ ففعلوا ذلك ؛ فأتاهم هود وقال : ياقوم ألا تفزعون إلى الله الّذى خلقكم وأعطاكم هذه النعمة والقوّة ، فإنه مجيبكم إذا سألتموه ، ويزيدكم مُلكا إلى مُلككم وقوّة إلى قوّتكم وهو أن تقولوا معى : «لا إله إلا الله وحده لاشريك له وإنى هود عبده ورسوله» وإن لم تفعلوا ذلك ضربكم الله بالذلّ والنِّقمة ، وهبّت عليكم الريح العقيم حتّى تذركم فى دياركم هشيما . فلمّا سمعوا ذلك منه ضربوه حتى سال الدم على وجهه وهو يقول : « إلٰهى قد أبلغتُ وأنذرتُ » .

وأقبل إلى هود بعد آنصرافه رجل من قومه يُعرَف بمرثد بن عاد ، وقال : يا هود ، إنّى قد جئتك فى أمر ، فإن أخبرتنى به فأنت رسول الله . قال له هود : يامرثد ، كنتَ البارحة نائما مع زوجتك فواقعتَها ، فقالت لك : أتظنّ أنى قد حملتُ ؟ فقلتَ لها : إنى صائر غدا إلى هود ، فإن أخبرنى بهذا الكلام آمنتُ به . فقال مرثد : أشهد أنّك رسول الله حقا ؛ ولكن أَخبِرْنى هل حملتْ ؟ قال : نعم حملت بولدين ذكرين يكونان من أمّتى ، سيخرجان من بطنها سليمين مؤمنين ؛ وستلد لك عشرة أبطن فى كلّ بطن ذكران ، ويكونان من أمتى . فوثب مرثد وقبّل رأس هود وكان من خيار أصحابه ، وجعل مَرثد يقول :

من كان يَصدُق يوما فى مقالتِه * فإنّ هودا رسول صادق القِيلِ
نبىّ صدق أتى بالحقّ من حِكَم * وقد أتانا ببرهان وتنزيلِ
فالحمد لله حمدا دائما أبدا * مضاعفا[1] شكرُه فى كلّ تفصيلِ

(١) مضاعفا بالنصب : حال من الله .

ثم انصرف مرثد إلى امرأته وأخبرها ، فآمنت ؛ وكان مرثد يكتم إيمانه ويجالس قومه، فإذا سمعهم يذكرون هودا بسوء يقول : مهلا يا بَنِي عمّ فإنه كأحدكم وابنُ عمّكم .

قال : ثم اجتمعوا فى متنزّه لهم ومَلِكهم ونصبوا أصنامهم ؛ فأقبل هود عليهم وقال : يا قوم اعبدوا الله فإن هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع ولا تُبصر ولا تسمع . فقال الرؤساء من قومه : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ .

فنادَوه من كلّ ناحية : يا هود ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ .

وكان القوم يشتمونه ويضربونه ويدوسونه تحت أرجلهم حتى يظنّوا أنه قد مات ، ثم يولّون عنه ضاحكين ؛ فيقوم غير مكترث بفعلهم ؛ فلما أكثر عليهم ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ فآمن به فى ذلك اليوم رجل يقال له نُهَيل .

قال: ولم يزل هود فيهم يحذرهم وينذرهم العذاب سبعين عاما؛ فلما رأى أنهم لا يؤمنون دعا اللهَ تعالى أن يبتليهم بالقحط، فإن آمنوا وإلّا يهلكهم بعذاب لم يُهلِك به أحدا قبلهم ولا بعدهم؛ فاستجاب الله تعالى دعوته، وأمره باعتزالهم بمن معه من المؤمنين، فاعتزلهم فأمسك الله عنهم المطر، وأجدبت الأرض ولم تُنبِت ومات عامّة المواشي؛ فصبروا على ذلك أربعَ سنين حتى يئسوا من أنفسهم، وهمّوا أن يؤمنوا؛ فنهاهم الملِك عن ذلك وصبّرهم؛ فاجمعوا رأيهم أن يبعثوا رجالا منهم إلى الحرم يستسقون لهم؛ والله الفعّال.

ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم

قال وهب: فجمعوا الهدايا، واختاروا سبعين رجلا من أشرافهم، وجعلوا لكلّ عشرة منهم رئيسا، من جملتهم مَرثَد المؤمن؛ فسار وهو يدعو عليهم؛ فلما أشرفوا على الحرم إذا بهاتف يقول: (٢٤)

قبّح الله قوم عاد وذلّوا * إنّ عادا أشرُّ أهلِ الجحيم
سيّروا الوفد كي يسقّوا غياثا * فسيُسقَون من شراب الحميم

فدخلوا الحرم والملِك يومئذ معاوية بن بكر، وكانوا أخواله، فسألهم عما جاء بهم فأخبروه بخبر هود وبما حلّ بعاد، وأنّهم قد لجأوا إلى الحرم للاستسقاء؛ فأنزلهم معاوية في منزل الضيافة، وأطعمهم وسقاهم شهرا؛ فشغلهم اللهو عن الاستسقاء؛ فبلغ الملِكَ (الخلجانَ) ذلك، فبعث إلى معاويةَ يسأله أن يأمرهم بالاستسقاء، فكره مواجهتهم بذلك فيقولون: «قد تبرّم بضيافتنا» فدعا بالجرادتين — وهما قَينتان لمعاوية — فقال لهما: إذا شرب القوم ودبّ فيهم الشراب فغنّياهم بهذه الأبيات، وهي:

بأبي مَن خَلَق الخَلْـ * ـقَ بني سامٍ وحامِ
سادة سادوا جميعَ الـ * ـخَلْقِ في الخَلْقِ التّمامِ

نَصَب الدهر عليهم * حَرْبَه دون الأنامِ
فسقى الله بنى عا * د من الصَّوْب الغَمامِ

فأجابهما رجل من الوفد يقال له الجَعْد بنُ القَيْل :

علِّلينا — زانك اللّ * هُ — بأكواب المُدامِ
٥ وبماءٍ فامزُجيها * تستريحى من مَلامِ

فلما لم يكترثوا بالصوت الأوّل قالت :

ألا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فهيِمْ[1] * لعلّ الله يَمنحُكم غَماما
غماما صَوْبُها هَطِلٌ مغيث * يُروِّى السّهل طُرّا والإكاما
من العطش الشديد فليس نرجو * بها الشيخَ الكبير ولا الغلاما
١٠ وقد كانت نساؤهمُ بخير * فقد أمست نساؤهمُ عِياما[2]
وأنّ الوحش تأتيهم جهارا * ولا تَخشى لعادىٍّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم * نهارَكم وليلَكم التِّماما
فقُبِّح وفدُكم مِن وفد قوم * ولا لَقَوا التحيّة والسلاما
أفيقوا أيّها الوفد السُّكارى * لقومكمُ فقد أضحَوا هِياما
١٥ فقد طال المُقام على سرورٍ * ألا يا قَيْلُ وَيْكَ ذَرِ المُداما

قال : فانتبه الناس وقاموا فاغتسلوا ولبسوا ثيابا جُدُدا ، وكسَوا البيت بالكسوة التى حملوها له ؛ فجعل ينفضها ؛ فقال مَرْثَد : ياقوم، إنّ ربّ هذا البيت لا يَقبل الهديّة إلّا من مؤمن ، فهل لكم أن تؤمنوا بهود ؟ فقالوا : يا مَرْثَد : إنّ كلامك يدلّ على إيمانك به، ونحن لانؤمن به أبدا .

٢٠ فأنشأ يقول :

(١) هيم، أى ادع الله . (٢) عياما، أى شديدات الشهوة إلى اللبن .

أَرَى عادا تَمَادَى[1] فى ضلالٍ * وقد عَدَلوا عن الأمر الرشيدِ
بما كفرتْ بربّهم جِهارا * وحادوا رغبةً عن دِين هود

فٱجتمعوا يستسقون، فقال واحد منهم :

يا ربَّ عادٍ ٱسقينَ عادا * إنّك حقّا ترحم العِبادا
فاسق البساتينَ وذى البلادا * أجوادَ[2] غيث تَتبع العِهادا

وجعل كلُّ واحد منهم يتكلّم بما حضره من ذلك . ثم تكلّم مَرْثَد بن سعد — وهو المؤمن الّذى يكتم إيمانه — وقال : اللهمّ إنا لم نأتك إلى حرمك إلّا لأرض تسقيها، أو أمّة تحييها .

فأوحى الله إلى مَلَك السحاب أن ينشر لهم ثلاثَ غمامات : بيضاءَ وحمراء وسوداء ؛ وجعل السوداء مَشُوبة بغضبه، فٱرتفعت البيضاء، وتبعتْها الحمراء خَلْفَهما السوداء، فٱرتفعتْ حتى رأى الوفد جميع الغمامات؛ ففرحوا وٱستبشروا ثم نُودوا : يا قَيْل، اختر لقومك من هذه السحائب . فنظر فقال : أمّا البيضاء فإنها جَهام لا ماء فيها؛ وأمّا الحمراء فإنها إعصار ريح . فٱختار السوداء . فنودى : يا قَيْل، اخترتَ رَمادا أرمدا، لا يُبقِى من قوم عاد أحدا، إلا تراهم فى الديار هُمّدا .

ذكر إرسال العذاب على قوم هود

قال : وأَوحى الله إلى (مالكٍ) خازنِ جهنّم أن يقبض على سلاسل السوداء وليكن عليها ألفُ من الزبانية .

قال كعب : إن هذه السلسلة غُمستْ فى سبعين واديا من أودية الزمهرير ولولا ذلك لذابت الجبال من حرّها .

(١) تمادى، أى تمادى .

(٢) الأجواد : الأمطار الغزيرة، الواحد جود بفتح الجيم .

فمدّت الزبانية السلاسل ، وجَعلت السحابة ترمى بشرر كالجبال ، وخرجت عليهم من واد يقال له : (وادى الغيث) فنظروا إليها فقال بعضهم لبعض : ﴿ هٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ .

٥ وأخرج القوم أصنامهم ونصبوها على أسرّتها ؛ فأمر الله تعالى خازن الريح العقيم أن يفتح بعض أطباقها ، فٱنطلقتْ ناشرةً أجنحتها بعدد قبائل عاد ؛ فلمّا عاينوا الملائكة يطوفون حول السحاب تيقّنوا العذاب ، فأدخلوا النساء والوِلدان فى الحصون وخرجوا ونشروا أعلامهم وأوتروا قِسيّهم ، وأفرغوا السهام بين أيديهم ، والرياح ساكنة تنتظر أمر ربّها ، وهود قائم ينذرهم العذاب ، وهم يقولون : ستعلم ياهود

١٠ من أشدّ منا قوّة وبطشا . حتى إذا كانت صَبيحة الأربعاء ، خرجت الريح عليهم فى يومِ نحس مستمرّ ، فكانت فى اليوم الأوّل شهباء ، فلم تترك على وجه الأرض شيئا إلّا نسفتْه نسفا ؛ وفى اليوم الثانى صفراء ، فٱقتلعت الأشجار ؛ وفى اليوم الثالث حمراء ، فدمّرت كلّ شىء مرّت عليه ؛ فلم يزل يجرى فى كلّ يوم لون والنساء ينظرن إلى فعلها بقومهنّ ، فجعلن يقلن شعرا :

١٥ ألا قد ذهب الدهـ * ـر بعَمرٍو ذى العلّيات
وبالحارث والقمقا * م طَلّاعِ الثّنيّات
ومن سَدّ مهبّ الري * ح فى وقت البَلِيّات

وٱستمرت الريح ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ ، أى دائمة ؛ فلما كان فى اليوم الثامن ٱصطفّت القوم صفوفا ، كلّ واحد إلى جنب أخيه ، وهم عشرة صفوف ؛

٢٠ فجعل ملكهم الخلجان يشجّعهم ويقول :

ما بالُ عادٍ اليـــومَ خائفينا ؟ * أمِنْ مَهَبّ الريح يجزعونا؟ (١)

لقد خشيت أن يكونوا دونا * إنّ البنين تُعقِب البنينا

هذا والرِّيح تمزّقهم، فكانت تدخل فى ثوب الرجل فتحمله فى الهواء، ثم ترميه على رأسه ميتا . قال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ .

فلم يَبق منهم إلا الملِك أخّره الله تعـالى ليرى مَصارعَ قومه ، وهو يردّ الريح بصدره، فجاءت الريح فدخلت من فيه وخرجت من دبره ، فمات ؛ ثم مرّت الريح نحو الوفد، فحملتهم من الأرض إلى الهواء، فألقتهم على وجوههم؛ فماتوا عن آخرهم.

قال : وهودٌ فى حظيرة بمن معه من المؤمنين لا يصيبهم منها إلا ما تلين له الجلود. قال الله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

قال : وارتحل هود ومن معه من أرض عاد إلى الشِّحْر من بلاد اليمن؛ فنزلوا هناك حولين، ثم مات .

ويقال : إنه دفن بأرض (حضرموت)؛ والله أعلم .

ذكر خبر مرثد ولقمان

قال : وخرج من وفد عاد مرثد، ولقمان بن عاد، فدخلا مكة منفردَين، فدعوا الله تعالى لأنفسهما ؛ فقيل لهما : قـد أعطيتما مُناكما ، فاختارا لأنفسكما ، إلا أنه لاسبيل إلى الخلود . فقال مرثد : اللهم أعطنى برّا وصدقا . فأُعطىَ ذلك . وقال لقمان : « يا ربّ عُمرا » . فقيـل له : اختر لنفسك بقاء سبع بقرات صفر عُفْر

(١) كذا ورد هذا الشطر فى إحدى نسخ (قصص الأنبياء للكسائى) المنقول عنه هذا الكلام . والذى فى الأصول : * يا آل عاد أبكم جنونا * وقوله : «أبكم جنونا» غير مستقيم الإعراب كما هو ظاهر .

فى جبل وَعْر، لايمسّهن ذُعْر؛ و إن شئتَ بقاء سبع نوايات من تمر، مستودعات فى صخر، لايمسّهن ندًى ولاقَطْر؛ و إن شئتَ بقاء سبعة أَنْسُر كلّما هلك نَسْر أُعقِب من بعده نسر . فاختار الأنسر، فكان يأخذ الفرخَ منها حين يخرج من بيضته، فإذا مات أخذ غيرَه، فكان كلّ نسر يعيش ثمانين سنة، حتى انتهى إلى السابع، فكان آخرَها لُبَد ؛ فلما مات لبد مات معه لقمان، وهو لقمان النسور .

ولنصل هذا الباب بخبر ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾، وقصّة شديدٍ وشدّاد .

ذكر خبر ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ﴾ وقصّة شديد وشدّاد بنىْ عاد

قد ذكرنا خبر ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ فيما تقدّم من كتابنا هذا على سبيل الاختصار وذلك فى (الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الأوّل فى المبانى القديمة) وهو فى السفر الأوّل من هذه النسخة؛ ورأينا إيرادَه فى هذا الباب بما هو أبسط من ذلك لتعلّقه به .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

روى أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبىّ فى كتابه المترجم (بيواقيت البيان فى قصص القرآن) عن منصور عن سفيان عن أبى وائل أنّ رجلا يقال له : (عبد الله بن قِلابة) خرج فى طلب إبل له قد شردت، فبينما هو فى بعض صحارى عَدَنَ فى تلك الفلوات، إذ وقف على مدينة عليها حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة وأعلام طوال ؛ فلمّا دنا منها ظنّ أن فيها من يسأله عن إبله فلم يرداخلا فيها ولا خارجا منها، فنزل عن ناقته وعقلها، وسلّ سيفه، ودخل من باب الحصن، فاذا هو ببابين عظيمين لم يُرَ فى الدنيا أعظمُ منهما ولا أطيبُ رائحة

وإذا خشبُهما من أطيبِ عُود ، وعليهما نجوم من ياقوت أصفرَ وياقوت أحمر ضوءُها قد ملأ المكان؛ فلما رأى ذلك عجب، ففتح أحد البابين، فاذا هو بمدينة لم ير الراءون مِثلَها قطّ ، وإذا هو بقصور تتعلّق، تحتها أعمدةٌ من زبرجد وياقوت وفوق كلِّ قصر منها غُرَف مبنيّة بالذهب والفضّة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعلى كلّ باب من أبواب تلك القصور مِصراع كمصراع باب المدينة من عُودٍ طيِّب، قد نُضِّدتْ عليه اليواقيت؛ وقد فُرشتْ تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ولم يَرَ هنالك أحدا، فأفزعه ذلك، ثم نظر إلى الأزقّة فاذا فى كلّ زُقاق منها أشجار قد أثمرت، تحتها أنهارٌ تجرى؛ فقال : هذه الجنّة التى وصفها الله تعالى لعباده فى الدنيا الحمد لله الذى أدخلنى الجنة . فحمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلعَ من زبرجدها ولا ياقوتها لأنّها كانت مشتبكةً فى أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورةً بمنزلة الرمل فى تلك القصور والغرف؛ فأخذ منها ما أراد، وخرج؛ ثم سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليَمَن، فأظهر ما كان معه، وأَعلم الناس بخبره، وباع ذلك اللؤلؤ؛ وكان قد آصفرّ وتغيّر من طول الزمان الذى مرّ عليه ، ففشا خبره وبلغ معاوية ، فأرسل رسولا إلى صاحب (صنعاء)، وكتب بإشخاصه، فسار حتى قدم على معاوية، فخلا به وسأله عمّا عاين؛ فقصّ عليه أمر المدينة وما رأى فيها؛ فآستعظم ذلك، وأنكر ما حُدّث به، وقال : ما أظنّ ما يقول حقّا . ثم قال : يا أمير المؤمنين، معى من متاعها الّذى هو مفروش فى قصورها وغرفها وبيوتها . قال له : ما هو؟ قال : اللؤلؤ والبنادق . فشمّ البنادق فلم يجد لها ريحا؛ فأمر ببندقة منها فدُقّت ، فسطع ريحها مسكا وزعفرانا؛ فصدّقه عند ذلك؛ ثم قال معاوية : كيف أصنع حتى أسمع بآسم هذه المدينة ولمن هى ومَن بناها؟ والله ما أُعطىَ أحد مِثلَما أُعطى سليمان بنُ داود

وما أظنّ أنه كان له مِثلُ هـذه المدينة . فقال بعض جلسائه : ما تجد خبر هـذه المدينة إلّا عند (كعب الأحبار) فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يبعث إليه ويأمر بإشخاصه ويغيِّب عنه هـذا الرجلَ فى موضع ويسمعَ كلامَه منه وحديثه ووَصْفَ المدينةِ حتّى يتبيّن أمر هذه المدينة فَعَل، فإنّ كعبا سيخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمرِ هذا الرجل إن كان دخلها، لأن مثل هـذه المدينة على هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولَها، إلّا أن يكون سبق فى الكتاب دخولُه إيّاها فيعرف ذلك .

فأرسـل معاويةُ إلى (كعب الأحبـار) وأحضره ثم قال له : يا أبا إسحـاق إنّى دعوتك لأمر رجوتُ أن يكون علمُه عنـدك . فقـال له : يا أمير المؤمنـين "على الخبـير سقطتَ" فسلنى عما بدا لك . فقال له : أخبِرنا يا أبا إسحاق : هل بلغك أن فى الدنيا مدينةً مبنيةً بالذهب والفضّة ، عَمَدها زبرجد وياقوت، وحصا قصورها وغرفها اللؤلؤ، وأنهارُها فى الأزقّة تحت الأشجار؟ قال: والّذى نفس كعب بيده لقد ظننتُ أن سأتوسّدُ يمينى[1] قبل أن يسألنى أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هى، ومن بناها .

أمّا المدينةُ فهى حقّ على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وُصفتْ له .

وأمّا صاحبها الّذى بناها فشدّاد بن عاد .

وأمّا المدينة فهى إرَم ذات العماد التى لم يُخلَق مِثلُها فى البلاد .

فقال له معاوية : يا أبا إسحاق، حدِّثنا بحديثها — يرحمك الله — . فقال كعب: نعم يا أمير المؤمنـين ، إن عادا كان له ابنان يسمَّى أحدهمـا « شديدا » والآخر « شدّادا » ؛ فهلك عاد ، فبقيَا وملَكا وتجبّرا ، فقهرَا أهل البلاد ، وأخذاها عَنوة

(١) كنى بتوسد يمينه عن دفنه بعد الموت . وفى الأصل : «شيئا توسد» .

وقَسرا ، حتى دان لهما جميع الناس ، فلم يبق أحد من النـاس فى زمانهما إلّا دخل فى طاعتهما ، لا فى شرق الأرض ولا فى غربها ؛ وإنهما لمّـا صفا لهما ذلك وقـرّ قرارهمـا مات شـديد بن عاد ، وبقى شـدّاد ، فملك وحده ، ولم ينازعه أحد ودانت له الدنيا كلُّها ؛ فكان مولَعا بقراءة الكتب القديمة ، وكان كلّما مرّ فيهـا بذكر الجنة دعته نفسُه لتعجيل تلك الصفة لنفسه الدنيّة عتوّا على الله وكفرا؛ فلما وَقَر ذلك فى نفســه أمر بصنعة تلك المدينـة الّتى هى إرم ذات العماد ، وأمّر على صنعتها مائةَ قَهْرَمان، مع كلّ واحد ألف من الأعوان . ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فلاة من الأرض وأوسعها، وٱعملوا فيها مدينة من ذهب وفضّة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ، تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد، وعلى المدينة قصور، من فوق القصور غرف، ومن فوق الغرف غرف، وٱغرسوا تحت القصور غروسا فيها أصناف الثمار كلّها، وأجروا فيها الأنهار حتى تكون تحت تلك الأشجار جارية، فإنّى أسمع فى الكتب صفةَ الجنة، وإنى أحبّ أن أتخذ مِثلَها فى الدنيا، أتعجّل سكناها. فقال له قَهارمتُه: كيف لنا بالقدرة على ما وصفتَ لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة نبنى منهـا مدينة كما وصفتَ لنا ؟ فقال لهم شـدّاد : ألستم تعلمون أن مُلك الدنيا كلّها بيـدى ؟ فقالوا : بلى . قال : انطلقوا إلى كلّ موضع فيه معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة، وكلّفوا من كلّ قوم رجلا يُخرج لكم ما فى كلّ معدن من تلك الأرض؛ ثم ٱنظروا إلى ما فى أيدى الناس من ذلك فخذوه، سوى ما يأتيكم به أصحاب المعـادن، فإنّ معادن الدنيا فيها كثير من ذلك ، وما فيها ممّـا لا تعلمون أكثرُ وأعظمُ ممّا كلّفتُكم من صنعة هذه المدينة .

قال: فخرجوا من عنده، وكتب معهم إلى كلّ ملِك من ملوك الدنيا يأمره أن يجمع لهم ما فى بلده من الجواهر، ويحفرَ معادنها؛ فٱنطلق القهارمة، وبعث الكتب

إلى الملوك بأخذ كلّ ما يجدونه فى أيدى الناس عشر سنين من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة، ويبعثون بذلك إلى فعلة إرم ذات العماد . وخرج الفَعَلة يطلبون موضعا كما وصفه لهم شدّاد .

فقال معاوية : يا أبا إسحاق ، كم كان عدد أولئك الملوك الذين كانوا تحت يد شدّاد؟ قال : كانوا مائتين وستّين ملِكا .

قال : فخرج عند ذلك الفعلة والقَهارمة، فتفرّقوا فى الصحارى ليجدوا ما يوافق غرضه؛ فوقعوا فى صحراء عظيمة نقيّة من الجبال والتلال. وإذا هم بعيون مطّردة؛ فقالوا: هذه صفة الأرض التى أُمرنا بها؛ فأخذوا منها بقدر ما أمرهم به من العرض والطول، ثم عمَدوا إلى مواضع الأزقّة فأجرَوا فيها قَنَوات الأنهار؛ ثم وضعوا الأساس من صخور الجَزْع اليمانىّ، وعجنوا طين ذلك الأساس من دُهن البان والمحلب؛ فلمّا فرغوا من وضع الأساس بُعث بالعَمَد والذهب والفضّة من جهة الملوك؛ فتسلّمها الوزراء والقَهارمة، وأقاموا حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شدّاد .

فقال معاوية : يا أبا إسحاق، إنى لأحسبهم أقاموا فى بنائها زمنا من الدهر .

قال : نعم يا أمير المؤمنين . إنى لأجد فى التوراة مكتوبا أنهم أقاموا فى بنائها ثلاثمائة سنة . فقال معاوية : كم كان عمر شدّاد ؟ فقال : سبعمائة سنة . فقال معاوية : لقد أخبرتَنا عجبا، فحدّثنا . فقال : يا أمير المؤمنين، إنّما سمّاها الله تعالى إرم ذات العماد الّتى لم يُخلق مِثلُها فى البلاد، لِلعَمَد التى تحتها من الزبرجد والياقوت وليس فى الدنيا مدينةٌ من الزبرجد والياقوت غيرها، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

وقال كعب : إنّهم لما أتَوه فأخبروه بفراغهم منها قال : انطلقوا وٱجعلوا عليها حصنا، وٱجعلوا حول الحصن ألفَ قصر، عند كلّ قصر ألفَ عَلَم، ويكون فى كلّ

قصر وزير من وزرائى، ويكون كلّ عَلَم عليه ناطور . فرجعوا فعملوا تلك القصور والأعلام والحصن؛ ثم أتوه فأخبروه بالفراغ ممّا أمرهم به .

قال : فأمر شـدّاد ألفَ وزير من خاصّته أن يهيّئوا أسبابهم ، ويعزلوا على النقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر رجالا أن يسكنوا تلك الأعلام ويقيموا فيها ليلهم ونهارهم، وأمر لهم بالعطاء والأرزاق، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجَهاز إلى إرم ذات العماد؛ فأقاموا فى جَهازهم عشر سنين؛ ثم سار الملك شـدّاد بن عاد بمن أراد، وتخلّف من قومه فى عَدَنَ مَن أمَرَه بالمُقام بها .

قال : فلمّا آستقلّ وسار إليها ليسكن فيهـا، وبلغ منها موضعا بقى بينـه وبين دخوله إليها مسيرةُ يوم وليلة، بعث الله تعـالى عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء ، فأهلكتْهم جميعا، ولم يبق منهم أحد ، ولم يدخل شـدّاد ولا مَن كان معه إرم ذات العماد، ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة .

فهـذه صفة إرم ذات العماد ، وأنّه سـيدخلها رجل من المسـلمين فى زمانك ويَرى ما فيها ، فيحدّث بمـا عاين، ولا يُسمَع منه ولا يصدّق . فقال معاوية : يا أبا إسحاق، فهـل تصفه لنـا ؟ قال : نعم ، هو رجل أحمر أشـقر قصير، على حاجبـه خال، وعلى عَقِبه خال ، يخرج فى طلب إبل له ندّت فى تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد، فيدخلها ويحمل ممّـا فيها . والرجل جالس عند معاوية . فآلتفت كعب فرأى الرجل ، فقال : هو هذا يا أمير المؤمنين قد دخلها ، فآسأله عمـا حدّثتك به . فقـال معاوية : يا أبا إسحـاق ، إنّ هـذا من خَدَمى ، ولم يفارقنى . قال كعب : قد دخلها و إلّا سوف يدخلها ، وسيدخلها أهلُ هذا الدين فى آخر الزمان . قال معاوية : يا أبا إسحاق، لقـد فضّلك الله على غيرك من العلماء

ولقد أُعطيتَ من علم الأوّلين والآخرين مالم يُعطَه أحد . فقال : والّذى نفس كعب بيده، ما خلق الله تعالى فى الأرض شيئا إلّا وقد فسّره فى التوراة لعبده موسى تفسيرا، وإن هذا القرآن أشدّ وعيدا (وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) والله الهادى للصواب.

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — وقال الشعبىّ : أخبرنا دَغْفَلٌ الشيبانىُّ عن رجل من أهل (حضرموت) يقال له : بِسْطام، أنه وقع على حَفيرة شدّاد بن عاد فى جبل من جبال حضرموت مطلٍّ على البحر .

قال : وكنت أَسمع من صباى إلى أن آكتهلتُ بمغارة فى جبل من جبالنا بحضرموت وهيبةِ الناس لدخولها، فلم أحتفل بما كنت أسمع من ذلك ؛ فبينا أنا فى نادى قومى إذ تناشدوا حديثَ تلك المغارة وأطنبوا فى ذكرها ووصفوا موضعها؛ فقلت لقومى : إنى غير منتهٍ حتى أدخلها ، فهل فيكم من يساعدنى ؟ فقال فتى منهم حدث السنّ : أنا أصاحبك . فقلت : يآبن أخى ، أوتجسر على ذلك ؟ قال : عندى ما عند أشدِّ رجل من رَباطة الجأش وشدّة القلب . فهيّأنا شمعة وحملنا معنا إداوةً عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدارَ ما قدرنا على حمله ؛ ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذى فيه المغارة — وكان مشرفا على المكان الذى يركب أهلُ حضرموتَ منه البحر — فلما آنتهينا إلى باب المغارة حزمنا علينا ثيابنا ؛ وأشعلنا الشمعة ؛ ثم ذكرنا الله تعالى ، ودخلنا ومعنا تلك الإداوةُ وذلك الطعام ، فإذا بمغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا ، وطولُها علوا نحو خمسين ذراعا ؛ فمشينا فيها هونا فى طريق أملس مستو ، ثم أفضينا إلى درجات عالية عرضُ الدرجة عشرون ذراعا فى سَمْك عشر أذرع ، فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرجات فقلت لصاحبى : هلمّ، إلىّ يديك . فكنت آخذ بيده حتى ينزل، فإذا نزل وقام فى الدرجة تعلّقتُ بطرف الدرجة وتسيّبتُ حتى تنال رجلاى منكبيه ؛ فلم نزل

كذلك وذلك دأبُنا عامة يومنا ، حتى نزلنا ذلك الدَّرَج وكانت مقدار مائة درجة ؛ فأفضينا إلى أَزَجٍ عظيم محفورٍ فى الجبل، فى طول مائة ذراع، فى عرض أربعين ذراعا ، وسَمْكُه فى السماء نحو مائة ذراع ، وفى صدره سرير من ذهب مفصَّصٌ بأصناف الجواهر، وفوقه رجل عظيم الجسم، قد أخذ طولَ هذا الأَزَج وعرضَه وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم، وعليه سبعون حلّة بمقدار طوله وعرضه منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة ، وإذا فى ذلك الأزج نَقْب عرضه ذراعان ، وارتفاعه ثلاث أذرع، خارج إلى فضاء لم ندر ما هو ، وإذا على رأس السرير لوح من ذهب ، فيه كتاب بالمُسنَد — وهو كتاب عادٍ كانت تكتبه فى زمانها — محفور ذلك الكتاب فى اللوح حفرا؛ فقلعناه ودنونا من الرجل فمسسنا تلك الحلل فصارت رميما ، وبقيت قضبان الذهب قائمة، فجمعناها وكانت مقدار مائة رطل ، فحملناها فى أُزُرنا ، وأردنا قلع شىء من تلك الجواهر المفصَّص بها السرير، فلم نقدر عليه لوثاقته ، فتركناه ؛ وهجم علينا الليل، ونحن فى ذلك الأَزَج وعرفْنا ذلك بذهاب ذلك الضوء الذى كان يدخل من ذلك النَّقب ، فبتنا ليلتنا فى ذلك الأَزَج ، وطَفئت الشمعة التى كانت معنا ؛ فلما أصبحنا قلت لصاحبى : ماترى ؟ قال : أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه ، لارتفاع الدَّرَج ، وأنا لا نستطيع صعودها، لا سيّما والشمعة قد طَفئت، ولكن هلمّ لنلزم هذا الضوء الذى نراه فى هذا النقب، فإنى أرجو أن يخرج بنا إلى الفضاء إن شاء الله تعالى . فقلت له : لعمرى إنّ هذا لهو الرأى .

قال : فانطلقنا بما معنا من تلك القضبان من الذهب ، وحملناها مع ذلك اللوح الذهب الذى كان عند رأس السرير، ومشينا فى ذلك النَّقب نتبع ذلك الضوء، فلم نزل نمشى فيه فى طريق ضيق مقدارَ مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى

كهف فى ذلك الجبل كهيئة الحائط، وقد حَفّ بذلك الكهف البحر؛ فلبثنا على باب ذلك النَّقْب ثلاثة أيّام نتموّن بقيّةَ ما كان معنا من الماء والطعام؛ فلمّا كان فى اليوم الرابع نظرنا إلى مركَب قد أقبل فى البحر فلوّحنا إلى مَن فيه، فأرسلوا إلينا القارِب، فنزلنا من باب ذلك النقب نزولا شاقّا حتى وثبنا إلى القارب بما معنا، ثم خرجنا من البحر فقسمنا ذلك الذهب بيننا، وصار ذلك اللّوح إلىّ بقِسْطى.

قال: ثم إنّ أنفسنا دعتنا إلى العودة إلى ذلك السَّرَب ممّا يلى النَّقْبَ من جهة البحر، فركبنا قارِبا وسرنا فى البحر نحو المكان الذى كنّا فيه، فنزلنا منه، فخفى علينا فعلمنا أنّا لم نُرزَق من ذلك المكان إلّا ما أخذناه، فرجعنا.

قال: ومكث ذلك اللوح عندى حولا وأنا لا أجد من يقرؤه، حتى أتانا رجل حِمْيَرىّ من أهل صنعاء كان يُحسن قراءة تلك الكتابة، فأخرجتُ إليه اللوح فقرأه، فإذا فيه مكتوب هذه الأبيات:

اعتبِرْ بى أيّها المغـ * ـرورُ بالعمر المديد
أنا شدّاد بنُ عادٍ * صاحبُ الحصن العتيد
وأخو القوّة والبأ * ساء والمُلك الشديد
وبفضل المُلك والعُـ * ـدّة فيه والعديد
دان أهلُ الأرض طرًّا * لىَ من خوف وعيدى
وملكتُ الشرق والغر * ب بسلطانٍ شديد
فأتى هودٌ وكنّا * فى ضلال قبلَ هود
فدعانا — لو قبِلنا * ه — إلى الأمر الرشيد
فعصيناه ونادَيـ * ـنا ألا هل من محيد
فأتتنا صيحة تهـ * ـوى من الأُفْق البعيد

فَتَــوافَيْنَا كزرعٍ * وَسْـطَ بيـداءَ حصيد

وقد ساق أبو إسحاق الثعلبيُّ أيضا هـذه الأبيات بهذا السند دون القصّة في تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) وفيها في البيت الرابع بدل قوله :

... ... طرًّا * لىَ من خوف وعيـدى

دانَ أهلُ الأرض لى من * خوفِ وعدى ووعيدى ٥

قال أبو إسحاق — رحمه الله — قال دَغْفَلٌ الشيْبانىّ : سألت علماء حِميَر عن شدّاد بن عاد، فقلت : إنه أصيب وكان قد دنا من إرم ذات العماد، فكيف وُجِد شِلْوُه في تلك المغـارة وهى بحضرموت ؟ فقالوا : إنّه لمّـا هلك هو ومن معه بالصيحة، ملك بعده مَرْثَد بن شدّاد، وقـد كان أبوه خلّفه على مُلكه بحضرموت فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت، فحُمِل مطليًا بالصـبر والكافور، فأمر أن تُحفَر له ١٠ تلك المغارة، وٱستودعه فيها على ذلك السرير الذهب؛ والله تعالى أعلم .

هذا ما أورده — رحمه الله — من خبر إرم ذات العماد وخبرِ شديدٍ وشدّاد بنَىْ عاد .

وقد ذُكر في هذه الأبيات هود النبىّ — عليه السلام — في قوله : (٣٠)

فأتى هودٌ وكنّا * في ضلالٍ قبلَ هودِ

الأبيات الخمسة . ١٥

وقد تقـدّم في خبر هود وهلاكِ عاد بالريح العقيم ، أن مِلكهم القائمَ بأمرهم في زمن هود كان اسمه الخَلَجان بن الوهم بن عاد، وأنه هلك بالريح العقيم إثرَ هَلاكِ قومه، ولم يَرِد أنّه آمن بالله تعالى ؛ وهذه الأبيات تدلّ على ندم قائلها ؛ ومقتضى هذا السياق فيه دَلالة على أن شدّاد بن عاد هذا المذكورَ آنفا، وٱبنَه مرثد بن شدّاد وخبرَ إرم ذات العماد، كان قبل مبعث هود — عليه السلام — والله تعالى أعلم . ٢٠

ولنرجع إلى قصص الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام —

الباب السادس من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى قصة صالح — عليه السلام — مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم

قال الكسائىّ : قال كعب : لما أهلك الله — عزّ وجلّ — عادا، جاءت ثمود وعَمرت الأرض، وكانوا بضع عشرة قبيلة، فى كلّ قبيلة زيادةٌ عن سبعين ألفا سوى النساء والذرّيّة، وكثروا حتى صاروا فى عدد عادٍ وأكثر، وكانوا ذوى بطش وقوّة وتجبّر وكفر وفساد، وكانت منازلهم ما بين الحِجاز إلى الشأم ، وهى ديار الحِجْر من وادى القُرى، وكان مِلكهم جُنْدَع بن عمرو بن عاد بن ثمود بن إرم بن سام ابن نوح .

وقيل فى نسبه : إنّه جُنْدَع بن عمرو بن عمرو بن الدُّمَيْل بن عاد بن ثمود ابن عائذ بن إرم بن سام، وكانت طائفة ممّن آمنت بهودٍ يذكرون له كيف أهلك الله قوم عاد بالريح العقيم، وكيف كانت سيرة هود فيهم؟ فيقول : إنّما هلكتْ عاد لأنها لم تكن تشيّد بنيانها : ولا تنصح آلهتها، وكان بنيانهم على الأحقاف التى هى الرمال، ونحن أشدّ قوّة و بناء و بلادا، ونحن نتخذ الجبال بيوتا فننحتها فى الصخر لئلّا يكون للريح عليها سبيل، ونحن نعبد آلهتنا حقّ العبادة .

قال كعب : كانت قوّة الرجل منهم أن ينحت فى الجبل بيتا طوله مائة ذراع فى عرض مِثلِ ذلك، و يضربه بصفائح الحديد، و يُغَلِّق بابا من حديد مصمّت لا يفتحه إلّا القوىُّ منهم، وكانت منازلهم أوّلا بأرض كوش فى بلاد عالج(١)، فانتقلوا إلى هذه البلاد لكثرة جبالها .

(١) فى ياقوت أن «عالج» رمال بين «فيد» «والقريات» ، وهى متصلة «بالثعلبية» على طريق مكة ؛ فلعل هذا الموضع هو المراد هنا .

قال : ثم آجتمع كبراؤهم إلى ملكهم جُنْدَع ، وقالوا : نريد أن نتّخذ لأنفسنا إلٰها نعبده ، لم يكن مِثله لقوم عاد ولا قوم نوح . فأذن فى ذلك ، فنحتوا صنما من جبل يقال له : (الكثيب) وجعلوا وجهه كوجه الإنسان ، وعنقَه وصدره كالبقر ويديه ورجليه كالخيل ، وضربوه بصفائح الذهب والفضّة ، وعقدوا على رأسه تاجا ، ورصّعوه بالدرّ والجوهر ؛ فلمّا كمل خرّوا له سجّدا ، وقرّبوا القربان ، وأقبلوا إلى الملك فقالوا له : أُخرج إلى هذا الإلٰه الّذى أتعبنا أنفسَنا فى آتّخاذه . فخرج الملك إليه فى زينته وأصحابه ؛ فلما رأوه خرّوا له سجّدا ؛ ثم أمر الملك أن يُتّخذ له بيت ، وأن يسقّف بصفائح الذهب والفضّة ، ويرصّع بالجوهر ، وتُفرش أرضه بالدِّيباج ؛ وأمر أن تُتّخذ لسائر الأصنام بيوت ، وأن يتخذ سرير من العاج والابنُوس على عرض البيت ، قوائمه من الفضّة ، وأن تعلّق قناديل الفضّة بسلاسل الذهب وأمر أن يُجعل للبيت مصراعان فى كلّ مصراع مائة حَلْقة من الذهب والفضّة ويعلّق عليهما سِتْران ، وسمّاهما ستورَ العزّ ، ووضع الصنم على ذلك السرير ، وسائر الأصنام الصغار على كراسىّ العاج والآبنُوس ؛ وأمر أن يُنْدَب لخدمة الأصنام رجل من أشراف قومه وأحسنِهم وأنسبِهم ؛ فقالوا : ليس فى ثمود أشرف نسبا وأجمل وجها من كانوه[1] . فآستدعاه وقرّبه وتوّجه وسوّده ، وجعله على خدمة الأصنام ؛ فقبل ذلك ، وتفرّغ لخدمتها وعبادتها ، وقوم ثمود يعبدون ذلك الصنم ، وقد آزدادوا عتوّا وتجبّرا وكفرا وفسادا ، والله تعالى يزيدهم سَعة وخِصبا ، وهم يرون أن ذلك كلّه من بركات أصنامهم .

(١) كذا ورد هذا الاسم فى (تاريخ العينى) فى نسخة منقولة عن نسخة المؤلف مأخوذة بالتصوير الشمسىّ محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ . والذى فى الأصل : « كانول » فى جميع مواضعه .

ذكر ميلاد صالح – عليه السلام –

قال : فبينما كانوه[1] فى بيت الأصنام إذ تحرّكتْ نطفة صالح فى ظهره، وصار لها نور على عينيه، وسمع هاتفا يقول : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ألا بعدا وسحقا لثمود لكفرهم، وهذا صالح بن كانوه[1] يصلح الله به الفساد. ففزع من ذلك ، وذهب ليتقدّم إلى الصنم الأكبر، فنطق بإذن الله وقال : مالى ومالك يا كانوه ، مثلك يخدمنى وقد آستنارت الأرض بنور وجهك للنور الذى فى ظهرك ؟! ثم تنكّس الصنم عن سريره، فأعاده كانوه وأعوانُه إلى السرير، وبلغ الملكَ ذلك، فآغتمّ له ؛ فقال له أصحابه : إنّ هذا لسوء خدمة كانوه فإنّه لا يوفّى الآلهة حقّها فى الخدمة . وهمّوا بقتله ، فأخفاه الله تعالى عن عيونهم ؛ فلمّا كان الليل هبط عليه ملَك من السماء، فآحتمله وهو نائم، وألقاه فى وادٍ على أميال من ديار قومه وهو لا يدرى فى أى موضع هو، فنظر غارا فى جبل هناك، فدخله ليكنّه من حرّ الشمس ونام، فضرب الله على أذنه مائة سنة، وفقدَه قومُه، ونصبوا لخدمة أصنامهم رجلا منهم يقال له : داود بن عمرو، فبينما هم كذلك وقد خرجوا فى يوم عيد لهم إذ نطقت الأشجار بإذن الله وقالت : يا آل ثمود، ألا تعتبرون، إنّ الله يُخرج لكم فى السنة من الثمار مرّتين ، ثم تكفرون بنعمة ربّكم وتعبدون سواه . ونطقت المواشى كذلك فعمدوا إلى الأشجار فقطّعوها ، وعقروا المواشى ؛ فنطقت السباع ونادت من رءوس الجبال : ويلكم يا آل ثمود، لا تقطعوا هذه الأشجار وتذبحوا هذه المواشى وقد نطقتْ بالحقّ . فخرجوا إلى السباع بالأساحة وهى تَهرُب من بين أيديهم

(١) كذا ورد هذا الاسم فى (تاريخ العينى) فى نسخة منقولة عن نسخة المؤلف مأخوذة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ . والذى فى الأصل : (كانول) فى جميع مواضعه .

وتستغيث بالله وتقول : اللهم طهّر أرضك بنبيّك صالح، وآرفع به الفساد . والقوم يسمعون ذلك ويقولون : قد كفر هؤلاء بآلهتنا .

قال : وكان لكانوه فى ديار قومه امرأة يقال لها : (رعوم) وهى كثيرة البكاء عليه منذ فقدته ؛ فبينما هى ذات ليلة وإذا بغراب نَعَق ، فقامت لتنظر إليه ، فرأته على مثال الغراب ، ورأسه أبيض ، وظهره أخضر، وبطنه أسود وهو أحمر الرجلين والمنقار، وأخضر الجناحين؛ فقالت : أيها الطائر، ما أحسنك! فقال : أنا الغراب الّذى بُعثتُ إلى قابيلَ فأريتُه كيف يوارى سوءة أخيه، وأنا من طيور الجنّة ، وإنى أراكِ باكية حزينة . فقالت : إنى فقدتُ زوجى منذ مائة عام . فقال : اتبعينى فانّى أرشدك إليه . فتبعته ، وطُويتْ لها الطريق حتى وقَفَها على باب الغار ، ونادى الطائر : قم يا كانوه ، قم بقدرة الله . فقام ودخلت إليه زوجته، فواقعها، فحملت — بإذن الله تعالى — بصالح . وقبض الله كانوه لوقته ؛ وعادت رعوم والغراب يدلّها على منزلها ؛ فلما آنقضت مدّة حَملها ، وضعتْ فى ليلة الجمعة من شهر المحرم، فوقعتْ هزّة شديدة فى بلاد ثمود لمولده ، وخرّت الوحوش والسباع ساجدة لله تعالى ، وأصبحت الأصنام وقد تنكّست ؛ فأقبل داود وأخبر الملكَ بخبرها ؛ فجاء بأشراف ورفعوها على مراتبها وأسرّتها، وتقدّم الملك إلى الصنم الأكبر وقال : ما دهاك ؟ فناداهم إبليس منه : قد وُلد فيكم غلام يدعوكم إلى دين هود ليس عليكم منه بأس .

فخرج الملك ومن معه مستبشرين ؛

ونشأ صالح ، حتى إذا بلغ سبع سنين أقبل على قومه وهو يقول : يا آل ثمود، تنكرون حَسَبى ونسبى، أنا فلان بن فلان . فيقولون : إنك من أحسبنا وأنسبنا؟ حتى إذا بلغ عشر سنين إذ أقبل عليهم ملِك من أولاد سام، كان يغزوهم

فى كلّ سبع سنين مرّة فيَسلُب أموالهم؛ فوثب صالح إلى سيف أبيه وسلاحه وخرج يعدو، وإذا هو بالملك جُنْدَع وسادات قومه قد آجتمعوا، وقد آنتزع الملك منهم أموالهم، وهم لا يستطيعون دفعه عنها لكثرة جموعه؛ فصاح بهم صالح صيحة أزعجتهم، وألقى آلله الرعب فى قلوبهم، واستنقذ منهم جميع ما أخذوه من قومه.

فعجب جندع وأصحابه منه، وأقبلوا يقبّلون صالحا ويكرمونه؛ فخشى الملِك على مُلكه أن يعزلوه ويولّوا صالح بن كانوه، فهمّ أن يقتله، ودسّ إليه جماعة من خواصّه فدخلوا منزله، فأيبس الله أيديَهم عنه، وأخرس ألسنتهم؛ فعلم الملِك أنّه معصوم، فبعث يسأله فيهم؛ فدعالهم، فأطلق الله أيديهم والسنتهم، وبقى صالح مكرّما معظّما فى قومه.

ذكر مبعثه — عليه السلام —

قال: ولمّا أتى عليه أربعون سنة بعثه الله — عزّ وجلّ — رسولا إلى قومه؛ فجاءه جبريل بالوحى عن الله، وأمره أن يدعوهم الى قول ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ والإقرار بأن صالحا عبده ورسوله، وترك عبادة الأصنام، وأعلمه بما سيظهر على يديه من العجائب.

قال: فأقبل صالح إلى قومه فى يوم عيد لهم وقد نصبوا أصنامهم وآجتمعوا على يمينها وشمالها، والملِك جُنْدَع مشرف عليهم ينظر إليهم وإلى قربانهم؛ فتقدّم حتى وقف على الملك وقال: قد علمت نصحى لك أبدا، وقد جئتك رسولا أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّى صالح رسول الله. فقال الملك له: إن قبائل ثمود لا ترضى أن يكون مِثلك رسولا إليهم، غير أنى أنظر فيما تقول، فعُد إلىّ غدا.

ثم أصبح الملك ودعا بأشراف قومه، وأخبرهم بخبر صالح ؛ فقالوا : أحضره حتى نسمع ما يقول . فأحضره فقال : ﴿ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ فقال له نفر منهم : ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ فقال له الملك : كيف خصّك ربك بالرسالة من بيننا، ورفعك علينا وفى قبائل ثمودَ من هو أعزّ منك؟ فقال : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ثم قال : يا قوم آتقوا الله وأطيعون ، ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ ، أى ليّن ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ أى حاذقين ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

قال : فأقبل الملك عليهم وقال : قد عرفتم صالحا فى حسبه ونسبه ، وأنا رجل منكم؛ فما تقولون ؟ وما عندكم من الرأى فى أمره ؟ قالوا : أيها الملك ﴿ ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴾ .

قال : فآمن به منهم جماعة، وخرج صالح من عند الملك، فأمره الله تعالى أن يبنى مسجدا لنفسه ولمن معه من المؤمنين. فأعانته الملائكة على بنائه؛ فلما كمل جاءه جبريل بشجرة فغرسها على باب المسجد. وأنبع الله له عينا من الماء العذب.

وكان صالح يخرج فى كلّ يوم إلى قبيلة من قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويعظهم بأيّام عاد وما حلّ بهم فيقول ﴿ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فكان المستضعفون يقولون : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ والمتكبّرون يقولون : ﴿ إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

ولم يزل صالح يدعوهم حتّى ٱستكمل سبعين عاما؛ ثم أعقم الله نساءهم وجفّت أشجارهم فلم تثمر، ولم تضع لهم بقرة ولا شاة .

ثم لم يزل يدعوهم حتى ٱستكمل مائة سنة وهم لا يزدادون إلا كفرا ؛ فلمّا أيس منهم خرج يريد أن يدعو عليهم بالهلاك، وقال لقومه : لا تبرحوا حتى أعود إليكم . وقصد جبلا فطاف به حتى أمسى ، فنظر إلى عين ماء ، فتقدّم وتوضأ وقام ليصلّى ويدعوَ على قومه ، فرأى فى الجبل كهفا، فدخله فرأى فيه سريرا من الذهب، عليه فُرُش الحرير، وفى وسط الكهف قنديل؛ فعجب من ذلك، وصعد على السرير، فضرب الله على أذنه فنام أربعين سنة؛ وأخذ قومُه فى العبادة؛ فكان يموت منهم الواحد بعد الواحد ، فيدفن إلى جانب المسجد، ويكتب على قبره : « هذا فلان بن فلان » .

قال : ثم بعث الله — عزّ وجلّ — صالحا من نومته ، فخرج من الكهف وتوضّأ وصلّى ركعتين، وأراد أن يدعوَ على قومه؛ فقيل له : لاتعجل عليهم، فإنّ عَجَلتك غيّبتك عن قومك أربعين سنة .

فعاد إلى قومه ، وإذا برسوم وآثار لا يعرفها ، وأشرف على مسجده وهو خراب ليس فيه إلّا الملائكة يحفظونه من فُسّاق أهل ثمود؛ فقال : إلهى ما فعل

أهل هذا المسجد ؟ فنادته الملائكة : مات بعضهم و رجع الباقون إلى دينهم الأوّل لمّا أيسوا منك .

ثم أمره الله تعالى أن يأتى قومَه و يدعوهم إلى عبادة الله وٱلكفّ عن عبادة الأصنام ؛ فأقبل وهم مجتمعون فى يوم عيدهم ومعهم مِلكُهم ، فناداهم : قولوا (لا إله إلا الله و إنى صالح رسول الله) يا قوم إنى أرسلت إليكم مرّة وهذه أخرى .

فتحيّروا وتساقطتْ أصنامهم، ونطقت الدوابّ : جاء الحقّ من ربّنا . قال له الملك : من أنت ؟ قال : أنا صالح . قال : أليس قد بقى صالح فينا طويلا وغاب عنّا منذ مدّة طويلة ؟ ما أنت إلّا ساحر جئتنا بعده . وهمّ بقتله .

(٣٣) وكان للملك ٱبن عمّ يقال له : هذيل، فقال : ياصالح، لا نحتاج إلى نصحك فٱنصرف عنّا . فقال : ياهذا أما إنك ميت فى يومك هذا أنت وأهلك و ولدك فى وقت كذا وكذا، وفى غد يموت أبوك وأمّك، فبادِرْ إلى الإيمان ، فإن آمنتَ أحياك الله وجعلك حجّة على قبائل ثمود .

فٱنصرف الرجل وهم ينظرون إلى الوقت الذى ذكره صالح؛ فلما جاء الوقت مات الرجل وأهله وولده، وٱنتشر الخبر فى قبائل ثمود، ومات أبوه وأمّه من الغد؛ فعجب الناس وجزعوا، وخاف الملك .

وأقبل صالح فقال : يا آل ثمود، كيف كان هذا الميّت عندكم ؟ قالوا : خير رجل حتى مات . قال : فإن أحياه الله بدعائى . أتؤمنون بى و بإلٰهى وتبرأون من أصنامكم؟ قالوا : نعم . فجاء صالح إلى الميت فدعا ربّه ، ثم ناداه بٱسمه فقال : لبّيك يا نبىّ الله، وقام وهو يقول : (لا إله إلا الله صالح عبد الله ورسوله) .

فلما عاين قومه ذلك ٱزدادوا كفرا، ودخلوا على صنمهم وشكوا ما يلقونه من صالح؛ فنطق إبليس من جوفه وقال : انصرفوا إلى ما أنتم عليه؛ و إذا رأيتم صالحا فقولوا : ائتنا ببرهان كما أتى به هود ونوح .

فخرجوا مسرورين حتى أتوا صالحا، فقال لهم : قد رأيتم وسمعتم كلام الوحش والطير وإحياء الموتى وغير ذلك من الآيات ما فيه كفاية، فأىّ آية تريدون ؟ قالوا : نخرج نحن وأنت إلى هذا الوادى، وندعو وتدعو، وننظر أىّ الدعوتين تستجاب ؛ وتواعدوا إلى يوم عيدهم .

فلمّا كان فى ذلك ٱليوم ٱجتمعوا وخرجوا بأصنامهم و زينتهم؛ وأقبل صالح يخترق صفوفهم ؛ حتّى وقف أمام مِلكهم، ودعاهم إلى الإيمان بالله . قالوا : أرنا آية . قال : ما تريدون؟ قالوا : أَخرِج لنا ناقة من هذه الصخرة ونؤمن بك ونعلم أنّك صادق . قال : إنّ ذلك هيّن على ربّى، ولكن صفوها لى .

فأقبل القومُ يصف كلٌّ منهم صفة حتى أكثروا . فقال الملِك : إنّ هؤلاء قد أكثروا وأنا أصفها بما فى قلبى : تكون ناقة ذات فَرْث ودم ولحم وعظم وعَصَب وعروق وجلد وشَعر يخالطه وبر ، وتكون شَكْلاء[1] شقراء هيفاء، ولها ضَرع كأكبر مايكون من القلال، يدرّ من غير أن يستدرّ، يشخب لبنا غزيرا صافيا، و يكون لها فصيل يتبعها على مثالها، فإذا رغت أجابها بمِثل رُغائها، و يكون حنينها الإخلاص لربّك بالتوحيد، والإقرار لك بالنبوّة ، فإن أخرجتَها على هذه الصفة آمنّا .

فأوحى الله إليه : أن أعطهم ما سألوا . فقال لقومه : إن الله قد شفّعنى فى حاجتكم ، فإن أخرجتها تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على شرط أن يكون لبنها ألذّ

(١) شكلاء، أى فى لونها بياض مختلط بحمرة .

من الخمر وأحلى من العسل . قال : إن أخرجها ربّى تؤمنون ؟ قالوا : نعم على شرط أن يكون لبنها فى الصيف باردا ، وفى الشتاء حارّا ، لا يشربه مريض إلّا برئ، ولا فقير إلّا آستغنى . قال: إن أخرجها ربّى أتؤمنون؟ قالوا : نعم ، على شرط ألّا ترعى من مراعينا، بل فى رءوس الجبال وبطون الأودية، وتذر ما على الأرض لمواشينا . قال : إن أخرجها ربّى أتؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على شرط أن يكون الماء لنا يوما ولها يوما، ولا يَفوتنا اللّبن، وتدخل علينا بالعشيّات فى بيوتنا وتسمّى كلّ واحد منّا بآسمه ، وتنادى : « ألا من أراد اللّبن » ؟ فيخرج ويضع ما يريد تحت ضرعها، فيمتلئ لبنا من غير آحتلاب . قال أتؤمنون حقيقة؟ قالوا : نعم . قال صالح : قد شرطتم شرائط كثيرة ، وأنا أشترط عليكم : لا يركبها أحد منكم، ولا يرميها بحجر ولا سهم، ولا يمنعها من شربها ولا فصيلها .

قالوا : هذا لك يا صالح . فأخذ عليهم المواثيق .

ذكر خروج الناقة

قال : فلمّا آنتهت شروطهم وشروطه، وأخذ عليهم المواثيق ، قام وصلّى ركعتين، ودعا، فآضطربت الصخرة وتمخّضت ، وتفجّر من أصولها الماء، والقوم ينظرون، وسمعوا دويّا كدوىّ الرعد، فرفعوا رءوسهم، فإذا بقبّة تنقضّ من الهواء فآنحدرتْ على الصخرة وحولها الملائكة؛ ثم تقدّم صالح إلى الصخرة فضربها بقضيب كان بيده، فآضطربت وتشامخت صُعُدا؛ ثم تطامنتْ إلى موضعها؛ ثم خرج رأس ووثبتْ من جوفها على الصفة كأنّها قطعة جبل، فوقفتْ بين يدى المَلِك وقومه وهى أحسن ممّا وصفوا، وهى تنادى : (لا إله إلا الله، صالح رسول الله) .

ثم مر جبريل على بطنها بحربة، فخرج فصيلها على لونها .

ثم نادت : «أنا ناقة ربّى، فسبحان من خلقنى وجعلنى آية من آياته الكبرى» . (٣٤)

فلما رأى الملِك ذلك قام عن سريره وقبّل رأس صالح، وقال : يا معشر قبائل ثمود، لا عمى بعد الهدى، أنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن صالحا رسول الله .

وآمن معه فى ذلك اليوم خلق كثير من أهل مملكته وغيرِهم؛ فلمّا رأى داود خادمُ الأصنام ذلك نادى بصوت رفيع : يا آل ثمود ، ما أسرع ماصبوتم إلى هذا الساحر ، إن كانت الناقة قد أعجبتكم فهلّموا إلى آلهتكم فسلوها حتى تُخرج لكم أحسن منها .

فوقفوا عن الإيمان ، وعمدوا إلى شهاب أخ الملك، فملّكوه عليهم؛ ودخل جُنْدَع المدينة فكسر الصنم الذى كان يعبده، وفرّق أمواله على المؤمنين ، ولبس الصوف ، وعبد الله حقّ عبادته ، وكانت الناقة تتّبع صالحا كاتّباع الفصيل لأمّه؛ فلمّا كان بعد ذلك أقبلت ثمود على صالح، وقالوا : إن لم نمسّ الناقة بسوء يصرفْ ربّك عنّا عذابه ؟ قال : نعم ، إلى منتهى آجالكم . وكانت الناقة تخرج وفصيلها خلفَها، فتصعد إلى رءوس الجبال ، ولا تمرّ بشجرة إلّا آلتفّت عليها أغصانُها فتأكل أطايب أوراقها؛ ثم تَهبِط إلى الأودية فترعى هناك، فإذا أمست تدخل المدينة وتطوف على دُور أهلها، وتنادى بلسان فصيح : ألا من أراد منكم اللّبن فليخرج. فيخرجون بآنيتهم ، فيضعونها تحت ضرعها ، واللّبن يشخب حتى تمتلئ الآنية؛ فإذا آكتفوا عادت إلى المسجد، وتسبّح آلله حتى تصبح؛ ثم تخرج إلى المرعى وهذا دأبها .

قال : وكان للقوم بئر يشربون منها ليس لهم سواها، فإذا كان يوم الناقة تأتى وتدلّى رأسها فتشربه وتقول : « الحمد لله الذى سقانى من فضل مائه، وجعلنى حجّة على آل ثمود » .

وكانت تَمُجُّ من فيها إلى فم الفصيل حتّى يَرْوَى؛ فإذا كان يوم القوم أتوا البئر ونزحوا ما فيها؛ وكانت الناقة تقول إذا أصبحت: إلهى كلّ من شرب من لبنى وآمن بك و برسولك فزده إيمانا و يقينا، ومن لم يؤمن بك و برسولك فاجعل ما يَشرب من لبنى فى بطنه داء لا دواء إنّك على كلّ شىء قدير.

ذكر خبر عَقر الناقة وهلاك ثمود

قال: فلما كانت تدعو بذلك صار القوم إذا شربوا لبنها اعترتهم الحِكّة فى أبدانهم؛ فاجتمعوا وقالوا: ليس لنا فى هذه من خير؛ وأجمعوا على عَقرها؛ وكانت فيهم امرأة يقال لها: عُنيزة بنت غُنْم بن مجلز[1]، وتُكنَى أمّ غُنْم، وهى من بنات عبيد[2] بن المهل، وكانت امرأةَ ذؤاب[3] بن عمرو، وهى عجوز مسنّة، ولها أموال ومواش، ولها أربع بنات من أجمل النساء، وبجوارها امرأة يقال لها: صَدُوف بنت المحيّا بن فهر، ولها أيضا مواشٍ كثيرة؛ فدَعَتا قومهما إلى عقر الناقة، فلم يجيبوهما إلى ذلك؛ فبينما صَدُوف كذلك إذ مرّ بها رجل يقال له الحباب[4] — وكان مولَعا بالنساء — فعرضت نفسها عليه على أن يعقر الناقة؛ فامتنع، فقالت له: لقد جَبُن قلبك، وقَصُرت يدك. وتركته؛ وأقبلت على ابن عمّ لها يقال له: مِصْدَع[5] فكشفت عن وجهها، وعرضت نفسها عليه على أن يُصدِقها عَقرَ الناقة؛ فأجاب. وأقبلت صَدوف إلى عُنيزة فأخبرتها بذلك، ففرحت به. قالت: إلّا أنه منفرد، ولكن قومى إلى عزيز ثمود قُدَار، فإنه شابّ لم يتزوج، فاعرضى عليه بناتك

(١) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى ج ٨ ص ١٦٠. والذى فى الأصول: «مخلد».
(٢) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى. والذى فى الأصول: «العند».
(٣) كذا ورد هذا الاسم فى تاريخ العينى فى النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف.
(٤) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى. والذى فى الأصول: «الجناب».
(٥) كذا ضبط هذا الاسم بالقلم فى تاريخ العينى فى النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف.

لعلّه يفعل ؛ ففعلت عُنيزة ذلك ، وزيّنت بناتها ، وأقبلت بهنّ إلى قُدار ، وكان أقبح رجل فى ثمود ، وكان فى عينيه زُرقة ، وكأنّهما عدستان ، وأنفه أفطس ولحيته بطوله ، غير أنه كان يمرّ بالشجرة العظيمة فينطحها برأسه فيكسرها ؛ فلمّا رأته عُنيزة رجعت ببناتها إلى صَدوف ، وقالت : من تطيب نفسُه أن يزوّج مِثلَ هؤلاء من هذا؟ فلم تزل بها حتى رجعت بهنّ إليه ، وعرضتهنّ عليه ؛ فاختار منهنّ (الرّباب) ، وأجاب إلى عَقر الناقة ، واجتمع إليه "مصدع[1] وأخوه ورُعين[2] وداود خادم الأصنام وريّان ولبيد والمصرد وهُزَيل[3] ومفرّج[4]" فهؤلاء التسعة الذين ذكرهم الله فى كتابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

فطافوا بأجمعهم على قبائل ثمود وأعلموهم بما أجمعوا عليه من عَقر الناقة ؛ فرضى بذلك كبيرهم وصغيرهم ، واجتمع هؤلاء التسعةُ بسيوفهم وقِسِيّهم ، وذلك فى يوم الأربعاء ، وقعدوا ينتظرون الناقة ، فأقبلتْ حتى قربت من البئر ؛ فنادت عُنيزة : يا قدار ، اليومَ يومُك ، فأنت السيّد فى قومك . قال الله : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ .

قال : فشدّ قُدار قوسه ورماها بسهم فأصاب لَبّتَها ، وهو أوّل من رماها ، ثم مِصْدَع ، وأقبلوا عليها بالسيوف فقطّعوها ، وأنذرتْ فصيلها ، فهرب إلى رأس جبل ، ودعا باللّعنة على ثمود ، فاتبعه القوم وعقروه ، وتقاسموا لحمه .

(١) فى كتاب الكسائى « وآخر اسمه حراب » . (٢) كذا ورد هذا الاسم مضبوطا بالقلم فى تاريخ العينى فى النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف . وفى الأصول : « دعبل » . (٣) كذا ورد هذا الاسم بالزاى فى الأصول وتاريخ العينى مضبوطا بالقلم فى الأخير . (٤) يلاحظ أن هذه الأسماء الثمانية قد اختلفت فيها الروايات والمصادر اختلافا بيّنا لم يجعل بينها تقاربا فى رسم الحروف .

وحكى الثعلبيّ فى كتابه المترجَم (بيواقيت البيان فى قصص القرآن) : أنّ الفصيل لمّا عُقرت الناقة أتى جبلا منيعا يقال له : صُور[1] . وقيل : اسمه فارِه؛ وأن صالحا لمّا بلغه عقر الناقة أقبل إلى قومه، فخرجوا يتلقّونه ويعتذرون إليه ويقولون : إنّما عقرها فلان وفلان، ولا ذنب لنا .

فقال لهم صالح : أُنظروا، هل تدركون فصيلها ؟ فعسى أن تدركوه فيُرفَع عنكم العذاب . فخرجوا يطلبونه، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله تعالى إلى الجبل أن يتطاول ؛ فتطاول فى السماء حتى ما يناله الطير؛ وجاء صالح، فلمّا رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه؛ ثم دعا ثلاثا فانفرجت الصخرة حتّى دخلها؛ فقال صالح : بكلّ دعوة أجل يوم فتَمتّعوا فى داركم ثلاثةَ أيّام ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب .

نرجع إلى رواية الكسائىّ، قال : وصاح قُدار بأصحابه : هلمّوا . فقدموا فأمرهم أن يقطّعوا لحم الناقة ؛ فقطّعوا وطبخوا وقعدوا للأكل والشرب ، وصالح لا يعلم بذلك، فنادته الوحوش : يا صالح، هتكتْ ثمود حرمة ربّها، وتعدّوا أمره . فأقبل بالمؤمنين من قومه؛ فلمّا رآها بكى وقال : إلهى أسألك أن تنزل على ثمود عذابا من عندك .

فأوحى الله إليه : أن أنذر قومك بالعذاب . فبشّرهم بعذاب الله . فقالوا له : افعل مابدا لك، فقد عقرناها، وقد أنذرت بالعذاب منذ بعيد وما نرى له أثرا . فقال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾. وبات القوم ليلتهم، فلمّا أصبحوا تفجّرت آثار وطء الناقة بعيون الدم ، وظهرت الصفرة فى ألوانهم ؛ فقالوا : يا صالح، ما هذا التغيّر فى ألواننا وبلادنا ؟ قال :

(١) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى .

غَضِب ربُّكم عليكم . فأجمعوا على قتله ، وقالوا : إذا قتلناه آمتنع عنّا سحره ولا تُمكنه الإساءة إلينا . فتقدّم التسعة لقتله عند ما أقبل الليل ، فوقف لهم جبريل ورمى كلَّ واحد منهم بحجر فقتله .

فلمّا كان من الغد نظرتْ ثمود إليهم وقد قُتلوا ، فقالوا : هذا من فعل صالح . فعزموا على الهجوم عليه وقتلِه ، فأمره الله تعالى بالخروج من المسجد ، فجاءوا ليقتلوه فما رأوه ، وأصبحوا فى اليوم الثانى وقد آحمرّت وجوههم ، وفى اليوم الثالث آسودّت ، فأيقنوا بعذاب الله ، وحفروا لأنفسهم حفائر ، ولأهليهم وأولادهم ولبسوا الأنطاع ، وجلسوا فى الحفائر ينتظرون العذاب ، وصالح يخوّفهم وينذرهم عذابَ الله وهم لا يبالون به .

فلما كان فى اليوم الرابع — وهو صَبيحة الأحد — أرسل الله تعالى جبريل فنشر جناح غضبه ، وأتاهم بشرارة من نارِ لظى ، وجعل يرميهم منها بجَمْر متوهِّج كأمثال الجبال ، وثمود باركة فى حفائرها .

وأخذ جبريل بتُخوم الأرض ، فزُلزلت بيوتهم وقصورهم ، ثم نشر جناح غضبه على ديار ثمود ، وصاح صيحة ، فكانوا كما قال الله تعالى : ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ .

ثم أقبلتْ سحابة سوداء على ديارهم ، فرمتهم بوَهَج الحريق سبعة أيّام حتّى صاروا رمادا .

فلمّا كان فى اليوم الثامن آنجلت السحابة وطلعت الشمس ، وجاء صالح بمن معه من المؤمنين ، فطاف بديارهم ، وآحتملوا ما قدروا عليه من أموالهم وآرتحل بقومه إلى أرض الشأم ، فنزل بأرض فِلَسْطين ، وأقام — عليه السلام — حتى مات .

الباب السابع من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى أخبار أصحاب البئر المعطَّلة والقصر المَشيد وما كان من أمرهم وهلاكهم

قال الكسائىّ : قال كعب : لمّا قبض الله تعالى نبيّه صالحا عليه السلام بأرض فلسطين ، خرج أصحابه إلى بلاد اليمن فتفرّقوا فرقتين : فنزلت إحداهما بأرض عَدَن ، وهم أصحاب البئر المعطَّلة ، والثانية صارت إلى (حضرموت) (والقصر المشيد) وهو قبل البئر، والذى بناه رجل يقال له : جند بن عاد، وذلك لأنه رأى ما نزل بقوم هود من الريح ، فعزم على بناء قصر مشيد ، فبالغ فى تشييده ، وانتقل إليه ، وكان له قوّة عظيمة ، فكان يقتلع الشجرة ، ويمرّ بيده فى الجبل فيخرقه وكان مولعًا بالنساء، فتزوّج زيادة عن سبعمائة آمرأة ، ورزق من كلّ آمرأة ذكرا وأنثى ؛ فلمّا كثر ولده وقومه طغى فى الأرض وتجبّر، وكان يقعد فى أعلى قصره مع نسائه فلا يمرّ به أحد إلّا أمر بقتله ؛ فلمّا كثر فساده أهلكه الله بصيحة جبريل جاءته من قبل السماء فأهلكته هو وأولاده وقومه .

(٣٦)

قال الكسائىّ : ولا يجسر أحد أن يدخل إلى القصر ممّا نزل بسكّانه .

قال : ويقال: إنّ فيه حيّة عظيمة، وإنّه يُسمع من داخله أنين كأنين المريض.

وأما البئر المعطَّلة — فهى بأرض عَدَن ، وكان أهلها على دين صالح ، وكان المطر ينقطع عنهم فى بعض الأوقات حتّى يبلغ بهم الجهد، فيحملون الماء من بلد بعيد، فأعطاهم الله تعالى هذه البئر على ألّا يُشركوا به شيئا، ويعبدوه حقّ عبادته وكانوا معجَبين بها ، قد بنَوها بألوان الصخور ، وبنَوا حولها حياضا بعدد قبائلهم؛ وكان لهم مَلِك يسوسهم، فلما مات حزنوا عليه حزنا عظيما؛ فأقبل عليهم إبليس وقال :

ما بالكم بهذا الحزن ؟ قالوا : كيف لا نكون كذلك وقد فقدنا مَلِكًا مع إحسانه إلينا . قال : إنّه لم يمت، ولكنّه ٱحتجب عنكم لغضبه عليكم، ولكونكم لم تعبدوه .

وٱنطلق إبليس فٱتخذ لهم صنما على صورة المَلِك ، ونصبه على سريره، وقال : هلمّوا إلى الملك فاسمعوا كلامه .

٥ فأقبلوا حتى وقفوا مِن وراء السِّتر ، ووَقَفَ إبليس فى جوف الصنم شيطانا يكلّمهم بلغة لا ينكرون أنّها لغة الملك؛ ثم قال إبليس : استمعوا . فكلّمهم الشيطان من الصنم وقال : يا آل ثمود، مالى أراكم تبكون ؟ قالوا : لفقدك . قال : قد كذبتم ، لو كنتم تحبّوننى كما تقولون كنتم عبدتمونى، وقد كنت فيكم أربعمائة سنة ما فيكم من سجد لى سجدة واحدة، والآن فقد ألبسنى ربّى ثوبَ الأُلُوهيّة، فصيّرنى

١٠ فيكم لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، وأخبركم بالغيوب، فٱعبدونى وسمّونى ربّا، فإنى أقربكم إلى ربّى زُلْفَى .

قالوا : يٰأيها الملِك، فلو رأينا وجهك . فرفع إبليس الحجاب حتى رأوه فلم ينكروا من صفاته شيئا، فخرّوا له سجّدا، وٱتخذوه ربّا؛ وكان فيهم رجل من خيار قوم صالح ٱسمه حنظلة بن صفوان ، ففارقهم ولحق بالحرم ، وعَبَدَ اللهَ حينا

١٥ فرأى فى منامه قائلا يقول له : قد أمرك ربُّك أن تصير إلى قومك وتحذّرهم عذابه إن لم يرجعوا عن عبادة الأصنام ، وتذكّرهم العهودَ فى البئر، وإن لم يؤمنوا غار ماء البئر حتى يموتوا عطشا .

فٱنتبه وخرج من ساعته حتى أتى قومه، فأنذرهم ووعظهم ، فهمّوا بقتله فعطّل الله تعالى بئرهم حتّى لم يجدوا فيها قطرة، فأتوا إلى صنمهم فلم يكلّمهم، وأتتهم

٢٠ صيحة من السماء، فهلكوا عن آخرهم .

ويقال : إنّ سليمان صَفَّد شياطين وحبسهم بهذه البئر؛ والله أعلم .

الباب الثامن من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى خبر أصحاب الرسّ وما كان من أمرهم

قال الكسائىّ : قال كعب : إن أصحاب الرسّ كانوا بحضرموت ، وكانوا كثيرا، فبنَوا هناك مدينة كانت أربعين ميلا فى مثل ذلك، فاحتفروا لها القنوات من تحت الأرض ، وسمّوها رَسّا، وكان ذلك أيضا اسم مَلِكهم؛ فأقاموا فى بلدهم دهرا طويلا يعبدون الله تعالى حقّ عبادته؛ ثم تغيّروا عن ذلك وعبدوا الأصنام وكان ممّا أحدثوه إتيانُ النساء فى أدبارهنّ والمبادلةُ بهنّ ،فكان كلٌّ منهم يبعث بامرأته إلى الآخر، فشَقّ ذلك على النساء، فأتاهنّ إبليس فى صورة امرأة وعلّمهنّ السِّحاق ففعلنه، وهم أوّل من أتى النساء فى أدبارهنّ وساحق؛ فاشتهرت هذه القبائح فيهم.

فبعث الله إليهم رسولا اسمه حنظلة . وقيل : خالد بن سنان . وقيل : ابن صفوان . فدعاهم إلى طاعة الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام وفعلِ القبائح وحذّرهم وذكّرهم ما حلّ بمن قبلهم من الأمم ؛ فكذّبوه ؛ فوعظهم دهرا طويلا وهم لا يرجعون ، فضربهم الله بالقحط، فقتلوا نبيّهم وأحرقوه بالنار ؛ فصاح بهم جبريل صيحة فصاروا حجارة سودا، وخُسِفت مدينتهم .

وقيل : إن هذه المدينة لم يرها إلّا ذو القرنين ، وإنّه رآهم حجارة ، ورأى النساء ملتصقات بعضهنّ ببعض ، ورأى الملوك على الأسرّة وبين أيديهم الجنود قائمة ، بأيديهم الأعمدة والأسلحة، وقد صاروا كلّهم حجارة سودا .

هذا ما حكاه الكسائىّ .

(٣٧) وقال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — قال سعيد بن جبير والكلبىّ والخليل بن أحمد — دخل كلامُ بعضهم فى بعض، وكلٌّ قد أخبر بطائفة من حديث

أصحاب الرسّ : أنّهم بقيّة ثمود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ .

قال : وكانوا بفَلْج اليمامة نزولا على تلك البئر .

وكلّ ركيّة لم تُطوَ بالحجارة والآجُرّ فهى رَسّ ؛ وكان لهم نبىّ يقال له : (حنظلة ابن صفوان) . وكان بأرضهم جبل يقال له : (فَلْج) مُصْعِد فى السماء ميلا وكانت العَنْقاء تأتيه ، وهى أعظم ما يكون من الطير، وفيها من كلّ لون ، وسمّوها العَنْقاء لطول عنقها ، وكانت تكون فى ذلك الجبل وتنقضّ على الطير فتأكلها فجاعت ذات يوم وأعوزَها الطير، فانقضّت على صبىّ فذهبت به ، فسُمّيت عَنْقاءَ مُغْرِب، لأنّها تُغرب بما تأخذه وتذهب به ، ثم انقضّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمّتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين ، فشكوا ذلك إلى نبيّهم ؛ فقال : اللهم خذها واقطع نسلها ، وسلّط عليها آفة تذهب بها . فأصابتها صاعقة فاحترقت، فلم يُرَ لها أثر بعد ذلك .

قال : ثم إنّ أصحاب الرسّ قتلوا نبيّهم ، فأهلكهم الله تعالى .

قال الثعلبىّ : وقال بعض العلماء : بلغنى أنّه كان رسّان : أمّا أحدهما فكان أهله أهل بذر وعمود، وأصحابَ غنم ومواش، فبعث الله إليهم نبيّا فقتلوه، ثم بعث الله رسولا آخر وعضّده بولىّ ، فقتلوا الرسول ، وجاهدهم الولىّ حتى أفحمهم ؛ وكانوا يقولون : إلٰهنا فى البحر . وكانوا على شفير البحر ؛ وكان يخرج إليهم من البحر شيطان فى كلّ شهر خرجةً فيذبحون عنده، ويتّخذون ذلك اليوم عيدا ؛ فقال لهم الولىّ : أرأيتم إن خرج إلٰهكم الّذى تدعونه وتعبدونه إلىّ وأطاعنى أتجيبونى إلى ما دعوتكم إليه ؟ قالوا : بلى . وأعطوه على ذلك العهود والمواثيق ، فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبا على أربعة أحوات، وله عنق

منقلب ، وعلى رأسه مثل التاج؛ فلماّ نظروا إليــه خرّوا سجّدا؛ وخرج الولىّ إليــه وقال : ائتنى طوعا أو كرها باسم الله الكريم .

فنزل عنــد ذلك عن أحواته؛ فقال له الولىّ : ائتنى راكبا لئــلاّ يكون القوم فى شكّ . فأتى الحوت وأتت به الحيتان حتى أفضــوا إلى البرّ يجرّونه ويجرّهم ؛ ثم كذّبوه بعــد ما رأوا ذلك ، ونقضوا العهود ؛ فأرسل الله تعالى عليهم ريحا تقذفهم فى البحر ومواشيهم وما كانوا يملكون من ذهب وفضّــة وآنية ؛ فأتى الولىّ الصالح إلى البحر حتى أخذ التّبر والفضّــة والأوانى ، فقسمها على أصحــابه بالسويّة على الصغير والكبير، وانقطع ذلك النسل .

وأمّا الرسّ الآخَر — فهــم قوم كان لهم نهر يدعى الرسّ ، وذلك النهر بمنقَطَع أَذْرَبِيجان ، بينهما رَسٌّ أرمينية ، فإذا قطعته مدبرا دخلتَ فى حدّ أرمينيــة وإذا قطعته مقبــلا دخلتَ فى حدّ أَذْرَبِيجان ، وكان مَن حولهم من أهــل أرمينية يعبدون الأوثان ، ومَن قدّامهم من أهــل أَذْرَبِيجان يعبــدون النيران ، وكانوا هم يعبدون الجوارىَ العــذارى ، فإذا تمّت لإحداهنّ ثلاثون ســنة قتلوها واستبدلوا غيرها، وكان عرض نهرهم ثلاثةَ فراسخ، وكان يرتفع فى كلّ يوم وليلة حتّى يبلغ أنصاف الجبال التى حوله ، ولا ينصبّ فى برّ ولا بحر، وإذا خرج من حدّهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم ، فبعث الله إليهم ثلاثين نبيّا فى شهر واحد، فقتلوهم جميعــا فبعث الله إليهم نبيّا وأيّده بنصره، وبعث معه وليّا، فجاهدهم فى الله حقّ جهاده.

ثم بعث الله تعــالى ميكائيل حين نابذوه — وكان ذلك فى أوان وقوع الحَبّ فى الزرع، وكانوا إذ ذاك من أحوج ما يكون إلى المــاء — فبحَرَ[1] نهرَهم فى البحر

(١) بحر نهرهم، أى شقه .

فانصبّ ما فى أسفله ، وأمّا عيونه من فوق فسَدّها ، ثم بعث الله تعالى خمسمائة ألفِ مَلَكٍ من الملائكة أعوانا له ، ففرّغوا ما بقى فى نهرهم .

ثم أمر الله تعالى جبريل فنزل فلم يَدَع فى أرضهم عَينا ولا نهرا إلّا أيبسه بإذن الله تعالى .

٥ وأَمَر ملَكَ الموت فآنطلق إلى المواشى فأماتها فى ربضة واحدة .

وأَمَر الرياح الأربع : الجنوب والشمال والدَّبور والصَّبا فضمّت ما كان لهم من متاع، وألقى الله تعالى عليهم السُّبات .

ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فشتّتته فى رءوس الجبال وبطون الأودية .

١٠ وأمر الله الأرض فآبتلعتْ ما كان لهم من حلىّ وتبر وآنية ؛ فأصبحوا لا ماشية عندهم ولا بقر ولا مال يرجعون إليه ولا ماء يشربون ولا طعام يأكلون ، فآمن بالله تعالى عند ذلك قليل منهم ، وهداهم الله تعالى إلى غار فى الجبل له طريق إلى خلفه ، فنجوا، وكانوا أحدا وعشرين رجلا وأربعَ نسوة وصبيّين ، وكان عدّة الباقين من الرجال والنساء والذرارىّ ستمّائة ألف ، فماتوا عطشا وجوعا ، ولم تبق ١٥ منهم باقية .

ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها، فدعا القومُ عند ذلك مخلصين أن يحييهم الله تعالى بماء وزرع وماشية، وأن يجعل ذلك قليلا لئلاّ يطغوا . فأجابهم الله تعالى إلى ذلك، وأطلق لهم نهرهم، وزادهم على ما سألوه .

فأقام أولئك القومُ على طاعة الله تعالى باطنا وظاهرا حتى مضوا وآنقرضوا ؛ ٢٠ فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله تعالى فى الظاهر، ونافقوا فى الباطن؛

وأملى الله تعالى لهم ، ثم بعث الله عليهم عدوّهم ممّن قاربهم وخالفهم ، فأسرع فيهم القتل ، وبقيت منهم شرذمة، فسلّط الله عليها الطاعون ، فلم يبق منهم باقية وبقى نهرهم ومنازلهم مائتى عام لا يسكنها أحد .

ثم أتى الله بعد ذلك بقرن فنزلوها وكانوا صالحين سنين ، ثم أحدثوا فاحشة وجعل الرجل منهم يدعو ابنته وأخته وزوجته فيلقى بهنّ جاره وأخاه وصديقه ٥ يلتمس بذلك البرّ والصلة؛ ثم ارتفعوا عن ذلك إلى نوع آخر، ترك الرجال النساء حتى شَبِقْن، واشتغلن عن الرجال، فجاءت النساءَ شيطانةٌ فى صورة امرأة — وهى الوَلْهانة بنت إبليس — فشبّهت للنساء ركوبَ بعضهن بعضا ؛ وعلمتهنّ كيف يصنعن ؛ فأصل ركوب النساء النساءَ منها ؛ فسلّط الله تعالى على ذلك القرن صاعقة من أوّل ليلتهم ، وخسفا فى آخر اللّيل، وصيحة مع الشمس،فلم تبق منهم باقية ١٠ وبادت مساكنهم .

قال الثعلبىّ : ولا أحسب مساكنهم اليوم مسكونة .

وقال أبو إسحاق الثعلبىّ أيضا : وروى علىّ بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنهم — أن رجلا من أشراف بنى تميم يقال له : عمرو، أتاه فقال : يا أمير المؤمنين، أخبرنى عن أصحاب الرس وأى عصر ١٥ كانوا فيه ؟ وأين كانت منازلهم ؟ ومن كان ملِكَهم ؟ وهل بعث الله تعالى إليهم رسولا أو لا ؟ وبماذا هلكوا ؟ فإنّى أجد فى كتاب الله تعالى ذكرهم ولا أجد خبرهم .

فقال له : لقد سألتنى عن حديث ما سألنى عنه أحد قبلك ، ولا يحدّثك به أحد بعدى . ٢٠

كان من قصّتهم يا أخا تميم أنهم كانوا يعبدون شجرة صَنَوْبَر يقال لها : ساب درحب[(١)] ، كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها : دوسات[(١)] كانت أُنْبِطتْ لنوح بعد الطوفان، وكان لهم آثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له الرسّ من بلاد المشرق، ولم يكن يومئذ فى الأرض نهر أغزر ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكّانا وعمرانا منها؛ وذلك قبل سليمان بن داود ، وكان من أعظم مدائنهم اسفيدبا[(١)]، وهى التى كان ينزلها مِلكُهم ، وكان يسمّى بركون[(١)] بن عابور بن بلوش بن سارب بن النُّمْروذ بن كنعان ، وفيها العين والصَّنَوْبَرة ، وقد غرسوا فى كلّ عين حبّة من تلك الصنوبرة، فنبتت الحبّة وصارت شجرة عظيمة ، وحرّموا ماء تلك العيون والأنهار ، لا يشربون منها ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك منهم قتلوه ويقولون : هى مياه آلهتنا، ولا ينبغى لأحد أن ينقص من حياتها ، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرسّ الّذى عليه قُراهم ؛ وقد جعلوا فى كلّ شهر من السنة فى كلّ قرية عيدا يجتمع أهلها ويضربون على تلك الشجرة مِظَلّة مِن الحرير، فيها من أصناف الصُّوَر؛ ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانا للشجرة ، ويشعلون فيها النيران، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقُتارُها وبخارها فى الهواء، وحال بينهم وبين النظر إلى السماء ، خرّوا سجّدا، ويتلون ويتضرّعون إليها أن ترضى عنهم .

وكان الشيطان يجىء فيحرّك أغصانها ويصيح مِن ساقِها صياح الصبىّ : عبادى قد رضيت عنكم، فطيبوا نفسا، وقرّوا عينا. فيرفعون عند ذلك رءوسهم، ويشربون الخمر، ويضربون بالمعازف؛ فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم، ثم ينصرفون؛ حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى، اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم، فضربوا عند الصَّنَوْبرة

(١) كذا وردت هذه الأسماء التى تحت هذا الرقم فى جميع الأصول . ولم نقف فيما راجعناه من الكتب على ما نطمئن اليه فى تصحيحها وضبطها ، على أن الكتب مختلفة فى هذه الأسماء القديمة اختلافا بيّنا .

والعين سُرادقا من ديباج، عليه من أنواع الصُّوَر، له آثنا عشر بابا، كلّ باب لأهل قرية منهم؛ ويسجدون للصنوبرة خارجا من السرادق، ويقرّبون لها الذبائح أضعاف مايقرّبون للأشجار التّى فى قُراهم؛ فيجىءُ إبليس عند ذلك فيحرّك الشجرة تحريكا شديدا، ويتكلّم من جوفها كلاما جهرا، ويَعِدُهم ويمنّيهم بأكثر ممّا وعدهم به الشياطين كلُّهم؛ فيرفعون رءوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون ولا يتكلّمون [معه]؛ فيداومون الشرب والعزف، فيكونون على ذلك آثنى عشر يوما بلياليها بعدد أعيادهم فى السنة؛ ثم ينصرفون؛ فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتُهم غيره، بعث الله إليهم نبيّا من بنى إسرائيل من ولد يهوذ بن يعقوب، فلبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الله تعالى، ويعرّفهم ربوبيّته؛ فلا يتّبعونه ولا يسمعون مقالته؛ فلما رأى شدّة تماديهم فى البغى والضلالة وتركَهم قبولَ ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح، وحضر عيدُ قريتهم العظمى قال: يارب إنّ عبادك أبوا تصديقى ودعوتى لهم، فما زادوا إلّا تكذيبى والكفرَ بك، وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضرّ، فأيْبِس شجرهم أجمع، وأرِهم قدرتك وسلطانك.

فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كلّه، فهالهم ذلك وتضعضعوا، فصاروا فرقتين: فرقة قالت: سِحرُ هذا الرجل الّذى زعم أنّه رسول ربّ السماء، ألهاكم ليصرف وجوهكم عنها إلى إلهه؛ وفرقة قالت: بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها، ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسنها وبهاءها لكى تغضبوا لها، فتنتصروا منه.

فأجمعوا رأيهم على قتله، فآتخذوا مثال بئر، وآتخذوا أنابيب طوالا من رصاص واسعةَ الأفواه، ثم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ، ونزحوا

ماء العين، ثم حفروا فى قرارها بئرا ضيّقة المدخل عميقة، وأرسلوا فيها نبيّهم، وألقوا عليه فيها صخرة عظيمة ؛ ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا : الآن نرجو رضا آلهتنا عنّا إذا رأت أنا قد قتلنا من كان يقع فيها ، ويصدّ عن عبادتها .

فبقوا عامّة يومهم يسمعون أنين نبيّهم، وهو يقول : سيّدى ، ترى ضيق مكانى وشدّة كربى ، فارحم ضعف ركنى وقلّة حيلتى ، وعجّل قبض روحى ولا تؤخّر إجابة دعوتى . حتى مات عليه السلام .

فقال الله تعالى لجبريل : انظر عبادى هؤلاء الّذين غرّهم حلمى ، وأمنوا مكرى ، وعبدوا غيرى ، وقتلوا رسولى ؛ وأنا المنتقم ممّن عصانى ولم يخش عذابى وإنّى حلفت بعزّتى لأجعلنّهم عبرة ونكالا للعالمين .

فبينما هم فى عيدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء ، فتحيّروا وذُعروا منها وانضمّ بعضهم إلى بعض ، ثم صارت الأرض من تحتهم حَجَر كبريت يتوقّد ؛ وأظلّتهم سحابة سوداء ، فألقت عليهم كالقبّة حجرا يلتهب نارا ، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار؛ نعوذ بالله من غضبه ودَرَك نِقْمتِه[1] .

(١) « ودرك نقمته » ، أى لحاقها بنا .

القسم الثانى من الفنّ الخامس

فى قصّة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبره مع نُمْروذ، وقصّة لوط، وخبر إسحاق و يعقوب، وقصّة يوسف وأيّوب وذى الكفل وشعيب وفيه سبعة أبواب

الباب الأوّل منه فى قصّة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبر نُمْروذ بن كنعان . ٥

ولنبدأ من هذه القصّة بخبر نمروذ ؛ ثم نذكر قصّة إبراهيم — عليه السلام — لتعلُّق قصّته به، لأنّ إبراهيم ولد فى زمانه، وآيتُه الكبرى معه .

ذكر خبر نمروذ بن كنعان

هو نُمْروذ بن كَنْعان بن كُوش، وهو أحد ملوك الدنيا الأربعة الّذين ملكوا ١٠ شرقها وغربها .

وقد ورد أنهم مؤمنان وكافران : فالمؤمنان سليمان بن داود والإسكندر ذو القرنين المذكورُ فى سورة الكهف ؛ والكافران : شدّاد بن عاد ونُمْروذ ابن كنعان .

وقد قيل : بدل شدّاد بُخْتنصّر . ١٥

قال الكسائىّ : قال وهب : لمّا أهلك الله تعالى أهل الرسّ بالمسخ ومَن تقدّمهم بما ذكرناه، أنشأ قرونا آخرين، فكان ممّن أنشأ من ولد حام بن نوح كُوش ابن قرظ بن حام، وكان جبّارا شديد القوّة عظيم الخَلْق، له مخاليب كالسِّباع وهو الذى أنشأ كوثارَبًا من أرض العراق، وولد له بها ولد سمّاه كنعان ، وكان له

ولد آخر يقال له : الهاص؛ فلما مات كوش آستقل الهاص بالمُلك دون كنعان وآستقلّ كنعان بالصيد ، ووَلع به حتّى ألهاه عن طلب المُلك ؛ وكان مع ذلك شديد البطش والقوّة ، فبينما هو يتصيّد إذ رأى آمرأة ترعى بقرات ، فأعجبته فراودها عن نفسها ، فآمتنعت وآعتذرت بزوجها ؛ فقال : ويلك ، هل على وجه الأرض من يطاولني وأنا من ولد كوش ، ونحن ملوك الأرض ؟ فضحكت المرأة كالمستهزئة ، وقالت : لا تذكر الملوك وأنت رجل صيّاد .

ثم أقبل زوجُها فقتله كنعان وأخذ المرأة ووطئها ، فحملت بنُمْروذ ، ونقلها كنعان إلى قصره ، فكانت من أحظى نسائه ؛ ثم قتل أخاه بعد ذلك ، وآستقلّ بالمُلك .

ثم رأى فى منامه كأنّه صارع إنسانا فصرعه وقال : أنا مشئوم أهل الأرض ومنزلى الظلمة . وقد أجّلتك حتّى أخرج من ظلمتى هذه إلى ضوء الدنيا .

فآنتبه مرتاعا ، وأحضر أصحابَ علم النجوم ، وقصّ رؤياه عليهم ؛ فقالوا : سيولد مولود هو الآن فى بطن أمّه يكون هلاكك على يديه .

وتبيّن حمل الراعية — وكان آسمها شلخاء — وكانت تسمع من بطنها صوتا عجيبا ، فسمعه كنعان فقال : ويحك ، هذا ليس بآدمىّ ؛ وإنما هو شيطان ؛ وهمّ أن يدوس بطنها ليقتل من فيه ؛ فهتف به هاتف : مه يا كنعان ، ليس إلى قتله سبيل .

فلمّا كملت مدّة الحمل وضعته أسود أحول أفطس أزرق العين ؛ وخرجت حيّة من جحر فدخلت فى أنفه ، ففزعتْ شلخاء ؛ وأخبرت كنعان بخبره ؛ فقال : أُقتليه فإنّه شؤم . فقالت : لا تطيب نفسى بقتله . قال : فاحتمليه وآطرحيه فى البرّيّة .

فاحتملته الى البرّيّة، فمرّت براعى بقرات فعرضته عليه، فأخذه، وعادت الى منزلها؛ فلمّا وضعه الراعى بين البقر نفرتْ وتفرّقت وعسر عليه جمعها؛ وأقبلت امرأته فأخبرها بخبر الغلام؛ فقالت : اقتله فإنّه شؤم . فأبى وقال : اطرحيه فى النهر . فطرحته فى نهر عظيم، فألقاه الماء إلى البرّ؛ فقيّض الله له نَمِرة فأرضعته وانصرفت؛ فرأته امرأة من قرية هناك فعجبت وأخبرت أهل القرية، فخرجوا إليه واحتملوه وربّوه وسمّوه نمروذ، فلمّا بلغ جعل يقطع الطريق ويغير على النواحى، واجتمع له جمع كثير، فبلغ خبرُه كنعان، فجعل يبعث إليه بقائد بعد قائد وهو يهزمهم؛ وعظم أمره حتى صار فى جيش عظيم؛ فسار الى كوثاربًا وقاتل كنعان، فهزم جيوشه وظفر به، وقتله وهو لا يعلم أنه أبوه، واحتوَى على مُلكه؛ ثم أخذ فى غزو الملوك حتى ملك الشرق وسائرَ ممالك الدنيا؛ ثم رجع الى كوثاربًا فاستدعى وزراءه وقال : أريد أن أبنى بنيانا عظيما لم أُسبَق إلى مثله . فدلّوه على تارَح وذكروا أنّه عارف بأمر النجارة والبناء؛ فأحضره ومكّنه من خزانته، وأمره بإنشاء قصر عظيم؛ فخرج تارَح وشرع فى بنائه، وتأنّق فيه، وأجرى فيه الأنهار؛ فلمّا كمل ورآه نُمْرُوذ خلع على تارَح، وجعله وزيره .

وأخذ نمروذ فى التكبّر حتى ادّعى الألوهية .

وكان مولَعا بعلم النجوم، فأتقنه؛ فجاءه إبليس فى صورة شيخ وسجد له وقال : إنك قد أتقنت علم النجوم؛ وعندى علم ما هو أحسن منه، وهو السحر والكهانة . فعلّمه ذلك، ثم حسّن له عبادة الأصنام، فدعا بتارَح وأمره أن يتخذ له صنما على صورته، ويتخذ لقومه أصناما أخرى؛ فاتخذها تارَح من الجوهر والذهب والفضّة والقوارير والخشب على أقدار الناس، وكلّها على صورة نُمْروذ حتى اتّخذ سبعين صنما، وأمر نمروذ قومه أن يتخذوها؛ ففعلوا ذلك وانهمكوا

فى عبادتها ، وكلّمهم الشياطين من أجوافها ؛ فعبدوها حتّى لم يعرفوا سواها وطغَوا وبغَوا، وأكثروا الفساد فى الأرض، حتى ضجّت الأرض والسماء والوحش والطير إلى ربّها منهم .

ذكر الآيات التى رآها نمروذ قبل مولد إبراهيم — عليه السلام —

٥ قال : كان أوّل ذلك أنّه صعِد فى بعض الأيّام إلى سريره، فانتفض من تحته انتفاضا شديدا، وسمع هاتفا يقول : تَعِس من كفر بإله إبراهيم . فقال لتارَحَ وهو واقف عنده : سمعتَ ما سمعتُ ؟ قال : نعم . قال : فمن هو إبراهيم ؟ قال : لا أعرفه .

فأرسل إلى السحرة وسألهم عن إبراهيم، وأخبرهم بما سمع؛ فقالوا : لا نعرف ١٠ إبراهيم ولا إلهه .

ثم توالت عليه الهواتف، ونطقت الوحشُ والطير والسباع بمثل ذلك؛ ثم رأى الرُّؤَى فى منامه .

فكان منها أنّه رأى كأنّ القمر قد طلع من ظهر تارح ، وألقى نورَه كالعمود الممدود بين السماء والأرض؛ وسمع قائلا يقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ ونظر إلى الأصنام (٤١) ١٥ وهى ترتعد، فاستيقظ وقصّ رؤياه على تارَح، فقال : أيّها الملِك، إنّى فى الأرض كالقمر لكثرة عبادتى لهذه الأصنام . فقال له نمروذ : صدقت .

وانصرف تارَح حتى دخل بيت الأصنام ، فإذا هى قد سقطت عن كراسيّها منكبّة على أوجهها؛ فأمر خَدَمَها بإعادتها، وعجب من ذلك .

قال : ثم رأى فى منامه كأنّ نورا ساطعا بين السماء والأرض، وقوما يسلكون ٢٠ فيه ينزلون إلى الأرض، ويصعدون إلى السماء، وإذا برجل من أحسن الناس وجها

فى ذلك النور، وأولئك يقولون : نصرك إلٰه السماء، فبك تحيا الأرض بعد موتها . فأنتبه ودعا بالسَّحَرة والكَهَنة والمنجِّمين ، وذكر لهم رؤياه ، وأقسم إن كتموه تأويلها عذّبهم وجعلهم طعما للسباع . فطلبوا أمانه، فأمّنهم، فقالوا : رؤياك تدلّ على مولود من أقرب الناس إليك ، يرث ملكك، ويرتفع ذكره إلى السماء والشرق والغرب ويُهلكك ، وأنه لا يأتيك ومعه سلاح ولا جند . فتبسّم نمروذ وقال : إن كان كذلك فأمره هيّن . ثم قال لهم : فمَن يكون ؟ قالوا : من ظهرِ أقربِ الناس إليك ، ولا نعلم أكثر من هذا . ٥

ثم قال : ليس أحد أقرب إلىّ من ابنى كوش ووزيرى تارَح ؛ ثم أمر بابنه كُوش فضُرب عنقه ؛ وأمر بقتل الأطفال حتى قتل مائة ألف طفل؛ ثم دعا بالمنجّمين فقال : انظروا هل استرحتُ ممّن كنت أخافه ؟ قالوا : ما حملت به أمّه بعد . ١٠

وأخذ فى ذبح الأطفال حتى ضجّت الخلائق إلى الله تعالى .

ذكر حمل أمّ إبراهيم — عليه السلام — وطلوع نجمه

قال : وعبر تارحُ يوما إلى الأصنام فاضطربت اضطرابا شديدا ؛ فسجد لها فأنطقها الله ، فقالت : يا تارح ، ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ ووافى نمروذَ ما كان يحذره، فخرج خائفا وجلا حتى دخل على امرأته وذكر لها ذلك؛ فقالت : وأنا أخبرك بعجب، كنت قعدت عن الحيض منذ كذا وكذا، وقد حضت فى يومى هذا . فقال : اكتمى أمرِكِ لئلّا يبلغ الملك . فلما طهرتْ هتف به هاتف : يا تارَح صر إلى زوجتك ليخرج النور الّذى على وجهك . فلمّا سمع ذلك مرّ هاربا على وجهه فإذا هو بملَك يقول : أين تريد ؟ ارجع فرُدَّ الأمانة التى فى ظهرك . ١٥ ٢٠

فآنصرف إلى منزله ولم يجسر أن يقرب آمرأته ؛ فأصبح وإذا بنور ساطع على وجهه ؛ وكان هو الّذى يقرّب إلى الأصنام الطعام والشراب كلّ ليلة ، وينصرف الى منزله فتأكله الشياطين ؛ فقرّب الطعام إليها ، فأقبلت الشياطين لتأكله ، فرأوا الملائكة هناك فولّوا هاربين ، وبقى الطعام على حاله ؛ فلمّا أصبح تارَحُ رآه على حاله فظنّ أن الأصنام ساخطة عليه ، فعكف عليها لترضى عنه ، فأبطأ عن منزله ، فأتته آمرأته ؛ فلمّا خلت به فى بيت الأصنام تحرّكت شهوته ، وهمّ بمواقعتها ، فقالت : ألا تستحى ، أتفعل هذا بين يدى آلهتك ؟ فواقعها ، فحملت منه بإبراهيم — عليه السلام — فنُكِّست الأصنام ، وظهر نجم إبراهيم وله طرفان : أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ؛ فعجب الناس منه ؛ ورآه نمروذ فتحيّر ، فلمّا أصبح سأل المنجّمين عنه ، فقالوا : هذا نجمٌ جديد طلع يدلّ على مولود جديد من أولاد الأكابر ، يرتفع شأنه ، ويُخشى عليك منه . فهتف به هاتف يقول : يا عدوّ الله ، هذا المولود قد حملت به أمّه والله مُهلكك على يديه .

قال : فلمّا آستكملت أمّه تسعة أشهر قالت لأبيه : إنى أحبّ أن أدخل بيت الأصنام فأسألها أن تخفّف عنّى أمر الولادة ؛ فأَذِن لها فى ذلك ، وتربّص بها إلى اللّيل خوفا أن يعلم الناس بحملها ؛ فلمّا دخلت بيت الأصنام تنكّست عن كراسيّها فخرجت فزعة ، فإذا هى بنُمروذَ فى قومه ، وبين أيديهم الشُّموع والمَشاعل ؛ فقال نمروذ : من هذا ؟ قالت : زوجة عبدِك تارَح ؛ فأراد أن يقول : اقبِضوها فقال : خلّوها ؛ فأقبلت إلى منزلها مذعورة ، فجاءها الطلق ، فأقبل إليها ملَك من عند الله تعالى وقال : لا تخافى وآنهضى فضعى ما فى بطنك . فتبعته حتّى أدخلها الغار ، وهو الّذى ولد فيه إدريس ونوح — عليهما السلام — .

ذكر ميلاد إبراهيم — عليه السلام —

(٤٣) قال : ودخلت أمّه الغار فوجدت فيه جميع ما تحتاج إليه ، وخفّف الله عنها الطلق ، فولدته فى ليلة جمعة ، وهى ليلة عاشوراء ؛ فلمّا سقط إلى الأرض قطع جبريل سرّته ، وأذّن فى أذنه ، وكساه ثوبا أبيض؛ ثم عاد بها الملَك إلى منزلها فرجعت خفيفة كأن لم تلد، وقال لها الملَك : اكتمى أمرك وما قد رأيت . فدخلت منزلها ، وجاء تارَح فرآها نشطة خفيفة ، فقالت : إن الذى كان فى بطنى لم يكن ولدا، وإنّما كانت ريحا وقد انفشّت عنّى . ففرح بذلك، وألقى الله تعالى على نمروذ النسيان فى أمر إبراهيم ؛ فلمّا كان فى اليوم الثالث خرجت أمّه إلى الغار فرأت الوحش والسباع على بابه، فتوهّمتْ أن يكون هلك؛ فدخلت فرأته على فراش من السندس، وهو مدهون مكحول، فتحيّرتْ وعلمت أنّ له ربّا، ورجعت إلى منزلها وأخبرت تارَحَ الخبر، فنهاها عن العود إلى الغار، فكانت تروح إليه سرّا فى كلّ ثلاثة أيّام تنظر إليه وتعود، حتى تمّ له حولان ، فأتاه جبريل بطعام من الجنّة ، فأطعمه وسقاه؛ فلمّا استكمل أربع سنين جاءه ملَك بكسوة من الجنّة، وسقاه شربة التوحيد وقال : أُخرج الآن منصورا .

ذكر خروج إبراهيم — عليه السلام — من الغار واستدلاله

قال : ولمّا قال له الملَك ذلك خرج عند غروب الشمس ، فجعل ينظر إلى السموات، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ يعنى على سبيل الاستفهام، أى أهذا ربى؟ . ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى

الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّى هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهبط جبريل — عليه السلام — فقال له : انطلق إلى أبيك وأمّك ولا تخف فإن الله معك . فخرج إبراهيم وجبريل معه حتى وقفه على الباب وقال : هذا بيت أبيك ، فدونك هو . فاستأذن إبراهيم وقال : أَدْخُل؟ قال تارح : أُدخُل . فلمّا دخل نظر إليه فعجب من حسنه وجماله ، وقامت أمّه مسرعة إليه واعتنقته وقالت : ولدى وعزّةِ نمروذ . فقال لها : لا تحلفى بعزّة نمروذ ، فإن العزة لله الّذى خلقنى فى بطنك وأخرجنى منك، وكلأنى وربّانى وهدانى .

فارتعد تارَح من كلامه وقال لأمّه : أخشى أن تزول عنّى هذه المنزلة بسببه . ونظر إليه وقال : ما أحسنك ! فلولا ما وقع فى قلبى من محبّتك لرفعتُ خبرك إلى نمروذ .

ثم بكى تارح خوفا عليه أن يقتل، فقال له : يا أبت لا تخف علىّ من القتل فإن الله يعصمنى من نمروذ . فقال له : ألك ربّ غير نمروذ ، وله مملكة الأرض شرقها وغربها ، وله ثلاثمائة صنم ؟ فقال إبراهيم : بل ربّى الله الّذى لا إله إلّا هو خالق السمٰوات والأرض وما بينهما لا شريك له .

وبلغ خبر إبراهيم بعضَ أقارب تارَح، فدخل عليه وقال : ماهذا الغلام الجميل؟ قال : هو ابنى وُلد لى على كبر . قال : فما الّذى بلغك من قوله عن نمروذ وأصنامنا ؟ قال تارَح : هو ما بلغكم ، فكلّموه حتى يعود إلى ديننا . فحاجّه قومه وخوّفوه بعذاب نمروذ، وهو يجادلهم ويحتجّ عليهم ، ويذكر عظمة ربّه حتى عجزوا عنه فذلك قوله تعالى : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللّٰهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ .

فانصرفوا عنه، وخاف تارَح أن يسعوا به و بولده إلى نمروذ، فقال : يا إبراهيم كفّ عن هـذا الكلام حتّى أستخلفك على خزانة الأصنام فقـد كَبِرتُ . فقال : يا أبت، إنّ المعبود هو الله، والأصنام لا تضرّ ولا تنفع .

فغضب تارح وأقبل على نمروذ ، فسجد له ، وقال : إن المولود الذى كنت تحـذره هو ولدى ، ولم يولد فى دارى، ولا أعلم به حتّى الآن ، وقـد جاءنى وهو غلام يعقل ويفهم، و يزعم أن له ربا سواك، وقد أعلمتك فاصنع ما أنت صانع .

فلمّا سمع نمروذ ذلك داخله الرعب وقال : صـفه . فوصفه . قال نمروذ : هو الّذى رأيتـه فى منامى . وقال لأعوانه : ائتونى به . فأتوه به ، فردّد النظـر إليه وقال : احبسوه إلى غد ؛ فلمّـا أصبح أحضره وقد أمر بتزيين قصره بأعظم زينة، وهوّل عليه بجنوده وأصناف السلاح؛ فالتفت إبراهيم إلى الناس يمينا وشمالا (٤٣) وقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ثم التفت وقال: ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ .

فلمّا فرغ من كلامه قال له نمروذ ، يا إبراهيم ، تقع فى دينى وأنا الّذى خلقتك ورزقتك ؟ قال : كذبتَ ، إنّ خالقى ورازقى وخالقَ الخلق ورازقَهم ، ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فبُهِت النـاس ، ووقعت فى قلوبهم محبّتـه لحُسنه وحُسن كلامه ؛ فالتفت نمروذ إلى تارَح وقال : إنّ ولدك صـغير لا يدرى ما يقـول ولا يجوز لمثلى فى قدرتى وعِظَم مملكتى أن أعجّل عليه؛ فخذه إليك، وأحسن إليـه وحذّره بأسى حتى يرجع عما هو فيه .

فأخذه تارح وآنصرف إلى منزله ، وقال : يابنىّ ، إنّ لى عليك حقّا. وأسألك بحقّى عليك أن تلازمنى فى عملى وبيع هذه الأصنام كما يفعل إخوتك . قال : كيف أبيع ما أبغضه؟ قال : ما عليك أن تبيعها ؟ وأخرج له صنمين صغيرا وكبيرا، وقال : بع هذا بكذا، وهذا بكذا . قال : يا أبت أنت تعبد هذه الأصنام على أنّها ترزقك وهى التى خلقتك ؟ قال : نعم . فقال له ما أخبرنا الله به فى قوله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ فغضب تارح من قوله وقال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ قال إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ .

وقال : وكان إبراهيم يخرج ومعه غلامان ومعهما صنمان، فيقول : من يشترى ما لا يضرّ ولا ينفع ولا يدفع الذّباب عن نفسه؛ وكان يغمسهما فى الماء ويقول : اشربا . ويشدّ الحبل فى أرجلهما ويجرّهما، والناس يُعظمون ذلك ولا يجسرون يكلّمونه لمكان أبيه من نمروذ .

ذكر معجزة لإبراهيم — عليه الصلاة والسلام —

قال : وبينما إبراهيم قاعدا إذ جاءته آمرأة عجوز، فقالت : بعنى أحد هذين الصنمين، وآختر لى أجودهما . فقال : هذا أكثر حطبا من هذا . قالت : لست أريده للوَقود ، وإنّما أريد أن أعبده ، فقد كان لى إله سُرق فى جملة ثياب كثيرة

لى، وأنا اريد أن أشترى هذا الصنم فأعبدَه حتى يردّ علىّ رحلى . قال لها إبراهيم : إنّ الإله الّذى يُسرَق لو كان إلٰها لحفظ الثياب وحفظ نفسه؛ فكم لك تعبدينه ؟ قالت : كنت أعبده ونمروذَ منذ كذا وكذا سنة . قال : بئس ما صنعتِ، هلا عبدتِ ربّ السمٰوات والأرض حتى يردّ عليك ما سُرِق منك ، فإن عاد مالك تؤمنين ؟ قالت : نعم .

فدعا إبراهيم ربّه فإذا بالمسروق بين يديه قد جاء به جبريل؛ فقال لها إبراهيم : هذا رحلك . فأخذته العجوز وكسرت الصنم ، وقالت تَبًّا لك ولمن عبدك دون الله . وآمنت ، وجعلت تطوف فى المدينة وتقول : يٰأيّها الناس آعبدوا الله الّذى خلقكم و رزقكم ، وذروا ما كنتم عليه من عبادة الأصنام .

فبلغ خبرها نمروذ، فأحضرها وأمر بقطع يديها و رجليها وفَقْءِ عينيها؛ فآجتمع إبراهيم والناس لينظروا إليها — وهو إذ ذاك لم يبلغ الحُلُم — فدعا لها بالصبر وقال : إلٰهى إنّك قد هديتها، أسألك أن تجعلها آية . فردّ الله عينيها و يديها و رجليها وآرتفعت فى الهواء وهى تنادى : و يلك يا نمروذ ، أنا الّذى قد فعلتَ بى ما فعلت هٰأنا أرقى إلى الجنان .

وكان لنمروذَ خازن يقال له : بهرام (١) ، فقام وقال : آمنتُ أيّتها المرأة بالذى خصّك بهذه الكرامة ، وآمن فى ذلك اليوم خلق كثير من وجوه القوم؛ فأمر نُمروذُ فنُشِروا بالمناشير وأُلقُوا للأسود فلم تأكلهم ؛ وآرتجّت المدينة بزلزلة عظيمة وترادفتْ معجزات إبراهيم — عليه السلام — .

(١) فى كتاب الكسائى المنقول عنه هذا الكلام : «ولد» .

ذكر مبعث إبراهيم — عليه السلام —

قال : فلمّا تمّ لإبراهيم أربعون سنة، جاءه جبريل بالوحى من الله، وأرسله إلى نمروذ ، فأقبل إبراهيم ووقف على باب نمروذ ونادى بأعلى صوته : يا قوم، قولوا: « لا إله إلّا الله وإنّى إبراهيم رسول الله » . فانتشر الصوت على جميعهم؛ فأحضر نمروذُ الوزراء والبطارقة ، وأجلسهم فى مجالسهم ، وأقام جنوده ، وأحضر الأسود والفِيَلة بسلاسلها، وأقيمت صفوفا عن يمين الدار ويسارها؛ وأمر بدخول إبراهيم؛ فدخل وقال : « بأسم الله العظيم » فلمّا توسّط الدار قال بصوت رفيع : يا قوم قولوا : « لا إله إلّا الله خالق كلّ شىء » .

ثم تقدّم إلى نمروذ؛ فقال له بعض وزرائه : من أنت؟ قال : أنا إبراهيمُ بن تارَح رسولُ ربّ العالمين، أدعوكم إلى عبادته . قال له : من ربّك؟ قال : الذى خلق الناس جميعا . قال نمروذ : إنّ مُلكى أعظم من مُلكه . قال إبراهيم : المُلك والسلطان لله ربّ العالمين . قال: لقد تجرّأت علىّ يا إبراهيم، وأنت تعلم أنّى خلقتك ورزقتك .

فاضطرب سرير نمروذ، وقال إبراهيم : كذبتَ يا نمروذ، إنّ الله هو الّذى خلقك وخلق الناس أجمعين ، ورزقك ورزقهم، وأنت تكفر بنعمته وقد رأيت بعض الآيات ؟ قال : هات غير ذلك . فوصف إبراهيم قدرة الله . قال نمروذ : فما الّذى يفعل من قدرته ؟ ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ قال نمروذ : ﴿ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ . قال : كيف تفعل؟ قال: أخرج من الحبس من قد وجب عليه القتل فأطلقه ، وأقتل الّذى لم يَجِبْ عليه .

قال إبراهيم : إنّ ربّى لا يفعل كذلك ، بل الميّت يحييه، والحىّ يميته من غير قتل، ولكن يا نمروذ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ﴾ .

ذكر سؤال إبراهيم — عليه السلام — فى إحياء الموتى

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال : فأخذ ديكا أبيضَ وغرابا أسود وحمامة خضراءَ وطاوسا ، وقطع رءوسها ، وخَلَط الدم بالدم والريش بالريش ؛ ثم جزّأها أجزاءً متساوية ، وجعل على كلّ جبل منهنّ جزءا ، وجعل رءوسها بين أصابعه ؛ ثم دعاها ، فانضمّ كلّ جزء إلى بعضه ، وخرجت الرءوس من بين أصابع إبراهيم ، فصار كل رأس إلى بدنه .

قال : وٱلتفت إبراهيم إلى نمروذ وقال : كيف ترى قدرة إلٰهى ؟ قال : ليس هذا ببديع من سحرك . وأمر به فقُيّد وغُلّت يده ، وأدخل المَضيق تحت الأرض وفيه الحيّات والعقارب فلم يضرّه ذلك .

وجاءه جبريل فبشّره عن الله بالنصر ، وألبسه حلّة خضراء ، وفرش له فرشا من السندس ، وأتاه بطعام فأكل وقال له : اِصبر كما صبر الأنبياء من قبلك .

ذكر آية لإبراهيم — عليه السلام —

قال : وكان إبراهيم يسلّى أهل السجن ، ويذكّرهم بالجنّة والنار ؛ فقام إليه رجل وقال : يا إبراهيم ، أنا من ملوك العرب ، وأنا ٱبن مَلِكهم ، وكنّا أربع إخوة فغضب الملك علينا فحبسنى هاهنا ، وحبس الآخر بالمشرق ، والآخر بالمغرب والرابعَ باليمن ، فهل يقدر ربّك أن يجمع بيننا؟ قال : نعم . ودعا إبراهيم ربّه ، فإذا بالأخوين وقد ٱنقضّا من المشرق والمغرب . فبلغ ذلك نمروذ ، فأحضرهم وقال :

مَن جمع بينكم ؟ قالوا : إلهُنا بدعاء إبراهيم . فأَحضرَ إبراهيم وقال : ائتنا بالأخ الرابع من اليمن . فقال : إنّه قد مات ودفن . فقال نمروذ : ادع ربّك حتّى يأتينا بقبره .

فدعا إبراهيم ، فأمر الله المَلَك الموكّل بالأرض أن يخترق بالقبر إلى إبراهيم ؛ فخرج القبر من تحت الأرض إلى دار نمروذ ، فقال إبراهيم للثلاثة : هذا قبر أخيكم . فقالوا : أيُّها الملِك ، إن كان حقّا ما يقول فليدع ربّه ليحييه وينظر إليه ويكلّمه .

فصلّى إبراهيم ركعتين ، وسأل الله أن يحييه ؛ فانشق القبر ، وخرج الرجل منه وهو يشتعل نارا ويقول : هذا جزاء من عبد الأصنام ورغِب عن دين الله .

فقام بهرام الخازن ونزع ما كان عليه من لباس نمروذ ، وآمن بالله وبإبراهيم . فقال له نمروذ : لقد عملَ سحرُه فيك . وأمر بهم نمروذ فشُدّت أيديهم وأرجلهم ووُضعت عليهم أساطين ، فلم يؤلمهم ثقلها ؛ فبُهِت نمروذ ثم قال : عودوا لطاعتى فأنا الذى خففت عنكم ثقل هذه . فقال خازنه : قم حتى نضع عليك واحدة منها وخفِّفها عن نفسك .

فغضب نمروذ وأحرقهم بالنار حتى صاروا رمادا ؛ فردّ الله عليهم أرواحهم فقاموا على أرجلهم يقرّون بعظمة الله ؛ فعجب الناس ، ولم يدر نمروذ ما يفعل ؛ فأمر بهم فأُلقوا فى الحبس بين حيّات وعقارب ، فبقوا فيه أربعين يوما ، ولم يطعموا شيئا ؛ فجاءت أمّ إبراهيم إلى نمروذ وسألته فى إطلاقه ، فأمر بإخراجه هو ومن آمن به ، وفى ظنّه أنّهم قد ماتوا ؛ فأخرجهم فإذا هم فى أحسن صورة ؛ فعجب

وقال : يا إبراهيم، من أطعمك وسقاك ؟ قال : ربّى أطعمنى وسقانى ، فآمِنْ به يا نمروذ ، فقد رأيت آياته وعظمتَه .

فغضب نمروذ ثم أقبل على تارح وقال له : قد كنت أتخوف من آبنك ، لأنّى كنت أظنّ له شوكة من الجنود، والآن فليس عنده إلّا السحر، وقد وهبته لك. فأخذه أبوه وأخرجه من دار نمروذ، وقال له : يا بنىّ، اِمش حتى أدخلك على هذه الأصنام لعلّك تميل إليها . فقال إبراهيم : سوءة لك أيّها الشيخ . ثم قال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ ﴾ ثم قال : يا قوم قولوا : لا إله إلّا الله و إنّى إبراهيم رسول الله تُفلحوا . فكذّبوه ، فقال له أبوه : يا بنىّ ما تخشى سطوة الملِك . فقال : يا أبت إنّ آلله يعصمنى من مكايده .

قال : ثم آبتلاهم الله — عزّ وجلّ — بالقحط ، وقلّت عندهم الأقوات؛ وكان بظاهر المدينة كثيب من الرمل ، فتعبّد إبراهيم فيه ، ودعا ربّه أن يحوّله طعاما . فحوّله الله، فكان المؤمنون ينالون منه مايريدون، والكفّار يسجدون لنمروذ ويأخذون منه القوت .

وكان قد جمع الأقوات فى سراديب عنده ، فأطعمهم حتى نفد أكثرها ولم يبقَ إلّا قوتُ أهله وعشيرته ؛ فشرع الناس يؤمنون ويزيدون فى كل يوم ؛ فشقّ ذلك على نمروذ ، وطلب إبراهيم وقال له : اخرج من بلدى فقد أفسدتَ قومى بسحرك . فقال إبراهيم : لِمَ أخرج وأنا أحقّ منك ؟ وخرج من عنده فأحضر نمروذ تارح وقال له : إن آبنك قد آذانى فى أهل مملكتى، ولولا منزلتك عندى لبطشت به . فقال : إنّى قد هجرته ، ولست راضيا بصنعه، فآفعل به ما بدا لك .

ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه فى النار

قال كعب : وكان لأهل كُوثَرَبَّا عيد يخرجون إليه فى كلّ سنة ، فيتعبّدون هناك أيّاما ، وكان بعيدا من البلد ، فلمّا حضر ذلك العيد قال تارح لإبراهيم : أُخرج معنا إلى عيدنا . ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ ، يعنى لعبادتكم الأصنام ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ إلى عيدهم ، ولم يبق فى بلدهم إلّا الصّغار والهَرِمون .

فقام إبراهيم ودخل بيت الأصنام — وكان القوم قد وضعوا الطعام بين أيديها — ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ استهزاء بهم ، وكانت فى جانب البيت فأس ، فأخذها وكسر بها هذا الصنم ، وكسر يد هذا الصنم ورجلَ هذا ورأسَ هذا . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ وترك كبيرهم كما أخبر الله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ ثم علّق الفأس فى عنق الصنم الأكبر ورجع إلى منزله .

وأقبل القوم بعد فراغهم من عيدهم ، فرأَوا أصنامهم على ذلك ، فقالوا : ﴿ مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ وبلغ الخبر نمروذ . قال : ﴿ فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ يعنى عذابه . فلمّا أتوا به ﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ قال بعضهم لبعض : ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فصاحوا من كلّ ناحية : أفتأمرنا بذلك وأنت تعلم أنّها لا تسمع ولا تبصر . فقال إبراهيم : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فقال القوم لنمروذ ما أخبرنا الله تعالى عنهم : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

وكان لنمروذ تنّور من حديد يُحرِق فيه من غضب عليه، فأَمَر به فأُسجِر فطَرَح إبراهيم فيه، فلم تضرّه النار بقدرة الله؛ فلمّا رأى نمروذ ذلك جَمَع أهل مملكته وٱستشارهم، فأشاروا أن يحبسه ويجمعَ له الحطب الكثير، ويُضرِمَ فيه النار، ثم يلقيَه فيه إذا صار جمرا. وقالوا: إنّه لا يَقدر يسحر النار الكبيرة، ولا يعمل سحرُه فيها.

فعند ذلك حبَسَه وأمر بجمع الأحطاب؛ فيقال: إنّ الدوابّ ٱمتنعتْ من حملها إلّا البغال، فأَعقمها الله عقوبة لذلك؛ فجمعوا من الأحطاب ما لا يُحْصَى كثرة؛ وأَمَر أن تُحْفَر حَفيرةٌ واسعة، وبنى حولها حائطا عاليا، وأَلقى فيها تلك الأحطاب وأَضرم فيها النار والنِّفْط ثلاثة أيّام، فكان لهبها يصيب الطائر فى الجوّ فيُحْرَق.

قال: وهمّوا بطرح إبراهيم فيها، فلم يقدروا يقربوا منها.

فيقال: إنّ إبليس أتاهم فى صورة شيخ، وصنع لهم المنجنيق، ولم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، ووضعوا إبراهيم فى كفّة المنجنيق، ورمَوا به وهو يدعو الله أن ينصره عليهم؛ فعارضه جبريل وهو فى الهواء، وقال له: ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أمّا إليك فلا، بل حسبى الله ونعم الوكيل.

فلمّا قرب من النار قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

قال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما —: لو لم يقل «وسلاما» لمات إبراهيم من شدّة البرد.

فبرد حرُّها وٱخضرّت الأشجار التى ٱحترقت ورَسَتْ بعروقها.

فلمّا أصبح نمروذ جلس فى مكان مُشرِف ينظر إلى ما أصاب إبراهيم من النار؛ فكشف عن بصره فإذا هو برجل فى وسطها على سرير، عليه ثياب خضر وإلى جنبه رجل آخر؛ وخلقٌ كثير وقوفٌ من ورائهما؛ فدعا بصاحب المنجنيق

وقال له : كم ألقيتَ فى النـار ؟ قال : إبراهيم وحده . فعجب وعجبت النـاس وقال : اذهبوا وٱنظروا مَن القاعد على السرير ومن إلى جنبه وحولَه . فأتوا فإذا هم بإبراهيم على أحسن صورة، فأخبروا نمروذ، فقال: ائتونى به . فقالوا : لانستطيع الوصول إليـه لحرّ النـار . فنادَوه : يا إبراهيم ، أُخرج إلينا . فخـرج إلى نمروذ وقال له : ما أَعجب سحرك يا إبراهيم ! قال : ليس هـذا بسحر ، وإنمـا هو من قدرة الله تعالى . قال : فمن الّذى عن يمينك ؟ قال : ملَك جاءنى من عنـد ربّى بشّرنى انّ الله ٱتّخذنى خليلا . فقال نمروذ : لأصعدنّ إلى السماء وأقتل إلٰهك .

ذكر خبر صعود نمروذ إلى السماء على زعمه

قال : وأمر نمروذ أن يُتّخـذ له تابوت مربّع ، ويكونَ له بابان : باب إلى السماء وباب إلى الأرض ، وجَوّع أربعة نسـور ، وسَمّر أربعـة رماح فى أركان التابوت ، وعلّق اللحمَ فى أعلاها ، وشـدّ النسور بأوساطها إلى الرماح ، وجلس فى التابوت ومعه وزيره، وحمل معه قوسا ونُشّابا، وأطبق البابين، فرفعت النسور رءوسها فنظرتْ إلى اللّحم ، فطارت صاعدة ، وٱرتفعت فى الهواء ؛ فقال لوزيره : افتح الباب الذى يلى الأرض وٱنظر كيف هى ؟ قال : أراها كأنّها قرية . قال : فانظر إلى السماء . فقال : هى كما رأيناها ونحن فى الأرض . ولم يزل يصعد حتى قال : أما الدنيا فلا أراها إلا سوادا ودخانا، والسماء كما رأيناها .

وٱرتفعت النسور حتى كادت تسقط إلى الأرض؛ فعارضه ملَك وقال: ويلك يا نمروذ؛ إلى أين؟ قال : أريد محاربة إلٰه إبراهيم . قال: ويحك، إنّ بينك وبين سماء الدنيا خمسمائة عام ، ومن فوق ذلك ما لا يعلمـه إلّا الله . فخرّ الوزير ميتا ؛ فأخذ نمروذ القوس ووضع فيه السهم، وقال : أنا لك يا إلٰه إبراهيم، ورَمى بالسهم إلى الهواء، فيقال : إنّ ذلك السهم عاد إليه ملطّخا بالدم بإذن الله .

وأمر الله جبريل أن يضرب التابوت بجناحه ، فيلقيه فى البحر ؛ فضربه فترَيهوِى به حتى ألقاه فى البحر ؛ وأمر الله الأمواج أن تلقيه إلى الساحل ؛ فلمّا وصل إلى البرّ خرج وقد آبيضّت لحيته لِما عاين من الأهوال ، وتوصّل من بلد إلى بلد حتى أتى المدينة ، فدخل منزله ليلا فأنكره الناس لشيبه ، ثم عرفوه ؛ وجاءه إبراهيم فقال : كيف رأيتَ قدرة ربّى ؟ قال : قد قتلتُ ربّك . قال : إنّ ربّى أعظم من ذلك ، ولكن هل لك قوّة — مع كثرة جنودك — أن تقاتلنى ؟ قال : نعم .

ذكر خبر إرسال البعوض على نمروذ وقومه

قال : وأمر نمروذ جنوده فآجتمعوا لحرب إبراهيم وهم لا يُحصَون كثرة ؛ وخرج إبراهيم فى سبعين من قومه الذين آمنوا فى الصحراء ، فأرسل الله عليهم البعوض حتى آمتلأت منه الدنيا ، ولدغت جيش نمروذ ؛ فمات من لدغها خلق كثير ، والتجأ الباقون إلى الدُّور ، وأغلقوا الأبواب وأسبلوا الستور ؛ فلم تُغن عنهم شيئا ؛ وآنفرد نمروذ عن جيشه ، ودخل منزله وأُغلِقت الأبواب ، وأُرخِيت الستور ، وآستلقى على سريره ، فجاءت بعوضة فقعدتْ على لحيته ، فهمّ بقتلها ، فدخلت منخره وصعدت إلى دماغه ؛ فعذّبه الله بها أربعين يوما لا ينام ولا يَطعم ؛ ثم شَقّت رأسه وخرجت فى كِبَر الفرخ ، فمات .

وقيل : إنّه آتخذ إرْزَبّةً من حديد ، فكان صديقه الّذى يضرب بها رأسه فآنفلق رأسُه بضربة فخرجتْ كالفرخ وهى تقول : هكذا يهلك الله أعداءه ، وينصر أنبياءه ، ويسلّط رُسُله على من يشاء .

وأرسل الله الزلازل على المدينة ، فخُرِّبت .

قال : وجاء لوط وهو آبن أخى إبراهيم ، وآمن به ، وآمنت سارة ، فتزوّج بها إبراهيم .

ذكر هجرة إبراهيم — عليه السلام —

قال : وجمع إبراهيم أصحابه الّذين آمنوا به، وسار يريد الشأم، فجاء إلى (حَرّانَ) فأقام بها مدّة من عمره ، وترك بها طائفة من المؤمنين ، وسار حتى أتى الأُرْدُنّ وكان آسم مَلِكها صادوق ، فمرّ به وهو فى منظرة له ، فنظر إلى سارّة مع إبراهيم فأحضرهما ، وقال لإبراهيم : من أنت ؟ قال : أنا خليل الله إبراهيم . وذكر له ما كان من أمر نمروذ . فقال له : مَن هذه ؟ قال : هى أختى . فقال : زوِّجنيها . قال : هى أعلم بنفسها منّى، وإنّها لا تحلّ لك . فآغتصبها منه، وقام إلى مجلس آخر وأمر بحملها إليه . فدعا إبراهيم آللهَ تعالى، فآرتجّ المجلس بالمَلِك ، ويَبِست يده فقال لسارّة : ألا ترين ما أنا فيه ؟ قالت : لأنّك أغضبتَ خليل الله .

قال : فتضرّع إلى إبراهيم ؛ فسأل اللهَ فى ردّ يده عليه ؛ فأوحى الله إليه : لا أطلقه دون أن أخرِجه من مُلكه ويُسلِم؛ فأَسلَم وخرج عن المُلك، ووهب سارّة هاجرَ ، وهى أمّ إسماعيل .

قال وآرتحل إبراهيم حتى أتى الأرض المقدّسة فنزلها .

وقد روينا هذه القصة بسندنا إلى البخارىّ — رحمه الله —

وسنذكر الحديث — إن شاء الله تعالى — فى أخبار طرطيس أحد الملوك بمصر، فقد ورد أنه صاحب القصة ؛ والله أعلم .

ذكر خبر ميلاد إسماعيل — عليه السلام — ومقامه وأمّه فى البيت المحرّم

قال : وأقام إبراهيم بالأرض المقدّسة ما شاء الله أن يقيم حتى كبرت سارّة وأيست من الولد، فخافت من آنقطاع نسل إبراهيم — عليه السلام — فوهبته هاجر فقبِلها، وواقعها، فحملت بإسماعيل ، ووضعته كالقمر وفى وجهه نور نبيّنا محمد

صلّى الله عليه وسلّم ؛ فأحبّته سارّة حتى بلغ من عمره سبع سنين ، فداخلت الغيرة سارّة، ولم تُطق أن ترى إبراهيم مع هاجر، فقالت : يا نبيّ الله، إنى لا أحبّ أن تكون هاجر معى فى الدار، فخوّلها حيث شئت .

فأوحى الله إليه أن أنقلها إلى الحرم؛ وجاءه جبريل بفرس من الجنة ، فقال له : يا إبراهيم ، احمل هاجر و إسماعيل على هذا الفرس . فأركب إبراهيم هاجرَ و إسماعيلَ من ورائها، وسار بهما حتى بلغ الحرم .

فأوحى الله إليه أن أنزل بهما ها هنا . فأنزلها بالقرب من البيت ،وهو يومئذ أكمة حمراء كالربوة من تخريب الطوفان. ثم قال إبراهيم لهاجر : كونى ها هنا مع ولدك فإنى راجع ،فبذلك أمرنى ربّى. فلما أراد إبراهيم أن ينصرف قال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم رجع وتركهما هناك ولا ثالث لهما إلّا الله تعالى .

فلما علا النهار ، واشتدّ الحرّ، ونفد ما معهما من الماء ، قامت هاجر تعدو يمينا وشمالا فى طلب الماء فلم تجده؛ فعادت إلى إسماعيل فرأته يبحث بأصابعه فى موضع بئر زمزم وقد نبع الماء؛ فسجدت لله، وأخذت تجمع الحصا حول العين لئلّا ينتشر الماء وهى تقول : زُمَّ زُمَّ يا مبارك .

فناداها جبريل : لا تخافى وأبشرى، فإن الله سيعمر هذا المكان .

قال وهب : لولا أن هاجر جمعت الحصا حول الماء لتمّت العين نهرا جاريا على وجه الأرض إلى يوم القيامة .

قال : وأقبل ركب من اليمن يريدون الشأم،وطريقُهم على الحرم، فرأوا الطير تهوى إلى الأرض، فقالوا : إن الطير لا تنقضّ إلّا على الماء والعمارة .

(٤٨)

وأقبلوا فرأوا هاجر و إسماعيل والعين، فسألوها ، فقالت : أنا جارية خليل الله إبراهيم وهذا آبنه، خلّفنا وآنصرف إلى الشأم .

فآستأذنوها فى الماء، فأذنت لهم . ثم قالوا: هل أحد ينازعك على هذا الماء؟ قالت : لا ، فإنّ الله أخرجه لى ولولدى . قالوا : إن حضرنا بأهالينا وسكّنّا فى جواركم هل تمنعيننا من هذا الماء ؟ قالت : لا ، فإنه لله يشربه خلق الله .

فرجعوا إلى بلدهم ، وآحتملوا أهاليَهم وأتوا الحرم بها و بمواشيهم ، فصاروا لها أنسا .

ونشأ إسماعيل حتى بلغ مبلغ الرجال ، فكان يخرج إلى الصيد معهم و يرجع وماتت أمه هاجر، وتزوّج إسماعيل منهم ، و بلغ إبراهيمَ خبرُ موت هاجر، فآشتاق إلى إسماعيل، فآستأذن سارّة فى ذلك، فأذنت له ، فجاءه جبريل بفرس فركبه وسار حتى وقف على بيت ولده إسماعيل بالحرم ، فقال : السلام عليكم يا أهل المنزل . فقالت له المرأة : إن صاحب البيت غائب . فقال إبراهيم : إذا رجع فقولى له : آبدِلْ عتبة دارك ، فإنّى لا أرضاها لك . وانصرف إلى الشأم .

فلما عاد إسماعيل أخبرته بالخبر، فقال: صفيه لى. فوصفته؛ فقال: الحقى بأهلك. فجاء أهلُها وقالوا : ما الذى كرهت منها ؟ قال : لأنها لم تعرف لخليل الله قدرا .

ثم تزوّج آمرأة من جُرْهُم، فأولدها إسماعيل ستّة أبطن ، فاشتاق إبراهيم إلى ولده، فجاءه جبريل بفرس فركبه وسار إلى الحرم ، وقد عمر ذلك المكان بجرهم ؛ فوقف على باب إسماعيل وقال : السلام عليكم يا أهل المنزل . فبادرت آلمرأة وسلّمت عليه، وقالت : فدتك نفسى، إن صاحب المنزل غائب، و إنه يعود عن قريب . قال : هل عندك طعام ؟ قالت : نعم ، عندنا خير كثير . وجاءته بطبق

عليه لحم مشوىّ من الصيد ، وقدح فيه ماء . قال : فهل غير هذا من حب أو زبيب ! قالت : يا عمّاه ، ما هذا طعام بلدنا ، ولكنّه يُجلب إلينا ، فآنزل بنا وتناول طعامنا . قال : إنّى صائم ، ولكن علىّ ذَرْق[1] الطير فآغسليه . وحوّل قدمه عن الفرس ، ووضعه على المقام ، فغسلته[2] ، فقال : إذا جاء زوجك فسلّمى عليه وقولى له : اِلزم عتبة بابك فقد رضيتها لك . وآنصرف .

فلما رجع إسماعيل من الصيد أخبرته الخبر فقال : لقد كنتِ كريمة علىّ وقد صرت الآن أكرمَ بإكرامك أبى خليل الله إبراهيم .

ثم آشتاق إبراهيم إلى ولده ثالثا ، وذلك بعد ثلاث وعشرين يوما ، فجاء إليه ولقيه ، وأمره الله أن يبنى البيت ، فبناه ، وأتاه جبريل فعلّمه مناسك الحجّ .

وقد تقدّم ذِكر ذلك مبيّنا فى الباب الثانى من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو فى السفر الأوّل من كتابنا هذا ، فلا حاجة لنا فى إعادته .

قال : ورجع إبراهيم إلى البيت المقدّس ، وأوحى الله إليه أن يرسل لوطا نبيا إلى سَدُوم ، فأرسله .

وكان من أمره ما نذكره فى أخباره فى الباب الّذى يلى هذا الباب — إن شاء الله تعالى — .

ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحاق — عليهما السلام —

قال : وبعث الله الملائكة إلى إبراهيم حين أرسلهم بالعذاب على قوم لوط وأمرهم أن يبشّروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، فأتوه على صورة البشر وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ودرياثيل .

(١) فى (ج) : « روث » . (٢) فى كتاب الكسائى : « فغسلت رأسه » .

قال : فأتوه مفاجأة على خيولهم، ودخلوا عليه منزله ففزع منهم، حتى قالوا : ﴿ سَلَامًا ﴾ . فسكن خوفه، وقال: ﴿ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ ورحّب بهم وأجلسهم وقام إلى زوجته سارّة وأمرها بخدمتهم؛ فقالت : عهدى بك وأنت أغير الناس . قال : هو كما تقولين، وإنّما هؤلاء أضياف أخيار . ثم قام إلى عِجل سمين فذبحه وشواه، وقرّبه إليهم، ووقفت سارّة لخدمتهم، فجعل إبراهيم يأكل ولا ينظر إليهم وهو يظنّ أنهم يأكلون؛ فرأت سارّة أنّهم لا يأكلون؛ فنبّهته على ذلك، فقال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟ وداخله الخوف من ذلك، ثم قال : لو علمت أنّكم لا تأكلون ما قطعت العجل عن البقرة .

فمد جبريل يده نحو العجل، وقال: قم بإذن الله. فاشتدّ خوف إبراهيم وقال: ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ .

قال: وكانت سارّة واقفة هناك، فقالت : « أوّه » ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ أى حاضت ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ ولم تعلم أنّهم ملائكة؛ فقال لها جبريل : يا سارّة، ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ . قال إبراهيم : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ ثم عاد جبريل إلى صورته، فعرفه إبراهيم، وعرّفه أنهم يقصدون قوم لوط بالعذاب؛ فآغتم إبراهيم شفقة على لوط وأهله، ثم قال : امضوا حيث تؤمرون .

وكان من أمر قوم لوط ما نذكره .

قال : وحملت سارّة بإسحاق فى الليلة الّتى خسف الله فيها بقوم لوط ، ووضعته وعلى وجهه نور أضاء منه ما حولها ؛ فدخل إبراهيم وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ ﴾ وربّته سارّة حتى بلغ سبع سنين .

ذكر خبر الذبيح وفدائه

قال : وكان إسحاق يخرج مع أبيه إلى بيت المقدس ، فبينما إبراهيم فى مصلّاه إذ غلبته عينه فنام ، فأتاه آت فى منامه وقال : إن الله يأمرك أن تقرّب قربانا . فلمّا أصبح عمد إلى ثور فذبحه وفرّق لحمه على المساكين ، فلما كان الليل رأى فى منامه الّذى أتاه وهو يقول : يا إبراهيم ، إنّ الله يأمرك أن تقرّب له قربانا أعظم من الثور . فلمّا آنتبه ذبح جملا وفرّق لحمه على المساكين . ثم رآه فى الليلة الثالثة وهو يقول : إنّ الله يأمرك أن تقرّب قربانا أعظم من الثور والجمل . قال إبراهيم : وما هو؟ فأشار إلى ولده إسحاق ؛ فآنتبه فزعا ، وأقبل على إسحاق وقال له : ألست تطيعنى يا بنىّ؟ قال : بلى ، ولو كان فى ذبح نفسى .

فآنصرف إبراهيم إلى منزله ، وأخذ الشّفْرة والحبل ، فوضعهما فى مِخلاته وقال : يا إسحاق ، امض بنا إلى الجبل .

فلما مضيا أقبل إبليس إلى سارّة وقال لها : إنّ إبراهيم قد عزم على ذبح إسحاق فالحقيه وردّيه . قالت : ولِم يذبحه؟ قال : إنّه زعم أن ربّه أمره بذلك . قالت : إن كان الأمر كذلك فإنّه صواب إذا أراد رضى ربّه . وقالت : اللّهم آصرف نزغ الشيطان . فولّى عنها هاربا ، وتبع إسحاق فناداه : إنّ أباك يريد أن يذبحك . فقال إسحاق لأبيه : يا أبت ألا تسمع إلى هذا الهاتف ما يقول ؟ قال : يا بنىّ آمض ولا تلتفت إليه ، فسأخبرك .

فلما انتهيا إلى رأس الجبل قال إبراهيم : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك ، فنودى من السماء : أليس الله قد وصفك بالحلم فكيف لا ترحم هذا الطفل ؟ قال : إن الله قد أمرنى بذلك . فقال إسحاق : يا أبت عجّل أمر ربّك قبل أن ينال منّا الشيطان .

فنزع إبراهيم قميصه و ربطه بالحبل ، وكبّه على جبينه وهو يقول : الحمد لله باسم الله الفعّال لما يريد . ووضع الشفرة على حلقه ، فلمّا همّ بذبحه انقلبت الشفرة ، فارتعدت يد إبراهيم ، فقال له إسحاق : يا أبت ، حُدَّ الشفرة ، وانصرف وجهك عنّى حتى لا ترحمنى . قال : يا بنىّ ، قد فعلتُ حتى لو قطعتُ بها المِجَنَّ لقطعتْه بحدّها .

ثم وضع إبراهيم الشفرة على حلقه ثانيا ، وهمّ بقطع أوداجه ، فانقلبت ؛ فقال إبراهيم : لا حول ولا قوّة إلا بالله . فقال : أصبت فى قولك يا أبت ولكن حدّ شفرتك لتذبحنى ذبحا ، ولا تجزع . فحدّ إبراهيم المدية حتى جعلها كالنار ووضعها على حلق إسحاق ، فسمع إبراهيم هدّة (١) عظيمة ومناديا يقول : يا إبراهيم خذ هذا الكبش فاذبحه عن ابنك ، فهو قربان عنه ، وهذا اليوم جعل عيدا لك ولولدك من بعدك .

فالتفت إبراهيم إلى الجبل ، و إذا هو بكبش أملح أقرن ، قد انحدر من الجبل وهو يقول : خذنى يا إبراهيم فاذبحنى عن ابنك ، فأنا أحق منه بالذبح ، فأنا كبش هابيل بن آدم .

(١) الهدة : صوت شديد تسمعه من سقوط ركن أو ناحية جبل . و يقال : الهدة صوت ما يقع من السماء .

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك ، وذبح الكبش ؛ فأتت نار من السماء بغير دخان فأكلته حتى لم يبق إلّا رأسه ؛ وآنصرف إبراهيم وإسحاق ورأس الكبش معهما إلى منزل إبراهيم، وأخبر سارّة بما جرى .

قال : ثم توفّيت سارّة بعد ذلك ، وتزوّج إبراهيم بامرأة من الكنعانيين وأَولَدها ستّة أولاد فى ثلاثة أبطن .

وإبراهيم أوّل من صالخ وعانق وفرق الشعر بالمُشط ونَتَف الإبط وآستاك وآكتحل وآختَتَن بالقَدوم .

ذكر وفاة إبراهيم — عليه السلام —

قال : فبينما إبراهيم على باب داره ، وإذا هو بملَك الموت وقد وافاه فى أحسن صورة؛ فسلّم عليه ؛ فأجابه وقال : من أنت ؟ قال : أنا ملَك الموت، أمرنى الله بقبض رُوحك . فكره إبراهيم الموت ؛ ثم تصوّر له فى صورة شيخ كبير، ودخل على إبراهيم وقال : هل من طعام ؟ فقُدّم إليه طعام على طبق ، فجعل ملك الموت يتناول الطعام، ويخيّل إلى إبراهيم أنه يلوث وجهه وعنقه، وأنّه لا يستقرّ فى بطنه . فقال له إبراهيم : أيّها الشيخ، ما بال هذا الطعام لا يستقرّ فى بطنك؟ قال : يا خليل الله ، إنى قد شِخْت ، ولستُ أتمكّن منه إلّا على هذا الوجه . قال : فكم تعدّ من السنين؟ قال : قد جزت مائتى سنة . قال إبراهيم : وأنا فى المائتين إلّا سنة، وإذا مضى علىّ مائتين أصير كذا ؟ [قال : نعم[1]] .

فدعا إبراهيم ربّه أن يقبضه . فجاءه ملك الموت ؛ فقال : يا ملك الموت قد آشتقت إليك منذ رأيت ذلك الشيخ على تلك الصورة ، فآقبض روحى . فقبض روحه صلى الله عليه وسلم .

(١) هذه العبارة لم ترد فى الأصول . وقد أثبتناها عن (قصص الأنبياء للكسائى) المنقول عنه هذا الكلام .

الباب الثانى من القسم الثانى من الفن الخامس

فى قصّة لوط — عليه السلام — وقلب المدائن

هو لوط بن هاران بن تارح ، وتارح هو آزر أبو إبراهيم — عليه السلام — وكان لوط قد شخص مع عمّه إبراهيم — عليهما السلام — من المدائن إلى أرض الشأم، مؤمنا به، مهاجرا معه، ومع إبراهيم تارح وسارّة بنتُ ماحور؛ فلمّا انتهوا إلى حرّان هلك تارح بها وهو باق على كفره ؛ وسار إبراهيم ولوط وسارّة إلى الشأم ؛ ثم مضوا إلى مصر و بها فرعون من الفراعنة يقال له : سِنان بن علوان ابن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ؛ و رجعوا إلى أرض الشأم فنزل إبراهيم فلسطين ، وأنزل لوطا الأُرْدُنّ ، فكان هناك إلى أن بعثه الله نبيا .

قال : وأوحى الله — عزّ وجلّ — إلى إبراهيم أن يرسل لوطا نبيّا إلى (سَدُوم)، وكانت خمسَ مدائن؛ وهى : (صامورا)[1] (وصابورا) (وسَدُوم) (ودُومة)[2] (وعامورا)، وهى المؤتفكات، وكان أعظمها (سَدُوم) وعلى كلّ مدينة سور عظيم مبنىّ بالحجارة والرّصاص، وعليهم ملك يقال له : (سَدُوم) من بيت نمروذ بن كنعان ، وكان أهل هذه المدائن قد خُصّوا بحذف الحصا والحَبِق[3] فى المجالس وعبادةِ الأصنام ، وكانوا حسان الوجوه ، فأصابهم قحط ، فأتاهم إبليس فقال : إنما أصابكم القحط لأنّكم منعتم الناس من دُوركم ولم تمنعوهم من بساتينكم . فقالوا:

(١) لم يذكر الآلوسى (صابورا) ولا (صامورا) ، وذكر مكانهما « ميعة » « وصعرة » ج ٣ ص ٥٩٤ .

(٢) فى تفسير الآلوسى ج ٣ ص ٥٩٤ طبع بولاق «دومى» مقصورا .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ مضبوطا بالعبارة فى تاج العروس مادة « حبق » وهو الضراط .

كيف السبيل إلى المنع؟ قال : اجعلوا السنّة بينكم إذا دخل بلدكم غريب سلبتموه ونكحتموه فى دبره ، فإذا فعلتم ذلك لم تقحطوا .

فخرجوا إلى ظاهر البلد فتصوّر لهم إبليس فى صورة غلام أمرد ، فنكحوه وسلبوه ، فطاب لهم ذلك حتى صار فيهم عادةً مع الغرباء ، وتعدّوا إلى أهل البلد ، وفشا بينهم ؛ فأرسل الله إليهم لوطا ، فبدأ بمدينة (سَدُوم) وبها الملك ، فلما بلغ وسط السوق قال : يا قوم ٱتقوا الله وأطيعون وٱرجعوا عن هذه المعاصى التى لم تُسبقوا إليها ، وٱنتهُوا عن عبادة الأصنام ، فإنّى رسول الله إليكم .

فكان جوابهم أن قالوا : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ .

وبلغ الخبر الملك ، فقال : « ٱئْتُونِي بِهِ » فلمّا وقف بين يديه سأله : من أين أقبل ؟ ومن أرسله ؟ ولماذا جاء ؟ فأخبره أن الله أرسله . فوقع فى قلبه الخوف والرعب ، وقال : إنما أنا رجل من القوم ، فآدعهم فإن أجابوك فأنا منهم . فدعاهم فقالوا : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ . فقال لهم : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ ٱلْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فلبث فيهم عشرين سنة يدعوهم إلى الله وهم لا يجيبونه .

ثمّ توفيت ٱمرأته ، فتزوّج بامرأة من قومه كانت قد آمنت به ، فأقام معها أعواما وهو يدعوهم حتى صار له فيهم أربعون سنة وهو يدعوهم بما أخبر الله به ويقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الآيات ، وهم لا يزدادون إلا كفرا وإصرارا وتماديا على أفعالهم الذميمة ، فضجّت الأرض منهم .

ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن (٥١)

قد ذكرنا فى قصّة إبراهيم أن الله — عزّ وجلّ — أرسل الملائكة إليه وبشّروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط ، وقال لهم : امضوا حيث تؤمرون .

٥ فاستوَوا على خيولهم . وساروا إلى المدائن وهم على صفة البشَر ، فأتوا المدائن وقت المساء ، فرأتهم ٱبنة لوط — وهى الكبرى من بناته وهى تستقى الماء — فتقدّمت إليهم وقالت : ما لكم تدخلون على قوم فاسقين ؟ ليس يضيفكم إلّا ذلك الشيخ . فعدلت الملائكة إلى لوط ، فلما رآهم ٱغتمّ غمّاً شديدا مخافةً عليهم من شرّ قومه ، ثم قال لهم : من أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع بعيد ، وقد حللنا ١٠ بساحتك ، فهل لك أن تضيفنا الليلة ؟ قال : نعم ، ولكن أخاف عليكم من هؤلاء الفاسقين — عليهم لعنة الله — قال جبريل لإسرافيل : هذه واحدة — وكان الله قد أمرهم ألّا يدمّروا على قومه إلّا بعد أربع شهادات من لوط ولعنته عليهم — ثم أقبلوا إليه وقالوا : يا لوط ، قد أقبل علينا الليل ، فٱعمل على حسب ذلك . قال : قد أخبرتُكم بأنّ قومى يأتون الرجال من العالمين — عليهم لعنة الله — ١٥ فقال جبريل لإسرافيل : هذه ثانية . ثم قال لهم لوط : انزلوا عن دوابّكم وٱجلسوا ها هنا حتى يشتدّ الظلام ، وتدخلون ولا يشعر بكم أحد منهم — عليهم لعنة الله — قال جبريل : هذه ثالثة . ثم مضى لوط والملائكة وراءه . فدخل المنزل ، وأغلق الباب . وقال لٱمرأته : إنك قد عصيتِ ٱلله أربعين سنة وهؤلاء ضِيفانى قد ملأوا قلبى خوفا ، فٱكتمى علىّ أمرهم حتى يغفر ٱلله لكِ ٢٠ ما مضى . قالت : نعم . ثم خرجت وبيدها سراج كأنها تُشعَل ، فطافت على عدّة

من القوم ، فأخبرتهم بجمالهم وحسنهم ، فعلم لوط بذلك ، فأغلق الباب وأوثقه ؛ فأقبل الفُسّاق وقرعوا الباب. فناداهم لوط : ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ ثم كسروا الباب ، ودخلوا، فقالوا له : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ . ٥

فوقف لوط على الباب الذى دونه ضيفانه وقال : لا أُسلِم ضِيفانى إليكم دون أن تذهب نفسى .

فتقدّم بعضهم ولطم وجهه، وأخذ بلحيته ، ودفعوه عن الباب، فقال : أوّه ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ثم قال : إلهى خذ لى بحقّ من هؤلاء الفسقة وألعنهم لعنا كبيرا . فقال جبريل عند ذلك : هذه أربعة . وقام جبريل ١٠ ففتح الباب وقال للوط : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ فهجم القوم . ودخلوا و بادروا نحو الملائكة ، فطمس الله أعينهم ، وأسودّت وجوههم . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فجاءت طائفة أخرى ونادوهم : اخرجوا لندخل . فنادوا : يا قوم ، هؤلاء قوم سحرة سحروا أعيننا فأخرِجونا . فأخرجوهم، وقالوا : يا لوط، حتى نصبح نريك وبناتك . وخرجوا ١٥ فقال لوط للملائكة : بماذا أرسلتم؟ فأخبروه، فقال: متى؟ قالوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

ثم قال له جبريل : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ فجمع لوط أهله و بناته ومواشيه ، وأخرجه جبريل من المدينة ، وقال له : ﴿ إِنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ومضى لوط ٢٠

بمن معه ، وجبريل قد بسط جناح الغضب ، و إسرافيل قد جمع أطراف المدن ودريائيل قد جعل جناحه تحت الأرض ، وملك الموت قد تهيّأ لقبض أرواحهم حتى إذا برز عمود الصبح صاح جبريل صيحة : يا بئس صباحُ قوم كافرين . وقال ميكائيل : يا بئس صباح قوم فاسقين . وقال دريائيل : يا بئس صباح قوم ظالمين . وقال إسرافيل : يا بئس صباح قوم مجرمين . وقال عزرائيل : يا بئس صباح قوم غافلين .

فاقتلع جبريل هذه المدن عن آخرها ، ثم رفعها حتى بلغ بها الى البحر الأخضر وقلبها ، فجعل عاليها سافلها . قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ يعنى رمَى الملائكة إيّاهم بالحجارة من فوقهم .

قال : وآستيقظ القوم ، و إذا هم بالأرض تَهوى بهم ، والنيران من تحتهم والملائكة تقذفهم بالحجارة .

قال : ومن كان من القوم بغير مدائنهم ممّن كان على دينهم وفعلهم أتاه حجر فقتله .

قال : و بقى يخرج من تحت[1] المدائن دخان منتن ، لا يقدر أحد يَشُمّه لنتنه ، و بقيت آثار المدائن . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

(٥٢)

قال : ومضى لوط إلى إبراهيم — عليهما السلام — فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

(١) فى حدى نسخ الكسائى : « تلك » مكان قوله : « تحت » .

الباب الثالث من القسم الثانى من الفن الخامس

فى خبر إسحاق ويعقوب — عليهما السلام —

قال : ولمّا قبض الله تعالى إبراهيم الخليل — عليه السلام — سكن إسماعيل الحرم ، وإسحاق الشام ومدين ، وسكن معه سائر أولاد إبراهيم ، وبعثه الله إلى الأرض المقدّسة نبيّا ورسولا ، فأقام بينهم نحوا من ثمانين سنة ، وكفّ بصره فبينما هو نائم الى جنب آمرأته إذ تحرّكت شهوته ، فقالت : وفيك بقيّة يا إسحاق؟ فواقعها مرّة فحملت بذكرين : وهما يعقوب والعيص — على ما ذكرناه فى الأنساب — وهو فى الباب الرابع من القسم الأوّل من الفنّ الثانى ، وهو فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وذكرنا أيضا أولاد العيص فيه .

قال : ثم قبض الله تعالى نبيّه إسحاق ، فقسم ما كان له من بقر وخيل وغنم وغير ذلك بالسوية ، ومات ؛ فغلَب العيصُ على مال يعقوب ، وآغتصبه إياه وقصد قتله ؛ فقالت له أمّه : اِلحق بخالك (لابان) وإخوته بحَرّان ، فإنّهم مؤمنون من آل إبراهيم .

فتوجّه يعقوب إلى حرّان ، فأكرمه خاله ، وزوّجه آبنته ، وسلّم إليه ما بيده من المال ، وكانت آبنته هذه الكبرى ، وآسمها (لِيَا)(١) فرُزق منها روبيل(٢) وشِمعون(٣) ، ثم ذكرين : لاوى(٤) ويهوذا ، وتوفيت ؛ فزوّجه خاله آبنته الثانية وآسمها

(١) كذا ضبط هذا الاسم بكسر اللام فى فهرست تاريخ الطبرى المطبوع فى أوربا . والذى فى التوراة ص ٤٩ « ليئة » بفتح اللام وبالهمز فى آخره . (٢) كذا فى تاريخ العينى . والذى فى التوراة « رأوبين » بفتح الراء . (٣) كذا ضبط هذا الاسم فى القاموس بفتح الشين . وضبط فى التوراة بكسرها ، وهو شمعون الصفا . (٤) فى التوراة : « لاوى » بكسر الواو .

سرورية[(١)] ، فولدت له ولدين : دانا ونفتالى[(٢)] ؛ ثم توفّيت ، فزوّجه الثالثة فأولدها ذكرين يساخر[(٣)] وزَبولون، وماتت؛ فزوّجه آبنته الرابعة، وآسمها راحيل — وكانت أحسن بناته — وذلك بعد أن آستكمل يعقوب من عمره أربعين سنة، فجاءه الوحى يومئذ وهو بحرّانَ وقد ماتت أمّه .

ذكر مبعث يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

قال : ولما أتاه الوحى أقبل على خاله لابان ، وشكره على فعله ، وقال : إن ربّى بعثنى رسولا إلى أرض كنعان . فزوّده بخيل وغنم وبقر وغيرِ ذلك . وقال : اِمض لما أمرك به ربّك . فخرج يعقوب ومعه أولاده العشرة[(٤)] وامرأتُه يريد أرض كنعان، فبلغ خبر نبوّته أخاه العيص، فغضب لذلك، وعارضه فى طريقه بجموعه؛ فراسله يعقوب مع ابنه روبيل، وذكّره الأخوّة والرحم ، فزبر[(٥)] روبيل وردّه ؛ ثم التقيا ، فظفّر الله يعقوب بالعيص بقوّة النبوّة ، فاحتمله وألقاه على الأرض وجلس على صدره، وقال له : كيف رأيت صنع الله بك يا عِيص ؟ ثم رقّ له وقام عن صدره وآعتنقه ، فآعترف العِيص بفضله عليه ، وسأله أن يعفوَ عمّا سلف منه فى حقّه؛ فاستغفر له يعقوب ودعا له ، وآنصرف العيص إلى بلده، وأقبل يعقوب

(١) فى تاريخ العينى وتفسير الآلوسى والنيسابورى وغيرها من الكتب أن دانا ونفتالى واثنين آخرين لم يذكرهما المؤلف هنا ، وهما جاد وآشر ، من سريتين ليعقوب ، إحداهما زلفة ، والثانية بلهة . وهذا هو ما يستفاد من التوراة أيضا . (٢) فى تاريخ العينى وتفسير الآلوسى «يفتالى» بالياء مكان النون . والذى فى الأصل هو ما فى التوراة . (٣) كذا فى الأصول وتاريخ العينى . والذى فى التوراة «يساكر» بفتح الياء وتشديد السين وكاف بعد الألف . (٤) يلاحظ أن المؤلف لم يذكر فيما سبق من أولاد يعقوب غير ثمانية ، ولم يذكر ولديه من راحيل وهما يوسف وبنيامين . فقوله هنا : «العشرة» غير ظاهر . ويؤخذ مما يأتى فى صفحة ١٣٠ سطر ١٧ أنه لم يرزق بولديه من راحيل إلا بعد خروجه إلى أرض كنعان وغزوته لملكها . (٥) زبره ، أى انتهره .

إلى أرض كنعان ، فبنيت له دار متّسعة ، سكنها بأهله وأولاده ، وكان بأرض كنعان ملك يقال له : سحيم ، فدعاه يعقوب إلى الإيمان بالله ، فلم يكترث به قال : فإنّى مجاهدك . قال : بمن تجاهدنى وليس معك أحد ؟ قال : أجاهدك بالله وملائكته وهؤلاء أولادى .

وأقبل يعقوب بأولاده والملك فى حصنه ، فقال : يابَنىّ ، جاهدوا فى الله حقّ جهاده . فقال ابنه شمعون : أنا أكفيك هذا الحصن . وأقبل وضرب باب الحصن برجله فتساقطت حيطانه ، وصاح صيحة عظيمة فمات الملك وأكثرُ من بالحصن . ودخل يعقوب الحصن ، وغنم ما كان فيه ؛ فكانت هذه معجزةً ليعقوب ، وبلغ ذلك أهلَ كنعان ، فوقع الرعب فى قلوبهم ، فآمنوا بيعقوب — عليه السلام — .

الباب الرابع من القسم الثانى من الفن الخامس

فى قصة يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

وهذه القصة تدخل فيها بقيّة أخبار يعقوب وما كان من أمره ووفاته وخبر الأسباط أولاده .

ذكر خبر ميلاد يوسف — عليه السلام —

قال : ولمّا رجع يعقوب من غزاته دخل على امرأته راحيل فواقعها فحملت بيوسف وببنيامين أخيه ، فوضعتهما ، فجاء يوسف كالقمر ، فربّته أمّه حتى صار عمره سنتين ، وماتت أمه ؛ فلمّا بلغ عمره عشر سنين أمر يعقوب بجَذَعة من غنمه ، فذبحت ، وصنعت طعاما ، وجمع أولاده على الطعام يأكلون ، فأقبل

مسكين وسأل وأكثر السؤال ، وآشتغل يعقوب عنه ولم يأمرهم بإطعامه ، حتى آنصرف السائل .

فلما فرغ يعقوب من أكله قال : أعطيتم السائل شيئا ؟ فقالوا : إنك لم تأمرنا بشيء . فجاءه الوحى : يا يعقوب ، قد جاءك مؤمن فقير مريض شمّ رائحة طعامك فلم تطعمه ، وأحرقت قلبه ، فلأحرقنّ قلبك . فآغتم يعقوب .

ذكر رؤيا يوسف — عليه السلام — وكيد إخوته له

قال : ولما بلغ آثنتى عشرة سنةً رأى رؤياه وقصّها على أبيه . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال : فسمع إخوتُه الرؤيا ، فداخلهم الحسد ، وقالوا ما أخبر الله به عنهم : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * آقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ آطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

قال : فآتفقوا وجاءوا إلى أبيهم ، فقالوا : ﴿ يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . فقال لهم يعقوب : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ .

قال : وأحبّ يوسف ذلك ، فدعا يعقوب بسلّة فيها طعام وكوز ماء ، وقال : إذا جاع فأطعموه من هذا الطعام ، وإذا عطش فاسقوه ؛ وأخذ عليهم العهود بردّه وشيّعهم بنفسه ، وجلس على تلّ عال ينظر إليهم حتى غابوا عنه ؛ فندم على إرساله ثم رجع إلى منزله ؛ وجعل إخوة يوسف يُمعنون فى السير ، وهو يمشى وراءهم ولا يلحقهم ، ويناديهم : « قفوا لى » . فلم يقفوا . ويقول : « اسقونى » . فلم يسقوه ؛ وكسر شَمعون الكوز وقال : قل لأحلامك الكاذبة حتى تسقيك . ورمى (لاوى) سلّة الطعام فى الوادى ؛ فعلم يوسف أنهم قد عزموا على أمر ، فناداهم وناشدهم الله والرحم ، وذكّرهم بعهود أبيه ، فلطمه أحدهم فأكبّه ؛ وساروا ويوسف يعدو وراءهم حتى بلغوا موضع أغنامهم ، فأرادوا قتله ؛ فقال لهم يهوذا : إن قتلتموه حلّ بكم ما حلّ بقابيل حين قتل أخاه . فأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وطلبوا له جبّا عميقا فوجدوه ، فجرّوه إليه وهو يبكى ، فقال لهم يهوذا : يا بنى يعقوب لقد ذهبت الرحمة من قلوبكم . قالوا : فنردّه إلى أبيه فيحدّثه بما فعلناه به ؟ قال : فإن طرحتموه فى الجبّ لا يبلغ قعره حتى يموت ، ولكن دلّوه بحبل . ولم يكن معهم حبل ، فذبحوا شاة ، وقدّوا جلدها كالحبل ، ودلّوه به ؛ فلما نزل إلى الجبّ امتلأ نورا ، وأتاه جبريل وقال له : لا تخف فإنّ الله معك . وكان فى الجبّ حجر عظيم ، فسطّحه جبريل بجناحه فصار كالطبق وأجلسه فيه . وأتاه بطعام من الجنّة فأكل ، وأتاه بقميص فلبسه ، وبفراش من الجنة ، وآنسته الملائكة فى الجبّ .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال : ثم قالوا : ماذا نقول لأبينا ؟ قال بعضهم : إنّه كان يخاف عليه من الذئب، فنقول : إن الذئب أكله . فعمدوا إلى جَدى فذبحوه على قميصه، وألصقوا بالدم شيئا من شعر الجدى، ورجعوا إلى أبيهم .

ذكر رجوع إخوة يوسف إلى يعقوب

٥ قال : ولمّا قَرُبوا من عريش يعقوب أخذوا فى البكاء والعويل، فرأتهم ابنة يعقوب، فنزلت إلى أبيها باكية، وقالت : رأيت إخوتى متفرّقين يبكون، وروبيل يقول : « يا يوسف يا يوسف » . فصاح يعقوب . وخرّ على وجهه؛ فدخلوا عليه وقالوا : يا أبانا، جلت المصيبة وعظمت الرزيّة ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ قال الله تعالى : ١٠ ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ وأخذ يعقوب القميص . ونظر إليه فلم ير فيه أثر خدش فقال : يا بَنىّ، ما للذئب وأكل أولاد الأنبياء ؟ وأخذ يبكى؛ ثم قال : أُخرجوا فى طلب هذا الذئب، وإلّا دعوت عليكم فتهلكوا . فخرجوا فأخذوا ذئبا عظيما وجعلوا يضربونه ويجرّونه، حتى جاءوا به إلى أبيهم، فقال : كيف عرفتموه ؟ ١٥ قالوا : لأنه ذئب كبير، وكان يتعرّض لنا فى غنمنا .

ذكر كلام الذئب بين يدى يعقوب

فقال يعقوب : سبحان من لو شاء لأنطقك بحجّتك . فنطق الذئب وقال : لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، يا نبىّ الله، إنى ذئب غريب، فقدت ولدا لى فجئت فى طلبه حتى بلغت بلدك، فأخذنى هؤلاء وضربونى وكذبوا علىّ؛ والذى ٢٠ أنطقنى ما أكلت ولدك . وكيف يأكل الذئبُ أولادَ الأنبياء ؟ فأطلقه يعقوب .

ذكر خبر خروج يوسف من الجبّ وبيعه من مالك بن دُعْر

قال : وأقبل قوم من بلاد اليمن يريدون أرض مصر، فخرج بعضهم فى طلب الماء، فرأى نورا يسطع من البئر، فأدلى دلوه، فتعلّق به يوسف، فآجتذبه، فنظر اليه فرآه، فقال للّذى كان معه : ﴿ يَا بُشْرَى هٰذَا غُلَامٌ ﴾ . فأخرجوه .

قيل : وذلك فى اليوم الرابع من إلقائه فى الجبّ، وكان إخوته على رأس جبل فنظروا إلى آجتماع القافلة على الجبّ ، فعدوا إليهم ، وقالوا : هذا عبد لنا أَبَق منذ أيام، ونحن فى طلبه، فإن أردتم بعناه منكم .

ثم قالوا ليوسف بالعبرانية : إن أنكرت العبوديّة آنتزعناك من أيديهم وقتلناك. فسأله أهل القافلة فقال : « إنى عبد »، أراد لله .

وكان رئيس القافلة مالك بن دُعْر، فاشتراه منهم بأقل من عشرين درهما .

قيل : تنقص درهما . وقيل : تزيد درهمين . وقيل : اشتراه بأربعين درهما والله أعلم . فاقتسموها بينهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ثم قالوا لمالك : هذا عبد آبق سارق ، قيّده حتى لا يَهرُب منك ولا يسرق . فقيده وأركبه ناقة ، وكتب يهوذا كتاب البيع، وساروا حتى بلغت القافلة قبر أمّ يوسف، فلم يتمالك أن رمى بنفسه على القبر وبكى؛ فافتقدوه فلم يرَوه، فبعثوا فى طلبه ، فوجدوه وقد آتكأ على القبر ؛ فلطمه واحدمنهم . وقالوا : هلّا كان هذا البكاء قبل اليوم حتى كنّا لا نشتريك ؟ وساروا به حتى دخلوا مصر، فغيّر مالك لباس يوسف، وعبّر به، فاجتمع الناس على القافلة، ورأوا يوسف فعجبوا لحسنه وجماله .

ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر

قال : وواعدوا مالكا على بيعه بباب الملك ريّان بن الوليد ، فزيّن يوسف بأحسن زينة، وأقعده على كرسيّ، وأقبل عزيز مصر وآسمه قِطْفِير[1]، وآجتمع التجار وقام الدلّال ونادى عليه؛ فبكى يوسف، وتزايد القوم حتى بلغ يوسف مالا لا يحصى كثرة؛ وآستقرّ بيعه من قِطْفِير[1]، وأَحضَر الأموال .

وقد آختلف الرواة فى كمّية الثمن، فمنهم من لم يَحُدَّه، بل قال : مالا كثيرا .

ومنهم من قال : إنّ عزيز مصر تلقّى القافلة ، وآشتراه من مالك بن دُعْر بعشرين دينارا، ونعلين، وثوبين أبيضين . وقد عُزِى هذا القول إلى آبن عبّاس — رضى الله عنهما — .

ورُوى عن وهب بن منبّه أنه أقيم فى السوق، وتزايد الناس فى ثمنه، فبلغ ثمنُه وزنَه مسكا وورِقا وحريرا؛ فآبتاعه العزيز بهذا الثمن .

نرجع إلى سياق الكسائىّ :

قال : فوقف عليه رجل من بلاد كنعان على ناقة ، فمدّت عنقها ، وجعلت تَشَمّ يوسف ، فسأل يوسف صاحب الناقة بالعبرانيّة : من هو ؟ فأخبره أنه من أرض كنعان؛ فقال له : آقرئْ يعقوب سلامى اذا رجعت، وصف له صفتى . فلمّا عاد الكنعانىّ أخبر يعقوب بذلك ؛ فقال يعقوب : سلنى حاجةً بهذه البشارة . قال : أُدع لى أن الله يُكثِر ولدى ومالى . فقال : اللهمّ أكثر ولده وماله وأدخله الجنة .

(١) كذا وجدنا هذا الاسم مضبوطا بالعبارة فى هامش تاريخ العينىّ ورقة ٩٧ من الجزء الثانى قسم ١ عن النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .

قال : ثم دنا مالك[1] من يوسف فقال له : أنا يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الخليل ؛ وأخبره بخبر إخوته . فصاح مالك وقال : والله ما علمت فاستغفر لى فإنى من أولاد مدين بن إبراهيم . فبكى يوسف، وقال له مالك : أسألك أن تدعو الله يرزقنى ولدا . فدعا الله فرزقه أربعة وعشرين ولدا؛ وعاش مالك حتى رأى يوسف وهو عزيز مصر .

قال : ودخل قطفير منزله و يوسف معه، فرأته زَلِيخا — وكانت أحسن نساء زمانها — فقال لها زوجها قطفير : قد اشتريت هذا الغلام لتتخذه ولدا فإنا لم نرزق ولدا . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ .

ذكر خبر يوسف وزليخا

قال : ولمّا رأته زليخا عجبت لحسنه، ولاطفته، وقالت : لا ينبغى لمثلك أن يباع عبدا . ويوسف ساكت ؛ وكان لا يأكل من ذبائحهم . فقالت له : لم لا تأكل من ذبيحتنا وتقبل كرامتنا ولى هذا البستان أريد أن تحفظه . فقال يوسف : أفعل ذلك . فكان يوسف يتعاهده حتى عمر ببركته . وهو يأكل من نباته ، فوقعت محبّته فى قلب زليخا، فكتمت ذلك حتى كاد يظهر عليها، فأتتها دايتها، وقالت : يا سيدة نساء مصر، اخبرينى بقصّتك . فذكرت ما بها من حبّ يوسف؛ فأمرتها أن تتزيّن بأحسن زينتها؛ ففعلت، وجلست على سرير وأحضرت يوسف، فوقف بين يديها وهو لا يعلم ما يراد منه ؛ وأغلقت الداية أبواب المجلس من خارج؛ فعلم عند ذلك مراد زليخا — وكان عمره ثمان عشرة سنة — ؛ قال

(١) لعل صواب العبارة « ثم دنا يوسف من مالك » عكس ما هنا، كما يدل عليه سياق ما يأتى .

الله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قال : فرمت بتاجها وهمت به . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

قالوا : همّ بضربها . وقيل : بردعها . وقيل : لما حصل عنده من الهمّ . ولا تعويل على ما نقله أهل التاريخ : أنّه همّ بها كما همّت به .

قالوا : وكان البرهان الذى رآه أنه سمع صوتا من ورائه ، فالتفت ، فرأى صورة يعقوب وهو عاضّ على يديه يقول : « الله الله يا يوسف » .

وقيل : خرجت كفّ من الحائط مكتوب عليها : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ ثم انصرفت الكفّ وعادت زليخا لمراودته ، فخرجت الكف ثانية مكتوب عليها : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ثم عادت فخرجت الكف ثالثة وعليها مكتوب : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ﴾ .

قال : فلمّا نظر يوسف إلى البرهان ، بادر إلى الباب ؛ فعدت زليخا خلفه فلحقته عند الباب ، فجذبت قميصه فقدّته من دُبُر ؛ وإذا قطفير قد أقبل . قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ .

قال : فلمّا نظرت زليخا إليه لطمت وجهها ، وقالت : أيّها العزيز ، هذا يوسف الّذى اتخذناه ولدا دخل يراودنى عن نفسى .

ثم قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ فهمّ قطفير أن يضرب يوسف بسيف ، فأنجاه الله منه ؛

وكان فى المجلس صغير ٱبن شهرين — وهو ٱبن داية زليخا — فتكلّم بإذن الله وقال : لا تعجل يا قطفير ، أنا سمعت تخريق الثوب . قال الله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ثم لم ينطق الصبىّ بعد ذلك حتى بلغ حدّ النطق ، وهذا الصبىّ أحد من تكلّم فى المهد . ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ؛ وأقبل على يوسف وقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ الحديث لا يسمعه أحد . وقال لزليخا : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

وخرج قطفير من منزله ، وعادت زليخا لمراودته ؛ فامتنع عليها .

ذكر خبر النسوة اللاتى قطّعن أيديهنّ

قال : وفشا فى المدينة ، وشاع عند نساء الأكابر خبرها ، فعتبنها عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فلمّا بلغها ذلك من قولهنّ ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ .

قال : استدعت ٱمرأة الكاتب والوزير وصاحب الخراج وصاحب الديوان .

وقيل : إنّ النساء ٱللاتى تكلّمن فى أمر زليخا ٱمرأة الساقى وٱمرأة الخباز وٱمراة صاحب الديوان وٱمرأة صاحب السجن وٱمرأة الحاجب ؛ والله أعلم .

قيل : إنها قدّمت إليهنّ صوانىّ الأترج وصحاف العسل : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وزيّنت يوسف ، وقالت : إنّك عصيتنى فيما مضى ، فإذا دعوتك الآن فآخرج . فأجابها إلى ذلك ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ

إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾.

قال: كنّ يأكلن الأُتْرُجّ بالسّكاكين فنالهنّ من الدهش والحيرة ماقطّعن أيديهنّ (١) وتلوّثت بالدماء ولم يشعرن؛ فقالت لهنّ زليخا ما حكاه الله عنها: ﴿ قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

وقيل: إنّ النساء خلون به ليعذّنه (٢) لها، فراودته كلّ واحدة منهنّ عن نفسه لنفسها، ثم ٱنصرفن إلى منازلهنّ.

ثم دعته زليخا وراودته، وتوعّدته بالسجن إن لم يفعل؛ فقال يوسف ما أخبر الله به عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

قال: فلمّا أيست زليخا منه مضت إلى الملك ريّان بن الوليد — وكانت لا تُردّ عنه — فقالت: إنّى ٱشتريت عبدا، وقد ٱستعصى علىّ، ولا ينفع فيه الضرب والتوبيخ، وأريد أن أحبسه مع العصاة. فأمر الملك بحبسه، وأن يفرج عنه متى ٱختارت؛ فأمرت السجّان أن يضيّق عليه فى محبسه ومأكله ومشربه؛ ففعل ذلك؛ فأنكره العزيز، وأمر أن يُنقل إلى أجود أماكن السجن، ويُفكّ قيده، وقال له: لولا أن زليخا تستوحش من إخراجك لأخرجتك، ولكن ٱصبر حتى ترضى عنك ويطيب قلبها.

(١) يلاحظ أن المؤلف فى هذه العبارة قد حذف عائد «ما» وهو قوله «بسببه» أو «به» مثلا: ويستفاد من كتب القواعد أن حذف العائد المجرور بالحرف جائز إذا تعين الجارّ كما هنا، ومنه قول الشاعر:
* وأى الدهر ذو لم يحدونى * أى فيه انظر حاشية الصبان ج ١ ص ١٦٨ طبع بولاق.

(٢) يقال: «عدله» بتشديد اللام وتخفيفها، أى أقامه وسوّاه.

ذكر إلهام يوسف — عليه السلام — التعبير

ونزل جبريل على يوسف — عليه السلام — وبشّره أنّ الله قد ألهمه تعبير الرؤيا فعرفه بإذن الله عزّ وجلّ، وأنبت الله له شجرة فى محبسه يخرج منها ما يشتهيه .

ذكر خبر الخبّاز والساقى

قال : وغضب الملك ريّان بن الوليد على ساقيه شرهيا[1]، وصاحب مطبخه شرهاً[2]، فأمر بحبسهما، فحبسا فى السجن الذى فيه يوسف، فرأى الساقى رؤيا فسأل أهل السجن عن تأويلها، فدلّوه على يوسف؛ فأتاه وقال : قد رأيت رؤيا . فقال له يوسف : قصّها . فقال : رأيت كأنّى فى بستان فيه كَرمة حسنة ؛ وفيها عناقيد سود؛ فقطعت منها ثلاث عناقيد وعصرتها فى كأس الملك، ورأيت الملك على سريره فى بستانه، فناولته الكأس فشربه، وانتبهت .

فقال صاحب المطبخ : وأنا رأيت مثل هذه الرؤيا، رأيت كأنى أخبز فى ثلاثة تنانير : أحمر وأسود وأصفر، ورأيت كأنّى أحمل ذلك الخبز فى ثلاث سِلال إلى دار الملك، وإذا بطائر على رأسى يقول لى : قف فإنّى طائر من طيور السماء . ثم سقط على رأسى فجعل يأكل من ذلك الخبز، والناس ينظرون إليه وإلىّ، وانتبهت فزعا .

فقال يوسف : بئسما رأيت . ثم قال للساقى : إنّك تقيم فى السجن ثلاثة أيّام ويخرجك الملك فيسلّم إليك خزانته، وتكون ساقيه وصاحب خزانته . وأنت يا خباز بعد ثلاثة أيام تُضرب رقبتك وتُصلب وتأكل الطير من رأسك . فقال الخباز : إنى لم أر شيئا، وإنّما وَضعتُ رؤياى هذه . فقال : ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ .

(١) كذا ورد هذان الاسمان اللذان تحت هذا الرقم فى الأصول . ولم نجد فيما راجعناه من الكتب ما نطمئن اليه فى تصحيحهما، بل الكتب فيهما وفى أمثالهما من هذه الأسماء القديمة مختلفة كل الاختلاف .

ثم قال يوسف للساقى : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ وأعلمه أنّى محبوس ظلما . فقال له : ما أبقِى جهدا .

فلمّا كان بعد ثلاثة أيّام كان من أمر السّاقى والخباز ما قاله لهما يوسف .

ثم هبط جبريل على يوسف وقال : إن الله يقول لك : نسيتَ نعمائى عليك فقلتَ للساقى يذكرك عند ربه، وهما كافران، فأنزلت حاجتك بمن كفر بنعمتى وعبد الأصنام دونى .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ .

قيل : الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو الساقى ، ﴿ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وهو يبكى ويستغفر ويتضرع إلى الله ؛ فأوحى الله إليه : أنى قد غفرت لك ذنبك ، وأنه سيخرجك من السجن ، ويجمع بينك وبين أبيك وإخوتك وتصدق رؤياك . فخرّ ساجدا لله تعالى .

ذكر رؤيا الملك وتعبيرها وما كان من أمر يوسف وولايته

قال : وقدّر الله عزّ وجلّ أن الملك — وهو الريّان بن الوليد بن ثروان بن أواسة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن نوح عليه السلام — رأى فى تلك الليلة رؤيا هالته ؛ فدعا بالمعبّرين . فقالوا : إن هذه ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ . فغضب الملك وقطع أرزاقهم ؛ وذكّر الله الساقى ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (١) فتقدّم إلى الملك وذكر له خبر يوسف — وكان بين المدّتين سبعُ سنين وسبعة

(١) عبارة الكسائى : «بين هذا الحديث وبين هذه الرؤيا» وهى أظهر .

أشهر — فأرسله الملك إليه وقال : أخبره برؤياى وأتنى بتأويلها . فأقبل الساقى إلى السجن وٱجتمع بيوسف ، وٱعتذر له ، وأخبره برؤيا الملك ، وقال : هل عندك تعبير ذلك؟ قال : لا أفعل حتى ترجع إلى الملك وتسأله ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ٱلَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ؛ فرجع الساقى إلى الملك وأخبره . فٱستدعى النسوة ، فأتى بمن كان يعيش منهن ، فقال الملك : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فلما قلن ذلك قال الملك : ﴿ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ ؛ فلمّا دخل عليه أجلسه معه على السرير ، وسأله عن ٱسمه ونسبه ، فٱنتسب له ، وذكر قصّته مع إخوته ؛ فقال له الملك : قد سمعتَ ما رأيتُ فى منامى . ثم قصّها عليه ، فقال : رأيت سبع بقرات سمان فى نهاية الحسن ، ولكل بقرة قرون كبيرة ، فحملتنى واحدة على قرنيها ، فجعلت أصير من بقرة إلى بقرة حتّى طفت على الجميع ؛ فبينما أنا كذلك وإذا بسبع بقرات عِجاف مهازيل ، فعمدتْ فأكلتْ كلُّ واحدة من المهازيل واحدة من السمان ، وبقيت الّتى أنا على قرنيها فلمّا تقدّمت المهزولة لأكلها ، رمتنى عن قرنيها ، فأكلتْها المهزولة ؛ ثم صار للهازيل أجنحة ، فطارت ثلاثٌ نحو المشرق وثلاث نحو المغرب ، وبقيت هناك واحدة ؛ فبينما أنا كذلك وإذا أنا بسبع سنبلات فى نهاية الخضرة خرجن من ذلك الوادى ، ثم لاحت فيهن سبعُ سنبلات يابسات ، فٱلتففن على الخضر حتى غلبن على خضرتهن ، وإذا بملك قد أقبل وقال : يا ريّان . خذ هذا الرجل فأقعده على سريرك ، فإنّه لا يصلح ما رأيت إلّا على يديه ؛ فهذا ما رأيت .

فقال يوسف : أما السبع بقرات السمان فهى سبع سنينَ يكون فيها زرع وخصب ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ فإنّه أبقى له .

وأما البقرات العجاف، فإنّها سبعُ سنين فيها قحط وضيق، فتأكل ما حصدتم فى سنين الخصب ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ فى بيوتكم .

وأما السنابل الخضر، فهى سِنو الخصب، واليابسة سِنو الجوع، والرجل الذى قال لك: أقعده على سريرك، فيكون صلاح ذلك على يديه فأنا هو؛ وقد أمرك ربى بهذا؛ فهذا تأويل رؤياك .

قال: فقال له ريّان: أشر علىّ الآن بمن أقدّمه فى هذا الأمر . فقال يوسف: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال: كيف يتهيّأ لك وأنت رجل عبرانىّ لا تعرف لغة أهل مصر؟ فقال: إنّ الله ألهمنى جميع هذه الألسنة يوم دخلت مصر . فنزع الملك خاتمه، وجعله فى اصبع يوسف، وقال لأصحابه: هذا عزيز مصر وخليفتى، فآسمعوا له وأطيعوا .

قال الثعلبىّ: قال أهل الكتاب: لما تمت ليوسف فى الأرض ثلاثون سنة آستوزره فرعون مصر . وكان مرادهم — والله أعلم — أنه لما آستكمل ثلاثين سنة من عمره .

وحكى الثعلبىّ أن الملك عزل العزيز وولّى يوسف، ثم هلك العزيز عن قريب وكان يوسف يوم قضائه تُضرب له قبّة من الديباج يجلس فيها للحكومة بين الناس وبقيّة الأيام يدور فى عمله ويأمر بالزراعة والحرث وعمر البيوت لخزن الحبوب بسنابلها، حتى ملأها، وخزن الأتبان حتى آنقضت سِنو الخصب ودخلت سِنو القحط، فنهى عن الزراعة فيها لعلمه أن الأرض لا تثمر فيها شيئا؛ فأكلوا ما عندهم حتى نفد؛ فالتجأوا إلى الملك، فقال الملك: عليكم بالعزيز فإن فى يده خزائن الطعام. فجاءوه، فباعهم فى السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفى السنة الثانية بالحلىّ

والجواهر ، وفى الثالثة بالأراضى والعقار، وفى الرابعة بالإماء والعبيد، وفى الخامسة بأولادهم ، وفى السنة السادسة بأنفسهم، حتى صاروا ملكا له وعبيدا، وأطعمهم فى السنة السابعة لأنهم صاروا عبيده وإماءه؛ والله أعلم .

ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها

يقال : إن زليخا أصابها من الحاجة ما أصاب غيرها . وٱبتاعت الطعام بجميع مالها، وبقيت منفردة، فلم تجد بدّا من التعرّض ليوسف، فقعدت على طريقه وإذا هو قد أقبل فى مواكب عظيمة، فقامت وقالت : يايوسف، سبحان من أعز العبيد بالطاعة ، وأذلّ السادات بالمعصية ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك من أولاد النبيّين .

فسألها يوسف . من أنتِ ؟ فقالت : زليخا ؛ وبكت وذكرت حاجتها إلى الطعام ؛ فصرفها إلى منزلها ، وردّ عليها أملاكها وأموالها، وبعث لها بمال جزيل وطعام كثير ؛ ثم ٱستأذن الله تعالى فى زواجها ؛ فأذن له ؛ فتزوّجها ، وردّ الله عليها حسنها وجمالها ؛ فلمّا دخل عليها وجدها بكرا ؛ فعجب من ذلك ؛ فقالت : يانبيّ الله « والذى هدانى إلى دينك ما مسّنى ذكر قطّ ، وما قدر علىّ العزيز» .

فيقال : إنه رزق منها عشرة أولاد فى خمسة أبطن .

وقد حكى الثعلبىّ أنّ العزيز قطفير لمّا هلك بعد عزله زوّج الملكُ يوسفَ بامرأته زليخا، وسماها الثعلبىّ فى كتابه : « راعيل » .

قال : وٱنتشر القحط حتى بلغ أرض كنعان ؛ فقال يعقوب لبنيه : يابنىّ، إنكم ترون مانحن فيه من الضرّ، وقد بلغنى أنّ عزيز مصر تقصده الناس فيمتارون منه

ويحسن إليهم، وأنه مؤمن بإله إبراهيم، فاحملوا ماعندكم من البضاعة وتوجهوا إليه. ففعلوا ذلك وساروا .

قال : وأقبل مالك بن دُعْر على يوسف ومعه أولاده ، وهم أربعة وعشرون ولدا ، كلّهم ذكور، فوقف بين يديه وحيّاه بتحيّة المُلك ، وقال : أيّها العزيز أتعرفنى ؟ قال : إنّى أشبّهك برجل حملنى إلى ها هنا . قال : أنا هو .

فقرّبه وسأله عن الفتية ، فقال : هم أولادى رُزِقتهم ببركة دعائك . فكساه وكساهم ، وكفاهم من الطعام ؛ وسأله : هل مرّ بأرض كنعان ؟ قال : نعم وإنّهم لفى جهد، وقد رأيت الذين باعوك منّى مقبلين عليك يريدون أن يمتاروا . ففرح يوسف .

ذكر دخول إخوة يوسف — عليه السلام — فى المرّة الأولى

قال : وأقبل إخوة يوسف فدخلوا مصر ليلا ، وأناخوا رواحلهم بباب قصر أخيهم؛ فأشرف عليهم وقال: من أنتم ؟ قالوا: نحن أولاد يعقوب النبيّ، قدمنا من أرض كنعان لنشترى القوت . فسكت، وأمر بتزيين قصره؛ وبات إخوته على الباب.

وأصبح يوسف فجلس على السرير، وتتوّج وتمنطق وتطوّق؛ ثم امر بإخوته؛ فدخلوا عليه — وهم عشرة، وتأخر عنهم بنيامين عند أبيه — .

قال الله تعالى : ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾.

فسلّموا عليه ، وحيّوه بتحيّة الملوك ؛ فردّ عليهم وقال لهم : إنكم أولاد يعقوب النبيّ، فكيف لى بصدقكم ؟ فقال له روبيل : نحن نأتيك بأخينا الّذى عند أبينا يخبرك بمثل ما أخبرناك به .

فأمر بأخذ بضاعتهم، وأن يكال لهم الطعام بقدر كفايتهم .

ثم قال لأعوانه : اجعلوا بضاعتهم في رحالهم . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

فوضعت في رحل يهوذا ؛ ثم سار القوم حتى أتوا إلى أرض كنعان ، فدخلوا على أبيهم ؛ فسألهم عن حالهم وما كان من أمرهم ؛ وفتحوا رحالهم ، فوجدوا بضاعتهم ردّت إليهم ؛ فدخلوا على أبيهم وقالوا : يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا .

فقال : إنّ هذا الطعام حرام عليكم إلّا أن تؤدّوا ثمنه .

فقالوا : كيف نرجع إليه وقد ضمنّا له أن نأتيه بأخينا بنيامين ؟

ثم قالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

فقال له يهوذا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

ودعا يعقوب بقميص يوسف الّذى وردوا به عليه بالدم ، فألبسه بنيامين وودّعهم وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ؛ ثم ساروا .

ذكر خبر دخولهم عليه فى المرّة الثانية

قال : فلمّا بلغوا مصر ودخلوا على يوسف قرّبهم ، ونظر إلى أخيه بنيامين وأدناه وأجلسه بين يديه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ .

٥ ثم قال له : أرى كلّ واحد من هؤلاء مع أخيه، فما بالك منفردا ؟ فقال : أيّها العزيز، كان لى أخ ، ولا أدرى ما أصابه ، غير أنّه خرج مع هؤلاء الإخوة إلى الغنم، فذكروا أنّ الذئب أكله، وردّوا قميصه هذا الّذى علىّ وهو ملطّخ بالدم .

فقال لهم يوسف : يا أولاد يعقوب ، إنّ فيكم من يصيح بالأسد فيخرّ ميتا ومن يأخذ برجل الذئب فيشقّه آثنين، وفيكم من يقتلع الشجرة من أصلها ، وفيكم ١٠ من يعدو مع الفرس فيسبقه .

قالوا : نعم أيها العزيز . فقال : سوءة لكم ولقوّتكم إذ يعدو الذئب على أخيكم فيأكله . فقالوا : إذا جاء القضاء ذهبت القوى .

فسكت يوسف ، ثم أمر لهم بخمس موائد، وأمر كلّ آثنين منهم أن يجلسا على مائدة؛ ثم وضعت أخرى بين يدى بنيامين، فبكى؛ فقال له : ما يبكيك؟ قال : ١٥ أيّها العزيز، إخوتى يأكلون كلّ واحد مع أخيه ، وأنا وحدى ، ولو كان أخى يوسف باقيا أكل معى .

فقال يوسف : يا فتى، أنا لك كالأخ . ثم نزل عن السرير وأكل معه .

فلمّا فرغوا من الأكل جعل يوسف يسألهم عن أرض كنعان وهم يخبرونه .

ثم خرج صبىّ من القصر يتثنّى، فنظر إليه بنيامين وبكى؛ فقال له يوسف : ٢٠ ممّ بكيت؟ قال : هذا الصبىّ يشبه أخى يوسف، فبكيتُ لأجله .

فقال يوسف : هل فيكم مَن حزِن على يوسف ؟ قالوا : نعم، كلّنا حزنّا عليه وبنيامين أشدّ منّا حزنا .

ثم قال : فما الّذى حملتم من البضاعة؟ قالوا : لم نحمل شيئا ، لأنه لم يكن لنا شيء، غير أنا رددنا عليك البضاعة التى وجدناها فى رحالنا، لأنها ثمن الطعام الّذى حملناه من عندك .

فأمر أن يُعطَوا من الطعام ما تحمله إبلهم، وأمر غلمانَه أن يجعلوا الصُّواع فى رحل بنيامين؛ فكانوا يكيلون وإخوة يوسف يَخيطون الأعدال، حتى فرغوا .

ورحل إخوة يوسف وهم لا يشعرون بالصُّواع .

وقال الثعلبيّ : كانت السقاية مِشربةً يَشرب فيها الملك ، وكانت كأسا من ذهب مكلّلةً بالجوهر، جعلها يوسف مكيالا يكال بها .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

فعند ذلك أمر يوسف أن تفتّش رحالهم . قال الله تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ الآية .

قال : فلما نظروا ذلك ضربوا بأيديهم على جباههم ، وقالوا : ثكلتك أمك فضحتَنا يا بنيامين . قال : إنى لم أفعل ذلك . قالوا : من وضعه فى رحلك ؟

قال : الّذى جعل البضاعة فى رحالكم . فسكتوا ، ثم قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ .

قال الثعلبىّ : وٱختلف العلماء فى السرقة التى وُصف بها يوسف ، فقال سعيد وقتادة : سرق يوسفُ صنما لجدّه أبى أمّه وكان من ذهب ، فكسره وألقاه فى الطريق .

وقال ابن جريج : أمرته أمّه — وكانت مسلمة — أن يسرق صنما لخاله كان يعبده .

وقال مجاهد : جاء سائل يوما ، فسرق يوسف بيضة من البيت .

وقال ٱبن عيينة : دجاجة ، فناولها السائلَ ، فعيّروه .

وقال وهب : كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء .

وقال الضحاك وغيره : كان أوّلَ ما دخل على يوسف من البلاء أن عمّته بنتَ إسحاق كانت أكبرَ ولدِ إسحاق ، وكانت لها منطقة إسحاق ، وكانوا يتوارثونها بالكِبر ، وكانت راحيل أمّ يوسف قد ماتت ، فحضنته عمّته وأحبّته حبّا شديدا فكانت لا تصبر عنه ؛ فلما ترعرع وبلغ سُنَيَّات وقع حبّه فى قلب يعقوب ؛ فأتاها وقال : يا أختاه سلّمى إلىّ يوسف ، فوالله ما أصبر عنه ساعةً واحدة . فقالت : ما أنا بتاركته .

فلما غلبها يعقوب قالت : فدعه عندى أياما أنظر إليه ، لعل ذلك يسلينى عنه . ففعل ذلك يعقوب ؛ فلمّا خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتْها على يوسف تحت ثيابه وهو صغير ، ثم قالت : لقد فقدتُ مِنطقة إسحاق

فانظروا من أخذها . فالتُمست فلم توجد ؛ فقالت : اكشفوا أهل البيت . فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ؛ فقالت : والله إنّه ليُسلَّم لى أصنع فيه ما شئت — وكان ذلك حُكم آل إبراهيم فى السارق — فأتاها يعقوب ، فأخبرته بذلك ؛ فقال : إن كان فعل ذلك فهو يُسلَّم إليك ، ما أستطيع غير ذلك .

فأمسكته بعلّة المنطقة ، فما قدر يعقوب عليه حتى ماتت ، فهو الذى قال له إخوته : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ . قَالُوا يَٰأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا أى يتناجون قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ ٱللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ * ٱرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰأَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ .

قال : ثم تشاوروا فقالوا : إن هذا الملك وأهلَ مصر كفرة يعبدون الأصنام فتعالوا نتظاهر عليهم .

قال روبيل : أنا أكفيكم الملك وأعوانه .

وقال شَمْعون : أنا أكفيكم أمر العزيز وأعوانه .

وقال يهوذا : أنا أكفيكم الأسواق .

فعلم يوسف بذلك ، فأحضرهم وقال : يا بنى يعقوب ، ما الّذى غرّكم منّى ؟ أحسنتُ إليكم مرّة بعد مرة ، وتفضّلت عليكم ، وجنى أخوكم جناية فتشاورتم فى هلاك المدينة وأهلها ، أتظنون أن هذه القوّة لكم دون غيركم ؟ ثم ضرب برجله

السُّدّة التى كان عليها فطحطحها وكسر صفائح رخامها ؛ ثم قال : لولا أنكم من أولاد الأنبياء لصحت بكم صيحة تخرّون على أذقانكم .

قال : وكان يهوذا قد عزم على أن يفعل شيئا ، وكان على كتفه شعرةٌ إذا غضب خرجت من جبّته فيقطر منها الدم ، ثم يصيح صيحة فلا يسمعها أحد إلّا سقط مغشيّا عليه ؛ وكان لا يسكن غضبه إلا أن يمسّه أحد من آل يعقوب ؛ فدعا يوسف بابنه مَنَسًّا وقال : اذهب الى ذلك الكهل فمَسَّه بيدك ، وتنحّ عنه من حيث لا يشعر بك . ففعل ذلك ، فسكن غضبه ؛ فقال يهوذا لإخوته : من الذى مسّنى منكم فقد سكن غضبى . قالوا : لم يمسّك غيرُ ذاك الصبىّ . فقال : والله لقد مسّتنى يد من آل يعقوب .

فلمّا عسر عليهم ما عزموا عليه ، عزموا على العود إلى أبيهم ، وتركوا روبيل عند بنيامين .

قال : فلمّا انصرفوا دخل يوسف إلى منزله وأَحضر بنيامين ، وقال : أتعرفنى؟ قال : نعم ، أنت العزيز ، والله ماسرقتُ ، فلا تعجل علىّ ، فإنك موصوف بالإحسان . فضمّه يوسف إلى صدره ، وقال له : أنا أخوك يوسف . ثم كساه وسأله عن أبيه ، فأخبره بما يقاسيه من أجله .

قال : ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم فذكروا ما كان من خبر بنيامين ، وأن روبيل أقام عنده .

قال : وكيف يسرق ولدى وهو من الذرّيّة الطيّبة؟ فقالوا له : وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ إلى قوله : مَا لَا تَعْلَمُونَ .

قال : وأخذ فى البكاء حتى ضجر منه جيرانه ، فأوحى الله إليه : أن كفّ عن بكائك فإنّى سأردّ عليك بصرك ، وأجمع بينك وبين ولدك . فسكن وهدأ ، ثم قال لبنيه : احملوا كتابى إلى العزيز . ودعا بابنته (دِينةَ) وقال لها : اكتبى ، باسم إله إبراهيم ، من يعقوب إلى عزيز مصر ، إن الله أكرمنى بولد كان أحبّ أولادى إلىّ وقد فقدته وبكيت عليه حتى عميت ، وكنت آنس بأخيه بنيامين الّذى حبسته عندك ؛ وعجبتُ من أمر الصُّواع ؛ فإن أولاد الأنبياء لا يفعلون ذلك ، و إنه مكذوب عليه ؛ فإذا أتاك كتابى هذا فتفضّل علىّ بولدى و ردّه علىّ فإنى أدعو الله أن يزيدك فضلا وكرامة .

وسلّم الكتاب اليهم ، وقال : يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللهِ الآية .

ذكر خبر دخولهم عليه فى الدفعة الثالثة

قال : وساروا حتى دخلوا مصر ، فاستقبلهم روبيل ودخل معهم ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ؛ وناولوه الكتاب ؛ فقبّله وقرأه ، ثم قال لهم : لو كنتم حملتم إلىّ هذا الكتاب قبل اليوم دفعته لكم ، ولكنّى قد ألقيت حديثه إلى الملك ، وأنا أكلّمه فيه .

ذكر خبر حديث الصاع

قال : ثم أمر يوسفُ بإحضار الصاع بين يديه وقال : اجتمعوا حتى أسأل هذا الصاع عنكم . فنقر الصاع فَطنّ . فقال : يا بنى يعقوب ، إنّ هذا الصاع يقول : إنكم تشهدون بالزور ؛ وإنكم كذبتم فى قولكم : إن الذئب اكل أخاكم .

قالوا : ما شهدنا بالزور قط ، وما قلنا فى يوسف إلّا الحقّ . فنقر الصاعَ وقال : أتدرون ما يقول ؟ إنه يقول : إنكم حسدتم أخاكم ، وأخرجتموه من عند أبيه وأردتم قتله ، ثم ألقيتموه فى الجب المظلم البعيد القعر . ثم نقر ثالثا وقال : إنه يقول ، ما كذبتُك فيما أقول ، ولقد أخرجوا أخاهم من الجب فباعوه بعشرين درهما عددا تنقص درهما ، وأوصَوا مشتريه أن يقيّده حتى يبلغ أرض مصر . فتغيّرتْ وجوه القوم ، وقالوا : ما نعرف شيئا من هذا . ثم نقره رابعا وقال : إنه يقول : وكتبوا كتاب البيع بخطّ يهوذا . فقال : أيّها العزيز ، إنى لم أكتب شيئا وأنكره . فقال : مكانكم حتى أعود إليكم . ودخل على زليخا وقال : هاتى تلك الصحيفة . فأخرجتها له ؛ فأخرجها إلى يهوذا وقال : أتعرف خطّك؟ قال : نعم . فألقاها إليه فرآها وهى خطّه ؛ فقال : هى خطّى ، "غير أنّى لم أكتبه باختيارى[1] ، وإنما كتبته على عبد أبَق منّا" .

فغضب يوسف وقال : ألستم تزعمون أنكم من أولاد الأنبياء ، ثم تفعلوا مِثل هذا .

ثم قال لأعوانه : انصبوا عشرة أشجار على باب المدينة حتى أضرب أعناق هؤلاء وأصلّبهم ، وأجعلَهم حديثا لأهل مصر . فبكوا وقالوا : اقتلنا كيف شئت ولا تصلّبنا .

وأقبل بعضهم على بعض وقالوا : هذا جزاؤنا بما عاملْنا به أخانا . فلمّا أقرّوا كلّهم بالذنب ، رفع التاجَ عن رأسه ، وقال : هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ . وكان فى رأسه شامة مِثلُها فى رأس يعقوب ؛ فلمّا نظروا إلى الشامة عرفوها وقالوا : ءَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهٰذَا أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللّٰهُ عَلَيْنَا إلى قوله : وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

(١) يلاحظ أن وجه المقابلة غير ظاهر بين قوله : «لم أكتبه باختيارى» وقوله : «وإنما كتبته على عبد أبق منا» .

فعمد يوسف إلى قميصه، وجعله فى قصبة من فضّة ؛ ودفعه إلى يهوذا وخلع عليهم وطيّبهم ، وقال : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . فخرجوا ، وسبقهم يهوذا بالقميص . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ .

قال : لمّا فصلت العير من أرض مصر حملت الريح رائحة القميص فشمّها يعقوب، فقال ذلك . ومعنى (تفنّدون) ، أى تكذّبون . فقال له أهله : — وقيل : بنو بنيه — تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ، معناه فى حبّك القديم ليوسف .

فلمّا وصل يهوذا بالقميص ودخل على يعقوب ألقاه على وجهه وقال : خذها بشارة . فعاد بصره من ساعته ، وخرّ ساجدا لله . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ الآية .

وجاء بنوه وقالوا : يا نبىّ الله ، نحن الذين غيّبنا يوسف عنك ، ونحن الذين تيناك بخبره وهو عزيز مصر . ثم قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

قال : وجاءه جبريل بناقة من نوق الجنّة ، فاستوى عليها ، وخرج من أرض كنعان يريد مصر ومعه أولاده وأهله ، وهم ثمانية وسبعون إنسانا ، فدعا لهم يعقوب فما دخل أولاده مصر إلّا وقد غفر لهم ؛ وخرج يوسف لملتقى أبيه ومعه خلق كثير فلما رآه يوسف ترجّل عن فرسه وأبرك يعقوب ناقته ، واعتنقا وبكيا، وقال يوسف : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ يعنى الأب والخال، ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

٥ قال : وكان بين مفارقته ووقتِ الاجتماع أربع وثلاثون سنة .

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف إلى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة لم تجفّ عيناه .

وأقام يعقوب بمصر أربعين سنة . وقيل : أربعا وعشرين سنة؛ ثم أمره الله أن يرتحل الى أرض كنعان لاقتراب أجله ؛ فارتحل ومات هناك ، ودفن إلى ١٠ جانب أبيه إسحاق .

وحكى الثعلبيّ — رحمه الله — أن يعقوب مات بمصر ، وأوصى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدّسة حتى يدفنه عند أبيه إسحاق وجدّه إبراهيم ؛ ففعل ذلك، ونقله فى تابوت من ساج إلى البيت المقدّس، وخرج معه فى عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر، ووافق ذلك اليومُ وفاةَ عيصو، فدفنا فى يوم واحد، وكان عمرهما ١٥ جميعا مائة سنة وسبعا وأربعين سنة، لأنّهما وُلدا فى بطن واحد، وقُبرا فى قبر واحد.

ذكر دعوة يوسف — عليه السلام — وارتحاله عن بلد الريّان

قال : ثم إنّ يوسف — عليه السلام — دعا أهل مصر إلى الإيمان سرّا وعلانية ، فآمن به كثير منهم ، وكسروا الأصنام ، وصارت الغلبة للمسلمين؛ فاستدعاه ريان بن الوليد وقال له : أيها العزيز، إن أهل مصر كانوا يحبّونك ٢٠ وقد كرهوك بسبب أديانهم ، فما لك وأديانَهم ؟ فقال يوسف : قد بلغنى ذلك

وأنا رادّ عليك ما خوّلتنيه ، ومتحول عنك وعن قومك بأهل ملّتى، فإنى لا أحبّ أن أكون من عبدة الأوثان .

وخرج يوسف هو وأولاده وإخوته وقومه الذين آمنوا حتى نزل الموضع الذى آستقبل أباه يعقوب عنده ؛ فجاءه جبريل وخرق له نهرا من النيل إلى هناك ، وهو نهر الفَيُّوم، ولحق به كثير من الناس ، وآمنوا ، وآبتنى مدينتين وسمّاهما بالحرمين وكان لا يدخلهما أحد إلّا يلبّى يقول : « لبّيك يا مفضِّل إبراهيم بالنبوّة لبّيك » . ولم يكن بأرض مصر أعمر منهما، وسار يوسف فى قومه سِيرة الأنبياء حتى مات .

ذكر خبر وفاة يوسف — عليه السلام —

قال : ولمّا أدركته الوفاة أوصى إلى آبنه (أَفْرايِم) أن يسوس قومه بالواجب وأن يكون معاندا لأهل مصر الذين يعبدون الأوثان ، ويجاهدهم فى الله حقّ جهاده ؛ ثم توفّى، وكانت زَليخا قد ماتت قبله ، وما تزوّج بعدها .

قال الثعلبىّ : قال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد يعقوب ثلاثا وعشرين سنة، ومات وهو آبن مائة وعشرين سنة .

قالوا : ودفن فى بلده فعمّر الجانب الذى يليها وأخصب ، وقَحِط الجانب الآخر، فشكا أهله إلى الملك، فبعث إلى أفرايم أن ينقله فيدفنه فى الجانب الآخر وإن لم يفعل قاتله ؛ فدفنه هناك ، فخَصِب ذلك الجانب ، وقَحِط الآخر، فكان يدفن سنة فى هذا الجانب، وسنة فى الآخر؛ ثم اجتمعت الاراء أن يدفن فى وسط النهر؛ ففعلوا ذلك، فخَصِب الجانبان ببركته، ولم يزل فى نهر النيل حتى بعث الله موسى — عليه السلام — فأمره الله أن يحمل تابوت يوسف ؛ فأخرجه ونقله إلى بيت المقدس، فدفنه هناك، وموضع قبره معروف .

الباب الخامس من القسم الثانى من الفنّ الخامس

فى قصّة أيوب — عليه السلام — وٱبتلائه وعافيته

عن وهب بن منبّه أنه لم يكن بعد يوسف نبىّ إلّا أيوب، وهو أيّوب بن أموص ٱبن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم .

٥ وكان أموص كثير المال والماشية، لم يكن فى أرض الشأم أغنى منه؛ فلما مات صار ذلك جميعه لأيوب؛ وكان أيوب يومئذ ٱبن ثلاثين سنة، فأحبّ الزواج فخطب رحمة بنتَ أفرايم بنِ يوسف؛ فتزوّجها، وكانت أشبه الخَلْق بيوسف وكانت كثيرة العبادة، فرزقه الله منها ٱثنى عشر بطنا، فى كلّ بطن ذكر وأنثى؛ ثم بعثه الله تعالى إلى قومه رسولا — وهم أهل حَوْران والبَثَنِية — ورزقه الله حُسن الخلق ١٠ والرفق، فشرع لقومه الشرائع، وبنى المساجد، ووضع موائده للفقراء والأضياف؛ وأمر وكلاءه ألّا يمنعوا أحدا من زراعته وثماره، فكان الطير والوحش وجميعُ الأنعام تأكل من زرعه وبركة الله تزداد صباحا ومساء؛ وكانت كلّ مواشيه تحمِل فى كلّ سنة بتوءم .

وكان أيّوب إذا أقبل الليل جمع من يلوذ به فى مسجده، ويصلّون بصلاته ١٥ ويسبّحون بتسبيحه حتى يصبح، فحسده إبليس؛ وكان لا يمر بشىء من ماله وماشيته إلا رآه وهو مختوم بخاتم الشكر؛ وكان إذ ذاك يصعد إلى السمٰوات ويقف فى أى مكان أحبّ منها، حتى رفع الله عيسى بن مريم، فحُجب عن أربع سموات منها؛ حتى بعث ٱلله نبينا محمدا صلّى الله عليه وسلّم، فحُجب عن جميعها فصعد إبليس فى زمن أيّوب — عليه السلام — وقال: يا ربّ إنى طفت الأرض ٢٠ ففتنت من أطاعنى إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . فنودى: يا ملعون، هل علمت

بعبدى أيّوب ؟ وهل نلت منه مع طول عبادته ؟ وهل تستطيع أن تغيّره عن عبادتى؟ فقال إبليس : إلهى إنك ذكرتَه بالخير، وقد نظرتُ فى أمره فإذا هو عبد عافيتَه بعافيتك ، ورزقته شكرك ، ولم تختبره بالبلاء ؛ فلو ابتليته بالمصائب لوجدته بخلاف ما هو عليه ، فلو سلّطتنى على ماله لرأيتَه كيف ينساك .

فسلّطه الله على ماله ؛ فانقضّ وجمع العفاريت ، وأخبرهم أنه سُلّط على مال أيوب ، وحضّهم على زرعه وأشجاره ومواشيه، فأحرقوا الأشجار، وصاحوا بالمواشى صيحة فماتت برعاتها .

قيل : وكان له ألفُ فرس وألف رَمَكة وألف بغل وبغلة، وثلاثةُ آلاف بعير، وألف وخمسمائة ناقة ، وألف ثور ، وألف بقرة ، وعشرة آلاف شاة وخمسمائة فدّان، وثلاثمائة أتان، مع ما يتبع ذلك من النّتاج؛ فهلك جميع ذلك؛ ثم أقبل إبليس إلى أيوب فى صورة راع من رعاته ، وخيّل له أن عليه وهج الحريق وقد اسودّ وجهه ، وهو ينادى : يا أيّوب ، أدركنى فأنا الناجى دون غيرى ما رأيتُ قطّ مثل هذا اليوم، رأيت نارا أقبلت من السماء فأحرقت أموالك، وسمعت نداء من السماء : هذا جزاء من كان مرائيا فى عمله يريد به الناس دون الله . وسمعتُ النار تقول : أنا نار الغضب . فأقبل أيوب على صلاته ، ولم يكترث به حتى فرغ منها، وقال : يا هذا، لقد كثّرت علىّ، ليست الأموال لى، بل هى لربّى يفعل فيها ما يشاء . فقال إبليس : صدقت .

وماج الناس بعضهم فى بعض، وقالوا : هلاّ قبضها قبضا جميلا .

فشقّ ذلك على أيّوب من قولهم ، ولم يجبهم، غير أنه قال : الحمد لله على قضائه وقدره . وانصرف إبليس عنه ، وصعد الى السماء ، فنودى : يا ملعون

كيف وجدت عبدى أيّوب وصبرَه على ذهاب أمواله؟ فقال إبليس : إلهى إنك قد متّعته بالأولاد، فلو سلّطتنى عليهم لوجدتَه غير صابر . فنودى : يا ملعون اذهب فقد سلّطتك عليهم . فٱنقضّ إبليس على باب قصر أيّوب الّذى فيه أولاده فزلزله حتّى سقط عليهم، وشدخهم بالخشب، ومثّل بهم كلّ مُثْلة ؛ فأوحى الله إلى الأرض : احفظى أولاد أيّوب فإنّى بالغ فيهم مشيئتى .

وأقبل إبليس إلى أيوب وقال له : لو رأيت قصورك كيف تهدّمت، وأولادك وماحلّ بهم . ولم يزل يعدّد له ماحلّ بهم حتى أبكاه ؛ ثم ندم على بكائه، فاستغفر وخرّ ساجدا؛ وأقبل على إبليس وقال : يا ملعون، انصرف عنّى خائبا؛ فإن أولادى كانوا عارية عندى لله .

فانصرف وصعد إلى السماء، ووقف موقفه، فنودى : يا ملعون، كيف رأيت عبدى أيوب وٱستغفاره عند بكائه؟ فقال : إلٰهى إنّك قد متّعته بعافية نفسه، وفيها عوض عن المال، فلو سلّطتنى على بدنه لكان لا يصبر . فنودى : يا ملعون اذهب فقد سلّطتك على جسده إلّا عينيه ولسانَه وقلبَه وسمعَه . فٱنقضّ إبليس عليه وهو فى مسجده يتضرّع الى الله و يشكره على جميع بلائه؛ فلمّا سمع إبليس ذلك منه ٱغتاظ، ولم يتركه يرفع رأسه من السجود حتى نفخ فى مَنخِريه كالنار الملتهبة؛ فٱسودّ وجهه، ومرّت النفخة فى سائر جسده؛ فتمعّط منها شَعره، وتقرّح جميعُ بدنه، ووَرِم فى اليوم الثانى، وعظم فى الثالث، وٱسودّ فى الرابع، وٱمتلأ قيحا فى الخامس، ووقع فيه الدود فى السادس، وسال منه الصديد فى اليوم السابع ووقع فيه الحُكاك، فجعل يحكّه حتى سقطت أظافيره؛ فحكّ بدنه بالخروق والمُسوح والحجارة، وكان إذا سقطت دودة من بدنه ردّها إلى موضعها، ويقول : كلى إلى أن يأذن الله بالفرج .

فقالت له رحمة : يا أيوب، ذهب المال والولد، وبدء الضرّ فى الجسد .

فقال لها : يا رحمة ، إنّ الله ٱبتلى الأنبياء من قبل فصبروا، و إن الله وعد الصابرين خيرا؛ وخرّ ساجدا لله تعالى، وقال : إلٰهى لو جعلت ثوب البلاء سرمدا وحرمتنى العافية ، ومزّقتنى كلّ ممزّق ، ما ٱزددت إلّا شكرا ؛ إلٰهى لا تشمت بى عدوّى إبليس .

ثم قال لرحمة : انقلينى إلى موضع غيرِ مسجدى ، فإنّى لا أحبّ أن يتلوّث المسجد .

فٱنطلقت إلى قوم كان أيوب يحسن إليهم؛ فٱلتمست منهم أن يعينوها على إخراجه من المسجد؛ فقالوا : إنه قد غضب عليه ربُّه بما كان فيه من الرياء، فليت كان بيننا و بينه بعد المشرقين . فرجعت رحمة واحتملته إلى الموضع الّذى كان يضع فيه الموائد للناس بالفضاء .

ثم قال لها : يا رحمة، إن الصدقة لا تحلّ علينا، فٱحتالى فى خدمة الناس . وبكى وبكت ، فكانت تخدم أهل البلد فى سقى الماء وكنس البيوت و إخراج الكناسات الى المزابل ، وتتكسّب من ذلك ما تنفقه على أيوب ؛ فأقبل إبليس فى صورة شيخ، فوقف على أهل القرية وقال : كيف تطيب نفوسكم بمخالطة ٱمرأة تعالج من زوجها هذا القيح والصديد وتدخل بيوتكم، وتدخل يدها فى طعامكم وشرابكم؟ !

فوقع ذلك فى قلوبهم ومنعوها أن تدخل بيوتهم .

قال : وٱشتد بأيوب البلاء، ونتن حتى لم يقدر أحد من أهل القرية أن يستقر فى بيته لشدّة رائحته؛ فاجتمعوا على أن يرسلوا عليه الكلاب لتأكله؛ فأرسلوها فعدت حتى قربت منه وولّت هاربة ولم ترجع إلى القرية .

ثم قال لرحمة : إنّ القوم قد كرهونى ، فٱحتالى فى نقلى عنهم .

فتوجّهت وٱتخذت له عريشا ، وٱستعانت بمن يحمله ؛ فأعانها الله بأربعة من الملائكة ، فحملوه بأطراف النِّطْع إلى العريش ، وعزّوه فى مصيبته ودعَوا له بالعافية ؛ وٱتخذت له رحمة فى العريش رَمادا ، فألقى نفسه عليه ؛ ثم توجّهت فى طلب القوت ، فردّها أهل القرية ، وقالوا : إنّ أيّوب سَخِط عليه ربّه . فعادت إليه باكية ، وقالت : إنّ أهل القرية غَلّقوا أبوابهم دونى . فقال : إن الله لا يُغلِق بابه دوننا . فحملته إلى قرية أخرى ، وصنعت له عريشا ودخلت القرية ، فقرّبوها وأكرموها ، وحمَلتْ فى ذلك اليوم عشرة أقراص من خمسة بيوت ؛ ثم شمّ أهلُ القرية رائحة أيّوب بعد ذلك ، فمنعوا رحمة أن تدخل إليهم ، وقالوا : نحن نواسيك من طعامنا بشىء . فرضيت بذلك ؛ فبينما هى تتردّد إلى أيوب إذ عرض لها إبليس فى صورة طبيب وقال : إنى أقبلت من أرض فلسطين لما سمعت خبر زوجك ، وقد جئت لأداويه ، وأنا صائر إليه غدا فيجب أن تخبريه ، وقولى له : يحتال فى عصفور أو طائر فيذبحه ولا يذكر ٱسم الله عليه ، ويأكله ويشرب عليه قدحا من خمر ، ففرجه فى ذلك . فجاءت رحمة إلى أيوب وأخبرته بذلك ، فتبيّن الغضبُ على وجهه ، وأخبرها أنه إبليس وحذّرها أن تعود لمثل ذلك ؛ ثم أقبلت بعد ذلك إلى أيوب بشىء من الطعام فعرض لها إبليس فى صورة رجل بهىّ على حمار ، فقال : كأنى أعرفك ، ألستِ رحمة ٱمرأةَ أيوب ؟ قالت : بلى . قال : إنى أعرفكم وأنتم أهل غَناء ويسار فما الّذى غيّر حالكم ؟ فذكرت ما أصاب أيّوب من البلاء فى المال والولد والنفس قال : وفى أىّ شىء أصابتكم هذه المصائب ؟ قالت : لأنّ الله أراد أن يعظم لنا الأجر على قدر بلائه .

قال إبليس : بئس ما قلت، ولكن للسماء إله وللأرض إله ؛ فأمّا إله السماء فهو الله ؛ وأمّا إله الأرض فأنا، فأردتكم لنفسى فعبدتم إله السماء ولم تعبدونى ففعلت بكم ما فعلت ، وسلبتكم نعمكم ، وكلُّ ذلك عندى، فاتّبعينى حتى تنظرى إلى ذلك، فإنّه عندى فى وادى كذا وكذا .

فلما سمعت (رحمةُ) ذلك منه عجبت ، واتّبعته غيرَ بعيد حتى وقفها على ذلك الوادى ، وسحر عينيها حتى رأت ما كانت فقدته من أموالهم . فقال : أنا صادق أم لا ؟ فقالت : لا أدرى حتى أرجع إلى أيّوب . فرجعت وأخبرته بذلك، فتألم وأنكر عليها وغضب؛ فسألته أن يعفو عنها ولا تعود؛ فقال : قد نهيتك مرّة وهذه أخرى ، وأقسم إن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدةٍ على كلامها لإبليس .

قال : ولبث أيوب فى بلائه ثمانى عشرة سنةً حتى لم يبق إلّا عيناه تدوران فى رأسه، ولسانه ينطق به، وقلبه على حالته، وأذناه يسمع بهما .

قال: وعجزت (رحمة) فى بعض الأيام عن تحصيل القوت ،وطافت القرية حتى أتت إلى امرأة عجوز فشكت لها ذلك؛ فقالت العجوز : يا رحمة، قد زوّجت ابنتى ، فهل لك أن تعطينى ضفيرتين من ضفائرك لأزين بهما ابنتى ، وأعطيك رغيفين . فأجابتها رحمة إلى ذلك ، وأخذت الرغيفين ، وجاءت بهما إلى أيوب؛ فأنكرهما أيوب وقال : من أين لك هذين؟ فأخبرته بالقصة؛ فصاح أيوب وقال ما أخبر الله تعالى : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

فأوحى الله إليه : يا أيّوب، قد سمعت كلامك ، وسأجزيك على قدر صبرك ؛ وأمّا رحمة فلأُرضينّها بالجنة .

ذكر كشف البلاء عن أيّوب — عليه السلام —

قال : فلما كان يوم الجمعة عند زوال الشمس، هبط عليه جبريل فسلّم عليه فردّ عليه وقال : من أنت ؟ قال : أنا جبريل؛ و بشّره بالشفاء، وأن الله قد وهب له أهلَه وماله وولده ومِثلَهم معهم لتكون آية، فبكى أيّوب من شدّة الفرح وقال : الحمد لله الذى لم يشمت بى عدوّى إبليس . فقال له جبريل : قم يا أيّوب . فلم يستطع؛ فأخذ بيده وقال : قم بإذن الله . فقام على قدميه، فقال له جبريل : أُركض برجلك هذه الأرض . فركضها، فنبعت عين من الماء تحت قدميه أشدّ بياضا من الثلج وأحلى من العسل وأذكى من المسك؛ فشرب منه شربة فسقط ما فى بدنه من الدود، ثم أمره جبريل فاغتسل من تلك العين، فخرج ووجهه كالقمر وعاد إليه حسنه وجماله؛ ثم ناوله جبريل خلعتين، فأتزر بواحدة وارتدى بالأخرى؛ وناوله نعلين من الذهب شِراكهما من الياقوت؛ وناوله سفرجلةً من الجنّة؛ ثم قام إلى الصلاة، فأقبلت رحمة وقد طردها الناس من كل الأبواب؛ فلما صارت إلى ذلك المكان رأته وقد تغيّر، فظنت أنها قد أخطأت الطريق؛ فقالت : أيها المصلّى كلّمنى . فلم يكلّمها، وثبت فى صلاته؛ فقال له جبريل : كلمها . فقال : ما حاجتك ؟ قالت : هل عندك علم بأيوب المبتلَى فإنّى خلّفته هاهنا ولست أراه .

فتبسّم أيوب وقال : إن رأيتِه عرفتِه ؟ فقالت : والله إنّك لأشبه الناس به قبل بلائه . فضحك وقال : أنا أيوب . فبادرت إليه واعتنقته، و بشرهما جبريل بأولادهما وما فقداه من الأموال وغيرها ومثلِهم معهم، وأمطر الله عليهم جرادا من ذهب؛ وكان له بَيْدَران، فأرسل الله سحابتين فأفرغتا فى أحدهما ذهبا وفى الآخر فضة حتى فاض أحدهما على الآخر .

قيل : إنه كان له بعد العافيـة أربعةُ آلاف وكيل ، رزقُ كلِّ واحد فى الشهر مائةُ مثقال من الذهب ، وبين يديه آثنا عشر من البنين ، ومِثلهم من البنـات وملّكه الله جميع بلاد الشأم، وأعطاه مِثلَ عمره الّذى عُمِّره فى المـاضى .

فلمـا أدركته الوفاة أوصى أولادَه أن يخلفوه فى ماله كما كان يفعل مع الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل؛ ثم مات، وتوفيت آمرأته قبله . ٥

وقيل : بعده بقليل؛ فدفن إلى جانب العين التى أذهب الله بلاءه فيها .

قال الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — : وكانت مدّة آبتلائه ثمانى عشرة سنة .

الباب السادس من القسم الثانى من الفن الخامس
فى خـبر (ذى الكفل)

اختلف العلماء فى (ذى الكفل) من هو؟ فقال الكسائى : هو ابن أيوب — ١٠ عليهما السلام — وذكر قصته فقال :

لمـا قبض الله — عزّ وجلّ — أيوب عليه السـلام سار آبنه حوميـل — وهو أكبر أولاده — فى الناس سيرة أبيه ، حتى خرج عليهم ملِك من ملوك الشأم يقال له : لام بن دعام ، فغلَب على بلاد الشأم ، وبعث إلى حوميل يقول : إنكم ضيّقتم علينا بلاد الشأم ، وأريد منكم نصف أموالكم وتزوّجونى أختكم حتى أقرّكم ١٥ على ما أنتم عليه، وإلّا سرتُ إليكم بخيلى ورَجِلى وجعلتكم غنيمة .

فأرسل إليه حوميل يقول: إن هذه الأموال التى فى أيدينا ليس لأحد فيها حق إلا الفقراءِ والمساكينِ والأيتامِ والأرامل؛ وأما أختنا فإنّك من غير ديننا، فلا نزوّجها لك؛ وأما تخويفك لنا بخيلك ورَجلك، فنحن نتوكّل على الله ربّنا، وهو حسبنا .

فجمع الملك جنوده وقصدهم، فالتقوا وآقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الكسرة على أولاد أيوب، وأُسِر بشير بن أيوب وجماعةٌ معه؛ وآنقلب حوميل بنفسه وجمع مالا عظيما ليحمله إلى الملك ويخلّص أخاه منه؛ فبينما هو فى ذلك إذ أتاه آت فى منامه فقال: لا تحمل هذا المال، ولا تخف على أخيك، فإن هذا الملِك يؤمن، وتكون عاقبة أمره خيرا. (٦٦)

فلما أصبح قصّ رؤياه على إخوته، ففرحوا؛ فبلغ الملكَ توقّفُه فى حمل المال فأرسل إليه يقول: اِحمل ما تكفل به أخاك من المال وإلّا أحرقتُه بالنار. فبعث إليه: إنى قد أُمرت ألّا أحمل لك شيئا، فآصنع ما أنت صانع. فغضب الملك وأمر أن تجمع الأحطاب؛ فجُمعت وألقِىَ فيها النارُ والنِّفْط، وأُمر ببشير فأُلقى فيها فلم تُحرِقه؛ فعجب الملكُ من ذلك، وآمن بالله، واختلط بعضهم ببعض، وزوّجوه أختهم، وسمى بشير ذا الكفل، وأرسله الله إلى الشأم؛ وكان الملِك يقاتل بين يديه الكفار، فلم يزل كذلك حتى مات أولاد أيّوب؛ ثم مات الملِك وغلب العمالقةُ على الشأم، إلى أن بعث الله — عزّ وجلّ — شعيبا رسولا.

وحكى الثعلبى فى تفسيره وقصصه فى قصّة ذى الكفل غير ما تقدّم، وساق القصّة تلوَ قصة اليسع، فقال: قال مجاهد: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلا على الناس فعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل. فجمع الناس وقال: من يتكفّل لى بثلاثةٍ أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب.

فقام رجل شاب تزدريه العين قال: أنا. فردّه ذلك اليوم؛ وقال مثل ذلك فى اليوم الآخر؛ فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا. فاستخلَفَه؛ فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم؛ فقال: دعونى وإياه. فجاءه

فى صورة شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام بالليل إلّا تلك النومة؛ فدقّ الباب؛ فقال: من هذا؟ فقال: شيخ مظلوم. ففتح الباب، فجعل يقص عليه قصته، فقال: إن بينى وبين قوم خصومة، وإنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا وفعلوا؛ وجعل يطوّل عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة؛ فقال له: إذا رحتُ فإنّى قد آخذ بحقك. فانطلق وراح، فكان فى مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره؛ فلما رجع وأخذ مضجعه أتاه ودقّ الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا الشيخ المظلوم. فقال: ألم أقل لك: إذا قعدتُ فأتنى. قال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نطيعك ونعطيك حقّك، وإذا قمتَ جحدونى.

قال: فانطلِق، فإذا رحتُ فأتنى، ففاتته القائلة، فراح فجعل ينظر فلا يراه وشقّ عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعنّ أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فإنى قد شق علىّ النعاس. فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل، فنظر فرأى كوّة فى البيت، فتسوّرها فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدقّ الباب من داخل؛ فاستيقظ ذو الكفل، وقال: يا فلان، ألم آمرك ألّا تأذن لأحد علىّ؟ فقال: أمّا مِن قِبلى فما أُتيتَ، فانظر من أين أُتيت.

فقام إلى الباب فإذا هو مغلق والرجل معه فى البيت، فقال له: أتنام والخصوم ببابك؟ فقال: فعلتها يا عدوّ الله. قال: نعم، أعييتنى فى كل شىء ففعلت ما ترى لأغضبك، فعصمك الله منى، فسمّى ذا الكفل، لأنه متكفّل بأمر فوفى به.

وروى الثعلبىّ أيضا بسند رفعه إلى ابن عمر — رضى الله عنهما — قال: سمعت رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — يحدّث حديثا لو لم أسمعه إلّا مرة أو مرتين لم أحدّث به، سمعته منه أكثر من سبع مرات.

قال : كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له : ذو الكفل ، لا ينزع عن ذنب عمله ، فأتبع آمرأة فأعطاها ستين دينارا على أن تعطيه نفسها ؛ فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة أُرعدت وبكت ؛ فقال : ما يبكيك ؟ قالت : من هذا العمل ما عملته قطّ . قال : أكرهتكِ ؟ قالت : لا ، ولكن حملتنى عليه الحاجة . قال : اذهبي فهى لك . ثم قال : والله لا أعصى الله أبدا . فمات من ليلته . فقيل : «مات ذو الكفل» فوجدوا على باب داره مكتوبا : إنّ الله قد غفر لذى الكفل .

وقال أبو موسى الأشعرىّ — رضى الله عنه — إنّ ذا الكفل لم يكن نبيّا ولكنه كان عبدا صالحا ، تكفّل بعمل رجل صالح عند موته ، فكان يصلّى لله تعالى فى كل يوم مائة صلاة ، فأحسن الله — عز وجل — عليه الثناء .

وقيل : كان رجلا عفيفا ، تكفل بشأن رجل وقع فى بلاء ، فأنجاه الله تعالى .

وقيل : ذو الكفل ، هو إلياس النبىّ عليه السلام .

وقيل : هو زكريا النبىّ عليه السلام ؛ والله تعالى أعلم .

الباب السابع من القسم الثانى من الفن الخامس

فى خبر شعيب النبي عليه السلام

هو شعيب بن صنعون بن عفّا بن نابت بن مدين بن إبراهيم عليه السلام .

قال : وعاش مدين عمرا طويلا ، وكان قد تزوّج آمرأة من العمالقة فولدت له أربعة بنين ، ونسلوا فكثر عددهم فى حياة مدين ، فلما رآى كثرة عقبه جمعهم وأشار عليهم أن يبنوا مدينة ويحصّنوها من العمالقة ؛ ففعلوا ذلك ، وجعلوا أبوابها من الحديد ، وسمّوها مدين بآسم أبيهم ، وجعلوها محالّ لقبائلهم ، فرغبت العمالقة

(٦٧)

فى مجاورتهم ، وآمتلأت المدينة من العمالقة ومن أهلها حتى ضاقت بهم ، فخرجت العمالقة من مدين ونزلوا بالأَيْكة ، — وكانت غَيضةً عن يمين مدين — فبنوا هناك الدُّور لأنفسهم ، واختلطوا بأهل مدين ، وكان أهل مدين يعبدون الله ، وأصحاب الأيكة يعبدون الأصنام ، ولا يعدو بعضهم على بعض ؛ وكان صنعون والد شعيب من العبّاد والعلماء بمدين ، وتحته آمرأة من العمالقة ، فولدت له شعيبا فى نهاية الجمال ؛ فلمّا كبِر أعطاه الله فهما وعلما ؛ وكان قليل الكلام دائم الفكر ؛ وكان أبوه إذا تأمّل ضعفه ونحافته يقول : اللهم إنك كثّرت الشعوب والقبائل فى أرض مدين ، فبارك لى فى شعيبى هذا . يعنى ولده . فرأى فى منامه أن الله تعالى قد بارك لك فى شعيبك هذا ، وقد جعله نبيا إلى أهل مدين . فسمّى شعيبا لذلك .

وتوفّى والده فقام شعيب مقامه ، و برّز بالزهد على أهل زمانه ، وآشتهر بالعبادة .

قال : وكان ملكُ الأيكة — وآسمه أبو جاد — قد آتخذ لقومه أصناما ، وهى ثلاثون صنما ، عشرة من الذهب حَلّاها بالجوهر خاصّة به و بأولاده ، والبقية من الفضة والنحاس والحجارة والحديد والخشب لبقية الناس .

قال كعب فى تفسير (أبجد) : إنها أسماء ملوك مدين .

وقيل : بل ملوك الأيكة ، وهم أبو جاد وهوّز وحطّى وكلمن وسعفص وقرشت .

قال : وكان أهلُ مدين أصحابَ تجارات يشترون الحنطة والشعير وغيرَهما من الحبوب ، ويجلبون ذلك من سائر البلدان يتربّصون به الغلاء ، وهم أوّل من تربّص ؛ وكان لهم مكيالان : وافٍ يكتالون به لأنفسهم عند الشراء ، وناقصٌ يكيلون به للإعطاء ، وكذلك فى وزنهم ؛ فكانوا على ذلك وشعيب بين أظهرهم وهو لا يخالطهم ، وله غنم ورثها من أبيه يأكل من منافعها ، وهو عظيم المحلّ عندهم .

فبينما هو ذات يوم على باب منزله مشتغل بالذكر، إذ جاءه رجل غريب فقال: إنّ هؤلاء القومَ يظلمون الناس، وإنى آشتريت منهم مائة مكيال بمائة دينار وقبضوا الثمن وزيادة، والذى كالَه منهم نقصَ عشرين مكيالا. فقال له شعيب: ارجع إليهم فلعلّهم قد غلطوا عليك. قال: قد راجعتهم فضربونى وسبّونى، وقالوا: هذه سنّتنا فى بلدنا. وآلتمس الرجل من شعيب أن يساعده عليهم، فخرج شعيب معه حتى صار إلى سوقهم، وسألهم عن قصّته فلم ينكروها، وقالوا: ألم تعلم يا شعيب أنّ هذه سنّة آبائنا فى بلدنا؟ قال ليس هـذا من السنة. فعذلهم، فلم يرجعوا إلى قوله وضربوا الرجل حتى أدموه، وآنصرف شعيب إلى منزله.

ذكر مبعث شعيب — عليه السلام —

قال: فأتاه جبريل فى الحال، وأخبره أنّ الله قد بعثه رسولا إلى أهـل مدين وأصحاب الأيكة وغيرهم ممّن يعبـدون الأصنام، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته، وألّا يبخسوا الناس أشياءهم.

قال: وأقبل شعيب إلى أهل مدين وقال لهم ما أخبر الله تعالى به فى كتابه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾.

فلما سمعوا ذلك منه أجابوه بمـا أخبر الله به عنهم: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

ثم انصرف عنهم، وعاد إليهم من الغد وقد اجتمعوا مع ملكهم أبي جاد ؛ فوقف عليهم ونهاهم عن عبادة الأصنام وبخس المكيال والميزان ؛ فقالوا له : ٥

﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ . (٦٨)

فاستهزأ القوم به ، فقال : وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ . ١٠

فكذّبه سفهاء قومه، كما أخبر الله عنهم : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . ١٥

ثم قال له الملك : قد بلّغت رسالتك بزعمك، وقد سمعناها وأبينا، فلا تعد إلينا فترى ما لا طاقة لك به . فقال : أنا رسول الله إليكم، وإني أعود أدعوكم حتى ترجعوا إلى طاعة الله . فغضب الملك، وانصرف عنهم شعيب؛ وآمن به رجل من وزراء الملك، واستكتمه إيمانه ، فكتمه شعيب؛ ثم عاد من الغد وقد خرج الملك ٢٠

ومن معه إلى سوقهم ، وأخرجوا أصنامهم ونصبوها ؛ وأمر الملك فى أهل مدين والأيكة : من سجد لأصنامنا فهو منّا ، ومن أبى عذّبناه عذابا شديدا . فسجد القوم بأجمعهم للأصنام ؛ فناداهم شعيب : إنّ هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع ، فاتركوا عبادتها . وحذرهم عذاب الله . فقالوا : إنك تدعونا بغير حجة ، فهل لك حجة على دعواك النبوة ؟ قال لهم شعيب : إن نطقت هذه الأصنام بصدق مقالتى أتؤمنون؟ قالوا : نعم . ورضى الملك بذلك ؛ فتقدّم شعيب إلى الأصنام وقال لها : أيتها الأصنام، من ربّك؟ ومن أنا؟ تكلّمى بإذن الله . فنطقت بإذن الله وقالت : ربّنا الله وخالقنا وخالقُ كلّ شىء ، وأنت رسول الله ونبيّه . وتنكّست عن كراسيّها ولم يبق منها صنم صحيح ؛ وأرسل الله على قوم شعيب ريحا كادت تنسفهم نسفا فأسرع الملك ومن معه إلى منازلهم ، وآمن بشعيب خلق كثير ؛ ثم أصبح الملك ومن معه فخرجوا إلى سوقهم ، ونصبوا ما كان قد بقى عندهم من الأصنام ، وأمرهم بالسجود لها ؛ فأتاهم شعيب ونهاهم وحذرهم فلم يرجعوا إليه ، وأمر الملك أصحابه أن يقعدوا لشعيب ولمن معه كلّ مرصد ، ويؤذوهم أشدّ الأذى ؛ ثم قال الملك وقومه : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

قال : وإذا بريح قد هاجت عليهم فيها من الحرّ والكرب ما لا طاقة لهم به حتى رموا أنفسهم فى الآبار والسراديب ، واشتدّ الحرّ ودام عليهم مدّة وهم لا يزدادون إلا عتوّا وتمرّدا ، وشعيب يدعوهم ويحذّرهم العذاب ؛ فيقولون : لسنا نرى من عذاب ربّك إلا هذا الحرّ ، ونحن نصبر عليه .

وأقاموا كذلك أعواما كثيرة وهم لا يؤمنون ؛ فأرسل الله عليهم الذباب الأزرق ، فكان يلدغهم كالعقارب ، وربما قتل أولادهم ؛ ثم تضاعف الحرّ عليهم

فتحوّلوا من مدين إلى الأيكة ، فتضاعف الحـرّ عليهم ، وتنقّلوا من الأودية إلى الغياض والحرّ يشتدّ عليهم، حتى آسودّت وجوههم، فأقبـل إليهم شعيب ودعاهم إلى الإيمـان ؛ فنادَوه : يا شعيب، إن كان ما نلقاه لكفرنا بك و بربك فزدنا منه فإنا لا نؤمن . فأوحى الله إليه أنّه مهلكهم، فتحوّلْ عنهم .

ذكر خـبر الظُّـلّة

٥

قال الله تعـالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال : ولمـا كان من غد يوم مقالتهـم ما قالوه لشعيب وهو يوم الأربعـاء و إذا بسحابة سوداء قـد آرتفعت فأظلّتهم ، فاجتمعوا تحتها يستظلون بها من الحرّ فانطبقت عليهم حتى لم يبصر بعضهم بعضا ؛ وآشـتدّ الحرّ ؛ ثم رمت بوهجها وحرها حتى أنضجت أكبادهم وأحرقتهم و جميـع ما كان على وجه الأرض ، وشعيب والمؤمنون ينظرون إلى ما نزل بهـم ، و يتأمّلون مصارعهم ، ولم ينلهم من ذلك مكروه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ يعنى صيحة جبريل ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ثم أقبل شعيب والمؤمنون ينظرون إلى مصارع القوم . قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ معناها ، كيف أحزن عليهم .

١٠

١٥

ثم قسم شعيب أموال الكفار على قومه ، وتزوّج بامرأة من أولاد المؤمنين ، و رزقه الله رزقا حسنا ، ولم يزل بأرض مدين حتى كفّ بصره ، وجاء موسى بن عمران من أرض مصر ، وزوّجه ابنته — على ما نذكره إن شاء الله تعالى — .

٢٠

القسم الثالث من الفنّ الخامس

يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون ؛
وخبر يوشع بن نون و إلياس واليسع وغيلا واشمويل وداود وطالوت
وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متى وجرجيس وبلوقيا وزكريا
٥ وعمران ومريم وعيسى ، عليهم السلام ، وأخبار الحواريين ؛
وفيه ستة أبواب ؛ والله أعلم بالصواب

الباب الأوّل من القسم الثالث من الفن الخامس

فى قصة موسى بن عمران وهارون — عليهما السلام — وخبر فرعون وابتداء أمره وغرقه ، وأخبار بنى إسرائيل ، وخبر قارون ، وخروج موسى عليه السلام .

١٠ ولنبدأ بخبر فرعون وابتداء أمره ، وكيف توصل إلى الملك ، ثم نذكر قصة موسى عليه السلام معه ، ليكون الكلام فى ذلك على سياقه .

فأمّا فرعون ، فهو الوليد بن مصعب .

قال وهب : كان مصعب بن نُسيم[1] بمصر يرعى البقر لقومه ، وله آمرأة يقال لها : راعونة ، وهما من العمالقة ؛ فأتت عليه مائة وسبعون سنة لم يرزق ولدا ، فبينما
١٥ هو فى بريّة مصر إذا ببقرة قد ولدت عجلا ؛ فتأوّه وحسد البقرة ؛ فنادته : يا مصعب لا تعجل ، فسيولد لك ولد مشئوم يكون من أهل جهنم . فرجع وذكر ذلك لآمرأته ، وواقعها فحملت بفرعون ، ومات أبوه قبل ولادتها ؛ ثم ولدته أمّه وسمّته الوليد ، وأخذت فى إرضاعه وتربيته حتى كبر ، فأسلمته إلى النجارين ؛ فأتقن صناعة النجارة ؛ ثم ولع بالقمار ، فعاتبته أمّه ؛ فقال : كفّى عنى فأنا عون نفسى .

٢٠ (١) كذا ورد هذا الاسم مضبوطا بضم النون وفتح السين فى « ب » المنسوب خطها إلى المؤلف .

فلزمه هـذا اللقب ، فكان يُعرف بعون نفسـه ، فقامر فى بعض الأيام ، فقمروه فى قميصه ، و بقى فى خلق لا يستره ؛ فاستحيا من الناس أن يروه كذلك ؛ فهرب حتى صار إلى قرية من قرى مصر ؛ فعرض نفسـه على بقّال ، فخدمه ، وكان يضرب المشترين و يؤذيهم حتى نفروا من البقّال ؛ فطردوه فعاد إلى مصر ؛ وكانوا يقولون : (فَرَّ عَوْن) .

قال : ورجع إليها وهو لا يملك إلّا درهما واحدا ، فاشـترى به بقلا و بطيخا وقعد يبيعه ، فجاءه عريف الطريق وطالبه بحق الطريق ؛ قال : وما هو ؟ قال : درهم . فتلاحيا ؛ فترك فرعون رحله ومضى ، وجعل يسرق وينقب ، فيهرب مرة و يؤخذ أخرى .

فاتفق أن رجلا من العمالقة جمح به فرسه فعجز عن ضبطه ، فوثب فرعون إلى الفرس وضبطه بلجامه ؛ فقال له العمليقى : أراك جلدا قويّا . فاتخذه سائسا ؛ فجعل يخدمه حتى مات الرجل وليس له وارث ؛ فاحتوى فرعون على جميع ماله وحمله إلى أمه ، وأكل ذلك المـال حتى فنى ، وضاق به الأمر ، فوقع فى قلبه أن يجلس على باب مقابر مصر و يطلب أرباب الجنائز بشىء ، و يُظهر أنه بإذن الملك ؛ ففعل ذلك مدّة حتى اجتمع له مال عظيم ؛ واتخـذ له أعوانا وحفدا[1] يعينونه على ذلك ؛ وكان الملك بعد أن أهلك الله الريان بن الوليد تتوارثه الفراعنة ؛ واستقر فى سنجاب بن الوليد ، وكان مكرما لبنى إسرائيل ، وكانوا يعبدون الله علانية و يتلون الصحف جهرا .

قال : فماتت ابنـة للملك ؛ فحملت إلى المقـبرة ، فتعلق بها أعوان فرعون على العادة لأخذ القطيعة ؛ فاتصـل الخبر بالملك ؛ فأمر بإحضاره وأراد قتله ؛ فقص

(١) الحفد : الخدم .

عليه قصّته . وفدى نفسه بما جمعه من المال ؛ فعظم عند الملك وأقرّه على عمله ؛ فقرّر فرعون عند ذلك على جنائز الملوك ألف درهم ، وعلى جنائز الوزراء سبعمائة والقوّاد خمسمائة ، ثم إلى المائة ، إلى الخمسين ، إلى عشرة ، إلى ثلاثة ؛ فاجتمع الناس إلى الملك وحرّفوا رأيه عن هذه الحالة وقبّحوها عليه ؛ فصرفه الملك عنها وأبطلها ؛ وحمل إليه فرعون أموالا جمّة ، وقال له : أيها الملك ، إنّ جدّى كان على حرس أبيك ، فاجعل ذلك إلىّ . فولّاه الحرس وأمره أن يشدّد فيه ، ويقتل كلّ من لقيه بالليل كائنا من كان ؛ وجعل الملك معه عدّة من الرجال والأعوان ؛ فخرج فرعون واتخذ لنفسه قبّة فى وسط البلد ، وكان يوجّه أعوانه ، فمن أتوه به فى الليل أمر بقتله ؛ فتقدّم عند الملك بذلك ، لأنه أخاف أعداء الملك ، وأمن الملكُ جانبهم بسببه ، وخافه الناس ، وجعل لنفسه حاجبا ، ونفذت كلمته .

ذكر خبر قتل الملك واستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره

قال : واتفق مرض بعض وزراء الملك — وكان الملك يأنس إليه ويقتدى برأيه — فأحبّ أن يزوره بالليل ؛ فخرج منفردا وليس معه أحد من خدمه ؛ فأخذه أعوان فرعون وأتوه به وهو يقول : ويلكم ، أنا الملك سنجاب ، وهم يظنون أنه يخدعهم بذلك ، حتى أتوا به إلى فرعون ، فأمر بقتله ، فقتل ؛ وبادر فرعون بمن معه — وكان فيهم كثرة — ودخل القصر ، وكان لا يمنع منه ؛ فاستوى على سرير الملك ووضع التاج على رأسه ، وفتح الخزائن ، وأحضر الوزراء وفرّق فيهم الأموال فرضُوا به ، وصاروا أولياء له .

قال : وأتاه إبليس وسجد بين يديه ، وسمّاه إلها وربّا ؛ ثم سجد له هامان — وكان غلاما لسنجاب — وسجد الوزراء والملوك والأعوان وغيرهم ؛ وبعث

إلى أسباط بنى إسرائيل، فدعاهم إلى الطاعة والسجود له ؛ فسجدوا وقصدوا بالسجود الله تعالى .

ثم أقبل فرعون بعد ذلك على إبليس وقال : أيها الشيخ ، إنك كنت مباركا وأنت أول من سجد لى، ثم جرى القوم بعدك على سنّتك، فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أهل مصر أشير على الملوك بمصالحهم . ثم قال لفرعون : اتخذ لقومك أصناما وآحملهم على عبادتها، وآتخذ لك صنما آنفرد به أنت، وآجعله إلها وربا . فوافقه فرعون على ذلك، وآتخذ له ثورا من ذهب يعبده ، وأمر الناس بعبادة الأصنام ؛ فعبدوها ؛ فكان فرعون يعبد الثور ، والقبط يعبدون الأصنام ، وبنو إسرائيل يعبدون الله ؛ فبلغه ذلك ، فأحضر عُبّادهم وقال : قد بلغنى أنكم مطيعون لى فى الظاهر، مخالفون لى فى الباطن، فاسجدوا لى . فأبوا ذلك، وكان فيهم جماعة من أولاد يوسف ويهوذا، فقتلهم، ثم قتل خلقا كثيرا، وتبعه الباقون وأسرّوا الإيمان؛ ثم إنّ فرعون آستعبد الناس ووضع عليهم الخَراج الكثير، وشقّ عليهم فى الأعمال.

هذا ما حكاه الكسائىّ — رحمه الله — فى خبر فرعون وآبتداء أمره وسببِ ملكه.

وحكى أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — فى كتابه المترجم (بيواقيت البيان فى قصص القرآن) : أنّ فرعون موسى هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريّان ابن أراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكنّاه بهذه الكنية .

قال : وملك بعد أخيه قابوس بن مصعب؛ وذلك أنه لما مات الريان بن الوليد فرعونُ يوسف — عليه السلام — وذكر أنّه قد آمن بيوسف ومات قبل وفاة يوسف — عليه السلام — ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف

الثانى؛ فدعاه يوسفُ إلى الإسلام، فأبى، وكان جبّارا، وقبض ٱلله تعالى يوسف فى ملكه، وطالت أيّام ملكه، ثم هلك؛ وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس الوليد ابن مصعب، ولم يذكر خلاف ذلك .

وقد قيل فى ٱسمه ونسبه وسبب ملكه غير ذلك، وسيرد — إن شاء الله تعالى — فى أخبار ملوك مصر الفراعنة ما ستقف عليه هناك — إن شاء الله تعالى — والله أعلم .

ذكر خبر آسية بنةِ مزاحم وزواج فرعون بها

قال : وكانت آسية بنةُ مزاحم من الصدّيقات، وهى مختلَف فى نبوّتها ولا خلاف أنّها صدّيقة؛ وكانت بارعة الجمال؛ فبلغ فرعونَ خبرها وجمالها، فأرسل إلى أبيها مزاحم (أن ٱبعث إلىّ بآسية فإنها أمتى) . فدخل على فرعون وقال : إن ابنتى صغيرة لا تصلح . فكذّبه فرعون وقال : قد عرفت وقت ولادتها . فقال : أيها الملك، فٱجعل لها مهرا . فغضب فرعون وقال : احملها إلىّ، فإن رضيتُها أكرمتها، وإلّا رددتها إليك . فقال له عمران : أيها الملك، لا تفضحنى فى ٱبنة أخى، ولكن أكرمها بخلعة ومهر . فأجابه إلى ذلك؛ فانصرف مزاحم وأخبر آسية بذلك وقال : إن ٱمتنعتِ يكون ذلك هلاكى وهلاكِ . قالت فكيف تكون مؤمنةٌ عند كافر ؟ فلم يزل بها حتى أجابت على كره منها؛ وحمل إليها فرعون عشرة آلاف أوقية من الذهب . ومثل ذلك من الفضّة، وجملةً من أنواع الثياب والطُّرَف؛ وحُملت إلى فرعون، فحماها الله منه حتى رضى منها بالنظر . وكان فرعون قد رأى قبل ذلك من الآيات ما دلّه على أن زوال ملكه يكون على يد فتى من بنى إسرائيل؛ فقال : ائتونى بعمران لأنه كبير فيهم لأصطنع إليه وإليهم معروفا . فأتى به، فخلع عليه وتوجه، وجعله سيّد وزرائه، حتى كان هامان وغيرُه يحسدونه .

ذكر شيء من الايات التى رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام

(٧١)

فمن ذلك أنه هتفت به الهواتف تقول : ويلك يا فرعون ، قد قرب زوال ملكك على يد فتى من بنى إسرائيل .

ثم رأى الرُّؤى التى أزعجته وأفزعته ؛ فكان منها أنه رآى شابا وقد دخل عليه وبيده عصا ، فضربه بها على رأسه وقال : ويلك يا فرعون ، ما أقل حياءك من خالق السمٰوات ، كلّما رأيت آية آزددت كفرا . ونظر إلى آسية فى المنام ولها جناحان تطير بهما بين السماء والأرض حتى دخلت السماء ؛ ورأى الأرض قد آنفرجت وأدخلته فى جوفها ؛ فآنتبه فزعا ، وقصّ رؤياه على أهل العبارة ، فقالوا : إنّها تدلّ على مولود يولَد يسلُبك ملكك ، ويزعم أنه رسول إلٰه السماء والأرض ويكون هلاكك وقومك على يديه .

وكان فرعون قبل ذلك إذا عبّر عليهم رؤيا يقولون : هذه أضغاث أحلام ويكتمونه ما تدلّ عليه .

ذكر خبر قتل الأطفال

قال : فآستشار فرعون وزراءه وأهلَ مملكته ؛ فأشاروا عليه بقتل من يولد من الذكور ؛ فقتل اثنتى عشرة ألف آمرأة وسبعين ألف طفل ؛ وكان يعذّب الحوامل حتى يسقطن ، حتى ضجّت الملائكة إلى ربّها ؛ فأوحى الله إليهم بأن له أجلا وبشّرهم بموسى ؛ وكان فرعون قد منع وزراءه وكبار أهلِ مملكته من الآجتماع بأهاليهم والخلوة بهنّ ، لأنه كان قد بلغه أن المولود يكون من أقرب الناس إليه ؛ وكان عمران ممن مُنع ؛ وكان فرعون إذا نام لا يفارقه حتى يستيقظ ؛ فبينما عمران ذات ليلة على كرسيه عند رأس فرعون إذا هو بآمرأته وقد حُملت إليه على جناح ملَك من

الملائكة؛ فلما نظر عمران إليها فزع وقال : ما حاجتك ها هنا ؟ فسكتت؛ فقال له الملك : إن الله يأمرك يا عمران أن تأتى زوجتَك على فراش فرعون ليكون ذلك هوانا له . فواقعها فحملت بموسى؛ ثم آغتسلا فى الحوض الذى فى دار فرعون؛ ثم حملها الملَك و ردّها إلى منزلها ؛ وكان على باب فرعون ألف حاجب، والأبواب مغلّقة، فلم يُغن عنه ذلك؛ ولما أصبح فرعون دخل عليه المنجّمون وقالوا : إن الذى تخافه قد حملتْ به أمّه وقد طلع نجمه . فأمر فرعون القوابل والحواضن أن يدرن على نساء بنى إسرائيل ؛ ففعلن ذلك ، ولم يعبرن بيت عمران لعلمهنّ بملازمته لفرعون ليلا ونهارا ؛ فلما تمت أيّامها جاءها الطلق نصف الليل، وليس عندها إلا آبنتها، فوضعتْه و وجهه يتلألأ نورا .

ذكر خبر ميلاد موسى وما كان من أمره و إلقائه فى التابوت

قال : وأصبحت أمّ موسى وهى شديدة الفرح به والخوف عليه؛ وسمع فرعون فى تلك الليلة هاتفا يقول : ولد موسى وهلكت يا فرعون وتنكّست الأصنام . فشدّد فرعون فى طلب المولود ، فكانت أمّه ترضعه، و إذا خرجت فى حاجة ألقته فى التنّور بمهده وغطّته؛ ففعلت ذلك فى بعض الأيّام، وكانت أخته قد عجنتْ وأرادت أن تخبز، فسجرت التنور وهى لا تعلم أن موسى فيه؛ وجاء هامان والدايات فدخلوا دار عمران فلم يجدوا شيئا ، ونظروا إلى التنور والنار تعلو منه، فانصرفوا؛ وجاءت أمّ موسى فرأت الأعوان والحرس قد خرجوا من منزلها، فكاد روحها يَزهَق من الغمّ ؛ فدخلت المنزل بسرعة نحو التنور، فرأت النار فيه؛ فلطمت وجهها وقالت : ما نفعنى الحذر ، أحرقتم ولدى . وآنطلقتْ إلى التنور فرأت موسى ولم تمسّه النار؛ فأخرجته؛ ولمّا تم له أربعون يوما فزعتْ عليه، فاتخذت له تابوتا

ووضعته فيه، وألقته فى اليمّ؛ وكان أبوه قد مات قبل ذلك ودفن، فلذلك اشتدّ خوف أمّ موسى .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ .

قال : فلمّا أتت به لتلقيه فى النيل تصوّر لها إبليس فى صورة حيّة سوداء وقال : إن ألقيته فى اليمّ ابتلعتُه . فعلمتْ أنه إبليس؛ فسمعت النداء : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال : فطرحته فى النيل . فقيل : إنه بقى فى الماء أربعين ليلة .

وقيل : ثلاثا .

وقيل : ليلة واحدة .

ذكر دخول التابوت فى دار فرعون ورجوع موسى إلى أمّه

قال : وأصبح فرعون فى اليوم الذى دخل فيه التابوت إلى قصره ، فصعد أعلى القصر وأشرف فرأى التابوت والموجَ يلعب به؛ وكان لفرعون سبع بنات من غير آسية ، بكلّ واحدة منهنّ نوع من البلاء والمرض ؛ وكان الأطبّاء قالوا له : إنّ دواءهنّ أن يغتسلن فى النيل . فصنع لهنّ نهرا من النيل وأجراه فى وسط القصر يصب فى حوض عظيم؛ فكانت بناته يغتسلن فيه؛ فأمر الله الريح أن تلقى التابوت فى ذلك النهر وبنات فرعون فيه ؛ فبادرت الكبرى وفتحته فإذا فيه موسى وله شعاع ونور ؛ فلما لمسته أذهب الله ما بها من البلاء والمرض؛ فلمسته بنات فرعون واحدة بعد أخرى، فذهب ما بهنّ من الأمراض ؛ وأقبلن بالتابوت إلى آسية؛ فلما رأته قبلته ولم تعلم أنه ابن عمّها ؛ ثم أعادته إلى التابوت ؛ وحملته جارية معها

ومضت به إلى فرعون ؛ فلمّا نظر إليه أرعد منه وقال : يا آسية، إنى أخاف أن يكون هذا عدوّى ، ولا بدّ لى من قتله . فقالت له : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .

وحكى الثعلبىّ أنها لما قالت : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، قال فرعون : قرة عين لكِ، أمّا أنا فلا حاجة لى فيه .

قال أبو إسحاق : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "والذى يُحلَف به لو أقرّ فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت به لهداه الله تعالى كما هدى به آمرأته ولكن الله تعالى حرمه ذلك" .

قال الكسائىّ : ولم تزل تتلطّف بفرعون حتى تركه ، وأحضرت له المراضع فلم يرضعهنّ . قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

وأرسلت أمّ موسى آبنتها كلثم (١) ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال : فدخلت قصر فرعون فرأته فى حجر آسية وقد آمتنع أن يرضع؛ فتقدّمت إليها ، فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ .

قال : ولم تعلم آسية أنها آبنةُ عمّها لرثاثة ثيابها، لأنها دخلت فى حلبة المراضع؛ فالتفت إليها فرعون وقال : مَن هؤلاء القوم الّذين يكفلونه ؟ قالت : قوم من آل إبراهيم . قال : اذهبى وائتنى بهم . فرجعت إلى أمّها وأخبرتها ؛ فدخلت على فرعون وموسى بين يديه، فعرفتها آسية وقالت : خذى هذا الصبىّ وأرضعيه . فلما أخذته آلتقم ثديها ورضع منه ، وفرعون لا يعلم أنّها آمرأة عمران؛ فقالت لها

(١) كذا ورد هذا الاسم فى الأصول وتاريخ العينى .

آسية : أحبّ أن تكونين عندى إلى أن يستغنى هذا الغلام عن الرضاع . فأقامت عند آسية سنتين حتى فطمته وفارقته مستبشرة فرحة .

وحكى الثعلبيّ أنها لم تُقم عند آسية ، بل أخذته وصارت إلى منزلها فأرضعته إلى أن تمّ رضاعه، وأعادته إلى آسية؛ والله أعلم .

ذكر شيء من عجائب موسى — عليه السلام — وآياته

٥

قال : فلمّا صار موسى من أبناء ثلاث سنين ، استدعاه فرعون وأجلسه فى حجره وجعل يلاعبه ؛ فقبض على لحية فرعون؛ فتألّم لذلك وقال : لا شكّ أنّ هذا عدوّى . وهمّ بقتله ؛ فقالت له آسية : إن الصبيان لهم جراءة ولعب من غير معرفة ولا عقل، وأنا أريك أنه لا يعقل؛ وأمرت بإحضار طست وطرحت فيه درّة وجمرة، وقدّمته إلى موسى، فأراد أن يأخذ الدرّة ؛ فصرف جبريل يده عنها إلى الجمرة ، فأخذها ورفعها إلى فيه، فاحترق لسانه، فقذفها من فيه وبكى بكاء شديدا ؛ فقالت آسية لفرعون : علمتَ أنه لا يميّز بين الدرّة والجمرة ؟ فسكن عند ذلك .

١٠

قال : فلمّا تمّ لموسى سبع سنين، جلس فى بعض الأيّام مع فرعون على سريره فقرصه فرعون، فغضب موسى ونزل عن السرير وضرب قوائمه برجله ، فكسر قائمتين منه، فسقط فرعون عنه، وانهشم أنفه وسال الدم على لحيته؛ فبادر موسى ودخل على آسية وأعلمها بالخبر، وتبعه فرعون إليها وأراد قتله ؛ فقالت : ألا يسرّك أن يكون ولدك بهذه القوّة يدفع أعداءك عنك؟ ولاطفته حتى سكن غضبه .

١٥

ثم ظهر له من المعجزات والآيات ما لا يظهر إلّا للأنبياء وفرعون يكرمه ؛ والله الموفّق .

٢٠

ذكر خبر القبطىّ وخروج موسى من مصر

قال : ولما كبر موسى صار يركب من مراكب فرعون ويلبس من ملابسه ؛ وكان يدعى : موسى بن فرعون ؛ فامتنع بسببه الظلم عن بنى إسرائيل ، ولم يعلم إلّا أنّ ذلك من قبل الرضاعة ؛ وآتفق ركوب فرعون ، فركب موسى فى أثره والمدينة مغلّقة الأسواق ، وليس بها أحد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ فكان ٱلذى من شيعته فتى من بنى إسرائيل ، والذى من عدوّه رجل من القبط ، وهو طبّاخ لفرعون ، وقد أخذ حطبا للطعام ، وهو يريد الإسرائيلىّ على حمله وقد آمتنع ؛ فلما مرّ بهما آستغاثه الإسرائيلىّ ؛ فقال للطبّاخ : اتركه . فآمتنع من تركه ؛ فوكزه موسى فى صدره فمات ؛ فندم موسى على قتله ؛ قال الله تعالى ﴿ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ الآيات .

قال : فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ .

وجاء القبط وشكوا إلى فرعون أنّ بنى إسرائيل قتلوا رجلا منهم ؛ فأمرهم أن يطوفوا على قاتله ؛ وخرج موسى فى اليوم الثانى ، فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ على قبطىّ آخر ، والقبطىّ يقول : هذا الّذى قتل آبن عمّى بالأمس . فقال الإسرائيلىّ : أعنّى يا موسى على هذا ، فإنّه يريد أن يحملنى إلى دار فرعون قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ .

قال : ثم لم يجد موسى بدّا من نُصرة الإسرائيلىّ ، فحسر عن ذراعيه ، ودنا من القبطىّ ؛ فظنّ الإسرائيلىّ أنّ موسى يريد أن يبطش به ، فقال ما أخبر الله به عنه :

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

فلمّا سمع القبطىّ كلام الإسرائيلىّ لموسى تحقق أن موسى قاتل ابن عمه ؛ فدخل إلى دار فرعون وأخبره أن موسى هو الّذى قتل القبطىّ ؛ قال : ومن أعلمك؟ فقصّ عليه القصة ؛ فأذن فرعون لأولياء المقتول فى قتل موسى حيث وجدوه ؛ فجاء حزقيل — وكان مؤمنا من آل فرعون — وأعلم موسى بالخبر .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

ومضى بغير زاد ولا راحلة ؛ فمرّ براعٍ فى طريقه ، فأعطاه موسى ثيابه ، وأخذ جبّة الراعى وكساه ، وسار فوصل إلى مدين فى اليوم السابع وقد أجهده الجوع .

قال : وكان موسى يسير بالليل ودليله النجم ، فإذا جاء الصبح جاءه أسدان يدلّانه على الطريق ؛ فكان هذا دأبه وهُما كذلك حتى ورد مدين ؛ والله الهادى .

ذكر خبر ورود موسى مدين وما كان بينه وبين شعيب وزواجه ابنته

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ وكانتا ابنتى شعيب عليه السلام .

قال : وكان الرّعاء إذا سقَوا غطّوا البئر بصخرة لا يرفعها إلّا جماعة ؛ فلمّا ٱنصرفوا تقدّم موسى إلى الصخرة فوكزها برجله ، فدحاها أربعين ذراعا على ضعفه من الجوع وسقى غنمهما .

قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قال : فتمنّى موسى فى ذلك الوقت شبعةً من خبز الشعير، وٱنصرفت المرأتان إلى أبيهما وأخبرتاه بالخبر، فأرسل إحداهما إليه وقال : ائتينى به . قال الله تعالى : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

فقام موسى ، وكانت تمرّ بين يديه فكشف الريحُ عن ساقيها ؛ فقال لها : تأخّرى ورائى ودلّينى على الطريق . فتأخّرت وكانت تقول : عن يمينك وعن شمالك . حتى دخلا مدين ؛ وجاء إلى شعيب — وهو شيخ كبير وقد كفّ بصره — فسلّم عليه ؛ فردّ عليه ورحّب به وسأله عن خبره . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثم دعا شعيب بالطعام فأكل ؛ فقالت ٱبنته : يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ أرادت بالقوّة رفع الحجر عن رأس البئر وٱستقاءه بالدلو العظيمة، وأمانته أنّه أخّرها إلى خلفه .

فرغب فيه وقال : إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

فتزوّج موسى صَفورا[1] — وهى الصغرى منهما — وطلب عصا؛ فقالت له: ادخل بيت أبى الّذى يأوى فيه فخذ عصاك . وكان فيه عصىّ كثيرة — فدخل موسى البيت وأخذ من العصىّ عصا حمراء؛ فقال له شعيب : هذه من أشجار الجنة أهداها الله إلى آدم ، ثم صارت إلى شيث و إدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وكلهم توكّأوا عليها ، فلا تخرجنّها من يدك . ثم أوصاه وحذّره من أهل مدين ، وقال : إنّهم قوم حسدة ، وإذا رأوك قد كفيتنى أمر غنمى حسدونى عليك ، فدلّوك على وادى كذا وكذا ، وهو كثير المرعى ، وإنما فيه حيّة عظيمة تبتلع الغنم ، فإن دلّوك عليه فلا تمرّ به ، فإنّى أخاف عليك وعلى غنمى .

فخرج موسى بالغنم — وكانت يومئذ أربعين رأسا — وقال فى نفسه : إنّ من أعظم الجهاد قتلَ هذه الحيّة . وتوجه بالغنم إلى ذلك الوادى؛ فلمّا قاربه أقبلت الحيّة إلى الغنم ، فقتلها موسى ورعى غنمه إلى آخر النهار، وعاد إلى شعيب وأعلمه الخبر؛ ففرح بقتلها ، وفرح أهل مدين وعظّموا موسى وأجلّوه؛ وقام موسى بغنم شعيب يرعاها ويسقيها، حتى انقضت المدّة التى بينهما ، وبلغت أربعمائة رأس وعزم موسى على المسير .

ذكر خبر خروج موسى — عليه السلام — من أرض مدين ومناجاته ومبعثه إلى فرعون

قال : ولما أراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال : يا موسى ، إنّى قد كبرت وضعفت ، فلا تضيّعنى مع كبر سنّى وكثرة حسّادى ، وتترك غنمى شاردةً لا راعى لها . قال موسى : إنّها لا تحتاج إلى راع ، وقد طالت غيبتى عن أمّى

(١) كذا ورد هذا الاسم فى التوراة وتاريخ العينى .

وخالتى وهارونَ أخى وأختى . فقال شعيب : إنى أكره أن أمنعك . وأوصاه بابنته وأوصاها ألّا تخالفه؛ وسار موسى — عليه السلام — بأهله يريد أرض مصر حتى بلغ جانب وادى طُوًى فى عشيّة شديدة البرد؛ وجاء الليل وهبّت الرياح وغيّمت السماء؛ فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على شفير الوادى، وأدخل أهله فيها؛ وهطلت السماء بالمطر؛ وكانت آمرأته حاملا، فجاءها الطلق، فجمع حطبا وقدح الزنادَ فلم يور، فرماه وخرج من البيت، فرآى نارا .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ولم يكن هناك نار بل نور .

قال الثعلبىّ : واختلفوا فى الشجرة ما كانت، فقيل: العوسجة . وقيل : العُنّاب .

قال الكسائىّ : وأمر موسى بخلع نعليه ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى * إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ .

قال : لأنه كان يركزها فى الأرض ويعلّق عليها كساءه وإداوته ونعليه، ويقاتل بها السباع، ويستظلّ بها من الشمس .

قال الله تعالى : ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ على مثال الثعبان العظيم .

قال : فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .

فلما أمعن فى الهرب قال له جبريل : أتهرب من ربك وهو يكلمك ؟ قال : ما فررت إلا من الموت . ورجع وهى بحالها ؛ قال الله تعالى : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ .

فأدخل يده فى فيها فإذا هى عصا ؛ ثم قال الله له : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ فذهب الخوف عن موسى ؛ ثم أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون ، فقال : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ . قال موسى : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ .

قال : ثم تذكر موسى ما كان منه فقال : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . فنودى : يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . ثم ذكره الله منته عليه فقال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ الآيات ؛ ثم قال الله تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ .

قال : وكان الخطاب لموسى وحده ، والرسالة له ولهارون .

قال : وأما ابنة شعيب فاشتد بها الطلق ، وسمع سكان الوادى من الجن أنينها ، فأتوها وأوقدوا النار عندها ، وقبلوها ؛ وقيض الله تعالى لها من ردها إلى أبيها ؛ والله المعين .

ذكر خبر مسير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمّه

قال الكسائىّ : وسار موسى من الطُّور حتى بلغ العمران؛ وكان هارون يومئذ وزيرا لفرعون على عادة أبيه لا يفارقه ليلا ولا نهارا ؛ فبينما هو نائم إلى جنب سرير فرعون إذ أتاه آت فى منامه ومعه شراب فى كأس من الياقوت ، وقال : يا هارون اشرب هـذه الشربة فهى بشارة بقدوم أخيـك من أرض مدين ، وأنت شريكه فى الرسالة إلى فرعون .

فانتبـه هارون فزِعا وظنّ ذلك من الشيطان ، وعاد إلى النوم، فعاوده القائل ثلاث مرّات ؛ ثم قال له : قم إلى أخيك — وكانت الأبواب مغلّقة — فاحتمله الملَك إلى قارعة الطريق وقال له : امض واستقبل أخاك . ثم أتاه جبريل بوحى الله وبشّره بالرسالة ، وحمـله إلى شاطئ النيل، وموسى إلى الجانب الآخر؛ فكان يكلّمه والريح تحمـل كلامه إلى هارون ؛ ثم أذن الله لهما أن يلتقيا ؛ فجاء موسى إلى الجانب الآخر، فالتقيا ؛ وبشّره بشركته فى الرسالة ؛ ثم أقبـلا إلى أمّهما وجبريل معهما ، فطرق هارون الباب وأمّه فى صـلاتها ، فقامت من محرابها وقالت : من بالباب؟ فقال موسى : أنا ولدك موسى وأخى هارون . ففتحت الباب، ووقعت مغشيّا عليها من الفرح؛ ثم أفاقت؛ وذكر لها موسى ما كان من أمره؛ فسجدتْ لله تعالى؛ ثم حمل جبريل هارونَ وأعاده عنـد رأس فرعون؛ وأقام موسى بقيّة ليلته عنـد أمّه ، وخرج من الغـد متنكّرا ، فنظر إلى ما أحدثه فرعون فى أرض مصر ورجع حتى أقبلت الليلة الثانية، فخرج وجاء إلى قصر فرعون وبه الحجّاب والحرس والجنود، فقرع الباب بعصاه، فانفتح ودخل حتى بلغ القبّة الأُرجوانيّة، فانفتحت وعبرها وفرعون نائم بها، وهارون عند رأسه؛ فقام إليه هارون وقال : لقد عجلتَ يا أخى . وأخرجه؛ فانصرف، وغُلِّقت الأبواب كما كانت .

فلمّا كان من الغد جاء إلى فرعون فعرفه بعضهم، وأنكره البعض، وجاء بعض الوزراء إلى فرعون وأخبره به، فأرعدت فرائصه، وأمر هامانَ أن يخرج إليه؛ فخرج وسأله عن اسمه، فأخبره أنه موسى؛ فعاد هامان إلى فرعون وأعلمه أنه هو؛ فنظر إلى هارون وقال : أيَقدَم أخوك ولم تعلمني به ؟ فقال : أردت ذلك وإنما خشيت غضبك . ٥

ذكر خبر دخول موسى – عليه السلام – إلى فرعون وما كان من أمره معه

قال : وأمر فرعون أن يزيّن قصره، وجلس والتاج على رأسه، ووقف الوزراء عن يمينه وشماله، وأُحضِر موسى؛ فلمّا رآه عرفه، ثم قال له : من أنت ؟ قال : ١٠ أنا عبد الله ورسوله وكليمه . قال : أنت عبد فرعون . قال : إن الله أعزّ من أن يكون له ندّ . قال له فرعون : إلى من أرسلت؟ قال : إليك وإلى جميع أهل مصر . قال: فبماذا؟ قال: أن يقولوا لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّي موسى عبده ورسوله . قال : فما حجّتك ؟ فإنّ لكلّ مدّع بيّنة . قال : إن أتيتك ببيّنة تؤمن ؟ قال : نعم . قال موسى : ياهارون، انزل عن الكرسيّ وبلّغ فرعون الرسالة . ١٥ فنزل وقال : يا فرعون . إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . فقال فرعون : فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ، الآيات .

فغضب فرعون على هارون، وأمر هامانَ بنزع ما عليه من اللباس؛ فنزعه حتى بقي بالسراويل، فألبسه موسى مِدرَعة الصوف؛ فاقشعرّ جلده؛ فنزل جبريل ٢٠ بقميص كوّنه الله تعالى فكان وألبسه إياه؛ فقال فرعون لهامان : احمل موسى

وأخاه إلى منزلك ودارهما، فإن أطاعانى مكّنتهما من خزائنى ، ولا أقطع أمرا دونهما . ففعل ذلك ؛ فقالا له : يا هامان آشترِ نفسك من ربّك . فضحك من قولهما، ثم أحضرهما من الغد إلى فرعون؛ فأقبل على موسى وقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى عن النبوّة ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ثم قال : تذبّح أبناءهم وتستحيي نساءهم، فشكوك إلى ربّ العالمين . وكان فرعون متكئا ، فاستوى جالسا وقال : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ . فالتفت فرعون لمن حوله وقال : ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ . قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . قال فرعون : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ *

ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانا واليد البيضاء

قال : وبينما هما فى المخاطبة وإذا بالعصا آضطربت فى كف موسى ؛ فناداه جبريل: أطلقها يانبيّ الله . فألقاها موسى ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ كأعظم ما يكون؛ ثم تمثّل مثال الجمل البُختيّ وقام على رجليه حتى أشرف برأسه على حيطان القصر وتنفس نارا ودخانا ، وعطف على قبّة فرعون فضربها فطحطحها ، وجعلت لا تمرّ بشىء إلّا آبتلعته، وهاجت كالجمل المغتلم ولها صوت كالرعد؛ وأقبلتْ إلى قبّة فرعون وهو فيها ، فوضعت لَحيها الأسفل تحت القبة، ولحيها الأعلى فوقها، ورفعت القبّة

ثمانين ذراعا فى الهواء ، وقالت : يا فرعون ، وعزّة ربّى لو أذن لى لأبتلعتُك بقصورك وأموالك . فلمّا نظر فرعون إلى ذلك وثب عن سريره — وهو أعرج — وجعل يعدو و يقول : يا موسى بحقّ التربية والرضاع ، وبحقّ آسية كفّها عنّا . فناداها ، فأقبلت ، فأدخل يده فى فيها ، وقبض على لسانها فإذا هى عصا كما كانت ؛ فعاد فرعون إلى مكانه وقال : يا موسى ، لقد تعلّمتَ بعدى سحرا عظيما . قال : يا فرعون ، ﴿ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ ﴾ . قال فرعون : هل عندك سحر غير هذا؟ قال : نعم ؛ فأدخل يده فى جيبه ، ثم أخرجها وعليها نور وشعاع ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ .

ذكر خبر السّحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم

قال : فأمر فرعون بجمع السَّحَرة ؛ فاجتمع إليه سبعون ألف ساحر ؛ فاختار منهم سبعين ساحرا — وهم أحذق الخَلْق — .

وحكى الثعلبىّ عن عطاء قال : كان رئيسا السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين ؛ فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمّهما : دلّينا على قبر أبينا . فدلّتهما عليه ؛ فأتياه فصاحا بآسمه ، فأجابهما ؛ فقالا له : إن الملك قد وجّه إلينا أن نَقدَم إليه ، لأنّه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح ، ولهما عزّ ومنعة ، وقد ضاق الملك ذَرعا بهما ، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لها شىء حتى تبتلع الحديد والخشب والحجارة . فأجابهما أبوهما : أُنظرا إذا هما ناما ، فإن قدرتما أن تسُلّا العصا فسُلّاها ، فإنّ الساحر لا يعمل سحرُه وهو نائم ، فإن عملت العصا وهما نائمان فذلك

أمر ربّ العالمين فلا طاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا . فأتياهما خفية وهما نائمان ليأخذاها، فصدّتهما .

قال الكسائىّ : وبعث فرعون إلى موسى فأحضره وقال ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ .

قال : ويوم الزينة هو أوّل يوم من السنة ؛ فلمّا كان فى ذلك اليوم اجتمع الناس من أطراف أرض مصر فى صعيد واحد، فأخذ فرعون يقول للسحرة : اجتهدوا أن تغلبوا موسى . قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قال فرعون : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

وأقبل موسى وهارون وقد أحدقت بهما الملائكة ، فرأى موسى الوادى وقد امتلأ من الحبال والعصىّ ؛ فقال موسى : وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى . (٧٧)

قال : وكان فى السحرة ساحران عظيمان — وهما رأس السحرة — فقالا : يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . فهمّ موسى أن يُلقى، فمنعه جبريل ، وأجرى الله على لسانه فقال : بَلْ أَلْقُوا ؛ فألقوا وسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ . فامتلأ الوادى من الحيّات ، وجعلت يركب بعضها بعضا ؛ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا

صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ فعندها زال خوفه وقال : مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ . ثم ألقى عصاه فى وسط الوادى ، فانكشف سحر السحرة ، و بطل ما أظهروه من التخييل ، فإذا هى حبال وعِصِىّ ، وصارت عصا موسى ثعبانا له سبعة أرؤس ، وعلى ظهره مثل الأزِجة(١) ، فابتلعت الحبالَ والعِصِىَّ وجميعَ ما كان فى الوادى من الزينة ؛ فقام فرعون ووزراؤه فوقفوا على تل ينظرون فعل الحية وهم خائفون ؛ ثم حملتْ على السبعين رجلا فولَّوا هاربين على وجوههم ؛ ثم اجتمعوا بأجمعهم وقالوا : ماهذا بسحر . وخرّوا سجّدا ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

قال : فاغتمّ فرعون لذلك وقال للسحرة : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وأمر أن يفعل بهم ذلك ؛ فقالوا ما أخبر الله به تعالى عنهم : ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

ثم صُلبوا على سبعين جذعا بعد أن قطّع فرعون أيديهم وأرجلهم .

ذكر خبر حزقيل مؤمن آل فرعون

قد قيل : إن خبر مؤمن آل فرعون كان قبل خبر السحرة ، وسياق الآيات يدل على أن خطابه لفرعون كان بعد خبرهم ؛ وذلك أنه لما كان من أمر السحرة

(١) زاد الكسائى بعد هذه الكلمة : « والأسنة » .

ماذكرناه، قال الملأ من قوم فرعون ما أخبر الله تعالى به عنهم؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ . وقال الله تعالى إخبارا عن فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ .

قال : فلمّا عزم فرعون على قتل موسى، أقبل حزقيل على القوم — وكان خازنَ فرعون وزوجَ ماشطةِ بناته — فقال ما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ ٱللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ .

ففزع فرعون من قوله وقال : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

فخوّفهم المؤمن وقال ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

فلما سمع فرعون كلامه غضب وقال : كأنّك ممن اتبع موسى ، فارجع عن ذلك وإلّا عاقبتك بأنواع العذاب . فقال له حزقيل : يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، الآيات .

ثم قال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ، ولحق بموسى وهارون ، وفارق فرعونَ وقومه ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ .

وحكى الثعلبيّ أنّ فرعون قتله مع السحرة صَلبا ؛ ثم ذكر بعد ذلك أنه كان مع موسى عليه السلام لمّا فرق الله له البحر ؛ والله تعالى أعلم .

ذكر خبر بناء الصرح وما قيل فيه

قال : ولما انقضى أمر السحرة أقبل فرعون على هامان وقال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ .

قال : فجمع هامان خمسين ألف صانع وصنع القِرْميد — وهو الآجُرّ ، وهامان أوّل من صنعه — فكانوا يبنون فيه ليلا ونهارا لا يَفتُرون ؛ فلمّا تكامل الصرح وارتفع ارتفاعا عظيما ، أمر الله عزّ وجلّ جبريل فهدمه وجعل عاليَه سافلَه ومات كلُّ من كان فيه على دين فرعون ، والمؤمنون يزيدون ويجتمعون إلى موسى عليه السلام .

وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — أن الصرح اجتمع فيه لبنائه خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء ممّن يطبخ الآجُرّ والجِصّ وينجر الخشب والأبواب ويضرب المسامير ؛ فلم يزل يبنى ذلك الصرح ؛ ويسّر الله تعالى له أمره

آستدراجا منه ، فأتى الأمر فيه على ما يريد ، إلى أن فرغ فى سبع سنين، فارتفع آرتفاعا لم يبلغه بنيانُ أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض؛ فشقّ ذلك على موسى ، فأوحى الله تعالى إليه : أن دعه وما يريد فإنّى مستدرجه ومبطل كلّ ما عمله فى ساعة واحدة .

٥ قال : فلمّا تم بنيانه بعث الله عزّ وجلّ جبريل فضرب بجناحه الصرح، فقذَف به على عسكر فرعون، فقتل منهم ألفى ألفِ رجل .

قالوا : ولم يبق أحد ممّن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة .

قال : وكان تدمير الله تعالى الصرحَ فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

قال : فلمّا رأى فرعون ذلك من أمر الله، وعلم أنّ حيلته لم تغن عنه شيئا

١٠ عزم على قتال موسى ومن معه، وأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ؛ فلما رأى آلله تعالى ذلك من فعل فرعون وقومِه ، وأنه حَقّت عليهم كلمة العذاب، ابتلاهم الله تعالى بالعذاب والآيات .

ذكر خبر الآيات التسع

قال الكسائىّ : ثم أخذ الله تعالى قوم فرعون بالآيات التسع ، فكان أوّل

١٥ ماجاءهم الطوفان، فدام عليهم ثمانية أيام لا يرون فيها شمسا، حتى آمتلا ت الأسواق والدُّور، وأَخذتْ فى الخراب؛ فآلتجأوا إلى فرعون، فقال : سأكشف ذلك عنكم . ودعا موسى وسأله أن يدعو برفع الطوفان ليؤمن به ؛ فطمع موسى فى ذلك، فسأل الله تعالى، فرفع ذلك عنهم ، فآزدادوا كفرا، فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكل أشجارهم وزرعهم، ودام ثمانية أيّام، ففزعوا إلى فرعون، فوعدهم بصرفه عنهم

٢٠ وضمن لموسى إن صرفه عنهم آمن به؛ فدعا ربّه، فأرسل الله على الجراد ريحا باردة

فقتلتـه ، فلم يؤمنوا ؛ فبعث الله عليهم القُمَّل فأكل جميـع ما فى بيوتهم ، وقرض ثيابهم وأبدانهم وشـعورهم ؛ فضجّوا إلى فرعون ، فسأل موسى ووعده الإيمـان ؛ فسأل الله تعالى ، فصرفه عنهم بعد ثمـانية أيام وأماته ، فازدادوا كفرا ؛ فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع ، فكانت تدخل فى طعامهم وشرابهم ، وكانت لها رائحـة منتنة فدامت ثمانية أيام ؛ فسأل موسى ؛ فلما كشفها الله عنهم لم يؤمنوا وازدادوا كفرا ؛ ٥ فأمر الله تعالى موسى : أن اضرب بعصاك النيل . فضربه فتحوّل دما عبيطا ، فاشتدّ بهم العطش ، فكان الإسرائيلىّ والفرعونىّ يأتيان إلى موضع واحد ، فإذا أخذه الإسرائيلىّ يكون ماء ، وإذا أخذه الفرعونىّ كان دما ، فدام ذلك ثمـانية أيّام حتى أجهدهم العطش وأشرفوا على الهلاك ؛ فلمّا كشفه الله عنهم بدعوة موسى ازدادوا كفرا .

ذكر خبر مسخ قوم فرعون ١٠

قال : ولمـا لم يؤمنوا بهـذه الآيات ، قال موسى : رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَـةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَـا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَـذَابَ الْأَلِيمَ ؛ وكان الدعاء من موسى ، والتأمين لهارون ؛ فأوحى الله إليهما : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ الآية .

قال : فطمس الله تعالى على كثير منهم ، حتى أصبح الرجال والنساء والصبيان ١٥ والأموال كلّها حجارة ، فلم يؤمنوا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَـاتٍ ﴾ .

قال عمر بن عبد العزيز فى تفسيره : كان أوّل الآيات العصا ، واليـد البيضاء والطُّوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والطَّمْس والبحر حتى صار يَبَسا .

هذا ملخّص ما حكاه الكسائىّ . ٢٠

وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ فى قصصه عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير وقتادة ومحمد بن إسحاق وغيرهم من أصحاب الأخبار — دخل حديث بعضهم فى حديث بعض — قالوا : لما آمنت السحرة وصلبهم فرعون، وآنصرف موسى وهارون إلى عسكر بنى إسرائيل، أمر فرعون أن يكلّفوا بنى إسرائيل ما لا يطيقونه، فكان الرجل من القبط يجىء إلى الرجل من بنى إسرائيل فيقول له : انطلق معى فآكنس حُشّى[1] واعلف دوابّى وآستق لى . وتجىء القبطية إلى الكريمة من بنى إسرائيل فتكلّفها ما لا تُطيق، ولا يطعمونهم فى ذلك كلّه خبزا، واذا انتصف النهار يقولون لهم : اذهبوا فاكسبوا لأنفسكم . فشكَوا ذلك إلى موسى ، فقال لهم : اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قالوا : يا موسى : أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، كنا نطعَم اذا آستعملونا من قبل أن تجيئنا، فلمّا جئتنا آستعملونا ولا يُطعِموننا . فقال لهم موسى : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ يعنى فرعون والقبط ، وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

قالوا : فلمّا أبى فرعون وقومُه إلّا الإقامة على الكفر، والتمادىَ فى الشر والظلم، دعا موسى ربّه وقال : ربّ إن عبدك فرعون طغى فى الأرض و بغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك وأخلَفوا وعدك، ربّ فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ، ولمن بعدهم من الأمم عبرة . فتابع الله عليهم الآيات المفصّلات بعضها فى إثر بعض، فأخذهم بالسنين ونقصٍ من الثمرات ، ثم بعث عليهم الطوفان (وهو الماء) أرسل عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، و بيوتُ بنى إسرائيل و بيوتُ القبط مشبّكة مختلطة بعضُها فى بعض، فآمتلأت بيوتُ القبط حتى قاموا فى الماء

(١) الحش : يكنى به عن بيت الخلاء؛ وهو مثلث الحاء .

إلى تَراقيهم، فمن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوتَ بنى إسرائيل من الماء قطرة وفاض الماء على وجه أراضيهم كذلك، فلم يقدروا على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئا؛ ودام ذلك عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت؛ فقالوا لموسى : ادع لنا ربّك يكشف عنّا هذا البلاء ونؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا موسى ربّه فرفع عنهم الطوفان، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، وعادوا أشرّ مما كانوا عليه . ٥

وآختلف العلماء فى الطوفان ماهو؛ فقال آبن عبّاس — رضى الله عنهما — : هو الماء أرسله الله تعالى عليهم .

وقال مقاتل : هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها .

وقال الضحّاك : هو الغرق . ١٠

وقال مجاهد وعطاء : هو الموت الذريع .

وقال وهب : هو الطاعون بلغة أهل اليمن ، أرسل الله الطُّوفان على أبكار آل فرعون فقبضهنّ فى ليلة واحدة، فلم يُبق منهنّ واحدة ولا دابة .

وقال أبو قِلابة : الطُّوفان هو الجُدَرىّ، والله تعالى أعلم .

قالوا : وأنبت الله تعالى لهم فى تلك السنة من الكلإ والزرع ما لم يَنبُت قبل ذلك ، فأَعشبت بلادهم وأَخصبتْ ، فقالوا : هذا ما كنّا نتمنّاه ، وما كان هذا الماء إلّا نعمةً لنا وخِصبا . فأقاموا شهرا فى عافية ؛ ثم بُعث عليهم الجرادُ فأكل زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم والزهرَ، حتّى إن كان ليأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمسامير حتى سقطتْ دورهم ، والجراد لا يدخل بيوت بنى إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شىء؛ فعَجّوا وضجّوا، وقالوا : ١٥ ٢٠

يَا مُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ فأعطوه عهد ٱلله وميثاقه ؛ فدعا موسى ربّه ، فكشف الله تعالى عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت .

ويقال : إن موسى برز إلى الفضاء ، فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يكن قطّ .

قالوا : فأقاموا شهرا فى عافيـة ؛ ثم بعث الله عليهم القُمَّل ، وذلك أن موسى أُمر أن يمشى إلى كثيب أغبَر بقـرية من قرى مصر تدعى : (عين شمس) فمشى موسى إلى ذلك الكثيب — وكان عظيما — فضربه بعصاه ، فٱنثال عليهم القُمَّل فتتبّع ما بقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض كلّها ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعَضّه ، وكان يأكل أحدهم الطعامَ فيمتلئ قُمَّلا ، حتى إن أحدهم ليبنى الأسطوانة بالجِصّ فيُزَلِّقُها حتى لا يَرتقِى فوقها شىء ، ثم يرفع فوقها طعامه ، فإذا صعد إليه ليأكله وجده ملآن قُمَّلا ، فما أصيبوا ببلاء كان أشدّ عليهم من القُمَّل ؛ وأخذ القمل شعورهم وأشـفارَ عيونهم وحواجبهم ، ولصق بجلودهم كالجُدَرىّ ، ومنعهم النوم والقرار ، ولم يستطيعوا له حيلة .

وقد ٱختلفوا فى القُمَّل ما هو ؟ فروى عن أبى طلحة أنّه الذباب لا أجنحة له .

وروى مَعمرٌ عن قَتادة قال : القمّل أولاد الجراد .

وعن عبد الرحمن بن أسلم قال : هو البراغيث .

وقال عطاء : هو القَمْل ؛ دليـله قراءة الحسن : « والقَمْل » بفتح القـاف وسكون الميم .

وقال أبو عبيدة : هو الحَمْنان ، وهو ضرب من القردان .

وقال سعيد بن جُبير عن ٱبن عبّاس — رضى الله عنهم — : القُمَّل، هو السوس الذى يخرج من الحنطة والحبوب، فكان الرجل يُخرج عشرة أقفزةٍ فلا يردّ منها إلّا ثلاثة أقفزة؛ فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا : يٰأيّها الساحر أى أيّها العالم إنا نتوب إلى الله ولا نعود ، فٱدع لنا ربّك يكشف عنا هذا البلاء .

فدعا موسى ربه ، فرفع الله تعالى عنهم القُمَّلَ بعد ما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت، ثم نكثوا العهد ، وعادوا إلى خبث أعمالهم ، وقالوا : ما كنّا قطّ أحقّ أن نستيقن أن موسى ساحر إلّا اليوم، فيَجعل الرملَ والرماد دوابَّ، فعلى ماذا نؤمن به ونرسل معه بنى إسرائيل ؟ فقد أهلك زرعنا وحروثنا، وأذهب أموالنا، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل، وعزّة فرعون لا نصدّقه أبدا ولا نتبعه .

فدعا عليهم موسى بعد ما أقاموا شهرا فى عافية — وقيل أربعين يوما — فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفّة النيل فيَغرز عصاه فيه، ويشيرَ بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفلِه؛ ففعل موسى ذلك، فتداعت إليه الضفادع بالنّقيق من كلّ جانب حتى أعلم بعضها بعضا، وأسمع أدناها أقصاها ؛ ثم خرجت من النيل مثل البحر تدبّ سِراعا نحو باب المدينة، فدخلت عليهم فى بيوتهم بغتة، وٱمتلأت منها أفنيتُهم وأبنيتُهم وأطعمتهم ؛ وكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما ولا شرابا إلّا وجد فيه ضفادع ؛ وكان الرجل يجلس الى ذقنه فى الضفادع ، ويهمّ أن يتكلّم فيثب الضفدع فى فيه؛ وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعا بعضها فوق بعض، وصارت عليه حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شِقّه الاخر؛ وكان أحدهم يفتح فاه لأكلتِه فتستبق الضفادع إلى فيه؛ وكانوا لا يعجنون إلّا ٱنشدخت فيه، ولا يطبخون إلا ٱمتلأت القدر بالضفادع؛ وكانت تثب فى نيرانهم فتطفئها، وفى طعامهم فتفسده؛ فلقُوا منها أذًى شديدا .

وروى عن عكرمة عن ابن عبّاس — رضى الله عنهم — قال : كانت الضفادع برّيّة ، فلمّا أرسلها الله على فرعون سمعت وأطاعت ، فجعلت تقذف أنفسها فى القدر وهى تفور ، وفى التنانير وهى مسجورة ، فأثابها الله بحسن طاعتها بَرْدَ الماء .

٥ قال : فضجّوا إلى فرعون من أمر الضفادع ، وضاق عليهم أمرُهم حتى كادوا يهلكون ، وصارت المدينة وطرقها مملوءةً جِيَفًا من كثرة ما يطأونها بأقدامهم ، فلما رأوا ذلك بكَوا وشكَوا ذلك إلى موسى ، وقالوا : اكشف عنّا هذا البلاء فإنا نتوب هذه المرّة ولا نعود . فأخذ بذلك عهودهم ومواثيقهم ، ثم دعا الله تعالى فكشف عنهم الضفادع ، فما كان منها حيًّا لحق بالنيل ؛ وأرسل الله تعالى ريحا على ١٠ الميت منها فنحّته عن مدينتهم بعد ما قامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فأقاموا شهرا فى عافية ؛ وقيل : أربعين يوما . ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم ؛ فدعا عليهم موسى ، فأرسل الله تعالى عليهم الدم ، وذلك أنّ الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطئ النيل ويضربه بعصاه ؛ ففعل ذلك ، فسال النيل عليهم دما ، وصارت مياههم كلّها دما عبيطا ، فما يشربون من الأنهار والآبار ١٥ إلّا وجدوا دما أحمرَ عَبيطا ؛ فشكَوا ذلك إلى فرعون وقالوا ؛ إنّا قد ابتُلينا بهذا الدم ، وليس لنا شراب . فقال : إنّه قد سحركم . فكان يُجمَع بين الرجلين على الإناء : القبطىّ والإسرائيلىّ فيُسقَيان من ماء واحد ، فيخرج ماء القبطى دما ، وماء الإسرائيلىّ عذبا ؛ وكانا يقومان إلى الجرّة فيها الماء ، فتُخرِج للإسرائيلىّ ماء وللقبطىّ دما ، حتى إنّ المرأة من آل فرعون كانت تأتى المرأة من بنى إسرائيل حين ٢٠ جهَدَهم العطش فتقول : اسقينى من مائك . فتغرف لها من جرّتها ، وتصبّ لها من قربتها ، فيعود فى الإناء دما ، حتى إن كانت المرأة تقول لها : اجعليه فى فيك

ثم تُجيه فى فمى . فتأخذ فى فيها ماء، فإذا مجّته فى فيها صار دما، والنيل على ذلك يسقى الزرع والشجر؛ فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دما عبيطا .

(٨١) قالوا : وإنّ فرعون اعتراه العطش فى تلك الأيام، حتى إنه اضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فكان إذا مضغها يصير ماؤها فى فيه ملحا أُجاجا ومرّا زُعاقا؛ فمكثوا فى ذلك سبعة أيّام لا يأكلون ولا يشربون إلّا الدم؛ فقالوا لموسى : ادع لنا ربّك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا موسى ربّه فكشف عنهم ذلك، وأمر أن يَضْرِب بعصاه النيل ضربة أخرى؛ ففعل فتحوّل صافيا كما كان، فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهَدوا عليه، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ ﴾ .

وقال نَوْفٌ البِكَالِىّ — وهو ابن امرأة كعب الأحبار — : مكث موسى فى آل فرعون عشرين سنة بعد ما غلب على السحرة يُريهم الآيات : الجراد والقُمَّل والضَّفادع والدم .

وقال الضحّاك : لمّا يئس موسى من إيمان فرعون وقومه، ورأى أنهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادى، دعا عليهم موسى وأمّن هارون . رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فأجاب الله دعاءه، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ الآية .

قال : وكان لفرعون وأصحابه من زهرة الدنيا وزينتها من الذهب والفضة واليواقيت وأنواع الجواهر والحلىّ ما لا يحصيه إلا الله تعالى؛ وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف — عليه السلام — فى زمانه أيّام القحط، فبقى ذلك

فى أيدى القبط ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : أنّى مورث بنى إسرائيل ما فى أيدى آل فرعون من العُروض والحلىّ ، وجاعلُه لهم جَهازا وعَتادا إلى الأرض المقدّسة فٱجعل لذلك عيدا تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونى وتذكرونى فيه وتعظّمونى ذلك اليوم ، وتعبدونى فيه لما أريكم من الظَّفَر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء وٱستعيروا لعيدكم من آل فرعون الحلىّ وأنواع الزينة ، فإنّهم لا يمتنعون عليكم للبلاء الحالّ بهم فى ذلك الوقت ، ولما قذفت لكم فى قلوبهم من الرعب . ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى ، فأمر فرعونُ بزينة أهله وولده وما كان فى خزائنه من أنواع الحلىّ ، فأُعيرت بنى إسرائيل لما أراد الله تعالى بذلك أن يَفىء على موسى وقومِه أفضلَ أموال أعدائه بغير قتال ولا إيجافِ خيل ولا رَجل ؛ فلمّا دعا موسى عليهم مسخ الله تعالى الأموالَ الّتى بقيتْ فى أيديهم حجارة حتى النخل والرقيق .

وقال محمد بن كعب : سألنى عمر بن عبد العزيز عن الآيات الّتى أراهن الله تعالى فرعونَ وقومه ؛ فقلت : الطُّوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والعصا واليد البيضاء والطَّمْس وفَلْق البحر .

قال عمر : كيف يكون الفقه إلّا هكذا . ثم دعا بخريطة فيها أشياء ممّا كان أصيب لعبد العزيز بن مروان لمّا كان على مصر من بقايا آل فرعون ، فأخرج البيضة مقسومة نصفين كأنّها الحجر ، والجوزة مشقوقة نصفين وكأنها الحجر ، والحِمّصةَ والعدسة .

وروى ابن إسحاق عن رجل من أهل الشأم كان بمصر قال : ورأيتُ نخلةً مصروعة كأنها الحجر .

قال : ورأيتُ إنسانا وما شككتُ أنه إنسان وإنّه لحَجَر ؛ وكان المسخ فى أرقّائهم دون أحرارهم ، إذ العبيد من جملة أموالهم ؛ فلم يَبقَ لهم مال إلّا مسخه الله تعالى ما خلا الذى فى أيدى بنى إسرائيل من الحلىّ والجواهر وأنواع الزينة .

قال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : أوّل الايات العصا ، وآخرها الطمس ؛ و بلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا ، وجُعِل سكّرهم حجارة ، و بعض المسخ من الآدميين باقٍ مشاهَد إلى وقتنا هذا ، وقد شاهدتُ أنا منه شخصا شكل خادم وهو جالس على كرسىّ بقرب البيت الأخضر ببلاد الجيزية ، وذلك فى شهور سنة سبع عشرة وسبعمائة ، ولعلّه من ذلك المسخ ؛ والله أعلم .

ذكر خبر قتل الماشطة

قال : وكانت لبنات فرعون ماشطة — وهى امرأة حِزْقيل المؤمن — فبينما هى تَمْشُط إحدى بناته إذ سقط المُشْط من يدها ، فقالت : تَعِس من كفر بالله . فقالت لها ابنة فرعون : إنما تريدين من كفر بأبى . فقالت : إنّما عَنيتُ من كفر بإله موسى . فقامت إلى أبيها وأخبرته ؛ فغضب وأحضرها وقال : ما الّذى بلغنى عنك؟ قالت : صدقوا ، أنا مؤمنة بإله موسى ، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ . فشدّها إلى أوتاد من حديد ، وأحضر أولادها الثلاثة ، وعرض عليها أن تؤمن به ؛ فأبت ، فذبحهم على صدرها وهى تحمد الله تعالى ؛ ثم طرحها فى تنور من نحاس وأحرقها فيه وأحرق أولادها .

(٨٢)

ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم امرأةِ فرعون

قال : لما قتل فرعون الماشطة ، سمعت آسيةُ الملائكة تعدها بالجنة ، فقامت من مجلسها وهى تقول : يا إله موسى ألبسنى الصبر وارزقنى الشهادة وابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وخرجت على فرعون وهى حاسرة عن وجهها ، وقالت له : يا ملعون ، الى كم تقتل أولياء الله

وتأكل رزق الله وتكفر نعمته ولا تشكره، وترى آياته ولا تعتبر بها؟ فقال لوزرائه: قد أفسد عليّ موسى حتّى آسيةَ؛ وآستشارهم فى أمرها؛ فأشاروا عليه بقتلها، فأمر بنزع ما عليها؛ وشدّها إلى أوتاد فى الأرض، وضرب وتدين فى صدرها فماتت — رضى الله عنها — .

ذكر خبر آنقطاع النيل وكيف أجراه الله عزّ وجلّ لفرعون

قال الكسائىّ: ثم بعث الله تعالى الظُّلمة على أهل مصر ثلاثة أيام، فلم يعرفوا اللّيل من النهار، وآنقطع عنهم النيل حتى أضرّ بهم العطش؛ فشكوا ذلك إلى فرعون فأمر بجمع الجنود وخرج ليُجْرِيه؛ فلمّا قرب من مكانه آنفرد عن القوم ونزل عن فرسه وقال: إلهى إنك إله السماء والأرض لا إله إلا أنت، وحلمك الذى يحملنى أن أسألك ما ليس لى بحق، والخَلق خَلقُك، وقد علمتَ ماهم فيه من العطش وأنت المتكفّل بأرزاقهم؛ اللهم أجرلهم النيل. فما فرغ من كلامه حتى آنصبّ النيل، وركب فرسه والنيلُ يجرى معه إن سار سار وإن وقف وقف، حتى دخل مصر، فسجد القوم له، وازدادوا كفرا؛ وعجب موسى وهارون لذلك.

ذكر خبر غرق فرعون وقومه

قال الكسائىّ: ولما رجع فرعون بجنوده وقد أجرى لهم النيلَ بزعمهم، دخل عليه جبريل فى صورة آدمىّ حسن الهيئة، فقال له: من أنت؟ قال: عبد من عبيد الملك جئتُك مستعديا على عبد من عبيدى مكّنتُه من نعمتى، وأحسنتُ إليه كثيرا، فآستكبر وبغى وجحدنى حقّى وتسمّى بآسمى، وآدّعى فى جميع ما أنعمتُ عليه به أنّه له، وأنّه لا منعم عليه به. قال فرعون: بئس ذلك من العبيد. قال جبريل: فما جزاؤه عندك؟ قال: يُغرَق فى هذا البحر. فقال له جبريل: أسألك

أن تكتب لى خطّك بذلك . فكتب له فرعون خطّا، وأخذه جبريل وجاء به إلى موسى ، وأمَرَه عن الله عزّ وجلّ أن يرتحل بقومه عن مصر؛ فنادى موسى فى بنى إسرائيل وأمرهم بالرحيل؛ فارتحلوا وهم يومئذ سِتّمائة ألف .

قال الثعلبىّ : سِتّمائة ألف وعشرون ألفا لا يُعَدّ فيهم ٱبن سبعين سنة ولا ٱبن عشرين سنة؛ ولكنّ هؤلاء المُقاتِلةُ سوى الذرّيّة . وأهل التوراة يقولون: إنه لا يُعَدّ فيهم ٱبن خمسين سنة ولا ابن عشرين سنة ، لا خلاف عندهم فى هذا ويزعمون أنه نصّ التوراة .

قال الكسائى : فلما سمع فرعون بارتحالهم أمر باجتماع جنوده؛ قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ . فاجتمعوا وهم لا يُحصَون كثرة .

قيل : إنّ هامان كان على مقدِّمة فرعون بألف ألف وسِتّمائة ألف .

وقال الثعلبىّ : ألف ألفٍ وسبعِمائة ألف رجل على ألف ألفٍ وسبعِمائة ألفِ حصان .

قال : وقال ٱبن جريج : أرسل فرعون فى أثر موسى وقومِه ألفَ ألفٍ وخمسَمائة ألف مَلِك مسوَّر، مع كل ملك ألفُ رجل؛ ثم خرج فرعون خَلْفَهم فى الدُّهْم ، وكان فى عسكره مائة ألف حصان أدهمَ سوى سائر الشِّيات ، وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ .

قال الكسائىّ: وساروا حتى قربوا من موسى ومن معه، فقالوا: يا موسى، قد لحقَنا فرعونُ بجنوده، والبحر أمامنا والسيف وراءنا . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

فأوحى الله تعالى إلى موسى : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فضربه ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ . وصار فيه ٱثنا عشر طريقا للأسباط ٱلإثنى عشر

فجعلوا يسيرون وموسى أمامهم وهارون وراءهم، وجعل الله بينهم فتحا ليرى بعضهم بعضا، وجاء فرعون ومن معه إلى البحر ورأى تلك الطرق فيه، فقال لهامان: هذه تفرقت من هيبتى. وقصد الاقتحام فلم يطاوعه فرسه — وكان حصانا — ونفر من العُبور؛ فأتاه جبريل على رَمَكة فى صورة آدمىّ، فدنا من فرعون وقال: ما يمنعك من العُبور؟ وتقدّم إلى جنبه، فاشتمّ فرسُ فرعون رائحة الرَّمَكة فتبعها ودخل فرعونُ وجنوده وجبريل أمامهم وميكائيل يسوق الناس، حتى لم يبق من جنود فرعون أحد على الساحل، فجاءه جبريل بخطّه؛ فلما رآه فرعون علم أنه هالك وانضمّت الطرق، وأُغرِق الناس، وفرعونُ ينظر إليهم؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. فقال له جبريل: الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ.

ثم غرق فرعون وجميع من معه وبنو إسرائيل ينظرون إليهم؛ ثم قال بنو إسرائيل: إنّ فرعون لم يَغرَق. فأمر الله تعالى البحر فألقاه على الساحل. قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾.

قال: فلمّا عبر موسى البحر ببنى إسرائيل إلى الطُّور، إذا هم فى طريقهم بقوم يعبدون الأصنام، قال الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، وأمرهم بالتوبة والاستغفار؛ ثم ساروا وفى قلوبهم حبّ الأصنام حتى قربوا من الطُّور.

ذكر خبر ذهاب موسى — عليه السلام — لميقات ربه وطلبه الرؤية وخبر الصاعقة والإفاقة

حكى أبو إسحاق الثعلبيّ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

٥ قال : كان ذلك فى شهر ذى القعدة وعشر من ذى الحجّة .

قال : وذلك أنّ موسى — عليه السلام — كان قد وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوّهم أن يأتيَهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذَرون ؛ فلمّا أهلك الله تعالى فرعون وقومَه وآستنقذ بنى إسرائيل من أيديهم ، وأمّنهم من عدوّهم ، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها ، قالوا : يا موسى آئتنا بالكتاب الذى وعدتنا به . فسأل موسى ربّه تعالى ذلك ؛ فأمره أن يصوم ثلاثين ليلة ثم ١٠ يتطهّر[1] و يطهّرَ ثيابه و يأتىَ طورَسيناءَ ليكلّمه و يعطيَه الكتاب ؛ فصام ثلاثين يوما ؛ فلمّا صعد الجبل أنكر خلوفَ فمه ، فآستاك بعودِ خرنوب .

وقال أبو العالية : أخذ من لِحاء الشجر فمَصّه ؛ فقالت له الملائكة : كنا نَشَمّ من فمك رائحةَ المسك فأفسدتَه بالسواك . فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيّام أُخر ، وقال له : أما علمتَ يا موسى أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح ١٥ المسك ؟

قال : وكانت فتنة بنى إسرائيل فى العشر ليالى التى زادها الله تعالى ؛ فلما مضت أربعون ليلة تطهّر موسى وطهّر ثيابه لميقات ربّه ؛ فلمّا أتى طورسيناء كلّمه ربّه وناجاه ، وقرّبه وأدناه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ .

(١) فى (أ) « يفطر » مكان « يتطهر » .

٢٠

قال وهب : كان بين الله تعالى و بين موسى سبعون حجابا ، فرفعها كلها إلّا حجابا واحدا، فسمع موسى كلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها، فقال ما أخبر الله — عزّ وجلّ — به عنه فى كتابه، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ . فقال الله تعالى له : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ وليس يطيق البشر النظرَ إلىّ فى الدنيا، من نظر إلىّ مات . قال : إلٰهى سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك، ولأن أنظر إليك ثم أموتَ أحبُّ إلىّ من أن أعيش ولا أراك . فقال له تعالى : ﴿ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾ وهو أعظم جبل يقال له : (الزَّبِير) .

قال : وذلك أنّ الجبال لمّا علمت أن الله تعالى يريد أن يتجلّى لجبل منها تعاظمتْ وتشامخت رجاء أن يتجلّى الله تعالى لها، وجعل الزَّبِيرُ يتواضع من بينها فلما رأى الله تعالى تواضعه رفعه من بينها، وخصّه بالتجلّى، قال الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ . فتجلّى الله تعالى للجبل .

قال : وٱختلف العلماء فى معنى التجلّى ؛

قال ٱبن عباس : ظهر نورُه للجبل .

وقال الضحّاك : أظهر الله تعالى من نور الحُجُب مثلَ منخر الثور . (٨٤)

وقال عبد الله بن سلام وكعب : ما تجلّى من عظمة الله تعالى للجبل إلّا مثل سَمّ الخياط حتى صار دكّا .

وقال السدّىّ : ما تجلّى منه إلّا قدر الخنصر .

وقال الحسن : أوحى الله تعالى إلى الجبل فقال : هل تطيق رؤيتى ؟ فغار الجبل وساخ فى الأرض وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع .

قال أبو إسحاق : قال أبو بكر محمد بن عمر الورّاق : حُكِى لى عن سهل بن سعد الساعدىّ أنّ الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر درهم ، فجعل الجبل دكّا .

قال أبو بكر : فعذُب إذ ذاك كلُّ ماء، وأفاق كلُّ مجنون، و برأ كلُّ مريض وزال الشوك عن الأشجار ، وٱخضرّت الأرض وٱهتزّت . وخمدت نيران المجوس وخرّت الأصنام لوجوهها .

وقال السّدىّ : ما تجلّى للجبل إلّا مقدار جناح بعوضة، فصار الجبل دكّا .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ترابا .

وقال سفيان : ساخ حتى وقع فى البحر .

وقال عطية العوفىّ : صار رملا هائلا .

وقال الكلبىّ : ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ ، أى كُسِّر جبالا صغارا .

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : صار بعظمة الله ستّة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة : أُحُد، ووَرِقان[1]، ورَضْوى[2] . ووقعت ثلاثة بمكّة : ثَوْر ، وثَبِير وحِراء . ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ . قال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : مغشيّا عليه .

وقال قتادة : ميّتا .

وقال الكلبىّ : خرّ موسى صعقا : يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر .

(١) فى الأصل : « وقانا » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : «وروضا» ؛ وهو تحريف .

قال الواقدىّ : لمّا خرّ موسى صعقا قالت الملائكة : ما لآبن عمران وسؤال الرؤيـــة .

قال وهب : لمـا سأل موسى الرؤية أرسـل الله تعالى الضّـباب والصواعق والظُّلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الّذى عليـه موسى، وأمر آلله تعالى ملائكة السمٰوات أن يُعرَضوا على موسى أربعةَ فراسخ من كلّ ناحيـة؛ فمرّت ملائكة سماء الدنيا كثيران البقر، تُتابِـع أفواهُهم التقديسَ والتسبيح بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية : أن آهبطوا على موسى . فهبطوا عليه مثـل أسد لهم نحيب بالتسبيح والتقـديس؛ ففـزع موسى ممـا رأى وسمع وآقشـعرّ جلده، ثم قال : ندمتُ على مسألتى، فهـل ينجينى من مكانى الّذى أنا فيه شىء؟ فقال له حَبْر الملائكة و رأسُهم : يا موسى آصبر لمـا رأيت، فقليـل من كثير رأيتَ . ثم هبطتْ ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور، لهم قَصْف ورَجْف بالتسبيح والتهليـل والتقديس كجَلَب الجيش العظيم وكلَهَب النـار؛ ثم هبطتْ عليه ملائكة السماء الرابعـة لا يشبههم شىء من الّذين مرّوا به قبلَهـم، ألوانهم كلهب النـار، وسائر خَلقهـم كالثلج الأبيض، أصواتهم عاليـة بالتسبيح والتقـديس لا يقاربهم شىء من أصوات الّذين مرّوا به قبلهم؛ ثم هبطتْ عليه ملائكة السماء الخامسـة فى سبعة ألوان، فلم يسـتطع موسى أن يُتبِعهـم الطَّرْف، لم يرَ مثلهـم ولا سمع مثـل أصواتهم، وآمتلأ جوف موسى فزعا، وآشتدّ حزنه وكثر بكاؤه؛ ثم قال له حبر الملائكة و رأسُهم : يآبن عمران، مكانك حتّى ترى ما لا تصبر عليه؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن آهبطوا على عبدى الّذى أراد أن يرانى؛ فعُرِضوا عليـه وفى يد كلّ منهم حربة مِثـلُ النخلة الطويلة، نارُها أشدّ ضوءا من الشمس، ولبـاسهم كلهب النّـيران، إذا سبّحوا وقدّسوا جاوَبَهم من كان قِبلهم

من ملائكة السموات ، كلّهم يقولون بشدّة أصواتهم : سبّوح قدّوس ربّ العزّة أبدا لا يموت . وفى رأس كل ملَك منهم أربعة أوجه؛ فلمّا رآهم رفع صوته يسبّح معهم ويبكى ويقول : ربّ اذكرنى ولا تنس عبدك، لا أدرى هل أتخلّص مما أنا فيه أم لا ، إن خرجتُ احترقت وإن مكثتُ مِت . فقال له كبير الملائكة ورئيسهم : قد أوشكت يا بن عمران أن يشتدّ خوفك ويخلع قلبك، فاصبر للذى سألت .

ثم أمر الله تعالى أن يُحمل عرشُه فى ملائكة السماء السابعة، فقال : أرُوه إيّاه. فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة ربّ العزّة، وردّدت ملائكة السموات أصواتهم جميعا ؛ فارتج الجبل ، واندكت كلّ شجرة كانت فيه ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ليس معه رُوحه ؛ فقلب الله تعالى الحجر الذى كان موسى عليه وجعله كهيئة القبّة لئلّا يحترق موسى؛ وأرسل الله عليه روحَ الحياة برحمته؛ فقام موسى يسبّح الله تعالى ويقول : آمنتُ أنّك ربّى وصدّقتُ أنه لا يراك أحد، فنجّنى، ومَن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه ، فما أعظمك وأعظم ملائكتك ! أنت ربّ الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، لا يَعدِلك شىء ، ولا يقوم لك شىء، تبت إليك، الحمد لك لا شريك لك ربّ العالمين .

ذكر خبر الألواح ونزول التوراة والعشر كلمات

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ .

(٨٥)

قال الثعلبيّ : ثم بعث الله جبريل — عليه السلام — إلى جنّة عدن فقطع منها شجرة ، فاتخذ منها تسعة ألواح، طول كلّ لوح عشر أذرع بذراع موسى ، وكذلك عرضه ، وكانت الشجرة من زمرّد أخضر ؛ ثم أمر الله تعالى جبريل أن يأتيه بسبعة أغصان من سدرة المنتهى ؛ فجاء بها ، فصارت جميعها نورا ، وصار النور[1] قلمًا طاف فيما بين السماء والأرض فكتب التوراة، وموسى يسمع صرير القلم؛ فكتب الله تعالى له ﴿ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وذلك يوم الجمعة، فأشرقت الأرض بالنور؛ ثم أمر الله تعالى موسى أن يأخذها بقوّة ويقرئها قومه ؛ فوضعت الألواح على السماء فلم تطق حملها لثقل العهود والمواثيق؛ فقالت : يا ربّ كيف أطيق حمل كتابك الكريم الثقيل المبارك ؟ وهل خلقت خلقا يطيق حمل ذلك؟ فبعث الله تعالى جبريل وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى ، فلم يطق حملها ، فقال : يا ربّ من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود؟ وهل خلقتَ خلقا يطيق حملها؟ فأمدّه الله تعالى بملائكة يحملونها بعدد كلّ حرف من التوراة؛ فحملوها حتى بلّغوها موسى؛ فعرضوا له الألواح على الجبل، فانصدع الجبلُ وخشع، وقال : ياربّ من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها ؟ فلمّا وضعتها الملائكة على الجبل بين يدى موسى — وذلك عند صلاة العصر — قبض موسى عليها فلم يُطق حملَها ، فلم يزل يدعو حتّى هيأ الله تعالى له حملها؛ فحملَها، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : وأمّا العشر كلمات الّتى كتبها الله تعالى لنبيّه موسى فى الألواح — وهى معظم التوراة، وعليها مدار كلّ شريعة — فهى : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، هذا

(١) إلى هنا انتهى ما لدينا من النسخة المشار إليها بحرف (ب) .

كتاب من الله الملك الجبّار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران، سبّحنى وقدّسنى، لا إله إلّا أنا فاعبدنى ولا تشرك بى شيئا، واشكر لى ولوالديك إلىّ المصير، أحيك حياة طيّبة؛ ولا تقتل النفس التى حرّم الله عليك فتضيق عليك السماءُ بأقطارها والأرضُ برُحبها؛ ولا تحلف باسمى كاذبا فإنّى لا أطهّر ولا أزكّى من لم يعظّم اسمى؛ ولا تشهد بما لا يعى سمعُك ولا تنظر عينُك ولم يقف قلبُك عليه فإنى أقف أهلَ الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة، وأسائلهم عنها؛ ولا تحسد الناس على ما آتيتُهم من فضلى ورزقى، فإنّ الحاسد عدوّ لنعمتى، ساخط لقسمتى؛ ولا تزنِ ولا تسرق فأحجبَ عنك وجهى، وأُغلِقَ دون دعوتِك أبواب السمٰوات؛ ولا تذبح لغيرى، فإنه لا يصعد إلىّ من قُربان الأرض إلّا ما ذُكِر عليه اسمى؛ ولا تغدرنّ بحليلة جارك فإنّه أكبر مقتا عندى؛ وأَحِبَّ للناس ما تحبّ لنفسك.

فهذه العشر كلمات؛ وقد أنزل الله — عزّ وجلّ — على نبيّنا محمد — صلى الله عليه وسلم — مثلها فى ثمانى عشرة آية، وهى قوله تعالى فى سورة بنى إسرائيل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ

خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ
فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا (٨٦)
بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا * ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهًا آخَرَ
فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ ثم جمعها فى آيتين من سورة الأنعام ، وهى قوله
تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَهْدِ ٱللهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقد روى أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — عن ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لمّا أعطى الله موسى الألواح نظر فيها وقال : ياربّ لقد أكرمتنى بكرامة لم تُكرم بها أحدا قبلى . ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ .

وأخرج[1] الحافظ : تموت على حبّ محمد عليه السلام . قال موسى : ياربّ وما محمد؟ قال : أحمد الذى أثبتّ اسمه على عرشى من قبل أن أخلق السمٰوات والأرض بألفى عام، وإنه لنبيّ وحبيبي وخِيرتى من خلقى، هو أحبّ إلىّ من جميع خلقى ومن جميع ملائكتى . قال : يا ربّ إن كان محمد أحبّ إليك من جميع خلقك فهل خلقتَ أمة أكرم عليك من أمتى . ؟ قال الله تعالى : إنّ فضل أمة محمد — عليه السلام — على سائر الأمم كفضله على سائر الخَلْق . قال : ياربّ ليتنى رأيتهم . قال : إنّك لن تراهم ، ولو أردتَ أن تسمع كلامهم لسمعتَ . قال : يا ربّ فإنّى أريد أن أسمع كلامهم . قال : يا أمة محمد . فأجبنا كلُّنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمهاتنا : لَبَّيْكَ اللّٰهمّ لبّيك لا شريك لك . قال الله تعالى : يا أمة محمد . إنّ رحمتى سبقت غضبى، وعفوى عقابى، قد أعطيتكم من قبل أن تسألونى، وقد أجبتكم من قبل أن تدعونى، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصونى، من جاء يوم القيامة يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدا عبدى ورسولى دخل الجنة ولو كانت ذنوبه أكثرَ من زَبَد البحر . وهذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

وروى الثعلبىّ أيضا بسند رفعه إلى (كعب الأحبار) أنّه رأى حَبرا من أحبار اليهود يبكى، فقال له : ما يبكيك . ؟ فقال له : ذكرتُ بعض الأمر . فقال كعب : أَنشُدُك اللهَ إن أخبرتُك بما أبكاك أتصدّقنى ؟ قال : نعم . قال : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : إنى أجد أمة هى خير أمة أُخرجتْ للناس يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر ، يؤمنون بالكتاب الأوّل

(١) فى الأصول « وأخذ » ؛ وهو تصحيف لا يستقيم معناه مع بقية الكلام . ولعل صوابه ما أثبتنا .

وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهلَ الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجّال . فقال موسى : يا ربّ آجعلهم أمّتى . قال : هى أمّة أحمدَ يا موسى . فقال له الحبر : نعم. قال كعب: أنشدك بالله هل تجد فى كتاب الله المنزّل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : إنى أجد أمّة هم الحامدون ، الرُّعاة الشُّمُس(١) المحكّمون ، إذا أرادوا أمرا قالوا : " نفعله إن شاء الله تعالى " فاجعلهم أمّتى. قال: هى أمّة أحمد ياموسى. قال له الحَبر : نعم . قال : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزّل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : ربّ إنّى أجد أمّة يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم .

قال: «وكان الأوّلون يُحرِقون صدقاتهم بالنار، غير أنّ موسى كان يجمع صدقات بنى إسرائيل فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلّا آشتراه ثم أعتقه من تلك الصدقة وما فضل حفر له حفيرة عميقة وألقاه فيها، ثم دفنه كيلا يرجعوا فيه » وهم المسبِّحون والمسبَّح لهم ، وهم الشافعون والمشفَّع لهم . قال موسى : يا ربّ آجعلهم أمّتى . قال : هم أمّة أحمد يا موسى . قال الحَبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله أتجد فى التوراة أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : إنّى أجد أمّة إذا أشرف أحدهم على شَرَف كبّر اللهَ تعالى ، وإذا هبط واديا حَمِد الله تعالى ؛ الصعيد لهم طَهور والأرضُ لهم مسجد حيثما كانوا ، يتطهّرون من الجنابة ، طُهُورهم بالصعيد كطُهورهم بالماء حين لا يجدون الماء ؛ غُرٌّ محجّلون من آثار الوضوء، فآجعلهم أمّتى . قال : هى أمّة أحمد يا موسى . قال الحَبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : يا ربّ إنّى أجد أمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها تُكتَبُ له ، فإنْ عملها ضوعفتْ عشرَ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عليه، وإن عملها تُكتَب عليه

(١) يريد بالشمس بضم الشين : الأعزاء الذين لا ينقادون للذلة ويشمسون ، أى يمتنعون ويأبون.

سيّئة مثلَها . فآجعلهم أمتى . قال : هى أمة أحمد يا موسى . قال الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله أتجد فى كتاب الله المنزَّل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : ربّ إنّى أجد أمّة مرحومة ضعفاء "يرثون الكتاب الّذين آصطفينا"(١) ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ فلا أجد أحدا منهم إلّا مرحوما فآجعلهم أمتى . قال : هى أمّة أحمد يا موسى . قال الحَبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزَّل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : ياربّ إنّى أجد أمّة مرحومة ، مصاحفُهم فى صدورهم ، يلبسون ألوان ثياب أهل الجنّة يُصَفّون فى صلاتهم صفوفا كصفوف الملائكة ، أصواتهم فى مساجدهم كدَوِىّ النحل ، لا يدخل النار منهم أحد إلّا من الحساب مثل ما يُرمَى الحجر من وراء الشجر . فاجعلهم أمتى . قال : هى أمة أحمد يا موسى . قال الحَبر : نعم . قال : فعجب موسى من الخير الذى أعطاه الله محمدا وأمّته ، وقال : يا ليتنى من أصحاب محمد . فأوحى الله تعالى إليه ثلاثَ آيات يرضيه بهنّ ﴿ يَا مُوسَى إِنِّى آصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى ﴾ إلى قوله : ﴿ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قال : فرضىَ موسى كلَّ الرضا .

ولنصل هذا الفصل بما ورد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قال الثعلبىّ : قال أهل المعانى : هذا كقول القائل لمن يخاطبه : « سأريك غدا إلى ما تصير إليه حالُ من يخالف أمرى » على وجه الوعيد والتهديد .

(١) كذا وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى الأصول . ويلاحظ أن قوله تعالى « الذين » غير واضح موقعها من الإعراب فيها بخلاف موقعها من الآية المقتبسة منها وهى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين آصطفينا من عبادنا » .

وقال مجاهد : سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ، يعنى مصيرَهم فى الآخرة .

وقال الحسن : جهنّم .

وقال قتادة وغيره : سأدخلكم الشأمَ فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكّانها من الجبابرة والعمالقة .

٥ وقال عطيّة العوفىّ : معناه سأريكم دار فرعون وقومِه، وهى مصر .

قال أبو العالية : رُفعت مصر لموسى حتّى نظر إليها .

وقال السدّىّ : دار الفاسقين : مصارع الفاسقين، ما يمرّون عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرونِ الذين أُهلِكوا .

وقال ٱبن كيسان : دار الفاسقين، يعنى إلى ما يصير قرارهم فى الأرض .

١٠ وقيل : الدار الهلاك، وجمعه أدوار ؛ وذلك أن الله تعالى لمّا أغرق فرعون وقومَه أمر البحر أن يقذف أجسادهم إلى الساحل ؛ ففعل ، فنظر إليهم بنو إسرائيل، فأراهم هلاكَ الفاسقين .

وقال يمان : يعنى مسكن فرعون .

وأما ما ورد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
١٥ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾، يعنى بنى إسرائيل ﴿ أُمَّةٌ ﴾ جماعة ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾، أى يرشدون إلى الحق .

وقيل : معناه يهتدون ويستقيمون عليه ويعملون به ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ أى ينصِفون من أنفسهم لا يجورون .

قال السدّىّ : هم قوم بينكم و بينهم نهر من شُهْد .

وقال ٱبن جريج : بلغنى أن بنى إسرائيل لمّا قتلوا أنبياءهم وكفروا — وكانوا ٱثنى عشر سِبطا — تبرّأ سبط منهم ؛ وٱعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم و بينهم ، ففتح ٱلله تعالى لهم نَفَقا فى الأرض ، فساروا فيه سنةً ونصفا حتى خرجوا من وراء الصّين ؛ فهم هناك حنفاءُ مسلمون مستقبلون قبلتَنا . ٥

قال الكلبىّ و ربيع والضحّاك وعطاء : هم قوم من المغرب خلف الصين على نهر يحوى[1] الرمل يسمى نهر أوران[2] ، وليس لأحدهم مال دون صاحبه ؛ يُمطَرون بالليل ، و يصحَون بالنهار و يزرعون ، لا يصل إليهم منّا أحد ولا منهم إلينا وهم على الحقّ .

قال : وذكر عن النبىّ — صلّى الله عليه وسلّم — أن جبريل ذهب به ليلة ١٠ أُسرِىَ به إليهم ؛ فكلّمهم ؛ فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلّمون؟ قالوا : لا . قال : هذا محمّد النبىّ الأمّىّ . فآمنوا به وقالوا : يا رسول الله ، إن موسى أوصانا وقال : من أدرك منكم أحمدَ فليقرأ منّى عليه السلام . فردّ رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — على موسى وعليهم السلام ؛ ثم أقرأهم عشرَ سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضةٌ سوى الصلاة والزكاة ، فأمرهم بالصلاة والزكاة ، وأمرهم ١٥ أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يَسبِتون ، فأمرهم أن يُجمّعوا و يتركوا السبت .

حكاه أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسيره .

نرجع إلى تتمّة أخبار موسى — عليه السلام — .

(١) كذا فى (ج) . والذى فى (١) « بحرى الرمل » .

(٢) كذا فى (١) . والذى فى (ج) «أرداف» مضبوطا بالقلم بفتح الهمزة وسكون الراء . ٢٠

ذكر خبر السامرى واتخاذه العجل وافتتان بنى إسرائيل به

قال الكسائىّ والثعلبىّ وغيرُهما من أهل السير ما مختصره ومعناه : إن موسى — عليه السلام — لمّا توجّه إلى البقعة المباركة التى كلّمه الله تعالى فيها لميقات ربّه، استخلف أخاه هارونَ على بنى إسرائيل، وكان السامرىّ فيهم .

٥ واختُلِف فيه، فقال قتادة والسدّىّ : كان السامرىّ من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها : (سامِرة)[1] ولكنه عدوّ لله منافق .

وقال سعيد : كان السامرىّ من (كرمان) .

وقال غيرهم : كان رجلا صائغا من أهل باجَرْما، واسمه مِيخَا .

وقال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : اسمه موسى بن ظَفَر، وكان رجلا منافقا

١٠ وقد أظهر الإسلام ؛ وكان من قومٍ يعبدون البقر، فدخل قلبَه حبُّ البقر، فلما ذهب موسى — عليه السلام — لميقات ربّه — وكان قد واعد قومَه ثلاثين ليلةً فأتمّها الله بعشر، كما أخبر الله عزّ وجلّ — فعَدّ بنو إسرائيل ثلاثين، فلمّا لم يرجع إليهم موسى افتتنوا وقالوا : إنّ موسى أخلفنا الوعد ؛ فاغتنمها السامرىُّ ففعل مافعل .

وقال قوم : إنهم عَدّوا الليلةَ يوما واليومَ يوما ، وكان موسى قد واعدهم

١٥ أربعين ، فلمّا مضت عشرين يوما افتتنوا، فأتاهم السامرىُّ وقال : إنّ موسى قد احتبس عنكم، فينبغى لكم أن تتّخذوا إلٰها، فإنّ موسى ليس يرجع إليكم ، وقد تمّ الميقات . وإنما طمع فيهم السامرىُّ لأنّهم فى اليوم الذى أنجاهم الله من فرعون وطلعوا من البحر، كان من أمرهم ما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا

٢٠ (١) فى شرح القاموس أن اسم هذه القبيلة «سامر» بدون هاء .

إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فطمع السامرىُّ فيهم وٱغتنمها ، فلمّا تأخّر موسى عن الميقات — وكان بنو إسرائيل قد ٱستعاروا حلىّ آل فرعون كما قدّمنا ؛ فلمّا فصل موسى قال هارون لبنى إسرائيل : إنّ حلىّ القبط الّذى ٱستعرتموه غنيمة ، وإنّه لا يحلّ لكم ؛ فٱجمعوه فٱحفروا له حفيرة وٱدفنوه حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه . ففعلوا ذلك ، وجاءهم السامرىّ ومعه القبضة الّتى قبضها من أثر حافر فرس جبريل — عليه السلام — .

قالوا : وكان لجبريل — عليه السلام — فرس أنثى بلقاءُ يقال لها : « فرس الحياة » لا تصيب شيئا إلّا حيي ؛ فلما رأى السامرىّ جبريلَ على تلك الفرس عرفه وقال : إن لهذا الفرس لشأنا . وأخذ قبضة من تراب حافرها حين عبر جبريلُ البحر .

قالوا : وإنّما عرف السامرىُّ خبر الفرس دون غيره من بنى إسرائيل ، لأنّ فرعون لمّا أَمر بذبح أولاد بنى إسرائيل جَعلت المرأة إذا ولدت الغلام ٱنطلقتْ به سرّا فى جوف الليل الى صحراءَ أو واد أو غار فى جبل فأخفته ؛ فقيّض الله تعالى له ملَكا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى لا يختلط بالناس ، وكان الذى وَلِىَ كفالة السامرىِّ جبريل عليه السلام ، فجعل يمصّ من إحدى إبهاميه سمنا ، ومن الأخرى عسلا ، فمن ثَمّ عرفه ، ومن ثَمّ الصبىّ إذا جاع يمصّ إبهامَه فيَرْوَى من المص .

نرجع إلى خبر بنى إسرائيل مع السامرىّ .

قال : فلمّا أمرهم هارون بجمع الحلىّ وجمعوه ، جاء السامرىّ بالقبضة فقال لهارون : يا نبىّ ٱلله ، أأقذفها فيه ؟ فظنّ هارون أنّها من الحلىّ ، وأنّه يريد بها ما يريد أصحابه ، فقال له : اِقذف . فقذفها فى الحفرة على الحلىّ ، فصارَ عجلا جسدا له خُوار .

وقال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : أوقد هارون نارا وأمرهم أن يقذفوا الحلىّ فيها؛ فقذف السامرىّ تلك القبضة فيها وقال : «كن عجلا جسدا له خوار» . فكان كذلك للبلاء والفتنة .

ويقال : إنّ الّذى قال لبنى إسرائيل : «إنّ الغنيمة لا تحل لكم» هو السامرىّ ، فصدّقوه وجمعوها ، فدفعوها إليه فصاغ منها عجلا فى ثلاثة أيام ثم قذف فيه القبضة، فجثا وخار خَوْرةً ثم لم يعد .

وقال السدّىّ : كان يخور ويمشى؛ فلمّا أخرج السامرىُّ العجلَ وكان من ذهب مرصّع بالحجارة كأحسن ما يكون، قال هذا إلهكم وإله موسى . فشبّه السامرىّ على أوغاد بنى إسرائيل وجُهّالهم حتى أضلّهم وقال لهم : إنّ موسى قد أخطأ ربّه فأتاكم ربُّه أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه ، وأنه قد أظهر لكم العجلَ ليكلّمكم من وسطه كما كلّم موسى من الشجرة .

قالوا : فلمّا رأَوا العجل وسمعوا قول السامرىّ ، افتتنوا غير اثنى عشر ألفا وكان مع هارون ستّمائة ألف، فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله تعالى، وأحبّوه حبّا ما أحبّوا مثلَه شيئا قطّ ؛ فقال لهم هارون : يا بنى إسرائيل إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ .

فأقام هارون بمن معه من المسلمين، وأقام من يعبد العجل على عبادته؛ وخشى هارون إن سار بمن معه من المسلمين إلى المفتتنين الضالّين أن يقول له موسى : فرقتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

قال راشد بن سعد : لما واعد الله تعالى موسى أربعين يوما قال الله تعالى : يا موسى ، إنّ قومك قد آفتتنوا من بعدك . قال : يارب كيف يفتتنون وقد نجيتهم من فرعون ومن البحر ، وأنعمت عليهم؟ قال : إنهم آتخذوا العجل إلها من دونى وهو عجل جسد له خُوار . قال : يا ربّ مَن نفخ فيه الرُّوح ؟ قال : أنا . قال : أنت — وعزّتك — فتنتهم ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

قال : فلمّا رجع موسى من الميقات الى قومه وقرب منهم ، سمع اللغط حول العجل وكانوا يرقصون حوله ، ولم يخبر موسى أصحابه السبعين بما أخبره به ربّه تعالى من حديث العجل ، فقالوا : هذا قتالٌ فى المحلّة . قال موسى لهم : لا ولكنّها أصوات الفتنة، افتتن القومُ بعدنا بعبادة غير الله تعالى .

ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ وذلك أنّه لما رآهم حول العجل وما يصنعون فيه ألقى الألواح من يده فتكسّرت ، فصعد عامّة الكلام الذى فيها ، ولم يبق إلّا سُدسها ، ثم أعيدت له فى لوحين .

رُوى عن آبن عبّاس — رضى الله عنهما — أنّ رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — قال : ليس المُعاين كالمخبَر ، قال الله تعالى لموسى : إن القوم قد آفتتنوا فلم يُلقِ الألواح، فلمّا عاين ألقى الألواح فكسرها .

قالوا : فلما رأى موسى ماصنع قومُه بعده من عبادة العجل، أخذ شعر رأس أخيه هارون بيمينه، ولحيتَه بشماله وقال له : يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا

أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ، هلّا قاتلتهم إذ علمتَ أنّى لو كنت فيما بينهم لقاتلتُهم على كفرهم ؟ فقال هارون : يَابْنَ أُمَّ ؛ قال المفسّرون : كان هارون أخا موسى لأبيه وأمّه ، ولكنّه أراد بقوله : يَابْنَ أُمَّ تقريبه وآستعطافه عليه، لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ، إِنْ أُقاتلهمْ أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضا ، فتقول : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي، ولم تحفظ وصيّتى حين قلت لك : اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ . وقال : إِنَّ الْقَوْمَ آسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . فقال موسى : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

قال : ثم أقبل موسى على السامرىّ فقال له : ما خطبك يا سامرى، أى ما أمرُك وشأنُك ؟ فقال السامرىّ : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ، أى أخذتُ ترابا من أثر فرس جبريل فَنَبَذْتُهَا وطرحتها فى العجل وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، أى زيّنت .

قال : فلمّا علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطأوا وضلّوا فى عبادتهم العجل، ندموا على ذلك وآستغفروا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ؛ فقال لهم موسى : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ .
قالوا : كيف نتوب ؟ قال : فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، أى يقتل البرىءُ المجرمَ، ذٰلِكُمْ يعنى القتل خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلّا بالحال التى كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل .

وقال قتادة : جعل الله توبة عبدةِ العجل القتلَ لأنّهم ٱرتدّوا ، والكفر مبيح للدّم .

وقال الكسائىّ : لمّا قال موسى لبنى إسرائيل : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ، سألوه أن يتوب الله تعالى عليهم ؛ فسأل الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه أنّه لا توبة لهم، لأنّ فى قلوبهم حبَّ العجل ، فاجمع رماد العجل وألقه فى الماء، وأمرهم أن يشربوا منه فإنه يظهر ما فى قلوبهم على وجوههم. ففعل ذلك؛ فلمّا شربوا لم يبق أحد ممّا فى قلبه مرض إلا ٱصفرّ وجهه ولونُه وورِم بطنُه، ودام ذلك بهم ، فقالوا : يا موسى ، هل شىء غير التوبة الخالصة وقد أخلصنا فى توبتنا حتى لو أمرتنا بقتل أنفسنا فعلنا؟ فأوحى الله إليه : ياموسى قد رضيتُ بحكمهم على أنفسهم، فقل لهم : يقتلوا أنفسهم إن كانوا صادقين فى توبتهم . فقال لهم موسى ما أمرهم الله به : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . فقالوا : كيف نقتل أنفسنا ؟ قال : يقوم من لم يعبد العجلَ إلى من عبده فيقتله . فقاموا بالسيوف والخناجر إلى ٱلّذين عبدوه وأرسل الله عليهم ظُلمةً فلم يُبصِر بعضهم بعضا ، حتى كان الرجل يأتى إلى أخيه وأبيه وٱبن عمه وقرابته فيقتله وهو لا يعرفه، ولم يعمل السلاح فيمن لم يعبد العجل حتى خاضوا فى الدماء، وصاح النساء والصبيانُ إلى موسى : « العفوَ يا نبىّ الله» فدعا موسى اللهَ بالعفو عنهم؛ فلم يعمل السلاحُ فيهم بعد ذلك ، وقبل الله تعالى توبتهم ، وٱرتفعت الظُّلمة عنهم .

قالوا : ثم همّ موسى بقتل السامرىّ، فأوحى الله تعالى إليه : لا تقتله فإنّه سخىّ ، ولكن أخرجه عن قومك . فلعنه موسى وقال له ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ أى لعذابك فى القيامة . ﴿ وَٱنْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ .

قال : وأمر موسى بنى إسرائيل ألّا يخالطوا السامرىّ ولا يقاربوه؛ فصار السامرىّ وحشيّا لا يألَف ولا يؤلَف ولا يدنو من الناس ولا يمسّ أحدا منهم فمَن مسّه قُرض ذلك الموضع بالمقراض، فكان ذلك دأبه حتى هلك .

ذكر خبر امتناع بنى إسرائيل من قبول أحكام التوراة ورفع الجبل عليهم وإيمانهم

قال الكسائىّ : ثم أقبل موسى على بنى إسرائيل بالتوراة وقال : هذا كتاب ربّكم فيه الحلال والحرام والأحكام والسنن والفرائض ورجمُ الزانى والزانية المحصَنَين وقطع يد السارق، والقصاص فى كل ذنب يكون منكم . فضجّوا من ذلك وقالوا : لا حاجة لنا فى هذه الأحكام، وما كنا فيه من عبادة العجل كان أرفق بنا من هذا.

قال : فلما امتنعوا من قبول أحكام الله عز وجل قال موسى : يارب قد علمت أنهم ردّوا كتابك وكذّبوا بآياتك . فأمر الله تعالى جبريل أن يرفع عليهم جبل طورسيناء فى الهواء؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ ﴿ وَٱسْمَعُوا[1] قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ؛

(١) يلاحظ أن قوله تعالى : « واسمعوا » الخ ليس من تتمة الآية السابقة ، بل هو من تتمة آية أخرى فى سورة البقرة، وهى قوله تعالى : «و إذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا » الخ .

فجعل الجبل يدنو منهم حتى ظنوا أنه يسقط عليهم؛ فآمنوا وخروا سجّدا على أنصاف وجوههم وهم ينظرون إلى الجبل بالنصف الآخر؛ فلأجل ذلك سجود اليهود كذلك . وردّ الجبل عنهم .

ذكر خبر الحجر الذى وضع موسى — عليه السلام — ثيابه عليه

قال : وكانوا إذا آغتسلوا لا يسترون عوراتهم ، وإذا آغتسل موسى يستتر فظنوا أن فى بدنه عيبا ، فتكلموا بذلك ، وكان موسى — عليه السلام — إذا آغتسل وضع ثوبه على حجر وقرعه بعصاه فيتفجر الماء منه ، فيغتسل ثم يلبس ثوبه؛ ففعل ذلك فى بعض الأيام، فلما أراد أن يلبس ثوبه آنقلع الحجر من موضعه ومر على وجه الأرض وعليه ثوب موسى؛ فعدا موسى خلفه وهو يقول : « ثوبى يا حجر ثوبى يا حجر » ولم يزل يعدو حتى وقف على بنى إسرائيل، فنظروا إلى موسى ولا عيب فيه، فندموا على ما كان منهم؛ قال الله تعالى : ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .

ذكر خبر طلب بنى إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم بالصاعقة، وكيف أحياهم الله — عزّ وجلّ — وبعثهم من بعد موتهم

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . (٩١)

وذلك أن الله تعالى أمر موسى — عليه السلام — أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل؛ فاختار موسى — عليه السلام — سبعين رجلا من قومه من خيارهم، وكان قد آختار من كلّ سِبط ستّة نفر، فصاروا آثنين وسبعين، فقال : إنما أمرت بسبعين، فليتخلّف منكم رجلان . فتشاحنوا على

ذلك ، فقال موسى : إن لمن قعد مِثل أجر من خرج . فقعد يوشع بن نون وكالب ابن يوقنا[1] ، فقال موسى للسبعين : صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . ففعلوا ذلك فخرج بهم موسى عليه السلام إلى طورسيناء لميقات ربه ؛ فلما بلغوا ذلك الموضع قالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أفعل . فلما دنا موسى من الجبل وقع عمود الغمام عليه وتغشّى الجبلَ كلَّه ، فدخل فى الغمام وقال للقوم : أُدنوا . وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه عز وجل — وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه ؛ فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام وخرّوا سجّدا ، وسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه ؛ فأسمعهم الله تعالى : إنى أنا الله لا إله إلا أنا ذو المُلك ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى . فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ، أى لن نصدّقك ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ، وهى نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعا .

وقال وهب بن منبّه : أرسل الله عليهم جندا من السماء ، فلما سمعوا حسّها ماتوا فى يوم وليلة .

فلما هلكوا جعل موسى — عليه السلام — يبكى ويتضرع ويقول : يا رب ما ذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم ، ولو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله — عزّ وجلّ — رجلا بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون . حكاه الثعلبىّ فى تفسيره .

---

(١) كذا فى النسخة التى بين أيدينا من كتاب الكسائى وتاريخ العينى .

وقال الكسائىّ فى هذه القصة : أقبل بنو إسرائيل على موسى وقالوا : أرنا الله جهرة . فأوحى الله تعالى إليه : أكلّهم يريد ذلك ؟ — وهو أعلم — فقال الصالحون منهم : إن الله أجل من أن نراه فى الدنيا .

وقال الباقون : إنما امتنع هؤلاء لضعف قلوبهم . فأوحى الله تعالى إليه : أن اختر منهم سبعين رجلا وسر بهم إلى جبل الطور ؛ فسار بهم ، و وقع الغمام على الجبل حتى أظله ، وأتاه موسى وهم معه ؛ فأمر الله تعالى الملائكة أن تهبط إلى الجبل بزيّها وصوَرِها ؛ فلما نظر بنو إسرائيل إليهم أخذتهم الرِّعدة والخوف ، وندموا على ما كان منهم ، ونودوا من قبل السماء : يا بنى إسرائيل . فصعقوا كلّهم وماتوا . وساق نحو ما تقدّم .

قال : ورجعوا إلى قومهم وخبّروهم بما رأوا .

ذكر خبر قارون

قال المفسرون : إنّ قارون كان ابن عمّ موسى ، لأنه قارون بن يصهر ابن قاهث .

وقال ابن إسحاق : هو عمّ موسى ، لأن يصهر بن قاهث تزوّج شميش[1] بنت ماويب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم ، فولدت له عمران بن يصهر وقارون ابن يصهر .

فعلى هذا القول يكون عم موسى ؛ وعلى قول الآخرين يكون ابن عمه ، وعليه عامّة أصحاب التواريخ ؛ وعليه أهل الكتاب ، لا خلاف عندهم فى ذلك .

(١) كذا فى تاريخ العينى ورقة ٣٠٠ من الجزء الثانى قسم ثان . والذى فى الأصول : سميت بنت ماويب بن توكيا بن يعشان .

قالوا : وكان قارون أعلمَ بنى إسرائيل بعد موسى وهارون وأفضلَهم وأجملَهم .

قال قتادة : وكان يسمى المبشور[(١)] لحسن صورته ، ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، ولكنّ عدوّ الله نافق كما نافق السامرىّ ، فبغى على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ .

٥ قال الثعلبىّ : واختلفوا فى معنى هذا البغى ما هو ، قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : كان فرعون قد ملّك قارون على بنى إسرائيل ، وكان يبغى عليهم ويظلمهم .

وقال عطاء الخراسانىّ وشهر بن حوشب : زاد عليهم فى الثياب شبرا .

وقال شيبان عن قتادة : بغى عليهم بالكبر والبَذَخ .

١٠ وقال سعيد عنه : بكثرة المال . وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أى تثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها .

واختلف المفسرون فى عدد العصبة ، فقال مجاهد : ما بين العشرة إلى الخمسة .

وقال قتادة : ما بين العشرة إلى الأربعين .

١٥ وقال عكرمة : منهم من يقول : سبعين .

وقال الضحاك : ما بين الثلاثة إلى العشرة .

وقيل : هم ستون .

وروى جرير عن منصور عن خيثمة قال : وجدت فى الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون كانت وِقرَ ستين بغلا غُرّا محجّلة ما يزيد منها مفتاح على إصبع لكل مفتاح منها كنز . (٩٢)

٢٠

(١) فى الأصل «الميسور» ؛ وهو تحريف .

ويقال : إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه — وكانت من حديد — فلما ثقلت عليه جعلها من الخشب، فثقلت عليه، فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع، تحمل معه على أربعين بغلا .

وقال بعضهم : أراد بالمفاتيح الخزائن . وإليه ذهب أبو صالح .

وقال أبو رزين : لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافيا . ٥

واختلفوا فى سبب اجتماع تلك الأموال لقارون ؛ فقيل : كان عنده علم الكيمياء .

قال سعيد بن المسيّب : كان موسى يَعلَمَ الكيمياء، فعلّم يوشعَ ثلث العلم، وعلّم كالب ثلثه، وعلّم قارون ثلثه؛ فخدعهما قارونُ حتى أضافا علمهما إلى علمه .

وحكى الكسائىّ : كان قارون من فقراء بنى إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى ١٠ أن يحلّىَ تابوت التوراة بالذهب، وعلّمه صنعة الكيمياء؛ فجاء قارون إلى أم كلثم أخت موسى — وقد قيل : إنها كانت زوجته — فسألها : من أين لموسى هذا الذهب ؟ فقالت : إن الله تعالى قد علّمه صنعة الكيمياء . وكان موسى قد علّمها الصنعة، فتعلّمها قارون منها .

قالوا : فكان ذلك سبب أمواله، فذلك قوله كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ قَالَ ١٥ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ .

وقيل : معناه على علم عندى بالتصرّف فى التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب .

وقيل فى سبب جمعه تلك الأموال ما رواه الثعلبىّ بسنده عن أبى سليمان الدارانى انه قال : تبدّى إبليس لقارون وكان قارون قد أقام فى جبلٍ أربعين سنة حتى ٢٠

غلب بنى إسرائيل فى العبادة، فبعث إبليس إليه شياطينه فلم يقدروا عليه؛ فأتاه وجعل يتعبد معه، وجعل قارون يتعبّد و إبليس يقهره فى العبادة و يفوقه؛ فخضع له قارون؛ فقال له إبليس : ياقارون، قد رضينا بهذا الذى نحن فيه، لا نشهد لبنى إسرائيل جماعة، ولا نعود مريضا، ولا نشهد جنازة ؟

٥ قال : فأحدره من الجبل إلى البيعة، فكانا يؤتَيان بالطعام، فقال له إبليس : ياقارون، قد رضينا أن نكون هكذا كَلًّا على بنى إسرائيل ؟ فقال له قارون : فأىّ رأى عندك ؟ قال : نكسب يوم الجمعة، ونتعبد بقية الجمعة .

قال : فكسبوا يوم الجمعة وتعبدوا بقيتها؛ فقال إبليس : قد رضينا أن نكون هكذا؟ قال قارون : فأىّ رأى عندك؟ قال : نكسب يوما ونتعبّد يوما فنتصدّق ونُعطِى .

١٠ قال : فلما كسبوا يوما وتعبّدوا يوما خَنَس إبليس وتركه، ففُتحت على قارون أبوابُ الدنيا، فبلغ مالُه — على ما رواه الثعلبىّ بسنده الى المسيِّب بن شريك قال : مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ، وكانت أربعمائة ألفِ ألفٍ فى أربعين جرابا .

قال : فبغى وطغى حين آستغنى، فكان أوّل طغيانه وعصيانه أنه تكبّر وآستطال على الناس بكثرة الأموال، وكان يخرج فى زينته .

١٥ قال مجاهد : خرج على بَراذينَ بِيض عليها سروج الأرجوان وعليه المعصفَرات .

وقال آبن أسلم : خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفَرات .

قال : وذلك أوّل يوم ظهرت فيه المعصفَرات فى الأرض .

وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباءَ على سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم الديباج وعلى دوابّهم الأرجوان؛ ومعه سِتّمائة جارية بِيض

٢٠ عليهنّ الحلىّ والثياب الحمر، وهنّ على البغال الشهب .

وحكى الكسائىّ أنّ قارون آتخذ سريرا من الذهب يصعد إليه بمراقٍ ، وعليه أنواع من فُرُش الديباج، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصّع بالجوهر .

قالوا : فلما خرج فى بعض الأيام فى زينة عظيمة، تمنّى أهلُ الجهالة والخسارة مثلَ الّذى أُوتيَه، وقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فأنكر عليهم أهل العلم بالله تعالى، وقالوا لهم : اتقوا الله وآعملوا ما أمركم به، وآنتهوا عما نهاكم الله عنه، فإن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا من لذّات الدنيا وشهواتها؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا ﴾ ، أى لا يوفّق لهذه الكلمة ﴿ إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ، أى على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

قالوا : ثم أوحى الله تعالى إلى نبيّه موسى — عليه السلام — أن يأمر قومه أن يعلّقوا فى آذانهم خيوطا أربعة، فى كل طَرَفٍ خيط أخضر كلون السماء فقال موسى : يا رب لم أمرتَ بنى إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الخضر فى آذانهم؟ فقال تعالى : إن بنى إسرائيل فى غفلة ، وقد أردتُ أن أجعل لهم علَما فى ثيابهم ليذكرونى به إذا نظروا إلى السماء، ويعلموا أنى منزِل منها كلامى . فقال موسى : يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا ، فإن بنى إسرائيل تحقِر هذه الخيوط ؟ فقال له : ياموسى، إن الصغير من أمرى ليس بصغير، وإن لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير .

(٩٣)

قال : فدعا موسى بنى إسرائيل وأعلمهم بأمر الله تعالى ؛ ففعلوا ذلك وآستكبر قارون فلم يطعه ، وقال : إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكى يتميزوا من غيرهم . فكان هذا أيضا من بغيه وعصيانه .

قالوا : ولما قطع موسى البحر ببنى إسرائيل جُعلت الحُبورة — وهى رآسة المذبح وبيتِ القربان — لهارون عليه السلام ؛ وكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هارون، فيضعه على المذبح، فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجَد قارونُ فى نفسه من ذلك ، وأتى موسى وقال له : يا موسى ، لك الرسالة ، ولهارون الحُبورة، وليس لى من ذلك شىء، وأنا أقرأُ للتوراة منكما، لا صبر لى على هذا . فقال موسى : والله ما أنا جعلتها فى هارون ، بل الله جعلها له . فقال قارون : والله لا أصدّقك فى ذلك حتى ترينى بيّنة .

قال : فجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل وقال : هاتوا عصيّكم . فجاءوا بها فحزمها وألقاها فى قبّته التى كان يعبد الله تعالى فيها ؛ وجعلوا يحرسون عصيّهم حتى أصبحوا ، فأصبحت عصا هارون قد آهتزّ لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز فقال موسى : ياقارون ، أترى هذا من فعلى ؟ قال قارون : والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر . وذهب قارون مغاضِبا، وآعتزل موسى بأتباعه؛ وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ، ولا يزداد كلَّ يوم إلا عتوّا وتجبّرا ومخالَفة .

ويقال : إنه بنى دارا وجعل بابها من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان الملأ من بنى إسرائيل يغدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدّثونه ويضاحكونه .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ثم أنزل الله تعالى الزكاة على موسى ؛ فلما وجبت الزكاة على بنى إسرائيل أتى قارون موسى فصالحه عن كلّ ألف دينار على دينار، وعن كلّ ألفِ درهم على درهم، وعن كلّ ألف شاة على شاة، وعن كلّ ألفِ

شيء شيئا، ثم رجع إلى بيته فحسَبه فوجده كثيرا، فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بنى إسرائيل وقال لهم: ياقوم، إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئتَ. فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغيّ فنجعل لها جُعلا على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فآسترحنا منه. فأتوا بها، فجعل لها قارون ألف درهم. وقيل: ألف دينار. وقيل: طَسْتا من ذهب. وقيل: حُكمَها؛ وقال لها: إنى أمولكِ وأخلطكِ بنسائى على أن تقذفى موسى غدا إذا كان بنو إسرائيل متجمّعين. فلما كان الغد جمع قارونُ بنى إسرائيل، ثم أتى موسى فقال: إنّ بنى إسرائيل قد آجتمعوا ينظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبيّن لهم اعلام دينهم وأحكامَهم وأحكام شرعهم. فخرج إليهم موسى وهم فى بَراح من الأرض، فقام فيهم خطيبا ووعظهم، وقال فيما قال: يا بنى إسرائيل، من سرق قُطعتْ يده، ومن آفترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليس له آمرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له آمرأة رجمناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنتَ أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا. قال: فإنّ بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرتَ بفلانة. قال موسى: أنا؟ قال: نعم. قال: أُدعها فإن قالت فهو كما قالت. فدُعيتْ؛ فلما جاءت قال لها موسى: يافلانة، أنا فعلت بكِ ما يقول هؤلاء؟ وعظّم عليها وسألها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلّا صدقت. فلما ناشدها موسى تداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت: لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أوذىَ رسول الله. وقالت: لاوالله بل كذبوا، ولكن جعل لى قارون جُعلا على أن أقذفك بنفسى. فلما تكلّمتْ بهذا الكلام سُقط فى يد قارون ونكّس رأسه، وسكت الملأ وعرف قارونُ أنه قد وقع فى مهلكة، وخرّ موسى ساجدا لله تعالى.

وقال الكسائىّ فى قصّة هذه المرأة : إن قارون بعث إلى آمرأة فاسقة كان موسى قد نفاها من عسكره، فقال لها : إنى أريد أن أتزوّج بك وأنقذك من هذا الفقر إن عملتِ ما أقول . قالت : وما هو ؟ قال : إذا آجتمع بنو إسرائيل عندى فآحضرى وقولى : إن موسى دعانى إلى نفسه فلم أطاوعه، فأخرجنى من عسكره فانصرفت ودخلت على قارون من الغد — وقد آجتمع بنو إسرائيل عنده — فقالت : يابنى إسرائيل، هذا مالق الأخيار من الأشرار؛ اعلموا أن قارون دعانى بالأمس وقال لى كذا وكذا، وأمرنى أن أكذب على نبىّ الله موسى؛ وكذب قارون إنما أخرجنى موسى من عسكره لفسادى، وقد تبت إلى الله تعالى من ذلك . فلما سمع قارون ذلك ندم ، ولامه بنو إسرائيل، وبلغ موسى الخبر فغضب ودعا على قارون .

قالوا : وجعل موسى يبكى ويقول : يارب إن عدوّك هذا قد آذانى وأراد فضيحتى ، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى وسلّطنى عليه . فأوحى الله تعالى إليه : ارفع رأسك وأمر الأرض بما شئت تطعك . فقال موسى : يابنى إسرائيل إن الله قد بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون ، فمن كان معه فليثبُت مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه . فآعتزل بنو إسرائيل قارونَ ولم يبق منهم إلا رجلان ثم قال موسى : ياأرض خذيهم . فأخذتهم إلى كعابهم . ثم قال : ياأرض خذيهم . فأخذتهم إلى ركبهم . ثم قال : ياأرض خذيهم . فأخذتهم إلى حُقيِّهم . ثم قال : ياأرض خذيهم . فأخذتهم إلى أعناقهم؛ وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشدونه ؛ حتى روى فى بعض الأخبار : أنه ناشده سبعين مرة وموسى فى جميع ذلك لايلتفت إليه، لشدّة غضبه عليه . ثم قال : يا أرض خذيهم . فآنطبقت عليهم الأرض ؛ فأوحى الله إلى موسى : استغاثوا بك سبعين

مرّة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزتى وجلالى لو إياى دعوا لوجدونى قريبا مجيبا .
قال قتادة : ذُكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم فى كل يوم قامة ، وأنه يتخلخل[1] فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة .

قالوا : فلما خسف الله تعالى بقارون وصاحبيه أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم : إن موسى دعا على قارون ليستبدّ بداره وكنوزه وأمواله . فدعا موسى حتى خسف الله تعالى بدار قارون وأمواله الأرض؛ وأوحى الله تعالى إلى موسى : أنى لا أعبّد الأرض لأحد بعدك أبدا؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنْتَصِرِينَ ﴾ .

قال : فلما حلّت نقمة الله تعالى بقارون حمد المؤمنون الله تعالى، وندم الذين كانوا يتمنّون ماله وحاله ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ . والله الفعّال .

ذكر خبر موسى والخَضِر — عليهما السلام —

وهذا الخبر إنما رجعتُ فيه وآعتمدت على ماورد فى الحديث الصحيح النبوىّ مما خرّجه البخارىّ — رحمه الله تعالى — فى صحيحه، ورويناه بسندنا عنه بسنده عن آبن عباس عن أبىّ بن كعب — رضى الله عنهم — عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : أن موسى[2] — عليه السلام — قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أىّ الناس

(١) يتخلخل : يتقلقل ويضطرب .

(٢) يلاحظ أن فى رواية هذا الحديث هنا اختلافا يسيرا عما ورد فى البخارى فى كتاب تفسير القرآن انظر الجزء الخامس ص ٢١٤ طبع بولاق سنة ١٢٩٦ هـ .

أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ العلم إليه؛ فقال : بلى، عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك .

وورد فى الحديث الآخر من رواية البخارىّ : بلى عبدنا خَضِر . قال : أىْ ربِّ ومن لى به ؟ قال سفيان من روايته : أىْ ربِّ وكيف لى به ؟ قال : تأخذ حوتا فتجعله فى مِكْتَل فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمّ . وربما قال : فهو ثمّة . فأخذ حوتا فجعله فى مِكْتَل، ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما؛ فرقد موسى عليه السلام، واضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾[1]؛ فأمسك الله عن الحوت جِرْيةَ الماء فصار مثل الطاق؛ فانطلقا يمشيان بقيّة يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾؛ ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز حيث أمره الله تعالى؛ قال له فتاه : ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾؛ فكان للحوت سَرَبا ولهما عَجَبا .

قال له موسى : ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ .

فرجعا يقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلّم موسى، فردّ عليه فقال : وأنّى بأرضك السلام . قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم، أتيتك لتعلّمنى ممّا عُلِّمتَ رُشدا . قال : يا موسى إنى على علم من علم الله علّمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه . ﴿قَالَ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ . ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ

(١) فى البخارى : « فصار عليه مثل الطاق » .

تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ . إلى قوله : ﴿ أَمْرًا ﴾؛ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت بهما سفينة فكلّموهم أن يحملوهم ؛ فعرفوا الخَضِر فحملوه بغير نَول ؛ فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور[1] فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين[2] فقال له الخَضِر : يا موسى، مانقص علمى وعلمُك من علم الله إلّا مثل مانقص هذا العصفور بمنقاره من البحر . « فأخذ الفأس[3] فنزع لوحا » .

قال : فلم يفجأ[4] موسى إلّا وقد قلع لوحا بالقدوم؛ فقال له موسى : ماصنعتَ؟ قومٌ حملونا بغير نَول عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتَها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ . وكانت الأولى من موسى نسيانا . فلمّا خرجا من البحر مرّا بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخَضِر برأسه يقلعه بيده هكذا — وأومأ سفيانُ بأطراف أصابعه كأنّه يقطف شيئا — قال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ مائلا، ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ — أومأ بيده هكذا وأشار سفيان كأنّه يمسح شيئا إلى فوق — قال : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيِّفونا عمدتَ إلى حائطهم، ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

---

(١) وردت قصة العصفور هذه فى البخارى مؤخرة عن هذا الموضع بقليل، أى بعد ذكر خرق السفينة .

(٢) لم يرد فى البخارى قوله : « أو نقرتين » انظر القسطلانى ج ٧ ص ٢٦١ .

(٣) هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين لم ترد فى البخارى أثناء هذا الحديث الوارد فى كتاب تفسير القرآن .

(٤) عبارة البخارى « لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا » الخ .

قال النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم — : « وددنا أنّ موسى كان صبر فقصّ علينا من خبرهما » .

قال سفيان : قال النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم — : « يرحم الله موسى لو كان صبر لقصّ علينا من أمرهما » .

٥ وقرأ ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : « أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ » .

ثم قال لى سفيان : سمعتُه منه مرّتين وحفظتُه منه .

هذا حديث البخارىّ عن علىّ[1] بن عبد الله عن سفيان عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب ؛ وقصّتهما فى كتاب الله تعالى :

١٠ ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ الآيات ، إلى قوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

وحكى أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — فى قصصه أنّ الخَضِر — عليه

١٥ السلام — اسمُه بَلْيَا[2] بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام .

وروى حديثا عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إنما سمّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، وإذا هى تهتزّ تحته خضراء .

---

(١) لم يرد اسم على بن عبد الله فى سند هذا الحديث الوارد فى البخارى ج ٥ ص ٢١٤ طبع بولاق

٢٠ سنة ١٢٩٦ هـ وإنما رواه الحميدى عن سفيان .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى تاريخ العينى مضبوطا بالعبارة .

وروى عن مجاهد قال : إنما سمّى الخضر لأنه حيثما صَلّى أخضرّ ما حوله .

قال الثعلبيّ : وكان الخضر فى أيام أفريدون الملِك على قول عامّة أهل الكتب الأُوَل .

قال : وقيل إنه كان على مقدِّمة ذى القرنين الأكبر الذى كان فى أيام ابراهيم — عليه السلام — وذلك فى أيام مسِيره فى البلاد ، وأنه بلغ مع ذى القرنين نهرَ الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم ولا يعلم ذو القرنين، فخُلِّد ، وهو حىّ إلى الآن ؛ والله أعلم .

وسنذكر — إن شاء الله تعالى — فى السِّفر الذى يلى هذا السفرَ خبرَه فى ظفره بماء الحياة فى أخبار ذى القرنين .

ذكر خبر البقرة وقتلِ عاميل

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — فى تفسيره عن السّدىّ وغيره : إن رجلا كان فى بنى إسرائيل كان بارّا بأبيه ، وبلغ من برّه به أن رجلا أتاه بلؤلؤة فابتاعها منه بخمسين ألفا ، وكان فيها فضل وربح ؛ فقال له البائع : اعطنى الثمن . فقال : إن أبى نائم، ومفتاح الصندوق تحت رأسه ، فأمهلنى حتى يستيقظ فأعطيك الثمن . فقال له البائع : أيقِظ أباك وأعطنى المال . قال : ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرةَ آلاف وأنظِرنى حتى ينتبه . فقال الرجل : أنا أعطيك عشرة آلاف إن أيقظتَ أباك وعجّلت النقد . فقال : أنا أزيدك عشرين ألفا إن انتظرتَ انتباهه . ففعل ولم يوقظ أباه؛ فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك ، فدعا له وجزاه خيرا، وقال له : أحسنتَ يابنىّ، وهذه البقرة لك بما صنعتَ . وكانت بقيّة بقر كانت لهم .

قال : وقال ابن عبّاس ووهبٌ وغيرُهما : كان فى بنى إسرائيل رجل صالح له ٱبن طفل، وكان له عجلة، فأتى بها إلى غَيضة وقال: اللهم إنى ٱستودعتك هذه العجلة لٱبنى حتى يكبر. ومات الرجل، فشبّت العجلة فى الغيضة وصارت عَوانا وكانت تَهرُب من كلّ من رامها ؛ فلما كبِر الٱبن — وكان برّا بوالدته ، وكان يقسم الليلَ ثلاثة أثلاث : يصلى ثلثا ، وينام ثلثا ، ويجلس عند رأس أمّه ثلثا ؛ فإذا أصبح ٱنطلق وٱحتطب على ظهره ، ويأتى به السوق فيبيعُه بما شاء الله، ثم يتصدق بثلثه ، ويأكل ثلثه ، ويعطى والدته ثلثه .

وحكى الكسائىّ عن وهب قال : كان فى بنى إسرائيل عبد صالح، فمات وترك ٱمرأته حاملا، فولدت غلاما ، فسمّته مِيشَى ، فكبِر ، وكان يحتطب من المواضع المباحة، وينفق على نفسه وأمه، وكان كثير العبادة؛ فلم يزل كذلك حتى كبِر وضعف وعجز عن الٱحتطاب .

قالوا : فقالت له أمه : إن أباك ورّثك عجلة وذهب بها إلى غَيضةِ كذا وٱستودعها الله — عزّ وجلّ — فانطلِق إليها وٱدع إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يردّها عليك ، وإنّ من علامتها أنك إذا نظرت إليها يخيّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها — وكانت تسمّى المُذهَبة لحسنها وصُفرتها وصفاء لونها — فأتى الفتى إلى الغَيضة، فرآها ترعى، فصاح بها وقال: أعزم عليكِ بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . فأقبلتْ تسعى حتى قامت بين يديه ، فقبض على عنقها وقادها ، فتكلّمتْ بإذن الله — عزّ وجلّ — وقالت : أيّها الفتى البارّ بوالدته، اِركبنى فإنّ ذلك أهوَن عليك . فقال : إنّ أمى لم تأمرنى بذلك ، ولكن قالت : خذ بعنقها . فقالت البقرة : وإله بنى إسرائيل لو ركبتَنى ما كنتَ تقدر

علىّ أبدا ، فانطلق فإنّك لو أمرت الجبل أن ينقطع من أصله و ينطلقَ معك لفعل، لِبرّك بوالدتك . فسار الفتى بها، فاستقبله عدوّ الله إبليس فى صورة راع فقال : أيها الفتى ، إنى رجل من رعاة البقر ، اشتقتُ إلى أهلى فأخذتُ ثورا من ثيرانى ، فحملتُ عليه زادى ومتاعى ، حتى إذا بلغتُ شطر الطريق ذهبت لأقضى حاجتى، فعدا الثورُ وسط الجبل وما قدرتُ عليه، و إنى أخشى على نفسى الهَلَكة، فإن رأيتَ أن تحملنى على بقرتك . فلم يفعل الفتى وقال له : اذهب فتوكّل على الله — عزّ وجلّ — فلو علم الله منك الصدق لبلّغك بلا زاد ولا راحلة . فقال له إبليس : إن شئتَ فبِعنيها بحكمك ، و إن شئتَ فاحملنى عليها وأعطيك عشرا مثلها . فقال الفتى : إن أمّى لم تأمرنى بذلك . فبينا الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يديه، فنفرت البقرة هاربةً فى الفلاة، وغاب الراعى، فدعا الفتى باسم إله إبراهيم ، فرجعت إليه وقالت : أيها الفتى البارُّ بوالدته ، ألم تر إلى الطائر الذى طار، إنه إبليس عدوّ الله آختلسنى ، أما إنه لو ركبنى ما قدرتَ علىّ أبدا ، فلمّا دعوتَ بإله إبراهيم جاء ملَك وآنتزعنى من يد إبليس وردّنى إليك لبِرّك بأمّك وطاعتِك لها . فجاء بها الفتى إلى أمّه، فقالت له أمّه : إنك فقير لا مال لك و يشقّ عليك الآحتطاب بالنهار والقيامُ بالليل، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها . قال : بكم أبيعها؟ قالت : بثلاثة دنانير، ولا تبعها بغير رضاى ومشورتى . فكان ثمن البقرة فى ذلك الوقت ثلاثةَ دنانير، فانطلق بها الفتى إلى السوق فبعث الله — عزّ وجلّ — ملَكا ليرى فى خَلْقه قدرته ، وليَخبُرَ الفتى كيف برّه بوالدته، وكان الله تعالى به خبيرا ؛ فقال له الملَك : بكم تبيع هذه البقرة ؟ قال : بثلاثة دنانير، وأشترط عليك رضا والدتى . فقال له الملَك : فأنا أعطيك ستة دنانيرَ ولا تستأمر أمّك . فقال الفتى : لو أعطيتنى وزنَها ذهبا لم آخذه إلّا برضا أمّى .

فردّها إلى أمّه ، وأخبرها الخبر ، فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير على رضًا منّى . فانطلق بها إلى السوق ، وأتى الملَك ، فقال : استأمرتَ والدتك ؟ فقال الفتى : إنها أمرتنى ألا أنقُصَها عن ستة دنانير على أن أستأمرها . فقال الملَك : فإنى أعطيك آثنى عشر دينارا على ألّا تستأمرها . فأبى ورجع إلى أمّه فأخبرها بذلك ؛ فقالت : إنّ ذلك الرجل الذى يأتيك هو ملَك من الملائكة يأتيك فى صورة آدمىّ ليختبرك ، فإذا أتاك فقل له : أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ؟ ففعل الفتى ذلك ؛ فقال له الملَك : اذهب إلى أمّك فقل لها : أَمسِكى هذه البقرة ، فإن موسى بن عمران يشتريها منكم لفتيل يُقتل من بنى إسرائيل ، فلا تبيعوها إلّا بمِلءِ مَسْكِها دنانير . فأمسَكوا البقرة ، وقدّر الله على بنى إسرائيل ذبحَ تلك البقرة بعينها مكافأة له على برّه بأمّه ؛ وذلك أنه وُجد قتيل فى بنى إسرائيل آسمه (عاميل) ولم يُدرَ قاتلُه .

وآختلفوا فى قاتله والسببِ فى قتله ؛ فقال عطاء والسدّىّ : كان فى بنى إسرائيل رجل كثير المال ، وله آبن عم مسكين لا وارث له غيره ، فلما أبطأ عليه موتُه قتَلَه ليرثَه .

قال : وقال بعضهم : كان تحت عاميلَ بنتُ عمّ له تُضرَب مثلا فى بنى إسرائيل بالحسن والجمال ، فقتله آبن عمّها لينكحها .

وقال الكلبىّ : قتله آبن أخيه لينكح آبنته ، فلمّا قتله حمله من قريته إلى قرية أخرى وألقاه هناك .

وقيل : ألقاه بين قريتين .

وقال عكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا ، لكل سِبْط منهم باب ، فوُجِد قتيل على باب سِبْط ، وجُرَّ إلى باب سِبْط آخر ، فآختصم السِّبطان فيه .

وقال ٱبن سيرين : قتله القاتل ثم ٱحتمله فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يطلب بثأره ودمه و يدّعيه عليه .

قالوا : فجاء أولياء القتيل إلى موسى — عليه السلام — وأتوه بأناس وٱدّعوا عليهم القتل، وسألوه القصاص ؛ فسألهم موسى عن ذلك، فجحدوا، فاشتبه أمرُ القتيل على موسى — عليه السلام — ووقع بينهم خلاف . ٥

قال الكلبيّ : وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة ، فسألوا موسى — عليه السلام — أن يدعو الله ليبيّن لهم ذلك ؛ فسأل موسى — عليه السلام — ربّه عزّ وجلّ؛ فأمرهم بذبح بقرة؛ فقال لهم موسى ما أخبر الله تعالى به فى قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ . أى تستهزئ بنا حين نسألك عن القتيل ١٠ وتأمرنا بذبح البقرة ؛ و إنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين فى الظاهر ، ولم يدروا ما الحكمة فيه . قال موسى: ﴿ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾، أى من المستهزئين بالمؤمنين؛ فلما علم القوم أنّ ذبح البقرة عزمٌ من الله عزّ وجلّ، سألوه الوصف، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ .

قال : ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأتْ عنهم، ولكن شدّدوا على ١٥ أنفسهم فشدّد الله عليهم؛ و إنما كان تشديدهم تقديرا من الله ـ عزّ وجلّ ـ وحكمة .

قال : ومعنى ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ . أى سَلْ؛ وهكذا فى مصحف عبد الله : «سل لنا ربّك يبيّن لنا ما هى وما سنّها» . قال موسى : إنه — يعنى الله عزّ وجلّ — يقول : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ : لا كبيرة ولا صغيرة ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى نَصَفٌ بين السنّين . ٢٠

وقال الأخفش: العَوان التى نُتِجتْ مرارا، وجمعه عُون. ﴿ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾: من ذبح البقرة، ولا تكرروا القول. ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ ﴾.

قال ابن عبّاس: شديدة الصُّفرة.

٥ وقال قتادة وأبو العالية والربيع: صاف.

وقال سعيد بن جبير: صفراء القرنين والظِّلْف.

وقال الحسن: سوداء. والعرب تسمِّى الأسودَ أصفر.

وقال العتبىّ: غلط من قال: الصفراء هاهنا السوداء، لأن هذا غلط فى نعوت البقر، وإنما هو من نعوت الإبل، وذلك أن السود من الإبل يشوب سوادَها صُفرة.

١٠ وقال آخر: إنه لو أراد السواد لما أكّده بالفُقوع. لأنّ الفاقع: البالغ فى الصفرة، كما يقال: أبيض يَقَق. وأسودُ حالِك، وأحمرُ قانئ، وأخضر ناضِر. ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ ﴾ إليها، ويعجبهم حسنها وصفاء لونها، لأنّ العين تسرّ وتُولَع بالنظر إلى الشىء الحسن.

وقال علىّ — رضى الله عنه —: من لبس نعلا صفراءَ قلّ همّه. لأنّ الله

١٥ تعالى يقول: ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أسائمة أم عاملة ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى إلى وصفها.

قال رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم —: "وأيم الله لو لم يستثنوا لما بُيِّنَتْ لهم آخِرَ الأبد". ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾. أى مذلّلة للعمل. ﴿ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾، أى تقلبها للزراعة ﴿ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أى بريئة من العيوب

٢٠

وقال الحسن : مسلّمة القوائم ، ليس فيها أثر العمل . ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ ، قال عطاء : لا عيب فيها .

وقال قتادة : لا بياض فيها أصلا .

وقال مجاهد : لا بياض فيها ولا سواد .

وقال محمد بن كعب : لا لون فيها يخالف معظم لونها . فلما قال هذا ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ، أى بالوصف البيّن التامّ ؛ فطلبوها فلم يجدوا كمال وصفها إلّا عند الفتى البارّ بوالدته ؛ فاشتروها منه بملء مَسْكِها ذهبا .

وقال السدّىّ : اشتروها بوزنها عشر مرّات ذهبا .

وقيل : اشتروها بوزنها مرّة ؛ قاله أبو عبيد .

وقيل : بوزنها مرّتين .

وقال الكسائىّ : إنهم أتوا إلى مِيشَى فى بيع البقرة فقال : لا أبيعها إلّا بحضرة موسى . فرضوا بذلك ، وأخرج البقرة إلى موسى ، قال : بكم تبيعها؟ قال : المساومة بينى و بينك لاخير فيها ، لا أبيعها إلّا بملء جلدها ذهبا . فقال موسى لبنى إسرائيل : ذلك لتشديدكم على أنفسكم فشدّد الله عليكم . فضمنوا له ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ من غلاء ثمنها .

وقال محمد بن كعب : وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها .

وقال الكسائىّ : بوفاء المال ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، يعنى عاميل . ﴿ فَادَّارَأْتُمْ ﴾ : اختلفتم ، قاله ابن عبّاس ومجاهد .

وقال الضحّاك : اختصمتم .

وقال عبد العزيز بن يحيى : شككتم .

وقال الربيع بن أنس : تدافعتم . وأصل الدَّرْء : الدفع ، يعنى ألقى هـذا على هذا وهذا على ذاك ، فدافع كلٌّ واحد عن نفسه لقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ، أى يدفعون . قال الله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ يعنى القتيل ببعض البقرة .

واختلفوا فى هذا البعض ما هو .

فقال ابن عباس : ضربوه بالعظم الذى يلى الغُضْروف ، وهو المقبل .

وقال الضحّاك : بلسانها .

قال الحسين بن الفضل : وهذا أَولى الأقوال ، لأنّ المراد كان من إحياء القتيل كلامُه ، واللسان آلته .

وقال سعيد بن جبير : بعَجْبِ ذَنَبها .

قال يمان بن زرياب : وهـو أَولى التأويلات بالصواب ، لأنّ العُصعُص أساس البدن الّذى رُكِّب عليه الخَلق ، وأنّه أوّل ما يُخلَق ، وآخِرُ ما يَبلى .

وقال مجاهد : بذَنَبها .

وقال عكرمة والكلبىّ : بفخذها الأيمن .

وقال السدّىّ : بالبَضعة الّتى بين كتفيها .

وقيل : بأذنها . ففعلوا ذلك ، فقام القتيل — بإذن الله عزّ وجلّ — وأوداجه تَشخُب دما ، وقال : قتلنى فـلان . ثم مات وسقط مكانه ؛ قال الله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الكلبيّ : ثم قالوا بعد ذلك : « لم نقتله نحن » وأنكروا، فلم يكونوا قطّ أقسى قلبا ولا أشدّ تكذيبا منهم لنبيّهم عند ذلك ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

قال الكلبيّ : يبست واشتدّت .

وقال أبو عبيدة : جفّت من الشدّة فلم تَلِن . ٥

وقيل : غلظت .

وقيل : اشتدّت .

وقال الزّجاج : تأويل القسوة ذهاب اللّين والرحمة والخشوع والخضوع .

قوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾، أى من بعد ظهور الدّلالات، فهى فى غلظها وشدّتها ﴿ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، أى بل أشدّ قسوة . ١٠

ثم عدّد الله تعالى الحجارة وفضّلها على القلب القاسى، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾، أى ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ذكر بناء بيت المقدس وخبر القربان والتابوت والسكينة وصفة النار ١٥

وهذا البيت ليس هو البيت المقدّس الموجود الآن ، وإنما هو الذى تسميه اليهود : « قبة الزمان » ويزعمون أن ذلك نص التوراة، وكان من خبر هذه القصة ما رواه الثعلبيّ بإسناده عن وهب بن منبّه قال: أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه السلام — أن يتّخذ مسجدا لجماعتهم . وبيتَ قدس للتوراة ، وتابوتا للسكينة وقبابا للقربان ، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود ٢٠

الملبسة عليها، وأن تكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان، وحبالها من أصواف تلك الذبائح؛ وعهد إليه ألا تغزل تلك الحبالَ حائض، ولا يدبغَ تلك الجلودَ جُنُب؛ وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عَمَد من نحاس، طول كلّ عمود منها أربعون ذراعا، ويجعل فيها اثنى عشر قسما مُشرَجا[1]، إذا نُقِضتْ صارت اثنى عشر جزءا يَحمل كلّ جزء بما فيه من العمد سبط من الأسباط من بنى إسرائيل؛ وأمره أن يجعل سعةَ ذلك السرادق سِتّمائة ذراع، وأن ينصب فيه سبعَ قباب، ستٌّ قباب منها مشبكةٌ بقضبان الذهب والفضة، كلّ واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة طول كل عمود منها أربعون ذراعا، وعليها أربعة دسوتِ ثياب، الباطن منها سندس أخضر، والثانى أُرجُوان أحمر، والثالث ديباج أصفر، والرابع من جلود القربان وقايةٌ لها من المطر والغبار، وحبالها التى تُمَدّ بها من صوف القربان، وأن يجعل سعتها أربعين ذراعا، وأن ينصب فى جوفها موائد من فضّة مربّعةً مرصّعة يوضع عليها القربان، سعة كلّ مائدة منها أربع أذرع، كلّ مائدة منها على أربع قوائم من فضّة، طول كلّ قائمة ثلاث أذرع، لا ينال الرجل منها إلّا قائما؛ وأمره أن ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب، طوله سبعون ذراعا؛ وأن يضعه على سبيكة من ذهب أحمرَ طولها تسعون ذراعا، مرصّعةٍ بألوان الجواهر، وأن يجعل أسفله مشبّكا بقضبان الذهب والفضّة، وأن يجعل حباله التى يُمدّ بها من صوف القربان مصبوغةً بألوان من أحمر وأصفر وأخضر؛ وأن يُلبِسه سبعةً من الحُلَل، الباطن منها سندس أخضر، والثانى أرجوان أحمر، والثالث ديباج أصفر، والرابع من الحرير الأبيض، وسائرُها من الدِّيباج والوشى؛ والظاهر غاشيةٌ له من جلود القربان وقايةٌ له من الأذى والندى؛ وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعا، وأن يفرش القباب

(١) مشرجا، أى دوخل بين عراه وضم بعضها إلى بعض.

بالقَزّ الأحمر؛ وأمره أن ينصب فيه تابوتا من ذهب كتابوت الميثاق، مرصّعا بأنواع الجواهر والياقوت والزمرد الأخضر، وقوائمه من الذهب، وأن يجعل سعته سبع أذرع فى أربع أذرع، وعلوّه قامةَ موسى عليه السلام، وأن يجعل له أربعة أبواب: باب تدخل منه الملائكة، وباب يدخل منه موسى، وباب يدخل منه هارون، وباب يدخل منه أولاد هارون، وهم سَدَنة ذلك البيت وخُزّان التابوت، وأمر الله نبيّه موسى أن يأخذ من كلّ محتلم من بنى إسرائيل مثقالا من الذهب فينفقه على هذا البيت، وأن يجعل باقىَ المال الذى يحتاج إليه فى ذلك من الحلىّ والحلل التى ورِثها موسى وأصحابه من فرعون وأصحابه؛ ففعل موسى ذلك، فبلغ عدد رجال بنى إسرائيل سِتّمائة ألف وسبعمائة وخمسين رجلا فأخذ منهم ذلك المال.

وأوحى الله تعالى إليه أنى منزّل عليكم من السماء نارا لا دخان لها ولا تُحرِق شيئا، ولا تنطفئ أبدا، لتأكل القرابين المتقبَّلة، وتُسرَج منها القناديلُ التى فى بيت المقدس، وكانت من ذهب معلَّقةً بسلاسلَ من ذهب، منظومةً باليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر؛ وأمره أن يضع فى وسط البيت صخرة عظيمة من الرُّخام، وينقرَ فيها نُقرةً لتكون كانونَ تلك النار التى يُنزَل بها من السماء؛ فدعا موسى أخاه هارون وقال له: إن الله تعالى قد اصطفانى بنار يُنزِلها من السماء لتأكل القرابين المقبولة ولتُسرَج منها القناديل، وأوصانى بها، وإنى قد اصطفيتك لها وأوصيتك بها. فدعا هارون ابنيه وقال لهما: إن الله تعالى قد اصطفى موسى بأمر وأوصاه به، وإنه قد اصطفانى له وأوصانى به، وإنى قد اصطفيتكما وأوصيتكما به. وكان أولاد هارون هم الذين يلون سِدانة بيت المقدس وأمرَ القربان والنيران؛ فشربا ذات ليلة ثم ثَمِلا، ثم دخلا البيت وأسرجا القناديل من هذه النار التى فى الدنيا، فغضب

الله عليهما، وسلط عليهما تلك النار حتى أحرقتهما، وموسى وهارون يدفعان عنهما النار فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا؛ فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : هكذا أفعل بمن عصانى ممّن يعرفنى، فكيف أفعل بمن لا يعرفنى، والله أعلم .

ذكر ما أنعم الله تعالى به على بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر

٥ قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ : اختلفوا فى معنى الملوك ؛ فروى عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وآمرأة فهو ملِك" .

١٠ وقال أبو عبد الرحمن الحُبُلىّ : سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص — وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ — فقال له عبد الله : ألك آمرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : وإنّ لى خادما . قال : فأنت من الملوك .

وقال الضحّاك : كانت منازلهم واسعة ، فيها مياه جارية، فمن كان مسكنه ١٥ واسعا وفيه ماء جارٍ فهو ملِك .

وقال قتادة : وكانوا أوّل من مَلَكَ الخَدَم، وأوّل من سُخِّر لهم الخدم من بنى آدم . (١٠٠)

وقال السدّىّ : يعنى وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدى القبط بمنزلة أهل الجزية ، فأخرجكم الله تعالى من ذلك الذلّ .

﴿ وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ﴾، يعنى من عالَم زمانكم .

٢٠ وقال مجاهد : يعنى المنّ والسلوى والحجر والغمام .

قال : ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسير ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدّسة ويجاهد الجبّارين؛ فأخرجهم موسى — عليه السلام — لذلك، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ ٱدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

قال الثعلبىّ : اختلفوا فى الأرض المقدّسة ما هى .

فقال مجاهد : هى الطُّور وما حوله . ٥

وقال الضحاك : هى إيلياء و بيت المقدس .

وقال عكرمة والسدّىّ وٱبن يزيد : هى أريحا .

وقال الكلبىّ : دمشق وفلسطين و بعض الأُرْدُنّ .

وقال قتادة : الشأم كلّه .

قال الكسائىّ : فلمّا أخبرهم موسى بذلك قالوا : يا موسى إنّك قلت لنا حين ١٠ أخرجتَنا من مصر : إنّ الله تعالى بعثك لتنقذنا من عذاب فرعون، والآن فإنك تحملنا على ما هو أشقّ منه ، و بيننا و بين الأرض المقدّسة المَفاوزُ والقفار، وكيف ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى، قل لهم: إنى منزّل عليهم المنّ والسلوى ، وقد أمرت الحجر أن يتفجّر لهم بالماء العذب ، وأمرت الغمام أن يظلّهم و يسير معهم حيث ساروا؛ وألا تنقب خِفافُهم ونعالُهم ؛ وأمرت ١٥ ثيابَهم أن يلبسها صغيرهم وكبيرهم .

فلما سمعوا ذلك طابت نفوسهم ، وساروا نحو الأرض المقدّسة والغمام يظلّهم فى مسيرهم ، والسماء تمطر عليهم بالمنّ، والريحُ بالسلوى، ويجدون كلّ ما يحتاجون إليه، و يضىء لهم بالليل عمود من النور، وتهبّ الريح على السلوى فتمعَط ريشها فيطبخونها بغير تعب؛ و يقرع موسى — عليه السلام — الحجر فتتفجّر لهم ٱثنتا عشرة ٢٠

عينا، تجرى كلُّ عين إلى سبط من الأسباط ؛ وثيابهم جدد بيض لا تَخلُق ، وهم فى خفض ودعة .

وقال أبو إسحاق الثعلبىّ ، كان ما أنعم الله تعالى به عليهم أنهم قالوا لموسى فى التِّيه : أهلكتَنا وأخرجتَنا من العمران إلى مَفاوِز لا ظلّ فيها . فأنزل الله تعالى عليهم غمامةً بيضاء رقيقةً ليست بغمام المطر أرقّ وأطيب وأبرد، فأظلّتهم وكانت تسير معهم إذا ساروا ، وتدور عليهم من فوقهم إذا داروا ؛ وجعل لهم عمودا من نور يضىء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر ؛ فقالوا : هذا الظلّ والنور قد حصلا، فأين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنّ .

واختلفوا فيه؛ فقال مجاهد : هو شىء كالصمغ يقع على الأشجار ، وطعمه كالشُّهْد .

وقال الضحاك[1] : هو الطَّرَنْجبين .

وقال وهب : الخبز الرُّقاق .

وقال السدّىّ : عسل كان يقع فى السَّحَر من الليل فيأكلون منه .

وقال عكرمة : أنزل الله — عزّ وجلّ — عليهم مِثلَ الزيت الغليظ .

وقيل : هو الزنجبيل .

وقال الزجّاج : جملة المنّ : ما يمنّ الله عزّ وجلّ به ممّا لا تعب فيه ولا نصب .

فكان ينزل عليهم كلّ ليلة ويقع على أشجارهم مِثلَ الثلج، لكلّ إنسان منهم صاع كلّ ليلة ؛ فقالوا : يا موسى ، قتلَنا هذا المنُّ بحلاوته ، فادع لنا ربَّك أن يُطعِمنا اللحم . فدعا موسى عليه السلام، فأنزل الله — عزّ وجلّ — عليهم السَّلْوَى .

(١) كذا فى تاريخ العينى ؛ والذى فى كلا الأصلين : « مجاهد » ؛ وهو تبديل من الناسخ، فان مجاهدا هو صاحب القول السابق .

قالوا : وٱختلفوا فيه؛ فقال ٱبن عباس — رضى الله عنهما — وأكثر المفسّرين : هو طائر يشبه السُّمَانَى .

وقال أبو العالية ومقاتل : بعث الله — عزّ وجلّ — السحابة فمطرت السُّمَانَى فى عرض مِيل وقدرِ طولِ رمح فى السماء بعضه على بعض .

وقال عكرمة : طير يكون بالهند أكبر من العصفور . ٥

فكان يأخذ كلُّ واحد منهم ما يكفيه يوما وليلة من المنّ والسلوى ، فإذا كان يوم الجمعة أخذوا ما يكفيهم عن يومين، لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ولا تدّخروا لغد . فجَنوا لغد فقطع الله ذلك عنهم، ودوّد وفسد ما ٱدّخروا، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ معناه وما ضرّونا بالمعصية ﴿ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ روى ١٠ عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — أنه قال: لولا بنو إسرائيل لم يَخْثُر الطعام، ولم يخبث اللحم، ولولا حوّاء لم تخن أنثى زوجها.

ثم قالوا : يا موسى ، من أين لنا الشراب ؟ فٱستسقى لهم موسى ؛ فأوحى الله تعالى إليه : أنِ ٱضرب بعصاك الحجر .

قال الثعلبىّ : وٱختلف العلماء فى الحجر؛ فقال وهب : كان موسى — عليه ١٥ السلام — يقرع لهم أقربَ حجر من عرض الحجارة فيتفجّر عيونا ، لكلّ سبط عين، وكانوا ٱثنى عشر سبطا ، ثم تسيل كلّ عين فى جدول إلى سبط؛ فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشا . فأوحى ٱلله تعالى إليه : لا تقرعنّ الحجارة بالعصا ولكن كلّمها تُطعك لعلّهم يعتبرون . فكان يفعل ذلك . فقالوا : كيف بنا (١٠١) لو مضينا إلى الرمل و إلى الأرض التى ليس فيها حجارة ؟ فأمر موسى فحَمل معه ٢٠ حجرا، فحيثما نزل ألقاه .

وقال آخرون : كان حجرا مخصوصا بعينه ، والدليل عليه قوله : « الحجر » فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص ؛ وأمر أن يحمله ، فكان موسى عليه السلام يضعه فى مخلاته ، وإذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه وسقاهم .

وقال أبو روق : كان الحجر من الغضار ، وكان فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من كل حفرة ماء عذب ، فيأخذونه ، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه ؛ فيذهب الماء ؛ فكان كلّ يوم يَستقى منه ستّمائة ألف .

وقال سعيد بن جبير : هو الحجر الذى وضع موسى عليه ثوبه لغسله ففرّ بثوبه ؛ فلما وقف أتاه جبريل فقال : يا موسى ، إن الله تعالى يقول لك : ارفع هذا الحجر فإنّ لى فيه قدرة ، ولك فيه معجزة .

وقد تقدّم ذكر خبر الحجر .

وورد أيضا فى صحيح البخارىّ نحو ما تقدّم .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ : وكان مما أنعم الله تعالى به على بنى إسرائيل أنهم قالوا لموسى عليه السلام : من أين لنا اللباس؟ فخلّد الله تعالى ثيابهم التى عليهم حتى إنها لا تزيد على الأيام ومرورها إلّا جِدّة وطراوة ، ولا تَخلُق ولا تَبلَى ، وتنمو على صبيانهم كما ينمون .

قال : ثم سئم بنو إسرائيل المنّ والسلوى ، فقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ .

واختلف فى الفوم ما هو ؟ فقال ابن عبّاس : هو الخبز ، تقول العرب : « فُوموا لنا » ، أى اختبزوا .

وقال عطاء وأبو مالك : هو الحنطة، وهى لغة قديمة .

وقال العتبىّ : هو الحبوب كلّها .

وقال الكلبىّ والنضر بن شميل والكسائىّ والمؤرّج : هو الثُّوم .

فقال لهم موسى عند ذلك : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ .

قالوا : مصرا من الأمصار، ولذلك نوّنه؛ ولو أراد مصر بعينها لقال : «مصر» ولم يصرفه، كقوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ .

وقال الضحّاك : هى مصر فرعون .

واليهود يزعمون أنّ موسى — عليه السلام — وبنى إسرائيل حُرِّم عليهم بنصّ التوراة الدخولُ إلى مصر حين خرجوا منها عند اتباع فرعون لهم وغرقِه، وأنهم لم يدخلوها بعد ذلك . والله أعلم .

ولنرجع إلى أخبار النقباء وقتال الجبّارين .

ذكر خبر النقباء ومسيرِهم إلى أريحا، وقصّة عُوج بن عُوق[1] وخبرِ التِّيه

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ .

قال الثعلبىّ : وذلك أن الله تعالى وعد موسى — عليه السلام — أن يورِّثه وقَوْمَه الأرض المقدّسة، وهى الشأم، وكان يسكنها الكنعانيّون الجبّارون ووعدهم أن يهلكهم ويجعل أرض الشأم مسكن بنى إسرائيل؛ فلمّا استقرّت ببنى إسرائيل الدارُ بمصر أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا .

(١) كذا فى القاموس وشرحه . وفى الأصل : « عنق » بالنون .

" هكذا قال الثعلبيّ : بمصر[(١)] " .

واليهود تنكر ذلك، ويقولون : إن نص التوراة عندهم أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه ونجّى موسى وبنى إسرائيل، تنقلوا من مكان إلى آخر . ويذكرون أسماء الأماكن بالعبرانية — وليست تعرف الآن — وكان فى خلال مسيرهم خبر التيه، وكلّ ما تقدّم ذكره من الأخبار يزعمون أنه فى التيه؛ والله أعلم .

نعود إلى سياق الثعلبيّ :

قال : فأمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا وأرض الشأم، وهى الأرض المقدّسة وقال : يا موسى، إنى قد كتبتها لكم دارا وقرارا، فأخرج إليها وجاهِد من فيها من العدوّ ، فإنى ناصركم عليهم ، وخذ من قومك اثنى عشر نقيبا، من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء منهم على[(٢)] ما أمروا به .

فاختار موسى — عليه السلام — النقباء .

قال: وهذه أسماؤهم؛ « من سبط[(٣)] روبيل شامل بن زكور . ومن سبط شمعون سافاط بن حرى . ومن سبط يهوذا كالَب بن يوقَنا . ومن سبط أبين حامل بن بكر

(١) تشعر هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين بأن قوله « بمصر » محل نظر . (٢) فى تفسير الآلوسى عند تفسير قوله تعالى : « ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل » الخ : « فيما أمروا به » .

(٣) وردت أسماء هذه النقباء فى التوراة صفحة ٢١٤ هكذا : « من رأوبين أليصور بن شديئور ومن شمعون شلوميئيل بن صوريشدّاى ، ومن يهوذا نحشون بن عميناداب ، ومن يساكر نثنائيل بن صوعر ومن زبولون أليآب بن حيلون ، ومن بنى يوسف من أفرائيم اليشاماع بن عميهود ، ومن منسى جملئيل ابن فدهصور، ومن بنيامين أبيدان بن جدعونى ، ومن دان أجيعازر بن عميشدّاى ، ومن أشير فجئيل بن عكران ، ومن جاد أليساف بن دعوئيل ، ومن نفتالى أجيرع بن عينان » . وهى مخالفة كل المخالفة لما هنا كما ترى . وقد أورد العينى فى تاريخه هذه الأسماء هكذا : « من سبط روبيل شامل بن زكور ومن سبط شمعون شافاط بن حورى ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ، ومن سبط يساخر شال بن ماعون ومن سبط دانى جيعدد بن عميشدى ، ومن سبط جاد حايل بن يوسف ، ومن سبط زبولون حوا بن سودا ، ومن سبط أشير شالون بن مليكا ، ومن سبط نفتالى حولا بن مليكا ، ومن سبط يوسف عليه السلام وهما سبطان سبط افرايم وسبط منشى ، فاختار من سبط افرايم يوشع بن نون ، ومن سبط منشى جدى بن سوشى ، ومن سبط بنيامين بلطم بن راقون » .

ابن سورا . ومن سبط يوسف وهو سبط افرايم يوشع بن نون . ومن سبط بنيامين قلطم بن رقوق . ومن سبط زبولون خدى بن سورى . ومن سبط يوسف وهو سبط منشى بن يوسف جدىّ بن سوشى . ومن سبط أشير شيانون بن ملكيل . ومن سبط نفتالى حنا بن وقشى . ومن سبط دان جملائيل بن حمل . ومن سبط لاوى حولى بن مليكا » .

قال : فسار موسى ببنى إسرائيل حتى إذا دنَوا من أرض كنعان — وهى أريحا — بعث هؤلاء النقباءَ إليها يتجسّسون له الأخبار ويعلمون علمها ؛ فلقيهم رجل من الجبّارين يقال له : عُوج بن عُوق، وكان طوله ثلاثةَ آلاف وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثا وثلاثين ذراعا .

قال ابن عمر — رضى الله عنهما — : وكان عُوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها، ثم يأكله . ويُروى أنه أتى نوحا — عليه السلام — يومَ الطُّوفان فقال له : احملنى معك فى السفينة . فقال له : اذهب يا عدوّ الله فإنى لم أُومَر بك ؛ وطبّق الماء ما على وجه الأرض من سهل وجبل فما جاوز ركبتى عُوج .

وعاش عُوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدى موسى .

قال : وكان لموسى عسكر فرسخ فى فرسخ، فجاء عُوج حتى نظر إليهم ، ثم جاء إلى الجبل وقوّر منه صخرة على قدر العسكر، ثم حملها ليُطبقها على العسكر، فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور ، وجعلت تنقر بمناقيرها حتى قوّرت الصخرة وانثقبتْ حتى وقعت فى عنق عُوج ، فطوّقته وصرعته ، فأقبل موسى وطوله عشرُ أذرع وطول عصاه عشرُ أذرع ، ونزا فى السماء عشرَ أذرع ، فما أصاب إلّا كعبَه وهو مصروع بالأرض، فقتله .

قالوا : وأقبلتْ جماعة كثيرة ومعهم الخناجر حتى حزّوا رأسه؛ فلما قُتل وقع على نيل مصر فسكّره[1] سنة .

قالوا : وكانت أمّ عُوج يقال لها : عناق، وهى إحدى بنات آدم لصلبه .

ويقال : إنها كانت أوّل من بغتْ على وجه الأرض ، وكان كلّ إصبع من أصابعها ثلاثَ أذرع فى ذراعين، فى كلّ إصبع ظُفران حادّان مثل المِنجَلين، وكان موضع مقعدها جَريب من الأرض، فلمّا بغتْ بعث الله تعالى إليها أسودا كالفِيَلة وذئابا كالإبل ، ونسورا كالحُمُر، وسلّطها عليها فقتلوها وأكلوها .

قالوا : فلمّا لقى عُوج النقباء لقيهم وعلى رأسه حُزمة حطب، فأخذهم وجعلهم فى حُزمته، وانطلق بهم إلى امرأته ،وقال: انظرى إلى هؤلاء الّذين يريدون قتالنا . فطرحهم بين يديها وقال : ألا أطحنهم برجلى ؟ قالت امرأته : لا ، بل خلّ عنهم حتى يُخبِروا قومهم بما رأوا . ففعل؛ وجعلوا يتعرّفون أحوالهم .

وكان لا يحمل عنقودَ عنبهم إلّا خمسة أنفس بينهم فى خَيْشة، ويدخل فى قشر شطر الرمّانة إذا نُزِعَ حبُّها خمسة أنفس .

قال : فلمّا خرج النقباء قال بعضهم لبعض: ياقوم إنكم إن أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم ارتدّوا عن نبىّ الله، ولكن اكتموا وأخبروا موسى وهارون فيكونا هما يَريان رأيهما . فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ؛ ثم انصرفوا إلى موسى — عليه السلام — وجاءوا بحبّة من عنبهم وقَرَ رجل، ثم إنهم نكثوا العهد، وجعل كلُّ واحد منهم ينهى سبطه عن قتالهم، ويخبرهم بما رأى، إلّا يوشع وكالَب .

قال : فلمّا سمع القوم ذلك من النقباء رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : ياليتنا متنا فى أرض مصر ، وليتنا نموت فى هذه البرّيّة ولا يدخلنا الله أرضهم ، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمةً لهم .

(١) سكره : سدّه .

وجعل الرجل يقول لأصحابه : تعالَوا نجعل علينا رأسا وننصرف إلى مصر؛ فذلك قوله تعالى إخبارا عنهم : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ .

فلما قالوا ذلك وهمّوا بالانصراف إلى مصر ، خرّ موسى وهارون — عليهما السلام — سجّدا ، وخرق يوشع وكالب ثيابهما ، وهما اللّذان أخبر الله تعالى عنهما بقوله : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ ، أى يخافون الله . ٥

وقرأ سعيد بن جبير (يخافون) بضم الياء .

قال : كانا من الجبّارين ، فأسلما واتبعا موسى . ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ ، لأن الله تعالى منجز وعده ، وإنا أتيناهم فكانت أجسامهم عظيمة قويّة ، وقلوبهم ضعيفة ، فلا تخشوهم ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة ، وقالوا : يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . ١٠

فلما قالوا ذلك غضب موسى وقال : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . وكانت عجلةً عجلها موسى — عليه السلام — فظهر الغمام على قبّة الزمان ، وأوحى الله تعالى إلى موسى : إلى متى يعصينى هذا الشعب ، وإلى متى لا يصدّقون بالآيات؟ لأقتلنهم جميعا ، ولأجعلنّ بدلهم شعبا أشدّ وأكثر منهم . ١٥

قال موسى : إلهى لو أنّك قتلتَ هذا الشعب كلّه كرجل واحد قالت الأمم الذين سمعوا : إنّما قتل هذا الشعبَ من أجل أنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدّسة ، فقتلهم فى البرّيّة . وإنك طويلُ صبرك ، كثيرةٌ نِعَمُك ، وأنت تغفر الذنوب ، وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناءِ الأبناء ، فاغفر لهم ولا توبقهم . ٢٠

(١٠٣)

فقال الله تعالى : قد غفرت لهم بكلمتك، ولكن بعد ما سمّيتهم فاسقين ودعوتَ عليهم ، لأحرّمنّ عليهم دخول الأرض المقدّسة غيرَ عبدىّ يوشع وكالَب ولأُتيهنّهم فى هذه البرّيّة أربعين سنة ، ولتُلقَيَنّ جِيفُهُم فى هذه القِفار ؛ وأمّا بنوهم الّذين لم يعملوا الخير والشرّ فإنهم يدخلون الأرض المقدّسة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فى ستّة فراسخ ، يسيرون كلَّ يوم جادِّين ، حتى إذا سئموا وأمسَوا ، فإذا هم فى الموضع الّذى ٱرتحلوا منه وكانوا سِتّمائة ألف مقاتل ، مات النقباء العشرة الّذين أفشَوا الخبر بغتة، وكلّ من دخل التيه ممّن جاوز عشرين سنة مات فى التِّيه غيرَ يوشع وكالب، ولم يدخل أريحا أحد ممن قال : إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا .

فلما هلكوا وٱنقضت أربعون سنة ، ونشأت النواشئ من ذراريّهم ، ساروا إلى حرب الجبّارين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ . والله المعين .

ذكر مسير موسى — عليه السلام — وبنى إسرائيل لحرب الجبّارين ودخولهم القرية

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

اختلف المفسّرون فى القرية :

قال ٱبن عبّاس : هى أريحا ، وهى قرية الجبّارين ، وكان فيها بقيّة من عاد يقال لهم : العمالقة .

وقيل : هى بلقاء .

وقال ٱبن كيسان : هى الشأم .

وقال الضحّاك : الرملة والأُرْدُنُّ وفلسطين وتَدْمُر .

وقال مجاهد : بيت المقدس .

وقال مقاتل : إيلياء . وقوله : رَغَدًا ، أى موسّعا عليكم .

والباب : باب من أبواب القرية ، وكان لها سبعة أبواب . ٥

وقال مجاهد : هو باب فى بيت المقدس يُعرَف إلى اليوم بباب حِطّة .

وقيل : هو باب القبّة الّتى كان موسى يصلّى إليها .

وعن مجاهد أيضا : أنه باب فى الجبل الّذى كلّم الله تعالى عليه موسى كالفُرضة.

وقوله : سُجَّدًا ، أى منحنين متواضعين .

وقال وهب : قيل لهم : ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فٱسجدوا شكرا لله عزّ ١٠ وجلّ ، وذلك أنّ موسى — عليه السلام — لما ٱنقضت مدّة التِّيه سار بالأبناء إلى القرية ودخلها ، ودخل المؤمنون سجّدا كما أمرهم الله تعالى . وقوله : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ ، قال قتادة : حُطّت عنّا خطايانا ، أمِروا بالٱستغفار .

قال ٱبن عبّاس : يعنى لا إله إلا الله ، لأنها تحطّ الذنوب .

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ . ١٥

قال مجاهد : طُؤْطِئَ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم ، فلم يخفضوا ولم يركعوا ولم يسجدوا ، ودخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا قولا غير الذى قيل لهم ، وذلك أنهم أمروا أن يقولوا : حِطّة ؛ فقالوا : (هطا سمعاثا) ، يعنون حنطةً سمراء ٱستخفافا بأمر الله تعالى ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، وذلك أنّ الله تعالى أرسل عليهم ظُلمة وطاعونا ، فهلك ٢٠ منهم فى ساعة واحدة سبعون ألفا .

قال الكسائىّ : وغلب موسى على مدينة أريحا ، وهرب من كان بها من الجبّارين .

وقيل : إنما دخل موسى الآن أرضَ كنعان ، وإن مدينة أريحا فتحها يوشع ابن نون بعد وفاة موسى — عليه السلام — على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار يوشع .

ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بَلْعَم بن باعُورا وما يتّصل بذلك

قالوا : ولمّا دخل موسى ببنى إسرائيل أرضَ كنعان ، سار منها يريد مدينة بلقاء .

قال مقاتل : سمّيت بلقاء لأنّ ملكها كان يقال له : بالَق ، وكان بها بَلْعَم بن باعورا ، وهو الذى أنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الآيات .

وقيل : نزلت الآيات فى غيره — على ما نذكره إن شاء الله تعالى آخرَ القصّة — .

وٱختُلِف أيضا فى ٱسمه ونسبه .

فقال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — : هو بَلْعَم بنُ باعُورا .

وقال ٱبن مسعود — رضى الله عنه — : بلعم بن ابر .

وقال مجاهد : بلعام بن باعر .

وقال الثعلبىّ : قال أكثر المفسّرين : هو بلعام بن باعورا بن أيدن بن مَآرب ابن لوط ، وكان من الكنعانيّين .

وقال عطية عن ٱبن عبّاس : هو من بنى إسرائيل .

وقال على بن أبى طلحة عنه : هو من الكنعانيّين من مدينة الجبّارين .

وقال مقاتل : هو من مدينة بلقاء .

قالوا : فلمّا أقبل موسى ببنى إسرائيل إلى مدينة بلقاء، كان أهلها يعبدون الأصنام، فلمّا بلغ الملِكَ مسيرُ موسى — عليه السلام — إليه آستشار أكابرَ دولته؛ فقالوا له : إنّ فرعون لم يطقه مع كثرة جنوده، فأنت أَولى ألّا تطيقه، غير أنّ هاهنا رجلا يعرف ببَلْعام مجابَ الدعوة ، التمِس منه أن يدعو عليهم ليكفيك ربّك أمرَ موسى . فبعث الملكُ إليه وأحضره وتحدّث معه فى أمر موسى ؛ فقال : حتى أستأذن ربّى . ودخل بلعم مصلّاه وآستأذن فى الخروج ، فأُوحى إليه أن هذا العسكر هم بنو إسرائيل، وعليهم موسى رسولى، ولا تخرج إليهم . فقال بلعم لرسل الملِك : إنّ ربى قد منعنى من ذلك، فآنصرفوا وعرّفوا الملِك .

وكان لبلعم آمرأة، فأَهدَى لها الملكُ هديّة نفيسة، وسألها أن تكلّم زوجها فى التوجّه مع الملِك ؛ فسألته؛ فقال : قد آستأذنتُ ربّى فنهانى . فلم تزل به حتى آستأذن الله ثانيا؛ فأَوحى الله إليه : أنى نهيتك عن ذلك، والآن قد جعلتُ الأمر إليك . فطابت نفسه بالخروج مع الملِك . حكاه الكسائىّ .

وقال الثعلبىّ فى تفسيره، وعزاه إلى آبن عباس وآبن إسحاق والسدّىّ وغيرهم : إن موسى — عليه السلام — لما قصد حرب الجبّارين ونزل أرض كنعانَ من أرض الشأم، أتى قومُ بَلْعام — وكان عنده آسم الله الأعظم — فقالوا : إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنود كثيرة ، وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحلُّها بنى إسرائيل، وإنّا قومك وبنو عمّك ، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة فآخرج وآدع الله أن يردّ عنّا موسى وقومَه . فقال: ويلكم، هو نبىّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون، كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟! وإنى إن فعلتُ ذلك ذهبت

دنياى وآخرتى . فراجعوه فى ذلك ، فقال : حتى أؤامر ربّى . — وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمَر به فى المنام — فأمَرَ فى الدعاء عليهم ، فقيل له فى المنام : لا تدعُ عليهم . فقال لقومه : إنى قد نُهيت عن الدعاء عليهم . فأهدَوا إليه هديّة فقبلها ، ثم راجعوه فى الدعاء عليهم ، فقال : حتى أؤامر . فآمر فلم يحرِ إليه شىء فقال : قد آمرت فلم يحرِ إلىّ شىء . فقالوا : لو كره ربُّك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك فى المرّة الأولى . فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن ؛ فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال له : (حَبّان) ؛ فلما سار عليها غير كثير ربَضتْ ، فنزل عنها فضربها ، حتى إذا آلمها قامت ، فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت ، فنزل عنها وضربها حتى إذا آلمها أُذِن لها بالكلام ، فتكلّمتْ حجّة عليه ، فقالت : ويحك يا بلعم ، أين تذهب ؟ ألا ترى الملائكة أمامى يردّوننى عن وجهى هذا ؟ تذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها ؛ فخلّى الله سبيلها ؛ فانطلقت حتى إذا أشرفتْ به على جبل (حَبّان) جعل يدعو عليهم ، فلا يدعو بشرّ إلا صُرف به لسانُه إلى قومه ؛ ولا يدعو لقومه بخير إلّا صُرِف لسانُه إلى بنى إسرائيل ؛ فقال قومه : يا بَلْعَم أتدرى ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا . قال : فهذا مالا أملك . وأندلع لسانه فوقع على صدره ، فقال لهم : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلّا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال ، جمِّلوا النساء وزيّنوهنّ وأعطوهنّ السِّلَع ، ثم أرسلوهنّ إلى العسكر يبعنها فيه ، ومروهنّ فلا تمنع آمرأة نفسها من رجلٍ أرادها ؛ فإنّهم إن زنى منهم رجل واحد كُفيتموهم . ففعلوا ؛ فلما دخل النساء العسكرَ مرّت آمرأة من الكنعانيين آسمها كُسْتى[1] بنت صعور برجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له :

(١) كذا ضبط هذا الاسم فى تاريخ العينى فى الأجزاء المكتوبة بخط المؤلف ضبطا بالقلم .

زمزى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — عليهم السلام — فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالُها؛ ثم أقبل حتى وقف على موسى فقال له : إنى أظنك ستقول : هذه حرام عليك . قال موسى : أجل ، هى حرام عليك، لا تقرَبها . قال : فوالله لا نطيعك فى هـذا . ثم دخل بها قبّته فوقع عليها فأرسـل الله تعالى الطاعون على بنى إسرائيل فى الوقت ؛ وكان فنحاص بن العَيزار ابن هارون صاحب أمر موسى رجلا قد أعطِىَ بَسْطة فى الخَلْق وقوّة فى البطش وكان غائبا حين صـنع زمزى بن شـلوم ماصنع ، فجـاء والطاعونُ يجـوس فى بنى إسرائيل فأخبر الخبر ، فأخذ حربتـه ، وكانت كلّهـا من حديد ، ثم دخل عليهما القبّة وهمـا مضطجعان فنظمهما بحربته ، ثم خرج بهما رافعا حربته إلى السماء قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسـند الحربة إلى لحيته — وكان بِكرَ العيزار — وجعل يقول : اللهـمّ هكذا تفعل بمن يعصيك ؛ ورُفع الطاعون، فحُسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون — فيما بين أن أصاب المرأة إلى أن قتله فنحاص — فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألفا فى ساعة واحدة من النهار.

قال : فمن هناك يُعطِى بنو إسرائيل ولَد فنحاص من كلّ ذبيحة ذبحوها الخاصرة[(١)] والذراع واللَّحيَة، لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه ، وإسـناده إياها إلى لحيته، والبِكرَ من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بِكرَ العَيزار بن هارون .

قال الثعلبىّ أيضـا : وقال مقاتل : إن ملك البَلْقاء قال لبلعام : ادع الله على موسى . فقال : إنه من أهـل دينى فلا أدعو عليه . فنحت الملكُ خشبة ليصلبه فلمـا رأى ذلك خرج على أتان له ليدعوَ عليه ، فلما عاين عسكَرهم قامت به الأتان

(١) كذا فى كتاب الثعلبى المنقول عنه هـذا الكلام ص ١٨٢ طبع المطبعة البهية . والذى فى كلا الأصلين : «القبة» وهو تبديل من الناسخ اذ لا يناسب معناه سياق ما هنا .

وقد وقفت، فضربها، فقالت : لِمَ تضربنى وأنا مأمورة؟ فلا تظلمنى، وهـذه نارٌ أمامى قد منعتْنى أن أمشىَ . فرجع فأخبر الملك؛ فقال : لتدعونّ عليه أو لأصلّبنّك . فدعا على موسى باسم الله الأعظم ألّا يدخل المدينـة، فاستُجيب له، ووقع موسى فى التِّيه بدعائه، فقال موسى : يارب بأىّ ذنب وقعنا فى التِّيه . فقال : بدعاء بلعام. قال : ربّ بمـا سمعتَ دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليـه . فدعا موسى أن ينزع منـه الاسم الأعظم والإيمـان . فسلخه الله ممـا كان عليه، ونزع منه المعرفة، فخرجت كحمامة بيضاء، فذلك قوله عز وجل ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ .

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيِّب وأبو روق وزيد بن أسلم : نزلت هذه الآية فى أميّة بن أبى الصَّلْت، وكانت قصـته أنه كان فى ابتداء أمره قد قرأ الكتب وعلم أن الله عزّ وجلّ مرسِـل رسولا فى ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله تعالى محمدا — صلى الله عليه وسلم — حسده وكان قد قصد بعض الملوك، فلما رجع مرّ بقتلَى بَدْر، فسأل عنهم؛ فقيل : قتلهم محمد . فقال : لو كان نبيّا ما قتل أقرباءه . فلما مات أتت أختُه فارعةُ رسولَ الله — صلّى الله عليه وسلّم — فسألها رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — عن وفاة أخيها؛ فقالت : بينا هو راقـد أتاه اثنان فكشفا سقفَ البيت ونزلا، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الّذى عند رجليه للّذى عند رأسه : أَوَعَى ؟ قال : وَعَى . قال : أَزَكَا[1] قال : أَبَى . [قالت][2] : فسألته عن ذلك ؟ فقال : خير أريد بى فصُرِف عنّى . ثم غُشِى عليه، فلمّا أفاق قال :

(١) كذا فى كتاب الثعلبى المنقول عنه هذا الكلام ص ١٨٢ طبع المطبعـة البهية . والذى فى كلتا النسختين : « إن كان » ؛ وهو تحريف .

(٢) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن كتاب أبى إسحاق الثعلبى فى قصص الأنبياء المنقول عنه هذا الكلام .

كلُّ عيش وإن تطاوَلَ دهرا * صائرٌ أمرُه إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبلَ ما قد بدا لى * فى قِلال الجبال أرْعَى الوُعولا
إنّ يوم الحساب يوم عظيم * شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال لها رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — أنشدينى من شعر أخيك .
فأنشدتْه : ٥

لك الحمدُ والنّعماءُ والفضلُ ربّنا * ولا شىء أعلى منك جَدًّا وأمجدُ
مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ * لعزّته تعنو الوجوهُ وتسجدُ

وهى قصيدة طويلة، حتى أتت على آخرها .

وأنشدْته قصيدته التى يقول فيها :

يوقَف الناسُ للحساب جميعا * فشَقِىٌّ معذَّبٌ وسَعيدُ ١٠

ثم أنشدتْه قصيدتَه التى يقول فيها :

عند ذى العرش تُعرَضون عليه * يعلم الجهر والسِّرارَ الخفيّا
يوم تأتى الرحمنَ وهو رحيمٌ * إنّه كان وعدُه مأتيّا
يوم آتيه ـ مِثلَ ما قال ـ فردًا * ثم لا أدْرِ(١) راشدا أم غَوِيّا
أسعيدا إسعادَه أنا أرجو * أو مُهانا بما اكتسبتُ شقيًّا ١٥
إنْ أُؤاخَذْ بما اجترمتُ فإنّى * سوف أَلْقَى من العذاب فَرِيّا
ربّ إن تَعفُ فالمعافاة ظنّى * أو تعاقِب فلم تعاقِب بريّا

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : آمن شعرُه وكفر قلبُه . وأنزل الله تعالى فيه :
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَـٰهُ آيَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ الآيات .

(١) يلاحظ أنه حذف الياء من قوله : «أدرى» لضرورة الوزن . ٢٠

ومنهم من قال : إنّ الآيات نزلت فى ٱلبسوس ، وكان رجلا أُعطِىَ ثلاث دعوات مستجابة ، وكانت له ٱمرأة ، وكان له منها ولد ، فقالت : اِجعل لى منها دعوةً واحدة . فقال : لكِ فيها دعوة، فما تريدين ؟ قالت : أدعُ الله أن يجعلنى أجملَ ٱمرأة فى بنى إسرائيل . فدعا لها، فصارت أجمل ٱمرأة فى بنى إسرائيل؛ فلما علمتْ أنّه ليس فيهم مِثلُها رغبتْ عنه ، فغضب ودعا عليها ، فصارت كلبة نبّاحة ، فجاء بنوها وقالوا : ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أُمُّنا كلبة نبّاحة والناس يعيّروننا بها ، فٱدع الله أن يردّها إلى الحال الّتى كانت عليها . فدعا الله تعالى، فعادت كما كانت، فذهبت فيها الدعوات .

وقال أبو سعيد : نزلت فى أبى عامر بن نعمان بن صيفىّ الراهب الذى سمّاه رسولُ ٱلله صلّى الله عليه وسلّم: الفاسق، وكان قد ترهّب فى الجاهليّة ولبس المُسوحَ وقدم المدينة، فقال للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : ما هذا الذى جئتَ به ؟ فقال : جئتُ بالحنيفيّة دينِ إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له النبىّ صلّى الله عليه وسلّم: لستَ عليها، ولكنّك أدخلتَ فيها ما ليس منها . ثم خرج إلى كفّار قريش .

وأخباره تُذكَر — إن شاء الله — فى سيرة سيّدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلّم .

فهذا ما قيل فى تفسير هذه الآية .

قال الكسائىّ : ونادى موسى فى قومه بعد رفع الطاعون عنهم : «أن ٱحملوا» . فحملوا وٱقتتلوا ، فقُتِل الملِك وبَلْعَم، وٱنهزم الباقون ، وغنم بنو إسرائيل من النساء والولدان شيئا كثيرا . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر خبر وفاة هارون عليه الصلاة والسلام

قال الكسائيّ : — وذكر وفاة هارون إثرَ خبر البقرة وقتل عاميل — قال : لمّا كان بعد قتل عاميل نظر هارون إلى جبل فى التِّيه بعيد من العسكر، فقال : يا موسى، ألا نمضى إلى ذلك الجبل فننظر إلى خضرته ونضارته . فمضيا من الغد ومعهما أولاد هارون ، فأتوه فإذا هو جبل كثير المياه والعشب والكهوف وفيه كهف واسع يسطع نورا، فدخلوه و إذا هم بسرير من ذهب عليه أنواع من الفرش، فصعِد هارون إليه ونام، فجاء طولَه ، فهمّ أن ينزل، فأتاه ملَك الموت فى صورة شابّ حسن، فقبض روحه، وغسّلتْه الملائكة، وصلّى موسى عليه، وسدّوا باب الكهف، وعاد موسى إلى بنى إسرائيل، فسألوه عن هارون، فأخبرهم بوفاته قالوا : بل قَتلْتَه . فقال : ما ذا لقيتُ منكم يا سفهاءَ بنى إسرائيل ، أقتل أخى وشقيق؟ ثم دعا ربَّه أن يريَهم إيّاه على صورته . فأمر الله تعالى الملائكةَ أن يُخرجوا سَريره من الكهف، فأخرَجوه وحملوه فى الهواء حتى نظرت إليه بنو إسرائيل، ثم نادت الملائكة : يا بنى إسرائيل، هذا سرير هارون قد قبضه الله تعالى إليه .

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ فى تفسيره فى وفاة هارون — عليه السلام — قال السدّىّ : أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه السلام — أنى متوفى هارون، فأت به جبل كذا وكذا . فانطلق موسى وهارون — عليهما السلام — نحو ذلك الجبل فإذا هما بشجرة لم يَريا شجرةً مِثلَها ، و إذا بيتٌ مبنىٌّ، وفيه سرير عليه فراش وإذا فيه ريح طيّبة، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه وقال : ياموسى، إنّى أحبّ أن أنام على هذا السرير . قال : نم عليه . قال : إنى أخاف أن يأتى ربّ هذا البيت فيغضب علىّ . قال موسى : لا تَرهَب، أنا أكفيك ربّ هذا البيت، فنم .

قال : يا موسى، بل نم معى، فإن جاء ربّ البيت غضب علىّ وعليك جميعا . فلمّا ناما أخذ هارونَ الموتُ ، فلما وجد حِسّه قال : يا موسى خدعتَنى . فلمّا قُبض — عليه السلام — رُفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، و رُفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل وليس معه هارون، قالوا : إن موسى قتَل هارون وحسده لحبّ بنى إسرائيل له . فلمّا أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثم دعا الله تعالى، فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض؛ فصدّقوه .

وقال الثعلبىّ أيضا . وقال عمرو بن ميمون : مات هارون — عليه السلام — فى التِّيه، ومات قبل موسى، وكانا خرجا فى التِّيه إلى بعض تلك الكهوف، فمات هارون، فدفنه موسى، وآنصرف إلى بنى إسرائيل، فقالوا: ما فعل هارون؟ قال : مات . قالوا : كذبت، ولكنّك قتلتَه لحبّنا إيّاه — وكان محبّبا فى بنى إسرائيل — فتضرّع موسى إلى الله تعالى وشكا ما لقى من بنى إسرائيل؛ فأوحى الله إليه : أن آنطلق بهم إلى قبره، فإنّى باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتا وأنك لم تقتله . فانطلق بهم موسى إلى قبره، فنادى : يا هارون . فخرج من قبره ينفض رأسه ؛ فقال : أنا قاتِلُك ؟ قال : لا، ولكنّى مِتُّ . قال : فعُد إلى مَضجَعك . فعاد — عليه السلام — وآنصرفوا .

ذكر وفاة موسى بن عمران — عليه الصلاة والسلام —

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — قال آبن إسحاق : كان موسى — عليه السلام — قد كره الموت وأعظَمَه ، فأراد الله تعالى أن يحبّب إليه الموت و يكرِّه إليه الحياة؛ وكان يوشع بن نون يغدو عليه و يروح، فيقول له موسى : يانبىّ الله ما أحدث الله إليك. فيقول له يوشع : يانبىّ آلله، ألم أصحبك كذا وكذا سنة، فهل

كنتُ أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت تبتدئ به وتذكره ؟ ولا يَذكر له شيئا .

فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحبّ الموت .

وعن وهب أنه قال — وذكر من كرامة موسى عليه السلام — أنه ضاق ببنى إسرائيل ذرعا لمّا كثّروا عليه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ألف نبيّ أن يكونوا أعوانا له ؛ فلمّا مال الناس إليهم وَجَد موسى فى نفسه ، فأماتهم الله تعالى لكرامته فى يوم واحد .

والذى صحّ لنا من خبر وفاة موسى — عليه السلام — ماثبت فى صحيح البخارىّ وهو ما حدّثنا به الشيخان المُسْنِدان المعمّران : شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن أبى طالب نعمة بن حسن بن علىّ بن سنان الشُّحْنة الصالحىّ الحجّار ، وستُّ الوزراء أمّ محمد (وزيرةُ)[1] ابنةُ الشيخ الإمام العالم شمس الدين أبى حفص عمر ابن القاضى وجيه الدين أسعد بن المنجا التنوخىّ الدمشقيّان ، قراءة عليهما ، وأنا أسمع بالمدينة المنصوريّة بخُطّ (بين القصرين بالقاهرة المعزّيّة) ، وذلك فى يوم السبت السابع من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، بقراءة الشيخ علاء الدين علىّ بن المارديني ، قالا : حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدىّ ، قال : أخبرنا الشيخ أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب السَّجَزىّ الصوفىّ ثم الهَرَوىّ ، قال : أخبرنا الإمام جمال الدين أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود الداودىّ ، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حمويه التنوخىّ ، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد ابن يوسف بن مطر الفهرىّ ، قال : حدّثنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن

(١) كنيتها فى الدرر الكامنة أم عبد الله .

إبراهيم بن المغيرة بن ٱلأحنف الجعفىّ مولاهم البخارىّ — رحمه الله — قال : حدّثنا محمود، حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة — رضى ٱلله عنه — قال : أُرسل مَلَكُ الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكّه ، فرجع إلى ربّه فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد ٱلموت . فردّ الله عليه عينه وقال : ٱرجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطّت به يده بكل شعرة سنة . قال : أى رب ثم ماذا؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن . فسأل الله أن يدنيَه من الأرض المقدّسة رمية بحجر . قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : فلو كنت ثَم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند ٱلكثيب ٱلأحمر.

قال الثعلبى : وكان عمر موسى — عليه السلام — مائة وعشرين سنة ، عشرون منها فى مُلك أفريدون ، ومائة سنة فى مُلك منوجهر ، وبعث ٱلله تعالى بعد موسى يوشع عليهما السلام .

كمل الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى التيمىّ القرشى المعروف بالنويرىّ — رحمه الله تعالى — ويليه الجزء الرابع عشر، وأوّله : الباب الثانى من القسم الثالث من الفن الخامس فيما كان بعد موسى بن عمران عليهما السلام، وهو أخبار يوشع بن نون وحزقيل وإلياس واليسع وغيلا واشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود عليهم السلام .

والحمد لله رب العالمين ؏

استدراك

قد وقعت بعض أخطاء مطبعية يسيرة فى هـذا الجزء ، فرأينا أن نستدرك ما عثرنا عليه منها بعد الطبع ، وهى فى ثلاثة مواضع :

(١) وقع فى صفحة ٢٨ سطر ٥ قوله : « إبناء » . والصواب « بناء » بغير ألف فى أوّله .

(٢) وفى صفحة ١٧٣ سطر ٩ قوله : « وخروج » . والصواب : « وحروب » كما فى بعض النسخ .

(٣) وفى صفحة ٢٢٠ سطر ٣ ما نصه : "أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفينا فمنهم ظالم لنفسه" الخ . وقد كتبنا فى الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة ما يفيد أن قوله : «الذين» غير واضح موقعها من الإعراب فى هذه العبارة بخلاف موقعها من الآية المقتبسة منها ، وهى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » اه . وقد تبين لنا أن قوله : « الذين اصطفينا » زائدة فى هذه العبارة التى وردت فى كلام المؤلف ، فقد ورد هذا الكلام فى كتاب الثعلبى المنقول عنه هذا الكلام — مع اختلاف فى بعض ألفاظه ، فليلاحظ — ونصه : "أجد أمة مرحومة أصفياء يرثون الكتاب فمنهم ظالم لنفسه" الخ .

كَمُل طبع " الجـزء الثـالث عشر من كتاب نهـاية الأرب "
بمطبعـة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٨ شوال سـنة ١٣٥٧
(٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٨) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصـــرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٣٤/١٩٣٧/٢٥٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

الجزء الثالث عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٥٧هـ — ١٩٣٨م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

بيان

يوجد من نُسَخ هـذا الجزء بدار الكتب المصرية نسختان كاملتان مأخوذتان بالتصوير الشمسي؛ وقطعة غير كاملة من نسخة أخرى مأخوذة بالتصوير الشمسي أيضا، وقد نبهنا على الموضع الذى تنتهى عنده هذه القطعة فى إحدى الحواشى .

أما خطوط النُّسَخ الثلاث : فإحداها مكتوبة بخط نور الدين العاملى فى سنة ٩٦٦ هـ . وثانيتها مكتوبة بخط الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم الجبرتى الحنفى فى سنة ٩٦٦ أيضا . والثالثة منسوب خطها إلى المؤلف كما نص على ذلك فى بعض الأجزاء الأخرى منها .

أما التحريف والتصحيف فى هذه الأصول فيكاد يكون متفقا فى جميعها؛ غير أننا وجدنا أن بعض هذه النسخ قد سقطت منها عبارات وجدناها مثبتة فى النسخ الأخرى، فكملنا بعضها من بعض كى يكون الجزء نسخة كاملة من جميع هذه الأصول.

ومما ينبغى التنبيه عليه فى هـذا الموضع أن المؤلف قد نقل موضوعات هـذا الجزء عن كتابين : أحدهما "يواقيت البيان فى قصص القرآن" لأبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبيّ ؛ والثانى " المبتدأ " لأبى الحسن محمد بن عبد الله المعروف بالكسائى؛ وقد بحثنا فى محفوظات دار الكتب عن اسمى هذين الكتابين فلم نجدهما ، غير أننا وجدناهما باسمين آخرين؛ فكتاب الثعلبى مكتوب عليه : "قصص الأنبياء المسمى بالعرائس" . وكتاب الكسائى يسمى "بالعرائس" أيضا؛ ويسمى أيضا " نفائس العرائس" كما هو مكتوب على بعض نسخه المخطوطة . وفى " كشف الظنون " أنه يسمى " خلق الدنيا وما فيها " . والأول مطبوع بالمطبعة البهية بالقاهرة عام ١٣٠١ هـ . والثانى مخطوط سنة ٨٠٣ هـ .

ومما يرجح لدينا أن هذين الكتابين هما اللذان أشار إليهما المؤلف ونقل عنهما وإنما تغيّر اسماهما دون مسمّاهما ، مراجعة ما فيهما على ما نقله المؤلف فى هذا الجزء عنهما ملخصا، والاتفاق التام فى العبارات بين المنقول والمنقول عنه .

ويلاحظ أنه قد ورد فى هذا الجزء نقلا عن الكتابين المذكورين كثير من الأسماء العبرانية التى تعوّد المؤرخون القدماء ذكرها فى كتبهم فى الكلام على بدأ الخليقة وقصص الأنبياء ، وهذه الأسماء لم نقف على نصوص صريحة تدل على الصواب فى ضبطها ، والصحة فى تقييد حروفها .

وقد بحثنا فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ الكثيرة عنها للوثوق من صحتها فوجدنا تلك المصادر مختلفة كل الاختلاف فيها ، حتى لا تجد كتابا متفقا مع غيره فى كتابتها .

لهذا رأينا أن نبقى تلك الأسماء كما هى فى الأصول ، إلا ما وجدناه مضبوطا بخطٍّ موثوق بكاتبه .

وعسى أن نكون قد وُفقنا فى هذا الجزء إلى ما قصدْنا إليه فى الأجزاء السابقة من تصحيح التحريف ، وتكميل النقص ، وضبط الملتبِس من الألفاظ ، وغيرِ ذلك مما سردناه فى الكلام على تصحيح الأجزاء السابقة .

وقد تمّ طبعه فى عهد من اعتز العلم بنصره ، وازدهت الآداب فى عصره وقويتْ آمال لغة العرب فيه ، واختالت زهوا بأياديه :

حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم

"فاروق الأوّل" حفظه الله

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر بالشكر والثناء تلك الجهود العظيمة التى بذلها ويبذلها حضرة صاحب العزة العالم الكبير "الدكتور منصور فهمى بك" مدير عام دار الكتب المصرية ، واهتمامَه الصادق بإخراج هذه الكتب فى أقرب وقت ممكن على أحسن وجه وأكمله ، تحقيقا لما تتوق إليه الأمة العربية جمعاء من إحياء لغتها وآدابها بنشر الكتب الثمينة فى الدين واللغة والأدب والتاريخ وغيرها من أنواع العلوم .

ونسأل الله سبحانه أن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، مصحِّحه

القاهرة فى ٧ شوال سنة ١٣٥٧هـ (٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨م) أحمد الزين

فهرس

الجـزء الثـالث عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرىّ

صفحة

الفن الخامس فى التاريخ ويشتمل على خمسة أقسام ١

القسم الأوّل من الفن الخامس فى مبـدأ خلق آدم وحـواء عليهما السـلام ودخولها الجنـة، وما كان بينهما و بين إبليس لعنه الله وهبوطهما إلى الأرض واجتماعهما بعد الفرقة ، وخبر حرثه وزرعه، وحمل حواء ووضعها ، وخبر ابنى آدم هابيـل وقابيل ، ونبوة آدم عليـه السلام و وفاته ، وخبر شيث وأولاده ، وقصـة إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام، وخبر أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد، وخبر أصحاب الرس ، وفيه ثمانية أبواب ٣

البـاب الأوّل من هـذا القسم فى مبـدأ خلق آدم وحواء عليهما السـلام وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما — ذكر خلق آدم عليه السلام ١٠

ذكر دخول الروح فيـه ١١

ذكر سجود الملائكة لآدم ١٢

ذكر خلق حواء عليها السلام ١٣

ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام ١٤

ذكر خبر إبليس والطاوس والحية ١٥

*

صفحة
ذكر خروج آدم وحواء من الجنة ١٨
ذكر سؤال إبليس لعنه الله ١٩
ذكر سؤال آدم عليه السلام ٢٠
ذكر سؤال حواء عليها السلام ٢١
ذكر توبة آدم عليه السلام ٢٣
ذكر أخذ الميثاق على ذرية آدم عليه السلام ٢٥
ذكر اجتماع آدم بحواء ٢٦
ذكر بناء آدم وزرعه وحرثه ٢٨
ذكر حمل حواء عليها السلام وولادتها ٣٠
ذكر مبعث آدم عليه السلام إلى أولاده ٣١
ذكر قتل قابيل هابيل ٣٢
ذكر وفاة آدم عليه السلام ٣٤
ذكر وفاة حواء ٣٥

الباب الثانى من القسم الأول من الفن الخامس فى خبر شيث بن آدم
عليهما السلام وأولاده ٣٥
ذكر قتال شيث قابيل ٣٦

الباب الثالث من القسم الأول من الفن الخامس فى أخبار إدريس النبي
عليه السلام ٣٨

الباب الرابع من القسم الأول من الفن الخامس فى قصة نوح عليه السلام
وخبر الطوفان ٤٢
ذكر مبعث نوح عليه السلام ٤٣

صفحة
ذكر عمل السفينة ٤٦
ذكر خبر دعوة نوح على ابنه حام ودعوته لابنه سام ٤٩
ذكر وصية نوح ووفاته ٥٠
ذكر خبر أولاد نوح عليه السلام من بعده ٥٠
الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس فى قصة هود عليه السلام مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم ٥١
ذكر مبعث هود عليه السلام ٥٢
ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم ٥٦
ذكر إرسال العذاب على قوم هود ٥٨
ذكر خبر مرثد ولقمان ٦٠
ذكر خبر إرم ذات العماد وقصة شديد وشدّاد بنى عاد ٦١
الباب السادس من القسم الأول من الفن الخامس فى قصة صالح عليه السلام مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم ٧١
ذكر ميلاد صالح عليه السلام ٧٣
ذكر مبعثه عليه السلام ٧٥
ذكر خروج الناقة ٨٠
ذكر خبر عقر الناقة وهلاك ثمود ٨٢
الباب السابع من القسم الأول من الفن الخامس فى أخبار أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد وما كان من أمرهم وهلاكهم ٨٦
الباب الثامن من القسم الأول من الفن الخامس فى خبر أصحاب الرس وما كان من أمرهم ٨٨

صفحة

القسم الثانى من الفن الخامس فى قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وخبره مع نمروذ وقصة لوط وخبر إسحاق ويعقوب وقصة يوسف وأيوب وذى الكفل وشعيب، وفيه سبعة أبواب — الباب الأول منه فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وخبره مع نمروذ بن كنعان

ذكر خبر نمروذ بن كنعان ٩٦

ذكر الآيات التى رآها نمروذ قبل مولد إبراهيم عليه السلام ٩٩

ذكر حمل أم إبراهيم عليه السلام وطلوع نجمه ١٠٠

ذكر ميلاد إبراهيم عليه السلام ١٠٢

ذكر خروج إبراهيم عليه السلام من الغار واستدلاله ١٠٢

ذكر معجزة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ١٠٥

ذكر مبعث ابراهيم عليه السلام ١٠٧

ذكر سؤال إبراهيم عليه السلام فى إحياء الموتى ١٠٨

ذكر آية لإبراهيم عليه السلام ١٠٨

ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه فى النار ١١١

ذكر خبر صعود نمروذ إلى السماء على زعمه ١١٣

ذكر خبر إرسال البعوض على نمروذ وقومه ١١٤

ذكر هجرة إبراهيم عليه السلام ١١٥

ذكر خبر ميلاد إسماعيل عليه السلام ومقامه وأمه فى البيت المحرم ... ١١٥

ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحاق عليهما السلام ١١٨

ذكر خبر الذبيح وفدائه ١٢٠

ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام ١٢٢

صفحة

الباب الثانى من القسم الثانى من الفن الخامس فى قصة لوط عليه السلام وقلب المدائن ١٢٣
ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن ١٢٥
الباب الثالث من القسم الثانى من الفن الخامس فى خبر إسحاق ويعقوب عليهما السلام ١٢٨
ذكر مبعث يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ١٢٩
الباب الرابع من القسم الثانى من الفن الخامس فى قصة يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام — ذكر خبر ميلاد يوسف عليه السلام ١٣٠
ذكر رؤيا يوسف عليه السلام وكيد إخوته له ١٣١
ذكر رجوع إخوة يوسف إلى يعقوب — ذكر كلام الذئب بين يدى يعقوب ١٣٣
ذكر خبر خروج يوسف من الجب وبيعه من مالك بن دعر ١٣٤
ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر ١٣٥
ذكر خبر يوسف وزليخا ١٣٦
ذكر خبر النسوة اللاتى قطعن أيديهن ١٣٨
ذكر إلهام يوسف عليه السلام التعبير ١٤٠
ذكر خبر الخباز والساقى ١٤٠
ذكر رؤيا الملك وتعبيرها وما كان من أمر يوسف وولايته ١٤١
ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها ١٤٤
ذكر دخول إخوة يوسف عليه السلام فى المرة الأولى ١٤٥
ذكر خبر دخولهم عليه فى المرة الثانية ١٤٧

صفحة
ذكر خبر دخولهم عليه فى الدفعة الثالثة ١٥٢
ذكر خبر حديث الصاع ١٥٢
ذكر دعوة يوسف عليه السلام وارتحاله عن بلد الريان ١٥٥
ذكر خبر وفاة يوسف عليه السلام ١٥٦
الباب الخامس من القسم الثانى من الفن الخامس فى قصة أيوب عليه السلام
وابتلائه وعافيته ١٥٧
ذكر كشف البلاء عن أيوب عليه السلام ١٦٣
الباب السادس من القسم الثانى من الفن الخامس فى خبر ذى الكفل ... ١٦٤
الباب السابع من القسم الثانى من الفن الخامس فى خبر شعيب النبى عليه السلام ١٦٧
ذكر مبعث شعيب عليه السلام ١٦٩
ذكر خبر الظلة ١٧٢
القسم الثالث من الفن الخامس يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام
وخبره مع فرعون وخبر يوشع بن نون و إلياس واليسع وغيلا واشمويل
وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود و يونس بن متى وجرجيس
و بلوقيا وزكريا وعمران ومريم وعيسى عليهم السلام وأخبار الحواريين
وفيه ستة أبواب — الباب الأول من القسم الثالث من الفن الخامس
فى قصة موسى بن عمران وهارون عليهما السلام وخبر فرعون وابتداء أمره
وغرقه، وأخبار بنى إسرائيل، وخبر قارون، وحروب موسى عليه السلام ١٧٣
خبر فرعون وابتداء أمره، وكيف توصل إلى الملك ١٧٣
ذكر خبر قتل الملك واستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره ... ١٧٥
ذكر خبر آسية بنت مزاحم و زواج فرعون بها ١٧٧
ذكر شىء من الآيات التى رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام... ١٧٨

صفحة

ذكر خبر قتل الأطفال ١٧٨
ذكر خبر ميلاد موسى وما كان من أمره وإلقائه فى التابوت ١٧٩
ذكر دخول التابوت فى دار فرعون ورجوع موسى إلى أمه ١٨٠
ذكر شىء من عجائب موسى عليه السلام وآياته ١٨٢
ذكر خبر القبطى وخروج موسى من مصر ١٨٣
ذكر خبر ورود موسى مدين وما كان بينه وبين شعيب وزواجه ابنته... ١٨٤
ذكر خبر خروج موسى عليه السلام من أرض مدين ومناجاته ومبعثه
إلى فرعون ١٨٦
ذكر خبر مسير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمه ١٨٩
ذكر خبر دخول موسى عليه السلام إلى فرعون وما كان من أمره معه ... ١٩٠
ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانا واليد البيضاء ١٩١
ذكر خبر السحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم ١٩٢
ذكر خبر حزقيل مؤمن آل فرعون ١٩٤
ذكر خبر بناء الصرح وما قيل فيه ١٩٦
ذكر خبر الآيات التسع ١٩٧
ذكر خبر مسخ قوم فرعون... ... ... ١٩٨
ذكر خبر قتل الماشطة ٢٠٦
ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم امرأة فرعون... ... ... ٢٠٦
ذكر خبر انقطاع النيل وكيف أجراه الله عز وجل لفرعون ٢٠٧
ذكر خبر غرق فرعون وقومه ٢٠٧
ذكر خبر ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه وطلبه الرؤية وخبر
الصاعقة والإفاقة... ... ... ٢١٠

صفحة
ذكر خبر الألواح ونزول العشر كلمات ٢١٤
ذكر خبر السامرى واتخاذه العجل وافتتان بنى إسرائيل به ٢٢٣
ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم ٢٢٦
ذكر خبر امتناع بنى إسرائيل من قبول أحكام التوراة ورفع الجبل
عليهم وإيمانهم ٢٢٩
ذكر خبر الحجر الذى وضع موسى عليه السلام ثيابه عليه... ... ... ٢٣٠
ذكر خبر طلب بنى إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم بالصاعقة وكيف
أحياهم الله عز وجل وبعثهم بعد موتهم ٢٣٠
ذكر خبر قارون ٢٣٢
ذكر خبر موسى والخضر عليهما السلام ٢٤٠
ذكر خبر البقرة وقتل عاميل ٢٤٤
ذكر بناء بيت المقدس وخبر القربان والتابوت والسكينة وصفة النار... ٢٥٢
ذكر ما أنعم الله تعالى به على بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ... ٢٥٥
ذكر خبر النقباء ومسيرهم إلى أريحا وقصة عوج بن عوق وخبر التيه ... ٢٦٠
ذكر مسير موسى — عليه السلام — وبنى إسرائيل لحرب الجبارين
ودخولهم القرية ٢٦٥
ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بلعم بن باعورا وما يتصل بذلك ٢٦٧
ذكر خبر وفاة هارون عليه السلام ٢٧٤
ذكر خبر وفاة موسى بن عمران عليه السلام ٢٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثانى
من القسم الثالث من الفن الخامس
فيما كان بعد موسى بن عِمْران عليهما السلام
وهو أخبار يُوشَعَ بنِ نُون وحَزْقِيلَ وإلْيَاسَ وآلْيَسَعَ وعَيْلَى[1] وأَشْمَوِيلَ وداودَ وطالوتَ وجالوتَ وسليمانَ بنِ داودَ عليهم السلام

ذكر خبر يُوشَعَ[2] بن نُون — عليه السلام — وفتح أَرِيحَا وغيرها

١٠٨/١١

قال أبو إسحاق الثَّعْلبيّ — رحمه الله تعالى — : اختلف العلماء فيمن تولَّى حرب الجبّارين وفيمن كان على يده الفتح، فقال قومٌ : إنما فَتَح أَرِيحا[3] موسى

ملاحظة — الأرقام الموجودة بالهامش تشير الى رقم الصفحة وعدد الجزء من نسخة أ التى اعتمدنا عليها فى الطبع ، وقد راجعنا هذا الجزء أيضا على نسختين أخريين رمزنا لهما بحرفى ب ، ج ونسخة ج بها عدّة خروم .

(١) كذا فى الأصل وقصص الأنبياء للثعلبى وتاريخ الطبرى (ص ٥٥١ من القسم الأوّل) . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٥٠ وما بعدها) « عالى » .

(٢) هكذا يرد هذا الاسم فى الكتب العربية والشعر العربى ؛ قال أبو تمام :

فوالله ما أدرى أأحلام نائم * ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

وفى الكتاب المقدّس فى كل المواضع التى وود فيها : : « يشوع بن نون » .

(٣) أريحا (بالفتح ثم الكسر و ياء ساكنة والحاء المهملة والقصر ، وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة لغة عبرانية) : مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأردن بالشام ، بينها و بين بيت المقدس يوم للفارس فى جبال صعبة المسلك . سميت فيما قيل بأريحا بن مالك بن أرنخشذ ...) . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

— عليه السلام — وكان يُوشَعُ على مقدّمته فسار إليها بمن بَقِيَ مَن بنى إسرائيل ولم يَمُت فى التِّيه، فدخلها يُوشَعُ بهم وقتل الجبّارين[1] الذين كانوا فيها، ودخلها موسى ببنى إسرائيل، فأقام فيها ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم قبضه الله تعالى، ولم يعلم أحدٌ من الناس أين قبره. قال: وهذا أَولى الأقاويل بالصدق. وقال الآخرون: إنما قَتَل الجبّارِين يُوشَعُ ولم يسر إليهم إلّا بعد موت موسى. وقالوا: إنما مات موسى وهارون — عليهما السلام — فى التِّيه.

قالوا: فلما انقضت مدّة التِّيه ومات موسى — عليه السلام — بعث الله تعالى يُوشَعَ بن نُون نبيّا، فأخبرهم أنه نبىّ الله تعالى، وأنّ الله — عزّ وجل — قد أمره بقتال الجبّارين، فصدّقوه وبايَعُوه. فتوجّه ببنى إسرائيل الى أَرِيحا ومعه تابوت[2] الميثاق، فأحاط بمدينة أَرِيحا ستّة أشهر، فلمّا كان فى الشهر السابع نفخوا فى القُرُون[3] وضجّ الشعبُ ضجّة واحدة[4]، فسقط سُور المدينة، فدخلوها وقاتلوا الجبّارين، فهزموهم وهجموا عليهم يقتّلونهم، فكانت العِصَابةُ من بنى إسرائيل يجتمعون على عُنُق الرجل يضربونها لا يقطعونها، وكان القتال يومَ الجمعة، فبقيت منهم بقيّة وكادت الشمس تغرُب وتدخل ليلةُ السبت، فخشِىَ يُوشَعُ أن يُعْجِزوه، فقال: اللهمّ أَرْدُد الشمس علىّ، وقال للشمس: إنكِ فى طاعة الله، وأنا فى طاعة الله. فسأل الشمسَ

(١) الجبارون أو الجبابرة الذين كانوا بالشام هم من العماليق، ويقال لهم الكنعانيون. (راجع تاريخ الطبرى ص ٢١٣ من القسم الأوّل طبع أوربا).

(٢) سيذكر المؤلف وصف هذا التابوت فيما سيأتى. وراجع وصفه أيضا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٣٢ طبع بيروت سنة ١٨٨٢ م).

(٣) يريد بالقرون الأبواق (راجع الكتاب المقدّس ج ١ ص ٣٥٦).

(٤) فى قصص الأنبياء لأبى إسحاق الثعلبى (ص ١٩٥ طبع بلاق): «نفخوا فى القرون وصاحوا صيحة واحدة». وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٥٦): «فهتف الشعب ونفخوا فى الأبواق».

أن تَقِف والقمر أن يُقِيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غُرُوب الشمس، فرُدّت عليه الشمس و زِيدَ له فى النهار ساعةٌ واحدةٌ حتى قتلهم أجمعين .

قالوا : ثم أرسل ملوك الأرمانيين[1] بعضُهم الى بعض — وكانوا خمسةً[2] — فجمعوا كلمتَهم على حرب يُوشَع وقومِهِ ، فهَزَمتْ بنو إسرائيل الملوكَ حتى أهبطوهم إلى ثنيّة حَوْران[3]، فرماهم الله تعالى بأحجار البَرَد ، فكان مَن قَتَله البَرَد أكثرَ ممّن قتله بنو إسرائيل بالسيف، وهربت الملوك الخمسةُ، فآختفَوْا فى غارٍ، فأمرَ بهم يُوشَعُ فأُخرجوا، فقتلهم وصلَبهم ، ثم أنزلهم وطرحهم فى ذلك الغار ، وتتبَع سائرَ ملوك الشأم فآستباح منهم أحدًا وثلاثين مِلكا حتى غلب على جميع أرض الشأم، وصار الشأم كلُّه لبنى إسرائيل، وفرّق عمّاله فى نواحى الشأم .

وحكى الكِسَائىّ فى (كتاب المبتدا) أنّ يُوشَع أخذ فى الجِهاد بعد وفاة موسى عليه السلام حتى فتح الله على يديه نيِّفا وثلاثين مدينة من مدن الكفّار بأرض الشأم . قال: ثم سار ببنى إسرائيل الى أَرِيحا لقتال الجبّارين ، وكانوا قد عادوا إليها بعد أن فتحها موسى، فقاتلهم يومَ الجمعة، وساق نحو ما تقدّم من حبس الشمس. قال : وفسد على أهل علم النجوم علوم كثيرة من ذلك اليوم .

قال الكِسَائىّ : ولما فرغ يُوشَعُ بن نُون من قتال الجبّارين بأَرِيحا سار ببنى إسرائيل الى أرض بنى كَنْعان، فقاتلهم حتى قتل أكثر منْ ثلاثين مِلكا، وفتح ثلاثين حصنا .

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٨، ٣٦٣) : «ملوك الأموريين» وهم من ذرية كنعان .

(٢) وهم : ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموث وملك لاكيش وملك عجلون . (راجع الكتاب المقدّس ج ١ ص ٣٦٥) .

(٣) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٦٤) : «وفيما هم منهزمون من وجه إسرائيل وهم فى منهبط بيت حورون ...» . وحوران (بالفتح) : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع (راجع معجم البلدان لياقوت) .

قال الثعلبيّ فى تفسيره : ولمّا قتل يُوشَعُ الملوكَ وٱستباحَ الأموال جمع الغنائم فلم تُنْزَلِ النار، فأوحَى الله تعالى إلى يُوشَع أنّ فيها غُلُولا[1]، فمُرهم فليبايعوك فبايعوه، فٱلتصقتْ يدُ رجل منهم بيده، فقال : هَلُمّ ما عندك ! . فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالياقوت والجوهر كان قد غلّه، فجعله فى القُرْبان وجعل الرجلَ معه، فجاءت النار فأكلت الرجلَ والقُربان .

قالوا : ثم مات يُوشَع فدُفن فى جبل أفرائيم[2]، وكان عمره مائةً وستّا[3] وعشرين سنة، وتدبيرُه أمرَ بنى إسرائيل بعد وفاة موسى — عليه السلام — تسعا وعشرين سنة . وقال الكسائىّ : أربعين سنة. والله تعالى أعلم .

ولما مات ٱستُخلف على بنى إسرائيل كالبُ[4] بن يُوقَنّا ، وهو من أولاد يَهُوذَا بن يعقوب ، وكان من الزهّاد ، فسار فيهم أجملَ سيرة حتى قبضه ٱلله تعالى .

فٱستُخلف عليهم ٱبنه برشاناسُ[5] وكان نظير يوسف الصدِّيق — عليه السلام — فى حُسنه وجماله ، فافتتن الناسُ به ، فسأل ٱللّه تعالى أن يغيِّر خلقته ، فأصابه

(١) الغلول : الخيانة فى المغانم .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٧٦ ، ٣٩٠)، وورد فى أ ، ب خاليا من الاعجام . وهذا الجبل إلى جنوبى سهل يزرعيل . وكان يطلق هذا الاسم على سلسلة هضاب فى أملاك أفرايم تمتدّ إلى تخوم بنيامين . أما تربة هذا الجبل فخصبة بالإجمال إلا ما كان منها إلى جهة الأردن فانه صخرىّ صعب المرتقى، وكذلك ما كان منه إلى جهة البحر الميت فانه غاية فى القحل . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست) .

(٣) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٩٥) : « ٱبن مئة وعشر سنين » .

(٤) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٧٣) : « كالب بن يفنا » .

(٥) فى تاريخ الطبرى (ص ٥٣٩ من القسم الأوّل) : « أن كالب بن يوقنا لما قبضه الله بعد يوشع خلف فيهم يعنى فى بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى » .

الجُدَرىّ، فتغيّرتْ خِلقته، فأنكره الناس وأكثروا من سؤاله عن خبره، فشقّ ذلك عليه وشغله عن عبادته، فسأل الله تعالى أن يزيده تشويها، فاسترخَى وجهُه، وظهرت له أسنان طوال، وقَبُح حتى كره الناسُ أن ينظروا إليه، وعرفوا منه الاجتهاد فى عبادة الله تعالى وطاعته، فاختاروه وسمعوا له وأطاعوا، ولم يزل بين أظهرهم أربعين سنة ثم قبضه الله تعالى. ١٠٩/١١

فقام بأمرهم العَيْزار[1] بن هارون بن عِمْران، وكان قد أسنّ ولا ولد له، فجعلوا يقولون: ما حُرِم الولَدَ إلّا لذنب عظيم. فسأل الله الولَد، فرزقه ولدا بعد كِبَرِ سنّه وإياسِ زوجته صَفُّورِيّة[2] بنت عمّه موسى بن عِمْران وجدّد له قوّة، ولها جمالا وحُسنا، وسمّى ولدَه «سباسبا»[3] وجاء عالما بالتوراة، فاستخلفه والده على بنى إسرائيل، فقام بأمرهم، وتزوّج بامرأة يقال لها صَفُّورِيّة، فأولدها إلياس. هكذا نقل الكِسائىّ.

وقال الثعلبىّ فى قصصه فى خبر ابن كالب وسمّاه «بُوساقُوس»: وأنه لمّا افتتن الناسُ به سأل الله تعالى أن يغيّر صورته مع سلامة حواسه وجوارحه فأصابه الجُدَرىّ. وقال: إنه لبث فيهم مائة سنة، ثم قبضه الله — عزّ وجلّ —. ولم يذكر العَيْزَارَ وابنَه، بل ذكر خبر حَزْقِيل. والله تعالى أعلم.

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٩٠): «ألعازار».

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ٤٤٣ من القسم الأوّل) والكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٢١) وقاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست (ج ٢ ص ٨): «صفورة».

(٣) فى قصص الأنبياء للكسائى (ورقة ٢٠٩) من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٠٢ أدب: «بسابسا».

ذكر خبر حَزْقِيل عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — قالت العلماء : لمّا قبض الله تعالى كالبَ وآبنَه، بعث الله — عزّ وجل — حَزْقِيلَ[1] إلى بنى إسرائيل، وهو حَزْقِيل بن بُوذِى، و يلقّب بآبن العجوز .

قال: و إنما لُقِّب بذلك لأن أمّه سألت الله تعالى الولد وقد كَبِرتْ وعَقِمت، فوهبه الله تعالى لها، وهو الذى أحيا الله تعالى القومَ بعد وفاتهم بدعائه ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾[2] .

قال قال أكثر المفسرين : كانت قريةٌ يقال لها دَاوَرْدَانُ[3] قِبَلَ واسط وقع بها الطاعون، فخرج منها طائفةٌ هاربين من الطاعون و بقيت طائفة، فهلك أكثر مَنْ بَقِىَ فى القرية، وسَلِم الذين خرجوا، فلمّا آرتفع الطاعون رجعوا سالمين. فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزمَ منّا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع الطاعون بها ثانية لنخرجنّ إلى الأرض التى لا و باء فيها . فوقع الطاعون من قابل. فهرب عامّة أهلها، فخرجوا حتى نزلوا واديًا أفيح[4]، فلمّا نزلوا المكان الذى يبغون فيه الحياة والنجاة، إذا هم بملَكٍ من أسفل الوادى وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما أن موتوا[5] فماتوا .

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٥٢٨) : « حزقيال » .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٣ ، و راجع تفسير هذه الآية الكريمة بتفصيل واف فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٦ طبع دار الكتب المصرية) وغيره من التفاسير .

(٣) داوردان (بفتح الواو وسكون الراء وآخره نون) : من نواحى شرق واسط بينهما فرسخ . (راجع معجم البلدان) .

(٤) أفيح : واسع .

(٥) هذه عبارة الثعلبي فى قصص الأنبياء . وفى الأصلين : « فإذا ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه ينادون موتوا جميعا » .

وقال الضحّاك ومُقاتل والكلبيّ : إنّما فرّ هؤلاء من الجهاد ؛ وذلك أنّ ملكا من ملوك بنى إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم ، فخرجوا فعسكروا ثم جَبُنوا وكرِهوا الموت وآعتلّوا وقالوا لملكهم : إنّ الأرض التى نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء؛ فأرسل الله تعالى عليهم الموت ، فلمّا رأوا أنّ الموت كَثُر فيهم خرجوا من ديارهم فرارًا منه . فلمّا رأى آلملِك ذلك قال : اللهمّ ربّ يعقوب وإلهَ موسى ، قد ترى معصية عبادك فأرِهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفِرار من حُكمك وقضائك . فلما خرجوا قال آلله لهم : موتوا ، فماتوا جميعا وماتت دوابّهم كموت رجل واحد ، فما أتت عليهم ثلاثةُ أيام حتى آنتفخوا وأَرْوَحَتْ[1] أجسادهم ، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم ، فحظَروا عليهم حَظِيرة[2] دون السِّباع وتركوهم فيها .

قال : وآختلفوا فى مبلغ عددهم ، فقال عطاء الخُرَاسانىّ : كانوا ثلاثةَ آلاف[3] . وقال آبن عباس ووهب : أربعةَ آلاف . وقال مُقاتل والكلبىّ : ثمانيةَ آلاف . وقال أبو رَوْق : عشرةَ آلاف . وقال أبو مالك : ثلاثين ألفا . وقال السُّدىّ : بضعةً وثلاثين ألفا . وقال آبن جُرَيج : أربعين ألفا . وقال عطاء بن أبى رَبَاح : سبعين ألفا .

---

(١) أروحت أجسادهم : تغيرت رائحتها وأنتنت .

(٢) الحظيرة : ما أحاط بالشىء وتكون من قصب وخشب أو شجر ، وتعمل للإبل لتقيها البرد والريح .

(٣) فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٣١) : « والصحيح أنهم زادوا على عشرة آلاف لقوله تعالى : « وهم ألوف » وهو جمع الكثرة ، ولا يقال فى عشرة فما دونها ألوف . وقال آبن زيد فى لفظة ألوف : إنما معناها وهم مؤتلفون ، أى لم تخرجهم فرقة قومهم ولا فتنة بينهم إنما كانوا مؤتلفين » .

قالوا : فأتت عليهم مدّة وقد بَلِيتْ أجسادهم ، وعَرِيتْ عظامهم ، وتقطّعت أوصالُهم ، فمرّ بهم حَزْقِيل النبيّ — عليه السلام — فوقف عليهم متفكّرًا متعجّبا ، فأوحى الله تعالى إليه : يا حَزْقيل ، تريد أن أُرِيَك كيف أُحيِي الموتَى ؟ قال نعم ، فأحياهم الله جميعا .

قال : هذا قول السُّدّىّ وجماعةٍ من المفسِّرين . وقال هلال بن يَسَاف وجماعةٌ من العلماء : دعا حَزْقِيل ربّه أن يحييهم فقال : يا ربّ لو شئتَ أحييتَ هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك . فقال الله — عزّ وجل — أوَ تحبّ أن أفعل ؟ قال نعم ، فأحياهم .

وقال عَطاءٌ ومُقاتل والكلبيّ : بل كانوا قومَ حَزْقِيل ، فأحياهم الله — عز وجل — بعد ثمانية أيام ؛ وذلك أنهم لمّا أصابهم ذلك خرج حَزْقِيل فى طلبهم فوجدهم مَوْتَى ، فبكى وقال : ياربّ كنتُ فى قوم يحمدونك ويقدّسونك ويكبّرونك ويهلّلونك فبقيتُ وحيدًا لا قومَ لى . فأوحى الله تعالى إليه : إنى قد جعلتُ حياتَهم إليك . فقال حَزْقِيل : احْيَوْا بإذن الله تعالى ، فعاشوا .

١١٠/١١

وقال وهب : أصابهم بلاءٌ وشدّةٌ من الزمان ، فشكَوْا ما أصابهم فقالوا : يا ليتنا مِتنا فآسترحنا ممّا نحن فيه . فأوحى الله — عزّ وجل — إلى حَزْقِيل : إنّ قومَك قد ضجِروا من البلاء ، وزعموا أنهم وَدُّوا لو ماتوا فآستراحوا ، وأىّ راحة لهم فى الموت ! أيظنّون أنّى لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت ! فآنطلِق إلى جبّانة كذا ، فإنّ فيها قوما أمواتًا . فأتاهم ، فقال الله — عزّ وجل — : قُم فنادِهم — وكانت أجسامهم وعظامهم قد تفرّقت ، فرقتها الطير والريح — فنادى حَزْقِيل : أيتها العظام ، إنّ الله يأمرك أن تكتسىَ اللحم . فآكتست جميعا اللحم ، وبعد اللحم جلدًا ودمًا وعَصَبا

وعروقا، فكانت أجسادا، ثم نادى : أيتها الأرواح، إنّ الله تعالى يأمرك أن تعودى فى أجسادك . فقاموا جميعا عليهم ثيابهم التى كانوا فيها، وكبّروا تكبيرة واحدة .

قال: وزعم منصور بن المعتمر عن مُجاهد أنهم قالوا حين أُحْيُوا : سبحانك ربّنا وبحمدك لا إله إلا أنت، فرجعوا إلى قومهم بعد ما أحياهم الله ـ عزّ وجل ـ وعاشوا دهرًا يعرفون أنهم كانوا أمواتا، سِحْنَةُ الموت على وجوههم، لا يلبَسون ثوبا إلا عاد رَميما مِثلَ الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التى كَتب الله لهم . وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — فإنها لتُوجد اليوم فى ذلك السِّبط من اليهود تلك الريح .

قال قَتَادةُ : مقتهم الله — عزّ وجل — على فِرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم، ثم بعثهم إلى بقيّة آجالهم ليستوفُوها، ولو كانت آجال القوم جاءت ما بُعثوا بعد موتهم . فلمّا أحياهم الله — عزّ وجل — قال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) . ثم تلا الثعلبىُّ هذه القصّة بقصّة إلياس؛ وذكرها الكِسَائىّ تلو قصّة العَيْزَار . والله الموفق للصواب .

ذكر خبر إلياس عليه السلام

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) . قال الكِسَائىّ — رحمه الله تعالى — قال كعب (٣) : لمّا وُلِد إلياس — عليه السلام — ونسبه أنه إلياس ابن سباسبا (٤) بن العَيْزَار بن هارون . قال : وأمّه صَفُورِيّة ، وجدّته أمّ أبيه

(١) سورة البقرة آية ٢٤٤

(٢) سورة ص آية ١٢٣

(٣) الذى فى الكسائى « وهب » وهو ابن منبه .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٥ من هذا الجزء .

صَفُّورِيَّة[1] بنت موسى بن عِمْران — عليه السلام — ظهر ليلة مولده أنوار أضاءت منها محاريب بنى إسرائيل . فلما نظرتْ ملوكُ بنى اسرائيل ذلك علموا أنه قد حدث حادث ، فتعرّفوا الخبر ، فقيل لهم : وُلِد مولود من ولد هارون ابنِ عِمْران .

قال : وكان إلياس على صورة موسى وقوته ، ونشأ أحسن نشأة . وبنو إسرائيل يقولون : هذا الذى بشَّرَنا به العَيْزَار ، أن الله يُهلك الملوك والجبابرة على يديه .

قال : فلمّا بلغ سبعَ سنين — وكان يحفظ التوراة — قال : يابنى إسرائيل، إنى أُريكم من نفسى عَجَبًا . فصاح بهم صيحةً آنتشرت فيهم فأَرعبتْ قلوبهم . فلما سكنتْ روعتُهم هَمّوا بقتله ، وقال بعضهم : هو ساحر ، فهرب منهم وصعِد إلى جبل وهم يتبعونه . فلمّا قَرُبوا منه آنفرج له الجبل فدخل فيه ، وآنصرف القوم . فنُمِى الخبر إلى بعض ملوكهم فعذّبهم ، ثم آنفرج الجبل ، وأقام إلياس به يأكل من المباحات حتى آستكمل أربعين سنة ، والناس قد أخذوا فى عبادة الأصنام وخاضوا فى المعاصى ، فبعثه آلله تعالى نبيًّا ورسولا ، وجاءه جبريل بالوحى ، وأَمَره عن الله تعالى أن يتوجَّه إلى الملوك والجبابرة الذين يعبدون الأصنام ويدعوهم إلى طاعة الله تعالى وعبادته ، وأن يُرسِلوا معه بنى إسرائيل وأعطاه القوّة ، وأمر النار والجبال والوحش بطاعته . فآنطلق إلياس إليهم وهم فى سبعين قرية ، كلّ قرية منها مدينةٌ ، فى كلّ مدينة جبّارٌ يَسُوسهم ، وكلّهم يعبدون صنما يُدعَى « بَعْلا » وهو على صورة آمرأة ، فصار إلياس إلى قرية من قُراهم ، وكان فيها ملك يقال له

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٥ من هذا الجزء .

«آجاب»[(١)]، فوقف بالقُرب من قصره، وقرأ التوراة بأطيب نغمة، فسمعه الملك، فقال لآمرأته: ألَا تسمعين؟ ما أطيبَ هذا الصوت! فقامت آلمرأة إليه وأشرفت عليه من أعلى القصر وسألته عن حاله وخبره، فأخبرها أنه رسول الله. قالت: وما حُجّتك على دعواك؟ فاستدعَى النار فجاءت إليه وشهِدتْ بنبوّته وصدّقته، فأخبرت المرأةُ زوجَها بما رأت منه، فجاء إليه وآمن به هو وآمرأتُه، وأوصاه بالصبر وآلجهاد، وآنصرف إلياس. حتى إذا كان يومُ آجتماع القوم وقد خرجوا بزينتهم ونصبوا صنمهم بَعْلًا وقف عليهم ودعاهم إلى الإيمان، فقال فيما أخبر آلله تعالى به عنه: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ[(٢)] * ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ[(٣)] ﴾. فقالوا له: من أنت؟ فقال: أَنسيتمونى بعد أن كنتُ فيكم ومعكم! أنا إلياس. فحثَوا فى وجهه التراب ورمَوْه بالحجارة من كلّ جانب. وكان ملِكُهم الأكبر يقال له «عَاميل»، فأمر بزيت فغُلِىَ فى قدْر نحاس وقال لإلياس[(٤)]: إنْ رجعتَ وإلّا طرحتُك فيه!. فقال: أنا وحيدٌ فى أرضكم، فريدٌ فى جمعكم، ولكنّى أُريكم آيةً تدلّ على صدق دعواىَ أنّى رسول آلله إليكم. فقال له الملِك نعم. فقال إلياس: أيّتها آلنار آخْمُدِى

١١١/١١

(١) كذا فى الأصل وقصص الأنبياء للكسائى. نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٤٦٦ أدب ورقة ٢٠٥ وما بعدها. وفى قصص الأنبياء للثعلبى (ص ١٩٩): «لاجب» بالجيم المعجمة. وفى ورقة ٩٠ من نسخة مخطوطة منها محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٤٧ م أدب: «أجب» مضبوطا بالقلم بضم الهمزة وفتح الجيم. وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٠ من القسم الأوّل): «احاب» بالحاء المهملة.

(٢) من أوّل قوله: «الله ربكم» الى أوّل الكلام على ذكر نبوّة آليسع عليه السلام (فى أوّل الصفحة ٢٨ من هذه الطبعة) لم يرد فى ب.

(٣) سورة الصافات آية ١٢٣ وما بعدها.

(٤) فى أ «للناس» وهو تحريف.

بإذن الله تعالى، فَخَمَدت وسكن غَلَيان الزيت، فعجب الناسُ من ذلك .
قال الملِك : قد أتيتَ بحجّة، ولكن أمهِلْنا يومًا لننظر فى أمرك . ففارقهم وأتاهم
من الغد ودعاهم، فجمع الملِك ملوكَ قومِه وعلماءَهم وقال : ما تقولون فى هذا
الرجل ؟ فقال العلماء : إنّا نرى فى التوراة صفةَ هذا الرجل أنّه يُبْعَثُ نبيًّا تُسَخَّر له
النار والأُسود والجبال، وأنه لا يسمع أحدٌ صوته إلّا ذلّ وخضع له . فقال بعض ٥
علمائهم : أيها الملِك، كَذَب هؤلاء فيما ذكروه، وهذا ساحر، فلا يهولنّك أمره .
فبسط العذاب على أولئك النفر، فاشتدّ ذلك على إلياس، وخالفه الملك «آجَاب»
الذى كان قد آمَنَ به؛ ففارقته زوجته ولحِقتْ بإلياس؟ وكانت من الصالحات .

قال : واتّخذ إلياس عَرِيشا بالقُرْب من قصر الملك «عَامِيل»، فأشرفتْ امرأةُ
عاميل عليه فى بعض الليالى وهو يعبد الله تعالى، فنظرتْ الى عمود من نور من لدن ١٠
العريش فى السماء، فآمنتْ ولحِقتْ به، فأمر زوجُها أن تُلْقَى فى النار، فأُلقِيتْ
فيها، فدعا إلياس — عليه السلام — الله تعالى لها، فلم تعمل النار فيها شيئا،
فأطلقها الملك، فلَحِقَتْ بإلياس . ثم مات ولدٌ لعاميل الملِكِ فجزِع عليه وتضرّع إلى
صنمه فلم يُغن عنه شيئا، فغضب وقال لإلياس : إن ابنى قد مات وعَجَزَ إلهى عن
إحيائه، فهل تقدِر أن تُحيِيَه ؟ فقال : هذا على ربِّى هيِّن، ودعا الله تعالى، فقام ١٥
الغلام يشهد أن لا إله إلا الله، وأن إلياس عبدُه ورسولُه، فآمن الملِك وخرج عن
المُلْك وتبع إلياسَ ولبس الصوف وعبدَ اللهَ تعالى حتى مات، وماتت زوجتُه وابنُه .
واستمرّ القوم فى ضلالهم وكفرهم ما شاء الله، وإلياس يدعوهم فلا يجيبونه، فأوحى
الله تعالى إليه أنِ ادْعُهم وأَنذِرْهم، فإن آمنوا وإلّا حبستُ عنهم الغيث وابتليتُهم
بالقحط . فدعاهم فقالوا : إنّا لا نؤمن بك ولا بربّك، فاصنع ما أنت صانع . ٢٠
فحبس الله — عزّ وجلّ — عنهم المطر، وغارت العيون وجَفّت الأشجار، فأكلوا

ما عندهم حتى نَفِد، ثم أكلوا المواشيَ حتى أكلوا الكلاب والسنانير والفيران، و بلغ بهم الجوع حتى كانوا يأكلون مَنْ مات منهم ، و إلياس بينهم وهم لا يرونه ، ويدعونه وهو لا يجيبهم، وكان الله تعالى قد جعل أمر أرزاقهم إليه، فأوحى الله إليه أنِ السماءُ والأرض ومن عليها قد بكت على هؤلاء ، وقد هلك كثير من خَلْقي بسببهم، وكلٌّ يدعوك ولا ترحمهم، فأَنصِفْ خَلْقي يا إلياس، فإني أُعْصَى فأَرزُق، وأُكْفَر فأَحلُم . ففزع إلياس وقال: ياربّ ماغضِبتُ إلّا لك، وأنت أعلم بمصالح عبادك . فأوحى ٱلله اليـه أنْ سِرْ إليهم وٱدْعُهم، فإن آمنوا و إلّا كنتُ أرأَف بهم منك .

قال : فٱنطلق إلياس حتى صار إلى أوّل قرية من قُرَى مدينتهم ، فمرّ بعجوز فقال لها : هل عندك طعام ؟ فقالت : وحقّ إلٰهي بَعْل ما ذقتُ الخبز منذ مدّة . قال : فهلّا تؤمنين بالله ! فقالت : إنّ ٱبني ٱلْيَسَعَ على دين إلياس ، ولا أراه ينتفع به وقد أشرف على الموت من الجوع . فقال له إلياس : يا ٱلْيَسَع، أتحبّ أن تأكل الخبزَ؟ فصاح : كيف لي بالخبز ! ومات، فبكت العجوز ولطمت. فقال لها : إنْ أحياه ٱلله وجاءكِ بمـا تأكلين أتؤمنين بالله ؟ قالت نعم . فدعا اللهَ تعالى ، فقام ٱلْيَسَـع وهو يشهد أن لا إله إلا ٱلله وأن إلياس رسول الله، ورزقهم ٱلله تعالى خبزا ولبنا ، فأكلوا، وآمنت العجوز، وخرجت تُنذر قومها، فخنقوها فماتت، فٱغتمّ ٱلْيَسَعُ لذلك. فقال له إلياس : إن ٱلله سـيحييها ويجعلكما آيةً لقومكما . وخرج إلياس إلى قومه وقد ٱجتمعوا عليها يريدون أكلَها، فصاح بهم، فتفرقوا عنها وقالوا : إنك أنت إلياسُ حقّا ، فدعا ٱلله تعالى فأحياها ، فأقبل القوم عليه وقالوا : ألَا ترى ما نحن فيه منذ سبع سِنين ! قال : فهلّا دعوتم صنمكم بَعْلا ليَكشِف عنكم ! قالوا : قـد دعوناه فلم يُغنِ شيئا . قال : فإن أغاثكم الله تعالى أتؤمنـون ؟ قالوا نعم . فسأل اللهَ تعالى فأمطرهم ، وجرت أنهارُهم وأنبتت أرضُهم، وأحيا الله من مات منهم من الجوع ،

١١٢/١١

فازدادوا كفرًا وعتوًّا ، فحذّرهم إلياس وأنذرهم وذكّرهم بنعمة الله عليهم . فقالوا : إنّ القحط قد ارتفع عنّا وهيهات أن يعود أبدا ، وإن عاد فلا نبالى ، قد جمعنا فى منازلنا ما يكفينا زمنا طويلا . فدعا اللهَ عليهم واعتزلهم ، وقال : قد بلّغت الرسالة وأنك لاحق بالملائكة . فاستخلف اليَسَعَ على المؤمنين (١) ، فقال اليَسَعُ : يا نبىّ الله ، إنى ضعيف بين قوم كافرين . فأوحى الله تعالى الى اليَسَع بذلك ، وخرج إلياس عن ديار قومه فى يوم جمعة ، فإذا هو بفَرس يلتهب نُورًا ، وله أجنحة ملوّنة ، فناداه : أَقبِل يا نبىّ الله . فاستوى على ظهره ، وجاءه جبريل فقال : يا إلياس طِرْ مع الملائكة حيث شئتَ ، فقد كساك الله الريش ، وقَطَع عنك لذّة المطعَم والمشرَب وجعلك آدميًّا مَلَكيًّا سماويًّا أرضيًّا .

قال : ونَشَرَ الفرس أجنحته فهو يطير مع الملائكة . ثم أرسل الله — عز وجل — العذاب على قومه ، فأحدقتْ بهم سحابةٌ من جهنّم ، واعتزلهم المؤمنون ، فأحدقت السحابة بالكَفَرة ، فأمطرت عليهم حجارة من العذاب . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ (٢) ﴾ . قال : ثم انكشفتْ عن ديارهم وقد صاروا حُمَمًا سُودًا ، قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٣) ﴾ .

قال : وأقام اليَسَعُ مع بنى إسرائيل حتى قبضة الله تعالى .

---

(١) كذا فى الأصل . وهو غير واضح . وعبارة الكسائى فى كتابه قصص الأنبياء ورقة ٢٠٨ : « ... فقالوا يا إلياس إن الأرض لا يعود قحطها وما نحن فلا نبالى لأنا جمعنا فى منازلنا ما يكفينا طويلا فعلم أنهم مهلكون فقال : إلهى قد بلغت الرسالة وقد اقترب أجلهم وعذابهم ، اللهم فأخرجنى من بينهم ثم أنزل عليهم عذابا . فأوحى الله اليه أن يا إلياس إنك قد أديت الرسالة وفعلت ما أمرت به فاستخلف الآن موضعك اليسع بن أخطوب فانه قد جعلته لك خليفة على بنى اسرائيل المؤمنين ... الخ » .

(٢) سورة الفرقان آية ٤٠ (٣) سورة الصافات آيتى ١٢٧ ، ١٢٨

هذا ما أورده الكسائىّ فى أخبار إلياس واليسع عليهما السلام .

وأمّا ما حكاه الثعلبىّ — رحمه الله — فى هذه القصة، فإنه قال :

قال ابن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار : لمّا قبض الله حَزْقِيلَ النبىّ — عليه السلام — عظُمت الأحداث فى بنى إسرائيل وظهر فيهم الفساد، ونَسُوا عهد الله تعالى إليهم فى التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله — عزّ وجل — فبعث الله تعالى اليهم إلياس نبيًّا . قال الثعلبىّ : وهو إلياس ابن ياسين بن فِنْحَاص بن العَيْزَار بن هارون عليه السلام .

قال : وإنما كانت الأنبياء بعد موسى — عليه السلام — يُبْعَثون إليهم بتجديد ما نَسُوا وضيّعوا من أحكام التوراة ، وبنو إسرائيل يومئذ متفرّقون فى أرض الشأم وفيهم ملوك كثيرة . وذلك أن يُوشَع لمّا فتح أرض الشأم بوّأها بنى إسرائيل وقسمها بينهم، فأحلّ سِبْطا منهم بَعْلَبَكّ ونواحيها، وهم سبْط إلياس ، فبعثه الله تعالى إليهم نبيّا، وعليهم يومئذ ملك يقال له « آجاب »(١) قد أضلّ قومه وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان يعبد هو وقومُه صنما يقال له « بَعْل » وكان طوله عشرين ذراعا، وكانت له أربعة وجوه ، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وهم فى ذلك لايسمعون منه شيئا إلّا ما كان من أمر الملك الذى كان ببعلبكّ فإنه صدّقه وآمن به ، وكان إلياس — عليه السلام — يقوّم أمرَه ويسدّدُه ويُرشدُه، وكان لآجاب الملك هذا امرأة يقال لها «أرايل»(٢)، وكان يستخلفها على رعيّته إذا غاب عنهم فى غَزَاة

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ١١ من هذا الجزء .

(٢) فى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوعة (ص ١٩٩) : « أربيل » . بالراء المهملة . وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٠ ، ٧٩٨ من القسم الأول) « أزبل » بالزاى المعجمة وحذف الياء . وذكرت فى الأصول فيما يأتى كما وردت فى هامش تاريخ الطبرى والنسخة المخطوطة من قصص الأنبياء للثعلبى باسم : « أزبيل » بالزاى المعجمة وإثبات الياء .

أو غيرها، فكانت تبرُز للناس كما يبرُز زوجها وتركَب كما يركَب ، وتجلس فى مجلس القضاء فتَقضِى بين الناس، وكانت قتّالةً للانبياء ، وكان لها كاتب وهو مؤمن حكيم يكتمها إيمانَه ، وكان الكاتب قد خَلَّص من يدها ثلثمائة نبىّ كانت تريد قتلَ كلِّ واحد منهم إذا بُعث ، سوى الذين قتلتْهم ممن يكثُر عددهم؛ وكانت فى نفسها غيرَ مُحْصَنَةٍ ولم يكن على وجه الأرض أفحشُ منها، وهى مع ذلك قد تزوّجت سبعة ملوك من ملوك بنى إسرائيل وقتلتهم كلَّهم بالاغتيال؛ وكانت معمَّرة حتى يقال : إنها ولَدتْ سبعين ولدا . وكان لآجاب هذا جارٌ من بنى إسرائيل رجل صالح يقال له «مزدكى» وكانت له جُنَينة يعيش منها ويُقبِل على عمارتها ومَرَمّتها، وكانت الجُنَينة إلى جانب قصر الملك وآمرأته، فكانا يُشرفان على تلك الجُنَينة ويتنزّهان فيها ، ويأكلان ويشربان ويَقيلان فيها، وكان «آجاب» فى ذلك يُحسِن جِوار «مزدكى» صاحبها ويُحسِن إليه ، وآمرأته « أرايل » تَحْسُده على ذلك لأجل تلك الجُنَينة، وتحتال فى أن تغتصبها منه لمّا تسمع الناس يذكرون[1] الجُنَينة ، ويتعجّبون من حسنها ويقولون : ما أحرى أن تكون هذه الجُنَينة لأهل هذا القصر، ويتعجّبون من الملك وآمرأته كيف لم يَغصباها صاحبَها . فلم تزل المرأة تحتال على العبد الصالح «مزدكى» أن تقتله وتأخذ جُنَينَته، والملِك ينهاها عن ذلك. ثم آتفق خروج الملِك إلى سفر بعيد وطالت غيبته، فآغتنمت المرأةُ غَيبة الملك وآحتالت على « مزدكى » صاحب الجُنَينة ، وهو غافل عما تريد مُقبِلٌ على عبادة ربه وإصلاح جنينته، فجمعت « أرايل » جمعًا من الناس وأمرتْهم أن يشهدوا على « مزدكى » أنه سبّ زوجها الملكَ «آجاب» ، فأجابوها إلى ملتمسها من الشهادة عليه. وكان حُكمهم فى ذلك

(١) فى الأصل : « يذكرون من ذكر الجنينة » . وعبارة الثعلبى : « وآمرأته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة وتحتال على غصبها لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسنها » .

الزمان على من سبّ الملِك القتلَ إذا قامت البيِّنة عليه بذلك . فأحضرتْ «مزدكى» وقالت : بلغنى أنك سببت الملك وعبته، فأنكر ذلك . فقالت : إنّ عليك شهودا، وأحضرت الشهود فشهدوا عليه بحضرة الناس، فأمرت بقتل « مزدكى »، فقُتل وأُخذت جُنَيتُه غَصْبا، فغضِب الله — عزّ وجل — عليهم للعبد الصالح . فلمّا قدِم الملِكُ من سفره قال لها : ما وُفِّقتِ وما أَصبت، ولا أرانا نُفلح بعدَه أبدا، و إنْ كنّا عن جُنَيتته لأغنياء، قد كنّا نتنزّه فيها، وقد جاوَرَنا وتحرّم بنا منذ زمان طويل، فأحسنّا جِوَارَه، وكفَفنا عنه الأذى لوجوب حقّه علينا، فختمتِ أمرَه بأسوأ حال الجِوَار . وما حملَكِ على اجترائكِ عليه إلّا سَفَهُكِ وسوءُ رأيكِ وقلّةُ عقلكِ وقلّةُ تفكّركِ فى العواقب . فقالت : إنما غضِبتُ لك وحكمتُ بحكمك . قال : أوَ ما كان يَسَعُه حِلمُكِ ويَحْدُوكِ عِظَمُ خَطَرِكِ على العفو عن رجلٍ واحدٍ فتحفظين له جوارَه ! . قالت : قد كان ما كان .

فبعث الله تعالى إلياس — عليه السلام — إلى « آجاب » الملِكِ وقومِه، وأمره أن يخبرهم أنّ الله تعالى قد غضِب لوليّه حين قتلوه بين أظهرِهم ظلما، وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صَنِيعهما ولم يردّا الجُنَينة على ورثة « مزدكى » أن يُهلكهما، يعنى «آجاب» وامرأته، فى جوف الجنينة أشرّ ما يكون بسفك دمهما، ثم يدعهما جِيفتين مُلقاتين فيها حتى تتعرّى عظامُهما من لحومهما، ولا يُمتّعان بها إلا قليلا .

قال : فجاء إلياس — عليه السلام — إلى الملِك وأخبره بما أَوحى الله — عزّ وجل — إليه فى أمره وأمر امرأته والجُنَينة . فلمّا سمع الملِك ذلك اشتدّ غضبه عليه، ثم قال له : يا إلياس، والله ما أَرى ما تدعونا اليه إلّا باطلا، والله ما أرى فلانا وفلانا — سمّى ملوكا منهم قد عبدوا الأوثان — إلّا على مثل ما نحن عليه، يأكلون و يشربون

ويتنعّمون مملّكين، ما ينقُص من دنياهم أمرُهم الذى تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل .

قال : وهمّ الملك بتعذيب إلياس وقتله . فلمّا سمع إلياس — عليه السلام — ذلك وأحسّ بالشرّ، رفضه وخرج عنه . فلحق بشواهق الجبال، ودعا الملكُ[1] الناسَ إلى عبادة بَعْل ، وارتقى إلياسُ — عليه السلام — أصعب جبل وأشمخه ، فدخل مغارةً فيه . فيقال : إنه بَقِىَ فيه سبع سنين شَرِيدا طَرِيدا خائفا ، يأوى الشِّعاب والكهوف، ويأكل من نبات الأرض وثمارِ الشجر وهم فى طلبه قد وضعوا عليه العيون يتوكّفون[2] أخباره ويجتهدون فى أخذه، والله تعالى يستره ويدفع عنه . فلمّا تمّت له سبعُ سنين أذِن الله تعالى فى إظهاره عليهم، وشفا غيظَه منهم، فأمرض الله تعالى ابنا لآجاب الملك وكان أحبّ ولدِه إليه وأعزّهم عليه وأشبههم به ، فأدنف[3] حتى يُئس منه ، فدعا صنمه بَعْلا ، وكانوا قد فُتِنوا به وعظّموه حتى جعلوا له أربعمائة سادِن وكّلوهم به وجعلوهم أنبياءه ، وكان الشيطان يوسوس إليهم بشريعة من الضلالة، فيبيّنونها للناس فيعملون بها، ويسمّونهم الأنبياء . فلمّا اشتدّ مرض ابنِ الملكِ طلب إليهم أن يشفعوا إلى بَعْل ، ويطلبوا لابنه من قِبَله الشفاء والعافية ، فدعَوْه فلم يجبهم ، ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الوُلوجُ فى جوفه ، وهم مجتهدون فى التضرُّع إليه ، وهو لا يزداد مع ذلك إلّا خمودا[5] . فلمّا طال عليهم ذلك قالوا لآجاب : إن فى ناحية الشأم آلهةً أخرى، وهى

(١) فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة : «وعاد الملك الى عبادة بعل» .

(٢) يتوكفون أخباره : ينتظرونها ويسألون عنها .

(٣) أدنف المريض : ثقل ودنا من الموت، وأدنفه المرض، فهو لازم متعدّ .

(٤) فى قصص الأنبياء المطبوعة والمخطوطة : «حتى سموا مدينتهم به فقالوا لها بعلبك وجعلوا... الخ» .

(٥) فى الأصل : «إلا جمودا» والتصويب من قصص الأنبياء المخطوطة للثعلبى .

فى العِظَم مثلُ إلٰهك ، فٱبعَثْ إليها أنبياءك فليشفعوا لك إليها . فلعلها أن تشفع لك إلى إلٰهك بَعْل فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك لقد كان أجابك وشَفَى لك ٱبنَك. قال آجاب : ومن أجل ماذا غضِب علىّ وأنا أُطيعه وأطلب رضاه منذ كنت لم أُسخطه ساعةً قطّ ؟ قالوا : من أجل أنّك لم تقتل إلياس وفرّطتَ فيه حتى نجا سليما وهو كافر بإلٰهك يعبد غيره ، فذلك الذى أغضبَه عليك . قال آجاب : وكيف لى أن أقتل إلياس يومى هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ٱبنى وليس لإلياسَ مطلب ، ولا يُعرَف له موضع فيُقصَد ، فلو عُوفىَ ٱبنى لتفرّغتُ لطلبه ، ولم يكن لى همٌّ ولا شغل غيره حتى آخُذَه فأقتله فأريحَ إلٰهى منه وأُرضيَه .

قال : ثم ٱندفعتْ أنبياؤه الأربعمائة ليَشفعوا الى الأرباب التى بالشام ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملِك ليشفى ٱبنه ، فٱنطلقوا حتى إذا كانوا بجِبال الجبل الذى فيه إلياس أوحَى الله — عزّ وجل — إلى إلياس أن يهبط من الجبل ويعارضَهم ويستوقفَهم ويكلّمَهم ، وقال له : لا تخَفْ فإنّى سأصرف عنك شرّهم ، وأُلقِى الرعبَ فى قلوبهم. فنزل إلياس — عليه السلام — من الجبل ، فلمّا لقيهم ٱستوقفهم فوقفوا ، وقال لهم : إنّ الله — عزّ وجل — أرسلنى إليكم وإلى مَن وراءكم ، فٱستمعوا أيّها القوم رسالةَ ربكم لتبلغوا صاحبكم ، فٱرجِعوا إليه وقولوا له : إنّ الله تعالى يقول لك : ألستَ تعلم يا آجاب أنّى أنا الله لا إلٰه إلّا أنا إلٰهُ بنى إسرائيل الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ، أجهلُك وقلّةُ علمِك حملك على أن تُشرك بى وتطلبَ الشفاء لٱبنك من غيرى ممن لا يملكون لأنفسهم شيئا إلّا ما شئتُ . إنى حلفتُ بٱسمى لأغيظنّك فى ٱبنك ولأُميتنّه فى فوره هذا حتى تعلم أنّ أحدًا لا يملك له شيئا دونى. فلمّا قال لهم إلياس هذا رجعوا وقد مُلِئوا منه رُعْبا . فلمّا صاروا إلى الملك قالوا له ذلك ، وأخبروه أنّ إلياس ٱنحطّ عليهم ، وهو رجلٌ نحيفٌ طُوالٌ قد قَشِفَ

١١٤/١١

وخَفِل[1] وتمعّط[2] شعرُه وتقشّر[3] جلدُه، عليه جبّة من شعر وعباءة قد خلّها[4] على صدره بخلال، فآستوقفنا، فلمّا صار معنا قُذِفَتْ فى قلوبنا الهيبة والرُّعب، وآنقطعت ألسنتُنا، ونحن فى هـذا العدد الكثير وهو واحد، فلم نقـدر على أن نكلّمه ونراجعـه ونملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليـك، وقصّوا عليـه كلامَ إليـاس عليه السـلام . فقال آجاب : لا ننتفع بالحيـاة ما دام إلياس حيًّا . ما الذى منعكم أن تبطِشوا به حين لقيتموه وتُوثِقوه وتأتونى به، وأنتم تعلمون أنه طَلِبَتِى وعدوّى . قالوا : أخبرناك بالذى مَنَعنا منه ومن كلامه والبطش به . قال آجاب : ما يُطاق إدًا إلياس إلّا بالمكر والخديعة . فقيّض له خمسين رجلا من قومه ذوى قوّة وبأس، وعهِد إليهم عهدَه، وأمرهم بالآحتيال له والآغتيال به[5] وأن يُطمِعوه فى أنهم قد آمنوا به هم ومَن وراءهم، ليستنيم إليهم ويغترّ بهم، فيمكّنهم من نفسه، فيأتوا به الملِك . فآنطلقوا حتى آرتقَوْا ذلك الجبل الذى فيه إلياس — عليه السلام — ثم تفرّقوا [فيه][6] وهم ينادونه بأعلى أصواتهم ويقولون : يا نبيّ الله، ابرُزْ لنا وأنت آمِنٌ على نفسـك [فإنا قد آمنا بك وصدّقناك، وملكنا آجاب][6]، وجميع بنى إسرائيل يقرءون عليك السلام ويقولون : قد بلّغتَنا رسالةَ ربِّك، وعرفنا ما قلتَ، وآمنّـا بك، وأجبناك إلى ما دعوتَنا، فهلمّ إلينـا فأنت نبيُّنا ورسـولُ ربِّنا، [فأقِمْ][6] بين أظهرنا وآحكم فينا؛ فإنّا ننقاد لمـا أمرتَنا، وننتهى عمّا نهيتَنا، وليس يسعك أن تتخلّف عنّا مع إيمـاننا وطاعتنا، فتَدارَكْنا وآرجِع إلينا . وكلّ هذا كان منهم مُماكرةً وخديعةً . فلمّا سمع إلياس — عليه

(١) خفل من باب علم : يبس . ومنه تقحل الشيخ اذا يبس جلده على عظمه من البؤس والكبر .
(٢) تمعط الشعر : تمرّط وسقط من داء يعرض له .
(٣) فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة : « واقشعرّ » وفى المطبوعة : « ويبس » .
(٤) خلّ الكساء وغيره : جمع أطرافه بخلال .
(٥) كذا فى قصص الأنبياء المخطوطة للثعلبى . ولعـل المراد من قوله « والاغتيال به » أخذه من حيث لا يدرى ثم المجىء به . وفى أ : « والاحتيال به » . (٦) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

السلام — مقالتهم وقعت بقلبه وطمع فى إيمانهم وخاف الله تعالى وأشفق من سُخْطه إن هو لم يَظهَر لهم ولم يُجبهم بعد الذى سمع منهم . فلمّا أجمع على أن يبرُز لهم رجع إلى نفسه فقال : لو أنّى دعوتُ الله — عزّ وجلّ — وسألتُه أن يُعلِمنى ما فى أنفسهم ويُطْلِعَنى على حقيقة أمرهم . فقال : اللهمّ إن كانوا صادقين فيما يقولون فأْذَنْ لى فى البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وآرمِهم بنار تُحرِقهم . فما استتمّ قوله حتى حُصِبُوا[1] بالنار من فوقهم، فاحترقوا أجمعين .

قال : وبلغ آجابَ الخبرُ فلم يرتدع ، واحتال ثانيا فى أمر إلياس، وجهّز فئةً أُخرى مثلَ عدد أولئك أقوى منهم وأمكنَ فى الحيلة والرأى، فأقبلوا حتى ارتقَوْا قُلَل تلك الجبال [متفرقين][2]، وجعلوا ينادون : يا نبىّ الله، إنّا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسَطَواته . إنّا لسنا كالذين أتَوك من قَبْلنا، إنّ أولئك فرقة نافقتْ وخالفتْنا، فصاروا إليك ليكيدوك[3] من غير رأينا ولا علمٍ منّا، وذلك أنهم حسدونا وحسدوك، وخرجوا إليك سرّا، ولو علِمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم، والان فقد كفاك ربُّك أمرهم وأهلكهم بسوء نيّاتهم وانتقم لنا ولك منهم . فلمّا سمع إلياس — عليه السلام — مقالتهم دعا الله تعالى بدعوته الأولى، فأمطر الله عليهم النار، فاحترقوا عن آخرهم، كلّ ذلك وابن الملك فى البلاء الشديد من وجعه — كما وعده الله تعالى على لسان نبيّه إلياس — لا يُقْضَى عليه فيموت، ولا يخفَّف عنه من عذابه .

قال : فلمّا سمع الملك بهلاك أصحابه ثانيا ازداد غضبا إلى غضبه، وأراد أن يخرج فى طلب إلياس بنفسه[4]، إلّا أنه شغله عن ذلك مرضُ ابنه فلم يمكنه، فوجّه نحو إلياسَ الكاتبَ المؤمنَ الذى هو كاتب امرأته رجاءَ أن يأنس به إلياس فينزلَ

(١) حصبوا بالنار : رموا بها . (٢) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .
(٣) فى قصص الأنبياء للثعلبى : « ليمكروا بك » .
(٤) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وفى الأصل : « إلى طلب إلياس ... » .

معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءا . و إنما أظهر له ذلك لمـا ٱطّلع عليه من إيمـانه، وكان الملِك مع ٱطّلاعه يغُضّ عنه لمـا هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسَـدادِ الرأى، فوجّهه نحوه، وأرسـل معه فئةً من أصحابه، وأَوعَزَ إلى الفئة دون الكاتب أن يُوثِقوا إليـاس و يأتُوه به إن أراد أن يتخلّف عنهم ، و إن جاء مع الكاتب واثقًا به آنسًا بمكانه لم يُوحِشُوه ولم يروّعوه، ثم أظهر آجاب للكاتب الإنابة وقال : إنه قد آن لى أن أتوب وأتّعظ، وقـد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنـا والبلاءِ الذى فيه ابنى ؛ وقد عرفتُ أنّ ذلك بدعوة إلياس، ولستُ آمَنُ أن يدعوَ على جميع مَن بقِى منّا فنهلِك بدعوته. فٱنطلِقْ إليه وأخبره أنّا قد تُبنا وأنبنا، وأنه لا يصلحنا فى توبتنا وما نريد من رضا ربّنا وخلعِ أصنامنا إلّا أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا و ينهانا ، ويُخبِرُنا بمـا يرضَى به ربُّنَا . وأمر الملِك قومه فٱعتزلوا الأصنام ، وقال له : أخبر إلياس بأنّا قد خلعنا آلهتنا التى كنّا نعبـد وأرجأنا[1] أمرَها حتى ينزل إليـاس إلينا، فيكون هو الذى يُحرِقها ويُهلِكهـا وكان ذلك مكرا من الملك . فٱنطلق الكاتب والفئةُ حتى علَوُا الجبل الذى فيه إلياس — عليه السلام — ثم ناداه الكاتب، فعرف إلياس صوتَه، فتاقتْ نفسُه إليه وأنِسَ بمكانه وكان مشتاقا إلى لقائه، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أنِ ٱبرُز إلى أخيك الصالح فٱلقَه وجدِّد العهدَ به ، فبرز إليه إليـاس وسلّم عليه وصافحه ، وقال له : ما الخبر؟ قال له المؤمن : إنّه قد بعثنى إليك هذا الجبّار الطاغيةُ وقومُه، ثم قصّ عليه ما قالوا. ثم قال : و إنّى خائف إن رجعتُ إليه ولستَ معى أن يقتلنى، فمُرْنى بمـا شئتَ أن أفعلَه وأنتهِىَ إليه، [إن شئتَ انقطعتُ إليك وكنتُ معك وتركتُه، و إن شئتَ جاهدتُه معك][2]

(١) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة . وفى المطبوعة : «وقد أهملنا أمرها» . وفى الأصل : « وأرجينا أمرنا » .

(٢) زيادة عن الثعلبى فى قصص الأنبياء المخطوطة والمطبوعة .

١١٥/١١

وإن شئتَ فأرسلنى إليه بما تحبّ فأبلّغه رسالتك ، وإن شئتَ دعوتَ ربّك أن يجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا .

قال : فأوحى الله — عزّ وجلّ — إلى إلياس عليه السلام أنّ كلّ شىء جاءوك به مكرٌ وخديعةٌ ليَظفَروا بك ، وأن «آجاب» إن أخبرتْه رسلُه أنّك قد لَقِيتَ هذا الرجل ولم يأتِ بك إليه اتّهمه وعرَف أنه قد داهن فى أمرك ، فلم يأمن أن يقتله ، فانطلِقْ معه فإنّ فى انطلاقك معه عذرَه وبراءته عند آجاب ، وإنى سأَشغَل عنكما آجاب ، وأضاعِفُ على ابنه البلاء حتى لا يكون له همٌّ غيره ، وأُميته على شرّ حال ، فإذا مات فارجِع عنه ولا تُقِم . فانطلَق معهم حتى قَدِموا على آجاب ، فلمّا قدِموا عليه شدّد الله تعالى على ابنه الوجع ، وأخذه الموت ، فشَغَل الله تعالى آجاب وأصحابَه بذلك عن إلياس ، فرجع إلياس سالما إلى مكانه . فلمّا مات ابن آجاب وفرغوا منه وقلّ جزعه ، انتبَه لإلياس وسأل عنه الكاتبَ الذى جاء به ، فقال : ليس لى به علم ، وذلك أنّه شغلنى عنه موتُ ابنِك والجزعُ عليه ، ولم أكن أحسبك إلّا قد استوثقتَ منه . فأضرب عنه آجاب وتركه لما كان فيه من الحزن على ابنه . فلمّا طال الأمر على إلياس ملّ الكُمُونَ فى الجبال والمُقامَ بها واشتاق إلى العُمْران وإلى الناس فنزل من الجبل ، وانطلق حتى نزل بامرأة من بنى إسرائيل ، وهى أم يونس ابن متّى [ذى النون . فاستخفى عندها ستة أشهر](١) ، ويونس يومئذ مولودٌ يرضع ، وكانت أُم يونس تخدِمُه بنفسها ، وتواسيه بذات يدها ، ولا تدّخر عنه كرامة تقدِر عليها .

ثم إنّ إلياس سئم ضِيق البيوت بعد مُقامِه بالجبال وسَعَتها ، فأحبّ أن يلتحقَ بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه ، فجزِعتْ أم يُونس لفراقه وأوحشَها فقدُه ، ثم لم تلبث إلّا يسيرا حتى مات ابنها [يونس](١) حين فطمتْه ، فعظمتْ مصيبتها فيه ، فخرجتْ فى طلب إلياس ، فلم تزَل ترقى الجبال وتطُوف [فيها](١) حتّى عثرت عليه ووجدتْه ، فقالت :

(١) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

إنّى قد فُجِعتُ بموت ٱبنى بعدَك ، فعظمتْ فيه مصيبتى ، وٱشتدّ لفقده بلائى ، وليس لى ولد غيرُه ، فٱرحمنى وٱدْعُ ربّك — جلّ جلاله — فيحيَ لى ٱبنى ، ويجبر مصيبتى ، وإنى قد تركته مسجًّى لم أدفنه ، وإنى قد أخفيتُ مكانه . فقال لها إلياس : ليس هذا ممّا أُمرتُ به ، وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرنى به ربّى ، ولم يأمرنى بهذا . فجزِعتِ المرأة وتضرّعتْ ، فعطّف الله سبحانه وتعالى قلبَ إلياس عليها ، فقال لها : ومتَى مات ٱبنُك ؟ قالت : منذ سبعة أيام . فٱنطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى ٱنتهى إلى منزلها فوجد ٱبنَها يونسَ ميتًا منذ أربعة عشر يوما ، فتوضّأ وصلّى ودعا الله فأحيا الله تعالى يونسَ بنَ متّى بدعوة إلياس . فلمّا عاش وجلس وثب إلياس وٱنصرف وعاد إلى موضعه . والله أعلم .

ذكر دعاء إلياس على قومه ، وما حلّ بهم من القحط وخبر ٱليَسَع حين ٱتّبع إلياس

قال : ولمّا طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذَرْعًا وأجهده البلاء . فأوحَى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهودٌ : يا إلياس ، ما هذا الحزن والجَزَع الذى أنت فيه ! ألستَ أمينى على وحيي ، وحُجّتى فى أرضى ، وصفوَتى من خَلْقى ! فسَلْنى أُعطِك فإنّى ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم . قال : تميتُنى فتُلحقنى بآبائى ، فإنّى قد مَلِلتُ بنى إسرائيل ومَلُّونى ، وأبغضتُهم فيك وأبغضونى . فأوحَى الله تعالى إليه : يا إلياس ، ما هذا باليوم الذى أُعرِى منك الأرضَ وأهلَها ، وإنما قِوامُها وصلاحُها بك وبأشباهِك إن كنتم صبرتم قليلا ، ولكن تسألنى فأعطيك . قال إلياس : فإن لم تُمِتنى يا إلهى فأعطنى ثأرى من بنى إسرائيل . قال الله تعالى :

١١٦/١١

وأىّ شىء تريد أن أعطيَك يا إلياس؟ قال : تمكننى من خزائن السماء سبعَ سنين، فلا تُنشِئ[1] عليهم سحابةً إلّا بدعوتى ، ولا تُمطِر عليهم سبعَ سنين قطرةً إلّا بشفاعتى، فإنهم لا يُذِلّهم إلّا ذلك . قال الله تعالى : يا إلياس ، أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين . قال : ستّ سنين . قال : أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين . قال : فخمسَ سنين . قال : أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين، ولكنى أُعطيك ثلاثَ سنين أجعل خزائن المطر بيدك ، فلا تَنشَأُ[1] عليهم سحابةٌ إلّا بدعوتك ، ولا تَنزِل عليهم قطرةٌ إلّا بشفاعتك . قال إلياس : فبأىّ شىء أعيش ؟ قال: أُسخِّر جيشا من الطير تنقل إليك طعامَك وشرابَك من الريف والأرض التى لم تَقْحَط . قال إلياس : قد رضيت . قال : فأمسك الله — عزّ وجلّ — عنهم المطر حتى هلكت الماشيةُ والدوابُّ والهوامُّ والشجرُ وجُهِد الناس جَهْدًا شديدًا وإلياسُ على حالته مُستخفٍ من قومه يوضع له الرزقُ حيثما كان، وقد عرفه بذلك قومُه، فكانوا إذا وجدوا ريحَ الخبز فى بيت قالوا : لقد دخل إلياس هذا البيتَ وطلبوه، ولقِىَ أهلُ ذلك المنزل منهم شرّا .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : أصاب بنى إسرائيل ثلاثَ سنين القحطُ، فمرّ إلياس — عليه السلام — بعجوز فقال لها : هل عندكِ طعام ؟ قالت : نعم، شىء من دقيق وزيت قليل . فجاءته بشىء من الدقيق والزيت، فدعا فيهما بالبركة[2] ومسّهما ، فبارك الله فى ذلك حتى ملأت جُرَبَها دقيقا وملأت

(١) نشأت السحابة : ارتفعت وبدت، وأنشأها الله : رفعها وأبداها .

(٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وعبارة الأصل : « فدعا بهما ودعا فيه بالبركة وبه ... الخ » .

خَوابِيَها زيتا. فلمّا رأوْا ذلك عندها قالوا: من أين لكِ هذا؟ قالت: مرّ بى رجل من حاله كذا وكذا، فوصفت صفتَه، فعرفوه وقالوا: ذلك إلياس؛ فطلبوه فوجدوه فهرَب منهم.

ثم أوَى ليلةً إلى بيت آمرأة من بنى إسرائيل لها آبن يقال له: ٱلْيَسَع آبن أخطوب به ضرّ، فآوته وأخفتْ أمرَه. فدعا له فعُوفىَ من الضرّ الذى كان به، وآتّبع ٱلْيَسَعُ إلياسَ وآمن به وصدّقه ولزمه، وكان يذهب به حيثما ذهب، وكان إلياس قد أسنّ وكَبِر، وكان ٱلْيَسَعُ غلاما شابًّا.

ذكر رفع البلاء عن قوم إلياس بدعوته وآستمرارهم على الكفر ورفع إلياس وهلاك آجاب الملك وآمرأته، ونبوّة ٱلْيَسَع

قال: ثم أَوحَى الله تعالى إلى إلياس — عليه السلام — إنك قد أهلكتَ كثيرا من الخلق ممن لم يَعْصِ سوى بنى إسرائيل من البهائم والدوابّ والطير والهوامّ والشجر بحبس المطر عن بنى إسرائيل. فيزعمون — والله أعلم — أنّ إلياسَ قال: ياربّ دَعْنى أكُنِ الذى أدعو لهم وآتيهم بالفرج ممّا هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلّهم أن يرجعوا ويَنزِعوا عمّا هم عليه من عبادة غيرِك. قيل له: نعم. فجاء إلياس — عليه السلام — إلى بنى إسرائيل فقال لهم: إنكم قد هلكتم جوعا وجَهْدًا، وهلكت البهائمُ والدوابّ والطيرُ والهَوَامُّ والشجرُ بخطاياكم، وإنكم على باطل وغرور. فإن كنتم تحبّون أن تعلموا ذلك فآخرجوا بأصنامكم هذه، فإن آستجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنَزعتم، ودعوتُ آلله — عزّ وجلّ — ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء. قالوا: أنصفتَ. فخرجوا بأوثانهم فدعَوْها

فلم تستجب لهم، ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه [من البلاء[1]] . ثم قالوا لإلياس : يا إلياس، إن الله قد أهلكنا، فادعُ الله لنا . فدعا الله تعالى لهم ومعه اليسع[2] بالفرج مما هم فيه وأن يُسقَوْا، فخرجت سحابةٌ مثل التُّرْس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبّقت الآفاق، ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر [فأغاثهم][3] وحيِيَتْ بلادهم .

١١٧/١١ فلما كشف الله تعالى عنهم الضُّرّ نقضوا العهد ولم ينزِعوا عن كفرهم ، ولم يُقلِعوا عن ضلالتهم ، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه . فلما رأى إلياس — عليه السلام — ذلك دعا الله تعالى أن يريحه منهم؛ فقيل له — كما يزعمون — : أُنظُرْ[4] يومَ كذا وكذا فاخرُجْ[5] فيه إلى موضع كذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تَهَبْه. فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب، حتى إذا كانا بالموضع الذى أُمِر إلياس به ، أقبلَ فرس من نار حتى وقف بين يديه ، فوثَب عليه إلياس، فانطلق الفرسُ به ، فناداه اليسع ، يا إلياس : ما تأمرنى ؟ فقذف اليه إلياس بكساءه من الجوّ الأعلى، وكان ذلك علامةَ استخلافه إياه على بنى إسرائيل، فكان [ذلك][3] آخر العهد به . ورفع الله — عزّ وجلّ — إلياسَ من بين أظهرهم ، وقطع عنه لذّة المطعم والمَشرَب ، وكساه الرِّيش ، فكان إنسيًا مَلَكيًا أرضيًا سماويًا ، وسلّط الله على آجاب الملِكِ وقومه عدوًا لهم فقصدهم من حيث لم يَشعُروا [به][3] حتى رَهِقَهم، فقُتل

(١) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبي .

(٢) هذه عبارة الثعلبي . وفى الأصل : « ومعهم » .

(٣) زيادة عن الثعلبي .

(٤) أنظر : بمعنى انتظر .

(٥) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبي . وفى الأصل : « فيهم » .

آجاب وآمرأته أرايل فى بستان مزدكى ، فلم تزل جِيفتاهما ملقاتَين فى تلك الجُنَينة حتى بَلِيتْ لحومُهما ورَمَت عظامُهما[(١)] .

ذكر نبوّة آلْيَسَع عليه السلام

قال أبو إسحاق — رحمه الله تعالى — : ولمّا رفع الله تعالى إلياسَ — عليه السلام — نبّأ آلْيَسَعَ وبعثه رسولا إلى بنى إسرائيل ، وأوحَى إليه وأيّده بما أيّد به عبدَه إلياس ؛ فآمنتْ به بنو إسرائيل ، وكانوا يعظّمونه وينتهُون إلى أمره ، وحُكْمُ الله تعالى قائمٌ فيهم إلى أن فارقهم آلْيَسَع عليه السلام .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — بسند رفعه إلى عبد العزيز بن أبى رَوّاد قال : إلياسُ والخَضِرُ — عليهما السلام — يصومان شهرَ رمضانَ ببيت المقدس ، ويوافيان الموسمَ فى كلّ عام .

وروى بسند رفعه إلى زيدٍ مَوْلَى عَوْن الطُّفَاوِىّ[(٢)] عن رجل من أهل عَسْقلان أنّه كان يمشى بالأُرْدُنّ نصفَ النهار ، فرأى رجلا فقال له : يا عبد الله ، من أنت؟ قال : فجعل لا يكلّمنى . فقلتُ : ياعبد الله ، من أنت ؟ قال : أنا إلياس . قال : فوقعتْ علىّ رِعْدة ، فقلتُ : أُدعُ اللهَ يَرفع عنّى ما أجد حتى أفهمَ حديثَك وأَعقِلَ عنك . قال : فدعا لى بثمانِ دَعَواتٍ : يا برّ ، يا رحيم ، يا حنّان ، يا منّان ، يا حىّ ، ياقيوم ، ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما . قال : فرفع الله عنّى ما كنتُ أجد ، فوضع كفّه بين كَتِفىّ ، فوجدتُ بَرْدَها بين ثدىّ . قال فقلت : يُوحَى إليك اليوم ؟ قال : منذ بعث الله محمدًا رسولَه فإنه ليس يُوحَى إلىّ . قال قلتُ له : كم من الأنبياء اليومَ أحياء؟ قال : أربعة ، آثنان فى الأرض ، وآثنان فى السماء ، فى السماء عيسى

---

(١) رمّ العظم : بلى فهو رميم . (٢) الطفاوى (بضم الطاء) : نسبة الى طفاوة من قيس عيلان .

وإدريس ، وفى الأرض إلياس والخضر . قلتُ : كم الأبدال (١) ؟ قال : ستون رجلا ، خمسون منهم من لَدُن عَرِيش مِصر إلى شاطئ الفُرَات ، و رجلان بالمَصِّيصة (٢) ، ورجلان بعَسْقلان ، وستة فى سائر البلدان ، كلّما أذهب الله واحداً جاء بآخر [مكانه] (٣) بهم يدفع الله عن الناس [البلاء] (٣) وبهم يُمْطَرون . قلت : فالخضر أين يكون ؟ قال : فى جزائر البحر . قلتُ : فهل تلقاه ؟ قال نعم . قلت : أين ؟ قال : بالمَوْسم . قلتُ : فما يكون من حديثكما ؟ قال : يأخذ من شِعْرى وآخذ من شعْره . قال : وذلك حين كان بين مَرْوانَ بن الحَكَم وبين أهل الشأم قتال . قال : فقلتُ : ما تقول فى مَرْوانَ بنِ الحَكَم ؟ قال : ما تصنع به ! [رجلٌ جبّار] (٣) عاتٍ على الله — عزّ وجلّ — القاتل والمقتول والشاهد فى النار .

(١) الأبدال : قوم من الصالحين لاتخلو الدنيا منهم ، بهم يقيم الله عز وجل الأرض . قال ابن دريد : هم سبعون رجلا فيما زعموا لا تخلو منهم الأرض ؛ أربعون رجلا منهم بالشام وثلاثون بغيرها . قال غيره : لا يموت أحدهم إلا قام بدله آخر من سائر الناس . ونقل المناوى عن أبى البقاء قال : « كأنهم أرادوا أبدال الأنبياء وخلفاءهم ، وهم عند القوم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون ، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة ، لكل بدل إقليم فيه ولايته ؛ منهم واحد على قدم الخليل وله الإقليم الأول ، والثانى على قدم الكليم ، والثالث على قدم هارون ، والرابع على قدم إدريس ، والخامس على قدم يوسف ، والسادس على قدم عيسى ، والسابع على قدم آدم — عليهم السلام — على ترتيب الأقاليم ، وهم عارفون بما أودع الله فى الكواكب السيارة من الأسرار والحركات والمنازل وغيرها . ولهم من الأسماء أسماء الصفات وكل واحد بحسب ما يعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهى من الشمول والإحاطة ومنه يكون تلقيه » اه . وعلامتهم ألا يولد لهم . وقد أفردهم بالتصنيف جماعة منهم السخاوى والجلال السيوطى وغير واحد . وللعزّ بن عبد السلام رسالة فى الرد على من يقول بوجودهم وأقام النكير على قولهم : بهم يحفظ الله الأرض . (راجع شرح القاموس للزبيدى فى مادة بدل) .

(٢) المصيصة (بالفتح ثم الكسر والتشديد و ياء ساكنة وصاد أخرى) : مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية و بلاد الروم تقارب طرسوس . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) الزيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

قال قلت : فإنى قد شهِدتُ فلم أطعُن برمح ولم أرمِ بسهم ولم أضرب بسيف، وأنا أستغفر الله — عزّ وجلّ — أن أعود إلى ذلك المقام أو مثله أبدا . قال : أحسنتَ، هكذا فكن .

قال : فإنى وإيّاه قاعدان إذ وُضِع بين يديه رغيفان أشدّ بياضا من الثلج ، أكلتُ أنا وهو رغيفا وبعضَ آخَر ثم رُفع، فما رأيتُ أحداً وضعه ولا أحدا رفعه .

قال : وله ناقة ترعى فى وادى الأُرْدُنّ، فرفع رأسه إليها، فما دعاها حتى جاءت فبَرَكَتْ بين يديه فركبها. قلتُ: أُريد أن أصحبك . قال : إنك لا تقدِر على صُحبتى. قلتُ : إنى خِلْوٌ مالى زوجة ولا عيال . قال : تَزَوَّجْ ، وإيّاكَ والنساءَ الأربعَ ، إيّاك والناشِزَ[1] ، والمختلِعةَ[2] ، والملاعنة[3] ، والمبارئة[4] ، وتزوّج ما بدا لك من النساء .

قال : قلت : فإنى أحبّ لقاءك . قال : إذا رأيتنى فقد رأيتنى، ثم قال : إنى أريد أن أعتكف فى بيت المقدس فى شهر رمضان . قال : ثم حالت بينى وبينه شجرة، فوالله ما أدرى كيف ذهب . ١١٨/١١

فهذا ما أورده فى خبر إلياس واليسع — عليهما السلام — . والله أعلم .

---

(١) الناشز : المرأة التى تكره زوجها وتبغضه وتستعصى عليه فيضربها ويجفوها .

(٢) المختلعة : المرأة التى تبذل مالا لزوجها ليطلقها .

(٣) الملاعنة : المرأة التى يرميها زوجها برجل أنه زنى بها ، فالإمام يلاعن بينهما ، ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول : أشهد بالله أنها زنت بفلان وإنه لصادق فيما رماها به . فإذا قال ذلك أربع مرات قال فى الخامسة : وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى . ثم تقام المرأة فتقول أيضا أربع مرات : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى، ثم تقول فى الخامسة : وعلىّ غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا فعلت ذلك بانت منه ولم تحلّ له أبدا، وإن كانت حاملا فجاءت بولد فهو ولدها، ولا يلحق بالزوج لأن السنة تنفيه عنه .

(٤) المبارئة : المرأة التى تبرئ الرجل من حقوقها للمفارقة .

ذكر خبر عَيْلى[1] وأشمويل[2] وما يتّصل بذلك

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — قال وهبُ بنُ مُنَبِّه : لمّا قبض الله تعالى اليَسَعَ — عليه السلام — خَلَفتْ فى بنى إسرائيل الخلوف ، وعَظُمتْ فيهم الخطايا ، وكان عندهم التابوتُ يتوارثونه صاغِرًا عن كابرٍ ، فيه السَّكينة[3] وبقية[4] ممّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون ، وكانوا لا يلقاهم عدوّ فيقدِّمون التابوتَ إلّا هَزَم الله ذلك العدوّ . وكان الله — تبارك وتعالى — قد بارك لهم فى جَبَلهم ، لا يدخله عدوّ ، ولا يحتاجون معه إلى غيره . وكان أحدهم — فيما يذكرون — يضع الترابَ على الصَّخْرة ثم ينثر فيه الحَبّ فيُخرِج اللهُ تعالى له ما يأكله سنةً هو وعيالُه . ويكون لأحدهم الزيتونةُ فيعتصر منها ما يأكله سنةً هو وعيالُه . فلمّا عَظُمتْ أحداثهم وكثرتْ ذنوبهم وتركوا عهدَ الله إليهم سلّط الله عليهم العمالقة — وهم قوم [كانوا][5] يسكنون غَزّةَ وعَسْقلان وساحلَ بحر الروم ما بين مصرَ وفِلَسْطين — وكان جالوت الملك منهم فظهروا على بنى إسرائيل ، وغلبوهم على كثير من أرضهم وسبَوْا كثيرًا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما ، فضربوا عليهم الجزية ،

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١ من هذا الجزء .

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٧ وما بعدها) « أشمويل » و « شمويل » . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٤٥) : « صموئيل » .

(٣) ورد فى الجزء الثالث من تفسير القرطبى (ص ٢٤٨ — ٢٤٩) أقوال المفسرين فى السكينة واختلافهم فى تفسيرها ثم قال المؤلف : قال ابن عطية : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن الى ذلك وتأنس به وتقوى . وسيذكر المؤلف تفسيرها فيما بعد .

(٤) ذكر القرطبى فى الجزء الثالث من تفسيره (ص ٢٤٩ — ٢٥٠) أقوال المفسرين أيضا فى البقية واختلافهم فى تفسيرها ثم قال : وقال أبو صالح : البقية : عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة . وسيذكر المؤلف تفسيرها فيما بعد .

(٥) زيادة عن الثعلبى .

وأخذوا تَوْراتهم ، ومكثوا على ٱضطراب من أمرهم وٱختلاف من حالهم يتمادَوْن أحيانا فى غيّهم وضلالتهم ، فسلّط الله عليهم مَن ينتقم منهم ليراجعوا التوبة ، حتى بعث الله تعالى فيهم طالوتَ مِلكا . وكانت مدّةُ ما بين وفاة يُوشَع بن نُون إلى نبوّة أشمويل أربعمائة سنة وستّين سنة ، وكان آخرَ ملوكهم فى هذه المدّة رجل يقال له «إيلاف» وكان يُدبّر أمرهم فى ملكه شيخ يقال له «عَيْلَى» الكاهن ، وكان حِبْرَهم وصاحبَ قُرْبانهم ، وكانوا ينتهون إلى رأيه .

ذكر ٱبتداء أمر أشمويل وكيف كانت نبوّته

قال الثعلبىّ قال وهب : كان لأبى أشمويل ٱمرأتان ، إحداهما عجوزٌ عاقرٌ لم تَلِد ، وهى أمّ أشمويل ، والأخرى وَلدتْ عشرةَ أولاد . وكان لبنى إسرائيل عيدٌ من أعيادهم قد قاموا بشرائطه وقرّبوا فيه القَرابين ، فحضر أبو أشمويل وٱمرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد ، فلمّا قرّبوا قُربانهم أخذ كلّ واحد منهم نصيبه ، فكان لأمّ الأولاد عشرةُ أنصباء ، وللعجوز نصيبٌ واحد ، فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغى ، فقالت أمّ الأولاد [للعجوز](1) : الحمد لله الذى كثّرنى بولدى وقلّلك ، فوَجَمَتْ العجوز وُجوما شديدًا . فلمّا كان عند السَّحَر عَمَدت العجوزُ إلى متعبَّدها فقالت : اللهمّ بعِلْمِك وسَمْعِك كانت مقالةُ صاحبتى وٱستطالتُها علىّ بنعمتك التى أنعمتَ عليها ، وأنت ٱبتدأتَها بالنعمة والإحسان ، فٱرحَمْ ضَعْفى وٱرحمنى وٱرزقنى ولدًا تقيّا رضيّا أجعله لك ذُخْرا فى مسجد من مساجدك ، يعبدك ولا يكفرك ، ويطيعك ولا يجحدك . وإذا رحِمتَ ضَعفى ومسكنتى وأجبتَ دعوتى ، فٱجعل لها علامةً أعرفها بها . فلمّا أصبحتْ حاضت وكانت من قبلُ قد يئست من الحيض ، فألمّ بها زوجها ، فحملتْ وكتمتْ أمرَها ، ولقِىَ بنو إسرائيل

(1) زيادة عن الثعلبى .

فى ذلك الوقت من عدوهم بلاء وشدّة ، ولم يكن فى بنى إسرائيل مَن يدبّر أمرهم ، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبيّا يشير عليهم ويجاهدون عدوهم معه ، وكان سِبْط النبوّة قد هَلَك ، فلم يبق منهم إلّا هذه المرأة الحُبلى ؛ فلمّا علموا بحَبَلها تعجّبوا وقالوا : إنما حَبِلتْ بنبيّ ، لأن الآيسات لا يَحبَلن إلّا بالأنبياء ، فأخذوها وحبسوها فى بيتٍ رَهْبَةَ أن تَلِدَ جاريةً فتُبدِلَ بها غلاما ، لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها ، فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها غلاما ، فولدتْ غلاما فسمّته « أشمويل » وقيل فيه « شِمْعون » . وتقول : سمع الله دعائى . ١١٩/١١

واختُلِف فى نسبه ، فالذى يقول اسمه شِمْعون يقول : هو شمْعون بنُ صفيّة بن علقمة بن أبى ياسف بن قارون بن يَصْهُر بن قاهث بن لاوِى بن يعقوب .

وقال سائر المفسّرين : هو أشمويل ، وهو بالعربية إسماعيل بن بالِى[1] ابن علقمة بن حام بن النهر بن بهر بن صوف بن علقمة بن ماحت بن عموصا ابن عَزْرَيَا .

قال مُقاتل : هو من نسل هارون — عليه السلام — . وقال مجاهد : أشمويل ابن هلقانا . والله أعلم .

قالوا : فلمّا كَبِر الغلام أسلمتْه أمّه يتعلّم التوراة فى بيت المقدس وكَفَله عَيْلَى ، فلمّا بلغ أشمويلُ الوقتَ الذى يبعثه الله — عزّ وجلّ — نبيّا أتاه جبريل

(١) ورد نسب أشمويل فى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٧ من القسم الأوّل) هكذا : « شمويل بن بالى بن علقمة بن برخام بن أليهو بن تهو بن صوف » . وورد فى قصص الأنبياء للثعلبى هكذا : « شمويل وهو بالعبرانية إسماعيل بن بالى بن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمة صاحب عموصا ابن عزريا » . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٤٤) : « صموئيل بن ألقانة بن يروحام بن أليهو ابن توجو بن صوف الأفرائيمى » .

وهو نائم إلى جَنْب عَيْلَى الكاهن، وعَيْلَى لا يأمن عليه أحدًا، فدعاه بلحن الشيخ : يا أشمويل ، فقام فَزِعا إلى الشيخ فقال : يا أبتاه ، دعوتَنى ؟ فكره الشيخُ أن يقول لا فيفزع الغلام ؛ فقال : يا بُنىّ ارجِعْ . فرجع فنام ، ثم دعاه ثانيا ، فأتاه فقال : أدعوتَنى ؟ فقال الشيخ : ما شأنُك ؟ فقال : أمَا دعوتَنى ؟ قال : لا . قال أشمويل : فإنى سمعتُ صوتا فى البيت ، وليس فيه غيرُنا . فقال : ارجِعْ فتوضّأْ وصلِّ، فإذا دُعِيتَ بآسمك فأجِب وقل : لَبَّيك، أنا طَوْعُك، فمُرْنى أفعلْ ما تأمرنى . ففعل الغلام ذلك ، فنودى الثالثة ، فقال : لَبَّيك أنا طوعُك ، فمُرْنى أفعلْ ما تأمرنى . فظهر له جبريل وقال : اذهبْ إلى قومك فبلِّغهم رسالة ربّك ، فإنّ الله تعالى قد بعثك إليهم نبيّا ، وإن الله تعالى ذَرَاك يَوْمَ ذراك [للنبوة][1] ورَحِمَ وَحْدَةَ أمِّك فى ذلك اليوم الذى تاهت عليها ضَرَّتُها ، ولا أحد اليوم أشدُّ عَضُدًا[2] ولا أطيبُ وِلادةً منك ، فآنطلِقْ إلى عَيْلَى [فقل له][1] إنك كنتَ خليفة آلله على عباده، فبقيتَ زمانا تأمر بأمره، وحاكما بكتابه ، وحافظا لحدوده ؛ فلمّا آمتدّ سنّك، ودقّ عَظمُك، وذهبتْ قوّتك، وفنِىَ عمرُك ، وقَرُب أجلُك ؛ وصرت أفقرَ ما تكون إلى الله تعالى ، ولم تزل فقيرًا إليه ، عَطَّلتَ الحدود ، وعَمِلْتَ بالرُّشَا ، وأضعتَ حكومات الخَلْق، حتى عزّ الباطلُ وأهلُه، وذَلّ الحقُّ وحِزْبُه، وظهر المكر، وخفِىَ المعروف، وفشا الكذب ، وقلّ الصدق، وما آللهُ عاهَدَك على هذا. ولا عليه آستخلَفَك ، فبئس ما خَتَمتَ به عَمَلَك، والله لا يحبّ الخائنين . فبلِّغه هذه الرسالة، وقمْ بعده بالخلافة ؛ فلمّا بلَّغ أشمويلُ عَيْلَى هذه الرسالة فَزِع وجَزِع .

(١) التكملة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء : «فلا أحد اليوم أشدّ منها عضدا ولا ملاذا» .

قالوا : وكان السبب فيما عاتب الله تعالى عبدَه عَيْلَى ووبّخه عليه أنه كان له ابنان شابّان، فأحدثا شيئا فى القُرْبان لم يكن فيه، وذلك أنه كان فى مِسْوَاط[1] القُرْبان الذى يَسُوطونه به كُلّابان[2]، فما أخرجا كان للكاهن الذى كان يَسُوطه، فجعل ابناه لهما كلاليب، فأوحى الله تعالى إلى أشمويل : انطلقْ إلى عَيْلَى فقل له : منعَك حبُّ الولد أن تزجر ابنيك أن يُحدِثا فى قُرْبانى وأن يعصيانى، فلأنزعنّ الكَهانة منك ومن ولديك ولأُهلِكَنّك و إياهما . فأخبر أشمويلُ عَيْلَى بذلك، ففزِع فزعا شديدا وسار إليهم عدوّهم، فأمر عَيْلَى ابنيه أن يَخْرجا بالناس و يقاتلا ذلك العدوّ، فخرجا وأخرجا معهما التابوت، فجعل عَيْلَى يتوقّع الخبر؛ فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيّه فأخبره أنّ الناس قد انهزموا، وأن ابنيه قُتِلا . قال : فما فُعِل بالتابوت ؟ قال : ذهب به العدوّ . فشَهَق عَيْلَى ووقع ميّتا . فلمّا بلغ مِلكَهم إيلافَ أن التابوت استُلِب، وأن عَيْلَى قد مات كمدًا مالت عنقه فمات كمدا .

قالوا : فلمّا ماتا وأُخذ التابوت مَرِج[3] أمرُ بنى إسرائيل واجترأ عليهم عدوّهم فقالوا لأشمويل ما أخبر الله تعالى به عنهم فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[4] الآيات . وذلك بعد مادبّر أشمويلُ أمرَهم عشر سنين .

---

(١) المسواط (كمحراب) : خشبة يحرّك بها ما فى القدر ليختلط .

(٢) هذه عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء . والذى فى الأصل : « كان فى مسواط للقربان الذى يسوط به كلابين فما أخرجا كان للكاهن الذى يسوطه » .

(٣) مرج، أى اختلط واضطرب وفسد .

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

وإنما كان قِوَامُ أمرِ بنى إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعةِ الملوك أنبياءَهم، وكان الملِك هو الذى يسير بالجنود ويقاتِل العدوّ، والنبيّ يقيم له أمرَه ويُشير عليه ويُرشده، ويأتيه بالخبر من الله تعالى .

قال وهب : بعث الله تعالى أشمويلَ نبيًّا ، فلبثوا أربعين سنةً بأحسن حال، وكان من أمر جالُوتَ الملِكِ والعَمَالِقةِ ما كان، فسألوه أن يَبعث لهم ملِكا؛ فقال لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ . فأجابوه بما قصّ الله تعالى فى كتابه : ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1] الآية .

قال : فلمّا أخذ أشمويلُ ميثاقَهم فى الطاعة والجهاد سأل اللهَ تعالى أن يَبعث لهم ملِكا . والله أعلم بالصواب .

ذكر خبر الملك طالوتَ وإتيانِ التابوت وخبر جالوت

١٢٠/١١

قالوا : ولما سألوا أشمويلَ أن يبعث لهم ملِكا ، سأل الله تعالى فى ذلك ، فأُتِىَ بعصًا وقَرْنٍ[2] فيه دُهن القُدْس، وقيل له : إنّ صاحبكم الذى يكون مَلِكا طوله طول هذه العصا؛ وقيل له : أنظر إلى القَرن الذى فيه الدُّهن فإذا دَخَل عليك رجل فنَشّ[3] الدُّهن الذى فى القَرن فهو مَلِكُ بنى إسرائيل، فادهُن به رأسه، وملِّكه عليهم؛ فقاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مِثلَها؛ وكان طالوت — واسمه بالسُّريانيّة «شارك»[4]

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

(٢) القرن (بفتح القاف والراء المهملة) : الجعبة ما كانت .

(٣) نش الدهن : صوّت عند الغليان .

(٤) فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة «شازك» بالزاى المعجمة والكاف . وفى المطبوعة : «سادل» بالدال المهملة واللام .

وبالعِبْرانيّة شاوُل[1] بن قيس بن أنيال بن ضرار بن أحرب بن أفيح بن آيش بن بَنْيامين ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — رجلا دبّاغا يعمل الأَدَم . قال وهب وعِكْرِمة والسُّدّىّ : كان سقّاء يَسقى على حمار من النِّيل، فضلّ حمارُه، فخرج فى طلبه. وقال وهب : بل ضلّت حُمُر لأبى طالوت، فأرسله وغلاما له يطلبانها، فمرّا ببيت أشمويل فقال الغلام لطالوت : لو دخلنا على هذا النبىّ فسألناه عن أمرِ حُمُرنا ليُرشدَنا ويدعوَ لنا بخير . فقال نعم . فدخلا عليه، فبينما هما عنده يذكران شأن الحُمُر إذ نشّ الدُّهنُ فى القَرَن فقام أشمويلُ وقاس طالوتَ بالعصا، فكانت على طوله، فقال لطالوت : قرِّب رأسك . فقرّبه فدَهنه بدُهن القُدْس، ثم قال له : أنت مَلِك بنى إسرائيل، وقد أمرنى الله تعالى أن أُملِّكك عليهم . فقال طالوت : أنا ؟ قال نعم . قال : أو ما علمتَ أن سِبْطى[2] أدنَى الأسباط فى بنى إسرائيل؟ قال بلى . قال : أفما علمت أن بيتى أدنى بيوت بنى إسرائيل؟ قال بلى . قال : فبأىّ آية أكون ملِكا ؟ قال : بآيةِ أنك ترجع وقد وَجد أبوك حُمُرَه . فكان كذلك .

ثم قال لبنى إسرائيل : ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ[3] ﴾ ؛ وإنما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سِبْطان : سِبْط نبوّة، وسِبْط مملكة ؛ فكان سِبْطُ النبوّة سِبْطَ لاوِى بن يعقوب،

(١) ورد هذا النسب فى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوع هكذا : «شاول بن قيس بن أفيل بن صاروا ابن نحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام» وورد فى النسخة المخطوطة منه هكذا : «شامل بن قيس بن اينال بن ضرار بن يحرب بن أفيح بن آش بن بنيامين» وورد فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٥٧) هكذا : «شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورت ابن أفيح ابن رجل من بنيامين» .

(٢) السبط من اليهود كالقبيلة من العرب .

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

منهم موسى وهارون — عليهما السلام — وسِبْطُ المملكة سِبْطُ يهوذَا بن يعقوب، منهم سليمان بن داود ؛ ولم يكن طالوت من سِبْط النبوّة ولا المملكة ، وإنما كان من سِبْط بَنْيامين بن يعقوب ، وكانوا عَمِلوا ذنبا عظيما ؛ كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا، فغضب الله تعالى عليهم، ونزع النبوّة والمملكة منهم، فأنكر بنو إسرائيل ذلك وقالوا : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ ﴾ قال أشمويل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً ﴾ . أى فضيلة وسعة ﴿ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ وذلك أنه كان أعلمَ بنى إسرائيل فى وقته . وقال الكلبيّ : « فِي ٱلْعِلْمِ » بالحرب . ﴿ وَٱلْجِسْمِ ﴾ يعنى بالطُّول والقوّة ؛ وكان يفوق الناسَ رأسه ومَنْكِبَيْه ؛ وإنما سُمِّىَ طالوتَ لطُوله . وقال ٱبن كَيْسان : للجمال، وكان أجملَ رجل فى بنى إسرائيل وأعلمَهم ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] . قالوا : فما آية ذلك ؟ ﴿ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

ذكر قصة التابوت وصفته وما قيل فيه

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — : قال أهل التفسير وأصحابُ الأخبار : إنّ ٱلله تعالى أهبط تابوتا على آدمُ حين أُهْبِط آدمُ إلى الأرض ، فيه صُوَر الأنبياء من أولاده، وفيه بيوت بعدد الرُّسُل منهم ، وآخرُ البيوت بيت محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو من ياقوتة حمراء، وإذا هو قائم يصلّى وعن يمينه الكَهْلُ المطيع،

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٨ .

مكتوبٌ على جبينه : هذا أوّل من يتّبعه من أمّته « أبو بكر الصدّيق » وعن يساره «الفاروق»، مكتوبٌ على جبينه: قِرْن من حديد لا تأخذه فى الله لومةُ لائم؛ ومن ورائه ذو النُّورَين آخِذٌ بحُجْزته[1]، مكتوبٌ على جبينه : بارٌّ من البَرَرَة . ومن بين يديه «علىّ بن أبى طالب» شاهرٌ سيفَه على عاتقه، مكتوبٌ على جبينه: هذا أخوه وابنُ عمه المؤيّد بالنصر من عند الله . وحوله عمومته والخلفاء والنُّقَبَاء والكَبْكَبَة[2] الخَضْراء — وهم أنصار الله وأنصار رسوله — نورُ حوافِرِ دوابِّهم يومَ القيامة مِثْلُ نور الشمس فى الدنيا . ١٢١/١١

وكان التابوت نحوًا من ثلاثة أذرع فى ذراعين، وكان من عود الشِّمْشار[3] الذى تتّخذ منه الأمشاط، مموّها بالذهب، فكان عند آدم إلى أن مات ، ثم عند شيث، ثم توارثه أولادُ آدم إلى أن بلغ إبراهيمَ — عليه السلام — فلمّا مات كان عند إسماعيل ، ثم كان عند قَيْذَار بن إسماعيل، فتنازعه ولدُ إسحاق وقالوا : إنّ النبوّة قد صُرفتْ عنكم ، وليس لكم إلّا هذا النور الواحد ، [يعنى نور محمد صلى الله عليه وسلم][4] فأعْطِنا التابوت . فكان قَيْذَار يمتنع عليهم ويقول: إنه وصيّة لأبى، ولا أعطيه أحدًا من العالمين .

قال : فذهب ذات يوم يفتح التابوت ، فتعسّر عليه فتحُه، فناداه منادٍ من السماء : مهلا يا قَيْذار ، فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل، إنه وصيّة نبىّ،

(١) أخذ بحجزة فلان : استظهر به واستنصر .

(٢) الكبكبة : الجماعة .

(٣) الشمشار : شجر البقس، يشبه ورقه ورق الآس، وعوده أصفر صلب، وله حب أسود . منابته ببلاد الروم ، تتخذ منه المغالق والأبواب لمتانته وصلابته . وفى القاموس : «الشمشاذ» بالذال المعجمة (راجع مفردات ابن البيطار وشرح القاموس مادة بقس) .

(٤) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

لا يفتحه إلا نبيّ ، فأدفعه لابن عمّك يعقوبَ إسرائيلِ الله؛ فحمل قَيْذار التابوتَ على عنقه وخرج يريد أرض كَنْعان وكان بها يعقوب — عليه السلام — فلمّا قَرُب منه صَرّ التابوتُ صَرّةً سمعها يعقوب، فقال لبنيه : أُقسم بالله لقد جاءكم قَيْذار بالتابوت فقوموا نحوه . فقام يعقوب وأولاده جميعا إليه، فلمّا نظر يعقوب إلى قَيْذار استعبَرَ باكيا وقال : يا قَيْذَار ، مالى أراك متغيّرا وقوّتك ضعيفة، أرهقكَ عدوّ أم أتيتَ معصيةً بعد أبيك إسماعيل ؟ قال : ما رَهِقَنى عدوّ ولا أتيتُ معصية ولكن نُقِل من ظهرى نورُ محمد، فلذلك تغيّر لَوْنى وضَعُف رُكْنى، قال : أفى بنات إسحاق؟ قال : لا، فى العربيّة الجُرْهُمِيّة، وهى العامريّة، فقال يعقوب : بَخٍ بَخٍ! شرفا لمحمد، لم يكن الله — عزّ وجل — لِيُجْرِيَه إلا فى العربيّات الطاهرات يا قيذار، وأنا مُبشّرك ببشارة. قال: وما هى؟ قال: اعلم أن العامريّة قد ولدت لك البارحة غلاما . قال قيذار : وما علّمك يا ابن عمّى وأنت بأرض الشأم وهى بأرض الحَرَم؟ قال يعقوب : علمتُ ذلك لأنى رأيتُ أبوابَ السماء قد فُتحت ، ورأيتُ نورًا كالقمر الممدودِ بين السماء والأرض ، ورأيتُ الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة ، فعلمتُ أنّ ذلك من أجل محمد — صلى الله عليه وسلّم — فسلم قيذَارُ التابوتَ إلى يعقوب ورجع إلى أهله ، فوجدها قد ولدت غلاما، فسمّاه « حَمَلا » وفيه نور محمد صلى الله عليه وسلم .

قالوا : وكان التابوت فى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى — عليه السلام — فكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه، وكان عنده إلى أن مات، ثم تداوله أنبياء بنى إسرائيل إلى وقت أشمويل، وكان فيه ما ذكر الله تعالى ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

قال الثعلبيّ: وٱختلفوا فى السكينة ما هى؟ فقال علىّ بن أبى طالب: السكينة ريحٌ نَجُوج[1] هفّافة لها رأسان [كرأس الهرّة][2] ووجه كوجه الإنسان. وقال مجاهد: رأس كرأس الهِرّة، وذَنَب كذَنَب الهرّة وجناحان. وقال ٱبن إسحاق عن وهب عن بعض علماء بنى إسرائيل: السكينة، رأس هرّة ميّتة كانت إذا صرَخت فى التابوت بصُراخ هِرّ أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

وقال السُّدّىّ عن أبى مالك عن ٱبن عبّاس: هى طَسْت من ذهب من الجنة كانت تُغسَل فيه قلوب الأنبياء. وقال بكّار بن عبد الله عن وهب: رُوحٌ من الله تتكلم، إذا ٱختلفوا فى شىء تخبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبى رَبَاح: هى ما يَعرِفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال قَتَادة والكلبىّ: فَعِيلة من السكون أى طُمَأنينة من ربكم، وفى أىّ مكان كان التابوت ٱطمأنّوا ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وآلُ هَارُونَ﴾.

قالوا: كان فيه عصا موسى ورُضاض[3] الألواح، وذلك أنّ موسى لمّا ألقى الألواح تكسرتْ فوقع بعضها، وجمع ما بقى فجعله فى التابوت. وكان فيه أيضا لَوْحان من التوراة، وقَفِيزٌ من المنّ الذى كان ينزل عليهم، ونَعلَا موسى، وعِمامةُ هارون وعصاه. وكان التابوت عند بنى إسرائيل؛ وكانوا إذا ٱختلفوا فى شىء تكلّم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم يستفتحون[4] به على عدوّهم، فلمّا عصَوْا وأفسَدوا سلّط الله — عزّ وجلّ — عليهم العمالقةَ فاستلبوا التابوت كما تقدّم.

(١) ريح نجوج: تخج فى هبوبها، أى تلتوى.

(٢) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى.

(٣) رضاض الشىء (بضادين معجمتين وضم الراء المهملة): دقاق الشىء وفتاته، أى ما رضّ منه.

(٤) استفتح فلان: طلب الفتح وٱستنصر، ومنه قوله تعالى: «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» أى إن طلبتم الظفر.

ذكر إتيان التابوت إلى بنى إسرائيل وسبب عَوْده

١٢٢/١١ قال أبو إسحاق : لمّا سَلَب العمالقةُ قومَ جالوتَ التابوت كان جالوتُ صغيراً، فأَتَوْا بالتابوت قرية من قُرى فِلَسْطين يقال لها أَشدود[(١)]، وجعلوه فى بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغد والصنم تحته، فأخذوه ووضعوه فوقه، وسمّروا قدمَى الصنم على التابوت، فأصبحوا من الغد وقد قُطعتْ يدُ الصنم ورِجلاه، وأصبح مُلقًى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم كلُّها منكّسة، فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه فى ناحيــة من مدينتهم، فأخذ أهلَ تلك الناحيــة وجعٌ فى أعناقهــم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهــم لبعض : أليس قــد علمتم أن إلٰه بنى إسرائيل لا يقوم له شىء، فأخرِجوه عن مدينتكم، فأخرجوه إلى قرية أخرى، فبعث الله — عزّ وجلّ — على تلك القرية فأرا، يبيت[(٢)] الرجل صحيحا فيَقْرِضــه الفأر فيصبح ميّتــا قد أكلت ما فى جوفــه، فأخرجوه منهــا إلى الصحراء ودفنوه فى مَخْرَأةٍ لهم، فكان كلُّ من تبرَّز هناك أخذه الباسُور والقُولَنْج[(٣)]، فتحيَّروا، فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سَبْيِ بنى إسرائيل من أولاد الأنبياء : لا تزالون تَرَون ما تكرهون ما دام هــذا التابوتُ فيــكم، فأَخرِجوه عنكم، فأَتَوْا بعَجَلةٍ بإشارةِ تلك المرأة فحملوا التابوتَ عليهــا، ثم علّقوها على ثورين، ثم ضربوا جُنُوبَهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكّل الله تعالى بهما أربعةً من الملائكة يسوقونهما، فلم يمرّ التابوت

(١) كذا فى قاموس العهــد الجديد للدكتور جورج بوست (ج ١ ص ١٠١، ٢٧٦ طبع بيروت سنة ١٨٩٤) وهى إحدى مدن الفلسطينيين الخمس المتحالفة وقد خرجت فى نصيب يهوذا، وهى المركز الخصوصى لعبادة داجون، وأما موقعها فعلى ٣ أميال من البحر المتوسط بين غزة ويافا، وهى الآن قرية حقيرة تسمى أسدود وفى جوارها خرائب كثيرة . وفى الأصل : « أردود » .

(٢) هذه عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء . وعبارة الأصل محرفة .

(٣) القولنج : مرض معوىّ مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح، معرّب .

بشيء من الأرض إلّا كان مقدّسا ، فأقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبنى إسرائيل فكسرا بُرَّتهما وقطعا حبالها، ووضعا التابوت فيها ورجعا إلى أرضهما، فلم يَرُع بنى إسرائيل إلّا التابوت، فكبّروا وحمدوا الله تعالى .

وقال الكِسَائىّ : إنهم لمّا دفنوه إلى جنب الحَشّ (١) وأخذهم الباسور أعادوه إلى الكنيسة . فغزاهم بعض الفراعنة فهزمهم ودخل الكنيسة ، وأخذوا التابوت وهمّوا بفتحه فلم يقدروا فهموا (٢) بكسره فلم يقدروا، فتركوه ؛ فكان القوم يتشاءمون به لما كان يصيبهم من البلاء، فحوّلوه إلى خمس مدائن، فقال أهل المدينة الخامسة : إن هذا البلاء يصيبكم بسبب هذا التابوت فأَخْرَجوه . وساق نحو ما تقدّم .

وقوله تعالى: ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى تَسُوقه. فعند ذلك أقرّوا بمُلك طالوت.

وقال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعوه فى دار طالوت، فأقرّوا بمُلكه . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

قال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — إنّ التابوت وعصا موسى فى بحيرة طَبَرِيّة (٤)، وإنهما يخرجان يوم القيامة . وٱلله أعلم .

---

(١) الحش (بالتثليث) : البستان ، وقيل : النخل المجتمع ، ويكنى به عن بيت الخلا لما كان من عاداتهم التغوّط فى البساتين .

(٢) هذه عبارة الكسائىّ فى قصص الأنبياء . وفى الأصلين : « فهم بكسره فلم يقدر » .

(٣) سورة آل عمران آية ٤٩ .

(٤) بحيرة طبرية ، هى كالبركة تحيط بها الجبال ويصب فيها فضلات أنهر كثيرة تجىء من جهة بانياس والساحل والأردن الأكبر ، وينفصل منها نهر عظيم فيسقى أرض الأردن الأصغر ، وهو بلاد الغور ، ويصب فى البحيرة المنتنة قرب أريحا . ومدينة طبرية فى لحف الجبل مشرفة على البحيرة ، ماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة ثقيل . وفى وسط هذه البحيرة حجر ناتئ يزعمون أنه قبر سليمان بن داود عليه السلام . وبين البحيرة وبيت المقدس نحو من خمسين ميلا . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

ذكر مسير طالوت بالجنود وخبرِ النهر الذى ٱبتُلُوا به

قالوا : فلمّا أقرّوا بمُلك طالوت سألوه أن يغزو بهم، وهم يومئذ سبعون ألفَ مُقاتل. وقيل: ثمانون ألفًا لم يتخلّف عنه إلّا كبيرٌ لهَرَمه أو مريضٌ لمرضه أو ضريرٌ لضُرّه أو معذورٌ لعُذره ؛ وذلك أنهم لما رأَوُا التابوت قالوا : قد أتانا التابوت، وهو النصر لا شكّ فيه؛ فسارِعوا إلى الجهاد، فقال طالوت : لا حاجة لى فى كل ما أرى ، لا يخرج معى رجلٌ بنَى بناءً لم يفرُغ منه ، ولا صاحبُ تجارةٍ مشتغِلٌ بها، ولا رجلٌ عليه دَيْن، ولا رجلٌ تزوّج بامرأة ولم يَبْنِ بها؛ ولا يَتْبَعُنى إلّا الشابّ النشيط الفارِع[1] . فٱجتمع له ثمانون ألفا على شرطه — وكانوا فى حرّ شديد — فشكَوْا قلّة المياه فيما بينهم وبين عدوّهم، وقالوا : إنّ المياه لا تحملنا، فٱدع الله تعالى أن يُجرىَ لنا نهرا . فقال لهم طالوت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ﴾ أى من أهل دِينى وطاعتى؛ ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ ؛ ثم ٱستثنى فقال : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ .

قال الكِسَائىّ : لمّا سألوه أن يُجرىَ لهم نهرا قال : أَفعل — إن شاء الله — وسار بهم حتى إذا كانوا فى بَرّيّة وفقدوا الماء وأَجْهدهم العطش ، أتَوه، فدعا أن يجرىَ ٱلله تعالى لهم نهرا ؛ فأَوحَى الله إليه ما أَخبر به فى كتابه ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾[2] الآية . قال : وهو نهر الأُرْدُنّ من بلاد فِلَسْطين. وقال الثعلبىّ : قال ٱبن عبّاس والسُّدّىّ : هو نهر فلسطين . وقال قَتادة والربيع : هو نهرٌ بين الأُرْدُنّ وفلسطينَ، عَذْب. قال الكِسَائىّ : قالوا : وما تُغْنِى عنّا الغُرْفة ثم عَرَض لهم النهر فٱنهمكوا فى شربه . قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ

١٢٣/١١

(١) الفارع : المرتفع المتّئ الحسن .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ قال : واختلفوا فى القليل الذين لم يشربوا؛ فقال السُّدّىّ : كانوا أربعة آلاف . وقال غيره : كانوا ثلاثمائة وبضعةَ عشر ؛ وهو الصحيح، لقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأهل بدر : " أنتم اليوم على عدّة أصحابِ طالوتَ حين عبروا النهر " وكان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر .

٥ قالوا : فلم يزد هؤلاء على الغُرفة فكانت كفايةً لهم ولدوابّهم؛ فمن اغترف غُرفة ، كما أمر الله، نوّر الله قلبَه وصحّ إيمانُه، وعبر النهرَ سالما . والذين شربوا وخالفوا أمر الله — عزّ وجل — اسودّت شفاههم وغلبهم العطش فلم يَرْوَوْا وبقوا على شطّ النهر وجَبُنوا عن لقاء العدوّ؛ فقال طالوت للذين عصَوا ربهم : ارجعوا فلا حاجة لى بكم فرجعوا . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا

١٠ الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ (١) وإنّما قال ذلك الذين عصَوْا وشربوا ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

ذكر خبر دواد حين قتل جالوت الملك

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ

١٥ جَالُوتَ ﴾ (٣) .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — : قال المفسّرون بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة : عبر النهرَ مع طالوت إيشَى أبو داود فى ثلاثة عشر ابناً له، وكان داود

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٠ .

٢٠ (٣) سورة البقرة آية ٢٥١ ، وقد وردت هذه الآية الكريمة فى الأصول قبل هذا العنوان . ووردت فى الثعلبى الذى ينقل عنه المؤلف كما أثبتناها هنا وهو الأنسب .

أصغرهم، فأتاه ذات يوم فقال: يا أبتاه، ما أرمى بقَذّافتى[1] شيئا إلّا صرعتُه. فقال: أبشر يا بُنىّ فإن الله — عزّ وجل — جعل رزقك فى قَذّافتك؛ ثم أتاه مرّة أخرى فقال: يا أبتاه، لقد دخلتُ بين الجبال فوجدتُ أسدًا رابضا، فركبتُه وأخذتُ بأُذنيه فلَم يهجنى[2]، فقال: أبشر يا بنىّ فإنّ هذا خير يريده الله بك. ثم أتاه يوما آخر فقال: يا أبتاه، إنى لأمشى بين الجبال فأسبّح فما يَبْقى جبلٌ إلّا سبّح معى. فقال: أبشر يا بنىّ فإنّ هذا خيرٌ أعطاكه الله عزّ وجل.

قالوا: فأرسل جالوتُ إلى طالوت، أن ابرُزْ إلىّ أو أبرِزْ إلىّ مَن يقاتلنى، فإن قتلنى فلكم مُلكى، وإن قتلته فلى ملككم. فشقّ ذلك على طالوت، فنادَى فى عسكره: مَن قتل جالوتَ زوّجتُه ابنتى وناصَفْتُه مُلكى. فهاب الناسُ جالوتَ فلم يجبه أحد؛ فسأل طالوتُ نبيَّهم — عليه السلام — أن يدعو، فدعا الله — عزّ وجل — فى ذلك، فأُتِى بقَرَن فيه دُهْن القدس، وتنُّورٍ من حديد، فقيل له: إنّ صاحبكم الذى يقتل جالوتَ هو الذى يوضع هذا القَرَن على رأسه فيَغْلى الدُّهن ثم يَدهُن به رأسَه ولا يسيل على وجهه، يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل فى هذا التنُّور فيملأه لا يتقلقل فيه؛ فدعا طالوتُ بنى إسرائيل، فجرَّبهم فلم يوافقه منهم أحد، فأوحَى الله — عزّ وجل — إلى نبيِّهم أن فى ولد إيشَى من يَقتُل الله به جالوت، فدعا طالوتُ إيشَى وقال له: اعرِض علىّ بَنِيك. فأخرَجَ له اثنى عشر رجلا أمثال السوارى، وفيهم رجل فارعٌ عليهم؛ فجعل يَعرضهم على القَرَن فلا يَرَى شيئا، فيقول لذلك الجسيم: ارجِع فيردّده على التنُّور. فأوحَى الله — عزّ وجل — إليه: إنّا لا نأخذ الرجال على صُوَرهم، ولكنّا نأخذهم على صلاح قلوبهم. فقال لإيشَى:

(١) القذافة: المقلاع.

(٢) لم يهجه: لم يزعجه ولم ينفره.

هل بقى لك ولدٌ غيرُهم؟ فقال لا . فقال النبىّ : ربّ إنه زعم أن لا ولد له غيرهم . فقال كذَب . فقال النبىّ : إن ربّى كذّبك . قال : صدق الله يا نبىّ الله ، إنّ لى ابنا صغيرا يقال له داود استحييتُ أن يراه الناس لقصَر قامته وحقارته ، فخلّفتُه فى الغنم يرعاها وهو فى شِعْب كذا . وكان داود — عليه السلام — رجلا قصيرا مسقاما مُصفارّا أزرقَ أشقرَ[1] . فدعاه طالوت . ويقال : بل خرج طالوت إليه فوجد الوادى قد حال بينه وبين الزَّريبة التى كان يُريح إليها ، فوجده يحمل شاتين فيُجيزُهما السَّيلَ ولا يخوض بهما الماء ، فلمّا رآه [أشمويل[2]] قال : هذا هو لا شكّ فيه ، هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم . فدعاه ووضع القَرَن على رأسه ففاض ، فقال له طالوت : هل لك أن تَقتل جالوتَ وأزوّجك ابنتى وأجرىَ حُكْمَك فى مُلكى ؟ قال نعم . قال : وهل أنِستَ من نفسك شيئا تتقوّى به على قتله ؟ قال : نعم ، أنا أرعى فيجىء الأسد أو النَّمر أو الذئب فيأخذُ شاةً فأقوم له فأفتحُ لَحيَيه عنها وأخرِقُهما إلى قفاه . فردّه إلى عسكره ، فمرّ داود — عليه السلام — فى الطريق بحَجَر فناداه : ياداود ، احملنى فإنى حَجَر هارون الذى قتل بى مَلِكَ كذا ، فحمله فى مِخلاته . [ثم مرّ بحجر آخر فناداه : يا داود ، احملنى فإنى حجر موسى — عليه السلام — الذى قتل به ملك كذا وكذا ، فحمله فى مخلاته[2]] . ثم مرّ بحجر آخر فقال : احملنى فإنى حجرك الذى تقتل به جالوت ، وقد خبأنى الله لك ، فوضعه فى مخلاته . فلما تصافُّوا للقتال وبرز جالوتُ وسأل المبارَزة ، انتدب له داودُ ، فأعطاه طالوت فرسا ودرعا وسلاحا ، فلبس السلاح وركب الفرس ، وسار قريبا ، ثم انصرف فرجع إلى الملِك ، فقال مَن حولَه : جَبُن الغلام . فجاء فوقف على الملك فقال :

(١) عبارة الثعلبى : « وكان داود — عليه السلام — رجلا قصيرا سقيا مصفرا أزرق العينين » .

(٢) التكملة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

ما شأنك ؟ قال : إنّ الله — عز وجل — إن لم ينصرنى لم يُغنِ عنّى هذا السلاحُ شيئا ، فدعنى أقاتل كما أريد . قال نعم . فأخذ داود مِخلاتَه فتقلّدها ، وأخذ المِقلاع ومضى نحو جالوت ، وكان جالوت من أشدّ الناس وأقواهم؛ وكان يهزم الجيوش وحده ، وكان له بَيْضة فيها ثلاثُمائةِ مَنٍّ حديدا ، فلمّا نظر إلى داود أُلقِيَ فى قلبه الرُّعبُ ، فقال له : أنت تَبرُز لى ؟ قال نعم — وكان جالوت على فرس أبلق ، عليه السلاح التامّ — قال : تأتينى بالمِقلاع والحجر كما يُؤتَى الكلب ؟ قال : نعم، لأنت شرٌّ من الكلب. قال : لاجَرَم لأُقسِّمَنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء . فقال داود : [باسم الله و](١) يقسِّم الله لحمَك . وقال : بسم إله إبراهيم، وأخرج حجرا ، ثم أخرج الآخرَ وقال : بآسم إلهِ إسحاق ، ووضعه فى مِقْلاعه ، ثم أخرج الثالثَ وقال : بآسم إله يعقوب ، ووضعه فى مِقْلاعه ، فصارت كلُّها حجرا واحدا، ودوّر المقلاعَ ورماه به، فسخَّر اللهُ تعالى له الريحَ حتى أصاب الحجرُ أنفَ البَيضة وخالط دماغَه فخرج من قفاه ، وقتل من ورائه ثلاثين رجلا ، وهزم الله تعالى الجيشَ وخرّ جالوتُ قتيلا ، فأخذه داودُ فجزّه حتى ألقاه بين يدَىْ طالوتَ .

وقال الكسائىّ فى هذه القصة : كان مع طالوتَ سبعةُ إخوة لداود، وكان داود عند أبيه وهو صغير ، فقال له أبوه : قد أبطأ علىّ خبر إخوتك مع طالوت، فآحمل إليهم طعاما وتَعرّفْ لى خبرَهم . فمضى داود ومعه مِخلاة له فيها الطعام، وقد شَدّ وَسَطَه بمقلاع؛ فبينا هو يسير إذ ناداه حجر من الأرض : خذنى فأنا حجر أبيك إبراهيم . فأخذه ؛ ثم ناداه حجر آخر : خذنى فأنا حجر أبيك إسحاق . فأخذه ؛

(١) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وفى الأصل : « لو يقسم » .

ثم ناداه حجر آخر : خُذنى فأنا حجر أبيك يعقوبَ . فأخذه وسار حتى أتى العسكر، فنزل على إخوته ، فلمّا كان من الغد تهيّأ الجيشان للحاربة ، فقال طالوت : أيها الناس، من كفانى منكم أمرَ جالوت زوّجتُه آبنتى، وأشركتُه فى مُلكى، وجعلتُه خليفتى من بعدى. فلم يجبه أحد إلّا داود؛ فخلع عليه وأركبه وطاف به فى معسكره؛ فلمّا كان من الغد ركبوا ، وأقبل جالوتُ بجيوشه وهو على فيل ، وكان طوله ثمانيةَ عشر ذراعا ، وطول داود عشرة أذرع ، فقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾[1] الآية .

فبرز جالوتُ بين الصفّين فبرَز له داودُ ، فقال له جالوت : إنك صغير ولا سلاحَ معك فآرجع، فأبى ذلك، وأخذ تلك الأحجار فوضعها فى مِقلاعه ورمى بها، فوقع أحدها بَيْمنة جالوت فهزمها، والثانى فى المَيْسرة فآنهزموا، والثالث وقع على أنف بَيْضة جالوت فخرج من قفاه، فسقط جالوتُ ميّتا، وآنهزم أصحابُه .

قالوا : ولمّا قتل داودُ جالوتَ ذكر الناسُ داودَ وعظُم فى أنفسهم، فجاء إلى طالوت وقال له : أنجِزْ لى ما وعدتَنى، وأعطنى آمرأتى . فقال له طالوت : أتريد آبنةَ الملكِ بغير صَدَاق، عجّل صَدَاق آبنتى وشأنَك بها . فقال له داود : ما شرطتَ علىّ صَدَاقا ، وليس لى شىء ، فتحكّم فى الصداق[2] ما شئتَ وأقرضنى مَهرَها وعلىّ الأداء والوفاء لك. فقال طالوت: أَصدِقْها نصيبَك من المُلك. فقالت بنو إسرائيل: لا تظلمه وأنجِزْ له ما وعدتَه به .

فلمّا رأى طالوتُ ميلَ بنى إسرائيل إلى داود وحُسْنَ رأيهم فيه قال : لا حاجة لآبنتى فى المال، ولا أكلّفك إلّا ماتُطيق، أنت رجل جرىء، وفى جبالنا

(١) سورة البقرة آية ٢٥٠

(٢) عبارة الأصول : «فتحكم من الصداق ماشئت» وعبارة الثعلبى : «فتحكم فى الصداق بما تريد» .

أعداء من المشركين غُلْف[1] فانطلِقْ وجاهِدْهم ، فإذا قتلتَ منهم مائتى رجل وجئتنى برءوسهم زوّجتُك ابنتى. فأتاهم داود، وجعل كلّما قتل منهم رجلا احتزّ رأسه ونظمه فى خيط حتى نَظَم رءوسهم فجاء بها إلى طالوت، فألقاها إليه وقال : ادفع إلىّ امرأتى ، فزوّجه ابنته وأجرى خاتمه فى مُلكه ، فمال الناس إلى داود وأحبّوه وأكثروا من ذكره ، فوجَد طالوتُ من ذلك فى نفسه وحسَده وأراد قتله .

قال وهب بن مُنَبِّه : وكانت الملوك يومئذ يتوكّأون على عِصِىٍّ فيغرِزون فى أطرافها أَزِجة من حديد ، وكان بيد طالوت منها واحدةٌ ، فى رأسها رمّانة من ذهب وفى أسفلها زُجٌّ من حديد ، وداود جالس قريبا منه فى ناحية البيت ، فرماه بها بغتة ليقتله بها ، فلمّا أحسّ داود بذلك حاد عن طريقها ، وأمال نفسه عنها من غير أن يبرح من موضعه ، فارتكزتْ فى الجِدَار ، فقال له داود : عمدتَ إلى قتلى؟ قال طالوت : لا ، ولكن أردتُ أن أقف على ثباتك فى الطِّعان ورَبْط جأشك للاقران. قال داود : فألفيتَه على ما قدّرتَه فىّ ؟ قال : نعم. ولعلك فَزِعت . قال : معاذ الله أن أخاف إلّا اللهَ تعالى وأرجوَ إلا الله ، ولا يدفع الشرَّ إلا الله . فانتزعها من الجِدَار ثم هَزّها هَزّة منكرة وقال له : أُثبُتْ كما ثَبَتّ لك ، فأيقن طالوتُ بالهلاك ، فقال له : أَنشُدُك اللهَ والحُرمةَ التى بينى وبينك إلّا ما صفحتَ ؛ فقال داود : إن الله تعالى كتب فى التوراة أن أجز السيئةَ مثلَها ، واحدةٌ بواحدة والبادى أظلم ؛ فقال طالوت : ألا تقول قول هابيل لأخيه قابيل : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] . قال داود : قد عفوتُ عنك لوجه الله تعالى .

(١) هذه عبارة الثعلبى فى النسخة المطبوعة . وفى الأصلين : «وجئتنى بغلفهم زوّجتك ابنتى ، فأتاهم داود وجعل كلما قتل منهم نظم غلفته فى خيط حتى نظم غلفهم» والغلف جمع أغلف ، والأغلف : الذى لم يختن.

(٢) سورة المائدة آية ٢٨

فلبث طالوتُ زمنا يريد قتلَ داود، فعزم على أن يأتيَه و يغتالَه فى داره، فأخبر بذلك بنتَ طالوتَ رجلٌ يقال له: ذو العينين، فقالت لداود: إنك مقتولٌ الليلة؛ قال: ومَن يقتلنى؟ قالت: أبى، وأخبرتْه الخبر وقالت: لا عليك أن تغيب الليلةَ حتى تنظر مِصْداقَ ذلك. فأخذ داودُ زِقَّ خمرٍ فوضعَه فى مَضْجَعه على السَّرير وسَجّاه ودخل تحت السَّرير ودخل طالوتُ نصفَ الليل، فعمد إليه فضربه ضربةً بالسيف فسالتِ الخمرُ، فلمّا وَجَد ريحها قال: رحم الله داود، ما كان أكثرَ شربَه للخمر، وخرج، فلمّا أصبح علم أنه لم يصنع شيئا، فقال: إنّ رجلا طلبتُ منه ما طلبتُ لخليق ألّا يَدَعنى حتى يطلب منى ثأرَه؛ فاشتدّ حُجّابه وحُرّاسُه وأغلق دونه الأبوابَ، فأتاه داود ليلةً وقد هدأتِ العيونُ وأَعْمَى الله الحُجّابَ عنه وفتح له الأبواب، ودخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سَهما عند رأسه وسهما عند رجليه وسهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج. فلمّا استيقظ طالوت بُصر بالسهام فعرفها، فقال: رحم الله داود فهو خير منّى، ظفرتُ به فقصدتُ قتلَه، وظفر بى فكفّ عنّى، لو شاء لوَضَع هذا السهمَ فى حلقى وما أنا بالذى آمَنُه. فلمّا كانت الليلةُ القابلة أتاه ثانيا، وأعمى الله الحُجّاب، فدخل وهو نائم، فأخذ إبريقَ طالوتَ الذى كان يتوضّأ به وكوزَه الذى يشرب منه، وقطع شَعَرات من لحيته وشيئا من هُدْب ثيابه، ثم خرج وهرَب وتَوارَى؛ فلمّا أصبح ورأى ذلك نصب على داود العيونَ وطلبه أشدَّ الطلب فلم يقدر عليه، ثم رَكِبَ طالوتُ يوما فوجد داود يمشى فى البرّيّة فقال: اليوم أقتلُ داود، وكان داودُ إذا فرّ لم يُدرَك، فركض داود حتى دخل غارا، فأمر الله العنكبوتَ أن تَنْسُج، فنَسَجت عليه بيتا، وجاء طالوتُ إلى الغار فنظر الى بيتِ العنكبوت فقال: لو كان هاهنا لخَرَق بيتَ العنكبوت، فتركه ومضى، وانطلق داود إلى الجبل ومعه المتعبّدون، فجعل يتعبّد فيه.

وطعَن العلماءُ والعبّادُ على طالوتَ فى شأن داود، فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن داود إلّا قتله . وأغْرِىَ بقتل العلماء، فلم يكن يقدر فى بنى إسرائيل على عالم [ويُطيق قتله إلّا قتله](١) ولم يكن طالوت يحارب جيشا إلّا هزمه، حتى أُتِىَ بامرأة تعلم اسم الله الأعظم، فأمر جبّاره بقتلها، فرحمها الجبّار وقال : لعلّنا نحتاج إلى عالم فتركها .

ثم وقع فى قلب طالوت التوبةُ، وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كلّ ليلة يخرج إلى القبور ويبكى وينادى : أَنشُد اللهَ عبدا يعلم لى التوبةَ إلّا أخبرنى . فلمّا كَثُر عليهم [بكاؤه](١) ناداه منادٍ من قبر : يا طالوت، أما ترضَى [أنك](١) قتلتنا حتى تؤذينا أمواتا، فازداد بكاءً وحزنا، فقال له الجبّار : مالك أيها الملك ؟ قال : هل تعلم لى فى الأرض عالما أسأله ؟ هل لى من توبة؟ قال الجبّار : هل تدرى ما مَثَلُك ؟ إنما مَثَلُك مَثَلُ ملكٍ نزل قريةً عِشَاءً، فصاح ديك فتطيّر به، فقال : لا تتركوا فى هذه القرية ديكا إلّا ذبحتموه . فلمّا أراد أن ينام قال لأصحابه : إذا صاح الدّيك فأيقظونا حتى نَدَّلِج . فقالوا له : وهل تركتَ ديكا يُسمَع صوته ؟ وأنت هل تركتَ فى الأرض عالما ؟! فازداد طالوتُ حُزنا وبكاء، فلمّا رأى الجبّار ذلك قال له : أرأيتَك إن دللتُك على عالم لعلّك أن تقتله ؟ قال لا . فتوثّق منه الجبّار وأخبره أنّ المرأة العالمةَ عنده، قال : فانطلِق بى إليها حتى أسألَها هل لى من توبة ؟ — وكان إنما يعلم ذلك أهلُ بيت لهم علمٌ بالاسم الأعظم(٢) — فلمّا بلغ طالوتُ البابَ قال له الجبّار : إنها إن رأتك فزِعتْ، فخلّفه خَلْفَه، ثم دخل عليها فقال لها : ألستُ أعظمَ عليكِ حُرمة، أنجيتُكِ من القتل وآويتُكِ عندى ؟ قالت بلى . قال : فإنّ لى إليكِ حاجة . قالت :

(١) التكملة من قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) عبارة الثعلبى : « وكانت تعلم الاسم الأعظم، وكان إنما يعلم بهذا الاسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساؤهم » .

وما هى ؟ قال: هذا طالوت يسأل هل له من توبة ؟ فقالت: لا وآلله ما لطالوت من توبة ، ولكن هـل تعلمون مكانَ قبرِ أشمويل ؟ قال نعم . قالت : فآنطلقوا بى إلى قبره ، ففعلوا، فصلّت ثم نادت : يا صاحب القبر أُخرج . فخرج أشمويل من قبره ينفُض رأسَه من التراب. فلمّا نظر إليهم ثلاثتهم . المرأةِ والجبّار وطالوت قال : مالكم! أقامت القيامة؟ قالت: لا، ولكنّ طالوت يسألكَ هل له من توبة؟ قال أشمويل : ياطالوت، ما فعلتَ بعدى؟ قال: لم أَدَع من الشرّ شيئا إلّا فعلتُه، وقد جئت أطلب التوبة . قال : كم لك من الولد ؟ قال : عشرة رجال . قال : ما أعلم لك من توبة إلّا أن تتخلّى عن مالك وتخرجَ أنت وولدُك فى سبيل الله ، ثم تُقدِّم ولدَك حتى يُقتَلوا بين يديك ، ثم تُقاتِلَ أنت حتى تُقتَلَ آخرهم . ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط ميّتا ، ورجع طالوت أحزنَ ما كان ، رهبةَ ألّا يتابعَه أولادُه ، وقد بكى حتى سقطت أشفارُ عينيه ، ونحَل جسمُه . فدخل عليه أولاده فقال لهم : أرأيتم لو دُفِعتُ إلى النار هل كنتم تنقذوننى ؟ قالوا : بلى، ننقذك بما قدَرنا عليه . قال : فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول . قالوا : فآعرِضْ علينا ، فذكَر لهم القصة . قالوا : فإنك لمقتول؟ ! قال نعم . قالوا : فلا خير لنا فى الحياة بعدك ، قد طابت أنفسُنا بالذى سألتَ . فتجهّزَ للغزْو بماله وولده ، فتقدّم ولدُه فقاتلوا بين يديه حتى قُتلوا ؛ ثم تقدّم فقاتلَ بعدهم حتى قُتل . فجاء قاتله إلى داود يبشّره وقال : قد قتلتُ عدوّك . فقال داود : ما أنت بالذى تحيا بعده . فضرب عنقَه .

وحكى الكسائىّ : أنّ طالوت لمّا حسد داود على ما أُوتى من القوّة، وهمّ بالغدر مرارا فلم يَظْفَر به وظفر به داود فأَبقَى عليه، آعتذر له طالوت وآتفقا؛ ثم مات أشمويل، فانضمّ بنو إسرائيل إلى داود وآختلفوا على طالوت وحاربوه؛ فآستقلّ داود بالمُلك، وجاهدَ ببنى إسرائيل وقهر الأعداء . والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر خلافة داود عليه السلام ونبوّته ومبعثه إلى بنى اسرائيل وما خصه الله عز وجل به

هو داود بن إِيشَى[1] بن عويل بن باعد بن سلمون بن يحسون بن عمى بن مارب ابن أَرَم بن حَصْرُون بن فارَص بن يَهُوذَا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل — عليهم السلام — قال الله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾[2] قال الكسائىّ : لمّا مات أشمويل تفرّق بنو إسرائيل واشتغلوا باللهو، فبعث الله تعالى داود — عليه السلام — وأعطاه سبعين سطرا من الزّبور، وأعطاه حُسن الصوت، فكان إذا سبّح سبّحت الجبال معه والطير والوحش؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾[3] أى مطيع.

وقال أبو إسحاق الثعلبىّ : قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لمّا استُشهد طالوت أتى بنو إسرائيل إلى داود فأعطَوْه خزانةَ طالوت وملّكوه على أنفسهم، وذلك بعد قتل جالوت بسبع سنين، ولم يجتمع بنو إسرائيل بعد يُوشَع بن نُون على ملكٍ واحدٍ إلّا على داود عليه السلام.

قال : وخصّ الله تعالى نبيّه داود بخصائص :

منها : أنه أنزل عليه الزّبور بالعبرانية خمسين ومائةَ سورة، فى خمسين منها ما يكون من بُخْتَنصر وأهلِ بابِل؛ وفى خمسين ما يكون من أهل إبْرُون؛

(١) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٦١٥ من القسم الأوّل) والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٥٧) وذكر أنه بكسر الهمزة. وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٧٢) : « يسى » بفتح الياء والسين المشدّدة. وقد ورد نسب داود — عليه السلام — فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٢) هكذا : « داود بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن أرام بن حصرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام ». وورد نسبه فى تاريخ الطبرى (ص ٥٥٩ من القسم الأوّل) هكذا : داود بن إيشى بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى نادب ابن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم ».

(٢) سورة ص آية ٢٦ (٣) سورة ص آيتى ١٨، ١٩

وفى خمسين منها موعظة وحكمة ؛ ولم يكن فيها حلال ولا حرام ، ولا حدود ولا أحكام ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١) .

ومنها : الصوت الطيّب ، والنغمة اللذيذة ، والترجيع فى الألحان ؛ ولم يُعْطِ الله تعالى أحدا من خَلقه مثلَ صوته ، فكان يقرأ الزَّبور بسبعين لحنا بحيث يَعرُق المحموم ويُفيق المَغْشِىّ عليه .

١٢٧/١١ وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرّيّة ، فيقوم ويقرأ ويقوم معه علماء بنى إسرائيل خَلْفَه ، ويقوم الناس خلفَ العلماء ، وتقوم الجنّ خلفَ الناس ، وتقوم الشياطين خلف الجنّ ، وتدنو الوُحوش والسباع حتى تؤخذ بأعناقها ، وتُظِلّه الطيرُ مُصيخة (٢) ، ويركُد الماء الجارى ويسكن الريح .

قال الثعلبىّ : وما صُنعت المزامير والبرابط (٣) والصُّنوج إلّا على صوته ، وذلك أنّ إبليس حسده وآشتدّ عليه أمره ، فقال لعفاريته : ترون ما دهاكم ؟ فقالوا : مُرنا بما شئتَ . قال : فإنه لا يصرف الناسَ عن داود إلّا ما يُضادّه ويُحادّه (٤) فى مثل حاله . فهيّأ المزامير والأعواد والأوتار والملاهىَ على أجناس أصوات داود — عليه السلام — فسمِعَها سفهاء الناس فمالوا إليها وآغترّوا بها .

ومنها : تسبيح الجبال والطير معه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (٦) . يقال : إن داود كان اذا تخلّل الجبالَ يسبّح اللهَ تعالى جعلت الجبالُ

---

(١) سورة النساء آية ١٦٣ (٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة . ومصيخة أى مصغية مستمعة . وفى الأصل : « مسبحة » وهو تحريف .

(٣) البرابط : العيدان . (٤) يحادّه : يعاديه .

(٥) سورة سبأ آية ١٠ (٦) سورة ص آية ١٨

تجاوبه بالتسبيح نحوَ ما يسبِّح . ثم قال فى نفسه ليلةً من الليالى : لأعبُدنّ اللهَ عبادةً لم يُعْبَد مثلَها ، فصعِد الجبلَ ، فلمّا كان فى جوف الليل وهو على جبل داخلتْه وَحْشة، فأوحى الله إلى الجبال : أن آنِسِى داود، فاصطكّت الجبالُ بالتسبيح والتهليل . فقال داود فى نفسه : كيف يُسمع صوتى مع هذه الأصوات ؟ فهبَط عليه ملَك وأخذ بعَضُده حتى انتهى به إلى البحر، فوكَزَه برجله فانفرج له البحر، فانتهى إلى الأرض فوكزها برجله فانفرجت له الأرض ، حتى انتهى إلى الحوت فوكزه برجله ، فانتهى الى الصخرة ، فوكز الصخرة برجله، فانفلقت فخرجت منها دودة تَنِشّ(١) ، فقال : إن الله تعالى يسمع نَشِيش هذه الدودة فى هذا الموضع . قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : كان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر .

ومنها : أن الله تعالى أكرمه بالحكمة وفصلَ الخطاب . قالوا : والحكمة : الإصابة فى الأمور . واختلفوا فى فصل الخطاب، قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : بيان الكلام . وقال ابن مسعود والحسن : المعنى علمُ الحُكْم والنظرُ فى القضاء، كان لا يَتتعتع(٢) فى القضاء بين الناس . وقال علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — : هو البيِّنة على المدّعِى واليمينُ على المدّعَى عليه . وقال كعب : الشهود والأيمان . وقال الشعبىّ : سمعتُ زيادا يقول : فصل الخطاب الذى أُعطِىَ داود : أمّا بعد . قال الأستاذ : وهو أوّل من قالها .

ومنها : السلسلة التى أعطاه الله إيّاها، ليَعرِف المُحِقّ من المبطل فى المحاكَمة إليه . قال الثعلبىّ : روى الضحّاك عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : إنّ الله تعالى أعطى داود سلسلة موصولة بالمجرّة والفلك، ورأسها عند محراب داود

(١) تنش : تصوّت .

(٢) يتتعتع : يتردّد .

حيث يُتحاكَم إليه، وكانت قوتُها قوّة الحديد، ولَوْنُها لونَ النار، وحَلَقُها مستديرة، مفصَّلةً بالجوهر، مدسَّرة بقُضبان اللؤلؤ الرَّطْب، فلا يحدث فى الهواء حَدَث إلّا صلصلت السلسلةُ، فيعلم داود ذلك الحَدَث؛ ولا يلمَسها ذو عاهة إلّا برِئ، وكان علامة دخول قومه فى الدّين أن يمسّوها بأيديهم ويمسحوا بأكفّهم على صدورهم. وكانوا يتحاكمون إليه، فمن تعدّى على صاحبه أو أنكره حقا أتوا السلسلة، فمن كان صادقا مُحقّا مدّ يده إلى السلسلة فنالها، ومن كان كاذبا ظالما لم ينلها؛ فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة.

قال: فبلَغنا أن بعض ملوكهم أودعَ رجلا جوهرةً ثمينة، فلمّا استردّها منه أنكره ذلك، فتحاكما إلى السلسلة، فعلم الذى كانت عنده الجوهرة أن يده لا تنال السلسلة، فعمَد إلى عُكّازة فنقَرها ثم ضمّنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر معه غريمه عند السلسلة[1]، فقال لصاحبها: ما أعرِف لك من وديعة، إن كنتَ صادقا فتناوَل السلسلة، فتناولَها بيده وقال للمنكِر: قم أنت أيضا فتناوَلْها، فقال لصاحب الجوهرة: إلزمْ عُكّازتى هذه حتى أتناول السلسلة. فأخذها وقام الرجل وقال: اللهم إن كنت تعلم أنّ هذه الوديعة التى يدّعيها علىّ قد وصلتْ إليه فقرِّب منّى السلسلة. فمدّ يده وتناوَلها، فشكّ القومُ وتعجّبوا، فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة.

١٢٨/١١

وقال الكسائىّ فى خبر السلسلة: أوحى الله تعالى إلى داود أن ينصِب سلسلةً من حديد ويعلّق فيها جرسا، ففعل ذلك؛ وساق فى خبرها نحو ما تقدّم فى أمر المُحقّ والمُبطل.

---

(١) كذا فى الثعلبىّ. وفى الأصول: «حتى حضروا الى السلسلة».

قال : وجاء خَصمان فٱدّعى أحدُهما على الآخر أنه أودعه جوهرا؛ فاعترف به وقال : أعدتُه إليه، فتقدّم المدّعِي وتناولَ السلسلة فدنت منه حتى تناولَها، ثم قال للمدّعَى عليه : تناوَلْها . وكان قد أخذ الوديعة فجعلها فى قَناة مجوّفة ، فناولها للمدّعِي وقال : الزمْ عصايَ هـذه ، ومدّ يده إلى السلسلة فدنت منه حتى كاد يتناولها ؛ ثم ٱرتفعت وتدلّت إليه مرارا، ثم تناولَها، فقال داود للمدّعِي : لعلّ هـذا قد سلّم وديعَتك لأهلك . فرجع وسأل أهلَه ، فقالوا : مادَفع إلينا شيئا . فعاد وأعلَم داود، فأخذ داود القَناة وشقّها، فطلعتْ الوديعةُ منها؛ وٱرتفعت السلسلةُ من ذلك اليوم. ٥

قال الثعلبيّ : وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنـه — إذا ٱشتبه عليـه أمر الخَصْمَين قال : ما أحوجَكما إلى سلسلة بنى إسرائيل؟ كانت تأخذ بعنُق الظالم فتجرّه إلى الحق جرّا . والله أعلم بالصواب . ١٠

ومنها : القوّة فى العبادة وشدّة الٱجتهاد؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾[1] ، أى القوّة فى العبادة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى توّاب مطيع مسبّح .

وكان داود يقوم الليل، ويصوم يوما ويُفطِر يوما، وما مرّت ساعةٌ من الليل إلّا وفيها من آل داود قائم يصلّى، ولا يومٌ من الأيام إلّا وفيه منهم صائم .

ومنها : قوّة المملكة . قال الله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾[2] أى قوّيناه ، وقرأ الحسن : (وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ) بالتشديد . قال ٱبن عباس : كان أشـدّ ملوك الأرض سلطانا ؛ كان يحرس محرابَه كلَّ ليلة ثلاثةٌ وثلاثون ألف رجل . وقال السُّدِّيّ : كان يحرسه فى كل يوم وليلة أربعةُ آلاف . ١٥

(١) سورة ص آية ١٧

(٢) سورة ص آية ٢٠ ٢٠

ورُوى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رجلا من بنى إسرائيل ٱستعْدَى على رجل من عظمائهم عند داود،(١) فقال المستعدِى: إن هذا قد غصبنى بقرى . فسأل داودُ الرجلَ فجحدَه، وسأل الآخرَ البيّنة فلم تكن له بيّنة، فقال لهما داود: قُومَا حتى أنظرَ فى أمركما. فقاما من عنده، فأوحَى اللهُ تعالى إلى داود فى منامه أن يقتل الذى ٱستُعدِى عليه، فقال: هذه رؤيا [ولستُ أعجل حتى أتبين](٢) فأوحى الله تعالى إليه مرة ثانية أن يقتله [فقال: هذه رؤيا، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله](٢) أو تأتيه العقوبة من الله . فأرسل داود إلى الرجل فقال: إن الله تعالى قد أوحى إلىّ أن أقتلك . فقال: تقتلنى بغير بيّنة ولا تثبُّت؟ . فقال نعم، والله لأُنفّذنّ أمرَ الله فيك . فلمّا عرف الرجل أنه قاتلُه قال: لا تَعْجَل حتى أخبرَك، إنّى والله ما أُخِذتُ بهذا الذنب، ولكنّى [كنتُ](٢) اغتلتُ والدَ(٣) هذا فقتلتُه . فأمر به داودُ فقتل؛ فٱشتدّت هيبتُه عند بنى إسرائيل وٱشتدّ ملكه .

ويقال: كان لداود إذا جلس للحكم عن يمينه ألف رجل من الأنبياء، وعن يساره ألفُ رجل من الأحبار .

ومنها: شدّة البطش . فرُوِىَ أنه ما فرّ ولا ٱنحاز من عدوّ له قطّ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن داود عليه السلام: "كان يصوم يوما ويُفطِر يوما"(٤) .

(١) فى نسخة الثعلبى المخطوطة والمطبوعة: «بقرتى» .

(٢) التكملة عن الثعلبى .

(٣) فى نسخة الثعلبى المطبوعة: «ولد» .

(٤) هذا الحديث ورد فى الأصلين فى هذا الموضع ولا محل له فى الكلام هنا، وقد خلت منه نسختا الثعلبى المخطوطة والمطبوعة، وكان الأولى أن يذكره أثناء كلامه على داود فى قوة العبادة وشدّة الاجتهاد .

ومنها : إلانةُ الحديد له . قال الله تعالى :﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾[1] . قالوا : وكان سبب ذلك أنّ داود — عليه السلام — لمّا ملك أمرَ بنى إسرائيل، كان من عادته أن يخرج للناس متنكّرًا، فإذا رأى رجلا لا يعرفه تقدّم إليه وسأله ، فيقول له : ما تقول فى داود واليكم هذا؟ أىّ رجل هو ؟ فيُثنون عليه و يقولون خيرا؛ فبينما هو ذاتَ يوم إذ قيّض الله له مَلَكا فى صورة آدمىّ، فتقدّم داود إليه، فسأله على عادته، فقال له : نِعْمَ الرجلُ هو لولا خَصْلة فيه . فراع داودَ ذلك، فقال : ماهى ياعبدَ الله ؟ قال : إنه يأكل ويُطعِم عيالَه من بيت المال . قال : فتنبّه داود لذلك ، وسأل اللهَ تعالى أن يسبِّب له سببا يستغنى به عن بيت المال، فألانَ الله له الحديد، فصار فى يده مثلَ الشَّمْع والعجين والطِّين المبلول، فكان يصرِّفه بيده كيف شاء من غير إدخال نار ولا ضربٍ بحديد .

وعلّمه الله تعالى صنعةَ الدروع فهو أوّل من اتّخذها وكانت قبل ذلك صفائح. وقيل : إنه كان يبيع كل دِرْع منها بأربعة آلاف ، فيأكل ويُطعِم عياله ويتصدّق منها على الفقراء والمساكين، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ﴾[2] الآية . وقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ أى دروعا كواملَ واسعاتٍ ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾، أى لا تجعل المسامير دقاقا فتنفلق، ولا غِلاظا فتكسِر الحَلَق. فكان يفعل ذلك حتى جَمع منه مالا .

١٢٩/١١

ورُوى أنّ لقمان الحكيمَ رأى داود وهو يَعمل الدُّروع ، فعجب من ذلك ولم يدر ما هو ؟ فأراد أن يسأله ، فسكت حتى فَرَغ داود من نسج الدروع، فقام وصبّها على نفسه وقال : نِعْم القميصُ هذا للرجل المحارب . فعلم لقمانُ ما يراد به، فقال : الصمت حكمة وقليلٌ فاعلهُ . والله أعلم .

(١) سورة سبأ آية ١٠ (٢) سورة الأنبياء آية ٨٠

ذكر خبر داود عليه السلام حين ٱبتُلى بالخَطيئة

قال الثعلبيّ — رحمه الله — : اختلف العلماء فى سبب ٱمتحان الله تعالى نبيّه داود — عليه السلام — فقيل : إنه تمنّى يوما من الأيام على ربّه تعالى منزلة آبائه إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحوَ الذى كان يمتحنهم به، ويعطيَه من الفضل نحوَ الذى أعطاهم. قال: ورَوَى السُّدِّىّ والكلبىّ ومُقاتِل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم فى حديث بعض، قالوا : كان داود — عليه السلام — قَسَم الدهرَ ثلاثةَ أيام[1] : يوما يَقضِى فيه بين الناس، ويوما لعبادة ربّه، ويوما يخلو فيه بنسائه وأولاده وأشغاله ؛ وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب — عليهم السلام — فقال : يا ربّ إنّ الخير كلّه ذهب به آبائى الذين كانوا من قبلى . فأوحى الله تعالى إليه : أنهم ابتُلوا ببلايا لم تُبْتَلَ بها فصبَروا عليها ؛ ٱبتُلِىَ إبراهيمُ بالنُّمرود وبذبح ٱبنه ؛ وٱبتُلِىَ إسحاقُ بالذَّبح وبذَهاب بصره، وٱبتُلِىَ يعقوبُ بالحُزن على يوسف ، وإنك لم تُبْتَلَ بشىء من ذلك . فقال داود عليه السلام : ربّ فٱبتَلِنى بمثل ما ٱبتليتَهم وأعطنى مثلَ ما أعطيتَهم . فأوحى الله تعالى إليه : إنك مُبتلًى فى شهر كذا فى يوم كذا فٱحترِس . فلمّا كان ذلك اليوم الذى وعده الله عز وجل دخل داود محرابَه وأغلقَ بابه، وجعل يصلّى ويقرأ الزبور ، فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان، تمثّل له فى صورة حمامةٍ من ذهب، فيها من كل لونٍ حَسَن؛ فوقعت بين رجليه ، فمدّ يدَه ليأخذها . وفى بعض الروايات : « ليدفعها إلى ٱبن له صغير » ، فلمّا أهوَى إليها طارت غيرَ بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها ؛ فامتدّ إليها ليأخذها. فتنحّت، فتبعها فطارت حتى وقعت [فى كُوّة][2]، فذهب ليأخذها

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصلين : « أقسام » .

(٢) التكملة عن الثعلبى .

فطارت من الكُوّة ؛ فنظر داود عليه السلام أين تقع فيبعثُ إليها من يصيدها ؛ فأبصَر آمرأةً فى بستان على شطّ بركةٍ لها تغتسل، هذا قول الكلبىّ. وقال السُّدّىّ: رآها تغتسل على سطح لها . وقال الكسائىّ : سقط الطائر على شجرة إلى جانب الحوض الذى تغتسل فيه نساءُ بنى إسرائيل . قالوا : فرأى داودُ آمرأةً من أجمل النساء خَلْقا ، فعجب من حُسنها ، وحانت منها آلتفاتة ، فأبصرت ظِلّه ، فنَفضتْ شَعرها فتغطّى بدنُها ، فزاده ذلك إعجابا بها ؛ فسأل عنها ، فقيل هى بَتْشَابَعُ بنتُ[1] سالغ ، آمرأة أُورِيّا بن حُنانا ، وزوجها فى غزاةٍ بالبلقاء[2] بُعث مع يُوآب[3] ابن صَرُويَة آبن أخت داود ، فكتب داود إلى آبن أخته : أن آبعث أُوريّا إلى موضع كذا وكذا، وقدِّمه قبلَ التابوت ؛ وكل من قُدِّم على التابوت لا يحلّ له أن يرجع وراءه [حتى يفتح الله على يديه][4] أو يُستشهَد ، فبعثه أيوب وقدّمه ، ففُتِح له ، فكتب إلى داود بذلك ؛ فكتب إليه أيضا : أن آبعثه إلى عدوّ كذا وكذا. فبعثه، ففُتِح له ؛ فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه أيضا : أن آبعثه إلى عدوّ كذا أشدّ منه بأسا . فبعثه ؛ فقتِل فى المرّة الثالثة . فلمّا آنقضت عِدّة المرأة تزوّجها داود — عليه السلام — وهى أمّ سليمان عليه السلام .

وقال آخرون : كان سببُ آمتحانه أن نفسَه حدّثته أنه يُطيق قطع يوم بغير مقارفة سوء .

(١) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة ، وفى المطبوعة « سابغ بنت شائع » . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٥٧) : « بتشابع بنت أليعام » . وفى الأصول : « ميشايع بنت سايع » .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى . قصبتها عمان .

(٣) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠٣) . وفى الأصول : « أيوب بن صوريا » . وانظر الحاشية رقم ٣ ص ٧١ من هذا الجزء .

(٤) التكملة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

وقد رَوَى الثعلبيّ فى ذلك بسند [سعيد بن][1] مطر عن الحسن قال : إن داود — عليه السلام — جزّأ الدهرَ أربعةَ أجزاء : يوما لنسائه، ويوما للعبادة، ويوما للقضاء بين الناس[2]، ويوما لبنى إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه، ويُبْكيهم ويُبكونه. فلمّا كان يوم بنى إسرائيل ذكروا فقالوا : هل يأتى على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا؟ فأضمر داود فى نفسه أنه سيُطيق ذلك. فلمّا كان يومُ عبادته غلّق أبوابه، وأمر ألّا يدخل عليه أحد، وأكبّ على قراءة الزّبور؛ فبينما هو يقرأ إذا حمامةٌ من ذهب فيها من كل لونٍ حَسَن وقد وقعت بين يديه، فأهوَى إليها ليأخذها، فطارت فوقعت غيرَ بعيد، ولم تؤيسه من نفسها، فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خَلْقُها؛ فلمّا رأت ظِلّه فى الأرض جلّلت نفسَها بشَعرها، فزاده ذلك إعجابا بها؛ وكان قد بَعث زوجَها على بعض جيوشه، فكتب إليه: أن سِرْ إلى مكان كذا وكذا — مكان إذا سار إليه قُتِل ولم يرجع — ففعل، فأُصيب. فخطبها داود وتزوّجها.

١٣٠/١١

وقال بعضهم فى سبب ذلك ما رواه أبو إسحاق بسنده عن قَتَادة عن الحسن قال : قال داود — عليه السلام — لبنى إسرائيل حين ملك : والله لأَعدلنّ بينكم. ولم يستثن؛ فابْتُلِىَ.

وقال أبو بكر الورّاق : كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة، فأعجب بعمله وقال : هل فى الأرض أحدٌ يعمل عملى؟ فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله عز وجل يقول : أُعجِبتَ بعبادتك والعجب

(١) التكملة عن الثعلبيّ.

(٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى. وفى الأصل : « بنى إسرائيل ».

يأكل العبادة ، فإن أُعجِبتَ ثانيا وَكَلْتُك إلى نفسك . فقال : يا ربّ كِلْنى إلى نفسى سنة . قال : إنها لكثيرة . قال : شهرا . قال : إنه لكثير . قال : فأسبوعا . قال : إنه لكثير . قال : فيوما . قال : إنه لكثير . قال : فساعة . قال : فشأنَك بها . فوكّل الأحراس ولَبِس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه ، فبينما هو فى نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه ؛ وكان من أمر المرأة ما كان .

قالوا : فلمّا دخل داود عليه السلام بامرأة أُوريّا لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله عز وجل مَلَكين فى صورة إنسيّين ، يطلبان أن يدخلا عليه ، فوجداه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه ؛ فتسوّرا المحراب عليه ، فما شَعَر وهو يصلّى إلّا وهما بين يديه جالسان ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾[1] أى تجُر ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * ﴾[2] أى وسط الطريق ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ كنى بالنِّعاج عن النساء ؛ والعرب تفعل ذلك . ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ . قال ابن عبّاس : أعطنيها . وقال ابن جُبَير عنه : تحوّل لى عنها . وقال أبو العالية : ضُمّها إلىّ حتى أكفُلَها . وقال ابن كَيْسان : إجعَلْها كِفْلى ، أى نصيبى . ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[3] ، أى غلبنى . وقرأ عُبَيد بن عُمَير : وعازّنى ، من المعازّاة ، وهى المغالبة . قال داود : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾

(١) سورة ص آية ٢١
(٢) سورة ص آية ٢٢
(٣) سورة ص آية ٢٣

أى الشركاء ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[1]. ورَوى السُّدِّىّ أن أحدهما لما قال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ الآية، قال داود — عليه السلام — للآخر : ما تقول ؟ قال : إن لى تسعا وتسعين نعجة ولأخى هذا نعجةٌ واحدة، وأنا أريد أن آخذها منه فأكمِّل نعاجى مائة وهو كاره . قال داود : وهو كاره ؟ قال نعم . قال : إذًا لا ندَعُك وذلك ، وإن رُمْتَ ذلك ضربْنا منك هذا وهذا، يعنى طرَف الأنف وأصلَ الجَبهة . فقال : يا داود، أنت أحقُّ أن يُضرَبَ منك هذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون آمرأة ولم يكن لأُورِيّاء إلا آمرأةٌ واحدة، فلم تزل به تعرّضه للقتل حتى قُتل وتزوّجتَ آمرأته . فنظر داود — عليه السلام — فلم يرَ أحدا، فعرف ما قد وقع فيه ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ أى أيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أى آبتليناه . قال سعيد بن جُبَير : إنما كانت فتنة داود النظر . قال الثعلبىّ : ولم يتعمد النظرَ إلى المرأة، ولكنه أعاد النظر اليها فصارت عليه[2] .

قال : فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير فى قصة آمتحان الله تعالى داود عليه السلام . وقد رُوِىَ عن علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — قال : « من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص معتقدا صحته جلدتُه حدَّين لعظيم ما آرتكب وجليل ما آحتقب[3] من الوِزْر والإثم، يَرمى مَنْ قد رفع الله محلَّه وأنابَه من خلقه رحمةً للعالمين وحجةً للمجتهدين » ! .

وقال القائلون بتنزيه المرسلين فى هذه القصة : إن ذنب داود — عليه السلام — إنما كان أنه تمنّى أن تكون له آمرأةُ أُورِيّاء حلالاً له ، وحدّث نفسه بذلك ، فآتفق

(١) سورة ص آية ٢٤

(٢) وذلك مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وعليك الأخيرة » .

(٣) احتقب الشىء : احتمله خلفه . ويريد هنا اكتسب الإثم .

غَزْو أُورِيّاء وتقدُّمُه فى الحرب وهلاكُه . فلمّا بلغه قتلُه لم يجزَع عليه ولم يتوجّع له كما [كان](١) يجزَع على غيره من جُنده إذا هلك، [ووافق قتله مُرادَه، ثم تزوّج آمرأته فعاتبه الله على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت](١) فهى عظيمة عند الله تعالى.

وقال بعضهم : ذنب داود أن أُورِيّاء كان قد خطب تلك المرأةَ ووطّن نفسه عليها ، فلما غاب فى غَزاته خطبها داود، فتزوّجت منه لجلالته؛ فآغتمّ لذلك أُورِيّاء غمًّا شديدا ، فعاتبه الله تعالى على ذلك ، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأوّل، وقد كانت عنده تسع وتسعون آمرأة .

١٣١/١١ قالوا : فلما علم داود أنه آبتُلِىَ سجد فمكث أربعين ليلةً ساجدًا باكيا حتى نبت الزرعُ من دموعه، وأكلت الأرض من جبينه، وهو يقول فى سجوده : ربِّ داودَ زل داودُ زَلّةً أبعد مما بين المشرق والمغرب، ربِّ إن لم ترحم ضَعْفَ داود وتَغفِرْ ذنبَه جعلتَ ذنبَه حديثًا فى الخُلُوف من بعده . فجاء جبريل — عليه السلام — بعد أربعين ليلة فقال : يا داود ، إن الله تعالى قد غَفَر لك الهمّ الذى هَمَمْتَ به . فقال داود : عرفتُ أن الربّ قادر على أن يغفر لى ، وقد عرفتُ أن الله عَدْلٌ لايَميل، فكيف بفلان إذا جاء يومَ القيامة فقال : يا ربّ، دمى الذى عند داود؟ فقال جبريل : ما سألتُ ربك عن ذلك ، ولئن شئتَ لأفعلنّ . قال نعم . فعرَج جبريل — عليه السلام — وسجد داود فمكث ما شاء الله ، ثم نزل جبريل فقال : قد سألتُ ياداود ربَّك عن الذى أرسلتَنى فيه فقال : قل لداود : إن الله يجمعكما يوم القيامة، فيقول له : هَبْ لى دَمَك الذى عند داود ؛ فيقول : هو لك ياربِّ، فيقول : فإن لك فى الجنة ما شئتَ وما آشتهيتَ عوَضًا .

(١) التكملة عن الثعلبى .

ورَوَى الثعلبيّ بسندٍ رفعه إلى ابن عبّاس وكعب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه ، قالوا جميعا : إن داود — عليه السلام — لما دخل عليه الملَكان فقضَى على نفسه تحوّلَا عن صورتهما ، فعرَجا وهما يقولان : قَضَى الرجل على نفسه . وعلم داود أنه عُنِيَ به ، فخرّ ساجدًا أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب ولا يرفع رأسه إلّا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجدا ، لا يرفع رأسه إلّا لحاجة لا بدّ منها ثم يعود ، فسجد تمامَ أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب وهو يبكى حتى نبت العُشْبُ حول رأسه ، وهو ينادى ربه — عز وجل — ويسأله التوبة ، ويدعو بدعاء طويل ذكره الثعلبيّ (١) ، فى آخر كل كلمة منه : سبحان خالقِ النور .

قال : فأتاه نداء : يا داود، أجائع أنت فتُطْعَم ، أظمآنٌ أنت فتُسْقَى ، أمظلوم أنت فتُنْصَر ، ولم يجبه فى ذكر خطيئته بشىء . فصاح صيحةً هاج منها ماحوله ؛ ثم نادى : يارب الذنب الذى أصبتُه . فنُودِىَ : ياداود، ارفع رأسك فقد غفرتُ لك . فلم يرفع رأسه حتى جاء جبريل — عليه السلام — فرفعه .

قال وَهْبٌ : إن داود — عليه السلام — أتاه نِدَاء : إنّى قد غفرتُ لك . قال : يارب، كيف وأنت لاتظلِم أحدا؟ قال: اِذْهَبْ إلى قبر أُورِيّاء، فناده وأنا أُسمِعه نداءك ، فتحلّلْ منه . فانطلَقَ حتى أتى قبرَه وقد لبِس المسُوح ، فجلس ثم نادى : يا أورِيّاء . فقال: لَبَّيك، مَن هذا الذى قطَع علىّ لذّتى وأيقظنى؟ قال: أنا داود . قال : ما جاء بك يانبيَّ الله؟ قال: أسألك أن تجعلنى فى حِلٍّ مما كان منّى إليك . قال : وما كان منك إلىّ؟ قال : عرّضتُك للقتل. قال : عرّضتنى للجنّة،

(١) سيأتى فى الصفحة التالية بعض هذا الدعاء .

فأنت فى حلٍّ . فأوحى الله تعالى إليه : يا داود، ألم تعلم أنى حَكَمٌ عدلٌ لا أقضى بالغيب والتغرير[(١)] ! ألَا أعلمته أنك قد تزوّجت آمرأته ! .

قال: فرجع إليه فناداه، فأجابه فقال : من هذا الذى قَطَع علىّ لذّتى؟ قال : أنا داود . قال: يانبىّ الله، أليس قد عفوتُ عنك! قال: نعم، ولكن إنما فعلتُ ذلك لمكان آمرأتك فتزوّجتُها ، فسكت ولم يُجبه، وعاوَدَه فلم يجبه، فقام عند قبره وحثا التراب على رأسه[(٢)] ثم نادى: الويلُ لداود ثم الويلُ لداود إذا نُصبت الموازين القِسْطُ [ليوم القيامة][(٣)]، سبحان خالقِ النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُؤْخَذ بذَقَنه فيُدفع إلى المظلوم، سبحان خالقِ النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُسْحَبُ على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقرِّبه الزبانية مع الظالمين إلى النار ، سبحان خالق النور .

قال : فأتاه نداء من السماء : ياداود، قد غفرت لك ذنبك، ورَحِمتُ بكاءك، وآستجبتُ دعاءك ، وأقلتُ عَثْرتك . قال: ياربّ، كيف لى أن تعفو عنّى وصاحبى لم يعفُ عنّى؟ قال : يا داود ، أُعطيه يوم القيامة ما لم تَرَعيناه ، ولم تَسمعَ أذناه ، فأقول له : رَضِيت عبدى ؟ فيقول : يا ربّ ، من أين لى هـذا ولم يبلُغه عملى؟ فأقول له : هذا عِوَض[(٤)] من عبدى داود، فأَستوهبُك منه فيَهَبُك لى. قال: يارب، الآن قد عرفتُ أنك قـد غفرتَ لى . فذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ[(٥)] * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾، أى ذلك الذنب ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ[(٦)] ﴾ أى وإنّ له بعد المغفرة عندنا يومَ القيامة حُسْنَ مرجع .

(١) كذا فى نسخة الثعلبى المخطوطة . وفى المطبوعة : «إلا بالحق» . وفى الأصول : «بالتعنت» .
(٢) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « وجعل التراب » .
(٣) التكملة عن نسخة الثعلبى المطبوعة . . (٤) أى من أجل عبدى داود .
(٥) سورة ص آية ٢٤ (٦) سورة ص آية ٢٥

قال الثعلبيّ ورفَعَه إلى وهب بن مُنَبِّه قال : إن داود — عليه السلام — لما تاب اللهُ تعالى عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنةً لا تَرْقَأُ له دمعةٌ ليلا ولا نهارا، وكان أصاب الخطيئة وهو ٱبن سبعين سنة ، فقسَم الدهرَ بعد الخطيئة على أربعة أيام ، فجعل يوما للقضاء بين بنى إسرائيل، ويوما لنسائه، ويوما يَسِيحُ فى الفيافى والجبال والساحل ، ويوما يخلو فى دار له فيها أربعةُ آلافِ محراب ؛ فيجتمع إليه الرُّهبان، فينوح معهم على نفسه ، ويساعدونه على ذلك . فإذا كان يومُ سياحته يخرج فى الفيافى ، فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكى وتبكى معه الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يَسِيلَ من دموعهم مثلُ الأنهار ؛ ثم يجىء إلى الساحل فيبكى وتبكى معه الحِيتان ودوابُّ البحر والسباعُ وطيرُ الماء، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم نَوْحه نادَى مُنادٍ: إن اليوم نوح داود على نفسه فليَحْضُر مَن يساعده . قال: فيدخل الدارَ التى فيها المحاريب، فتُبْسَط له فُرُشٌ من مُسوح حَشْوُها ليف فيجلس عليها ، ويجىء الرُّهبان وهم أربعة آلاف ، عليهم البرانس وفى أيديهم العِصِىّ، فيجلسون فى تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالنَّوح والبكاء، ويرفعُ الرهبانُ معه أصواتَهم، فلا يزال يبكى حتى تَغْرق الفُرُش من دموعه، ويقعَ داود مثلَ الفَرْخ يضطرب، فيجىء ٱبنُه سليمانُ فيحمله ، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفَّيه ، ثم يمسح بها وجهه ويقول : يارب ٱغفر ما تَرَى . قال: فلو عُدِلَ بكاءُ داودَ ببكاء أهل الدنيا لَعَدَلَه .

١٣٢/١١

وقال ثابت: ماشرب داود شرابا بعد المغفرة إلّا ونصفُه ممزوجٌ بدموع عينيه.

وعن الأوزاعىّ قال : بلغنا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : " خدت الدموعُ فى وجه داود — عليه السلام — خَدِيد الماء فى الأرض " .

ذكر ميلاد سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائىّ: كان لداود – عليه السلام – عِدّةٌ من الولد، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدًا يرث مُلْكَه؛ فرزقه الله تعالى سليمان. فنُودىَ إبليس عند ما حَمَلتْ به أمه: ياملعون، قد حُمِل فى هذه الليلة برجل يكون طولُ حزنك على يديه، ويكون أولادُك له خُدّاما. ففزِع من ذلك وجمع الشياطين وأخبرَهم بأمر المولود وما سمعه وقال: إنه لا يكون إلّا من داود، فإنه خيرُ أهل الأرض.

قال: فلما وضعتْه أمه أتت الملائكةُ إلى داود وقالوا: أقرّ الله عينَك به. فبادر داود إلى منزله فرأى أعلام الملائكة منصوبةً، فخرّ داود شكرا لله تعالى، وقرّب قُربانا عظيما. ثم جاءه إبليس وقال: يا داود، أقرّ الله عينَك بولدك، غير أنه يقتلك ويَسلُبُك مُلْكَك، فاقتُلْه صغيرا وإلّا قتَلك كبيرا، فغضب منه ولعنه، فانصرف وقد خاب أملُه.

قال: ونشأ سليمان، فكان داود إذا تلا الزبور حفظ ما يتلوه لوقته، وحفظ التوراة، وكان يحكم بحضرة أبيه.

ذكر خبر أَنْشالوم بن داود

قال الكِسائىّ: كان من خبر «أَبْشَالوم»(١) أنه لما كان من أمر فتنة داود – عليه السلام – ما قدّمناه، تكلّم بعضُ بنى إسرائيل فى ذلك وجاءوا إلى «أبشالوم» وهو ابن بنت طالوت، وقالوا: إن أباك قد كَبِر وعَجَز عن سياستنا، وقد وقع

(١) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠٥). وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٧٠ من القسم الأوّل) «أبشا» وفى قصص الأنبياء للثعلبى: «شالون» وقيل «إيشا». وفى قصص الأنبياء للكسائى: «انشالوم». وفى الأصل: «إيشالوم».

فى هذه الخطيئة، وأنت أكبرُ أولاده، والرأى أن ندعوَ الناس إليك وتقومَ مقامَه، فتبِع رأيَهم وتولّى المُلك . فخاف داود على نفسه من سفهاء بنى إسرائيل ، ففارق منزلَه وٱعتزل القوم برجلين من أصحابه . ثم جاء رجل من بنى إسرائيل ٱسمه أَحِيتوفَل[1] إلى أَبْشالُوم وقال : إنه لا يستقيم أمرُك إلّا بعد وفاة أبيك ، والرأى أن تُعاجِله وتقتلَه ما دام فى الخطيئة، فهمّ بذلك ثم صرفه الله عنه . فلما غفر الله تعالى لداود ورجع إلى قومه ٱعتزل ٱبنُه « أبشالوم » فى طائفة من بنى إسرائيل. فلمّا وُلد سليمان أرسل داودُ ٱبنَ أخت[2] له يقال له : « يُوآب[3] » إلى ٱبنه « أبشالوم » وقال: سِرْ إليه فإنه ٱعتزلنى خوفا على نفسه ، وما كنتُ بالذى أقتل ولدى وقد تاب الله تعالى علىّ ورزقنى هذا الولدَ المبارَك ، فإن ظَفِرتَ به فٱئتنى به مكرَّما، وإيّاك أن تقتله ، فإنك إن قتلتَه قتلتُك به . فسار إليه فى نفر من أصحابه، فٱلتقوْا وٱقتتلوا قتالا شديدا ، فٱنهزم أبشالوم ومن معه . فبينا هو فى هزيمته إذ مرّ بشجرة فعَلِق بَرْنُسُه بها ، وخرج الفرس من تحته ، فأدركه يوآب فحمله الحَرَج[4] على قتله فقتله وتركه معلّقا فى الشجرة، ورجع إلى داودَ فأخبره الخبر، فغضب وقال : إنى قاتلُك به لا محالة عاجلا أو آجلا .

قال الثعلبىّ : فلما حضرتْ داودَ الوفاةُ أمر سليمان أن يقتله ، فقتله بعد فراغه من دفن أبيه .

---

(١) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٣٠) . وفى الأصول : « نوفل » .

(٢) كذا فى الأصول والكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٠٤) . وفى الثعلبىّ : « ابن أخ » وهو خطأ .

(٣) ورد هذا الاسم فى الأصول وقصص الأنبياء للكسائى هكذا : « نوال » . وفى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوعة : « ثواب » . والتصويب عن الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٢٥) والنسخة المخطوطة من قصص الأنبياء للثعلبى . وهو « يوآب بن صروية » .

(٤) الحرج : الضيق .

ذكر خبر الزرع الذى رعته الغنم وما حكم فيه سليمان عليه السلام

١٣٣/١١ قال الكسائىّ : وبينما داود — عليه السلام — فى يوم قضائه وسليمانُ بين يديه، إذ تقدّم إليه قوم فقالوا : يا نبىّ الله ، إنّا قوم حرثنا أرضا لنا وزرعناها وسقيناها حتى بلغت الحَصَاد، فجاء هؤلاء وأرسلوا أغنامهم فيها بالليل، فرعتْها جميعا حتى لم يبق منها شىء . فقال داود لأصحاب الغنم : ما تقولون؟ قالوا : صدقوا . فقال لأصحاب الزرع : كم قيمةُ زرعكم؟ قالوا : كذا وكذا . وقال لأرباب الغنم : كم قيمة أغنامكم؟ فذكروا قيمتها، فتقاربت القِيَمَ، فقال : ادفعوا أغنامكم إليهم بقيمة زرعهم. فقال سليمان : يا أبت إن أذِنتَ لى تكلّمتُ . قال: يابُنَىّ تكلم بما عندك. فقال سليمان لأرباب الغنم : ادفعوا أغنامَكم إلى هؤلاء ينتفعوا بأصوافها وألبانها ونتاجِها ، وخذوا أنتم أرضَهم فآحرُثوها وآزرعوها وآسقوها حتى يقوم الزرعُ على سُوقه، فإذا بلغ الحَصادَ فسلِّموا إليهم أرضهم بزرعها وخذوا أغنامكم ، فرضُوا جميعا بذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (١) .

قال : ولما نظر مشايخ بنى إسرائيل إلى جلوس سليمان عن يمين أبيه مع صغر سنّه حسدوه على ذلك. فأوحى الله إلى داود أن يقيم سليمانَ خطيبا ليُسمِعهم من الحكمة ما ألهمه الله ليعلموا فضلَه عليهم. فجمع داودُ الناسَ حتى العُبّاد والرُّهبانَ وأهلَ السياحة إلى محرابه، وكانت سِنُّ سليمان يومئذ آثنتى عشرةَ سنة، فأخرجه داود إليهم وألبسه لباسَ النبيِّين من الصوف الأبيض وقال : هذا آبنى قد أخرجتُه إليكم خطيبا ليُورِد عليكم مما علّمه الله تعالى . فجلس على منبر أبيه وحمد الله تعالى ووحّده، ووصفَ عجائب خَلْقه وصُنْعه ؛ فسجدوا شكرا لله، ونظروا إليه بعد ذلك

(١) سورة الأنبياء آية ٧٩

بالعين الرفيعة وأجلّوه، وأعطِىَ سليمانُ فى حياة أبيه من العلم ما فَسَّر لبنى إسرائيل خطبةَ آدم و وصيّةَ شيثٍ و رفعَ إدريسَ وغيرَ ذلك .

ذكر خبر الذين آعتدَوْا فى السبت

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ آعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَآسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ (٢) الآية .

قال الكسائىّ : وكان فى زمن داود — عليه السلام — قومٌ من بنى إسرائيل من أبناء الذين كانوا مع موسى؛ وكانوا ينزلون على ساحل البحر بقرية يقال لها : «أيْلة» (٣) وكان الله قد حرّم على بنى إسرائيل أن يشتغلوا يوم السبت ، وأوجبَ عليهم فيه العبادة ؛ لأنّ موسى — عليه السلام — أمرهم بالعبادة يومَ الجمعة فأبَوْا وقالوا : لا ينبغى لنا أن نشتغل بعبادة الرب إلا فى اليوم الذى فَرَغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت . فلمّا آختاروه شدّد الله عليهم فيه ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ آخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (٤) . وكان موسى يأمر قومه بتعظيمه؛ فكانوا كذلك مدّة ، وكان على ساحل البحر إلى جانب أَيْلة حجَران أبيضان ، وكانت الحِيتان تخرج إلى أصلهما ليلةَ السبت و يومَ السبت ، لأنها كانت لا تصاد ، فإذا أقبلتْ ليلةُ الأحد

---

(١) سورة البقرة آية ٦٥

(٢) سورة الأعراف آية ١٦٣

(٣) أيلة : فرضة شهيرة فى أدوم واقعة على شاطئ الخليج الشرقى من البحر الأحمر، مر بها الاسرائيليون، وكانت ذات شأن فى زمن سليمان . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست) .

(٤) سورة النحل آية ١٢٤

خرجتْ منهما إلى البحر، فيتعذّر عليهم صيدها فيه إلّا بمشقّة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾[1]. فجعل فُسّاق أهل «أيلة» يقول بعضهم لبعض: إنما حرّم الله تعالى الاصطيادَ على آبائنا وأجدادنا لا علينا، ونحن لا ذنب لنا، وهذه الحِيتان تكثر يومَ السبت وليلتَه، فمن المُحال تركُها؛ فاصطادوها وطبخوها وشَوَوْا منها، فشمّ المؤمنون رائحتَها في يوم السبت، فخرجوا إلى الفُسّاق ووعظوهم وحذّروهم، فلم يكترثوا لذلك ولم ينتهوا عنه، فاجتمع المؤمنون على أبواب القرية بالسلاح ومنعوهم من دخولها، فاشتدّ ذلك على الفُسّاق وشقّ عليهم أن يمتنعوا من الاصطياد في يوم السبت لكثرة الحِيتان فيه دون غيره من الأيام، فقالوا: إن هذه [القريةَ][2] مشتركة بيننا [وبينكم][2] ولا يحلّ لكم أن تمنعونا منها، فإمّا أن تصبروا على أفعالنا أو تُقاسِمونا القرية فننفرد عنكم. فتراضَوْا على ذلك وقاسموهم القرية، وبنَوْا بينهم حيطانا عالية وبابا يدخلون منه غيرَ بابهم، وانفردت كلُّ طائفة، واشتغل الفُسّاق باللهو واللعب والاصطياد، وحفروا أنهارًا صغارًا من البحر إلى أبواب دُورهم، فكانت الحِيتان تأتيها في يوم السبت، فإذا غَرُبت الشمس همّتِ الحِيتان بالرجوع إلى البحر، فيسُدّون أفواهَ تلك الأنهار مما يلي البحر، ويصيدون تلك الحيتان. هذا والمؤمنون يخوّفونهم عذابَ الله فلا يرجعون. فلمّا طال ذلك وتكرّر منهم قال بعض المؤمنين لبعض: إلى كم ننصح هؤلاء ولا يزيدون إلا تماديا وعُتُوًّا! قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾[3] الآية.

(١) سورة الأعراف آية ١٦٣

(٢) التكملة عن الكسائي.

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٤

قال : وٱستغنى الفُسّاق وكثُرت أموالهم، وٱشترَوْا الضِّياع وٱنهمَكُوا على الفِسق. فبلغ ذلك داودَ — عليه السلام — فلعنهم ودعا عليهم . فبينما هم فى منازلهم فى شرّ ما هم فيه إذ زُلزلت قريتُهم زلزلة عظيمة ، ففزِع المؤمنون وخرجوا من بيوتهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾. فالذين لُعِنوا على لسان داود هم هؤلاء الذين اعتدَوْا فى السبت ، والذين لُعِنوا على لسان عيسى الذين سألوه نزولَ المائدة، فلمّا نزلت عليهم كفروا .

١٣٤/١١

قال : فمسخ الله هؤلاء الذين ٱعتدَوْا فى السبت قِرَدة، ومسَخَ أصحابَ المائدة خنازير — وسنذكر إن شاء الله خبر أصحاب المائدة فى موضعه من أخبار عيسى عليه السلام — قال : فكان أحدُهم يأتى حميمَه من المؤمنين وعيناه تَذْرِفان دمعا فيقول له : أنت فلان؟ فيشير برأسه، أى نعم . فيقول لهم المؤمنون : قد أنذرناكم عذابَ ربكم وعقوبتَه فلم تتّعظوا، فنزل بكم ما نزل .

قال الثعلبىّ قال قَتادة : صارت الشُّبّان قِرَدة، والشيوخُ خنازير ، فما نجا إلّا الذين نَهَوْا وهلك سائرُهم . قال: ثم برز الممسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيِّرين، فمكثوا ثلاثةَ أيام ثم هلكوا ، وكذلك لم يلبث مَسْخٌ فوقَ ثلاثةِ أيام ، ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ؛ ثم بعث ٱلله تعالى عليهم ريحا ومطرا فقذفهم فى البحر ، فإذا كان يوم القيامة أعادهم الله إلى صُوَرهم الأولى البشرية ، فيدخلهم النار . والله أعلم .

(١) سورة الأعراف آية ١٦٥ .
(٢) سورة المائدة آية ٨٧ .

ذكر استخلاف داودَ ابنَه سليمانَ عليهما السلام

وخبر الصحيفة وابتداء أمر الخاتم

قال الكسائى — رحمه الله — : ولمّا أتى على سليمان بضعٌ وعشرون سنة نزل جبريل على داود بصحيفة ، وأَمَرَه عن الله تعالى أن يجمع أولاده ويقرأَ عليهم ما فى الصحيفة من المسائل ، فمن أجاب عمّا فيها فهو الخليفة من بعده . فأحضر داود أولاده ، وكان سليمان أصغرَهم سنًّا ، وقرأ عليهم ما فى الصحيفة ، فأقرُّوا بالعجز عن معرفتها ، وذلك بحضور مشيخة بنى إسرائيل ، فقال داود — عليه السلام — لسليمان — عليه السلام — : أجب عن هذه المسائل . فقال : أرجو أن يَهْدِيَنى الله تعالى إلى جوابها . فقال : يا سليمان ، ما الشىء؟ قال : المؤمن . قال : فما بعضُ الشىء ؟ قال : الفاجر . قال : فما لا شىء ؟ قال : الكافر . قال : فما كلّ شى ؟ قال : الماء . قال : فما أكبر شىء ؟ قال : الشِّرْك . قال : فما أقلّ شىء؟ قال : اليقين . قال : فما أمرّ شىء ؟ قال : الفقر بعد الغنى . قال : فما أحلى شىء ؟ قال : المال والولد . قال : فما أقبح شىء؟ قال : الكفر بعد الإيمان . قال : فما أحسن شىء ؟ قال : الرُّوح فى الجسد . قال : فما أوحشُ شىء؟ قال : الجسد بلا رُوح . قال : فما أقربُ شىء؟ قال : الآخرة [من الدنيا](١) . قال : فما أبعدُ شىء ؟ قال : الدنيا من الآخرة . قال : فما أشرّ شىء؟ قال : المرأة السوء . قال : فما خير شىء؟ قال : المرأة الصالحة .

قال : وكان داود يصدِّقه عَقِبَ كل مسئلة ، ثم التفت إلى بنى إسرائيل فقال : ما أنكرتم من قول ابنى؟ قالوا : ماأخطأ فى شىء متّعك الله به ، وبارك لنا ولك فيه . قال : أترضَون أن يكون خليفتى عليكم ؟ قالوا نعم . هذا ماأورده الكسائىّ رحمه الله .

(١) الزيادة عن قصص الأنبياء للكسائى .

وقد ذكر الثعلبيّ فى هذه القصة زيادات نذكرها . قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — قال أبو هريرة — رضى الله عنه — : نزل كتاب من السماء مختوم بخاتم من الذهب على داودَ فيه ثلاثَ عشرةَ[1] مسألة، فأوحى الله تعالى إليه أن آسأل عنها آبنك سليمان، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك . قال : وإن داود — عليه السلام — دعا سبعين قِسِّيسًا وسبعين حَبرا ، ولم يذكر أولاده . قال : وأجلسَ سليمانَ بين أيديهم وقال له : يا بُنَىّ ، إن الله أنزل من السماء كتابا فيه مسائل ، وأمِرتُ أن أسألك عنها ، فإن أخرجتَها فأنت الخليفة من بعدى . قال سليمان : اسأل يا نبىّ الله عما بدا لك، وما توفيقى إلا بالله .

قال داود : أخبرنى يا بُنىّ، ما أقربُ الأشياء ؟ وما أبعدُ الأشياء ؟ وما آنَسُ الأشياء ؟ وما أَوحشُ الأشياء ؟ وما أحسنُ الأشياء ؟ وما أقبحُ الأشياء ؟ وما أقلّ الأشياء ؟ وما أكثرُ الأشياء ؟ وما القائمان ؟ وما المختلفان ؟ وما المتباغضان ؟ وما الأمرُ الذى إن ركبه الرجل حَمِدَ آخِرَه ؟ وما الأمرُ الذى إن ركبه الرجل ذمّ آخره ؟ .

قال سليمان : أمّا أقربُ الأشياء فالآخرة. وأما أبعدُ الأشياء فما فاتك من الدنيا. وأما آنسُ الأشياء فجسد فيه روح . وأما أوحشُ الأشياء فالجسد بلا روح. وأما أحسنُ الأشياء فالإيمان بعد الكفر[2] . وأما أقبحُ الأشياء فالكفر بعد الإيمان . وأما أقلُّ الأشياء فاليقين . وأما أكثرُ الأشياء فالشكر . وأما القائمان : فالسماء

(١) كذا فى الأصول وقصص الأنبياء للثعلبى . غير أن الثعلبى قد ذكر فى كتابه من المسائل أربع عشرة مسألة، ومن الأجوبة أربعة عشر جوابا ، فزاد فى المسائل قوله : وما الساعيان، وزاد فى الأجوبة قوله : وأما الساعيان فالشمس والقمر .

(٢) هذه عبارة الثعلبى فى النسخة المخطوطة والمطبوعة . وفى الأصول : « فالروح فى الجسد » وهو خطأ من الناسخ .

والأرض . وأما المختلفان : فالليل والنهار . وأما المتباغضان : فالموت والحياة . وأما الأمرُ الذى اذا ركبه الرجل حَمِدَ آخره فالحلم . وأما الأمرُ الذى اذا ركبه الرجل ذمّ آخره فالحدّة عند الغضب .

قال : ففكّوا الخاتَم ، فإذا جواب المسائل سواءٌ على ما نزل من السماء . فقال القِسِّيسُون والأحبار : لا نرضى حتى نسأله عن مسألة ، فإن هو أخرجها فهو الخليفة . قال : سلوه . قال سليمان : سلونى وما توفيق إلا بالله . قالوا : ما الشىءُ الذى إذا صَلَح صَلَح كلُّ شىء من الإنسان ، وإذا فسد فسد كلُّ شىء منه ؟ قال : هو القلب . فقام داود وصعِد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : إن الله أمرنى أن أستخلف عليكم سليمان . قال : فضجّت بنو اسرائيل وقالوا : غلام حَدَثٌ يُسْتَخْلَفُ علينا وفينا من هو أعلم وأفضَلُ منه ! فبلغ ذلك داودَ ، فدعا رءوس أسباط بنى إسرائيل وقال : إنه بلغتْنى مقالتكم ، فأَرُونى عِصِيّكم ، فأىّ عصا أثمرتْ فإنّ صاحبها ولىّ هذا الأمر [بعدى] ؛ فقالوا : قد رَضِينا . فجاءوا بعِصِيِّهم ؛ فقال لهم داود : ليكتبْ كل رجل منكم آسمه على عصاه ؛ فكتبوا . ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها آسمه ؛ ثم أدخلتْ بيتا وأُغلِقَ عليها الباب وسُكِّر بالأقفال ، وحرسه رءوسُ أسباط بنى إسرائيل . فلما أصبح صلّى بهم الغداة ؛ ثم أقبل وفتح الباب وأخرج عِصِيَّهم كما هى ، وعصا سليمانَ قد أثمرتْ وأَورقتْ . قال : فسلّموا ذلك لداود ، فأخذ آبنَه سليمانَ ثم سار به فى بنى إسرائيل فقال : هذا خليفتى فيكم من بعدى .

١٣٥/١١

قال وهب بن مُنَبِّه : لما آستخلفَ داودُ آبنَه وعظه فقال : يا بنىّ ، إياك والهَزْلَ ؛ فإنّ نفعه قليل ويَهيجُ العداوةَ بين الإخوان . وإيّاك والغضب ؛ فإن الغضب يستخفّ صاحبه . وعليك بتقوى الله وطاعته ؛ فإنهما يغلبان كل شىء . وإيّاك

وكثرةَ الغَيرةِ على أهلك من غير شيء؛ فإن ذلك يورِث سوءَ الظنّ بالناس وإن كانوا بُرَآء. وٱقطع طمَعك عن الناس؛ فإنه هو الغنى. وإياك والطمعَ فهو الفقر الحاضر. وإياك وما يُعتذَر منه من القول والفعل. وعوِّد نفسَك ولسانَك الصدق؛ وٱلزم الإحسان؛ فإن ٱستطعتَ أن يكون يومُك خيرا من أمسك فافعل. وصلّ صلاةَ مودِّع، ولا تجالس السفهاء، ولا تردّ على عالم ولا تُمارِه فى الدِّين. وإذا غضِبتَ فألصِق نفسَك بالأرض وتحوَّلْ من مكانك. وٱرجُ رحمةَ الله فإنها واسعة وَسِعتْ كل شيء.

قالوا: ثم إن سليمان بعد أن ٱستُخلِف أخفَى أمرَه وتزوّج ٱمرأةً وٱستتر عن الناس، وأقبلَ على العلم والعبادة. ثم إن ٱمرأته قالت له ذات يوم: بأبى أنت وأمّى، ما أكمَلَ خصالَك وأطيبَ رِيحَك! ولا أعلم لك خَصلةً أكرهُها إلّا أنك فى مئونة أبى[(١)]، فلو أنك دخلتَ السوق فتعرّضتَ لرزق الله لرجوتُ ألا يخيّبك الله. قال سليمان: إنى والله ما عَمِلتُ عملًا ولا أُحسِنه، ثم دخل السُّوق صبيحةَ يومه ذلك فلم يقدِر على شيء، فرجع فأخبرها. فقالت له: يكون غدًا إن شاء الله.

فلما كان فى اليوم الثانى مضى حتى ٱنتهى إلى ساحل البحر وإذا هو بصيّاد، فقال له: هل لك أن أعينك وتُعطِيَنى شيئا؟ قال نعم، فأعانه. فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين، فأخذهما وحَمِد الله تعالى، ثم إنه شقّ بطنَ إحداهما فإذا هو بخاتَم فى بطنها، فأخذه وصرّه فى ثوبه، وحَمِد الله تعالى، وجاء بالسمكتين إلى منزله، ففرِحت ٱمرأته بذلك، فأخرج الخاتَم [ولبسه[(٢)] فى إصبعه]؛ فعكفت عليه

(١) كذا فى نسختى الثعلبى المخطوطة والمطبوعة. وفى الأصول: «أبيك».

(٢) زيادة عن نسخة الثعلبى المطبوعة.

الطير والريح، ووقع عليه بهاء المُلك ؛ ولم يلبَث أبوه أن مات . [فلما ملك حَمَل المرأة وأبويها إلى إصطَخر[1]] .

وقد قيل فى أمر الخاتم غير ذلك — على ما أورده الكسائىّ — وسنذكره إن شاء الله تعالى بعد هذا فى أخبار سليمان عليه السلام .

ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الكسائىّ : كان داود — عليه السلام — شديدَ الغَيرة على النساء، ويُغلق الأبواب عليهنّ إذا خرج ، ويحمل المفاتيح معه . فقيل : إنه رجع يوما ففتح باب نسائه ، فرأى رجلا فى داره ذا مَهَابة[2] . فقال له داود — وغضب — : مَن أنت ؟ ومَن أدخلك دارى ؟ قال : أدخَلَنى الدار مَن هو أولى بها منك، أنا الذى لا أهاب الملوك، ولا يمنعُنى دونَهم الحُجّاب والجنود، وأفرق بين الجمع، أنا ملَك الموت . فارتعد داود وقال : دَعْنى أدخل إلى أهلى لأودّعهم . قال : لا سبيل إلى ذلك يا داود . فبكى وقال : مَن لبنى اسرائيل من بعدى؟ قال : ابنُك سليمان. قال: الآن طابت نفسى، امْضِ لما أُمرتَ به، فقبض رُوحَه — عليه السلام — وغسّله سليمانُ وإخوتُه، وكفّنه بأكفان نزلت عليه من الجنة، وحمله إلى قبره،

---

(١) زيادة عن نسخة الثعلبى المخطوطة . و إصطخر : مدينة بفارس قرب مدينة برسبوليس (مدينة الفرس) التى كانت عاصمة تلك البلاد قديما . وهى واقعة فى الشمال الشرقى من شيراز ، على ٣٥ ميلا منها فى الطريق إلى أصبهان ؛ دخلها اسكندر المقدونى وحرق قصر ملوك الفرس فيها سنة ٣٣١ قبل الميلاد . وآسمها الآن « تشهيل منار » أى ذات الأربعين عمودا . (راجع معجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية للمرحوم أمين واصف) .

(٢) كذا فى الكسائىّ . وفى الأصول : « فى نهاية الجمال » .

ودُفن دون غار إبراهيم — عليه السلام — قال : وعكفت الطير على قبره أربعين يوما .

قال الثعلبيّ فى خبر وفاة داود : إن داود كانت له وصيفةٌ تُغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام، ويُقبِل داود على وِرْده فى العبادة . فأغلقت ذاتَ ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام ، فرأت رجلا قائما فى وسط الدار فقالت : ما أدخلَك هذه الدار ! فإن صاحبها رجل غيور ، فخذ حِذْرك . فقال : أنا الذى أدخل على الملوك بغير إذن . فسمعه داود، وكان فى المحراب يصلّى، ففزِع واضطرب وقال : علىّ به ، فأتاه . فقال : ما أدخلك هذه الدار فى هذا الوقت بغير إذن ؟! فقال : أنا الذى أدخل على الملوك بغير إذن . قال : فأنت مَلَكُ الموت؟ قال نعم . قال : أجئتَ داعياً أم ناعيا ؟ قال : بل ناعيا . قال: فهلّا أرسلتَ إلىّ قبل ذلك وآذنتَنى لأستعدّ للموت ؟ قال : كم أرسلتُ إليك يا داود فلم تنتبه . قال : ومَن كانت رسُلُك ؟ قال : ياداود ، أين أبوك إيشى ؟ وأين أمّك؟ وأين أخوك ؟ وأين قَهْرَمانُك فلان ؟ قال : ماتوا كلهم . قال : أمَا علمتَ أنهم رُسُلى، وأن النوبة تبلُغُك ! ثم قبضه .

قال أهل التاريخ : كان عمر داود مائة سنة، ومدّةُ ملكه أربعين سنة .

وقد تقدّم خبر آدمَ فيما وَهَب له من عمره (١) .

(١) هنا ينتهى السفر الحادى عشر من هذا الكتاب من النسختين المأخوذتين بالتصوير الشمسى المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٥٤٩ و ٥٩٢ معارف عامة . وصورة ما جاء فى آخر هذا السفر من النسخة الأولى : « كمل السفر الحادى عشر على يد كاتبه نور الدين العاملى غفر الله له ولوالديه فى تاسع عشر ذى القعدة سنة ٩٦٦ هـ » . وصورة ما ورد فى النسخة الثانية : « كمل السفر الحادى عشر من نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى وذلك فى مستهل شهر رجب الفرد سنة ٩٦٦ هـ على يد كاتبه الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ ابراهيم الجبرتى الحنفى، غفر الله له ولوالديه آمين » .

١/١٢

ذكر نبوّة[1] سليمان بن داود عليهما السلام وملكه

قال الكسائىّ — رحمه الله — : ولما قام سليمان — عليه السلام — من عَزاء أبيه داود وتفرّق الطير عن قبره ، دخل محرابَ أبيه ، فهبَط عليه جبريل — عليه السلام — وقال له : إن الله تعالى يخصّك بالسلام ويقول لك : المُلك أحبّ إليك أو العِلم ؟ . فخرّ سليمان ساجدا لله تعالى وقال : العِلم أحبّ إلىّ من المُلك ، لأنه أنفع الأشياء . فأوحَى الله تعالى إليه : إنك تواضعتَ وآخترتَ العلم على المُلك ، فقد وهبتُ لك العِلم والمُلك ، وأضفتُ إلى ذلك كمالَ العقل وزينةَ الخُلُق ، ونزعتُ عنك العُجْب[2] ، وسأطوى لك الدنيا بأسرها حتى تطأها بجيشك وتشاهدَ عجائبها . فخرّ سليمان ساجدًا لربّه ، ورفع رأسه فإذا الرياح الثمانية قد وقفت بين يديه وقالت له : إن الله سخّرنا لك ، فآركبْنا إذا شئتَ إلى أىّ موضع شئتَ . وأقبلتِ الوحوشُ والسِّباع فوقفت بين يديه وقالت : إن الله أمرنا بالطاعة لك . وأقبلت الطير وقالت : قد أُمرنا أن نُظلّك بأجنحتنا ولا نخالفك فى أمر . وفوّض الله — عز وجل — إلى سليمان أمرَ الدنيا شرقِها وغربِها .

ذكر حشرِ الطير لسليمان بن داود عليهما السلام وكلامها له

قال الكسائىّ : ولما آتاه الله النبوّة والملك أحبّ أن يستنطق الطير ، فحُشِرت إليه ، فكان جبريلُ يحشُر طيرَ المشرق والمغرب من البر[3] ، وميكائيلُ يحشُر طيرَ الهواء والجبال . فنظر سليمان إلى عجائب خَلْقها . وجعل يسأل كل واحد منها عن مسكنه

---

(١) ابتداء الجزء الثانى عشر من تجزئة الأصل . وقد افتتحه المؤلف بالبسملة والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى الكسائى : « الشحّ » .

(٣) فى قصص الأنبياء للكسائى : « الأرض » .

ومعاشه فيخبره ، وكان بين يديه سبعةُ ألوية من ألوية الأنبياء ، يُمسكها سبعةٌ من الملائكة .

قال : ولما حُشرت الطيرُ له جاءته فَوْجا فَوْجا ؛ فسلّمت عليه « الخُطّافة » بثلاث لغات (١) وقالت : يانبيّ الله ، أنا ممن اختارنى نوح وحملنى فى السفينة ، ومنّى تناسَل كلُّ خُطّافة فى الدنيا ، ودعا لى آدمُ وقال : إنكِ تُدرِكين من أولادى مَن خلافتُه مثلُ خلافتى ، تُحْشَر إليه الوحوش والطيورُ والمَرَدَةُ ، فإذا رأيتِه فأقرئيه منّى السلام . وقالت له : يا نبيّ الله ، إن معى سُورةً تعجَب الملائكةُ من نُورها ، ما أُعطِيتْ لأحدٍ من بنى آدم غيرَ أبيك إبراهيم ، فإنها نزلت كرامةً له يوم أُلقِىَ فى النار ، فهل لك أن تسمعها منّى ؟ قال نعم . فقرأت سورة ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ حتى بلغت ﴿ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾ ومدّت صوتها بآمين وسجدت ، وسجد معها سليمان عليه السلام .

ثم تقدّم « النَّسر » وهو يومئذ فى صورة عظيمة فقال : السلام عليك يا ملِك الدنيا ، ما رأيتُ مُلْكا أعظم من مُلْكك ، وإنى صحِبتُ آدم وساعدتُه على كثرة حزنه ، وأنا أوّل من عَلِم بهبُوطه إلى الأرض ، وكنتُ معه إلى أن تاب الله عليه وقال : إنه يكون من ذرّيتى من يحشر له الطير ، فإذا رأيتَه فأَقرِئه منّى السلام ؛ وقد أدّيتُ إليك وديعتَه ، فاصطنِعنى يانبيّ الله ، فإنى عليم بمعادن (٢) الأرض وجبالها ، ومعى آيةٌ عظيمة لا يفتُرُ لسانى عنها ، وهى : ﴿ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٣) . ثم سجد وسجد معه سليمان ؛ فلمّا رفع رأسه جعله سليمانُ ملِكا على سائر الطيور .

(١) فى الكسائى : « بثلاث لغات باللغات التى سلمت بها على آدم ونوح وابراهيم عليهم السلام » .
(٢) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « مفاوز » .
(٣) سورة النساء آية ٨٧

ثم تقدّمت « العُقَاب »[1] فوقفت بين يديه وسلّمت عليه وقالت : يا نبيّ الله، إن الله حين خلقني كنتُ أعظم خلقًا من هذا، غير أن حُزني على هابيل يوم قتله قابيلُ صيّرني الى ما ترى، ولقد توحّشت الأرض والجبال يوم قُتِل. ومعى آية أعطانيها ربى، وهى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[2] . ثم قالت : سلّطنى على من شئت، فإنى قوية سميعة .

ثم تقدّمت « العنقاء » وهى يومئذ شديدة البياض ، وصدرُها كالذهب الأحمر، ووجهها كوجه الإنسان، ولها ذوائب كذوائب النساء، ورجلان صفراوان، ولها تحت أجنحتها يدان ، فى كل يد ثلاثون إصبعا ، فوقفت بين يديه وسلّمت وقالت : إن الله فضّلك على كثير من الملوك حين أبرزَنى اليك فى صورتى هذه ، فمرنى بما شئت ، فوالله ما نطقتُ لأحد إلا لصفوة الله آدم ، فإنى وقفت بين يديه وتعجّب من حسن صورتى ، وقال : ما أشبهك بطيور الجنان ! فمنذ كم خلقك ربك؟ قلت : منذ ألفى عام . ثم تبخترت بين يديه فقال : أيها الطائر، إنك مُعْجَبٌ بخلقك ، والعُجْب يهلك صاحبه، لقد فاز المفلحون وخسر المبطلون .

وللعنقاء خبر عجيب نذكره — إن شاء الله — فى آخر خبر الطير على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

ثم تقدّم «الغُراب» فسلّم وقال : يا نبيّ الله، لقد فضّلك الله على كثير من ولد آدم ، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ، و إنى كنت أبيض

(١) العقاب : طائر من العتاق مؤنثة ، وقيل : العقاب يقع على الذكر والأنثى إلا أن يقولوا : هذا عقاب ذكر .

(٢) سورة الأعلى آيتى ١٤ و ١٥

قبل ذلك ، فصرت كما ترى ، لمّا سمعتهم يقولون : اتخذ الرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ولقد دعا لى أبوك آدم ونوح بطول العمر ؛ وسمعت أباك إبراهيم يتلو آية يخضع لها كل شىء، وهى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[1] .

٥ ثم تقدّمت «الحمامة» فسلّمت عليه وقالت: يانبىّ الله، أنا الحمامة التى اختارنى أبوك آدم لنفسه إلفا وأنيسا ، وكنت آنسُ به وبتسبيحه؛ وكان اذا ذكر الجنة يصيح صيحة عظيمة ويقول: أترانى أرجع إليها؟ وإن لم أرجع إليها كنت من الخاسرين . واعلم يا نبىّ الله أنه قد علّمنى كلمات حفظتها عنه، وهى : الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله سيد الأوّلين والآخرين .

١٠ وقد أقبلتُ إليك طائعة لأمرك، فمرنى بما شئت .

ثم تقدّم « الهُدْهُد » فسلّم عليه وسجد بين يديه وقال : ما أحببتُ أحدًا كما أحببتك ، لأنى رأيت الدنيا ضاحكة لك ، وقد أعطاك الله مُلكا عظيما ، فاتخذنى رسولا آتك بالأخبار، وأدلك على مواضع الماء . فقال له : أراك أكيس الطيور، وأرى فخاخ بنى إسرائيل تصطادك، ولا تغنى عنك كياستك شيئا . قال الهدهد :

١٥ يا نبىّ الله ، الحيلة لا تنفع مع القضاء والقدر ، وإن الله يضيف إلى عقل المخلوق سبعين ضِعفا ثم ينفّذ فيه حكمه وقضاءه . قال : صدقت . ثم سجد بين يديه مرارا .

ثم تقدّم إليه « الديك » وهو آخر من تقدّم ، فوقف بين يديه وهو فى نهاية الحسن، وضرب بجناحيه، وصاح صيحة أسمع الملائكة والطيور وجميع من حضر

٢٠ (١) سورة المدثر آية ٣٨

وقال فى صياحه : يا غافلين اذكروا الله . ثم قال : يا نبيّ الله، إنى كنت مع أبيك آدم وكنت أُوقظه أوقات الصلوات ، ومع نوح فى الفُلك ، ومع أبيك إبراهيم وكنت أسمعه يقول : « اللهمّ مالكَ المُلْكِ تؤتى الملك مَن تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتُعزّ من تشاء ، وتُذلّ من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » . وأعلم يا نبيّ الله أنى ما صحت صيحة إلا أفزعت بها الجن والشياطين . ففرح سليمان به وأمره أن يكون معه حيثما كان . ووقف كل طير بين يديه ، وفرغ من حَشْر الطيور وعرفها بأسمائها ومنطقها ، وكانوا يعبدون الله بالليل والنهار ، وكذلك الوحوش والسباع ، حتى عَرَف كل واحد منهم بأسمه وصفته ونعته[(١)] .

٣/١٢

ذكر خبر العنقاء فى القضاء والقدر

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — بسند رفعه الى جعفر بن محمد الصادق قال : عاتب سليمان الطير فى بعض عتابه فقال لها : إنك تأتين كذا، وتفعلين كذا ، فقالت له : والله ربِّ السماء والثَّرَى ، إنا لنحرص على الهدى ، ولكن قضاءَ الله يأتى إلى منتهى علمه وقَدَره . قال سليمان : صدقت ، لاحيلة فى القضاء . فقالت العنقاء : لست أُومن بهذا . قال لها سليمان : أفلا أخبرك بأعجب العجب ؟ قالت بلى . قال : إنه وُلد الليلة غلامٌ فى المغرب، وجارية فى المشرق، هذا ابن ملك

---

(١) هذه عبارة الكسائى فى النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٤٦٦ أدب ، وعبارة الأصول : « قال : ولما فرغ من حشر الطير وعرفها بأسمائها ولغاتها وكانوا يأتونه بالليل والنهار ، وكذلك الوحوش والسباع حتى عرفها بأسمائها والله أعلم » .

وهـذه بنت ملك ، يجتمعان فى أمنع المواضع وأهولها على سِفاح بقَدَر الله تعالى فيهما . قالت العنقاء : يا نبيّ الله ، وقد وُلدا ؟ قال : نعم الليلةَ . قالت : فهل أُخبرتَ بهما ؟ من هما وما اسمهما واسم أبويهما ؟ قال : بلى ، اسمهما كذا وكذا ، واسم أبويهما كذا وكذا . قالت : يا نبيّ الله ، فإنى أفرّق بينهما وأبطل القَدَر . قال : فإنك لا تقدِرين على ذلك . قالت بلى . فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البُومة . ومرّت العنقاء وكانت فى كبر الجمل عِظَما ، ووجهها وجه إنسان ، ويداها وأصابعها كذلك ، فحلّقت فى الهواء حتى أشرفت على الدنيا وأبصرت كل دار فيها ، وأبصرت الجارية فى مهدها قد احتوشتها الظئور والحَوَل ، فاختلست المهد والجاريةَ وطارت ، ومرّت حتى انتهت بها إلى جبل شاهق فى السماء ، أصله فى جوف البحر ، وعليه شجرة عالية فى السماء ، لا ينالها طائر إلا بجهد ، لها ألف غصن ، كل غصن كأعظم شجرة فى الأرض ، كثيرة الورق ، فاتخذت لها فيه وكرا عجيبا واسعا وطيئا ، وأرضعتها واحتضنتها تحت جناحها ، وصارت تأتيها بأنواع الأطعمة والأشربة ، وتكنّها من الحرّ والبرد ، وتؤنسها بالليل ، ولا تخبر أحدًا بشأنها ، وتغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها . وعلم سليمان بذلك ولم يبده لها ، وبلغ الغلام مبلغ الرجال ، وكان ملكا من ملوك الدنيا ، وكان يلهو بالصيد ويحبّه ويطلبه حتى نال منه عظيما . فقال يوما لأصحابه : كل صيد البر وفلواته ومفازاته قد تمكنت من صَيده ، فلو ركبت البحر لأنال من صيده فإنه كثير الصيد كثير العجائب ! . فقال وزير من وزرائه : نعْمَ ما رأيتَ ، وهو أكثر ما خلق الله صيدا . فأمره بجَهازه ، وهيأ السفن وجعل يختار من كل شىء يملكه ، وأخذ من الوزراء والندماء والمُشيرين والجوارى والغلمان والطباخين والخبازين والبُزاة والصقور وغير ذلك مما يريده ويشتهيه من الملاهى

والشراب ، وركب ومرّ فى البحر يتصيّد ويتلذذ لا يعرف شيئا غير ذلك ، حتى سار مسيرة شهر ، فأرسل الله تعالى على سفينته ريحا عاصفا خفيفة ساقتها حتى وصلت بها الى جبل العنقاء الذى فيه الجارية ، وذلك مسيرة خمسين سنة فى خمسين ليلة ، ثم ركدت سفينته بإذن الله تعالى ، وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة ، فأخرج رأسه من السفينة ، فرأى الجبل وهو فى لون الزعفران [صفرة](١) ، وطوله لا يُدْرَى أين منتهاه ولا عرضه ، ورأى الشجرة فإذا هى كثيرة الأغصان والورق ، ورقها عرض آذان الفِيَلة ليس لها ثمر ، بيضاء الساق ، فقال : إنى أرى عجبا ، أرى جبلا شاهقا لم أر مثله ، وأرى شجرة حسنة قد أعجبنى منظرها . فحرّك سفينته نحو الجبل ، فسمعت الجارية التى فى عُشّ العنقاء صوت الماء وكلام الناس ، ولم تكن سمعت قبل ذلك شيئا من ذلك ؛ فأخرجت رأسها من العُشّ ، فتطلّعت فرأى الملك صورتها فى الماء ، ورأى عجبًا من جمالها وكثرة شعرها وذوائبها ؛ فرفع رأسه إلى الشجرة فرأى الجارية ، فأبصر أمرا عظيما فأخذه القلق ، فناداها : مَنْ أنتِ ؟ فأفهمها الله تعالى لغته وقالت : لا أدرى ما تقول ولا مَنْ أنت إلا أنى أراك يشبه وجهك وجهى وكلامك كلامى ، وإنى لا أعرف شيئا غير العنقاء ، وهى أمى التى ربّتنى وتسمينى بنتها . فقال لها الغلام : وأين العنقاء أمك ؟ قالت : فى نوبتها . قال : وما نوبتها ؟ قالت : تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلّم عليه وتقيم عنده إلى الليل ، ثم تروح وتجيئنى وتحدّثنى بما فعل سليمان وبما حكم وقضى ، وإنه لملك عظيم ، على ما تصف أمى العنقاء ، وإنها تخبرنى أنه يشبهنى إلا أنها تخبر أنه أحسن وجها وأتمّ منى .

٤/١٢

(١) الزيادة عن قصص الأنبياء للكسائى .

قال : فآنذعر الغلام وفزِع، ثم قال : قد عرفته، هو الذى قتل أبى وسبَى ذرّيته، وإنى لمن طُلَقائه وممن يؤدِّى إليه الخراج، ورسله الطير والرياح، ثم بكى الغلام. فقالت الجارية: وما يبكيك؟ قال: أبكى على وَحْدتك فى مثل هذا الموضع الذى ليس به أنيس ولا أحد، وإن مثلك فى الدنيا عدد الشجر والمدر، وكلهم فى مقاصير الذهب والفضة والعيش الهنئ واللّذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعّمون، ويتوالدون أولادا مثل خلقتك وخلقتى، أرأيتِ إن هاجت الريح وأزعجتك من وَكْرك مَنْ يمسكك أن تقعى فى البحر؛ فإن وقعت فى البحر فمن ذا الذى يُخرجك. قال : ففرِعت من قوله وقالت : وكيف لى أن يكون معى إنسىّ مثلُك يحدّثنى مثل حديثك، ويحفظنى من خوف ما ذكرت . فقال لها الغلام : أولا تعلمين أن الله الذى آتخذ سليمان نبيّا وسخّر له الطير والرياح هو الذى رَحِمَك وساقنى إليك إلفًا وصاحبا وأنيسا، وأنى من أبناء الملوك . قالت الجارية : وكيف تصير إلىّ وأصير إليك، وهذه العنقاء تنام وتحضُننى إلى صدرها بين جناحيها ؟ قال الغلام: تُكثرين جزعك ووحشتك وبكاءك على العنقاء ليلتَك هذه إذا آنصرفت إليك، فإذا قالت لك : ما تخشَيْن وما شأنُك ، فأخبريها بحديثك، ثم آنظرى إلى ما يكون ردّها عليك فتخبرينى به . فراحت العنقاء فوجدتها حزينة كئيبة. فقالت لها: يا بُنَيّة، ماشأنك؟ قالت : الوَحْدة والوَحْشة ، وإنى لجزِعة على نفسى لذلك . فقالت لها : يا بُنَيّة لا تخافى ولا تحزنى ، فإنى أستأذن سليمان أن آتيه يومًا وأتخلّف عنه يوما . فلمّا أصبحت أخبرت الغلام بجوابها . فقال لها : لا تُريدى هذا ، ولكن سأنحر من دوابّى هذه فرسا وأبقر بطنه وأخرج ما فى جوفه وأقيّره وأطيّنه وأدخل أنا فى جوفه، وألقيه على قُرقور[1] سفينتى هذه ، فإذا جاءتكِ العنقاء فقولى لها : إنى

(١) القرقور : ضرب من السفن كبار ؛ ولكن سياق كلام المؤلف يدل على أنه أراد به رأس السفينة .

أرى عجبا، خِلقة مُلقاةً على هذه السفينة، فلو آختطفتيها وحملتيها إلى وكرى هـذا، فأنظر وأستأنس بها، كان أحبّ إلىّ من كينونتك عندى نهارا وإمساكِكِ عنى خبر سليمان. فرجعت العنقاء فوجدتها فى مثل حالها، وشُغل سليمان عنها، فلم تصل إليه فى آستئذانها إيّاه بالمُقام يوما فى منزلهـا. فقالت لها: إن نبىّ الله شُغِل عنى اليوم بالحُكْم بين الآدميين فلم أصِلْ اليه. قالت لها: فإنى لا أريد أن تتخلّفى عنه نهارا لمكان أخبار سليمان، وإنى أرى فى البحر عجبا، شيئا مرتفعا ما هو؟ قالت العنقاء: هذه سفينة قوم سيّارة ركبوا البحر. قالت: فما هذا الذى أرى مُلقًى على رأس هذه السفينة؟ قالت: كأنه مَيْتة رمَوْها. قالت: فاحمليها إلىّ لأستأنس بها وأنظرَ إليها. فانقضّت العنقاء فآختطفت الفرس والغـلام فى بطنها فحملتها إلى عُشّها. فقالت: يا أمّاه، ما أحسن هذا! وضحكت، ففرِحت العنقاء بذلك وقالت: يا بُنَيّة، لو علمتِ لقد كنت آتيكِ بمثل هذا منذ حين. ثم طارت العنقاء إلى نَوْبتها إلى سليمان، وخرج الغلام من جوف الفرس فلاعبها ومسّها ولامسها وآنتضّها فأحبلها، وفرِح كل واحد منهما بصاحبه وآستأنس به.

وجاء الخبر إلى سليمان بآجتماعهما من قِبَل الريح، ووافت العنقاء، وكان مجلس سليمان يومئذ مجلسَ الطير؛ فدعا بعُرَفاء الطير وأمرهم ألّا يَدَعُوا طائرا إلا حشروه، ففعلوا؛ ثم أمر عُرَفاء الجنّ فحشروا الجنّ من ساكنى البحار والجزائر والهواء والفَلَوات والأمصار، ففعـلوا وحشروهم، وأحضروا الإنس وكل دابّة، وآشـتدّ الخوف وقالوا: نشهَد بالله أن لنبىّ الله أمرًا قـد أهمّه. فأوّل سهم خرج فى تقديم الطير سهم الحِدَأة، وكانت الطير لا تتقدّم إلا بسهام، فتقـدّمت الحِدَأة وآستَعْدَتْ على زوجها، وكان قد جحدها ولدها، فقالت: يا نبىّ الله، إنه سفَدنى، حتى آحتضنت بيضى وأخرجتُ ولدى جحدنى. فأمر سليمان بولدها فأُتِىَ به، فوجد الشبه واحدا،

٥/١٢

فألحقه بالذكر وقال لها : لا تمكّنيه من السِّفاد أبدًا حتى تُشهِدى على ذلك الطير لكيلا يجحدَك بعدها أبدا . فإذا سفَدها ذَكَرُها صاحت وقالت : ياطيور[(١)] سفدنى اشهدى ، يا معشر الطير آشهدى .

ثم خرج سهم العنقاء فتقدّمت ، فقال لها سليمان : ما قولك فى القَدَر؟ قالت: يا نبيّ الله ، إن لى من القوّة والاستطاعة ما أدفع الشر وآتى الخير . قال لها : وأين شَرْطُك الذى بينى وبينك أنك تفرّقين بقوّتك واستطاعتك بين الجارية والغلام ؟ قالت : قد فعلتُ . قال سليمان : الله أكبر ! فأتينى بها الساعة والخَلْقُ شهودٌ لأعلمَ تصديق ذلك ، وأمر عَريف الطير ألّا يفارقها حتى يوافىَ بها . فمرّت العنقاء ، وكانت الجارية اذا قُربت منها العنقاء تسمع حَفيف أجنحتها ، فيبادر الغلام فيدخل جوف فرسه ، فقالت كالفَزِعة : إن لكِ لشأنا إذ رجعتِ نهارا . قالت: لعمرى إن لى لشأنا ، إن سليمان قد أمرنى بإحضارك الساعةَ لأمرٍ جرى بينى وبينه فى أمرك ، فأنا أرجو نُصرتى اليوم فيك . قالت : فكيف تحملينى ؟ قالت : على ظهرى . قالت : وهل أستقرّ على ظهرك وأنا أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزِلّ وأسقُط فأهلِك ! قالت : ففى منقارى . قالت : وهل أصبر فى منقارك ! قالت : فكيف أصنع؟ لابدّ من إحضارك إلى سليمان ، وهذا عَريف الطير معى ، وقد دعا بكفيلى البُومة . قالت : أدخل جوف هذا الفرس ، ثم تحملين الفرس على ظهرك أو فى منقارك ، فلا أرى شيئا ولا أسقُط ولا أفزَع . قالت : أصبتِ . فدخلت فى جوف الفرس وآجتمعت مع الغلام ، وحملت العنقاء الفرس بما فيه فى منقارها ، وطارت حتى وقعت بين يدى سليمان ، فقالت : يا نبيّ الله ، هى الآن فى جوف الفرس ، فأين الغلام ! فتبسّم سليمان — عليه السلام — طويلًا وقال لها : أتؤمنين

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « يا كفور شهرتى » .

بقَدَر الله تعالى وقضائه ! إنه لاحيلَة لأحد[1] فى دفع قضاء الله تعالى وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشرّ . قالت العنقاء : أومن بالله وأقول : إن المشيئة للعباد والقوّة، فمن شاء فليعمل خيرا ومن شاء فليعمل شرّا . قال سليمان : كذبتِ ماجعل الله من المشيئة إلى العباد شيئا، ولكن مَنْ شاء الله أن يكون سعيدا كان سعيدا، ومن شاء أن يكون كافرا كان كافرا، فلا يقدِر أحد أن يدفع قضاء الله وَقَدَره بحيلة ولا بفعل ولا بعلم، وإن الغلام الذى قد وُلِد بالمغرب والجاريةَ التى وُلدت بالمشرق قد ٱجتمعا الآن فى مكان واحد على سِفَاح، وقد حملت منه الجارية ولدا . قالت العنقاء : لا تَقُلْ يا نبىّ ٱلله هذا، فإن الجارية معى فى جوف فرسى هذا . قال سليمان : الله أكبر ! أين البُومة المتكفِّلة بالعنقاء؟ قالت: هأنا . قال سليمان : على مثل قول العنقاء أنت ؟ قالت نعم . قال سليمان : ياقَدَرَ ٱلله السابقَ قبل الخلق أخرجهما على قضاء الله وقدره . قال : فأخرجهما جميعا من جوف الفرس .

فأما العنقاء فتاهت وفزِعت فطارت فى السماء وأخذت نحو المغرب ، وٱختفت فى بحر من بحار المغرب وآمنت بالقدر وحلفت لاينظر[2] الطير فى وجهها أبدا ٱستحياء منها .

وأمّا البُومةُ فلزِمت الآجام والجبال وقالت : أمّا بالنهار فلا خروجَ ولا سبيل إلى المعاش . فهى إذا خرجت نهارا وبّختها الطير وٱجتمعت عليها وقالت لها : يا قَدَريّة، فهى تخضع لهذا .

هذا ما كان من شأن العنقاء فى القضاء والقدر . فلنرجع إلى أخبار سليمان عليه السلام .

(١) كذا فى نسخة الثعلبي المطبوعة . وفى الأصول والنسخة المخطوطة من الثعلبي : « للروحانيين » .

(٢) فى قصص الأنبياء للثعلبي : « ألا تنظر فى وجه طير » .

ذكر خبر خاتم سليمان عليه السلام

قال الكسائىّ : وأوحى الله تعالى إلى جبريل — عليه السلام — أنه قد سبق
٦/١٢ فى علمى أنى أُملّك سليمان الدنيا ، ليعلم الجن والإنس أنى لم أخلُق خَلْقاً هو أفضل
من ذرّية آدم ؛ وأمره أن يأخذ خاتَمَ الخلافة من الجنة ويأتيه به . فجاء جبريل
٥ إلى سليمان ومعه الخاتم وهو يضىء كالكوكب الدرّىّ ، ورائحته كالمسك ، وعليه كتابة[1]
بغير قلم ، وهى : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فأعطاه لسليمان وقال له : هنيئا لك
يآبن داود بهذه الهديّة ، وكان فى يوم الجمعة لسبع وعشرين[2] خلت من المحرّم .
فلما صار الخاتَمُ فى كفّ سليمان لم يتمكن من النظر إليه حتى قال : أشهد أن
لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وكذلك كل من كان ينظر إليه[3] .

١٠ قال وقيل : إن الخاتَمَ أُنزل من تحت العرش من نور برهان الله ، وقيل
لسليمان : لا تنزِعه من كفّك إلا بأمانة ، وجعل الله عزّه فيه ، فتختّم سليمان به
وصعِد على كرسيّه وآستقبل الناسَ بوجهه ورفع اليه الخاتم وهو يلمع ، وقال : هذا
الخاتم جمع فيه عِزّى وسلطانى وفضّلنى به ربى على العالمين ، وسلّطنى على كل شيطان
مريد . ثم سجد شكرا لله تعالى وسجد معه الناس . ثم نزل عليه بعد نزول الخاتم :
١٥ ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فكان لا يقرؤها على شىء إلا خضع وذلّ ، فتلاها على
بنى اسرائيل فلم يسمعها أحد إلا آمتلأ فرحا . ثم أمر بعد ذلك بآتخاذ البَيْض
والسيوف ، فكان عنده اثنا عشر ألف درع من نَسْج داود .

(١) راجع الكسائى فى هذا الموضع ففيه تفصيل عما هنا .

(٢) عبارة الكسائى : « لثلاث بقين من شهر رمضان » .

٢٠ (٣) هذه عبارة الكسائىّ . وفى الأصول : « فلما صار الخاتم فى كفه لم يتمكن من النظر اليه حتى قال : لا اله إلا الله محمد رسول الله » .

وقيل : إن داود لم يعمل أكثر من سبع أدرع ، ثم قال سليمان : يابنى إسرائيل، إنى أُمرت بمجاهدة أعداء الله؛ ثم جمع الخيول[(١)] وشرع فى الاستعداد للحرب .

ذكر خبر حشر الجن لسليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائىّ : وأمر الله — عز وجل — جبريلَ — عليه السلام — أن يحشر الجنّ، فنشر جناحه الأيمنَ على شرق الأرض، والأيسرَ على غربها، ونادى : أيتها الجنّ والشياطين، أجيبوا سليمان بن داود بإذن الله ، فخرجت من سائر الأماكن وهى تقول : لَبَّيك لَبَّيك يا حجة الله . فحشرها الى سليمان طائعةً ذليلة تسُوقها الملائكة، وهى يومئذ أربعمائة وعشرون فرقة، كل فرقة تَدِين بدين غير دين الأخرى، فوقفت بأجمعها بين يدَىْ سليمان، فنظر الى عجائب صُوَرها وسجد لله شكرا؛ ثم قام على قدميه والخاتَم فى إصبعه، فلما نظرت إليه الجنّ خرّت ساجدة ثم رفعت رءوسها وقالت : يابن داود ، قد حُشِرنا إليك وأُمرنا بالطاعة لك ، فختم على أكتافهم بخاتمه وجنّدهم وصفّد مَرَدَتهم بالحديد ولم يتخلّف منهم إلا صخر الجنىّ تغيّب فى جزيرة ، وسنذكر خبره إن شاء الله تعالى . قال : وبقى إبليس بغير أعوان وفرّق سليمان الشياطين فى الأعمال المختلفة . من الحديد والنحاس وقَطْع الصخور والأشجار وعمارة القُرَى والمدن والحصون ، وأمرهم بعمل القدور والجِفَان ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ[(٢)] ﴾ . قيل : كان يأكل من كل جَفْنة ألفُ إنسان . وشَغَل

---

(١) فى الكسائىّ : « الجنود » .

(٢) سورة سبأ آية ١٣

طائفة منهم بغَوْص البحار وآستخراج الأصداف والجواهر منها ، وأمر بعضهم بحفر الآبار وشقّ الأنهار والقَنَوات ، وبعضهم بإخراج الكنوز والمعادن، وغير ذلك من الأعمال .

ثم حُشِر له بعد ذلك الهوامُّ من الحيّات والعقارب وغيرها من الحشرات وسُخِّرت له . فسأل كلا منها عن آسمها [وضرّها ونفعها](١) وما كلها ومشربها ومسكنها ومقدار أعمارها وعادتها وغيرِ ذلك من أحوالها، فأخبرته، ثم صرفهم وأمرهم ونهاهم . والله أعلم .

ذكر خبر مطابخه عليه السلام

قال الكسائىّ : وأمر سليمان أن تُصْنَع الأطعمة للخلق الذين معه ، حتى كان طبّاخوه ينادون فى عسكره : مَنْ أراد طعاماً فليأت حتى نصنعه له كما يريد ، فإن سليمان نَصَبنا لذلك . وكانت موائده منصوبة، كل مائدة طول ميل وأطول، ومعه عدّة من الطبّاخين، مع كل طباخ شيطان يُعينه، ورتب فى كل مخبز ألف خباز، وفى كل مطبخ ألف طباخ .

قال ويقال : إنه كان يُذْبَح فى مطبخه فى كل يوم من الإبل والبقر والغنم زيادة على ثلاثين ألف رأس ، ويستعمل فى مطابخه كل يوم كذا وكذا كُرّا من الملح ، وكانت موائده منصوبة لعامّة الناس فقيرِهم وغنيِّهم ؛ وكان يُلْقَى للطير فى كل يوم من الحبوب سبعون ألف كُرّ — والكر عشرة أجربة ، والجريب ثلاثون قَفِيزا(٢) — وكانت تظل البلاد بأجنحتها .

---

(١) زيادة عن الكسائى .

(٢) القفيز : مكيال ثمانية مكاكيك . والمكوك صاع ونصف . ويقدّر الصاع بالكيل المصرى بقدحين وثلث .

٧/١٢

ذكر خبر الرزق الذى سأل سليمان الله تعالى أن يجريه على يديه

قال الكسائىّ : ولمّا نظر سليمان — عليه السلام — إلى عِظَم ما آتاه الله — عز وجل — من المُلك، سأل الله تعالى أن يجعل أرزاق المخلوقات على يديه. فأوحى الله تعالى إليه : إنك لا تطيق ذلك . قال : يا رب فيوما واحدا ؛ فأوحى الله إليه : إنك لا تطيق ذلك . قال : يا رب فساعة واحدة ؛ فأوحى الله إليه : إنى قد أعطيتك ذلك ، فٱستعدّ الآن لأرزاق خلق وٱجمع لهم. فأخذ فى الٱستعداد حتى جمع ما يُنيف على حمل مائة ألف بغل و بعير ، وسار يريد ساحل البحر ، حتى أتاه و وضع ما جمعه هناك ، ونادى مناديه فى سكّان البحر احضُروا لقبض أرزاقكم. فٱجتمع الحيتان والضفادع ودوابُّ البحر على صُوَر مختلفة ، و إذا بحوت قد أخرج رأسه وقال : اشبعنى يٱبن داود ، وهو على مثال الجبل . فقال سليمان : دونك الطعام ، فأكل جميع ذلك ، ثم قال : زِدْنى يا نبىّ الله ، والله ما أصابنى الجوع منذ خلقنى ربى كما أصابنى اليوم حين جُعِل رزق على يديك. فعجب سليمان منه وقال: هل فى البحر مثلُك ؟ فقال : إنى لفى زُمرة من الحيتان فيها سبعون ألف زمرة ، كل زمرة مثلُ عدد الرمل ؛ وفى البحر حيتان لو دخلت أنا فى جوف أحدها ما كنت إلا كحردلة فى أرض فَلاة. فبكى سليمان عند ذلك وقال: رب أقِلْنى عثْرتى. فأقاله الله تعالى، ثم أوحى إليه : أنْ قِفْ يٱبن داود حتى ترى جنودى ، فإنّ ما رأيت قليل . فوقف و إذا بالبحر قد ٱضطرب ٱضطرابا عظيما وخرج منه شىء أعظمُ من الجبل يشقّ البحر شقّا وهو يقول : سبحانَ من تكفّل بأرزاق العباد ، ثم نادى : يٱبن داود ، لولا اليَدُ الباسطة عليك لكنتَ أضعف الخلائق ، و إنك لم تقدر أن تُشبع حُوتا واحدا ولا نال كلَّ طُعمه ، فكيف تقدِر أن تتكفّل بأرزاق الخلائق ! . ثم مرّ ذلك الحوت ، فنظر سليمان إلى خَلْق عظيم ، وقال : إلٰهى ، هل خلقتَ خلقا

أكبرَ من هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه : إنّ فى البحر مَن يحتاج أن يأكل سبعين ألفا مثل هـذا ولا يُشبِعه، ولا يُشبِعه إلا نعمتى ولطفى . فعلِم سليمان أنّ الذى أُعطِيَه ليس بشىء فى قدرة الله عز وجل . والله الواسع المتفضّل .

ذكر خبر بناء بيت المَقْدِس وٱبتداء أمره

٥ قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — فى سبب بنـاء بيت المَقْدِس : إن الله تعالى بارك فى نسـل إبراهيم — عليـه السلام — حتى جعلهم فى الكثرة غاية لا يُحصَوْن . فلما كان زمن داود — عليه السلام — لبِث فيهم مـدّةً مديدةً بأرض فِلَسْطِين وهم يزدادون كلّ يوم كثرةً ، فأُعْجِبَ داودُ بكثرتهم فأراد أن يعـلَمَ عدد بنى إسرائيل فأمر بعدّهم ، و بعث لذلك عُرَفاء ونُقَباء ، وأمرهم أن يرفعوا إليه ١٠ ما بلَغ من عِدّتهم ، فكانوا يَعُـدّون زماناً من الدهر حتى عَجَزوا وأَيِسـوا أن يحيط علمهم بعـدد بنى إسرائيل . فأوحى الله تعالى إلى داود : إنى وعدت أباك إبراهيم يومَ أمرته بذبح ٱبنه فصدّقنى وٱتمر بأمرى أن أبارك له فى ذرّيته حتى يصيروا أكثر من عدد نجوم السماء ، حتى لا يحصيهم العادّون . و إنى قد أقسمتُ أن أبتليهم ببليّة يقلّ منها عددهم ، و يذهب عنك إعجابك بكثرتهم . وخيّره بين أن يبتليهم بالجوع والقحط ١٥ ثلاث سنين ، و بين أن يسلّط عليهم عدوهم ثلاثة أشهر ، و بين أن يسلّط عليهم الطاعون ثلاثة أيام . فجمع داود بنى إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخيّره فيه . فقالوا : أنت أعلم بما هو أيسر لنا ، وأنت نبيُّنا فٱنظُرْ لنا غيرَ الجوع فلا صبرَ لنا عليه ، وتسليطُ العدوّ أمر فاضح . فإن كان ولا بدّ فالموت ، لأنه بيده لا بيد غيره . فأمرهم داود أن يتجهّزوا للـموت ، فٱغتسلوا وتحنّطوا ولبسـوا الأكفان و برزوا ٢٠ إلى صعيد بيت المقدس قبـل بناء المسجد بالذرارىّ والأهلين ، وأمرهم داود أن

يَضجُّوا إلى الله تعالى وأن يتضرّعوا إليه لعله أن يرحمهم . فأرسل الله عليهم الطاعون
٨/١٢ فأُهلِكَ منهم فى يومٍ وليلةٍ ألوفٌ كثيرةٌ لا يُدرَى عددُهم ، ولم يفرُغوا من دفنهم
إلا بعد مدّة شهرين .

فلما أصبحوا فى اليوم الثانى خرّ داود ساجدًا يبتهل إلى الله تعالى، فاستجاب
الله تعالى منه وكشَف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت . ورأى داود الملائكة ٥
سالّين سيوفَهم فأغمدوها وهم يرقَوْن فى سُلَّم من ذهب من الصخرة إلى السماء .
فقال داود لبنى إسرائيل : إن الله قد منّ عليكم ورحمكم فجدّدوا له شكرا . قالوا:
وكيف تأمُرنا ؟ قال : آمركم أن تتخذوا من هذا الصعيد الذى رحمكم الله فيه
مسجدًا لا يزال فيه منكم ومن بعدكم ذكر الله تعالى. فأخذ داود فى بنائه. فلمّا أرادوا
أن يبتدئوا البناء جاء رجلٌ صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم فى بنيانهم، فقال ١٠
لبنى إسرائيل : إنّ لى فيه موضعًا أنا محتاج إليه ، فلا يحلّ لكم أن تحجبونى عن
حق . قالوا له : يا هذا ، ما من أحد من بنى إسرائيل إلا وله فى هذا الصعيد
حقّ مثلُ حقّك، فلا تكن أبخلَ الناس ولا تضايقْنا فيه . فقال : أنا أعرف حق
وأنتم لا تعرفون حقكم . قالوا له : إمّا أن ترضَى وتطيبَ نفسًا وإلا أخذناه كَرها .
قال لهم : أوَتجدون ذلك فى حكم الله تعالى وحكم داود ؟ ! قال : فرفعوا خبره ١٥
إلى داود فقال : أرْضُوه . فقالوا : نعم نأخذه منه يانبيّ الله بثمنه . قال : خذوه
بمائة شاة . فقال الرجل : زِدْنى يا نبيّ الله ؛ فقال : بمائة بقرة . قال : زدنى
يانبيّ الله؛ قال فبمائة بعير. قال : زدنى يا نبيّ الله ، فإنما تشتريه لله تعالى . فقال
داود : أمّا إذ قلتَ هذا فأحتكم أُعطِك . قال: تشتريه منى بحائطٍ مثله زيتونًا
ونخلًا وعِنَبًا ؟ قال نعم . قال : أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخَل . قال : سَلْ ٢٠
ما شئت أُعطِك ، وإن شئتَ أُؤْجِرْك نفسى . قال : أوَ تفعل ذلك يا نبيّ الله ؟

قال : نعم إذا شئت . قال : أنت أكرم على الله تعالى من ذلك، ولكن تَبنى حولَه جِدارًا ثم تملؤه ذهبًا وإن شئتَ وَرِقا . قال داود : هو هيّن . فالتفت الرجل إلى بنى إسرائيل وقال : هذا هو التائب والمخلص . ثم قال لداود : لأنْ يغفِر الله تعالى لى ذنبًا واحدا أحبُّ إلىّ من كل ما وهبتَ لى ، ولكن كنت أختبركم . فأخذوا فى بناء بيت المقدس، وذلك فيما قيل لإحدى عشرة سنة مضت من خلافة داود. وكان داود ينقل لهم الحجارة على عاتقه، وكذلك خيارُ[1] بنى إسرائيل حتى رفعوه قامة. فأوحى الله تعالى إليه : إن هذا بيت مقدّس، وأنت سفّاك للدماء، ولست بانيَه، ولكن ٱبنٌ لك أملّكه بعدك ٱسمُه سليمان أُسلِّمه من سفك الدماء وأقضى إتمامَه على يديه ويكون له صيتُه وذكرُه .

قال : فصلّوْا فيه زمانًا إلى أن توفّى الله نبيّه داود وٱستخلف سليمان وأمره بإتمام بناء بيت المقدِس . فجمع سليمان الإنس والجنّ والشياطين وقَسَم عليهم الأعمال ، فخصّ كلّ طائفة منهم بعمل، فأرسل الجن والشياطين فى تحصيل الرُّخام والمها[2] الأبيض الصافى من معادنه ؛ وأمر ببناء المدينة بالرُّخام والصُّفّاح، وجعلها ٱثنى عشر رَبَضا[3]. وأنزل كلّ رَبَض منها سِبْطا من الأسباط . فلمّا فرغ من المدينة ٱبتدأ فى بناء المسجد ، فوجه الشياطين فِرَقا ، فريقًا منهم يستخرجون الذهب والفِضّة من معادنها. وفريقا يغوصون فى البحر ويستخرجون أنواع الدُّرّ ويقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها ، وفريقا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر أنواع الطِّيب من أماكنها ؛ فأُتِىَ من ذلك بشىء لا يحصيه إلا الله تعالى . ثم أحضر الصُّنّاع

(١) فى نسخة الثعلبى المطبوعة : «أحبار» .

(٢) المها : البلور .

(٣) الربض (بتحريك) هنا : الناحية .

وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها ألواحا، وإصلاح تلك الجواهر وتثقيبها؛ فكانوا يُعالجونها فتصوّت صوتًا شديدا لصلابتها . فكره سليمان تلك الأصوات، فدعا الجنّ فقال لهم : هل لكم حيلةٌ فى نحت هذه الجواهر من غير تصويت ؟ فقالوا : يانبى الله، ليس فى الجنّ أكثرُ تجاربَ ولا أكثرُ علمًا من صخر. فآستدعاه . وكان من أمره فى حضوره إليه والتلطف فى تحصيل حجر السامور ما نذكره — إن شاء الله تعالى — فى أخبار صخر . ٥

قالوا : فلمّا أتِىَ بحجر السامور، وهو حجر الماس، استعمله فى أدوات الصُّنّاع؛ فسهّل عليهم نحت الحجارة .

قالوا : فبنى سليمان المسجدَ بالرُّخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمّده بأساطين المَهَا الصافى، وفصّصه بألواح الجواهر الثمينة، وفصص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفَيْروزَج ، فلم يكن يومئذ بيت فى الأرض أبهى ولا أنورُ من ذلك المسجد ؛ وكان يضىء فى الظلمة كالقمر ليلة البدر . ١٠

قالوا : فلما فرغ من بنائه جمعَ أحبار بنى إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله تعالى ، وأنّ كلّ شىء فيه خالص لله تعالى . وآتخذ ذلك اليوم عيدا ، فلم يُتخَذْ فى الأرض قطُّ أعظمُ منه ولا من الأطعمة التى عُمِلتْ فيه . قيل : إنه ذبح من الخراف خمسين ألفا، ومن البقر خمسة وعشرين ألفا معلوفة ، ومن الغنم أربعمائة ألف شاة . ١٥ ٩/١٢

قالوا : ومن أعاجيب ماآتّخذ سليمان ببيت المَقْدِس أنه بنى بيتًا وطيّن حيطانه بالخُضرة وصقله ؛ فكان إذا دخله الوَرِع البارّ آستبان خيالَه فى ذلك الحائط أبيض؛ ٢٠

وإذا دخله الفاجر استبان خيالُه فى الحائط أسود . فارتدع عند ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة . ونصب فى زاوية من زوايا المسجد عصا آبنُوس، فكان مَنْ مسّها من أولاد الأنبياء لم تضرّه، ومن مسّها من غيرهم احترقت يدُه .

قالوا : ولمّا فرغ من بناء بيت المقدس قرّب قُرباناً على الصخرة، ثم قال : اللّهمّ أنت وهبتَ لى هذا المُلك مَنًّا منك علىّ، وجعلتنى خليفتَك فى أرضك، وأكرمتنى به من قبلِ أن أكون شيئا، فلك الحمدُ. اللّهمّ إنى أسألك لمن دخل هذا المسجدَ خصالًا : ألّا يدخله أحدٌ فيصلِّى فيه ركعتين مخلصًا فيهما إلا خرَج من ذنوبه كيوم ولدته أُمّه، ولا يدخله مستتيب إلا تُبْتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أمّنته، ولا سقيم إلا شَفَيتَه، ولا مُجدِبٌ إلا أخصبتَه وأغنيتَه . وإذا أجبتَ دعوتى فاجعلْ علامتها أن تقبل قُرْبانى . قال : فنزلت نارٌ من السماء فسدّت ما بين الخافقين ثم امتدّ منها عنق فاحتمل القُرْبان وصعد به الى السماء .

وقال سعيد بن المسيِّب : لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلّقت أبوابه، فعالجها سليمان فلم تنفتح حتى قال فى دُعائه : بصلوات أبى داودَ إلا ما فُتِحتِ الأبوابُ، ففُتحت. ففرّغ له سليمان — عليه السلام — عشرة آلاف من قرّاء بنى إسرائيل، خمسةَ آلاف بالليل، وخمسةَ آلاف بالنهار، فلا تأتى ساعةٌ من ليل أو نهار إلا والله عز وجل يُعبَد فيها فيه .

وحكى الكسائىّ فى خبر بناء بيت المقدس قال : فأوحى الله تعالى إلى سليمان — عليه السلام — أن تبنىَ بيتَ المقدس وترفَعَ قواعدَه كما رفع إبراهيم قواعدَ البيت العتيق، وأن تبنيَه على صخرة المِعْراج. فأمر سليمانُ الجانّ أن تقطع الصخور. وتنقل الرُّخام والأحجار والعَمَد وآلاتِ العمارة إليه؛ ثم أمر بالبناء على الأساس

الذى كان داود وضعه . فلما كمل البناء آنهار وآنهدم ؛ فأمر أن يُحْفَر أساسُه حتى يبلغ الماء ، وعقَد البناء بالحجارة المنحوتة بعضها على بعض ، فغلب الماءُ على البناء فما آنعقد الأساس . فأمر أن تُصْنَع قِلالُ النحاس والرَّصاص ، وختمها بخاتَمه ، وجعلها تحت الأساس . ثم أمر بالبناء فوقها فبنيت وآرتفع البناء ، وعمِل فيه عشرة آلاف عمود من الرُّخام الملوّن ، يلى كلَّ عمود ساريةٌ من الذهب ، وسارية من الفضة ؛ ومحاريب الذهب والفضة ، وكُمِل البناء والزخرفة فى أربعين يوما . ٥

قال : وكان يَعْمَل فيه فى كل يوم ألفُ عِفْريت من الجنّ وألفُ شيطان وألفٌ من الإنس . وفرغ منه يوم عرفة ، وآتخذ له قناديلَ من الذهب بسلاسل الفضّـــة .

قال الثعلبىّ : فكان بيتُ المَقْـدِس على ما بناه سليمان إلى أن غزاه بُخْتَنَصَّر ، فخرّب المدينـةَ وهدمها ، ونقض المسجد ، وأخذ ما كان فى سـقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدرّ والياقوت وسائرِ الجواهر ، فحمل ذلك معه إلى دار مملكته من أرض العراق . قال : ثم لم يزل خرابًا إلى أن بُنِىَ فى الإسلام . ١٠

قال الكسائىّ : ثم أمر آلله سليمانَ بجهاد العدوّ ، فرغِب فى جمع الخيل ، فأهديت إليه من جهة ملوك الأطراف الخيولُ المسوَّمة ؛ فآجتمع له ما يُنيف عن سبعين ألف فرس بسروج الذهب والفضـة بأجلّة الديباج . وسار صوب بلاد الشأم . وكان إذا خرج للغزو لا يستصحب شيطانًا ولا جِنّيًّا بل العبّاد من بنى إسرائيـل . والله المعين . ١٥

ذكر خبر وادى النمل وما قيل فيه

قال : ولمّا سار سليمان لقصد الغزو مرّ فى طريقه بوادى النمل . قال الثعلبىّ : إنه مرّ بوادى السِدِير[1] (واد من الطائف) فأتى وادىَ النمل[2] . قال الكسائىّ : فنظر إليهم وإذا هم يزيدون على مائة ألف كُرْدوس[3] مثلَ السحاب ، وهم زُرق العيون ، ولهم أيدٍ وأرجُل . فقال سليمان : إنى أرى سحابة فى الأرض لا أعلم ما هى . فحملت إليه الريح قول النملة كما أخبر الله تعالى عنها : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا[4] ﴾ . قال : ونزل الناسُ معه ، فقال : أتدرون ما هذا السواد ؟ هذه أُمّة من الأمم يقال لها النمل ، وأخبرهم بقول النملة ، وسجد وسجدوا شكرًا لله تعالى . ودخلت النملُ مساكنَها زُمرةً بعد زُمرة ، والنملة تناديهم : الوَحَا الوَحَا[5] فقد وافتكم الخيل . فصاح بها سليمانُ وأراها الخاتَم فجاءته خاضعةً ، فوقفت بين يديه وهى أكبر من الذئب ، فسجدتْ بين يديه ثم قالت : يانبىّ الله ، ما سجدتُ قبلك إلا لأبيك إبراهيم ، وهأنا بين يديك مُرْنى بأمرك . فقال : ما الذى تكلّمتِ به قبل وصولى إليك؟ قالت : يا نبىَّ الله ، إنى رأيتك فى مَوْكِبك وعسكرك ، فناديتُ النملَ أن يدخلوا مساكنهم لئلّا يحطِمهم جُنْدُك ، وأنا كمثل غيرى من الملوك أُريد الإصلاح لقومى . فقال لها : كم عددكم ؟

١٠/١٢

(١) فى التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لأبى حيان (ج ٧ ص ٦٠) : « وادى السدر من الطائف » .

(٢) وادى النمل : بين بيت جبرون وعسقلان كما ذكره ياقوت فى معجم البلدان .

(٣) كردوس : فرقة .

(٤) سورة النمل آية ١٨

(٥) الوحا الوحا (يمدّ ويقصر) أى أسرعوا أسرعوا .

وما تأكلون وما تشربون ؟ قالت : يا نبيّ الله ، لو أمرتَ الجنّ والشياطينَ أن يحشرونا إليك لعجَزوا ، وليس على وجه الأرض وادٍ ولا جبلٌ ولا غابةٌ إلا وفى أكنافها مثل سُلطانك كراديس من النمل . ولو تفرّق كُرْدوس واحد فى الأرض لَمَا وسِعته . ولقد خُلقنا قبل أبيك آدم ، وإنا لنأكل رزقَ ربنا ونشكره . فأمرها أن تَعرِض النمل عليه . فنادتهم ، فمرّوا به زُمرةً بعد زُمرة ، وسلّموا عليه بلُغاتهم وهو ينظر إليهم . فقالت مَلِكةُ النمل : يا نبيّ الله ، مِنّا ما يأوى الجبالَ ، ومِنّا ما يأوِى قُرْبَ المياه والأشجار والزرع ، وفى الهواء وهى الطيّارة ، فإذا نبتت أجنحتها هلكت واختطفتها الطير . والنملة لا تموت حتى يخرج من ظهرها كراديسُ من النمل . وليس على ظهر الأرض أحرصُ من النملة ؛ وإنها لتجمع فى صيفها ما يملأ بيتها وهى مع ذلك تظن أنها لا تَشْبَعُ . وتسبيحُها تسأل ربَّها أن يُوسّع الرزقَ على خلقه . قال الثعلبيّ قال الضحّاك : اسم النملة [التى كلمت سليمان](١) «طاحية»(٢) وقيل : «حَرْمى»(٣) . والله أعلم .

ذكر خبر البعوض وما قيل فيه

قال الكسائيّ : ولما نظر سليمان إلى كثرة النمل قال : إلٰهى هل خلقت أكثر من النمل ؟ فأوحى الله إليه : نعم وسترى ذلك . ثم أمر الله تعالى مَلكَ البَعُوض أن يحشرها لسليمان ، فحشرها من شرق الأرض وغربها . فأقبلت كراديس البَعُوض

(١) زيادة عن الثعلبيّ .

(٢) كذا فى نسخة الثعلبي المخطوطة والجزء الخامس من تفسيره المسمى « الكشف والبيان فى تفسير القرآن » المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٧٩٧ تفسير . وفى شرح القاموس مادة « طخى » بالخاء المعجمة والنسخة المطبوعة من الثعلبيّ : « طاخية » وقال صاحب شرح القاموس نقلا عن النهاية : اسمها « عيجلوف » . وفى الأصول : « طاجية » بالجيم المعجمة .

(٣) كذا فى الثعلبي المخطوطة والمطبوعة . وفى شرح القاموس نقلا عن أعلام السهيلى : «حرميا» . وفى الأصول : «جرما» .

كالسَّحاب يتبع بعضُها بعضًا حتى وقف منهم كُرْدُوس على سليمان ، وأقبل ملِكُهم وقال : يا نبيّ الله ، مالَكَ وللضُّعفَاء من خَلْق ربِّك ألهيتَهم عن التسبيح ! . يآبنَ داود ، إنّا فى هـذه الأرض قبـل أبيك آدم بألفَىْ عام ما عُرِضْنا على آدمىّ غيرك ، نأكل من رزق ربنا ، ولا نفترُ عن ذكره صباحًا ولا مساء . قال : أخبِرونى كم أنتم ؟ وأين مأواكم ؟ ومن أين ترْزَقون ؟ قال ملِكهم : يا نبيّ الله ، تحت يدى سبعون سحابةً ، كلُّ سحابة تملا المشرق والمغرب ، لكلِّ زُمرةٍ موضع معلوم ، تأكل كل واحدةٍ رزقَها ، ولولا خوف المعاد لأكلنا ما فى الدنيا . ثم سجدوا وآنصرفوا . وكان سليمان إذا أراد أن يُدرك قومًا بعث إليهم البعوضَ فيأكل جميع ما فى مدينتهم .

ذكر خبر الخيل وما قيل فيها

قال الله تعالى : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (١) . قال أبو الحسن علىّ بن ابراهيم الحَوْفى (٢) فى "كتاب البرهان فى علوم القرآن" فى تفسيره هـذه الآية : الصافن من الخيـل الذى يجمع بين يديه . وقال الفرّاء : الصافن هو القائم . وقال مجاهد : صُفُون الفرس إذا رفع إحدى رجليـه حتى يكون على طَرَف الحافر . قال ابن زيد : الخيل أخرجها الشيطان لسليمان من مَرْج من مروج البحر . والصَّفْن أن يقوم الفرس على ثلاث ويرفعَ رجلاً واحدة ، يكون طرف الحـافر على الأرض . قال : وكانت لهـا أجنحة . قال : والجيـاد السِّراع . وذكر أنها كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة . قال وقوله : "إنى أحببت

١١/١٢

---

(١) سورة ص آية ٣١ وما بعدها .

(٢) الحوفى (بفتح الحاء المهملة وسكون الواو) نسبة الى الحوف : ناحية عمان .

حبّ الخير عن ذكر ربِّى حتى توارت بِالحِجابِ" إنه لَهَا عن الصلاة حتى فاتته . قال قَتَادةُ والسُّدىّ : الخير : الخيل . ورُوِى عن علىّ — رضى الله عنه — أنه سئل عن الصلاة الوسطى فقال : هى العصر ، وهى التى فُتِن بها سليمان . "حَتَّى توارت بالحجاب" ، يعنى الشمس حتى تغيب فى مَغِيبها . وقوله : "رُدُّوهَا عَلَىَّ" أى الخيل التى عُرِضتْ علىّ فشغلتنى عن الصلاة . "فطفق مسحا بالسوق والأعناق" ، أى جعل يمسح فيها السُّوق وهو جمع ساق . قال بعضهم : عقَرها وضرب أعناقها ؛ قاله قَتَادة والحسن والسُّدّىّ . وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : جعل يمسَح أعراَفها وعراقيبَها بيده حبًّا لها . وقيل : كشف عن عراقيبها وضرب أعناقها وقال : لا تَشغلينى عن عبادة ربِّى مرّة أُخرى . قال أبو إسحاق : يجوز أن يكون الله أباح له ذلك لأنه لا يجعل التوبة من الذنب بذنبٍ أعظَم منه . والله أعلم .

وقال الثعلبىّ — رحمه الله — فى قصّة الخيل قال الكلبىّ : غزا سليمانُ أهلَ نَصِيبِين ، فأصاب منهم ألفَ فرس . وقال مُقاتل : ورِث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، كان داود أصابها من العمالقة .

قالوا : فصلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيّه ، فعُرِض عليه منها تسعمائة فرس[1] ؛ فتنبّه لصلاة العصر ، فإذا الشمس قد غابت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك ؛ فاغتمّ وقال : ردّوها علىّ ، فرُدّت عليه ، فعرقبها بالسيف ، وقرّبها إلى الله — عز وجل — وبقىَ منها مائة فرس . فما فى أيدى الناس من الخيل العِراب فهى من نسل تلك المائة . وقال كعبٌ : كانت الأفراس أربعةَ عشر فرسًا ، فأمر بضرب أعناقها وسُوقها بالسيف وقتلها ؛ فسلبه الله مُلْكَه أربعة عشر يوما ؛ لأنه ظلَم

(١) كذا فى الثعلبى وكتب التفسير . وفى الأصول : « أربعمائة » وهو لا يتفق مع السياق .

الخيـل بقتلها . قال الثعلبيّ وقال قوم : " فطفق مسحًا بالسُّوق والأعناق" حبسها في سبيل الله وكَوَى سُوقها وأعناقها بِمِيسَم[(١)] الصَّدَقة . ورُوى عن عليّ بن أبي طالب — رضى الله عنه — أن الله تعـالى أمر الملائكة الموكّلين بالشمس فردّوها، وصلّى سليمان العصر في وقتها .

ذكر خبر بساط سليمان عليه السلام

٥

قال الكسائيّ : وكان سـليمان إذا ركب الرِّيح تقـدّم أمام بساطه البَعُـوض ثم الزنابير وكل ما يطـير في الهواء، ثم الشـياطين . وكان إذا أراد أن يركب الريح دعا الرياح الثمـانية : الشَّمال والجَنوب والصَّبا والدَّبور والصَّرْصَر والعَقِيم والكرس والراكى[(٢)]، فيبسُط بعضَها على بعض ، ثم يبسط بساطه على هـذه الرياح ، وكان من السندس الأخضر ، أخضر البطن أحمر الظهر ، أهـداه الله تعالى اليه من الجنة ، لا يعلم طولَه وعرضَـه إلا الله تعالى . وقيـل : كان طولُه ثلاثمائة وسبعين فرسخًا في عرض عشرة آلاف ذراع . وكان سليمان إذا ركبه جعـل اللّون الأخضر مما يلي الأرض، فإذا رفع الناس رءوسهم اليه يرونه على لون السماء. وكان يجلس على كرسيّه وعن يمينه ويساره القضاة والعلماء والأحبار من بني اسرائيل على كراسيّ معدّة لهم ، وهو جالس في وسط البساط وزمام الريح بيده، ويتغدّى على مسيرة شهر ويتعشى على مسيرة شهر؛ قال الله تعالى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ[(٣)]﴾ .

١٠

١٥

قال : وكان سـليمان إذا ركب الرياح على بساطه يرى كل شيء عليه من الجنّ والإنس والشياطين والهوام وغيرهم ، والطير تُظِلّه ، ولا يقف على مدينة إلا فتحها .

(١) الميسم (بكسر الميم وفتح السين المهملة) : حديدة تكوى بها إبل الصدقة وغيرها لتعرف وتميز عن غيرها من الإبل المملوكة .

(٢) كذا في الأصول . وفي الكسائي : « الكريس والدالى » .

(٣) سورة سبأ آية ١٢

٢٠

ذكر خبر صخر الجنى

قال : وجمع سليمان — عليه السلام — عفاريت الجنّ والشياطين وأمرهم بإحضار صخر الجنىّ، فقالوا : يانبىّ الله، إنّ الله قد أعطاه قوّة جماعةٍ منّا، ويصعُب علينا حمله إليك، وما لنا إلا أمر واحد وهو أنه يأتى فى كل شهر الى عينٍ فى جزيرة فيشرب ماءها . والرأى أن ننزفه منها ونملأها خمرا، فإذا جاء وشربه وسكِر ذهبت قوّته فنحمله ونأتيك به . ثم خرجوا ففعلوا ذلك، وآختفَوْا فى تلك الجزيرة. فجاء صخر ليشربَ فاَشتمّ رائحةَ الخمر وقال : أيتها الخمرة إنك لطيّبة غيرَ أنك تسلُبين العقل وتجعلين الحليم جاهلا، وأمرُك كلُّه ندامةٌ، وآنصرف ولم يشرب . ثم عاد فى اليوم الثانى وقد أجهده العطش فقال : ما من قضاء يأتى من الله إلا كان مبرمًا، ثم نزل على العين فشرب حتى آمتلأ، ثم قام ليخرج فسقط، فتبادرت العفاريتُ إليه ومعهم طابَعُ خاتَم سليمان، فلما رآه ذَلّ وخَضَع، فحملوه حتى وقفوه بين يدَىْ سليمان وهو يُخرج من فِيهِ لَهَبَ النيران، ومن منخريه الدُّخان . فلما عاين الخاتَمَ ضعُفت قوّته وخرّ ساجدًا على وجهه، ثم رفع رأسَه وقال : يا نبىّ الله، سيزول هذا المُلْك عنك ولا يبقى إلا ذكرُه . قال : صدقتَ . ثم قال له : يا نبىّ الله، ما الذى أحوجك إلىّ وأنا بالبعد منك لا أختلط بالآدميين ؟ فقال له سليمان : إنّ الناس قد اشتكَوْا من وقع الحديد وصوته على الحجر . فقال : عليك بوَكْر العُقَاب وعُشّه وبيضه، فليس شىء من الطيور أبصرَ منه، فأُتِىَ به . فوضعه فى البرّيّة وغطّاه بجام من القوارير شديد الصفاء فوضعه على عُشّ العقاب . فجاء العقاب فلم ير عُشّه، فطار فى الهواء حتى نظر إلى عُشّه فى تلك البرّيّة، فآنقضّ عليه وضرب الجام برجله ليكسِرَه فلم يقدِر على ذلك، فطار وتعلّق فى الهواء وغاب يومَه وليلته، ثم أقبل صبيحةَ اليوم الثانى وفى منقاره قطعة من حجر السامور، فآنقضّ على الجام بذلك الحجر

١٢/١٢

فضربه به ، فانشقّ الجام نصفين ولم يُسْمَع له صوت ، وأخذ العقاب عُشّه و بيضه وترك حجر السامور هناك ، فأخذه صخر وهو فى صفاء المرآة وحرّ النار . فدعا سليمان بالعقاب وسأله عن حجر السامور من أين آحتمله ، فأخبره أنه من جبلٍ شامخ . فبعث سليمان الجن والشياطين فحملوا منه ما قَدَرُوا ، فكان يقطع به الأحجار والصخور والجَزْعَ من غير أن يُسْمَع له وَقْع .

قال : ثم قال صخر : يانبىّ الله ، أتحبّ أن أتّخذ لك مدينةً ؟ قال نعم ؛ فآتخذَها . فعجب سليمان من ذلك ، وأمره أن يتّخذ له مدينةً دون تلك المدينة حتى يحملها معه على بساطه حيثما ذهب . فقال : يا نبىّ الله ، لك كلّما أردتَ السفر مدينةٌ على أىّ لون شئت . فبنى له مدينة فى طول عسكره وعرضه ، وجعل لكل سِبْط من الأسباط قصرًا فى طول ألف ذراع وعرضه مثلُ ذلك ، وفى كل قصر بيوت وغُرَف ، ثم بنى بعد ذلك مجلسًا من القوارير فى طول ألف ذراع ، وعرضه مثل ذلك ، يجلس فيه العلماء والقضاة . وبنى لسليمان قصرًا عجيبا فى طول خمسة آلاف ذراع ، وعرضه مثلها ، وزخرفه بألوان القوارير ورصّعه بأنواع الجواهر ، وجعل فيه جميع الصور والتماثيل وأتقن صنعته . وكان مما صنع صخر لسليمان الكرسىّ .

ذكر صفة كرسىّ سليمان عليه السلام وما آنتهى إليه أمره

قالوا : وكان مما عمله صخر الجنىّ لسليمان — عليه السلام — الكرسىّ ، وكان سليمان أمره بآتخاذه ليجلس عليه للقضاء ، وأمره بأن يعمله بديعًا مهولًا بحيث إنه إذا رآه مبطل أو شاهدُ زور آرتدعَ وتهيَّب .

قال : فعمل له الكرسىّ وكان من أنياب الفِيَلة وفصّصه بالياقوت واللؤلؤ ، والزَّبَرْجَد وأنواع الجوهر ، وحفّه بأربع نَخَلات من ذهب ، شماريخها من الياقوت

الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر ، على رأس نخلتين طاووسان من ذهب ، وعلى رأس النخلتين الأخريين نسران من ذهب ، بعضها يقابل بعضا ، وجعل مقابل جنبَي الكرسيّ أسدين من ذهب ، على رأس كل أسد منهما عمود من الزُّمرّد الأخضر ، وعقد على النخلات أشجارَ كروم من الذهب ، عناقيدها من الياقوت الأحمر . ٥

قالوا : وكان سليمان إذا أراد صعودَه وضع قدَمَيْه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسيّ كله بما فيه دَوَرَان الرحا المسرعة ، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وكذلك كان يفعل فى كل درجة يصعد فيها سليمان . فإذا استوى سليمان بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأس سليمان ، ثم يستدير الكرسيّ بما فيه ويدور معه النسران والطاووسان ، والأسدان مائلان برءوسهما إلى سليمان ، ينضَحْن عليه من أجوافها المسك والعنبر ، ثم تُناوله حمامة من ذهب جاثمةٌ على عمود من جوهر من أعمدة الكرسيّ التوراةَ ، فيفتحها سليمان — عليه السلام — ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء . فإذا دعا بالبيّنات [و] تقدّمت الشهود لإقامة الشهادات دار الكرسيّ بما فيه من جميع ما حوله دَوَرَان الرحا المسرعة . ١٣/١٢ ١٠ ١٥

قال أبو إسحاق الثعلبيّ قال معاوية لوَهْبِ بن مُنَبِّه : ما الذى كان يُدير ذلك الكرسيّ ؟ قال : بُلبلتان[1] من ذهب . قال : فإذا دار الكرسيّ بسط الأسدان أيديَهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وينشر النسران والطاووسان أجنحتها فتفزَع منها الشهود ويداخلهم الرعب الشديد ، فلا يشهدون إلا بالحق .

(١) فى قصص الأنبياء للثعلبيّ المخطوطة : « تنين عظيم » . ٢٠

قال : فلما توفّى الله سليمان — عليه السلام — وجاء بُخْتَنَصّر إلى بيت المقدس أخذ الكرسىّ وحمله الى أنطاكية[1]، وأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا معرفة بأحواله . فلما وضع قدمه على الدرجة رفع الأسد يده اليمنى فضربه ضربة شديدة دقّه و رماه، فحمل بختنصّر، فلم يزل يعرُج منها و يتوجّع إلى أن مات . و بقى الكرسىّ بأنطاكية حتى غزاهم ملك من ملوك الشام يقال له كداس بن سدارس فهزم خليفة بختنصّر و ردّ الكرسى الى بيت المقدس ، فلم يستطع أحد من الملوك الصعود اليه . فوُضع تحت الصخرة فغاب فلم يعرف له خبر ولا يُدرَى أين هو . والله أعلم بالصواب .

ذكر خبر بلقيس وابتداء أمرها

قال الكسائىّ قال كعب : هى بِلْقِيس بنة ذى شَرْح[2] ، وهى متولّدة من الإنس والجنّ . وأمّها عَمِيرةُ بنتِ ملكِ الجنّ . وكان لاتصال ذى شَرْح والد بلقيس بعَمِيرَة بنت ملك الجنّ سببٌ عجيبٌ نذكره على ما حكاه الكسائىّ ، قال : أهلك الله تعالى مساكن سبأ بسيل العَرِم ، على ما نذكر ذلك فى كتابنا هذا إن شاء الله تعالى ، وهو يلى أخبار ملوك قَحْطان ، وذلك فى الباب الثانى من القسم الرابع من الفن الخامس

(١) كانت فى القديم حاضرة سوريا ، وهى واقعة على منعطف من نهر العاصى ، وقد فاقت قديما غيرها من المدائن فى الثروة والعلوم والتجارة ، وكان لأهاليها امتيازات مدنية خصوصية حتى انها كانت الثالثة بين مدن مقاطعات الرومان العظيمة . وقد اشتهرت بحسن موقعها وطيب هوائها ، وكانت محفوفة بغياض السرو الكثيفة ومجارى المياه العذبة . (راجع قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست) .

(٢) كذا فى كتاب الإكليل للهمدانى (ج ٨ ص ٣٠ طبع بغداد) ونسخة ب فى بعض المواضع مضبوطا بالقلم بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة . وفى نسختى ا ، ج : « ذو أشرح » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٧٦ من القسم الأول) : « هى فيما يقول أهل الأنساب : بلقمة بنة اليشرح ، ويقول بعضهم : ابنة ايلى شرح ، و يقول بعضهم : ابنة ذى شرح بن ذى جدن بن ايلى شرح بن الحارث بن قيس ... الخ » . وفى الكسائىّ : « ذو سرح » بالسين المهملة .

فى السفر الثالث عشر[1] من هذه النسخة . قال : فلما انقرضوا وأبادهم الفَنَاء توارثها بعدهم جماعةٌ من الملوك ليس هذا موضع ذكرهم ، حتى انتهى المُلْك إلى رجل فظّ غليظ يقال له شَرَاحِى الحِمْيَرِىّ . وكان من عادته مع قومه أنه افترض على أهل مملكته فى كل أسبوع أن يأتوه بجارية من بناتهم فيفتضّها ثم يردّها الى أهلها . وكان ذو شَرْح وزيره وهو من أبناء ملوك حِمْير من ولد سبأ ، وكان لذى شرح ألفُ قصر وألفُ فرس عتيق[2] وألف سيف يمان ، وكان يرجع الى حُسْنٍ وجمالٍ وعقل ، وكان مُولَعا بالصيد ، فكانت الجنّ تتصوّر له فى صورة الظبى ، فإذا صادهم وهمّ بذبحهم كلّموه وقالوا له : لا تَعجَلْ فإنّا إنما جئنا لننظر الى محاسن وجهك . وكانت الجنّ تؤذى أهل اليمن ، فأقسم ذو شرح أن يقتل ملك الجنّ ويتزوّج بابنته . قال : وكان اسم ملك الجنّ عُمَير ، وكان حسنَ الوجه ، وابنتُه عَمِيرة . فمرّ ذو شرح ذاتَ يوم فى واد من بلاد اليمن كثير الأشجار فنزل به ، حتى جنّه الليل ، وكان فى جمع قليل من أصحابه ، وكان الوادى الذى نزل به من مساكن الجنّ . فلما مضى بعض الليل سمع هَمْهَمَة الجنّ ، فقام ونادى : يامعشر الجنّ ، قد نزلتُ بكم الليلةَ على أن تُضيفونى فإنى جارٌ لكم ، فاسمعونى من أشعاركم . قال : فأنشدته الجنّ من أشعارها ، وجاءته عَمِيرة بنت عُمَير مَلِك الجن على أحسن صورةٍ . فلما نظر إليها ذَهِلَ عقلُه من حسنها ، وغابت عن عينه فشُغِفَ بحبّها فقال : يامعشر الجنّ ، إن أنتم زوّجتموها منّى وإلّا كنت حرباً لكم ما عشت أبدًا . فنادوه : ياذا شَرْح ، إنك آدمىّ فكيف تقاتل الجنّ ومسكنُهم الهواء وظلمات الأرض ! مهلًا أيها الآدمىّ لا تعرّض نفسك الى ما لا تقدر عليه وارجع ، فإن قُدِّر لك أمر فسوف تناله . فلما سمع ذلك أيِس

(١) يقع هذا فى نحو الجزء السابع عشر من أجزاء هذه الطبعة .

(٢) فرس عتيق ، أى رائع .

من الترويح وأخذ فى مستأنف أمره فى مؤالفة الجنّ، فكان يُهاديهم بما يصلُح لهم
١٤/١٢ من الهدايا، نصافاه عُمَير ملك الجنّ وآخاه وألِفَه حتى صار عنده كالأخ. فلما رأى
ذلك ذو شَرْح وأنه قد تمكّن من ملك الجنّ قال له: هل لك أن تزوّجنى ٱبنتَك
عَمِيرة ليكون لى فى ذلك شرفٌ الى الممات! فرغب فيه عُمَير ملك الجنّ لحسنه وجماله
٥ وشرفه وماله؛ فزوّجه ٱبنته بحضرة سادات الجنّ. وٱنصرف ذو شَرْح الى مدينة
سبأ وأهدى هدايا كثيرة الى ملك الجن وساداتِ قومه، ثم زُفّت إليه فوطِئها
فحَملتْ منه.

ذكر خبر ميلاد بلقيس وكيف كان وسبب مُلْكها

قال: وَوَلَدت عَمِيرةُ بنت ملك الجنّ بِلْقِيس بنت ذى شَرْح على أحسن ما تكون
١٠ من الصُّوَر، ثم ماتت أمها بعد ذلك بقليل، فربّتها الجن. فلمّا بلغت مبلغ النساء قالت
لأبيها: إنّى كرهت المُقَام عند الجن فٱحملنى الى بلاد الإنْس فإنهم أحبّ إلىّ.
فقال لها: إنّ للإنس مَلِكًا ظالما وذكر لها سُنّته فى بلاد قومه، وأنه يفتضّ الأبكار
ثم يردّهن الى أهلهنّ. قالت: لا تخشَ ذلك علىّ وٱنقُلنى، وسترى ما يكون منّى. فبنى
لها قصرًا خارجَ مدينة سبأ من أعظم ما يكون من الأبنية، وٱتّخذ لها عرشًا من
١٥ العاج والآبنوس والذهب والفضة، ونقلها الى القصر وٱتّخذ لها أوانىَ الجوهر.
فأقامت بِلقيس فى قصرها زمنًا طويلا، وٱنتشر خبرها إلى ملك سبأ، فركب
فى موكبه حتى وقَف على باب القصر ورأى حُسْنَ بنائه، فرجع وأرسل بجارية من
جواريه إلى بِلقيس، فدخلت عليها ونظرت إليها وإلى ما فى قصرها من التُّحَف
العظيمة وما عندها من جوارى الإنس والجنّ، فعادت إلى الملك وأخبرته بما هى
٢٠ عليه من الجمال وأنها ٱبنة وزيره. فأحضره وأنكر عليه وقال: كيف ٱتّخذتَ

مثل هـذا القصر ولك مثلُ هـذه البنت وأنت وزيرى ولم تُعلمنى ولا آستأذنتَنى فى بنائه ! . فقال : أيها الملك ، أمّا القصر فإنى أنفقت عليه المـال الذى ورثتُـه من أبى . وأمّا البنت فإنها آبنة عَمِيرةَ بنت ملك الجن ، ورغِبتْ فى السكن فى بلاد الإنس ، فحملتُها الى هـذا المكان ، فهذه قصتها . فقال : صدقتَ فزوِّجْنيها ولا بدّ من ذلك . فقال : أحتاج فى ذلك إلى إذنها . قال : استأْذِنْها . فجاء اليها وقال : يا بُنَيّـة ، قد وقعتُ فيما كنت أخشاه عليكِ ، وذكر لهـا مقالة الملك . فقالت : زوِّجنى منه ولا تَخَفْ ، فإنه لايصل إلىّ . فزوّجها منه بحضور أكابر أهل المملكة . ولمّـا تمّ التزويج كتب الملك كتابا إليهـا يقول : إنى قد عشِقتُ آسمَك قبـل أن أنظر إليك ، فإذا قرأتِ هـذه الرقعة فعجِّلى بحضورك إلىّ . فكتبتْ إليـه : إنى لمشتاقة إلى وجهك أشوقَ منك إلىّ ، غير أن قصرى هـذا هو من بناء الجن ، وفيه عجائبُ كثيرة ، وقد جمعتُ فيه مالا يصلح إلا لمثلك . فإن رأيتَ أن تتحوّل إلى قصرى فآفعلْ . فلمـا ورد جوابها عليـه ركب لوقته فى حَشَمه وجنوده وسادات قومه . فبلغ بِلْقيس فقالت لأبيها : امضِ إلى الملك وقُـلْ له : إنّ آبنتى من بنـات الجن ولم تنظر قطُّ الى مثل هـذه الجنود ، ففَرِّقْ هؤلاء وآدخل إليها منفردا . فقال ذلك للملك ، ففرّق جنوده وأتى إليهـا بمفرده ، ودخل القصر وله سبعة أبواب . وكانت بِلقيس قد جعلت عند كل باب جاريةً من بنـات الجن من أحسن ما تكون من النساء ، وفى أيديهنّ أطباق الذّهب فيهـا الدنانير والدراهم والطِّيب ، وأمرتهن أن ينثُرنَ ذلك على الملك . فلمـّا دخل توهّم أنّ كل واحدة منهنّ آمرأتُه وهمّ بالنزول عليها ، فتقول : أنا خادمتها وهى أمامك ، حتى آنتهى إلى آخر الأبواب ، فتقدّمت إليه جارية وأصعدته إلى العرش ، فنظر الى القصر وما فيه من الآلات والزينـة ، فرأى ما لم يخطُر ببالِه . ثم أقبلتْ بِلْقيس والجوارى بين يديهـا ينثُرن على الملك من

أنواع النِّثار وعلى رأسها تاجٌ، فصعِدت على عرشها. فلمّا رآها الملك فُتن بها وكاد يَذْهَل عقلُه. وأخذت فى مخادعته وملاعبته، ثم أمرتْ بالطعام فأُحضِر بين يديه. فآمتنع من الأكل وقال: ما أريد أن أغفُل عن وجهك. فأمرتْ بإحضار الشراب فأُتِىَ به فى آلات الجوهر النفيس. وأخذا فى الشرب، فلم تزل به حتى أسكرته وغاب عن عقله ووقع على قفاه لا يعقِل من أمره شيئا. فذبحته بِلْقِيس، ثم دعتْ بأبيها وأعلمته بما فعلت. ففرِح وكتب إلى خُزّان الملِك عن الملِك: إنّى قد أحببتُ النزول بهذا القصر فآجمعوا ما فى الخزائن من الأموال وأَنْفِذوه إلى عندى[1]. فجمعوا الأموال وأنفذوها الى القصر. ثم أمرتْ بعد ذلك بآتخاذ الأطعمة فصُنعتْ ودعتْ ساداتِ ملوك اليمن. فلمّا جلسوا قُدِّمتْ إليهم الأطعمةُ فأكلوا، ثم قُدّم إليهم الشراب فشرِبوا. فلما أخذ منهم أشرفتْ بِلقيس عليهم وقالت: إنّ الملك يأمركم أن توجِّهوا إليه بنسائكم وبناتكم. فغضبوا وقالوا: أَما يكفيه أنه فضَح بناتِ العرب حتى طمِع فينا نحن!. فقالت لهم: لا تغضَبوا حتى أرجِع إليه وأُعرِّفه غضبكم. ثم أمرتْ أن يُعاد عليهم الشراب ثانيًا فشربوا ساعةً، فعادت إليهم وقالت: قد أخبرتُ الملِك بغضبكم ومقالتكم فقال: لا بدّ من ذلك. فآزداد القوم غضبًا وصاحوا. فقالت: على رِسْلكم حتى أراجعه وأسأله. ومضتْ وعادت فقالت: إنى عدتُ الى الملك فوجدته قد نام، فما رأيُكم فى أمر أفعَلُه وأريحكم مما أنتم فيه من شرّه على أن تملِّكونى على أنفسكم؟ قالوا نعم. فحلَّفتهم على ذلك وأخذت عليهم العهود والمواثيق، وغابتْ ساعةً وعادتْ ومعها رأسُ الملك فألقته إليهم، ففرحوا بذلك واستبشروا وملَّكوها عليهم. فملكت بِضْعَ عشرةَ سنةً حتى بعث الله سليمان نبيًّا.

١٥/١٢

(١) فى الكسائىّ: «وأتونى بها» وهى أفصح لغة.

ذكر خبر سليمان وبلقيس وسبب زواجه بها

قال : وكان سببُ آتصال خبرها بسليمان عليه السلامُ أنه بينما هو يسير على بِساطه، وكان الهُدْهُدُ دليلَه على الماء لأنه يراه من عِدّة فراسخ، فآرتفع فى الهواء لطلب الماء، فنظر الى هُدْهُدٍ قد أقبل من ناحية اليمن، فآلتقيا. فقال له الهدهدُ السليمانىّ: مِن أين أنتَ ؟ قال : من اليمن. وسأله الآخر فقال : أنا من الشام من طيور الملك سليمان. قال : ومَنْ سليمان؟ قال : نبىّ الله ملك الجنّ والإنس والطير وجميع المخلوقات. قال : إنّ هذا مَلِكٌ عظيم. قال : وهل فى اليمن ملِكٌ؟ قال : نعم، مَلِكَةٌ يقال لها « بِلقيس » تحت يدها عشرة آلاف قائد، تحت يدِ كلِّ قائد كذا وكذا ألفا من العساكر.

وحكى الثعلبىّ أنه قال لمّا أخبره بمُلْك سليمان : إن لصاحبكم مُلْكًا عظيما، ولكن ليس مُلْكُ بِلقيس دونه، فإنها ملكةُ اليمن وتحت يدها اثنا عشر ألفَ قَيْلٍ مع كل قَيْل مائةُ ألف مقاتل — والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن — فهل أنت مُنطلق معى حتّى تراها؟ قال نعم. فآنطلقَ الهدهدان حتى أتيا بلادَ اليمن وصارا إلى قصرها، فنظر إليها [الهدهد السليمانىّ][1] وإلى قصرها ومُلْكها. وحضر وقتُ الصلاة لسليمان فلم يجد الهدهد، فقال ما أخبر الله به عنه : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[2] أى بحجة بيّنة. ثم دعا العُقاب وقال : أنت عَريف الطير، فتعرّفْ لى خبر الهدهد. فطار فى الشرق والغرب، وإذا هو بالهدهد قد أقبل من جهة اليمن، فجاء به إلى سليمان. فآستخبره عن سبب غيبته فقال : « أحَطْتُ بما لم تُحِط به وجِئْتُكَ من سَبَإٍ بِنَبَإٍ

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) سورة النمل آيتى ٢٠، ٢١

يقين . إنى وجدتُ ٱمرأةً تَملكهم وأُوتِيَتْ من كُلِّ شَيْءٍ ولها عَرْشٌ عظيمٌ » .
وذكر صفةَ عرشها وما فيه من أصناف الجواهر وغيرها ثم قال : «وَجَدْتُها وقومَها
يسجُدُونَ للشمسِ من دونِ الله» وخرّ ساجدًا لله ، ثم رفع رأسه وقال : « ألّا يَسْجُدُوا
لِلّهِ الذى يُخرِجُ الخَبْءَ[1] فِى السَّمٰوَاتِ والأرضِ » . قال سليمان : « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ
أم كنتَ مِنَ الكاذِبِينَ » ! . ثم سأله عن الماء فقال : هو تحت قائمة كُرسيِّك .
فأمر سليمان بتحويل البساط ، فحُوّل ونقر الهدهدُ بمنقاره فخرج الماء ، فشرب الناس
وصلّوا . ثم قال للهدهد : « اِذْهَبْ بكتابى هذا فأَلْقِهْ إليهم ثم تَوَلَّ عنهم فٱنْظُرْ
مَاذَا يَرْجِعون » وأقبل سليمان على آصف بن بَرْخِيَا وقال : أُكْتُبْ إلى هذه المرأة
كتابا لطيفا . فدعا بصحيفةٍ من فِضّة وكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم . إنه من
سليمان . ألّا تعلُوا علىّ وأتونى مسلمين » . وختم الكتاب وبعثه مع الهدهد فى زُمرة من
الطير ، فأقبلوا نحوَ اليمن وٱنقضّوا على قصرها ، ودخل الهدهد إلى قُبّتها من كُوّة[2] من
كوى القُبّة وهى نائمة ، وقد وَضَعتْ خاتَم مُلْكها على صدرها ، فوضع الكتابَ
على نحرها وطار . فلما ٱستيقظتْ أخذتِ الكتابَ وجمعتْ قومَها ثم قالت : « إنّى
أُلْقِىَ إلىّ كِتابٌ كريمٌ » وفتحته وقالت : إنه من سليمان ، وقرأته عليهم وعلمتْ أنه
من قِبَل رجل عظيم . وجمعتْ أكابرَ قومها وأهلَ العقل والعلم الذين فى مملكتها
و « قالت يأيها الملأُ أفتُونِى فى أمرِى ما كنتُ قاطعةً أمرًا حتى تَشْهَدُونِ . قالوا
نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ والأمْرُ إليكِ فٱنْظُرِى ماذا تَأْمُرِينَ » . فعلمتْ عند
ذلك أنهم قد أخطئُوا الرأىَ فى عَزْمِهم على الحرب و « قالتْ إنّ الملوك إذا دَخَلوا
قريةً أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أعِزّةَ أهْلِهَا أذِلّةً وكذلك يفعلُونَ . وإنّى مُرْسِلةٌ إليهم بهَدِيّةٍ
فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ » .

١٦/١٢

(١) خب الأرض : نباتها . وخب السماء : مطرها . (٢) الكوة : الخرق فى الحائط .

قال : وأرادتْ أن تختبِر حالَ سليمان عليه السلامُ فقالت : إنْ طلب الدنيا أرضيناه بالمال وصرفنا أذاه عنّا، وإنْ كان من الأنبياء ولم ترغِّبه الدنيا لم يكن لنا أمرٌ إلا الطاعةُ له ، فمضَوْا على رأيها، فأمرتْ باتّخاذ الهدايا. فعاد الهدهد إلى سليمان وأخبره بما كان من أمرها مع قومها . فأمر سليمان أن يُفرَش مَيْدانه بِلَبِن الذهب والفِضّة، وأن يُبْنى حولَ الميدان حائطٌ من الفضة شُرُفاته من الذهب، على كل شُرْفةٍ تاجٌ من الذهب مرصّع بالجوهر، وأمر الجنَّ أن يأتوا بأولادهم من الذكور والإناث، وأمر بإحضار كل فرس عجيب الخَلْق .

قال الثعلبيّ : إنّ سليمان عليه السلامُ سأل الجنّ عن أحسن دوابّ رأَوْها في البحر. قالوا : رأينا دوابَّ في بحر كذا وكذا منمّرة منقّطة مختلفة ألوانُها، لها اجنحة وأعرافٌ ونواصٍ . قال : عَلَيَّ بها الساعةَ ، فأتَوْه بها . قال : شُدُّوها عن يمين المَيْدان ويساره، ففعلوا . قالوا : وأمر سليمان الشياطين أن يُظهروا من التهويلات ما لم يُظهروه قبل ذلك اليوم .

قال الكِسائيّ : وكانت بِلقيس قد أعدّتْ مائةَ لَبِنةٍ من الذهب، ومائةَ لَبِنةٍ من الفضّة ، ومائةَ غلام أمرد ، لكل غلام ضفائرُ كضفائر النساء ، ومائةَ وصِيفةٍ مضمومات الشعر .

قال الثعلبيّ : واختلفوا في عددهم، فقال الكلبيّ: عشرة غِلْمانٍ وعشر جوارٍ. وقال مُقاتل : مائةُ وصيفٍ ومائةُ وصِيفة . وقال مجاهد : مائتا غلام ومائتا جارية. وقال وهب : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية . وألبستْ الغلمانَ ثيابَ الوصائف، وألبست الوصائفَ ثيابَ الغلمان .

وقال الثعلبيّ : قال وَهْبٌ وغيره من أهل الكُتُب : عَمَدتْ بِلْقِيسُ إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام، فألبست الجواريَ لباسَ الغِلمان، وألبست الغِلمان

لباس الجوارِى ، وجعلتْ فى سواعدهم أساور من ذهب ، وفى أعناقهم أطواقًا من ذهب ، وفى آذانهم أقراطًا وشُنُوفًا[1] من ذهب مرصّعاتٍ بألوان الجواهر ، وحَمَلت الجوارِىَ على خمسمائة رَمَكةٍ[2]، والغلمانَ على خمسمائة بِرْذَوْنٍ، على كل فرس لجامٌ من ذهب مرصّع بالجواهر، وغواشِيها من الدِّيباج الملوّن، وبعثت إليه خمسمائة لَبِنةٍ من ذهب، وخمسمائة لبِنةٍ من فضة .

قالوا : وعَمَدتْ الى تاجٍ من ذهب مرصّع بالجواهر، ومائةِ فرسٍ من جياد خيول اليمن، عليها براقع الحرير وأجلّة الديباج، وبعثت بحُقّة من ذهب فيها دُرّة غير مثقوبة، وجَزْعٍ يمانىّ مثقوبٍ معْوَجّ الثّقْب، [وقارورة][3] وبعثتْ ذلك مع وزيرها، وكتبتْ جوابَ كتابِ سليمان وقالت : قد بعثتُ إليك بمائتَىْ وصيفٍ ووصيفةٍ على سِنّ واحدة، وأحِبّ أن تميّز ذكورَهم من إناثهم من غير أن تكشِف عنهم ، ودُرّةٍ غير مثقوبة تأمر مَن يثقُبها من غير أن تستعين بأحدٍ من الإنس والجنّ والشياطين ، وجَزْعٍ مثقوبٍ تُدخِل فيه خيطا ، وقارورةٍ تملؤها ماءً ما نزل من السماء ولا نبع من الأرض .

فلمّا جاء الرسولُ ونظر الى مَيْدان سليمانَ وحِيطانه وما على شُرُفاتها من التِّيجان والخيول حول الميدان ، دخل على سليمان بالجوارى والغِلمان والحُقّة والقارورة ، ولم يظهر الذهب والفضة والخيل لأنه آستحقرها بالنسبة إلى ما رآه .

---

(١) الاشناف جمع شنف (بفتح الشين المعجمة وسكون النون) وهو ما يعلق فى أعلى الأذن . وأما ما يعلق فى أسفلها فهو قرط (بضم القاف وسكون الراء المهملة) .

(٢) الرمكة : الفرس .

(٣) زيادة يقتضيها الكلام الآتى .

وقال الثعلبيّ : إنه كان مما بعثته خمسمائة لَبِنةٍ من ذهب ، وخمسمائة لبنةٍ من فضة . قال : فلمّا دنا القوم من الميدان ونظروا الى مُلْك سليمان ورأَوْا الدوابّ تَرُوثُ على لَبِنِ الذهبِ والفضة رمَوْا ما معهم من الهدايا . قال : وفى بعض الروايات أنّ سليمان لمّا أمر بفِراش الميدان بلَبِن الذَّهَب والفضّة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعًا على قدر اللَّبِنات التى معهم. فلمّا رأت الرسل موضع اللَّبِنات خاليًا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يُتَّهموا بذلك، وطرحوا ما معهم فى ذلك المكان .

١٧/١٢

قال: ثم مرّوا على الشياطين، فلمّا نظروا إليهم فزِعوا . فقِيل لهم: جُوزُوا فلا بأسَ عليكم . وكانوا يمرّون على كُرْدُوسٍ[1] كُرْدوس من الجنّ والإنس والطير والسباع والوحش حتى وقفوا بين يدى سليمان عليه السلام .

قال الكسائيّ : فقُدّم الكتابُ إلى سليمان، فأخبر سليمانُ الرسولَ بما فيه قبل فتحه وقراءته ، وميّز الوُصَفاء من الوصائف، وأمر دودةً فثقبتْ الدُّرّة وأدخلت الخيط فى الجَزْع، وأمر أن تُساق الخيلُ حتى تعرَق وتُمْلأ القارورةُ من عَرَقها. وأقبل على وزير بِلْقِيس وقال : ارجعْ إلى صاحبتك بما جئتَ به من الهديّة وقُلْ لها : « أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ. ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

قال : فعاد الوزير إليها بما جاء به من الهديّة وأخبرها بما كان من أمر سليمان. فقالت لقومها : هل علمتم الآن أنّ رأيى كان أصوبَ من رأيكم فى ترك المحاربة ؟ ومن أين لنا طاقةٌ بحرب نبيّ !! ثم جمعتْ أموالَها وكنوزها واستصحبت ذلك معها

(١) الكردوس : الكتيبة من الخيالة .

إلّا عَرْشَها فإنّها تركتْه بقصرها وأغلقتْ عليه سبعةَ أبوابٍ وسارتْ إلى سليمان ومعها ملوكُ اليمن وأكابرُها وساداتُها، فبلغ ذلك سليمانَ .

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى : شخَصتْ بِلقيس إلى سليمان عليه السلام فى آثنَىْ عشر ألفَ قَيْلٍ من ملوك اليمن ، تحت يد كل قَيْل منهم مائة ألف . قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : وكان سليمان رجلاً مَهِيباً ، لا يُبتدأ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه . فخرج يومًا فجلس على سرير مُلْكه فرأى رَهَجًا[1] قريبًا منه، فقال : ما هذا؟ قالوا : بِلقيس . قال: وقد نزلتْ منّا بهذا المكان ؟ قالوا نعم . قال آبن عبّاس رضى الله عنهما : كما بين الكوفة والحِيرة قَدْرُ فرسخ .

قال : فأقبل حينئذ سليمان على جنوده فقال : « يٰأيها المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بعرْشها قبلَ أنْ يأتُونى مُسْلمينَ . قال عفْريتٌ من الجنّ أنَا آتيكَ به قبلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامكَ وإنّى عليه لَقَوِىٌّ أمينٌ » قال : أريد أسْرَعَ من ذلك . « قَالَ الَّذى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ — وهو آصف بن بَرْخِيَا — أنا آتيك به قبلَ أنْ يرتَدّ إليك طَرْفُكَ » . قال: وكان عنده آسمُ الله الأعظم . « فَلَمّا رآه مُسْتَقرًّا عِنْدَهُ قَالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ ربِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فإنّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ » . ثم قال سليمان : « نَكِّروا لها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونَ مِنَ آلذين لا يَهْتَدُونَ » . فأقبل عفريتٌ من الجنّ وقال : يا نبيّ الله ، إنّ رجليها لحافر حمارٍ . قال له سليمان : إنْ كان ذلك كما قلتَ وإلا عاقبتُك . قال : يا نبيّ الله ، أُريد أن أتّخذ لك صَرْحًا[2] من قَوارير ، وأُجرِىَ فيه ماءً ، وأُنزل فيه الحيتانَ والسمك ، فلا يشكّ مَنْ رآه أنه

(١) الرهج : الغبار أو ما أثير منه .

(٢) الصرح : القصر .

ماءٌ جارٍ ، فاتّخذه كذلك . فلمّا فرغ منه شكره. فقال : يا نبيّ الله، أُعفُ عنّى فإنّى كذبت على بِلقيس فى رِجْلَيْها ، فعفا سليمان عنه .

وأقبلت بلقيس فجعلتْ تنظر إلى الجنّ والإنس والطير والوحش وغيرهم، وهم قيامٌ لا يضرّ بعضهم بعضا . فلما قاربتِ الصَّرْحَ الممرَّد إذا بعَرْشها، فتعجبّت. فقيل : أهَكَذَا عَرْشُك ؟ قالت : كأنه هو ، وعلمتْ أنّه هو ، وأنه من قدرة الأنبياء . ٥

قال: فلمّا أقبلتْ إلى الصرح حَسِبتْه لُجّة وكشفتْ عن ساقَيْها. فناداها سليمان: إنه صرحٌ ممرّد من قوارير . فأرسلت ثوبها على ساقَيْها حياءً من سليمان، ثم «قالت رَبِّ إنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وأَسْلَمتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ العالمينَ » ثم أسلم قومُها .

قال الثعلبيّ : اختلف العلماء فى أمرها بعد إسلامها ، فقال أكثرهم : لمّا أسلمتْ بِلقيس أراد سليمان أن يتزوّجها . فلمّا همّ بذلك كَرِه ما رأى من كثرة شعر ساقَيْها وقال : ما أقبحَ هذا ! . فسأل الإنس : بِمَ يذهب هذا ؟ فقالوا : بالموسى. فقالت المرأة: لم يَمَسَّنِى الحديدُ قطُّ، فكرِهه سليمان. فسأل الجنّ، فقالوا: لا ندرى. فسأل الشياطين فمكروا عليه ، فلمّا ألحّ عليهم قالوا : نحن نحتال عليه حتى يكون كالفضّة البيضاء ، فاتّخذوا لها النُّورة[1] والحمّام . قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : هو أوّل يوم اتُّخِذَت فيه النُّورة . وقال الكسائىّ فى سياقة خبره : ثم قالت بِلقيس : يا نبيّ الله، أرى خاتَمَك منقوشا، فما الذى عليه ؟ قال : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . قالت : ومَنْ محمد ؟ قال : نبيّ يخرج فى آخر الزمان ، فآمنتْ

١٠ ١٥ ١٨/١٢

(١) النورة : حجر الكلس ثم غلب على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره ويستعمل لإزالة الشعر .

٢٠

بِلقيس به . ثم قال لها بعد إيمانها : أتحبِّين أنْ تَرجِعِي إلى بلادِك وما كنتِ فيه؟ قالت : لا، بل أكون معك من بعض نسائك، فتزوّج بها سليمان عليه السلام .

هذا ما أورده الكسائىّ . وفيه زياداتٌ نقلها أبو إسحاق الثعلبىّ قد ذكرناها فى أثناء القصّة ونبّهنا عليها ونسبناها إلى قائلها . وحكى الثعلبىّ أيضا فى هذه القصة زياداتٍ قد رأينا إثباتها؛ فمن ذلك وَصْفُ قصرها وعَرْشِها .

ذكر صفة القصر الذى بنته بلقيس وصفة عرشها

قال أبو إسحاق الثعلبىّ قال الشعبىّ : يُروَى أنّ بلقيس لمّا ملكت أَمرت فحُمِل إليها خمسمائة أسطوانة من الرُّخام ، كلُّ أسطوانة خمسون ذراعا ، وأمرتْ بها فنُصبت على تلّ قريب من مدينة صَنْعاء ، وخَطّت بين كلِّ أسطوانتين عشرةَ أذرع ، ثم جعلت على ذلك سقفًا مبسوطا بألواح الرُّخام وأُلْحِمَ بعضُها إلى بعض بالرَّصاص حتى صارت كأنها لوحٌ واحد . ثم بنَتْ فوق ذلك قصرًا مربّعا من آجُرٍّ وجعلتْ فى كل زاوية من زواياه قُبّةً من ذهب مُشرفةً فى الهواء، وفيما بين ذلك مجالسُ حيطانُها من ذهبٍ وفضّةٍ مُرصّعةٌ بأنواع الجواهر الملوّنة، فكانت الشمس إذا طلعت على ذلك القصر ألتهبَ الذهبُ والجوهر فيكاد يُعْشِى العيونَ وتحارُ فيه الأبصار . وجعلتْ بابَ ذلك القصر مما يلى المدينةَ بدَرَج من الرخام الأبيض والأحمر والأخضر، وفى جانبه حُجُرًا لحُجّابها وبوّابيها وحَرَسها وخَدَمها وحَشَمها على قدر مراتبهم .

قال : وأمّا صفة عَرْشها فكان مُقَدَّمُه من ذهب مفصّص بالياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الأخضر، ومؤخَّره من فضّة مكلّل بأنواع الجواهر، وله أربعُ قوائم :

قائمةٌ من ياقوت أحمرَ، وقائمةٌ من ياقوت أصفرَ، وقائمةٌ من زُمُرُّد أخضرَ، وقائمةٌ من دُرٍّ أصفَر، وصفائح السرير من ذهب . وعليه سبعةُ بيوت، على كل بيت بابٌ مُغْلَقٌ، وكان ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعا، وطولُه فى الهواء ثمانون ذراعا ، فـذلك قوله : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ . أىْ سرير ضخم .

ذكر خبر وادى القِرَدَة

قال الكسائىّ : وبينما سليمان عليه السلامُ مع بِلْقِيسَ ذاتَ يوم إذ قال لها : أكلُّ اليمن فى طاعتك ؟ قالت : نعم، إلّا وادٍ عن يمين سبأ ، فيه أشجار ومياه غلبت عليه القِرَدَةُ وأزاحوا عنه سُكّانه ، وهو وادٍ طويلٌ عريضٌ ، وهم فى كثرة، وإنهم على سُنَن اليهود لا يتبايعون يوم السبت . فبعث سليمانُ العُقَابَ ليأتيَه بخبرهم . فطار إلى الوادى وعاد اليه قبل أن يقوم من مُقامه ذلك، وأخبره بكثرتهم . فركب سليمان الريحَ على بِساطه فى قُبّة القوارير ، وسار فى نفر من بنى إسرائيل حتى نزل على شَفِير الوادى، فعلم القِرَدة أنه سليمان، فبادروا إلى طاعته وأتَوْه، وقالوا : يا نبىّ الله، إنّا من نَسْل اليهود الذين ٱعتدَوْا فى السبت، ونحن على دين موسى نعمَل بأحكام التوراة، وسألوه أن يُقِرّهم فى ذلك الوادى، فأقرّهم فيه وكتب لهم سِجِلًّا على لَوْح من نُحاس وجعله فى عُنق كبيرهم يتوارثونه ، ثم ٱنصرف عنهم . هكذا نقل . والصحيح أنّ الذين ٱعتدَوْا فى السبت وغيرهم ممن مُسِخ لم يُعْقِبوا . وفى الصحيح : إنّ الله لم يجعل لمَسِيخٍ نَسْلا (١) .

---

(١) مسيخ ، أى ممسوخ .

ذكر خبر الرجل الذى قُبِض بأرض الهند

١٩/١٢ قال الكسائىّ : كان سليمان عليه السلامُ قد سأل الله تعالى أن يُرِيَه مَلَك الموت فأراه إيّاه، وكان يعوده و يأتيه فى كل خميس. فأتاه فى بعض الأيام على صُورة البشر، وجعل يُطيل النظر إلى رجل فى مجلس سليمان حتى ارعبَ ذلك الرجل. فلمّا فارقه مَلَك الموت قال : يانبىّ الله، لقد فزّعنى هذا الرجل الذى كان فى مجلسك من نظره إلىّ، فمَنْ هو؟ قال: هو مَلَك الموت. قال : يانبىّ الله أسألك أنْ تأمُرَ الريح أن تحملنى إلى أرض الهند، فأمرها سليمان فحملته من مجلسه ووضعته بأرض الهند. ثم جاء مَلَك الموت إلى سليمان، فقال له : قد كنتَ اليوم عندى وأنت تنظر إلى ذلك الرجل نظرًا شافيا حتى خاف منك. قال : يانبىّ الله، إنى كنتُ قد أمرت بقبض رُوحه فى موضع من أرض الهند فى هذا اليوم، فلمّا رأيته عندك عجبتُ متى يصل إلى الهند، فإذا الريح قد جاءت به، فألقتْه فى البقعة التى أُمِرتُ بقبض رُوحه فيها، فقبضتُ روحه هناك. فعجِب سليمان عليه السلام من ذلك.

ذكر خبر الفتنة وذهاب خاتَم سليمان عليه السلام ورجوعه اليه

قال الكسائىّ : كان سليمان عليه السلامُ كلّما نزل بمنزلٍ من البرارى بَنَتِ الجنّ والشياطين له قصرًا بديعا، فإذا تحوّل عنه خرّبوه. وكان له قصر على ساحل البحر من بناء الجنّ، فأمرهم أن يتركوه على حالته. فجاء سليمان إلى ذلك القصر فنزله، وكان صخر الجنىّ معه وهو شديد الحرص على أن يَسلبه الخاتَم؛ لأنه كان قد علِم أن مُلْكَه فى خاتَمه. وكان لسليمان جاريةٌ اسمها «الأَمينة» فكان إذا أراد الدخول الى الخَلْوة بنسائه يسلِّم الخاتَم إليها، فإذا اغتسل أخذ خاتَمه منها، وكذلك إذا أراد الوضوء. فجاء سليمانُ فى بعض الأيام فنزل ذلك القصرَ وأراد

الوضوء، فدفع الخاتَم الى الجارية. فجاء صخرٌ وقد ألقَى على نفسه صورة سليمان، فقال للجارية : هاتِ الخاتَمَ، فناولته إيّاه وهى لا تعلم. فلمّا صار الخاتَمُ فى يد صخر لم يستقر فى يده لأنه شيطان، فرماه فى البحر، فجاء حُوت بإذن الله فآبتلَعه. ومضى صخر وهو على صورة سليمان فجلس على كرسيّه ومعه الناس وهم يظنّون أنه سليمان؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[1] قيل : الجسد هو صخر الجنى. ٥

قال : وخرج سليمان من الخلاء وقد غيّر الله صورته إلى صورة صخر، فطلب الخاتَمَ، فقالت الجارية : أعوذ بالله منك، قد دفعتُ الخاتم إلى سليمان. فعلم أنّ الله قد أوقع به البليّة، فخرج يريد القصر ويقول للناس : أنا سليمان، والناسُ يهزءون بقوله ويقولون : لستَ سليمان أنت صخر الجنّىّ. فجعل سليمان يدور على جميع الناس وهم على كلمة واحدة فى إنكاره، وجعل يدور فى القرى ويقول : أنا سليمان والناس يَشْتِمُونه حتى لزِق بطنُه بظهره من الجوع، فقال : إلٰهى إنّك آبتليتَ كثيرا من الأنبياء ولم تَحرِمهم رِزقك. إلٰهى إنّى تائب إليك من خطيئتى. فلم يَزَلْ سليمان كذلك أربعين يوما لم يَطْعَمْ شيئا، ثم وجد قرصةً يابسةً مُلقاةً، فأخذها ولم يقدِر على أكلها ليُبْسها، فأقبل الى ساحل البحر وقعد يبُلّ القرصة فآستلبتْها الأمواج من يده. ١٠ ١٥ فقال : إلٰهى رزقتَنى بعد أربعين يومًا قُرصةً يابسة نزلتُ حتى أبلّها فآستلبتْها الأمواج من يدى وأنت المتكفِّل بأرزاق العباد، وأنا عبدك المذنب، فارزقنى فأنت الرزّاق الكريم. ثم جعل يمشى على الساحل وهو يبكى، فإذا هو بقوم يصطادون السمك، فسألهم شيئا من الطعام فمنعوه وطردوه وقالوا له : انصَرِفْ عنّا، فما رأينا أوحش من وجهك. قال : ما عليكم من وجهى إذا أطعمتمونى؟!. قالوا : وحقّ سليمان ٢٠

(١) سورة ص آية ٣٤

إنْ قُمْنا إليك لنُوجعنّك ضربًا إن لم تَرُحْ[1] عنّا . قال : يا قوم، فأنا والله سليمانُ . فضربه رجلٌ منهم على رأسه وقال: أتكذِب على نبيّ الله! فبكى حتى بكت الملائكة لبكائه ورحمه أولئك القوم وناولوه سمكةً وأعطَوْه سِكّينًا، فشقّ بطنها ليصلحها ويَشوِيَها ويأكلَها، فخرج الخاتَمُ من بطنها فغسَله وجعله فى إصبعه، وعاد اليه حسنُه وجماله، فوضع السمكة وسار يريد قصره، فجعل يمرّ بتلك القُرَى، فكُلُّ من كان قد أنكره عَرَفه وسَجَد له . فبلغ ذلك صخرًا الجنّيّ فهرَب . وعاد سليمان الى قصره واجتمع له الإنس والجن والشياطين والسباع والهوامّ كما كانوا أوّل مرّة . فبعث العفاريت فى طلب صخر فأتَوْه به ، فأمر أن ينقُروا له صخرتين وصفّده بالحديد وجعله بينهما وأطبقهما عليه وختم عليه بخاتَمه وطرحه فى بُحيرة طَبَرِيّة . فيقال : إنه فيها إلى يوم القيامة . ثم أمر الله الرياح أن تَحشُر له سائر الشياطين فحُشِرتْ له ، فصفّد مَرَدَتهم بالحديد وحبسهم . هذا ما أورده الكِسائىّ فى قصّة الفتنة، وهو أولى ما أورده وأشبه ما نقل .

٢٠/١٢

وحكى الثعلبيّ رحمه الله فى خبر الفتنة قال قال محمد بن إسحاق قال بعض العلماء عن وهب بن مُنَبِّه قال : سمع سليمان عليه السلامُ أنّ فى جزيرة من جزائر البحر رجلًا يقال له «صَيْدون» ملِك عظيم الشأن لم يكن لأحد من الناس عليه سبيل لمكانه فى البحر . وقال غيره : إن هذه الجزيرة مسيرة شهر فى مثله، وفيها عجائب كثيرة وأشجار وأنهار، وفى وسطها مجلس على عمد من مرمر ملوّن، والمجلس من ذهب مفصل بأنواع الجواهر يُشرف على جميع الجزيرة . وقيل : إنه كان ساحرا ، فكانت الجنّ تُطِيف به وتعمل له العجائب ، فدُلّ سليمان عليها فغزاه .

(١) كذا فى الكسائىّ . وفى الأصول : « تمرّ » .

نَرْجِع إلى سياق الثعلبيّ قال: فخرج سليمان إلى الجزيرة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجنّ والإنس، فقتل مَلِكها وسَبَى مافيها، وأصاب فيما أصاب بنتَ الملك واسمُها «جرادة» لم ير الناسُ مثلَها حسناً وجمالًا، فاصطفاها سليمان لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلّة ثقة، وأحبّها سليمان حبّاً لم يحبّه شيئاً من نسائه، وكانت منزلتُها عنده منزلةً عظيمة، وكان لا يذهَب حزنُها ولا ترقأ[1] دمعتُها على أبيها. فشقّ ذلك على سليمان وقال لها: ويحكِ! ما هذا الحزنُ الذى لا يذهَب، والدمع الذى لا يرقأ! . قالت: إنى أذكره وأذكر مُلْكه وما كان فيه وما أصابه فيَحزُنُنى ذلك. قال سليمان: فقد بدّلك الله مُلْكًا أعظمَ من ملكه، وسلطانًا أعظمَ من سلطانه، وهداك إلى الإسلام وهو خير من ذلك كلّه. قالت: إنّ ذلك كذلك، ولكن إذا ذكرته أصابنى ما ترى من الحزن. ولو أنك أمرت الشياطين فصوّروا لى صورته فى دارى أراها بُكرةً وعشيّة لرجوتُ أن يذهب ذلك، وأن يسكُنَ عنّى بعضُ ما أجد فى نفسى. فأمر سليمان الشياطين أن يمثّلوا صورة أبيها فى دارها حتى لا تنكر منه شيئا، فمثّلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا رُوحَ فيه. فعَمَدتْ إليه حين صنعوه فأزّرته وقمّصته وعمّمته بمثل ثيابه التى كان يَلْبَس. ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو على ذلك التمثال هى وولائدُها فيسجُدْن له كما كانت تصنع ذلك فى مُلكه، وتفعل ذلك بكرةً وعشيّة وسليمانُ لا يعلَم بشىء من ذلك أربعين يوما. وبلغ ذلك آصِفَ بن بَرْخِيَا، وكان صدّيقا، وكان لا يُرَدّ من باب سليمان متى أراد دخوله من ليل أو نهار، فأتاه فقال: يانبيّ الله، كَبِرتْ سنّى، ودقّ عظمى، ونَفِدَ عمرى، وقد حان منّى الذهاب، وقد أحببتُ أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأُثنى عليهم بعلمى، وأُعَلِّم الناس

(١) لا ترقأ: أى لا تجف ولا تنقطع.

ما يجهلون من كثير من أمورهم، فقال : افعَلْ . فجمع له سليمان الناسَ فقام فيهم خطيبا، فذكر مَنْ مضى من أنبياء الله وأثنى على كلٍّ منهم بما فيه، وذكر ما فضّلهم الله به حتى انتهى إلى سليمان، فقال : ما كان أحلمَك فى صغرك، وأورعَك وأفضلَك فى صغرك، وأحكمَ أمرَك فى صغرك، وأبعدَك من كل ما تكره فى صغرك، ثم انصرف.

٥ فوجَد سليمان فى نفسه من ذلك . فلمّا دخل سليمان داره أرسل إلى آصف بن بَرْخيا فقال : ذكرتَ مَنْ مضى من أنبياء الله، وأثنيتَ عليهم خيرا فى كل زمانهم، وفى كل حالٍ من أمورهم؛ فلما ذكرتَنى جعلت تُثنى علىّ بخير فى صِغَرى وسكتّ عما سوى ذلك من أمرى فى كِبَرِى ، فماذا أحدثتُ فى آخر أمرى ؟ قال : لأنّ غيرَ الله يُعْبَد فى دارك أربعين يوما فى هَوَى امرأة. قال سليمان : فى دارى! قال : نعم فى دارك.

١٠ فاسترجع سليمانُ ثم دخل داره فكسر ذلك الصنم، وخافت تلك المرأة. ثم أمر سليمان بثياب الطُّهر فأُتِىَ بها، وهى ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا تَمَسُّها امرأة ذاتُ دم، فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده ، فأمر برماد ففُرش له، ثم أقبل تائبا ٢١/١٢ إلى الله حتى جلس على ذلك الرَّماد تذلُّلا لله تعالى وتضرُّعا إليه، يبكى ويدعو ويستغفر مما كان فى داره ، فلم يزل ذلك دأبَه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره . وكان له وَليدة

١٥ يقال لها «الأَمينة»، فكان إذا دخل لحاجته أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتَمه عندها حتى يتطهّر، فوضعه يوما من الأيام عندها ثم دخل لقضاء حاجته، فأتاها صخر الجِنّىّ على صورة سليمان لا يُنْكَر منه شىء ، فقال لها : يا أمينة، خاتَمى؛ فناولته إياه، فجعله فى يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الجنّ والإنس والطير . وخرج سليمان فأتى الأمينةَ وقد تغيّر عن حِلْيته وهيئته عند كل مَنْ

٢٠ يراه. فقال : يا أمينة . قالت : ومن أنت ؟ قال : أنا سليمان بن داود . قالت : كذبتَ لستَ سليمان، وقد جاء سليمان وأخذ خاتَمه وهو جالس على سريره فى مُلكه،

فعرَف سليمانُ أنّ خطيئته قد أدركتْه، فجعل يقف على الدار من دور بنى إسرائيل فيقول : أنا سليمان بن داود ، فيَحْثُون عليه التراب ويسبُّونه ويقولون : أُنظروا إلى هذا المجنون يزعم أنه سليمان . فلمّا رأى سليمان ذلك عَمَد إلى البحر ، فكان ينقُل الحِيتان لأصحاب البحر منه الى السوق فيعطونه كلَّ يوم سمكتين، فإذا أمسَى باع إحدى سمكتيه بأرغفة ويشوى الأخرى فيأكلها . فمكث كذلك أربعين صباحا عدّةَ ما كان ذلك الوثن فى داره .

قال : وأنكر آصف وعظماءُ بنى إسرائيل حُكْم عدوّ الله الشيطان فى تلك المدّة. فقال آصف : يامعشر بنى اسرائيل ، هل رأيتم من آختلاف حكم سليمان بن داود ما رأيتُ ؟ قالوا نعم . قال : أمهلونى حتى أدخل على نسائه وأسألهنّ هل أنكرنَ منه فى خاصّة أمره ما أنكرناه فى عامّة أمرِ الناس. فدخل على نسائه فقال: ويحكنّ! هل أنكرتنّ من أمر نبىّ الله سليمانَ ما أنكرناه ؟ فقلن : أشدّ وأعظم، ما يدع آمرأة منّا فى دمها ، ولا يغتسل من جنابة . فقال آصف : إنّا لله وإنا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء المبين . ثم خرج إلى بنى اسرائيل فقال : ما فى الخاصّة أعظم ممّا فى العامّة . فلمّا مضت أربعون صباحا طار الشيطان عن مجلسه ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتمَ فيه ، فآبتلعته سمكة وأخذها بعض الصيادين ، وقد عمِل له سليمان صدرَ يومه حتى إذا كان آخرُ النهار أعطاه سمكتيه ، فأُعطىَ السمكة التى آبتلعت الخاتمَ، وحمل سليمان سمكيته فباع التى ليس فيها الخاتمُ بالأرغفة، ثم عَمَد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها، فآستقبله الخاتم من جوفها فأخذه، فجعله فى يده ووقع ساجدا لله تعالى، وعكفت عليه الطير والوحش والجنّ. وأقبل إليه الناس ورجع إلى مُلكه وأظهر التوبة من ذنبه ، وأمر الشياطين بإحضار صخر فأدخله فى صخرة عظيمة ، ثم شدّ عليه أخرى ، ثم أوثقهما بالحديد والرّصاص، ثم أمر به فقُذِف فى البحر .

هـذا حديث وَهْب . وقال السُّدِّىّ فى سبب الفتنة : كان لسليمان مائةُ آمرأة وكانت منهن آمرأةٌ يقال لهـا « جَرَادةُ » وهى آثر نسائه وآمنهنّ عنده ، وكان إذا أجنبَ أو أتى حاجته نزع خاتَمه ولم يأتمن عليه غيرَها . فجاءها يوما من الأيام فقالت له : إنّ أخى بينه و بين فـلان خصومة ، و إنى أُحبّ أن تقضىَ له إذا جاءك . قال نعم ، ولم يفعل ؛ فآبتُلِىَ بقوله وأعطاها خاتَمَـه ودخل المَذْهب[1] ، فخرج الشيطان فى صورته فقال لها : هاتى الخاتم ، فأعطته إيّاه ، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان ، وخرج سليمان بعده فسألها أن تُعطيَه الخاتم فقالت : ألم تأخذه؟ قال : لا ! وخرج من مكانه . ومكث الشيطان يحكم بين النـاس أربعين يوما ، فأنكر الناس حكمه ، فآجتمع قرّاء بنى إسرائيل وعلمـاؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا : إنّا قد أنكرنا هذا ، فإن كان سليمانَ فقد ذهب عقلُه وأنكرنا حكمه[2] ، فأبكى النساءَ عند ذلك . فأقبلوا يمشون حتى أتَوْه فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرءوها ، فطار الشيطان من بين أيديهم حتى وقع على شُرْفة والخاتم معه حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم فى البحر فآبتلعه الحوت . فأقبل سليمان فى حالته التى كان فيهـا حتى آنتهى إلى صيّادين وهو جائع فآستطعمهم من صيدهم وقال : إنّى سليمان بن داود . فقـام إليه بعضهم فضربه بعصاه فشجّه . فجعل يغسِل دمه وهو على شاطئ البحر ، فلام الصيّادون صاحبه الذى ضربه وقالوا : بئسما صنعتَ حيث ضربته . فقال : إنه زعم أنه سليمان بن داود !

٢٢/١٢

(١) المذهب : المتوضأ .

(٢) كذا فى الأصول . وعبارة الثعلبى : «واجتمع قراء بنى اسرائيل وعلماؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فذكروا لهن ما أنكروا فقالوا : ونحن قد أنكرنا هذا فإن كان سليمان قد ذهب عقله وأساء أحكامه فليس لنا صبر على ذلك ، فبكى النساء عند ذلك ... الخ » .

فأعطاه سمكتين . فقام إلى ساحل البحر فشقّ بطونهما وجعل يغسلهما ، فوجد خاتمه في بطن إحداهما ، فأخذه ولبسه و ردّ الله تعالى عليه مُلكه وبهاءه ، وجاءت الطير فعكفت عليه ، فعرفه القوم فقاموا يعتذرون إليه مما صنعوا . فقال : ما أؤاخذكم على عُدوانكم ولا ألومكم على ما كان منكم ، هذا ما كان لا بدّ منه . وجاء حتى أتى مُلكه ، فأخذ الشيطانَ فجعله في صندوق من حديد ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختَمه بخاتمه ، ثم أمر به فأُلقِيَ في البحر ، وهو فيه كذلك (١) إلى يوم القيامة .

قال : وفي بعض الروايات أنّ سليمان لمّا آفتُتِن سقط الخاتم من يده ، فأخذه سليمان فأعاده الى يده ، فسقط من يده . فلما رآه لا يثبت في يده أيقن بالفتنة . وقال آصف لسليمان : إنّك مفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك أربعةَ عشر يوما ؛ ففرّ إلى الله تعالى تائبا من ذنبك وأنا أقوم مقامك وأسير في عملك وأهل بيوتك بسيرتك حتى يتوب الله عليك و يردّك إلى مُلكك . ففرّ سليمان هاربا إلى ربه ، وأخذ آصف الخاتم و وضعه في يده فثبت . و إنّ الجسد الذي قال الله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ هو آصف كاتب سليمان ، وكان عنده علمٌ من الكتاب . فأقام آصف في مُلك سليمان يسير سيرته و يعمل بعمله أربعةَ عشر يوما ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى ، وردّ الله تعالى عليه مُلكه ، وقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيّه وأعاد الخاتم في يده فثبت فيها .

قال أبو إسحاق : وقيل في سبب ذلك ما رُوِيَ عن سعيد بن المسيِّب أنّ سليمان آحتجب عن الناس ثلاثةَ أيّام ، فأوحى الله تعالى إليه أنْ يا سليمان آحتجبتَ عن عبادي ثلاثة أيام فلم تنظر في أمورهم ولم تُنصف مظلوما من ظالم . وذكر

(١) هذه عبارة الثعلبي . وفي الأصول : « وهو حيّ كذلك الى الساعة »

حديث الخاتم وأخذ الشيطان إيّاه كما تقدّم، وقال فى آخره: قال علىّ: فذكرت ذلك للحسن فقال: ما كان الله ليسلّطه على نسائه (١).

قال وقال بعض المفسّرين: كان سبب فتنة سليمان أنه أُمِر ألّا يتزوّج آمرأة إلّا من بنى إسرائيل، فتزوّج من غيرهم فعُوقب على ذلك.

٥ وقيل: إن سليمان لمّا أصاب آبنة الملك صَيْدون أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت وآمتنعت، فخوّفها فقالت: إنْ أكرهتنى على الإسلام قتلتُ نفسى. فخاف سليمان أن تقتل نفسها، فتزوّج بها وهى مشركة أربعين يوما، وكانت تعبد صنمًا لها فى خُفْية من سليمان إلى أن أسلمتْ، فعُوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما.

١٠ قال وقال الشعبىّ فى سبب ذلك: إنّ سليمان وُلد له ولد، فآجتمعتِ الشياطين وقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ولد لم ننفكّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخْرة، وما لنا إلا أن نقتل ولده أو نَخْبَله. فعلم سليمان بذلك، فأمر السحاب أن يأخذ آبنه، وأمر الريح فحملته، وغدا آبنُه فى السحاب خوفًا من مضرّة الشيطان. فعاقبه الله تعالى بخوفه من الشيطان، ومات الولد فأُلقِىَ ميّتا على كرسيّه، فهو الجسد الذى ذكره ١٥ الله تعالى فى كتابه العزيز؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾.

---

(١) فى نسخة الثعلبى المطبوعة بعد هذه العبارة ما نصه: «ونعوذ بالله أن يسلط الشيطان على نساء أنبيائه بالمباشرة. وكيف يعتقد ذلك أحد وقد نزه الله تعالى أنبياءه عن مثل هذا القبيح. وهذا قول أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب الى التقوى ... الخ».

ذكر عزم سليمان عليه السلام أن يطوف على نسائه

قال الكسائىّ : كان سليمان عليه السلام قد أُعطِىَ من القوّة ما إنه يأتى على خمسمائة حرّة وسبعمائة سُرِّيَّة . فقال فى يوم : لأطوفنّ على ألف آمرأة وأجامعهنّ كلهنّ، فتحمِل كل واحدة منهنّ بغلامين فارِسَيْن يركبون الخيل ويغزون البلاد ، ولم يقل إن شاء الله . وطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ غير واحدة، حملتْ بنصف إنسان، قيل : إنه الجسد الذى أُلقِىَ على كرسىّ سليمان . والله تعالى أعلم .

والذى ثبت من هذه القصة ما رويناه من صحيح البخارىّ بسندنا المتقدّم اليه . قال البخارىّ حدّثنا خالد بن مَخْلَد حدّثنا مُغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزِّناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال سليمان بن داود لأَطوفنّ الليلةَ على سبعين آمرأةً تحمِل كل آمرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله فقال له صاحبُه إن شاء الله فلم يقل، ولم تحمِل شيئا إلا واحدا ساقطا إحدى شِقَّيه فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله . قال شُعَيب وآبن أبى الزناد تسعين وهو أصحّ[1] " .

٢٣/١٢

ذكر وفاة بلقيس زوجة سليمان عليه السلام

قال الكسائىّ : أقامت بِلقيس عند سليمان سبعَ سنين وسبعةَ أشهر ثم تُوُفِّيت، فدفنها بمدينة تَدْمُر[2] من أرض الشام تحت حائط، ولم يعلم أحد بموضع قبرها إلى أيّام الوليد بن عبد الملك بن مروان .

(١) راجع صحيح البخارى (ج ٤ ص ١٢٦ طبع بلاق سنة ١٢٩٦ هـ) .

(٢) تدمر : مدينة قديمة معناها بالعبرانية « النخيل » وكانت عامرة ذات تجارة واسعة ، وهى واقعة بطرف بادية الشام فى الشمال الشرقى من دمشق ، تمرّ عليها القوافل بين الشام والعراق من القرن السادس قبل الميلاد . (راجع معجم الخريطة التاريخية الاسلامية) .

قال موسى بن نُصَيْر : بُعِثتُ فى أيّام الوليد إلى مدينة تَدْمُر ومعى العباس بن الوليد بن عبد الملك، فجاء مطر عظيم فآنهار بعضُ حائط المدينة ، فآنكشفت عن تابوت طولُه ستون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا مُتَّخَذٍ من حجر كالزَّعفران مكتوبٍ عليه : «هذا تابوتُ بِلقيس الصالحة أسلمت لثلاثَ عشرةَ سنة خلت من مُلْك سليمان ، وتزوّج بها يوم عاشوراء سنة أربع عشرة خلت من مُلكه ، وتوفّيت يوم الاثنين من ربيع الأوّل سنةَ إحدى وعشرين مضت من مُلكه ، وقد دُفنت ليلا فى حائط مدينة تدمُر، ولم يطّلع على دفنها إنس ولا جنّ ولا شيطان» . قال : فرفعنا غطاء التابوت واذا هى غضّة كانها دُفنت ليلتها . فكتبنا بذلك إلى الوليد فأمر بتركه فى مكانه ، وأن يُبنَى عليه بالصخر والمرمر، ففعلنا ذلك .

ذكر خبر وفاة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائىّ : مَلَك سليمان شرق الأرض وغربها وطاف أقطارها حتى آنتهى إلى السَّدّ[1] الذى هو بالقُرب من جبل قاف[2] ، فوقف هناك ثم قال للريح : هل

(١) هو السدّ الذى بناه الاسكندر ذو القرنين وهو المعروف بسدّ يأجوج ومأجوج . وقد أرسل الخليفة الواثق بالله سنة ٢٣١ هـ بعثة علمية برياسة سلام الترجمان مزوّدة بالمال والماء والزاد لتأتيه بخبره وحاله . وابن خرداذبه هو أوّل من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نفس رئيسها ثم استملاه من الكتاب الذى كان كتبه فى هذا المعنى لخليفة الواثق بالله (راجع المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ ص ١٦٢ — ١٧٠) . وعن ابن خرداذبه نقل جميع المؤلفين الذين جاءوا بعده مثل الادريسى وابن رسته وابن الفقيه الهمذانى والمقدسىّ . أما سنة إرسال هذه البعثة فقد أخذناها عن ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٢٥٩) .

(٢) كان الاعتقاد السائد قديما أن هناك جبلا واحدا محيطا بأكثر بسيط المعمور، وليس هو كالبحر محيطا بجميع كرة الأرض، هو جبل قاف ، ولا يعرف فى الجنوب إلا بهذه التسمية، ويعرف فى الشمال بجبل قاقونا . ولهم فى مبدأ هذا الجبل ومنتهاه رأى تراه مبسوطا فى الجزء الأوّل من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ص ٤٧) . وقد ذكر فى كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (ص ٢٢) باسم «قافونيا» بالفاء فى رواية و (بالقاف) فى رواية أخرى . وسمى كذلك باسم «اصطيفون» أو «اصطيقون» .

جريت هاهنا قطّ؟ قالت : لا يا نبيّ الله، و إنه آخر الدنيا وليس وراءه إلا علم الله تعالى . ثم أمر الريح فاحتملته حتى نظر إلى التِّنِّين المُحْدِق بالعالم ، فسار أياما على طرَف من أطرافه فإذا هو بملَك، فقال : يابن داود إن هـذا التنّين محيط بالعالم الذى هو مسيرة خمسمائة عام . ثم ارتفع إلى مستقرّ الغمام ونظر إلى مجمع القَطر، ونزل من هناك إلى مسكن الليل والنهار فاذا هو بملَك يقول : اللهم أعطِ كل مُنفق خَلَفا وكل ممسك تَلَفا . ثم أمر الريح أن تحطّ بساطه إلى الأرض المقدّسة، وكانت مدّةُ غيبته مائة وثلاثين يوما . وكان فى طول سَفْرته هـذه يرى شخصا بين يديه يسبق كل شيء ، فسأله من هو ؟ فأخبره أنه ملَك الموت ، فوقعت عليـه الرِّعدة وتغيّر لونه وجعل ابنـه رَحْبَعَم خليفتَـه ، وأوصى النـاس بالسمع والطاعة له . وأخذ فى الصوم والصلاة طول ليله ، فإذا أصبح خرج من محرابه إلى روضة هناك فيهـا نبات حسن يتسلّى به . فخرج فى بعض الأيام فرأى نبتًا غريبا لم يكن قد رآه قبل ذلك اليـوم . فقال : أيهـا النبت ما أنت ؟ قال : أنا الخَرْنوب الذى لا أنبت فى موضع إلا خرّبته . فقال سليمان : فما تصنع هاهنا فلستَ من نبات الرياض بل من نبات البرارى؟ قال : قد أُمرت أن أنبت هاهنا . فعاد سليمان من الغد وهو على حاله وقد زاد نبـاته . فقال له سليمان : ألم آمُرْك أن تلحقَ بموضعك من البرارى ! . قال الخرنوب : يا نبيّ الله، إنّ هـذا الموضع سَيخْرَب عن قريب ، فسكت سليمان . فلما ضعُف عن العبادة توكّأ على عصاه . فبينا هو فى محرابه متوكئا قائما يتلو الزَّبور والتوراة إذ أتاه ملَك الموت ، فرفع رأسَه إليه فناوله شمّةً فشمّها فمات . وبقى سليمان على حالته لم يسقُط إلى الأرض ولم يتحرّك ولا مال . فهابوه وما جَسَروا أن يتقدّموا إليه . وقالوا : إنه لم يمتْ، ولم تزل الإنس والجنّ والشياطين والوحش

والطير فى الطاعة والأعمال حتى مضت سنة ، ثم وقعت الأَرَضة فى أسفل العصا؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ فخرّ سليمانُ عند ذلك كالخشبة اليابسة ، وكانت الجنّ قبل ذلك تدّعى علم الغيب ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١) أى فى تلك السنة فى نقل الصخور والبنيان وغير ذلك .

وحكى أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله تعالى فى خبر وفاة سليمان عليه السلام : قال أهل التاريخ : لبِث سليمان فى مُلكه بعد أن ردّه الله عليه تعمل له الجنّ ما يشاء من محاريب وتماثيل وجِفان كالجوابى و قدور راسيات وغير ذلك ، ويعذِّب من الشياطين مَن يشاء ، ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحبّ . فأتاهم إبليس وهم فى العمل فقال : كيف أنتم ؟ فقالوا : ما بنا طاقة لما نحن فيه . فقال لهم : تذهبون تحملون الحجارة وترجِعون فُرَّاغا لا تحملون شيئا ؟ قالوا نعم . قال : فأنتم فى راحة . فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يحملوا ذاهبين و راجعين . فقال لهم إبليس : تعملون بالليل ؟ قالوا لا . قال : فأنتم فى راحة . فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار . فأتاهم إبليس فسألهم فشكَوْا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار . فقال لهم إبليس : وفَعَلَها؟ قالوا : نعم . قال : فتوقّعوا الفرج، فقد بلغ الأمر منتهاه . فما لبِثوا إلا يسيرا حتى مات سليمان .

---

(١) سورة سبأ آية ١٤

قال ابن عبّاس وغيره : كان سليمان يتحنث[1] فى بيت المَقْدِس السنةَ والسنتين والشهرَ والشهرين وأقلّ من ذلك وأكثر، يدخله ومعه طعامه وشرابه، فدخله فى المرّة التى مات فيها . قال : وكان بدء ذلك أنه لم يكن يومًا يُصبِحُ فيه إلا نبَت فى بيت المقدس شجرةٌ فيسألها سليمان ما اسمُك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا. فيقول: لأى شىء تصلُحين ؟ فتقول : لكذا وكذا، [فيأمر[2] بها فتُقْطَع]، فإن كانت تنبت لغرس غرسها ، وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا . فبينا هو يصلّى ذات يوم إذ رأى شجرةً بين يديه، فقال لها : ما اسمك ؟ فقالت : الخَرْنوبةُ . قال : ولأىّ شىء نبتِّى؟ قالت : لخراب هذا المسجد . فقال سليمان : ما كان الله ليُخرِبَه وأنا حىّ، أنتِ الذى على وجهك هلاكى وخرابُ بيت المقدس. فنزعها وغرسها فى حائط له، ثم قال : اللهمّ عَمِّ عن الجنّ موتى حتى يعلم الإنس أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب . وكانت الجنّ يخبرون الإنس أنهم يعلمون الغيب وأنهم يعلمون ما فى غَدٍ .

قال : ثم دخل سليمان المحرابَ فقام يصلّى متكئا على عصاه، فمات على تلك الحالة، ولم يعلم بذلك أحدٌ من الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم .

قال وقال عبد الرحمن [بن زيد][2] قال سليمان لملك الموت : إذا أُمِرتَ بى فأعْلِمْنى . قال : فأتاه فقال : يا سليمان قد أُمِرتُ بك وقد بَقِيَتْ لك سُوَيعة . فدعا الشياطين فبنَوْا عليه صرحا من قوارير ليس له باب ، فقام يصلّى واتكأ على عصاه، فدخل عليه ملَك الموت فقبض رُوحه وهو متكئ على عصاه .

(١) يتحنث : يتعبد .

(٢) زيادة عن الثعلبى .

قال وفى رواية أخرى : أنّ سليمان قال ذاتَ يوم لأصحابه : قد آتانى الله من المُلْك ما تَرَوْن، وما مرّ علىّ يوم فى ملكى بحيث صفا لى من الكَدَر، وقد أحببت أن يكون لى يومٌ واحد يصفو لى إلى الليل ولا أغتمّ فيه، وليكن ذلك غدا. فلما كان من الغد دخل قصرا له، وأمر بإغلاق أبوابه ومَنَع النـاس من الدخول عليه ورَفَع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئا يسوءه، ثم أخذ عصاه بيده وصعِد فوق قصره وآتكأ عليها ينظر فى ممالكه، إذ نظر إلى شابّ حسنِ الوجه، عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب قصره فقال : السلامُ عليك يا سليمان . فقال سليمان : وعليكم السلام، كيف دخلتَ هذا القصر وقد مَنعتُ من دخوله؟ أمَا منعك البوّاب والحجّاب ! . أمَا هِبتَنى حين دخلت قصرى بغير إذنى !! فقال : أنا الذى لا يحجُبُنى حاجب، ولا يمنعنى بوّاب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرِّشا، وما كنتُ لأدخل هذا القصر بغير إذْن . فقال سليمان : فمَن أذِنَ لك فى دخوله؟ قال : ربّه . فآرتعـد سليمان وعلم أنه مَلَك الموت . فقال له : أنت ملَك الموت ؟ قال نعم . قال : فِيمَ جئتَ؟ قال : جئتُ لأقبِض رُوحك . قال : يا ملك الموت، هذا يوم أردتُ أن يصفو لى وما أسمع فيـه ما يغمّنى . قال له : يا سليمان، إنك أردت يوما يصفو لك فيـه عيشك حتى لا تغتمّ فيه، وذلك اليوم لم يُخْلَق فى الدنيا، فآرضَ بقضاء ربك فإنه لا مَرَدّ له . قال : فآقبِض كما أُمرت، فقبض مَلَك الموت رُوحه وهو متكئ على عصاه .

٢٥/١٢

قال الثعلبىّ قالوا : وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه ومُصَلّاه أينما كان . وكان للمحراب كُوًى بين يديه ومن خلفـه، فكان الشـيطان الذى يريد أن يدخل يقول : ألستُ جليـدًا إن دخلتُ فخرجت من ذلك الجانب، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر. فدخل شيطان من أولئك فمرّ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان

فى المحراب إلا احترق، فمرّ ولم يَسْمَع صوت سليمان، ثم رجع ولم يَسْمَع، ثم رجع فوقع فى البيت فلم يحترق، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميّتا، فخرج فأخبر الناس أنّ سليمان قد مات، ففتحوا عنه وأخرجوه ووجدوا مِنْسَأته — وهى العصا بلسان الحبشة[1] — قد أكلتها الأَرَضة[2]، فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملا، فأيقن الناس أنّ الجنّ كانوا يكذِبونهم، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان، فلم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون. ٥

قال: ثم إنّ الشياطين قالوا للأَرَضة: لو كنتِ تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب طعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكننا سننقل إليك الماء والطين. قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت. قال: ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فهو مما تأتيها به الشياطين شكرا لها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ وهى الأَرَضة، ويقال لها القادح أيضا، وهى دُوَيْبَّةٌ تأكل العيدان ﴿ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ أى عصاه ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ... ﴾ الآية. ١٠

قال أهل التاريخ: كان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة، ومدّة ملكه أربعين سنة، ومُلِّك يوم مُلِّك وهو ابن ثلاث عشرة سنة. ١٥

وقال الكسائىّ قال وهب: عاش سليمان ستين سنة، منها فى الملك والنبوّة أربعون سنة. قال: وتفرّقت الإنس والجنّ وغيرهم، فتفرّق بنو إسرائيل بعده

(١) الذى فى كتب اللغة أن المنسأة اسم آلة، من نسأت الدابة إذا زجرتها ليزداد سيرها.

(٢) هذه الجملة لم ترد فى الأصول وقد نقلناها عن الثعلبى، وقد أورد بعدها هذه العبارة: «فلم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حىّ ولا ينكرون احتباسه عن الخروج الى الناس لطول صلاته قبل ذلك. وفى رواية ابن مسعود: فمكثوا ... الخ». ٢٠

ثلاث فِرَق : فرقة كفروا واتبعوا السحَرة، وفرقة اعتزلوا وقالوا : لانطيع بعده أحدا، وفرقة اتبعوا ابنه رَحْبعم (١) .

قال الثعلبيّ : ملك بعد سليمان عليه السلام ابنُه رَحْبَعم، وكان قد استخلفه فنبّأه الله تعالى ولم يكن رسولا ثم قُبِض، وكان مُلْكه سبعَ عشرةَ سنة . ثم ملك بعده ابنه أَيشا (٢) بن رحبعم ، وكان مُلكه ثلاثا وستين سنة . ثم ابنه أينا .

وقال الكسائيّ : ملك بعد رحبعم ابنه لابى، وملك بعد لابى ابنه أَيْشا بن لابى، ثم بعث الله تعالى بعد أن قبض أيشا ، شَعْيا (٣) وهو من ولد هارون بن عمران .

وقال الثعلبيّ فى سياقه : لمّا ملك أَينا بن أَيشا ، وكان رجلا صالحا ، وكان أعرج ، وكان به عِرْق النَّسَا ، فطمعت الملوك فيه لضَعْفه ، وافترقت ملوك بنى إسرائيل، فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له «زَرَج (٤) الهندىّ» فى جمع كثير، فبعث الله تعالى عليهم ملائكة فهزموهم، فقصدوا البحر حتى ركبوه جميعا، فبعث الله تعالى عليهم الرياح والأمواج حتى ضربت سُفُنَهم بعضها ببعض ، فتكسّرت وغرق زَرَجٌ ومَن كان معه، وألقت الأمواج أثقالهم وأموالهم وسلَبهم إلى محلّة بنى إسرائيل، ونُودُوا أنْ خذوا ما غنّمكم الله وكونوا فيه من الشاكرين. ثم لم يزل يغزوهم الملِك بعد الملِك من ملوك العراق وغيرهم، فيُهلكهم الله تعالى الى أن ظهر فيهم الظلم والفساد، وفشت فيهم المعاصى، وعَبَد بعضُ ملوكهم الأصنام ، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٦١٩ من القسم الأوّل) وتاريخ مختصر تاريخ الدول لابن العبرى (ص ٥٥ طبع بيروت) وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٧٦) : «رحبعام» . وفى الأصول : «رجعيم» .

(٢) كذا فى الأصول . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٨٣) : «أبيام» .

(٣) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٦٣٧ من القسم الأوّل) . وفى القاموس المحيط : «سعيا» بالسين المهملة والشين لغة . وفى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٣٢٤) : «أشعيا» .

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٦١٩ من القسم الأوّل) : وفى الأصول «روح» .

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الخامس

فى أخبار شعيا وإرميا عليهما السلام وخبر بختنصر وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عُزَير وفتنة اليهود

ذكر قصة شَعْيَا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله : كان المَلِك اذا مَلَكَ من بنى إسرائيل بعث الله معه نبيّا يُرشده ويسدّده ويكون فيما بين الناس وبين الله تعالى، ولا يُنزِل الله تعالى عليه كتابا إنما يأمر بأحكام التوراة وينهَى عن المعصية، ويدعو الناس الى ما تركوا من الطاعة . وكان ممن مَلَك منهم « صَدِيقة » . فلمّا ملك بعث الله تعالى شَعْيَا بن أَمْصِيَا[1] ، فملَك ذلك الملك بنى إسرائيل وبيت المقدس زماناً، ثم كثُرت فى بنى إسرائيل الأحداث ، فبعث الله سَنْحَارِيب[2] ملك بابل، معه ستمائة ألف راية، فأقبل حتى نزل حول بيت المقدس والملِكُ إذ ذاك مريض فى ساقه قَرْحة ، فجاء النبىّ شَعْيا عليه السلام فقال لملك بنى إسرائيل : إنّ سَنْحاريب ملِكَ بابلَ قد أقبل ونزل بك فى ستمائة ألف راية ، وقد هابهم الناس وفَرِقُوا منهم . فكبُر ذلك على الملك وقال : يا نبىّ الله ، هل أتاك وحىٌ فيما حدَث فتخبرَنا به كيف يفعل الله

٢٦/١٢

---

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٣٢٤) : « آموص » .

(٢) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٦٣٧) وتاريخ الطبرى (ص ٦٣٨ من القسم الأوّل) ومختصر تاريخ الدول لابن العبرى (ص ٦٤) وورد فى هامشه : أن معنى سنحاريب « القمر يكثر الإخوة » ومن هنا يؤخذ أن الأشوريين كانوا يتفاءلون بالأسماء كالعرب . فسمى هذا سنحاريب تفاؤلا بكثرة الإخوة . وفى الأصول : « سنجاريب » بالجيم المعجمة وهو تحريف .

تعالى بنا وسَنْحاريب ؟ قال : لم يأتنى وَحْى . فبينما هم كذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيَا أنِ ائتِ ملك بنى إسرائيل فمُرْه أن يُوصِىَ بوصية ويستخلف على مُلكه مَنْ يشاء من أهل بيته . فأتاه شَعْيَا فقال : إنّ ربك عز وجل قد أوحى إلىّ أن آمرك أن تُوصِىَ وصيّتك وتستخلف من شئتَ على مُلكك من أهل بيتك فإنك ميّت. فلمّا قال له شعيا ذلك أقبل صَدِيقة الملِك على القِبلة فصلّى ودعا وبكى ، فقال وهو يبكى ويتضرّع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكّل وصبر : [اللهمّ ربَّ الأرباب وإلٰهَ الآلهة القُدّوس المقدّس ، يا رحمن يا رحيم ، يا رءوف يا من لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، اذْكُرْنى بنيّتى وفعلى وحُسْن قضائى فى بنى إسرائيل ، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منّى سرّى وعَلانِيَتى لك](١) ، فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وكان عبدا صالحا . فأوحى الله تعالى إلى شَعْيَا أن أخبر صَدِيقة أن الله استجاب له وقَبِلَ منه ورحمه وأخّر أجله خمسَ عشرةَ سنة ، وأنجاه من عدوّه سَنْحَاريب وجنوده . فأتاه شعيا فأخبره بذلك ، فذهب عنه الجَزَع وخرّ ساجدا لله تعالى ودعاه . فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل للملك صدِيقة يأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قَرْحة ساقه فيُشفَى ويبرأ ، ففعل ذلك فشُفِىَ . وقال الملك لِشَعْيَا : سَلْ ربّك أن يجعل لنا عِلْما بما هو صانع بعدوّنا هذا . فقال الله تعالى لِشَعْيَا : قل له إنى كفيتك عدوّك وأنجيتك منهم ، وإنهم سيُصبحون موتى إلا سَنْحَاريب وخمسةَ نفر من كتّابه . فلمّا أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة : يا ملك بنى اسرائيل ، إن الله تعالى قد كفاك أمر عدوّك ؛ فإن سَنْحَاريب ومن معه قد هلكوا . فخرج الملك فالتمس سنحاريب فلم يوجد فى الموتى . فبعث الملك فى طلبه ، فأدركه الطَّلَبُ فى مغارة وخمسةٌ من كتّابه ، أحدهم

(١) التكملة عن الثعلبى .

بُخْتنصَّر، فجعلوهم فى الجوامع (١) ثم أتَوْا بهم ملك بنى إسرائيل، فلما رآهم خرّ ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثم قال لسنحاريب : كيف ترى فعلَ ربّنا ؟ ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون ؟ ! فقال سنحاريب : قد أتانى خبرُ ربّكم ونصرُه إيّاكم، ورحمتُه التى رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادى، فلم أُطِعْ مرشدا ولم يُلقنى فى الشِّقوة إلّا قلّة عقلى، ولو سمعت أو عقَلْت ماغزوتكم، ولكن الشقوة غلبت علىّ وعلى مَن معى. فقال صَدِيقة : الحمد لله رب العزّة الذى كفانا كم بما شاء. إنّ ربّنا لم يُبقك ومَن معك لكرامة لك عليه، ولكنّه إنما أبقاك ومَن معك لتزدادوا شقْوةً فى الدنيا وعذابا فى الآخرة، ونُخبروا مَنْ وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا. وَلَدَمُك ودمُ مَن معك أهونُ على الله تعالى من دم قُرَادة لو قُتلت. ثم أمر صَدِيقة أمير جيشه أن يقذف فى رقابهم الجوامع، فطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس و إيليا (٢)، وكان يرزقهم فى كل يوم خُبزتَيْن من شعير لكل رجل. فقال سَنْحَاريب لملك بنى إسرائيل : القتل خير مما تفعل بنا، فافعل ما أُمرت. فأمر بهم الملك الى سجن القتل، فأوحى الله تعالى إلى شعيا : أن قل لملك بنى إسرائيل : يرسل سنحاريب ومَن معه لِيُنذروا مَنْ وراءهم، وأن يُكْرِمَهم ويَحملهم حتى يبلُغوا بلادهم. فبلّغ شَعْيَا الملكَ ذلك، ففعل ما أُمِر به، وخرج سنحاريب ومَن معه حتى قدموا بابِل (٣).

(١) الجوامع : القيود. (٢) ورد فى معجم البلدان لياقوت : أن إيلياء (بكسر أوله واللام و ياء وألف ممدودة) اسم مدينة بيت المقدس، قيل معناه بيت الله، وحكى الحفصى فيه القصر. وفيه لغة ثالثة حذف الياء الأولى فيقال : إلياء (بسكون اللام والمدّ). قال أبو علىّ : وقد سمى بيت المقدّس إيلياء بقول الفرزدق :

و بيتان بيت الله نحن ولاته * وقصر بأعلى إيلياء مشرّف

وسميت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. (٣) بابل : مدينة من أقدم وأكبر مدن العالم القديم، على الجانب الأيسر من نهر الفرات، بناها الكلدان، وهى مدينة النمرود، اشتهرت فى الأزمان الغابرة بالثروة والحضارة وفيها مات الاسكندر المقدونى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد وحملت جثته الى الاسكندرية. وهذه المدينة الآن خراب لايوجد غير أطلالها وفى مكان أطلالها قرية الحلة. (راجع معجم الخريطة التاريخية الاسلامية للمرحوم أمين واصف بك وقاموس الجغرافية القديمة للمرحوم أحمد زكى باشا).

فلمّا قدموا جمع سنحاريبُ الناسَ وأخبرهم كيف فعل الله بجنوده . فقال له كُهّانه وسَحَرته : قد كنا نقُصّ عليك خبر ربهم وخبر نبيّهم ووحىَ الله إلى نبيّهم ، فلم تُطِعنا ، وهى أمّة لا يستطيعها أحد من ربّهم . ولبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ومات . وٱستُخلف بُخْتَنَصَّرُ ٱبنُ ٱبنه على ما كان عليه جدّه ، فعمل بعمله وقضى بقضائه ، فلبث سبعَ عشرةَ سنة ثم قَبَض الله تعالى صَدِيقةَ مِلكَ بنى إسرائيل ، فمرِج[1] أمرُ بنى إسرائيل وتنافسوا المُلْك حتى قتل بعضهم بعضا ، ونبيّهم شَعْيَا معهم لا يرجعون إليه ولا يقبلون منه . فلما فعلوا ذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيَا : أنْ قُم فى قومك أُوحِ على لسانك . فلمّا قام أوحى الله تعالى على لسانه وأنطقه بالوحى فقال : ياسماء ٱسمعى ، ويا أرض أنصتى ؛ فإنّ الله يريد أن يقصّ شأن بنى إسرائيل الذين ربّاهم بنعمته ، وٱصطنعهم لنفسه ، وخصّهم بكرامته ، وفضّلهم على عباده ، وٱستقبلهم بالكرامة ، وهم كالغنم الضائعة التى لا راعىَ لها ؛ فآوَى شاردَها ، وجمع ضالّها ، وجَبَر كَسِيرها ، وداوَى مريضَها ، وأسمن مهزولها ، وحفظ سمينها . فلمّا فعل ذلك بها تناطحت كِباشها فقتل بعضها بعضا ، حتى لم يبق منهم عظم صحيح يُجبَر إليه آخر كَسِير . فويلٌ لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون ما جاءهم من الخير . إنّ البعير مما يذكر وطنه فيأتيه ، وإنّ الحمار مما يذكر الآرِىّ[2] الذى يشبَع عليه فيراجعُه ، وإنّ الثور مما يذكر المَرْج[3] الذى يَسمَن فيه فينتابه ، وإن هؤلاء القوم لا يدرون من أين[4] جاءهم الخير وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير ، وإنى ضارب لهم مثلا فليسمعوه .

٢٧/١٢

(١) مرج الأمر : فسد وٱختلط واضطرب . وفى الأصول : « نخرج » وهو تحريف .

(٢) الآرى : محبس الدابة . (٣) المرج : الموضع الذى ترعى فيه الدواب .

(٤) فى الأصول : «من حيث» .

قل لهم : كيف تَرَوْن فى أرض كانت جُرُزًا[1] زمانًا خَرِبةً مَوَاتا لا عُمْران فيها، وكان لها ربّ حكيمٌ قوىّ، فأقبلَ عليها بالعمارة وكَرِهَ أن تَخْرَب أرضُه، فأحاط عليها جِدارًا وشيّد فيها قصرًا وأنبط فيها نهرا، وصفّف فيها غِرَاسا من الزيتون والرمّان والنخيل والأعناب وألوان الثِّمار كلها، وولّى ذلك ٱستحفظه ذا رأى وهمّة حفيظا قويّا أمينا، فٱنتظرها، فلمّا أطلعتْ جاء طَلْعها خرُّوبا ؟ ! . قالوا : بئستِ الأرض هذه ! نرى أن يُهْدَم جِدارُها وقصرُها ويُدَمَّر نهرها ويُقبَضَ قيِّمها ويُحْرَق غرسُها حتى تصير كما كانت أوّلَ مرّة خرابا مَوَاتا لا عُمران فيها. قال الله عزّ وجلّ لهم : إنّ الجدارَ ذِمّتى، وإنّ القصر شريعتى، وإنّ النهرَ كتابى، وإنّ القيِّم نبيِّى، وإنّ الغِرَاس هُمْ، وإن الخرُّوب الذى أطلعَ الغراسُ أعمالُهم الخبيثة، وإنّى قضيتُ عليهم قضاءهم على أنفسهم، فإنه مَثَلٌ ضربه الله لهم. يتقرّبون إلىّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالنى اللحمُ ولا آكلُه. ويدّعون أنهم يتقرّبون إلىّ بالتقوى والكفّ عن ذبح الأنفُس التى حرّمتُها، فأيديهم مخضوبةٌ منها، وثيابهم مترمّلةٌ[2] بدمائها؛ يُشيِّدون لىَ البيوت مساجدَ ويطهِّرون أجوافَها، ويُنجِّسون قلوبهم وأجسادَهم ويُدنِّسونها. فأىّ حاجةٍ لى إلى تشييد البيوت ولستُ أسكنها! وأىّ حاجةٍ لى إلى تزويقِ المساجد ولستُ أدخلها! إنما أَمرتُ برفعها لأُذْكَرَ فيها ولأُسبَّح، ولتكون مُصَلًّى لمن أراد أن يصلّى فيها. يقولون : لو كان الله يقدِر على أن يجمع أُلْفتَنا لجمَعَها، ولو كان الله يَقدِر على أن يُفقه قلوبنا لأفقهها، فٱعمِدْ إلى عُودين يابسين ثم آئتِ بهما ناديَهم فى أجمع ما يكونون، فقل للعودين : إنّ الله يأمركما أن تكونا عودًا واحدًا. فلمّا قال لهما ذلك ٱختلطا فصارا واحدا. فقال الله تعالى [قل][3] لهم : إنى قد قَدَرتُ على أن أُفقه العودين اليابسين،

(١) الجرز : الأرض التى قطع نباتها . (٢) مترملة : متلطخة .

(٣) زيادة عن الثعلبى .

وعلىّ أن أؤلّف بينهما ، فكيف لا أقدِر على أن أجمع أُلفتَهم إن شئتُ ! أم كيف لا أقدِر على أن أُفقه قلوبهم وأنا الذى صوّرتُها ! . يقولون : صُمنا فلم يُرفَع صيامُنا ، وصلّينا فلم تُنوَّر صلاتُنا ، وتصدّقنا فلم تَزْكُ صدقاتُنا ، ودعَوْنا بمثل حَنِينِ الحمام ، وبكَيْنا بمثل عُوَاءِ الذئاب ، فى كل ذلك لا يُسمَع ولا يُستجاب لنا . قال الله تعالى : فسَلْهم : ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم ! ألستُ أسمعَ السامعين ، وأبصَرَ الناظرين ، وأقرَبَ المُجيبين ، وأرحمَ الراحمين ! ألأنّ ذاتَ يدِى قلّتْ ! وكيف ويداىَ مبسوطتان بالخير أُنفق كيف أشاء ، ومفاتيحُ الخزائن عندى لا يفتحها غيرى ! . أوْ لأن رحمتى ضاقتْ ! فكيف ورحمتى وَسِعتْ كلّ شىء ، إنما يَتراحَم المتراحمون بفضلها ! . أو لأنّ البخل يعتَرِينى ! أَوَلستُ أكرمَ الأكرمين . والنّفّاحَ بالخيرات أَجْوَدَ مَن أعطَى وأكرمَ مَن سُئِل ! . لو أنّ هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التى تُورِث فى قلوبهم [النور](١) فنبذوها وآشترَوْا بها الدنيا ، إذًا لأبصروا من حيثُ أتوا ، وإذًا لأيقنوا أنّ أنفسهم هى أعدَى العُداة لهم . فكيف أرفع صيامهم وهم يَلْبِسونه بقول الزُّور ويتقوّون عليه بطُعْمة الحرام ! وكيف أُنوّر صلاتَهم وقلوبُهم صاغيةٌ إلى من يحاربنى وينتهك محارمى ! أم كيف تزكُو عندى صدقاتُهم وهم يتصدّقون بأموال غيرهم ! إنما آجُر عليها أهلَها المغصوبين . أم كيف أستجيب لهم دعاءهم ، وإنما هو قولٌ بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد ! . إنما أَستجيب للداعى البَرّ ، وإنما أسمع قول المستعِفّ المستكين . وإنّ من علامة رضاىَ رِضا المساكين . فلو رَحِموا المساكين ، وقرّبوا الضعفاء ، وأنصفوا المظلوم ، ونصروا المغصوب ، وعدلوا للغائب ، وأدّوا إلى اليتيم والأَرْملة والمسكين وكلّ ذى حقّ حقّه ، ثم لو كان ينبغى لى أن أكلّم البشر إذًا لكلّمتهم ؛ وإذًا لكنتُ نورَ أبصارهم ، وسمعَ آذانهم ، ومعقولَ قلوبهم ؛ وإذًا لدَعَمْتُ أركانَهم فكنتُ قوّة أيديهم وأرجلهم ؛ وإذًا لَثبّتُّ ألسنتَهم وعقولَهم .

٢٨/١٢

(١) زيادة عن الثعلبى .

يقولون لمّا سمعوا كلامى وبلغتهم رسالاتى إنها أقاويلُ منقولةٌ، وأحاديثُ متوارَثةٌ، وتآليفُ مما يؤلّف السَّحرة والكَهَنة، وزعموا أنهم لو شاءوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، وأن يطّلعوا على علم الغيب بما يُوحى إليهم الشياطين لاطّلعوا، وكلهم يَستخفِى بالذى يقول ويُسِرّه، وهم يعلمون أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يُبدون وما يكتُمون. وإنى قد قضيتُ يوم خلقتُ السماء والأرضَ قضاءً أثبتُّه على نفسى وجعلتُ دُونه أجلا مؤجّلا لابدّ أنه واقع، فإن صدَقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليُخبروك متى أُنفذه، وفى أىّ زمان يكون. وإن كانوا يقدِرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل القُدرة التى بها أقضى؛ فإنّى مُظهره على الدِّين كله ولو كَرِهَ المشركون. وإن كانوا يقدِرون على أن يؤلِّفوا ما يشاءون فليؤلِّفوا مثلَ الحكمة التى أدبِّر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين. فإنّى قضيتُ يومَ خلقتُ السموات والأرضَ أن أجعل النبوّة فى الأُجَراء[1]، وأجعلَ المُلْك فى الرِّعاء، والعزَّ فى الأذلّاء، والقوّة فى الضعفاء، والغِنَى فى الفقراء، والثروةَ فى الأقلّاء، والمدائن فى الفَلَوَات، والآجام[2] فى المفاوز، والثَّرى فى الغِيطان، والعِلْم فى الجَهَلة، والحُكْم فى الأُمِّيِّين. فسَلْهم متى هذا ومَنِ القيِّم به وعلى يَدَىْ مَن أُسبِّبه، ومَن أعوانُ هذا الأمر وأنصارُه. وإن كانوا يعلمون فإنى باعثٌ لذلك نبيّا أُمّيّا لا أعمى من العُمْيان ولا ضالّا من الضالِّين، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب فى الأسواق، ولا متزيِّنٍ بالفُحْش، ولا قوّالٍ للخَنَا، أسدّده لكل جميل، وأَهَبُ له كلَّ خُلُق كريم، ثم أجعل السكينة لباسَه، والبِرّ شِعارَه، والتقوى ضميرَه، والحكمةَ معقولَه، والصدقَ والوفاءَ طبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خُلُقه، والعدلَ سيرته، والحقَّ شريعتَه، والهدى إمامَه، والإسلامَ ملّته، أحمدُ اسمُه، أَهدِى به بعدَ الضَّلالة، وأُعلِّم به بعد الجَهالة، وأرفع به بعد الخَمالة، وأُشهِّر

(١) الأجراء: جمع أجير وهو من سلم نفسه بعوض.

(٢) الآجام: جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف.

به بعد النَّكِرَة ، وأُكَثِّر به بعد القِلّة ، وأُغنِي به بعد العَيْلة ، وأَجمعُ به بعد الفُرقة ؛ وأُؤلِّف به قلوبا مختلفةً ، وأهواءً مُتشتِّتة ، وأُمَمًا متفرّقة ، وأجعل أمّته خيرَ أمّة أُخرِجتْ للناس ، يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، إيمانًا بى ، وتوحيدًا لى ، وإخلاصا بى[(١)] ، يُصلُّون قياما وقُعودا ، ورُكّعا وسُجودا ، ويُقاتلون فى سبيلى صفوفا وزُحوفا ، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوانى [ألوفا][(٢)] . أُلهِمُهم التكبيرَ والتوحيدَ ، والتسبيحَ والتحميد ، فى مجالسهم ومَسيرهم ومضاجعهم ومُتقلَّبهم ومَثْواهم ؛ يكبِّرون ويُهلِّلون ويقدّسون على رءوس الأشراف ، ويُطهِّرون لى الوجوه والأطراف ، ويعقِدون الثيابَ إلى الأنصاف ؛ قُربانُهم دماؤهم ، وأناجيلُهم صدورهم ؛ رُهبانٌ بالليل ، ليوثٌ بالنهار . ذلك فضلِى أُوتيه مَن أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .

قال : فلمّا فرغ نبيُّهم شَعْيَا من مقالته عَدْوا عليه ليقتلوه فهرَب منهم فانغلقت له شجرة فدخل فيها ، فأدركه الشيطان فأخذ بهُدبةٍ من ثوبه فأراهم إيّاها ، فوضعوا المنشار فى وَسَطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وَسَطها .

ذكر قصة إرميا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله : استخلَفَ الله تعالى على بنى إسرائيل بعد قتلهم شَعْيَا عليه السلام رجلا منهم يقال له « ناشِيَةُ بن آمُوص » ، وبعث لهم الخَضِرَ نبيّا . قال : واسم الخَضِر إرْمِيَا بن حِلْقِيَّا ، وكان من سِبْط هارون ابن عمران . قال : وإنما سُمِّى الخَضِر لأنه جلس على فَرْوة بيضاء فقام عنها وهى تهتزّ[(٣)] خضراءَ . فقال الله عزّ وجل لإرْمِيَا حين بعثه إلى بنى إسرائيل : يا إرميا ، من قَبل أن خَلَقْتُك اخترتُك ، ومن قبل أن أُصوّرك فى بطن أمّك قدّستُك ، ومن

(١) هذه الكلمة ليست فى الثعلبى ، وتعدية الإخلاص هنا بالباء لا ترضاه اللغة .

(٢) زيادة عن الثعلبى . (٣) فى الثعلبى المطبوعة : « تزهر » .

قبل أن أُخرِجَك من بطن أمّك طهّرتُك، ومن قبل أن تبلُغ السَّعْىَ نبّأتُك، ولأمرٍ عظيمٍ آجتبيتُك؛ فذكِّر قومَك نِعَمِى، وعرِّفهم أحداثهم، وآدعُهم إلىّ. وكانت الأحداث قد عظُمت فى بنى إسرائيل فركبوا المعاصِى وآستحلُّوا المحارم. فقال إرميا: إنى ضعيف إن لم تُقَوِّنى، عاجزٌ إن لم تنصُرنى. فقال الله عزّ وجل: أنا ألهِمُك. فقام إرْمِيَا فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله عزّ وجل خطبة طويلةً بليغةً، بيّن لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال فى آخرها: وإنى أحلف بعزّتى لأُقَيِّضَنّ لهم فِتنةً يتحيَّر فيها الحكيم، ولأُسلِّطنّ عليهم جبّارا قاسيا قلبُه، أُلبِسه الهيبةَ وأَنزِعُ من صدره الرحمة، يتبعه عددٌ مثلُ سوادِ الليل المظلم. ثم أوحَى الله تعالى إلى إرْمِيَا: إنِّى مُهلكٌ بنى إسرائيل بيافَثَ، ويافَثُ أهلُ بابلَ، وهم من ولد يافَثَ بن نوح. فلمّا سمع ذلك إرْمِيَا صاح وبكى وشقّ ثيابه ونبذ الرَّمادَ على رأسه. فلمّا سمع الله عزّ وجل تضرُّعه وبكاءه ناداه: يا إرْمِيَا، أشقَّ عليك ما أوحيتُ إليك؟ قال: نعم يارب، أهلِكْنِى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل ما لا أُسَرّ به. فقال الله عز وجل: وعِزّتى لا أهلك بنى إسرائيل حتى يكون الأمرُ فى ذلك من قِبَلك. ففرح بذلك إرميا وطابتْ نفسُه وقال: لا والذى بعث موسى بالحقّ لا أرضَى بهلاك بنى إسرائيل. ثم أتى الملكَ فأخبره بذلك، وكان ملكا صالحا، ففرِح وآستبشر وقال: إنْ يعذّبْنا ربُّنا فبذنوبٍ كثيرة، وإن عفا عنّا فبرحمته. ثم إنهم لبِثوا بعد الوحى ثلاثَ سنين لم يزدادوا إلّا معصيةً وتماديًا فى الشرّ، وذلك حين آقترب هلاكُهم ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا، فسلّط الله عليهم بُخْتَنَصَّر فخرج فى ستمائة ألف راية يريد بيت المَقْدِس. فلمّا فَصَلَ[1] سائرا أتى الخبرُ الملكَ فقال لإرميا: أين ما زعمتَ أنّ الله أوحَى إليك؟ فقال إرميا: إن الله عزّ وجلّ

٢٩/١٢

(١) فصل فلان من البلد: خرج منه.

لا يُخلِف الميعـاد وأنا به واثقٌ . فلمّـا قرُب الأجلُ وعزم الله عز وجل على هَلاكهم بعث الله تعالى إلى إرميا مَلَكا فتمثّل له رجلا من بنى إسرائيـل فقال له : يانبيّ الله، أَستَفتِيك فى أهل رَحِمِى، وصلتُ أرحامَهم ولم آتِ اليهم إلا حُسْنا، ولا يزيد إكرامى إيّاهم إلا إسخاطا لى ، فأفتِنِي فيهم . فقال له : أحْسِنْ فيما بينك وبين الله وصِلْهم وأبشر بخير . فآنصرف المَلَك فمكث أياما ثم أقبل إليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه ، فقال له إرميا : أوَما ظَهَرَتْ أخلاقُهم لك بعدُ؟ فقال: يا نبيّ الله، والذى بعثك بالحقّ ما أعلم كرامةً يأتيها أحدٌ من الناس إلى أهل رَحِمِه إلا قدّمتُها إليهم وأفضَل . فقال له إرميا : اِرجعْ إلى أهلك وأحسِنْ إليهم، وآسألِ الله تعالى الذى أصلحَ عباده الصالحين أن يُصلِحهم . فقام الملك فمكث أيّاما وقد نزل بختنصّر وجنودُه حولَ بيتِ المقدِس بأكثر من الجراد ، ففزِع منهم بنـو إسرائيل وشقّ عليهم . فقال ملكهم لإرْمِيَا : يانبيّ الله، أين ماوَعَدَك الله ؟ قال : إنى بربّى واثق . ثم أقبـل الملك إلى إرميا وهـو قاعد على جِدار بيت المقدس وهو يضحك ويستبشر بنصر ربّه الذى وعده، فقعد بين يديه وقال له : أنا الذى أتيتُك فى شأن أهلى مرّتين . فقال إرْمِيَا : ألم يأنِ لهم أن يُفيقوا من الذى هم فيـه ؟ فقال الملك : يانبيّ الله، كل شيء يُصيبنى منهم قبلَ اليوم كنتُ أصبِر عليه، فاليومَ رأيتُهم فى عمل لا يُرضِى الله عز وجل . فقال إرميا : على أىّ عمـل رأيتَهم ؟ قال : على عمـل عظيمٍ من سُخْـط الله ، فغضِبتُ لله ولك وأتيتُك لأُخبرَك . وإنى أسألك بالله الذى بعثك بالحقّ إلّا مادعوتَ الله عليهم ليُهلكهم . قال إرْمِيَا : يامَلِكَ السمواتِ والأرضِ إن كانوا على حقّ وصـوابٍ فأبقهم ، وإن كانوا على سُخْطك وعمـلٍ لا ترضاه فأهلِكْهم . فلمّا خرجتِ الكلمة من فم إرميا أرسل الله عز وجل صاعقةً من السماءِ فى بيت المَقْدِس فآلتهبَ مكانُ القُربان وخُسِف بسبعة أبواب من أبوابها .

فلمّا رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابَه ونَبَذَ الرَّماد على رأسه وقال : يا مَلِك السمواتِ والأرضِ، أين ميعادُك الذى وعدتَنى ! فنُودِىَ : إنه لم يُصبهم الذى أصابهم إلّا بفُتياك ودعائك. فاستيقَنَ إرْمِيَا أنها فُتياه، وأن ذلك السائل كان رسول ربه. فطار إرميا حتى خالَطَ الوحوش. ودخل بختنصّر وجنودُه بيتَ المقدس ووطِئ الشام وقَتَل بنى إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس ؛ ثم أمر جنودَه أن يملأ كلّ رجلٍ منهم تُرسه ترابا ثم يَقذِفه فى بيت المقدس ، فَقَذَفوا فيه التراب حتى مَلَئوه ؛ ثم أمرهم أن يجمعوا مَن كان فى بلدان بيت المقدس كلِّهم ، فجمعوا عنده كل صغير وكبير من بنى إسرائيل ، فاختار منهم مائةَ ألفِ صبىّ ، وقيل سبعين ألف صبىّ . فلمّا خرجت غنائم جُنده لتُقْسَم قال له الملوك الذين كانوا معه : أيّها الملك ، لك غنائمها كلها ، فاقسِمْ بيننا هؤلاء الصِّبيان الذين اخترتَهم من بنى إسرائيل ، ففعل ذلك ، فأصاب كلّ رجل منهم أربعة غِلْمة . وكان من أولئك الغلْمان دانِيَالُ وحَنَانِيَا وعزَارِيَا وميشائيل[1] ، وسبعةُ آلاف من أهل بيت داود عليه السلام ، وأحدَ عشر ألفا من سِبْط يوسف ابن يعقوب ، وأخيه بَنْيَامِين عليه السلام ، وثمانيةُ آلاف من سِبْط أَشْرس[2] بن يعقوب ، وأربعةَ عشر ألفا من سِبْط ريالون[3] بن يعقوب ونَفْتَالِى[4] بن يعقوب ، وأربعةُ آلاف من سِبْط يَهُوذَا بن يعقوب ، وأربعةُ آلاف من سِبط رُوبِيل[5] ولَاوِى ابْنَى يعقوب ، ومَن بَقِىَ من بنى إسرائيل .

٣٠/١٢

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٦٢٥) : « حننيا ... ... وعزريا » . وراجع ما كتبه عنهم الدكتور جورج بوست فى قاموس الكتاب المقدّس .

(٢) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٠) : « أشير » .

(٣) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٠) : « زبولون » .

(٤) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٨٦) . وورد فى الأصول بحروف مهملة .

(٥) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٠) : « رأوبين » .

قال : وجعل بُخْتَنَصّر مَن بقِيَ[1] من بنى إسرائيل ثلاث فِرَق، فثُلُثًا أقرّ بالشام، وثُلُثًا سَبَى، وثُلُثا قَتَل . وذهب بآنية بيت المقدس وسَلَبَ حُلِيَّه حتى أقدم ذلك بابِلَ ، فكان على سبعين ألفا ومائةَ ألفِ عَجَلَةٍ من حُلِيّ . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنى بختنصّر وأصحابه ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا[2] ﴾ فهذه الواقعةُ الأولى التى أنزلَها الله ببنى إسرائيل لاختلافهم وظلمهم . ولنصل هذا الفصل بخبر بختنصّر .

ذكر خبر بختنصر وابتداء أمره وكيف ملك

يقال فى اسمه : بُخْتَنَصّر (بتشديد الصاد وإسكانها) ويقال فيه : بختناصر[3] . وقد اختُلِف فى أمره، فقال قوم : إنه مَلَكَ الدنيا أجمع . وقال آخرون : بل مَلَكَ بابِل وما افتتحه . وقال قوم : إنما كان مَرْزُبَانًا للهراسف الفارسىّ . وقال قوم : كان أصله من أبناء الملوك ، وقيل : بل كان من الفقراء . وسنذكر إن شاء الله تعالى ما نَقِفُ عليه من ذلك . فمن ذلك ما رواه أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسير قوله عز وجل : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ... ﴾ الآيات بسندٍ رفعه إلى سَعِيد بن جُبَير قال : كان رجل من بنى إسرائيل يقرأ التوراة، حتى إذا بلغ « بَعَثنا عليكم عِبادًا لنا أُولِى بأسٍ شديدٍ » بكى وفاضت عيناه ثم أطبق المصحفَ وقال: أى ربّ أرِنى هذا الرجلَ الذى جعلتَ هَلاكَ بنى إسرائيل على يديه؛ فأُرِىَ

(١) الذى فى الثعلبى : « فجعل بختنصر سبايا بنى اسرائيل » .
(٢) سورة الإسراء آية ٤، ٥
(٣) ويقال له أيضا : « نبوخذ نصر » و « نبوكد نصر » . (راجع تاريخ المشرق لماسيرو ص ١١٣ والكتاب المقدّس ج ١ ص ٦٤٩) .

فى المنام مسكينٌ ببابلَ يقال له بُخْتَنَصَّر، فانطلق بمال وأعبُدٍ له وكان رجلا مُوسِرًا . فقيل له : أين تريد؟ قال : أريد التجارة . فسار حتى نزل بابِلَ ، فنزل دارا فاكتراها ، ليس فيها أحدٌ غيرُه ، فجعل يدعو المساكين ويَلْطُفُ بهم حتى لا يأتيه أحدٌ إلا أعطاه . فقال : هل بَقِيَ مسكينٌ غيركم ؟ قالوا : نعم، مسكينٌ بفجّ آل فلان مريضٌ يقال له بختنصّر . فقال لِغلْمته : انطلِقُوا بنا ، فانطلقَ حتى أتاه فقال له : ما اسمُك ؟ قال بختنصّر . فقال لغلْمته : احتملوه، فنقله إليه فمرّضه حتى برئ، فكساه وأعطاه نفقةً، ثم آذن الإسرائيليّ بالرحيل، فبكى بختنصّر . فقال له الإسرائيليّ : ما يُبْكِيك ؟ قال : أبكى أنك فعلتَ بى ما فعلتَ، ولا أجد شيئا أَجزِيك به . قال : بلى، شيئا يسيرا . فقال له : وما هو ؟ قال : إن مُلِّكْتَ أطعتَنى . فجعل يتبعه ويقول : تستهزئ بى ! ولا يمنعه من أن يُعطِيَه ما سأله إلّا أنه يرى أنه يستهزئ به . فبكى الإسرائيلى وقال : لقد علمتُ ما يمنعك مما سألتك إلّا أنّ الله تعالى يريد أن يُنفِّذ ما قد أمضَى وكتب فى كتابه .

قال : وضرب الدهر ضَرَبانه[1] فقال صَيْحون[2] وهو ملِك فارسَ ببابلَ : لو أنّا بعثنا طليعةً إلى الشام؟ قالوا : وما ضرَّك لو فعلتَ؟ قال : فمن تَرَوْن؟ قالوا : فلان . فبعث رجلا وأعطاه مائة ألف فارس، وخرج بختنصّر فى مطبخه لا يخرج إلا ليأكل من مطبخه [ويعيش منه][3] . فلمّا قدِم الشام رأى صاحبُ الطليعة أكثرَ خلقِ اللهِ فُرسانا ورِجالًا، فكسر ذلك فى ذَرْعه فلم يسأل . فجعل بختنصّر يجلس فى مجالس

(١) ضربان الدهر : حدثانه .

(٢) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٦٥٦ من القسم الأول) . وفى تاريخ الطبرى أيضا (ص ٦٥٧ من القسم الأول) : « صيحائين » . وفى الأصول فى بعض المواضع : « صحانين » .

(٣) زيادة عن الثعلبى .

أهل الشام فيقول : ما يمنعكم أن تغزوا بابِلَ ! فلو غَزَوْتموها فما دُون بيتِ ما لها شيءٌ. قالوا : لا نُحسِن القتالَ ولا نُقاتل، حتى انتفذ مجالسَ أهلِ الشامِ. ثم رجع أميرُ الطليعةِ فأخبر الملِكَ بما رأى. وجعل بختنصّر يقول لفوارس الملِك : لو دعانى الملكُ لأخبرتُه غيرَ ما أخبره فلان . فرُفع ذلك إلى الملك فدعاه، فقال : إنّ فلانا لمّا رأى أكثرَ أرضِ الله كُراعًا[1] ورِجالًا كسَر ذلك فى ذَرْعه ولم يسألهم عن شيء، وإننى لم أدع مجلسا بالشام إلا جالستُ أهلَه فقلت لهم كذا وكذا ، فقالوا لى كذا وكذا . فقال صاحب الطليعة لبختنصّر : بصحبتى لك مائةُ ألف دينار وتنزع عما قلتَ. قال : لو أعطيتَنى بيت مالِ بابلَ ما نزعتُ . فضرب الدهرَ ضَرَبانه فقال الملك : لو بعثنا جريدة خَيل الى الشامِ، فإن وجدوا مَساغًا سَاغُوا وإلّا آستلَبُوا ما قدروا عليه . قالوا : ما ضرّك لو فعلتَ ؟ قال : فمَن تَرَوْن ؟ قالوا : فلان . قال : بل الرجل الذى أخبرنى بما أخبرنى . فدعا بختنصّر وأرسله وآنتخب معه أربعةَ آلافٍ من فرسانهم ، فآنطلقوا فجاسُوا خِلال الديار ، فسبَوْا ما شاء الله ولم يخرِّبوا ولم يقتلوا . ومات صَيْحون الملك ، فقالوا : استخلفوا رجلا . فقالوا : على رِسْلكم حتى يأتى أصحابكم فإنهم فُرسانُكم . فأمهلوا [وأخّروا[2] ذلك] حتى جاء بختنصّر بالسَّبْى وما معه، فقسّم ذلك فى الناس . فقالوا : ما رأينا أحدا أحقّ بالمُلْك من هذا فملّكوه .

٣١/١٢

قال : وقال السُّدِّىّ بإسناده : إنّ رجلا من بنى إسرائيل رأى فى المنام أنّ خرابَ بيتِ المَقْدِس وهَلاكَ بنى إسرائيل على يَدَىْ غلام يتيم آبن أَرْمَلَةٍ من أهل بابل يُدعَى بختنصّر ، وكانوا يَصدُقون فتَصدُق رؤياهم. فأقبل فسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب. فلمّا جاء وعلى رأسه الحطب ألقَى الحُزْمة ثم قعد فى جانب

(١) زيادة عن الثعلبى .

(٢) أكارع الأرض : أطرافها القاصية .

من البيت، فكلّمه ثم أعطاه ثلاثةَ دراهم وقال : اشترِ بهذه طعاما وشرابا، فاشترى بدرهم لحما، وبدرهم خبزا، وبدرهم خمرا؛ فأكلوا وشربوا، حتى إذا كان اليوم الثانى فعل به كذلك ؛ وفى اليوم الثالث كذلك . ثم قال : إنى أحبّ أن تكتب لى أمانا إن أنتَ مُلِّكتَ يوما من الدهر. قال: تسخَر منّى؟ قال: إنى لا أسخرَ منك، ولكن ماعليك أن تتّخذها عندى يدا! فكلّمته أمّه فقالت: ماعليك إن كان، وإلّا لم ينقصك شيئا، فكتب له أمانا . فقال له : أرأيتَ إن جئتَ والناسُ حَوْلك قد حالوا بينى وبينك فاجعَلْ لى آيةً تعرِفنى بها . قال: ترفع صحيفتَك على قَصَبة فأَعرِفك بها، فكساه وأعطاه . ثم إنّ ملِك بنى إسرائيل كان يُكرم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويُدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع أمرًا دُونه، وإنه هَوِىَ أن يتزوّج بنت امرأته . — قال وقيل : كانت بنت أخيه ، قال الثعلبىّ : وهو الأصحّ[1] إن شاء الله — فسأله عن ذلك، فنهاه عن نكاحها وقال : لن أرضاها لك . فبلغ ذلك أمّها فحَقَدت على يحيى عليه السلام حين نهاه أن يتزوّج بنتَها ، فعمَدت أمّ الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رِقاقًا حمراءَ وطيّبتها وألبستها من الحُلىّ، وألبستها فوق ذلك كساءً أسودَ وأرسلتها الى الملك، وأمرتها أن تَسقيَه وأن تتعرّض إليه، فإن أرادها على نفسها أبتْ عليه حتى يُعطيَها ما سألتْه ، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يُؤتَى برأس يحيى بن زكريا فى طَسْتٍ، ففعلتْ . فلمّا أخذ منه الشرابُ أرادها على نفسها، فقالت: لا أفعل حتى تُعطِيَنى ما أسألك . قال : ماتَسألينى ؟ قالت : أسألك

(١) ذكر الثعلبىّ تأييدا لصحة قوله مانصه : «لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس . فكان مما نهوهم عنه نكاح بنت الأخ . قال : وكانت لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن ينكحها وكانت لها فى كل يوم حاجة يقضيها، فسأل يحيى بن زكريا عن ذلك فنهاه عن نكاحها ... الخ » .

أن تبعث إلى يحيى بن زكريّا فتُؤتَى برأسه فى طَسْتٍ . فقال : ويحَكِ ! سَلِينى غيرهذا . قالت : ما أريد إلّا هذا . فلمّا أبتْ عليه بعث إليه فأُتِىَ برأسه ، والرأس يتكلّم حتى وُضِع بين يديه وهو يقول : لا يحِلّ لك . فلمّا أصبح إذا دَمُه يَغْلِى ، فأمر بترابٍ فأُلقِىَ عليه ، فرقِىَ الدمُ فوق التراب يَغْلِى ، فأُلقِىَ عليه أيضا فارتفع الدمُ فوقه ، فلم يزل يُلقَى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يغلى . فبلغ صَيْحون ملك بابل ذلك فنادى فى الناس ، وأراد أنّ يبعث إليهم جيشا [و يؤمّر عليهم رجلا](١) . فأتاه بختنصّر فكلّمه وقال : إنّ الذى كنتَ أرسلتَ تلك المرّة ضعيفٌ ، و إنّى قد دخلتُ المدينة وسمعتُ كلام أهليها [فأبعثنى](١) فبعثه . فسار بختنصّر ، حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصّنوا منه فى مدائنهم فلم يُطِقْهم . فلمّا آشتدّ عليه المُقَامُ وجاع أصحابُه وأرادوا الرجوع خرجت آمرأةٌ عجوزٌ من عجائز بنى إسرائيل فقالت : أين أميرُ الجُنْد؟ فأُتِىَ بها إليه . فقالت : إنه بلغنى أنك تريد أن ترجع بجُنْدك قبل أن تفتح هذه المدينة . قال : نعم ، قد طال مُقامى وجاع أصحابى ، فلستُ أستطيع المُقام فوق الذى كان منّى . فقالت : أرأيتَك إن فُتِحَتْ لك المدينةُ أتُعطِينى ما أسألك ، فتقتُل مَن أمرتُك بقتله ، وتكُفّ إذا أمرتُك أن تكفّ ؟ فقال لها نعم . قالت : إذا أصبحتَ فآقسِمْ جندَك أربعةَ أرباع ، ثم آجعَلْ فى كل زاوية رُبْعًا ، ثم آرفعوا أيديَكم إلى السماء فنادُوا : إنّا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريّا ، فإنها سوف تَسّاقط ، ففعلوا ، فتساقطتِ المدينةُ فدخلوا من جوانبها . فقالت : كُفّ يدك وآقتل على هذا الدم حتى يسكُن ، وآنطلقت به الى دم يحيى بن زكريّا ، وهو على تراب كثير ، فقتل عليه حتى سَكَنَ ، فقتل سبعين ألفا . فلمّا سكن الدم قالت له : كُفّ يدك فإنّ الله تعالى إذا قُتِلَ نبىّ لم يرضَ حتى يُقتَل مَن قتله ومَن رضِىَ قَتْلَه . وأتاه

٣٢
١٢

(١) زيادة عن الثعلبى .

صاحبُ الصحيفة بصحيفته فكفّ عنه وعن أهل بيته ، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تُطرَح الجِيَف فيه ، وقال : مَن طَرَح فيه جِيفةً فله جِزْيتُه تلك السنة . قال : وأعانه الروم على خرابه من أجل أنّ بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا .

قال : فلمّا خرّبه بختنصّر ذهب معه بوُجُوه بنى إسرائيل وسَرَاتهم وذهب بدَانِيَالَ وقومٍ من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت الملك ، فلمّا قَدِم وجد صَيْحون مَلِكَ بابِلَ قد مات فمُلِّكَ مكانه .

ذكر خبر بختنصّر مع دانِيَال

قال : ولمّا سار بختنصّر إلى بابِلَ ومُلِّك بعد موت الملك كان معه دانِيَالُ ، وكان أكرمَ الناس عليه هو وأصحابُه ، فحسدهم المَجُوس على ذلك ، فوشَوْا بهم إليه وقالوا : إنّ دانيالَ وأصحابَه لايعبدون إلٰهك ولا يأكلون ذَبِيحتك . فدعاهم فسألهم ؛ فقالوا : أجَلْ ، إنّ لنا ربًّا نعبُده ، ولسنا نأكل من ذبيحتكم . فأمر أن يُخَدّ[1] لهم أُخدودٌ فخُدّ لهم وأُلقوا فيه وهم ستّة ، وأُلقِيَ معهم سَبُعٌ ضارٍ ليأكلهم ، ثم قال : اذهبوا بنا لنأكل ونشرب ، فذهبوا فأكلوا وشربوا ، ثم عادوا فوجدوهم سبعة والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدِش منهم أحدا . فقالوا : مابالُ هذا السابع إنما كانوا ستّة ! فخرج السابع إلى بختنصّر ، وكان مَلَكا من الملائكة ، فلطَمه لطمةً فصار من الوحش [ومسخه الله][2] سبع سنين ، [ثم ردّه الله الى صورته وردّ عليه ملكه][2] . هذا ما حكاه السدّىّ .

وروى الثعلبىّ بسنده إلى وَهْب قال : لمّا سار بختنصّر الى بابل ومُلِّك بعد موت ملكها واستتبّ أمرُه لبِثَ على ذلك مدّة ، ثم رأى رؤيا عجيبة فأفزعتْه وسأل عنها الكَهَنةَ والسحَرةَ فعجزوا عن تعبيرها . فبلغ ذلك دانِيَال وكان فى السجن

(١) يخدّ : يحفر . والأخدود : الحفرة المستطيلة فى الأرض . (٢) زيادة عن الثعلبى .

مع أصحابه وقد أحبّه صاحب السجن وأُعجِبَ به لِمَا رأى من حسن سَمْته . فقال له دانيال : إنك قد أحسنتَ إلىّ ، و إنّ صاحبكم قد رأى رؤيا ، فدُلَّه علىّ لأُعبِّرها له . فجاء السجّان فأخبر بختنصّر بقصّة دانيال ، فاستدعاه فجاء إليه . وكان من عادة من حَضَر بين يَدَيِ الملك أن يسجُد له ، فلما أتَوْا بدانيال قام بين يديه ولم يسجُد له .

٥ فقال : ما الذى منعك من السجود؟ فقال : إن لى ربّا آتانى العلمَ والحكمةَ وأمرنى ألّا أسجُد لغيره ، فخشيتُ إن سجدتُ لغيره أن ينزِع منّى الحكمة والعلم ويُهلكنى . فأُعجِب به وقال : نِعْمَ ما فعلتَ حيث وفّيتَ بعهده ، وأجللتَ علمه ؛ ثم قال : هل عندك علمُ هذه الرؤيا ؟ قال : نَعَمْ وأبشر ، فأخبره برؤياه قبل أن يخبره الملك بها ، وعبّرها له . قال الثعلبىّ : وكانت الرؤيا على ما أخبرَنا به عبد الله بن حامد

١٠ فى إسناده عن وهب بن منبّه قال : إنّ بختنصّر رأى فى آخر زمانه صنمًا رأسه من ذهب ، وصدره من فضّة ، وبطنه من نُحاس ، وفخذاه من حديد ، وساقاه من فخّار ، ثم رأى حجرا من السماء وقع عليه فدقّه ، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأى شجرة أصلُها فى الأرض وفرعُها فى السماء ، ثم رأى عليها رجلا بيده فأس وسمع مناديا ينادى : اضرِبْ جِذْعَها ليتفرّق الطيرُ من فروعها ، وتتفرّق

١٥ الدوابّ والسباع من تحتها ، واترك أصلَها قائما . فعبّرها دانيال عليه السلام له فقال : أمّا الصنمُ الذى رأيتَ ، فأنت الرأس وأنت أفضلُ الملوك . وأما الصدرُ الذى من فضة فابنك يملك من بعدك . وأما البطنُ الذى رأيتَ من نُحاس فمَلِكٌ يكون بعد ابنك . وأما ما رأيتَ من الفَخذَيْن من حديد فيتفرّق الناس فرقتين فى فارس يكون أشدّ الملوك . وأما الفخّار فآخرُ ملكهم يكون دون الحديد . وأما

٢٠ الحجر الذى رأيتَه قد ربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبىّ يبعثه الله تعالى فى آخر الزمان فيفرّق مُلْكَهم كلّه ، ويربو مُلكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب .

وأما الشجرةُ التى رأيتَ والطيرُ التى عليها والسِّباعُ والدوابُّ التى تحتها وما أمر بقطعها، فيذهب مُلكك ويردّك الله طائرا تكون نسرا ملِك الطير، ثم يردّك الله ثورا ملك الدوابّ، ثم يردّك الله أسدا ملِك السباع والوحش سبع سنين، وفى كل ذلك قلبك قلب إنسان، حتى تعلم أنّ الله له مُلْك السموات والأرض، يقدر على الأرض ومَن عليها، وكما رأيتَ أصلها قائما فإن مُلكك قائم. ٣٣/١٢

قال: فمُسِخَ بختنصّر نسرًا فى الطيور، وثورا فى الدوابّ، وأسدا فى السباع، فكان مسخه كله سبع سنين، ثم ردّ الله تعالى إليه مُلكه، فآمن ودعا الناس إلى الله تعالى.

قال: وسُئل وهب بن منبِّه: أكان بختنصّر مؤمنا؟ فقال: وجدتُ أهل الكتاب قد اختلفوا فيه، فمنهم من قال: مات مؤمنا، ومنهم من قال: مات كافرا؛ لأنه حَرَّق بيت المقدس وكُتُبَ الله وقَتَل الأنبياء، فغضِب الله تعالى عليه ولم يقبل توبته.

قالوا: فلمّا عبّر دانيال لبختنصّر رؤياه أكرمه وصحِبَه واستشاره فى أموره وقرّبه منه حتى كان أكرَمَ الناسِ عليه وأحبّهم إليه، فحسده المجوس على ذلك ووشَوْا به وبأصحابه الى بختنصّر فقالوا: إنّ دانيَال وأصحابه لايعبدون إلٰهك، ولا يأكلون ذَبيحتك. فدعاهم وسألهم فقالوا: إن لنا ربّا نعبده ولسنا نأكل من ذبائحكم. فأمر بختنصّر بأُخدود، فخُدّ لهم وأُلقوا فيه، وهم ستّة. وأُلقِىَ معهم سبعُ ضارٍ ليأكلهم، ثم قالوا: انطلِقوا لنأكل ونشربَ، فأكلوا وشرِبوا، ثم راحوا فوجدوهم جلوسا والسبع مفترش ذراعَيْه بينهم ولم يخدِش منهم أحدا ولم ينكأهم[1] بشىء، ووجدوا معهم رجلا فعدُّوهم فوجدوهم سبعة، فقالوا: ما بال هذا السابع وإنما

(١) ينكأهم: يجرحهم.

كانوا ستّة ! . فخرج إليهم السابع، وكان ملكا من الملائكة، فلطم بختنصّر لطمةً فصار فى الوحوش، ومسخه الله تعالى سبعَ سنين ثم ردّه الله تعالى إلى صورته وردّ عليه مُلْكه .

قال السُّدِّىّ : ثم إن بختنصر لمّا رجع إلى صورته بعد المسخ وردّ الله تعالى عليه مُلْكه، كان دانِيَالُ وأصحابُه أكرمَ الناس عليه، فحسدته المجوسُ ووشَوْا به ثانية فقالوا لبختنصّر : إنّ دانِيَالَ إذا شرِب الخمرَ لم يملك نفسه أن يَبُول، وكان ذلك فيهم عارٌ . فجعل بختنصّر لهم طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا وقالوا للبوّابين : أنظروا أوّل مَن يخرج إليكم ليبول فاضربوه بالطَّبْرَزِين(١)، وإن قال لكم أنا بختنصّر فقولوا له : كذبتَ، بختنصّر أمرنا بهذا. فحبس الله تعالى عن دانيال البَوْل، وكان أوّلُ مَن قام من القوم يريد البَوْل بختنصّر . فقام مُدِلّا وذلك ليلا، فخرج يسحَب ثيابه، فشدّ عليه البوّاب فقال : أنا بختنصّر . فقال : كذبتَ، بختنصّر أمرنى أن أقتل أوّلُ مَن يخرج، فضربه فقتله .

وحكى محمد بن إسحاق بن يَسَار فى سبب هلاك بختنصّر غير ما حكاه السُّدّىّ، وذلك أنه قال بإسناده : لمّا أراد الله تعالى هَلاكَ بختنصّر انبعثَ فقال لمن كان فى يده من بنى إسرائيل : أرأيتم هذا البيتَ الذى خرّبتُه، وهؤلاء الناس الذين قتلتُهم مَن هم ؟ وما هذا البيت ؟ قالوا : هذا بيتُ الله ومسجدٌ من مساجده، وهؤلاء أهله، كانوا من ذرارِى الأنبياء فظلموا وتعدّوْا وعصَوْا، فسُلِّطتَ عليهم بذنوبهم، وكان ربُّهم ربُّ السموات والأرض وربّ الخلق كلهم، يُكرمهم ويمنعهم

(١) الطبرزين : جمعه طبرزينات . وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة فارسية (تبر، تبر) ومعناها الفأس، وهى آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان، وكانوا يعلّقونها فى السرج ليستخدمها الفارس فى وقت النزال والبراز . (راجع شفاء الغليل وصبح الأعشى ج ١ ص ٣٦٥ وقاموس دوزى) .

ويُعزّهم، فلمّا فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله تعالى وسلّط عليهم غيرهم . قال : فأخبرونى ما الذى يطلُع بى الى السماء العُليا لعلّى أطّلع إليها وأقتل مَن فيها وأتّخذها مُلْكا فإنى قد فرغت من الأرض ومَن فيها؟ قالوا : ما يقدِر على هذا أحدٌ من الخلائق . قال: لَتفعلُنّ أو لأقتلنّكم عن آخركم. فبكَوْا وتضرّعوا إلى الله تعالى، فبعث الله عز وجل عليه بقدرته ليُرِيه ضَعفَه وهوانه بعوضةً فدخلت فى مَنْخَره ثم ساخت فيه حتى عضّت بأمّ دماغه فما يَقِرّ ولا يسكن حتى يُوجأ[1] له رأسُه على أمّ دماغه. فلمّا عرف أنه الموت قال لخاصّته من أهله : اذا مُتّ فشُقُّوا رأسى فٱنظروا ما هذا الذى قتلنى . فلمّا مات شقّوا رأسه فوجدوا البعوضةَ عاضّة بأمّ دماغه ليُرِىَ الله تعالى عباده قُدرتَه وسلطانَه ، ونجّى الله تعالى مَن بَقِىَ فى يديه من بنى إسرائيل و ردّهم إلى إيليا والشام ، فبنَوْا فيه و ربوا وكثُروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه . قال : فيزعمون أنّ الله تعالى أحيا أولئك الموتَى الذين قُتلوا ولَحِقوا بهم . قال : ثم إنهم لمّا رجعوا الى الشام وقد أُحرق التوراةُ وليس معهم عهد من الله تعالى جدّد الله عز وجل تَوْراتَهم وردّها عليهم على لسان عُزَيْر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

٣٤/١٢ قال : وكان عُمر بختنصّر بأيام مَسْخه نَيِّفا وخمسين سنة وخمسين يوما . فلمّا مات بختنصّر ٱستُخلف [ٱبنه][2] بلسطاس[3] . وكانت آنيةُ بيتِ المقدِس التى حملَها بختنصّر إلى بابل باقيةً، فنجّسها بلحوم الخنازير وأكل وشرب فيها، وأقصى دانيالَ ولم يقبل منه، وٱعتزله دانيال. فبينما بلسطاس ذات يوم إذ بدت له كف بغير ساعد وكتبت ثلاثةَ أحرُف بمشهده ثم غابت، فعجِب من ذلك ولم يدر ما هى، فٱستدعَى دانيالَ وٱعتذر اليه وسأله أن يقرأ تلك الكتابة ويخبره بتأويلها. فقرأها دانيال، فإذا

(١) يوجأ : يضرب . (٢) زيادة عن الثعلبى .

(٣) فى تاريخ ابن العبرى (ص ٧٨) : « بلطشاصر » .

هى : «بسم الله الرحمن الرحيم . وُزِنَ فخفّ[1]، ووُعِد فنجز، وجُمِع فتفرّق» . فقال دانيال : أمّا قوله وُزن فخفّ، أى وُزِن عملُك فى الميزان فخفّ . ووُعِد مُلْكُك فنجز اليوم، وجُمِع فتفرّق، أى جُمِع لك ولوالدك من قَبلِك مُلْكٌ عظيمٌ فتفرّق اليوم فلا يرجع إلى يوم القيامة . فلم يلبث إلا قليلا حتى أهلكهم الله تعالى وضعُف مُلكهم، وبَقِىَ دانيال بأرض بابل إلى أن مات بالسُّوس[2] .

فهذه الأقاويل التى وردت فى بختنصّر هى على ماجاء فى التفسير[3] والمبتدا[4] . وأمّا قول من قال إنه كان مَرْزُبانًا للهراسف الملك الفارسىّ فسنذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار ملوك الفُرْس، على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى فى موضعه وهو فى الباب الثالث من القسم الرابع من هذا الفنّ فى السفر الثالث عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا .

وهذه الاخبار التى قدّمنا ذكرها أوردها أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسيره وفى كتابه المترجم بـ «يواقيت البيان فى قصص القرآن» . وقال فى تفسيره : إلّا أنّ رواية مَن رَوَى أن بختنصّر غزا بنى إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريّا عليهما السلام غلطٌ عند أهل السِّيَر والأخبار والعلم بأمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين . وذلك أنهم مُجمعون على أن بختنصّر غزا بنى إسرائيل عند قتلهم نبيّهم شَعْيَا وفى عهد إرميَا بن حِلْقيّا عليهم السلام، وهى الوقعة الأولى التى قال الله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ يعنى بختنصّر وجنوده .

قال الثعلبىّ قالوا : ومن عهد إرْمِيَا وتخريب بختنصّر البيت المقدّس الى مولد يحيى بن زكريّا أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة . والله أعلم .

(١) فى الأصول : « ... وزن فخفف ... وجمع ففرق ... » وقد أثبتناه كما فى الثعلبى لوضوحه .

(٢) السوس التى بها قبر دانيال عليه السلام : بلدة بخوزستان (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١٨٨ طبع أوربا) .

(٣) هو الكشف والبيان فى تفسير القرآن لأبى إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ومنه بعض أجزاء مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية .

(٤) هو اسم كتاب أيضا .

ذكر خبر عمارة بيت المقدس بعد أن خرّبه بختنصّر وخبر الذى مرّ على قرية

قال الله عز وجل : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... ﴾[1] الآية .

قال أبو اسحاق الثعلبىّ رحمه الله : اختلفوا فى ذلك المارّ مَن كان ، فقال عِكْرمة وقَتَادة والرَّبيع بن أَنس والضحّاك والسُّدّىّ وناجية بن كعب وسليمان بن بُرَيدة[2] وسَلْم الخوّاص : هو عُزَير بن شرخيا . وقال وهب بن مُنَبِّه وعبد الله بن عبيد ابن عُمَير : هو إرْمِيَا بن حِلْقِيّا ، وكان من سِبْط هارون بن عمران ، وقد تقدّم ذكره .

قال : واختلفوا أيضا فى القرية التى مرّ عليها ، فقال وهب وعِكْرمة وقَتَادة والربيع : هى بيت المقدس . وقال الضحّاك : هى الأرض المقدّسة . وقال ابن زَيْد : هى الأرض التى أهلك الله تعالى بها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموت . وقال الكلبىّ : هى دَيْر سَابُرَا بَاذ . وقال السُّدّىّ : هى سلماباذ . وقيل : هى دَيْر هِزْقِل[3] . وقيل : هى قرية العِنَب ، وهى على فرسخين من بيت المقدس .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩

(٢) كذا فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٨٨) طبع دار الكتب المصرية وتهذيب التهذيب لابن حجر (ج ٤ ص ١٧٤) . وفى الأصول : «يزيد» وهو تحريف .

(٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت وذكر أنه (بكسر أوله وزاء معجمة ساكنة وقاف مكسورة) وقال : وأصله حزقيل ثم نقل الى هزقل ، وهو دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم (خاص بالمجانين) ، وللبرد حكاية فيه مع أحد عقلاء المجانين ، وقد ذكره دعبل بن على حين هجا أبا عباد كاتب المأمون فقال :

فكأنه من دير هزقل مفلت * حنق يجرّ سلاسل الأقياد

وفى الأصول والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٨٩ طبع دار الكتب المصرية) : «هرقل» بالراء المهملة وهو خطأ . (راجع ياقوت ج ٢ ص ٥٤٢ ، ٦٠٦ طبع أوربا ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ج ١ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية) .

قال فالذى يقول : إن المـاز إرْمِيَا و إنّ القرية بيت المقدس ، هو ما رواه محمـد ٱبن إسحـاق بن يَسار عن وهب بن مُنَبِّه : أنه لمّـا كان من أمر إرْمِيَا ما قدّمناه ، وأنه طار لمّـا ٱلتهب مكان القُرْبان وخُسف بسبعة أبواب من أبواب بيت المقدس حتى خالط إرْمِيَا الوحش ودخل بختنصّر وجنودُه بيت المقدس وخُرِّب كما تقدّم . فلمّا رجع بختنصّر عن بيت المقدس أقبل إرْمِيَا على حمار له معـه عَصيرُ عنب فى رِكْوَة[1] وسَلّةُ تينٍ حتى غَشِىَ إيلِيَاء[2] . فلمّا وقف عليها ورأى خرابها قال : «أنّى يُحيِي هذه الله بعد موتها» ! . قال : ثم ربط إرْمِيَا حماره بحبل جديد ، فألقَى الله تعالى عليه النوم ، فلمّا نام نَزَع منه الرُّوح مائةَ عام وأمات حمارَه ، وعَصِيرُه وتينُه عنده ، وأعمى الله تعالى عنـه العيون فلم يره أحد وذلك ضُحًى ، ومنع الله السباعَ والطيرَ لحمه . فلمّا مضى من نومـه سبعون سـنة أرسـل الله عز وجل مَلَكًا إلى مَـلِك عظيم من ملوك فارس يقـال له : « بُوسـك »[3] فقـال له : إن الله عز وجل يأمرك أن تنفـر بقومك فتعمِّر بيت المقدس و إيلياءَ وأرضَها حتى تعود أحسنَ ما كانت ، فانتدب الملك ألف قَهْرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل ، فجعلوا يعمِّرونها فعُمِّرت ، ونجّى الله تعالى مَن بَقِيَ من بنى إسرائيل ولم يمت ببابل أحدٌ منهم وردّهم الله تعالى إلى بيت المقدس وعَمّروها ثلاثين سـنة حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه ؛ وذلك بعـد أن خُرِّبت سبعين سـنة . فلمّـا مضت المـائة سنةٍ أحيا الله عز وجل منه عينيه وسائرُ جسـده ميّتٌ ، ثم أحيا جسده وهو ينظر ، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامُه متفرّقةٌ بيضٌ تلوح ، فسمع صوتا من السماء : أيتّهـا العظامُ البالِيـةُ إن الله

٣٥
١٢

(١) الركوة : إناء صغير من جلد .

(٢) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس . معناه بيت الله .

(٣) كذا فى الأصـول . وفى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوعة : «بوشـك» . وفى المخطوطة : «نوشك» . وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٤ ص ٢٩١) : «كوشك» .

يأمرك أن تجتمعى، فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض . ثم نودى : إن الله يأمرك أن تكتسى لحما وجلدا فكان كذلك . ثم نودى : إن الله يأمرك أن تحيا، فقام بإذن الله ونهق . وعمّر الله تعالى إرميا، فهو الذى يُرى فى الفلوات؛ فذلك قوله تعالى : ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أى أحياه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أن الله تعالى أماته ضُحًى فى أول النهار وأحياه بعد مائة عام فى آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال : «لبثتُ يوما»، وهو يرى أن الشمس قد غَرُبت، ثم التفت فرأى بقيّةً من الشمس فقال : «أو بعضَ يوم»، بمعنى بل بعض يوم ﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ يعنى التّين ﴿وَشَرَابِكَ﴾ يعنى العَصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أى لم يتغيّر ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) . قال وهب : ليس فى الجنة كلبٌ ولا حمارٌ إلا كلبُ أصحابِ أهلِ الكهف وحمارُ إرميا الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه . هذا قول من قال إنه إرميا بن حِلقيا .

وأمّا من قال إنه عُزَيْر، فإنه يقول : إنّ بختنصّر لمّا خرّب بيتَ المقدس قتل أربعين ألفا من قرّاء التوراة والعلماء، وقتل منهم أبا عُزَيْر وحدَه . وكان عُزَيْر يومئذ غلاما قد قرأ التوراة وتقدّم فى العلم، وأقدمه بختنصّر مع بنى إسرائيل إلى أرض بابل، وهو من ولد هارون . فلمّا نجا عُزَير من بابل ارتحل على حمار حتى نزل على دير هِزْقِل على شطّ دِجْلة، وطاف فى القرية فلم ير فيها أحدا، وعامّة شجرها حامل، فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب وشرب منه، وجعل فضل الفاكهة

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩

فى سَلّة وفضل العصير فى زِقّ . فلمّا رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الآية ، وساق فيه نحو ما تقدّم فى خبر إرْمِيَا .

وقال قوم فى قوله تعالى : ﴿ وَٱنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾ إنّ الله تعالى لم يُمِتْ حماره فأحيا الله تعالى عينيه و رأسَه وسائرُ جسده ميّتٌ فقال له : « أُنظُرْ الى حمارك » فنظر الى حماره قائما كهيئته يومَ ربطه حيّا ، لم يَطْعَم ولم يشرَب مائةَ عام ، ونظر الى الرُّمّة فى عُنُقه جديدة ؛ وهذا قول الضحّاك وقَتَادة . وقال الآخرون : أراد عظام حماره كما تقدّم فى قصّة إرْمِيَا . وقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أى عبرةً ودلالةً على البعث بعد الموت . وقال الضحّاك : وهو أنه عاد إلى قريته وأولادُه وأولادُ أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللّحية .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما قال : أحيا الله تعالى عُزَيرا بعد مائة سنة ، فركب حماره حتى جاء مَحَلّته[1] ، فأنكره الناسُ وأنكر الناسَ ومنازلَه ، فٱنطلق على وَهْمِه حتى أتى منزلَه ، و إذا هو بعجوز عمياءَ قد أتى عليها مائةٌ وعشرون سنةً ، وكانت أمَةً لهم ، فخرج عنهم عُزَير وهى ٱبنة عشرين سنة ، وكانت قد عَرَفته وعَقِلَتْه ؛ فلما أصابها الكِبَرُ والزَّمَنُ[2] قال لها عُزَير : يا هذه ، هذا[3] منزل عُزَير ؟ قالت : نعم هذا منزل عُزَير وبكت وقالت : ما رأيتُ أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عُزَيرا وقد نَسِيَه الناس . قال : فإنى عُزَير . قالت : سبحان الله ! فإنّ عُزَيرا قد فقدناه من مائة سنة . قال : فإنّى أنا عُزَير ، إنّ الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى . قالت : فإن عُزَيرا كان رجلا مُجابَ الدعوة ، يدعو للمريض وصاحبِ البلاء بالعافية والشفاء ، فٱدعُ الله

٣٦
١٢

(١) كذا فى الثعلبى . ووردت محرّفة فى الأصول . (٢) الزمن : مصدر زمن يزمن (مثل فرح) زمنا وزمنة وزمانة . وعبارة الثعلبى : « فلما أصابها الكبر لحقتها زمانة » .

(٣) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « هذه منازل » ولا تتفق مع السياق .

يردّ علىّ بَصَرى حتى أراك، فإن كنتَ عُزَيْرا عرفتُك. فدعا ربّه تعالى فاستجاب له ومسح بيده على وجهها وعينيها فصحّتا، وأخذ بيدها وقال لها: قومى بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجلَيْها، فقامت صحيحةً كأنما نَشطَت من عِقَال، فنظرت اليه فقالت: أشهد أنك عُزَير. فانطلقت إلى مَحَلّة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وٱبنٌ لعُزَير شيخٌ ٱبن مائة سنة وثمانية عشرَ سنة وبنو ٱبنه شيوخٌ فى المجالس، فنادت: هذا عُزَير قد قَدِم وجاءكم، فكذّبوها. فقالت: وأنا فلانة مولاتكم دعا لى ربّه فردّ الله علىّ عينىّ وأطلق رجلىّ، وزعم أنّ الله أماته مائة عام ثم بعثه. فنهض الناسُ وأقبلوا إليه، فقال ٱبنه: إنه كان لأبى شامةٌ سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه وإذا هو عُزَير.

وأمّا خبرُ فتنة اليهود به وقولهم عُزَيرٌ ٱبن الله، فقد رَوَى عطيّة العَوْفىّ عن ٱبن عباس رضى الله عنهما قال: كان عُزَير من أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعمِلُوا بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعَمِلوا بغير الحقّ، وكان التابوت فيهم. فلمّا رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوا التوراةَ وعَمِلوا بالأهواء رَفَع عنهم التابوتَ وأنساهم التوراة ونَسَخها من صدورهم، وأرسل عليهم مرضا، فٱستطلقت بطونُهم، حتى إنّ الرجل يَمَسّ كَبِدَه، حتى نَسُوا التوراة وفيهم عُزَير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نُسِخَت التوراةُ من صدورهم. وكان عُزَير دعا الله وٱبتهل إليه أن يردّ إليه الذى نُسِخَ من صدورهم. فبينما هو يصلّى ويبتهل إلى الله تعالى إذ نزل نورٌ من السماء فدخل فى جَوْفه، فعاد إليه الذى كان ذهب من التوراة، فأذّن فى قومه فقال: يا قوم، قد أتانِىَ الله التوراة وردّها إلىّ، فطفِق يُعلِّمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلّمهم. ثم إنّ التابوتَ نزل بعد ذلك. فلمّا رأَوُا

التابوت عَرَضوا ما كان فيه على الذى كان يعلِّمهم عُزَير فوجدوه مثلَه، فقالوا : والله ما أُوتِىَ عزير هذا إلّا وهو ٱبن ٱلله .

وقال السُّدِّىّ وٱبنُ عبّاس فى رواية عمّار بن ياسر : إنما قالت اليهودُ هذا لأنّ العمالقةَ ظهرت عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهَرَب علماؤهم الذين بَقُوا ودفنُوا التوراة فى الجبال وغيرها، ولحق عُزَير بالجبال والوحوش، وجعل يتعبّد فى رءوس الجبال ولا يخالط الناس ولا ينزل إلّا يوم عيد، وجعل يبكى ويقول: ياربّ تركتُ بنى إسرائيل بغير علم، فبكى حتى سقطت أشفار عينيه، فنزل مرّةً الى العيد، فلمّا رجع إذا هو بامرأة قد تمثّلت له عند قبر من القبور تبكى وتقول : يا مُطْعِماه، ويا كاسياه! . فقال لها عُزَير : ياهذه ٱتقى الله وٱصبِرِى وٱحتسِبى، أمَا علمتِ أنّ الموت مكتوبٌ على الناس! . وقال لها : وَيْحَكِ ! مَن كان يُطعِمُكِ ويكسوكِ قبل هذا الرجل ؟ (يعنى زوجها التى كانت تندُبه). قالت له : الله تعالى . قال : فإن الله تعالى حىّ لا يموت . فقالت : يا عُزَير، مَن كان يعلِّم العلماء قبلَ بنى إسرائيل ؟ قال : الله . قالت : فلِمَ تبكى عليهم وقد علمتَ أنّ الموت حقّ وأن الله حىّ لم يمت . فلمّا علم عُزَير أنه قد خُصِم ولّى مُدبرا . فقالت له : يا عُزَير، لستُ بامرأة ولكنّى الدنيا . أمَا أنه ستنبعُ لك فى مُصَلّاك عينٌ وتنبتُ لك شجرةٌ، فكُلْ من ثمرة تلك الشجرة وٱشرَبْ من ماء تلك العين وٱغتسل وصلّ ركعتين ؛ فإنه سيأتيك شيخٌ، فما أعطاك فخذ منه . فلمّا أصبح نبعت العين فى مُصلّاه ونَبَتَت الشجرة، ففعل ما أمرتْه به، وجاء شيخ وقال له : افتح فاك، ففتح فاه فألقَى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعا كهيئة القوارير ثلاث مرّات، ثم قال له : أُدخُل هذه العينَ فٱمشِ فيها حتى تبلُغ قومك . قال : فدخلها فجعل لا يرفع قدمه إلّا زِيدَ فى علمه، فرَجَع إليهم وهو أعلم الناس بالتوراة . فقال : يا بنى إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة . فقالوا :

يا عُزَير، ما كنتَ كذّابا . فربط على كلّ إصبع له قلمًا وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراةَ كلّها عن ظهر قلبه، فأحيا لبنى إسرائيل التوراة وأحيا لهم السُّنّة . فلمّا رَجَع العلماء استخرجوا كُتُبَهم التى كانوا دفنوها ، فعارَضُوا بها توراةَ عُزَير فوجدوها مثلها، فقالوا : ما أعطاه الله تعالى هذا إلّا أنه آبنه .

وقال الكلبىّ : إنّ بختنصّر لمّا ظهر على بنى إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل مَرّةً قُرّاء التوراة ، كان عُزَير إذ ذاك غلاما صغيرا ، فآستضعفه فلم يقتله ، ولم يدرِ أنه يقرأ التوراة . فلمّا تُوفّىَ مائة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس منهم مَن يقرأ التوراة بعث الله عز وجل عُزَيرًا ليجدّد لهم التوراةَ ويكون لهم آية، فأتاهم فقال : أنا عُزَير . فكذّبوه وقالوا : إن كنتَ عُزَيرًا كما تزعمُ فآتِ علينا التوراةَ . فكتبها وقال : هذه التوراة . ثم إنّ رجلا قال : إنّ أبى حدّثنى عن جدّى أن التوراة جُعِلتْ فى خابية ثم دُفنت فى كَرْم . فآنطلقوا معه حتى آحتفروها وأخرجوا التوراة، فعارضوها بما كتب عُزَير فلم يجدوه غادر منها [آية ولا][1] حرفا ، فعجِبوا وقالوا : إن الله لم يقذِف التوراة فى قلب رجل واحد منّا بعد ما ذهبت من قلوبنا إلّا أنه آبنه، فعند ذلك قالت اليهود : عُزَير آبن الله .

(١) زيادة عن الثعلبىّ .

الباب الرابع

من القسم الثالث من الفن الخامس

فى قصة ذى النُّون يونس بن مَتَّى عليه السلام وخبر بلوقيا

ذكر قصة ذى النُّون يونُس بن مَتّى عليه السلام

٥ قال الكسائىّ رحمه الله قال وهب بن مُنَبِّه : كان مَتَّى رجلا صالحا من أهل بيت النبوّة ، ولم يُرْزَق الولدَ الى آخر عمره بعد أن أسنّ هو وزوجته ، فسأل الله تعالى الولَد ، فنُودِيَ : إنّ الله قد آستجاب دعاءك ، فآنطلِق إلى حَضِيرة التوبة ، وهو الموضع الذى أمر الله تعالى بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فيه لمّا عبدوا العِجْل . فصار إلى هناك وإذا بملَكٍ قد هَبَط من السماء فضرب قُبّة

١٠ على باب حَضِيرة التوبة ، وذلك فى ليلة عاشوراء ، وأمرهما أن يدخلاها فدخلا وواقعها ، فحملت بيونُسَ ، ثم آنصرفا إلى منزلها . فلمّا صار لها أربعةَ أشهُر تُوُفِّىَ متّى وبقيتْ آمرأتُه أرملةً ليس لها إلّا قَصْعة كانت لآل هارون ، فكانت تُصِيب رزقَها فى المَسَاء والصباح من عند الله . فلمّا وَضَعَت يونُسَ لم يكن لها لَبَن يكفيه ، فكانت أمّه تأتى إلى الرُّعاة وتسألهم اللبنَ فلا يجيبونها ، فكانت تقول : اللّهمّ هذا

١٥ الولد هِبَتُك فلا تُهلكه جُوعا ، فكانت المواشِى تأتيه وتَمُجّ[1] عليه بِضَرْعها حتى يشبَع ، فإذا شَبِعَ يقول : الحمد لله[2] ، فآمنَ به جماعةٌ من الرُّعاة ، فبقى كذلك حتى فَطَمته أُمه ،

---

(١) كذا فى الأصول والكسائى . (٢) فى الكسائى : « الحمد لله الذى سقانى وآوانى ، فكانوا يدهشون إليه من فصاحته على صغر سنه فآمن به فى ذلك الوقت سبعون راعيا يقولون آمنا بالذى أسقى هذا الغلام من هذه الغنم ..... الخ » .

وكان يُسمّى يتيم بنى اسرائيل، حتى أتت عليه سبعُ سنين، فأقبل على أمه فقال : يا أمّاه، لا ينبغى أن تذهب أيّامى بالبِطالة، وأُريد أن تُلبِسينى ثوبا من الصوف حتى أَلحقَ بالعُبّاد وأكون معهم. فقالت : يا بنىّ، أنت صغير ولم يأنِ لك أن تَسيح. فلم يزل بأمّه حتى أجابتــه إلى ذلك ولحِق بالعُبّاد وٱشتهر ذكرُه فيهم بكثرة العبادة حتى ٱستكمل من العُمْر خمسًا وعشرين سنة، فرأى فى منامه : إنّ الله يأمرك أن تمضِىَ ٥ الى مدينة الرَّمْلة[1] فإنّ فيها وليًا من أوليائى وله ٱبنةٌ عفيفةٌ فتزوّجها منه . فلمّا أصبح عزَم على المسير، وصَحِبه جماعةٌ من بنى إسرائيل من أصحابه، وسار حتى دخل مدينة الرَّمْلة، وسأل عنه فقيل : إنه فى السُّوق يبيع ويشترى . فعجِب يونس من ذلك وجاء الى السُّوق فرآه وهو يبيع الطِّيب ويُكثر الضَّحِك . فقال يونس : ليس هــذا من صفات الأولياء والعبّاد . فنظر إليــه زكريّا[2] وقام إليــه وصافحه وسلّم ١٠ عليه بٱسمه وٱسم أبيه . قال : وكيف عرفتَنى ؟ قال : رأيتك فى المنام وأُمِرتُ أن أزوّج ٱبنتى منك . وتوجّه به إلى منزله وقدّم له الطعام فأكلا، وذكر له رؤياه وأنها سببُ مَسِيره الى الرملة، ثم سأله عن مكسبه بالبيع والشراء فقال : أمّا البيعُ والشراء فمباحٌ، والتاجر فاجر إلّا من أَخَذ الحقّ وأعطاه، وٱتقَى الله ولم يمدَح سِلْعته . ٣٨/١٢

فلمّا أقبلَ الليل نزع زكريّا ما كان عليه من الثياب ولبِس الصوف ودخل محرابه ١٥ ولم يزل فى صلاته ودعائه وتضرُّعه حتى أصبح، فنزع الصوف ولبِس ما كان عليه بالأمس وبَرَز إلى السوق ويونسُ معه، فكان ذلك دأبَه .

ثم زوّج ٱبنته من يونس ووَهَب لها بعضَ ماله . وأقام يونس عنده، ورزق الله يونس من زوجته وَلَدَيْن ومات زكريّا، فٱحتمل يونس زوجته إلى بيت

(١) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا . (٢) فى الأصول : « زكريا عليه السلام » والمذكور هنا هو زكريا بن عبدان، وليس زكريا النبىّ أبا يحيى عليهما السلام . ٢٠

المقدس وأقام هناك يعبد الله تعالى . وشَعْيَا يومئذ ببيت المقدس وهو نبيّ في بني اسرائيل إلى أن بعث الله تعالى يونس نبياً .

قال : وكان في بلاد نِينَوَى[1] مَلِكٌ[2] وكانت جيوشه كثيرة ، قيل : إنها كانت تزيد على عشرة آلاف قائد[3] . وكان إذا غزا تكون معه تماثيل من الأسود والفِيَلة متّخذة من النحاس والحديد ، يخرج من أفواهها لَهَبُ النِّيران ، ومعه رجال يلعبون بالنيران . فغزا هذا الملك بني إسرائيل على هذه الصورة ، فقتل من بني إسرائيل وسبَى ، ثم عاد الى بلاد نِينَوَى ، وغزاهم ثانيةً وتكرّرت غزواته فيهم . فأوحَى الله تعالى إلى شَعْيَا نبيّ بني إسرائيل أن يختار من عُبّاد بني إسرائيل أمينا قويّا يبعثه إلى بلاد نِينَوَى رسولا إلى مَن بها من الملوك وغيرهم ؛ فإنهم قد جحدوا حقّي وأنكروا معرفتي . فدخل شَعْيَا على حِزْقِيّا الملك وأمره أن ينادِيَ في عُبّاد بيت المقدس ، وبها يومئذ عشرة آلاف عابد ، لباسُهم الشعر والصوف ونعالُهم الخُوص ، فنادى فيهم بالاجتماع فاجتمعوا ، فاختار منهم ثلاثة واختار من الثلاثة يونُس بن مَتّى ، ثم قال له حِزْقِيّا : إن الله أوحَى إلى نبيّه شَعْيَا أن يختار من جملة هؤلاء العُبّاد والزُّهّاد أعبدَهم وأتقاهم ، وقد وقع اختياره عليك لتُبْعَثَ [إلى أهل][4] بلاد نِينَوَى . قال يونس : إن في بني إسرائيل مَن هو أعبدُ منّي وأزهدُ ، فابعث أيها الملِك غيري . قال : لا أبعث سواك ، فانهض

(١) نينوى : كانت قصبة أشور وأعظم مدنها . أسسها أشور على ضفة دجلة الشرقية قبالة الموصل ، وهي تبعد عن بابل نحو ٢٥٠ ميلا وعن خليج فارس إلى الشمال الغربي منه ٥٥٠ ميلا . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج پوست) .

(٢) في الكسائي : « يقال له ثعلب بن الأسارد » .

(٣) في الكسائي بعد هذا : « ومع كل قائد خلق كثير » .

(٤) التكملة عن قصص الأنبياء للكسائي .

ولا تخالفنى فإنّ هذا عن أمر الله . فآنصرَف يونُس إلى أمّه وأخبرها الخبر وآستشارها ، فقالت : إن الله أنطق الملكَ فى حقّك بالرسالة فسِرْ كما أُمِرتَ ولا تعصِ الله ونبيَّنا شَعْيَا وملكَنا حِزْقِيّا . فعزم على المسير و ودَّع أمّه وحمل أهـلَه حتى بلغ شاطئ دِجْلة ، فنزل هناك وفكَّر فى أمره وضَعْفه وعياله وقال : كيف لى بمُطاولة الجبابرة والفراعنة ! وأقبل على أهـله وقال : قـد عزمتُ على الفِرَار ، فنهاه أهله عن ذلك . فسكت وقام ليعبرُ دِجْلة إلى بلاد نِينَوَى فعـبرَ بولده الأكبر ، ثم رجع وأخذ ولده الثانى . فلمّـا توسّط دِجْلة زاد المـاء فغَرِق آبنـه الذى كان معـه ، وكان فى يده نُقْرةٌ[1] من الذهب كان قد ورثها من حَمِيه فغَرِقت ، وجاء ذئبٌ إلى ولده الذى عَبَر به فآحتمله . فصاحت المرأة : يا يونس ، إن آبنـك أخذه الذئب . فخرج من المـاء يعدو خلف الذئب فآلتفتَ إليه وقال : ارْجِعْ يا يونُس فإنى مأمور ، فرجع يونس باكيا على ولديه . فلمّا بلغ الشطّ لم ير أهله ، فجلس يبكى . فأوحى الله إليه : إنك شكوتَ كثرة العيال ، وقـد أرحتُك منهـم ، فآذهب الآن إلى قومك فإنى سأردّ عليـك أهلك وولَدَيْك وأنا على كل شئ قـدير . فطابت نفسـه وسار حتى بلغ بلاد نِينَوَى فتوسّـط سُوقها ونادَى : يا قوم ، قولوا بأجمعكم : لا إلهَ إلا الله وأنّى يونس عبدُه ورسولُه . فلمّـا سَمِعوا ذلك أقبـلوا على مَلِكهم وأخبروه به و بمقالتـه . فأحضره الملك وقال له : من أين أنت؟ قال : رسول الله إليـك و إلى أهـل مملكتك فآمِنوا بى تنجوا من النار . فأمر الملك بحبسه ثم بعث إليه وزيره ، وهو من أهل بيت المقدس ، وآسمه سنجير[2] ، فقال له : أُدخُل على هذا الرجل يونس وتعرَّف أمره . فدخل عليه وسأله عن آسمه وآسم أبيـه ، ومن أين أقبل وفيماذا جاء . فـذكر له أنه رسول الله

(١) النقرة من الذهب : ماسبك مجتمعا منها .

(٢) كذا فى الأصول . وفى الكسائى : « سنحاريب » .

إليهم. فقال له الوزير: أرى أن ترفق فإنى أخشى عليك من هذا الملك فإنه جبّار. وآنصرف الوزير إلى الملك وقال له: قد عرفتُ الرجل، وقد ذكر أنه رسول من إله السماء. فهمّ الملك بقتله، فآستوهبه الوزيرُ منه على أن يكون فى البلد ولا يقول مثل مقالته. فآستدعى الوزير يونس وذكر له ذلك. فقال له: أمّا القتلُ فلا أخشَى منه، والرسالةُ فلا أتركها حتى يحكم الله بينى وبينه. ثم إنّ الملك خلّى سبيله على أنه مجنون. فلم يزل يونس يدعوهم إلى طاعة الله تعالى فى كل يوم عامّة نهاره، حتى إذا جاء المَسَاء أتى شطّ دِجْلة فيُصَلِّى حتى يُصبِح، ثم يعود إليهم والناس يضربونه ويرجمونه ويسبُّونه حتى ضجِر فآستغاث إلى ربّه. فأوحَى الله تعالى إليه: يا يونس، إنك دعوتَ القوم فلا تعجَل عليهم وآدعُهم أربعين يوما، فإن آمنوا وإلّا جاءهم العذابُ. فدعاهم حتى آستكمل العِدّة ولم يؤمنوا. فأوحى الله إليه أنِ آخرُج من بين أظهرهم، فخرج حتى بلغ شاطئ دِجْلة، فقعد ينظر إلى العذاب كيف ينزل بالقوم. فأمر الله تعالى جبريلَ أن يُرسل على قوم يونس سحابةً فيها ألوانُ العذاب، فآنطلقَ إلى مالك وأمره بذلك، فأخرجَ شرارةً من الحُطَمة[1] على مثال سحابةٍ سوداءَ مظلمة. فجاءت بها الزبانيةُ حتى بلغت بلادَ نِينَوَى وآنبسطتْ حتى أظلّتْ عليها، فظنّ القوم أنها مطر. فنظر وزير الملك إلى السحابة يخرج من أطرافها شَرَرُ النار، فدخل على الملك وقال: الحَذَرَ الحَذَرَ! فليست هذه سحابةَ مطر بل هى سحابةُ عذاب، وأخشَى أن يكون ذلك لتكذيبنا يونس نبيّ الله. ثم قال: أُنظروا إلى يونس إن كان معكم فى بلدكم فلا تخافوا، وإن كان قد خرج عنكم فقد هلكتم. فطلبوا يونس فلم يجدوه. وجعلت السحابة تدنو حتى قرُبتْ منهم ورمتهم بشرر كالرّماد الأحمر لا يقع على

٣٩/١٢

(١) الحطمة: اسم لجهنم.

شيء إلّا أحرقه . فبينا النـاس يقولون : أين نطلب يونس إذا هم بالملك قد خرج عليهم وجميع أصحابه وهم يقولون : أين أنت يا يونس ! فإنا لانعود إلى مخالفتك، فلم يجدوه . فأقبل عليهم سنجير الوزير وقال : أيها الملك، إن يكن يونس قد غاب عنّا فإن إلهـه لم يغب، فتعالَوْا حتى نتضرّع إلى الله لعلّه يرحمنا . فخرجوا بأجمعهم ونسائهم وأطفالهم إلى ظاهر البـلد يبكون ويتضرّعون، فقام سنجير فيهم وقال : إلهنـا إنك أمرتَنا أن نُعتِق رقابَ عَبِيدنا وإمائنا ونحن عبيدك وإماؤك فأَعْتِقْنا . إلهنا إنك أمرتَنا أن نعفو عمن ظلمنا فاغفر لنا واعفُ عنا . اللهم أَعْتِقْنا من عذابك فإنّا قد آمنا بنبيّك يونس وبجميع النبيّين فاغفر لنا ذنوبنا، ثم خرُّوا سُجَّدا بأجمعهم . فأوحى الله تعالى إلى ملائكة العذاب أنِ ارجعوا، فانصرفت السحابة عنهم، وسمعوا صوتا : أبشِرُوا يأهـل نِينَوَى برحمـةٍ من ربكم؛ فرجعوا إلى المدينـة وقد آمنوا . وجاء يونس لينظر إلى ما نزل بهم من العذاب، فلقِيه إبليس فى صورة شيخ . فقال له يونس : من أين أقبلت أيها الشيخ ؟ [قال](١) : من نِينَوَى . قال : فما نزل بهم اليوم ؟ قال : ما نزل بنا إلّا سحابة بيضاء أمطرت مطرا جَوْدا(٢)، وكان يونس قـد وعدنا بالعذاب فلم يكن وعَلِمنـا كذبَه . فغضب يونس وقال : لا أعود إلى قوم كذّبونى، وسار . قال الله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ(٣) ﴾ . قال مجاهد وقَتَادة والضحّاك والكلبيّ : معناه أن لن نقضىَ عليه بالعقوبة، وهى رواية العَوْفىّ عن ابن عبّاس؛ ودليل ذلك قراءة عمر بن عبد العزيز والزُّهرىّ « فظنّ أن لن نُقَدِّر عليه » بالتشديد . وقال عطاء وكثير من العلماء : معناه نضيِّق عليه الحبس .

---

(١) التكملة عن الكسائى . (٢) الجود من المطر : الغزير .

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧

قال الكسائىّ : فلم يزل يسير حتى لحق بساحل البحر ، فإذا هو بسفينة مارّة فلوّح إليهم فدخلوا إليه فقال : احملونى معكم فإنّى رجل منقطعٌ غريبٌ من بيت المقدس . فحملوه فقعد على كَوْثَل[1] السفينة. فلمّا توسّطوا البحر هبّت عليهم رياح كثيرةٌ من جميع الجوانب وأشرفوا على الغرق، فأخذوا فى الدعاء والتضرّع ويونس لا يتكلّم، فأقبل أهل السفينة عليه وقالوا : لِمَ لم تدعُ أنت معنا؟ قال : لأنى مغموم لذهاب الأهل والولد . فلم يزالوا به حتى دعا، فازداد البحر هَيَجانا . قال يونس : اطرحونى فى البحر فإنّ هذا من أَجْلى . قالوا : ما نفعل. قال : فاقترِعُوا . فاقترَعُوا فوقعت القُرعةُ عليه. فقالوا : إنّ القرعة تُخطئ وتصيب، ولكن تعالَوْا حتى نتساهم. فجعل كل واحد منهم لنفسه سهما ثم رمَوْا بها فى البحر، فغرِقت إلّا سَهْمَ يونس فإنه بَقِىَ على وجه الماء . قال الله عز وجل : ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾[2]. ثم أقبل حوت عظيم من بحر الهند حتى بلغ جانب السفينة، فقام يونس ليرمى بنفسه، فتعلّق القوم به وقالوا : ألا ترى هذه الأمواج وهذا الحوتُ العظيم! فأقعدوه والبحر يزيد عليهم بكثرة أمواجه وأهواله، فصار إلى جانب السفينة ليرمِى بنفسه، فإذا بالحوت قد دار إلى الجانب الذى قصد أن يَرمِىَ نفسه منه، فعلم يونس أنه هو المراد، فغطّى وجهه بكسائه ورَمَى نفسه فى البحر[3] فابتلعه الحوت . قال الله تعالى : ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[4] معناه يلوم نفسه على مافعله . وبقِىَ فى جوف الحوت وهو يسمع

(١) الكوثل (بالثاء المثلثة) : ذنب السفينة . وفى أ : « كوبل » بالباء الموحدة . وفى ب : « كوتل » بالتاء المثناة وكلاهما تصحيف . (٢) سورة الصافات آية ١٤١

(٣) ورد فى الكسائىّ عن كعب الأحبار : أن ذلك البحر هو بحر الروم . وفى قاموس الجغرافية القديمة للمرحوم أحمد زكى باشا (ص ٢٢) : أن بحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط، وسمى ببحر الروم لأن البلاد التى على سواحله كانت كلها فى ملك الروم . (٤) سورة الصافات آية ١٤٢

٤٠/١٢ تسبيح الحيتان بلغاتهم، فلم يزل كذلك حتى بلغ [إلى موضع يُسمَع فيه صَرِيف الأقلام][1].
وهو اذا سجد يكون سجوده على كبد الحوت وهو يقول له : يا يونس، أسمعنى تسبيح المغمومين المحبوسين فى حَبْس لم يُحْبَس فيه أحد من الآدميّين ، و يونس يقول : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾، وكانت الملائكة تقول: إلهنا إنّا نسمع تسبيح مكروب كان لك شاكرا ، اللهمّ ٱرحمه فى غُربته . قال الله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾[2] الآية . قيل : ظُلْمة الليل، وظُلْمة البحر، وظُلْمة بطن الحُوت . قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾[3] أى المصلّين ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[4] . وٱختُلف فى مدّة لُبْثه ، فمنهم من قال : لبِث أربعين يوما، وقيل : ثلاثة أيام. فلمّا ٱنقضت المدّة التى قدّر الله عليه ألهمَ الله الحوت أن يرجع إلى الموضع الذى ٱبتلعه فيه. فشقّ ذلك على الحوت لأنه كان قد أنِس به و بتسبيحه، فناداه الملك أنِ ٱقذفه من بطنك فليس هو مَطعَمٌ لك . فتقدّم الحُوت إلى الساحل وقذفه . قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[5]. قال: خرج كالفرخ الذى لا ريش له، وهو لا يقدِر على القيام، فأنبت الله عليه شجرة من يَقْطِين[6] كان لها ثلاثة أغصان : غصن قِبَلَ المشرق، وغصن قِبَلَ المغرب، والغصن الثالث على رأسه . وجاءه جبريل فقال : يايونس، إن الله قد أعطاك من الجنة ما ترضَى به، ثم أمرَّ يده على رأسه وجسمه فأنبت الله شعره ولحيته، وأمر

(١) كذا فى تفسير القرطبي . وصريف الأقلام، أى صوت جريانها بما تكتبه من أقضية الله تعالى ووحيه وما يتنسخونه من اللوح المحفوظ (كما فى النهاية لابن الأثير) . وفى الأصول : « حتى بلغ حصن الرجال » وهو تحريف .

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧ (٣) سورة الصافات آية ١٤٣

(٤) سورة الصافات آية ١٤٤ (٥) سورة الصافات آية ١٤٥

(٦) اليقطين : شجر القرع .

الله ظبية فوقفت بين يدَىْ يونس وكلّمته بإذن الله، فمصّ من لبنها فقوِىَ عند شُربه؛ ثم بشّرته بإيمان قومه وأخبرته بما كان من أمرهم وسبب إيمانهم وذكرت آشتياقهم إلى رؤيته. وكانت الظبية ترعَى حولَ يونس فإذا جاع أو عطِش أرضعته، فلم يزل كذلك أربعين يوما. فنام فى بعض الأيام ثم آنتبه فرأى اليقطينةَ قد جفّت والظبيةَ قد غابت، فآغتمّ لذلك، فعلم يونس أن الله ضرب له مثلا بقومه، ثم هبط عليه مَلَكٌ وقال: قُم إلى قومك فإنهم يتمنّوْن رؤيتك، وأتاه بحُلّتين فأُتزر بواحدة وآرتدى بالأخرى، ثم سار حتى دخل قريةً كثيرة الأشجار والخيرات وأهلها يقطعون تلك الأشجار ويُلقون ثمارها فى الأرض، فقال: ياقوم، كيف تفعلون ذلك وتُبطلون على أنفسكم ثمارها! فأوحى الله تعالى إليه: يايونس، إنك أشفقتَ على قوم لاتعرفهم من قطعهم الأشجار ولم تُشفِق على قومك وهم مائه ألف أو يزيدون! فعلم يونس أنّ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى له، فقال: إلٰهى لا أعود إلى ذلك أبدًا. ثم سار حتى دخل قرية أخرى وقت المساء، فتلقّاه رجلٌ من أهل القرية وسأله أن ينزل عليه فنزل. فلمّا أكل وشرب نظر إلى بيت الرجل وفيه فخّار كثير يريد أن يُوقد عليه. فأوحى الله تعالى إليه: يايونس، قل لهذا الفاخرانىّ أن يكسِر الفَخّار الذى قد عَمِلَه. فقال يونس ذلك للفاخرانىّ، فقال: ياهذا أضفتُك لِمَا رأيتُ فيك من أثر الخير وإذا أنت رجل مجنون، تأمرنى أن أُكسّر فخّارا قد أتعبت فيه نفسى لأنتفع بثمنه! قُم الآن فآخرج من عندى، وأخرجه. فأوحَى الله تعالى إليه: يايونس، إنه أشفق على فخّاره وسمّاك مجنونا وأخرجك من منزله حين أمرتَه بكسره، وأنتَ بُعثت إلى مائة ألف أو يزيدون فدعوتَ عليهم ولم تفكّر فى هلاكهم فترحمهم!. قال: إلٰهى لا أعود إلى ذلك أبدا. فلمّا أصبح سار فإذا هو برجل يزرع زرعا، فقال له الرجل: ادعُ الله عز وجل حتى يبارك لى فى زرعى، فدعا له فأنبته الله تعالى من ساعته

وقام على سُوقه ، ففرح الرجل وأتى بيونس إلى منزله . فأوحى الله تعالى إليه (١) : يايونس، قد حزِنت على إرسال الجراد على الزرع ولم تزرعه، ولم تحزن على إرسال العذاب على مائة ألف أو يزيدون ! . قال: إلهى تبتُ إليك من ذنبى لا أعود إليه أبدا. وسار حتى دخل قرية وهناك آمرأة معها رجل وهو ينادى : مَن [يحمل] (٢) هذه المرأة إلى بلاد نِينَوَى [ويردّها] (٢) إلى زوجها وله مائةُ مثقال من الذهب؟ فنظر إليها يونس فإذا هى آمرأته، فقال : أيها الرجل، ماقصّة هذه المرأة ؟ قال : إنها كانت قاعدةً على شاطئ دِجلة تنتظر زوجها يونس، فمر بها ملكٌ من ملوك هذه القرية فآحتملها وأراد أن يفجُر بها، فأيبَس الله يَدَيْه ورجلَيْه، فسألها أن تدعوَ له بالفرج ولا يعود إلى ذلك، فدعت له. فلمّا عافاه الله لوقته دفعها إلىّ وأعطانى مائة مثقال ذهبا على أن أحملها إلى بلاد نِينَوَى، وما يمكننى ذلك . قال يونس : أنا أحملها فأعطِنِي الذهب، فأعطاه إياه وسلّم إليه المرأة . فسارا وقد فرحا حتى أتيَا قريةً أخرى، وإذا برجل يبيع سمكة، فآشتراها يونس وقعد ليُصلحها فشقّ بطنها فوجد فيها تلك الصرّة الذهب التى وقعت منه فى دجلة، فقال: الحمد لله الذى ردّ علىّ أهلى ومالى، اللهمّ فآردُدْ علىّ أولادى ياأرحم الرحمين ، ثم سار فإذا هو برجل على دابّة ومن ورائه غلامٌ، فإذا هو ولد يونس الصغير. فتعلّق به، فقال له الرجل : مَن أنت ؟ قال : أنا يونس . فسلّم اليه الغلام وقال : الحمد لله الذى ردّ الأمانة الى أهلها وخلّص ذمّتى . فسأله يونس عن قصّة الغلام فقال : أنا رجل صيّاد، وكنتُ قد ألقيتُ الشبكة فى طرف دِجْلة فوقع هذا الغلام فيها فأخذتُه، وإذا بهاتف يقول :

٤١/١٢

(١) سقط هنا ما معناه : « فأرسل الله جرادا الى الزرع فأكله، فحزن يونس لذلك ، فأوحى الله ... الخ » . وخبر الزرع وصاحبه ليس فى الكسائى .

(٢) التكملة عن الكسائىّ .

يا صيّاد، احفَظ هـذا الغلام حتى يأتِيَ اليك يونس فإنه أبوه فادفَعْه اليه . ثم قال له : يا نبيّ الله ، أُدعُ لى أن يُغنيَنى الله عن صيد السمك، فدعا له فرزقه الله مالا وولدا . وسار يونس حتى قرُب من بلاد نِينَوَى ، فإذا هو براعٍ على قارعة الطريق يرعَى غنما وهو يقول : اللهمّ اردد علىّ والدى، فرآه يونس فعرَفه وهو ولده الأكبر، فتعانقا وبكيا طويلا، ثم قال له : يا أبتِ إنّ هذه الأغنامَ لرجلٍ فى القرية فسِرْ معى حتى أرُدّها اليه، فسارا إلى القرية وإذا بشيخ على باب داره، فقال له الغلام: هذا أبى . فقام الشيخ الى يونُس وسلّم عليه . فقال له يونُس : هل تعرف قصّـة هذا الغلام ؟ قال الشيخ : نعم، كنتُ أرعَى هذه الغنمَ، وإذا بهذا الغلام على ظهر ذئبٍ فكلّمنى الذئب بقدرة الله وقال : إذا جاء اليك يونس فآدفَعْ اليه هذا الغلام . ثم قال له : يا نبيّ الله، أدعُ الله أن يغفر لى ذنوبى وأن يُميتنى فى وقتى هذا، فدعا له فقبضه الله لوقته، فغسّله يونس وكفّنه وصلّى عليه ودفنه . ثم سار حتى قرُب من المدينة، فإذا هو بغلام يرعى غنما فوقف يونس عليه السلام وقال : يا غلام، هل من لَبَنٍ ؟ قال الغلام: يا هذا، والذى بعث إلينا يونس نبيّا ما ذقتُ اللبن منذ غاب عنّا نبيّنا يونس . قال : فأنا يونس نبيّ الله . فقبّل الغلام رأسَه وقال : لو رأيتَنا يا نبيّ الله ونحن نجول تحت العذاب لَرَحِمتَنا . قال : يا غلام ، اذهبِ الآن الى المدينة وأخبرِ الناس أنك قـد رأيتَنى . قال : أخشى أن يكذِّبونى . فقال : سِرْ اليهم [وهذه الأغنام شهودٌ لك][1] . فمضى حتى توسّط سوق المدينة وقال : أيها الناس، البُشْرَى فقد رجع إلينا يونس نبيّنا وقد لقيتُه . فاتّصل الخبر بالملك فقام عن سريره وقال : علىّ بالغلام، فأُتِيَ به، فسأله فأخبره بمَقْدَم يونس . ففرح وخرج الملك وأهلُ المدينة وآلتقَوْا بيونس وأدخلوه المدينة وأجلسه الملك فى موضعه، ووقف بين يديه، وفرح به أهل المدينة . فقام

(١) التكملة عن الكسائى .

يونس فيهم ما شاء الله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الى أن مات الملك وماتت آمرأةُ يونس وولداه جميعا ، فآستخلف يونس الراعى على مدينة نِينَوَى وخرج هو وسبعون رجلا من العُبّاد حتى جاء الى جبل يقال له صِهْيُون[1] فكانوا هناك يعبدون الله حقّ عبادته ، حتى مات يونس عليه السلام ، ومات العُبّاد الذين صحبوه ، فَقُبِرُوا هناك فى جبل صِهْيُون ، رضى الله عنهم ورحمهم .

ذكر خبر بُلُوقِيَا وما شاهد من العجائب

وهذه القصّة تشتمل على عجائب كثيرة ووقائع قد ينكرها بعضُ من يقف عليها لغرابتها وليست بمستنكرة بعد أن ثبت فى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "بَلِّغوا عنّى ولو آيةً[2] وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَجَ ومَن كَذَبَ علىّ مُتعمِّدا فَلْيَتَبَوَّأ مَقْعَدَه من النار" . ولنأخذ الآن فى سَرْد القصّة .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بيواقيت البيان فى قصص القرآن بسند رفعه عن عبد الله بن سلّام قال :

---

(١) صهيون (الجبل المشمس أو الجاف) قد يطلق هذا الاسم للدلالة على كل أورشليم إلا أنه ينحصر غالبا فى الجبل الجنوبى الغربى من المدينة . وكان هذا الجبل محاطا من كل جانب إلا جانب الشمال بأودية عميقة الجوانب شاهقتها ، فكان وادى الجبانين الى شرقيه يفصله عن موريا وأوفل ووادى ابن هنوم الى جنوبيه وغربيه ، وسمى جزؤه المحاذى المدينة غربا وادى جيحون . (راجع قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست) .

(٢) أى آية من القرآن ، أو المراد بالآية العلامة الظاهرة ، أى ولو كان المبلغ فعلا أو إشارة ونحوها . (راجع القسطلانى ج ٥ ص ٥٠٤ طبع بلاق) .

كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له « أوشيا » وكان من علمائهم ، وكان كثير المال ، وكان إماما لبنى إسرائيل ، وكان قد عرف نعت[1] النبىّ صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، فخبأه وكتمه عنهم . وكان له آبن يقال له بُلُوقِيَا خليفة أبيه فى بنى إسرائيل ، وذلك بعد سليمان بن داود عليهما السلام . فلمّا مات أوشيا بقِى آبنه بُلُوقِيَا والأمانة فى يده والقضاء ، ففتّش يوما خزائن أبيه فوجد فيها تابوتا من حديد مُقفلا بقُفْلٍ حديدٍ ، فسأل الخُزّان عن ذلك ، فقالوا : لا ندرى . فآحتال على القفل حتى فكّه ، فإذا فيه صندوق من خشب الساج ، ففكّه وإذا فيه أوراق ، فقرأها فإذا فيها نعت النبىّ صلى الله عليه وسلم وأُمّته وهى مختومةٌ بالمسك ، فقرأ ذلك على بنى إسرائيل ثم قال : الويل لك يا أبتِ من الله فيما كتبتَ وكتمتَ من الحقّ وأهله ! . فقالت بنو اسرائيل : يا بُلُوقِيَا ، لولا أنك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وحرّقناه بالنار . قال : يا قوم ، [لا ضَيْر][2] إنما ترك حظّ نفسه وخسِر فى دينه ودُنياه ، فألحقوا نعت النبىّ صلى الله عليه وسلم وأُمّته بالتوراة . قال : وكانت أمّ بلوقيا فى الأحياء ، فآستأذنها فى الخروج إلى بلاد الشام ، وكانوا يومئذ فى بلاد مصر . فقالت : وما تصنع بالشام ؟ قال : أسأل عن محمد وأمّته ، فلعلّ الله تعالى أن يرزقنى الدخول فى دينه ، فأذِنتْ له . فبرَز بُلُوقِيَا وقدِم بلاد الشام . فبينما هو يسير إذا آنتهى إلى جزيرة من جزائر البحر ، فإذا هو بحيّات كأمثال الإبل عِظَما وفى الطُّول ما شاء الله وهنّ يقلن : لا إله إلّا الله محمدٌ رسول الله . فقلن له : أيها الخَلْق المخلوق مَن أنت ؟ وما آسمُك ؟ قال : آسمى بُلُوقِيَا ، وأنا من بنى إسرائيل . فقُلْنَ : وما إسرائيل ؟ قلت : من ولد آدم . فقُلْنَ : سمعنا باسم آدم ولم نسمع باسم

٤٢/١٢

(١) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : «بعث النبىّ» .

(٢) التكملة عن الثعلبى .

إسرائيل. فقال بلوقيا: أيتها الحيّات مَن أنتنّ؟ فقلن: نحن حيّات من حيّات جهنّم ونحن نعذّب الكفّار فيها يوم القيامة. قال بلوقيا: وما تصنعن هاهنا؟ وكيف عرفتنّ محمدا؟ فقُلنَ: إن جهنّم تفور وتَزْفِر فى كل سنة مرّتين فتُلقِينَا هاهنا ثم نعود إليها، فشِدّة الحرّ فى الصيف من حرّها، وشدّة البرد فى الشتاء من بردها. وليس فى جهنّم دَرَك من دركاتها، ولا بابٌ من أبوابها، ولا سُرادق من سُرادقاتها إلا وقد كُتب عليه: «لا إله إلّا الله محمدٌ رسول الله» فمن أجل هذا عَرَفْنا محمدا صلى الله عليه وسلم. قال بلوقيا: أيتها الحيّات، هل فى جهنّم مثلكنّ أو أكبر منكنّ؟ فقُلنَ: إن فى جهنّم حيّات تدخل إحدانا فى أنف إحداهنّ وتخرج من فمها ولا تشعر بذلك لعظمها. قال: فسلّم بلوقيا عليهنّ ومضى حتى أتى جزيرة أخرى، فإذا هو بحيّات كأمثال الجذوع والسوارِى، وعلى متن إحداهنّ حيّة صغرى صفراء كلما مشتْ اجتمعتِ الحيّات حولها فإذا نفخت صِرْنَ تحت الأرض خوفا منها. فلمّا رآها ورأته قالت له: أيها الخَلْق المخلوق مَن أنتَ؟ وما آسْمُك؟ قال: آسمى بلوقيا، وأنا من بنى اسرائيل من ولد ابراهيم. فاخبرينى أيتها الحيّة مَن أنتِ؟ قالت: أنا موكّلة بالحيّات وآسمى تمليخا، ولولا أنى موكّلة بهنّ لقتلتِ الحيّات بنى آدم كلهم فى يوم واحد، ولكنّى اذا صفّرتُ صفرة [واحدة][1] وسمِعنَ صوتى دخلنَ فى الماء الذى تحت الأرض. ولكن يا بلوقيا إن لَقِيتَ محمدا صلى الله عليه وسلم فأَقرئه منّى السلام.

قال: ومضى بُلُوقِيَا إلى بلاد الشام فأتى بيت المقدس، وكان بها حَبْرٌ من أحبارهم يسمّى عفّان الخير، فأتاه فسلّم عليه وقصّ عليه قصّته. فقال له: ليس هذا زمان محمد ولا زمان أُمّته، بينك و بينه بُعْدُ سنين وقرون. ثم قال عفّان: يا بلوقيا أرِنى موضع الحية التى آسمها تمليخا، فإن قدرتُ أن أصيدها رجوتُ أن أنال معك مُلكا

(١) التكملة عن الثعلبى.

عظيما ونحيا حياة طيّبة الى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فندخل فى دينه. قال : فمن حِرْص بلوقيا على الدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم قال : أنا أريك المكان. فقام عفّان وأخذ تابوتا من حديد وحمل فيه قَدَحين من فضّة فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن؛ ثم سارا جميعا حتى آنتهيا الى موضع الحيّة ففتحا باب التابوت وتنحّيا. وجاءت الحيّة تبغى الرائحة فدخلت التابوت وشربت من اللبن والخمر حتى سَكِرَتْ ونامت. فقام عفّان ودبّ الى التابوت دبيبا خفيفا فأغلق بابه وآحتضنه وسارا جميعا فلم يمرّا بشجرة ولا بيت إلا كلمهما بإذن الله تعالى. فمرّا بشجرة يقال لها الدواء فقالت : يا عفان ، مَن يأخذنى ويقطعنى ويدقّنى ويَعصر مائى ودُهْنى ويطلِى به قدميه فإنه يغوص البحار السبعة ولا تبتلّ قدماه ولا يغرق . فقال عفّان : إيّاكِ طلبتُ ، فقطع تلك الشجرة فدقّها وعصر دُهنها وجعله فى كوز ثم خلّى عن الحيّة فطارت بين السماء والأرض وهى تقول : يا بنى آدم ما أجرأكم على الله تعالى ، ولن تصلوا الى ما تريدون ، وذهبت الحيّة . وسار عفانّ وبُلُوقِيَا الى اليمّ فطليا أقدامهما ثم عَبَرا البحر ومشيا على الماء كما كانا يمشيان على الأرض حتى قطعا البحر الأوّل ثم الثانى ، فإذا هما بجبل فى وسَط البحر ليس بعالٍ ولا متدانٍ ترابه كالمسك ، عليه غمامٌ أبيض ، وفيه كهفٌ ، وفى الكهف سريرٌ من الذهب عليه شابّ مُستلقٍ على قفاه ذو وَفْرة[1] ، واضعٌ يده اليمنى على صدره واليسرى على بطنه بمنزلة النائم وليس بنائم وهو ميّت ، وعلى رأسه تنّين وخاتمه فى الشمال . قال : وكان ذلك سليمان بن داود ، ومُلْك سليمان فى خاتمه ، وكانت حَلْقته من ذهب وفصّه من ياقوت أحمر مربّع ، مكتوبٌ عليه أربعة أسطر ، فى كل سطر آسمٌ من أسماء الله الأعظم . وكان عند عفّان عِلمٌ من الكتاب ، فقال بلوقيا : مَن هذا؟ قال : هذا سليمان بن داود ، نريد أن نأخذ خاتمه

٤٣/١٢

(١) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس .

فنملك مُلكه ونرجو الحياة إلى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم. فقال بلوقيا: أليس قد سأل سليمانُ ربه: «ربّ هَبْ لى مُلْكا لا يَنْبغِى لأحدٍ من بعدى» فأعطاه الله إيّاه على ماسأل، ولا يُنال مُلك سليمان إلى يوم القيامة لدعائه. فقال عفّان: يا بلوقيا اسكُت إنّ الله معنا ومعنا آسم الله الأعظم، ولكن أنت يابلوقيا فآقرأ التوراة. فتقدّم عفّان لينزِع خاتمَ سليمان من إصبعه، فقال التنّين: ما أجرأك على الله! إن غلبتنا بآسم الله فنحن نغلبك بقوّة الله. قال: فكلّما نفخ التنّين ذكر بلوقيا آسمَ الله، فلم تعمل نفخات التنّين فيهما. ودنا عفّان من السرير لينزِعَ الخاتم من إصبع سليمان، فآشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل من السماء، فلمّا نزل صاح بهما صيحة ارتجّتِ الأرض والجبال وتزلزلت منها وآختلطت مياه البحار وماجت وآلتطمت حتى صار كلّ عَذْب مِلْحا من شدّة صيحته، وسَقط عفان على وجهه، ونفخ التنّين فخرجت من بطنه شُعلة نار كأنها البرق الخاطف، فاحترق عفّان وعادت نفخته فى البحر فما مرتِ البرقة بشئ إلّا أحرقته ولا بماء إلا أجاشته وأغلته. وذكر بلوقيا آسم الله الأعظم فلم ينله مكروه، ثم تراءى له جبريل فى صورة رجل فقال له: يآبن آدم ما أجرأك على الله تعالى! فقال له بلوقيا: مَن أنت رحمك الله؟ قال: أنا جبريل أمين ربّ العالمين. قال له يا جبريل، إنما خرجتُ حبّا لمحمد ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمّده. قال: فبذلك نجوتَ. ثم صعِد جبريل إلى السماء، ومضى بلوقيا فطَلَى قدميه بذلك الدُّهن فأضلّ الطريق الذى جاء منه وأخذ فى طريق آخر، وسار فقطع ستّة أبحر ووقع فى السابع فإذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الوَرْس[1] والزعفران وأشجارها النخل والرمّان. قال بلوقيا: ما أشبه هذا المكان بالجنّة على ما وُصِفتْ!. ثم دنا من بعض تلك الأشجار فتناول من ثمرها، فقالت الشجرة: ياخاطئ آبن الخاطئ

(١) الورس: نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن ويصبغ به ويتخذ منه الغمرة (طلاء) للوجه فاذا جف عند إدراكه تفتقت خرائطه فينفض فينتفض منه الورس.

لا تأخذ منّى شيئا . فتعجّب ، و إذا بحيال الشجرة قوم يتراكضون ، بأيديهم سيوفٌ مسلولة ، يتناوش بعضهم بعضا بالطعن والضرب . فلمّا رأَوْا بلوقيا طافوا به وأحدقوا من ورائه وهمُّوا به سوءا ، فذكر آسم الله فهابوه وعجبوا منه وأغمدوا سيوفهم وقالوا بأجمعهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ثم قالوا له : مَن أنتَ ياعبد الله؟ قال : أنا من بنى آدم اسمى بُلُوقِيَا . قالوا : نعرف آدمَ ولا نعرفك فما أوقعك إلينا ؟ قال : إنى خرجت فى طلب نبىّ يسمّى محمدا وإننى قد ضَلَلْتُ عن الطريق الذى أردته فرأيت من الأهوال كذا وكذا . قالوا : يا بلوقيا نحن من الجنّ مؤمنون ، ونحن مع ملائكة الله فى السماء ، ثم نزلنا إلى الأرض وقاتلنا كَفَرة الجنّ ونحن هاهنا مقيمون نغزوهم ونجاهدهم إلى يوم القيامة ، ولسنا نموت إلى يوم القيامة وأنت لا تصبر معنا . فقال بلوقيا لملك الجنّ : ياصخرة أخبرنى عن خَلْق الجنّ كيف كان؟ قال : لمّا خلق الله جهنّم خلق لها سبعة أبواب وسبعة ألسُن ، خلق منها خَلْقين : خلق فى سمائه [سمّاه](١) حيليت(٢) ، وخَلْق فى أرضه [سمّاه](١) تمليت(٣) . فأمّا حيليت فإنه خُلق على صورة أسد ، وتمليت فى صورة ذئب ، وجعل الأسد ذكرا والذئب أنثى ، وجعل طول كلّ واحد منهما مسيرة خمسمائة عام ، وجعل ذنب الذئب بمنزلة ذنب العقرب ، وذنب الأسد بمنزلة الحيّة ، وأمرهما أن ينتفضا فى النار آنتفاضة ففعلا ، فسقط من ذنب الذئب عقارب(٤) ، ومن ذنب الأسد حيّات(٥) . فعقارب جهنّم وحيّاتها من ذلك . ثم أمرهما أن يتناكحا ففعلا ، فحمل الذئب من الأسد فولد سبعة بنين وسبع بنات . فأوحى الله تعالى إليهم أن يزوّج البنات من البنين كما أمر آدم ، فستّة بنين

٤٤/١٢

(١) التكملة عن الثعلبىّ . (٢) فى الثعلبىّ : «جبليت» . (٣) فى الثعلبىّ : «يمليت» .
(٤) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : « عقرب » .
(٥) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : « حية » .

أطاعوا وواحد لم يُطِع ولم يتزوّج فلعنه أبوه وهو إبليس. وكان آسمه الحارث، وكنيته أبو مرّة؛ فهذا أوّل خلق الجنّ. ثم قال له : يا بلوقيا إنّ دوابّنا لا تثبُت مع الإنس ولكن أُجلّل فرسى وأبرقعه حتى لا يعرف راكبه، فآركب عليه على آسم الله تعالى؛ فإذا آنتهيتَ إلى أقصى أعمالى[1] على ساحل بحر كذا وإذا شيخ وشابٌّ ومشايخ معهما فإنك ستلقاهما هناك فآدفع الفرس إليهما وآمض فى حفظ الله راشدا. فجاء بلوقيا على الفرس حتى آنتهى إليهم فسلّم على الشيخ والشابّ ونزل عن الفرس ودفعه إليهما. وكان قد فَصَل من عند ملك الجنّ عند صلاة الغداة ووصل إليهما نصف النهار. فقالا لبلوقيا : مذ كم فارقتَ الملك ؟ قال : فارقته غدوةً. فقالا له : ما أسرع ماجئتَ! قد أتعبتَ فرسنا. فقال بلوقيا : والله ما مددتُ إليه يدا ولا حرّكتُ عليه رِجلًا ولم أركُضه عُنفا. قالا : صدقتَ ولكن فرسنا أحسّ بك وبمنزلتك[2]، فطار ما بين السماء والأرض ليُريح نفسه منك، فكم تراه جاء بك؟ قال : خمسة فراسخ أو أقلّ أو أكثر. قالا : بل جاء بك مسيرة مائة وعشرين سنة، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون «قاف» وأنت لا تعلم. فحوّلوا عنه السَّرج واللِّجام والبُرقع وإذا العرق يقطُر من كلّ شعرة منه، وله جَناحان انقضّا من كثرة الطيران. فقال بلوقيا : هذا والله العجب. فقالوا : يا بلوقيا عجائب الله لا تنقضى. ثم سلّم عليهم ومضى فركب اليمّ. فبينما هو يسير إذ رأى مَلَكا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فسلّم عليه بلوقيا، فقال له الملك : مَن أنت أيها الخَلْق المخلوق ؟ فقال : أنا بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم. ثم قال له : أيها الملك ما آسمك؟ قال : [اسمى يوحاييل وأنا موكّل بضوء النهار وظلمة الليل. فقال : فما بال يديك مبسوطتين ؟ فقال له : فى يدى اليمنى ضوء النهار،

(١) فى الثعلبى : « أقصى عمار » . (٢) فى الثعلبى : «وبثقلك» .

وفى يدى اليسرى ظُلْمة الليل، ولو سبق النهار الليل لأضاءت السمواتُ والأَرَضُون، ولم يكن الليـل أبدا، ولو سبقتِ الظُّلمة النـور لأظلمتِ السماء والأرض ولم يكن ضوء أبدا . و بين يديه لَوْح معلّق فيه سطران سطرٌ أبيضُ وسطرٌ أسودُ، فإذا رأيتُ السواد ينتقص نقصتُ الظلمة، وإذا رأيتُ السوادَ يزيد زدتُ الظُّلمة، وإذا رأيتُ السـطر الأبيض يزداد زدتُ فى البياض والنـور، وإذا انتقص نقصتُ؛ فلذلك الليل فى الشـتاء أطول والنهار أقصر؛ وفى الصيف النهار أطول والليـل أقصر . ثم سلّم بلوقيا ومضى، فإذا هو بمَلَك قائمٍ يده اليمنى فى السماء و يده اليسرى فى الأرض فى المـاء تحت الثرى وهو يقول : لا إله الله محمد رسول الله . فسلّم عليه بلوقيا، فقال له : مَن أنت وما آسمك ؟ قال اسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم . قال له بلوقيا : أيها الملك ما آسمك؟ قال[1] : اسمى ميخاييل[2] . قال : فما لى أراك يمينك فى السماء وشمالك فى المـاء ؟ قال : أحبس الريح بيمينى والمـاءَ بشمالى، ولو رفعتُ شمـالى عن المـاء لزخرت البحار كلّها فى ساعة واحدة ولَطَمَت بإذن الله تعـالى، و يدى اليُمنى فى الهواء أحبس الريح عن بنى آدم لأنّ فى السماء ريحا يقال لهـا الهائمة[3] لو أرسلتُها لقتلتْ مَن فى السماء ومَن فى الأرض من بَرْدها . فسلّم عليه بلُوقِيَا ومضى، وإذا بأربعةٍ من الملائكة، أحدهم رأسه كرأس الثَّور[4]، والآخر رأسه كرأس النسر، والثالث رأسه كرأس الأسـد؛ والرابع رأسه كرأس الإنسان . فالذى رأسه كرأس الثَّور يقول : اللهم ارفع العذابَ عن البهائم، وآرفع عنهم بَرْد الشتاء وحرّ الصيف، وآجعل لهم فى قلوب بنى آدم الرأفة والرحمة كيلا يُكْرِهُنَّ ولا يكلّفوهن[5] فوق طاقتهن،

(١) التكملة عن الثعلبى . (٢) فى أ « محاييل » . وفى الثعلبى : « صمحاييل » .

(٣) فى الثعلبى : «الهـائجة» . (٤) فى الأصول بعد قوله « كرأس الثور » هذه العبارة : «وهو يقول : اللهم ارحم البهائم» ولعلها مقحمة من الناسخ لأنها ستذكر بعد سطور ولم ترد فى الثعلبى .

(٥) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « كيلا يكروهم ولا يحملوهم فوق طاقتهم» .

وآجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس النسر فيقول : اللهمّ ارحم الطيور ولا تعذّبها ، وآدفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف ، وآجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس الأسد فإنه يقول : اللهمّ ارحم السِّباع ولا تعذبها وآدفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف ، وآجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس الإنسان فإنه يقول : لا إله إلّا الله محمد رسول الله ، اللهمّ آرحم المسلمين ولا تعذّبهم وآدفع عنهم حرّ النار ، وآجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . فسلّم عليهم ومضى حتى أتى على جبل قافٍ واذا هو بملَكٍ قائمٍ على قاف ، وهو جبل محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء . فسلّم بلوقيا على الملك ، فقال له : مَن أنت؟ فقال : أنا بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم . فقال الملك : وأين تريد؟ قال : خرجتُ فى طلب مَن يُسمى محمدا . ولستُ أرى أمره ولا أدرى فى أىّ بلاد أنا . فقال الملك : لا إله إلّا الله محمد رسول الله ، قد أُمرنا بالصلاة على محمد . قال بلوقيا : أيها الملَك ، ما آسمك؟ قال : اسمى حزقاييل . قال : وما تصنع هنا؟ قال : أنا أمين الله على قاف ، واذا فى يده وَتَرٌ مرّةً يعقده ومرّةً يُحلّه ، وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر فى كفّ الملك [قال :][1] فإذا أراد الله أن يضيّق على عباده أمرنى أن أمُدّ الوتر وأعقده وأرتق[2] عُروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد والبلاد . و إذا أراد الله أن يوسّع عليهم أمرنى أن أرخى الوتر وأفتق عروق الأرض فتتّسع الدنيا على العباد والبلاد . و إذا أراد أن يخوّف قوما أمرنى أن أحرّك عروق تلك الأرض ، فمن أجل ذلك موضع يهتزّ وموضع لا يهتزّ ، وموضع يتزلزل وموضع

٤٥/١٢

(١) التكملة عن الثعلبىّ .

(٢) أرتق : أسدّ وأغلق .

لا يتزلزل . قال بلوقيا : أيها الملك، ماوراء قاف؟ قال : وراء قاف أربعون دنيا غير الدنيا التى جئتَ منها ، فى كلّ دنيا أربعمائة ألف (١) باب ، فى كل باب أربعة آلاف ضعف مثل الدنيا التى جئتَ منها، وليس فيها ظُلمة بل كلّها نور وأرضها ذهب عليها حُجُبٌ من نور، وسكّانها الملائكة لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنّم وهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله، لذلك أُلهِمُوا وله خُلِقُوا وبه أُمِرُوا الى يوم القيامة . قال بلوقيا : فما وراءهم؟ قال : حُجُبٌ ووراءَ الحُجُب علم الله وقُدرته . قال بلوقيا : أخبرنى أيها الملك على أىّ شىء هـذا الجبل موضوعا ؟ قال : على قرنَىْ ثور وآسمه قرياطيه (٢) وهو أبيض ، رأسـه بالمشرق ومؤخّره بالمغـرب، وما بين قرنَيْـه مسيرة ثلاثين ألف سنة وهو ساجد لربّه على صخرة بيضاء . قال بلوقيا : أيها الملك، كم الأرضون؟ وكم البحار؟ قال: الأَرضُون سبعٌ، والبحار سبع . قال : فجهنّم أين هى؟ قال : تحت الأرض السابعة . قال : فسلّم بلوقيا عليه ومضى حتى آنتهى الى حجابٍ طرفه فى السماء وأسفله فى المـاء، عليه باب مُقْفَل وعليه خاتَم من نور، وعلى الباب مَلَكان أحدهما رأسه كرأس الثور، والآخر رأسه كرأس الكبش وبدنه كبدن الثور وهما يقولان: لا إله إلّا الله محمد رسول الله . قال: فسلّم بُلُوقِيَا عليهما فردّا عليه السلام وقالا : أيها الخَلْق الضعيف المخلوق مَن أنتَ؟ وما آسمُك؟ قال : آسمى بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل من ولد آدم . فقالا : لا إله إلّا الله محمد رسول الله ، هذه أسامى ما عرفناها . قال بلوقيا ؟ كيف عرفتم محمـدًا ولم تعرفوا آدم ومحمدٌ من نَسْـله ؟ . فقالا : لهذا خُلِقنا وبذلك أُمِرنا، ولم نسمع بآسم آدم ولا إسرائيل . فقال بُلُوقِيَا : افتحا لى الباب حتى أجوز . فقالا : ما نحسن فتحه، وإنّ لله فى السماء مَلَكا آسمه

(١) كلمـة « ألف » ليست فى الثعلبىّ .

(٢) فى الثعلبىّ المخطوطة هكذا : « فرسطه وهو أنبط » . وفى المطبوعة : « واسمه يهموت وهو أبيض » .

جبرائيل عسى أن يقدر على فَتْحه . فدعا بلوقيا، فأمر الله تعالى جبريل فنزل عليه وفتح الباب، ثم قال: يا بن آدم ما أجرأك على الله ! . ثم جاز بلوقيا حتى انتهى الى بحرين: بحرٌ مالح وبحر عَذْب . فلمّا وصل إليهما رأى بينهما حاجزا، وفى البحر المالح جبل من ذهب، وفى البحر العذب جبلٌ من فضّة، وبينهما مَلَك على صورة النمل ومعه ملائكة على تلك الصورة . فسلّم عليهم فردُّوا عليه السلام وقالوا له : مَن أنت ؟ فأخبرهم بقصّته . ثم قال بلوقيا : مَن أنتم ؟ قالوا : نحن أمناء الله تعالى على هذين البحرين لا يلتقيان ولا يبغيان . فقال لهم بلوقيا : ما هذا الجبل الأحمر ؟ قالوا : هذا كنز الله فى الأرض وكلّ ذهبٍ فى الأرض إنما هو من نصاب هذا الجبل، وكلّ ما فى الدنيا من ماء عَذْبٍ هو من هذا البحر . وهذا البحر إنما يجىء من تحت العرش من قبل أن خلقَ الله تعالى الملائكة ؛ وكل ما يجرى من ماءٍ مالح فهو من ذلك البحر المِلْح . وهذا الجبل الأبيض هو من فضّة وهو كنز الله تعالى ؛ وكل كنز فى الدنيا وكل مَعدِنِ فضّةٍ فهو من عروق هذا الجبل . فسلّم بلوقيا عليهم ومضى حتى انتهى الى بحر عظيم، فإذا هو بحِيتان كثيرة عظيمة وقد اجتمعت وبينها حُوتٌ عظيم يقضى بين الحِيتَان . فلمّا نظر الى بلوقيا قال : لا إله إلّا الله محمد رسول الله . فسلّم بلوقيا وأخبره بحال النبىّ صلى الله عليه وسلم وأنه خرج فى طلبه، فردّ السلام ثم قال : يا بُلُوقِيا، إن لقيتَ محمدا فأقرئه منّى السلام . فقال : نعم إن شاء الله . ثم قال : أيتها الحِيتان إنى جائع عطشان وماء البحر ملحٌ وما أجد ما آكل . فقال الحوت الأعظم : يا بُلُوقِيَا سأُطعمك طعاما تسير أربعين سنةً لا تَعيَا ولا تجوع ولا تعطَش، قال : فأطعمه ذلك الحوت قُرصا أبيضَ، فأكله ومضى حتى بلغ العُمْران . قال : ومن قبل أن يبلُغ العُمْران رأى شابّا يجرى على الماء كأنه البدر . فقال له بلوقيا : مَن أنت ؟ قال : سَلِ الذى خَلَفِى . فسار بُلُوقِيَا يوما

وليلةً فإذا هو بآخر يمرّ على الماء ضوءُه كضوء النجوم . فقال له بلوقيا : يا فتى، مَن أنت ؟ قال : سَلِ الذى خَلْفى . فسار بلوقيا يوما وليلةً، فإذا هو بشابّ كأنه القمر يلوح فى آخر الشمس[1]، فقال بلوقيا : أَنْشُدُك الله إلّا وقفتَ . قال : فوقف وقال : لماذا استحلفتَنى ؟ قال : خَشِيتُ أن تفوتنى مثل أصحابك الماضين ، فمَنْ كان الأوّل ؟ قال : إسرافيل صاحب الصُّور، والثانى ميكائيل صاحب المطر ، والثالث جبرائيل أمين ربّ العالمين . فقال بلوقيا : ما ذا تصنعون فى اليم؟ قال جبريل : حيّة من حيّات البحر قد آذت سُكّانه، فَدَعَوُا الله عليها فاستجاب الله دعاءهم وأمرنا أن نسوقها الى جهنّم ليعذّب الله بها الكفّار يوم القيامة . قال بلوقيا : كم طولُها وكم عَرْضُها ؟ قال : طولُها مسيرة ثلاثين سنة، وعَرْضُها مسيرة عشرين سنة . فقال بلوقيا : يا جبريل، أيكون فى جهنّم مثل هذه أو أكبر منها ؟ فقال جبريل : إنّ فى جهنّم من الحيّات ما تدخل هذه فى أنف إحداهنّ ولا تشعر بها من عِظَم خِلْقتها . فسلّم بلوقيا عليه ومضى الى جزيرة أخرى، وإذا هو بغلام أمردَ بين قبرين، فسلّم عليه بلوقيا وقال : يا شابّ ، مَن أنت وما اسمُك ؟ قال : اسمى صالح . قال : فما هذان القبران ؟ قال : أحدهما أبى والآخر أمّى، كانا سائحَيْن فماتا هاهنا، وأنا عند قبريهما حتى أموت . فسلّم بلوقيا ومضى حتى انتهى الى جزيرة، فإذا هو بشجرة عظيمة عليها طائرٌ رأسه من ذهب، وعيناه من ياقوت ، ومنقاره من لؤلؤ، وبدنه من زعفران، وقوائمه من زُمُرد ، واذا مائدةٌ موضوعة تحت الشجرة وعليها طعامٌ وحُوتٌ مَشْوِىّ . فسلّم عليه بلوقيا فردّ عليه الطائر السلام . فقال بلوقيا : أيها الطائر مَن أنت ؟ قال : أنا من طيور الجنّة ، وأنّ الله تعالى بعثنى الى آدم بهذه المائدة لمّا هبط من الجنة وكنتُ معه حتى لقِى حوّاء، وأنا هاهنا من ذلك

٤٦/١٢

(١) كذا فى الأصول ونسخة الثعلبى المطبوعة ، وفى نسخة الثعلبى المخطوطة : « آخر الشهر » .

الوقت، وكلّ غريبٍ وعابرُ سبيل يمرّ بها ويأكل منها، وأنا أمين الله عليها الى يوم القيامة . فقال بلوقيا : ولا تتغيّر ولا تنقُص ! قال : طعام الجنّة لا يتغيّر ولا ينقُص . فقال لبلوقيا : كُلْ فأكل حاجته، ثم قال : أيها الطائر، هل معك أحدٌ ؟ قال : معى أبو العبّاس يأتينى أحيانا . قال : ومَن أبو العبّاس؟ قال : الخَضِر . فلمّا ذكر آسمه اذا هو بالخضر عليه السلام قد أقبل عليه ثيابٌ بيضٌ . قال : فما خطا خطوةً إلّا نبت الحشيش تحت قدميه . فسلّم عليه بلوقيا وسأله عن حاله . قال بلوقيا : قد طالت غَيْبتى وأريد أن أرجع الى أمّى . قال الخَضِر : بينك وبينها مسيرة خمسمائة سنة، أنا أردّك فى مسيرة خمسمائة شهر . قال الطائر : إن كان بينك وبين أمّك مسيرة خمسمائة سنة أنا أردّك مسيرة خمسمائة يوم . قال الخَضِر : أنا أردّك إليها فى ساعة ثم قال : غمّض عينيك فغمّضهما ثم قال له : افتحهما ففتحهما، وإذا هو عند أمّه جالس . فسألها : مَن جاء بى ؟ فقالت : جئتَ على متن طائر أبيض يطير بين السماء والأرض فوضعك قدّامى . قال : ثم إنّ بلوقيا حدّث بنى إسرائيل بما رأى من العجائب والأخبار، فأثبتوها وكتبوها الى يومنا هذا . فهذا ما كان من حديث بُلُوقِيا . والله أعلم .

الباب الخامس

من القسم الثالث من الفن الخامس

فى أخبار زكريّا وآبنه يحيي وعمران ومريم وعيسى بن مريم عليهم السلام

ذكر نسب زكريّا وعمران عليهما السلام وما يتصل بذلك

٥ قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى : هو زكريّا بن بَرْخِيَا بن آذَن بن مُسلم آبن صَدُوق بن نَخْشان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صُدَيقَة بن ناحُور بن شَلُوم آبن نهفاشاط بن أَنْبا بن لَبْنا بن رَحْبَعَم بن سليمان بن داود عليهم السلام .

وعِمْران بن ماتان . وقال آبن اسحاق : هو عمران[(١)] بن باسَهْم بن أمُون بن مَنَسَّى بن حِزْقِيَّا بن أحزيق بن يوثام بن عَزاريا بن أنصِيَا بن ناوش بن يارم بن يهفاشاط بن

١٠ أنبا بن لَبْنا بن رحبعم بن سليمان بن داود .

وكان زكريّا وعمران متزوّجين بأختين ، فآمرأة زكريّا أسباع ، وقيل بَلْيَشْفع بنت فاقود وهى أمّ يحيي . وآمرأة عمران حَنّة بنت فاقود وهى أمّ مريم بنة عمران .

قالوا : وكان زكريّا نجّارا قبل أن يُبعَث نبيّا ، وكان كثير العبادة ، وكان بيت المقدس قد خلا من الأنبياء ، فبينا زكريّا فى محراب جدّه داود عليه السلام

١٥ وقد آنفتل[(٢)] عن صلاته إذ هَبَط عليه جبريل بوحى الله تعالى ونبوّته ، وأعلمه أنّ

(١) والذى فى تاريخ الطبرى (ص ٧١٢ من القسم الأوّل طبع أوربا) عن آبن اسحاق أيضا : « عمران ابن ياشهم بن آمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن يوثام بن عزريا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يارم ابن يهشافاظ بن أسا بن أبيا بن رحبعم بن سليمان ... الخ » . ونسبه كما يؤخذ من تتبع أسماء جدوده فى الكتاب المقدّس هو : « عمران بن يوشيا بن آمون بن منسى بن حزقيا بن آحاز بن يوتام بن عزريا بن

٢٠ أمصيا بن يوآش بن أحزيا بن يورام بن يوشافاط بن آسا بن أبيام بن رحبعام بن سليمان » .

(٢) انفتل عن الصلاة اذا انصرف عنها .

الله تعالى قد بعثه رسولا إلى بنى إسرائيل . فخر زكريّا ساجدًا لله تعالى على ذلك، وخرج إلى بنى إسرائيل ودعاهم، فكذّبه بعضهم وصدّقه آخرون . فأقام زكريّا فى بنى إسرائيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعِمْران يعبد الله . وكان زكريّا وعِمْران لم يُرزقا الولد . فبينا حَنّة ذاتَ يوم جالسة إلى جانب عمران إذ رأت حمامة تَرُقّ فرخا لها، فبكت شوقا منها إلى ولد، وذكرت ذلك لزوجها عمران فقال : قُومى ندعو الله ربّنا فى ذلك، فقاما جميعا وصلّيا ودعَوَا الله تعالى أن يرزقهما ولدا، فرأى عمران فى منامه إن الله قد استجاب دعاءك . فقام إلى زوجته فواقعها فحملت منه، وقالت ما أخبر الله تعالى عنها . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) . قال : وكان الناس فى ذلك الزمان يتقربون إلى الله عز وجل بتحرير أولادهم، وكانوا يخدمون بيت المقدس فى صغرهم إذا بلغوا، فمَنْ أحبّ أن يقم على الخدمة أقام، ومن آختار الآنصراف انصرف .

٤٧/١٢

ذكر ميلاد مريم بنة عمران عليه السلام

قال الكسائىّ : ولمّا حرّرتها أمّها لله تعالى قال لها زوجها : إنك حرّرتِ ما فى بطنك، فإن كان أنثى كيف يكون محررا؟ فاغتمّت لذلك حتى وضعت مريم . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٢) ثم قالت : «ربِّ إنى كنت نذرتُ لك ما فى بطنى محررا فتقبّلها منّى» . قال

(١) سورة آل عمران آية ٣٥

(٢) سورة آل عمران آية ٣٦

الله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (١) . قال : ثم حملتها حتى دخلت بيت المقدس وزكريّا هناك فى نفر من عُبّاد بنى إسرائيل، فقال لها : ماهذه ياحَنّة ؟ قالت : هذه ٱبنتى مريم، قد جعلتُها مُحرّرةً وقد قبِلها الله منّى فٱقبلوها ولا تردّوها ، فأقبل بنو إسرائيل على زكريّا وقالوا : ماتقول فى هذه ؟ قال : لابدّ لها من مُكَفِّل إلى أن تبلُغ مبلغ الخدمة ثم تكون خادمةً فى المسجد . قالوا : أيّنا يَكْفُلها ؟ قال زكريّا : أنا أولى بها لأنّى زوج خالتها، ولكنّا نقترع ، فأخذوا أقلامهم وصاروا إلى عَيْن سُلْوان (٢) وقالوا : نَرمِى بأقلامنا فيها فأيّنا وقف قلمُه فهو الذى يكفُلها ؛ فألقَوها فرسبتْ أقلامهم جميعا إلّا قلم زكريّا فإنه طفا وغالَبَ الجِرْية، فأخذها وٱسترضع لها بعض نساء بنى إسرائيل. ثم مات عِمرانُ والد مريم . قال : وبنى لها زكريّا بيتا لايُصْعَد إليه إلّا بسُلَّم ، وكان لا يصعَد إليها إلّا زكريّا يحمل إليها الطعام ، وٱبن خال لها يقال له يوسف بن يعقوب النجّار، وكان من العبّاد المحرَّرين ، وكان زكريّا إذا صعِد إليها وجد عندها فى الصيف فواكه الشتاء ، وفى الشتاء فواكه الصيف، فيعجَب من ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٧

(٢) سلوان : محلة فى ربض مدينة بيت المقدس تحتها عين عذبة تسقى جنانا عظيمة وقفها عثمان ابن عفان رضى الله عنه على ضعفاء البلد . قال عبيد الله الفقير : ليس من هذا الوصف اليوم شىء لأن عين سلوان محلة فى وادى جهنم فى ظاهر بيت المقدس لا عمارة عندها البتة إلا أن يكون مسجدا أو ما يشابهه وليس هناك جنان ولا ربض . ولعل هذا كان قديما . والله أعلم . (عن معجم البلدان لياقوت) .

ذكر دعاء زكريا أن يرزقه الله عز وجل الولد ومولد يحيى بن زكريا

قال الكسائيّ : فلمّا نظر زكريّا الى ما رَزَق الله عزّ وجلّ من الفاكهة في غير وقتها قال : إن الذى رزق هذه الفواكهَ لقادرٌ على أن يرزق من العجوز العقيم والشيخ الكبير الولد. قال الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾(١) . قال : ولمّا أراد زكريّا أن يدعو استحيا من الله تعالى، فجلس سبعة أيّام ثم قام الى المحراب ووافق ذلك يوم عاشوراء، فكلّمه المحراب بإذن الله تعالى وقال : يازكريّا، أوجدتَ ربّك بخيلا ! يازكريّا إنّ ربك أبدا رحيم . فعند ذلك عزم على الدعاء واجتهد فى العبادة، ثم رفع يديه « ونادَى ربّه نداءً خفيًّا » معناه أخفاه عن قومه « قال ربِّ إنِّى وَهَنَ العَظْمُ منِّى واشتَعَلَ الرأسُ شَيْبا » يعنى غلب بياضه على سواده « ولم أكن بدعائك ربّ شقيّا » معناه لم تخيّبنى فى الدعاء « وإنّى خِفْتُ المَوَالِىَ من ورائى » يعنى الذرّيّة من بعدى أن تصير الحبوريّة فى غير أولاد الأنبياء « فَهَبْ لى من لدنك وليًّا يرِثُنِى ويَرِثُ من آل يعقوب » يعنى مكانى وحُبوريّتى والتابوت الذى فيه وأقلام المحرّرين ومفاتيح القُرْبان، ثم قال: «واجعلْه ربّ رضيًّا» فى بنى اسرائيل . فاستجابَ الله تعالى دعاءه وأمر جبريل أن ينزل عليه بالبُشْرَى فأتاه وأتته الملائكة وأحدقوا بالمحراب . قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾(٢) الآية . وقال تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ

٤٨/١٢

(١) سورة آل عمران آية ٣٨

(٢) سورة آل عمران آية ٣٩

مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾(١). ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾(٢). قال الكلبيّ : كان زكريّا يوم بُشِّر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة . وروى الضحّاك عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان ابن مائة وعشرين سنة . وكانت امرأته بنت ثمانٍ وتسعين .

قالوا : ولمّا جامع زكريّا امرأته اغتسل وعاد الى محرابه ، فجاءته نساء بنى إسرائيل وقالوا له : نرى أمرك أعجبُ من امرأتك ، فذهب زكريّا ليتكلّم فلم يقدِر على الكلام ، فعلم أن امرأته قد حملت فكتب لهم فى الأرض، إنّى لا أقدر على الكلام ثلاثة أيام .

قال الثعلبيّ رحمه الله : فإن قيل : لِمَ أنكر زكريّا ذلك وسأل الآية بعد ما بشّرته الملائكة ؟ أكان ذلك شكّا فى وَحْيه ؟ ، أم إنكارًا لقُدْرته ، وهذا لا يجوز أن يُوصَف به أهل الإيمان فكيف الأنبياء ؟ ! فالجواب عنه ماقال عِكْرِمة والسُّدِّىّ : إنّ زكريّا لمّا سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال : يازكريّا إنّ الصوت الذى سمِعتَ ليس من الله إنما هو من الشيطان سَخِر بك ،ولو كان من الله لأوحاه إليك خَفِيًّا كما ناديته خَفِيًّا وكما يوحى إليك فى سائر الأمور ؛ فقال ذلك دفعًا للوسوسة . قال : وفيه جواب آخر، وهو أنه لم يشُكّ فى الولد وإنما شكّ فى كيفيته والوجه الذى يكون منه الولد فقال : أنّى يكون لى ؟ أى كيف يكون لى ولد ؟ أتجعلنى وامرأتى شابّين أو ترزقنا على كِبَرنا، أو ترزقنى من امرأة عاقر، أم من غيرها من النساء ؟ فقال

(١) سورة مريم آية ٩

(٢) سورة آل عمران آية ٤١

ذلك مستخبرا لا مستنكرا . وهذا قول الحسن . « قال ربّ اجعلْ لى آيةً قال آيتُك ألّا تُكلِّمَ الناس» تكُفّ عن الكلام ثلاثة أيام وتُقْبِل بكلّيّتك على عبادتى وطاعتى؛ لأنه ما حبس لسانه عن الكلام ولكنه نُهِى عنه؛ و يدلّ عليه قوله : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ . هذا قول قوم من أهل المعانى . وقال آخرون: عُقِلَ لسانُه عقوبةً له لسؤاله الآيةَ بعد مُشافهةِ الملائكة إيّاه، فلم يقدِر على الكلام ثلاثة أيام، لأنهم كانوا اذا صاموا لم يتكلّموا إلّا رَمْزاً .

قال : و فى بعض الأخبار أنه لمّا وُلد يحيى رُفع الى السماء فغُذِّىَ بأنهار الجنّة حتى فُطِم ثم أنزِل الى أبيه، فكان يُضىء البيت لنُوره .

واختلفوا فى تسميته يحيى ولم سُمِّىَ بذلك؟ قال ٱبن عبّاس رضى الله عنهما : لأنّ الله تعالى أحيا به عُقْر أمّه . وقال قَتَادة وغيرُه : لأنّ الله تعالى أحيا قلبَه بالإيمان والنبوّة . وقال الحُسين بن الفَضْل : لأنّ الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يَعْصِ ولم يَهِمّ بمعصية . وقيل : سُمِّى بذلك لأنه ٱستُشهد والشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقون .

و يحيى أوّل من أقرّ بعيسى عليه السلام وصدّقه؛ وذلك أنه لمّا كان فى بطن أمّه استقبلتها مريم وقد حَمَلتْ بعيسى، فقالت لها أمّ يحيى : يا مريم ، أحاملٌ أنت؟ فقالت : لماذا تقولين؟ قالت: إنى أرى ما فى بطنى يسجُد لما فى بطنك؛ فذلك تصديقه و إيمانه . وكان يحيى أكبر من عيسى بستّة أشهر، وقُتِل قبل رفع عيسى . وقوله تعالى فيه : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ قال ٱبن جُبَير : السيِّد الذى يطيع ربّه عز وجل . وقال الضحّاك : السيّد الحَسَن الخُلُق . وقال عِكْرِمة : السيّد الذى لا يَغضَب . وقال سُفيان : السيّد الذى لايحسُد . وحَصُورا، قال

ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهما : هو الذى لا يأتى النساء ولا يقربهنّ ، فَعُول بمعنى فاعل ، يعنى أنه حَصَر نفسه عن الشهوات : وقال المبرّد : الحَصُور : الذى لا يدخل فى اللّعب ولا الباطل .

ذكر صفة يحيى بن زكريا وحِلْيته

٤٩/١٢ قال كعب الأحبار : كان يحيى بن زكريّا عليهما السلام حَسَنَ الوجه والصُّورة ، ليِّن الجَنَاح ، قصيرَ الأصابع ، طويلَ الأنف ، مقرونَ الحاجبين ، رقيقَ الصوت ، كثير العبادة ، قويّا فى طاعة الله عزّ وجلّ وقد ساد الناس فى عبادته .

ذكر نبوّة يحيى عليه السلام وسيرته وزهده

قال الله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (١) . قيل : هو أن يحيى عليه السلام قال له أقرانه من الصبيان : يايحيى اذهب بنا نلعب ؛ فقال : أللّعبِ خُلِقتُ ! . وقال الآخرون : هو أنه نبىّ وهو صغير ، وكان يَعِظ الناس ويقِف لهم فى أعيادهم وجَمعهم يدعوهم الى الله تعالى ، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس .

ولمّا بعثه الله عز وجل إلى بنى إسرائيل أمره أن يأمرهم بخمس خِصال وضرَب لكلّ خَصْلة منها مثلا :

أمرهم أن يعبدوا الله تعالى ولا يُشركوا به شيئا وقال : مَثَلُ الشِّرْكِ مَثَلُ رجُل اشترى عَبِيدا من خالص ماله ثم أسكنهم داراً له ودفع لهم مالاً يتجرون فيه ويأكل كل واحد منهم مايكفيه ، ويؤدّون إليه فضل الرِّبح ، فعمَد العَبِيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى غير سيّدهم .

(١) سورة مريم آية ١٢

وأَمَرهم بالصلاة وقال : إنّ مَثَلَ المُصلِّى كمَثَل رجل استأذنَ على ملكٍ فأذِن له ودخل عليه ، فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته و يقضىَ حاجته ، فلما دخل الرجل آلتفت يمينا وشمالا ولم يَهُمّ بحاجته ، فأعرض الملك عنه بوجهه ولم يقض حاجته .

وأَمَرَهم بالصدقة وقال : مثلها كمثل رجل أسره العدوّ فآشترى منهم نفسه بثمن معلوم ، فجعل يعمَل فى بلادهم و يؤدِّى إليهم من كَسْبه القليلَ والكثيرَ حتى وفّى ثمنه فأُعتق . ٥

وأَمَرهم بذكر الله تعالى وقال : مَثَلُ الذِّكْر مثل قوم لهم حِصْنٌ ولهم عدوّ ، فإذا أقبل عليهم عدوّهم دخلوا حِصْنهم فلم يقدر العدوّ عليهم ، كذلك مَن ذكر الله عزّ وجلّ لا يقدر عليه الشيطان .

وأَمَرهم بالصيام وقال : مثله كالجُنّة[1] لا يصل عدوّه إليه . وكان عليه السلام فيهم كثير التقشُّف والعبادة والزهد والسياحة إلى أن قُتل عليه السلام . ١٠

ذكر مقتل يحيى بن زكريّا وأبيه زكريّا عليهما السلام

اختلف العلماء فى سبب قتل يحيى ؛ فقال بعضهم : كان يحيى عليه السلام فى زمن مَلِكٍ من ملوك بنى إسرائيل ، وكانت له آمرأةٌ وهى بنت ملك صَيْدَا[2] ، وكانت قتّالة للأنبياء والصالحين ، وكانت عاهرة تبرُز للناس ، وكان يحيى يزجُرُها ١٥

(١) الجنة (بضم الجيم المعجمة) : كل ما وقى من سلاح . وفى العبارة إيجاز والمعنى المراد واضح .

(٢) صيدا (بالقصر والمدّ) : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق ، شرقى صور ، بينهما ستة فراسخ . كان لها فى القرن السابع عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد شهرة عظيمة فى التجارة والحضارة ، وتفوق كبير فى الملاحة . ولما انتقلت السيادة إلى جارتها مدينة صور حفظت مركزها أيضا و بقيت قاعدة مملكة كنعان . فتحها المسلمون فى خلافة عمر سنة ٦٣٨ م (١٧ هـ) . (راجع تاريخ صيدا ومعجم الخريطة التاريخية) . ٢٠

عن ذلك ويقول لها : لاتُبرزين كاشفةً عن وجهكِ . وكان كثيرا مايقول لها : مكتوبٌ فى التوارة : إنّ الزُّناة يُوقَفُون يوم القيامة وريحهم أنتنُ من الجيف . فأمرتْ بيحيي فسُجِن . وكان قد حُبِس رجلٌ من أبناء الملوك ، وكان يختلف إليها ، فعلم بها وبه يحيي فزجره ، فبلغ ذلك آمرأة الملك فحملتْ بنتا لها وآستقبلت بها زوجها .

٥ فقال : لم فعلتِ ذلك ؟ فقالت : وَجَب لها عليك حقّ . فقال : سَلِينِي ماشئتِ . فسألته أهلَ السجن . فظنّ أنها ترحمهم وتسرّحهم فقال : قد فعلتُ . فأمرت المرأة بأهل السجن فعُرضوا . فلمّا مُرّ بيحيي أمرت به فذُبح فى طَسْت ثم حملت الطست إلى أبيها بأمر أمّها وقالت : أيها الملك ، إنى ذبحتُ لك ذبيحةً من أعظم ما وجدتُ ، ولو كان مثلُه ألفاً لذبحتهم لك . فقال : ومن هو ؟

١٠ قالت : يحى بن زكريا . قال : هلكتِ وأهلكتِ أبويك . فغيّر الله ما بهم من النعم ، وسلّط عليهم عدوّهم فذبح البنت وأبويها ، وسلّط عليهم الكلاب حتى أكلتهم .

وقال الثعلبيّ فى تفسيره : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق بن يَسَار قال : عبرت بنو اسرائيل بعد ما عمرت الشام ، وعادوا اليها بعدخراب بُخْتَنَصَّر (١) إياها وسَبْيهم منها ، فجعلوا بعد ذلك يُحدثون الأحداث بعد مَهْلَك عُزَير عليه السلام ،

١٥ ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الأنبياء ، ففريقا يكذّبون وفريقا يقتلون ، حتى كان آخرُ من بعث الله تعالى فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيي وعيسى عليهم السلام . ٥٠/١٢ فمات زكريا وقُتل يحيي بسبب نَهْيه الملك عن نكاح آبنته فى قول عبد الله بن الزبير ، وآبنة آمرأته فى قول السُّدِّىّ ، وآبنة أخيه فى قول آبن عباس رضى الله عنهما وهو الأصح إن شاء الله تعالى ؛ لِمَا رَوَى الأعمش عن المِنْهَال عن سَعيد بن جُبير

٢٠ عن آبن عباس رضى الله عنهما قال : بَعَث عيسى بنُ مريم يحيي بنَ زكريا عليهم

(١) كذا فى الأصول ! !

السلام فى آثنى عشر من الحَوَارِيّين يعلّمون الناس ، فكان مما نَهَوْهم عنه نكاحُ آبنة الأخ . قال : وكانت لملكهم آبنة أخ تُعجبه يريد أن يتزوّجها ، وكانت لها فى كل يوم حاجةٌ يقضيها لها . فلمّا بلغ ذلك أمّها أنه نهى عن نكاح بنت الأخ قالت [لآبنتها : اذا دخلتِ على الملك فسألكِ فقولى له : حاجتى أن تذبح لى يحيى بن زكريا . فلمّا دخلت عليه سألها حاجتها قالت : حاجتى أن تذبح لى يحيى بن زكريا . فقال :] سَلِينِي غير هـذا (١) . قالت : لا أسألك إلا هذا . فلمّا أبت عليه دعا بيحيى ودعا بطَسْت فذبحه فيه ، فندّت من دمه قطرة على الأرض ، فلم تزل تَغْلِي حتى بعث الله عز وجل ملك بابل ، فقتـل عليها من بنى إسرائيل حتى سكنت . وقد تقدّم أيضا خبر مقتله ، وأنّ بختنصّر هو الذى قَتَل على دمه حتى سكن (٢) . والصحيح أن بختنصّر إنمـا قَتَل بسبب قتل شَعْيَا عليه السلام .

قال الثعلبيّ أيضا : وقال علماء النصارى : إنّ قتل يحيى كان على يدَىْ ملك من ملوك بنى إسرائيل يقال له هِيرُودُس بسبب آمرأة يقال لهـا هَرْدُوبَا ، كانت امرأة أخ له يقال له فَلْفُوس ، عَشِقها فوافقته على الفجور ، فنهاه يحيى وأعلمه أنها لا تحـلّ له ، فسألت المرأة هِيرُودُس أن يأتيها برأس يحيى ففعل ، ثم سُقِط (٣) فى يده وجَزِع جَزَعا شديدا .

وقال كعب : كان يحيى عليه السلام من أحسن الناس وجها وأجملهم فى زمانه ، فأحبّته آمرأة الملك الذى كان فى ذلك الزمان حبّا شـديدا ، فأرسلت اليه تراوده ،

(١) التكملة عن الثعلبيّ والطبرى (ص ٧١٣ من القسم الأوّل) . وعبارة الأصول : « عن نكاح بنت الأخ قالت : تذبح يحيى بن زكريا قال » وهى مضطربة من الناسخ .

(٢) راجع (ص ١٥٧) من هذا الجزء .

(٣) يقال لكل من ندم أو حزن وتحسر على فائت من فعل أو ترك أو عجز : قد سقط فى يده .

فأرسل إليها أنه لا عِلْم له بالنساء والملك أحقّ أن يطأ فِراشَه . فلمّا جاءها الرسول غضِبتْ وقالت : كيف لى أن أقتله حتى لا يخبر الناسَ أنى قد راودته ! . فلم تزل بالملك حتى وهب لها رأسَ يحيي بن زكريّا ، وأرسلت إليه وهو قائم يصلّى فى محراب داود فى بيت المقدس فضُرِب عنقه وأخذ رأسه . فلمّا أرادوا أن يأخذوا رأس يحيي خَسَف الله بها و بأهلها الأرض عقوبةً لقتلها يحيي عليه السلام .

قال كعب : فلمّا رأى زكريّا أن ٱبنه يحيي قد قُتِل وخُسِف بالقوم انطلق هاربا فى الأرض، حتى دخل بستانا عند بيت المقدس فيه أشجار . وأرسل الملك فى طلبه غضبًا لما لَقِيَت المرأة وأهلها . فمرّ زكريّا بشجرة من تلك الأشجار فنادته الشجرة: يا نبيّ الله، هُلَمّ إلى هاهنا . فلمّا أتاها التفّت عليه الشجرة ودخل زكريا عليه السلام فى وَسَطها ، فٱنطلق عدوّ الله إبليس لعنه الله حتى أخذ بطَرَف ردائه ، فأخرجه من الشجرة ليصدِّقوه إذا أخبرهم، وجاء الذين يلتمسون زكريّا، فأخبرهم إبليس أنه دخل الشجرة؛ فقالوا : لا نصدّقك . قال : فإنى أُريكم علامة تصدّقوننى بها . قالوا : فأَرِناها ، فأراهم طَرَف ردائه ، فأخذوا الفؤوس فضربوا الشجرة حتى قطعوها بٱثنتين، فسلّط الله عليهم أخبثَ أهل الأرض عِلْجا مجوسيًّا، فٱنتقم الله من بنى إسرائيل بدم يحيي وزكريّا ، فقتل عظماء بنى إسرائيل وسَبَى منهم مائة ألف وعشرين ألفا .

وقد قيل فى سبب قتل زكريا غير هذا ، وسنذكره إن شاء الله فى أثناء أخبار عيسى بن مريم على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

ذكر هلاك بنى إسرائيل وخراب بيت المقدس ثانيا

قال الثعلبىّ رحمه الله تعالى فى بعض طُرُقه عن محمد بن إسحاق : إنّ خراب بيت المقدس ثانيا وقَتْلَ بنى إسرائيل كان بعد رفع عيسى بن مريم وقَتْلِ يحيى بن زكريّا . فلمّا فعلوا ذلك سلّط الله تعالى عليهم ملِكا من ملوك بابل يقال له خَرْدُوس[1]، فسار اليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام؛ فلمّا ظهر عليهم أمر رأسا من رءوس أجناده يدعى نَبُوزَرَادَان[2] صاحب الفيل[3] فقال له : إنى قد كنتُ حلفتُ بالهى إن أنا ظهرتُ على أهل بيت المقدس لأقتلنّهم حتى تَسيل دماؤهم فى وسَط عسكرى إلى ألّا أجد أحدا أقتله ، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، وأن نَبُوزَرَادَان دخل بيت المقدس فقتلهم فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قُربانهم ، فوجدوا فيها دما يَغْلِى فسألهم عنه فقالوا : هذا دَمُ قُربان قربناه فلم يُتَقَبَّلْ منّا فلذلك هو يَغْلِى كما تراه، ولقد قربنا منذ ثمانمائة سنة القُربان فتُقُبِّل منّا إلّا هذا القربان . فقال : ماصَدَقتمونى الخبر . قالوا له : لو كان كأوّل دمائنا لقُبل ولكنّه قد انقطع منّا المُلْك والنبوّة والوَحْى فلذلك لم يُقْبَل . فذبح منهم نَبُوزَرَادَان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رُوحا من رءوسهم فلم يهدأ ، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد . فلمّا رأى نَبُوزَرَادَان أن الدم لا يهدأ قال لهم : ويلكم يابنى إسرائيل! أُصْدُقونى وأصبروا على أمر ربكم، فقد طالما ملكتم الأرض تفعلون فيها ماشئتم، قبل

٥١/١٢

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٢٠ من القسم الاول والبحر المحيط لأبى حيان (ج ٦ ص ١١) وفى نسختى أ ، ب : «جردوس» بالجيم المعجمة . وفى نسخة ج «حردوس» بالحاء المهملة .

(٢) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٦٥١). وفى تاريخ الطبرى (ص ٧٢٠ من القسم الأول) «نبوزراذان» . وفى الأصول : «بيورزاذان» .

(٣) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى . وفى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٦٥١) : «رئيس الشرط» . وفى نسخة من تاريخ الطبرى أشير اليها فى الهامش (ص ٧٢٠ من القسم الأول) : «صاحب القتل» .

ألّا أترك نافخ نار ذكر أو أنثى إلا قتلته . فلمّا رأوا الجهد وشدّة القتل صدّقوه الخبر فقالوا : إن هذا دم نبيّ منّا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سَخَط الله ، فلو أطعناه لكان أرشد لنا ، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدّقه فقتلناه فهذا دمه . فقال لهم : ما كان آسمُه ؟ قالوا : كان اسمه يحيى بن زكريّا . قال : الآن صدّقتمونى ، لمثل هذا ينتقم منكم ربكم . ولمّا رأى أنهم قد صدّقوه خرّ ساجدا وقال لمن حوله : أغلقوا باب المدينة وأخرجوا مَن كان هاهنا من جيش خَرْدُوس . وخلا فى بنى اسرائيل ثم قال : يا يحيى بن زكريا ، قد علم ربّى وربّك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قُتِل منهم ، فآهدأ بإذن الله تعالى قبل ألّا أبقى من قومك أحدا ، فهدأ دم يحيى بن زكريّا بإذن الله تعالى ، ورفع نَبُوزَرَادان عنهم القتل وقال : آمنتُ بما آمنت به بنو اسرائيل وصدّقت به وأيقنت أنه لا ربّ غيره . فأوحى الله تعالى الى رأس من رءوس بقيّة الأنبياء عليهم السلام أن نَبُوزَرَادان حَبُور صَدُوق — والحبور بالعبرانية حديث الإيمان — فقال نَبُوزَرَادان : يا بنى إسرائيل ، إنّ عدوّ الله خَرْدُوس أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وَسَط عسكره ، وإنى لستُ أستطيع أن أعصيه . قالوا له : افعل ما أُمرتَ به ، فأمرهم أن يحفِروا خَنْدَقا وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمُر والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم فى العسكر ، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتلوا قبل ذلك فطُرحوا على ما قُتل من مواشيهم حتى كانوا فوقها . فلمّا بلغ الدم عسكر خَرْدُوس أرسل الى نَبُوزَرَادَان أن آرفع عنهم القتل فقد بلغتنى دماؤهم . ثم آنصرف عنهم الى بابل وقد أفنى بنى إسرائيل أو كاد . وهذه هى الوقعة الآخرة التى أنزل الله تعالى فيها وفى الأولى : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ (١) فكان بختنصّر

(١) سورة الاسراء آيتى ٤ و ٥

وجنودُه . ثم ردّ الله لهُم الكرّة عليهم . وكانت الوقعة الآخرة خَرْدُوس وجنوده فلم تقُم لهم بعد ذلك راية . وانتقل المُلك بالشام ونواحيها الى الروم واليونان، إلاّ أنّ بقايا بنى إسرائيل كثروا وآنتشروا بعد ذلك . وكانت لهم الديانة والرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك . وكانوا فى نَعْمة ومَنَعَة الى أن بدّلوا وأحدثوا الأحداث وآستحلّوا المحارم وضيّعوا الحدود، فسلّط الله تعالى عليهم طَطُوس[1] بن اسفَيَانوس[2] الرومى فأخرب بلادهم وطردهم عنها، ونزع الله تعالى منهم المُلْك والرياسة وضرب عليهم الذلّ، فليسوا فى أمّة من الأمم إلّا وعليهم الصَّغار[3] والجزية والمُلْك فى غيرهم . وبقى بيت المقدس خرابا الى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعمّره المسلمون بأمره .

قال : ورَوَى أبو عَوَانة عن أبى بشر قال : سألت سَعِيد بن جُبَير عن قول الله عز وجل : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ الآيات فقال : أمّا الذين جاسوا[4] خلال الديار فكان صَرْخان[5] الخزرى شعّث من الديار وتبّر[6] . ثم قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ الى قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ الى قوله : ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ قال : هذا بختنصّر الذى خرّب بيت المقدس . ثم قال لهم : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ قال : فعادوا فعِيدَ عليهم، فبعث الله تعالى عليهم ملك الروم . ثم عادوا أيضا فعِيدَ عليهم، فبعث عليهم درم أوزن[7] ملك الرىّ . ثم عادوا أيضا فعيد عليهم، فبعث عليهم سابورَ ذا الأكتاف .

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٤٣ من القسم الأوّل) ونسخة ج . وفى نسختى ا ، ب : «طحوص» . (٢) فى تاريخ الطبرى : «سلفسيانوس» . (٣) الصغار : الذل .

(٤) جاسوا : عاثوا وقتلوا . (٥) وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج ١٠ ص ٢١٦) : «وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى : (ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار) هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل ملك الروم» . (٦) تبر : أهلك ودمر .

(٧) كذا فى الأصول ولم نجد هذا الاسم فى المظان .

وقال قَتادة : هذه الآيةُ قضاءٌ قُضِيَ على القوم كما يسمعون ، فبعث عليهم فى الأولى جالوت فسبى وقتل وخرّب بيتَ المَقْدِس وسامهم سوء العذاب ، ثم قال : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ فعاد الله عليهم برحمته . ثم عاد القوم بشرّ ما يحضُرهم . فبعث الله تعالى عليهم ما شاء أن يبعث من نِقْمته وعقوبته . ثم بعث الله تعالى عليهم هذا الحىّ من العرب ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ (١) فهم بهم فى عذاب الى يوم القيامة .

٥٢/١٢

وهذه الأخبار التى أوردناها فى هذا المكان من خبر زكريّا ويحيى وخراب بيت المقدس ثانيا ، منها ما كان فى زمن عيسى عليه السلام ، ومنها ما كان بعد رفعه . وإنما أوردناها سياقة وتركنا خبر عيسى عليه السلام لئلا تنقطع بغيرها وليتلو بعضها بعضا . فلنرجع الى أخبار عيسى بن مريم عليه السلام .

ذكر خبر حمل مريم بنة عمران بعيسى عليهما السلام

قال الكسائىّ رحمه الله تعالى : وكانت مريم تنمو وتزيد فى كل يوم وتعبد الله تعالى حتى برّزت فى العبادة على نساء بنى اسرائيل . فلمّا بلغت مبلغ النساء أتت منزل زكريّا ، فقال لها : كيف خرجتِ من بيتك ومفتاحه معى ؟ قالت : إنى رأيت أمرا قبيحا — أرادت بذلك الحيض — فجئتك بإذن الله . فأمرها زكريّا أن تكون عند خالتها حتى تطهُر ، ففعلت ذلك . فلما طهُرت واغتسلت عادت إلى عبادتها . فكان ذلك عادتها وشأنها اذا حاضت . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ (٢) أى سترا ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ يعنى جبريل ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أى فى صورة رجل

(١) سورة الأعراف آية ١٦٧ (٢) سورة مريم آية ١٦ وما بعدها .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أى مطيعا لربك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ ثم نفخ فى جيبها فوصلت النفخة الى جوفها فحملت بعيسى لوقتها . ويقال : إنّ زكريّا فى ذلك الوقت أفضى إلى آمرأته فحملت بيحيى . وقيل : إنّ آمرأة زكريّا حملت قبل مريم بثلاثة أشهر، وقيل ستة أشهر . وكانت مريم إذ ذاك بنت خمس عشرة سنة ، وقيل ثلاث عشرة سنة .

وحكى الثعلبيّ فى قصة حمل مريم أنه كان معها فى المسجد آبن عمّ لها من المحرّرين يقال له يوسف بن يعقوب النجّار ، وكان رجلا حكيما نجّارا ، يتصدّق بعمل يديه ، وكان يوسف ومريم اذا نفِد ماؤهما أخذ كل واحد منهما قُلّته وآنطلق إلى المغارة التى فيها الماءُ يستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة . فلمّا كان اليومُ الذى لَقِيها فيه جبريل، وكان أطول يوم فى السنة وأشدّ حرًّا، نفِد ماؤها ، فقالت : يايوسف، ألَا تذهب بنا نستقى ؟ فقال لها : إنّ عندى لفضلا من ماء أكتفى به فى يومى هذا إلى غد . قالت : لكنى والله ما عندى ماء، فأخذت قُلّتها ثم آنطلقت وحدها حتى دخلت المغارة، فوجدت عندها جبريل عليه السلام، قد مثّله الله عزوجل بشرا سويّا ، فقال لها : يا مريم، إنّ الله قد بعثنى اليك لأَهَبَ لكِ غلاما زكيّا . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّا . قال عِكْرِمة : وكان جبريل قد عرَض لها فى صورة شابّ أمرَدَ وضىء الوجه، جَعْد الشعر، سوىّ الخَلْق . قال الحكماء : وإنما أرسله الله تعالى فى صورة البشر لتثبُت مريم عليها السلام وتقدِر على آستماع كلامه، ولو أتاها على صورته التى هو عليها لَفَزِعت ونفَرت عنه، ولم تقدِر على آستماع كلامه . فلمّا آستعاذت مريم منه قال : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ

رَبِّكِ ﴾ الآية . فلما قال ذلك استسلمتْ لقضاء الله تعالى . فنفخ جبريل فى جيب دِرْعها ، وكانت قد وضعته ، ثم انصرف عنها . فلما لبست مريم درعها حملت بعيسى عليه السلام ، ثم ملأت قُلّتها وانصرفت الى المسجد . وقال السُّدّى وعِكْرِمة : إنّ مريم عليها السلام كانت تكون فى المسجد ما دامت طاهرة فإذا حاضت تحوّلت الى بيت خالتها حتى إذا طهُرت عادت إلى المسجد . فبينما هى تغتسل من الحيض وقد أخذت مكانا شرقيّا — قال الحسن : إنما اتخذت النصارى الشرق قِبلةً لأن مريم انتبذت مكانا شرقيّا — فاتخذت ، فضربت من دونهم حجابا ، أى سترا . وقال مقاتل : جعلت الجبل بينها و بين قومها ، فبينما هى كذلك اذ عرض لها جبريل و بشّرها ونفخ فى جيب درعها .

٥٣/١٢ قالوا : فلما اشتملت على عيسى وتبيّن حملُها داخلها الغمّ وعلمت أنّ بنى إسرائيل سوف يقذفونها ، فنادتها الملائكة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ أى من الحيض ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ . قال : و بشّرها الله تعالى بعيسى فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١) . ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٢) الآية فطابت نفسها . قال وَهْب : فلمّا اشتملت على عيسى وكان معها يوسف النجار ، وكانا منطلقين الى المسجد الذى بجبل صِهْيَوْن — وجبل صهيون على باب بيت المقدس — وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم ، وكانت مريم و يوسف يخدمان ذلك المسجد ، وكان لخدمته فضل عظيم ، فكانا يَلِيان معالجته بأنفسهما وتطهيره ، وكان لا يُعْلَم أحدٌ من أهل زمانهما أشدّ اجتهادا وعبادة

(١) سورة آل عمران آيتى ٤٥ ، ٤٦ (٢) سورة آل عمران آية ٤٨ وما بعدها .

منهما . فكان أوّل مَن أنكر حمل مريم يوسف النجّار . فلما رأى ما بها استعظمه وقُطِع به ولم يدر على ماذا يضع أمرَها . فكان إذا أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تَغِب عنه ، وإذا أراد أن يبرّئها رأى الذى ظهر بها من الحمل . فلما آشتدّ ذلك عليه كلّمها ، فكان أوّل ما كلّمها به أن قال لها : إنه قد وقع فى نفسى منك ومن أمرك شىء ، وقد حرَصت على أن أكتُمه فغلبنى ذلك ورأيتُ أنّ الكلام فيه أشفَى لصدرى . فقالت : قل قولا جميلا . قال : خبِّرينى يا مريم ، هل ينبُت زرع بغير بَذْر ؟ قالت نعم . قال : فهل تنبُت شجرة بغير غيث يصيبها ؟ قالت نعم . قال : فهل يكون ولدٌ من غير فَحْل؟ قالت : ألم تعلم أنّ الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بَذْر، والبِذَارُ إنما تكون من الزرع الذى كان أنبته من غير بذر ! . ألم تعلم أن الله عز وجل أنبت الشجر من غير غيث ، وبالقَدَر جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحدة على حدة ! . أوَ تقول إن الله لا يقدر على إنباته ! . قال يوسف لها : لا أقول هذا ، ولكنى أعلم أن الله تبارك وتعالى يقدر على مايشاء ، يقول لذلك : كُنْ فيكونُ . فقالت له مريم : أوَ لم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وآمرأته حوّاء من غير ذكر ولا أنثى ! . قال بلى . فلمّا قالت له ذلك وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من أمر الله ، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه ، وذلك لما رأى من كتمانها . وقال الكسائىّ : لما قال يوسف لمريم : هل يكون ولد من غير فَحْل؟ قالت : نعم ، آدم من غير أب وأمّ . قال صدقتِ . ثم قال : هذا الولد الذى فى بطنك مَن أبوه ؟ قالت : هذا هبة ربّى لى ، ومَثَلُه كمثل آدم خلقه من تراب . فنطق عيسى فى بطنها وقال : يا يوسف ما هذه الأمثال التى تضربها ! قم فآشتغل بصلاتك وآستغفر لذنبك مما قد وقع فى قلبك . فقام يوسف وجاء الى زكريّا وأخبره ، فاغتمّ وقال لآمرأته : إنّ مريم حاملٌ ، وأخاف من فُسّاق

بنى إسرائيل أن يتّهموا يوسف بها . قالت : توكّل على الله وآستعن به فإنه يردّ عنها مقالة الفُسّاق .

قالوا : ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمله فيه لما رأى من رقّة جسمها ، وآصفرار لونها ، وكَلَف وجهها ، ونتوء بطنها ، وضعف قوّتها . والله أعلم .

ذكر خبر ميلاد عيسى بن مريم عليهما السلام

قال الكسائىّ رحمه الله : فلمّا دنا وقت الولادة خرجت مريم فى جوف الليل من منزل زكريا حتى صارت إلى خارج بيت المقدس ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ . قال : وأخذها الطَّلْق ، فنظرت إلى نخلة يابسة فجلست تحتها فاخضَرَّت النخلة من ساعتها وصار لها سَعَفًا وخُوصا وحملت الرُّطَب لوقتها ، وأنبع الله فى أصل النخلة عينا من الماء . قال : وعن وهب أنه لمّا دنت ولادة مريم عليها السلام أوحى الله تعالى إليها أن تخرج من المحراب فتتبوّأ منزلا تلد فيه ، فتحوّلت إلى بيت خالتها أمّ يحيى بن زكريا لتَلِد فى بيتها . قال : فلمّا دخلت عليها استقبلتها أمّ يحيى وسلّمت عليها . فلما آلتقيا أحسّت أمّ يحيى بسجود مَن فى بطنها ، فقالت : يا مريم ، إن الذى فى بطنى يسجد لما فى بطنك .

قالوا : ثم أوحى الله تعالى إلى مريم أن تخرج من أرض بَيْتِ لَحْمَ[1] إلى جهة من الأرض تلِد فيها ، فحملها يوسف النجّار على حمار بأُكَاف[2] ليس بينها وبين الأُكَاف غير

(١) بيت لحم : قرية صغيرة مبنية على أكمة تبعد ٦ أميال الى الجنوب من أورشليم وهى محاطة بتلال تكسوها الأشجار والنباتات الجميلة ، وفيها مياه عذبة تتفجر من أراضيها الخصبة . (راجع قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست) .

(٢) أكاف الحمار (بضم أوله وكسره) : برذعته .

٥٤/١٢

ثوبها وهى مُثقلة لا تكاد تقوم . فانطلقا فى سواد الليل من بَيْتَ لَحْمَ يؤمّان الجبال ، حتى إذا كانا ببعض الطريق بين نخلات يتزلها الرُّكبان ، بينهنّ أَوَارِىّ[1] مبنيّة بناها السَّفْر[2] ليعلّقوا فيها دوابّهم . فنزلا ذلك المنزل ، فأدركها المخاض ، فألتجأت إلى بعض تلك الأوارِىّ وهو فى أصل جِذْع نخلة يابس لَخْل ليس فيه عَرَاجين[3] ولا غيرها ، فأنبته الله تعالى وأثمره حتى أظلّها وأكنّها وتدلّت عليها غصونه من كل جانب حتى سترها السَّعَف والعراجين . وآشتدّ بها الطَّلْق ودامها سبع ليال ، وأشرفت على الموت ، فقالت ما أخبر الله تعالى به عنها ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا[4] ﴾ . قال : وآشتدّ عليها البرد ، فعمَد يوسف الى حطب فجعله حولها كالحظيرة ، ثم أشعل فيه النار فأدفأها ، وكسر لها سبع جَوْزات فأكلتها . فمن أجل ذلك تُوقِد النصارى النارَ ليلة الميلاد وتلعب بالجوز . قال وقال كعب : إنها خرجت منفردة ، فلمّا فقدها زكريّا أهمّه ذلك ، وبعث يوسف النجّار فى طلبها ، فجاء حتى نظر إليها تحت النخلة . قال : ولمّا شكت من ألم الولادة ما شكت وقالت : « يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيا » أى لا تُعْرَف ولا تذكر ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ — قيل : إن الذى ناداها عيسى . وقيل : جبريل — ﴿ أَنْ لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وهو الجدول الصغير . قالوا : كان نهرا من ماء عذب ، يكون باردًا إذا شربت منه ، وفاترا إذا آستعملته ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ أى نضيجا ﴿ فَكُلِى وَآشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ أى كلى وآشربى من الماء الذى أنبعه الله لك وقرّى عينا بهذا الولد ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا ﴾ أى صمتا ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

(١) أوارِىّ جمع آرِىّ وهو محبس الدابة . (٢) السفر : جماعة المسافرين .

(٣) عراجين : جمع عرجون ، وهو أصل العذق الذى يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا . سمى بذلك لانعراجه . (٤) سورة مريم آية ٢٣ وما بعدها .

قال : فلما جاء يوسف النجار كلّمها فلم تتكلم ، فتكلّم عيسى فى حِجْرها وقال : يا يوسف ، أبشر وقَرَّ عينًا وطِبْ نفسا ، فقد أخرجنى ربى من ظلمة الأرحام الى ضوء الدنيا ، وسآتى بنى إسرائيل وأدعوهم الى طاعة الله .

واختلف العلماء فى مدّة حمل مريم عليها السلام بعيسى ووقت وضعها إياه ، فقال بعضهم : كان تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، وقيل : ثمانية أشهر ، وكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود يوضع لثمانية أشهر غير عيسى ، وقيل : ستة أشهر ، وقيل : ثلاث ساعات ، وقيل ساعة واحدة . وقال ٱبن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت ، ولم يكن بين الحمل والٱنتباذ إلا ساعة واحدة ؛ لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلا . وقال مُقاتل : حملته مريم فى ساعة وصُوّر فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وهى بنت عشر سنين ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى عليه السلام . قال : فٱنصرف يوسف الى زكريّا وأخبره بولادة مريم وكلام عيسى ، فٱزداد زكريّا غمًّا لما يقوله الناس .

قال الثعلبىّ قال وهب : فلما وُلد عيسى عليه السلام أصبحتِ الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رءوسها ، ففَزِعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك ، فساروا مسرعين حتى جاءوا إبليس وهو على عرش له فى لُجّة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء ، فأتَوْه وقد خلت ستّ ساعات من النهار . فلمّا رأى إبليس جماعته فزع من ذلك ولم يرهم جميعا منذ فرّقهم قبل تلك الساعة إنما كان يراهم أشتاتا ، فسألهم ، فأخبروه أنه حدث فى الأرض حادث أصبحت الأصنام كلها منكوسة على رءوسها ، ولم يكن شىء أعون على هلاك بنى آدم منها لما يدخل فى أجوافها فتكلّمهم وتدبّر أمرهم ، فيظنّون أنها هى التى تكلّمهم ، فلمّا أصابها هذا الحادث صغّرها فى أعين

بنى آدم وأذلّها ، وقد خَشِينا ألّا يعبدوها بعد هذا . وٱعلم إنّا لم نأتك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شيء ، فلم نزدد بما أردنا إلا جهلا . فقال لهم إبليس : إنّ هذا لأمرٌ عظيم ، فكونوا على مكانكم . وطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات ، فمرّ بالمكان الذى وُلد فيه عيسى عليه السلام . فلمّا رأى الملائكة مُحْدِقين بذلك المكان علم أنّ ذلك الحادث فيه ، فأراد إبليس أن يأتيه من فوقه فإذا فوقه رءوس الملائكة ومناكبهم الى السماء ، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدامُ الملائكة راسيةٌ ، فأراد أن يدخل من بينهم فنحّوْه عن ذلك ، فرجع إبليس إلى أصحابه فقال : ماجئتكم حتى أحصيت الأرض كلها شرقها وغربها وبرّها وبحرها والخافِقَيْنِ والجوّ الأعلى ، وكل هذا بلغته فى ثلاث ساعات ، وأخبرهم بمولد عيسى عليه السلام وقال : ما ٱشتملت قبله أمّ على ولد إلّا بعلمى ، ولا وضعته قطّ إلّا وأنا حاضرها . وإنى لأرجو أن أُضِلّ به كثيرا ممن يهتدى ، وما كان نبىّ قبله أشدّ علىّ وعليكم من هذا المولود .

٥٥/١٢

قال : ثم خرج من تلك الليلة قوم يؤمُّونه من أجل نجم طلَع ، وكانوا قبل ذلك يتحدّثون أنّ مطلع ذلك النجم من علامات مولود فى كتاب دانِيَال ، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمرُّ واللُّبان ، فمرّوا بملك (١) من ملوك الشام ، فسألهم أين تريدون ؟ فأخبروه بخبرهم . قال : فما بال الذهب والمرّ واللُّبان أهديتموه له من بين الأشياء

(١) هو هيرودس الأكبر الذى حكم من ٤٠ — ٤ قبل الميلاد ، والتاريخ المسيحى متأخر عن وقته الأصلى بأربع سنين ، ولذلك يكون ميلاد المسيح فى السنة الأخيرة من ملكه . وكان هيرودس هذا حديد الذهن قوىّ الارادة مشهورا بالحيل غير أنه كان عنيفا صارما لا يبرح الحق فى إجراء مقاصده . (راجع الكتاب المقدس ج ٣ ص ٣ وقاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست وتاريخ الطبرى ص ٧٤٠ من القسم الأول) .

كلها[1]؟ قالوا: تلك أمثاله؛ لأنّ الذهب سيّد المتاع كله، وكذلك هذا النبيّ سيد أهل زمانه. ولأنّ المرّ يجبر به الكسر والجُرْح، وكذلك هذا النبيّ يَشْفِي الله تعالى به كل سقيم ومريض. ولأن اللُّبان يبلغ دُخَانه إلى السماء ولا يبلغها دُخان غيره، وكذلك هذا النبيّ يرفعه الله تعالى إلى السماء ولا يرفع فى زمانه أحدا غيره. فلمّا قالوا ذلك للملك حدّث نفسه بقتله فقال: اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك فإنى راغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره. فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهديّة إلى مريم، وأرادوا أن يرجعوا إلى الملك ليعلموه بمكان عيسى، فلقيهم مَلَكٌ فقال لهم: لا ترجعوا إليه ولا تعلموه بمكانه فإنه إنما أراد بذلك ليقتله، فانصرفوا فى طريق آخر. وقال مُجاهد: قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدّثنى وحدّثته، فإذا شغلنى عنه شىء سبّح فى بطنى وأنا أسمع.

قالوا: وكان مولد عيسى عليه السلام بعد مضىّ اثنتين وأربعين سنة من مُلْك أغوسطوس[2]، وخمسين سنة مضت من مُلك الأشغانيين[3] ملوك الطوائف. وكانت المملكة لملوك الطوائف، والرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم، والملك عليها من قِبَل قَيْصر هِيرُودُس[4]، وقيل فى اسمه هرادوس.

---

(١) هذه عبارة الثعلبي الذى ينقل عنه المؤلف. وفى الأصل: «..... أهديتموه بهذه الأشياء».

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٤٠ من القسم الأوّل). وفى الأصول: «أعسوطوس» وهو تحريف.

(٣) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٠٦ من القسم الأوّل). وذكر الطبرى أن الأشغانيين استمرّ ملكهم ستا وستين ومائتى سنة. وفى الأصول: «الأسكانيين».

(٤) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٣) وقاموس الكتاب المقدّس لبوست وتاريخ الطبرى ص ٧٤٠ من القسم الأوّل). وفى الأصول: «هردوس».

ذكر رجوع مريم بعيسى عليه السلام بعد مولده الى قومها

قال الكسائيّ : ثم قامت مريم بعد الولادة وحملت عيسى على صدرها حتى أشرفت به على بنى إسرائيل وزكريا بينهم . وقال الثعلبيّ قال الكلبيّ : احتمل يوسفُ مريمَ وعيسى الى غار فأدخلهما فيه أربعين يوما حتى تَعَالَّتْ[1] مريم من نِفاسها، ثم جاء بهما فكلّمها عيسى فى الطريق فقال : يا أمّاه، أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه . قال الله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾[2] . فلما نظروا اليها بكَوْا و﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى عظيما فظيعا لا يُعرَف منك ولا من أهل بيتك ، وكانوا أهل بيت صالحين . ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ واختلف فى سبب قولهم لها « يا أخت هارون » ، فقال الكسائيّ : ناداها هارون وكان أخاها من أمّها ، وهو من أحبار بنى إسرائيل وعُبّادهم ، وقال لها : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ، فمن أين لك هذا الولد ! وقال الثعلبيّ قال قتادة : كان هارون رجلا صالحا من أتقياء بنى إسرائيل، وليس هارون أخا موسى . وقال وهب : كان هارون من أفسق بنى إسرائيل وأظهرهم فسادا، فشبّهوها به . ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أى كلّموه . ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ! ، وضربوا بأيديهم على جباههم تعجّبا، فتنحنح عيسى و﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ . قالوا : فلما سمع ذلك أحبار بنى إسرائيل علموا أنه لا أبَ له وأنّ الله تعالى خلقه كما خلق آدم . فقال زكريا : الحمد لله الذى برّأنا بقول عيسى من فُسّاق بنى إسرائيل . قالوا : ثم لم يتكلم عيسى بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان . وقيل غير هذا . والله أعلم .

(١) تعالّت المرأة من نفاسها : خرجت منه وطهرت . (٢) سورة مريم آية ٢٧ وما بعدها .

ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر

٥٦/١٢ وما ظهر له من المعجزات فى مسيره ومدّة مُقامه إلى أن عاد

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (١) . اختلف العلماء فى الرَّبوة فقال عبد الله بن سَلَام : هى دمشق . وقال أبو هريرة : هى الرَّمْلة . وقال قَتَادة وكعب : هى بيت المقدس . وقال كعب : هى أقرب الأرض إلى السماء . وقال أبو زيد : هى مصر . وقال الضحّاك : هى غُوطَة دمشق . وقال أبو العالية : هى أيلة . وقال بعض المفسرين : هى قرية من قرى مصر تسمى سَدَمَنْت . وسَدَمَنْت : بلد من بلاد إقليم الفيوم معروفة مشهورة . وقوله تعالى : ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ القرار : الأرض المستوية . والمعين : الماء الظاهر . وكان سبب خروج مريم إلى مصر ما حكاه الكسائىّ وغيره من أهل السير قالوا : وبلغ الملك هِيرُودُس خبر عيسى فهمّ بقتل مريم وابنها ، فخاف زكريا والمؤمنون عليهما من القتل ، وذلك بعد مولد عيسى بأيام قلائل ، فقال زكريا لمريم : إنى أخاف عليك وعلى ابنك من هذا الملك ، وأمر يوسف النجّار أن ينقلهما إلى أرض مصر ، وأعطاهما أتانا وزوّدهم ، فسار يوسف بهما نحو مصر .

وكان من المعجزات التى ظهرت على يَدَىْ عيسى عليه السلام فى مسيره ومُقامه بمصر أنه بينما هم سائرون إلى أرض مصر رأى يوسف النجّار فى بعض الطريق أسدا ففزِع منه ، فقال عيسى : قربانى إلى الأسد ولا تَقْرَباه أنتم ، فقربوه ، فلما صار بين يَدَىِ الأسد قال عيسى : أيها الوحش ، ما وقوفك على قارعة الطريق ؟ قال : لثور

(١) سورة المؤمنون آية ٥٠

يمرّ عليّ لا بدّ لى منه . قال عيسى : هذا الثور لقوم مساكين ليس لهم سواه، ولكن انطلق إلى برّيّة كذا وكذا، فإنك سترى جملا ميّتا فكُلْه، وآترك هذا الثور لأصحابه، فمضى الأسد نحو الميتة وتركهم . والله أعلم بالصواب .

معجزة أخرى :

قال : ثم ساروا، فرأَوْا قوما قد آجتمعوا بالقُرب من دار ملك من الملوك . فقال لهم عيسى : ما وقوفكم هاهنا ؟ . قالوا : امض أيها الصبيّ لشأنك . قال : أتحبُّون أن أخبركم بوقوفكم ؟ قالوا نعم . قال : إنكم تريدون دخول هذه الدار اذا جنّ الليل فتأخذون مال هذا الملك ، فلا تفعلوا فإنه مؤمن ، ودلّهم على كنز وقال : إنه كان لقوم ماتوا، فسار أولئك إليه وآقتسموا منه مالا عظيما .

معجزة أخرى :

قال : ثم ساروا حتى دخلوا قرية عامرة وقد آجتمع الناس على باب ملكها ومعهم صنم من حجر وهم يبكون و يسجدون لذلك الصنم . فقال عيسى : ماشأنكم أيها القوم؟ فقالوا : إنّ امرأة هذا الملك قد عسُر عليها وضع الولد، وقد أمرنا الملك أن نسجد لهذا الصنم ونسأله أن يخفّف عنها ما هى فيه . قال عيسى : اذهبوا الى الملك وقولوا له : لو وضعتُ يدى على بطنها يخرج الولد عاجلا . فأخبروا الملك فقال: ائتونى به، فأدخلت مريم وعيسى على الملك، فعجب من نطقه وهو صغير، وأدخل على المرأة، فقال عيسى: إن أخبرتك بما فى بطنها وخرج كما أقول أتؤمن بربّى الذى خلقنى من روحه؟ . قال نعم . قال عيسى : فى بطنها غلام على خدّه خال أسود ، وعلى ظهره شامة بيضاء، ثم وضع يده على بطن المرأة وقال : أيها الجنين، بالذى خلق الخلق وأسبغ عليهم سعة الرزق أُخرُج . فخرج الولد على ما وصفه عيسى .

فهمّ الملك أن يؤمن، فقال وزراؤه : إنّ هذه المرأة ساحرة، وهذا الصبيّ مثلها، وقد طردوهما من بيت المقدس، ولم يزالوا به حتى ردّوه عن الإيمان . فأرسل الله تعالى على الملك وقومه صاعقة فأهلكتهم . ثم مضى يوسف بهما حتى دخلوا مصر، ونزلت مريم دار دِهقان(١) هناك، ولم يكن لها ما تعيش منه إلّا الغَزْل، فكانت تغزل الكتّان والصوف بالأُجرة لأهل مصر، ويوسف يحتطب ويبيع الحطب مدّة ليس لهم رزق إلا من ذلك .

معجزة أخرى :

٥٧/١٢ قال الثعلبيّ قال وهب : كان أوّل آية رآها النـاس من عيسى أنّ أمه كانت نازلة فى دار دِهقان من أهل مصر أنزلها به يوسف النجّار حين ذهب بها إلى مصر، وكانت داره يأوِى إليها المساكين، فسُرق للدِّهقان مال من خزانته فلم يتّهم المساكين، فحزِنت مريم لمصيبة الدهقان . فلمّا رأى عيسى حُزْن أمّه بمصيبة صاحب ضيافتها قال لهـا : يا أمّاه، أتحبّين أن أدلّه على ماله؟ قالت : نعم يا بنىّ . قال : قولى له يجمـع لى مساكين داره . فقالت مريم ذلك للدهقان، فجمع له المساكين . فلمـا اجتمعوا عمَد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مُقعَد، فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له : قُم به . فقال الأعمى : أنا أضعف من ذلك . فقـال عيسى : وكيف قويت على ذلك البارحة! . فلمّا سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام. فلما استقلّ قائمـا هوى المُقعَد إلى كُوة الخزانة . فقال عيسى عليـه السلام : هكذا احتالا على مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوّته والمقعد بعينيه . فقال المقعد والأعمى : صدق، فردّا على الدهقان ماله . فقال الدهقان لمـريم : خذى نصف المـال . فقالت : إنى لم أُخلق لهـذا . قال : فأعطه ابنـك . قالت : هو أعظم منى شأنا . والله أعلم بالصواب .

(١) الدهقان : التاجر أو رئيس الإقليم .

معجزة أخرى :

قال : ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس ٱبنا له ، فصنع له عيدا فجمع عليه أهل مصر وكان يُطعمهم شهرين . فلمّا انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان بهم حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب . فلمّا رأى عيسى ٱهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان فيه جرار، فأمرّ عيسى يده على أفواهها وهو يمشى، فكلّما مرّ بيده على جرّة امتلأت شرابا حتى أتى على آخرها ، وهو يومئذ ابن ٱثنتى عشرة سنة .

معجزة أخرى :

قال : وبينا عيسى يلعب مع الصبيان بأرض مصر، إذ وثب غلام منهم على غلام آخر فقتله . فجاء أهله وتعلّقوا بجميع الصبيان وفيهم عيسى وأتَوْا بهم الى القاضى . فقال القاضى : مَن قتل هذا ؟ قالوا : هذا، وأشاروا إلى عيسى . فقال له القاضى : لم قتلتَ هذا الغلام ؟ قال : أراك حاكما جاهلا، كان يجب أن تسألنى : أقتلته أم لا ! قال القاضى : أراك ذا عقل، فما ٱسمك ؟ قال : عيسى بن مريم . قال : يا عيسى، لم قتلتَه؟ قال : ياجاهل، أبهذا أمرتك؟ ثم دنا عيسى من الغلام وقال : قم بإذن الله الذى يحيي العظام وهى رميم، فٱستوى جالسا وقال له : مَن قتلك ؟ قال : قتلنى فلان بن فلان ، وهذا عيسى بن مريم برىء من دمى . فعجِب الناس من ذلك وقتلوا قاتل الغلام، وأخذت مريم بيد عيسى وٱنطلقت .

معجزة أخرى :

قال : وأتت به أمّه الى معلّم ليعلّمه، فقال: إنّ ربى قد أغنانى عن تعليم المعلّمين وقد علّمنى التوراة والإنجيل. قالت : صدقت، ولكن تكون عند معلّم خير من أن تلعب مع الصبيان . فأتت به الى معلّم يعلّمه، فعلّمه عيسى . قال الثعلبىّ : وروى

محمد الباقر رحمه الله قال : لما وُلد عيسى عليه السلام كان ٱبنَ يوم كأنه ٱبن شهر، فلمّا كان ٱبنَ تسعة أشهر أخذت والدته بيده وجاءت به الى كتّاب وأقعدته بين يدَي المؤدّب . فقال له المؤدّب : قل : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » فقالها عيسى عليه السلام . فقال المؤدّب : قل : أبجد، فرفع عيسى رأسه وقال للمؤدّب : هل تدرى ما أبجد؟ فعلاه ليضربه . فقال : يا مؤدّب، لا تضربنى، إن كنت تدرى وإلّا فسَلْنى حتى أُفسّر لك . فقال : فسِّره لى . فقال عيسى عليه السلام : الألف آلاء الله، والباء بهجة الله، والجيم جلال الله، والدال دين الله . هوّز، الهاء هى جهنم وهى الهاوية، والواو ويل لأهل النار، والزاى زفير جهنم . حُطّى، حُطّت الخطايا عن المستغفرين . كَلَمُن، كلام الله غير مخلوق لا مبدّل لكلماته . سعفص، صاع بصاع والجزاء بالجزاء . قَرَشَتْ تقرشهم حين تحشرهم، أى تجمعهم . فقال المؤدّب لأمه : أيتها المرأة، خذى بيد ٱبنك فقد عُلِّم ولا حاجة له الى مؤدّب . وقال سَعيد بن جُبَير : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ عيسى عليه السلام أرسلته أمّه الى الكُتّاب ليتعلّم، فقال له المعلّم قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال وما باسم الله . قال لا أدرى . قال الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته" . والله أعلم الموفّق .

٥٨
١٢

معجزة أخرى :

قال الكسائىّ : وٱنطلقت به أمّه إلى صبّاغ ليعلّمه صنعة الصباغة . فأخذه الصبّاغ وأمره أن يملأ التِّيغارات[1] من تيغار كبير، وناوله أصباغا وأمره أن يجعل فى كل تيغار صِبْغًا، وأن يصبُغ الثياب فى تلك التيغارات على ٱختلاف ألوانها، وفارقه الصبّاغ وخرج إلى منزله . فعمَد عيسى إلى تيغار واحد وملأه ماء وأخذ جميع تلك

(١) فى كتب اللغة : التيغار : الإجانة (بكسر الهمزة وتشديد الجيم) . والإجانة : إناء تغسل فيه الثياب جمعه أجاجين .

الأصباغ فجعلها فيه، ووضع جميع تلك الثياب فيه وآنصرف إلى أُمّه . فلما كان من الغد جاء الصبّاغ إلى الحانوت فنظر إلى ما فعله عيسى، فقال له : يا عيسى أهلكتنى وأفسدت ثياب الناس. قال عيسى : ياصبّاغ، ما دِينك؟ قال : دين اليهود . قال : قل : لا إله إلا الله وأنّى عيسى رُوح الله، وأدخل يدك فى هذا التيغار وأخرج كل ثوب على ما تريد . فآمن الصبّاغ بالله و بعيسى عليه السلام وأدخل يده فأخرج كل ثوب على ما أراده أصحابه . قال : وظهر لعيسى بمصر معجزات كثيرة .

ذكر خبر زكريا عليه السلام
مع هيرودس الملك وما كان من أمره

قال الكسائىّ : ولمّا كان من أمر عيسى عليه السلام وكلامه ما قدّمناه وتنكّست الأصنام ليلة مولده، جاء إبليس لعنه الله إلى الملك فى صورة شيخ وقال له : أيها الملك ، إن لك عندى نصيحة فآخلُ معى . فخلا به وقال : ما نصيحتك؟ قال : قد بلغك ما كان من شأن المولود الذى تكلم فى المهد . قال نعم . قال : وقد رأيتَ ما حلّ بالأصنام من شؤم مولده، و إنه لخليق أن يشمَل الأرض كلها بشؤمه، وأنت فلا يمكنك قتله الآن لخروجه من بلادك، وأرى أن تفعل أمرا يتشاءم الناس بسببه بهذا المولود ويُعينونك على قتله ، وأنت مع ذلك تطلبه، فإن ظفرتَ به ذبحته . قال الملك : فما الذى رأيت ؟ فلعمرى لقد وقع فى نفسى إنك لخليق أن يكون عندك رأى ومكيدة . قال : تذبح الولدان، فإن ذلك يبغّضه إلى الناس و يتشاءمون به فيكفوك أمره . قال : لقد أتيت بالأمر على وجهه ، وأمر بذبح الولدان من سنتين فما دونهما، فوقع الذبح فى صبيان بنى اسرائيل . قال : ثم انطلق إبليس إلى مجالس بنى اسرائيل ونواديهم يقول : الفاحشة فى مريم ويقذفها بزكريا، يعرّض

بذلك لخيارهم ، ويبوح به ويصرح لشرارهم ، حتى شاعت الفاحشة على زكريا . فلما رأى زكريا ذلك هرب واتّبعه سفاؤهم وشرارهم ، وسلك فى واد كثير النبت ، حتى اذا توسّط الوادى انفرجت له شجرة فدخلها وأقبل القوم فى طلبه ، وإبليس يقدُمهم حتى أوقفهم عليه وهو فى الشجرة وقد آلتحمت عليه ، فأشار عليهم بقطعها ، فقُطعت . ثم قال لهم : أىّ العقوبة والنكال أبلغ فى هذا الذى أورث آباءكم الطيبين إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذرّيتهم من بعدهم الفضيحة والعار؟ ! . قالوا : القتل أو النشر . فأشار عليهم بنشره ، فنشروه نصفين ثم آنصرفوا عنه ، وغاب عنهم إبليس لعنه الله . وبعث الله تعالى الملائكة فغسلوا زكريّا وصلّوا عليه ثلاثة أيام ثم دفنوه . وقد قيل فى مقتل زكريا غير هذا ، وقد تقدّم فى أخباره . والله أعلم .

ذكر رجوع عيسى ومريم عليهما السلام من مصر

٥٩/١٢

قال الكسائىّ قال وهب : وأقامت مريم وآبنها عيسى بمصر آثنتى عشرة سنة حتى أهلك الله الملك هِيرُودُس . قال : وأوحى الله تعالى إلى مريم بوفاة الملك وأمرها أن ترجع إلى بلادها بالشام ، فجاء يوسف النجار فرجع بها . فلم تزل هى وآبنها يسكنان بجبل الخليل بقرية يقال لها الناصرة[1] ، وبها سمّيت النصارى ، وبها آبتُدعت النصرانية . قال : ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى بعد أن تمت له ثلاثون سنة أن يبرز إلى الناس ويدعوهم إلى الله تعالى ، وأنزل عليه الإنجيل . فكان يسير فى البلاد ويدعو

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت والكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٩٧) . وهى مدينة اشتهرت بكونها وطن المسيح مدّة طفولته وصباه إلى أن ابتدأت خدمته ، وهى تبعد ١٤ ميلا عن بحر الجليل و ٦ أميال عن تابور و ٦٦ ميلا عن أورشلم . وفى الأصول : « ناصورية » .

الناس إلى الله عز وجل، ويرغّبهم فيما عنده، ويزهّدهم فى الدنيا ويضرب لهم أمثالا، ويداوى المرضى والزَّمْنَى[1]، ويُبرئ الأكمه والأبرص. فأحبّه الناس وسكنوا إليه، وكثُرت أتباعه حتى آمتنع وعلا أمره. ثم أحيا الموتى بإذن الله تعالى.

قالوا: وربما آجتمع عليه من المرضى والزَّمْنَى فى الساعة الواحدة خمسون ألفا، فمن أطاق منهم أن يبلُغه بلغه، ومن لم يقدر على ذلك أتاه عيسى يمشى إليه. وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان.

ذكر خبر الحواريّين[2]

حين آتبعوا عيسى عليه السلام وآمنوا به

قال الكسائىّ رحمه الله: ومرّ عيسى على قوم يَصِيدون السمك وهم أربعة: شِمْعُون، وأخ له آسمه أَنْدِرِيُوس، ويعقوب، ويُوحنّا. فوعظهم وزهّدهم فى الدنيا ووعدهم الجنة ونعيمها فآمنوا به وآتّبعوه. قال: ومرّ بطائفة أخرى فوجدهم على نهر يغسلون الثياب، منهم لُوقا، وتوما، ومرقوس، ويُوحنّا، وأخوان لهم صبيّان لم يبلُغا الحُلُم، أحدهما شِمْعُون والآخر يعقوب، وقيل فى أسمائهم غير هذا. والله تعالى أعلم. فقال لهم عيسى: يا قوم، إنكم تقصّرون هذه الثياب وتنظّفونها من أوساخها، فلم لا تفعلون ذلك مع قلوبكم! . ثم قال لهم: إنّى رسول الله إليكم جميعا، وبشّرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي آسْمُهُ أَحْمَدُ[3] ﴾

(١) الزمنى: أصحاب العاهات.

(٢) الحواريون: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا قصارين وصباغين. وهم خاصة الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال تعالى: «من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله» وقال عليه الصلاة والسلام: "لكل نبىّ حوارىّ وحوارىّ الزبير". وأسماؤهم كما فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ١٦) سِمعان وأَنْدَرَاوُس ويعقوب بن زَبَدَى ويوحنّا وفيلُبّس وبَرْتَلْمَاوُس وتُومَا ومتّى العشّار ويعقوب ابن حَلْفَى وتَدَّاوُس وسمعان القانوىّ ويهوذ الإسخريوطىّ.

(٣) سورة الصف آية ٦

قال : فآمنوا به واتّبعوه، وكانوا كلهم اثنى عشر رجلا، أربعة منهم كانوا يصيدون السمك، وثمانية يقصّرون الثياب . وكان من القصّارين رجل أسفلَ النهر يقال له يُوذا[1] لم يسمع كلام عيسى. فلمّا رأى أصحابه اتّبعوه لحق بهم، وهو الذى ارتدّ بعد ذلك ودلّ اليهود على عيسى، فصاروا به قبل ارتداده ثلاثة عشر .

ذكر الخصائص والآيات والمعجزات

التى أظهرها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام بعد مبعثه

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾[2] الآيات . قوله تعالى : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ قال الحسن : ذكر النعمة : شكرها، وأراد بقوله : ﴿ نِعْمَتِي ﴾ نعمى، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[3] . ثم ذكر تعالى النعم فقال : ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وقال : ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾[4] . واختلفوا فى روح القدُس ماهو ؟ فقال الربيع بن أَنَس : هو الرُّوح الذى نفخ فيه، أضافه سبحانه الى نفسه

٦٠/١٢

---

(١) اسمه « يهوذا الإسخريوطى » كما فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٨٥) .

(٢) سورة المائدة آية ١١٠ (٣) سورة ابراهيم آية ٣٤ (٤) سورة البقرة آية ٨٧ وورد فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي عن روح القدس مانصه : أنه جبريل عليه السلام وهو الأصح. قال النحاس : وسمى جبريل روحا وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحا من غير ولادة والد ولده؛ وقال حسان :

وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس به خفاء

(راجع ج ٢ ص ٢٤ من الطبعة الثانية وج ٦ ص ٣٦٢ من الطبعة الأولى) .

تكرُّما وتخصيصا، نحو : بيت الله، وناقة الله . والقدس : هو الله تعالى يدلّ عليه قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (١) . وقال آخرون : أراد الله تعالى بالقدس : الطهارة، يعنى الروح الطاهرة، سمّى روحه قدسا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة إنما كان أمرا من الله تعالى . وقال السُّدّىّ وكعب : روح القدس هو جبريل، وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو أنه كان رفيقه وقرينه يُوحِى اليه و يعينه و يسير معه حيثما سار الى أن صَعِد به الى السماء. وقال سعيد بن جُبَير وعُبيد بن عُمير: هو اسم الله الأعظم، وبه كان يُحيي الموتى ويُرى الناس تلك العجائب. وقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى الخطّ، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يعنى العلم والفهم . ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ كان يقرؤهما من حفظه. وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ . قوله : ﴿ تَخْلُقُ ﴾ أى تجعل وتصوِّر وتقدِّر ﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ أى كصورة الطير . فكان عيسى يصوِّر من الطين كهيئة الطير ثم ينفُخ فيه فيصير طيرا بإذن الله تعالى. قالوا : ولم يخلُق غير الخُفّاش. وانما خُص بالخُفّاش لأنها أكمل الطير خَلْقا، فتكون أبلغ فى القُدرة، لأن لها ثديا وأسنانا، وهى تَلِد وتَحيض وتطهر . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون اليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميّز فعل الخلق من فعل الله تعالى، وليعلم أنّ الكمال لله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ . الأكمه : الذى وُلد أعمى ولم ير الضوء قط . قالوا : ولم يكن فى الإسلام أكمه غير قَتادة . والأبرص : الذى به وَضَح، وكان الغالب على زمن عيسى الطبّ، فأراهم الله تعالى المعجزة من جنس ذلك .

(١) سورة التحريم آية ١٢

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله : يروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ بدير فيه عُمْيان، فقال : ما هؤلاء ؟ فقيل : هؤلاء قوم طُلِبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم . فقال لهم : ما دعاكم الى هذا ؟ فقالوا : خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى . فقال : أنتم العلماء والحكماء والأحبار والأفاضل ، امسحوا بأيديكم أعينكم وقولوا : باسم الله . ففعلوا ذلك فإذا هم جميعا يبصرون .

ذكر خبر سام بن نوح وغيره
الذين أحياهم عيسى بإذن الله عز وجل

قال الكسائيّ قال وهب : سألتْ طائفة من بنى اسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام أن يُحيي لهم سام بن نوح وقالوا : أَحْيِ[1] لنا سام بن نوح ليكلّمنا وإلّا قتلناك، وإن فعلتَ آمنّا بك واتّبعناك. فأوحى الله تعالى اليه : نادِه ثلاث مرّات فإنه سيُجيبك. فقام عيسى على قبره وناداه ثلاث مرات : يا سام بن نوح قم بإذن الله ، فقام فى الثالثة وهو أشمط[2] الرأس واللحية . فقال له عيسى : أهكذا متّ أبيض الرأس واللحية ؟ قال : لا ، ولكنّى سمعت نداءك فخفت أن تكون القيامة فشَمِطتُ ، وأخبر القومَ بما أرادوه وكلمهم ، ثم ردّه عيسى الى قبره ، وما آمن بعيسى منهم إلّا قليل .

(١) وعبارة الكسائى : « فقالوا : أحى لنا سام بن نوح وسام يومئذ فى تابوت من حجر . قال : فوثب عيسى وتوضأ وصلى ركعتين ... الخ » وعبارة الثعلبيّ : «قال له الحواريون وهو يصف لهم سفينة نوح عليه السلام : لو بعثت لنا من شهد السفينة فينعت لنا ذلك ... الخ » . و وردت العبارة فى الأصول مضطربة .

(٢) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد .

قالوا : وممن أحياه عيسى بن مريم العازر ، وكان صديقا له ، فأرسل أخته الى عيسى إنّ أخاك العازر يموت فأتِه ، وكان بينه وبين أن يصل إليه مسيرة ثلاثة أيام ، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام ، فقال لأخته : انطلق بنا الى قبره ، فانطلقت معهم الى قبره وهو فى صخرة مُطْبِقَة . فقال عيسى : اللهمّ ربّ السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتَنى الى بنى اسرائيل أدعوهم الى دينك وأخبرتُهم أنى أُحيِي الموتى بإذنك فأَحْيِ العازر . فقام العازر وأوداجه تقطُر . فخرج من قبره وبقى وُولِد له .

٦١/١٢ قالوا : ومرّ عيسى عليه السلام برجل جالس على قبر وكان يكثر المرور به فيجدُه جالسا عنده ، فقال له : ياعبد الله ، أراك تكثر القعود على هذا القبر . فقال : يارُوح الله ، آمرأة كانت لى وكان من جمالها وموافقتها كيت وكيت ولى عندها وديعة . فقال عيسى : أتحبّ أن أدعو الله تعالى فيحييها ؟ قال نعم . فتوضّأ عيسى وصلّى ركعتين ودعا الله عز وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جِذْع محترق . فقال له : ما أنت ؟ قال : يا رسول الله أنا فى عذاب منذ أربعمائة سنة ، فلما كانت هذه الساعة قيل لى أجِبْ فأجبتُ . ثم قال : يا رسول الله ، قد مرّ علىّ من أليم العذاب ما إن ردّنى الله الى الدنيا أعطيته عهدا ألّا أعصيه ، فآدعُ الله لى . فرقّ له عيسى ودعا الله عز وجل ثم قال له : امِض ، فمضى . فقال صاحب القبر : يارسول الله ، لقد غلِطت بالقبر ، إنما قبرها هذا . فدعا عيسى عليه السلام ، فخرج من ذلك القبر امرأة شابّة جميلة . فقال له عيسى : أتعرفها؟ قال : نعم هذه آمرأتى . فدعا عيسى حتى ردّها الله عليه . فأخذ الرجل بيدها حتى انتهيا الى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه فى حجر المرأة . فمرّ بهما آبن ملك فنظر اليها ونظرت اليه وأُعجب كل

واحد منهما بصاحبه ، فأشار اليها فوضعت رأس زوجها على الشجرة وآتّبعت آبن الملك . فاستيقظ زوجها ففقدها وطلبها فدُلّ عليها ، فأدركها وتعلّق بها وقال : آمرأتى ، وقال الفتى : جاريتى . فبينما هم كذلك إذ طلع عيسى فقال الرجل : هذا عيسى وقصّ عليه القصّة . فقال لها عيسى : ما تقولين ؟ قالت : أنا جارية هذا ولا أعرف هذا . فقال لها عيسى : ردّى علينا ما أعطيناك . قالت : قد فعلت . فسقطتْ مكانها ميّتة . فقال عيسى : هل رأيتم رجلا أماته الله كافرا ثم بعثه فآمن ! . وهل رأيتم آمرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت ! .

قالوا : ومرّوا بميّت على سرير ، فدعا عيسى الله تعالى ، فجلس الميّت على السرير ونزل عن أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله وبقى وولِد له .

وممن أحياه عيسى بإذن الله تعالى آبنة العازر ، قيل له : أتحييها وقد ماتت بالأمس ! فدعا الله عز وجل ، فعاشت وبقيت وولدت .

قال الكسائىّ : وسأل بنو إسرائيل عيسى عليه السلام أن يُحيي لهم عُزَيرا ، فقال : التمسوا قبره فآلتمسوه ، فوجدوه فى صندوق من حجر ، فعالجوه ليفتحوا بابه فلم يستطيعوا ذلك . فرجعوا الى عيسى وأخبروه أنهم عجزوا أن يُخرجوه من قبره ، فأعطاهم ماء فى إناء وقال : انضَحوه بهذا الماء فإنه ينفتح . فآنطلقوا ونضحوه بالماء فآنفتح طابقه . فأقامه عيسى فى أكفانه فنزعها عنه ، ثم جعل ينضح جسده بالماء ولحمه ينبت وشعره وهم ينظرون . ثم قال عيسى : يا عُزَير احْىَ بإذن الله ، فإذا هو جالس . فقالوا : ما شهادتك على هذا الرجل ؟ فقال عزير : أشهد أنه روح الله وكلمته ألقاها الى مريم وأنه عبد الله ونبيّه وآبن أمَته . قالوا : ياعيسى ، ادعُ ربك يحييه لنا فيكون بين أظهُرنا . فقال عيسى : ردّوه الى قبره فإنه انقطع رزقه وآنقضى أجله ، فردّوه الى قبره .

ومن معجزاته عليه السلام إخباره عن الغيوب

قال الله عز وجل إخبارا عنه: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١). قالوا: لما أبرأ عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله قالوا له: إنك تزعم أنك تخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندّخر. قال نعم. قالوا: فإنّا نجمع خيارنا وأحبارنا ورهباننا فنأمرهم أن يأكلوا ويدّخروا فى بيوتهم ثم نأتيك فتخبرنا. قال نعم. فانطلقوا الى بيوتهم وأكلوا وآدّخروا وأقبلوا اليه من الغد، وسأله كل رجل منهم وهو يخبره بما أكل وآدّخر.

ومما أخبر به عيسى عليه السلام من المغيّبات قصّة آبن العجوز. وكان من خبره ما حكاه أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله أن عيسى عليه السلام مرّ فى سياحته بمدينة ومعه الحواريّون، فقال: إنّ فى هذه المدينة كنزا، فمن يذهب فيستخرجه؟. قالوا: يا روح الله، لا يدخل هذه القرية غريب إلّا قتلوه. فقال لهم: مكانكم حتى أعود اليكم، ومضى حتى دخل المدينة فوقف بباب فقال: السلام عليكم يأهل الدار، غريب أطعموه. فقالت له آمرأة عجوز: أمَا ترضى أن أدعَك لا أذهب بك الى الوالى حتى تقول أطعمونى شيئا! . فبينا عيسى بالباب إذ أقبل آبن العجوز فقال له عيسى: يا عبد الله، أضِفْنى ليلتك هذه. فقال له الفتى مثل مقالة العجوز. فقال له عيسى: أمَا إنك لو فعلت ذلك زوّجتك بنت الملك. فقال له الفتى: إمّا أن تكون مجنونا، وإمّا أن تكون عيسى بن مريم. قال: أنا عيسى. فأضافه وبات عنده. فلمّا أصبح قال له: اغدُ وآدخل على الملك وقل له: جئت أخطب آبنتك فإنه سيأمر بضربك وإخراجك. فمضى الفتى حتى دخل على الملك وقال له:

٦٢/١٢

(١) سورة آل عمران آية ٤٩

جئت أخطب إليك ابنتك، فأمر به فضُرب وأخرج . ورجع الفتى إلى عيسى فأخبره، فقال له : إذا كان الغد فاذهب إليه واخطُب إليه فإنه ينالك بدون ذلك . ففعل ما أمره عيسى، فضربه الملك دون ذلك . فرجع الى عيسى فأخبره، فقال : إرجع اليه واخطبها فإنه سوف يقول لك : إنى أُزوجك إياها على حُكْمى، وحُكْمى قصر من ذهب وفضّة، وما فيه من فضّة و زَبَرْجَد، فقُلْ له : أفعَلُ ذلك . فاذا بعث معك فاخرج فإنك سوف تجده فلا تُحدِث فيه شيئا . فدخل عليه فخطب اليه، فقال : تُصدِقها حُكْمى ؟ فقال : وما حكمك ؟ فحكَم الذى سمّى [له][1] عيسى . فقال له : نعم، ابعَثْ مَن يقبض ذلك . فبعث معه [قوماً][1]، فدفع اليهم ما سأله الملك . فعجِب الملك من ذلك وسلّم اليه ابنته . فتعجّب الفتى وقال لعيسى : ياروح الله، تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحال ! . قال عيسى : لأننى آثرت ما يبقى على هذا الفانى . فقال الفتى : وأنا أدعه وأصحبك . فتخلّى من الدنيا واتّبع عيسى . فأخذ بيده وأتى أصحابه وقال : هذا هو الكنز الذى قلت لكم . فكان ابن العجوز مع عيسى حتى مات . والله أعلم .

ذكر خبر يجمع عدّة معجزات من معجزات عيسى عليه السلام

حكى أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله قال وَهْب : خرج عيسى عليه السلام يسيح فى الأرض، فصحبه يهودىّ، وكان مع اليهودىّ رغيفان، ومع عيسى رغيف . فقال له عيسى : تشاركنى فى طعامك ؟ قال اليهودىّ نعم . فلمّا رأى اليهودىّ أنّ عيسى ليس معه إلا رغيف واحدٌ ندِم . فقام عيسى الى الصلاة فأكل اليهودىّ رغيفا . فلما قضى عيسى صلاته قدّما طعامهما، فقال عيسى لليهودىّ : أين الرغيف الآخر؟

(١) الزيادة عن الثعلبىّ .

فقال : ما كان إلّا رغيف واحد، فأكل عيسى رغيفا وصاحبُه رغيفا، ثم آنطلقا فجاءا الى شجرة، فقال عيسى لصاحبه : لو أننا بتنا تحت هذه الشجرة! . فناما ثم أصبحا. فآنطلقا فلقيا أعمى، فقال له عيسى : أرأيتَ إن عالجتك حتى ردّ الله عليك بصرك هل تشكره؟ قال نعم . فمسّ عيسى عليه السلام بصره ودعا الله تعالى فإذا هو صحيح. فقال عيسى لليهوديّ : بالذى أراك الأعمى بصيرا كم كان معك من رغيف؟ فقال : والله ما كان إلّا رغيف واحد ، فسكت عيسى عنه . ومرّا فإذا هما بمُقعد ، فقال له عيسى : أرأيتَ إن عالجتك فعافاك الله تعالى هل تشكره؟ قال بلى . فدعا الله عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه . فقال صاحب عيسى : ما رأيتُ مثل هذا قط! . فقال عيسى : بالذى أراك الأعمى بصيرا والمُقْعَد صحيحا، مَن صاحب الرغيف الثالث؟ فحلف له اليهوديّ ما كان معه إلّا رغيف واحد، فسكت عيسى . وآنطلقا حتى آنتهيا الى نهر عَجّاج جرّار، فقال عيسى: لا أرى جسرا ولا سفينة، فخذ بحُجْزتى[1] من ورائى وضع قدمك موضع قدمى، ففعل ومشيا على الماء . فقال له عيسى : بالذى أراك الأعمى بصيرا والمقعد صحيحا وسخّر لك هذا البحر حتى مشيت عليه، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال : لا والله ما كان إلّا رغيف واحد، فسكت عيسى . وآنطلقا فإذا هما بظباء يرعَيْن، فدعا عيسى بظبي فأتاه فذبحه وشوى منه بعضا وأكلاه، ثم ضرب عيسى بقية الظبي بعصاه وقال: قُم بإذن الله عز وجل فإذا الظبي يعدو . فقال الرجل : سبحان الله ! . فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال : ما كان إلّا رغيف واحد . فآنطلقا فمرّا بصاحب بقر، فنادى عيسى: ياصاحب البقر، اجزُر لنا من بقرك هذه عجلا . قال : ابعَثْ صاحبك يأخذه . فآنطلق اليهوديّ فجاء به، فذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر اليه . فقال له عيسى:

٦٣/١٢

(١) الحجزة : معقد الإزار .

كُلْ ولا تكسِر له عظما، ففعل . فلمّا فرغ قذف بعظامه فى جلده وضربه بعصاه وقال : قُم بإذن الله تعالى ، فقام العجل وله خُوَار . فقال : ياصاحب البقر خذ عجلك . قال : ويحك! من أنت؟ قال : أنا عيسى بن مريم . قال : عيسى السحّار ! ثم فر منه . فقال عيسى لصاحبه : بالذى أحيا لك العجل، كم كان معك من رغيف؟

٥ قال : ما كان معى إلا رغيف واحد، فسكت عيسى . ومضيا حتى دخلا قرية، فنزل عيسى فى أسفلها واليهودىّ فى أعلاها، فأخذ اليهودىّ عصا عيسى وقال : أنا الآن أُبرئ المرضى وأُحيي الموتى . قال : وكان ملك تلك المدينة مريضا مُدنفا . فانطلق اليهودىّ ينادى : مَن يبتغى طبيبا، حتى أتى قصر الملك، فأُخبر بوجعه، فقال: أدخلونى عليه فأنا أبرئه، وإن لقيتموه قد مات فأنا أُحييه . فقيل له : إنّ وجع الملك

١٠ قد أعيا الأطبّاء قبلك ، فليس من طبيب يداويه ولا يَشفيه إلّا صلبه . فقال : أدخلونى عليه، فأدخلوه فضرب الملك بعصاه فمات . فجعل يضربه بالعصا وهو ميّت ويقول : قُم بإذن الله . فأُخِذ ليُصلَب . فبلغ ذلك عيسى، فأقبل اليه وقد رُفع على الخشبة، فقال لهم : أرأيتم إن أحييت لكم الملك أتتركون لى صاحبي؟ قالوا نعم . فدعا الله تعالى عليه السلام فأحياه وقام وأُنزل اليهودىّ من الخشبة، فقال : ياعيسى،

١٥ أنت أعظم الناس علىّ منّة، والله لا أفارقكَ أبدا . فقال له عيسى : أنشُدُك الله الذى أحيا الظبي والعجل بعد ما أكلناهما ، وأحيا هذا بعد ما مات ، وأنزلك من الجذع بعد ما صُلبت، كم كان معك من رغيف؟ قال : والله ما كان معى إلّا رغيف واحد، قال : لا بأس . ثم انطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خرِبة فيها كنز وفيها ثلاث لَبِنات من ذهب . فقال الرجل لعيسى : هذا المال لك؟ فقال : أجَلْ! واحدة لى، وواحدة لك،

٢٠ وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث . فقال اليهودىّ : أنا والله أكلته وأنت تصلى . فقال عيسى : هى لك كلها . فانطلق عيسى وتركه قائما ينظر وهو لا يستطيع أن

يحمل واحدة منهنّ ، وكلما أراد أن يحمل واحدة ثقُلت عليه . فقال له عيسى : دعه فإنّ له أهلا يهلكون عليه . فجعلت نفس اليهودىّ تَطَلَّع إلى المال ويكره أن يعصى عيسى ويعجز عن حمله . فانطلق مع عيسى، فبينما هما كذلك إذ مرّ بالمال ثلاثة نفر فأقاموا عليه . فقال اثنان منهما لصاحبهما : انطلق إلى أهل هذه القرية[1] فأتنا بطعام وشراب ودوابّ نحمل هذا المال عليها . فلمّا ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر : هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال فيما بيننا ؟ قال نعم . وقال الذى ذهب فى نفسه : هو ذا أجعل فى الطعام سمّا فإذا أكلاه ماتا ويصير المال كله إلىّ ، ففعل ذلك . فلمّا رجع إليهما قتلاه، ثم أكلا الطعام فماتا . ومرّ عيسى عليه السلام بهم وهم موتى حوله ، فقال : هكذا تصنع الدنيا بأهلها ، فأحياهم بإذن الله عز وجل ، فاعتبروا ومرّوا ولم يأخذوا من المال شيئا . فتطلّعت نفس اليهودىّ صاحب عيسى إلى المال فقال : أعطنى المال . فقال له عيسى : خذه فهو حظّك من الدنيا والآخرة . فلمّا ذهب اليهودىّ ليحمله خسف الله تعالى به الأرض ، وانطلق عيسى عليه السلام .

ذكر خبر المائدة التى أنزلها الله عز وجل من السماء

قال وهب : وسأل بنو إسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام أن يُنزل عليهم مائدة من السماء . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[2] . وقرأ علىّ وعائشة وسعيد بن جُبَير ومجاهد رضى الله عنهم « هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ » (بالتاء المثناة من أعلاها ونصب الباء الموحدة فى ربك) واختاره الكسائىّ وأبو عُبَيد

٦٤/١٢

(١) فى الثعلبى « إلى بعض هذه القرى » . (٢) سورة المائدة آيتى ١١٢ ، ١١٣

على معنى هل تستطيع أن تدعو ربك وتسأل ربك . قالوا : لأنّ الحواريّين لم يكونوا شاكّين فى قدرة الله تعالى . وقرأ الباقون « يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ » (بالياء المثناة من تحتها ورفع الباء) وقالوا : إنهم لم يشكّوا فى قدرة الله تعالى وإنما معناها هل يُنزل أم لا، كما يقول الرجل لصاحبه : هل تستطيع أن تنهض معى وهو يعلم أنه يستطيع، وإنما يريد هل يفعل أم لا، وأجراه بعضهم على الظاهر فقالوا : غلِط القوم وكانوا بشرا، فقال لهم عيسى عليه السلام استعظاما لقولهم : « اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » معناه أن تشكّوا فى قدرة الله أو تنسبوه إلى عَجْز أو نقصان . وقيل : قال لهم : اتقوا الله أن تسألوه شيئا لم تسأله الأمم قبلكم . قالوا : إنما سألنا لأنّا نريد أن نأكل منها فنستيقن قدرته وتطمئنّ وتسكُن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول الله، ونكون عليها من الشاهدين، فنقرّ لله بالوحدانية والقدرة، ولك بالرسالة والنبوّة. وقيل : ونكون عليها من الشاهدين لك عند بنى إسرائيل إذا رجعنا إليهم . قال الكسائىّ : فأمرهم عيسى بصيام ثلاثين يوما وأنّ الله بعد ذلك يُطعمهم ويُنزلها عليهم . فصاموا حتى تمّ الأجل، فقام عيسى وصلّى وسأل الله تعالى وقال : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١) . قال قوله : ﴿ عِيدًا ﴾ أى عائدة من الله علينا وحجة وبرهانا . والعيد اسم لما أعدته وعاد إليك من كل شىء ؛ ومنه قيل ليوم الفطر ويوم الأضحى عيد، لأنهما يعودان كل سنة . وقوله : ﴿ لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ . قال الثعلبىّ : يعنى لأهل زماننا ولمن يجىء من بعدنا . وقرأ زيد بن ثابت : « لِأُولَانَا وَأُخْرَانَا » (٢) .

(١) سورة المائدة آية ١١٤

(٢) فى الأصول : «لأولينا وآخرينا» . والتصويب من البحر المحيط لأبى حيان (ج ٤ ص ٥٦) وغيره من كتب التفسير ؛ قال صاحب البحر : وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدرى « لأولانا وأخرانا » أنثوا على معنى الأمة والجماعة .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم . ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ دلالة وحجة . قال الله عز وجل مجيبا لعيسى عليه السلام : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ . وقرأ أهل الشام وقتادة وعاصم «مُنَزِّلُهَا» بالتشديد لأنها نزلت مرّات، والتفعيل يدل على التكثير مرّة بعد مرّة . وقال تعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أى يكفر بعد نزول المائدة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[1] أى عالمى زمانهم . قال : فجحد القوم وكفروا بعد نزول المائدة فمُسخوا قِردةً وخنازير .

قال الثعلبىّ : واختلف العلماء فى المائدة، هل نزلت أم لا ؟ فقال مجاهد : ما نزلت مائدة، وهذا مثل ضُرِب . وقال الحسن : والله ما نزلت المائدة، إنّ القوم لمّا سمعوا الشرط وقيل لهم : ﴿فمن يكفر بعدُ منكم فإنى أعذّبه عذابا لا أعذّبه أحدا من العالمين﴾ . استعفَوْا وقالوا : لا نريدها ولا حاجة لنا فيها، فلم تنزل . قال أبو إسحاق الثعلبىّ : والصواب أنها نزلت، لقوله عز وجل : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ولا يقع فى خبره الخُلْف ولتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم وغيرهم من علماء الدين فى نزولها . قال كعب : أُنزلت يوم الأحد، فلذلك اتخذه النصارى عيدا .

واختلفوا فى صفتها وكيفية نزولها، فحكى الكسائىّ عن وهب قال : أنزل الله تعالى على عيسى مِكْتَلًا[2] فيه ثلاث سَمَكات مشويّات ليس لها شوك ولا قشر وثلاثة أرغفة، والملائكة تحملها حتى وضعوها بين يدَىْ عيسى . قال : وقد قيل : إنّ المائدة كانت سُفْرة[3] من الأَدَم الأحمر، وكان فيها سمكة واحدة مشويّة وحولها الخُضَر

(١) سورة المائدة آية ١١٥

(٢) المكتل : زبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره يسع خمسة عشر صاعا .

(٣) السفرة : هى التى تتخذ من الجلود ولها معاليق تنضمّ وتنفرج، فبالانفراج سميت سفرة؛ لأنها اذا حلت معاليقها انفرجت فأسفرت عما فيها فقيل لها السفرة .

والبقول ، وعند رأسها خلّ ، وعند ذنبها مِلح وخمسة أرغفة على كل منها زيتون ، وخمس رمّانات وثمرات . وقال الثعلبيّ فى تفسيره : روى قَتادة عن خِلاّس بن عمرو عن عمّار بن ياسر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " نزلت المائدةُ خبزا ولحما[1] " . وذلك أنهم سألوا عيسى طعاما يأكلون منه لا ينفَد ، فقيل لهم : إنها مقيمة لكم مالم تخونوا أو تخبئوا أو ترفعوا ، فإن فعلتم ذلك عُذِّبتم . قال : فما مضى يومهم حتى خبئوا ورفعوا وخانوا . وقال إسحاق بن عبد الله : إنّ بعضهم سرق منها وقال : لعلها لا تنزل أبدا ، فرُفعت ومُسِخوا قِردة وخنازير . وقال ابن عبّاس رضى الله عنهما : إنّ عيسى بن مريم عليه السلام قال لبنى إسرائيل : «صوموا ثلاثين يوما ثم سَلُوا الله تعالى ما شئتم يُعطِكم» . فصاموا ثلاثين يوما ، فلمّا فرغوا قالوا : ياعيسى ، إنا لو عَمِلنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا طعاما ، وإنّا قد صُمنا وجُعنا ، فادعُ الله أن يُنزل علينا مائدة من السماء ففعل . فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات[2] حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم . وروى عطاء بن السائب عن راذان وميسرة قالا : كانت المائدة اذا وُضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليهم الأيدى من السماء بكل طعام إلاّ اللحم . وقال سَعيد بن جُبَير عن ابن عباس رضى الله عنهم : أُنزِل على المائدة كل شىء إلّا الخبز واللحم . قال عطاء : أُنزل عليها كل شىء إلا السمك واللحم . وقال عطيّة العَوْفى : نزل من السماء سمكة فيها طعم كل شىء . وقال عمّار وقتادة : كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة . وقال وهب بن مُنَبِّه : أنزل الله تعالى

٦٥/١٢

(١) نص الحديث كما ورد فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٦ ص ٣٧٢) : " أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا ألا يخونوا ولا يدّخروا لغد فخانوا وادّخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير " .

(٢) أحوات (جمع حوت) : وهو نوع من السمك معروف .

أقرِصةً من شعير وحيتانا . فقيل لوهب : ما كان ذلك يُغنى عنهم ؟ قال : لا شيء ، ولكنّ الله أضعف لهم البركة ، فكان قومٌ يأكلون ويخرجون ويجيء الآخرون فيأكلون ويخرجون ، حتى أكلوا بأجمعهم وفَضَل . وقال الكلبيّ ومُقاتل : استجاب الله تعالى لعيسى عليه السلام فقال : إنى مُنَزِّلها عليكم كما سألتم ، فمَن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة لمن بعدهم ، قالوا : قد رَضِينا . فدعا شِمْعُون الصَّفا وكان أفضل الحواريّين فقال : هل معك طعام ؟ قال : نعم معى سمكتان وسبعة أرغفة . قال : قدّمها . فقطعهنّ عيسى عليه السلام قطعا صغارا ثم قال : اقعُدوا فى روضة وترفّقوا رفاقا ، كل رفقة عَشَرة . ثم قام عيسى عليه السلام ودعا الله تعالى فاستجاب الله له ونزّل فيها البركة ، فصار خبزا صِحَاحا وسمكا صحاحا . ثم قام عيسى فجعل يُلقى فى كل رفقة ما حملت أصابعه ، ثم قال : كلوا باسم الله ، فجعل الطعام يكثر حتى بلغ رُكَبهم ، فأكلوا ما شاء الله وفَضَل منه ، والناس خمسة آلاف ونيّف . فقال الناس جميعا : نشهد أنك عبد الله ورسوله . ثم سألوه مرّة أخرى ، فدعا الله تعالى ، فأنزل الله خبزا وسمكا ، خمسة أرغفة وسمكتين ، فصنع بها ما صنع فى المرّة الأولى . فلمّا رجعوا إلى قُراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم مَن لم يَشهدها ، وقالوا لهم : ويحكم ! إنما سحر أعينكم ، فمَن أراد الله تعالى به الخير ثبّته على بصيرته ، ومَن أراد فتنته رجع إلى كفره . فمُسِخوا خنازير وليس فيهم صبيّ ولا امرأة . فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ، ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا . وقال كعب : نزلت مائدة منكوسة من السماء تَطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلّا اللحم . وقال قَتادة : كانت تنزِل عليهم بكرة وعشيّة حيث كانوا كالمنّ والسَّلْوى لبنى إسرائيل . وقال يَمان بن رِئاب : كانوا يأكلون منها ما شاءوا . وروى عطاء بن أبى رباح عن سَلْمان الفارسيّ قال : لمّا سأل الحواريّون عيسى

ٱبن مريم أن يُنزل عليهم المائدة لبس صوفا وبكى وقال : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية ، وٱرزقنا عليها طعاما نأكله ، وٱرزقنا وأنت خير الرازقين . فنزلت سُفْرة حمراء بين غمامتين ، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها ، وهم ينظرون إليها وهى تَهوِى منقضّة حتى سقطت بين أيديهم . فبكى عيسى وقال : « اللهمّ ٱجعلنى من الشاكرين ، اللهم ٱجعلها رحمةً ولا تجعلها عُقوبةً ومُثْلَة[1] » والشهود ينظرون إليها ، ينظرون الى شىء لم يَرَوا مثله قطّ ، ولم يجدوا ريحا أطيبَ من ريحه . فقال عيسى عليه السلام : ليقُمْ أحسنُكم عملا فيكشف عنها ويذكر ٱسم الله ويأكل منها . فقال شِمْعون الصَّفَا رأس الحواريّين : أنت أولى بذلك منّا . فقام عيسى عليه السلام فتوضّأ وصلّى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيرا وكشف المنديل عنها وقال : بٱسم الله خير الرازقين ، فاذا هو بسمكة مشويّة ليس عليها فلوسا ولا شَوك تسيل سيلا من الدسم[2] ، وعند رأسها مِلْح ، وعند ذنبها خلّ ، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكرّاث ، واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسل ، وعلى الثالث بيض ، وعلى الرابع جُبن ، وعلى الخامس قَديد . قالوا : فلمّا استقرّت بين يدَىْ عيسى قال شِمْعون رأس الحواريّين : أنت أولى يا روح الله ، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى عليه السلام : ليس شىء مما ترون . ولكنّه شىء ٱفتعله الله تعالى بالقدرة الغالبة ، كلوا مما سألتم يُمْدِدكم ويَزِدْكم من فضله . قال الحواريّون : يا روح الله ، لو أريتنا من هذه الآية اليوم آية أخرى ! فقال عيسى : يا سمكة ٱحْيَىْ بإذن الله . فاضطربت السمكة وعادت عليها فلوسها وشَوْكها ففزعوا منها . فقال عيسى : ما لكم تسألون أشياء اذا أُعطيتموها كرهتموها ،

٦٦/١٢

(١) المثلة (بالضم) : التنكيل .

(٢) فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٦ ص ٣٧٠) : « تسيل سيلان الدسم » .

ما أخوفنى عليكم أن تعذّبوا ! يا سمكة عودى كما كنتِ بإذن الله تعالى. فعادت السمكة مشويّة كما كانت . فقالوا : يا روح الله ، كن أوّل من يأكل منها ثم نأكل نحن. فقال عيسى : معاذ الله أن آكل منها ، ولكن يأكل منها من سألها ، فخافوا أن يأكلوا منها . فدعا عيسى عليه السلام أهلَ الزَّمانة والمرض وأهلَ البَرَص والجُذَام والمُقْعدين والمُبْتَلين فقال : كلوا من رزق الله ولكم المَهْنأ ولغيركم البلاء . وفى رواية : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيّكم واذكروا اسم الله . فأكلوا وصدروا عنها وهم ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير وزَمِن ومريض ومبتلًى كلهم شبعان يتجشّأ[1] ، ثم نظر عيسى عليه السلام الى السمكة فاذا هى كهيئتها حين نزلت من السماء . ثم طارت المائدة صُعُدا وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم . فلم يأكل منها يومئذ زَمِنٌ إلّا صحّ ، ولا مريض إلا برأ ، ولا مبتلًى إلّا عُوفِىَ ، ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيّا حتى مات ؛ وندم الحواريّون ومن لم يأكل منها إذ لم يأكلوا منها . وكانت اذا نزلت اجتمع الفقراء والأغنياء والصغار والكبار والرجال والنساء فيزدحمون عليها . فلمّا رأى عيسى ذلك جعلها نوبة بينهم ، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضُحًى ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى اذا فاء الفىء طارت صُعُدا وهم ينظرون الى ظلها حتى تتوارى عنهم . وكانت تنزل غبّا ، تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة صالح . وأوحى الله عز وجل الى عيسى أن اجعل مائدتى ورزقى للفقراء دون الأغنياء ، فعظُم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناس فيها وقالوا : أترون المائدة حقّا نزلت من السماء ! فقال عيسى : هلكتم تجهّزوا لعذاب الله . فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام : إنى شرطت على المكذّبين شرطا أنّ مَن كفر بعد نزولها عذّبته عذابا لا أعذّبه أحدا من العالمين . فقال عيسى : « إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم

(١) جشأ وتجشأ : أخرج صوتا من فمه عند الشبع .

فإنك أنت العـزيز الحكيم » . فمسخ منهم ثلاثمـائة وثلاثة وثلاثون رجلا . وقال الكسائىّ عن وهب : مُسخ منهـم خمسة آلاف وخمسمائة، فباتوا على فرشهـم مع نسائهـم فى ديارهم، فأصبحوا خنازير يسـعَوْن فى الطُّرقات والكُنَاسات و يأكلون العَذِرة . فلمّا رأى الناس ذلك فزِعوا الى عيسى عليه السلام ، وبكى على الممسوخين أهلوهم . ولمـا أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدا واحدا فيبكون و يُشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا . وهؤلاء الذين لُعنوا على لسان عيسى كما قال تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[1] الآية .

ذكر ما قالته الشياطين الثلاثة فى عيسى بن مريم وأتبعهم الناس بعدهم

قال الكسائىّ قال وهب : جاء إبليس الى عيسى عليه السلام هو وأصحاب له على صُوَر رجال ذوى هيئة وشيبة وعيسى يقول لبنى إسرائيل : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[2] الآية . فقال إبليس : أتخلُق وتَشفِى المرضَى وتُحيِى الموتى وتنبئنا بالغيب ؟ قال عيسى نعم . قال إبليس : هذا الله عز وجل ! يأيها الناس فانظروا اليه ، فإنه نزل اليكم ليُرِيَكم قُدرته . فقال أحد أصحاب إبليس : بئسما قلتَ يا شـيخ ! أخطأت وجُرتَ وقلت قولا عظيما ، أتزعم أنّ الله يتجلّى لخَلْقه لينظروا الى قدرته ! وهل ينبغى لخلقه أن ينظروا اليـه أو يسمعوا كلامه أو يقوموا لرؤيتـه ! لا ، ولكنّه ابن الله وليس هو الله . فقال الثالث : كلّا كما قال شططا وأخطأ وجار وقال قولا عظيما ، وهل ينبغى لله أن يتخذ صاحبـة يكون له منها ولد ! وهـل ينبغى لولد هو من الله

(١) سورة المـائدة آية ٧٨ (٢) سورة آل عمران آية ٤٩

٦٧/١٢ أن تستقل به قوة امرأة و يسعه رحمها ! ولكنه إله مع الله وليس بولد لله وليس بالله كما قلتما . قال : فتفرقوا على ذلك ونطق الناس بقولهم ، فصار ذلك كلام النصارى . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[1]. وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[3] . ٥

ذكر خبر إبليس حين عارض عيسى عليه السلام وما خاطبه به وجوابه

قال وهب : ثم جاء إبليس الى عيسى بن مريم فعارضه فى عقبة[4] من عقاب الأرض المقدسة يقال لها عقبة فيق : فقال له : أنت المسيح بن مريم؟ قال عيسى : أنا المسيحُ عيسى بنُ مريم رُوح الله وكلمتُه وعبدُ الله وأبن أمته . فقال له ١٠ إبليس : فأنت إله الأرض . قال : بل إله الأرض ربّى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيتك أن تكلمت فى المهد صبيّا . قال : بل العَظَمة للذى أنطقنى فى صغرى . قال : بل فأنت الذى بلغ من عِظَم ربوبيتك أنك تخلُق من الطين كهيئة الطير فتنفُخ فيه فيكون طيرا . قال عيسى : بل العَظَمة للذى خلقنى وخلق ما سخّر لى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيّتك أنك تَشفِى المرضَى . قال ١٥ عيسى : بل العظمة للذى بإذنه شَفيتهم و إن شاء أمرضنى . قال إبليس : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تُحيي الموتَى . قال عيسى : بل العَظَمة للذى بإذنه أحييهم ، ولا بدّ أنه سيُميت من أحييتُ و يُميتنى . قال : فأنت الذى بلغ من

(١) سورة المائدة آية ٧٢ (٢) سورة البقرة آية ١١٦

(٣) سورة المائدة آية ٧٣ (٤) العقبة : مرقى صعب من الجبال ، أو الطريق فى أعلاها . ٢٠

عظم رُبوبيّتك أنك تعبرُ البحر فلا تبتلّ قدماك ولا ترسخ فيه . قال : بل العَظَمة للذى ذلّله . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيّتك أنك تعلم الغيب . قال : بل العظمة لعالم الغيب والشهادة ، لستُ أعلم إلا ما علّمنى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك كُوّنت من غير أب . قال : بل العظمة للذى كوّننى وكوّن آدم وحوّاء من قبلى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيتك أنك سيأتى عليك يوم تعلو فيه الخلائق كلها ، فتكون السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهنّ دونك ، وأنت فوق ذلك كلّه تدبّر الأمر وتَقسِم الأرزاق . قال : فأعظم عيسى قولَه وضاق به ذرعا وسبّح إعظاما لِما قال إبليس . قال : فأتاه جبريل فنفخ إبليسَ نفخة ذهب يلطِم منها على وجهه فلا يملك من نفسه شيئا حتى وقع بالخافق الأقصى ، ثم نهض بالذى أعطاه الله من القوّة فسبق عيسى إلى أسفل العقبة فسدّها وملأ كل ثُلْمة وطريق ، ثم قال لعيسى : لقد غضِبتَ غضب إله عظيم ، وقد أخبرتك بأنك إله وما أنت من البشر ، ولو كنت من البشر ما قمتَ[1] ، منذ فارقتك ، أربعين ليلة لم تَطْعَم ولم تشرب ولم تَنَم ولم يضرُع[2] لذلك جسمُك ، وهذا مالا ينبغى لبشر . قال عيسى : إنّ جسدى ليألَم مما يألم منه البشر ، وإنى لأَطعَم وأَشرب وأَنام وأَغفُل وأفرَح وأحزَن وأجزَع وأهلَع وأحتاج إلى أن أتنظّف بالماء وكيف تزعم أنى إله وأنت تعلم أنى هكذا ! . ولم يزل إبليس لعنه الله يحاوره حتى عرَض عليه أن يأمر الشياطين بعبادته والاعتراف بربوبيته . فضاق عيسى ذَرْعا وسبّح لله تعالى فقال : « سبحان الله عما يقول وبحمده ، ملء سمائه وأرضه ، وعدد خلقه ، ورضا نفسه ، ومبلغ علمه ، ومنتهى كلماته ، وزنة عرشه » . فهبط جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فنفخه ميكائيل نفخة ذهب منها نحو مطلع الشمس حتى صدم عين الشمس عند طلوعها ، فخرّ

(١) فى الأصل : « ما قت لى » بزيادة « لى » . وظاهر أنها من زيادات النساخ .
(٢) يضرع : يضعف .

حصيدا محترقا ، فأتبعه إسرافيل فنفخه نحو مغرب الشمس فانطلق لا يملك من نفسه شيئا حتى حاذى عيسى فقال : يا ابن مريم، لقد لَقِيت منك تعبا . ومرّت به النفخة حتى وقع فى العين الحامية التى تغرب الشمس فيها، فلبث سبعة أيام وسبعَ ليال، متى أراد الخروج منها غطّته الملائكة بأجنحتها، فما رام عيسى بعد ذلك . والله أعلم .

ذكر خبر عيسى مع اليهود ٥

حين ظفروا به وأرادوا صلبه وقتله ٦٨/١٢

قال وهب : لمّا أوحى الله عز وجل إلى عيسى : ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[1] جَزِع من الموت جَزَعا شديدا وقال للحواريّين : هذا الزمان الذى يَقبِض الله فيه الراعى ثم تُفرَّق الرعيّة من بعده، فعرَفوا أنه يعنى نفسه، فبكَوْا وجزِعوا، فقال : لا تبكوا من حزن الفراق، فسترَوْن ما هو أشدّ منه، ولستُ مفارقكم حتى يظفر بى عدوّى ثم يأسِرونى، فلا تدفعوا عنّى ولا تمنعوا . قال : وطلبه اليهود ليقتلوه فاستخفى منهم، فدلّهم عليه يُوذَا وهو الذى ارتدّ عنه ، فأخذوه من غار جبل بيتَ لَحْمَ وجعلوا على رأسه إكليلا من الشَّوك ليمثّلوا به ، وجعلوا يلطمونه ويضربونه من خلفه ويقولون له : إن كنت نبيّا كما تزعم فامنع عن نفسك وادعُ ربك فليحُلْ بيننا وبينك، وهو لا يكلّمهم حتى طلع الفجر، ونصبوا له خشبة ليصلبوه . فلمّا أرادوا أن يرفعوه عليها أظلم الجوّ ظلمة عظيمة لم تلبس الأرض مثلها ، وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبينه وصلبوا مكانه يُوذَا الذى دلّ عليه، وأشرقت الشمس وقلب الله قلوب الناس وأبصارهم فجعلوا ينظرون إلى يُوذَا فى صورة عيسى . قال الله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[2]. قال : ولمّا رفعوا يُوذَا على الخشبة قال :

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٥ (٢) سورة النساء آية ١٥٧

يا هؤلاء ، إنّى أذكّركم الله فى دمى ، إنّى صاحبكم يُوذَا الذى دللتكم على عيسى . ثم أخبرهم خبر الظلمة وأنّ الملائكة حالوا بينهم و بين عيسى وجعلوه مكانه ، وأخبرهم بعلامات يعرفونها . فلمّا سمعوا ذلك منه زادهم عليه غيظا وحنقا وقالوا : ما أعظَم سحره ! كيف اطّلع بسحره على سرّنا وما كنّا نطويه دُونه ! وقتلوه وهو صاحبهم .

ذكر خبر رفع عيسى عليه السلام أوّل مرة
وهبوطه إلى الأرض ووصيّته إلى الحواريّين ورفعه ثانيا

قال : رفع الله تعالى عيسى لثلاث ساعات مضت من النهار ، فلبث فى السماء أيّاما ، قيل سبعة أيام ، وقيل أربعين يوما . والله أعلم . ثم قال الله له : إنّ أعداءك اليهود أعجلوك عن الوصيّة والعهد إلى أصحابك ، فانزِل اليهم وآعهَد لهم وأوصهم ، وانزِل على مريم المَجْدَلانيّة[1] فإنها فى غار فى جبل الجليل . وكانت مريم المَجْدَلانيّة من قرية من قرى أنْطاكِيَةَ يقال لها مَجْدَل . وكانت من أوسط نساء بنى اسرائيل حَسَبا ، وكانت أجمل نسائهم وأكثرَهم مالا ، وكانت تُستحاض فلا تطهُر أبدا وخطبها أشراف بنى إسرائيل وملوكهم وآمتنعت من إجابتهم ، فظنّوا أنّ ذلك ترفّعا منها ، وإنما كان بسبب ما يعرض لها . فلمّا ظهر عيسى عليه السلام وشاع ذكره أتته فى جملة المرضى ليشفيَها ، فخجِلت أن تسأله لكثرة الناس حوله ، فجاءت من ورائه فمسّته بيدها فزال عنها ما كانت تشكوه وطهُرت وآمنت بعيسى ، وأنفقت مالها فيما أمرها به من وجوه البرّ ، وصارت فقيرة وتبتّلت وتخلّت للعبادة ، وكانت تُعدّ من أصحاب عيسى .

قال : وأمر الله تعالى عيسى أن يأمرها أن تجمع له الحواريّين ، وأن يستخلف عليهم شِمْعُون ، وأن يُفرّقهم دعاةً إلى الله عز وجل فى البلاد ، وأن يخبرهم بالعلامة التى تأتيهم من الله . ثم أهبطه الله تعالى على مريم فآشتعل الجبل نورا ، وأتته بالحواريّين ، فبلّغهم

(١) كذا فى الأصول والثعلبى . ولعلها نسبة شاذة إلى مجدل . وفى الكتاب المقدّس : "المجدلية" .

رسالة ربهم، وقال : إن آية ذلك أن تأتيكم الملائكة فى ليلتكم هذه بمغارف فيها نور من نور الله، فكلّ مَن تناول مِغْرفةً منها فليلحَس النور الذى فيها فإنه يصبح وقد تكلّم بلغة القوم الذين بُعِث إليهم ويُصبح وهو على باب مدينتهم . قال : والليلة التى هبط عيسى فيها هى الليلة التى تدخّن فيها النصارى باللُّبَان . قال : فلمّا فرغ عيسى من وصيّته الى الحواريّين رُفع بعد سبعة أيام، وتوفّاه الله تعالى لثلاث ساعات من النهار ، ثم كساه الله الريش وألبسه النور ، وقطع عنه المطعم والمشرب وصار مَلَكيًا إنسيًا . قال وهب : برز عيسى عليه السلام للناس يوم برز وهو ابن ثلاثين سنة، ولبث فيهم فى نبوّته وفيما كان الناس يرونه منه من العجائب والآيات ثلاث سنين، ورفعه الله وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . وحكى أبو إسحاق الثعلبىّ عن أهل التاريخ أن الله تعالى أوحى الى عيسى وهو آبن ثلاث وثلاثين سنة ، ورفعه من بيت المقدس ليلة القَدْر من شهر رمضان وهو آبن ثلاث وتسعين سنة . وقد ورد فى الحديث ما يدلّ على أنه رُفع وله مائة وخمس وعشرون سنة . وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى آخر السيرة النبوية على ما تقف إن شاء الله عليه هنالك .

٦٩/١٢

ذكر وفاة مريم بنة عمران عليها السلام

قال الكسائىّ قال كعب : ماتت مريم بنة عمران أمّ عيسى عليهما السلام قبل رفعه ، فدفنها فى مشاريق بيت المقدس . وحكى الثعلبىّ رحمه الله أنها ماتت بعد رفع عيسى عليهما السلام . وقال فى خبره : إنه لمّا صُلِب المشبَّه بعيسى جاءت مريم ابنة عمران وآمرأةٌ كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون يبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما : على ما ذا تبكيان ؟ فقالتا عليك . فقال : إن الله تعالى رفعنى فلم يُصبنى إلا خير، وإنّ هذا شىء شُبِّه لهم . ثم قال أيضا فى قصة

وفاة مريم عن وهب : لمّا أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام آخى بين الحواريّين وأمر رجلين منهما وهما شِمْعُون ويوحنّا أن يلزما أُمّه ولا يفارقانها، فانطلقا ومعهما مريم الى نيرون[1] ملك الروم يدعوانه الى الله عز وجل، وقد بعث الله اليه قبل ذلك بُولُس[2] . فلمّا أتوه أمر بشِمْعُون وبُولُس فقُتِلا وصُلِبا منكّسَيْن، وهربت مريم ويوحنّا، حتى اذا كانا فى بعض الطريق لحقهما الطلب، فخافا فانشقت لهما الأرض فغابا فيها، فأقبل نيرون ملك الروم وأصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئا فردّوا التراب على حاله، وعلموا أنه أمرٌ من الله عز وجل . فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأُخبر به فأسلم . وقد قيل فى إسلامه غير هذا، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٣١ من القسم الأوّل) . وفى الأصول : « بارون » .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٣١ من القسم الأوّل) وكما سيذكره المؤلف فى الصفحة التالية . وفى الأصول : « بودس » .

الباب السادس من القسم الثالث

من الفنّ الخامس فى أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام وما كان من أمرهم مع من أرسلوا اليه وخبر جرجيس

ذكر خبر أخبار الحواريّين

قال الكسائىّ قال وهب : وأصبح الحواريّون على أبواب المدائن التى بُعِثوا اليها ، يتكلّم كل رجل منهم بلغة الأمة التى بُعِث اليها . فبَعَث الى أهل رُومِيَةَ رجلين من الحواريّين ، وبعث إندراوس ولوقا الى أرض الحبشة ، وبعث رجلا الى بابل ، وبعث رجلا الى إفريقيّة ، ورجلا الى أصحاب قرية الكهف ، ورجلا الى بَرْبَرَ ، ورجلين الى أنطاكِيَةَ ، ورجلا الى السِّنْد والهند ، وأقام شمعون مكانه وهو رأسهم ، وأُمروا أن يستظهروا به فيما يهمّهم .

ذكر خبر يوحنّا وبولس اللذين توجّها إلى إنطاكية

قال الكسائىّ : لمّا أصبح يُوحنّا وبولُس على باب إنطاكِيَة دخلاها عند فتوح بابها ، ومَلِكُها يومئذ مَخْلنطيس بن مَخْلنطيس[1] ، وكان ظالما جبّارا متكبّرا ، فلم يقدِرا على الوصول اليه ، وما أمكنهما أن يذكرا ما جاءا فيه مخافة أن يُقْتَلا قبل أن يبلّغاه رسالة الله تعالى . فكانا كذلك مدّة ، حتى شَخَص الملك من منزله الى مُسْتَنْزَه له فناداياه من بعيد بالإنذار . فلمّا سمع أصواتهما أرسل مَن يسمع مقالتهما فبلّغاه رسالة الله عز وجل ؛ فأمر الملك بجلد كل منهما مائة جلدة وحَلْقِ رءوسهما حَلْقَ الشمامسة

٧٠/١٦

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٠ من القسم الأوّل) : « انطيخس بن انطيخس » .

يمثّل بهما، ثم أمر بهما الى السجن ليخلُدا فيه . فأوحى الله تعالى الى شِمْعُون بخبرهما وأمره بالآنتصار لهما . فخرج حتى بلغ أنطاكِيَة فدخلها، وتلطّف حتى صحِب خواصّ الملك وبطانته وأنِسوا به وذكروه للملك . ثم طرق السجن ليلا، وكان له باب من حديد طوله خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ، وكان اذا فُتِح صرصر حتى يَسْمَع صريره أقصاهم وأدناهم . فأرسل الله تعالى مَلَكا فآقتلع الباب من موضعه فلم يُسمَع له صوت، وألقى الله عز وجل السُّبات على أهل السجن وحرّاسه . فدخله شِمْعُون، وآجتمع بيُوحنّا وبولس وبشّرهما عن الله بالثواب والخير وآنصرف عنهما ، وردّ الملك باب السجن الى موضعه . وكان شمعون يدخل مع الملك وأصحابه الى بيوت أصنامهم ويسجد لله ويبكى ويُكثر العبادة وهم لايشكّون أنه يعبد أصنامهم، فأحبّه الملك وقرّبه وسأله عن نسبه ، فأخبره أنه من بنى إسرائيل وأنه بقيّة قوم آنقرضوا، ولم يكن له مَن يأنَس به فاعتمدتكم رغبة فى قُربكم، وحرصا على إخائكم. فقال الملك : قد قبلنا قولك وسوّدناك علينا ، فأنت أفضلنا وسيّدنا . فلبث فيهم زمنًا يصدرون عن رأيه . فلما تمكّن أمره من الملك قال له : أيها الملك، بلغنى أنك سجنت رجلين كانا قد جاءاك يدعوانك الى غير دينك والى عبادة إله غير إلهك ، ويزعمان أنّ الله أرسلهما إليك ، وعجبتُ كيف اجترأا عليك. فماذا قلتَ لهما وما قالا لك ؟ وهل أجبتهما بما كان ينبغى لك من الجواب؟ وهل سألتهما حين عظّما لك ربهما أن يذكرا لك سائر عظمته، أو أحييا لك مَيْتا، أو غير ذلك مما تعرف به مصداق قولهما ؟ قال الملك : لقد حال الغضب دون ما تقول . قال : فهل لك أن تدعوهما؟ قال نعم . فأحضرهما بين يديه ، فقال لهما شِمْعُون : أخبرانى مَن أرسلكما الى هذا الملك وقومه؟ قالا : أرسلنا الله الذى هو على كل شىء قدير. فقال شمعون : صِفا لى عظمته . قالا : هى أعظم من أن تُحْصَى . قال : فأخبرانى ماذا يبلُغ من قدرته ؟

قالا : إن شئتَ وصفنا لك ما نُطيق وصفَه ، وصِفَتُه أعظم من طاقتنا ، و إن شئتَ وصفنا لك ذلك فى كلمتين تكفيان من كلام كثير . قال : نعم ، صِفَا وأوجزا . قالا : إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فوضع شمعون يده على رأسه كالمنكر لما قالا ، ثم أقبل عليهما وقال : إنى أسألكما أمرا فإن قدَر إلٰهكما عليه آمنّا بكما . قالا : سل . قال : هل يقدر أن يخلق خلقا ونحن ننظر اليه ؟ قالا نعم . قال : اعلما ما تقولان ! قالا : قد علمنا ، فمتى شئتَ أريناك . فعندها خلا شمعون بالملك وقال : أيها الملك ، إنّ هذين الرجلين ليسا ببعيدين من أن يكون ربهما كما قالا ، ولا أظنهما عرّضا أنفسهما للملك لمثل هذا الموقف إلا وعندهما ثقةٌ من إلٰههما . وإنى أخشى أن يدعُوَا ربهما فيخلق خلقا ينظر اليه الناس فيُمْرِض ذلك قلوبهم ويزهدون فى إلٰهك الذى تعبده ويذهبان بالصوب (١) والشرف . فهل لك أن تدعو إلٰهك فيخلق هذا الخلق الذى نريد أن نمتناه عليهما فيكون لك ولإلٰهك شرف هذا اليوم وصَوْبُه ؟ . قال له الملك : ليس دونك سرّ ، إنّ هذا الإلٰه الذى نعبُد لا يسمع ولا يُبصِر ولا يضرّ ولا ينفع ولا يُحيي ولا يُميت . فقال لهما شمعون : اِعْرِضا علىّ بعض قدرة إلٰهكما فإن أجابكما وخلَق الشيء على أعيننا ونحن ننظر اليه فقد صَدَقتما والقول قولكما . وآجتمع الناس لينظروا . فأوحى الله اليهما أن سَلَاه ماذا يريد ، فإنى مسخّر لكما ما سألكما . قالا : قد أَوْحَى الينا أنه فاعلٌ ما تسألنا ، فسلنا . وكان شمعون قد عهد فى المدينة غلاما مطموس الوجه لم يُخْلَق له عينان ، فأُتِىَ به فقال : ادعُوَا ربكما أن يخلُق له عينين ونحن ننظر . قالا نعم . فأوقفاه بين أيديهما ودعَوَا الله وأعانهما شمعون سرّا ، فأجابهم الله تعالى ، فأخذ كل واحد منهما حَثْوَةً من تراب وعجنه وجعله كالبندقة ، ووضعا البندقتين فى موضع العينين من وجه الغلام فآنشقّ

٧١/١٢

(١) الصوب : ضدّ الخطأ ، مثل الصواب .

لهما البصر، ثم صارت البندقتان عينين . فخاف الملك، فقال له شمعون : لا تخف إنّ عندى حيلة . قال له الملك : لعلّهما ساحران، أرِنَا مالا يكون وما ليس بكائن . قال شِمْعون : ليس هـذا من السحر، ولكنى أخاف أن يأتىَ من إلههما ما يُعجِز حيلتنا . فدعا شِمْعون بغلام مطموس وعمل كما عملا فانشقّ بصره، كما انشقّ بصر الأوّل ، ففـرح الملك وأصحابه بذلك . فقال شمعون : إنمـا صنع ما ترون إلٰه اخترته لنفسى وهو الذى أظهر فُلْجكم[1]، فاسجدوا لهذا الإلٰه الذى أظفركم بعدوّكم لعلّه يُعينكم على ما يكون بعد هـذا . فقال الملك : كيف نسجُد لغير إلٰهنا ! . قال شمعون : ألم تُخبرنى أنه لا يبُصر ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع، فما قُدرته عليك إن سجدتَ لغيره ! قال : صدقتَ . وسجد الملك وسجد قومه لسجوده . ثم قال شمعون ليوحنّا وبولُس : إنّى أسألكما عن أمر، فإن قَدَر عليه إلٰهكما فالحجّة إذًا لكما والقولُ قولكما . قالا : سَلْ عمّا بدالك . قال : تسألان ربكما أن يُحيِيَ لنا ميّتا حتى يكلّمنا ويخبرنا ما خبره، ويُعلمنا ما كان فيه وما لقِى بعدنا . قالا : نعم، إنّ الذى سألتَ يسيرٌ على الله وهيِّن عليه . فوضـع شِمعون يده على رأسه كالمُغْظِم والمنكر لمـا قالا . ثم خلا بالملك وقال : إنك قد رُميتَ بأمر عظيم، وإنى أخاف إن أحيا إلٰههما الموتى أن يميل الناس اليهما . قال الملك : إنّا نرجو ألّا يأتيا بشىء إلا أتيتَ أنت بمثله . قال شِمْعون : إنّى لا أغُرّكم، إنّ إلٰهى لا يُحيي الموتى، ولا أعلم فى الأرض مَن يقدِر على ذلك . قال الملك : فهل تَدعهما يَدعاننا وندعهما، فإن أبيَا قاتلناهما؟ . قال شِمْعون : كيف نقاتل مَن لهما إلٰه يُحيي الموتى ! ولكن أرجو أن أدعو الإلٰه الذى صـنع ما رأيتم فيُعيننا على ما نريد . قال شِمْعـون : هل يقـدر إلٰهكما على أن يُحيِيَ الموتى ؟ قالا نعم . قال الملك : إنّ عندنا ميتًـا قد مات منذ سـبعة أيام وهو ابن

(١) الفلج (بالضم) : بمعنى الفوز والظفر .

دِهْقان مدينتنا، فدعا به الملك فأُحضر فى نَعْش، وقد تغيّر لونه وأَرْوح[1]، فقال : دونكما ادعُوَا أن يُحيِيَه إلهكما . فدعَوَا الله، فما لبث أن تفتّقت عنه أكفانه وردّ الله إليه رُوحه. فسألوه متى مات وما ذا لقِى. فقال : مُتّ منذ سبعة أيام، ثم عُرِضْتُ على عملى فقُذِفتُ فى سبعة أودية من نار، وذكر ما فى الأودية من العذاب والحيّات وغير ذلك . قال : فلمّا صرت الى الوادى السابع خُفِّف عنّى العذاب . قالوا : فمن أين خُفِّف عنك العذاب؟ قال: أحيانى الله وردّ علىّ رُوحى، فجاءنى شىء مثل الريح فدخل فى رأسى، فلمّا صار فى جسدى حَيِيتُ، ثم قيل لى : انظر فوقك، فشخَصتُ[2] ببصرى وفُتحت أبواب السماء، فنظرتُ فإذا برجل شابّ حَسَنِ الوجه نحيفِ الجسم أبيض يخالطه حمرة متعلّق بالعرش يشفع لهؤلاء الرهط الثلاثة ، يعنى عيسى بن مريم . فقال له الملك : أىّ رهط تعنى؟ . قال : هذا الشيخ الأجلخ[3]، وهذا الكهل الأنزع[4] ، وهذا الفتى الرَّجِل[5] . فما زالوا مجتهدين فى الدعاء حتى شُفِّعوا، والشافع لهم مُصغٍ إليهم بأذنه كأنه يسمع ما يقولون ثم يرفعه الى الله فيدعو به . فلما فرغ من كلامه قال : إنّى أحذّركم أيها القوم مثلَ ما كنتُ فيه، فإنه لا إلٰه إلّا إلٰه عيسى بن مريم وشِمْعُونَ وبُولُس ويُوحنّا . قال شِمْعُون : اعتصَمنا بالله وتوكّلنا عليه ، ثم أخبر الملك بخبره وخبر أصحابه ودعاهم الى الله، فمنهم من آمن ، ومنهم من تولّى . وكان الملك ممن آمن به فى عُصبةٍ يسيرةٍ . وأرسل الله على مَن تولّى منهم صيحة من السماء فإذا هم خامدون .

قال : وكان قد نُعِى الى الدِّهقان ابنُه ، وكان اسم الدِّهقان حبيبا النجّار ، ثم لم يلبث أن جاءته البشارة بحياة ابنه، ولم يكن له ولدٌ غيرُه، وأُخبر خبر الحَواريّين،

(١) أروح : أنتن . (٢) شخص بصره و ببصره : رفعه . (٣) الأجلخ : الذى انحسر شعره عن جانبى رأسه . (٤) الأنزع : الذى انحسر شعره عن جانبى جبهته .
(٥) الرجل (بسكون الجيم) : الذى شعر رأسه بين السبوطة والجعودة .

فآمن بهم قبل أن يراهم ، فأقبل مسرعا . فلمّا قصّ عليه ابنه قصّته ازداد إيمانا ويقينا . قال وهب : فيقال — والله أعلم — إنّ هذا هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) الآية . فأوجب الله له بكلامه الجنة، وخُيِّر أن يُعمَّر هو وآبنُه مائة عام أو يعجّل بهما الى الجنة، فآختارا الجنة؛ وهو قوله تعالى : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ ﴾ (٢) الآية . قال : ولم يزل يجاهد قومَه قبل أن تأخذهم الصيحة ويدعوهم الى الله حتى قتلوه، فقيل له : ادخل الجنة ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٣) .

٧٢/٢

ذكر خبر تُومَا الحوارىّ مع ملك الهند وإيمانه به

قال الكسائىّ قال وهب : وجاء توما الى أرض الهند والسِّنْد . فبينما هو يتردّد على ساحلهم إذا هو بغلام لملك الهند يقال له حَيّان ، وكان تاجرا . فأتاه تُومَا فقال له : هل لك أن تبتاعنى للملك؟ فقال له حَيّان : مَن أنت أيها الرجل الكريم؟ . قال له تُومَا : إنّى كنتُ عَبْدا مملوكا فأعتقنى سيّدى وأمرنى بالطلب لنفسى ، فلم أصادف من الحرّيّة ما كنتُ أظنّ ، وكان حالى يوم كنتُ عبدا خيرا منه اليوم وأحسن . فقال له حيّان : ما أرى عليك مِيسَمَ العُبوديّة، وإنى لأرى عليك أثر الخير، ثم قال له : ما الذى تُحسِن من الأعمال؟ قال : أعمل سائر الأعمال . فآشتراه بثلاثمائة مثقال من الذهب وآنطلق به الى الملك . فلمّا رآه أجلّه وعظّمه، وسأل التاجر عنه فأخبره أنه اشتراه على أن يعمل سائر الأعمال . فقال له الملك : أريد أن تبنى لى

(١) سورة يس آية ٢٠ (٢) سورة يس آية ٢٣

(٣) سورة يس آية ٢٧

قصرا لم يُعمَل مثلُه لأحد قطُّ . قال تُومَا : لك ذلك علىّ، ولكن أرضَك حارّة، وإذا بُنِيَ فى زمن الحرّ كان حارّا لا يُسكَن من حرّه ، وكذلك فى زمن البرد يكون باردا ، وإنى لأرى أن يُعمَل فى زمن الاعتدال، فوافقه الملك على رأيه. وعرض للملك غَزَاةٌ فخرج اليها واستخلف أخاه على المُلْك، وأمره أن يدفع لتُومَا ما يحتاج اليه من الأموال للنفقة على القصر، فصرف له أموالا كثيرة، ففرّقها توما فى الفقراء والمساكين حتى أغناهم ، ثم مرِض أخو الملك مرضا شديدا وغاب عن حسّه وحركته سبعة أيام . فقدم الملك وهو على تلك الحال ، فلما ردّ الله عليه رُوحه قال الملك لتوما : ما فعلتَ فى القصر ؟ قال : قد فرغتُ منه . فقال الملك لأخيه : ما الذى أعطيتَه من مالى ؟ قال : جميع ما فى بيت مالك . قال : فهل رأيتَ القصر ؟ قال : إنه قبض منى المال ثم اشتكيت فقلت لتوما : أين بنيتَ هذا القصر ؟ قال : بنيتُه لك فى السماء . قال : وكيف لى بسُلَّم أنال به السماء؟ قال : تنال السماء بالسُّلَّم الذى نالها به أخوك . فقال له أخوه : اسمع منّى أيها الملك أُخبِرْكَ بالعجَب ؛ فإنك لو تعلم ما أدخل عليك هذا الرجل من الخير وصرف عنك من الشرّ لقبّلتَ قدميه وجعلته فوق رأسك . قال : أخبِرْنى خبره . قال : أُخبرك أنّ الله عزّ وجل عرَج برُوحى، فعرَضنى على النار فرأيتُ أمرا عظيما مَهُولا ووصفه لأخيه، ووصف له صفة ما يُعَذَّب به أهل الشِّرك بالله وعَبَدة الأوثان . قال : ثم قيل لى : إنّ الله عرضك على النار فأراك ما رأيتَ لتكون لمن خَلْفك نذيرا ، وسيُريك الجنة، لتبشِّر بها قومك ، ولتُخبِر مَن خلفك بما رأيت . قال : فأُدخلتُ الجنة فرأيت كذا وكذا، ووصف الجنة ونعيمها وما فيها . قال : وانتهيتُ إلى قصر عظيم من أعظم قصورها وأبوابُه مُغلقة، فقلت لخزنة الجنة : إنّى أحبّ أن أشاهد باطن هذا القصر فإنّى لم أر مثله . قالوا : إنّ صاحبه الآن فى الدنيا

ومفاتيحه عند ملَك من الملائكة . قلت : فلمن أُدَّخِر هذا القصر ؟ قالوا : هـذا لأخيك فلان وهو الآن فى الدنيا ، وعنده رسول من عند الله يقال له تُوما الحَوارىّ من حوارىّ عيسى بن مريم . فإذا رجعتَ إليه فبشِّره وأخبره أنه القصر الذى بناه له تُوما فى السماء ، وأنفق فيـه بيت ماله . ثم ردّ الله بعد ذلك علىّ رُوحى ، وأنت تعلم يا أخى أنّ لى شَطْر مالك ومُلْكك وخزائنك ، وتعلم ما لى بعد ذلك من الأموال والخزائن ، وأنا أعطيك جميع ذلك على أن تُعطينى قصرك الذى رأيته لك فى الجنة . قال : يا أخى ، ما كنتُ لأُعطيك الباقى بالفانى . ثم أقبل على تُوما وآمن به هو وأهل مملكته ، ولم تزل تلك الأمة على دين عيسى حتى أبادها الموت .

ذكر خبر لُوقَا الحوارىّ مع ملك فارس

٧٣/٢

قال : وأصبح لُوقا على باب مدينـة من مدائن فارس ، وهى التى يسكنهـا الملك ، فإذا غلمانٌ من أبناء الملوك وأبناءِ الوزراء جلوسٌ على قارعة الطريق يلعبون . فجلس الحوارىّ الى جانب غلام منهـم وسأله كيف يلعب ، فغلب جميـع أولئك . فلمّا تفرقوا دعاه الغلام الى منزله ، فقال له : اذهَبْ الى أبيك وآستأذِنْه فى ذلك . فآنطلق الغلام الى أبيـه وأخبره بخبر الشيخ ، فأذِن له أن يأتيه به ، فرجع اليه وقال له : إنّ أبى يدعوك ، فأقبل معه . فلمّا ولَج باب الدار قال : بآسم الله ، فخرج كل شيطان فى الدار ، وصاحبُ الدار ينظـر الى ذلك ، وكانت الشياطين تَظهر لهم وتُشاركهم فى طعامهم وشرابهم ، فعجِب صاحب الدار من ذلك . وقُدِّم الطعام فأقبلت الشياطين لتأكل على عادتها ، فقال لُوقا : بآسم الله ، فنفَرت الشياطين وفرّت من الدار . فقال الشيخ : قد رأيتُ منك اليوم مالم أره من أحد ، وإنّ لك لشأنا ، وخلا به وقال : لابدّ أن تُخبرنى خبرك ولا تكتُمنى أمرك . قال : على أن تكتُمه ولا تذكره إلّا أن

آذَنَ لك، قال نعم . فآستوثق منه وأخبره بخبره . ثم قال له لُوقا : أخبرنى أىّ مال الملك أحبّ اليه وأعجب عنده ؟ قال : ما شىء من ماله أحبّ اليه وأعجب عنده من بِرْذَوْن حتى إنه يركبه من سريره . ثم أقام مدّة ، فقُدِّم البِرْذَوْن إلى الملك ليركبه على عادته ، فلما صار الى جانب السرير خرّ ميّتا ، فشقّ ذلك على الملك وآلمه وقال : وَدِدتُ لو فديتُه بمال عظيم ، وحزِن جلساءُ الملك وخواصُّه لحزنه . قال : وجاء الرجل الى لُوقَا وقد حَزِن لحُزْن الملك ، فسأله عن سبب حُزْنه فذكر له قصّة البِرْذَوْن ، فقال له : ارجِعْ الى الملك وقل له : إنى أُحيِيه له إن أطاعنى فيما أقول . فرجع الى الملك وأخبره بذلك ، وقال : إنّ هذا الرجل لمّا عَبَر الى منزلى نفرتْ منه الشياطين ولم تطعَم من طعامنا ، وكانت تأكل معنا قبل ذلك وتشرب كما علمتَ ، وقد قال : إن أطاعنى الملك أحييتُ له بِرْذَوْنه . فقال الملك : إنّ نفسى لتَطيب بكل شىء أُحيِي به هذا البِرْذَوْن ، فعلَىّ بالرجل ، فأحضره إلى الملك . فلمّا دخل الدار لم يبق بها شيطان إلا خرج . ثم جلس لوقا إلى جانب الملك ، فقال له : بلغنى أنك تُحيِي الموتى ، فأَحْيِ لى بِرْذَوْنى هذا . فقال له : إن أطعتنى فيما أقول لك أُحْيِ بِرْذَوْنَك . قال الملك : مُرنى بما شئتَ . قال : أُدْعُ آبنك وآمرأتك ، وكان ابنُه ولىّ عهده وآمرأته منه بمكان ، فدعاهما ، فأخذ لُوقا بقائمة من قوائم البِرْذَوْن ، وكلّ من الملك وآبنِه وآمرأته بقائمة ، ثم قال الحوارىّ بالفارسية : «اللهمّ ربَّ السموات والأرض ، خالق السموات والأرض وما فيهما لا إله إلّا أنتَ وحدك لا شريك لك ، أَحيِ هذا العضو الذى فى يدى » فتحرك ذلك العضو . ثم قال للملك : قل كما قلتُ ، فقال الملك مثل قوله . فتحرك العضو الذى فى يده . ثم قال لآبنه : قل كما أقول ، فقال فتحرك العضو الثالث ، ثم قال لآمرأته : قولى كما قلتُ ، فدعت بدعائه ، فتحرك العضو الذى فى يدها . ثم قال لهم : قولوا جميعا كما أقول ، فقالوا كلهم : « اللهم

ربّ السموات والأرض خالق السموات والأرض وما فيهما لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك أحْيِ هذا البِرذون» . فقام البِرْذَوْن حيّا ينفُض ناصيته . فعجب الملك والناس من ذلك . وسأله الملك عن خبره فأخبره أنه رسول عيسى بن مريم إليه والى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فآمنوا به . وقد قيل : إن الذى أُرسل إلى أرض فارس متّى الحوارىّ ، وإنه لمّا دخل على الملك كان الملك سكرانا ، فلمّا أحيا الفرس أمر الملك أصحابه بقتل متّى فقتلوه . فلمّا أفاق الملك من سكره سأل عنه فقيل له : إنك أمرتَ بقتله فقتلناه ، فقال : ما علمتُ بذلك . فقاموا إليه وغسلوه وكفّنوه ودفنوه . ويقال : إنّ الله تعالى بعد دفنه خسَف بالملك وأولاده وأهله . والله أعلم . ولنصل أخبار الحواريّين بخبر جرجيس وإن لم يكن منهم، فقد كانت له قصّة عجيبة تلتحق بهم .

ذكر خبر جِرْجِيس رحمة الله عليه

٧٤/٢

قال أبو اسحاق الثعلبىّ رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بـ«يواقيت البيان فى قصص القرءان» بإسناده عن وهب بن مُنَبِّه قال : كان بالموصل ملك يقال له داديه[(١)]، وكان قد ملك الشام كله ودان له أهله ، وكان جبّارا عاتيا، وكان يعبد صنما يقال له أفلون، وكان جِرْجِيس عبدا صالحا من أهل فِلَسْطِينَ قد أدرك بقايا من حَوَارِيّى عيسى عليه السلام، وكان تاجرا عظيما كثير المال عظيم الصدقة، وكان لا يأمن ولاية المشركين

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٦ من القسم الأول) : « داذانه » وقد أشار مصححه فى الهامش الى أنه ورد فى بعض النسخ « دادايه » و « دازانه » . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٤ طبع أوربا) « دازانه » وأشار مصححه فى الهامش الى أنه ورد فى بعض النسخ « رازانه » .

عليه مخافة أن يفتنوه عن دينه . فخرج يريد المَوْصِل[1] ومعه مال يريد أن يُهديه إليه حتى لا يجعل لأحد من الملوك عليه سلطانا دُونه . فجاءه حين جاءه وقد بَرز فى مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنُصِب وأوقدَ نارا، فمن لم يسجُد لصنمه أُلْقِيَ فى النار . فلمّا رأى جِرْجِيس ذلك قُطِع به وهاله وأعظمه وحدّث نفسه بجهاده، وألقى الله تعالى فى نفسه بغضه ومجاهدته . فعمَد إلى المال الذى أراد أن يُهديه له فقسمه فى أهل ملّته حتى لم يبقَ منه شيءٌ وكرِه أن يجاهده بالمال . ثم أقبل عليه وقال له : إنك عبد مملوكٌ لا تملك لنفسك شيئا ولا لغيرك، وإنّ فوقك ربًّا هو الذى ملّكك وغيرك، وهو الذى خلقك ورزقك ويُحييك ويُميتك ويضرّك وينفعك، وإنك عمَدتَ الى خَلْقٍ من خَلْقه قال له : كن، فكان أصمّ أبكم لا يَنطق ولا يَسمع ولا يُغنى عنك من الله شيئا، فزيّنته بالذهب والفضة فتنةً للناس، ثم عبدته من دون الله. فكان من جواب الملك إيّاه أن سأله عن حاله وأمره ومَن هو ومن أين هو . فأجابه جرجيس : أنا عبد الله وابنُ عبده وابنُ أمته أذلّ عباده وأفقرهم إليه، من التراب خُلقت واليه أصير . فقال له الملك : لو كان ربّك الذى تزعُم كما تقول لرُئِى عليك أثرُه كما رُئِى أثرى على مَن حَوْلى وفى طاعتى . فأجابه جِرْجِيس بتحميد الله وتعظيم أمره وقال: أتعدِل أفلون الأصمّ الأبكم الذى لا يُغنى عنك شيئا بربّ العالمين الذى قامت السموات والأرض بأمره ! . أو تَعدِل طَرْفَلينا[2] وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بما نال إلياس

(١) الموصل : مدينة بأرض الجزيرة على نهر دجلة على جانبه الغربى، قديمة العهد لا يعلم من بناها . وفى قبالتها على البر الشرقى منها أطلال مدينة نينوى قاعدة ملك آشور، وهى التى أرسل اليها النبى يونس عليه السلام . وكانت قاعدة ملك بنى حمدان، ثم انتقلوا منها الى حلب، ثم كانت قاعدة الدولة الزنكية . (راجع معجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية للمرحوم أمين واصف بك) .

(٢) فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأول) : «طرقبلينا» . وأشار مصححه فى الهامش إلى أنه ورد فى بعض النسخ : «طرقبلينا» . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٤ طبع أوربا) : «طرقلينا» .

بولاية الله تعالى ؛ فإنّ إلياس كان فى بدء أمره آدميّا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق فلم تزل به كرامة الله تعالى حتى أنبت له الريش وألبسه النور فعاد إنسيّا ملكيّا سماويًّا أرضيّا يطير مع الملائكة! أم تعدل مَخْلَنْطِيس[1] وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك، بالمسيح بن مريم وما نال بولاية الله تعالى فإنّ الله فضّله على رجال العالمين وجعله [وأمه][2] آية للمعتبرين ! أم تعدل أمر هذه الروح الطيّبة التى اختارها الله لكلمته وسوّدها على إمائه وما نالت بولاية الله تعالى، بأزبيل[3] وما نالت بولايتك فإنها كانت من شيعتك وعلى ملّتك، فأسلمها الله مع عظم مُلْكها حتى اقتحمت عليها الكلاب فى بيتها فانتهشت لحمها وولغت فى دمها ، وقطّعت الضباع أوصالها! .

فقال الملك : إنك لتحدّثنا عن أشياء ليس لنا بها علمٌ، فأتنى بالرجلين اللذين ذكرتَ أمرهما حتى أنظر إليهما ، فإنى أنكر أن يكون هذا من البشر . قال له جِرْجِيس : إنما جاءك الإنكار من قِبَل الغِرّة بالله تعالى . وأمّا الرجلان فلن تراهما ولا يريانك إلّا أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما . فقال له الملك : أمّا نحن فقد أعذرنا اليك وتبيّن لنا كذبك لأنك فخرتَ بأمور عجزتَ عنها . ثم خيّره الملك بين العذاب وبين السجود لأفلون . فقال جِرْجِيس : إن كان أفلون هو الذى رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبتَ ، وإلّا فاخسأ أيها النّجِسُ الملعون . فلمّا سمعه الملك غضب وسبّه وسبّ إلهه وأمر بخشبة فنُصِبتْ له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدّش بها جسدَه حتى تقطّع لحمه وجلده وعروقه، ونضح خلال ذلك الخلّ والخردل، فحفظه الله تعالى من ذلك الألم والهلاك . فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بستّة مسامير من حديد فأُحميتْ، حتى إذا جُعلت نارًا سمّر

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأول) : « مجليطيس » . وأشار مصححه فى الهامش إلى أنه ورد فى بعض النسخ : « مخليطيس » و « محلنطيس » و « محليطبس » . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٥) : « مخليطيس » . (٢) زيادة عن الثعلبى .

(٣) كذا فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأول) والثعلبى . وفى الأصول : « بأرنبيل » .

بها رأسه حتى سال دماغه ، فحفظه الله من الألم والهلاك . فلمّا رأى ذلك لم يقتله أمر بحَوْض من نحاس وأوقد عليه حتى إذا جعله نارًا أمر به فأُدخل فى جوفه وأُطبق عليه فلم يزل فيه حتى برد [حرّه](١) . فلمّا رأى أنّ ذلك لم يقتله دعا به فقال : يا جرجيس ، أمَا تجد ألَم هذا العذاب الذى تُعذَّب به ؟ فقال : إنّ ربّى الذى أخبرتك به حمل عنّى [ألم العذاب](١) وصبّرنى لأحتجّ عليك . فلمّا قال له ذلك أيقن الملك بالشرّ وخافه على نفسه ومُلْكه ، وأجتمع رأيه أن يخلّده فى السجن . فقال له الملأ من قومه : إنك إن تركتَه طليقا فى السجن [يكلّم الناس](١) يوشك أن يميل بهم عليك ، ولكن مُرْ له بعذاب فى السجن يشغله عن كلام الناس . فأمر به فبُطح [فى السجن](١) على وجهه ثم أُوتد [له](١) فى يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد [فى كل ركن منها وتدٌ](١) ، ثم أمر بأسطوان من رخام فوُضع على ظهره ، وحمل ذلك الأسطوان ثمانية عشر رجلا ، فظلّ يومه [ذلك](١) مُوتَدًا تحت الحَجَر . فلمّا أدركه الليل أرسل الله تعالى [اليه](١) مَلَكا فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد وأطعمه وسقاه و بشّره وعزّاه . فلمّا أصبح أخرجه من السجن وقال له : اِلحَقْ بعدوّك فجاهده فى الله حقّ جهاده ، فإنّ الله يقول لك : أبشر واصبر فإنّى قد ابتليتك بعدوّك هذا سبع سنين يعذّبك و يقتلك فيهنّ أربع مرّات ، فى كل ذلك أردّ إليك رُوحك ، فإذا كانت الرابعة تقبّلت رُوحك وأوفيتك أجرك . قال : فلم يشعُر الملك وأصحابه إلّا وجِرْجِيس قد وقف على رءوسهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى . فقال له الملك : يا جِرْجِيس مَن أخرجك من السجن ؟ قال : أخرجنى الذى سلطانه فوق سلطانك . فلمّا قال له ذلك مُلِىء غيظا ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخلّف منها شيئا . فلمّا رآها جِرْجِيس أوجس فى نفسه خِيفةً وفزعا منها ، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون .

٧٥/٢

(١) زيادة عن الثعلبي .

فلمّا فرغ من عتابه نفسَه مدّوه بين خشبتين ثم وضعوا سيفا على مَفْرِق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار قطعتين ، فعمَدوا إلى أجزائه فقطّعوها قطعا ، وللملك سبعةُ أسود ضارية ، وكانوا صنفا من أصناف عذابه ، فرمَوْا بجسده إليها . فأمرها الله تعالى فخضعت له برءوسها وأعناقها وقامت على براثنها ، فظلّ يوْمه ذلك ميّتا وهى أوّل موتة ماتها . فلمّا أدركه الليل جمع الله جسدَه الذى قطّعوه بعضَه إلى بعض حتى سوّاه ، ثم ردّ الله تعالى اليه رُوحه وأرسل مَلَكا فأخرجه من قَعْر الجُبّ فأطعمه وسقاه و بشّره وعزّاه . فلمّا أصبحوا قال له المَلَك : يا جِرْجِيس ، قال : لَبّيك ! قال : اعلم أنّ القدرة التى خلق الله تعالى بها آدم من التراب هى التى أخرجتك من قعر الجُبّ ، اِلحَقْ بعدوّك وجاهدْه فى الله حقّ جهاده ومُتْ موتَ الصابرين . فلم يشعُرِ الملك وأصحابُه إلّا وقد أقبل جِرْجِيس وهم فى عيد لهم عُكُوفٌ عليه صنعوه فرحا بموت جِرْجِيس . فلمّا نظروا إليه وقد أقبل قال الملِك : ما أشبهَ هذا بجرجيس ! قالوا : كأنه هو . قال الملك : ما بِجِرْجِيس من خفاء إنه لهو ، ألَا ترون الى سكون ريحه وقلّة هيبته . قال جرجيس : أنا هو ، بئس القوم أنتم ! قتلتم ومثّلتم فأحيانى الله بقدرته ، فهلمّوا الى هذا الرب العظيم الذى أراكم ما أراكم . فلما قال لهم ذلك أقبل بعضُهم على بعض وقالوا : ساحرٌ سَحر أعينكم . وجمعوا مَن كان ببلادهم من السَحرة . فلمّا جاءوا قال الملِك لكبيرهم : اِعرض علىّ من كبير سحرك ما يُقِرّ عَيْنى . قال : ادعُ لى بثور من البقر . فلمّا أُتِى به نفَث فى إحدى أذنيه فانشقّت باثنتين ، ثم نفَث فى الأخرى فإذا هو ثَوْران ، ثم دعا ببذر فحُرِث وبُذِر ، فشبّ الزرع واستحصد ، ثم دُرِس وذُرِىَ وطُحِن وعُجِن وخُبِز ، كلّ ذلك فى ساعة واحدة . فقال الملك : هل تقدِر أن تمسَخه لى دابّة ؟ قال الساحر : أىّ دابّة أمسخه لك ؟ قال : كلبا . قال : ادعُ لى بقَدَح من ماء .

فلمّا أُتِى بالقدح نفث فيه الساحر ثم قال: اعْزِمْ عليه أن يشربه ، فشربه جِرْجِيس حتى أتى على آخره . فلمّا فرغ منه قال له الساحر : ماذا تجد ؟ قال : ما أجد إلّا خيرا، قد كنتُ عطِشتُ فلطَف الله بى بهذا الشراب فقوّانى به عليكم . فأقبل الساحر على الملك فقال له : اعلم أيها الملك إنك لو كنتَ تقاسى رجلا مثلك اذًا لقد كنتَ غلبته، ولكنك تُقاسى جبّار السموات والأرض . وهو الملك الذى لا يرام . ٥

قال : وكانت امرأةٌ مسكينةٌ من أهل الشام سمعت بجِرْجِيس وما يصنع من الأعاجيب ، فأتته وهو فى أشدّ ما هو فيه من البلاء ، فقالت له : يا جِرْجِيس، إنّى امرأةٌ مسكينةٌ ولم يكن لى مالٌ إلا ثورا أحرُث عليه فمات، فجئتك لترحمنى وتدعو الله تعالى أن يُحيِيَ لى ثورى . فذرفت عيناه ، ثم دعا الله تعالى أن يُحيِيَ لها ثورها، ٧٦/٢ وأعطاها عصًا وقال لها : اذهبى الى ثورك فاقرعيه بهذه العصا وقُولِى له : اِحْيَ بإذن ١٠ الله . فقالت : يا جِرْجِيس ، مات ثورى منذ أيام ومزّقته السباع، و بينى و بينه أيام . فقال : لو لم تجدى منه إلّا سنّا واحدة ثم قَرَعْتِها بالعصا لقام بإذن الله تعالى . فانطلقت حتى أتت مَصْرَعَ ثورها، وكان أوّلُ شىء بدا لها أحدَ رَوْقَيه وشعر أذنيه، فجمعت أحدهما الى الآخر ثم قرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها ، فقام الثور بإذن الله تعالى وعمِلت عليه . قال : فلما قال الساحر للملك ما قال، قال رجل من أصحاب ١٥ الملك، وكان أعظمهم من بعد الملك ، إنكم قد وضعتم أمرَ هذا الرجلِ على السحر، و إنكم عذّبتموه فلم يصل اليه عذابكم، وقتلتموه فلم يَمُتْ، فهل رأيتم ساحراً يدرأ عن نفسه الموت وأحيا ميّتا قط؟ فقالوا له : إنّ كلامك لكلام رجلٍ قد صغا إليه فلعلّه استهواك . فقال : بل آمنتُ بالله ، واشهدوا أنّى برىء مما تعبدون . فقام اليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه . فلمّا رأى القوم ذلك اتّبع جِرْجِيس أربعة آلاف ٢٠ رجل . فعمد اليهم الملك فأوثقهم، ثم لم يزل يعذّبهم بأنواع العذاب حتى أفناهم. فلمّا

فرغ منهم قال لجرجيس : هلّا دعوتَ ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قُتلوا بجريرتك ! . فقال له جرجيس : ما خُلّى بينك و بينهم حتى حان لهم . فقال رجل من عظماء أصحابه يقال له مَخْلَنْطِيس : إنك زعمتَ يا جِرْجِيس أن إلٰهك هو الذى يبدأ الخَلْق ثم يُعيده ، وإنى سائلك أمرًا إن فعله إلٰهك آمنتُ بك وصدّقتك وكفيتك ، إنّ حولنا أربعةَ عشر كرسيًا ومائدة ، و بيننا أقداحٌ وصِحَافٌ وهى من أشجار شتّى ، فادعُ إلٰهك ينشئ هذه الكراسىّ والأوانى كما بدأها أوّل مرّة حتى تعود خضراء يُعرَف كلّ عود منها بلونه وورقه وزهره . فقال له جِرْجِيس : قد سألتَ أمرا عزيزا علىّ وعليك ، و إنه على الله لهيِّن ، ودعا الله عزّ وجل ، فما برِحوا من مكانهم حتى آخضرّت تلك الكراسىّ والأوانى كلها وساخت عروقها وأُلبست اللحاء وتشعّبت فأورقت وأزهرت وأثمرت . فلمّا نظروا الى ذلك انتدب له مَخْلَنْطِيس الذى تمنّى عليه ما تمنّى فقال : أنا أُعذّب لكم هذا الساحر عذابا يضلّ عنه كيدُه . فعمَد الى نحاس فصنع منه صورة ثور أجوف واسع ، ثم حشاه نِفْطا ورَصَاصا وكِبْريتا وزِرْنيخا ، ثم أدخل جِرْجِيس مع الحشو فى جوفه ، ثم أوقد تحت الصورة حتى آلتهبت وذاب كل شىء فيها وآختلط ، ومات جرجيس فى جوفها . فلمّا مات أرسل الله عزّ وجل ريحا عاصفا فملأتِ السماء سحابا أسودَ مظلما ، فيه رعد و برق وصواعق ، وأرسل الله تبارك وتعالى إعصارا ملأت بلادهم عَجَاجا وقتاما حتى آسودّ ما بين السماء والأرض ، ومكثوا أياما متحيّرين فى تلك الظُّلمة لا يفصلون بين الليل والنهار ، وأرسل الله تعالى ميكائيل فآحتمل الصورة التى فيها جرجيس ، حتى اذا أقلّها ضرب بها الأرض ففزِع من روعها أهل الشام أجمعون فخرّوا على وجوههم صَعِقين ، وآنكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيّا . فلمّا وقف يكلّمهم انكشفتِ الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض و رجعت اليهم أنفسهم . فقال له رجل يقال له طَرْفَلينا : لا ندرى

يا جرجيس أأنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربّك! فإن كان ربك هو الذى يصنع هذا فادعُه يُحْيِ موتانا ؛ فإنّ فى هذه القبور أمواتا منهم مَن يعرف ومنهم مَن لا يعرف . فقال له جِرْجِيس: لقد علمتُ ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويُريكم هذه الأعاجيب إلّا كانت عليكم حجّة، فتستوجبوا غضبه، ثم أمر بالقبور فنُبشتْ وهى عظامٌ رُفَاتٌ وأقبل على الدعاء، فما برحوا من مكانهم حتى نظروا الى سبعة عشر إنسانا : تسعة رهط وخمس نسوة وثلاثة صبية، واذا فيهم شيخ كبير . فقال له جرجيس: يا شيخ، ما اسمك ؟ فقال : يا جرجيس اسمى نُوبِيل . قال : متى مُتَّ ؟ قال : فى زمان كذا وكذا . فحسبُوا فإذا هو مات منذ أربعمائة سنة . فلمّا نظر الملك وأصحابه الى ذلك قالوا : ما بقِى من أصناف العذاب شىءٌ إلّا وقد عذّبتموه به إلّا الجوع والعطش، فعذّبوه بهما . فعمَدوا الى بيت عجوز كبيرة ، وكان لها ابن أعمى أصمّ أبكم مُقعَد ، فحصروه فى بيتها ولا يصل اليه من عند أحد طعامٌ ولا شرابٌ . فلمّا بلغ به الجوع قال للعجوز : هل بقِى عندك من طعام أو شراب ؟ قالت : لا والذى يُحلَف به ما عهِدنا الطعام منذ كذا وكذا ، وسأخرج ألتمس لك شيئا. فقال لها جرجيس : هل تعرفين الله تعالى؟ قالت نعم. قال: فإيّاه تعبُدين؟ قالت لا. فدعاها الى الله عز وجلّ فصدّقته ، وانطلقت تطلب له شيئا ، وفى بيتها دِعامة من خشبة يابسة تحمل خشب البيت ، فأقبل على الدعاء ، فاخضرّت تلك الدِّعامة وأنبتت له كل فاكهة تُؤكَل أو تُعرَف، حتى كان فيها اللُّوبيا واللُّبان[1] مثل البَرْدِىّ يكون بالشام، وظهر للدِّعامة فروعٌ من فوق البيت أظلّته وما حوله . فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رَغَدا . فلمّا رأتِ الذى حدث فى بيتها من بعدها قالت : آمنتُ بالذى أطعمك، فادعُ هذا الربّ العظيم ليشفى ابنى . قال: أُدنِيه منّى، فأدنته، فبصق

٧٧/٢

(١) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : « وآليا وهو شىء يكون بالشام الخ » .

فى عينيه فأبصر، ونفَث فى أذنيـه فسمِع . قالت له : أطْلِق لسانه ورجليه رحمك الله . قال : خذيه فإنّ له يوما عظيما . وخرج الملك يوما ليسير فى مدينته، إذ وقع بصره على الشجرة، فقال : إنى أرى شجرة بمكانٍ ما كنتُ أعرفها به . قالوا : تلك شجرة نبتت لذلك السـاحر الذى أردتَ أن تعـذّبه بالجوع، فهو فيما شاء وقـد شبع منها وأشبع العجوز الفقيرة وشفى لها ابنها . فأمر الملك بالبيت فهُدِم و بالشجرة لتُقطَع . فلمّا همّوا بقطعها أيبسها الله تعـالى و ردّها كما كانت أوّل مرّة، فتركوها . وأمر بجرجيس فبُطح على وجهه وأُوتدَ له أربعـةُ أوتاد ، وأمر بعجلة وأوقرها أسطوانا وجعل فى أسـفل العجلة خناجر وشِـفارا ، ثم دعا بأربعين ثَوْرا فنهضت بالعجلة نهضةً واحدة و جِرْجِيس تحتها، فانقطَع ثلاثَ قِطَع، فأمر بِقطَعه فأُحرقت بالنار، حتى اذا عادت رَمادا بعث بذلك الرَّماد و بعث معه رجالا فذرّوه فى البحر ، فلم يبرحوا من مكانهم حتى سمعوا صوتا من السماء : يا بحر، إنّ الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسـد الطيّب، فإنّى أريد أن أعيده كما كان . ثم أرسل الله تعالى الريح فأخرجته ثم جمعته حتى صار الرَّماد صُبْرةً كهيئته قبل أن يذرّوه؛ فخرج منه جِرْجِيس مغبراً ينفُض رأسـه، فرجعوا ورجع جِرْجِيس ، فأخبروا الملك خبر الصوت [الذى سمعوا](١) والريح التى جمعته، فقال : هل لك ياجرجيس فيما هو خيرٌ لى ولك مما نحن فيه ؟ ولولا أن يقول الناس إنك قهرتنى وغلبتنى لاتّبعتك وآمنتُ بك، ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة وآذبَحْ له شاة واحدة، ثم إنى أفعل مايسرّك . فقال له : نعم، مهما شئت فعلت ، فأدخِلْنى على صنمك . ففرح الملك بقوله فقام وقبّل يديه ورجليه ورأسه وقال : إنّى أعزِم عليك ألّا تظل هذا اليومَ إلّا عندى ، ولا تبيت هذه الليلة إلّا فى بيتى وعلى فراشى ، حتى تستريح و يذهب عنك وَصَب العذاب، و يرى الناس كرامتك علىّ،

(١) زيادة عن الثعلبى .

فأُخلى له بيت فظلّ فيه جرجيس، حتى اذا أدركه الليل قام يصلّى ويقرأ الزّبور، وكان أحسن الناس صوتا. فلمّا سمعت آمرأة الملك آستجابت له، فلم يشعُر إلّا وهى خلفه تبكى معه، فدعاها جِرجيس الى الإيمان فآمنت به، وأمرها فكتمت إيمانها. فلمّا أصبح غدا به الملك الى بيت الأصنام ليسجُد لها. [وقيل للعجوز التى كان سجن فى بيتها: هل علمت أن جرجيس قد فتن بعدك فأصغى الى الدنيا وقد خرج به الملك الى بيت أصنامه ليسجُد لها[1]] فخرجت العجوز تحمل آبنها على عاتقها وتوبّخ جِرْجيس والناس مشغولون عنها. فلمّا دخل جِرْجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظر فإذا العجوز وآبنها على عاتقها أقرب الناس اليه مقاما؛ فدعا آبن العجوز بآسمه فنطق وأجابه ولم [يكن[1]] يتكلّم قبل ذلك، ثم آقتحم عن عاتق أمه يمشى على رجليه وهما مستويتان وما وطئ على الأرض قبل ذلك قط. فلمّا وقف بين يدى جرجيس قال: اذهَبْ فآدعُ لى هذه الأصنام وهى حينئذ سبعون صنما على منابر من ذهب، وهم يعبدون الشمس والقمر معها. فقال له الغلام: كيف أدعو الأصنام؟ قال: قل لها إن جرجيس يسألك ويعزِم عليك بالذى خلقك إلّا أجبتيه. قال: فلمّا قال لها الغلام ذلك أقبلت تَدَحرج الى جِرْجيس، فلمّا آنتهت اليه ركض الأرض برجله فخُسف بها وبمنابرها، وخرج إبليس من جوف صنم منها هاربا فَرِقا من الخَسْف، فلمّا مرّ بجرجيس أخذ بناصيته، فخضع له وكلّمه جرجيس فقال له: أخبرنى أيها الرُّوح النَّجِسة والخَلْق الملعون، ما الذى يحملك على أن تُهلِك نفسَك وتُهلِك الناسَ وأنت تعلم أنك وجُندك تصيرون الى جهنّم؟ فقال له إبليس: لو خُيِّرتُ بين ما أشرقت عليه الشمس وأظلم عليه الليل وبين هلكة واحد من بنى آدم وضلالته طَرْفةَ عين لآخترته على ذلك كله، وإنه ليقَعُ لى من الشهوة واللذّة فى ذلك مثل جميع ما يتلذّذ به جميع الخلائق. ألم تعلم يا جرجيس أنّ الله تعالى

(١) زيادة عن الثعلبى.

أسجدَ لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا كلّهم وامتنعتُ أنا من السجود وقلتُ
٧٨/٢ أنا خير منه ! . فلما قال هذا أخلاه جرجيس . فما دخل إبليس منذ ذلك اليوم
جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدا . [فقال الملك : ياجرجيس خدعتنى
وغدرتنى وأهلكت آلهتى[1] .] فقال جرجيس للملك : إنما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم
٥ أنها لو كانت آلهة لامتنعت منّى فكيف ثقتك — ويلك — بآلهة لم تمنع أنفسها منّى !
وإنما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلّا ما ملّكنى ربّى . فلمّا قال جرجيس هذا كلّمتهم
امرأة الملك وكشفت لهم إيمانها، وعدّدت عليهم[أفعالهم][1] أفعال جرجيس والعِبَر التى
أراهم الله تعالى، وقالت لهم : ما تنتظرون من هذا الرجل إلّا دعوةً فيخسِف الله
بكم الأرض كما خسَف بأصنامكم . اللهَ اللهَ أيها القوم فى أنفسكم ! . فقال لها الملك :
١٠ وَيْحَكِ يا سَكَنْدرة ! ما أسرعَ ما أضلّك هذا الساحر فى ليلة واحدة وأنا أقاسيه
منذ سبع سنين فلم يظفَر منّى بشىء قطّ ! فقالت : أمَا رأيتَ الله كيف يُظفره بك
ويسلّطه عليك فيكون له الفَلْج والحجّة عليك فى كل موطن ! . فأمر بها الملك عند ذلك
فحُمِلتْ على خشبة جرجيس التى كان عليها عُلِّق، وحُملت عليها الأمشاط التى جُعلت
على جرجيس . فلمّا تألّمت قالت : ادعُ ربك يا جرجيس فيخفّف عنّى فإنى قد
١٥ آلمنى العذاب . فقال لها : انظرى فوقك . فلمّا نظرتْ ضحِكت . فقال لها : ما الذى
يُضحِكك؟ قالت : أرى مَلَكين فوقى معهما تاجٌ من حلىّ الجنة ينتظران به روحى
أن تخرج . فلمّا خرجتْ أتيا بذلك التاج ثم صعِدا بها الى الجنة . قال : فلمّا
قبض الله تعالى رُوحها أقبل جِرْجِيس على الدعاء فقال : اللّهمّ أنت أكرمتَنى بهذا
البلاء لتُعطِيَنى فضائل الشهداء، فهذا آخر أيامى التى وعدتَنى فيه الراحة من بلائك،
٢٠ فإنّى أسألك ألّا تقبضَ رُوحى ولا أزول من مكانى هذا حتى تُنزِل بهؤلاء القوم من

(١) زيادة عن الثعلبى .

سطوتك ونِقمتك مالا قِبَـل لهم به حتى تشفى به صدرى وتُقر به عينى؛ فإنهم ظلمونى وعذّبونى . اللّهمّ وأسألك ألّا يدعوَ بعـدى داعٍ فى بلاء وكرب فيذكرنى ويُشـير بآسمى إلّا فرجتَ عنه ورحِمتَه وأجبتَه وشفّعتنى فيـه . فلمّـا فرغ من هـذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا من السماء . فلمّا رأَوْا ذلك عمدوا اليه وضربوه بالسيوف غيظا عليه من شدّة الحريق ليُعطِيَه الله تعالى بالقتلة الرابعة ما وعده . ثم احترقت المدينة بجميع ما فيهـا وصارت رَمادا ، فحملَها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها، فمكثت زمانا يخرج من تحتهـا دُخَانٌ مُنتنٌ لا يشمّه أحدٌ إلّا سقِم سقما شديدا . وكان مَن آمن بجرجيس وقُتـل معه أربعة وثلاثون ألفا وآمرأة الملك. قالوا: وكان جِرْجِيس فى أيام ملوك الطوائف .

. وحيث آنتهى بنـا القول فى سرد ما شرحناه من قصص الأنبياء صـلوات الله عليهم أجمعين، وما آتصل بذلك من الأخبار؛ فلنذكر الآن التذييل الذى شرحناه فى ترجمة هذا القسم للسبب الذى قدّمناه . وبالله المستعان .

التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

يشتمل على ذكر الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى بن مريم الى الأرض ، وما يكون من الفِتَن والحروب، وخروج من يخرج ويتغلّب على البـلاد، وخروج المهدىّ والدجّال ونزول عيسى بن مريم وقَتْـله الدجّال، وخروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم، ووفاة عيسى بن مريم، وما يكون بعده من أشراط الساعة ويوم القيامة والنفخ فى الصُّـور والحَشْر والمعاد . ممـا أورد إن شاء الله تعـالى ذلك من كتب الحديث الصحيح النبوىّ، ومن كتاب المبتدا للكسائىّ ، ومن كتاب العاقبة للشيخ أبى محمد عبد الحقّ بن عبد الحقّ بن عبدالله الأَزْدىّ الإشبيلىّ على سبيل الآختصار .

الباب الأوّل

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى ذكر الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى بن مريم

ولنبدأ بذكر الملاحم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ستُصالحكم الرُّوم ٧٩/٢
صُلْحا آمِنًا ، ثم تغزُون أنتم وهم عدوًّا[(١)] فتنتصِرُون وتَغنَمُون وتَسلَمون ثم تنصرفون حتى تَنزِلوا
بمَرْج ذى تلول ، فيرفع الرجلُ من أهل الصليبِ الصليبَ فيقول غلب الصليب ، فيغضب
رجل من المسلمين فيقوم اليه فيدُقُّه ، فعند ذلك تغدر الروم ويجتمعون للملحمة فيأتون
حينئذ تحت ثمانين غاية[(٢)] تحت كل غاية اثنا عشر ألفا " . وعنه صلى الله عليه وسلم :
" اذا وقعتِ الملاحمُ بعث الله بَعْثًا من الموالى هم أكرمُ العرب فَرَسًا وأجودُه
سلاحًا يؤيّد الله بهم الدِّين " . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الملحمة
الكبرى وفتح القُسْطَنْطِينِيّة وخروج الدجّال فى سبعة أشهر[(٣)] " . وعنه صلى الله عليه
وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغارَ الأعيُن ذُلْفَ[(٤)] الأنوف كأنّ وجوههم
المَجَانّ[(٥)] المُطْرَقة ولا تقوم الساعة حتى تُقاتِلوا قوما نِعالُهم الشَّعر[(٦)] " . وفى الحديث

(١) أى عدوّا آخرين بالمشاركة والاجتماع بسبب الصلح الذى بينكم وبينهم أو أنتم تغزون عدوّكم وهم يغزون عدوّهم بالانفراد . (٢) الغاية هنا : الراية . (٣) وروى ابن ماجه أيضا فى سننه (ج ٢ ص ٢٧٥) : « بين الملحمة وفتح المدينة ست سنين ويخرج الدجال فى السابعة » .

(٤) الذلف (بالتحريك) : قصر الأنف وانبطاحه . وقيل : ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته .

(٥) المجانّ : جمع المجن وهو الترس . والمطرقة : هى التى ألبست طراقا ، أى جلدا يغشاها . شبه وجوههم بالترس لبسطتها وتدورها ، وبالمطرقة لغلظها وكثرة طمها (راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ١٨٤) .

(٦) نعالهم الشعر ، أى يتخذون النعال من الشعر . ويحتمل أن يراد أن ذوائبهم لطولها ولوصولها الى أرجلهم كالنعال .

الآخر: "إنّ من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما عِراضَ الوجوه كأنّ وجوههم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ. وإنّ من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون الشَّعَر". وعنه صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صِغارَ الأعيُنِ عِراض الوجوه كأنّ أعينهم حَدَق الجراد كأنّ وجوهم المَجَانّ المُطْرَقَة ينتعلون الشَّعَر ويتّخذون الدَّرَق يربطُون خيولهم بالنخل"(١). خرّج هذه الأحاديث ابن ماجه(٢). ٥

ذكر خبر المتغلِّبين على البلاد

وذلك مما يظهر من الفتن قبل نزول عيسى عليه السلام

قال أبو الحسن الكسائيّ عن كعب الأحبار: ولا بدّ أن يحدُث بين يدَىْ نزول عيسى علامات وحروب وفتن، فأوّل مَن يخرُج ويغلب على البلاد رجلٌ اسمه الأَصْهَبُ من بلاد الجزيرة، ويخرج الجُرْهُمىّ من بلاد الشام، ويخرج القَحْطانىّ بأرض اليمن، وهو أمثل هؤلاء الثلاثة شَوْكةً. فبينا هؤلاء الثلاثة فى مواضعهم وقد تغلّبوا على أمكنتهم بالظلم والجَوْر إذا هم بالرجل السُّفيانىّ قد خرج من غُوطَة دِمَشْق، وقيل: إنه يخرُج من الشام، وقيل: إنه يخرُج من الوادى اليابس. وأخواله من كَلْب، واسمه مُعاوية بن عَنْبسة. وهو رَبْعٌ من الرجال، دقيق الوجه، طويل الأنف، مُحْدَوْدِب، جَهْوَرِىّ الصوت، يَكسِر عينه اليمنى؛ يحسَبُه الذى يراه كأنه أَعْوَر وليس بأَعْور، يظهر فى أوّل أمره بالزهد ويبذُل الأموال، ويُخْطَب له على منابر الشام، ويكون جريئا على سَفْك الدماء لمن خالفه، ويعطِّل الجمعة والجماعة. وعلامة بدء أمره أنه يخرُج فى كل مدينة دجّال يدعو إلى نفسه، ويُظهِر الفسق حتى إنهم يفجُرون فى المساجد، فيخرُج عليهم السُّفيانىّ

(١) النخل: موضع غربى مسجد الأحزاب. وقيل: هو على ثلاثة أميال من المدينة.

(٢) راجع كتاب سنن ابن ماجه (ج ٢ ص ٢٧٠، ٢٧١ طبع مصر سنة ١٣١٣ هـ).

حتى ينزل أرض دمشق ، فيجتمع اليه القوم ويبايعونه ، و يفرق الأموال الكثيرة بينهم حتى يقولوا هذا خير أهل الأرض . ثم يسير فى الشام وعلى مقدّمته رجلٌ من جُهَينة يقال له ناجية حتى ينزل العراق، فيُخرِج اليه القَحْطانىّ جيشا كثيرا فيهزمهم ناجية هزيمة قبيحة، فعند ذلك يُوَجِّه السُّفْيَانىّ ثلاث جيوش : جيش الى الكوفة فيقتُلون قتلا ذريعا، وجيش الى خراسان فيقتُلون و يحرِّقون، وجيش الى الروم حتى يكثر القتل منهم فى الدنيا وفى كل طريق . فعند ذلك يجتمع الصالحون على السُّفيانىّ ويخوِّفونه عقوبة الله فى سَفْك الدماء، فيأمر بقتلهم وقتل العلماء والزُّهّاد فى جميع الآفاق . فعند ذلك يجتمع المسلمون على رجل من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له محمد بن علىّ فيبايعونه و يسمّونه المهدىّ . والله أعلم .

ذكر خبر خروج المهدىّ

٨٠/١٢ قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : يُبَايَعُ بين مكة والرُّكن، و يكون أوّل أمره على عدد أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا . وقيل : إنه يخرج [قبل هذا ولىٌّ](١) من قرية من قرى حرس(٢) فى ثلاثين رجلا، ثم يجتمع اليه المؤمنون من كل ناحية، ثم ينكسف القمر ثلاثَ ليالٍ متواليات ، ثم يظهر المهدىّ بمكة ويَشيع أمره؛ فيبلغ ذلك [الزّهرانىّ صاحب](١) السُّفيانىّ، فيبعث الى المهدىّ جيشا ثلاثين ألفا فينزلون فى البرِّيّة . ثم يخرج السُّفيانىّ الى البيداء، فإذا استقرّ بالموضع خسف الله تعالى بهم الأرض ، فيأخذهم الى أعناقهم حتى لا يُفلت منهم إلّا رجلان يخرجان بفرسيهما، فإذا وصلوا الى القوم رأَوْهم وقد خَسَف الله بهم، فيخسف الأرض بواحد منهما، ويحوِّل الله وجه الآخر الى قفاه، فيبقى كذلك مدّة حياته . ثم يخرُج المهدىّ

(١) التكملة عن الكسائى . (٢) كذا فى الأصول . وفى الكسائى : « مرجوش » .

بمن معه الى بلاد الروم فيسير حتى يسمع بهلاك السُّفيانىّ وأصحابه . قال : وذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوت وَأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[1] . فيحمد المهدىّ الله تعالى على ذلك، ويخرج الى بلاد الروم فى نحو مائة ألف فيصل الى القُسْطَنْطِينِيَّة، فيدعو ملكَ الروم الى الإسلام فيأبَى فيقاتله ، ويدوم القتال بينهم شهرين، ثم ينهزم ملك الروم . ويدخل [المسلمون][2] الى القسطنطينية، فينزل المهدىّ على بابها، ولها سبعة أسوار، فيكبِّر سبع تكبيرات فينهدم كلّ سور منها بتكبيرة. ويدخلها المهدىّ ويقتُل خلقا كثيرا ويقتُل ملك الروم، ثم يرفع [عنهم][2] السيفَ، ويأخذ المسلمون من الغنائم ما لا يُحصَى ، حتى إنّ الرجل ليأخذ من الجوهر ما يعجز عن حمله . فبينما هم كذلك إذ يأتيهم الخبرُ من خليفة المهدىّ بخروج الدجّال واجتماع الناس عليه، فيتركون تلك الغنائم وينصرفون الى بلادهم مسرعين لمحاربة الدجّال. فيقال : إن المهدىّ يسير نحو الدجّال وعلى رأسه عمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلتقون ويقتتلون قتالا شديدا ، فيُقتَل من أصحاب الدجّال أكثر من ثلاثين ألفا. ثم ينهزم الدجّال فيمرّ نحو بيت المقدس، فيأمر الله الأرض بإمساك قوائم خيله ، ويرسل عليهم ريحا حمراءَ فتقتُل منهم أربعين ألفا . قال : ثم يُقبِل المهدىّ بجيشه زُهاء[3] مائة ألف، فى أيديهم الراياتُ البيض . فيقول المهدىّ [لعسكر الدجّال][2] : ويلكم! أتشكّون فى هذا الأعور الكذّاب[4] أنه الدجّال؟ فيقولون : لا ، ولكنّا نعيش فى طعامه . فيُمسَخُون فى الحال قِرَدَةً وخنازير . ثم ينزل عيسى بعد ذلك الى الأرض ويصلّى خلف المهدىّ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) سورة سبإ آية ١٥ (٢) زيادة عن الكسائىّ .

(٣) فى الأصول : « بجيشه زهاء على مائة ألف ... الخ » بزيادة « على » .

(٤) عبارة الكسائى : « أتشكون فى هذا الأعور الدجال أنه كذاب » .

ذكر خبر خروج الدجّال وصفته

وما يكون من أمره الى أن ينزل عيسى عليه السلام

قال كعب : إنّ الدجّال رجلٌ طويلٌ، عريضُ الصدر، مطموسُ العين اليمنى، واليسرى كأنها كوكبٌ دُرِّىّ ، مكتوبٌ بين عينيه : "كافر"، يقرؤه كل كاتب أو غير كاتب . ويدّعى أنه الربّ، ومعه يومئذ جبل من خبز، وجبل من لحم، وأجناس الفواكه والخمور، ومعه أصحاب الملاهى يمشون بين يديه بالطبول والطنابير والمعازِف والعيدان والنايات والصُّنوج وغير ذلك، فلا يسمعه أحد إلا وتبعه وفتَنه إلّا مَن عصمه الله . ويكون معه نارٌ وجنّة، وهو يقول : مَن أطاعنى أدخلته الجنّة، ومَن عصانى ولم يسجُد لى ألقيته فى النار . قال : وعلامة خروجه أن تهبّ ريحٌ مثل ريح قومِ عاد، وتُسمَعَ صيحةٌ عظيمةٌ مثل صيحةِ قومِ صالح، ويكونَ مَسْخا كمَسْخ أصحاب الرسّ ، وذلك عند ترك الناسِ الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر . فإذا أخذوا فى سَفْك الدماء واستحلّوا الرِّبا وشيّدوا البنيان وشربوا الخمور، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فعند ذلك يخرج الدجال من جهة المشرق من قرية يقال لها سيراباد[1] بين الأهواز وأصفهان، ويخرج على حمار له . قال : وهو أحمرُ الحاجبين، أشعرُ الأنف، تخرُج من خلل أسنانه رائحةٌ لا يَشَمّها أحدٌ إلّا صار اليه نَتْنه، فى جبهته قرنٌ مكسور تخرج منه الحيّات والعقارب، مُحْدَوْدِب الظهر، قد صُوِّرت آلات السلاح فى جسده حتى الرمح والفأس والسهم والدَّرَق . وهو يتناول السحاب بيده، ويخوض البحار الى كعبيه، ويستظلّ فى ظلّ أذُنِ حماره خلقٌ كثير من أولاد الزِّنا، عليهم خِفافٌ مخروطةٌ، خِفافهم مناقير كمناقير العِقْبان، لأصابعهم أظافير كالمناجل، ومعه قوم

٨١/١٢

(١) فى الكسائىّ : « درسابار » .

من السَّحَرة يقلِبون الجبال خبزا والأنهارَ شرابا ، ولا يُطعِم ولا يَسقِي إلّا من آمن به . ومعه صاحب لوائه من قريته ينادى بأعلى صوته : هذا ربكم فاعرِفوه . فإذا سار الدجّال سارت معه جبال طعامه وأنهار شرابه ، و إذا وقف وقفت . يطوف الأرض شرقَها وغربَها حتى يدخل أرض بابِل فيلقاه الخَضِر ، فيقول له الدجّال : أنا ربّ العالمين . فيقول له الخَضِر : كذبتَ يا دجّال ! إنَّ ربّ العالمين ربُّ السموات والأرَضِين . فيقتله الدجّال و يقول : لو كان لهذا إله كما يزعم لأحياه . فيُحيِي الله الخضِر من ساعته فيقوم و يقول : ها أنا يا دجّال ، قد أحيانى الله ربّى . ثم يُقبِل الخَضِر على أصحابه و يقول : ويلكم ! لا يَفْتننّكم هذا الكافر . و يقال : إنه يقتل الخَضِر ثلاث مرّات ويُحييه الله تعالى . ثم يخرج الدجّال نحو مكة ، فإذا دنا منها رأى الملائكة (١) مُحدِقين بالبيت الحرام قد نشروا أجنحتَهم على الكعبة ، يخرُج من خَلَل أجنحتهم مثلُ شَرَر النِّيران ، فلا يقدر على دخولها . ثم يسير الى المدينة فيجدها كذلك . ثم يمضى الى بيت المَقْدِس فلا يقدر على دخوله لكثرة مَن حوله من الملائكة . واختُلف فى مدّة إقامته فى الأرض ، فقيل أربعين سنة ، وقيل أربعين يوما ، على ما نورد ذلك من الحديث الصحيح النبوىّ الذى يشمَل ذكر هذه الفتن كلها . قال : وأمّا المسلمون فإنهم يصومون و يصلّون كما كانوا غير أنهم فى غمّ ، قد تركوا المساجد ولزموا البيوت ، وتطلُع الشمس متلوّنة : مرّة بيضاء ، ومرّة صفراء ، ومرّة حمراء ، ومرّة سوداء ، وتكون الأرض فى الزلزلة والرجفة ، ثم يكون بينه و بين المهدىّ ما قدّمنا ، ثم ينزل عيسى بن مريم عليه السلام .

(١) كذا فى الكسائىّ . وفى الأصلين : « ينظر الى الملائكة » .

الباب الثانى من التذييل

على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى خبر نزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجّال

وخروج يأجوج ومأجوج وفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام

لمّا رأيت أهل السِّيَر قد أكثروا من القول فى نزول عيسى عليه السلام وزادوا فى القول ونقصوا منه، عدلت عن أقوالهم، وأوردت ما أذكره من ذلك من الحديث الصحيح النبوىّ، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم. وختمتُ هذا الباب بالحديث الشامل فى خروج الدجّال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وغير ذلك. وهذه الأحاديث خرّجتها من كتاب السُّنَن للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد ابن يزيد بن ماجه القَزْوِينى، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

ذكر نزول عيسى بن مريم عليه السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر فتنة الدجّال وما يلاقيه الناس منه، قال: "فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى بنَ مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مَهْرُودَتَيْن[1] واضعٌ[2] كفّيه على أجنحة مَلَكَيْن، اذا طأطأ رأسه قَطَر[3]، وإذا رفع رأسه يتحدر منه جُمان كاللؤلؤ، ولا يحلّ لكافر أن يجد ريح نَفَسِه إلّا مات. ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طَرْفُه، فينطلق حتى يدرك الدجّال فيقتله عند باب لُدّ[4]".

قال: "ثم يأتى نبىّ الله عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله فيمسح وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم فى الجنة". والله أعلم.

---

(١) أى بين حلتين شبيهتين بالمصبوغ بالمَرْد. والمَرْد (بالضم): عروق يصبغ بها.

(٢) كذا فى سنن ابن ماجه. وفى الترمذى «واضعا» بالنصب وهو الظاهر. على أنه يجوز أن يقرأ هنا بالنصب لأن أهل الحديث كثيرا ما يكتبون المنصوب بصورة المرفوع. أما الرفع فعلى تقدير مبتدأ محذوف.

(٣) قطر: ذهب وأسرع. (٤) لُد (بالضم والتشديد): قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين.

ذكر خبر يأجوج ومأجوج

٨٢/١٢

صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنّ يأجوج ومأجوج لَيَحْفِرون السدّ كلّ يوم حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفِرونه غدا فيعيده الله عزّ وجل أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم إلى الناس حفَروا حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال ارجعوا فستحفِرونه غدا إن شاء الله وٱستثنَوْا فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفِرونه ويخرجون على الأرض فيَنْشَفُون المياه ويتحصّن الناس منهم فى حصونهم فيرمُون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليهم الدم الذى أَجْفط[1] فيقولون قهَرْنا أهلَ الأرض وعلَوْنا أهلَ السماء فيبعث الله عليهم نَغَفا[2] فى أقفائهم فيقتلهم بها" . قال صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده إنّ دوابّ الأرض لتسمَن وتشكر[3] شكرا من لحومهم ودمائهم" . وفى الحديث الآخر : "إنّ الله تعالى يُوحِى إلى عيسى أنّى قد أخرجتُ عبادًا لى لا يَدَانِ لأحدٍ بقتالهم فاحْرُزْ عبادى إلى الطور . ويبعث الله يأْجُوج ومأْجُوج وهم كما قال الله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فيمرّ أوائلهم على بُحَيرة طَبَرِيّة فيشربون ما فيها ثم يمرّ آخرهم فيقولون لقد كان فى هذا ماء مرّةً ولَيُحْصَرُ نبىّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغَب نبىّ الله عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيُرسِل الله عليهم النغَف فى رقابهم فيصبحون فَرْسَى[4] كموت نفس واحدةٍ ويهبط نبىّ الله عيسى وأصحابُه فلا يجدون موضع شِبْرٍ إلّا قد ملأه زَهَمُهم[5] ونَتَنهم ودماؤهم فيرغبون إلى الله عزّ وجل فيُرسِل عليهم طيرا كأعناق البُخْت فتحملهم

(١) أجفط (بالجيم) : أنتن . (٢) النغف : الدود . (٣) شكرت الدابة شكرا (وزان فرح) : سمنت . (٤) فرسى كقتلى لفظا ومعنى ؛ يقال : فرس الذئب الشاة إذا قتلها . (٥) الزهم (بالضم) : الريح المنتنة .

فتطرحُهم حيث شاء الله عزّ وجل . ثم يُرسِل الله [عليهم](١) مطرا لا يَكُنّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وبرٍ فيغسِله حتى يتركه كالزَّلَفة(٢)، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردِّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمّانة فتُشبعهم ويستظلّون بقِحفها(٣)، ويبارك الله في الرِّسْل(٤) حتى إن اللَّقْحة(٥) من الإبل تكفي الفِئام(٦) من الناس، واللَّقْحة من البقر تكفي القبيلة، واللقحة من الغَنَم تكفي الفَخِذ(٧) . فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحا طيّبة فتأخذ تحت آباطهم فتقبِض رُوحَ كلّ مسلم ويبقَى سائر الناس يتهارَجُون(٨) كما يتهارج الحمرُ، فعليهم تقوم الساعة" . وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : "لمّا كان ليلةُ أُسْرِيَ برسول الله صلى الله عليه وسلم لقِيَ إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علمٌ، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علمٌ، فردّ الحديث إلى عيسى بن مريم فقال قد عُهد إليّ فيما دونَ وَجْبتها(٩)، فأمّا وَجْبتها فلا يعلمها إلّا الله، فذكر خروجَ الدجّال قال فأَنْزِلُ فأقتُله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كلّ حَدَب ينسِلون، فلا يمرّون بماء إلّا شربوه ولا بشيء إلّا أفسدوه، فيَجْئرون إلى الله تعالى فأدعو الله أن يميتهم فَتنتِن الأرض من رِيحهم، فيجئرون إلى الله فأدعو الله فيُرسِل السماءَ بالماء فيحملهم

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه .

(٢) الزلفة (بفتحتين) : الصخرة الملساء، والصدفة، والمرآة، ومصانع الماء .

(٣) بقحفها (بالكسر) : بقشرها تشبيها بقحف الرأس .

(٤) الرسل (بكسر الراء وسكون السين المهملة) : اللبن .

(٥) اللقحة (بالفتح والكسر) : الناقة القريبة العهد بالنتاج .

(٦) الفئام (ككتاب) : الجماعة الكثيرة من الناس، لا واحد له من لفظه .

(٧) الفخذ : هو دون القبيلة وفوق البطن .

(٨) يتهارجون : يتسافدون .

(٩) وجبتها : قيامها .

فيُلقيهم فى البحر ثم تُنسَف الجبال وتُمَدّ الأرض مدّ الأديم فعُهِد إلىّ متى كان ذلك كانت الساعة من الناس كالحامل لا يدرى أهلُها متى تَفْجَأهم بولادتها " .

قال العوّام بن حَوْشَب وهو من رواة هذا الحديث : ووُجد تصديق ذلك فى كتاب الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ (١) . وفى الحديث الآخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يُفْتَح يأجوجُ ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ فيعمُّون الأرض و ينحاز منهم المسلمون حتى تصير بقيّة المسلمين فى مدائنهم وحصونهم و يضمُّون إليهم مواشيَهم، حتى إنهم ليمرّون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئا، فيمرّ آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم لقد كان بهذا المكان مرّةً ماء ، و يَظْهَرون على الأرض، فيقول قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ولَنُنازِلَنّ أهلَ السماءِ، حتى إنّ أحدهم لَيَهُزّ حَرْبته إلى السماء فترجع مخضَّبةً بالدم، فيقولون قد قتلنا أهل السماء . فبينما هم كذلك إذ بعث الله دوابّ كنغَف الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضا، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حِسّا، فيقولون مَن رجُلٌ يَشْرِى نفسه و ينظر مافعلوا، فينزِل منهم رجُلٌ قد وطّن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتَى، فيناديهم ألَا أَبْشِروا فقد هلك عدوّكم ، فيخرج الناس ويُخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رِعْىٌ إلّا لحومهم فتشكَر عليها كأحسن ماشَكِرتْ من نباتٍ أصابته قطّ " . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيُوقِد المسلمون من قِسِىّ يأجوج ومأجوج ونُشّابهم وأَتْرِستهم سبعَ سنين " .

٨٣/١٢

والله المعين .

(١) سورة الأنبياء آية ٩٦ وما بعدها .

الحديث الجامع لأخبار عيسى بن مريم عليه السلام والدجّال

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القَزْوِينى فى سُنَنه :
حدّثنا علىّ بن محمد قال حدّثنا عبد الرحمن المُحارِبىّ عن إسماعيل بن رافع أبى رافع
عن أبى زُرْعة السَّيبانىّ[1] يحيى بن أبى عمرو عن أبى أُمامة الباهلىّ قال : خَطَبنا
٥ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فكان أكثر خطبته حديثا حدَّثَناه عن الدجّال وحذَّرَناه ،
فكان من قوله أن قال : " إنه لم تكن فتنةٌ فى الأرض مُنذ ذرأ[2] الله ذرّية آدم صلى الله
عليه وسلم أعظم من فتنة الدجّال ، و إنّ الله عزّ وجل لم يبعث نبيّا إلّا حذّر أمّته الدجّال .
وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم ، وهو خارجٌ فيكم لا محالةَ . فإن يخرُج وأنا بين ظَهْرانَيْكم
فأنا حَجِيجٌ لكلّ مسلم ، و إن يخرُج من بعدى فكلّ امرئ حجيج نفسه ، والله خليفتى على
١٠ كل مسلم . و إنه يخرُج من حِلّة بين الشام والعراق فيَعِيث[3] يمينا و يَعِيث شمالا ياعباد الله
فاثبتوا فإنّى سأصفه لكم صفةً لم يصفها إيّاه نبىّ قبلى : إنه يبدأ فيقول أنا نبىّ ، ولا نبىّ
بعدى ، ثم يثنّى فيقول أنا ربكم ، ولا ترَوْن ربكم حتى تموتوا ، و إنه أعور و إنّ ربكم عز
وجل ليس بأعور ، و إنه مكتوبٌ بين عينيه «كافر» يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب .
و إنّ من فتنته أنّ معه جنةً ونارا ، فناره جنةٌ ، وجنته نارٌ . فمن ابتُلِى بناره فليستغِثْ
١٥ بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بَرْدا وسلاما كما كانت النار على إبراهيم . و إنّ من
فتنته أن يقول لأعرابىّ أرأيتَ إن بعثتُ لك أباك وأمّك أتشهد أنّى ربّك فيقول
نعم ، فيتمثّل له شيطانان فى صورة أبيه وأمّه فيقولان يابنىّ اتبعه فإنه ربك . و إنّ من
فتنته أن يسلَّط على نفس واحدةٍ فيقتلها وينشُرها بالمنشار حتى تُلقَى شِقّين ، ثم يقول

---

(١) السيبانى (بفتح السين المهملة) : نسبة الى سيبان ، بطن من حمير . وفى الأصول :
٢٠ « الشيبانى » بالشين المعجمة وهو تحريف . (٢) ذرأ : خلق .
(٣) يعيث : يفسد .

انظروا الى عبدى هذا فإنّى أبعثه الآن، ثم يزعم أنّ له ربّا غيرى، فيبعثه الله و يقول له الخبيثُ مَن ربّك؟ فيقول ربّى الله وأنتَ عدوّ الله أنتَ الدجّال، والله ما كنتُ بعدُ أشدّ بصيرةً بك منّى اليوم" . قال أبو الحسن الطَّنافِسىّ فحدثنا المُحَارِبىّ حدّثنا عُبَيدالله ابن الوليد الوَصّافِىّ عن عطيّة عن أبى سَعِيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذلك الرجلُ أرفعُ أمّتى درجةً فى الجنة" . قال قال أبو سَعِيد : والله ما كنّا نرى ذلك الرجل إلّا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله . قال المُحارِبىّ ثم رجعنا الى حديث أبى رافعٍ قال : "وإنّ من فتنته أن يأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر، و يأمرَ الأرض أن تُنبِت فتُنبِت . وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحىّ فيكذّبونه فلا تَبقَى لهم سائمةٌ إلّا هلكت . وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحىّ فيصدّقونه فيأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر و يأمر الأرض أن تُنبِت فتُنبِت حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمَن ما كانت وأعظَمَه وأمدَّه خواصرَ وأَدَرَّه ضروعا . وإنه لا يَبقَى شىءٌ من الأرض إلّا وطِئه وظهر عليه إلّا مكة والمدينة لا يأتيهما من نَقْب[1] من نقابهما إلّا لَقِيَتْه الملائكة بالسيوف صَلْتةً[2] حتى ينزل عند الظَّرِيب[3] الأحمر عند مُنْقَطَع السَّبَخة فترجُف المدينة بأهلها ثلاثَ رَجَفات فلا يبقَى منافق ولا مُنافقة إلّا خرج اليه، فتنفى الخَبَث منها كما ينفِى الكِيرُ خَبَث الحديد . ويُدعَى ذلك اليوم يومَ الخلاص . فقالت أمّ شَرِيك بنت[4] أبى العَكَر يارسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال هم يومئذ قليلٌ وجلّهم ببيت المقدس وإمامهم رجلٌ صالح . فبينما إمامهم قد تقدّم يصلّى بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم عليه السلام الصبحَ، فرجع ذلك

٨٤/١٢

(١) النقب (بفتح فسكون) : الطريق بين الجبلين . (٢) صلتة : أى مجردة ؛ يقال : أصلت السيف إذا جرّده من غمده . (٣) الظريب لعل المراد به الجبل . (٤) كذا فى الأصول وكتاب سنن ابن ماجه الذى ينقل عنه المؤلف ، وهو خطأ . والصواب أن أم شريك هذه هى بنت دودان ابن عمرو بن عامر ابن رواحة الدوسية . وكانت تحت أبى العكر الدوسىّ واسمها غزية . و يقال غزيلة . من المهاجرات . (راجع أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٥ ص ٥٩٤ وتهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٤٧٢) .

الإمام ينكص (يمشى القهقرى) ليتقدّم عيسى عليه السلام يصلّى بالناس، فيضع عليه السلام يديه بين كتفيه ثم يقول له تقدّم فصلِّ فإنها لك أُقيمت فيصلِّى بهم إمامهم، فإذا آنصرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب (١) فيُفتَح ووراءه الدجّال ومعه سبعون ألف يهودىّ كلهم ذو سيف محلًّى وساج (٢)، فإذا نظر اليه الدجّال ذاب كما يذوب المِلح فى الماء فينطلق هاربا، ويقول عيسى عليه السلام إنّ لى فيك ضربةً لن تسبقنى بها فيدركه عند باب اللُّدّ الشرقىّ فيقتله فيهزم الله اليهود فلا يبقَى شىء مما خلق الله عزّ وجل يتوارى به يهودىّ إلا أنطق الله ذلك الشىء لا حجرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابّةٌ إلّا الغَرْقدة (٣) فإنها من شجرهم لا تنطق إلا قال ياعبد الله المسلم هذا يهودىّ فتعالَ اقتُله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّ أيامه أربعون سنةً، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشَرَرَة يُصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلُغ بابَها الآخر حتى يُمسِى. فقيل له يارسول الله كيف نُصَلِّى فى تلك الأيام القِصَار؟ قال تقدّرون فيها الصلاة كما تقدّرونها فى هذه الأيام الطِّوال ثم صلّوا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون عيسى بن مريم فى أمّتى حَكَمًا (٤) عَدْلا وإماما مُقْسِطا (٥)، يدُقّ (٦) الصليب، ويذبح (٧) الخنزير، ويضع (٨) الجزْية، ويترك (٩) الصدقة فلا يُسعَى على

(١) الباب، أى باب المسجد. (٢) الساج: الطيلسان الأخضر.

(٣) الغرقدة: ضرب من شجر العضاه. (٤) حكما، أى حاكما بين الناس بشريعة النبىّ صلى الله عليه وسلم لا نبيا مرسلا بشريعة أخرى. (٥) مقسطا، أى عادلا فى الحكم.

(٦) يدق الصليب، أى يكسره بحيث لا يبقى من جنس الصليب شىء حتى لا يعبد إلا الله تعالى.

(٧) ويذبح الخنزير، أى يحرم أكله أو يقتله بحيث لا يوجد فى الأرض ليأكله أحد.

(٨) ويضع الجزية، أى لا يقبلها من أحد من الكفرة بل يدعوهم الى الاسلام مرّة وهذا بيان منه صلى الله عليه وسلم بأن الجزية فى دينه الى زمان عيسى لا أن عيسى يأتى بنسخها.

(٩) ويترك الصدقة، أى الزكاة لكثرة الأموال.

شاة ولا بعير، وتُرفَع الشحناء والتباغُض، وتُنزَع حُمَة[1] كلّ ذاتِ حُمَة حتّى يُدخِل الوليد يده فى فى الحيّة فلا تضرّه، وتفُزّ[2] الوليدةُ الأسدَ فلا يضرّها، و يكون الذئب فى الغنم كأنه كلبها، وتُملَأ الأرضُ من السِّلْم كما يُملَأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يُعبَد إلا الله، وتَضَع الحرب أوزارها، وتُسلَب قريشٌ مُلْكَها، وتكون الأرض كأثور[3] الفضّة — وقيل كفاثور الفضة — تُنبِت نباتَها بعهد آدم حتى يجتمع النفر على القِطْف من العِنب فيُشبِعُهم، ويجتمع النفر على الرمّانة فتُشبِعُهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، و يكون الفرس بالدُّرَيهمات. قالوا يا رسول الله: وما يُرخِّص الفرس؟ قال: لا يُركَب لحرب أبدا. قيل له: فما يُغلى الثور؟ قال تُحرَثُ الأرض كلُّها. وإنّ قبلَ خروج الدّجال ثلاثَ سنوات شِدَاد يصيب الناس فيها جوعٌ شديدٌ، يأمر الله السماء فى السنة الأولى أن تحبِس ثُلث مطرها و يأمر الأرض فتَحبِس ثُلث نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثانية فتَحبِس ثُلثَىْ مطرها و يأمر الأرض فتحبِس ثُلُثَىْ نباتها، ثم يأمر الله السماء فى السنة الثالثة فتَحبِس مطرها كلّه فلا تقطُر قطرة و يأمر الأرض فتَحبِس نباتها كلّه فلا تُنبِت خَضِرًا، ولا تبقَى ذاتُ ظِلْف إلّا هلكت إلّا ما شاء الله عزّ وجل. قيل: فما يُعِيش الناسَ فى ذلك الزمان؟ قال: التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ويجرى ذلك عليهم مَجرى الطعام". قال المُحارِبىّ: ينبغى أن يُدْفَع هذا الحديث إلى المؤدّب حتى يعلّمه الصبيان فى المكاتب.

(١) الحمة: السم أو الابرة التى يضرب بها الزنبور والحية ونحو ذلك أو يلدغ بها.

(٢) تفز أى تفتح فاه. (٣) لم نجد كلمة «فاثور» فى كتب اللغة، على أن هذه الكلمة ليست فى سنن ابن ماجه. والفاثور: الخوان من رخام، أو طست أو جام من ذهب أو فضة.

الباب الثالث من التذييل

على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم عليه السلام الى أن ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الأولى

ذكر خروج الدابّة وطلوع الشمس من مغربها

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تخرُج الدابّة ومعها خاتَمُ سليمان بن داود وعصا موسى بن عِمْران، فتجلو(١) وجه المؤمن بالعصا، وتَخْطِم(٢) أنفَ الكافر بالخاتَم، حتى إنّ أهل الحِواء(٣) ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر" . وعن عبد الله بن بُرَيدةَ عن أبيه رضى الله عنهما قال : ذهب بى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرضٌ يابسةٌ حولها رملٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تخرج الدابّة من هذا الموضع" فإذا فتْرٌ فى شِبرٍ . قال ابن بُرَيدة : فحججتُ بعد ذلك بسنين فأرانا عصًا له، فاذا هى بعصاى هذه كذا وكذا . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تقوم الساعةُ حتى تطلُعَ الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن مَن عليها؛ فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل" . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أوّلُ الايات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابّة على الناس ضُحًى" . قال عبد الله : فأيّتهما ما خرجت قبل الأخرى فالأخرى

٨٥/١٢

(١) تجلو وجه المؤمن أى تنوّره . (٢) تخطم أى تسمه بها، من خطمت البعير اذا كويته خطا من الأنف الى أحد خديه . (٣) الحواء (بكسر الحاء المهملة والمدّ) : بيوت مجتمعة من الناس على ماء .

منها قريبٌ . قال عبد الله : ولا أظنها إلّا طلوع الشمس من مغربها . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من قِبَل مغرب الشمس بابا مفتوحا عَرْضُه سبعون سنة ، فلا يزال ذلك الباب مفتوحا للتوبة حتى تطلُعَ الشمس من نحوه ، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسٌ إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا " . والله الهادى للصواب .

ذكر خبر قيام الساعة والنفخة الأولى

عن أبى هُرَيرةَ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما زال صاحبُ الصُّور مذ وُكِّل به مُستعدّا ينظر نحو العَرْش الى أن يُؤمَرَ فينفُخ قبل أن يرتدّ اليه طَرْفه كأنّ عينَيْه كوكبان دُرِّيّان " . وسُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الصُّور؟ فقال : "قَرْنٌ يُنفَخ فيه". وعنه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قال : "الصور كهيئة القَرْن". وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تقوم الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ تكون بينهما مَقْتلةٌ عظيمةٌ دَعْوَتُهما واحدةٌ ، وحتّى يُبعَثَ دجّالون كذّابون قريبٌ من ثلاثين كلّهم يزعُم أنه رسول الله ، وحتّى يُقبَضَ العلمُ وتكثُرَ الزلازلُ ويتقارَبَ الزمانُ وتَظهَرَ الفِتَنُ ويكثُرَ الهَرْجُ ، وهو القتل ، وحتّى يكثُرَ فيكم المالُ فيَفِيضَ حتّى يُهِمَّ ربَّ المال مَن يَقبَلُ صَدَقَتَه ، وحتّى يَعرِضَه فيقولَ الذى يَعرِضُه عليه لا أَرَبَ لى به ، وحتّى يتطاوَلَ الناسُ فى البُنيان ، وحتى يمُرَّ الرجُلُ بقبر الرجُلِ فيقول يا ليتنى مكانَه ، وحتّى تطلُعَ الشمسُ من مغربها فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنَتْ من قبلُ أو كسَبَتْ فى إيمانها خيرا . وَلَتَقُومَنَّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجُلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يَطْوِيانه . ولَتقُومَنَّ

الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلَبَن لِقْحَتِـهِ فلا يَطْعَمُه، وَلَتَقُومَنّ السَّاعةُ وهـو يَلِيطُ[(١)] حَوْضَه فلا يَسْقِي فِيهِ. وَلَتَقُومَنّ الساعةُ وقد رَفَعَ أُكْلَتَه الى فِيـهِ فلا يَطعَمُها". هذا من صحيح البخارى[(٢)]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وذكر خبر الدجّال وقتله قال[(٣)]: "..... ثم يمكُث الناسُ سَبْعَ سِنِينَ ليس بين اثنين عداوةٌ. ثم يرسل الله عز وجل ريحـا باردةً من قِبَل الشأم فلا يَبقَى على وجه الأرضِ أحدٌ فى قلبـه مثقالُ ذرّة من خير أو إيمـان إلا قَبَضَتْه، حتّى لو أنّ أحدَكم دخل فى كَبِد جَبَلٍ لَدخلتْه عليه حتى تَقبِضَه. قال فيبقَى شرارُ الناسِ فى خِفّـةِ الطيرِ[(٤)] وأحلامِ السِّـباعِ لا يعرفون معروفا ولا يُنكرون مُنكَرًا، فيتمثَّلُ لهم الشيطانُ فيقول أَلَا تستجيبون! فيقولون فما تأمُرُنا؟ فيأمُرُهم بعبادة الأوثان، وهم فى ذلك دارٌّ[(٥)] رزقُهم حَسَنٌ عيشُهم، ثم يُنفَخُ فى الصُّور فلا يَسمَعُه أحدٌ إلّا أصغَى لِيتًا[(٦)] وَرَفَعَ لِيتًا. قال وأوّلُ مَن يسمعُهُ رجلٌ يَلُوطُ حَوْض إبِلِهِ، قال فيَصعَقُ ويَصعَقُ الناسُ، ثم يُرسِلُ اللهُ — أو قال يُنزِلُ اللهُ — مطرًا كأنه الطَّلّ أو الظِّلّ — الشكّ من الراوى — فتُنبتُ منه أجسادُ الناسِ، ثم يُنفَخُ فيـه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون، ثم يقال يأيُّها الناسُ هَلُمُّوا الى ربّكم". ويروى أن هذا المطر الذى تنبت منه الأجساد كمنىّ الرجال.

(١) يليط حوضه: يطينه ويصلحه. يقال: لاط حوضه يلوطه ويليطه.

(٢) راجع (ج ٨ ص ٩٥ طبع بلاق سنة ١٢٩٦ هـ).

(٣) راجع صحيح مسلم (ج ٨ ص ٢٠١ طبع الاستانة).

(٤) خفة الطير وأحلام السباع، أى يكونون فى سرعتهم الى الشر وقضاء الشهوات والفساد.

(٥) دارّ رزقهم، أى كثير.

(٦) الليت (بكسر اللام): صفحة العنق وهى جانبه.

٨٦/١٢

الباب الرابع

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد والنفخة الثانية فى الصور

ذكر يوم القيامة وأسمائه

هو اليوم الذى وصفه الله عز وجل بالعظمة فقال : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1] . ووصفه الله بالطُّول فقال : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[2] .

وليوم القيامة أسماءٌ جاء بها القرآن ، وقد ذكرها عبد الحقّ فى كتاب العاقبة فقال : "يوم القيامة وماأدراك ما يوم القيامة ! يوم الحَسْرة والندامة ، يوم يجد كلّ عامل عمله أمامه ، يوم الدمدمة ، يوم الزلزلة ، يوم الصاعقة ، يوم الواقعة ، يوم الراجفة ، يوم الرادفة ، يوم الغاشية ، يوم الداهية ، يوم الآزفة ، يوم الحاقّة ، يوم الطامّة ، يوم الصاخّة ، يوم التَّلاقِ ، يوم الفراق ، يوم الميثاق ، يوم الانشقاق ، يوم القِصاص ، يوم لات حين مناص ، يوم التَّنادِ ، يوم الأشهاد ، يوم الميعاد ، يوم المآب ، يوم العذاب ، يوم الفِرار ، يوم القَرار ، يوم المِرْصاد ، يوم السائلة ، يوم المناقشة ، يوم الحساب ، يوم القضاء ، يوم الجزاء ، يوم البكاء ، يوم البلاء ، يوم تَمُور السماء مَوْرًا وتسير الجبال سيرا ، يوم الحشر ، يوم النشر ، يوم الجمع ، يوم البَعْث ، يوم العَرْض ،

(١) سورة الحج آيتى ١ ، ٢ (٢) سورة المعارج آيتى ٤ ، ٥

يوم الوَزْن ، يوم الحقّ ، يوم الحُكْم ، يوم الفصل ، يوم الخِزْى ، يومٌ عقيمٌ ، يومٌ عظيمٌ ، يومٌ عَسِير ، يومٌ عَبُوس ، يومٌ قمطرير ، يوم النشور ، يوم المصير ، يوم الدِّين ، يوم اليقين ، يوم النفخة ، يوم الصَّيْحة ، يوم الرَّجْفة ، يوم الرجّة ، يوم الزجرة ، يوم الشدّة ، يوم الفَزَع ، يوم الجَزَع ، يوم القَلَق ، يوم العَرَق ، يوم الميقات ، يوم تخرج الأموات وتظهر المخبآت ، يوم الإشفاق ، يوم الانشقاق ، يوم الانكدار ، يوم الانتشار ، يوم الانفطار ، يوم الافتقار ، يوم الوقوف ، يوم الانصداع ، يوم الانقطاع ، يومٌ معلوم ، يومٌ موعود ، يومٌ مشهود ، يوم تُبلَى السرائر ، يوم تُخْرَج الضمائر ، يوم لا تَجْزِى نفسٌ عن نفس شيئا ، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئا ، يوم يُدْعَى فيه إلى النار ، يوم تُسْجَر[1] فيه النار ، يوم تُقَلَّبُ فيه الوجوه فى النار ، يوم البروز فيه إلى الله ، يوم الصُّدور إلى الله ، يوم لا تنفع المعذرة ، يوم لا يرضى إلّا المغفرة . قال : وأهول أسمائه وأشنع ألقابه : يوم الخلود ، يومٌ لا انقطاعَ لعذابه ، ولا آخرَ لعقابه ، ولا يكشف عن كافر ما به . نعوذ بالله من غضبه و بلائه ، برحمته وآلائه . والله معين العاجزين .

ذكر الحشر والمعاد والنفخة الثانية

جاء فى بعض التفاسير فى قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ[2]﴾ قيل : جبريل وميكائيل و إسرافيل وملك الموت . قال : ثم يأمر الله ملك الموت أن يقبض رُوح جبريل وميكائيل و إسرافيل ، ثم يأمر ملك الموت أن يموت فيموت ولا يبقى إلا الله ، فينادى جلّ جلاله : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ[3]﴾ فلا يجيبه أحد ، فيقول : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .

(١) تسجر : توقد . (٢) سورة الزمر آية ٦٨ (٣) سورة غافر آية ١٦

٨٧/١٢ ثم يمكث الناس فى البَرْزَخ[1] أربعين عاما، ثم يحيي الله عز وجل إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ[2] ﴾. وقال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى[3] ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ[4] ﴾. رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يأكل الترابُ كلّ شيء من الإنسان إلّا عَجْبَ[5] الذَّنَب". قيل: يا رسول الله، وما هو؟ قيل: "مثل حبّة خَرْدَل ومنه ينشأ". وفى الحديث الآخر: "ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبُتُون كما ينبُت البقل". وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله وعزتى وجلالى لَيرجعنّ كلُّ رُوح إلى جسده، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجسام، فتدخل فى الخياشيم ثم تمشى مَشْيَ السمّ فى اللّديغ". قال: "وتجتمع الأرواح كلها فى الصُّور، ثم ينفخ إسرافيل فيه فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأتْ ما بين السماء والأرض، ثم تدخل فى الأجساد" كما تقدّم. وفى الحديث الصحيح أنّ عائشة رضى الله عنها قالت: يا رسول الله، كيف يُحشَر الناس يوم القيامة؟ قال: "حُفَاةً عُرَاةً". قالت: يا رسول الله، والنساء؟ قال: "والنساء". قالت: يا رسول الله، فما نستحيي؟ قال: "يا عائشة الأمر أهمّ من أن ينظُر بعضُهم الى بعض". وعن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُعْرَضُ الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عَرَضات، فأمّا عَرْضتان فجِدالٌ ومعاذير، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشماله". وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله

(١) البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت الى القيامة.

(٢) سورة الزمر آية ٦٨ (٣) سورة طه آية ٥٥ (٤) سورة الروم آية ٢٧

(٥) العجب (بفتح العين وإسكان الجيم): العظم الذى فى أسفل الصلب وهو رأس العصعص.

صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[١] قال: "يقوم أحدهم فى رَشْحه[٢] الى أنصاف أُذُنيه وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[٣]". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيدٍ واحد فيُسمِعُهم الداعى ويَنفُذهم البصر" يريد أرضا مستويةً لاجبلَ فيها ولا أكَمَة ولا رَبْوة ولا وَهْدَة، أرضٌ بيضاء لم يُسفَك عليها دمٌ قطّ، ولا عُمِل عليها خطيئةٌ ولا ارتُكِب فيها محرَّمٌ . قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[٤]. وفى حديث ثَوْبان: أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سُئل أين يكون الناس يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: "هم فى الظُّلمة دون الجِسر" والجسر هو الصراط . وفى حديث عائشة "إنهم على الصراط" . قال الله عزّ وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾[٦] أى يقول بعضهم لبعض سرّا، فيقول أعدلهم قولا وأرجحهم عقلا: إن لبثتم إلا يوما. قال الله عزّ وجل: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾[٧] . ورُوى عن مجاهد أنه قال: للكفّار هَجْعةٌ قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا بُعِثُوا قالوا: ياويلَنا مَنْ بعثَنا من مَرْقَدِنا! فتخرج الخلائق مذعورين خائفين وَجِلين، وإذا المنادى ينادى: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[٨]، فيطمع فى ذلك النداء المؤمنون والكافرون، فينادى المنادى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا

---

(١) سورة المطففين آية ٦
(٢) الرشح (بفتحتين): العرق
(٣) سورة القيامة آيتى ١١، ١٢
(٤) سورة إبراهيم آية ٥٨
(٥) سورة يونس آية ٤٥
(٦) سورة طه آية ١٠٣
(٧) سورة طه آية ١٠٤
(٨) سورة الزخرف آية ٦٨

وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[1] . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُحشَر الناسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصناف رُكبانا ومُشاةً وعلى وجوههم". قيل: يارسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: "إنّ الذى أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم أمَا إنهم يتّقون بوجوههم كلّ حَدَب[2] وشَوْك". وفى حديث مسلم بن الحجّاج عن أنس أنّ رجلا قال: يا رسول الله، كيف يُحْشَر الكافرُ على وجهه يوم القيامة؟ قال: "أليس الذى أمشاه على رِجْليه فى الدنيا قادراً على أن يُمْشِيَه على وجهه يومَ القيامة". والأحاديث الصحيحة فى هذا الباب كثيرة جدّا لو آستقصيناها لطال الكلام وآنبسط القول، وخرج التأليف عن شرطه الذى قدّمناه، فلنختم هذا الباب بحديث لَقِيط بن عامرٍ العُقَيلىّ فإنه حديث جامع لأكثر ما فى هذا الباب.

حديث لَقِيط بن عامر

قال أبو بكر بن أبى خَيْثمة بإسناده الى لَقِيط بن عامر العُقَيلىّ قال: خرجتُ أنا وصاحبٌ[3] لى حتى قَدِمْنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ لأنسلاخ[4] رجب، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، [فوافيناه][5] حين انصرف من صلاة[6] الغداة

٨٨/١٢

(١) سورة الزخرف آية ٦٩ (٢) الحدب: ما ارتفع من الأرض وغلظ. وقد ورد هذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ١١ ص ٣٠٠ طبع مصر).

(٣) هو نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق، كما فى مسند الإمام أحمد (ج ٤ ص ١٣) والبداية والنهاية لابن كثير (ج ٥ ص ٨٠ طبع مصر).

(٤) فى البداية والنهاية: «انسلاخ رجب» بدون اللام.

(٥) التكملة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية.

(٦) كذا فى مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد ج ١ ص ١٣٥ طبع بلاق وفى الأصل: «مصلاه».

فقام [فى الناس](١) خطيبا فقال : " أيها الناس ! ألاَ إنى قد خبأتُ لكم صوتى منذ أربعةَ أيام لأُسمعكم اليومَ . ألاَ فهل من آمرئ بعثه قومه [فقالوا اعلَمْ لنا ما يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . ألاَ ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضّلال](١) . ألاَ إنى مسئولٌ هل بلّغتُ . ألاَ آسمعوا تعيشوا(٢) ألاَ آجلِسوا(٣) " فجلس الناس وقمت أنا وصاحبى ، حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت : يا رسول الله ، ما عندك من علم الغيب ؟ [فضحِك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسه وعلِم أنّى أبتغى لسقطه](٤) فقال : " ضنّ ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله "(٥)(٦) . فقلت : وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : " عِلم المنية [قد علم متى منيّة أحدكم ولا تعلمونه](٧) . وعِلم المنىّ حين يكون(٨) فى الرّحِم [قد علمه ولا تعلمونه](٩) وعِلم ما فى غد وما أنت طاعمٌ غدًا ولا تعلمه(١٠) . وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزِلين مسنتين(١١) فيظّل يضحك قد علم أنّ غَوْثكم قريبٌ " . قال لقيط : لم لن نعدَم من ربٍّ يضحك خيرا . " وعلم يوم الساعة " . قلت : يا رسول الله ، إنى سائلك عن حاجتى(١٢) . قال : " سل عمّا شئتَ " . قلتُ : يا رسول الله ،

---

(١) زيادة من مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . (٢) فى المواهب اللدنية : « ألا اسمعوا تعيشوا » أى تحيوا حياة أبدية سعيدة فانها الحياة المطلوبة . (٣) فى مسند أحمد والبداية والنهاية : « ألا اجلسوا ألا اجلسوا » . (٤) التكملة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . وفى العقد الفريد : « ابتغى سقطه » بدون اللام . (٥) فى الأصل : « ضن ربك بخمس » . (٦) زاد فى مسند أحمد والبداية والنهاية هنا : « وأشار بيده » . (٧) زيادة من مسند أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . (٨) فى الأصل « متى » . (٩) فى الأصل : « وعلم ما فى غد قد علم ما أنت طاعم غدا » . (١٠) أزل الرجل : صار فى شدة وضيق . (١١) كذا فى البداية والنهاية . ومسنتون : أصابتهم سنة ، أى قحط وجدب . وفى سائر المصادر : « مشفقين » . (١٢) زاد فى العقد الفريد هنا : « فلا تعجلنى » .

علّمنا مما لا يعلم الناس[(١)] ومما تُعلم فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحدا من مذحج التى تدنو إلينا، وخثعم التى تواليناء، وعشيرتنا التى نحن منها[(٢)]]. قال: "تلبثون ما لبثتم ثم يُتوفّى نبيّكم ثم تلبثون ما لبثتم ثم تُبعثُ الصيحةُ، فلَعَمْرُ إلٰهكِ ما تَدَع على ظهرها من شيء إلّا مات والملائكة الذين مع ربك، فأصبح[(٣)] ربك يطوف فى الأرض وقد خلت[(٤)] عليه البلاد، فأرسل ربك السماء [بَهضْبٍ[(٥)]] من عند العرش، فلعمر إلهك ما تَدَع على ظَهرها من مَصْرَع قتيلٍ ولا مَدْفَن ميّت إلا شقّت القبرَ عنه حتى تخلُقه من قِبَل رأسه فيستوى جالسا، فيقول ربك مَهْيَم[(٦)] لما كان فيه، فيقول: يارب أمتنى[(٧)] أمس اليوم، لعهده بالحياة يحسبه حديثا بأهله". فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا

(١) كذا فى البداية والنهاية. وفى الأصل: «ما تعلّم الناس وما تعلم». وفى مسند أحمد: «علمنا مما تعلم الناس وما تعلم».

(٢) زيادة عن مسند أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد.

(٣) فى العقد الفريد: «فيصبح».

(٤) فى كتاب التذكرة للقرطبي (نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية برقم ١ م تصوف): «قال علماؤنا: قوله فأصبح ربك يطوف فى البلاد وقد خلت عليه البلاد، إنما هو تفهيم وتقريب الى أن جميع من فى الأرض يموت وأن الأرض تبقى خالية وليس يبقى إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿كل من عليها فان﴾ الآية.

(٥) التكملة من مسند أحمد والبداية والنهاية، وفيما: «تهضب» وهو تصحيف. وفى كتاب التذكرة: «فأرسل ربك من السماء بهضبة». وفى العقد الفريد: «فيرسل ربك بهضب». والهضب: المطر.

(٦) مهيم: كلمة استفهام عن الحال والشأن. وفى لسان العرب (فى مادة مهيم): «فيستوى جالسا فيقول رب مهيم».

(٧) كلمة «أمتنى» ليست فى المصادر التى بين أيدينا. والعبارة فى مسند أحمد والبداية والنهاية. «يقول أمس اليوم فلعهده ...».

بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع ؟ قال : " أنبئك بمثل ذلك فى إلّ[(١)] الله الأرض أشرفتَ عليها وهى مَدِرة بالية فقلتَ لا تحيا أبدًا ثم أرسل ربك عليها[(٢)] السماء، فلم تلبث عليها إلا أياما حتى أشرفَت عليها فإذا هى شَرْيةٌ[(٣)] واحدة، فلعَمْرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يجمعهم من المـاء على أن يجمع نبات الأرض فتخرجون من الأصواء[(٤)] ومن مصارعكم فتنظرون إليه ساعةً وينظر اليكم" . قلت : يا رسول الله، [وكيف[(٥)]] ونحن ملء الأرض وهـو شخصٌ واحدٌ ينظر إلينا وننظر اليـه ؟ قال : " أُنبئكم بمثـل ذلك فى إلّ الله الشمس والقمر آية [منه][(٥)] صغيرةً تَرَوْنهما ساعة واحدةً[(٦)] ويريانكم لا تُضَارُّون[(٧)] فى رؤيتهما ولَعَمْرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يراكم وتَرَوْه[(٨)] منهما أن تروهمـا ويرياكم لا تضارُّون فى رؤيتهما" . قلت : يا رسول الله، فماذا يفعل بنا ربّنا إذا لَقِيناه ؟ قال : تُعْرَضون عليه بادية[(٥)] [له] صَفَحاتُكم لا يخفى عليه [منكم][(٥)] خافيةٌ، فيأخذ ربك [بيده][(٥)] غَرْفةً من المـاء فينضح [بها][(٥)] قِبَلكم، فلعمر إلٰهك ما تخطئ وجهَ واحدٍ منكم منها قَطْرةٌ، فأمّا المسلم

(١) إلّ الله : رَبوبيته وإلٰهيته وقدرته ، ويجـوز أن يكون فى إل الله أى فى عهـده (راجع النهاية لابن الأثير .

(٢) فى مسند الامام أحمد والبداية والنهاية « عليك » .

(٣) الشرية : الحنظلة ، أى إن الأرض تخضرّ بالنبات فتصير فى اخضرار الحنظلة ونضارتها . ويروى « شربة » بالموحدة . أى يكثر الماء فمن حيث أردت أن تشرب شربت . قال الزمخشرى : « ولو روى شرية — بالتحريك — فهى حوض فى أصل النخلة .

(٤) الأصواء هنا : القبور .

(٥) التكملة عن مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد .

(٦) فى الأصل : «... ترونهما ساعة واحدة فيريانكم» وفى مسند الامام أحمد والبداية والنهاية : «ترونهما ويريانكم ساعة واحدة » .

(٧) فى الأصل : « لا تضامون » .

(٨) فى الأصل : « ... لهو أقدر على أن يراكم وترونه منهما أو ترونهما ويريانكم ولا تضامون» وهو تحريف .

فتَدَع وجهه مثلَ الرِّيطة[(١)] البيضاء، وأمّا الكافر فتخطمه بمثل الحُمَيم[(٢)] الأسود. ألَا ثم ينصرف [نبيكم][(٣)] و يتفرّق على أثره الصالحون، فتسلكون جسرًا من النار يطأ أحدُكم الجمرة يقول حَسِّ[(٤)]، فيقول ربك وإنّه[(٥)]. ألا فتطلعون على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهلُه فلعمر إلٰهك ما يبسط أحدٌ منكم يده إلّا وقع عليها قدحٌ يطهره[(٦)] من الطّوف والبَول[(٧)] والأذى . وتُحبَس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحدا". قلت: يا رسول الله، فبم نُبصِر الأرض[(٨)]؟ قال: "بمثل ساعتك هذه" وذلك مع طلوع الشمس فى يوم أشرقته[(٩)] الأرض و واجهته الجبال . قلت: يا رسول الله، فبم نُجزَى من سيئاتنا وحسناتنا؟ قال "الحسنةُ بعَشر أمثالها والسيئة بمثلها إلّا أن يعفو الله" . قلت:

(١) الريطة: المنديل .

(٢) فى الأصل: «الحيم» . والحم: الفحم . وتخطمه، أى تصيب خطمه وهو أنفه، يعنى تصيبه فتجعل له أثرا مثل أثر الخطام فترده بصغر (عن كتاب النهاية لابن الأثير) .

(٣) التكملة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد .

(٤) كلمة يقولها الانسان إذا أصابه ما مضه وأحرقه غفلة كالجمرة والضربة ونحوها .

(٥) كذا فى العقد الفريد والنهاية لابن الأثير والفائق للزمخشرى . وفى جميع المصادر التى بين أيدينا «أوانه» ، ومعنى إنه أى نعم والهاء للسكت، أو اختصر الكلام بحذف الخبر، والمعنى إنه كذلك .

(٦) فى الفائق والنهاية: «... قدح مطهرة من الطوف والأذى» قال الزمخشرى: قوله (مطهرة) محمول على المعنى؛ لأنه وقع على يد كل واحد منهم قدح فهى أقداح كثيرة» . وفى النهاية: «الطوف: الحدث من الطعام. المعنى أن من شرب تلك الشربة طهر من الحدث والأذى . وأنث القدح لأنه ذهب بها إلى الشربة» .

(٧) كذا فى مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . وفى الأصول: «والايل» .

(٨) كلمة «الأرض» ليست فى غير الأصل .

(٩) كذا فى البداية والنهاية. وفى مسند الامام أحمد: «فى يوم أشرقت الأرض واجهت به الجبال» . وفى الأصل: «فى يوم أسفرته و واجهته الجبال» .

يا رسول الله، ما الجنة وما النار[(١)]. قال: "لَعَمْرُ إلٰهك إن[(٢)] للنار لسبعةَ أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما. و إن للجنة لثمانيةَ أبواب ما منها بابان إلّا يسير الراكب بينهما سبعين عاما". قلت: يا رسول الله، فعلامَ نَطَّلِعُ من الجنّة؟ قال: "على أنهار من عسل مصفّى، وأنهارٍ من كأس ما بها صُداع ولا نَدامة، وأنهارٍ من لبن لم يتغيّر طعمه، وماءٍ غير آسن، [وفاكهةٍ لَعَمْرُ إلٰهك ما تعلمون][(٣)] وخير من مثله معه وأزواج مطهّرة". قلت: يا رسول الله، ولنا فيها أزواج أو منهنّ مصلحات؟[(٤)] قال: "الصالحات للصالحين تلذّونهنّ مثلَ لذّاتكم فى الدنيا ويَلْذَذْنكم غير أن لا تَوَالُدَ فيها".

انتهى التذييل على القسم الثالث بعون الله تعالى وحُسْن توفيقه. والله الموفّق للصـــواب.

---

(١) فى العقد الفريد: «فى الجنـة أم النار». وفى سائر المصادر التى بين أيدينا: «أما الجنة وأما النار».

(٢) كذا فى مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية. وفى الأصول: «لعمر إلٰهك لها».

(٣) ما بين المربعين عبارة مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد. وفى الأصل: «وماء غير آسن خير مما تعملون وخير من مثله معه».

(٤) فى الأصل: «انّ لنا فيها أزواجا أو منهن مصلحات».

٨٩/١٢

القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك الأصقاع ، وملوك الأمم والطوائف ، وخبر سيل العَرِم ووقائع العرب فى الجاهلية ، ويشتمل على خمسة أبواب

الباب الأوّل

فى أخبار ذى القرنين الذى ذكره الله عزّ وجل فى كتابه العزيز فى سورة الكهف

قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ (١) . واختُلِف فى تسميته ذا القرنين ، فقيل : لبلوغه أطراف الأرض ، وإنّ الملك الموكّل بجبل قاف سمّاه بذلك . وهذا القول محكىّ عن ابن عبّاس رضى الله عنهما . وقيل : إنما سُمِّىَ بذلك لأنه كانت له ذؤابتان من الذهب . ويُعْزَى هذا القول إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقيل : إنما سُمِّى بذلك لأنه رأى فى منامه أنه يدنو من الشمس فيضع يده فى قرنَيْها من شرقها وغربها ، فقصّ رؤياه على قومه فسمَّوْه ذا القرنين ، وهذا القول مروىّ عن وهب . وقيل : إنما سُمِّىَ به لأن الله تعالى كان قد بعثه إلى قوم فضربوه على قَرْنه فمات ، فأحياه الله ثم بعثه اليهم فضربوه على قرنه الآخر فمات ، ثم أحياه الله ، فسُمِّىَ ذا القرنين . وقيل : إنما سُمِّىَ بذلك لأنه أفنى قرنين من الناس . وقيل : لأنه كريم الطرَفين من أهل بيت شرفٍ من قِبَل أبيه وأُمّه . وقيل : لأنه أُعطِىَ علم الظاهر والباطن .

---

(١) سورة الكهف آيتى ٨٣ ، ٨٤

وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور . وقيل : لأنه ملك فارس والروم . وقيل غير ذلك[(١)] . والله تعالى أعلم .

قال وهب : كان ذو القرنين رجلا من أهل الإسكندرية يقال له الإسكندروس . والعَجَبُ كونه نَسَبَه أنه من أهل الإسكندرية، وقد نقل جماعة من أهل التاريخ أن الإسكندر هو الذى أنشأ الإسكندرية و بناها، فكيف يكون من أهلها وهو الذى أنشأها واليه نُسبت! . و رُوِى عن وهب أيضا أن ذا القرنين كان خارجيا فى قومه ، ولم يكن بأفضلهم نسبا ولا حسبا ولا موضعا، ثم قال بعد ذلك : إن الله تعالى بعثه نبيّا و رسولا . ولا يكون الأنبياء إلّا من أفضل قومهم حسبا وأشرفهم نسبا. وقد يكون هذا النقل لاختلاف الروايات . وما آفة الأخبار إلّا رُواتها .

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطُبىّ فى تفسيره عن ابن إسحاق قال حدّثنى مَن يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم : أنّ ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر، اسمه مرزبان[(٢)] بن مرذبة اليونانىّ من ولد يُونان بن يافث ابن نوح . قال وقال ابن هشام : اسمه الإسكندر، وهو الذى بنى الإسكندرية، فنُسِبت اليه . قال وقيل : اسمه هرمس ، و يقال هرديس . وقال ابن هشام : هو الصعب بن ذى يزن الحِمْيرىّ . وقال وهب : هو رومىّ . وقيل : إنه أفريدون [الذى قتل بيوراسب بن أروندا[(٣)]سب] الملك الفارسىّ[(٤)] .

(١) وقد ساق ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية (ج ٢ ص ١٠٣) بعض الأقوال التى لم تذكر هنا .

(٢) كذا فى السيرة النبوية لابن هشام (ص ١٩٧ طبع أوربا) والبداية والنهاية لابن كثير (ج ٢ ص ١٠٥ طبع مصر) . وفى تفسير القرطبى (ج ١١ ص ٤٥ طبع دار الكتب المصرية) : «مرزبان بن مردية» . وفى الأصول : «مرزبا بن مرذبة» . (٣) التكملة عن تفسير القرطبىّ (ج ١١ ص ٤٧) .

(٤) فى تفسير القرطبىّ : «الملك الطاغى على عهد ابراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان» .

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى فى قصصه — وذكر الخلاف فى نبوّته — قال : الصحيح إن شاء الله أنه كان نبيّا غير مُرْسَل، كما رُوى عن وهب وغيره من أهل الكتب . قال وقالوا : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان آسمه إسكندروس . قال ويقال : كان اسمه ابن عيّاش[1]، وكان عياش عبدًا صالحا . قال وهب : ونشأ ذو القرنين فى علم وأدب وثروة وعفّة، ولم يزل يتخلّق بمكارم الأخلاق ويسمو إلى معالى الأمور حتى بُعدت همّته، وآشتدّ أمره، وعلا صوته، وعزّ فى قومه، وألقى الله تعالى عليه الهيبة، وحدّث نفسه بمعالى الأمور . قال الثعلبيّ : فلمّا آستحكم مُلْكه وآستجمع أمره أوحى الله تعالى إليه : ياذا القرنين، إنّى بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقَيْن، وجعلتك حجّتى عليهم، وهذا تأويل رؤياك . وإنى باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهى سبع أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمّتان بينهما عَرْض الأرض، وأمّتان بينهما طُول الأرض، وثلاث أمم فى وَسَط الأرض، وهم الإنس والجنّ ويأجوج ومأجوج . فأمّا الأمّتان اللتان بينهما طولُ[2] الأرض فأمّة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، والأخرى [بحيالها عند مطلع الشمس][3] يقال لها مُنسك . وأمّا الأمّتان اللتان بينهما عرض[4] الأرض فأمّة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل، والأخرى بحيالها فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل . فلمّا قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين : إلهى إنك قد ندبتنى إلى أمر عظيم لا يقدر قدره[5] إلا أنت ؛ فأخبرنى عن هذه الأمم التى بعثتنى إليها بأىّ قوّة أُكاثرهم ، وبأىّ حِيلةٍ وجَمْعٍ أُكابرهم ، وبأىّ صبر أقاسيهم ، وبأىّ لسان أناطقهم ؛ وكيف لى بأن أفقه لغاتهم ، وبأىّ سمع أسمع أقوالهم ، وبأىّ بصر أنفذهم ، وبأىّ

٩٠ / ١٢

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « ابن عباس » . (٢) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل "عرض الأرض" . (٣) زيادة عن الثعلبى . (٤) فى الأصل : «طول الأرض» . (٥) فى الثعلبى : « لا يقدر عليه ذو قدرة إلا أنت » .

حجّة أخاصمهم ، وبأىّ عقل أعقِل عنهم ، وبأىّ قلب وحكمة أدبّر أمرهم ، وبأىّ قسط أعدِل بينهم ، وبأىّ حلم أُصابرهم ، وبأىّ معرفة أفصل بينهم ، وبأىّ علم أُتقن أمرهم ، وبأىّ يدٍ أسطو عليهم ، وبأىّ رِجْلٍ أطؤُهم ، وبأىّ طاقة أُحصِيهم ، وبأىّ جُنْدٍ أُقاتلهم ، وبأىّ رفقٍ أتألفهم ، وليس عندى يا إلهى شئ مما ذكرتُ يقوم لهم ويَقْوَى عليهم[1] وأنت الرءوف الرحيم ، الذى لا تكلّف نفسا إلا وُسْعَها ، ولا تحمّلها إلّا طاقتها ، ولا تُشْقيها ؛ بل أنت ترحمها . فقال الله تعالى له : إنى سأُطوّقك ما حمّلتك ، وأشرح لك صدرك وسمعك فتسمع وتَعِى كلّ شئ ، وأُوسّع لك فهمك فتفقه كلّ شئ ، وأبسُط لك لسانك فتنطِق بكل شئ ، وأفتح لك بصرَك فينفُذ فى كل شئ ، وأحصى لك قوّتك[2] فلا يفوتك شئ ، وأشُدّ لك عضُدك فلا يهولك شئ ، وأُشيّد لك ركنك فلا يغلبك شئ ، وأشدّ لك قلبك فلا يُفزعك شئ ، وأشُدّ لك يديك[3] فتسطو على كلّ شئ ، وأُلبسك الهيبة فلا يروعك شئ ، وأسخّر لك النور والظلمة وأجعلهما جندا من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحوطك الظلمة من ورائك . قال : فلما قيل له ذلك حدّث نفسه بالمسير ، وألحّ عليه قومُه بالمُقام ، فلم يفعل وقال : لابدّ من طاعة الله تعالى . قال وهب : وكان أوّل ما بدأ به أن أخذ قومه بالإسلام فأسلموا قهرا من عند آخرهم ، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدا ويجعلوا طوله أربعمائة ذراع ، وعرضه مائتى ذراع ، وسُمْك حائطه اثنين وعشرين ذراعا ، وآرتفاعه فى السماء مائة ذراع ، وأمرهم أن ينصبوا فيه سوارى . قالوا : ياذا القرنين ، كيف لنا بخشب يبلغ ما بين الحائطين ؟ فلمّا كمل البناء أمرهم بردمه بالتراب ، ثم فرض على المُوسِر قدرَه من الذهب وعلى المُقْتِر قدرَه ، وأمرهم أن يجعلوا ذلك الذهب كقُلامة الظّفر

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « أقوم لهم وأقوى عليهم » .

(٢) كلمة « قوتك » ليست فى الثعلبى . (٣) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « بدنك » .

ويخلطوه بالتراب وكبسوا التراب حتى ساوى البناء ، ثم أمرهم بعد ذلك أن يتخذوا أعمدةً من النحاس بدلا من الخشب فصنعوها ، وجعلوا على كل حائط اثنى عشر ذراعا ، فكان طول كل عمود من النحاس مائتين وأربعة وعشرين ذراعا ، فتمكّنوا من ذلك بسبب الردم . فلمّا استقرّ السقف[1] بما فيه أمر الإسكندر المساكين أن يحوّلوا التراب ، ومن خرج له شئ من الذهب فهو له ، فسارعوا إلى ذلك ونقلوه واستغنَوْا بما فيه ، ثم جَنّد القومَ أربعين ألفا ، وهم أوّل جُنْد اتّبعوه .

وقال الثعلبيّ رحمه الله : إنّ الإسكندر جنّد المساكين بما حصل لهم من قُراضة الذهب ، وكانوا أربعين ألفا ، جعلهم أربعة أجناد ، فى كل جُنْد عشرة آلاف . قال : ثم عرَض جُنْده فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل غير المساكين ، وهم أربعون ألفا ؛ ثم انطلق يؤمّ الأمّة التى عند مغرب الشمس ، فسار لا يمرّ بأمّة إلّا دعاهم إلى الله تعالى ، فإن أجابوه قبل ذلك منهم ، وإن أبَوْا عليه غشيتهم الظُّلْمة فلبست مدائنهم ومنازلهم وأعشت أبصارهم ، فيتحيّروا حتى يجيبوه ، أو يأخذهم عَنْوةً . ولم يزل كذلك حتى بلغ مغرب الشمس . قال الله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾[2] أى ذات حَمْأة ، ومن قرأ حامية فمعناه حارّة ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ يُسْرًا ﴾ . قال الثعلبيّ : فوجد جمعا وعددا لا يُحصيه إلا الله تعالى ، وقوّة وبأسا لا يُطيقه إلا الله تعالى ، ورأى ألسنًا مختلفةً وأهواء متشتّتة ، وهذه الأمّة هى ناسك . فلمّا رأى ذلك كاثرهم بالظُّلْمة فضرب حولهم ثلاث عساكر فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم فى مكان واحد ، ثم أخذ عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته ، فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه ،

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : «استقل» . (٢) سورة الكهف آية ٨٥ وما بعدها .

فعمَد إلى الذين تولَّوْا عنه فأدخلهم الظُّلْمة ، فدخلت فى أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم ، ودخلت فى بيوتهم وغَشِيَتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب ، فصاحوا وتحيّروا وأشفقوا من الهَلَكة ، فعجّوا إليه بصوتٍ واحدٍ ، فكشفها عنهم وأخذهم عَنْوةً فدخلوا فى دعوته ، فجنّد منهم أمما عظيمة وجعلهم جُنْدا واحدا ، ثم آنطلق بهم يقودهم والظُّلْمة تسوقهم من خلفهم وتحرُسهم والنور أمامهم ، وسار يريد الأمة التى فى قطر الأرض التى يقال لها هاويل ، فكان إذا آنتهى إلى بحر أو نهر بنى سُفُنا من ألواح صغار أمثال النعال ونظمها فى ساعة ، ثم حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود ، فإذا قطع ذلك البحر أو النهر فتقها ثم دفع إلى كل رجل منهم لَوحا فلا يكرُثه حملُه ، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ففعل بهم كما فعل بالأمة التى قبلها . قال : ولما فرغ منها مضى حتى انتهى إلى مُنسك وهى الأمة التى عند مطلع الشمس . قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾[1]. قال : وقوله تعالى : ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ وذلك أنهم كانوا فى مكان لا يستقر عليه بناء ، وكانوا يكونون فى أسراب[2] لهم ، حتى إذا زالت الشمس خرجوا الى معايشهم وحروثهم . وقال الحسن[3] : كانت أرضهم أرضا لاتحتمل البناء ، فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم تهوّروا فى الماء ، فإذا آرتفعت عنهم خرجوا فتراعَوْا كما تَرعى البهائم . وقال الكلبىّ : هم أمّة يقال لها مُنسك عُراةٌ حُفاةٌ عُماةٌ عن الحقّ . قال : وحدّثنى عمرو بن مالك بن أميّة قال : وجدت رجلا بسَمَرْقَنْد يحدّث الناس

٩١/١٢

(١) سورة الكهف آية ٨٩ وما بعدها .

(٢) الأسراب : جمع سرب (بالتحريك) وهو الحفير تحت الأرض .

(٣) عبارة الحسن فى تفسير القرطبىّ (ج١١ص ٥٤) : (كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ، وكانت لا تحمل البناء . فاذا اطلعت عليهم الشمس نزلوا فى الماء . فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فيتراعون كما تتراعى البهائم) .

وهم مجتمعون حوله ، فسألت بعض مَن سمع حديثه فأخبرنى أنه حدّثهم عن القوم الذين تطلُع عليهم الشمس ، قال : خرجت حتى جاوزت الصين ، ثم سألت عنهم فقيل : [لى][1] إن بينك و بينهم مسيرة يوم وليلة ، فآستأجرت رجلا [يرينيهم][1] ، فسرت بقيّة عشيّتى وليلتى حتى صبّحتهم ، فإذا أحدهم يفترش أذنه و يلبس[2] الأخرى . وكان صاحبى يُحسن لسانهم فسألوه فقال : جئنا ننظر كيف تطلُع الشمس . قال : فبينا نحن كذلك إذ سمعنا مثل الصلصلة ، فغُشِىَ علىّ فوقعت ، فلمّا أفقت وجدتهم يمسحوننى بالدهن فإذا الشمس طلعت على الماء ، وهى عليه كهيئة الزيت ، و إذا طرف السماء كهيئة الفُسطاط ، فلمّا آرتفعت دخلوا فى سَرَبٍ لهم وأنا وصاحبى ، فلمّا آرتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك فيطرحونه فى الشمس فينضَج .

نرجع إلى تتمّة أخبار الإسكندر ومطلع الشمس . قالوا : ولمّا بلغ الإسكندر مطلع الشمس فعل بمنسك كما فعل بالأمم التى قبلها وجنّد منها جنودا ، ثم كرّ حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى وهى بدء تاويل ، وهى الأمّة التى بحيال هاويل ، وهما متقابلتان بينهما عَرْض الأرض . فلمّا بلغها عمل فيها كما عمل بمن قبلها . ولمّا فرغ من الأمم الذين هم بأطراف الأرض وطاف الشرق والغرب عطف منها إلى الأمم التى هى فى وسط الأرض من الجنّ والإنس و يأجوج ومأجوج . فلمّا كان فى بعض الطريق ممّا يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أُمّة صالحة من الإنس : ياذا القرنين ، إنّ بين هذين الجبلين خَلْقا من خَلْق الله ليس فيهم مُشابهة من الإنس ، وهم أشباه البهائم ، يأكلون العُشْب و يفترسون الدوابّ والوحوش كما يفترسها السباع ، و يأكلون هوامّ الأرض من الحيّات والعقارب وكلّ ذى رُوح مما خلق الله تعالى . وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم . فإن أتت مدّة على ما نرى من

(١) التكملة عن القرطبى . (٢) فى تفسير القرطبى : « و يلتحف » .

نمائهم وزيادتهم فلا شكّ أنهم سيملئون الأرض ويُخلون أهلها منها ويظهرون عليها فيفسدون فيها . وليست تمرّ بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقّعهم أن يطلع علينا أوّلهم من [بين[1]] هذين الجبلين[2] .

قال الشيخ عبد الوهاب بن المبارك الأنماطىّ فى كتابه عن وهب بن مُنَبِّه : إنّ يأجوج ومأجوج أجفلوا[3] فى زمن ذى القرنين يريدون أرضا وأمّة من الأمم، وكانوا إذا توجّهوا لوجه لم يَعْدِلوا عنه ولا يميلون ولا يعرِّجون، وكانت تُسمَع هَمْهَمَتُهم من مسيرة مائة فرسخ لكثرتهم . فلما سمعت تلك الأمّة حِسّهم استغاثوا بذى القرنين، وهو يومئذ فى ناحية أرضهم من شرق أرض الترك والخَزَر وقالوا : ياذا القرنين، إنه قد بلغنا ما آتاك الله من السلطان والمُلْك، وما ألبسك من الهيبة، وما أيّدك به من جنود أهل الأرض ومن النور والظلمة، وإنّا جيران يأجوج ومأجوج، وليس بيننا وبينهم إلا شواهق الجبال، وليس لهم إلينا طريق إلا من هذين الصَّدَفين[4]، فهل نجعل لك خَرْجًا [على أن تجعل بيننا وبينهم سدّا[1]] . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[5] ﴾ أى جعلا وأجرا ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أى حاجزا فلا يصلون إلينا ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ أى قوّانى ﴿ خَيْرٌ ﴾ من خراجكم ولكن ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ حاجزا كالحائط . قالوا : وما تلك القوّة ؟ قال : فَعَلَةٌ وصنّاع

92/12

(١) التكملة عن الثعلبىّ . (٢) هما جبلان من قبل إرمينية وأذربيجان، كما فى تفسير القرطبى . (٣) أجفلوا : أسرعوا الهرب . وهى هنا غير واضحة فى السياق .

(٤) الصدفان : جانبا الجبل، لأنهما يتصادفان أى يتقابلان .

(٥) سورة الكهف آية ٩٢ وما بعدها .

يُحسِنون البناء والعمل والآلة . قالوا : وما تلك الآلة : قال ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ يعنى قِطَعَه، واحدتها زُبْرة ، وأتونى بالنُّحاس. قالوا : من أين لنا الحديد والنُّحاس [ما يكفى هذا العمل](١) ؟ قال، سأدلّكم على معادن الحديد والنحاس، فضرب لهم فى جبلين حتى فلقهما، ثم استخرج منهما معدنين من الحديد والنحاس. قالوا : فبأىّ قوّة نقطع الحديد والنحاس؟ فآستخرج معدن السامور وهو أشدّ ماخلق الله بياضا، وهو الذى قطع به سليمانُ صخورَ بيت المقدس وجواهره، كما تقدّم. قال الثعلبىّ : ولمّا شغلهم الإسكندر فى استخراج الحديد والنحاس سار نحو يأجوج ومأجوج ليعلم علمهم، فآنطلق يؤمّهم حتى آنتهى إليهم وتوسّط بلادهم، فوجدهم على مقدارٍ واحدٍ ذكرهم وأنثاهم ، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منّا . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : منهم مَن طوله شبر، ومنهم مَن هو مُفرِطٌ فى الطول، لهم مخاليبُ فى أيديهم موضع الأظافر، وأنيابٌ وأضراسٌ كالسِّباع، يُسمَع لها حركةٌ إذا أكلوا كقَضْم البغل المسنّ أو الفرس القوىّ، ولهم من الشعر فى أجسادهم ما يُواريهم وما يتّقون به الحرّ والبرد ، ولكل واحد منهم أُذُنان عظيمتان ، إحداهما وَبَرَةٌ والأخرى زَغَبَةٌ ، يفترش إحداهما ويلتحف الأخرى، ويصيّف فى إحداهما ويشتّى فى الأخرى(٢) . وقال الأنماطىّ فى خبره :

---

(١) زيادة عن الثعلبى .

(٢) ورد فى البداية والنهاية لابن كثير (ج ٢ ص ١١٠ طبع مصر) ردّا على هذا مانصه :

« من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدّا ، فمنهم من هو كالنخلة السحوق، ومنهم من هو غاية فى القصر . ومنهم من يفترش أذنا من أذنيه ويتغطى بالأخرى؛ فكل هذه أقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان . والصحيح أنهم من بنى آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم » اهـ .

ولا شك أن مايذكره أصحاب القصص من صفات يأجوج ومأجوج فغالبه ليس بصحيح، وإنما هو من قبيل الخرافات والاسرائيليات التى هى كذب محض، تناقله أولئك الرواة والكاتبون بدون تحرّز ولا تدقيق =

ولهم أخفاف كأخفاف الإبل . قالوا : وليس منهم ذكرٌ ولا أنثى إلّا قد عرف أجلَه الذى يموت فيه . وذلك أنّ الذكر منهم لا يموت حتى يخرج من صُلبه ألف ولد، ولا تموت الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولد،(١) فإذا كان ذلك أيقن بالموت

= وقد أثبت المحققون من رجال التاريخ أن أصل المغول والتتر من رجل يقال له « ترك » . وسماه أبو الفداء باسم «مأجوج» . فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم يأجوج ومأجوج وكانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا الكبرى من التيبت جنوبا الى المحيط المنجمد الشمالى، وتنتهى بلادهم غربا بما يلى بلاد التركستان .

وما ذكره الله تعالى من إفسادهم فى الأرض فقد ذكر المؤرخون أن هذه الأمم كانت تغير على من جاورها من الأمم فى أزمنة مختلفة وأهلكوا الحرث والنسل وخربوا البلاد . وذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والجيوش الجارفة التى انحدرت من هضبات آسيا الوسطى الى أوربا وآسيا الغربية مقرّ الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) . كل ذلك قبل نزول القرآن وظهور النبى صلى الله عليه وسلم الى أن ظهرت تلك الداهية الدهياء والغارة الشعواء فى أوائل القرن السابع من الهجرة إذ ظهر منهم رجل يسمى «تموجينى» وهو جنكزخان المتوفى سنة ٦٢٤ هـ فاكتسح بجموعه قسما عظيما من البلاد الاسلامية وأبادوا جموعها حتى وصلوا الى الشام بدون أن ينال فسادهم الحرمين الشريفين ولا القدس كما أخبرت به الأحاديث .

وقد انسابوا على البلاد الاسلامية من كل حدب ؛ وذلك هو مصداق القرآن الكريم . ومن أراد الاستفاضة فى هذا فليراجع تفسير العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى (ج ٩ ص ١٩٧ — ٢٠٨) والدعاية الى سبيل المؤمنين للعلامة الشيخ ابراهيم أطفيّش الجزائرى (ص ١٤٩ — ١٥٣) وفاكهة الخلفاء (ص ٢٢٦) .

وقال المرحوم أمين واصف بك فى كتابه معجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية عن يأجوج ومأجوج ما نصه : « يؤخذ مما قرره الباحثون أن هذه الأقوام هى أمم السكيكثيون (Ces Scytes) عند اليونان ؛ وكانت منازلهم بالشمال الشرقى من بحر الخزر، وهم قبائل رحل، وكانوا على حدود بلاد ماوراء النهر مما يلى فرغانة والشاش ؛ ومنهم قبائل الخزر والمساجيت أو من سلالتهم » اهـ .

(١) ورد فى البداية والنهاية أيضا ردا على هذا مانصه :

« ماقيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفا فإن صح فى خبر قلنا به وإلا فلا نرده إذ يحتمله العقل، والنقل أيضا قد يرشد إليه . بل ورد حديث مصرح بذلك إن صح قال الطبرانى — وذكر السند — قال : (إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا معايشهم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ... ...) وهو حديث غريب جدا وإسناده ضعيف وفيه نكارة شديدة » .

وترك طلب المعيشة . قالوا : وهم يُرْزَقون التنّين فى أيام الربيع ، يقذفه عليهم السحاب من البحر فى كل عام مرّة . فإذا تأخر عنهم وقت عادته استمطروه كما يُستمطَر الغيث لحينه ، فإن قُذِفوا به أخصبوا وسمِنوا وتوالدوا وكثروا وأكلوا منه حولا كاملا لا يأكلون غيره ، ويقدّدونه فيعمّهم على كثرتهم . قال : وهم يتداعَوْن تَداعِىَ الحمام ، ويعوون عُوَاء الذئاب ، ويتسافدون تسافُد البهائم حيث التقَوْا . فلمّا عاينهم ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصَّدَفين فقاس ما بينهما ، ثم أوقد على ما جُمع من الحديد والنحاس فصنع منه زُبَراً أمثال الصخور العظام ، ثم أذاب النُّحاس فجعله كالطين وألاط به تلك الصخور الحديد ثم بناه .

قالوا : وكيفيّة بنائه على ما ذكره أهل السِّيَر : أنه لمّا قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مائة فرسخ ، ثم حفَر له الأساس حتى بلغ الماء ، وجعل عرضه خمسين فرسخا ، ثم وضع الحطب بين الجبلين ، ثم نَسج عليه الحديد ، ثم نسج الحطب على الحديد ، فلم يزل يحوّل الحديد على الحطب والحطب على الحديد حتى ساوى بين الصَّدَفين ، وهما الجبلان ، ثم أمر بالنار فأُرسلت فيه ، ثم قال انفخوا ثم جعل يُفرِغ القِطْر[1] وهو النحاس المُذَاب ، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس ، فصار كأنه بُرْد[2] حِبرة من صُفْرة النحاس وحُمرته ، وسواد الحديد وغُبْرته ؛ فصار سدّا طويلا عظيما حصينا . قال الله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾[3] . وقد رُوى أنّ رجلا قال يا رسول الله قد رأيتُ سدّ يأجوج ومأجوج . قال : " اِنعَتْه لى " . قال : كالبُرْد المُحَبَّر ، طريقة سوداء ، وطريقة حمراء . قال : " قد رأيتَه " .

(١) فى الأصل : « يفرغ مفرغ القطار » وهو تحريف . (٢) برد حبرة (على الوصف والإضافة) : ضرب من البرود اليمانية المخططة . (٣) سورة الكهف آية ٩٧

وقد ذكرنا خبر السدّ فيما سلف من كتابنا[1] هذا عن سلّام التُّرجمان حين أرسله الواثق إلى السدّ فرآه ، وهو فى الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو فى السفر الأوّل من كتابنا هذا .

قال الأنماطىّ قال وهب : فبلغنا — والله أعلم — أنهم يأتونه فى كل سنة مرّة ، وذلك أنهم يسيحون فى بلادهم حتى إذا انتهوْا إلى ذلك الرَّدْم حبسهم فرجعوا يسيحون فى بلادهم ، فهم كذلك حتى تقرُب الساعة ، فإذا جاء أشراطها فتحه الله عز وجل ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ[2] ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا[3] ﴾ . والله أعلم .

ذكر خبر دخول ذى القرنين الظلمات

٩٣/١٢

مما يلى القُطْب الشمالىّ لطلب عَيْن الحياة

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله : قال علىّ رضى الله عنه : ملَك ذوالقرنين ما بين المشرق والمغرب ، وكان له خليل من الملائكة اسمه رَفائيل يأتيه و يزوره . فبينما هما ذات يوم يتحادثان إذ قال ذو القرنين : يا رفائيل ، حدّثنى عن عبادتكم [فى السماء][4] . فبكى وقال : ياذا القرنين ، وما عبادتكم [بشىء][4] عند عبادتنا ! إنّ فى السماء من الملائكة من هو قائم أبدا لا يجلس ، ومنهم من هو ساجدٌ لا يرفع رأسه أبدا ، ومنهم الراكع لا يستوى أبدا قائما ، يقولون : سبحان الملك القدّوس ، ربّ الملائكة والرُّوح ، ربنا ما عبدناك حقّ عبادتك . فبكى ذو القرنين بكاء شديدا ثم قال : إنى لأحبّ أن

---

(١) راجع (ج ١ ص ٣٧٤ — ٣٧٨ من هذه الطبعة) . (٢) سورة الأنبياء آية ٩٦

(٣) سورة الكهف آية ٩٨ (٤) زيادة عن الثعلبي .

أعيش فأبلُغ من عبادة ربّى حقّ طاعتــه . قال رفائيل : أَوَتحبّ ذلك؟ قال نعم . قال : فإنّ لله عينا فى الأرض تسمّى عين الحياة فيها من الله عزيمةٌ، إنّ من يشرب منها شربة لم يمت أبدا حتى يكون هو الذى يسأل ربّه الموت . قال ذو القرنين : هل تعلم موضع تلك العين ؟ قال الملَك : لا ، غير أنّا نتحدّث فى السماء أنّ لله تعالى فى الأرض ظُلمة لا يطؤها إنْس ولا جانّ ، فنحن نظن أنّ العين فى تلك الظلمة . فجمع ذو القرنين علمــاء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوّة فقال لهم : أخبرونى هل وجدتم فيما قــرأتم من كتب الله وما جاءكم من أحاديث الأنبياء ومَنْ كان قبلكم أنّ الله وضع فى الأرض عينا سمّاها عينَ الحياة ؟ . قالوا لا . وقال عالم من العلماء[(١)] : إنّى قرأتُ وصيّة آدم ، وصّى أنّ الله تعالى خلق فى الأرض ظُلمة لم يطأْها[(٢)] إنْسٌ ولا جانّ ووضع فيها عين الخلد . فقال ذو القرنين : فأين وصيّته فى الأرض ؟ قال : على قرن الشمس . فبعث ذو القرنين وحشر إليه العلماء والأشراف والملوك ، ثم سار يطلب مطلع الشمس ، فسار اثنتى عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظُّلمة ، فإذا ظلمة تقوم[(٣)] مثل الدُّخَان ليست بظُلمة ليل ، فعسكر هناك ، ثم جمع العلمــاء وقال : إنّى أريد أن أسلُك هذه الظلمة . قالوا : إنه مَن كان قبلك من الأنبياء والملوك لم يطلبوا هذه الظلمة فلا تطلبها ، فإنّا نخاف أن ينبثق عليك أمر تكرهه فيكون فيه فساد [أهل][(٤)] الأرض . فقال : لا بدّ من أن أسلُكها . قالوا : أيها الملك كفّ عنها ولا تطلبْها فإنّا لو نعــلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط علينا ربّنا لاتّبعناك ، ولكنّا نخاف العتب من الله عزّ وجل وفساد الأرض ومَن عليها . فقال : لا بدّ أن أسلكها .

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « وقال عالم العلمــاء منهم » .

(٢) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « لا يطؤها » .

(٣) فى الأصل : « تفور » . (٤) زيادة عن الثعلبى .

قالوا : شأنك بها . قال : أىّ الدوابّ بالليل أبصر ؟ قالوا : الخيل . قال : فأىّ الخيل أبصر؟ قالوا : الإناث . قال : فأىّ الإناث أبصر ؟ قالوا : البِكارة . فجمع ذو القرنين ستّة آلاف فرس بهذه الصفة ، ثم انتخب من عسكره [أهل الجلد والعقل](١)] ستّة آلاف رجل ، فدفع إلى كلّ رجلٍ فرسا ، وعقد للخَضِر عليه السلام على مقدّمته ألفين ، وبَقِى هو فى أربعة آلاف . وقال ذو القرنين للناس : لاتبرحوا من معسكركم هذا إلى آثنتى عشرة سنة ، فإن رجعنا إليكم و إلا فارجعوا إلى بلادكم . فقال الخضر : أيها الملك ، إنّا نسلُك ظُلمةً لا ندرى كم المسير فيها ولا يُبصِر بعضنا بعضا ، فكيف نصنع إذا ضَلَلْنا ! فدفع إلى الخضر خرزة حمراء وقال : حيث يصيبكم الضلال فآطرَح هذه فى الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت . فسار الخضر بين يديه ، يرتحل الخضر و ينزل ذو القرنين . فبينما الخضر يسير إذ عرَض له وادٍ فظنّ أنّ العين فيه وأُلْقِى ذلك فى قلبه ، فقام على شفير الوادى وقال لأصحابه : قِفُوا لاتبرحو . ورمى بالخرزة فى الوادى ومكث طويلا حتى أجابته الخرزة ، فطلب صوتها فآنتهى إليها فإذا هى إلى جانب العين . فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين ، فإذا ماؤها أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من الشهد ، فشرب وآغتسل وتوضّأ ولبس ثيابه ، ثم رَمَى الخرزة نحو أصحابه ، فوقعت الخرزة وصاحت ، فرجع إلى صوتها حتى انتهى إلى أصحابه ، فركب وقال : سيروا على آسم الله . ومرّ ذو القرنين فأخطأ الوادى فسلكوا تلك الظُّلمة أربعين يوما وليلة ، ثم خرجوا إلى ضوء ليس بضوء شمس ولا قمر ، و إلى أرض حمراء ورملةٍ خشخاشية(٢) ، فإذا هو بقصر مبنىّ فى تلك الأرض طوله فرسخ فى فرسخ عليه باب ، فنزل ذو القرنين بعسكره ، ثم خرج وحده فدخل القصر ، فإذا حديدةٌ قد وُضع طرفاها على جانِبَى القصر من هاهنا وهاهنا ،

٩٤/١٢

(١) زيادة عن الثعلبى . (٢) كذا فى الأصل والثعلبىّ .

وإذا طائرٌ أسودُ يشبه الخُطّاف مزموم بأنفه إلى الحديدة، معلّق بين السماء والأرض. فلمّا سمع الطائر خشخشة ذى القرنين قال: مَن هـذا؟ قال: أنا ذو القرنين. فقال: يا ذا القرنين، أمَا كفاك ما وراءك حتى وصلت إلىّ! ثم قال الطائر: ياذا القرنين، حدّثنى؛ قال سَلْ؛ فقال: هل كثُر بناء الآجُرّ والجِصّ فى الأرض؟ قال نعم؛ فانتفض الطائر انتفاضةً ثم انتفخ فبلغ ثلث الحديدة، ثم قال: ياذا القرنين، هل كثُرت شهادات الزور فى الأرض؟ قال نعم؛ فانتفض الطائر ثم انتفخ فملأ الحديدة وسدّ ما بين جِدارى القصر، ففرِق ذو القرنين فَرَقا عظيما. فقال الطائر: لا تخف، حدّثنى. قال سَلْ. قال: هل ترك الناس [شهادة أن](١) لا إله إلّا الله بعدُ؟ قال لا، فانضم الطائرُ ثُلُثه ثم قال: هل ترك الناس الصلاةَ المفروضة بعدُ؟ قال لا، فانضمّ ثلثاه. ثم قال: ياذا القرنين، هل ترك الناس غسل الجنابة بعدُ؟ قال لا؛ فعاد الطائر كما كان. ثم قال: ياذا القرنين، أُسلُك هذا الدَّرَج درجةً درجةً إلى أعلى القصر، فسلكها وهو خائفٌ وَجِلٌ لا يَدرِى على ماذا يهجُم، حتى انتهى إلى سطح ممدود، عليه صورة رجل شابّ قائم، وعليه ثيابٌ بيضٌ، رافعا وجهه إلى السماء، واضعا يديه على فِيهِ، فلمّا سمع خَشْخَشَةَ ذى القرنين قال: مَن هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. قال: ياذا القرنين، إنّ الساعة قد اقتربت، وأنا منتظرٌ أمر ربّى يأمرنى أن أنفُخ [فأنفخ](١)، ثم أخذ صاحب الصُّور شيئا بين يديه كأنه حجرٌ وقال: خذه ياذا القرنين، فإن شبِع هـذا شَبِعتَ، وإن جاع جُعتَ؛ فأخذه ونزل إلى أصحابه فحدّثهم بأمر الطائر وما قال له وما ردّ عليه، وما قال صاحب الصُّور. ثم جمع علماء عسكره فقال: أخبرونى عن هذا الحجر ما أمْرُه؟ [فقالوا: أيها الملك، أخبرنا عما قال لك فيه صاحب الصور. فقال ذو القرنين: إنه قال لى: إن شبع هذا شبعت وإن جاع جعت](١) فوضعوا

(١) زيادة الثعلبي.

ذلك الحجر فى إحدى كَفّتَىْ ميزان وأخذوا حجرا مثله فوضعوه فى الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فإذا هو يميل ، [فوضعوا معه آخر فاذا هو يميل بهنّ](١) فلم يزالوا يضعون حتى وضعوا ألف حجر فمال بالألف جميعا ، فقالوا : انقطع علمُنا دون هذا الحجر لا ندرى أسحرٌ هو أم علم [ما نعلمه](١)! فقال الخضر : نعم أنا أعلمه ، فأخذ الميزان بيده ثم وضع الحجر فى كفّتها وأخذ كفّا من تراب فجعله فى الكفّة الأخرى ثم رفع الميزان فآستوى . فخرّت العلماء سُجّدًا لله تعالى وقالوا : هـذا علمٌ لم يبلُغه علمنا . فقال الخضر عليه السلام : أيّها الملك ، إنّ سلطان الله عزّ وجل قاهرٌ لخلقه ، وأمره نافذٌ فيهم ، وحُكْمه جارٍ عليهم ، وإنّ الله تعالى ابتلَى خَلْقَه بعضهم ببعض ، فآبتلى العالِمَ بالعالم ، والجاهلَ بالجاهل ، والعالم بالجاهل ، والجاهل بالعالم ، وإنه آبتلانى بك وآبتلاك بى . قال ذو القرنين : صدقتَ ، فأخبرنى ما هذا ؟ فقال الخضر : أيها الملك ، هذا مَثَلٌ ضربه لك صاحب الصُّور ، [إن الله تعالى مكّن لك فى البلاد ، وأعطاك منها ما لم يعط أحدا ، وأوطأك منها مالم يوطئ أحدا ، فلم](٢) تشبَع ، وآتيتَ نفسك شرّها ، حتى بلغتَ من سلطان الله ما لم يطأه إنسٌ ولا جانّ ، فهذا مثلٌ ضَرَبَه لك ، إن ابن آدمَ لا يشبَع أبدًا دون أن يُحثَى عليه التراب ، ولا يملأ جوفه إلّا التراب . فبكى ذو القرنين وقال : صدقتَ ، لا جرم [أنى](١) لاطلبتُ أثرا فى البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت ، ثم انصرف راجعا . فلمّا توسّط الظُّلمة وطئ وادى الزَّبَرْجَد ، فقال مَن معه لما سمِعوا الخشخشة تحت حوافر دوابّهم : ما هذا أيّها الملك ؟ فقال : خذوا منه فإنه من أخذ منه ندم ، ومَن تركه ندِم . فمنهم مَن أخذ ، ومنهم مَن ترك . فلمّا خرجوا من الظلمة إذا هو الزبرجد . فندم الآخذ كَوْنَه لم يُكثر ، والتاركُ كَوْنَه لم يأخذ . قال :

(١) زيادة عن الثعلبى .

(٢) زيادة عن الثعلبى ، ومكانها فى الأصل : « إنك لم » .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "رَحِمَ اللهُ أخى ذا القرنين لو ظفِر بوادى الزَّبَرْجَد فى المبتدأ ما ترك منه شيئا حتى أخرجه إلى الناس لأنه كان راغبًا فى الدنيا ولكنّه ظفِر به وهو زاهدٌ فى الدنيا لا حاجةَ له فيها" .

قال الثعلبيّ : ثم رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف ، ومات فى طريقه بشَهْرَزُور[1] . وقال علىّ رضى الله عنه : [ثم إنه][2] رجع إلى دُومة[3] الجَنْدلَ فأقام بها حتى مات . وصرّح الثعلبيّ فى سياقة أخباره أنه الذى قتل دَارَا بن دَارَا ، وأنه لم تطُل مدّة عمره . وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر قاتل دارا بن دارا فى أخبار ملوك اليونان .

وحكى الأنماطيّ عن وهبٍ فى خبر دخول الإسكندر الظُّلُمات : أنه لمّا انتهى إلى مغرب الشمس ترك مَن معه هناك وسار على الماء فى الظلمة ثمانيةَ أيام وثمانى ليال حتى انتهى إلى جبل قاف ، وإذا هو بملَكٍ قابضٍ على الجبل يسبِّح الله تعالى ؛ فخرّ ذو القرنين ساجدًا لله تعالى فلم يرفَع رأسه حتى قوّاه الله تعالى على النظر إلى المَلَك . فقال له : كيف قَوِيتَ يا ابن آدم على أن تبلُغ هذا الموضع ولم يبلُغه أحدٌ من ولد آدمَ قبلك ؟ ! قال : قوّانى الله الذى قوّاك على قبض هذا الجبل . فأخبِرْنى عن هذا الجبل . قال : إنه قافٌ المحيط بالأرض كلها ، ولولا هو لانكفأت الأرض بأهلها ، وليس على ظهر الأرض أعظم منه ، وإنه لمحيط بها كالحَلْقة ، وهو أوّل جبل أثبته الله ، فرأسُه مُلصَقٌ بسماء الدنيا ، وأسفله راسخ فى الأرض السفلى .

٩٥/١٢

(١) شهرزور (بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وضم الراء المهملة والزاء المعجمة) : بلدة بين الموصل وهمذان ، بناها زور الضحاك ، فقيل شهرزور ، ومعناه مدينة زور ، وهى خصبة كثيرة المتاجر فى غزلة ، وفى أهلها غلظ وجفاء . (عن تقويم البلدان) . (٢) زيادة عن الثعلبى .

(٣) دومة الجندل (بضم الدال المهملة) : موضع فاصل بين الشام والعراق ، على سبع مراحل من دمشق ، وعلى ثلاث عشرة مرحلة من المدينة . (عن تقويم البلدان) .

وحكى إبراهيم بن وَصِيف شاه فى كتاب العجائب الكبير : أنّ ذا القرنين لمّا سار إلى الظُّلمة مرّ بجزيرة فيها أمّة رءوسُهم رءوسُ الكلاب العظام بادية أنيابُهم، يخرج من أفواههم مثلُ لَهَبِ النار، وأنهم خرجوا إلى مراكبه فحاربوه فتخلّص منهم، وسار فرأى نورا ساطعا فقصده فاذا هو قد بلغ جزيرةَ القصر. قال : وهذه الجزيرة فيها قصرٌ مبنىّ بالبلّور الصافى عالى الطول يشفّ حتى يُرَى نورُه على البعد، فأراد النزول بها، فمنعه بهرام فيلسوف الهند وعرّفه أنّ من نزل اليها وقع عليه النومُ وعزَب عقلُه فلا يستطيع الخروج منها حتى يهلِك . قال : ويقال إنه ظهر لهم منها قومٌ قِصَار زُعْرٌ، لباسُهم ورق الشجر. فسأل بهرامُ عن صبرهم على المُقام بها، فعرّفوه أنّ بها ثمرا اذا أكلوا منه زال عنهم ذلك، وذكروا أنهم إذا كان الليل ظهر بين شُرَف القصر مثلُ المصابيح تُسرَج إلى الصُّبح ثم تُخمَد نهارا إلى الليل فتُوقَد . قال: ويقال إنه مرّ فى طريقه بجزيرة التِّنّين[1] وإنها جزيرة فيها جبال وأنهار وأشجار وزروع وهى عامرة ، وعلى مدينتها حصنٌ عالٍ، وبها تِنّين عظيمٌ قد سام أهلَها أقبح سَوْم . فلمّا دخلها الإسكندر استغاثوا به من التنّين وأنه أتلف مواشِيَهم حتى إنهم جعلوا له فى كل يوم ثورين ينصِبونهما قريبًا من موضعه، فيخرج فيبتلعهما. فأمر الإسكندر بثورين عظيمين فسُلِخَا وحشا جلودهما زِفْتا وكِبْريتا وكِلْسا وزِرْنيخا، وجعل مع تلك الأخلاط كلاليبَ حديد، وجعلهما فى ذلك المكان. وخرج التنّين وأقبل كالسحابة السوداء وعيناه [تلمعان][2] كالبرق، والنار تخرج من جوفه، فابتلعهما ومضى، فاضطرمت تلك الأشياء فى جوفه، فلمّا أحسّ بثِقَلها ذهب ليقذفها، فتشبّكت

(١) هذه الجزيرة تسمى « جزيرة المستشكين » كما ورد فى الجزء الثانى من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ص ٦٧) الذى تقوم بطبعه دار الكتب المصرية وقد ذكر حكاية الإسكندر والتنين بتوسع عما هنا .

(٢) زيادة عن مسالك الأبصار .

الكلاليب فى حلقه فخر وفتح فاه ليستَرْوِح، فأمر الإسكندر بقِطَع الحديد فأُحمِيَتْ وحُمِلت على ألواح من حديد وقُذِفت فى حلقه فمات . ففرح أهل ذلك الموضع بموته وألطفوا الإسكندر وحملوا اليه من طرائف ما عندهم . وكان فيما حملوه اليه دابّة فى خَلْق الأرنب ، شعرها أصفر يبرق كالذهب ، يسمّونها المعراج[1]، وفى رأسها قرن واحد أسود، اذا رأتها الأسود وسباع الوحش وكلّ دابّة هرَبت منها . ٥

وقال الأنماطىّ فى سياقة أخبار الإسكندر عن وهب تلو خبر السدّ : ثم انطلق ذو القرنين بعد ذلك، فبينما هو يسير إذ مرّ على شيخ يصلّى، فوقف عليه بجنوده حتى إذا آنصرف من صلاته قال له : كيف لم يَرُعْك ما حضرك من الجنود؟ ! قال : كنت أُناجى مَنْ جنودُه أكثرُ من جنودك ، وسلطانُه أعزُّ من سلطانك، وقوّته أشدّ من قوّتك؛ ولو صرفتُ وجهى إليك لم أُدرك حاجتى قِبَله . قال له : هل لك أن تنطلق معى وأواسيَك بنفسى وأستعينَ بك على بعض أمرى ؟ قال : نعم ، إن ضمِنتَ لى أربعةَ خِصالَ : نعيمٌ لا يزول ، وصحةٌ لا سَقَمَ فيها ، وشبابٌ لا كِبَرَ فيه، وحياةٌ لا موت فيها . قال له ذو القرنين : وأىّ مخلوق يقدِر على هذه الخصال ! . قال الشيخ : فإنّى مع مَن يقدر عليها ويملكها، فتركه وسار . فبينما هو يسير إذ دَفَع الى الأمة الصالحة من قوم موسى الذين يهدون بالحقّ وبه يعدِلون ، فوجد أمّة مُقسِطةً عادلةً يَقسمون بالسَّوِيّة ، ويحكمون بالعدل ويتواسَوْن، فكلمتُهم واحدة، وقلوبُهم مؤتلفة مستقيمة ، وسِيرتُهم مستوية، وقبور موتاهم فى أفنيتهم؛ وليس على بيوتهم[2] أبواب تُغلَق ، وليس عليهم أُمراءُ ، ولا قضاة بينهم ، ولا أشراف ١٠ ١٥

(١) كذا فى حياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٣٨٤) وعرفها بقوله : « المعراج : دابة عظيمة عجيبة مثل الأرنب صفراء اللون على رأسها قرن واحد أسود لم يرها شىء من السباع والدواب إلا هرب، ذكرها القزوينىّ فى جزائر البحار » . وفى الأصول : « يسمونه بفراج » وهو تحريف . ٢٠

(٢) فى الأصل : « وليس على أبواب بيوتهم » .

يتفاوتون، ولا يتفاضلون ولا يختلفون ولا يتنازعون ولا يتسابّون ولا يقتتلون ولا يقحطون ولا تصيبهم الآفات؛ فعجب من أمرهم وقال: أخبرونى خبركم أيّها القوم؛ فإنّى قد أحصيتُ الأرض شرقَها وغربَها، وسهلَها وجبلَها، وبرَّها وبحرها، ونورَها وظُلمتها، فلم أرَ مثلكم. قالوا: سَلْنا عمّا بدا لك نُخْبِرْك. قال: ما بال قبوركم فى أفنيتكم وعلى أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت ولا يخرجَ ذكره من قلوبنا. قال: فما بال بيوتكم لا أبواب عليها؟ قالوا: ليس فينا متّهم ولا ظَنِين، ولا فينا إلّا مُؤتَمَنٌ أمين. قال: فما بالكم ليس عليكم أمراء؟ قالوا: لأنّا لا نتظالم. قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لأنّا لا نتكاثر. قال: فما بالكم لا نتفاضلون ولا نتفاوتون؟ قالوا: من قِبَل أنّا متواسُون متراحمون. قال: فما بالكم ليس فيكم أشراف؟ قالوا: لأنّا لا نتنافس. قال: فما بالكم لا نتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من ألفة قلوبنا وصلاحِ ذاتِ بيننا. قال: فما بالكم ليس بينكم حكّام؟ قالوا: نحن لا نختصم. قال: فما بال كلمتكم واحدة؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يغتاب بعضنا بعضا. قال: فأخبرونى من قِبَلِ ماذا تشابهت قلوبكم واعتدلت سِيرتكم؟ قالوا: من صحّة صدورنا، فنزع الله بذلك الغِلّ والحسَد من قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قِبَل أنّا نقسم بالسويّة. قال: فما بالكم ليس فيكم فظّ ولا غليظٌ؟ قالوا من قِبَل الذل والتواضع. قال: فأخبرونى بماذا أنتم أطول الناس أعمارا؟ قالوا: من قِبَل أنّا نتعاطَى الحقّ ونحكم بالعدل. قال: فما بالكم لا تقحطون؟ قالوا: لأنّا لا نغفُل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تُصيبكم الآفات؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتوكّل إلّا على الله، ولا نَستمطر بالأنواء ولا بالنجوم. قال: أهكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟ قالوا: وجدنا آباءنا يُعطُون مسكينهم، ويُواسُون فقيرهم، ويوقّرون غنيّهم، ويعفُون عمّن ظلمهم، ويُحسنون الى مَن أساء اليهم،

٩٦/١٢

ويحلمون عمّن جهل عليهم، ويستغفرون لمن سبّهم، ويَصلون أرحامهم، ويؤدّون أماناتهم، ويحفظون وفاءهم لصلاحهم، ويُوفون بعهدهم، ويصدقون فى مواعيدهم، ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون عن أقاربهم؛ فأصلح الله تعالى لهم بذلك أمرهم، وحفِظهم به ما كانوا أحياء. قال: فأقام ذو القرنين عندهم حتى قبضه الله عزّ وجل، ولم تُطل مدّة إقامته فيهم. قال وهب: عاش منذ بعثه الله تعالى الى أن قُبض خمسمائة عام. وقال غيره: أكثر من ذلك. وقد ذكر فى المعمّرين. وقيل: إنه عاش ألف وستمائة وخمسين سنة ومات فى حياة أمه. وقيل: إنه أدرك إبراهيم الخليل واجتمع معه وأركبه من دوابّه. حكاه الأزرقىّ وأبو عبيد البكرىّ. والله أعلم.

الباب الثانى

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك الأصقاع، وهم ملوك الهند والصين والترك وجبل الفتح وملوك مصر

ذكر أخبار ملوك الهند

٥ قال المسعودى فى مروج الذهب[(١)] : ذكر جماعة من أهل النظر والبحث الذين واصلوا البحث والعناية بتأمّل شأن هذا العالم [و بدئه][(٢)] أنّ الهند كانت فى قديم الزمان الفرقةَ التى فيها الصلاح والحكمة، وأنه لمّا تجيّلت الأجيال وتحزّبت الأحزاب حاولت الهند أن تضمّ المملكة وتستولى على الحوزة وتكون الرياسة فيها. قال كبراؤهم: نحن كنّا أهلَ البدء وفينا التناهى، ولنا الغاية والصدر والانتهاء، ومنّا سرى الأب الى الأرض،

١٠ فلا شاقّنا أحدٌ ولا عاندنا ولا أراد بنا الاغتماص[(٣)] إلّا أتينا عليه وأبدناه أو يرجعَ[(٤)] الى طاعتنا. فأجمعت على ذلك رأيها ونصبتْ لها ملكا، وهو «البَرهَمَنُ» الأكبر والملك الأعظم، واليه تُنسَب طائفة البراهمة بالهند، لا الى إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم. وهذا «البرهمن» هو الإمام المقدّم فيهم الذى ظهرت فى أيامه الحكمة وتقدّمت العلماء، وأمر باستخراج الحديد من معادنه، وضُربت فى أيامه السيوف والخناجر

١٥ وكثير من أنواع السلاح وآلات القتال، وشيّد الهياكل ورصّعها بالجواهر النفيسة المشرقة، وصوّر فيها الأفلاك والبروج الاثنى عشر بُرْجا والكواكب، وبيّن بالصورة

(١) راجع (ج ١ ص ٣٥ طبع بلاق).

(٢) زيادة عن مروج الذهب.

(٣) الاغتماص: الاحتقار والاستصغار.

٢٠ (٤) كذا فى المسعودى. وفى الأصول: «ليرجع».

كيفيّة العالم ، وأرى[1] بالصورة أيضا كيفيّة أفعال الكواكب فى هذا العالَم و إحداثها للأشخاص الحيوانيّة من الناطقة وغيرها ، و بيّن حال المدبِّر الأعظم الذى هو الشمس، و برهن على ذلك كلّه وقرّبه إلى عقول العوامّ[2] وأذهانهم ففهموه، وغرس فى نفوس الخواصّ دراية ماهو أعلى من ذلك ، وأشار إلى المُبدئ الأوّل المُعطى لسائر الموجودات [وُجُودَها الفائض عليها بجُوده[3]]. فانقادت له الهند، وأراهم وجه مصالح الدنيا وأخصبت بلادهم. و جمع الحكماءُ فى أيامه كتاب «السند هند»[4]، وتفسيره دهر الدهور[5]، ومنه فُرِّعت الكتب، ككتاب الأزجهير والمِجَسْطِى ، وفُرِّع [من الأزجهير الأركند ومن المجسطى[6]] كتاب بطليموس ، ثم عُمِل منها بعد ذلك الزِّيجات . وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندىّ . وكان البرهمن هذا أوّل من تكلم فى أوج[7] الشمس، وذكر أنه يقيم فى كلّ بُرْج ثلاثة آلاف سنة، و يقطع الفَلَك فى ستّة وثلاثين ألف سنة ، الى غير ذلك من هذا الفنّ. وكان مُلْك البرهمن الى أن هلك ثلاثمائة سنة وستا وستين سنة، وولده يعرفون بالبراهمة. والهند تعظّمهم الى وقتنا هذا ، وهم أعلى أجناسهم وأشرفُهم ، وهم لا يتغذّون بشىء من الحيوانات. وفى رقاب النساء والرجال منهم خيوط صُفْر يتقلّدون بها كحمائل السيوف، تفرّق بينهم

٩٧/١٢

(١) فى مروج الذهب : « وأورد » . (٢) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : « إلى عقول القوم » . (٣) التكملة عن مروج الذهب .

(٤) السند هند أحد المذاهب الثلاثة المشهورة للهند فى علم النجوم، وهى مذهب السند هند، ومذهب الأزجير، ومذهب الأركند . ومذهب السند هند هو المذهب الذى تقلده جماعة من الاسلام وألفوا فيه الأزياج كمحمد بن إبراهيم الفزارى وحنش بن عبدالله البغدادى ومحمد بن موسى الخوارزمى والحسين بن محمد المعروف بابن الآدمى وغيرهم . (راجع طبقات الأمم لابن صاعد ص ١٩ طبع مصر) .

(٥) فى طبقات الأمم أن معنى «السند هند» الدهر الداهر .

(٦) الزيادة من مروج الذهب . وفى الأصول : « وفرع منها » .

(٧) قال المسعودى فى مروج الذهب : «والأوج على رأى البرهمن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى برج الثور ، وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة فصار العامر خرابا والخارب عمارا ، والشمال جنوبا والجنوب شمالا ... الخ » ثم ذكر المسعودى كلاما طويلا .

و بين غيرهم من أنواع الهند. وقد تنوزع فى البرهمن ، فمنهم من زعم أنه آدم وأنه رسول من الله الى الهند، ومنهم مَن زعم أنه كان ملكا، على حسب ما قدّمناه وهو الأشهر. ولمّا هلك البَرَهْمَن جزِعت عليه الهند جزعا شديدا ، وملّكت عليها ولده الأكبر .

ذكر تنصيب ٱبن البَرَهْمَن وهو الباهبُود[1]

وكان ولىّ عهد أبيه من بعده . فسار فيهم سيرةَ أبيه وأحسن النظر إليهم ، وزاد فى بناء الهياكل، وقدّم الحكماء ورفع من مقدارهم و زاد فى مراتبهم، وحثّهم على تعليم الناس الحكمة و بعثهم على طلبها . وكان مُلْكه الى أن هلك مائةَ سنة . و فى أيامه عمِل النَّرْد ولعِب به، وجعل ذلك مثالا للمكاسب، وأنها لاتُنَال بالكَيْس ولا بالحِيَل فى هذه الدنيا ، وأن الرزق لا يتأتّى فيها بالحذق . وذكر أن أرْدَشير بن بابك أوّل مَن وضع النَّرد ولعب بها، وأرى تقلُّب الدنيا بأهلها وٱختلاف أمرها . وجعل بيوتها ٱثنى عشر بعدد الشهور ، وجعل مهاركها[2] ثلاثين بعدد أيام الشهر ، والفصوص أمثلة للقَدَر وتقلبه بأهل الدنيا وأن الانسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القَدَر له فى مراده بها ما يريد ، وأن الحازم الفَطِن لا يتأتّى له ما يتأتّى لغيره اذا لم يُسعده القَدَر ، وأن الأرزاق لا تُنال فى هذه الدنيا إلا بمقادير .

ثم ملك بعده رامان[3]، فكان مُلْكه نحوًا من خمسين ومائة سنة . قال : وله سِيَر وأخبار وحروبٌ مع ملوك فارس وملوك الصين .

ثم ملك بعده فُور ، وهو الذى قتله الإسكندر بن فِيلِبْس اليونانىّ مبارزةً . وكان مُلْكه الى أن قُتِل أربعين ومائة سنة .

(١) فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ٣٧) : « الناهود » .
(٢) فى المسعودى « كلابها » .
(٣) فى المسعودى : « دامان » .

ثم ملك بعده تسام[1]، وهو الذى وضع كتاب كليلة ودمنة الذى نقله ابن المقفع. وكان مُلكه مائة وعشر سنين[2]، وقيل غير ذلك.

ثم ملك بعده بلهيت. وفى أيامه صُنِعت الشِّطْرَنْج فقضى بلعبها على النَّرْد، وبيّن الظفَر الذى يناله الحازم والنكبة التى تلحق الجاهل وحسب حسابهما، ورتّب لذلك كتابا للهند يتداولونه بينهم، ولعب بها مع حكمائه. وكانت مدّة مُلكه الى أن هلك نحوا من ثمانين سنة، وفى بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة. ٥

ثم ملك بعده كُوش[3]، فأحدث للهند آراءً فى الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت، وما يحتمله أهل العصر من التكليف، وخرج عن مذاهب مَن سَلَف. وكان فى مملكته وعصره سندباد، وله كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك، وهو الكتاب المترجم بكتاب السندباد. وعُمِل لهذا الملك الكتاب الأعظم فى معرفة العِلَل والأدواء والعلاجات وأشكال الحشائش وصفتها. وكان مُلْك هذا الملك الى أن هلك عشرين ومائة سنة. ولمّا هلك اختلفت الهند فى آرائها فتحزّبت الأحزاب وتجيّلت الأجيال، وانفرد كل رئيس بناحيته، فملك على أرض السند ملك، وعلى أرض القِنّوج ملك، وعلى أرض قِشْمير ملك. فكانت مدّة اجتماع الكلمة ببلاد الهند على ملك واحد على هذا الحكم نحوا من ألف سنة وستّ وستين سنة، وعلى القول الآخر ألف سنة ومائة سنة وست عشرة سنة. وعدّة ملوكهم سبعة ملوك. والله تعالى أعلم. ١٠ ١٥

٩٨/١٢

(١) فى المسعودى: «دستلم».

(٢) فى المسعودى: «وعشرين سنة».

(٣) فى المسعودى: «كورس». ٢٠

وملك بعد كُوش بمدينة المانكير وهى الحَوْزة الكبرى ملك يسمّى البَلْهَرا . قال المسعودىّ : وأرض الهند أرضٌ متّسعة فى البرّ والبحر والجبال ، وملكهم يتّصل بملك الزّنج وهى دار مملكة المَهراج . وهذه المملكة فَرْزٌ بين مملكة الهند والصين . قال : ومن عادة الهند أنها لا تملّك الملك حتى يبلغُ عمره أربعين سنة ، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامّهم إلّا فى كل برهة معلومة من الزمان . ويكون ظهور الملك للنظر فى أمور الرعيّة . وقال أيضا : رأيت فى بلاد سَرَنْديب[1] ، وهى جزيرة من جزائر البحر اذا مات ملكهم صيّروه على عجلة صغيرة البَكَر ، وشعره يجرّ على الأرض ، وامرأةٌ بيدها مِكْنسةٌ تحثو التراب على رأسه وتنادى : أيها الناس ، هذا مَلِكُكم بالأمس قد مَلَكَكم وجاز فيكم أمره قد صار الى ما تَرَوْن من ترك الدنيا ، وقبض روحه ملك الملوك الحىّ القديم الذى لا يموت ، فلا تغترّوا بالحياة بعده ، وكلامٌ هذا معناه من الترهيب والتزهيد فى هذا العالَم . ويطاف به فى جميع شوارع المدينة وهو كذلك ؛ ثم يُفصَل بأربع قِطَع وقد هُيِّئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطِّيب ويُحرَق بالنار ويذرّى رماده فى الرياح . قال : وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصّهم لغرض يذكرونه . قال : والمُلْك مقصور فى أهل بيت لا ينتقل منهم الى غيرهم . وكذلك بيوت الوزراء والقضاة وسائر أرباب المراتب ، تتوارث مناصبهم ولا تغيّر ولا تبدّل . وعندهم أنّ ملكهم متى شرب الشراب فقد استحق الخلع . والله الهادى .

---

(١) سرنديب : هى جزيرة سيلان الآن .

ذكر أخبار ملوك الصين

قال أبو الحسن علىّ بن عبد الله المسعودىّ فى كتابه المترجم بمروج الذهب[(١)] : لمّا قسم فَالَغ[(٢)] بن عَابَر بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح سار ولد عامور[(٣)] بن تُوبَل[(٤)] بن يَافَث بن نوح يَسْرةَ المشرق، فكان منهم أجناس الترك. وسار الجمهور من ولد عامور[(٣)] على ساحل البحر حتى انتهوا الى أقاصيه من بلاد الصين، فتفرّقوا فى تلك البقاع والبلاد وقطنوها وعمّروها، وكوّروا الكُوَر، ومصروا الأمصار، ومدّنوا المُدن، واتخذوا للملك مدينة عظيمة سمّوها إيقو[(٥)]، وبينها وبين ساحل البحر الحبشىّ، وهو بحر الصين مسيرة ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة. فكان أوّل مَن تملّك عليهم فى هذه الديار نسطيرطاس[(٦)] بن ماعور[(٧)] بن بزنج[(٨)] بن عامور[(٣)]. قال: ولمّا ملك فرّق أهله فى تلك الديار، وشقّ الأنهار، وغرس الأشجار، وطعّم الثمار، وقتل السباع. وكانت مدّة ملكه ثلاثمائة سنة ونيّفا وهلك.

فقام بالأمر بعده ولده عَرُون بن نسطيرطاس، فجعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب الأحمر جزعًا عليه وتعظيما له، وأجلسه على سرير من الذهب مُرصّع بالجوهر، وجعل مجلسه دونه، وسجد له وهو فى جوف ذلك التمثال، وسجد معه أهل مملكته، وفعل ذلك فى كل نهار فى طرفيه. وكانت مدّة مُلكه بعد أبيه نحوًا من مائتى سنة وخمسين سنة ثم هلك.

(١) راجع (ج ١ ص ٦١ طبع بلاق).

(٢) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٨): «فالج» بالجيم المعجمة. (٣) فى المسعودى: «عابور». (٤) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٧) وفى الأصل: «سربل».

(٥) فى المسعودى: «انموا». (٦) كذا فى ب. وفى أ هنا، «فنطرطاس». وفى المسعودى: «اسطرماس». (٧) كذا فى أ. وفى ب: «ياعور». وفى المسعودى: «فاعور». (٨) فى المسعودى: «بريج».

فملك بعده ٱبنه عِيرون[1] بن عَرُون . ولمّا ملك جعل جسد أبيه عَرون
٩٩/١٢ فى تمثال من الذهب ونصبه دون مرتبة جدّه ، وكان يبدأ بالسجود لجدّه ثم يسجد لأبيه ، وساس الرعيّة بأحسن سياسة ، وساواهم فى جميع أمورهم ، وشملهم بعدله ، وكثر النسل ، وأخصبت الأرض . وكان مُلْكه الى أن هلك مائتى سنة .

٥ ولمّا مات ملك بعده ولده عَثِينان[2] بن عِيرون . قال : ولمّا ملك جعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب ، وجرى فى أمره على ما سلف من عادتهم فى السجود والتعظيم . وطالت مدّته فى الملك ، وٱتسعت مملكته حتى ٱتصلت بلاده ببلاد الترك من بنى عمه . وٱتُّخِذَ فى أيامه كثيرٌ من المهن مما لطف فى الرقة من الصنائع ، وعاش أربعمائة سنة ثم هلك .

١٠ فملك بعده ٱبنه حَرَانان[3] بن عَثِينان . قال : ولما ملك جرى فى جسد أبيه على عادتهم ، ثم أمر بٱتّخاذ الفُلْك وحمل فيها الرجال ، وحمل معهم لطائف بلاد الصين وسفّرهم نحو بلاد الهند والسند والى إقليم بابل وسائر الممالك مما قرب وبعد فى البحر . وأهدى الى الملوك الهدايا العجيبة والتحف النفيسة . وأمر أصحابه الذين سفّرهم أن يجلبوا إليه ما فى كل بلد من الطرائف والتحف والمأكول
١٥ الذى لا يوجد فى بلاده ، والمشروب والغروس وأصناف الأقمشة والأمتعة وغير ذلك . وأمرهم أن يتعرّفوا سياسة كلّ ملك ، وملّة كل أمة وشرائعها ونهجها الذى هى عليه ، وأن يرغّبوا الناس فيما فى بلادهم من الجواهر والطِّيب والآلات . فتفرّقت تلك المراكب فى البلاد وفعلوا ما أمرهم به ، فلم يَرِدُوا على مملكة من الممالك إلّا أُعجبوا بهم وٱستظرفوا ما معهم . فأنشأت الملوك المحيطة ممالكُهم

٢٠ (١) فى المسعودى : « عيرور » . (٢) فى المسعودى : « عينيان » .
(٣) فى أ : « جرابان » . وفى المسعودى : « حرامان » .

بالبحار السفن وجهّزت نحو الصين ، وحملوا إليهم ما ليس عندهم ، وكاتبوا ملكهم وكافئوه على ما كان قد هاداهم به من تحف بلاده ، فعمرت بلاد الصين ، وآستقامت أمور مملكة الصين . فكانت مدّة حياته فى الملك نحوا من مائتى سنة وهلك ، بجزع أهل مملكته عليه وحزنوا حزنا شديدا ، وأقاموا النياحة عليه شهرا .

٥ وملك بعده ابنه توتال[1] بن حرانان . قال : ولما ملك جعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب ، وسلك فيه سنّة من تقدّمه من آبائه ، وآستقام أمره ، وأحدث من السُّنَن المحمودة ما لم يُحدثه أحدٌ من الملوك قبله . وقال لأهل مملكته : إنّ المُلْك لا يثبت إلا بالعدل لأنه ميزان البارى ، و إنّ من العدل الزيادة فى الإحسان مع الزيادة فى العمل . وخصّ وشرّف وتوّج ورتّب الناس فى رتبهم ، و وقفهم على ١٠ طرائقهم . وخرج يرتاد موضعا يبنى فيه هيكلا ، فوافى موضعا عامرا بالنبات ، حسن الاعتمام بالزهر ، تخترقه المياه . فخطّ الهيكل هناك . وجُلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان ، فشيّد الهيكل وجعل على أعلاه قبّة ، وجعل لها مخارق للهواء متساوية . وجعل فى الهيكل بيوتا لمن أراد الآنفراد للعبادة . فلمّا فرغ من الهيكل نصب فى أعلاه تلك التماثيل التى فيها أجسام مَن سلف من آبائه ، وقال : فى ترك ١٥ ذلك على ما هو عليه خروج عن حدّ الحكمة ، ويكون ذلك الى غير غاية ونهاية . وأمر بتعظيم تلك الأجساد التى جعلها فى أعلى القبّة . ثم جمع الخواصّ من أهل مملكته وأخبرهم أنّ من رأيه أن يضمّ الناس الى ديانة يرجعون إليها فيجتمع الشمل و يتساوى النظام ، وقال : إنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ، ودخول الفساد والزلَل ؛ فرتّب لهم سياسة وشريعة[2] وفرائض ، ورتّب لهم قِصَاصًا ٢٠

(١) فى المسعودى : « توماما ن » .

(٢) فى المسعودى : « فرتب لهم سياسة شرعية وفرائض عقلية وجعلها لهم رباطا » .

للنفوس والأعضاء ، وقاعدةً تستباح بها الفروج وتصحّ بها الأنساب . وجعل مما رتّبه وقرّره لوازم ونوافل ، وأوجب عليهم صلواتٍ لخالقهم تقرّبا الى معبودهم [منها][1] إيماءً لا ركوعَ فيها ولا سجود [فى أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود][1] فى أوقات من السنين وفى شهور محدودة . ورسم لهم أعيادا ، وأوجب على الزُّناة منهم حدودًا ، وعلى مَن أراد من نسائهم البِغاءَ جزيةً مقرّرة ، وألّا يستبحن بالنكاح وقتا من الأوقات ، وإن أقلعن عما كنّ عليه [تكف الجزية عنهنّ][2] . وما يكون من أولادهنّ ذكورًا[3] يكونون للملك جُنْدا وعبيدا ، وما يكون من أولادهنّ إناثا فلأمهاتهنّ ويلحقن بصنعتهنّ . وأمر بقرابين للهياكل ودُخْنٍ وأبخرة للكواكب ، وجعل لكل كوكب منها دُخْنًا[4] يتقرّب إليه بها معمولة من أنواع الطِّيب والعقاقير . وأحكم لهم جميع الأمور ، فاستقامت أيامه وكثُر النسل . فكانت مدّة حياته نحوًا من مائة وخمسين سنة ثم مات ، فجزعوا عليه جزعا عظيما ، وجعلوه فى تمثال من الذهب ورصّعوه بالجوهر وبنوا له هيكلا عظيما ، وجعلوا فى أعلاه سبعة أنواع من الجوهر على ألوان الكواكب السبعة وأشكالها ، وجعلوا يوم وفاته صلواتٍ وعيدًا يجتمعون فيه عند [ذلك][1] الهيكل ، وصوّروا صورته وذكروا سيرته فى لوح من الذهب ، وجعلوه فى أعلى الهيكل من حيث تراه الأبصار ليكون ذلك مثالا لمن يَرِد بعده فى السياسة ونهج السيرة وصوّروا صورته على أبواب المدينة . وعلى الدنانير والفلوس والثياب . وأكثر أموالهم الفلوس الصُّفْر والنُّحاس . قال : واستقرّت هذه المدينة دار ملك الصين وهى مدينة إيقو[5] . قال : ولهم مدينة عظيمة

١٠٠/١٢

(١) التكملة عن المسعودى . (٢) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : «والشهور معدودة» .

(٣) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : « ذكورهنّ للملك جندا وعبيدا وما كنّ من إناث... » .

(٤) فى المسعودى : « ... وجعل لكل كوكب منها وقتا يتقرّب اليه فيه مذخر — صوابه بدخن وهو ذريرة يدخن بها — معلوم من أنواع الطيب والعقاقير » . (٥) فى المسعودى : «انموا» كما تقدّم .

نحو ما يلى مغرب الشمس من أرضهم يقال لهـا مدو ، وتلى بلاد التُّبّت . والحرب بين أهل مدو و بين أهل بلاد التُّبّت سجال . ولم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورُهم منتظمة ، وأحوالهم مستقيمة ، والخصب والعدل لهم شامل ، والجور فى بلادهم معدوم ، يقتدون بما نصب لهم توتال من الأحكام . وحروبهم على عدوّهم قائمة ، وثغورهم مشحونة ، والرزق على الجنود جار ، والتجّار يختلفون اليهم فى البرّ والبحر من كل بلد . ودينهم دين من سلف من آبائهم ، وهى ملّة تُدعَى السُّمَنية (١) ، [عباداتهم] (٢) نحو من عبادات قريش قبل الاسلام ، يعبدون الصُّوَر و يتوجهون نحوها بالصلوات . فاللبيب فيهم يقصد بصلاته الخالق عزّ وجل ، و يقيم التمثال من الأصنام وغيرها مقام قِبْلة . والجاهل ومن لا عِلْم له يُشرك هذه التماثيل با[لاهية] (٢) الخالق و يعتقدهما (٣) جميعا ، وأنّ عبادتهم الأصنام تقرّبهم الى الله زُلْفى ، وأنّ منزلتهم فى العبادة تنقُص عن البارئ لجلالته وعظمته وسلطانه ، وأنّ عبادتهم لهـذه الأصنام طاعة له ووسيلة ، الى أن ظهرت فى أهل الصـين آراء ونِحَلٌ حدثت من مذاهب الثَّنَوِيّة (٤) وأهل الدهر . وقد كانوا قبـل ذلك فى الآراء وعبادة التماثيل على حسب ما عليـه عوامّ الهند وخواصّهم ، فتغيّرت أحوالهم و بحثوا وتناظروا ، إلّا أنهم ينقادون فى جميع أحكامهم الى ما نُصِب لهم من القـاعدة التى قدّمناها . قال : ومُلْكهم متصّل بمُلْك الطُّغُرْغُر (٥) . وكان اعتقاد

(١) السمنية (بضم ففتح) : قوم بالهند من عبدة الأصنام دهريون قائلون بالتناسخ و ينكرون وقوع العلم بالأخبار . يقال إنه نسبة إلى سمن اسم صنم لهم . وقيل : إن نسبتهم إلى بلد بالهند يقال لها سومنات . فتكون النسبة على غير قياس . (راجع شرح القاموس مادة سمن) . (٢) التكملة من المسعودىّ .

(٣) كذا فى المسعودىّ . وفى الأصل : «و يعبدهما» . (٤) الثنوية : أصحاب الاثنين . زعموا أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام والنور بتساويهما فى القدم واختلافهما فى الجوهر والطبع والفعل والخير والمكان والأجناس والأبدان والأرواح . (راجع الملل والنحل للشهرستانى) . (٥) و يقال لهم أيضا طغزغز (بزاءين) وتغزغز وتغرغر : جيل من الترك كانوا يسكنون أرضا واسعة على حدود الصين ، وهم فيها أصحاب خيام كأعراب البادية . (راجع النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣ وكتاب التنبيه والإشراف للمسعودى) .

الطُّغْرُغُر القول بإله النور والظُّلمة، وكانوا قبل ذلك جاهليّة جهلاء، سبيلهم فى الاعتقاد سبيل أنواع الترك، الى أن وقع إليهم شيطان من شياطين المانيّة (١)، فزخرف لهم كلاما يريهم فيه تَضَادّ هذا العالم وتنافيَه من موت وحياة وصحّة وسقم وغنى وفقر وضياء وظلام واجتماع وافتراق واتصال وانفصال وشروق وغروب ووجود وعدم وليل ونهار وغير ذلك من سائر المتضادّات، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان الناطق والصامت، وما يعرض للاطفال والبُله والمجانين، وأنّ البارى غنىّ عن إيلامهم، وأراهم أنّ هناك ضِدّا شديدا دخل على الخير الفاضل فى فعله وهو الله، تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا، فاجتذب بذلك عقولهم ودانوا به. فإذا كان ملك الصين سُمَنىّ المذهب يذبح الحيوانات، فتكون الحرب بينه وبين ملك الترك قائمة، وإذا كان مانىّ المذهب كان الأمر بينهم (٢) مشاعا.

قال: وملوك الصين ذوو آراء ونِحَل، إلّا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضيّة العقل وسُنَن الحق فى نَصْب القُضَاة والأحكام، وانقياد الخواصّ والعوامّ الى ذلك. قال: وأهل الصين شعوبٌ وقبائل كشعوب العرب وأفخاذها، ولهم مُراعاةٌ لحفظ أنسابهم. وينتسب الرجل منهم الى خمسين أبا وأكثر الى أن يتصل بعامور (٣). ولا يتزوّج (٤) أهل كل فخذ إلا من فخذهم، ويزعمون أنّ فى ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنّ ذلك أصحّ للبقاء وأتمّ للعمر.

(١) المانية ويقال لها أيضا المانوية: أصحاب مانى بن فاتك الحكيم الذى ظهر فى زمان سابور ابن أزدشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام، أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوّة المسيح ولا يقول بنبوّة موسى عليه السلام، وزعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا. وأنكر وجود شىء لا من أصل قديم، وزعم أنهما لم يزالا قوتين حساسين سميعين بصيرين، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان وفى الخير متحاذيان تحاذى الشخص والظل ... (راجع الملل والنحل للشهرستانى).

(٢) فى الأصل: «كان الأمر بينهم والملك مشاعا». (٣) فى المسعودىّ: «بعابور».

(٤) كذا فى المسعودىّ، وقد فصل هذه القضية. وفى الأصل: «ولا يتزوّج أهل فخذ من فخذه».

قال المسعودىّ : ولم تزل أمورُ الصين مستقيمةً فى العدل على حسب ماجرى به الأمر فيما سَلَف من ملوكهم الى سنة أربع وستين ومائتين ؛ فإنه حدث فى مُلْك الصين أمر زال به النظام وانتقض به حكم شرائعهم ومَنَع من الجهاد . وكان سبب ذلك أنّ خارجيًا خرج ببلد من مدن الصين وهو من غير بيت المُلْك ، يقال له ياسر ، شرِّير . وكان فى ابتداء أمره يطلب الفتوّة ، ويجتمع اليه أهل الدعارة والشرّ ، فلحق الملوك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره ، وأنه ممن لا يبالَى به ؛ فاشتدّ أمره ، ونما ذكره ، وكثر عتوّه ، وقَوِيتْ شوكته ، وقطع أهل الشرّ المسافات نحوه . فسار من موضعه وشنّ الغارات ، ولم يزل كذلك حتى نزل مدينة خانقو[1] ، وهى المدينة العظيمة . قال : وهى على نهر عظيم أكبر من دِجْلة أو نحوه ، تدخله السفن التى ترد من بلاد البصرة وسِيرَاف[2] وعُمَان[3] ومدن الهند وجزائر الزابج[4] . وبين هذه المدينة وبحر الصين مسيرة ١٠١/١٢

(١) مدينة خانقو كما وصفها الادريسى : تقع الى الشرق من مصب نهر حمدان (ينغ تسى كينغ) . وبالرجوع الى مصوّر الادريسى نرى أن هناك مدينة أخرى تسمى « خانكو » أو « جانكو » ، وتقع هى كذلك على الشرق من مصب نهر حمدان . ونهر حمدان ، كما رسمه الادريسى ، يصب فى المحيط بفرعين بينهما بعد كبير ، ويلتقيان فى الداخل على مسافة كبيرة وتقع خانقو على الفرع الجنوبى منهما . والظاهر أنه عدّ نهر «سيكينج» ونهر «ينج تسى كينج» فرعين لحمدان (ينغ تسى كينغ) وقد ذهب كونراد ميلر محقق وناشر خرائط الادريسى إلى أن خانقو هى مدينة « كنتون » الآن . كما ذهب إلى أن مدينة « جانكو » هى مدينة « تشوتشو » . (راجع مسالك الأبصار ج ٢ ص ٣٩ الحاشية رقم ٤) .

(٢) سيراف : من بلاد فارس على ساحل البحر مما يلى كرمان ، وهى مدينة آهلة . (راجع تقويم البلدان) . (٣) عمان (بضم العين المهملة وفتح الميم) : مدينة جليلة على بحر فارس تحت البصرة ، وبها مرسى السفن من السند والهند والصين والزنج ، وليس على بحر فارس مدينة أجل منها . (راجع تقويم البلدان) .

(٤) جزائر الزابج : هى فى أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند فى حدود الصين ، وقيل : هى فى بلاد الزنج ، ذات زرع خصب وضرع وماء كثير ، وبها مغائص اللؤلؤ وأفاويه الطيب ، وبها جبل يسمى وبرة يأوى إليه عبادها . (راجع معجم البلدان ومسالك الأبصار ج ٢ ص ٣٤) .

ستة أيام أو سبعة، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وغيرهم من أهل الصين . فقصد الخارجىّ هذه المدينة، وآلتقى بجيوش الملك فهزمها، وحاصر المدينة وفتحها واستولى على المملكة، وقتل من أهل مدينة خانقو خَلْقًا لا يُحصَوْن كثرةً، فأحصى من قُتل فيها من المسلمين والنصارى واليهود غير أهل الصين فزادوا على مائتى ألف. ثم سار بجيوشه الى بلد بلد فآفتتحه، وقصد مدينة إيقو، وهى دار المملكة، وهو فى ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل . فخرج اليه الملك فى خواصّه فى نحو مائة ألف وآلتقيا، فكانت الحرب بينهم سجالا نحو شهر وصبرا جميعا، ثم كانت على الملك فآنهزم، وأمعن الخارجىّ فى طلبه . وآنحازَ الملك الى مدينة فى أطراف أرض الصين . وآستولى الخارجىّ على حوزة الصين وآحتوى على دار المُلْك وخزائن الملوك السالفة وما أعدّوه للنوائب . وعلم أنه لا يقوم بالمُلْك لأنه ليس من بيته، فأخرب البلاد وآستباح الأموال وسفك الدماء . فكاتب ملك الصين ملك الترك أَمِرْخَان وآستنجده، فأنجده ملك الترك بولده فى نحو أربعمائة ألف فارس وراجل . وقد آستفحل أمر الخارجىّ فآلتقى الفريقان، فكانت الحرب بينهما سجالا نحو سنة وقتل من الطائفتين ما لا يحصى كثرةً، ثم فُقِد الخارجىّ فقيل قُتِل وأسر ولده وخواصّ أصحابه، وعاد ملك الصين الى دار ملكه . قال : والعامّة تسمّيه « بغيور »[1]، وتفسيره ابن السماء تعظيما له . والآسم الذى يخاطب به ملوك الصين طمغاجيان، ثم لقّبوا بعد ذلك ملكهم بالخان . قال : ولمّا كان من أمر هذا الخارجىّ الذى ذكرناه تغلّب صاحب كل عمل على عمله، وضعف ملك الصين عن مقاومتهم . وسنذكر إن شاء الله تعالى ما آل اليه مُلْك الصين عند ذكرنا لأخبار الدولة الجِنْكِزْخانيّة . والله أعلم .

(١) فى المسعودى « يعبور » .

ذكر أخبار ملوك الترك

قال المسعودى : وقد تنازع الناس فى الترك وبدئهم، فذكر كثير منهم أن ولد عامور بن تُوبل بن يافث بن نوح لمّا قسم فَالَغ بن عابَر بن أرفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح كما ذكرنا فى أخبار ملوك الصين ساروا يَسْرة المشرق، فقطع قوم منهم من ولد رعُوَ على سمت الشمال وانتشروا فى الأرض، فصاروا عدّة ممالك، منهم الدَّيلم[1]، والجِيل[2]، والطَّيلسان[3]، والتتر[4]، وفَرْغانة[5]، وأهل جبل الفتح من أنواع اللُّكز[6] واللان[7] والخَزَر[8] والأبخاز[9] والسَّرير[10] وكمشك وسائر تلك الأمم المنتشرة فى ذلك الصُّقع

(١) الديلم : ناحية واسعة بين طبرستان وأذربيجان على بحر قزوين . قاعدتها مدينة رشت . خرج منها طائفة من دول الشرق، مثل بنى بويه بالعراق وبنى مرداويج بجرجان وغيرهم . وهى الآن إقليم جيلان بمملكة إيران (راجع معجم الخريطة التاريخية للمرحوم أمين واصف بك) . (٢) الجيل : اسم لصقع واسع مجاور لبلاد الديلم فيه قرى كثيرة، ويقال له جيلان وكيلان (راجع تقويم البلدان) .

(٣) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحى الديلم والخزر افتتحه الوليد بن عقبة فى سنة ٣٥ هـ . (راجع معجم البلدان لياقوت) . (٤) التتر : جيل من أجناس الترك ظهر سنة ست عشرة وستمائة هجرية بأقاصى بلاد المشرق فى جبال طغاج من حدود الصين يتاخمون الترك ويجاورونهم، وبينهم وبين بلاد الاسلام التى هى ما وراء النهر ما يزيد على مسيرة ستة أشهر، وهم الذين عناهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « كأن وجوههم المجان المطرقة » . وكان ملكهم يسمى جنكزخان (راجع تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٣٤ طبع بلاق وشرح القاموس) . (٥) فرغانة : ناحية عظيمة وراء الشاش ووراء جيحون وسيحون، ينسب اليها كثير من العلماء . (٦) اللكز : جيل من الناس كانوا يسكنون بلدة بنوها فسميت بهم وهى تقع خلف الدربند تتاخم خزران (راجع تقويم البلدان ومعجم البلدان) .

(٧) اللان : أمة كانت تسكن إقليم القفقاس مما يلى جبال القبج (القوقاز) شمالا غربى داغستان والدربند (راجع معجم الخريطة التاريخية) . (٨) الخزر : جيل خزر العيون . وقيل : هى بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند قريب من سدّ ذى القرنين .

(٩) كذا فى تقويم البلدان وياقوت . وهى اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب، وهى جبال صعبة المسلك، وعرة لا مجال للخيل فيها، تجاور بلاد اللان . ووردت فى الأصول بحروف مهملة .

(١٠) السرير : مملكة واسعة بين اللان والباب والأبواب وليس اليها إلا مسلكان : مسلك إلى بلاد الخزر، ومسلك إلى بلاد إرمينية، وهى ثمانية عشر قرية فى جبال، وهى المعروفة الآن بداغستان .

والأرمن إلى طَرَابْزَنْدة[١] إلى بحر مانيطش[٢] ونيطش[٣] و بحر الخزر إلى البُلغار[٤] ومَن اتصل بهم من الأمم . وعبر ولد عامور نهر بَلْخ ، ويمّم بلاد الصين الأكثر منهم وتفرقوا فى تلك البلاد وانتشروا فى تلك الديار ، منهم الخُتّل وهم سكّان خَتْلان[٥] ووَرْسَنان[٦] والأُسْرُوشَنة[٧] ، والسُّغْد[٨] وكانوا بين بُخارَى وسَمَرْقَند[٩] ، ثم الفراغنة والشاش[١٠] وإسْبيجاب[١١] وأهل بلاد الفارَاب[١٢] ، فبنوا المدن والضياع ، وانفرد منهم ناس غير هؤلاء فسكنوا البوادى

(١) ذكر أبو الفداء فى تقويم البلدان أنها تسمى الآن طرابزون ، وهى ميناء مشهورة على بحر مانيطش غربى سحوم وشرق سامسون ، وفى جنوبها بشرق جبال اللكزى و يقال له جبل الألسن لما فيه من اللغات . وأكثر سكانها اللكزى . وهذه المدينة لها أسواق فى السنة يأتى اليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم .

(٢) هو المعروف الآن ببحر آزاق وبحر آزوف . (٣) هو المعروف الآن بالبحر الأسود .

(٤) البلغار : جنس معروف وهم منسوبون إلى بلدان يسكنونها وهى قسم عظيم من بلاد الخزر على نهر الإتل (الفولجا) ولاية قازان الروسية الآن (راجع معجم الخريطة التاريخية) .

(٥) ختلان : بلاد مجتمعة وراء بلخ قرب سمرقند . (٦) ورسنان : من قرى سمرقند .

(٧) أسروشنة : الغالب عليها الجبال . ويحيط بها من الشرق بعض فرغانة ، ومن الغرب حدود سمرقند ، ومن الشمال بعض فرغانة أيضا ، ومن الجنوب بعض حدود كش والصغانيان (راجع تقويم البلدان) .

(٨) السغد ، ويقال فيها الصغد (بالصاد بدل السين) وهى أحد متنزهات الدنيا الأربعة التى هى : غوطة دمشق ، ونهر الأبلة ، وشعب بوّان ، وسغد سمرقند ، وهو أنزه الأربعة لأنه ممتد نحو ثمانية أيام ، مشتبك الخضرة والبساتين ، لاينقطع ذلك فى موضع منه ، وقد حفت تلك البساتين بالأنهار الدائم جريها ، ومن وراء الخضرة من الجانبين مزارع ، ومن وراء المزارع مراعى السوائم ، وهى أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارا . (راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٣٣) . (٩) سمرقند : من أكبر مدن ما وراء النهر وحاضرة السغد ، فتحها قتيبة بن مسلم سنة ٩٣ هـ . وكانت قاعدة الدولة السامانية (راجع معجم الخريطة التاريخية) . (١٠) الشاش : مدينة جليلة فى أرض سهلة من عمل سمرقند وراء نهر سيحون ، ومنها إلى فرغانة خمس مراحل (راجع تقويم البلدان) . (١١) إسبيجاب : بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(١٢) كذا فى تقويم البلدان ومعجم البلدان ، وهى ولاية وراء نهر جيحون فى تخوم بلاد الترك وهى أبعد من الشاش قريبة من بلاد ساغون ، وواديها يأخذ من نهر الشاش . وفى الأصول : « القارات » وهو تصحيف .

وهم الترك الخَزْلج[1] والتُّغُزْغُز وهم أصحاب مدينة كُوشان[2]، وهى مملكة بين بلاد خراسان والصين . قال : ومن الترك الكَيْماكية[3] والبَرْسُخانية[4] والغُزّية[5] والجفرية[6] . قال : وأشدّهم بأسا الغُزّيّة، وأحسنهم صورا الخَزْلجيّة، وكانوا على بلاد فَرْغانة والشاش وما يلى ذلك الصُّقع . قال : وفيهم كان المُلْك، ومنهم خاقان الخواقين، وكان مُلْكه يجمع سائر ممالك الترك وينقاد إليه ملوكها .

قال: ولحق فريق من ولد عامور بتُخُوم الهند، فأثّرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانُهم خلاف ألوان الترك ولحقوا بألوان الهند . ولهم حضر وبوادٍ، وسكن فريق منهم بلاد التُّبّت وملّكوا عليهم ملكا وكان ينقاد إلى ذلك الخاقان . فلمّا زال مُلْك خاقان سَمّى أهل التُّبّت ملكهم بخاقان تشبيها بملوك الترك .

ذكر جبل الفتح وما عليه من الملوك والأمم

١٠٢/١٢ قال المسعودىّ : وأمّا جبل الفتح فهو جبل عظيمٌ اشتمل على كثير من الممالك والأمم ، وفيه اثنتان وسبعون أمّة، لكل أمّة ملك ولغة تخالف لغة الأخرى . وهو ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شِعْبٍ من شعابه، وهى التى بناها كسرى. وعلى أحد شعاب هذا الجبل بحر الخَزَر مما يلى الباب والأبواب، ومملكة

(١) الخزلج : صنف من الترك، وهم الذين كان منهم السلجوقية .

(٢) كوشان : مدينة فى أقصى بلاد الترك كما فى معجم البلدان ياقوت .

(٣) الكيماكية : نسبة إلى كيماك، ولاية واسعة فى حدود الصين وكان أهلها تركا يسكنون الخيام ويتبعون الكلأ .

(٤) البرسخانية : نسبة إلى برسخان ، وهى من مدن إسبيجاب .

(٥) الغزية : حدود ديارهم ما بين الخزر وكيماك وأرض الخزخية وبلغار .

(٦) الجفرية : نسبة إلى الجفر وهى فى حدود بلاد التغزغز كما ذكر ياقوت فى كلامه على تركستان .

شِرْوان، ويلى هذه المملكة مملكة الأرّان[١]، ومَلِكها يُدعَى الأرّان شاه. ومنها مملكة المُوقانية[٢]، ومملكة اللّكز، وهى أمة لا تُحصَى كثرةً تسكن أعالى هذا الجبل، وهؤلاء ينقادون إلى ملك شِرْوان، ومنهم كفّار لا ينقادون اليه يقال لهم الدُّودانية[٣] جاهلية لا يرجعون إلى قِبلة. ويلى مُلك شِرْوان مُلك طَبَرِسْتان. ومن ممالك الجبل مملكة حَيْزان[٤]، وهى داخلة فى جملة الخَزَر. ومملكة الخَزَر تلى مملكة حَيْزان، وبين مملكة الخَزَر ومدينة الباب ثمانية أيام. ومدينة الخزر اسمها سَمَنْدَر[٥]. ومن مدن الخَزَر أيضا مدينة إِتِل[٦] بينها وبين سَمَنْدَر سبعة أيام، وهى ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالى بلاد الترك، ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغار ويصب فى بحر مانيطش. وفى هذه المدينة [خلق[٧]] من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية. فالملك وحاشيته وجيشه من اليهود، والجاهلية بها من الصقالبة والروس، وهم يحرقون موتاهم ودوابّ مَن يموت وآلاته. واذا مات الرجل منهم أُحرقت معه امرأته، وإن ماتت المرأة لا يُحرَق معها الزوج. وأما المسلمون فهم جُند الملك، ويعرفون باللارسية، وهم ناقلة من بلاد خُوارزم كانوا قد وفدوا الى هذه المملكة لقَحْط أصاب بلادهم فى صدر

(١) أرّان: ناحية واسعة الأرجاء، بين أرمينية وأذربيجان وبلاد الكرج وبحر قزوين. وأشهر مدنها: موقان، وبرذعة، وبيلقان، وبين أران وإقليم الكرج نهر الكر، ومنها اشتق اسم دولة «إيران» فى عصرنا هذا (راجع معجم الخريطة التاريخية). (٢) الموقانية: نسبة الى موقان بن كاشج، وهى ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى فأكثر أهلها منهم، وهى بأذربيجان، يمرّ القاصد من أردبيل إلى تبريز فى الجبال. (راجع معجم البلدان فى كلامه على موقان). (٣) الدودانية: أمة يزعمون أنهم من بنى دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة، كما ذكر ياقوت فى كلامه على أرمينية. (راجع معجم البلدان فى كلامه على أرمينية). (٤) حيزان: من مدن أرمينية قريبة من شروان. (راجع معجم البلدان لياقوت). (٥) سمندر: مدينة بين إتل وباب الأبواب ذات بساتين كثيرة، يقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف بستان كرم، وهى التى افتتحها فى بدء الاسلام سليمان بن ربيعة الباهلىّ. (راجع ياقوت). (٦) إتل: عاصمة بلاد الخزر. وقد سمى بها النهر العظيم الذى يمرّ ببلاد الخزر وبلاد الروس وبلغار. (راجع ياقوت). (٧) التكملة من المسعودى (ج ١ ص ٨٦).

الإسلام . فاستعان بهم الملك فأقاموا عنده على شروط ، منها : أن يقيموا شعار الإسلام ، وأن تكون الوزارة فيهم ، وأنه اذا كانت الحرب بينه وبين المسلمين لا يحضرونها ويحاربون معه سائر الكفار. وبالمدينة قضاة سبعة : اثنان من المسلمين ، واثنان للخَزَر يحكمان بحكم التوراة[1] ، واثنان من النصارى يحكمان بالإنجيل ، وواحد من الصقالبة والروس والجاهلية يحكم بالقضايا العقلية . واذا ورد ما لا علم لهم به من النوازل الكبار اجتمعوا الى قضاة المسلمين فتحاكموا اليهم وانقادوا لما توجبه الشريعة الإسلامية . وليس فى الملوك مَن عنده جند مرتزقة غير ملك الخَزَر .

قال : وفى دار مملكة الخَزَر رجل يكون اسمه خاقان لا يركب ولا يظهر للخاصّة ولا للعامّة ، ولا يستقيم مُلْك الخَزَر لملكهم إلّا أن يكون عنده خاقان معه فى قصره . فإذا أجدبت أرض الخَزَر أو نابت بلادهم نائبة أو حرب ، جاءت الخاصّة والعامّة الى ملك الخَزَر وقالوا له : قد تطيّرنا بخاقان وبأيامه وتشاءمنا به ، فاقتله أو سلّمه إلينا نقتله ، من غير أن يكون قد عمل ما يوجب ذلك ؛ فتارة يقتله ، وتارة يسلّمه اليهم فيقتلونه ، وتارة يمانع عنه ويرقّ له . واذا قتل خاقان أقاموا غيره .

قال : وللخَزَر زوارق يركبون فيها من نهر فوق المدينة يصبّ الى نهر يقال له بُرْطاس ، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة فى جملة ملوك الخَزَر ، وعمائرهم متّصلة بين مملكة الخَزَر والبُلْغَر ، يرِد هذا النهر من نحو بلاد البلغر . ومن بلاد بُرْطاس تُحمَل جلود الثعالب السُّود التى يُعرَف وبرها بالبُرْطاسىّ . قال المسعودىّ : ويبلغ ثمن الجلد منها مائة دينار . وتلبسها الملوك وهو عندهم أغلى من السمور[2] والفَنَك[3] ، والخُمْر دونها فى الثمن .

(١) فى الأصل : «يحكون» .

(٢) السمور : حيوان برىّ يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها وإدفائها وحسنها .

(٣) الفنك (محرّكة) : دابة يفترى جلدها ، أى يلبس فروا .

قال : وفى أعالى نهر الخَزَر مصبّ يتّصل بخليج من نهر نِيطِش، وهو بحر للرُّوس لا يسلُكه غيرهم ، وهم على ساحل من سواحله . وهى أمّة عظيمة لا تنقاد الى ملك ولا الى شريعة. وفى أرض الرُّوس معدِن من الفضّة. قال : والرُّوس أمم كثيرة[1] ، فمنهم جنس يقال لهم البوداغية[2] ، وهم الأكثر ، يختلفون بالتجارات الى بلاد الأندلس والقسطنطينية ورومية . قال : وبين مملكة حَيْزان التى ذكرناها وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يُحسنون غير اللغة العربية فى آجام هنالك وغياض وأودية وأنهار، ولهم قرى قد سكنوها، وهم على نحو من ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب .

قال : ويلى مملكة حَيْزان مما يلى الفتح والسُّغْد ملك يقال له برزينان[3] مسلم، ويعرف بلد هذا الملك بالكُرْج . وكل ملك يلى هذه المملكة يدعى برزينان . ثم يلى مملكة برزينان ملك يقال له عينق[4] ، وهم يدينون بدين النصرانيّة ، لا ينقادون لملك ، ولهم رؤساء ، وهم مهادنون لأهل مملكة اللّان . ثم يليهم مما يلى السور والجبل مملكة يقال لها زِرِهْ كَرَان . وتفسير ذلك بالعربية عمّال الزَّرَد ؛ لأن أكثرهم يعملون الزَّرَد والسيوف والبُلْم والرُّكُب وغير ذلك من آلات الحديد . وهم ذوو أديان مختلفة من المسلمين والنصارى واليهود . وبلدهم بلد ممتنع خَشِنٌ قد امتنعوا فيه ممن جاورهم من الأمم لخشونته . ثم يلى هؤلاء مَلِك السرير[5]

١٠٣/١٢

(١) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : « أمة كبيرة » . (٢) فى أ : « النوذاغية » بالنون والذال المعجمة . وفى المسعودى : « المودغانه » . (٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت فى كلامه على الكرج . وفى الأصول : « بزرنيان » . وفى المسعودى : « مدرمان » .

(٤) فى المسعودى : « عميق » . (٥) ذكر المسعودىّ أنه من ولد بهرام جور . وسمى صاحب السرير لأن يزدجرد حين ولى منهزما قدّم سرير الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بهرام ليسير بها الى هذه المملكة فيحرزها هناك الى وقت موافاته ، ومضى يزدجرد الى خراسان فقتل هناك وذلك فى خلافة عمر رضى الله عنه ، فقطن ذلك الرجل فى هذه المملكة وآستولى عليها وصار الملك فى عقبه ، فسمى صاحب السرير .

ويدعى قُبْلان شاه يدين بالنصرانية. ودار مملكته تعرف بخندج[(١)]، وله اثنتا عشرة ألف قرية يستعبد منهم من شاء. وبلده بلد منيع. وهو شَعْبٌ من جبل الفتح. وهذا الملك يغير على الخَزَر ويستظهر عليهم. ثم يلى هذه المملكة مملكة اللّان. وملكها يقال له كَرْكَنْداج[(٢)]، وهذا الاسم غالبٌ على سائر ملوكهم. وكانوا جاهليّة ثم دانوا بالنصرانيّة، ثم رجعوا فيها بعد العشرين والثلاثمائة. وصاحب اللّان يركب ٥٠ فى ثلاثين ألف فارس. ثم يلى ملك اللان أمة يقال لها كمشك. وتفسير هذا الاسم بالفارسية التِّيه والصَّلَف. وهم بين جبل الفتح وبحر الروم. وهى تنقاد الى دين المجوسيّة. قال: وليس فى الأمم التى ذكرناها أنقى أجسادا، ولا أصفى لونا، ولا أحسن رجالا، ولا أصبح نساءً، ولا أقوم قدودا، ولا أرقّ أخصارا وأظهر أردافا، ولا أحسن شكلا من هذه الأمة. ونساؤهم موصوفات بلذّة الخلوة. ٦٠ ولباسهنّ البياض والدِّيباج الرومىّ والسِّقْلاطون[(٣)] وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب. واللّان تستظهر على هذه الأمة إلّا أنها تمتنع منهم بقلاع لها على ساحل البحر. وتلى هذه الأمة على ساحل البحر أمة يقال لبلدهم السبع بلدان، وهى أمة كثيرة ممتنعة بعيدة الدار. ويلى هذه الأمة أمة عظيمة يقال لها إرَم [ذات العماد][(٤)] ذوو خلق عجيب جاهليّة الآراء. ويلى هذه الأمة صحراء نحو من مائة ميل، بين جبال أربعة، كل ١٥ جبل منها ذاهب فى الهواء، فى وسط هذه الصحراء دارة مقورة كأنها خُطّت ببِرْكار[(٥)]،

(١) فى المسعودىّ: «تعرف بجبرج» ولم نهتد الى الصواب فيه.

(٢) فى ياقوت فى كلامه على اللان والمسعودى: «كركنداح» بالحاء المهملة.

(٣) السقلاطون: الملابس الملونة بالألوان القرمزية وغيرها. وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه. (راجع القاموس الانجليزى الفارسىّ). ٢٠

(٤) التكملة عن المسعودى.

(٥) البركار (بالكسر): آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر، وهى المعروفة بالبرجل.

منحوتة فى حجر صَلْد، استدارتها نحو من خمسين ميلا قَطْعٌ قائمٌ كأنه حائط مبنىّ، يكوّن قعرها نحوا من ميلين، لاسبيل الى الوصول الى مستوى تلك الدارة، ويُرى بها بالليل نيران كثيرة فى مواضع مختلفة، ويرى فيها بالنهار قرى وأنهارٌ تجرى، وفيها ناس وبهائم إلا أنهم يُرَوْن لطاف الأجسام لبُعْد قعر الموضع لا يُدرَى من أىّ الأمم هم. ولا سبيل الى صعودهم ولا الى النزول اليهم من جهة من الجهات. ووراء تلك الجبال خَسْفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض، فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه، الأغلب عليها صُوَر الناس وأشكالهم إلا أنهم ذوو شعور. قال: وربّما وقع فى النادر منها القرد اذا آحتيل عليه فى آصطياده، فيكون فى نهاية الفَهْم والدراية. وربّما حُمِل الواحد منها الى الملوك فيُعلَّم القيام على رأسه بالمِذَبّة. ولهم خاصيّة بمعرفة المسموم من المآكل والمشارب. فإذا دنا الطعام منها شمّته ويُلقَى لها الشىء منه فإن أكلته أكله الملك، وإن آمتنعت علم الملك أنّ ذلك مسموم.

قال: وفيما بين بلاد الخَزَر وبين بلاد المغرب أمم أربع من الترك ترجع فى أنسابها الى أب واحدٍ، وهم حَضَرٌ وبَدْوٌ، ذوو مَنَعة وبأس شديد. ولكل أمة منها ملك. ومسافة كل مملكة منها أيام، متّصلة ممالكهم بعضها ببحر نِيطِش. وتتّصل غاراتهم ببلاد رومية ومايلى بلاد الأندلس. وهى تستظهر على سائر مَن هنالك من الأمم. وبينهم وبين الخزر واللّان مهادنة، وبلادهم تتّصل بممالك الخزر. فالجيل الأوّل منهم يقال له نجا. ويليه بجعود[1]. ويليه بَجِناك؛ وهى أشدّ هذه الأمم الأربع بأسا، ويليه أنوجرذ[2]. وكانت لهم حرب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة. ويلى بلاد اللّان أيضا أمة يقال لها الأبخاز تَدين بالنصرانية، وملك اللّان مُستظهِر عليهم وهم متّصلون بجبل الفتح. ثم يلى بلاد الأبخاز مَلِك الخزَرية، وهم أمة عظيمة منقادة

(١) فى المسعودى: «جعرد». (٢) فى المسعودى: «البوكرده».

الى دين النصرانية تُدعَى خزَران ولها ملك . قالوا : وكانوا يؤدّون الخراج الى صاحب ثَغْر تَفليس . وتليهم أمّة يقال لها الصمصحيّة نصارى ، ومنهم جاهليّة لا مَلِك لهم . ويليهم بين ثغر تَفْليس وقلعة باب اللّان مملكة يقال لها الصنبارية[1] ، وملكهم يقال له كريشكُوش[2] ، ينقادون الى النصرانيّة ، ويزعمون أنهم من العرب من نزار بن معدّ . ١٠٤/١٢
ثم يلى مملكة الصنبارّية مملكة شكى[3] وهم نصارى . ويليهم مملكة أخرى وهى مأوى الصعاليك والذُّعّار ، ثم تتصل بمملكة المُوقانيّة وهى التى على ساحل بحر الخزر . والله أعلم بالصواب .

(١) كذا فى المسعودى . وفى الأصول : « الضارية » .
(٢) فى المسعودى : « كرسكوس » . (٣) فى المسعودى : « سكين » .

تم الجزء الرابع عشر ، ويليه الجزء الخامس عشر
وأوّله : ذكر أخبار مصر

كَمُلَ طبع " الجـزء الرابع عشر من نهاية الأرب فى فنون الأدب "
بمطبعـة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٧ محرّم سـنة ١٣٦٢
(٢ فبراير سنة ١٩٤٣) م
محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصـــرية

(مطبعـة الدار ٨٢/١٩٣٨/٢٥٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

الجزء الرابع عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٦٢هـ — ١٩٤٣م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

فهرس

الجزء الرابع عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

الباب الثانى من القسم الثالث من الفنّ الخامس فيما كان بعد موسى ابن عمران عليهما السلام ١

ذكر خبر يوشع بن نون عليه السلام وفتح أريحا وغيرها ١

ذكر خبر حزقيل عليه السلام ٦

ذكر خبر إلياس عليه السلام ٩

ذكر دعاء إلياس على قومه وما حل بهم من القحط وخبر اليسع حين اتبع إلياس ٢٤

ذكر رفع البلاء عن قوم إلياس بدعوته واستمرارهم على الكفر ورفع إلياس وهلاك آجاب الملك وامرأته، ونبوّة اليسع ٢٦

ذكر نبوّة اليسع عليه السلام ٢٨

ذكر خبر عيلى وأشمويل وما يتصل بذلك... ... ... ٣١

ذكر ابتداء أمر أشمويل وكيف كانت نبوّته ٣٢

ذكر خبر الملك طالوت وإتيان التابوت وخبر جالوت ٣٦

ذكر قصة التابوت وصفته وما قيل فيه ٣٨

ذكر إتيان التابوت إلى بنى إسرائيل وسبب عوده ٤٢

ذكر مسير طالوت بالجنود وخبر النهر الذى ابتلوا به ٤٤

ذكر خبر داود حين قتل جالوت الملك ٤٥

صفحة

ذكر خلافة داود عليه السلام ونبوّته ومبعثه إلى بنى إسرائيل وما خصه الله عزوجل به ٥٤
ذكر خبر داود عليه السلام حين ٱبتلى بالخطيئة ٦١
ذكر ميلاد سليمان بن داود عليهما السلام ٧٠
ذكر خبر أبشالوم بن داود ٧٠
ذكر خبر الزرع الذى رعته الغنم وما حكم فيه سليمان عليه السلام ... ٧٢
ذكر خبر الذين ٱعتدوا فى السبت ٧٣
ذكر ٱستخلاف داود ٱبنه سليمان عليهما السلام وخبر الصحيفة وٱبتداء أمر الخاتم ٧٦
ذكر وفاة داود عليه السلام ٨٠
ذكر نبوّة سليمان بن داود عليهما السلام وملكه ٨٢
ذكر حشر الطير لسليمان بن داود عليهما السلام وكلامها له ٨٢
ذكر خبر العنقاء فى القضاء والقدر ٨٦
ذكر خبر خاتم سليمان عليه السلام ٩٣
ذكر خبر حشر الجنّ لسليمان بن داود عليهما السلام ٩٤
ذكر خبر مطابخه عليه السلام ٩٥
ذكر خبر الرزق الذى سأل سليمان الله تعالى أن يجريه على يديه ٩٦
ذكر خبر بناء بيت المقدس وٱبتداء أمره ٩٧
ذكر خبر وادى النمل وما قيل فيه ١٠٣
ذكر خبر البعوض وما قيل فيه ١٠٤
ذكر خبر الخيل وما قيل فيها ١٠٥
ذكر خبر بساط سليمان عليه السلام ١٠٧
ذكر خبر صخر الجنّ ١٠٨
ذكر صفة كرسىّ سليمان عليه السلام وما ٱنتهى إليه أمره ١٠٩

صفحة

ذكر خبر بلقيس وآبتداء أمرها ١١١
ذكر خبر ميلاد بلقيس وكيف كان وسبب ملكها ١١٣
ذكر خبر سليمان و بلقيس وسبب زواجه بها ١١٦
ذكر صفة القصر الذى بنته بلقيس وصفة عرشها ١٢٣
ذكر خبر وادى القردة ١٢٤
ذكر خبر الرجل الذى قُبِض بأرض الهند ١٢٥
ذكر خبر الفتنة وذهاب خاتم سليمان عليه السلام ورجوعه إليه ... ١٢٥
ذكر عزم سليمان عليه السلام أن يطوف على نسائه ١٣٤
ذكر وفاة بلقيس زوجة سليمان عليه السلام ١٣٤
ذكر خبر وفاة سليمان بن داود عليهما السلام ١٣٥

الباب الثالث من القسم الثالث من الفنّ الخامس فى أخبار شعيا وإرميا عليهما السلام وخبر بختنصر وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عزير وفتنة اليهود... ... ... ١٤٢
ذكر قصة شعيا عليه السلام... ... ... ١٤٢
ذكر قصة إرميا عليه السلام... ... ... ١٤٩
ذكر خبر بختنصر وآبتداء أمره وكيف ملك ١٥٣
ذكر خبر بختنصر مع دانيال ١٥٨
ذكر خبر عمارة بيت المقدس بعد أن خربه بختنصر وخبر الذى مرّ على قرية ١٦٤

الباب الرابع من القسم الثالث من الفنّ الخامس فى قصة ذى النون يونس آبن متّى عليه السلام وخبر بلوقيا ١٧١
ذكر قصة ذى النون يونس بن متّى عليه السلام ١٧١
ذكر خبر بلوقيا وما شاهد من العجائب ١٨٢

صفحة

الباب الخامس من القسم الثالث من الفنّ الخامس فى أخبار زكريا وآباه يحيي وعمران ومريم وعيسى بن مريم عليهم السلام ١٩٥
ذكر نسب زكريا وعمران عليهما السلام وما يتصل بذلك... ... ... ١٩٥
ذكر ميلاد مريم بنة عمران عليه السلام ١٩٦
ذكر دعاء زكريا أن يرزقه الله عز وجل الولد ومولد يحيي بن زكريا ١٩٨
ذكر صفة يحيي بن زكريا وحليته... ... ... ٢٠١
ذكر نبوّة يحيي عليه السلام وسيرته وزهده ٢٠١
ذكر مقتل يحيي بن زكريا وأبيه زكريا عليهما السلام... ... ... ٢٠٢
ذكر هلاك بنى إسرائيل وخراب بيت المقدس ثانيا ٢٠٦
ذكر خبر حمل مريم بنة عمران بعيسى عليهما السلام ٢٠٩
ذكر خبر ميلاد عيسى بن مريم عليهما السلام ٢١٣
ذكر رجوع مريم بعيسى عليه السلام بعد مولده الى قومها ٢١٨
ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام الى مصر وما ظهر له من المعجزات فى مسيره ومدّة مقامه الى أن عاد ٢١٩
ذكر خبر زكريا عليه السلام مع هيرودس الملك وما كان من أمره ... ٢٢٤
ذكر رجوع عيسى ومريم عليهما السلام من مصر ٢٢٥
ذكر خبر الحواريين حين آتبعوا عيسى عليه السلام وآمنوا به ٢٢٦
ذكر الخصائص والآيات والمعجزات التى أظهرها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام بعد مبعثه... ... ... ٢٢٧
ذكر خبر سام بن نوح وغيره الذين أحياهم عيسى بإذن الله عز وجل ٢٢٩
ذكر خبر يجمع عدّة معجزات من معجزات عيسى عليه السلام ٢٣٣
ذكر خبر المائدة التى أنزلها الله عز وجل من السماء ٢٣٦
ذكر ماقالته الشياطين الثلاثة فى عيسى بن مريم وآتبعهم الناس بعدهم ٢٤٣
ذكر خبر إبليس حين عارض عيسى عليه السلام وما خاطبه به وجوابه ٢٤٤

صفحة

ذكر خبر عيسى مع اليهود حين ظفروا به وأرادوا صلبه وقتله ٢٤٦
ذكر خبر رفع عيسى عليه السلام أوّل مرة وهبوطه إلى الأرض ووصيته إلى الحواريين ورفعه ثانيا ٢٤٧
ذكر وفاة مريم بنة عمران عليها السلام ٢٤٨
الباب السادس من القسم الثالث من الفنّ الخامس فى أخبار الحواريين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام وما كان من أمرهم مع من أرسلوا اليه وخبر جرجيس ٢٥٠
ذكر خبر أخبار الحواريين ٢٥٠
ذكر خبر يوحنا ويونس اللذين توجها إلى إنطاكية ٢٥٠
ذكر خبر توما الحوارى مع ملك الهند وإيمانه به ٢٥٥
ذكر خبر لوقا الحوارى مع ملك فارس ٢٥٧
ذكر خبر جرجيس رحمة الله عليه... ... ... ٢٥٩
التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس ٢٧٠
الباب الأوّل من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس فى ذكر الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى بن مريم ٢٧١
ذكر خبر المتغلبين على البلاد وذلك مما يظهر من الفتن قبل نزول عيسى عليه السلام ٢٧٢
ذكر خبر خروج المهدىّ ٢٧٣
ذكر خبر خروج الدجّال وصفته وما يكون من أمره الى أن ينزل عيسى عليه السلام ٢٧٥
الباب الثانى من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس فى خبر نزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وفسادهم وهلاكهم ووفاة عيسى عليه السلام... ... ... ٢٧٧
ذكر نزول عيسى بن مريم عليه السلام ٢٧٧
ذكر خبر يأجوج ومأجوج ٢٧٨
الحديث الجامع لأخبار عيسى بن مريم عليه السلام والدجال ٢٨١

صفحة

الباب الثالث من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس فى ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم عليه السلام الى أن ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الأولى ٢٨٥
ذكر خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها ٢٨٥
ذكر خبر قيام الساعة والنفخة الأولى ٢٨٦
الباب الرابع من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس فى أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد والنفخة الثانية فى الصور ٢٨٨
ذكر يوم القيامة وأسمائه ٢٨٨
ذكر الحشر والمعاد والنفخة الثانية ٢٨٩
حديث لقيط بن عامر ٢٩٢
القسم الرابع من الفنّ الخامس فى أخبار ملوك الأصقاع وملوك الأمم والطوائف وخبر سيل العرم ووقائع العرب فى الجاهلية ويشتمل على خمسة أبواب ٢٩٨
الباب الأول فى أخبار ذى القرنين الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه العزيز فى سورة الكهف ٢٩٨
ذكر أخبار ذى القرنين ٢٩٨
ذكر خبر دخول ذى القرنين الظلمات مما يلى القطب الشمالىّ لطلب عين الحياة ٣٠٩
الباب الثانى من القسم الرابع من الفنّ الخامس فى أخبار ملوك الأصقاع وهم ملوك الهند والصين والترك وجبل الفتح وملوك مصر ٣١٩
ذكر أخبار ملوك الهند ٣١٩
ذكر تنصيب آبن البرهمن وهو الباهبود ٣٢١
ذكر أخبار ملوك الصين ٣٢٤
ذكر أخبار ملوك الترك ٣٣٢
ذكر جبل الفتح وما عليه من الملوك والأمم ٣٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أخبار مصر

ومن ملكها من الملوك قبل الطوفان وبعده ، وما بنوه بها من المدن ، وما أقاموه من المنارات والأهرام والبرابى وغير ذلك من المبانى ، وما وضعوه بها من العجائب والطِّلَّسمات والحِكَم ، وما أثاروا من المعادن وما دبّروه من الصَّنْعة ، وما شقّوه وأنبطوه من الأنهار وغير ذلك من عجائبها وأخبارها

فأمّا ملوكها قبل الطُّوفان فقد ذكرهم إبراهيم بن القاسم الكاتب فى مختصر كتاب العجائب الكبير الذى ألّفه إبراهيم بن وَصِيف شاه . قال : أوّل مَن ملك مصر من الملوك قبل الطوفان نَقْرَاوُس (١) ، ومعناه مَلِكُ قومه وعظيمهم . وذلك أن بنى آدم لمّا بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا وتغلّب عليهم بنو قابيل تحمّل نَقْرَاوس (٢) الجبّار ابن مصرايم بن بَرَاكِيل بن زَرَابِيل بن غِرْناب بن آدم فى نيّف وسبعين رجلا من بنى غِرناب جبابرة ، كلّهم يطلبون موضعا ينقطعون فيه من بنى آدم . فلمّا نزلوا على النيل ورأوا سَعَة البلد وحسنه أقاموا فيه وبنوا الأبنية ، وقالوا : هذا بلد زَرْع ؛ [وبنى نقراوس مصر (٣)] وسمّاها باسم أبيه مصرايم ثم تركها (٤) . وكان نقراوس

(١) ورد هذا الضبط بالقلم هكذا فى نسخة ب .

(٢) اختلفت المراجع فى ذكر هذه الأسماء فاكتفينا بما ورد فى الأصول .

(٣) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٦ طبعة فيت) .

(٤) كذا فى خطط المقريزى . وفى الأصل : « تبرّكا به » .

جبّارا له أيْدٌ و بَسْطة، وكان مع ذلك كاهنا عالما، له مُعاون من الجنّ، فملك بنى أبيه ولم يزل مطاعا فيهم. وقد كان وقع إليه من العلوم التى كان زرابيل عُلّمها من آدم. قال: فهو وبنوه الجبابرة الذين بنوا الأعلام، وأقاموا الأساطين العظام، وعملوا المصانع، ووضعوا الطّلّسمات، وآستخرجوا المعادن، وقهروا من ناوأهم من ملوك الأرض ولم يطمع طامعٌ فيهم. وكل علم جليل فى أيدى المصريين إنما هو من فضل علم أولئك القوم، كان مرموزا على الحجارة. فيقال إن فليمون الكاهن الذى كان ركب مع نوح عليه السّلام فى السفينة هو الذى فسّرها لهم وعلمهم كتابتها، وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر فليمون فى موضعه.

قال: ثم أمرهم نقراوس حين استقرّ أمرهم ببناء مدينة فقطعوا الصخور والأحجار من الجبال، وأثاروا معادن الرصاص وبنوا مدينة وسمّوها أَمسُوس[1]، وأقاموا بها أعلاما، طول كل عَلَم مائة ذراع، وعمّروا الأرض، وأمرهم ببناء المدائن والقُرى، وأسكن أهل كل بيت ناحية من أرض مصر. وهم الذين حفروا النيل حتى أجرَوْا ماءه اليهم، ولم يكن معتدل الحفر إنما كان يتسطح ويتفرق فى الأرض. قال: ووجّه الى بلد النوبة جماعة حتى هندسوه وشقّوا منه أنهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنَوْها، وشقّوا نهرا عظيما الى مدينتهم أَمسوس يجرى فى وسطها وغرسوا عليه الغروس، فكثُر خيرهم وعزّت أرضهم وتجبّر ملكهم. قال: وبعد مائة وعشرين سنة من مُلْكه أمر بإقامة الأساطين العظام وزبر عليها ذكر دخولهم البلد، وكيف نزلوا به، وحربهم لمن حاربوه من

(١) أمسوس، وردت مضبوطة بالقلم هكذا فى نسخة ب وهى أوّل مدينة بنيت بالديار المصرية قبل الطوفان. وموضعها خارج الاسكندرية تحت البحر الرومىّ (البحر الأبيض المتوسط) كما ذكره بعض المؤرّخين، وشق لها نهرا يتصل بها من النيل (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٩).

الأمم . ثم أمر ببناء قبّة على أساطين مُثبتة فى الرّصاص، طولها مائة ذراع، وجعل على رأسها مرآة من زبرجد أخضر، قُطْرها سبعة أشبار، ترى خُضْرتها على أمد بعيد. قال: وفى مصاحف المصريين أنه سأل الذى كان معه أن يعرّفه مخرج النيل، فحمله حتى أجاسه على جبل القُمْر خلف[1] خطّ الاستواء على البحر الأسود[2] الزِّقّى، وأراه النيل كيف يجرى فوق ذلك البحر[3] الأسود مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القُمْر، ثم يخرج الى بطائح[4] هناك . ويقال: إنه عمل بيت التماثيل هناك، وعمل فيه هيكلا للشمس. ورجع الى أَمُسوس فقسم البلد بين بنيه، فجعل لنقارس الجانب الغربى، ولسورب الجانب الشرقى، ولابنه الصغير وهو مصرام مدينة سمّاها برسان[5] وأسكنه فيها، وأقام فيها أساطين وشقّ لها نهرا وغرس بها غروسا. وعمل بأَمسوس عجائب كثيرة، منها صورة طائر على أُسطوانة عالية، يَصفِر كل يوم مرّتين عند طلوع الشمس وعند غروبها صفيرا مختلفا، فيستدلّون به على مايكون من الحوادث فيتأهّبون لها؛ ومخزن للماء المقسوم على جَناتهم مائة وعشرين قسما لا يقدر أحدٌ أن يحوز ما ليس له . وعمل وسط المدينة صنمين من حجر أسودَ، اذا تقدّم السارق لم يقدر على الزوال عنها حتى يسلك بينهما، [فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ][6].

١٠٥/١٢

(١) المراد بخلف هنا شمال خط الاستواء .

(٢) هذه التسمية وردت هكذا أيضا فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٨ طبعة فيت) أثناء كلامه على نقراوس والعلة فى هذا أن النويرى والمقريزى ينقلان عن مرجع واحد وهو ابن وصيف شاه . ولم نوفق إلى تحقيقه فى مرجع آخر .

(٣) كرر المؤلف هنا عبارة «البحر الأسود الزقى» ولا معنى له واكتفينا بما ورد فى خطط المقريزى .

(٤) المراد بالبطائح هنا منابع النيل .

(٥) ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٣١٩) هذه المدينة على أنها القاعدة الثانية من قواعد مصر قبل الطوفان ثم قال: «ولم أقف على مكانها» .

(٦) الزيادة من المقريزى (ج ٣ ص ٨ طبعة فيت) . وفى الأصلين مكانها: «يسقطان عليه» .

وله أعمال كثيرة سوى هذه. قال: وعمل فى برسان صورة [من] نحاس مذهب على منار عال لا تزال عليها سحب تظلّها، مَن استمطرها أمطرت عليه ماء، فهلكت فى الطوفان. وعمل على حدود بلادهم أصناما من نحاس مجوّف وملأها نارًا وكبريتا وجلب اليها روحانيّة [النار](١)، فإن قصدهم قاصد بسوء أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته. وكان حدّ بلادهم الى داخل الغرب مسافة أيام كثيرة عامرًا كلّه بالقصور والبساتين، وكذلك فى المشرق الى البحر، ومن الصعيد الى بلاد علْوة(٢). وعمل فوق جبال بطرس منارا يفور بالماء يسقى ما تحته من المزارع. وملكهم مائة وثمانين سنة. فلما مات لطّخوا جسده بالأدوية المُمسكة، وجعلوه فى تابوت من ذهب، وعملوا له ناووسا مُصَفّحا بالذهب، وجعلوا معه كنوزا من أنواع الجواهر وتماثيل الزّبرجد، وكنزا من الصّنعة المعمولة، وأوانى الذهب، والطّلّسمات التى تدفع الهَوام وغيرها، وزَبَروا عليه تاريخ الوقت.

ولما مات ملك بعده ابنه نقارس بن نَقْرَاوُس، فتجبّر وعلا أمرُه، وبنى مدينة يقال لها خلجة(٣)، وعمل فيها جنّة صفّح حيطانها بصفائح الذهب والحجارة الملوّنة، وغرس فيها أصناف الفواكه والغروس الحسنة، وأجرى تحتها الأنهار، وأمر بإقامة الأساطين والأعلام، وركّب(٤) عليها أصناف العقاقير والأدوية وجميع العلوم. وكان معه شيطان يعمل له التماثيل العجيبة. وهو أوّل مَن بنى بمصر هيكلا

(١) الزيادة من المقريزى. والعبارة فيه: «ووكل بها روحانية النار».

(٢) بلاد علوة: هى من بلاد النوبة، وتقع على ضفة النيل أسفل من مدينة دنقلة، وبينهما مسيرة أيام فى النيل (راجع المغرب وأرض السودان ص ١٩ طبع مدينة ليدن).

(٣) فى المقريزى (ج ٣ ص ١١ طبعة فيت) «خلجلة» وأشير فى الهامش الى أنها فى السيوطى «حلجة».

(٤) لعله «وكتب».

وجعل فيه صور الكواكب السبعة، وزَبَر على رأس كل كوكب محارته[1] وما يعمله من المنافع والمضار، وألبسه الثياب الفاخرة وأقام له كاهنا وسَدَنة. وخرج مغرِّبا حتى بلغ البحر المحيط وعمل عليه أعلاما، وجعل على رأس كل علَم أصناما تُسْرَج عيونها بالليل كأنها مصابيح، ورجع على بلاد السودان الى النيل، وأمر ببناء حائط على جانب النيل، وجعل له أبوابا يخرج الماء منها. وبنى فى صحراء الغرب وراء الواحات ثلاثَ مُدُن على أساطين، وجعل شُرَفها من الحجارة الملوّنة التى تَشُفّ، وجعل فى كل ناحية منها ثلاث خزائن للحكمة، وهى أوّل عجائب الأرض، جعل الدخول الى هذه المدائن من الأساطين التى بنيت عليها. ففى إحدى هذه الخزائن صنم الشمس الذى هو أعظم أصنامهم، وهى معلّقة عليه فى بيت شرفِها[2]، وعلى رأسه إكليل فيه كواكبها الثابتة. وفى إحداها[3] صنم للشمس رأسُه رأس طاووس فى جسد إنسان من ذهب أزرق، وعيناه جوهرتان صفراوان، وهو جالس على سرير مغنطيس، وفى يده مصحف العلوم. وفى إحداها صنم رأسه رأس إنسان وجسده جسد طائر، وصورة امرأة جالسة من زئبق معقود، لها ذؤابتان، وفى يدها مرآة وعلى رأسها صورة كوكب، وهى رافعة بالمرآة الى وجهه، ومطهرةٌ فيها سبعة ألوان، من الماء السائل لا يختلط بعضها ببعض ولا يوارى بعضها بعضا، وصورة شيخ من حجر الفَيْروزَج، وبين يديه

(١) المحارة: المكان الذى يحور أو يحار فيه (المدار). والمحارتان: رأسا الورك المستديران اللذان يدور فيهما رءوس الفخذين. والمعروف أن لكل كوكب محور يدور فيه. وقيل له محور: للدوران، لأنه يرجع إلى المكان الذى زال عنه؛ فالمراد بالمحارة هنا الدائرة التى يدور فيها الكوكب.

(٢) بيت شرفها: أى محل عزها وعلوّها وسعادتها وحلولها فى الحمل وهو محل قوّة الكوكب، فالشمس من أجل أنها إذا حلت الحمل تصاعدت فى الشمال وظهرت قوّتها وصار شرفها فيه (راجع شرح العلامة الخضرى على متن اللمعة ورقة ٨٧ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٨ ميقات).

(٣) كذا فى المقريزى. وفى الأصل: «صورة أحدها».

(٤) كذا فى المقريزى. وفى الأصل: «والآخر».

صِبْيَةٌ يعلّمهم، وهم من أصناف العقيق والجوهر . وفى الخزانة الثانية صورة هِرْمِس [يعنى عُطَارد][1] وهو مُكِبٌّ ينظر الى مائدة بين يديه من نُوشَادِر على قوائم كبريت أحمر، وفى وسطها مثل الصَّحْفة من جوهر أحمر فيها دواء أخضر من الصنعة، وصورة عُقَاب من زُمُرّد أخضر عيناه من ياقوت أصفر، وبين يديه حيّة من فضّة قد لوت ذنبها على رجليه ورفعت رأسها كأنها تريد أن تنفخ عليه ، وفى ناحية منها صورة المِرّيخ راكبا على فرس وبيده سيف مسلول من حديد أخضر، وعمود من جوهر أخضر، عليه قبّة من ذهب فيها صورة المُشترِى ، وقبّة [من أدرك][2] على أربعة أعمدة من جَزْع أزرق فى سقفها صورة الشمس والقمر متحاذيين فى صورة آمرأة ورجل كأنهما يتحادثان، وقبة من كبريت أحمر فيها صورة الزُّهَرة على صورة آمرأة مُمسكة بضفيرتها وتحتها رجلٌ من زبرجد أخضر، فى يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها[3] . وجعل فى كل خزانة من بقية الخزائن من العجائب ما لا يحدّ، وعلى باب كل مدينة طِلّسمات تمنع من دخولها فى صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضا ، وفى كل مدينة من الجوهر النفيس والذهب والفضة والكبريت الأحمر والتُّربة الصنعيّة فى البرانى الملوّنة، وصنوف الأدوية النفيسة المؤلّفة والسموم القاتلة . وعلّم كل باب من الأساطين بعلامة يعرف بها يُصعد اليها من مسارب تحت الأرض . قال : وجُعل بين[4] هذه المدائن

١٠٦/١٢

(١) زيادة عن المقريزى (ج ٣ ص ١٠ طبعة فيت) .

(٢) زيادة من المقريزى (طبعة فيت) . والأدرك : الحجر الأحمر . وفى طبعة بلاق «من آنك» والآنك : القصدير .

(٣) كذا فى المقريزى (ج ٣ ص ١٠ طبعة فيت) وفى الأصول : « ... وكأنهم يقرءون عليه » .

(٤) يريد : وجعل بين أولى هذه المدائن وبين مدينة خلجة ، وهى التى عمل فيها الجنة ، سبعة أميال الى الغرب ، وبين مدينة خلجة وبين الثانية أربعة عشر ميلا ، وبينها وبين الأخيرة واحد وعشرون ميلا . ففى العبارة هنا قصور .

و بين مدينة خلجة، وهى التى عمل فيها الجنة، سبعة أميال الى الغرب، و بينها و بين الأخرى أربعة عشر ميلا، و بين الأخرى واحد وعشرون ميلا . وكان له من مدينته إلى هذه المدائن أسراب تحت الأرض يصل منها اليها، وكذلك من بعضها الى بعض. وعمل عجائب كثيرة أزالها الطوفان، وركبت هذه الأرض الرمال فأزالت طلّسماتها . قال : وملك نقارس مائة سنة وسبع سنين ثم هلك فعُمِل له ناووس، وجُعِل معه من الأشياء العجيبة ما يطول الأمر بذكره .

ثم ملك بعده أخوه مصرام بن نقراوس، فبنى للشمس هيكلا من المرمر الأبيض ومؤهه بالذهب، وجعل وَسَط الهيكل كالعرش[1] من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر وأرخى عليها كِلَل الحرير الملوّن، وأمر أن يوقد عليها بطيّب الأدهان، وجعل فى الهيكل قنديلا من الزجاج الصافى، وجعل فيه حجرا مدبّراً يضىء كما يضىء السراج وأكثر منه ضوءا، وأقام له سَدَنَةً، وعمل له سبعة أعياد فى السنة . وقيل : إن مصر سمّيت به . وتسمّى به مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد الطوفان لأنه وجد اسمه مزبورا على الحجارة . وكان فليمون الكاهن أخبرهم أخبار هؤلاء الملوك . وكان مصرام هذا قد ذلّل الأُسْد فى وقته فكان يركبها . وصحبه الروحانىّ الذى كان مع أبيه لما رأى من حرصه على لوازم الهياكل والقيام بأمور الكواكب ، وأمره أن يحتجب عن الناس . وألقى على وجهه بسحره نورا عظيما لا يقدر أحد أن يتمكّن من النظر اليه . فادّعى أنه إله ، وغاب عن الناس ثلاثين سنة، واستخلف عليهم رجلا من ولد غرناب وكان كاهنا . ويقال : إنّ مصرام ركب فى عرش وحملته الشياطين حتى انتهى الى وسط البحر الأسود، فعمل فيه القلعة الفضّة وجعل عليها صنمين من النحاس وزبر عليها : أنا مصرام الجبّار، كاشف الأسرار، الغالب القهار، صنعتُ

(١) فى المقريزى (ج ٣ ص ١١ طبعة فيت) : « وفى وسطه فرس من جوهر » .

الطِّلَّسمات الصادقة ، وأقمتُ الصُّوَر الناطقة ، ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة ، ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد ملكى ، وكل ذلك فى أوقات السعادة . وكان قد عمل فى جنّته شجرة مولدة يؤكَل منها جميع الفواكه ، وقبّة من زجاج أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس ، ووكّل بها شياطين إذا آختلط الظلام نادَوْا : لا يخرج أحد من منزله حتى يُصبِح وإلّا هلك ، وكان أوّلَ مَن عُمِل له ذلك . وأمرهم أن يجتمعوا له ، وجلس لهم فى مجلس عال مزيَّن بأصناف الزينة وتجلّى لهم فى صورةٍ هالتهم وملأت قلوبهم رعبا ، فخرّوا على وجوههم ودعَوْا له . فأمر بإحضار الطعام والشراب فأكلوا وشربوا ورجعوا إلى مواضعهم ثم لم يروه بعد . و بلغ بكهانته ما لم يبلغه أحد من آبائه .

ثم ملك بعده عِنقام[1] الكاهن ، فعدل فيهم ، وعمل مدينة عجيبة قرب العريش جعلها لهم حرسا . وقيل : إنّ إدريس عليه السلام رُفع فى زمانه . قال : ويَحكِى عنه أهل مصر حكايات كثيرة تخرج عن العقول . وكان قد رأى فى عِلْمه كون الطوفان ، فأمر الشياطين التى تصحبه أن تبنىَ له مكانا خلف خطّ الأستواء بحيث لا يلحقه الفساد ، فبُنِىَ له القصر الذى فى سفح جبل القُمْر ، وهو قصر النحاس الذى فيه التماثيل ، وهى خمسة وثمانون تمثالا ، يخرج ماء النيل من حُلوقها وينصبّ الى بطيحة . ولمّا عُمل له ذلك القصر أحبّ أن يراه قبل أن يسكنه ، فجلس فى قبّته وحملته الشياطين على أعناقها اليه . فلمّا رأى حكمة بنيانه وزخرفة حيطانه وما فيه من النقوش وصور الأفلاك والكواكب ، وغير ذلك من صنوف العجائب — وكان يُسرَج بغير مصابيح ، وتُنصب فيه موائد يُوجَد عليها من كل الأطعمة ولا يُدْرَى مَن يعملها ، وكذلك الأشربة فى أوانٍ ، يُستعمَل منها ولا تنقُص . وفى وسطه [بركة][2]

(١) ضبط هكذا بالقلم فى نسخة ب . (٢) زيادة عن المقريزى (ج ٣ ص ١٢ طبعة فيت) .

من ماء جامد الظاهر تُرى حركته من وراء ما جمد منه، وأشياء كثيرة من هذا النوع
١٠٧/١٢ وإن كانت تنبو عن العقول — أعجبه ما رأى، ورجع الى مصر فاستخلف ابنه عِرْناق
وأوصاه بما يريده وقلّده المُلْك، ورجع الى ذلك القصر فأقام به حتى هلك هناك .
واليه تُعزى مصاحف القبط التى فيها تواريخهم وجميع ما يجرى الى آخر الزمان .
٥ قالوا : ولم تطل مدّة ملكه .

ثم ملك بعده ابنه عِرْناق بن عِنقام[1] . ملك بعد أبيه وعمل عجائب كثيرة، منها شجرة
صُفْر فيها أغصان حديد بخطاطيف حادّة اذا تقرّب منها الظالم والكاذب تقرّبت
اليه تلك الخطاطيف فتعلّقت به وشكّت بدنه ولم تفارقه حتى يُحدّث عن نفسه
بالصدق ويعترف بظلمه ويخرجَ عن ظُلامة خَصْمه . وعمل صنما من صَوّان أسود
١٠ وسمّاه عبد قزويس[2]، أى عبد زُحَل، فكانوا يحتكمون اليه، فمن زاغ عن الحقّ ثبت
فى مكانه فلم يقدر على الخروج منه حتى يُنْصِف من نفسه ولو أقام سنة أو أكثر .
ومن كانت له حاجة منهم أو طلب شيئا بخّر الصنم ليلا ونظر الى الكواكب وذكر
اسم عِرْناق وتضرّع فيُصبِح وقد وجد حاجته على باب منزله . قال : وكان عِرْناق
ربما حملته أطيار عظام وتمرّ به وهم يرونه . وكان ربما غضب على ناس فجعل
١٥ ماءهم مُرّا لا يُذاق ، وسلّط عليهم وُحوش الأرض وسباعها وهوامّها . قال :
وتجرّأ على صيد السباع والوحوش ، وعمل عجائب ، منها أنه عمل شجرة من حديد
ذات أغصان لطّخها بدواء مدبّر، فكانت تجتلب كل صنف من الوحش . قال :
وفى كتب المصريين أنّ هاروت وماروت كانا فى وقته وعلّما أهل مصر أصنافا من

(١) ضبطت هكذا بالقلم فى نسخة ب .

٢٠ (٢) فى نسخة أ : « عبد فرديس » .

السحر، ونُقِلا بعد الطوفان الى بابِل. وكان عِرناق يجتلب النساء بسحره و يغتصبهنّ، وكان سكن الجنة التى عملها نقارس، فاحتالت عليه امرأة من المغصوبات فسمّته فهلك و بقى مدّة لا يعرف خبره . وكان من رَسْمه - إذا خلا بنسائه - لا يقرَبه أحد، فلمّا تأخر خبره عن الناس هجم عليه فتًى من بنى نقراوس يقال له لُوخيم[1] ومعه نفر من أهله، فوجدوه ملقى فى فراشه جيفة. فأمر أن توقد له نار فأحرقه فيها. و جمع النسوة اللواتى كنّ فى الجنـة، فمن كانت من نسائه تركها ، ومن كانت من المغصـو بات سرّحها الى أهلها، ففرح الناس بذلك و بمـا نزل به .

وملك بعده لُوخِيم وجلس على سرير المُلْك ولبس تاج أبيه، وأمر بجمع الناس وقام فيهم وتكلّم وذكر ما كان عليه عِرْناق الأثيم من سوء السيرة واغتصاب النساء وسَفْك الدماء ورفض الهيا كل والاستخفاف بالكهنة الى أن هلك، وأنه أحقّ بتُراث أبيه[2] وجدّه. وضمن للناس العدل والإحسان والقيام بأمرهم ودفع كل أذى عنهم. فرضى الناس به وأطاعوه وقالوا: أنت أحقّ بالمُلْك، ولا زلتَ دائم السعادة طو يلَ العمر قائما بتجو يد الهيا كل وتعظيمها. فركب الى هيكل الشمس فقرّب له بقرا كثيرا، وسار فى الناس بالعدل . قال: وكانت الغَرانيق[3] قد كثُرتْ فى زمن عِرْناق فأهلكت زروع الناس . فعمل لوخِيم أربع منارات من نحاس فى أربعة جوانب أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب فى فمه حيّة قـد ألتوت عليه فلم يقربهم شىء من تلك الطيور، فكانت كذلك حتى أزالها الطوفان .

(١) فى المقريزى (ج ٣ ص ١٤ طبعة فيت) : « لوجيم » بالجيم المعجمة .

(٢) فى أ : « أخيه » .

(٣) الغرانيق : الذكور من الطير واحدها غرنوق وغرنيق ، وهو طائر مائىّ طو يل القوائم والعنق أسود وقيل أبيض (راجع شرح القاموس مادة غرنق) .

قال: ومن ملوكهم خصليم وهو أوّل من عمل مقياسا لزيادة الماء، وذلك أنه جمع أصحاب العلوم والهندسة فعملوا بيتا من رُخام على حافة النيل، وجعل فى وسطه بركة من نحاس صغيرة فيها ماء موزون، وعلى حافتَى البركة تمثالُ عُقابين من نُحاس ذكر وأنثى. فإذا كان فى أوّل الشهر الذى يزيد فيه الماء[1] فتح باب البيت وحضر الكُهّان وأمناء الملك وتكلّموا بكلام لهم حتى يصفِر أحد العقابين، فإن صَفَر الذكر كان الماء زائدا، وإن صفرت الأنثى كان الماء ناقصا، ثم يعتبرون الماء فكلّ إصبع يكون فى تلك البركة فهو ذراع من زيادة النيل، وكل إصبع ينقص فهو نقصان ذراع. فإذا علموا ذلك حفروا الترع وأصلحوا الجسور. وعمل على النيل القنطرة التى هى ببلاد النُّوبة. وكان له ابن سمّاه هِرْصال[2]، أى خادم الزُّهَرة، لرؤيا كانت رأتها أخت الملك أن الزُّهَرة تخاطبها، وكفلت الغلام عمّته، وسمّاها خِرداقة[3]، وأدّبته أحسن التأديب، وزوّجته عشرين[4] امرأة من بنات الملوك والعظماء، وبنت له مدينة فيها عجائب كثيرة، احتفلت بها وزيّنتها بأحسن النقوش والزينة والعمارة، وعملت فيها حمّاما معلّقا على أساطين يرتفع الماء إليها حارّا من غير وَقِيد[5]. ولمّا هلك خصليم دُفن فى ناووس.

١٠٨/١٢

ثم ملك بعده ابنه هِرْصال بن خصليم فتحوّل إلى المشرق وسكنه، وبنى مدينة هى إحدى المدائن ذوات العجائب، وعمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدَوَرانها ويبيت مغرِّبا ويصبح مشرِّقا. ويقال: إنه عمل من تحت النيل سَرَبا، وهو أوّل

(١) كذا فى الأصول. وفى المقريزى (ج ٣ ص ١٤ طبعة فيت): «النيل».
(٢) ضبطت هكذا بالقلم فى نسخة ب.
(٣) ضبطت هكذا (بكسر الخاء المعجمة) بالقلم فى نسخة ب.
(٤) فى نسخة (ب): «وزوجته امرأة ...».
(٥) الوقيد: ما توقد به النار من الحطب ونحوه.

مَن عمل ذلك. وخرج متنكّرا يشقّ الأمم إلى أن بلغ بابِل، ورأى ما عمل الملوك من العجائب. وعلم حالَ مِلكها فى الوقت وسيرته ومجارى أموره. و يقال: إنّ نوحا عليه السلام وُلد فى وقته. قال: ووُلد لهِرْصال عشرون ولدا، جعل مع كل ولد منهم قاطرا (١) وهو رأس الكهنة. وتزعم القبط أنه بعد مائة وسبع وعشرين سنة من مُلْكه لزم الهيا كل وتعبّد للكواكب فأخفته عن أعين الناس. وأقام بنوه على حالهم كل واحد منهم فى قسمه الذى أعطاه إياه يدبّره ولا يشركه فيه غيره. وأمور الناس جارية على سداد، فأقاموا كذلك سبع سنين. ثم وقع بين الإخوة تشاجر، وآجتمع رأى الكهنة على أن يجعلوا أحدهم ملكا، و يقيم كل واحد منهم فى قسمه. فآجتمعوا فى ذلك اليوم فى دار المملكة، وقام رأس الكهّان فتكلّم وذكر هِرْصالَ وسعادة أيامه وما شملهم فيها من الخير، وأخبر بما رأته الجماعة من تقليد أحدهم المُلْك. فإن كان هِرْصالُ لم يمُت ورجع إليهم لم ينكر ما فعلوه لأنهم أرادوا بذلك حفظ ملكه، و إن لم يرجع كان الأمر قد جرى على ماسلف من قيام ملك بعدملك فآجتمع رأيهم على أكبر ولده وهو:

نَدْسان (٢) بن هِرصال. فملك وسار سيرة أبيه وحمد الناس أمره. وعمل قصرا من خشب ونقشه بأحسن النقوش، وصوّر فيه صور الكواكب ونجّده بالفرش وحمله على الماء وكان يتنزّه فيه. فبينما هو فيه إذ زاد النيل زيادة عظيمة وهبّت ريح عاصف فآنكسر القصر وغرِق الملك. وكان قد نفى إخوته إلى المدائن

(١) فى المقريزى: «ناظرا».

(٢) فى المقريزى (ج٣ص١٥ طبعة فيت) وحسن المحاضرة للسيوطى (ج١ص١٩) «قدرسان» وعبارة المقريزى: «... وكان اسمه قدرشان وقيل قدرسان». وفى صبح الأعشى (ج٣ص٤١١): «بدرسان».

الداخلة فى الغرب . وآقتصر على آمرأة من بنات عمّـه ، وكانت ساحرة، فتفرّد بها وآستخلف بعض وزرائه على المُلْك وأقبل على لذّته ولهوه . فلمّـا هلك كتمت آمرأته الساحرة موته ، وكان أمرها ونهيها يخرجان إلى الوزير عن الملك . وأقام الناس تحت طاعته سبع سنين لايعلمون بأمره . فلما رأى إخوته طول غيبته جمعوا جموعا كثيرةً وقدّموا على أنفسهم أحدهم وهو شمرود[1] الجبّار وساروا إلى أمسوس . وبلغ ذلك آمرأة نَدْسان الساحرة فأمرت الوزير بالخروج إليهم ومُحاربتهم، ففعل ذلك ولقيهم فمزّقوه وقتلوا كثيرا ممن كان معه، ودخلوا مدينة أمسوس، وأتوا دارالمملكة فلم يروا نَدْسان وأيقنوا بهلاكه .

وملك شمرود بن هرْصال فسُرّالناس به ،ووعدهم بحُسن السِّيرة فيهم وتغيير ما كانوا يُنكرونه على أخيه . وآستولى على كنوزه وخزائنه ففرّقها على إخوته ، وأقطعهم جميع ما كان فى يد نَدْسان . وطلب آمرأته الساحرة وآبنها ليقتلهما ، فآنتقلت إلى مدينة أهلها من الصعيد ، وكانوا كلّهم كُهّانا سحرة ، فآمتنعت بهم ، وأرسلت إلى الناس وعرّفتهم أنّ آبنَها الملِكُ فى وقته ؛ لأنّ أباه قلّده المُلْك وأمرها أن تدبّر أمره حتى يكبرَ، فصدّقوها وأجابوها وقالوا : إنّ الغلام مغصوب على ملك أبيه ، وإنّ شمرود متغلب . فآجتمع فى ناحيتها جماعة من أهل البلد وزحف آبن الساحرة وقد عمل له السحَرة أصنافا من التخاييل الهـائلة والنيران المحرقة ، فقامت الحرب بينهم أياما ؛ فآنهزم شمرود وإخوته وتعلّقوا ببعض الجبال .

ومـلك تُوميدون[2] بن ندسان وهوآبن الساحرة . ودخل دار الملك وجلس على السرير ولبس التاج الذى كان لأبيه وأطاف به بطانة أبيه ،وهو يومئذ حَدَث السنّ ، ١٠٩/١٢

(١) فى المقريزى (ج ٣ ص ١٦ طبعة فيت) « نمرود » وقال : ويقال له «شمرود» .

(٢) فى المقريزى : « بوسيدون» وراجع تعليقاته عليه (ج ٣ ص ١٦ طبعة فيت) . وفى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١١) : «فرسيدون» .

وكانت أمه تدبّر أمره، فقتل كلّ من كان مع شمرود . وطلب شمرودَ حتى ظَفِر به، وآجتمع الناس لينظروا ما يصنع به، فشُدّ رأسه برأس أسطوانة قائمة، ورجلاه برأس أسطوانة أخرى. وكان طُوله فيما يذكر القبط عشرين ذراعا، ووكّلت الساحرة به حَرَسا لتقتلَه يومَ عيدها، وكان قريبا، فصاح بالليل صيحة مات منها بعض الحرس وهرب الباقون . فلمّا اتّصل بها ذلك أوقدت نارا وأمرت بإنزاله وجعلت تقطع منه عضوا عضوا وترميه فى النار . قال : وخرج ابنها[1] كاهنا منجّما، وعملت له الشياطين قبّة الزُّجاج الكبيرة الدائرة على دوران الفلك ، وصوّروا عليها صور الكواكب، وكانوا[1] يعرفون الطالع منها وما يحدث بطلوعه بعد ستين سنة . ثم ماتت أمّه الساحرة وأوصت أن يجعل جسدها تحت صنم القمر فإنه يخبرهم بالعجائب وما يسألون عنه ففعلوا ذلك . وذلّ الناس لأبنها وهابوه، وكان يتصوّر لهم فى صور كثيرة، وملكهم مائة سنة وستين سنة . ولمّا حضره الموت أمرهم أن يعملوا له صنما من زجاج على شقّين ويُطبق على جسده بعد أن يُطلَى بالأدوية المُمْسِكة ويُلحَم ويقام فى هيكل الأصنام، ويُجعَل له عيد فى السنة ويقرّب له قُربانٌ، وتُدفَن علومه وكنوزه تحته، ففعلوا ذلك كله .

ولمّا مات ملك بعده ابنه شرناق[2] بن توميدون، فعمل بسيرة أبيه وجدّته، وآجتمع الناس عليه . وزَحَف رجل من بنى صرابيس[3] بن إرم من ناحية العراق، فتغلّب

(١) عبارة المقريزى (ج ٣ ص ١٦ طبعة فيت) : «... وقام بوسيدون بن قدرشان بالملك فى مدينة أمسوس ، وكان عالما فاضلا ، فقوى بسحر أمه وعملت له أعمالا عجيبة ، منها قبة من زجاج على هيئة الكرة تدور بدوران الفلك ، وصورت فيها صور الكواكب . فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع وعلوم العالم . فلما ماتت أمه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه طلى جسدها بما يدفع عنه النتن والحشرات ، ودفن تحت صنم القمر . ويقال إنها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الأرواح فتخبرهم بعجائب وتجيب عما تسأل عنه» .

(٢) فى المقريزى : «سرباق ويقال فيه شرباق» . وقد أوردت هذا الاسم عدّة مصادر بصور مختلفة .

(٣) فى المقريزى : «من بنى فراشى بن آدم ، ويقال من بنى صوانيق بن آدم» وقد أوردت هذين الاسمين عدّة مصادر بصور مختلفة .

على الشام، وأراد أن يزحف إلى مصر، فعرف أنه لا يصل اليها لسحر أهلها، فأراد أن يدخلها متنكرًا ليقف على أحوالها، فخرج فى نفر حتى بلغ الحصن الذى كانوا بنوه على مصر. فسألهم الحرس الموكّلون به عن أمرهم، فعرّفوهم أنهم قصدوا بلدهم ليسكنوه، فحبسوهم وطالعوا الملك بخبرهم. وكان الملك قد رأى فى منامه كأنه قائم على منار لهم عال، وكأن طائرا عظيما انقضّ عليه ليختطفه، فحاد عنه حتى كاد يسقط عن المَنارة فحاوزه ولم يضُرّه، فانتبه مرعوبا، وبعث إلى رأس الكَهَنة فقصّ عليه رؤياه، فعرّفه أن مَلِكا يطلب مُلْكه فلا يصل اليه. فنظر فى علمه فرأى أنه قد دخل بلده. فلما وردت الرسل بذكر القوم علم أن المَلِك فيهم؛ فوجّه جماعةً من أصحابه فاستوثقوا منهم وحملوهم اليه، وقد كان أمرهم أن يطوفوا بهم فى أعمال مصر كلها ليروْا ما فيها من الطِّلَّسمات والأصنام المتحرّكات والعجائب المعجزات، فبلغوا بهم إلى الإسكندرية، ثم ساروا بهم إلى أمسوس وطيف بهم على عجائبها. ثم سيرَ بهم إلى الجنّة التى عملها مِصْرام، وكان الملك مُقيما بها وأمر السحرةَ بإظهار التهاويل والتخاييل، فجعلوا يتعجّبون مما رأَوا الى أن وصلوا الى شرناق الملك والكهنة حوله وقد أظهروا صنوف العجائب، وجعلوا بين يدى الملك نارا عظيمة لا يصل اليه إلا مَن خاضها ولا تضرّ إلا مَن أضمر للملك غائلة، وأمر بدخولها، فشقّوها واحدا واحدا لم ينلهم منها أذًى، وكان الملك آخرَهم، فلمّا دنا من النار أخذته فولّى هاربا. فأُتِىَ به شرناق فسأله عن أمره فأقرّ، فأمر بقتله على أسطوانة عند باب الحصن من ناحية الشام، فقُتِل وزُبِر عليه: هذا فلان المتغلّب على الشام أضمر غائلة الملك، طلب ما لا يصل اليه فعوقب بهذا. وأمر بإخراج الباقين من بلاده فأُخرجوا. وقيل لهم: قد وجب عليكم القتل لصُحبتكم من أراد الفساد فى الأرض، ولكنّ الملك عفا عنكم. فكانوا لا يمرّون على أحد إلّا حدّثوه بما رأَوْا من العجائب، فانقطعت أطماع الملوك عن

الوصول الى مصر والتعرض إليها . وعُمِلت فى أيامه عجائب كثيرة ، منها أنه عمل على باب كل مدينة بطّة نحاس قائمة على أُسطوانة ، فإذا دخل الغريب من الباب صفّقت بجناحيها وصرَخت ، فيؤخذ ويكشف عن أمره . وشقّ الى مدائن الغرب نهرا من النيل ، وبنى على عِبْره منازل وأعلاما وغرس بينها غروسا ، وكان اذا خرج إليها سار فى عِمارة متّصلة . وملكهم مائة سنة وثلاثين سنة ثم مات .

وملك بعده ابنه سهلوق بن شرناق ، وكان كاهنا منجّما ، فأفاض العدل وقسم ماء النيل قسما موزونا ، صرف الى كل ناحية قسْمها ، ورتّب المراتب وجعلها على سبعة أقسام : فالطبقة الأولى الملك وولده وأهل بيته ومن يلى عهده ورأسُ الكهّان والوزير الأكبر وقائد الجيش الأكبر وصاحب خاتَم الملك وصاحبُ خزانته . والطبقة الثانية مراتب العمّال والمتولّين جباية الأموال والإشراف على النفقات فى أمر المملكة ومصالح البلد والعِمارات وقسمة المياه . والطبقة الثالثة الكهّان وأصحابُ الهياكل وخدمتها ومتولو القرابين والمشرفون على جميع ما يتقرّب به من بواكير الفواكه والرياحين وفُتِيّ البقر والفراريج الذكور ورءوس خوابى الشراب . والطبقة الرابعة المنجّمون والأطباء والفلاسفة . والطبقة الخامسة أصحاب عِمارة الأرض ومتولّو أمر الزراعة . والطبقة السادسة أصحاب الصناعات والمِهَن فى كلّ فنّ ، والمشرفون على أعمالهم ونقلِ ما يستحسنون منها الى خزانة الملك . والطبقة السابعة أصحاب الصّيد من الوَحْش والسِّباع والطير والهوامّ والخَشَاش ، والمشرفون على أخذ دمائها ومرائرها وشحومها وحملها الى الأطبّاء لإصلاح العقاقير وتأليف الأدوية . وتقدّم ألا يدخل أهل مِهْنة ولا صناعة فى غيرهم ، ومن قصّر فى عمله عوقب ، ومَن أحسن فى عمله جوزى بقدره . وكانت رتبة الألحان والملاهى فى قسمة الملك . وتقدّم فى استنباط المعادن وبناء المدائن ونصب الأعلام والمنارات وإبداع الصناعات وجرّ المياه وتوليد غرائب

١١٠/١٢

الأشجار . وأقام على أعالى الجبال سَحَرة يقسمون الرياح و يمنعون مَن يقصدهم و يقصد بلادهم بأذًى ، وكذلك كلّ مفسد من طائر وسبع ووحش وهوامّ ، وأجرى أمر البلاد والناس على سَـدَاد ، وجعل فى كلّ صِنْف من النـاس صِنْفا من الكَهَنة يعلّمونهم الدين ، ودينهم يومئـذ الصابئة الأولى . و يرفع كلُّ صنف منهم ما يجرى من أمر ما يتولّونه الى الملك فى كلّ يوم . وعمل البيت ذا القِبَاب النوريّة الثلاث ، وأوقد فيـه النار الدائمة تعظيما للنـور . والقبط تزعم أنه أوّل من وضع بيتا لتعظيم النار . وقيل : إن جَمْ الفارسىّ إنما بنى بيت النار ـ وهو أوّل من عمل ذلك للفُرس ـ اقتداءً بسهلوق مصر . وكان السبب فى عمـل سهلوق بيت النـار أنه رأى أباه فى نومه يقول له : انطلق الى جبل كذا من جبال مصر فإنّ فيه كُوّةً من صفتها كذا وكذا ، و إنك واجد على باب الكوّة أَفْعًى لها رأسان ، و إنها اذا رأتك كشّت فى وجهك ، فليكن معك طيران صغيران ، فإذا رأيتَ الأفعَى فاذبحهما لها وألقهما إليها ، فإنه يأخذ كلُّ رأس من رأسيها أحدَ الطيرين وتتنحّى الى سَرَب قريب من الكوّة فتدخله ، فإذا غابت عنك فادخل الكوّة فإنك تنتهى الى[1] آخرها الى صورة امرأة جميلة الخَلْق ، وهى من نور حارّ يابس ، وسوف يقع عليك وَهَجها وتُحِسّ بحرارة شديدة ، فلا تقرُب منها فتحترق ، وقِفْ وسلّم عليها فإنها تخاطبك فاسكن الى خطابها ، وانظر ما تقوله لك فاعمل به ، فإنك تشرُف بذلك . وهى حافظة كنوز جدّك مِصرام التى رفعها الى مدائن العجائب المعلّقة وهى تدلّك عليها . وتنال مع ذلك شرفا فى بلدك وطاعة فى قومك ، ثم مضى وتركه . فلمّا انتبه سهلوق جعل يفكّر فيما رأى و يتعجّب منه ، ورأى أن ينفّذ ما أخبره به أبوه ، فمضى الى الجبل وحمل الطيرين معـه وفعل جميع ما أمره أبوه الى أن وقف حذاء المرأة وسلّم عليها ، فقالت له : أتعرفنى؟ قال : لا ، لأنّى ما رأيتك قبل وقتى هذا .

(١) كذا فى الأصلين ، ولعله : « فى آخرها » .

قالت : أنا صورة النار المعبودة فى الأمم الخالية، وقد أردتُ أن تُحيي ذكرى وتتخذَ لى بيتا وتُوقد فيه نارا دائمة بقدر واحد، وتتخذ لها عيدا فى كل سنة تحضره أنت وقومك فإنك تتخذ بذلك عنـدى يدًا وتنال به شرفا وملكا الى مُلْكك ، وأمنع عنك وعن بلدك من يطلبك ويعمل الحيلة عليك ، وأدلّك على كنوز جدّك مصرام . فلمّا سمع ذلك منها ضمِن لها أن يفعل، ودلّته على الكنوز التى كانت لجدّه تحت المدائن المعلّقة، وكيف يصير إليها ويمتنع من الأرواح الموكّلة بها وما يتخرها به . فلمّا فرغ من ذلك قال لها : كيف لى بأن أراك فى الأوقات وأسألك عمّا أريده ، أأصير اليك فى هذا المكان أو غيره؟ قالت: أمّا هذا المكان فلا تقدر بعد وقتك هذا عليه؛ لأنّ الأفعَى التى رأيتَها فيه قيِّمتُه لأنّ فيه آيةً تمنع أن يوقف عليها فى وقتنا هذا، ولكن إن أحببتَ أن ترانِى فدخِّن فى البيت الذى تعمله لى بكذا وكذا : أشياءَ ذكرتْها له، منها : عظام ما يقرّبه له من القرابين والذبائح والصُّموغ، فإنى أتخيّل لك وأخبرك بكل حقّ وباطل مما يكون فى بلدك . فلمّا سمع ذلك منها سُرّ به وغابت عنه، وظهرت الأفعَى وخرج هاربا وجعـل على الكُوّة سَدّا، وعمل ما أمرتْه به وأخرج كنوز جدّه .

١١١/١٢

وعمل من العجائب بأمسوس وغيرها ما يطول شرحه . وعمل القبّة المركّبة على سبعة أركان، ولها سبعة أبواب، على كل باب صورةٌ معمولة، وكان يقال لها قبّة القصر. وكان السبب فى بنائها أنّ بعض الكهّان جار فى قضيّة قضى بها؛ وذلك أن بعض العامّة أتاه يشكو آمرأته ـ وكان يحبّها والمرأة تُبْغِضه ـ وسأله أن يقوّمها له، وكانت المرأة من أهل بيت الكاهن، فمالأها على زوجها، وأمره بتخليتها فلم يفعل، فحبسه وشدّد عليه، وكان من أهل الصناعات، فاجتمع جماعة من أهل صَنعته ممّن كان قد عرف حال المرأة معه وأنها له ظالمةٌ وهو لها منصفٌ، فوقفوا على ظلم الكاهن فآستعدَوْا عليـه عند خليفة الملك . فأحضر الكاهن وسأله، فذكر أنه لم يحكم إلّا بواجب . فأحضر

رؤساء الكهنة والقومَ الذين شهدوا للرجل، فوقف على ظلم الكاهن فأخرج الرجل وحبس الكاهن مكانه، وأمر بعقوبة المرأة وردّها إلى زوجها ورفع ذلك إلى الملك، فأمر بإخراج الكاهن من رسم الكهانة، وأن يُعاقَب ويحبس إلى أن يرى فيه رأيَه. وأهمّ الملك لذلك وخشى أن يجرىَ من غير ذلك الكاهن فى أمر الرعيّة مثلُ ماجرى منه، فبات مهموما. ثم فكّر فى أمر النار، فأتى إلى بيت النار ودخّن بالدُّخْنة التى أمرته بها، فأتته وخاطبته. فسألها أن تعمل له عملا يقف به على حقيقة أمر المظلوم من الظالم، فأمرته أن يعمل بيتا مربّعا على سبعة أركان ويجعلَ له سبعة أبواب فى كل ركن باب، ويعمل فى وسطه قبّة من صُفْر، ويصوّرَ عليها صور الكواكب السبعة، ويعمل تحت القبّة مَطْهَرة من جوهر ملوّن، ويجعل فيها سبعة أدهان من أشجار مختلفة؛ وتكون القبّة معلّقة على سبعة أساطين، ويُعمل على الباب الأوّل تمثال أسد رابض، وحِذاءه من الجانب الآخر لبؤة رابضةٌ من صُفْر ويقرّب لها جرو أسد ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الثانى صورةُ ثور وبقرة ويذبح لهما عجلا ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الثالث صورة خنزير وحذاءه خنزيرة ويذبح لهما خِنَّوْصا[1] ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الرابع صورة فرس وحِجْر[2] ويذبح لها مهرا ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الخامس صورة ثعلب وحذاءه أُنثاه ويذبح لهما جرو ثعلب ويبخّرهما بوَبَره. وعلى الباب السادس صورة حمار وحذاءه أتان ويذبح لهما عَيْرا ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب السابع صورة ديك وحذاءه دَجاجة ويذبح لهما فَرُّوجا ويبخّرهما بريشه. ويلطخ وجوهها جميعا بدم مايذبح. ثم يُحْرَق بقيّة القُرْبان ويُجْعَل تحت عَتَب أبوابها وتُغَلَّق الأبواب، ويُقام للبيت سَدَنة يُوقدونه ليلَه ونهاره. فإذا[3] فرغ ذلك

(١) الخنّوص: ولد الخنزير. (٢) الحجر (بالكسر): الأنثى من الخيل.

(٣) كذا فى الأصلين، ولعله: «فاذا فرغت من ذلك فتكلم ... الخ».

يتكلّم على باب الكواكب السبعة ، فإنى سوف ألقى روحانيّة الكواكب على تلك الصور فتنطق . وإذا فرغت من ذلك فأجعل لكل مرتبة من المراتب التى قسمتها بابا من تلك الأبواب ، وليكن باب الأسد لأهل بيت المملكة ، وسائر الأبواب لسائر المراتب . فإذا تقدّم الخصمان إلى شىء من تلك الصور ٱلتصقت بالظالم وشدّت عليه شدّا عنيفا يُؤلمه حتى يخرج لخصمه من حقّه ، الذكر للذكر ، والأنثى للأنثى ، فيُعرف بذلك المظلوم من الظالم ، ومن كان له قِبَلَ أحد حقّ ودعاه الى تلك الصور فلم يجئ معه فأتاه المظلوم ، وقد عرّف الصورة ذلك ، أُقعد الظالم من رجليه وخَرِس لسانه ولم يتحرّك . فٱستراح الملك الى تلك الصورة . ولم تزل على ذلك حتى أزالها الطوفان مع ما أزال من أعمالهم وطِلّسماتهم وعجائبهم . وعُملت فى أيام سهلوق أعمال كثيرة ، وكُتبت سيرته وما عمل من العجائب فى مصحف . وعمل عقاقير كثيرة وتماثيل ومحرّكات وصَنْعة ، وأمر أن يُحمل ذلك كلّه إلى ناووس عمله لنفسه فى الجبل الغربىّ ونقل اليه حِكَمه . وهلك بعد أن ملك تسعا وستين سنة وحمل إلى ناووسه ، وأقام أهل المملكة ووجوه المدينة ونساؤهم عند ناووسه شهرا يبكون عليه ويتوجّعون عنده . وٱغتمّوا عليه غمّا لم يغتمّوه على ملكٍ قبله ، وأقاموا لناووسه سَدَنة يخدمونه .

١١٢/١٢

وملك بعده ٱبنه سُوريد بن سُهلوق ، وكان أبوه قد قلّده الملك قبل مَهْلَكِه ، فملك وٱقتفى سيرة أبيه فى العِمارة ومصالح البلد والإنصاف بين الناس والأخذ لهم من نفسه وأهل بيته ، وعمل الهياكل وبنى المنارات ، ونصب الأعلام والطِّلّسمات فأحبّه الناس . وبنى بالصعيد ثلاث مدائنَ وعمل فيها عجائب كثيرة . وهو أوّل من جبى الخراج بمصر ، وألزم أهل الصناعات على أقدارهم ، وأوّل من أمر بالإنفاق على الزَّمْنَى والمرضَى من خزائنه . وعمل مرآة من أخلاط كان ينظر منها جميع الأقاليم ما أخصب منها وما أجدب وما حدث فيها ، وكانت المرآة على منارة من النحاس وسط مدينة أمسوس ،

وكان يعلم من المرآة مَن يقصد مدينته من جميع النواحى فيتأهّب له . وهو أوّل من عمل صحيفة فى كلّ يوم يكتب فيها جميع ما يكون فى يومه وما يعمله ويُرفَع اليه، ثم يُخلد فى خِزانته يوما بيوم . وإذا مضى الشهر نُقلت إلى مصحف الملك وختمه بخاتَمه، وما صلح أن يُزبَر على الحجارة زَبَره : وكذلك ماعُمل من الصنائع وما أحدث منها . وكان يُعطِى الرغائب على الصِّناعات العجيبة والحِكَم الغريبة . وعمِل فى المدائن صورة آمرأة جالسة فى حِجرها صورة صبىّ كأنها تُرضِعه ، فمن أصابتها عِلّة بجسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك الصورة فيزول عنها ما تجد، وكذلك إن قلّ لبنها مسحت ثديها، وإن أحبّت أن يعطف عليها زوجها مسحت وجهها بدهن طيِّب وقالت افعلى كذا وكذا ، وإن قلّت حيضتها مسحت فوق رَكِبها ، وإن كثر دمها ونزفت مسحت تحت رَكِبها ، وإن أصاب ولدها شىء فعلت مثل ذلك بالصبىّ فيبرأ ، وإن عزّت[1] ولادتها ومسَحت رأس الصبىّ سهلت ويسهل افتضاضها ، وإذا بخرته ومسحته بدهن طيِّب منع جميع التوابع . وإذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تكفّ عن زناها . وما كان من أعمال الليل بُخّرت ليلا ، وما كان من أعمال النهار بُخّرت نهارا . وكانت تعمل أعمالا كثيرة إلى أن أزالها الطوفان .

قال : وفى بعض كتب القِبْط أنها وجدت بعد الطوفان وأنهم استعملوها وعبدوها . وصورتها مصوّرة فى جميع البرابى ، وآسمها نبلوية ، والذى دلّهم عليها قرابة فليمون[2] الكاهن . قال : وعمل سوريد عجائب كثيرة، منها الصنم الذى يقال له نكرس[3] المعمول من عدّة أخلاط كان يعمل أعمالا كثيرة فى الطبّ ودفع الأسقام

(١) عبارة المقريزى (ج ٣ ص ٢١ طبعة فيت) : «وإن عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبىّ الذى فى حجر الصورة فتضع حملها» .

(٢) فى المقريزى (طبعة فيت) : «فيلمون» وفى معجم البلدان وبعض نسخ المقريزى : «قليمون» بالقاف . (٣) فى ب «تكرس» بالتاء .

والعِلل ، و يعرِفون به من تُبْرِئه الأَدوِية فيعيش ، و إن كان يمـوت فله علامات فيُقْصِرون عن علاجه، وكانوا يغسلون المواضع التى بإزاء أعضاء العلَل منه ويُسقَى لصاحب الداء فيزول عنه . وهو أوّل من عمل الأفروثنات[1] وزبر فيها جميع العلوم . وهو الذى بنى الهرمين الكبيرين .

ذكر خبر بناء الأهرام وسبب بنائها وشىء من عجائبها

قال : كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة . وقد ذكرنا فيما سلف من كتابنا[2] هذا نبذة من خبر الأهرام فى الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل ؛ وذلك فى السِّفر الأوّل من هذه النسخة . ونحن الآن نذكر من خبرها خلاف ماقدّمناه مما أورده إبراهيم بن القاسم الكاتب مما آختصره من كتاب العجائب الكبير لإبراهيم بن وَصِيف شاه . قال : كان سبب بنائها أن الملك سُوريد رأى رؤيا أفزعته ؛ رأى كأنّ الأرض آنقلبت بأهلها ، وكأنّ الناس يخِرّون على رءوسهم ، وكأنّ الكواكب تتساقط ويصدِم بعضها بعضا بأصوات هائلة مفزعة ، فغمّه ذلك ولم يذكره لأحد ، وعلم أنه سيحدُث فى العالَم أمر عظيم . ثم رأى بعد ذلك [بأيام][2] كأنّ الكواكب الثابتة [نزلت الى الأرض][3] فى صوَر طيور تنصبّ[4] ، وكأنها تخطّف الناس وتُلقيهم بين جبلين عظيمين ، وكأنّ الجبلين انطبقا عليهم ، وكأنّ الكواكب النيِّرة مظلمة كاسفة ؛ فآنتبـه أيضا مذعورا فزعا ، فدخل الى هيكل الشمس وجعل يمرِّغ خدّيه ويبكى . ولمّا أصبح أمر

١١٣/١٢

(١) الأفـروثنات : لفظ يونانى معناه القبور . وفى معجم البلدان لياقوت (ج ٤ ص ٩٦٣ طبع أوربا) : « الأفرونيات » .

(٢) راجع (ج ١ ص ٣٨٨ من هذه الطبعة) .

(٣) التكملة من خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٣ طبعة فيت) .

(٤) فى خطط المقريزى « ... طيور بيض » .

بجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر فاجتمعوا، وكانوا مائة وثلاثين، فخلا بهم وقصّ عليهم رؤياه، فأعظموه وأكبروه وأوّلوه على أمر عظيم يحدث فى العالم. فقال لهم فليمون — وكان من كبارهم وكان لا يبرح من حضرة الملك لأنه رأس كهنة أمسوس — : إنّ فى رؤيا الملك لعجبا وأمرا كبيرا، والملوك رؤياهم لا تجرى على فساد ولا كذب لعِظَم أخطارهم، وكِبَر أقدارهم. وأنا أخبر الملك عن رؤيا رأيتها منذ سنة لم أذكرها لأحد من الناس. فقال له الملك: قُصّها علينا. قال: رأيت كأنى مع الملك على رأس المنار الذى فى أمسوس، وكأنّ الفلك قد انحطّ من موضعه حتى قارب سَمْت رءوسنا، وكان علينا كالقبة[1] المحيطة بنا، وكأنّ [الملك قد رفع يديه نحو السماء وكواكبها[2]] قد خالطتنا فى صور مختلفة، وكأن الناس يستغيثون بالملك وقد انضمّوا الى قصره، وكأنّ الملك رافع يديه ليدفع الفلك أن يبلغ رأسه، وأمرنى أن أفعل فعله ونحن على وجل شديد، إذ رأينا منه نورا مضيئا طلعت علينا منه الشمس، فكأنّا استغثنا بها، فخاطبتنا بأنّ الفلك سيعود الى موضعه اذا مَضَت ثلاثمائة دورة، وكأنّ الفلك لصِق بالأرض ثم عاد الى موضعه، ثم انتبهت فزعا. فعند ذلك قال لهم الملك: خذوا ارتفاع الكواكب فانظروا هل من حادثة تحدث. فنظروا فأخبروه بأمر الطوفان وبعده بذكر النار [التى تخرج من بُرْج الأسَد تحرق العالم[3]]، فذكروا له أن ذلك يكون فى وقت عيّنوه له من مقارنات النجوم ونزولها فى الأبراج على ما حرّروه من الدقائق، وشرحه إبراهيم فى كتابه مما لا فائدة لنا فى ذكره. قال: فلما تبيّن ذلك له أمر بقطع الأساطين العظام ونشر البلاط

(١) كذا فى المقريزى (ج ٢ ص ١١٤ طبعة فيت) وفى الأصلين: «كالمكبة».

(٢) التكملة من خطط المقريزى. وفى الأصول: «وكأن كواكبه».

(٣) الزيادة من خطط المقريزى.

الكبير المصفّح، وٱستخراج الرصاص من أرض المغرب ، و إحضار الصخور السود التى جعلها أساسا من ناحية أسوان ، وكانت تُحمَل على أطواف[(١)] . وقيل : كانت لهم فراقل من خوص لها عَذَبٌ وعليها كتابة منقوشة، فكانوا إذا ضربوا بها الحجارة عَدَتْ على وجه الأرض وحدها مقدار رمية سهم حتى وضعت الأساساتُ . وأمر أن يُزبَر على البلاط المنشور المهندم جميعُ علومهم . ثم بنى الأهرام الثلاثة الأُوَل : الشرقىّ، والغربىّ، والملوّن؛ فكانوا يجعلون فى وسط البلاطة قلب حديد قائما ويركّبون عليه بلاطة أخرى مثقوبة الوسط،ثم يُدْخَل ذلك القلب الحديد فى ثقب البلاطة التى تُطبَق عليه، ويذاب الرّصاص ويُصبّ حول البلاطة بعد أن تؤلّف الكتابة التى عليها . وجعل أبوابها من تحت الأرض بأربعين ذراعا فى آزاج[(٢)] مبنيّة بالحجارة فى الأرض، طول كل أَزَج مائة وخمسون ذراعا . قال : فأما باب الهرم الشرقىّ فإنه من الناحية الجنوبيّة[(٣)] على قياس مائة ذراع من وسط حائط الهرم الى الناحية الجنوبيّة، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج ثم يدخل اليه منه . وأما باب الهرم الغربىّ فمن الناحية الغربيّة يُقاس أيضا من وسط الحائط الغربىّ الى الغرب مائة ذراع، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج المبنىّ ويدخل منه اليه . وأما باب الهرم الملوّن فمن الناحية البحرية[(٤)] يقاس أيضا من وسط الحائط البحرىّ مائة ذراع ، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج . وجعل طول كل واحد منها أربعمائة

(١) الطوف : خشب يشد بعضه الى بعض ويركب عليه فى الماء .

(٢) الأزج بالتحريك : بيت يبنى طولا ، ويقال له بالفارسية : « أوستان » وانظر الكلام عليه فى شرح القاموس واللسان والصحاح والمصباح وكتاب الألفاظ الفارسية المعربة لأدّى شير .

(٣) فى معجم البلدان لياقوت (ج ٤ ص ٩٦٤) : « الناحية البحرية » . وفى خطط المقريزى : « الناحية الشرقية » .

(٤) فى معجم البلدان لياقوت : «الناحية القبلية» . وفى خطط المقريزى : « الناحية الجنوبية » .

ذراع بالملكى، يكون خمسمائة بذراعنا . وجعل تربيع كل واحد أربعمائة ذراع . وبناها فى الاستواء الى أربعين ذراعا ثم هزمها[1] . وكان أول بنائهم لها فى أوقات السعادة، فلمّا فرغ منها كساها ديباجا مُلوّنا من أعلاها الى أسفلها، وعمل لها عيدا عظيما لم يبق فى المملكة أحد إلّا حضره . ثم أمر بعمل[2] ثلاثين جرنا من حجارة الصوّان ملوّنة فجعلت فى الهرم الغربىّ، ونقل اليها من الكنوز والأموال والجواهر المعدنيّة، والجواهر المسبوكة الملوّنة، والآلات الزَّبَرْجَد. والتماثيل المعمولة، والطّلّسمات، والحديد الفاخر، والسلاح الذى لا يصدأ، والزجاج الذى ينطوى[3] ولا ينكسر، والنواميس والمولّدات والدُّخَن وأصناف العقاقير والمفردات والمؤلّفات والسموم وغير ذلك شيئا كثيرا لا يدرك وصفه . ونقل الى الآخر وهو الشرقىّ أصنام الكواكب والقباب الفلكيّة، وما عمل أجداده من التماثيل والدُّخَن التى يتقرب بها لها ومصاحفها، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التى مضت، والحوادث التى تحدث، والأوقات التى تحدث فيها، ومن يلى مصر من الملوك الى آخر الزمان، وكَون الكواكب الثابتة وما يحدث بكَوْنها وقتا وقتا، وجعل فيها المطاهر[4] التى فيها المياه المدبّرة والبودقات الدهنية وما أشبه هذه الأشياء . وجعل فى الهرم الآخر أجساد الكهنة فى توابيت من الصوّان الأسود، وعند كل كاهن منهم مصحف فيه عجائب صناعته وسيرته وما عمل فى وقته . وكانوا سبع مراتب . فالمرتبة الأولى القاطرون، وهم الذين يعبدون الكواكب السبعة لكل كوكب

١١٤/١٢

(١) يلاحظ أن هذا الوصف ينطبق عما كان فى عصر المؤلف . وقد كشف العلم الحديث عن أشياء كثيرة تدل على عظمة بناء هذا الأثر الخالد .

(٢) عبارة المقريزى : « ثم عمل فى الهرم الغربى ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملوّن وملئت بالأموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة ... الخ » . (٣) كذا فى خطط المقريزى . « الذي لا يطوى » . (٤) كذا فى خطط المقريزى . وفى الأصلين « والمطاهر » .

سبع سنين ، ومعنى القاطرون جامع العلوم . والمرتبة الثانية لمن يعبد ستّة من الكواكب وهم اللاحقون بالدرجة الأولى . ثم يسمّون صاحب الخمسة وما دونها كل واحد بآسم ، فجعل فى كل ناحية من الهرم مرتبة من هذه المراتب ، فأجسادهم هناك وما عملوه من العجائب . وجعل فى الحيطان[1] من كل جانب مما يدور أصناما [تعمل[2]] بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها ، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها ، وكذلك أصحاب النواميس ومن عالج شيئا من الأشياء وجعل فيها أموال الكواكب التى أُهديت إليها الكواكب وأموال الكهنة . وجعل لكل هرم منها خادما ؛ فخازن[3] الهرم الشرقىّ صنم من جزع أسود [مجزّع بأسود[3]] وأبيض له عينان مفتوحتان [برّاقتان ، وهو[3]] جالس على كرسىّ ، ومعه شبيه بالحربة ، إذا نظر إليه الناظر سمع من جهته صوتا كالرعد يكاد يفزع قلبه ، فيهيم على وجهه ويُختَلَس عقله ، ولا يكاد يفارق الهرم حتى يموت فيه . وجعل خازن الهرم الآخر من حجر الصّوّان المجزّع ، معه شبيه بالحربة ، وعلى رأسه حيّة تطوّق[4] بها ، من قَرُب منه وثبت عليه من ناحيته وتطوّقت فى عنقه فقتلته [ثم تعود إلى مكانها] . وجعل خازن الهرم الثالث صنما صغيرا من حجر البهتة[5] على قاعدتيه ، من نظر إليه آجتذبه إليه حتى يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت . فلمّا فرغ من ذلك حصنها[6] بالأرواح وذبح لها

(١) كذا فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٧ طبعة فيت) وفى الأصلين : «فى حيطان البرى مما يدور» .

(٢) الزيادة عن خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٧ طبعة فيت) .

(٣) فى خطط المقريزى كلمة "خادم" بدل "خازن" فى هذا المقام .

(٤) كذا فى خطط المقريزى . وفى الأصلين « مطوّقة » .

(٥) حجر البهتة ، ويقال له البهت والباهت ، يوجد فى المحيط الأطلنطى وكانت له شهرة فى أفريقية الغربية حيث يباع بثمن غال . وقد نسب اليه أهل الشرق خصائص عجيبة . (عن قاموس دوزى باختصار) .

(٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصلين : «صدها» .

الذبائح لتمنع[1] عن نفسها [من أرادها] إلا من قرّب إليها وعمِل لها أعمال الوصول فإنه يصل اليها . قال : وذكر القبط أنه كُتِب عليها آسم الملك والوقت الذى بناها فيه ، ويقول : إنا بنيناها فى ستّ سنين[2] فقل لمن يأتى بعدنا يهدمها فى ستمائة سنة فإن الهدم أهون من البُنيان . وإنا كسوناها الدِّيباج الملوّن المذهب المرقوم بالذهب فقل لمن يأتى بعدنا يكسوها حصيرا . فنظروا فوجدوا أحدا لايقوم بهدمها وكسوتها لأنه لا يستطاع ذلك ولا يُقدَر عليه .

قال : وحُكى عن هذه الأهرام عجائب يطول الشرح بذكرها ؛ منها أن المأمون لمّا دخل إلى مصر أحبّ أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها ، فقيل له : إنك لا تقدر على ذلك . فقال : لا بدّ من فتح شىء[3] منه . فعولجت الثُّلمة المفتوحة منه فأنفق عليها مالا كثيرا لنار توقد وخلّ يُرشّ ومنجنيقات ترمى بها ، فوجد عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعا . فلما آنتهوا الى داخل الهرم وجدوا خلف الحائط عند النقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب دنانير ، وزن كل دينار أُوقية[4] من أواقينا ، وكان عددها ألف دينار ، فعجبوا من ذلك ولم يعرفوا ما معناه ، ثم أُتِىَ المأمون بالذهب والمطهرة فجعل يتعجّب من الذهب وحسنه وجودته وحمرته ، فقال : ارفعوا لى حساب ما أنفقتموه على هذه الثُّلمة ففعلوا ، فوجده بإزاء المال الذى أصابوه لا يزيد ولا ينقص . فعجب المأمون من معرفتهم على طول المُدَد بأنهم سيفتحونه من ذلك الموضع بعينه ، ومعرفتهم بمقدار ما يُنفَق عليه وتركهم مقداره

(١) فى الأصلين : «فتمنع» والتصويب من خطط المقريزى .

(٢) فى الأصلين : « فى ستة أشهر » .

(٣) وكان ذلك فى سنة ست عشرة ومائتين كما فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٥ .

(٤) بهامش نسخة ب ما نصه : « الأوقية هى سبعة مثاقيل زنتها أربعون درهما فيما مضى . وأوقية الأطباء عشرة دراهم وخمسة أسباع درهم وهو أستار وثلثا أستار ، وأوقية بزر القز إثنا عشر درهما » .

فى موضعه، فقال : كان هؤلاء القوم من العلوم بمنزلة لا ندركها نحن ولا أمثالنا .
وقيل : إنّ المطهرة التى وُجد فيها الذهب كانت من زَبَرْجَد، فأمر المأمون بحملها إلى خزانته ، وكانت أحد ماحمل من عجائب مصر .

ومن عجائب أخبارها أنّ المأمون لمّا فتح الهرم أقام الناسُ سنين يقصدونه ويدخلون فيه وينزلون الزلّاقة التى فيه ، فمنهم من يسلَم ومنهم من يهلك . ٥
وأنّ جماعة من الأحداث آهتمّوا، وكانوا عشرين رجلا، على أن يدخلوا الهرم ولا يبرحوا منه حتى يقفوا على منتهى أمره ، فأخذوا معهم من الطعام والشراب ما يكفيهم لشهرين، وأخذوا السكك والحبال والشمع والوقيد والفئوس والقِفاف ودخلوا الهرم، ونزل أكثرهم فى الزلّاقة الأولى والثانية، ومضَوْا فى أرض الهرم فرأَوْا فيه خفافيش بقدر العِقْبان تضرب وجوههم، فانتهَوْا إلى لِصْب[1] فى حائط تخرج ١٠ منه ريح باردةٌ لا تفتُر، فذهبوا ليدخلوا فآنطفأتْ سُرُجهم، فجعلوها فى زجاج وذهبوا ليدخلوا فكاد اللِّصْب ينطبق عليهم فهابُوه فقال أحدهم : اربُطُوا وَسَطِى بحبل وأنا أدخل، فإذا كاد اللِّصْب ينطبق فجرّونى إليكم؛ وكان على باب اللّصب أجرنة[2] فارغةٌ فعلموا أنّ أجساد موتاهم داخل ذلك اللصب، فربطوه بالحبل، فلمّا تقحّم[3] اللصبَ انطبق عليه فجرّه أصحابه فلم يقدروا على نَزْعه وسمعوا عظامه تتكسّر، وسمعوا صيحة ١٥ هائلة فسقطوا على وجوههم لا يعقلون . فلمّا أفاقوا طلبوا الخروج فأخرجهم ١١٥/١٢ أصحابهم بشدة، وسقط بعضهم فى وقت صعودهم من الزلّاقة فنزل، وخرجوا من الهرم فجلسوا فى سَفْحه متعجّبين ، فإنهم كذلك إذ أخرجت لهم الأرض صاحبهم

(١) اللصب (بالكسر) : الشعب الصغير فى الجبل .
(٢) أجرنة : الأجرنة جمع جرن بالضم وهو حجر منقور للماء . ٢٠
(٣) تقحم اللصب : دخل فيه .

يتكلّم بكلام كاهنيّ فسّره لهم بعض أصحاب الديارات بالصعيد: هذا جزاء من يطلب ما ليس له؛ ثم سقط ميّتا، فحملوه وفُطِن بهم فأُخِذوا وأُتِيَ بهم إلى الوالى فحدّثوه بالخبر.

وفى خبر آخر: أنّ قوما دخلوا الهرم وانتهوْا إلى أسفله وطوّفوه فعَرَض لهم مثلُ الطريق فساروا فيه فوجدوا قبّة تحتها كالمطهرة يقطُر فيها ماءٌ فينِشّ[1] ثم يَغِيض[2] ولم يدرُوا ما هو، ووجَدوا موضعا كالمجلس المربّع حيطانه كلّها بحجارة مُلوّنة عجيبة، فقلَع أحدهم منها حجرا وجعله فى كمّه فانسدّت أذناه من الريح، ولم تزل تُصِر[3] وهو معه، ووجدوا مكانا كالقوارة العظيمة فيها ذهبٌ مضروبٌ كثير يكون الدينار منه زهاءَ مائة مثقال، فأخذوا منه شيئا فلم يستطيعوا أن يمشُوا ولم يتحرّكوا حتى تركوه من بين أيديهم. ووجدوا فى مكان آخر كالصُّفّة فيها شيخٌ من حتم[4] أخضرَ كأنه مشتمل بشَمْلة، وبين يديه تماثيلُ صِغار فى صُوَر الصِّبيان وكأنه يعلمهم، فأخذوا منه شيئا فلم يقدِروا أن يتحرّكوا فردّوه، ومشَوْا أيضا فى ذلك الطريق فوجدوا بيتا مسدودا فيه دوِىّ هائلٌ وزمزمةٌ فلم يتعرّضوا له، ومضَوْا فوجدوا كالمجلس المربّع فيه صورة ديك من جواهرَ معمولةٍ، قائم على أُسطوانة خضراءَ، وله عينان يُسرج منهما المجلس، فلما قربُوا منه صوّت بصوت مُفزِع وخفَق بجناحيه، فتركوه ومضَوا حتى بلغوا صنما من حجر أبيضَ فى صورة امرأةٍ منكّسة على رأسها ومن جانبيها أسدان من حجارة كأنهما يريدان نهسها[5]، فجعلوا يتعوّذون ويقرءون إلى أن جاوزوها. قال: وقيل إنهم مشَوْا حتى لاح لهم نور فاتّبعوه فإذا بفُوّهة مفتوحة فخرجوا منها فإذا هم

(١) ينش: يأخذ ماؤه فى النضوب. (٢) يغيض: ينقص. (٣) تصر: تصوت صوتا شديدا. (٤) الحتم: جرار خضر تضرب الى الحمرة.

(٥) نهسها: يقال نهسه الكلب والذئب والسبع بالسين المهملة، ونهشته الحية بالشين المعجمة.

فى صحراء ، و إذا على باب تلك الفُوهة تمثالان من حجر أسوَد معهما كالمزراقين فعجبوا من ذلك . ووجدوا أجرنة منقورة وأسطوانات مخروطة ، فساروا منها بُعُدًا فأنتهوا إلى ماء وجدوه فى نِقَار[1] حِذاء تلك الفُوهـة ، وأخذوا نحو المشرق فساروا يوما حتى وصلوا إلى الأهرام من خارج فأخبروا والى مصر بخبرهم ، فوجّه معهم مَن يدخل من تلك الفُوهة ، فطافوا فلم يجدوها وأَشكل عليهم أمرُها . ووجد الآخِذُ للحجر الحجرَ جوهرا نفيسا فباعه بمـال .

قال : وحُكى أنّ قوما فى زمن أحمـدَ بن طولون[2] دخلوا الهـرم فوجدوا فى طاق فى أحد بيوته أستاندانة زجاجا ثخينة فأخذوها وخرجوا ، ففقـدوا رجلا منهم فدخلوا فى طلبـه ، إذ خرج عليهم الرجل عُرْيانا يضحَك و يقول : لا تتعبوا فى طلبى ، ورجع هاربا الى أن دخل ، فعلموا أن الجنّ استهوته وشاع أمرُهم ، فأخذوا الأستاندانة منهم ومُنع الناس من الدخول الى الهرم ، ووُزنت الأستاندانة فكانت أربعـة أرطال زجاجا أبيضَ صافيا ، فأنتبه رجل من أهل المعرفة لهـا وقال : لم تُعمَل إلّا لشىء ، وملأها ماء ووَزنهـا فوجد وزْنهـا وهى ملأى مثل وزْنها فارغة لا تزيد ولا تنقُص فكانت أُعجوبة .

وحُكى أن قوما دخلوا الهرم ومعهم مَن يريدون يعبثون به ، فلمّا همّوا بذلك خرج عليهم غلام أسـودُ أمردُ فى يده عصا فأخذ فى ضَرْبهـم ، فخرجوا هاربين وتركوا ما كان معهم من طعام وشراب و بعض ثيابهم .

وحُكى أن رجلا دخل بامرأة ليفجُر بها فصُرعا جميعـا ولم يزالا مجنونَيْن مشهورَيْن حتى ماتا .

(١) نقار : النقار جمع نقرة بالضم ، الوهدة المستديرة فى الأرض غير كبيرة .

(٢) فى عقد الجمان للعينى : « طولون بضم الطاء اسم تركىّ معناه : البدر الكامل » .

قال : وفى بعض مصاحف القِبْط أن سُورِيد الملك لما أخبره كهَنَته بخبر النار المحرقة وأنها تخرُج من برج الأسَد فتحرق العالَم، عَمِل فى الأهرام مَسارِب موجّهة الى آزاج ضيّقة تجتلب الرياح الى داخل بصوت هائل . وعمِل فيها مَسارب يدخل منها ماء النيل الى مكان ينتهى الى موضع من أرض الغرب وأرض الصعيد، وملأ تلك الأسراب عجائب وطلّسمات وأصناما تنطق .

قال : وحَكى بعض القِبْط أن سُوريد لمّا أخبره منجّموه قال : انظروا لبلدنا هذا هل تلحقه آفة ؟ فنظروا فقالوا : يلحقه طوفان ويلحقه خراب يُقيم فيه عدّة سنين وتغلب عليها التنانين . قال : كيف يكون خرابها ؟ قالوا : يقصدها ملك فيقتل أهلها ويَغْنَم مالها ويهدم مصانعَها . قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم تكون عمارتها من قِبَله . قال : ثم ماذا؟ قالوا : ثم يقصدها قوم مشوّهون من ناحية مصبّ النيل فيأتون على أكثرها . قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم ينقطع نيلها ويجلو أهلها عنها ؛ فأمر أن يكتَب جميع ذلك على الأهرام .

قال : وذكر رجل من أهل الغرب ممن يختلف الى الواح ويحمِل الشّمار[1] على جمل له أنه بات فى بعض الليالى قُرب الهرم فما زال يسمع الضوضاء والعطعطة فهاله ذلك وتباعد عنه بجمله ، وكان يرى حول الهرم شِبْه النيران تأتلِق ، فلم يزل مرعوبا الى أن سرقته عيناه فنام وأصبح وهو فى الموضع الذى جمع منه الشّمار وشَماره موضوع بحاله ، فتعجّب من ذلك وشدّ شماره على جمله ورجع الى الفُسطاط وآلى على نفسه ألّا يقرُب من الهرم بعد ذلك .

١١٦/١٢

(١) الشمار : هو الرازيانج تعريب رازيانه وهو الأنيسون ، وأنواعه ثلاثة : بستانى وبرى وشامى . وهو نبات بزره حرّيف مرّ .

قال: والقبط يذكرون أنّ روحانيّة الهرم الغربى فى صورة امرأة عُرْيانة مكشوفة الفرج حسناء لها ذؤابتان ، فإذا أرادت أن تستفزّ الإنسىّ ضحكت اليه فاختلسته الى نفسها فيدنو منها فتستهويه ويزول عقله . قال : وقد رأى جماعة هذه المرأة تدور حول الهرم وقت القائلة وعند غروب الشمس . وروحانيّة الهرم الشرقى غلام أمرد أصفر عُريان له ذؤابة . قال : وقد رأوه أيضا يطُوف حوله . وروحانيّة الهرم الملوّن فى صورة شيخ يرى عليه برطلة[1] وفى يده بجرة من مجامر الكنائس وهو يبخّر كذلك فى جميع الأفروثنات[2] .

وأمّا روحانيّات البرابى: فبِربا إخميم[3] روحانيّتها غلام أسود عُرْيان . وروحانيّة بِربا قفْط[4] فى صورة جارية سوداء تحمل صبيّا أسود صغيرا . وروحانية بِربا دَندرة[5] فى صورة إنسان رأسه رأس أسَد وله قَرْنان . وروحانية بِربا بُوصِير[6] فى صورة شيخ

(١) برطلة ، البرطلة (بضم البا، وفتح اللام وتشدّد) : المظلة الصيفية ، نبطية وقد استعملت فى لفظ العرب .

(٢) راجع الحاشية رقم ٤ صفحة ٢٠ من هذا الجزء .

(٣) إخميم : من البلاد المصرية القديمة واقعة على الشاطىء الشرقى للنيل . وكانت إخميم فى عهد الفراعنة قاعدة قسم « خمينو » وفى عهد الرومان قاعدة قسم « بانوس » وفى عهد العرب قاعدة كورة الإخميمية ، واستمرت كذلك الى آخر حكم دولتى المماليك . وفى العهد العثمانى ألغيت الإخميمية وأضيفت بلادها الى ولاية جرجا وأصبحت إخميم إحدى بلاد مركز سوهاج . وفى سنة ١٩٠٣م صدر قرار من الداخلية بفصل البلاد الواقعة شرقى النيل من مركز سوهاج وجعلها مركزا باسم إخميم وهى قاعدة المركز من تلك السنة الى اليوم . (راجع النجوم الزاهرة الحاشية رقم ٢ ص ٣١٣ من الجزء الخامس طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) قفط : مدينة بالصعيد الأعلى ، اسمها القديم «قوبطى» ومنه اشتق اسم قبطى وأقباط للمصريين . وهى وطن الوزير الصاحب جمال الدين القفطى الملقب بالقاضى الأكرم وزير حلب المتوفى سنة ٦٤٦هـ .

(٥) سيذكرها المؤلف فيما بعد أثناء كلامه على قفطريم بن قبطيم .

(٦) هى بوصير سمنود ، وكانت قاعدة شهيرة قبل الاسلام .

أبيض عليه زيّ الرهبان ومعه مصحف يحمله . وروحانية بِربا سمنود[1] فى صورة شيخ آدم طوال أشيب صغير اللحية . وروحانيّة بِرْبا عدىّ فى صورة راعٍ عليه كساء ومعه عصا . وهـذه البربا فى أعمال المُرْتاحيّة[2] من عمل أشمون طنّاح[3] بقرب تلبانة عدىّ[4] . قال : ولكلّ من هـذه الأهرام والبرابى قرابين وبخُورات تظهر كنوزها وتؤلّف بين الناس والروحانيّين الذين بها .

(١) سمنود : مدينة شهيرة بالوجه البحرى بمصر، واسمها الفرعونى تينوتير واليونانى سبنيطوس .

(٢) المرتاحية : هو اسم أحد الأقاليم المصرية بالوجه البحرى فى العهد العربى، وكان يقال لها : كورة المرتاحيـة ثم الأعمال المرتاحية . وكان إقليم المرتاحية واقعا فى المنطقة التى تشمل اليوم بلاد مركزى المنصورة وأجا بمديرية الدقهلية، وكان يجاوره من الجهة البحرية إقليم الدقهلية . وكان إقليم الدقهلية فى ذاك الوقت واقعا فى المنطقة التى تشمل اليوم بلاد مراكز فارسكور ودكرنس والمنزلة بمديرية الدقهلية . وفى زمن حكم دولتى المماليك جعـل هذان الإقليمان إقليما واحدا باسم إقليم الدقهليـة والمرتاحية . وفى عهد الحكم العثمانى اختصر باسم الدقهليـة ولم يزل يطلق لغاية اليوم على مديرية الدقهلية التى قاعدتها مدينـة المنصورة . (راجع النجوم الزاهرة الحاشية رقم ٣ ص ٣١٢ من الجزء الخامس طبع دار الكتب المصرية) .

(٣) أشمون طناح، ويقال لها «أشموم طناح»، : وهى من المدن المصرية القديمة واقعة على الشاطئ الشرقى للبحر الصغير الذى كان يسمى بحر أشموم نسبة الى هذه المدينة، وكان اسمها المصرى شمون أرمان، والرومى بانيفوسوس، وسماها العرب أشموم طناح نسبة الى كورة طناح التى كانت تقع أشموم فى دائرتها، وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان، وهو اسمها القديم محرفا .

ولما تكلم عليها ابن دقاق فى كتاب الانتصار قال : « وتعـرف بأشموم طناح وأشمـوم الرمان، وهى قصبة كورة الدقهلية ومدينة ذات حمامات وأسواق وجوامع وفنادق » وقد استمرت قاعدة لإقليم الدقهلية والمرتاحيـة الى آخر عهد المماليك . وفى أوائل الحكم العثمانى نقلت القاعدة الى مدينة المنصورة ومن ذاك الوقت اضمحلت أشمون الرمان وزال ما كان فيها من آثار المدنية والعمران، وأصبحت اليوم قرية عادية من قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهليـة . (راجع النجوم الزهرة الحاشـية رقم ٢ ص ٣٢٨ من الجزء السادس طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) تلبانة عدىّ : بلد بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية . وقـد ورد فى المشترك والتحفة السنية لابن الجيعان : أنها من أعمال الدقهلية والمرتاحية . وفى مساحة سنة ١٢٢٨ هـ وردت مختصرة باسمها الحالى .

ولنرجع الى أخبار الملوك قال : وأقام سُورِيد فى الملك مائة سنة وسبع سنين، وقد كان منجّموه عرّفوه الوقت الذى يموت فيه واليوم والساعة، فأوصى الى آبنه هِرجيبْ وعرّفه ما يعمل، وأمره أن يُدخل جسده الهرم، وأن يجعله فى الجُرْن الذى أعدّه لنفسه ويغشّيه بكافور، ويحمل معه ما أعدّه من فاخر الثياب والسلاح والآلات، فآمتثل جميع ما أمره به .

ولما مات ملك بعده آبنه هرْجيب[1] بن سُوريد فسار بسيرة أبيه فى العدل والعمارة والرأفة بالناس، فأحبّوه . وبنى الهرم الأوّل من أهرام دَهْشور وحمل اليه من المال والجوهر . وكان غرضه جَمْعَ المال وعَمَل الكِيمياء وآستخراج المعادن ودفن ما تهيّأ له من الكنوز فى كل سنة . وكانت له آبنة أفسدَت مع بعض خدمه فنفاها الى ناحية الغرب، وأمر أن تُبنى لها مدينة هناك ويقام عليها علَم ويُزبَر عليها آسمها، وأسكن معها كل آمرأة مسنّة من أهل بيته . قال : وشنّج رجل رجلا فأمر بقطع أصابعه، ووجد سارقا من العامّة فملّك رقّه الذى سرق منه، وعمل منارات ومصانع وطلّسمات، وملكهم نيّفا وسبعين سنة .

وملك عليهم بعده آبنه منْقاوش بن هرجيب وكان جبّارا أثيما فآذى الناس وسفَك الدماء وآغتصب النساء وآستخرج كنوز آبائه، وبنى قصورا بالذهب والفضة [وأجرى][2] فيها الأنهار، وجعل حصباءها من صنوف الجواهر، وتخرّق[3] فى الهِبات وأغفل العمارات فأبغضه الناس، وأباح أصحابَه غَصْبَ نساء العامّة . وأطاف به أهل الشرّ من كل ناحية، وكان يَفْترِع النساء قبل أزواجهنّ، وآمتنع عليه قوم

(١) فى خطط المقريزى : « هوجيت » .
(٢) التكملة من خطط المقريزى . (٣) تخرّق فى الهبات : توسع فيها .

فى شىء أمرهم به فأحرقهم بالنار، وسلّط رجلا من الجبّارين آسمه قرناس[(١)] من ولد وراديس بن آدم على الناس ووجّهه لمحاربة الأمم الغربية فقتل منهم أمما . وكان أشجع أهل زمانه ثم هلك، فآغتمّ عليه الملك وأمر أن يدفن مع الملوك فى الهرم . ويقال : بل عمِل له ناوُوسا وأقام عنده أعلاما وزبَر عليها آسمه وما عمله فى وقته . وملك مِنقاوش ثلاثا وسبعين سنة ومات ، فجُعل فى الهرم مع أجداده فى حوض مرمر مصفّح بالذهب والجوهر ، وحُمِل معه كثير من ذخائره وأمواله وسلاحه وعجائبه .

١١٧/١٢ وملك بعد آبنه أقروش[(٢)] بن منقاوش ، وكان عاقلا فخالف آثار أبيه وعدل فى الناس وردّ النساء اللاتى غصبهنّ منقاوش الى أهلهنّ . وعَمِل فى وقته فوّارة قُطرها مائة ذراع وطُولها خمسون ذراعا ، وركّب فى جميع جوانبها أطيارا تَصفِر بأصناف اللغات المطربة لا تفتُر . وعَمِل فى وسط المدينة منارتين من صُفْر عليهما صورة رأس إنسان من صُفْر كلّما مضت ساعةٌ من النهار صاح ذلك الرأس صياحا عاليا ، وكذلك الليل ، فيعلَم به دخول الساعات ، وجعل فيه علامة لكلّ ساعة تَمضى تُعرف بها عِدّتها . وعَمِل مناراً آخر وجعل على رأسه قبّة صُفْر مُذهَب ولَطخها بلَطُوخات ، فإذا غرَبت الشمس اشتعلت تلك القبّة نارا[(٣)] يُضىء بها أكثر المدينة لا تُطفئها الأمطارُ ولا الرِّياح ، فإذا كان النهار قلّ ضوءها بضوء الشمس . ويقال : إنه أهدى الدرمسيل [بن محويل][(٤)] الملك ببابِلَ مائدة من الزبرجد قُطرها خمسة أشبار[(٥)] ، وكان استهداه ذلك ليجعلها فى بيت القُربان . ويقال إنها وُجدت بعد الطوفان . ويقال أيضا : إنه عَمِل على الجبل

(١) فى خطط المقريزى «قرماس» بالميم . (٢) فى خطط المقريزى : «أفراوس ابن مناوس» . (٣) فى خطط المقريزى : «نورا» . (٤) التكملة من خطط المقريزى . (٥) فى خطط المقريزى : «مدهنا» .

الشرقىّ صنما عظيما قائما على قاعدة [وهو](١) مصبوغ بلَطوخ أصفر مصوّر بالذهب ووجّهه الى الشمس يدُور معها حتى تغرُب، ثم يدُور ليلا الى الناحية الجنوبيّة حتى يحاذى الشمس(٢) مع الصبح، فلم يزل الى أن سقط فى أيام فرغان(٣) الملك فتهشم. وكان نصبه تعظيما للشمس. ويقال: إن أقروش كان يطلب الولد فنكح ثلاثمائة آمرأة يبتغى الولد منهنّ فلم يكن ذلك. وقيل: إنّ فى عصره عَقَمت الأرحام لما أراد الله عز وجل من هَلاك العالَم بالطوفان، وعَقَمت أرحام البهائم ووقع الموت فيها. وقيل: إن الأُسْد كثُرت فى وقته حتى كانت تتخلّل البيوت، فآحتالوا لها بالطِّلّسمات المانعة والحِيَل المضرّة لها، فكانت تغيب وقتا وتعود، فرفعوا ذلك الى الملك فقال: هذه علامة مكروهة، وأمر أن تُعمَل أخاديد وتُملأ نارًا وآجترُّوا إليها الأُسْد بالدُّخَن التى تجلب رُوحانيتها وأَلْقوها على تلك النِّيران، فآجتلبتها تلك الدخن فتهافتت فى تلك النيران فآحترقت. وبَنَى فى وقته مدائن فى ناحية الغرب تَلِفت بالطوفان مع أكثر مُدُنهم.

قال: وآرتفعت الأمطار عنهم وقلّ الماء فى النيل فأجدبوا، وهلك الزرع بالنار والريح الحارّة وغيرها، فأضرّ ذلك بهم، فآحتالوا لدفع النار بطِلّسماتهم فكانت تذهب وتعود. وقيل: إنّ الذى فعل بهم ذلك ساحر من سَحَرتهم كان منقاوش غصبه آمرأته فكان يعمل الحيلة قليلا قليلا فى إفساد طِلّسماتهم؛ لأن لكل طلسم شىء تبطل به روحانيته. وبهذه العلّة دخل بختنصّر الفارسىّ مصر وقد كانت ممتنعة من جميع الملوك. فلمّا أفسد ذلك الساحر الطِّلّسمات، سلّط عليهم تلك الآفات وأفسد طِلّسمات التماسيح فهاجت عليهم ومنعتهم الماء وعذّبهم عذابا كبيرا الى أن

(١) التكملة من خطط المقريزى. (٢) فى خطط المقريزى: «حتى يحاذى المشرق مع الفجر».
(٣) فى خطط المقريزى: «فرعان» بالعين المهملة.

فطنوا به من قِبَل تلاميذه؛ وذلك أن أحدهم لامه على فِعْله فآنتهره ونفخ فى وجهه فأظلم عليه بصرُه، فجاء الى وزير الملك وعرّفه القصّة فأنهاها الى الملك، فأمر الملك بإدخاله عليه فأدخل، فسأله عن الخبر فعرّفه بفعل الساحر، فأنفذ اليه جيشا ليأتوه به، فلمّا نظر الساحر الى القوم وقد أقبلوا دخّن دُخْنة أغشتْ أبصارَهم وآرتفعت منها عَجاجةُ نارٍ أحرقَت وحالت بينه و بينهم، فهالهم ذلك، فرجعوا الى الملك وعرّفوه ما جرى فأمر بجمع السحَرة، وكان من رَسْم السحَرة أن يعاهدوا ملوكهم على أن يكونوا معهم ولا يخالفونهم ولا ينالهم منهم مكروه ولا يبغُونهم الغوائل، فمن فعل ذلك سُلِب علمُه، وكان للملك أن يسفِك دمَه ودمَ أهل بيتــه وولده، وكانوا مع الملوك على هذه الحال يُوفُون بعهودهم. فلمّا اجتمع السحَرة عند الملك أخبرهم خبر الساحر، وكان يقال له: أختاليس، وبما عمِله وقال: تُحضرونه إلىّ و إلّا أهلكتكم؛ فسألوه النَّظِرة[1] فأنظرَهم، فأخذوا أولادهم ونساءهم وخرجوا هاربين، فلمّا خرجوا عنــه تكلّموا بينهــم وقالوا: إنكم لتعرفون كثرة عِلْم أختاليس وشدّةَ سِحْره، وما نرى لنا به طاقةً، ومنقاوش الملك الذى نقَض عهده وتعدّى عليه وأخذ آمرأته غَصْبا، فآحتالوا لخلاصكم منه؛ فأجمعوا أنهم يَصدُقون الملك عن أنفسهم، و يستأذنونه فى الذهاب اليه ومداراته حتى يأتُوه به بعد أن يأخذوا له أمانا منه و يجدّد العهد بينه و بينه. فمَضَوْا الى الملك وصدَقوه عن أنفسهم، فأجابهم الى ما سألوه من ذلك، ثم مضَوْا الى أختاليس فلطَفُوا به ووعَظُوه الى أن أجابهــم الى ما أرادوا، فكتبوا الى الملك بذلك، فكتب للساحر أمانا وعهدا، فرجع ورُدّت اليه آمرأته، فأكرمها وردّها الى دار الملك، وعرّفهم أنه لا يرى فى ذمّته أن يلابس آمرأة لابَسها الملك على حال من الأحوال لمــا كانوا يراعونه من حقوق الملك، فسُرّ الناس بذلك وعجبوا من عقله

١١٨/١٢

(١) النظرة: التأخير والإمهال فى الأمر.

وحكمته ، وصَلُح أمر النـاس ، وعمل أختاليس طِلّسمات وعجائب كثيرة . قال : وملَكهم أقروش أربعا وستين سنة ، وهلك وليس له ولد ولا أخ ، فدُفن فى الهرم وجُعلت معـه أمواله وذخائره وجواهره والصنائع التى عُمِلت فى وقتـه ، وٱجتمع الناس على تمليك رجل من أهل بيت الملك .

فملّكوا عليهم أرمالينوس ، فلمّا ملك أمر بجمع الناس وقال : أرى الأمم الغربية قد تطرّقت إليكم فى نواحيكم ، ويُوشِك أن تسير إليكم ، وأنا مانع لبلادكم ودمائكم منهم بغزوهم والخروج إليهـم وتحويلكم إياهم ، وأحتاج الى معونة من حكمائكم بالأعمال الهائلة والتخاييل العجيبة ، فشكروه ودعَوْا له بالتوفيق . وقالت الحكماء : نحن نخرج مع الملك إذا خرج ونبلغ له مجابه أو يقيم ونحن نخرُج مع الجيش مكانه ونبـذُل أنفسنا دُونه . فٱمتنع من ذلك وخرج فى جيش عظيم وحارب تلك الأمم ونكأ[1] فيها أعظم نكاية ، ورجع غانما وخلّف فى وجوههم جيشا ، فٱجتمعت تلك الأمم فهزمت جيشه ورجع أصحابه مغلوبين فعظُم ذلك عليه . وكانت أصابته علّة من تغـيّر الهواء فأنفـذ ابن عمّ له يقال له فِرْعان بن مِسْوَر ، وكان أحد الجبابرة الذين لا يطاقون ، وهو أوّل فرعون[2] تسمّى بهذا الٱسم ومن سُمّى بعـده سُمّى تشبيها به ؛ فأنفـذه الملك أرمالينوس فى جيش عظيم فأجلى تلك الأمم ونفاها الى أطراف البحر ، وعاد ومعه خلق كثير من الأسرى والرءوس ، فأمر الملك بنصب تلك الرءوس حول مدينته وقتل جميع الأسرى . وكان منهم كاهن فأمر الملك أن يُوشَر[3] بمنشار ، وهو أوّل من فعل

(١) نكأ : قتل فيهم وجرح وأثخن .

(٢) وكذا ورد فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٢) أنه أوّل من لقب بلقب الفراعنة .

(٣) يوشر ، يقال : وشر الخشبة بالمنشار إذا نشرها .

ذلك، فأعلم[1] الملكُ فرعانَ وألبسه خِلَعاً منظومةً بالجوهر، وأمر بأن يطاف به ويذكر فضلُه، وأمر له ببعض قصوره .

وآتفق أن آمرأة من نساء الملك عشقته وراسلته فآمتنع فِرْعان من ذلك وفاءً للملك، ولأنّ التحظّى الى نساء الملوك كان من الأمور العظيمة عندهم . فلمّا طال ذلك عليها أحضَرتْ ساحرةً ولاطفَتْها وذكرت لها حالها ووجْدَها بفِرْعان، فضمِنت لها بلوغ مأربها منه وسَحرتْه لها، فآهتاج اليها وندم على ردّها وجعل يدسّ اليها الى أن آجتمعت معه، وتمكّن حبّ كلّ واحد منهما من صاحبه، الى أن ذاكرتْه أمرَ الملك وأنها لا تأمن أن يتّصل به خبرهما وقالت : أنا أعمل الحيلة فى قتله وتكون أنت الملكَ وأكون لك ونأمن على أنفسنا . فمن شدّة ما عنده من حبّها حسّن لها ذلك، فسمّت الملكَ فى شرابه فمات لوقته وحُمل الى الهرم .

وملك بعده فِرْعان بن مِسْوَر وجلس على سرير المُلْك فلم ينازعه أحد، وفرح الناس بمكانته لشجاعته . وهو الذى كان الطوفان فى وقته . قال : ولمّا ملك علا فى الأرض وتجبّر وآغتصب الناسَ أموالَهم وأنفسَهم ونساءهم، وعمل مالم يعمله ملكٌ قبلَه ؛ وأسرف فى القتل وهابته الملوك وأقرّوا له . وهو الذى كتب الى الدرمسيل ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام . وذلك أن الدرمسيل بن مَحْوِيل كتب الى الأقاليم يسألهم : هل يعرفون آلهة غير الأصنام ؟ ويذكر قصّة نوح وأنه يريد تغيير ذلك، وأن له إلٰها غيرها، فكلٌّ أنكر ذلك . ولمّا أخذ نوح فى بناء السفينة كتب فرعان الى الدرمسيل يشير عليه بإحراقها، وكان عند أهل مصر خبر الطوفان ولكنهم لم يُقدِروا كثرتَه وطولَ مقامه على الأرض، فآتّخذوا السراديب تحت الأرض

(١) أعلمه : وسمه بسيماء الحرب .

١١٩/١٢ وصفّحوها بالزجاج وحبسوا فيها الرياح بتدبيرهم ، وآتخذ فرعان منها عدّة له ولأهل بيته . وكان فرعان قد أقصى الكهّان وباعدهم ، وكانوا مع الملوك على خلاف ذلك . ولنصل هذا الخبر بخبر الكُهّان وما كانوا عليه .

ذكر خبر كُهّان مصر وحالهم مع الملوك

قال : وكُهّان مصر أعظم الكهان علما ، وأجلّهم فى الكَهانة حديثا . وكان حكماء اليونان يصفونهم بذلك ، ويشهدون لهم به ويقولون : أخبرنا حكماء مصر بذلك فآستفدناه منهم . وكانوا يَنحون فى كهانتهم نحو الكواكب ، ويزعمون أنها هى التى تُفيض عليهم العلوم وتُخبرهم بالغيوب ، وهى التى علّمتهم أسرار الطبائع ، ودلّتهم على العلوم المكنونة ؛ فعملوا الطلّسمات المشهورة ، والنواميس الجليلة ، وولّدوا الولادات الناطقة ، والصوَر المتحرّكة ؛ وبنَوْا العالىَ من البنيان ، وزَبَروا علومهم فى الصلب من الصّوّان ، وآنفردوا بعمل البرابى ، ومنعوا بها الأعداء من بلدهم ؛ وعجائبهم ظاهرة . وكان الذى يتعبّد منهم الكواكب السبعة المدبّرة ، لكلّ كوكب سبع سنين ، فإذا بلغ هذه الرتبة سُمّى قاطِرا (١) ، وكان يجلس مع الملك فى المرتبة ويصدُر الملك عن رأيه ، وإذا رآه قام له .

وكان من رَسْمهم فى كل يوم أن يدخل القاطر إلى الملك فيجلس إلى جانبه ؛ ويدخل الكهنة ومعهم أصحاب الصناعات فيقفوا حذاء القاطر ، وكلّ واحد من الكهنة منفردٌ بكوكب يخدمه لا يتعدّاه إلى سِواه ، ويُسمّى عبدَ كوكبِ كذا ، كما كانت العرب تُسمّى عبد شمس ، فيقول القاطر للكاهن : أين صاحبك؟ فيقول :

(١) القاطر : معناه جامع العلوم ، وهو الذى يعبد الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين ، كما ذكره المؤلف أيضا فيما سبق (ص ٢٣) من هذا الجزء .

فى البُرْج الفلانى فى الدرجة الفلانية فى دقيقة كذا ، ويسأل الآخر حتى إذا عرف مستقر الكواكب قال للملك : ينبغى لك أن تعمَل اليوم كذا ، وتَضعَ بنيان كذا ، وتوجّه جيشا إلى ناحية كذا ، وتُجامع فى وقت كذا ، وتأكل فى وقت كذا ، وجميع ما يراه صَلاحا له فى أموره كلّها ؛ والكاتب قائمٌ يكتب جميع ما يقوله القاطر ، ثم يلتفت إلى أهل الصناعات فيقول : انقُشْ أنت صورة كذا على حجر كذا ، وآغرِسْ أنت كذا ، وآصنَعْ أنت كذا ، حتى يمرّ على أهل الصناعات ؛ فيخرجون إلى دار الحكمة ويضَعون أيديَهم فى تلك الأعمال ، ويستعمِل الملك جميع ما يأمره القاطر . ويُشرَح ذلك اليوم فى الصحيفة وتُطوَى وتُودَع فى خِزانة الملك ، فعلى ذلك كانت تجرى أمورهم .

وكان الملك إذا نابَهُ أمرٌ جمعهم وآصطفّ الناسُ لهم فى شارع المدينة ، ثم يدخلون رُكبانا يقدُم بعضهم بعضا ، ويُضرب بين أيديهم بطبل الاجتماع ، فيدخُل كلّ واحد منهم بأُعجوبة : فمنهم مَن يعلو وجهَه نورٌ كنور الشمس فلا يقدِر أحدٌ على النظر إليه ، ومنهم مَن يكون عليه بدَنةُ[1] جوهر أخضر أو أحمر أو من ذهب منسوج . ومنهم مَن يدخل راكبا أسدا متوشّحا بحيّات عِظام . ومنهم مَن تكون عليه قبّة من نور أو من جوهر فى صنوف من العجائب كثيرة . ويصنع كلّ واحد منهم ما يدلّه عليه كوكبُه الذى يعبدُه ؛ فإذا دخلوا على الملك قالوا : أرادنا الملك لأمر كذا وقد علِمنا ، أو أضمر الملك كذا والصواب فيه كذا . فكانوا مع ملوكهم على هذه الحال حتى ملك فِرعان فأبعدهم . وكان فليمونُ[2] رئيسَ الكهّان ، فرأى فيما يرى النائم كأنّ مدينة أمسوس قد آنقلبت بأهلها ، وكأنّ الأصنام

(١) بدنة : البدنة البقيرة ، وهى قميص لا كمين له ، تلبسه النساء .
(٢) فى خطط المقريزى : « فيلمون » .

تهوِى على رءوسها ، وكأنّ ناسا ينزلون من السماء معهم مَقامع[1] فيضربون الناس بها ، وكأنه قد تعلّق بأحدهم وقال له : ما لكم تفعلون بالخَلْق هذا ! أما ترحمونهم؟ فقال : لأنهم كفَروا بإلٰههم . قال : أفما لهم من خلاص؟ قالوا : نعم ، مَن أراد الخَلاص فليَلْحَق بصاحب السفينة ، فآنتبه وهو يخاطبه ، فبقِىَ مرعوبا مما رآه . وكان له آمرأة وولدان ذكر وأنثى ومعه تلاميذه ، فأجمع على أن يَلحَق بنوح عليه السلام ، ثم نام أيضا فرأى كأنه فى رَوْضة خضراءَ ، وكأنّ فيها طيورا بيضاء تفُوح منها رائحة طيّبة ، وكأنه تعجّب من حُسنها إذ تكلّم بعض الطيور فقال لأصحابه : سيروا بنا نُنْجِ المؤمنين . قال له فليمون : ومَن هؤلاء المؤمنون؟ قال : أصحاب السفينة . فآنتبه مرعوبا وأخبر أهله وتلاميذَه بذلك ثم نام .

فلمّا كان الغدُ أتى الملكَ فقال : إن رأى الملك أن يُنْفِذَنى إلى درمسيل لأعرف حال هذا الرجل الذى عمل السفينة فأشاهده وأناظره على ما جاء به من هذا الدِّين الذى أظهره وأتبيّن حقيقة أمره فليفعل ؛ فإنى أرجو أن يكون ذلك سببا لهلاكه ودفعه عما يدّعيه ، فأعجب الملك ذلك منه وأذن له فى الخروج ، فسار بأهله وولده وتلاميذه حتى آنتهَوْا إلى أرض بابل وقصد نوحا وسأله أن يشرح له دينه ففعل ذلك ، فآمن به وجميعُ مَن معه ، فقال نوح عليه السلام : من أراد اللهُ عز وجل به الخيرَ لم يَصدُفْه أحد عنه . فلم يزل فليمون مع نوح عليه السلام يخدمه هو وولده وتلاميذه إلى أن ركبوا السفينة .

١٢٠/١٢

وأمّا فِرْعان الملك فإنه أقام مُنهمكا فى ضلاله وظُلمه ، مقبلا على لَهْوه ، وآستخفّ بالكَهَنة والهياكل ، وضاقت الدنيا بأهلها ، وكثُر الهَرْج والظلم ، وفسَدت الزروع ،

(١) مقامع : المقامع جمع المقمعة ، وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه لِذل وهوان .

وأجدبت النواحى ، وظلَم النـاسُ بعضهم بعضا، ولم يكن أحدٌ ينكر ذلك عليهـم ، وسُدّت الهياكل والبرابى ، وطُيِّنت أبوابها، وجاءهم الطوفان وأقبل المطر عليهم ، وكان فِرْعان سكران فلم يقُم إلّا بخرير المـاء، فوثب مُبادرا يريد [الهرب إلى] (١) الهرم فتخلخلتِ الأرض به ، وطلب الأبواب فخانتـه رجلاه وسقط على وجهـه وجعل يخُور كما يخُور الثور، إلى أن أهلكه الله تعالى بالطوفان، ومَن دخل الأسراب منهم هلك بغَمّها، ولحق المـاءُ من الأرض والأهرام إلى آخر التربيع، وهوظاهر عليها إلى الآن ، وانقرضت ملوك الدنيا أجمع بالطوفان ولم يسلم إلا أصحاب السفينة كما تقدّم . فعدّة مَن سُمّى لنـا من ملوك مصر قبل الطوفان على هذا السِّياق تسعة عشر ملكا، ثم ملكها بعد الطوفان مَن نذكره .

ذكر مَن ملك مصر بعد الطوفان من الملوك

قال إبراهيم بن القاسم الكاتب : قال إبراهيم بن وَصِيف شاه : أجمع أهل الأثر أنّ أوّل مَن ملك مصر بعد الطوفان مصْرِيم بن بيْصر بن حام بن نوح عليه السلام، وذلك بدعوة سبقت له من جدّه . وكان السبب فى ذلك أنّ فليمون الكاهن سأل نوحا عليه السلام أن يخلطه بأهله وولده وقال : يا نبىّ الله ، إنى قصدتك رغبةً فى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتصديقك يانبىّ الله ، وتركت وطنى وبلدى فاجعل لى رفعةً وقدرا أذكَر بهما من بعدى ، فزوّجَ نوحٌ عليه السلام بَيْصَر بن حام بنتَ فليمون الكاهن فولدت له ولدا سمّـاه فليمون مصريم (٢) باسم بلده، فلمّا أراد نوح قسمة الأرض بين بنيـه قال له فليمون : ابعث معى يا نبىّ الله ابنى حتى أمضِى به إلى بلدى وأُظهره على كنوزه وأُوقفه على علومه ورموزه ، فأنفذه معه فى جماعة من أهل بيته ، وكان

(١) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٢٥ طبعة فيت) .
(٢) فى خطط المقريزى (ج ١ ص ٧٣ طبعة فيت) : «مصرايم» .

غلاما مراهقا ، فلمّا قرُب من مصر بنى له عَرِيشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض، ثم بنَى له بعد ذلك فى الموضع مدينة وسمّاها دَرْسان[1]، أى باب الجنة؛ فزرعوا وغرسوا الأشجار والأجنّة من درسان الى البحر. [فصارت هناك][2] زروع وأجنّة وعمارة وكان الذين مع مِصْريم جبابرة ؛ فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع وأقاموا فى أرغد عَيْش .

ونكح مصريم آمرأة من بنات الكَهَنة فولدت له ولدا سمّاه قبطيم ، ونكح قُبْطيم بعد سبعين سنة من عمره آمرأة ولدت له أربعة نفر ، وهم : قُفْطَريم ، وأُشمون ، وأَتريب ، وصا ، وكثروا وعمّروا الأرض وبُورك لهم فيها . وقيل : كان عدد مَن وصل مع مصريم ثلاثين نفرا فبنَوْا مدينة سمّوْها مافَهْ . ومعنى مافَهْ ثلاثون بلغتهم ، وهى مَنف ؛ وكشف أصحاب فليمون عن كنوز مصر وعلّموهم خطّ البرابى ، وأثاروا لهم المعادن من الذهب والزبرجَد والفَيْروزَج والأسباد شم[3] وغير ذلك ، ووصفوا لهم عمل الصنعة ، فجعل الملك أمرها الى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام ، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقىّ فسُمِّىَ به المُقطّم ، وعلّموهم أيضا عمل الطلّسمات . وكانت تخرُج من البحر دوابّ تفسد زرعهم وأجنّتهم وبنيانهم فعملوا لها الطلّسمات فغابت ولم تعُد . وبنَوْا على عَبْر البحر مُدُنا منها : رَقُودة مكان الإسكندرية ، وجعلوا فى وسطها قبّة على أساطين من نُحاس مُذهَب والقبّة مُذهَبة ، ونصبوا فوقها مرآة من أخلاط شتّى قُطْرها خمسة أشبار ؛ وكان آرتفاع القبّة مائة ذراع ؛ فكانوا اذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم ، فإن كان مما يهمّهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شُعاعها على ذلك الشىء فأحرقته ؛ فلم تزل على حالها الى أن غلب عليها

(١) درسان : هى مدينة العريش . (٢) التكملة من خطط المقريزى (ج ١ ص ٧٣ طبعة فيت).
(٣) فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٨٠ طبع بلاق) : « الاشباد جشم » وذكر أنه نوع من الجواهر تتخذ منه النصول وغيرها .

البحر فنسفها . وقيل : إن الإسكندر إنما عمل المنارة تشبّها بها . وقد ذكرنا خبر المنارة فيما تقدّم من كتابنا هذا[1] .

وقال : لما حضرت مِصْريم الوفاة عهد الى ابنه قُبْطيم بن مصريم، فقسم قبطيم مصر بين بنيه الأربعة : فجعل لابنه قُفْطريم من قِفْط الى أُسوان الى النُّوبة، ولأُشمون من أشمون الى مَنْف ، ولأَتْريب الحَوْف كلّه الى الشجرتين الى أيلة من الحجاز ، ولِصَا من ناحية صَا البحيرة الى قُرْب بَرْقة، وقال لأخيه فارق : لك من برقة الى المغرب، فهو صاحب إفريقية . وولده الأفارق . وأمر كل واحد من بنيه أن يبنيَ لنفسه مدينة فى موضعه . وأمر مصريمُ عند موته أن يحفروا له فى الأرض سَرَبا وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض و يجعلوا فيه جسده، و يدفنوا معه جميع ما فى خزائنه من الذهب والجوهر، و يَزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعةَ من أخذه . فحفروا له سربا طوله مائة وخمسون ذراعا، وجعلوا فى وَسَطه مجلسا مصفّحا بصفائح الذهب، وجعلوا له أربعة أبواب ، على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصّع بالجوهر، جالس على كرسىّ من ذهب قوائمه من زَبرجَد، وزبروا فى صدر كل تمثال آيات عظاما مانعة، وجعلوا جسده فى جُرْن من المرمر مُصفّح بالذهب وزَبَرُوا على مجلسه : مات مصريم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان، ومات ولم يعبد الأصنام ، إذ لا هَرَم ولا سَقام ، ولا حُزْن ولا اهتمام ، وحصنه بأسماء الله العظام، لايصل اليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك يَدِين بدين الملك الديّان، و يؤمن بالبعث والفُرقان ، الداعى الى الإيمان فى آخر الزمان . وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجَد المخروط، وألفَ تمثال من الجوهر النفيس، وألفَ

١٢١/١٢

(١) راجع (ج ١ ص ٣٩٥ من هذه الطبعة) .

برنية [مملوءة][1] من الدرّ الفاخر والصّنعة الإلهية ، والعقاقير البرّيّة ، والطلّسمات العجيبة ، وسبائك الذهب مكدّسةً بعضها على بعض ، وسقّفوا ذلك بالصخور العظام وهالوا فوقها الرمال [بين جبلين][1] .

واستقلّ قبْطيم بالملك بعد أبيه .

ويقال : إنّ قِبْط مصر منسوبون اليه . وهو أوّل مَن عمِل العجائب وأثار المعادن ، وشقّ الأنهار . ويقال : إنه لحق البلبلة[2] وخرج منهم بهذه اللغة القِبْطية ، وعمِل ما لم يعمله أبوه من نَصْب الأعلام والمنارات والعجائب والطلّسمات . ومَلَكهم قبطيم [أربعمائة و][3] ثمانين سنة ومات ، فاغتمّ عليه بنوه وأهله ودُفن فى الشرق فى سَرَب تحت الجبل الكبير الداخل ، وصَفّحوه بالمرمر الملوّن وجعلت فيه منافذ للرّياح ، فهى تخترق فيه بدوىّ عظيم هائل ، وجُعل فيه من الكبريت الأحمر وأُكَر من نحاس مطليّة بأدوية مُشعِلة لا تُطفأ ، ولطّخوا جسده بالمرّ والكافور والمُوميا ، وجعلوه فى جُرْن من ذهب فى ثياب منسوجة بالمَرجان والدرّ ، وكشفوا عن وجهه وجعلوه تحت قبّة ملوّنة ، فى وَسَطها درّة معلّقة تُضىء كالسراج ، والقبّة على أعمدة بين كلّ عمودين تمثالٌ فى يده أُعجوبة ، وجعلوا حول الجُرْن توابيتَ مملوءة جوهرا وذهبا وتماثيل وصَنْعة وغيرَ ذلك ، وحول ذلك مصاحف القِبْط والحكمة ، وسدّوا عليه بالصخور والرّصاص وزَبَروا عليه كما زَبَروا على ناووس أبيه .

وملك بعده ابنه قُفْطريم بن قُبْطيم ، وكان أكبرَ ولد أبيه ، وكان جبّارا عظيم الخَلْق ، وهو الذى وضع أساسات الأهرام الدّهْشوريّة وغيرها ليعمل منها كما عمل الأوّلون ، وهو الذى بنى دَنْدَرة ومدينة الأصنام . ودَنْدَرة : بلد من بلاد إقليم قوص ، وهى فى البرّ الغربىّ مشهورة هناك . قال : وأثار من المعادن ما لم يُثره غيره ،

(١) التكملة من خطط المقريزى (ج ١ ص ٧٥ طبعة فيت) . (٢) البلبلة : اختلاط الألسن .
(٣) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٣ طبعة فيت) .

وكان يجز من الذهب مثلَ حَجَر الرحى، ومن الزَّبرجَد كالأُسطوانة، ومن الأسباد شم فى صحراء الغَرْب كالقلّة. وعمِل من العجائب شيئا كثيرا. وبَنى منارا عاليا على جبل قِفْط يُرَى من البحر الشرقىّ، ووجَد هناك مَعدِن زئبق فعمل منه بركة كبيرة، فيقال إنها هناك الى الآن، وأما المنار فسقط. وعمِل عجائب كثيرة. ويقال: إنه بنى المدائن الداخلة وعمِل فيها عجائب كثيرة، منها: الماء الملفوف القائم كالعمود لا ينحلّ ولا يذوب، والبركة التى تسمّى فلسطين، أى صيّادة الطير، إذا مرّ عليها الطير سقط فيها ولم يمكنه أن يبرح حتى يؤخَذ. وعمِل أيضا عمودا من نحاس عليه صورة طائر إذا قُرِبت الأُسْد والحيّات والأشياء المضرّة من تلك المدينة صفر صفيرا عاليا فترجع تلك الدوابّ هاربة. وكان على أربعة أبواب هذه المدينة أربعةُ أصنام من نحاس لا يقرُب منها غريب إلّا ألقى عليه النوم والسُّبات، فينام عندها ولا يستيقظ حتى يأتيه أهل المدينة وينفخون فى وجهه فيقوم، وإن لم يفعلوا ذلك لم يزل نائما عند الأصنام حتى يهلك. وعمِل منارا لطيفا من زجاج ملوّن على قاعدة من نحاس، وعلى رأس المنارة صورة صنم من أخلاط كثيرة، وفى يده كالقوس كأنه يرمى عنها، فإن عاينه غريب وقفت فى موضعه لم يبرح حتى يُنجِيَه أهل المدينة. وكان ذلك الصنم يتوجّه إلى مهبّ الرياح الأربع من نفسه.

١٢٢/١٢

قال وقيل: إن هذا الصنم على حالته إلى الآن، وإنّ الناس تحامَوْا تلك المدينة على كثرة ما فيها من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفا من ذلك الصنم أن تقع عين الإنسان عليه فلا يزال قائما حتى يتلف. قال: وكان بعض الملوك عمِل على قلعه فما أمكنه، وهلك لذلك خلق كثير. ويقال: إنه عَمِل فى بعض المدن الداخلة مرآة من أخلاط ترى جميع ما يسأل الإنسان عنه وهى غربىّ البلد. قال: وعمِل خلف الواحات الداخلة مُدُنا عمِل فيها عجائب كثيرة

ووكّل بها الروحانيّين الذين يمنعون منها ؛ فما يستطيع أحد أن يدنوَ منها ولا يدخلها أو يعملَ قرابين أولئك الروحانيين فيصل إليها حينئذ ويأخذ من كنوزها ما أحبّ من غير مشقّة ولا ضرر . قال : وأقام قفطريم ملكا أربعمائة سنة . وأكثر العجائب عُملت فى وقته ووقت آبنه البودسير[1] . وكان الصعيد أكثرَ عجائب من أسفل الأرض . قال : وفى آخر أيام قفطريم هلكت عاد بالريح العقيم .

ولمّا حضرت قفطريم الوفاةُ عُمِل له ناووس من الجبل الغربىّ قرب مدينة الكَهَنة ، كان عمله لنفسه قبل موته فى سَرَب فى الجبل كهيئة الدار الواسعة وجعل دورها خزائن منقورة ، وجعل فى سقوفها مسارب للرياح ، وبنى ذلك بالمرمر ، وجعل فى وسط الدار مجلسا على ثمانية أركان مصفحا بالزجاج الملوّن المسبوك ، وجعل فى سقفه جواهر وحجارةً تسرج ، وجعل فى كل ركن من أركان المجلس تمثالا من الذهب بيده كالبوق ، وجعل تحت القبّة دكّة مصفّحة بالذهب ، وجعل لها حوافىَ زَبَرْجَد ، وفرش فوق الدكّة فرش الحرير ، وجعل عليها جسده بعد أن لُطخ بالأدوية الممسكة ، ومن جوانبه آلات الكافور المخروطة ، وسُدِلت عليه ثياب منسوجة بالذهب ، ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مُلكه ، وعن جوانب الدكّة أربع تماثيل مجوّفات من زجاج مسبوك مثل صُوَر النساء وألوانهن ، بأيديهن كالمراوح من ذهب ، وعلى صدره من فوق الثياب سيف صاعقىّ قائمه من الزبرجد ، وجُعل فى تلك الخزائن : من الزبرجد وسبائك الذهب والتيجان والجواهر وبرانى الحِكَم وأصناف العقاقير والطّلّسمات ، ومن المصاحف الحاوية لجميع العلوم ، مالا يحصى قدره كثرة ؛ وجُعل على باب المجلس ديك من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين مزبور عليه آيات عظام مانعة ، وجُعل على مدخل كل أَزَج صورتين من نحاس مشوّهتين بأيديهما

(١) فى خطط المقريزى : « البودشير » بالشين المعجمة .

سيفان كالبرق ، ووراءهما بلاطة تحتها لوالب فمن وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه ، وفى سقف كل أَزَج كرة عليها لَطُوخ مدبّر يُسَرّج، وسُدّ باب الأَزَج بالأساطين ورصّوا على سقفه البلاط العظام و ردموا فوقها الرمال، و زبروا على باب الأَزَج : هذا الداخل إلى جسد الملك العظيم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذى الأَيْد والفخر، والغلبة والقهر، أفَل نجمه و بقِىَ ذكره وعلمه ، فلا يصل أحد اليه ، ولا يقدر بحيلة عليه، وذلك بعد سبعمائة وسبعين، ودورات مضت من السنين .

قال : ولمّا مات قُفْطريم ملك بعده ابنه البُودسير بن قفطريم؛ فتجبّر وتكبّر وعمِل بالسحر وآحتجب عن العيون، وقد كان أعمامه أشمون وأتريب وصا ملوكا على أحيازهم إلّا أنه قهرهم بجبروته وقوته، فكان الذكر له كما كان لأبيه . ويقال : إنه أرسل هِرْمِس الكاهن المصرىّ إلى جبل القُمْر الذى يخرج النيل من تحته حتى عمِل هناك هيكل التماثيل النحاس، وعدل إلى البطيحة التى ينصبّ اليها ماء النيل . ويقال : إنه الذى عدّل جانبى النيل وقد كان يفيض [فى مواضع وينقطع فى مواضع][1] ، وأمره البودسير أن يسير مغربا فينظر الى ماهناك . فوقع على أرض واسعة متخرّقة بالمياه والعيون كثيرة العُشْب، فبنى منائر ومتنزهات، وحوّل اليها جماعة من أهل بيته فعمّروا تلك النواحى وبنَوْا فيها حتى صارت أرض الغرب كلها عمارة، وأقامت كذلك مدة كثيرة وخالطهم البربر فتناكحوا ؛ ثم إنهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض، وكانت بينهم حروب فخرب البلد وباد أهله إلا بقية منازل تسمّى الواحات هى موجودة الى وقتنا هذا .

113
12

ويقال : إنه عمل عجائب كثيرة فى وقته ، منها : قبّة لها أربعة أركان وفى كلّ ركن منها كوّة يخرج منها كالدخان الملتفّ فى ألوان شتّى [يستدلّون بكل

(١) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٧ طبعة فيت) .

لون على شيء[1]] ؛ فما خرج منه أخضر دلّ على العمارة وحسن النبات والزرع وصلاحه ، وإن خرج الدخان أبيض دلّ على الجدب وقلّة الزكاء[2] ، وإن خرج أحمر دلّ على الدماء والحروب وقصد الأعداء ، وإن كان أسود دلّ على كثرة الأمطار والمياه وفساد بعض الأرض بذلك ، وإن كان أصفر دلّ على النيران وآفاتٍ تحدُث فى الفلك ، وما كان منها مختلطا دلّ على مظالم الناس وتعدّى بعضهم على بعض وإهمالِ ملوكهم لهم ، وأشياء من هذا الضرب . وكانت هذه القبّة على منار أقام زمنا طويلا ثم هدمه بعض الملوك البربر ؛ لأنه أراد غزو قوم بتلك الناحية فعلموا بحاله فانتقلوا عن ذلك الموضع الى قُرب النيل فلمّا جاء ولم يجدهم هدمه .

ومما عُمِل له فى الصحراء التى تقرُب منه — وكانت الوحش قد كثُرت وأفسدت عليهم زرعهم وكذلك خنازير الماء — شجرةٌ من نحاس عليها أمثالُ تلك الوحوش مُلجَمة أفواهُها بخيوط من نحاس ، فما يجوز بها من الوحش لا يستطيع الحراك ولا البَراح من عندها حتى يُؤخَذ قَبْضا ويُقتَل ؛ فأشبع الناسَ فى لحوم تلك الوحوش وانتفعوا بجلودها زمانا طويلا إلى أن انتزعها بعض ملوك الغرب سرّا من أهل مصر وقدّر أن ينصبها فى بلدهم فتعمل له مثل ذلك ، فلمّا عمِلها بطَلت ؛ لأنهم كانوا يعملون ما يعملون بطالع يأخذونه له ، فلا يزال عمله مستقيما إلى أن تغيّر عن مكانه فبطَل عمله .

ومما عُمِل فى وقته أنّ غرابا نقَر عين صبيّ من أولاد الكهنة فقلعها ، فعمِل شجرة من نحاس عليها تمثالُ غراب من نحاس فى منقاره حربة بادية الطرفين ، منشور الجناحين ، وكتب على ظهره كتابا ؛ فكانت الغربان تَقَع على تلك الشجرة

(١) التكملة من خطط المقريزى . (٢) الزكاء : النماء ، يقال زكا الشيء يزكو زكاء وزكوا ، نما .

ولا تبرح حتى تؤخذ فتقتل، ففنِيَ أكثر الغربان وزالت عن تلك الناحية إلى ناحية الشام . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن أصاب بعضَ ملوكهم علّةٌ ووُصِف له فيها لحمُ غراب يطبُخه ويأكله ويشرب من مرقه فلم يُوجَد، فوجّه الى آخر العمل الذى بمصر من ناحية الشام من يأتيه بغراب فأبطأ عليه، فأمر بنزع الشجرة فرجع الغربان وأخذ منها ماعولج به الملك قبل أن يرجع رسوله .

ومما عُمِل فى وقته — وكانت الرمال قد كثُرت عليهم من ناحية الغرب حتى ظهرت على زروعهم — فعَمِل لذلك صنمًا من صوّان أسود على قاعدة منه وعلى كتفه شبه القفّة فيها كالمسحاة، ونقش على جبهته وصدره وذراعيه وساقيه حروفا ، وأقامه الكاهن بطالع أخذه له ووجهه إلى الغرب ؛ فانكشفت تلك الرمال ورجعت إلى ورائها . فتلك الأكداس العالية فى صحراء الغرب منها . ولم تزل الرمال تندفع عنهم إلى أن زال ذلك الصنم عن موضعه . قال : وأقام البودسير مدّة واحتجب عن الناس ، وكان يتجلّى لهم فى صورة وجه عظيم ، وربما خاطبهم ولا يرونه ، ثم غبر[1] مدّة وهم فى طاعته إلى أن رآه ابنه عديم وهو يأمره بالجلوس على سرير الملك .

فجلس عديم[2] بن البودسير على الملك وكان جبارا لا يطاق، عظيم الخَلْق، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرما كما عمل الأوّلون . قال : وكان فى وقته الملكان اللذان

(١) غبر : مكث وبقى .

(٢) فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٨ طبعة ڤيت) مانصه : «فلما مات ملك بعده ابنه أرقليمون، وكان كاهنا ساحرا، فعمل أعمالا عظيمة، منها : أنه كان يجلس فى السحاب فيرونه فى صورة إنسان عظيم، وأقام مدّة على ذلك، ثم إنه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك ، ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أوّل برج الحمل ، فأمرتهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطريم : وأعلمتهم أنه ما بقى يعود إليهم . فولوا عليهم ملك مصر عديم بن قفطريم، وكان جبارا عظيما ... الخ» .

هبطا من السماء، وكانا فى بئر يقال لها أفناوه، وكانا يعلّمان أهل مصر السحر. ويقال: إن عديم استكثر من علمهما ثم نُقلا إلى بابل .

قال : وأهل مصر من القبط يقولون إنهما شيطانان يقال لهما : مُهلة ومَهالة، وليس هما المَلَكين . والمَلَكان ببابل فى بئر هناك يغشاها السحَرة إلى يوم الساعة .

ولنصل هذا الفصل بخبر هاروت وماروت و إن لم يكن منه ؛ و إنما الشىء بالشىء يذكر . والله أعلم .

ذكر خبر هاروت وماروت

١٢٤/١٢ قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾(١) الآية . قال أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسيره : وكانت قصّتهما — على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنه والمفسّرون — أنّ الملائكة رأَوْا ما يصعَد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة ؛ وذلك فى زمن إدريس عليه السلام فيعيّرونهم بذلك، ودعت عليهم الملائكة وقالوا : هؤلاء الذين جعلتهم فى الأرض وآخترتهم فهم يعصونك ؛ فقال الله عزّ وجل لهم : لو أنزلتكم إلى الأرض و ركّبت فيكم ما ركّبت فيهم لركبتم ما آرتكبوا ؛ فقالوا : سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك ؛ قال الله تعالى : فآختاروا مَلَكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض ، فآختاروا هاروت وماروت ، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم . قال : وقال الكلبىّ : قال الله لهم : اختاروا ثلاثة فآختاروا عَزّا وهو هاروت ، وعَزَايا وهو ماروت ، وغُيّر آسمهما لمّا قارفا الذنب ، وعزرائيل ؛ فركّب الله فيهم الشهوة التى ركّبها فى بنى آدم وأهبطهم إلى الأرض ، وأمرهم أن يحكموا

(١) سورة البقرة آية ١٠٢

بين الناس بالحق ، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير حق ، ونهاهم عن الزنا وشُرب الخمر . فأما عزرائيل فإنه لمّا وقعتِ الشهوة فى قلبه استقال ربّه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه، فسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه. ولم يزل بعد ذلك مطأطئ رأسه حياءً من الله تعالى . وأما الآخران فإنهما بقيا على ذلك، وكانا يقضيان بين النـاس يومَهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء . قال قَتادة : فما مرّ عليهما أشهر حتى افتتنا .

قال الثعلبىّ : قالوا جميعا : وذلك أنه اختصم اليهما ذات يوم الزُّهَرة، وكانت من أجمل النساء . قال علىّ رضى الله عنه : كانت من أهل فارس ، وكانت ملكة فى بلدها ، فلمّـا رأياها أخذت بقلوبهما ، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ، ثم عادت فى اليـوم الثانى ففعلا مثل ذلك، فأبت وقالت : لا ! إلا تعبدا ما أعبد، وتصلّيا لهذا الصنم ، وتقتـلا النفس ، وتشربا الخمر . فقالا : لا سبيل إلى هـذه الأشـياء ؛ فإن الله عز وجل نهانا عنها ، فانصرفت ؛ ثم عادت فى اليـوم الثالث ومعها قدح من خمر وفى أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقـالا : الصلاة لغـير الله عظيم ، وقتـل النفس عظيم ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ؛ فشربا فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا ، فلمّـا فرغا رآهمـا إنسـان فقتلاه . قال الربيـع بن أنس : وسجدا للصنم فمسخ الله عز وجل الزُّهَرة كوكبا .

وقال علىّ بن أبى طالب والسدّى والكلبىّ رضى الله عنهم : إنها قالت لهما : لن تدركانى حتى تخـبرانى بالذى تصـعدان به إلى السماء . فقالا : باسم الله الأكبر . قالت : فـما أنتما بمدركانى حتى تعلّمانيه . فقال أحدهما لصاحبه : علّمها ! قال : إنى أخاف الله . قال الآخر : فأين رحمة الله ! فعلّماها ذلك . فتكلّمت به وصعدت

إلى السماء . فمسخها الله تعالى كوكبا . فعلى قول هؤلاء هى الزُّهَرة بعينها ، وقيّدوها فقالوا : هى هذه الكوكبة الحمراء واسمها بالفارسية «ناهيد» ، وبالنبطية «بيدخت» .

قال : ويدلّ على صحة هذا القول ما رواه الثعلبيّ بسنده إلى عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى سُهَيلا قال : " لعن الله سُهَيلا إنه كان عشّارا[1] باليمن ولعن الله الزُّهَرة فإنها فتنت مَلَكين " .

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما ذاتَ ليلة فقال لى : ارمُقِ الكوكبة فإذا طلعت فأيقظنى ، فلمّا طلعت أيقظته ، فجعل ينظر إليها ويسبّها سبّا شديدا ، فقلت : رحمك الله تسبّ نجما سامعا مطيعا لله؟ ما له يُسَبّ! فقال : إن هذه كانت بغيًّا فلقِي المَلَكان منها ما لقِيا . وقال نافع : كان ابن عمر رضى الله عنهما إذا رأى الزُّهَرة قال : لا مرحبًا بها ولا أهلا . وروى أبو عثمان النهدى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن المرأة التى فُتِن بها المَلَكان مُسِخَت ، فهى هذه الكوكبةُ الحمراءُ ، يعنى الزُّهَرة .

قال الثعلبيّ : وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا : إن الزهرة من الكواكب[2] السبعة السيّارة التى جعلها الله قواما للعالَم ، وإنما كانت هذه التى فَتَنت هاروت وماروت امرأة ، كانت تسمَّى زُهَرة من جمالها ، فلمّا بغت جعلها الله تعالى شهابا ،

(١) العشار : الذى يقبض عشر الأموال .

(٢) ويؤيد هذا ما قاله الإمام القرطبي فى تفسيره لهذه الآية الكريمة (ج ٢ ص ٥٢) : «هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصح منه شيء ، فانه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ، (بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) ، (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) . وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهم الشهوات ؛ إذ فى قدرة الله تعالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح . ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ؛ ففى الخبر : =

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهرة ذكر هذه المرأة لموافقة الأسمين فلعنها، وكذلك سُهَيل العشّار . والله أعلم .

قالوا : فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حلّ بهما فقصدا إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل ففعل ذلك ، فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع ، فهما ببابل يعذّبان . واختلف العلماء فى كيفيّة عذابهما فقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : هما معلّقان بشعورهما إلى قيام الساعة . وقال قَتادة : كُبِّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما . وقال مجاهد : إن جُبّا مُلِئ نارا فجُعلا فيه . قال حُصَيف : معلّقان منكّسان فى السلاسل . وقال عُمَير بن سعد : منكوسان يُضرَبان بسياط الحديد . ورُوى أنّ رجلا أراد تعلم السحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلّقين بأرجلهما، مُزرقّة أعينهما ، مُسودّة جلودهما ، ليس بين ألستهما و بين الماء إلّا قدرُ أربع أصابع، وهما يعذّبان بالعطش، فلمّا رأى ذلك هاله مكانهما فقال : لا إله إلا الله، وقد نُهِىَ عن ذكر الله هناك . فلمّا سمعا كلامه قالا : مَن أنت ؟ قال : رجل من الناس . قالا : من أىّ أمة أنت ؟ قال : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . قالا : وقد بُعِث؟ قال نعم . قالا : الحمد لله! وقد أظهرا الاستبشار . فقال الرجل : ممّ استبشاركما ؟ قالا : إنه نبىّ الساعة . وقد دنا انقضاء عذابنا .

١٢٥/١٢

= "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوارة زحل والمشترى و بهرام وعطارد والزهرة والشمس والقمر". وهذا معنى قول الله تعالى : (وكل فى فلك يسبحون). فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلا قد كانا قبل خلق آدم، ثم إن قول الملائكة : ما كان ينبغى لنا عوده ، لا تقدر على فتنتنا ، وهذا كفر نعوذ بالله منه ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وقد نزهناهم وهم المنزهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون » .

قال: وأمّا كيفية تعلّم السحر، فقد رُوِىَ فيه خبرٌ جامعٌ، وهو ما رواه أبو إسحاق بسنده عن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: قدمت علىّ امرأة من أهل دُومَة الجندل جاءت تبتغى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته تسأله عن شىء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به؛ قالت عائشة رضى الله عنها لعُروة: يا بن أختى، فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت تبكى حتى إنى لأرحمها! تقول: إنى أخاف أن أكون قد هلكت؛ قالت: كان لى زوج فغاب عنّى فدخلتْ علىّ عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت: إن فعلتِ ما آمرك به فلعلّه يأتيك، فلمّا كان الليل جاءتنى بكَبْشَيْن أسودَيْن فركبتْ أحدهما وركبتُ الآخر، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابِل، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بِك؟ فقلت: أتعلّم السحر، قالا: إنما نحن فتنة فلا تكفُرى وارجعى، فأبيت فقلت: لا، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنُّور فبُولى فيه، فذهبت ففزِعت فلم أفعل، فرجعت إليهما فقالا: فعلتِ؟ قلت نعم، قالا: هل رأيتِ شيئا؟ قلت: لم أر شيئا، فقالا: لم تفعلى، إرجعى إلى بلادك فلا تكفُرى، قالت: فأبيت، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنُّور فبُولى فيه، فذهبت فاقشعرّ جلدى فرجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: هل رأيتِ شيئا؟ فقلت: لم أر شيئا، فقالا: كذبتِ لم تفعلى، إرجعى إلى بلادك فلا تكفُرى فإنك على رأس أمرك؛ قالت: فأبيت، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنُّور فبُولى فيه، فذهبتُ إليه فبلتُ فرأيت فارسا مقنّعا بحديد خرج منّى حتى ذهب فى السماء وغاب عنّى حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت؛ قالا: فما رأيتِ؟ قلت: رأيتُ فارسا مقنّعا بالحديد خرج منّى حتى ذهب فى السماء حتى ما أراه، قالا: صدقتِ، ذلك إيمانك خرج منك؛ اذهبى. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئا، وما قالا لى شيئا. فقالت: لن تريدى شيئا إلا كان؛ خذى هذا القمح فابذُرى،

فبذَرت، قلت: أطلُعى، فأطْلعت[1]، فقلت، أحقِلى، فأحقلت[2]، ثم قلت: أفركى[3]، فأفركت، ثم قلت: أطحنى، فأطحنت، ثم قلت: أخبزى، فأخبزت. فلما رأيت أنى لا أريد شيئا إلا كان، سُقِط فى يدى وندِمت. والله يا أمّ المؤمنين ما فعلتُ شيئا قطّ، ولا أفعله أبدا.

٥ قال: وقال بعضهم: إنهما لايتعمّدان تعليم السحر ولكنهما يصفانه ويذكران بطلانه ويأمران بآجتنابه، فيتعلّم الشقىّ منهما فى خلال صفتهما ويترك موعظتهما ونصيحتهما، فلا يكون على هذا التأويل كفرا وإنما يكون العمل به كفرا. وقد أنكر بعضهم أن يكونا مَلَكين قال: وإنما كانا مَلِكَيْن. وقرئ فى الشواذّ: ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ ﴾ (بكسر اللام). وقيل: كانا عِلْجين ببابل[4]. حكاه القاضى عياض

١٠ فى كتاب الشفا[5]. والله تعالى أعلم.

ولنرجع إلى أخبار عَديم بن البودسير الملك. قال: وعديم أوّل من صلب[6]؛ وذلك أنّ آمرأة زَنَت برجل من أهل الصناعات، وكان لها زوج من أصحابه، فأمر

١٢٦/١٢

(١) أطلعت: أطلع الزرع، بدا. (٢) أحقلت: أحقل الزرع: تشعب ورقه قبل

١٥ أن تغلظ سوقه. (٣) أفركى: يقال أفرك الزرع إذا بلغ أن يفرك باليد.

(٤) ورد بهامش نسخة ب هذه الحاشية ونصها: «والصحيح الذى ذكره القاضى عياض، وأما الذى ذكر أوّلا ليس بصحيح، فان صاحب العقل الراجح الصحيح هو الذى يقول بقول العلماء الأقدمين الذين درسوا العلوم الالهية الحقيقية والمعارف العقلية، وهم الفلاسفة العظام الذين هم فى مراتب الأنبياء العظام مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وهارون ويوشع وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، لأن

٢٠ الملائكة خلقهم الله تعالى خلقة غير خلقة ابن آدم وجعل فيهم من القوّة والتلوّن، يتصوّرون بكل صورة أرادوا، وهم شباب لم يموتوا ولم يتغيروا ولم يجيروا ولم يرهم بشر إلا إن أرادوا ذلك. والصحيح أن هاروت وماروت ليسا ملكين وإنما كانا علجين ظالمين فأهلكهما الله سبحانه وضرب بهما المثل».

(٥) راجع صفحة ١٧٢ طبع الآستانة. (٦) يعنى لأجل الزنا.

بصلبهما على منارتين، وجعل ظهر كلّ منهما إلى ظهر صاحبه ، وزَبَر على المنارتين اسمهما وما فعلاه وتاريخ الوقت الذى عُمِل ذلك بهما فيه، فانتهى الناس عن الزنا. قال : وبنى أربع مدائن وأودعها صنوفا كثيرة من عجائب الأعمال والطِّلَّسمات وغير ذلك، وكنز فيها كنوزا كثيرة . وعمِل فى الشرق منارا وأقام على رأسه صنما[1] موجّها إلى الشرق، ماذا يديه يمنع دوابّ البحر والرمال أن تتجاوز حدّه، وزبر فى صدره تاريخَ الوقت الذى نصبه فيه؛ ويقال: إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا؛ ولولاه لغلب الماءُ المالح من البحر الشرقىّ على أرض مصر. وعمل قنطرة على النيل فى أوّل بلاد النوبة ونصب عليها أربعة أصنام موجّهة [إلى أربع جهات الدنيا][2] فى يدى كل صنم جرسٌ يضرب به إذا أتاهم آت من تلك الناحية؛ فلم تزل بحالها إلى أن هدمها فِرعَوْن موسى . وهو الذى عمل البربا على باب النوبة، ويقال : إنه عَمِل فى إحدى المدائن الأربع التى ذكرناها حوضا من صَوّان أسود مملوءا ماء لا ينقُص على طول الدهر ولا يتغيّر؛ وكان أهل تلك الناحية يشربون منه ولا ينقُص ماؤه ؛ وإنما عمل ذلك لبعدهم عن النيل وقُربهم من البحر المالح . وقد ذكر بعض كهنة القبط أن ذلك لقربهم من البحر المالح، لأن الشمس فيما ذكروا ترفع بحرّها بخارا فيحصُل من ذلك البخار حرّ بالهندسة ، وقيل بالسحر . وملكهم عَدِيم مائة سنة وأربعين سنة ، ومات وهو ابن سبعمائة سنة وثلاثين سنة . وقيل : إنه دُفن فى إحدى المدائن ذات العجائب فى أَزَج من رخام ملوّن بزرقة ، مبطّن برخام أصفر ، وطُلِىَ جسده بما يُمسكه ، وجُعل حوله كثير من ذخائره ، وذلك وسط المدينة، فهى محروسة بما يمنع منها من الروحانيّين .

(١) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «منارا عليه صنما» .

(٢) التكملة من خطط المقريزى .

قال : وذكر بعض القبط أنّ عديما هذا عمل لنفسه فى صحراء قِفْط على وجه الأرض قبّة عظيمة من زجاج أخضر برّاق، معقودة على ثمانية آزاج من صِنْفها، على رأسها أكرة من ذهب، عليها طائر من ذهب، متوشّح بجوهر، منشور الجناحين، يمنع من الدخول إليها، وقطرها مائة ذراع فى مثلها، وجعل جسده فى وسطها على سرير من ذهب مشبّك وهو مكشوف الوجه، وعليه ثياب منسوجة بذهب مغروزة بجوهر منظوم؛ والآزاج مفتحة، طول كل أَزَج ثمانية أذرع، وارتفاع القبّة أربعون ذراعا تُلقى الشعاعَ على ما حولها من الأرض، وجُعل حوله فى القبّة مائة وسبعون مصحفا من مصاحف الحكمة، وسبع موائد عليها أوانيها، منها: مائدة من أدرك رمّانىّ أحمر وآنيتها منها. ومائدة من ذهب فيلمونى[1] يخطَف البصر، وهو من الذهب الذى تعمل منه تيجان الحكماء، وآنيتها منها. ومائدة من حجر الشمس المضئ بآنيتها. ومائدة من الزبرجد المخروط الذى يخالطه شعاع أصفر بآنيتها، قال: وهذا الزبرجد إذا نظرت إليه الأفاعى سالت عيونها. ومائدة من كبريت أحمر مدبّر بآنيتها. ومائدة من ملح مدبّر برّاق يكاد نوره يخطف الأبصار بآنيتها. ومائدة من زئبق معقود وقوائمها وحافاتها من زئبق أصفر معقود مضىء، وعليها آنية من زئبق أحمر معقود. وجُعل فى القبّة جواهر كثيرة ملوّنة وبرانىّ صنعة مدبّرة، وجُعل حوله سبعة أسياف صاعقية وكاهنية وأتراس من حديد أبيض مدبّر، وجُعل معه تماثيل أفراس من ذهب، [عليها سروج من ذهب][2] وسبعة توابيت من الدنانير التى ضربها وصوّر عليها صورته، وجُعل معه من أصناف العقاقير والسمومات والأدوية فى برانىّ الحَنْتم[3]، ومن أصناف الأحجار شىء كثير.

---

(١) كذا فى خطط المقريزى، وفى الأصول «فلزنى»، وفى هامش خطط المقريزى طبعة فيبت «قلمونى». (٢) التكملة من المقريزى. (٣) الحنتم: جرار خضر تضرب إلى الحمرة

قال : وقد ذكر من رأى تلك القبة وأقاموا عليها أياما فما قدروا على الوصول إليها، وأنهم إذا قصدوها وكانوا منها على مقدار ثمانية أذرع دارت القبّة عن أيمانهم وشمائلهم وقد عاينوا ما فيها . ومن أعجب ما ذكروا أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزَجا أزَجا فلا يرون غير الصورة التى يرونها من الأزَج الآخر على معنى واحد . وذكروا أنهم رأوا وجهه فى قدر ذراع ونصف بالذراع الكبير، ولحيته كبيرة مكشوفة، وقدّروا طول بدنه عشرة أذرع وزيادة، وأنهم لمّا تهيأ أن يصلوا إليها فنىَ ماؤهم وخافوا على أنفسهم فرجعوا ليمتاروا ما يكفيهم من الزاد ففعلوا، ثم رجعوا فأقاموا أياما يطوفون تلك الصحراء، ثم أخبروا أنهم رأَوْا بها عجائب كثيرة وصنوفا من الوحش لم يرَوْا مثلها .

قال : وفى كتبهم أنهم لا يصلون إليها إلا بأن يُذبَح لها ديك أفرق ويخمّر بريشه من بعد، ثم يسأل من المرّيخ الوصول حتى يصل، وتكون الكواكب النيّرة على مثل ما كانت عليه وقتَ نَصَبَهَا من اجتماعها فى البروج : يكون زُحَل والمُشْتَرِى والمرّيخ فى بُرْج واحد، والشمسُ والقمر فى بُرْج واحد، والزُّهَرة وعُطارد فى بُرْج واحد، ويتكلّم عليها بصلاة الكهنة سبع مرّات، فإذا وصل إليها لطّخ حائطها بدم الديك الذى قرّبه لها ويأخذ ما شاء من المال والتماثيل ولا يكثر المقام فيها ولا يقيم غير ساعة واحدة .

١٢٧
١٢

قال : وذكر هؤلاء الذين رأَوْها أنهم لم يكونوا من تلك الناحية وإنما خرجوا يطلبون غيرها ؛ فإنهم سألوا أهل قِفْط عنها فلم يجدوا مَن يعرفها ولا رآها غير رجل شيخ منهم، فإنه ذكر أن ابنا له خرج فى بعض الأمور ومعه جملٌ له فرآها ولم يصل إليها، وبحث عن أمرها فعرف أن قوما من الشرق جاءوا فى طلبها وأنهم أقاموا يطوفون بقِفْط أياما وخرجوا إليها فما رجع أحدٌ منهم ولا عُرِف لهم خبر .

قال : وكان عديم قد أوصى إلى ابنه شدّاث عند موته أن ينصِبَ فى كل حيّز من أحياز عُمومته منارا ويزبرَ عليه اسمه، فانحدر إلى الأُشمونين فعمل منارا وزبر عليه اسمه وعمل بها ملاعب ، وعمل فى صحرائها منارا وأقام عليه صنما ذا رأسين باسم كوكبين كانا مقترنين فى الوقت (١) . وخرج إلى أتريب وبنى فيها قبّة عظيمة مرتفعة على عُمُد (٢) وأساطين بعضها فوق بعض ، وجعل على رأسها صنما صغيرا من ذهب، وعمل هيكلا للكواكب . وكان أبوه البودسير أوّل من أقام للكواكب فأخذ ذلك عنه. ومضى إلى حيّز صا فعمل فيه منارا على رأسه مرآة من أخلاط تورِى الأقاليم، ورجع إلى أبيه فعهد له بالملك .

فملك شدّاث (٣) بن عَدِيم وهو الذى بنى الأهرام الدهشوريّة من الحجارة التى قُطعت فى زمان أبيه . قال : مَن أنكر أن يكون العادِيّة دخلوا مصر إنما غلطوا باسم شدّاث بن عديم فقالوا شدّاد بن عاد لأنه أكثر ما يجرى على ألسنتهم، وقلة ما يجرى على ألسنتهم شدّاث بن عديم ؛ وإلا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ولا قوى على أهلها غير بُخْتَ نصّر . وشدّاث الذى عمل مصاحف النارنجيّات (٤)، وعمل هيكل أرمنت (٥) وأقام فيه أصناما بأسماء (٦) الكواكب من ذهب وفضة وحديد أبيض ونحاس

(١) عبارة المقريزى : « كانا مقترنين فى الوقت الذى خرج فيه الى أتريب، وبنى فيها ... الخ » .

(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصول : « مربعة » .

(٣) كذا فى الأصل وكتاب الانتصار لابن دقاق (ج ٥ ص ٣٨). وفى المقريزى (ج ٣ ص ٣٩ طبعة فيت) وصبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٣) : « شداث » بالشين المعجمة والثاء المثناة .

(٤) كذا فى الأصل . والذى فى القاموس « النيرنج » قال شارح القاموس : « هكذا فى سائر النسخ ، والمنقول عن نص كلام الليث « النيرج » بإسقاط النون الثانية . وكذا ورد فى لسان العرب لابن منظور . وهو أخذ كالسحر وليس به ، إنما هو تشبيه وتلبيس» .

(٥) أرمنت : بلدة بصعيد مصر الأعلى، بينها وبين الأقصر فى سمت الجنوب بعض مرحلة، وبينها وبين أسوان مرحلتان (راجع معجم البلدان والانتصار لابن دقاق) .

(٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «أصنام الكواكب» .

مذهب ورصاص مُصفّى وزئبق معقود . وهذه الأجساد المعدنيّة فى طباع الكواكب وفى قسمتها . فلما فرغ منه زيّنه بأحسن زينة ونقشه بأحسن النقوش من الجواهر الملوّنة والزجاج المعمول الملوّن وكساه الوشى والديباج ولم يترك شيئا من التحف إلا عمله ، وكذلك عمل فى المدن الداخلة من أَنْصِنا[1] هيكلا ، والقبّة التى أقامها بأتريب[2] وهيكلا شرقىّ الإسكندرية ، وأقام لزُحَل صنما من صَوّان أسود على عبر النيل من الجانب الغربىّ . وبنى شدّاث من الجانب الشرقىّ مدائن وجعل فيها صورة صنم قائم له إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومن لاينتشر فمسّه بكلتا يديه أزال عنه ذلك وانتشر وقَوِىَ على الباه ، وجعل فى إحداها بقرة لها ضَرْعان كبيران إذا مسحتهما المرأة التى آنعقد لبنها درّ وصلُح أمرها .

وفى أيامه بُنيت قُوص[3] العالية ، بناها لآبنٍ له كان سَخِط على أمّه فحوّلها إليها وأسكن معها قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعات . وقيل : إن شُطْب[4] بُنيت فى أيامه ؛ وعمِل الصورتين الملتصقتين لكثرة النسل . وكانت الحبش والسودان عاثوا فى بلده فأخرج لهم آبنه منقاوش فى جيش عظيم فقتل منهم وسبى وآستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنّة لهم ، واقتطع معدن الذهب من أرضهم وأقام ذلك

(١) أنصنا : بلدة بالصعيد الأوسط ، وبها آثار عظيمة أثرية ، وهى على شط النيل من البر الشرقى قبالة الأشمونين من البر الآخر ، ولها مزدرع كثير ، وهى المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون (راجع تقويم البلدان) . (٢) أتريب : كورة فى شرقى مصر ، بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ، وقد وصفها المقريزى وشرح ما فيها من آثار وعجائب (راجع ج ١ ص ١٧٥ طبع بلاق) .

(٣) قوص : أعظم مدائن الصعيد وهى على ضفة النيل الشرقية ، سميت باسم قوص بن قفط بن أخميم ، وهى باب مكة واليمن وسواكن ، وقد وصفها المقريزى فى خططه (ج ١ ص ٢٣٦) وآبن دقاق فى كتاب الانتصار (ج ٥ ص ٣٨) ووصفها الأدفوى كذلك فى كتابه الطالع السعيد (ص ٨) وصفا بديعا وذكر كثيرا من الأشعار التى قيلت فيها . (٤) شطب : مدينة من المدن التى أخربها بخت نصر وأحرقها ، وهى بالقرب من أسيوط . (راجع كتاب الانتصار ج ٥ ص ٢٤ ومعجم البلدان لياقوت) .

السبئ يعملون فيه ويحملون الذهب إليه ، وهو أوّل من أحبّ الصيد واتخذ الجوارح ، وولّد الكلاب السلوقيّة من الذئاب والكلاب الأهلية ، وعمل البَيْطرة وما تعالج به الدوابّ ، وعمل من العجائب والطلّسمات لكل فنّ ما لا يُحصَى كثرة ، وجمع التماسيح ، بطلّسم عمله لها ، إلى بركة بناحية أسيوط فكانت تنصبّ إليها من النيل انصبابا فتقتلها ، وتستعمَل جلودها فى السفن وغيرها ، وتستعمَل لحومها فى الأدوية والعقاقير المؤلّفة . قال : وبعض القبط يَحكى أنه عمل بمصر اثنتى عشرة ألف أُعجوبة وطلّسما ، ولم يعمل فى بلد كما عمل فيها ولا تهيّأ لأهله ما تهيّأ لهم من ذلك .

قال : وأقام شدّاد فى المُلْك تسعين سنة وخرج يَطرُد[1] فأكبّ فرسُه فى وَهْدة فقتله . وفى بعض كتبهم : أنه أخذ بعض خدمه ، وقد خالفه فى أمر من الأمور ، فأمر بطرحه من أعلى الجبل إلى أسفل فطُرح فتقطّع جسده ، وندم على فعله ذلك فرأى فى منامه أنه سيصيبه مثل ذلك فكان يتوقّاه ، وآلى على نفسه ألا يعلو جبلا ، وأوصى إن أصابه شىء أن يُجعل ناووسه فى الموضع الذى يلحقه فيه ما يلحقه ، ويُزبر عليه : ليس ينبغى لذى القُدرة أن يخرج عن الواجب ويفعل ما لا يجوز له فعله ، وهذا ناووس شدّاد بن عَديم بن قفطريم الملك ، عَمِل ما لا يحلّ له فكوفئ عليه بمثله .

١٢٨/١٢

قال : ولمّا هلك عُمِل له سَرَب فى سفح الجبل فيه قبّة على مجلس قد صُفّح بالفضّة وجُعل فيه على سرير مُلْكه ، وجُعل معه من الأموال والجواهر والتماثيل وأصناف الحِكَم والمصاحف شىءٌ كثير . وكان له أربعمائة وأربعون سنة .

وملك بعده ابنه منقاوُش[2] بن شدّاد ، فملك بحزم وحُنْكة وأظهر مصاحف الحكَم وأمر بالنظر فيها ، وأن يُنسَخ منها لهم بخطّ العامّة ليفهموها ، وردّ الكهنة إلى

(١) يطرد : يصطاد . (٢) فى المقريزى : « منقاوس » بالسين المهملة .

مراتبهم . وهو أوّل مَن عُمل له الحمّام من ملوك مصر . وكان كثير النكاح ؛ تزوّج عدّة نساء من بنات عمه و بنات الكهنة ، وجعل لكل آمرأة منهن مكانا بجميع ما يُصلِحه من البنيان العجيب والصور المتقنة والغروس الحسنة والآلات العجيبة ، وأسكنهنّ فيها . وقد قال بعض أهل الأثر : إنه الذى بنى منف لبناته وكنّ ثلاثين بنتا ونقلهنّ إليها ، وعَمِل مدنا غيرها ومصانع ، وعمل هيكلا لصُوَر الكواكب وأصنامها على ثمانية فراسخ من منف ، وعمل بتلك الناحية طلّسمات كثيرة وعجائب أغرب فيها بفضل حكمة أبيه وجدّه ، وعمل فى السنة آثنى عشر عيدا لكل شهر عيدٌ يُعمَل فيه من الأعمال ما كان موافقا لبُرْج ذلك الشهر ؛ وكان يُطعم الناس فى تلك الأعياد و يوسّع عليهم ، ففرح الناس به و رأَوْا معه مالم يَرَوْه مع غيره ، وفُتح عليه من المعادن مالم يُفتَح على أحد ، وألزم أصحاب الكيمياء العملَ فكانوا لايفتُرُون ليلا ولا نهارا ؛ فآجتمع عنده أموال عظيمة وجوهرٌ كثيرٌ و زجاجٌ نفيس مسبوك وغير ذلك ، فأحبّ كنزه فدعا أخا له فقال له : قد ترى كثرة هذا الذهب والجوهر ، وما عُمل من هذه التماثيل الكثيرة ، ولست آمَنُ أن يتسامع بنا الملوك فيُغزُونا من أجله ، فأمعِن فى أرض الغرب ثم انظر مكانا حريزا خفىّ الأثر ثم أحرزه فيه ثم آستره بعلامات وآكتب صفة المكان وطريقه وعلامته . قال : ويقول أهل الأثر : إنه حمل معه آثنتى عشرة ألف عجلة ، منها من الجوهر ثلاثمائة عجلة ، وسائرها من الذهب الإبريز الصفائح والمضروب ، ومن آلات الملوك وطرائفهم وسلاحهم وأوانيهم ؛ فسار فى الجنوب يوما ثم أخذ مغربا اليوم الثانى و بعض الثالث ، فآنتهى إلى جبل أسود مُنيف ليس له مصعد بين جبال مستديرة حوله ، فعمل تحت ذلك الجبل أسرابا ومغاور ودفن فيها ما كان معه وردمها وز برعليها ورجع ؛ فمكث أربع سنين يبعث كل سنة عَجَلا عظيمة تُدفَن فى نواح شتّى .

وهو الذى عمل فى أنديمس المدينة بيتا تدور به تماثيل لجميع العِلَل ، وكتب على رأس كل تمثال ما يصلُح له من العلاج ، فٱنتفع الناس بها زمانا إلى أن أفسدها بعض الملوك ضنّا بالحكمة . وعمل فى هذه المدينة صورة ٱمرأة مبتسمة لا يراها مهموم إلا زال همّه ونَسِيَه ؛ وكان الناس يأتونها و يطوفون حولها ثم عبدوها من بعد . وعمل تمثالا روحانيّا من صُفْر مُذهَب بجناحين لا يمرّ به زانٍ ولا زانية إلا كشف عورته بيده ، وكان الناس يُمتَحَنون به فامتنعوا من الزنا فَرَقًا منه ، وٱستمرّ كذلك إلى زمن كَلْكَمَن الملك ؛ وذلك أن بعض نسائه ، وكانت حظية عنده ، عشقت رجلا من خدم الملك وخافت أن ينتهى إليه خبرها فيمتحنها بذلك الصنم فيقتلها ، فٱحتالت لذلك فخلا بها الملك فى بعض الليالى ، وهما يشربان ، فأخذت فى ذكر الزوانى وجعلت تسبهنّ وتذمهنّ ، فذكر الملك ذلك الصنمَ وما فيه من المنافع للناس ، وما يستحقّ مَن عمله من الثناء والذكر الجميل ؛ فقالت المرأة : إنه كذلك وقد صدق الملك ، غير أن منقاوش لم يُصب الرأى فى أمره ؛ قال الملك : وكيف قلت ذلك ؟ قالت : لأنه أتعب نفسه وحكماءه فيما جعله لصلاح العامّة دون نفسه ، وهذا أكبر العجز ؛ وإنما كان حُكْم هذا التمثال أن يُنصَب فى دار الملك حيث تكون نساؤه وجواريه ، فإن ٱقترفت إحداهنّ ذنبا علم بها فيكون رادعا لهنّ متى عرض بقلوبهنّ شىء من الشهوة ؛ لأن شهواتهنّ أغلب وأكثر من شهوات الرجال ؛ ولو حدث — وأعوذ بسعد الله الأعلى — فى دار الملك شىء من هذا فأحبّ امتحانه فضح نفسه وشاع فى الخاصّ والعامّ أمره ، وإن عاقب بغير أمر يتحققه كان متعدّيا آثما ، وإن لم يمتحنه صبر على المكروه . قال الملك : صدقت ، فكيف الوجه فى هذا الأمر ؟ قالت : يأمر الملك بنزع هذا الصنم من مكانه ونقله إلى داره ففعل فبطل عمله ، وٱمتحن فلم يصنع شيئا ، فعملت المرأة ما كانت همت به وٱنهمكت فيه .

١٢٩/١٢

قال : ويقال : إن منقاوش بنى هيكلا للسحَرة على جبل القصير وقدّم عليه رجلا منهم يقال له مسّيس ، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلعة إلّا بضريبة يأخذونها منهم للملك . وكان الملك إذا ركب عملوا بين يديه التخاييل (١) العجيبةَ ، فيجتمع النـاس إليهـم ويعجبون من أعمالهم ، وأمر أن يُبنَى لهم هيكل للعبادة يكون لهم خصوصا ، وجعل فيه قبّة فيهـا صورة الشمس والكواكب ، وجعل حولها أصناما وعجائب ، وكان الملك يركب إليه ويقيم سبعة أيام ، وجعل فيه عمودَيْن زبر عليهما تاريخ الوقت الذى عُمل فيه ، وهما بعين شمس ، ونقل منقاوش إلى عين شمس كنوزا وجواهر وطلّسمات وعقاقير وعجائب ودفنها بها وبنواحيها .

قال : وكان منقاوش قسم خراج البلاد أرباعا : فربع منه للملك خاصة يعمل منه ما يريد ، وربع لأرزاق خدمه ، وربع ينفق فى مصالح الأرض وما يحتاج إليه من حفر ترعها وعمل جسورها وتقوية أهلها على العمارة ، وربع يدفن لحادثة تحدُث وحاجة تنزل . وكان خراج البلد فى ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف دينار . وهو مقسوم على مائة وثلاث كور بعدّة الآلاف . وأقام ملكا إحدى وسبعين سنة ، ومات من طاعون أصابه ، وقيل : من سمّ جُعل له فى طعامه ، وعُمل له ناووس فى صحراء المغـرب ، وقيـل : فى غربىّ قُوص ؛ ودُفن معه من مصاحف الحكمة والصنعة المعمولة وتماثيل الذهب والجوهر ، ومن الذهب المضروب شىء كثير ، ودُفن معه روحانىّ الشمس من ذهب يلمع ، وله جناحان من زَبَرْجَد ، وصنم على صورة امرأته التى كانت أحظى نسائه عنـده وكان يحبّها ، فأمر أن تُعمَل صورتها

(١) التخاييل : هى التمويه بالحيـل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى ، فيخيـل للناظر أنها بخلاف ما هى به ، كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيرا حقيقيا يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه .

فى هياكلهم جميعا، فعُمل له تمثالها من ذهب بذؤابتين من ذهب أسود، وألبست حلّة من جواهر منظومة وجعلت جالسة على كرسىّ، فكانت تجعل بين يديه فى موضع تجلس فيه يتسلّى بذلك عنها، فدُفنت معه عند رجليه .

وملك بعده ابنــه مناوش بن منقاوش؛ ملك بوصيّة من أبيه، فطلب الحكمة على عادة أبيه واستخرج كتبها وأكرم أهلها، وبذل فيهم الجوائز وطلب الإغراب فى عمل العجائب، وكان كل واحد من ملوكهم يجهد جهده فى أن تُعمَل له غريبة من الأعمال لم تُعمَل لمن كان قبله وتثبت فى كتبهم وتزبر على الحجارة فى تواريخهم. قال : ومناوش هذا أوّل من عبد البقر من أهل مصر، وكان السبب فى ذلك أنه اعتلّ علّة يئس منه فيها، وأنه رأى فى منامه صورة روحانىّ عظيم يخاطبه ويقول له : إنك لا يخرجك من علّتك إلا عبادة البقر لأن الطالع كان وقت حلولها بك فى صورة ثور بقرنين؛ ففعل ذلك، وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصــورة، وعمل له مجلسا فى قصره وسقفه بقبّة مذهبة، فكان يخرّه ويطيّب موضعه، ووكّل به سادنا يقوم به ويكنس تحتــه، وكان يتعبّد له سرّا من أهل مملكته، فبرأ من علّته وعاد إلى أحسن أحواله .

ويقال : إنه أوّل من عمــل العَجَل وضبّبها بالذهب، وعمــل فيها قبابا من الخُشب المذهبة وفُرشت بأحسن الفرش، وكان يركب عليها مع مَن أحبّ . وقيل: إنه عُمل له ذلك فى علّته لأنه كان لا يقدر على الركوب؛ وكانت البقر تجرّه فإذا مرّ بالمكان النزِه أقام فيه، وإن مرّ بالمكان الخراب أمر بعمارته . وقيل : إنه نظر إلى ثور أبلق من البقر الذى يجرّ عجلته فأعجبه حُسن بَشَرته فأمر بترفيهه وسَوْقه بين يديه إلى كل موضع يسلكه إعجابا به؛ وجعل عليه جُلّا من الدِّيباج المنسوج بالذهب، فلما كان فى بعض الأيام — وقد خلا فى موضع منفرد عن أتباعه والثور قائم بين يديه —

إذ خاطبه الثور وقال: لو رفّهنى الملك عن السير معه وجعلنى فى الهيكل وعبدنى وأمر أهل مملكته بعبادتى كفيته جميع ما يريده ، وعاونته على أمره، وقوّيته فى مُلْكه، وأزلت عنه جميع عِلَله ؛ فآرتاع لذلك وأمر بالثور أن يُغسَل ويطيَّب وينظَّف ويدخل الهيكل ، وأمر بعبادته. وعُبد ذلك الثور مدّة وصارت فيه آية أنه لا يبول ولا يَرُوث ولا يأكل إلّا أطراف ورق القصب الأخضر فى كل شهر مرّتين، فآفتتن الناس به وصار ذلك أصلا لعبادة البقر. ١٣٠/١٢

قال: وابتنى مناوش مواضع وكنز فيها كنوزا وأقام أعلاما. وبنى فى صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس وأقام فيها منارا ودفن حولها كنوزا. قال: ويقال: إن هذه المدينة قائمة، وإن قوما جازوا بها من نواحى الغرب وقد أضلّوا الطريق فسمعوا بها عَزِيف الجنّ ورأَوْا أضواء نيرانهم. قال: وفى بعض كتبهم أنّ ذلك الثور، بعد مدّة من عبادتهم له ، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف ، ويُؤخَذ من رأسه هو شعرات ، ومن ذنبه ومن نحاتة قرونه وأظلافه ، ويُجعَل ذلك فى التمثال، وعرّفهم[1] أنه يُلحَق بعالَمه وأمرهم أن يجعلوا[2] جسده فى جُرْن من حجر [أحمر][3] ويُدفَن فى الهيكل ويُنصَب تمثاله عليه ، ويكون ذلك وزُحَل فى شَرفه والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث والقمر فى الزيادة ، ويُنقَش على التمثال علامات الكواكب السبعة ففعلوا ذلك ، وعملت الصورة من ذهب ملمّع على شِبْه الثور، وجُعل له قرنان من ذهب وكُلِّلا بأصناف الجواهر ، وجعلوا عينيه جَزْعتين سوادا فى بياض، ودفن جسد الثور فى الجرن الأحمر.

قال: وجعل فى المدينة شجرة تُطْلِع كل لون من الفاكهة، ومنارا فى وسطها طوله ثمانون ذراعا ، وعلى رأسه قبّة تتلوّن فى كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام

(١) كذا فى المقريزى (ج ١ ص ٢٣٨ طبع بلاق) . وفى الأصل : «وعرفه» .
(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «بعالمه فيجعلوا» . (٣) التكملة من المقريزى .

ثم تعود إلى اللون الأوّل فيكسو المدينـة من تلك الألوان، وجعل حول المنار ماء شـقّه إليه من النيل ، وجعل فى ذلك المـاء سمكا من ذلك اللون ، وجعـل حول المدينـة طِلّسمات رءوسها رءوس قِرَدة وأبدانها أبدان الناس ، كل واحد منها لدفع مضرّة أو اجتلاب منفعة، وعمل على أبواب المدينة، وهى أربعة أبواب[(١)]، على كل باب صنما، ودفن تحت كلّ صنم كنزا من الكنوز؛ وباب كل واحد منها على قياس مائة ذراع منـه إلى الجهة التى وجهه منصرف إليهـا، وكتب على كل واحد منهـا قُربانه وبخوره والوصول إليه ، وأسكنها السحرة فكانت تعرف بمدينة السحرة ، ومنها كانت أصناف السحرة تخرج .

قال : وأقام مناوش فى الملك سبعا وثلاثين سـنة وهلك ، وعُمل له ناووس تحت الجبـل الغربىّ ، وجعل وصيّته إلى ٱبنـه من بعده هِرْميس بن منقاوش، فملك إحدى عشرة سنة لم يبن بنيانا ولا نصب منارا ولا عمل فى أيامه أعجوبة حتى إنه لم يكن يذكر فى عداد ملوكهم . فهـذا ما أورده فى أخبار قفطريم بن قبطيم وبنيه على توالٍ وٱتساق فلنذكر أخبار أشمون .

ذكر أخبار أشمون ومَن ملك من بنيه

هو أُشمون بن قبطيم بن مِصْريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السـلام؛ وهو أخو قفطريم أبى الملوك الذين قدّمنا ذكرهم . كان مُلْكه من أُشمونين إلى منف ، ومن الشرق إلى البحر المـالح، ومن الغرب إلى حدود برقة، وهو آخر حدّ مصر،

(١) وفى المقريزى (ج ١ ص ١٣٨ طبع بلاق) فى كلامه على أشمون بن قبطيم : أنها مدينة فى سفح الجبل لهـا أربعة أبواب من كل ناحية باب ، فعلى الباب الشرقى صورة عقاب ، وعلى الباب الغربى صورة ثور، وعلى الباب الشمالى صورة أسد ، وعلى الباب الجنوبى صورة كلب ، وفى هذه الصور روحانيات تنطق ، فإذا قدم غريب لا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها ودفن تحت ... الخ .

ومن الصعيد إلى حدّ أخميم . وكان ينزل مدينة الأشمونين وله بُنيت وبآسمه سُمِّيت ، وكان طولها آثنى عشر ميلا فى مثلها . قال إبراهيم : وأشمون أوّل من آتّخذ الملاعب بأنصنا والبهنسا وغيرها ، وبنى القصور وغرس الغروس ، وبنى مدينة تُعرف بقِمَنْطر ذات العجائب ، وهى بالقُرب من مدينة السحَرة التى تقدّم ذكرها فى أخبار منقاوش . قال : وفى وسط هذه المدينة قبّة تُمطر شتاء وصيفا مطرا خفيفا ، وتحت القبّة مطهرةٌ فيها ماء أخضر يُتداوَى به من كل داء فيبرئه ، وفى شرقها سَرَب لطيف له أربعة أبواب ، لكل باب منها عِضادة صورة وجه يخاطب كل واحد منها صاحبه بما يحدُث فى قومه ، ومَن دخل تلك البربا على غير طهارة نفخوا عليه فأصابته عِلّة فظيعة لا تفارقه إلى أن يموت . وكانوا يقولون إنّ فى وسطه مهبط النور وهو فى صورة العمود ، مَن اعتنقه لم يحتجب عن نظره شىء من الروحانيّات ، ويسمع كلامهم ويرى ما يعملون ، وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب فى يده مصحف فيه علوم الكهنة ، فمن أحبّ ذلك العلم أتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرّهما على صدره ، فيثبت ذلك العلم فى صدره . ويقال : إن هاتين المدينتين قِمَنْطر ومدينة السحَرة بُنيتا على آسم هِرْمِس وهو عُطارد ، وأنهما بحالها .

قال : وحُكى عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان ، وهو على مصر ، فعرّفه أنه تاه فى صحراء الشرق وأنه وقع على مدينة خراب ، وأنه وجد فيها شجرة تحمل من كل فاكهة ، وأنه أكل منها وتزوّد ؛ فقال له رجل من القبط : هذه إحدى مدينتى هِرْمِس وفيها كنوز كثيرة ؛ فوجّه عبد العزيز معه جماعة وحمل معهم زادا وماء ، فأقاموا يطوفون شهرا فى تلك الصحارى فلم يقفوا لها على أثر . ويقال : إن أُشمون عمِل فى وقته على باب الأشمونين إوزّة من نحاس ، فكان الغريب إذا دخل المدينة صاحت الإوزّة وخفقت بجناحيها فيعلَم به ، فإن أحبّوا منعوه ، وإن أحبّوا تركوه .

١٣١/١٢

قال : وفى أيامه كثُرت الحيّات فكانوا يصيدونها و يعملون من لحومها الأدوية والدِّرياقات ، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادى الحيّات فى جبال لوبية ومراقية فسجنوها هناك . قال : وهو أوّل من عمل النوروز بمصر ورتبه سبعة أيام يدمنون فيها الأكل والشرب واللهو . وفى زمانه بُنيت البهنسا وأقام بها أسطوانات ، وجعل فيها[(١)] مجلسا من زُجاج أصفر وعليه قبّة مذهبة ، فكانت الشمس إذا طلعت على القبّة ألقت شعاعها على المدينة . وعمل فيها عجائب كثيرة يطول الشرح بذكرها .

قال : و يقال إن أشمون كان أوّل إخوته ملكا ، وكان أعدل بنى أبيه وأرغبهم فى صنعة تبقَى ويبقَى ذكرها . وهو الذى بنى المجالس المصفّحة بالزجاج الملوّن فى وسَط النيل . وتزعم القِبْط أنه بنى سَرَبا تحت الأرض من الأُشمونين إلى أَنْصنا تحت النيل . وقيل : إنه عمله لبناته لأنهنّ كنّ يمضينَ إلى هيكل الشمس . وكان هذا السَرَب مبلّط الأرض والحِيطان والسقف بالزجاج الثخين الملوّن . وقيل : إنه كان أطول إخوته مُلْكا . وقال أهل الأثر : إنه ملك ثمانمائة سنة ، وإن قوم عاد انتزعوا منه المُلْك بعد ستمائة سنة من مُلْكه وأقاموا تسعين سنة واستوبَئُوا البلد فانتقلوا [إلى الدَّثِينة من طريق الحجاز إلى وادى القرى فعمروها[(٢)]] واتخذوا [بها[(٢)]] المنازل والمصانع فسلّط الله عليهم الذَّرّ فأهلكهم ، وعاد ملك مصر إلى أُشمون بعد خروجهم من البلد . و يقال : إنه ملكهم ثمانمائة سنة وثلاثين سنة ، ودُفن فى أحد الأهرام الصِّغار القبليّة . وقيل : بل عُمل له ناووس فى غربى الأشمونين ودُفن معه فيه من الأموال والعجائب شىء كثير ، وأصنام الكواكب السبعة التى كانت فى هيكل المرآة التى تُرى منها الأقاليم ، ودُفن معه ألف سَرْج من ذهب وفضّة ، وعشرة آلاف

(١) فى المقريزى (ج ١ ص ٢٣٨ طبع بلاق) : « فيا فوقها » .

(٢) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٢٣٩) . والدثينة : ناحية بين الجند وعدن .

خابية صغار من ذهب وفضّة وزجاج ، وألف عُقّار مدبّرة لفنون الأعمال وزُبر عليه آسمه ومدّة مُلْكه والوقت الذى مات فيه .

وآستخلف آبنه مناقيوس بن أشمون . وكان جَلْدا محنّكا فاستأنف العمارة وبنى القرى ونصَب الأعلام ، وجمع الحكمة ومصاحف الملوك والحكماء وعمل العجائب ، وبنى لنفسه مدينة وآنفرد بها ، وعمل عليها حصنا ونصب عليه أربعة أعلام ، فى كل ركن من أركانه علَم ، وبين تلك الأعلام ثمانون صنما من نحاس وأخلاط ، فى أيديها آلات السلاح وزبر على صدرها آياتها .

قال : وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع ، وكان يعلّم الغلمان السحر فإذا حذقوا علّم غيرهم ؛ فأمر الملك أن تُبنَى له مدينة ويحوّل إليها فبُنيت ، وهى إخميم . وملك مناقيوس نيّفا وأربعين سنة ومات فدُفن فى الهرم المحاذى لإطفيح ، ونُقِل معه شىء كثير من المال والجواهر والآنية والتماثيل ، وزُبِر عليه آسمه والوقت الذى مات فيه .

وملك بعده آبنه — ولم يُسمّه إبراهيم[1] — فكان أحزم من أبيه ، فعظُم فى عيون أهل مصر . وهو أوّل مَن عمل المَيْدان وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه . وأوّل من عمل البِيمارستانات لعلاج المرضَى والزمْنَى وأودعها العقاقير ورتّب فيها الأطبّاء وأجرى عليهم ما يسعهم ، وأقام الأمناء على ذلك ، وصنع لنفسه عيدا وسمّاه عيد الملك ؛ فكان الناس يجتمعون اليه فى يوم من السنة ، فيأكلون ويشربون

(١) هو إبراهيم بن القاسم الكاتب مختصر كتاب العجائب الكبير الذى ألفه إبراهيم بن وصيف شاه وهو الذى اعتمد عليه المؤلف فى النقل فى كلامه على ملوك مصر كما أشار الى ذلك فى أوّل هذا الجزء . وقد رجعنا الى بعض المصادر التاريخية التى بأيدينا فلم نوفق الى معرفة اسم هذا الملك ، بل رأينا بعض المؤرخين ينكره (راجع الهامش رقم ٢ ص ٤٤ ج ٣ من خطط المقريزى طبعة فيت) .

سبعة أيام وهو يُشرف عليهم فى مجلس قد بُنِىَ له على عمد قد طُوِّقت ذهبا وألبست فاخر الذهب المنسوج، وعليه قبّة مصفّحة من داخلها وخارجها بالذهب والزجاج المسبوك، وكان يعطى كلّ قوم قسطهم من النظر ثم يُكثرون الدعاء له وينصرفون الى مواضعهم .

٥ وفى أيامه بنيت سَنْتَرِيَة[1] فى صحراء الواحات ، عملها من حجارة بيض مربّعة على تقدير واحد، وجعل فى كل حائط من حيطانها بابا فى وسطه شارع ينتهى الى الحائط المجاور له من الجهة الأخرى، وجعل فى كل شارع أبوابا يَمنة ويَسرة تنتهى طرقاتها الى داخل المدينة، وجعل فى وسط هذه المدينة ملعبا يدور به من كل ناحية سبع درج ؛ وعمل عليه قبّة من خشب مدهون على عمد[2] عظيمة

١٠ من رخام ، وفى وسطه منار من رخام عليه صنم من سوّان أسود يدور مع الشمس بدَوَرَانها ، وبسائر نواحى القبّة صور معلّقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة . وكان ١٣٢/١٢ الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب وحوله بنوه وأقاربه وأبناء الملوك، وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة [والوزراء][3] ، وعلى الثالثة رؤساء الجيش ، وعلى الرابعة أصحاب الفلسفة والمنجّمون والأطبّاء وأصحاب العلوم ، وعلى الخامسة أصحاب

١٥ العمارات ، وعلى السادسة أصحاب المِهَن ، وعلى السابعة العامّة؛ فيقال لكل طائفة منهم : انظروا مَن دُونكم ولا تنظروا مَن فَوْقكم، فإنكم لا تلحقونهم . فكان فى هذا ضربٌ من التأديب .

قال : وكان للملك عدّة نسوة ، وكان يحبّ منهنّ امرأتين ويتحظّاهما ويجمع بينهما فى مجلس واحد ، فمال لإحديهما فى بعض الأيام دون الأخرى ، فغارت

٢٠ (١) سنترية، مدينة فى غربى الفيوم دون فزان السودان وهى آخر أعمال مصر .
(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «على خشب عظيمة من زجاج» وهو تحريف .
(٣) التكملة من المقريزى .

وغَرَب عقلها وتناولت سكّينا ودخلت الى الملك وهو مغتر وتلك المرأة جالسة الى جنبه فضربتها بالسكّين، وقام الملك دُونها ليمنعها منها فضربته على فؤاده فخرّ صريعا، وقُبض على المرأة وحُبست، ومات الملك. وقد أوصى بقتل المرأة ووضع رأسها على ناووسه. ومدّة مُلْكه ستون سنة.

وملك بعده ابنه مرقورة الملك؛ فدخل عليه العظماء وهنّوه ودعَوْا له بدوام المُلْك والنعمة، وكان حازما عاقلا، فأخذ فى حُسْن التدبير وتقويم العمارة وترتيب المراتب، وجعل لرأس الكهّان الحكومة فى أمر الدِّين. قال: وفى كتبهم أنه أوّل مَن ذلّل السباع بمصر وركبها. قال: وبنى [المدن وعمّر](1) الهياكل وأقام الأصنام التى غربى منف، وكان مُلْكه نيّفا وثلاثين سنة، وعُمل له ناووس على طريق الغرب على مسافة يومين.

وقلّد ابنه بلاطس بن مرقورة، فملك وهو صبىّ. وكانت أمّه تدبّر الملك مع الوزراء والكهنة، وكانت حازمة مجرّبة، فأجرت الأمور على ما كانت فى حياة أبيه، وأحسنت الى الأولياء، وعدلت فى الرعيّة، ووضعت عنهم بعض الخراج فأحبّوها. وعُملت فى وقته البركة العظيمة فى صحراء الغَرْب، وجُعل فى وسطها عمود طوله ثلاثون ذراعا، فى أعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فهى لا تنقُص أبدا، وجُعل حولها أصنام حجارة ملوّنة من كل صنف على صُوَر الحيوان والوحش والطير، وكان كل جنس يأتى الى صورته ويألفها فيُؤخَذ ولا يدرى.

قال: ولمّا ترعرع الملك أحبّ الصيد ولَهِج به، فعملت له أمّه متنزّها فيه مجالس مركّبة على أساطين من المرمر مصفّحة بالذهب، عليها قباب مرصّعة بالتصاوير

(1) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٨ طبع بلاق).

العجيبة والنقوش المؤلّفة، يطلُع من تحتها المـاء فى فوّارات وتنصب الى أنهار مصفّحة بالفضّة تُفضِى الى حدائق فيها بدائع الغروس، عليها تماثيل تصفر بأصناف اللغات، ونُضِّدت بأنواع الفواكه، وأرخت عليها ستور الدِّيباج المنسوجة بالذهب، وآختارت له من بنات الملوك الحسان وأزوجته منهنّ، و بنت حول تلك الجنة مجالس يجلس فيها الوزراء والكهنة وأشراف أهل الصناعات يرفعون اليه ما يعملونه، فكان أكثر مقام الملك فى تلك الجنـة، فإذا فرغوا من أعمالهم نُقِل اليهم الطعام والشراب من مطبخه، ولا يزالون فى أكل وشرب بقية يومهم وليلتهم، وأقاموا على ذلك والأمور جارية على السداد.

وكانت أيامه سـعيدة كثيرة الخِصْب والسعة للناس والعـدل فيهم والإحسان اليهم. وكان له يوم يخرج فيـه الى الصيد و يرجع الى جنّته فيأمر لمن معه بالجوائز والأطعمة والأشربة، و يجلس يوما للناس فينظر فى أمورهم ومصالحهم و يقضى حوائجهم، و يجلس يوما للخلوة بنسائه، ثم جُدر فمات، وعُمل له ناووس فى جنّته وجعل فيه من الأموال والجواهر والصنعة والتماثيل كما كان يجعل لآبائه. وكان ملكه ثلاث عشرة سنة، وآنتقل المُلْك إلى أعمامه.

ذكر أخبار أتريب الملك

هو أتريب بن قِبْطيم بن مصريم بن بَيْصر بن حام بن نوح عليه السلام. قال: وكان أتريب قد انتقل إلى حيِّزه بعد وفاة أبيـه قبطيم، وهى المدينة التى كان أبوه بناها له، وكان طولها آثنى عشر ميلا، ولهـا آثنا عشر بابا، وفى شارعها الأعظم ثلاثُ قِباب عالية على عمد بعضها فوق بعض، منها قبّـة فى وسط المدينة، وقبّتان فى طرفيها، وجعل على كل ركن منها مرقبا كبيرا يُوقَد ليلا، وعلى كل باب من أبوابها

حرسا كثيرا، وجعل فى كل جانب منهـا ملعبا ومجالس ومتنزّهات تشرف من تلك
المجالس عليها، وشقّ فى عرضها[1] نهرا وعمل عليه قناطر معقودة، وبنى فوقها مجالس ١٣٣/١٢
يتّصل بعضها ببعض، وجعل حوله منازل تدور بالخليج متّصلة بالقناطر على رياض
مزروعة وخلفها الأجنّة والبساتين؛ وعلى كل باب من أبوابها أعجوبة من تمـاثيل
وأصنام متحرّكة وأصنام ينبع المـاء من آذانها، ومن داخل كل باب صورة شيطانين ٥
من صُفْر، فكان إذا قصدها أحد من أهل الخـير قهقه الشيطان الذى عن يَمنـة
البـاب، وإن كان من أهل الريب[2] بكى الشيطان الذى عن يَسرة البـاب، وجعل
فى كل متنزّه منها من الوحوش الآلفة والطير المغرّدة كل مستحسَن، وجعـل فوق
قباب المدينة صورا تصفر إذا هبّت الرياح، ونصب له فيهـا مرايا ترى البـلدان
البعيدة والعجائب الغريبـة، وبنى حذاءها فى الشرق مدينة وجعل فيهـا ملاعب ١٠
وأصناما بارزة كثيرة فى خلق مختلفة، وجعل فى وسطها بركة إذا مرّ بها الطير سقط
عليهـا فلا يبرح حتى يؤخَذ، وجعل لهـا حصنا [بآثنى عشر بابا[3]] وجعل على كل
باب من أبوابها تمثالا يعمل أعجوبة وعمل حولها أجنّة، وجعل ما يقرُب منها من
ناحية الشرق مجلسا منقوشا على ثمانى أساطين، وفوق المجلس قبّة عليها طائر منشور
الجناحين يصفر كل يوم ثلاث صَفَرات: بكرة، ونصف النهار، وعند الغروب؛ ١٥
وأقام فيها أصناما وعجائب كثيرة، وبنى مدنا كثيرة وأكثر من العمارات، وأقام رجلا
يقال له برسان يعمل الكيمياء، وضرب منها دنانير، فى كل دينار سبعة مثاقيل عليها
صورته، وعمل منها تماثيل كثيرة. وعاش أتريب فى الملك ثلاثمائة سنة وستين سنة،

(١) فى المقريزى (ج ١ ص ١٧٥ طبع بلاق): «غربيها».
(٢) فى المقريزى: «الشرّ». ٢٠
(٣) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦ طبع بلاق).

وكانت سنّه خمسمائة سنة . وعُمل له ناووس فى جبل بالشرق حُفر [له](١) تحته سَرَب بُطِّن بالزجاج [والمرمر](١) وجُعل على سرير من ذهب [مرصّع](١) وحُملت إليه ذخائره، وجُعل على بابه صورة تنّين لا يدنو منه أحد إلّا أهلكه، وزبر عليه آسمه وتاريخ وقته، وسفَوْا عليه الرمال .

٥ وملكت بعده آبنته [تدرورة](٢) فدبّرت الملك وساسته بأيدٍ وقوّة خمسا وثلاثين سنة ثم ماتت .

فقام بالملك بعدها أخوها(٣) فليمون(٤) بن أتريب، فردّ الوزراء إلى مراتبهم، وأقام الكهّان [على مواضعهم](٥) ولم يخرج الأمر عن رأيهم، وجدّ فى العمارات وطلب الحكَم وعمل بها . وفى أيامه بُنيت تنّيس الأولى التى غرقها البحر، وكان بينها و بين ١٠ البحر شىء كثير، وحولها الزروع والأشجار والكروم والقُرى ومعاصر الخمر وغيرها وعمارة لم يكن أحسن منها، فأمر الملك أن يُبنىَ له [فى](٥) وسطها مجالس، ويُنصَب له عليها قباب، وتزيّن بأحسن الزينة والنقوش، وأمر بفرشها و إصلاحها، وكان إذا بدأ النيل فى الزيادة انتقل الملك إليها فأقام بها إلى النَّوْروز ورجع . وكان للملك بها أمناء يقسّمون المياه ويُعطون كل قرية قسطها، وكان على تلك القُرَى حصن ١٥ يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلها له متنزّها .

---

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦) . (٢) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٨)، ووصف هذه الملكة بقوله : « وكانت كاهنة ساحرة، فساست الملك أحسن سياسة، ودبرت الملك أجود تدبير ؛ وعملت طلسمات عجيبة، منها طلسم منع الوحش والطير أن يشرب من النيل حتى مات أكثرها عطشا، ووقعت فى زمانها صيحة ارتجت لها الأرض فهلكت » . (٣) فى المقريزى (ج ١ ص ١٧٦) : ٢٠ « ابن أختها » . (٤) فى المقريزى : « قليمون » بالقاف . (٥) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦) .

ويقال: إن الجنّتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه كانتا لأخوين من أهل بيت الملك أقطعهما الملك ذلك الموضع. وقد تقدّم ذكر خبرهما عند ذكرنا لبحيرة تِنِّيس[1]، وهو فى الباب السادس من القسم الرابع من الفن الأوّل فى ذكر البحار والجزائر وهو فى السفر الأوّل من كتابنا هذا.

قال: وفى زمان فليمون بُنيت دمياط على آسم غلام له كانت أمّه ساحرة لفليمون. قال: وملك فليمون تسعين سنة، وعمل لنفسه ناووسا فى الجبل الشرقىّ، وحوّل إليه من الأموال والجواهر وسائر الذخائر شيئا كثيرا، وجعل من داخله تماثيل تدور بلوالب فى أيديها سيوف فمن دخلها قطّعته بسيوفها. وجعل عن يمينه ويساره أسدَين من نحاس مذهب بلوالب أيضا فمن دنا منهما حطّماه، وزبر على الناووس: هـذا قبر فليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصريم، عمّر عمرا، وبقى دهرا. وأتاه الموت فما آستطاع له دفعا، فمن وصل إليه فلا يسلبه ما عليه، وليأخذ مما بين يديه.

وصار المُلْك بعده إلى آبنه قرسون بن فليمون؛ وجلس على سرير الملك، ودخل إليه عظماء أهل البلد والخاص والعام فهنّئوه بالملك، فتقدّم فى أمر الهيا كل والكهنة وطلب الحكمة؛ وكان حَدَثا جميلا فعشقته إحدى نساء أبيه، وكانت تتولى طيبة[2] وتزعم أن أباه أمرها بذلك، ثم بعثت إلى ساحرة من أعلم السحرة بمنف[3]

(١) راجع (ج ١ ص ٢٥٢ من هذه الطبعة).

(٢) طيبة: هى ثيبة عاصمة الصعيد فى أيام الفراعنة وذات المائة باب. وفى بعض مكانها الآن مدينة الاقصر أو قصور أبى الحجاج (راجع قاموس الجغرافية القديمة للمرحوم أحمد زكى باشا).

(٣) منف: هو الاسم العربى لعاصمة مصر فى أيام الفراعنة، وتسمى عند اليونان منفيس، وعند قدماء المصريين مانوفرى، وفى بعض محلها الآن قرية ميت رهينة بالجيزة. (راجع قاموس الجغرافية القديمة).

١٣٤/١٢ فسألتها أن تسحره لها وبذلت لها على ذلك أموالا ، وإذا الساحرة قد عشقته أشدّ من عشقها ، فسَعَت بآمرأة أبيه وعرّفته ما بذلت لها على ذلك ، فأبعدها عن مجلسه ومنعها من الدخول إليه .

وبلغ ملكا من ملوك حِمْير أن مُلْك مصر صار إلى غلام حَدَث غِرّ فطمع فيه وسار إليه فى جموع عظيمة ، فخرج قرسون نحوه فآلتقوا بأيلة[1] وآقتتلوا قتالا شديدا حتى تفانَى الفريقان ، فأتت تلك الساحرة إلى الملك فقالت : ماتجعل لى إن أعنتك على عدوّك حتى تفضّ جموعه وتظفر به ؟ قال حُكْمك ؛ فأخذت عليه بذلك العهود والمواثيق ، وأصبحوا للحرب فدخّنت الساحرة بدخن عجيبة وأظهرت تخاييل هائلة ، فهرب الحميرىّ فى نَفَر يسير من ثقاته ، وقتل بقية أصحابه ، وحاز جميع ما كان فى خزائنهم ، وعاد الملك إلى منف بالظفر والغنيمة ، فأتته الساحرة فسألته الوفاء بالشرط فقال : احتكمى ما أحببتِ ، فهذه الأموال والخزائن بين يديك ؛ فقالت : ما أريد غير الملك ؛ فقال : ويحك ! إنك لست من أهل بيت الملك ، وقد علمت ما فى هذا على الملك ؛ فقالت : قد كان الملوك قبلك يغصبون نساء الناس ويلدن منهم ولا يسألون عن ولاداتهم ، وأنا آبنة فلان رئيس الكهنة ، ويوشِك أن يحتاج الملك إلىّ بعد هذا . ولم تزل به حتى انصرف قلبه اليها ، فتزوّجها وأحبّها وحظيت عنده . فضاقت الأرض بآمرأة أبيه فأخذت فى أعمال الحيلة عليها ؛ فدسّت جارية لها عاقلة لطيفة على ساق الملك الذى يتولّى شرابه ، فاختلطت بجواريه حتى

(١) أيلة : فرضه على خليج العقبة ، سميت باسم أيلة بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ، كانت مدينة شهيرة فى الأزمان الخالية ، وفيها قلعة شيدها أحمد بن طولون صاحب مصر ، وفى جنوبها على ساحل بلاد العرب كانت مدينة أزيونجابر القديمة . وخليج أيلة ، أو العقبة ، يعرف فى كتب اليونان باسم : « إلانيتيك » . (راجع معجم الخريطة التاريخية الإسلامية للمرحوم أمين واصف بك) .

تمكّنت من إناء كان فيه شرابٌ للملك فألقت فيه سمّا وعادت فى الوقت إلى مولاتها وأخبرتها ، فدخلت إلى الملك فسجدت له وقالت : قد كنتُ للملك ناصحة ، وعليه مشفقة ، فأقصانى وآختصّ هـذه الساحرة الفاجرة ، وقـد سمّت شرابه فى إناء من صفته كذا وكذا ، فليسقها الملك منه ليعلم صدق ؛ فـدعا الملك بالإناء فوجده على ما ذكرت ، فأحضر الساحرة وأمرها بشرب قدح منـه فشربته ولم تعلم ما فيـه فسـقط لحمها عن عظمها ، فأمر بدفنها فى ناووس وزبر عليـه آسمها وما همّت به وما صار أمرها إليه ، وعاد إلى آمرأة أبيه وتزوّج بها وحسنت حالها عنده .

قال : وفى أيامه عُمل المنار على بحر القُلزُم[1] وجُعلت على رأسه مرآة من أخلاط تجتـذب المراكب على شاطىء البحر ، فلا يمكنها أن تبرح أو تعثّر ، فإذا عُثّرت سترت المرآة فتجوز المراكب .

قال : وأقام قرسون ملكا مائتين وستين سـنة ؛ وقد كان عمل لنفسه ناووسا خلف الجبل الأسود الشرقىّ . وجعل فى وسطه قبّة فيها آثنى عشر بيتا ، فى كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخرى ، وزبر عليها آسمه ومدّة ملكه . قال : وملك بعده ثلاثة أو أربعة . فهؤلاء الذين سمّاهم من أولاد أتريب ممن ملك منهم . والله أعلم[2] .

(١) هو الآن البحر الأحمر .

(٢) هنا ينتهى السفر الثانى عشر من هذا الكتاب من تجزئة الأصل من النسختين المأخوذتين بالتصوير الشمسى المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٥٤٧ ، ٥٥١ معارف عامة . وصورة ما جاء فى آخر هذا السفر من النسخة الأولى : « كمل الجزء الثانى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى فى أواسط شهر ربيع الأوّل من شهور سنة سبع وستين وتسعمائة على يد كاتبه أفقـر الخلق الى رحمة الحق نور الدين بن شرف الدين العاملىّ بلدا الشافعىّ مذهب غفر الله له ولوالديه ولمن يقرأ له الفاتحة ويهديها للنبىّ ثم له آمين » .

وصورة ما ورد فى النسخة الثانية : « كمل الجزء الثانى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويرى عفا الله عنهم .

يتـلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء الثالث عشر منـه ذكر أخبار صا بن قبطيم بن مصريم بن بيصر ابن حام بن نوح عليه السلام .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ذكر أخبار صا بن قبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام (١)

١/١٣

قال: ولمّا قسم قبطيم الأرض بين بنيه الأربعة كما تقدّم وانتقل كل واحد منهم إلى حيّزه، خرج صَا بأهله وولده وحشَمه إلى حيّزه، وهو بلد البحيرة وما يليها إلى برقة، ونزل مدينة صَا، وذلك قبل أن تُبنَى الإسكندرية. وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبّهم إليه، فلمّا ملك حيّزه أمر بالنظر فى العمارة، وبنى المدائن والبلدان والهيا كل، وعمل فى إظهار العجائب كما صنع إخوته، وطلب الزيادة فى ذلك. وكان مرهون (٢) الهندى (٣) صاحب بنائه (٤)، فبنى له من حدّ صا إلى حدّ لوبية ومراقية على عبر البحر أعلاما، وجعل على رءوس تلك الأعلام مرايا من أخلاط شتّى: فكان منها ما يمنع من دوابّ البحر وأذاهم، ومنها ما إذا قصدهم عدوّ من الجزائر الداخلة وأصابها الشمس ألقت شعاعها على مراكبهم فأحرقتها، ومنها ما يُرى المدائن التى تجاورهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها، ومنها ما ينظر منها إلى إقليم مصر فيعلم ما يخصب وما يجدب منه فى كل سنة. وجعل فيها حمامات تُوقد من نفسها ومستشرفات. وكان كل يوم فى موضع منها بمن يخصّه من حشمه وخدمه، وجعل حولها بساتين وسرّح فيها الطيور المغتردة والوحش المستوحش والمستأنس والأنهار المطردة والرياض المونقة،

(١) أوّل الجزء الثالث عشر من تجزئة الأصل. وكتب المرحوم أحمد زكى باشا فى أوّل هذا الجزء من نسخة ب ما نصه: «يظهر لى أن هذا الجزء كتب فى أيام المؤلف، وفى آخره عبارة هذا نصها: "بلغ مؤلفه مقابلته بأصله والحمد لله" وهى بخط المؤلف كما يظهر من مضاهاتها بالأجزاء الأخرى المكتوبة بخطه».

(٢) كذا فى المقريزى (ج ١ ص ١٨٢ طبع بلاق) ونسخة (ب). وفى نسخة (ا): «مرهوب».

(٣) كذا فى الأصل والمقريزى. وفى تعليقات المقريزى (ج ٣ ص ٢١٨ طبعة فيت): «المهندس».

(٤) فى المقريزى طبعة فيت: «صاحب بابه».

وجعل شرف القصر من حجارة ملونة تلمع إذا أصابتها الشمس فتنشر شعاعها على ما حولها ؛ ولم يدع شيئا من آلة النعمة والرفاهية إلا استعمله . فكانت العمارة ممتدّة إلى برقة فى رمال من رشيد إلى الإسكندرية إلى برقة . وكان الرجل يسافر فى أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ، ولا يسير إلا فى ظلال تستره من الشمس . وعمل فى تلك الصحارى قصورا وغرس فيها غروسا ، وساق إليها من النيل أنهارا . وكان يسلك من الجانب الغربىّ إلى حدّ الغرب فى عمارة متصلة .

قال : فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها . قال : ولا يزال مَن دخل تلك الصحارى يَحكى ما رأى فيها من الآثار والعجائب .

قال : ومن ملوكهم مرقونس ؛ وكان [فاضلا](١) حكيما ، محبّا للنجوم والحكمة ، فعُمل فى أيامه درهم إذا ابتاع به صاحبه شيئا اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم ولا يطلب عليه زيادة ، فيغترّ البائع بذلك ويقبل الشرط ، فإذا تمّ ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم أرطال كثيرة تساوى عشرة أضعافه ، وإن أحبّ أن يُدخل فى وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل . قال : وقد وُجد هذا الدرهم فى كنوزهم فى أيام بنى أميّة ، فكان الناس يتعجّبون منه . وقد كانوا وجدوا درهما آخر قيل إنه عُمل فى وقته أيضا يكون فى ميزان الرجل ، فإذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ الدرهم من ميزانه وقلبه(٢) وقال : اذكر العهد ، ومضى فابتاع به ما أراد ، فإذا أخذ السِّلْعة ومضى إلى بيته

٢/١٣

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٩ طبع بلاق) .

(٢) فى المقريزى (ج ١ ص ٣٤) « وقبلة » .

وجد الدرهم قد سبقه إلى منزله ، ووجد البائع حيث وضعه ورقة آس أو قرطاس أو مثل ذلك بدور[(١)] الدرهم .

وقيل : إن فى وقته عُملت الآنيـة الزجاج التى توزَن ، فإذا مُلئت [ثم][(٢)] وُزنت لم تزد على وزنها الأوّل شـيئا ، وهى تحمل من المـاء بوزنها . وعُمِـل أيضا فى وقته الآنيـة التى إذا جُعل المـاء فيها صار خمرا فى لونه ورائحته وسكره . قال : وقد وُجد من هـذه الآنية بإطفيح[(٣)] فى إمارة هارون بن خُمَارويه بن أحمـد ابن طولون شربة جَزْع[(٤)] بعُـروة زرقاء ببياض . وكان الذى وجدها أبو الحسن [الصائغ][(٥)] الخراسانىّ هو ونفرٌ معه ، فجلسوا ليأكلوا على عَبْر النيل وشربوا المـاء بها فوجدوه خمرا فسكروا منه ورقصوا ، فوقعت الشربة فانكسرت على عدّة قطع ، فاغتمّ الرجل وجاء بهـا إلى هارون مكسورةً ، فأسـف عليهـا وقال : لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض مُلْكى .

وفى أيامه عُمِلت الصورة الحنتمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات[(٦)] ، فكانت إذا جُعلت فى موضع من المواضع اجتمع إليها ذلك الجنس بعينه ولا يقـدر أن يفارقها حتى يُقتَل . وعمل فى صحـراء الغرب ملعبـا من زجاج ملوّن ، وجعل فى وسطه قبّـة من الزجاج خضراء صافية اللون ، وكانت إذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على المواضع البعيدة . وعمل من أربع جهاته أربعة مواضع عالية من الزجاج ، كلّ مجلس منها بلون ، ونقش كلّ مجلس منها بمـا

(١) كذا فى الأصل والمقريزى . وفى تعليقات المقريزى (ج ١ ص ١٥٠ طبعة فييت) : «بدون» .
(٢) التكملة من المقريزى . (٣) إطفيح : هى الآن إحدى بلاد مركز الصف بمديرية الجيزة . وهارون بن خمارويه ولى مصر فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين .
(٤) سمى جزعا لأنه مقطع بألوان مختلفة ، أى قطع سواده بياضه وصفرته . (٥) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٣٤ طبع بلاق) . (٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «الدبابات» .

يخالف لونه من الطلّسمات العجيبة والنقوش الغريبة والصور البديعة ؛ كل ذلك من زجاج مطابَق يَشِفّ . وكان يقصد هذا الملعب ويُقيم فيه الأيام الكثيرة . وعمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة ، فكانوا يحجّون إليه ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام؛ فلم يزل ذلك الملعب بحاله تقصده الأمم لتنظر إليه لأنه لم يكن له نظير ولا شكل ، ولا عُمل [فى العالَم](١) مثلُه إلى أن هدمه بعض الملوك لأنه تعاطى مثله فلم يقدر على ذلك .

وكانت أمّ مرقونس آبنة ملك النوبة ، وكان أبوها يعبد نجما يقال له السُّها ، ويسمّيه إلٰها ، فسألت آبنها أن يعمل لها هيكلا ويفردها(٢) به ، فعمله لها وصفّحه بالذهب والفضّة [وأقام فيه صنما](١) وأرخت عليه ستور الحرير ، فكانت تدخل إليه مع جواريها وحشمها وتسجُد له كل يوم ثلاث مرّات . وعَمِلت فى كل شهر عيدا تقرّب له فيه القرابين وتبخّره ليله ونهاره ، ونصبَت له كاهنا من النوبة فكان يقوم به ويبخّر [ه](١) ويقرّب [له](١) ، ولم تزل بآبنها حتى سجد له ودعا الناس إلى عبادته .

قال : ولمّا رأى الكاهن أنّ الأمر قد أُحكم له من جهة الملك فى عبادة الكواكب ، أحبّ أن يكون له مثالا فى الأرض على صورة شىء من الحيوان يتعبّد له ليكون حذاء عينيه ؛ فأقام يعمل الحيلة فى ذلك إلى أن آتفق بمصر كثرة العِقْبان حتى أضرّت بالناس ، فأحضره الملك وسأله عن كثرتها فقال : إنّ إلٰهك أرسلها لتعمل له نظيرا يُسجَد له . فقال الملك : إن كان ذلك يُرضيه فأفعله ، فعمل تمثال عُقاب طوله ذراعان فى عرض ذراع من ذهب مسبوك ، وعمل عينيه من ياقوتتين ،

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٣٥ طبع بلاق) .

(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « ويفرده » .

وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر [أخضر][1]، وجعل فى منقاره كرة[2] معلّقة وسَرْوَله بأدرك أحمر، وأقامه على قاعدة [من][1] فضّة منقوشة، وركّبها على قائمة زجاج أزرق، وجعله فى أزَج عن يمين الهيكل، وألقى عليه ستور الحرير، وجعل [له] دُخْنة معمولة من جميع الأفاويه والصمغ، وقرّب له بعجل أسود وبكارة الفراريج وبواكير الفواكه والرياحين. فلما تمّت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود له فأجابوه. ولم يزل [الكاهن][1] يجهد نفسه فى عبادته، وعَمِل له عيدا دعاهم فيه إلى أن يخرّ له فى أنصاف الشهور بالمندَل وترشّ الهياكل بالخمر العتيقة [التى تؤخذ][1] من رءوس الجوابى[3]، ونطق لهم العُقاب وعرّفهم أنه أزال عنهم العِقبان وضررَها؛ وكذلك يفعل فى غيرها ممّا يخافون؛ فسُرّ الكاهن بذلك ووجّه إلى أمّ الملك فعرّفها ذلك فصارت الى الهيكل، فلمّا سمعت كلام العقاب سرّها ذلك وأعظمته، وبلغ الملك خبره فركب إلى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه، فسجد له وأقام له سَدَنة وأمر أن يزيّن بأصناف الزينة، وكان الملك يقوم بذلك الهيكل ويسجد لتلك الصورة ويسألها عمّا يريد[4] فتخبره.

٣/١٣

وعمل من الكيمياء والذهب ما لم يعمله أحد من الملوك. فيقال: إنه دَفَن فى صحراء الغرب خمسمائة دَفين. ويقال: إنه عمل على باب صَا عمودا وجعل عليه صنما فى صورة امرأة جالسة وفى يدها مرآة ينظر فيها العليل [أو ينظر له أحد فيها][1] فإن كان يموت رآه ميّتا، وإن كان يعيش رآه حيّا؛ والمسافر، فإن كان مُقبلا بوجهه علموا أنه راجع، وإن رآه موليّا علموا أنه متمادٍ، وإن كان مريضا أو ميّتا مرأوه كذلك. وعمل بالإسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة وعلى

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٣٥). (٢) فى المقريزى: «درّة». (٣) كذا فى المقريزى. وفى الأصل: «الخوابى». (٤) كذا فى المقريزى. وفى الأصل: «أحب».

رأسه كالبرنس[1] وفى يده كالعكّاز إذا مرّ به رجل تاجر جعل بين يديه شيئا من الذهب على قدر بضاعته، و إن حاذاه[2] عن بُعْد ولم يفعل ذلك لم يقدر على الجواز ويبيت قائما مكانه ، فكان يجتمع من ذلك مالٌ عظيم يفترق فى الزمْنَى والفقراء.

وعمل فى وقته كل أعجوبة طريفة، وأمر أن يُزبَر اسمه عليها وعلى كل علَم وكل طِلّسم وصنم. وعمل لنفسه ناووسا فى داخل أرض الغرب عند جبل يقال له سدام، وعمل تحته رحًى طوله مائة ذراع فى ارتفاع ثلاثين ذراعا فى عرض عشرين ذراعا، وصفّحه بالمرمر والزجاج الملوّن المسبوك وسقفه بالحجارة الصافية، وعمل فيما دار به مصاطب لطافا مبلّطة بالزجاج، وعمل على كل مصطبة فيها أعجوبة وتمثالا مما عُمل فى وقته ، وعمل فى وسط الأزَج دكّة من زجاج ملوّن ، على كل ركن من أركانها صورة تمنع من الدنو إليها ، و بين كل صورتين كالمنارة عليها حجرٌ مضىء ، وجعل فى وسَط الدكّة حوضا من ذهب يكون جسده فيه بعد تضميده بالأدوية الممسكة، ونقل إليه ذخائره من الجوهر والذهب وغير ذلك ، وأمر أن يُسَدّ باب الأزَج بالصخور والرّصاص وتُهال عليه الرمال . وكان مُلْكه ثلاثا وسبعين سنة ، وعمره مائتين وأربعين سنة، وكان جميلا ذا وَفْرة حَسنة فنسَكت عامّة نسائه بعده ولزِمن الهيكل .

وعهد بالملك إلى ابنه أنساد بن مرقونس ؛ فملك بعد أبيه وهو غلام ابن خمس وأربعين سنة ، وكان مُعجبا جبّارا طمّاح العين ، فنكح امرأة من نساء أبيه وانكشف أمره معها ، وكان أكبر همّه اللهو واللعب ، فجمع كل مُلْهٍ كان فى مملكته وقصده كل مَن هذه سبيله ، وجعل تدبير المُلْك إلى وزير له يقال له

(١) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « كالريش » .

(٢) فى المقريزى : « تجاوزه » .

مسرور ، ورفض العلوم والهيا كل والكهنة والنظرّ فى أمور الناس . وعمل قصورا من خشب عليها قباب من خشب منقوشة مموّهة وجعلها على أطواف فى النيل ، فكان يشرب عليها مع من يحبّه من نسائه وخدمه ومَن يُلهيه . وعمِل عَجَلا فى البرّ وحمل عليها الأروقة المذهبة وفرشها بفاخر الفرش ، فكان يتنزّه عليها ويجرّها البقر ويقيم فى نزهته شهورا لا يمرّ بموضع نزِه إلاّ أقام فيه أياما . وولّد من الشجر توليدا كثيرا . وآستنفد أكثر ما فى خزائن أبيه لجوائز المُلْهين والنفقات فى غير وجه . فلمّا أسرف فى ذلك اجتمع الناس إلى وزيره فأنكروا عليه حاله وسألوه مسألته والمشورة عليه أن يقع عمّا هو عليه فضمن لهم ذلك ، وفاوضه فيه فلم ينته عنه ، وسلّط أصحابه على الناس فأساءوا إليهم وأضروا بهم . وخرج فى بعض الأيام إلى متنزّه كان له قد صفّح مجالسه بصفائح الذهب والفضة ، وغريب الزجاج الملوّن ، والجواهر المخروطة ، والصهاريج المرخّمة الملوّنة ، وأمال إليه المياه ، وغرس فيه الرياحين والثمار ، وفرش مجالسه بأصناف الفرش ؛ وكان إذا أحبّ أن يخلو بآمرأة من نسائه خلا بها هناك ؛ فإنه فى ذلك المكان ، وقد أقام به أياما ، إذ خرج غلام لبعض حُرَمه فأتى بعض التجّار فى حاجة أراد أخذها بغير ثمن ، فمنعه التجّار منها ، فوثب بهم فضربوه حتى أسالوا دمه وحمل ، وآتصل الخبر بالوزير وصاحب الجيش فركبا إلى الموضع وأنكرا على الناس فأغلظوا لهما ، فآنصرفا وعرّفا الملك الخبر ، فأراهما أنه لم يحفل بذلك ، وأمر بالنداء فى الناس مَن تعرّض لكم من خدم الملك وأصحابه بأذى فاقتلوه ، فشكره الناس وحمدوا فعله على ذلك ، وتواصَوْا بالوثوب على أصحابه ، حتى إذا مضى لذلك أسبوع وجه الملك إلى الوزير وصاحب الجيش فعرّفهما أنه قد عزم على الركوب إلى صحراء الغرب يتصيّد هناك ، وامر أن يركب معه الجيش ويتزوّدوا لثلاثة أيام ففعلوا ، وخرج إلى البرّية فسار حتى إذا اختلط

٤
١٣

الظـلام رجع الجيش حتى وافى باب المدينـة ، وأمر أصحابه أن يضعوا السيف فى الناس فقتلوا خلقا كثيرا ، ثم أمر أن ينادَى : هذا جزاء مَن أقدم على الملوك من رعاياهم وأصحاب مهنهم ، وأخرب الموضع الذى ضُرب فيـه الغلام، فاستغاث به الناس ، فتقـدّم إلى وزيره أن يطرح نفسه بين يديه و يسأله فيهم ، ففعل وأمّنهم وقال : مَن عاد إلى مثل ما كان فقد حلّ لنا دمه، فدعَوْا له وٱنصرفوا . ثم ٱحتجب عن الناس وٱستخفّ بالكهنة والهياكل فأبغضته العامّة والخاصّة و بغَوْا الغـوائلَ فٱحتال عليه خاصّته بطبّاخه وساقيه فسمّاه وهو ٱبن مائة وعشرين سنة فمات .

وصـار الملك من بعـده إلى ٱبنـه صا بن أنساد بن مرقونس ؛ قال : وأكثر القبط تزعُم أن صا بن مرقونس أخو أنساد . فملك وهنّاه الناس ، فوعدهم بالعـدل فيهم ، والإحسان إليهم ، وحُسْن النظر لهم ، وسكن منف وحكم الأحياز كلها ، وعمِل بها عجائب وطِلّسمات ، وردّ الكهنة إلى مراتبهم ، ونفى المُلْهِين وأهل الشرّ ممن كان يصحب أخاه ، ونصب العُقاب الذى كان أبوه عمله ، وشرف هيكله ودعا إليه . وعمل فى منف مرآة كان يرى منها ما يُخصِب من بلده وما يُجدِب . و بنى بداخل الواحات مدينة غرس حولها نخلا كثيرا . ونصب قُرْب البحر أعلاما كثيرة . وعمل خلف المقطّم صنما يقال له صنم الحِيلة ، فكان كل من تعذّر عليه أمرٌ يأتيه فيبخّره فيتيسّر عليـه ذلك الأمر (١) . وجعل على أطراف مصر أصحابَ أخبار يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم . وعمِل على غربى النيل منائر يُوقَد عليها إذا قصدهم قاصد أو نابهم أمرٌ . و يقال : إنه بنى أكثر منف وكل بنيان عظيم بالإسكندرية .

قال : وكان لمّا ملك البلد بأسره جمع الحكماء إليه ونظر فى النجوم — وكان بها حاذقا — فرأى أن بلده لا بدّ أن تغـرق بالطوفان من نيلها ، ورأى أنها تخرب على

(١) وورد فى المقريزى (ج ١ ص ١٥٥ طبعة فيت) بعد هذا ما نصه : «وجعل بحافة البحر الملح منارا يعلم منه أمر البحر وما يحدث فيه من أقصى ما يصل اليه البصر على مسيرة أيام وهو أوّل من اتخذها» .

يد رجل [يأتى[1]] من ناحية الشأم ، فجمع كل فاعل بمصر وبنى فى الواح الأقصى مدينة جعل طول حصنها فى الارتفاع خمسين ذراعا وأودعها جميع الحِكَم والأموال .

وبنى المدينة[2] التى وقع عليها موسى بن نُصَير فى زمن بنى أميّة ، وكان قد أخذ على الواح الأقصى ، وكان عنده علم منها ، وأقام سبعة أيام يسير فى رمال وصَحارِى سَمْتَ الغرب والجنوب إلى أن ظهرت له مدينة عليها حصنٌ وأبواب حديد ، فأصعد إليها الرجال ليقِفوا على ما فيها لمّا لم يمكنه فتح أبوابها ، ولغلبة الرمال على ما حولها ؛ فكانوا إذا عَلُوا الحصن وأشرفوا عليها وثبوا إليها ؛ وعَرْض حصنها عشرون ذراعا ؛ فلمّا أعياه أمرها تركها ومضى ، فهلك فى تلك الطريق جماعة من أصحابه . فلم يُسمَع بأحد بعد موسى بن نُصَير ولا قبله وقع عليها .

٥/١٣ قال : وفى تلك الصحارى أكثر متنزّهاتهم ومدائنهم العجيبة ؛ إلا أنّ الرمال غلبت عليها . ولم يبق بمصر ملك إلا وقد عمل للرمال دفعا ثم تفسد طِلَّسماتهم على تقادُم الأيام .

---

(١) التكملة من المقريزى (ج ٣ ص ٨ ؛ طبعة فيت) .

(٢) هذه المدينة تسمى « مدينة النحاس » ويقال لها « مدينة الصفر » وتقع فى بعض مفاوز الأندلس . قال ياقوت فى معجمه : « ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وأنا برىء من عهدتها ، إنما أكتب ما وجدته فى الكتب المشهورة التى دوّنها العقلاء ومع ذلك فهى مدينة مشهورة الذكر فلذلك ذكرتها » ثم ذكر عن ابن الفقيه أن ذا القرنين بناها وأودعها كنوزه وعلومه وطلسم بابها فلا يقف عليه أحد ، وبنى داخلها بحجر البهتة وهو مغناطيس الناس ، وذلك أن الإنسان اذا نظر اليها لم يتمالك أن يضحك ويلقى نفسه عليها فلا يزايلها أبدا حتى يموت . ولما بلغ عبد الملك بن مروان خبرها وخبر ما فيها من الكنوز والعلوم وأن الى جانبها بحيرة بها كنوز عظيمة كتب الى موسى بن نصير عامله على المغرب يأمره بالمسير اليها والحرص على دخولها وأن يعرفه ما فيها ، ودفع الكتاب الى طالب بن مدرك فحمله وسار حتى انتهى الى موسى بن نصير وكان بالقيروان ، فلما أوصله اليه تجهز وسار فى ألف فارس نحوها فلما رجع كتب الى عبدالملك بن مروان ... وساق الكتاب الذى وصف فيه رحلته الى هذه المدينة وما صادفه فيها (راجع معجم البلدان فى كلامه على مدينة النحاس) .

وقال : وحكى قوم من التُّنّاء[(١)] فى ضياع الغرب : أنّ عاملا من عمّالهم عَنُفَ بهم فهربوا ودخلوا فى صحـراء الغرب وحملوا معهم زادا إلى أن يصلح أمرهم و يرجعوا إلى بلادهم ، وكانوا على يوم و بعض آخر قد لجِجوا[(٢)] فى سفح الجبل ، فوجدوا عَيْرا أهليّا قد خرج من بعض شِـعابه ، فتبعه نفر منهم ، فأخرجهم إلى مساكن وأشجار ونخل ومياه تَطَّرِدُ[(٣)] وقوم يسكنون هناك و يزرعون ، فخاطبوهم وعجبوا منهم وسألوهم عن حالهم فعرّفوهم أنهم منـذ كانوا يسكنون تلك الناحيـة و يتناسلون و يزرعون ولا يطالبهم أحدٌ بخراج ولا يُؤذيهم ، وأنهم لم يدخلوا إلى ضياع الغرب قطّ ، وقالوا لهم انتقلوا إلينا ؛ فخرج القوم بعد أن صلحت أمورهم واجتمعوا على الرجوع إلى ذلك الموضع والسكنَى فيـه بأهليهم ومواشيهم ، فخرجوا يطلبون الطريق مدّة فما عرفوا الطريق ولا تأتّى لهم الوصول إليه بعد ذلك فأسِفوا على مافاتهم منه .

وحُكى أيضا عن آخرين ضلّوا الطريق فى الغرب ، فوقفوا على مدينة عامرة ، كثيرة الناس والمواشى والنخيل والشجرَ ، فأضافوهم وأكلوا عندهم وشربوا ، و باتوا فى طاحونة يعمل فيها الخبز[(٤)] ، فسكروا من الشراب وناموا ، فلم ينتبهوا إلّا عند طلوع الشمس ، فوجدوا أنفسهم فى مدينـة كبيرة خراب ليس فيها أحدٌ ، فارتاعوا لذلك وخرجوا على وجوههم كالهاربين ، وساروا يومهم على غير سَمْت حتى قرب المساء ، فظهرت لهم مدينـة أخرى عظيمة أكبر من الأولى وأعمر ، وأكثر أهلا ودوابّ ومواشِىَ وشجرا ونخـلا ، فأنِسُوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة ، فجعلوا يعجبون منهم و يضحكون ؛ وإذا لبعض أهل المدينة وليمةٌ فانطلقوا بهم معهم ، فأكلوا وشربوا

(١) التناء : المقيمون ؛ يقال : تنـأ بالبلد يتنو تنوءا أقام به وقطنه . ويقال : هو من بناء تلك الكورة ، أى أصله منها . (٢) لجج بالمكان : لزمه . (٣) تطرد : تجرى .

(٤) كذا فى نسخة ب وفى نسخة أ : « الخمر » .

وغنّوهم بأصناف الملاهى ، وسألوهم عن حالهم فحدّثوهم أنهم ضلّوا عن الطريق فى هذه الصحارى، فقالوا لهم : الطريق بين أيديكم واضح مستقيم لا يمكن أن تغلطوا فيه ، فإن أحببتم المسير وجّهنا معكم مَن يُوقفكم على سَنَن الطريق الكبير الذى يوصلكم إلى منازلكم، وإن أحببتم أن تقيموا عندنا رفدناكم وكنتم إخواننا وأحبابنا.

٥ قالوا : فسُررنا بذلك من قولهم ، وأجمع بعضنا على المُقام معهم ، وأجمع من كان له منا أهلٌ وولدٌ على أن يسير إلى منزله ويحملَ أهله وولده ويعودَ إليهم. قال: وبتنا عندهم فى خير مَبيت، فرِحين بما ساق الله إلينا . فلمّا كان من الغد انتبهنا فوجدنا أنفسنا فى مدينة عظيمة ليس فيها أحدٌ من الناس وقد تشعّب بعض حصنها، إلّا أن حولها نخلا قد تساقط ثمره وتكدّس حَوله ، فلحِقَنا من الخوف لذلك والارتياع

١٠ ما استوحشنا له ، وخرجنا على وجوهنا هاربين مفكّرين فيما عاينّاه من أهلها، وإنّا لنجدُ روائح الشراب منّا ومعانى الخُمار ظاهرة ، فلم نزل نسير يومنا أجمع وليس بنا جوع ولا عطشٌ، حتى إذا كان المساء رأينا راعيا يرعَى غنما فسألناه عن العمارة وعن الطريق فدلّنا على الطريق وقال : إنّ العمارة حذاؤكم ؛ وإذا بنِقار (١) من ماء المطر فشربنا منه وبتنا عليها، ثم أصبحنا فإذا نحن فى خلاف موضعنا الذى كنّا فيه، وإذا آثار العمارة

١٥ والناس فما سرنا إلّا بعض يوم حتى دخلنا مدينة الأشمونين بالصعيد ، فكنّا نحدّث الناس ولا يقبلون منا .

قال : وهذه مدائن القوم القديمة قد غلب عليها الجانّ، ومنها ما قد سترته عن العيون فلا ينظر إليها أحد .

قال : وذكر بعض القبط أن رجلا من بنى الكهنة الذين قتلهم أنساد سار إلى

٢٠ ملك الإفرنجة فذكر له كنوز مصر وعجائبها وخيرها، وضمِن له أن يوصّله إلى مُلكها

(١) النقار : جمع نقرة (بالضم)، وهى الوهدة المستديرة فى الأرض .

وأموالها، ويدفع عنه أذى طِلَّسماتها حتى يبلُغ جميع ما يريده ويعرّفه مواضع الكنوز.
فلمّا اتصل بصا الملك أنّ صاحب الإفرَنْجة يتجهّز إليه، عمد إلى جبل بين البحر
المالح وشرقى النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه وما فى خزائنه، وبنى عليها قِبابا وصفّحها
بالرَّصاص، وأمر ففتحوا جوانب الجبل إلى منتهى خمسين ذراعا، وجعلوا فى انتهاء
المنحوت منه شبه الطرر البارزة خارجة من النحت بقدر مائة ذراع وهو بين جبال ٥
وعرة، فحصّن أمواله هناك. وتجهّز إليه صاحب الإفرَنْجة فى ألف مركب، فكان ٦/١٣
لا يمرّ بشىء من أعلام مصر ومناراتها وأصنامها إلّا هدمه وكسره بمعونة الكاهن له.
حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها وهدم كثيرا من معالمها إلى أن دخل النيل من
ناحية رشيد وصعد إلى منف فحاربه أهل النواحى، وجعل ينهب ما مرّ به ويقتُل
مَن قدر عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة ليأخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلّسمات ١٠
الشداد والمياه العميقة والخنادق الشدّاخات، فأقام عليها أياما كثيرة يعالج أن يصل
إليها، فلمّا لم يُمكنه ذلك قتل الكاهنَ، وهلك جماعةٌ من أصحابه، واجتمع أهل
النواحى على مراكبه وأصحابه فقتلوا منهم خلقا وأحرقوا بعض المراكب. ولما تيقّن
أهل مصر تلفَ الكاهن الذى كان معه أرسلوا إليه سحرهم وتهاويلَهم، وأتت مع ذلك
رياح غرقت كثيرا من مراكبه، وكان جلّ مرامه أن ينجو بنفسه فما عاد إلى ١٥
الإفرنجة إلا وَقِيذا[1] بجراحات أصابته، ورجع الناس إلى منازلهم وقُراهم، ورجع
صا إلى منف فأقام بها وترك ما كنزه على حاله.

قال: ولم يزل بعد ذلك يغزو بلاد الروم وأهل الجزائر ويخربها فهابته الملوك،
وتتبّع الكهنة فقتل منهم خلقا، وأقام سبعا وستين سنة، وكانت سنه مائة وسبعين
سنة وهلك، فدُفن بمنف فى ناووس عمله وسَط المدينة من تحت الأرض، وجعل ٢٠

(١) الوقيذ: الشديد المرض المشرف.

المدخل إليه من خارج المدينة من الجهة الغربية ، وحمل إليه أموالا عظيمة وجواهر كثيرة، وتماثيلَ وطلّسمات وغيرَ ذلك كما فعل أجداده. وكان فيه أربعةُ آلاف تمثال ذهب على صُوَر شتّى برّية وبحرية ، وتمثال عُقاب من جوهر أخضر جُعل عند رأسه ، وتمثال تنّين من ذهب مشبّك عند رجليه وزبر عليه آسمه وسيرته وغلبته للملوك .

وعهد إلى آبنه تدارُس بن صا ، فملك الأحياز كلها بعد أبيه وصفا له مُلْك مصر . وكان محنّكا مجرّبا ذا أيدٍ وقوّة ومعرفة بالأمور ، فأظهر العدل ، وأقام الهيا كل وأهّلها قياما حسنا . وبنى غربى منف بيتا عظيما للزُّهَرة وزبر جميع الأخبار — وكان صنم الزهرة من لازَوَرْد مذهّب متوجا بذهب — وسوّره بسوارين من الزَّبَرْجَد الأخضر ، وكان فى صورة آمرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبّر، وفى رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب ، وفى يدها قضيبُ مَرجان وهى تشير بسبّابتها كالمسلّمة على مَن فى الهيكل ، وجعل حذاءها من الجانب الآخر تمثال بقرة ذات قرنين وضَرعين من نحاس أحمر مموّه بذهب موشحة بحجر اللازورد ، ووجه البقرة محاذيا[1] لوجه الزهرة ، وجعل بينهما مطهرة من أخلاط للأجساد على عمود رُخام مجزّع فيها ماء مدبّر يُستشفَى به من كل داء ، وفرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها فى كل سبعة أيام ، وجعل فيه كراسىّ للكهنة مصفّحة بذهب وفضّة، وقرّب له ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير، وكان يحضر يوم الزهرة ويطوف به. وكانت فُرُش الهيكل وستوره عن يمين تمثال الزهرة ويساره. وكان فى قبّته صورة رجل راكب على فرس له جناحان وله حربة فى سنانها رأس إنسان معلق، وبقى هذا إلى زمان بُخْتَ نصر

(١) فى المقريزى (ج ١ ص ١٥٦ طبعة فييت) «تجاه وجه».

وهو الذى هدمه . ويقال : إن تدارُس الملك هذا هو الذى حفر خليج سخا ، وآرتفع مال البلد فى أيامه مائة ألف ألف [دينار][1] وخمسين ألف [ألف][1] دينار . وقصده بعض عمالقة الشأم فخرج إليه وآستباحه ودخل إلى فلسطين فقتل منها خلقا كثيرا وسبى بعض حكمائها وأسكنهم مصر وهابته الملوك .

قال : وعلى رأس ثلاثين سنة من مُلْكه طمع السودان من الزِّنج والنُّوبة فى أرضه فعاثوا وأفسدوا ، فأمر بجمع الجيوش وأعدّ المراكب ووجّه قائدا من قوّاده يقال له : بلوطس فى ثلثمائة ألف ، وقائدا آخر فى مثلها ، ووجّه فى البحر[2] ثلثمائة سفينة فى كل سفينة كاهنٌ يعمل أعجوبة من العجائب [ثم خرج فى جيوش كثيرة ، فلقى جموع السودان][3] وكانوا فى زُهاء ألف ألف فهزموهم ، وقتلوا أكثرهم أبرح قتل ، وأسر منهم خلقا كثيرا ، وتبعهم حتى وصل إلى أرض الفيلة من بلاد الزِّنج[4] فأخذ منها عدّة من النمور والوحش وذللها وساقها معه إلى مصر . وعمل على حدود بلده منارات وزبر عليها مسيرَه وظفرَه والوقتَ الذى سار فيه . ولمّا وصل إلى مصر آعتلّ ورأى رؤيا تدلّ على موته ، فعمل لنفسه ناووسا ونقل إليه شيئا كثيرا من أصنام الكواكب والذهب والجوهر والصنعة والتماثيل وهلك ؛ فحُمل إليه وزُبر عليه آسمه وتاريخُ الوقت الذى هلك فيه ، وجُعل عليه طِلّسما تمنع منه .

وعهد إلى آبنه ماليق بن تدارس ؛ فملك بعد أبيه . وكان غلاما كريما حسنَ الوجه ، مجرّبا ، مخالفا لأبيه وأهل بلده فى عبادة الكواكب والبقر .

٧ / ١٣

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٢٨٨ طبعة فيت) .

(٢) فى المقريزى : « فى النيل » .

(٣) التكملة من المقريزى . وفى الأصل : « وتوجه هو » .

(٤) بلاد الزنج هى الآن بلاد الصومال والحبشة وبلاد زنجبار (راجع معجم الخريطة التاريخية) .

ويقال : إنه كان موحّدا على دين أجداده قبطيم ومصريم ، وكانت القبط تذمّه لذلك . وكان سبب إيمانه فيما حُكى أنه رأى فى منامه أن رجلين لهما أجنحة أتياه فآختطفاه وحملاه إلى الفلك ، فأوقفاه بين يدى شيخ أسود أبيض الرأس واللحية ، فقال : هل عرفتنى ؟ فدخلته فزعة الحداثة ، وكانت سنه نيّفا وثلاثين سنة ، فقال له : ما أعرفك ! فقال : أنا قرويس ، يعنى زُحَل ، فقال : قد عرفتك ، أنت إلٰهى ، فقال : إنك وإن كنتَ تدعونى إلٰها فإنى مربوب مثلك ، وإلٰهى الذى خلق السمواتِ والأرضَ وخلقنى وخلقك ، فقال : وأين هو ؟ فقال : هو فى العلوّ لا تراه العيون ، ولا تلحقه الأوهام ، وهو الذى جعلنا سببا لتدبير العالَم الأسفل . قال له ماليق الملك : فكيف أعمل ؟ قال : تُضمِر فى نفسك ربوبيّته علينا . وتُخلِص فى وحدانيّته وتعرف بأزليّته . ثم إنه أمر الرجلين فأنزلاه ؛ فانتبه وهو مذعور ، فدعا رأس الكهنة فقصّ عليه رؤياه فقال : قد نهاك عن عبادة الأوثان فإنها لا تضرّ ولا تنفع ، فقال له : مَن أعبد ؟ قال : الله الذى خلق السمواتِ والكواكب التى فيها والأرض ومَن عليها . فكان الملك يحضر الهيكل فإذا سجد انحرف عن الصنم وأضمر السجود لخالق السمواتِ والأرض دون غيره ، ثم أخذ فى الغزو والغيبة عن أهل مصر وجال فى البلدان .

قال : وقال بعض أهل مصر : إنّ الله تعالى أيّده بملك من الملائكة يعضّده ويرشده ، وربما أتاه فى نومه ، فأمره أن يأمر الناس باتخاذ كل فارهٍ من الخيل ، واتخاذ السلاح وما يصلُح للأسفار ، وإعداد الزاد ، وآتخذ فى بحر الغرب مائتى سفينة ، وخرج فى جيش عظيم فى البرّ والبحر ، فلقيه جموع البربر فى جموع لا تُحصَى فهزمهم وآستأصل أكثرهم ، وبلغ إلى إفريقية وسار منها ، وكان لا يمرّ بأمة إلّا أبادها إلى أن عدّى من ناحية الأندلس يريد الإفرَنْجة ، وكان بها ملك عظيم يقال له : أرقيوس ، فأقام يحاربه شهرا ثم طلب صلحه وأهدى له هدايا كثيرة فسار عنه ، ودوّخ الأمم المتّصلة

بالبحر الأخضر[(١)] وأطاعه أكثرها . ومرّ بأمة عُراة لهم حوافر فى أرجلهم ، وقرون صغار ، وشعور كشعور الدوابّ ، ولهم أنياب بارزة من أفواههم ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى أثخنهم ، فنفَروا منه إلى غِيرانٍ[(٢)] لهم مظلمة عظام .

والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة ، وعمل أعلاما على البحر وزبر عليها آسمه ومسيرَه ، وخرب مدن البربر حيث كانت ، وألجأهم إلى قرون الجبال ورجع ، فتلقّاه أهل مصر بأصناف اللهو والطيب والرياحين ، وفُرشت له الطرقات ولقَوه بآبنه بلهقانس وكان وُلد بعد مسيره فسُرّ به . واتصل خبره بالملوك فهابوه وحملوا إليه الهدايا من كل وجه ومكان .

قال : وبلغه أن قوما من البربر سحرةً لهم تخاييل عجيبة وبخورات يدلّون بها ، وأنهم فى مدينة لهم يقال لها : قرميدة ، فى الغرب من مصر ، قد ملّكو عليهم آمرأة ساحرة يقال لها : اسطافا ، فاتصل به كثرة أذاهم للناس فغزاهم . فلما قرب منهم ستروا عنه مدينتهم بسحرهم فلم يرها ، وطمّوا مياههم فلم يعرفها ، فهلك أكثر أصحابه عطشا . فلما ستروا عنه البلد صعد إلى ناحية الجنوب ، ثم رجع على غير الطريق التى سار إليهم فيها ، فمرّ بهيكل كان لهم يحضرونه فى أعيادهم ، فهدم بعضه وسقط منه موضع على جماعة ممن تولّى هدمه فأهلكهم ، فلما رأى ذلك تركهم وآنصرف ، وخرجوا إلى هيكلهم فبنَوْا ما سقط منه وحرسوه بطِلّسمات محكمة ، ونصبوا فوق قبّته طِلّسما من نحاس مذهب ، وكان إذا قصده أحد صاح صياحا منكرا يَرْعَد منه مَن سمعه ويبهت فيخرجون إليه ويصطلمون[(٣)] . وكانت ملكتهم أحذق منهم بالسحر فقالت :

٨/١٣

(١) البحر الأخضر ، ويقال له بحر الظلمات : هو المحيط الأطلنطى ، ويسمى أيضا : بحر الظلمة أو بحر أقيانس أو البحر الأعظم ، ويقرأ فى بعض الكتب « بحر أقنايس » وهو تصحيف ظاهر (راجع معجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية للمرحوم أمين واصف بك) . (٢) غيران : جمع غار ، وهو ما ينحت فى الجبل شبه المغارة فاذا اتسع قيل كهف . (٣) يصطلمونه : يستأصلونه .

إنى أعمل الحيلة فى إفساد مصر وأضرّ وآذى أهلها، فعملت أشياء وأرسلتها مع مَن ألقاها فى النيل، ففاض النيل على مزارعهم وغلّاتهم، وكثرت فيه التماسيح والضفادع، وكثرت العلل فى الناس، وآنبثّت فيهم الثعابين والعقارب، فأحضر ماليق الكهنة والحكماء وقال: أخبرونى عن هذه الحوادث التى حدثت فى بلادنا ما هى؟ ولِمَ لم تشرحوها فى طالع السنة؟ فآجتمعوا فى دار حكمتهم ونظروا حتى علموا أنه من ناحية الغرب، وأنّ آمرأة عملته وألقته فى النيل، فعلم أنه من فعل تلك الساحرة، فقال لهم: اجهدوا أنفسكم فى هلاكها فقد بلغت فيكم مرادَها، فآجتمعوا للهيكل الذى فيه صور الكواكب وأصنامها، وسألوا الملك الحضور معهم فلم يمكنه الخلافُ عليهم. فلما أمسى لبس مِسْحا وافترش رمادا وآستقبل مصلاه وأقبل على الآبتهال إلى الله والتضرّع وقال: يا ربّ يا الله، أنت إله الآلهة، وخالق الخلق، ولا يكون شىء إلا بقضائك، أسألك أن تكفينى أمر هؤلاء القوم، وغلبه السهر فأغفى فى مصلاه، فرأى آتيا يقول له: قد رحم الله تضرّعك، وأجاب دعاءك، وهو مُهلك هؤلاء القوم ومدمّر عليهم، وصارف عنك الماء المفسدَ والدوابّ المضرّة. فلمّا أصبح الكهنة غَدْوا عليه وسألوه حضور هيكلهم، فقال لهم: قد كفيتكم أمر عدوّكم وأهلكتهم، وأزلت الماء الفاسد والدوابّ المضرّة عنكم، ولن ترَوْا بعدها شيئا تكرهونه، فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين لقوله وقالوا: قد سررنا بما ذكره الملك، وهم يضمرون الآستهزاء به والتكذيب له، ومضَوْا إلى دار الحكمة فقال بعضهم: الرأى ألا تقولوا فى هذا شيئا، فإن كان حقّا وقفتم عليه، وإن كان باطلا اتسع لكم اللفظ فى لومه، وسيتبين لكم أمره.

فلما كان بعد يومين انكشف ذلك الماء الفاسد، وهلكت تلك الدوابّ المضرّة، فعلموا أن الذى أخبرهم به حقّ، وأمر قائدا من قوّاده ورجالا من الكهنة أن يمضوا

حتى يعلموا علم هؤلاء القوم، فأتوا المدينة فوجدوا حصنها قد سقط وقد هلكوا بأجمعهم واحترقوا وآسودّت وجوههم ؛ ووجدوا الأصنام منكّسة على وجوهها ، وأموالهم ظاهرة بين أيديهم ، فطرقوا المدينة فلم يجدوا فيها غير رجل واحد كان مخالفا لهم بسبب رؤيا رآها ؛ ووجدوا من الأموال والجواهر وأصنام الذهب والتماثيل ما لا يُحصى ولا تعرف له قيمة ، ووجدوا صورة كاهن لهم من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الأسباد شم ؛ ووجدوا صورة روحانيّ من ذهب، ورأسه من جوهر أحمر، وله جناحان من درّ، وفى يده مصحف فيه كثير من علومهم فى دفّتين مرصّعتين بجوهر ملوّن ؛ ووجدوا مِطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة من زجاج أخضر مسبوك ، وفيها فضلة من الماء الدافع لأسقامهم ، وفرسا من فضّة مَن عزم عليه بعزائمه ودخنه بدُخنة ورَكِبه طار به فيما يزعمون، وغير ذلك من العجائب والأصنام ؛ فحملوا من ذلك ما قدروا عليه من الأموال والجواهر ، وسأل الملك ذلك الرجل : ما أعجب ما رأيت من أعمالهم ؟ فقال : نعم أخبرك أيها الملك؛ إنه قصدهم بعض ملوك البربر، وكان جبّارا من أهل بيت سحر، فجاء بالجموع الكثيرة وتخاييل هائلة ، فأغلق أهلُ مدينتنا حصنهم ولجأوا إلى أصنامهم يخضعون لها ويتضرّعون إليها ، وكان لهم كاهن عظيم الشأن، فسار إليه رؤساؤهم وشكَوْا إليه ما دهمهم من عدوّهم ، فأتى إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها ، فجلس على حافّتها وأحاط رؤساء الكهنة بها وزمزم على ماء البركة ، فلم يزل كذلك حتى فار الماء وفاض ، وخرجت من وسطه نار تتأجج ، وظهر من وسطها وجه كدارة الشمس وعلى صورتها وضوئها، فخرّ الجماعة وسجدوا لذلك الوجه، وتجلّلهم نور؛ وجعل يعظم حتى ملأ البركة ، وصعد حتى خرق سقف القبّة ، ثم ارتفع إلى رأسها وسمعتُه يقول : قد كفيتكم شرّ عدوّكم، وأمرهم أن يأخذوا دوابّهم ففعلوا

٩/١٣

ذلك ، وهَلَكَ الملك الذى قصدهم وجميعُ مَن كان معه، وٱنصرفوا ؛ فأقبلوا يأكلون ويشربون، فقلت لبعض الكهنة : لقد رأيت عجبا من ذلك الوجه فما هو؟ فقال : تلك الشمس تبدّت لنا فى صورتها وأهلكت عدوّنا ، صاحت بهم صيحة أحرقتهم فأصبحوا خامدين .

٥ قال : وكان هذا الرجل عاقلا فاتخذه ماليق وزيرا . ولم يزل ماليق على التوحيد ، وهو مع ذلك يساير أهل البلد خوفا من ٱضطراب مُلكه ، وأمر أن يُعمَل له ناووس ، فكان يقصده ويتعبّد فيه، وأمر ألا يُدفَن معه ذهب ولا جوهر ، فلم يُدفَن معه شىء سوى الطِّيب وصحيفة مكتوبة بخطه فيها : هذا ناووس ملك مصر ماليق ، مات مؤمنا بالله العظيم لا يعبد معه غيره ، ١٠ بريئا من الأصنام وعبادتها ، مؤمنا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمال ، عاش كذا وكذا سنة ، ملك فيها كذا وكذا ، فمن أحبّ النجاة من عذاب الآخرة فليدِن بما دان به . وأوصى ألا يُدفَن معه فى ناووسه أحد من أهله ، وكان قد كنَز كنوزا عظيمة وزبر عليها أن تخرجها أمة النبىّ المبعوث فى آخر الزمان .

وٱستخلف ٱبنه حِرْما (١) بن ماليق . قال : وكان ليّنا سهلَ الخُلُق، لم يمت أبوه ١٥ حتى شرح له التوحيد ، وأمره أن يدين به ، ونهاه عن عبادة الأصنام ؛ وكان معه على ذلك فى حياته ، ثم رجع عنه بعد وفاته الى دينهم . وكان سبب رجوعه الى عبادة الأصنام أنّ أمّه كانت من بنات كبار الكهّان ، فنقلته بعد موت أبيه الى دينها وغلبته على رأيه ، وأمرت بتجديد الهياكل وتشدّدت فى عبادة الأصنام . وتزوّج حرما ٱمرأة من بنى عمّه فأحبّها حبّا شديدا وهام بها، فأفسدته على جميع نسائه ،

٢٠ (١) فى المقريزى (ج ٣ ص ٩ : طبعة فيت) : « خربنا » .

فاشتدّ ذلك على أمه، وكانت له قَهْرَمانة من أهل سُيُوط ساحرة لا تطاق، وكانت تميل الى هذه المرأة لأنها كانت تعشق أخاها ؛ فزادت فى سحرها لتلك المرأة فأوحشت ما بين الملك وأمّه حتى رفضها وآستخفّ بأمرها ، وزاد الأمر حتى حلف ألّا يجاورها ، وأنه يغزو وينصرف فلا يرجع الى مصر أو يتّصل به موتُها ، ففعل ذلك وغزا بلد الهند وأرض السودان . ٥

وكان سبب خروجه الى الهند أن ملكا من ملوكها يقال له مسور خرج فى عدد كثير وسايرته مراكبه فى البحر ففتح بلدانا وجزائر، وأكثر القتل والسبى؛ وذُكرت له مصرُ فقصدها وآعتلّ فرجع من طريقه ، فأمر حرما الملكُ بعمل مائة سفينة على شكل سفن الهند، وتجهّز وركب وحمل معه المرأة ووجوه أصحابه وقوّاده، وآستخلف آبنَه كلكن على مصر وكان صبيًّا ، وجعل معه وزيرا يقال له لاون، ١٠ وكاهنا يقال له ويسموس ، وخرج فمرّ على ساحل اليمن وعاث فى مدائنه . وكان لا يمرّ بمدينة إلا أقام صنما وزبر عليه آسمَه ومسيرَه ووقتَه ، وبلغ سرنديب (١) فأوقع بأهلها ، وغَنِم منها مالا وجوهرا كثيرا ، وحمل معه حكيما لهم ، وبلغ جزيرةً بين الهند والصين بها قوم سمرٌ طوال يجزّون شعورهم، ورأى لهم الدوابّ والطيور وشجر الطيب والنارَجيل والفواكه التى لا تكون إلا عندهم ، فأذعنوا له بالطاعة وحملوا ١٥ اليه أموالا وهدايا فقبلها وسار عنهم . وأقبل يتنقّل فى تلك الجزائر عدّة سنين ؛ فقيل : إنه أقام فى سفره سبعَ عشْرةَ سنة ، ورجع إلى مصر بالظّفَر والغنيمة ، ووجد أمه قد هلكت ، ووجد آبنه على الملك كما آستخلفه ؛ فسُرّ بذلك وهابه مَنْ حوله من الملوك . وبنى عدّة هياكل وأقام فيها أصنام الكواكب؛ لأنها — فيما زعم — هى التى أيّدته فى سفره حتى ظَفِر بما ظفر به وغَنِم ما غنمه . وقد كان حمل ٢٠

(١) سرنديب : هى جزيرة سيلان الآن .

١٠/١٣ معه من الهند حكيما وطبيبا ، وكان معهما من كتبهم وحكمهم ما أظهرا به فى مصر عجائب مشهورة ، وحمل معه صنما من أصنام الهند من الذهب مقرّطا بالجوهر، فنصبه على بعض الهياكل التى عملها . وكان حكيم الهند يقوم به ويخدِمُه ويقرّب له . وكان يخبرهم بما يريدون منه .

٥ قال : وأقام حرما بعد مُنْصَرَفه من الهند مدّة ثم غزا نواحىَ الشام فأطاعه أهلها وهادَوْه ورجع إلى مصر . ثم غزا نواحى النوبة والسودان فصالحوه على خراج يحملونه له ، ورفع أقدار الكهنة وزاد فى تعظيم دينهم ؛ فصوّروه فى هياكلهم ومضاجعهم، وملكهم خمسا وسبعين سنة . وعمل لنفسه فى صحراء الغرب ناووسا، وعمل برقودة(١) مصانع وعجائب ، وأقام بها إلى أن مات وآبنُه كلكن بمنف، فضمد ١٠ جسده بالموميا والكافور والمرّ، وجعل فى تابوت من ذهب، وجُعِل معه مالٌ كثير، وجوهر نفيس ، وسلاح عجيب ، وتماثيلُ وصنعة وعقاقيرُ ، ومصحف الحكمة . وصوّر فى جانب الناووس صورا وزبر عليها ذكرَ السفن التى سار فيها، والبلدانَ التى فتحها، وسدّ باب الناووس وزبر عليه اسمَه ومدّتَه وتاريخَ الوقت الذى هلك فيه ، وقتل جماعةً من نسائه أنفسَهنّ عليه . وكان جميلا سمح الأخلاق، وآغتمّ عليه ١٥ الكهنة لإكرامه لهم ، وأهل المملكة لآتباعه لهم .

وملك بعده آبنه كلكن بن حرما ، وعقد التاج على رأسه بالإسكندرية بعد موت أبيه وأقام بها شهرا ورجع إلى منف . وكان أصناميّا على دين أبيه وآستبشر به أهل مصر . وكان يحبّ الحكمة وإظهار العجائب ويقرّب أهلها ويُكثر جوائزهم . ولم يزل يعمل الكيمياء فى مدّة ملكه ؛ فخزن أموالا عظيمة بصحارى ٢٠ الغرب . وهو أوّل من أظهر علم الكيمياء بمصر وكان مكتوما . وكان الملوك قبله

(١) رقودة : هى مدينة الإسكندرية .

أمروا بترك صنعتها لئلا تجتمعَ ملوك الأمم على غزوهم ، فعملها كلكن وملا دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهبُ بمصر أكثر منه فى وقته ولا الخراجُ ؛ لأنه كان فى وقته — فيما حكاه القبط — مائةَ ألفِ ألفٍ وبضعةَ عشَرَ ألفِ ألفِ مثقالٍ. قال : وكان المثقال الواحد من الصّنعة يطرح على القناطير الكثيرة فيصبغها، فآستغنَوْا عن إثارة المعادن لقلّة حاجتهم إليها . وعمل من الحجارة المسبوكة الملوّنة الصمِّ التى تَشِفّ شيئا كثيرا لم يعمل مثله أحدٌ ممن تقدّمه . وعمل من الأدرك[1] الملوّن والفيروزج أشياء تخرج عن العقول، حتى كان يسمَّى حكيمَ الملوك . وغلب جميع الكهنة فى علومهم، وكان يخبرهم بما يَغيب عنهم، فهابوه وآحتاجوا إلى علمه. وكان نمروذ بن كنعان الذى أهلكه الله تعالى على يد إبراهيم الخليل عليه السلام فى وقته، فيقال : إنه لما آتصل بنمروذ خبر حكمته استزاره فوجّه إليه أن يلقاه منفردا من أهله وحشمه بموضع كذا ، ففعل النمروذ ذلك وسار إلى الموضع الذى ذكره ، وأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله ذواتِ أجنحة ، وقد أحاط به نور كالنار، وحوله صُوَرٌ هائلة قد خَيَّل بها، وهو متوشّح بثعبان محتزما ببعضه، والثعبان فاغرٌ فاه، ومعه قضيب آس أخضر كلما حرّك الثعبان رأسه ضربه بالقضيب. فلما رآه النمروذ هاله أمره وخاطبه ؛ فاعترف له بجليل الملك والحكمة، وسأله أن يكون ظهيرا له .

وتقول القبط : إن كلكن الملك كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربىّ فى قبّة تلوح على رأسه . وكان أهل البلد إذا دهمهم أمر آجتمعوا حول الهرم . ويقولون: إنه ربما أقام على رأس الهرم أياما لا يأكل ولا يشرب ، ثم آستتر عنهم مدّة حتى توهّموا أنه هَلَكَ . وكان يجول فى الأرض وحده حتى طَمِعت الملوك التى حوله

(١) أنظر الحاشية رقم ٢ ص ٥ من هذا الجزء .

فى ملكه ؛ فقصده ملك من ملوك الغرب يقال له «سادوم» فى جيش عظيم ، وأقبل من ناحية المغرب من نحو وادى هيب[1] ليكبس البلد ، فأقبل حتى وافاهم ، ثم جلّلهم بشىء من سحره كالغمام شديد الحرارة ، فأقاموا تحته أياما لا يدرون أين يتوجّهون ، فطار إلى مصر فآستأنس النـاس لمقدَمه ، فعرّفهم ما جرى وأمرهم بالخروج إليهم ليعـرفوا خبرهم ، فوجدوهم ودوابّهم أمـواتا فعجبوا لذلك ، وهابه الكهنة هيبـة لم يهابوها أحدا قبله ، وصوّروه فى جميع الهياكل ، وملكهم زمانا . ١١/١٣

وبنى فى آخر عمره هيكلا لزُحَل من صوّان أسود فى ناحية الغرب ، وجعل له عيدا ، وجعل فى وسطه ناووسا ، وحمل إليه ما أراد من ذهب وجوهر ، وحِكَم وعقاقيرَ ، وعرّفهم بموته ، وجعل على باب النـاووس طِلّسمات تمنع منه ، وغاب عنهم فلم يقفوا على موته .

وكان قد أوصى إلى آبنه ماليا بن كلكـن فملك بعد أبيه . وكان شَرِهاً كثيرَ الأكل والشرب ، منفردا بالرفاهة ، غيرَ ناظر فى شىء من الحكمة ، وجعل أمر البلد إلى وزير له . وكان معجبا بالنساء ؛ وكان له ثمانون آمرأة ، ثم آتخذ آمرأة من بنات الملوك التى بمنف وكانت عاقلة سديدة الرأى ، وكان بهـا مُعْجَبًا لخمته النساءَ . وكان له بنون وبنات ، وكان أكبر بنيه يقال له : طوطيس ، فكان يستجهل أباه فأعمل الحيلة فى قتله ، وإنما حملته على ذلك أمه وجماعة نسائه وبعض وزراء أبيـه ؛ فهجم عليـه فى وزرائه وهو سكران وتلك المرأة عنـده فقتله وقتل المرأة وصلبهـا .

(١) وادى هيب : هـذا الوادى بالجانب الغربىّ من أرض مصر فيما بين مريوط والفيوم ، يجلب منه الملح والنطرون . عرف بهيب بن محمد الغفارىّ أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد فتح مصر (راجع خطط المقريزى ج ١ ص ١٨٦ طبع بلاق) .

وملك بعده ابنه طوطيس بن ماليا وجلس على سرير الملك. وكان جبّارا جريئا شديد البأس مهيبا ؛ فدخل عليه الأشراف وهنئوه ودعَوْا له ، وأمرهم بالإقبال على مصالحهم وما يَعنيهم، ووعدهم الإحسانَ .

والقبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر، وهو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام. ويقولون إن الفراعنة سبعة هو أوّلهم . قال : ثم تذاكر الناس ما فعله بأبيه وأنكروه واستقبحوا صلبَه المرأة فأنزلها ودفنها، واستخفّ بالكهنة والهياكل .

ولنذكر خبره مع إبراهيم الخليل عليه السلام فى أمر سارة[1]، ونورد من ذلك ما أورده أهل الأثر وما ورد فى الحديث الصحيح النبوىّ من هذه القصة . قال إبراهيم بن القاسم الكاتب فى سياقه أخبارَه : لما فارق إبراهيم عليه السلام قومَه والنمرودَ بنَ كنعان ونزل الشام ثم خرج إلى مصر ومعه سارة امرأته وخلّف ابن أخيه لوطا بالشام وسار إلى مصر ، وكانت سارة أحسن نساء العالمين فى وقتها ، ويقال إن يوسف الصدّيق ورث جزءا من حسنها لأنها جدّة أبيه . قال: فلما سار إبراهيم إلى مصر وأتى الحرس المقيمون على أبواب المدينة فرأوا سارة وعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها إلى طوطيس[2] . وقد روينا فى ذلك حديثا بسندنا الذى قدّمناه إلى أبى عبد الله البخارىّ رحمه الله قال: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب قال : حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية[3] فيها ملك

(١) سارة : بتخفيف الراء وقيل بتشديدها .

(٢) فى شرح البخارى للقسطلانى (ج ٤ ص ١٢٢ طبع بلاق سنة ١٢٩٣ هـ) أن اسم هذا الملك صاروق ، وقيل سنان بن علوان ، وقيل عمرو بن امرئ القيس بن سبأ ، وكان على مصر .

(٣) فى شرح البخارى للقسطلانى : «هى مصر . وقال ابن قتيبة : الأردن » .

من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل : دخل إبراهيم بامرأة هى من أحسن النساء؛ فأرسل إليه أنْ يا إبراهيم مَنْ هذه التى معك؟ قال: أختى. ثم رجع إليها فقال: لا تكذّبى حديثى فإنى أخبرتهم أنكِ أختى؛ والله إنْ[1] على الأرض من مؤمن غيرى وغيرك؛ فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلى، فقالت : اللهم إن كنتُ آمنتُ بك و برسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلّط علىّ هذا الكافرَ، فغُطّ[2] حتى ركض برجله .

قال الأعرج: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إن أبا هريرة قال: قالت : اللهم إن يمت يقال[3] هى قتلته فأُرسل ، ثم قام اليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلى وتقول : اللهم إن كنتُ آمنتُ بك و برسولك وأحصنتُ فرجى إلا على زوجى فلا تسلّط علىّ هذا الكافر، فغُط حتى ركض برجله . قال عبد الرحمن : قال أبو سلمة : قال أبو هريرة : فقالت : اللهم إن يمت فيقال هى قتلته فأُرسل فى الثانية أو فى الثالثة . فقال : والله ما أرسلتم الىّ إلا شيطانا ! إرجعوها الى إبراهيم وأعطوها آجر،[4] فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام فقالت : أشعَرْتَ أن الله كبَت الكافرَ وأخدم وليدةً" . هذا ما رويناه من صحيح البخارى[5] . وقد ورد فى أخبار طوطيس زيادات نذكرها؛ وهو أن الملك لما أطلقته فى المرة الثالثة قال لها : إن لك ربّا عظيما لا يُضيِّعك؛ وأعظم قدرها وسألها عن إبراهيم فقالت: هو قريبى وزوجى. قال : فإنه ذكر أنك أخته . قالت : صدق أنا أخته فى الدين، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا . قال : نعم الدينُ دينكم ! ووجهها الى ابنته حوريا، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير، فألقى الله تعالى محبة سارة فى قلبها فعظّمتها حوريا وأضافتها أحسن ضيافة ، ووهبت لها جوهرا ومالا ، فأتت

(١) إن بكسر الهمزة وسكون النون نافية بمعنى « ما » . (٢) غط : بضم الغين المعجمة وتشديد الطاء المهملة ، أى أخذ يجارى نفسه حتى صنع له غطيط . (٣) يقال هى قتلته : بإثبات الألف فى « يقال » على أن جواب الشرط المجزوم محذوف تقديره « ... أعذب و يقال ... » .
(٤) هى هاجر أم اسماعيل كما سيأتى بعد . (٥) راجع (ج ٣ ص ٣٥ طبع بلاق سنة ١٢٩٠) .

به إبراهيمَ عليه السلام فقال لها : رُدِّيه فلا حاجة لنا به فردته؛ فذكرت حوريا ذلك لأبيها فعجب منها وقال : هؤلاء من قوم كرام ومن أهل بيت طهارة فتحيّلى فى برّها بكل حيلة ، فوهبت لها جاريةً قبطيةً من أحسن الجوارى يقال لها آجر، وهى هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وعملت لها سِلالا من الحلوى وقالت : يكون معك هذا للزاد. وجعلت تحت الحلوى جوهرا نفيسا وحلياً مصبوغا مكلّلا. فقالت : أشاور صاحبي ؛ فأتت إبراهيم عليه السلام فشاورته فقال: إذا كان مأكولا نأخذيه، فقبلته منها وخرج إبراهيم عليه السلام . فلما أمعنوا فى السير أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر والحلىّ، فعرّفت إبراهيم ذلك، فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التى جعلها للسبيل وفرّق بعضَه فى وجوه البرّ، وكان يُضيف كل من مرّ به .

قال : وعاش طوطيس إلى أن وجهت إليه هاجر من مكة تعرّفه أنها بمكان جدب وتستغيثه، فأمر بحفر نهر فى شرقىّ مصر يمرّ بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرفأ السفن فى البحر المالح ، فكان يحمل إليهما الحنطةَ وأصناف الغلّات فتصل إلى جُدّة وتحمل من هناك على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدّة . ويقال : إن كل ما حُلِّيَتْ به الكعبة فى ذلك العصر هو مما أهداه ملك مصر. ويقال : إنه لكثرة ما كان طوطيس يحمله إلى الحجاز سمّته العرب «جُرْهُمَ الصادق» وكذلك يسمّيه كثير من أهل الأثر. وقد تقدّم فى قصة[1] إبراهيم الخليل عليه السلام أن اسم الملك صادوق، ويقال : إنه سأل إبراهيمَ عليه السلام أن يبارك له فى بلده، فدعا بالبركة لمصر، وعرّفه إبراهيم أن ولده سيملكها ويصير أمرها إليه .

قال : وطوطيس أوّل الفراعنة بمصر؛ وذلك أنه أكثر القتل حتى قتل قراباته وأهلَ بيته وبنى عمه وخدمه ونسائه، وأكثر الكهنة والحكماء . وكان حريصا على الولد

(١) راجع (ج ١٣ ص ١١٥ من هذه الطبعة).

فلم يرزقه الله ولدا غير ابنته حوريا، وكانت عاقلة حكيمة تأخذ على يده كثيرا وتمنعه من سفك الدماء، فأبغضته وأبغضه الخلق : الخاص والعام . فلما رأت أمره يزيد خافت على زوال ملكهم فسمّته فهلك . وكان ملكه سبعين سنة . ولما مات اختلفوا فيمن يملّكوه عليهم بعده فقالوا : لا يُمَلَّكُ علينا أحد من أهل بيته، وأرادوا تمليك بعض ولد أتريب ؛ فقام بعض الوزراء ودعا إلى تمليك ابنته لصنيعها فيه، ولما كانت تنكر عليه، وتبعه أكثر القوّاد والوجوه فتمّ لها الأمر .

وملكت حوريا بنة طوطيس وجلست على سرير الملك، ووعدت الناس بالإحسان، وأخذت فى جمع الأموال وحفظها، فاجتمع لها من الأموال والجوهر والحلىّ والطيب ما لم يجتمع لملك، وقدّمت الكهنةَ وأهلَ الحكمة ورؤساءَ السَّحَرة ورفعت أقدارهم، وأمرت بتجديد الهياكل وتعظيمها . وسار مَنْ لم يرضها إلى مدينة أتريب وملّكوا عليهم رجلا من ولد أتريب يقال له أنداخس ؛ فعقد على رأسه تاجا وانضمّ إليه جماعة من بنى عمه وأهل بيته، فأنفذت إليه جيشا فحاربه ؛ فلما رأى أنه لا طاقة له بها دعاها إلى الصلح وخطبها إلى نفسه وقال لها : إن الملك لا يقوم بالنساء، وخوّفها أن يزول ملكهم بمكانها ؛ فعملت صنيعا وأمرت أن يحضره الناس على منازلهم، فحضروا وأكلوا وشربوا وبذلت لهم الأموال وعرّفتهم ما جرى من خِطبتها، فبعضٌ صوّب الرأى، وبعضٌ امتنع وقالوا : لا يتولّى علينا غيرها لمعرفتنا بعقلها وحكمتها، وهى وارثة الملك ؛ ووثبوا على نفر ممن خالفها فقتلوهم، وخرجوا فى جيش كثيف فلقوا جيش الخارج بأتريب فهزموه وقتلوا كثيرا من أصحابه، فهرب إلى أرض الشام وبها الكنعانيون من ولد عمليق، فاستغاث بملكهم وضَمِن له أخذَ مصر وفتحها، فجهزه بجيش عظيم إلى مصر، فاجتمع الناس كلهم إلى حوريا، ففتحت خزائن أبيها وفرّقت ما فيها على الناس فأحبّوها، وقوّت السحرة بالمال ووعدتهم الإحسان .

٣/٣

فلما تقدّم أنداخس بالجيوش أمرت السَّحرةَ أن يعمَلوا له عمـلا ، وكان على جيوشهم قائدٌ من عظماء قوّاد ملكهم يقال له جيرون ؛ فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرا لهـا من عقلاء النساء إلى جيرون سرًّا من أنداخس تعرّفه رغبتها فى تزويجه ، لأنها لا تختار أحدا من أهل بيتها ، وأنه إن قَتَل أنداخس تزوّجت به وسلمت إليه ملك مصر ومنعت منـه صاحبه . فرغب فى ذلك وسمّ أنداخس بسمّ أنفذته إليه فقتله ؛ فوجهت إليه أنه لايجوز أن أتزوّجك حتى تُظهِرَ فى بلدى قوّتَك وحكمتك وتبنىَ لى مدينة عجيبة — وكان آفتخارهم حينئذ بالبنيان وإقامة الأعلام وعمل العجائب — وقالت له : انتقل من موضعك هـذا إلى غربىّ بلدى فثَمّ آثار لنا كثيرة فاقتف تلك الأعمـال الغريبة وآبن عليها . ففعل ذلك وبنى لهـا مدينة بصحراء الغرب يقال لها تندومة[1] ، وجرّ إليها من النيل نهرا وغرس عليها غروسا كثيرة ، وأقام بها منارا عاليا ، وعمل فوقه مِنْظرا وصفّحه بالذهب والفضة والصُّفْر والرخام الملوّن والزجاج المسبوك وأبدع فى عمله . وكانت تمدّه بالأموال وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لا يعلم .

فلما فرغ من بنـاء المدينة قالت له : إن لنا مدينة حصينة كانت لأوائلنا وقد خَربت منها أمكنة [وتشعّث حصنها][2] فامض إليها واعمل فى إصلاحها إلى أن أنتقلَ إلى هـذه المدينة التى بنيتها وأنقل إليها جميع ما يُحتاج إليه ، فإذا فرغتَ من إصلاح تلك المدينة فأنفذ إلىّ جيشا حتى أصير إليك وأنظرَ ماصنعته ، وأبعد عن مدينتى وأهل بيتى فإنى أكره أن آتيك بالقرب منهم . فمضى وجدّ فى عمل الإسكندرية الثالثة .

قال : وأهـل التاريخ يسوقون شيئا من أخبار أنداخس ويذكرون أنه الذى قصد الوليد بن دومع العمليق ، وهو ثانى الفراعنة . وكان سبب قصده له أنه كانت به علّة فوجّه إلى المواضع ليُحمل إليه من مياهها حتى يعرف مايلائم جسده ، فوجّه

(١) فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٧٤ طبعة فيت) : «أندومة» . وأشار فى الهامش الى أنها وردت أيضا باسم . «تندومة . قندومة . فندومة» .

(٢) الزيادة من المقريزى .

غلاما له فأتى مملكة مصر ووقف على كثرة خيراتها[1] وحمل إلى صاحبه من مائها وألطافها وعاد إليه ، فعرّفه حالَ مصر فقصدها في جيش كثيف حتى حطّ عليها ، وكاتب الملكة وخطب إليها نفسها ، فوجهت إليه مَنْ أشرف على حاله فوجد قوما عظاما لا يقوم بحربهم ، فأجابته إلى التزويج وألطفته وشرطت عليه أن يبنيَ لها مدينة يُظهر فيها أيْدَه وقوته ويجعلها مهرا لها ، فأجابها ودخل مصر وانتهى إلى ناحية الغرب ليبنيَ لها المدينة ناحية الإسكندرية ، فأمرت أن يُتلقّى بأصناف الرياحين والفواكه وتُخَلَّقَ وجوه الخيل ، فمضى إلى الإسكندرية — وقد خربت بعد خروج العادية[2] منها — فنقل منها ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ووضع أساس مدينة عظيمة وبعث إليها مائة ألف فاعل ، فأقام في بنائها مدّة وأنفق جميع ما كان معه من المال ، وكان كلما بنى بناء خرجت من البحر دوابّ تقلعه فإذا أصبح لم يجد منه شيئا ، فاهتمّ لذلك .

١٤/١٣ وكانت حوريا قد أنفذت إليه ألف رأس من المَعْزِ اللبون يستعمل ألبانها في مطبخه ، وكانت مع راع يثق به ، وكان ذلك الراعي يطوف بها ويرعاها هناك ، فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسُه إليها ، فإذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه فإن صرعها كانت له وإن صرعته أخذت رأسين من المَعْزِ ، فكانت على طول الأيام تصرعه وتأخذ من الغنم حتى أخذت أكثر من نصفها وتغير باقيها لشغله بحب تلك الصورة عن رعيها ، وتغير هو أيضا في جسمه ونَحَل ، فمرّ به صاحبه وسأله عن حاله وحال الغنم فخبّره الخبر خوف سطوته فقال : أي وقت تخرج ؟ قال : قرب المساء . فلبس ثياب الراعي وتولّى رِعْيَةَ[3] الغنم يومَه إلى المساء ، وخرجت الجارية فشرطت عليه كما شرطت على الراعي ، فأجابها وصارعها فصرعها وقبض عليها وشدّها فقالت له : إن كان لا بدّ

(١) كذا في المقريزي . وفي الأصول : « خزائنها » . (٢) كذا في الأصول والمقريزي . والعادية : نسبة إلى قبيلة عاد البائدة . (٣) رعية : بكسر الراء ، اسم من رعى الماشية يرعاها .

من أخذى فسلّمنى لصاحبي الأوّل فإنه ألطف بى، وقد عذّبتُه مرةً بعد مرة، فردّها إليه وقال له : سلْها عن هذا البنيان الذى بنيتُه ويزول من ليلته مَنْ يفعل به ذلك؛ وهل فى بنائه من حيلة ؟ فسألها الراعى عن ذلك فقالت : إن دوابّ البحر التى تنزِع بنيانكم . قال : فهل فيها من حيلة؟ قالت : نعم . قال : وما هى ؟ قالت : تعمَل توابيتَ من زجاج كثيف بأغطية وتجعل فيها قوما يُحسنون الصناعة فى التصوير، وتجعل معهم صحفا وأنقاشا وزادا يكفيهم أياما، وتجعل التوابيتَ فى المراكب بعد أن تَشُدّها بالحبال، فإذا توسّطوا الماء صوّر المصوّرون جميع ما مرّ بهم وتُرفع تلك التوابيتُ من الماء، فإذا وقفتم على تلك الصور فآعملوا لها أشباها من الصُّفْر أو من الحجارة أو من الرصاص وآنصِبوها أمام البنيان الذى تبنونه من جانب البحر، فإن تلك الدوابّ إذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد . فعرّفه الراعى ذلك ففعله، وتمّ بناء المدينة .

وقال قوم من أهل التاريخ : إن صاحب البناء والغنم جيرون [المؤتفكىّ][1] وكان قَصَدهم قبل الوليد، وإنما أتاهم بعد حوريا وقهرهم جيرون وملك مصر . وذكروا أن الأموال التى كانت مع جيرون نَفِدت كلها فى تلك المدّة ولم يتم البناء، فأمر الراعى فسأل تلك الجارية فقالت : إن فى المدينة التى خَرِبت ملعبا مستديرا حوله سبعة عَمُدٍ على رءوسها تماثيلُ [من][1] صُفْرٍ قيام، فقرّب لكل تمثال منها ثورا سمينا ولطِّخ العمودَ الذى عليه التمثال من دم الثور، وبخّره بشعر من ذنبه وشىء من نُحاتة قرونه وأظلافه، وقل له : هذا قربانك فأطلق لى ماعندك، ثم قِسْ من كل عمود إلى الجهة التى يتوجّه إليها وجهُ التمثال مائةَ ذراع وآحفر، وليكن ذلك فى وقت آمتلاء القمر واستقامة زُحَل؛ فإنك تنتهى بعد خمسين ذراعا إلى بلاطة عظيمة فلطِّخها بمرارة الثور وأقلعها فإنك تنزل منها إلى سَرَب طوله خمسون ذراعا فى آخره خِزانة مقفلة ومفتاح

(١) الزيادة من المقريزى .

القفل تحت عتبة الباب فخذه ولطّخ الباب ببقية مرارة الثور ودمه و بخره بخُماتة قرونه وأظلافه وشعره، وٱدخل الباب بعد أن تَخرُجَ الرياحُ التى فيه، فإنه يستقبلك صنم فى عنقه لوحٌ من صُفْر معلقٌ مكتوب فيه جميع ما فى الخزانة من مال وجوهر وتمثال وأعجوبة، فخذ منه ما شئت ولا تتعرض لميت تجده ولا لما عليه؛ وكذلك فٱفعل بكل عمود وتمثاله؛ فإنك تجد فى تلك الخزائن نواويسَ سبعةٍ من الملوك وكنوزَهم. فلما سمع ذلك سُرّ به وفعله فوجد ما لا يُدرك وصفه، ووجد من العجائب شيئا كثيرا؛ فتم بناء المدينة. وٱتصل ذلك بحوريا فساءها؛ و إنما كانت أرادت إتعابه وهلاكه بالحيلة عليه. فيقال: إنه فيما وُجِد من العجائب درجُ ذهب مختومٌ بطين ذهب فيه مكحلة زبرجد فيها ذَرورٌ أخضر ومعها عِرقُ جوهر أحمرُ، من اكتحل من ذلك الذَّرور وكان أشيب عاد شابا وٱسودّ شعره وأضاء بصره حتى يدرك النظر إلى أصناف الروحانيين، ووُجِد تمثالٌ من الذهب إذا أُظهر غيمت السماء وأمطرت، وتمثال غراب من حجر إذا سئل عن شىء صوّت وأجاب عنه. ويقال: إنه كان فى كل خزانة عشر أعجوبات.

قال: فلما فرغ جيرون من بناء المدينة وجه إليها يعلمها ذلك ويحثّها على القدوم، فحملت إليه فُرُشا فاخرة وقالت: ابسطها فى المجلس الذى تجلس فيه، وأقسم جيشك أثلاثا وأنفذ إلىّ ثلثه، حتى إذا بلغتُ ثلث الطريق فأنفذ إلىّ الثلث الآخر، فإذا جزتُ نصف الطريق فأنفذ إلىّ الثلث الباقى، ويكونون من ورائى لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك، ولا يكن عندك إلا صِبْيةٌ تثق بهم يخدمونك فإنى أوافيك فى جوارٍ تكفيك الخدمة ولا أحتشمهنّ؛ ففعل. وأقامت تحمل إليه الجهاز والأموال حتى علم بمسيرها ووجه إليها ثلث جيشه فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة، فلما أتَوْها استنزلهم جواريها وحشمُها وأقبلوا عليهم بتلك الأطعمة والأشربة والطيب والكساء

واللهو فلم يصبح منهم أحد يعيش ، ولقيها الثلث الثانى والثالث بعده ففعلت بهم كذلك ، وهى توجّه إليه أنها أنفذت جيشه إلى قصرها ومملكتها يحفظونه ، إلى أن دخلت عليه هى وظِئرها وجوارٍ كنّ معها ، فنفخت ظِئرُها فى وجهه نفخة بُهِت إليها ورشّت عليه ماء كان معها فارتعدت مفاصله فقال : من ظنّ أنه يغلب النساء فقد كذّبته نفسه وغلبته النساء ، ثم فصدت عروقه وأسالت دمه وقالت : دماء الملوك شفاء . ٥ وأخذت رأسه فوجّهت به إلى قصرها فنُصِب عليه وحملت تلك الأموال الى منف . وبنت منارا بالاسكندرية وزبرت عليه اسمها واسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت .

قال : ولما اتصل خبرُها بالملوك الذين يتاخمون بلدها ، هابوها وأذعنوا لها وهادَوْها . وعملت بمصر عجائب كثيرة ، وأقطعت أهل بيتها وقوّادها وحشمها أقطاعا كثيرة ، وأمرت أن يبنى على حدّ مصر من ناحية النوبة حصنٌ وقنطرة يجرى ماء ١٠ النيل من تحتها . واعتلت حوريا فاجتمع اليها أهل مملكتها وسألوها أن تقدّم عليهم ملكا ، ولم يكن فى ذلك الوقت من ولد أبيها وأهل بيته من يصلح لذلك ، فقلدت عمتها دليغة بنت ماموم (١) ، وكانت عذراء من عقلاء النساء وكبراهنّ ، فعهدت اليها وأخذت لها المواثيق على أهل مصر ألا يُسْلِموها وأن يتبعوا أمرها ، وسلمت اليها مفاتيح خزائنها ، وأطلعتها على مواضع كنوز آبائها وكنوزها ، وأمرت أن يضمّد ١٥ جسدها بالكافور وتحمَل الى المدينة التى بنيت لها فى صحراء الغرب ، وقد كانت عملت لها فيها ناووسا وعملت فيه عجائب ونقلت اليه أصنام الكواكب ، وزينته بأحسن الزينة ونصّبت له قَوَمة ، وأسكنت تلك المدينةَ جماعةً من الكهنة وأصحاب العلوم والمهن وبعض الجيش ، وعمرت تلك المدينة فلم تزل على حالها من العمارة الى أن خرّبها بُخْتَنَصّر وحمل بعض كنوزها . ٢٠

(١) فى المقريزى : « مامون » بالنون .

وجلست دليفة بنت ماموم على سرير الملك بعد وفاة حوريا، واجتمعت الكلمة عليها وأحسنت الى الناس ووضعت عنهم خراج سنة، وقام عليها أيمينُ يطلب بثأر خاله انداخس، واستنصر بملك العمالقة (١) فوجّه معه قائدا من قواده فى جيش كثيف، فأخرجت اليه دليفة بعضَ قوادها فالتقوْا بالعريش، وجعل سَحَرَةُ الفريقين يُظهرون التخاييل الهائلة والعجائب العظيمة والأصوات التى تقرع الأسماع وتؤلمها، فأقاموا مدّة يتكافئون الحرب ويتراجعون فهلك بينهم خلق كثير، ثم انهزم أصحاب دليفة الى منف وسار أصحاب أيمين فى آثارهم، ومضت دليفة فى جمع من جيوشها الى ناحية الصعيد فنزلت الأشمونين وأنفذت من قدرت عليه من الجيوش ووقعت الحرب بينهم بناحية الفيوم وخلّى أصحابُ دليفة الماءَ بينهم وبين عدوّهم، واستنجدت دليفة بأهل مدائن الصعيد فحاربوا أصحاب أيمين حتى أزالوهم عن منف، وكانوا قد ظَفِروا بها وعاثوا فيها، فهزموهم حتى ركبوا المراكب وعدوا الى ناحية الحَوْف، وكان معهم ساحر من أهل ناحية قِفط فأظهر بسحره نارا حالت بينهم وبين أصحاب دليفة، فلما زاد الأمر وأشفق أهل مصر من خروجها عن أيديهم سَفَرَ السفراء بينهم على أن يجعلوا البلد قِسْمةً بينهم فأجاب كل منهما الى الصلح، ثم غدرت دليفة بعد ذلك بأيمين وأخرجت الأموال والجواهر وفرقتها فى الناس، وكان بعضهم قد لامها فى الصلح، فرجعت الى الحرب فأقاموا ثلاثة أشهر ثم ظهر أيمين عليها وهزمها الى ناحية قوص وسار خلفها وتمكن من المملكة، فلما رأت ذلك سمّت نفسها فهلكت.

١٦/١٣

وملك بعدها أيمين، فتجبر وقتل خلقا كثيرا ممن كان حاربه. وكان الوليد بن دومع العمليق قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ليسكن

(١) العمالقة: من ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ما يوافقه منها؛ فلما صار بالشام انتهى اليه خبر مصر وعظم قدرها ، وأن أمرها قد صار الى النساء و بادت ملوكها؛ فوجه غلاما له يقال له عون، فسار الى مصر وفتحها وحوى أموالا، ومولاه لا يعرف خبره ولا يشك فى هلاكه وهلاك الجيش الذى معه ، لما كان يسمع عما بمصر من الطلسمات والسحر ؛ ثم اتصل به خبره فسار الى مصر فتلقاه عون وعرّفه أنه كان عزم على المسير اليه و إنما أراد تعديل البلد و إصلاحه فقبل قوله ودخل .

وملك مصر الوليد بن دومع العمليقىّ ، واستباح أهلها وأخذ أموالها وقتل جماعة من كهنتها، ثم سنح له أن يخرج فيقفَ على مصبّ النيل و يعرف ما بناحيته من الأمم و يغزوهم ، فأقام ثلاث سنين يستعدّ لخروجه . وأصلح ما يحتاج اليه ، واستخلف عونا على البلد وخرج فى جيش كثيف فلم يمرّ بأمة إلا أبادها . فيقال : إنه أقام فى سفره سنين كثيرة ، و إنه مرّ على أمم من السودان وجاوزهم، ومرّ على أرض الذهب وفيها قضبان نابتة؛ ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة[1] التى ينصبّ ماء النيل اليها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القُمْر[2]؛ ثم سار حتى بلغ هيكل الشمس فدخله . ويقال : إنه خوطب فيه . وسار حتى بلغ جبل القمر؛ وهو جبل عال . وإنما سمى جبل القُمْر لأن القمر لا يطلع عليه لخروجه عن خط الاستواء . ونظر الى النيل يخرج من تحته . وقد تقدّم خبر النيل[3] .

(١) توجد بالجهات الاستوائية فى المصورات الجغرافية القديمة ومنها «الخريطة المنسوبة إلى الإدريسى عن مللر» ثلاث بحيرات هى التى تسمى : البطيحة الغربية ، والبطيحة الشرقية ، و بينهما البطيحة الكبرى ، وهى التى يخرج منها نهر النيل المصرى ، ونهر النيل السودانى الذى يطلق عليه اسم النيجر ، و إلى الجنوب من هذه البطائح توجد سلسلة جبال القمر ، و يظن أن البطيحة الكبرى هى التى تسمى الآن «فيكتوريا نيانزه» وهى التى أشار اليها المؤلف هنا (أفادنيه الأستاذ الجليل الشيخ محمد فخر الدين بك) .

(٢) ضبطه بعض أهل الجغرافيا بفتح القاف والميم . والثقات منهم على أنه بضم القاف وسكون الميم (انظر تقويم البلدان ص ٦٤ طبع باريس) . (٣) راجع (ج ١ ص ٢٦٢ من هذه الطبعة) .

قال : ودخل الوليد القصر الذى فيه تماثيل النحاس التى عَمِلها هِرْمِس الأوّل فى وقت البودسير الأوّل بن قفطريم . قال : ولما بلغ الوليد جبل القُمْر رأى جبلا عاليا فأعمل الحيلة وصعد عليه ليرى ما خلفه ، فأشرف على البحر الأسود الزفِتىّ المنتن ، ونظر إلى النيل يجرى عليه كالأنهار الرقاق ، وأنته من ذلك البحر روائحُ منتنة هلك كثير من أصحابه من ريحها فأسرع النزولَ بعد أن كاد يَهْلِك .

قال : وذكر قوم أنهم لم يروْا شمسا ولا قمرا وإنما رأوْا نورا أحمر كنور الشمس عند مغيبها . وأقام الوليد فى غيبته أربعين سنة . وأما عَوْن الذى استخلفه بمصر فإنه فعل فى غيبة الوليد ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خبر عون وما فعله فى غيبة الوليد وخبر المدينة التى بناها

قال : ولما مضت من غيبة الوليد بن دومع سبعُ سنين تجبّر غلامه عونٌ بمصر ، وادّعى أنه الملك ، وأنكر أن يكون غلاما للوليد ، وأنه أخوه وقلّده الملك بعده ، ووثب على الناس وغلبهم بالسحرة وأسنى جوائزهم ولم يمنعهم محابَّهم ؛ فمالوا إليه ووثقوا أمره ، فلم يترك امرأة من بنات ملوك مصر إلا نكحها ، ولا مالا إلا أخذه وقتل صاحبه . وكان مع ذلك يلزم الهياكل ويُكرم الكهنة ، فكانوا يُمسكون عنه إشفاقا منه وخوفا من السحرة الذين معه ؛ إلى أن رأى فى منامه الوليدَ بن دومع وكأنه يقول له : مَنْ أمرك أن تتسمى باسم الملك ، وقد علمتَ أنه من فعل ذلك استحق القتل ، ونكحتَ بنات الملوك وأخذتَ الأموالَ بغير واجب ، ثم أمر بقدور فملئت زيتا وأُحميت على أنه يغمر فيها ، فلما غلت أمر بنزع ثيابه فأتى طائر فى صورة عُقاب فاختطفه من أيديهم وحلق به فى الجو وجعله فى هوّة على رأس جبل ، وأنه سقط من رأس الجبل إلى واد فيه حية ، فانتبه مرعوبا طائر العقل . وقد

١٧/١٣

كان فى فعله ذلك وتملُّكه إذا خطرت بقلبه من ذكر الوليد خطرةٌ كاد عقله يزول، خوفا منه لِمَا يعلمه من فظاظته وبطشه وقوته . ولم يتيقّن هلاكَه وأضمر فى نفسه الهربَ من مصر بما معه من الأموال .

قال : ولما رأى الرؤيا لم يشك فى حياة الوليد وأنه سيعود ، فأطلع بعضَ السَّحَرَةِ ممن يثق به على أمره وقال : إنى خائف من الوليد وقد عزمت على الخروج من مصر فما الوجه عندكم ؟ قالوا : نحن نُنْجِيك منه على أن تقبل منا . قال : قولوا ، قالوا : تعمل عُقابا وتعبده ؛ فإن الذى حصّنك منه أحدُ الروحانيين وهو يريد ذلك منك . قال عون : أشهد لقد قال لى وأنا معه : أعرِفْ لى هذا المقام ولا تَنْسَه . قالوا : قد بينا لك . فأجابهم إلى ذلك وعمل عُقابا من ذهب وعمل عينيه جوهرتين ووشّحه بأصناف من الجوهر، وعمل له هيكلا لطيفا وجعله فى صدره وأرخى عليه ستور الحرير، وأقبل أولئك يبخّرونه ويقربون إليه ويَسْحَرُون إلى أن نطق لهم، فأقبل عون على عبادته ودعا الناس إليها فأجابوه .

فلما مضى لذلك مدّة أمره العقاب ببناء مدينة يحوله إليها وتكون مَعْقِلا له وحرزا من كل أحد . فأمر عون أصحابه أن يخرجوا إلى صحارِى الغرب ويطلبوا كل أرض سهلة حسنة الاستواء، ويكون المدخل إليها بين هجُول[1] صعبة وجبال وعرة، ويتوخَّوْا أن تكون قريبة من ناحية مَغِيض الماء التى هى اليوم الفيوم . وكانت مغيضا لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليه السلام على ما نذكره إن شاء الله . وإنما أراد عون بذلك ليجرَّ الماء منها إلى مدينته التى يبنيها ؛ فخرج أصحابه وأقاموا شهرًا يطوفون الصحارى حتى وجدوا له بغيته ، ولم يبق فاعل ولا مهندس ولا أحد ممن

(١) هجول : جمع هجل (بفتح فسكون)، وهو المطمئن من الأرض .

يبصُر البناء ويقطع الصخور وينحتها إلا وجّه به عون إليها، وأنفذ معهم ألف رجل من جيشه وسبعمائة ساحر يعاونونهم بالروحانيين الذين فى طاعتهم، وأنفذ معهم جميع الآلات وأقام يحمل لهم الزاد إلى هناك شهورا على العَجل؛ وطريق العجل على الفيوم واضحةٌ فى صحراء الغرب وخلف الأهرام — وهى التى يقصدها أصحاب المطالب — مشهورة.

٥ قال: فلما تكامل له ما أراد من ذلك ومن نحت الأحجار خَطّوا المدينة فرسخين فى فرسخين، وحفروا فى الوسط بئرا وجعلوا فى تلك البئر تمثالَ خنزير من نحاس بأخلاط ونصبوه على قاعدة من نحاس وجعلوا وجهه إلى الشرق، وكان ذلك بطالع زُحَل واستقامته وسلامته من المتضادين له فى شرفه، وأخذوا خنزيرا فذبحوه له ولطخوا وجهه بدمه وبخروه بشعره، وأخذوا شيئا من عظامه ولحمه ومرارته فجعلوه

١٠ فى جوف ذلك الخنزير النحاس، وجعلوا فى أذنيه شيئا من مرارته، وأحرقوا بقية الخنزير، وجعلوا رماده فى قلة نحاس بين يدى الخنزير النحاس، ونقشوا عليه آيات زحل، ثم شقوا فى البئر أُخدودا من أربعة وجوه شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، ومدّوا تلك الأخاديد إلى حيطان المدينة، وعملوا على أفواهها مسارب تجتاب الرياحَ إليها، ثم سدّوا البئر وعملوا عليها قبة على عمد مربعة، وجعلوا منها شوارع كل شارع ينتهى

١٥ إلى باب من أبواب المدينة وفصلوها بالطرقات والمنازل، وجعلوا حول القبة تماثيل فُرسان من نُحاس بأيديها حِرابٌ ووجوهها مقابلة لتلك الأبواب، وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود وفوقه أحمر وفوقه أصفر وفوقه أخضر، وفوق الجميع أبيض يشفّ، مثبتة كلها بالرصاص المصبوب بين الحجارة، وقلوبَها أعمدة من حديد على وضع بناء الأهرام؛ وجعل طول حصنها ستين ذراعا فى عرض عشرين ذراعا،

٢٠ ونُصب على كل رأس باب من أبوابها فى أعلا الحصن تمثالُ عُقاب كبير من صفر وأخلاط ناشرَ الجناحين أجوفَ، وعلى كل ركن صورةُ فارس بيده حربة ووجهه

١٨/١٣ إلى خارج المدينة؛ وساق الماء إلى ناحية الباب الشرقى ينحدر فى صبّ إلى الباب الغربى ويخرج إلى صهاريج هناك، وكذلك من الباب الجنوبى إلى الشمالى، وقرّب لتلك العقبان عقبانا ذكورا، واجتذب الرياح إلى أفواه التماثيل، فكانت الرياح إذا دخلتها سُمعت لها أصواتٌ شديدة لا يسمعها أحد إلا هالته، وصمّدها[1] بعفاريت تمنع الداخل إليها إلا أن يكون من أهلها، ونصب العُقاب الذى كان يعبده تحت القبة التى فى وسط المدينة على قاعدة لها أربعة أركان فى كل ركن منها وجه شيطان، وجعلها على عمود يديرها، والعقاب يدور إلى كل الجهات الأربع، ويقيم فيها ربع السنة، يقرب إليه من جهتها .

فلما فرغ من ذلك كله حمل إليها جميع الأموال والجواهر المخزونة بمصر وما وجده فى خزائن الملوك، ومن التماثيل والحكم وتراب الصنعة والعقاقير والسلاح وغير ذلك، وحوّل إليها كبارَ السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار، وقسم المساكن بينهم لا يختلط أهلُ صنعة بغيرها، وعمل لها رَبَضا[2] يحيط بها، وبنى فيه منازل لأصحاب المهن والزراعة، وعقد على تلك الأنهار قناطر يمرّ عليها الداخل إلى المدينة، وجعل الماء يدور حول الرَّبَض؛ ونصب عليها أعلاما وحرسا؛ ثم غرس وراء ذلك بالبرية النخل والكروم وأصناف الأشجار، ومن وراء ذلك مزارع الغلات من كل جهة، وكان يرتفع له بها فى كل سنة ما يكفيه لعشر سنين، كل ذلك خوفا من الوليد .

قال : وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام؛ فكان عونٌ يخرج إليها فيقيم بها عشرة أيام ثم يعود إلى منف، وكان لها أربعة أعياد فى السنة؛ وهى الأوقات التى يتحوّل العُقاب فيها . فلما تمّ ذلك كله لعَون آطمأنّ قلبه، وسكنت نفسه .

(١) فى خطط المقريزى (ج ١ ص ٢٤١ طبع بلاق) : «ووكل بها أرواحا تمنع الداخل إليها...» .

(٢) الربض هنا : سور المدينة .

ذكر عود الوليد إلى مصر وهرب عون إلى مدينته

قال : ثم وافا كتاب الوليد بن دومع من نواحى النوبة إلى عون يأمره أن يُنْفِذَ إليه الأزوادَ وينصبَ له الأسواق؛ فوجّه إليه ذلك فى المراكب وعلى الظهر(١)، وحوّل جميع عياله ومن آصطفاه من بنات ملوك مصر وكبرائها إلى المدينة ، حتى إذا قرب دخولُ الوليد إلى مصر خرج عون إلى مدينته وخلّف خليفة على مصر يكون بين يدى الوليد . ودخل الوليد مدينة منفَ وتلقاه أهل مصر وشكَوْا إليه عوناً وما حلّ بهم منه . قال : وأين هو؟ قالوا : فرّ منك . فغضب الوليد وأمر بجيش كثيف ينفذ إليه ، فعرّفوه أن الجيش لا يصل إليه ، وأخبروه خبر المدينة وكيف بناها وخبر السّحرة الذين معه . فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ويحذّره التخلفَ عنه ، ويُقسم أنه إن لم يفعل وظفر به بضّع لحمه بِضَعًا . فردّ جوابه يقول : ما على الملك منى مؤنة ، وأنا لا أتعرّض إلى بلده ولا أعيث فيه؛ لأنى عبده، وأنا له فى هذا الموضع أردّ كل عدوّ يأتيه من نواحى الغرب ، ولا أقدر على المصير إليه لخوفى منه، فليقرّنى الملك بحالى كأحد عمّاله وأوجه إليه ما يلزمنى من الخراج والهدايا . ووجه إليه بأموال جليلة وجوهر نفيس . فلما رأى ذلك كفّ عنه . وأقام الوليد بمصر فآستعبد أهلها وآستباح حريمهم وأموالهم . وملكهم مائة وعشرين سنة فأبغضوه وسمّوا أيامه . وآتفق أنه ركب فى بعض الأيام إلى الصيد فألقاه فرسه فى وهدة فهلك . وكان آبنه الريان يُنكر عليه فعلَه ولا يرضاه . فلما هلك عمل له ناووسا قرب الأهرام . وقيل : بل دفن فى الهرم .

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال فى السفر، لحملها إياها على ظهرها .

١٩/١٣ ثم ملك بعده ابنه الريان بن الوليد بن دومع؛ وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوش[1]، وجلس على سرير الملك. وكان عظيم الخَلْق، جميل الوجه، عاقلا متمكنا؛ فتكلم ومنّى الناس وضمن لهم الإحسان وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، فأثنوا عليه وشكروه، وأمر بفتح الخزائن وفرّق ما فيها على الخاصّ والعامّ، وتمكنت منه أريحيّة الصِّبا فملّك على الرعية رجلا من أهل بيته يقال له أطفين، وقيل فى اسمه: قطفير، وقيل: قوطيفر، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز. وكان من أولاد الوزراء. وكان عاقلا أديبا متمكنا صائب الرأى كثير النزاهة مستعملا للعدل والعمارة والإصلاح. وأمر الريان أن يُنصب له فى قصر الملك سرير من الفضة يجلس عليه ويغدو ويروح إلى باب الملك، ويخرج بجميع الوزراء والعمال والكتّاب بين يديه؛ فكفى الريّانَ ما خلف سريره[2] وقام بجميع أمره وأخلاه للذّاته؛ فأقام الريان منعكفا على قصفه ولهوه منغمسا فى لذّته لا ينظر فى عمل ولا يظهر للناس ولا يخاطبهم، فأقاموا بذلك حينا. هذا والبلد عامر.

وبلغ الخراج فى وقته سبعة وتسعين ألف ألف مثقال فجعلها أقساما، فما كان للملك وأسبابه وموائده حُمل إليه، وما كان فى أرزاق الجيش والكهنة والفلاسفة وأصحاب الصنائع ومصالح البلد وأهل المهنة صُرف إليهم، والملك مع ذلك غير سائل عن شىء؛ قد عُملت له مجالسُ من الزجاج الملوّن وأُجْرِىَ حولها الماء وأُرسلت فيها الأسماك المقرّطة، فكانت الشمس إذا وقعت على المجلس منها أرسل شعاعا عجيبا يبهر العيون. وعملت له عدّة متنزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم فى موضع منها، وفى كل موضع منها من الفرش والآنية والآلات ما ليس فى غيره.

(١) هو أحد العمالقة، وكان أقوى أهل الأرض فى زمانه وأعظم ملكا. والعمالقة: ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح (راجع المقريزى). (٢) فى المقريزى: «ما خلف ستره».

فلما اتصل بملوك النواحى تشاغلُ الريان بلذاته وتدبير العـزيز لأمره، قصده رجل من العمالقة يقال له عاكن بن بيجوم وكنيته أبوقابوس، وقصد مصر حتى نزل على حدودها، فأنفذ إليه العزيز جيشا كثيفا وجعل عليه قائدا يقال له بريانس، فأقام ثلاث سنين يحاربه، ثم ظفر به العمليق ودخل من الحدود وهدم أعلاما ومصانع كثيرة، وتمكن طمعه فى البلد فأعظم أهلُ مصر ذلك وآجتمعوا إلى قصر الملك وجعلوا يصيحون و يستغيثون ويرفعون أصواتهم حتى سمعها الملك فقال : ما بال الناس؟ فأُخبر خبر العمليق وأنه قد دخل عَمَلَ مصر وعاث وأفسد المزارع والمصانع والأعلام، وأنه سار بجيشه إلى قصر الملك، فارتاع الريان لذلك وأنف منـه وآنتبه من غفلته وعرض جيوشه وأصلح أمره وخرج فى ستمائة ألف مقاتل سوى الأتباع، فالتقَوْا من وراء الأحواف فى تلك الصحراء، واقتتلوا قتالا شديدا فآنهزم العمليق وآتبعه الريان إلى حدود الشام وقتـل من أصحابه خلقـا وأفسد زرعهم وأكثرَ أشجـار الفواكه والزيتون، وأحرق وصلب ونصب أعلاما على الموضع الذى بلغه وزبر عليها : إنى لِمَن يجاوز هذا المكان بالمرصاد . فلما تمّ له هذا الظفر هابته الملوك ولاطفوه وأعظموه . وقيل : إنه بلغ الموصل وضرب على الشام خراجا وبنى عند العريش مدينة لطيفة وشحنها هى وتلك الناحية بالرجال، ورجع إلى مصر فحشد جنوده من جميع الأعمال، وآستعدّ لغزو ملوك الغرب فخرج فى تسعمائة ألف واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحّى عن طريقه، ومنهم من دخل تحت طاعته . ومرّ بأرض البربر فأجلى كثيرا منهم، ووجه قائدا يقال له مريطس فى سفن فركب البحر من ناحية رقودة . ومرّ الريان بجزائر بنى يافث فعاث فيها وآصطلم[1] أهلها، وخرج من ناحية أرض البربر فقتل بعضهم وصالح بعضهم وحملوا إليـه الأموال، ومضى إلى إفريقية وقرطاجنّة فصالحوه على أموال

(١) اصطلم أهلها : استأصلهم .

وألطاف كثيرة حملوها إليه، ومرّ حتى بلغ مصبّ البحر الأخضر[1] وهو موضع الأصنام النحاس، فأقام هناك صنما و زبر عليه اسمه وتاريخَ الوقت الذى خرج فيه، وضرب على أهل تلك النواحى خراجا، وعدّى إلى الأرض الكبيرة وصار فى الإفرنجة، والأندلس فى حوزهم وعليها لذريق الأصغر، فحاربه أياما وقتل من أصحابه خلقا وصالحه بعد ذلك على ذهب مضروب، وعلى ألا يغزوَ مصر و يمنع من رام ذلك من جميع أهل النواحى، وانصرف مشرّقا فشقّ بلد البربر فلم يمر بموضع إلا خرج أهله بين يديه وأهدوا له ودخلوا تحت طاعته. ثم أخذ نحو الجنوب ومر ببلد الكوسانيين فحاربوه فقتل خلقا كثيرا، و بعث قائدا إلى مدينة على عبر البحر الأخضر[2] فخرج إليه ملك المدينة وأهلُها فعرّفهم حال الريان ومصالحة الملوك له فقالوا: ما بلغنا أحد قط، وسألهم هل ركب هذا البحر أحدٌ؟ فقالوا: ما يستطيع أحد أن يركبه، وأخبروه أنه ربما أظله الغمام فلا يرونه أياما، وأتى الريان فتلقّوه بهدايا وفاكهة أكثرها الموز، وحجارة سود فإذا جعلت فى الماء صارت بيضاء، ثم تركهم وسار إلى أمم السودان حتى بلغ ملك الدمدم[3] الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عُراة بأيديهم العمد الحديد، وخرج ملكهم على دابة وهو عظيم الخلق له قرون، وكان جسيما أحمر العينين، فظفر بهم فانهزموا إلى أوحال وأدغال فلم يتهيأ له اتباعهم فيها، وجازهم إلى قوم على خلق القرود لهم أجنحة صغار يثبون بها من غير ريش. ومرّ على عبر البحر المظلم فغشيهم منه غمام فرجع شمالا حتى انتهى إلى جبل يقال له وسن، فرأى فوقه تمثالا من حجر أحمر يومى

٢٠/١٣

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٩٦ من هذا الجزء.

(٢) فى المقريزى «على البحر الأسود».

(٣) كذا فى الأصل. وفى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ج ١ ص ٤٩) «تمتم» وكتب بالهامش ما نصه: «ولعلها تمنم».

بيده: إرجعوا، وعلى صدره مزبور: ما ورائى أحد. فتركه وسار راجعا فانتهى إلى مدينة النحاس فلم يصل إليها. ومضى حتى بلغ الوادىَ المظلم فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ولا يَرَوْن أحدا لشدّة ظلمته. وسار حتى آنتهى إلى وادى الرمل ورأى على عَبْرِه أصناما عليها أسماء الملوك قبله فأقام معها صنما وزبر عليها آسمه. فلما أسبت[1] الرمل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود، وسمع جلبة وصياحا هائلا فخرج فى شجعان أصحابه حتى أشرف على السباع المقرنة الأنوف، فإذا بعضها تهِرّ وتأكل بعضها بعضا، فعلم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع، وعدّى وادىَ الرمل ومرّ بأرض العقارب فهلَكَ بعض أصحابه ورفعوها عنهم بالرُّقَى التى يعرفونها، ثم جاوزهم حتى آنتهى إلى مكان صلوفة وهى حيّة عظيمة، فهجموا عليها ولم يعرفوها وظنوا أنها جبل، ثم عرجوا عنها وتعوّذوا منها بالرُّقَى. قال: ويزعم القبط أنه منعها من الحركة بسحره وتركها فهلَكت. وقيل: إن تعريجَ هذه الحية ميلٌ وأنها كانت تبتلع السباع هناك.

وسار حتى بلغ مدينة الكند[2]، وهى مدينة الحكماء، فتهاربوا منه إلى جبل صَعِدوه من مواضع يعرفونها من داخل مدينتهم لم يعرفها غيرهم، ولم يجد الريان ومن معه إلى الصعود إليها سبيلا، فأقاموا عليها أياما وكادوا يهلكون من العطش، فنزل إليهم من الجبل رجل يقال له مندوس، كان من أفاضل الحكماء وقد لبس شعرُه جسدَه، فقال: أين تريد أيها المغرور الممدود له فى الأجل! المرزوق الكفاية! أتعبت نفسك وجيشك! ألا اقتنعت بما تملكه وآتكلت على خالقك [وربحت الراحة][3] وتركت العناء والغرور بهذا الخلق. فعجب الملك من قوله وسأله عن الماء فدلّه عليه، وسأله عن

(١) أسبت هنا: سكن ولم يخترك.

(٢) فى هامش خطط المقريزى طبعة فيت: «الكهة».

(٣) التكلة من المقريزى.

موضعهم فقال: موضع لا يصل إليه احد ولا بلغه قبلك أحد. قال: فما عيشكم؟ قال: من أصول نبات لنا نعتصم به ونقنع بأكله ويكفينا اليسير. قال: فمن أين تشربون؟ قال: من نِقار الماء من الأمطار. قال: فلمَ هربتم منا؟ قال: رغبة عن خلطتكم وإلا فليس لنا ما نخاف عليه. قال: فكيف تكونون إذا حَمِيت عليكم الشمس؟ قال: فى غِيرَانٍ تحت هذه الجبال. قال: فهل تحتاجون إلى مال أخلفه لكم؟ قال: إنما يريد المالَ أهلُ البذخ ونحن لا نستعمل منه شيئا، آستغنينا عنه بما قد اكتفينا به، وعندنا منه مالو رأيتَه لحقَّرت ما عندك. قال: فأَرِنيه، فانطلق به مع نفر من أصحابه إلى أرض فى سفح جبلهم فيها قضبان الذهب نابتة، وأراهم واديا حافتاه حجارة الزبرجد والفيروذج، فأمر الرّيان أصحابه أن يأخذوا من كبار تلك الحجارة ففعلوا؛ ورآهم الحكيم يصلّون إلى صنم يحملونه معهم، فسألهم ألا يقيموا بأرضهم خوفا من عبادة الأصنام؛ فسأله الملك أن يدله على الطريق ففعل، وودّع الحكيمَ وسار على السمت الذى وصفه له. فلم يمر بأُمة إلا أبادها وأثر فيها إلى أن بلغ بلدَ النوبة، فصالح أهلها على مال يحملونه إليه، ثم أتى دُنْقُلَةَ فأقام بها عَلَما وزبر عليه آسمه ومسيره. ومرّ يريد منف؛ فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقَّوْنه بالفرح والسرور والطيب والرياحين والملاهى إلى أن بلغ منف. فلم يبق أحد من أهلها إلا خرج إليه مع العزيز وتلقَّوْه بأصناف الطيب والبخورات والرياحين.

٢١/١٣

وكان العزيز قد بنى له مجلسا من الزجاج الملوّن وفرشه بأحسن الفُرُش المذهبة، وغرس حوله جميع الأشجار والرياحين، وجعل فيه صِهْريجا من زجاج سمائى، وجعل فى أرضه شبه السمك من زجاج أبيضَ وأنزله فيه، وأقام الناس يأكلون ويشربون أياما كثيرة. وأمر بعرض جيشه فوجد أنه قد فُقِد منهم سبعون ألفا، وكان قد خرج فى ألف ألف، ووجد من آنضاف إليه من الغرباء والمأسورين نيّفا

وخمسين ألفا، وكان مسيره وغيبته إحدى وعشرين سنة . فلما سمع الملوك بذكره وما فتح من البلاد وما أسرها بوه ، وخافوا شدّة بأسه وعظم سلطانه . وتجبّر وبنى بالجانب الشرقى قصورا من الرخام ونصب عليها أعلاما، فكان يقيم بها الأيام الكثيرة . وكان الخراج قد بلغ فى وقته سبعة وتسعين ألف ألف فأحبّ أن يتمه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمارات و إصلاح الجسور والزيادة فى استنباط الأراضى حتى بلغ ذلك وزاد عليه .

ثم كان من خبر يوسف الصديق عليه السلام و بيعه بمصر وخبره مع امرأة العزيز وسجنه وقصته مع صاحبى الملك ورؤيا الملك وتعبيرها وتولية الريان بن الوليد يوسفَ عليه السلام رتبةَ العزيز وخبرِ القحط، ماقدّمنا ذكره فى أخبار يوسف عليه السلام، وهو فى السفر الحادى عشر من نسخة الأصل[1] . فلا فائدة فى إعادته . إلا أنه قد وردت زيادات أخرُ لم ترد هناك نحن نذكرها الآن . وهو ما حكاه مؤلف هذا الكتاب الذى نقلنا منه إبراهيمُ بن القاسم الكاتب عن إبراهيم بن وصيف شاه قال: إن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر بأهله وولده، خرج يوسف عليه السلام فى وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك ؛ وكان يعقوب عليه السلام مَهيبا جميلا فقرّبه الملك وعظّمه وقال له : يا شيخ، كم سنوك وما صناعتك وما تعبد ؟ فقال : أما سنّى فعشرون ومائة سنة ، وأما صناعتى فلنا غنم نرعاها وننتفع بها ، وأما الذى أعبد فربُّ العالمين، وهو الذى خلقنى وخلقك ، وهو إله آبائى و إلهك و إله كل شىء .

قال: وكان فى مجلس الملك فنيامين، وهو كاهن جليل القدر، فلما سمع كلامَ يعقوب ضاق به ذرعا وقال للملك بلغتهم : أخاف أن يكون خرابُ مصر على يد ولد هذا.

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٣٠ — ١٥٦ من هذه الطبعة) .

فقال له الملك : فأتى لنا[1] خبره ؟ فقال الكاهن : أرنا إلهك أيها الشيخ . قال : إلهى أعظم من أن يُرى . قال : فإنا نحن نرى آلهتنا . قال : لأن آلهتكم ذهبٌ وفضة ونحاس وخشب ، وما يعمله بنو آدم عبيدُ إلهى الذى احتجب عن خلقه بعزّ ربوبيته ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . قال له فنيامين : إن لكل شىء دليلا ، وكل شىء لا تراه العيون فليس بشىء ، فغضب يعقوب وقال : كذبتَ يا عدوّ الله وطغيت فى هذه الدنيا ؛ إن الله سبحانه وتعالى شىءٌ وليس كالأشياء ، وهو خالق كل شىء لا إله إلا هو . قال : فصفه لنا . قال : إنما يوصف المخلوقون ولا يوصف الخالق عز وجل ؛ لأنه يرتفع عن الصفات ؛ لأنه واحد قديم مدبّر للأشياء فى كل مكان يَرى ولا يُرَى . ثم قام يعقوب مُغْضَباً ، فأجلسه الملك وأمر فنيامينَ أن يكفّ عنه ويكونَ بين يديه ويأخذَ فى غير هذا . ثم قال الملك : كم عدّةُ من دخل معك إلى مصر ؟ قال ستّون رجلا . قال الكاهن : كذلك نجده فى كتبنا ؛ إن خراب مصر يجرى على أيديهم . قال الملك : فهل يكون فى أيامنا ؟ قال : لا ، ولا إلى مدّة كبيرة . والصواب أن يقتله الملك ولا يستبقى من ذرّيته أحدا . قال الملك : إن كان الأمر كما تقول فما يمكننا أن ندفعه ولا نقتلَ هؤلاء ، وإن لهم إلهاً عظيما ، وقد قبل قلبى هذا الشيخَ ، وما لى إلى قتله من سبيل ، فخاطبه بألين الكلام ؛ فجرت بينهما بعد ذلك مخاطبات ألان له فيها القول .

٢٢/١٣

قال : ثم إن يعقوب عليه السلام أحبّ أن يعرفَ خبرَ مصر ومدائنها وكيف بُنيت وخبرَ طِلّسماتها وعجائبها . فسأله عن ذلك وسأله بحقّ الملك ألا يكتمه شيئا من أمرها فأخبره . قال : وأقام يعقوب عليه السلام مع الريان بن الوليد الملك يعظّمه ويبجّله إلى أن حضرته الوفاة ، فأوصى أن يُحمل إلى مكانه من الشأم ، فحُمل فى تابوت

(١) كذا فى خطط المقريزى ، وفى الأصل : «أين» .

وخرج معه يوسف عليه السلام ووجوه مصر حتى بلغ الى موضعه ورجعوا . وقيل : إن عيصو منعهم من دفنه هناك لأن إسحاق عليه السلام كان قد وهبه الموضعَ فاشتراه يوسف عليه السلام منه . ويقال : إن الريان آمن بيوسف وكتم إيمانه خوفا من فساد ملكه .

٥ وملك الريان مائة وعشرين سنة . وفى وقته عَمِل يوسف عليه السلام الفيوم لابنة الملك، وكان أهل مصر قد وَشَوْا به وقالوا : قد كَبِر ونقص نفعه فاختبره . فقال له الملك : قد وهبتُ هذه الناحيةَ لابنتى ، وكانت مغايضَ للماء فدبِّرها . قال : فقلع أدغالها ، وساق المنهى[1] ، وبنى اللاهون[2]، وجعل الماء فيه مقسوما موزونا، وفرغ من ذلك كله فى أربعة أشهر، فعجبوا من حكمة يوسف عليه السلام .

١٠ قال : ولما مات الريان بن الوليد ملك بعده ابنه دريموس[3] بن الريان ابن الوليد ويسميه أهل الأثر دارم، وهو الفرعون الرابع عندهم . قال : ولما ملك خالف سنّة أبيه ، وكان يوسف عليه السلام خليفتَه كما كان مع أبيه ، وذلك بأمر الريان . وكان يوسف يسدّده فربما قبل منه وربما خالفه، وظهر فى وقته معدِن فضة على ثلاثة أيام من النيل فأبان[4] منه شيئا عظيما، وعمل منه صنما على اسم القمر ؛ لأن

١٥ طالعه كان بالسرطان، ونصبه على القصر الرخام الذى كان أبوه بناه فى شرق النيل، ونصب حوله أصناما كلّها من الفضة وألبسها الحريرَ الأحمر، وعمل لها عيدا فى كل سنة[5]، وهو إذا نزل القمرُ السرطان .

(١) المنهى : اسم فم النهر الذى احتفره يوسف الصديق يفضى الى الفيوم مأخذه من النيل .
(٢) اللاهون : هو السَّكْر الذى بناه لردّ الماء الى الفيوم .
٢٠ (٣) كذا فى نسخة «ب» والمقريزى . وفى نسخة «ا» ديموش بالشين المعجمة .
(٤) أبان : فصل .
(٥) كذا فى نسخة ا . وفى نسخة ب « شهر » .

وكان يتنقّل الى مواضع شتّى يتنزّه فيها ، وإذا أراد أن يضرّ الناسَ بشيء منعه يوسفُ عليه السلام ودفعه عنه الى أن تُوفّي يوسف عليه السلام، كما تقدّم فى خبر وفاته ، فاستوزر الملك دارمُ بعده بلاطسَ بن منسا الكاهن ، فكان بلاطس يُطلِق له ما كان يوسف يمنعه عنه ، وحمله على أذى الناس وأخْذ أموالهم فبلغ منهم كل مبلغ .

وعمل الوادى المنحوت بين الجبلين فى الناحية الغربية وكنز الأموال فلا يُوصل ٥ إليها ، وجعل صقالة من الوادى الى باب الخباء ، وجعل له بابا من الحديد يُتوصّل إليه من تلك الصقالة ، وصمده بجماعة من العفاريت يمنعون من ذلك الخباء ، فمن رامه من الناس سقط فى الوادى . وقال آخرون : كنزها فى موضع منه يُدخَل إليه ويُنظر الى الأموال مكشوفةً مضروبةً ، فى كل دينار عشرة مثاقيل عليها صورته ، فإن أخذ الداخل منها شيئا انطبق عليه الباب فلم يقدر على الخروج ، فإذا ردّه الى ١٠ موضعه انفتح له الباب . وهو بحاله الى هذا الوقت كما زعموا .

قال : ثم زاد دارمُ فى التجبّر الى أن آختلع كلَّ آمرأة جميلة بمدينة منف من أهلها ؛ ولا يسمع بآمرأة حسناء فى ناحية من النواحى إلا وجّه فخُمات إليه . وفشا ذلك فى المملكة واضطرب الناس من فعله وشقّ عليهم أمره الى أن شَغَبُوا عليه وعطّلوا الصنائع والأعمال والأسواق فعدا على جماعة منهم فقتلهم . وزاد الأمر ١٥ حتى اجتمعوا على خلعه ، فخاف بلاطس الوزير أن يَفْسُدَ أمر المملكة فدخل على الملك وأشار عليه أن يتودّد الى الناس ويعتذر إليهم ويردّ نساءهم فأبى إلا مخالفتَه ، ٢٣/١٣ وهمّ أن يخرج الى الناس فى خاصّته ويقتلَ منهم وقال : إنما هم عبيدى وعبيد آبائى . فلم يزل يرفُق به الى أن سكن غضبه ؛ فأمره أن يعتذر الى الناس عنه ، ففعل الوزير ذلك وذكر عنه جميلا ، فأبى الناس أن يقبلوا منه دون مخاطبتهم الملك فضَمِن ٢٠ لهم ذلك وخاطبه وأشار به عليه ، فأمره أن ينادىَ فى الناس بالحضور فى يوم عيّنه ،

ثم لبس أرفعَ ثيابه وأكبر تيجانه وجلس ودخل الناس عليه فذكروا ما حلّ بهم من أخذ أموالهم ، وعرّفوه أنه لم يجر عليهم من مَلِكٍ قبله مثلُ هـذا ، فاعتذر إليهم ووعدهم الإقلاعَ عما شكوا منه وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين .

ثم أمر بعمل قصر من خشب على أساطين خشب ممدودة بأضلاع مسمّرة يتنزّه فيه ، فعُمل ودُهن بالأدهان والأصباغ الملوّنة المذهبة ، وضُبِّبَ بالفضة والنحاس المذهب ، وعَمِل فوقه قبة من الفضة المذهبة مصوّرةً بالزجاج الملوّن وعلّق فيها الحجر المضيء الذى أتى به أبوه من المغرب . فلما فرغ القصر فرشه بأحسن الفرش وجعله طبقتين : طبقة له يجلس فيها مع من يحبّه ، وطبقة لحشمه ، وجعل حول ذلك أرْوِقة ملصقة بالمجلس يجلس فيها من يريد ؛ فكان يركب فيه بمن احبّه من خاصته ونسائه ويُصعِّد فيه فى المـاء إلى ناحية الصعيد وتتبعه المراكب فيها أصحابه وغلمانه بالعُدد والسلاح وينحدر إلى أسفل الأرض ، فإذا مرّ بمكان يستحسنه أقام فيه أياما .

واتفق أنه خرج فى بعض الأيام مُصَعِّدًا فوثب رجل من الإسرائيليين على رجل من سَدَنَةِ الهياكل فضربه حتى أدماه وعاب دينَ الكهنة ، فغضب القبط لذلك وخاطبوا خليفة الملك أن يُخرِجَهم من مصر فامتنع دون مشاورة الملك ، وكتب إليه يعرّفه ذلك ، فكتب إليه ألا يُحدِث فى القوم حادثة دون موافاته ، فشَغَبوا وأجمعوا على خلعه وتمليك غيره ، وتعرّض بعضهم الى ذكر الملك فحشد أهلَ الصعيد وانحدر اليهم ، فحاربوه فهَلَك بينهم خلق كثير . وعاونته امرأة أبيه ، وكانت ساحرة ، فأظهرت من سحرها وتخاييلها ودُخَنِها ما أعمـاهم عن النظر ، وأضعف حواسهم وأسكرهم ، فقتل خلقا منهم وصلب خلقا على عبر النيل ، ورجع إلى أكثر ممـا كان عليه من ابتزاز النساء ونهب الأموال واستخدام الأشراف والوجوه من القبط ومن بنى إسرائيل ؛

فأجمع الكل على ذمه . وكانت الساحرة لا تُخلِّيه من معونتها الى أن ركب في ذلك القصر في بعض الليالي وقد أحدق النيل بالبلد، وهو من الجبل الى الجبل، وامتدّ القمر على الماء ، فأراد أن يعدّى من العُدوة الى العدوة الأخرى فلم يتهيأ له سَوْقُ القصر بسرعة لعظمه ، فركب مركبا لطيفا مع ثلاثة من خدمه والساحرة ، فلما توسّط البحرَ هاجت ريح عاصف ففرق هو ومن معه، وأصبح الناس شاكّين في أمره لا يعلمون ما نزل به، الى أن وُجدت جثته بشَطَّنُوف[1] فعُرِف بخاتمه وبجوهر كان يتقلّد به فحمل الى منف .

وملك بعده آبنه معاديوس بن دريموس ؛ ويسميه أهل الأثر معدان آبن دارم ، وهو الفرعون الخامس . وذلك بتدبير الوزير ؛ فأجلسه على سرير الملك وبايعه الجيش ، وكان صبيا فكرهه الناس ثم رَضُوا به ، فأسقط عن الناس الخراج الذى كان أبوه أسقطه ، وزادهم سنة وأحسن إليهم فأطاعوه؛ وآستقام له الأمر وردّ نساءهم . وكان ينكر على أبيه فعله ولا يرضاه ؛ فلذلك رضُوا به .

قال : وفى زمانه كان طوفانٌ أضرّ ببعض البلد فلزم الملك الإقبال على الهياكل والتعبد ، وطلب القاطر ووجوه الكهنة بالحضور معه، وأنصف بعضَ الناس من بعض . وكثر بنو إسرائيل وعابوا الأصنام وثلبوها . وكان الوزير قد هلك فآستوزر كاهنا يقال له املاده ، فلما رأى ما فعله بنو إسرائيل أنكره وأمر أن يُفردوا بناحية من البلد لا يختلط بهم أحد غيرهم ، فأقطعهم موضعا فى قبلىّ منف، واجتمعوا إليه وعملوا لأنفسهم معبدا كانوا يتلون فيه صحف إبراهيم عليه السلام ، وآتفق أن رجلا من أهل بيت الكهنة عشق امرأة من بنى إسرائيل كانت قد جاءته

٢٤/١٣

(١) شطنوف : بلدة — مركز أشمون — مديرية المنوفية .

لتشتكىَ أخاها أنه غصبها ميراثَها، وأرادت أن يعتنىَ بأمرها عند وزير الملك، فرآها آبنه فأحبها وسأل والده أن يزوّجه منها، فخطبها من أهلها فأبوا ذلك، فأنكر الناس فعلهم وآجتمعوا الى الوزير وقالوا: هؤلاء قوم يَعيبوننا ويرغبون عنّا، ولا نحب أن يجاورونا إلا أن يَدينوا بديننا. فقال الوزير: قد علمتم إكرام الريان الملك لجدّهم يوسف عليه السلام، وقد وقفتم على بركة جدّهم يوسف عليه السلام حتى جعلتم قبره وسط النيل فأخصب جانبا مصر بمكانه فلا تخوضوا فى هذا، فأمسكوا.

قال: وتغلّب أحد ملوك الكنعانيين على الشام وامتنع أهله أن يحملوا الضريبة التى كانت عليهم لملك مصر، فأنكر أهل مصر ذلك وأشفقوا من غلبة صاحب الشام على بلدهم، فحضّوا الملك على غزو الشام فقال: إن رام أحد حدود بلدنا غزوناه، وما لنا فى ذلك البلد من حاجة؛ فاستنقصوا رأيه. وأقام على ملازمة الهياكل والتعبّد فيها؛ فيزعم القبط أنه بينا ذات يوم قائم فى هيكل زُحَل حذاء صورته، وقد أجهد نفسه فى التعبد، إذ تغشّاه النوم فتجلّى له زحل وخاطبه وقال: قد جعلتك ربًّا على أهلك وأهل بلدك، وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم، وسأرفعك إلىّ فلا تخل من ذكرى؛ فعظُم عند نفسه، وآتصل خبره بأهل البلد، وأخبرهم سَدَنةُ الهيكل أنهم رأوا النور وسمعوا الخطاب، وأعظم الناس أمره، فتجبّر فى نفسه وأمر الناس أن يسمّوه ربًّا، وترفّع أن ينظر فى شىء من أمر المُلك، وأحضر الناس وقال: قد وقفتم على ما خُصِصت به دون الملوك، وهذه مَوْهبة يلزمنى الشكر لواهبها عليها، ولست أتفرّغ للنظر فى أموركم، وقد رأيت أن أجعل المُلك إلى آبنى أكسامس، وأكون من ورائه إلى أن يغيب شخصى عنكم كما وُعِدْتُ، وقد أيدته بالقاطرين، فآنظروا كيف تكونون، ولا تتظالموا فإنكم منى بمرأى ومسمع،

فرضُوا بذلك وقالوا : نحن عبيد الملك ومن رضيته الآلهة فحكم الخلق أن يَرْضوه ولا يخالفونه .

فملك ابنه أكسامس بن معاديوس ؛ ويسميه أهل الأثر كاسم آبن معدان ، وهو الفرعون السادس ، وجلس على سرير الملك وتُوّج بتاج أبيه وقام القاطرون بين يديه ، فجعل لكل واحد منهم رتبةً ، ورتّب الناس مراتب ، وقسم الكُوَر والأعمال ، وأمر بأستنباط العمارات وإظهار الصناعات ، ووسع على الناس فى أرزاقهم وعلى حاشيته وحاشية أبيه ، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها ، وزاد فى القرابين ؛ وكلما أتى شيئا من ذلك لم تخالفه الكهنة وقدّروا أن ذلك عن أمر أبيه برضى الكواكب ، وآحتجب أبوه عن الناس . وأقام كاسم أعلاما كثيرة حول منف وجعل عليها أساطين يُمَرُّ عليها من بعضها إلى بعض . وعمل برقُودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الأرض مدنا كثيرة وأعلاما ومنائر للوقود والطلّسمات . وعمل كُرَة من الفضة على عمل البيضة الفلكية ونقش عليها صور الكواكب الثابتة ودهنها بدُهن الصينى وركّبها على منار فى وسط منف . وعمل فى هيكل أبيه روحانىّ زُحَل من ذهب أسودَ مدبّر . وعمل فى وقته الميزان الذى يعتبر به الناس ، وجعلت كِفّتاه من ذهب وعلائقه من فِضّة وخيوطه سلاسل ذهب ، وكان معلقا فى هيكل الشمس ، وكتب على إحدى كِفّتيه حقّ ، والأخرى باطل ، وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء كل شىء من الكواكب ؛ فيدخل الظالم والمظلوم ويأخذ كل واحد منهما فصّا من تلك الفصوص ويسمى عليها ما يريد ، ويجعل أحد الفصين فى كفّة والآخر فى الأخرى ، فتثقل كفة الظالم وترتفع كفة المظلوم . وكذلك من أراد سفرا أخذ فصين فذكر على واحد آسم السفر ، والآخر اسم الجلوس ، ويجعل كل واحد فى كفة ، فإن لم يرتفع أحدهما على الآخر جلس ،

٢٥/١٣

وإن ارتفعا خرج ، وإن ارتفع أحدهما مكث شهرا . ومن نحو هذا من غائب ودين وفساد وصلاح . ويقال إن بُخْتَنَصَّر لما ظَفِر بمصر حمله فى جملة ما حمل الى بابل وجعله فى بيت من بيوت النار .

قال : وطالب كاسم الناسَ بلزوم الأعمال وإظهار الصنائع ، فعُمِلت كل غريبة منها : التنّور الذى يَشوى من غير نار فيه ، والقدور التى يطبخ فيها من غير نار ، والسكين التى تُنصب فإذا رآها شىء من البهائم أقبل حتى يذبح نفسه بها ، والماء الذى يستحيل نارا ، والزجاج الذى يستحيل هواء ، وأشياء من ذلك .

قال : فأقام فى أوّل ولايته ثلاث سنين بأجمل أمر وأصلح حال ، ومات وزير أبيه الذى كان معه فاستخلف رجلا من أهل بيت المملكة يقال له طلما ، وكان شجاعا فارسا كاهنا كاتبا حكيما دهيّا متصرّفا فى كل فنّ ، وكانت نفسه تنازعه المُلْكَ فصلُح أمر المملكة بمكانه وأحبه الناس ، فعمل معالم كثيرة وعمر خرابا وبنى مدنا من الجانبين . ورأى فى نجومه أنه ستكون شدّةٌ فاستعمل ما آستعمله نهراوش ، وبنى بناحية رقودة والصعيد ملاعب ومصانع . وشكا القبط اليه حال الإسرائيليين فقال : هم عبيد لكم ، فكان القبطىّ اذا أراد حاجة سخر الإسرائيلى ، وكان القبطىّ يضرب الإسرائيلىَّ فلا يُنكر عليه أحد ، وإن ضرب الإسرائيلىُّ القبطىَّ قُتل ، فكان أوّل من أذى بنى إسرائيل ، ويفعل نساء القبط بنساء بنى إسرائيل ما يفعل الرجال بالرجال من السَّخَر والضرب .

قال : وفى أيام أكسامس بُنيت منارة الإسكندرية . وفى زمانه هاج البحر المالح فغرّق كثيرا من القرى والجنان والمصانع . وحكى أن أكسامس تغيّب عن الناس مدّة . وقيل : مات وكتموا موته . وكانت مدّة ملكه إلى أن غاب إحدى وثلاثين سنة ، وأقام طلما إحدى عشرة سنة يدبّر المملكة ثم اضطرب الناس على

طلما وتغيّروا واتصل بهم أنه قَتَل الملك بسمّ سقاه إياه فاجتمعوا وقالوا : لابدّ لنا من النظر إلى الملك ، فعرّفهم أنه قد تخلّى عن الملك وولّى ابنَه لاطس فلم يقبلوا ذلك .

فأمر طلما الجيوش فركبت فى السلاح وأجلس لاطس بن أكسامس على سرير الملك ولبس التاج . وكان جريئا معجَبا فوعد الناس جميلا وقال : أنا مستقيم لكم ما استقمتم ، و إن ملتم عن الواجب ملت عنكم ، وأمر ونهى وألزم الناس أعمالهم ، وحط جماعة من الوجوه عن مراتبهم ، وصرف طلما عن خلافة المملكة واستخلف رجلا يقال له لاهوق من ولد صا الملك ودفع إليه خاتمه ، وأنفذ طلما عاملا على الصعيد وأنفذ معه جماعة من الإسرائيليين ، وعمل الأعلام وأصلح الهيا كل و بنى قرى كثيرة ، وأُثيرت (١) فى أيامه معادنُ كثيرة وكنوز فى صحراء المشرق ، واستعمل آنية كثيرة من الجوهر الأخضر وأصناف الزجاج . وكان محبّا للحكم ثم تجبّر وعلا ، وأمر ألا يجلس أحد فى مجلسه ولا فى قصر الملك من الكهنة وغيرهم ، بل يقومون على أرجلهم إلى أن ينصرفوا ، وزاد فى أذى الناس والعنف بهم ، ثم منع الناس فُضولَ ما بأيديهم وقصرهم على القوت ، وجمع أموالهم وطلب النساء فانتزع كثيرا منهنّ ، وفعل فى ذلك أكثر من فعل مَنْ تقدّمه من الملوك ، وقهر الناس بالسطوة واستعبد بنى إسرائيل وقتل جماعة من الكهنة فأبغضه الخاص والعام .

وكان طلما لما صرفه لاطس عن خلافته وَجَد (٢) فى نفسه وأضمر الغدر به . فلما خرج إلى الصعيد احتجز الأموال فلم يحملها ، وحال بين الملك و بين المعادن ، وأراد أن يقيم ملكا من ولد قبطريم ويجلسه فى الملك ، فأشار بعض الكهنة على طلما أن يطلب المُلك لنفسه وعرّفه أنه سيكون له حال . فلما شجّعه الكاهن وجرّأه على

٢٦/١٣

(١) أثيرت : من الإثارة ، وهى الإخراج من تحت الأرض .

(٢) وجد بالتحريك : غضب .

ذلك دعا إلى نفسه وكاتب وجوه أهل البلد، فبعض أجابه و بعض توقف، ورفع كل واحد من ولد الملوك رأسه وطمع فى الملك .

قال : وفى بعض كتبهم أن بعض الروحانيين ظهر له وقال : إنى أطيعك إن أطعتنى ، وأقلدك مصر زمانا طويلا ، فأجابه إلى ماسأله وقرّب له أشياء ذكرها له ، منها غلام إسرائيلىّ ؛ فعاونه حينئذ وكان له رسولا الى رؤساء مصر ، فكان يُتصوّر بصور بعضهم ويشير بتمليكه عليهم إلى أن آستقام له الأمر ، قال : ولما منع طلما لاطسَ من مال الصعيد كتب بصرفه عن العمل فأبى أن ينصرف، فوجه اليه قائدا من أهل بيته وقلده مكانه وأمره أن يحمله اليه ، فحاربه وأعانه الروحانىّ فظفر به طلما وآعتقله ثم خلّاه وقرّبه وأدخله فى جملته ، وآتصل الخبر بلاطس فأنفذ اليه قائدا آخر فهزمه طلما وسار فى أثره بجيش كثيف ، وكاتب جميع القوّاد وأهل البلد و بذل لهم الأموال ، وخرج اليه لاطس فحاربه طلما وعاونه الروحانىّ فظفر به طلما وقتله وسار حتى دخل منف وعاث فيها .

وملك طلما بن قومس ؛ ونزل قصر المملكة وجلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان فى خزائنهم . قال : وطلما هذا هو آبن قومس، وهو الذى يذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام . وأهل الأثر يسمونه الوليد بن مصعب وأنه من العمالقة . وذكروا أن الفراعنة سبعة فأوّلهم : طوطيس بن ماليا، ثم الوليد بن دومع ، ثم آبنه الريان بن الوليد ، ثم دريموس بن الريان ، ثم معاديوس بن دريموس ، ثم أكسامس بن معاديوس ، ثم طلما .

قال : وكان طلما فيما زعموا قصيرا . قيل : كان طوله أربعة أشبار ، طويل اللحية ، أشهل العينين ، صغير العين اليسرى ، فى جبينه شامة . ويقولون : إنه

كان أعرج . وزعم قوم أنه من القبط . قال : والدليل على ذلك ميلُه إليهم ونكاحه فيهم ؛ ونسبُ أهل بيته مشهورٌ عندهم .

وقد آختلف الناس فى سبب ملكه وعمن تلقّى الملك ، فقيل ما ذكرناه ، وقيل ما قدّمناه[1] فى قصة موسى بن عمران عليه السلام ، والله تعالى أعلم .

قال : ولما جلس طلما على سرير الملك اضطرب الناس عليه فبذل الأموال وأرغب من أطاعه ، وقتل من خالفه ، فاعتدل الأمر له . وكان أوّل ما عَمِل أن رتّب المراتب ، وشيّد الأعلام ، وبنى المدن ، وخندق الخنادق ، وعمل بناحية العريش حصنا ، وكذلك على حدود مصر ، وآستخلف هامان ، وكان يَقْرُب منه فى نفسه ونسبه ، فأثار بعض الكنوز وصرفها فى بناء المدن والعمارات ، وحفر خلجانا كثيرة . ويقال : إنه الذى حفر خليج السَّرْدُوس[2] ، وكان كلما عرّجه الى قرية من قرى الحوف حمل إليه أهلها مالا ؛ فاجتمع له من ذلك شىء كثير ، فأمر[3] بردّه على أهله .

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٧٥ من هذه الطبعة) .

(٢) ذكر ابن دقاق فى كتاب الانتصار (ج ٥ ص ٤٧) هذا الخليج أثناء كلامه عن مدينة قليوب فقال : « وبها خليج السردوس وهو أحد نزهات الدنيا وهو خليج يسار فيه بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة وفواكه دانية ... ... الخ » . وورد فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٣٠٤) بعد وصفه لهذا الخليج ما نصه : « قلت : أما الآن فقد ذهب ذلك ، وبطل الخليج وعوّض عنه بجر أبى المنجا » .

(٣) هذا ما رواه ابن وصيف شاه . وذكر المقريزى بعد هذا ما قاله ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو متمم لهذه الرواية ونصه :

« إن فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطونه مالا . قال : وكان يذهب به الى هذه القرية من نحو الشرق ثم يردّه الى أهل قرية من نحو دبر القبلة ثم يردّه الى قرية فى الغرب ثم يردّه الى أهل قرية فى القبلة ويأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار فأتى بذلك يحمله الى فرعون فسأله عن ذلك فأخبره بما فعل فى حفره ، فقال له فرعون : ويحك ! إنه ينبغى للسيد أن يعطف على عباده ويفيض عليهم ولا يرغب فيما بأيديهم ؛ ردّ على أهل كل قرية ما أخذت منهم . فردّه كله على أهله » (وراجع أيضا فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٦ طبع أوربا) اهـ .

وآنتهى الخراج فى وقته الى سبعة وتسعين ألف ألف دينار ، وكان يُنزل الناس على مراتبهم . وهو أوّل من عرّف العُرَفاء على الناس ، وكان ممن صحبه من الإسرائيليين رجل يقال له إمرى ، وهو عمران أبو موسى عليه السلام ، وهو أخو مزاحم لأبويه ، ومزاحم أبو آسية ، فهى آبنة عمّ موسى و بنت خالته ، فجعل فرعون عمران حارسا لقصره يتولى حفظه وفتحه وإغلاقه . وكان رأى فى كهانته أن هلاكه على يد مولود من الإسرائيليين ، فمنعهم المناكحة ثلاث سنين ؛ لأنه رأى أن ذلك المولودَ يكون فيها . ثم كان من خبر موسى فى حمل أمه به وولادته وغير ذلك من أمره ما قدّمنا[1] ذكره فى قصة موسى عليه السلام فلا فائدة فى إعادته .

وقد نقل أن موسى عليه السلام لمّا كبر عند فرعون عظُم شأنه وردّ فرعون إليه كثيرا من أمره وجعله من قوّاده ، وكانت له سطوة ؛ ثم وجهه فرعون لغزو الكوثانيين ، وكانوا قد عاثوا فى أطراف مصر ، فخرج فى جيش كثيف فرزقه الله عز وجل الظَّفَر ، فقتل منهم خلقا وأسر خلقا وآنصرف سالما فسُرّ به فرعون وآسية . قال : وآستولى موسى وهو غلام على كثير من أمر فرعون وأراد أن يستخلفه حتى قتل رجلا من أشراف القبط فكان من أمره ما تقدّم ذكره . والله أعلم .

٢٧/١٣

هذا ما أورده إبراهيم فى كتابه ؛ ولم يذكر من أخبار ملوك مصر بعد غرق فرعون شيئا ولا ذكر مَنْ ملك بعده . وقد أشار المسعودى فى مروج الذهب الى نبذة من أخبار مَنْ ملك مصر بعد غرق فرعون نحن نذكرها . وأما سياقة أخباره فيما كان قبل فرعون فهذا الذى ذكرناه أتمّ منه وأكثر استيعابا .

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٧٣ — ٢٣٢ من هذه الطبعة) .

ذكر نبذة من أخبار من ملك مصر بعد غرق فرعون

قال أبو الحسن على بن عبد الله المسعودى فى كتابه مروج الذهب[(١)] ومعادن الجوهر : لما أهلك الله تعالى فرعون وقومه بالغرق خشىَ من بقىَ بمصر من الذرارى والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب ؛ فملكوا عليهم آمرأة يقال لها دَلُوكة ؛ فبنت على أرض مصر حائطا يحيط بجميع البلاد من حدّ أرض رَفَح الى برقة ، وجعلت الحرّاس على مسافة كل ميل منها يصل أخبار بعضهم الى بعض ، فإذا حدث أمر فى أوّل ملكها بليل رُفعت النيران فى وقت حدوثه فعلم فى آخر المملكة بالخبر من ليلته ، و إن كان بالنهار دخن . وهذا الحائط موجود الى حين وضْعنا لهذا الكتاب و يسمى حائط العجوز . وقيل فيه : حائط[(٢)] المجوز . وقيل : إنها بنت هذا الحائط من خوفها على ولدها .

واتخذت دلوكة بمصر البرابىَ وصوّرت فيها الصور ، وأحكمت آلات السحر ، وجعلت فى البرابى صُوَرَ من يرد فى البر ودوابّهم إبلا كانت أو خيلا ، ومن يرد

(١) راجع (ج ١ ص ١٧١ طبع بلاق) .

(٢) ذكر المؤلف فيما سبق (ج ١ ص ٣٩٢ من هذه الطبعة) ما نصه :

«وهذا الحائط من العريش (وهو حدّ مصر من جهة الشام) الى أسوان (وهى حدّ مصر من جهة النوبة) شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقىّ» .

وقد وصف ابن فضل الله العمرى جزءا من هذا السور فى كتابه مسالك الأبصار (ج ١ ص ٢٣٩) فقال :

«وهو حائط يستدير بالديار المصرية ، ممتدّا على جانب المزدرع بها ، كأنه قد جعل حاجزا بين الرمل والمزدرع . على أنه غير عالى الذرى .

مشيت معه الى دندرا ، من الصعيد الأعلى ، ورأيته قد دثر غالبه ، ومتقطعه أكثر من متصله ، وهو مبنىّ من طوب ، ليس بعريض السمك ولا عالى الجدار ... ... وأنه يصل الى ما بين العريش ورفح ، منتهى الحدّ الفاصل بين مصر و بين الشام . وليس له هناك أثر ، بل ولا فى أسافل أرض مصر» .

فى البحر فى المراكب من بلاد الغرب وسواحل الشام، وأحكمت جميع ذلك بحركات فلكيّة . فكان إذا ورد عليها عدوّ من نحو الحجاز واليمن عوّرت تلك الشخوص التى فى البرابى من الإبل وغيرها فيحدث العَوَر فى ذلك الجيش وتَهلِك دوابّهم ، وكذلك كل من يقدُم عليها من البر والبحر اذا بلغها خبر مقدمه صنعت فى تلك الصور مايحدث مثله فى ذلك الجيش من الآفات، فهابها سائر ملوك الأمم . وخبر هذه المرأة مشهور . وأكثر هذه البرابى باقٍ الى وقتنا هذا وفيها التصاوير إلا أنها لا فعل لها . وقد قيل فى البرابى : إنها اتخذت مع الأهرام قبل الطوفان . والله تعالى أعلم .

وقيل أيضا : إن مما أنشأته هذه المرأة منارة الإسكندرية ، وقد تقدّم ذكر خبرها فى المبانى القديمة وهو فى السفر[1] الأول من كتابنا هذا من هذه النسخة .

قال : وملكت هذه المرأة نحوا من ثلاثين سنة ، وقيل أقل من ذلك .

ولما هلكت دلوكة ملك بعدها دركوس[2] بن بلوطس . ثم ملك بعد ولده بورش[3] . ثم ملك بعده ولده بغاش[4] بن بورش نحوا من خمسين سنة . ثم ملك بعده دنيا[5] ابن بورش نحوا من عشرين سنة . ثم ملك بعده بلوطس عشرين سنة . ثم ملك بعده بلوطس بن متنا كيل[6] أربعين سنة . ثم ملك بعده مالس[7] بن بلوطس . ثم ملك

(١) راجع (ج ١ ص ٣٩٥ من هذه الطبعة) .

(٢) فى المقريزى : « دركون » وفى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٦) : « دركون بن بطلوس ، ويقال : دردوس بن ملوطس » .

(٣) فى المقريزى : « بورس » وفى صبح الأعشى : « تودس » .

(٤) فى المقريزى : «لقاس» . (٥) فى المقريزى : « مرنيا بن مرينوس » .

(٦) فى المقريزى : « منا كيل » وفى صبح الأعشى : « ميا كيل » .

(٧) فى المقريزى وصبح الأعشى : « مالوس » .

بعده بوليه[1] بن متنا كيل ؛ وكانت له حروب وسِيَرٌ فى الأرض وهو فرعون الأعرج[2] الذى غزا بنى إسرائيل وخرّب بيت المقدس . ثم ملك بعده وينوس بن مرينوس[3] ثمانين سنة . ثم ملك بعده قومس[4] بن بغاس[5] عشر سنين . ثم ملك بعده مكابيل وكانت له حروب مع ملوك الغرب ، وهـو الذى غزاه بختنصّر فقتله وقتل رجاله وخرّب أرض مصر ، فقيل إنها خربت مدة أربعين سنة . وانقرض ملك الفراعنة . ٥

* * *

٢٨/١٣ وملك الروم أرض مصر فتنصّر أهلها ؛ ولم تزل بيـد ملوك الروم الى أن ملك كسرى أنو شروان فارسَ فغلبت جيوشـه على الشام وسارت نحـو مصر ، فملك الفرسُ أرضَ مصر ، وغلبوا عليها نحوا من عشر سنين . وكانت بين الروم وفارس حروبٌ كثيرة ، فصار أهل مصر يؤدّون خراجين : للروم وللفرس ، ثم انجلت الفرس ١٠ عن الشام ومصر لأمر حدث فى بلادهم ، فغلبت الروم على مصر والشام وأظهروا النصرانية ، واستمرّ ذلك الى أن جاء الله تعالى بالإسـلام . وكان المقوقس ينوب عن ملك الروم ، وهادى رسـولَ الله صلى الله عليه وسلم . ولم تزل الديار المصرية

(١) فى المقريزى : «بولة» .

(٢) ورد فى المقريزى (ج ٣ ص ٦٢ طبعة فيت) ما نصه : «وقيل له الأعرج لأنه لما غزا ١٥ بيت المقدس ونهبها وسبى ملكها يوشيا بن آمون بن منشا بن حزقيا هم أن يصعد على كرسىّ نبىّ الله سليمان ابن داود وكان بلولب لا يمكن أحدا أن يصعد عليـه إلا برجليه جميعا فصعد برجل واحدة وهى اليمنى فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت ، فلم يزل يخمع بها الى أن مات فلذلك سمى الأعرج» .

(٣) فى المقريزى : «مرينوس بن بولة» ثم ذكر أن الذى استخلف بعده ابنه «قرقورة» ومكث ملكه ستين سنة . ثم توفى واستخلف أخاه «نقاس بن مرينوس» . وانهدم البرباء فى زمنه فلم يقدر أحد ٢٠ على إصلاحه . ثم توفى نقاس واستخلف ابنه «فوميس بن نقاس...» .

(٤) فى المقريزى : «فوميس» .

(٥) فى المقريزى : «نقاس» . وفى صبح الأعشى : «بغاش» .

والشام بيد ملوك الروم الى أن فُتحت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على ما سنورد ذلك إن شاء الله تعالى فى خلافة عمر فى الباب الثانى من القسم الخامس من هذا الفن، وهو فى السفر السابع عشر من هذه النسخة .

قال المسعودى رحمه الله : والذى اتفقت عليه التواريخ ، مع تباين ما فيها ، فى عدد ملوك مصر الى آخر أيام الفراعنة أنهم اثنان وثلاثون ملكا. قال : فمن ملوك بابل الى آخر أيام آبنة ماموم — يشير الى دليفة — أحد عشر ملكا وملكة . ومن العماليق أربعة ملوك . ومن الفراعنة من لَدُن الوليد بن مصعب فرعون موسى بن عمران عليه السلام، والى أن خرج بختنصّر الفارسىّ على مكابيل وقتله سبعة عشر ملكا بما فى ذلك من مُلْك دَلوكة، وهو إنما يشير الى مَنْ ملكها بعد الطوفان . وأما مَن ملكها قبل الطوفان فإنه لم يتعرض الى ذكرهم . قال : وملكها من الروم سبعة ملوك . ومن اليونان عشرة ملوك . قال : وذلك قبل ظهور المسيح عليه السلام . قال : وملكها أناس من الفرس فكانت مدّة من ملكها من الفراعنة ومن بعدهم والعماليق والفرس والروم واليونان ألفى سنة وثلثمائة سنة . والله أعلم بالصواب .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الخامس

فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم ؛ وهم ملوك الفرس الأول، وملوك الطوائف من الفرس، والملوك الساسانية واليونان والسريان والكلوانيين والروم والصقالبة والنوكبرد والإفرنجة والجلالقة وطوائف السودان

ذكر أخبار ملوك الفرس

وهم الفرس الأول

وقد اختلف الناس فى الفرس وأنسابهم وكم من دولة كانت لهم . وسنذكر ها هنا مقالاتهم فى ذلك واختلافهم . فمن الناس من زعم أنهم من فارس بن ياسور ابن سام بن نوح، وهذا قول هشام بن محمد . ومنهم من زعم أنهم من ولد يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . ومنهم من زعم أنهم من ولد هدرام ابن أرفخشد بن سام بن نوح ، وأنه وُلِد له بضعةُ عشر رجلا كلهم كان فارسا شجاعا ؛ فسمّوا الفرس لفروسيتهم، وفى ذلك يقول حِطّان بن المعلّى الفارسىّ :

وبنا سُمِّىَ الفوارس فُرسا ... نا ومنّا مناجِبُ الفتيان (١)

وزعم قوم أن الفرس من ولد لوط من ابنتيه رشا ورغوشا . وذكر آخرون أنهم من ولد بوّان بن أران بن الأسود بن سام بن نوح، ولبوّان هذا ينسب شِعب بوّان وهو أحد متنزّهات الدنيا . وقد تقدّم ذكره فى باب الرياض من الفن الرابع (٢) .

(١) فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١١٣ طبع بلاق) (... مناجب الفرسان) وبعد البيت :

وكهول طواهم الركب والكـ ... ـر كمثل الكرات يوم الطعان

(٢) راجع (ج ١١ ص ٢٥٧ من هذه الطبعة) .

ومن الناس من يرى أن الفرس من ولد إيران بن أفريدون ، ولا خلاف بين الفرس أجمع أنهم من ولد كيومرث[(١)] وهو الأشهر، وإليه يرجع جميع الفرس الأُوَل وملوك الطوائف والملوك الساسانية .

وأما التنازع فى دولهم فمن الناس من زعم أنهم أربعة أصناف، وأن الصنف الأول منهم كان من كيومرث إلى أفريدون وهم الجرهانية، وقيل الجهدهانية . والصنف الثانى من كيان إلى دارا بن دارا وهم الكيانية . والصنف الثالث ملوك الطوائف . والصنف الرابع الساسانية . ومن الناس من جعلهم صنفين : فجعل الصنف الأول من كيومرث إلى دارا بن دارا . والصنف الثانى من أردشير بن بابك إلى يزدجرد ابن شهريار المقتول فى خلافة عثمان رضى الله عنه . فمدّة ملكهم فى الدولة الأولى ثلاثة آلاف سنة وثلثمائة وستة وعشرون سنة . وعدّة ملوكهم عشرون ملكا فيهم امرأة واحدة .

٢٩/١٣

فأوّل مَلِك مَلَك من الفرس الأُوَل كيومرث وقيل فيه جيومرث .

وقد اختلف فى نسبه، فمن الناس من قال : إنه ولد آدم لصلبه . ومنهم من قال : إنه ولد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . وقد قيل : إنه أوّل مَلِك ملَك من بنى آدم . وكان السبب فى ملكه أنه لمّا كثر البغى والظلم فى الناس اجتمع أكابر أهل زمانه ورأَوْا أنه لا يُقيم أمرَهم إلا ملك يرجعون إليه فيما يأمر وينهى، فأتوه وقالوا : أنت أكبر أهل زمانك وبقية أبينا ، والناس قد بَغَى بعضهم على بعض ، وأكل القوىّ الضعيف، فضمّ أمرنا إليك وكن القائم بصلاحنا . فأخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة له وترْك الخلاف عليه . فصنعوا له تاجا ووضعوه على رأسه . وهو أوّل من وضع التاج على رأسه . فاستوثق له الأمر وقام

(١) كذا فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٠٥ طبع بلاق) وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٢) . وفى الأصل : « كيومرت » بالتاء المثناة . (٢) وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « وزعم علماء الفرس أن كيومرث هو آدم عليه السلام » .

بأمر الناس وحسُنَت سيرته فيهم . وكانت مدّة ملكه عليهم أربعين سنة . وكان يتزل إصطخر من أرض فارس حتى مات . وٱختُلِف فى مقدار عمره ، فقيل : إنه عاش ألف سنة ، وقيل غير ذلك . والله تعالى أعلم .

فلما مات قام بالأمر من بعده أوشهنج ابنه وقيل : أخوه ، وقيل : أوشهنج ابن فيشداد[(١)] بن كيومرث . وفى الناس من يزعم أنه أوّل مَلِكٍ ملَك من الفرس ، وهو الذى جمع الأقاليم السبعة ، ورتب المُلك ونظّم الأعمال ، ولقِّب بفيشداد ، وتفسيره بالعربية أوّل سيرة العدل . ويقال : إن أوشهنج هذا كان بعد الطوفان بمائتى سنة ، وهو أوّل من قطع الحجر وبنى به ، وٱستخرج المعادن ، وبنى مدينتى بابل والسوس . وكان فاضلا حسن السياسة محمودَ الأثر . قال : ونزل الهند وتنقّل فى البلاد وعقد التاج وجلس على السرير . وكان من حسن سياسته أنه نفى أهل الفساد والدعارة من البلدان وألجأهم إلى رءوس الجبال وجزائر البحر ، وٱستخدم منهم من كان يصلُح للخدمة وسمّاهم الشياطين والعفاريت ، وقرّب أهل الخير والصلاح . وكانت مدّة ملكه أربعين سنة .

ولما مات ملك بعده طهمورث[(٢)] وقيل فيه طهورث بن أنوجهان بن أوشهنج ، وقيل بل بينهما عدّة آباء . قال : ولما ملك سار فى الناس سيرة جدّه أوشهنج . وكان ينزل نيسابور . وقيل إنه الذى أنشأها ثم جدّدها بعد ذلك سابور . وقيل : إنه أوّل من كتب بالفارسية[(٣)] ونفى أهل الدعارة والشرّ وٱستقام له نظام الملك . قيل : وفى أيامه ظهر بوداسف[(٤)] الذى أحدث دينَ الصابئة . وكان ملكه ثمانين سنة . وقيل ثلاثين سنة .

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢٠٧ من القسم الأوّل طبع أوربا) : «أوشهنق بن فروالك» . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « أوشهنج بن سيامك بن كيومرث» . (٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ١٧٤ من القسم الأول طبع أوربا) ومروج الذهب للمسعودى وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم . وفى الأصل : « طهومرث » . (٣) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ١٠٠) : «بالفهلوية» . (٤) كذا فى الأصول ، وفى الطبرى (ص ١٧٦ من القسم الأول) : «بوداسب» بالباء الموحدة ؛ وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٧ طبع بلاق) : « أيوداسف » .

ولما مات ملك بعده أخوه جمشيذ[1]، وتفسير شيد : الشعاع ، سمى بذلك لوضاءة وجهه . قال : ولما ملك سلك سيرة من تقدّم وزاد عليها بأن صنّف الناس وطبّقهم ورتّب منازل الكتّاب وأمر لكل واحد وظيفة وأمره أن يلزمها . وعمل أربعة خواتيم : خاتما للحرب والشُّرَط[2] وكتب عليه الأناة، وخاتما للخراج وجباية الأموال وكتب عليه العمارة، وخاتما للبريد وكتب عليه الوحا ، وخاتما للمظالم وكتب عليه العدل . فبقيت هذه الرسوم فى ملوك الفرس الى أن جاء الإسلام .

وكان ملكه ستمائة سنة . وقيل سبعمائة سنة وستة أشهر . وقيل ألف سنة إلا عشر سنين . وفى أيامه أحدث النيروز[3] وجعله عيدا ، وأمر الناس أن يتنعموا فيه . ثم بدّل سيرته بالجَور بعد الإنصاف ، والظلم بعد العدل ، والإساءة بعد الإحسان، فثقُلت وطأته على الناس . ثم أظهر الكِبْرَ على وزرائه وكتّابه وقوّاده . ثم انهمك على لذّاته وترك مراعاة كثير من السياسة الملوكية التى جرت عادة الملك أن يتولّاها بنفسه . وقيل : إنه ادّعى الإلهية فخرج عليه بيوراسب ، وكان من جملة عمّاله ، واستجلب الناس وجمعهم عليه واستصلحهم لنفسه ، وقصد جمشيد بعد أن كثرت أتباعه وقويت شوكته ، فهرب منه فاتبعه حتى أدركه وظَفِر به ونشره بمنشار.

٣٠/١٣

وملك بعد جمشيد بيوراسب؛ وهو الذى يسمّيه العرب الضحّاك . قالوا : وهو بيوراسب[4] بن أروندا سف بن بغاداس بن طوخ بن قروال بن ساعل بن فرس ابن كيومرث ، وهو الدّهّاك ، فعُرّب اسمه فقيل الضحّاك . وقيل : إنه ملك ألف سنة . وزعم قوم أنه نمروذ . وزعم قوم آخرون أنه كان من عمّال بيوراسب على كثير من أعماله .

(١) راجع معناه فيما تقدّم (ج ١ ص ١٨٥ من هذه الطبعة) . (٢) الشرط هنا : أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت . (٣) تقدّم الكلام عليه فى الجزء الأوّل (ص ١٨٥ من هذه الطبعة) .
(٤) ورد هذا النسب فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٠٧ طبع بلاق) باختلاف فى الأسماء.

قال : ولما ملك بيوراسب ظهر منه خبث شديد وجور كثير، وملك الأرض كلها، فسار فيها بالجَوْر والعَسْف وسَفْك الدماء والصلب، وهوّل على الناس ومحا سيرة من تقدّمه من الملوك، وسنّ الأعشار وآتخذ الملاهىَ والغناء . وكان على منكبيه سِلعتان[1] يحرّكهما إذا شاء كما يحرّك يده ، فآدّعى أنهما حيّتان تهويلا على ضعفاء الناس . وقد تقدّم ذكره فى الباب الرابع من القسم الثالث من الفنّ الأوّل، وهو فى السفر الأوّل[2] من نسخة الأصل فى أخبار أعياد الفرس ، فلا حاجة الى إعادة ما قدّمنا ذكره من أمره .

قال : ولما عمّ الناس جَوْره كان من سوء عاقبة ذلك أن ظهر بأصبهان رجل يقال له كابى[3] من عوامّ الناس . ويقال : إنه كان حدّادا . وكان الضحاك قتل لكابى آبنين ، فبلغ به الجزع على ولديه مبلغا عظيما ، فقام وأخذ عصا وعلّق عليها جرابا . وقيل : بل علّق النِّطع الذى كان يشدّه على وسطه يتّقى به النار إذا صنع الحدادة . وقيل : بل كان جلد أسد . وقيل : بل جلد نمر، ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب، فحمل الناسَ ما كانوا فيه من البلاء إن آتبعوه وأطاعوه، فاستفحل أمره، وكثرت أتباعه، وآجتمع عليه أشراف الناس وأكابرهم؛ فقصد بيوراسب . فلما أشرف عليه هرب عن منازله ، فجاء أشراف الناس إلى كابى الأصبهانى وآجتمعوا عليه ليملّكوه، فامتنع من ذلك وقال : إنى لست من بيت الملك، ولكن التمسوا من هو من بيت الملك فنولّيه علينا . وكان أفريذون[4] بن اثفيان قد استخفى من الضحاك

(١) سلعتان : مثنى سلعة بالكسر، وهى زيادة تحدث فى الجسد مثل الغدّة تمور بين الجلد واللحم إذ أضغطت، وتكون من قدر حمصة الى بطيخة . (٢) راجع (ج ١ ص ١٨٨ من هذه الطبعة) .

(٣) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٣٢) : « كاوة » .

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٢٥٣١ من القسم الأوّل) وغرر أخبار الفرس وسيرهم (ص ٣٥١) وخطط المقريزى (ج ٣ ص ١٠٣ طبعة فينت) . وفى الأصل : « أفريدون » بالدال المهملة .

فى بعض النواحى ، فجاء إلى كابى الأصبهانىّ ففرح الناس به واستبشروا بمقدمه ، وكان مرشحا للملك فملّكوه عليهم ، وصار كابى من جملة أعوان أفريذون .

قال : وتفاءل الفرس وتبركوا بذلك العلَم الذى كان قد رفعه كابى الأصبهانى وعظّموه ورصّعوه بعد ذلك بالجواهر وسمّوه الدِّرَفْس وجعلوه علمهم الأكبر الذى يتبرّكون به ، وهو الذى صار الى المسلمين فى وقعة القادسية[1] . وكانت الفرس لاينشرونه إلا فى الأمور العظيمة .

قال : ولما هرب بيوراسب ملك بعده أفريذون ، وهو التاسع من ولد جمشيد . قال : فأول مابدأ به أن اتبع بيوراسب فأدركه بدُنْبَاوَنْد[2] وقتله . وفى يوم قتله أحدث المِهْرجان على ما قدّمناه[3] . قال : ثم ردّ أفريذون مظالم الناس وأمر بالإنصاف وبسط العدل ، ونظر الى ما كان بيوراسب قد اغتصبه من أموال الناس وأملاكهم وأراضيهم ، فردّ ذلك على أهله ، وما لم يجد أهلَه وقفه على المساكين ومصالح العامة . وكان مؤثرا للعلم وأهله . وكان صاحب طبّ وفلسفة ونجوم . وزعم بعض الفرس أن بيوراسب الضحاك هو النمروذ ، وأن أفريذون هو إبراهيم عليه السلام . قال : ودام ملكه خمسمائة سنة . وقال : هو أول من تسمى بكَىْ ، فكان يقال له : كَىْ أفريذون ، وهى كلمة يراد بها التنزيه ؛ أى روحانىّ منزّه متصل بالروحانية . وهو أوّل من ذلّل الفِيَلة وقاتل بها الأعداء . قال : وكان لأفريذون

٣١/١٣

(١) القادسية : بلدة قرب الكوفة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا ، وبينها وبين العذيب أربعة أميال ؛ وكانت بها وقعة القادسية المعروفة بين المسلمين والفرس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ١٦ من الهجرة . وهذه الوقعة من أعظم وقائع المسلمين خيرا وبركة . (٢) دنباوند : جبل من نواحى الرىّ ، وهو جبل عال مشرف شاهق شامخ لا يفارق أعلاه الثلج شتاء ولا صيفا ، ولا يقدر أحد من الناس يعلو ذروته ولا يقاربها ، ويعرف بجبل البيوراسف يراه الناس من مرج القلعة ومن عقبة همذان ، والناظر اليه من الرىّ يظن أنه مشرف عليه ، وأن المسافة بينهما ثلاثة فراسخ أو اثنان ... وبهذا الجبل عيون كبريتية (راجع معجم البلدان لياقوت) . (٣) راجع الجزء الأول (ص ١٠٨٨ من هذه الطبعة) .

ثلاثة أولاد وهم : سَرْم وقيل فيه سلم ، وطوخ[(١)] ، وإيرج وقيل فيه إيران ؛ فخشى أفريذون ألا يتفقوا بعده وأن يبغىَ بعضهم على بعض، وظن أنه إذا قسم الملك بينهم فى حياته بقىَ الأمر بعده على انتظام واتساق فقسمه بينهم . فجعل الرومَ والشامَ وناحيةَ المغرب لسرم . وجعل التركَ والصينَ لطوخ . وجعل العراقَ والهندَ لإيرج، وهو صاحب التاج والسرير . ففى ذلك يقول شاعرهم :

وقَسَمنا ملكنا فى دهرنا * قسمة اللحم على ظهر الوَضَم[(٢)]
فجعلنا الرومَ والشامَ الى * مغرب الشمس الى المَلْكِ سَرَمْ
ولطوخ جُعِلَ التُّركُ له * فبلادُ الصين يحويها ٱبنُ عم
ولإيرانَ جعلنا عنوة * فارِسَ الملك وفزنا بالنعم

فلما مات أفريذون وثب طُوخ وسَرَم بأخيهما إيران فقتلاه وملكا الأرض بينهما ، ولذلك نشأت العداوة بين الترك والروم ، وقامت الحروب ، وطلب بعضهم بعضا بالدماء . فكان من سوء عاقبة غدرهما بأخيهما وتغلبهما على ملكه أن نشأ ٱبن لإيران بن أفريذون يقال له منوجهر ، وقيل اسمه منواشجهر ، وقيل فيه منوشهر ، فغلب على ملك أبيه إيران .

وملك منوجهر بن إيران بلاد فارس، ثم نشأ ٱبن لطوخ التركى فنفى منوجهر عن بلاده وجرت بينهما حروب، ثم ظَفِر منوجهر وعاد الى ملكه ، ونفى ولدَ طوخ وقوى أمره وظهر ٱسمه . وكان منوجهر موصوفا بالعدل والإحسان فى مملكته . ويقال : إنه أوّل من خندق الخنادق، وجمع آلة الحروب ، وأوّل من وضع الدّهقنة[(٣)] ، وجعل لكل قرية دُهقانا ، وجعل أهلها عبيدا وخَوَلا وألبسهم لباس

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢٣٠ من القسم الأوّل) : « طوج » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « توز » . (٢) الوضم : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم .

(٣) الدهقنة : مصدر واسم من دهقن ، والدهقان (بالكسر ويضم) هنا : رئيس الإقليم ، معرّب دهخان . (عن محيط المحيط للبستانى) مادة دهقن .

المذلّة . ولما قوى أمره سار نحو الترك وطلب بدم أبيه فقتل عمّيه اللذين قتلا أباه ، وأدرك ثأره وآنصرف الى بلاده .

ثم نشأ فراسياب[1] بن ترك من ولد طوخ بن أفريذون وإليه ينسب الترك ، فحارب منوجهر وحاصره بطَبَرِستان[2] ، ثم اصطلحا وضربا بينهما حدّا لايجاوزه واحد منهما ، وهو نهر بلخ ، فانقطعت الحرب بين فراسياب ومنوجهر . وكان لمنوجهر هذا خُطَبٌ تدل على سداد رأيه ، ووفور عقله ، وجَوْدة فهمه ؛ قد ذكرنا بعضها فى الباب الرابع[3] من القسم الخامس من الفنّ الثانى فى وصايا الملوك . قال : وفى أيام منوجهر ظهر موسى بن عمران عليه السلام .

قال : ولما مات منوجهر تغلّب فراسياب على إقليم بابل آثنتى عشرة سنة ، وأكثر الفساد ، وخرّب البلاد ، وطمّ الأنهار ودفن القُنى ، فقَحِط الناس الى أن ظهر زوّ بن طهماسب فأخرجه عن بلاد فارس الى تركستان .

وملك زوّ بن طهماسب وقيل فيه : زاع ، وقيل فيه : زاب ، وقيل : راسب ، وهو من أولاد منوجهر ، وبينه وبين منوجهر عدّة آباء . قال : ولما ملك ابتدأ فى عمارة ما خرّبه فراسياب ، وأمر ببناء ما هدم من الحصون ، وحفر الأنهار والقُنى ، حتى عادت البلاد إلى أحسن ما كانت عليه ، ووضع عن الناس الخراج

(١) كذا فى نسخة (أ) ومروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٠٨) . وفى نسخة (ب) وتاريخ الطبرى (ص ٤٣٤ من القسم الأوّل طبع أوربا) : « فراسيات » بالتاء المثناة .

(٢) طبرستان : ناحية واسعة الأرجاء ببلاد الفرس بين جرجان والديلم ، على بحر قزوين الذى يسمى أيضا باسمها « بحر طبرستان » وأشهر مدنها : آمل ، أو عامل ، والدامغان ، وقومسان (وهى الآن إقليم مازندان) من مملكة إيران ، فتحها سويد بن مقرّن فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (راجع معجم الخريطة الإسلامية للمرحوم أمين واصف بك) .

(٣) فى الأصل « الباب الثالث » وما أثبتناه هو ما ورد فى (ج ٦ ص ١٦ من هذه الطبعة) ، وقد راجعنا هذا الباب فلم نجد لتلك الخطب أثرا ، ولعلها سقطت من الأصل .

سبع سنين، فعمرت البلاد فى أيامه، ودرّت معايش الناس، واحتفر بالسواد[1] نهرا وسماه الزاب، و بنى على حافتيه مدينة وهى التى تسمى المدينة العتيقة، وكوّرها كورا، وجعلها ثلاثة طساسيج[2]: الزاب الأعلى، والزاب الأوسط، والزاب الأسفل، ونقل إليها بذور الرياحين، وأصول الأشجار، ٣٢/٣١

وزوّ هذا أوّل من اتخذ ألوان الطبيخ، وأنواع الأطعمة، وقسم الغنائم على جنوده. وكانت مدّة ملكه ثلاث سنين. ٥

ثم ملك بعده كرشاسب بن أسباس، وأمه من سبط يامين بن يعقوب عليه السلام. قال: وكان مسكنه ببابل. ومدّة ملكه عشرون سنة. و بعض المؤرّخين لم يذكره فى الملوك. وقال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم: إن كرشاسب كان وزيرا لزوّ بن طهماسب، وأنه من أولاد طوخ ابن أفريذون. قال: وقد حكى أن زوّا وكرشاسبا اشتركا فى الملك. قال: والصحيح من أمره أنه كان وزيرا لزوّ ومعينا له، والذى أثبت كرشاسب فى الملوك الشيخ عبد الملك بن عبد الله بن عبدون الحضرمى الشلبى فى كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرر، وقال: ولم يذكره بعض المؤرّخين. ١٠

ثم ملك بعده كيقباذ بن زوّ، وقيل فيه: ابن زاب بن تور، وسلك سبيل أبيه فكوّر الكور، وبين حدودها، وأمر الناس بالعمارات، وأخذ العشر من الغلات لأرزاق الجند. وكان حريصا على العمارة، مانعا لحوزته. والملوك الكيّية[3] من نسله. وكان بينه وبين الترك حروب كثيرة. وكانت إقامته فى الحدّ ١٥

(١) يريد بالسواد العراق. (٢) طساسيج: جمع طسوج بالتشديد، وهى الناحية.

(٣) الكيّية: الذين تبتدئ أسماؤهم بلفظ (كى) وهى كلمة يراد بها التنزيه. ٢٠

الذى بين مملكة الفرس والترك بناحية بلخ . وكان ملكه مائة وعشرين سنة ثم مات .

وملك بعده كيقابوس[1] بن كينة بن كَيْقُباذ الملك . قال : ولما ملك شدّد على أعدائه ، وقتل خلقا كثيرا من عظماء البلاد وسكن بلخ ، وولد له ابن لم يُرَ مثله فى عصره جمالا وتمامَ خلقة ، وسمّاه سياوخش وضمه الى رستم الشديد بن دستان من ولد كرشاسب . وكان أصبهبذا بسجستان وما يليها من قبل كيقابوس وأمره بتربيته . فمضى به رستم الى سجستان وتخيّر له الحواضن والمراضع الى أن عَقَلَ ، فجمع له المعلمين ، ثم علّمه الفروسية حتى فاق فيها ، فقدم به على أبيه وهو كامل الصفات من العقل والأدب والفروسية ، فامتحنه والده فوجده فوق ما يحب .

قال : وكان لكيقابوس زوجة بارعة الجمال يقال إنها بنت فراسياب ملك الترك ؛ ويقال : إنها ابنة ملك اليمن ، فهَوِيت سياوخش وهَوِيَها ، ويقال : إنها كانت ساحرة فسحرته ، وآل أمرهما الى أن انكشف لأبيه كيقابوس واطّلع على ما كان من أمر ابنه وزوجته ، فأشفق سياوخش على نفسه وخشى عاقبة أبيه فتلطف فى البعد عنه ، فسأل رستم أن يُشير على أبيه لإرساله لحرب فراسياب ملك الترك ، وكان قد تجدّدت بين فراسياب وكيقابوس وَحْشةٌ ، ففعل رستم ذلك وخاطب كيقابوس فيه واستأذن له فى جند يضمهم إليه ، فأذن له وضمّ إليه جندا كثيفا وأشخص سياوخش الى بلاد الترك ، فسار حتى التقى بفراسياب فانتظم الصلح بينهما من غير حرب ، فكتب سياوخش الى أبيه يخبره بما كان بينه وبين فراسياب من الصلح والاتفاق ، فكتب إليه كيقابوس بإنكار ذلك عليه وأمره بمناهضته ومناجزته الحرب ، فرأى سياوخش

(١) كذا فى نسختى (ا) و(ب) . وفى تاريخ الطبرى (ص ٦٠٠ من القسم الأول طبع أوربا) : « كيقاومن بن كينة » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « كيكاوس ويقال له بالعربية قابوس » .

٣٣/١٣ أنه إن فعل ما أمره به والده من الحرب ونقض الهدنة من غير سبب وقع يوجب نقضها، يكون ذلك عارا عليه ومَنْقصَةً، فامتنع من إنفاذ أمر أبيه وأجمع رأيه على الهرب منه، فكتب الى فراسياب ملك الترك يطلب منه الأمان لنفسه، وعرّفه أنه آثر اللحاق به فأجابه الى ذلك. وكان السفير بينهما أحد عظماء الترك وأكابرهم يسمى قيران. فلما استوثق سياوخش من ملك الترك سار نحوه وانصرف مَنْ كان معه من جند أبيه ورجعوا إليه. قال: ولما وصل سياوخش الى فراسياب ملك الترك أكرمه وعظّمه وزوجه بابنته، وهى أم كيخسرو الذى ملك الفرس. ولم يزل على إكرامه الى أن ظهر له من أدبه وحسن سياسته وجميل تلطفه ما أشفق منه وخشى على مُلكه لميل الناس إليه فقتله. وكانت ابنة الملك قد اشتملت من سياوخش على حَمْلٍ، فقصد أن يُسقطه وتحيّلوا فى ذلك فلم تسقط؛ ثم جاء قيران، وهو الذى كان السفير فى الصلح بين الترك وسياوخش، وأنكر ما كان من فعل الملك وحذّره عاقبة الغدر والطلب بالثأر، وأشار عليه أن يدفع ابنته زوجةَ سياوخش إليه لتكون عنده الى أن تضع وقال: اذا أردت بعد ذلك قتل ولدها فاقتله؛ فأجابه الملك الى ذلك وسلّم إليه ابنته، فكانت عنده الى أن وضعت كيخسرو؛ فلما وضعته امتنع قيران من قتله وستَر أمرَه، فكان عند قيران حتى بلغ، ثم احتال جدّه كيقابوس الى أن أخرجه هو وأمّه من بلاد الترك.

قال أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم: وللفرس فى أمر كيقابوس خرافاتٌ كثيرة منها: أنهم يزعمون أن الشياطين مسخوه، وقوم منهم يزعمون أن سليمان بن داود عليهما السلام أمرهم بذلك فى خرافات كثيرة ظاهرة الإحالة: من الصعود الى السماء، وبناء مدينة كنكر بأسوار من ذهب وفضة

وحديد ونحاس وأنهار، وأنها ما بين السماء والأرض؛ وأشياء ذلك مما تُحيله العقول السليمة؛ لأن ذلك ليس فى قدرة البشر .

قال : ولما تمّ لكيقابوس أكثرُ ما كان يقصده سار من خراسان ونزل بآبِلَ وترك ما كان يتولاه بنفسه من السياسات، وآحتجب عن الناس وتعاظم عليهم، وآثر الخلوة، فكان من عاقبة ذلك أن فسد عليه ملكه وغزته الملوك؛ فكان بعد ذلك يغزوهم فيظفَر بهم مرّة و يُنكَب أخرى، الى أن غزا بلاد اليمن ، والملك بها يومئذ ذوالأذعار بن أبرهة بن ذى المنار . فلما أتاه كيقابوس خرج اليه ذوالأذعار فى جموعه من حِمْير و ولد قحطان، فظَفِر به ذو الأذعار وأسره وآستباح عسكره وحبسه فى بئر وأطبق عليه طبقا، فخرج رستم الشديد من سجستان فى جموع كثيرة من الفرس؛ فالفرس تزعم أنه أوغل فى بلاد اليمن واستخرج كيقابوس من محبِسه، واليمن تقول غير ذلك، وأن ملكهم ذاالأذعار لما بلغه إقبالُ رستم خرج اليه فى جموعه وجنود عظيمة، وخندق كل منهما على نفسه وعسكره، وأنهما أشفقا على جندهما من البَوار، فاتفقا على أن دفع لهم ملكُ اليمن كيقابوسَ وانصرف رستم من غير حرب ورجع بكيقابوس الى بابل ، فكتب له كيقابوس كتابا بالعتْق وأقطعه سجستان . ونسخةُ الكتاب الذى كتبه : من كيقابوس بن كيقباذ الى رستم . إنى قد أعتقتك من العبودية ، وملّكتك بلاد سجستان ، وآجلس على سرير من فضة مموّه بالذهب ، والبس قلنسوة من الحرير منسوجة بالذهب متوجة . قال : ومما يدل على صحة ما نقل من أمر كيقابوس قول الحسن بن هانىء :

وقاظ قابوسُ فى سلاسلنا * سنينَ سبعا وَفَتْ لحاسبها

(١) قاظ : أقام .

ولما مات كيقابوس ملك بعده ولد ابنه كيخسرو بن سياوخش بن كيقابوس . قال : ولما ملك عقد التاج على رأسه وخطب رعيته خطبة بليغة أعلمهم فيها أنه على الطلب بدم أبيه سياوخش قِبَل فراسياب ملك الترك، وكتب إلى جوذرز بأصبهان — وكان أصبهبذا على خراسان — يأمره بالمسير إليه، وأمره أن يعرض جنده وأن ينتخب ثلاثين ألف راجل ويضمهم إلى طوس [بن نوذران[1]] وكان فيمن أشخص معه برزافره [بن كيقاوس[1]] عمّ كيخسرو وابن جوذرز وجماعة من إخوته ، وتقدّم كيخسرو إلى طوس، وأمره أن يقصد فراسياب وطراختنه[2] وحذره من ناحية ببلاد الترك فيها أخ له من أبيه سياوخش يقال له فروذ ، وكان قد رُزِقه من بعض نساء الأتراك، كان سياوخش قد تزوجها لما سار إلى فراسياب فولدت له فروذ ، وأقام بموضعه إلى أن شبّ، فسار طوس وكان من غلطه الذى فعله أنه لما صار بالقرب من المدينة التى فيها فروذ حاربه فقُتِل فروذ فى الوقعة . فلما اتصل الخبر بكيخسرو غضب لذلك وشقّ عليه، فكتب إلى عمه برزافره ذلك كتابا غليظا يخبره بما ورد عليه من خبر طوس ومخالفته له ومحاربته لأخيه فروذ وقتله إياه، وأمره بإشخاص طوس إليه مقيدا مغلولا، وأن يتقدّم هو على العسكر ويتوجه . ففعل برزافره ذلك وتولى أمر العسكر ، وسار وعبر النهر المعروف بكاشرود، وانتهى خبره إلى فراسياب فوجه للقائه وحربه جماعة من إخوته وطراختنه ، فالتقوْا وفيهم قيران وإخوته، فاقتتلوا قتالا شديدا، وظهر من برزافره عمّ كيخسرو فى ذلك اليوم فشلٌ لمّا اشتدت الحرب، فهرب وانحاز بالعلم إلى رءوس الجبال ، واضطرب على ولد جوذرز الأمرُ ، فقُتِل منهم فى تلك الملحمة فى وقعة

٣٤/١٣

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .

(٢) طراختنة : الطراختنة جمع طرخان (بالفتح) ، والطرخان : زعيم القوم المعفى من الضرائب (فارسى) .

واحدة سبعون رجلا، وقتل خلق كثير، وانصرف برزافره ومن أفلت معه إلى كيخسرو، فرُئيت الكآبة فى وجهه وامتنع عن الطعام والشراب أياما، ثم أتاه جوذرز وشكا إليه عمه برزافره وأنه كان سبب الهزيمة، ولاطفه كيخسرو وقال: إن حقك لازم لنا لخدمتك إيانا، وهذا جندنا وخزائننا مبذولة لك فاطلب تِرَتَك[1] واستعِدّ وتجهّز للتوجه إلى فراسياب. فنهض جوذرز وقبّل يده وقال: نحن رعيتك وعبيدك أيها الملك، فإن كانت آفة أو نازلة فلتكن بالعبيد دون الملوك، وأولادى الذين قُتلوا فداؤك، ونحن من وراء الانتقام من فراسياب والاستيفاء[2] من الترك. فكتب كيخسرو إلى وجوه عساكره وأكابر أجناده يأمرهم بموافاته فى صحراء تعرف بشاه أسطون من كورة بلخ فى وقت وَقّته لهم، فوافَوْه فى ذلك الوقت، وشخص كيخسرو بأصبهبذيته وأصحابهم وفيهم برزافره عمه وجوذرز وولده، فعرض كيخسرو الجند بنفسه حتى عرف عدّتهم واطّلع على أحوالهم، ثم أحضر جوذرز وثلاثةَ نفر معه من القوّاد فأعلمهم أنه يريد إدخال العساكر على الترك من أربعة وجوه ليُحيطوا بهم من جميع جهاتهم، وقوّد على تلك العساكر، وجعل أعظمها إلى جوذرز، ودفع اليه يومئذ دِرَفْس[3] كابيان، ولم يكن يُدفع قبل ذلك لأحد من القوّاد، بل مع أولاد الملوك.

قال: وأمر أحدَ القوّاد بالدخول مما يلى الصين وضم اليه ثلاثين ألف رجل، وأمرهم بالدخول من ناحية الخزر من طريق بين جوذرز وبين الذى دخل من طريق الصين، ودخل جوذرز من ناحية خراسان وبدأ بقهران والتحمت بينهما

(١) الترة هنا: الثأر. (٢) فى تاريخ الطبرى: «والاشتفاء».

(٣) فى تاريخ الطبرى (ص ٦٠٩ من القسم الأول): «درفش كابيان» بالشين المعجمة وقال: إنه العلم الأكبر الذى كانوا يحملونه.

الحرب واشتدّ القتال ، فقتل جوذرز أخا قيران ، ثم قتل قيرانَ مبارزة ، ثم قصد فراسياب والتحمت عليه العساكر من كل جهة ، واتبع كيخسرو القومَ بنفسه وقصد الوجه الذى كان فيه جوذرز ، وقد أثخن فى القتل وقتل أصبهبذَ فراسياب والمرشحَ للملك بعده ، وجماعةً كثيرة من إخوته وأولاده ، وأسر برويز وهو الذى قتل سياوخش .

قال : ولما جاء كيخسرو وجد جوذرز قد أحصى الأسرى والقتلى وما غنم من الكُراع[1] والأموال ، فوجد ما فى يده من الأسرى ثلاثين ألفا ، ومن القتلى خمسمائة ألف ونيفا وستين ألفا على ما تزعم الفرس ، وحاز من الكُراع والأموال مالا يحصى كثرة ، وأمر كل واحد من الوجوه الذين كانوا معه أن يجعل أسيره ورأس قتيله [عند علمه[2]] لينظر إلى ذلك كيخسرو عند موافاته . فلما وافى كيخسرو موضعَ الملحمة تلقاه جوذرز وعرض عليه الأسرى والقتلى ، فرأى قيرانَ قتيلا ، وأُتى بقاتل[3] أبيه الذى مثّل به بعد قتله . فقتله كيخسرو شرّ قِتْلة ؛ قطعه عضوا عضوا ثم ذبحه ، وأحسن صلة جوذرز وفوّض إليه الوزارة التى يقال لها بزر جفرمذار[4] وجعل إليه مع ذلك أصبهان وجرجان ، وأحسن لكل من أبلَى من قواده ورجاله ، ثم أتته أخبار قواده الثلاثة الأخر أنهم قد أحاطوا بفراسياب ، وبرز فراسياب ومن بقى من ولده وعساكره وتوجه نحو كيخسرو بجيوش عظيمة ، فيقال إن كيخسرو أشفق منه وهابه حتى ظن أنه لا قبل له به ، ودام القتال بين العسكرين أربعة أيام ، فقتل شيده مقدّم عسكر فراسياب ، وكانت هذه

٣٥/١٣

(١) الكراع بالضم : اسم يجمع الخيل والسلاح .

(٢) التكملة من تاريخ الطبرى (ص ٦١٢ من القسم الأول) والعبارة فى الأصل مضطربة .

(٣) فى تاريخ الطبرى أن اسم هذا القاتل « بروا بن فشنجان » .

(٤) كذا فى الطبرى وفى نسخة (ا) « بزرج فرمدار » وفى نسخة (ب) « بزرخ فرمدار » .

الحرب معه ، ثم أقبل فراسياب فى جمع عظيم من الأتراك وآلتقى هو وكيخسرو ونشبت بينهما حروب عظيمة يقال إنه لم يُرَ مثلها قبلها قط على وجه الأرض ، فكانت الدائرة على الترك ، وآنهزم فراسياب وكثر القتل فى أصحابه وأتبعه كيخسرو حتى أدركه بأذربيجان فظفر به وآستوثق منه بالحديد ووبّخه على ما كان منه من قتل سياوخش ، فلم يكن له حجة ، فذبحه ثم آنصرف . وقد غنم غنائم عظيمة لا تحصى وأدرك بثأره .

قال : ولما فرغ كيخسرو من أمر الترك ورجع إلى بلاده واستقر بدار ملكه زَهِد فى الملك وتنسّك ، وأعلم وجوه أهل بيته وأكابر مملكته أنه قد عزم على التخلى والآنفراد وترْك الملك ؛ فجزِعوا من ذلك وسألوه ألا يفعل ، فأبى عليهم . فلما أيسوا منه سألوه أن ينصب فى الملك من يراه له أهلا ، فأشار بيده إلى لهراسف وأعلمهم أنه خاصته ووصيته ، فقبل لهراسف ذلك وأقبل الناس عليه . وفُقِد كيخسرو . فمنهم من يقول : إنه غاب للتنسك ، وبعضهم يقول غير ذلك ، إلا أنه لم تُعلَم جهة وفاته . قال : وكان ملكه ستين سنة . قال : وفى أيام ملكه كان سليمان بن داود عليه السلام .

ثم ملك بعده لهراسف[1] ؛ وقيل فيه بهراسف بن تنوفى بن كيمش وهو آبن أخى كيقابوس ويلقب بكى لهراسف . قال : ولما ملك اتخذ سريرا من ذهب مكللا بالجوهر للجلوس عليه ، وبنيت له بأرض خراسان مدينة ، وسماها بلخ الحسناء .

قال : وهو أوّل من دوّن الدواوين ، وقوّى ملكه بانتخاب الجنود ، وعَمَر الأرض . وكانت شوكة الأتراك اشتدّت فى زمانه ، فنزل بلخ لمقاتلتهم ، ووجه بختنصر

(١) كذا فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) « كهراسف » وفى تاريخ الطبرى : "كى لهراسب" وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٩ طبع بلاق) : « لهراسب » .

أصبهبذًا ما بين الأهواز إلى أرض الروم، من غربىّ الفرات . وسنذكر أخباره إذا انتهت أخبار لهراسف .

قال : وكان لهراسف بعيد الهمة ، طويل الفكرة ، شديد القمع للملوك المحيطة لإيران شهر . وكانت ملوك الروم والمغرب والهند يؤدّون إليه إتاوة معلومة فى كل سنة ، ويُقرّون له أنه ملك الملوك هيبةً له ، واستمرّ فى الملك إلى أن كَبِرت سنّه وأحس بالضعف فاعتزل الملك ونصب ابنه بشتاسب[1] . وكان ملكه فيما ذكر مائة وعشرين سنة .

ذكر أخبار بختنصّر

ويقال فى اسمه بالفارسية بخترشه[2] ، وكان مَرْزُبانا للهراسف ، ومعنى المرزبان أنه مَلِكٌ على ربع من أرباع المملكة . وقد قدّمنا أن الملك لهراسف كان قد جعله أصبهبذا ما بين الأهواز إلى أرض الروم . قال : فسار حتى أتى دِمَشق فصالحه أهلها، ووجه قائدا له فأتى بيتَ المقدس فصالح ملك بنى إسرائيل، وهو رجل من بنى داود النبىّ عليه السلام، وأخذ منه رهائن وانصرف . فلما بلغ طبَرية وثب بنو إسرائيل على مَلِكهم فقتلوه وقالوا له : إنك هادنت أهل الكفر وخذلتنا واستعدّوا للقتال ؛ فكان عاقبة ذلك أن قائد بختنصر — لما بلغه ما كان من بنى إسرائيل — كتب إليه يخبره بقتلهم مَلِكهم ، فأجابه بختنصر أن يقيم بموضعه حتى يوافيه ، وأمره بضرب أعناق الرهائن الذين معه . وسار بختنصر حتى أتى بيت

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى غرر أخبار ملوك الفرس : « بشتاسف » وفى نسختى ا ، ب : « بستاسف » .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى : (ص ٦٤٥ من القسم الأوّل) وغرر أخبار الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٤٤ طبع باريس) . وفى نسخة (ا) هكذا « نخت نرسى » وفى نسخة (ب) « بخت يرسى » .

المقدس فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرّية وهرب الباقون إلى مصر، فكتب بختنصر إلى ملك مصر: أن عبيدا لى هربوا منى إليك فسرّحهم إلىّ وإلا غزوتك وأوطأت خيلى بلادك، فكتب إليه ملك مصر: إنهم ليسوا عبيدك، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، وامتنع من إنفاذهم اليه، فغزاه بختنصر وقتله وسبى أهل مصر، ثم سار فى أرض المغرب حتى بلغ أقصى نواحيها.

٣٦/١٣

قال صاحب كتاب تجارب الأمم: وقد حكى أهلُ التوراة وغيرهم فى أمر بختنصر أقوالا مختلفة، فذكروا منها: أن بختنصر لما خرّب بيت المقدس أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم تُرسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس، فقذفوا فيه من التراب ما ملأه. قال: ولما انصرف إلى بابل اجتمع معه سبايا بيت المقدس من بنى إسرائيل وغيرهم، فاختار منهم سبعين ألف صبىّ، فلما فرق الغنائم على جنوده سألوه أن يقسم فيهم الصبيان، فقسمهم فى الملوك منهم، فأصاب كل رجل منهم أربعة، وكان من أولئك الغلمة الذين سباهم، دانيال النبىّ وحنين ومنشايل، وسبعة آلاف من أهل بيت داود، وأحد عشر ألفا من سبط بشر بن يعقوب. ثم غزا بختنصر العرب، وذلك فى زمن معدّ بن عدنان.

قال: وكانت مدّة غلبة بختنصر إلى أن مات أربعين سنة، ثم قام ابن له يقال له أونمروذ[1] ثم [هلك، وملك مكانه ابن له يقال[2] له] بلتنصر، وذلك فى زمن بهمن، فلم يرض بهمن أمره فعزله وملّك مكانه كيرش، وتقدّم إليه بهمن أن يرفُق ببنى إسرائيل ويمكّنهم من النزول حيث سألوا، أو الرجوع إلى أرضهم، وأن يولّىَ

(١) فى تاريخ الطبرى: «أولمردوخ».

(٢) التكملة من تاريخ الطبرى. وفى نسخة (ا) هكذا: «ثم بن بلتنصر». وفى نسخة (ب): «ثم ابن يقال له بلتنصر».

عليهم من يختارونه ، فاختاروا دانيال فولاه أمرهم . فكانت مدّة خراب بيت المقدس سبعين سنة ، وقيل غير ذلك . ولنرجع إلى أخبار الفرس .

ولما اعتزل لهراسف المُلك كما ذكرناه، ملك بعده كى بشتاسف[1] بن كى لهراسف . قال : ولما ملك بنى مدينة فسا[2] ، وهو أول من بسط دواوين الكتّاب لا سيما ديوان الرسائل ، وكان له ديوانان أحدهما : ديوان الخراج ، والآخر ديوان النفقات ، فكل ما يَرِد فإلى ديوان الخراج ، وكل ما يصرف فمن ديوان النفقات . وكان له كاتب موكل بدار المملكة، فإن وقع تقصير بأحد فى منزلته، أو حُطَّ من درجته رجع إلى ذلك الكاتب ليبين له حال مرتبته فيجرى على رسمه وعادته .

وفى أيامه ظهر زرادشت [بعد ثلاثين سنة من ملكه فادّعى النبوّة[3]] فأراده على قبول دينه فامتنع من ذلك ثم صدّقه وقَبِل دعواه، وأتاه بكتاب يكتب فى جلد اثنتى عشرة ألف بقرة حفرا فى الجلود ونقشا بالذهب، فصير بشتاسف ذلك الكتاب بإصطخر ووكل به الهرابذة[4] ، ومنع من تعليمه العامة . وبنى ببلاد الهند بيوتا للنيران، وتنسّك واشتغل بالعبادة ، وهادن كى خرزاسف بن كى سواسف ابن أخى[5] فراسياب ملك الترك على ضروب من الصلح، وفى جملة شريطة الصلح ألا يكون

(١) فى تاريخ الطبرى : « كى بشناسب بن كى لهراسب » .

(٢) فسا (بالفتح والقصر) ويقال لها بسا (بالباء) : مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل ، بينها وبين شيراز أربع مراحل ، وهى مدينة واسعة الشوارع تقارب فى الكبر شيراز، وهى أصح هواء منها .

(٣) التكملة من تاريخ الطبرى (ص ٦٧٦ من القسم الأول طبع أوربا) .

(٤) الهرابذة جمع الهربذ (بالكسر) : هم خدّام النار . وقيل : حكام المجوس الذين يصلون بهم . (راجع المعرّب للجواليقى ص ٣٥١ طبع دار الكتب المصرية) .

(٥) فى تاريخ الطبرى : « أخى » .

ببلاد خرزاسف دابة موقوفة فى منزلة الدوابّ التى تكون على أبواب الملوك ، وغير ذلك مما وقعت عليه المهادنة. فأشار زرادشت على بشتاسف بنقض الهدنة ومفاسدة ملك الترك ، فبلغ ملكَ الترك ذلك ، فغضب وكتب إليه كتابا غليظا من جملته أن يوجه إليه زرادشت ، وأقسم إن امتنع أن يغزوَه حتى يسفك دمه ودماء أهل بيته ؛ فأجابه بشتاسف بجواب أغلظ من كتابه وآذنه بالحرب وأعلمه أنه غير ممسك عنه إن أمسك هو . فسار كل منهما الى الآخر ، ومع كل واحد منهما إخوته وأهل بيته ، والتقَوْا واقتتلوا قتالا شديدا ، فكانت الدائرة على الترك ، وقتل اسفنديار بن بشتاسف بيدرفش[1] الساحر مبارزة ؛ وقُتِلت التركُ قتلا ذريعا ، وهرب ملكهم خرزاسف ورجع بشتاسف الى بلخ .

قال : فلما مضت لتلك الحرب سنون سعى رجل يقال فروخ[2] بإسفنديار الى بشتاسف ونسبه أنه تطاول للملك ، وزعم أنه أحقُّ به ، فأفسد بذلك قلب بشتاسف عليه ، وصدق مقالة فروخ ، فأخذ فى التدبير على إسفنديار وجعل يرسله الى حرب بعد حرب ، وهو يظفر وينجح ويرجع بالغنائم ، ثم أمر بتقييده فقُيِّد ، وصيره فى الحبس فى حصن من حصونه ، وسار بشتاسف الى جبل يقال له طميدر لدراسة دينه والتنسك هناك ، وخلّف أباه لهراسف فى مدينة بلخ ، وقد كبرت سنه وهرم وعجز .

٣٧/١٣

قال : فاتصل هذا الخبر بخرزاسف ملك الترك ، فجمع من الجنود مالا يحصى كثرة ، وشَخَص من بلاده نحو بلخ حتى [إذا][3] انتهى الى تخوم ملك فارس قدّم أمامه

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصول : « بندرفش » بالنون .

(٢) فى تاريخ الطبرى : « فرزم » .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

جوهرمز[1] أخيه، وكان مرشحا للملك، فى جماعة كثيرة من المقاتلة، وأمرهم أن يُغِذُّوا السير حتى يتوسطوا المملكة، ثم يوقعوا بأهلها و يُشنوا الغارة على المدن والقرى. ففعل جوهرمز ذلك وسفك الدماء وآستباح الحرم، وسبى ما لا يحصى، وأتبعه خرزاسف ملك الترك حتى انتهى الى مدينة بلخ، فأحرق الدواوين وقتل لهراسف والهرابذة، وهدم بيوت النيران، واستولى على الأموال والكنوز، وسبى آبنتين لبشتاسف وأخذ دِرَفْس كابيان، وسار فى طلب بشتاسف فتحصن منه فى جبل طميدر؛ فعند ذلك ندم بشتاسف على ما كان منه فى حق آبنه إسفنديار؛ فيقال: إنه وجه من استخرجه من محبسه، وجاءه به؛ فلما دخل عليه اعتذر منه ووعده عقْدَ التاج على رأسه، وأن يفعل معه كما فعل لهراسف به. وقلده أمر عساكره وندبه لحرب ملك الترك. فطابت نفس إسفنديار بكلام أبيه له، وتأهب لوقته، وسار بالجنود صبيحة النهار نحو الترك. فلما قَرُب منهم تبادروا لحربه؛ فكان ممن خرج اليه منهم جوهرمز واندرمان، فالتقَوْا والتحمت بينهم الحرب، فانقضّ إسفنديار على عساكر الترك بنفسه واختلط بهم، وقاتل حتى ثلم فيهم ثُلمة عظيمة، وفشا فى الترك أن إسفنديار قد أُطلق من مَحبِسه، وأنه هو الذى يقاتلهم، فانهزموا لا يلوون على شىء. واسترجع إسفنديار من الترك الدِّرَفْس وعاد الى أبيه، فاستبشر وأمره باتّباع القوم وقتال خرزاسف وقتله — إن ظَفِر به — بجدّه لهراسف، وقَتْل جوهرمز واندرمان بمن قُتل من ولده، وأن يهدم حصون الترك ويحرِّق مدنهم و يقتل أهلها بمن قتلوا من أهل بلاده، و يستنقذ من سَبْوه من بناته. فدخل إسفنديار بلاد الترك و رام ما لم يَرُمْهُ أحد قبله، واعترض العنقاء و رماها على ما يزعم الفرس، ودخل مدينة الصفر عنوة، وقتل ملكها وأخوته ومقاتِلته، واستباح

(١) كذا فى نسخة (ا) وتاريخ الطبرى. وفى نسخة (ب) «جوهرمن» بالنون.

أمواله وسبي ذراريه ونساءه واستنقذ أختيه، وكتب بالفتح الى أبيه. ولم يستقل إسفنديار هذا بالملك .

والذى ملك الفرس بعد بشتاسف أردشير بَهْمَن[1] بن إسفنديار بن بشتاسف . وتفسير بهمن بالعربية : الحَسَن النيّة .

٥ قال : ولما ملك أردشير انبسطت يده وتناول الممالك حتى ملك الأقاليم . وكانت ملوك الأرض تحمل اليه الإتاوة، وآبتنى بالسواد مدينة وهى المعروفة بهمينيا[2]، وهو أبو دارا الأكبر، وأبو ساسان . قال : وكان بهمن كريما متواضعا . وكانت تخرج كتبه : من أردشير بهمن عبد الله وخادم الله والسائس لأمركم . ويقال : إنه غزا رومية الداخلة فى ألف ألف مقاتل . ومن المؤرّخين من ذهب الى أن ١٠ بهمن هذا هو الذى جهّز بختنصّر لغزو العرب وغيرهم . وكانت مدّة ملك أردشير [مائة[3] و] آثنتى عشرة سنة .

ولما مات ملكت بعده آبنته جماز هرازاد، وهى جمانى[4] أمّ آبنه دارا . قال : وكانت قد حملت منه بدارا الأكبر وسألته أن يعقد التاج للذى فى بطنها ويؤثره بالملك، ففعل أردشير ذلك . وكان آبنه ساسان يتصنع للملك ولا يشكّ أنه يكون ١٥ هو الملك بعد أبيه . فلما رأى ما فعل أبوه شقّ ذلك عليه، فلحق بإصطخر وتزهّد، وخرج عن حلية الملوك، وآتخذ غُنَيْمَةً[5] وكان يتولّاها بنفسه، فاستشنع الناس ذلك

٣٨/١٣

(١) كذا فى نسخة (ب) وتاريخ الطبرى . وفى نسخة (ا) « أزدشير » بالزاى المعجمة .

(٢) همينيا ويقال لها همانية : قرية كبيرة كالبلدة بين بغداد والنعمانية فى وسط البرية ليس بقربها شىء من العمارات وهى فى ضفة دجلة . (٣) التكملة من تاريخ الطبرى .

٢٠ (٤) كذا فى نسخة (ب) وفى نسخة (ا) « حمانى » بالحاء المهملة . وفى تاريخ الطبرى (ص ٦٨٨ من القسم الأوّل) : « خمانى » بالخاء المعجمة . (٥) استشنع الناس ذلك : استقبحوه واستهجنوه .

من فعله وقالوا : صار ساسان راعيا، ولم تزل جمانى قائمة بأمر الملك، ضابطة له، وأغزت الروم جيشا [بعد جيش](١) وأوتيت ظَفَرا، فقمعت الأعداءَ وشغلتهم عن التطرق الى شيء من بلادها، ونال رعيّتها بتدبيرها رفاهية وأمنٌ الى أن كبر آبنها .

فملك دارا بن أردشير بهمن . قال : ولما كبر حُوِّل التاجُ الى رأسه ونزل بابل . وكان ضابطا لملكه، قاهرا لمن حوله من الملوك ، يؤدون اليه الخراج . وآبتنى بفارس مدينة وسماها دارا بَجِرْد . ورتّب دوابّ البريد . وكانت مدّة ملكه آثنتى عشرة سنة .

وملك بعده آبنه دارا بن دارا بن أردشير ؛ وكان دارا هذا حقودا جبارا، فملّه قومه . وغزاه الإسكندر بن فيلبس اليونانى، والتقَوْا واقتتلوا قتالا شديدا، فقتل دارا بن دارا . وسنذكر خبر مقتله فى أخبار الإسكندر .

فهؤلاء ملوك الفرس الأول . ثم تبدّد ملك الفرس وآنتثر لقتل دارا بن دارا ، واستقل الإسكندر بالملك . وملك بعده مَنْ نذكره من ملوك اليونان، وتفرق مُلك الفرس أربعمائة سنة الى أن عاد الى بنى ساسان . وهأنا ذاكر خبر ملوك الطوائف ما بين دارا بن دارا وأردشير بن بابك .

ذكر أخبار ملوك الطوائف

وملوك الطوائف هم الذين ملكوا بلاد فارس ما بين دارا بن دارا وأردشير ابن بابك الذى جمع مُلك الفرس بعد تبدّده، ونَظَمه بعد انتثاره . وكان من خبرهم أن الإسكندر لما قتل دارا بن دارا وغلب على بلاد الفرس همّ بقتل أكابرهم ، فكتب الى معلّمه أرسطاطاليس يستشيره فى ذلك ، فنهاه عن قتلهم وقال : هذا

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .

من الفساد فى الأرض ، و إذا قتلتهم أنبتت أرضُ بابل امثالهم ؛ وأشار عليه أن يفرّق المملكة بين أولاد الملوك ، فإنهم يتنافسون المُلكَ فلا يجتمعون على مَلِكٍ واحد منهم ، فمتى خالفك واحد كانت مؤنته عليك خفيفة ؛ ففعل ذلك ، وفرّق المُلك حتى أمكنه أن يتجاوز أرض فارس الى بلاد الهند والصين . فكانت ملوك الطوائف فى إقليم بابل لا يَدِين بعضهم الى بعض .

فكان من ملوكهم الذين ملكهم الإسكندر : أشك بن دارا الأكبر ؛ فقوى أشك هذا وعظّمته الملوك وقدّموه على أنفسهم ، و بدأوا به فى كتبهم إليه إجلالا له ، و بدأ فى كتبه اليهم بنفسه ، وسمّوه ملكا ، وأهدَوْا اليه من غير أن يُطيعوه أو يستعمل أحدا منهم أو يَعزِله ، وكثرت جموعه وسار الى أنطيخس ، وكان مقيما بسواد العراق من قبل الروم ، وتقدّم أنطيخس اليه وآلتقيا ببلاد الموصل وآقتتلا فقُتِل انطيخس ، وغلب أشك على السواد ، وصار فى يده من الموصل الى الرىّ وأصفهان ، ولذلك عظّمته ملوك الطوائف .

ثم ملك جوذرز بن أشكان . وهو الذى غزا بنى إسرائيل المرة الثانية ؛ وذلك بعد قتلهم يحيى بن زكرياء عليهما السلام ، فسلطه الله تعالى عليهم فأكثر فيهم القتل فلم يَعُدْ لهم جماعة بعد ذلك ، ورفع الله عنهم النبوّة وأنزل بهم الذل .

وكان من سُنّة الفرس بعد الإسكندر أن يخضعوا لمن ملك بلاد الجبل ، وهم الأشغانية ؛ فأوّلهم أشك بن أشكان ، ثم سابور بن أشكان ، وفى أيامه ظهر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بأرض فِلَسطين . ثم ملك جوذرز بن أشغانان الأكبر . ثم ملك بيزن الأشغانى . ثم ملك جوذرز الأشغانى . ثم نرسى الأشغانى . ثم هرمز . ثم أردوان الأشغانى . ثم كسرى الأشغانى . ثم بلاش الأشغانى . ثم أردوان الأصغر

الأشغانى . ثم اردشير بن بابك . فكانت مدة هؤلاء ، الى أن وثب أردشير بن بابك على الأردوان فقتله ، مائتين وستا وستين سنة .

وفى أيام ملوك الطوائف اصطُلِمت[(١)] طسم وجديس . وسنذكر إن شاء الله خبرهم .

ذكر أخبار الملوك الساسانية

وهم الفرس الأخر . وأول من ملك منهم أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر . وكان من أعظم ملوك الطوائف وملوك الأشغانية ، فوثب بالأردوان وقتله واستولى على الممالك وقاد الملوك الى طاعته رغبةً ورهبةً . وكتب الى ملوك الطوائف يدعوهم الى الاجتماع اليه : بسم الله ولىّ الرحمة . من أردشير المستأثِر دونه بحقه ، المغلوب على ثراث آبائه ، الداعى الى قوام دين الله وسنته ، المستنصِر بالله ، الذى وعد المحقّين الفَلَح[(٢)] ، وجعل لهم العواقب ؛ الى مَنْ بلغه كتابى هذا من ملوك الطوائف . سلام عليكم بقدر ما تستوجبون بمعرفة الحق ، وإنكار الباطل والجَوْر . ودعاهم الى الطاعة : فمنهم من أقرّ له بالطاعة ، ومنهم من تربّص حتى قَدِم عليه ، ومنهم من عصاه فكانت عاقبة أمره الى القتل والهلاك ؛ حتى استوثق له الأمر . فكانت طائفة الأشكانية ممن امتنعت من طاعة أردشير ، فأقسم أنه لا يُبقى منهم — إن قدر عليهم — رجلا ولا امرأة . فلما غَلَب عليهم ما نجا منهم إلا من أخفَى اسمه ونسبه . وقد كان أخذ فى جملة من أخذ منهم ابنةُ ملكهم ، وكانت بارعة الجمال ، وافرة العقل . فلما رآها قال لها : أنت من بنات ملوكهم ؟ قالت : بل من خدمهم . فاصطفاها لنفسه ، فحملت منه . فلما علمت بالحمل شهرت نفسها وقالت : أنا ابنة ملكهم .

(١) اصطلمت : أبيدت .

(٢) الفلح (محركة) : الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال .

فعند ذلك أمر شيخا من رجاله الذين يثق بهم يقال له هرجند[1] [بن سام] بأن يودعها فى بطن الأرض إشارة الى قتلها . فقالت : أيها الشيخ ، إنى قد حملت من الملك فلا تُبطِل زرعَه . فعمِل لها سَرَبًا تحت الأرض وجعلها فيه، ثم عَمَد الى مذاكيره فخَصَاها ووضعها فى حُقّ وختم عليه ورجع الى الملك وقال : قد أودعتها بطن الأرض ؛ ودفع له الحُقّ وقال : إن فيه وديعةً وأحب أن يكون عند الملك الى أن أحتاج اليه ، فاستودعه الملكَ ؛ وأقامت الجارية فى السَّرَب حتى كملت مدّة حملها، فوضعت غلاما فسماه الشيخ : شاه بور، أى ولد الملك؛ فسماه الناس سابور . وبقى أردشير هذا دهرا لا يُولَد له ، فرآه الشيخ فى بعض الأيام وقد ظهر عليه الحزن ، وكان خاصا به ، فقال له : ما هذا الحزن سرّك[2] الله أيها الملك وعَمَرك . فقال : من أجل أنه ليس لى ولد يرث ملكى . فقال له الشيخ : إن لك عندى ولدا طيبا فأدع بالحُقّ . وأمر أردشير بإحضاره فأحضر ، ففضّ ختمه فإذا فيه مذاكيرُ الشيخ وكتاب فيه : إنه لما أمرنى الملك بقتل المرأة الأشكانية التى عَلِقَتْ من ملك الملوك أردشير لم أر أن أبطل زرع الملك الطيب فأودعتها بطن الأرض كما أمرنى، وتبرأت اليه من نفسى لئلا يجد عائب الى عيبها سبيلا ؛ فسرّ أردشير بذلك، وأمر الشيخَ أن يجعل الغلام بين مائة غلام من أشباهه فى الهيئة وأقرانه فى السن ، ثم يُدخلَهم عليه ، ففعل ذلك ؛ فعرفه أردشير من بينهم وقبلته نفسه ، ثم أمرهم أن يلعبوا فى حجرة الإيوان بالصَّوالج ، فدخلت الأكرة الإيوان ، فأحجم الغلمان عن دخولهم وأقدم سابور ، فأمر أردشير عند ذلك بعقد التاج له .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٨٢٣ من القسم الأول طبع أوربا) . وفى نسخة ا : «جندنان» . وفى نسخة ب : «جند» . والتكملة منه

(٢) كذا فى الطبرى، وفى نسخة (ب) «يشرك» ، وفى نسخة (ا) «يسرك» .

وكان أردشير من أهل العقل والمعرفة وحسن التدبير، وله وصايا ومكاتبات صدرت عنه تدل على حكمة ورجاحة عقل . وقد تقدّم إيرادها فى الباب الرابع[1] من القسم الخامس من الفنّ الثانى فى وصايا الملوك . وكانت مدّة ملكه أربع عشْرة سنة وستة أشهر .

٤٠/١٣ ثم ملك بعده ابنه سابور بن أردشير، والعرب تسميه سابور الجنود. وسابور هذا هو الذى حصر الضَّيْزَن[2]، وملك حِصْن الحَضْر، وهو من مبانى العرب المشهورة . وقد تقدّم ذكره فى الباب[3] الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل، وهو فى السفر الأوّل . فلا حاجة الى إعادة ذكره .

وفى أيامه ظهر مانى الزِّنديق تلميذ قاردون وقال بالاثنين، فرجع سابور الى مذهب مانى والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد الى دين المجوسية وترك المانَوِيَّة، وهو المسمى عندهم بدين الثَّنْوِيَّة . وكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة . وقيل إحدى وثلاثين سنة ونصف سنة وثمانية عشر يوما .

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن سابور، وهو الذى يدعى هرمز البطل، ويلقّب أيضا بالجرىء . وبنى مدينة رامهرمز بين كَوْرِ الأهواز . وكانت مدة ملكه سنة وعشرة أشهر .

ثم ملك بعده ابنه بهرام بن هرمز . قال : ولما ملك جاءه مانى الزنديق فعرض عليه مذاهب الثنوية فأجابه الى ذلك احتيالا منه عليه، الى أن أحضر له دعاته المتفرقين فى البلاد الذين يدعون الناس الى مذاهب الثنوية . فلما أحضرهم اليه قتلهم وقتل مانى وسلخه .

(١) فى الأصل « الباب الثالث » وما أثبتناه هو ما ورد فى (ج ٦ ص ١٦ من هذه الطبعة) .
(٢) هو الضيزن بن معاوية بن العيد من قبيلة قضاعة ويلقب بالساطرون .
(٣) راجع (ج ١ ص ٣٨١ من هذه الطبعة) .

وفى أيام مانى هذا ظهر اسم الزنادقة الذين أضيفت اليهم الزندقة . وذلك أن الفرس كان لهم كتاب يسمونه السنا ، وكان له شرح يسمى الزند . فكان من أتاهم بزيادة على ما فى كتابهم يسمونه زنديا . فلما جاءت العرب أخذت هـذا المعنى من الفرس فعربته وقالت زنديق . فالثنوية هم الزنادقة ، فألحق هذا الاسم بسائر من اعتقد القِدَمَ وأبى حدوث العالم وأنكر البعث .

والذى أتى الفرسَ بهذا الكتاب زرادشت فى زمن الفرس الأوّل . وقد قدّمنا ذكره فى أخبار بشتاسف . وهـذا زرادشت هو الذى تزعم المجوس أنه نبيُّها الذى أرسل اليها . وكان زرادشت خادم شعيا فدعا شعيا عليـه فبَرِصَ . وكان صاحب نِيرَجات[1] وسحر . وكان يحزِرُ[2] بعض الكوائن قبل أن تتع مما كان قد سمعه من شعيا وقت خدمته له ، وآدّعى النبوّة فى المجوس وعمـل لهم الكتاب الذى قدّمنا ذكره ، وزعم أنه أُنزِل عليـه من السماء ، وجعل كلامه فيه يدور على نيّف وسبعين حرفا ، فلم يقدر أحد منهم على قراءته فآختصره لهم وسمى مختصره الزند .

فلما قام مانى بدين الثنوية سمته المجوس "زندين" وسموا أصحابه الزنادنة لأنه زاد فى شرعهم الذى شرعه لهم زرادشت ، فقتل بهرام هـذا مانياً وصلبه على باب[3] من أبواب مدينة من مدنه بالعراق ، فيُدعى ذلك الباب الى آخر وقت بابَ مانى . وكانت مدة ملك بهرام ثلاثا[4] وثلاثين سنة وثلاثة أشهر .

ثم ملك بعده آبنه بهرام بن بهرام . قال : ولما ملك أقبل فى أوّل ملكه على اللهو والصيد والنُّزَه ، وترك ملكه لا يفكر فيه ولا فى رعيته ، فخربت البلاد ونقصت

(١) النيرجات : جمع نيرج . والنيرج : أخذ كالسحر وليس بسحر ، إنما هو تشبيه وتلبيس .
(٢) حزر الشىء : قدّره بالحدس . (٣) فى تاريخ الطبرى (ص ٨٣٤ من القسم الأول طبع أوربا) : « فأمر بقتله وسلخ جلده وحشوه تبنا وتعليقه على باب من أبواب جنديسابور يدعى باب المانى » . (٤) فى تاريخ الطبرى : « ثلاث سنين » .

بيوت الأموال . فلما كان فى بعض الأحيان ركب الى بعض متنزهاته وصيده
بغتة الليل وهو يسير نحو المدائن، وكانت ليلة قمراء. فدعا بالمُوبَذ لأمر خطر بباله،
والموبذ عند المجوس كالقسيس عند النصارى ، فجعل يحادثه متوسطا فى مسيرهم
بين خرابات كانت من أمهات الضياع تخربت فى ملكه، وإذا بُومٌ يصيح وآخر
يجاوبه ، فقال الملك : أترى أحدًا من الناس أعطِىَ فهمَ ما يقول هذا الطائر؟ ٥
فقال الموبذ : أنا أيها الملك ممن خصه الله تعالى بذلك . قال : فما يقول هذا
الطائر، وما يقول الآخر؟ فقال الموبذ : هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى ويقول :
متّعينى من نفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله تعالى . فأجابته البومة :
إن الذى دعوتنى اليه هو الحظ الأكبر ، والنصيب الأوفر، إلا أننى أشترط عليك
٤١/١٣ شرائطَ . فقال : وما هى؟ فقالت : أن تُقطِعَنى من خرابات أمهات الديار عشرين ١٠
قرية مما خَرِبت فى أيام هذا الملك السعيد . فقال له الملك : فما الذى قال الذكر؟
قال الموبذ: كان من قوله لها : إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعتُك منها ألف
قرية ، فما تصنعين بها؟ قالت : فى اجتماعنا ظهور النسل وكثرة الولد ، فتُقطع كل
واحد من الأولاد ضَيْعة . فقال الذكر : هذا سهل ما حَيِّ الملك .

فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذ عَمِل فى نفسه وفكر فيما خوطب به ، ١٥
فنزل من ساعته وخلا بالموبذ وقال له : ما هذا الكلام الذى خاطبتنى به؟ فقد حركت
منى ما كان ساكنا . فقال : صادفت من الملك وقتَ سعدٍ بالعباد والبلاد، فجعلت
الكلام مثلا وموقظا على لسان الطائر عند سؤال الملك إياى . فقال له الملك :
أيها الناصح الملك ، [المنبه على](١) ما أغفله من أمور ملكه، وأضاعه من أمور بلاده
ورعيته، اكشف لى عن هذا الغرض ما المراد منه. فقال له : أيها الملك! ان المُلك ٢٠

(١) الحكاية من مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٣١ طبع بلاق) .

لا يتمّ إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته، ولا قِوام للشريعة إلا بالملِك، ولا عزّ للملك إلا بالرجال، ولا قيام للرجال إلا بالمـال، ولا سبيل للـمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل هو الميزان المنصوب بين البرية، نصبه الربّ وجعل له قيّما وهو المَلِك.

٥ قال: أما ما وصفت فحقّ، فأَبِنْ لى عما اليه تقصد، وأوضح لى فى البيان.

قال: نعم أيها الملك! عمدتَ الى الضياع فأقطعتها الخدمَ وأهل البطالة فعمدوا الى ما تعجل من غلاتها فاستعجلوا المنفعـة وتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يُصلح الضياع، وسوهموا فى الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحيف على الرعيـة وعُمّار الضياع فانْجَلوا عن ضياعهم، وقلّت الأموال، وهلكت الجند والرعية، وطمِـع

١٠ فى ملك فارس من طمع فيه من الملوك والأمم، لعلمهم بانقطاع المواد التى بها تستقيم دعائم الملك. فلمـا سمـع الملك ذلك أقام فى موضعه ثلاثة أيام، وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين، فانتُزِعت الضياع من أيدى الخاصة والحاشية ورُدّت إلى أربابها، وحُمِـلوا على رسومهم السالفة، وأُخِذوا بالعمارة، وقَوِىَ من ضعف منهم، وعَمَرت البلاد، وكثرت الأموال، وقويت الجند، وانتظم ملكه حتى كانت

١٥ أيامه تدعى بالأعياد، لمـا عمّ النـاسَ من الخصب، وشملهم من العـدل. وكان ملكه سبع عشرة سنة.

ثم ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام البطل، وكان يدعى شكان شاه، وهو الذى يقال له شاهنشاه[1]. فكان ملكه أربعين[2] سنة وأربعة أشهر.

ثم ملك بعده أخوه نرسى بن بهرام الثانى فكان ملكه تسع سنين. وقيـل

٢٠ سبع سنين وخمسة أشهر.

(١) شاهنشاه: معناه ملك الملوك. (٢) فى تاريخ الطبرى: «أربع سنين».

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن نرسى . قال : وكان فظا إلا أنه كان يرفُق بالرعية ، وكان حسن السيرة فيهم . وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر .

ثم ملك بعده ابنه سابور بن هرمز ؛ وهو الملقب بذى الأكتاف . وكان هرمز قد تركه حملا فى بطن أمه ، فعقدوا التاج على بطنها ، وقام الوزراء بتدبير الأمر مدّة حملها ، وفى مدّة رضاع سابور وطفولته وصغره حتى كبر ؛ فكتب إليه الناس الكتب من الآفاق وأجابهم ، ووجه البريد إلى الآفاق والأطراف ، ورتّب الوزراء والكتّاب وقرّر العمال .

قال : وكان قد شاع فى الممالك أن ملك الفرس صغيرُ السنّ ، وأنه يتدبّر برأى وزرائه ، ولا يدرى ما يراد منه ، ولا ما يكون من الأمر ، فطمِع فى مملكة الفرس الترك والروم والعرب . وكانت أدنى بلاد الأعداء إلى الفرس بلادُ العرب . وكانت العرب من أحوج الأمم إلى تناول شىء من المعاش لسوء حالهم وشظف عيشهم ، فانبسطت أيديهم فى البلاد وغلبوا أهلها عليها واتسعت حالهم وكثرت مواشيهم ، وأفسدوا فى بلاد فارس ، ومكثوا كذلك حينا ، وقد أمنوا جانب الفرس واطمأنّوا من قتالهم لقلة هيبتهم . وكان الذى غلب على سواد العراق من العرب جمرةُ العرب ولدُ إياد بن نزار . وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد ، ومَلِكُها يومئذ الحارث بن الأغر الإيادى . قال : ولما ترعرع سابور جعل الوزراء يعرضون عليه أمر الجنود الذين فى الثغور ، وأن الأخبار وردت عليهم أن أكثرهم قد أخلّ ، وعظّموا عليه الأمر وهوّلوه ، فقال لهم : لا يَهُولنّكم ذلك ، فالخطب فيه غيرُ جسيم ، والحيلة فى ذلك يسيرة . وأمر الكتّاب أن يكتبوا الى أولئك الجنود أنه قد انتهى إلىّ طولُ مكثكم فى النواحى التى أنتم فيها ، وعِظَمُ عنائكم وذُبّكم عن إخوانكم وأوليائكم ، فمن أحب منكم الانصراف الى أهله فلينصرف مأذونا له فى ذلك ،

٤٢
١٣

ومن أحبّ أن يستكمل الفضل بالصبر فى موضعه عرفنا له ذلك ؛ وتقدّم الى من اختار الانصراف منهم بلزوم أهله وبلاده الى وقت الحاجة إليه . فلما سمع الوزراء قوله ورأيه استحسنوه وقالوا : لو كان هذا قد أطال تجربة الأمور وسياسة الجنود مازاد على ماسمعناه . ثم تتابعت آراؤه فى تقويم أصحابه وقمع أعدائه ؛ حتى إذا تمت له ستُّ عشْرة سنة جمع أساوِرَته وأمرهم بالاستعداد لقتال العرب . وكانت إياد تَصيف بالجزيرة وتَشْتو بالعراق . وكان فى جيش سابور رجل منهم يقال له لَقيط[1]، فكتب الى إياد شعرا ينذرهم وهو :

سلامٌ فى الصحيفة من لَقِيطٍ ... الى مَنْ بالجزيرة من إياد

بأن الليث آتيكم دَلِيفا[2] ... فلا يحبِسْكُمُ سَوْقُ النِّقاد

أتاكم منهمُ سبعون ألفا[3] ... يُزَجُّون الكتائب كالجراد

---

(١) هو لقيط بن بكر، شاعر جاهلىّ قديم مقل، كما ورد فى كتاب الأغانى (ج ٢٠ ص ٢٣ طبع بلاق). وفى المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم للآمدى (ص ١٧٥ طبع مصر) وكتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ١٠٤ طبع أوربا): « لقيط بن معبد الإيادى » . وفى كتاب « منتهى الطلب من أشعار العرب » لمحمد بن المبارك المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣ أدب ش خمس ورقات (من ص ٣٥٠ — ٣٥٩) كتب فى أولها : « ديوان شعر لقيط بن يعمر الإيادى » ، وتشتمل هذه الورقات على الأبيات المذكورة هنا وقصيدته العينية المشهورة التى مطلعها :

يادار عمرة من محتلها الجرعا ... هاجت لى الهمّ والأحزان والوجعا

(٢) كذا فى شرح القاموس مادة «دلف» والمؤتلف والمختلف . وفى الأصول : «يأتيكم دلافا» وهو تحريف . وورد هذا البيت فى الأغانى ومنتهى الطلب هكذا :

بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد

وقوله : «آتيكم دليفا» يريد : يمشى مشى المقيد . والنقاد : الغنم .

(٣) فى المؤتلف والمختلف ومنتهى الطلب :

* أتاكم منهم ستون ألفا *

فلم يعبئوا بكتابه ، وسراياهم تكرّ نحو العراق وتُغير على السواد . فلما تجهّز القوم نحوهم ظَفر بهم سابور فعمّهم بالقتل، وما أُفلت منهم إلا نفرٌ لحقوا بأرض وَبَارِ(١)، وخاع سابور أكتاف كثير منهم ، فلذلك سُمّى ذا الأكتاف . وكان سابور فى مسيره أتى البحرين وفيها بنو تميم فهربوا ، وشيخُها يومئذ عمرو بن تميم بن مرة وعمره ثلثمائة سنة، وكان يُعلَّق فى عمود البيت فى قُفّة، فأرادوا حمله فأبى عليهم إلا أن يتركوه فى ديارهم وقال لهم : أنا هالك اليوم أو غدا فتركوه . فلما صبحت خيل سابور الديار لقوها خالية ، فلما سمع عمرو صهيل الخيل جعل يصيح بصوت ضعيف، فحمل إلى سابور ، فلما نظر إلى دلائل الهَرَم ومرور الأيام عليه قال له : من أنت أيها الفانى ؟ قال : أنا عمرو بن تميم بن مرة، قد بلغت من الكِبَر ما ترى ، وقد هرب الناس منك لإسرافك فى القتل، فآثرت الفناء على يديك ليبقى من بقى من قومى، ولعل الله يُجرى على يديك فَرَجهم، وأنا سائلك عن أمر إن أذنت فيه؛ فقال سابور: قُلْ نَسمعْ؛ فقال : ما الذى حملك على قتل رعيتك من رجال العرب؟ فقال سابور : أقتلهم لما ارتكبوا فى بلادى وأهل مملكتى؛ فقال عمرو : فعلوا ذلك ولستَ بقيِّم عليهم؛ فلما ملكت وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك؛ قال سابور : وأقتلهم لأنا نجد فى مخزون علمنا وما سلف من أنباء أوائلنا أن العرب ستُدَال علينا . فقال عمرو : هذا أمر تظنه أم تتحققه ؟ قال : بل أتحققه ولا بدّ أن يكون ؛ فقال عمرو : فلِمَ تسيءُ إليها؟ والله لئن تُبقِ عليها وتُحسن إليها ليكافئون قومك عند إدالة الدول إليهم بإحسانك، وإن أنت طالت بك المدّة كافئوك عند مصير الأمر إليهم إن كان حقا ، وإن كان باطلا فلِمَ تتعجل الإثم وتَسفِك دماء رعيتك ؟ فقال

(١) فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٢٢) «بأرض الروم» ، و «وبار» على وزن قطام وحذام : أرض واقعة ما بين الشحر الى تخوم صنعاء . (انظر معجم البلدان لياقوت) .

سابور : الأمر صحيح والحقّ ما قلت ، ولقد صدقتَ فى القول ونصحت . فنادى منادى سابور بأمان الناس ورَفْع السيف . ويقال : إن عمرا بقى بعد هذا الوقت ثمانين سنة .

ثم سار سابور إلى أرض الروم ففتح المدن وقتل خلائق من الروم وقال لمن معه : إنى أريد أن أدخل بلاد الروم متنكرا لأتعرّفَ أحوالهم وسيرهم ومسالك[1] بلادهم ، فإذا بلغتُ من ذلك حاجتى انصرفت الى بلدى فسرت إليهم بالجنود ؛ فحذّروه التغرير بنفسه فلم يقبل قولهم . وسار متنكرا الى أرض القسطنطينية فصادف وليمة لِقَيْصَرَ اجتمع فيها الخاص والعام ، فدخل فى جملتهم وجلس على بعض موائدهم ، وقد كان قيصرُ أمر مصوّرا أتى عسكر سابور فصوّره وجاء الى قيصَر بالصورة ، فأمر بها فصوِّرت على آنية الشراب من الذهب والفضة ، وأتى بعضُ من كان على المائدة التى عليها سابور بكأس ، فنظر بعض الخدم الى الصورة التى على الكأس ، وسابور مقابل له ، فانطبعت مثالا لصورة سابور ، فقام الى الملك فأخبره ، فمَثَل بين يدى الملك ، فسأله عن خبره فقال : أنا من أساورة سابور وهربت منه لأمر خِفْته منه . فلم يقبل ذلك منه ، وقُدِّم إلى[2] السيف فأقر بنفسه ، فجُعِل فى جلد بقرة ، وسار قيصر فى جنود حتى توسط العراق ، ففتح المدن ، وشنّ الغارات ، وعقر النخل ، وانتهى الى مدينة نيسابور ، وقد تحصن بها وجوه فارس ، فنزل عليها وحصر عيدا للنصارى فأغفل الموكَّلون بسابور أمرَه ، وأخذ منهم الشراب ، وكان بالقرب من سابور أُسارى من الفرس ، فراطنهم بالفارسية أن يَحُلّ بعضهم بعضا ، وأمرهم أن يصبّوا عليه زِقاق[3] الزيت ففعلوا ، فَلاَنَ عليه

٤٣/١٣

(١) كذا فى كتاب المعارف لابن قتيبة (ص ٣٢٤ طبع أوربا) . وفى الأصل : « ممالك » .
(٢) كذا فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٢٤ طبع بلاق) . وفى الأصل : « إليه » .
(٣) الزقاق : جمع زق (بالكسر) ، والزق جلد يجز ولا ينتف يستعمل للشراب وغيره .

الجلد وتخلص، وأتى المدينة فراطنهم فرفعوه بالحبال ، ففتح خزائن السلاح وخرج على الروم فكبس جيشهم عند ضرب النواقيس، فانهزم الروم، وأُتِيَ بقيصر أسيرا ، فأبقى عليه وضمّ إليه من أُسِرَ من أصحابه ، وأخذهم بغرس الزيتون بالعراق بدلا من النخل التى عقروها ؛ ولم يكن الزيتون بالعراق قبل ذلك . وفى فعل سابور ودخوله الى أرض الروم يقول بعض شعراء الفرس :

وكان سابورُ صفوا فى أُرومته * اختير منها فأضحى خيرَ مختار
إذ كان بالروم جاسوسا يجول بها * حوم المنية(١) من ذى كيد مكّار
فاستأسروه ، وكانت كبوة عجبا * وزلّة سبقت من غير عثّار
وأصبح الملكُ الرومىُّ مغتربا * أرضَ العراق على هول وأخطار
فراطن الفرسَ بالأبواب فافترقوا * كما تجاوَبُ أُسْدُ الغاب(٢) بالغار
فخذّ بالسيف أصلَ الروم فامتحقوا * لله دَرُّكَ من طلّاب أوتار
إذ يغرسون من الزيتون ما عَضَدُوا * من النخيل وما حَفُّوا بمنشار

وسابور هذا هو الذى بنى الإيوان المعروف بإيوان كسرى، وبنى السوس(٣) والكرج(٤) ونيسابور(٥) . قال صاحب كتاب تجارب الأمم : وبنى بالسواد مدينة نرجس سابور ، وبنى الأنبار(٦) . قال : وبنى مدائن أخر بالسند وسجستان ، ونقل

(١) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : «جزل البرية» . (٢) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : «الغار» . (٣) السوس : مدينة قديمة بخوزستان فيها قبر دانيال النبىّ ولها بساتين وورد فى معجم البلدان لياقوت أن أوّل من بنى كور السوس وحفر أنهرها ردشير بن نهجن . (٤) الكرج : وتسمى قديما ايبريا ، وهى بين جبال القبج من الشمال وأرمينية وأران من الجنوب ؛ وأشهر مدنها : تفليس وباكو . واسم الكرج مشتق من نهر الكر الذى يجرى هناك ؛ وهى إقليم القوقاز الآن . (٥) نيسابور : حاضرة خراسان ، واسمها أيضا « نشاور » وكانت قاعدة الدولة الظاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) .
(٦) الأنبار : هى « فيروز سابور » مدينة بالعراق بينها وبين بغداد ١٠ فراسخ على نهر الفرات قرب مخرج نهر عيسى . واختلف المؤرّخون فيمن بناها ، فقيل هو سابور بن هرمز (ذو الأكتاف) كما أورده المؤلف هنا . وقال ابن الأثير : بنيت الحيرة والأنبار أيام بختنصر . وفتحت هذه المدينة فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه سنة ١٢ من الهجرة على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه .

طبيبا من الهند وأسكنه السوس، فورِث طِبَّه أهلُ السوس . وهلك سابور بعد اثنتين وسبعين سنة من ملكه . ٤/٣

ثم ملك بعده أردشير بن هرمز وهو أخو سابور بن هرمز هذا . قال : ولما ملك ظهر منه شرّ كثير وقتل من العظماء وذوى الرياسة خلقا كثيرا، فاجتمع الناس على خلعه فخلعوه بعد أن ملك أربع سنين . ٥

ثم ملّكوا عليهم بعده سابور بن سابور . قال : ولما ملك استبشرت الرعية برجوع ملك أبيه إليه، فأحسن السيرة وَرَفق بالرعيّة . وكانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها [من العرب][1]، وفيه يقول شاعر إيادىّ :

على رغم سابور بن سابور أصبحت * قِبابُ إياد حولها الخيل والنَّعَمْ

وكان ملكه خمس سنين وأربعة أشهر، وسقط عليه فُسطاط كان ضرب عليه فمات . ١٠

وملك بعده أخوه بهرام بن سابور ذى الأكتاف، وهو الملقّب كِرْمان شاه؛ لأن سابور كان ولّاه كِرْمان . قال : وكان حسن السيرة، جميل السياسة، محمود الأثر، محبّبا للرعية . وكان ملكه عشر سنين . وقيل إحدى عشْرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما .

وملك بعده ابنه يزدجرد بن بهرام المعروف بالأثيم . قال : وكان فظًّا غليظا، ذا عيوب كثيرة، وكان من أشدّ عيوبه وضعُه ما آتاه الله من ذكاء ذهن وحسن أدب فى غير موضعهما؛ وذلك أنه كان كثير الرَّوِيّة فى المضارّ من الأمور، واستعمل الذى أوتيه فى الدهاء والحِيَل، واستخف بكل علم كان عند الناس، واحتقر آدابهم، وتعاظم عليهم واستطال بما عنده . وكان مُعْجَبًا بنفسه سيىء الخلق، حتى بلغ من شدته وحدّته أنه كان يستعظم صغار الزلات، ولا يرضى فى عقوبتها إلا بما لا يُستطاع . ١٥ ٢٠

(١) الزيادة من مروج الذهب .

وكان لا يقدر أحد من بطانته — و إن كان لطيف المنزلة منه — أن يشفع عنده لمن ٱبْتُلِيَ به و إن كان ذنب المُبتلَى به يسيرا، ولم يكن يأتمن أحدا على شيء ألبتّة، ولا يكافئ على حسن البلاء . وكان يعتدّ بالخسيس من المعروف اذا أولاه و يستجزل ذلك، فإن جَسَرَ على كلامه أحد فى أمر قال له : ما قدر جَعَالتك فى هذا الأمر الذى كلمتنا فيه، وما الذى بُذل لك بسببه ؟ وما أشبه ذلك . فلما اشتدت بليّة الناس به، وكثرت إهانته للعظماء، وأكثر من سفك الدماء، واستعمل الضعفاء فى الأعمال الشاقّة، وحمّلهم مالا طاقة لهم به، تضرّعوا الى الله عز وجل وسألوه أن يُنقذهم منه . فزعم الفرس أنه كان ذات يوم مطلعا من قصره إذ رأى فرسا عائرا لم يُرَ مثله قط فى الخيل من حسن الصورة وتمام الخلقة حتى وقف على بابه، فتعجب الناس من ذلك، فأمر يزدجرد أن يُسرج و يُلجم و يُدخل عليه به، فحاول السوّاس وأصحاب المراكيب أن يُلجموه أو يُسرجوه فعجزوا عن ذلك، ولا مكّنهم الفرس من نفسه، فخرج يزدجرد بنفسه الى الفرس وتقدم اليه وأسرجه وألجمه ولبّبه وهو لم يتحرك، فلما استدار و رفع ذنبه لِيُنْفِره[1] رمحه الفَرَسُ على فؤاده رَمْحَةً فهلك منها لساعته، ثم لم يُعاين الفرس بعد ذلك؛ فأكثرت الفُرْس فى حديثه فظنّوا الظنون . وكان أحسنهم مذهبا وأمثلهم طريقة مَنْ قال : إنما استجاب الله عز وجل دعاءنا . فكان ملكه الى أن هلك إحدى عشْرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما . وقيل اثنتين وعشرين سنة غير شهرين .

قال : وكان ٱبنه بهرام جور فى حِجْرِ النعمان بن المنذر بن ماء السماء أسلمه أبوه اليه ليربّيه بالحيرة لصحة هوائها . وقد تقدّم خبره فى ذكر بناء الخورنق[2] والسدير .

(١) أنفره : وضع النفر تحت ذنبه . والنفر (بالتحريك ويسكن) السير الذى يوضع فى مؤخر الرحل وتحت ذنب الدابة . (٢) راجع (ج ١ ص ٣٨٥ من هذه الطبعة) .

فعدل الفرس عنه لسوء أثر يزدجرد فيهم وملّكوا عليهم كسرى، وهو رجل من عِترة ساسان، فاستعان بهرام جور بالعرب وأرسل الى الفُرس وأعلمهم إنكارَه سيرة أبيه، ووعدهم بإصلاح مافسد، وأنه إن مضى لملكه سنة ولم يَفِ لهم بما بذل تبرّأ من المُلك طائعا، فمال اليه قوم و بقيت طائفة مع كسرى، فتراضوا أن يوضع تاج الملك بين أسدين مُشْبِلَيْن فمن تناوله فهو الملك . وكان بهرام جور شجاعا بطلا، فلما وقف هو وكسرى الى جانب الأسدين هابهما كسرى، فوثب بهرام جور فإذا هو على ظهر الأسد وعصر جنبيه بفخذيه، فلما تمكّن منه قبض على أذنيه، ولم يزل يضرب رأس الأسد برأس الآخر حتى قتلهما . فكان كسرى أوّل من هتف به وأذعن له .

٥/١٣ فملك بهرام جور بن يزدجرد، فأحسن السيرةَ، وجلس سبعة أيام متوالية للجند والرعيّة، يَعِدُهم الخير من نفسه و يحضّهم على تقوى الله وطاعته. وكان جلوسه على سرير الملك وهو ابن عشرين سنة، فَغَبر زمانا وهو يحسن السيرة، ويَعْمُر البلاد، و يدرّ الأرزاق، ثم آثر اللهو على ذلك وكثرت خلواته بأصحاب الملاهى حتى كثُرت عليه الملامة من أرباب دولته، وطَمِع مَنْ حوله من الملوك فى استباحة بلاده والغلبة على مُلْكه . وكان أوّلَ من سبق الى مغالبته ومكاثرته خاقانُ ملك الترك، وغزاه فى مائتى ألف وخمسين ألفا من الأتراك، فبلغ الفُرْسَ إقبالُ الترك فى هذه الجموع العظيمة فهالهم ذلك، ودخل على بهرام جور جماعة من عظماء الفرس وأهل الرأى والنجدة وقالوا : أيها الملك، قد أرهقك من بائقة(١) عدوّك ما يشغَلك عما أنت فيه من اللهو والتلذذ، فتأهّب له لئلا يلحقك منه أمر يلزمك فيه مسبّة وعار . وكان بهرام لثقته بنفسه ورأيه يجيب القوم بأن يقول : الله ربنا قوىّ ونحن أولياؤه . ثم يقبل على ما هو عليه من اللهو والصيد .

(١) البائقة : الداهية .

قال: ثم أظهر بهرام جور التجهز الى أذربيجان ليتنسّك فى بيت نارها، ويتوجه منها الى أرمينية ويتصيّد فى آجامها، وسار فى سبعة رَهْطٍ من عظماء الفرس وأهل البيوتات، وثلثمائة رجل من رابطته ذوى بأس وشدّة ونجدة، واستخلف أخا له يقال له نرسى على ملكه، فما شك الناس — لما بلغهم ذلك — أنه هرب من خاقان، فتآمر الفرس فى مراسلة خاقان والانقياد الى طاعته والإقرار له بالخراج؛ مخافة منه أن يستبيح بلادهم، فاتصل هذا الخبر بخاقان فاطمأنّ وترك التحفظ والاستعداد وآثر المسالمة. وتعرّف بهرام خبرَ خاقان وحال جنده وماهم عليه من الطمأنينة والفتور وعدم الاستعداد، فسار بمن معه وبيّت خاقان وقتله بيده. فلما علم الأتراك أن ملكهم خاقان قد قتل انهزموا لا يَلْوُون على شىء وخلّفوا أثقالهم وأموالهم. فأكثر بهرام فيهم القتل وأمعن فى طلبهم، وحاز غنائم لم يسمع بمثلها، وسبى من ذرّيتهم كثيرا. وكان مما غَنِمه تاجُ خاقان وإكليلُه، وغلب على بلاد الترك وانصرف بالظفر والغنائم، وكتب الى أهل مملكته يعلمهم بما حصل له من الظفر بخاقان وجموعه بمن كان معه من أولئك القوم الذين استصحبهم معه.

وكان بهرام يتكلّم بلغات كثيرة، منها اللغة العربية. ومما حُفِظَ من شعره يوم ظَفَره بخاقان:

أقول له لما فَضَضْتُ جموعَه * : كأنك لم تسمع بصولات بهرام
وأنّى حامى مُلْكَ فارسَ كلِّها * وما خير مُلْكٍ لا يكون له حامى

ومن شعره أيضا:

لقد علم الأنامُ بكل أرض * بأنهمُ قد أضحَوْا لى عبيدا
ملكتُ ملوكَهم وقهرتُ منهم * عزيزَهم المُسوَّدَ والمَسُودا

فتلك أسودهم تبنى حِذَارى (١) * وترهب من مخافتيَ الوُرودا
وكنتُ إذا تشاوس مَلْكُ أرض (٢) * عَبَأْتُ له الكتائبَ والجنودا
فيعطينى المقادةَ أو أوافى * به يشكو السلاسلَ والقيودا

قال : ولما قُتِل خاقان بعث بهرام جور أحدَ قوّاده إلى ما وراء النهر فغزاهم وأقرّوا لبهرام بالعبودية وأداء الجزية . قال : وأسقط بهرام جور عن رعيته إثر هذا الظفَرِ خراج ثلاث سنين ، وترك ما كان قد بقى من الخراج ولم يُستخرج من قسط تلك السنة، وكان سبعين ألف ألف درهم ، وقسم فى الفقراء مالا عظيما وفى أهل البيوتات والأحساب عشرين ألف ألف درهم ؛ ونَحَل بيت النار بأذربيجان جميعَ ما غنمه من الترك من اليواقيت والجواهر والتاج والإكليل .

ويقال إن بهرام دخل إلى أرض الهند متنكرا فمكث حينا لا يُعرف حتى بلغه أن فيلا قد هاج وقطع السُّبُل وأهلك الناس ، فسألهم أن يَدُلوه عليه ، فرُفِع أمره إلى الملك فأرسل معه رسولا ، فلما انتهى إليه أوفى (٣) الرسول على شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل ، فصرخ بالفيل فخرج اليه ، فجعل يرميه ويثبّت النُّشّاب بين عينيه ، ثم دنا وأخذ بمِشْفره وجذبه جذبة خرّ منها الفيل ، ثم احتز رأسه وأقبل به إلى الملك فحباه وأحسن اليه .

ثم إن ملكا من أعداء ذلك الملك أقبل لغزوه فجَزِع ذلك الملك من كثرة جنود الملك الذى أتى نحوه ، فقال له بهرام : لا يهولنّك أيها الملك أمره ؛ فركب بهرام وقال لأساورة الهند : احموا ظهرى ، وانظروا إلى عملى ، وكانوا لا يُحسِنون الرمى ، وأكثرهم رَجّالة ، فحمل عليهم حملة هدّهم بها ، ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه

(١) فى مروج الذهب للمسعودى « تقعى » ، والإقعاء : أن يلصق أليتيه بالأرض . ينصب ساقيه ويضع يديه على الأرض .
(٢) تشاوس اليه ، نظر اليه بمؤخر العين تكبرا .
(٣) أوفى : أشرف عليها .

نصفين ، ويأتى الفيل فيضرب مِشفره ويكُبّه ويأخذ مَنْ عليه فيقتله ، ويأخذ الفارس فيذبحه على قَرَبوس سرجه ، ويتناول الرجلين فيضرب أحدهما بالآخر فيموتان جميعا ، ويرمى فلا تقع له نُشابة إلا فى رَجُلٍ ، فولّوْا أمامه منهزمين ، وحمل الذين كانوا يحرُسون ظهره عليهم فأكثروا القتل فيهم ، فزوّجه ملك الهند بنته ونَحَلَه الدَّيبُل[1] ومُكران وما يليهما من أرض السند وأشهد له بذلك ، وانصرف بهرام جور إلى مملكته وضمّ ذلك إلى بلاده وحمل خراجها إليه ، ثم أغزى بهرام جور أخاه نرسى إلى بلاد الروم فى أربعين ألفا فدخل القسطنطينية وهادن ملك الروم على إتاوة يحملها إلى أخيه . ثم مضى بهرام جور إلى أرض السودان على طريق اليمن فأوقع بهم وعاد إلى مملكته وهلك بعد ذلك فى ماءٍ . وذلك أنه توجه إلى الصيد فشدّ على عَيْرٍ وأمعن فى طلبه ، فارتطم فى ماء فى سبخة فغرق فيه ، فسارت أمه إلى ذلك الموضع بمال عظيم ونزلت بالقرب منه ، وأمرت بإنفاق تلك الأموال على من يخرجه ، فنقلوا طينا عظيما وحمأة كثيرة حتى صار من ذلك آكاما عظاما ولم يقدروا على [استنقاذ[2]] جثته . وكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة .

وحُكى عنه فى صغره ما يدلّ على نباهته ، وجَوْدة فكرته وجميل رأيه . فمن ذلك أنه قال للنعمان بن المنذر لما بلغ عمره خمسَ سنين : أحضر لى مؤدّبين ليعلّمونى الكتابة والفقه والرمى والفروسية . فقال له المنذر : إنك بعدُ صغير السنّ ، ولم يأْنِ لك ذلك بعدُ . فقال له بهرام : أمَا تعلم أيها الرجل أنى من ولد الملوك ، وأن المُلك

(١) الديبل (بفتح الدال المشدّدة وسكون الياء التحتية وضم الباء الموحدة) : بلد صغير شديد الحر على شط ماء السند ، وهى من أكبر فرضه وأشهرها ، وبها سمسم كثير ، ويجلب إليها التمر من البصرة ، ويجلب منها المتاع الديبلى . ومكران (بضم الميم وسكون الكاف) : بلدة من بلاد كرمان ؛ وهى ناحية واسعة عريضة ، والغالب عليها المفاوز والقحط والضيق اهـ ملخصا من كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء ، طبع باريس .

(٢) الزيادة عن كتاب غرر ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٥٦٨ طبع أوربا) .

صائر إلىّ ، وأولى ما كُلِّف به الملوك وطلبوه صالحُ العلم ؛ لأنه زَيْنٌ لهم وركن ، وبه يُعرفون . أما تعلم أن كل ما يُتقدّم فى طلبه ، ينالُ فى وقته ، وما لم يُتقدّم فيه ويُطلب فى وقته ، يُنال فى غير وقته ، وما يُفرّط فيه وفى طلبه يفوت ولا يُنال ؟ عجِّل علىّ بما سألتك . فبعث المنذر من ساعته إلى باب الملك من أتاه برهط من المعلمين الفقهاء والرماة ، وجمع له حكماء الروم وفارس وغيرهم ، وألزمهم إياه ، ووقّت أوقاتا لكل منهم ؛ فتعلّم بهرام من كل عِلْمٍ أحسنه ، وسمع الحكمة ووعى ما سمع منها ، وثقُف كلَّ ما علم بأيسر شىء ، وبلغ أربعَ عشرة سنة ، وقد فاق معلّميه ، وحفظ للنعمان حقّ التربية ، فملّكه على العرب لمّا صار الملك إليه .

ولما هلك بهرام جور ملك بعده ابنه يزدجرد بن بهرام جور ؛ فسار بسيرة أبيه ؛ ولم يزل قامعا لعدوّه ، كثير الرفق برعيته . وكان له ابنان أحدهما يسمّى هرمز ، والآخر فيروز . ودام ملك يزدجرد تسعَ عشْرة سنة ، وقيل ثمانى عشْرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما ثم هلك .

فتغلّب على الملك بعده ابنه هرمز بن يزدجرد . ولما ملك هرمز هرب منه فيروز ولحق ببلاد الهياطلة[1] ، وأخبر ملكها بقصته وقصة أخيه هرمز ، وذكر أنه أحقّ منه بالملك ، وسأله أن يمدّه بجيش يقاتل به أخاه ، فأبى عليه ملك الهياطلة وقال : سأعلم خبره ثم آمرك بعد ذلك بما تفعل . وكشف ملك الهياطلة عن خبر هرمز وتعرّف أحواله فبلغه أنه غَشوم ظَلوم ؛ فقال عند ذلك : إن الجور لا يرضاه الله تعالى ، ولا يصلح عليه الملك ، ولا تقوم به سياسته ؛ وأمدّ فيروز بالعساكر ودفع له الطالقان[2] ؛ فأقبل فيروز من عنده بجيش طخارستان وطوائف خراسان ، فظفر بأخيه فحبسه .

(١) الهياطلة : الصغد ، وهم بين بخارى وسمرقند .

(٢) طالقان : بلدة بخراسان بين مرو الروذ وبلخ بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل وهى أكبر مدينة بطخارستان . عن (معجم البلدان لياقوت) .

وملك فيروز بن يزدجرد . ولما ملك أظهر العدل وحسن السيرة ، وكان يتديّن إلا أنه كان مشئوما على رعيته ، فقحِطَ الناسُ فى زمانه سبع سنين ، فأحسن فيها الى الناس ، وقسم ما فى بيوت الأموال . ويقال : إن الأنهار غارت فى مدّة القحط ، وكذلك القُنى والعيون ، وقلت الأشجار والغياض ، وهلكت الوحوش والطير ، وجاعت الدوابّ حتى كادت لا تطيق الحُمولة ، وعمّ أهلَ البلاد الجهدُ والمجاعةُ ، فبلغ من حسن سياسة فيروز لهذا الأمر أن كتب الى جميع الرعية : أنه لا خراج عليكم ولا جزية ولا سخرة ، وأنه قد ملّكهم أنفسهم ، وأمرهم بالسعى فيما يَقُوتهم ويُصلحهم ، وكتب بإخراج ما فى المطامير من الأطعمة وقسمها فى الناس ، وترك الاستئثار عنهم وتساوَى بهم ، وأخبر أهل الغنى والشرف ، بكل مدينة وقرية ، أنه إن بلغه أن إنسانا مات جوعا عاقب أهل تلك المدينة أو الجهة التى يموت بها ، ويُنَكِّل بهم أشدّ النكال . فقيل إنه لم يَهْلِك فى هذا القحط والمجاعة من رعيته إلا رجل واحد من رُستاق[1] .

قال : ثم أغاثه الله فأمطرت السماء ، وجرت الأنهار ونبعت العيون ، وصَلُحت الأشجار ، وسمِنت المواشى ؛ فاستوثق له الملك ، وأخذ فى غزو أعدائه وقهرهم . وبنى مدنا إحداها بين جرجان [و باب صول[2]] وأخرى بناحية آذربيجان . ثم سار بجنوده نحو خراسان لقصد حرب أخشنوار[3] ملك الهياطلة لأشياء كانت فى نفسه ، ولأن الهياطلة كانوا يأتون الذُّكران ويركبون الفواحش فسار اليهم ؛ فلما

(١) رستاق (بضم الراء) : مدينة بفارس من ناحية كرمان .

(٢) التكملة من الطبرى (ص ٨٧٤ من القسم الأول) .

(٣) كذا فى تاريخ الطبرى وكتاب المعارف لابن قتيبة (ص ٣٢٧) . وفى الأصل «اخنشوار» .

بلغ أخشنوار ملكُ الهياطلة خبره خافه واشتدّ رعبه منه، وعلم أنه لا طاقة له به، وأن جيشه يضعف عن مقابلة الجيوش التى أقبل بها فيروز فحار فى أمره؛ فتقدّم اليه رجل كبير السنّ من أهل بلاده وقال: أنا أفدى الملك وأهل مملكته بنفسى، فليأمر الملك بقطع يدىّ ورجلىّ ويؤثر فى جسدى آثار العقوبة بضرب السياط، ويُلقِنى فى الطريق التى يمرّ فيروز بها، ويُحسِن إلى ولدى وعيالى الذين أخلفهم؛ ففعل به ذلك وأمر بإلقائه فى الطريق. فلما مرّ به فيروز أنكر حاله، فأخبره أن أخشنوار فعل به ذلك؛ لأنه أشار عليه بالانقياد إلى طاعة فيروز والإقرار بعبوديته، وأن يحمل إليه من الأموال والتحف ما يُرضيه؛ فرقّ له الملك فيروز ورَحِمَه وأمر بحمله معه، فنهاه أكابر قومه عن تقريبه فلم يرجع إليهم، ثم قال له ذلك الأقطع كالمتنصِّح له[1]: أنا أدُلّ الملك على طريق مختصر تدخل منه فى مفازة إلى بلاد أخشنوار، فتصادف غِرّته؛ وسأله أن يشتفىَ له منه. فاغترّ فيروز بذلك؛ وأخذ الأقطعُ بفيروز ومن معه وعدل بهم عن الطريق الجادّة وشرع يقطع بهم مفازة بعد مفازة. فلما شَكَوْا العطشَ منّاهم بقرب الماء وقطع المفازة. ولم يزل يتقدّم بهم حتى بلغ بهم موضعا علم أنهم لا يقدرون فيه على التقدّم ولا الرجوع، فتبين لهم أمره، فعندها سُقِطَ فى أيدى القوم وقالوا لفيروز: ألم نَنْهَك عن هذا الرجل فلم تنته؟ فهلك أكثر أصحابه من العطش، ومضى على وجهه بمن نجا معه؛ فوافى أخشنوار وقومَه؛ وهو ومن نجا معه على أسوإ حال، وقد أجهدهم العطش، فدعَوْا أخشنوار إلى الصلح على أن يُخلِىَ سبيلهم وينصرفوا إلى بلادهم، وعاهدوه على ألا يغزوَهم أبدا، فرضى أخشنوار بذلك وحصل اتفاقهما على أن يجعلا بينهما حدّا لا يتجاوزه واحدٌ منهما، ووُضِعَ عند الحدّ حجر، وحلّفه أخشنوار أنه لا يتجاوز ذلك الحجر،

٤٨
١٣

(١) المتنصح: الذى يتشبه بالنصحاء.

فحلف له وأخذ عليه العهود والمواثيق وأطلقه أخشنوار ، فعاد فيروز إلى بلاده .

فلما سار إلى مملكته داخلته الحمية وحملته الأنفة على محاربة أخشنوار والغدر به ، فنهاه أهل مملكته عن ذلك وقبحوا عليه نقض العهود والمواثيق ، فلم يرجع الى أقوالهم وأبى إلا غزوه . وسار بجيوشه حتى أتى الحد الذى بينهما والحجر الذى حلف أنه لا يتجاوزه الى بلاد الهياطلة ، فأمر فيروز بالحجر أن يصمد فيه خمسون فيلا وثلثمائة رجل ، فجره أمامه وأمر العسكر ألا يتجاوز ذلك الحجر ولا يتقدم الفيلة ، وزعم أنه يكون قد وفى بيمينه ولم يتجاوز ما عاهد عليه . فلما بلغ أخشنوار ذلك أرسل اليه يقول : إن الله عز وجل لا يخادع ولا يماكر ، ونهاه عن الغدر وقبحه عليه ، وهو لا يكترث بقوله ، وأحجم أخشنوار عن محاربة فيروز وكرهها ، ثم أعمل الفكرة وأخذ يفكر فى وجوه المكايد والمكر والخداع ، فحفر حول عسكره خندقا عرضه عشرة أذرع ، وعمقه عشرون ذراعا ، وغطاه بخشب ضعيف وألقى عليه التراب ، ثم ارتحل بمن معه ومضى غير بعيد ، فبلغ فيروز رحيل أخشنوار بجنده من معسكره ، فما شك أنه انهزم منه ، فركب فى طلبه وأغذ السير بجنوده — وكان مسلكهم على الخندق — فلما مروا عليه تردى فيروز وعامة جنوده فيه فهلكوا عن آخرهم وعطف عليهم أخشنوار واحتوى على كل شىء كان فى معسكر فيروز ، وأسر موبذان موبذ وجماعة من نساء فيروز منهن دخت ابنة فيروز ، فكان هذا عاقبة مكره . وكان ملكه سبعا وعشرين سنة .

ولما هلك تنازع الملك بعده أبناه قباذ وبلاش ، فملك بلاش بن فيروز ابن يزدجرد . وكان حسن السيرة حريصا على العمارة ، وبلغ من حسن نظره أنه كان لا يبلغه أن بيتا خرب وجلا عنه أهله إلا عاقب صاحب القرية التى فيها ذلك

البيت على تركهم إنعاش أهله وسدّ فاقتهم حتى لا يُضطرون إلى الجلاء عن أوطانهم . ثم هلك بعد أربع سنين .

وملك بعده أخوه قُباذ بن فيروز . قال : وكان قباذ لما ملك أخوه بلاش سار الى خاقان يستنصره على أخيه ويذكر أنه أحقّ منه بالملك ؛ فمَطَلَه بذلك أربع سنين ثم جهزه بجيش، فلما عاد وبلغ نيسابور بلغه وفاة أخيه بلاش . وكان قباذ فى مسيره إلى خاقان مرّ على نيسابور متنكرا وتزوج بها بآبنة رجل من الأساورة وواقعها، فحملت منه بأنوشِرْوان وتركها بنيسابور ، فلما عاد فى هذا الوقت سأل عن الجارية فأُتِى بها وآبنه منها أنوشروان، فتبرّك بهما وفرح بابنه، ثم عاد إلى بلاد فارس وبنى مدينة أرّجان وحُلوان وعدّة مدن أخر .

قال : وكان لقباذ خال يقال له سوخرا[1] وقيل فيه : ساخورا، وكان يخلُف فيروز والد قباذ على مدينة الملك بالمدائن، فجمع جموعا كثيرة من الفرس وقصد أخشنوار ملكَ الهياطلة وحاربه وآنتقم منه وآستنقذ جميع من كان أسره من الفرس ومن سباه من نساء فيروز ، وأكثَر ما كان قد آحتوى عليه أخشنوار من خزائن فيروز ؛ فعظُمَ قدره عند الفرس ، وحَسُنَ فيهم أثره ، وكبُرت منزلته عند بلاش وقباذ إلى أن لم يبق بينه وبين الملك إلا مرتبةٌ واحدة، وتولى سياسة الأمر بحُنْكة وتجربة ؛ ومال إليه الناس وأطاعوه ، وآستخفوا بقباذ ولم يعبأوا بأمره، وهان عندهم فما حملت نفسه هذه الإهانةَ والذُّلَّ ، فأخذ فى التدبير على ساخورا وكتب إلى سابور الرازى، وهو الذى يقال له اللبيب، وهو أصبهبذُ البلاد، فى القدوم عليه بمن قِبَله من الجند، فقدم بهم سابور فخاطبه قباذ فى أمر خاله ، فوافقه سابور عليه ، فأمره

٤٩/١٣

(١) كذا فى نسخة ا وتاريخ الطبرى . وفى نسخة ب « سوجرا وقيل فيه ساجورا » بالجيم المعجمة .

قبـاذ بالتلطف فى هذا الأمر وكتمانه ، و إعمال الحيلة وحسن التدبير فيه ، فغدا سابور على قبـاذ فوجد خاله ساخورا عنده ، فتقدّم سابور إليه وهو آمن ، فألقى وُهَقـا[1] فى عنقه وٱجتـذبه وأوثقه بالحديد ثم أودعه السجن ، وقتله قبـاذ وخافته الفرس بعده .

وفى أيام قباذ ظهر مَزدق — ويقال فيه : مَزْدَك ، وتفسيره : حديد الملك ؛ و إليه تضاف المزدقية ، و يقال لهم العدلية — وقال : إن الله تعالى إنما جعل الأرزاق فى الأرض مبسوطة ليقسِّمها عبادُه بينهم بالسوية ، ولكن الناس يظلِمون ؛ واستأثر بعضهم على بعض ، فانضم اليه جماعة وقالوا : نحن نقسِم بين الناس بالسويّة ونردّ على الفقراء حقوقهم من الأغنياء ، ومَنْ عنـده فضلٌ من المـال والقوت والنساء والمتاع وغيرِ ذلك فليس هو له ولا أولى به من غيره ؛ فافترص السِّفْلة ذلك واغتنموه وٱتبـعوا مَزْدَكَ وأصحـابه ، فقوِىَ أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلِبونه على ما فيها من ماله ونسائه ولا يستطيع أن يردّهم عنه ولا يدافعهم . ورأى الملك قباذُ رأى مزدك وأصحابه وتابعهم فازداد قوة ، فلم يلبث الناس إلا قليلا حتى صار الأب لا يعرف ولده ، ولا الولد يعرف والده ، ولا يملِك أحد شيئا ، وصيّرت العدليـةُ قباذَ فى مكان لا يصل اليه غيرُهم ، فاجتمعت الفرس على خلـع قباذ من الملك ففعلوا ذلك .

وملّكوا عليهم عند ذلك جاماسف بن فيروز . وهو أخو قباذ . وقيل : إن المزدكية هم الذين أجلسوه . قال : ولمـا ملك جاماسف قبض على أخيه قباذ وحبسه فاحتالت أخت قباذ فى خلاصـه . وذلك أنها أتت الى الحبس الذى هو

(١) الوهق (بتحريك الهاء وتسكينها) : الحبل فى طرفيـه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ .

فيه وحاولت الدخول الى أخيها ، فمنعها الموكَّل به من الدخول اليه ، وطمع أنه يَفضحها ، وأعلمها أنه لا يمكّنها من العبور إليه إلا إن وافقته على قصده ، فأطمعته فى نفسها وقالت : إنى لا أخالفك فى شىء مما تهواه منى ، فمكّنها من الدخول الى السجن والاجتماع بأخيها قباذ ، فدخلت اليه وأقامت عنده أياما ، ثم لفته فى بساط أمرت بعض الغلمان أن يحمله فحمله على عاتقه ، فلما مر الغلام بالموكَّل بالحبس سأله عن حمله فاضطرب الغلام فلحقته وقالت : إنه فِراشٌ كنت أفرِشه تحتى وعَرَكْتُ فيه[1] ؛ وأنها خرجت لتتطهرَ وتعودَ ، فصدّقها ولم يَمَسّ البساط ولم يَدْنُ منه استقذارا له على مذهبهم فى ذلك ، فمضى الغلام به وخرجت أخته فى أثَرِه ، وهرب قباذ فلحق بأرض الهياطلة يستمد ملكها ليمده بجيش يحارب من خالفه ، ويقال : إن زواجه بأم كسرى أنو شروان كان فى هذه السفرة لا فى تلك ، وأنه تزوّجها بأَبْرَشْهر[2] ، وهى ابنة رجل من عظمائها ، وأنه رجع به وبأمه عند عوده من بلاد الهياطلة . قال : وسار قباذ الى ملك الهياطلة فأقام عنده عدّة سنين ، ثم عاد الى بلاده بأمداده ، فغلب على أخيه ونزعه من الملك بعد أن ملك ستَّ سنين .

ثم عاد قباذ الى الملك ثانيا ، ولما عاد الى الملك وجد آبن ساخورا قد وثب فى جماعة من أصحابه على مَزْدَك فقتله ، فسُعِىَ به الى قباذ فقتله بمزدك . قال : ثم غزا الروم وافتتح آمد ، ثم أدبر ملكه لسوء عقيدته . وهلك قباذ إثر ذلك .

٥٠/١٣ وكان سبب هلاكه أن الحارث بن عمرو الكندىّ قتل النعمان بن المنذر ابن آمرئ القيس ، وملَك العربَ وما كان ملَكه النعمان ، فبعث قباذ بن فيروز

(١) عركت المرأة : حاضت .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى ومعجم البلدان لياقوت وذكر أن شهر بالفارسية هو البلد ، وأبر : الغيم ، وهذا أراهم أرادوا إلا خصبه . وأبرشهر هى نيسابور . وفى الأصل : « بأرشهر » .

الى الحارث بن عمرو يقول : إنه كان بيننا وبين الملك الذى كان قبلك عَهْدٌ، وإنى أحبّ لقاءك ؛ وخرج للقائه فى عَدَد وعُدّة، وجاءه الحارث والتقيا بمكان، فأمر قباذ بطبق من تمر فنُزِع نواه وبطبق آخر على حالته، فوُضِعا بين أيديهما، وجُعل المنزوع بين يدى قباذ ، والذى هو بنواه بين يدى الحارث ، فجعل الحارث يأكل التمر ويُلقِى النوى، وقباذ يأكل التمر ولا يحتاج الى إلقاء شىء . فقال للحارث : مالك لا تأكل كما آكل؟ فقال الحارث : إنما يأكل النوى إبلُنا وغنمنا، وعلم أن قباذ يهزأ به . ثم آفترقا على الصلح على ألا يجاوز الحارث وأصحابه الفرات، إلا أن الحارث استضعف قباذ وطمع فيه، فأمر أصحابه أن يعبروا الفرات ويغيروا على قرى السواد ففعلوا ذلك، فجاء الصريخ الى قباذ وهو بالمدائن، فكتب الى الحارث بن عمرو أن لصوصا من العرب قد أغاروا على السواد، وأنه يحب لقاءه فلقيه ، فقال قباذ كالعاتب له : قد صنعتَ صنيعا ما صنعه أحد قبلك، فطمِع الحارث فيه من لين كلامه وقال : ما علمتُ بذلك ولا شعُرت به، وإنى لا أستطيع ضبط لصوص العرب ، وما كل العرب تحت طاعتى ، ولا أتمكن منهم إلا بالمال والجنود . فقال له قباذ : فما الذى تريد ؟ قال : أريد أن تعطِينى من السواد ما أتخذ به سلاحا ، فأمر له بما يلى جانب العرب من أسفل الفرات ؛ وهو ستة طساسيج؛ فعند ذلك زاد طمع العرب فيه ، وأرسل الحارث بن عمرو الى تُبَّع وهو باليمن : إنى قد طمِعت فى ملك الأعاجم ، وقد أخذت منه ستة طساسيج ، فآجمع الجنود وأقبل فإنه ليس دون ملكهم شىء ؛ لأن الملك عليهم لا يأكل اللحم ولا يستحل هراقة الدماء ، وله دين يمنعه من ضبط الملك؛ فبادر إليه بجندك وعدّتك، وأطمعه فى الفرس . فجمع تُبّع جنوده وسار حتى نزل الحيرة، وقرب من الفرات ، فآذاه البقّ؛ فأمر الحارث بن عمرو أن يُشق له نهر الحيرة فنزل عليه ، ووجه آبن أخته

شِمِرًا ذا الجناح إلى قُباذ فقاتله فهزمه شمر حتى لحق بالرىّ ، ثم أدركه بها فقتله .

وملك بعده آبنه كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز . ولما ملك استقبل الأمر بجِدّ وسياسة وحزم . وكان جيّد الرأى، كثير النظر ، صائب التدبير، طويل الفكر، فجدّد سيرة أردشير وعمِل بها، ونظر فى عهده وأخذ نفسه به ، وأدّب رعيته وبطانته، وبحث عن سياسات الأمم فاستصلح لنفسه منها ما رضيه ، ونظر فى تدابير أسلافه المستحسنة فاقتدى بها . وكان أوّل ما بدأ به أن أبطل مِلّة زرادشت الثانى الذى كان من أهل فَسَا، وأبطل ملة المزدكية وقتل على ذلك خلقا كثيرا ، وسفك من الدماء بسبب إبطال هذين المذهبين مالا يحصى كثرةً، وقتل قوما من المانَوِيّة ، وثبّت ملة المجوسية القديمة ، وكتب فى ذلك كتبا بليغة الى أصحاب الولايات والأصبهبذين، وقوّى مُلك الفرس بعد ضعفه بإدامة النظر وهَجْرِ الملاذّ وترك اللهو، وقوّى جنوده بالأسلحة والأمتعة والكُراع[1] ، وعمّر البلاد وحفظ الأموال وثمّرها، وسدّ الثغور وآستعاد كثيرا من الأطراف التى غلب عليها الأمم .

قال : وأما تدبيره فى أمر المزدكية وإبطال ما فعلوه فإنه ضرب أعناق رؤسائهم، وقسّم أموالهم فى أهل الحاجة ، وقتل جماعة كثيرة ممن عَرَف من الذين كانوا يدخلون على الناس فى بيوتهم ، ويشاركونهم فى أموالهم وأهاليهم ، وردّ الأموال الى أربابها . وأمر بكل مولود آختُلِف فيه أن يُلحق بمن هو فى سيمائه، وأمر بكل آمرأة غُلِب عليها أن يؤخذ الغالب عليها حتى يَغرَم لها مهر مثلها، ثم تُخير المرأة بين الإقامة عنده وبين تزويج غيره، إلا أن يكون لها زوج أوّل فتُرَدّ اليه . وأمر بكل من أضرّ برجل فى ماله أو ظلمه أن يؤخذ منه الحق، ويعاقب الظالم

٥١/١٣

(١) الكراع (بالضم) : اسم يجمع الخيل والسلاح .

بعد ذلك بقدر جرمه . وأمر بعيال ذوى الأحساب الذين مات قيِّمهم فكُتِبوا له فأنكح بناتِهم للأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال ، وأنكح بنيهم من بيوتات الأشراف وأغنيائهم . وأمرهم بملازمة بابه ليستعين بهم فى أعماله ، وخيّر نساء والده أن يقمن مع نسائه فيواسَيْن ويصيّرن فى الأحرار ، ويتغى لهنّ الأكفاء من البعول ، ثم أمر بكرْى الأنهار وحفر القُنَى . وأمر بإعادة كل جسر قطع ، أو قنطرة خَرِبت أن تردّ الى أحسن ما كانت عليه ، وتخيّر الحكام والعمال وأمرهم أن يسيروا بسيرة أردشير ووصاياه .

فلما آنتظمت له هذه الأمور وآستوثق له الملك ووَثِق بجنده سار نحو أنطاكية فافتتحها ، وأمر أن تصوّر له المدينة على هيئتها وذَرْعها وطرقها وعدّة منازلها ، وأن تُبنى له مدينة على صفتها الى جانب المدائن ، فبنيت المدينة المعروفة بالرومية ، ثم نقل أهل أنطاكية اليها . فلما دخلوا باب المدينة مضى كل أهل بيت الى ما يشبه منازلهم التى كانوا فيها بأنطاكية . وفتح مدينة هرقل ثم الإسكندرية ، ثم أخذ نحو الخَزَر ، ثم الى الهياطلة فقتل ملكهم بفيروز ، وصاهر خاقانَ ملك الترك ، وتجاوز بلخ وأنزل جنوده فَرْغانة ، وبنى بابَ الأبواب . وقد ذكرناه فى المبانى القديمة (١) .

ولما بنى هذا السورَ هابته الملوك وراسلته وهادنته ؛ فورد عليه رسول ملك الروم بهدايا فنظر الى إيوانه فرأى فى ميزانه اعوجاجا ، فقال : ما هذا الآعوجاج؟ فقيل له : إن عجوزا لها منزل فى جانب هذا الاعوجاج فأرادها الملك على بيعه وأرغبها فى الثمن فأبت ، فلم يُكرِهْها وبقى الاعوجاج على ما ترى . فقال الرومىُّ : هذا الآعوجاج أحسن من هذا الاستواء . وكتب إليه ملك الصين : من نقفور (٢) ملك

(١) راجع (ج ١ ص ٣٧٩ من هذه الطبعة) .

(٢) كذا فى الأصل : وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٢٨ طبع بلاق) : « يعبور » .

الصين ، صاحبِ قصر الدرّ والجوهر ، الذى يخرج من قصره نهران يسقيان العود والكافور ، والذى توجد رائحتــه على فرسخين ، والذى يخدِمُه بنات ألف ملك ، والذى فى مَرْبِطه ألف فيل أبيض ، الى أخيه كسرى أنوشروان . وأهــدى إليه هدايا عظيمة . وكتب إليه ملك الهنــد : من ملك الهنــد وعظيم ملوك الشرق ، وصاحب قصر الذهب ، وأبواب الياقوت والدرّ ، الى أخيه كسرى أنوشروان ملكِ فارس ، صاحبِ التــاج والراية . وأهدى إليه هدايا ؛ منهــا ألف مَنٍّ[(١)] من العود يذوب على النار كالشمْع ، ويختم عليه كما يختم على الشمع . وجامٌ من الياقوت الأحمر فتحته شبر مملوء درّا ، وعشرة أمنانٍ كافور كالفستق ، وجاريةٌ طولها ســبعة أذرع تضرِب أشــفارُ عينيها خدّيها ، وكأن بين أجفانها لمعان البرق مع إتقان شــكلها ، مقرونةُ الحاجبين ، لهــا ضفائر تجرها ؛ وفراشٌ من جلود الحيّات ألين من الحرير وأحسن من الوَشْيِ . وكان كتابه فى لِحَا الشجر المعروف بالكاذى[(٢)] مكتوبا بالذهب . وكتب إليه ملك التُّبَّتِ : من ملك التبت ومشارقِ الأرض المتاخمة للصين والهند ، الى أخيه كسرى المحمودِ السيرة والقدر ، ملكِ المملكة المتوسطة فى الأقاليم السبعة ، أنوشروان . وأهدى إليه أنواعا مما عُمِلَ من عجائب أرض تبت ، منها مائةُ جوشن ومائة ترس تُبَّتِيَّةٍ مذهبــة ، وأربعة آلاف مَنٍّ من المســك من نوافِجَ غزلانية . وآستغاث به آبن ذى يَزَنٍ يستصرخه على الحبشة فبعث معه قائدا من قوّاده . وسنورد ذلك إن شاء الله فى خبر سيف بن ذى يزن .

(١) المنّ : لغة فى المنا الذى يوزن به وهو رطلان . وجمعهما أمنان ، وأمناء .

(٢) اللحاء : ما على العصا من قشرها ، يمد ويقصر . والكاذى : نوع من النبات عجيب ، لحاؤه أرق من الورق الصينى تتكاتب فيه ملوك الصين والهند . وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين . (راجع مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٢٨ طبع بلاق) .

ولما استتبّ له الأمر ووظّف الوظائف على الترك والخزر والهند والروم وغيرهم ، نظر فى الخراج وأبواب المال . وكانت رسوم الناس جارية على الثلث من البقاع ، ومن بعضها الربع والخمس والسدس على حسب العمارة . وكان قباذ أبوه قد مسح الأرض وهلك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة ؛ فجمع أنوشروان أهل الرأى فاتفقوا على أن جعلوا على كل جَرِيب من الحنطة والشعير درهما ، وعلى الجريب من الكرم ثمانية دراهم ، وعلى الرِّطاب تسعة دراهم ، وعلى كل أربع نخلات فارسية درهما ، وعلى كل ستّ نخلاتِ دَقَلٍ[1] مثل ذلك ، وعلى كل ستة أصول زيتون مثل ذلك ، ولم يضعوا إلا على نخل فى حديقة ، أو مجتمع غير شاذّ ، وتركوا فيما سوى ذلك من الغلّات السبع ، وألزموا الناس الجزية ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتِلَة والهرابذة والكتّاب ، ومن كان فى خدمة الملك ، وصيروها على طبقات : اثنى عشر درهما ، وثمانية دراهم ، وستة دراهم ، وأربعة دراهم ، على قدر إكثار الرجل و إقلاله ، ولم يُلزِموا الجزيةَ من كان أتى له من السنين دون العشرين أو فوق الخمسين ، ورفعوا هذه الوضائعَ الى كسرى فرضيَها وأمر بإمضائها وجباية مبلغها فى ثلاثة أنجم فى كل سنة ، وسماها ابراسيار . ومعنى ذلك الأمر المُتراضَى به .

٥٢/١٣

وكان أنوشروان — لما أراد أن يضع هذه الوضائع — أمر بإتمام المساحة التى بدأ بها قباذ ، وأحصى النخل والزيتون وغير ذلك ، والجماجم ؛ ثم أمر الكتّاب فأخرجوا جُمَل ذلك غير تفصيله ، وأذِنَ للناس إذنا عامّا ، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليهم الجمل المستخرجة من أصناف الغلّات وعدد النخل والزيتون والجماجم ، فقرأ ذلك عليهم . ثم قال كسرى : إنا قد رأينا أن نضع على ما أُحْصِىَ من جِرْبان[2]

(١) نخلات دقل : الدقل (بالتحريك) أردأ التمر .

(٢) جربان : جمع جريب ، والجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع . وقيل : عشرة آلاف ذراع .

هذه المساحة وضائعَ ، ونأمرَ بإنجامها فى السنة ثلاثة أنجم ، ونجمعَ فى بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا عن ثغر من الثغور أو طَرَفٍ من الأطراف فتقٌ[1] أو ما نكرهه وآحتجنا الى تداركه أو حسمه بذلنا الأموال التى عندنا ولم نحتج الى استئناف جبايتها ، فما الذى ترون فيما رأيناه من ذلك وأجمعنا عليه ؟ فلم يُشِرْ عليه أحد منهم بمشورة ، ولا نطق بكلمة . فكرر كسرى عليهم القول ثلاثا ، فقام رجل من عُرْضهم وقال : أتضع أيها الملك — عمرك الله — خالدا من هذا على الفانى ؟ من كرم يموت ، وزرع يَهِيج ، ونهر يَغِيض ، وعين أو قناة ينقطع ماؤها . فقال له كسرى : ياذا الكُلْفَة المشئوم ، من أىّ طبقات الناس أنت ؟ فقال : من الكتّاب . فقال كسرى : اضربوه بالدُّوِىّ حتى يموت ، فضربه الكتّاب خاصة تبرؤًا منهم الى كسرى من رأيه ، وما صدر من مقالته حتى قتلوه . وقال الناس : نحن راضون بما ألزمتنا أيها الملك به من خراج . ثم اجتمعت الآراء على وضع ماذكرناه من الوضائع ، فاستقرت على ذلك إلى أن جاء الإسلام ، وبها أخذ عمر رضى الله عنه لما فتحت بلاد فارس .

ذكر قطعة من سِيَر كسرى أنو شروان وسياسته

قال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم : إنه قرأ فيما كتبه أنو شروان من سيرة نفسه فى كتابٍ عَمِلَه فى سيرته وما ساس به مملكته : قال كسرى : كنت يوما جالسا بالدَّسْكرة وأنا سائر الى هَمَذان لنَصِيف هناك ؛ وقد أُعِدّ الطعام للرسل الذين بالباب من قِبَلِ خاقان والهياطلة والصين وقيصر ونقفور ؛ ودخل رجل من الأساورة مخترطا سيفَه حتى وصل الى السِّتر فى ثلاثة أماكن ، وأراد الدخولَ حيث نحن والوثوبَ علينا ، فأشار علىّ بعض خدمى

(١) فتق بين القوم : شق عصاهم فرجعت الحرب بينهم .

أن أخرجَ إليه بسيفى ، فعلمت أنه إن كان إنما هو رجل واحد فسوف يحال بيننا و بينه ، و إن كانوا جماعة فإنّ سيفى لا يغنى شيئا ؛ فلم أَخَف ولم أتحرك من مكانى ؛ وأخذه بعض الحـرس فإذا هو رجل رازىٌّ من حشمنا وخاصّتنا ، فلم يَشكّوا أنّ على رأيه كثيرا من النـاس ، فسألونى ألّا أجلسَ ولا أحضُر للشرب حتى يستبين الأمر ، فلم أُجبهم الى ذلك لئـلّا ترى الرسُـل منّى جُبْنًا ، فخرجت لِشَرْبِى[1] ، فلما فرغنا هدّدت الرازىَّ بالعقوبة وقطع اليمين ، وسألتـه أن يَصْدُقنى عن الذى حمله على ذلك ، وأنه إن صَدقَنى لم تنله عقوبة بعد ذلك ؛ فذكر أنّ قوما وضعوا من قِبَل أنفسهم كتبا وكلاما ، وذكروا أنه من عند الله ، أشاروا عليه بذلك وأخبروه أنى إن قتلته و إن قتلنى أدخل الجنة . فلما فحصت عن ذلك وجدته حقّا ؛ فأمرت بتخلية الرازىّ و بردّ ما أخذ منه ، وتقدّمت بضرب رقاب أولئك الذين أشاروا عليه حتى لم أدع منهم أحدا .

٥٣/١٣

وقال أنوشروان : إنى لمـا أحضرت القوم الذين اختلفوا فى الدين و جمعتهم للنظر فيما يقولونه ، بلغ من جرأتهم وخبثهم وقوّة شياطينهم أنْ لم يبالوا بالقتل والموت فى إظهار دينهم الخبيث ، حتى إنى سألت أفضلَهم رجلا على رءوس النـاس عن استحلاله قتلى ، فقال : نعم ، استحلّ قتلك وقتل من لا يطاوعنا على ديننا ! فلم آمر بقتله حتى إذا حضر وقت الغـداء أمرت أن يُحْبس الغداء وأرسلت اليـه بطُرف الطعام ، وأمرت الرسول أن يبلّغه عنّى أنّ بقائى له أنفعُ مما ذكر ؛ فأجاب الرسولَ إنّ ذلك حقٌّ ، ولكن سألنى الملك أن أَصْـدُقَه عن ذات نفسى ولا أكتمه شيئا مما أدين به ، و إنمـا أدين بما أخذته من مؤدّبى .

(١) الشرب (بفتح الشين المشدّدة) هنا : الجماعة يشربون الخمر .

قال أنو شروان: لمّا غدر بى قيصر وغزوته فذلّ وطلب الصلح وأنفذ إلىّ بمال وأقرّ بالخراج والفدية، تصدّقت على مساكين الروم وضعفائهم وضعفاء مزارعيهم مما بعث به قيصر بعشرة آلاف دينار، وذلك فيما وطِئتُه من أرض الروم دون غيرها.

وقال: لمّا أمرت بتصفح أمر الرعية بنفسى ورفع البلاء والظلم عنهم، وما ينوبهم من ثِقل الخراج؛ فإنّ فيه مع الأجر تزيين [أهل](١) المملكة وغناهم وقدرة الوالى على أن يستخرج منهم إنْ هو احتاج الى ذلك — وقد كان فى آبائنا من يرى أنّ وضع الخراج عنهم السنة والسنتين والتخفيف أحيانا مما يقويهم على عمارة أرضيهم — جمعت العمال ومن يؤدّى الخراج فرأيت من تخليطهم ما لم أر له حيلة إلا التعديلَ والمقاطعةَ على بلدة بلدة، وكورة كورة، ورُستاق رُستاق، وقرية قرية، ورجل رجل؛ فاستعملت عليهم أهل الثقة والأمانة فى نفسى، وجعلت فى كل بلد مع كل عامل أمناء يحفظون عليه، ووليت قاضىَ القضاة بكل كورة النظرَ فى أهل كورته، وأمرت أهل الخراج أن يرفعوا مايحتاجون الى رفعه إلينا الى القاضى الذى وليته أمرَ كُوَرِهم حتى لا يقدِرَ العامل أن يزيد شيئا، وأن يؤدّوا الخراج بمشهد من القاضى، وأن تعطى به البراءة، وأن يرفع خراج من هلك منهم، ولا يزاد الخراج ممن لم يُدرِكْ من الأحداث، وأن يرفع القاضى وكاتبُ الكورة وكاتبُ أهل الكورة وكاتب أهل البلد والعامل محاسبتهم الى ديواننا وقت الكَتْب بذلك.

وقال: رفع الينا مُوبَذان مُوبَذ أنّ قوما سمّاهم من أهل الشرف، بعضهم بالباب كان شاهدا وبعضهم ببلاد أخر، دينهم مخالف لما رويناه عن نبينا وعلمائنا، وأنهم يتكلمون بدينهم سرًّا ويَدعون اليه الناس، وأن ذلك مَفْسدةٌ للملك، وحيث

(١) زيادة يقتضيها السياق.

لا تقوم الرعيّة [إلا][1] على هوًى واحد، فيحزمون جميعا ما يحزم الملك، و يستحلّون ما يستحلّ الملك فى دينه؛ فإنّ ذلك إذا اجتمع للملك قَوِىَ بجنده لأجل الموافقة بينهم وبين الملك، فآستظهر على قتال الأعداء؛ فأحضرتُ أولئك المختلفين فى الأهواء، وأمرتُ أن يخاصموا حتى يقفوا على الحـقّ ويُقِرّوا به، وأمرت أن يُقْصَـوْا عن مدينتى وعن بلادى ومملكتى، ويُتبع كل من هو على هواهم فيُفعل به ذلك . ٥

وقال : إن الترك الذين فى ناحيـة الشمال كتبوا إلينا بما أصابهم من الحاجة، وأنهم لا يجدون بدّا — إن لم نعطهم شيئا — من أن يغزونا، وسألوا خصالا إحداها أن نتخـذهم فى جندنا، ونُجرِىَ عليهم ما يعيشون به، وأن نُعطيَهم من أرض الكَرَج[2] وبَلَنجر[3] وتلك الناحيـة ما يعيشون به، فرأيت أن أسـير فى ذلك الطريق الى باب صُول[4]، وأحببت أن يَعرِف مَنْ قبلنا من الملوك هناك نشاطنا للأسفار وقوّتنا عليها ١٠ متى هممنا، وأن يَرَوْا مَا رأوْا من هيبة الملوك وكثرة الجنود وتمـام العُـدّة وكمال السلاح ما يقوَوْن به على أعدائهم، ويعرفون به قوّة مَنْ خلفهم إن هم آحتاجوا اليه، وأحببنا بمسيرنا أن نُجرِىَ لهم على أيدينا الجوائز والحُمْلان[5]، والقربَ من المجلس واللطفَ فى الكلام ليزيدَهم ذلك مودّة لنـا ورغبةً فينا، وحرصا على قتال أعدائنا، وأحببت أيضا التعهدَ لحصونهم، وأن أسأل أهل الخراج عن أمرهم فى مسيرنا . ١٥ ٥٤/١٣

فسرت فى طريق همذان وأذربيجان. فلما بلغت الى باب الصول ومدينة فيروز خسرو يمّمت تلك المدائنَ العتيقة، وتلك الحدود، وأمرت ببناء حصون أُخَر . فلمـا بلغ

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) الكرج : مدينة بين همذان وأصبهان فى نصف الطريق والى همذان أقرب . (٣) بلنجر : وراء مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، فتحها عبد الرحمن بن ربيعة وقال البلاذرى : سلمان بن ربيعة الباهلى . ٢٠

(٤) صول : مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب وهو الدربند .

(٥) الحملان (بالضم) : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

خافانَ الخَزَر نزولُنا هناك تخوّف أن نغزوَه، فكتب أنه لم يزل — منذ ملكتُ — يحب موادَعتى، وأنه يرى الدخول فى طاعتى؛ ورأى بعضُ قواده — لمّا شاهد حاله — تركَه وأتانا فى ألفين من أصحابه؛ فقبلناه وأنزلناه فى تلك الناحية، وأجريت عليه وعلى أصحابه الرزق، وأمرت لهم بحصن هناك، وأمرت بمصلّى لأهل ديننا، وجعلت فيه مُوبَذًا وقوما نسّاكا، وأمرتهم أن يُعلموا من دخل من الترك فى طاعتنا ما فى طاعة الولاة من المنفعة العاجلة فى الدنيا، والثواب الآجل فى الأخرى، وأن يَحثُّوهم على المودّة والصحبة[1] والعدل والنصيحة ومجاهدة العدوّ، وأن يُعلّموا أحداثهم رأينا ومذهبنا، وأقمت لهم فى تلك التخوم الأسواقَ، وأصلحت طرقهم[2] وقوّمت السكك. ونظرنا فيما اجتمع لنا هناك من الخيل والرجال فإذا هو بحيث لو كان بوسط فارس لكان منزلنا بها فاضلا.

وقال: فلما أتى لمُلْكنا ثمانٍ وعشرون سنة جدّدتُ النظرَ فى أمر المملكة والعدلَ على الرعية، والنظرَ فى أمرهم، وإحصاءَ مظالمهم، وإنصافَهم. وأمرتُ مُوبَذَ كل ثغر ومدينة وبلد وجُنْدٍ بإنهاء ذلك الىّ. وأمرتُ بعرض الجند، من كان منهم بالباب بمشهدٍ منّى، ومَن غاب فى الثغور والأطراف بمشهدٍ من القائد وبادوستان[3] والقاضى وأمينٍ من قِبَلنا. وأمرت بجمع أهل كُوَرِ الخراج فى كل ناحية من مملكتى الى مصرها[4] مع القائد وقاضى البلد والكاتب والأمين. وسرّحتُ من

(١) فى الأصل: «الصحة» والسياق يقتضى ما أثبتناه.

(٢) فى الأصل: «طروسهم» وهو تحريف، والسياق يقتضى ما أثبتناه.

(٣) كذا فى الأصول. ولعلها «باداستان» وهى كلمة فارسية مركبة من كلمتين باد (بالباء الفارسية) ومعناها الكورة وتخفف بحذف الألف، يريد حاكم الجهة (راجع القاموس الفارسى الانجليزى لاستنجاس ومقدمة قاموس الأمكنة والبقاع للمرحوم على بهجت بك).

(٤) كذا فى الأصول.

قِبَلى مَنْ عرفتُ صحبتَه وأمانته ونُسُكَه وعلمه، ومن جرّبت ذلك منه الى كل مصر ومدينـة حيث أولئك العمالُ والغلمانُ وأهـلُ الأرض ليجمعوا بينهـم وبين أهل أراضيهم وبين وضيعهم وشريفهم، وأن يُرْفع الأمرُ كلُّه على حقّه وصدقه، فما نفذ لهم فيه أمر أو صَحّ فيه القضاءُ فرضىَ به أهلُه فرَغوا منه هنالك، وما أَشْكل عليهم رفعوه الىّ. ٥

وبلغ اهتمامى بتفقّـد ذلك ما لولا الذى أُدارِى من الأعداء والثغور لبـاشرت أمرَ الخراج والرعية بنفسى قـريةً قريةً حتى أتعهدَها وأكلّم رجلا رجلا من أهل مملكتى؛ غير أنى تخوّفت أن يضـيع بذلك السببِ أمرٌ هو أعظم منـه، الأمر الذى لا يُغنى فيه أحدٌ غنائى ولا يقـدِر على إحكامه غيرى، ولا يكفينيه كافٍ، مع الذى فى الشخوص الى قـريةٍ قريةٍ من المئونة على الرعيـة من جندنا، ومَنْ ١٠ لا نجـد بدّا من إخراجه معنا. وكرهنا أيضا إشخاصَهم إلينـا مع تخوّفنا أن يشتغل أهل الخراج عن عِمارة أراضيهم، أو يكونَ فيهم من يدخُل عليـه من ذلك مئونة فى تكلُّف السير الى بابنا، وقد ضيّع قُرَاه وأنهاره وما لا يجد بدّا من تعهده فى السنة كلها فى أوقات العمارة، ففعلنا ذلك بهـم ووكّلنا مُوبَذانَ[1] مُوبَذ بذلك، وكتبنا به الكتب وسرّحنا مَنْ وَثِقنا به، ورجونا أن يجرى مجرانا وأشخصناه وقلّدناه ذلك. ١٥

قال: ولمـا أمّن الله جميعَ أهل مملكتنا من الأعداء فلم يبق منهم إلا نحو ألفى رجل من الديلم الذين عَسُر افتتاحُ حصونهـم لصعوبة الجبال عليها، لم نجـد شيئا أنفع لمملكتنا من أن نفحص عن الرعيـة، وأولئك الأمناءِ الذين وصّيناهم بإنصاف أهـل الخراج. وكان بلغنا أن أولئك الأمنـاءَ لم يبالغوا على قدر رأينـا فى ذلك،

(١) موبذان موبذ: قاضى القضاه فى دولة الفرس قبل الإسلام. وقد بقيت وظيفة الموبذ (القاضى) الى أواخر الدولة العباسية، للقيام بأمور المجوس الذين دخلوا فى الذمة. ٢٠

فأمرت بالكُتْبِ الى قاضى كورةٍ كورةٍ أن يجمع أهلَ الكورة بغير علم عاملهم وأُولى أمرهم فيسألَهم عن مظالمهم وما استُخرِج منهم ، ويفحصَ عن ذلك بمجهود رأيه ويبالغَ فيه ، ويكتبَ حالَ رجلٍ رجلٍ منهم ويختِمَ عليه بخاتمه وخاتم الرضا من أهل تلك الكورة ، ويبعثَ به الىّ ويسرّحَ ممن يجتمع رأى أهل الكورة عليه بالرضا نفرا ، وإن أحبّوا أن يكون فيمن يُشْخَصُ بعضُ سِفلتهم أيضا فعل ذلك .

فلما حضروا جلست للناس وأذِنت لهم بمشهد من عظماء أرضنا وملوكهم وقضاتهم وأحرارهم وأشرافهم ، ونظرت فى تلك الكتب والمظالم ، فأيّة مظلمة كانت من العمال ومن وكلائنا ، أو من وكلاء أولادنا ونسائنا وأهل بيتنا حططناها عنهم بغير بينة ؛ لعلمنا بضعف أهل الخراج منهم ، وظلم أهل القوّة من السلطان لهم ، وأيّةُ مظلمة كانت لبعضهم من بعض ووَضَحت لنا ، أمرت بإنصافهم قبل البرَاح ، وما أشكل وأوجب الفحصُ عنه شهودَ البلد وقاضيها سرّحت معه أمينا من الكتّاب ، وأمينا من فقهاء ديننا وأمينا ممن وثقنا به من خدمنا وحاشيتنا ، فأحكمت ذلك إحكاما وثيقا . ولم يجعل الله لذوى قرابتنا ورحمنا وخدمنا وحاشيتنا منزلة عندنا دون الحقّ والعدل ؛ فإن من شأن قرابة الملك وحاشيته أن يستطيلوا بعزّته وقوّته ، فإذا أهمل السلطان أمرَهم هَلَكَ من جاوره إلّا أن يكون فيهم متأدّب بأدب مَلِكه ، محافظ على دينه ، شفيق على رعيّته ، وأولئك قليل ؛ فدعانا الذى اطّلعنا عليه من ظلم أولئك ألا نطلبَ البيِّنَةَ عليهم فيما ادُّعِىَ قِبَلهم . ولم نزل نردّ المظالم ، ولم نرِد أيضا ظلم أحد ممن كان عزيزا بنا ، منيعا بمكانه ومنزلته عندنا ، فإن الحقّ واسع للضعفاء والأقوياء والفقراء والأغنياء ؛ ولكنّا لما أشكلت الأمور فى ذلك علينا كان الحَمْلُ على خواصّنا وخدمنا أحبَّ الينا من أن نحمل على ضعفاء الناس ومساكينهم ، وأهل الفاقة والحاجة منهم . وعلمنا أن أولئك الضعفاء لايقدرون على ظلم مَنْ حولنا . وعلمنا مع ذلك

٥٥/١٣

أن الذين أعدينا[1] عليهم من خاصّتنا يرجعون من نعمتنا وكرامتنا الى ما لا يرجع اليه أولئك . ولعمرى إن خواصّنا الينا، وآثر خَدَمِنَا فى أنفسنا الذين يحفظون سيرتنا فى الرعية، و يرحمون أهل الفاقة والمسكنة و ينصفونهم؛ فإنه قد ظلمنا مَنْ ظلمهم، وجار علينا مَنْ جار عليهم، وأراد تعطيل ذمتنا التى هى حرزُهم وملجأهم .

قال : ثم كَتَب الينا على رأس سبع وثلاثين سنة من ملكنا، أربعةُ أصناف من الترك من ناحية الخزر، ولكل صِنْف منهم ملك، يذكرون مادخل عليهم من الحاجة، وما لهم من الحظ فى عبوديتنا ، وسألوا أن نأذن لهم فى القدوم بأصحابهم لخدمتنا، والعمل لما نأمرهم به، وألا نحقد عليهم ما سلف منهم قبل مُلكنا ، وأن نُنزلهم منزلة سائر عبيدنا، فإنا سنرى فى كل ما نأمرهم به من قتال وغيره كأفضل ما نرى من أهل نصيحتنا، فرأيت فى قبولى إياهم عدة منافع، منها : جَلَدُهم و بأسُهم، ومنها : أنى تخوّفت أن تحملهم الحاجة على إتيان قيصر أو بعض الملوك فيقوَوْا بهم علينا، وقد كان فيما سلف يستأجر منهم قيصر لقتال ملوك ناحيتنا بأغلى الأجرة . وكان لهم فى ذلك القتال بعضُ الشوكة بسبب أولئك الأتراك ؛ لأن الترك ليس عندهم لذةٌ للحياة، فهو الذى يجرئهم مع شقاء معايشهم على الموت؛ فكتبت اليهم إنّا نقبل من دخل فى طاعتنا ، ولا نبخل على أحد بما عندنا، وكتبت الى مَرزُبان[2] الباب آمره بأن يُدخِلهم أوّلا أوّلا، فكتب إلىّ إنه قد أتاه منهم خمسون ألفا بنسائهم وأولادهم وعيالهم . ولما بلغنى ذلك أحببت أن أقرّبهم الىّ ليعرفوا إحسانى إليهم، وأعظّمَهم ليطمئنّوا الى قوّادنا، حتى إذا أردنا تسريحهم مع بعض قوّادنا كان كل واحد بصاحبه واثقا، فشخصنا الى أذربيجان، فلما نزلتها أذنت

(١) أعدينا عليهم : ظلمناهم .

(٢) المرزبان : الرئيس من الفرس .

لهم فى القدوم، وأتانى عند ذلك طرائف من هدايا قيصر، وأتانى رسول خاقان الأكبر، ورسول صاحب الروم، ورسول صاحب خوارزم، ورسول ملك الهند، والداور[١]، وكابل شاه[٢]، وصاحب سرنديب[٣]، وصاحب كله[٤]، وكثير من الرسل، وتسعة وعشرون ملكا فى يوم واحد، وانتهيت الى أولئك الأتراك الثلاثة والخمسين ألفا فأمرت أن يُصَفُّوا هناك وركبت لذلك، فكان يومئذ من أصحابى وممن قدم علىّ ومن دخل فى طاعتى وعبوديّتى مَنْ لم يسعهم مَرْجٌ كان طوله عشرة فراسخ، فحمدت الله كثيرا وأمرت أن يُصَفّ أولئك الأتراك فى أهل بيوتاتهم على سبع مراتبَ، ورأست عليهم منهم، وأقطعتهم وكسوت أصحابهم، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرت لهم بالمياه والأرضين، وأسكنت بعضهم مع قائد لى باللان[٥]، وقسمتهم فى كل ما احتجنا اليه من الثغور، وضممتهم الى المرزُبان، فلم أزل أرى من مناصحتهم واجتهادهم فيما نوجههم له ما يسرنا فى جميع البلدان والثغور وغيرها .

---

(١) الداور : وأهل تلك الناحية يسمونها زمنداور، ومعناه أرض الداور، وهى ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رخج وبست والغور . قال الاصطخرى : الداور : اسم إقليم خصيب، وهو ثغر الغور من ناحية سجستان . ومدينة الداور : تل، ودرغور؛ وهما على نهر هند مند (راجع معجم البلدان لياقوت).

(٢) كابل وملكها يقال له الشاه : ولاية ذات مروج كبيرة بين هند وغزنة، وقيل : هى من ثغور طخارستان . ولها من المدن : واذان، وخواش، وخشك، وخبر، وبها العود والنارجيل والزعفران والأهليلج لأنها متاخمة للهند (راجع معجم البلدان لياقوت وتقويم البلدان لأبى الفدا) .

(٣) سرنديب : هى جزيرة سيلان الآن .

(٤) كله : فرضة بالهند وهى فى منتصف الطريق بين عمان والصين، يسكنها المسلمون والهند والفرس، وبها معادن الرصاص ومنابت الخيزران وشجر الكافور (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا ومعجم البلدان لياقوت).

(٥) اللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر، والعامة يغلطون فيهم فيقولون علان، وهم نصارى تجلب منهم عبيد أجلاد . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

٥٦/١٣ قال : وكتب الىّ خاقان الأكبر يعتذر الىّ من بعض غَدَراته و يسأل المراجعةَ والتجاوزَ ؛ وذكر فى كتابه و رسالتـه أن الذى حمـله على عداوتى وغزو أرضى مَنْ لم يُنظَر له ، وناشدنى الله أن أتجاوز عنه ، وتوثّق لى بمـا أطمئنّ اليـه . وذكر أن قيصر قد أرسل اليـه و زعم أنه يستأذننى فى قبـول رسله ، وأنه لا يعمل فى قبول رسل أحد إلا بمـا آمره ، ولا يجاوز أمرى ، ولا يرغب فى الأموال ولا فى المودّات لأحد إلا برضائى ، وكان دَسِيسٌ[1] لى فى الترك يكاتبنى بندم خاقان وندم أصحابه على غدره وعداوته إياى ، فأجبته : إنى لعَمْرى ما أبالى إن طبيعة نفسـك وغريزتَك غدرت بنا أم أطعتَ غيرك فى ذلك ، وما ذنبـك فى طاعة مَنْ أطعتَ فى ذلك إلا كِذْبتك فيما فعلتَه برأى نفسك ، و إنى قد استحققتُ أشد العقوبة . وكتبتُ أنى لا أظن شيئا من الوثيقة تفى لكم إلا وقد كنتَ ضيعتَه ، ولا أظن شيئا وثقت لنا به من قبل اليوم ثم غدرتم ، فكيف نطمئنّ اليك ونثق بقولك ؟ ولسنا نأمنك على مثل ما فعلت من الغدر ونقض العهد والكذب فى اليمين . وذكرتَ أن رسل قيصر عندك ، ووقفنا على استئذانك إيانا فيهم ؛ و إنى لست أنهاك عن مودّة أحد . وكرهت أن يرى أنى أتخوّف مصادقته وأهاب ذلك منـه . وأحببت أن أعلمه أنى لا أبالى بشىء ممـا جرى بينهما . ثم سرحت لمرمة المدائن والحصون التى بخراسان وجمع الأطعمة والأعلاف اليها ما يحتاج اليـه الجند ، وأمرت أن يكونوا على استعداد وحذر ، ولا يكون من غفلتهم ما كان فى المرة الأولى وهم على حال الصلح .

قال : وكان شـكرى لله تعالى لمـا وهب لى وأعطانى متصلا بنعمه الأول التى وهبها لى فى أوّل خلقه إياى ؛ فإنمـا الشكر والنِّعم عِدْلا كِفَّتَى الميزان أيهما رجح بصاحبه احتاج الأخفّ الى أن يُزاد فيـه حتى يعادلَ صاحبه ، فإذا كانت النعم

(١) الدسيس : من تدسه ليأتيك بالأخبار (الجاسوس) .

كثيرة والشكر قليلا انقطع الحِمْل وهلك ظهرُ الحامل ، و إذا كان ذلك مستويا استمرّ الحامل . وكثيرُ النعم يحتاج صاحبها الى كثير الشكر ، وكثيرُ الشكر يجلب كثير النعم . ولما وجدت الشكر بعضه بالقول ، وبعضه بالعمل ، ونظرت فى أحبّ الأعمال الى الله وجدته الشيءَ الذى أقام به السموات والأرضَ ، وأرسى به الجبال ، وأجرى به الأنهار وبرأ به البريّة . وذلك الحقُّ والعدلُ فلزمتهما . ورأيت ثمرة الحقّ والعدل عمارة البلدان التى بها معايش الناس والدوابّ والطير وسكان الأرض .

ولما نظرت فى ذلك وجدت المقاتِلة أُجَراء أهل العمارة ، ووجدت أهل العمارة أجراء المقاتلة ، فإنهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم ، ومجاهدتهم من ورائهم ، فحَقٌّ على أهل العمارة أن يُوَفُّوهم أجورهم ؛ فإن عمارتهم تتمّ بهم ، و إن أبطأوا عليهم بذلك أو هنوهم فقوى عدوّهم ؛ فرأيت من الحق على أهل الخراج ألا يكون لهم من عمارتهم إلا ما أقام معايشهم ، وعمروا به بلدانهم ، ورأيت ألا أجتاحهم وأستفرغَ ذات أيديهم للخزائن والمقاتلة ، فإنى إذا فعلت ذلك ظلمت المقاتلة مع ظلم أهل الخراج ؛ وذلك أنه إذا فسد[1] العامر فسد المعمور ، وكذلك أهل الأرض والأرض ، فإنه إذا لم يكن لأهل الخراج ما يعيشهم و يعمرون به بلادهم هلكت المقاتلة الذين قوّتهم بعمارة الأرض ؛ فلا عمارة للأرض إلا بفضل ما فى يد أهل الخراج ؛ فمن الإحسان الى المقاتلة والإكرام لهم أن أرفُق بأهل الخراج وأعمر بلادهم ، وأدع لهم فضلا فى معايشهم ؛ فأهل الأرض وذوو الخراج أيدى المقاتلة والجند وقوتُهم ، والمقاتلة أيضا أيدى أهل الخراج وقوتُهم .

ولقد ميزت ذلك بجهدى وطاقتى ، وفكرت فيه فما رأيت أن أفضّل هؤلاء على هؤلاء إذ وجدتهما كاليدين المتعاونتين والرجلين المترادفتين .

(١) فى الأصل : قصد ، والسياق يقتضى ما أثبتناه .

ولعمرى ما أعفى أهلَ الخراج من الظلم من أضرّ بالمقاتلة ، ولا كفّ الظلمُ عن المقاتلة مَنْ تعدّى على أهل الخراج . ولولا سفهاء الأساورة لأبقوا على أهل الخراج والبلاد إبقاء الرجل على ضيعته التى منها معيشته وحياته وقوته ، ولولا جهّال أهل الخراج لكفّوا عن أنفسهم بعض ما يحتاجون إليه من المعايش إيثارا للمقاتلة على أنفسهم .

٥٧/١٣ قال : ولما فرغنا من إصلاح العامة والخاصة بهذين الركنين من أهل الخراج والمقاتلة كان ذلك ثمرةَ العدل والحقّ الذى دبّر الله العظيمُ خلائقَه به ، وشكرت الله على نعمته والمقاتلةَ فى أداء حقه على مواهبه ، وأحكمنا أمر المقاتلة وأهلِ الخراج ببسط العدل ، وأقبلنا بعد ذلك على السِّيَرِ والسُّنَن ، ثم بدأنا بالأعظم فالأعظم من أمورنا ، والأكبرَ فالأكبر عائدا على جندنا ورعيتنا ، ونظرنا فى سِيَرِ آبائنا من لَدُنْ بستاسف الى مُلْكِ قُباذ أقربِ آبائنا . ثم لم نترك إصلاحا فى شىء من ذلك إلا أخذناه ، ولا فساد إلا أعرضنا عنه ، ولم يَدْعُنا حبّ الآباء إلى قبول ما لا خير فيه من السنن ، ولكنّا آثرنا حبَّ الله وشكره وطاعته .

ولما فرغنا من النظر فى سير آبائنا وبدأنا بهم ، وكانوا أحقّ بذلك ، فلم نَدَعْ حقا إلا آثرناه ، ووجدنا الحق أقرب القرابة . نظرنا فى سير أهل الروم والهند فاصطفينا محمودها ، وجعلنا عيار(١) ذلك عقولنا ، وميزانه بأحلامنا ، فأخذنا من جميع ذلك ما زيّن سلطاننا ، وجعلناه سنة وعادة ، ولم تنازعنا أنفسنا الى ما تميل به أهواؤنا ، وأعلمناهم ذلك وأخبرناهم به ، وكتبنا إليهم بما كرهنا لهم من السير ونهيناهم عنه وتقدّمنا إليهم فيه ؛ غير أنا لم نُكرِه أحدا على غير دينه وملّته ، ولم نحسُدهم ما قِبَلنا ، ولا منع ذلك انقباضٌ بعلم ما عندهم ، فإن الإقرار بمعرفة الحقّ

(١) عيار : العيار والمعيار ما جعل نظاما للشىء يقاس به ويسوى .

والعلم والاتباع له من أعظم ما تزيّنت به الملوك . ومن أعظم المضرة على الملوك الأَنَفةُ من العلم والحميّة من طلبه ، ولا يكون عالما من لا يتعلّم .

ولما استقصيت ما عند هاتين الأمتين من حكمة التدبير والسياسة ، ووضلت بين مكارم أسلافى ، وما أحدثتُه بالرأى ، وأخذت به نفسى ، وقبلته عن الملوك الذين لم يكونوا منا ، وثبت على الأمر الذى نلت به الظفر والخير ، ورفضت سائر الأمم لأنى لم أجد عندهم رأيا ولا عقولا ولا أحلاما ، ووجدتهم أصحاب بَغْى وحَسَد وكَلَب وحرص وشحّ وسوء تدبير وجهالة ولؤم عهد وقلة مكافأة . وهذه أمور لا تصلح عليها ولاية ، ولا تتمّ لها نعمة .

قال ابن مسكويه : وقرأت مع هذه السير فى آخر هذا الكتاب الذى كتبه أنو شروان فى سيرة نفسه أن أنو شروان لما فرغ من أمور المملكة وهذبها جمع إليه الأساورة مع القواد والعظماء والمرازبة والنساك والموابذة وأماثل الناس معهم فخطبهم فقال :

ذكر خطبة أنو شروان

قال : أيها الناس ، أَحْضِرونى فهمَكم ، وأَرعَوْنى أسماعَكم ، وناصحونى أنفسَكم ، فإنى لم أزل واضعا سيفى على عنقى منذ وَلِيتُ عليكم غرضا للسيوف والأسنة ، وكل ذلك للمدافعة عنكم ، والإبقاء عليكم ، وإصلاح بلادكم مرة بأقصى الشرق ، وتارة فى آخر المغرب ، وأخرى فى نهاية الجنوب ، ومثلها فى جانب الشمال ، ونقلت الذين اتهمتهم إلى غير بلادهم ، ووضعت الوضائع فى بلدان الترك ، وأقمت بيوت النيران بقسطنطنية ، ولم أزل أصعد جبلا شامخا وأنزل عنه ، وأطأ حزونه بعد سهوله ، وأصبر على المخمصة[1] والمخافة ، وأكابد البرد والحر ، وأركب هول البحر وخطر المفازة ؛

(١) المخمصة : خلاء البطن جوعا .

إرادةَ هذا الأمر الذى قد أتمه الله لكم : من الإثخان فى الأعداء، والتمكن فى البلاد، والسعَة فى المعاش ، ودَرْك العز ، وبلوغ ما نلتم ؛ فقد أصبحتم بحمد الله ونعمته على الشرف الأعلى من النعمة ، والفضـل الأكبر من الكرامة والأمن ، وقد هزم الله أعداءكم وقتلهم؛ فهم بين مقتول هالك، وحىّ مطيع لكم سامع؛ وقد بقى لكم عدوّ عددهم قليل، وبأسهم شديد، وشوكتهم عظيمة؛ وهؤلاء الذين بقَوْا أخوف عندى ٥ عليكم ، وأحرى أن يهزِموكم ويغلِبوكم من الذين غلبتموهم من أعدائكم ؛ وأصحاب السـيوف والرماح والخيول ؛ وإن أنتم أيها الناس غلبتم عدوّكم هـذا الباقى، غَلَبَتكم لعدوّكم الذين قاتلتم وحاصرتم، فقد تمّ الظّفَر والنصر، وتمّت فيكم القوّة، وتمّ بكم العزّ، وتمّت عليكم النعمة، وتمّ لكم الفضل، وتمّ لكم الاجتماع والألفـة والصحة والسلامة؛ وإن أنتم قصّرتم ووهنتم ، وظفِرَ هـذا العدوّ بكم فأين الظّفَر الذى كان ١٠ منكم، فاطلبوا أن تقتلوا من هذا العدوّ الباقى مثل ما قتلتم من ذلك العدوّ المـاضى؛ وليكن جدّكم فى هذا واجتهادكم واحتشادكم أكبرَ وأجلّ وأحزم وأعزم وأصح وأشدّ، فإن أحقّ الأعداء بالاستعداد له أعظمُهم مكِيدة، وأشدهم شوكة، وليس الذى كنتم تخافون من عدوّكم الذى قاتلتم بقريب من هؤلاء الذين آمركم بقتالهم الآن؛ فاطلبوه وصـلوا ظفرا بظفر، ونصرا بنصر، وقوّة بقوّة، وتأييدا بتأييـد، وعزما بحزم ١٥ وعزم، وجهادا بجهاد؛ فإن بذلك اجتماعَ إصلاحكم، وتمامَ النعمة عليكم، والزيادة فى الكرامة من الله لكم ، والفوزَ برضوانه فى الآخرة .

٥٨/١٣

ثم اعلموا أن عدوّكم من الترك والروم والهند وسائر الأمم لم يكونوا ليبلغوا منكم — إن ظهروا عليكم وغلبوكم — مثل الذى يبلغ هذا العـدوّ منكم إن غلبكم وظهر عليكم؛ فإن بأسَ هذا العدوّ أشدُّ ، وكيدَه أكبرُ، وأمرَه أخوف من ذلك العدوّ . ٢٠

يأيها الناس، إنى قد نَصِبْتُ[1] لكم كما رأيتم، ولقيتُ ما قد علمتم بالسيف والرُّمح والمفاوز والبحار والسهولة والجبال؛ أقارع عدوًا عدوًا، وأكالب جنْدا جنْدا، وأكابد مِلكًا ملكا، لم أتضرّع إليكم هذا التضرّعَ فى قتال أولئك الجنود والملوك، ولم أسألكم هذه المسألةَ فى طلب الجِدّ منكم، والاجتهادِ والاحتفالِ والاحتشادِ، وإنما فعلت هذا لعِظَم خطره، وشدّة شوكته، ومخافةِ صولتِه بكم. وإن أنا أيها الناس لم أَغلِبْ هذا العدوَ وأنْفِه عنكم، فقد أبقيت فيكم أكبر الأعداء، ونفيت عنكم أضعفها، فأعينونى على نفى هذا العدوّ المَخُوف عليكم، القريبِ الدار منكم؛ فأُنشدكم اللهَ أيها الناس لمّا أعتمونى عليه حتى أنفِيَه عنكم، وأخرجَه من بين أظهركم فيتمّ بلائى عندكم، وبلاءُ الله فيكم عندى، وتتمّ النعمةُ علىّ وعليكم، والكرامةُ من الله لى ولكم، ويتمّ هذا العز والنصر، وهذا الشرفُ والتمكين، وهذه الثروة والمنزلة.

يأيها الناس، إنى تفكرت بعد فراغى من كتابى هذا، وما وصفتُ من نعمة الله علينا فى الأمر الذى لمّا غلب دارا الملوكَ والأممَ وقهرها، واستولى على بلادها، ولمّا تحكّم أمر هذا العدوّ، هلك وهلكت جنوده بعد السلامة والظّفَر والنصر والغلبة؛ وذلك أنه لم يرض بالأمر الذى تمّ له به المُلك، واشتدّ به السلطان، وقوى به على الأعداء، وتمّت عليه به النعمةُ، وفاضت عليه من وجوه الدنيا كلّها الكرامةُ، حتى احتال له بوجوه النميمة والبغى؛ فدعا البغى الحسدَ[2] فتقوّى به وتمكّن، ودعا الحسدُ بغضَ أهل الفقر لأهل الغنى، وأهل الخمول لأهل الشرف؛ ثم أتاهم الإسكندر وهم على ذلك من تفرُّق الأهواء، واختلاف الأمور، وظهور البغضاء

(١) نصبت: يقال نصب الرجل (بكسر الصاد) نصبا بفتحها: أعيا وتعب.

(٢) فى الأصول: فدعا البغى والحسد، ولعل هذه الواو مقحمة من الناسخ.

وقوّة العداوة فيما بينهم والفساد منهم . ثم آرتفع ذلك إلى أن قتله صاحب حرسه وأمينه على دمه، للذى شمل قلوب العامة من الشر والضغينة، ونبت فيها من العداوة والفُرقة ، وكفى الإسكندر مؤنة نفسه؛ وقد اتعظتُ بذلك اليوم وذكرتُه .

يأيها الناس، فلا أسمعنّ فى هذه النعمة تفرقا ولا بغيا ولا حسدا ظاهرا ، ولا وشاية ولا سعاية، فإن الله قد طهّر من ذلك أخلاقنا ومُلْكنا، وأكرم عنه ولايتنا، وما نلت ما نِلت بنعمة ربنا وحمده بشىء من الأمور الخبيثة التى نفتها العلماء ، وعافتها الحكماء ؛ ولكن نلت هذه الرتبة بالصحة والسلامة، والحب للرعية، والوفاء والعدل والاستقامة والتؤدة . وإنما تركنا أن نأخذ عن هذه الأمم التى سميناها ، أعنى من الترك والبربر والزنج والجبال وغيرهم، مثل ما أخذنا عن الهند والروم لظهور هذه الأخلاق فيهم وغلبتها عليهم . ولا تصلح أمة قط وملكها على ظهور هذه الأخلاق التى هى أعدى أعدائكم .

يأيها الناس، إن فيما بسط الله علينا بالسلامة والعافية والاستصلاح غِنًى لنا عما نطلب بهذه الأخلاق الرديئة المشئومة؛ فأكفونى فى ذلك أنفسكم، فإنّ قهْر هذه الأعداء أحبُّ إلىّ وخير لكم من قهر أعدائكم من الترك والروم . فأما أنا أيها الناس فقد طِبتُ نفسا بترك هذه الأمور ومحقها وقمعها ونفيها عنكم . ٥٩/١٣

يأيها الناس، إنى قد أحببت أن أنفىَ عدوّكم الظاهر والباطن ؛ فأما الظاهر منهما فإنّا بحمد الله ونعمته قد نفيناه وأعاننا الله عليه وحصد لنا شوكته ، وأحسنتم فيه وأجملتم وآسيتم وأجهدتم ، فآفعلوا فى هذا العدوّ كما فعلتم فى ذلك العدوّ، وآعملوا فيه كالذى عَمِلتم فى ذلك، وآحفظوا عنّى ما أوصيكم به فإنى شفيق عليكم ناصح لكم.

أيها الناس، من أحيا هذه الأمورَ فينا فقد أفسد بلاءه عندنا بقتاله مَنْ كان يقاتلنا من أعدائنا، فإن هذه أكثر مضرةً، وأشدّ شوكةً، وأعظم بليةً، وأضر تَبِعةً.

وٱعلموا أن خيركم يأيها الناس من جمع إلى بلائه السالف عندنا المعونةَ لنا على نفسه فى هذا الغابر . وٱعلموا أن من غلبه هذا غلبه ذاك ، ومن غلب هذا فقد قهر ذاك ؛ وذلك أن بالسلامة والألفة والمودّة والاجتماع والتناصح منكم يكون العزّ والقدرة والسلطان ، ومع التحاسد والبَغْى والنميمة والسبِّ يكون ذهاب العز ، وٱنقطاع القوّة وهلاك الدنيا والآخرة ؛ فعليكم بما أمرناكم به ، وٱحذروا ما نهيناكم عنه ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله . عليكم بمواساة أهل الفاقة ، وضيافة السابلة[1] ، وأكرموا جوار من جاوركم ، وأحسنوا صحبة من دخل فيكم من الأمم ، فإنهم فى ذمّتى ، ولا تَجْبَهوهم ولا تظلموهم ، ولا تَسَلَّطوا عليهم ، ولا تُحرجوهم ، فإن الإحراج يدعو إلى المعصية ، ولكن اصبِروا لهم على بعض الأذى ، واحفظوا أمانتكم وعهدكم ، واحفظوا ما عَهِدت إليكم من هذه الأخلاق ، فلا تَصلُحوا إلا معها ، وبالله تعالى ثقتنا فى الأمور كلها . ثم هلك أنو شروان بعد ثمان وأربعين سنة من ملكه .

ثم ملك بعده ٱبنه هرمز بن كسرى أنو شروان . وأمه قاقم بنة خاقان ملك الترك . وقيل : بل ابنة ملك من ملوك الخزر . قال : وكان كثيرَ الأدب ، حسن السياسة ، جميل النية ، وافر الإحسان إلى الضعفاء والمساكين .

وكان من سيرته المرتضاة أنه يُجرى الخير والعدل على الرعية ، ويشدّد على العظماء المتسلطين على الضعفاء . وبلغ من عدله أنه كان يسير إلى المياه ليَصِيفَ هناك ، فأمر فنودِى فى مسيره أن يُتحامى مواضعُ الحروث ، ولا يسيرُ فيها الراكب لئلا يضروا بأحد ، ووكّل بتعهد ما يجرى فى عسكره ، ومعاقبةِ من تعدّى أمره وتغريمه لصاحب

(١) السابلة هنا : المارون على الطريق المسلوك .

الحرث عوضا عما أفسده له . وكان ابنه كسرى أبرويز فى عسكره فغار مركبٌ من مراكبه ووقع فى حرث كان على الطريق، فأفسد ما مرّ عليه ، فأُخذ ودفع إلى الرجل الموكل من جهة هرمز بمعاقبة من أفسد هو أو دوابُّه شيئا من الحرث، فلم يجسر الرجل الموكل من جهة هرمز أن ينفِّذ أمر هرمز فى ابنه أبرويز ، فرفع الأمر إلى هرمز فأمره أن يجدع أذنيه ، ويبتُر ذنبَه ، ويغرّم كسرى أبرويز لصاحب الحرث ؛ فخرج الرجل لإنفاذ الأمر، فدس له كسرى رهطا من العظماء يسألونه التثبت فى الأمر ، فكلّموه فلم يُجِب إلى ذلك . فسألوه تأخير إنفاذ الأمر فى المركَبِ حتى يكلموا هرمز ، ففعل ، ولقى أولئك الرهطُ هرمزا وأعلموه أن ذلك المركب الذى غار إنما غار زَعارةً[1]، وأنه أُخِذَ لوقته. وسألوه أن يأمر بالكف عن جدعه وبتره ، لما فى ذلك من سوء الطِّيرةِ فلم يجبهم إلى ما سألوه ، وأمر بالمركب فجدعت أذناه وبتر ذنبه، وغَرِم كسرى كما يغرَم غيره من الجند ثم ارتحل .

قال : وركب ذات يوم فى أوان إيناع الكَرْم يريد ساباط[2] المدائن، وكان ممرُّه على بساتين وكروم ، فنظر بعض الأساوِرَة إلى كرم فرأى حِصْرِما، فأصاب منه عناقيدَ ودفعها إلى غلامه وقال : اذهب بها إلى المنزلة وآطبخها بلحم وآصنع منها مرقة فإنها نافعة فى هذا الإبّان ، فأتاه حافظ ذلك الكرم فلزمه وصاح به ، فبلغ إشفاق الأسوار من عقوبة هرمز أن دفع إلى حافظ الكرم مِنْطَقة محلّاةً بالذهب كانت فى وسطه ، وسأله أن يأخذها عوضا عما أخذه من الحِصْرِم ، ولا يرفع الأمر إلى الملك .

٦٠/١٣

(١) زعارة : شراسة وسوء خلق .

(٢) ساباط المدائن : مدينة فى جانب دجلة الغربى (راجع تقويم البلدان لأبى الفداء) .

فهذه كانت سيرته فى العدل ، وهذا كان خوف جنده وأساورته منه . وكان مظفّرا منصورا ، وكان أديبا داهيا ، إلا أنه كان مُقْصِيًا للأشراف وأهل البيوتات والعلماء . وقيل : إنه قتل ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل منهم ، ولم يكن له رأى إلا فى تآلف السِّفْلة وأسقاط الناس وآستصلاحهم . وحبس خلقا كثيرا من العظماء ، وحطّ مراتب جماعة كبيرة ، وقصّر بالأساورة ففسدت عليه نيات أكابر جنده وعظماء مملكته ، فكان عاقبة سوء هذا التدبير أن خرج عليه جماعة من الملوك منهم شابه [شاه (١)] ملك الترك فى ثلثمائة ألف مقاتل ، وسار إلى باذَغِيس (٢) ، وذلك بعد مضىّ إحدى عشْرة سنة من ملكه ، وخرج عليه ملك الروم فى ثمانين ألف مقاتل ، وخرج عليه ملك الخزر حتى سار إلى باب الأبواب ، وخرج عليه من العرب خلق كثير ، فنزلوا فى شاطئ الفرات وشنّوا الغارات على أهل السواد ، فاجترأ عليه أعداؤه وغزوا بلاده .

فأما شابه [شاه (١)] ملك الترك فإنه أرسل إلى هرمز وإلى عظماء مُلكه من الفرس يؤذنهم بإقباله فى جيوشه زُمَرًا زُمَرًا ، وأعلمهم أنه يريد غزو الروم ، ويسلك إليهم من بلادهم ، وأمرهم أن يعقدوا له قناطر على كل نهر يمرّ عليه فى بلادهم من الأنهار التى لا قناطر عليها ، وكذلك فى الأودية ، وأن يسهّلوا له الطرق والمسالك وقال : فإننى قد أجمعت على المسير إلى بلاد الروم من بلادكم ، فاستفظع هرمز ما ورد عليه من ذلك ، وجمع أكابر مملكته وعرض ذلك عليهم ، وشاورهم فيما يفعله ، فاجتمعت الآراء على قصد ملك الترك وحربه ، فندب إليه رجلا من أهل الرأى والنجدة يقال له بهرام جُوبين ، فاختار بهرام من العسكر آثنى عشر ألفا

(١) التكملة من غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٦٤٢) .

(٢) باذغيس : ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ .

من الكهول دون الشباب، وسار بهم حتى انتهى إلى هَراة[1] و باذغيس، ولم يشعر شابه [شاه][2] ملك الترك ببهرام حتى وافاه ونزل بالقرب من معسكره، فكانت بينهما حروب كثيرة آخرها أن بهرام جوبين قتل شابه برمية رماه [بها[3]] فاستباح عسكره، وأقام بهرام موضعه، فوافاه برموذة[4] بن شابه وكان يعدل بأبيه، فحاربه فهزمه بهرام جوبين وحصره فى بعض الحصون، ثم ألحّ عليه حتى استسلم له، فوجهه أسيرا إلى هرمز، وغَنِم كنوزا عظيمة، فيقال إنه حمل إلى هرمز من الأموال والجواهر والأوانى وسائر الأمتعة وقر مائتى ألف وخمسين ألف بعير فى مدّة تلك الأيام، فشكره هرمز على ذلك، وأمره أن يتقدّم بمن معه إلى بلاد الترك فلم يره بهرام صوابا، ثم خاف سطوة هرمز.

وحُكِىَ له أن الملك يستقلّ ما حمله إليه من الغنائم فى جنب ما وصل إليه منها، وأنه يقول فى مجالسه قد ترفّه بهرام واستطاب الدّعة، و بلغ ذلك الجند فخافوا مثل خوفه. فيقال إن بهرام جمع ذات يوم وجوه عسكره وأجلسهم على مراتبهم ثم خرج عليهم فى زِىّ النساء و بيده مِغْزَلٌ وقطن حتى جلس فى موضعه؛ وحمل إلى كل واحد من أولئك القوم مِغزل وقطن و وضع بين أيديهم، فامتعضوا من ذلك وأنكروه وقالوا: ما هذا الزىّ! فقال بهرام: إن كتاب الملك ورد علىّ بذلك ولا بدّ من امتثال أمره إن كنتم طائعين له، فأظهروا أنفة وحميّة وأجمعوا كلهم على خلع

(١) هراة: مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التتر، وكانت فتحت فى أيام عثمان رضى الله عنه. (راجع تقويم البلدان لأبى الفداء).

(٢) التكملة من غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٦٤٢).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٩٩٣ من القسم الأول طبعة أوربا). وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٣٤٢ طبعة أوربا): «برموده بن شابه» وفى الأصول: «رموزة».

هرمز ، فخلعوه وأظهروا أن آبنه كسرى أبرويز أصلح للملك منه ، وساعدهم على ذلك خلق كثير ممن كان بحضرة هرمز .

ولما اتصل ذلك بهرمز أنفذ جيشا كثيفا مع بعض قواده لمحاربة بهرام جوبين ، فأشفق أبرويز من الحديث وخاف سطوة أبيه ببهرام ، فهرب إلى أذربيجان ، فاجتمع إليه هناك عدّة من المرازبة ومن الأصبهبذين ، فأعطوه بيعتهم ولم يُظهر أبرويز شيئا ، وأقام بمكانه إلى أن بلغه قتل القائد الذى كان قد بعثه هرمز لمحاربة بهرام جوبين ، وهو أذبيحشيش ، وهزيمة الجيش الذى كان معه واضطراب أمر هرمز أبيه ، وكتبت أخت أذبيحشيش إلى كسرى أبرويز تخبره بضعف أبيه هرمز ، وأعلمته أن العظماء والوجوه قد أجمعوا على خلعه ، وأن بهرام جوبين إن سبقه إلى المدائن احتوى على الملك . قال : ولم يلبث العظماء أن وثبت على هرمز وفيهم بِندُويه[1] وبسطام خالا أبرويز وخلعوه وسملوا عينيه ، وتركوه تحرّجا من قتله . فكان ملكه إلى أن خُلِع وسُمِل اثنتى عشرة سنة .

* * *

ثم ملك بعده آبنه كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان . قال : ولما ملك بادر بمن معه إلى المدائن وسبق إليها بهرام جوبين وتتوّج وجمع إليه الوجوه والأشراف ، وجلس على السرير ومنّاهم ، وأمرهم بالسمع والطاعة ، فاستبشر الناس به ودعَوْا له وأجابوه ودخلوا تحت طاعته . فلما كان فى اليوم الثانى أتى إلى أبيه فسجد له ، وآعتذر وقال : إنك تعلم أيها الملك إنى برىء مما جناه إليك هؤلاء القوم الذين فعلوا بك ما فعلوا ، وإنما هربتُ خوفا منك وإشفاقا على نفسى ، فصدّقه هرمز وقال : يا بنىّ ! إن لى إليك حاجتين فآسعفنى بهما ، إحداهما : أن

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢١٦٩ من القسم الأوّل طبعة أوربا) فى كلامه على السقاطية بكسر : « ابنا خال كسرى بندويه و بترويه ابنا بسطام » .

تنتقم لى ممن عاون على خلعى وسَمل عينىّ ولا تأخذك بهم رأفة ، والأخرى تُؤنسنى كل يوم بثلاثة نفر ممن لهم أصالة رأى ، وتأذن لهم بالدخول إلىّ ؛ فتواضع له أبرويز وقال : عمرك اللهَ أيها الملك ، إن المارِق بهرام قد أطلّنا[1] ومعه أهل الشجاعة والنجدة ، ولسنا نقدِر أن نمدّ يدا إلى من أتى إليك ما أتى ؛ فإنهم وجوه أصحابك ؛ ولكن إن أمكننى الله من المنافق فأنا خليفتك وطوع أمرك .

قال : وأما بهرام جوبين فإنه ورد إلى النهروان ، فخرج كسرى أبرويز إليه وواقفه بها وجعل النهر بينه وبينه ، ودار بينهما كلام كثير . كل ذلك فى استصلاح بهرام ورجوعه إلى الطاعة ، وهو لا يُجيب إلى ذلك ولا يردّ إلا ما يسوء أبرويز حتى يئس منه وأجمع على حربه والتقَوْا واقتتلوا . وكان بينهما أخبار كثيرة وأحاديث طويلة آخرها أن أبرويز ضَعُفَ عنه بعد أن قتل بيده ثلاثة نفر من الأتراك ، وكانوا من أشدهم وأعظمهم شجاعة ووَسامة ، وكانوا قد التزموا لبهرام بقتل أبرويز ، وضمن لهم بهرام على ذلك أموالا عظيمة .

قال : ثم رأى أبرويز من أصحابه فتورا فسار الى أبيه وشاوره فرأى المسير الى الروم ، وأحرز نساءه وشخَص فى عدّة يسيرة فيهم بِنْدَوَيْه وبسطام وكُرْدى أخو بهرام ؛ لأنه كان معاديا لأخيه ، شديد الطاعة والنصيحة لأبرويز . فلما خرجوا من المدائن خاف القوم من بهرام ، وأشفقوا أن يردّ هرمز الى الملك ، ويكاتب ملك الروم عن هرمز فى ردّهم فيتلفوا ؛ فذكروا ذلك لأبرويز واستأذنوه فى إتلاف هرمز فلم يُحِرْ جوابا ، فانصرف بِنْدَوَيْه وبسطام وطائفة معهما الى هرمز فخنقوه ثم رجعوا الى كسرى فقالوا : سر على خير طالع ، وأيمن طائر ؛ فخنّوا دوابّهم وساروا الى الفُرات فقطعوه ، وأخذوا طريق المفازة بدلالة رجل يقال له : خُرْشيذان

(١) أطلنا : أشرف علينا .

وساروا الى بعض الديارات التى فى أطراف العمارة ، فلما أوطنوه للراحة لحقتهم خيل بهرام جوبين ، فلما نَذِروا بهم أَنْبَه بندويه أبرويز من نومه وقال له : احتل لنفسك فإن القوم قد طلبوك[1] . فقال كسرى : ما عندى حيلة . فقال بندويه : إنى سأحتال لك بأن أبذل نفسى دونك ؛ قال : وكيف ذلك ؟ قال : تدفع لى ثوبك وزينتك لأعلُوَ الدير وتنجو أنت ومن معك من وراء الدير ، فإن القوم إذا وصلوا ورأوا هيئتك علىّ اشتغلوا بى عن غيرى ، وطاولتهم حتى تفوتهم ، ففعل ذلك . وخرج أبرويز ومن معه ، ثم وافت خيل بهرام الدير وعليهم قائد لهم يقال له بهرام ابن سِياوش فاطلع عليهم بندويه من فوق الدير وعليه زينة أبرويز وثيابه ، وأوهمهم أنه هو ، وسأله أن يُنظِره الى غد ليصير فى يده سليما ويسير به الى بهرام جوبين ، فأمسك عنه وحفظ الدير ليلة كاملة بالحرس . فلما أصبح اطلع عليه فى بزّته وحليته وقال : إن علىّ وعلى أصحابى بقيةَ شغل من استعداد وصلوات وعبادات فأمهلنا . ولم يزل يدافعه حتى مضى عامة النهار وأمعن أبرويز ، وعلم بندويه أنه قد فاتهم ، ففتح الباب حينئذ وأعلم بهرام سياوش بأمره ، فانصرف به الى بهرام جوبين فحبسه .

٦٢/١٣

وأما بهرام جوبين فإنه دخل المدائن وجلس على سرير الملك ، وجمع العظماء فخطبهم وذمّ أبرويز ودار بينهم كلام ، فكان كلهم منصرفا عنه إلا أن بهرام تتوّج وانقاد له الناس خوفا ، ثم إن بهرام بن سياوش واطأ بندويه على الفتك ببهرام جوبين ، فظهر بهرام على ذلك ، فقتل سياوش وأفلت بندويه ولحق بأذربيجان ، وسار أبرويز حتى أتى أنطاكية فكاتب ملك الروم منها ، وراسله بجميع من كان معه وسأله نصرته ، فأجابه الى ذلك وزوّجه ابنته مريم وحملها إليه ، وأمدّه بثياذوس أخيه ومعه ستون ألفا من المقاتلة ، عليهم رجل يقال له سرجس ، يتولى تدبير

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٩٩٨ من القسم الأول طبع أوربا) : « أطلوك » .

أمرهم، ورجل آخر من أبطال الروم، كان يعدّ بينهم بألف رجل، وسأله ترك الأتاوة التى كان أبوه ومَنْ قبله من ملوك الفرس يستأدونها من ملوك الروم إذا هو مَلَك، فأجابه الى ذلك، وفرح بالجيش الذى أمدّه به ملك الروم، واغتبط بهم وأراحهم خمسة أيام، ثم عرضهم وعرّف عليهم العرفاء وسار بهم حتى نزل من أذر بيجان فى صحراء تدعى الدنق[1] فوافاه هناك بندويه ورجل من أصبهبذى الناحية يقال له موسيل فى أربعين ألف مقاتل، فانضمّوا إليه، ووافاه الناس بالخيل من أصبهان وفارس، وانتهى الى بهرام جوبين مكانه بصحراء الدنق، فشخص نحوه من المدائن، فجرت بينهما حروب شديدة قتل فيها الكىّ الرومىّ بضربة ضربه بها بعض الفرس على رأسه فقدّ رأسه وبدنه، وعاد فرسُه بنصف بدنه الباقى الى المعركة.

فلما رآه أبرويز استضحك، فعظم ذلك على الروم وعاتبوا أبرويز وقالوا له: هذا جزاؤنا منك! يقتل كمِيّنا وواحد عصره فى طاعتك وبين يديك ونصحك ونصرتك وأنت تضحك لقتله! فاعتذر بأن قال: إنى والله ماضحكت لما تكرهون. ولقد شقّ علىّ أن فَقَدتُ مثله أكثر مما شقّ عليكم، ولكنى رأيتكم تستصغرون شأن جوبين وتُنكرون هربى منه، فذكرت ذلك من قولكم الآن وعلمت أنكم برؤيتكم هذه الضربة تعذرونى وتعلمون يقينا أن هربى إنما كان من أمثال هؤلاء القوم الذين هذا مبلغ نكايتهم فى الأبطال. ويقال إن أبرويز حارب بهرام منفردا عن العسكر بأربعة عشر رجلا منهم كردى أخو جوبين وبندويه وبسطام حربا شديدا وصل فيها بعضهم الى بعض، وآخر الأمر أن أبرويز استظهر استظهارا يئس منه بهرام جوبين، وعلم

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٠٠ من القسم الأول طبع أروبا) وفى الأصل وردت هكذا «الرق» باهمال الحرف الذى قبل القاف. ونبه مصحح الطبرى بالهامش بأنها وردت فى بعض النسخ هكذا: «الرق، الريق، الدق، الرتق».

أنه لا حيلة له فيه ولا قدرة عليه ، فانحاز عنه نحو خراسان ، ثم سار الى الترك ، وسار أبرويز الى المدائن بعد أن فرق فى الجنود من الروم أموالا عظيمة وصرفهم الى ملك الروم .

قال : ولبث بهرام جوبين فى الترك مكرما عند الملك حتى احتال عليه كسرى أبرويز بتوجيهه رجلا يقال له هرمز الى الترك بجوهر نفيس وغيره من الهدايا الى آمرأة ملك الترك حتى دسّت لبهرام من قتله ؛ فاغتمّ خاقان لموته وأرسل إلى أخته كردية وآمرأته يعلمهما بلوغ الحوادث ببهرام ، وسأل كردية أخت بهرام أن يتزوّجها وفارق آمرأته خاتون بهذا السبب ، فأجابته كردية جوابا لينا ، ثم ضمت إليها مَنْ كان مع أخيها بهرام من المقاتلة ، وخرجت بهم من بلاد الترك إلى حدود مملكة فارس ، فأتبعها ملك الترك أخاه نطرا[1] فى آثنى عشر ألف فارس . فيقال إن كردية قاتلت وقتلت نطرا بيدها ، ومضت لوجهها حتى بلغت حدود أرض فارس ، وكتبت إلى أخيها كردى فأخذ لها أمانا من أبرويز ، فلما قدِمت عليه اغتبط بها وتزوّج بها أبرويز .

قال : ولم يزل أبرويز يلاطف ملك الروم الذى نصره وأمدّه ويهاديه إلى أن وثبت الروم عليه فى شىء أنكروه منه فقتلوه وملّكوا غيره ، فبلغ ذلك أبرويز فتألم له وأوى إلى أبرويز ابن الملك المقتول ، فتوجه أبرويز وملكه على الروم ، ووجه معه جنودا كثيفة مع شهرياز فدوخ بهم البلاد . وملك صاحب كسرى بيت المقدس وأخذ خشبة الصلب وبعث بها إلى كسرى ، وذلك فى أربع وعشرين سنة من ملكه ، ثم احتوى على مصر والاسكندرية وبلاد النوبة ، وبعث مفاتيح ثغر الإسكندرية إلى كسرى فى سنة ثمان وعشرين من ملكه ، وقصد قسطنطينية فأناخ

٦٣/١٣

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « بطرا » .

على ضفة الخليج الذى هو بالقرب منها وخيم هنالك، فأمره كسرى نخرّب بلاد الروم غضبا على أهلها لما انتهكوا من ملكهم وانتقاما له، ومع ذلك لم يخضعوا لأبن ملكهم المقتول ولا منحوه الطاعة، ولا مال اليه واحد منهم؛ غير أنهم قتلوا الملك الذى ملّكوه عليهم بعد أبيه المسمى قوقا لما ظهر لهم من فجوره وسوء تدبيره؛ وملّكوا عليهم رجلا يقال له هرقل. فلما رأى هرقل عظم ما فيه أهل بلاد الروم من تخريب جنود فارس بلادَهم، وقتْلِهم مقاتِلتهم، وسبيِهم ذراريهم، واستباحتِهم أموالهم تضرّع إلى الله وأكثر الدعاء وابتهل. فيقال إنه رأى فى منامه رجلا ضخم الجثة رفيعَ المجلس قد دخل عليه، فدخل عليهما داخل فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرقل: إنى قد أسلمته فى يدك، فلم يقصص رؤياه تلك فى يقظته على أحد حتى توالت عليه أمثالها، فرأى فى بعض لياليه كأن رجلا دخل عليهما وبيده سلسلة طويلة فألقاها فى عنق صاحبه، أعنى صاحب المجلس الرفيع، ثم دفعه إليه وقال له: ها قد دفعت اليك كسرى برقبته.

فلما تتابعت هذه الأحلام قصّها على عظماء الروم وذوى العلم منهم، فأشاروا عليه أن يغزوَه، فٱستعدّ هرقل وٱستخلف ٱبنه على مدينة قسطنطينية، وأخذ عن الطريق الذى فيه شهرياز[1] صاحب كسرى وعدل الى غيرها، وسار حتى أوغل فى بلاد أرمينية ونزل نصيبين سنة، وكان صاحب ذلك الثغر من قبل كسرى استُدْعِىَ لموجِدة كانت من كسرى عليه. وأما شهرياز فقد كانت كتُبُ كسرى ترد عليه فى الجثوم على الموضع الذى هو به وترك البراح، ثم بلغه أن هرقل قد أقام بجنوده

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٢ من القسم الأوّل): «شهرباز» وأشار مصححه بالهامش الى أنه ورد فى بعض المراجع: «شرسريران» و«شريريار».

بنصيبين، فوجه كسرى لمحاربة هرقل رجلا من قواده يقال له: راهزار[1] فى آثنى عشر ألف رجل من الأنجاد، وأمره أن يقيم بنينوى — وهى الموصل — على شاطئ دجلة ويمنع الروم أن يجوزوها. وكان كسرى بلغه خبرُ هرقل، وهو يومذاك بدَسْكَرة[2] المُلْك، فنفذ الجيش لمنعه من جواز دجلة، فعسكروا حيث أمرهم كسرى، فقطع هرقل دجلة من موضع آخر الى الناحية التى فيها جنود فارس، فأذكى راهزار العيون عليه، فأخبروه أن هرقل فى سبعين ألف مقاتل، فأيقن راهزار ومن معه من الجند أنهم عاجزون عن مناهضته، فكتب إلى كسرى غير مرة أن هرقل قد دهمه بما لا طاقة له به ولا قبل من الجنود الكثيرة. كل ذلك يجيبه كسرى بأنه إن عجَز عن الروم فلن يعجِز عن استقبالهم، وبذْلِ دماء الفرس فى طاعته.

فلما تتابعت على راهزار أجوبة كسرى بذلك عبّأ جنده وناهض الروم بهم؛ فقتلت الروم راهزار وستة آلاف رجل من الفرس، وانهزم بقيتهم وهربوا على وجوههم لايلوون على شىء، وبلغ كسرى ذلك فانحاز من دسكرة المُلك الى المدائن، وتحصّن بها لعجزه عن محاربة هرقل، وسار هرقل بجيوش الروم حتى كان قريبا من المدائن، فاستعدّ كسرى لقتاله، فلما بلغه ذلك آنصرف الى أرض الروم، وكتب كسرى الى قوّاد الجند الذين انهزموا يأمرهم أن يَدُلّوه على كل رجل انهزم منهم، ومن فَشِل فى تلك الحرب، ولم يرابط مركَزه، وأمر بعقوبتهم بحسب مااستوجبوا، فأحوجهم بهذا الكتاب الى الخلاف عليه، وطلب الحِيَل لنجاة أنفسهم منه، وكتب الى شهرياز يأمره بالقدوم عليه ويستعجله فى ذلك ويصف ما نال هرقل منه ومن بلاده.

(١) كذا فى تاريخ الطبرى، وكتب مصححه بهامشه: «راهزاذ»، وفى الأصل: «زاهراد».
(٢) الدسكرة: بناء شبه قصر حولهُ بيوت يكون للملك (المعرّب للجواليقى).

وقد حكى أن كسرى عرّف أن له آمرأة فى فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال فدعاها وقال : إنّى أريد أن أبعث الى الروم جيشا وأستعمل عليهم رَجُلا من بَنِيك فأشيرِى علىّ أيُّهم أستعمل ، فوصفتْ له أولادُها فقالت : هـذا فَرُّخان أنفذ من سِنان ، وهذا شَهْرَياز[1] أَحْكَم من كذا ، وهذا فلان أَرْوَغُ من كذا ؛ فآستعمل شَهْرَياز ؛ فسار الى الروم فظهر عليهم وهزمهم وخرّب مدائنهم .

فلمّا ظهرتْ فارس على الروم جلس فى بعض الأيام فَرُّخان يشرب ؛ فقال فَرُّخان لأصحابه : لقـد رأيتُ أنّى جالس على سرير كِسْرى ، فبلغتْ كلمتُه كِسْرى ، فكتب إلى شَهْرَياز : اذا أتاك كتابى هذا فآبعث إلىّ برأس فَرُّخان ، فكتب اليه : أيها الملك ، إنك لن تجد مثـل فرخان ، وإن له نكايةً فى العدوّ وصيتا فلا تفعل ، فكتب اليـه : إنّ فى رجال فارس خَلَفا منه ، فعجّل إلىّ برأسه ، فراجعه فغضب كسرى ولم يُجِبـه ، وبعث بَرِيدا الى أهل فارس : إنّى قـد نزعتُ عنكم شهرياز وآسـتعملتُ فَرُّخان ، فآنقاد له شهرياز وقال : سمعا وطـاعةً ، ونزل عن سريره وجلس عليـه فَرُّخان ، ثم دفع البريد صحيفةً صـغيرةً الى فرخان كان كسرى قـد أعطاها له وقال له : اذا آنقاد شهرياز الى طـاعة فَرُّخان فآعط فَرُّخان هـذه الصحيفة ، فلمـا قرأها فرخان قال : علىّ بشهرياز ! فأُتى به فقُدِّم ليضرب عنقه فقال : لا تعجّل علىّ حتى أكتب وصيّتى ، ثم دعا بسَفَط وأخرج منه ثلاث صحائف ، وهى التى كان كِسْرى أمر شَهْرَياز فيها بقتل فَرُّخان وقال له : كلّ هـذه راجعت كسرى فيها عنك ، وأنت تريد أن تقتلنى بكتاب واحد؟ فردّ المُلْك[2] إلى أخيه وآعتذر

٦٤ / ١٣

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٠٧ من القسم الأوّل طبـع أوربا) : « شهربراز » وقد ورد فيه هذا الخبر .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « على » .

منـه، فكتب شهرياز الى هِرَقْل ملك الروم : إنّ لى إليك حاجة لا تحملها البُرُد، ولا تُبَلِّغها الصُّحُف، فألقِنِي ولا تأتينى إلّا فى خمسين روميًا، فإنّى أيضا ألقاك فى خمسين فارسيًا، فأقبل هِرَقْل فى خمسمائة [ألف](١) رومىّ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق، وخاف أن يكون قد مَكَر به، فأتته عيونه أنه ليس مع شَهْرياز إلا خمسين رجلا.

قال : ثم ٱلتقيَا وقد بُسِط لهما فى قُبّة من الدِّيباج ضُربت لهما، فٱجتمعا ومع كلّ واحدٍ منهما سِكّين، ودعَوْا تُرْجُمانا يترجم لكلٍّ منهما عن قول الآخر، فقال شهرياز لهرقل : إنّ الذين خرّبوا مدينتك وبلغوا منك ومن جُنْدك ما بلغوا أنا وأخى بشجاعتنا وكَيْدنا، وإنّ كِسْرى حَسَدَنا وأراد قَتْلَ أخى وكتب إلىّ بقتله فأبيتُ، ثم أمر أخى أن يقتلنى وقد خلعناه جميعا ونحن نقاتله معك. قال : قد أصبتما ووفّقتما، ثم أشار أحدهما الى صاحبه : إنّ السرّ إنما يكون بين ٱثنين فإذا جاوز ٱثنين فشا، قال الآخر : نعم، فقاما جميعا الى الترجمان بسكّينَيْهما فقتلاه، وٱتفقا على قتال كسرى أبرويز.

ومما ٱتفق فى أيامه من الحوادث يوم ذى قار، وسنذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ فى أيام العرب ووقائعها، ولم نذكر فى هذا الموضع يوم ذى قار على سبيل الإيراد له بل على سبيل التنبيه عليه.

ذكر حيلة لأبرويز على ملك الروم

قال : كان أبرويز وجّه رجلا من جِلّة(٢) أصحابه فى جيش جرّار الى بلاد الروم، فنكأ(٣) فيهم، وبلغ منهم، وفتح الشام، وبلغ الدرب فى آثار الروم، فعظُم أمرُه حتى خافه

(١) التكملة من تاريخ الطبرى.

(٢) الجلة (بالكسر) : العظام السادة ذوو الأخطار.

(٣) نكأ فى العدوّ : قتل فيهم وجرح وأثخن.

أبرويز، فكاتبه بكتابين ، يأمره فى أحدهما أن يستخلف على جيشه مَنْ يثق به ، ويُقبل إليه ، ويأمره فى الكتاب الآخر أن يُقيم بمكانه ، وأنه لمّا تدبّر أمره ، وأجال الرأى لم يرَ مَنْ يُسدّ مَسَدّه ، ولم يأمن الخَلَل إن غاب عن موضعه ، وأرسل بالكتابين رسولا من ثِقاته وقال له : أعطِه الكتاب الأوّل بالأمر بالقدوم ، فإن أجاب الى ذلك فهو ما أردت ، وإن كَرِه وتثاقَل عن الطاعة فأسكُت عليه أياما وأعلمه أن الكتاب الثانى ورد عليك وأوصله اليه ليقيم بموضعه . فخرج رسول كسرى حتى أتى صاحب الجيش ببلاد الشام فأوصل اليه الكتاب ، فلمّا قرأه قال : إمّا أن يكون كسرى قد تغيّر لى وكَرِه موضعى ، أو يكون قد اختلط عقلُه بصرف مثلى وأنا فى نَحْر العدوّ ؛ فدعا أصحابه وقرأ عليهم الكتاب فأنكروه . فلما كان بعد ثلاثة أيام أوصل اليه الكتاب الثانى بالمقام وأوهمه أنّ رسولا ورد به . فلمّا قرأه قال : هذا تخليط ولم يقع منه موقعا ، ودسّ الى ملك الروم من باطنه فى إيقاع الصلح بينهما على أن يُخلِى الطريق لملك الروم حتى يدخل الى بلاد العراق على غِرّة من كِسْرى ، وعلى أنّ لملك الروم ما يغلب عليه من دون العراق ، وللفارسىّ ما وراءَ ذلك من بلاد فارس ، فأجابه ملك الروم الى ذلك وتنحّى الفارسىّ عنه فى ناحية من الجزيرة ، وأخذ أفواه الطريق ، فلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم من ناحية قرقيسيا (١) ، وكسرى على غير استعداد ، وجُنده متفرّقون فى أعماله . فلما أتاه الخبر وثب عن سريره وقال : هذا وقت حيلة ومكيدة ، لا وقت شدّة ، وجعل ينكُت الأرض مليّا ، ثم دعا برقّ فكتب فيه كتابا صغيرا بخطّ دقيق الى صاحبه بالجزيرة يقول فيه : قد علمتَ ما كنتَ أمرتُك به من مواصلة صاحب الروم وأطماعهم فى نفسك ، وتخلية الطريق حتى اذا تُولج بلادنا أخذته من أمامه ، وأخذته ومَن ندبناه معك من خَلْفه فيكون فى ذلك

٦٥ / ١٣

(١) قرقيسيا : مدينة بالجزيرة مصب نهر الخابور بالفرات .

بوارُه، وقد تمّ فى هذا الوقت مادبّرناه ، وميعادك فى الإيقاع به يوم كذا وكذا، ثم دعا راهبا فى دَيْر بجوار مدينته وقال له : أىّ جارٍ كنتُ لك، قال : أفضل جار، فقال : قد بدتْ لنا اليك حاجة، فقال الراهب : الملك أجلّ من أن يكون له إلىّ حاجة ، ولكن عندى بذل نفسى ، فما الذى يأمر به الملك ؟ قال كسرى : تحمل لى كتابا الى فلان صاحبى، قال نعم ، قال كسرى : ستمرّ بأصحابك النصارى فأخفه ، فلما ولّى عنه الراهب قال له كسرى : أعلمتَ ما فى الكتاب ؟ قال لا ، قال : فلا تحمله حتى تعلم ما فيه . فلما قرأه أدخله فى جيبه ثم مضى . فلما صار فى عسكر الروم ونظر إلى الصُّلبان والقِسِّيسين وضَجِيجهم بالتقديس والصلوات آخترق قلب الراهب وأشفق عليهم وقال فى نفسه : أنا شرّ الناس إنْ حملتُ بيدى حَتْفَ النصرانية، وهلاك هؤلاء الخلق ، فصاح الراهب : أنا لم يُحملنى الملك كسرى رسالة ولا معى كتاب، فأخذوه فوجدوا الكتاب معه، وقد كان كسرى أيضا وجّه رسولا قبل ذلك وأمره أن يمرّ بعسكر الروم كأنه رسولٌ الى كسرى من صاحبه الذى وافق ملك الروم ومعه كتابٌ فيه : إنّ الملك كان قد أمرنى بمقاربة ملك الروم، وأن أخدعه وأُخلى له الطريق ، فيأخذه الملك من أمامه وآخذه أنا من خَلْفه ، وقد فعلتُ ذلك ، فرأى الملك فى إعلامى وقت خروجه اليه . فأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب وقال : قد عجبتُ من أن يكون هذا الفارسىّ معى على كسرى، ووافاه كسرى أبرويز فيمن أمكنه من جُنده، فوجد ملك الروم قد ولّى هاربا فآتبعه يقتل ويأسر مَن أدرك ، وبلغ صاحب كسرى هزيمة الروم فأحبّ أن يُخلِىَ نفسه ويستر ذنبه . فلمّا فاته ما دبّر خرج خلف ملك الروم يقتل فيهم ويأسر ، فلم يسلم منهم إلّا القليل .

ذكر سبب هلاك أبرويز وقتله

قال : وكان سبب ذلك تجبّره وٱحتقاره للعلماء وعُتُوّه ، وذلك أنه ٱستخفّ بما لا يستخفّ به الملك الحازم ، وكان قد جمع من المال ما لم يجمعه أحدٌ من الملوك ، وبلغتْ خيله الى قسطنطينية وأفريقية ، وكانت له ٱثنتا عشرة ألف ٱمرأة وجارية ، وألف فيل إلّا فيل واحد ، وخمسون ألف دابّة ، ومن الجواهر والأوانى والآلات مايليق بذلك ، وأمر أن يُحصِى ماجُبِيَ من بلاده وسائر أبواب المال سنة ثمانى عشرة من مُلْكه ، فرُفع إليه أنّ الذى جُبِيَ فى تلك السنة من الخراج وسائر الأبواب كان ستمائة ألف ألف درهم ، وأمر أن يُحوَّل إلى بيت مالٍ بُنِيَ بمدينة طَيْسَفون[1] من ضَرْب فَيْروز بن يَزْدَجِرْد وقُباذ بن فَيْروز ٱثنتى عشرة ألف بَدْرة من أنواع الجواهر وغير ذلك .

قال : فعتا وتجبّر وٱستهان بالناس والأحرار ، وبلغ من جُرأته أنه رأى رجلا كان على حَرَس باب الخاصّة ، يقال له : زاذان فَرُّوخ ، فأمره أن يقتل كل مقيّد فى سجنٍ من سجونه ، فأحصَوْا مَن بالسجون من المقيّدين فبلغوا ستّة وثلاثين ألفا ، فلم يقدِر زاذان فَرُّوخ على قتلهم ، وتوقّف عن إمضاء أمر كِسْرى وأعدّ عِللا له فيما أمره به فيهم ، فكان هذا أحد الأسباب التى كسب بها كسرى عداوة أهل مملكته مع وجود ٱحتقاره إيّاهم ، وٱستخفافه بهم ، وٱطّراحه لعظمائهم . ومن ذلك أنه سلّط عِلْجا ، يقال له : فَرُّخان زاذ ، على الخراج فاستخرج بقاياهم منهم بعُنْف وعذاب . ومن ذلك أنه أجمع على قتل الفَلّ[2] الذين ٱنصرفوا إليه من

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة كسرى التى فيها إيوان ، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ . وفى الأصل : « بطيسون » وتاريخ الطبرى : « طيسبون » .

(٢) الفل (بالفتح) : الجماعة .

قِبَل هِرَقْل ، فأكّدت هذه الأسباب بغضه ، وآستطال الناس مدّته ، فكان نتيجة ذلك أنّ قوما من العظماء آنصرفوا إلى عَقْر بابِل[1] ، وفيه شِيرَى[2] بن أَبْرَوِيز مع إخوته ، وقد كان كسرى أَبْرَوِيز وكَّل بهم مؤدّبين وأساورة ، يُحولون بينهم وبين من يجتمع بهم من الناس ، ويمنعونهم من البراح ، فأخذه العظماء وأقبلوا به إلى مدينة بَهُرَسِير[3] ودخلوها ليلا ، فخلّى عمّن كان فى سجونها وأخرجهم ، وآجتمع إليه الفلّ الذين كانوا غلبوا وفرّوا من هِرَقْل وأمر كسرى بقتلهم ، فنادوا : قُبَاذ شَاهَنْشَاه ، وصاروا كلّهم عندَ الصباح إلى رَحَبة كِسْرى ، فهرَب الحرس ، وآنحاز كسرى بنفسه إلى باغٍ[4] له بالقُرْب من قصره ، يعرف بباغ الهِنْدُوَان[5] ، فارًّا مرعوبا ، فأُخذ وحُبِس بمكانٍ غيرِ دار المملكة ، فى دار رجل يقال له : مارا سَفَنْد ، إلى أن قُتل بعد حديث طويل ومراسلات كانت بينه وبين آبنه شِيرَى بمواطأة العظماء ، بعد تقريع عظيم ، وتوبيخ كثير ، على ما كان منه ، ومن سوء تدبيره ، وقُبْح فعاله ، وهو يجيبهم بأجوبة إقناعيّة ، وله مراسلاتٌ ووصايا كتبها إلى آبنه من السجن ؛ قد ذكرنا بعضها فيما سَلَف من هذا الكتاب . وكان هلاكه بعدَ ثمانٍ وثلاثين سنةً من مُلْكه . وبمضىّ آثنتين وثلاثين سنة وخمسةَ أشهر وخمسةَ عشرَ يوما من مُلْكه ، كانت هجرة سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة .

---

(١) عقر بابل : موضع قرب كربلاء من الكوفة .

(٢) هكذا يسميه العرب فى كتبهم ، والفرس يسمونه : « شيرويه » .

(٣) بهرسير : من نواحى سواد بغداد قرب المدائن . وقيل : هى إحدى المدائن السبع التى سميت بها المدائن .

(٤) ورد فى هامش نسخة ب حاشية نصها : « الباغ : البستان » .

(٥) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « باغ المندوان » .

قال : ولمّا قُبِض على كِسْرى خلّف فى بيت المال من الوَرِق[1] أربعمائة ألف بَدْرة سِوَى الكنوز والذخائر والجواهر والآلات .

وكان وزيرُه والقائمُ بتدبير دولته بُزُرْجِمْهر الحكيم . ولبُزُرْجِمْهر هذا قضايا وحِكَم ومواعظ فى أيدى الناس . ويقال : إنّ بُزُرْجِمْهر هذا إنما كان وزيرا لكسرى أنو شِرْوان ، وهو الذى قتله . وذلك أنّ بُزُرْجِمْهر ترك المجوسيّة ورجع إلى دين عيسى بن مريم عليه السلام ودان به ، فقتله كسرى لذلك . ويقال : إنه وُجِد فى مِنْطَقَته لمّا قُتِل كتابٌ فيه : إذا كان القَدَرُ حقًّا فالحِرْصُ باطلٌ ، وإذا كان الغَدْرُ فى الناس طباعا فالثِّقةُ بكلّ أحدٍ عَجْزٌ ، وإذا كان الموتُ نازلا فالطُّمأْنينةُ إلى الدنيا حُمْقٌ .

قالوا : ولمّا بلغ بُزُرْجِمْهر من العُمْر خمسَ عشرةَ سنةً دخل على كسرى ، وقد جلستْ الوزراء على كَرَاسيها والمَرَازبة[2] فى مجالسها . فوقف وحيّا الملك بتحيّة الملوك ثم قال : الحمدُ لله المأمونِ نِعَمُه ، المَرْهوبِ نِقَمُه ، الدالّ عليه ، بالرغبة اليه ، المؤيَّد المُلْك ، بسعوده فى الفُلْك ، حتّى رفع شأنَه ، وعَظُم سلطانُه ، وأنار به البلاد ، وأنعش به العباد ، وقسّم به فى التقدير ، وجوه التدبير ، فرعى رعيّته بفضل نعمته ، وحَماها الموبِلات ، وأوردها المُعْشِبات ، وذاد[3] عنها الأكّالين ، وألّفها بالرِّفْق واللين ، إنعاما من الله عليه ، وتثبيتا لما فى يديه . وأسأله أن يبارك له فيما آتاه ، ويخيِّر له فيما آسترعاه ، ويرفع قدرَه فى السماء ، ويسير ذكره على وجه الماء ، حتى لا يبقى له بينهما مناوى ، ولا يُوجَد له مساوى . وأستوهب الله له

(١) الورق : الدراهم المضروبة من الفضة .

(٢) المرازبة : رؤساء الفرس .

(٣) الأصل : « ودادها » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

حياةً لا يتنغّص فيها ، وقُدرة لا يَحِيد أحدٌ عنها ، ومُلْكا لا بُؤْس فيـه ، وعافيةً تُديم له البقاء ، وتُكثِر له النَّمـاء ؛ وعزّا يؤمّنه من ٱنقلاب رعيّته ، أو هجوم بليّته ، فإنه مُؤتِي الخير ، ودافعُ الشرّ .

فلمّا سمعه كسرى أمر فحُشِيَ فمُه بنفيس الجواهر ، ولم تمنعه حداثةُ سنّه أن ٱستوزَره ، وقلّده خيرَه وشرَّه ؛ فكان أوّلَ داخل ، وآخرَ خارج . وكان أبوه خاملَ القَدْر ، وَضِيعَ الحال ، سَفِيهَ المنطق ، ٱسمه البَخْتكان .

قال : ولمّـا قُبِض على أَبرويز ملك بعده ابنه : قُبَاذ بن أبرويز ويُعـرَف قُبَاذ بشيرويه . وقُبَاذ هـذا هو القابضُ على أبيه والقاتلُ له ، وقتل سبعةَ عشرَ أخًا له ، وقيل ثمانيةَ عشرَ ، ذوى آدابٍ وشجاعة ؛ فكان عاقبةُ ذلك أنّ الله عز وجلّ ٱبتلاه بالأسقام ، فٱنتقض عليه بدنه ، ولم يلتذ بشئ من ملاذّ الدنيا ، وجَزِع بعد قتل إخوته جَزَعا شديدا ؛ وكان يبكى حتى يرمىَ التاج عن رأسه ، وعاش ما عاش مهموما حزينا مُدنَفا . وفى أيامه فشا الطاعون فأهلك أكثر الفُرْس . وكان مُلْكه ثمـانيةَ أشهر ، وقيل أكثر من ذلك .

وملك بعد وفاته ٱبنـه أَرْدَشِير بن شِيرَوَيْه وهو ٱبن سبع سنين ولم يوجد من بيت الملك غيره .

قال : ولمّـا ملّكته الفُرْس عليها حضنه رجلٌ يقال له : مِهْآذَرْجُشنس[1] ؛ فأحسن سياسـة المُلْك . وكان شَهْرَبَراز[2] المقيم بثَغْر الروم فى جُنْدٍ ضمّهم اليه كِسْرى أبرويز

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ، وفى الأصول : « مهادر حشيس » بالميم ، وفى موضع آخر : « بهادر حشيس » بالباء .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى . وهو ماه إسفندار . وفى الأصل : « شهريران » .

وآبنه شِيرَوَيْه ، وكانا يكتبان اليـه ويستشيرانه فى الأمر الذى يهمهما ويعملان برأيه . فلمّا مات شِيرَوَيْه وملّكتْ الفُرْس عليها آبنه أردشير — مع حداثة سنه — لم يشاوره عظماء الفرس فى ذلك ، فعظُم عليه آنفرادهم عنه ، وجعل ذلك ذنبا لهم ، وبسط يده وطمع فى المُلْك ، وآستهان بعظماء الفرس ، ودعا الناس لنفسه ، وأقبل بجُنده نحو المدائن ، فعمد مِهْآذَرْ جُشْنَس الى مدينة طَيْسَبُون ، فحصّنها وحوّل أردشير ومَنْ بَقِىَ من نَسْل الملوك ونسائهم والأموال والخزائن والكُرَاع[1] وغير ذلك إليهـا ؛ فورد شَهْربَراز الى مدينة طَيْسَبُون وحاصرها ونصَب عليها المجانيق ، فعجَز عنهـا لحصانتها ، فأخذ فى أعمال المكايد والحِيَل ، فلم يزل يتلطّف برجل يقال له : نيوخسرو ويراسله هو وغيره ، حتى فتحوا له باب المدينة فدخلها ، وقتل جماعة من الرؤساء وآستصفى أموالهم وقتـل أردشير بن شيرويه . وكان مُلْكه سنة ونصفا ، وقيل : إنمـا ملك نصف سنة ، وقيل : خمسة أشهر .

وملك بعده شَهْربَراز ، وقيل فيه : شَهْريار ، ولم يكن من أهل بيت المملكة .

قال : ولمّـا جلس على سرير المُلْك ضرب عليه بطنُه ، وبلغ من شدّة ذلك عليه أنه لم يقدر على إتيان الخلاء ؛ فدعا بالطست ، فوُضع أمام ذلك السرير ، ومدّ أمامه ما يستتر به ، وبقى يتبرّز فى ذلك الطست .

قال : ثم آمتعضَ رجلٌ يقال له : فُسفْروخ[2] [بن ماخُرْشيذان[3]] وأخوَان له من قتـل شَهربَراز أردشيرين شِـيرَويه وغلبته على المُلْك ، فتحالَفوا على قتـله . وكان من السـنّة إذا ركب الملك أن يقف له حرسـه سِمَاطين عليهم الدروع والبِيض ،

(١) الكراع (بالضم) : يطلق على الخيل والبغال والحمير .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « اسفروج » .

(٣) التكملة من تاريخ الطبرى .

وبأيديهم السيوف والتِّراس[1] والرِّماح؛ فإذا حاذاهم الملك وضع كلّ واحدٍ منهم تُرْسه على قَرْيُوس سَرْجه، ثم يضع جبهته عليه كهيئة السجود .

قال : وآتفق ركوب شَهْربَراز فى بعض الأيام فوقف فُسْفرُّوخ وأخواه وهم بالقُرْب من بعضهم بعضا، فلمّا حازاهم شهربراز طعنه فُسْفرُّوخ، ثم طعنه أخواه فسقط عن دابّته،[2] فشدّوا رجله بحبل وجرّوه إقبالا وإدبارا ساعةً، وساعدهم العظماء على ذلك، وقتلوا جماعةً ممن كان قد ساعد شَهْربَراز على قتل أردشير . فكان مُلْكه أربعين يوما، وقيل عشرين يوما .

وملكتْ بعده بُوران بنت كسرى أبرويز ويقال لها : بوران دخت .

قال : فأحسنتِ السِّيرة وبسطتِ العدل، وأمرت برمّ القناطر والجسور، وإعادة ماتشعَّث من العمارات، ووضعتْ بقايا الخَرَاج، وكتبت الى الناس عامّة كتبا تعلمهم ما هى عليه من الإحسان، وأنها ترجو أن يريَهُم الله من الرفاهية والآستقامة بمكانها، ومن العدل وحفظ الثغور ما يعلمون أنه ليس ببطش الرجال تُدوّخ البلاد، ولا ببأسهم تُستباح العساكر، ولا بمكائدهم ينال الظفَر وتُطفَأ النوائر؛ ولكنّ ذلك بالله عز وجلّ، وحُسْن النيّة وآستقامة التدبير . وأمرتْ بالمُناصحة وحُسْن الطاعة، وردّت خشبة الصليب على مَلِك الروم . وكان مُلْكها سنةً وأربعةَ أشهر .

٧/٣

ثم ملك رجلٌ يقال له : جُشْنَسْده وهو آبن عمّ أبرويز، وكان مُلْكه أقلّ من شهر، وقيل : إن الذى ملك يَزْدَجِرْد بن كسرى وهو طفل .

(١) التراس (بالكسر) : جمع ترس، وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه .

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٦٣ من القسم الأول طبع أوربا) : « وساعدهم على قتله رجل من العظماء يقال له : زاذان فرّوخ بن شهرداران، ورجل يقال : له ماهياى، كان مؤدّب الأساورة، وكثير من العظماء ... الخ » .

ثم ملكتْ بعده آزَرْمِيدُخت بنت كسرى أبرويز، وكانت من أجمل نساء دهرها، وكان عظيم فارس يومئذ فَرُّخ هُرْمُز أصْبَهْبذ خراسان؛ فأرسل إليها يسألها أن تزوّجه نفسها، فأرسلت اليه : التزويج للملكة غير جائز، وقد علمتُ أن أُرِيك فيما ذهبتَ اليه قضاء حاجتك منّى؛ فصِرْ الىّ ليلة كذا وكذا، ففعل وركب اليها فى تلك الليلة، وتقدّمت الى صاحب حرسها أن يرصده فى الليلة التى تواعدا للالتقاء فيها، فإذا رآه يقتله، فرصده صاحبُ الحرس؛ فلمّا جاء قتله وجرّ برجله وطرحه فى رحبة دار المُلْك .

فلمّا أصبح الناس ورأَوْه علموا أنه لم يُقتَل إلّا لأمر عظيم، ثم أمرتْ بتغييب جثّته فغُيِّبت . وكان رُسْتَم بن فَرّخ هُرْمُز هذا — وهو رُسْتَم صاحب القادسيّة — عظيم البأس، قويّاً فى نفسه، فلمّا بلغه ما صُنع بأبيه أقبل فى جُنْد عظيم حتى نزل المدائن؛ فقبض على آزَرْمِيدُخت وسَمَل عينيها وقتلها بعد ذلك. فكانت مدّة مُلْكها ستّةَ أشهر .

واختُلف فيمَن ملك بعد آزَرْمِيدُخت، فقيل رجل من عَقِب أردشير بن بابك كان ينزل الأهواز يقال له : كِسْرَى [بن] مِهْرجُشْنَس[1]، فلبس التاج وقتل بعد أيام . ويقال : بل كان رجل يسكن مَيْسان يقال له فَيْروز، فملّكوه كُرْها . وكان ضخم الرأس، فلمّا تُوِّج قال : ما أضيقَ هذا التاج ! فتطيّر العلماء من آفتتاح الأمر بالضيق وقتلوه . ثم أُتِىَ برجُل من أولاد كِسْرى كان قد لجأ الى موضع من الغرب بالقرب من نَصيبين، يقال له : «حصن الحجارة» حين قَتَل شِيرَوَيْه بن كِسرى أبرويز إخْوَتَه، وهو فَرُّخ زاباذ[2] خُسْرَو بن كِسْرى أبرويز، فآنقاد الناس له طَوْعا زمانا

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصول : « كسرى بهرحشيش » .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٧٣٧ طبع أوروبا). وفى الأصول : « فرخ باذ » .

يسيرا ثم ٱستعصَوْا عليه وخالفوه . وكان مُلْكه ستةَ أشهر . وكان أهل اصطخر قد ظفروا بيَزْدَجِرْد بن شَهْريار بن أبرويز بٱصطخر، وكان قد هرب إليها حين قتَل شِيرَويه إخوته . فلمّا بلغ عظماء أهل اصطخر أنّ مَن بالمدائن خالفوا الملك فَرُّخ زاذ خُسْرَوْ أتَوْا يَزْدَجِرْد ببيت نار أردشير، فتوّجوه هناك وملّكوه، وكان حَدَثا، ثم أقبلوا به الى المدائن وقتلوا فَرُّخ زاذ خُسْرَوْ بحيل احتالوها عليه .

ومَلَك يَزْدَجِرْد بن شَهْريَار بن كسرى أبرويز بن هُرمُز بن كِسْرى أنوشِرْوان بن بَهْرام بن يزدجرد بن سابور بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك ؛ فمَلك وكان العظماء والوزراء يدبِّرون المُلْك لحداثة سنّه، وهو آخرُ الملوك الساسانيّة وعليه ٱنقرضتْ دولتهم، فلم تقُم لهم قائمة، وتردّد الى بلاد خراسان والى بلاد الترك، وعاد فقُتِل بمَرْو من بلاد خراسان فى سنة إحدى وثلاثين من الهجرة لسبع سنين خلت من خلافة عثمان بن عفّان رضى الله عنه .

وكانت مدّة مُلْك يَزْدَجِرْد منذ ملك و إلى أن قُتِل عشرين سنةً ، إلّا أنّ فيها مدّة لا يعدّ فيها مع الملوك ؛ لأنه كان مشرّدا طريدا على ما نذكر أخباره مفصّلة، وكيف فُتحتْ بلاده ومُدُنه بلدا بلدا ، ومدينةً مدينةً فى خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان رضى الله عنهما .

٦٨/١٣

فعِدّة ملوك الفرس الأُوَل والساسانيّة على هذا المساق الذى ذكرناه ٱثنان وخمسون مِلكا منهم ثلاث نسوة . فالفرس الأُوَل عشرون مَلِكا منهم ٱمرأة واحدة . والملوك الساسانيّة ٱثنان وثلاثون ملكا فيهم ٱمرأتان . وذكر بعض المؤرّخين أنّ ملوك الفرس ستّون ملكا ، وأنّ مدّة مُلْكهم أربعة آلاف سنة وسبعون سنة وشهورا . والله أعلم .

ذكر أخبار ملوك اليونان وأنسابهم

قد تنازع الناس فى اليونانيّين، فذهبتْ طائفة منهم أنهم ينتمون الى الروم ويضافون الى ولد إسحاق، وقالت طائفة : إنّ يونان هو ابن يافث بن نوح . وقال آخرون : إنه يافث بن الأصغر . وذهب قوم الى أنهم من ولد أوراش بن ماذان[1] ابن سام بن نوح . وذهب آخرون الى أنهم من قبيل متقدّم فى الزمن الأوّل .

وقال المسعودىّ : وقد ذكر أنّ يونان أخو قحطان ، وأنه من ولد عابر بن شالخ، وأن أمره فى الانفصال عن دار أخيه كان سبب الشكّ[2] فى الشركة فى النسب، وأنه خرج من أرض اليمن . وكان يونان جبّارا عظيما ، وَسِيما جسيما . وكان جَزْل الرأى ، كبير الهمّة ، عظيم القَدْر . وهكذا ذكر يعقوب بن إسحاق الكِنْدىّ فى نسب يونان أنه أخٌ لقحطان ، وردّ عليه أبو العباس [عبد الله بن محمد][3] الناشى فى قصيدته حيث قال :

أبا يوسفَ إنّى نظرتُ فلم أجد ... على الفَحْص رأيا صحّ منك ولا عَقْدَا
وصرتَ حكيما عند قوم إذا امرؤٌ ... بلاهم جميعا لم يجد عندهم عَهْدَا
أتَقْرِنُ إلحادًا بدين محمد ... لقد جئت شيئا يا أخا كِنْدَةَ إدّا
وتخلط قَحْطانا بيُونان صِلّةً ... لَعَمْرِى لقد باعدتَ بينهما جِدّا

قيل : ولمّا كثُر ولد يونان خرج يطلب موضعا يسكنه، فأتى الى موضع من الغرب، فأقام به هو ومَن معه من ولده ، وكثُر نسلُه إلى أن أدركه الموت ، فجعل

(١) فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٣٧ طبع بلاق) : « أوراس بن ياوران » .

(٢) هذه عبارة المسعودى فى مروج الذهب (ج ١ ص ١٣٧ طبع بلاق) وعبارة الأصل : « وأن أمره كان فى الانفصال عن ديار أخيه قحطان وأنه ... الخ » .

(٣) التكملة من المسعودى .

وصيّته إلى الأكبر من ولده وآسمه جريبوش ، وأوصاه بأولاده ونَسْله ، ومات وبقى آبنه على مكانه ، وكثُر نسلُهم فغلَبوا على بلاد الغرب من الفِرِنجة والنُّوكَبَرْد والصقالبة وغيرهم .

وذكر بطليموس فى كتابه : أن أوّل ملكٍ ملَك من ملوك اليونانين فِيلبُّس وتفسيره محبّ الفرس ، وقيل آسمه نفليص ، وقيل فيلفوس . وكانت مدّة ملكه سبع سنين .

ثم ملك بعده آبنه الإسكندر ذو القرنين وليس هو صاحب الخِضْر رضى الله عنه . والإسكندر هذا هو الذى قتل دارَا بن دارَا ملك الفُرْس ، ونثر عِقْد مملكة فارس ، وقرّر ملوك الطوائف فيما ذكرناه .

وكان سبب قتله لدارا أن سائر الملوك كانت تؤدّى الإتاوة الى ملوك الفرس منذُ دوّخ بُخْتنصّر البلاد ، وذلّل لهم الملوك على ما ذكرناه آنفا فى أخبار الفرس ، ولا حاجة الى إعادته .

قالوا : وكان فِيلبُّس أبو الإسكندر قد صالح دارَا على إتاوة يؤدّيها اليه فى كل سنة . فلمّا ولىَ الإسكندر وظهر أمره ، وكان بعيد الهمّة ، فآمتنع أن يودّىَ الى دارا الخراج الذى كان يحمله أبوه اليه ، فآسخط دارا ذلك ، فكتب اليه يؤنّبه بسوء صنيعه بتركه حمل ما كان أبوه يحمله من الخراج وقال فى كتابه : إنما دعاك الى حبس ذلك الصِّبا والجهل ، وبعث اليه بصَوْلجان وكُرَة وبقَفِيز من السمسم . يُعلمه بذلك أنه إنما ينبغى لك أن تلعب مع الصبيان بالصولجان ولا تتقلّد الملك ولا تلبث به ، ويُعلمه أنه إن لم يقتصر على ما أمره به وتعاطى الملك بعد أن أمره بآعتزاله بعث اليه بمَن يأتيه به فى وثاق . وأنّ عِدّة جنوده الذين يبعث بهم اليه كعِدّة حبّ السمسم الذى بعث به إليه .

٦٩
١٣

فكتب إليه الإسكندر فى جواب ذلك : أنه قد فهم ما كتب به ، ونظر الى ما أرسله إليه من الصَّوْلجان والكُرَة وتيمّن به لإلقاء الملق الكُرَة الى الصَّوْلجان وإحرازه إيّاها ، وأنه شبّه الأرض بالكرة ، وتفاءل بملكه إياها وآحتوائه عليها ، وأنه يجترّ مُلْك دارا الى مُلْكه ، وبلاده الى حيّزه ؛ وأنه نظر الى السمسم الذى بعث به كنظره الى الصولجان والكرة لدسَمه ، وبُعْده عن المرارة والحَرَافة (١) ، وبعث الى دارا مع كتابه بصُرّة من خَرْدل ، وأعلمه فى الجواب أنّ مابعث به إليه قليل ، غير أن ذلك مثل الذى بعث به فى القوّة والحَرَافة والمرارة ، وأنّ جنوده فيما وصف به منه .

فلمّا وصل الى دارا جواب كتاب الإسكندر . جمع جُنْده وتأهّب لحربه وسار نحو بلاده ، وتأهّب الإسكندر أيضا للقائه وسار نحو دارا ، فآلتقيا جميعا بأرض الجزيرة (٢) وآقتتلا سنة ، وقد كان دارا مَلَّه قومُه وأحبّوا الراحة منه ، فلحق كثير من وجوه الفرس بالإسكندر وأطلعوه على عَوْرة دارا وقوّوه عليه ، ثم وثَب على دارا حاجباه فقتلاه وتقرّبا برأسه إلى الإسكندر ، فلما أتَوْه بها أمر بقتلهما وقال : هذا جزاء مَن تجرّأ على مَلِكه .

وقد ذُكر أنه سِيق اليه أسيرٌ غَدَر به صاحبُ شُرْطته ، فقال له الإسكندر : بما آجترأ عليك صاحبُ شُرْطتك ؟ قال : بتركى ترهيبَه وقتَ إساءته ، وإعطائى إيّاه وقتَ الإحسان باليسير من فعله نهايةَ رغبته ، فقال الإسكندر : نعم العَوْنُ على إصلاح القلوب الموغَرَةِ الترغيبُ بالأموال ، وأصلحُ منه الترهيبُ وقتَ الحاجة ، ثم أمر الإسكندر بقتله .

(١) الحرافة : طعم يحرق اللسان والفم .

(٢) المراد بأرض الجزيرة : بلاد الجزيرة الحالية التى عاصمتها بغداد . وقد سميت الوقعة التى آلتحم فيها الجيشان (سنة ٣٣١ ق . م) وقعة إربل لقرب ميدان الحرب من تلك المدينة (راجع تاريخ اليونان للمرحوم محمود فهمى ص ٢٤٣ طبع مصر) .

وقد قيل : إنه لمّا هزمه الإسكندر فرّ جريحا فخرج فى طلبه فى ستّة آلاف حتى أدركه ، ثم لم يلبث دارا أن هلك ، فأظهر الإسكندر عليه الحزن ودفنه فى مقابر الملوك[1] .

وقيل : إنّ الإسكندر كان قد نادَى ألّا يُقتَل دارَا وأن يُؤسَر . فلمّا عَلِم الإسكندر بما تمّ على دارَا سار حتى وقف عنده [فرآه يجود[2] بنفسه] فنزل [الإسكندر[2]] عن دابته وجلس عند رأسه ، وأخبره أنه ما أمر بقتله ، وأنّ الذى أصابه لم يكن عن رأيه . وقال : سَلْنى ما بدا لك فإنّى أسعفك به ، فقال له دارا : لى اليك حاجتان : إحداهما أن تنتقم لى من الرجلَيْن اللذَيْن قتلانى وسمّاهما له ، والأخرى أن تتزوّج ابنتى روشنك ، فأجابه الى ذلك ، وأمر بصلب الرجلَيْن اللذَيْن فتكا بدارا . ويقال : إنّ الرجلَين اللذَيْن قتلاه إنما فعلا ذلك عن رأى الإسكندر ، وأنه كان شرط لهما شرطا على قتله ، فلما طعناه دفع اليهما ما كان شرطه لهما ثم قال : قد وفّيتُ لكما بالشرط ولم تكونا شرطتما لأنفسكما وأنا قاتلُكما لا محالة ، فإنه ليس ينبغى لقَتَلَة المَلِك أن يُستبقوا إلّا بذمّة لا تُخفَر ، فقتلهما وصلبهما .

(١) المعروف فى كتب التاريخ أنه بعد انتصار الاسكندر واحتلاله مدينة بابل قرر الاسكندر متابعة الزحف جهة الشمال للقبض على دارا والقضاء على دولته ، فخرج دارا من قلب مملكته طريدا شريدا هائما على وجهه طالبا النجاة بنفسه والاسكندر لم يغمض عينا ولم يهدأ بالا ما دام لم يقبض عليه . ذلك لعلمه بأنه قادر على المقاومة إما فى الشمال من هضبة إيران ، وإما فيما وراء جبال بار باميساذس فى سهول التركستان الفسيحة لأن سكان تلك الأقاليم الواقعة بين بحر قزوين وبحيرة آرال وبين نهرى سيحون وجيحون يعترفون لملك الفرس بالسيادة عليهم .

وبينما الاسكندر يقتفى أثره ، ويتتبع خطاه اذ علم بأن المرزبان فسوس قبض عليه وقتله بالقرب من هيكا تميل لحزن لذلك حزنا شديدا ، واحتفل بتشييع جنازته احتفالا مهيبا ، وتتبع القاتل حتى أدركه فى بين النهرين وسلمه الى آل دارا فقتلوه شر قتلة . (راجع تاريخ اليونان ص ٢٤٤ — ٢٤٥) .

(٢) التكملة من تاريخ الطبرى (ص ٦٩٦ من القسم الأول طبع أوربا) .

ويقال : إن الإسكندر فى الأيّام التى نازل فيها دارا كان يسير اليه بنفسه على أنه رسولٌ فيتوسّط العسكر ويعرف كثيرا مما يحتاج اليه ، فكان دارا يستحسن سَمْته ، ويُحسن صِلَته ومجازاته ، ثم آتّهمه ، وأحسّ الإسكندر بذلك فما عاد اليه بعدها .

ذكر شىء من مكايد الإسكندر وحِيَله فى حروبه

من ذلك أنه لمّا آلتقى بدارا يوم الحرب أمر مناديه فنادى : يامعشر الفرس ، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات ، فمن كان منكم على الوفاء فليعتزل عن العسكر وله منّا الوفاء بما ضمنّاه ، فآتهمت الفرس بعضها بعضا ، وكان ذلك أوّل آضطراب حدث فيهم .

ومن ذلك أنه لمّا شَخَص عن فارس الى أرض الهند تلقاه ملكها قور[1] فى جمع عظيم من الهنود ومعه ألف فيل عليها المقاتلة بالسلاح وفى خراطيمها السيوف والعمد ، فلم تقف لها دوابّ الإسكندر وفرّت فكانت الهزيمة عليه ، فلمّا بلغ الإسكندر مأمنه أمر بآتّخاذ فِيَلة[2] من نحاس مجوّفة وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها ، ثم أمر فمُلِئت نِفطا وكبريتا ، وألبسها الدروع وجرت على العَجَل ، وعاود حرب الهند ، وجعل بين كلّ تمثالين جماعة من أصحابه . فلمّا نشبت الحرب أمر بإشعال النيران فى أجواف تلك التماثيل وآنكشف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند ، فخرجت

٧٠/١٣

(١) كذا ورد فى هذا الكتاب (ج ١٤ ص ٣٢١ من هذه الطبعة) ومروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ٣٩ طبع بلاق) . وورد فى هذا الموضع فى نسخة (ا) باسم : « ذر » . وفى نسخة (ب) باسم : « فوز » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٤١٦ طبع باريس سنة ١٩٠٠) : « فور » .

(٢) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « فتقدّم بصنعة تماثيل مجوّفة من النحاس والحديد تحكى صور الرجال » .

النيران من خراطيم التماثيل فولّت الفِيَلة مُدْبِرة ورجعت على أصحابها، فكانت الدائرة على الهند وقتل ملكهم قور .

ومما يُحكَى عنه أنه نزل على مدينة حصينة فتحصّن فيها أهلها ، فتعرّف خبرها فقيل له : إن فيها من المِيرة مايكفيهم زمنا طويلا ، وإنّ بها من العيون والأنهار ما لا يقدر على قطعه، فارتحل عنها ودسّ جماعة من التّجار متنكّرين، فدخلوها وأمدّهم بالأموال الكثيرة، وأمرهم أن يبتاعوا الأقوات ويغالوا فى أثمانها، ففعلوا ذلك حتى حازوا أكثر مافيها. فلما علم الإسكندر بذلك كتب اليهم يأمرهم بإحراق ماحصلوه من الأقوات وأن يهربوا ، ففعلوا كما أمرهم ، وعاد الى المدينة وحاصرها وزحف عليها فأعطوه الطاعة وملك المدينة . وكان إذا أراد أن يحاصر مدينة شرّد مَن حولها من أهل القرى وتهدّدهم بالسبي فيلجأوا الى المدينة ويعتصموا بها ، فلا يزال كذلك حتى يعلم أنه قد دخلها أضعاف أهلها وأسرعوا فى المِيرة فيحاصرهم حينئذ فيفتح المدينة .

ومما يُحكَى عنه أنه كتب الى معلّمه أرسطاطاليس[1]، وكان الإسكندر يشاوره فى كثير من أموره، ويقتدى بآرائه ، ويعمل بما يشير به عليه ولا يعدل عنه . وأرسطاطاليس هذا هو تلميذ أفلاطون، وأفلاطون صاحب الفِراسة تلميذ سقراط .

(١) هو أعظم الحكماء الأقدمين ورأس الفلاسفة المعروفين بالمشائين لأنه كان من عادته إلقاء الدروس على تلاميذه فى بستان وهو يتمشى ، ومن هنا سمى مشاء ، وسمى أتباعه بالمشائين . ويعرف بالمعلم الأوّل لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية ، وقد اختاره فيلبس أستاذا لابنه الاسكندر وأرسل اليه خطابا يقول فيه : « إنى لا أهنىء نفسى بولادة ابنى بمقدار ما أهنئها بولادته فى أيامك » . وكان الاسكندر فى السنة الثالثة عشرة من عمره . فعلمه وهذبه . وكان له منزلة ونفوذ عند فيلبس وابنه وأقام على ذلك سنين عديدة (راجع تاريخ اليونان لمرحوم محمود فهمى) .

ويُحكَى عن أفلاطون أنه كان يصوّر له صورة إنسان لم يره قطّ ولا عرفه فيقول: صاحب هـذه الصورة من أخلاقه كذا ، ومن هيئتـه كذا ، فيكون الرجل كما أخبر عنه ، فيقال: إنه صوّر له صورة نفسه ، فلمّا عاينها قال: هذا رجل محبّ فى الزنا فقيـل له : إنها صورتك، فقال : نعم أنا كذلك، ولولا أنى أملك نفسى لفعلت وإنى لمحبّ فيه .

نرجع إلى أخبار الإسكندر فيما كتب به الى أرسطاطاليس وما أجابه به قالوا: إنه كتب اليه يخبره أنّ فى عسكره من الروم جماعة من خاصّته لا يأمنهم على نفسه لمـا يرى من بُعْد هِمَمِهم فى شجاعتهم وكثرة آلتهم ، وأنه لا يرى لهم عقولا تفى بتلك الفضائل التى تمنعهم من الإقدام والجُرأة عليـه، وأنه يكره الإقدام عليهم بالقتل بمجرّد الظِّنّة مع وجوب الحُـرْمة .

فكتب إليه أرسطاطاليس : قـد فهمتُ كتابك ، وما وصفتَ به أصحابك . أمّا ما ذكرتَ من بُعْد هِمَمِهم فإنّ الوفاء من بُعْد الهمّة . وأمّا ما ذكرتَ من شجاعتهم ونَقْص عقولهم عنها ، فمن كانت هـذه حالُهُ فرفِّهه فى معيشـته وآخصُصْه بحِسَان النساء ، فإنّ رفاهيَـة العيش تُوهِن العَزْم ، وتحبب السـلامةَ، وتباعد من ركوب الخطَر والغَـرَر[1] ، وليكن خُلُقك حسنا تخلص اليك النيّات ، ولا تتنـاول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط إخوتك مثلَه، فليس ينبغى مع الاستئثار محبّـة ، ولا مع المواساة بغضة . وآعلم أنّ المملوك إذا آشتُرى لم يسأل عن مال مولاه ، وإنما يسأل عن خُلُقه .

(١) الغرر (محركة) : التعريض للهلكة .

وكتب اليه الإسكندر يُعلمه أنه شاهد بإيران شهر[1] رجالا ذوى أصالة فى الرأى، وجمال فى الوجوه، ولهم مع ذلك صَرامةٌ وشجاعةٌ، وأنه رأى لهم هيئات وخِلَفا لو كان عرف حقيقتها لما غزاهم، وأنه إنما ملكهم بحُسْن الاتفاق والبخت، وأنه لا يأمن إذا ظعن عنهم وُثُوبَهم ولا تسكُن نفسُه إلّا ببوارهم.

٥ فكتب إليه أرسطاطاليس: فهمتُ كتابك فى رجال فارس؛ فأما قتلهم فهو من الفساد فى الأرض، ولو قتلتهم لأنبتَتْ أرضُ فارسَ أمثالَهم، لأنّ إقليم بابل يُولد أمثالَ هؤلاء الرجال من أهل العقل، والسداد فى الرأى، والاعتدال فى التركيب؛ فصاروا أعداءك وأعداء عَقِبك بالطبع، لأنك تكون قد وترتَ القوم وكثّرت الأحقاد على أرض الروم منهم وممّن بعدَهم، وإخراجك إيّاهم فى عسكرك

١٠ مخاطرة بنفسك وأصحابك، ولكنّى أشير عليك برأى هو أبلغ لك فى كل ماتريد من القتل وغيره، وهو أن تستدعىَ أولاد الملوك منهم وممّن يُستصلَح للمُلْك ويُترشَّح له، فتقلّدهم البلدانَ وتولّيهم الولايات ليصير كلّ واحدٍ منهم ملكا برأسه، فتتفرق كلمتهم، ويجتمعوا على الطاعة لك، ولا يؤدّى بعضُهم إلى بعض طاعةً، ولا يتفقوا على أمر واحد، ولا تجتمع كلمتُهم. ففعل الإسكندر ذلك، فتمّ أمرُه وأمكنه أن

١٥ يتجاوز أرضَ فارس إلى أرض الهند حتى قتل ملكَها مبارزةً بعد حروب عظيمة. ثم صار إلى أرض الصّين وطاف مما يلى القُطْبَ الشمالىّ ورجع إلى العراق فمات فى طريقه بشَهْرزُور[2]، ويقال: بل فى قرية من قُرَى بابل. وكان عمره ستّا وثلاثين

٧١/١٣

(١) إيران شهر: هى بلاد العراق وفارس والجبال وخراسان يجمعها كلها هذا الاسم (راجع معجم البلدان لياقوت).

٢٠ (٢) شهر زور: بلدة بين الموصل وبين همذان، بناها زور بن الضحاك فقيل شهر زور، ومعناه مدينة الضحاك (تقويم البلدان لأبى الفدا).

سنة . وفى بعض النسخ ثلاثا وثلاثين سنة . وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وشهورا. وقيل : سبعة عشر سنة . وقُتِل دارًا فى السنة الثالثة من مُلْكه .

قال : وبنى الإسكندر اثنتى عشرة مدينة وسمّاها كلّها الإسكندرية منها : مدينة جَىّ[1] بأصبهان ، وثلاث مُدُن بخراسان وهى : هَرَاة[2] ومَرو[3] وسَمَرْقَنْد . وبنى بأرض بابل مدينة لروشنك[4] . وبنى بأرض يونان سبعَ مُدُن .

ومن عجيب ما قيل فى نسب الإسكندر : أنه من ولد دارا الأكبر ، وأنه أخو دارا الأصغر، وذلك أن دارا الأكبر بن أردشير تزوج ببنت ملك الزِّنج هَلَاى، فلمّا حملت[5] منه استخبث رِيحَها[6]، فأمر أن تحتال لذلك، فكانت تغتسل بماء السندروس فأذهبَ ذلك كثيرا من دفرها[7] ، ثم عافَها وردّها [إلى أهلها[8]] وقد علِقت منه بالإسكندر فقيل له الإسكندروس . هذا ما نقله عبد الملك بن عبدون فى كتابه المترجم

(١) جىّ (بالفتح ثم التشديد) : اسم مدينة ناحية أصبهان القديم ، وهى الآن كالخراب منفردة ، وتسمى الآن عند العجم : شهرستان وعند المحدثين المدينة . وفيها مشهد الراشد بن المسترشد معروف يزار، وهى على شاطىء نهر زندرود (راجع معجم البلدان لياقوت) وورد فى تاريخ الطبرى (ص ٧٠٢ من القسم الأول طبع أوربا) أنها بنيت على مثال الجنة .

(٢) هراة : كانت مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التتر، فتحت فى زمان عثمان رضى الله عنه . (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا) .

(٣) هى مرو الشاهجان ، ومعناه روح الملك . وهى مدينة عظيمة مشهورة بالفواكه . وبينها وبين كل واحد من نيسابور، وهراة، وبلخ وبخارا، مسيرة اثنى عشر يوما (راجع تقويم البلدان) .

(٤) هى روشنك بنت دارا .

(٥) فى شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٥ طبع أوربا) : «حملت اليه» .

(٦) السندروس : صمغ أصفر يشبه الكهرباء فى قوته إلا أنه أرخى منه وفيه شىء من مرارة، وله عدة فوائد شرحها ابن البيطار فى مفرداته (راجع ج ٣ ص ٣٨) .

(٧) الدفر (بسكون الفاء وفتحها) : خبث الرائحة .

(٨) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون .

بكامة الزهر وصدفة الدر[1]، قال : واختلف فى مدته فذكر الخوارزمى فى تاريخه أنه [كان][2] قبل الهجرة بتسعمائة سنة ، وثلاث وثلاثين سنة . وذكر أبو محمد ابن قتيبة فى كتاب المعارف : أن بينه وبين الهجرة أربعمائة[3] سنة . والله أعلم بالصواب .

ذكر شىء من أخبار الإسكندر
وما اتفق له مع ملكى الهند والصين

فأما خبره مع ملك الهند قال عبد الملك بن عبدون : إن الإسكندر لما دوخ البلاد وقهر الملوك سار نحو الهند وقتل ملكها الأعظم فُورًا صاحب مدينة المانكير[4]. فلما دانت له ملوك الهند بلغه أن بأقاصى ديارها مَلِكا من ملوكها ذا حكمة وسياسة وإنصاف لرعيته ، وأنه ليس فى بلاد الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله يقال له

(١) ويسمى هذا الكتاب أيضا : « كامة الزهر وفريدة الدهر » ويسمى أيضا : « شرح البسامة بأطواق الحمامة » وهو شرح للعلامة أبى مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمى السبتى من أدباء النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ، على القصيدة الرائية المسماة بالبسامة بأطواق الحمامة المنسوبة للوزير أبى محمد عبد المجيد بن عبدون الفهرى ، وزير بنى مسلمة ، المعروفين ببنى الأفطس بالأندلس ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ التى رثى بها ملوك بنى الأفطس ، وذكر فيها من أباده الحدثان من ملوك كل زمان ، وضمنها حكما ومواعظ وأخلاقا أدبية . وأول القصيدة :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

وقد طبع هذا الكتاب بمدنية ليدن سنة ١٨٤٦ م وعنى بتصحيحه المسيو رينحرت ديزى . ويعرف بشرح قصيدة ابن عبدون .

(٢) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون .

(٣) فى كتاب المعارف لابن قتيبة (ص ٢٨ طبع أوربا) مانصه : « وكان بين الاسكندروس وبين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نحو من تسعمائة سنة » وهو يخالف ماذكره المؤلف .

(٤) هذه المدينة يقال لها بلهر باسم ملك من ملوك الهند يقال له بلهر وكان يقيم فيها (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٤٤ طبع أوربا) .

كند كان، وأنه قاهر لنفسه مانع [لها](١) من الشهوة الغضبية، فكتب إليه الإسكندر كتابا يقول فيه : أما بعد ، فإذا أتاك كتابى هذا فإن كنت قائما فلا تقعد ، وإن كنت ماشيا فلا تلتفت حتى تدخل فى طاعتى، وإلّا مزّقتُ مُلْكَك وألحقتُك بمن مضى من ملوك الهند من قبلك .

فلمّا ورد عليه الكتاب أجاب بأحسن جواب، وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه أنه قد آجتمع عنده أشياء لم تجتمع عند غيره مثلها : فمن ذلك آبنةٌ له لم تطلُع الشمس على أحسن منها ؛ وفيلسوفٌ يخبرك بمرادك قبل أن تسأله لحِدّة مزاجه وحسن قريحته ، وآعتداله فى بِنْيته ، وآتساعه فى علمه؛ وطبيبٌ لايُخشَى عليه معه داء ولا شيءٌ من العوارض إلا ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البِنْية ، وحلّ العقدة التى عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسّىّ ، وإذا كانت بِنْية الإنسان وهيكلُه قد نُصِبَا فى هذا العالَم غرضا للآفات والحتوف والبلايا؛ وقدحٌ اذا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقُص منه شيء ، وإنّى منفذ جميع ذلك الى الملك وصائر اليه .

فلمّا قرأ الإسكندر كتابه قال : كون هذه الأشياء عندى ونجاة هذا الحكيم من صَوْلتى أحبّ الىّ من ألا تكون عندى ويهلك . فأنفذ اليه الإسكندر جماعة من الحكماء اليونانيين والروم فى عدّة من الرجال وتقدّم اليهم أنه إن كان قد صدق فيما كتب به إلىّ فآحملوا ذلك الى عندى وآتركوه فى موضعه، وإن تبيّنتم الأمر على خلاف ذلك، وأنه أخبر عن الشيء على خلاف ماهو به فقد خرج عن حَدّ الحكمة فأشخصوه الىّ . فلمّا انتهَوْا الى مملكة الملك خرج اليهم وتلقّاهم بأحسن لقاء، وأنزلهم بأحسن منزل . فلما كان فى اليوم الثالث جلس لهم مجلسا خاصّا للحكماء دون من كان معهم من المقاتلة . فقال بعضهم لبعض : إن صَدَقنا فى الأوّل صَدَقنا فيما بعد ذلك مما ذكر.

٧٢
١٣

(١) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون .

فلمّا أخذت الحكماء مراتبها وآستقرّت بها مجالسها أقبل عليهم مباحثا فى أصول العلوم الفلسفية وفروعها، وعلى كم فنّ يحتوى العلم الفلسفىّ فى أصوله، والى كم يتفرّع.

قال عبد الملك بن عبد الله بن عَبْدون — رحمه الله — : وقد ذكر أن العلم الفلسفىّ ينقسم على أربعة أنواع : أحدها الرياضيّات، والثانى المنطقيّات، والثالث الطبيعيّات، والرابع الإلٰهيّات. قال :

فأما الرياضيّات فأربعة أنواع : الواحد علم الحساب، والثانى علم الهندسة، والأصل فيه النقطة، وهى فيه كالواحد فى علم الحساب، والثالث علم النجوم، والرابع علم الموسيقى، وهو علم تأليف الألحان.

وأما العلوم المنطقيّات فخمسة أنواع : الواحد معرفة صناعة الشعر، وأنواع البديع كالتكافؤ والتفريع والحَشْو والتتبيع والتسميط والترصيع والالتفاتة والإشارة والمقابلة والاستعارة والتبليغ والتلويح والتصدير والتوشيح والتجنيس والتضادّ والترديد والاستطراد والتقسيم والتسهيم والإحالة والتتميم. والثانى معرفة صناعة الخطابة. والثالث صناعة الجَدَل. والرابع صناعة البرهان. والخامس صناعة المغالطين فى المناظرة والجَدَل.

وأما العلوم الطبيعيّات فسبعة أنواع : الواحد علم المبادى الجسمانيّة، وهى خمسة أشياء : الهَيُولَى والصورة والزمان والمكان والحركة. والثانى علم السماء والأرض، وهو معرفة ماهية جواهر الأفلاك والكواكب وكيفيتها وكيفية تركيبها وعلّة دورانها، وهل تقبل الكَوْن والفساد كما تقبل الأركان الأربعة التى دون فلك القمر أو لا، وما علّة حركات الكواكب وآختلافها فى السرعة والإبطاء، وما علّة سكون الأرض فى وَسَط الفلك فى المركز، وهل خارج العالم جسم آخر أم لا. وهل

فى الكَوْن والفساد موضع فارغٌ لا شىء فيه. وما شاكل هذه المباحث . والثالث علم الكون والفساد وهو علم معرفة جواهر الأركان [الأربعة[1]] التى هى النار والهواء والماء والأرض . والرابع علم حدوث الجواهر بتغيّرات الهواء وتأثيرات الكواكب بحركاتها ومطارح شعاعاتها على الأركان الأربعة وآنفعالاتها بعضها ببعض بقدرة الله تعالى . والخامس علم المعادن التى تنعقد من البخارات المختنقة فى بطن الأرض والعصارات المتحلّلة من الهواء . والسادس علم النبات على آختلاف أنواعه فى هيآته وأشكاله وآختلاف صموغه وطعومه وخواصّه وروائحه ومنافعه ومضارّه . السابع علم الحيوان، وهو معرفة كلّ جسم يغتذى ويحسّ ويعيش ويتحرّك على آختلاف أنواعه ، وما شاكل ذلك مما ينسب الى علم الطبيعيّات كعلم الطبّ والبيطرة وسياسة الدوابّ والسباع والطيور والحرث والنسل وعلم الصنائع أجمع داخل فى علم الطبيعيات .

وأما العلوم الإلٰهيّات فخمسة أنواع ؛ أوّلها : معرفة البارى سبحانه وتعالى بجميع صفاته، وأنه أوّل كلّ شىء وآخر كلّ شىء، والخالق لكلّ شىء، والعالم بكلّ شىء، وأنه ليس كمثله شىء . والثانى علم الروحانيّات من الجواهر البسيطة العقليّة، وهى الصورة المجرّدة من الهيولَى المستعملة للأجسام المطهّرة، ومعرفة آرتباط أبعضها ببعض ، وقبض بعضها عن بعض ، وهى أفلاك روحانيّة تحيط بأفلاك جسمانيّة . والثالث علم النفوس والأرواح السارية فى الأجسام الفلكيّة والطبيعيّة من لَدُن الفلك المحيط الى منتهى مركز الأرض . والرابع علم السياسة وهى خمسة انواع ؛ أولها : السياسة النبويّة ، والسياسة الملوكيّة ، والسياسة العامّيّة والسياسة الخاصّيّة والسياسة الذاتيّة . فأما السياسة النبويّة فالله تبارك وتعالى يختصّ بها من يشاء من

٧٣/١٣

(١) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٨ طبع أوربا) .

عباده ويهدى لأتباعهم مَن يشاء لا معقِّب لحكمه، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون . وأما السياسة الملوكية فهى حفظ الشريعة على الأمة وإحياء السنّة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأما السياسة العامّيّة فهى الرياسات على الجماعات كرياسة الأمراء على البُلدان وقادة الجيوش وترتيب أحوالهم على ما يجب وينبغى من الأمور وإتقان التدبير . وأما السياسة الخاصّيّة فهى معرفة كلّ إنسان بنفسه ، وتدبيره أمر غلمانه وأولاده، ومَنْ يليهم من أتباعه وقضاء حقوق الإخوان . وأما السياسة الذاتية فهى أن يتفقّد الإنسان أفعالَه وأحوالَه وأخلاقَه وشهوتَه فيزمّها بزمام عقله ، وغضبَه فيردعه وما شا كل ذلك . والخامس من العلوم الإلٰهيات علم المعاد وكيفية آنبعاث الأرواح وقيام الأجساد وحشرها للحساب يومَ الدين ، ومعرفة حقيقة جزاء المحسنين وعقاب المسيئين .

***

نرجع إلى خبر الملك الهندىّ مع أصحاب الإسكندر، قال: ولمّا تكلّم مع الحكماء اليونانيين فى العلوم الفلسفية وطال الخطب فى مناظرتهم أخرج الجارية اليهم، فلمّا ظهرت لأبصارهم لم يقع طَرْف كلّ واحد منهم على عضو من أعضائها فتعدّى ببصره إلى غير ذلك العضو اشتغالا بحسنه عمّا سواه حتى خاف القوم على عقولهم، ثم رجعوا إلى أنفسهم وقهروا سلطان هواهم ، ثم أراهم بعد ذلك ما تقدّم الوعد به وصرفهم ، وبعث بالفيلسوف والطبيب والجارية والقدح [معهم](1) .

فلمّا وردوا على الإسكندر أمر بإنزال الفيلسوف والطبيب، ونظر إلى الجارية فخار عند مشاهدتها، فأمر قيّمة الجوارى بالقيام عليها، ثم صرف همّته إلى الفيلسوف والطبيب وإلى علم ما عندهما، وقصّ عليه الحكماء ما جرى لهم مع الملك الهندىّ من

(١) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٢٠) .

المباحث فى العلوم الفلسفيّة ، فأعجبه ذلك وتأمّل أغراض القوم ومقاصدَهم ، وأقبل ينظر فى مطاردة الهند يعلّلها فى معلولاتها ، وما يصفه اليونانيون أيضا من عِلَلها فى معلولاتها على حَسَب ما قدّمتُ من أوضاعها ، ثم أراد مِحْنة الفيلسوف على حسب ما خُبِّر عنه ، فأجال فكره فيما يختبره به ، فدعا بقَدَح فملأه سمنا ولم يجعل للزيادة عليه موضعا ، ودفعه لرسولٍ وقال : احمل هذا إلى الفيلسوف ولا تكلّمه بشىء ، فلمّا دفعه ٥ اليه دعا الفيلسوف بألف إبرة فغرزها فى السمن وصرفه اليه ، فأمر الإسكندر بضَرْب تلك الإبر كُرَةً متساويةَ الأجزاء وردّها اليه ، فأمر الفيلسوف ببسطها وجلائها حتى صارت جسما تردّ صورة مقابليها لصفائها وردّها إلى الإسكندر ، فدعا بطست وجعل تلك المرآة فيه وصبّ عليها الماء حتى غمرها وردّها اليه ، فأخذها الفيلسوف وعَمِل منها طَرْجهارة (١) طافية على الماء وصرفها اليه ، فملأها الإسكندر ترابا وردّها اليه ، ١٠ فلمّا نظر الفيلسوف إلى التراب تغيّر لونه وبكى ثم ردّها إلى الإسكندر ولم يضع فيها شيئا .

فلمّا كان فى اليوم الثانى جلس الإسكندر جلوسا خاصّا ودعا بالفيلسوف ، ولم يكن رآه قبل ذلك اليوم ، فلمّا أقبل نظر الإسكندر [من الفيلسوف (٢)] إلى رجلٍ طويلِ الجسم رَحْبِ الجبين معتدلِ البِنْية فقال فى نفسه : هذه بِنْيةٌ تضادّ الحكمة ، ١٥ فإذا اجتمع له حُسْن الصورة والفهم كان أوحد زمانه ، فأدار الفيلسوف إصبعه حول وجهه ثم وضعه على أرنبة أنفه وأسرع نحو الإسكندر وحيّاه بتحية الملك ، فأشار اليه بالجلوس وقال : لم أدرتَ إصبعك حولَ وجهك ووضعتها على أرنبة

(١) طرجهارة ويقال لها : طنجهارة من كلمة تركهار الفارسية : نوع من الصفحات أو الصحون يقطع عليها اللبن المتجمد (راجع قاموس دوزى) . ٢٠

(٢) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٢١) .

أنفك؟ قال : علمتُ أنك تقول فى نفسك، إذا نظرت إلى حُسْن صورتى و إتقان بِنْيتى قلّما تجتمع هذه الخِلْقة مع الحكمة، و إذا كان على هـذا كان صاحبها أوحدَ زمانه، فأريتُـك مصداقا لِمَـا سَنَح لك أنه كما ليس لك فى الوجه إلا أنف واحدٌ فكذلك ليس فى ديار الهند على هذه الصفة أحدٌ غيرى .

٧٤/١٣

٥ فقال الإسكندر : حَسَنٌ ما أتيتَ به ! فما بالك حين بعثتُ اليك بالقدح السمن غرزتَ فيه الإبر وردّدتَه؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ قلبى قـد آمتلأ علما فليس لأحد فيـه مستزاد، فأعلمتُك أنّ علمى سيزيد فيـه كما زادتْ هذه الإبر فى هذا السمن . قال : فما بالك حين عَمِلتُ لك الإبر كُرَة صنعتَ منها مرآةً صقيلةً وصرفتَها إلىّ؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ قلبى قد قسا من سَفْك الدماء

١٠ وآشتغل بهذا العالَم فلا يقبل العلم ولا يرغب فيه، فأخبرتك أنى سأعمل الحِيلةَ فى ذلك، كما جعلتُ من الكُرَة مرآةً مُوريةً للأجسام . قال : فما بالك حين جعلتها لك فى الطست وصببتُ عليها المـاء جعلتها طَرْجهارةً طافيةً على المـاء؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ الأيام قـد قَصُرت والأجل قريب ، ولا يُدرَك العلم الكثير فى المهل القليـل، فأخبرتُك أنى سأعمل الحيلَة فيـه فى غير مدّة طويلة، كما جعلتُ

١٥ هذه المرآة الراسبة طافيةً فى أسرع وقت . قال : فما بالك حين ملأتُ ذلك الإناء ترابا ردّدته إلىّ ولم تُحدث فيه شيئا؟ . قال : علمتُ أنك تقول : ثم الموت، وأنه لابدّ منـه ، فأخبرتك أن لا حِيلَةَ فى ذلك . قال الإسكندر : قـد أجبتَنى على مُرادى فى جميـع ذلك ولأُحسنَنّ إلى الهنـد من أجلك ، وأمر له بجوائز كثيرة . فقال له الفيلسـوف : لـو أحببتُ المـال لَمَـا كنتُ عالمـا ، ولستُ أُدخِل على علمى

٢٠ مايضادّه، فإن القنية تُوجب الخدمة، وقد ملكتَ أيها الملك الرحيم بسيفك أجسام رعيّتك فأملك قلوبهم بإحسانك فهو خِزانة سلطانك، وآحذر العامّة فإنها إذا قَدَرت

أن تقول قَدَرْتُ أن تفعل فاحترزْ من أن تقول تأمَّنْ أن تفعل، فالملكُ السعيدُ من مَلَك الرعيّة بالرغبة والرهبة، وأشبهُ الأشياء من أفعال الناس بأفعال بارئهم الإحسان، فخيَّره الإسكندرُ فى المُقَام معه، أو الانصراف إلى بلاده، فاختار الرجوع إلى موضعه.

وأمّا القدحُ فملأهُ ماءً ثم أورد عليه الناسَ فلم ينقُص شربهم منه شيئا، فيقال إنه كان معمولا من خواصّ الهند الروحانيّة مما تدّعيه الهند، ويقال إنه كان لآدم أبى البشر عليه السلام، مبارَكٌ له فيه حين كان بأرض سَرَنْدِيبَ، فوُرِثَ عنه إلى أن انتهى إلى هذا الملك الهندىّ.

وأما الطبيبُ فإنه كان له معه منظراتٌ دلّت على ثبوت قدمه فى علمه، وأنه كما وَصَف صاحبُه أو كاد. هذا خبره مع ملك الهند.

وأما خبره مع ملك الصين، قال أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم: وفى الرواية الصحيحة أن الإسكندر لمّا انتهى إلى بلاد الصين أتاه حاجبُه وقد مَضَى من الليل شَطْرُه فقال: هذا رسولُ ملِكِ الصين بالباب يستأذنُ فى الدخول عليك، قال: أدخلْه، فأدخلَه فوقف بين يدى الإسكندر وسلَّم ثم قال: إن رأى الملك أن يَستخلينى فعل، فأمر الإسكندر مَن بحضرته أن ينصرفوا، فانصرفوا كلّهم عنه وبقى حاجبُه فقال: إنّ الذى جئتُ له لا يحتمل أن يسمعه غيرُك، فأمر الإسكندر أن يُفتَّش ففتِّش، فلم يجد معه سلاحا، فوضع بين يديه سيفا مسلولا وقال له: قِفْ مكانك وقُلْ ما شئتَ، وأخرج الحاجبَ ومَن كان قد بَقِىَ عنده، فلمّا خلا المجلس قال له: أنا ملكُ الصين لا رسولُه، جئتُ لأسألك عما تريد، فإن كان ممّا يمكن عَمَلُه ولو على أصعَب الوجوه عَمِلْتُه

وأغنيتُك عن الحرب ، فقال له الإسكندر : وما الذى آمنَك منّى ؟ قال : علمى بأنك عاقلٌ حكيمٌ ، ولم تك بيننا عداوةٌ ولا مطالبةٌ بذَحْل[1] ، وأنك تعلم أنك إن قتلتنى لم يكن ذلك سببا لتسليم أهل الصين إليك مُلْكَهم ، ولم يمنعهم قتلى من أن ينصبوا لأنفسهم مَلِكا غيرى ثم تنسب [أنت][2] إلى غير الجميل وضدّ الحزم . فأطرق الإسكندر وعلم أنه رجلٌ عاقلٌ ، ثم قال له : إن الذى أريد منك ارتفاع[3] مملكتك لثلاث سنين عاجلا ونصف ٱرتفاع مملكتك لكلّ سنة . قال : هل غير هذا ؟ قال لا ، قال : قد أجبتُك ، ولكن سَلْنى كيف تكون حالُك ، قال : كيف تكون ؟ قال : أكون أوّلَ قتيلٍ مُحارب ، وأوّلَ أَكِيلة مُفترس . قال : فإن قنعتُ منك بٱرتفاع سنتين . قال : أكون أصلحَ قليلا وأفسحَ مدّة . قال : فإن قنعتُ بٱرتفاع سنة . قال : يكون فى ذلك بقاءُ مُلْكى ، وذهابٌ لجميع لذّتى . قال : فإن قنعتُ منك بثلث الٱرتفاع كيف تكون حالك ؟ قال : يكون السدس للفقراء ومصالح العباد ، ويكون الباقى لجيشى[4] ولسائر أسباب الملك . قال الإسكندر : قد ٱقتصرتُ منك على هذا ، فشكره وٱنصرف .

٧٥/١٣

فلمّا طلعت الشمس أقبل جيش الصين وقد طبّق الأرض وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلاك ، وتواثبَ أصحابه فركبوا الخيل وٱستعدّوا للحرب بعد

(١) الذحل : الثأر . (٢) التكملة عن كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٧) .

(٣) عبارة كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٧ — ٤٣٨) « إن الذى أريد منك ارتفاع مملكتك فى خمس سنين فقال : هل تريد شيئا غير ذلك ؟ قال : لا ؛ قال : قد أجبتك إليه ؛ قال : فكيف تكون حالك حينئذ ؟ قال أكون قتيل أول محارب ، وأكيل أول مفترس ؛ قال : فإن قنعت منك بارتفاع ثلاث سنين كيف تكون حالك ؟ قال : تكون أصلح من ذلك وأفسح ؛ قال : فإن قنعت منك بارتفاع سنة واحدة ؛ قال : يكون ذلك سدادا لأمر ملكى ، ومذهبا لجميع لذاتى ... الخ » .

(٤) فى كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « لحاشيتى » .

الأمن والطمأنينة إلى السِّلْم. فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين وهو راكب وعليه التاج، فلمّا تراءى الجمعان نظر الإسكندر إلى مَلِك الصين فظنّ أنه حضر للحرب، فصاح به: أغدرتَ؟ فترجّل ملك الصين وقال: لا والله، قال: فأدْنُ منّى فدنا منه، فقال له الإسكندر: ما هذا الجيش الكثير؟ فقال: إنّى أردتُ أن أريك أنّى لم أطعك من قِلّة وضَعْف، ولكنّى رأيتُ العالَمَ العُلْوِىّ مقبلا عليك ممكّنًا لك ممن هو أقوَى منك وأكثر عددا، ومَن حاربَ العالم العُلْوىّ غُلِب، فأردتُ طاعته بطاعتك، والتذلّل له بالتذلّل لك، فقال الإسكندر له: ليس مثلك مَن يُسَام الذّل، ولا مَن يؤدّى الجزية، فما رأيتُ بينى وبين الملوك مَن يستحقّ التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرفٌ عنك. فقال ملك الصين: ولستَ تخسر [إذا][1] ثم انصرف عنه الإسكندر. فبعث إليه ملك الصين بضعف[2] ما قرر معه وانصرف عن الصين.

كلام الحكماء عند وفاة الإسكندر

قال: لمّا تُوُفّى الإسكندر جُعل فى تابوت من الذهب، واجتمع الحكماء فتقدّم الأوّل[3] فقال: قد كان الإسكندر يخبأ الذهب، وقد أصبح الآن يخبؤه الذهب. وتقدّم الثانى[4] اليه والناس يبكون ويجزعون فقال: حرّكنا بسكونه. وتقدّم

(١) التكملة من كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وغيرهم (ص ٤٣٩).

(٢) ورد فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٩) الأشياء التى بعث بها ملك الصين إلى الإسكندر وهى: «ألف حريرة وألف فرند وألف ديباجة وألف من فضة ومن كل من جلود السمور والفنك والفاقم والسنجاب والخزّ ألف جلدة وألف مثقال عنبرا وألف ناجفة مسكا وألف رطل عودا وألف طاس ذهبا وفضة ومائة سيف هندية محلاة بالذهب والجوهر ومائة سرج ومائة لجام صينية مذهبة ومائة درع سابغة والتزم الضريبة كل سنة فأخذها الإسكندر كلها وارتحل بها».

(٣) هو ديوجانس الفيلسوف. (٤) هو أفلاطون الفيلسوف.

الثالث[1] اليه فقال : قد كان يَعِظنا فى حياته ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمس . وتقدّم اليه الرابع فقال : قد جاب الأَرَضين وسلكها ، ثم حصل منها فى أربعة قوائم . ووقف عليه الخامس[2] فقال : انظروا إلى حُلْم النائم كيف آنقضَى ، و إلى ظِلّ الغمام كيف آنجلَى . ووقف عليه السادس فقال : قد أمات هذا الميِّت كثيرا من الناس لئلّا يموتَ ، وقد مات الآن . ووقف عليه السابع[3] فقال : مالك لا تقلّ عضوا من أعضائك ، وقد كنتَ تستقلّ بمُلْك العباد . وقال الثامن[4] : مالك لا ترغبُ بنفسك عن المكان الضيِّق ، وقد كنتَ ترغب بها عن رَحْب البلاد . وقال التاسع : كان لا يُقدَر عنده على الكلام ، واليوم لا يُقدَر عنده على الصَّمْت . وقال العاشر : قد كان غالبا فصار مغلوبا ، وآكلا فصار مأكولا . وقال الحادى عشر[5] : ما كان أقبحَ إفراطُك فى التجبُّر أمس مع شدّة خضوعك اليوم ! . وقالت بنت دارا : ما كنتُ أحسَبُ أنّ غالبَ أبى يُغلَبُ . وقال رئيس الطبّاخين : قد نضّدتُ النضائد ، وألقيتُ الوسائد ، ونَصَبتُ الموائد ، ولستُ أرى عميدَ القوم .

قال : ولما مات الإسكندر عُرِض المُلْك على آبنه من بعده فأباه وآختار العبادة والنُّسك .

فملك بعد الإسكندر على اليونانيين بطليموس ، وهذه التسمية لكلّ من ملك اليونان ككِسْرى للأكاسرة من الفُرْس ، وقَيْصر للروم ، وخاقان للترك ، وطَرْخان للخزر ، والنجاشىّ للحبشة .

قال : وكان بطليموسُ هذا شابّا مدبّرا حكيما عالما . وكان مُلْكه أربعين سنة ، وقيل عشرين سنة ، وقيل إنه أوّل من آقتنى البُزَاة وضرّاها ولعب بها .

(١) هو سقراط الحكيم . (٢) هو بطليموس الفيلسوف . (٣) هو بلياس الفيلسوف .
(٤) هو ديمقراطيس الفيلسوف . (٥) هو طوبيقا الفيلسوف .

٧٦/١٣ ثم ملك بعده بطليموس الثانى، وهو الذى يقال له : محبّ الأخ ، وآسمه هِيقْلوس، وكان مُلْكه ستّا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأب، وكانت مدّةُ ملكه سبعَ عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده بطليموس، وهو صاحبُ علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطى. فكان ملكه أربعا وعشرين سنة . ٥

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأم . فكان ملكه خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الصائغ . فكان مُلْكه سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندرانىّ . فكان ملكه اثنتى عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الحديدىّ . فكانت مدّة مُلْكه ثمانين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الجوّال . فكان ملكه أيضا ثمانين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك . ١٠

ثم ملك بعده بطليموس الحرب . فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة .

ثم ملكت بعده آبنته قُلُوبَطْرة، وكانت حكيمة متفلسفة معظّمة للحكماء ، ولها كتب مصنّفة فى الطبّ والزينة وغير ذلك ، مترجمة بآسمها ومنسوبة إليها ، وكان زوجها بطليموس ويسمّى أنطونيوس مشاركا لها فى مُلْك مقدونية وهى مصر . ١٥

فلمّا أراد الله تعالى ذهاب ملك اليونانيين أيّد عليهم مَلِك رومية وهو أغسطس، فسار إليها، وكان له مع الملكة قلوبطرة وزوجها حروبٌ كثيرة، فقُتل زوج قلوبطرة، فأراد ملك الروم أن يتزوّجها لعلمه بحكمتها وليتعلّم منها، فراسلها فعلمتْ مرادَه منها، فطلبت حيّة تكون بالحجاز ومصر والشام ، وهى نوع من الحيّات تراعى الإنسان حتى إذا نظرت الى عضو من أعضائه قَفَزت أذرُعا نحوه فلم تخطئ ذلك العضو بعينه ٢٠

حتى تتفُل عليه سمّا فيموت لوقته ولا يُعلَم ماخبره ، فيتوهّم الناس أنه مات فجأة حَتْفَ أنفه . فاحتُمِلَتْ لها . فلمّا كان فى اليوم الذى علمت فيه أن أغسطس يدخل فى قصرها أمرتْ بأنواع الرياحين والزهور أن تُبسَط فى مجلسها وأمامَ سريرها ، وجلست على سرير مُلْكها والتاجُ على رأسها وفرّقتْ حشَمَها وقرّبت يدها من الإناء الذى فيه تلك الحيّة فضربتها فماتت لوقتها، وانسابتْ الحيّة فى تلك الرياحين ودخل أغسطس حتى انتهى الى المجلس، فنظر إليها جالسةً وهو يظنّ أنها باقية، فدنا منها فتبيّن له أنها قد ماتت، فنظر الى تلك الرياحين فقفزت عليه تلك الحيّة فرمتْه بسمّها وقد خفّ، فبطل شقّه الذى ضربته من جهته، ولولا أنّ سمّها كان قد نَقُصَ لمات، فعجب من قتلها لنفسها وما كادته به من إلقاء الحيّة . وكانت قلوبطرة هذه آخر مَنْ مَلَك من اليونانيين . والله أعلم .

ذكر أخبار ملوك السُّريان

قال أبو الحسن علىّ بن عبد الله المسعودىّ فى كتابه المترجم بمروج الذهب[1] :

ذكر ذوو العناية بأخبار ملوك العالَم أنّ أوّل الملوك بعد الطوفان ملوك اليونان، قال: وقد تُنُوزِع فيهم وفى النبَط، فمن الناس مَن رأى أنّ السريانيين هم النَّبَط، ومنهم من رأى أنهم إخوةٌ لولد ماس بن نَبِيط[2]، ومنهم مَن رأى غير ذلك على حسب تبايُن الناس فى الأجيال الماضية والقرون الخالية .

قال : فكان أوّلَ مَن ملك منهم رجلٌ يقال له سُوشان، وهو أوّل من وضع التاج على رأسه فى تاريخ السريانيّين . قال : وانقاد له ملوك الأرض ، فكان ملكه ستّ عشرةَ سنة باغيا فى الأرض، ومفسدا فى البلاد، وسفّاكا للدماء .

(١) راجع (ج ١ ص ١٠٠ طبع بلاق) .

(٢) كذا فى مروج الذهب للمسعودى . وفى الأصول : « لوذمانين » وهو تحريف .

ثم ملك بعده يريز[1]، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة .

ثم ملك بعده سماسير بن أبو با . فكان ملكه تسعَ سنين .

ثم ملك بعده أهريمون فخطّ الخطط، وكوّر الكُوَر، وجدّ فى أمره، وأتقن مُلْكه، وعمر أرضه . فلمّا آستقامت له الأحوال وآنتظم ملكه بلغ بعض ملوك الهند وهو رُتبيل، وهو آسم لمن يملك هذه الجهة من الهند، ما القومُ عليه من القوّة، وما بلادُهم عليه من العمارة، وأنهم يحاولون الممالك، وقد كان هذا الملك الهندىّ غَلَب على مَن حوله من ممالك الهند وآنقادتْ إلى أحكامه، وذلك أنّ ملكه كان مما يلى بلاد الهند والسِّند، فسار نحو بلاد بُست[2] وغَزْنين[3] ونغر[4] وبلاد الداور[5] على النهر المعروف بالهَنْدمِنْد، وهو نهر ببلاد سِجِسْتان ويُعرَف بنهر بُسْت تجرى فيه السفن منها إلى سِجِسْتان .

٧٧
١٣

قال : وكان بين ملك الهند وملك السريانيّين حروبٌ كثيرةٌ نحواً من سنة ثم أجلتْ الحرب عن قتل السريانىّ وآحتوى الهندىّ على الصُّقع ومَلَكه، فكان مُلْك أهريمون عشر سنين .

(١) فى مروج الذهب للمسعودى : « يرندس » .

(٢) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، وهى من البلاد الحارّة المزاج، وهى كبيرة، ويقال لناحيتها اليوم كرم سير، معناه النواحى الحارّة المزاج، وهى كثيرة الأنهار والبساتين . وفى نسخة أ « قسط » . وفى نسخة ب « بسط » وهما محرفتان .

(٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان، وهى الحدّ بين خراسان والهند . وفى نسخة أ « غربين » . وفى نسخة ب « غرنين » وهما محرفتان .

(٤) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة ببلاد السند، بينه وبين غزنين ستة أيام، تعدّ فى أعمال السند . وفى الأصول « نغنين » وهو تحريف .

(٥) بلاد الداور : هى ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رُخَج وبست والغور . وأهل تلك الناحية يسمونها زمينداور، ومعناه أرض الداور .

قال : وبقى ذلك الصُّقع بيد الملك الهندىّ حتى سار إلى بعض الملوك فأتى عليه وملك العراق وردّ السريانيين .

فملكوا عليهم تسنوا بن سماسير[(١)] . فكان مُلْكه إلى أن هلك ثمانى سنين .

ثم ملك بعده أهريمون . فكانت مدّة مُلْكه آثنتى عشرة سنة .

ثم ملك بعده آبنه هوريا فزاد فى العمارة وأحسن للرعايا وغَرَس الأشجار . فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ماروت[(٢)] وآستولى على المُلْك . فكان مُلْكه خمسَ عشرةَ سنة . وقيل أكثر من ذلك .

ثم ملك بعده أزور وسلحاس[(٣)] ، ويقال إنهما كانا أخوَيْن . قال : فأحسنا السيرة ، وتعاضَدَا على تدبير المُلْك . ويقال : إنّ أحد هذين المِلِكَيْن كان جالسا ذاتَ يوم فى أعلا قصره فنظر إلى طائر قد فرّخ هنالك ، وهو يصيح ويضرب بجناحه ، فنظر إلى حيّة تنساب إلى الوَكْر لتأكل الفراخ التى للطائر ، فدعا بقَوْس وسهم ورمى الحيّة فقتلها ، وسلمت الفراخ ، وغاب الطائر وعاد إلى الملك بعد هُنَيهة وفى منقاره حبّة وفى مخاليبه حبّتان ، وطار حتى وازَى الملك ، وألقى الحبّ بين يديه فتناوله الملك وقال : ما ألقى هذا الطائر هذا الحبّ إلا لأمر قصد به مكافأتنا على ما فعلناه من خلاص فراخه ، ولم يعرف ما هو ذلك الحبّ ، وآستدعى الحكماء وأراهم فما عَرَفوه ، فقال له حكيم : ينبغى أن يُزرَع هذا الحبّ ببطن الأرض لينظُرَ ما يكون منه ، فأحضر الأَكَرَة وأمرهم بزرعه فزَرَعوه ، والملك

(١) كذا فى الأصول . وفى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٠٢ طبع بلاق) : «سير» .

(٢) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب «ماروب» بالباء الموحدة . وفى مروج الذهب : «مارث» .

(٣) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب «حلحاس» وفى مروج الذهب «خلنجاس» .

يراعيه حتى طلع وأزهرَ وحصرمَ وأعنبَ ، وهم لا يقربونه خشية أن يكون مُتلفا ، فأمر الملك أن يُعصَر ماؤه و يُودَع الآنيـةَ وأُخرجَ الحبّ منـه وتُرك بعضُـه على حاله . فلمّا صار فى الآنية غلا وقذف بالزبد وفاحت له روائح عَبِقَة ، فقال الملك : علىّ بشيخ كبير ، فأُتِىَ به ، فسقاه من هـذا العصير . فلمّا شرب منه ثلاثا صال وتكلّم وصفّق بيديه وحرّك رأسـه ووقع برجليه على الأرض ، فظهر عليه الطَّرَب والفرح و تغنّى . فقال الملك : هـذا شرابٌ مذهبٌ للعقل ، وأخلقْ به أن يكون قتّالا ، ألَا تَرَوْنَ إلى هذا الشيخ كيف عاد الى حال الصِّبا وقُوّة الشباب ، ثم أمر الملك بالشيخ فرقَد ، فسكن ونام . فقال الملك : هَلَك ، ثم أفاق الشـيخ وطلب الزيادة من الشراب وقال : لقد شربتُه فكشف عنّى الهموم والغموم ، وأزال عنّى الأحزان . فقال الملك : هذا أشرفُ شراب الرجل ، فأكثر من غَرْس الكروم ، وٱختصّ به دون غيره من الناس ، وٱستعمله بقيّة أيامه ، ثم نمـا بعد ذلك وكثُر فى أيدى الناس . وهذا آخر ما أورده المسعودىّ من أخبار السُّريان .

ذكر أخبار الملوك الكلوانيّين

وهم ملوك النَّبَط ملوك بابِل

قال المسعودىّ[1] ، ذهب[2] جماعةٌ من أهـل البحث والعناية بأخبار ملوك العالَم أنهم ملوك العالَم الذين مهّدوا الأرض بالعمارة ، وأنّ الفُرْس الأوَل إنما أخذوا المُلْك من هؤلاء كأَخْذ الروم المُلْك من اليونان .

فكان أوّلَ مَن ملك منهم نُمْروذ الجبّار . فكان مُلْكه نحوا من ستين سنة . وقد قدّمنا أخبار نُمْروذ[3] فى قصّة إبراهيم عليه السلام .

(١) راجع مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٣ طبع بلاق) . (٢) فى مروج الذهب : «ذكر» .
(٣) راجع (ج ١٣ ص ٩٦ — ١٠٠ و ١١٣ — ١١٤ من هذه الطبعة) .

قال : ونمروذ هذا هو الذى احتفر أنهارا بالعراق آخذةً من الفُرات ، فيقال : إنّ من ذلك نهر كُوثى[1] على طريق الكوفة ، وهو بين قصر ابن هُبَيرة[2] و بغداد .

ثم ملك بعده أبولس ، وكان عظيم البطش جبّارا فى الأرض . وكان مُلْكه نحوا من سبعين سنة .

ثم ملك بعده فيزمنوس . وكان باغيا فى الأرض ، ملك نحوا من مائة سنة .

ثم ملك بعده سوسوس . فكان مُلْكه نحوا من تسعين سنة .

ثم ملك بعده كورس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده اذفرنجوا[3] . فكان ملكه نحوا من عشر سنين .

ثم ملك بعده سيهزم . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة ، وقيل أكثر .

ثم ملك بعده قوسيس . فكان ملكه نحوا من سبعين سنة .

ثم ملك بعده أنبوش[4] . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده إيلاوس . فكان ملكه نحوا من خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده الجلوس . وكان مُلْكه نحوا من أربعين سنة .

---

(١) نهر كوثى : هو أوّل نهر أخرج بالعراق من الفرات ، وسمى بكوثى من بنى أرفخشد بن سام ابن نوح عليه السلام ، وهو الذى كراه فنسب اليه ، وهو جدّ إبراهيم عليه السلام أبو أمه بونا بنت كرنبا (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٢) قصر ابن هبيرة : ينسب الى يزيد بن عمر بن هبيرة ، بناه بالقرب من جسر سورا لما ولى العراق من قبل مروان بن محمد . فلما ملك السفاح نزله وأستتم تسقيف مقاصير فيه وزاد فى بنائه وسماه الهاشمية وكان الناس لا يقولون إلا قصر ابن هبيرة على العادة الأولى (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) فى مروج الذهب : « أنمر » .

(٤) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « أنبوس » . وفى مروج الذهب : « أينوس » .

ثم ملك بعده أونوبس[1] . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده بعنكلوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين شهرا .

ثم ملك بعده سفرين[2] . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة، وقيل أقلّ .

ثم ملك بعده مارنوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده رسطاليم[3] . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة . ٥

ثم ملك بعده أسطوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده تاولوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده العداس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده أطيروس . فكان ملكه نحوا من ستين سنة .

ثم ملك بعده ساوساس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة . ١٠

ثم ملك بعده فارينوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة، وقيل خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده أدرموس . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة . وغزاه ملك من ملوك فارس فى عُقْر داره .

ثم ملك بعده مسروس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة . ١٥

ثم ملك بعده أفروس . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة .

ثم ملك بعده طاطاوس . فكان مُلْكه نحوا من أربعين سنة .

---

(١) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « أوموبس » وفى مروج الذهب : « أومونوس » .

(٢) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « سفرمن » . وفى مروج الذهب : « سفروس » .

(٣) فى مروج الذهب : « رسطالين » . وقد ورد فيه أيضا خلاف فى بعض أسماء الملوك الذين ذكروا هنا فاكتفينا بما ورد فى الأصول عوضا عن التنبيه فى كل اسم . ٢٠

ثم ملك بعده لاوسيس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة ، وقيل خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده قريطوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده قروطاوس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة .

٥ ثم ملك بعده قراقريس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة ، وقيل آثنتين وأربعين سنة .

ثم ملك بعده بوليس قنطروس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده قولا قسما . [فكان ملكه[1]] نحوا من ستين سنة .

ثم ملك بعده هيقلس . فكان ملكه خمسا وثلاثين سنة . وقيل خمسين سنة . وكانت له حروب مع ملوك الصقالبة .

١٠ ثم ملك بعده سموجد . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده مردوج . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة . وقيل أقلّ من ذلك .

ثم ملك بعده سنحاريب . فكان ملكه نحو من ثلاثين سنة . وهو الذى آبتنى بيت المقدس .

ثم ملك بعده منوشا . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك .

١٥ ثم ملك بعده بُخْتَنَصَّر الجبّار . فكان ملكه خمسا وأربعين سنة ، وقد تقدّم أن بختنصر[2] لم يكن ملكا وإنما كان مَرْزُبانا لملوك الفُرْس الأُوَل ، إلا أن يكون هذا غير ذاك . والله أعلم .

ثم ملك بعده بيطسقر . فكانت مدّة ملكه نحوا من ستّين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك .

---

٢٠ (١) زيادة يقتضيها السياق مراعاة لما ورد قبله وجاء بعده .

(٢) راجع (ج ١٤ ص ١٥٣ من هذه الطبعة) .

ثم ملك بعده دارنوس . فكان مُلْكه إحدى وثلاثين سنة ، وقيل أكثر من ذلك .

ثم ملك بعده كشرخوش [فكان ملكه] عشرين سنة .

ثم ملك بعده قرطياسة تسعة أشهر .

ثم ملك بعده فيجسمنه . فكان ملكه إحدى وأربعين سنة .

ثم ملك بعده أجرست . فكان ملكه ثلاثا وستين سنة . ٥

ثم ملك بعده شعيا . فكان ملكه ثلاثين سنة[1] ، وقيل تسعة أشهر .

ثم ملك بعده داريوس . فكان ملكه عشرين سنة ، وقيل تسع عشرة سنة .

ثم بعده أنطجست . فكان ملكه تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده اليسع . فكان ملكه خمس عشرة سنة ، وقيل عشرين سنة .

قال المسعودىّ : فهؤلاء الملوك الذين أتينا على أسمائهم ، وذكرنا مدّة ملكهم ، ١٠
هم الذين شيّدوا البنيان ، ومدّنوا المدن ، وكوّروا الكُوَر ، وحفروا الأنهار ، وغرسوا
الأشجار ، وٱستنبطوا المياه ، وأثاروا الأرض ، وٱستخرجوا المعادن من الحديد ٧٩/١٣
والنحاس والرصاص وغير ذلك ، وطبعوا السيوف ، واتّخذوا عدّة الحرب ، ونصبوا
قوانين الحروب ، ورتّبوا الميمنة والميسرة والأجنحة ، وجعلوا ذلك مثالا
لأجزاء أعضاء الإنسان ، ورتّبوا الأعلام ؛ فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيلة ١٥
والنسور وما عظُم من أجناس الحيوان ؛ وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة
السباع ؛ وجعلوا فى الأجنحة أمثال ما لطف منها كالنمر والذئب ؛ وجعلوا فى الطلائع
كصُوَر الحيّات وما خَفِىَ فعله من هوامّ الأرض ؛ وتغلغل القوم فى هذه المعانى .

قال : والذى ذكرناه من أخبارهم هو المشهور . والله تعالى أعلم .

---

(١) فى مروج الذهب : « ستة وقيل تسعة أشهر » ولعلّ كلمة ثلاثين مقحمة من الناسخ . ٢٠

ذكر أخبار ملوك الروم وأنسابهم

قال المسعودىّ[(١)] : قد تنازع الناس فى الروم ولأىّ عِلّة سُمّوا بهذا الاسم، فقيل لإضافتهم لمدينة رُومِيَة واسمها بالرومية روماس، فعُرِّب هذا الاسم فسُمِّى مَن كان بها روما، والروم لا يسمّون أنفسهم فى لغتهم إلّا رومس[(٢)] . ومنهم مَن رأى أن هذا الاسم اسم الأب الأوّل، وهو روم بن شماخلين بن هُوبان بن علفا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . ومنهم مَن رأى أنهم سُمّوا باسم جدّهم رومس ابن لبطى بن نويفل بن رومىّ بن الأصغر بن النفر بن العيص، وقيل غير ذلك . وقد ذكرنا فى الأنساب شيئا من ذلك .

قال المسعودىّ : وغلبت الروم على ملك اليونانيين، فكان أوّل مَن ملك منهم طوخاس وهو جانيوس الأصغر بن روم بن شماخلين ، فكان مُلْكه اثنتين وعشرين سنة .

وقيل إنّ أوّل مَن ملك من ملوك الروم قَيْصَر، واسمه غالوس أوليوس . فكان مُلْكه ثمانى عشرة سنة .

وقيل أوّل مَن ملك منهم بعد ملوك اليونانيين برومية بوليس . فكان مُلْكه سبع سنين ونصفا . قال : ورومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة .

ثم ملك بعده ابنه أغسطس قَيْصَر . وكان مُلْكه ستّا وخمسين سنة، وهو أوّل مَن تَسمّى بقَيْصَر ، وإنما سُمّى بذلك لأنّ أمّه ماتت وهى حامل به فشُقّ بطنُها عنه، ومعنى قَيْصَر بقر ، وكان يفتخر بأنّ النساء لم تلده ، وحقيقة هذه اللفظة بالعجميّة

(١) راجع مروج الذهب (ج ١ ص ١٤٨ طبع بولاق) .

(٢) فى مروج الذهب : « رميس » .

جَيْشَر ، قيل إنما سمى جيشر لأنه ولد بشعر يبلُغ عينيه ، وآسم الشعر بالعجمية حساريه وقيل جشايره ، فعرِّب فقيل قَيْصَر ، وهو صاحب قُلُوبَطْرَة ملكة اليونان على ما ذكرناه . وآحتوى هذا الملك على مَقْدُونية وهى مصر والإسكندرية ، وحاز ما فيهما من الخزائن ، وكانت له حروبٌ كثيرةٌ ، وكان يعبد الأوثان . وبنى بأرض الروم مُدُنا تنسب إليه ، وكوّر كُورًا . فمن مُدُنه قَيْسارية . ولآثنتين وأربعين سنة خلت من مُلْكه ولد المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام ، وعاش هذا الملك بقيّة عمره وقد بطل شقّه لما ثقُلت عليه الحيّة على ماقدمناه فى أخبار قُلُوبَطْرَة .

ثم ملك بعده طياريس . فكان مُلْكه آثنتين وعشرين سنة . قال : ولثلاث سنين بقيتْ من ملكه رُفِع المسيح عليه السلام . قال : ولمّا هلك هذا الملك بُرُومِيَة اختلفت الروم وتحزّبت وأقاموا على آختلاف الكلمة والتنازُع مائتَىْ سنة وثمانيا وأربعين سنة لا نظام لهم ولا ملك يجمعهم .

ثم ملّكوا عليهم طباريس عابس بمدينة رُومِيَة . فكانت مُدّة ملكه أربع سنين .

ثم ملك بعده قلورس برومية . فكان ملكه أربع عشرة سنة ، وهو أوّل مَلِكٍ من ملوك الروم شرع فى قتل النصارى وآتباع المسيح عليه السلام ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، وكانت الروم تعبد التماثيل .

ولما هلك هذا الملك ملك بعده نيرون . قال : وآستقام مُلْكه ورغب فى عبادة التماثيل والأصنام ، وكان ملكه أربع عشرة سنة وشهورا .

ثم ملك بعده ططس واسبابوس مشتركَيْن فى المُلْك . فكان ملكهما ثلاث عشرة سنة ، ولسنة من ملكهما سارا الى الشام ، فكانت لهما حروب عظيمة مع بنى إسرائيل قتل فيها من بنى إسرائيل ثلثمائة ألف وخرّبا بيت المقدس وأزالا رسمه ، وكان يعبدان الأصنام . ٨٠/١٣

قال المسعودىّ : وذكر فى بعض التواريخ أنّ الله تعالى عاقب الروم من ذلك اليوم الذى خرّبوا فيه بيت المقدس أن يُسبى منهم فى كلّ يوم سَبْىٌ فلا يومٌ إلّا والسَّبْىُ واقعٌ فيهم قلّ ذلك أو كَثُر .

ثم ملك بعدهما ذو مطيانس . فكانت مدّة ملكه خمس عشرة سنة .

٥ ثم ملك بعده تبرنوس . فكانت مدّة ملكه سنة واحدة .

ثم ملك من بعده طومانوس . فكانت مدّة ملكه تسع عشرة سنة .

ثم ملك بعده أذربالس . فكانت مدّة ملكه إحدى عشرة سنة ، وخرّب سائر ما بَقِىَ بالشام لبنى إسرائيل .

ثم ملك بعده أبطونيس . فكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة . قال : وبنى بيت ١٠ المقدس وسمّاه إيلياء .

ثم ملك بعده قرمودس . فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده سيريرس . فكانت مدّة ملكه ثمانى عشرة سنة .

ثم ملك بعده ولده أنطويس . فكانت مدّة ملكه تسع سنين .

ثم ملك بعده أنطويس الثانى . فكانت مدّة ملكه أربع سنين ، وفى آخر ملكه ١٥ مات جالينوس الطبيب .

ثم ملك بعده الإسكندر ماميّاس ، وتفسير ماميّاس العاجز . فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده عرديّاس . فكانت مدّة ملكه ستّ سنين .

ثم ملك بعده ديقيوس وقيل فيه دقيوس . فكانت مدّة ملكه سنتين سنة .

٢٠ قال : فأمعن فى قتل النصارى ، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف .

ذكر خبر أصحاب الكهف

قال الشيخ عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد بن الحسين الأنماطىّ فى كتاب المبتدإ يرفعه الى وَهْب بن مُنَبِّه : إنّ أصحاب الكهف كانوا فِتْية من الروم ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه العزيز فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (١) الآيات التى فى سورة الكهف . قال : وكان فى إيمانهم عِبْرةٌ وتفكُّر منهم فى عِظَم الله وجلالِه ومُلْكه وسلطانِه وأصنافِ خَلْقه ، لم يأتهم بذلك وَحْى ولم يقرءوا كتابا ، ولم يُدْرِكوا زمانَ نبوّة ، وكانوا فى زمن فترة قبل أن يبعث الله عزّ وجلّ عيسى بن مريم عليه السلام ، وهذا القول مخالِفٌ لما ذكرناه آنفا ، فإنّ المساق الذى قدّمناه من أخبار ملوك الروم يقتضى أن بين رفع عيسى عليه السلام وبين مُلْك دقيوس ما يزيد على مائتى سنة . والله عزّ وجلّ أعلم .

قال : وكانوا شبّانا متقاربين فى السنّ قلّما يتفاوتون ، وكانوا من فَصيلة واحدة يجمعهم النسَب ، وكانوا فى حَسَبٍ عظيم من أحساب الروم ، من ولد عظمائهم وملوكهم وأشرافهم ، وكان للروم فيهم هوًى وصبابةٌ شديدةٌ ، وكان مُلْك الروم الأوّل فى آباء أولئك الفِتْية ويُنقَل فى فَصيلتهم التى كانوا منها أكثر من أربعمائة عام حتى آنقرضتْ تلك الفصيلة وزال الملك عنهم . فكان أولئك الفِتْيةُ عَقِبَ أولئك الملوك وبقيّتهم ، وكان الروم يتمنّوْنَ مُلْكهم ويمدّون اليهم أعناقهم لما قد بلغهم ما كان الناس فيه فى زمن أسلافهم من الخَفْض والدعة والعافية والبَسْط والأمن والسَّعة ، فكانوا يؤمِّلونهم ويرجونهم ، وكانت ملوك الروم قد جَفَوْهم وحرموهم وأقصوهم وأضرُّوا بهم مخافةً منهم على مُلْكهم لما يعلمون من رأى الروم فيهم ، وكانوا مع

(١) سورة الكهف آية ١٣ وما بعدها .

ذلك يكفّون عنهم أذاهم، و يعرفون أنهم مَفْزَعُ الروم إن آختلفوا ومُعَوّلهم عليهم، فلم تزل تلك حالهم فيما بينهم و بين ملوكهم وقومِهم حتى أراد الله تعالى بهم ما أراد من هُدَاهم والإيمانِ الذى نوّره الله فى قلوبهم.

٨١/١٣

قال قائلٌ منهم: إنى قد رأيتُ رأيا وقع فى قلبي وأمرًا ثبت فيه، فلستُ أبصرُ غيرَه، وليس يُخْرِجُه من قلبي شيء، اسمعوا أَعرِضُ عليكم، إنّى فكّرتُ فى خلق السمواتِ والأرضِ، وآختلافِ الليل والنهارِ، والشمسِ والقمرِ، والنجومِ والسحابِ والمطرِ، والأحياءِ والأمواتِ، والنباتِ، والصِّغار والكِبَار، والبقاءِ والفناءِ، والشدّةِ والرخاءِ، وتقلُّبِ الدنيا بأهلِها، والأطباقِ التى تنصرف عليها الخلق طَبَقا بعد طَبَق، وقوما عن قوم: من مَوْتٍ وحياةٍ، ونَقْصٍ وزيادة، وخَفْضٍ ورَفع، وغِنًى وفقرٍ، وطُولِ عُمْرٍ ونَقْصِ آخر، ومَوْتٍ صغير وهَرَمٍ كبير، وأشباهٍ لذلك كثيرة. وهى أكثر من أن تُعَدّ وتُوصَف أو تحصَى؛ فلمّا نظرتُ فيها وأعملتُ الرأى والنظرَ أجمع رأيى على أنّ لها خالقا بديعا آبتدعها؛ وربًّا يملكها ويُدَبِّرها، ويخلقها ويرزقها، ويُغْنِيها ويُفْقِرُها، ويَرْفعها ويَخْفِضُها، ويُحْيِيها ويُمِيتها ويُفْنِيها، تتقلّب فى قَبْضته وتعيش برزقه؛ فلمّا تمّ لى الرأى نظرتُ فى عظمة هذا الربّ الذى آبتدع هذا الخلقَ وضَبَطَه، ودبّره وأحكم أمرَه، فإذا قُدْرتُه تأتى من وراء ذلك كلِّه، ليس من هذا الخلق شيءٌ يفُوتها ولا يخرج منها، و إذا هى محيطةٌ بكلّ شيء ومن وراء كلّ شيء، ثم نظرتُ فى عظمة الربّ هل أصفها كما وصفتها القُدرة، وهل أعلم كُنْهَهَا؟ فتحيّرتُ فيها، وعجز عنها الحلم والعلم، وحَسَر عنها العقل والنظر، وما بَقِيَ مما لم أذكره لكم معرفة القلب ولا نَصِفُه إلّا أنه قد أُلهم بمعرفته وأُسرّ بها أكثر وأعظَم وأعجب مما وصفتُ وشرحتُ لكم، فماذا تقولون، وماذا تعرفون، وماذا تفعلون؟

قالوا : قد قُلتَ قولا عظيما ووصفتَ أمرا عجيبا ، وما نحسَبك إلّا قد أصبتَ فيه الرأىَ والنظرَ ، وقد صدّقناك وتابعناك ورأينا رأيَك و واقعٌ قلوبَنا منه ومن معرفته مثلَ الذى عرَفتَ وواقعٌ قلبَك ، و إن كنّا لنرى مثلَ الذى رأيتَ من أعاجيبَ هذا الخَلْق وعظمة هذا الخالق ، و إن كان ليكثُر أن يخطُر على قلوبنا منه مثلُ ما خطَر على قلبك ، ولكنّا لم نشرح منه ما شرحتَ ولم نصف منه ما وصفتَ ، ولم نعمل الرأىَ والنظرَ فى معرفته مثلَ ما أعملتَ وعَرفتَ ، ولكنّ اللهَ أراد هُداك وتفضيلَك و إكرامَك بما سبقتَ إليه من هذا القول وهذا العلم وهذه المعرفة ، ولكن حدِّثنا عمّا نسألك عنه ، و إنما نظرنا فيه بعدَ ما سمعنا قولَك ؛ هل ينبغى لهذا الربّ الذى وَصَفتَه بما وَصَفتَه من العظمة أن يكون له شريكٌ فى مُلْكه ، أو حاجةٌ إلى شىء من خَلْقه ، أو هل يَغْلبه شىءٌ يستعين عليه بغيره ؟

قال لهم : لو كان له شريكٌ فى شىء من أمره لضَبَط ما ضَبَط ، ولو كانت به حاجةٌ إلى أحدٍ من خَلْقه لكان مثلَهم ، ولو كان يستعين على شىء يغلبه بغيره إذًا ما بَلَغَتْ قُدْرتُه ما بَلَغَتْ ، ولا أحاطتْ بما أحاطتْ به ، ولا وَسِعَ ما اتّسع له من أمر خَلْقه ، وتدبير ما خَلَقَ ورَزَق وأماتَ وأحيَا .

قالوا له : صدقتَ وعرَفنا ما تقول وثَبَتَ فى قلوبنا ، ولكن حدّثنا ما بالُ خلقه يشركون به وهم يعرفونه حقَّ معرفته . قال : لأنه خلقَ فيهم الأهواء وطبعَ فيهم الشهوات ، وجَبَلَهم على الضعف ، وثَبّتَ معهم الشيطان ، فمن قِبَلِ هذا عَدَلُوا به وهم يعرفون أنّ الذين يدعون من دونه لا يُحيُونهم ولا يُميتونهم ، ولا يَخلقونهم ولا يرزقونهم ، ولا يضرُّونهم ولا ينفعونهم ، إذا مسّهم الضُّرّ فإيّاه يَدْعون و إليه يَجْأرون ؛ فعند ذلك اجتمع رأيهم على أن يأوُوا إلى الكهف ، وأن يعتزلوا قومهم

وما يعبدون من دون الله، فعندها قالوا: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ قال: فلما اعتزلوهم وما يعبدون من دون الله آوَوْا إلى الكهف رجاءَ أن ينشُر لهم ربهم من رحمته ويهيِّئ لهم من أمرهم مِرْفقا. قال: وأرادوا أن يكونوا فى عُزْلة من قومهم وشِرْكهم حتى يفرق لهم رأيُهم، فألقى الله عليهم السُّبات.

قال: وهم من مدينة من مدائن الروم يقال لها أفْسُوس[1]، وملك الروم يومئذ دقيوس، ويقال — والله أعلم — إن عدّتهم سبعة، كان عبد الله بن عباس يسمّيهم بأسمائهم ويقول: ما يعلمهم إلا قليل وأنا من أولئك القليل، منهم مرطالوس، ونونوس، ودانيوس، وسراقيون، واسطاطالوس، ومكسلميس، وتمليخا، وهو الذى بعثوه بِوَرِقهم إلى المدينة ليرتادَ لهم. هذا قول ابن عباس، قال: وكانوا قوما يطلبون الصَّيد لِمَا مسَّهم من الضُّرّ والحاجة ليس لهم كبيرُ معيشةٍ غيرَه، فقالوا قولهم هذا ونظروا ما نظروا، وهم يومئذ فى الجبل الذى فيه كَهْفهم يطلبون الصيد ومعهم كلابهم وبُزاتُهم وقِسِيُّهم ونَبْلُهم. فلمّا أجمع رأيُهم أن يأوُوا إلى الكَهْف ليأتمروا فيه، هل يُقيمون مع قومهم على شِرْكهم، أم يفارقونهم فينتجعون ناحيةً من الأرض يحلُّون فيها ويوحِّدون فيها ربَّهم. فبينا هُمْ على ذلك ألقَى الله عليهم السُّباتَ وأخفَى على جميع خَلْقه مكانهم، وصَرَف عنهم الأبصار والعقول، فليس يُبصرهم أحدٌ ولا يَفْطِن بمكانهم، فلَبِثوا فى كَهْفهم ثلثمائةٍ سنينَ وازدادوا تِسْعا، حتى انقرَضَتِ الأمّةُ التى كانوا فيها والمَلِك الذى كان عليهم، وظهر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وآمنَ به الناس واتّبعوا ملّته ورفعه الله اليه وذهب زمانُه وزمانُ أهل ملّته وهم فى كهفهم.

٨٢/١٣

(١) أفسوس: مدينة فى جزيرة باسمها فى البحر الأبيض على مقربة من ساحل آسيا الصغرى.

قال : وقد كان عيسى بن مريم عليه السلام قبلَ أن يرفعه الله يحدّث عنهم وعن إيمانهم و بصيرتهم ، وكيف تفكّروا فى عظمة إلٰههم ، وكيف ألقَى الله عليهم السُّباتَ فى كهفهم ، وكيف أخفَى مكانهم عن الناس ، ولا ينبغى لأحد أن يَهْتدى إليهم ولا يعرفَ مكانهم ، وكان يخبر أنّ الله سيردّ إليهم أرواحهم و يدلّ على كهفهم ليكونوا عِبْرة لمن خَلْفهم إن أراد أن يعتبر بهم .

قال : فردّ الله اليهم أرواحهم بعد أن لَبِثُوا فى كهفهم العِدّة التى ذكرها الله عزّ وجلّ فى القرآن ولَزِمَهم كلبُهم ، فلبِثَ سِنِيهم كلّها ، كما أخبر الله تعالى : ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ . والوصيد : فناء الكَهْف الذى فيه موضع الباب ، وكان الكلب من كلاب صَيْدهم ولم يطعم ولم يشرب ليجعله الله آية من آياتهم .

قال : فلمّا ردّ الله عليهم أرواحهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ وهم حينئذ يظنّون أنّ قومهم أحياء ، وأنهم على ما يَعهَدون من حالهم وشِركهم وعُتُوّ مَلِكهم ، فانطلق رجل منهم يقال له تمليخا ، وكان أشدّهم وأنجدَهم ، فتوجّه حتى إذا خالط رَبَضَ المدينة أنكره وأنكر ما وجد به من الناس والدوابّ والبُنيان وغير ذلك ، ووجد الناس على حال لم يكن يَعْهدها وسُنّةٍ لم يكن يَعْرفها ، ووجدهم يبتاعون بوَرِقٍ لا يُشْبِه الوَرِق الذى معه ، فتحيّر وأنكر وأقبلَ وأدبر ، وأبطأ على أصحابه حتى خافوا عليه ، وظنّوا أنه فُطِن به وقُدِر عليه . فلمّا طال عليه ذلك دخل المدينةَ من ناحيةٍ أخرى من نواحيها خِفْيَةً فوجد حالَ أهل المدينة على حال أهل الرَّبَض فى كلّ شىء ، فلمّا شكّ وآرتاب وآلتبس عليه رأيُه عَمِد إلى مشيخةٍ من أهل المدينة توسّم فيه الخير ليتجسّس و يسمعَ قولهم ، فوجد معهم الإنجيل يقرءونه ، فسمع ما فيه من توحيد الله وعظمته وعذابه وسُنّته وشرائعه وحلالِه وحرامِه ، فعرف ذلك وأذعَنَ اليه وأنصتَ يسمع حتى إذا

فَرَغوا من قراءتهم سألهم عن كتابهم فقالوا : هذا كتاب الله الإنجيل الذى أُنزِل على عيسى بن مريم عليه السلام نبيّه . قال : وأين عيسى؟ قالوا : قد رفعه الله تعالى اليه . قال : وكم لبث فيكم؟ قالوا : ثلاثا وثلاثين سنة . قال : وهل رأيتموه وأتيتموه وأدركتم زمانه؟ قالوا : لا، كان قبل أن نُولَد ، ووجدنا كتابه فى أيدى آبائنا . قال : أفكلّ هذه المدينة تؤمن بهذا النبىّ و بهذا الكتاب وتعمل بما فيه مما أسمع من حلاله وحرامه ؟ قالوا : نعم ، إلّا مستحقًّا بذنب أو ظالما لنفسه . قال : فهل سمعتم بالملِك الذى يقال له دقيوس ؟ قالوا : نعم . قال : فكم له منذ هلك ؟ قالوا : أكثر من ثلثمائة عام . قال : فهل بَقِىَ له عَقِبٌ، أو لأحدٍ من أهل مملكته يعمل بعمله ؟ قالوا : لا . قال : فلو أراد أحد أن يعمل بمثل عمله ما كنتم تفعلون به ؟ قالوا : نقتله أو نخرجه من بين أظهرنا .

فلمّا آمنهم وآطمأنّ إليهم ورأى سَمْتَ الإسلام وهَدْيَه عليهم وفّقه الله وهداه لمسألة سألهم عنها . قال : أخبرونى، هل كان نبيّكم عيسى عليه السلام يخبركم عن سبعة رَهْط خرجوا من هذه المدينة فى زمن دقيوس وقومه، وهربوا إلى الله بأنفسهم ودينهم فراراً من دقيوس وقومه ، وما كانوا يعبُدون من دون الله حتى آوَوْا الى الكهف فى هذه الجبال فآستخفَوا فيها . فلمّا قال لهم هذا أوجسوا فى أنفسهم أنه منهم، قالوا : نعم ، قد كان يخبرنا عنهم فلعلك منهم فإنّا ننكر حالك كلّه . قال : فهل كان عيسى عليه السلام فيما بلّغكم سَمّى أصحاب الكهف ؟ قالوا : نعم؛ قال : فسمّوهم لى بأسمائهم، فسمّوهم حتى إذا ذكروا آسمه تمليخا قال : فأنا تمليخا وأنا أحدهم، فخرّوا له سجّدا كما صنع إخوة يوسف بيوسف يوم دخلوا عليه؛ وكانت تحيّتهم فيما بينهم السجودَ يومئذ ، ثم أدخلوه مسجدهم وعظّموه ووقّروه وأكرموه ورفعوه وجمعوا له أهلَ مدينتهم وقرّاءهم وفقهاءهم ، فتبرّكوا به ، وجعلوا له عيدا

٨٣/١٣

عظيما، وأقام أياما بين أظهرهم ثم قال لهم : إنّ أصحابى الذين يحدّثكم عنهم عيسى عليه السلام لا أراهم إلّا وقد خافوا علىّ وساء ظنّهم وهم يظنّون أنّ دقيوس حىّ؛ وأنّ الزمان زمانُه، وأنّ الدين دينُه، فانطلقوا بنا نُعلمهم كيف أهلكه الله وقومَه وطهّر الأرض منهم، وكيف آستبدل الله به وبأهل ملّته أمّة يوحّدونه ويعرفونه ويَهدون بالحقّ وبه يَعدِلون . فآنطلقوا معه حتى آنتهَوْا الى الكهف فوجدوا كلبَهم باسطا ذراعَيْه بالوصيد فقالوا حين رأَوْه : وهذا الكلبُ أيضا من علاماتكم التى كان يحدّثنا عنها عيسى عليه السلام، وقد كان يحدّث أنّ أصحاب الكهف لا ينظر إليهم أحدٌ من خلق الله من يوم يدخلون الكهف إلى أن ينزل عيسى بن مريم عليه السلام إلا رجلٌ واحدٌ منهم، وهو الذى يدلّ عليهم وعلى مكانهم؛ وأنت هو؛ فدخل على أصحابه فأخبرهم بما رأى وما لَقِىَ، ثم كان آخر العهد بهم . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ . قال : فبنوه حول الكهف وجعلوا الكهف فى وسطه وكتبوا القصّة على حيطانه .

قال وهب : فبلغنى — والله أعلم — أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : إنّ نزول أخى عيسى بن مريم عليه السلام عِلْمٌ للساعة، وإنّ الله يبشّرهم عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام، وإنه يحجّ فى سبعين ألفا فيهم أصحابُ الكهف لأنهم لم يموتوا، ثم تُقبل ريحٌ صفراءُ يمانيّة، ألين من الحرير، وريحُها ريحُ المسك فتقبض روح عيسى عليه السلام وأرواحَ مَنْ معه . انتهى خبر أصحاب الكهف، فلنرجع إلى ما كنّا فيه من أخبار ملوك الروم .

قال : ثم ملك بعد دقيوس جالش . فكانت مدّة ملكه ثلاث سنين . ثم ملك بعده قليطانس . فكانت مدّة ملكه عشرَ سنين، ثم كانت بعده ملوك الروم المتنصّرة.

ذكر أخبار ملوك الروم المتنصِّرة

وهم ملوك القسطنطينية

قال المسعودىّ[(١)] : لمّا هلك قليطانس ملك بعده قسطنطين بُرومِيَة ، وهو أوّل من انتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بِيزَنْطِيَا ، وهى القسطنطينية ، فبناها هذا الملك وسمّاها بهذا الاسم . قال : وكان خروجه من رومية ودخوله فى دين النصرانية لستّ خلتْ من مُلْكه ، وذلك أنّ أمّه هلانا[(٢)] خرجتْ إلى أرض الشام وبنت الكنائس وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى تزعُم النصارى أنّ عيسى عليه السلام صُلِبَ عليها ، فلمّا ظفِرتْ بها حلّتها بالذهب والفضة واتّخذت يومَ وجودها عيدا ، وهو عيدُ الصليب ، لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول . وهى التى ابتنت كنيسة حِمْص على أربعة أركان ، واستخرجت الدفائن بمصر والشام ، وصرفت ذلك فى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية ، فكلّ كنيسة بالشام ومصر من بناء هذه الملكة هلانا .

قال : ولسبع عشرة سنة خَلَتْ من مُلْك قُسْطَنطين اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر أسقُفا بمدينة نِيقِيَة[(٣)] بأرض الروم فأقاموا دين النصرانية . وهذا الاجتماع أوّل ١٤/١٣

(١) (راجع ج ١ ص ١٥٢ طبع بلاق) .

(٢) كذا فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٥٢ طبع بلاق) ، وفى نسختى ا و ب «هلاى» وهو تحريف .

(٣) قال ابن الهروىّ : مدينة نيقية من أعمال اصطنبول على البر الشرقى وهى المدينة التى اجتمع بها آباء الملة المسيحية ، وكانوا ثلثمائة وثمانية عشر أبا يزعمون أن المسيح عليه السلام كان معهم فى هذا المجمع ، وهو أوّل المجامع لهذه الملة وبه أظهروا الأمانة التى هى أصل دينهم وصورهم وصورة كراسيهم بهذه المدينة فى بيعتها ولهم فيها اعتقاد عظيم ، وفى الطريق من هذه المدينة إلى بلاد الروم الشمالية قبر أبى محمد البطال على رأس تلّ عال فى حدّ تخوم البلاد (راجع معجم البلدان لياقوت فى كلامه على نيقية) .

الأجتماعات الستة التى تذكرها الروم فى كلامهم وتسمّيها القوانين ، ومعنى هذه الأجتماعات السُّنودسات واحدها سونودس . فالأوّل بنِيقْيَة وكان الأجتماع فيه على أرنوس، وهذا آتفاق من سائر أهل دين النصرانية . والسُّنودس الثانى بقسطنطينية على مقدونس ، وعِدّة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلا . والثالث بأقسيس وعِدّة مَن آجتمع فيه من الأساقفة مائة رجل . والرابع بخلقدونية[1] وعددهم ستمائة وستون رجلا . والخامس بقسطنطينية وعددهم مائة وستة وأربعون رجلا . والسادس كان فى [ملكة[2]] المدن ، وعِدّتهم مائتان وثمانون رجلا .

قال : وكان السبب فى دخول قسطنطين فى دين النصرانية أنه خرج فى بعض حروب أبرجان أو غيرهم من الأمم ، فكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ، ثم كانت عليه فى بعض الأيام فقُتل من أصحابه خلق كثير وخاف البوار فرأى[3] فى نومه كأنّ رماحا نزلت من السماء فيها عَذَب[4] وأعلامٌ على رأسها صُلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر والخشب ، وقيل له : خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوّك تنتصر ، فجعل يحارب فى النوم فرأى عدوّه قد آنهزم . فآستيقظ من نومه ودعا بالرماح وركّب عليها الصُّلبان مثل ما رأى ، ورفعها فى عسكره وزحف إلى عدوّه فكسرهم وأخذهم السيف ، فرجع إلى مدينة نيقْيَة وسأل عن تلك الصُّلبان وهل يعرفون ذلك فى شىء من الآراء والنِّحَل ؟ فقيل له : إنّ بيت المقدس من أرض الشام يجمع هذا المذهب ، وأخبروه بما فعله مَنْ قبله من الملوك من قَتْل

(١) هكذا فى مروج الذهب للسعودى ، وفى نسختى ا ، ب « بحلفورية » .

(٢) التكملة من مروج الذهب للسعودى .

(٣) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصول : « فأرى » .

(٤) عذب : جمع عذبة ، وعذبة الرمح خرقة تشدّ على رأسه .

النصارى ، فبعث إلى الشام و بيت المقـدس وحشر له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا فأتوه بنيقية فقص عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانيّة؛ فهذا هو السُّنودس الأوّل.

وقيل : إنّ أمّه كانت قد تنصّرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا . وكان ملكه إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة ، وقيل خمسا وعشرين .

٥ ثم ملك بعده قُسْطنطين بن قُسْطنطين . فكانت مُدّة ملكه أربعا وعشرين سنة . وآبتنى كنائس كثيرة وشيّد دين النصرانية .

ثم ملك بعده آبن عمه بوليانس[1] المعـروف بالحُنَيفى ويسمّى البِرْباط . قال : ولمـا ملك رجع عن دين النصرانية وغيّر رسـومها وغزا العـراق فى ملك سابور بن أردشير فأتاه سَهْم غَرْبٍ[2] فذبحه . ولمّا هلك جَزَع مَن كان معه من المـلوك ١٠ والبطارقـة ففزعوا إلى بِطْريق كان معظّما عندهم يقال له يونياس[3] ، وقيل : إنه كان كاتبا للملك المـاضى ، فأبى عليهم إلّا أن يرجعوا إلى دين النصرانية ، فأجابوه إلى ذلك فملّك عليهم يونياس المذكور .

قال : ولمّا ملّك كان له مراسلات مع سابور ومُهادنة وآجتماع ، ثم آنصرف بجيوش النصرانيّة موادعا لسابور وأخلف عليه ما أتلف الملك المـاضى من أرضه ١٥ بأموال حَمَلها إليه وهدايا من ألطاف الروم ، وشيّد النصرانيّة وأعاد معالمها ، ومنع من عبادة الأصنام والتماثيل ، وقَتَل مَن كان على عبادتها . فكان مُلْكه سنة .

---

(١) كذا فى مروج الذهب للسعودى ، وفى نسخة ا « بقرياس » وفى نسخة ب « لقيانس » .

(٢) سهم غرب ، بالإضافة وعلى الوصف ، : أى لا يدرى راميه .

(٣) فى مروج الذهب للسعودى : « مريناس » .

ثم ملك بعده أوالس قال : ولمّا ملك كان على دين النصرانيّة ثم رجع عنه ، وهلك فى بعض حروبه ، فكان مُلْكه الى أن هلك أربع عشرة سنة . وقيل : إن فى أيامه آستيقظ أهل الكهف .

ثم ملك بعده غراطيانس[1] . فكانت مدّة مُلْكه خمس عشرة سنة ، ولسنةٍ من مُلْكه كان آجتماع النصرانيّة ، وهو آخر الآجتماعات ، فأتمّوا القول فى روح القدس ، وهو السُّنودس الثانى . ٥

ثم ملك بعده بدرسيس الأكبر ، وتفسير هذا الآسم عطيّة الله . قال : ولما ملك قام بدين النصرانية وعظّم أمرها وآبتنى الكنائس ، ولم يكن من أهل بيت المقدس ولا من الروم ؛ بل كان أصله من الأشبان ، وهم بعض الأمم السالفة . قال : وقد كانت ممن ملكت الشام ومصر والمغرب والأندلس . وقد تنازع الناس فيهم ، فذكر الواقدىّ فى كتاب فتوح الأمصار أنّ بدءهم من أهل أصبهان ، وأنهم ناقلة من هنالك ، وهذا يُوجِب أنهم من قِبَل ملوك فارس . ١٠

قال : وذكر عُبَيد الله بن خُرْدَاذْبَه نحو ذلك ، وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السِّير والأخبار .

٨٥/١٣ قال المسعودىّ : والأشهر من أمرهم أنهم من ولد يافث بن نوح ، وهم اللذارقة ملوك الأندلس واحدهم لَذْرِيق ، وقد تُنُوزع فى دياناتهم ، فمنهم من رأى انهم على دين المجوس ، ومنهم مَن رأى أنهم على مذهب الصابئة وغيرهم من عَبَدَة الأصنام . قال : وكان مُلْك بدرسيس الى أن هلك تسعَ عشرةَ سنة . ١٥

ثم ملك بعده أوقاديس[2] . فكان مُلْكه أربعَ عشرةَ سنة [وكان][3] على دين النصرانية .

(١) فى مروج الذهب : (ج ١ ص ١٥٥ طبع بلاق) : « عرامطفامس » . ٢٠

(٢) فى مروج الذهب : (أوباديس) . (٣) التكلة من مروج الذهب .

ثم ملك بعده بدرسيس الأصغر ، وذلك بمدينة أفسس ، وجمع مائتى أسقف وهو الاجتماع الثالث من الأسنودسات ، ولعن فيه نسطورس البطرك ، وإليه تنسب النسطورية من النصارى . وكان مُلْك هذا الملك الى أن هلك اثنتين وأربعين سنة .

ثم ملك بعده مرقياقس[1] وزوجته بلجاريا . فكانت ملكة معه . وكان مُلْكهما سبع سنين ، وفى أيامهما كان خبر اليعاقبة ووقوع الخلاف بينهم فى الثالوث . قال : وأكثر اليعاقبة من النصارى بالعراق وتكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم مَلَكيّة ، والنوبة والأرمن يعاقبة ؛ ومطران اليعاقبة بين الموصل وبغداد وتكريت ، وكان لهم بالقرب من رأس عين[2] واحد فمات ، وانتقل مطرانها الى بلاد حلب وقِنّسرين والعواصم .

قال المسعودىّ : وكرسى اليعاقبة [رسمه[3]] أن يكون بمدينة أنطاكية ، وكذلك لهم كرسى بمصر .

ثم ملكا بعدهما ليون الأصغر بن ليون . فكان ملكه ستّ عشرة سنة ، وفى أيامه أحرم مسعدة[4] اليعقوبىّ بطرك الإسكندرية ، واجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون أسقفا . وفى تاريخ الروم أنّ عدّة المجتمعة ستمائة وستون رجلا ، وذلك بخلقدونية ، وهذا الاجتماع هو السُّنودس الرابع عند الملكية . واليعاقبة لا تعتدّ بهذا السنودس .

(١) فى مروج الذهب : (مرقيانوس) .

(٢) رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر ، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخا ، وقريب من ذلك بينها وبين حران وهى إلى دنيسر أقرب بينهما نحو عشرة فراسخ (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) التكملة من مروج الذهب للمسعودى .

(٤) كذا فى مروج الذهب ، وفى الأصول (أخرج لسفره ...) وهو تحريف .

قال : واليعاقبة أضيفتْ الى يعقوب البرذعىّ و به عُرِفت، وكان من أهل أنطاكية، وكان يعمل البراذع بها .

ثم ملك بعده ابنٌ له على دين الملكية . فكانت مدّة مُلْكه الى أن هلك سنة .

ثم ملك بعده بير وهو من بلاد الأَرْمِينان، وكان ملكه سبعَ عشرةَ سنة، وكان يَميل الى رأى اليعاقبة ، وكان له حروب مع خَوارجَ خرجوا عليه فى دار مُلْكه فظفِر بهم .

ثم ملك بعده نسطاس، وكان يذهب الى مذهب اليعاقبة، وهو الذى بنى مدينة عَمُّورِيّة، وأصاب كنوزا ودفائن عظيمة . وكان ملكه تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده نوسطيانس تسع سنين .

ثم ملك بعده سطيانس . فكان ملكه تسعا وثلاثين سنة، وبنى كنائس كثيرة، وشيّد دين النصرانيّة وأظهر مذاهب الملكية، وبنى كنيسة الرُّها . وهى إحدى عجائب مبانى العالَم .

قال : وقد كان فى هذه الكنيسة مِنْديل يعظِّمه أهل دين النصرانية، وهو أن اليسوع الناصرىّ حين أُخرج من ماء المعموديّة نُشِّف به، فلم يزل هذا المنْديل يُتَداوَل الى أن قرّر على كنيسة الرُّها؛ فلمّا اشتدّ أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرُّها فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أعطى هذا المنديل للروم فوقعت الهدنة عليه، وفرح الروم به فرحا عظيما .

ولما هلك هذا الملك ملك بعده قوسطيس وهو ابن أخيه ، وكان ملكه الى أن هلك ثلاث عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده طباريس . فكان ملكه أربع سنين، وأظهر فى مدّة ملكه أنواعا من اللباس والآلات وآنيةِ الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك .

ثم ملك بعده مورقيس، وقيل فيه موريقس. فكانت مدّة ملكه عشرين سنة، وهو الذى نصَّر كِسْرى أبرويز على بَهْرام جُوبِين على ما قدّمناه ، ثم قُتِل وٱنتصر أبرويز لولده وبعث بجيوش الفرس، وكانت له حروب ذكرناها .

ثم ملك بعده قرقاس[1]. فكان ملكه الى أن قُتل أيضا ثمانى سنين .

ثم ملك بعده هِرَقْلُ وكان بطريقا فى بعض الجزائر قبل ذلك . قال : ولمّا ملك عمّر بيت المقدس وذلك بعد ٱنكشاف الفرس عن الشام، وبنى الكنائس . ولسبع سنين خلت من ملكه كانت هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام

٦/٣

قال المسعودىّ : وجدتُ فى كتب التواريخ تنازُعا فى مولد النبىّ صلى الله عليه وسلم وفى عصر مَن كان من ملوك الروم؛ فمنهم من ذهب الى ما قدّمناه ، ومنهم من رأى أنّ مولده صلى الله عليه وسلم كان فى مُلْك نوسطينوس . وكان ملكه سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده نوسطينوس الثانى، وكان ملكه عشرين سنة .

ثم ملك بعده هِرَقْلُ بن نوسطينوس ، وهو الذى ضرب الدنانير والدراهم الهِرَقْلِيّة . وكان ملكه خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده ٱبنه مورق بن هِرَقْل ، وهو الذى كتب الزِّيجات فى النجوم، وعليه يَعمَل أهل الحساب . وفى تواريخ ملوك الروم فيمن سلف وخلف أنّ المَلِك

(١) فى مروج الذهب : (قرماس) بالميم .

للروم كان فى وقت ظهور الإسلام وخلافة أبى بكر وعمر هِرَقْلُ . وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب تواريخ أهل السِّيَر . وفى تواريخ أصحاب السِّيَر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر وملك الروم قيصر بن فوق .

ثم ملك بعده قيصر بن قيصر ، وذلك فى أيام أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه .

ثم ملك بعده هرقل بن قيصر فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو الذى حاربه أمراء الإسلام الذين فتحوا الشام على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى خلافة عمر رضى الله عنه . ٥

ثم ملك بعده مورق بن هِرَقْل فى خلافة عثمان بن عفّان رضى الله عنه .

ثم ملك بعده فوق بن مورق فى خلافة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وأيام معاوية بن أبى سفيان . ١٠

ثم ملك بعده فلقط[1] بن مورق بقيّة أيام معاوية بن أبى سفيان ، وكانت بينهما مراسلات ومُهادنات ، وكان مُلْكه فى آخر أيام معاوية وأيام يزيد ابنه ومعاوية ابن يزيد ومَرْوان بن الحكم وصَدْرا من أيام ابنه عبد الملك بن مَرْوان .

ثم ملك بعده لاوِى[2] بن فلقط فى بقيّة أيام عبد الملك بن مروان .

ثم ملك بعده جيرون بن لاوِى فى أيام الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك أخيه وعمر بن عبد العزيز ، ثم اضطرب مُلْك الروم لما كان من أمر مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان وغَزْو المسلمين لهم فى البرّ والبحر ، فملّكوا عليهم رجلا من غير ١٥

(١) فى مروج الذهب : (قلقط) بالقاف .

(٢) فى مروج الذهب : (لاون) .

أهل بيت المُلْك من أهل مَرْعَش[1] يقال له جرجس[2]. فكان مُلْكه تسع عشرة سنة. ولم يزل مُلْك الروم فى اضطراب الى أن مَلَك عليهم قسطنطين بن اليون ، وذلك فى خلافة أبى العباس السفّاح وأبى جعفر المنصور .

ثم ملك بعده اليُون بن قُسطنطين ، وكانت أمّه أرسى ملكةً معه ومشاركةً له فى المُلْك لصغر سنّه . وملك فى أيام المهدى والهادى .

ثم ملك بعده قسطنطين بن اليون بن قسطنطين ، وكانت أمّه مشاركة له وسملت عيناها بعد موته .

ثم ملك بعده نقفور بن استبراق ، وكان لهذا الملك مراسلاتٌ وحروبٌ مع الرشيد ، وغزاه الرشيد فأعطى القَوَد من نفسه من بعد بَغْى كان منه فى بعض مراسلاته ، فانصرف الرشيد عنه ثم غدر ونَقَض ما كان أعطاه من الانقياد ، فكتم الرشيد أمره لعارض عِلّة كان وَجَدَها بالرَّقّة[3] ، ثم تجهّز وغزاه فنزل على هِرَقْلَة[4] ، وذلك فى سنة سبعين ومائة ، فحاصرهما سبعةَ عشرَ يوما فأصيبَ خلقٌ من المسلمين وفَنِيَتْ الأزواد والعلوفات ، ثم فتحها عَنْوة . وقيل : إنهم بادروا لمّا فَتَحها بطلب الأمان فأُمِّنوا . والأشهر أنه فتحها عَنْوة .

ثم ملك بعده استبراق بن نقفور بن استبراق . وكان مُلْكه فى أيام الأمين ، ولم يزل ملكا حتى غَلَب على المُلْك قسطنطين بن فلقط ، وكان مُلْكه فى خلافة المأمون .

---

(١) مرعش : بلدة من الشام . (٢) فى مروج الذهب : « جرجيس » .

(٣) الرقة : مدينة على الفرات من ديار مضر ، و يقال لها : « الرافقة » .

(٤) هرقلة : هى فى شرقى نهر ينزل من جبل العلايا الى آخر سنوب ، وهى عليه فى قرب البحر ، وفى شرقيها جبل الكهف عند الروم .

ثم ملك بعده توقيل وذلك فى خلافة المعتصم ، وهو الذى فتح زِبطرة[(١)] وغزاه المعتصم بعد فتح عَمُّورِيّة .

ثم ملك بعده ميخائيل بن توقيل، وذلك فى خلافة الواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين ، ثم كان بين الروم تنازُعٌ فى الملك ، فملّكوا عليهم توقيل بن ميخائيل ابن توقيل .

ثم غلب على الملك بسيل الصقلبىّ[(٢)] ولم يكن من أهل بيت الملك . وكان مُلْكه فى أيام المعتزّ والمهتدى و بعض أيام المعتمد . ٨٧/١٣

ثم ملك بعده اليون بن بسيل . فكان مُلْكه بقيّة أيام المعتمد وصَدْرا من أيام المعتضد الى أن هَلَك .

ثم ملك بعده الإسكندروس فلم تحمد الروم أمره فخلعوه .

وملّكوا عليهم أخاه لاوى بن اليون بن بسيل الصقلبىّ . فكان ملكه بقيّة أيام المعتضد وأيام المكتفى وصَدْرا من أيام المقتدر .

---

(١) زبطرة : ضبطها ياقوت بكسر الزاى ، وضبطها صاحب تقويم البلدان بفتحها وفتح الباء وسكون الطاء . قال ابن حوقل : وأما زبطرة فإنها حصن من أقرب الثغور الى بلد الروم ، خربها الروم . وقال صاحب تقويم البلدان : وزبطرة اليوم خراب خالية من الزرع والسكان ولم يبق منها غير رسم سورها وليس بالكثير ، وهى فى أرض مستوية والجبال تحيط بها والشعرة من جميع جهاتها على القرب منها وهى فى الجنوب عن ملطية على نحو مرحلتين ، وهى فى جهة الغرب عن حصن منصور على مرحلتين أيضا و بينها و بين حصن منصور الجبل والدربند ، ولقد اجتزت بها فى عام فتحنا ملطية فى المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة وكان فى شهر نيسان واصطدنا من أرض زبطرة بين شجر البلوط صيودا كثيرة وهى أرانب كبار الى الغاية لا يوجد فى الشام أرانب تقاربهن فى القدر . (راجع تقويم البلدان ص ٢٣٤ طبع أوربا) .

(٢) كذا فى الطبرى (ص١٨٥٨ ، ١٨٥٩ من القسم الثالث طبع أوربا) ومروج الذهب للمسعودى . وفى الأصول : « الصقلى » .

ثم هلك وخلّف ولدا صغيرا يقال له قسطنطين فملك وغلب على مشاركته فى الملك أرمنوس بطريق البحر صاحب حربه . قال : فزوّج قسطنطين الصبىّ بآبنته ، وذلك فى بقيّة أيام المقتدر وأيام القاهر والراضى والمتقى ، وذلك فى سنة آثنين وثلاثين وثلثمائة .

٥ قال المسعودىّ : فملوك الروم فى هذا الوقت ثلاثة ، فالأكبر منهم والمدبّر للأمور أرمنوس المتغلّب على المُلْك ، ثم قسطنطين بن لاوى بن اليون بن بسيل ، والثالث آبنٌ لأرمنوس يُخاطَب بالمَلِك آسمه اسطفانس وجعل أرمنوس آبنا له آخر صاحب الكرسىّ بالقسطنطينية ، وهو البطريك الأكبر الذى يأخذون عنه دينهم ، وقد كان خصاه قبلَ ذلك أبوه وقرّبه الى الكنيسة . وهذا آخر من ذكره المسعودىّ
١٠ من ملوك الروم ولم نجد من ضبط أمرهم بعده على آتساق فنذكره .

قال : فعدّة ملوك الروم المتنصّرة من قسطنطين بن هلاى الذى أظهر دين النصرانيّة بالروم الى هذا الوقت أحد وأربعون ملكا ، ولم يعدّ [ابن](١) أرمنوس . وسنيهم خمسمائة سنة وسبع سنين .

وقال فى ملوك رُومِيَة : والذى وجدت فى أكثر كتب التواريخ مما آتفقوا
١٥ عليه أن عدّة ملوك الروم الذين ملكوا مدينة رُومِيَة ، وهم الذين ذكرهم فى كتابه وذكرناهم نحن فى كتابنا هذا ، تسعة وأربعون(٢) ملكا ، وجميع عدد سنى مُلْكهم ، من أوّل مَن مَلَكهم على حسب ما ذكرناه من الخلاف فى صدر هذا الفصل إلى قسطنطين ابن هلاى ، أربعمائة سنة وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة أيام . والله أعلم .

---

(١) التكملة من المسعودى .

٢٠ (٢) فى المسعودى : (اثنان وأربعون) .

ذكر أخبار ملوك الصَّقَالِبَة والنُّوكَبَرْد

قال المسعودىّ : الصقالبة من ولد مارای بن يافث بن نوح ، و إليه يرجع سائر أجناس الصقالبة وبه يُلْحَقُون فى أنسابهم . ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانيّة اليعاقبة ، ومنهم من لا كتابَ له ولا ينقاد إلى شريعة . وهم أجناس : فمنهم جنس كان المُلْك فيهم قديماً فى صَدْر الزمان ، وكان مَلِكهم يُدعَى ماجك ، وهذا الجِنْس يدعى لبنانا[1] ، وكان يتلو هذا الجنس قديما فى صَدْر الزمان سائر أجناس الصقالبة وهم اصطبرانة ، ومَلِكُهم يُدعَى بصقلايح . وجنسٌ يقال له نامجين ، ومَلِكُهم يدعى عرابة[2] ، وهذ الجنس أشجعُ الصقالبة ، وجنس يدعى مَنَاى[3] ، وملكهم رتبيل ، ثم جنْس يقال له سِرْتين ، وهو جِنْسٌ مَهِيبٌ عندهم ، ثم جِنْسٌ يقال له مراوة ، ثم جروانيق وصَاصِين وخشانين ونرانجابين .

قال : والجِنْس الذى يُدعَى سِرتين يحرقون أنفسهم بالنار ، و إذا مات لهم ملك أو رئيس يحرقونه و يحرقون دوابّه ، ولهم أفعالٌ كأفعال الهند .

قال : ومن الصقالبة جِنْسٌ آلتحق بالخَزَر والروس . قال : والأوّل من ملوك الصقالبة ملك الدير ، وله مُدُن واسعة وعمائر كثيرة ، وهو يحارب الروم والفرنج والنوكبرد وغيرهم من الأمم ، والحرب بينهم سِجَال : ثم يلى هذا الملك من بلاد الصقالبة ملوك الترك . قال : والصقالبة أجناس كثيرة ، ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم فزال نظامهم وملّك كلّ جِنْس منهم عليهم ملكا .

هذا ما أورده المسعودى من أخبار الصقالبة . والله أعلم .

---

(١) فى المسعود : (ج ٣ ص ٦٢ طبع أوربا) « ولبانانا » .

(٢) فى المسعودى طبع أوربا : «عزبة» .

(٣) فى المسعودى : « مناين » .

وأما النُّوكَبَرْد فقال المسعودىّ فيهم : إنهم أيضا من ولد يافث و بلادهم متّصلة ببلاد المغرب ، ولهم جزائر كثيرةٌ فيها أممٌ من الناس . وهم ذو بأس شديد ومَنَعَة ، ولهم مُدُنٌ كثيرةٌ ويجمعهم بلدٌ واحدٌ .

٥ قال : وأسماء ملوكهم فى سائر الأعصار أريكس ، والمدينة العُظْمَى من مُدُنهم ودار مملكتهم تُبُّت[1] وهى مدينةٌ عظيمةٌ يخترقها نهر عظيم من أعظم الأنهار آسمه سابيط والمدينة على جانبيه .

٨٨/١٣

قال : ومن مُدُنهم التى كان المسلمون ببلاد الأندلس قد غلبوهم عليها وسلبوها منهم وسكنوها ثم آستعادها النُّوكَبَرْد بعد ذلك من المسلمين مدينة تارة ومدينة ١٠ طارينو ومدينة سيرنية ، ولم يذكُر من أمرهم خلافَ ذلك فنذكره .

ذكر خبر ملوك الإفرنجة والجلالقه

قال المسعودىّ[2] : لاخلافَ أنّ الإفرِنْجَةَ والجلالِقَة والصقالِبَة والنُّوكَبَرْد والأسبان والترك والخَزَر و بُرْجان واللان و يأجوج ومأجوج وغيرَ مَن ذكرنا ممن سكن بلاد الشمال من ولد يافث بن نوح .

١٥ قال : والإفرنجةُ أشدّ هؤلاء الأجناس بأسا ، وأمنعُهم وأكثرُهم عُدّة ، وأوسعُهم مُلْكا ، وأحسنُهم نظاما ، وآنقيادا لملوكهم ، وأكثرُهم طاعةً .

قال : والجلالقةُ أشدُّ من الإفرنجة وأعظمُ منهم نِكايةً . والرجلُ الواحدُ من الجلالقة يقاوم عِدّة من الإفرِنْجَة . ثم قال : وكلمة الإفرنجة متّفقةٌ على ملك واحد

(١) كذا فى المسعودى (ج ١ ص ١٩٧ طبع بلاق) ووردت فى الأصول هكذا : «بثبت» .

٢٠ (٢) راجع (ج ١ ص ١٩٦ طبع بلاق) .

لا تنازع بينهم فى ذلك ، ومُدُنهم تزيد على مائة وخمسين مدينة غير الكُور . وكانت أوائل بلادهم قبل ظهور الإسلام فى البحر فى جزيرة رودس وجزيرة إقريطش ، ثم ملكوا بلاد الغرب وآستولوا عليها .

قال : وأوّل ملوك الإفرنجة قلويا[1] وكان مجوسيًا فنصّرته آمرأته عرضلة .

ثم ملك بعده آبنه لذريق . ٥

ثم ملك بعده آبنه دفسوت[2] .

ثم ملك بعده آبنه قادله .

ثم ملك بعده آبنه بيبق .

ثم ملك بعده قادله . وكانت ولايته ستًا وعشرين سنة ، وذلك فى أيّام الحَكَم صاحب الأندلس ، وتدافع أولادُه بعده ووقع الآختلاف بينهم حتى تفانت ١٠ الإفرنجة بسببهم .

وسار لذريق بن قادله فملك ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، وهو الذى أقبل إلى طرطوشة فحاصرها .

ثم ملك بعده قادله بن لذريق تسعا وثلاثين سنة وستّة أشهر .

ثم ملك بعده آبنه لذريق ستّة أعوام ، ثم خرج عليه قائدٌ للإفرنجة يسمّى يُوسَة ١٥ فملك الإفرنجة وأقام فى الملك ثمانى سنين . وهو الذى صالح المجوس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهبا وستمائة رطل فضّة يؤدّيها صاحب الإفرنجة إليهم .

---

(١) فى المسعودى طبع أوربا : « قلودية » .

(٢) فى المسعودى طبع أوربا : « دقشرت » .

ثم ولى بعده قادله وأقام فى الملك إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر .

ثم ولى بعده لذريق بن قادله وآستمرّ فى الملك إلى سنة ستّ وثلاثين وثلثمائة .

هـذا ما أورده المسعودىّ من أخبارهم فى كتابه المترجم بمروج الذهب[(١)] ومعادن الجوهر .

٥ ثم أتسعت بعد ذلك ممالكهم وآنبسطت أيديهم وآستولوا على أكثر بلاد الغرب وغيرها .

ذكر طوائف السودان وشىء من أخبارهم ونسبهم

قال المسعودىّ : لمّا تفرق ولدُ نوح فى الأرض سار ولدُ كُوش بن كَنْعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر . ثم آفترقوا فسارتْ طائفةٌ منهم متيمين المشرق،

١٠ وهم النُّوبة والحَبَشة والزنج . وسار فريقٌ منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة : الزغاوَة والكانِم[(٢)] ومَرْنَك وكَوْكَو والحِمى[(٣)] وغانَة وغير ذلك من أنواع الأحابش والدمادِم، ثم آفترق الذين يمّموا بين المشرق والمغرب، فصارت الزّنج من المكين[(٤)] والمسكو ودبرا وغيرهم من أنواع الزّنج .

قال : ومن مدنهم بَرْبَرا وهى مدينة على خليج من البحر الحبشىّ يسمّى الخليج

١٥ البربرىّ، طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل .

---

(١) الذى فى مروج الذهب للمسعودى يخالف ما هنا فى بعض المواضع فراجعه .

(٢) كذا فى المسعودى (طبع أوربا) وفيه (طبع بلاق) « الغافو » وفى الأصول « القافو » .

(٣) كذا فى المسعودى (طبع بلاق) وفى الأصول « اكى » .

(٤) كذا بالأصل، والذى فى مروج الذهب (طبع أوربا) « المكير والمشكر » ، وفيه (طبع بلاق)

٢٠ « المكين والمسكون و بربرا » .

قال : وليستْ هذه بَرْبَرا هى التى تُنسَب إليها البرابرة الذين بالمغرب من أرض إفريقية . قال : ولباسُ هؤلاء الزِّنْج جلود النمورة ، وهى جلودٌ كبيرةٌ تُحمَل من أرضهم الى بلاد الإسلام . قال : وأقاصِى بلاد الزنج بلاد سفالة وأقاصيه بلاد الواق واق ، وهى أرض كثيرةُ الذهب كثيرةُ العجائب والخصب ، حارّة . واتّخذ بها الزنج دار مملكة وملّكوا عليهم مَلِكا آسمه « وَقْلِيمِى » وهى نسبةٌ لسائر ملوكهم فى سائر الأعصار . ٥

٨٩/١٣ قال : ويركب وَقْلِيمِى وهو ملك من ملوك الزنج فى ثلثمائة ألف راكب ، ودوابّهم البقر ، وليس فى أرضهم خيلٌ ولا بغالٌ ولا إبلٌ ولا يعرفونها ، وإنما يركبون البقر بالسروج واللُّجُم ، ويقاتلون عليها وهى تعدو بهم كالخيل .

قال المسعودىّ : رأيتُ بالرىّ نوعا من هذه البقر تبرِك كما يبرِك الجملُ وتحمِل وتثُور بأحمالها ، وتحمل عليها الميتة من الخيل والإبل وغيرها فتنهض بحملها . ١٠ والغالبُ على هذا النوع من البقر حُمْرة الحدَق وسائر البقر تنفِر منها . قال : ولا يقع البردُ فى بلاد الزِّنْج . قال : ومنهم ناسٌ مُحدَّدو الأسنان يأكل بعضُهم بعضا . قال : ومساكن الزِّنْج من حدّ الخليج المشعَّب من أعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق ، ومقدار مسافة مساكنهم وآتصالها فى الطول والعرض سبعمائة فرسخ : بَرٌّ وأودِيَةٌ وجبالٌ ورِمالٌ . ١٥

قال المسعودىّ : ومعنى تسمية ملك الزنج « وَقْلِيمِى » أى آبن الربّ الكبير ؛ لأنه آختارهم لملكهم والعدل فيهم ، فمتى جار الملك عليهم فى حُكمه أو حادَ عن الحقّ قتلوه وحرَّموا عَقِبَه المُلْك . وزعموا أنه إذا فعل ذلك فقد بَطَل أن يكون آبن الربّ الذى هو ملك السماء والأرض ، ويسمّون الخالق عزّ وجلّ (مكليجو) وتفسيره الربّ الكبير . ٢٠

قال: والزِّنْج أولو فصاحةٍ فى ألسنتهم وفيهم خطباءُ بلغتهم؛ يقف الرجلُ الزاهدُ منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم يرغِّبهم فى القُرْب من ربِّهم ويَبْعثهم على طاعته، ويُرْهبهم من عقابه، ويذكِّرهم مَن سَلَف من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعةٌ يرجعون اليها بل رسومٌ لملوكهم، وأنواعٌ من السياسات يرجعون اليها ويَسُوسُون بها رعيَّتهم، وأكثرُ أكلهم المَوْز، وهو كثيرٌ ببلدهم، وغالبُ أقواتهم الذُّرَة ونَبْتٌ يقال له الكلارى[1] يُقتلَع من الأرض كالكَمْأة والراسِن، ويأكلون العسَل واللحم.

قال: ومَن هَوَى منهم شيئا من نباتٍ أو حيوانٍ أو جمادٍ عَبَدَه. وجزائرُهم لا تُحصَى كثرةً وفيها النارْجيل.

وأمّا النُّوبة وما قيل فيها فافترقَتْ فرقتين فى شرقِّ النيل وغربيِّه وأناخت على شطَّيه واتَّصلتْ ديارُها بديار مصر، واتَّسعتْ مساكنُها على شاطئ النيل مُصعدةً. ومدينتهم دُنْقُله. والفريق الآخر من النوبة يقال له غَلْوة وينزل مدينة الملك واسمها سُرْتة.

وأمّا البُجَة وما قيل فيها فإنّها نزلتْ بينَ بحر القُلْزُم ونيلِ مصر وتشعَّبوا فِرَقا وملَّكوا عليهم ملوكا، وفى أرضهم معادن الذهب. قال: وانضافَ إلى البُجَة طائفةٌ من العرب من ربيعة بن نزار بن معدّ بن عَدْنان وتزوّجوا من البُجَة.

وأمّا الحَبَشَة وما قيل فيها فإنّ دارَ مُلْكهم كَعْبُر، وهى مدينة عظيمة، وهى دارُ مملكة النجاشىّ. وللحَبَشة مُدُنٌ كثيرةٌ وعمائرُ واسعةٌ، ويتّصل مُلْك النجاشىّ بالبحر الحَبَشىّ، وله ساحلٌ فيه مدينةٌ كبيرةٌ، وهو مقابلٌ لبلاد اليمن. فمن مُدُن الحبشة

(١) فى المسعودى: «ويشبه هذا الكلارى القلقاس الذى يكون بالشام ومصر».

على الساحل : الزَّيْلَع والدَّهْلَك وناصِع ، وفى هذه المُدُن جماعةٌ من المسلمين إلّا أنهم فى ذمّة الحبشة .

قال : وبين ساحل الحبشة ومدينة غَلافقة ، وهى ساحل زبيد من أرض اليمن ، ثلاثة أيام عرض البحر . قال : ومنه عَبَرت الحبشة الى اليمن حين ملكته فى أيام ذى نُوَاس ، وهذا الموضع هو أقلّ هذا البحر عرضا . ٥

قال : وهنالك جزائر بين الساحلين منها : جزيرة العقل فيها ماء يُشرب فيفعَل فى القرائح والذكاء فعلا جميلا ، وبها جزيرة أسقطرة . وأما غير هؤلاء من الحبشة فمنهم من أمعن فى المغرب مثل : الزَّغاوَة والكَوْكَوْ والفراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطين ودُوَيْلة والقرمة . قال : ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف وغيرهم ملكٌ يرجعون اليه . ١٠

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك العرب ويتّصل بهذا الباب خبر سَيْل العَرِم

ذكر أخبار ملوك قَحْطان

٥ قال المؤرّخون : لم يكن للعرب مُلْك حقيقىّ ، وإنما كان من مَلَك حِمْير فى بلاد اليمن سُمِّى مَلِكا ، وقد كانوا فى بعض الأوقات يخرجون من بلادهم ويَسيحون فى الأرض حتّى بلغوا أقصى المغرب ، وبلغوا من حدود المشرق سَمَرْقَند ، وبلغوا باب الأبواب ، ودخلوا بلادَ الهند ولم يستقرّوا فى غير بلادهم ، فلا يُعدّ ذلك مُلْكا ، وإنما هو غارة .

١٠ فأوّلُ ملوك قَحْطانَ عبدُ شمس ، وهو سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وإنما سُمِّى سبأ لأنه أوّل مَن أدخل بلاد اليمن السَّبْى . قال عبد الملك بن عَبْدون فى كتابه المترجم بكمامة الزهر[1] وصدفة الدرّ : إنّ عبد شمس هذا ملك أربعمائة سنة وأربعا وثمانين سنة . قال : وقد اختلف فى أوّل مَن ملك منهم ، فقيل يَعْرُب بن قَحْطان . قال : وهو أوّل من ١٥ نطق بالعربية ، وأوّل مَن حيّاه ولده بتحية الملك : أبَيْتَ اللّعن ، وأَنْعِم صباحا . والأشهر أنّ عبد شمس سبأ هو أوّل ملوكهم . والله أعلم .

ثم ملك بعده ابنه حِمْير بن سبأ ، قال : وكان أشجعَ الناس فى وقته ، وأفرسَهم وأجملَهم . وقيل : إنه إنما سُمِّى حِمْير لكثرة لباسه الأحمر من الثياب ، وكان يلقّب

(١) راجع (ص ٧٧ طبع أوربا) .

بالعَرَنْجج ، وهو أوّل مَن وضع تاجَ الذهب على رأسه من ملوك اليمن . وكان مُلْكه خمسين سنة ، وذلك فى عصر قَيْذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

ثم ملك بعده أخوه كَهْلَان بن سبأ . فكان مُلْكه إلى أن هلك ثلثمائة سنة .

وٱختلف فيمن مَلَك بعده ، فقيل : ملك بعده أبو مالك بن عسكر بن سبأ . فكان ملكه ثلثمائة سنة . وقيل ملك بعد كَهْلانَ الرائشُ وهو الحارث بن شدّاد[1] ، وكان الحارث أوّلَ مَن غزا منهم ، وأصاب الغنائم ، وأدخلها اليمن ، و بينه و بين حِمْير خمسة عشر أبًا ، وسُمّى الرائشَ لأنه لمّا أدخل الغنائمَ والأموالَ والسَّبْيَ بلادَ اليمن فراش الناسَ [فى أيامه][2] . وفى عصره مات لقمانُ النسور . قال : وذكر الرائشُ هذا نبيَّنا صلى الله عليه وسلم فى شعره ، فقال من قصيدته :

ويملك بعدَهم رجلٌ عظيمٌ ... نبيّ لا يُرخِّص فى الحرام

يسمَّى أحمدًا يا ليتَ أنّى ... أعمَّر بعد مخرجه بعام

قال : وكان مُلْكه مائةً وخمسا وعشرين سنة . هكذا نقل عبد الملك بن عبدون وذكر الخلاف فى أبى مالك والرائش على ما ذكرناه . وأمّا غيرُه فإنه لم يذكر كَهْلان ابن سبأ ولا أبا مالك ، بل قال : إنّ حِمْير عهد إلى ٱبن ٱبنه المِلْطاط بن عمرو بن حمير . قال : وفى أيامه ٱنقرض مُلْك صحار وجاسم ٱبْنَىْ دارم و بادوا .

قالوا : ثم ملك بعده ٱبنه أَبْرَهَة و يقال له ذو المنار . قالوا : سُمِّى بذلك لأنه أوّل مَن أقام المنار فى مغازيه على الطريق ، وذلك أنه أوغَل فى بلاد المغرب والسودان ، وٱتّخذها ليهتدىَ بذلك فى قُفوله . وكان مُلْكه مائةً وثلاثين سنة ،

(١) كذا فى الأصول . وفى شرح قصيدة ابن عبدون الذى ينقل عنه المؤلف « سدر » وفى تاريخ الطبرى (ص ٤٤٠ من القسم الأوّل طبع أوربا) « ٱبن أبى سدد » .

(٢) التكملة من شرح قصيدة ٱبن عبدون .

وقيل مائة وثلاثا وثمانين سنة . هكذا ذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف أن الذى ملك أبرهة . وقال المسعودىّ : إنّ الذى ملك بعد الرائش جبّار بن غالب بن زيد ابن كهلان وقال : إنّ مُلْكه كان مائة وعشرين سنة . والله أعلم .

ثم ملك بعد أبرهة على ما ذكر ابن حمدون فى تذكرته ابنه إفْرِيقِش ، وهو ذوا الأذعار . قال : سُمِّى بذلك لأنه خرج نحو بلاد المغرب وأوقع بقوم لهم خِلَقٌ منكرةٌ فذُعر الناس منهم وفزقوا . قال ابن عبدون : وغزا إفريقش بلاد المغرب حتى أتى طَنْجة ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم ببلاد المغرب . وكان البربر بقيّة مَن قَتَل يوشع بن نون . قال : وإفريقش هو الذى بنى إفريقية وبه سُمِّيت .

ثم ملك بعده ابنه العبد ويلقّب ذا الشناتر ، وهى الأصابع فى لغة حِمْير . قال : وخرج نحو العراق فاحتُضِر فى طريقه . هكذا ذكر ابن حمدون . وقال عبد الملك : إنّ الذى ملك بعد إفريقش أخوه العبد بن أبرهة . قال : وهو ذو الأذعار ، سُمِّى بذلك لأنه كان فيما ذكر أهلُ الأخبار غزا بلاد النسناس فقتل منهم مقتلةً عظيمةً ، ورجع إلى اليمن من سَبْيهم بقوم وجوههم فى صدورهم فذُعر الناسُ منهم فسُمِّى بذى الأذعار . وكان مُلْكه خمسا وعشرين سنة . وقد قدّمنا أنّ ذا الأذعار هو إفريقش . والله أعلم .

ثم ملك بعده الهدهاد بن عمرو بن شُرَحْبيل . هكذا قال ابن حمدون والمسعودىّ ، إلّا أنّ المسعودىّ لم يذكر عمرا وقال الهدهاد بن شُرَحْبيل . وسمّاه ابن قتيبة هدّاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش ، وهو أبو بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام . وكانت مُدّة ملكه عشرين سنة ، وقيل سبعة ، وقيل ستة . وقد قدّمنا

خبر بلقيس وأنها ٱبنة ذى أَشْرَح ، وأنّ والدها لم يكن ملكا وإنما كان وزيرا لملك حمير وهو شراحى الحِمْيَرِىّ . والله تعالى أعلم .

وٱختُلِفَ فيمن ملك بعد الهدهاد، قال المسعودىّ : تُبَّع الأوّل . وكان مُلْكه أربعمائة سنة . وقال ٱبن قتيبة أقلّ من ذلك، وقال: ملك بعد الهدهاد ٱبنته بلقيس وهى صاحبة سليمان بن داود عليهما السلام . وكان مُلْكُها مائةً وعشرين سنة . وقد أتينا على أخبارها فيما سلف من هذا الكتاب[1] فى قصّة سليمان عليه السلام .

ثم ملك بعدها ياسر بن عمرو بن شرحبيل وهو ناشِر النِّعم، قالوا : سُمِّى بذلك لإنعامه على العرب ، وكان شديد السلطان، وسار غازيا وأوغَل فى بلاد المغرب حتى بلغ وادى الرمل ولم يبلغه أحدٌ قبلَه ، وهو رَمْلٌ جارٍ ، ولم يجد وراء ذلك مجازا لكثرة الرمل وجَرَيانه، فبينما هو مُقيم إذ ٱنكشف الرمل فأمرَ بعضَ أهلِ بيته أن يعبُرَ هو وأصحابُه فعبروا فلم يعودوا إليه وهلكوا عن آخرهم ، فأمر بصنم من نحاس فنُصِبَ على صخْرة عظيمة على شفير الوادى وكتَب على صدره بقلم المسند[2] : هذا الصنمُ لناشِر النِّعَم الحِمْيَرىّ ليس وراءه مذهبٌ ولا يتكلّفَنَّ أحدٌ ذلك فيعطَب ، ورجع من هناك . وكان مُلْكه خمسا وثمانين سنة على رواية ٱبن قتيبة . وقال المسعودىّ : خمسا وثلاثين .

ثم ملك بعده أبوكرب شَمِر بن إفريقش ، ويسمّى يرعش لٱرتعاش كان به . قال : وخرج نحو العراق فى زمن بستاسف أحد ملوك الفرس فأعطاه بستاسف الطاعة ، وسار نحو الصين حتى نزل فى طريقه ببلاد الصغد ، فٱجتمع أهل تلك

(١) راجع (ج ١٤ ص ١١١ — ١٢٤) من هذه الطبعة .

(٢) المراد بالمسند : الخط الحميرى .

الأرض بمدينة سَمَرْقَنْد فأحاط بهم شَمِر وافتتحها عَنْوة وأسرف فى القتل وخرّب المدينة وهدَمها فسمّيت شَمِرْكَنْد، وعُرِّبت بعد ذلك فقالوا : سَمَرْقَنْد . ومعنى شمركند ، أى خرّبها شَمِر . وفيه يقول دِعْبِل بن علىّ يفتخر باليمن من قصيدة :

هموا كتبوا الكتاب بباب مَرْوٍ وبابِ الشاش[1] كانوا كاتبينا
وهم سَمُّوا بشَمْرٍ سَمَرْقَنْدًا وهم غَرَسُوا هناك التُّبَّتِينا

قال : ولما فرغ من بلاد الصُّغْد سار نحو الصين فأيقن مَلِكُها بالبَوَار ، فاحتال وزيرٌ له بأن جَدَع أنفه وأتى الى شَمِر، وهو بمفازة بينها و بين الصين عشر مراحل ، ومتّ إليه بأن ملك الصين فعل به ذلك لأنه نصحه ألّا يحارب شمر وخالف رأيه ، فسأله شمر عن الطريق والماء، فقال له : بينك و بين الماء ثلاث مراحل، فتزوّد لثلاثة أيام، فلمّا قطعها أعوزه الماء وكشف له الرجل أمره فمات هو وأصحابه عطشا .

قال ابن قتيبة : وكانت مدّة مُلْكه مائةً وسبعا وثلاثين سنة . وقال المسعودىّ : ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده ابنه أبو مالك بن شمر ، قال : وتأهّب للأخذ بثأر أبيه فبلغه أنّ بالمغرب واديا من الزبرجد، فحمله الشَّرَه على طلبه وترك ما عَزَم عليه فمات فى طريقه.

ثم ملك بعده ابنُه تُبَّع الأقرن بن أبى مالك بن شمر. قال : وطلب ثأر جدّه وأتى سمرقند فعمّرها وجدّد بناءها ، ثم أتى الصين وأخرب مدينتها وابتنى هناك

(١) الشاش : مدينة جليلة من عمل سمرقند ، وهى فى أرض سهلة وعامة دورها يجرى فيها الماء ، وهى من أنزه بلاد ماوراء النهر . وفى معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على سمرقند روى البيتين هكذا :

هموا كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم خربوا سمرقندا بشمر وهم غرسوا هنا التبتينا

مدينة أسكن فيها ثلاثين ألف رجل . قال الحمدونىّ فى كتابه المترجم بالتذكرة : هم إلى اليوم هناك فى زىّ العرب، ولهم بأس وشدّة — يعنى يوم صنّف كتابه وهو فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أو نحو ذلك — قال : وفى أوانه كان بَوَار طَسْم وجَدِيس على ما نذكره فى وقائع العرب . ٩٢/١٣

قال : وفى أوانه أيضا كان سَيْلُ العَرِم وتفرُّق سبأ . وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى . ٥

قال ٱبنُ قُتَيبة : وكان مُلْك تُبَّع الأَقْرَن ثلاثا وخمسين سنة . قال المسعودىّ : إنّ مُلْكه كان مائةً وثلاثا وستّين سنة . ولم يذكرا المَلِك الذى كان قبله ، ونسبا هذا الملك أنه ٱبن شَمِر .

ثم ملك بعده على ما رواه ٱبن حَمْدون ـ وهو إن شاء الله أشبه بالصواب ـ أسعد ابن عمرو . قال : وملك والمُلْك متشتّت فٱستفزّ قومه فنهضوا معه فى ملوك اليمن حتى قتلهم مَلِكا مَلِكا ، وٱنتظم له مُلْك اليمن ، فوجّه بٱبن عمّ له يقال له القَيْطون إلى الحجاز فبغى وظلم فقتله اليهود . ولمّا بلغ أسعد ذلك غضب وحلف ليقتلنّ كلّ يهودىّ فى الأرض ، وتجهّز فى مائة ألف حتّى وَرَد يَثْرِبَ ، فٱجتمع الأَوْسُ والخَزْرَجُ وأخبروه بقصّة ٱبن عمّه وفُجْره وظُلْمه فعفا عن اليهود وقال : لستُ أرضَى بالظلم ولو علمتُ ذلك منه لقتلتُه ، وأتاه بنو هُذَيل بن مدركة فرغّبوه فى الكعبة وما فيها من الذهب والجَوْهر ، فقدِمَ مكّة لذلك ، فٱجتمع إليه أحبارُ اليهود وقالوا : إنّ هذا البيتَ العتيقَ الذى ليس لله عزّ وجلّ بيتٌ فى الأرض غيرُه وقد رامَ إفسادَه كثيرٌ من الملوك فأبادهم الله . وفى هذه البلدة يكون مَوْلدُ نبىّ آخرِ الزمان ٱسمُه محمدٌ وأحمدُ من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو خاتَم الرسُل ، وإنّما أراد مَن دلّك على ١٠ ١٥ ٢٠

ذلك هلاكك ، فضرب أعناقَ الهُذَليِّين وأقام بمكة ستّة شهور يَنْحَر فى كلّ يوم ألفَ ناقة ، وكسا البيت وعلّق عليه بابا من الذهب .

ولمّا هَلَك مَلَك بعده ٱبنُ عمّه مَرْثد بنِ عَبْدِ كَلَال بن تُبَّع الأَقْرَن المعروف بذى الأعواد . قال : وكان مُلْكه أربعين سنة . ولمّا هَلَك مَلَك بعده أولاده وكانوا أربعةً مشتركين فى المُلْك على كلّ واحد منهم تاجٌ . قال : وخرجوا إلى مكة ليقلعوا الحجرَ الأسودَ ويبتنوا بيتا بصنعاء يكون حجّ الناس إليه ؛ فٱجتمعتْ كِنَانةُ وقلّدوا أمرهم فِهْرَ بنِ مالك وٱلتقَوْا فقُتِل ثلاثةٌ من الملوك وأُسِرَ الرابع .

ولمّا أُسِر هؤلاء ملكتْ بعدهم أختهم أبضعةُ ٱبنةُ ذى الأعواد . قال : وكانت فاجرة فقتلها قومُها .

ثم ملك بعد أولاد ذى الأعواد مَلْكِيكَرَب بن عمرو بن سعد بن عمرو، وكانت مُدّة مُلْكه عشرين سنة ، وتحرّج عن سَفْكَ الدماء فلم يَغْزُ ولم يخرُج من اليمن .

ثم ملك بعده تُبَّع أسعد بن ملكيكرب . قال : ولمّا ملك غزا بنى معدّ بتهامة فى ثلثمائة ألف طالبا لدماء الملوك الأربعة ، وٱجتمع بنو معدّ وعَقَدوا الرِّياسة لأميّة ابن عَوْف الكِنانىّ المعروف بالعنسىّ ، ثم نَفَسَتْ ربيعةُ أن تكون الرِّياسة فى مُضَر فقعَدَت عنهم ، فضَعُفَتْ مُضَر عن تُبّع وسألوه الصلح على أن يؤدّوا إليه عقلَ الملوك الأربعة ، عن كلّ ملكٍ ألفَ ناقة . وكذلك كانت دِيَة الملوك فى الجاهليّة . ودِيَاتُ مَن قُتِل معهم من الجنود لكلّ رجُلٍ مائة ناقة ، فقبِلَ تُبّع ما بذلوه وٱنصرف إلى أرضه ووقع الشرّ بين الحيّين : ربيعة ومُضَر ، فأرسلَتْ ربيعةُ إلى تُبّع رُسُلا فعقد بينهم حِلْفا وعَقْدًا ، وهو الحِلْف الباقى بين ربيعةَ واليمن إلى أن جاء الإسلام . وأقام تُبّع هذا بأرض الشام ما شاء الله ، ثم سار إلى الهند فى البحر وباشرَ الحربَ بنفسه فبرَزَ

اليه مَلِك الهند ، وهو ٱبنُ فَوْز الذى قتل الإسكندر أباه فقتله تُبّع بيده، وتحصّنت اليهود بمدينتهم وحاصرَهم تُبّع شهرا حتى سألوه الأمان فآمنهم وقَفَل إلى بلاده .

ثم ملك بعده ٱبنُه حسّان بن تُبّع . قال : فغـزا العراق فى ثلثمائة ألف وأتى فى طريقه مكة ، وقد عادت إليها خُزَاعة عند وفاة فِهْرِ بنِ مالك ، فأعطاه بنو نِزَار الطاعة . ورُوِىَ عنه شعر يخبر فيه ببعثة نبيّنا صلى الله عليه وسلم : ٩٣/١٣

شَهِـدْتُ على أحمـدَ أنّه رســولٌ من الله بارِى النَّسَمْ
فلو مُدّ عُمْـرِى إلى عُمْـرِه لكنتُ وزيرًا له وٱبنَ عَمّ

قال : ولمّـا وَرَد العراق وَجَد الفُرْس وسلطانَهم واهٍ وقد مات هُرْمُز وولدت ٱمرأته غلاما ، وهو سابور ذو الأكتاف ، ومُرَبِّيـه أحدُ عظماء الفُرْس ، فلم يقُم بضبط المُلك ؛ فٱستقبلوه بالطاعة وأقرُّوا له بالخراج ، فأقام بالعراق حَوْلا وعزم على غَزْو الصين فساء ذلك حِمْير وقالوا : نَغِيب عن أولادنا وعيالنا ولا ندرى ما يحدُث بهم ، فمَشَوْا إلى عمرو أخى حسّان الملك و بعثوه على قتل أخيه على أن يملّكوه عليهم و يعود بهم الى بلادهم ، وأعطُوه العهود والمواثيق إلّا رجلٌ يقال له ذو رُعَين ، فقال لهم : إنكم إن قتلتم مَلِكَكم ظلما خرج الأمرُ منكم فلم يحفِلوا به ، فأقبل بصحيفة مختومة وقال لعمرو بن تُبّع : لتكن هذه الصحيفةُ وديعةً لى عندك الى وقت حاجتى إليها ، وأقبل عمرو ليلا الى أخيه حسّان وهو نائمٌ فى فراشه فقتله وٱنصرفتْ حِمْير الى بلادها . هكذا نقل ٱبن حمدون فى تذكرته .

وقال أبو علىّ أحمد بن محمد بن مِسْكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم فى أخبار الفرس : إنّ ملك الفُرْس يومَ ذاك هو قُبَاذ بن فَيْروز وهو أبو كِسْرَى أنو شروان ، و إنّ الملك الذى غزاه من ملوك حمـير هو تُبّع والد حسّان ، وكان معه لمـا غزا

الفُرْسَ ٱبنُه حسّان وٱبنُ أخيه شَمِـر . قال : فسارتُبّع حتى نزل الحِيرَة ووجّه ٱبنَ أخيه شَمِرا ذا الجناح الى قُبَاذ فقاتله فهزمه شَمِر حتى لحق بالرىّ ، ثم أدركه بها فقتله .

قال : ثم إنّ تُبّعا أمضى شَمِرا ذا الجناح وٱبنَه حسّان إلى الصُّغْد وقال : أيّكما سبق إلى الصين فهو عليهـا . وكان كلّ واحد منهمـا فى جيش عظيم يقال إنهما سبعمائة ألف وأربعون ألفا ، و بعث ٱبن أخيه — وٱسمه يَعْفُر — إلى الروم .

قال : فأمّا يَعْفُـر فإنه سار حتى أتى القسطنطينية ، فأعطَوْه الطاعةَ والأتاوَة ومضى إلى رُومِيَة فحاصرها ، ثم أصابهم جوعٌ ووقع فيهم الطاعون فتفرّقوا ، وعلم الروم بذلك فوثَبوا عليهم فلم يُفْلِت منهم أحدٌ .

وأمّا شَمِرٌ ذو الجناح فإنه سار حتى ٱنتهى إلى سَمَرْقَنْد فحاصرها فلم يَظْفَر منها بشئ ، فلمّـا رأى ذلك طاف بالحَرَس حتى أخذ رجلا من أهلها فٱستمالَ قلبَه ثم سأله عن المدينـة ومَلِكَها فقال : أمّا مَلِكُها فأحمقُ الناس ليس له همّ إلّا الأكل والشرب والجماع ، ولكن له بنتٌ هى التى تقضى أمر الناس ، فمنّاه ووعده حتى طابتْ نفسُه ، ثم بعث معه هديّة إليها وقال : أخبرها أنى إنما جئتُ من أرض العرب للذى بلغنى من عقلها لتنكحنى نفسَها ، فأصيب منها غلاما يملك العرب والعجم ، وإنّى لم أجئ ألتمسُ مالا ، و إنّ معى من المـال أربعـةَ آلاف تابوت ذهبا وفضّة هاهنا ، وأنا أدفعها إليها وأمضى إلى الصين ، فإن كانت لى الأرض كانت ٱمرأتى ، و إن هلكتُ كان المـال لها . فلمّا ٱنتهت رسالته إليها قالت : قد أجبته فليبعث بالمـال ، فأرسـل إليها بأربعة آلاف تابوت ، فى كلّ تابوت رجلان ، وكان بسَمَرْقَنْدَ أربعةُ أبواب على كلّ باب منها أربعـةُ آلاف رجل . قال : وجعـل شَمِـرٌ العلامةَ بينه و بينهم أن يضرب لهم بالجُلْجُل ، وتقدّم بذلك الى رُسُله الذين وجّههم ، فلمّا صاروا

بالمدينة ضرب لهم بالجُلْجُل فخرجوا وأخذُوا بالأبواب، ونَهَد[1] شَمِرٌ فى الناس فدخل المدينة وقتل أهلها، وٱحتوى على ما فيها . ثم سار إلى الصين فلقِىَ التركَ فهزمهم، وٱنتهى إلى حسّان بن تُبَّع بالصين فوجده قد سبقه إليها بثلاث سنين .

قال : وفى بعض الروايات وهى المجتمع عليها : إنّ حسّان وشَمِرًا ٱنصرفا فى الطريق الذى كانا أخذا فيه حتى قَدِما على تُبَّع بما حازا من الأموال بالصين وصنوف الجوهر والطِّيب والسَّبْى، ثم ٱنصرفوا جميعا إلى بلادهم، فكانت وفاة تُبَّع باليمن . وكان مُلْكه مائة سنة و إحدى وعشرين سنة .

قال : وأمّا فى الرواية الأخرى فإنّ تُبّعا أقام وواطأ ٱبنَه حسّان وٱبنَ أخيه شمر أن يملكا الصين ويحملا إليه الغنائم، ونَصَب بينه وبينهم المنار، فكان إذا حَدَثَ حَدَثٌ أوقَدوا النار، فأتى الخبر فى ليلة .

قال : وقد ذكر بعضُ الرُّواة أنّ الذى سار فى المشرق من التبابعة تُبّع الأخير؛ وهو تُبّع تبّان أسعد أبوكَرِب بن مليك بن زَيد بن عمرو بن ذى الأذعار، وهو أبو حسّان . ٱنتهى ما أورده ابنُ مِسكويه من أخبارهم، فلنرجع إلى مساق ما قدّمناه مما نقله ٱبن حمدون . ٩٤/١٣

قال : ثم ملك بعده حسّان بن تُبّع أخوه، فقتله عمرو بن تُبّع . قال : وٱنصرفَ بالقوم إلى بلادهم فسلّط الله عليه السَّهَر فكان لا ينام، فجمع الكَهَنة والقِيَاف والعرّافين فسألهم عن ذلك فلم يعرفوه، فقال له رجلٌ منهم : إنه يقال مَن قتل أخاه ظلما سلّط الله عليه السهر وحُرِمَ النومَ، فأحال بالذنب على حِمْير وجعل يقتل مَن أشار عليه بقتل أخيه واحدًا بعدَ واحد، ثم أرسلَ إلى ذى رُعَين لِيُلْحِقَه بمَن قُتِل من

(١) نهد : نهض ومضى .

أصحابه، فقال : أيّها الملك إنّى خالفتُ القوم فيما زيّنوا لك من قتل أخيك . قال : ومَن يعلم ذلك؟ قال : الصحيفةُ التى أودعتُها عندك، فأخرجها فقرأها فإذا فيها :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِى سَهَرًا بِنَوْمٍ ... خَلِيٌّ مَنْ يَبِيتُ قَرِيرَ عَيْنِ
فإنْ تَكُ حِمْيَرٌ غَدَرَتْ وخانَتْ ... فمعذرةُ الإلٰه لِذِى رُعَيْنِ

٥ قال : فخلّى عمرو سبيلَه .

قال : ولمّا قَتَل عمرو أشرافَ قومه وصناديدَهم تضعضع أمرُ حِمْير ووَهَى مُلْكُها، فطَمِعَ فيه بنوكَهْلان بن سبأبن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، فوثبَ ربيعةُ ابنُ نصر بن الحارث بن عمرو بن عدىّ بن مُرّة بن زَيْد بن مَذْحِج بن كَهْلان فى قومه وجمعهم من أقطار الأرض، وجمع له عمرو بن تُبّع وٱلتقَوْا فقُتِلَ عمرو بنُ تُبّع .

١٠ وملك بعده ربيعةُ بن نصر المقدّم ذكره قال : وكان قد رأى رؤيا أزعجتْه وعُبِّرت له أنّ الحبشةَ تملِك بلادَه، فوجّه ٱبنَ أخيه جَذِيمةَ بن عمرو بن نصر ومعه ٱبنُه عدىٌّ بنُ ربيعة وهو صبىّ، ووجّه معهما حَرَمَه وخزائنه، وكتب لهم الى سابور ذى الأكتاف، فأسكنهم سابورُ الحِيرَة وملّكهم ما حَوْلها .

قال : ولمّا بلغ عَدِىٌّ بنُ ربيعة الحُلُم زوّجه جَذِيمةُ أختَه رَقَاش فولدت

١٥ له عمرو بنَ عدىّ . وهؤلاء ملوك الحِيرَة على ما نذكره فى أخبارهم .

قال : ولمّا مات ربيعةُ بنُ نصر تجمّعت حِمْير فآذنتْ كَهْلانَ بحربٍ أو إعادة المُلْك فيهم، ودخل بينهم السفراءُ فسلّموا المُلْك الى حِمْير فملكتْ حِمْيرُ عليها أبرهة ابن الصَّبّاح بن لَهِيعة (١) بن شَيْبَةَ الحَمْد بن مَرْثَد بن الحَيْر بن سيف بن مصلح

(١) فى تاريخ أبى الفداء (ص ١١٨ طبع أوربا) ومروج الذهب للمسعودى (ص ٢١٦ طبع بلاق)
٢٠ « وكيعة » ، وفى مروج الذهب (ج ٣ ص ١٥٥ طبع أوربا) « وليعة » باللام .

ابن عمرو بن مالك بن زَيْد بن سعد بن عَوْف بن عدىّ بن مالك بن زيد بن سعد ابن زُرْعة بن ذى المنار .

قال : فملك عليهم ومكث طولَ أيّام سابور ذى الأكتاف ثم مات .

فملك بعده ابن عمه صُهْبان بن محرّث . قال : فبعث عمّاله على أرض العرب ، وٱستعمل على ولد سعد بن عدنان ٱبنَ خاله الحارثَ بن عمرو بن معاوية بن كِنْدة ابن عَدىّ بن مُرّة بن زَيْد بن مَذْحِج بن كَهْلان ، وكان الحارث يلقّب بآكل المرار ، وهو جدّ ٱمرئ القيس الشاعر بن حُجْر بن الحارث ، وهو جدّ الأشعث بن قيس ابن مَعْدِيكرب بن جَبَلَة بن عَدِىّ بن الحارث المذكور ؛ فقسّم الحارث مملكته بين ولده ، وكانوا ثلاثة : فملّك ٱبنُه حُجْرا على أَسَدٍ وكِنَانَةَ ، وملّك شُرَحْبيل على قَيْس وتميم ، وملّك [سَلَمة][1] على ربيعة ، فمكثوا كذلك حينا حتى مات أبوهم الحارث فوثبتْ بنو أَسَد على حُجْر فقتلوه ، ووثبتْ قيس وتميم على شُرَحْبيل فطردوه ، فغضب صُهْبان وتجهّز للسير الى مُضَر ، فٱستغاثت مُضَر بربيعة وجاءت وفودهم إليهم وٱستنصروهم ، ورئيسُهم كُلَيب بن ربيعة بن الحارث بن زُهَير بن جُشَم ابن بكر بن حَبِيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب بن وائل ، وٱجتمعتْ ربيعة ومُضَر والرياسة على الحَيّين لكُلَيب ؛ فقاتلوا صُهْبان وعظماءَ قومه ، وهو اليومُ المشهور فى العرب ، فقُتِل صُهْبان . وفى هذا اليوم يقول عمرو بن كُلْثوم :

ونحنُ غداةَ أُوقِد فى خَزَازٍ[2] رَفَدْنا فوقَ رِفْدِ الرافدينَا
فكُنّا الأَيْمَنِينَ إذا ٱلتَقَيْنَا وكان الأيسرين بنو أَبينا

(١) التكملة عن النقائض (ص ١٠٧٣ طبع أوربا) .

(٢) خزاز (بفتح أوله) : جبل لغنىّ أحمر وله هضبات حمر ، وفى أصله ماء لغنىّ يقال له (خزازة) وهو فى ناحية منعج دون أمرة وفوق عاقل على يسار طريق البصرة الى المدينة (راجع معجم ما استعجم) .

فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبايا وأُبْنَا بالملوك مُصَفَّدِينَا

قال : ولمّا قُتل صُهْبان بن مُحَرِّث ملك بعده الصَّبَّاح بن أبرهة بن الصَّبّاح .
قال : وكان نَجْدًا جَلَدًا ، فسار الى مَعَدّ فى مئتَىْ ألف يطلب ثأر صُهْبان . قال : ٩٥/١٣
وتجمّعت مَعَدّ ورئيسهم كُلَيب أيضا ، وكانت الحرب بينهم بموضع يسمّى الكُلَاب ،
٥ فآنهزمت اليمن . وهذان اليومان من مفاخر نِزَار على اليمن ، وآمتنعتْ معدّ بعد ذلك على اليمن حتى قتل كُلَيب بن ربيعة .

قال : ولما مات الصَّبّاح ملك بعده آبنُ عمّ له فاسقٌ ، وقيل : إن الذى ملك لَخْنِيعة ذو شناتر ، قال : ولم يكن من أهل بيت المُلْك ، فأُغْرِىَ بحبّ الأحداث من أبناء الملوك ، فكان يطالبهم بما يُطالَب به النسوان ، وكان لايسمع بأحد من
١٠ فتيان العرب وأولادِ الملوك حَسَن الصورة إلّا آستدعاه وطالبه بهذا الفعل القبيح ، ولم يزل على هذه الطريقةِ المذمومةِ حتّى نشأ غلامٌ من أبناء ملوك حِمْير آسمُه زُرْعة ابن كعب ويُدعَى ذا نواس ، سُمِّى بذلك لأنه كان له ذؤابتان تَنُوسان على عاتقه ، وكان وضيئا ، فآستدعاه لمثل ما كان يدعو اليه غيرَه ، فجعل تحتَ إخْمِصه سِكّينا ، فلمّا خلا به الملك واثبَه ذو نُوَاس فقتله ثم حَزَّ رأسَه ، وكان له كُوّة يُشرِف منها على
١٥ عَبِيده إذا قَضَى حاجتَه من الغلام الذى يكون عنده ويضع مِسْواكا فى فِيه ، فلمّا قتَله ذو نواس جعل السواك فى فِيه ، وجعل رأسه فى تلك الكُوّة التى كان يُشْرِف منها على عَبيده ، ثم خرج على العبيد فقالوا [له](1) : ذو نُوَاس ، أَرَطْبٌ أم يَبَاس ؟ . فقال لهم : سل نحماس ، استرطبان ذو نواس . استرطبان لاباس(2) . وتفسير ذلك :

(١) زيادة من السيرة لابن هشام (ص ٢٠ طبع أوربا) .

٢٠ (٢) وردت هذه العبارة فى السيرة لابن هشام بألفاظ فيها تقديم وتأخير .

سلوا الرأس التى فى الكُوّة تخبركم وآتركوا ذا نواس ، قال : فأجمعت حِمْير عليه أمرها وقالوا : ينبغى أن نملّكه لأنه أراحنا من هذا الفاسق .

فملك عليهم ذو نُوَاس زُرْعة هذا . قال : ولمّا ملك وآستتبّ له الأمرُ فارق عبادةَ الأوثان ودخل فى دين اليهوديّة وقتل مَنْ كان فى بلاد اليمن على دين عيسى ابن مريم عليه السلام ممن آمتنع من موافقته ، ثم قصد نَجْران وبها عبد الله بن الثامر وأصحابُه وهم على دين عيسى عليه السلام ، فسألهم الدخولَ فى اليهوديّة فآمتنعوا ، فقَتَل عبدَالله بن الثامر بالسيف وأضرمَ للباقين نارا عظيمةً فألقاهم فيها ، وهم أصحابُ الأُخدود الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه العزيز فقال : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[1] . قال : ولم ينجُ منهم إلا نفرٌ قليلٌ .

وكان سببُ تهوُّده أنّ حِمْير كان لها بيتُ نارٍ فيه أصنامهم ، وكان يخرج من تلك النار عُنُقٌ يُمَدّ مقدار فرسخين ، فحضر عنده قومٌ من اليهود وقالوا : أيها الملك إنّ هذا العنقَ من النار شيطانٌ ، فطلب منهم تبيان ذلك ، فنشروا التوراةَ وقرءوها فتراجع ذلك العُنُق وطُفِئت تلك النار ، فأعظم ذو نُوَاس ذلك ودخل فى دين اليهوديّة .

قالوا : ثم إنّ أحدَ الناجين من نَجْرانَ — ويُعْرف بدوس بن ذى ثعلبان[2] — قصد قَيْصَر ملك الروم مُستنجدا به ، ومُعظِّما عنده ماجَرَى على قومه وهم على دينه ، فاعتذر اليه ببُعد دياره وقال : سأكتب لك الى ملكٍ على دينك قريبٍ من ديارك ، فكتب الى النجاشىّ ملك الحبشة ، فلمّا عَرَض عليه الكتاب وحدّثه بما جرى على أهل ملّته غضِب وحَمِىَ لأهل دينه ، وندَب من جنوده سبعين ألف رجل مع

(١) سورة البروج آيات ٤ — ٨

(٢) فى السيرة لابن هشام (ص ٢٥ طبع أوربا) « دوس ذو ثعلبان » .

ابن عمّه أرياط[1] ، وتقدّم إليه بأن يقتل كلّ مَن باليمن على دين اليهوديّة ، فركب أرياط فى البحر حتى آنتهى الى عَدَن فأحرق السفنَ وقال : يامعشرَ الحبشة، العدوّ أمامكم ، والبحرُ وراءكم، ولا مَنْجَى لكم إلّا الصبر حتى تظفَروا أو تموتوا كراما . قال : وآلتقَوْا وآقتتلوا فآنهزمتْ حِمْير بعد حربٍ عظيمةٍ وقَتَل منهم خلقا كثيرا .

٥ قال : وآقتحم ذو نُوَاس البحر بفرسه وقال : واللهِ الغَرَقُ أفضلُ من أَسر السُّودان ، فغَرِق . وكان مُلْكه مائتى سنة وستين سنة ، وهو آخر مَن ملك اليمن من قَحْطان . فجميع ماملكوا من السنين ثلاثةُ آلاف سنة وآثنتان وثمانون سنة .

وآستولتْ الحبشة على مُلك اليمن ففرّق أرياط الأموالَ على أشراف الحبشة وحَرَم الضعفاء ، فجمع أَبْرَهَةُ أحدُ قوّاد الحبشة جمعا منهم وخرج على أرياط وحاربه ١٠ فقتله أبرهةُ بيده وآستولَى أبرهة على مُلْك اليمن . ١٦/٣

ولمّا بلغ خبرهما النجاشىّ غضب لقتل أرياط وحَلَف لَأَطأنّ أرضَ أبرهة سَهْلَها وجَبَلَها برجلى ، ولَأَجُزّنّ[2] ناصيتَه بيدى ، ولَأُهْرِقَنّ دمَه بكفّى ، وتجهّز للسير الى أرض اليمن ، فبلغ ذلك أبرهة فملأ جِرَابَيْن من تراب السَّهْل والجَبَل ، وعمد الى ناصيته فجزّها ووضعها فى حُقّ ، وآحتجم وجعل دمَه فى قارورة وختَم عليه وعلى الحقّ الذى ١٥ فيه ناصيته بالمسك ، وبعث بذلك الى النجاشىّ وكتب إليه يعتذر ممّا فعله أرياط وأنه خالف سيرتك فى العدل ، وقد بلغنى ما حلفت ، وقد بعثتُ إليك بجِرَابَيْن من تراب السهل والجبل ، فطأْها هنالك برِجلك ، وجُزّ ناصيتى بيدك ، وأهرِقْ دَمِى بكفّك ، وبرّ فى يمينك ، ولطِّفْ غضبك عنّى فإنما أنا عبدٌ من عبيدك ، وعاملٌ من

(١) فى الأصول : « أرباط » بالباء الموحدة، وهو تحريف ، وما أثبتناه نقلا عن المسعودىّ ٢٠ فى مروج الذهب (ج ٣ ص ١٥٧ طبع أوربا) وسيرة ابن هشام (ص ٢٥ طبع أوربا) .

(٢) كذا فى المسعودى وسيرة ابن هشام . وفى الأصول : « لأحزن » بالحاء وهو تحريف .

عمّالك . فأعجبَ النجاشيَّ عقل أبرهة وأقرّه على مكانه ورضِيَ عنه ؛ فبقيَ الى زمان كِسْرَى أنو شِرْوانَ وهو صاحبُ الفيل .

وكانت قصّته أنه نظر الى أهل اليمن يتأهّبون للحجّ، فسأل عن أمرهم، فأُخبر أنهم يخرجون حجّاجا الى مكة فقال : أنا أكفيهم تجشُّم هذا السفر البعيد ببيعةٍ أَبنيها بصنعاء فيكون حِجُّ اليمن إليهـا، وأمر ببنائها فبُنِيَتْ . وقد تقدّم وصفها فى الفنّ الأوّل[1] فى المبانى، ونصَب عند المذبح دُرّة عظيمةً تُضيء فى الليلة الظلماء كما يُضيء السِّراج، ثم نادى فى أهل مملكته بالحجّ إليها، فغضِب العرب لذلك، فانطلق رجُلان من خَثْعَم فأحدثا فى البيت الذى بناه ولطّخاه بالعَذِرة .

وقيل : إنّ الذى فعل ذلك رجلٌ من كِنَانة، فأتهم أَبْرَهَةُ قريشا بذلك، وكان حينئذ بصنعاء تجّارٌ من قريش فيهـم هشامُ بنُ المغـيرة ، فأحضرهم وسألهم عمّن أحدَث فى بيعته ، فأنكروا أن يكونوا عَلِمُوا بشىء من ذلك، فقال أبرهة : ظننتُ أنكم فعلتم ذلك غضبا لبيتكم الذى يحجّ إليه العرب ؛ فقال هشام بن المغيرة : إنّ بيتنا حِرْزٌ تجتمع فيه السِّباع مع الوُحُوش، وجوارحُ الطير مع البُغَاث، ولا يعرض منها شىءٌ لصاحبه ، وإنما ينبغى أن يحجّ الى بيعتك هذه مَن كان على دينك، فأمّا مَن كان على دين العرب فلا يؤثر على ذلك شيئا . فأقسم أبرهةُ ليسيرنّ الى البيت فيهدِمَه حَجَرًا حَجَرًا . فقال له هشام بن المغيرة : إنه قد رام ذلك غيرُ واحدٍ من الملوك فما وصَلوا إليه لأنّ له ربّا يمنعُه . فخرج أَبْرَهَةُ فى أربعين ألفا وسار بالفيل ؛ فغضبت لفعله هَمْدان وجمعتْ إليها قبائل من اليمن — وكان ملكهم رجلا من أشراف اليمن يقال له ذو نفر — فاستقبلوه فحاربوه فهزمهم وظفر بذى نفـر ملك هَمْدان ونُفَيل بن

(١) راجع الجزء الأوّل (ص ٣٨٢ من هذه الطبعة) .

حبيب سيِّد خَثْعَم أسيرين فأمر بضرب عنقهما . فقالا : أيها الملك ، استبقنا لندُلّك على الطريق فإنّا من أدلّ العرب ، ففعل ذلك . فلمّا صاروا فى مَفْرَق الطريقَيْن : مكة والطائف ، قال ذو نفر لابن حبيب : كفى بنا عارا أن ننطلق بهذا الأسود الى بيت الله تعالى فيهدِمه ! قال ابن حبيب : هلمّ بنا لنأخذ به طريق الطائف فيشتغل بثَقِيف ولعلّه يرى ما يسوءه ، فلم يشعُر أهلُ الطائف صباحا إلّا والجيوشُ قد وَرَدَت عليهم ، فخرج أبو مسعود الثقفىّ فى نَفَر منهم ، فأعلم أبرهة أنها ليست طريقَهُ ، وسار أبرهةُ حتى أتى مكة واستاق السوائم ونزل على حدّ الحَرَم ؛ فكان فيما ساق مائتا ناقةٍ لعبد المطّلب بن هاشم ، فركب عبدُ المطّلب فرسَه وقصد العسكر ودخل على أبرهة فأعجبَه جماله وأكرمه ونزل عن سرير كان عليه وجلس دُونه حتى لا يرفع عبد المطلب إليه ، ثم قال له : ما حاجتك؟ قال : حاجتى أن يُرَدّ علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فلمّا قال له ذلك ، قال له أبرهة : قد كان بلغنى شرفك فى العرب وفضلك فأحببتك ، ثم دخلتَ علىّ فرأيتُ من جمالك ووسامتك ما زادنى حبّا ، فنقصتَ عندى فى سؤالك إيايَ مائتى ناقة وتركتَ أن تسألنى فى الرجوع عمّا هممتُ به من هَدْم هذا البيت الذى هو شرفُك وعزُّك ! قال عبد المطلب : أيها الملك ، إنّ لهذا البيتِ ربّا سيمنعه منك وأنا ربّ إبِلِى ، وقد رامَ هَدْمَه مَن لا يُحصَى من الملوك فرجعوا بين أسيرٍ وقَتِيل ، فردّ إبلَه ؛ واجتمع الى عبد المطّلب أشرافُ قومه فقالوا : اجعل له مالًا نجمعه له ليرجع عما هَمّ به من هَدْم هذا البيت . قال لهم عبد المطلب : وما عسى أن نجعل له من المال مع عِظَم ما هو فيه من المُلْك والسلطان ! اطمئنّوا ، الله أمددكم[1] ، فوالله لا يصل إليه أبدا . ثم أنشد عبد المطلب يقول :

يا ربِّ إنّ المرءَ يمـ * ـنعُ جارَه فامْنَعْ حِلالَكْ

(١) كذا فى نسخة ا . وفى نسخة ب « لله أبوكم » .

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُم * بَغْيًا وما جمعوا بِحالَكْ
إن كنتَ تاركهم وقِبْـ * ـلَتَنا فأمْرٌ ما بَدَالَكْ (١)

ثم عَلَا جبلَ أبى قُبَيس هو وحَكِيمُ بنُ حِزَام ونفرٌ من سادات قُرَيش، وهَرَب الناس فلحقوا برءوس الجبال، وأَمَّ أَبْرَهَةُ البيتَ وقدّم أمامه الفيل، وكان أكبرَ فيل رآه الناس كالجبل العظيم، وآسمه بلسان الحَبَشة محمود؛ فلمّا آنتهى الفيلُ إلى طَرَف الحَرَم بَرَك، فكانوا ينخسونه، فإذا أخذوا به يمينا وشمالا هَرْوَل، وإذا أَقْحموه بَرَك. فلم يزل كذلك بقيّة يومهم. فلمّا قاربَ المساء نظروا إلى طَيْرٍ قد أقبلتْ من نحو البحر لا تُحْصَى كثرةً أصغرُ من الحمام، فعجِبُوا من كثرتها ولم يعرفوها ولا رَأَوْا على خِلْقتها طيورا، وكان مع كلّ طَيْر ثلاثةُ أحجار: حَجَران فى رجلَيْه، وحجرٌ فى مِنْقاره، على مقدار الحمص، فرفرفت على رءوسهم وأظلّت عسكرَهم، ثم قذفت بالحجارة عليهم، وهبّتْ ريحٌ شديدةٌ فزادتِ الحجارة صعوبةً وقوّة، فكان الحجر منها إذا وقع على رأس الرجل منهم نَفَذ حتى يخرُج من دُبُره، فإذا سقط على بطنه خرج من ناحيــة ظهره؛ فكان ما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم فى سورة الفِيل: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ (٢). وخرج عبدُ المطّلب وأصحابُه فملأُوا أيديَهم من المــال، وأرسل

(١) هذه الأبيات الثلاثة وردت هكذا فى الأصول، وورد البيتان الأوّل والثانى منهما فى غير الأصول باختلاف فى بعض الألفاظ؛ إذ ورد البيت الأوّل فى اللسان «مادّة حلل» وسيرة آبن هشام (ص ٣٥ طبع أوربا) هكذا:

لاهُمّ إنّ العبــد يمـ * ـنع رحله فامنــع حلالك

وورد البيت الثانى فى اللسان (مادة محل) وسيرة ابن هشام هكذا:

لا يغلبن صليبهــم * ومحالهــم عدوا محالك

والحلال (بالكسر): القوم المقيمون المتجاورون؛ يريد بهم هنا سكان الحرم. والمحال (بالكسر) هنا: الكيد والقوّة.

(٢) سورة الفيل آية ٥

إلى قريش فجاءوه من الجبال وغنموا ما شاءوا ، فعظُمَت قريش فى أعينُ العرب وسمّوهم آلَ الله ، وٱزدادَ عبدُ المطّلب وأصحابُه شرفا . ووُلِد رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومهم بخمس وخمسين ليلةً . وكان ذلك بعد عشرين سنة من مُلْك أنو شِرْوَان .

٥ وملك اليمن بعد أبْرَهَةَ ٱبنُه يَكْسُوم .

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة ، وهو الذى زال مُلْكُه على يد سَيْف بنِ ذى يَزَن على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكرُ خبرِ سَيْفِ بنِ ذى يَزَنٍ
وعَوْدُ المُلْك إلى حِمْيَر

١٠ وذلك أنّ حِمْيَرَ لمّا رأتْ مُلْك الحَبَشة قد دام عليهم وتوارَثُوه فيهم ، اجتمع ساداتُهم إلى سَيْف بن ذى يَزَن — وهو من أولاد ذى نُوَاس الذى غَلَب الحبشةَ على اليمن فى أيام مُلْكه — وبذلوا له أن يجمعوا له نفقةً تُقيمه ليسـير إلى بعض الملوك فيستنجدَه ففعل ذلك ، وسار حتى وافَى القُسْطَنْطينية إلى قَيْصر ملك الروم ، فٱستنجدَه فقال له قَيْصر : إنّ الجيش على دِينى ، وما كنتُ لأُعِينَك عليهم ، وأمرَ له بعشرة ١٥ ألفِ درهم ، فأبَى أن يقبلهـا وقال : إذا لم تنصُرْنى فـلا حاجةَ لى إلى مالك . وٱنصرف إلى كِسْرَى وٱستنجدَه ، فقال له كِسْرَى : بَعُدَت بلادُك عن بلادنا مع قِلّة خيرها ، إنمـا فيها الشاءُ والبعيرُ وما لا حاجةَ لى فيه . فقال له سَيْف : لا تزهَدَنّ أيها الملك فى بلادى فإنها فُرْضَـة العرب ، وأرضُ التبابعة الذين مَلَكوا أقطار أقاليم الأرض ، ودانَ لهم أهلُ الشرق والغرب . قال كِسْرَى : ما كنتُ لأغرِّرَ بجُنْدى

فيما لا ينفعنى وأمرَ له بعشرة آلاف درهم. فلمّا آنتهى إلى باب القصر نثَرها فى الناس حتى أتَى عليها، فبلغ ذلك كسرى فغَضِب وقال له : ما الذى حملك على آستخفافك بِصلَتى حتى نثرتَها فى الناس ؟ قال : ما أصنعُ بالمـال وترابُ أرضى ذهبٌ وفضّة! ثم خنَقَتْه العَـبْرة ، فرقّ له كسرى ووعده بالآنتصار له ، فأشار عليه بعضُ وزرائه فقال : إنّ فى سجونك بشرًا كثيرًا ممن آستوجَبَ القتْل، فمُرْ بإطلاقهم، وقوّهم بالمال والكُرَاع(١) والسِّلاح، ووجِّههم مع هذا العربىّ، فإن ظَفِروا كان ذلك زيادةً فى مُلْكك، وإن قُتِلوا كان ذلك جزاءً عن جرائمهم . فأعجبَ كِسْرَى هذا الرأى وعَمِل به وقدّم عليهم وَهْرِزَ بنَ كامخان ، وكان من فُرسان العَجَم وأهلِ البيوتات، وقد أناف على المـائة من السنين، وكانت عِدّتهم ثلاثةَ آلاف وستمائة رجُل، فركبوا البحر فى سبع سُفُن ، وأرسـل سَيْفٌ إلى اليمن ومخَالِيفها ، فأتوْه من أقاصى اليمن وأدانيها حتى صاروا فى عشرين ألفـا ، وتجهّز إليهم مَسْروقٌ، فلمّا آلتقيَا قال وَهْرِز لسيف : أَرِنى مَلِكَهم ، فأراه إيّاه، وهو على فِيلٍ وعلى رأسه التاجُ وفيه ياقوتةٌ حمراءُ مدلّاةٌ على جبينه ، فلبِث ساعةً ثم تحوّل إلى فرس ثم تحوّل إلى بَغْلة، فقال وَهْرِز : ذلّ الأسـودُ وباد مُلْكُه ، وأنا أرْمِيه فتأمّل الرَّمْية ، فإن رأيتَ أصحابه تصـدّعوا عنه وحاصُوا(٢) يمينا وشمالا فآعلم أنّى قتلتُه ، وإن لم يتحرّكوا من منازلهم فلم أصنع شيئا ؛ ورماه ، ففلَقَ السهمُ الياقوتةَ نصفَيْن وخرج من مؤخّر رأس مسروق ، وآضطربت الحَبَشة وماجُوا، وحمِـلَ عليهم وَهْرِز ومَن معه والعربُ فولّوا منهزمين ، ودخلوا صَنْعاء وقتلوا كلّ أسود يُوجَد فى اليمن . وكتب وَهْرِز إلى كسرى بالفتح، فكتب

٩٨ / ١٣

(١) الكراع : الخيل :

(٢) حاصوا ، حاص عنه : قال وعدل .

إليه كسرى أن يسأل عن سَيْف[1] بنِ ذى يَزَن ، فإن كان من أبناء الملوك فأقرّه على مُلْكه وٱنصرِف عنه ، وإن لم يكن من أبنائهم فٱضرِبَ عنقَه وأقم فى الأرض متوليًا لهم .

قال : فسلّم وهَرِز إليه مُلْكه وخلف من كان معه مَن العجم بصنعاء وٱنصرف إلى كسرى ، وملك سَيْفٌ اليمن لكسرى ، وتداولتها الوُلاة بعده من قبل كسرى . وكان مُلْك الحبشة على اليمن ٱثنتين وسبعين سنة ثم ٱنتزع عنهم .

ذكر أخبار ملوك الشام من ملوك قحطان

قال عبد الملك بن عَبْدون فى كتابه المترجم بكُمَامة الزهر وصَدَفَة الدرّ[2] : ومن أهل اليمن مَن خرج منها فملك الشام ، وهم آل جَفْنَة وأوّلهم : الحارث بن عمرو بن عامر ابن حارثة [بن آمرئ القيس بن مازِن بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك][3] بن زَيْد ابن كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان ، ويكنى الحارث بأبى شَمِر . ثم تداولها منهم سبعٌ وثلاثون ملكا . ومُدّة ما ملكوا من السنين ستمائة سنة وست عشرة سنة إلى أن كان آخرهم جَبَلَة بن الأَيْهم ، وهو الذى تنصّر فى أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بعد أن كان قد أقبل إلى عمر وأسلم .

---

(١) كذا وردت هذه القصة فى الأصول وكتب التاريخ والطبرى فى إحدى روايتيه منسوبة إلى سيف ابن ذى يزن . وفى مروج الذهب والرواية الأخرى فى تاريخ الطبرى أنها منسوبة إلى معد يكرب بن سيف ابن ذى يزن .

راجع تاريخ الطبرى (ص ٩٤٩ — ٩٥٨ من القسم الأول طبع أوربا) ومروج الذهب (ص ١١٢ — ١٧٦ ج ٣ طبع أوربا) .

(٢) راجع هذا الكتاب (ص ٨٧ طبع أوربا) .

(٣) الزيادة من كمامة الزهر .

ثم إنه كان فى الطواف فداس رجلٌ طَرَفَ ردائه فلطمه جَبَلَةُ ، فأتى الرجلُ عمرَ رضى الله عنه فطلب جَبَلَةَ ليقِيدَه منه فتنصّر جبلةُ ولحق بهِرَقْل صاحب القسطنطينية ، فأقطعه هِرَقْل الأموال والضياع والرباع ، ثم نَدِم جبلة على ما كان منه وقال :

تَنَصَّرتِ الأشرافُ من أجل لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ ٥
تكنّفنى منها لَجَاجٌ ونَخْوَةٌ * فبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فياليتَ أمّى لم تلدنى وليتنى * رجعتُ إلى القول الذى قاله عُمَرْ
و ياليتنى أرعَى المخاضَ بقفرةٍ * وكنتُ أسيرا فى ربيعة أو مُضَرْ
و ياليتَ لى بالشام أدنَى معيشةٍ * أجالسُ قومى ذاهب السَمع والبَصَرْ

وحُكى أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى هِرَقْل رسولا يدعوه ١٠ إلى الإسلام أو الى الجِزْية فأجاب إلى الجزية ، فلمّا أراد الرسول الانصراف قال له هرقل : ألَقِيتَ ٱبنَ عمّك هذا الذى عندنا — يعنى جَبَلة — الذى أتانا راغبا فى ديننا ؟ فقال : ما لَقيتُه . قال ألْقِه ، قال الرسول : فذهبتُ إلى باب جَبَلة فإذا عليه من القهارمة والحجّاب والبهجة وكَثْرةِ الجمع مثل ما على باب هرقل . قال : فتلطّفت فى الدخول عليه حتى أذِنَ لى ، فدخلتُ فرأيتُه أصْهَبَ اللحية ، وكان ١٥ عهدى به أسودَ اللحية والرأس ، فأنكرتُه و إذا هو قد ذرّ سُحالة[1] الذهب على لحيته حتى صار أصْهَبَ ، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير ، قوائمُه أربعةُ أسود من الذهب . قال : فلمّا عَرَفنى رفعنى معه على السرير . قال : وجعل يسألنى عن المسلمين وعن عُمَر رضى الله عنه ؛ فذكرتُ خيرا وعرّفته أنّ المسلمين كَثُرُوا .

(١) السحالة (بالضم) : ما سقط من برادة الذهب . ٢٠

ثم انحدرتُ عن السرير فقال لى : لِمَ تأبى الكرامة التى أكرمناك بها ؛ قلتُ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَى عن هـذا . قال : نعم ! صلى الله عليه وسلم ، ولكن نَقِّ قلبك من الدنَس ولا تُبالِ على ما قعـدتَ . فلمّا سَمِعتُه يصـلّى على النبىّ صلى الله عليه وسلم طمعتُ فيه فقلتُ له : ويْحَك يا جَبلة ! ألا تُسْلِمُ وقد عرفتَ الإسلامَ وفضلَه ؟ قال : أبعدَ ما كان منّى ؟ قلتُ : نعم . قال : إن كنتَ تضمن لى أن يزوِّجنى عمرُ ابنتَه ويُوَلِّينِي الإمْرةَ بعدَه رجَعْتُ إلى الإسلام . قال الرسول : فضَمَنْتُ له التزويج ولم أضمَن له الإمْرة . قال : ثم أومأ إلى خادم كان على رأسه فذهب مُسْرعا فإذا خدّامٌ قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوُضِعَتْ ونُصِبَتْ موائدُ الذهب وصِحَاف الفضّـة ، وقال لى : كُلْ . فقبضتُ يدى وقلتُ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم نَهَى عن الأكل فى آنية الذهب والفضّـة . قال : نعم ! صـلى الله عليه وسـلم ، ولكن نَقِّ قلبَـك وكُلْ فيما أحببتَ . قال : فأكل فى الذهب وأكلت فى الخَلَنْج (١) ، ثم جىء بطسات الذهب وأباريقَ الفضّـة فغَسَل يده فيها وغَسَلتُ فى الصُّفْر (٢) . ثم أومأ إلى خادم فمرّ مُسْرعا فإذا خَدَمٌ معهم كراسىّ الذهب مُرَصَّعةٌ بالجواهر ، فوُضِعَت عشرةٌ عن يمينه وعشرةٌ عن شماله ، ثم جاءت الجوارى عليهنّ تِيجانُ الذهب مُرَصَّعةٌ بالجواهر ، فقَعَدْنَ عن يمينه وعن شماله على تلك الكراسى ، ثم جاءت جاريةٌ كأنهـا الشمس حُسْنا على رأسها تاج ، على ذلك التاج طائرٌ وفى يدها اليمنى جامةٌ فيها مِسْك فَتِيت ، وفى يدها اليسرى جامةٌ فيها ماء ورد ؛ فأومأتِ الجاريةُ أو صَفَّرت بالطائر الذى على تاجها فوقـع فى جام ماءِ الوردِ

٩٩
١٣

(١) الخلنج (فارسى معرب) : شجر بين صفرة وحمرة يكون بأطراف الهنـد والصين ورقه كالطرفاء وزهره أحمر وأصفر وأبيض . وأصل معناه المنتوع الألوان تتخذ من خشبه الأوانى .

(٢) الصفر (بالضم) : النحاس الأصفر .

فاضطرب فيه ، ثم أومأت إليه أو صفرت فوقع فى جام المسك فتمرغ فيه، ثم أومأت فطار حتى نزل على تاج جَبَلة، فلم يزل يُرفرف حتى نفض ماعليه فى رأسه، فضحك جَبَلة سرورا به، ثم ألتفت الى الجوارى اللواتى عن يمينه وقال لهنّ : بالله أضحكننا، فاندفعن يغنين بخفق عيدانهنّ ويقلن :

لله درُّ عصابةٍ نادمتُهم * يوماً بجِلّق[1] فى الزمان الأوّلِ

يسقون من وَرَدَ البريص[2] عليهمُ * بَرَدى[3] يُصفّق بالرحيق السلسلِ

يُغشَوْن حتى ما تهرّ كلابُهمْ * لا يسألون عن السواد المُقبِلِ

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهمْ * شُمُّ الأُنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

أولادُ جَفْنَةَ عندَ قبرِ أبيهمُ * قبرِ ابنِ مارِيَةَ[4] الكريمِ المُفضَلِ

قال : فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : أتدرى مَنْ يقول هذا ؟ قلت لا؛ قال : حسّان بنُ ثابت، ثم أشار الى الجوارى اللواتى عن يساره فقال لهنّ : بالله أبكينا، فاندفعن يغنين بخفق عيدانهنّ ويقلن :

لمن الدار أقفرت بمعانِ[5] * بين أعلى اليرموك[6] فالخمّانِ[7]

ذاك مغنًى لآل جفنة فى الدهـ * ـر وحقٌّ تعاقُبُ الأزمانِ

---

(١) جلق (بكسرتين وتشديد اللام) : هو اسم لكورة الغوطة كلها، وقيل : بل هى دمشق نفسها، وقيل : موضع من قرى دمشق . (٢) البريص : اسم غوطة دمشق .

(٣) بردى : نهر دمشق . (٤) ابن مارية : هو الحارث بن أبى شمر الغسانى، وكان أثيرا عندهم .

(٥) معان (بضم أوّله) : حصن كبير من أرض فلسطين على خمسة أيام من دمشق فى طريق مكة .

(٦) اليرموك : واد بناحية الشام، وكانت فيه الواقعة المشهورة التى عرفت بيوم اليرموك فى زمن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، وكان من أعظم فتوح المسلمين .

(٧) الخمان (بفتح أوّله وتشديد ثانيه) : موضع بالشام .

قـد أرانى هنـاك دهراً مَكِينًـا * عنـدَ ذى التاج مَقْعَدِى ومكانِى (١)

قال : فبكى حتى سالت دموعه على لحيته، ثم قال : أتدرى مَن يقول هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسّان ، ثم أنشـد : تنصّرت الأشراف الأبيات ثم سألنى عن حسّان أحىٌّ هو؟ قلت : نعم، فأمر له بكسوة ولى بمثلها، وأمر بمالٍ لحسّان ونُوقٍ مُوقَرة بُرًّا ثم قال : إنْ وجدتَه حيًّا فأدفَعْ الهديّة إليه، وإنْ وجدتَه ميتًا فأدفعها إلى أهله وأنحَرِ النُّوق على قبره .

قال : فلمّا أخبرتُ عُمَرَ بخبره وما آشترط علىّ وما ضَمَنْتُ له قال : فهلّا ضَمَنْتَ له الأمر فإذا أفاء الله به قَضَى الله علينـا بحكمه ! ثم جهّزنى عُمَـرُ إلى القسطنطينية إلى هِرَقْل ثانيةً وأمرنى أن أضمن له ما آشترط، فلمّا دخلتُ القسطنطينية وجدتُ الناس قد آنصرفوا من جنازته، فعلمتُ أنّ الشقاء غَلَبَ عليه فى أمّ الكتاب .

ذكر أخبـار ملوك الحـيرَة
وهم من آل قحطان

وأوّلهم مالكُ بن فَهْم بن غَنْم بن دَوْس بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك ابن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان (٢) . وكان قد خرج من اليمن مع عمـرو بن عامر حين أحسّوا بسَـيْل العَرِم، وقـد ذكرنا أنّ الملك ربيعةَ ابن نصر كان قد بعثهم إلى سابور فأسكنهم الحيرة ومَلَكُوا ما حَوْلها . والله أعلم .

١٠٠/١٣

قال : وكان مُلْك مالك على الحيرة عشرين سنة .

(١) رواية الديوان (ص ٥٥ طبع أوربا) :

قـد أرانى هنـاك حـق مكين * عنـد ذى التـاج مجلسى ومكانى

ورواية الأغانى (ج ١٤ ص ٦ طبع بلاق) :

قـد أرانى هنـاك حقـا مكينـا * عنـد ذى التـاج مقعدى ومكانى

(٢) ورد هذا النسب فى تاريخ أبى الفدا (ص ١٢٠ طبع أوربا) ببعض تغيير بالزيادة والنقصان .

ثم ملك بعده ٱبنُه جَذِيمةُ[(١)] وهو الوضّاح . قال : وكان يقال له ذلك لبَرَص كان به ؛ ويقال أيضا فيه الأبرش ، وكان ينزِل الأنبار، وكان لا يُنادِم أحدًا من الناس ذهابا بنفسه على النـدماء ، وكان ينادِم الفَرْقَدَيْن فإذا شَرِبَ قـدحا صَبَّ [فى الأرض][(٢)] لهذا قدحا ولهذا قدحا . ويقال : إنه أوّل مَن عَمِلَ المِنْجَنِيق من الملوك، وأوّل من حُذِيتْ له النِّعال . وأوّل مَن وُقِدَ بين يديه الشمع، وهو الذى قتلته الزَّبّاء بحيلة .

ثم ملك بعده ٱبنُ أخته عمرو بن عَدِىّ بن ربيعة . قالوا : وعمرو هذا هو الذى استهوتْه الجنّ دهرا طويلا ثم رَجَع؛ فبينما مالك وعَقِيل ٱبنا فارح وقيل — قالح — يَقْصدان جَذِيمَةَ الملِك بهديّة إذ نزلا على ماء ومعهما قَيْنة يقال لهـا : أمّ عمـرو ، فتعرّض لهما عمرو، وقد طالت أظفارُه وشعرُه وساءتْ حالتُه وهيئتُه ، فجلس إليهما — وكانا يأكلان — فمـدّ إليهما يدَه مُسْتطعما فناولتْه تلك الجاريةُ طعاما فأكله ، ثم مدّ يده ثانية فقالت : إنْ يُعْطَ العبدُ كُرَاعًا يَبْتَغِ ذراعا ! ثم ناولتْ صاحبيها من شرابها وأوكأتْ[(٣)] سقاءها، فقال عمرو :

صَـدَدْتِ الكأسَ عنّا أُمَّ عَمْرو * وكان الكأسُ مَجْـرَاها اليمينـا
وما شَـرُّ الثـلاثةِ أمَّ عَمْـرٍو * بصاحِبِـكِ الذى لا تَصْبَحِينـا[(٤)]

(١) فى تاريخ أبى الفـداء (ص ١٢٠ طبع أوربا) أن الذى ملك بعـد مالك بن فهم أخوه عمرو ابن فهم، ثم ملك بعده جذيمة بن مالك .

(٢) التكملة من عيون الأخبار (ج ٣ ص ٢٧٤ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) أوكأت سقاءها : شدّت فمه بسير أو خيط، أى ربطته .

(٤) هذان البيتان من معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة . وبعضهم يروى هذين البيتين لعمرو بن أخت جذيمة الأبرش كما ورد هنا والأغانى (ج ١٤ ص ٧٣ طبع بلاق) .

فقالوا له : مَنْ أنت ؟ فانتسب لهما، ففرِحَا به وأقبلا على خاله — وقد كان جعل الجعائل لمن يأتيه به — فلمّا أتياه به قال جَذِيمة لهما : لكما حُكْمكما . فقالا : مُنادمتك . فكانا كما اختارا، وسار بهما المثل . ويقال : إنهما نادَماه أربعين سنة، فما أعادا عليه حديثا مما حدّثاه به مرّة أخرى ، بل كانا يحدّثانه بحديث جديد لم يسمعه منهما قَبْلُ .

وعَمْرٌو هذا هو الذى أخذ بثأر خاله جَذِيمة من الزّبّاء وقَتَلَها. وذلك أنّ قَصِيرَ ابنَ سعد كان من غِلْمان جَذِيمة قال لعمرو : اضرِبْ ظهرى واقطَعْ أرنبةَ أنفى واتركنى والزّبّاء، فإنّى سأحتال لك عليها ، ففعل به ذلك، ففرّ قَصِيرٌ إلى الزّبّاء وصار فى جملة رجالها وأراها النصح والاجتهاد فى حوائجها ، وأنه غاشٌّ لعمرو ابن عَدِىّ ؛ وجعل يتّجر لها ويذهب لعمرو فى السرّ فيُعطيه الأموال فيأتيها بها، كأنّ ذلك من اجتهاده وحِذْقِه فى التجارة حتى اطمأنّتْ له ؛ فذهب إلى عمرو وأخذه وأخذ معه ألفَىْ رَجُلٍ وجعلهم فى جَوَالق على ألف جمل ، ومعهم دروعُهم وسيوفُهم وجاء بهم على طريق يقال له الغُوَير[1] ، ولم يكن يسلكه قبل ذلك ، فلمّا قَرُبَ من حصنها تقدّم إليها وأعلمها أنه قد أتاها بمالٍ صامتٍ، فأشرفتْ من أعلى قصرها تنظر إلى الجمال ، فرأتْها وكأنّها تَنْزِع أَرْجُلَها من أوحالٍ لِثِقَل ماعليها، فقالت : « عَسَى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا » . فذهبتْ مثلا . ثم قالت :

ما لِلْمَطَايَا مَشْيُها وَئِيدَا * أَجَنْدَلًا يَحْمِلْنَ أَمْ حَدِيدَا
أم صَرْفَانًا[2] بارِدًا شَدِيدَا * أَمْ الرِّجالَ جُثَّمًا قُعُودَا

(١) الغوير : موضع على الفرات .

(٢) صرفانا باردا : قال فى شرح القاموس (مادة صرف) : «الصرفان (محركة) : الموت عن ابن الأعرابى، وقال ابن عباد : هو النحاس، وفى اللسان : الرصاص القلعىّ، وبهما فسر قول الزباء : =

وقد كان قَصِيرٌ قال لها قبل ذلك كالناصح : ما ينبغى لمثلك[(١)] إلا أن يكون له موضع ليوم، فإنه لا يَدْرى ما تُحْدِثه الأيام؛ فأرته سِرْباً فى ناحية قَصْرِها قد نفذت فيه إلى حصن أختها — وكانا على ضَفَّتى الفُرَات — قال : فلمّا دخلتْ الإبل على البوّاب ضجر لكثرتها، حتى إذا كان آخرها طَعَن فى جوالق بعُود كان فى يده، فقابلتْ الطعنة خاصرةَ الرجُل الذى كان فى الجوالق فخنق فقال البوّاب : لشنا لشنا[(٢)]؛ أى شىء فى الجوالق ، فثارت الرجال من الجوالق بأيديهم السيوف ، فهربت الزبّاء إلى ذلك السِّرْب فإذا هى بقَصِير عند النفق ومعه عمرو بنُ عدىّ ، والسيف فى يده ، فمصّتْ خاتَماً كان فى يدها فيه سمّ ساعة وقالت : « بِيَدِى لا بِيَدِ عمرو » . وفى ذلك يقول المُتَلَمِّس :

وفى طَلَبِ الأوتارِ ما حَزَّ أنفَهُ * قَصِيرٌ ورَامَ الموتَ بالسيف بَيْهَسُ

= « ما للجمال مشيها وئيدا ... » وذكر البيتين ، متابعا فى ذلك ما جاء فى اللسان (مادة صرف) مع بعض تغيير فى اللفظ . ثم قال بعد ذلك : « وقيل الصرفان هنا : تمر رزين مثل البرنى لأنه صلب المضاغ عنك ، والناس يدّخرونه » .

ولعل تفسير البيتين بالتمر أنسب ؛ فإن شارح القاموس قال بعد ذلك : قال أبو عبيد : ولم يكن يهدى للزباء شىء أحب إليها من التمر الصرفان وأنشد :

ولما أتتها العير قالت أبارد من التمر أم هذا حديد وجندل

وقد ذكر صاحب اللسان قول أبى عبيد والبيت الذى أنشده . وقال الجوهرىّ فى الصحاح (مادة صرف) : والصرفان : الرصاص ، والصرفان أيضا : جنس من التمر قالت الزباء :

* ما للجمال مشيها وئيدا ... الخ *

(١) كذا فى شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٩٣ طبع ليدن) وفى الأصول : « الملك » .

(٢) كذا فى الأصول ، وفى مروج الذهب (ج١ ص ٢٢٥ طبع بلاق) . « فقال البوّاب : بشنا بشنا بالنبطية ، أى فى الجوالق شرّ » . وفيه (ج ٣ ص ١٩٧ طبع أوربا) : « فقال البوّاب : بشقا لشقا ، أى شرّ فى الجوالق »

وعمرٌو هـذا هو الذى يقال فيه : « شَبَّ عمرٌو عن الطَّوْق » . وكانت مـدّة مُلْكه مائة سنة .

ثم ملك بعده آبنُه آمرؤ القيس . فكان مُلْكه ستين سنة .

ثم ملك بعـده آبنُه عمرُو بنُ آمرئ القيس وهـو مُحَرِّق العرب[1] . وكان مُلْكه خمسا وعشرين سنة ، وكانت أمه مَارِيَة التى يُضْرب المثلُ بقُرْطَيْها . ١٠١/١٣

ثم ملك بعـده النعمان[2] بن المنذر فارس حليمة[3] ، وهو الذى بنى الخَوَرْنَق[4] وكَرْدَس[5] الكراديس . وكان أعور[6] ، ويقـال : إنه أشرف فى بعض الأيّام على ما حَـوْل الخَوَرْنَق فقال : أكلّ ما أرى إلى نَفَاد؟ قيل : نعـم . قال : فأىّ خير فى مُلْك يكون آخره إلى نَفَاد ! ثم آنخلع من مُلْكه ولبس المَسُوح وسار فى الأرض . وقـد ذكره عدىّ بن زَيْد فقال :

وتَفَكَّرْ رَبَّ الخَـوَرْنَقِ إذ أَشْـ * ـرَفَ يـومًا وَلِلْهُـدَى تَفْكِيرُ
سَرَّهُ حالُهُ وكَثْرَةُ ما يَمْـ * ـلك والبحرُ مُعْـرِضًا[7] والسَّدِيرُ

(١) فى الأصـل : « الحرب » . وما أثبتناه عن مروج الذهب . وفيـه وفى تاريخ أبى الفدا ص ١٢٢ طبع أوربا) أن الذى يسمى محرّقا هو آمرؤ القيس بن عمرو بن آمرئ القيس ، وإنما سمى محرّقا لأنه أوّل من عاقب بالنار .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى مروج الذهب : أن الذى ملك بعده النعمان بن آمرئ القيس ، ثم المنذر ابن النعمان بن آمرئ القيس ، ثم النعمان بن المنذر .

(٣) كذا فى مروج الذهب وشرح قصيدة آبن عبدون ، وفى الأصل : « حمله » .

(٤) الخورنق : قصر بناه سنمار على ثلاثة أميال من الحيرة .

(٥) كردس القائد خيله : أى جعلها كتيبة كتيبة . والكراديس : كتائب الخيل ، واحدها كردوس .

(٦) فى تاريخ أبى الفداء : أن الذى كان أعور هو النعمان بن آمرئ القيس بن عمرو .

(٧) معرضا : معرض بمعنى متسع ، ومنه أعرض الثوب ، أى اتسع وعرض .

فأرعوى قلبُه وقال : فما غِبْـ * ـطَةُ حَيٍّ إلى الممات يَصيرُ ؟

وكان مُلْكه خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك الأسودُ بنُ النعمان . فكان ملكه عشرين سنة . ويقال : إن الأسودَ هذا هو الذى انتصر على غسّانَ وأسر عِدّةً من ملوكهم ، وأراد أن يَعْفُوَ عنهم ، وكان للأسود ابنُ عمٍّ يقال له : أبو أُذَيْنة ، قد قتَلَ آلُ غسّانَ له أخًا فى بعض الوقائع ، فقال قصيدته المشهورة يُغْرِى بهم الأَسْودَ بن النعمان :

ما كلُّ يوم ينال المرءُ ما طَلَبَا * ولا يُسَوِّغه المِقْدارُ[1] ما وَهَبَا

وأحزمُ النّاسِ مَنْ إن فُرْصَةٌ عَرَضَتْ * لم يجعل السببَ المَوْصولَ مُقْتضبَا

وأنصفُ الناسِ فى كلّ المواطن مَنْ * سَقَى المُعَادِين بالكأس الذى شَرِبَا

وليس يَظْلِمُهم مَنْ رَاحَ يَضْرِبُهم * بحدِّ سَيْفٍ به مَنْ قَبْلَهم ضُرِبَا

والعفوُ إلّا عن الأكفاءِ مَكْرُمَةٌ * مَنْ قال غيرَ الذى قد قُلْتُه كَذِبَا

قتلتَ عمرًا وتَسْتَبْقِى يَزِيدَ لقد * رأيتَ رأيا يجرُّ الوَيْلَ والحَرَبَا

لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعَى وتُرْسِلها * إن كنتَ شَهْمًا فأَتْبِعْ رأسَها الذَّنَبَا

هُمْ جَرَّدُوا السيفَ فاجعلْهُم له جَزَرًا[2] * وأوْقِدُوا النارَ فاجعلْهم لها حَطَبَا

إن تَعْفُ عنهم تقول الناسُ كلُّهُمُ * لم يَعْفُ حِلْمًا ولكن عَفْوُه رَهَبَا[3]

وكان أحسنَ مِنْ ذا العفو لو هربوا * لكنَّهم أنِفُوا مِنْ مِثْلِكَ الهَرَبَا

هُمُو أهِلَّةُ غَسّانَ ومَجْدُهُمُ * عالٍ فإن حالوا مُلْكًا فلا عَجَبَا

وعَرَضُوا بِفِدَاءٍ واصِفِين لنا * خَيْلًا وإبلا يَرُوقُ العُجْمَ والعَرَبَا

(١) المقدار هنا : القدر (بالتحريك) .

(٢) جزرا : قطعا . (٣) رهبا : خوفا .

أيَحْلِبُونَ دَمًا منّا ونَحْلِبُهُمْ * رِسْلًا[1] لقد شَرَّفُونَا فى الوَرَى حَلَبَا
عَلَامَ تَقْبَلُ منهم فِدْيَةً وهُمُو * لا فِضَّةً قَبِلُوا منّا ولا ذَهَبَا

فلمّا أنشده هذه القصيدة رجع عن رأيه فى العفو عنهم وقَبُولِ الفِدَاء منهم وقَتَلَهُم . والله أعلم .

٥ ثم ملك بعده المنذرُ[2] بنُ الأسود ؛ وكانت أمُّه ماء السماء[3] . وكانت مدّة مُلْكه أربعا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده عمرُو بنُ المنذر . فكان مُلْكه أربعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده المنذرُ بنُ عمرو بن المنذر . وكان مُلْكه ستّين سنة .

ثم ملك بعده قابوسُ بنُ المنذر . فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة .

١٠ ثم ملك بعده أخوه المنذرُ بنُ المنذرِ بنِ ماء السماء .

ثم ملك بعده النعمانُ بنُ المنذر ؛ وهو الذى قيل له : « أبيتَ اللَّعْنَ » وهو آخرمَنْ ملك من آلهم . وكان مُلْكه آثنتين وعشرين سنة . وها نحن نذكر ما قيل فى سبب مُلْكه وزواله .

قالوا : وكان عدىّ بنُ زَيْد العُبَّادىّ وآبنُه زيد بن عدىّ سَبَبَ ولايته

١٥ وسَبَبَ هلاكه . وذلك أنّ عديًا وأخَوَيْه ، وهما عَمّار وعمرو ، كانوا فى خدمة الأكاسرة ولهم من جهتهم قطائع ، وكان قابوسُ الأكبر عمّ النعمان بعث إلى كسرى أبرويز بعدىّ بن زَيْد وأخَوَيْه ليكونوا فى كتّابه يترجمون له ، فلمّا مات

(١) الرسل (بالكسر) : اللبن . والحلب (بالتحريك) : استخراج ما فى الضرع من اللبن .

(٢) ذكر أبو الفدا فى تاريخه (ص ١٢٦ طبع أوربا) ما يخالف ذلك فانظره .

٢٠ (٣) آسمها ماوية بنت عوف بن جشم ، وإنما لقبت ماء السماء لحسنها وجمالها . (راجع تاريخ أبى الفداء ص ١٢٦ طبع أوربا وشرح قصيدة آبن عبدون ص ٩٦ طبع لندن) .

المنذر ترك من الأولاد اثنَيْ عشر رجلا ، وهُمُ الأشاهِبُ[1] ، سُمُّوا بذلك لجمالهم ، وفيهم يقول الأعشى :

وبنو المنذرِ الأشاهِبُ بالحِـ * ـيرة يَمْشُونَ غُدْوَةً كالسيوفِ[2]

١٠٤/١٣ فجعل المنذرُ ابنَه النعمان فى حجر عدىّ بن زيد هذا، وجعل ابنه الأسود فى حجر رجل يقال له : عدىّ بن أوْس بن مَرِينا ، وبنو مَرِينا[3] قومٌ لهم شَرَف، وهم من لَخْم ، وترك المنذر بقيَّةَ بنِيه ، وهم عشرة ، يستقلّ كلّ واحد منهم بنفسه ، وجعل المنذر على أمره كلِّه إياس بن قَبِيصة الطائىّ، فلمّا مات قابوس طلب كسرى مَنْ يملِّكه على العرب، فدعا عدىّ بن زيد فقال له : مَنْ بَقِىَ من بنى المنذر، وماهم؟ وهل فيهم خيرٌ؟ فقال : بقيّتهم فى ولد هذا الميِّت، يعنى المنذر، وهم رجالٌ نجباء، فكتب إليهم بالقدوم عليه، فقَدِمُوا فأنزلهم، على عدىّ بن زيد، وكان عدىّ يرى موضع النعمان لأنه فى حِجْره ويختاره على بقيّة إخوته فى الباطن، وهو يُظهر لهم خلاف ذلك ويفضِّلهم عليه فى الظاهر، ويكرم نُزُلَهم ويخلو بهم ويريهم أنه لا يرجو النعمان، كلّ ذلك، ليطمئنّوا إليه ويرجعوا إلى رأيه، ثم خلا بكلّ منهم على انفراده وقال لهم : إنْ سألكم المَلِك : أتكفونى العرب فقولوا : نكفيهم إلّا النعمان، وقال للنعمان : إن سألك الملك عن إخوتك فقُل له : إنْ عجزتُ عنهم فإنّى عن غيرهم أعجز .

(١) الشهبة فى الأصل : بياض يخالطه سواد، وقيل : البياض الذى يغلب على السواد، وقد يقال على مطلق البياض كما قالوا : سنة شهباء : أى بيضاء لكثرة الثلج وعدم النبات . وفى القاموس : «والأشاهب بنو المنذر لجمالهم» قال شارحه السيد مرتضى : «سموا بذلك لبياض وجوههم» .

(٢) كذا فى شعر الأعشين (ص ٢١٢ طبع أوربا) وفى الأصول : «بالسيوف» .

(٣) بنو مرينا : قوم من أهل الحيرة من قبائل العباد ، وهم الذين ذكرهم امرؤ القيس فى قوله :

فلو فى يوم معركة أصيبوا * ولكن فى ديار بنى مرينا

وليس مرينا بكلمة عربية (انظر تاج العروس واللسان مادة مرن) .

قال : وكان عدىٌّ بن أوْس بن مَرِينا داهيةً أريبا ، وكان يُوصِى الأسود ابن المنذر ويقول : قد عرفتُ أنّى لك راجٍ ، وأنّ طُلْبتى اليك ورغبتى أن تخالف عدىّ بنُ زيد فيما يشير به عليك ، فإنه والله لا ينصح لك أبدا ، فلم يلتفت الأسودُ الى قوله . فلمّا أمر كسرى عدىّ بن زَيْد أن يُدْخلهم عليه قدّمهم رجلا رجلا ، وكسرى يرى رجالا قلمّا رأى مثلهم ، فإذا سألهم هل تكفونى العرب قالوا : نكفيك العرب كلّها إلّا النعمان . فلمّا دخل النعمان عليه رأى رجلا دميما قَصيرا أحمرَ الشعر فكلّمه وقال : هل تستطيع أن تكفينى العرب ؟ قال نعم ، قال : فكيف تصنع بإخوتك ؟ قال : أيّها الملك إن عجزتُ عنهم فإنّى عن غيرهم أعجز ، فملكه وكساه وألبسه تاجا قيمته ستّون ألف درهم . فلمّا خرج وملك على العرب قال عدىّ ابن أوْس بن مَرِينا للأسود بن المنذر : دونك فإنك خالفتَ الرأى .

قال : ثم إنّ عدىّ بن زيد صنع طعاما فى بَيْعة وأرسل الى ابن أوْس أن ائتنى مع مَن أحببتَ فإن لى حاجةً ، فأتاه فى أناس فتغدّوْا فى البَيْعة ، فقال عدىّ بن زَيْد لعدىّ بن أوْس : ياعدىّ إنّ أحق مَن عَرَف الحق ثم لم يَلُم عليه مَن كان مثلك ، إنّى عرفتُ أنّ صاحبك الأسودَ كان أحبّ إليك أن يُمَلّك من صاحبى النعمان ، فلا تَلُمنى على شىء كنتَ على مثله ، وأنا أحبّ ألّا تَحْقِد علىّ شيئا لو قَدَرْتَ عليه ركبتَه ، وأحبّ أن تعطِيَنى من نفسك ما أعطيك من نفسى ، فإنّ نصيبى من هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك . فقام عدىّ بن زَيْد الى البيعة وحلف ألّا يهجُوَه ولا يبغِيه غائلةً أبدا ، ولا يَرْوِى عنه خيرا ، وحلف عدىّ بن أوس على مثل يمينه ألّا يزال يهجوه أبدا ويبغيه الغوائل ما بَقِىَ . وخرج النعمان حتى أتى منزله بالحيرة ، وافترق العدّيان على وحشة ، فقال عدىّ بن أوس للأسود : إن لم تظفَر أفلا تعجَز أن تطلب بثأرك من هذا المعدِّىّ الذى عَمِل بك ما عَمِل ؟ فقد كنتُ أخبرتك

أن معدًّا لاتنام عن مكرها، وأمرتُك أن تخالفه فعصيتنى . قال : فما تريد ؟ قال : ألّا تأتيك فائدة من مُلْكك ولا أرضك إلّا عرضتها علىّ، ففعل . وكان عدىُّ بنُ أوْس كثير المـال، فلم يمرّ به يومٌ إلّا بعث فيه الى النعمان هديّة أو تُحْفة . فلمّا توالَى ذلك وكثُرت هداياه عند النعمان صار من أكرم الناس عليه، وصار لا يقضى فى مُلْكه شيئا إلّا برأى عدىّ بن أوس . فلمّا رأى مَن يطيف بالنعمان منزلة ٱبن أوس عنده تابعوه ولَزِمُـوه، فكان يقـول لمن يثق به من أصحـاب النعمان : إذا رأيتمـونى أذكر عدىَّ بنَ زيد عند الملك بخير فقولوا : إنه لكما يقول ولكنّه لا يُسَلِّم عليه أحد، وإنه يقول : إن الملك — يعنى النعمان — إنمـا هو عاملُه ، وإنه هو الذى ولّاه ما ولّاه .

فلم يزالوا بهذا وأشباهه حتى أضغنوا النعمان عليه . ثم إنهم كتبوا كتابا عن عدىّ الى قَهْرمان[1] كان له ، ودسّوا مَنْ أخذ الكتاب وأتى به النعمان فقرأه فغضب، وأرسل إلى عدىّ بن زيد يقول : عزمتُ عليك إلّا زرتَنى فإنى قد اشتقتُ إليك، وكان عند كسرى، فٱستأذنه فى زيارة النعمان فأذِنَ له ، فلمّا أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه، فجعل يقول الشعر ويستعطفه به ، فكان مما قاله :

أَبْلِـغِ النُّعمانَ عنّى مَأْلُـكًا[2] * إنه قد طـالَ حَبْسِى وٱنْتِظَارِى
لو بغـيرِ المـاءِ حَلْـقِى شَرِقٌ[3] * كنتُ كالغصّان بالمـاءِ ٱعْتِصَارِى

١٠٥/١٣

(١) القهرمان : الوكيل، أو أمين الدخل والخرج .

(٢) مألكا : المألك (بفتـح اللام وضمها) : الرسالة ، لأنهـا تؤلك فى الفم (تلاك) ، قال ابن برّى : وقد يقال مألُكَة ، وروى عن محمد بن يزيد أنه قال : مألك جمع مألكة . (انظر اللسان مادة ألك) . وقال البغدادىّ فى خزانة الأدب (ج ٣ ص ٥٩٧) : والمألك (بسكون الهمزة وضم اللام) : الرسالة ، وقال الزجاج : مألك جمع مألكة .

(٣) اعتصارى : قال الجـوهرى : الاعتصار : أن يَغَص الإنسان بالطعام فيعتصر بالمـاء، وهو أن يشربه قليلا قليلا ليسيغه، وأنشد هذا البيت . وقال البغدادىّ فى الخـزانة (ج ٣ ص ٥٩٦) : =

وقال أشعارا كثيرةً كانت تبلُغ النعمان فندِمَ على حبسه وعلِمَ أنه كِيدَ فيه ، فكان يُرسِل إليه ويَعِدُه ويُمَنِّيه، فلمّا طال سجنُه وأعياه التضرُّع إلى النعمان كتب الى أخيه أُبَيّ — وهو عَمّار — وهو مع كِسْرَى يخبره بحاله ، ويبعثه على السعى فى خلاصه ، فدخل أُبَيّ على كسرى وكلّمه ، فكتب إلى النعمان فى أمره وبعث رسولا بكتابه ، فقال له أُبَيّ : إبدأ بعدىّ وانظُره قبل أن تجتمع بالنعمان ، ورشاه على ذلك ، ففعل الرسولُ ذلك ودخل الى الحبس واجتمع بعدىّ وقال له : ماتحبّ أن أصنع؟ قال: أُحِبّ ألّا تخرُج من عنـدى ، وأعطِنِى كتاب كسرى لأُرسله من قِبَـلِى . قال : لا أستطيع ذلك . قال: فإنك إن خرجتَ من عندى قُتِلتَ . فقال: لابدّ أن آتِىَ النعمانَ وأُوَصِّله الكتابَ من يدى ، فانطلَق إلى النعمان وأوصله الكتابَ فقبّله وقال : سمعاً وطاعةً، ووَصَلَه بأربعة آلاف مثقال [ذهبا](1) وجاريةٍ [حسناء](1) وقال: إذا كان من غدٍ فادخُل عليه وأخرِجْه بنفسك. وكان أعداء عَدِىّ أتوا النعمان وأخبروه أنّ رسول كسرى دخل إلى عدىّ وأنه إن خرج من الحبس لم يَسْتبقِ منّا أحدًا، ولم تنجُ أنتَ ولاغيرُك، فأمرَهم النعمانُ بقتله ، فدخلوا عليه لمّا خرج الرسولُ من عنـده وغَمُّوه(2) حتى مات، فلمّا أصبح الرسولُ دخل السجن فقال له الحَرَس : إنّ عدياً قد مات منـذ أيام ، ولم نجرؤ أن نُخبر النعمان فَرَقاً منه لعلمنا بكراهيته لذلك، فرجع الرسولُ إلى النعمان فقال :

= وتحقيقه أن الاعتصار الالتجاء، كما قال أبو القاسم على بن حمزة البصرىّ فيما كتبه على النبات لأبى حنيفة الدينورىّ . وساق البغدادىّ كلام أبى القاسم هذا بنصه ، ثم قال : وقـد صار هذا البيت مثلا للتأذى ممن يرجى إحسانه . وقد أورد الميدانىّ فى مجمع الأمثال المثل : « لو بغير المـاء غصصت » وقال : إنه يضرب لمن يوثق به ثم يؤتى الـواثق من قِبَله واستشهد بهـذا البيت . وفى الأصول : « انتصارى » وهو تحريف .

(1) التكملة من الأغانى (ج ٢ ص ١٢١ طبع دار الكتب المصرية) .

(2) يريد أنهم غطوا وجهه بشىء حتى اختنق .

إنّى كنتُ بدأتُ به فدخلتُ عليه وهو حىٌّ . فقال له النعمان : يبعثك الملك إلىّ فتدخُلَ إليه قبلى ، كذبتَ ! ولكنّك ٱرتشَيْتَ وتهدّده ، ثم ٱستدعاه بعد ذلك وزاده جائزةً وكسوةً وٱستوثق منه[1] وصَرَفَه الى كِسْرَى . فلمّا رجع إليه قال له : قد مات قبل مقدَمِى على النعمان .

قال : ثم نَدِم النعمان على قَتْل عدىّ ندما شديدا وٱجترأ أعداءُ عدىّ على النعمان وهابهم ، ثم ركب النعمانُ فى بعض أيّامه للصّيد فلقِىَ ٱبناً لعدىّ بنِ زيد ، فكلّمه فإذا هو غلامٌ ظريفٌ ففرِحَ به النعمان وقرّبه ووَصَلَه وٱعتذر إليه ، ثم جهّزه[2] الى كسرى وكتب إليه : إنّ عدِيّا كان ممن أُعِينَ به الملك فى نصيحته ورأيه ، فٱنقضت مُدّته وٱنقطع أجله ، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدّ من مصيبتى ، و إنّ المَلِك لم يكن ليَفقِدَ رجلا من عِبِيده إلّا جعل الله له منه خَلَفا ، وقد أدرك له ٱبنٌ ليس هو دُونه ، وقد سرّحته إلى المَلِك فإن رأى أن يجعله مكانَ أبيه و يصرِفَ عمّه إلى عَمَلٍ آخر فعَل . فأجابه كسرى إلى ذلك ورتّبه فى وظيفة أبيه ، وسأله عن النعمان فأحسن الثناء عليه ، فمكث سنوات على منزلة أبيه وأُعجِبَ به كسرى . وكان لصاحب هذه الرُّتْبة على العرب وظيفةٌ فى كلّ سنةٍ من الأفراس والمهارة[3] والكَمْأَة والأَقِط والأُدْم وغيرِ ذلك ، وهو يلى ما يُكتَب عن كسرى إلى العرب .

قال : ثم تمكّن زَيْدُ بنُ عدىّ بن زَيْد عند كسرى حتّى كان يجتمع به فى أوقات خَلَوَاته ، فدخل عليه فى بعض الأيّام فكلّمه فيما دخل بسببه ؛ ثم جرى ذكر النساء . وكانت عند الأكاسرة صفاتُ ٱمرأة ، ومن رَسْمهم أن يطلبوا للملك مَنْ هى متّصفةٌ

(١) عبارة الأغانى : « وتوثّق منه ألّا يخبر كسرى إلّا أنه قد مات قبل أن يقدَم عليه » .

(٢) جهزه : أعدّ له معدّات السفر .

(٣) المهارة : جمع المهر ، والمهر أوّل ما يفتح من الخيل والحمر الأهلية وغيرها .

بتلك الصفات . وكانت الصفةُ أنّ المنذرَ الأكبرَ أهدى إلى أَنُو شِرْوَانَ جارية كان أصابها لمّا أغار على الحارث الأكبر الغَسَّانىّ ، فكتب إلى أَنُو شِرْوَانَ بصفة الجارية فقال : هى معتدلةُ الخَلْق ، نقيَّةُ اللَّوْن والثَّغر ، بيضاءُ قمراءُ وَطْفاءُ[1] دَعْجاءُ[2] حَوْراءُ عَيْناءُ [قَنْواءُ][3] شَمّاءُ[4] [بَرْجاءُ][5] زَجّاءُ[6] أَسِيلةُ الخدّ ، [شهيّةُ المقبَّل][7] جَثْلةُ[8] الشَّعْر ، عظيمةُ الهامة ، بعيدةُ مَهْوَى القُرْط عَيْطاءُ[9] ، عريضةُ الصدر ، كاعبُ الثدى ، ضخمةُ مُشَاشِ[10] المَنْكِب والعضد ، حسنةُ المِعْصَم ، لطيفةُ الكفّ ، سَبْطَةُ البَنَان ، لطيفةُ طىِّ البطن ، نَحِيصةُ الخَصْر ، غَرْثَى[11] الوِشاح ، رَدَاحُ[12] الأقبال ، رابيةُ الكَفَل ، مُفْعَمَةُ[13] الساق ، لَفّاءُ الفَخِذين . رَيّا الروادف ، ضخمةُ المَأْكَمَتَين[14] ، عظيمةُ الركبة ، مُشْبَعَةُ[15] الخَلْخال ، لطيفةُ

(١) الوطفاء : غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين .

(٢) الدعج : شدّة سواد العين وشدّة بياض بياضها .

(٣) زيادة من الأغانى (ج ٢ ص ١٢٣ طبعة دار الكتب المصرية) ، والقنواء : وصف من القنا وهو ارتفاع فى أعلى الأنف وأحديداب فى وسطه وسبوغ فى طرفه .

(٤) الشمم فى الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها .

(٥) زيادة من الأغانى . والبرجاء : الجميلة الحسنة الوجه .

(٦) الزجاء : دقيقة الحاجبين فى طول . (٧) زيادة من الأغانى .

(٨) الجثلة : كثيفة الشعر سوداؤه . (٩) العيطاء : الطويلة العنق .

(١٠) المشاش : رءوس العظام مثل المنكبين والركبتين والمرفقين .

(١١) غرثى الوشاح : دقيقة الخصر .

(١٢) الرداح : العجزاء الثقيلة الأوراك التامة الخلق . والأقبال (بالفتح) : ما استقبلك من مشرف والواحد قبل (بالتحريك) .

(١٣) مفعمة الساق : ممتلئها .

(١٤) المأكمتان : الحمتان اللتان على رءوس الوركين . الواحدة مأكمة .

(١٥) مشبعة الخلخال : كناية عن السمن ، وفى اللسان : امرأة شبعى الخلخال : ملأى سمنا .

الكعب [والقدم، قَطُوف المشى](١)، مِكسَالُ الضُّحَى(٢)، بَضَّةُ المتجرَّد(٣)، سَمُوعٌ للسيّد، ليست بخَنْسَاء(٤) ولا سَفْعَاء(٥)، رقيقةُ الأنف، عزيزةُ النفس، لم تُغذَّ فى بؤس، حَيِيَّةٌ رَزِينَةٌ، حليمةٌ رَكِينَةٌ(٦)، كريمةُ الخصال(٧)، تقتصر بنسب أبيها، و بفصيلتها دون جِمَاع قبيلتها، قد أحكمتها التجارِبُ(٨) فى الأدب، رأيها رأىُ أهل الشرف، وعملُها عملُ أهل الحاجة، صَنَاعُ الكفَّين، قَطِيعةُ اللسان(٩)، رَهْوَةُ الصوت(١٠) [ساكنته](١١)، تَزِينُ البيتَ(١٢) وتَشِينُ العدوَّ إن أردتَها اشتهتْ، و إن تركتَها انتهتْ، تُحَمْلِقُ(١٣) عيناها، وتحمرُّ وجنتاها، وتَذْبَذِبُ شفتاها، وتبادِرُكَ الوثبةُ [إذا قمتَ، ولا تجلسُ إلا بأمرك إذا جلستَ](١٤). فقبِلَها أنوشِرْوَانُ(١٥) وأمر بإثبات هذه الصفة فى ديوانه، فكانت تتوارثُ ١٠٦/١٣

(١) زيادة من الأغانى. والقطوف: وصف من القطاف وهو تقارب الخطو.

(٢) المكسال: المرأة التى لا تكاد تبرح مجلسها، وهو مدح لها مثل نؤوم الضحى.

(٣) البضة: الناعمة، يقال: امرأة بضة المتجرد (بالفتح) أى بضة عند التجرد، فالمتجرد على هذا مصدر. ومن قال: بضة المتجرد (بالكسر) أراد الجسم.

(٤) الخنساء من الخنس (بالتحريك) وهو تأخر الأنف الى الرأس وارتفاعه عن الشفة وليس بطويل ولا مشرف، وقيل هو قريب من الفطس وهو لصوق قصبة بالوجنة وضخم الأرنبة.

(٥) السفعاء من السفع (بالتحريك) وهو السواد والشحوب. وفى الحديث: «أنا وسفعاء الخدين الحانية على ولدها يوم القيامة كهاتين» وضم أصابعه، أراد بسفعاء الخدين أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسودّ، إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها.

(٦) ركينة: ساكنة وقورة. (٧) عبارة الأغانى هنا: «تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها، وتستغنى بفصيلتها دون جماع قبيلتها». (٨) فى الأغانى: «الأمور».

(٩) كذا فى الأصول بهاء التأنيث، وفى القاموس واللسان: «وامرأة قطيع الكلام بغير هاء إذا لم تكن سليطة». (١٠) رهوة الصوت: رقته سهلته.

(١١) التكملة من الأغانى. (١٢) فى الأغانى «الولى».

(١٣) فى اللسان: والمحملق من الأعين: ماحول مقلتيها بياض لم يخالطه سواد.

(١٤) التكملة من الأغانى. (١٥) فى الأغانى: «دواوينه».

حتى انتهى المُلْك إلى كِسْرى أَبْرَوِيز بن هُرْمُز، فلمّا قُرِئَتْ هذه الصفة عليه قال له زَيْد بن عدىّ : أيها الملك، أنا أخبر بآل المنذر، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمّه وأهله أكثرُ من عشرين امرأة على هذه الصفة . فقال له كسرى : اكتب فيهنّ إليه . فقال : أيها الملك، إنّ شرّ شىء فى العرب وفى النعمان [خاصّةً](١) أنهم يتكرّمون — [زعموا](٢) فى أنفسهم — عن(٣) العجم، فابعثنى اليه وابعثْ معى رجلا [من ثِقاتك](٤) يفقه العربية . فبعث معه رجلا جَلْدا [فَهِمًا](٥)، فخرج به زيد حتى أتى الحِيرة ودخل على النعمان، فلما دخل عليه عظّم الرسول أمر كسرى وقال له : إنه قد احتاج إلى نساء لأهله وولده فأراد كرامتكَ [بصِهْره](٦) وبعث إليك فيهنّ . فقال النعمان : وما صفةُ هؤلاء النِّسوة؟ قال : هذه صفتُهنّ قد جئناك بها، وقرأها على زَيْد بن عدىّ، فشقّ ذلك على النعمان وقال لزيد وللرسول : أمَا فى مَهَا السَّواد وعِين فارسَ ما تبلغون به حاجتكم؟ فقال الرسولُ لزيد : ما المَهَا والعِينُ؟ قال : البقر . فقال زيد للنعمان : إنما أراد الملكُ كرامتَكَ، ولو علِمَ أنّ ذلك يَشُقّ عليكَ لمَا كَتَبَ إليكَ، فأنزلها [يومين عنده](٧) ثم كتب الى كسرى . إنّ الذى طلب الملكُ ليس عندى . ثم قال لزيد : أعذِرْنى عنده . فلمّا رجعا الى كِسْرَى قال لزيد : أين ما كنتَ أخبرتَنى به؟ قال : قد كنتُ أخبرتكَ بِضِنّتِهم بنسائهم على غيرهم، وإنّ ذلك من شقائهم، فسَلْ هذا الرسول عن مقالة النعمان فإنى أكره أن أواجه الملك بما قاله، فقال للرسول : وما قال؟ قال إنه قال : أمَا فى بقَرِ السواد [وفارِس](٨) ما يكفى الملك حتى يطلبَ

(١) زيادة من الأغانى . (٢) زيادة من الأغانى .

(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « على » . (٤) زيادة من الأغانى .

(٥) زيادة من الأغانى . (٦) زيادة من الأغانى . (٧) زيادة من الأغانى .

(٨) زيادة من الأغانى .

ما عندنا ! فعُرِفَ الغضبُ فى وجه كسرى ثم قال : رُبَّ عبدٍ قد قال هذا فصار أمره الى التَّبَاب[1]، فبلغ كلامُه النعمانَ . وسكتَ كسرى على ذلك أشهرًا[2]، وهو يستعدّ ويتوقَّعُ حتى أتاه كتابُ كسرى يستدعيه، فانطلق النعمانُ حتى أتى جبال طَيِّئٍ وهو متزوّج منهم[3]، فأرادهم أن يمنعوه فأبَوْا ذلك وقالوا : لولا صِهْرُكَ لقتلناكَ، فإنه لاحاجة لنا فى مُعَاداة كسرى، فأقبل يَعرِض نفسه على العرب فلا يقبلوه، حتى نزل بذى قارٍ[4] ببَنِى شَيْبانَ سِرًّا فلقِىَ هانئَ بن قَبِيصة [بن هانئ[5]] بن مسعود فأودعه سلاحه وتوجه إلى كسرى فلقِىَ زَيْد بن عدىّ على قنطرة سَابَاطَ[6]، فقال له : انجُ نُمَيمُ! فقال : أنت يازيدُ فعلتَ هذا! أمَا والله لئن أفلت لأسقينَّك بكأس أبيك! فقال له زَيْد : امضِ نُعيم، فقد والله وضعتُ لك عنده أخِيَّةً[7] لا يقطَعُها المُهْرُ الأرِنُ[8] . قال: فلما بلغ كسرى أنه بالباب أمر به فقُيِّد وأبعده الى خَانِقِين[9]، فلم يزل بالسجن حتى مات بالطاعون.

(١) التباب : الهلاك والخسران . (٢) يريد النعمان .

(٣) كان عنده منهم فرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم، وزينب بنت أوس بن حارثة كما فى الأغانى.

(٤) ذوقار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس .

(٥) زيادة من النقائض (ص ٦٣٩ طبع أوربا) وهنا فى الأغانى (ج ٢ ص ١٢٦ طبع دار الكتب المصرية) حديث دار بين النعمان وبين قبيصة بن هانئ، توجه على أثره النعمان لمقابلة كسرى، فانظره.

(٦) ساباط : موضع بالمدائن لكسرى أبرويز .

(٧) الأخية (بتشديد الياء) كأبية، ويقال أخية بتخفيف الياء وآخية بالمد والتشديد : عود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشدّ اليه الدابة . وقال ابن السكيت : الأخية : أن يدفن طرفا قطعة من الحبل فى الأرض وفيها عصية أو حجر ويظهر منه مثل عروة تشدّ إليها الدابة، وإنما تؤخى الأخية فى مهراة الأرضين لأنها أرفق بالخيل من الأوتاد الناشزة عن الأرض .

(٨) الأرن : النشيط .

(٩) خانقين : بلدة من نواحى السواد فى طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال، وبها عين النفط عظيمة كثيرة الدخل .

قال ابن مِسْكَوَيْه فى كتاب تجارب الأمم : والناس يظنون أنه مات بسَابَاط لبيتٍ قاله الأعشى[(١)] . والصحيح ما قلناه .

وقال ابن عَبْدون : إنّ النعمان لمّا أقبل[(٢)] الى المدائن[(٣)] صفّ له كِسْرَى ثمانية آلاف جارية عليهنّ المصبّغات وجعلهنّ صَفَّيْن ، فلمّا صار النعمان بينهنّ قُلْنَ له : أمَا فينا للملك غِنًى عن بقر السَّوَاد ؟ وأنّ كِسْرَى أمر بالنعمان فحُبِسَ بسَابَاط المدائن ، ثم أمر به فرمِى بين أرجلِ الفِيلة فوطئته حتى مات . وفى ذلك يقول سَلَامة بن جَنْدَل[(٤)] وذكر [قَتْلَ[(٥)]] كِسْرَى أبرويز [للنُّعمان[(٥)]] فقال :

هو المُدْخِل النُّعمان بَيْتًا سَمَاؤُه * نُحُورُ الفُيولِ بَعْدَ بَيْتٍ مُسَرْدَقِ[(٦)]

ثم ملك بعده إياسُ بنُ قَبِيصة وأتى الله تعالى بالإسلام . فهؤلاء ملوك العرب باليمن والشام والحِيرَة .

(١) البيت هو :

فـذاك وما أنجى من الموت ربه * بسـاباط حتى مات وهو مُحَزْرَقُ

والمحزرق : المضيق عليه فى حبسه . ويروى : «محرزق» بتقديم الراء على الزاى . قال فى اللسان : « روى ابن جنى عن التوزىّ قال : قلت لأبى زيد الأنصارى : أنتم تنشدون قول الأعشى «... ... حتى مات وهو محزرق » وأبو عمرو الشيبانى ينشده بتقـديم الراء على الزاى فقال : إنها نبطية ، وأم أبى عمرو نبطية فهو أعلم بها منا » .

(٢) راجع شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٣١ طبع أوربا) .

(٣) المدائن : الموضع الذى كان مسكن الملوك من الأكاسرة ، فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التى قبلها وسماها باسم فسميت المدائن بذلك . وكان فتحها فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه على يد سعد بن أبى وقاص فى صفر سنة ١٦ هـ .

(٤) هو من بنى عامر بن عُبَيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سـعد بن زيد مناة بن تميم جاهلىّ قديم ، وهو من فرسان تميم المعدودين (راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٧ طبع أوربا) .

(٥) التكملة من لسان العرب مادة « سردق » .

(٦) فى اللسان مادة « سردق » ورد هذا البيت وفيه « صدور الفيول » بدل «نحور» . والبيت المسردق : هو الذى يكون أعلاه وأسفله مشدودا كله .

ذكر خبر سَدّ مَأرب وسَيْل العَرِم

قد ذكر الله عزّ وجلّ ذلك فى كتابه العزيز فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسَاكِنِهِمْ[2] آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الآية[3]. رُوِىَ عن فَرْوة[4] بن مُسَيك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لمّا أنزل فى سبأ ما أنزل قال رجل: يارسول الله، وما سبأ؟ أرضٌ أو امرأة؟ فقال: "ليس بأرضٍ ولا امرأةٍ، ولكنّه رجلٌ وَلَدَ عشرة من العرب فتيامَنَ منهم ستّة وتَشاءم منهم أربعة، فأمّا الذين تشاءموا فلَخْم وجُذام وغَسّان وعامِلَة، وأمّا الذين تيامَنُوا فالأزْد والأشعرون[5] وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار" فقال رجلٌ: يارسول الله، وما أنمار؟ قال: "الذين منهم خَثْعم وبَجِيلة". أخرجه أبو داود فى سننه والترمذىّ فى جامعه.

١٠٧/١٣

وكانت أرض مأرِبَ من بلاد اليمن متّصلةَ العمارةِ مسيرةَ ستّة أشهر، وقيل أزيد من شهرين للراكب المجدّ، وكانوا يَقتَبِسون النار بعضهم من بعض مسيرةَ ستّة أشهر؛

(١) السدّ (بالفتح والضم): الجبل والحاجز وبهما قرئ قوله تعالى: «حتى اذا بلغ بين السدين».

(٢) «فى مساكنهم» قراءة نافع، وقراءة حفص: «فى مسكنهم».

(٣) الآيتان ١٥ و ١٦ من سورة سبأ.

(٤) كذا فى تهذيب التهذيب (ج ٧ ص ٢٦٥ طبع الهند) وتفسير القرطبي (ج ١٤ ص ٢٨٢ طبع دار الكتب المصرية). وهو فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة بن الحارث بن كريت، ويقال بدل كريت ذوشب بن مالك بن منبه بن عطيف المرادى ثم الغطيفى. له صحبة، أسلم سنة تسع وسكن الكوفة، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم، واليه وعنه روى أبو سيرة النخعى وهانىء بن عرة المرادى وعامر الشعبى وسعيد بن أبيض بن جمال وغيرهم. وفى الأصول: «عروة» وهو تحريف.

(٥) الأشعرون: نسبة الى الأشعر، وهو أبو قبيلة من اليمن، وهو أشعر بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان، وتقول العرب: جاءتك الأشعرون، بحذف ياءى النسب (راجع لسان العرب مادة شعر). وفى تفسير القرطبي (ج ١٤ ص ٢٨٣ طبع دار الكتب): «الأشعريون» بإثبات ياءى النسب.

فكانت المرأة إذا أرادت أن تَجْتَنِيَ من ثمارها [شيئا](١) وَضَعتِ المِكْتَل(٢) على رأسها وخرجت تمشي بين الأشجار وهي تَغزِل وتعمَل ماشاءت ، فلا ترجع إلّا وقد آمتلأ مِكْتَلُها مما يتساقط فيه من الثمار .

واختُلِف في مأرِب ، فقيل : إنه آسمُ مَلِك تلك الأرض فسُمِّيت به ، قال الشاعر(٣) :

٥ مِنْ سَبَأَ(٤) الحاضِرِين مأرِبَ إذ * يَبْنُون مِن دُونِ سَيْلِهِ العَرِما

وقيل : هو آسمٌ لقصر الملك ، وفيه يقول أبو الطَّمَحان :

ألم تَرَوْا مأرِبًا ما كان أَحْصَنَهُ * وما حَوَالَيْهِ من سُورٍ وبُنيانِ

قال : وكان أوّل مَنْ خرج من اليمن بسبب سَيْل العَرِم عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا ، وقد ذكرناه في الأنساب ، وإنّ سببَ تسميته مُزَيْقِيَا(٥) أنه كان يلبس في كلّ يومٍ

١٠ حُلّة وقيل حُلّتين ، وهو الأشهر ، ثم يمزِّقهما عشيَّة نهاره لئلّا يلبسهما غيره ، فكان هذا دأبه في كلّ يوم .

---

(١) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون .

(٢) المكتل . زنبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره .

(٣) هو النابغة الجعدي : وهو أبو ليلى قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب

١٥ آبن ربيعة بن عامر بن صعصعة . شاعر إسلامي ، وكان أوصف الناس للخيل .

(٤) سبأ (بفتح الهمزة) على أنه ممنوع من الصرف لأنه آسم قبيلة ، وبهذه الرواية قرأ أبو عمرو وآبن كثير . وفي طبقات الشعراء لابن سلام (ص ٢٧ طبع أوربا) : «أخبرنا ابن سلام قال : قلت ليونس : كيف تقرأ : (وجئتك من سبأ بنبإ يقين) ؟ فقال : قال الجعدي وهو أفصح العرب :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ * يبنون من دون سيله العرما

٢٠ وهو على قراءة «أبي عمرو ويونس» . والعرم (بالكسر) : هو هنا الأحباس تبنى في أوساط الأودية وهو جمع واحده عرمة . وهذا البيت من قصيدة للجعدي ذكرها ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء» (ص ١٦٣ طبع أوربا) .

(٥) راجع (ج ٢ ص ٣١٤ من هذه الطبعة) .

وكان سببُ خروجه من اليمن وٱطّلاعه على خبر سَيْلِ العَرِم قبلَ حدوثه دُونَ غيره من الناس أنه كان له ٱمرأةٌ كاهنةٌ يقال لها : طُرَيفة الخير، وكانت قد رأتْ فى منامها أنّ سحابةً غَشِيتْ أرضَهم فأرعَدَتْ وأبرقَتْ ثم أصعَقَتْ فأحرقَتْ كلّ ما وقَعَتْ عليه، ففَزِعَتْ طُرَيفةُ الخيرِ لذلك فَزَعًا شديدًا وأتتْ إلى زوجها عمرو بن عامر وقالت : ما رأيتُ اليومَ أزال عنى النوم . فقال لها : مارأيتِ ؟ قالت : رأيتُ غَيما أرعدَ وأبرقَ طويلا ثم أصعَقَ فما وقع على شىء إلّا ٱحترق . قال : فلمّا رأى ما داخَلَها من الرَّوْع والفَزَع سكّنها .

ثم إنّ عَمرًا بعد ذلك دخل حديقةً له ومعه جاريةٌ من بعض جوارِيه، فبلغ ذلك ٱمرأتَه طُرَيفةَ فخرجتْ إليه ومعها وَصِيفٌ لها ٱسمه سنان[1]، فلمّا برزت من بيتها عَرَض لها ثلاثَ مناجد منتصباتٍ على أرجلها، واضعاتٍ أيديها على أعينها . قال : والمناجد : دوابّ تشبه اليرابيع[2] . فلمّا نظرت طُريفة إليها قعدت الى الأرض ووضعت يديها على عينيها وقالت لغلامها : إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرنى، فلمّا ذهبت أعلمها فٱنطلقتْ مسرعة، فلمّا عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو وثبت سُلَحفاةٌ من الماء فوقعتْ فى الطريق على ظهرها وجعلتْ تَرُوم الٱنقلاب ولا تستطيع، وتَسْتعفِر بيديها وتحثُو التراب على بطنها من جَنَباته وتَقذِف بالبَوْل . فلمّا رأتْها طُرَيفة الخير جلست إلى الأرض . فلمّا عادتِ السُّلَحفاةُ إلى الماء مَضَتْ طُرَيفة حتى دخَلتِ الحديقة على عمرو حين ٱنتصَفَ النهار فى ساعةٍ شديدةِ الحرّ فإذا الشجرُ يتكافأ من غير ريح، فلمّا رآها عمرو ٱستحيي منها وأمر الجارية بالتنحّى

(١) كذا فى شرح قصيدة ٱبن عبدون (ص ٩٩ طبع أوربا) وفى الأصل : « سنا » .

(٢) ورد فى اللسان (مادة خلد) : « الخلد والخلد : ضرب من الفأرة أو هو الفأرة العمياء وجمعها مناجد على غير لفظ الواحد، كما أن واحدة المخاض من الإبل خلفة » .

ثم قال لها : ما أتى بك يا طُرَيفة ؟ فكهِنَتْ وقالت : والنورُ والظلماء، والأرضُ والسماء، إنّ الشجرَ لهالك، وليعودنّ الماء كما كان فى الزمن السالك . قال لها عمرو: ومَن خبّرك بهذا؟ قالت : أخبرنى المناجيدُ بسنين شدائد، يقطع فيها الولدُ الوالد . قال : فما تقولين ؟ قالت : أقول قولَ النُّدمان لَهْفا، لقد رأيتُ سُلَحفاةً تجرِف التراب جَرْفا ، وتقذِفُ بالبَوْل قَذْفا ، فدخلَتِ الحديقة فإذا الشجرُ من غير ريح يتكافأ . قال عمرو : وما تَرَيْنِ فى ذلك؟ قالت : هى داهيةٌ دهياءُ من أمورٍ جسيمة، ومصائبَ عظيمة . قال : وماهو وَيْلك ؟ قالت : أجل، إنّ فيه الويل ، ومالك فيه من نيل ، وإنّ الويل فيما يجىء به السيل . فألقى عمرو نفسه على فراشه وقال : ما هذا يا طُرَيفة ؟ قالت : هو خَطْبٌ جليل، وخِزْىٌ طويل، وخَلَفٌ قليل، والقليلُ خيرٌ من تركه . قال : وما علامةُ ما تذكُرِينَ ؟ قالت : اذهبْ الى السدّ فإن رأيتَ جُرَذًا يكثر يديه فى السدّ الحَفْر، ويَقْلِب برجليه مَراجِلَ الصَّخْر، فاعلم أن الغُمر(١) غمر، وإن [قد](٢) وقع الأمر . قال : وما هذا الذى تذكُرِينَ؟ قالت : وَعْدٌ من الله نَزَل، وباطلٌ بطَل، ونكالٌ بنا نكَل . قال : فانطلق عمرو الى السدّ فحرسه فإذ الجُرَذ يَقْلِب برجليه صخرةً ما يَقْلِبها خمسون رجلا، فرجع إليها وهو يقول :

١٠٨/١٣

أبصرتُ أمرًا عادنى منه أَلَمْ * وهاجَ لى من هوله برحُ السَّقَمْ
من جُرَذٍ كفَحْل خنزير الأجَمْ * أو كَبْش صَرم من أفاويق الغَنَمْ
يَقْلِب صَخْرًا من جلاميد العَرِمْ * له مخاليبٌ وأنيابٌ قُضُمْ
* مافاته صَخْرٌ من الصخر قَصَمْ *

(١) الغمر : الماء الكثير . وفى الأصول : «الغفر غفر» وهو تحريف . وما أثبتناه عن شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٠٠ طبع أوربا) . وفى التعليق على هذه الكلمة بأسفل الصفحة إشارة إلى اختلاف الروايات فيها فيما بين : الغفر غفر والحفر عقر والعفر غفر .

(٢) زيادة من شرح قصيدة ابن عبدون .

فقالت طُرَيفة : وإنّ من علامة ماذكرتُ لك أن تجلس فتأمرَ بزجاجة بين يديك ؛ فإنّ الريح تملأُها بتراب البَطْحاء من سهل الوادى ورَمْله ، وقد علمتُ أنّ الجنانَ مُظَلّلةٌ ما يدخلها شمسٌ ولا ريحٌ . فأمر عمرو بزُجاجةٍ فوُضِعَتْ بين يديه فلم تمكُث إلّا قليلا حتى آمتلأَتْ من تراب البطحاء . فقال لها عمرو : متى يكون هلاكُ السدّ؟ فقالت : فيما بينك و بين سبع سنين . فقال : ففى أيّها يكون؟ فقالت : لا يعلم ذلك إلّا اللهُ ، ولو علمه أحدٌ لعلمتُه، ولا تأتى علىّ ليلةٌ فيما بينى و بين السبع سنين إلّا ظننتُ أنّ هلاكا فى غَدِهَا أو مَسائها .

ثم رأى عمرو بعد ذلك فى منامه سَيل العَرِم وقيل له : آيةُ ذلك أن ترى الحَصْباء[1] قد ظَهَرت فى سَعَف النخل وكَرَبِه[2]، فنظر إليها فوجد الحَصْباءَ قد ظَهَرتْ فيها فعَلِم أنّ ذلك واقعٌ، وأنّ بلادَهم ستُخْرَب لا محالةَ؛ فكتم ذلك وأخفاه وأجمع على بيع كلّ شىء له بأرض مَأْرِب ويخرج منها هو وولَدُه ، ثم خَشِىَ أن ينكر الناسُ حاله فصنع وليمة جمع الناس لها وقرّر مع أحد أولاده أنه يأمره بأمر فى ملأ القوم فيخالفه فإذا لطَمَه عمرو فيلطمَه الآخر، ففعل ذلك . فلمّا لطمه آبنُه — وكان اسمه مالكا — صاح عمرو : واذُلّاه! يومَ فخْرِ عمرو يُهينُه صبىّ ويَضرِبُ وجهه! وحلف ليقتلنّه، فسأله القوم ألّا يفعل، فحلف ألّا يقيم بموضع صُنِع به فيه هذا، وليبيعَنّ أموالَه حتى لا يُورَث بعدَه. فقال الناس بعضُهم لبعض : اغتنموا غَضْبةَ عمرو وآشتروا منه قبل أن يرضَى ، فابتاع الناسُ منه جميعَ ما هو له بأرض مأرِبَ ، وفشا بعضُ حديثه فباع أُناس من الأزْد، فلما كثُر البَيْع آستنكر الناسُ ذلك فأمسكوا عن الشراء، فلمّا آجتمعت لعمرو أموالَه أخبر الناسَ بشأن سَيْل العَرِم وخرج من اليمن، وخرج

(١) المراد بالحصباء هنا أشبه بالبثور التى تخرج بالبدن وتظهر فى الجلد .

(٢) الكرب (محركة) : أصول السعف الغلاظ العراض التى تقطع معها .

لخروجه منها خَلْقٌ كثيرٌ فنزلوا أرضَ عَكّ حتى مات عمرو بن عامر وتفرقوا بعده فى البلاد؛ فمنهم مَن صار الى الشام، وهم أولادُ جَفْنة بن عمرو بن عامر، ومنهم من صار الى يَثْرِبَ، وهم أبناء قبيلة الأَوْس والخَزْرَج، وأبوهما حارثةُ بنُ ثعلبة بن عمرو آبن عامر، وصارت أَزْدُ الشَّرَاة الى أرض الشَّراة، وأَزْدُ عُمَان الى عُمَان، ومالك بن فهم الى العراق .

ثم خرجتْ بعدَ عمرو بيسير من أرض اليمن طيِّء فنزلت بجبَلَىْ طيِّء : أجَا وسَلْمَى ، ونزل ربيعةُ بنُ حارثة بن عمرو بن عامر تهامة، وسُمُّوا خُزَاعة لآنخزاعهم [من أخواتهم](١) ، وتمزَّقوا فى البلاد كما أخبر الله تعالى عنهم فقال : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ ثم أرسل الله عزّ وجلّ السيلَ على السدّ فهدمه .

وآختُلِفَ فى العَرِم ماهو ؟ فقيل : السدّ واحدتُه عَرِمَة ، وقيل : هو الجُرَذ . وكان السدّ فيما يُذكَر قد بناه لُقْمانُ الأكبرُ بن عاد، وكان صفّه لحجارة السدّ بالرصاص فرسخا فى فرسخ . ويقال : إنّ الذى بناه كان من ملوك حِمْير . وقد ذكر ذلك ميمون ابن قيس الأعشى فقال :

وفى ذلك للمُؤتَسِى أُسْوةٌ * ومأرِبُ عفّى عليها العَرِمْ
رُخامٌ بَنَتْه لهم حِمْيَرٌ * إذا جاء مَوّاره لم يُرَمْ
فصاروا أيادى ما يقدرو * ن منه على شُرْب طِفْلٍ فُطِمْ
فأروَى الزروعَ وأعنابَها * على سعةٍ ماؤها إذ قُسِمْ

(١) زيادة من شرح قصيدة آبن عبدون .

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أيام العرب ووقائعها فى الجاهليّة ؛ وأنها لمن مآثرها السنيّة ، واذا تأمّلها المتأمِّل دلّته على مكارم أخلاقهم وكَرَمِ نجارهم، وحقّقتْ عنده أنهم ما أحجموا عن طلب أوتارهم، وعلم مكافأتهم للأقران، وسماحتهم بالنفوس والأبدان، وإقدامهم على الموت ، ومبادرتهم عند الإمكان خشيةَ الفَوْت . ٥

وقيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم : ما كنتم تتحدّثون به إذا خَلَوتم فى مجالسكم؟ فقال : نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليّتنا .

وقال بعضهم : وددت أنّ لنا مع إسلامنا كَرَمَ أخلاق آبائنا فى الجاهليّة . ألا ترى أنّ عنترةَ الفوارس جاهلىّ لا دينَ له ، والحَسَنَ بنَ هانئ إسلامىّ ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع ٱبن هانئ دينه ، فإنّ عنترة يقول : ١٠

١٠٩/١٣ وأغُضّ طَرْفِى إنْ بَدَتْ لى جارتى * حتى يُوَارِى جارتى مأواها

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانئ :

كأنّ الشباب مَطيّةُ الجهل * ومُحَسِّن الضَّحَكَاتِ والهَزْلِ

والباعِثِى والناسُ قد هَجَعُوا (١) * حتى أبيتَ خليفةَ البَعْلِ ١٥

وسأذكر من وقائعهم ما يُقَوِّى الجَنَان، ويبعث الجبان .

---

(١) فى ديوانه : « رقدوا » بدل هجعوا .

ذكر وقعة طَسْم وجَدِيس

وطَسْمُ بنُ لاوَذ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بن نُوحٍ عليه السلامُ، وجَدِيسُ بنُ عابِرِ بنِ إرَمَ ابنِ سام بنِ نُوحٍ عليه السلام، وهم العربُ العاربة، على ما ذكر بعض المؤرّخين. وكان منزلهما اليمامة[1]، وآسْمُها فى وقتهم جَوّ؛ وكان الملك عليهما رجلا من طَسْم يقال له: عِمْلِيق، وكان غَشوما ظَلوما. وكان سبب فنائهما أنّ عِمْليقا أتتـه ذاتَ يوم آمرأةٌ آسْمُها هُزَيْلة بنت مازِن مع زوج لها آسمه ماش[2]. وكان قد طلّقها وأراد أخذ ولده منها، فترافعا إليه ليحكم بينهما، فقالت هُزَيْلة: «أيها الملك، هذا آبنى حملته تسعا، ووضعته دَفْعًا، وأرضعته شَفْعًا، ولم أنل منه نفعا، حتى إذا تَمّت أوصالُه، وآستوت خِصالُه[3]، أراد أن يأخذه منّى قَهْرًا[4] ويَسْلُبنيه سرّا، ويترك يدى منه صِفْرا». فقال الزوج: «قد أخذتِ المَهْرَ كاملا، ولم أنَلْ منكِ طائلا، إلّا ولدا[5] جاهلا، فآفعلْ ما كنتَ فاعلا». فأمر الملك أن يجعل الولد فى غلمانه، فقالت هُزَيْلة:

أتينا أخا طَسْم ليَحْكُمَ بيننا * فأبرمَ حُكْما فى هُزَيْلةَ ظالما
لَعَمْرِى لقد حُكِّمْتَ[6] لا مُتَوَرِّعًا * ولا فَهِمًا عندَ الحكومةِ عالما
نَدِمْتُ فلم أقدِر على مُتَزَحْزَحٍ * وأصبح زَوْجِى عاثرَ الرأى نادما

(١) اليمامة: مدينة بالبادية من بلاد العوالى، وبها قد تنبى مسيلمة الكذاب، وهى بلاد بنى حنيفة، وهى عن البصرة ست عشرة مرحلة، وعن الكوفة مثل ذلك. (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا).

(٢) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٤ طبع دار الكتب المصرية): «قرقس».

(٣) فى الأغانى: «ودنا فصاله». (٤) فى الأغانى: «كرها، ويتركنى من بعده ورها».

(٥) فى الأغانى: «إلا وليدا خاملا».

(٦) فى الصبح المنير (ص ٧٥ طبع أوربا): «حكمت» بفتح التاء على الخطاب. ورواية الشطر الثانى فيه هكذا: * ولا كنت ممن يبرم الحكم عالما *
ورواية الأغانى هكذا: * ولا كنت فيما تبرم الحكم عالما *

فلمّا بلغ عِمْلِيقًا ذلك غَضِبَ وأقسم أنه لا تُهْدَى عَرُوسٌ فى جَدِيس لبعلها حتى يكون هو الذى يبدأ بها قبل زَوْجها . فلم يزل على ذلك دهرا حتى أُهْدِيت عُفَيْرَةُ[1] بنت عَفَار[2] الجَدِيسيّة أخت الأسْوَد بن عَفَار[2] سيِّد جَدِيس إلى بعلها ، ويقال : إنّ اسمها الشَّمُوس ، فحُمِلَتْ إلى عِمْلِيقٍ ، فلمّا افترعها وخلَّى سبيلَها خرجتْ على قومها فى دمائها شاقّة جيبها عن قُبُلِها ودُبُرِها وهى تقول : ٥

لا أحـدٌ أذَلّ من جَدِيس * هـكذا يُفْعَـلُ بالعَـرُوس
يرضَى بهـذا بالقَـوْمِ حُـرٌّ * أَهْدَى وقد أعطَى وسِيقَ المَهْرُ
لأخذةُ المـوتِ كذا لنفسـه * خيرٌ مِنَ أنْ يُفْعَلَ ذا بعِرْسِـهِ

ثم قالت تحرِّض جَدِيسًا على طَسْم :

أيَصْلُحُ ما يُؤْتَى إلى فَتَيَاتِـكم * وأنـتم رجالٌ فيـكُمُ عَدَدُ الرَّمْلِ[3] ١٠
أيَصْلُحُ تَمْشِى فى الدِّماء فتياتُـكم * صَبِيحةَ زُفَّتْ فى النساء إلى البعل
فإن كنتمو لا تغضَبُوا عند هذه * فكونوا نساءً لا تَفِيق من الكُحْل
ودونـكُمُ طِيبُ العروس فإنمـا * خُلِقتم لأثواب العرائس وللغسْل
فـلو أننـا كُنّا رجالًا وكنـتم * نسـاءً لَكُنّا لا نُقِـرّ على الذُّلّ
فقُبْحًا وسُحْقًا للذى ليس دافعًـا * ويختال يَمْشِى بيننا مِشْيَةَ الفَحْل ١٥
فموتُوا كِرامًا واصـبِرُوا لعدوّكم * لحربٍ تلظَّى بالضِّرام من الجَزْل
ولا تجزَعُوا فى الحرب ياقومُ إنها * تقـوم بأقـوامٍ كرامٍ على رِجْل

(١) ورد فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٥ طبع دار الكتب المصرية) : « عفـيرة » مضبوطا بالقلم (بفتح العين وكسر الفاء) وصوابه كما ورد فى لسان العرب والقاموس وشرحه مادة عفر (ضم العين وفتح الفاء بصيغة التصغير (عُفَيْرَة) وهو ما أثبتناه هنا . (٢) كذا فى الأصول والصبح المنير وشرح قصيدة ابن عبدون والكامل لابن الأثير (ج ١ ص ١٥٤ طبع أوروبا) . وفى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٨ طبع دار الكتب المصرية) : « عباد » . (٣) كذا فى الأصول ، وفى الأغانى والصبح المنير وشرح قصيدة ابن عبدون : « النمل » .

فاجتمعت جَدِيسٌ فقال لهم الأسود بن عَفَار، وكان مُطاعا فيهم: لتُطِيعُنّى[فيما آمركم به](١) أو لأتّكِئَنّ على سيفى حتى يخرج من ظهرى. قالوا: فإنّا نُطيعك. قال: إنّ طَسْما ليسوا بأعزّ منكم، ولكن مُلْك صاحبهم هو الذى يُذْعِنُنا إليهم بالطاعة، ولو امتنعتم منهم لكان لكم النَّصَفُ(٢). قالوا: إنّ القوم أكثرُ منّا عَدَدا وعُدَدا. قال: إنّى صانعٌ طعامًا فأدعوهم إليه، فإذا جاءوكم متفضِّلين فى الحُلَل نهضنا إليهم بأسيافنا. فقالت عَفِيرة لأخيها: لا تفعل! فإنّ الغَدْر ذِلّة وعارٌ، ولكن كاثروا القومَ فى ديارهم فتظفَروا أو تموتوا كِراما. قال: بل نمكُر بهم فنكون أمكنَ منهم. ثم صنع الأسودُ طعاما وأمر قومه أن يختِرطُوا سيوفَهم ثم يدفنوها فى الرمل. ودعا عِمْلِيقا وقومه، فلمّا أتَوْا استثارتْ جَدِيسٌ السيوفَ وشدُّوا عليهم فما أفلت منهم إلّا رِيَاح بن مُرّة، ففر إلى حسّان بن تُبّع فاستغاث به وأخبره بما صنعته جَدِيس بطَسْم فوعده النصرة، ثم نادى حسّان فى حِمْير بالمسير وأخبرهم بما صَنَعَتْ جَدِيسٌ بطَسْم؛ فقالوا: وما جَدِيسٌ وطَسْم؟ قال: هما أخَوَان. قالوا: فما لنا فى هذا من أَرَب. قال حسّان: أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حَسَنا لمِلِكِكُم أن يُهْدِر(٣) دماءكم. وما علينا فى الحُكْم إلّا أن نُنْصِف بعضَهم من بعض. فقالوا: الأمرُ أمرُك أيّها الملك فمُرْنا بما أحْبَبْتَ. فأمرَهم بالمسير، فساروا حتى إذا كانوا من اليمامة على ثلاث ليالٍ قال رِيَاحُ بن مرّة لحسّان بن تُبّع: أبيتَ اللعن! إنّ لى أختا متزوِّجةً فى جَدِيس تنظُر الراكب على مسيرة ثلاثِ ليالٍ وأخاف أن تُنذِر قومَها، فأمرَ كلَّ إنسان أن يقتلع شجرةً من الأرض ويجعلها أمامَه، فأمرَهم حسّان بذلك. ثم ساروا، فنظرتْ أختُ رِيَاح فقالت: ياجَدِيس! لقد سارتْ إليكم الشَّجَر. فقالوا لها:

١١٠/١٣

(١) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون. (٢) النصف (بالتحريك): إعطاء الحق.
(٣) كذا فى شرح قصيدة ابن عبدون. وفى الأصل: «يضيع».

وما ذاك ؟ قالت : أرَى شَجَرًا ، من ورائه بَشَرًا ، وإنّى لا أرَى رجُلا من وراء شجرة يَنْهَشُ كَتِفًا أو يَخْصِفُ نَعْلا ، فكذّبوها وغَفِلُوا عن أَخْذِ أُهْبَةِ الحرب حتى صبّحتهم حِمْير . ففى ذلك تقول زَرْقاءُ اليمامة :

خُذُوا لهم حِذْرَكُمْ ياقَوْمُ يَنْفَعُكُمْ * فليسَ ما قد أراه اليومَ يُحْتَقَرُ
إنّى أرَى شَجَرًا من خَلْفه بَشَرٌ * فكيفَ تَجْتَمِعُ الأشجارُ والبَشَرُ
صُفُّوا الطوائفَ منكم قبلَ داهيةٍ * من الأمور التى يُخْشَى وتُنْتَظَرُ
إنّى أرَى رَجُلًا فى كَفِّه كَتِفٌ * أو يَخْصِفُ النَّعْلَ خَصْفًا ليس يُعْتَذَرُ[1]
ثُورُوا بأَجْمَعِكُمْ فى وَجْهِ أوّلِهِمْ * فإنّ ذلك منكم ـ فاعْلَمُوا ـ ظَفَرُ
وغَوِّرُوا كلَّ ماءٍ دُونَ مَنْزِلِهِمْ * فليسَ من دُونه[2] نَحْسٌ ولا ضَرَرُ
أو عاجِلُوا القومَ عندَ الليلِ إن رَقَدُوا * ولا تَخَافُوا لهم[3] حَرْبًا وإن كَثُرُوا

فلمّا كان حسّانُ على مسيرة ليلةٍ عبّأ جيشه ثم صبّحهم فاستباح اليمامةَ قتلًا وسَبْيًا ، وهرب الأَسْوَدُ حتى نزل بطيّىء فأجاروه مِن كلّ مَنْ يطلبه وهم لا يعرفونه . وقبيلتُه فى طيّىء مذكورة . ثم إنّ حسانا أمر باليمامة فنزع عينَيْها فإذا فى داخلها عروقٌ سُودٌ ، فسألها عن ذلك فقالت : حَجَرٌ أسْوَدُ كنتُ أكتحل به يقال له الإثْمِد فثبّت لى بصرى . وقيل : إنها أوّل مَن اكتحلَ بالإثْمِد ، فأمر بها فصُلِبَتْ على باب جَوّ . وقيل : سُمّى جَوّ باليمامة من ذلك الوقت . وفى ذلك يقول رِيَاح بن مُرّة لمّا أخذ بثأره :

(١) يعتذر : تريد أنه لا عذر له فى خصفها . وفى شرح قصيدة ابن عبدون : « يعتسر » وأشير فى الهامش الى رواية « يعتذر » . وفى الصبح المنير (ص ٨٢ طبع أوربا) : « يقتدر » وأشير فى الهامش الى رواية « يعتسر » .

(٢) كذا فى الصبح المنير وشرح قصيدة ابن عبدون . وفى الأصول : « دونهم » .

(٣) كذا فى الأصول وشرح قصيدة ابن عبدون . وفى الصبح المنير : « لهم » .

غَدَرَ الحَىُّ من جَدِيسٍ بطَسْمٍ * آلَ طَسْمٍ كما تُدَانَى تَدِينِ
قد أتيناهم بيوم كيوم * تُرِكُوا فيه مِثْلَ ما تَرَكُونِى
ليتَ طَسْمًا على منازلها تَعْـ * ـلَمُ أنِّى قَضَيْتُ عَنِّى دُيُونِى

وقد كررت الشعراء قصّة هذه المرأة وجَوّ . فمن ذلك قول الأعشى على رواية ٱبن قُتَيبة :

قالتْ أرَى رجُلًا فى كفِّه كَتِفٌ * أو يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهْفِى آيةً صَنَعَا (١)
فكذَّبوها بما قالتْ فَصَبَّحَهُمْ * ذُو آلِ حَسَّانَ يُزْجِى السمّ والسِّلَعَا (٢)
فٱسْتَنْزَلُوا آلَ جَوٍّ من مساكنهم * وهدَّمُوا رافِعَ البُنْيَانِ فٱتَّضَعَا (٣)

وروى ٱبن إسحاق :

كُونى كمثل التى إنْ غاب واحدُها (٤) * أهدتْ له من بعيدٍ نظرةً جَزَعَا

ثم أتى بالأبيات التى ذكرها ٱبن قتيبة . وقال المُسَيَّبُ بنُ عَلَس : ١١١/١٣

لقد نَظَرَتْ عينٌ إلى الجِزْعِ نَظْرةً * إلى مثل مَوْجِ المُقْعَمِ المتلاطِمِ
إلى حِمْيَرٍ إذ وُجِّهوا من بلادهم * تَضِيقُ بهم لأْيًا فروجُ المخارِمِ (٥)

---

(١) كذا فى الصبح المنير ، تريد أنها تلهفت حين لم تستبنه أىّ الفعلين فعل . وفى الأصول وشرح قصيدة ٱبن عبدون : « لهفا آية » .

(٢) السلع (بالتحريك) : شجر مرّ وله ثمر مثل عناقيد العنب صغار ، فإذا أينع أسود فتأكله القرود ولا تأكله الناس ولا السائمة ، وفى الصبح المنير : « ... ... يزجى الموت والشرعا » . والشرع (بالكسر) : الأوتار ، واحده شرعة .

(٣) فى الأصول وشرح قصيدة ٱبن عبدون : « فاتسعا » وما أثبتناه عن الصبح المنير ، وفيه : « شاخص » بدل « رافع » . وفى شرح قصيدة ٱبن عبدون : « يافع » .

(٤) فى الصبح المنير : « إذ غاب وافدها » .

(٥) المخارم : واحدها مخرم (بكسر الراء) وهو منقطع أنف الجبل .

وفيها يقول النَّمِرُ بنُ تَوْلَب :

وفتاتُهم عَنْزٌ غَدَاةَ تبيَّنتْ * من بعد مَرْأى فى الفضاء ومَسْمَع
قالتْ أرَى رَجُلا يُقَلِّبُ نَعْلَهُ * تَقْلِيبَ ذى وَصْلٍ لـه ومُشَسِّع
ورأتْ مقدّمة الخَمِيس ودُونها * رَكْضَ الجِيَاد إلى الصَّباح يُتَبَّع

ذكر حروب قيس فى الجاهلية

يومُ مَنْعِج لِغَنِيّ على عَبْس

يومُ مَنْعِج[1]. هو يوم الرَّدْهَة[2] وفيه قُتِلَ شأْس بن زُهَير بن جَذِيمة بن رَوَاحة العَبْسىّ؛ قتله رِيَاح بن الأَشَلّ[3] الغَنَوِىّ . وذلك أنّ شأسا أقبلَ من عند النعمان بن المنذر وقد أجزل حِبَاءه . وكان من حِبَائه قَطيفةٌ حمراءُ ذات هُدْب[4] وطِيبٌ؛ فورد مَنْعِجًا — وهو ماء لغنىّ — فأناخ راحلَته إلى جانب الرَّدْهة وعليها خباء لرياح بن الأشلّ، وجعل يغتسل وامرأةُ رِيَاح تنظُر إليه، وهو كالثَّوْر الأبيض، فانتزعه رِيَاح بسهم فقتله، وضمّ متاعه ونحر ناقتَه وأكلها وغيَّب أثره . وفُقِدَ شأس بن زُهَير، حتى وجدوا القطيفةَ الحمراءَ بسوق عُكَاظ قد باعتها امرأةُ رياح، فعلمُوا أنّ رياحا صاحبَ ثأرهم، فغزَتْ بنو عَبْس غَنِيًّا قبل أن يطلبوا قَوَدًا أو دِيَةً، مع الحُصَين بن زُهَير ابن جَذِيمة والحُصَين بن أَسِيد بن جَذِيمة . فلمّا بلغ ذلك غَنِيًّا قالوا لرِيَاح : انجُ، لعلّنا

(١) منعج (بفتح فسكون فكسر) : واد يأخذ بين حفر أبى موسى والنباج ويدفع فى بطن فلج .

(٢) الردهة : (بسكون الدال المهملة) : النقرة فى الجبل أو فى الصخرة يستنقع فيها الماء .

(٣) فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٤١١ طبع أوربا) : « رباح » بالباء الموحدة، وفى الأغانى (ج ١١ ص ٧٦ طبع دار الكتب المصرية) . « رياح من الأسك » .

(٤) (الهدب بسكون الدال المهملة وضمها) : أطراف الثوب مما يلى طرّته .

نُصالح القومَ على شيء [أو نرضيهم بدية][1] . فخرج رياح رَدِيفا[2] لرجل من بنى كِلَاب ، وهما يظنّان أنهما قد خالفا وجهةَ القوم ؛ فمرّ صُرَدٌ[3] على رءوسهما فصَرْصَرَ ، فما راعهما إلّا خيلُ بنى عَبْس ، فقال الكِلَابىّ لرَياح : انحدرْ من خَلْفى وآلتمس نَفَقًا فى الأرض فإنى شاغلٌ القومَ عنك ، فآنحدر رياح من عَجُز الجمل حتى أتى ضِفَّةً[4] فآحتفر تحتها مثل مكان الأرنب ووَلَج فيه ، ومضى صاحبُه ، فسألوه فقال : هذه غَنِىٌّ جامعة ، وقد آستمكنتم منهم ، فصدّقوه وخلّوا سبيله ، فلمّا وَلّى رأَوْا مركب الرجل خلفه فقالوا : مَنِ الذى كان خلفك؟ فقال : لا كَذِبَ ! رياح بن الأشلّ ، وهو فى أولئك الصُّعُدَات[5] . فقال الحُصَيْنان لمن معهما : قد مكّننا اللهُ من ثأرنا ولا نريد أن يَشْرَكَنا فيه أحد ، فوقفوا عنهما ، ومضيا فجعلا يُريغان رياحا بين الصَّعُدات ، فقال لهما : هذا غزالكما الذى تُريغانه ، فآبتدراه فرمى أحدَهما بسهم فأَقْصَدَه[6] ، فطعنه الآخر فأخطأه ، ومرّت به الفَرَس ، فآستدبره رِيَاحٌ بسهم فقتله ثم أتى قومه . ففى ذلك يقول الكُمَيْتُ بنُ زَيْدٍ الأَسَدىُّ ، وكانت له أُمّان من غَنِىٍّ :

أنا آبنُ غَنِىٍّ والدايَ كلاهما * لأُمَّيْنِ منهم فى الفُروع وفى الأَصْل

---

(١) التكملة من كتاب الأغانى (ج ١١ ص ٧٩ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) الرديف : الراكب خلف الراكب .

(٣) الصرد : طائر أبقع ضخم الرأس يكون فى الشجر ، نصفه أبيض ونصفه أسود ؛ وهو من سباع الطير ، ضخم المنقار عظيم البرثن ، كانت العرب تتطير من صوته .

(٤) كذا فى الأغانى . والضفة : جانب النهر أو الوادى . وفى الأصل : « صعدة » .

(٥) فى الأغانى : « ... فى الأول من السمرات » .

(٦) أقصده : الإقصاد : أن تضرب الشىء أو ترميه فيموت مكانه ، ويقال : أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطىء مقاتله فهو مقصد « بالبناء للمجهول » .

هم استودعوا زهرا نسيب بن سالم (١) * وهم عدلوا بين الحُصَيْنِينِ بالنَّبْل
وهم قتلوا شأس الملوك ورغَّموا * أباه زُهَيْرًا بالمَذَلَّة والثَّكْل

يوم النَّفْرَاوات (٢)

لبنى عامر على بنى عبس

فيه قُتِل زُهَيْر بنُ جَذِيمَة بن رَوَاحة العَبْسىّ . وكانت هَوَازِنُ تُؤَدِّى إليه إتاوة، فأتته عَجُوزٌ رَهِيشٌ (٣) من بنى نَصْر بن معاوية بسَمْن فى نَحْيٍ (٤) ، وَشَكَتْ سنين تتابعتْ على الناس ، فذاقه فلم يَرُضْ طَعْمَه ، فدعَّها (٥) بقَوْسٍ فى يده عُطُلٍ (٦) فى صدرها ، فاستلقَتْ على قفاها مُنْكَشِفَةً (٧) ، فتألَّى (٨) خالدُ بن جعفر وقال : والله لأجعلنَّ ذراعى فى عُنُقه حتى يُقْتَل أو أُقْتَل . وكان زُهَير مقْداماً فتفرّد من قومه ببنيه وبنى أخويه أَسِيد وزِنْباع يُرِيغ (٩) الغيثَ فى عُشَرَاوَاتٍ (١٠) له وشَوْل ، فأتاه الحارث [بن عمرو] (١١)

(١) كذا فى الأصول والعقد الفريد (ج ٣ ص ٦١ طبع بلاق) وفى الجزء الثانى من العقد الفريد المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤١٣ أدب ورقة ٦٨ ورد هذا الشطر هكذا : «هم استودعوا زهرا بسيب بن سالم» وفى الأغانى : «هم استودعوا هوى شبيب بن سالم» .

(٢) كذا فى معجم ما استعجم ، وقد ذكره فى رسم «ركبة» وأشار الى قتل زهير بن جذيمة . قال : نفرى (بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده راء مهملة مقصور على وزن فعلى ، ويمدّ : موضع فى بلاد غطفان . وكذلك فى العقد الفريد المخطوط . وفى الأصول والعقد الفريد المطبوع : «النقروات» (بالقاف) . وفى الأغانى (ج ١١ ص ٨٤ ، ٨٥ طبع دار الكتب المصرية) : «النفرات» . وكلاهما محرّف . (٣) رهيش : ضعيفة أو مهزولة . (٤) النحى : الزق الذى يجعل فيه السمن .

(٥) دعها : دفعها بعنف . (٦) قوس عطل : لا وتر فيها .

(٧) يريد انكشفت عورتها . (٨) تألى : حلف . (٩) يريغ : يطلب .

(١٠) العشراء من النوق : التى مضى لحملها عشرة أشهر ثم لا يزال يطلق عليها هذا الاسم الى ما بعد الوضع ، فهى بعد الوضع عشراء أيضا . قال ابن الأثير : قد اتسع فى هذا حتى قيل لكل حامل عشراء . والشول : جمع شائلة ، على غير قياس ، وهى الناقة التى أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر فخف لبنها وارتفع ضرعها . (١١) زيادة من الأغانى .

ٱبن الشَّرِيد، وكانت تُمَاضِرُ بنتُ [عمرو بن] الشَّرِيد تحتَ زُهَير، فلمّا عَرَف الحارث مكانه أنذر عليه بنى عامر بن صعصعة رَهْط خالد بن جعفر، فركب منهم ستّةٌ فوارسَ فيهم خالدُ بنُ جعفر وصَخْر بن الشَّرِيد وحُنْدُج بنُ البَكّاء ومعاويةُ بنُ عُبَادة ٱبن عُقَيْل فارس الهَرّار. ويقال لمعاوية: الأَخْيَل، وهو جَدّ ليلى الأخيليّة. فقال أَسِيدٌ لزُهَير: أَعْلَمَتْنى راعيةُ غَنَمى أنها رأتْ على رأس الثنيّة أشباحا ولا أحسبها إلّا خيلَ بنى عامر، فألحِقْ بنا بقومنا. فقال له زُهَير: "كُلُّ أَزَبَّ[1] تَفُورُ" وكان أشعر القفا، فذهبتْ مثلا، فتحمّل أَسِيد بمن معه وبقى زُهَير وٱبناه ورقاءُ والحارثُ. وصبّحتهم الفوارس فٱرمدّت[2] بزهير فرسُه القَعْساءُ ولحقه خالد ومعاوية الأَخْيل، فطعَن معاويةُ القعساءَ فقلبت زهيرا، وخرّ خالدٌ فرفع المِغْفَر عن رأس زهير وقال: يالعامرٍ اقتلونا جميعا! وأقبل معاويةُ فضرب زُهَيرا على مَفْرِق رأسه ضربةً بلغتْ الدِّماغ، وأقبل ورقاءُ بنُ زهير فضرب خالدا وعليه درْعَان فلم تُغْن شيئا، وأجهض[3] ٱبنا زهير القوم عن زهير وٱحتملاه وقد أثخنته الضربةُ فمنعوه الماء فقال: اسقُونى وإن كانت نفسى فيه، فسَقَوْه فمات بعد ثالثة من الأيام، فقال فى ذلك ورقاءُ بن زُهَيْر:

رأيتُ زُهَيْرًا تحتَ كَلْكَلِ خالدٍ * فأقبلتُ أسعَى كالعَجُولِ[4] أُبادِرُ
فشَلَّتْ يَمِينى يومَ أضرِبُ خالدًا * ويمنعه منّى الحديدُ المُظَاهَرُ

(١) الزبب: كثرة الشعر وطوله. والبعير الأزب، وهو الذى يكثر شعر حاجبيه، ينفر اذا ضربت الريح شعرات حاجبيه.

(٢) ارمدّت: عدت عدو الرمد، أى النعام.

(٣) أى نحياهم عنه، وغلبوهم عليه.

(٤) العجول من النساء والإبل: الوالهة التى فقدت ولدها الثكلى لعجلتها فى جيئتها وذهابها جزعا.

فياليتَ أنى قبلَ أيام خالدٍ * ويومِ زُهَيْرٍ لم تَلِدنى تُمَاضِرُ[1]
لَعَمْرِى لقد بُشِّرتِ بى إذ وَلَدْتِنى * فماذا الذى رَدَّتْ عليكِ البشائرُ

وقال خالد بن جعفر فى قتله زهيرا :

بل كيف تكفُرنى هوازنُ بعد ما * أعتقتُهم فتَوَالَدُوا أحرارا
وقتلتُ رَبَّهُمُ زهيرًا بعدما * جَدَعَ الأُنوف وأكثر الأوتارا
وجعلتُ مَهْرَ بناتهم ودياتهم * عَقْلَ الملوك هجائنًا وبكارا[2]

يومُ بطنِ عاقل

لذُبْيانَ على بنى عامر

فيه قُتِل خالدُ بنُ جعفر ببطنِ عاقل[3] . وذلك أنه قدِمَ على الأسود[4] بنِ المُنذر أخى النعمان ومعه عُرْوةُ الرَّحال بن عتبةَ بن جعفر ، فالتقَى خالدُ بنُ جعفر والحارثُ ابن ظالم بن غيظ بن مُرّة بن سعد بن ذُبْيان عند الأسود بنِ المنذر ، فجعل خالد يقول للحارث بن ظالم : ياحارِ ، أما تشكر يدى عندك أنْ قتلتُ عنك سيّد قومك زهيرا وتركتُك سيِّدَهم ؟ فقال : سأُجزيك شكرَ ذلك . فلمّا خرج الحارثُ قال الأسودُ لخالد : مادعاك إلى أن تتحرّش بهذا الكلبِ وأنتَ ضيفى ؟ فقال : إنما هو عبدٌ من عبيدى ، ولو وَجَدَنى نائما ما أيقظنى . وانصرف خالد إلى قُبَّته فلامه

(١) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد بن رياح .

(٢) فى الأغانى : « أبكارا » .

(٣) بطن عاقل : موضع على طريق حاج البصرة بين رامتين وإمرة .

(٤) كذا فى الأصول والعقد الفريد المخطوط ، وهو موافق لما جاء فى الكامل لابن الأثير فى احدى روايتيه ، وفى الرواية الأخرى أن الملك الذى اجتمع عنده خالد بن جعفر والحارث بن ظالم ثم قتل الحارث خالدا فى جواره ثم قتل ابنه بعد ذلك فأخذ يطارد الحارث لقتله ابنه ومن استجار به ، هو النعمان ابن امرئ القيس ملك الحيرة .

عُـرْوةُ الرحال، ثم ناما وأشْرَجَت[1] عليهما القُبّةُ، وكان مع الحـارثِ تَبِيع له من بنى مُحارِب يقال له خِرَاش، فلمّا هدأت العيونُ أخرج الحارث ناقتَه وقال لخِرَاش: كن لى بمكان كذا، فإن طلع كوكبُ الصبح ولم آتك فٱنظُر أحبَّ البلادِ اليك فٱعْمِد لهـا؛ ثم ٱنطلق الحارثُ حتى أتى قُبّةَ خالدٍ فهتكَ شرَجَها ثم وَلَجَها وقتله، فنادى عُرْوةُ عند ذلك: واجوَارَ الملك! فأقبل إليه الناسُ، وسمع الأسود الهُتَافَ وعنده ٱمرأةٌ من بنى عامرٍ يقال لها: المُتَجَرِّدة، فشقَّتْ جَيْبَها. ففى ذلك يقول عبد الله ٱبنُ جَعْـدَةَ:

شَقَتْ عَلَيْكَ العـامِريّةُ[2] جَيْبَهـا * أَسَفًا وَمَا تَبْـكِى عليك ضَـلالَا
يا حـارِ لو نَبَّهتَـه لَوَجَـدْتَهُ * لا طائشًـا رَعِشًا[3] ولا مِعْـزَالَا[4]
وٱغْرَوْرَقَتْ عيناىَ لمّـا أُخبِرَتْ * بالجَعْفَـرِىّ وأسْبلت إسْبـالَا
فلنقتُلَنَّ بخـالدٍ سَرَوَاتِـكم * ولَنَجْعَلَنْ للظـالمين نَـكَالَا
فإذا رأيـتُمْ عارضًـا متهـلِّلًا * منّـا فـإنّا لا نُحَـاوِلُ مَـلَا

يـومُ رَحْرحان

لعـامر على تمـيم

ولمّـا هَرَب الحارثُ بنُ ظالم ونَبَتْ به البلادُ لجأ الى مَعْبَد بنِ زُرَارة فأجاره؛ فقالت بنو تميم لمعبد: مالك أوَيْتَ هـذا المشئومَ الأنكد وأغْرَيْتَ بنا الأسْـوَد؟ وخذلوه غير بنى ماوِيَة و بنى عبدالله بن دارِم. و بلغ الأحوصَ بنَ جعفر بن كلاب مكان الحارث بن ظالم، وأنه عند مَعْبَد بنِ زُرَارة، فغزا مَعْبَدا فٱلتقَوْا برَحْرحان[5] فٱنهزمت

١١٣/١٣

(١) أشرجت: جمعت. (٢) فى الكامل لٱبن الأثير: «الجعفرية».
(٣) الرعش (ككتف): الجبان. (٤) المعزال: من لا رمح له.
(٥) رحرحان: اسم جبل قريب من عكاظ خلف عرفات.

بنو تميم وأُسِرَ مَعْبَدُ بنُ زُرَارة، أسره عامر والطُّفَيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب، فوفد لَقِيط بن زُرَارة عليهما فى فدائه فقال لهما: لكما عندى مائتا بعير، فقالا: أبا نَهْشَل، أنتَ سيِّد الناس، وأخوك مَعْبَدٌ سيِّدُ مُضَر فلا تقبل فيه إلا دِيَة ملك، فأبى أن يزيدهم وقال: إنّ أبانا أوصانا ألا نزيد أحدا فى ديتنا على مائتى بعير، وقال: لا توكلوا العرب أنفسكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم، ورحل لقيط عن القوم. ٥

قال: فمنعوا معبدًا الماءَ وضَارُوه حتى مات هُزَالًا. وقيل: بل أبَى معبدٌ أنْ يُطْعَمَ شيئا أو يُشْرَبَ حتى مات هُزَالًا. ففى ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل:

قَضَيْنَا الجَوْنَ عَنْ عَبْسٍ وكانتْ * مَنِيَّةُ مَعْبَدٍ فينَا هُزَالًا

وقال جرير:

ولَيْلَةَ وادِى رَحْرَحانَ رَفَعْتُمُ[1] * فِرارًا ولم تَلْوُوا رَفِيقَ النَّعائِمِ ١٠

تَرَكْتُمْ أبا القَعْقَاع فى الغُلِّ مَعْبَدًا * وأىَّ أخٍ لم تُسْلِموا للأداهِمِ

وقال أيضا:

وبِرَحْرَحانَ غَداةَ كُبِّلَ مَعْبَدٌ * نُكِحَتْ فَتَاتُكُمُ بِغَيْرِ مُهُورِ

يومُ شِعْبِ جَبَلَةَ

لعامرٍ وعَبْسٍ على ذُبْيان وتميم ١٥

قال أبو عُبَيدة مَعْمَرُ بنُ المُثَنَّى: يومُ جَبَلَة[2] أعظمُ أيام العرب[3]، وذلك أنه لمّا انقضتْ وَقْعة رَحْرَحان جمع لَقِيطُ بنُ زُرَارةَ لبنى عامر وألّب عليهم. وبينَ يومِ

(١) كذا فى النقائض (ص ٢٢٩ ضمع أوربا). وفى الأصل: «فررتم».

(٢) جبلة: هضبة حمراء بنجد بين الشريف والشرف. والشريف: ماء لبنى نمير. والشرف: ماء لبنى كلاب.

(٣) عظام أيام العرب ثلاثة: يوم كلاب ربيعة، ويوم جبلة هذا، ويوم ذى قار. وكانت هذه الأيام كذلك لكثرة من كان فيها من المقاتلين. ٢٠

رَحْرحان ويومِ جَبَلة سنة . ويومُ جَبَلَة قبل الإسلام بأربعين سنة[1] ، وهو عامُ مَوْلِد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت بنو عَبْس يومئذ فى بنى عامر حُلَفاءَ لهم ، فاستعدَى لَقِيطُ بنى ذُبْيان لعَداوتهم لبنى عَبْس من أجل حَرْب داحِس ، فأجابته غَطَفانُ كلّها غيرَ بنى بدر، وتجمّعت لهم تميمٌ كلُّها غيرَ بنى سعد ، وخرجت معه بنو أسَد لِحلْف كان بينهم وبين غَطَفان ، ثم أتى لَقيطُ الجَوْنَ[2] الكِنْدِىّ وهو ملك هَجَر[3] [وكان يُحَيِّى مَن بها من العرب[4]] فقال له : هل لك فى قومٍ عادِين قد ملأوا الأرض نَعَمًا[5] وشاءً، فأرسل معى ابْنَيْك فما أصبنا من مالٍ وسَبْىٍ فلهما، وما أصبنا من دَمٍ فلى، فأجابه الجَوْن الى ذلك وجعل له موعدا رأسَ الحَوْل، ثم أتى لَقِيطٌ النعمانَ ابنَ المُنْذِر فاستنجده وأطمعه فى الغنائم، وكان لَقيطٌ وجيها عند الملوك، فلمّا كان على قَرْن الحَوْل من يوم رَحْرحان أقبلتْ الجيوش الى لَقيط، وأقبل سِنَان بن أبى حارثة المُرِّىّ فى غَطَفان وجاءت بنو أسَد ، وأرسل الجَوْنُ ابنيه معاويةَ وعَمْرًا، وأرسل النعمانُ أخاه لأمّه حسّانَ بن وَبْرة الكَلْبىّ . فلمّا توافَوْا خرجوا إلى بنى عامر وقد أنذروا بهم وتأهّبوا لهم ، فقال الأحوصُ بنُ جعفر ، وهو يومئذ رَحَى هَوَازِن لقيس بن زُهَير : ما ترى ؟ فإنك تزعُم أنه لم يُعْرَض لك أمران إلّا وجدتَ فى أحدهما المَخْرَج ! فقال قيس بن زُهَير : الرأى أن نَرْحَل بالعِيال والأموال حتى

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٠ طبع دار الكتب المصرية) : « بتسع وخمسين سنة » . وفى النقائض (ص ٦٧٦ أوربا) « بسبع وخمسين سنة » .

(٢) الجون : هو معاوية بن آكل المرار الكندى سمى بذلك لشدة سواده . وفى الأصل : « الجون الكلبى » .

(٣) هجر : مدينة بالبحرين .

(٤) التكملة من العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٦٣ طبع بلاق) .

(٥) النعم (بفتحتين) : الإبل خاصة .

تدخُل شِعْبَ جَبَلة فتقاتل القوم [دونها](١) من وجه واحد ، فإنهم داخلون عليك الشِّعْب ، وإنّ لَقِيطا رجلٌ فيه طَيْش فسيقتحم عليك الجبل ، فأرَى أن تأمر بالإبل فلا ترعَى ولا تُسْقَى وتُعْقَل ، ثم تجعل الذرارى وراءَ ظهورنا وتأمر بالرِّجالة فتأخذ بأذناب الإبل ، فإذا دخلوا علينا الشِّعْب حلَّت الرجّالةُ عُقُلَ الإبل ثم لَزِمت أذنابها فإنها تنحدر عليهم وتَحِنّ الى مراعِيها ووِرْدِها ، ولا يرُدّ وجوهها شيء ، ويخرج الفُرْسان فى أثر الرجّالة الذين خَلْف الإبل فإنها تُحَطِّم ما لَقِيَتْ وتُقبِل عليهم الخيل وقد حُطِّموا من عَلٍ . فقال الأحوص : نِعْمَ ما رأيتَ وأخذ برأيه ، وكان مع بنى عامرٍ يومئذٍ بنو عَبْس ، وغَنِيٌّ فى بنى كلاب ، و باهلةٌ فى بنى صَعْب ، والأبناء أبناء صَعْصَعة . وكان رَهْط المُعَقِّر البارقىّ يومئذ فى بنى نُمَير بن عامر ، وكانت قبائل بَجِيلة كلّها فيهم غير قيس .

قال أبو عُبَيدة : وأقبل لَقِيطٌ والملوكُ ومَن معهم فوجدوا بنى عامرٍ قد دخلوا شِعْبَ جَبَلَة فنزلوا على فَمِه ، فقال لهم رجلٌ من بنى أَسَد : خذوا عليهم فَمَ الشِّعْب حتى يَعْطَشُوا ويجوعوا ، فأتَوْا حتى دخلوا عليهم الشِّعْب ، وكانوا قد عقَلوا الإبل [وعطَّشوها](٢) ثلاثة أخماس ، وذلك اثنتا عشرة ليلة لم تُطعَم شيئا ، فلمّا دنَوْا حَلّوا عُقُلَها فأقبلتْ تَهوِى ، فظنّ القوم عند ذلك أنّ الشِّعْب قد هُدَّ عليهم ، والرجّالة فى آثارها آخذين بأذنابها فدقّت كلّما لَقِيت ، فانهزموا لا يَلْوُون على أحد ، وقُتِلَ لَقِيطٌ وأُسِر حاجِبُ بنُ زُرَارة ، أسره ذُو الرُّقَيْبة ، وأُسِر سِنَان بن أبى حارثة المُرّىّ أسره عُرْوة الرحّال ، فجزّ ناصيتَه وأطلقه ، وأُسر عمرو بنُ أبى عمرو بن عُدُس ، أسره قيس بن المُنْتَفق ، فجزّ ناصيتَه وخلّاه طمعا فى المكافأة فلم يفعل ، وقُتِل معاويةُ بنُ

١١٤/١٣

(١) التكملة من العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٦٣ طبع بلاق) .

(٢) التكملة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٦٤ طبع بلاق) .

الجَوْن ومُنقذُ بن طُرَيف الأَسَدىّ، ومالك بن رِبْعِىّ بن جَنْدَل بن نَهْشَل ، فقال جرير فى ذلك :

كأنكَ لم تَشْهَد لَقيطًا وحاجبًا * وعمرَو بنَ عمرٍو إذ دَعَوْا يالَ دَارِمِ
ويَوْمَ الصفا كنتم عَبِيدًا لعامرٍ * وبالحَزْن أصبحتم عَبِيدَ اللهازِمِ

٥ يعنى بالحَزْن يوم الوَقيط . وقال أيضا فى بنى دارم :

ويَوْمَ الشِّعْب قد تَرَكوا لَقيطًا * كأنَّ عليه نَحْلَةَ أُرْجُوَان
وكُبِّل حاجبٌ بِشَمَامِ حَوْلًا * فحَكَّمَ ذا الرُّقَيْبَة وهْوَ عانِى

وقالت دَخْتَنوس أختُ لَقيطٍ ترثى لَقيطًا :

فَرَّتْ بنو أَسَدٍ فرا * رَ الطَّيْرِ عن أربابها
١٠ عن خَيْرِ خِنْدَفَ كلِّها * من كَهْلِها وشبابها
وأَتَمِّها حَسَبا إذا * ضُمَّتْ الى أحسابها (١)

يوم الحُرَيْبة

وفيه قُتِل الحارث بن ظالم

قال أبو عبيدة : لما قَتَل الحارثُ بنُ ظالم خالدَ بنَ جعفر الكلابىّ أتَى صديقا
١٥ له من كِنْدَةَ . فآلتف عليه وطلبَه الملك فخفىَ ذكرَه ، ثم شخص من عند الكِنْدىّ وأضمرَتْه (٢) البلادُ حتى آستجار بزياد أحد بنى عِجْل بن لُجَيم ، فقام بنو ذُهْل بن ثعلبةَ وبنو عمرو بن شَيْبان فقالوا لمعجل : أخرجوا هذا الرجلَ من بين أظهركم فإنه لا طاقةَ

(١) هذه رواية الأصل والعقد الفريد (ج ٣ ص ٦٤ طبع بلاق) ورواية النقائض (ص ٦٦٦ طبع أوربا) والأغانى (ج ١١ ص ١٤٦ طبع دار الكتب المصرية) هكذا :

٢٠ بكر النعى بخير خند * ف كهلها وشبابها
وبخيرها نسبا إذا * عدّت الى أنسابها

(٢) أضمرت الأرض الرجل : غيبته إما بسفر أو بموت .

لنا بالشَّهْباء ودَوْسَر، وهما كَتِيبتان للأَسْود بن المنذر، فأبتْ عِجْلٌ ذلك عليهم، فلمّا رأى الحارثُ بنُ ظالم ذلك كَرِهَ أن تقع الفتنةُ بينهما بسببه، فآرتحل من بنى عِجْل الى جَبَلَىْ طَيِّء فأجاروه، فقال فى ذلك :

لَعَمْرِى لقد حلَّتْ بِى اليومَ ناقتِى * الى ناصرٍ من طَيِّءٍ غيرِ خاذلِ
فأصبحتُ جارًا للمَجَرَّةِ فيهمُ * على باذخٍ يَعْلُو يدَ المُتَطاوِلِ
اذا أَجَأ لَفَّتْ علىَّ شِعَابَها * وسَلْمَى فانِّى أتمُ مِنْ تَنَاوُلِى (١)

فمكث عندهم حينا . ثم إن الأسود بن المنذر لمّا أعجزه أمرُه أرسل الى جاراتٍ كُنَّ للحارث بن ظالم استاقهنَّ وأموالهنّ، فبلغ ذلك الحارث، فخرج من الجبلين فآندسّ فى الناس (٢) حتّى علِمَ مكانَ جاراته ومَرْعَى إبلِهنّ فأتاهنّ وآستنقذهنّ وآستاق إبلَهنّ فألحقهنّ بقومهنّ . وآندسّ فى بلاد غَطَفَان حتّى أتى سِنَان بن أبى حارثة المُرّىّ وهو أبو هَرِم بن سِنَان ممدوح زُهَير . وكان الأسود بن المنذر قد آسترضع آبنَه شُرَحْبيلَ عند سَلْمَى آمرأة سِنَان، وهى من بنى غَنْم بن دُودان بن أَسَد، فكانت لا تأمن على آبن الملك أحدا، فاستعار الحارث بن ظالم سَرْجَ سِنَان، وهو فى ناحية الشَّرَبَّة، فأتى به سَلْمَى آمرأة سِنَان وقال لها : يقول لك بَعْلُك : ابعثى آبنَك مع الحارث فإنى أريد أن أستأمِنَ له الملك، وهذا سَرْجُه لك آيةٌ . قال : فزيّنته ودفعتْه اليه، فأتى به ناحيةً من الشَّرَبَّة فقتله وهرب من فوره، وهرب سِنَان بن أبى حارثة . فلمّا بلغ الأسودَ قَتْلُ آبنه شُرَحْبِيل غزا بنى ذُبْيان فقَتَل وسَبَى، وأخذ الأموال، وأغار على بنى دُودان رهط سَلْمَى، فقتلهم وسباهم، ثم وجد بعد ذلك نعلَىْ شُرَحْبِيل فى جانب الشَّرَبَّة عند بنى مُحَارِب بن خَصَفة، فغزاهم وأسرهم وأحمى لهم الصَّفا وقال : إنى أحذيكم نِعالا، فأمشاهم عليها، فسقطت أقدامهم . ثم إن سَيَّار بن عمرو بن جابر

(١) أجأ وسلمى : جبلان لطيء .
(٢) عبارة الأغانى (ج ١١ ص ١٠٧ طبع دار الكتب المصرية) : « فآنساب فى غمار الناس » .

الفَزَارِىّ احتمل للأسود دِيَةَ ٱبنه ألف بعير ورهَنَه بها قوسه، فوفاه بها وقال فى ذلك:

ونحن رَهَنَّا القَوْسَ ثُمَّتْ فُودِيَتْ * بأَلْفٍ على ظَهْرِ الفَزَارِىِّ أَقْرَعَا

بعَشْرِ مِئِينٍ للملوكِ وفَى بها (١) * لِيُحْمَدَ سَيَّارُ بنُ عمرٍو فأَسْرَعَا

قال: ثم هرب الحارث فلحق بمعبد بن زُرَارة فٱستجار به فأجاره، وكان من سببه وقعة رَحْرَحان التى تقدّم ذكرها. ثم هرب حتى لحق بمكة وقريش لأنه يقال: إنّ مُرّة بن عَوْف بن سعد بن ذُبْيان إنما هو مُرّة بن عوف بن لؤىّ بن غالب، فتوسّل إليهم بهذه القرابة وقال فى ذلك:

اذا فارَقْتُ ثعلبةَ بنَ سَعْدٍ * وإخوتَهم نُسِبْتُ الى لُؤَىّ

الى نَسَبٍ كريم غيرِ وَغْلٍ * وحَىٍّ من أكارِمِ كلِّ حَىّ

فإنْ يَكُ منهم أصلى فمنهم * قوانينُ الإلٰهِ بنو قُصَىّ

فقالوا له: هذا نَسَب رَحِم كرشاء (٢) اذا ٱستغنيتم عنها أدبرتم. قال: فشَخَص [الحارث] (٣) عنهم غَضْبانَ وقال فى ذلك:

١١٥/١٣

أَلَا لستم منّا ولا نحنُ منكُمُ * برئنا إليكم من لُؤَىّ بنِ غالبِ

غَدَوْنا (٤) على نَشْرِ الحجاز وأنتمُ * بمُنْشَعِبِ (٥) البَطْحاء (٦) بين الأخاشِبِ (٧)

وتوجّه الى الشام فلَحِقَ بيزيد بن عمرو الغسّانىّ فأجاره وأكرمه. وكانت ليزيد ناقةٌ مُحْماة، فى عُنُقها مُدْيَةٌ وزِنَاد وصُرّة مِلْح، يمتحن بها رعيّته لينظر مَن يجترئ عليه،

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١١١ طبع دار الكتب المصرية) وخزانة الأدب (ج ٣ ص ٣٠٤) «سعى بها ... ليوفى» وقد صححها المرحوم الشنقيطى: «سعى لها». (٢) الرشاء: الحبل. (٣) زيادة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٦٧ طبع بلاق). (٤) كذا فى العقد الفريد. والنشز: المتن المرتفع من الأرض، أو ما ارتفع عن الوادى الى الأرض وليس بالغليظ. (٥) انشعب الطريق: تفرّق. (٦) البطحاء: كل موضع متسع. (٧) الأخاشب: جبال مكة.

فوجمت امرأة الحارث فاشتهت شحما فانطلق الى الناقة فانحرها وأتاها بشحمها وفقدت الناقة فأرسل الى الخمس التغلبي، وكان كاهنا، فسأله عنها، فأخبره أن الحارث صاحبها، فهم به الملك ثم تذمم(١) من ذلك، فأوجس الحارث في نفسه شرا فأتى الخمس التغلبي فقتله، فلما فعل ذلك دعا به الملك فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجرتني فلا تغدرني، قال الملك: لا ضير إن غدرت بك مرة فقد غدرت بي مرارا، وأمر ابن الخمس به فقتله، وأخذ ابن الخمس(٢) سيف الحارث، فأتى به سوق عكاظ في الأشهر الحرم(٣)، فأراه قيس بن زهير العبسي فضربه به قيس فقتله.

ذكر حرب داحس والغبراء

وهي من حروب قيس

قال أبو عبيدة: حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ابني بغيض ابن ريث بن غطفان. وكان السبب الذي هاجها أن قيس بن زهير وحمل ابن بدر تراهنا على داحس والغبراء أيهما يكون له السبق. وكان داحس فحلا لقيس بن زهير. والغبراء حجر(٤) لحمل بن بدر، فتواضعا الرهان على مائة بعير، وجعلا

(١) تذمم: استنكف.

(٢) اسمه «مالك» كما في الأغاني (ج ١١ ص ١١٩ طبع دار الكتب المصرية).

(٣) وردت هذه العبارة في الأغاني (ج ١١ ص ١١٩ طبع دار الكتب المصرية) هكذا: «فأتى به سوق عكاظ في الحرم ...» وضبط لفظ «الحرم» بالقلم بفتح الحاء والراء المهملتين. وبهذا الضبط يتبادر إلى ذهن القارئ أنه قتله بالحرم (أي الكعبة) ويؤيد هذا تكرار هذه الكلمة بهذا الضبط في السطر التالي لها، وهذا خطأ، والصواب أنه قتله في الأشهر الحرم (بضم الحاء والراء المهملتين) بسوق عكاظ، وهي سوق بصحراء بين نخلة والطائف، كانت تقوم هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يوما، تجتمع قبائل العرب فيتعاكظون، أي يتفاخرون ويتناشدون.

(٤) الحجر: الفرس الأنثى لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر. وأحجار الخيل: ما يتخذ منها للنسل لا يفرد لها واحد.

مُنْتهى الغاية مائة غَلْوة، والمضمار أربعين ليلةً، ثم قاداهما إلى رأس المَيْدان بعد أن ضَمَراهما أربعين ليلةً . وكان فى طَرَف الغاية شِعَاب كثيرةٌ، فأكمن حَمَلُ بنُ بدر فى تلك الشِّعَاب فِتْيانا على طريق الفَرَسَيْن وأمرهم إن جاء داحسٌ سابقا أن يردّوه عن الغاية ، ثم أرسلوهما ، فلما أُحضِرا خرجتِ الأنثى عن الفحل فقال حَمَل بن بدر : سبقتْك ياقيس ، فقال قيس : رُوَيْدًا يَعْدُوَانِ الجَدَدَ إلى الوَعْث وترشَح أعطاف الفَحْل ، فلمّا أوْغَلا عن الجَدَد وخرجا إلى الوَعْث بَرَزَ داحِسٌ عن الغبراء فقال قيس : « جَرْىُ المَذَكِّيَاتِ[1] غِلَابٌ[2] » فذهبتْ مثلا . فلمّا شارف داحِسٌ الغايةَ ودنا من الفِتْية وثبوا فى وجه داحِسٍ فردّوه عن الغاية ، ففى ذلك يقول قيسُ بنُ زُهَير :

وما لاقَيْتُ من حَمَلِ بن بَدْرٍ * وإخْوتِهِ على ذاتِ الإصَادِ[3]
هُمو نَحَرُوا علىّ بغيرِ نَحْرٍ * وردّوا دُون غايتِهِ جَوَادِى

وثارت الحرب بين عبس وذُبْيان ابنَىْ بغيض ، فركدت أربعين سنة لم تُنْتَج ناقةٌ ولا فرسٌ فيها لاشتغالهم بالحرب . فبعث حُذَيفةُ بنُ بدر ابنَه مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه حقّ السَّبْق ، فقال قيس : كلّا لامطلتك به ، ثم أخذ الرمح فطعنه فدقّ صُلْبه ، ورجعت فرسُه غائرة ، واجتمع الناس فحملوا دِيَة مالك مائة ناقة عُشَراء[4] وزعموا أنّ الرَّبيع بن زِيَاد العبسىّ حملها وحدَه فقبضها حُذَيفة وسَكَن الناس .

(١) المذكية من الخيل : التى قد أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

(٢) الغلاب : المغالبة ، أى إن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوته .

(٣) ذات الإصاد : موضع ببلاد بنى فزارة .

(٤) العشراء : التى أتى على حملها عشرة أشهر من ملقحها .

ثم إن مالك بن زهير نزل اللقاطة[1] من أرض الشَّرَبَّة[2] فأُخبِرَ حُذَيفةُ بمكانه، فعدا عليه فقتله، ففى ذلك يقول عنترة :

فلله عَيْنًا مَنْ رأى مثلَ مالكٍ * عَقِيرةَ قومٍ أن جَرَى فَرَسانِ

فليتهما لم يَجْرِيَا قِيدَ غَلْوَةٍ * وليتهما لم يُرْسَلَا لِرِهَانِ

فقالت بنو عبس : مالك بن زُهَير بمالك بن حُذَيفة ورُدُّوا علينا مالنا، فأبى حُذَيفةُ أن يردّ شيئا، وكان الربيع بن زياد مجاورًا لبنى فَزَارة .

قال : فلمّا قُتِل مالك بن زهير جعل بنو فَزارة يتساءلون ويقولون : ما فعل حِمارُكم ؟ قالوا : صِدْناه، فقال لهم الربيع : ماهذا الوحى ؟ قالوا : قتلنا مالك ابن زُهَير، قال : بئس ما فعلتم بقومكم ! قَبِلتم الدِّية ورَضِيتم بها ثم غدرتم ! فقالوا : لولا أنك جارُنا لقتلناك، وكانت خَفَرة الجار ثلاثا، فقالوا له : بعدَ ثلاث ليال أُخرج عنّا، فخرج واتّبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه، وأتاه قيس بن زهير فعاقده. ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غَطَفان إلى بنى فَزَارة وذُبْيان ورئيسهم الربيع بن زياد، ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر .

١١٦/١٣

يوم المُرَيْقِب

لبنى عَبْس على بنى ذُبْيان

فالتقَوْا بذى المُرَيْقِب[3] من أرض الشَّرَبَّة فاقتتلوا، فكانت الشوكة فى بنى فَزَارة قُتل منهم عوفُ بن بدر بن عمرو بن أبى الحصين، أحد بنى عدىّ بن فزارة وجماعةٌ كثيرة . وفى هذه الوقعة يقول عَنْترة الفوارس :

ولقد عَلِمْتَ إذ التقتْ فُرسانَها * يومَ المُرَيْقِبِ أنّ ظنَّك أحمقُ

(١) اللقاطة : موضع قريب من الحاجر من منازل بنى فزارة .

(٢) الشربة : موضع بين السليلة والربذة، وقيل : إذا جاوزت النقرة وأنت تريد مكة وقفت فى الشربة .

(٣) المريقب : تصغير مَرْقَب : موضع من الشربة .

يوم ذى حُسًى
لذُبيان على عَبْس

ثم إن ذُبيان تجمّعت لِمَا أصابتْ بنوعبس منهم يوم المُرَيْقِب فَزارة بن ذُبيان ومرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان وأحلافهم، فنزلوا فتوافَوْا بذى حُسًى[1]، وهو وادى الصفا من أرض الشَّرَبَّة ، فهُزِمت بنو عبس وخافت ألّا تقوم بجماعة بنى ذبيان وأتبعوهم حتى لحقوهم ، فقالوا : التفانى أو تُقِيدونا ، فأشار قيسُ بنُ زهير على الربيع بن زياد ألّا يناجزهم، وأن يُعطوهم رهائنَ من أبنائهم حتى ينظروا فى أمرهم، فتراضَوْا أن يكون رهنهم عند سُبَيع بن عمرو أحد بنى ثعلبة بن سعد بن ذُبْيان ، فدفعوا إليه ثمانية من الصِّبْيان ، فانصرفوا وتكافأ الناس ، فمكث رهنهم عند سُبَيع حتى حضرته الوفاة ، فقال لابنه مالكِ بنِ سُبَيع : إنّ عندك مكْرُمةً لا تَبِيد[2] إن أنت احتفظتَ بهؤلاء الأغَيْلمة ، وكأنى بك لو مُتّ قد أتاك خالُك حُذَيفة بن بدر فعصر لك عينيه وقال : هلك سيّدُنا ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، فلا تَشْرُفُ بعدها أبدا ، فإن خِفْتَ ذلك فاذهب بهم إلى قومهم . فلما هلك سُبَيع أطاف حُذَيفة بابنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه، فأتى بهم اليَعْمَرِيّة[3]، فجعل يُبْرِز كلّ يوم غلاما فينصبه غَرَضًا ويقول له : نادِ أباك ، فينادى أباه حتى يقتله .

---

(١) ذو حسى : موضع بالعالية فى أرض غطفان .

(٢) لا تبيد : لا تنقطع ولا تذهب . وفى الأصل « لا ضير » .

(٣) اليعمرية : ماء يراد من بطن نخل من الشربة لبنى ثعلبة .

يوم اليَعْمَرِيَّة

لعبس على ذبيان

قال : فلما بلغ ذلك من فعله بنى عبس أتوهم باليَعْمَرِيَّة فلقوهم بحَرّتها فقتلوا منهم آثنى عشر رجلا ، منهم مالكُ بن سبيع الذى نبذ بالغلمة إلى حذيفة ، وأخوه يزيد بن سبيع ، وعامر بن لوذان ، والحارث بن زيد ، وهرم بن ضمضم أخو حُصَين . ويقال ليوم اليعمريّة : يوم ذى نفر لأنهما متجاوران .

يوم الهَباءة

لعبس على ذبيان

قال : ثم آجتمعوا فآلتقَوْا فى يوم قائظ إلى جنب جَفر الهباءة[1] وآقتتلوا من أوّل النهار إلى أن آنتصف ، وحجز الحرُّ بينهم ، وكان حُذَيفة بن بدر يحرق فخذيه الركضُ[2] ، فقال قيس بن زهير : يا بنى عبس ، إنّ حُذَيفة غدًا إذا آحتدمت الوديقة مُستنقِعٌ فى جَفْر الهباءة فعليكم بها ، فخرجوا حتى وقعوا على أثر صارِف : فرس حذيفة ، والحيفاء : فرس حَمَل بن بدر ، فقفَوْا أثرهما حتى توافَوْا مع الظهيرة على الهباءة ، فبصُر بهم حَمَلُ بن بدر فقال : هذا قيسُ بنُ زهير قد أتاكم ، فوقف قيس وأصحابُه على جَفْر الهباءة وهو يقول : لَبّيكم لَبّيكم ! يعنى إجابةَ الصِّبْيَةِ الذين كانوا ينادونهم إذ يُقتَلُون[3] ! وفى الجَفْر حُذَيْفةُ وحَمَل وبدر ومالك بنو بدر ، وورقاء بن بِلال

(١) الهباءة : أرض ببلاد غطفان . وجفر الهباءة : مستنقع فى هذه الأرض .

(٢) الوديقة : شدّة الحرّ .

(٣) كذا فى كتاب النقائض (ص ٩٥ طبع أوربا) والأغانى (ج ١٦ ص ٣١ طبع بلاق) . وفى الأصول والعقد الفريد : « هلال » .

من بنى ثعلبة بن سعد . وحنش بن عمرو[1] ، فوقف عليهم شداد بن معاوية العبسىّ ، فحال بينهم وبين خيلهم ، ثم توافت فرسانُ بنى عَبْس فقال حَمَل : ناشدتك بالرحم يا قيس ، فقال : لَبّيكم لَبّيكم ! فعرف حذيفةُ أنه لن يدعهم فانتهر حَمَلا فقال : إيّاك والمأثورَ من الكلام ، فذهبتْ مثلا ، وقال لقيس : لئن قتلتنى لا تصلُح غَطَفان بعدها أبدا ! فقال : أبعدَها الله ولا أصلحها ، وجاءه قرواشٌ بِمِعْبلةٍ[2] فقصم صُلْبه ، وقتل الربيعُ بنُ زياد حَمَلَ بن بدر ، فقال قيس بن زهير يرثيه :

١١٧/١٣

تَعَلَّمْ أنّ خيرَ الناسِ مَيْتٌ * على جَفْرِ الهَباءةِ ما يَرِيمُ[3]
ولولا ظُلْمُه ما زِلْتُ أبكِى * عليه الدهرَ ما بَدَتِ النجومُ
ولكنّ الفتَى حَمَلَ بنَ بَدْرٍ * بَغَى والبَغْىُ مَرْتَعُه وَخِيمُ
أظُنُّ الحِلْمَ دَلَّ علىَّ قومِى * وقد يُسْتَجْهَل الرَّجُلُ الحَلِيمُ
ومارَسْتُ الرجالَ ومارَسُونِى * فمُعْوَجٌّ وآخَرُ مُسْتَقِيمُ

ومثّلوا بحذيفة بن بدر كما مثّل بالغِلْمة ، فقطعوا مذاكيره وجعلوها فى فِيه وجعلوا لسانه فى آسته ، ففى ذلك يقول قائلهم :

فإنّ قتيلًا بالهباءة فى آستِه * صَحِيفَتُه إنْ عاد للظُّلْمِ ظالمُ
متى تقرأوها تَهْدِكم من ضَلالكم * وتُعْرَف إذا ما فُضَّ عنها الخواتمُ

---

(١) كذا فى كتاب النقائض والأغانى . وفى الأصول : « وهب » وفى العقد الفريد : « حسن بن وهب » وهو تحريف .

(٢) المعبلة : نصل عريض طويل .

(٣) ما يريم : أى ما يبرح .

وقال عمرو بن الأسلع :

إنّ السماءَ و إنّ الأرض شاهِدةٌ (١) * واللهُ يَشْهَدُ والإنسانُ والبَلَدُ
أنى جَزَيْتُ بنى بدرٍ بسَعْيهمُ * على الهباءة قتلًا ما له قَوَدُ
لمّا ٱلتقينا على أرجاء جَمّتِها * والمَشْرَفيّةِ فى أيماننا تَقِدُ
عَلَوْتُهُ بحُسامٍ ثم قلتُ له : * خُذْها حُذَيْفُ فأنت السيّدُ الصَّمَدُ

فلمّا أصيب أهلُ الهباءة وٱستعظمت غَطفانُ قَتْلَ حُذَيفةَ، تجمّعوا، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مُقَام بأرض غطفان، فخرجوا الى اليمامة فنزلوا بأخوالهم من بنى حنيفة ، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببنى سعد بن زَيْد مَنَاة .

يوم الفَرُوق

لبنى عبس

ثم إنّ بنى عبس غدروا بجوارهم فأتَوْا معاويةَ بنَ الجَوْن فٱستجاسوا عليهم وأرادوا أكلهم، فبلغ ذلك بنى عبس ففزوا ليلا، وقدّموا ظُعُنَهم، ووقفت فُرْسانهم بموضع يقال له الفَرُوق، وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود الملك على محلّتهم فلم يجدوا إلّا مواقد النيران فٱتبعوهم حتى أتوا الفَرُوق ، فإذا بالخيل والفُرْسان وقد تواترت الظُّعُن عنهم، فانصرفوا عنهم؛ ومضى بنو عبس فنزلوا ببنى ضَبّة فأقاموا فيهم . وكان بنو حذيفة من بنى عبس يسمّون بنى رواحة ، وبنو بدر من فَزَارة يسمّون بنى سودة، ثم رجعوا إلى قومهم وصالحوهم، فكان أوّل مَنْ سَعَى فى الحمالة حَرْملة بن الأشعر بن صرمة بن مرّة، فمات، فسعى فيها ٱبنُه هاشمُ بن حرملة ، وإليه أشار الشاعر :

أحْيَا أباه هاشمُ بنُ حرملَهْ * يومَ الهباءتَيْنِ ويومَ اليَعْمَلَهْ
ترى الملوكَ حَوْلَهُ مُرَعْبَلَهْ * يَقْتُلُ ذا الذنبِ ومَن لا ذنب له !

(١) فى الأصول : « الريح » .

يوم قَطَن

فلمّا توافَوْا للصلح وقَفَتْ بنو عبس بقَطَن[1] وأقبل حُصَينُ بنُ ضَمْضَم فلقى تيحان أحد بنى مخزوم بن مالك ففتله بأبيه ضمضم . وكان عنترة بن شدّاد العبسىّ قتله بذى المُرَيْقب ، فأشارت بنو عبس وحُلفاؤهم بنو عبد الله بن غَطَفان وقالوا : لا نصالحكم ما بلّ البحر صُوفةً وقد غدرتم بنا غير مرّة ، وتناهض الناس : عبسٌ وذبيان ، فالتقَوْا بقَطَن ، فقَتَل يومئذ عمرُو بنُ الأسلع عُتبةَ ، ثم سفرت السفراء ، بينهم ، وأتى خارجةُ بنُ سنان أبا تيحان بابنه فدفعه اليه وقال : فى هذا وفاءٌ من ابنك ! فأخذه فكان عنده أياما ، ثم حمل خارجةُ لأبى تيحان مائةَ بعير فأدّاها اليه واصطلحوا وتعاقدوا .

يومُ غَدِير قَلْبَى

قال أبوعبيدة : فاصطلح الحيّان إلّا بنى ثعلبة بن سعد بن ذُبيان ، فإنهم أبَوْا ذلك وقالوا : لا نرضى حتى يُودُوا قتلانا أو يُهدَرَ دمُ مَن قتلها ، فخرجوا من قَطَن حتى وَرَدُوا غَدِير قَلْبَى ، فسبقتهم بنو عبس الى الماء فمنعوهم حتى كادوا يموتون عَطَشا ، فأصلح بينهم عَوْفٌ ومَعقِل ابنا سُبَيع من بنى ثعلبة و إياهما يعنى زُهير بقوله :

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وذُبْيَانَ بَعْدَمَا * تَفَانَوْا وَدَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ[2]

فوردوا حربا وخرجوا عنه سلما . تمّ خبر داحس والغبراء .

---

(١) قطن : جبل لبنى أسد .

(٢) منشم : اختلف فيها ، فقيل : إنها امرأة عطارة من خزاعة ، فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا ، فصار هؤلاء مثل أولئك فى شدّة الأمر . وقال أبو عمرو الشيبانى : هى امرأة من خزاعة كانت تبيع عطرا ، فإذا حاربوا اشتروا منها كافورا لموتاهم ، فتشاءموا بها ، وكانت تسكن مكة . وقال ابن الكلبى : هى امرأة من جرهم . وقال أبو عمرو بن العلاء : منشم ، إنما هو من التنشيم فى الشرّ . ومنه قولهم : لما نشم الناس فى عثمان . (أى طعنوا فيه ونالوا منه) راجع شرح ديوان زهير للإمام ثعلب ص ١٥ طبع دار الكتب المصرية .

يومُ الرَّقَم

لغَطَفان على بنى عامر

غزتْ بنوعامر فأغاروا على بلاد غَطَفان بالرَّقَم[(١)] — وهو ماء لبنى مُرّة — وعلى بنى عامر : عامرُ بنُ الطُّفَيل — ويقال يزيد بن الصَّعِق — فركب عُتبة بن حُصَين فى بنى فَزارة، ويزيد بن سِنَان فى بنى مُرّة — ويقال الحارث بن عَوْف — فانهزمت بنو عامر ، فزعمتْ غَطَفان أنهم أصابوا من بنى عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلا، فدفعوهم إلى أهل بيت من أَشْجَع، كانت بنوعامر قد أصابوا فيهم، فقتلوهم أجمعين. ١١٨/١٣

وانهزم الحَكَم بن الطُّفَيل فى نَفَرٍ من أصحابه، فيهم خوّات بن كعب حتى انتهَوْا إلى ماء يقال له : المرورات ، فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخَنَق الحَكَم ابن الطفيل نفسه مخافةَ المُثْلة ، فقال فى ذلك عُرْوَة بن الوَرْد :

عَجِبتُ لهم إذ يَخْنُقُون نُفُوسَهم * ومَقْتَلُهُمْ تحتَ الوَغَى كان أعْذَرا[(٢)]

يوم التَّناءة[(٣)]

لعبس على بن عامر

يقال : خرجت بنوعامر تريد أن تُدرِك بثأرها يومَ الرَّقَم، فهجموا على عبس بالتُّناءة وقد أُنذِروا بهم ، فالتقَوْا، وكان على بنى عامر : عامرُ بنُ الطُّفَيل، وعلى بنى عبس: الربيع بن زِياد، فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزمتْ بنو عامر، وقُتِل منهم هزار بن مُرّة، قتله الأحنف بن مالك، ونهشل بن عُبَيدة بن جعفر، قتله أبو زغبة ابن حارث وعبد الله بن أنس بن خالد، وهُزمت بنوعامر هزيمة قبيحة .

(١) فى معجم ما استعجم للبكرى : « الرقم بفتح أوّله وثانيه : موضع بالحجاز قريب من وادى القرى » . (٢) أى كان أعذر لهم من خنقهم أنفسهم (راجع شرح ديوان عروة ص ١٣٥ طبع أوربا) . (٣) التناءة : نخيلات لبنى عطارد .

يومُ شُوَاحِط (١)

لبنى مُحارب على بنى عامر

غَزَتْ سَرِيَّةٌ من بنى عامر بن صَعْصَعَة بلادَ غسّان ، فأغاروا على إبل لبنى مُحَارب بن خَصَفَة ، فأدركهم الطلبُ ، فقتلوا من كلاب تسعة (٢) نفر وآرتدّوا إبلَهم فلما رجعوا وثَبَتْ بنو كلاب على جَسْرٍ — وهم من بنى مُحَارِب ، وكانوا حاربوا إخوتهم ، فخرجوا من عندهم فحالفوا بنى عامر بن صَعْصَعَة — فقالوا : نَقْتُلُهم بقَتْل بنى مُحَارِب مَنْ قَتَلُوا مِنّا ، فقام خِدَاشُ بنُ زُهَير دُونهم حتى منعهم من ذلك وقال :

أيا راكبًا إمّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ * عقيلا وأبلِغْ إنْ لَقِيتَ أبابكر
فيا أخَوَيْنَا مِنْ أبينَا وأُمِّنا * إليكم إليكم لاسبيلَ الى جَسْرِ
دَعُوا جانِبِى إنّى سأترك جانبا * لكم واسعا بين اليمامة والقَهْر (٣)
أنا فارسُ الضحياءِ عمرُو بنُ عامرٍ * أبَى الذمَّ وآختار الوفاء على الغَدْرِ

يوم حَوْزَة الأوّل (٤)

لسُلَيم على غَطَفان

قال أبو عُبَيدة . كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حَرْمَلة أحد بنى مُرّة : — مُرّة غطفان — كلام بعكاظ ، فقال معاوية : والله لَوَدِدْتُ أنى قد سمعتُ بظعائن يَنْدُبْنَكَ ، فقال هاشم : والله لَوَدِدْتُ أنى قد بَرَيْتُ الرطبة — وهى جُمّة

(١) شواحط : جبل مشهور بين مكة والمدينة .

(٢) فى معجم ما استعجم للبكرى فى كلامه على شواحطه : « سبعة نفر » .

(٣) القهر : موضع باليمامة . (٤) حوزة : واد بالحجاز .

معاوية ، وكانت الدهرَ تنطف ماءً ودُهْنا وإن لم تُدهَن — فلمّا كان بعد [حين][1] تهيّأ معاوية ليغزو هاشما ، فنهاه أخوه صخر ، فأبى وغزاهم يومَ حَوْزة، فرآه هاشم ابن حَرْملةَ قبل أن يراه معاوية، وكان هاشم ناقها من مرضٍ أصابه ، فقال لأخيه دُرَيد بن حَرْملة : إنّ هذا إن رآنى لم آمَنْ أن يشُدّ علىّ ،وأنا حديثُ عهد بشكّة ، فاستطرِدْ له [دونى][2] حتى تجعلَه بينى وبينك، ففعل، فحمل عليه معاويةُ وأَرْدفه[3] هاشم ، فاختلفا طعنتين فأردى[4] معاويةُ هاشما عن فرسه الشمّاء ، وأنفذها هاشم سنانَه عن عانة معاوية، وكرّ عليه دُرَيد وظنّه قد أرْدَى هاشما،فضرب معاوية بالسيف فقتله ، وشدّ خُفاف بن عمرو على مالك بن حِمَار الفَزَارىّ [فقتله][5] .

قال : وغارت الشمّاء فرس هاشم حتى دخلت فى جيش بنى سُليم فأخذوها وظنوا أنها فرس الفزارىّ الذى قتله خُفاف، و رجع الجيش، فلما دنَوْا من صخر أخى معاوية قال لهم : ما صنع معاوية ؟ قالوا قتل ! قال : فما هذه الفرس ؟ قالوا : قتلنا صاحبها ! قال : إذًا قد أدركتم ثأركم ، هذه فرس هاشم بن حرملة .

قال : فلما دخل رجبٌ ركب صخرُ بنُ عمرو الشمّاء صبيحة يومِ حَرَام ، فأتى بنى مُرّة ، فلمّا رأَوْه قال لهم هاشم : هذا صخر فحيّوه وقولوا له خيرا، وهاشم مريضٌ من الطعنة التى طعَنه معاويةُ ، فقال : مَن قتل أخى ؟ فسكتوا ، فقال : لمن هذه الفرسُ التى تحتى ؟ فسكتوا ، فقال هاشم : هلمّ أبا حسّان إلى مَنْ يُخبرك ! قال : مَن قتل أخى ؟ فقال [هاشم][5] : إذا أصبتنى أو دُريدًا فقد أصبتَ ثأرك! فقال : هل كفّنتموه ؟ قال : نعم ، فى بُرْدين : أحدهما بخمس وعشرين بكرة

(١) التكملة من العقد الفريد .
(٢) التكملة من العقد الفريد .
(٣) أردفه : تبعه .
(٤) أرداه : أسقطه .
(٥) التكملة من العقد الفريد .

وأَرَوه قبره ، فلمّا رأى القبر جزع عنده ثم قال : كأنكم أنكرتم ما رأيتم من جزعى ، فوالله ما بتّ منذ عقلت إلّا واترا أو موتورا ، وطالبا أو مطلوبا حتى قُتِل معاوية ، فما ذقتُ طعمَ نوم بعده .

يوم حَوْزة الثانى

١١٩/١٣

٥ قال : ثم غزاهم [صخر] فلما دنا منهم مضى على الشمّاء ، وكانت غرّاء مُحجّلةً ، فسوّد غُرّتها وتحجيلها ، فلما رأته بنتٌ لهاشم قالت لعمّها دُرَيد : أين الشمّاء؟ قال : هى فى بنى سُلَيم . قالت : ما أشبَهها بهذه الفرس ! فقال : هذه بَهِيم[1] والشمّاءُ غرّاء مُحجّلة ، ثم اضطَجَع فلم يشعُر حتى طعنه صَخْر ، قال : فثاروا وتناذَرُوا ، وولّى صَخْرٌ وطلبتْه غَطَفان عامّةَ يومها ، وعارض دُونه أبو شجرة بن عبد العُزّى ، وكانت أمّه خنساء

١٠ أخت صخر ، وصخرٌ خاله ، فردّ الخيلَ عنه حتى أراح فرسَه ونجا إلى قومه ، فقال خُفاف بن نُدْبة لمّا قتل معاوية : قتلنى الله إن برحت من مكانى حتى أثأر به ! فشدّ على مالك سيّد بنى شَمْخ فقتله ، وقال صَخْرٌ فى قتله دُرَيدا :

ولقد دفعتُ إلى دُرَيدٍ طَعْنَةً * نَجْلاءَ تُزْغِلُ[2] مثل غَطّ المِنْخَرِ

ولقد قتلتكم ثُناءً ومَوْحِدًا * وتركتُ مُرّةَ مِثلَ أَمْسِ الدّابِرِ

١٥ قال أبو عبيدة : وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج منتجعا فلقيه عمرو بن قيس الجُشَمىّ ، فتبعه وقال : هذا قاتل معاوية ، لا وَأَلَتْ نفسى إن وَأَلَ[3] ، فلما دنا منه أرسل عليه مِعْبَلَةً فَفَلَقَ قِحْفه فقتله .

---

(١) البهيم : الأسود ، وما لا شية فيه من الخيل للذكر والأنثى .

(٢) تزغل : تخرج الدم قطعا قصما .

٢٠ (٣) وأل : نجا .

يومُ ذات الأثْلِ

قال أبو عبيدة : ثم غزا صَخْرُ بنُ عمرو بن الشَّرِيد بنى أسد بن خُزَيمة فاكتسح إبلَهم ، فأتى الصريخُ بنى أسد ، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأَثْل ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فطعن ربيعة الأسدىّ صخرا فى جنبه وفات القومُ بالغنيمة ، ومرض صخر من الطَّعْنَة قريبا من الحَوْل حتّى ملَّه أهلُه ، فسمع آمرأة من جاراته تسألُ سَلْمَى آمرأتَه : كيف بَعْلُك ؟ قالت : لاحَىٌّ فيُرْجَى ، ولا مَيِّتٌ فيُنْسَى ، لقد لَقِينا منه الأمَرَّين ! وكانت أمّه إذا سئلت عنه تقول : أرجو له العافية إن شاء الله ! فقال فى ذلك :

أرَى أُمَّ صَخْرٍ لا تَمَلُّ عِيَادتِى * ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِى ومكانِى
فأىُّ آمرِئٍ ساوَى بأُمِّ حليلةً * فلا عاشَ إلّا فى أذًى وهَوَانِ
وما كنتُ أخشَى أن أكون جِنَازةً[1] * عليكِ ومَنْ يَغْتَرُّ بالحَدَثَانِ
لَعَمْرِى لقد نبَّهتُ مَنْ كان نائما * وأسمعتُ مَن كانت له أذُنانِ
أهُمُّ بأمْرِ الحَزْمِ لو أستطيعه * وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوانِ

قال : فلمّا طال عليه البلاء — وقد نتأتْ قطعةٌ من جنبه مثلَ اليد فى موضع الطعنة — قالوا له : لو قطعتَها لرجَوْنا أن تبرأ ، فقال شأنكم ! فقطعوها فمات ، فقالت أخته الخنساء ترثيه :

وقائلةٍ والنعشُ قد فات خَطْوُها * لِتُدْرِكَهُ يالَهْفَ نَفْسى على صَخْرِ !
ألَا ثَكِلَتْ أمُّ الذين غَدَوْا به * إلى القبر ماذا يَحْمِلُون إلى القبر !

(١) اذا ثقل المريض على قومه وآغتموا به فهو جنازة عليهم . هكذا ورد فى لسان العرب مادة (جنز) واستشهد بهذا البيت على ذلك .

يومُ اللِّوَى[1]

لغَطَفان على هَوَازِن

قال أبو عُبَيدة : غزا عبد الله بن الصِّمَّة — وآسمُ الصِّمَّة : معاويةُ الأصغر — من بنى غزيَّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوَازن — وكان لعبد الله ثلاثةُ أسماء وثلاث كُنًى ، فآسمُه : عبدُ الله ، وخالد ، ومعبد ، وكنيته أبو فرعان ، وأبو دُفافة ، وأبو وفاء ، وهو أخو دُرَيد بن الصِّمَّة لأبويه — فأغار على غَطَفان فأصاب منهم إبلا عظيمة فاطَّردها ، فقال له أخوه دُرَيد : النجاء فقد ظَفِرْتَ ، فأبى عليه وقال : لا أبرحُ حتى أنتقع نقيعتى — والنقيعة : ناقةٌ ينحرها من وَسَط الإبل فيصنع منها طعاما لأصحابه ، ويقسم ما أصاب عليهم — فأقام وعصى أخاه ، فتبعتْه فَزَارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له اللِّوَى ، فقُتل عبد الله ، وآرتُثَّ[2] دريد فبقى فى القتلى . فلما كان فى بعض الليل أتاه فارسان ، فقال أحدُهما لصاحبه : إنى أرى عينية تبصّ ، فآنزل فآنظُر إلى سُبَّتِه[3] ، فنزل فكشف ثوبه فإذا هى ترمَّز[4] ، فطعنه ، فخرج دمٌ قد آحتُقِنَ .

قال دريد : فأفقتُ عندها ، فلمّا جاوَزُوا نهضتُ ، فما شعرتُ إلّا وأنا بين عرقوبَىْ جَمَل آمرأةٍ من هَوَازن ، فقالت : مَن أنتَ؟ أعوذ بالله من شرّك ! قلتُ : لا ، بل مَنْ أنتِ؟ ويلك ! قالت : آمرأةٌ من هَوَازِنَ سيّارةٌ . قلتُ : وأنا من هَوَازِنَ ، أنا دُرَيدُ بن الصِّمَّة . قال : وكانت فى قوم مختارين لا يشعرون بالوَقْعة ، فضمَّته وعالجَتْه حتى أفاق .

---

(١) اللوى : واد من أودية بنى سليم .

(٢) المرتث : من حمل من المعركة جريحا وبه رمق .

(٣) السبة : الآست . (٤) ترمز : تضطرب .

يوم الظعينة

بين دُرَيد بن الصِّمَّة وربيعة بن مُكَدَّم

قال أبو حاتم عن أبي عبيدة قال : خرج دُرَيدُ بنُ الصِّمَّة في فوارسَ من بني جُشَمَ حتى إذا كانوا في وادٍ يقال له : الأَخْرَم ، وهم يريدون الغارة على بني كنانة ، إذ رُفع له رجلٌ في ناحية الوادي ومعه ظَعينة ، فلمّا نظر اليه قال لفارس من أصحابه : صِحْ به : خَلِّ الظَّعينة وٱنجُ بنفسك ، فٱنتهى اليه الفارسُ ، فصاح به وألحَّ عليه ، فألقَى زِمامَ الراحلة وقال للظعينة : ١٢٠/١٣

سِيرى على رِسْلِكِ سَيْرَ الآمِنِ * سَيْرَ رَدَاحٍ ذاتِ جَأْشٍ ساكِنِ

إنّ ٱنْثنائى دُونَ قِرْنِى شائِنِي * أبلِى بَلائِى وٱخْبُرِى وَعَايِنِي

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه للظَّعينة ، فبعث دُرَيد فارسا آخر لينظُرَ ما صنع صاحبُه ، فلمّا ٱنتهى اليه ورآه صَريعا صاح به فتصامّ عنه ، فظنّ أنه لم يسمع ، فغَشِيَهُ ، فألقَى زِمام الراحلة إلى الظَّعينة ورجع وهو يقول :

خَلِّ سبيلَ الحرّة المَنِيعهْ * إنَّك لاقٍ دُونَها رَبِيعهْ

فى كَفِّهِ خَطِّيَّةٌ مُطِيعهْ * أوْ لَا فَخُذْها طَعْنَةً سَرِيعهْ

* والطَّعْنُ مِنِّى فى الوَغَى شَرِيعهْ *

ثم حمل عليه فصرعه ، فلمّا أبطأ على دُرَيد بعث فارسا [ثالثا](١) لينظُرَ ما صنعا ، فلما ٱنتهى إليهما رآهما صَريعَيْن ونظر إليه يقُودُ ظَعينته ويجُرّ رُمْحَه . فقال له : خَلِّ سبيلَ الظَّعينة ، فقال للظعينة : اقصِدِى قَصْدَ البيوت ، ثم أقبل عليه فقال :

ماذا تُرِيدُ من شَتِيمٍ عابِسِ * ألم تَرَ الفارِسَ بعدَ الفارِسِ

* أرْداهما عامِلُ رُمْحٍ يابِسِ *

(١) التكملة من أمالى القالى (ج ٢ ص ٢٧١ طبع دار الكتب المصرية) .

ثم حَمَل عليه فصرَعه وٱنكسر رمحُه ، وٱرتاب دُرَيدٌ وظنّ أنهم قد أخذوا الظَّعينة وقتلوا الرجل ، فلَحِقَ ربيعةَ وقد دنا من الحيّ ، فوجد أصحابَه قد قُتلوا ، فقال : أيها الفارس ، إنّ مثلَك لا يُقتَل ، ولا أَرَى معك رُمْحا والخيلُ ثائرةٌ بأصحابها ، فدُونَك هذا الرُّمْحَ فإنّى منصرفٌ إلى أصحابى فمُثَبِّطُهم عنك ، فٱنصرف دُرَيدٌ وقال لأصحابه :

٥ إنّ فارسَ الظَّعينة قد حماها وقَتَل فُرْسانَكم وٱنتزعَ رُمْحِى ، ولا مَطْمَعَ لكم فيه فٱنصرِفُوا ، فٱنصرَف القوم ، فقال دُرَيد :

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله * حامِى الظَّعينةِ فارسًا لم يُقْتَلِ
أَرْدَى فَوارسَ لم يَكُونُوا نُهْزَةً * ثم ٱستمَرَّ كأنه لم يَفْعَلِ
مُتَهَلِّلًا تَبْدُو أَسِرَّةُ وَجْهِهِ * مثلَ الحُسامِ جَلَتْه كَفُّ الصَّيْقَلِ
١٠ يُزْجِى ظَعِينَتَه ويَسْحَبُ رُمْحَه * مُتَوَجِّهًا يُمْنَاهُ نَحْوَ المَنْزِلِ
وتَرَى الفَوَارِسَ من مَخافة رُمْحِه * مِثْلَ البُغاثِ(١) خَشِينَ وَقْعَ الأَجْدَلِ
يا ليتَ شِعْرِى مَنْ أبوه وأمُّه * يا صاحِ مَنْ يَكُ مِثْلَه لا يُجْهَلِ

وقال ربيعةُ بنُ مُكَدَّم :

إن كان يَنْفَعُكِ اليقينُ فسائِلِى * عَنِّى الظعينةَ يومَ وادِى الأَخْرَمِ
١٥ إذْ هِى لأَوَّلِ من أتاها نُهْبَةٌ * لولا طِعَانُ رَبِيعةَ بنِ مُكَدَّمِ
إذْ قالَ لى أَدْنَى الفوارِسِ مِيتةً * خَلِّ الظَّعِينةَ طائعا لا تَنْدَمِ
فصَرَفْتُ راحلةَ الظَّعِينةِ نحوَه * عَمْدًا لِيَعْلَمَ بعضَ ما لم يَعْلَمِ
وهَتَكْتُ بالرُّمْحِ الطويلِ إهابَهُ * فهَوَى صَرِيعًا لليَدَيْنِ وللفَمِ

(١) قال أبو علىّ القالى : البغاث (بضم الباء الموحدة وكسرها) والضم أكثر وأشهر (راجع
٢٠ الأمالى ج ٢ ص ٢٧٢ طبع دار الكتب المصرية) .

وَمَنَحْتُ آخَرَ بعدَه جَيَّاشَةً * تَجْلاءَ فاغِرةً كشِدْقِ الأَضْجَمِ
ولقد شَفَعْتُهما بآخَرَ ثالثٍ * وأَبَى الفِرارَ لَى الغَداةَ تَكَرُّمِى

ثم لم تلبث بنو كِنانة(١) أن أغارتْ على بنى جُشم(٢)، فقتلوا وأسروا دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّةِ فأخفَى نفسه ، فبينما هو عندهم محبوسٌ إذ جاءه نسوةٌ تتهادَيْن إليه ، فصرَخَتْ إحداهنّ وقالت : هلكتُم وأهلكتُم ! ماذا جرّ علينا قومُنا ! هذا والله الذى أعطَى ربيعةَ رُمحَه يومَ الظَّعِينة ! ثم ألقتْ عليه ثوبَها وقالت : يا آل فَراس ، أنا جارةُ له منكم، هذا صاحبُنا يوم الوادى ! فسألوه : مَنْ هو ؟ فقال: أنا دُرَيدُ بن الصِّمَّة فمَنْ صاحبى ؟ قالوا : ربيعةُ بنُ مُكَدَّم ، قال: فما فعل؟ قالوا : قتلتْه بنو سُلَيم! قال : فما فَعَلتِ الظَّعِينة؟ قالتِ المرأة : أنا هِيَهْ، وأنا آمرأته، فحبسه القوم وآمَرُوا أنفسهم، فقال بعضهم : لا ينبغى لدُرَيدٍ أن تُكفَر نعمتُه على صاحبنا! وقال آخرون: والله لا يخرج من أيدينا إلّا برضا المُخارِق الذى أسره، فانبعثتِ المرأةُ فى الليل، وهى رَيْطة بنتُ جِذْلِ الطَّعان ، تقول :

١٢١/١٣

سَنَجْزِى دُرَيدًا عن ربيعةَ نِعْمَةً * وكلُّ آمرئٍ يُجْزَى بما كان قَدَّما
فإن كان خيرا كان خيرا جَزاؤه * وإن كان شَرًّا كان شَرًّا مُذَمَّما
سنَجْزِيه نُعْمَى لم تكن بصَغِيرةٍ * بإعطائه الرُّمْحَ الطويلَ المُقَوَّما
[فقد أدركتْ كفّاه فينا جَزاءه * وأهلٌ بأن يُجْزَى الذى كان أنْعَما(٣)]
فلا تَكْفُروه حَقَّ نُعْماهُ فيكمُ * ولا تَرْكَبُوا تلكَ التى تَمْلَأُ الفَما
فلو كان حَيًّا لم يَضِقْ بثوابه * ذِراعا غَنِيًّا كان أو كان مُعْدِما

(١) بنو كنانة : رهط ربيعة بن مكدم .
(٢) بنو جشم : رهط دريد .
(٣) الزيادة من أمالى القالى .

[فَفُكُّوا دُرَيْدا من إسَارِ مُخَارِقٍ * ولا تَجْعَلُوا البُؤْسَى إلى الشَّرِّ سُلَّمَا](١)

فلما أصبحوا أطلقوه ، فكَسَتْه وجهّزته ولحِق بقومه ، فلم يزل كافًّا عن غَزْو بنى فِرَاس حتى هَلَك .

يومُ الصَّلْعاء

لهَوَازِن على غَطَفان

٥

قال : فلمّا كان فى العام المقبل غزاهم دُرَيد بن الصِّمَّة بالصَّلْعاء(٢) ، فخرجت إليه غَطَفان فقال دريد لصاحبه : ما ترى ؟ قال : أرى خيلا عليها رجال كأنهم الصبيان ، أسنّتها عند آذان خيلها . قال : هذه فَزَارة ، ثم قال : أُنظر ما ترى ؟ قال : أرى قوما كأنّ عليهم ثيابا غُمِست فى لِجَاب المِعْزَى ، قال : هذه أشجع ، ثم قال : أنظر ما ترى ؟ قال : أرى قوما يجرّون رماحهم سودا ، يخدّون الأرض بأقدامهم ، قال : هذه عَبْس ، أتاكم الموت الزؤام فاثبتوا ، فالتقَوْا بالصلعاء فاقتتلوا ، فكان الظفر لهوزان على غطفان ، وقَتَل دُرَيدٌ ذُؤابَ بنَ زيد بن قارب .

١٠

ذكر حرب قيس وكنانة

يومُ الكَدِيد(٣) لسُلَيم على كِنانة

١٥

فيه قُتِل ربيعةُ بنُ مُكَدَّم فارسُ بنى كِنانة ، وهو من بنى فِرَاس بنِ غَنْم بن مالك ابن كِنانة ، وهم أنجدُ العرب ، كان الرجل منهم يَعْدِل بعشرة من غيرهم ، وكان

(١) الزيادة من أمالى القالى . (ج ٢ ص ٢٧٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) الصلعاء (بفتح أوّله وإسكان ثانيه بعده عين مهملة ممدود) : أرض لبنى عبد الله بن غطفان ولبنى فزارة بين النقرة والحاجر تطؤها طريق الحاج الجادة الى مكة .

٢٠

(٣) الكديد (بفتح أوّله وكسر ثانيه بعده دال مهملة أيضا) : موضع بين مكة والمدينة بين منزلتى أمج وعسفان وهو ماء عين جارية عليها نخل كثير .

ربيعةُ بن مكدَّم يُعْقَر على قبره فى الجاهليّة ، ولم يُعْقَر على قبر أحدٍ غيره ، وقتلته بنو سُلَيم يوم الكَدِيد ، ولم يحضر يوم الكَدِيد أحدٌ من بنى الشَّريد .

يومُ فَزَارة

لكنانة على سُلَيم

قال أبو عبيدة : لمّا قتلت بنو سُلَيْم ربيعةَ بنَ مُكَدَّم فارسَ كنانة ورجعوا، أقاموا ما شاء الله ، ثم إنّ ذا التاج مالكَ بنَ خالد بن صَخْر بن الشَّريد — واسم الشَّريد عمرو، وكانت بنو سُلَيْم قد توجوا مالكا وأمّروه عليهم — فغزا بنى كِنَانة، فأغار على بنى فِرَاس بِبُزْرة[1] ، ورئيسُ بنى فِرَاس عبد الله بن جِذْل، فدعا عبد الله إلى البراز ، فبرز إليه هِندُ بن خالد بن صَخْر بن الشَّريد ، فقال له عبد الله : مَن أنت ؟ قال : أنا هِندُ بنُ خالد ، قال عبد الله ؛ أخوك أسنّ منك ، يريد مالك ابن خالد ، فرجع فأخبر أخاه ، فبرز له ، فشَدّ عبد الله على مالك بن خالد فقتله ، فبرز إليه أخوه كُرْزُ بنُ خالد بن صخر ، فشَدّ عليه عبد الله أيضا فقتله ، فشدّ عليه أخوهما عمرو بن خالد بن صخر ، فتجالدا طَعْنتين ، فجرح كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه وتحاجزا .

يومُ الفيفاء[2]

لسُلَيْم على كِنَانة

قال أبو عبيدة : ثم إنّ بنى الشَّريد حرّموا على أنفسهم النساءَ والدُّهْن أو يُدْرِكوا ثأرَهم من كنانة ، فغزا عمرو بن خالد بن صخر بن الشَّريد بقومه حتى أغار على

(١) كذا فى معجم ما استعجم للبكرى . وبزرة (بضم أوله وإسكان ثانيه بعده راء) : موضع فى ديار بنى كنانة . وفى الأصول والعقد الفريد « برزة » بتقديم الراء على الزاى وهو تحريف .

(٢) أصل الفيفاء : المفازة لا ماء فيها وأطلقت على موضع .

بنى فِرَاس، فقتل منهم نفرا؛ منهم : عاصم بن المُعَلَّى ، ونَضْلة ، والمعارك، وعمرو ابن مالك ، وحِصْن ، وشُرَيح ؛ وسبى سبيا فيهم ٱبنة مُكَدَّم أخت ربيعة ، فقال عباسُ بنُ مِرداس فى ذلك :

أَلَا أَبْلِغْنْ عَنِّى ٱبْنَ جِذْلٍ ورَهْطَه * فكيف طلبناكم بُكْرٍ ومالكِ
غداةَ جَمَعناكم بحِصْن وبٱبنه * وبٱبنِ المعلَّى عاصم والمعارِكِ
ثمانيةٌ منهم ثأرناهم به * جميعا وما كانوا بَوَاءً[1] بمالك
نُذيقكم ـ والموتُ يَبْنِى سُرَادِقًا * عليكم ـ شَبَا حدِّ السيوف البواتِكِ
تلوحُ بأيدينا كما لاحَ بارقٌ * تلألأ فى داجٍ من الليل حالِكِ

ذكر حرب قيس وتميم

يومُ السُّؤْبان[2] لبنى عامر على بنى تميم

قال أبو عبيدة : أغارت بنو عامر على بنى تميم وضبّة فاقتتلوا، ورئيسُ ضبّة حسّان بن وَبْرة ، وهو أخو النعمان بن المنذر لأمّه ، فأسره يزيد بن الصَّعِق ، وٱنهزمت تميم؛ فلمّا رأى ذلك عامرُ بنُ مالك بن جعفر حسده، فشدّ على ضِرار بن

(١) البواء : الكفء .

(٢) كذا فى كتاب النقائض (ص ٣٨٦ طبع أوربا) ومعجم ما ٱستعجم للبكرى (ص ٧٥٩ طبع أوربا) وورد فيه : « السؤبان بضم أوّله وإسكان ثانيه بعده باء معجمة بواحدة على وزن فعلان : واد فى ديار بنى تميم ... ويوم من أيام حروب بنى عامر وبنى تميم يسمى يوم السؤبان ، وفى ذلك سمى عامر ابن مالك ملاعب الأسنة ، وفيه قال طفيل ، قال أوس بن حجر :

فودّ أبو ليلى طفيل بن مالك * بمنعرج السوبان لو يتقصع
يلاعب أطراف الأسنة عامر * وصار له حظ الكثيب أجمع

ثم قال :

كأنهم بين الشميط وصارة * وجوثم والسوبان خشب مصرع =

عمرو الضبيّ[1] ، وهو الرُّدَيْم[2] ، فقال لابنه : إذا همَّ أغنِه عنّى ، فشدّ عليه فطعنه ، فتحوّل عن سَرْجه إلى جَنْب أبدانه ، ثم لحقه ، فقال لأحد بنيه : أغنِه عنّى ، ففعل مثلَ ذلك ، ثم لحقه ، فقال لابنٍ له آخر ، ففعل مثلَ ذلك ، فقال : ما هذا إلّا مُلاعِبُ الأسنّة ! [فسُمِّىَ عامر من يومئذ مُلاعِبُ الأسنّة[3]] فلما دنا منه قال له ضِرَار : إنى لأعلم ما تريد ، أتريد اللُّبَب[4] ؟ قال نعم ! قال : إنك لن تَصِلَ إلىّ ومن هؤلاء عين تَطرف ، كلهم بنو عامر . قال له عامر : فأحلنى على غيرك ، فدلّه على حُبَيْش بن الدُّلَف وقال : عليك بذلك الفارس ، فشدّ عليه فأسره ، فلما رأى سوادَه وقِصَرَه ، جعل يتفكّر ، وخاف ابن الدُّلَف أن يقتله ،

= قوله : يتقصع ، أى يدخل القاصعاء » اهـ .

وفى معجم البلدان لياقوت : « السلان : بضم أوّله وتشديد ثانيه ، وهو فعلان من السل والنون زائدة : موضع بين البصرة واليمامة ... قال أبو أحمد العسكرى : يوم السلان السين مضمومة : يوم بين بنى ضبة و بنى عامر صعصعة طعن فيه ضرار بن عمرو الضبى وأسر جيش بن دلف فعل ذلك بهما عامر مالك ، وفى هذا اليوم سمى ملاعب الأسنة » اهـ .

وورد فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٧٩ طبع بلاق) : «السريان » وورد هكذا أيضا فى العقد الفريد (ج ٦ ص ٤١ طبع مطبعة الآستقامة بالقاهرة) بتحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان وكتب بهامشه : « كذا بالأصل ، ولا نعرفه » وورد فى نسخة أ « السيوبات » وفى نسخة ب هكذا « السوبات » بإهمال بعض الحروف ، وقد تبين مما وضحناه أن كلاهما محرّف ، والصواب ماذكرناه .

(١) كذا فى كتاب النقائض (ص ١٨٨ طبع أوربا) . وفى الأصول : « القيسى» وهو خطأ .

(٢) كذا فى كتاب النقائض . وسمى « رديما » لأنه كان يحمل على بعيرين يقرن بينهما لثقله . وفى الأصول : « الرويم » وهو تحريف .

(٣) التكملة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٧٩ طبع بلاق) . وكتاب النقائض (ص ٣٨٦ طبع أوربا) ومعجم ما أستعجم للبكرى (ص ٧٥٩ طبع أوربا) .

(٤) اللبب : موضع المنحر من كل شيء .

فقال : ألستَ تريد اللُّبَب ؟ قال بلى ، قال : فأتى لك به . وفادى حسّانُ بنُ وَبْرة نفسه من يزيد بن الصَّعِق بألف بعير[1] ، [فداءَ الملوك][2] فكثر مال يزيد ونبه .

قال أبو عبيدة : ثم أغار بعد ذلك يزيد بن الصَّعِق على عصافير النعمان بذى لُبَان ، وذو لبان : عن يمين العرنيين .

يوم أقرن

لبنى عَبْس على بنى دارم

قال : غزا عمرو بنُ عُدُس من بنى دارِم ، وهو فارسُ بنى مالك بن حنظلة ، فأغار على بنى عَبْس ، فأخذ إبلا ونساءً[3] ثم أقبل ، حتى إذا كان أسفل من ثَنِيَّة أَقْرُن نزل فأبتنى بجارية من السَّبْى ، ولَحِقَه الطلب فاقتتلوا ، فقتل أَنَسُ الفوارسُ بن زِيَاد العَبْسىّ عمرًا : وانهزمتْ بنو مالك بن حنظلة ، وقتلتْ بنو عبس أيضا حَنْظلةَ بن عمرو — وقال بعضهم : قُتِل فى غير هذا اليوم — وارتدّوا ما كان فى أيدى بنى مالك .

يومُ المَرُّوت[4]

لبنى العَنْبَر على بنى قُشَير

أغار بُجَيرُ[5] بنُ سَلَمة بن قُشَير على بنى العَنْبَر بن عمرو بن تميم ، فأتى الصريخُ بنى عمرو بن تميم حتى لحقوه وقد نزل المَرُّوت ، وهو يَقْسم المِرْبَاع ويُعطِى مَن معه ،

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصول : « بمائة » .
(٢) التكملة من العقد الفريد .
(٣) كذا فى معجم ما استعجم (ص ١١٧ طبع أوربا) وفى الأصول « شاء » .
(٤) المروت (بفتح أوله وتشديد ثانيه) : واد بالعالية بين ديار بنى قشير وديار بنى تميم .
(٥) كذا فى كتاب النقائض (ص ٧٠ طبع أوربا) ومعجم ما استعجم للبكرى (ص ٥٢٤ طبع أوربا) وفى الأصول والعقد الفريد : « بجير » بالجيم المعجمة وهو تحريف .

فتلاحق القوم وٱقتتلوا ، فطعن قَعْنَبُ بنُ عتّاب المثلّمُ بنَ عامر القُشَيْرِى فصرعه فأسره ، وحمل الكَدّام ، وهو يزيد بن أُزَيهر المازنى على بجير بن سَلَمَة فطعنه فأرداه عن فرسه ، ثم أسره ، فأبصره قَعْنَبُ بنُ عتّاب ، فحمل عليه بالسيف فضربه فقتله ، وٱنهزم بنو عامر .

يومُ دارَةِ مَأْسَل

لتميم على قَيْس

غزا عُتْبَةُ بنُ شُتَيْر بن خالد الكِلَابىّ بنى ضَبَّة ، فٱستاقَ نَعَمَهم ، وقتل حُصَيْنَ بنَ ضِرَار الضبىّ زيدَ الفوارس ، فجمع أبوه ضِرَار قومَه وخرج ثائرا بٱبنه حُصَيْنَ ، وزيدُ الفوارس يومئذ حَدَثٌ لم يُدْرِك ، فأغار على بنى عمرو بن كِلاب ، وأفلت منه عُتبة بن شُتَيْر وأسر أباه شتير [بن خالد] (١) وكان شيخا كبيرا ، فأتى به قومَه فقال : ياشُتَيْر ، اختَرْ واحدةً من ثلاث ، قال : اعْرِضها علىّ ، قال : إمّا أن تَرُدّ ٱبنى حُصَيْنًا ! قال : إنّى لا أنشُرُ الموتَى ! قال : وإمّا أن تدفع إلىّ ٱبنَك عُتْبَةَ أقتله به ! قال : لا يَرْضَى بذلك بنو عامر ، قال : وإمّا أن أقتلك . قال : أما هذه فنعم ! فأمر ضِرَارٌ ٱبنَه أدْهَمَ أن يقتله ، فلمّا قدّمه ليضرب عنقه نادى شُتَيْر : يا آلَ عامر ، صَبْرًا بصبىّ ! كأنه أنِفَ أن يُقتَلَ بصبىّ ، فقال فى ذلك شمعلة :

وخيّرنا شُتَيْراً مِنْ ثلاثٍ * وما كان الثلاثُ له خِيَارَا
جَعَلْتُ السيف بين اللِّيتِ (٢) منه * وبين قُصَاصِ لِمَّتِهِ عِذَارَا

(١) التكملة من العقد الفريد .
(٢) الليت (بالكسر) : صفح العنق .

أيامُ تميم على بكر

يومُ الوَقِيط (١)

قال فِرَاس بن خِنْدِف : تجمّعت اللّهازِم لتُغِير على تميم وهم غارُون (٢) ، فرأى ذلك ناشِبُ بنُ بَشَامة العَنْبرىّ الأَعْوَر ، وهو أسيرٌ فى بنى سعد بن مالك من بنى ثعلبة ، فقال لهم : أعطونى رسولا أُرسِله إلى بنى العنْبر أوصيهم بصاحبكم خيرا ليُولوه ما تُولوننى من البِرّ . وكان حَنْظَلة بن طُفَيل المَرْثَدىّ أسيراً فى بنى العَنْبَر ، فقالوا : على أن تُوصِيَه ونحن حضُور ، قال نعم ، فأتَوْه بغلام (٣) ، فقال : أتيتمونى بأَحْمق ، وما أراه مُبَلِّغا عنّى ! قال الغلام : لا والله ما أنا بأحمق ، وقُلْ ما شئتَ فإنّى مُبَلِّغه ، فملأ الأَعْور كفّه من الرمل فقال : كم فى كفّى منه ؟ قال : شىء لا يُحْصَى كثرةً ، ثم أومأ الى الشمس فقال : ما تلك ؟ قال : هى الشمس . قال : فاذهبْ إلى أهلى فأبلِغْهم عنّى التحيّة وقُلْ لهم : ليُحْسِنوا إلى أسيرهم [ويكرموه (٤)] فإنى عند قوم مُحسنين إلىّ [مُكرمين لى (٤)] وقُلْ لهم ليُعْرُوا جَمَلى الأحمر : ويركبوا ناقتى العَيْساء (٥) ، ويَرْعُوا حاجتى فى بنى مالك ، وأخبرهم أن العَوْسَج (٦) قد أَوْرَق ، وقد اشتكت النساء ، وليَعْصِموا همّام بن بَشَامة فإنه مشئوم مَحْدُود (٧) . ويُطيعوا ابنَ الأخْنَس فإنه حازمٌ مَيْمُونٌ .

١٢٣/١٣

(١) الوقيط : المكان الصلب الذى يستنقع فيه الماء ، أطلق على موضع .

(٢) الغار : الغافل .

(٣) فى أمالى القالى (ج ١ ص ٦ طبع دار الكتب المصرية) « بفتىً بعيد أسود » وبعض عباراته تختلف عما هنا فراجعه .

(٤) التكملة من كتاب النقائض (ص ٣٠٦ طبع أوربا) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٨١ طبع بلاق) .

(٥) العيساء : الناقة يخالط بياضها شقرة .

(٦) العوسج : شوك .

(٧) المحدود : الممنوع .

قال : فآتاهم الرسول فأبلغهم ، فقال بنو عمرو بن تميم : ما نعرفُ هذا الكلام، ولقد جُنَّ الأعور، والله ما نعرف له ناقةً عَيْساءَ، ولا جَمَلا أحمر ! فشخص الرسول، ثم ناداهم هُذَيل : يابنى العنبر، قد بيَّن لكم صاحبكم، أمّا الرملُ الذى قبض عليه فإنه يُخبركم أنه أتاكم عددٌ لا يُحْصَى ، وأمّا الشمسُ التى أومأ إليها فإنه يقول : إن ذلك أوضح من الشمس ، وأمّا جملُه الأحمرُ فهو الصَّمّان[1] : يأمركم أن تُعْرُوه[2] ، وأما ناقتُه العَيْساء فهى الدَّهْنَاء[3] ، يأمركم أن تتحرزوا فيها ، وأما أبناء مالك فإنه يأمركم أن تُنْذِروا بنى مالك بن زَيْد مَنَاة ، وأن تمسكوا الحِلْف بينكم وبينهم ، وأما العَوْسَج الذى أورق ، فيخبركم أنّ القومَ قد لبسوا السلاح، وأمّا تشكّى النساء فيخبركم إنهنّ قد عَمِلْنَ حجلا يغزون به .

قال : فتحرَّزت عمرو فركبت الدَّهناء وأنذَرُوا بنى مالك فقالوا : ما ندرى ما تقول بنو عمرو، ولسنا مُتَحَوِّلين لما قال صاحبُهم . قال : فصبَّحت اللّهازِم بنى حنظلة فوجدوا عمرا قد جَلَتْ ، وكان على الجيش أبجر بن جابر العِجْلىّ، وشهدها ناسٌ من بنى تَيْم اللات ، وشهدها الفِرز بن الأسود بن شريك فى بنى شيبان، فأقتتلوا، فأُسِر ضِرَار بن القَعقاع بن زُرَارة، وتنازع فى أسْره بِشْر بن العَوْراء من تيم اللات، والفِرْز بن الأسود فحزّوا ناصيته وخلوا أسره من تحت الليل ، وأسر عمرو بن قيس من بنى ربيعة بن عِجْل عَنْجَل بن الماموم بن شيبان بن عَلْقَمة من بنى زُرَارة ، ثم منَّ عليه، وأُسِرتْ غَمامةُ بنت الطَّوْد بن عُبَيد بن زُرارة ، وأشترك فى أسْرها الخطيم بن هِلال، وظَربان بن زياد ، وقَيْس بن خُلَيد ، فردّوها إلى أهلها، وأُسر

(١) الصمان : جمل أحمر فى أرض بنى تميم .

(٢) تعروه : يعنى ترتحلوا عنه .

(٣) الدهناء : سبخة أجيل من الرمل، وهى ديار لعامة تميم .

حنظلة بن المأموم بن شَيْبان بن عَلْقمة ، أَسره طلبةُ بن زياد أحدُ بنى ربيعة بن عِجْل ، وأُسِرَ حَوْثرة بن بدر من بنى عبد الله بن دارم ، فلم يزل فى الوثاق حتى قال أبياتا يمدح فيها بنى عِجل فأطلقوه ، وأُسِرَ نُعَيْم بن القعقاع بن مَعْبَد بن زُرارة ، وعمرو بن ناشب ، وأُسِرَ سِنَان بن عمرو أحد بنى سلامة من بنى دارم ، وأُسِرَ حاضر بن ضَمْرة ، وأُسِرَ الهيثم بن صعصعة ، وهرب عوف بن القعقاع عن إخوته ، وقُتِلَ حَكِيم النَهشلىّ ، وكان يقاتل ويرتجز :

كلُّ آمرئٍ مُصَبَّحٌ فى أهْلِهِ * والموتُ أَدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

وفيه يقول عنترة :

وغادَرْنا حَكِيمًا فى مَجَالٍ * صَرِيعًا قد سَلَبْنَاهُ الإزَارَا

يوم النِّباج وثَيْتَل (١)

لبكر على تميم

قال أبو عُبَيدة مَعْمَر بن المثنَّى : غدا قيسُ بن عاصم فى مُقَاعِس وهو رئيسٌ عليها — ومُقَاعِس هم : صريم ، وربيع ، وعبيد ، بنو الحارث بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم — ومعه سَلَامة بن ظَرِب بن نمر الحمانى فى الأَجارِب وهم : حمان ، وربيعة ، ومالك ، والأعرج ، بنو كعب بن سعد ابن زيد مَناة بن تميم ، فغزَوْا بكر بن وائل فوجدوا بنى ذُهْل بن ثعلبة بن عكابة ، واللهازم وهم : بنو قيس وتَيْم اللات بن ثعلبة ، وعِجْل بن لُجَيْم ، وعنزة بن أسد ابن ربيعة بالنِّبَاج وثَيْتل ، وبينهما روحة ، فتنازع قيسُ بن عاصم وسلامةُ بن ظَرِب فى الإغارة ، ثم آتفقا على أن يُغِيرَ قيس على أهل النِّباج ، ويُغِيرَ سلامةُ على

(١) النباج : موضع قريب من ثيتل . وثيتل : ماء على عشر مراحل من البصرة .

أهل ثَيْتَل . قال : فبعث قيسُ بن عاصم الأهتم سبقةً له — والسبقةُ : الطليعة — فأتاه الخبرُ فلما أصبح قيس سقى خيله ، ثم أطلق أفواه الروايا وقال لقومه : قاتِلوا فإنّ الموتَ بين أيديكم ، والفلاةَ من ورائكم . فلما دَنَوا من القوم صُبحاً سمعوا ساقيا يقول لصاحبه : ياقيسُ ، أورد ، فتفاءلوا به ، فأغاروا على النَّباج قبل الصبح ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، ثم إنّ بكرا انهزمت ، فأسر الأهتمُ حُمْرانَ بنَ بشر بن عمرو ابن مرثد ، وأصابوا غنائم كثيرةً ، فقال قيس لأصحابه : لا مقام دون الثيتل ، فالنجاةَ ، فأتوا ثيتل ولم يغزوا سلامةَ وأصحابه بعد ، فأغار عليهم قيسُ بن عاصم ، فقاتلوه ثم انهزموا ، فأصاب إبلا كثيرةً ، فقال ربيعة بن طَريف :

فلا يُبْعِدَنْك الله قَيْسَ بنَ عاصمٍ * فأنتَ لنا عزٌّ عزيزٌ ومَوْئِلُ
وأنتَ الذى حَرَبْتَ[1] بكر بن وائلٍ * وقد عضَّلَتْ[2] منها النَّباج وثَيْتَلُ
غَداةَ دعَتْ يا آلَ شيبانَ إذْ رأَتْ * كَرَادِيسَ[3] يُزْجِيهِنَّ وَرْدٌ مُحَجَّلُ

١٢٤/١٣

وقال قُرّة بن قيس بن عاصم :

أنَا ابنُ الذى شَقَّ المزادَ[4] وقد رَأَى * بِثَيْتَلَ أحْيَاءَ اللَّهَازِمِ حُضَّرَا
فَصَبَّحَهُمْ بالجيش قَيْسُ بنُ عاصم * فَلَمْ يَجِدُوا إلاَّ الأَسِنَّةَ مَصْدَرَا
عَلَى الجُرْدِ[5] يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ[6] عَوَابِسًا * إذَا الماءُ مِنْ أعطافِهِنَّ تَحَدَّرَا
فَلَمْ يَرَهَا الراءُونَ إلا جُفَاءَةً * نَثَرْنَ عَجَاجًا بالسَّنَابِكِ أَكْدَرَا

(١) حربه : سلب ماله .
(٢) عضلت الأرض بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم .
(٣) كراديس : جمع كردوس ، وهى الخيل العظيمة ، وقيل : القطعة من الخيل العظيمة .
(٤) المزاد : جمع مزادة ، وهى الرواية .
(٥) فرس أجرد : قصير الشعر ، وقيل : الأجرد : الذى رق شعره وقصر ، وهو مدح .
(٦) الشكيم فى اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس التى فيها القماص .

سَقَاهُمْ بِهَا الذِّيفَانَ قَيْسُ بْنُ عاصم * وَكَانَ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرا
وَحُمْرَانَ أَدَّتْهُ إِلَيْنَا رِمَاحُنَا * فَنَازَعَ غُلاًّ فِي ذِرَاعَيْهِ أَسْمَرا
وجثّامةَ الذُّهْلِيَّ قُدْنَاهُ عَنْوَةً * إِلَى الحيِّ مَصْفُودَ اليَدَيْنِ مُفَكَّراً.

يوم زَرُود[1] الثانى

لبنى يربوع على بنى تغلب

أغار خُزَيمةُ بنُ طارق التغلبيّ على بنى يربوع وهم بزَرُود، فاقتتلوا قتالا شديدا، ثم انهزمت بنو تغلب، وأُسِرَ خُزَيمةُ بن طارق، أسره أنيف بنُ جَبَلةَ الضبّيّ — وهو فارسُ السليط، وكانَ يومئذ نقيلا[2] فى بنى يربوع — وأَسِيدُ بنُ حِنّاءة السليطى، فتنازعا فيه، فحكّما بينهما الحارث بن فراد، فحكم بناصية خزيمة للأنيف، على أنّ لأسيد على أنيف مائةً من الإبل. قال: فَفَدَى خُزَيمةُ نفسَه بمائتى بعير وفرس، فقال أنيف:

أَخَذْتُكَ قَسْرًا يا خُزَيْمَ بنَ طارقٍ * وَلَاقَيْتَ مِنِّى المَوتَ يَوْمَ زَرُودِ
وعانَقْتُه والخيلُ تَدْمَى نُحُورُها * فأنزلتُهُ بِالقَاعِ غَيْرَ حَمِيدِ

يوم ذى طُلوح[3]

لبنى يربوع على بكر

كان عَمِيرةُ بنُ طارق بنِ حصينةَ بنِ أريم بن عبيد بن ثعلبة، تزوّج مَرِيَّةَ بنت جابر، أخت أبجر بن جابر العِجْلىّ، فأبتنى بها فى بنى عجل، فأتى أبجر أختَه امرأةَ

(١) زرود: رمال بطريق الحاج من الكوفة.

(٢) النقيل: الغريب.

(٣) ذو طلوح: موضع فى حزن بنى يربوع بين الكوفة وفيد.

عَمِيرة يَزُورُها فقال لها : إنى لأرجو أن آتيَك ببنتِ النِّطف آمرأةِ عُمَيرة التى فى قومها، فقال له عَمِيرةُ : أترضى أن تحارِبَنِي وتسبينى؛ فَنَدِمَ أبجرُ وقال لِعَميرَةَ : ما كنتُ لِأَغْزُوَ قومَك، ثم غزا أبجر والحوْفَزَان متساندين ، هذا فيمن تبعه من بنى شيبان، وهذا فيمن تبعه من اللهازم، وساروا بعميرةَ معهم قد وكل به أبجرُ أخاه حُرْقُصةَ بن جابر، فقال له عَمِيرةُ : لو رجعتُ إلى أهلى فآحتملتُهم، فقال حُرْقُصَةُ : افعل، فكرَّ عميرةُ على ناقته، فسار يومين وليلةً حتى أتى بنى يَرْبوع، فأنذرهم الجيشُ، فآجْتَمَعُوا حتى آلتقَوْا بأسفل ذى طُلوح ، فكان أوّل فارسٍ طلع عليهم عَمِيرةُ ، فنادى : يا أبْجَرُ، هلمَّ! فقال مَنْ أنت؟ قال: أنا عَمِيرةُ، فكَذَّبه، فسفر عن وجهه، فعرفه، فأقبل إليه، وآلتفَّتْ الخيلُ بالخيل، فأُسِرَ الجيشُ إلا أقلّهم ، وأَسَر حنظلةُ آبنُ بشر بن عمرو بن عُدُس بن زيد بن عبدالله بن دارم — وكان فى بنى يربوع — الحَوْفزانَ بنَ شَريك ، أخذه معه أبو مُلَيل[1] ، وأخذ آبنُ طارق سوادةَ بنَ يحيى آبن عمّ أبجر، وأُخِذ أبو عَنَمَةَ الضَّبِّيُّ الشاعرُ مع بنى شيبان، فآفتكّه مِتَمِّمُ بنُ نويرةَ ، وأُسِر شريكُ بنُ الحوفزان ، وأسودُ وفَلْحَسُ، وهما من بنى سعد بن همّام، فقال جرير يذكر يومَ ذى طُلوح :

ولمَّا لَقِيْنَا خَيْلَ أبْجَرَ تَدَّعِى * بِدَعْوَى لُجَيمٍ قَبْلَ مَيْلِ العَوَاتِقِ
صَبَرْنَا وكَانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً * بأسيافنا تحتَ الظِّلَال الخوافِقِ
فَلَمَّا رَأَوْا أنْ لَا هَوادةَ عِنْدَنَا * دَعَوْا بعدَ كَرْبٍ يَا عَمِيرَ بنَ طارِقِ

(١) كذا فى كتاب النقائض . وفى الأصول والعقد الفريد : «أبو مليك» .

يَوْمُ الحائِرِ وهو يومُ مَلْهَم

لبنى يربوع على بنى بكر

وذلك أنّ بنى مُلَيْل عبد الله بن الحارث بن عاصم بن عُبَيْد ، وعنقمة أخاه انطلقا يطلبان إبلًا لهما حتى وردا ملهمَ من أرض اليمامة ، فخرج عليهما نفرٌ من بنى يشكر ، فقتلوا علقمةَ وأخذوا أبا مُلَيْل ، فكان عندهم ما شاء الله ثم خَلُّوا سبيلَه ، وأخذوا عليه عهدا وميثاقا ألا يُخْبِرَ بأمر أخيه أحدا ، فأتى قومَه فسألوه عنه فلم يخبرهمْ ، فقال وَبْرةُ بنُ حمزه : هذا قد أُخِذَ عليه عهدٌ وميثاق ، فخرجوا يقصُّون الأثر وبينهم شهابُ بنُ عبدِ القيس حتى وردوا مَلْهَم ، فلما رآهم أهلُ مَلْهَم[1] تحصّنوا ، فحرقت بنو يربوع بعضَ زرعهم ، وعقروا بعضَ نَخْلِهم ، فلمّا رأى ذلك القومُ نزلوا إليهم فقاتلوهم ، فَهُزِمت بنو يشكر ، وقُتِل عَمرُو بنُ صابر صَبْرًا ، ضربوا عنقَه ، وقَتَل عيينةُ بنُ الحارث بن شهاب بن مُثَلَّم بن عُبَيْد بن عمرو رجلا آخر منهم ، وقَتَل مالكُ بنُ نُوَيرة حُمْرانَ بن عبد الله وقال :

٢٥/١٣

طلبنا بيومٍ مثلَ يومِك علقَما * لَعَمْرِى لمَنْ يَسْعَى بها كان أكرمَا
قتلنا بجنبِ العِرْصِ عمرو بنَ صابر * وحُمْرانَ أقصَدْنا هما والمثلَّما
فلله عينا مَنْ رأى مِثْلَ خَيْلِنا * وما أدركتْ من خَيْلِهم يومَ مَلْهَما

يوم القحقح وهو يوم مالة

لبنى يربوع على بكر

أغارت بنو أبى ربيعة بن ذُهْل بن شيبان على بنى يربوع ورئيسهم مجبة ابنُ ربيعة بن ذهل ، فأخذوا إبلًا لعاصم بن قرط أحد بنى حميد ، وانطلقوا ، فطلبهم

(١) ملهم : قرية باليمامة لبنى يشكر وأخلاط من بكر .

بنو يربوع، فناوشوهم، فكانت الدائرة على بنى ربيعة، وقتل المنهالُ بنُ عصمة المَجَبَّةَ بن ربيعة، فقال فى ذلك ابنُ حُمْرانَ الرياحىّ :

وإذا لَقِيتَ القومَ فاطعنْ فيهم * يومَ اللِّقاءِ كَطَعْنَةِ المِنْهَالِ
تَرَكَ المَجَبَّةَ للضباعِ مجدّلا * والقومُ بين سوافلٍ وعوالِ

يوم رأس العين

لبنى يربوع على بكر

أغارت طوائف من بنى يربوع على بنى أبى ربيعة برأس العين فاطّردوا النَّعَم، واتبعهم معاوية بن فِرَاس فى بنى أبى ربيعة فأدركوهم، فقُتِل معاويةُ وفاتوا بالإبل، فقال مُحيم فى ذلك :

أَلَيْسَ الأكرمون بنو رياح * تَمَوْنى منهم عمّى وخالى
هُمو قتلوا المجبةَ وابنَ تيمٍ * تَنُوحُ عليهما سُودُ المَالَ
وهُمْ قَتَلُوا عميدَ بنى فِرَاس * برأسِ العَيْنِ فى الحِجَجِ الخوالِى
وذادوا يوم طخفةَ عن حِماهم * ذِيادَ غرائبَ الإبلِ النِّهالِ

يوم العظالى (١)

لبنى يربوع على بكر

قال أبو عبيدة : وهو يوم أعشاش ويوم الأُفاقة ويوم الإياد ويوم مُلَيْحَة.

قال : وكانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس، فكانوا يجيرونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر فى ثلثمائة فارس متساندين، يتوقعون انحدارَ بنى يربوع فى الحَزْن — قال : وكانوا يشتون خفافا فإذا انقطع الشتاء انحدروا إلى الحزن —

(١) سمى يوم العظالى لأنه تعاظل على الرياسة بسطام وهانئ ابن قبيصة ومفروق بن عمرو فى هذا اليوم.

قال : فاحتمل بنو عتيبة و بنو عبيد و بنو زبيد من بنى سليط ، أوّل الحىّ ، حتى أسهلوا ببطن مُلَيْحَة ، فطلعت بنو زبيد فى الحَزْن حتّى حَلّوا الحُدَيْقة بالأُفاقة ، وحلّت بنو عبيد و بنو عتيبة بروضة الثمد . قال : وأقبل الجيشُ حتى نزلوا هضبةَ الحصىّ ، ثم بعثوا رَئِيسَهم فصادفوا غلاما شابّا من بنى عبيد يقال له قرط بنُ أضبط ، فعرفه بسطام فقال له : أخبرنى ما ذاك السواد الذى أرى بالحُدَيقة ؟ قال : هم بنو زبيد . قال : أَسِيد بن حِنّاءة ؟ قال : نعم ، قال : كم هم ؟ قال خمسون بيتا ، قال : فأين بنو عتيبة و بنو أريم ؟ قال : نزلوا روضةَ الثّمد . قال : فأين سائرُ الناس ؟ قال هم محتجزون بجفاف (١) . قال : فمن هناك من بنى عاصم ؟ قال : الأُحَيْمِرُ وقَعْنَب ومُعْدان أبناء عصمة . قال : فمن فيهم من بنى الحارث بن عاصم ؟ قال : حصينُ ابنُ عبد الله . فقال بسطام لأصحابه : أطيعونى تقبضوا على هذا الحىّ من زبيد ، وتصبحوا سالمين غانمين . قالوا : وما يغنى عنّا بنو زبيد لا يودون رحلتنا . قال : إن السلامةَ إحدَى الغنيمتين . فقال له مغروق : انتفخ سحرك يا أخا الصهباء ، قال له هانئ : أجبنا . قال : ويلكم إنّ أَسِيدًا لم يظلّه بيتٌ قط شاتيا ولا قائظًا ، إنما بيتُه القفرُ ، فإذا أحسّ بكم أحال على الشقراء ، فركض حتى يَشرف مُلَيحةَ (٢) ، فينادى : يا آلَ يربوع ! فيركب فيلقاكم طعنٌ ينسيكم الغنيمة ، ولا يبصر أحدُكم مصرعَ صاحبه ، وقد جئتمونى وأنا تابعكم ، وقد أخبرتكم ما أنتم لاقون غدًا . فقالوا : نلتقط بنى زبيد ، ثم نلتقط بنى عبيد و بنى عتيبة كما نلتقط الكمأة ، و نبعثُ فارسين فيكونان بطريق أَسِيد ، فيحولان بينه و بين بنى يربوع ، ففعلوا . فلما أحسّ بهم أسيد ركب الشقراء وخرج نحو بنى يربوع ، فابتدره الفارسان فطعنه

(١) جفاف ، وتسمى جفاف الطير : أرض لأسد وحنظلة واسعة فيها أماكن يكون فيها الطير .

(٢) مليحة : موضع فى بلاد بنى تميم .

أحدهما فألقى نفسه فى شقّ فأخطأه ، ثم كرّ راجعا حتى أشرف مُلَيحَة ، فنادى : ١٢٦/١٣
ياصباحاه! ياآل يربوع ، غشيتم ، فتلاحقت الخيل حتى توافَوْا بالعظالى ، فآقتتلوا ، فكانت الدائرةُ على بكر ، قُتِل منهم مغروقٌ بن عمرو ، فدُفِن بثنيّة مغروق ، وبه سُمّيت ، وغيره . وأما بسطام فألحّ عليه فارس من بنى يربوع ، وكان دارعا على ذات النسوع[1] ، وكانت إذا أجدّت[2] لم يتعلق بها شىء من خيلهم ، ففاقت الطلب حتى ٥
أتى قومه .

يوم الغبيط

لبنى يربوع على بكر

ويقال له يومُ الثعالبِ[3] . قال : غزا بسطامُ بنُ قيس ، ومغروق بن عمرو ، والحارثُ بنُ شريك — وهو الحوفزان — بلادَ بنى تميم ، وهذا اليوم قبل يوم ١٠
العظالى ، فأغاروا على بنى ثعلبة بن يربوع ، وثعلبة بن سعد بن ضبة ، وثعلبة بن عدىّ آبن فَزَارة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، فلذلك قيل له يومُ الثعالب . وكان هؤلاء جميعا متجاورين بصحراء فلج[4] فآقتتلوا ، فآنهزمتْ الثعالبُ ، فأصابوا فيهم وآستاقوا إبلا من نعمهم ، ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه الوقعة لأنه كان نازلا يومئذ فى بنى مالك بن حنظلة . قال : ثم آسروا على بنى مالك ، وهم بين صحراء فلج ١٥
وبين الغبيط ، فآكتسحوا إبلَهُم ، فوكبت عليهم بنو مالك ، فيهم عتيبة بن الحارث آبن شهاب ، ومعه فارسان من فرسان بنى يربوع ، وتأنّف[5] اليهم الأحيمرُ بنُ عبدالله ، وأسيدُ بنُ حنّاءة ، وأبو مرحب ، وجزء بن سعد الرياحىّ — وهو رئيس

(١) ذات النسوع : فرس بسطام . (٢) أجدّت : سلكت الطريق الوعر .
(٣) الثعالب : أسماء قبائل اجتمعت فيه . (٤) صحراء فلج : واد لبنى العنبر بن تميم ، ٢٠
يقع أوّل الدهناء . (٥) تأنف : يريد تتبعهم وتحوطهم مثل تأنف الأثافى الرماد .

بنى يربوع — وربيع، والحليس، وعمارة، بنو عتيبة بن الحارث، ومَعْدان وعصمة ابنا قعنب، ومالك بن نُوَيْرة، والمنهال بن عصمة أحد بنى رياح بن يربوع، وهو الذى يقول فيه متمّم بنُ نُوَيْرة فى شعره الذى يرثى به أخاه مالكا :

لقد كفّن المنهالُ تحتَ رِدائِه فتى غيرَ مِبْطَانِ العَشِيات أَرْوَعَا

٥ فأدركوهم بغَبِيط المَدَرَة، فقاتلوهم حتى هزموهم، وأدركوا ما كانوا استاقوا من أموالهم، وأُسر بسطامُ، أَسره عتيبةُ، فلم يزل عنده حتى فادى نفسَه. قيل : إنه فدى نفسَه بأَربعمائة بعير وثلاثين فرسا، ولم يكن غيره عُكَاظىّ أعلى فداءً منه، على أن جزّ ناصيتَه وعاهده ألا يغزُو بَنى شهاب أبدا.

يومُ مُخَطَّط

١٠ لبنى يربوع على بكر

قال أبو عبيدة : غزا بسطامُ بنُ قيس والحَوْفَزان الحارثُ متساندَيْن يقودان بكرَ بنَ وائل، حتى وردوا على بنى يربوع بالفِرْدَوْس، وهو بطن لإياد، وبينه وبين مخطط ليلة، وقد نَذِرت بهم بنو يربوع فالتقَوْا بالمُخَطَّط، فاقتتلوا، فانهزمت بكر، وهرب الحَوْفَزان وبسطام ففاتا ركضا، وقُتِل شَرِيك بن الحَوْفَزان، قتله شهابُ ١٥ ابنُ الحارث أخو عتيبة، وأسر الأُحَيمر بن عبد الله بن الضريس الشَّيْبانىّ.

يوم جدود

غزا الحَوْفَزان وهو الحارثُ بن شَرِيك فأغار على مَنْ بالقاعة من بنى سعد بن زيد مناة، فأخذ نَعَما كثيرا ونساء فيهنّ الزرقاء من بنى ربيع بن الحارث، فأُعجب بها وأُعجبت به، فلم يتمالك أن وقع بها، فلما انتهى الى جدود(١) منعهم بنو يربوع

٢٠ (١) جدود : اسم موضع فى بلاد بنى تميم قريب من حزن بنى يربوع على سمت اليمامة، فيه الماء الذى يقال له الكلاب.

ابن حنظلة أن يَرِدُوا الماء ، ورئيسُهم عتيبةُ بنُ الحارث بن شهاب ، فقاتلوهم ، فلم يكن لبنى بكر بهم يدٌ[1] ، فصالحوهم على أن يُعطوا بنى يربوع بعض غنائمهم حتى يَرِدُوا الماء ، فقبلوا ذلك منهم وأجازوهم ، فلما أتى الصريخُ بنى سعد ، ركب قيسُ ابنُ عاصم فى أثر القوم حتى أدركهم بالأشيمين[2] ، فألحّ قيسُ على الحَوْفَزان ، وقد حمل الزرقاء خَلفه رديفا على فرسه الزَّبِد ، وعقد شعرَها على صدره ، فأخذ قيس بن عاصم بحيث يكلّم الحوفزان ، فقال له قيس : يا أبا حمّاد ، أنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش ، قال له : ما يشاء الزبد . فلما رأى قيس أنّ فرسه لا يلحقُه نادى الزرقاءَ فقال : ميلى به يا جعار ، فجزّ الحوفزان قرونَها بالسيف ودفعها بمرفقه وألقاها عن عجز فرسه فردّها قيسُ بن عاصم الى بنى ربيع .

يومُ سَفَوَان

قال أبو عبيدة : التقت بنو مازن و بنو شَيْبان على ماء يقال له سَفَوَان ، فزعمت بنو شيبانَ أنه لهم ، وأرادوا أن يُحلوا تميما عنه . فاقتتلوا قتالا شديدا ، فظهرت عليهم بنو تميم وشلوهم حتى بلغوا المحدث ، وكانوا قبل ذلك يتوعّدون بنى مازن ، فقال فى ذلك الوذّاك المازنىّ :

رُوَيْدًا بَنِى شَيْبانَ بعضَ وَعِيدِكم * تُلاقُوا غدًا خَيْلِى عَلَى سَفَوَانِ
تُلاقُوا جِيادًا لا تَحِيدُ عن الوَغَى * إذَا الخيلُ جَالَتْ فى القنَا المُتَدَانِى
عَلَيهَا الكُمَاةُ الغُرُّ من آلِ مَازِنٍ * لُيوثُ طِعانٍ كلَّ يوم طِعَانِ
تُلاقُوهُمْ فَتَعرفُوا كيفَ صَبْرُهُمُ * عَلَى ماجَنَتْ فيهم يَدُ الحَدَثانِ

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصل : « الغزىّ بحربهم يد » .

(٢) الأشيمان ؛ فى بلاد بنى سعد بالبحرين دون هجر .

مَقَادِيمُ وصَّالُونَ فى الرَّوْع خَطْوَهُمُ * بِكلّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْن يَمَانِ
إذا ٱسْتُنْجِدُوا لم يَسْأَلُوا مَن دَعَاهُمُ * لأيَّةِ حَرْبٍ أمْ لِأىِّ مكَانِ ٧/٣

يوم نقا الحَسَن

وهو يوم الشَّقيقة[1] لبنى ضَبّة على بنى شَيْبان

٥ فيه قتل بسطام . قال أبو عبيدة : غزا بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس ٱبن خالد — وقيسُ بنُ مسعود هو ذو الجَدَين، وأخوه السليل بنُ قيس من بنى ضبة ابن أدّ بن طابخة — فأغار على ألف بعير لمالك بن المنتفق فيها فحلُها قد فقأ عينه، وكان فى الإبل مالك بن المنتفق، فركب فرسا له ونجا ركضًا حتى إذا دنا من قومه نادى : يا صَبَاحَاه، فركبت بنو ضبّة ، وتداعت بنو تميم ، فتلاحقوا بالنقا ،

١٠ فقال عاصم بنُ خليفة لرجل من فرسان قومه : أيُّهم رئيسُ القوم ؟ قال : حاميتُهم صاحب الفرس الأدهم — يعنى بسطامًا — فعلا عاصمٌ عليه بالرمح فطعنه، فلم تخطئ صماخَ أُذُنِه حتى خرج الرمح من الناحية الأخرى وخرَّ . فلما رأى ذلك بنو شيبان خلَّوا سبيل النَّعَم وولَّوْا الأدبارَ ، فمن قتيل واسير ، وأَسَر بنو ثعلبة نجادَ بن قيس أخا بسطام فى سبعين من بنى شيبان : وقال شَمْلة بنُ الأخضر بن هُبيرة :

١٥ ويومَ شقائِقِ الحَسَنَيْنِ لاقتْ * بنُو شَيْبانَ آجالاً قِصَارَا
شَكَكْنَا بالرِّماحِ وهُنَّ زُورٌ * صِمَاخَىْ كَبْشِهِم حتى ٱسْتَدَارَا

أيام بكر على تميم

يوم الزُّوَيْرين

قال أبو عبيدة : كانت بكر بن وائل تنتجع أرضَ بنى تميم فى الجاهلية ترعى

٢٠ بها إذا أجدبوا ، فإذا أرادوا الرجوعَ لم يدعوا عودة يصيبونها ولا شيئا يظفرون به

(١) الشقيقة : كل جمد (بفتح الجيم المعجمة وسكون الميم) بين حبلى رمل . والجمد : غلظ وصلابة .

إلا اكتسحوه، فقال بنو تميم : امنعوا هـؤلاء القومَ من رَعْى أرضكم، فحشـدت تميم ، وحشـدت بكر وٱجتمعت ، فـلم يتخلّف عنهـم إلا الحَوفَزَان بن شريك فى أناس من بنى ذُهل بن شـيبان، وكان غازياً ، فقدّمت بكر عليهـم عمرًا الأصمّ أبا مفروق — وهو عمرُو بنُ قيس بن مسعود بن عمرو بن أبى ربيعة بن ذُهل بن شيبانَ — فحسد سائرُ ربيعة الأصمَّ على الرياسـة ، فأتَوه فقالوا : يا أبا مفروق، إنّا قد زحفنا لتميم وزحفوا لنا أكثر ما كنّا وكانوا قط . قال : فما تريدون ؟ قالوا: نريد أن نجعل كلّ حىّ على حياله ، ونجعل عليهم رجلا منهم، فنعرف غناء كل قبيلة، فإنه أشـدّ لٱجتهاد النـاس . قال : والله إنى لأبغض الخـلاف عليكم ، ولكن يأتى مفروق فينظـر فيما قلتم . فلمـا جاء مفروق شاوره أبوه ، فقال له مفـروق : ليس هذا أرادوا، وإنمـا أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك، والله لئن لقيتَ القوم فظفرت لا يزال لنا الفضلُ بذلك أبدا، ولئن ظُفر بك لا تزال لنا رياسة نُعرف بها، فقال الأصمُّ : ياقوم، قد ٱستشرتُ مفروقاً فرأيتُه مخالفا لكم، ولستُ مخالفا رأيَه وما أشار به . فأقبلت تميم بجملين مجلّلين مقرونين مقيّدين وقالوا: لا نولّى حتى يولى هذان الجملان، وهما الزُّوَيْران، فأخبرت بكر بقولهم الأصمّ فقال: وأنا زُوَيْركم إن خشُّوهما فخشونى ، وإن عقروهما فٱعقرونى ، قال : وٱلتقى القوم فٱقتتلوا قتالا شـديدا . فأسرت بنُو تميم حراثَ بن مالك أخا بنى مرّة بن همـام، فركض به رجلٌ منهم وقد أردفه، فٱتبعه ٱبنـه قتادة بن حراث حتى لحق الفارس الذى أسر أباه، فطعنه فأرداه عن فرسـه ، وٱستنقذ أباه ، ثم ٱنهزمت بنُو تميم .

وقال رجلٌ من بنى سدوس :

يا سَلْمُ إنْ تسألى عنّا فلا كَشَفٌ * عِنْـدَ اللِّقَـاءِ وَلَسْنَا بالمَقَارِيفِ

نحنُ الذين هَزَمْنا يَوْمَ صَبَّحْنَا * جيشَ الزُّوَرَيْنِ فى جَمْعِ الأحالِيف
ظَلُّوا وظلنا نَكِرُّ الخَيْلَ وَسْطَهُمُ * بالشِّيبِ مِنّا و بالمُرْدِ الغطارِيف

يوم الشَّيْطَيْن

لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : لمّا ظهر الإسلامُ — قبل أن يسلم أهلُ نجد والعراق — سارت بكر بنُ وائل الى السواد وقالت : نُغِير على بنى تميم بالشَّيْطَيْن[1] ، فإنّ فى دِين آبن عبد المطلب أنه مَنْ قتل نفسا قُتِل بها ، فنُغِير هذه الغارة ثم نُسْلِم عليها .

فآرتحَلُوا من لَعْلَع بالذّرارىّ والأموال، فأتَوا الشَّيْطَيْن فى أربع، وبينهما مسيرةُ ثمانية أميال فسبقوا الخبر فصبَّحوهم وهم لا يَشْعُرون ، ورئيسهم يومئذ بِشْرُ بنُ مسعود بن قَيْس بن خالد ذى الحدّين ، فقتلوا بنى تميم قتلا ذريعا وأخذوا أموالهم . قال : قُتل من بنى تميم يوم الشَّيْطَيْن ولَعْلَع سبعمائة رجل ، قال : فوفد وفدٌ من بنى تميم الى النبىّ صلى عليه وسلم فقالوا : أُدعُ الله على بكر بن وائل ! فأبى صلى الله عليه وسلم .

يومُ صَعفوق

لبكر على تميم

١٢٨/١٣ أغارت بنو ربيعة على بنى سليط بن يربوع يومَ صَعفوق، فأصابوا منهم أسرى، فأتى طَرِيفُ بن تميم العنبرىّ فروةَ بن مسعود، وهو يومئذ سيّدُ بنى ربيعة، ففدى منهم أسرى بنى سليط ورهَنَهم آبنَه، فأبطأ عليهم فقتلوا آبنه .

---

(١) الشيطان : واديان .

يومُ مُبَايِض
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : كانت الفُرسان إذا كانت أيام عُكَاظ فى الشهر الحرام، وأمِنَ بعضُهم بعضا، تقنَّعوا كى لا يُعرفوا، فكان طَرِيف بن تميم لا يتقنَّع ، فوافى عُكَاظ وقد كشفت بكر بن وائل، وكان طَريف قد قَتل شَرَاحِيل الشيبانىّ أحد بنى عمرو بن ربيعة، فقال خميصة : أرونى طَريفا ، فأروه إيّاه ، فتأمّله ونظر إليه ، ففَطن له طريف فقال : مالك تنظر ؟ فقال : أتوسَّمُك لأعرفك، فلله علىّ إن لقيتُك أن أقتُلَك أو تقتُلَنى .

قال : فمضى لذلك ما شاء الله، ثم إن بنى عائذة حُلَفاء بنى ربيعة بن ذُهْل ، خرج منهم رجلان يصيدان ، فعرض لهما رجلٌ من بنى شيبان، فذعر عليهما صيدَهما ، فوثبا عليه فقتلاه ، فثارت بنو مُرّة بن ذُهْل بن شيبان يريدون قَتلَهما ، فأبت بنو ربيعة ذلك عليهم ، فقال هانئ بن مسعود : يا بنى ربيعة، إنّ إخوتكم قد أرادوا ظُلْمَكم فانمازوا(١) عنهم، ففارقوهم، وساروا حتى نزلوا بمبايض: — ماء لهم — فأَبَقَ عبدٌ لرجل من بنى ربيعة ، وسارالى بلاد تميم ، فأخبرهم أن حيّا جديدا ، أى منتقًى من قومه ، من بكر بن وائل نُزُولٌ على مُبَايِض وهم بنو ربيعة ، فقال طَريف العنبرىّ : هؤلاء فأرى ياآل تميم ، وأقبل معه أبو الجدعاء أخو بنى طُهَيَّة، وجاءه فَدَكِىّ بن أَعْبَدَ المِنْقَرِىّ فى جمع من بنى سعد بن زَيْد مَنَاة، فأنذرت بهم بنو ربيعة، فانحاز بهم هانئ بن مسعود ، وهو رئيسهم ، الى عَلَم مُبَايض، وأقام عليه وشرَّفوا بالأموال والسرح(٢)، وصبَّحتهم تميم ، فقال لهم

(١) انمازوا : انفصلوا .
(٢) السرح : المال الراعى .

طريف : أطيعونى وافرغوا من هـؤلاء الأكلُب يَصْفُ لكم ما وراءهم ، فقال لهم أبو الجدعاء — رئيس حنظلة — وفَدَكِىّ — رئيس بنى سعد بن زيد مناة : أنقاتِل أكلُبا أحْرَزُوا أنفسَهم وتترك أموالهم ؟ ماهـذا برأى ! وأبَوْا عليه . وقال هانئ لأصحابه : لا يقاتل رجلٌ منـكم ، ولحقت تميم بالنَّعم والبغالِ فأغاروا عليها ، فلمّـا ملأوا أيديَهـم من الغنيمة قال هانئ بنُ مسعود لأصحابه : احمـلوا عليهم ، فهزموهم . وقُتِل طَريف العنبرىّ ، قتله خميصة الشيبانىّ .

يومُ فَيْحان

لبكرٍ على تميم

قال أبو عبيدة : لمّـا فدى نفسَه بسطامُ بنُ قيس من عتيبـة بنِ الحارث إذ أسره يومَ الغبيط بأربعمائة بعـير فقال : لأدركنّ عقرَ إبلى ، فأغار بفَيْجان ، فأخذ الربيعَ بنَ عتيبة وٱستاقَ مالَه ، فلمّا سار يومين شُـغلوا عن الربيع بالشراب ، فبال على قيده حتى لَانَ ، ثم خَلعَه وٱنحلَّ منه ، ثم أجال فى متن ذات النسوع — فرس بسطام — وهرب ، فركبوا فى أثره ، فلمّا يَئِسُوا منه ناداه بسطامُ : يا ربيعُ ، هَلُمَّ طليقا ، فأبى ، وأتوه فى نادى قومه يحدّثهم ، فجعل يقول فى أثناء حديثه : إيهـا يا ربيع ! انج يا ربيع ! وأقبل ربيع حتى ٱنتهى إلى أدنى بنى يربوع فإذا هو براع فٱستسقاه وضربت الفرس برأسها فماتت ، فسُمِّى ذلك المكانُ هبير الفرس ، فقال له أبوه عتيبة : أما إذ نجوتَ بنفسِك فإنى مخلِّفٌ لك مالَكَ .

يومُ ذِى قار الأوّل

لبكرٍ على تميم

قال : فخرج عتيبةُ فى نحو من خمسة عشر فارسا من بنى يربوع ، فكمن فى جنبى ذى قار حتى مرّت بهـم إبلُ بنى الحُصَـين ، وهى بالعـدوانة : اسم ماء لهم ،

فصاحوا بمن فيها من الحامية والرعاية ، ثمّ آستاقوها ، فأخلف للربيع ما ذهب له وقال :

أَلَمْ تَرَنِى أفأْتُ عَلى رَبِيـع * جِلَادًا فى مَبَارِكِهَا وَخُورَا
وأنِّى قد تركتُ بَنِى حُصَينٍ * بـذى قار يَرُمُّون الأُمُورَا

يَوْمُ الحـاجز

لبكرٍ على تميم

قال أبوعبيدة : خرج وائلُ بنُ صُرَيم اليشكرىّ من اليمامـة، فلقيه بنو أُسَـيْد ابن عمرو بن تميم، فأسروه وجعلوا يغمسونه فى المـاء فى الركيّة ويقولون :

* يأيها المـائحُ دَلْوى دُونكَا *

حتى قتـلوه ، فغزاهم أخوه باعث بن صُرَيم يـوم حاجز ، فأخذ ثمـامة بن باعث ابن صُرَيم رجلا من بنى أُسَيد وجيها فيهم فقَتَله ، وقتَل على الظِّنة مائةً منهم .

يومُ الشـــقيق

لبكرعلى تميم

قال أبو عبيدة : أغار أبجرُ بنُ جابرالعِجْلىّ على بنى مالك بن حنظلة ، فسبى سليمى بنت محصن ، فولدت له أبجر ، ففى ذلك يقول أبوالنجم :

ولقـد كَرَرْتُ على طُهَيّةَ كَرّةً * حتّى طَـرَقْتُ نِسَاءَهَا بِمساءِ

ذكر حرب البسوس

وهى حرب بكر وتغلب آبنى وائل

قال أبو المنذر هشامُ بنُ محمـد بنِ السائب : لم تجتمع مَعَدّ كلُّها إلّا على ثلاثة من رؤساء العرب، وهم : عامر بنُ الظَّرِب بن عمرو بن بكر بن يشكُر بن الحارث.

١٢٩/١٣ وعامر هو قائد معدّ يوم البيداء حين تَمَذْحَجت مَذْحِج وسارت الى تهامة، وهى أوّل واقعة كانت بين تهامة واليمن .

والثانى : ربيعةُ بنُ الحارث بن مرّة بن زُهَير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن كلب وهو قائد معدّ يومَ السُّلَّان، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن .

٥ والثالث: كليبُ بنُ ربيعة، وهو الذى يقال فيه : أعزّ من كُلَيب وائل، وقاد معدّا كلَّها يوم خَزَاز، ففضّ جُموعَ اليمن وهزمهم ، وٱجتمعت عليه معَدّ كلُّها وجعلوا له قَسْم الملك وتاجَه وتحيته وطاعته ، فغبر(١) بذلك حيناً من الدهر، ثم دخلَه زَهوٌ شديدٌ وبَغَى على قومه حتى بلغ من بَغْيه أنه كان يحمى مواقعَ السحاب فلا يُرعَى حِمَاه ويقول: وَحْشُ أرض كذا فى جوارى فلا يُهاج، ولا تورَدُ إبلُ أحد مع إبله،

١٠ ولا تُوقَد نارٌ مع ناره .

وكانت بنو جُشَم وبنو شَيْبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كُلَيبٌ قد تزوّجَ جليلةَ بنتَ مرّة بن ذُهْل بن شيبان أخت جسّاس بن مُرّة، وكانت لها ناقةٌ يقال لها : السرابُ ، وبها يُضرب المثلُ فى التشاؤم ، فيقال : « أشأمُ من السراب » و « أشأم من البسوس » وهى معقولة بفناء بيتها فى جوار جسّاس بن مُرّة، فمرّت

١٥ بها إبلٌ لكليب، فلما رأت السرابُ الإبلَ تازعت عِقالَها حتى قطعته، وتبعت الإبلَ وٱختلطت بها حتى ٱنتهت الى كُلَيب، وهو على الحوض، ومعه قوسٌ وكنانةٌ، فلمّا رآها أنكرها ، فٱنتزعها بسهم فخرم ضَرْعَها، فنفرت وهى تَرغُو ، فلما رأتها البَسُوس قَذَفَتْ خمارها عن رأسها وصاحت : واذُلّاه ! واجاراه .

---

(١) غبر : مكث وبقى .

ذكر مقتل كليب وائل

قال : فأجمشت جسّاسا، فركب فرسا له مغرورا به ، وتبعه عمرُو بنُ الحارث ابنِ ذُهـل بن شيبان على فرسـه، ومعه رمحُه، حتى دخلا على كليب الحِمَى، فطعنه جسّاس فقصم صُلْبَه، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع قَطَنَه، فوقع كُلَيب وهـو يفحص برجله وقال لجسّاس : أغثْنى بشَرْبةٍ من ماء ، فقال له : تجـاوزتَ شُبيثا[1] والأَحَصّ[2] ، ففى ذلك يقول عمرُو بنُ الأهتم :

وإنّ كُلَيبا كان يَظْـلِمُ قَوْمَـه * فَأَدركَهُ مثْـلُ الذى تَرَيَانِ
فلمّا حَشَاهُ الرمْحَ كَفُّ ٱبن عَمِّه * تَذَكّر ظُـلْمَ الأهل أىَّ أوانِ
وَقالَ لجسّـاسٍ أغثنِي بشَرْبَةٍ * وَإلَّا فخَـبِّرْ مَنْ رَأَيْتَ مكَانِى
فقال تجاوَزتَ الأحَصَّ وماءَه * وَبَطْنَ شُبَيثٍ وهُوَ غَيْرُ زُؤَانِ

وقال نابغةُ بنى جعد :

أبلغْ عقالًا أنَّ خُطَّـةَ دَاحِسٍ * بكَفَّيْك فٱسْتَأْخِرْ لها أو تَقَدَّمِ
كُلَيْبٌ لَعَمْرى كانَ أكثَرَ ناصرًا * وأيْسَرَ ذَنْبًا منك ضُرِّج بالدَّمِ
رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فٱسْتَمَرّ بِطَعْنَةٍ * كحَاشِـيَةِ البُرْد اليَمَـانى المُسَهَّمِ
وقال لجسّـاسٍ أغثْنى بشَرْبةٍ * تَدَارَكْ بهـا مَنًّا علَىَّ وأنْعِـمِ
فقال تجاوزْتَ الأحَصَّ وماءَه * وَبَطْنَ شُبَيْثٍ وهُو ذُو مُتَوَسَّمِ

قال : فلما قُتِـل كُلَيْبٌ ٱرتحلت بنُـو شيبانَ حتى نزَلوا بمـاء يقال له النَّهْى ، وتسمَّر المهلهلُ أخو كليب — وٱسمه عَدِىُّ بنُ ربيعة ، وإنمـا قيل له المهلهل لأنه

(١) شبيث : ماء معروف لبنى تغلب .
(٢) الأحصّ : واد لبنى تغلب .

أوّل من هَلْهَل الشعر ، أى أرقّه — فاستعدّ المهلهلُ لحرب بكر ، وترك النساءَ والغزلَ ، وحرّم القمارَ والشرابَ ، وجمع اليه قومَه ، فأرسل رجالا منهم الى بنى شيبان يعذر اليهم فيما وقع من الأمر ، فأتوا مرّةَ بنَ ذهل بنِ شيبان وهو فى نادى قومه ، فقالوا له : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كُلَيباً بنابٍ من الإبل ، فقطعتم الرَّحِم ، وانتهكتم الحُرْمَة ، وإنّا كرهنا العَجَلة عليكم دون الإعذارِ إليكم ، ونحن نعرِض عليكم خِلالًا أربعًا ، لكم فيها مخرجٌ ولنا مقنعٌ ، قال مرّةُ : ما هى ؟ قالوا : تُحيي لنا كُلَيبا أو تدفع لنا جسّاسا قاتله فنقتله به ، أو همّاما فإنه كفءٌ له ، أو تمكّننا من نفسك فإنّ فيك وفاءً من دمه ، فقال : أمّا إحيائى كُلَيبا فهذا ما لا يكون . وأمّا جسّاسٌ فإنه غلام طعن طعنةً على عَجَل ثم ركب فرسه فلا أدرى أىّ البلاد احتوت عليه . وأمّا همّام فإنه أبو عَشَرة وأخو عَشَرة وعمّ عَشَرة ، كلّهم فرسانُ قومهم فلن يُسلّموه لى فأدفعَه اليكم يُقتَل بجريرة غيره . وأمّا أنا فما هو إلّا أن تجولَ الخيلُ جَوْلةً غدًا فأكونَ أوّل قتيلٍ بينهما ، فما أتعجّلُ من الموت ، ولكن لكم عندى خصلتان : أما إحداهما فهؤلاء بنىّ الباقون فعلّقوا فى عُنُق أيّهم شئتم نسعةً فانطلقوا به الى رجالكم فاذبحوه ذبح الجزور وإلّا فألفُ ناقةٍ سوداء المُقَل أقيم لكم بها كفيلا من بكر بن وائل ، فغضب القوم وقالوا : لقد أسأتَ ، تبذُل لنا صغار ولدك وتسُومنا اللبن من دم كليب .

١٣٠/١٣ ووقعت الحرب بينهم ، ولحقتْ جليلةُ زوجة كُلَيب بأبيها وقومها ، واعتزلت قبائل بكر بن وائل ، وكرِهوا مُجامعةَ بنى شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم ، وأعظموا قتل جسّاس كُلَيبا بنابٍ من الإبل ، فظعنت لُجَيم عنهم ، وكفّت يشكُر عن نصرتهم ، وانقبض الحارث بنُ عُبَاد فى أهل بيته ، وهو أبو بُجَير وفارس النعامة . وقال المهلهلُ يرثى كليبًا من أبيات :

باتَ لَيْلِي بالأنْعَمَيْنِ[1] طَويلَا * أرقُبُ النَّجْمَ ساهِرًا أنْ يزولَا
كيفَ أهدَى ولا يزالُ قتيلٌ * منْ بَنِي وائلٍ يُنَسِّى قَتيلَا

فى قصيدة طويلة .

وقال أيضا يرثيه من أخرى :

نَعَى النعاةُ كُلَيبًا لِي فقلتُ لَهُمْ * مَا لَتْ بنَا الأرضُ أو زَالَتْ رَوَاسِيهَا ٥
القائدُ الخَيْلَ تَرْدى فى أعنَّتِها * زَهْوًا إذا الخيلُ لَجَّتْ فى تعادِيها
مِنْ خَيْلِ تغلبَ ما تُلْقَى أسِنَّتُها * إلّا وقَدْ خَضَّبُوها من أعاديها
يُهَزْهِزُون من الخطِّىِّ مُدْمَجَةً * كُمْنًا أنابيبُهَا زُرْقًا عَواليها
تُرَى الرِّمَاحَ بأيْدينا فتُوردُها * بيضًا ونُصْدِرُها حُمْرًا أعَاليها
لا أصْلَحَ اللهُ يَوْمًا مَنْ يُصَالِحُكُمْ * ما لاحَتِ الشَّمْسُ فى أعْلَى مَجارِيها ١٠

يومُ النَّهْى

فالتَقَوْا بماء يقال له : النَّهْى[2] ، كانت بنو شيبان نازلةً عليه ، ورئيسُ تغلب المهلهلُ ، ورئيسُ شَيْبان الحارثُ بنُ مُرَّةَ ، فكانت الدائرةُ لبنى تغلب ، ولم يُقتل فى ذلك اليوم أحدٌ من بنى مرّة .

يومُ الذنائب ١٥

ثم آلتقَوا بالذنائب ، وهى أعظم وقعة كانت لَهم ، فظفرت بنو تغلب وقُتل من بكر مقتلة عظيمة ، وفيه قُتل شَراحيل بن مرة بن همّام بن مرّة بن شيبان ، وهو جدّ الحَوْفَزان ، قتله عتّاب بن سعد بن بن زهير بن جشم ، وقُتل من بنى ذُهْل بن

(١) الأنعمان (بالعين المهملة تثنية أنعم) : موضع بناحية نعمان ، وهو وادى التنعيم .

(٢) النهى (بالكسر فى لغة أهل نجد ، وغيرهم يقوله) بالفتح : الغدير ، وهو أيضا الموضع الذى له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه . ٢٠

ثعلبة عمرُو بنُ سدوس بن شيبان ، وقُتل من بنى قيس بن ثعلبة سعدُ بنُ ضبيعة بن قيس وتيم بن قيس بن ثعلبة ، وهو أحد الحرقيين (١) ، وكان شيخا كبيرا ، فحمل فى هَوْدج، فلحقه عمرو بن مالك بن الفدوكس بن جشم فقتله .

يومُ واردات

ثم ٱلتقَوْا يوم واردات وعليهم رُؤساؤُهم الذين تقدّم ذكرُهم ، فظفرت بنو تغلب، وٱستحرّ (٢) القتلُ فى بنى بكر، فيومئذ قُتِلَ الشعثمان: شعثم وعبدُ شمس ٱبنا معاوية بن عامر بن ذُهْل بن ثعلبة وسيّار بن الحارث بن سيّار ، وفيه قتل همّام ابنُ مرّة أخو جسّاس لأبويه، فمرّ به مهلهل مقتولا فقال: والله ما قُتِل بعد كُليب قتيلٌ أعزّ علىّ فقدًا منك يومَ عُنَيزة .

يوم عُنَيزة

ثم ٱلتقَوْا بعُنَيزة، فظفرت بنو تغلب ، ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة كل ذلك كانت الدائرة فيها لبنى تغلب على بنى بكرٍ ، فمنها يوم الحِنْو ، ويوم عويرضات، ويوم أنين، ويوم ضرية، ويوم القُمصيبات، كلها لتغلب على بكر، أصيبت فيها بكر حتى ظنوا أن لن يستقبلوا أمرهم .

وقال المهلهل يصف هذه الأيام وينعاها على بكر فى قصيدة طويلة أوّلها :

أَلَيْلَتَنَا بذِي حُسُم (٣) أَنِيرِى * إذَا أنتِ ٱنقَضَيْتِ فَلَا تَحُورِى (٤)

فَإِنْ يَكُ بالذنائب (٥) طال لَيْلِى * فَقَدْ أبكِى مِنَ اللَّيْلِ القَصِيرِ

(١) الحارقة : عصبة متصلة بالورك . (٢) استحرّ : اشتدّ .

(٣) ذو حسم : موضع . (٤) تحورى : ترجعى .

(٥) الذنائب : عن يسار فلجة مصعدا الى مكة . ومقتل كليب بالذنائب، وبها قبره .

فَلَوْ نُبِّش المقابرُ عن كُلَيب * لَأُخْبِرَ بالذنائب أىّ زِير
وإنّى قَدْ تركت بوارداتٍ (١) * بُجَيْرًا فى دَمٍ مِثْلِ العَبِيرِ (٢)
هَتكتُ به بيوتَ بنى عُبَادٍ * وبَعْضُ القَتْل أشفَى للصدُور
عَلَى أنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيب * إذَا بَرَزَتْ مخبَّأةُ الخُدورِ

وقال المهلهل أيضا وقد أشرف فى الدماء :

أكثرتُ قَتْلَ بنى بكر بربِّهمُ * حتّى بكيْتُ وما يَبْكى لهم أحدُ
آلَيتُ بالله لاأرضَى بقَتْلهمُ * حتّى أُبهرِجَ بكرًا أينَما وُجِدُوا

أُبهرِجُ : أى أدعهم بهرجًا ، لايُقْتَل بهم قتيلٌ ، ولا تُؤخَذُ بهم ديةٌ .

وقال أيضا :

قَتَلُوا كُلَيبا ثمّ قالُوا أربِعُوا * كَذَبُوا وربِّ الحِلِّ والإحْرَامِ
حتى تَبِيدَ قَبِيلةٌ وقَبِيلةٌ * ويَعَضّ كُلُّ مُثَقَّف بالهامِ
ويُقِمْنَ ربّاتُ الخُدور حَوَاسِرًا * يَمْسَحْنَ عَرْضَ ذَوائِبِ الأيتامِ
حتى يَعَضّ الشيخُ بعدَ حَمِيمِهِ * مِمّا يَرى نَدَما على الإبهامِ

يومُ قِضَّة

قال : ثم إنّ المهلهل أسرف فى القتل ولم يُبَالِ بأىّ قبيلة من قبائل بكر وقع ، وكانت أكثر بكر قَعَدت عن نصرة بنى شَيْبان لقتلهم كُلَيبا ، وكان الحارث بنُ عُبَاد قد اعتزل تلك الحروبَ ، حتى قُتِل ابنُه بُجَيرُ بن الحارث بن عُبَاد ، فلمّا بلغه قتله قال : نعم القتيلُ قتيلٌ أصلح بين ابنَىْ وائل ، وظنّ أنّ المهلهل قد أدرك به ثأر

(١) واردات : موضع عن يسار طريق مكة .
(٢) العبير : الزعفران .

كُلَيب وجعله كفؤًا له ، فقيل له : إنما قتله بِشِسْع نَعْل كُلَيب . وكان المهلهل قال لمـا قَتَل بُجَير بن الحارث : بُؤْ بشِسْع نَعْل كُلَيب ، فلمّا سمع الحارث ذلك غضب ، وكان له فرس يقال له النعامة ، فركبها وتولّى قتال تغلب بنفسـه ، فكانت الدائرة فيه على تغلب ، فتفرّقت قبائل تغلب وهرب المهلهلُ . وقال الحارث بن عُبَاد :

٥ قَـرِّبَا مربَطَ النعامَـةِ مِـنِّى * لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِل عنْ حِيَالِى
قَـرِّبَا مَرْبِطَ النعامَـةِ مـنِّى * شابَ رَأْسى وأنكرَتنى رِجَالى
لم أكنْ من جُناتهـا عَـلِمِ اللّـ * ـهُ وإنِى بِحَرِّها اليـومَ صَـالِ

فى قصيدة طويلة نحو المـائة بيت كرّر فيها :

* قربا مربط النعامة منّى *

١٠ فى خمسين بيتا .

وكان أوّل يوم شهـده الحارثُ يومَ قِضَة ، وهـو يومَ تَحْلاق اللمّ ، وفيـه يقول طَرَفة :

سَـائِلُوا عنّـا الّذى يَعْـرِفُنَا * بقُـوَانا يومَ تَحْـلَاقِ اللِّمَـمْ
يوم تُبدِى البِيضُ عنْ أَسْوُقِهَا (١) * وَتَلُفُّ (٢) الخيـلُ أعراجَ (٣) النَّعَـمْ (٤)

---

١٥ (١) أسـوق : جمع لساق ، همـزت الواو فيه لتحمل الضمـة ، أى يوم تكشف النساء البيض عن سيقانها من الفزع .

(٢) تلف : تجمع .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ٥ ص ٤٤ طبع دار الكتب المصرية) وأعراج : جمـع عرج (بالفتح ويكسر) وهو القطيع من الإبل نحو الثمانين أو منها إلى تسعين ، أو هـو مائة وخمسون وفويقها ، أو من

٢٠ خمسمائة الى ألف . وفى الأصول : « أفراخ » .

(٤) النعم (بالتحريك وقد تسكن عينه) : الإبل .

يوم تَحْلَاقِ اللِّمَم

ويوم تَحْلَاق اللِّمّ، إنما سُمِّى بذلك لأن الحارثَ بن عُبَاد لمّا تولّى الحربَ قال لقومه : احْمِلوا معكم نساءكم يكُنّ من ورائكم ، فإذا وَجَدْنَ جريحا منهم قتلوه، وإذا وجَدْنَ جريحا منّا سَقَيْنَه وأطْعَمْنَه ، فقالوا : ومن أين يتميّز لهنّ ؟ فقال : احلقوا رءوسكم لتمتازوا بذلك، ففعلوا، فسُمِّى به، فقال جَحْدَر بن ضُبَيْعة — وكان من شجعانهم — : اتركوا لِمَّتِي وأقتل لكم أوّل فارس يقدمهم، فتركوه ، وهو الذى قتل عمرًا وعامرًا التغلبيّان، طعن أحدهما بسنان رمحه (١) ، والآخر بزجه (٢) ، ثم صرع بعد ذلك، فلمّا رأته نساء بكر دون حَلَق ظنّوه من تغلب فأجهزوا عليه .

وفى هذا اليوم أَسَر الحارثُ بنُ عُبَاد المهلهلَ عَدِىَّ بنَ ربيعة وهو لا يعرفه فقال له : دُلّنى على عَدِىّ وأُخْلِى عنك، فقال له عَدِىّ : عليك العهدُ بذلك إن دللتك عليه ، قال نعم ، قال فأنا عَدِىٌّ ، فجزّ ناصيتَه وتركه وقال فيه :

لَهْفَ نَفْسِى عَلَى عَدِىّ ولم أعـ * ـرِفْ عَدِيًّا إذ أَمْكَنَتْنِي اليَدَانِ

وكان الحارث آلى ألّا يصالحَ تغلبًا حتى تكلّمه الأرض ، فلمّا كثُرت وقائعه فى تغلِب ورأت تغلب أنها ما تقوم له حفروا سربا تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلا وقالوا له : اذا مرّ بك الحارثُ فغنّ بهذا البيت :

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بعضَنا * حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بعض

فلما مرّ الحارثُ اندفع الرجلُ وغنّى بالبيت ، فقيل للحارث قد برّ بقسمك فأبقِ بقيّة قومك ، فأمسك، فاصطلحت بكر وتغلب .

(١) عالية الرمح : سنانه .

(٢) زجّ الرمح : حديدة فى أسفله .

ثم إنّ المهلهلَ فرّ بنفسه فنزل بمَذْحِج فى بنى جَنْب[1] ، فخطبوا اليه ٱبنته ، وقيل أخته، فمنعهم، فأجبروه على تزويجها وساقوا اليه جُلودًا من أَدَم ، فقال فى ذلك :

أعـزِزْ على تَغْلِب بما لَقِيَتْ * أختُ بَنِى الأكْرمِينَ مِنْ جُشَمِ
أنكحها فَقْـدُها الأراقِـمَ[2] فى * جَنْب وكانَ الحِبَـاءُ من أدَمِ
لَـوْ بأبانَيْنِ[3] جاء يخطُبُهَـا * ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بِـدَمِ
لَيسُوا بأكْفائِنا الكرام ولاَ * يُغنُون فى ذلّةٍ ولاَعَـدَمِ

ثم ٱشترى المهلهل عبـدَيْن يغزوان معـه، فغزا بهما حتى طال عليهما ذلك، فٱختارا الراحةَ منه، فأجمعا على قتله بموضع قفرٍ، فلمّا شعر بما هما به ولم ير لنفسه ملجأ قال لهما : أبلغا عنّى هذه المراسلة، فقالا هات، فقال :

مَنْ مبلغُ عنّى بأنَّ مهلْهِـلًا * لله درّكُمَا ودرّ أبيكُمَا

فلمّا قتلاه وٱنصرفا نحو بيته فقالا : ماتَ بأرض كذا وذكرا وصيّته، فلم يدر أحد ما أراد، فقالت ٱبنته : والله ما كان أبى ردئ الشعر، ولا سَفْسَاف الكلام، وإنما أراد أن يخبركم أنّ العبدَيْن قتلاه، وإنما معنى البيت :

مَنْ مُبْلِـغٍ عنّى بأنّ مُهَلْهِلًا * أضْحَى قتيلًا بالفَلَا مُجَـدَّلَا
لله درّكما ودرُّ أبيكُما * لا يبرح العبدان حتّى يُقتَلَا

فقتل العبدان بعد أن أقرّا بذلك . وقيل : إنه أصبح قتيلا بين رجلى جمـل هاج . والله تعالى أعلم بالصواب .

---

(١) جنب : حىّ من مذحج ، وهم ستة رجال : منبه والحارث والعلى وسيحان وشمـران وهفان يقال لهم جنب لأنهم جانبوا أخاهم صداء (راجع معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٧٧ طبع أوربا) .

(٢) الأراقم : حىّ من تغلب . (٣) أبانين : جبلان، قيـل : يقال لأحدهما : أبان الأبيض، وللآخر : أبان الأسود .

الكلابُ الأوّل

قال أبو عبيدةَ : لمّا تسافهت بكر بنُ وائل وغلبها سفهاؤُها ، وتقاطعت أرحامُها ، ارتأى رؤساؤهم فقالوا : إنّ سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا ، فأكل القويُّ الضعيفَ ، فنرى أن نملِّكَ علينا مَلِكا نُعطيه الشاةَ والبعيرَ ، فيأخذ للضعيف من القوىّ ، ويردّ على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكونَ من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون ، فيفسد ذات بَيْننا ، ولكنّنا نأتى تُبَّعا فنملِّكه علينا ، فأتَوْه [فذكروا له أمرهم][1] فملَّك عليهم الحارثَ بن عمرو آكلَ المرار الكِنْدىّ ، فقدم فنزل بطنَ عاقِل[2] .

ثم غزا ببكر بن وائل حتى انتزع عامّة ما فى أيدى ملوك الحِيرة الخميِّين ، وملوك الشام الغسانيّين ، وردّهم الى أقاصى أعمالهم ، ثم طُعِن فى نِيطة فمات فدُفن ببطن عاقِل . واختلف ابناه شُرَحبيل وسلَمَة فى المُلْك ، فتواعدا الكُلاب[3] ، فأقبل شُرَحبيل فى ضبّة والرِّباب كلّها ، وبنى يربوع ، وبكر بن وائل . وأقبل سَلَمة فى تَغْلِب والنَّمِر وبَهْراء ومَن تبعه من بنى مالك بن حنظلة ، وعليهم سُفيان بنُ مُجاشع ، وعلى تغلب السفّاحُ ، وإنما قيل له السفّاحُ لأنه سفح أوعية قومه وقال لهم : اندروا الى ماء الكُلاب ، فسبقوا ونزلوا عليه ، وإنما خرجت بكر مع شُرحبيل لعداوتها لبنى تغلب ، فالتقوا على الكُلاب ، واستحرّ القتل فى بنى يربوع ، وشدّ أبو حَنَش على شُرَحْبيل فقتله ، وكان شُرَحبيل قد قتل ابنَه حَنَشًا ، فأراد أبو حنش أن يأتىَ برأسه الى سلمة ، فخافه فبعثه مع عسيف له ، فلما رآه سَلَمة دمعت عيناه وقال له :

١٣٢/١٣

(١) التكملة من العقد الفريد . (٢) عاقل : واد بنجد .

(٣) الكلاب : اسم ماء بين الكوفة والبصرة . وقيل : ماء بين جبلة وشمام على سبع ليال من اليمامة .

أنت قتلته ؟ قال لا ، ولكن قتله أبُو حَنَش ، إنما أدفع الثواب الى قاتله ، فهرب أبو حَنش منه ، فقال سلمة فى ذلك :

ألا أبلغْ أبَا حَنَشٍ رَسُولًا * فمالك لا تجىءُ الى الثّوابِ
تَعلَّم أنّ خيرَ الناسِ طرًّا * قَتِيلٌ بيْنَ أحجار الكُلَاب

يومُ الصَّفْقة

وهو يومُ الكُلاب الثانى

قال أبو عبيدة : كان يومُ الكُلاب متّصلا بيوم الصَّفقة[1] . وكان من حديث الصفقة أنّ كسرى كان قد أوقع ببنى تميم ، فأخذ الأموال وسبى الذرارىّ بمدينة هَجَر[2] ، وذلك أنهم أغاروا على لطيمةٍ له فيها مسك وعنبر وجوهر كثير ، فسمّيت تلك الوقعة يوم الصَّفْقة ، ثم إنّ بنى تميم أداروا أمرهم ، وقال ذو الجحى منهم : إنكم قد أغضبتم الملك ، وقد أوقع بكم حتى وهنتم ، وتسامعت بما لقيتم القبائل ، ولا تأمنون دَوَرانَ العرب .

فجمعوا سبعةً من رؤسائهم وشاوروهم فى أمرهم ، وهم : أكثم بنُ صيفىّ الأسدىّ ، والأُحَيمر بنُ يزيد بن مرّة المازنىّ ، وقيسُ بنُ عاصم المِنْقَرِىّ ، وأُبير بن عصمة التيمىّ ، والنعمان بن جسّاس التيمىّ ، وأُبين بن عمرو السعدىّ ، والزبرقان بن بدر السعدىّ فقالوا لهم : ماذا تَرَوْن؟ فقال أكثم بن صيفىّ ، وكان يكنى أبا حنش : إنّ الناس قد بلغهم مالقينا ، ونخاف أن يطمعوا فينا وإنى قد نيّفت على التسعين ، وقد نحل قلبى كما نحل جسمى ، وأخاف ألّا يدرك ذهنى الرأىَ لكم ، فليعرض علىّ

(١) سمى الصفقة ، لأن كسرى أنو شروان أصفق الباب على بنى تميم فى حصن المشقر ، ويسمى أيضا : يوم المشقر ، والمشقر : حصن بالبحرين . (٢) هجر : اسم الأرض بالبحرين .

كلُّ رجل منكم رأيَه ومايُحضره فإنى متى أسمع الحزمَ أعرفه، فقال كلٌّ منهم ما عنده، وأكثم [ساكتٌ] لايتكلّم، حتى قام النعمانُ بن الجسّاس فقال: ياقومُ، أُنظروا ماءً يجمعكم ولايعلم الناس بأىّ ماء أنتم حتى تنفرجَ الحلقةُ عنكم، وقد صَلُحَت أحوالكم، وانجبر كَسيرُكم، وقَوىَ ضعيفُكم، ولا أعلم ماءً يجمعكم إلّا قِدَة[1]، فقال أكثم: هذا [هو] الرأى، فارتحلوا حتى نزلوا الكُلابَ، وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، وأعلاه مما يلى اليمن، وأسفله مما يلى العراق. فنزلت سعد والرِّباب بأعلى الوادى، ونزلت حنظلة بأسفله.

قال: وكانوا لايخافون أن يَغزوا فى القَيْظ، لبُعْد تلك الصحارى وشدّة الحرّ بها وقلة المياه، فأقاموا بقيّة القيظ لا يعلم أحدٌ بمكانهم، حتى اذا تهوّر[2] القيظ بعث الله ذا العُيَيْنَتَيْن، وهو من أهل مدينة هَجَر، فمرّ بقِدَة وصحاريها، فرأى ما بها من النَّعم، فانطلق حتى أتى أهلَ هَجَر فقال: هل لكم فى جارية عَذراء، ومُهْرة شَوْهاء[3]، وبَكْرة حمراء، ليس دونها نكبة؟ قالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: تلكم تميم ألْقاءٌ[4] مطروحون بقِدَة. فمشى بعضهم الى بعض وقالوا: اغْتنِموها من بنى تميم. فأخرجوا معهم أربعةَ أملاك يقال لهم اليزيديون: يزيد بنُ هَوْبَر، ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المأموم، ويزيد بن المخرِّم، وهم كلّهم حارثيُّون ومعهم عبد يَغوث الحارثىّ، وكان كلُّ واحد منهم على ألفَيْن، فمضَوْا حتى إذا كانوا ببلاد باهلة قال جرير بن جزء الباهلىّ لابنه: يا بنىّ، هل لك فى أكرومة لا يُصاب أبدًا مثلُها؟ قال: وما ذلك؟ قال: هذا الحىُّ من تميم قد لجأوا ها هنا مخافة كسرى، وقد قصصت أثر الجيش يريدونهم، فاركبْ جملى الأَرْحَبىّ، وسِرْ سيرا رُوَيدا

(١) التكملة من العقد الفريد. (٢) تهوّر القيظ: ذهب. (٣) الشوهاء من الخيل: الطويلة الرائعة. (٤) ألقاء: جمع لقى، وهو ماطرح على الأرض.

عقبةً[1] من الليـل ، ثم حلّ عنه حبليه وأنْخهُ وتوسّدْ ذراعه ، فإذا سمعتَه قـد أفاض بجِرّتِهِ وبال فاستنقعت ثِفناته فى بَوْله ، فشـدَّ حبليه ثم ضع السَّوْطَ عليه ، فإنك لا تسأل جملك شيئا من السير إلا أعطاكه حتى تصبِّحَ القوم . ففعل ما أمره به .

قال البـاهلىُّ : فخلتُ بالكُلاب قبـل الجيش فناديت : يا صباحاه ! فإنهـم لَيَثِبون إلىَّ ليسألونى مَن أنت ؟ إذ أقبل رجلٌ منهـم من بنى شقيق على مُهر قـد كان فى النَّعم فنادى : ياصباحاه ، قـد أُتى على النَّعم ، ثم كرّ راجعا نحـو الجيش ، فلقيه عبـد يغوث الحارثىّ وهو أوّل الرعيل ، فطعنه فى رأس مَعِـدته فسبق اللّبنُ الدم ، فقال عبـدُ يغوث : أطيعونى وآمضوا بالنَّعم وخلُّوا العجائز من تميم ساقطـة أفواهُها ، فقالو : أما دون أن تُنْكَح بناتهُم فلا .

وقال ضَمْرة بن لبيد الحماسىّ ثم المذحجىّ الكاهن : أنظروا اذا سُقْتُم النَّعَم فإن أتتكم الخيل عُصَباً [عُصَبًا] تنتظر العصبة أن تنتظم الأخرى حتى تلتحقَ بهـا فإن أَمْرَ القوم هيّنٌ ، وإن لحق بكم القومُ ولم ينتظر بعضُهم بعضا حتى يردّوا وجوهَ النَّعَم فإن أمرهم شديدٌ .

١٣٣/١٣

وتقدّمت سـعد والرِّبابُ فى أوائل الخيل وآلتقَوْا بالقـوم فلم يلتفتوا إليهم ، وآستقبلوا النَّعم ولم ينتظر بعضُهم بعضًا . ورئيسُ الرباب النعمانُ بن الجسّاس ، ورئيسُ بنى سعد قيسُ بنُ عاصم ، فآلتقى القومُ ، فكانَ النعمانُ أوّلَ صريع ، وآقتتل الفريقان حتى حجز بينهم الليلُ ، ثم أصبحوا على راياتهم ، فنادى قيسُ بنُ عاصم : يا آل سعد ! يريد سعدَ بن زيد ، ونادى عبدُ يغوث : يا آل سعد ! يريد سعد العشيرة ، فلمـا سمع قيس ذلك نادى : يا آلَ كعب ! يريد كعب بنَ سـعد ، ونادى عبد يغوث : يا آل كعب ! يريد كعب بن عمرو ، فلما رأى ذلك نادى :

(١) عقبة من الليل : أى ساعة .

يا آل مُقَاعِس ! فلما سمع وَعْلة ابن عبد الله الجرْمىّ — وكان صاحبَ لواء أهل اليمن — نادى : يا آلَ مُقَاعِس، تفاءل به فطرح له اللواء، وكان أوّل من انهزم ، فحملت عليهم سعد والرباب فهزموهم، ونادى قيسُ بنُ عاصم : يا آلَ تميم، لا تقتلوا إلّا فارسا فإنّ الرجّالة لكم، ثم جعل يرتجز ويقول :

لمّا تولّوا عُصَباً شَوَازِبَا (١) * أَقْسَمْتُ لَا أَطْعَنُ إلّا رَاكِبَا

* إنّى وَجَدْتُ الطَّعْنَ فيهمْ صَائِبَا *

وأمر قيسُ بنُ عاصم أن يتبعوا المنهزمةَ، ويعرقبوا مَنْ لحقوه ، ولا يشتغلوا بالقتل عن اتباعهم ، فحزّوا دوابرهم ، وفى ذلك يقول وَعْلة :

فِدًى لكم أهْلِي وأمِي وَوَالِدِي * غَداةَ كُلَاب إذْ تُحَزُّ الدوابِرُ

وأسر عبد يغوث ، أسره مَصاد بن ربيعة بن الحارث وكتّفه وأردفه خلفه ، وكان مَصاد قد أصابته طعنة فى مأبضه، وكان عِرْقه يهمى (٢) ، فنزفه الدم، فمال عن فرسه مقلوبا . فلما رأى ذلك عبدُ يغوث قطع كتافه وأجهز عليه وانطلق على فرسه ، وذلك أوّلُ النهار ، ثم ظفر به بعد فى آخره ، ونادى مناد : قتل اليزيدون، وشدّ قَبِيصة بن ضِرار الضَّبِّىّ على ضَمْرَة بن لَبِيد الجماسىّ الكاهن فطعنه فخر صريعا، فقال له قَبِيصة : ألا أنبأك تابعُك بمصرعك اليوم، ثم أُسر عبدُ يغوث، أسره عصمةُ بن أُبَير التيمىّ .

قال أبو عبيدة : انتهى عصمةُ بن أُبَير إلى مَصاد فوجده صريعًا ، وكان قبل ذلك رأى عبدَ يغوث أسيرًا فى يديه ، فعلم أنه الذى أجهز عليه فاقتصّ أثرَه فلحقه وقال: ويحك! إنى رجل أُحبّ اللين ، وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش . قال : ومَن أنت ؟ قال : عصمةُ بنُ أُبَير ، فانطلق به عصمة حتى جاء عند الأهتم على

(١) شوازبا : ضوامر . (٢) يهمى : يسيل .

أن جعل له من فدائه جُعْلا ، فترَكه الأهتم عند آمرأته العبشميّة ، فأعجبها جمالُه وكمالُ خلقتِه ، وكان عصمةُ الذى أسره غلاما نحيفا ، فقالت له : مَن أنت ؟ قال : أنا سيّدُ القوم ، فضحكت وقالت : قبّحك الله سيّدُ قوم حين أسَرَك مثلُ هـذا ، ففى ذلك يقول عبدُ يغوث :

وتَضْحَكُ منّى شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ * كأنْ لم تَرَىْ[1] قَبْلى أسيراً يَمانِيَا

فآجتمعت الرِّبابُ الى الأهتم وقالت : ثأرنا عندك ، وقد قُتل مَصاد والنعمان فأخرِجه إلينا ، فأبى الأهتم أن يُخرجه إليهم ، فكاد أن يكون بين الحيَّيْن : الرِّباب وسعد ، فتنة حتى أقبل قيسُ بنُ عاصِ المِنْقَرِىّ فقال : أيؤتَى قطع حلْف الرِّباب من قِبَلنا؟ فضرب فاه بقوس فهتّمه ، فسمِّى الأهتم ، فقال الأهتم : إنما دفعه إلى عصمة ابن أُبير ، ولا أدفعه إلاّ لمن دفعه إلىّ ، فليجئْ فيأخذْه ، فأتوا عصمة فقالوا : ياعصمة ، قُتل سيّدُنا النعمانُ وفارسُنا مَصاد ، وثأرُنا أسيرُك ، فما كان ينبغى لك أن تستحييه ! فقال : إنى مُمْعِل وقد أصبتُ الغنى ، ولا تطيب نفسى على أسيرى ، فآشتراه بنو جسّاس بمائة بعير ، فدفعه إليهم ، فخشوا أن يَهْجُوَهم ، فشدّوا على لسانه نِسعة ، فقال : إنكم قاتلى لا محالة ، فدعونى أذمّ أصحابى وأنوح على نفسى ! فقالوا : إنك شاعرٌ ونخاف أن تهجُوَنا ، فعقد لهم ألاّ يفعلَ ، فأطلقوا لسانه ، فقال قصيدته التى أوّلها :

(١) قال أبو على القالى فى أماليه (ج ٣ ص ١٣٤ طبع دار الكتب المصرية) : « قال الأخفش : رواية أهل الكوفة : كأن لم ترَن قبلى ، وهذا عندنا خطأ ، والصواب : ترَى بحذف النون علامة للجزم » .

وهذا مبنىّ على أن الفعل مسند لياء المخاطبة على معنى كأن لم ترى أنت ، فيكون فيه إلتفات من الغيبة الى الخطاب ولم يحكه أحد من النحاة ، بل الذى ذكره صاحب المغنى أن أبا علىّ خرج البيت على أن أصل الفعل ترأى بهمزة بعدها ألف ثم حذفت الألف للجازم ، ثم أبدلت الهمزة ألفا ، وعلل بما يطول فانظره فى مبحث « لم » .

أَلَا لَا تَلُومانِي كَفَى اللَّومَ مَا بِيَا * فَمَا لَكُمَا فِي اللَّومِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا

ومنها :

أقولُ وقد شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ (١) * أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا لِي لِسَانِيَا

أَمَعْشَرَ تَيْمٍ قَدْ مَلَكْتُمْ فَأَسْجِحُوا (٢) * فإنّ أُسَارِي لم يكُنْ مِنْ تَوَانِيَا (٣)

وقد عَلِمَتْ عِرْسِي مُلَيْكَةُ أَنَّنِي * أنا اللَّيْثُ مَعْدِيًّا عليه وعَادِيَا

ومنها :

كأنِّي لم أركَبْ جَوَادًا ولَمْ أَقُلْ * لِخَيْلِي كُرِّي (٤) قَاتِلِي عن رِجَالِيَا

ولم أَسْبِإِ (٥) الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أَقُلْ * لأيسَارِ صِدْقٍ أَعظِمُوا ضَوْءَ نَارِيَا

قال : فلما ضُربت عنقه قالت ٱبنةُ مَصاد : بُؤْ (٦) بِمَصَاد ! فقال بنو النعمان : يا لكاع ! نحن نشتريه بأموالنا ونبؤ بمَصَاد ، فوقع بينهم فى ذلك الشرّ ، ثم ٱصطلحوا .

---

(١) ذكر أبو على القالى فى أماليه (ج ٣ ص ١٣٣ طبع دار الكتب المصرية) ما نصه : «وقوله : وقد شدّوا لسانى بنسعة ، قال : هذا مثل ، لأن الإنسان لا يشدّ بنسعة ، وإنما أراد : افعلوا بى خيرا ينطلق لسانى بشكركم ، فإن لم تفعلوا فلسانى مشدود لا يقدر على مدحكم» .

(٢) أسجحوا : أى سهلوا ويسروا فى أمرى .

(٣) رواية الأمالى :

* فإن أخاكم لم يكن من بوائيا *

قال : البواء : السواء ، يريد إن أخاكم لم يكن نظيرا لى فأكون بواء له .

(٤) كرى : نفسى .

(٥) السباء : اشتراء الخمر .

(٦) بؤ بفلان ، أى اذهب به ، يقال ذلك لمقتول بمن قتل .

يومُ طِخْفَة (١)

قال : كانت الرِّفادة، وقيل الردافة (٢)، ردافة الملوك لعتّاب بن هَرْمِىّ بن رِيَاح، ثم كانت لقيس بن عتّاب ، فسأل حاجبُ بن زرارة النعمانَ أن يجعلَها للحارث بن مرط بن سفيان بن مُجاشع ، فسألها النعمانُ بنى يربوع وقال : أعقبو إخوتكم فى الرفادة، قالوا : إنهم لا حاجة لهم فيها، وإنما سألها حاجبٌ جسدًا لنا وأبَوْا عليه، فقال الحارث بن شهاب وهو عند النعمان : إنّ بنى يربوع لا يسلّمون ردافتَهم إلى غيرهم . وقال حاجب : إن بعث الملك إليهم جيشا لم يمنعوه ولم يمتنعوا . فبعث النعمانُ إليهم قابوسًا ابنَه، وحسّانَ بن المنذر؛ فكان قابوس على الناس، وحسّان على المقدّمة، وبعث معهم الصنائع والوضائع — فالصنائع : مَنْ كان يأتيه من العرب، والوضائع : المقيمون بالحيرة — فالتقَوْا بطِخْفَة، فانهزم قابوس ومَن معه، وضَرب طارقُ بنُ عميرة فرسَ قابوس فعقره ، وأخذه ليجزّ ناصيتَه، فقال قابوس : إنّ الملوك لا تُجَزّ نواصيها، فجهّزه وأرسله إلى أبيه ، وأما حسّان بنُ المنذر فأسره بشرُ ابنُ عمرو الرياحىّ، ثم منّ عليه وأرسله، ففى ذلك يقول مالك بنُ نُوَيْرة :

ونحنُ عقَرْنَا مُهْرَ قابوسَ بعْدَ مَا * رأى القومُ منه الموتَ والخيلُ تُلْحَبُ (٣)

عليه دِلَاصٌ (٤) ذاتُ نَسْج وسَيْفُه * جُرَازٌ من الهِنْدىّ أبيضُ مِقْضَبُ

---

(١) طخفة : موضع فى طريق البصرة إلى مكة .

(٢) الردافة : كانت الردافة بمنزلة الوزارة . وكان الرديف يجلس على يمين الملك إذا جلس، ويردفه وراءه إذا ركب، وإذا نزل جلس عن يمينه فتصرف إليه كأس الملك إذا شرب ، وله ربع غنيمة الملك من كل غزوة يغزو، وله إقاوة على كل من فى طاعة الملك .

(٣) تلحب : تلهث .

(٤) الدلاص من الدروع : اللينة .

يومُ فيف الريح (١)

قال أبو عبيدة : تجمّعت قبائل مَذْحِج وأكثرها بنو الحارث بن كعب، وقبائل من مراد وجُعْفِيّ وزُبَيْد وخَثْعم، وعليهم أَنَس بن مُدْرك، وعلى بنى الحارث الحُصَيْن، فأغاروا على بنى عامر بن صعصعة بفَيْف الرِّيح، وعلى بنى عامر، عامرُ بنُ مالك مُلاعبُ الأسِنّة.

قال : فاقتتل القومُ، فكسروهم، وارفضت قبائل من بنى عامر، وصبرت بنو نمير، وأقبل عامرُ بنُ الطُّفَيل وخَلْفه دعِيُّ بنى جعفر فقال : يا معشرَ الفتيان، من ضرب ضربة أو طعن طعنة فليشهدنى [فكأنّ] (٢) الفارس إذا ضرب ضربة أو طعن طعنةً، قال عند [ذلك] : أباعلى، فبينما هوكذلك إذ أتاه مُسْهِر بن يزيد (٣) الحارثىّ، فقال له من ورائه : عندك يا عامر والريح عند أذنه فوهصه — أى طعنه —، فأصاب عينه، فوثب عامر عن فرسه ونجا على راحلته، وأخذ مسهر رمحَ عامر، ففى ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل من أبيات :

لَعمْرى وما عَمْرى علىَّ بهَيِّنٍ * لقد شَانَ حرَّ الوَجْهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ

وقال مُسْهر — وقد زعم أنهم أخذوا امرأة عامر — :

وهَصْتُ بخُرْصِ (٤) الرمح مُقْلَةَ عامرٍ * فأضْحَى نحيفًا فى الفَوارِس أعْوَرَا

وغَادَرَ فينا رُمْحَه وسِلاحَه * وأدْبَرَ يَدْعُو فى الهَوالك جَعفرَا

وكنّا إذا قَيْسِيَّةٌ ذهبَتْ بِنَا * جَرَى دَمْعُهَا مِنْ عَينِهَا فتحدَّرَا

مخافةَ ما لاقَتْ حَليلةُ عامرٍ * من الشرِّ إذ سِرْبالُها قد تَعَفَّرَا

---

(١) فيف الريح : موضع بأعلى نجد. (٢) التكملة من العقد الفريد.

(٣) فى أمالى القالى (ج ٣ ص ١٤٧ طبع دار الكتب المصرية) : «مسهر بن زيد».

(٤) خرص الرمح : سنانه.

قال : وكانت هذه الوقعةُ وقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وأدرك مُسْهِر بنُ يزيد الإسلام فأسلم .

يومُ زَرُود الأوّل

غزا الحَوْفَزانُ حتى انتهى الى زَرُود[1] خلف جبل من جبالها ، فأغارُوا على نَعَم كثير لبنى عَبْس فاجتازوها ، وأتى الصريخُ[2] لبنى عبس فركبوا ، ولحق عمارةُ بن زياد العبسىّ الحَوْفَزان فعرفه — وكانت أمُّ عمارة قد أرضعت مُضَرَ بنَ شَريك ، وهو أخو الحَوْفَزان — فقال : يا بنى شَرِيك ، قد علمتم ما بيننا و بينكم ، قال الحوفزان — وهو الحارثُ بنُ شَرِيك — : صدقتَ يا عمارة ، فانظر كلّ شىء هو لك فخُذْه ، فقال عمارةُ : لقد علمتْ نساءُ بنى بكر بن وائل أنّى لن أملأ أيدىَ أزواجهنّ وأبنائهنّ شفقةً عليهنّ من الموت ، فخلّ عمارة ليعارض النَّعَم ليردَّه ، وحال الحَوْفَزان بينه و بين النَّعَم ، فعثرت بعمارة فرسُه فطعنه الحَوْفَزان ، وطعنه نعامةُ بنُ عبد الله بن شَرِيك : وأُسِر ابنا عمارة : سِنان وشدّاد ، وكان فى بنى عبس رجلان من طيىء : ابنان لأوس ابن حارثة ، مجاورين لهم ، وكان لهما أخٌ أسيرٌ فى بنى يشكُر ، فلمّا فقدته بنو شيبان نادوا : يا ثارات معدان ! فعند ذلك قتلوا ابنَىْ عمارة وهرب الطائيّان بأسيرهما .

فلما برئ عمارة من جراحه أتى طيئًا فقال : ادفعوا إلىّ هذا الكلب الذى قُتِلْنا به ، فقال الطائِىّ لأوس : ادفع الى بنى عبس صاحبَهم ، فقال لهم : تأمرنى أن أعطِىَ بنى عبس قطرةً من دمى ، و إن ابنى أسير فى بنى يشكُر ؟ فوالله ما أرجو فكاكه

(١) زرود : رمال بطريق الحاج من الكوفة .

(٢) الصريخ : المستغيث .

إلّا بهذا . فلما قفل الحَوْفَزان من غزوه بعث الى بنى يشكُر فى آبن أوس ، فبعثوا به اليه، فآفتدى به معدان، وقال نعامةُ بنُ شريك :

اسْتَنْزَلَتْ رِماحُنا سِنَانَا * وشَيْخنا بِطِخْفَةٍ عنانا
ثم أخوه قد رَأى هوَانَا * لمّا فقَدْنَا بيننا مَعْدانا

يومُ غَوْل الأوّل

وهو يومُ كِنْهِل

قال أبو عبيدة : أقبل آبنا هجيمة — وهما من غسّان — فى جيش فنزلا فى بنى يربوع، فجاوَرَا طارقَ بنَ عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، فنزلا معه على ماء يقال له : كِنْهِل، فأغار عليهما أناسٌ من ثعلبة بن يربوع ، فآستاقوا نَعَمهما وأسروا من كان فى النَّعَم، فركب قيسُ بنُ هُجَيْمَة بخيله حتى أدرك بنى ثعلبة ، فكرّ عليه عُتَيْبة بن الحارث، فقال له قيس : هل لك ياعُتَيْبة الى البراز؟ قال، ما كنتُ لأسألَه وأدعه ، فبارزه ، قال عُتَيْبة : فما رأيتُ فارسا أملأ لعينى منه ، فطعنَنى فأصاب قربوسَ سَرْجى ، حتى وجدتُ مسَّ السِّنان فى باطن فخذى ، ثم أرسل الرمْحَ وهو يرى أن قد أثبتَنِي [وآنصرف][1] فأتبعته الفرس، فلما سمع زَجَلَها[2] رجع جانحا على قربوس سَرْجه ، و بدا لى فرج الدِّرع فطعنتُه بالرمح ، فقتلتُه وآنصرفتُ فلحقتُ النَّعَم، وأقبل الهِرْماسُ بنُ هُجَيْمة فوقف على أخيه قتيلا، ثم آتبعنى فقال : هل لك فى البراز ؟ فقلت : لعلّ الرجعة خيرٌ لك ، قال : أبعدَ قيس ؟ ثم شدّ علىّ وضربنى على البيضة ، فخلص السيف الى رأسى، فضربتُه فقتلتُه، فقال جرير :

وساقَ آبنَىْ هُجَيْمَةَ يَوْمَ غَوْلٍ * الى أسْيافِنا قَدَرُ الحِمَامِ

(١) التكملة من العقد الفريد .

(٢) الزجل : الصوت .

يومُ الجُبابات (١)

قال أبو عبيدة : خرج بنو ثعلبةَ بن يربوع فمرُّوا بناس من طوائف بكر بن وائل بالجُبابات ، خرجوا سُفّارا ، فنزلوا وسرَّحوا إبلهم ترعى ، وفيها نفرٌ منهم يرعونها ، منهم : سَوادةُ بنُ يزيد بن بُجَير العِجْلىّ ، ورجلٌ من بنى شَيْبان ، وكان محموما ، فمرَّت بنو ثعلبة بن يربوع بالإبل فاطّردوها وأخذوا الرجلين من بنى شيبان ، فسألوهما : مَنْ معكما؟ قالا : معنا شيخٌ من يزيد بن بُجَير العِجْلىّ فى عِصابةٍ من بكر بن وائل خرجوا سُفّارا يريدون البحرين ، فقال الربيعُ ودَعموص ابنا عُتَيْبة بن الحارث بن شهاب : أنذهب بهذين الرجلين وهذه الإبل ولم يعلموا مَنْ أخذها ، ارجعوا بنا حتى يعلموا من أخذ إبلهم وصاحبيهم لنُعنيهم بذلك ، فقال عَميرة لهما : ما وراءكما إلا شيخ ابن يزيد قد أخذتما أخاه وأطردتما إبلَه ، دعاه ، فأبَيا ورجعا إليه وأخبراهم وتسمَّيا لهم ، فركب شيخ ابنُ يزيد فاتّبعهما وقد ولَّيا ، فلحق دَعْموصًا فأسره ، ومضى ربيعٌ حتى أتى عَميرةَ فأخبره أن أخاه قد قُتِل ، فرجع على فرس له يقال لها الخنساء حتى لحق القومَ ، فافتكّ منهم دَعْموصًا على أن يردَّ عليهم أخاهم وإبلَهم ، فردَّها إليهم ، فكفَر بنو عُتَيبة ولم يشكروا عَميرةَ . فقال عَميرةُ فى ذلك :

ألم تَرَ دَعْموصًا يَصُدّ بوجهِهِ * إذا ما رآنى مُقْبِلًا لم يُسَلِّمِ
أَلَمْ تَعْلَمَا يا ابْنَىْ عُتَيْبَةَ مَقْدَمى * عَلَى ساقطٍ بيْنَ الأَسِنَّةِ مُسْلِمِ
فعارضْتُ فيه القومَ حتّى انتزعتُهُ * جِهارًا ولم أنظُرْ له بالتَّلَوُّمِ

يوم الشِّعْب

غزا قيسُ بنُ شرقاء التغلبىّ ، فأغار على بَنِى يربوع بالشِّعْب ، فاقتتلوا ، فانهزمتْ بنو يربوع ، فأُسِر سُحَيْمُ بنُ وَثِيل الرِّياحىّ ، فقال سُحَيْم فى ذلك :

(١) الجبابات : موضع بين ديار بكر والبحرين .

أقـولُ لهم بالشِّعْبِ إذْ يأسِرونَنِي * ألم تَعْلَمُوا أنّى ٱبنُ فارِسِ زَهْدَمِ

ففدى نفسَه، وأُسِر أيضا مُتَمِّمُ بنُ نُوَيْرة، فوفد مالك بنُ نُوَيْرة على قيس بن شرقاء في فدائه فقال :

هَلْ أنتَ يا قَيْسُ بنُ شرقاء مُنْعِمٌ * أو الجهْـدَ إنْ أعطيتُه أنتَ قابِلُهْ

فلما رأى وسامَتَه قال : بل مُنْعِم، فأطلقه له .

يومُ غَوْل الثانى

فيه قَتَل طَرِيفٌ شَراحيلَ وعمرو بنَ مَرْثَد المُحَلِّمىّ

غزا طَرِيفُ بنُ هشيم فى بنى العنبر بن تميم، فأغار على بكر بن وائل بغَوْل، فاقتتلوا، ثم إنّ بكرا انهزمت، فقتَل طَرِيفٌ شَراحيلَ أحد بنى ربيعة، وقتَل أيضا عمرو بنَ مَرْثَد، وقتل المُجَشَّر .

يومُ الخَنْدَمة (١)

كان رجلٌ من مُشْرِكى قُرَيش يُحِدّ حربةً يومَ فَتْح مكة، فقالت له امرأتُه : ما تصنع بهـذه ؟ قال : أعددتُها لمحمد وأصحابه ! [فقالت له : ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شىء (٢)] فقال : والله إنى لأرجو أن أُخدِمَك بعضَ نِسائِهم، وأنشأ يقـول :

إنْ يُقْبِلُوا اليَوْمَ فما لِىَ عِلَّةٌ * هَـذا سِـلاحٌ كاملٌ وآلَهْ

* وذو غِرَارَيْنِ سَريعُ السَّلَّهْ *

---

(١) الخندمة : اسم جبل بمكة .

(٢) التكملة من العقد الفريد ومعجم ما استعجم للبكرى فى كلامه على الخندمة .

فلما لقيهم خالد [بن الوليد][1] يوم الخَنْدَمة انهزم الرجلُ لا يلوِى على شىء ، فلامته امرأتُه فى ذلك ، فقال :

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ * إذ فَرَّ صَفْوَانُ وفَرَّ عِكْرِمَهْ
ولَقِيْتَنَا بِالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ * يَفْلِقْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وجُمْجُمَهْ
ضَرْبًا فلا تُسْمَعُ إلَّا غَمْغَمَهْ * لَمْ تَنْطِقِى فِى اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

وهذه القصّة نذكرها — إن شاء الله — فى أثناء السيرة النبويّة فى يوم فتح مكة .

يَوْمُ اللُّهَيْمَاءِ[2]

قال أبو عبيدة : كان سببُ الحربِ التى كانت بين [عمرو بنِ الحارث بن تميم ابن سعد بن هُذَيل ، وبين عمرو[3]] بن عدىّ بن الدُّئل بن بكر بن عبد مَنَاة ، أنّ قيس بنَ عامر بن غريب أخا بنى عمرو بنِ عدىّ وأخاه سالما ، خرجا يريدان بنى عمرو بنِ الحارث ، على فرسَيْن ، يقال لأحدهما : اللُّعاب ، والآخر : عَفْزَر ، فباتا عند رجل من بنى نُفَاثة ، فقال النُّفَاثىّ لقيس واخيه : أطيعانى وارجعَا ، لأعرفنّ رماحكما تُكسر فى قتاد نَعمان ، قالا : إنَّ رِمَاحنا لا تُكْسَر إلّا فى صدور الرجال ! قال : لا يضرّكما ، وستحمدان أمرى ، فأصبحا غاديين . فلما شارفا مَتْن اللُّهَيْمَاء من نَعمان ، وبنو عمرو بن الحارث فُوَيق ذلك بموضع يقال له أُدَيْمة ، وأغارا على غنم لجندب بن أبى أعيبس ، وفيها جندب ، فتقدّم إليه قيسٌ ، فرماه جندب على حلمةِ ثديه وبعجه قيسٌ بالسيف فأصابت ضبّةُ السيف وجهَ جندب ، وحزّ قيس

(١) التكملة من العقد الفريد .

(٢) التكملة من العقد الفريد .

(٣) كذا فى معجم ما استعجم للبكرى على لفظ التصغير ممدودا . وفى الأصول ورد مقصورا .

ونفرت الغنمُ نحوَ الدارَ فتبعها وحملَ سالم على جندب بفرسه عفزر، فضرب جندب خطم الفرس بالسيف فقطعه، وضربه سالم بالسيف فقطع إحدى ثدييه، فخرَّ جندب ووقف عليه سالم، وأدرك العشى سالمًا، فخرج وترك سيفَه فى المعركة وثوبَه بحقويه، ولم ينج إلا بحفن سيفه ومئزره فقال حذيفةُ بنُ أنيس فى ذلك من أبيات:

كَشَفَتْ غِطَاء الحرب لَمَّا رَأيتُهَا * تَمِيلُ عَلَى صَفْو من اللَّيْل أعسَرَا
أخُوالحَرْب إنْ عضَّت به الحربُ عَضَّهَا * وَإنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقهَا الحربُ شَمَّرَا
وَيَمْشى إذَا مَا المَوْتُ كانَ أمَامَهُ * كَذَا الشِّبْلُ يَحمى الأنْفَ أنْ يَتَأخَرَا
نَجَا سَالمٌ والنفسُ مِنْه بِشِرْقَةٍ * وَلَمْ يَنْجُ إلّا جَفْنَ سَيْفٍ وَمِئْزَرَا
وَطابَ عَنْ اللَّعَاب نَفْسًا وَرِمَّةً * وغَادَرَ قيسًا فِى المَكَرِّ وعَفْزَرَا

يومُ خَزَاز

قال أبو عُبيدة: تنازع عامرٌ ومسمعٌ ابنا عبد الملك، وخالدُ بنُ جَبَلة، وإبراهيم بنُ محمد بن نوح العطاردى، وغسَّان بن عبد الحميد، وعبد الله بن سالم الباهلىّ، ونفرٌ من وجوه أهل البصرة كانوا يتجالسون يومَ الجمعة ويتفاخرون ويتنازعون فى الرياسة يومُ خَزَاز. فقال خالدُ بنُ جَبَلة: كان الأحوصُ ابنُ جعفر الرئيس. وقال عامرٌ ومسمعٌ: كان الرئيس كليب وائل. وقال ابنُ نوح: كان الرئيس زرارة بن عدس، وهذا فى مجلس أبى عمرو بن العلا، فتحاكموا إليه فقال: ما شهدها عامرُ بن صعصعة، ولا دارمُ بنُ مالك، ولا جشم بن بكر، اليوم أقدم من ذلك، غير أن أهلَ اليمنِ كان الرجلُ منهم يجئُ ومعه كاتبٌ وطنفسة يقعدُ عليها، فيأخذ من أموالِ نزار ما شاء، كعمّال صدقاتهم اليوم،

وكان أوّلُ يوم آمتنعتْ مَعَدٌّ عن [الملوكِ][1] : ملوكِ حِمْيَر، وكانت نزارُ لم تكثر بعد، فأوقَدُوا نارا على خَزَاز ثلاثَ ليال، ودخّنوا ثلاثة أيام، فقيل له : وماخَزَاز ؟ قال : هو جبلٌ [قريبٌ من أَمَرَة على يسار الطريق][1] خلفه صحراء مَنْعِج[2]، ففى ذلك اليوم آمتنعت نزار من أهلِ اليمن، قال عمرُو بنُ كلثوم :

٥ ونحنُ غَـدَاة أوْقَـدَ فى خَزَاز * رَفَـدْنا فَـوْقَ رِفْد الرَّافِـدينَا
فَكُكَّا الأَيْمَنِينَ إذا آلتَقَيْنَـا * وكانَ الأيسَرين بنُو أَبينَا
فصَالُوا صَـوْلةً فيمنْ يَليهـمْ * وصُلْنَـا صَـوْلةً فيمَنْ يلينَـا
فـآبُوا بالنهَـاب وَبالسبـايَا * وأُبْنَـا بالمـلُوكِ مُصَفَّدِينَـا

قال أبو عمرو بن العلاء : ولو كان جدّه كليبُ وَائل قائدهم ورئيسهم ما آدّعى الرفادة وترك الرياسة .

يومُ النِّسار

قال أبو عبيدة : تحالفت أَسَـدٌ وطيءٌ وغَطَفان، ولحقت بهم ضبّةُ وعَدِىّ، فغزوا بنى عامر فقتلوهم قتلًا شديدًا، فغضبت بنو تميم لمقتل بنى عامر، فتجمّعوا حتى لحقوا طيئًا وغطفان وحلفاءَهم من ضبّة وعَدِىّ يومَ الفِجار، فقتلت تميم [طيِّئًا][1] أشدّ مما قُتِلَتْ عامرٌ يوم النِّسار، فقال بشرُ بنُ أبى خازم :

غَضِبَتْ تميمٌ أن تقتَّـل عَامرٌ * يومَ النِّسَـارِ فأُعْقِبُوا بالصَّيْلَمِ

يومُ ذات الشقُّوق

قال : حلف ضَمْرةُ بنُ ضَمْرةَ النهشَلِىّ وقال : الخمرُ علىّ حرامٌ حتى يكونَ لنا يومٌ يكافئه، فأغار عليهم يومَ ذاتِ الشقوق فقتلَهم وقال فى ذلك :

(١) التكملة من العقد الفريد . (٢) منعج : على مقربة من حمى ضرية .

الآنَ سَاغَ لِي الشَّرَابُ ولَمْ أَكُنْ * آتى الفِجَارَ ولَا أشدُّ تَكلمى
حَتّى صَبَحْتُ عَلَى الشُّقُوق بغَارَةٍ * كالتَّمْرِ تُنْثَرُ فى جَرِينِ(١) الجُرَّمِ
وأفأْتُ يومًا بالخِفَارِ بِمِثْلِه * وأجزتُ نصفًا مِنْ حَدِيثِ المَوْسِمِ
وَمَشَتْ نِسَاءٌ كالنِّسَاءِ عَوَاطِلًا * مِنْ بَيْنِ عَارِفَةِ النِّسَاءِ وأَيِّمِ
ذَهَبَ الرِّمَاحُ بِزَوْجِهَا فتركْنَهُ * فِى صَدْرِ مُعْتَدِلِ القَنَاةِ مُقَوَّمِ

يوم خَوّ

قال أبو عبيدة : أغارت بنو أَسَد على بنى يربوع فاكتسحوا إبلَهم، فأتى الصريخُ الحىَّ فلم يتلاحقوا إلّا مساءً بموضع يقال له خَوّ(٢)، وكان ذُؤاب بنُ ربيعةَ الأسَدىّ على فرس أنثى، وكان عُتَيبةُ بنُ الحارث بن شهاب على حصان يستنشى ريحَ الأنثى فى سواد الليل ويتبعُها، فلم يعلم عُتَيبة إلّا وقد ألحم فرسه على ذُؤاب ابنِ ربيعة، وعُتَيبةُ غافلٌ لا يبصر ما بين يديه، فرآه ذؤاب فطعنه فى نحره فقتله، ولحق الربيعُ بنُ عُتَيبة فشدّ على ذُؤاب فأسره وهو لا يعلم أنه قاتِلُ أبيه، فلم يزل عنده أسيرا حتى فاداه أبوه ربيعة بإبلٍ قاطعه عليها، وتواعدا بسوق عُكَاظ فى الأشهُر الحُرُم أن يأتىَ هذا بالإبل وهذا بالأسير، فأقبل أبو ذؤاب بالإبل، وشُغل الربيع بن عُتَيبة فلم يحضر سوقَ عكاظ، فظنّ ربيعة أبو ذؤاب أن ذؤابا قُتِلَ بعتيبة، فقال يرثيه :

أبلغْ قَبَائِلَ جعفرٍ مخصُوصَةً * مَا إنْ أُحَاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كِلَابِ
إنّ المَوَدَّةَ والهَوَادَةَ بيننَا * خَلَقٌ كسَحْقِ الرَّيْطَةِ المُنْجَابِ
ولقد عَلِمْتُ عَلَى التجلّد والأسَى * أنّ الرَّزِيّةَ كان يومَ ذُؤَابِ

(١) الجرين : موضع التمر الذى يجفف فيه .
(٢) خوّ : كثيب معروف بنجد بين ديار بنى أسد وديار بنى يربوع .

إنْ يَقتُلُوكَ فقدْ هتكتَ بُيُوتَهُمْ * بِعُتَيْبَةَ بن الحَارث بن شَهابِ
بِأَحبِّهِم فقْدًا عَلَى أعدَائِه * وأشدِّهِمْ فقدًا على الأَصْحَابِ[1]

فلما بلغ إليهم الشعر قتلوا ذؤابَ بنَ ربيعة .

أيامُ الفِجَار[2]

الفِجارُ الأوّل

قال أبو عبيدة : أيامُ الفِجَارِ عدّةٌ ، فأوّلها بين كنانة وهَوازن . وكان الذى هاجه أنّ بدْر بنَ معشر أحد بنى عقال بن مُلَيك بن ضَمْـرَة بن بكر بن عبـد مناة بن كنانة جعل له مجلسا بسوق عُكَاظ ، وكان منيعا فى نفسه ، فقامَ فى المجلس وقام على رأسه قائم وأنشأ يقول :

نَحْنُ بنُـو مُدْرِكَةَ بنِ خِنْدِفِ * مَن يَطْعَنُوا فى عَيْنه لا يَطْرِفِ
وَمَنْ يكُونُوا قومَـه يُغَطْرِفِ[3] * كأنَّهُـمْ لُجَّـةُ بَحْـرٍ مُسْـدِفِ[4]

قال : ومدّ رجله وقال : أنا أعزّ العرب ، فمن زعم أنه أعزّ منّى فليَضربها ، فضربها الأَحيمرُ بنُ مازِن أحد بنى دُهْمان بن نضر بن معاوية ، فأندرها[5] من الرُّكْبة

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصول : « الى » .

(٢) سميت الفجار لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وهى الشهور التى يحرّمونها ففجروا فيها ، وهى فجاران ، الفجار الأوّل ثلاثة أيام ، والفجار الثانى خمسة أيام فى أربع سنين ، وقد حضر النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل ، وانتهت سنة ٥٨٩ م .

(٣) الغطريف والغطارف : السيد الشريف السخىّ الكثير الخير .

(٤) مسدف : مظلم .

(٥) أندرها : قطعها .

وقال : خذها إليك أيها المخندِفُ ! قال أبو عبيدة : إنما خرصها خُرَيصية يسيرة وقال فى ذلك :

نَحْنُ بنُو دُهْمَانَ ذُو التَّغَطْرُفِ * بحرٌ لِبحْرٍ زَاخِرٍ لم يُسْتَرَفِ
[* نَبْنِى على الأحياء بالمُعَرَّف (١) *]

قال أبو عبيدة : فتحاور الحيّان عند ذلك حتى كاد يكون بينهم قتالٌ، ثم تراجعوا ورأَوْا أنّ الخطبَ يسيرٌ .

الفِجَارُ الثانى

قال : كان الفجارُ الثانى بين قُرَيش وهَوَازِن ، وكان الذى هاجه أنّ فِتْيَةً من قريش قَعَدوا الى آمرأةٍ من بنى عامر بن صعصعة وضيئةٍ بسوق عُكَاظ . وقالوا : بل أطاف بها شبابٌ من بنى كنانة وعليها برقع [فأعجبهم ما رأَوْا من هيئتها (١)] ، فسألوها أن تسفر عن وجهها ، فأبت عليهم ، فأتى أحدُهم من خلفها فشدّ دُبُرَ دِرْعها بشوكة إلى ظهرها وهى لا تَدْرى ، فلما قامت تقلّص الدِّرعُ عن دُبُرها ، فضحكوا وقالوا : منعْتنا النظر الى وجهها فقد رأينا دُبُرَها ، فنادتِ المرأةُ : يا آلَ عامر ! فتحاور الناسُ ، وكان بينهم قتالٌ ودماء يسيرة ، فحملها حربُ بنُ أُمَيّة وأصلح بينهم .

الفِجَارُ الثالثُ وهو بين كِنانةَ وهَوَازِن

وكان الذى هاجه أنّ رجلا من بنى كنانة كان عليه دَيْنٌ لرجل من بنى نضر بن معاوية ، فأعدم الكنانىّ ، فوافى النضرىّ بسوق عُكَاظ بقرد ، فأوقفه فى سوق عكاظ فقال : مَنْ يبيعنى مثلَ هذا بما لى على فلان حتى أكثر فى ذلك . وإنما فعل ذلك تعييرا للكنانىّ ولقومه ، فمرّ به رجلٌ من بنى كنانة فضرب القردَ بالسيف

١٣٨/١٣

(١) التكملة من العقد الفريد .

فقتله، فهتف النضرىُّ : يا آلَ هوازن ! وهتف الكنانىُّ : يا آلَ كِنانة ! فهاج الناسُ حتى كاد أن يكونَ بينهم قتالٌ، ثم رأوا الخطبَ يسيرا فتراجعوا .

قال أبو عبيدة : إنما سُميتْ هذه الأيامُ بالفجَار لأنها كانت فى الأشهر الحُرُم، وهى الشهور التى يحرّمونها، وهذه يقال لها أيامُ الفِجار الأوّل .

الفجار الآخر وهو بين قريش وكنانة كلها وبين هَوَازِن

وإنما هاجها البَرّاضُ بقتله عُرْوَةَ الرحّال بن عُتْبة بن جعفر بن كِلاب، فأبت أن تقتل بعُروة البَرّاض لأن عُرْوَةَ سيّدُ هوازن ، والبرّاضُ خليعٌ من بنى كِنَانة، وأرادوا أن يقتلوا به سيّدًا من قريش .

وهذه الحربُ كانت قبل مبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم بستّ وعشرين سنة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كنتُ أنبُلُ على أعمامى يومَ الفِجَار وأنا ابنُ أربع عشرة سنة" يعنى أُناوِلهم النبل .

وكان سببُ هذه الحرب أنّ النعمانَ بنَ المنذر اللَّخْمىّ ملكُ الحِيرة كان يبعث الى سوق عُكَاظ فى كلّ عام لَطِيمة[1] فى جِوَار رجل شريف من أشراف العرب يُجيرها له، حتى تباعَ هنالك ويشترِى له بها من أَدَم الطائف ما يحتاج إليه. وكانت سوق عكاظ تقوم فى أوّل يوم من ذى القعدة ، فيتسوّقون إلى حضور الحجّ ، ثم يحجّون ، فجهّز النعمان عِير اللطيمةِ ثم قال : مَنْ يُجِيرُها ؟ فقال البَرّاضُ بنُ قيس الضمرىّ : أنا أُجِيرها على بنى كنانة ، فقال النعمان : ما أريد إلاّ رجلا يُجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال عُرْوة الرحّال — وهو يومئذ رجل هوازن — أكلبٌ خليع يجيرها لك ؟ أبيتَ اللعن ! أنا أُجيرها لك على أهل الشِّيح والقَيْصوم من أهل

(١) اللطيمة : عير التى تحمل الطيب و بزّ التجار .

نجد وتهامة ! فقال البرّاض : أعلى بنى كنانة تُجيرها يا عُرْوَةُ ؟ قال : وعلى الناس كلّهم ! فدفعها النعمانُ إلى عُروةَ ، فخرج بها وتَبِعه البرّاضُ ، وعُرْوَةُ لا يخشى منه شيئا ، إلى أن نزل بأرض يقال لها أُوَارَة(١) ، فشرب من الخمر وغتّته قَيْنَةٌ ، ثم نام ، فجاء البرّاض فدخل عليه ، فناشده عُرْوة وقال : كانت منّى زلّة ، وكانت الغَفْلة منى ضَلّة ، فقتله وخرج وهو يرتجز ويقول : ٥

قَدْ كانتِ الغفلةُ مِنِّى ضَلَّهْ * هَلّا على غَيْرى جَعَلْتَ الزَّلَّهْ

* فسوفَ أعلو بالحُسَامِ القُلَّهْ *

وقال :

وَدَاهِيةٍ يُهَالُ الناسُ مِنْهَا * شَدَدْتُ لَهَا بَنِى بكْرٍ ضُلوعِى

هَتَكْتُ بها بيوتَ بَنِى كِلَابٍ * وأرْضَعتُ المَوَالِى بالضُّرُوعِ ١٠

جَمَعْتُ له يَدَىَّ بِنَصْلِ سَيْفٍ * أفلَّ مُخَرَّمٍ كالجِذْعِ الصَّرِيعِ

وآستاق اللطيمةَ إلى خَيْبر ، وآتّبعه المُسَاوِرُ بنُ مالك الغَطَفانىّ ، وأَسَدُ بنُ خَيْثَم الغَنَوِىّ حتى دخلا خيبرَ ، فكان البرّاضُ أوّلَ مَن لقيهما ، فقال لهما : مَن الرجلان؟ قالا : من غَطَفانَ وغَنِىّ . قال البرّاض : ما شأنُ غَطَفان وغَنِىّ بهذا البلد؟ قالا : ومَن أنت ؟ قال : من أهل خيبر . قالا : ألك علمٌ بالبرّاض ؟ قال : دخل علينا طَرِيدا خَلِيعا فلم يُؤْوِه أحدٌ بخيبر ولا أدخله بيتا . قالا : فأين يكون؟ قال : وهل لكما [به](٢) طاقةٌ إن دللتكما عليه ؟ قالا : نعم . قال : فآنزلا ، فنزلا وعقلا راحلتَيْهما . قال : أيّكما أجرأُ عليه وأمضى مقدَما وأحدُّ سيفا ؟ قال الغَطَفانىّ : أنا . قال : فآنطلق أدلّك عليه ، فآنطلقا حتى آتيا إلى خَرِبَة فى جانب خيبر خارجةٍ عن البيوت ، فقال البرّاض : هو فى هذه الخِربة وإليها يأوِى ، فأنظِرْنى حتى أنظُر ٢٠

(١) أوارة (بضم أوّله وبالراء المهملة) : ماء دون الحريب لبنى تميم .

(٢) التكملة من العقد الفريد .

أَثَمّ هو أم لا ، فوقف له ودخل البرّاض ثم خرج إليه وقال : هو قائمٌ فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار ، فهل عند سيفك صَرَامةٌ ؟ قال : نعم . قال : هات سيفك أنظر إليه أصارمٌ هو؟ فأعطاه سيفه ، فهزّه البرّاض ثم ضربه فقتله ، ووضع السيفَ خلف الباب وأقبل إلى الغَنَوِىّ فقال : ماوراءك ؟ قال : أَجُبْنٌ من صاحبك ، تركتُه قائمًا فى البيت الذى فيه الرجل ، والرجل نائمٌ لا يتقدّم إليه ولا يتأخّر عنه ، قال الغَنَوِىّ : يا لهفاه ! لو كان لى من ينظر راحلتينا ، قال البرّاض : هما علىّ إن ذَهَبتا ، فانطلق الغنوىّ والبرّاض خلفه حتى إذا جاور الغنوىّ باب الخَرِبة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب ثم ضربه حتى قتله وأخذ سلاحَيْهما وراحِلتَيْهما وانطلق . ٢٩/٣

وبلغ قُرَيشا خبرُ البرّاض بسوق عُكَاظ ، فخلصوا نَجِيًّا ، واتّبعتهم قيسٌ لمّا بلغهم أنّ البرّاض قتل عُرْوةَ الرحّال ، وعلى قيس أبو براءٍ عامر بن مالك ، فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، فنادوهم : يا معشرَ قريش ، إنّا نعاهد الله ألّا نُبطل دَمَ عُرْوة أبدا ، أو نقتُل به عظيما منكم ، وميعادُنا معكم هذه الليلة من العام القابل ، فقال حرب بن أميّة لأبى سفيان ابنه : قل لهم : إنّ موعدكم قابلٌ فى هذا اليوم ، فقال خِدَاش بن زُهَير فى هذا اليوم ، وهو يوم نخلة ، من أبيات أوّلها :

يا شَدَّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذِبةٍ * على سَخِينَةَ لولا الليلُ والحُرُمُ

وكانت العرب تسمّى قريشا سَخِينة لأكلها السُّخْن .

يومُ شَمْطة (١) وهو يومُ نَخْلَةَ من الفجار الآخر

قال : فجمعتْ كِنانةُ قُرَيشًا وعبدَ مَنَاة والأحابيشَ ومَنْ لحق بهم من بنى أَسَد بن خُزَيمة ، وألبس يومئذ عبدُ الله بنُ جَدْعان مائةَ كَمِىّ (٢) السلاح بأداة

(١) شمطة (بفتح أوّله وإسكان ثانيه بعده ظاء معجمة) : موضع قريب من عكاظ .
(٢) الكمىّ : الشجاع .

كاملة، سوى ما أَلبس من قومه، والأحابيشُ بنو الحارث بنِ عبدِ مَنَاة بن كنانة.
قال: وجمعت سُلَيم وهَوَازن وجموعهما وأخلافهما، غيرِ كلاب وبنى كعب، فإنهما لم يشهدا يوما من أيام الفِجَار غيرَ يومِ نَخْلة، فٱجتمعوا بشَمْطَةَ من عُكَاظ فى هذه الأيام التى تواعدوا فيها على قَرْن الحَوْل، وعلى كلّ قبيلة من قُرَيش وكنانة سيِّدُها، وكذلك على قبائل قيس، غيرَ أنّ أمرَ كنانة كلّها الى حرب بن أميّة، وعلى إحدى مجنبتَيْها عبدُ الله بنُ جَدْعان، وعلى الأخرى كُرَيْز بن ربيعة، وحرب بن أميّة فى القلب، وأمرُ هَوَازن كلّها الى مسعود بن معتب الثقفىّ، فزحف بعضهم الى بعض، فكانت الدائرة فى أوّل النهار لكنانة على هَوَازِن، حتى إذا كان من آخر النهار تداعت هَوَازن وصابرت، وٱنكشفت كنانة فٱستحرّ القتل فيهم، فقُتِل منهم تحت رايتهم مائةُ رجل، ويقال ثمانون، ولم يُقتَل من قريش أحدٌ يذكر، فكان هذا اليومُ لهوازن على كنانة.

يوم العَبْلاء

قال: ثم رجع هؤلاء وأولئك فٱلتقَوْا على قَرْن الحَوْل من يوم عُكَاظ، والرؤساء عليهم الذين ذكرناهم فى يوم شَمْطَة، فكان هذا اليومُ أيضا لهَوَازِن على كِنانة. وفى هذا اليوم قُتِل العوّام بن خُوَيلد والد الزبير، قتله مُرّة بن معتب الثقفىّ، وقال رجلٌ من ثقيف:

منّا الذى ترك العوّام مُجَنْدَلا * تنتابه الطيرُ لحما بين أحجار

يومُ شَرَب (١)

ثم جمع هؤلاء وأولئك فٱلتقَوْا على قَرْن الحَوْل فى اليوم الثالث من أيام عُكَاظ، فٱلتقَوْا بشَرَب، وهو أعظمُ أيامهم والرؤساء عليهم وعلى المجنبتَيْن مَنْ ذكرنا، وحَمل

(١) شرب (بفتح أوّله وثانيه بعده باء بواحدة، هكذا ثبتت الرواية عن أبى الحسن الطوسىّ فيه، ورواه ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعىّ بكسر الراء): موضع قرب مكة.

ٱبنُ جَدْعان يومئذ مائةَ رجل على مائة بعير ممن لم تكن له حمولة ، فٱلتقَوْا ، وقد كان لهَوَازِن على كِنانة يومان متواليان : يوم شَمْطة والعَبْلاء ، فحمشت قريش وكِنانة ، وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر ، فٱنهزمت هوازن وقُتلت قتلا ذريعا ، فقال عبدُ الله بن الزِّبَعْرى يمدح بنى المغيرة :

٥ ألَا لِلّهِ قَـوْمٌ * لِدَتْ أُخْتُ بنى سَهْمِ
هِشَامٌ وأبو عبـد * مَنَافٍ مِـدْرَهُ الخَصْمِ (١)
وذو الرُّمْحَيْنِ أَشْبَاكَ (٢) * مِنَ القُـوَّة والحَـزْمِ
فهٰـذَانِ يَذُودَانِ * وذَا مِنْ كَثَبٍ يَرْمِى

وأبو عبد مناف : هاشم بن المغيرة . وذو الرُّمحين : أبو ربيعة بن المغيرة ، قاتل يومَ

١٠ شَرَب برمحين . وأُمُّهم رَيْطة بنت سعد بن سَهْم ، فقال فى ذلك جذْل الطعان :

جاءتْ هَوَازِنُ أَرْسالًا وإخْوَتُها * بنو سُلَيْم فهابُوا المَوْتَ وٱنصَرَفُوا
فٱسْتُقْبِلُوا بِضَرابٍ فَضَّ جَمْعَهُـمُ * مِثْلِ الحَرِيقِ فما عاجُوا ولا عَطَفُوا

يومُ الحُـرَيْرة (٣)

ثم جمع هؤلاء وأولئك وٱلتقَوْا على رأس الحَوْل بالحُرَيْرة ، وهى حَرَّة إلى جَنْب

١٥ عُكَاظ ، والرؤساء على هؤلاء [وأولئك] (٤) هم الذين كانوا فى سائر الأيام ، وكذلك على المجنبتَيْن إلّا أنّ أبا مُسَاحِق بن قيس اليَعْمُرِىّ قد كان مات ، فكان بعده على بكر بن عَبْد مَنَاة ابن كِنانة أخوه جُثَامة بن قيس ، فكان يوم الحُـرَيْرة لهَوَازِن على كِنانة ، وهو آخرُ الأيام الخمسة التى تزاحفوا فيها ، فقُتِل يومئذ أبو سُفيان بن أُمَيّـة أخو حرب بن

(١) المدره : زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم ، وقد أطلق تجوزا الآن على المحامى .

٢٠ (٢) يقال : أشباك لفلان ، كما يقال : حسبك لفلان .

(٣) الحريرة : موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة . (٤) تكملة من العقد الفريد .

أميّة ، وقُتِل من بنى كنانة ثمانية نَفَر، قتلهم عثمان بن أُسَيد بن مالك من بنى عامر ابن صعصعة، وقُتِل جماعة أخر ، فقال خِدَاش بن زُهَيْر : ١٤٠/١٣

إنّى مِنَ النَّفَرِ المُحْمَرِّ أَعْيُنُهُمْ * أَهْلِ السَّوَامِ وأَهْلِ الصَّخْرِ واللُّوبِ
الطَّاعِنِينَ نُحُورَ الخَيْلِ مُقْبِلَةً * بِكُلِّ سَمْرَاءَ لم تُغْلَبْ ومَغْلُوبِ
وقد بَلَوْتُمْ وأَبْلُوكُمْ بَلاءَهُمُ * يَوْمَ الحُرَيْرَةِ ضَرْباً غَيْرَ تَكْذِيبِ
لَاقَيْتُمُ مِنْهُمُ آسَادُ مَلْحَمَةٍ * لَيْسُوا بِزَرَّاعَةٍ عُوجِ العَرَاقِيبِ
فالآنَ إن تَقْبَلُوا نَأْخُذْ نُحُورَكُمُ * وإنْ تُبَاهُوا فإنّى غَيْرُ مَغْلُوبِ

وقال الحارثُ بنُ كِلْدَةَ الثَّقفىّ :

تركتُ الفارِسَ البَذّاخَ مِنْهُمْ * تَمُجُّ عُرُوقُهُ عَلَقاً عَبِيطَا
دَعَسْتُ لُبَانَهُ بالرُّمْحِ حتّى * سَمِعْتُ لِمَتْنِهِ فِيهِ أَطِيطَا
لقدْ أَرْدَيْتَ قَوْمَكَ يَابْنَ صَخْرٍ * وقدْ جَشَّمْتَهُمْ أمراً سَلِيطَا
وكَمْ أَسْلَمْتُ مِنْكُمْ مِنْ كَمِيٍّ * جَرِيحاً قدْ سَمِعْتُ لهُ غَطِيطَا

مَضَتْ أيّام الفِجَار الآخِر، وهى خمسة أيام فى أربع سنين .

قال أبو عبيدة : ثم تَدَاعَى الناسُ إلى السِّلْم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا .

يومُ عَيْنِ أُباغ (١)

قال أبو عبيدة : كان ملك العرب المُنْذِر الأكبر بن ماء السماء، ثم مات فملك ابنه عمرو، ثم هلك فملك بعده أخوه قابوس، ثم مات فملك أخوه المنذر بن المنذر

(١) أباغ الذى تنسب اليه عين أباغ (بضم الهمزة وغين معجمة وبفتح الهمزة أيضا) : بطرف أرض العراق مما يلى الشام .

ابن ماء السماء . وذلك فى مملكة كِسْرى بن هُرْمُز، فغزاه الحارث الغسّانىّ، وكان بالشام من جهة قَيْصر، فٱلتقوا بعَيْن أُبَاغ ، فقُتِل المُنْذِرُ، فولّى كِسْرَى النعمان بن المُنْذِر، ثم سُعِىَ الى كِسْرى فى النعمان فقتله ، وقد تقدّم ذكر سبب ولايته ومقتله .

وكان النعمان لمّا تحقّق غَضَبَ كِسْرَى عليه هرب، ثم علم أنه لا مَنْجَى له من يَدِ كسرى فقَدِم إليه فقَتَله . وٱستعمل كِسرى على العرب إيَاس بن قَبِيصة الطائىّ . وكان النعمان لمّا شَخَص الى كسرى أَوْدَعَ حَلقته، وهى ثمانمائة دِرْع وسلاحا كثيرا، هانىءَ بن مسعود الشَّيْبانىّ، وجعل عندَه ٱبنتَه هندًا التى تُسَمَّى حُرَقة، فلمّا قُتِل النعمانُ قالت فيه الشعراء، فقال زُهَير بن أبى سُلْمَى من أبيات :

ألم تَرَ للنُّعمان كان بِنَجْوَةٍ * من الشرِّ لَوْ أنّ ٱمْرَأً كان ناجِيَا
فلم أَرَ مَخْذُولًا له مثلَ مُلْكِهِ * أقَلَّ صديقًا باذلًا أو مُوَاسِيَا

يومُ ذى قارٍ

قال أبو عبيدة : يومُ ذى قار هو يومُ الحِنْو، ويوم قُرَاقِر، ويومُ الجُبابات، ويومُ ذات العُجْرُم، ويومُ بَطْحاء ذى قار، وكلُّها حول ذى قار .

قال أبو عبيدة : لم يكن هانىءُ بنُ مسعود المستودِع حَلقة النعمان، وإنما هو ٱبنُ ٱبنِه ، وٱسمه هانىء بن قَبِيصة بن هانىء بن مسعود ، لأنّ وقعة ذى قار كانت وقد بُعِثَ النبىّ صلى الله عليه وسلم وخبّر أصحابه بها فقال : " اليومُ أوّلُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبى نُصِروا " .

ولما قُتِل النعمانُ كتب كسرى إلى إيَاس بن قَبِيصة يأمره أن يضمّ ما كان للنعمان، فأبى هانىء بن قَبِيصة أن يسلّم ذلك إليه، فغَضِبَ كسرى وأراد ٱستئصال بكر بن وائل، فقَدِمَ عليه النعمانُ بنُ زُرْعَة التغلبىّ فقال : يا خَيْرَ الملوك ، ألا أَدُلُّك

على غِرَّة بكر بن وائل، قال نعم، قال : أَقِرَّها وأظهر الإضراب عنها حتى يُخْليها القَيْظ ويُدْنيها منك، فأقرهم، حتى إذا قاظوا نزلت بكر حِنْو ذى قار، فأرسل إليهم كسرى النعمانَ بنَ زُرْعة يخيِّرهم بين ثلاث خِصَال : إمّا أن يُسَلِّموا الحَلقة، وإمّا أن يُعَرُّوا الدِّيار، وإمّا أن يَأذَنوا بحَرْب . فتنازعتْ بكر بينها، فهمّ هانىءُ بنُ قَبِيصة بركوب الفَلاة، وأشار به على بكر وقال : لا طاقةَ لكم بجموع الملك، فلم تُرَ من هانىء سقطة قبلها . ١٤١/١٣

وقال حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْلِيّ : لا أرى غيرَ القتال، فإنّا إن ركبنا الفَلاة لَمُتنا عَطَشا، وإن أعطينا بأيدينا تُقتَل مقاتلتُنا وتُسبَى ذراريّنا، فراسلت بكر عنها وتوافت بذى قار، ولم يشهدها أحدٌ من بنى حنيفة، ورؤساء بكر يومئذ ثلاثةُ نَفَر : هانىء بن قَبِيصة الشيبانىّ، ويزيد بن مُسْهِر الشَّيْبانىّ، وحنظلة بن ثعلبة العِجْلِيّ .

فقال حنظلة بن ثعلبة لهانىء بن قَبِيصة : يا أبا أُمامة، إنّ ذمّتكم ذِمّتنا عامّة، وإنه لن يُوصَل إليك حتى تَفْنَى أرواحنا، فأخرِج هذه الحلقة ففرّقْها بين قومك، فإن تظفر فستُردّ عليك، وإن تهلك فأهون مفقود، ففرّقها فيهم . وقال للنعمان : لولا أنك رسولٌ ما أُبْتَ إلى قومك سالما .

قال : فعقد كسرى للنعمان بن زُرْعة على تغلب والنَّمِر . وعقد لخالد بن يزيد البهرانىّ على قُضاعة وإياد . وعقد لإياس بن قَبِيصة على جميع العرب، ومعه كتيبتاه : الشهباء ودَوْسَر . وعقد للهامَرْز التُّسْتَرِىّ على ألف من الأساورة، وكتب إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذى الجَدَّيْن — وكان عاملُه على طَفّ سَفَوان — يأمره أن يوافىَ إياس بن قَبِيصة، فسار إليه .

وسار إياس بمَنْ معه من الجُنْد وغيرهم، فلما دنَوْا من بكر أقبل قيس بن مسعود الى قومه ليلا، فأمرهم بالصبر ثم رَجَع .

فلما ٱلتقَى الزَّحْفان وتقرّب القوم، قام حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْلِيّ فقال: يا معشر بكر، إنّ نُشّابَ الأعاجم يفرّقكم، فعاجلوهم الى اللِّقاء وابدءوهم بالشدّة ،

٥ وقال هانىء بن مسعود : يا قوم، مَهْلَكٌ مقـدور، خيرٌ من منجًى مغرور . إنّ الجزع لا يَرُدّ القَـدَر، و إنّ الصبرَ من أسباب الظفَر، المنيّـة خيرٌ من الدنيّة ، وٱستقبال المنيّة خيرٌ من ٱستدبارها، فالجدّ الجِدّ، فما من الموت بدّ .

ثم قام حنظلةُ بنُ ثعلبة فقَطَع وُضُنَ(١) النساء فسَقَطْنَ الى الأرض وقال : ليقاتل كلّ رجل عن حَلِيلته، فسُمّيَ مُقَطِّع الوُضُنَ .

١٠ قال : وقطع يومئذ سـبعمائة من بنى شـيبان أيدِى أَقْبِيَتِهم من مناكبها لتخفّ أيديَهم لضرب السيوف فتجالد القوم، وقَتَـل يزيد بن حارثة اليَشكُرِيّ الهـامَرْزَ مبارزة، ثم قُتِل يزيد بعد ذلك . فضرب الله وجوه الفُرْس فٱنهزموا، وٱتبعتهم بكر حتى دخلوا السوَادَ فى طلبهم، وأُسِرَ النعمان بن زُرْعة التغلبيّ . ونجا إيَاس بن قَبِيصة على فرسه الحمامة، فكان أوّل من ٱنصرف إلى كسرى بالهزيمة هو . وكان لا يأتيه

١٥ أحدٌ بهزيمـة جيش إلّا نزع كتفيه . فلمّـا أتاه إياس بن قَبِيصة سأله عن الجيش فقال : هَزَمْنا بكرَ بنَ وائل وأتيناك ببناتهم . فأَعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة، ثم ٱستأذنه إياس فقـال : أخى قيس بن قَبِيصة مريض بعَيْن التَّمْـر، فأردتُ أن آتيَه، فأذِنَ له .

ثم أتى كسرى رجلٌ من أهل الحيرة وهو بالخَوَرْنَق فسأل: هل دخل على الملك

٢٠ أحد ؟ فقالوا : إياس، فظنّ أنه قد حدّثه الخبر، فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم

(١) الوضن : حزم الرحال .

وقتلهم، فأمر به فقُرِعَت كتفاه. وقد أكثرت الشعراء فى يوم ذى قار. فمن ذلك ما قاله أعشى بكر من قصيدة له :

لَوْ أَنَّ كُلَّ مَعَدٍّ كان شاركَنا * فى يومِ ذِى قارٍ ما أخطأهُمُ الشَّرَفُ
لمَّا أمالُوا الى النَّشَّابِ أيديَهُمْ * مِلْنا بِبِيضٍ لِمثلِ الهَامِ تَخْتَطِفُ
بَطَارِقٌ وبنو مَلْكٍ مَرَازِبَةٌ * من الأعاجِمِ فى آذانِها النُّطُفُ
كأنما الآلُ فى حافاتِ جَمْعِهِمُ * والبِيضُ بَرْقٌ بدا فى عارِضٍ يَكِفُ
ما فى الخُدُودِ صُدُودٌ عن سيوفِهِمُ * ولا عَنِ الطَّعْنِ فى اللَّبَّاتِ مُنْحَرِفُ

وقال الأعشى يلوم قيسا من أبيات :

١٤٢/١٣ أقيسَ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بن خالدٍ * وأنتَ امرؤٌ ترجو شَبابَكَ وائلُ
رَحَلْتَ ولم تَنْظُرْ وأنتَ عَمِيدُهُمْ * فلا يَلْغَيَنَّ عنكَ ما أنتَ فاعِلُ
فعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جمعتَهُ * كما عُرِّيَتْ مما تُمِرُّ المَنازِلُ
شَفَى النفسَ قَتْلَى لم تُوَسَّدْ خُدُودُها * وِسادًا ولم تُمْضَضْ عليها الأنامِلُ
لعلَّكَ يومَ الجِنْوِ إذ صَبَّحَتْهُمُ * كَتائِبُ لم تَعْصِكَ بينَ العَوَاذِلُ (١)

قال : ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود بما فعل مع قومه حبسه حتى مات فى حبسه، فيه قال الأعشى :

* وعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جمعتَهُ *

صورة ما ورد بآخر الجزء الثالث عشر فى أحد الأصلين الفتوغرافيين المرموز له بنسخة (١)

[انتهت أيام العرب على وجه الاختصار وحذف التكرار من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لمؤلفه أحمد بن عبد الوهاب القُرَشىّ المعروف بالنُّوَيْرِىّ

(١) رواية العقد الفريد : * كتائب موت لم تعقك العواذل *

رحمة الله تعالى عليه وغُفْرانه على يد كاتبه فقير رحمة ربه الشامل نور الدين بن شرف الدين العالمى ، فى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفرد من شهور سنة سبع وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية ، وصلى الله على نبيّنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا دائمًا أبدًا الى يوم الدين، ويليه الجزء الرابع عشر من نسخة الأصل وأوّله : (القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية)] .

صورة ما ورد بآخر الجزء الثالث عشر أيضا فى الأصل الثانى الفتوغرافى المرموز له بنسخة (ب)

[انتهت أيام العرب على وجه الاختصار، وحذف التكرار، بعون الله تعالى وتوفيقه ويُمْنه ، وبتمامها كمل الجزء الثالث عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء الرابع عشر من الكتاب ، وهو الجزء الرابع من التاريخ : القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية . وحسبنا الله ونعم الوكيل] .

« وكتب بالهامش ماتصه : بلغ مؤلفه مقابلة بأصله والحمد لله » .

أنجزت — بعون الله وحسن توفيقه — تصحيح وتحقيق الجزء الخامس عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » من تجزئة طبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأحد ١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ (٩ أكتوبر سنة ١٩٤٩ م) . ويليه الجزء السادس عشر وأوّله : « القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية » .

محمد عبد الجوّاد الأصمعىّ
المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

كَمُلَ طبع " الجزء الخامس عشر من (نهاية الأرب فى فنون الأدب)"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأربعاء ١١ محرم سنة ١٣٦٩
(٢ نوفبر سنة ١٩٤٩) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٥/١٩٤٢/١٥٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الخامس عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٦٩ هـ — ١٩٤٩ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

فهرس

السفر الخامس عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

صفحة

ذكر أخبار مصر ومن ملكها من الملوك قبل الطوفان و بعده، وما بنوه من المدن ، وما أقاموه من المنارات والأهرام والبرابى وغير ذلك من المبانى، وما وضعوه بها من العجائب والطلسمات والحكم ، وما أثاروا من المعادن وما دبّروه من الصنعة ، وما شقّوه وأنبطوه من الأنهار وغير ذلك من عجائبها وأخبارها ١

ملوكها قبل الطوفان ١

ذكر خبر بناء الأهرام وسبب بنائها وشىء من عجائبها ٢٢

ذكر خبر كهّان مصر وحالهم مع الملوك ٤٠

ذكر من ملك مصر بعد الطوفان من الملوك ٤٣

ذكر خبر هاروت وماروت ٥٢

ذكر أخبار أشمون ومن ملك من بنيه ٦٩

ذكر أخبار أتريب الملك ٧٥

ذكر أخبار صا بن قبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ٨١

ذكر خبر عون وما فعله فى غيبة الوليد وخبر المدينة التى بناها ١١٥

ذكر عود الوليد الى مصر وهرب عون الى مدينته ١١٩

ذكر نبذة من أخبار من ملك مصر بعد غرق فرعون ١٣٨

صفحة

الباب الثالث من القسم الرابع من الفنّ الخامس فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم ، وهم ملوك الفرس الأوّل ، وملوك الطوائف من الفرس ، والملوك الساسانيــة واليونان والسريان والكلوانيين والروم والصقالبــة والنوكبرد والإفرنجة والجلالقة وطوائف السودان ١٤٢
ذكر أخبار ملوك الفرس وهم الفرس الأوّل ١٤٢
ذكر أخبار بختنصّر ١٥٨
ذكر أخبار ملوك الطوائف ١٦٤
ذكر أخبار الملوك الساسانية ١٦٦
ذكر قطعة من سِيَر كسرى أنو شروان وسياسته ١٩٥
ذكر خطبة أنو شروان ٢٠٧
ذكر حيلة لأبرويز على ملك الروم ٢٢٣
ذكر سبب هلاك أبرويز وقتله ٢٢٦
ذكر أخبار ملوك اليونان وأنسابهم ٢٣٤
ذكر شيء من مكايد الإسكندر وحيله فى حروبه ٢٣٨
ذكر شيء من أخبار الإسكندر وما اتفق له مع ملكى الهند والصين ... ٢٤٣
كلام الحكماء عند وفاة الإسكندر ٢٥٢
ذكر أخبار ملوك السريان ٢٥٥
ذكر أخبار ملوك الكلوانيين وهم ملوك النبط ملوك بابل ٢٥٨
ذكر أخبار ملوك الروم وأنسابهم ٢٦٣
ذكر خبر أصحاب الكهف ٢٦٦
ذكر أخبار ملوك الروم المتنصّرة وهم ملوك القسطنطينية ٢٧٣
ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام ٢٧٩
ذكر أخبار ملوك الصقالبة والنوكبرد ٢٨٤
ذكر خبر ملوك الإفرنجة والجلالقة ٢٨٥

صفحة

ذكر طوائف السودان وشيء من أخبارهم ونسبهم ٢٨٧

الباب الرابع من القسم الرابع من الفنّ الخامس فى أخبار ملوك العرب

ويتصل بهذا الباب خبر سيل العرم ٢٩١

ذكر أخبار ملوك قحطان ٢٩١

ذكر خبر سيف بن ذى يزن وعود الملك الى حمير ٣٠٩

ذكر أخبار ملوك الشام من ملوك قحطان ٣١١

ذكر أخبار ملوك الحيرة وهم من آل قحطان ٣١٥

ذكر خبر سدّ مأرب وسيل العرم ٣٣٢

الباب الخامس من القسم الرابع من الفنّ الخامس فى أيام العرب ووقائعها

فى الجاهلية ٣٣٨

ذكر واقعة طسم وجديس ٣٣٩

ذكر حروب قيس فى الجاهلية . يوم منعج لغنىّ على عبس ٣٤٤

يوم النفراوات لبنى عامر على بنى عبس ٣٤٦

يوم بطن عاقل لذبيان على بنى عامر ٣٤٨

يوم رحرحان لعامر على تميم ٣٤٩

يوم شعب جبلة لعامر وعبس على ذبيان وتميم ٣٥٠

يوم الحريبة وفيه قتل الحارث بن ظالم ٣٥٣

ذكر حرب داحس والغبراء، وهى من حروب قيس... ... ... ٣٥٦

يوم المريقب لبنى عبس على بنى ذبيان ٣٥٨

يوم ذى حسى لذبيان على عبس ٣٥٩

يوم اليعمرية لعبس على ذبيان ٣٦٠

يوم الهباءة لعبس على ذبيان ٣٦٠

يوم الفروق لبنى عبس ٣٦٢

يوم قطن ٣٦٣

صفحة
يوم غدير قلبي ٣٦٣
يوم الرقم لغطفان على بنى عامر ٣٦٤
يوم النتاءة لعبس على بنى عامر ٣٦٤
يوم شواحط لبنى محارب على بنى عامر ٣٦٥
يوم حوزة الأول لسليم على غطفان ٣٦٥
يوم حوزة الثانى... ... ... ٣٦٧
يوم ذات الإثل... ... ... ٣٦٨
يوم اللوى لغطفان على هوازن ٣٦٩
يوم الظعينة بين دريد بن الصمة وربيعة بن مكدم ٣٧٠
يوم الصلحاء لهوازن على غطفان ٣٧٣
ذكر حرب قيس وكنانة . يوم الكديد لسليم على كنانة ٣٧٣
يوم فزارة لكنانة على سليم ٣٧٤
يوم الفيفاء لسليم على كنانة ٣٧٤
ذكر حرب قيس وتميم . يوم السؤبان لبنى عامر على بنى تميم ٣٧٥
يوم أقرن لبنى عبس على بنى دارم ٣٧٧
يوم المزوت لبنى العنبر على بنى قشير ٣٧٧
يوم دارة مأسل لتميم على قيس.. ... ... ٣٧٨
أيام تميم على بكر . يوم الوقيط ٣٧٩
يوم النباح وثيتل لبكر على تميم ٣٨١
يوم زرود الثانى لبنى يربوع على بنى تغلب... ... ... ٣٨٣
يوم ذى طلوح لبنى يربوع على بكر... ... ... ٣٨٣
يوم الحائر وهو يوم ملهم لبنى يربوع على بنى بكر ٣٨٥
يوم القحقح وهو يوم ماله لبنى يربوع على بكر ٣٨٥
يوم رأس العين لبنى يربوع على بكر ٣٨٦

صفحة

يوم العظالى لبنى يربوع على بكر ٣٨٦
يوم الغبيط لبنى يربوع على بكر ٣٨٨
يوم مخطط لبنى يربوع على بكر ٣٨٩
يوم جدود ٣٨٩
يوم سفوان ٣٩٠
يوم نقا الحسن وهو يوم الشقيقة لبنى ضبة على بنى شيبان ٣٩١
أيام بكر على تميم . يوم الزويرين ٣٩١
يوم الشيطين لبكر على تميم... ... ... ٣٩٣
يوم صعفوق لبكر على تميم... ... ... ٣٩٣
يوم مبايض لبكر على تميم ٣٩٤
يوم فيحان لبكر على تميم ٣٩٥
يوم ذى قار الأول لبكر على تميم ٣٩٥
يوم الحاجز لبكر على تميم ٣٩٦
يوم الشقيق لبكر على تميم ٣٩٦
ذكر حرب البسوس . وهى حرب بكر وتغلب ابنى وائل ٣٩٦
ذكر مقتل كليب وائل ٣٩٨
يوم النهى ٤٠٠
يوم الذنائب... ... ... ٤٠٠
يوم واردات ٤٠١
يوم عنيزة ٤٠١
يوم قضة ٤٠٢
يوم تحلاق اللمم ٤٠٤
الكلاب الأول... ... ... ٤٠٦
يوم الصفقة وهو يوم الكلاب الثانى ٤٠٧

صفحة

يوم طخفة ٤١٣
يوم فيف الريح ٤١٤
يوم زرود الأول ٤١٥
يوم غول الأول وهو يوم كنهل ٤١٦
يوم الجبابات ٤١٧
يوم الشعب... ... ... ٤١٧
يوم غول الثانى ٤١٨
يوم الخندمة ٤١٨
يوم اللهيماء ٤١٩
يوم خزاز ٤٢٠
يوم النسار ٤٢١
يوم ذات الشقوق ٤٢١
يوم خو ٤٢٢
أيام الفجار — الفجار الأول... ... ... ٤٢٣
الفجار الثانى ٤٢٤
الفجار الثالث وهو بين كنانة وهوازن ٤٢٤
الفجار الآخر وهو بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن ٤٢٥
يوم شمطة وهو يوم نخلة من الفجار الآخر ٤٢٧
يوم العبلاء ٤٢٨
يوم شرب ٤٢٨
يوم الحريرة... ... ... ٤٢٩
يوم عين أباغ ٤٣٠
يوم ذى قار... ... ... ٤٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما

القسم الخامس من الفن الخامس

فى أخبار الملّة الإسلاميّة

٥ لمّا انتهى الغَرَض فى التاريخ إلى الغاية التى ذكرتُها ، والقَصَص فى الأخبار التى أوردتُها ، والدول والوقائع التى انتخبتُها ، مما طالعتُه وجررتُها ؛ عمَدتُ إلى ذكر الملّة الإسلامية التى فضّلها الله تعالى على سائر المِلَل ، ورفع أهلَها بالعمَل الصالح ووفّقهم لصالح العمَل ، ووَعدهم برحمته ؛ فهم من وَعْده فى أمن ، وحذّرهم عقابه ؛ فهم من وعيده على وَجَل ، وبعث فيهم رسولا من أنفُسهم وأنفَسهم فبلّغ الرسالة ،

١٠ وأدّى الأمانة ، ونَصَح الأمّة وعَدَل ، وجعله شافعا لذنوبهم فى يوم أحجم فيه مَن سواه عن الشفاعة وبنفسه انشغل ، وجعلهم به خير أمّة أُخرِجت للناس يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، ويؤمنون بالله ؛ إذ جحَد غيرهم ونكَل ؛ فهم الشهداء على الناس لأنبيائهم ، وناهيك بها رُتبةً تقدّم بها أواخرُ القوم على الأوّل . وقلتُ : بالله التوفيق ، ومنه الإعانة وعليه المُكَل .

الباب الأول

من القسم الخامس من الفن الخامس

فى سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهى السيرة التى ظهرتْ آياتُها ، وٱشتهرتْ مُعجزاتُها ، وأشرقتْ أنوارُها ، وٱنتشرتْ أخبارُها ، وعَمّت فضائلُها ، وطابتْ بُكَرُها وأصائلُها ، وحسُنتْ أوصافُها ، وكثُر إنصافُها ، وجاءت فى ظُلْمة الضّلالة تتّقد ، وما أنكر العدوّ فضائلَها بل شَهد :

وفضائلٍ شهِد العدوّ بفضلها * والفضلُ ما شَهِدت به الأعداءُ

تالله لقد عجز الواصِفون عن وصفها ، وٱعترف المادحون بالتقصير عن بلوغ اليسير من مَدَى مدحها :

وإذا أَرَدْتُ لك الثناءَ فَمَا الّذِى * — واللهُ قد أَثْنَى عليكَ — أقولُ

ولنبدأ بذكر نَسَبه الطاهر صلى الله عليه وسلم ، وإن كنا قدّمناه مُستوفًى فى باب الأنساب[1] ، فلا غُنْيَة عن سَرْده ههنا .

هو أبو القاسم محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله ، بن عبد المطّلِب — وٱسم عبد المطّلِب : شَيْبة الحمد — بن هاشم — وٱسم هاشم عمرو — بن عبد مَنَاف — [واسمه][2] المُغيرة — بن قُصَىّ — وٱسمه زَيْد — بن كِلاب ، بن مُرّة ، بن كَعب ، ابن لُؤَىّ ، بن غالب ، بن فِهْر . وإلى فِهْر جُمّاع قُرَيش ، ومَن كان فوقَ فِهْر فليس

(١) ٢ : ٣٧٦ وما بعدها .

(٢) تكملة عن المؤلف نفسه فيما يأتى له بعد .

هو بقرشيّ . وفهر هو ابن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة — واسم مدركة عامر[1] — بن الياس، بن مضر، بن نزار، بن معدّ، بن عدنان .

روى عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب لم يجاوز فى نسبه معدّ بن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: "كذب النسّابون"[2] . قال الله عز وجل: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[3] . قال ابن عباس: لو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه لعلمه .

وعن هشام بن محمد[4] قال: سمعتُ من يقول: "كان معدّ على عهد عيسى بن مريم عليه السلام" .

وقد تقدّم فى باب الأنساب، وهو الباب الرابع من القسم الأوّل من الفنّ الثانى من كتابنا[5] هذا، فى السفر الثانى من هذه النسخة، ما اختاره الشريف أبو البركات[6] محمد بن أسعد بن على بن معمر الحسينىّ الجوّانىّ[7] النسابة ٢/١٤

(١) سيذكر المؤلف فى ص ١٢ عن ابن السائب: أن مدركة يسمى «عمرا» أيضا، وفى نسب قريش (الورقة ٣ ب): «فولد الياس بن مضر مدركة، واسمه عامر، وطابخة، واسمه عمرو، وقمعة، واسمه عمير» .

(٢) رواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٢ : ١٦٩ . ويقول السهيلى فى الروض الأنف ١ : ٨ : «والأصح فى هذا الحديث أنه من قول ابن مسعود» . وانظر الجامع الصغير ٣ : ١٩٠ .

(٣) الفرقان ٣٨ .

(٤) هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى النسابة الكوفىّ المتوفى سنة ٢٠٤، على خلاف . انظر وفيات الأعيان ٢ : ٢٥٨ .

(٥) ٢ : ٣٧٦

(٦) كناه المؤلف هنا وفى باب الأنساب — فيما سلف له — أبا البركات؛ وهى كنية أبيه أسعد .

(٧) هو أبو على محمد بن أبى البركات أسعد بن على الحسينى الجوّانى (٥٢٥ — ٥٨٨) ينتسب إلى «الجوانية» بفتح الجيم وتشديد الواو؛ وهى قرية قرب المدينة . انظر تاج العروس (جون)، معجم البلدان (٣ : ١٥٦) .

في «مقدّمته»[1] بعد معدّ : بنَ عدنان، بن أدّ، بن أدَد[2]، بن اليَسَع، بن الهَمَيْسَع، بن سَلامانَ، بن نَبْت، ابن حَمَل، بن قَيْذارَ، بن إسماعيل الذبيح، بن إبراهيم الخليل، صلى الله عليهم وسلم، ابن تارَح، وهو آزَر، بن ناحُور[3]، بن سارُوغَ، بن أرْغُو، ابن فالَغ، بن عابَر، وهو هود النبيّ عليه السلام — وهو جُمّاع قَيْس ويَمَن ونِزار وخِنْدِف — بن شالَخ، بن أرْفَخْشَذ، بن سام، بن نوح [النبيّ][4] عليه السلام، بن لَمَك، بن مَتُوشَلَخ، بن أَخْنُوخ، وهو إدريس النبيّ عليه السلام، بن يارِد، ابن مَهْلائيل بن قَيْنانَ، بن أنُوش، بن هبة الله شِيث، بن أبي البَشَر آدم عليه السلام.[5]

هذا ما أورده الشريف الجَوّاني قال : وعليه أكثر أئمة الأنساب .

وسنزيد إن شاء الله تعالى ، في أخبار آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زيادةً حسنة يحتاج إلى إيرادها من عدنان فمَن بعدَه ، تقف عليها[6] قريبا ، إن شاء الله تعالى، بعدَ ذِكرِنا لأمهاته صلى الله عليه وسلم .

(١) سماها مرتضى الزبيدي « المقدمة الفاضلية » لأن الجواني ألفها باسم القاضي الفاضل ، وجعلها مقدمة لكتابه الجوهر المكنون ، في القبائل والبطون . وقد جاء النص الذي نقله النويري عنها في (الورقة ٩ ب ، ١٤ أ) من مخطوطة دار الكتب رقم ١٩ م تاريخ .

(٢) علماء النسب في « أد » و « أدد » فريقان : الأول أنهما شخصان ابن ووالد ، وهو الذي حكاه المؤلف هنا عن الجواني (الورقة ١٤ أ) وقالت به طائفة ؛ والفريق الثاني أن مسماهما شخص واحد ، يقال فيه «أد» مرة ، و « أدد » مرة أخرى .

(٣) ورد هذا العلم في مقدمة الجواني بالغين المعجمة (الورقة ٩ ب ، ٥٣ ب) وبالعين المهملة في (الورقة ١٤ أ) .

(٤) إضافة عن مقدمة الجواني (ورقة ١٤ أ) .

(٥) تختلف كتب النسب في رواية هذه الأعلام اختلافا كبيرا . وقد اعتمدت فيها رواية الجواني كما وردت في نسخة (١٩ م تاريخ) لأن العلماء بالنسب تداولوها وصححوها .

(٦) في الأصل : « تقف عليه » .

ذكر أمهات رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أبو عبد الله محمد بن سعد رحمه الله تعالى فى طبقاته[1] الكبرى :

" أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ عن أبيه قال :

أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، آمنة بنت وَهْب ، بن عبد مَناف، ابن زُهْرة ، بن كِلاب بن مُرّة . وأمّها بَرّة ، بنت عبد العُزّى ، بن عثمان ، بن عبد الدّار، بن قُصَيّ ، بن كِلاب . وأمّها أمّ حَبِيب، بنت أَسَد، بن عبد العُزّى، ابن قُصَيّ بن كلاب . وأمّها بَرّة بنت عَوْف، بن عَبِيد ، بن عَوِيج، بن عدِيّ، ابن كعب، بن لُؤَيّ . وأمّها قِلابة بنت الحارث، بن مالك، بن حُبَاشة، بن غَنْم ، بن لِحْيان ، بن عادية ، بن صَعْصَعة ، بن كَعْب، بن هِند، بن طابخة، بن لِحيان ، بن هُذَيل، بن مُدْرِكة ، بن الياس ، بن مُضَر . وأمّها أُمَيمة بنت مالك، ابن غَنْم بن لِحْيان، بن عادِيَة ، بن صَعْصَعة . وأمّها دُبّ[2] بنتُ ثَعلبَة، بن الحارث، ابن تميم ، بن سعد، بن هُذَيل، بن مُدْرِكة . وأمّها عاتكة بنت غاضرة ، بن حُطَيط ، بن جُشَم ، بن ثَقِيف ، بن مُنَبِّه[3] ، بن بكر، بن هَوازِن، بن مَنصور، بن عِكْرِمة، بن خَصَفَة، بن قيس، بن عَيْلان — واسمه النّاس — بن مُضَر . وأمّها لَيلَى بنت عَوْف ، بن ثَقِيف[4] . وأمّ وَهب بن عبد مَناف بن زُهْرة بن كِلاب قَيْلة . ويقال : هند بنت أبى قَيْلة" .

وقال ابن الكلبيّ : "كتبت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم، فما وجدتُ فيهنّ سِفاحا ، ولا شيئا ممّا كان من أمر الجاهلية" .

(١) ١ : ٣٠ — ٣١ (قسم أوّل) .

(٢) فى نسب قريش (الورقة ٨ أ) ، والروض الأنف ١ : ٧٨ : « وأم أسمية دبة » .

(٣) فى طبقات ابن سعد ١ : ٣٠ (قسم أوّل) : « ثقيف » وهو قسى بن منبه » .

(٤) فى طبقات ابن سعد ١ : ٣٠ (قسم أوّل) : « عوف بن قسى » وهو ثقيف » .

وعن محمد بن علىّ بن الحسين[1] أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنما خرجتُ من نِكاح ولم أخرج من سِفاح من لَدُنْ آدم، لم يُصِبنى من سِفاح أهل الجاهلية شىء ؛ لم أخرُج إلّا من طُهرة[2]" . والله المعال .

ذكر نُبذة من أخبار آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم فمَنْ بعده إلى أبيه عبد الله بن عبد المطّلب

قد تقدّم ذكر آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى باب الأنساب ، وذكرنا كلّ أب من آبائه وأولاده ومَن أعقب منهم ، وجعلنا العُمْدة على سَرْد عمود النسب الشريف على ما تقف عليه هناك فى السفر الثانى من كتابنا هذا[3] من هذه النسخة ، وسردنا النسَب أيضا آنفا . وقد رأينا أن نذكر فى هذا الموضع نُبذةً أخرى زيادة على ذلك نذكر فيها الأسماءَ، والكُنَى، والأمّهات، وبعض الوقائع والأخبار، مما لم يتقدّم ذكره، فنقول وبالله التوفيق :

أمّا عَدْنان فإليه انقطع علمُ أهل الأنساب حقيقة ؛ لِمَا رُوِىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا انتهى فى النَّسب إلى مَعَدّ بن عَدْنان أمسَك ، ثم قال : "كَذَبَ النسّابون". قال الله جلّ ثناؤه : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ . وقد رُوِى أنه قال : "عدنان بن أُدَد" . والله أعلم .

(١) هو أبو جعفر الباقر محمد بن علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب . مدنى تابعى ، فى مولده ووفاته خلاف . انظر تهذيب التهذيب ٩ : ٣٥٠ .

(٢) هذه رواية ابن سعد ١ : ٣٠ ، وهى تنفرد « بزيادة إنما » فى أول الحديث ، وزيادة « لم أخرج إلا من طهرة » فى آخره . وقد رواه الطبرانى فى معجمه الأوسط ، وابن عساكر ، وابن عدى فى الكامل ، وابن كثير فى البداية والنهاية ٢ : ٢٥٦ باختلاف فى الرواية ، وقال عقبه : « هذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح » .

(٣) ٢ : ٣٥٨ — ٣٧٧ .

وأمّا مَعَدّ بن عَدنان ، فكنيتُه[(١)] أبو قُضاعة ، كُنِّيَ بولده قُضاعة وهو بِكْره .
ومَعَدّ (بتحريك العين وتشديد الدال) ، وفى طَيّء مَعْد (بتسكين العين) بنُ مالك
ابن قَمِيئة[(٢)] ، وفى خَثْعم أيضا مَعْد (بتسكين العين) بن الحارث ، بن تَميم ، بن كَعب ، بن
مالك ، بن قُحافة . وأمّ معدّ بن عدنان : مَهْدَد ، بنت اللّهِم بن جَلْحَب الجُرْهُمية[(٣)] ، وقيل
٥ فيها مهاد بنت لَهِم[(٤)] . وقيل اللّهم بنت جَلْحَب ، وفى رواية خُلَيد ، بن طَسْم ، بن يَلْمع ،
ابن عابر ، بن اسليخيا ، بن لاوِذ[(٥)] ، بن سام ، بن نوح . حكاه الزُّبير بن بكّار .

٣/١٤ وذكر عبدُ الملك بن حَبيب أنّ ولد مَعَدّ بن عَدنان سبعةَ عشرَ رجلا ، دَرَج
منهم بلا عَقِب تسعة ، وأعقَب ثمانية .

وقال أبو الربيع بن سالم[(٦)] : ذكر الزُّبَير بن أبى بكر[(٧)] ، أن بُخْتَنَصَّر لمّا أمَرَ بغزو
١٠ بلاد العرب[(٨)] ، و إدخال الجنود عليهم وقتلهم لقتلهم[(٩)] أنبياءَ الله تعالى ، وردّهم رسالاتهم ،

(١) فى الأصل : « وكنيته » ، والمكان للفاء .

(٢) فى الأصل : «قنة» ، وانظر شرح الحماسة للتبريزى ٣ : ١٤٣ ، تاج العروس (قأ) .

(٣) فى « مقدّمة » الجـوالى (الورقة ٤٨ ب) : « بنت اللهـم الجديسـية » . ومر للؤلف (٢ : ٣٤١) أنها : «بنت اللهم الجرهمية» . وانظر تاريخ الطبرى ٢ : ١٩١ ، وابن الأثير ٢ : ١٢ .

١٥ (٤) فى نسب قريش لمصعب الزبيرى (الورقة ٢ ب) : «فولد عدنان بن أدد معدّا ، والحارث وهوعك ، وأمهما مهاد بنت لهم بن جليد بن طسم» ، وفى طبقات ابن سعد ١ : ٣٦ (قسم أوّل) : «مهدد بنت اللهم ابن جلحب بن جديس بن جاثر بن إرم» .

(٥) فى الأصل : « لود » . وانظر تاج العروس « لوذ » .

(٦) سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى الأندلسى (٥٦٥ — ٦٣٤) . من مؤلفاته كتاب الاكتفا ،
٢٠ بما تضمنه من مغازى المصطفى ، وعنه نقل المؤلف ، وقد ورد هذا النقل فى (الورقة ٢ أ) من مخطوطة دار الكتب المصرية .

(٧) هو الزبير بن بكار بن عبد الله : أبو عبد الله بن أبى بكر النسابة القاضى المدنى (١٧٢ — ٢٥٦) . انظر تهذيب التهذيب ٣ : ٣١٢ .

(٨) فى الأصل : «بلاد المغرب» ، والمثبت رواية الاكتفا ، والخبر عن البشر ٣ : ١٧ (قسم أوّل) .

٢٥ (٩) فى الأصل : « وقتلهم ، لقتـل » . والمثبت عن الاكتفا . وفى الخبر عن البشر ٣ : ١٧ (قسم أوّل) : « وقتل مقاتلتهم »

أمر إرميا بن حلقيا — وكان فيما ذكر نبيّ بني إسرائيل في ذلك الزمان — أن ائت معدّ بن عدنان الذي من ولده خاتم النبيين، واحمله معك إلى الشام، وتولّ أمره.

وقال السهيلي: «أوحى الله تعالى إلى إرميا أن احمل معدّ بن عدنان على البُراق إلى أرض العراق[1]، فإني مستخرجٌ من صُلبه نبيًّا اسمه محمد؛ فحمل معه معدّ وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان مع بني إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة اسمها معانة»، ٥

قال أبو الربيع بن سالم: «ويقال المحمول عدنان، والأول أكثر. قال: وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالى بعث ملكين فاحتملا معدًّا، فلما رفع الله تعالى بأسه عن العرب، ردّاه إلى موضعه من تهامة، فكان بمكة ونواحيها مع أخواله من جُرهُم».

وقال الزبير: «حدثني عليّ بن المغيرة قال: لمّا بلغ بنو معدّ عشرين رجلا، أغاروا ١٠ على عسكر موسى عليه السلام، فدعا عليهم ثلاث مرّات فقال: يا ربّ، دعوتُك على قوم فلم تُجبني فيهم بشيء. قال: يا موسى، دعوتَ على قوم فيهم خيرتي[2] في آخر الزمان».

وفي هذه الرواية ما فيها من المنافاة لما تقدم من أنه كان مع إرميا، ومن قال إنه كان على عهد عيسى عليه السلام[3]. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع. ١٥

وأما نزار بن معدّ، فكنيته[4] أبو إياد، وقيل أبو ربيعة. ونزار (بكسر النون). قال السهيلي[5]: «من النَّزْر وهو القليل. وكان أبوه حين وُلد له، ونظر إلى النور بين

(١) سقط من السهيلي ١ : ٩ : «إلى أرض العراق» وقد تصرف المؤلف في النص.

(٢) في الخبر عن البشر ٣ : ١٧ (قسم أول) : «هم خيرتي».

(٣) تقدم ذلك في ص ٣. ٢٠

(٤) في الأصل : «وكنيته».

(٥) الروض الأنف ١ : ٨

عينيه، وهو نور النُّبوّة الذى كان ينتقل فى الأَصلاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فرِحَ به فَرَحا شديدا ، ونحَر وأَطعَم وقال : إنّ هـذا كلّه نَزْر لحقّ هذا المولود، فسمّى نزارا لذلك» . وأمّ نزار: مُعَانة بنت جَوْشَم[1] بن جُلْهُمة[2]، بن عمرو، بن هُلَيْبة[3] بن دوة، بن جُرهُم . قال السهيلى : «ويقال اسمها ناعمة» .

٥ وأما مُضَر بن نِزار فأمه [و] أم إياد[4]: سَوْدة بنت عَكّ، بن الذِّيب[5]، بن عدْنان. وقال محمد بن الحسين فى كتاب «التحفة»[6] : إنّ أم مُضَر اسمها سَوْدة بنت عكّ ، قال : وقيل حُبَيّـة بنت عكّ . وقاله الزبير بن بكّار. وروى أن أم مضر خاصـةً سَوْدة بنت عكّ، وربيعةُ وأنمارُ وإيادُ أمهم شقيقة بنت عكّ، وإلى مضر تنتسب مضر الحمراء لسكناها قِباب الأَدَم، ومضر السَّوداء سُميت بذلك لسكناها المظالّ .

١٠ وقال الزبير عن غير واحد من أهل العلم بالنَّسب : إنهم قالوا : لمـا حَضَرت نزارًا الوفاة، آثر إيادًا بولاية الكعبة ، وأعطى مُضَر ناقة[7] حمراء فسُمّى مضَر الحمراء،

(١) هكذا ورد هذا العلم فى تاريخ ابن الأثير. وفى البداية والنهاية ٢ : ١٩٤، والروض الأنف ١ : ٩ : « جوشن » . وفى الخبر عن البشر ٣ : ١٧ قسم أوّل : « عنة ابنة جوشن » . وفى المقدّمة القاضاية (الورقة ٤١ ب) « معانة بنت جرهم الجرهمية » . (٢) فى الأغانى ٧ : ٧٧، نسب قريش

١٥ (الورقة ٢ ب) والخبر عن البشر ٣ : ٧ (قسم أوّل) : « بن عامر بن عوف بن عدى بن دب » .

(٣) رواية الأصل وابن سعد فى الطبقات ١ : ٣٠ (قسم أوّل)، والخبر عن البشر ٣ : ١٧ (قسم أوّل) : « ... بن جلهمة بن دوة بن هلية بن جرهم » ، والتصويب عن نسب معد لابن الكلبى ١ : ٣ وانظر تاج العروس ٩ : ٣٦٧ . وفى السهيلى ١ : ٩، ونسب قريش ، والبداية والنهاية : « دب بن جرهم » .

(٤) فى الأصل : « وأمه » . (٥) الذيب ، بالذال المعجمة وبعدها ياء والباء الموحدة

٢٠ رواية الزبير بن بكار والجسوانى ، ويقال فيه : « الديث » بالدال المهملة والثاء المثلثة . وانظر تاج العروس (عك)، والإكمال لابن ماكولا ١ : ٢٨٧ ب، والروض الأنف ١ : ١٣ .

(٦) حكاه أيضا الكلاعى فى الاكتفاء (الورقة ٤ أ) . (٧) هـذه رواية الجوانى فى مقدمته (الورقة ٤٢ أ)، وجاء فى (الورقة ٤٢ ب) منها أيضا : « وأعطى مضر ناقة حمراء » .

وأعطى ربيعة فرسه، فسُمّوا ربيعة الفَرَس، وأعطى أنماراً جارية له تسمّى بَجيلة فحضنت بَنيه[1]، فسُمّى بَجيلة أنمار.

وقد تقدم ذكر خبر أولاد نزار فى الأمثال عند قولهم: «إن العصا من العُصيّة[2]»، و«إن خُشَينا من أخشن[3]»، وقصتهم مع الأفعى الجُرهُمىّ[4]، وهو فى الباب الأوّل من القسم الثانى من الفن الثانى فى السفر الثالث من هذه النسخة من كتابنا هذا[5].

قال ابن الأثير الجَزَرىّ[6]: «ومُضَر أوّل من حَدا، وكان سببُ ذلك أنه سقط عن بعيره، فانكسرت يدُه فجعل يقول: يا يداه! يا يداه! فأتته الإبل من المرعَى، فلما صلح وركِب حَدا، وكان من أحسن الناس صوتا. وقيل بل انكسرت يد مولًى له فصاح، فاجتمعت الإبل، فوضع مُضَر الحُداء وزاد الناس فيه».

قال السُّهيلى: وفى الحديث: "لا تَسبُّوا ربيعة ولا مُضَر فإنهما كانا مؤمنين[7]" وروى عبد الملك بن حَبيب بسنده إلى سعيد بن المسَيّب أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "لا تَسبُّوا مضَر فإنه كان مسلما على ملة إبراهيم[8]". وعن عبد الملك بن حَبيب والزبير وجماعة: أن رَبيعة ومُضَر الصَّريحُ من ولد إسماعيل ابن إبراهيم، عليهما السلام. قال: وحدثنى أبو مُعاوية، عن ابن جُريج، عن عَطاء،

(١) فى الأصل: «نبته» تصحيف، والتصحيح عن مقدمة الجوانى (الورقة ٢٢ ب).

(٢) مجمع الأمثال ١: ١٣. (٣) مجمع الأمثال ١: ١١، ومعجم البلدان ٣: ٤٤٣.

(٤) هو الأفعى بن حصين بن غنم، أحد حكام العرب. انظر المحبّر لابن حبيب ص ١٣٢ ومجمع الأمثال ١: ١٠. (٥) ٣: ٧. (٦) فى الكامل ٢: ١-١٠. (٧) الروض ١: ٨، وفى الاكتفاء (الورقة ٢ ب): «كانا مسلمين» والحديث رواه الديلمى فى مسند الفردوس. انظر كنوز الحقائق للناوى ص ١٨٢. (٨) رواه ابن سعد فى الطبقات بلفظ: «لا تسبوا مضر فانه كان قد أسلم» انظر الجامع الصغير ٢: ٤٤٦.

عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: «مات أُدَد والد عَدْنان، وعَدْنان، ومَعَدّ بن عدنان، ورَبيعة، ومضَر، وقيس عَيلان، وتَميم، وضَبّة، وأسَد، وخُزَيمة، على الإسلام على ملة أبيهم إبراهيم، فلا تذكروهم إلا بما يُذكر به المسلمون»(١). والله الموفق.

٤/١٤

وأما الياس بن مُضَر، فكنيته(٢) أبو عمرو. وقال صاحب الاشتمال(٣): قال الزبير: ولَد مُضر بن نِزار الياسَ بنَ مُضر، فلما أدرك الياس أنكر على بنى إسماعيل ما غيّروا من سُنن آبائهم وسيرهم، وبانَ فضلهُ فيهم، ولان جانبُه لهم، حتى جمعهم رأيهُ ورضوا به، فردّهم إلى سُنن آبائهم، حتى رجعت سُنّتهم تامة على أولها.

وهو أوّلُ من أهدى البُدْن إلى البيت، وهو أول من وضع [حجر](٤) الرُّكن للناس بعد غَرَق البيت وانهدامه زمن نوح. فكان الياس أول من ظفِر به، فوضعه فى زاوية البيت.

وبعض الناس يقولون: إنما كان ذهب بعد إبراهيم وإسماعيل. قال: وفى هذا كله نظر. قال: وقال الزبير: ولم تَزل العرب تعظّم الياس بنَ مُضر تعظيمَ أهل الحكمة، كتعظيمها لُقمان وأشباهَه. قال ابن دِحْية(٥): وهو وَصىّ أبيه، وكان ذا جمال بارع ودين، تعظمه العرب قاطبة، وهو أول من مات بالسُّلّ. قال السُّهيلى(٦): «وإنما سمى السلّ داء ياسٍ وداء(٧) الياس لأن الياس بن مُضَر مات(٨) به».

(١) نص هذا الحديث فى الإنباه لابن عبد البر ص ٧٨: «مات تميم بن مر، وأسد بن خزيمة، وضبة بن أد، على الإسلام؛ فلا تذكروهم إلا بما يذكر به المسلمون». (٢) فى الأصل: «وكنيته». (٣) لعل صحة الكلمة «صاحب الاكتفاء»، وقد ورد هذا النص فى الاكتفاء (الورقة ٤ أ). (٤) التكملة من كلام المؤلف الآتى. (٥) أبو الخطاب عمر بن الحسن ابن على المعروف بذى النسبين الأندلسى (٥١٤ — ٦٣٣). وفيات الأعيان ١: ٤٨١. (٦) الروض الأنف ١: ٧. (٧) فى الأصل: «دراء الياس». تصحيف. (٨) فى الروض الأنف ١: ٧: «مات منه».

ولما مات أسِفت امرأته خِنْدِف عليه أسفًا شديدا . وكانت نَذَرت، إن هلك ، [أ] لا تُقيمَ فى بلدٍ مات فيه ، ولا يُظلّها بيت ، وتَسيح فى الأرض ، وحرّمت الرِّجالَ والطِّيب بعده . فلما هلك خرجت سائحة حتى هلكت . وكانت وفاته يوم الخميس ، فنذرت أن تَبكيه كلما طلعت شمس يوم الخميس حتى تغيب الشمس . قال السهيلىّ : «ويُذكَر عن النبى صلى الله عليه وسلم [أنه][1] قال: «لا تسبوا الياس فإنه كان مؤمنا» . وذكر أنه كان يسمع فى صلبه لمبيَة النبىّ، صلى الله عليه وسلم، بالحج[2] » . والله أعلم .

وأما مُدْرِكَة بن الياس فقال ابن السائب[3] : واسمه عَمرو . وقال ابن إسحاق والزبير : عامر[4]، وكنيته أبو الهُذَيل، وقيل أبو خُزَيمة . وأمه خِنْدِف ، واسمها ليلى بنت حُلوان بن عِمْران بن الحافِ بن قُضَاعة . واسم أمها ضَرِيَّة بنت ربيعة بن نِزار، وبها سمى «حِمى ضَرِيَّة»[5] .

وأما خُزَيمة بن مُدْرِكَة فكنيته[6] أبو أسد، وأمه سَلْمَى بنت أسلُم بن الحافِ ابن قُضاعة . وقيل سَلْمَى بنت أسَد بن ربيعة ، وخُزَيْمَةُ هذا هو الذى نصب هُبَل على الكعبة ، فكان يقال هُبَل خُزَيْمَة ، هكذا ذكره ابن الأثير[7] . وروى عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن خزيمة مات على ملة إبراهيم عليه السلام .

---

(١) تكملة من الروض الأنف ١ : ٢ (٢) الروض الأنف ١ : ٨ (٣) فى الأصل: «قال» . (٤) فى الخبر عن البشر ٣ ٢٧ (قسم الأول) : «وقال الزبير : فولد الياس ابن مضر مدركة واسمه عامر، ويقال عمرو» . (٥) قرية بين البصرة ومكة ، وهى إلى مكة أقرب ، وانظر خلافهم فى تحديد هذا الحمى ، وفى سبب نسبته الى ضرية ، فى معجم البلدان ٥ : ٤٣٣ ، تابع العروس (ضرى) . (٦) فى الأصل : «وكنيته» . (٧) فى الكامل ٢ : ١١

أما كِنَانَةُ بنُ خُزَيْمَة، فكنيته[1] أبو النَّضْر، وأمّه عَوانةَ بنت سَعد بن قَيس [بن عيلانَ][2]، ويقال: بل هِند بنت عمرو بن قيس بن عَيْلان. قال أبو الحسن سلاّم ابن عبد الله بن سلام الإشبيليّ: وقال أبو عمرو العدوانى لابنه فى وصيته: «يابنى أدركتُ كِنَانَة بنَ خُزَيمة — وكان شيخاً مُسِناً عظيمَ القدر، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله — فقال: إنه قد آن خُروج نبيّ بمكة يُدعى أحمد، يدعو إلى الله، وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتّبِعوه تزدادوا شرفا إلى شرفكم، وعِزّا إلى عِزّكم، ولا تتعدوا ما جاء به، فهو الحق». والله الموفق.

وأما النَّضْر بن كِنانة. فكنيته[1] أبو يَخْلُد، كُنِّى بابنه يَخْلُد[3]. واسم النَّضر قيس. قال أبو ذَرّ الخُشَنِيّ: النَّضْر: الذَّهَب الأحمر[4]. وهو النُّضار؛ سُمِّى النَّضْر بذلك لوَضاءته وإشراق وجهه. وأُمّه بَرَّة بنت مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مُضَر أختُ تَميم بن مُرّ. والذى عليه أكثرُ أهل السِّيَر والمؤرخين أن كِنانة خَلَف على بَرّة بعد أبيه خُزَيمة، على ما كانت الجاهلية تفعله؛ إذا مات الرجل خَلَف على زوجته بعده أكبرُ بنيه من غيرها[5]. ويردّ هذا ما رُوى عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما ولدنى من سِفاح أهل الجاهلية شىء؛ ما ولدنى إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام"[6]، وقول ابن الكلبيّ: "كتبتُ لرسول الله، صلى الله عليه وسلم خمسمائة أمّ، فلم أجد فيها شيئا مما كان من أمر الجاهلية". وقد تقدّم ذكر ذلك آنفا.

(١) فى الأصل «وكنيته».
(٢) عن الخبر عن البشر ٣ : ٣٣ (قسم أول).
(٣) فى الأصل «بأبيه». تصحيف.
(٤) انظر شرح السيرة للخشنى ١ : ٣
(٥) وكان الذى يخلف أباه على زوجته يسمى الضيزن (لسان العرب — ضزن). وفى المحبر لابن حبيب ص ٣٢٥ تفصيل لأسماء الذين فعلوا ذلك.
(٦) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ٢ : ٢٥٦، بعد رواية هذا الحديث عن ابن عباس: «وهذا أيضا حديث غريب، أورده الحافظ ابن عساكر، ثم أسنده من حديث أبى هريرة - وفى إسناده ضعف، والله أعلم».

وقد اعتذر القائلون هذا القول عنه بأعذار، وأقاموا أدلة على أنه ليس بسفاح ولا من أمر الجاهلية . وفى أعذارهم وأدلتهم بعض تكلف . وقد حصل الظفر — ولله الحمد والمنة — بما يزيل هذا الإشكال، ويرفع هذا الاحتمال، ويخلص من مهاوى هذه الشبه ؛ وهو الصحيح ، إن شاء الله تعالى ، وسنذكره بعد ذكر أعذارهم وأدلتهم .

٥ / ١٤

أما ما استدلوا به على تقدير أن يكون كنانة خلف على برة بنت مر بن اد بعد أبيه ، فقال السهيلى[(١)] ، رحمه الله ، فى قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف[(٢)] ﴾ ؛ أى إلا ما قد سلف من تحليل ذلك قبل الإسلام ، قال : وفائدة الاستثناء ألا يعاب نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعلم أنه لم يكن فى أجداده بغية ولا سفاح ؛ ألا ترى أنه لم يقل فى شىء نهى عنه فى القرآن (إلا ما قد سلف) نحو : ﴿ ولا تقربوا الزنا[(٣)] ﴾ ؛ ولم يقل (إلا ما قد سلف) ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق[(٤)] ﴾ ولم يقل (إلا ما قد سلف) ، ولا فى شىء من المعاصى التى نهى عنها إلا فى هذه [الآية[(٥)]] ، وفى الجمع بين الأختين ؛ لأن الجمع بينهما قد كان مباحا فى شرع من قبلنا ؛ وقد جمع يعقوب عليه السلام ، بين راحيل وأختها ليا[(٦)] ؛ فقوله : (إلا ما قد سلف) التفات إلى هذا المعنى وتنبيه على هذا المعزى . ونقل السهيلى هذه النكتة عن القاضى أبى بكر بن العربى .

واعتذار من اعتذر عن هذه الواقعة على هذا المنوال .

---

(١) نقل هذا الاستدلال عن السهيلى ، الدميرى فى حياة الحيوان ٢ : ٢١٥ ، والزرقانى فى شرح المواهب ١ : ٩٣ (٢) النساء ٢٢ . (٣) الإسراء ١٧ (٤) الأنعام ٦

(٥) التكملة عن الدميرى ٢ : ٢١٥ (٦) فى شرح المواهب اللدنية ١ : ٩٣ : « يقال راجيل بالجيم وبالحاء » ، وفى جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٤٦٩ : « لياء » بالمد .

وأما ما ارتفع به هذا الإشكال، فهو ما نقله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — رحمه الله — فى كتاب له سماه « كتاب الأصنام » قال فيه : « وخلف كِنانةُ بن خُزيمة على زوجة أبيه بعدَ وفاته ، وهى بَرّة بنتُ أُدّ بن طابخة بن الياس بن مُضَر ، وهى أمّ أسَد بن الهُون ؛ ولم تَلد لكِنانة ولدا ذكرا ولا أنثى ، ولكن كانت ابنة أخيها ، وهى بَرّة بنت مُرّ بن أدّ بن طابخة أخت تَميم بن مُرّ عند[1] كِنانة بن خُزيمة ، فولدت له النَّضر بن كِنانة » . قال : « وإنما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كِنانة خلَف على زوجة أبيه لاتّفاق اسمهما[2] وتَقارُب نَسَبهما » . قال : « وهذا الذى عليه مشايخُنا وأهلُ العلم بالنسب » . قال : « ومعاذ الله أن يكون أصاب [نَسَبَ][3] رسول الله صلى الله عليه وسلم مَقْت نكاح ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما زلتُ أُخرَج من نكاح كنكاح الإسلام ، حتى خرجتُ من أمى وأبى" . قال : « ومن اعتقد غيرَ هذا فقد كفرَ وشكّ فى هذا الخبر . قال : والحمد لله الذى طهّره من كل وَصْم وطهّر به » .

وأما مالك بنُ النَّضْر ، فكنيتُه[4] أبو الحارث ، وأمّه عاتكة بنتُ عَدْوان ، وهو الحارث بن عَمرو بن قَيس عَيلان ، ولقبُها عِكْرِشة ، وقيل عَوانة بنت سَعد القَيسية ، وقيل غير ذلك . ومالك هو أبو قُرَيش كلها .

وأما فِهْر بن مالك — وهو قُرَيْش ، وفِهْر لقب غلَب عليه — فكنيتُه[4] أبو غالب ، وهو جُمّاع قُرَيش فى قول هشام بن الكلبىّ . وأم فِهْر جَنْدلة بنت عامر بن الحارث ابن مُضَاض الجُرْهُمى[5] ؛ ومن جاوز فِهْرا فليس هو من قُريش .

(١) فى حياة الحيوان ٢ : ٢١٥ : « تحت كنانة » . (٢) فى الأصل : « ولاتفاق اسمهما » ، تصحيف . (٣) التكملة من حياة الحيوان ، ٢ : ٢١٥ وشرح المواهب ١ : ٩٣ .
(٤) فى الأصل : « وكنيته » . (٥) هذه رواية ابن الكلبى والبلاذرى . وفى رواية الزبير بن بكار : « جندلة بنت الحارث بن جندل بن عامر » ، وروى الزبير أيضا : « جندلة بنت الحارث بن عمرو أو عامر » . انظر الخبر عن الميثم ٣ : ٣٨ ، ٣٩ (قسم أول) .

وقد اختلف فى تسمية قُرَيش قُرَيشا، ومَن أوّلُ من تسمّى به، فقال محمد بن كعب[(١)]: إنما سُميت قُريش قُرَيشا لتجمّعها بعد تفرّقها، وقال محمد بن سلام: لما جمع قُصَىّ قبائلَ النّضر، وحارَب بهم خُزاعة، وغلَب على الحَرَم، سُمُّوا قُرَيشا لاجتماعهم. وقيل: إنما سُمُّوا قُرَيشا لأنهم يتقرّشون البضاعات فيشترونها. وقيل: جاء النّضر بن كِنانة فى ثوب له فقالوا: قد تقرّش فى ثوبه كأنه جَمَل قَرِيش، أى شديد مُجتمع. وقيل: أوّلُ من سَماهم بهذا الاسم قُصَىّ بن كِلاب. قاله المبرّد. وقال الشّعبىّ: النّضر بن كِنانة هو قُريش، وإنما سُمى قُريشا لأنه كان يُقرّش عن خَلّة الناس وحاجتهم فيسُدّ ذلك بماله، والتقريش: هو التفتيش، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم فيُزوّدونهم[(٢)] بما يُبلّغهُم، فسموا بذلك مِن فِعْلِهم.

وقال الزبير بن بكّار قال عمىّ: قُرَيش بن بَدْر بن يَخْلُد بن النّضر كان دليلَ بَنى كِنانة فى تجارتهم، فكان يقال «قدمت غِير قريش»، وأبوه بَدْر بن يَخْلُد صاحب بَدْر [الموضع][(٣)] الذى كانت به الوَقعة المشهورة، وذكر عن عمه أن فِهرا هو قُرَيش، قال: وقد اجتمع النُّسّاب[(٤)] من قُريش وغيرهم أن قُرَيشا إنما تفرّقت عن فِهْر. والذى عليه من أدركتُ من نسّاب قريش أن وَلَد فهر بن مالك قُرَيش، ومن جاوز فِهرا فليس من قُريش.

(١) محمد بن كعب بن سليم القرظى، تابعى مقرئ. فى تحديد وفاته خلاف. انظر طبقات القراء ٢ : ٢٣٣.

(٢) فى الروض الأنف ١ : ٧٠، والبداية والنهاية ٢ : ٢٠٠ والخبر عن البشر ٣ : ٣٨ (قسم أوّل): «فيرفدونهم».

(٣) النكلة عن نسب قريش (الورقة ٤ ب)، والروض الأنف ١ : ٧٠

(٤) فى البداية والنهاية ٢ : ٢٠٠، والروض الأنف ١ : ٧٠ : «وقد أجمع»، وفى الخبر عن البشر ٣ : ٣٨ (قسم أوّل)، «وقد أجمع نسّاب قريش».

وروى عن هشام بن السائب : أن النَّضر بن كِنانة هو قُريش . وقيل عنه في موضع آخر : ولَد مالكُ بن النَّضر فِهْرا وهو جُمَّاع قُريش . وقال أبو عُبيدة مَعْمَر ابن المثنَّى : أوّلُ من وقع عليه آسم قُريش النَّضر بن كِنانة ، فولدُه قُريش دون سائر بَنى كِنانة . وقال أبو عُمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : قُريش مأخوذ من القَرْش ، وهو وَقْع الأسِنّة بعضِها على بعض ؛ لأن قُرَيشا أحذقُ الناس بالطِّعان .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما أنه سأل عمرو بن العاص : لم سميت قُريش قُريشا؟ قال : بالقِرْش ، دابّة فى البحر تأكل الدوابّ لشدّتها . وقال : المطرّزىّ : هى مِلكة الدواب ، وسيّدة الدواب وأشدّها ، فكذلك قُرَيش سادات الناس .

وكان فِهْر رئيسَ الناس بمكّة . والله أعلم .

وأما غالب بن فِهر ، فكنيته أبو تَيْم ، وأمه لَيلَى بنت الحارث ، بن تميم ، بن سَعْد ، بن هُذَيل ، بن مُدْرِكة ؛ ولغالب هذا من الولد : لُؤىّ ، وتَيم الأدرم ؛ وكان تَيم كاهنا ، وإنما قيل له تَيم الأَدْرَم لأن أحد لِحْيَيه كان أنقص من الآخر . وفى قريش تَيْمان : تَيْم بن مُرّة ، وتَيْم الأَدْرَم . قال آبن قُتيبة : «بنو الأَدْرَم من أعراب قُريش ليس بمكّة منهم أحد» . والله أعلم .

٦/١٤

(١) انظر لسان العرب « قرش » . (٢) فى البداية والنهاية ٢ : ٢٠٢ : أن معاوية قال لابن عباس الخ . والذين رووا هذا الخبر اتفقوا على أنه عن ابن عباس ؛ فالمسؤول ابن عباس ، وهو المألوف . فلعل صحة الكلام : «رضى الله عنهما أنه سأله» . وانظر شرح المواهب للزرقانى ١ : ٧٦ ، خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٩٨ — ٩٩ (٣) فى الأصل : « وقال الطرز » ، والتصحيح عن حياة الحيوان ٢ : ٢١٥ . (٤) فى الأصل : « وكنيته » .

(٥) فى الكامل لابن الأثير ٢ : ١٠ : «الحارث بن تيم» . (٦) المعارف ص ٣٢ .

(٧) فى الروض الأنف ١ : ٧١ : « قال الزبير : وبنو الأدرم هؤلاء هم أعراب مكة ، وهم من قريش الظواهر لا من قريش البطاح » ، وانظر المحبر لابن حبيب ص ١٦٨ .

وأما لُؤَىّ بن غالب، فكنيتُه[1] أبو كعب، وأمه عاتكة بنت يَخْلُدُ، بن النَّضْر بن كِنانة، وهى إحدَى[2] العواتك اللّاتى وَلدن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم؛ وقيل: بل أمه سَلْمَى بنت عمرو بن رَبيعة (وهو لُحَىّ[3] بن حارثة) الخُزاعية.

وأما كعب بن لُؤَىّ، فكنيته[1] أبو هُصَيْص، وأمه ماوية[4] بنت كَعب بن القَيْن ابن جَسْر القُضاعية. قيل: إنما سُمى كَعب كعبا لارتفاعه على قومه، وشرفه فيهم. وكان عظيمَ القدر عند العرب؛ فلهذا أرّخوا بموته إلى عام الفيل، ثم أرّخوا بالفيل؛ رَوَى أبو نُعَيم فى "الدلائل" عن الطَّبَرانى بسنده إلى عبد العزيز بن أبى ثابت قال: «أرّخت كِنانةُ من موت كعب بن لُؤَىّ، وأرّخت قُرَيش بعدَ موته مِن عام الفيل؛ وبين موت كعب والفيل خمسمائة سنة وعشرون سنة»[5].

«وكَعب هذا أوّلُ من سَمى يومَ الجُمعة الجُمعة، وكانت العرب تسمِّى يوم الجمعة العَرُوبَة»؛ قاله السهيلى[6]. ومعنى العَروبة الرحمة فيما بلغنى عن أهل العلم، وإنما سماه الجمعة لاجتماع قُرَيش فيه وخطبته [فيهم][7].

وأوّل من قال «أما بعد» كَعب؛ فكان يقول: «أما بعد، فاستمعوا وافهموا». ثم قال: «حَرَمكم عظِّموه وتمسَّكوا به، وسيأتى لكم نبأ[8] عظيم، وسيخرج له نبىّ كريم».

---

(١) فى الأصل: «وكنيته». (٢) فى ابن الأثير ٢: ١٠، والطبرى ٢: ١٨٦: «وهى أوّل العواتك». (٣) فى الأصل وابن الأثير ٢: ١٠: «وهو يحيى بن حارثة» تصحيف: وانظر الروض الأنف ١: ٦١ — ٦٢ (٤) كأنها نسبت إلى الماء لصفائها. الروض الأنف ١: ٦١. (٥) فى الوافى بالوفيات ١: ١٠: «والفيل مئة سنة»؟ (٦) الروض الأنف ١: ٦. (٧) تكملة عن الاكتفاء (الورقة ٥ أ)، وفى الخبر عن البشر ٣: ٤٤ (قسم أوّل): «لاجتماع قريش فيه إلى كعب بن لؤى وخطبته». (٨) فى الخبر عن البشر ٣: ٤٥ (قسم أوّل): «فسيأتى له نبأ عظيم، وسيخرج به نبى».

قال السُّهيلىّ : « وكان يخطبهم ويُذَكِّرهم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، ويُعلمهم أنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به ، وينشد ويقول :

يا ليتنى شاهدٌ فحواء دعوته * إذا قريشٌ تُبغّى الحقّ خِذْلانا »[2]

وأما مُرّةُ بن كَعْب ، فكنيته[3] أبو يَقَظَة ، وأمه مَخْشية ، وقيل وَحْشية بنت شيبان ، بن مُحارب ، بن فِهْر . وفى مُرّة يجتمع نَسَب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونَسَبُ أبى بكر الصِّديق ، وطلحة بن عُبيد الله رضى الله عنهما .

وأما كِلَابُ بنُ مُرّة ، فكنيته[3] أبو زُهْرَة ، واسمُه حَكيم . وكِلاب لقَب غلبَ عليه ، وسبب ذلك أنه كان مُحِبّا للصيد مولَعا به ، وكان أكثرُ صيده بالكِلاب ، وجمع منها شيئا كثيرا ، فكان إذا مَرّ بقوم بكِلابه قالوا : هذه كِلاب ابن مرة ، فغلب ذلك عليه ؛ وفيه يقول الشاعر :

حكيمُ بنُ مُرّةَ سادَ الورَى * ببَذْل النَّوالِ وكَفِّ الأذَى

وأُمُّ كِلاب هند بنت سُرَيْر[4] بن ثَعلبة ، بن الحارث ، بن فِهْر ، بن مالك ، بن كِنانة . ويقال : إن كِلابا هذا أوّلُ من جَعل فى الكعبة السيوف المحلّاة بالذهب والفضة ذخيرةً للكعبة .

---

(١) فى الأصل : « ويذكر بمبعث » . والمثبت عن الروض الأنف ١ : ٦ .

(٢) فى الاكتفاء (الورقة ٥ أ) ، والخبر عن البشر ٣ : ٤٥ (قسم أوّل) :

* حين العشيرة تبغى الحق خذلانا *

وفحواه الكلام ، وفحواه : معناه . وانظر شرح الزرقانى على المواهب ١ : ٧٥ .

(٣) فى الأصل « وكنيته » .

(٤) فى المقدمة الفاضلية (الورقة ١٨ أ) : « هند بنت سر الفهرية » ، وورد اسمها فى الخبر عن البشر ٣ : ٤٧ (قسم أوّل) : « نعم بنت السرير » ، وفى المعارف لابن قتيبة ص ٥٧ : « نعيم ابنة سرير » .

وأما قُصَيّ بن كِلَاب فاسمه زيد[1]، وكنيته أبو المُغِيرة، وقُصَيّ لَقَبه، ويلقب أيضا مُجَمِّعا. قال السُّهيلي، في قُصَيّ «تصغير قَصِيّ: أي بعيد». وقال الرُّشاطي: «وإنما قيل له قُصَيّ لأن أباه كِلاب بن مُرّة كان قد تزوج فاطمة بنتَ سَعْد بن سَيْل، وآسم سَيْل، خَيْر بن حَمالة[2]، بن عَوف[3]، بن عثمان[4]، بن عامر (وهو الجادر[5]) بن جُعْثُمة[6]، وهو يَشْكُر[7]، وهم من الأزد. فولدت له زُهْرَة وزَيْدا، ثم هلك كِلاب وزَيد صغير فَطِيم»، وقال السُّهيلي[8]: إنه كان رضيعا، «فتزوج فاطمةَ أمَّ قُصَيّ ربيعةُ بن حَرام، بن ضِنّة، بن عبد، ابن كَبير[9]، بن عُذرة، بن سَعْد، بن زيد، بن قضاعة، فاحتملها ربيعة ومعها زيد، فربي زيد في حجر ربيعة، فسُمِّي قُصَيّا لبُعده عن دار قومه».

وقال الخطّابي: «سُمي قُصَيا لأنه قَصَّى قومَه، أي تَقصّاهم بالشام فنقلهم إلى مكة». قال الرُّشاطي[10]: «ثم إن زيدا وقع بينه وبين ربيعة شر، فقيل له: ألا تلحق بقومك؟ وعُيِّر بالغُربة، وكان لا يعرف لنفسه أبا غير رَبيعة، فرجع قُصَيّ إلى أمه، وشكا لها ما قيل له، فقالت له: يا بنيّ،

(١) في الأصل: «وآسمه». (٢) في الإكمال لابن ماكولا ٢: ٦٩ ب: «خير بن جمال»، وفي ابن الأثير ٢: ٧: «جبر بن جمالة». (٣) هكذا ورد في الإكمال لابن ماكولا ٢: ٦٩ ب: «عوف بن عثمان»، وفي الاشتقاق لابن دريد ص ٢٥، ونسب قريش (ق ٥ أ)، والطبري ٢: ١٨١، والخبر عن البشر ٣: ٤٨ (قسم أول): «عوف بن غنم».

(٤) في الأصل: «عامر بن الجادر»، وهي إحدى روايتي الإكمال، والمثبت رواية الروض الأنف (١: ٨٤)، وتوافق رواية الإكمال الثانية. (٥) سمي الجادر لأنه أول من جدر الكعبة. (٦) تكرر ورود هذا العلم في الخبر عن البشر ٣: ٤٨، ٥٠ (قسم أول) هكذا: «خثعمة» بالخاء المعجمة بعدها ثاء مثلثة. (٧) في سيرة ابن هشام ١: ١٠٩، والطبري ٢: ١٨١، والإكمال والخبر عن البشر ٣: ٤٨، ٥٠ (قسم أول): «جعثمة ابن يشكر».

(٨) في الروض الأنف ١: ٨٤. (٩) في الأصل: «حرام بن ضبة بن عبد كثير»، وفي ابن الأثير ٢: ٧: «ضبة بن عبد بن كثير» تصحيف، وانظر الإكمال ١: ١٣٣ ب، والطبري ٢: ١٨١، والإنباه لابن عبد البر ص ٨١. (١٠) في الأصل: «قال الرشاطي وإن»:

أنت أكرم منه نفسًا وأبا، أنت ابنُ كلاب بن مُرّة، وقومُك بمكة عند البيت الحرام. فأجمع[1] قُصَيّ على الخروج، فقالت له أمه: أَقِم حتى يدخُل الشّهر الحرام، فتخرج فى حاجّ العرب، فلما دخَل الشهر الحرام خرج مع حاجّ قُضَاعة حتى قدِم مكة، فحجّ وأقام بمكة».

٥ وكان الذى يلى أمر البيت يومئذ حُلَيل، بن حُبْشِيَة، بن سَلول، بن كعب، ابن عمرو الخُزَاعى. فخطب إلى حُلَيْل بن حُبْشِية ابنتَه حُبَّى. فعرَف حُلَيل نَسَبه فزوّجه، وأقام قُصَيّ معه، فولدت له حُبَّى أولادَه، وهم: عبد مَناف، وعبد العُزَّى، وعبد الدار، وعبد، وبَرّة، وتَخْمُر (وهى بالتاء المثناة من فوق وخاء معجمة ساكنة وميم مضمومة وراء).

١٠ فلما انتشر ولدُه، وكثُر ماله، وعظُم شَرَفه هلك حُلَيْل، وأوصى بولاية البيت لابنته حُبَّى. فقالت: إنى لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه، فجعلت[2] ذلك إلى سُلَيم ابن عمرو، بن بُوَيّ، بن مِلْكان، وهو أبو غُبْشَان، ويقال له المحترِش، فاشترى قُصَيّ منه ولايةَ البيت بزِقّ خمر وقَعود[3]، فضربت به العرب المثل، فقالوا: «أخسَر من صَفْقة أبى غُبْشان[4]». فنازعته خُزاعة البيت فأنتزعه منهم. والله الناصر.

٧/١٤

---

١٥ (١) فى الأصل: «فاجتمع»، والمثبت عن الطبرى ٢ : ١٨٢.

(٢) فى ابن الأثير ٢ : ٨ : «فجعل ذلك».

(٣) القعود: البكر من الإبل حين يمكن ظهره من الركوب، وأدنى ذلك أن يأتى عليه سنتان.

(٤) أورد الميدانى (١ : ١٤٦) المثل بصيغة: «أحق من أبى غبشان»، وحكى رواية النويرى أيضا، وانظر تاج العروس (غبش).

ذكر خبر انتزاع قُصَيّ البيت ومكة من خُزاعة

ومن ولي البيت بعد إسماعيل عليه السلام إلى أن انتزعه قُصَيّ بن كِلاب

قال محمد بن إسحاق بن يَسار[(١)]: «لما توفى الله تعالى إسماعيلَ بن إبراهيم عليهما السلام، ووَلِي البيتَ بعده ابنهُ نابِت بن إسماعيل ما شاء الله أن يليَه، ثم ولى البيتَ بعده مُضاض ابن عَمْرو الجُرْهُمى، وبنو نابِت مع جدّهم مُضاض بن عمرو وأخوالهم من جُرْهُم: وجُرْهُم وقَطُورَاء يومئذ أهل مكة، وهما ابنا عم، وكانا ظعَنا من اليمن، فأقبلا سَيّارَة[(٢)]، وعلى جُرهم مُضاض بن عمرو، وعلى قَطُوراء السُّمَيْدَع، رجلٌ منهم[(٣)]. فلما نزلا مكة رأيا بلدا ذا ماءٍ وشَجَر، فأعجبهما فنزلا به؛ فنزل مُضاض بمن معه من جُرْهُم أعلى مكة بِقُعَيْقِعانَ[(٤)] فما حاز، ونزل السُّمَيْدَع بقَطُوراء أسفلَ مكة بأَجْيَاد[(٥)] فما حاز، وكان كل منهما يَعْشُر[(٦)] من دخل مكة مما يليه، وكلٌّ منهما فى قومه لا يدخل على صاحبه».

«ثم إن جرهما وقَطُوراء بغَى بعضُهم على بعض، وتنافسوا الملك بها، ومع مُضاض بنو إسماعيل وبنو نابِت، وإليه ولاية البيت دون السُّمَيْدَع، فسار بعضهم إلى بعض؛ فخرج مُضاض بن عمرو من قُعَيْقِعان فى كتيبته سائرا إلى السُّمَيْدَع ومع كتيبته عُدَّتها من الرماح والدَّرَق والسيوف والحِعاب، يُقَعْقِع [بذلك][(٧)]؛ فيقال ما سمى قُعَيْقِعانُ قُعَيْقِعانَ إلا لذلك. وخرج السُّمَيْدَع من أَجْياد ومعه الخيل والرجال، فيقال ما سمى أجيادُ أجيادا

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ : ١١٧ . (٢) السيارة : القافلة . (٣) وكانوا إذا خرجوا من اليمن جعلوا عليهم ملكا يقوم بأمرهم . الروض الأنف ١ : ٨٠ . (٤) قعيقعان، بضم القاف الأولى وكسر الثانية، وفتح العين : جبل بمكة . معجم البلدان ٧ : ١٣٣ . (٥) أجياد : موضع بمكة مما يلى الصفا . ياقوت ١ : ٢٤٧ . (٦) يعشر : يأخذ عشر أموالهم . (٧) زيادة عن سيرة ابن هشام ١ : ١١٧ .

إلا لخروج الجياد من الخيل منه مع السَّمَيْدَع[1]. فالتقوا بفاضح[2] واقتتلوا قتالا شديدا، فقُتِل السَّمَيْدَع، وفُضِحت قَطُوراء ؛ فيقال ما سُمِّى فاضِحُ فاضحا إلا لذلك » .

ثم إنّ القوم تداعوا إلى الصُّلح، فساروا حتى نزلوا المَطابخ : شِعْبا بأعلى مكة، فاصطلحوا به ، وأسلموا الأمر إلى مُضاض . فلما اجتمع إليه أَمرُ مكة ، وصار مُلكُها له ، نحرَ للناس فطبخوا وأكلوا[3]، فيقال ما سميت المَطَابخُ المطابخَ إلا لذلك» . وبعض أهل العلم يزعم أنها إنما سميت المطابخ لِما كان تُبَّع نَحَرَ بها وأطعم وكانت منزله . والله أعلم » .

«فكان الذى كان بين مُضاض والسَّمَيْدَع أوّلَ بغْيٍ كان بمكة . ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالُهم من جُرْهُمْ وُلاةُ البيت والحكّامُ بمكة ، لا ينازعهم ولد إسماعيلَ فى ذلك لخئولتهم وقَرابتهم ، وإعظاما للحُرمة أن يكون بها بَغْى أو قتال ؛ فلما ضاقت مكةُ على ولَد إسماعيل انتشروا فى البلاد ، فلا يناوئون قوماً إلا أظهرَهم الله عليهم بدينهم » .

«ثم إنّ جُرهما بغوْا بمكة، واستحلّوا خِلالاً من الحُرمة، وظلموا مَن دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدَى لها ، فرقَّ أمرُهم . فلما رأت بنو بكر بن عبد مَناة بن كِنانة، وغُبْشان من خُزاعة ذلك، أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة؛ فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا، فغلبتهم بنو بكر وغُبشان، فنفوهم من مكة ؛ وكانت مكةُ فى الجاهلية لا تُقِر فيها ظلما ولا بَغْيا» .

---

(١) أجياد : جمع جواد ؛ يقال فرس جواد : بين الجودة والجمع أجياد . فلا محل لاعتراض السهيلى فى الروض الأنف ١ : ٨٠ ، وانظر تاج العروس « جود » .

(٢) فاضح : موضع قرب مكة عند جبل « أبى قبيس » . ياقوت ٦ : ٣٣٢ .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١١٧ : « نحر للناس فأطعمهم، فاطّبخ الناس وأكلوا » .

قال ابن إسحاق : «فخرج عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرْهُمى بغزالَى الكعبة[1] وبحَجَر الركن ، فدفنها فى زَمزم ، وانطلق هو ومَن معه من جُرهُم إلى اليمن . فحزِنوا على مافارقوا من أمر مكة ومُلْكِها حزنا شديدا ، فقال عمرو بن [الحارث][2] بن مُضاض فى ذلك ، وليس بمُضاض الأكبر» . والله المعين :

[وقائلةٍ والدَّمعُ سَكْبٌ مُبادِرُ * وقد شَرِقتْ بالدَّمع منها المحاجِرُ][2] ٥

كأن لم يكن بينَ الحجون[3] إلى الصَّفا * أنِيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامرُ

[فقلتُ لها والقلب منّى كأنّما * يُلَجلِجُه بينَ الجناحين طائرُ][2]

بَلَى ! نحن كنّا أهلَها فأزالنا * صُروفُ الليالى والجُدودُ العواثِرُ

وكنا وُلاةَ البيت من بعد نابتٍ * نطوف بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ

ونحن وَلِينا البيت من بعد نابتٍ * بعِزٍّ فما يَحظَى لدينا المُكاثِرُ ١٠

مَلَكنا فعزَّزنا فأعظِم بمُلْكِنا * فليس لحىٍّ غيرِنا ثَمَّ فاخِرُ

ألم تُنكِحوا مِن خير شخصٍ[4] علمتُه * فأبناؤه منّا ونحن الأصاهِرُ ٨/١٤

فإن تَنثِن الدنيا علينا بحالها * فإن لها حالًا وفيها التشاجُرُ

فأخرجَنا منها المليك بقُدرةٍ * كذلك يا للنّاس تجرى المقادرُ

أقولُ إذا نام الخَلِىُّ ولَم أَنَم : * أذَا العرشِ لا يَبْعَد سُهَيل وعامرُ ١٥

وبُدِّلْتُ منها أوجُهًا لا أُحِبّها * قبائلَ منها حِمْيَرٌ ويُحابِرُ[5]

وصِرنا أحاديثًا وكُنّا بِغِبطةٍ * بذلك عَضَّتنا السِّنونُ الغوابِرُ

(١) هما تمثالان لغزالين من ذهب ، دفنهما عمرو بن الحارث فى زمزم . انظر الروض الأنف ١ : ٩٧ ، ١٠١ ، وشرح المواهب ١ : ٩٢ . (٢) إضافة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٢٠ .

(٣) الحجون فتح الحاء : جبل بأعلى مكة . ياقوت ٣ : ٢٢٧ . (٤) يريد إسماعيل عليه السلام . الخشنى ١ : ٣٨ (٥) يحابر بوزن (يقاتل) : قبيلة من اليمن ، أو قبيلة مراد . انظر تاج العروس (حبر) ، الخشنى ١ : ٣٨ .

[وبدّلنا كعبٌ بها دارَ غُربة * بها الذئب يَعوِى والعدوُّ المكاثِرُ][1]
فسَحّت دموعُ العين تَبكِى لبَلْدة * بها حَرَم أمنٌ وفيها المشاعِر[2]
وتَبكِى لبيتٍ ليس يُؤذَى حَمامُه * يَظَلُّ به أمنًا وفيه العصافِر
وفيه وُحوشٌ لا تُرام أنيسةٌ * اذا خَرَجت منه فليست تُغادَر

وقال أيضا يشير إلى بَكْرٍ وغُبْشان الذين خَلفوا مكة بعدهم :

يأيها الناسُ سِيروا إنّ قَصْرَكم[3] * أن تُصبِحوا ذاتَ يوم لا تَسِيرونا
حُثّوا المطِىّ وأَرخُوا من أزِمّتها * قبلَ المات وقَضّوا ما تُقضُّونا
كُنّا أُناسًا كما كنتُم فغيّرنا * دَهرٌ فأنتم كما كُنّا تَكونونا

قال ابن هشام[4] : « حدّثنى بعض أهل العلم بالشعر، أن هذه الأبيات أوّلُ شعرٍ قيل فى العرَب، وأنها وُجدَت مكتوبة فى حَجَر باليَمَن، ولم يُسَمّ لى قائلها » .

قال ابن إسحاق[4] : « ثم إنّ غُبْشان من خُزاعة وَلِيَتْ البيت دون بنى بكر ابن عبد مَناة ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغُبْشانىّ، وقُرَيش إذ ذاك حُلول وصِرم[5]، وبيوتات متفرّقون فى قومهم من بنى كنانة ، فوليت خُزاعة البيت يَتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى كان آخرهم حُلَيل بن حُبْشِية بن سَلول بن كَعْب ابن عمرو الخُزاعىّ . فخطب قُصَىّ بن كِلاب إلى حُلَيل ابنته حُبّى ، فرغب فيه حُليل فزوّجه، فولدت له عبدَ الدار، وعبدَ مَناف، وعبدَ العُزّى، وعبدا » .

«فلما انتشر وَلَدُ قُصَىّ وكثُر مالُه، وعظُم شرفُه هلك حُلَيل، فرأَى قُصَىّ أنه أولَى بالكعبة، وبأمرِ مكة من خُزاعة وبنى بَكر، وأنّ قُريشا فَرْعةُ[6] إسماعيل بن

(١) عن معجم البلدان ٣ : ٢٢٨ . (٢) المشاعر : مواضع مشهورة يتعبد فيها . الخشنى ١ : ٣٨ .
(٣) قصركم : نهايتكم وغايتكم . (٤) سيرة ابن هشام ١ : ١٢٢ . (٥) الحلول : جماعة البيوت المجتمعة ، والصرم : الجماعة ينزلون بإبلهم ناحية على ماء . (٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٢٣ : « قرعة » بالقاف ، والقرعة بضم القاف : نخبة الشىء وخياره . والمراد بالفرعة هنا أن قريشا أعلى ولد إسماعيل .

إبراهيم وصَريح وَلَده، فكلّم رجالاً من قُرَيش وبَنى كنانة، ودَعاهم إلى إخراج خُزاعة وبنى بَكر من مكة، فأجابوه » .

وكان ربيعة بن حَرام من عُذْرة بن سَعْد بن زيد مَناة قد قَدِم مكة بعد هلاك كِلاب، فتزوج فاطمةَ بنت سَعد بن سَيَل — وزُهْرةُ يومئذ رَجل، وقُصَيّ قَطيم — فاحتملها إلى بلاده، فحملت قُصَيًّا معها وأقام زُهْرة، فولدت لربيعة رِزاحا . فلما بلغ قُصَيٌّ وصار رجلاً أتى مكة فأقام بها، فلما أجابه قومه إلى ما دعاهم إليه كتب إلى أخيه من أمه رِزَاح بن ربيعة، يدعوه إلى نُصْرته والقيام معه، فخرج رِزاح بنُ ربيعة ومعه إخوته : حُنّ بن ربيعة، ومحمود ابن ربيعة، وجُلْهُمة بن ربيعة، وهم لغير فاطمة، فيمن تَبِعهم من قُضاعة فى حاجّ العرب، وهم مُجمِعون لنُصْرة قُصَيّ » .

«وكان الغَوْثُ بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مُضَر يَلِى الإجازة للناس بالحج من عَرَفة، ووَلَدُه مِن بعده، وكان يقال له ولولده صُوفة[1] . وإنما وَلِى الغَوْثُ ذلك لأن أُمّه كانت من بنى جُرْهُم، وكانت لا تَلِد، فنذرت لله إن هى وَلَدت رجلاً أن تَصَدّق به على الكعبة عبدًا لها يخدُمها، ويقوم عليها، فولدت الغَوْث، فكان يقوم على الكعبة فى الدّهر الأوّل مع أخواله من جُرْهُم، فولِى الإجازةَ بالناس من عَرَفة، لمكانه الذى كان به من الكعبة، وولدُه مِن بعده حتى انقرضوا » .

« وكان الغَوْث بن مُرّ إذا دفع بالناس قال :

لا هُمّ إنى تابع تَبَاعَهْ * إن كان إثم فعلى قُضَاعَهْ[2]

(١) فى سبب تسميته صوفة أقوال ذكرها السهيلى فى الروض الأنف ١ : ٨٥ .

(٢) التباعة : ما يتبعه الإنسان ويقتدى به، وإنما قال : « إن كان إثم الخ » ، لأنه كان فى قضاعة من يستحل الأشهر الحرم، فحمل إثم ذلك عليهم . الخنى ٤ : ٤٠ .

قال ابن إسحاق : « كانت صُوفَة تدفع بالناس من عَرَفة، وتُجيز بهم إذا نفَروا من مِنًى ، حتى إذا كان يومُ النَّفر أتَوا لرَمْى الجِمار ، ورجل من صُوفَة يَرْمى للناس ، لا يَرمُون حتى يَرْمى ، فكان ذوو الحاجات المتعجِّلون يأتونه فيقولون له : قم فآرم حتى نرمىَ [معَك](١) ؛ فيقول: لا والله، حتى تَميلَ الشمس؛ فيَظَلّ ذوو الحاجات يرمونه بالحجارة ويقولون له : ويلك ! قم فآرِم، فيأبَى عليهم؛ حتى إذا مالت الشمس قام فرمَى، ورمَى الناسُ معه » .

٩/١٤

«فإذا فرغوا من رَمْى الجِمار، وأرادوا النّفر من مِنًى أخذت صُوفَة بجانبَى العَقَبة، فحبسوا النـاسَ وقالوا : أجيزى صُوفة. فلم يَجُز أحد من النـاس حتى يَمُرّوا، فإذا نفَرت صُوفَة ومَضَت خَلّى سبيل النـاس فانطلقوا بعـدَهم ؛ فكانوا كذلك حتى انقرضوا ، فورِثهم فى ذلك بنو سَـعد بن زيد مَناة، من تميم ، وكانت من بنى سعد فى آل صَفوان بن الحارث بن شِجْنَة ؛ فكان صَفوان هو الذى يُجيز النـاس بالحج من عَرَفة ، ثم بنوه مِن بعده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام كرِب بن صَفوان ؛ وفى ذلك يقول أوس بن مَغْراء من قصيدة :

لا يبرح الناسُ ما حجُّوا مُعرَّفهم * حتّى يُقـالَ أَجيزوا آلَ صَفْوانا(٢)

«وكانت الإفاضة فى عَدْوان يَتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام أبو سَيّارة عُمَيْلة بن الأعزل ، وكان أبو سَيّارة يدفع بالناس على أَتانٍ له ، وبه ضُرب المَثَل : « أصبر من عَيْر أبى سَيّارة »(٣) ؛ لأنه دَفع بأهل الموسم عليه أربعين عاما » .

(١) التكملة عن الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١٢٦ . (٢) المعرّف : الموقف بعرفات . ورواية اللسان (صوف ، عرف) :

* ولا يريمون فى التعريف موقفهم *

(٣) رواية الميدانى ١ : ٢٧٧ ، ولسان العرب (سير) : « أصح من عير أبى سيارة » .

نعود إلى أخبار قُصَيّ بن كِلَاب، «[فلما كان ذلك العام، فعلت صُوفةَ كما كانت تفعل، وقد عَرَفت ذلك لها العَرب، وهو دينٌ فى أنفُسهم من عَهد جُرهُم وخُزاعةَ وولايتِهم، فأتاهم قُصَيّ][1] بمن معه من قومه من قُريش و كِنانة وقُضاعة عند العَقَبة فقال: لا تَجُز — لَنحن أولَى بهذا منكم[2] —، فقاتلوه، فاقتتل الناس قتالًا شديدا، ثم انهزمت صُوفةُ، وغلبهم قُصَيّ على ما كان بأيديهم من ذلك». ٥

«وانحازت عند ذلك خُزاعة وبنو بَكْر عن قُصَيّ، وعرفوا أنه سَيحول بينهم وبين الكعبة وأَمْرِ مكة، فلما انحازوا عنه باداهم[3] وأجمع لحربهم، وخرجت إليه خُزاعة وبنو بَكر، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا حتى كثُرت القتلَى فى الفريقين، ثم تداعوا إلى الصلح، وأن يُحكّموا بينهم رجلا من العرب، فحكموا يَعْمَر بن عَوْف[4] بن كَعب بن عامر بن لَيْث بن بَكْر بن عبد مَناة بن كِنانة، فقضَى أن قُصَيًّا أولَى بالكعبة وأَمْرِ مكة من خُزاعة، وأن كلّ دَمٍ أصابه قُصَيّ من خُزاعة و بنى بَكر موضوعٌ يَشْدَخُه تحت قدمَيه، وأن ما أصابت خُزاعة و بنو بكر من قُريش وكِنانة وقُضاعة ففيه الدِّيَة مُؤَدّاة، وأن يُخلِّى بين قُصَيّ و بين الكعبة ومكة[5]. فسُمِّى يَعْمَر بن عَوْف يومئذ الشَّدَّاخ، لِما شَدَخ من الدِّماء ووضع منها». ١٠

قال[6]: «فولى قُصَيّ البيتَ وأَمْرَ مكّة، وجمعَ قومَه من منازلهم الى مكة، وتملّك على قومه وأهلِ مكة فملّكوه، إلا أنه أقرّ للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ١٥

(١) التكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٣٠ ؛ حيث النقل عن ابن إسحاق أيضا، وانظر الطبرى ٢ : ١٨٣ . (٢) فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٨٣ : «منكم، فناكروه الخ» . (٣) باداهم : كاشفهم . (٤) كان يعمر هذا أحد حكام العرب . انظر المحبر لابن حبيب ص ١٣٣

(٥) هذا هو المعروف بين المؤرخين، وفى المحبر أنه «حكم بينهم، وباوأ (سوّى) بين الدماء، وعلى أن لا يخرج خزاعة من الكعبة» . (٦) لا يزال النقل عن ابن إسحاق، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ١٣١ . ٢٠

دِينًا فى نفسه لا ينبغى تغييرُه ؛ فأقر آل صَفْوان، وعَدْوان[1]، والنَّسَأَة، ومُرَّة بن عَوْف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام ، فهدم الله به ذلك كلَّه » .

«فكان قُصَىّ أولَ من أصاب مُلْكًا من بنى كَعْب بن لُؤَىّ ، وكانت إليه الحِجابة ، والسِّقاية ، والرِّفادة ، والنَّدْوة ، واللِّواء ؛ فحاز شرفَ مكة كلَّه ، وقطع مكّة رِباعا بين قومه ، فأنزل كلَّ قوم من قُرَيش منازلَهم من مكة ، فسمّته قُرَيش مُجَمِّعًا لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره ؛ فما تُنكح امرأة ، ولا يَتزوج رجل من قُرَيش ، ولا يتشاورون[2] فى أمر نزل بهم ، ولا يَعقدون لواءً لحرب قوم غيرِهم إلا فى داره ؛ يعقده لهم بعضُ ولده ، وما تَدَّرِع جاريةٌ إذا بلغت أن تَدَّرِع من قُرَيش إلا فى داره ، يُشَق عليها فيها دِرعها ثم تَدَّرِعه ، ثم يُنطلَق بها إلى أهلها » .

«فكان أمره فى قومه من قُرَيش فى حياته و بعدَ موته ، كالدِّين المتَّبَع لا يُعمل بغيره . واتخذ لنفسه دار النَّدْوة ، وجعل بابَها إلى مسجد الكعبة ؛ ففيها كانت قُرَيش تَقضِى أمورها » قال الشاعر :

قُصَىٌّ لَعَمْرِى كان يُدعَى مُجَمِّعًا * به جَمَّع الله القبائلَ من فِهْرِ[3]

قال ابن إسحاق[4] : « فلما فرغ قُصَىّ من حَربه انصرف أخوه رِزاح بنُ رَبيعة بمن معه إلى بلاده» . قال : «فلم يزل قُصَىّ على ذلك ، فلما كبر ورقّ عظمه — وكان عبد الدار بِكْرَه ، وكان عبدُ مَنَاف قد شَرُف فى زمان أبيه وذهب كُلَّ مذهب ،

(١) جمع ناسئ . وهم قوم من كِنانة كان العرب إذا صدروا عن « منى » يقولون لأحد النسأة : «أنسئنا شهرا» ، أى أخّر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر ؛ و بذلك تصبح الإغارة فى شهر المحرم حلالا لهم . وفى تاج العروس (نسأ) ، والروض الأنف ١ : ٤١ — ٤٢ ذكر للذين كانوا يتولون إنساء الشهور .

(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٣٢ « وما يتشاورون » . (٣) رواية اللسان (جمع) ، وتهذيب الكمال للمزى (الورقة ٤ أ) : * أبوكم قصىّ كان يدعى مجمعا *
والبيت لحذافة بن غانم العذوى . (٤) سيرة بن هشام ١ : ١٣٣ ، ١٣٦ .

وعبدُ العُزَّى وعبدٌ — قال لابنه عبد الدار : أمَا والله يابنى لأُلحِقنَّك بالقوم وإن كانوا قد شَرُفوا عليك، لا يدخل رجلٌ منهم الكعبةَ حتى تكونَ أنت تَفْتَحها له، ولا يَعْقِد لقريش لواءً [لحربها] (١) إلا أنت بيدك، ولا يَشرَب رجل بمكة إلا من سِقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك، ولا تَقطع قُرَيش أمرا من أمورها إلا فى دارك. ، فأعطاه دارَه : دار النَّدْوة التى لا تَقضِى قُرَيش أمرا إلا فيها، وأعطاه الحِجابة واللِّواء والسِّقاية والرِّفادة » .

« وكانت الرِّفادة خَرجًا تُخْرِجه قريش فى كل مَوْسِم من أموالها إلى قُصَىّ بن كِلَاب، فيصنع به طعاما للحاجّ، فيأكله من لم تكن له سَعة ولا زاد. وقُصَىّ هو الذى فرض ذلك، فقال [لهم] (٢) حين أمَرَهم به : يا معشر قُرَيش، إنكم جِيرانُ الله وأهلُ بيته وأهلُ الحَرَم، وإن الحاجّ ضيف الله وزُوّار بيته، وهم أحق الضَّيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابا أيامَ الحج، حتى يَصدُروا عنكم. ففعلوا. قال (٣) : « فلما هلك قُصَىّ بن كِلَاب أقام أمْرَه فى قومه مِن بَعده بنو، فاختطّوا مكة رِبَاعا، بعد الذى كان قد قَطَعَ (٤) لقومه بها، فكانوا يعطونها (٥) فى قومهم وفى غيرهم من حُلفائهم، ويَبيعونها، فأقامت قُرَيش على ذلك معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع » ، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى فى هاشم بن عبد مَناف.

وحَكى أبو عبد الله محمد بن عائذ (٦) الدمشقى فى "مغازيه" زيادةً فى خبر قُصَىّ نذكرها فى هذا الموضع، وإن كان قد نَقَص فى غيره، فقال فى أثناء ما حكاه :

(١) التكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٣٦، والطبرى ٢ : ١٨٤ (٢) التكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٣٧. (٣) القائل ابن إسحق، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ١٣٨.
(٤) فى الأصل : «قد وقع لقومه». (٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٣٨ : « فكانوا يقطعونها ». (٦) محمد بن عائذ (بالذال المعجمة) بن أحمد القرشى أبو عبد الله الدمشقى (١٥٠ — ٢٣٣) له ترجمة فى تهذيب التهذيب ٩ : ٢٤٢.

«إن البيت كان حوله غَيْضة والسَّيْل يدخله، ولم يُرفع البيتُ حينئذ، فإذا قدم الحاجُّ وَطِئوه حتى تذهبَ الغَيْضة، فإذا خرجوا نَبَتت». قال: «فلما قدم قُصَيّ قطع الغَيْضة، وابتنى حول البيت دارا، ونكح حُبَّى بنت حُلَيْل».

وقال أيضا: «إن قُصَيًّا قال لامرأته حُبَّى: قولي لجدّتك تَدُلُّ بنتك على الحجر، فلم تزل بها حتى قالت: إنى أعقِل أنهم حين خرجوا إلى اليمن سرقوه، ونزلوا مَنزِلا وهو معهم، فبرك الجمل الذى كان عليه الحجر، فضربوه فقام، ثم ساروا فبرك، فضربوه فقام، ثم برك الثالثة فقالوا: ما بَرَك إلا من أجل الحجَر، ودفنوه، وذلك أسفلَ مكة، وإنى لأعرف حيث بَرَك، فخرجوا بالحديد وخرجوا بها معهم، فأَرَتْهم حيثُ بَرَك أولا وثانيا وثالثا، فقالت: احفروا ههنا. فحفروا حتى يئسوا منه، ثم ضربوا فأصابوه وأخرجوه، فأُتِى به قُصَيّ، فوضعه فى الأرض، فكانوا يتمسحون به وهو فى الأرض، حتى بَنَى قُصَيّ البيت». قال: «ومات قُصَيّ ودفن بالحَجُون». والله أعلم بالصواب.

وأما عبد مناف بن قصيّ فكنيته[1] أبو عبد شمس، واسمه المغيرة، وعبد مَناف [لقبه][2]، وسبب ذلك أنّ أمه حُبَّى بنت حُلَيل الخُزاعية أَخدَمته مَناة، وكان مَناة صنما عظيما لهم، فسمى عبدُ مَناة به. ثم نظر قُصَيّ، فرآه يوافق عبد مَناة بن كنانة، فحوّله عبد مناف. قاله السُّهَيلىّ[3]. [و] مَناف[4] «مَفْعَل» من أناف يُنيف إنافة إذا ارتفع. وقال المفضَّل: الإنافة الإشراف والزيادة، وبه سُمّى عبد مَناف لطوله، ومنه تقول: مائة ونَيِّف، أى شىء زائد على المائة.

(١) فى الأصل: «وكنيته». (٢) تكملة يقتضيها السياق. وفى الأصل: «وعبد مناف، وسبب الخ». (٣) الروض الأنف ١: ٦، وفى الأصل: «قال السهيلى».

(٤) فى الأصل: «مناف الخ»، على أنه مقول قال، والمثبت استظهار. لعله القريب من الصواب.

وكان قُصَيّ يقول : لى أربعة بنين سَمّيتُ ابنين بإلهى ، وهما عبد مَناف وعبد العُزّى ، وواحدا بدارى ، وهو عبد الدار ، وواحدا بى ، وهو عبد قُصَيّ . حكاه محمد بن عائذ فى "مغازيه" عن أمّ سلمة .

وقال محمد بن سعد[1] : «أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ عن أبيه قال : لما ملك قُصَيّ بن كِلاب قام عبد مَناف بن قُصَيّ على أمر قُصَيّ بعده وأمرُ قُرَيش إليه ، واختطّ بمكة رِباعا بعدَ الذى كان قُصَيّ قطع لقومه» .

قال : «وولد[2] عبد مَناف ستة نفر ، وست نسوة ، وهم : عبد المُطَّلِب بن عبد مَناف وكان أكبرهم ، وهو الذى عَقَد الحِلْف لقُرَيش من النَّجاشيّ فى مَتْجرها إلى أرضه ، وهاشم ، واسمه عمرو ، وهو الذى عَقَد الحِلف لقُرَيش من هِرَقْل لأن تختلفَ إلى الشأم آمنة ، وعبد شَمْس بن عبد مَناف ، وتُماضِر بنت عبد مَناف ، وحِيّة[3] ، وقِلابة ، وبَرّة ، وهالة ، وأمّهم عاتكة الكُبْرَى بنت[4] مُرّة ، بن هِلال ، بن فالج ، بن ثَعلبة بن[5] ذَكْوان ، بن ثَعْلبة ، بن بُهْثَة ، بن سُلَيم ، بن منصور ، بن عِكرمة ، بن خَصَفَة ، بن قيس عَيْلان ، بن مُضَر . ونَوفل بن عبد مَناف ، وهو الذى عَقَد الحِلف لقُرَيش من كِسْرَى إلى العراق ، وأبو عمرو بن عبد مَناف ، واسمه عبيد[6] ، دَرَج ولا عقب له ، وأمهم وَاقدة بنت

---

(١) فى الطبقات ١ : ٤٢ (قسم أوّل) . (٢) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٢ (قسم أوّل) : «ولد عبد» . (٣) فى الأصل ، وطبقات ابن سعد ١ : ٤٣ (قسم أوّل) ، وتاريخ اليعقوبى ١ : ٢٠٠ : «وحنة» ، والمثبت عن نسب قريش (الورقة ٥ ب) ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٢ .

(٤) هى إحدى النسوة اللواتى كن يشترطن ، لشرفهن إذا تزوجن ، أن يكون أمرهن بيدهن فى المقام والرواح . انظر المحبر لابن حبيب ص ٣٩٩ . (٥) فى ابن الأثير ٢ : ١٣ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١١ ، وتاريخ اليعقوبى ١ : ٢٠٠ : «فالج بن ذكوان» . (٦) فى الأصل : «ابن عبد مناف ، وأبا عبيد» ، تصحيف .

أبى عَدِىّ، وهو عامر، بن عبد نُهم، بن زيد، بن مازِن[(١)]، بن صَعصَعة، وريْطة بنت عبد مَناف، ولَدت بَنى هلال، بن مُعيط[(٢)] من بنى كِنانة، بن خُزيمة، وأمّها الثقفية[(٣)]».

وأما هاشم بن عبد مَناف، فكنيته[(٤)] أبو نَضْلة، وقيل أبو يزيد، وقيل بل كان يُكنَى بابنه أَسَد، واسمه عمرو، وهاشم لَقَب لُقِّب به. رُوى عن ابن عباس[(٥)] رضى الله عنهما أنه قال[(٦)]: «كان اسم هاشم عَمرا، وكان صاحبَ إيلاف قُرَيش، وإيلاف قُرَيش: دأب قُرَيش، وهو أوّل من سَنّ الرحلتين لقُرَيش؛ ترحل إحداهما فى الشتاء إلى اليمَن وإلى الحبشة إلى النَّجاشىّ فيُكرمه ويَحبوه، ورحلةٌ فى الصَّيف إلى الشام إلى غَزّة وربما بلَغ أَنْقِرة[(٧)]، فيدخل على قَيْصر فيُكرمه ويَحبوه؛ فأصابت قُرَيشا سنواتٌ ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام، فأَمَر بخُبز كثير فخُبِز له، وحمله فى الغَرائر على الإبل حتى وافَى مكة، فهَشم ذلك الخبز، يعنى كَسَره وثرده، ونحر تلك الإبل، ثم أمَر بطبخها، ثم كَفأ القدور على الجِفان، فأشبَع أهلَ مكة؛ فكان ذلك أوّلَ الحَيا بعد السَّنة التى أصابتهم؛ فسُمِّى بذلك هاشما، وفى ذلك يقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

١١/١٤

(١) فى تاريخ اليعقوبى ١ : ٢٠٠ : «ابن عامر بن صعصعة».

(٢) فى نسب قريش (الورقة ٥ ب) : «وكانت ريطة بنت عبد مناف عند معيط بن عامر ... ابن كنانة، فولدت له هلالا».

(٣) فى نسب قريش (الورقة ٥ ب) : «ريطة بنت عبد مناف، وأمها هند بنت كعب بن سعد بن عوف من ثقيف».

(٤) فى الأصل : «وكنيته».

(٥) فى الأصل : «ابن عثمان»، تصحيف.

(٦) انظر طبقات ابن سعد ١ : ٤٣ (قسم أول).

(٧) انظر معجم البلدان ١ : ٣٦١.

عمرو العلى هَشَم الثَّرِيد لقومه * ورجالُ مَكّةَ مُسْنِتون عِجافُ (١)

قال: «فحَسده أُمَيَّةُ بن عبد شمس بن عبد مَناف، وكان ذا مال، فتكلّف أن يَصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمت به ناس من قُرَيش، فغضِب ونال من هاشم، ودعاه إلى المنافرة، فكرِه هاشم ذلك لسِنّه وقَدرِه، فلم تدَعْه قُريش وأَحفظوه» قال: «فإنى أُنافِرك على خمسين ناقةً سُودَ الحَدَق نحرها ببَطْن مكّة، والجلاءِ عن مكة عشرَ سنين. فرضِى أُمَيَّة بذلك، وجعلا بينهما الكاهن الخُزَاعىّ (٢)، فنفّر هاشما عليه، فأخذ هاشمُ الإبل فنحَرها وأطعَمها مَن حضَره، وخرج أُمَيَّة إلى الشام، فأقام بها عشَر سنين؛ فكانت هذه أوّل عداوة وقعت بين هاشم وأُمَيَّة، ثم وَلِى هاشم الرِّفادة والسِّقاية».

ذكر ولاية هاشم الرِّفادة والسِّقاية

قال: «إن هاشما، وعبدَ شمس، والمُطَّلب، ونَوْفلًا: بنى عبد مَناف أَجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار بن قُصَىّ مما كان قُصَىّ جعَل إلى عبد الدار من الحِجابة، واللِّواء، والرِّفادةِ، والسِّقاية، والنَّدْوة، ورأوا أنهم أحقُّ به منهم لشَرَفهم عليهم، وفضلهم فى قومهم، وكان الذى قام بأمرهم هاشم، فأبت بنو عبد الدار أن تُسلم ذلك إليهم، وقام بأمرهم عامرُ بن هاشم بن عبد مَناف بن عبد الدار؛ فصار مع بنى عبد مَناف بن قُصَىّ بنو أَسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ، وبنو زُهْرة ابن كِلاب، وبنو تَيْم بن مُرّة، وبنو الحارث بن فِهْر؛ وصار مع بنى عبد الدار

(١) رواية ابن هشام فى السيرة ١ : ١٤٤، والروض الأنف ١ : ٩٤ :

«... ... ... لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف»

وهى التى تتفق مع قافية الأبيات — قبلها وبعدها — المكسورة. وعلى رواية النويرى تبعا للطبرى ٢ : ١٧٩ يكون فى البيت إقواء.

(٢) نفر الحكم: قضى لأحد المتنافرين بالغلبة على الآخر.

بنو مَخزوم، وسَهْم، وجُمَح، وبنو عَدِىّ بن كعب؛ وخرجت من ذلك بنو عامِر ابن لُؤَىّ، ومُحارِبُ بن فِهر؛ فلم يكونوا مع واحد من الفريقَيْن، فعقد كلُّ قوم على أمرهم حِلفا مؤكَّدا: ألا يتخاذلوا، ولا يُسلِمَ بعضُهم بعضا، «ما بَلَّ بَحْرٌ صوفة»(١).

فأخرجت بنو عبد مَناف، ومن صار معهم، جَفنةً مملوءة طِيبا، فوضعوها حول الكعبة، ثم غَمَس القومُ أيديَهم فيها، وتعاهدوا وتعاقدوا وتحالفوا، ومسَحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفُسهم، فسُمُّوا المطَيَّبين. وأخرجت بنو عبد الدار ومَن كان معهم جَفْنةً مِن دم، فغمَسوا أيديَهم فيها، وتعاقدوا وتحالفوا: ألا يتخاذلوا ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفة؛ فسُمُّوا الأَحلاف، ولَعَقة الدَّم(٢)، وتهيئوا للقتال، وعُبِّئت كلُّ قبيلة لقبيلة؛ فبينما الناس على ذلك، إذ تَداعوا إلى الصُّلح على أن يُعطوا بَنِى عبد مَناف بن قُصَىّ السِّقاية والرِّفادة، وتكونَ الحِجابةُ واللِّواء ودارُ النَّدوة إلى بَنِى عبد الدار كما كانت، ففعلوا، وتحاجز الناس؛ فلم تزل دار النَّدوة فى بنى عبد الدار(٣)، حتى باعَها عِكْرِمة بن عامِر، ابن هاشم، بن عبد مَناف، بن عبد الدار، بن قُصَىّ(٤)، من مُعاوية بن أبى سُفيان؛ فجعلها مُعاوية دارَ الإمارة».

قال: «ووَلِى هاشم بن عبد مَناف بن قُصَىّ السِّقايةَ والرِّفادة، وكان رجلا مُوسرا، فكان يُخرِج فى كل عام مالا كثيرا، وكان قوم من قُريش أهلَ يَسار يَترافدون، فيرسل كل إنسان بمائة مثقال هِرَقْلية، وغيرُهم يرسل بالشىء اليسير على

(١) يقصدون بمثل هذا التعبير تأييد الحكم؛ جاء فى اللسان: «ومن الأبديات قولهم: لا آتيك ما بل بحر صوفة؛ ويقال: ما بل البحر الصوفة».

(٢) سموا بذلك لأنهم لعقوا من ذلك الدم. انظر المحبر لابن حبيب ص ١٦٦

(٣) فى طبقات ابن سعد ١: ٤٥ (قسم أوّل): «فى يدى بنى».

(٤) فى الأصل: «قصى بن معاوية»، والتصويب عن طبقات ابن سعد ١: ٤٥ (قسم أوّل).

قدر حالهم، فكان هاشم، إذا حضر الحج، يأمر بحياض من أَدَم، فتُجعل فى موضع زَمزَم، ثم يُستقَى فيها الماء من البئار التى بمكة فيشربه الحاجّ، وكان يُطعمهم قبل التَّرْوِية بيوم بمكة، وبمِنًى، و جَمْع[1]، وعَرَفة؛ وكان يَثْرُد لهم الخبز واللحم، والخبز والسَّمن، والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء، فيستقون بمِنًى[2]، والماءُ يومئذ قليل، [فى حياض الأَدَم[3]]، إلى أن يَصدُروا من مِنًى، ثم تنقطع الضيافة ويتفرق الناس إلى بلادهم » .

قال : « وهاشم بنُ عبد مَناف هو الذى أخذ الحِلْف لقُرَيش من قَيْصر أن تختلف آمنة، فكتب له آبا، وكتب إلى النَّجاشى أن يُدخِل قُرَيشا أرضَه وكانوا تُجّارا، فخرج هاشم فى عِير لقُريش فيها تِجارات، وكان طريقُهم على المدينة، فنزلوا بسُوق النَّبَط، فصادفوا سُوقا تقوم بها فى السنة يَحشِدون لها، فباعوا وآشتروا، ونظروا إلى آمرأة على موضع مُشرِف من السوق، فرأى آمرأة تأمُر بما يُشترى ويُباع لها، فرأى آمرأةً حازمة جَلْدة مع جَمال، فسأل هاشم عنها أأيِّم هى أم ذات زوج؟ فقيل له أيِّم كانت تحت أُحَيْحَة بن الجُلَاح، فولدت له عَمرا ومعبدا ثم فارقها، وكانت لا تنكح الرجال، لشَرفها فى قومها، حتى يَشرِطوا لها أنّ أمرها بيدها، فإذا كرِهت رجلا فارقته؛ وهى سَلْمى بنت عمرو[4]، بن زيد[5]، بن لَبيد، بن خِدَاش، ابن عامر، بن غَنْم، بن عدىّ، بن النجّار، فخطبها هاشم، فعرفت شرفه ونَسَبه فزوّجته نفسها، ودخل بها وصنع طعاما، ودعا مَن هناك من أصحاب العير الذين كانوا معه، وكانوا

(١) « جمع » : علم للمزدلفة . معجم البلدان ٣ : ١٣٨ . (٢) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٥ : (قسم أول) : « فيسقون بمنى » . (٣) تكملة عن ابن سعد ١ : ٤٥ (قسم أول) .
(٤) انظر المحبر لابن حبيب ص ٣٩٨ . (٥) فى « نسب قريش » (الورقة ٦ أ) : « سلمى بنت زيد بن عمرو » .

أربعين رجلا من قُرَيش، ودعا من الخَزرَج رجالا، وأقام بأصحابه أياما؛ فعلِقت سَلْمَى بعبد المطَّلب، وولدته وفى رأسه شَيْبة، فسُمِّى شَيْبة. وخرج هاشم فى أصحابه إلى الشام حتى بلغ غَزَّة فمات، ودفِن بغَزَّة[1] وله عشرون سنة، وقيل خمس وعشرون سنة، ورَجَعوا بتركته إلى وَلَده، وأَوصَى هاشم إلى أخيه المطَّلب ابن عبد مَناف.

وحكى ابن الأثير[2] أنه لما تزوّج سَلْمَى شرط لها أبوها ألا تَلِدَ ولَدا إلا فى أهلها، فحَمَلها هاشم إلى مكَّة فحملت منه، فلما أَثقَلَت ردّها إلى أهلها ومضى إلى الشام؛ وقيل إنه لم ينقُلها، وإنه خرج إلى الشام هو وعبد شَمس، فماتا جميعا بغَزَّة فى عام واحد، وبقِى مالُهما إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم آخِر غزوة غزاها جاءه قيس بمالِهما، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مالَ هاشم إلى العبَّاس بن عبد المطَّلب، ففرّقه على كُبَراء بنِى هاشم، ودفع مالَ عبد شمس إلى سُفيان بن حَرْب، ففرّقه على كُبَراء بنى عبد شمس.

وقد حكى ابن الأثير[3]: أن عبد شمس مات بمكة فقُبِر بأَجْياد، وذلك بعد وفاة هاشم[4] بغَزَّة. قال: ثم مات نوفل بسَلْمان[5] من طريق العراق، ومات المطلب بردْمان[6] من أرض اليمن[7] والله أعلم.

(١) ولذلك تضاف إليه فيقال: غزة هاشم. وهى بفتح الغين والزاى المشددة المفتوحة، وتقع فى أقصى الشام من ناحية مصر. معجم البلدان ٦: ٢٩٠. (٢) فى الكامل ٢: ٤، وأصل هذا الكلام للطبرى ٢: ١٧٦. (٣) فى الكامل ٢: ٧، وانظر سيرة ابن هشام ١: ١٤٧، ١٥٧.

(٤) فى الأصل: «هشام»، تحريف. (٥) سلمان: ماء قديم، وهو فى طريقهم — أيام الجاهلية — من العراق إلى تهامة. معجم البلدان ٥: ١١١. (٦) ردمان بفتح الراء: بلد باليمن. انظر معجم البلدان ٤: ٢٤٥. وفى الأصل: «بريمان»، تحريف. (٧) فى الأصل، وابن الأثير ٢: ٧: «من أرض العراق»، تصحيف، والتصويب عن سيرة ابن هشام ١: ١٤٥، ١٤٧، والطبرى ٢: ١٨١، والروض الأنف ١: ٩٥، والخبر عن البشر ٣: ٦٤ (قسم أول).

وقيل[1] : إن هاشمًا وعبْدَ شَمس توأمان، وإن أحدَهما وُلد قبل الآخر، قيل : إن الأوّل هاشم، وقيل : إنهما وُلدا وأُصبُع أحدِهما ملتصقةٌ بجَبْهة صاحبه فنُحِّيت، فسال دمٌ[2] فقيل يكون بينهما دمٌ . والله تعالى أعلم .

قال ابن الكلبي[3] : وولَد هاشم بن عبد مَناف أربعة نَفَر وخمسة نِسوة، وهم : شَيْبةُ الحَمْد ، وهو عبد المطّلب، ورُقَيّة ماتت وهى جارية لم تَبْرُز، وأُمّهما سَلْمَى بنت عمرو، وأبو صَيْفيّ واسمه عمرو وهو أكبرهم، وأُمه هند، بنت عمرو، بن ثَعلَبة، بن الحارث ، بن مالك، بن سالم، بن غَنْم، بن عَوْف، بن الخَزْرج . وأَسَد ابن هاشم وأُمّه قَيْلة، وكانت تُلقَّب الجَزُور[4] ، بنت عامر، بن مالك، بن جَذِيمة، وهو المُصطَلِق بن خُزاعة، ونَضْلَة بن هاشم، والشّفاء ، وأمهما أُمَيمة[5] بنت عدىّ، ابن عبد الله ، بن دينار، بن مالك، بن سَلَامان، بن سَعد، بن قُضاعة[6] . والضّعيفة[7] بنت هاشم، وخالدة بنت هاشم، وأمهما أمّ عبد الله ، وهى واقدة بنت أبى عَدِىّ، ويقال عدىّ ، وهو عامر ، بن عبد نُهْم، بن زيد، بن مازِن، بن صَعصَعة ؛ وحيّة[8]

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٢ : ٧ ، والطبرى ٢ : ١٨٠ . (٢) رواية ابن الأثير ٢ : ٧ : « فسال الدّم » . (٣) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١١٢ (٤) فى نسب قريش (الورقة ٦ أ) ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أوّل) : « سميت الجزوز لعظمها » . وفى الأصل : « الحزور » بالحاء، تصحيف . (٥) هذه رواية ابن الكلبي ، ونقلها المقريزى فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٥ (قسم أوّل) ؛ وفى نسب قريش (الورقة ٦ أ) ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أوّل) رواية عن الزبير بن بكار : « أميمة بنت ودّ بن عدىّ » . (٦) كذا فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٥ (قسم أوّل) ، وفى طبقات ابن سعد ١ : ٥٢ (قسم أوّل) : « بن سعد من قضاعة » . (٧) فى سيرة ابن هشام ١ : ١١٢ و١١٣ ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٥ و ٦٦ (قسم أول) : « وضعيفة بنت هاشم » . (٨) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ١١٢ و١١٣ ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أوّل) . وفى ابن سعد ١ : ٥٢ (قسم أوّل) : « حنة » .

بنت هاشم ، وأمها [أُم][1] عَدىّ بنت حَبيب ، ابن الحارث ، بن مالك ، بن حُطَيط ابن جُشَم بن قسِيّ وهو ثقيف . والله عز وجل أعلم بالصواب .

ذكر أخبار عبد المطلب بن هاشم

قال ابن قتيبة[2] : « واسمه عامر » . والصحيح[3] عندهم ماذكره محمد بن إسحاق بن يَسار وغيرُه أن اسمه شيبة ، وكنيته أبو الحارث ، كُنِّى باسم ولَده الحارث ، وهو أكبر ولده .

ولعبد المطّلب كنيةٌ أخرى ، وهى أبو البَطْحاء ، ولتَسْميته بهذين الاسمين ، وتَكْنيته بأبى البَطْحاء أسباب نَذكُرها قريبا إن شاء الله تعالى . وأُمّ عبد المطلب سَلْمَى بنت عمرو[4] ، بن زيد ، بن لَبيد ، بن خِداش ، بن عامر ، بن غَنْم ، ابن عَدىّ[5] ، بن النّجار .

وقال ابن إسحاق : سَلْمَى بنت زيد ، بن عمرو ، بن لَبيد ، بن [حرام ، ابن][6] خِدَاش ، بن جُنْدُب ، بن عَدىّ[7] ، بن النجار .

وقد تقدم آنفا خبر زواج هاشم بها .

(١) الزيادة من الخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أوّل) ، ونسب قريش (الورقة ٦ أ) . وفى سيرة ابن هشام ١ : ١١٣ ، والخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أوّل) نقلا عن الزبير بن بكار : « وأم أبى صيفى ، وحية ، هند بنت عمرو بن ثعلبة الخزرجية » . وانظر السهيلىّ ١ : ٧٧ .

(٢) فى المعارف ص ٣٣ ، ونقله المقريزى فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٥ (قسم أوّل) عن ابن الكلبى . وانظر تاج العروس (طلب) . (٣) انظر شرح المواهب للزرقانى ١ : ٧١ .

(٤) هذه رواية ابن هشام ١ : ١١٢ ، ومصعب الزبيرى فى نسب قريش (ورقة ٦ أ) ، وإحدى روايتى الطبرى ٢ : ١٧٦ ، ونسبها المقريزى فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٥ ، ٦٧ (قسم أوّل) إلى ابن الكلبى .

(٥) نقله الطبرى ٢ : ١٧٦ ، وقد حكى القولين غير منسوبين ابن عبد البر فى الاستيعاب ١ : ١٥ .

(٦) التكملة عن الطبرى ٢ : ١٧٦ .

(٧) فى الأصل : « ... ابن النجار ، وكان يحيى بن معين يقول : كتاب موسى بن عقبة عن الزهرى أصح هذه الكتب ، وقد تقدّم الخ » . وهى جملة دخيلة على النص ، فوجب إبعادها .

ذكر ما قيل فى سبب تسميته وكُنيته

أمّا سبب تسميته شَيْبة فقيل إن أُمّه ولدته وفى رأسه شَيْبة[(١)]، وكانت ظاهرةً فى ذُؤابته، فسمّته شَيْبَة، وذلك فى غَيْبة أبيه. وقيل: إن أباه أوصاها إذا ولدت ذكرا أن تُسَمِّيه شَيْبة، فهو شَيْبة الحَمْد[(٢)].

١٣/١٤ وفى تَسميته[(٣)] عبد المطلب أنه لما مات هاشم أقام شَيْبة بالمدينة عند أمه إلى أن بلغ سبع سنين، فمرّ رجل من بنى الحارث[(٤)] بن عبد مَناف بالمدينة[(٥)]، فإذا غِلمان يَنتضلون[(٦)]، فجعل شَيْبَة إذا أصاب[(٧)] قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البَطْحاء[(٨)]، فقال له الحارثىّ[(٩)] من أنت قال: أنا شَيْبَة بن هاشم، بن عبد مَناف. فلما أتى الحارثىّ مكّة قال للمطلب، وهو بالحِجْر[(١٠)]: يا أبا الحارث، رأيت ابن أخيك هاشم بيَثْرِب، وأخبره بحاله، ولا يَحْسُن بك أن تَترُك مثله، فقال المطّلب: والله لا أرجع إلى أهلى حتى آتى به؛ فأعطاه الحارثىّ ناقته فركِبها وقدِم المدينة عشاء، فإذا غلمان يضربون

(١) تقدّم ذلك عن ابن الأثير ٢ : ٤ .

(٢) هذا قول محمد بن إسحق، وصححه السهيلى ١ : ٦، وانظر الزرقانى على المواهب ١ : ٧١

(٣) فى الأصل: «وفى تسمية عبد المطلب»، ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٦ (قسم أوّل): «رجل من أهل تهامة».

(٥) فى الطبرى ٢ : ١٧٧: «عبد مناة بيثرب».

(٦) ينتضلون: يستبقون فى رمى الأغراض بالسهام.

(٧) فى الطبرى ٢ : ١٧٧: «إذا خسق».

(٨) يريد بطحاء مكّة، وهى متسع سهل بها. وانظر معجم البلدان ١ : ٢١٣، ٢١٥، والخشنى ١ : ٤٤

(٩) فى الأصل: «الحارث» تصحيف.

(١٠) الحِجْر بالكسر: حجر الكعبة، وهو ما تركت قريش فى بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام، وحجرت على الموضع ليعلم أنه من الكعبة. معجم البلدان ٣ : ٢٢١، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢ : ٨٠ تاج العروس (حجر).

كُرَة، فعرف ابنَ أخيه، فقال للقوم : هـذا[1] ابن هاشم ؟ قالوا نعم ، فبلغ أُمَّه أنه جاء ليأخذه فقالت : والله لو أنّ لك مالا[2] مثـل أُحُد ما أعطيتك إياه ، فقـال : لا أنصرف حتى أَخرُجَ به ؛ إنّ ابن أخى قد بَلَغ ، وهـو غريب عن قـومه . فيقال إنها دفعته إليـه فأخذه بإذنها . وقيل إنه أَخَذه اختلاسا ، وأعانه على أخْذِه رجل من خُزَاعة .

وقال ابن سـعد فى طبقاته[3] عن محمد بن واقِد الأسلَمىّ : إن ثابت بن المُنذِر ابن حَرام ، وهو أبو حسّان بن ثابت الشاعر، قـدم مكّة مُعتَمِرا ، فلقى المطّلب ، وكان له خليـلا ، وكان المطّلب قد ولى السِّقاية والرِّفادة بعـد موت هاشم ، فقـال له ثابت : لو رأيتَ ابنَ أخيك شَيْبة فينـا لرأيتَ جَمـالًا وهَيْبـةً وشَرَفا ؛ لقد نظرتُ إليـه ، وهو يناضل[4] فِتيانًا من أخواله ، فيُدْخِل مِرْماتَيْه[5] جميعا فى مثل راحتى هذه ، ويقول كلما خَسَق[6] : أنا ابن عَمْرو العُـلَى ! فقال المطّلب : لا أُمْسى حتى أَخرُجَ إليه فأُقدِم به ، فخرج[7] فورد المدينة ، فنزل فى ناحية ، وجعل يَسأل عنه حتى وجده يَرمِى فى فِتيان من أخواله ، فلمـا رآه عرف شَبَه أبيه فيـه ، ففاضت عيناه ، وضَمّه إليه وكساه حُلّةً يمـانية ، وأنشأ يقول :

عَرَفْتُ شَيْبةَ والنّجّارُ قد حفَلَت * أبنـاؤها حولَه بالنَّبْـل تَنتَضِلُ
عَرَفتُ أَجلادَه منّـا[8] وشِيمتَـه * ففـاض منّى عليـه وابِلٌ سَـبِل[9]

(١) فى الطـبرى ٢ : ١٧٧ : « أهـذا ابن هاشم » . (٢) الكلمـة فى الأصـل غير واضحة ، ولعـل ما أثبت أقرب إلى الأصـل . (٣) فى الطبقات ١ : ٤٨ (قسم أول) .
(٤) يناضل فتيانا : يباريهم فى الرمى . (٥) المرماتان : سهمان يرمى بهما الرامى فيحرز سبقه .
(٦) خسق السهم : أصاب الغرض . (٧) اختصر المؤلف نص ابن سعد ، وانظر الطبقات ١ : ٤٨ (قسم أول) . (٨) أجلاد الإنسان : جماعة شخصه ، ومن كلامهم : « ما أشبه أجلاده بأجلاد أبيه أى شخصه وجسمه » . (٩) أسبل الدمع : هطل ، والاسم السبل .

فأرسلَتْ سَلْمَى إلى المطّلب ، فدعَتْه إلى النُّزول عليها فقال : شأنى أخفُّ من ذلك ؛ ما أريد أن أحُلَّ عُقدةً حتى أقبِض ابنَ أخى فألحِقَه ببلده وقومه ، فقالت : لستُ بمُرسِلَته معك ، وغلَّظت عليه فقال : لاتفعلى[1] فإنى غيرُ منصرِف حتّى أخرُجَ به معى ، فإنّ المُقام ببلده خيرٌ له من المقام ههنا ، وهو ابنك حيث كان ؛ فلما رأتْ أنه غير مقصّر حتى يَخرُجَ به استنظرَتْه ثلاثةَ أيام ، وتحوّل المطّلب إليهم ونزل عندهم[2] ، وأقام ثلاثا ثم احتمَله وانطلقَا جميعا ، ودخل به إلى مكّةَ فقالت قُرَيش[3] : هذا عبد المطّلب ! فقال : ويحكُم إنما هو ابن أخى شَيْبَةَ بن عَمرو .

وقيل إنه لما دخَل إلى مكّة دخلها وشَيْبةُ معه على عَجُز ناقته ، وذلك ضُحًى[4] ، والناسُ فى أسواقهم ومَجالسهم ، فقاموا يُرحِّبون بقُدوم المطّلب ويقولون له : مَن هذا معك ؟ مَن هذا وَراءك ؟ فيقول : هذا عَبدى ، وفى رواية هذا عبدٌ ابتعته[5] بيَثْرِب ، فأدخَله المطّلب منزِلَه على امرأته خَديجة بنت سَعيد بن سَهْم ، فقالت : مَن هذا معك ؟ قال : عبدٌ لى ؛ واشترَى له حُلّةً فلبِسها ، ثم خرَج به العشِىَّ إلى مَجلس بنى عبد مَناف وأعلمَهم[6] أنه ابنُ أخيه ؛ فجعل شَيْبَةُ يطوف بمكّة ، فإذا مَرَّ بقوم قالوا : هذا عبد المطّلب ، فغلب ذلك عليه .

وفى تكنيته بأبى البَطْحاء أنه استسْقَى لأهل مكّة فسُقُوا لوَقْتهم ، فقال له مشايخ قُرَيش عند ذلك : هنيئا لك أبا البَطْحاء . وسنذكر إن شاء الله تعالى

(١) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٨ (قسم أوّل) : « فقال المطلب لاتفعلى » .

(٢) فى ابن سعد ١ : ٤٨ (قسم أوّل) : «فنزل عندهم» .

(٣) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٨ (قسم أوّل) : « إلى مكة ظهرا فقالت » .

(٤) كذا فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٨ (قسم أوّل) ، وفى كامل ابن الأثير ٢ : ٥ : «فقدمها ضحوة» .

(٥) فى الخبر عن البشر ٣ : ٦٨ (قسم أول) : « عبد لى ابتعته » .

(٦) فى ابن الأثير ٢ : ٥ : « فأعلمهم » .

هذه القصّة بطولها فى المبشّرات برسول الله صلى الله عليه وسلّم . فهذه أسباب تسميته وتكنيته[(١)] . والله أعلم .

وكان عبد المطلب جسيما ، أبيض ، وسيما ، طُوالا ، فصيحا ، ما رآه أحدٌ قطّ إلا أحبّه . قال الواقدى : وأقام عبدُ المطّلب بمكّة حتّى أدرك ، وخرج المطّلب بن عبد مَناف تاجرًا إلى أرض اليَمَن ، فهلك بَرْدمان من أرض اليمن ، فولى عبدُ المطّلب بعدَه الرِّفادة والسِّقاية ؛ فلم يزل ذلك بيده وهو يُطعِم[(٢)] الحاجّ ويَسْقيهم فى حِياض الأَدَم حتى حَفَر زَمْزَم ، فترك السِّقَى فى الحِياض ، وسقاهم من زَمزَم ، وكان يَحمِل الماء من زَمزَم إلى عرفةَ فيَسقيهم . والله أعلم .

ذكر حَفْر عبد المطّلب زَمْزَم وما وُجِد فيها

١٤ / ١٤

قال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله بسنَدٍ رفَعه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال[(٣)] : قال عبد المطّلب ؛ إنى لَنائم فى الحِجْر ، إذ أتانى آتٍ فقال : آحفِر طيبة[(٤)] قال : قلت : وما طِيبَة ؟ قال : ثم ذهَب عنى ؛ فلمّا كان الغَد رجعت إلى مَضجعى فنمتُ فيه ، فجاءنى فقال[(٥)] : احفِر زَمزَم ، قال : قلت وما زَمزَم ؟ قال : لا تُنزَف[(٦)] أبدا ولا تُذَمّ[(٧)] ، تَسْقى الحَجيجَ الأعظم ، وهى بينَ الفَرث

(١) فى الأصل : «تسميته وكنيته» . (٢) رواية ابن سعد ١ : ١٤٩ (قسم أوّل) : «يده يطعم الحاج ويسقيهم فى حياض من أدم» . (٣) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٥١ — ١٥٣ .
(٤) طيبة بكسر الطاء : علم على بئر زمزم . وانظر معجم البلدان ٦ : ٧٧ ، تاج العروس (طيب) .
(٥) اختصر المؤلف نص ابن إسحاق ، وقد ذكر بأوسع مما هنا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥١ . وانظر طبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول) ، وابن الأثير ٢ : ٥ . (٦) أى لا يفنى ماؤها على كثرة الاستقاء . وفى طبقات ابن سعد ٢ : ٤٩ (قسم أول) : «لا تنزح ولا تذم» . وفى ابن الأثير ٢ : ٥ : «قال : تراث من أبيك الأعظم لا تنزف ولا تذم» . (٧) لهم فى معنى «لا تذم» ثلاثة أقوال ، أحدها : لا تعاب من قولك ذممته : إذا عبته ، والثانى : لا تلفى مذمومة ؛ يقال : أذممته إذا وجدته مذموما ، والثالث : لا يوجد ماؤها قليلا ناقصا ؛ من قولك بئر ذمة : إذا كانت قليلة الماء .

والدَّم ، عند نُقْرة الغُراب الأَعصَم[(١)] ، عنـد قَرية النمل[(٢)] . قال[(٣)] : فلما بُيِّن له شأنُها ، ودُلّ على موضِعها ، وعَرَف أنه قد صُدِق ، غَدَا بِمَعوله[(٤)] ، ومعـه ابنه الحارث ، وليس له يومئـذ ولدٌ غيرُه[(٥)] فحفَر ، فلمّا بدَا لعبد المطَّلب الطى[(٦)] كَبَّر ، فعرفَت قُرَيْش أنه قد أدرك حاجتَه ، فقاموا إليه فقالوا : ياعبدَ المطَّلب ، إنّها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حَقّا ، فأَشرِكْنا مَعك فيها ، قال : ما أنا بفاعل ، إن هـذا الأمرَ قد خُصِصْتُ به دونَكم ، وأُعطِيتُه من بينكم ، قالوا له : فأَنصِفنا ، فإنا غيرُ تاركيك حتى نُخاصِمَك فيها ، قال : فاجعلوا بيني وبينكم مَن شئتُم أحاكِمْكُم إليه ، قالوا : كاهنة بَنى سَعْد بن هُذَيم[(٧)] ، قال نعَم . وكانت بمَعان[(٨)] من أشراف الشّام فركِب عبدُ المطَّلب ومعـه نَفَر من بنى أبيه من بَنى عبد مَنَاف ، ورَكِب[(٩)] من كُل قبيلة من قُرَيش نفَرٌ

(١) الغراب الأعصم : الأحمر الرجلين والمنقار ، أو هو الذى فى أحد جناحيه ، أو فى إحدى رجليه ريشة بيضاء ؛ وهذا الوصف عزيز الوجود فى الغربان . وكان — فيما رواه ابن سعد فى الطبقات ١ : ٤٩ (قسم أول) — بغراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرث والدم . وانظر تاج العروس (عصم) ، ودلائل النبوة للبيهقى ١ : ٢٠ ظ .

(٢) قرية النمل : الموضع الذى يجتمع فيه النمل .

(٣) القائل هو ابن إسحق ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ١٥١ .

(٤) المعول : الفأس .

(٥) فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول) : « الحارث وليس له » .

(٦) قال الخشنى ١ : ٥١ : « الطى : الحجارة التى طويت بها البئر ، سميت بالمصدر » . وفى طبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول) : « الطوى » . والطوى : البئر المطوية بالحجارة .

(٧) كذا فى طبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول) . وفى تاج العروس (هذم) : « وسعد ابن هذيم كزبير باثبات الألف [يعنى فى « ابن »] بين سعد وهذيم : أبو قبيلة ، وهو ابن زيد بن ليث بن سود ، لكن حضنه عبد حبشى أسود اسمه هذيم فغلبه عليه ، ونسب إليه » . وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ ولسان العرب (هذم) : « سعد هذيم » . وانظر الخشنى ١ : ٥٠ ، والسهيلى ١ : ١٦ .

(٨) معان بفتح الميم وضمها : مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز . معجم البلدان ٣ : ٩٣ ، تاج العروس (معن) .

(٩) فى الأصل : « من بنى أمية ؛ وركب » ، والتصويب والتكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ ، وطبقات ابن سعد ١ : ٤٩ (قسم أول) . وفى ابن الأثير ٢ : ٥ ، وشرح المواهب للزرقانى ١ : ٩٣ : « ومعه نفر من بنى عبد مناف » .

والأرضُ إذ ذاك مَفاوِز ، فخرَجوا[1] حتى إذا كانوا ببعض تلك المَفاوز بين الحجاز والشّام ، فَنِي ماءُ عبد المطّلب وأصحابِه ، فظمِئُوا حتى أيقَنوا بالهَلَكة ، فاستسقَوا مَن معَهُم من قبائل قُرَيش فأبَوا عليهم ، وقالوا : إنّا بمَفازة ، ونحنُ نخشَى على أنفسُنا مثلَ ما أصابكم ؛ فلما رأى عبد المطّلب ما صَنَع القوم ، وما يتخوّف على نفسِه وأصحابِه قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأيُنا إلا تَبَعُ رأيك[2] ، فمُرْنا بما شئت ، قال : فإنى أرى أن يَحفِر كلّ رجل منكم حُفرتَه لنفسه بما بكم الآن من القوّة ، فكلّما مات رجل دفَعه أصحابُه فى حُفْرته ثم واروه ، حتى يكونَ آخرُكم رجلا [واحداً][3] فيموتَ ضِيعةً[4] ، فضِيعة رجل واحد أيسَرُ من ضِيعَة ركْبٍ جميعا ، قالوا : نِعْمَ ما أمَرتَ به . فقام كل رجل[5] منهم فحفر حُفرتَه ، ثم قعَدوا ينتظرون الموت عطشاً ؛ ثم إن عبد المطّلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءَنا بأيدينا هكذا للموتِ عجز[6] ، ألا نَضربُ فى الأرض ، ونَبتَغى لأنفسنا ؟ فعسَى اللهُ أن يرزُقَنا ماءً ببعض البلاد . ارتحِلوا ! فارتحَلوا حتى إذا فرَغوا ، ومَن معَهم مِن قبائل قُرَيش يَنظرُون إليهم ماهُم فاعلون ، تقدّم عبدُ المطّلب إلى ناقته[7] فرَكِبها ، فلمّا انبعَثَت به انفجَرت مِن تحتِ خُفِّها عينٌ [من][8] ماءٍ عَذْب ، فكبّر عبدُ المطّلب وكبّر أصحابُه ، ثم نزَل فشرِب ، وشرِب أصحابُه ،

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ : « قال : فخرجوا » . (٢) فى ابن هشام : « إلا تبع لرأيك » . (٣) إضافة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ . وفى ابن الأثير ٢ : ٦ : « حتى يكون آخركم موتا قد وارى الجميع ، فضيعة » . (٤) مات ضيعة بكسر الضاد : أى غير مفتقد ولا متعهد . (٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ « فقام كل واحد منهم » .

(٦) فى شرح المواهب للزرقانى ١ : ٩٣ : « ... للموت عجز ، لنضربن فى الأرض » ، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ ، وابن الأثير ٢ : ٦ : « ... للموت لانضرب فى الأرض ، ولا نبتغى لأنفسنا لعجز » .

(٧) فى ابن هشام ١ : ١٥٢ : « إلى راحلته » . (٨) زيادة عن ابن هشام ١ : ١٥٢ ، وفى ابن الأثير ٢ : ٦ : « عين عذبة من ماء » .

وآستقَوا حتى ملأوا أسقيتَهم ، ثم دَعا القبائل من قُرَيش فقال : هَلُمّوا[(١)] إلى الماء ، فقد سقانا الله ، فآشرَبوا وآستَقُوا ، فجاءوا فشربوا وآستقَوا ثم قالوا : قد والله قُضِى لك علينا يا عبدَ المطّلب ، والله لا نُخاصمُك فى زَمزَم أبدا ، إن الذى سقاك هذا الماءَ بهذه الفَلاة لهو الذى سقاك زَمزَم ، فآرجع إلى سِقايتك راشدا ، فرَجع ورجَعوا معه ، ولم يصِلوا إلى الكاهنة ، وخلّوا بينَه و بينَها . ٥

هذا أحد ما قيل فى حفر زمزم .

وفى رواية أخرَى : أنه قيل له : احفِر زَمزَم ، إنك إن حفَرتَها لم تَندَم ، وهى تُراثٌ من أبيك الأعظم ، لا تُنزَف أبدا ولا تُذَمّ ، تَسْقِى الحَجيجَ[(٢)] الأعظم ، مثل نعامٍ جافِلٍ[(٣)] لم يُقْسَمْ . يَنذِر فيها ناذِرٌ لمُنعِمْ ، تكون ميراثًا وعقدًا مُحْكَم ، ليسَت كبعض ما قد تعلَمْ ، وهى بينَ الفرث والدَّمْ[(٤)] . ١٠

قال آبن إسحاق[(٥)] : فزعَموا أنه حين قيل له ذلك قال : فأين[(٦)] هى ؟ قيل له عند قَرية النَّمْل ، حيث يَنقُر الغرابُ غدا . فغدا[(٧)] عبدُ المطّلب ومعه آبنه الحارث ، فوجَد قريَةَ النَّمل ، ووجد الغُراب ينقرُ عندَها بين الوثَنَيْن : إسَاف[(٨)] ونائلة اللّذَيْن كانت قُرَيش تنحرَ عندَهما ذَبائحَها ، فجاء بالمِعْوَل ، وقام ليحْفِر حيثُ أُمِر ، فقامت

(١) كذا فى ابن الأثير ٢ : ٦ ، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٢ : « هلم إلى الماء » . ١٥

(٢) جمع حاج . (٣) جافل : شارد . (٤) قال ابن هشام (١ : ١٥٤) : «وهذا الكلام ، والكلام الذى قبله من حديث على رضى الله عنه فى حفر زمزم ، من قوله : « لا تنزف ولا تذم » إلى قوله : «عند قرية النمل» عندنا سجع وليس شعرا» . (٥) نقله ابن هشام ١ : ١٥٤ .

(٦) فى ابن هشام ١ : ١٥٤ : « قال : وأين » . (٧) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٤ : « فعدا » بالعين المهملة . (٨) إساف « بوزن كتاب ، وسحاب » : ضم وضعه عمرو ابن لحى الخزاعى على الصفا ، ووضع نائلة (صنم أيضا) على المروة ، وحولهما قصة تجدها فى كتاب الأصنام ، وتاج العروس (أسف) ، وشرح المواهب للزرقانى ١ : ٩٥ . ٢٠

إليه قُرَيش حين رأوا جِدّه فقالوا : والله لا نتركك تحفِرُ بين وثَنَيْنا هذَيْن اللذَيْن ننحرُ عندهما ؛ فقال عبد المطّلب لابنه الحارث : ذُدْ عنّى حتى أحفِر، فوالله لأمضِيَنّ لما أُمِرتُ به ، فلمّا عرفوا أنه غير نازع[1] خلّوا بينه و بينَ الحفْر وكفّوا عنه ، فلم يَحفِر إلا يسيرًا حتّى بدَا له الطّىّ ، فكبّر وعرَف أنه قد صُدِق، فلما تمادَى به الحفْر وجد فيها غزالَيْنِ[2] من ذَهَب، وهما الغزالان اللذان دفنتْ جُرْهُم فيها حين خَرجَت من مكّة ، ووجَد فيها سُيُوفا قَلْعِيّةً[3] وأدْراعا ، فقالت له قُرَيش : لنا معك فى هذا شِرْكٌ[4] وحَقّ، قال : لا . ولكن هَلُمّ إلى أمْرٍ نَصَفٍ[5] بينى و بينكم ؛ نَضرِبُ عليها بالقِدَاح[6]، قالوا : وكيف نَصنَع؟ قال : أجعلُ للكعبة قِدْحَيْن، ولِى قِدْحَيْن، ولكم قِدْحَيْن، فمَن خرَج قِدحاه على شىءٍ كانَ له ،ومن تخلّف قِدْحاه فلا شَىءَ له ، قالوا : أنصفْت ، فجعل قِدْحَيْن أصفرَيْن للكعبة، وقدْحَيْن أسودَيْن له ، وقِدْحَيْن أبيضين لقُرَيش، ثم أعطَوها صاحبَ القداح الذى يَضرب بها عند هُبَل،وهُبَلُ صَنَم فى جَوف الكَعبة ، وهوأعظم أصنامهم[7]، وقام عبد المطّلب يدعو،وضَرَب[8] صاحبُ

١٥/١٤

(١) نزع عن الأمر : كف عنه ، وفى الزرقانى ١ : ٩٥ : «غير تارك» .

(٢) فى الأصل : «فيها عين البئر من ذهب» ، تحريف .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٤ ، وابن الأثير ٢ : ٧ : «أسيافا قلعية» ، والقلعية نسبة إلى القلعة بفتح فسكون ، والمسمى بالقلعة موضعان أحدهما بالهند ، والثانى باليمن ، و إليهما معا تنسب السيوف القلعية وانظر تاج العروس (قلع) . وفى ابن سعد ١ : ٥٠ (قسم أول) : «سيوفا قلعية وأظفارا» .

(٤) شرك : أى حصة ونصيب .

(٥) النصف : أن تعطى غيرك من الحق كالذى تأخذ لنفسك .

(٦) جمع قدح (بكسر فسكون) ؛ وهو سهم بغير نصل كانوا يستقسمون به ، وفى كيفية الاستقسام تفصيل تجده فى كتاب المسير والقداح لابن قتيبة ص ٣٨

(٧) أنظر البداية والنهاية ٢ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ .

(٨) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ : «يدعو الله عز وجل ، فضرب» .

القِداح، فخرج الأصفران على الغزالَيْن [للكعبة](١)، وخرج الأسودان على الأَسياف والأدراع لعبد المطّلب، وتخلّف قدحا قُرَيش؛ فضرب عبدُ المطّلب الأسيافَ بابًا للكعبة، وضربَ فى الباب الغزالَيْن(٢)، فكان أول ذَهَب حُلِّيَته الكعبة. وقيل إنه جعل القُفل والمفتاح من ذَهَب الغزالَيْن(٣). وعن محمّد بن عمرو بن واقد قال: كانت جُرهم(٤) حين أحسّوا بالخروج من مكة دفنوا غزالَيْن وسبعةَ أسياف قَلْعِيّة، وخمسة أذراعٍ [سوابغ](٥)، فوجدها عبد المطّلب.

هذا خبر حفر زَمزَم وما وُجد فيها، وقد تقدّم ذكر سبَب خبر ردْمها فى أثناء أخبار قُصَىّ بن كِلاب؛ فلنَذكُر من أخبار عبد المطّلب خلافَ ذلك. والله الموفق للصواب.

ذكر خبر استسقاء عبد المطّلب لبنى قَيْس عَيلان(٦) وهُذَيل ومَن معهم

حكى الزُّبَير بن بكّار فى أنساب قُرَيش وبَنى هاشم، وبَنى عبد المطّلب قال: روَى إبراهيم بن محمد الشافعى عن أبيه، عن الوليد بن خالد المخزومىّ، عن سَعد بن حُذَافة الجُمَحىّ، عن محمد بن عَطِية العَوْفى، عن رجل من هُذَيل قال: قَحَطتْ بلادُ

(١) تكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥، والبداية والنهاية ٢ : ٢٤٦.

(٢) فى البداية والنهاية ٢ : ٢٤٦ وسيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ : «الغزالين من ذهب، فكان».

(٣) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٠ (قسم أول) : "فضرب الغزالين صفائح فى وجه الكعبة، وكان من ذهب، وعلق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة؛ وجعل المفتاح والقفل من ذهب».

(٤) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٠ (قسم أول) : «قال: وكانت».

(٥) تكملة عن ابن سعد ١ : ٥٠ (قسم أول).

(٦) فى الأصل «غيلان» بالمعجمة تصحيف.

قَيس، وأجدبت فلم تُصبهم سَماء يعقد بها الثَّرَى، ولا ينبُت بها الكَلَأ، فذاب الشَّحم، وذهب اللحم، وتهافتوا ضُرًّا وهَزْلا، فاجتمعوا للشورَة و إجالة الرأى، وقد عزَموا على الرِّحلة وانتجاع البلاد، فقالت فرقة منهم: انتجعوا بلادَ سَعد و بَطْن العُشر[1]، وقالت فِرقَة أُخرَى: إنّ تَميمًا عددٌ كثير لا يفضُل منهم ما يكفيكم، وقالت فرقة أُخرَى: لينتجِع كلُّ ولدِ أبٍ منكم ولدَ أبٍ من غيركم، وانعقِدوا معهم حِلفا تَشْرُكونهم به فى رَبعهم[2]؛ فقام رجل حسَن الوَجه، مجتمع الخَلْق، جيِّد الرأى، فقال: يابَنِي عَيلان[3]، إنكم قد أصبحتُم فى أمرٍ ليس بالهَزْل؛ هذا أمر عظيمٌ خطرُه، متباعدٌ أمرُه؛ قد بلَغنا أن عبد المطّلب بن هاشم سيّد البَطْحاء استَسقَى فسُقِى، ودعَا فأُجيب، واستُجِير به فأَجار، فاجعَلوا قَصدَكم إليه، ووفادتكم عليه، فإن ذلك أوكَدُ للسّبَب، وأوجَهُ فى الطّلَب. قالوا: أحسَن الرّأى، فرحلت قيس وهُذَيل، ومَن دنَا منهم حتّى أتَوا عبدَالمطّلب، فقالوا: أفلَحَ الوجهُ أبا الحارث! نحن ذَووا أرحامك الواشِجات[4]، أصابتنا سِنُون مُجْدِبات، أهزَلن السّمين، وأنفَذن[5] المَعِين، وقد بلَغنا خبرُك، وبان لنا[6] أمرُك، وكلامًا نحوَ هذا.

فقال: موعدكم جبلُ عَرَفات، ثم خرج فى بَنِيه وبَنى أُميّة حتى أتَى جَبَل عَرَفات، فصعِد الجبل فقال: اللّهم ربَّ الريح العاصف، والرّعد القاصف، والبرق الخاطف، مُنشِئ السّحاب، ومالك الرّقاب، ذى المَنّ العِظام، والأيادى الجِسام؛ هذه مُضَر

(١) العشر بضم ففتح: شعب لهذيل قرب مكة، أو واد فى ديار تميم بين البصرة ومكة. و يقال: بطن ذى عشر. ياقوت ٩: ١٧٩، تاج العروس ٣: ٤٠٤، لسان (عشر). (٢) الربع: المنزل. وفى الأصل: «ريعهم». (٣) فى الأصل: «غيلان» بالمعجمة، تصحيف.

(٤) أرحام واشجة: متصلة متآلفة. (٥) فى الأصل: «وأنقدنا»، تصحيف.

(٦) فى الأصل: «وبارلنا»، ولعل الصواب ما أثبت.

خيرُ البشَر، تشكو سوءَ الحال، وشدّة الإمحال، قد آحدودبت ظهورُها، وغارَت عيونُها، وشعِثت شعورُها، وقد خلفوا نساء ضُلَّعا، وصِبيانا رُضَّعا، وبهائم رُتَّعا. فآتهم اللهم ريحًا جَرّارة، وسحابا درّارة، تُضحِك أرضَهم، وتكشِف ضُرَّهم. فما فرغ من كلامه حتى نشأت سَحابة دَكْاء فيها وَدْق شَديد، فقال: هى هى، ثم قال يا معشرَ مُضَر، آرجِعوا فقد سُقِيتم، فرَجَعوا وآخضرَّت أرضُهم، وكثُرت مياهُهم.

هذا ما أورده الزُّبَير بن بكّار راوِى هذه القصّة، والله أعلم. [و] كانت بعد أن آستسقى لقُرَيش، وذلك بعد مَوْلد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى مُستَوفًى فى المُبشِّرات برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا. والله تعالى عز وجل أعلم.

ذكر نَذْر عبد المطّلب نحرَ آبنه وخروج القِداح على عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدائه

١٦/١٤

قال محمد بن سَعد فى طبقاته الكُبرَى[(١)]، عن محمد بن عمرُ بن واقد الأَسلَمىّ بسنَد رفَعه إلى عبد الله بن عبّاس وغيره رضى الله عنهم: «إن عبدَ المطّلب بنَ هاشم لما رأى قلّة أعوانه فى حَفْر زَمزَم نَذَر لئن أكمل الله له عشَرةَ ذكور حتّى يراهم - أن يذبَح أحدَهم، فلما تكاملوا عشَرة[(٢)] وهم: الحارث، والزّبير[(٣)]، وأبو طالب، وعبد الله، وحَمْزة، وأبو لَهَب، والغَيْداق[(٤)]، والمُقَوّم[(٥)]، وضِرار، والعبّاس». هكذا نقل محمد

(١) ١ : ٥٣ (قسم أول). (٢) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٣ (قسم أول): «عشرة، فهم».
(٣) الزبير: بفتح الزاى عند البلاذرى وأبى القاسم الوزير، وضمها عند غيرهما. الزرقانى ١/٩٤.
(٤) اسم الغيداق: جحل، ولقب بالغيداق لكثرة خيره وسعة ماله. وآنظر الزرقانى ١ : ٩٤، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٤. (٥) المقوم بكسر الواو المشدّدة وفتحها. وآنظر الزرقانى ١ : ٩٤.

ابن سَعْد، وعد من العشرة حَمْزةَ والمُقَوّم؛ ويُرَدّ[1] هذا العددَ ما رُوِى أن عبد المطّلب لم يتزوج أمّ حَمْزة إلا بعد الفِداء، وقد عدّ محمد بن السائب الكَلبيّ أولادَ عبد المطلب الذكورَ اثنَى عشَر، فيهم المُغِيرة، وقُثَم؛ وعدّهم الزُّبَير بن بكّار ثلاثةَ عشَر فيهم عبدُ الكَعبة، وحَمْزة، والمُقَوّم، والمُغِيرة؛ هؤلاء الثلاثة إخوةٌ أشقّاء كلُّهم لهالَةَ بنت وُهَيب[2]، وزواجُ عبدِ المطّلب هالةَ هذه كان بعد الفِداء على ما حكاه ابن سعد أيضا عن الواقدى، ولعلّ العشرة تَكمُل بقُثَم وعبدِ الكعبة. والله تعالى أعلم.

فلنرجع إلى سِياقة خبر محمد بن سَعد قال: «فلما تكاملوا عشَرةً جمعهم، ثم أخبرَهم بنَذره، ودَعاهم إلى الوَفاء لله [به][3]، فما اختلَف عليه منهم أحَد، وقالوا: أَوْفِ بنَذْرك، وافعَل ما شئت، فقال: ليكتُبْ كل رجل منكم اسمَه فى قِدْحه ففعلوا، فدخل عبدُ المطّلب فى جَوْف الكعبة وقال للسادن[4]: اضرب بقِداحهم فضرب، فخرج قِدْح عبد الله أولَها، وكان عبدُ المطّلب يحبُّه، فأخذَ بيده يقوده إلى المذبَح ومعه المُدْيَة، فبكَى بناتُ عبد المطّلب وكنّ قياما، وقالت إحداهنّ لأبيها: أعذِر فيه بأن تَضرب فى إبلك السَّوائم التى فى الحَرَم، فقال للسّادِن: اضرب عليه بالقِداح، وعلى عَشَرة من الإبل[5]، وكانت الديّة يومئذٍ عشرة من الإبل، فضَرب فخرج القِدْح على عبد الله، فجعل يزيد عشرًا عشرا، كلَّ ذلك

(١) أورد الزرقانى فى شرح المواهب ١/٩٤ هذا الاعتراض وناقشه.

(٢) فى الأصل: «أهيب»، والذى أثبت عن المعارف لابن قتيبة ص ٥٢، والزرقانى ١: ٩٤.

(٣) التكملة عن طبقات ابن سعد ١: ٥٣ (قسم أول)، وسيرة ابن هشام ١: ١٦٠، وتاريخ الطبرى ٢: ١٧٣.

(٤) السادن: خادم بيت الأصنام.

(٥) فى طبقات ابن سعد ١: ٥٣ (قسم أول): «وعلى عشر من الابل، وكانت الدية يومئذ عشرا من الابل».

يخرج القِدْح على عبد الله حتى كَمَلَت مائة[(١)] ، فضرب [بالقِدَاح[(٢)]] فخرج على الإبل ، فكبَّر عبد المطّلب والنـاسُ معه ، واحتمَل بناتُ عبد المطّلب أخاهنّ عبد الله ، وقدَّم عبدُ المطّلب الإبلَ فنحرها بين الصَّفا والمروَة ، وخلّى بينَها و بين كلّ مَن وَرَدها من إنسيٍّ أو سَبُعٍ أو طائر، لم يَذُبَّ[(٣)] عنها أحدا، ولم يأكل منها هو ولا أحدٌ من ولده شيئا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كانت الديةُ[(٤)] يومئـذٍ عشرا من الإبل ، وعبدُ المطّلب أوّلُ من سَنّ ديةَ النّفس مائةً من الإبل ، فجرت فى قُرَيش والعرب مائة[(٥)] ، وأقرّها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على ما كانت عليه[(٦)] .

هذا ما أورده محمد بن سَعد فى طبقَاته . وقال أبو محمد عبـد الملك[(٧)] بن هشام فى السّيرة : قال ابن إسحاق : وكان عبدُ المطّلب قد نَذَر حين لَقِى من قُرَيش ما لَقِى عنـد حَفر زَمزَم[(٨)] : لئن وُلِد له عشَرة نفَر، ثم بلَغُـوا معه حتّى يمنعوه ، لينحَرنّ أحدَهم لله تعالى عنـد الكعبة ، فلمّـا توافى بنوه عَشَرة ، وعَرَف أنهم سَيمنعُونه جمَعهـم ثم أخبرَهم بنَـذْره ، ودَعاهم إلى الوَفاء لله بذلك[(٩)] ، فأطاعوه وقالوا كيف نَصنَع ؟ قال : ليأخذ[(١٠)] كلُّ رجل منكُم قِدْحا، ثم ليَكتُبْ[(١١)] فيـه اسمَه، ثم ائتونى[(١٢)] ،

(١) رواية ابن سعد ١ : ٥٣ (قسم أول) : «حتى كملت المائة» . (٢) عن طبقات ابن سعد ١ : ٥٣ (قسم أول) . (٣) رواية ابن سعد ١ : ٥٤ (قسم أول) : « أو طائر، لا يذب » . (٤) فى الأصل : «عنهما ، وكانت» ، والمثبت رواية ابن سعد ١ : ٥٤ (قسم أول) . (٥) فى ابن سعد ١ : ٥٤ (قسم أول) : «مائة من الابل ، وأقرها» . (٦) انظر الخبر عن البشر ٣ : ٨٩ (قسم أول) . (٧) السيرة ١ : ١٦٠ . وانظر الطبرى ٢ : ١٧٣ . (٨) فى الطبرى ٢ : ١٧٣ : « ما لقى فى حفر» . (٩) فى البداية والنهاية ٢ : ٢٤٨ : «لله عز وجل بذلك» . (١٠) فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٣ : «يأخذ كل واحد» . (١١) فى سيرة ابن هشام : «ثم يكتب» ، وفى دلائل النبوة للبيهقى ١ : ورقة ٢١ أ : « قدحا ، فيكتب» . (١٢) فى دلائل النبوة للبيهقى ١ : ورقة ٢٤ أ : «ثم يأتونى» .

فَفعلوا ثم أتَوه ، فدَخل بهم على هُبَل فى جَوف الكعبة ، وكان هُبَل[(١)] على بئرٍ فى جَوْف الكَعْبة ، وكانت تِلك البئْر هى التى يُجمَع فيها ما يُهدَى للكعبة ، وكان عند هُبَل قِدَاحٌ سبعة ، كلُّ قِدْح منها فيه كتاب ، قدح فيه « العَقْل » إذا آختلفوا فى «العَقْل»[(٢)] من يَحمله منهم ضربوا بالقِداح السبعة[(٣)] ، فعلَى مَن خَرَج قدْح «العَقْل» حَمَلُه ؛ وقِدْحٌ فيه « نَعَم » للأمر إذا أرادوه يُضرَب به فى القِدَاح ، فإن خَرَج قِدْح « نَعَم » عَمِلوا به ؛ وقِدْحٌ فيه « لا »[(٤)] ، فإن خَرَج ذلك القِدْح لم يفعَلوا ذلك الأمر ؛ وقِدْح فيه « منكم » ؛ وقِدْح فيه « مُلْصَق » ؛ وقِدح فيه « مِن غيرِكم » ؛ وقِدْح فيه « المياه » إذا أرادوا أن يَحفِروا للماء ضَربوا بالقِدَاح فيها ذلك القِدْح ، فحيثُما خرج عَمِلوا به .

وكانوا إذا أرادوا أن يَختِنوا غلامًا أو يُنْكِحوا مَنْكَحا ، أو يَدفِنوا ميّتا ، أو شَكّوا فى نَسَب أحدهم ، ذهبوا إلى هُبَل وبمائة درهم وجَزُور ، فأعطوها صاحبَ القِداح الذى يَضْرِب بها[(٥)] ، ثم قَرّبوا صاحبَهم الذى يُريدون به ما يُريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا ! هذا فُلانُ بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأَخرِج الحقّ فيه ، ثم يقولون لصاحب القِداح : اضرب ! فإن خَرَج عليه « منكم » كان منهم وسيطا[(٦)] ، وإن خَرَج عليه « من غيركم » كان حَليفا ، وإن خَرَج عليه « مُلْصَق » كان على

١٧/١٤

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٣ : « وكانت هبل أعظم أصنام قريش ، وكانت على بئر فى جوف » . وانظر الزرقانى ١/٩٥ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٦ (قسم أوّل) . (٢) العقل : الدية .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٠ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٦ (قسم أوّل) : « السبعة ، فإن خرج العقل فعلى » . (٤) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٠ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٦ (قسم أوّل) : « فيه «لا» ، إذا أرادوا أمرا ضربوا به فى القداح فإذا » . (٥) فى الطبرى ٢ : ١٧٣ : « الذى يضربها » .

(٦) الوسيط : الخالص النسب ، والشريف فى قومه . ورواية الطبرى : « كان منكم وسيطا » .

منزلته فيهم[(١)] ، لا نَسَب له[(٢)] ولا حِلْف ، و إن خرج فى شىء[(٣)] مما سوَى هذا ممّا يعمَلون به « نَعَم » عمِلوا به ، و إن خَرَج عليه « لا » أخّروه عامَه ذلك[(٤)] حتى يأتوه به مرّة أُخرَى ؛ يَتَهون فى أُمورهم إلى ذلك ممّا خَرَجت به القِدَاح ؛ فقال عبد المطّلب لصاحب القِدَاح : اضرب على بَنِىّ هؤلاء بقِدَاحهم هذه ، وأخْبَره بنَذْره الذى نَذَره ، فأعطاه[(٥)] كلَّ رجل منهم قِدْحَه الذى فيه اسمُه ، وكان عبد الله بن عبد المطّلب أصغرَ بنى أبيه[(٦)] ، وهو أحبُّ ولَده إليه ، وهو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمّا أخَذَ صاحب القِدَاح القِدَاح ليضربَ بها قام عبد المطّلب عند هُبَل يدعُو الله ، ثم ضَرَب صاحبُ القِدَاح فخرج القِدْح على عبد الله ، فأخذ[(٧)] عبد المطّلب بيده وأخذ الشَّفْرة ، ثم أقبل[(٨)] إلى إِسَاف ونَائِلة ليذبَحه ، فقامت إليه قُرَيش من أَنْدِيتها فقالوا : ماذا تريد يا عبدَ المطّلب ؟ قال : أَذبَحُه ، فقالت له قُرَيش وبنُوه : والله لا تذبحه[(٩)] حتى تُعذِر فيه[(١٠)] ؛ لئن فعلتَ هذا لا يزال الرّجل يأتى بابنه حتّى يذبَحه ، فما بَقَاء

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٣ : « على منزلته منهم » .

(٢) عن الطبرى ٢ : ١٧٣ وابن هشام ١ : ١٦٠ ، وفى الأصل : « لانسب إليه ولا حلف » .

(٣) فى الأصل : « خرج فيه شىء » ، تصحيف ، والتصويب عن الطبرى ٢ : ١٧٣ .

(٤) رواية الطبرى ٢ : ١٧٣ : « أخروه عامهم فى ذلك حتى يأتوا به » .

(٥) فى ابن هشام ١ : ١٦٠ : « الذى نذر ، فأعطاه » ، وفى الطبرى ١ : ١٧٣ « الذى نذر ، فأعطى كل » . (٦) لعله يريد كان أصغر بنيه حين أراد الوفاء بنذره ، و يوجب هذا التوجيه أنه قد سلف له أن عبد المطلب لم يتزوج أم حمزة إلا بعد الفداء ، فيكون بذلك ولده منها أصغر من عبد الله . وانظر شرح الزرقانى على المواهب ١ : ٩٤ ، والروض الأنف ١ / ١٠٣ .

(٧) كذا فى الطبرى ٢/١٧٣ ، وفى رواية ابن هشام ١ : ١٦٠ : « فأخذه عبد المطلب » .

(٨) هذه رواية الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والبداية والنهاية ٢ : ٢٤٨ : « ثم أقبل به » . (٩) فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والبداية ٢ : ٢٤٨ : « لا تذبحه أبدا » . (١٠) فى الأصل : « تعذر عنه » ، تصحيف .

الناس على هذا ؟ ! وقال له المُغيرة بن عبد الله بن عمر[(١)] بن مَخزوم [بن يَقَظة[(٢)]] — وكان عبد الله ابن أخت القوم — : لا تَذْبَحه حتى تُعذِرَ[(٣)] فيه ، فإن كان فِداؤُه بأموالنا فَدَيْناه ، وقالت له قُرَيش وبَنُوه : لا تفعَل ، وانطَلِق به إلى الحجاز فإنّ به عَرّافةً[(٤)] لها تابِعٌ فسَلْها ، ثم أنت[(٥)] على رأس أَمْرِك ، إن أَمَرَتك بذبحه[(٦)] ذبحتَه ، وإن أمَرَتك بأمرٍ لك وله فيه مَخْرَج[(٧)] قَبِلته ، فانطلَقُوا حتى قَدِموا المدينَة فوجدُوها — فيما يزعُمون — بخَيْبَر ، فرَكِبوا [إليها[(٨)]] حتى جاءوها فسألوها ، وقصّ عليها عبدُ المطّلب خَبَرَه [وخَبَر ابنه[(٩)]] ، فقالت لهم[(١٠)] : قد جاءنى الخبَر ، كم الدّيةُ فيكم ؟ قالوا : عشرٌ من الإبل[(١١)] ، قالت : فارجِعوا إلى بلادكم[(١٢)] وقرِّبوا عشرًا من الإبل ، ثم اضرِبوا عليها وعليه بالقِداح ، فإن خَرجَت على صاحِبكم فزِيدُوا من الإبل[(١٣)] حتى يرضَى ربُّكم ،

---

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ : « بن عمرو » ، وفى الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وابن الأثير ٢ : ٦ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ (قسم أوّل) ما يوافق رواية المؤلف . (٢) تكملة عن سيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والطبرى ٢ : ١٧٧ . (٣) فى سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبرى ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ (قسم أوّل) : « القوم ، والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه » . (٤) اسمها قطبة فى قول ، وسجاح فى قول آخر . وانظر السهيلى ١ : ١٠٣ ، والبداية ٢/٢٤٨ ، وشرح الزرقانى على المواهب ١ : ٩٦ .

(٥) فى الأصل : « ثم آيت » والمثبت عن ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والطبرى ٢ : ١٧٤ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ ، والبداية ٢ : ٢٤٨ . (٦) الطبرى ٢ : ١٧٤ : « أن تذبحه » ، البداية ٢ : ٢٤٨ : « بذبحه فاذبحه » . (٧) ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والطبرى ٢ : ١٧٤ : « وله فيه فرج » .

(٨) فى الأصل : « فركبوا حتى » ، والتكملة عن الطبرى ٢ : ١٧٣ (٩) تكملة عن ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والبداية ٢ : ٢٤٨ . (١٠) اختصر النويرى . والنص كما يرويه ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ ، وابن كثير فى البداية ٢ : ٢٤٨ : « ... فقالت لهم ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ، فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها فقالت لهم ... الخ » . (١١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٢ ، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ : « الإبل ، وكانت كذلك ، قالت » . (١٢) فى البداية ٢ : ٢٤٨ : « بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم وقربوا » . (١٣) فى الطبرى : « فزيدوا فى الإبل » .

وإن خَرجَت على الإبل فانحَرُوها عنه، فقد رضى ربُّكم ونَجا صاحبُكم، فخرجوا حتى قـدِموا مكّة وفعلوا ذلك[(١)]، والقِداحُ تقعَ على عبـد الله، وعبدُ المطّلب يزيد عَشْرًا عَشْرا، وهو قائم يدعُو حتّى بلغت الإبلُ مائة، فخرج القِـدْح على الإبل، فقالت قُرَيش ومن حضَر: قد انتهى[(٢)]، رَضى ربُّك يا عبدَ المطّلب، فقال عبدُ المطّلب[(٣)]: لا والله! حتى أضرِبَ عليه[(٤)] بالقِدَاح ثلاثَ مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وعبدُ المطّلب قائمٌ يدعُو، فخَرج القِدْح فى كلّ مَرّة على الإبل، فنُحِرت عند ذلك. وذكَر نَحوَ ما تقدّم.

ذكر زواج عَبـد الله بن عَبـد المطّلب آمنةَ بنتَ وَهْب أمّ النبي صلى الله عليه وسلم

رَوى محمد بن سَـعْد[(٥)] عن محمد بن عمـر بن واقد بسَـندٍ يرفعه، قال: كانت آمنـةُ بنتُ وَهْب بن عَبـد مَنَاف بن زُهْرَة[(٦)] بن كِلاب، فى حِجْر عَمّها وُهَيْب بن عبد مَنَاف، فمشَى إليـه عبد المطلب بابنه عبدِ الله أبى النبيّ صلى الله عليـه وسلم،

(١) اختصر المؤلف نص ابن إسحاق أيضا، وقد ورد مفصلا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٣، والخبر عن البشر ٣ : ٨٧ (٢) فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٤، وسـيرة ابن هشام ١ : ١٦٤، والخبر عن البشر ٣ : ٨٨ : « قد انتهى رضا ربك » على الإضافة.

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٤ : « يا عبد المطلب، فزعموا أن عبد المطلب قال ... الخ ».

(٤) فى الطبرى ٢ : ١٧٤، وسيرة ابن هشام ١ : ١٦٤، بداية ٢ : ٢٤٩، والخبر عن البشر ٣ : ٨٨ : « اضرب عليها ». (٥) طبقات ١ : ٥٨ (قسم أول).

(٦) زهرة بضم الزاى وسكون الهاء، وفى صحاح الجوهرى « زهر » : أن زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة. قال السهيلى ١ : ٧٩ : « وهذا منكر غير معروف، وإنما زهرة جدهم كما قال ابن إسحق »، وقال: اسم زهرة المغيرة. وانظر الزرقانى ١ : ١٠٣، وتاج العروس (زهر).

فخطبه عليه آمنةَ فزوّجها عبدَ الله ، وخطَب إليه عبدُ المطّلب بنُ هاشم فى مجلسه ذلك ابنتَه هالةَ بنتَ وُهَيب على نفسه ، فزوّجه إياها ، فكان تزوّجهما فى مجلس واحد ، فولدت هالةُ لعبد المطّلب حمزة[(١)] ، وكان حَمزةُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النَّسَب ، وأخاه من الرّضاعة .

ونقَل أبو عُمَر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر[(٢)] رحمه الله : أن عبد الله ابن عبد المطّلب تزوج آمنةَ وهو ابن ثلاثين سنةً[(٣)] . قال : وقيل بل كان يؤمئذ ابن خمس وعشرين سنة .

وعن محمد بن السائب الكَلبيّ عن أبيه ، وعن أبى الفيّاض الخَثعمى قالا : لما تزوّج عبدُ الله آمنةَ أقام عندها ثلاثا ، وكانت تلك السُّنّة عندهم .

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام[(٤)] عن محمد بن إسحاق : إن عبد المطلب لما فدَى ابنه عبد الله أخَذَ بيده ، وخَرَج به حتى أتى وَهْبَ بنَ عبد مَنَاف بن زُهْرةَ ، وهو يومئذ سيّد بنى زُهرة نَسَبًا وشَرَفا ، فزوّجه ابنتَه آمنة ، وهى يومئذ أفضلُ امرأةٍ فى قُرَيش نَسَبا ومَوْضِعا ، قال : فزَعَموا أنه دَخَل عليها حينَ أُمْلِكَها[(٥)] مكانَه فوقع عليها ، فحملت[(٦)] برسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى ابن سعد ١ : ٥٨ (قسم أوّل) : « حمزة . فكان » .

(٢) فى الاستيعاب ١ : ١٦ .

(٣) القائل ابن سعد (١ : ٥٨ قسم أول) .

(٤) السيرة ١ : ١٦٤ .

(٥) أملك المرأة بالبناء للمجهول : تزوجها .

(٦) فى البداية ٢ : ٢٤٩ : « فحملت منه برسول الله » .

ذكر خبرَ المرأة التى عَرَضَت نفسَها على عبد الله بن عبد المطّلب وما أبدَتْه من سبَب ذلك

قد ٱختُلف فى هذه المرأة، فمنهم من يقول : هى قُتَيلة[1]، بنتُ نَوْفَل، بن أسَد، ابن عَبد العُزّى، بن قُصَىّ، وهى أخت وَرَقة بن نَوْفَل[2]. قال السُّهيلى[3]: اسمها رُقَيقة[4] بنت نَوْفَل تُكنَّى أم قتال ، وهى أختُ وَرَقة بن نَوْفَل . ومنهم من يقول[5] : هى فاطمة بِنتُ مُرّ الخَثْعَمية ، وقيل غيرُها . ونحن نذكر ما قالوه فى ذلك . ١٨/١٤

فأما عبد الملك بن هشام فقال[6] : لما انصرف عبد المطلب يوم الفداء آخذًا بيد ٱبنه عبد الله، فمرَّ به على ٱمرأةٍ من بنى أسَد ، وهى أختُ ورَقَة بن نَوْفَل ، وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرَت إلى وَجْهه : أين تذهَب يا عبدَ الله ؟ قال : مع أبى، قالت : لك مثلُ الإبل التى نُحرت عنك وقَعْ علىّ الآن . قال : أنا مع أبى[7]، ولا أستطيع خِلافَه ولا فِراقَه ، فخرج به عبد المطّلب حتى أتى وَهْب ابنَ عبد مَناف . وذكر خبر زواجه بآمنة ، وأنه وقَع عليها كما ذكرناه آنفا .

قال : ثم خرج من عندها، فأتَى المرأة التى عَرَضت عليه ما عَرَضت ، فقال لها : مالكِ لا تَعْرِضين علىّ اليوم ما كنتِ عرضتِ علىّ بالأمس ؟ قالت له : فارقَك النُّور الذى كان معك بالأمس، فليس لى بكَ اليوم حاجة .

(١) بضم القاف وفتح المثناة الفوقية فتحتية ساكنة . (٢) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٨ (قسم أول) : « بن قصى : أخت ورقة » . وفى الأصل : « قصى بن أخت ورقة » تصحيف ، والمثبت عن الطبرى ٢ : ١٧٣ ، وانظر السهيلى ١ : ١٠٢ (٣) فى الروض الأنف ورقة ٥٣ ب .
(٤) فى الأصل : « رفيقة » ، تصحيف . وانظر الزرقانى ١ : ١٢٣ (بولاق) .
(٥) هو قول أبى نعيم ، وابن عساكر رواية عن ابن عباس . وانظر الروض ١ : ١٠٤ ، ١ : ١٠٢ .
(٦) فى السيرة ١ : ١٦٤ . وانظر الطبرى ٢ : ١٧٤ ، البداية ٢ : ٢٤٩ .
(٧) فى الطبرى ٢ : ١٧٤ ، ابن الأثير ٢ : ٧ ، والبيهقى ١ : ٢٤ ب : « إن معى أبى » .

وقال الواقدىّ[(١)] : هى قُتَيْلَة بنتُ نَوْفَل . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنها امرأةٌ من بنى أَسَد ، وهى أخت وَرَقة .

قال الواقدىّ : كانت تنظرُ وتَعْتاف[(٢)] ، فمرّ بها عبدُ الله[(٣)] فدعته يستَبْضِع منها ، ولزمت طرَف ثوبِه فأبى وقال : حتى آتيك ، وخَرَج مُسرِعا[(٤)] حتى دخلَ على آمنةَ فوقع عليها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رجَع إلى المرأة وهى تنتظِره فقال : هل لكِ فى الذى عرَضتِ علىّ ؟ فقالت : لا . مررتَ وفى وجهكَ نورٌ ساطع ، ثم رجعتَ وليس فيه ذلك النور .

قال[(٥)] : وقال بعضُهم قالت : مررتَ وبين عينيكَ غُرّة مثلُ غُرّة الفَرَس ، ورجعتَ وليس هى فى وجهك .

وقال[(٦)] محمد بن عُمر بن واقد ، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبيه ، عن أبى الفَيّاض[(٧)] الخَثْعَمى ، قال : مرّ عبد الله بامرأة من خَثْعَم يُقال لها : فاطمة

(١) نقله ابن سعد ١ : ٥٨ — ٥٩ (قسم أول) .

(٢) نقله ابن سعد فى الطبقات ١ : ٥٨ (قسم أول) .

(٣) فى دلائل النبوة للبيهقى (١ : ورقة ٢٥ أ) : «وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصر واتبع الكتب ، يقول : إنه لكائن فى هذه الأمة نبى فى بنى إسمعيل» ، وانظر البداية والنهاية ٢ : ٢٤٩ ، والزرقانى ١ : ١٠١ .

(٤) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٨ (قسم أول) : «وخرج سريعا» .

(٥) القائل الواقدى .

(٦) نقله ابن سعد ١ : ٥٩ (قسم أول) .

(٧) فى طبقات ابن سعد ١ : ٥٩ (قسم أول) : «الكلبى عن أبى الفياض» ، وانظر ابن الأثير ٢ : ٤ ، ودلائل النبوة لأبى نعيم ١ : ٣٩ .

بنتُ مُرّ[(١)]، وكانت من أجمل الناس وأشبّه وأعفّه[(٢)]، وكانت قد قرأت الكتب[(٣)]، وكان شَبابُ قُريش يتحدثون إليها، فرأت نور النبوّة فى وجه عبد الله فقالت : يا فتَى ! من أنت ؟ فأخبرهَا، قالت : هل لك أن تقع علىّ وأُعطيك[(٤)] مائةً من الإبل؟ فنظر إليها وقال :

أمّا الحرامُ فالممَاتُ دونَه * والحِلُّ لا حلَّ فأستَبِينَه
* فكيفَ بالأمر[(٥)] الذى تَنوِينه[(٦)] *

ثم مضَى إلى آمرأته آمنة، فكان معها، ثم ذكر الخَثْعَمية وجمالَها، وما عرضت عليه، فأقبل عليها فلم يَرَ منها من الإقبال عليه آخرًا كما رآه منها أولا، فقال : هل لكِ فيما قلتِ لى؟ فقالت : « قد كان ذاك مَرّةً فاليومَ لا[(٧)] »، فذهبت مَثَلا، وقالت : أىّ شىء صنعتَ بعدى؟ قال : وقعت على زوجتى آمنة، قالت : إنى والله لست

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٤ : « كاهنة من خثعم يقال لها فاطمة بنت مر متهودة من أهل تيماء ، قد قرأت الكتب » . وانظر البداية ٢ : ٢٥٠ ، وابن الأثير ٢ : ٤ ، والزرقانى ١ : ١٠٢ .

(٢) كذا فى الأصل ، وطبقات ابن سعد ، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٣٩ .

(٣) رواية ابن سعد ١ : ٥٥ (قسم أول) : « قرأت الكتب » .

(٤) فى دلائل النبوة لأبى نعيم ١ : ٣٩ ، والبداية ٢ : ٢٥٠ : « تقع على الآن » .

(٥) فى الأصل : « فكيف للامر » ، وفى دلائل النبوة لأبى نعيم ١ : ٣٩ : « فكيف لى الأمر » ، والمثبت عن الطبرى ، وابن الأثير ٢ : ٤ ، والبداية والنهاية ٢ : ٢٥٠ ، وعيون الأثر ١ : ٢٤ .

(٦) هكذا يرويه أيضا الميدانى فى مجمع الأمثال ٢ : ٢٥ ، وفى ابن الأثير ، وأبى نعيم والبداية ، وعيون الأثر ١ : ٢٤ : « الذى تبغينه » .

(٧) رواية الميدانى ٢ : ٣٤ : « قد كان ذلك مرة » . والمثل يضرب فى الندم والإنابة بعد الاجترام .

بصاحبة زنيـة[1]، ولكنى رأيتُ نور النبوّة فى وجهك، فأردت أن يكون ذلك فىّ، وأبَى الله إلا يجعله حيث جعله .

وبلغ شبابَ قُريش ما عرضَت على عبد الله وتأبِّيه عليها، فذكروا ذلك لها، فأنشأت تقول :

إنى رأيتُ مُخيلة[2] عرضَت[3] * فتـلألأت بحناتم القطر
فلمأتُهـا نورًا[4] يضىء له[5] * ما حـولَه كإضاءةِ الفجْر

* * *

ورأيتـه شَرفًا[6] أبـوءُ به * ما كلُّ قادح زندِه يُورى
لله ما زُهْريةٌ سلَبتْ * ثوبَيْك ما استَلَبت وما تَدرِى[7]

وقالت أيضًا[8] :

بَنى هاشم قد غادَرت من أخيكُمُ * أمينـة إذ للبـاه يعتلجان[9]
كما غادَر المصباحَ بعـد خُبوِّه[10] * فتائلُ قـد مِيثَت له بدهَان

(١) فى الطبرى ٢ : ١٧٤، وابن الأثير ٢ : ٤ : « ريبة » .
(٢) المخيلة بالضم : السحابة التى إذا رأيتها حسبتها ماطرة . والمخيلة بالفتح : السحابة .
(٣) رواية الميدانى : ٢ : ٣٥ « نشأت » .
(٤) لمأتها : أى أبصرتها ولمحتها . وفى الأصل : « فلمأتها نور » تصحيف ، وانظر لسان العرب « لمأ » ، والطبرى ٢ : ١٧٤ .
(٥) فى ابن الأثير ٢ : ٤ : « يضىء به » .
(٦) فى الطبرى ٢ : ١٧٤، وابن الأثير ٢ : ٤ : « فرجوته فخرا » .
(٧) رواية ابن الأثير ٢ : ٤ : « منك الذى سلبت وما تدرى » .
(٨) فى الأصل : « وقال » ، تصحيف .
(٩) رواية الطبرى، وابن الأثير، وابن كثير : « للباه يعتركان » .
(١٠) هكذا يرويه الميدانى ٢ : ٣٥، وفى ابن الأثير، والبداية : « عند خموده » .

وما كلُّ ما يَحوِى الفتَى من تِلادِه[1] * بحَــزْمٍ[2] ولا ما فاتَه لِتَوان
فأجْمِــل إذا طالبتَ أمرًا فإنه * سَيكفيكَه جدّانِ يصطرعان
سَــتكْفيكَه إمّا يدٌ مُقْفَــعِلةٌ[3] * وإمّا يدٌ مبســوطَةٌ ببيان
ولمــا قَضَت منه أمينة ما قضَت * نبــا بصَرِى عنــه وكَلَّ لسانى[4]

وعن أبى يَزيد المَدَنى[5] قال: نُبِّئْتُ أن عبدَ الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم أتَى على آمرأة من خَثْعَم فرأت بينَ عينيه نورًا ساطعًا إلى السماء فقالت: هل لك فىّ؟ قال: نعم حتى أرمِى الجَمْــرة، فآنطلق فرَمَى الجَمْرة، ثم أتى آمرأتَه آمنةَ بنتَ وَهْب، ثم ذكر الخَثْعَمية[6] فأتاها فقالت: هل أتيتَ آمرأةً بعدى؟ قال نعم، آمرأتى آمنــةَ بنتَ وهْب، قالت: فلا حاجةَ لى فيــك، إنك مررتَ وبينَ عينيك نور ساطعٌ إلى السماء، فلمــا وقعْتَ عليها ذهَب، فأخبِرها أنهــا قد حَمَلت بخَــير[7] أهل الأرض.

وقال محمد بن إسحاق: حدّثنى أبى إسحاقُ بن يَسار، أنه حُدِّث[8] أن عبــد الله إنمــا دَخَل على آمرأة كانت له مع آمِنــةَ بنتِ وَهْب، وقد عَمِل فى طين له، وبه آثار من الطّين، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لمــا رأت عليه من آثار الطّين،

(١) رواية الميدانى ٢ : ٣٥ : « وما كل ما نال الفتى من نصيبه ».
(٢) رواية الطبرى، وابن الأثير : « ملاده * لعزم ».
(٣) مقفعلة : متقبضة، متشنجة الأصابع.
(٤) رواية ابن الأثير، والطبرى : « قضت * حوت منه فخرا ما لذلك شانى ».
(٥) فى الأصل : « المدينى »، والمثبت عن طبقات ابن سعد ١ : ٦٠ (قسم أول).
(٦) فى طبقات ابن سعد ١ : ٦٠ (قسم أول) : « ثم ذكر يعنى الخثعمية ».
(٧) فى طبقات ابن سعد : « قد حملت خير أهل ».
(٨) فى الأصل : « أنه حدثه »، تصحيف.

فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج عامدًا إلى آمنة فمر بها ، فدعته فأبى عليها[1] ، وعمد إلى آمنة فدخل عليها ، فأصابها فحملت بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك فقال لها : هل لك؟ قالت : لا . مررت بي وبين عينيك غرة ، فدعوتك فأبيت[2] ، ودخلت على آمنة فذهبت بها .

قال ابن إسحاق[3] : وزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث : أنه مر بها وبين عينيه مثل غرة الفرس ، قالت : فدعوته رجاء أن تكون تلك بي ، فأبى علي ، ودخل على آمنة فأصابها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوسط قومه نسبا ، وأعظمهم شرفًا من قبل أبيه وأمه . والله الفعال .

ذكر حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم
وما رأته ، وما قيل لها

حملت به صلى الله عليه وسلم أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى ، رواه أبو عمر بن عبد البر[4] عن الزبير بن بكار ، وحكاه غيره أيضا .

وقيل حملت به في دار وهيب[5] بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب .

وروى محمد بن عمر بن واقد الأسلمي[6] قال : حدثني علي بن يزيد ، بن عبد الله ، بن وهب بن زمعة عن أبيه ، عن عمته قالت : كنا نسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ : « فدعته إلى نفسها فأبى » .

(٢) في سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ : « غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت علي ، ودخلت » .

(٣) نقله ابن هشام ١ : ١٦٥ . (٤) في الاستيعاب ١ : ١٦ .

(٥) في الأصل : « وهب بن عبد مناف » تصحيف ، والتصويب عن الاستيعاب ١ : ١٦ .

(٦) رواه ابن سعد في الطبقات ١ : ٦٠ (قسم أول) ، وانظر الزرقاني ١ : ١٠٦ .

لمـا حَمَلَت به آمنةُ بنتُ وهب كانت تقول: ما شَعَرتُ أنى حَمَلت به، ولا وجدتُ له ثَقَلة[1] كما تجد النساء، إلا أنى قد أنكرتُ رفعَ حيضتى، فربمـا كانت ترفَعُنى وتعود؛ وأتانى آتٍ، وأنا بين النائم واليَقْظان فقال: هل شَعَرتِ أنّك حَمَلتِ؟ فكأنى أقول ما أدرى، فقال: إنكِ قد حَملتِ بسيّد هذه الأمّة ونبيّها، وذلك يومَ الإثنين، قالت: فكان ذلك ممـا يَقَّن عندى الحَمْل، ثم أمهلَنى حتى إذا دَنَت ولادتى[2] أتانى ذلك الآتى فقال: قولى: «أُعِيذه بالواحد الصَّمَد، من شَرِّ كلِّ حاسِد». قالت: فكنتُ أقُول ذلك.

وفى رواية محمـد بن إسحاق[3] أنه قيل لهـا: إنك قد حَملتِ بسيِّد هـذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولى: «أُعيذُه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا»[4].

وفى رواية أُخرى: امِرت أُمّه وهى حاملٌ برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُسمِّيَه أحمـد. قالت أمه: فذكرتُ ذلك لنسائى، فقلن لى: تُعلِّق حديدا فى عَضُدَيك وفى عُنُقِك، قالت: ففعلتُ، فلم يكن يُتْرَك علىّ إلا أياما، فأجدَه قد قُطِع، فكنت لا أتعلقه.

وعن الزُّهْرِىّ قال: قالت آمنة: لقد عَلِقتُ به، فما وجَدتُ له مَشَقّة حتى وضعتُه.

قال ابن إسحـاق[5]: ورأت[6] حين حَمَلت به أنه خَرَج منهـا نورٌ رأت به قُصُور بُصْرَى من أرض الشام. قد تواتَرتْ الأخبارُ الصحيحةُ بذلك.

---

(١) الثقلة بفتح المثلثة والقاف: الثقل، عن الزرقانى ١: ١٠٦.

(٢) فى الأصل: «دنا ولادتى» تصحيف، والمثبت عن الزرقانى ١: ١٠٦ وعيون الأثر ١: ٢٤.

(٣) نقله ابن هشام ١: ١٦٦. (٤) أنظر الزرقانى ١: ١٠٨.

(٥) سيرة ابن هشام ١: ١٦٦. (٦) فى الأصل: «ورأيت»، تصحيف.

وحكَى الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطُبِيّ فى كتاب "الأعلام" له عن ابن عباس رضى الله عنهما[(١)] أنه قال : وكان من دلائل حَمْل آمنةَ برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كُلَّ دابّة كانت لقُرَيش نطقت تلك الليلة وقالت : حُمِل بمحمد ورَبِّ الكعبة ، وهو إمامُ الدنيا وسِراج أهلها ؛ ولم تَبقَ كاهنةٌ فى قُريش ولا فى قبيلة من قبائل العَرَب إلا حُجبت عن صاحِبها ؛ وانتُزِع عِلْمُ الكَهَنة منهم ولم يَبقَ سريرٌ لمَلِك من ملوك الدُّنيا إلا أصبحَ منكوسا .

قال : وقال كعبُ الأحبار : وأصبحَتْ يومئذ أصنامُ الدنيا كلُّها منكوسةً مضْغوطة فيها شياطينُها ، وأصبحَ عرشُ إبليسَ عدوِّ الله منكوسا .

قال : وقال ابن عباس رضى الله عنهما : وأصبح كلُّ مَلِكٍ أخرس[(٢)] لا ينطق يومَه ذلك ، وفزت وحوش[(٣)] المشرق إلى وحوش[(٤)] المغرب بالبِشارات ، وكذلك أهل البِحار [صار][(٥)] يبشِّر بعضُهم بعضا ؛ وله فى كلّ شهر من شهوره[(٦)] نداءٌ فى الأرض ، ونداءٌ فى السماء : أن أبشِروا ، فقد آن لأبى القاسم أن يَخرُج[(٧)] إلى الأرض ميمونا مباركا . والله الموفِّق الفعّال .

٣٠/١٤

(١) انظر الزرقانى ١ : ١٠٨ .

(٢) فى الزرقانى ١ : ١٠٨ : « وكلت الملوك حتى لم يقدروا فى ذلك اليوم على التكلم » .

(٣) فى الأصل : « ومرت وحش » تصحيف ، والتصويب عن الزرقانى ١ : ١٠٨ .

(٤) فى الأصل : « وحش » تصحيف .

(٥) عن شرح الزرقانى على المواهب ١ : ١٠٨ .

(٦) فى الزرقانى ١ : ١٠٨ : « من شهور حمله » .

(٧) فى الزرقانى ١ : ١٠٨ : « فقد آن أن يظهر أبو القاسم » .

ذكر وفاة عبد الله بن عبد المطّلب

روَى أبو عبد الله محمد بن سَعْد، بسنَدٍ يرفعه إلى محمد بن كَعب، وأيوبَ بن عبد الرحمن بن أبى صَعصَعة، قالا : خرج عبد الله بن عبد المطّلب إلى الشام إلى غَزّة فى عِير من عِيَرات قُريش يَحمِلون تِجارات، ففَرَغوا من تجاراتهم ثم انصرفُوا فمرّوا بالمدينة وعبدُ الله يومئذٍ مريضٌ فقال : أنا أتخلّف عند أخوالى بنى عدىّ ابن النجّار ، فأقام عندَهم مريضًا شهْرا ، ومضَى أصحابُه فقَدِموا مكة ، فسألهم عبدُ المطّلب عن عبد الله ، فقالوا : خلّفناه عند أخواله وهو مريض ، فبعث إليه عبد المطلب ولَده الحارث[1]، فوجَده قد تُوفّى ودُفِن فى دار النابغة[2] ، وهو رجل من بنى عَدىّ بن النّجار، فرجَع إلى أبيه فأخبَره ، فوجد عليه عبدُ المطلب وإخوته وأخَواته وجدا شديدا ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ حَمْلٌ .

ولعبد الله يومَ تُوفّى خمس وعشرون سنة .

قال الواقدى : هذا هو أثبتُ الأقاويل، والرواية فى وفاةِ عبدالله وسنّه عندنا .

وعن هشام بن السائب الكلبىّ عن أبيه، وعن عَوانة بن الحَكَم قالا : توفى عبدُ الله بن عبد المطّلب بعد ما أتَى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانيةٌ وعشرون شهرا، ويقال سبعةُ أشهر، وقيل شهران .

قال محمد بن سَعْد : والأول أثبت . وقال السُّهَيلىّ[3] : «وأكثر العلماء على أنه كان فى المهد» ، قال : « ذكره الدّولابى[4] وغيرُه » . والله تعالى أعلم .

(١) فى ابن الأثير ٢ : ٣ : أن المبعوث كان الزبير لا الحارث . (٢) هذه إحدى روايتى الطبرى ؛ وفى ابن الأثير ٢ : ٤ : «النابغة الجعدى» ؛ وزرواية الطبرى الأخرى وعليها اقتصر الزرقانى ١ : ٢١٠ : «التابعة» بالتاء المثناة ثم الموحدة بعد الألف ، ثم العين المهملة ؛ والتابعة رجل من بنى عدى بن النجار .

(٣) الروض الأنف ١ : ١٠٧ . (٤) الدولابى بفتح الدال وضمها هو محمد بن أحمد ابن حماد بن سعيد الأنصارى أبو بشر . انظر الأنساب للسمعانى ٢٣٣ ب .

قال الواقدى : وترك عبدُ الله بن عبد المطّلب أُمّ أيمن، واسمُها بَرَكة ، وخَمْسَةَ أجمالٍ أوَارِك ، يعنى تأكل الأراك ، وقطعة غنم ؛ فورِث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله خير الوارثين .

ذكر مَولِد رسول الله صلى الله عليه وسلم

٥ وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة شرفها الله تعالى؛ قال الزُّبَير بن بكّار[(١)]: ولد صلى الله عليه وسلم فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف أخى الحجّاج . قال القُرطبي رحمه الله فى كتاب «الأعلام» له : إنّ الدار كانت فى الزُّقاق المعروف بزُقاق المولِد[(٢)]، وكانت فى مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يد عَقيل بن أبى طالب ثم فى أيدى ولده، ثم اشتراها محمد بن يوسف الثَّقَفىّ من ولد عَقيل ، فأدخل البيت[(٣)] ١٠ فى دارٍ بناها وسمّاها البيضاء ، فكان البيت فى الدار إلى أن حجّت الخَيْزُران[(٤)] أمّ الهادى والرشيد ، فأخرجتْ البيت وجعلته مسجِدا يشرع فى زُقاق المولد .

وكان مولده صلى الله عليه وسلم عام الفيل بعد قدُوم أصحاب الفيل بخمس وخمسين ليلة[(٥)]، فى يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل ، قيل لليلتين خلتا منه ، وقيل

(١) انظر البداية والنهاية ٢ : ٢٦١ ، وعيون الأثر ١ : ٢٦ .

١٥ (٢) فى شرح الزرقانى على المواهب ١ : ١٣٦ : « ... بزقاق المدكك » بدال مهملة .

(٣) فى شرح المواهب ١ : ١٣٦ : « فأدخل البيت الذى ولد فيه المصطفى فى داره التى يقال لها البيضاء » . وسميت البيضاء لأنها بنيت بالجص وطليت به . السيرة الحلبية ١ : ٦٢ .

(٤) هكذا فى الكامل لابن الأثير ١ : ١٨٦ . وفى الروض الأنف ١ : ١٠٧ ، والزرقانى ١ : ١٣٦ : « وأما الدار التى لمحمد بن يوسف فقد بنتها زبيدة، يعنى زوجة هارون الرشيد مسجدا ٢٠ حين حجت، وهى عند الصفا » . وانظر شرح المقامات للشريشى ٢ : ٢٤٤ . وفى السيرة الحلبية ١ : ٦٢ محاولة للتوفيق بين النصين .

(٥) هو قول حكاه الدمياطى وآخرون . وانظر الزرقانى ١ : ١٣٠ .

أوّل اثنين منه من غير تعيين ، وقيل وُلِد فى شهر رمضان لاثنتَى عشرةَ ليلةً خلت منــه[(١)]، وهو العشرون من نيسان سنةَ ثمانمائة واثنتين للإسكندر ذى القرنين .

والمشهور أنه ولد فى شهر ربيع الأوّل ؛ فيقول القائل : كيف يمكن أن تكون حملت به فى أيام التَّشْريق ، وولِد فى شهر ربيع الأوّل ، والمدّة بينهما إمّا أربعــة أشهر، أوستة عشر شهرا، ولم يُنقل إلينا أنه صلى الله عليه وسلم وُلِد لأقل من تسعة أشهر ولا أكثر منها؟ فالجواب أن الحج إذ ذاك لم يكن محصورا فى ذى الحجّــة، بل قد ثبت أنّ أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه حج بالناس فى السنة التاسعة من الهجرة، ووافق الحج فى ذى القِعْــدة ، فلما حجّ رســول الله صلى الله عليه وسلّم حَجّــة الوداع فى السنة العاشرة، خطب فقال فى خطبته : « ألا إنّ الزمان قد آستدار كهيئته يوم خلق الله السمواتِ والأرض[(٢)]، السنة اثنــا عشرَ شهرا، منهــا أربعة حرم : ثلاثةٌ متواليــات ، ذو القِعدة، وذو الحجّة، والمُحَــرّم، ورجبُ مُضر[(٣)] الذى بين جُمــادى وشعبان» ، فيمكن أن يكون الحجُّ لمّــا حملت آمنة برسول الله صلى الله عليــه وسلم وافق فى جُمادى الآخرة ؛ ولا يمتنع هذا والله أعلم .

ورُوِى عن آبن عبــاس رضى الله عنهما أن آمنــة بنت وهب قالت : لقــد علِقتُ به ، تعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما وجدتُ له مشقّة حتى وضعتُه؛ ٢١/١٤

(١) فى شرح الزرقانى على المواهب ١ : ١٣٠ — ١٣٢ ، تفصيل لهذه الأقوال ، مع نسبتها لقائليها . وانظر الروض الأنف ١ : ١٠٧ ، وعيون الأثر ١ : ٢٦ .

(٢) فى الروض الأنف ٢ : ٣٥١ : «والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا » .

(٣) فى لسان العرب (رجب) : « إنما قيل رجب مضر إضافة إليهم ، لأنهم كانوا أشــد تعظيما له من غيرهم ، فكأنهم اختصوا به » ، وفى الروض الأنف ٢ : ٣٥١ : « إنما قال رجب مضر، لأن ربيعة كانت تحرم فى رمضان وتسميه رجبا ، ... فبين صلى الله عليه وسلم أنه رجب مضر، لا رجب ربيعة ، وأنه الذى بين جمادى وشعبان » .

فلما فَصَل منّى خرج منه نورٌ أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب[(١)]، ثم وقع على الأرض على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها، ورفع رأسه إلى السماء.

وقال بعضهم: وقع جاثيا على ركبتيه رافعا رأسه إلى السماء، وخرج معه نورٌ أضاءت له قصور الشّام وأسواقُها، حتى رأيت أعناق الإبل ببُصرى[(٢)]. وعن حسّان ابن عطية: أن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا وُلِد وقع على كفّيه وركبتيه[(٣)] شاخصا بصرُه إلى السماء.

قالت أمُّه: فولدتُه نظيفا والله كما يولد السَّخْل ما به قَذَر. وقالت فاطمة بنتُ عبد الله أمّ عثمان بن [أبى] العاصى[(٤)]، وكانت شهِدتْ وِلادة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعته أمّه آمنة وذلك ليلا، قالت: فما شيءٌ أنظر إليه من البيت إلا نور، وإنى لأنظر إلى النُّجوم تَدنُو حتى إنى لأقول لتَقعنّ علىّ[(٥)].

وذكر الخطيب أبو بكر بن ثابت رحمه الله، عن آمنةَ قالت: لمّا ولدت محمدا صلى الله عليه وسلم ثم خرج من بطنى نظرت إليه، فإذا هو ساجد لله عزّ وجلّ رافعٌ يديه[(٦)] إلى السماء كالمتضرِّع المبْتَهِل، ثم رأيت سحابة بيضاءَ قد أقبلت تنزِل من السماء حتى غشِيَتْه، فغيَّبَتْه عن عينى برهَة، فسمعتُ قائلا يقول: طوفوا بمحمد مشارقَ الأرض ومغاربَها، وأَدخلوه البِحار كلَّها ليعرِف جميعُ الخلائق كلها باسمه

(١) انظر إنسان العيون ١ : ٤٦

(٢) انظر الروض الأنف ١ : ١١١ — ١١٢، والسيرة الحلبية ١ : ٥٦.

(٣) انظر السيرة الحلبية ١ : ٥٦.

(٤) فى الأصل: «عثمان بن العاص»، والمثبت عن عيون الأثر ١ : ٢٧، والسيرة الحلبية ١ : ٥٨، وشرح المواهب ١ : ١١٦.

(٥) فى صحة هذا الحديث كلام لهم. انظره فى إنسان العيون ١ : ٥٨.

(٦) فى السيرة الحلبية ١ : ٥٤، والزرقانى ١ : ١١٢: «ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرع».

وصفته ، ويعرفوا بركته ، إنه حبيب لى ، لايبقَى شىءٌ من الشِّرك إلا ذهب به .
قالت : ثم انجلَت عنى فى أسرعَ من طَرْفة عين ، فإذا أنا به مُدرَجٌ فى ثوب أبيض (١)
أشدَّ بياضا من اللبن ، وتحتَه حريرة خضراءُ قد قَبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ
الرَّطْبِ الأبيض ، وإذا قائلٌ يقول : قد قبض محمدٌ صلى الله عليه وسلم مفاتيحَ
النُّصْرَة ، ومفاتيح الدنيا ، ومفاتيح النبوّة . ٥

وذكر الخطيب أيضا عنها فى شأن المَوْلِد : قالت : رأيت سَحابة أعظمَ من
الأولى ولها نور ، أسمَعُ فيها صهيل الخيل ، وخَفَقان الأجنحة ، وكلامَ الرجال ، حتى (٢) (٣)
غَشِيَتْه ، قالت : وغُيِّبَتْ عنى وجهه أطولَ وأكثر من المرة الأولى ، فسمعتُ منادياً (٤)
ينادِى : طوفوا بمحمد جميع الأرَضين ، وعلى موالد النبيّين ، واعرضوه على كل روحانىّ
من الجنّ ، والإنس ، والملائكة ، والطير ، والوحوش ، وأعطوه خَلْقَ آدم ، ومعرفةَ ١٠
شيث ، وشجاعةَ نوح ، وخُلَّةَ إبراهيم ، ولسان إسماعيل ، ورِضا إسحاق (٥)
وفصاحة صالح ، وحكمة لوط ، وبُشْرَى يعقوب ، وجمال يُوسف ، وشِدّة موسَى
وطاعة يونس ، وجهاد يوشَع ، وصوت داود ، وحُبَّ دانيال ، ووقار إلياس
وعصمة يحيَى ، وزُهْد عيسى ، وآغمِسوه فى جميع أخلاق النبيّين عليه وعليهم السلام . (٦)
ثم آنجلتْ عنّى فى أسرعَ من طَرْفَة العين ، فإذا به قد قَبَض على حَريرةٍ خضراء (٧) ١٥

---

(١) فى الأصل : « قال » . (٢) فى شرح الزرقانى ١ : ١١٣ : « ... رأيت سحابة عظيمة لها نور » . (٣) تريد الملائكة المتشكلين بصفة الرجال . وانظر الزرقانى ١ : ١١٣ .

(٤) فى الزرقانى ١ : ١١٣ : « وغيب عنى فسمعت مناديا » .

(٥) فى الأصل : « وحكمة إبراهيم » تصحيف ، والتصويب عن الزرقانى ١ : ١١٣ ، والإشارة إلى الآية : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » . ٢٠

(٦) فى الزرقانى ١ : ١١٤ : « فى أخلاق النبيين » .

(٧) رواية الزرقانى ١ : ١١٤ : « قالت ، ثم انجلى عنى فإذا به » .

مطوية طيًّا شديدا، ينبع من تلك الحريرة ماءٌ معين، وإذا قائل[1] يقول: بخ بخ! قبض محمد صلى الله عليه وسلم على الدنيا كلها، لم يبق خلقٌ كثيرٌ[2] من أهلها إلا دخل في قبضته طائعا بإذن الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبيه، قال: ولد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مختونًا مسرورا[3]، قال: وأعجب ذلك عبدَ المطلب، وحظي عنده، فقال: ليكونن لابني هذا شأن.

وفي رواية: لما ولدت آمنةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، أرسلتْ إلى جده عبدِ المطلب، فجاء البشيرُ وهو جالس في الحِجْر مع ولده ورجالٍ من قومه، فأخبره أن آمنة ولدت غلاما، فسُرَّ بذلك، وقام هو ومن معه، فدخل عليها، فأخبرته بكل ما رأت، وما قيل لها فيه، وما أُمرتْ أن تُسَمِّيَه. قال: فأخذه عبدُ المطلب فأدخله الكعبة، وقام عندها يدعو الله، ويشكر ما أعطاه. قال الواقدي: وأُخبرت أنّ عبد المطلب قال يومئذ:

الحمد لله الذي أعطاني * هذا الغلامَ الطيِّبَ الأردانِ
قد ساد في المهدِ على الغِلمانِ * أُعيذُه بالبيت ذي الأركانِ
حتى أراه بالغَ البنيانِ * اعيذُه من شرّ ذي شَنآنِ
* من حاسدٍ مضطربِ العِنانِ *

وقال القُرطبيّ: وقال أبو طالب: كنت تلك الليلة التي وُلد فيها محمد في الكعبة أُصلح فيها ما تهدَّم منها، فلما انتصف الليل، إذا أنا بالبيت الحرام قد مال بجوانبه

(١) في شرح المواهب ١: ١١٤: «وإذا بقائل».
(٢) رواية الزرقاني ١: ١١٤: «لم يبق خلق من أهلها إلا».
(٣) أي مقطوع السرة. عن الزرقاني ١: ١٢٤.

الأربعة ، فخرّ ساجدا فى مقام إبراهيم عليه السلام ، كالرجل الساجد ، ثم استوى قائما ، وأنا أسمع له تكبيرا عجيبا ينادى : الله أكبر ! الله ربُّ محمد المصطفى ! الآن طهّرنى ربى من أنجاس المشركين ، وحَمِيّة الجاهلية ! ونظرت إلى الأصنام كلها تتنفض كما ينتفض الثوب ، ونظرت إلى الصنم الأعظم « هُبَل » قد انكبّ فى الحِجْر ، وسمعت متناديا ينادى : ألا إن آمنة قد ولَدت محمدا ! وقد سُكِبتْ عليها سحائبُ الرحمة ، هذا طستُ الفِردوس قد انزِل ليُغسَل فيه الثّانية . ٢٢/١٤

وعن حسّان بن ثابت الأنصارىّ ، قال[(١)] : والله إنى لَغلامٌ يَفَعةٌ ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقِل كلّ ما سمِعت ، إذ سمعتُ يهوديا يَصرُخ على أَطَمة[(٢)] يَثْرِب : يا معشرَ يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه ، قالوا له : ويلَك ! مالَك ؟ قال : طلع الليلةَ نجمُ أحمدَ الذى وُلِد به[(٣)] .

ذكر أسماءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكُناه

وأسماؤه صلى الله عليه وسلم كثيرة ، منها ما جاء بنصّ القرآن ، ومنها ما نُقل إلينا من الكتب السالفة والصُّحُف المنزَلة ، ومنها ما جاء فى الأحاديث الصحيحة ومنها ما اشتهر على ألسنة الأئمة من الأمّة رضوانُ الله عليهم .

رُوِى عن جُبَيْر بن مُطْعِم ، قال[(٤)] : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لى خمسة[(٥)]

(١) رواه البيهقى وأبو نعيم . وانظر الزرقانى ١ : ١٢٠ .

(٢) الأطمة : الحصن ، أنث على معنى البقعة .

(٣) فى شرح المواهب ١ : ١٢٠ : « طلع نجم أحمد الذى ولد به فى هذه الليلة » .

(٤) انظر شرح المواهب ٣ : ١١٥ .

(٥) هى رواية مالك فى الموطأ ، والبخارى عن طريقه ؛ وفى رواية الأكثر : « إن لى خمسة أسماء » . وانظر الزرقانى ٣ : ١١٥ .

أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحشَر الناس على قَدَمى (١) ، وأنا العاقب » . قيل لأنه عقَب غيرَه من الأنبياء .

ورُوى عنه عليه السلام : « لى عشرة أسماء » ، فذكر الخمسةَ هذه ، قال : « وأنا رسول الرحمة ، ورسول الرّاحَة ، ورسول المَلاحم ، وأنا المقفّى ؛ قَفَّيت النبيّين ، وأنا قَيِّم » .

قال القاضى عياض : والقَيِّم : الجامع الكامل ، قال : كذا وجدته ولم أروه (٢) وأُرَى صوابَه : قُثَم (٣) بالثاء ، ورَوَى النقّاش (٤) عنه عليه [الصلاة و] السلام (٥) «لى فى القرآن سبعة أسماء : محمد ، وأحمد ، ويس ، وطه ، والمدثّر ، والمزمّل ، وعبدُ الله» .

وفى حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أنه كان عليه السلام يسمّى لنا نفسَه أسماء ؛ فيقول : أنا محمد ، وأحمد ، والمقفّى ، والحاشر ، ونبىُّ التوبة ونبىّ المَلْحَمَة ، ويروى المَرْحَمة ، والرحمة ؛ ومعنى المقفّى : معنى العاقب .

وقد جاءت من ألقابه وأسمائه صلى الله عليه وسلم فى القرآن عدّةٌ كثيرة سوى ماذكرناه ، منها النُّور ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ ، والسِّراج المنير ، والشاهد ، والمبشِّر والنذير ، وداعى الله ؛ قال الله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا ودَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾

(١) روى «قدمى» بكسر الميم ، و بفتحها على التثنية ، ومعناه على الروايتين : يحشرون بعد الزمان الذى بعث فيه ؛ وفى رواية : يحشرون على عقبى . وانظر الزرقانى ٣ : ١١٦

(٢) فى شرح المواهب ٣ : ١٤١ : أن «القيم» اسم آخر غير «قثم» ، ورد فى كتب الأحاديث .

(٣) فسره الزرقانى ٣ : ١٢٠ نقلا عن القاضى عياض بأنه الجامع للخير ، أو الجواد .

(٤) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلى المتوفى سنة ٣٥١ . متروك الحديث . وانظر الزرقانى ٣ : ١١٨

(٥) عن شرح المواهب ٣ : ١١٨ ، حيث يروى هذا الحديث .

والبشير لقوله تعالى : ﴿ وبَشِّرِ المُؤْمِنِين ﴾، والمنذر لقوله : ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ ، والمذكِّر لقوله تعالى : ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ، والشهيد لقوله : ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، والخبير لقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال القاضى بكر بن العلاء[1] : المأمورُ بالسؤال غيرُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، والمسئول الخبير هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ والحق المبين لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ وقُلْ إنِّى أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ ﴾ ، وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾، وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾، قيل : محمد وقيل : القرآن ، والرءوف الرحيم ؛ لقوله تعالى : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، والكريم، والمكين، والأمين؛ لقوله تعالى : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ ، والرسول ، والنبي الأُمّيّ ؛ لقوله : ﴿ الذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ ، والوليّ ، لقوله تعالى : ﴿ إنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾، والفاتح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم ، فى حديث الإسراء عن ربه تعالى : «وجعلتك فاتحا وخاتما » ، وفيه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فاتحا وخاتما ، وقَدَم الصدق؛ قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِم ﴾؛ قال قَتادةُ والحسَن وزيد بن أَسلَم : قَدَمُ صِدق هو محمد صلى الله عليه وسلم؛ والعُرْوةُ الوثقَى قيل : محمد، وقيل : القرآن؛ والهادى، لقوله تعالى: ﴿ وَإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

---

(١) هو بكر بن محمد بن العلاء بن زياد القشيرى أبو الفضل البصرىّ ثم المصرىّ المتوفى سنة ٣٤٤ . وانظر شرح المواهب ٣ : ١٦٧ .

ذكر ما جاء فى تسميته صلّى الله عليه وسلّم محمدا وأحمد

ومن تسمّى بمحمد قبله صلى الله عليه وسلم من العرب ، واشتقاق ذلك

أما اشتقاق هذه التسمية، فمحمد اسمٌ عَلَم ، وهو منقول من صفة من قولهم: رجلٌ محمَّد ؛ وهو الكثير الخصال المحمودة ؛ والمحمَّد فى لغة العرب : هو الذى يُحمَد حمدا بعدَ حمد مرةً بعد مرة. قال السهيلى[1] : « لم يكن محمد حتى كان أحمد حمِد ربَّه فنبّأه وشرّفه؛ فلذلك تقدّم اسم أحمد على [الاسم الذى هو][2] محمد فذكره عيسى عليه السلام باسمه أحمد » .

٢٣/١٤ وهو صلى الله عليه وسلم أولُ من سُمّى بأحمد، ولم يُسَمَّ به أحد قبلَه من سائر الناس؛ وفى هذا حكمة عظيمة باهرة؛ لأن عيسى عليه السلام قال : ﴿ ومُبَشِّرًا برسُولٍ يأتى من بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَد ﴾، فمَنَع اللهُ تعالى بحكمته أن يُسَمَّى أحدٌ به ولا يُدعَى به مَدْعُوٌّ قَبْلَه ، حتى لا يَدْخُلَ لَبس على ضعيف القلب .

وأما محمد[3] ، فإن الله تعالى حَمَى أن يُسمّى به أحدٌ من العرَب ، ولا من غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده صلى الله عليه وسلم : أن نَبِيًّا يُبعَث اسْمُه محمد قد قَرُب إبّانُ مولده ، فسَمَّى قوم من العرب أبناءهم .

قال أبو جعفر محمد بن حبيب[4] : وهم سِتة لاسابع لهم : محمد بن سُفيان بن مُجاشِع جَدُّ الفَرَزْدَق الشاعر ، وهو أوّل[5] من سُمّى محمدا ، ومحمد بن أُحَيْحَة[6] بن الجُلَاح

(١) فى الروض الأنف ١ : ١٠٦ . (٢) عن السهيلى ١ : ١٠٦ . (٣) هذا قول للقاضى عياض، نقله عنه البغدادى فى الخزانة ٢ : ٢٤ . (٤) انظر المحبر ص ١٣٠ .

(٥) فى خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٢٤ : « وذكر عبدان المروزى أن محمد بن أحيحة بن الجلاح أول من سمى محمدا فى الجاهلية » . (٦) ذكر البلاذرى منهم : محمد بن عقبة بن أحيحة . وهو محمد ابن أحيحة ، ينسب إلى أبيه مرة، وإلى جده مرة أخرى . انظر الخزانة ٢ : ٢٤ ، والمحبر ص ١٣٠ .

الأوسىّ ، ومحمد بن حسّان الجُعْفىّ ، ومحمد بن مَسْلَمة الأنصارى[١] ، ومحمد بن بَرَاء البَكرىّ ، ومحمد بن خُزَاعِىّ السُّلَمى ، وذكر فيهم أيضا محمد بن اليَحْمَدىّ من الأزد واليمن تقول : إنه أوّل من تَسَمَّى بمحمد . وذكر أبو الخطّاب بن دحية فيهم : محمد بن عِتْوَارة اللَّيْثى[٢] الكِنانىّ ، ومحمد بن حرماز[٣] بن مالك التَّيمى[٤] المَعْمَرىّ . وقال أبو بكر بن فورَك : « لا يُعْرَف فى العرب من تَسَمَّى قبله بمحمد سِوى محمد بن سُفيان ، ومحمد بن أُحَيْحَة ، ومحمد بن حُمْران[٥] ، وإن آباءَ هؤلاء الثلاثة[٦] وَفَدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأوّل ، فأخبرهم بمَبْعَث النبى صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحدٍ منهم قد خلّف امرأته حاملا[٧] ، فطمِع فى ذلك فنذَر كل واحد منهم إن وُلد له ولد ذكر أن يُسمِّيه محمدا » .

---

(١) يقول ابن حجر : إن محمد بن مسلمة ولد بعد ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فعدّه من بين هؤلاء خطأ . وقال زين الدين العراقى : العدّ صحيح من حيث إن النبوّة لم تكن ظهرت بعد . وانظر خزانة الأدب ٢ : ٢٤ .

(٢) فى المحبر ص ١٣٠ : « محمد بن بر بن عتوارة » ؛ وضبط البلاذرى اسم أبيه فقال : محمد بن بر بتشديد الراء ليس بعدها ألف ابن طريف بن عتوارة ، ويقال فى نسبته العتوارى . وقد غفل ابن دحية حيث عدّ فيهم محمد بن عتوارة وهو هو ، فنسب إلى جده الأعلى . انظر الخزانة ٢ : ٢٤ .

(٣) كذا فى الخزانة ٢ : ٢٤ ، وفى المحبر ص ١٣٠ : « الحرماز بن مالك بن عمرو بن تميم » .

(٤) فى الأصل : « التيمى » ؛ والتصويب من نص المحبر ص ١٣٠ .

(٥) فى الخزانة ٢ : ٢٤ : « محمد بن حمران بن أبى حمران ؛ واسمه ربيعة بن مالك الجعفى » وفى الروض الأنف ١ : ١٠٦ : « محمد بن حمران بن ربيعة » .

(٦) فى الروض ١ : ١٠٦ نقلا عن ابن فورك : « وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا » .

(٧) فى الروض الأنف ١ : ١٠٦ نقلا عن ابن فورك : « حاملا ، فنذر » .

وذكر ابن سعد فيهم: محمد الجُشَمىّ . وقال ابن الأثير[(١)]: محمد بن عَدىّ بن ربيعة بن سعد بن سَواد بن جُشَم بن سعد؛ عِداده فى أهل المدينة[(٢)]. وروى عبد الملك بن أبى سُوَيد المِنقَرىّ عن جد أبيه خليفة، قال: سألت محمد بن عَدىّ[(٣)] كيف سمّاك أبوك محمدا؟ فضحك، ثم قال: أخبرنى أبى عَدىّ بن ربيعة، قال: خرجت أنا وسفيان بن مُجاشِع، ويزيد بن ربيعة بن كِنانة[(٤)]، بن حُرقُوص ابن مازن، وأسامة بن مالك بن العَنبَر[(٥)] نريد ابنَ جَفنة، فلما قربنا منه نزلنا إلى شجرات وغدير، فأشرف علينا ديرانىّ فقال: إنى لأسمع لغة ليست لغة أهلِ هذه البلاد فقلنا: نعم! نحن من مُضَر، قال: أى المُضَرَيْن؟ قلنا: خِندِف، فقال: إنه يُبعَث وَشيكًا نبىّ منكم، فخذوا نصيبكم منه تَسعَدوا، قلنا ما اسمه؟ قال: محمد فأتينا ابن جَفنَة، فلما انصرفنا وُلِد لكل منا ابن فسمّاه محمدا.

وقال محمد بن سعد: «أخبرنا محمد بن على، عن مَسلَمة، عن عَلقَمة، عن قَتادة بن السَّكَن[(٦)]، قال: كان فى بنى تميم محمد بن سُفيان بن مُجاشِع، ومحمد الجُشَمىّ فى بنى سَواد، ومحمد الأُسَيِّدى[(٧)]، ومحمد الفُقَيمىّ[(٨)]؛ سمَّوهم طمَعا فى النبوّة؛ ثم حمَى الله تعالى كل من تَسمَّى بمحمد أن يدَّعِى النبوّة، أو يدَّعيها أحد له، أو يَظهَر عليه سبب يُشكِّك أحدًا فى أمره، حتى تحقّق ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع.

---

(١) أسد الغابة ٤ : ٣٥٢ . (٢) فى خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٢٤ عن ابن سعد: «عداده فى أهل الكوفة» . (٣) انظر خزانة الأدب ٢ : ٢٤ . (٤) فى خزانة الأدب ٢ : ٢٤ : «ويزيد بن عمرو بن ربيعة» . (٥) فى الخزانة أيضا: «ابن مالك بن حبيب ابن العنبر» . (٦) فى الخزانة ٢ : ٢٤، ٢٥ نقلا عن ابن سعد: «ابن سعد عن على بن محمد عن مسلمة بن محارب عن قتادة» . (٧) فى شرح المواهب ٣ : ١٦٠ : «محمد بن الأسيدى»، قال: «وهو بضم الهمزة وفتح السين المهملة وكسر التحتية الثقيلة» . (٨) انظر شرح المواهب ٣ : ١٦٠

ومن أسمائه فى الكتب المنزلة صلى الله عليه وسلم

« العظيم » ، وقع فى أول سِفر من التوراة عن إسماعيل : وسيلد عظيما لأمة عظيمة[(١)] .

و « الجبّار » ، سُمّى بذلك فى كتاب داود عليه السلام ، فقال : تَقلَّد أيها الجبّار سيفك فإن ناموسك وشرائعك[(٢)] مقرونة بهيبة يمينك . قالوا[(٣)] : ومعناه فى حق النبى صلى الله عليه وسلم : إما لإصلاحه الأمة بالهِداية[(٤)] والتعليم ، أو لقهره أعداءه ، أو لعلو منزلته على البشر ، وعظيم خَطَره[(٥)] . ونفَى الله عز وجل عنه جَبْرِية التكبُّر فى القرآن فقال : ﴿ وما أنتَ عليهمْ بجبّارٍ ﴾ .

ومن أسمائه فيها[(٦)] : « المتوكّل » ، و « المختار » ، و « مُقيم السُّنة[(٧)] » ، و « المقدّس[(٨)] » ، و « روح الحق » ، وهو معنى البارَقْليط[(٩)] فى الإنجيل ؛ وقال ثعلب : البارَقْليط : الذى يفرق بين الحق والباطل .

---

(١) انظر شرح المواهب ٣ : ١٦٧ و١٦٨ . (٢) فى شرح المواهب للزرقانى ٣ : ١٧٢ : « ... وأما الجبار فسمى به فى مزامير داود فى قوله من مزمورة ٤٤ تقلد سيفك الخ » ، وانظر الكتاب المقدس (مزامير ٤٥) . (٣) نسب هذا القول فى شرح المواهب ٣ : ١٢٥ إلى القاضى عياض ، وابن دحية ، وعنهما نقله . (٤) فى شرح المواهب ٣ : ١٢٥ : « لإصلاحه للأمة » .

(٥) فى شرح المواهب ٣ : ١٢٥ : « ... وعظيم خطره » . (٦) أى التوراة ، وانظر شرح المواهب ٣ : ١٤٣ . (٧) فى شرح المواهب ٣ : ١٤٦ : « مقيم السنة بعد الفترة كما هو نص الزبور ، ... ومعناه فى التوراة » . (٨) فى شرح المواهب ٣ : ١٤٦ : « سماه الله به فى الكتب السالفة » . (٩) البارقليط ، بالموحدة والفا ، بارقليط وبالفاء بدلها ، وفتح الراء والقاف بعدها لام مكسورة ، فتحتية ساكنة ، فطاء مهملة ؛ وبسكون الراء مع فتح القاف بعدها اللام المكسورة ، وبفتح الراء مع سكون القاف ، وبكسر الراء وسكون القاف ؛ قال فى المقتفى : وهو الصحيح — وقع فى إنجيل يوحنا ومعناه روح الحق . وفى النهاية لابن الأثير أن اسمه فى الكتب السالفة بارقليطا . انظر الزرقانى ٣ : ١٣٢ ، ١٧٨

ومنها مَاذ ماذ[1]؛ ومعناه طيّب طيّب، وحَمْطايا[2]، والخاتَم والخاتِم؛ حكاه كعب الأحبار، قال: فقلت فالخاتِم الذى خُتِم به الأنبياء، والخاتَم أحسن الأنبياء خَلْقًا وخُلُقًا، ويُسَمَّى بالسريانية مُشَفَّج[3]، والمُنْحِمنّا[4]، واسمه أيضا فى التوراة: أُحَيْد[5]، ورُوى ذلك عن ابن سِيرِين رحمه الله.

٢٤/١٤ ومن اسمائه ونعوته عليه السلام التى جرت على ألسنة أئمّة الأمّة

المصطفَى، والمجتبَى، والحبيب، ورسول ربّ العالمين، والشفيع المشَفَّع والمتّقِى، والمُصلِح، والطاهر، والمُهَيْمِن، والصادق، والضَّحوك، والقَتّال[6]، وسيّد ولد آدم، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغُرّ المُحَجَّلين، وحبيب الله وخليل الرحمن، وصاحب الحوض المورود، واللواء المعقود، والشفاعة والمقام المحمود، وصاحب الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرَّفيعة، وصاحب التاج والمِعراج والقَضيب، وراكب البُرَاق والناقة والنَّجيب، وصاحب الحجّة والسلطان، والخاتَم والعلامة والبُرهان، وصاحب الهِراوة والنّعلَين. صلى الله عليه وسلم.

(١) بميم مفتوحة، فألف غير مهموزة، فذال معجمة منونة، ثم ميم فألف فذال معجمة. وانظر الزرقانى ٣: ١٤٠ و١٦٩ و١٩٠. (٢) بفتح الحاء وسكون الميم، وطاء مهملة مخففة، وألفين بينهما تحتية. وفى شرح الشفاء للشمنى؛ بفتح الحاء وفتح الميم. قال الهروى: معناه حامى الحرم. وانظر الزرقانى ٣: ١٨٨. (٣) بشين معجمة وفاء مشدّدة مفتوحة، ثم حاء مهملة بوزن محمد؛ ويروى بالقاف بدل الفاء مفتوحة ومكسورة. انظر الزرقانى ٣: ١٨٨ و١٨٩. (٤) بضم الميم الأولى وكسر الثانية، وقيل بفتحهما، وسكون النون الأولى وفتح الحاء المهملة وتشديد النون الثانية بعد الألف؛ ومعناه كما فى الزرقانى ٣: ١٨٨ روح القدس. (٥) قيل: بهمزة مضمومة، وحاء مكسورة فياء ساكنة بعدها دال، وقيل بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح المثناة التحتية، وقيل بفتح الهمزة وسكون الياء. وفى تهذيب الأسماء واللغات للنووى ١: ٢٢: «أن النبى صلى الله عليه وسلم. قال: وإنما سميت أحيد لأنى أحيد عن أمتى نار جهنم»، وانظر الزرقانى ٣: ١٨٨.

(٦) قال ابن فارس: سمى به لحرصه على الجهاد، ومسارعته إلى القتال. وانظر الزرقانى ٣: ١٤٠.

قالوا : ومعنى صاحب القضيب : السّيف ، وقع ذلك مفسّرا فى الإنجيل ؛ قال : معه قضيب من حديد يقاتِل به ، وأمّته كذلك[1] ؛ وأما الهِراوة التى وصِف بها[2] ، فهى فى اللّغة العَصا ، ولعلها القضيب الممشوق الذى انتقل إلى الخلفاء ؛ وأما صاحب التاج ، فالمراد به العمامة ، ولم تكن حينئذٍ إلا للعرب .

وكانت كُنيته المشهورة أبا القاسم ، وعن أنسٍ أنه لما ولِد له إبراهيم ، جاءه جِبريل فقال : السلام عليك يا أبا إبراهيم[3] .

ذكر مَراضع رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإخوته من الرّضاعة ، وما ظهر من معجزاته فى زمن رضاعه

وحال طفوليته صلى الله عليه وسلم

قال محمد بن عمر بن واقد الأسلَمى : أوّل من أرضع رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم ثُوَيْبَة[4] ، وهى جارية أبى لَهَب ، أرضعَتْه بلبن ابنها مَسْروح[5] أياما قبل أن تَقدمَ حَليمة السَّعدية ، وكانت قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعَتْ بعده أبا سَلَمَة بن عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصِلها وهو بمكّة ، وكانت خَديجة تُكرمها وهى يومئذ مملوكة ، وطلَبَت إلى أبى لَهَب أن تبتاعها منه لتُعتِقَها فأبَى أبو لَهَب ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أعتقها أبو لَهَب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث إليها

(١) انظر شرح المواهب للزرقانى ٣ : ١٨٤ . (٢) انظر شرح المواهب ٣ : ١٨٤ .

(٣) للرسول صلى الله عليه وسلم كنى أخر . انظرها فى شرح المواهب ٣ : ١٥١ .

(٤) بضم المثلثة وفتح الواو ، وسكون التحتية . توفيت سنة سبع من الهجرة . وفى إسلامها خلاف مذكور فى شرح المواهب ١ : ١٣٧ . (٥) بفتح الميم وسكون السين المهملة ، وذكر فى السيرة الحلبية ١ : ٨٥ ، أنه بضم الميم أيضا ، وانظر شرح المواهب ١ : ١٣٧ .

بصلة وكسوة ، حتى جاء خبرها أنها قد ماتت سنة سبع عند مَرجعه من خَيْبَر ، فقال : ما فَعَل ابنُها مَسْروح ؟ فقيل : مات قبلها ولم يبقَ من قَرابتها أحد .

ثم أرضَعته حَليمة بنت أَبي ذُؤَيب ، وأبو ذُؤَيب عبد الله بن الحارث بن شِجْنة[1] ، ابن جابر بن رِزام بن ناصرة[2] بن فُصَيّة[3] بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن ابن منصور بن عِكرِمة بن خَصَفة بن قيس عيلان[4] بن مُضَر ؛ واسم أبيه الذى أرضعه[5] : الحارث بن عبد العُزَّى بن رِفاعة بن مَلّان بن ناصرة ؛ ويقال هلال[6] بن ناصرة بن فُصَيّة[3] بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن .

وإخوتُه من الرضاعة منها : عبد الله بن الحارث ، وأُنَيسة بنت الحارث ، وحُذافة[7] بنت الحارث وهى الشَّيماء[8] ، وكانت الشَّيماء تحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمها .

قال أبو عبد الله محمد بن إسحاق[9] كانت حَليمة بنت أبى ذُؤَيب تُحدِّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابنٍ لها تُرضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرُّضعاء

(١) شجنة ، بكسر الشين المعجمة فجيم ساكنة فنون مفتوحة للتأنيث ، ويروى « سجنة » بالسين المهملة . وانظر شرح المواهب ١ : ١٤٤ . (٢) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٩ ، وفى شرح المواهب ١ : ١٤٤ : « بن ناصر » . (٣) بضم الفاء ، وفتح الصاد بوزن « سمية » فى ضبط ابن دريد ؛ وبفتح الفاء وكسر الصاد فى ضبط ابن سيده . وانظر تاج العروس (فصى) . (٤) رواية ابن هشام ١ : ١٦٩ : « بن قيس بن عيلان » . (٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٠ : « ١٧٠ : « واسم أبيه الذى أرضعه صلى الله عليه وسلم : الحارث » . (٦) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٠ ، وفى الأصل : « ملال » تصحيف . (٧) بضم الحاء المهملة ، وفتح الذال المعجمة بعدها ألف مد ، ثم فاء كما فى شرح السيرة لأبى ذر الخشنى ١ : ٥٥ نقلا عن ابن عبد البر ؛ ويروى « جذامة » بالجيم ، و « خدامة » بالخاء المعجمة . وانظر شرح المواهب ١ : ١٤٦ . (٨) بفتح الشين المعجمة وسكون التحتية المثناة ، ويقال لها أيضا : الشماء . وانظر الزرقانى ١ : ١٤٦

(٩) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٧١ . وانظر شرح المواهب ١ : ١٤١

قال الواقدى : إنهن كنّ عشرا، قالت : فى سنة شهباء[1] لم تُبقِ[2] شيئا، فخرجتُ على أتان[3] لى قمراء معنا شارف[4] لنا، والله ماتَبِضُّ[5] بقطرة، وما تنام لنا ليلتنا أجمع مع صَبِيّنا الذى معى من بكائه[6] من الجوع، ما فى ثدييّ ما يُغنيه، وما فى شارفنا مايغذّيه، ولكنّا نرجو[7] الغيث والفرج، فخرجتُ على أتانى تلك، فلقد أذمّتْ[8] بالرَّكْب حتى شَقّ ذلك عليهم ضعفا وعَجَفا[9] حتى قدِمنا مكة، فما منّا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنّا نرجو[10] المعروف من أبى الصَّبيّ؛ فكنّا نقول : يتيم، ماعسى أن تصنع أمُّه وجدّه ؟ فما بقيت امرأة قدِمتْ معى إلا أخذتْ رضيعا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صَواحبى ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن[11] إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه؛ قال : لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قال[12] : فذهبْتُ إليه فأخذْتُه، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره؛ فلما أخذتُه رجعت به إلى رحلى، فلما وضعتُه فى حِجرى، أقبل عليه ثدياى بما شاء الله من لبن، فشرب حتى رَوِى، وشرب معه

(١) شهباء : ذات جدب وقحط، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٨٩ . (٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧١ : « لم تبق لنا شيئا » . (٣) أتان قمراء : لونها بياض فيه كدرة، وفى السيرة الحلبية ١ : ٨٩ : قمراء : شديدة البياض . (٤) الشارف : الناقة المسنة . (٥) ما تبض : ما ترشح بشىء . (٦) فى السيرة لابن هشام ١ : ١٧١، وشرح المواهب ١ : ١٤٢ : « وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا » . (٧) رواية ابن هشام ٢ : ١٧١ : « ولكنا كنا نرجو » . (٨) فى السيرة الحلبية ١ : ٨٩ : أذمت بالذال المعجمة : أى جاءت بما تذم عليه، وفى شرح السيرة للخشنى ١ : ٥٥ : « ومن رواه أذمت فمعناه تأخرت بالركب أى تأخر الركب بسببها » . (٩) العجف : الهزال . (١٠) رواية ابن هشام ١ : ١٧٢ : « إنا إنما كنا » .

(١١) فى شرح المواهب ١ : ١٤٣ : « صواحبى ليس معى رضيع، لأنطلقن إلى » .

(١٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٢، وشرح المواهب ١ : ١٤٣ : «قالت»، ولعل تذكير الفعل على إرادة معنى الشخص .

أخوه حتى رَوِى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك
٢٥/١٤ فإذا بها حافل ، فحلب منها ماشرب وشربتُ ، حتى انتهينا رِيًّا وشِبَعا ، فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تَعلَمى والله ياحليمة لقد أخذتِ نسمةً مباركة ، قالت : قلت والله إنى لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا فركبتُ أتانى وحملتُه عليها معى ، فوالله لقطَعتْ بالرَّكب ما يقدر عليها شيء[1] من حُمُرهم[3] ، حتى إن صواحبي ليقُلْن لى : ويْحكِ يا بنتَ أبى ذؤيب [ويحك][2] ! اربعى علينا . أليسَت هذه أتانُك التى كنتِ خرجتِ عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ! إنها لهى هى ، فيقلن : والله إن لها لشأناً . قالت : ثم قدِمنا منازلنا من بلاد بَنى سَعد ، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدبَ منها ، فكانت غَنَمى تروح على حين قدمنا به معنا شِباعا لُبَّنًا[4] ، فنحلُب ونشرب ، وما يحلُب إنسان قطرة لبن وما يجدها فى ضَرع حتى كان الحاضرُ[5] من قومنا يقولون لرُعْيانهم : ويلكم ! اسرَحوا حيث يسرَح راعى بنت أبى ذُؤَيب ، قالت : فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخيرة حتى مضت سنتاه وفصَلتُه ، وكان يشِبّ شبابا لا يُشبه الغِلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جَفرا[6] ، قالت : فقدِمنا به على أمه ونحن أحرَصُ شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته ، فكلّمنا أمّه . وقلت لها : لو تركت بُنَىَّ عندى حتى يغلُظ ، فإنى أخشى عليه وَباءَ مكة ، قالت : فلم تزل[7] به حتى ردّته معنا فرجعنا به

(١) فى الأصل : « ما لا يقدر علىّ شىء » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ١٧٣ .
(٢) عن ابن هشام ١ : ١٧٣ . (٣) اربعى : انتظرى . وفى السيرة الحلبية ١ : ٩٠ : اربعى : اعطفى علينا بالرفق وعدم الشدّة فى السير . (٤) فى السيرة لابن هشام ١ : ١٧٣ ، وشرح المواهب ١ : ١٤٥ : « ولا يجدها » . (٥) الحاضر : المقيم فى المنزل ، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٩٠ . (٦) الجفر : الشديد الغليظ . (٧) فى سيرة ابن هشام ١ ١٧٣ : « قالت : فلم نزل بها » .

فوالله إنه بعد مَقدَمنا بأشهر مع أخيه لَفِي بَهْم[1] لنا خلْف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدّ[2]، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشىّ قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقّا بطنه ، فهما يَسُوطانه[3]، قالت[4] : فخرجت أنا وأبوه نحوَه ، فوجدناه قائما منتقعا[5] وجهُه ، فالتزمتُه وٱلتزَمه أبوه ، فقلنا : مالك يا بنىّ ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعانى فشقّا بطنى، فالتمَسا فيه شيئا لا أدرى ما هو؟ قالت : فرجعْنا إلى خِبائنا،فقال لى أبوه : يا حَليمة،لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أُصيب، فألحِقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ، قالت : فاحتملناه فقدِمنا به على أمّه ، فقالت : ما أقدَمك يا ظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بِابنى ، وقضَيتُ الذى علىّ، وتخوّفت الأحداث عليه، فأدّيتُه عليكِ[6] كما تحبِّين، قالت : ما هذا شأنُك فاصدُقينى خبرَك ! فلم تدعنى حتى أخبرتها، قالت : أفتخوّفت عليه الشيطان؟ قلت نعم . قالت كلّا والله! ما للشيطان عليه من سبيل،وإن لبُنَىّ لشأنا، أفلا أخبرك خبره؟ قلت : بلى! قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منّى نور أضاء له قصورُ بُصْرى[7] من أرض الشام ، ثم حملتُ به، فوالله ما رأيتُ من حملٍ قطُّ كان أخفَّ ولا أيسرَ منه،ووقع حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه بالأرض، ورافعٌ رأسه إلى السّماء، دعيه عنكِ وٱنطلِقِى راشدة. هكذا نقل ٱبن هشام فى سيرته عن ٱبن إسحاق .

(١) البهم : الصغار من أولاد الضأن . (٢) اشتد فى عدوه : أسرع . (٣) فى السيرة الحلبية ١ : ٩٣ : « يسوطانه : يدخلان يديهما فى بطنه » ، وفى شرح الخشنى ١ : ٥٦ : « يقال سطت اللبن أو الدم أو غيرهما أسوطه : إذا ضربت بعضه ببعض ، واسم العود الذى يضرب به السوط » .

(٤) فى الأصل : « قال : فخرجت » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ١٧٤ .

(٥) انتقع لونه : تغيرت جلدة وجهه من خوف أو مرض ، وذهب دمه . (٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٤ : «فأديته إليك» . (٧) فى الأصل : «أضاء له قصرى و بصرى من أرض الشام» ، والمثبت عن شرح المواهب ١ : ١٥٠ ؛ وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٤ : « أضاء لى قصور بصرى » .

وقال محمد بن سعد فى كتابه المترجَم بالطَّبقات عن الواقدىّ : كان عمره يوم شُقّ بطنُه أربع سنين، و إن حَليمة أتت به أمّه آمنة بنتَ وهب وأخبرتها خبره وقالت : إنا لا نردّه إلّا على جَدْع أنفِنا ؛ ثم رجَعت به أيضا، فكان عندها سنة أو نحوها، لا تَدَعُه يذهب مكانا بعيدا، ثم رأت غمامة تُظِلّه، إذا وقفَ وقفتْ، و إذا سار سارت، فأفزَعها ذلك من أمره، فقدِمت به إلى أمّه لتردّه وهو ابن خمس سنين، فأضلّها[1] فى الناس، فالتمسَتْه فلم تجده، فأتت عبد المطّلب فأخبرته، فالتمسه فلم يجده، فقام عند الكعبة فقال :

لا هُمَّ رُدّ راكبى محمّدَا * أُرْدُدْه ربّى واصطَنِع عندى يَدَا

أنت الذى جعلتَه لى عَضُدا * لا يبعد الدهرُ به فيبعدا

* أنت الذى سمّيته محمّدا *

قال ابن اسحاق[2] : يزعمون أنه وجده ورَقَةُ بن نَوفَل بن أسد ورجل آخر من قُريش، فأتيا به عبد المطّلب، فقالا : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكّة، فأخذه عبد المطلب فجعله على عُنقه وهو يطوف بالكعبة يعوّذه و يدعو له، ثم أرسل به إلى أمّه آمنة.

وعن خالد بن مَعْدان الكَلَاعىّ[3] : أنّ نفرا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له : يارسول الله ! أَخبِرنا عن نفسك، قال : نعم . أنا دعوة أبى إبراهيم، و بُشْرَى عيسى[4] ورأت أمى حين حملَت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعتُ فى بنى سَعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لى خَلْف بيوتنا نرعَى بَهْما لنا، إذ أتانى رجلان

(١) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٦، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٩٤ .

(٢) نقله ابن هشام ١ : ١٧٦ . (٣) ترجمته فى تهذيب التهذيب ٣ : ١١٨ . وقد روى هذا الخبر ابن هشام فى السيرة ١ : ١٧٥ . (٤) انظر عيون الأثر ١ : ٣٥ .

عليهما ثياب بِيض بطِشت من ذهب مملوءة ثلجا، فأخذانى فشقّا بطنى، ثم آستخرجا[(١)] قلبى فشقّاه، فاستخرجا منه علقةً سوداء فطرحاها، ثم غسلا بطنى وقلبى بذلك الثّلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه : زِنْه بعشَرة من أمّته، فوزننى بهم فوزَنتهُم، ثم قال: زِنْه بمائة من أمّته، فوزننى بهم فوزَنتهُم، ثم قال: زِنْه بألف من أمّته، فوزننى بهم فوزَنتهُم، فقال : دعه عنك، فلو وزنته بأمّته لوَزَنها .

٢٦/١٤

قال محمد بن إسحاق[(٢)]: وحدّثنى بعض أهل العلم أن مما هاج أمّه السّعدية على ردّه إلى أمه، مع ما ذكرتْ لأمه مما أخبرتْها عنه، أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فِطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلّبوه ثم قالوا لها : لنأخُذنّ هـذا الغلام فلنذهبن به إلى مَلِكنا و بلدنا ، فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره، فلم تكد تَنفَلِت به منهم .

ونقل محمـد بن سعد[(٣)] : أن آمنة أمّ النبى صلى الله عليه وسلم لمـّا دفعتْه لحليمة السعديّة قالت لهـا : اِحفظى آبنى، وأخبرتْها بمـا رأت، فمرّ بها اليهود فقالت : ألا تحدّثونى عن آبنى هذا؟ فإنّى حملتُه كذا، ووضعتُه كذا، ورأيتُ كذا، كما وصفت آمنة[(٤)]، فقال بعضهم لبعض : أُقتلوه! ثم قالوا : أيتيم هو؟ فقالت : لا . هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه[(٥)]، قالت : فذهبت به .

وحَضَنَتْه صلى الله عليه وسلم أمُّ أيمن[(٦)] [بَرَكَة] الحبشيّة حتى كَبِر، فأعتقها وزوّجها زيد بن حارثة، فولدتْ له أُسـامة بن زيد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسـلم ورِثها من أبيه . والله أعلم .

(١) كذا فى عيون الأثر ١ : ٣٥ ، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٧٥ : « ثم أخذانى فشقا بطنى واستخرجا » . (٢) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٧٧ . (٣) الطبقات ١ : ٧١ (قسم أوّل)، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٩٠ . (٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٩٥ : «لها أمّه» . (٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٩٥ : «يتيما قتلناه» . (٦) عن السيرة الحلبية ١ : ١٠٥ .

ذكر وفاة آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الواقدىّ وغيره من أهل العلم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما بلغتْ سنُّه ستَّ سنين خرجتْ به إلى أخواله بنى عَدِىّ بن النجّار بالمدينة تزورهم به ، ومعه أمّ أيْمَن تحضنُه ،وهم على بعيرَيْن ،فنزلتْ به فى دار النابغة[1] ،فأقامت به عندهم شهرا ،فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أمورا كانت فى مُقامه ذلك لمّا نظر إلى أُطُم بنى عَدِىّ بنِ النجّار عرفَه وقال : كنت ألاعب أنيسَة جاريةً من الأنصار على هذا الأُطُم ، وكنتُ مع غِلمانٍ من أخوالى ، ونظر إلى الدار فقال : هاهنا نزلتْ بى أمّى ، وفى هذه الدار قبرُ أبى عبد الله ، وأحسنتُ العَوْمَ فى بئر بنى عدىّ بن النجّار ، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه[2] ، فقالت أمّ أيمن : فسمعتُ أحدُهم يَقول : هـذا نَبِىُّ هذه الأمّة ، وهـذه دارُ هِجْرَتِه ، فوَعَيتُ ذلك كلَّه من كلامه ، ثمّ رجعتُ به إلى مكّة ،فلمّا كانوا بالأَبْواء[3] [تُوفِّيتْ آمنةُ بنتُ وهب فقبرُها هناك ،فرجعتْ به أمّ أيمن على البعيرين اللّذَين قدموا عليهما إلى مكّة ،وكانت تحضنه مع أمّه ثم بعد أن ماتت ، فلما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]] فى عمرة الحُدَيْبية قال : "إن الله أذِنَ لمحمدٍ فى زيارة قبر أمّه" فأتاه صلى الله عليه وسلم فأصلحه وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له[5] ، فقال : أدركتْنى رحمتُها فبكيتُ . والله الرحمن .

---

(١) فى الأصل ، وطبقات ابن سعد : «النابغة» بالنون ، وفى شرح المواهب للزرقانى ١ : ١٦٣ : « التابعة بفوقية فوحدة فمهملة : رجل من بنى عدى بن النجار » .

(٢) فى الزرقانى ١ : ١٤٦ : « ينظرون إلىّ ، قالت أم » .

(٣) الأبواء بفتح الهمزة : موضع بين مكة والمدينة ، وهو إلى المدينة أقرب . معجم البلدان ١ : ٩٢

(٤) مابين المربعين عن الزرقانى ١ : ١٦٤ ، وطبقات ابن سعد ١ : ٧٧ (قسم أول) .

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١٠٥ : « فقيل له فى ذلك » .

ذكر كفالة عبد المطلب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم

قال: ولما تُوُفِّيتْ أمه آمنةُ قبضه إليه جدُّه عبدُ المطلب وضَمَّه إليه ورَقَّ عليه رِقّة لم يرِقَّها على وَلَدِه، وكان يقرِّبه منه ويدنيه، ويَدخُل عليه إذا خلا وإذا نام، ويجلس على فراشه؛ وكان يوضَع لعبد المطّلب فراشٌ فى ظِلّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فِراشِه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بَنِيه إجلالا له، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلامٌ حتى يجلس عليه، فيأخذَه أعمامُه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى، فوالله إنّ له لشأنا، ثم يُجلسه معه عليه، ويمسَح ظهرَه بيدِه، ويَسُرُّه ما يراه يصنع.

وقال قوم من بنى مُدْلِج[1] لعبد المطلب: احتفِظ به، فإنّا لم نَرَ قدما أشبه بالقدم التى فى المقام مِنه؛ فقال عبد المطلب لأبى طالب: اسمع ما يقول هؤلاء.

وسنذكر إن شاء الله خبرَ سيف بنِ ذى يَزَن مع عبد المطلب، وما بَشَّره من أمر النبى صلى الله عليه وسلم.

قالوا: وكان عبد المطلب لا يأكل طعاما إلا قال: علىّ بابنى فيؤتَى به إليه فلما بلغ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ثمانى سنين، هلك عبدُ المطّلب بنُ هاشم؛ ولما حضرتْه الوَفاة أوصَى ابنَه أبا طالب بحفظِه وكَفالتِه؛ [وكانت][2] وفاة عبد المطّلب ابن هاشم لثمانٍ مضين من عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون، وهو يومئذ

(١) بنو مدلج: قبيلة من كنانة، وهم القافة العارفون بالآثار والعلامات، وانظر السيرة الحلبية ١: ١٠٩.

(٢) سقطت من الأصل.

٢٧/١٤ ابن اثنتين وثمانين سنة ، وقيل ابن مائة وعشر سنين[(١)] حكاه السُّهيلىّ[(٢)] ؛ قال : « وهو أوّل من خَضَب بالسّواد من العَرَب » .

قال ابن قتيبة[(٣)] : إنّه كَبِر وعَمِىَ ، وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رءوس الجبال ، ويقال له الفيّاض لجُوده ، ومُطْعِم طيرِ السماء . قال ابن الأثير[(٤)] : « وهو أوّل من تحنّثَ بحِراء ، فكان إذا دخل شهر رمضان صعِد حِراءَ وأطعَم المساكين » . وسئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أتذكر موتَ عبد المطّلب ؟ قال : نعم . أنا يومئذ ابن ثمانِى سنين ، قالت أمّ أيمن : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومئذ يَبكِى خَلْفَ سريرِ عبد المطّلب .

قال : ولما هلك عبد المطلب وَلِىَ زمزمَ والسقايةَ عليها بَعده ابنُه العبّاس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ من أحدث إخوته سنّا ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده ، فأقرّها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على ما مضى .

وعن عبدالله بن عبّاس وغيره ، قالوا : لما تُوفّى عبدالمطلب قَبَض رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم عمُّه أبوطالب ، قيل بوصيةٍ من عبد المطلب ، فأحبّه حبّا شديدا ، وكان لايفارقه ، وكان يَخُصّه[(٥)] بالطعام[(٦)] ، وكان إذا أكل عيالُ أبى طالب جميعا أوفُرَادى

(١) فى عمر عبدالمطلب أقوال أخرى تجدها فى السيرة الحلبية ١ : ١١٢ ، وشرح المواهب ١ : ١٨٩ .

(٢) الذى حكاه السهيلى ١ : ٥ ، ونقله عنه الزرقانى ١ : ١٨٩ : أنه عاش مائة وأربعين سنة . فلعل هذا القول سقط من نص النويرى .

(٣) فى المعارف ص ٣٣

(٤) فى الكامل ٢ : ٦

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٤ : « وكان يخصه بأحسن الطعام » .

(٦) هو قول حكاه الواقدى . ونقله الزرقانى ١ : ١٨٩

لم يَشبعوا[1]، وإذا أكل معهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم شَبِعوا؛ فكان إذا أراد أن يغذّيهم[2] قال: كما أنتم حتّى يَحضُرَ ابنِي؛ فيأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم، فيُفضِلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يَشبَعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمُبارك؛ وكان الصِّبيان يُصبِحون رُمْصًا شُعْثا، ويُصبح عليه السلام دَهِينا كَحِيلا[3].

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام مع عمّه أبي طالب، وخبر بَحِيرا الراهب

قالوا: لما بلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلم اثنتَيْ عشرةَ سنةً وعشرةَ أيّام، خرج أبو طالب فى رَكْبٍ تاجرا إلى الشأم، فلما تهيّأ للرحيل تعلّق به رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجنّ به[4]، ولا يفارقُنى ولا أفارقُه أبدا، فخرج به معه، فلما نزل الرَّكْب بُصْرَى من أرض الشام، وبها راهبٌ يقال له بَحِيرَا فى صَوْمَعةٍ له، وكان إليه عِلمُ أهل النصرانية، ولم يزل فى تلك الصَّومَعة راهبٌ إليه يصير عِلمُهم عن كتابٍ فيها يتوارثونه كابرًا عن كابرٍ، فلما نزلوا ذلك العام بَحيرا وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك، وهو لا يكلمهم، فصنع[5] لهم طعاما كثيرا، وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو فى صومعته، فى الرَّكْب حين أقبلوا، وغمامةً تظلّه من بين القوم،

(١) ذلك لأن أبا طالب كان مقلا من المال. انظر السيرة الحلبية ١ : ١١٤

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٤ : «... أن يغذيهم أو يعشيهم يقول لهم».

(٣) فى النهاية لابن الأثير ٣ : ١٧١ : «يصبحون غمصا رمصا، ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صقيلا، دهينا كحيلا». وانظر الزرقانى ١ : ١٨٩

(٤) انظر السيرة الحلبية ١ : ١١٤

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٨ : «حتى كان ذلك العام صنع لهم».

فلما نزلوا فى ظل شجرة قريبا منه ، نظر إلى الغَمامة وقد أظلّت الشجرة، وتهصّرت[(١)] أغصانُها على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظلّ تحتها[(٢)] ، فلما رأى بَحيرا ذلك نزل من صَوْمَعته ، وقد أمر بذلك الطعام فصُنع، ثم أرسل إلى القوم فقال : إنى قد صنعتُ لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أحِبّ[(٣)] أن تحضرُوا كلّكم؛ صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحُرّكم؛ فقال له رجل منهم : يا بَحيرا إنّ لك لشأنا اليوم : قال له بحيرا : صدقتَ، قد كان ما تقول فاجتمعوا إليه ، وتخلّف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سِنّه فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بَحيرا فى القوم لم يَرَ الصِّفةَ التى يعرِف ، فقال : يا معشر قُرَيش لا يتخلّف منكم أحد عن طعامى، قالوا : ما تخلّف عنك أحد ينبغى أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سِنًّا تخلف فى رحالهم، قال: لا تفعلوا أُدْعوه فليَحْضر،فقال رجل من قريش: واللّاتَ والعُزّى إن كان لَلُؤمًا بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام[(٤)] فاحتضنه وأجلسه مع القوم،فلما رآه بَحيرا جعل يلحَظه لحظا شديدا و ينظُر إلى أشياءَ من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له : يا غلام ، أسألك بحق اللّاتَ والعُزّى إلا ما أخبرتَنى عما أسألك عنه ، فقال : لا تسألنى بهما! فوالله ما أبغضت شيئا قط بُغْضَهما، فقال له : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ! فقال : سَلْنى

(١) تهصرت : تهدلت عليه .

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٨ : «وكان صلى الله عليه وسلم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة، فلما جلس مال فىء الشجرة عليه» .

(٣) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٨ : «... قريش، وأحب أن تحضروا» .

(٤) فى السيرة الحلبية ١ : ١١٩ : «ثم قام إليه فاحتضنه»، وفى شرح المواهب ١ : ١٩٤ : «فقال رجل من قريش ... ... ثم قام الحارث بن عبد المطلب فأتى به» .

عمّا بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه،(١) وهيئته، وأموره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يُخبره، فيوافق ذلك ما عند بَحيرا من صفته، ثمّ نظر إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، وكان مثل أثر المِحْجَم، فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له: ما هذا الغلامُ منك؟ قال: ابنى؟ قال له بَحيرا: ما هو بابنك،(٢) وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا؛ قال: فإنه ابن أخى، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمّه حُبْلَى به، قال: صدقتَ ارجع بابن أخيك إلى بلده فاحذر عليه اليهود،(٣) فوالله لئن رأَوه وعرفوا منه ما عرفت، ليَبْغُنَّه شرّا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأَسرِعْ به إلى بلاده، فخرج أبو طالب سريعا حتّى أقدمه مكّة حين فرغ من تجارته بالشام.

٢٨/١٤

ورُوِىَ أنّ زُرَيْرًا وتَمّاما ودَرِيسا، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأَوا من رسول الله صلى الله عليه وسلّم مِثْلَ ما رأَى بَحِيرَا فى ذلك السَّفَر الّذى كان فيه مع عمّه أبى طالب، فأرادوه، فردّهم(٤) عنه بَحيرا، وذكّرهم اللهَ وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لا يخلُصوا إليه، فعرّفهم ما قال لهم(٥) فتركوه وانصرفوا عنه؛ قال: فَشبّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يكلؤه الله ويَحفظُه ويَحوطُه لما يريد به من كرامته واصطفائه إنّه خيرُ الحافظين. والله المُعين.

(١) فى شرح المواهب ١: ١٩٦: «عن أشياء من حاله ونومه.. الخ».

(٢) هذه رواية ابن هشام ١: ١٩٣ أيضا، وفى السيرة الحلبية ١: ١١٩: «ما هو ابنك».

(٣) فى عيون الأثر ١: ٤٢، والسيرة الحلبية ١: ١١٩: «إلى بلاده، واحذر».

(٤) كذا فى عيون الأثر ١: ٤٢. وفى السيرة الحلبية ١: ١١٩: «وأرادوا به سوءا فردّهم عنه بحيرا».

(٥) فى السيرة الحلبية ١: ١١٩: «يخلصوا إليه، فعند ذلك تركوه وانصرفوا عنه»، وفى سيرة ابن هشام ١: ١٩٤: «ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدّقوا بما قال فتركوه».

ذكر رَعيته[1] صلّى الله عليه وسلّم الغَنَم

عن عبد الله بنِ عُمير رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما من نبيّ إلا قد رَعَى الغنم، قالوا: وأنتَ يارسول الله؟ قال: وأنا. وعن أبى هُريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله نبيًا إلا راعِىَ غَنَم"، قال له أصحابه: وأنت يا رسولَ الله؟ قال: وأنا، رعيتُها لأهل مكّة بالقراريط[2].

وعن أبى سَلَمة بن عبد الرحمن، قال: مَرُّوا على النّبى صلّى الله عليه وسلّم بثَمَر الأَراك فقال: عليكم بما أسودّ منه، فإنّى كنتُ إذ أنا راعى الغنم، قالوا: يا رسول الله، رعيتَها؟ قال: نعم. وما من نبيّ إلّا قد رَعاها.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه نحوه.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام[3]: ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وقيل ابن عشرين، هاجت حَرْب الفِجار[4]، فشَهِدها صلّى الله عليه وسلّم، وكان يُنَبِّل على أعمامه أى يردّ عليهم النَّبْل[5].

---

(١) رعيته: بفتح الراء بمعنى رعيه، وانظر السيرة الحلبية ١: ١٢٥.

(٢) فى معنى «القراريط» فى هذا الحديث خلاف؛ قيل: هى أجزاء من الدراهم والدنانير؛ قال سويد بن سعيد: يعنى كل شاة بقيراط؛ وقيل: القراريط موضع بمكة، ولم يقصد فى الحديث القراريط من الذهب والفضة؛ لأن العرب لم تكن تعرف القراريط بهذا المعنى. وانظر السيرة الحلبية ١: ١٢٦.

(٣) السيرة ١: ١٩٥.

(٤) قال ابن هشام ١: ١٩٨، نقلا عن ابن إسحاق: «وإنما سمى يوم الفجار بما استحل هذان الحيان، كنانة وقيس عيلان، فيه من المحارم».

(٥) فى سيرة ابن هشام ١: ١٩٨: «... كنت أنبل على أعمامى: أى أردّ عليهم نبل عدوّهم إذا رموهم بها».

وقد تقدّم ذِكرُ حَرْب الفِجار فى وقائع العَرَب، وذلك فى الباب الخامس من القسم الرابع من الفن الخامس من كتابنا هـذا؛ وهو فى السفر الثالث عشر من هذه النسخة والله الموفِّق للصّواب وإليه المَرْجِع .

ذكر حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم حِلف الفُضُول

قال محمّد بنُ عمرَ بنِ واقد [بسند] يرفعه إلى حَكيم بنِ حِزام : كان حِلفُ الفضولِ مُنصَرَف قُرَيش من حَرْب الفِجار ، ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ ابن عشرين سنة، وكان الفِجار فى شوّال، وهذا الحِلفُ فى ذِى القِعدة[1]، وكان أشرفَ حِلْف كان قطّ ، وأوّل من دعا إليه الزُّبَيْر بن عبد المطّلب ، فاجتمعتْ بنو هاشم وزُهْرة ، وبنو أَسَد بن عبد العُزّى وبنو تَيْم فى دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنعَ لهم طعاما ، فتعاقَدوا وتعاهَدوا بالله لَيكونُنّ مع المظلوم حتّى يؤدَّى إليه حقُّه "ما بَلّ بحرٌ صُوفَة"، فسمّت قريشٌ ذلك الحِلْفَ حِلْفَ الفُضول .

وقال ابن هشام[2] : تعاقَدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها ، وغيرهم ممن دخَلَها من سائر النـاس إلّا قاموا معـه ؛ وكانوا على مَن ظَلَمه حتى تُرَدَّ عليه مظلمتُه .

وعن جُبَيْر بن مُطْعِم ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما أُحبُّ أنّ لى بحِلف حَضَرتُه فى دار ابنِ جُدْعانَ حُمْرَ النَّعَم وأنّى أَغدِر به[3] ؛ هاشمٌ وزُهرة وتَيْم تحالَفوا أن يكونوا مع المظلوم "ما بلّ بحرٌ صُوفة"، ولو دُعيتُ به لأجبتُ[4] ، وهـو حِلْفُ الفُضول .

(١) انظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٩ (٢) السيرة ١ : ١٤١

(٣) أى أنى لا أحب الغدر به وإن أعطيت حمر النعم فى ذلك .

(٤) يعنى لو قال قائل من المظلومين فى الإسلام : يآل حلف الفضول لأجبت .

قال الواقدىّ : ولا نعلم أحدا سَبق بنى هاشم بهذا الحِلف . وحكى أبو الفرج الأصفهانىّ[(١)] فى سبب تسمية هذا الحِلف حِلفَ الفُضول: أن قوما من قريش قالوا فى هذا الحلف : هـذا والله فضل من الحِلف ، فسمىَ حِلفَ الفُضول ؛ قال : وقال آخرون : تَحالَفوا على مِثل حِلْفٍ تَحالَف عليـه قوم من جُرْهُم[(٢)] فى هذا الأمر لا يقرون ظُلْما ببطن مَكّة إلا غيّروه؛ وأسماؤهم : الفَضْل بن شراعة، والفَضْل بن قضاعة، والفضل بن سماعة .[(٣)]

٢٩/١٤

وروى أيضا بسنده[(٤)] إلى أبى إسحاق بن الفضل قال : إنّمـا سَمَّتْ قريش هـذا الحِلفَ حِلْفَ الفُضول لأنّ نَفَرا من جُرْهم يقال لهم الفضل والفضال والفضيل تحالفوا على مثل ما تحالفتْ عليـه قريش، قال : وقال الواقدىّ[(٥)] : والصحيح أنّ قوما من جُرْهم يقال لهم فضل وفضالة وفضال ومفضل تَحالَفوا على مِثل هـذا[(٦)] فلما تحالفت قريشٌ بهذا الحِلف سَمّوه بذلك . والله الموفِّق للصواب .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام المرة الثانية فى التجارة وحديث نسطور

قال : ولمـّا بلغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة قال له عمّه أبو طالب : أنا رجل لا مال لى ، وقد اشـتدّ الزمان علينا ، وهذه عِيرُ قومك قد

(١) الأغانى بولاق ١٦ : ٦٥

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ١٣١ : «هم ثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل ، وهم الفضل ابن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث» .

(٣) فى الأغانى ١٦ : ٦٥ : «الأمر أن لا يقروا» .

(٤) الأغانى ١٦ : ٦٧

(٥) الأغانى ١٦ : ٧٠

(٦) فى الأغانى ١٦ : ٧٠ : «على مثل هذا فى أيامهم فلما» .

حضَر خروجُها إلى الشام، وخديجةُ بنت خُوَيْلِد تَبعثُ رجالا من قومك فى عِيرَاتها[(١)]، فلو جئتَها فعرضتَ نفسَكَ عليها لأسرعتْ إليك؛ وبلغ خديجةَ ذلك، فأرسلتْ إليه تقول: أنا أعطيك ضِعفَ ما أُعطى رجلا من قومك، فقال أبو طالب: هذا رزق ساقه الله إليك، فخرج رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه مَيْسَرة غلام خديجة، وجعل عُمومتُه يُوصُون به أهلَ العِير، فساروا حتى قَدِموا بُصْرى[(٢)]، فنزَلا فى ظلّ شجرة، فقال نَسْطُورا[(٣)] الراهب: ما نزل تحت هـذه الشجرة قطّ إلّا نبيّ. ثم سأل مَيْسرةَ عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقال: أفى عينيه حُمْـرة[(٤)]؟ قال: نعم لا تفارقه؛ قال: هـو نبيّ[(٥)]، وهو آخر الأنبياء؛ ثم باع رسولُ الله صلّى الله عليـه وسلّم سلعةً فوقع بينه وبين رجل تلاحٍ، فقال له: احلفْ باللّاتَ والعُزّى، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما حلفتُ بهما قطّ، وإنّى لأُمُرّ فأُعرِض عنهما، فقال الرجل القولُ قولُك، ثم قال لميسرة[(٦)]: هذا والله نبيّ تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم؛ وكان مَيْسَرة إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ يرى مَلكين يُظلّان رسول الله صلّى الله عليه وسلم من الشمس، فوعَى ذلك كلّه، وباعوا تجارتَهم، وربِحوا ضِعفَ ما كانوا يَربحون؛ فلما رجعوا وكانوا بمَرِّ الظَّهْران[(٧)] قال ميسرة: يا محمّـد! انطلق إلى خديجة فأخبرها

(١) جمع الجمع لعير.

(٢) بضم الموحدة: مدينة حوران فتحت صلحا سـنة ١٣ هـ، وهى أول مدينة فتحت بالشـام. انظر الزرقانى ١: ١٩٤.

(٣) بفتح النون وسكون السين وضم الطاء وألف مقصورة. عن الزرقانى ١: ١٩٨.

(٤) كانت هذه الحمرة فى بياض عينه، وهى الشكلة، وجاء فى وصفه أنه كان أشكل العينين.

(٥) رواية الزرقانى ١: ١٩٩، والسيرة الحلبية ١: ١٣٣: «هو هو، وهو آخر الأنبياء».

(٦) فى السيرة الحلبية ١: ١٣٤: «ثم قال الرجل لميسرة».

(٧) مر الظهران: واد بين مكة وعسفان، وهو الذى تسميه العامة بطن مرو، وهو المعروف الآن بوادى فاطمة. عن السيرة الحلبية ١: ١٣٥

بما صنع الله على وجهك،(١) فإنها تعرف [لك](٢) ذلك، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة وخديجةُ فى عُلِّية(٣) لها، فرأت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعيره، ومَلَكان يُظِلّان عليه، فأرَتْه نساءَها، فعجبن لذلك، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها فخبَّرها(٤) بما رِبحوا فى وَجْهِهم ذلك، فسُرّت به، فلمّا دخل مَيْسَرة عليها أخبرته بما رأت، فقال: قد رأيت هذا مذ خرجنا من الشام، وأخبرها بما قال نَسْطُورا، و بما قال الآخر الذى حالفه(٥) فى البيع، وقَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارتها، فربحتْ ضعفَ ما كانت تَربح، وأضعفتْ له ما سمّت له. والله المعين.

ذكر تزويج رسولِ الله صلى الله عليه وسلم خديجةَ بنت خُوَيْلد

قال الواقدى بسندٍ يرفعه إلى نَفيسة بنت مُنْية(٦)؛ قالت: كانت خديجة بنتُ خُويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَىّ امرأةً حازمة جَلْدة شريفة لبيبة، وهى يومئذ أوسط(٧) قريش نَسَبا، وأعظمُهم شَرَفا، وأكثرُهم مالا، وكُلُّ قومها كان حريصا على نكاحها لو قَدَر على ذلك، قد طلبوها و بَذَلوا لها(٨) الأموال؛ فأرسلتْنى دسيسا(٩) إلى محمد بعد أن رجع فى عِيرها من الشام، فقلتُ: يا محمد، ما يمنعُك أن تتزوّج؟ فقال: ما بيَدى ما أتزوّج به، قلتُ: فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيتَ إلى الجَمال والمال والشَّرَف والكَفاءةِ ألا تجيب؟ قال: فمن هى؟ قلت خديجة، قال: وكيف لى بذلك؟

(١) الوجه: الوجهة. (٢) عن طبقات ابن سعد ١: ٨١٢ (قسم أول).
(٣) العلية: الغرفة. (٤) فى الأصل: «بخيرها»، والمثبت عن ابن سعد، والسيرة الحلبية ١: ١٣٥، وفى شرح المواهب ١: ١٩٩: «فأخبرها». (٥) حالفه: استحلفه.
(٦) فى الأصل: «بنت منبه»، تصحيف. (٧) فى السيرة الحلبية ١: ١٣٧: «أوسط نساء قريش نسبا». (٨) فى السيرة الحلبية ١: ١٣٧: «وذكروا لها الأموال فلم تقبل». (٩) الدسيس: من تدسه ليأتيك بالأخبار.

قلت عليّ[1]، فأنا أفعل، فذهبتُ فأخبرتُها، فأرسلتْ إليه: أن ائت لساعةِ كذا وكذا، وأرسلَتْ إلى عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها . وقيل: إنّها أرسلتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: يا بن العمّ! إنى قد رغبتُ فيك لقرابتك منّى، وشرفك فى قومك، وسِطَتِك[2] وأمانتك عندهم، وحُسْنِ خُلُقك وصدقِ حديثك؛ ثم عرضتْ نفسَها عليه، فذكر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة ابنُ عبد المطّلب حتى دخل على خُوَيلِد بن أَسَد، وقيل: بل عمرو بن خُوَيلد بن أَسَد، وقيل: بل عمرو بن أُمية عمّها، وكان شيخًا كبيرا وهو الصحيح، فخطَبَها إليه. قيل: وحضَر أبو طالب ورؤساء مُضَر، فخطب أبو طالب فقال:

٣٠/١٤

" الحمدلله الذى جعلَنا من ذرّية إبراهيم، وزرعِ إسماعيل، وضِئْضِئِ[3] معدّ، وعُنصُرِ[4] مُضَر، وجعلَنا حَضَنة بيته، وسُوّاس حَرَمه، وجعل لنا بيتا محجُوجا، وحَرَما آمِنا، وجعلنا الحكّام على الناس؛ ثم إن ابن أخى هذا محمّد بن عبدالله، لا يوزَن به رجل إلا رجَح به، فإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظِلٌّ زائل، وأمر حائل، ومحمد من[5] قد عرفتُم قَرابتَه؛ وقد خطَب خَديجةَ بنت خُوَيلِد، وبذَل لها من الصّداق ما آجِلُه وعاجِله من مالى كذا، وهو واللهِ بعدَ هذا له نبأ عظيم، وخَطْب جليل[6]". فتزوّجها صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام، وخديجةُ يومئذ بنت ثمان وعشرين سنة، وقيل: بنت أربعين سنة، وأَصدَقَها صلى الله عليه

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ١٣٧ : « بذلك، فقلت بلى وأنا أفعل » :

(٢) سطتك : شرفك .

(٣) ضئضئ معدّ : أى معدنه وأصله .

(٤) عنصر مضر : أى أصله .

(٥) فى شرح المواهب ١ : ٢٠١ : « ومحمد ممن قد عرفتم » .

(٦) فى السيرة الحلبية ١ : ١٣٩، وشرح المواهب ١ : ٢٠٢ : « عظيم، وخطر جليل » .

وسلم ثِنْتَى عشرة أُوقِيـة ونَشًّا ذهبا ؛ الأُوقيـة أربعون ، والنَّشُّ عشرون ، فذلك خمسمائة درهم .

وروى ابن هشام[(١)] : أنه أصدقها صلى الله عليه وسلم عشرين بَكْرة .

ذكرُ حضورِ رسول الله صلى الله عليه وسلم هَدْمَ الكعبة وبنـاءَها

٥ قالوا : ولمـا بلَغ رسـول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة شهِد هَدْم الكعبة وبنـاءَها ، وتَراضَت قريش بحُكمه فيها ؛ وكان سببُ هدم الكعبة وبنـائها ما رُوِى عن ابن عباس ، ومحمد بن جُبير بن مُطْعِم ، قالا : كانت الجُرُوف[(٢)] مُطِلَّة على مكة ، وكان السَّـيل يدخل من أعلاها حتى يدخُل البيت فانصـدع ، فخـافوا أن ينهدم ، وسُرِق منه حَلْيُه وغَزَال من ذهَب كان عليه دُرٌّ وجوهر .

١٠ قال محمـد بن إسحق[(٣)] : وكان كنز الكعبة فى بئرٍ فى جوفها ، فوُجِد عند دُوَيْك مولًى لبنى مُلَيح بن عمرو من خُزاعة . قال ابن هشام : فقطعَت قريش يده ، وزَعمت قريش أن الذين سرَقوه وضَعوه عند دُوَيك .

وكانت الكعبة فوق القـامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكانوا يهمّون بذلك ويهابون هَدمَها ، فلمـا سُرق الكنز حمَلهـم ذلك على هدمها وبنـائها ؛ قال[(٤)] :

١٥ وكان البحـر قـد رَمَى بسفينةٍ إلى جُدّة لرجل من تجّار الروم فتحطمَت . قال الواقدى : كان رأسُ أصحاب السفينة رجلا روميا اسمـه باقُوم[(٥)] ، فحَجَّتها[(٦)] الريح إلى

(١) السيرة ١ : ٢٠١ . (٢) فى الأصل وطبقات ابن سعد ١ : ٩٣ (قسم أوّل) : «الجرف مطلة» . (٣) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٠٥ ، وعبارته : «وذلك أن نفرا سرقوا كنز الكعبة ، وإنمـا كان يكون فى بئر» الخ . (٤) القائل ابن إسحق ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٥ .

٢٠ (٥) باقوم ، بموحدة فألف فقاف مضمومة فواو ساكنة فميم ؛ ويقال : باقول باللام ؛ وهو نجار قبطىّ ؛ وقيل رومىّ . وانظر الزرقانىّ ١ : ٢٠٣ . (٦) نجتها : أى دفعتها .

الشُّعَيبة[1]، وكانت مرفأ السفُن قبلَ جُدَّة فتحطّمت ؛ فخرج الوليد بن المغيرة فى نفَر من قريش فابتاعوا خَشَبها، وقدم معهم بَاقُوم الرومىّ .

قال ابن اسحق[2] : فأعدّوا الخشب لتسقيفها، وكان بمكة رجل قِبطىّ نجار، فتهيأ لهم فى أنفسهم بعضُ ما يُصلِحها ؛ وكانت حيةٌ تخرج من بئر الكعبة التى كان يُطرَح فيها ما يُهدَى لها، فتتَشَرَّق[3] كل يوم على جدار الكعبة ، ولا يدنو منها أحد إلا احْزَألّت[4] أى رفعت رأسها وكَشّت[5] وفتحت فاها، فكانوا يهابونها ؛ فبينَا هى يوما تَتَشَرَّقُ بعث اللهُ طائرا فاختَطَفَها فَذهب بها ، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردْنا ؛ عندنا عاملٌ رفيق، وعندنا خشَب، وقد كفانا الله عز وجل الحية .

فلما أَجْمَعُوا أمْرَهم[6] على هدمها و بنائها، قام أبو وَهب بن عمرو بن عائذ بن عِمران بن مَخزوم، وهو خال أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتناول من الكعبة حجَرًا ، فوثَب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يامعشَر قريش، لا تُدخِلوا فى بنائها من كَسْبكم إلا طيّبا، لا يدخل فيها مَهْر بَغِىّ، ولا بيع رِبًا ، ولا مَظلَمة أحدٍ من الناس . و يقال إن الوليد بن المُغِيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخْزوم هو الذى قال هذا القول .

قال الواقدىّ : فأمَروا بجمع الحجارة، و ببناء الكعبة منها؛ فبينَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم ، وكانوا يضَعون أُزُرَهم على عواتقهم ويحملون الحجارة ، ففعل

(١) معجم البلدان ٥ : ٢٧٥ . (٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٥ .
(٣) تتشرق : تبرز للشمس . عن الخشنى ١ : ٦٣ .
(٤) فى شرح الخشنى على سيرة ابن هشام ١ : ٦٣ : « احزألت : رفعت ذنبها » .
(٥) صوتت باحتكاك بعض جلدها ببعض . عن الخشنى ١ : ٦٣ .
(٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٥ : « أمرهم فى » .

ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فلُبِط به: أى سقَط من قيام، ونودى: عورَتَك! فكان ذلك أوّلَ ما نُودِى، فقال له أبو طالب: يابنَ أخى اجعل إزارك على رأسك، فقال: ما أصابنى [ما أصابنى][1] إلا من التّعرّى؛ فما رؤيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم عورةٌ بعد ذلك.

٥ قال ابن إسحاق[2]: ثم إن قريشا جزّأت[3] الكعبة، فكان شق[4] الباب لبنى عبد مَناف وزُهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانىّ لبنى مَخزوم وقبائلَ من قُريش انضمّوا إليهم، وكان ظَهْرُ الكعبة لبنى جُمَح وسَهم، وكان شقّ الحجر لبنى عبد الدّار ابن قُصَىّ وبنى أسَد بن عبد العُزّى وبنى عَدىّ بن كعب، وهو الحَطِيم[5].

٣١/١٤

وقال الواقدىّ: وقَع لبنى عبد مَناف وزُهرة وجهُ البيت، وهو ما بين الركن ١٠ الأسود إلى ركن الحِجْر، ووقع لبنى أسَد بن عبد العُزّى وبنى عبد الدار ما بين ركن الحِجْر إلى ركن الحِجْر الآخر؛ ووقَع لتَيْم ومَخزوم ما بين ركن الحِجر إلى الركن اليمانىّ، ووقع لسَهْم وجُمَح وعَدىّ وعامر بن لُؤىّ ما بين الركن إلى الركن الأسود.

قال ابن إسحاق[6]: ثمّ إن الناس هابوا هَدْمَها، وفَرِقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدأكم فى هدمها، فأخذ المِعْوَل؛ ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم تُرَع[7]،

---

١٥ (١) فى الأصل: «ما أصابنى إلا فى تعرى»، والتكملة والتصويب عن الزرقانىّ ١: ٢٠٦، والسيرة الحلبية ١: ١٤٣. (٢) نقله ابن هشام ١: ٢٠٧، والطبرى ٢: ٢٠٠، ٢٠١.

(٣) فى الأصل والطبرى ٢: ٢٠٠: «تجزأت»، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١: ٢٠٧.

(٤) الشق: الناحية. (٥) سمى حطيما لأن الناس يزدحمون فيه حتى يحطم بعضهم بعضا. وانظر شرح السيرة للخشنى ١: ٦٣. (٦) نقله ابن هشام. (٧) لم ترع: لم تفزع.

٢٠ قال السهيلى ١: ١٣١: «وهى كلمة تقال عند تسكين الروع والتأنيس، وإظهار اللين والبر فى القول، ولا روع فى هذا الموطن فينفى، ولكن الكلمة تقتضى إظهار قصد البر، فلذلك تكلموا بها».

ويقال : لم نَزِغْ[1]، اللّهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربّص الناس به تلك[2] الليلة ، وقالوا : ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يُصبْه شيء فقد رضى الله ما صنعنا فنهدم ، فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله ، فهدَم وهدَم الناس معه حتى انتهى الهدم بهم إلى أساس إبراهيم عليه السلام ، فأفضَوا إلى حجارة خُضْر كالأسِنّة[3] آخذ بعضُها بعضا ، فأدخل رجل من قريش عتلة بين حجرَيْن منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقّضت مكة[4] بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال : ثم إن[5] القبائل جمعت الحجارة لبنائها، كلُّ قبيلة تجمع على حدة ، وبنَوا حتى بلغ البنيان موضع الركن[6] . والله المستعان .

ذكر اختلاف قريش فى رفع الرُّكن وتراضيهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وخبر التحكّى

قال ابن إسحاق[7] : ولما بلغ البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه ، كلُّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأُخرَى ، حتى تحاوزوا وتخالفوا واعتدّوا للقتال[8]، فقربت بنو عبد الدار جَفنةً مملوءة دَما، ثم تعاقدوا هم وبنو عَدىّ بن كعب

(١) لم نزغ : لم نمل عن دينك، ولاخرجنا عنه ، وانظر الخشنى ١ : ٦٣ . (٢) عن الطبرى ٢ : ٢٠١ . (٣) جمع سنان، شبهها بأسنة الرماح فى الخضرة، وتروى : « كالأسنة » . وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٧، وشرح المواهب ١ : ٢٠٤، والروض الأنف ١ : ١٣٢ .

(٤) تنقضت : اهتزت ، ورواية الطبرى ٢ : ٢٠١ : « انتقضت » .

(٥) القائل ابن إسحق ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٩ ، والطبرى ٢ : ٢٠١ .

(٦) يريد الحجر الأسود لأنه مبنىّ بالركن فسمى ركنا ، وفى تاريخ الطبرى ٢ : ٢٠١ : « حتى إذا بلغ البنيان موضع الركن » . (٧) سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٩ . (٨) فى سيرة ابن هشام، والطبرى ٢ : ٢٠١ : « حتى تحاوزوا [انحاز كل إلى قبيله] ، وتحالفوا وأعدّوا للقتال » .

ابن لُؤَىّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم ، فسُمُّوا لَعَقَة الدَّم ؛ فمكثت قُريش على ذلك أربعَ ليال أو خمسا ، ثم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فقال أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخزوم ، وكان إذ ذاك أسَنَّ قريش كلِّها : يا معشرَ قُريش ! اجعَلوا بينَكم فيما تَختلفون فيه أوّلَ داخل يدخل (١) ؛ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، هذا محمد ، رضينا به ؛ فلما انتهى إليهم وأَخبَروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : هَلُمَّ إلىّ ثوبا فأُتِى به ، وقيل : بل بَسَط رداءه فى الأرض ، وأخذ الركن فوَضعه فيه بيده ، ثم قال : ليأت (٢) من كل رُبع من أرباع قريش رجل ، فكان من رُبع بنى عبد مَنَاف عُتْبة بن رَبيعة ، وفى الربع الثانى أبو زَمْعة ، والربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، والربع الرابع قيس بن عَدىّ .

هكذا نقل الواقدى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليأخذْ كلُّ رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى موضعه ، فذهب رجل من أهل نجد ليُناول النبىّ صلى الله عليه وسلم حَجرا يَشُدّ به الركن ، فقال العباس بن عبد المطلب : لا . ونحّاه ، وناول [العباس] (٣) رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حجراً ، فشَدّ به الركنَ ، فغضب النّجدىّ حين نُحِّى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنه ليس يَبْغى معنا فى البيت إلا منّا ؛ فقال النّجدىّ : يا عَجَبا لقوم أهل شَرَف ، وعقول ، وسِنٍّ ، وأموال ، عمدوا إلى أصغرهم سِنًّا ، وأَقلِّهم مالا ، فرأسوه عليهم فى مَكرُمَتهم وجُودِهم كأنهم

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٩ : « ... فيه أوّل من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا ، فكان أوّل داخل » ، وانظر الطبرى ٢ : ٢٠١ .

(٢) فى الأصل وطبقات ابن سعد ١ : ٩٤ (قسم أوّل) : « ليأتى » تصحيف .

(٣) عن طبقات ابن سعد ١ : ٩٤ (قسم أوّل) .

خَدَم له ، أما والله لَيُفرقنّهم شِيَعا ، وليقسِمَنّ بينهم حظوظا وجدودا (١) . ويقال إن النّجدىّ إبليسُ لعنه الله (٢) . فقال أبو طالب :

إن لنا أولَه وآخرَه ... فى الحكم والعدل الذى لا ننكرَه
وقد جهِدنا جهده لنعمُرَه ... وقد عمرنا خيرَه وأكثرَه (٣)
* فإن يكن حقًّا ففينا أوفَرَه *

قال : ثم بنوا حتى انتهوا إلى موضع الخشَب ، وكان خمسة عشر جائزًا (٤) سَقَفوا البيت عليه ، وبنَوه على ستة أعمِدة ، وأخرجوا الحِجْر من البيت ، قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قومك استقصروا فى (٥) بنيان الكعبة ، ولولا حَداثة عهدهم بالشّرك أعدتُ فيه ما تركوا منه ، فإن بدَا لقومك من بعدى أن يبنوه ، فهلُمّ أريكِ ما تركوا منه ، فأراها قريبا من سبعة (٦) أذرع فى الحِجر ، وقال صلى الله عليه وسلم : ولجعلت لها بابَين شَرقيًّا وغربيا ، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت : فقلت : لا أدرى . قال : تعزُّزًا أن لا يدخلها إلا من أرادوا .

٣٢/١٤

قال ابن هشام (٧) : وكانت الكعبة على عَهد النبىّ صلى الله عليه وسلم ثمانى عشْرةَ ذراعا ، وكانت تُكسَى القَباطِىّ (٨) ثم كُسيت البرود (٩) ، وأوّلُ من كساها الديباج الحجّاج ابن يوسف (١٠) .

(١) فى الأصل : «ليفوتهم سبقا ، وليقيمنّ بينهم خطوطا وحدودا» . وانظر السيرة الحلبية ١ : ١٤٥ ، وطبقات ابن سعد ١ : ٩٤ (قسم أوّل) . (٢) انظر الروض الأنف ١ : ١٣٢ .
(٣) فى طبقات ابن سعد : «وأكبره» . (٤) الجائز : هو الخشبة التى توضع عليها أطراف العوارض فى سقف البيت . وفى الأصل : «حابرا» تصحيف . (٥) فى الأصل : «استعصروا من» ، وانظر صحيح البخارى ٢ : ١٤٦ . (٦) فى صحيح البخارى ٢ : ١٤٧ : «قال جرير : فخرزت من الحجر ستة أذرع أو نحوها» . (٧) فى السيرة ١ : ٢١١ . (٨) القباطى : ثياب بيض كانت تصنع بمصر . (٩) البرود : ثياب يمنية . (١٠) فى الروض الأنف ١ : ١٣ : أن ابن الزبير كساها الديباج قبله ، وكان خالد بن جعفر بن كلاب ممن كساها الديباج قبل الإسلام .

وحيث انتهينا إلى هـذه الغاية من أخبار رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فلنذكر من بشّر به .

ذكر المبشّرات برسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ مولده ومبعثه وبعدَ ذلك

٥ جاءت البشائر برسـول الله صلى الله عليه وسـلم فى كتب الله تعالى المنزّلة على أنبيائه صلواتُ الله عليهم ، وفيما نُقِل إلينا[1] من كلامهم ، ووُجد بخطّهم ، وبشّر به أحبارُ يهود ، وعلماءُ النّصارَى ، عما انتهى إليهم من العلوم التى تلقّوها عن الأنبياء صلوات الله عليهم ، ونَقلوها من صُحُفهم ، ومُخبّئات كتبهم ، وذخائر أسرارهم ، حتى اعترف قوم بنبوّته صلى الله عليه وسلم قبلَ مَولده وظهوره بما شاء الله من السنين ،

١٠ وأَوْصوا به مَن بَعدَهم ؛ ﴿ فَمِنْهُم مَن آمَنَ بِهِ ، وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْـه ﴾ ؛ وبشّر به أيضا قبلَ مَبْعَثِه كُهّان العرب ، عما كان يأتيهم من أخبار السّماء على لِسان شياطينهم الذين كانوا يَستَرِقون السّمْع ومُنِعوا بالشُّهُب ، كما أخبرنا الله تعالى فى قوله : ﴿ وإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنها مَقَاعِد للسَّمْع فَمَنْ يَسْتَمِع الآنَ يَجِدْ لَه شِهَابًا رَصَدًا ﴾ ، ونطق الجانُّ من أجواف الأصنام بالإشارة به ، فكان ذلك سبباً لإسلام من سمِـع أصواتها ممن سبقت

١٥ له من الله الحُسْنَى ، وهداه وأَرشده إلى اتّباع الحق ، والإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به مِن عند الله ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى مواضعه .

فأما ما جاءت به الكتب المنزلة من الله تعالى مما يدل على نبوّة سيدنا رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقد جاء ذلك فى القرآن العزيز ، وفى التوراة ، والإنجيل ، وزبور داود ، وكتُب الأنبياء : شِعْيا ، وشَمْعُون ، وحزقيل عليهم السلام .

٢٠ (١) فى الأصل : « وما نقل » .

فأما ما جاء فى القرآن العزيز فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مصدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . قال أهل التفسير : أخذ الله الميثاق بالوحى، فلم يبعث نبيا إلا ذكر له محمدا ونعته ، وأخذ عليه[(١)] ميثاقه : إن أدركه ليؤمنن به ؛ وقيل : أن يبينه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه[(٢)]، أنه قال : لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليهم العهود فى محمد صلى الله عليه وسلم : لئن بُعث وهو حىّ ليؤمننّ به ولينصُرنّه ويأخذ العهد بذلك على قومه . ونحوُه عن السُّدِّى وقتادة .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ . روى عن قتادة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : كنتُ أولَ الأنبياء فى الخلق ، وآخرهم فى البعث . قال القاضى عياض : فلذلك وقع ذكره مقدّما هنا قبل نوح وغيره، صلى الله عليهم أجمعين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشّر بى عيسى» الحديث . يشير بدعوة إبراهيم عليه السلام إلى قوله تعالى إخبارا عنه : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

(١) فى الأصل : «عليه» ، وانظر شرح المواهب ٦ : ١٦٣ (٢) انظر شرح المواهب ٦ : ١٦٣

وأما ما جاء فى كتب الله السالفة ، فقد علمنا قطعًا أن أهل الكتاب بدّلوا فى كُتب الله تعالى المنزّلة على أنبيائهم ، وحرّفوا كَلِمها عن مواضعه ، وحذفوا منها أشياء فيها صريح ذِكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بَغيًا منهم وحسَدًا وجُحودا ونَكالا وافتراء على الله تعالى . هذا لا مِريةَ عندنا فيه ولا خلاف ، وقد اتّفقوا على أشياء فى كُتُبهم وترجَموا عنها بالعربية ، تدل على نبوّة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نحن نذكرها إن شاء الله ، وكتموا فيها ما أَخبَر به من أسلَم من أحبار يهود وغيرهم ، وعُرِضَ ذلك على من استمَرّ على كفره ، فلم يسَعه إنكارُه بل أقرّ به ، على ما نذكر إن شاء الله تعالى فى مواضعه .

٣٣/١٤

فأما ما اتفقوا عليه مما جاء فى التوراة وترجموه بالعربية ورَضُوا ترجمته فمن ذلك قوله : « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق لنا من سَاعِير ، واستَعْلَن من جِبال فَارَان » . وفى ترجمة أخرى كذلك[1] : « تجلى الله من طور سيناء ، وأشرق من سَاعِير ، واستعلن من جبال فاران » . قال العلماء : وفى هذا تَصريح بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الطُّور[2] هو الجبل الذى اصطفى الله تعالى موسى عليه بتكليمه ، وسَاعِير : جبل بالشام منه ظهرت نبوّة عيسى بن مَريم ، وبالقرب منه قرية الناصرة التى ولد فيها ، وفَاران : هى مكة شرفها الله تعالى .

(١) فى معجم البلدان ٦ : ٣٢٣ : « ... وفى التوراة : جاء الله من سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » ، فجيئه من سيناء ، تكليمه لموسى ، وإشراقه من ساعير (وهى جبال فلسطين معجم ٥ : ١٠) : إنزاله الإنجيل على عيسى ، واستعلانه من جبال فاران : إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . وفاران : جبال مكة .

(٢) فى الأصل : « الطور وهو » . وانظر « خير البشر » لابن ظفر ص ٩ .

قال الشيخ حجة الدين أبو هاشم[(١)] محمد بن ظَفَر فى كتابه المترجم بخير البِشْر[(٢)]: لا يخالف فى هذا أحد من أهل الكتاب . قال : « وأما قوله : جاء الله من طور سيناء فإن مجىء الله[(٣)] هو مجىء كتابه وأمره كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ ؛ أى أتاهم أمرُه . وقوله : « وأشرق لنا من سَاعير » كناية[(٤)] عن ظهور أمره وكلامه ، قال : وكذلك قوله : « واستعلن من جبال فاران » ، أى ظهر أمره ، وكتابه ، وتوحيده ، وحمدُه ، وما شرعه رسولُه من ذكره بالأذان والتلبية[(٥)] وغير ذلك ؛ قال ابن ظَفر[(٦)] : « وقرأت فى ترجمة للتوراة خطابا لموسى عليه السلام ، والمرادُ به الذين اختارهم لميقات ربه فأخذتهم الرَّجفة خصوصا ، ثم سائر بنى إسرائيل عموما : والله ربك يقيم نبيا من إخوتك ، فاستمع له كالذى سمعت ربك فى حُوريت يوم الاجتماع حين قلت : لا أعود أسمع صوت الله[(٧)] ربى لئلا أموت ، فقال الله لى[(٨)] : نِعْمَ ما قالوا ، وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيقول لهم : كلَّ شىء آمره به ، وأيُّما رجلٍ لم يُطع من تكلم باسمى فإنى أنتقم منه .

وفى هذا[(٩)] أدلّة على نبوّة نبينا صلى الله عليه وسلم ، منها قوله : « من إخوتهم » ، وموسى وقومُه من بنى إسحاق ، وإخوتهم بنو إسماعيل ، ولو كان الموعود من[(١٠)]

---

(١) فى الأصل : « هشام » تصحيف . (٢) ص ٩ .

(٣) فى خير البشر : « سيناء ، فمجىء » . (٤) فى الأصل : « ظهور أنوار كلامه » والمثبت عن ابن ظفر . (٥) فى خير البشر (ورقة ٥ أ من النسخة المخطوطة) : « وما شرعه لرسوله من الآداب والتلبية » . (٦) فى خير البشر ص ١٠ وانظر الزرقانى ٦ : ٢٠٠ (٧) فى خير البشر ص ١٠ من المطبوعة : « قلت لا أسمع صوت الله » ، وفى المخطوطة (ق ٥ ب) : « أسمع كلام الله ربى » .

(٨) فى المخطوطة من خير البشر (ق ٥ ب) : « فقال الله لى : نعم ، نعم » .

(٩) فى خير البشر (ق ٥ ب) : « وفى هذا الكلام أدلة » .

(١٠) فى خير البشر (ق ٥ ب) : « ولو كان هذا النبى الموعود » .

بنى إسحاق ، لكان من أنفسهم ، لا من إخوتهم ، كما قال تعالى إخبارا عن إبراهيم فى دعوته : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولًا مِنْهُم ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ لَقَد جَاءَكُم رَسُولٌ مِن أَنفُسِكُم ﴾ ؛ ومنها قوله : «نبيا مثلك» ، وقد قال فى التوراة : «لا يقوم فى بنى إسرائيل أحدٌ مثلُ موسى» ، وفى ترجمةٍ أخرى : «مثلُ موسَى لا يقوم فى بنى إسرائيل أبدا» ؛ ومنها قوله : «أَجعلُ كلامى فى فمه» ، فهو واضح أن المقصود به محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن معناه : أوحِى إليه بكلامى فينطق به ؛ وقوله : «أيُّما رجلٍ لم يُطِع من تكلّم باسمى فإنى أنتقم منه» دليل على كذب اليهود فى قولهم : إن الله أمرنا بمعصية كلِّ نبى دعا إلى دين سُمِّى نسخًا لبعض ما شرعه موسى صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

وأما ما اتفقوا عليه ، ورضوا ترجمته مما فى الإنجيل فمن ذلك ما ترجموه فى الإنجيل : أن عيسى عليه السلام قال : «إن أحْبَبتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا أطلب إلى أبى فيعطيكم بَارَقْلِيط آخر يكون معكم الدهرَ كلَّه ، فهذا تصريح بأن الله سيبعث إليهم من يقوم مَقامه ، وينوب عنه فى تبليغ رسالات ربه ، وسياسة خلقه مَنابَه ، وتكون شريعته باقيةً مخلَّدة أبدا» ، ولم يأت بذلك بعد عيسى إلا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومنه ما ترجموه : «إن هذا الكلام الذى سمعتُموه ليس هو لى ، بل للأب الذى أرسلنى ، كلّمكم بهذا وأنا معكم ، فأما البَارَقْلِيط : روحُ القدس الذى يُرسِل أبى باسمى ، فهو يعلّمكم كلّ شىء ، ويُذَكِّركم جميعَ ما أقول لكم» .

٣٤
١٤

قال ابن ظَفَر : قولهم : «أبى» : فهذه اللفظة عندنا مبدلة محرَّفة ، وليست مُنكَرة الاستعمال عند أهل الكتابَيْن إشارةً إلى الرب سبحانه ، لأنها عندهم لفظة

تعظيم يخاطِب بها المتعلّم مُعَلِّمه الذى يستمدّ العلمَ منه؛ قال : ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماءَ دينهم بالآباء الروحانية؛ قال : وأما قوله : « يرسله أبى باسمى » فهو إشارة إلى شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالصّدق والرسالة، وما تضمّنه القرآن من مَدحه وتنزيهه عما افتراه اليهودُ فى أمره .

٥ ومما ترجموه ورَضُوا ترجمته قولهم : إنه قال : « إذْ قال البَارَقْلِيط الذى أرسل إليكم من عند أبى، روح الحق الذى يخرج من الأب ، فهو يشهَد لى، وأنتم تشهدون لى أيضا لكينونتكم معى من أوّل أمرى » .

قال : قوله « روح الحق الذى يخرج من الأب » كنايةٌ عن كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾.

١٠ وقوله : « يشهد لى » تصريح بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لم يشهد للمسيح عليه السلام بالنبوّة ، والنزاهة عما افتُرِى عليه، وبأنه روحُ الله وكلمتُه وصفيُّه ورسولُه ، كتابٌ سوى القرآن ، ولم تزل الأمُم تكذّب المتّبِعين للمسيح ، واليهودُ يفترون العظائم من البهتان، حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فشهِد للمسيح بما شهِد به حَواريُّوه الذين كانوا معه من أوّل أمره، والمهتدون من أمته .

١٥ قال : ومما رَضُوه من الترجمة أيضا عن الإنجيل قوله فيه : «إن انطلاقى خير لكم، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم البَارَقْلِيط؛ فإذا انطلقتُ أرسلتُ به إليكم، فإذا جاء فندّ أهلَ العلم» . قال : فهذا ظاهر ، وقولُه : « أرسلت به إليكم » إن كان سالما من التحريف، فمعناه مثل معنى قوله : « إن لم أنطلق لم يأتكم » ، وقوله : « فندّ » وصفٌ صريح للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى فنّد علماءَ اليهود والنّصارَى فيما أطبقوا عليه من أن المسيح قُتِل وصُلب بعد أن عُذِّب، وما انفرد ٢٠

به علماءُ اليهود من بُهتانهم فى الطّعن على المسيح ، وما انفردَ به علماءُ النّصارَى من الدعوة إلى ألوهية المسيح، فرسول الله صلى الله عليه وسلّم فنّد جميعَهم. والتّفنيدُ : التخطئةُ وتقبيحُ القول والرأى .

قال ابن ظَفَر : وقرأت فى ترجمة أخرى لِلإنجيل : أنه قال : « البَارَقْلِيط لا يجيئكم ما لم أذهَب ، فإذا جاء وبّخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاءِ نفسه ، ولكنه ما يَسمع يكلّمهم به ، ويَسوسُهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب» . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى وبخ العلماءَ من أهل الكتاب على كتمان الحق ، وتحريف الكَلِم عن مواضعه، و بيع الدِّين بالثّمن البَخْس من عَرَض(١) الدنيا، وهو الذى أخبر بالحوادث والغيوب .

وقال ابن ظفر : والذى صح عندى فى معنى البارَقْلِيط : أنه الحكيم الذى يَعرِف السِّر ؛ وقد تقدّم ما يدلّ على أنه الرسول .

وأما ماجاء فى زَبور داود عليه السلام ممّا ترجمه أهل الكتاب، فمن ذلك قوله : « اللهم اجعل جاعلَ السُّنة يحيَا ، يعلّم الناسَ أنه بشر» ؛ ويفهم من هذا : أن داود عليه السلام أطلعه الله تعالى على ما سيقوله النصارَى فى المسيح إذا أرسله، من أنه إلهٌ معبود، فدعا الله سبحانَه بأن يبعث محمدا صلى الله عليه وسلم فيعلّمهم أن المسيح بشَر .

وفيه أيضا مما ترجموه : «أنه فاضت الرحمةُ على شفتيَك، من أجل ذلك أُبارك عليك، إلى الأبد، فتقلّد السّيف ، فإن بهاءك وحمدَك الغالب ، واركَب كلمة الحق، فإن ناموسك وشرائعَك مقرونةٌ بهيبة يمينك؛ والأممَ يخرون تحتَك»؛ قال : فالذى قُرنت شريعته بهيبة يمينه، وخرّت الأمم تحتَه، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فى الأصل : «مواضعه، وسطه بغض» ؛ وانظر الزرقانى ٦ : ٢٠٢

ومنها، وذكر رجلا فقال : «فإذا قام جاز[1] من البحر إلى البحر، ومن عند الأنهار إلى مُنقطَع البرّ، وخرّ أهل الجزائر قدّامه على وجوههم ورُكَبهم، ولحس أعداؤه التراب لهيبته ، وجاءته الملوك بالقرابين ، ودانت له الأمم بالطاعة ؛ لأنه يخلّص الضعيف المغلوب البائس ممن هو أقوى منه ، ويقوّى الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرحَم المساكين، ويصلّى ويبارَكُ عليه فى كلّ وقت، ويدوم ذكرُه إلى الأبد » .

فهذا فى غاية الظّهور أن المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣٥/١٤ وأما ماترجموه من كتاب شعيا[2] عليه السلام ورَضُوا ترجمتَه فقوله[3] : « عبدى الذى سُرَّت به نفسى أنزِل عليه وحيي ، فيُظهِر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يُسمَع صوتُه فى الأسواق[4] ؛ يفتح العيون العُور، والآذان الصُّمّ ، ويحيي القلوب الغُلْف ؛ وما أُعطيه لا أُعطى[5] أحدا ، مُشَقَّح[6] يَحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض ، تَفْرح البرية وسكانها يهلّلون الله على كلّ شَرَف، ويكررونه على كل رابية ، ولا يضعُف ولا يُغلَب، ولا يميل إلى الهوَى ولا يُذِلّ الصالحين الذين هم كالقصَبة الضعيفة، بل يقوّى الصدّيقين ، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذى لا يطفأ، أثَرُ سلطانه على كتِفَيه » .

(١) فى خير البشر لابن ظفر ص ١٩ : « فقال فإذا جاز من البحر » .

(٢) ويقال أيضا : « سعيا » ، بسين مهملة ، و «أشعياء» . وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٣ ، ٢١٨ ، وتاج العروس ١٠ : ١٨٨ . (٣) فى الأصل : « قوله » .

(٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ : « . . ولا يسمع صوته فى الأصوات لأن ضحكه كان التبسم » .

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ : « . . وما أعطيه لا أعطيه أحدا » .

(٦) فى السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ : مشقح بالشين المعجمة والحاء المهملة : أى زاهى » وانظر الزرقانى ٦ : ١٨٩ .

قال ابن ظَفَر[1] : هذه ترجمة السريانيين، وعبّر العبرانيون عنه بأن قالوا : «على كتفيه علامة النبوّة»؛ فهذا كلّه صريح فى البشارة به صلى الله عليه وسلم، مع ما فيه من ذكر قيام دولة العرب بقوله : «تفرَح البريّة وسكّانها»؛ وأما قوله : [مُشَقَّح][2] فهو محمد، لأن الشَّقْح بلُغَتهم الحمد .

ومما ترجموه منه أن شعياء عليه السلام قال[3] : «قم نَظّارا فانظر ما ترى، فأخبِر به، فقلت : أرى راكبَين مقبلين، أحدهما على حمار، والآخر على جَمَل؛ يقول أحدهما لصاحبه : سقطَت بابِلَ وأصنامُها» فهذه بشارة صريحة بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه راكب الجَمَل لا محالة، ولأن مُلْك بابلَ إنما ذهب بنبوّته صلى الله عليه وسلم وعلى يد أصحابه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

قال[4] : وقد كان على باب من أبواب الإسكندرية صورة جَمَل من نحاس، عليه راكب من نحاس. فى هيئة العرب مؤتزِر مُرتدٍ، عليه عمامة، وفى رجليه نعلان، كلُّ ذلك من نحاس؛ وكانوا إذا تظالموا يقول المظلوم للظالم : أعطنى حقّى قبل أن يخرج هذا فيأخذَ لى بحقّى منك، شئت أو أبيت، ولم يزل الصَّنَمُ على ذلك حتى افتتح عمرو بن العاص أرضَ مصر، فغيّبوا الصنم .

ومنه : «أيّتُها العاقر ! افرحى واهتزّى وانطلقى بالتسبيح، فإن أهلَكِ يكونون أكثر من أهلى» . قال: فالعاقر مكة، لأنها بوادٍ غيرِ ذى زَرْع، أو لأن الله لم يبعث

(١) كذا فى خير البشر ص ١٤، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ .

(٢) فى الأصل : «وأما قوله فهو محمد»، والتكملة عن خير البشر لابن ظفر، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٩ .

(٣) ورد هذا الخبر فى السيرة الحلبية ١ : ٢١٨ بصورة تختلف عما هنا .

(٤) القائل ابن ظفر فى خير البشر ص ١٧

بها نبيا فى ذلك الزمن دون غيرها، فهى عاقر، وقوله : « انطلق بالتسبيح » إشارة إلى عمارتها بأهل ذكر الله ، وقوله : « يكون أهلك أكثر من أهلى » ، قال : إن سلم من التحريف وسوء العبارة « فمِنْ » زائدة، والمعنى أن المسلمين يكونون أكثر أهل طاعة الله وتوحيده[1] ، وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن أمته أكثر أهل الجنة. والآل والأهلُ يُكنّى بهما عن [الجماعة] الخاصّة[2]، قال عبد المطلب بن هاشم :

نحن آلُ الله فى بلدَتنا لم نزل آلاً[3] على عهدِ إرَمْ

ولمّا روجع أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى استخلافِهِ عُمَر بن الخطّاب وقيل له : ماذا تقول لربك وقد استخلفْتَ علينا فظّا غليظا ؟ فقال : أقول تركتُ على أهلك خيرَ أهلك . والله الفعّال .

ومن كتاب شمعون عليه السلام ممّا ترجموه ورَضُوا ترجمته قوله : « جاء الله بالبيّنات[4] من جبال فاران، وامتلأت السمواتُ والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته» ، وقد تقدّم أن جبال فاران هى جبال مكّة شرّفها الله، ومجىء الله هو مجىء كتابه .

ومن كتاب حزقيل عليه السلام ممّا ترجموه من قصة ذُكر فيها ظهورُ اليهود وعزّتُهم ، وكفرانُهم للنعم، فشبّههم فيها بالكَرْمة[5] حيث قال : « لم تلبث تلك الكرمة أن قُلِعت[6] بالسخطة، ورُمى بها على الأرض، فأحرقَت السمائمُ أثرها، فعند ذلك غُرِس غرس فى البدو، وفى الأرض المهملة العَطْشى، فخرجت من أغصانه الفاضلة نارٌ فأكلت تلك الكرمة حتى لم يوجد فيها قضيب » .

(١) فى خير البشر : «يكونون أكثر طاعة لله وتوحيدا له» . (٢) فى الأصل : « بهما عن الخاصة » ، والتكملة عن خير البشر . (٣) فى الأصل، وخير البشر ص ٩ : « إلا » .

(٤) لا يزال المؤلف ينقل عن ابن ظفر ، والرواية عنده : « جاء الله بالبيان » .

(٥) فى الأصل : « بالكرمة ثم قال » . والمثبت عن خير البشر .

(٦) فى خير البشر : « أن قطعت » .

قال : فلا شك أن أرض البـدو المهملة العَطْشَى هى أرض العرب ، وغَرْسُ الله الذى غَرَسه فيهـا هو محمد صـلى الله عليـه وسلم ، وقـد أخزى الله به اليهـود والله أعلم .

٣٦/١٤ وممّـا نقل من كلام خَيْقُوق ، وهو الذى زعمت اليهود أنه ادّعى النبوّة فى عهد بُخْتُنَصَّر ، وحكَوا عنه أنه قال : « إذا جاءت الأمّة الآخِرة يسبِّح بهم صاحبُ الجَمَل — أو قال : راكبُ الجَمَل — تسبيحا جديدا فى الكنائس الجُدُد ، فافرحوا ، وسيروا إلى صَهْيون بقلوب آمنـة ، وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التى أعطاكم الله فى الأيام الآخرة ، أُمّة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شُفرتين ، فينتقمون من الأمم الكافرة فى جميع الأقطار » . ولا شكّ أن رَاكِب الجَمَل أو صاحب الجَمَل من الأنبياء هو محمد صلى الله عليـه وسلم ، والأمّة الجديدة هى العرب ، والكنائس الجدد هى المساجد ، وصَهْيون : مكة ، والتسبيحة الجديدة : "لبّيك اللّهم لبّيك" .

ونقل أيضا عن خَيْقُوق هذا أنه قال : « جاء الله من اليَمَن ، وظهر القُدس على جبـال فاران ، وامتلأت الأرض من تحميد أحمـد ، وملك بيمينه رقاب الأمم ، وأضاءت الأرض لنوره ، وحُمِلت خيلُه فى البحر » . والله أعلم .

وممـا وجد بخط موسى بن عمران عليـه السلام ما رَوَى مَعمَر عن الزُّهرى أنه قال : أشخصنى هشام بن عبد الملك إلى الشام ، فلما كنتُ بالبَلْقَاء وجدتُ حجرا مكتوبا عليه بالخط العِبرانىّ ، فطلبتُ مَنْ يقرؤه ، فأُرشِدت إلى شيخ ، فانطلقتُ به إلى الحجر ، فقرأه وضحك ، فقلت : ممّ تضحك ؟ قال : أمر عجيب ، مكتوب على هذا الحجر : باسمك اللهـم جاء الحقّ من ربّك ، لسان عربىّ مبين ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وكتبه موسى بن عمران بخطّ يده .

وإنما ألحقنا هذا الخبر بما قبله لأن موسى صلى الله عليه وسلم إنما يكتب بخطه ما تلقّاه عن الله تعالى ، أو عن كُتبه المنزَلة ؛ وهذا الذى أوردناه مما جاء فى كتب الله السالفة هو الذى أبداه أهل الكتاب وأثبتوه ، وترجموه ورضُوا ترجمته فى تحريفهم وتبديلهم .

وأما مَا كتَمه أهلُ الكتاب ممّا فيه صريح ذِكر النبي صلى الله عليه وسلم ودلّنا عليه وأخبرنا به من أسلم منهم[1] ممّن جاز لنا أن نروى عنه ونَقبَل روايته ؛ مثل وَهْب ، وكَعب الأحبار ، وأبى ثعلبة بن أبى مالك .

فأما[2] ما جاء عن وهب بن منبّه . فإنه رُوِى عنه أنه قال : قرأت فى بعض كتب الله المنزلة على نبيّ من بنى إسرائيل : « أن قم فى قومك، فقل يا سماء اسمعى ، ويا أرض أنصتى ؛ لأن الله يريد أن يقصّ شأن بنى إسرائيل : أنى ربّيتُهم بنِعمتى، وآثرتُهم بكرامتى، واخترتُهم لنفسى، وأنى وجدتُ بنى إسرائيل كالغنَم الشاردة التى لا راعى لها، فردَدتُ شاردَها، وجمعتُ ضالّتها، وداويتُ مريضها ، وجبرتُ كسيرها ، وحفظت سمينها ؛ فلما فعلت بها ذلك بَطِرت، فتناطَحت كباشُها، فقتل بعضها بعضا . فويل لهذه الأمّة الخاطئة، وويل لهؤلاء القوم الظالمين؛ إنى قضيت يومَ خلقتُ السموات والأرض قضاء حتما، وجعلت له أجلا مؤجّلا لابدّ منه، فإن كانوا يعلمون الغيب فليخبروك متى حتمتُه، وفى أى زمان يكون ذلك، فإنى مُظْهِره على الدين كله، فليخبروك متى يكون هذا، ومَن القيِّم به، ومَن أعوانه وأنصاره، إن كانوا يعلمون الغيب فإنى باعث بذلك رسولا من الأمّيّين ليس بفَظّ ولا غليظ، ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا قوّال بالهُجْر والخَنَى، أسدّده

(١) فى الأصل : « به ابن أسلم » تصحيف .

(٢) فى الأصل : « وأما » .

بكل جميل ، وأَهَب له كلَّ خُلق كريم ، وأجعل السكينة على لسانه ، والتقوَى ضميرَه ، والحكمة منطقَه ، والصدقَ والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروفَ خُلُقه والحقَّ شريعَته ، والعدل سيرته ، والإسلام ملّته ، أرفع به من الوضيعة ، وأُغْنِي به من العَيْلة ، وأَهدِى به من الضلالة ، وأؤلّف به بين قلوب متفرّقة ، وأهواء مختلفة ، وأجعل أمّته خير الأمم إيمانا بى وتوحيدا[1] لى ، وإخلاصا بما جاء به رسولى ، ألهِمهُم التسبيح والتحميد والتمجيد لى فى صلواتهم[2] ومساجدهم ومنقلَبهم ومثواهم ، يخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتى يقاتلون فى سبيلى صُفوفا ، ويصلّون[3] لى قياما وركوعا وسجودا ، يكبّرونى على كلّ شَرَف ، رهبان بالليل ، أُسد بالنهار ، ذلك فضلى أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم » .

٣٧/١٤ ومنه ما روى عنه أنه قال : قرأت فى بعض الكتب القديمة : « قال الله تبارك وتعالى : وعزّتى وجَلالى لأُنزِلنّ على جبال العرب نورا يملأ ما بين المشرق والمغرب ، ولأُخرِجن من ولد إسماعيل نبيا عربيا أُمّيا يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض ، كلهم يؤمن بى ربّا ، وبه رسولا ، ويكفرون بمِلَل آبائهم ، ويفرّون منها . قال موسى : سبحانك وتقدّست أسماؤك ! لقد كرّمت هذا النبى وشرّفته ، قال الله عز وجل : يا موسى إنى أنتقم من عدوّه فى الدنيا والآخرة ، وأُظهِر دعوته على كل دعوة ، وسلطانَه ومَن معه[4] على البر والبحر ، وأُخرِج لهم من كنوز الأرض ، وأُذِلّ من خالف شريعتَه ؛ يا موسى : بالعدل ربّيتُه[5] ، وبالقسط أخرجتُه ؛

(١) فى خير البشر لابن ظفر : « . . وتوحيدا بى ، وإخلاصا لما جاء به » .

(٢) فى الأصل : « والتمجيد فى صلواتهم » . والمثبت عن خير البشر .

(٣) فى الأصل : « ويصلون قياما » ، والتكملة عن ابن ظفر حيث النقل عنه .

(٤) فى خير البشر : « ومن اتبعه » . (٥) فى خير البشر : « بالعدل زينته » .

وعِزّتى لأستنقذنّ به أمما من النار ، فتحتُ الدنيا بإبراهيم ، وختمتُها بمحمد ، مثلِ كتابه الذى يجىء به ، فاعقلوه يا بنى إسرائيل مثل السِّقاء المملوء لبنا يُخْضَض فيخرج زُبْدا ، بكتابه أختِم الكتب ، وبشريعته أختِم الشرائع ، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل فى شريعته فهو من الله برىء ، أجعل أمّته يبنون فى مشارق الأرض ومغاربها مساجد ، إذا ذكر آسمى فيها ذكر آسم ذلك النبىّ معى ، لا يزول ذكره من الدنيا حتى تزول .

وأما ما جاء عن كعب الأحبار رحمه الله ، فمن ذلك ما رُوِى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يا كعب ، أدركتَ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقد علمتَ أن موسى بنَ عمران تمنّى أن يكون فى أيامه فلم تَسلَم على يده ، ثم أدركتَ أبا بكر وهو خيرٌ منّى فلم تَسلَم على يده ، ثم أسلمتَ فى أيامى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل علىّ ، فإنى كنت أتثبّت حتى أنظر كيف الأمر ؟ فوجدته كالذى هو فى التوراة . قال عمر : كيف هو فيها ؟ قال : رأيت فى التوراة أن سيد الخلق ، والصفوةَ من ولد آدم ، يظهر من جبال فاران من منابت القَرَظ من الوادى المقدّس ، فيُظهر التوحيد والحق ، ثم يَنتقِل إلى طيبة ، فتكون حروبه وأيامه بها ، ثم يُقبَض فيها ، ويُدفَن بها . قال عمر : ثم ماذا يا كعب ؟ قال كعب : ثم يلى بعده الشيخ الصالح . قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يموت متّبِعا . قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يلى بعده القرن الحديد — وفى لفظ : مدرع من حديد — قال عمر : وادَفْراه! (١) ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يُقتل شهيدًا ؛ قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يلى صاحب

(١) الدفر بالدال المهملة : النتن ، وقصد عمر التواضع . فذكر رائحة الحديد وأعرض عن صفاته الحسنة من القوة والقطع .

الحياء والكرم ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يُقتل مظلوما ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يلى صاحب المحجّة البيضاء ، والعدل والسواء ، صاحب الشَّرَف التام ، والعلم الجام[1] ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم يموت شهيدا سعيدا ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال كعب : ثم ينتقل الأمر إلى الشام ، قال عمر : حَسبُك يا كعب .

ومما جاء عنه ما رُوِى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أن رجلا جاء إلى كعب الأحبار من بلاد اليَمَن فقال له : إن فلانا الحبر اليهودىّ أرسلنى إليك برسالة ، قال كعب : هاتها ! فقال : إنه يقول لك : ألم تكن فينا سيّدا شريفا مطاعا ؟ فما الذى أخرجك من دينك إلى أمّة محمد[2] ؟ فقال له كعب : أتراك راجعا ؟ قال : نعم ، قال : فإن رجعت إليه فخذ بطَرَف ثوبه لئلا يفرّ منك وقل له : يقول لك كعب : أسألك بالذى ردّ موسى إلى أمّه ، وأسألك بالذى فلق البحر[3] لموسى ، وأسألك بالذى ألقَى الألواح إلى موسى بن عمران فيها علم كلّ شىء ، ألست تجد فى كتاب الله أن أمّة محمد ثلاثة أثلاث ، فثلث يدخلون الجنّة بغير حساب ، وثلث يدخلون الجنة برحمة الله ، وثلث يحاسَبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ؛ فإنه سيقول لك : نعم . فقل له : يقول لك كعب : اجعلنى فى أىّ هذه الثلاثة شئت .

ومنه ما رواه عطاء بن يسار وأبو صالح عنه[4] أنه قال : أجد فى التوراة : أحمد عبدى المختار ، لا فَظّ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يُجزِى

(١) كذا فى خير البشر ص ٢٧ . والمعروف : «الجم» . (٢) فى خير البشر ص ٢٨ : «أمة أحمد» . (٣) فى خير البشر ص ٢٥ : «فرق البحر لموسى» . (٤) فى خير البشر ص ٢٨ : «أبو صالح عن كعب الأحبار» .

بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو و يصفح و يغفر ، أمّته الحمّادون ؛ يحمدون الله على كلّ حال ، و يسبّحونه فى كلّ منزلة ، و يكبّرونه على كل شَرَف ، يأتزرون على أوساطهم ، و يصونون أطرافهم (١) ، وهم رُعاة الشمس ، ومؤذّنهم ينادى فى جوّ السماء ، وصفّهم فى الصلاة سواء ؛ رهبان بالليل ، أسدٌ بالنهار ، لهم بالليل دَوِىٌّ كدوىّ النحل ، يصلّون الصلاة حيثما أدركتهم من الأرض ؛ مولده مكّة ، مُهاجَره طابة ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الأمّة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح الله به أعيُنا عُمْيا ، وآذانا صُمّا ، وقلوبا غُلْفا .

٣٨/١٤

ومنه ما روى أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب : دُلّنى على أعلم الناس بما أنزل الله على موسى لأسمع كلامك معه ، فذكر له رجلا من اليهود باليمن ، فأشخصه إليه ، فجمع معاوية بينهما ، فقال له كعب : أسألك بالذى فرق البحر لموسى أتجد فى كتاب الله المُنزَل أن موسى نظر فى التوراة فقال : يا رب إنى أجد أمة مرحومة ، وهى خير أمّة أخرِجت للنّاس ، يأمرون بالمعروف ، و ينهَون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأوّل (٢) ، و يؤمنون بالكتاب الآخِر (٣) ، و يقاتلون أهل الضلالة ، حتى يقاتلوا الأعور الكذّاب ، فاجعلهم يا ربّ أمّتى ، قال : هم أمّة أحمد ؟ قال الحبر : نعم أجد ذلك ، ثم قال : كعب للحبر : أنشدك الله الذى فرق البحر لموسى ، أتجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : رب إنى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شَرَف كبّر ، و إذا هبط واديا حمد الله ، الصعيد

(١) فى شرح المواهب ١ : ٣٦١ : « يشدون أوساطهم ، و يطهرون أطرافهم » ، وشد الوسط عبارة عن الاجتهاد فى العبادة ، وتطهير الأطراف كناية عن الوضوء .

(٢) قيل : الكتاب الأول هو التوراة ، وقيل : المراد جنس الكتب السابقة . انظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٧ .

(٣) هو القرآن . انظر السيرة الحلبية ١ : ٢١٧ .

لهم طهور ، يتطهّرون به من الجنابة كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء ، حيث كانوا فلهم مسجد ، غُرٌّ مُحَجَّلون من الوضوء ، فاجعلهم أمتى . قال : هم أمة أحمد ؟ فقال الحبر : نعم أجد ذلك ؛ قال : أنشدك الله الذى فرق البحر لموسى ، أتجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : رب إنى أجد أمة إذا همّ أحدُهم بحسنة ولم يعملها كُتبتْ له حسنة مِثلُها ، وإذا عملها أُضعفت له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عليه ، فإذا عَملها كُتبت عليه سيئة مِثلُها ، فاجعلهم أمتى ، قال : هم أمة أحمد ؟ قال الحبر : نعم ، أجد ذلك ؛ قال كعب : أنشدك الله الذى فرق البحر لموسى ، أتجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : يا رب إنى أجد أمة يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم ، إنهم يُطعمونها مساكينَهم ولا يُحرقونها كما كان غيرهم من الأمم يفعل ؟ . وجاء فى حديث آخر غير هذا مما هو منسوب إلى كتب الله السالفة : « يأكلون قرابينهم[1] فى بطونهم » . والمراد الضحايا .

ومنه ما روى عنه أنه قال : كان لأبى سِفرٌ من التوراة يجعله فى تابوت ويختم عليه ، فلما مات أبى فتحتُه ، فإذا فيه : إن نبيا يخرج فى آخر الزمان هو خير الأنبياء[2] ، وأمته خير الأمم ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله ، يكبّرون الله على كل شَرَف ، ويصفُّون فى الصلاة كصفوفهم فى القتال ، قلوبهم مصاحفهم ، يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلين ، اسمُه أحمد ، وأُمته الحمّادون ، يحمدون الله على كل شِدّة ورخاء ، مولدُه مكة ، ودارُ هجرته طابَة ، لا يَلقَون عدوًّا إلا وبين أيديهم

(١) فى خير البشر : « قرباتهم » .

(٢) فى الأصل : « آخر الأنبياء » .

ملائكةٌ معهم رِماح ، تَحنَّن الله عليهم كتَحنُّن الطير على فِراخها (١) ، يدخُلون الجنّة ؛ يأتى ثُلث منهم يدخلون الجنة بغير حساب (٢) ، ثم يأتى ثُلث منهم بذنوب وخَطايا ، فيُغفَر لهم ، و يأتى ثلث بذنوب وخَطايا عظام (٣) ، فيقول الله : اذهَبوا بهم فزِنوهم وانظروا إلى أعمالهم ، فيَزِنونهم (٤) و يقولون : ربنا ! وجدناهم قد أسرَفوا على أنفُسهم ، ووجَدنا أعمالهم من الذنوب أمثالَ الجبال ، غيرَ أنهم كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله ، فيقول الله : وعِزّتى لا أجعل مَن أخلص لى الشهادة كَمن كفَر بى ؛ قال كعب : فأنا أرجو أن أكون مِن هذه الثلاثة إن شاء الله تعالى .

ومنه ما روى أن رجلَين جلسا يتحدّثان وكعبُ الأحبار قريبٌ منهما ، فقال أحدهما : رأيت فيما يرى النائم كأن الناس حُشِروا ، فرأيت النبيّين كلّهم لهم نوران نوران ، ورأيت لأشياعهم (٥) نورًا نورا ، ورأيتُ محمدا صلى الله عليه وسلم وما من شَعرة فى رأسِه ولا جسدِه إلا وفيها نور ، ورأيت أتباعَه ولهم نوران نوران ، فقال له كعب : اتق الله تعالى يا عبدَ الله ! وانظر ما تتحدّث (٦) به ، فقال الرجل : إنما هى رؤيا مَنام أخبَرتُ بها على ما أُرِيتُها ، فقال كعب : والذى بعث محمدًا بالحق صلى الله عليه وسلم ، وأنزل التوراة على موسى بن عِمران ، إنّ هذا لفى كتاب الله المنزل على موسى بن عِمران كما ذكرت . ٣٩/١٤

وأما ما جاء (٧) عن أبى ثَعْلَبة وهو أبو مالك ، وكان من أحبار يهود ، فقد روَى الواقدىّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له : يا أبا مالك ! أخبِرنى

(١) فى الأصل : « كحنين » . (٢) فى خير البشر : « تأتى ثلة منهم فيدخلون » .
(٣) فى خير البشر : « تأتى ثلة » . (٤) فى الأصل : « فيزنوهم » تصحيف .
(٥) فى خير البشر : « لأتباعهم » . (٦) فى خير البشر : « ما تحدّث » .
(٧) انظر خير البشر لابن ظفر ص ١٠ .

بصفَة النبيّ صلّى الله عليه وسلم فى التّوراة، فقال : إن صفتَه فى توراة بنى إسرائيل[(١)] التى لم تُبَدَّل ولم تُغيَّر أحمدُ، من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وهو آخر الأنبياء ؛ وهو النبيّ العربىّ ، يأتى بدين إبراهيمَ الحنيف، يأتزر على وَسَطه ، ويغسل أطرافَه، فى عينَيه حُمْرة ، وبين كتِفيه خاتمُ النبوّة ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، يلبَس الشّملة ، ويحتزئ بالبُلْغة ويركب الحمار[(٢)] ، ويمشى فى الأسواق ، سيفُه على عاتقه ، لا يبالى مَن لَقِى من الناس ، معه صلاةٌ لو كانت فى قوم نوح ما أُهلِكوا بالطُّوفان ، ولو كانت فى قوم عادٍ ما أُهلِكوا بالرِّيح ، ولو كانت فى ثمودَ ما أُهلِكوا بالصَّيحة ، مَولِدُه مكّة ، ومَنشَؤه وبدءُ نبوّته بها ، ودارُ هجرته يَثرِب بين لابَتَىْ حَرَّة ونخلٍ وسبخة ، وهو أُمّىٌّ لا يكتُب ولا يقرأ المكتوب ، وهو الحمّاد يحمدُ الله على كلّ شدّة ورخاء ، سلطانُه بالشام ، وصاحبُه من الملائكة جبريلُ ، يَلقَى من قومه أذًى شديدا ، ثم يُدَال عليهم فيحصُدهم حَصْدا ، تكون له وقَعات بيَثْرِب ، منها له ومنها عليه ، ثم له العاقِبة ، معه قومٌ هم إلى الموت أسرعُ من الماء من رأس الجبل إلى أسفلِه ، صدورُهم أناجيلُهم ، وقُربانُهم دماؤهم ، لُيوثُ النهار رهبانُ الليل ، يُرعَب عدوّه منه مسيرةَ شهر، يباشر القتال بنفسه حتى يُجرَح ويُكلَم، لا شُرطةَ معه ولا حَرَس ، الله يحرسه .

وكان من هؤلاء أيضا عبد الله بن سَلَام[(٣)] ومُخَيريق[(٤)] ؛ وسنذكر أخبارهما إن شاء الله تعالى عند ذكر إسلامهما بعد الهجرة على ما تقف عليه هناك .

هذه روايةُ من أسلَم من أهل الكتاب .

(١) فى خير البشر ص ١٠ : « بنى هارون » .

(٢) فى خير البشر : « ويحارب على البغلة، ويركب الجمل » .

(٣) بتخفيف اللام كما فى الروض الأنف ٢ : ٢٥، وانظر شرح الشفا للخفاجى ٣ : ٢٦٤ .

(٤) فى الأصل : « مخيرق » تصحيف ، والتصحيح عن سيرة ابن هشام ٢ : ١٦٤ ، وانظر الروض الأنف ٢ : ٢٦، ونسيم الرياض ٣ : ٢٦٥ .

وأما مَن بشَّر به صلّى الله عليه وسلم من أهل الكتابين ممّن لم يسلم ظاهرا، ولا عُلِم لهم إسلام، ومن أقرّ بنبوّته صلى الله عليه وسلم ولم يُدرَ له مكان.

فمن هؤلاء[1] من بَشَّر به وأَخبر بنبوّته قبل مَولِدِه، ومنهم من ذكر ذلك حالَ مَولِدِه لقرائنَ كان يَرقُب وقوعَها تدلّ على مَولِده فوقعت؛ ومنهم من بَشَّر به في حال طفوليّته، ومنهم من بَشَّر به قبل مَبعَثِه، ومنهم من ذكر صِفتَه بعد مَبعثِه ورُؤيته له، وذكر قومه بها وحقّق عندهم أنه هو، ودليلُ كلٍّ منهم ما كان يجده عندَه من أخباره في الكتُب السالفة التي تلقّاها عن أسلافه، ومنهم من أظهرَ صُحفا كانت عنده فيها صريحُ ذكره وصفتِه، ومنهم من أظهرَ تِمثالَ صورته، وصُورَ بعض أصحابه وهيئتهم، وكان ذلك مصوّرا في بيوتٍ في بِيَعهم على ما تذكر ذلك مُسهبا[2] إن شاء الله.

فأما من بشّر به وأخبر بنبوّته وصفتِه صلّى الله عليه وسلم قبل مولِدِه؛ فمن ذلك ما حكاه ابن إسحاق في خبر تُبَّع الأوّل[3]، قال: وكان من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا بأسرها، وكان له وزراء، واختار منهم واحدا، وأخرجه معه، وكان يسمّى عماريشا[4]، وأخذه لينظر في مملكته، وخرج معه مائة ألف من الفرسان، وثلاثة وثلاثون ألفا، ومائة ألف وثلاثة عشر ألفا من الرَّجّالة، وكان إذا أتى بلدةً يختار منها عشرة رجال من حكمائها، حتى جاء إلى مكة، فكان معه مائة ألف رجل من العلماء والحكماء الذين اختارهم من البلدان، فلم يَهَبْه أهل مكة

(١) في الأصل: «من».

(٢) في الأصل: «سبيا».

(٣) وردت هذه البشرى في ثمرات الأوراق ص ١١٠.

(٤) في ثمرات الأوراق هنا وفيما يأتي: «عماريا».

ولم يعظّموه ، فغضب لذلك ، ثم دعا وزيره عماريشا[1] وقال : كيف شأن أهل هذه البلدة ؟ فإنهم لم يهابونى ، ولم يخافوا عسكرى ، فقال : أيها الملك إنهم قوم عَرب[2] جاهلون لا يعرفون شيئا ، وإن لهم بيتا يقال له كعبة ، وهم مُعجَبون بهذا البيت ، وهم قوم يعبدون الطّواغيت ، ويسجدون للأصنام . فقال الملك : وهم مُعجَبون بهذا البيت ؟ قال : نعم ، فنزل بعسكره ببطحاء مكّة ، وفكر فى نفسه دون الوزير ، وعزَم على هدم الكعبة ، وتسميتها خرِبة ، وأن يقتلَ رجالهم ، ويَسبِى نساءهم ، فأخذه الله بالصُّداع ، وتفجّر من عينَيه وأُذنَيه ومُنخُرَيه وفمه ماء مُنتِن ، فلم يَصبِر عنه أحد طرفَة عين من نتن الريح ، فاستيقظ لذلك وقال لوزيره : اِجمع العلماء والحكماء والأطبّاء وشاوِرْهم فى أمرى ، فاجتمع عنده الأطبّاء والعلماء والحكماء ، فلم يقدروا على المُقام عنده ، ولم يمكنهم مداواته ، فقال : إنى جمعت الأطبّاء والعلماء والحكماء من جميع البلدان ، وقد وقعتُ فى هذه الحادثة ولم يقدِروا على مُداواتى ، فقالوا بأجمعهم : إنا نَقدِر على مُداواة ما يَعرِض من أمور الأرض ، وهذا شىء من السماء لا نستطيع ردّ أمر السماء ، ثم اشتدّ أمرُه ، وتفرّق الناس عنه ، ولم يزل أمرُه فى شِدّة حتى أقبل الليل ، فجاء أحَدُ العلماء إلى الوزير وقال : إن بينى وبينك سرا ، وهو إن كان الملك يَصْدُقنى فى حديثه عالجته ، فاستبشر الوزير بذلك وأخذ بيده ، وحمله إلى الملك ، وأخبره بما قال الحكيم ، وما التمسه من صِدق الملك ، حتى يعالجَ علّته ، فاستبشر الملك بذلك ، وأذن له فى الدُّخول ، فلما دخل قال : أريد الخلوة ، فأخلِى له المكان ، فقال : نويتَ لهذا البيت سوءا ؟ قال : نعم ؛ إنى نويتُ خرابه ، وقتل

(١) فى ثمرات الأوراق : « عماريا » وقال كيف شاهدت هذه البلدة » .

(٢) فى الأصل : « عربيون » ، والتصويب عن ثمرات الأوراق .

رجالهم ، وسبَى ذَراريّهم ، فقال له : إنّ وجعك وما بُليتَ به من هذا . اعلم أن صاحب هذا البيت قَوىٌّ يعلم الأسرار ، فبادر وأَخرِج من قلبك ما هممتَ به من أذى هـذا البيت ولك خيرُ الدنيا والآخِرة ، قال الملك : أفعل ، قد أخرجتُ من قلبي جميـع المكروهات ، ونويت جميع الخيرات ، فلم يخرج العالِم من عنـده حتى برِئ من عِلّته ، وعافاه الله بقدرته ، فآمن بالله من ساعته ، وخرج من منزِله صحيحا على دين إبراهيم عليه السلام ، وخلع على الكعبة سبعة أثواب ، وهـو أوّل من كسا الكعبة ، ودعا أهلَ مكة ، وأَمَرهم بحفظ الكعبة ، وخرَج إلى يَثرِب ، وهى يومئذٍ بُقعةٌ فيها عينُ ماء ليس فيها بيتٌ مبنىّ ولا بنـاء ، فنزَل على رأسِ العين هو وعسكَره وجميعُ العلماء الذين كانوا معه ، ومعهم رئيسُهم عماريشا الذى كان يَرى برأيه .

ثم إن العلماءَ والحكماء اجتَمعوا ، وكانوا أربعةَ آلاف ، فأَخرَجوا من بينهم أربعمائة هم أَعلمُهم ، وبايَع كلُّ واحدٍ منهم صاحبَه أن لا يَخرُجوا من ذلك المقام وإن ضَربهم الملِك أو قَتَلهم ، فلما علِم الملكُ ما قد عَزَموا عليه ، قال للوزير : ما شأنُهم يَمتنعون عن الخرُوج معِى ، وأنا محتاج إليهم ؟ وأىّ حِكمة فى نزولهم فى هذا المكان ، واختيارِهم إياه على سائر النّواحى ، فلمـا أتاهم الوزير وسألَهم عما عَزَموا عليـه ، واختيارَهم المقـام بهذه البُقعة ، قالوا له : أيها الوزير ! إن شَرَف ذلك البيت ، وشَرَف هذه البُقعة التى نحن فيها بِشَرَف رجل يُبعَث فى آخر الزمان ، يقال له محمد ووصفوه ، ثم قالوا : طُوبَى لمن أدركه وآمن به ، وقـد كنا على رجاء أن نُدرِكَه أو يُدرِكه أولادُنا ، فلما سمع الوزير مقالتَهم هَمَّ بالمُقام معهم ، فلما جاء وقت الرحيل أمَرَهم الملك أن يرتحلوا ، فقالوا : لا نفعل ، وقد أعلَمنا الوزيرَ بحكمة مُقامنا ، فدعا الوزيرَ فأخبره بما سمع منهم ، فتفكّر الملك وهَمّ أن يقيم معهم سنةً رجاءَ أن يدرِكَ محمدا صلى الله عليه وسلم ، فأقام وأمر الناس أن يبنوا أربعمائة دار ، لكل رجل من العلماء

دار ، واشترى لكل واحد منهم جارية وأعتقها وزوّجها برجل منهم ، وأعطى كلّ واحد منهم عطاءً جزيلا ، وأمرهم أن يُقيموا فى ذلك الموضع إلى أن يجىء زمانُ النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم كتب كتابا وختمه بخاتم من ذهب ، ودفعه إلى العالِم الكبير، وأمره أن يدفع الكتاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم إن أدركه ، و إلا أوصَى به أولادَه بمثل ما أوصاه به ، وكذلك أولاده حَتّى ينتهى أمرُه إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكان في الكتاب : أما بعد فانى آمنتُ بك و بكتابك الذى أُنزِل عليك، وأنا على دينك وسُنّتك، وآمنتُ بربك وربِّ كلّ شىء، وآمنتُ بكل ما جاء من ربِّك من شرائع الإيمان والإسلام ، فإن أدركتُك فبها وَنِعْمت ، و إن لم أُدركك فاشفَع لى، ولا تنسَنى يومَ القيامة، فإنى من أمّتك الأوّلين، وتابِعيك[1] قبلَ مجيئك، وأنا على ملّتك وملّة أبيك إبراهيم عليه السلام . ثم ختم الكتاب ونقش عليه : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وكتب على عنوانه إلى محمد بن عبدالله نبيّ الله ورسوله ، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، صلّى الله عليه وسلّم، من تُبّع الأوّل حِمْيَر بن حِمْيَر ابن وردع[2] أمانةً لله فى يد من وقع اليه إلى أن يوصِله إلى صاحبه ، ودفع الكتابَ إلى الرجل العالم الذى أبرأه من علّته . وصار تُبّع من يَثرب حتى مات بقلسان[2] من بلاد الهند .

وكان من اليوم الذى مات فيه تُبّع الى اليوم الذى بُعِث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا تزيد ولا تنقص، وكان الأنصار الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء والحكماء ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة، سأله أهلُ القبائل أن يَنزِل عليهم على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى؛ فكانوا يتعلّقون بناقته وهو يقول : خَلّوا الناقة فإنها مأمورة، حتى جاءت الى دارَ أبى أيّوب، وكان من أولاد العالم الذى أبرأ تُبعا برأيه .

(١) فى ثمرات الأوراق : «وقد بايعتك» . (٢) كذا فى الأصل .

قال ابن إسحاق : واستشار الأنصارُ عبدَ الرحمن بنَ عوف فى إيصال الكتاب الى النبي صلى الله عليه وسلم لمّا ظهر خبره قبلَ هجرته ، فأشار عبد الرحمن أن يدفعوه الى رجل ثقة ، فاختاروا رجلا يقال له أبو لَيلَى وكان من الأنصار ، فدفعوا الكتاب إليه وأوصَوْه بحفظه ، فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة ، فوجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قبيلة من بنى سُليم ، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاه وقال : أنت أبو لَيلَى ؟ فقال : نعم ، قال : معك كتاب تُبَّع الأول ؟ قال : نعم ، فبقى الرجل متفكّرا ، وقال فى نفسه : إن هذا من العجائب ، ثم قال له أبو لَيلَى : مَن أنت ، فإنى لست أعرفك ؟ إن فى وجهك أثرَ السحر ، وتوهّم أنه ساحر ، فقال له : بل أنا محمد رسول الله ، هات الكتاب ، فأخرجه ودفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم ودَفعه الى علىّ كرم الله وجهه ، فقرأه عليه ، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام تُبَّع قال : مرحبا بالأخ الصالح ثلاثَ مرّات ، ثم أمرَ أبا لَيلَى بالرجوع الى المدينة ، فرجع وبشّر القوم بقدوم النبي صلى الله عليه وسلّم .

ومن ذلك ما روى أن أبا كَرِب تبان بن أسعد ملك اليمن[1] أحد التبابعة لما قصد بلاد الشرق[2] ، جعَل طريقه على يَثرب ، فلم يهج أهلهَا ، وخلّف بين أظهرهم ابنا له ، فقُتل غِيلَةً ، فقدِمها وهو مُجمع لإخرابها واستئصال أهلِها وقطْع نخلِها ، فجمَع له أهل المدينة ورئيسُهم يومئذ عمرو بنُ طَلَّة أحد بنى النجار ؛ وهو عَمرو بن مُعاوية بن عَمرو بن عامر بن زُرَيق بن عبد حارثة بن مالك بن النجّار ، وطَلّة أمه ؛ وهى بنت عامر بن زُرَيق بن عامر بن زُرَيق بن عبد حارثة[3] .

(١) انظر الكامل لابن الأثير فى « ذكر حوادث العرب أيام قباذ » .

(٢) فى التيجان ص ٢٩٤ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢١ : « المشرق » .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢١ .

قال محمد بن إسحاق[(١)] :

وكان رجل من بنى عَدىّ بن النجّار ويقال له أحمر، عَدا على رجل من أصحاب تُبَّع حين نزل بهم فقتله، وذلك أنه وجده فى عَذْقٍ له يَجُذُّه، فضربه بمنجله فقتله، وقال : إنما التمر لمن أبّره، فزاد ذلك تُبَّعا حَنَقا عليهم فاقتتلوا، فكان أهلُ المدينة، وهم هـذا الحىّ من الأنصار يقاتلونه بالنهار ويَقْرُونَه باللّيـل، فيُعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا لَكِرام . وفى ذلك يقول حسّان بن ثابت من قصيدة لم يذكُر فيها قومَه :

قَرَوْا تُبَّعًا بيضَ المواضِى ضَحاة وكومَ عِشار بالعشيات نهّض

قال فبينا تُبَّع على ذلك من حربهم[(٢)] إذ جاءه حَبْران من أحبار يهود من بنى قُرَيظة عالمـان راسخان، حين سمعا بمـا يُريد من إهلاك يَثرب وأهلها، فقالا له : أيهـا الملك، لا تفعَل، فإنك إن أبيتَ إلا ما تريد حِيلَ بينَك و بينهـا، ولم نأمَن عليك عاجلَ العقوبة، فقال لهما : ولم ذلك ؟ قالا : هى مُهاجَر نبىّ يخرج من هذا الحَرَم من قُريش آخرَ الزمان، تكون دارَه وقرارَه . فرأى تُبَّع أن لهما علْما، فانصرف عن المدينة واتّبعهما على دينهما .

ومن ذلك خبر سَلمان الفارسىّ[(٣)] وقصته فى سبب إسلامه وهجرته إلى المدينة . ٤٢/١٤
رُوى عن عبـد الله بن عبـاس رضى الله عنهما، قال : حدثنى سَـلمان الفارسىّ من فِيه، قال : كنتُ رجلا فارسيا من أهل أصْبَهان، من أهل قَرية يقال لها جَىّ،

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢١ ، وانظر الخميس للديار بكرى ١ : ٢٧ .
(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٢ : «فبينا تبع على ذلك من قتالهم» .
(٣) نظر البداية والنهاية ٢ : ٣١٠ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٢٨ .

وكان أبى دِهْقانَ[1] قريته، وكنت أحَبَّ خلق الله إليه، ثم لم يزل به حبُّه إياى حتى حَبَسنى فى بيته كما تُحبَس الجارية، واجتهدتُ فى المجوسية حتى كنت قَطَنَ[2] النار الذى يوقِدُها لا يتركها تخبُو ساعة؛ قال: وكان لأبى ضَيْعَة عظيمة، فشُغِل فى بنيان له يوما، فقال يابنى: إنى قد شُغِلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضَيْعتى، فاذهب إليها، فأمَرنى فيها ببعض مايريد ثم قال: ولا تحتبس عنى، فإنك إن احتبستَ عنى كنتَ أهمّ إلىّ من ضيعتى وشغلتَنى عن كل شىء من أمرى؛ قال: فخرجت أريدُ ضيعته التى بعثنى إليها، فمررتُ بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يُصلُّون، وكنت لا أدرى ما أمر الناس بحَبْس[3] أبى إياى فى بيته، فلما سمعتُ أصواتهم دخلت عليهم أنظرُ ما يصنعون، فلما رأيتُهم أعجبتنى صلاتهم، ورغبتُ فى أمرهم وقلت: هذا والله خيرٌ من الدّين الذى نحنُ عليه، فوالله مابرِحتُهم حتى غَرَبت الشمس، وتركت ضَيعة أبى فلم آتِها، ثم قلتُ لهم: أين أصل هذا الدِّين؟ قالوا: بالشام، فرجعتُ إلى أبى وقد بعثَ فى طلبى، وشغلتُه عن عَمله كلّه، فلما جئتُه قال: أى بُنَىّ! أين كنت؟ ألم أكن عهِدتُ إليك ما عهِدت؟ قلتُ: يا أبت! مررتُ بأناس يُصلُّون فى كَنيسة لهم، فأعجَبنى ما رأيتُ من دينهم، فوالله ما زلتُ من عندهم حتى غَرَبت الشّمس، قال: أى بُنَى! ليس فى ذلك الدين خيرٌ، دينُك ودينُ آبائك خيرٌ منه، قلتُ له: كلا والله! إنه لخَيرٌ من ديننا، قال: فخافنى فجعل فى رجلى قَيْدًا ثم حبَسنى فى بيته، فبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدِم عليكم رَكْبٌ من الشام تجّار فأخبِرونى بهم، قال: فقدم عليهم رَكب من الشام تجار من النّصارَى فأخبَرونى بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجَهم، وأرادوا الرجعة

(١) الدهقان رئيس الإقليم، أو مقدم القرية أو زعيم فلاحى العجم (تاج — دهقن).

(٢) قطن النار: خادمها.

(٣) فى السيرة ١: ٢٢٩: «لحبس».

إلى بلادهم، فآذنُونى بهم ، فلما أرادوا الرجعة أخبرونى بهم ، فألقيت الحديد من رجلى، ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام، فلما قدمتها قلتُ: مَن أفضلُ أهل هذا الدين عِلْما ؟ قالوا الأُسْقُف فى الكَنيسة ، فجئتُه فقلت : إنى رغبت فى هذا الدين ، وأحببتُ أن أكون معَك وأخدُمَك وكنيسَتَك ، وأتعلَّمَ منك ، وأصلِّى معك ، قال : آدخل ، فدخلت معه ، فكان رجُلَ سُوء ، يأمرهم بالصَّدقَة ويُرغِّبهم فيها ، فإذا جمَعوا إليه شيئا منها اكتنَزه لنفسه ولم يُعْطِه المساكين، حتى جَمَع سَبْع قِلالٍ من ذهب ووَرِق، قال : وأبغضتُه بُغضًا شديدا لما رأيتُه يصنع، ثم مات واجتمعَتْ له النّصارَى ليدفنوه فقلتُ لهم : إن هذا رجل سُوء، يأمركم بالصّدقَة ويرغّبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يُعطِ المساكين منها شيئا، فقالوا لى : وما علمُك بذلك ؟ قلت : أنا أدلّكم على كنزه ، قالوا : فدُلّنا عليه ، فأريتُهم موضعَه ، فاستخرجوا سبعَ قلال مملوءة ذهبا ووَرِقا ، فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنُه أبدا ، فصَلَبوه ورجَموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعَلوه مكانَه. قال : يقول سَلْمان : فما رأيت رجلًا لا يصلِّى الخمسَ أُرَى أنه أفضَل منه، وأزهد فى الدنيا، ولا أرغب فى الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهارًا منه، قال: فأحببتُه حبا لم أحبّه شيئا قبلَه ، فأقمتُ معه زمانا، ثم حضرَتْه الوفاة فقلت له : يا فلان إنى قد كنتُ معك وأحببتُك حبا لم أُحِبّه شيئا قبلك ، وقد حضَرك ما ترَى من أمر الله، فإلى مَن تُوصِى بى وبِمَ تأمُرُنى؟ قال : أى بُنَىّ، والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنتُ عليه ، لقد هلك الناس ، وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلًا بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه، فالحَق به . قال : فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب الموصِل فقلت له : يا فلان إن فلانا أوصانى عندَ موته أن ألحَق بك، وأخبَرَنى أنك على أمره، فقال لى : أقِم عندى، فأقمت عنده

فوجدتُه خير رجل على أثر[1] صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إنّ فلانا أوصَى بى إليك، وأمَرنى باللُّحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما تَرَى، فإلى من توصى بى وبِمَ تأمُرنى؟ قال: يا بُنَىّ والله ما أعلم رجلا على مِثْل ما كنّا عليه إلا رجلا بنَصيبين، وهو فلان، فالْحق به، فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب نَصيبين، فأخبرتُه خبرى، وما أمَرَنى به صاحبي، فقال: أقِم عندى، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضِر قلت له: يا فلان إن فلانا كان أوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من تُوصِى بى وبم تأمرنى؟ قال يا بُنَىّ والله ما أعلَمُه بقى أحد على أمرنا، فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب عَمّورية، فأخبرته خَبَرى، فقال: أقِم عندى، فأقمتُ عند خيرِ رجل على هَدْى أصحابه وأمْرِهم، قال: واكتسبتُ حتى كانت لى بقَرات وغُنَيْمة، قال: ثم نزل به أمرُ الله، فلما حُضِر قلت له: يا فلان إنى كنتُ مع فلان فأوصَى بى إلى فلان، ثم أوصَى بى فلان إلى فلان، ثم أوصَى بى فلان إلى فلان، ثم أوصَى بى فلان إليك، فإلى من تُوصِى بى وبِمَ تأمُرُنى؟ قال: يا بُنَىّ والله ما أعلَمه أصبحَ أحدٌ على مثل ما كنّا عليه من الناس آمرك أن تأتِيَه، ولكنه قد أظلَّ زمانُ نبىّ هو مبعوثٌ بدِين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجَرُه إلى أرضٍ بين حَرّتين بينهما نخل، به علامات لا تَخفَى؛ يأكل الهَدِية ولا يأكل الصَّدَقة، بين كتفَيْه خاتَم النبوّة، فإن استطعتَ أن تلحق بتلك البلاد فافعل، قال: ثم مات وغُيِّب، ومكثتُ بعَمّورية ما شاء الله أن أمكُث، ثم مرّ بى نفَر من كَلْب تُجّار فقلت لهم، احملونى إلى أرض العَرَب، وأعطيكم بقَراتى هذه،

٤٣/١٤

(١) فى السيرة لابن هشام ١: ٢٣١: «على أمر».

وغُنَيمتي هذه، قالوا : نعم . وأعطيتُهموها وحملوني معهم، حتى [إذا] بلغوا وادى القُرى ظلموني فباعوني من رجل يَهُودىّ عبدًا ، فكنت عنده، و رأيتُ النخل ، ورجوت أن يكون البلد الذى وَصَفَ لى صاحبي ، ولم يَحِقّ فى نفسى ؛ فبينا أنا عنده ، إذ قدِم عليه ابنُ عمٍّ له من بنى قُرَيظة من المدينة ، فابتاعنى منه، فحملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُها بصِفَة صاحبي، فأقمت بها . و بُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام بمكة ما أقام، لا أسمَعُ له بذِكرٍ معَ ما أنا فيه من شُغْل الرِّقّ، ثم هاجرَ إلى المدينة ، فوالله إنى لَفى رأس عَذْقٍ لسيدى أعمَل له فيه بعضَ العمَل، وسيدى جالس تحتى إذ أقبل ابنُ عمٍّ له ، حتى وقَف عليه فقال : يا فلان ، قاتل الله بنى قَيْلة[1] ، إنهم والله الآن لَمُجتمعون بقُبَاء[2]، على رَجُل قدِم عليهم من مكة اليوم يزعُمون أنه نبىّ ، قال : فلما سمعتُه أخذتنى العُرَواءُ[3] حتى ظننت أنى ساقط[4] على سيدى، فنزلتُ عن النخلة فجعلتُ أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ فغضِب سيدى ولكَمنى لَكمةً شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبِل على عملك ، فقلت لا شيءَ إنما أردتُ أن أستثبِته عما قال . قال سلْمان : وكان عندى شيء قد جمعتُه، فلما أمسيتُ أخذتُه ثم ذهبتُ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقُبَاء ، فدخلت عليه فقلتُ له : إنه قد بلغَنى أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غُرَباء ذَووا حاجة ، وهذا شيء كان عندى للصّدقة، فرأيتكم أحقّ به من غيركم ، قال : فقرّبتُه إليه ، فقال لأصحابه : كلوا ! وأمسك يده

(١) يريد الأوس والخزرج؛ لأن قيلة بنت كامل أم الأوس والخزرج . وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٢ .

(٢) قباء بالضم : قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة .

(٣) العرواء : الرعدة والانتفاض من الحمى والبرد .

(٤) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٣ : « أنى ساسقط » .

فلم يأكل . قال : قلتُ فى نفسى : هذه واحدة ، ثم انصرفتُ عنه فجمعتُ شيئا ، وتحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم جئتُه به ، فقلت : إنى قد رأيتُك لا تأكل الصَّدَقة ، وهذه هَدية أكرمتُك بها ، قال : فأكل منها ، وأمر أصحابَه فأكلوا معه ، قال : قلت فى نفسى : هاتان ثِنتان . قال : ثم جئتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ببَقيع الغَرْقَد[1] قد تبع جنازَة رجل من أصحابه ، علىَّ شِملتان لى ، وهو جالس فى أصحابه ، فسلّمت عليه ثم استدَرت أنظر إلى ظَهره ، هل أرَى الخاتَم الذى وُصِف لى ، فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرتُه ، عرَف أنى استَثْبت من شىء وُصف لى ، فألقى رداءه عن ظَهره فنظرتُ إلى الخاتَم فعرفتُه فأكببت عليه أُقبِّله وأبكى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحوّل ! فتحولتُ فجلستُ بين يديه ، فقَصَصت عليه حديثى كما حدثتُك يابنَ عباس ، فأعجب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابُه .

ثم شغَل سلمانَ الرِّق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرٌ وأُحُد . قال سَلمان : ثم قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : كاتِبْ يا سَلْمان ، فكاتَبتُ صاحِبى على ثَلاثِمائة نخلَةٍ أُحْيِيها له بالفقير ، يعنى الآبار الصِّغار ، وأربعين أُوقية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أعينوا أخاكم ، فأعانونى بالنَّخل ؛ الرجلُ بثلاثين وَديةً[2] ، والرّجل بعشرين وَدِية ، والرجل بخمس عَشْرة وَدِية ، والرجلُ بعشْرٍ ؛ يُعين الرجُلُ بقدر ما عنده ، حتى اجتمعَتْ لى ثلاثُمائة وَدِية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب يا سَلْمان فَفَقِّر لها[3] ، فإذا فرغتَ فأتنى ، أكن أنا

(١) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة .

(٢) الودىّ : صغار النخل واحدتها ودية .

(٣) فقر لها : أى احفر لها .

أضعُها بيـدى . قال : ففقّرت، وأعاننى أصحابى حتى إذا فرغتُ جئتُه فأخبرتُه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معى إليها، فجعلْنا نقرّب إليه الوَدِىّ ، ويضعُه رسولُ الله صـلى الله عليه وسـلم بيده حتى إذا فَرَغنا[1] ، فوالذى نفسُ سَلْمان بيده ما مات منها وَدِية واحدة، فأدّيتُ النخل، وبقى علىّ المـال ، فأتَى رسول الله صلى الله عليـه وسلم بمثل بَيْضة الدَّجاجة من ذَهب من بعض المعادن ، فقال : ما فعل الفارسىّ المُكَاتَب ؟ قال : فدُعيت، فقال : خذ هذه فأدِّها ممـا عليك يا سَلْمان، قال: وقلت وأين تقع هذه يا رسول الله ممـا علىّ؟ فقال : خذها، فإن الله سيؤدّى بها عنك، وفى رواية : فأخذَها رسول صلى الله عليه وسلم فقلّبها على لسانه ثم قال : خذها فأوفهم منها. قال : فأخذتُها فوزنتُ لهم منها — والذى نَفسُ سَلْمان بيده — أربعين أُوقيةً ، فأوفَيتُهم حقّهم منها، وعتَق سَلمانُ . فشهدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخَندَق حُرّا ، ثم لم يُفتنى معه مَشْهد .

٤٤/١٤

قال محمـد بن إسحاق[2] بسند رفعـه إلى عُمر بن عبد العزيز، أنه قال : حُدِّثتُ عن سَلمان أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسـلم حين أخبره : إن صاحب عَمُّورية قال له : آئت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلا بين غَيْضَتين[3] يخرج فى كل سـنة من هذه الغَيْضة إلى هـذه الغَيْضة يعترضه ذَووا الأسقام[4]، فلا يدعو لأحَدٍ منهم إلا شُفِى ، فآسأله عن هذا الدِّين الذى تَبتغِى ، فهو يُخبرك عنه ، قال سَلمان : فخرجتُ حتى جئت حيثُ وَصف لى ، فوجدتُ الناسَ قد اجتمعوا بمرضاهم هناك ،

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٥ : « حتى فرغنا » .

(٢) نقله ابن هشام ١ : ٢٣٦ .

(٣) الغيضة : الشجر الملتف .

(٤) فى الأصل : « من هـذه الغيضة مستجيزا دواء الأسقام » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٦ .

حتّى يخرج لهم تلك الليلة مُستجيزا من إحدى الغَيْضتين إلى الأُخرَى، فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شُفِي، وغلَبونى عليه، فلم أَخلُص إليه حتى دخَل الغَيْضة التى يريد أن يدخل إلى مَنكِبه[1]، قال: فتَناولتُه، فقال: من هذا؟ والتفت إلىّ، قلت يرحمُك[2] الله أَخبِرنى عن الحنِيفية دين إبراهيم، قال: إنك لتسألُنى عن شىء ما يَسأل عنه النـاسُ اليوم، وقد أظلّ زمانُ نبىٍّ يُبعَث بهـذا الدين من أهل الحَرَم، فأتِه، فهو يَحمِلُك عليه، ثم دخل. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت صدقتَنى[3] يا سَلمان، لقد لقيت عيسى ابنَ مريم[4].

وقد رُوِى حديثُ إسلام سَلْمان على غير هذا الوجه، إلا أنه غير مُنَافٍ له فيما هو مختصٌّ برسول الله صـلى الله عليه وسلم. والله سبحانه وتعـالى أعلم بالصواب وإليه المرجع.

وأما مَن بشّر به عند مَولده صلى الله عليه وسلم للقرائن التى كان يَتوقّع وقوعها تَدل على مَولدِه، فوقعت.

فمن ذلك ما رُوى أن يهـوديا قال لعبد المطّلب جدِّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم: يا سيدَ البَطْحاء إن المولود الذى كنتُ حدَّثتُكم عنه قـد وُلد البارحة، فقال عبدُ المطلب: لقد وُلد لى البارحةَ غلام، قال اليهودىّ: ما سميتَه؟ قال: سميتُه محمدًا، قال اليهودىّ: هذه ثلاثٌ يشهدن علىّ بنبوته؛ إحداهن: أن نجمَه طلع البارحة، والثانية: أن اسمه محمد، والثالثة: أنه يُولَد فى صُبَابة[5] قومه، وأنت يا عبدَ المطّلب صبابتهم.

(١) رواية ابن هشام ١: ٢٣٦، والبداية ٢: ٢١٤: «إلا منكبه». (٢) ابن هشام ١: ٢٣٦: «فقلت». (٣) فى سيرة ابن هشام ١: ٢٣٦، والبداية ٢: ٣١٤: «لئن صدقتنى».

(٤) لهم فى هذا الحديث كلام تجده فى البداية لابن كثير ٢: ٣١٤. (٥) فى الأصل: «صباتهم»، ح صبابة القوم: خالصتهم وخيارهم». وهى حاشية أدخلت بالمتن فيما أظن.

ومنه ما رُوِى أن حسّان بن ثابت قال : والله إنى لعلى أُطُمِى[1] فارع فى السَّحر إذ سمعت صوتا لم أسمع قط صوتا أنفذ[2] منه ، و إذا[3] هو صوت يهودىّ على أُطُم من آطام اليهود معه شُعلة نار ، فاجتمع الناس إليه وأنكروا صُراخه فقالوا : مالك ويلك ! قال حسّان : فسمعتُه يقول : هذا كوكبٌ أحمر قد طَلع ، وهو كوكب لا يطلُع إلّا بالنبوّة ، ولم يبق من الأنبياء إلا أحمد ، قال حسّان : فجعل الناس يضحَكون منه ويعجَبون لما أتَى به ، قال : وكان أبو قَيْس أحدُ بنى عدىّ بن النجّار قد ترهّب ولبس المُسوح ، فقيل له يا أبا قيس ! أنظر ما قال هذا اليهودى ! قال : صدَق وإن انتظار أحمد هو الذى صنَع به ما صنَع ، ولعلّى أن أُدرِكه فأومنَ به ، فلما بلغه ظهور النبى صلى الله عليه وسلم بمكّة آمن به ، وقدم النبىُّ صلى الله عليه وسلم المدينة وقد نالَت السنّ من أبى قَيْس .

وقد أشرنا إلى خبرَ حسّان هذا عند ذكرنا لمولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والأخبار فى هذا الباب كثيرة ، فلا نطوّل بسردها .

وأما من بشّر به صلى الله عليه بعد مَوْلِدِه فى حال طفوليته وحَداثةَ سنه .

فمن ذلك خبر سَيف بن ذِى يَزَن ، وقصّته مع عبد المطلب ، وكان من خَبَره ما رواه الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البَيْهَقىّ رحمه الله فى كتابه المترجم بدلائل النبوّة قال : أخبرنا أبو سهل محمد بن نَصْرَوَيْه بن أحمد المَرْوَزِىّ بنيسابور ، قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن صالح المَعَافِرىّ ، قال : حدثنا أبو يَزَن الحِمْيَرىّ إبراهيم ابن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن عُفَير بن زَرْعة بن سيف بن ذِى يَزَن ، قال :

٤٥/١٤

(١) الأطم : حصن مبنى بحجارة ، أو كل بيت مربع مسطح .

(٢) فى خير البشر ص ٥٥ : « أنفذ منه » .

(٣) فى الأصل : « و إذا صوت يهودى » ، والمثبت عن ابن ظفر ص ٥٥ .

حدّثنى عمّى أحمد بن حبيش بن عبد العزيز ، قال : حدّثنى أبى عُفير ، قال : حدّثنى أبى زرْعَة بن سيف بن ذى يَزَن ، قال : لما ظهر سيف بن ذى يَزَن على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين أتَتْه وفود العرب وأشرافُها وشعراؤُها لتهنئته ، وتذكُّر ما كان من بَلائه وطلَبه بثأر قومه ، وأتاه وَفدُ قريش، منهم : عبد المطّلب بن هاشم ، وأُميةُ بن عبد شمس، وعبد الله ابن جُدْعان، وأسَد بن عبد العُزّى، ووَهْب بن عبد مَناف، وقُصَىّ بن عبد الدار، فدخل عليه آذِنُه وهو فى قَصرٍ يقال له غُمْدان ، والملك مُضمَّخ بالعَبير ، وعليه بُردان أخضَران ، مُرتدٍ بأحدهما متَّزِرٌ بالآخر، سيفُه بين يدَيه، وعن يمينه وشماله الملوك ، فأخبر بمكانهم فأذن لهم، فدخلوا عليه ، فدنا منه عبد المطّلب فاستأذنه فى الكلام ، فقال : إن كنتَ ممن يتكلّم بين يدى الملوك فقد أذِنّا لك ، فقال : إن الله عز وجل أحَلَّك أيها الملك مَحلا رفيعا شامخا منيعا ، وأنبتَك نباتا طابت أُرومَتُه ، وعظُمت جُرثومتُه ، وثبَت أصله، وبسَق فرعُه ، فى أطيب موضع وأكرم مَعدن ؛ وأنت — أبيتَ اللّعن — مَلكُ العرب الذى عليه الاعتماد ، ومَعقِلها الذى تلجأ إليه العباد، سلفُك خير سلَف، وأنت لنا منهم خيرُ خلَف، فلن يَهلِك ذِكر من أنتَ خلفُه ، ولن يخمُل ذكرُ من أنت سلفُه ، نحن أهل حَرَم الله وسَدَنَة بيت الله ، أشخصَنا إليك الذى أبهجَنا من كشفِك الكَرْب الذى فدَحَنا ، فنحن وَفد التَّهنئة، لا وَفدُ المَرزِئة .

قال له الملك : من أنت[2] أيها المتكلّم ؟ فقال : أنا عبدُ المطّلب بن هاشم ، قال : ابنُ أخينا ؟ قال : نعم، قال : آدنُهْ ، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال :

(١) فى دلائل النبوّة للبيهقى (ق ٩٥ و) : « ولن يخمل من » .

(٢) فى دلائل النبوّة للبيهقى : « الملك ومن » .

مرحبًا وأهلًا [وأرسلها مثلًا](١) ، وكان أول من تكلم بها ، وناقةٌ ورحلا ، ومُستناخًا سهلا ، ومَلِكا رِبحلا(٢) ، يُعطى عطاءً جزلا ، قد سمع الملكُ مقالتكم ، وعَرَف قرابتكم ، وقبِل وَسيلتكم ، فإنكم أهلُ الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحِباء إذا ظعنتم ، ثم أنهضوا إلى دار الضِّيافة والوفود ، وأُجريت عليهم الأنزال(٣) ، فأقاموا بذلك شهرا لا يَصلون إليه ، ولا يُؤذَن لهم فى الانصراف ، ثم انتبه لهم انتباهةً فأرسل إلى عبد المطّلب فأدناه ثم قال له : يا عبدَالمطّلب ، إنى مُفْضٍ إليكَ من سِرّ عِلمى أمرًا لو غيرُك يكون لم أبُح به ، ولكنّى رأيتُك مَعدِنَه ، فأطلعتك عليه(٤) ، فليكن عندك مُخبَّأً(٥) حتى يأذن الله عز وجل فيه ؛ إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون الذى ادّخرناه لأنفسنا ، واحتَجبناه(٦) دون غيرنا ، خبرًا عظيمًا وخطرًا جسيمًا ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة للناس عامّة ، ولرهطك(٧) كافة ، ولك خاصّة ، فقال له عبد المطلب : مِثلك أيها الملك سَرّ وبَرّ ، فما هذا فَداك(٨) أهل الوبَر زُمَرًا بعد زُمر ؟ قال : إذا وُلد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة(٩) ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزّعامة ، إلى يوم القيامة . قال عبد المطلب : أيُّها الملك ، لقد أُبتُ بخبرٍ ما آب بمثله وافِد قوم ، ولولا هيبةُ الملك و إجلالُه و إعظامُه ، لسألته من بشارته إياى(١٠) ما أزداد به سرورا . قال له الملك : هذا حينه الذى يولَد فيه أو قد وُلد ؛ اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفُله جدّه وعمه ، قد ولدناه مرارا ، والله باعثه جِهارا ، وجاعلٌ له منا

(١) عن دلائل النبوّة للبيهق . (٢) الربحل بكسر الراء وفتح الباء : الكثير العطاء .
(٣) الأنزال جمع نزل ، وهو قرى الضيف و إكرامه . (٤) فى دلائل النبوّة للبيهق : « أطلعتك عليه » . (٥) فى دلائل النبوّة للبيهق : « مخبيا » . (٦) فى الأصل : « واحتجبناه » والمثبت عن البداية ١ : ٣٢٩ . (٧) فى الأصل : « وأن يطل » تصحيف .
(٨) فى دلائل النبوة للبيهق : « فما هو » . (٩) فى البداية ١ : ٣٢٩ : « غلام به علامة ، بين كتفيه » . (١٠) فى الأصل : « من سارّه » .

أنصارا يُعِزُّ بهم أولياءَه، ويُذِل بهم أعداءَه، ويَضرب بهم الناس عن عَرض، ويستفتح بهم كرائم الأرض، يَعبُد الرحمن، ويَدْحَض أو يدحر الشيطان، وتخمد النيران وتكسر الأوثان، قولُه فَصْل، وحكمُه عَدْل، يأمر بالمعروف ويفعلُه، وينهَى عن المُنْكر ويُبطِله. قال له عبد المطلب: عز جدّك، ودام مُلكُك، وعَلا كعبُك، فهل الملك سارّنى بإفصاح؟ فقد أوضح لى بعض الإيضاح، قال له سيف [ابن ذى يَزَن](٢): والبيت ذى الحُجُب، والعلامات على النُّصُب(٣)، إنك لجدّه يا عبدَ المطلب غير كذب، قال: فخر عبدُ المطّلب ساجدا، فقال له سيف ارفع رأسك، ثَلِجَ صدرُك، وعَلا كعبُك(٤)، فهل أحسستَ بشىء مما ذكرتُ؟ قال: نعم أيها الملك، إنه كان لى ابن وكنت به مُعجبا، وعليه رفيقا، وإنى زوّجته كريمةً من كرائم قومى(٥) آمنةَ بنتَ وَهْب بن عبد مَناف، فجاءت بغلام وسميتُه محمدا، مات أبوه وأمه، وكفلتُه أنا وعمُّه. قال له ابن ذى يَزَن: إن الذى قلتُ لك كما قلتُ، فاحتفِظ بابنك(٦) واحذر عليه اليهود، فإنهم أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا، واطْوِ ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنى لست آمَن أن تُداخلهم النَّفاسَة، من أن تكون لكم الرياسَة، فينصِبون لَه الحبائل، ويبغون(٧) له الغوائل، وهم فاعلون ذلك أو أبناؤهم من غير شك(٨)، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبلَ مَبعثِه، لسِرت

٤٦/١٤

(١) فى البداية ٢ : ٣٢٩ : « ويستبيح بهم ».

(٢) عن دلائل النبوة للبيهقى، وفى البداية ١ : ٣٣٠ : « فقال ابن ذى يزن ».

(٣) فى البداية، ودلائل النبوة للبيهقى : « على النقب ».

(٤) فى البداية ١ : ٣٣٠ : « وعلا أمرك ».

(٥) البداية : « كرائم قومه ». (٦) فى الأصل : « فاحتفظ من ابنك ».

(٧) فى الأصل : « وينعون له »، تصحيف.

(٨) فى الأصل : « وأبناؤهم عن شك ».

بخيلى ورجلى حتى أجىء يثرب دار ملكه[(١)]، فإنى أجد فى الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن بيثرب استحكام أمره، وأهل نصرته، وموضع قبره، ولولا أنى أقيه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعليت على حداثة سنه أمره، ولأوطأت على أسنان العرب كعبه[(٢)]، ولكن سأصرف ذلك إليك من غير تقصير بمن معك، ثم دعا بالقوم، وأمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد سود، وعشر إماء سود، وحلتين من حلل البرود، وخمسة أرطال ذهب، وعشرة ارطال فضة، ومائة من الإبل، وكرش مملوء عنبرا، ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال [له[(٣)]] : إذا حال الحول فأتنى بخبره، قال : فمات سيف بن ذى يزن قبل أن يحول عليه الحول، وكان عبد المطلب كثيرًا ما يقول : يا معشر قريش، لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك، وإن كثر، فإنه إلى نفاد، ولكن يغبطنى بما يبقى لى ولعقبى ذكره وفخره، فإذا قيل وما هو ؟ قال : سيعلم ما أقول ولو بعد حين .

قال البيهقى[(٤)] وقد روى هذا الحديث أيضا عن الكلبى أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما .

ومن ذلك رؤيا رقيقة بنت أبى صيفى وقصة استسقاء عبد المطلب بن هاشم وكان من خبرها ما رواه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى[(٤)] رحمه الله بسند عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم، وكانت لدة عبد المطلب، قالت : تتابعت على قريش سنون أحفلت الضرع[(٥)]، وأرقت العظم[(٦)]، قالت :

(١) فى دلائل النبوة للبيهقى : «حتى أصير يثرب دار ملكى» . وفى الأصل : «حتى أحيي ثرب» .
(٢) فى البداية ١ : ٣٣٠ : «ولأوطأت أسنان العرب عقبه» .
(٣) عن البداية ١ : ٣٣٠ . (٤) فى دلائل النبوة (ورقة ٩٧ و) .
(٥) فى دلائل النبوة : «أحفلت الجلد» . (٦) فى الأصل : «العظم فينا» .

فبينا أنا نائمة اللّهم أو مُهَوِّمة إذا هاتفٌ يصرخ بصوت صَحِلٍ صَيِّت يقول : معشر قريش، إن هذا النبي المبعوث منكم قد أظلّكم أيامه، وهذا إبان نجومه، وفى رواية عنها : مبعوث منكم، وهذا إبان مَخرجه فَحَيِّهلا بالخير والخِصْب، وفى رواية بالحيا والخِصْب ، ألا فانظروا رَجلا منكم وَسِيطا عُظَّاما جُسَّاما أبيض بَضًّا ، أوطَف الأهداب ، سهل الخَدّين ، أشم العرنين ، له نَحر يكظم عليه ، وسنة تهدى إليه ، ألا فليخلُص هو وولدُه وليَهبِط إليه من كل بطن رجلٌ فليُشنّوا[1] من الماء[2]، وليَمَسّوا من الطيب ، ثم ليستلموا الركن . وفى رواية وليَطُوفُوا بالبيت سبعا ، ثم ليرتقوا أبا قُبَيس فليَسْتَسْقِ الرجل، وليؤمِّن القوم [ألا وفيهم الطاهر والطيب لذاته ، ألا بُعِثتم شِئتم وعشتم][3]، قالت : فأصبحتُ — علم الله — مذعورةً قد اقشعرّ جلدى، ووَلِهَ عَقلى، واقتصصتُ رؤياى، فوالحُرْمَةِ والحَرَم ما بقى أبطحىٌّ إلا قال : هذا شَيْبَة الحمد، هذا شيبة، وتتامّت[4] إليه رجالات قُريش، وهَبَط إليه من كل بَطْن رجل، فشنُّوا وطَيَّبوا[5] ، واستلموا وطافوا ، ثم ارتقَوا أبا قُبَيس ، وطفقوا جَنابَيْه ما يَبْلغ سَعيُهم مَهْلَة، حتى إذا استوَى بذِرْوة الجبل، قام عبد المطلب ومَعه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام قد أيفَع أو كَرِب ، فقال عبد المطلب : اللهم سادَّ الخلّة ، وكاشف الكُرْبة ، أنت مُعْلِم، وفى رواية عالم غير مُعَلَّم ومسئول غير مُبَخَّل ، وهذه عِبِدّاؤك وإماؤك[6] عذرات حرمك يشكُون إليك سَنَتَهم[7] أذهبت الخفّ والظلف، اللهم[8] فأمطرن غَيثاً مُغدِقا مَريعا، فوالكعبةِ مارامُوا حتى تفجّرت السماء بمائها، واكتض

(١) فى دلائل النبوة : «وليدلف إليه» . (٢) الشن : الصب المتقطع . وفى رواية للبيهقى أيضا : « فليشربوا من الماء » . (٣) عن دلائل النبوة للبيهقى ورقة ٩٦ ظ . (٤) فى الأصل : « الحمد وتناقت » . (٥) فى الأصل : « فشنوا ومشوا » . (٦) فى الأصل : « بعد حرمك » ، والمثبت عن البيهقى . (٧) فى دلائل النبوة للبيهقى : « سنتهم التى قد أخلت » . (٨) كذا فى الأصل ، وفى حاشية دلائل النبوة للبيهقى ورقة ٩٦ ظ : « وكظ » .

الوادى بتجيجه ، فسمعتُ شيخانَ[1] قريش وجِلّتها : عبدَ الله بن جُدْعان ، وحَرْبَ ابن أميـة ، وهشامَ بن المغيرة ، يقولون لعبد المطلب : هنيئا لك أبا البطحاء أى عاش بك أهل البطحاء ، وفى ذلك تقول رُقَيْقَة :

بشيبةَ الحمـدِ أسقَى الله بلدتَنـا * لمـا فقـدنا[2] الحيـا واجلَوّد المطرُ
فجـادَ بالمـاء جَونىٌّ له سَـيَل * دانٍ فعاشت به الأنعام[3] والشّجر
مَنًّا من[4] الله بالميمون طائرُهُ * وخيرِ من بُشِّرت يوما به مُضَرُ
مبارَك الأمرِ يُستسقَى الغمامُ به * ما فى الأنام له عِدْل ولا خَطَـر

وأما مَن بشّر به صلى الله عليه وسلم قبيل مَبعثه ، فمن ذلك خبر اليهودىّ الذى هو من بنى عبد الأشهَل . وكان مِن خَبره ما رواه أبو بكر أحمد بن الحسين البَيْهقى بسنَدِهِ عن سَلَمة بن سلامة بن وقش ، قال : كان بين أبياتنا يهودىّ ، فخرج على نادِى قومه بنى عبد الأَشهَل ذات غداةٍ ، فذكَر البعثَ والقيامة والجنةَ والنارَ والحسابَ والميزان ، فقال ذلك لأصحاب وثَنٍ لا يُرَون أنّ بعثًا كائن بعـدَ الموت ، وذلك قبلَ مَبعثِ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ويحك يا فلان ، وهذا كائن ؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنة ونار ، يُجْزَوْن من أعمالهم ؟ قال : نعم ، والذى يحلف به ، لوددتُ أن حَظّى من تلك النار أن تُوقِدوا أعظمَ تَنُّورٍ فى داركم فتحْمونَه ، ثم تَقذِفونى فيه ، ثم تُطبِقوا علىّ ، وأنّى أنجُو من النار غدا فقيل له يا فلان ، فما علامة ذلك ؟ قال : نبى يُبعَث من ناحية هـذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكّة

(١) فى الأصل : « شيخان من » ، والمثبت عن البيهق (ورقة ٩٦ ظ) .
(٢) رواية البيهق (ق ٩٧ و) : « وقد فقدنا » .
(٣) رواية البيهق : « به الأمصار » .
(٤) رواية البيهق : « سيل من » .

واليمن . قالوا : فمتى تُراه ؟ فرمى بطرفه، فرآنى وأنا مضطجع بفناءِ باب أهلى، وأنا أحدّث القوم [فقال] : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركْه فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لحىّ بين أظهرهم فآمنّا به وصدّقناه، وكفرَ به بغيا وحسَدا، فقلنا له : يا فلان ، ألستَ الذى قلتَ ما قلت وأخبرتنا ؟ فقال : بلى . ولكن لا أومن به .

ومنه خبر إسلام أَسِيد[1] وثَعْلَبة ابنَى سَعْيَة وراشد بن عُبَيد .

روَى البيهقى[2] رحمه الله عن عاصم بن عُمر بن قَتادة، عن شيخ من بنى قُرَيظَة ، قال : هل تدرون عَمّ كان إسلام أَسِيد وثَعْلَبة ابنى سَعْيَة، وأَسد[3] بن عُبيد ، نَفَرٍ من بنى هَدَل[4] لم يكونوا من بنى قُرَيظة، ولا النَّضِير، كانوا فوق ذلك[5] ؟ فقلت : لا . قال : فإنه قدِم علينا رجل من الشام من يَهودَ يقال ابن الهَيَّبَان، وكنيته أبو عُمير، كذا ذكره الواقدى ، فأقام عندَنا ، والله ما رأينا رجلا قطُّ لا يُصلِّى الخمسَ خيرا منه ، فقَدِم علينا قبل مَبعَث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين، فكُنّا إذا أَقْحَطنا وقلّ علينا المطر نقول : يابن الهَيَّبَان ، اخرج فاستَسْقِ لنا ، فيقول : لا والله، حتى تُقدِّموا أمامَ مَخْرجكم صَدَقة ؛ فنقول : كم ؟ فيقول : صاعٌ من تمر[6] أو مُدَّين من شَعير

(١) أسيد بفتح الهمزة وكسر السين المهملة كما فى الروض الأنف .

(٢) روى حديث إسلامهما ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٢٦ بالسند نفسه ، وابن كثير فى البداية ٢ : ٣٠٩ وانظر خير البشر ص ٣٥ ومابعدها

(٣) فى الأصل : « وراشد بن عبيد » تصحيف . والتصويب عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٦ .

(٤) هدل بفتح الهاء والدال أيضا ، وقيل بسكون الدال . انظر السيرة الحلبية ١ : ١٨٥ .

(٥) فى تاريخ الطبرى : «وهم نفر من بنى هدل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير، نسبهم فوق ذلك . هم بنو عم القوم » . وفى سيرة ابن هشام ١ : ٢٢٧ «هدل إخوة بنى قريظة ، كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا سادتهم فى الإسلام » .

(٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٢٧ ، والسيرة الحلبية ١ : ٨٥ « صاعا من تمر » .

فنُخرِجه، ثم يخرجُ[(١)] إلى ظاهر حَرَّتنا ونحن معه، فيستَسْقِي، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى يمرّ السَّحاب[(٢)]؛ قد فعل ذلك غيرَ مرَّة ولا مرَّتين، ولا ثلاثة، فحضرَتْه الوفاة، واجتمعنا إليه، فقال: يا معشَر يهود، ما تُرُونَهُ أخرجَنى من أرض الخَمْر[(٣)] والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إنه إنما أخرجنى [أنى][(٤)] أتوقَّع خروجَ نبىّ قد أظَلَّ زمانُه، هذه البلاد مُهاجرُه، [وكنت أرجو أن يبعث][(٤)] فأتَّبِعه، [وقد أظلكم زمانه][(٤)] فلا تُسْبَقُنَّ إليه إذا خرجَ يا معشَر يهود، فإنه يُبعَث بسفك الدِّماء، وسَبْى الذَّرارىّ والنساء ممن خالفه، فلا يمنعْكم ذلك منه. ثم مات؛ فلما كانت الليلة التى فُتحت فيها قُرَيظة قال أولئك الثلاثة الفِتية، وكانوا شبابا أحداثا: يا معشَر يهود: والله إنه لَلنَّبىُّ الذى ذكَر لكم ابن الهَيَّبان، فقالوا: ما هو به، قالوا: بلى والله! إنها لِصِفته[(٥)]، ثم نزلوا فأسلَموا، وخلَّوا أموالَهم وأولادَهم وأهاليهم؛ فلما فتَح رسول الله الحِصن ردَّ ذلك عليهم.

٤٨/١٤ ومنه ماروى أن عبدَ الله بن مسعود كان يُحدِّث[(٦)] عن أبى بكر الصِّدّيق رضى الله عنهما، قال[(٧)]: خرجتُ إلى اليمن فى تجارة قبل أن يُبعث النبى صلى الله عليه وسلم، فنزلتُ على شيخ من الأزد عالم، قد قرأ الكُتُب وحوَى علمًا كثيرا، وأتى عليه من

(١) فى سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية: «فنخرجها ثم يخرج بنا ... فيستسق».

(٢) فى سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية: «حتى يمر السحاب، وفسق».

(٣) فى السيرة الحلبية ١: ١٨٥: «من أهل الخمر»، بالتحريك، وبإسكان الميم، وهو الشجر الملتف.

(٤) عن سيرة ابن هشام ١: ٢٢٧.

(٥) فى سيرة ابن هشام ١: ٢٢٨: «والله إنه لهو بصفته».

(٦) انظر خير البشر لابن ظفر ص ٥٨ — ٥٩، والسيرة الحلبية ١: ٢٧٤.

(٧) رواية ابن ظفر ص ٥٨: «عنه أنه قال».

السن ثلاثمائة وتسعون سنة[(١)]، فلما تأملنى قال: أحسَبك تيميا[(٢)] فقلت: نعم، أنا من تيم ابن مُرّة؛ أنا عبدُ الله بن عُثمان بن عامرو بن عمرو بن كعب بن سعد[(٣)] بن تيم بن مُرّة، قال: بَقيت[(٤)] لى فيك واحدة، قلت: ماهى؟ قال: اكشِف لى عن بَطنك، قلت: لا أفعل أو تُخبرَنى لم ذلك، فقال: إنى لأجد فى العِلم الصَّحيح الصادق أن نَبيّا يُبعَث بالحرَم يُعاوِنه على أمره فَتًى وكَهْل، فأما الفتَى فخوّاض غَمَرات، وكَشّاف مُعضِلات، وأما الكَهْل فأبيض نحيف، على بطنه شامة، وعلى فخذِهِ اليُسرَى علامة، ولا[(٥)] عليك أن تُرِيَنى ماخفى علىّ؛ قال أبو بكر رضى الله عنه: فكشفتُ له عن بَطنى، فرأى شامةً سوداء فوق سُرّتى، فقال: هو أنت ورَبِّ[(٦)] الكَعْبة، وإنى مُتقدِّم إليك فى أمرٍ فاحذره، قلت: وماهو؟ قال إياك والميلَ عن الهُدَى وتمسَّك بالطريقة المُثْلى، وخَفِ الله عزّ وجلّ فيما أعطاك وخوّلك.

قال أبو بكر رضى الله عنه: فقضَيتُ باليمن أَرَبى، ثم أتيتُ الشيخَ لأودّعه، فقال[(٧)]: أحامِلٌ أنت مِنّى أنباءً إلى ذلك النَّبىّ؟ قلت[(٨)]: نعم، فأنشأ يقول:

---

(١) ابن ظفر: «من السن ثلاثة وتسعون».

(٢) فى خير البشر لابن ظفر: «أحسبك حرميا، فقال أبو بكر: فقلت»، وفى السيرة الحلبية ١: ٢٧٥: «أحسبك حرميا، أحسبك قرشيا، أحسبك تيميا». وانظر الزرقانى ١: ٢٤٠.

(٣) فى خير البشر: «بن سعيد».

(٤) فى الأصل: «لقيت»، تصحيف. والتصويب عن خير البشر، والسيرة الحلبية ١: ٢٧٥.

(٥) فى خير البشر: «فلا عليك».

(٦) فى خير البشر والسيرة الحلبية ١: ٢٧٥ وشرح المواهب ١: ٢٤٠: «أنت هو».

(٧) كذا فى السيرة الحلبية ١: ٢٧٥، ورواية ابن ظفر فى خير البشر: «الشيخ أودّعه».

(٨) فى خير البشر، وشرح المواهب ١: ٢٤٠: «أحامل أنت منى أبياتا إلى ذلك النبى، فقلت»، وفى السيرة الحلبية: «أحافظ عنى أبياتا فى الشعر قلتها فى ذلك النبى، قلت نعم».

ألم تَرَ أنّى قد سئمت مَعاشِرى * ونفسِى وقد أصبحتُ فى الحىِّ راهنا (١)
حَبِيتُ وفى الأيام للمرء عِبرةٌ * ثلاث مئين ثم تسعين آمِنا (٢)
وصاحبتُ (٣) أحبارًا أناروا بعلمِهم * غياهِبَ جَهلٍ ما ترى فيه طابِنا (٤)
وكم راهب فوق عنشبيل (٥) قائمٍ * لقيت وما غادرتُ فى البحث كاهِنا
وكلُّهم لما تعطَّشتُ قال لى * بأن نَبِيًّا سوف تلقاه دائنا (٦)
بمكةَ والأوثانُ فيها عزيزةٌ * فيركسها حتى تراها كَوامِنا (٧)
فما زلتُ أدعو الله فى كل حاضرٍ * حَلَلتُ به سِرًّا وجهرًا معالنا
وقد خمدَت منِّى شرارة قُوّتى * وأُلفيتُ شيخًا لا أُطيق الشَّواجنا (٨)
وأنتَ وربِّ البيتِ تلقَى محمدًا * بعامِك هذا قد أقام البَراهنا
فحَيِّ رسولَ الله عنّى فإننى * على دينِه أَحيَا وإن كنتُ واهنا (٩)
فياليتَنى أدركتُه فى شبِيبتى * فكنتُ له عبدًا وإلا العُجَاهنا (١٠)
عليه سلام الله ما ذَرَّ شارقٌ * تألّق هنّافا من النور هافنا (١١)

---

(١) فى خير البشر ص ٦٢ : « الراهن : المقيم الثابت » . (٢) رواية ابن ظفر : « ثلاث سنين ثم تسعين » . (٣) فى مخطوط خير البشر ١٤ ظ : « وصافيت » .
(٤) الطابن : العارف بالشىء . (٥) كذا فى الأصل .
(٦) فى مخطوطة خير البشر : « كائنا » .
(٧) فى الأصل : « ... والأوثان منها ... كواهنا » .
(٨) الشواجن : الطرق المتداخلة المتخالفة ؛ أى لا أطيق السير فى هذه الأرض ، عن ابن ظفر .
(٩) الواهن : الضعيف . (١٠) العجاهن : الخادم .
(١١) كذا . وفى خير البشر ص ٦٢ : «وقوله : هافنا هو الضعيف» . ولم أجد فى معاجم اللغة ما يؤيده ، ولعلها : « آفنا » .

قال أبو بكر رضى الله عنه : فحفظتُ وصيتَه وشِعرَه وقدِمتُ مكة، فجاءنى شَيْبةُ بن ربيعة، وأبو جَهل بن هشام، وأبو البَخْتَرى، وعُقبةُ بن أبى مُعَيط، ورِجالاتُ قريش مسلِّمين علىّ، فقلت: هل حدَث أمر؟ فقالوا[1]: حدَث أمر عظيم؛ هذا محمد بن عبد الله يَزعُم أنه نَبىّ أرسله الله إلى النّاس، ولولا أنتَ ما انتظرنا به، فإذْ جئتَ فأنتَ البغيةُ والنُّهيةُ[2]، قال: فأظهرتُ لهم تعجُّبًا وصرفتُهم على أحسن شىء[3]، وذهبتُ أسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لى: هو فى مَنزِل خَديجة، فقَرعتُ الباب عليه فخرج إلىّ فقلتُ: يا محمّد، فقدت من نادِى قومك فاتهموك بالغيبة وتركت دين آبائك، فقال يا أبابكر، إنى رسول الله إليك وإلى الناس كلهم [فآمِن بالله][4]، فقلتُ وما آيتُك؟ قال: الشيخ الذى لقيتَه باليمن، قلت: وكم من شيخ قد لقيت، وبعت منه واشتريت، وأخذت وأعطيت! قال: الشيخ الذى أخبرك عنى، وأفادك الأبيات، قلت: من أخبرك بهذا يا حبيبى؟ قال: المَلَك العظيم الذى كان يأتى الأنبياءَ قبلى، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال أبو بكر رضى الله عنه: فانصرفت وما أحد أشدّ سرورا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامى.

وأما من ذكر صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مَبعَثِه ورؤيته له، وذكَّر قومه بها، وحقَّق عندهم أنه هو، لِما كان يجد عنده من العلم بصفته صلى الله عليه وسلم. ٤٩/١٤

(١) فى خير البشر: «قالوا حدث».

(٢) فى السيرة الحلبية ١: ٢٧٥: «فأنت الغاية والكفاية».

(٣) فى الأصل: «فصرفتهم فى حس مس»، والمثبت عن السيرة الحلبية ١: ٢٧٥، وانظر شرح المواهب ١: ٢٤٠.

(٤) عن السيرة الحلبية ١: ٢٧٥، وخير البشر (ورقة ١٥ ظ) وشرح المواهب ١: ٢٤٠.

فمن ذلك ما رُوِى[1] أن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب قالت : كنت أحبّ الناس إلى أبى ، وكان عمى أشدّ حُبًّا لِى ، فأتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم بقُبَاء ، ثم رجعا من عنده ثقيلَيْن لا يلتفتان نحوى ، ولا ينظران إلىّ ، فسمعتُ عمّى يقول لأبى : هل تعرفُه؟ قال : نعم . قال فماذا عندك فيه؟ قال : عَداوتُه إلى آخر الدهر ، قال عمى لأبى : أُنشِدُك اللهَ أن تطيعنى يا أخى فى هذا ، ثم أعصِنى فيما سواه ، هلُمّ نتبعه ، فقال أبى : لا ، والله لا أراك له عدوًا ، فقال عمى : إنك تُهلِكنا ، وتُهلِك نفسك ، إن هذا نبيّ السَّيف ، وجعل عمى يكلّمه وهو يأبى إلا كلامَه الأوّل ، قالت صفية : فلما كان الليل ، وجدت نِسوةً من بنى النَّضير جالسات يقلن : والله ما أحسن حُيَيّ ابن أخطب بخلاف أخيه ، إنا لنعلم أن هذا نبيّ مذكور فى الكتب ، وقالت عَجوز منهنّ : سمعتُ أبى يقول لإخوتى : إن نَبيا من العرب يقال له أحمد ، مولِده بمكة ، ودار هجرته يثرب ، وهو خير الأنبياء ، فإن خرج وأنتم أحياء ، فاتّبِعوه ؛ قالت صَفِية : وإذا هن كلهنّ يُزرِين على أبى ، ويتعتّبن عليه فعلَه .

ومنه ما قاله كعب بن عَمرو لبنى قُرَيظة عند حِصارهم . وسنذكر ذلك إن شاء الله فى الغزوات ، وقد تقدّم خبر بَحِيرا ، ونَسْطُور ، فلا فائدة فى إعادته هنا .

وأما من أظهر صُحُفا كانت عنده فيها صريح ذكره صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك ما رُوِى أن رجلاً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بورَقةٍ ورِثها عن أبيه عن جدّه ، وذكر أن سلفَه كانوا يتوارثونها على وجه الدهر ، فإذا فيها : « اسمُ الله وقوله الحق ، وقول الظالمين فى تَبارٍ ، هذا ذكرٌ لأمّةٍ تأتى فى آخر الزّمان ، يأتزرون على أوساطهم ، ويغسلون أطرافَهم ، ويخوضُون البَحر إلى أعدائهم ، فيهم صلاة

(١) روى ابن هشام هذا الخبر بمعناه مختصرا فى السيرة ٢ : ١٦٥ .

لو كانت فى قَوم نُوح ما هلَكوا فى الطوفان ؛ أو فى ثمود ما أهلكوا بالصَّيْحة » ، قال : فقُرئت الورقةُ على الناس ، وأمَر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظِها .

ومنه ما رُوِى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه نزل بالبَلِيخ[1] إلى جانب دير ، فأتاه قَيِّم الدير فقال يا أمير المؤمنين : إنى وَرِثت عن آبائى كتاباً قديماً كتَبه أصحابُ المسيح عليه السلام ؛ فإن شئتَ قرأتُه عليك ؛ قال : نَعم ، هات كتابك ؛ فجاء بكتابٍ فإذا فيه : الحمد لله الذى قضَى ما قضَى ؛ وسَطَّر ما سَطَّر ، إنّه باعث فى الأمّيين رسولًا يعلِّمهم الكتابَ والحكمة ، ويَدُلُّهم على سبيل الجنة ، لا فَظٌّ ولا غَليظ ، ولا صَخّاب فى الأسواق ، ولا يَجْزِى بالسيئةِ السّيئة ، ولكن يعفو ويصفَح ، أمتُه الحَمّادُون لله فى كل هُبوط ونَشْرٍ وصُعود ، تذلل ألسنتهم بالتكبير والتهليل ، يُنصَر دينهم على كل من ناوأه .

ومنه ما روى أن أبا ذُؤيب الزّاهد قال : دخلت فى سياحتى ديرا فقلت للراهب القَيّم عليه : أعندك فائدة ؟ قال : نعم . لك يا عربىّ ، قلت : هاتها ! قال : فأخرج لى ورقةً فيها أربعةُ أسطر ، فذكر أنها من الكتب المنزَلة ؛ ففى السطر الأوّل منها : يقول الجبّار تبارك وتعالى : أنا الله لا إله إلا أنا وَحْدى لا شريك لى ؛ والسطر الثانى : محمد المختار عبدى ورسولى ؛ والسطر الثالث : أمته الحَمّادون ، أمته الحَمّادون ، أُمّتُه الحَمّادون ؛ والسطر الرابع : رعاة الشمس ، رعاة الشمس ، رعاة الشمس .

وأما من أظهر تِمثال صُورته صلى الله عليه وسلم وصُوَر بعض أصحابه رضى الله عنهم ، وذلك مصوّر عندهم فى بيوت فى بِيَعهم .

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٨٢ .

فمن ذلك ما روى عن دِحية بن خليفة الكلبيّ رسول رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلى قيصر أنه قال : لقيت قيصر بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بدمَشق ، فأُدخلت عليه خاليا ، فناولتُه الكتاب فقبّل خاتمَه وفَضّه وقرأه ، ثم وضَعه على وسادةٍ أمامَه ، ثم دعا بَطارقته وزُعماء دينه فقام فيهم على وَسائد بُنيت له ، ثم خَطبَهم فقال : هذا كتاب النبيّ الذى بشّر به عيسى المسيح ، وأخبر أنه من وَلد إسماعيل ، قال : فنخَروا نَخْرة عظيمة ، وحاصُوا فأومَى إليهم بيده أن اسكتُوا ، ثم قال : إنما جرّبتُكم لأرى غضبَكم لدينكم ، ونصركم له ، وصرفهم[1] ، ثم استدعانى من الغَد فأخلانى ، وأنّسنى بحديثه ، وأدخَلنى بيتا عظيما فيه ثلاثمائة وثلاثةَ عشَر صورة ، فإذا هى صور الأنبياء المرسلين صلى الله عليهم وسلم[2] فقال : انظر مَن صاحبُك مِن هؤلاء ، فنظرتُ فإذا صورة النبيّ صلى الله عليه وسلم كأنما ينطق ، فقلت : هو هذا ، فقال : صدقت ، ثم أرانى صورة عن يمينه فقال : من هذا ؟ قلت : هذه صورة رجل من قومه آسمه أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فأشار إلى صورة أخرى عن يساره ، فقلت : هذه صورة رجل من قومه يقال له عمر رضى الله عنه ، فقال : إنا نجد فى الكتاب أن بصاحبيه هذين يُتمّ الله أمرَه . قال دِحْية : فلما قدمتُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبرتُه ، قال : صدق ، بأبى بكر وعمر يُتمّ الله هذا الأمرَ بعدى . والله الموفق .

ومنه ما رُوِى عن حَكيم[3] بن حِزام قال : دخلتُ الشام للتجارة[4] قبل أن أسلم ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمكّة ، فأرسل قيصرُ إلينا[5] ، فجئناه ومعنا أُميّةُ بن

(١) فى الأصل : «وصرفه» . (٢) فى الأصل : «صلى الله عليه» . (٣) حديث حكيم هذا مروى فى السيرة الحلبية ١ : ١٨٦ . (٤) فى السيرة الحلبية ١ : ١٨٦ : «الشام لتجارة» .
(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ١٨٦ : «فأرسل إلينا ملك الروم» .

أبى الصَّلت الثَّقفىّ ، فقال : من أى العـرب أنتم ؟ وما قرابتكُم من هـذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال حكيم : فقلت أنا ابن عمه ، يجمعنى وإياه الأب الخامس ، فقال : هل أنتم صادقىّ فيما أُرِيكُمُوه وأسألكم عنـه ؟ قلنا : نعم ، نَصـدُقك أيها المَلك ، فقال : أنتم ممن اتَّبعه أو ممن ردّ عليه ؟ قلنا : ممن ردّ عليه ما جاء به وعاداه ، ولكنّا نَصْدُقك مع هذا ، قال : آحلفوا لى بآلهتكم لتَصـدُقُنّنى فى جميع ما أسألكم عنه وأَعرِضه عليكم ، فحلفنا له وأعطيناه من المواثيق ما أرضاه ، فسألَنا عن أشياء مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بها ، ثم نهض واستنهَضنا معـه ، فأتى كنيسة فى قصره ، فأمر بفتحها ودخل ونحن معـه ، وجاء إلى سـترٍ وأمر بكشفه فإذا صورة رجل ، قال : أتعرفون مَن هـذه صورتُه ؟ قلنا : لا . قال : هذه صورة آدم ، ثم تتبَّـع أبواباً يفتحُها ويكشِف عن صور الأنبياء واحدا بعـد واحد ، ويقول : هذا صاحبكم (١) ؟ فنقول : لا . حتى فتَح باباً وكشف لنا سـترا عن صورة محمد صلى الله عليه وسـلم ، فقال : أتعرفون هـذا ؟ قلنا : نعم ، هـذه صـورة صاحبنا ، فقال : أتدرون منذ كم صُوِّرت ؟ قلنا : لا . قال : منذ أكثر من ألف سـنة ، فإن صاحبكم (٢) نبىٌّ مرسل فآتَّبِعوه ، ولوددت أنى عنـده فأشرب ما يغسِل (٣) من قدمَيه .

وقـد ورد فى الصحيحين (٤) خبرُ قيصَر مع أبى سُفيان لمّـا سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ١٨٦ : « أما هذا صاحبكم » .

(٢) فى السيرة الحلبية : « وإن صاحبكم لنبى » .

(٣) فى الأصل : « قدميه » .

(٤) صحيح البخارى ١ : ٤٨ ، ٤٥ .

ومنه ما روى عن جُبَير بن مُطْعِم[1] أنه قال : لما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم : خرجتُ تاجرا إلى الشام ، فأرسل إلىّ عظيمُ الأساقفة فأتيته فقال : هل تعرف هذا الرجل الذى ظهر بمكة ، يزعم أنه نبيّ ؟ قال : فقلت هو ابن عمى ، فأخذ بيدى وأدخلَنى بيتًا فيه تماثيلُ وقال : انظر ترى صورته ههنا ؟ فنظرتُ فلم أر شيئا فأخرجنى من ذلك البيت ، وأدخلَنى بيتا أكبرَ منه فيه مثلها ، وقال : انظر هل تراه ههنا ، فنظرتُ فإذا صورة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإذا صورة أبى بكر وهو آخِذٌ بعَقِب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإذا صورةُ عمر وهو آخِذٌ بعَقِب أبى بكر ، فقال : هل رأيته ؟ فقلت : نعم هوذا ، قال : أتعرف الذى أخذ بعقبه ؟ قلت : نعم ، هو ابن أبى قُحَافَة ، قال : وهل تعرف الذى هو آخِذٌ بعَقِبه ؟ قلت نَعم ، هذا عمر بن الخطاب ابن عمّنا ، فقال : أشهَد أنه رسول الله ، وأن هذا هو الخليفة من بَعدِه ، وأن هذا هو الخليفة من بعدِ هذا .

وهذا باب متسع لو استقصيناه لطال ، ولو سطرنا ما وقفنا عليه منه لانبسطت هذه السيرة ، وخرجت عن حدّ الاختصار ، وفيما أوردناه كفاية .

فلنذكر بشائر كُهّان العرب والله أعلم .

٥١/١٤ وأما من بَشَّر به صلى الله عليه وسلم من كُهّان العرب فقد قدمنا فى الباب الثالث من القسم الثانى من الفن الثانى من كتابنا هذا أخبارَ الكهنة ، وذكرنا طرَفا من إخبارهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما نَستثنيه فى هذا الموضع ، ونَذكرُ ما عداه ، ولا يُشترَط الاستيعاب لتعذُّره ، ولا إثباتُ جميع ما وقفنا عليه أيضا من ذلك لأنه يُوجِب البَسط والإطالة ، بل نذكرُ من ذلك ما نقف إن شاء الله تعالى عليه مما فيه الكفاية ، وإن كانت نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم أظهرَ

(١) نقله فى السيرة الحلبية مختصرا ١ : ١٨٦ .

وأشهر وأقطع من أن يُحتاج فيها إلى ذكر ما ذكرناه ، وما نذكره ، وإنما نُورد ما أوردناه ليقف عليه من لم يتتبع أحوالَه صلى الله عليه وسلم ، ولا طالعَ سِيرَه ، وليعلم أن امره صلى الله عليه وسلم لم يَفجأ الناس ، بل جاءهم على بيِّنةٍ واستبصار ، وآثار وأخبار ، ومعجزات ظهرت ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى .

فمن بَشائر الكُهّان رؤيا رَبيعة بن نصر وتأويل سَطيح وشِقّ لها .

قال محمد بن إسحاق بن يَسار المطَّلبيّ[(١)] : كان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التَّبابعة ، فرأى رؤيا هالته [وفَظِع بها[(٢)]] ، فلم يدَع كاهنا ولا ساحرا ولا [عائفا ولا[(٢)]] مُنجِّما من أهل مملكته إلا جمعَه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظِعتُ بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها ، قالوا له : اقصُصها علينا نخبرْك بتأويلها ، قال : إنى إن أخبرتُكم بها لم أطمئنّ إلى خَبَركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرفُ تأويلها إلا من عَرفَها قبلَ أن أُخبره بها ، فقال له رجل منهم : فإن كان المَلِك يريد هذا فليبعث إلى سَطيح وشِقّ ، فإنه ليس أحدٌ أعلم منهما[(٣)] ، فإنهما يُخبرانه بما سأل عنه .

قال ابن هشام : واسم سَطيح[(٤)] : رَبيع بن رَبيعة بن مسعود بن مازن بن ذِئب ابن عَدىّ بن مازن بن غَسّان[(٥)] . وشِقّ بن صَعب بن يَشكُر بن رُهم بن أفرَك بن قَيْس ابن عَبْقَر بن أنمار بن نزار .

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٥ ، وانظر دلائل أبى نعيم ص ٨٦ . (٢) زيادة عن ابن هشام ١ : ١٥ ، وفظع بالأمر : اشتدّ عليه . (٣) يذكر عن وهب ابن منبه أنه قال لسطيح أنى لك هذا العلم ، فقال : لى صاحب من الجن استمع إلى أخبار السماء من طور سيناء حين كلم الله موسى . فهو يؤدّى إلىّ من ذلك ما يؤدّيه . انظر الروض الأنف ١ : ١٨ . (٤) فى المعمرين ص ٤ — ٥ ذكر لسطيح ، ومولده ، وانظر الروض الأنف ١ : ١٩ ، والخشنى ١ : ٧ .

(٥) فى الأصل : « بن حسان » والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ١٦ .

قال ابن إسحاق :

فبعث إليهما ، فقدم عليه سَطِيح قبلَ شِقّ ، فقال له : إنى رأيتُ رؤيا هالتنى وفَظِعت بها فأخبرنى بها، فإنك إن قضيتها أصبتَ[1] تأويلها، قال: أفعل؛ رأيتَ حُمَمة[2] ، خرجت من ظُلْمَة، فوقعت بأرض تَهِمة[3] ، فأكلت منها كلَّ ذات جُمْجُمة[4]؛ فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئًا يا سَطِيح، فما عندك فى تأويلها ؟ قال : أحلِفُ بما بين الحَرَّتَين[5] من حَنَش، لتهبِطُنَّ أرضَكم الحَبَش، فليَمْلِكُنَّ ما بين أَبْيَن[6] إلى جُرَش[7] ، فقال الملك : وأبيك يا سَطِيح إن هذا لنا لَغائظ مُوجِع، فمَتَى هو كائن، أفى زَمانى أم بعدَه ؟ قال : لا . بل بعدَه بحين، أكثر من ستّين أو سبعين، يمضين من السنين، قال: أفيَدوم ذلك من مُلكهم أم يَنقطِع؟ قال: لا. بل ينقطع لِبضع وسَبعين[8] من السنين، ثم يُقتَلون ويُخرَجون منها هاربين، قال : ومن يلى ذلك من قَتلِهم وإخراجهم ؟ قال : يليه إِرَم[9] ذى يَزَن ، يخرُج عليهم من عَدَن، فلا يَترُك منهم أحدا باليمن، قال : أفيَدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : ومَن يقطعه ؟ قال : نبىّ زكىّ، يأتيه الوَحى من قِبَل العلىّ، قال: وممن هذا النبىّ ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر، يكون المُلك فى قومه إلى آخر الدَّهر، قال : وهل للدهر من آخِر ؟ قال : نعم، يوم يُجمَع فيه الأوَّلون

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦ : « فإنك إن أصبتها أصبت » . (٢) الحمة : قطعة من نار، وفى الأصل : « جمجمة » تصحيف . (٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦ : « بأرض تهمة » . والتهمة : الأرض المنخفضة ، انظر السهيلى ١ : ١٩ . (٤) الجمجمة : الرأس . (٥) الحرة : أرض فيها حجارة سود . خشنى ١ : ٨ . (٦) أبين بفتح الهمزة وتكسر : بلد باليمن . انظر السهيلى ١ : ١٩ ، والخشنى ١ : ٨ . (٧) جرش بضم الجيم وفتح الراء : من مخاليف اليمن من جهة مكة ، وقيل مدينة باليمن . (٨) فى دلائل أبى نعيم ص ٨٧ : « لبضع وستين » . (٩) رواية أبى نعيم : « يليه ابن ذى يزن » .

والآخرون، يَسعَد فيه المُحسِنون، ويَشقَى فيه المسيئون، قال: أحقٌّ ما تُخبِرنى؟ قال: نَعم، والشَّفَق والغَسَق، والفلَق إذا اتَّسق، إن ما أنبأتُك به لحَق.

ثم قدِم عليه شِقّ فقال له كقوله لسَطيح، وكتَمه ما قال سَطيح، لينظر أيتَّفقان أم يختلفان؟ فقال[1]: نعم، رأيتَ حُمَمة[2]، خرجت من ظُلمة، فوقعت بين روضةٍ وأكمة، فأكلت منها كل ذات نَسَمَة.

فلما قال ذلك عرف أنهما قد اتَّفقا، وأن قولهما واحدٌ، فقال له الملك: ما أخطأتَ ياشِقّ منها شيئا، فما عندك فى تأويلها؟ فقال: أَحلفُ بما بين الحرَّتين من إنسان، لينزلُنَّ أرضكم السودان، فليَغلبُنَّ على كلِّ طَفلَة البَنَان[3]، وليَملكُنَّ ما بينَ أَبيَنَ إلى نَجْران، فقال له الملك: وأبيك ياشِقّ، إن هذا لنا لغائظٌ موجِع، فمتى هو كائن أفى زمانى أم بعدَه؟ قال: لا، بل بعدَه بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذُو شان، ويذيقهم أشدَّ الهوان، قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال: غلام ليس بدنِىٍّ[4] ولا مُدنٍ[5] يخرج عليهم من بيت ذى يَزَن، قال: أفيدوم سلطانُه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مُرسَل، يأتى بالحق والعَدْل بين أهل الدين والفضْل، يكون المُلْك فى قَومه إلى يوم الفَصْل، قال: وما يومُ الفَصْل؟ قال: يوم تُجزَى فيه الوُلاة، يدعَى فيه من السماء بدَعَوات، يُسمع فيها الأحياء والأموات، ويُجمَع فيها الناس للميقات، يكون فيه لمن اتَّقى الفوزُ والخيرات، قال: أحَقٌّ ما تقول؟ قال: إى وربِّ السماء والأرض، وما بينهما من رَفع وخَفْض، إنّ ما أنبأتُك به لحق ما فيه أَمَض[6]، قال: فوقع فى نفس رَبيعةَ بن نَصر ما قالا، فجهّز بنِيه وأهلَ بيته

٥٢/١٤

(١) فى الأصل: «قال».
(٢) فى دلائل أبى نعيم ص ٨٧: «جمجمة» تصحيف.
(٣) الطفلة: الناعمة الرخصة.
(٤) الدنىّ: المقصر فى الأمور أو الذى يتبع خسيسها.
(٥) المدنى: الذى جمع الضعف مع الدناءة. وانظر الروض الأنف ١: ١٩.
(٦) الأمض: الشك أو الباطل. خشنى ١: ٨. وانظر ابن هشام ١: ١٩.

إلى العراق بما يُصلِحهم ، وكتب إلى مَلِكٍ من ملوك فارس يقال له سابور ، فأسكنهم فى الحيرة ، فمن بقيةِ ولد رَبيعة بن نَصر النُّعمانُ المنذر .

ومن ذلك ما رُوِى أن مَرْثَد بن عبد كَلال قفَل من غَزاة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفَد عليه زعماء العَرب وشعراؤها وخطباؤها يُهنُّونه ؛ فرفع الحجابَ عن الوافدين ، فأوسَعهم عطاءً ، واشتدّ سرورُه بتقريظ الخطباء والشعراء ، فبينا هو على ذلك أُرِىَ فى المنام رؤيا أخافته وذعَرَتْه وهالَتْه فى حال مَنامه ، فلما انتبه أنسِيَها حتى ما تذكَّر منها شيئا ، وثبَت ارتياعُه فى نفسه لها ، فانقلب سرورُه حزنا ، فاحتجَب عن الوفود حتى أساءوا الظن به ، ثم حشَد الكُهّان ، فجعل يخلو بكاهن كاهن ثم يقول : أخبِرْنى عما أريد أن أسألك ، فيجيبُه الكاهن بأن لا علمَ عندى ، حتى لم يدَع كاهنًا علمه ، فتضاعف قلقُه ، فقالت له أمُّه ، وكانت قد تكهّنت : أبيتَ اللعن ! إن الكواهن أهدَى إلى ما تسألُ عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجن ألطَف من أتباع الكُهّان ، فأمَرَ بحَشر الكواهن إليه ، وسألهن كما سأل الكُهّان فلم يجد عند واحدة منهن علمَ ما أراد علمَه ، فلما يئس من طَلِبته سلا عنها ؛ ثم إنه بعد ذلك ذهَب يتصيّد فأوغَل فى الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفِعت له أبياتٌ فى ذُرَى جبل وقد لفَحه الهجير ، فعدل إلى الأبيات ، وقصَد منها بيتا منها كان مُنفردًا عنها ، فبرزَت إليه منه عجوزٌ فقالت : انزل بالرَّحب والسَّعَة ، والأمن والدَّعَة ، والجفنة المدعْدعة ، والعلبة المترعة ، فنزل عن جواده ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس وخفَقت عليه الأرواح نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهجير ، فجلس يمسح عينيه فإذا بين يديه فتاة لم ير مثلها جمالا وقَواما ، فقالت له : أبيتَ اللَّعن أيها الملك الهُمام ! هل لك فى الطعام ؟ فاشتدّ إشفاقه ، وخاف على نفسه لما رأى أنها قد عرفَته ، وتصامم عن كلمتها ، فقالت له :

لا حذَر ، فِـدَاك البشر ، بجـدّك الأكبر ، وحظُّنا بك الأوفر ، ثم قربت إليـه ثريدا وقديدا وحَيْسًا ، وقامت تذب عنـه حتى انتهى أكله ثم سقته لبنـا صريفا وضَريبا فشرب ما شاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة فملأت عينيه حُسنا ، وقلبَه هَوًى ، ثم قال لها : ما اسمك ياجارية ؟ قالت : اسمى عُفيراء ، قال لها : من الذى دعوته الملك الهمام ؟ قالت : مرشد العظيم الشان ، الحاشرُ الكواهنِ والكُهّان ، لمعضلة يُعلّ بها الجان ، قال يا عُفيراء : أتعلمين ما تلك المعضلة ؟ قالت : أجل أيها الملك الهُمام ، إنها رؤيا مَنام ، ليست بأضغاث أحلام ، قال : أصبت يا عُفيراء ، فما تلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصير زوابع ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دُخان ساطع ، يقفوها نهر مُتدافع ، وسمعتَ فيما أنت سامع ، دعاء ذى جرس صادع : هلمّوا إلى المشارع ، هَـلُموا إلى المشارع ، رَوِىٌّ جارع ، وغَرَق كارع . قال الملك : أجل هذه رؤياى ! فما تأويلها يا عفيراء ؟ قالت : الأعاصير[1] الزوابع ، ملوكُ تَبـابع ، والنهر علم واسـع ، والداعى نبى شافع ، والجـارع ولىّ له تابع ، والكارع عدوّ له منازع . قال : يا عفيراء أَسَلْمٌ هذا النبىّ أم حرب ؟ قالت : أقسم برافع السماء ، ومُنزِل المـاء[2] من العَماء ، إنه لمُبطِـل الدماء ، ومُنطـق العقائل نطق الإماء . قال الملك : إلام يدعو يا عُفَيراء ؟ قالت : إلى صلاة وصيام ، وصـلة أرحام ، وكسر أصنام ، وتعطيل أزلام ، واجتناب آثام . قال الملك : يا عفيراء ، مَن قومُه ؟ قالت : مضر بن نِزار ، ولهم منه نقع مثار ، يتجلّى عن ذَبح وإسار ، قال : يا عُفيراء : إذا ذَبح قومه فمن أَعضادُه ؟ قالت : أعضادُه غطاريف يمانون ، طائرهم به ميمون ، يعزبهم فيعزون[3] ، ويُدمّث بهم الحـزون ، فإلى نَصره يعتزون ، فأطرق

(١) فى الأصل : « قالت : الزوابع » . (٢) فى الأصل : « ومنزل العماء » ، والذى أثبت عن تاريخ الخميس ١ : ٢٩ . (٣) فى تاريخ الخميس : « يغزو بهم فيغزون » .

الملك يؤامر نفسه فى خطبتها، فقالت : أبيتَ اللّعن! إن تابعى غَيور، ولأمرى صبور، وناكحى مقبور، والكَلَف بى ثُبور . فنهَض الملك مُبادرا، فجال فى صهوة جَواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقة كوماء .

ويشبه ما ذكرناه رؤيا الموبِذان وقد تقدّمت فى أخبار الكهان .

ومن ذلك ما روى عن لهيب بن مالك اللّهبيّ أنه قال : حضرتُ عند[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكِرت الكهانة[2] فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسولُ الله! نحن أوّلُ من عرف حِراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعَهم من استراق السمع عند القذف بالنجوم؛ وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خَطَر بن مالك، وكان شيخا كبيرا قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة، وكان أعلم[3] كُهّاننا، فقلنا له : يا خطر[4]، هل عندك علم من هذه النجوم التى يُرْمَى بها؟ فإنا قد فزعنا لها، وقد خفنا سوءَ عاقبتها، فقال : ائتونى بسَحَر[5]، أخبرْكم الخبرَ، بخيرٍ أم ضرر[6] . وأمْنٍ أم حَذَر؛ قال : فانصرفنا عنه يومَنا، فلما كان من غدٍ فى وجه السحَر أتيناه ، فإذا هو قائم على قدمَيه شاخص إلى السماء بعينَيه ، فناديناه يا خطر ، فأومأ إلينا أن أمسِكوا

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « حضرت مع » .

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « فذكرت عنده الكهانة » .

(٣) رواية السيرة الحلبية : «وقد أتت عليه مائتا سنة ... وكان من أعلم» . وفى الخميس ١ : ٣٠ : « قد أتى عليه من العمر مائة وثمانون سنة، وكان من أعلم » .

(٤) خطر بالخاء المعجمة والطاء المهملة والراء . عن السيرة الحلبية .

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « ائتونى قبيل الفجر » .

(٦) هكذا رواية الديار بكرى فى الخميس ١ : ٣٠ ، وفى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٨ : « الخبر، الخير أم الضرر » .

فأمسكنا، فانقضّ نجم من السماء عظيم، فصرخ الكاهن: أصابه إصابه[1]، خامره عقابُه، عاجلَه عذابه، أحرقه شهابُه، زايلَه جوابُه، يا ويله ما حالُه، بَلْبَلَه بَلْبالُه[2]، عاوده خَبالُه، تقطعت حِباله، وغيرت أحواله؛ ثم أمسك طويلا، ثم قال: يا معشر بنى قَحطان، أخبركم بالحق والبيان، أقسمتُ بالكعبة ذاتِ الأركان، والبلد المؤتمن السكان[3]. قد منع السمعَ عتاةُ الجان، بثاقبٍ بكفّ ذى سلطان، من أجل مبعوثٍ عظيم الشان، يبعث بالتنزيل والقرآن، وبالهُدَى وفاصل الفرقان، تبطل به عبادة الأوثان. قال: قلنا يا خَطَر، إنك لتذكر أمرا عجيبا، فماذا ترى لقومك؟ فقال:

أرى لقومى ما أرى لنفسى * أن يتبعوا خير نبى الإنس

برهانه مثل شعاع الشمس * يبعث من مكة دار الحمس[4]

* بمحكم التنزيل غير اللبس *

قلنا: يا خطر، وممّ هو[5]؟ فقال: والحياةِ والعيش، إنه لمن قُريش. ما فى حكمه طيش، ولا فى خُلُقه هيش[6]، يكون فى جيش وأىّ جيش، من آل قحطان وآل رَيْش[7]. قال: قلنا بيّن لنا من أىّ قريش هو، قال: والبيتِ ذى الدّعائم، والرُّكن

(١) إصابه: جمع وصب كحمل وحمال، فالهمزة بدل من الواو. عن السيرة الحلبية ١: ٢٠٨. والمعروف أن جمع وصب أوصاب.

(٢) البلبال: الغم.

(٣) فى السيرة الحلبية ١: ٢٠٨: «السدان»، والسدان: الخدم.

(٤) الحمس: بضم الحاء المهملة وإسكان الميم: هم قريش، وانظر السيرة الحلبية ١: ٢٠٩.

(٥) فى تاريخ الخميس: «وممن».

(٦) هيش: أى ليس فى طبيعته وسجيته قول قبيح. عن السيرة الحلبية ١: ٢٠٩.

(٧) إيش، ويقال: ريش، وهى قبيلة من الجن. عن السيرة الحلبية ١: ٢٠٩.

والأحائم[1]، إنه لمن نَجل هاشم، من معشَر أكارم، يُبعث بالملاحم، وقتلِ كلّ ظالم؛ ثم قال: هذا هو البيان، أخبرَنى به رئيس الجانّ؛ ثم قال: الله أكبر، جاء الحق وظهَر، وانقطع عن الجنّ الخبرَ؛ ثم سكَت[2] فأُغمى عليه، فما أفاق إلا بعد ثلاث[3] فقال: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد نطق عن مثل نُبوّة، وإنه لَيُبْعث يوم القيامة أمةً وحده». والله أعلم.

ومنه ما روِى أن سفيان بن مُجاشع بن دارِم احتمل دياتِ دماءٍ كانت من قومه، فخرج يستعين فيها، فدفع إلى حَىّ من تميم، فإذاهم مجتمعون إلى كاهنة تقول: «العزيزُ من وَالَاه، والذَّليل من خالاه، والموفورُ من مَالاه، والموتُور من عَاداه»؛ قال سفيان: من تذكُرين لله أبوك؟ فقالت: «صاحبَ حِلّ وحرم، وهدى وعلم وبطشٍ وحِلم، وحرب وسَلْم، رأس رءوس، ورائض يمسوس[4]، وماحِى بوس، وماهد وُعُوس، «وناعِش منعوس»[5]»؛ قال سفيان: من هو لله أبوك؟ قالت: «نبىّ مؤيّد، قد آن حين يوجد، ودنا أوان يولد، يبعث إلى الأحمر والأسود، بكتاب لا يفنّد، اسمه محمد»؛ قال سفيان: لله أبوك، أعربىّ هو أم عجمىّ؟ قالت: «أما والسماء ذات العَنان، والشجر ذاتِ الأفنان، إنه لمن مَعَدّ بن عدنان، فقدْك يا سفيان»؛ فأمسك سفيان عن سؤالها، ثم إن سفيان وُلِد له غلام فسماه محمداً لِما رجاه من أن يكون النبىّ الموصوف.

ومنه ما رُوى أن عَمرو بن مَعديكرب عوتب على ارتداده عن الإسلام فقال: واللهِ ما هو إلا الشّقاء، ولقد علِمت أن محمّدًا رسولُ الله قبل أن يوحَى إليه، قيل: كيف كان ذلك يا أبا ثور؟ قال: حدَث بين بنى زُبَيد تَناجُش وتَظالُم، ونما

٥٤/١٤

(١) الأحائم جمع الجمع لـ «حوم»، ويريد بها بئر زمزم. وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢٠٩.
(٢) فى السيرة الحلبية: «ثم سكن وأغمى». (٣) فى السيرة الحلبية: «بعد ثلاثة أيام».
(٤) كذا. ولعله «يسوس». (٥) فى النص كلمات غير واضحة لم نهتد إلى تصويبها.

إلى أن سفك بعضهم دماء بعض ، ففزع حلماؤهم إلى كاهنٍ لهم رَجَوا أن يكون عنده المخرَج مما نزل بهم ، فقال الكاهِن : « أُقسِم بالسماء ذات الأبراج ، والأرض ذات الأدراج ، والريح ذات العَجاج ، والبِحار ذات الأمواج ، والجبال ذات الفِجاج ، إنّ هـذا الإمراج والارتجاج ، لَلِقاح ذو نَتاج » ؛ قالوا : وما نَتاجُه ؟ قال : « ظهور نبيّ صادق ، بكتاب ناطق ، وحسام والِق »(١) ، قالوا : أين يظهر؟ وإلامَ يدعو ؟ قال : « يظهر بصلاح ، ويدعو إلى الفَلاح ، ويُعطِّل القداح ، وينهَى عن الرَّاح والسِّفاح ، وعن كل أمر قُباح » ؛ قالوا : ممن هو؟ قال : « من وَلد الشيخ الأكرم ، حافرِ زَمزَم ، ومُطعِم الطير الحُوَّم ، والسباع الصُوَّم » ؛ قالوا : وما اسمه ؟ قال : « اسمه محمد ، وعزّه سَرمَد ، وخَصمه مُكمَد » .

فهذه جملة كافية من أخبـار الكُهّان . فلنذكر ما نطق به الجانّ من أجواف الأصنام ، وما سُمِـع من الهواتف ، والله المستعان .

وأما مَن بشّر به عليـه الصلاة والسـلام من الجانّ الذين نطقوا من أجواف الأصنام وما سمع من العتائر .

فمن ذلك ما رُوِى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى سبب إسلام عمر ، وأنه كان قد ضمِن لقريش قتلَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وخرج لذلك ، فمرّ بقومٍ من خُزاعة وقد اعتمدوا صنَمًا لهم يريدون أن يتحاكموا إليه ، فقالوا لعمر : أُدخل لتشهد الحكم(٢) ، فدخل معهم ، فلما مثلوا بين يدى الصّنَم سمعوا هاتفًا من جوفه يقول :

يأيهـا الناس ذوو الأجسامِ * ما أنتمُ وطائش الأحـلامِ(٣)

(١) رواية السيرة الحلبية ١ : ١٩٦ : « وحسام فالق » . (٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٢ : « كان أبو هريرة يحدث أن قوما من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوسا ، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم ، فبينا الخثعميون عند صنم لهم إذ سمعوا هاتفا يهتف و يقول » . وانظر شرح المواهب ١ : ٢٧٦

(٣) رواية الأبيات بهـذه الصورة فى شرح المواهب ١ : ٢٧٦ ، وفى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٣ تختلف روايتها عما هنا زيادة ونقصا ، وانظر دلائل أبى نعيم ص ٧٨ .

ومُسنِد[1] الحكم إلى الأصنامِ * أصبحتمُ كرائعِ الأنعامِ
أما ترون ما أرى أمامِي * من ساطعٍ يجلو دُجَى الظلامِ
قد لاحَ للناظر من تهامِ * وقد بدا للناظر الشآمي
محمد ذو البرّ والإكرامِ * أكرَمه الرحمنُ من إمامِ
قد جاء بعدَ الشِّرك بالإسلامِ * يأمر بالصلاة والصيامِ
والبِرّ والصِّلات للأرحام * ويزجُر الناسَ عن الآثام
فبادِروا سَبقًا إلى الإسلام * بلا فتورٍ وبلا إحجام

قال : فتفرق القوم عن الصنم ولم يحضُره يومئذٍ أحد إلّا أسلم؛ ثم ذكر ابن عباس انطلاقَ عمر إلى منزلِ أخته على ما نذكر ذلك أو نحوَه عند ذكرنا إسلامَ عمر رضى الله عنه .

قال : ثم خرج لقصدِ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلقيه رجال من بنى سُلَيم[2] قد تنافروا إلى صَنَم لهم ليحكم بينهم اسمه الضِّمار[3]، فدعَوا عمر إلى الدخول معهم إليه ففعل ، فلما وقَفوا بين يدى الصَّنَم سمِعوا هاتفا من جوفه يقول :

أودَى الضِّمار وكان يُعبَد مرةً[4] * قبلَ الكتاب وقبلَ بعث محمد
إن الذى ورِث النبوّة والهدَى * بعد ابن مريمَ من قُريش مهتدِى
سَيقولُ من عَبَد الضِّمار ومثله * ليت الضِّمار ومثله لم يُعبَد

(١) رواية السيرة الحلبية ١ : ٢٠٣ : « ومسندوا » ، وانظر دلائل أبى نعيم ص ٧٨ .
(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٠ : « ... عباس بن مرداس قال : كان لمرداس السلمى وثن يعبده يقال له ضمار » ، وانظر دلائل أبى نعيم ص ٧٩ .
(٣) ضمار بكسر الضاد المعجمة وميم مخففة بعدها ألف ثم راء مهملة ، عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٠
(٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٣٠٠ ، وشرح المواهب ١ : ٢٧٧ « يعبد مدة » .

أبشر أبا حفص بدين صادق * تهدى إليه بالكتاب المرشد
واصبر أبا حفص قليلا إنه * يأتيك عن فَرَق أعزُّ بنى عدى
لا تعجلنّ فأنت ناصرُ دينه * حقًّا يقينا باللسان وباليد

قال : فعجب القوم منه ونكّسه عمر ، وغيّر الله ما فى صدره من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه ماروى أن وائلَ بن حُجْر وكان ملكًا مطاعا(١) ، وكان له صنم من العقيق الأحمر يعبده ويحبّه حبًّا شديدا ، ولم يكن يُكلَّم منه ، إلا أنه كان يرجو ذلك ، فيكثر له السجود ، ويَعْتِر له العتائر ، فبينا هو نائم فى الظهيرة أيقظه صوت مُنكَر من المخدع الذى فيه الصّنَم ، فقام من مَضجعه وأتاه فسجد أمامه ، فإذا قائل(٢) يقول :

٥٥/١٤

يا عجبا(٣) لوائلِ بن حُجْرِ * يُخَال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا يرجّى من نَحيت صخرِ * ليس بذى عُرْفٍ ولا ذى نكرِ
ولا بذى نفع ولا ذى ضرّ * لو كان ذا حِجْرٍ(٤) أطاع أمرى

قال وائل : فرفعت رأسى واستويتُ جالسا ، ثم قلت : قد أسمعتَ أيها الناصح(٥) ، فماذا تأمرنى ؟ فقال :

ارحل إلى يثرب ذات النّخلِ * وسِر إليها سيرَ مُشمعِلّ
تدن بدين(٦) الصائم المصلّى * محمدِ المرسَل(٧) خيرِ الرُّسلِ

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «وكان قيلا من أقيال حضرموت ، وكان أبوه من ملوكهم» .
(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «وإذا قائل» .
(٣) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «وا عجبا» .
(٤) الحجر : العقل . (٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «أيها الهاتف الناصح» .
(٦) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠٦ : «تدين دين» .
(٧) فى السيرة الحلبية : «محمد النبى» .

قال وائل : ثم خرّ الصنم لوجهه فانكسر أنفه، واندقّت عنقه ، فقمت إليه فجعلته رُفاتا ، ثم سرت مسرعًا حتى أتيت المدينة ؛ وذكر إسلامَه بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم . والله المعين .

ومنه خبر مازن الطائى فى سبب إسلامه

٥ رواه البيهقى فى دلائل النبوّة بسندٍ قال : كان مازن الطائىّ[(١)] بأرض عمان بقرية تدعى سمايل[(٢)]، وكان يبدن الأصنام لأهله ، وكان له صنَم يقال له باجر[(٣)]، قال مازن: فعترت[(٤)] ذات يوم عَتيرة، والعَتيرة : الذبيحة[(٥)]، فسمعتُ صوتا من الصنم يقول : يا مازن : أقبِل إلىّ أقبِل، تسمع ما لا يجهل، هذا نبي مرسل، جاء بحق منزل، فآمِنْ به كى تعدل، عن حرّ نار تُشعل، وقودها بالجندل .

١٠ قال مازن : فقلت والله إن هـذا لعجَب ، ثم عترت بعـد عشرة أيام عتيرة أخرى، فسمعت صوتا آخرَ أبينَ من الأوّل وهو يقول : يا مازن اسمع تسرّ ، ظَهَـر خير وبَطَن شرّ ، بعث نبيّ من مضر، بدين الله الكُبر[(٦)]، فدع نَحيتـا من حجـر ، تسلم من حرّ سَقَر ؛ قال مازن : فقلت إن هذا والله لعجَب ، إنه لَخـيرٌ يُراد بى ؛ وقدم علينا رجل من أهل الحجاز فقلنا : ما الخبر وراءك ؟ قال[(٧)] :

---

١٥ (١) له ترجمة فى أسد الغابة ٤ : ٢٦٩ ، وخبره هذا فى دلائل أبى نعيم ص ٧٦ .

(٢) فى دلائل أبى نعيم ص ٧٦ : «سمايا» ، وفى تاج العروس (سمل ، شمل) : «وسمائل : اسم قرية ويقال بالشين ، وهى من أرض عمان» . (٣) باجر، بفتح الجيم ويكسر، ويقال بالحاء المهملة . وانظر تاج العروس (بجر) . (٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « فعترنا » .

(٥) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « وهى الذبيحة مطلقا ، وقيل فى رجب خاصة » .

٢٠ (٦) رواية أبى نعيم ص ٧٦ : « الله الأكبر » . (٧) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ ، ودلائل أبى نعيم ص ٧٧ : « قال : قد ظهر رجل يقال له أحمد يقول لمن أتاه » .

خرج رجل بتهامة يقول لمن أتاه : أجيبوا داعى الله عز وجل ، يقال له أحمد ، قال : فقلت هذا والله نبأُ ما سمعت ، فثرت[(١)] إلى الصنم فكسّرته أجذاذا ، وشدّدت راحلتى ورحلت ، حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشرح إلىّ الإسلام فأسلمت ، وأنشأت أقول :

كسرتُ باجر أجذاذا وكان لنا * ربا نطيف به ضلّا بتضلالِ

فالهاشميّ هدانا من ضلالتنا * ولم يكن دينه منّى[(٢)] على بال

يا راكبا بلّغن عمرا وإخوته[(٣)] * أنى لما قال ربّى باجرٌ قالى

قال مازن : فقلت يا رسول الله ، إنى امرؤ مولَع بالطرَب وشرب الخمر ، وبالهلوك[(٤)] من النساء ، وألحّت علينا السنون[(٥)] فأذهبن الأموال ، وأهزلن الذرارى والرجال ، وليس لى ولد ، فادْعُ الله أن يذهب عنى ما أجد ، ويأتينى بالحيا ، ويهب لى ولدا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم أبدله بالطّرب قراءة القرآن ، وبالحرام الحلال ، [وبالخمر ريًّا لا إثم فيه ، و بالعُهر عِفّة الفَرْج[(٦)]] وائته بالحيا ، وهب له ولدا . قال مازن : فأذهب الله عنى كل ما أجد ، وأخصبت عمان ، وتزوجت أربع حرائر[(٧)] ، ووُهب لى حيان بن مازن ، وأنشأت أقول :

---

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « فنزلت إلى الصنم » .

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « دينه شيئا » .

(٣) فى دلائل أبى نعيم ص ٧٧ ، والسيرة الحلبية ١ : ٢٠١ : « عمرا و إخوتها » ؛ و يعنى بعمرو و إخوتها بنى الصامت وبنى خطامة ، وهى بطن من طيء .

(٤) الهلوك من النساء : الفاجرة .

(٥) ألحت علينا السنون : دامت علينا أيام القحط .

(٦) عن عيون الأثر ١ : ٧٦ ، والسيرة الحلبية ١ : ٢٠١ .

(٧) فى دلائل أبى نعيم ص ٧٧ : « حرائر ، وحفظت شطر القرآن » ، وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ ، وعيون الأثر ١ : ٧٦ .

إليك رسولَ الله خبَّت مطيّتى * تجوب الفَيافى من عُمانَ إلى العَرْج
لتشفع لى ياخيرَ من وطِئ الحصا * فيغفرَ لى ربى فأرجعَ بالفُلْج[1]
إلى معشَرٍ خالفتُ فى الله دينَهم * فلا رأيهم رأيى ولا شَرجُهم شَرْجى[2]
وكنت آمرأً بالعُهْر[3] والخمر مولَعا * شبابىَ حتى آذنَ الجسم بالنَّهج[4]
فبدّلنى بالخمر خوفًا وخشية * وبالعُهْر إحصانا وحَصّن لى فرجى
فأصبحتُ همّى فى جهادٍ ونيّتى * فلله ما صَومى ولله ما حَجّى

٥٦/١٤ قال مازن: فلما رجعت إلى قومى أنّبونى وشتمونى، وأمروا شاعرهم فهجانى، فقلت إن هجوتهم فإنما أهجو نفسى، فتركتهم، قال: ثم إن القوم ندموا وكنت القيِّم بأمورهم، فقالوا ما عسى أن نصنَع به، فجاءنى منهم أَزْفَلة[5] عظيمة فقالوا: يابن عمّ، عِبْنا عليك أمرا فنهيناك عنه، فإذْ أبيتَ فنحن تاركوك، آرجع معَنا، فرجعتُ معهم، فأسلَموا بعدُ كلّهم.

ومازن هذا هو الذى أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض عمان.

ومنه ما روى عن جبير بن مُطْعِم عن أبيه قال: كنا جلوسا عند صنَم لنا، فإذا صائح يصيح من جوفه: اسمعوا إلى العَجَب، وتوقّعوا حادثا قد اقترب، استِراق السمع ذهب، وتُرمَى [الجنُّ] بالشُهُب، لنبيّ من العرب، هاشمىّ النسب،

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٠١ و٢٠٢ : « ليغفر لى ذنبى »، والفلج: الفوز والظفر.
(٢) الشرج، بالشين: الشكل والطريق. عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٢؛ وفى الأصل: « مرجهم مرجى ». (٣) فى الأصل: « بالرعب » والتصويب عن السيرة الحلبية ١ : ٢٠٢ ودلائل أبى نعيم ص ٧٨. (٤) النهج: البلى. وانظر النهاية ٤ : ١٨٥.
(٥) الأزفلة بفتح الهمزة والفاء: الجماعة من الناس؛ وفى الأصل: « إن قلة » تصحيف.

مولده بمكّة ، ومُهاجَره يَثرب ؛ قال : وهذا قبل أن يظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه ماروى عن عبد الله بن ساعدة الهذلى أنه قال : كنا نعبد صنما يقال له سُواع ، وكانت لى غَنَم فخَرِبت فسقتها إليه وأدنيتها منه أرجو بركته ، فسمعت مناديا من جوف الصَّنم يقول : العجب كل العجَب ، سُدِلت الحجب ، ورمِيت الجن بالشُّهب ، وسقطت النُّصُب ، ونزل خير الكُتب ، على خير العرب ؛ قال : فسقت غنمى وعدتُ إلى أهلى ، وقد بُغِّضَت إلىّ الأوثان ، فجعلت أنقِّب عن الحوادث حتى بلَغنى ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته فأسلمت .

وسنذكر إن شاء الله تعالى فى خبر إسلام الجن ماهتفوا به فأسلم بسببه من أسلَم لمّا سمِعوا — ما تقِف عليه هناك .

وحيث ذكرنا ماذكرنا من المبشّرات ، فلنذكر مبعثه صلى الله عليه وسلم .

ذكر مَبعَث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بدئ به من النبوّة

روِى عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوّة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة[1] ، لا يَرَى رسول الله صلى الله عليه وسلم رُؤيا فى نوم إلا جاءت كَفَلَق الصُّبح[2] ، وحبب الله إليه الخلوة ، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده .

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٣٣ : « الرؤيا الصالحة » ، قال : فالمراد بالصالحة الصادقة . وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٤٩

(٢) فلق الصبح : ضياؤه .

وروى محمد بن إسحاق بن يسار المطّلبي عن عبد الملك بن عبيد الله[(١)] بن أبي سفيان ابن العلاء بن حارثة[(٢)] الثقفيّ ، وكان واعية[(٣)] ، عن بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوّة ؛ كان إذا خرج لحاجته أبعَد حتى تحسر عنه البيوت[(٤)] ، ويُفضِي إلى شِعاب[(٥)] مكّة وبطون[(٦)] أوديتها ، فلا يمرّ بحجَرٍ ولا شجرٍ إلا قال : السلام عليك يا رسولَ الله ، فيلتفتُ حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة ؛ فمكث صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحِراء في شهر رمضان .

وعن البَراء بن عازب رضي الله عنه قال : بعث اللهُ محمدا صلى الله عليه وسلم وله يومئذٍ أربعون سنة ويوم ، فأتاه جبريل ليلةَ السبت وليلةَ الأحد ، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان في حِراء ، وهو أوّل موضع نزل فيه القرآن .

وحكى أبو عمر بن عبد البرّ أن محمدَ بن موسى الخُوارزميّ قال : بُعث نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لثمانٍ خلت من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وأربعين من عام الفيل . فكان من مَولِده إلى أن بعثه الله عز وجل أربعون سنة ويوم .

---

(١) في الأصل : « بن عبد الله » ، والذي أثبت عن ابن هشام ١ : ٢٥٠

(٢) في سيرة ابن هشام : « جارية » .

(٣) الواعية : الحافظ الفقيه ، والتاء للمبالغة .

(٤) تحسر : تبعد عنه ، ويخلى عنها . عن الخشني ١ : ٧٥ .

(٥) الشعاب : المواضع الخفية بين الجبال . عن الخشني ١ : ٥٧ .

(٦) في الأصل : « وتطرف » ، وصححت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٠

وعن عبد الله بن الزبير وغيره : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حِراء [شهرا](١) من كل سنة ، يطعم مَنْ جاءه من المساكين، فإذا قضَى صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك، كان أولَ ما يبدأ به — إذا انصَرف من جِواره — الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا أو ماشاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله به فيه من كرامته ما أراد، من السنة التى بَعثَه فيها، وذلك فى شهر رمضان، خرج صلى الله عليه وسلم إلى حِراء(٢) كما كان يخرج لجواره ومعه أهلُه، حتى إذا كانت الليلةُ التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العبادَ بها ، جاءه جبريل بأمر الله ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاءنى وأنا نائم بنمط(٣) من ديباج فيه كتاب، فقال : اقرأ؛ [قال](٤) : قلت : ما أقرأ؟ قال : فغَتّنى(٥) به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلنى فقال : اقرأ؛ قلت : ما أقرأ؟ قال : فغَتّنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال : اقرأ؛ قلت : ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لى بمثل ما صَنع . فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ اقْرأ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ عَلَّمَ الإنسانَ مالم يَعْلَمْ﴾ . قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببت من نومى ، فكأنّما كَتَب(٦) فى قلبى كتابا؛ قال : فخرجت حتى إذا كنتُ فى وسطٍ من الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال : فرفعت رأسى أنظر [إلى السماء](٤)؛ فإذا جبريل فى صورة رجُل صافّ قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله، وأنا

٥٧/١٤

(١) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٠ . (٢) حراء : جبل على ثلاثة أميال من مكة . معجم البلدان ٣ : ٢٣٩ . (٣) النمط : ضرب من الثياب المصبغة .

(٤) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٢ ، ٢٥٣

(٥) فغتنى، وفى رواية : غطنى، أى عصرنى عصرا شديدا حتى وجدت منه المشقة .

(٦) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٣ : « فكأنما كتبت » .

جبريل، [قال][1] : فوقفتُ أنظر إليه، فما أتقدّم وما أتأخر، وجعلتُ أصرف وجهى [عنه][1] فى آفاق السماء، فما أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدّم أمامى وما أرجع ورائى حتى بَعثَت خديجة رُسلَها فى طلبى، فبلغوا [أعلى][1] مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف فى مكانى ذلك؛ ثم انصرف عنى .

٥ وانصرفت راجعًا إلى أهلى حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها [مضيفا إليها][2] فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا [أعلى][1] مكة ورجعوا إلىّ، فحدّثتها[3] بالذى رأيت، فقالت : أبشر يابنَ عمّ واثبُت، فوالذى نفسُ خديجةَ بيده إنى لأرجوتّ[4] أن تكون نبىّ هذه الأمة .

ثم قامت فجمعتْ عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى وَرقَة بن نَوفل بن أسَد بن ١٠ عبد العُزّى[5]، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر فى الجاهلية وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرَتْه بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع، فقال ورقة : قُدُّوس قُدُّوس، والذى نفسُ ورقةَ بيده، لئن كنتِ صدَقْتِنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسَى، وإنه لنبىّ هذه الأمة، فقولى له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٥ فأخبرته بقول ورَقة بن نَوفَل، فلما قضَى رسول الله صلى الله عليه وسلم جِواره وانصرف صنع كما كان يصنع؛ بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو

(١) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٢، ٢٥٣ . (٢) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٣ . ويقال أضفت إلى الرجل : إذا ملت نحوه ولصقت به، عن الخشنى ١ : ٧٦ .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٣ : «ثم حدثتها» .

(٤) ابن هشام، وعيون الأثر ١ : ٨٦ : «إنى لأرجو» . ٢٠

(٥) فى سيرة ابن هشام : «العزى بن قصى وهو ابن عمها وكان ورقة قد» .

يطوف بالكعبة فقال: يابن أخى، أخبرنى بما رأيتَ وسمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال له ورَقَة: والذى نفسى بيده إنك لنبىُّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتُكَذَّبَنَّه، ولَتُؤْذَيَنَّه، ولَتُخْرَجَنَّه، ولَتُقَاتَلَنَّه[1]، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم، لأنصُرنَّ الله نصرًا يعلمُه، ثم أدنى رأسه منه فقبَّل يافوخَه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله. ٥

وذكر الإمام العدل سليمان التيمى فى سِيَره[2] أن النبى صلى الله عليه وسلم حين أخبر خديجةَ عن جبريل، ولم تكن سَمِعت باسمه قطّ، ركِبت[3] إلى بَحِيرا الرّاهب إلى الشام، قال الزهرىّ هو حَبر من يهود تيماء، فسألَته عن جبريل، فقال لها: قدّوس قدّوس، يا سيدة نِساء قُريش، أنّى لكِ بهذا الاسم؟ فقالت: بَعْلى ابن عمّى أخبرنى أنه يأتيه، فقال: قدّوس قدّوس ماعَلِم به إلا نبىّ، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشياطين لا تجترئُ[4] أن تتمثّل به ولا تتسمّى به. ١٠

وكان غلامٌ لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس آسمه عدّاس من أهل نِينَوَى[5] مدينة يونس عليه السلام، عنده عِلم من الكتاب أرسلت تسأله عن جبريل فقال: قدّوس [قدّوس][6] أنّى لهذه البلاد بِذكر جبريل يا سيدةَ نِساء قُريش؟ فأخبرته بقول النبى صلى الله عليه وسلم، فقال عدّاس مثلَ قول الراهب. ١٥

---

(١) الهاء المتصلة بهذه الأفعال للسكت.

(٢) نقله فى السيرة الحلبية ١ : ٢٤٤ عن ابن دحية. وانظر ترجمة سليمان بن بلال التيمى فى تهذيب التهذيب لابن حجر ٤ : ١٧٥.

(٣) فى السيرة الحلبية ١ ٢٤٤ : «كتبت إلى بحيرا».

(٤) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٤٤ : «فان الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به، ولا أن يتسمى». ٢٠

(٥) معجم البلدان ٨ : ٣٦٨.

(٦) عن السيرة الحلبية ١ : ٢٤٣.

وروى البخاري[1] — رحمه الله — في صحيحه بإسناده عن هِشام بنِ عُروة عن أبيه، عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها : أن الحارث بن هِشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتيني مثل صَلْصَلة[2] الجَرَس وهو أشدّه عليّ، فيفصِم[3] عني وقد وعَيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي المَلَك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول. قالت عائشة : ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصِم[4] عنه وإنّ جبينه ليتفصّد عَرَقا.

٥٨/١٤

وبسنده[5] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : أوّلُ ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يَرى رؤيا إلا جاءت مثل فلَق الصُّبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حِراء، فيتحنّث فيه، وهو التعبُّد الليالي ذواتِ العدد قبل أن ينزِع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلِها، حتى جاءه الحق وهو في غار حِراء، فجاءه المَلَك فقال : اِقرأ، قال : قلت : ما أنا بقارئ، قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانيةَ حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خُوَيلد، فقال : زمِّلوني زمِّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد

(١) صحيح البخاري ١ : ٦ . (٢) الصلصلة : صوت الحديد إذا حرّك .

(٣) يفصم عني : يقلع . (٤) يتفصد : يسيل عرقا . (٥) صحيح البخاري ١ : ٧، ٤ : ١٥١، وانظر ٦ : ١٧٣ .

خشيت على نفسى، فقالت خديجة: كلّا والله، ما يُخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرَّحِم، وتحمِل الكَلّ، وتكسِب المعدوم، وتَقرِى الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بن نوفَل بن أسَد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة، وكان امرءًا تنصّر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العِبرانىّ[1]، فيكتب من الإنجيل بالعِبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرا قد عمِى، فقالت له خديجة: يابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخى، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى أنزل الله على موسَى، ياليتنى فيها جذعا، ليتنى أكون حيا إذ يُخرجك قومُك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوَمُخْرِجِىّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودِى، وإن يُدرِكْنى يومُك أنصُرك نصرًا مؤزَّرا؛ ثم لم ينشَب ورقة أن تُوفى، وفتَر الوحى.

قال ابن شهاب[2]: وأخبرنى أبو سلَمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارىّ قال وهو يحدّث عن فترة الوحى، فقال فى حديثه: بينا أنا أمشى إذ سمعتُ صوتا من السماء، فرفعت بصرى فإذا الملَك الذى جاءنى بحِراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض، فرعِبت منه، فرجعت فقلت: زَمِّلونى زَمِّلونى، فأنزل الله: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، فحمى الوحى وتتابع.

قال محمد بن إسحاق[3]:

وحدّثنى إسماعيل بن أبى حكيم مولَى آل الزُّبير أنه حُدِّث عن خديجة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أى ابن عم، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا

(١) رواية البخارى ٦: ١٧٤: «وكان يكتب الكتاب العربىّ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله». (٢) لا يزال النقل عن صحيح البخارى ١: ٧.

(٣) نقله ابن هشام فى السيرة عنه ١: ٢٥٤.

الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال نعم ، قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به ، فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياخديجة ، هذا جبريل قد جاءنى قالت : قم يابن عم فاجلِس على فخذى اليُسْرَى ، فقام فجلس عليها ، قالت : هل تراه؟ قال : نعم ، قالت : فتحوّل فاقعد[1] على فخذى ايمنى ، قال : فتحوّل فقعد[2] على فخذِها اليمنَى ، فقالت : هل تراه؟ قال : نعم ، قالت : فتحوّل فاجلس فى حِجرى ، فتحوّل فجلس فى حِجرها ، ثم قالت : هل تراه ؟ قال : نعم : قال : فخَسَرَتْ وألقت خِمارها ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالس فى حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا . قالت يابن عمّ : اثْبُت وأبشِر ، فوالله إنه لملَك ، ما هذا بشيطان .

وكانت خديجة رضى الله عنها أوّل من آمن بالله وبرسوله وصدّق بما جاء به . وحكى أبو عمر بن عبد البر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرّ أمره ثلاث سنين ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه والدعاءِ إليه ، فأظهره بعد ثلاث سنين من مبعثه . قال : وقال الشعبي : أُخْبِرتُ أن إسرافيل تراءى له ثلاثَ سنين . وروَى ابن عبدالبر بسنده إلى الشعبيّ قال : بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين ، ووُكّل به إسرافيل عليه السلام ثلاثَ سنين ، ثم وُكّل به جبريل عليه السلام . وفى روايةٍ عنه : ثم بُعث إليه جبريل بالرسالة . وعنه أيضا قال : أنزلت عليه النبوّةُ وهو ابن أربعين ، فقرن نبوّتَه إسرافيل عليه السلام ثلاثَ سنين ، وكان يعلّمه الكلمةَ والشىء ، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه ، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبريل عليه السلام ، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة .

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٥ : « فاجلس » .

(٢) رواية ابن هشام : « فجلس » .

٥٩/١٤

ذكر فترة الوحى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وما أُنزل بعد فترته

قال[(١)] : وفتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترةً[(٢)] حتى شقّ ذلك عليه وأحزنه . واختُلف فى مدة فترة الوَحى ، فقال ابن جُرَيج : احتبس عنه الوحى اثنى عشر يوما، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خمسةَ عشر يوما، وقيل : خمسة وعشرين . وقال مُقاتل : أربعين يوما . والله أعلم .

رَوَى البخارىّ[(٣)] — رحمه الله — عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وساق الحديث بنحو ما تقدّم، قال : وفتر الوحى فترة حتى حزِن النبى صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزناً غَدا منه مِرارًا كى يتردّى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أَوفَى بذِروة جبل لكى يُلقِى نفسه منه تبدّى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرّ نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفَى بذِروة جبل تبدّى له جبريل وقال له مثل ذلك . قال : وتكلم المشركون عند فَترة الوحى بكلام ، فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ السورةَ بكمالها، وقيل فى سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تَرك قيام الليل ليلتَيْن أو ثلاثًا لشكوى[(٤)] أصابته ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد، إنى لأرجو أن يكون شيطانُك قد تَرَكك لم أره قَرَبك منذ ليلتين أو ثلاث[(٥)]، فأنزل الله تعالى السورة .

---

(١) القائل ابن إسحاق . وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٧ .

(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٧ : « فترة فى ذلك حتى » .

(٣) الجامع الصحيح ٦ : ١٧٢ ، ١٧٤ ، وانظر عيون الأثر ١ : ٨٥ .

(٤) الشكوى : المرض . (٥) فى الأصل : « أو ثلاثا » .

قال القاضى أبو الفضل عياض بن موسى رحمه الله فى كتابه المترجَم (بالشفا بتعريف حقوق المصطفى)[(١)] : تضمّنت هذه السّورة من كرامة الله تعالى لنبيّه وتنويهه به وتعظيمه إياه ستّة وجوه :

الأوّل — القَسَم له عما أخبر به من حاله بقوله : ﴿ والضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ أى وربّ الضحى ، وهذا لِمَنْ عِظَمِ درجات المبرّة .

الثانى — بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ أى ما تركك وما أبغضك، وقيل ما أهمَلَك بعد أن اصطفاك .

الثالث — قوله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ .

قال ابن إسحاق : أى مالك فى مَرجعك عند الله أعظم مما أعطاك الله من كرامة الدنيا . وقال سهل : أى ما ذخرتُ لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك فى الدنيا .

الرابع — قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾، وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدّارين والزّيادة .

قال ابن إسحاق[(٢)] : يُرْضِيه بالفَلْج فى الدّنيا والثواب فى الآخرة . وقيل : يُعْطيه الحوضَ والشفاعة، ورُوِى عن بعض آل النبى[(٣)] صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ليس فى القرآن آية أرجَى منها . ولا يَرضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يدخلَ أحد من أُمّته النار» .

---

(١) انظر شرح الخفاجى على الشفا ١ : ٢٠٤ وما بعدها .

(٢) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٥٩ ، وعبارته «فترضى من الفلج فى الدنيا والثواب» . وانظر نسيم الرياض ١ : ٢٠٧ . والفلج : الفوز والظفر .

(٣) هو على بن أبى طالب، أو الحسن بن محمد بن الحنفية . وانظر نسيم الرياض ١ : ٢٠٧

الخامس — ما عدّه الله تعالى عليه من نِعمه، وقرّره من آلائه قِبَله فى بقية السورة، من هدايته إلى ما هداه له، أو هدايةِ الناس به على آختلاف التفاسير، ولا مالَ له فأغناه بما آتاه، أو بما جعله فى قلبه من القناعة والغنى، ويتيما فحدِب عليه عمُّه وآواه إليه، وقيل: آواه إلى الله، وقيل: يتيما لا مثالَ لك فآواك إليه، وقيل المعنى ألم يَجِدْك فهدى بك ضالّا، وأغنى بك عائلا، وآوى بك يتيما، ذكّره بهذه المِنن، وأنه — على المعلوم من التفسير — لم يهمِله فى حالِ صغره وعَيلته ويُتْمه، وقبل معرفتِه به ولا ودّعه ولا قلاه، فكيف بعد آختصاصِه واصطفائه. والله أعلم

السادس — أمْرُه بإظهار نعمته عليه، وشكرِ ما شرّفه به بِنشره وإشادة ذكره بقوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾، فإنّ مِنْ شكر النعمة التحدُّثَ بها، وهذا خاصّ له، عامّ لأمته.

وقال ابن إسحاق[1]: أى بما جاءك مِن الله من نعمته وكرامتِه من النبوّة، فحدّث بها أى آذكرها وادْع إليها. قال: فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العبادِ به من النبوّة سِرّا[2] إلى من يَطمئنُّ إليه من أهله. قال: ثم فُرضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. والله الموفِّق لطاعته.

ذكر فَرض الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

٦٠/١٤

روِى عن عائشة أمِّ المؤمنين — رضى الله عنها — أنها قالت[3]: افتُرضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل ما افتُرضت ركعتين[4] ركعتين كلّ صلاة، ثم إن الله تعالى أتمّها فى الحضَر أربعا، وأقرها فى السفَر على فرضها الأوّل ركعتين.

قال محمد بن إسحاق:

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٩. (٢) فى الأصل: «النبوة بسرى»، والتصويب عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٩. (٣) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٠. (٤) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٠: «افترضت عليه ركعتين».

وحدّثنى بعضُ أهل العلم أن الصلاة حين افتُرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهَمَز له بعقِبه فى ناحية الوادى، فانفجرت منه عينٌ فتوضّأ جبريل (١) ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر [إليه] (٢) ليُريَه كيف الطّهور للصلاة، ثم توضّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريلَ توضّأ، ثم قام به جبريل فصَلّى به، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته، ثم انصرف جبريل (٣)، فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى خَديجة فتوضّأ لها ليُريَها كيف الطّهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضّأت كما توضّأ [لها] (٤) رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلّى بها كما صلى به جبريل، فصلّت بصلاته (٥).

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال (٦): "لما فُرضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فصلّى به الظُّهر حين مالت الشمس، ثم صلّى به العصر حين كان ظلُّه مثلَه، ثم صلّى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشّفَق، ثم صلّى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاء فصلّى به الظهر من غدٍ حين كان ظِلّه مثله (٧)، ثم صلى به العصر حين كان ظِلّه مثليْه، ثم صلّى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلثُ اللّيل الأوّل، ثم صلّى به الصبح مُسفِرا غير مشرِقٍ، ثم قال: يا محمد الصلاة فيما بين صلاتِك اليومَ وصلاتِك بالأمس (٨)".

(١) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٠ : « جبريل عليه السلام و رسول » . (٢) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٠ . (٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦١ : « جبريل عليه السلام فجاء » .
(٤) عن ابن هشام، والسيرة الحلبية ١ : ٢٦٤ . (٥) للسهيلى فى الروض الأنف ١ : ١٦٢ كلام فى هذا الحديث وسنده يحسن الوقوف عليه . وانظر السيرة الحلبية ١ : ٢٦٤ .
(٦) رواه ابن هشام ١ : ٢٦١ .
(٧) فى الأصل : «الفجر ثم صلى به الظهر حين كان» والذى أثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٢ .
(٨) ناقش السهيلى فى الروض الأنف ١ : ١٦٣ إيراد هذا الحديث هنا ، لأن هذه القصة كانت فى الغد من ليلة الإسراء، وذلك بعد ما نبئ النبى صلى الله عليه وسلم بخمسة أعوام . ثم ذكر كلامهم فى ذلك .

ذكر أوّل من أسلم وآمن بالله تعالى وبرسوله

صلى الله عليه وسلم وصدّق بما جاء به من عند الله

قد تقدّم أن أوّل من آمن خديجة رضى الله عنها، وذهب محمد بن إسحاق[(١)] إلى أن أوّل من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلّى وصدّق بما جاء به[(٢)] من الله تعالى علىّ بن أبى طالب، ثم زيد بن حارثة[(٣)] مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أبو بكر الصدّيق[(٤)] رضى الله عنهم. وسنذكر إن شاء الله إسلام كل واحد منهم.

أما إسلام أبى بكر الصديق رضى الله عنه فالذى عليه الأكثرون أنه أوّل من أسلم من الذكور، وقد روى أبو الفَرَج بن الجَوْزىّ رحمه الله فى كتابه المترجم (بصفة الصفوة)[(٥)] عن ابن عبّاس، وحسّان بن ثابت، وأسماءَ بنت أبى بكر، وإبراهيم النَّخَعىّ، قالوا كلُّهم: أوّل من أسلم أبو بكر، قال: وقال يوسف بن يعقوب بن الماجشون: أدركت أبى ومَشيختنا محمدَ بن المنكدر، وربيعةَ بن أبى عبد الرحمن، وصالح ابن كَيْسان، وسعد بن إبراهيم، وعثمان بن محمد الأخنسى، وهم لا يشكّون أن أوّل القوم [إسلاما][(٦)] أبو بكرٍ.

وروَى أبو الفرج بسنده[(٧)] عن ابن عباس أنه قال: "أوّل من صلى أبو بكرٍ رضى الله عنه"، ثم تمثّل بأبياتِ حسّان بن ثابت:

إذا تذكّرت شجوًا من أخى ثِقَةٍ * فاذكُر أخاك أبا بكرٍ بما فعَلا
خيرَ البرية أتقاها وأعدلَها * إلا النبىّ، وأولاها بما حمَلا
الثانى التالى المحمود مشهدُه * وأوّل الناس حقا صدّق الرسُلا

والله يهدى من يشاء.

---

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٦٢. (٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٢: «بما جاء به».
(٣) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٤، وأسد الغابة ٢ : ٢٢٤. (٤) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٦.
(٥) ١ : ٨٩. (٦) عن صفة الصفوة ١ : ٨٩. (٧) صفة الصفوة ١ : ٨٩.

٦١/١٤ وأما إسلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه — فقد اختلف في سنّه حالَ إسلامه ؛ فقيل : أسلَم وهو ابن عشر سنين[(١)]، وقيل: تِسع سنين، وقيل اثنتي عشرة سنة، وقيل أكثر من ذلك إلى عشرين سنة، وهو بعيد، لأنه آمن في ابتداء الأمر وظهور النبوّة . والله أعلم .

٥ وكان من حديث إسلامه ما رواه محمد بن إسحاق[(٢)] عن عبد الله بن أبي نَجيح عن مُجاهد بن جَبْر بن أبي الحجّاج ، قال : كان من نعمة الله على عليّ بن أبي طالب ومما صنع الله له وأراده به من الخير أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عِيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمّه العباس، وكان من أيسر بني هاشم : يا عبّاس، إن أخاك أبا طالب كثيرُ العيال، وقد أصاب الناسَ

١٠ ماترى من هذه الأزمة، فانطلِق بنا إليه فلنخفِّف[(٣)] [عنه] من عياله ؛ آخذُ من بنيه رجلا، وتأخذ أنت[(٤)] رجلا فنكفلهما[(٥)] عنه، فقال العباس : نعم، فانطلقا حتى لقيا[(٦)] أبا طالب، فقالا [له] : إنا نريد[(٧)] أن نخفِّف عنك من عيالك حتى ينكَشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما [أبو طالب][(٨)] : إذا تركتُما لي عَقيلا فاصنعا ما شئتما ؛ ويقال قال : عقيلا وطالبا ؛ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّا فضمه إليه ، وأخذ العبّاس

---

١٥ (١) نقل ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٢٧١ هذا القول عن ابن إسحاق، ثم ذكر بقية الأقوال في سنه يوم أسلم . (٢) نقله ابن هشام في السيرة ١ : ٢٦٢ .

(٣) في الأصل : « فلنخفف من عياله » ، والذي أثبت عن ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٤) في الأصل : « وتأخذ رجلا » ، والمثبت عن ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٥) في الأصل : « فنكفهما » ، والمثبت عن ابن هشام ص ١٥٩ (طبعة أوربا) .

٢٠ (٦) في سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٣ : « حتى أتيا » .

(٧) في الأصل : « فقالا إنا نريد » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٨) في الأصل : « فقال لهما إذا » ، والمثبت عن ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

جعفرا [فضمّه إليه][1]، فلم يزل عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيا فاتّبعه عليّ وآمن به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم[2].

قال ابن إسحاق :

وذَكَر بعضُ أهل العلم أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضَرت الصلاة خرج إلى شِعاب مكّة وخرج معه عليّ بن أبي طالب مُستخفيا من عمّه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصلّيان الصلوات فيها[3]، فإذا أمسَيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكُثا، ثم إن أبا طالب عثَر عليهما يوما وهما يصَلّيان، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تَدين به ؟ قال : أي عمّ، هذا دينُ الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم[4]، بعثني الله به رسولا إلى العباد، وأنت أَيْ عمّ أحقّ من بذَلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهُدَى، وأحقّ من أجابني إليه، وأعانني عليه، أو كما قال. فقال أبو طالب : أي ابنَ أخي، إني والله[5] لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن واللهِ لا يخلُص إليك شيءٌ تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لابنه عليّ : أي بُنيّ ما هذا الدين الذي أنتَ عليه ؟ فقال : يا أبت، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم وصدّقتُه بما جاء به، وصليت معه لله واتّبعته . فزعموا أنه قال له : أَمَا إنه لم يدعُك إلا إلى خيرٍ فالزمْه .

---

(١) في الأصل : « جعفرا فلم يزل »، والتكملة عن ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٢) في سيرة ابن هشام : « حتى أسلم واستغنى عنه » .

(٣) في الأصل : « فيصليان الصلاة »، والمثبت عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

(٤) في سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٣ : « أبينا إبراهيم أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني » .

(٥) في سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٤ : « إني لا أستطيع » .

وأما إسلام زيد بن حارثة[(١)] رضى الله عنه ــ فقال[(٢)] محمد بن إسحاق :

ثم أسلم زيد بن حارثة بن شُرَحْبِيل بن كعب بن عبد العُزَّى بن امرئ القيس الكلبي مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نسبه ابن الكلبيّ فقال : زيد ابن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العُزَّى بن يزيد[(٣)] بن امرئ القيس بن عامر ابن النُّعمان بن عبدوُدّ بن امرئ القيس بن نعمان بن عمران بن عبد عوف بن عوف ابن كِنانة بن بكر بن عوف بن عُذرة بن زَيد اللّات بن رُفَيدة بن ثَور بن كلب ابن وَبْرة بن تَغلِب بن حُلوان بن عِمران بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن عمر ابن مرة بن مالك بن حِمْير بن سَبأ بن يَشْجُب بن يَعرُب بن قحطان .

قال أبو عمر[(٤)] : وربّما اختلفوا فى الأسماء وتقديم بعضها على بعض وزيادة شىء فيها[(٥)] . قال[(٦)] : ولم يتابَع ابن إسحاق على قوله[(٧)] « شرحبيل » وإنما « شَراحيل » .

وقال ابن الكلبي : وأمّ زيد سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت، من بنى معن من طيئ[(٨)] .

---

(١) ترجمة زيد بن حارثة فى الاستيعاب ١٩١ ، وأسد الغابة ١ : ٢٣٤ .

(٢) فى الأصل : « قال » .

(٣) هذه رواية ابن عبد البر فى الاستيعاب، وفى سيرة ابن هشام ١ : ٦٢٤ : « العزى بن امرئ القيس » .

(٤) فى الاستيعاب ص ١٩١ .

(٥) فى الأصل : « وزيادة فى شىء منها » . والمثبت عن الاستيعاب ص ١٩١، حيث النقل عنه .

(٦) القائل ابن عبد البر .

(٧) فى الأصل : « على شىء منها، وإنما هو شاحيل » تصحيف، والتصويب عن الاستيعاب ص ١٩١ ، وانظر أسد الغابة ٢ : ٢٢٤ .

(٨) فى الأصل : « عامر بن طيء » ، والذى أثبت عن الاستيعاب ص ١٩١ ، وأسد الغابة ٢ : ٢٢٤ .

قال ابن إسحاق[(١)] : وصلّى زيد بعد عليّ بن أبي طالب . قال أبو محمد عبد الملك ابن هشام : وكان حكيم بن حِزام بن خُوَيلد قدِم من الشام برقيق منه[(٢)] زيد بن حارثة ، وصيفٌ ، فدخلتْ عليه عمّتُه خديجة بنت خُوَيلد ، وهي يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : اختاري يا عمّة ، أيّ هؤلاء الغلمان شِئتِ فهو لكِ ، فاختارت زَيدا ، فأخذته ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، فاستوهَبه منها ، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبنّاه ، وذلك قبل أن يوحَى إليه ، وكان أبوه حارثة قد جزِع عليه جَزعا شديدا وبكى عليه حين فَقده ، ثم قدِم عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن شئتَ فأقِم عندي ، وإن شئتَ فانطلق مع أبيك" ؛ قال : بل أُقيم عندك ؛ فلم يزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله ، فصدّقه وأسلم وصلّى معه ، فلما أنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ قال : أنا زيد ابن حارثة . وقد روَى أبو عمر وغيرُه أن حارثة لما فقد ابنَه زيدا قال :

بكيت على زيدٍ ولم أدرِ ما فعلْ * أحيّ يرجّى[(٣)] أم أتى دونه الأجلْ

فو الله ما أدرى وإن كنتُ سائلا * أغالَك سَهْلُ الأرض[(٤)] أم غالك الجبلْ

فياليت شعرى هل لك الدهرَ رجعةٌ[(٥)] * فحسبي من الدنيا رجوعك لى بجلْ[(٦)]

(١) نقله ابن هشام ١ : ١٦٤ .

(٢) فى سيرة ابن هشام : « فيهم زيد » .

(٣) كذا فى الاستيعاب ص ١٩٢ ، وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ : « أحى فيرجى » .

(٤) فى سيرة ابن هشام :

« ... أدرى وإنى لسائل * أغالك بعدى السهل ... »

ورواية المؤلف عن ابن عبد البر فى الاستيعاب .

(٥) ابن هشام : « أوبة » .

(٦) بجل بمعنى حسب . وفى أسد الغابة ٢ : ١٩٥ : « لى علل » .

تذكّرنيهِ الشمسُ عنـــد طلوعها * وتَعرِض ذِكراه إذا قَاربَ الطَّفلْ[1]
وإن هبّت الأرواح هيّجن ذِكرَه * فيا طولَ ما حُزنى عليـه وما وجلْ
سأُعمِلَ نَصَّ العِيس فى الأرض جاهدا * ولا أسأم التّطوافَ أو تسأَم الإبلْ
حيـــاتىَ أو تأتى علىّ منيّـــتى * وكلّ امرئٍ[2] فانٍ وإن غرّه الأملْ
سأُوصى به قيسا وعمْـــرا كليهما * وأُوصِى يزيدا ثم من بعـــدِه جبلْ[3]

يعـنى جبلةَ بن حارثة أخا زيد، ويزيدَ أخا زيد لأمّه، وهـو يزيد بن كعب ابن شَراحيل.

قال: فحجّ[4] ناسٌ من كَلب[5] فرأوا زيدا فعرفَهـم وعرفوه، وقال لهم: أبلغوا أهلى[6] هذه الأبيات، فإنى أعلم أنهم قد جزِعوا علىّ، فقال:

أحِنُّ إلى قـومى وإن كنتُ نائيًا * فإنّى قَعيـدُ البيتِ عنـد المَشاعِرِ
فكفّوا من الوجْد الذى قد شجاكُمُ * ولا تُعمِلوا فى الأرضِ نَصَّ الأباعرِ
فإنّى بحمـــد الله فى خيرِ أُسْـــرَةٍ * كرام مَعَدٍّ كابرا بعـد كابر

فانطلق الكلبيّون فأعلَموا أباه، فقـال: ابنى ورب الكعبة، فوصـفوا له موضعَه وعند مَنْ هو، فخرج حارثة وكعب ابنا شَراحيل لفدائه، وقدِما مكّة[7]، فسألا عن النبى صلى الله عليه وسلم، فقيل: هُوَ فى المسجد، فدخلَا عليه فقالا: يا ابن عبد المطّلب،

(١) رواية ابن هشام: «... ذكراه إذا غربها أفل».
(٢) ابن هشام: «فكل امرئ».
(٣) هذا البيت لم يورده ابن هشام.
(٤) القائل ابن عبد البر فى الاستيعاب ص ١٩٢
(٥) فى الأصل «أناس من كعب»، والتصويب عن الاستيعاب ص ١٩٢
(٦) فى الاستيعاب ص ١٩٢: «أبلغوا عنى أهلى».
(٧) فى الاستيعاب ص ١٩٢، وأسد الغابة ٢: ٢٢٥: «فقدما».

يا بن هاشم، يا بن سيّد قومه، أنتم أهلُ حرم الله وجيرانُه، تفكّون العانِي، وتُطعمون الأسير، جئناك فى ابننا عندك، فامنُنْ علينا وأحسِن إلينا فى فدائه؛ قال: ومن هو؟ قالا: زيد بن حارثة[(١)]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فهلّا غير ذلك"؟ قالوا: وما هو؟ قال: "ادعوه فأخيّره[(٢)]، فإن آختاركم فهو لكم، و إن اختارنى فهو لِى، فوالله ما أنا بالذى أختار على مَن اختارنى أحدا". قالوا[(٣)]: قد زِدْتنا على النَّصَف وأحسنت إلينا، فدعاه[(٤)] فقال: "هل تعرف هؤلاء"؟ قال: نعم، قال "مَنْ هذا"[(٥)]؟ قال: أبى، وهذا عمى، قال: "فأنا مَنْ قد علمت[(٦)]، وقد رأيتَ صحبتى لك، فاخترنى أو اخترهما"، فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحداً، أنت منى مكان الأب والعمّ، فقالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرِّيّة[(٧)]، وعلى أبيك وعمك وأهلِ بيتك[(٨)]؟ قال: نعم، قد رأيت مِنْ هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا. فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحِجر فقال: يا معشرَ مَنْ حضر، اشهدوا أنّ زيداً ابنى يرِثنى وأرِثه". فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه طابت نفوسُهما وانصرفا.

ودُعىَ زيدَ بنَ محمد حتى جاء الله بالإسلام، فنزلت: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾، فدُعِىَ يومئذ زيدَ بنَ حارثة، ودُعى الأدعياءُ إلى آبائهم. والله أعلم.

---

(١) فى الأصل: «من هو قال» والمثبت عن أسد الغابة، والاستيعاب.

(٢) فى الأصل: «فأخيروه».

(٣) فى الاستيعاب وأسد الغابة: «قالا».

(٤) فى الاستيعاب ١: ٥٢٨: «وأحسنت فدعاه».

(٥) عن الاستيعاب، وانظر أسد الغابة ٢: ٢٢٥.

(٦) فى أسد الغابة ٢: ٢٢٥: «قد عرفت».

(٧) فى أسد الغابة ٢: ٢٢٥: «فقال: ما أريدهما، وما أنا بالذى».

(٨) فى الاستيعاب ص ١٩٢: «وعلى أهل».

٦٣/١٤

ذكر من أسلم بدعاء أبي بكر الصدّيق — رضوان الله عليهم —

قال محمد بن إسحاق[(١)] :

لما أسلم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه أظهر إسلامَه، ودعا إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر رجلا مألَفًا[(٢)] لقومه محبّبا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلَم قريش بها وبما كان فيها من خير وشرّ، وكان رجلا تاجرا ذا خُلُق ومعروف، وكان رجالُ قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمِه وتجارته وحُسن مجالسته.

فجعل يدعو إلى الإسلام[(٣)] مَنْ وثق به من قومه ممّن يَغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه رضى الله عنه، عثمانُ بن عفّان[(٤)]، والزُّبَير بن العوّام[(٥)]، وعبد الرحمن بن عوف[(٦)]، وسَعد بن أبي وقّاص[(٧)]، وطلحةُ بن عُبيد الله[(٨)]، فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استجابوا له[(٩)]، فأسلموا وصلّوا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما دعوتُ أحدا إلى الاسلام إلا كانت عنده كَبْوة[(١٠)] ونظر وتردّد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قُحافة، ما عَكَم[(١١)] عنه حين ذكرته له وما تردّد فيه".

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ١٦٥

(٢) المألف : الموضع الذى يألفه الناس، ووصف أبي بكر به على نوع من التجوّز.

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ : « إلى الله وإلى الاسلام ».

(٤) الخليفة الثالث قتل سنة ٣٥. ترجمته فى الاستيعاب ١ : ٤٨٧ والخلاصة للخزرجى ص ١٢١، وغيرهما. (٥) ابن عمة رسول الله، توفى سنة ٣٦ بعد وقعة الجمل. وانظر الاستيعاب ٢٠٧

(٦) المتوفى سنة ٣٢ على خلاف، وانظر الاستيعاب ٤٠٢

(٧) آخر العشرة المبشّرين موتا، مات بالعقيق بقصره على عشرة أميال من المدينة سنة ٥٦ على خلاف. وانظر الاستيعاب ٥٥٨

(٨) أحد العشرة أيضا، وكان الرسول يسميه طلحة الجود، وطلحة الخير. مات يوم الجمل سنة ٣٦. وانظر الاستيعاب ٢١٣ (٩) فى الأصل : « وسلم حتى ».

(١٠) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٩ : « كانت فيه عنده كبوة ».

(١١) ماعكم : ماتلبّث.

قال ابن إسحاق : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا بالإسلام الناسَ فصلّوا وصدّقوا بما جاء من الله .

ثم أسلم أبو عُبيدة، واسمه عامر بن عبد الله بن الجرّاح[(١)]، وأبو سلَمة، واسمه عبد الله بن عبد الأسَد[(٢)]، والأَرقم بن أبي الأَرقم، واسم أبي الأرقم عبدُ مَناف بن أسد ابن عبد الله بن عمر بن مَخزوم[(٣)]، وعثمان بن مَظعون[(٤)]، وأخواه قُدامة[(٥)]، وعبد الله[(٦)] ابنا مَظعون، وعُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مَناف بن قُصيّ بن كلاب بن مُرّة ابن كَعب بن لُؤيّ[(٧)]، وسعيد بن زيد[(٨)]، وامرأته فاطمة[(٩)] بنة الخطّاب أخت عمر،

(١) أحد العشرة، توفى سنة ١٨ فى طاعون عمواس . وانظر الاستيعاب ٤٦٠

(٢) ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم برة بنت عبد المطلب، وأخوه من الرضاعة . توفى بعد مرجعه من بدر . وانظر الاستيعاب ص ٣٧٩

(٣) هو سابع من أسلم، وهو من البدريين، توفى سنة ٥٥ على خلاف، وانظر الاستيعاب ٥٠، والإصابة ١ : ٢٨ .

(٤) أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا، وهاجر إلى الحبشة . توفى فى السنة الثانية من الهجرة، وانظر الإصابة ٢ : ٤٦٤ والاستيعاب ٤٩٤ .

(٥) يكنى أبا عمرو، هاجر الهجرتين وشهد بدرا . مات فى خلافة على، واختلفوا فى تحديد سنة وفاته . وانظر الإصابة ٣ : ٢٢٩، والاستيعاب ٥٤٨ .

(٦) أبو محمد، هاجر إلى الحبشة، وقد وردت أخباره فى ترجمة أخيه عثمان فى الإصابة ٢ : ٤٦٤، ٢ : ٣٧١ : وانظر الاستيعاب ٣٧٠ .

(٧) كان رأس بنى عبد مناف، هاجر وشهد بدرا، واستشهد بها، وانظر الإصابة ٢ : ٤٤٩، والاستيعاب ٤٢٢ .

(٨) المتوفى بالعقيق سنة ٥١، وهو أحد العشرة، وانظر ترجمته فى الاستيعاب ٥٥٢ .

(٩) تكنى أم جميل، ولها أثر فى إسلام الخليفة عمر . انظر ترجمتها فى الإصابة ٤ : ٣٨١، والاستيعاب ٧٧٤

وأسماء[1] وعائشة[2] بنتا أبي بكر ، وكانت عائشة صغيرة ، وخبّاب بن الأرت[3] حليف بني زُهرة ، وعُمير بن أبي وقّاص[4] أخو سعد ، وعبد الله بن مَسعود[5] ، ومَسْعود بن القارِي ، وهو مسعود بن رَبيعة ، [أو الربيع][6] ، وسَليط بن عَمرو ابن عبد شمس[7] ، وعيّاش بن أبي ربيعة بن المُغيرة[8] ، وامرأته أسماء بنت سلامة ابن مُخرِّبة[9] التيمية ، وخُنَيس بن حُذافة بن قيس[10] ، وعامر بن رَبيعة حليف آل الخطاب[11] ، وعبد الله بن جحش[12] وأخوه أبو أحمد بن جحش[13] حليفا بني أمية ،

(١) كانت تسمى ذات النطاقين ، وقد رويت عنها أحاديث . توفيت بمكة سنة ٧٣ عن سن عالية ، وانظر الاستيعاب ٧٢٤ .

(٢) زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، روى عنها كثير من الأحاديث . توفيت سنة ٥٧ . وانظر الاستيعاب ٧٦٤ .

(٣) أبو عبد الله التميمي ، عذب في سبيل الله ، ومات بالكوفة سنة ٣٧ . وانظر الاستيعاب ٦٤٨ .

(٤) قتل يوم بدر شهيدا وله من العمر ١٦ سنة . وانظر الاستيعاب ٤٣٦ .

(٥) أبو عبد الرحمن ، من زهاد الصحابة ، توفي بالمدينة سنة ٣٢ ، وانظر الاستيعاب ٣٧٠ .

(٦) يكنى أبا عمير ، وهو من القارة ؛ وهم الهون بن خزيمة بن مدركة . مات سنة ٣٠ ، وانظر الاستيعاب ٢٨١ . وفي الأصل : «بن ربيعة وسليط» .

(٧) من المهاجرين الأولين ، شهد بدرا وسافر عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمامة ، وقتل سنة ١٤ ، وانظر الاستيعاب ٥٩٦ .

(٨) في الأصل : «وعياد» ، والتصويب عن ابن هشام ١ : ٢٧٣ ، والاستيعاب ٢ : ٥٠٨ . وانظر الإصابة ٥ : ٤٧ .

(٩) في الأصل : «ابن حجر» ، والتصويب عن ابن هشام ١ : ٢٧٣ . وانظر الإصابة ٨ : ٧ .

(١٠) من المهاجرين الأولين ، مات بأحد . وانظر الاستيعاب ١٦٩ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٤ .

(١١) كان حليف عمر بن الخطاب حسبما قال أبو عبيدة ، شهد بدرا وسائر المشاهد . وتوفي سنة ٣٣ على خلاف . وانظر الاستيعاب ٤٦١ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٤ . وفي الأصل : «حليف الخطاب» .

(١٢) حليف لبني عبد شمس ، أو لحرب بن أمية ، وهو من المهاجرين الأولين ، مات يوم أحد ومثل به ، ودفن مع حمزة في قبر واحد . وانظر الاستيعاب ٣٥٢ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٤ .

(١٣) في اسمه عبد جحش ، وكان شاعرا . انظر ترجمته في الاستيعاب ٦٤١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٤ .

وجعفر بن أبي طالب[١]، وامرأته أسماء بنت عُمَيْس[٢]، وحاطب بن الحارث بن معمر، وامرأته فاطمة بنت المجلّل بن عبد الله[٣]، وأخوه خطّاب بن الحارث، وامرأته فُكَيْهة بنت يسار[٤]، ومَعْمَر بن الحارث بن معمر[٥]، والسائب بن عثمان بن مظعون[٦]، والمطّلب ابن أزهر بن عبد عوف[٧]، وامرأته رَمْلَة بنت أبي عوف بن صَبِرة، والنّحام واسمه نُعَيم بن عبد الله[٨]، وعامر بن فُهَيرة[٩] مولى أبي بكر الصدّيق، وخالد بن سعيد بن العاص ابن أُميّة[١٠]، وقد رُوِيَ أن خالد بن سعيد كان خامس من أسلم، وأن إسلامه كان بعد سعد بن أبي وقّاص، حكاه أبو عُمَر[١١]، وامرأته أمينة[١٢] بنت خَلَف بن أَسْعد، وحاطب

(١) مات يوم مؤتة وله من العمر ٤١ سنة . وانظر الاستيعاب ٨١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ . (٢) هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها . وانظر أخبارها في الاستيعاب ٧٢ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

(٣) الاستيعاب ١٣٣ ، وفي ترجمته ذكرت امرأته فاطمة وذكر إسلامها ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

(٤) الاستيعاب ١٤٩ ، وقد ذكرت أيضا معه امرأته وذكر إسلامها ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

(٥) هو ابن أخت عثمان بن مظعون ، آخى النبي بينه وبين معاذ بن عفراء ، وتوفي في خلافة عمر . وانظر الاستيعاب ٢٧٨ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

(٦) هو أخو عثمان بن مظعون ، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا . وانظر الاستيعاب ٥٨٨ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ .

(٧) مات بالحبشة مهاجرا ، وانظر الاستيعاب ٢٦٨ ، والإصابة ٨ : ٨٦ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ .

(٨) أسلم قبل عمر ، وكان يكتم إسلامه . واختلف في وفاته ؛ فقيل بأجنادين ، وقيل باليرموك ، وانظر الاستيعاب ٣١١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ .

(٩) كان مملوكا للطفيل بن عبد الله ، فأسلم وهو مملوك ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه ، ورافق النبي وأبا بكر في هجرتهما . وانظر الاستيعاب ٤٦٢ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٧ .

(١٠) أسلم مع أبي بكر وهاجر إلى الحبشة ، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات مذحج ، وعلى صنعاء اليمن . وفي مكان وفاته خلاف . وانظر الاستيعاب ١٥٤ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٧٧ .

(١١) في الاستيعاب ١٥٤ ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٧ .

(١٢) الاستيعاب ٧٢٦ ، واسم امرأته عند ابن عبد البر « أسمة » ، وانظر أسد الغابة ٥ : ٤٠٢

ابن عَمرو بن عبد شمس[(١)]، وأبو حُذَيفة واسمه مهشم[(٢)] بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابن عبد مَناف؛ ويقال فى اسمه هشيم؛ ويقال هاشم، وواقد[(٣)] بن عبد الله بن عبد مناف ابن عمرين[(٤)] بن ثَعلَبَة، وخالد[(٥)]، وعامر[(٦)]، وعاقِل[(٧)]، وإياس[(٨)]، بنو البُكَيْر بن عبد ياليل وعمار[(٩)] بن ياسر حليف بنى مخزوم، وصُهيب[(١٠)] بن سِنان.

٥ قال ابن إسحاق[(١١)]:

ثم دخل الناس [فى الإسلام[(١٢)]] أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذِكر الإسلام [بمكّة وتُحدّث به[(١٢)]].

ولنذكر من كانت له سابقة فى الإسلام غير من ذكرنا والله الموفِّق للصواب.

---

(١) هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا، وانظر الاستيعاب ١٣٣.

١٠ (٢) نقله ابن عبد البر فى الاستيعاب ٦٥٣ فى ترجمة أبى حذيفة هذا، وانظر الروض الأنف ١ : ١٦٧. (٣) الاستيعاب ٦٢٣.

(٤) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٨، والاستيعاب ٦٢٣

(٥) حالف فى الجاهلية نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب، فهو وولده حلفاء بنى عدى، قتل سنة أربع من الهجرة. وانظر الاستيعاب ١٥٦.

١٥ (٦) يقال فيه أيضا: ابن أبى البكير. وانظر الاستيعاب ٤٦١.

(٧) كان اسمه غافلا، فسماه النبى عاقلا. قتل ببدر وسنه ٣٤ سنة، وانظر الاستيعاب ٥٢٤.

(٨) يقال فيه أيضا: إياس بن أبى البكير، أسلم فى دار الأرقم، له ترجمة فى الاستيعاب ٤٧.

(٩) هو عنسىّ النسب وحالف بنى مخزوم، عذب فى الله وشهد المشاهد كلها، وفيه ورد الأثر: "يقتل عمار الفئة الباغية". وانظر الاستيعاب ٤٣٤.

٢٠ (١٠) يقال فيه ابن سنان الرومى لأنه تعلم لسان الروم حيث سبوه وهو صغير، وهو من النمر بن قاسط، وكان أبوه عاملا لكسرى على الأبلة. وانظر ترجمته فى الاستيعاب ٣٢٥.

(١١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٨٠.

(١٢) عن ابن هشام ١ : ٢٨٠.

ذكر تسمية من كانت لهم سابقة فى الإسلام

من العرب من غير قريش

كانت لجماعة سابقةُ إسلام، وهم من غير قريش، فرأينا أن نذكرهم فى هذا الموضع لسابقتهم فى الإسلام .

منهم أبو ذرّ[1] جُندُب بن جُنادة الغِفارىّ، واختُلف فى اسمه اختلافا كثيرا، والمشهور ما ذكرناه، واختُلف أيضا فيما بعدَ جُنادة، فقيل جُنادة بن قَيس بن عمرو ابن صُعَير بن حرام بن غِفار، وقيل جنادة بن صُعَير بن عَبِيد بن حرام بن غِفار، ويقال جُنادة بن سُفيان بن عبيد بن [صُعَير بن][2] حرام بن غِفار؛ أسلم أبو ذرّ بعد ثلاثة، وقيل: بعد أربعة، فكان خامسا، وله فى سبب إسلامه حديث حَسَن، نذكره إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لأخبارِ وفود العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد غِفار على ما تَقف عليه، وهو فى السِّفر السادس عَشر من كتابنا هذا . وأسْلَم بسبب إسلامه أخوه أُنَيس[3] بن جُنادة وأُمّهما رملة بنت الوقيعة الغِفَارية[4] .

ومنهم عمرو بن عَبسة[5] بن عامر بن خالد بن غاضرة بن عتّاب بن امرئ القيس ابن بُهْثَة بن سليم، يكنَى أبا نجيح، ويقال أبو شعيب . قال أبو عمر بن عبد البر[6]: روينا عنه من وجوه أنه قال : أُلقى فى روعى أن عبادة الأوثان باطل، فسمعنى رجل وأنا أتكلم بذلك، فقال: يا عمرو، إن بمكة رجلا يقول كما تقول، قال: فأقبلت إلى مكة

٦٤/١٤

(١) فى صفة الصفوة لابن الجوزى ١ : ٢٣٨ وما بعدها، ترجمة مفصلة لأبى ذر الغفارى، وانظر الحلية لأبى نعيم ١ : ١٥٦، والاستيعاب ٨٢ .

(٢) عن تاج العروس (صعر) .

(٣) كان أكبر من أخيه أبى ذر . له ترجمة فى الإصابة ١ : ٨٨ .

(٤) لها ترجمة فى الإصابة ٤ : ٣٠١ .

(٥) فى الأصل : «عمرو بن عنبسة» . وانظر ترجمته فى أسد الغابة ٤ : ١٢٠، والاستيعاب ٤٤٣

(٦) فى الاستيعاب ص ٤٤٣ .

أوّلَ ما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو مُستخْفٍ[(١)]، فقيل لى : إنك لا تقدر عليه إلا باللّيل حين يطوف، فقمت بين يدى الكعبة فما شعرت إلا بصوته يهلّل، فخرجت إليه فقلت من أنت؟ قال: أنا نبيّ الله، فقلت وما نبيُّ الله؟ قال: رسول الله، قلت وبم أرسلك؟ قال : بأن يُعبد[(٢)] الله وحدَه ولا يُشرَك به شيء ، وتُكسَر الأوثان وتُحقنَ الدماء ، [وتُوصلَ الأرحام][(٣)]، قلتُ: ومن معَك على هذا؟ قال: حرٌّ وعبد، يعنى أبا بكر وبلالا، فقلت: ابسط يدك أبايعْك، فبايعتُه على الإسلام. قال: فلقد رأيتُنى وأنا رُبع[(٤)] الإسلام، قال: قلت أقيم معك يارسول الله؟ قال: "لا. ولكن ألحق بقومك فإذا سمعتَ أنى قد خرجت فاتبعنى"، قال: فلحقتُ بقومى، فمكثت دهرا[(٥)] منتظرا خبره حتى أتت رفقة من يثرب فسألتهم الخبر[(٦)]، فقالوا: خرج محمد من مكة إلى المدينة. قال: فارتحلت فأتيتُه فقلت: أتعرفنى؟ قال: "نعم، أنت الرجل الذى أتيتنا بمكّة". وروَى[(٧)] أبو عمر أيضا بسنده إلى أبى أُمامة الباهلى أنه حدث عن عمرو بن عَبَسة[(٨)] قال: "رغبتُ عن آلهة قومى فى الجاهلية ورأيت أنها آلهة باطلة[(٩)]، يعبدون الحجارة، وهى[(١٠)] لا تضرّ ولا تنفع، قال: فلقيتُ رجلا من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين، فقال: يخرج رجل من مكّة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها، وهو يأتى بأفضل الدين، فإذا سمعتَ به فاتّبعه، فلم يكن لى همّ

---

(١) هكذا فى الاستيعاب ٤٤٣، وفى أسد الغابة ٤ : ١٢٠ : « مختف » .

(٢) فى الاستيعاب ٤٤٣ : «قال أن» . (٣) عن أسد الغابة ٤ : ٨٢٠

(٤) فى أسد الغابة ٤ : ١٢٠ : « وإنى لربع » .

(٥) فى الأصل : «بقومى، وكنت دهرا منتظرا»، والذى أثبت عن الاستيعاب ٤٤٣، وانظر أسد الغابة ٤ : ١٢٠ .

(٦) فى الاستيعاب : « فسألتهم عن الخبر » . (٧) فى الاستيعاب ص ٤٤٤ .

(٨) فى الأصل : « عنبسة »، وانظر الاستيعاب ٤٤٤ . (٩) فى الأصل : « آلهة باطل »، وانظر الاستيعاب . (١٠) فى الاستيعاب : « والحجارة لا » .

إلا مكّة أسأل هل حدث فيها حَدَث؟[(١)] فيقولون: لا. فأنصرف إلى أهلى، وأهلى من الطريق غيرُ بعيد، فأعترض الركبان خارجين من مكة فأسألهم هل حدث فيها حدث؟ فيقولون: لا. فإنى لقاعد على الطريق يوما[(٢)] إذ مرّ بى راكب فقلت من أين أنت؟[(٣)] قال: مِن مكّة، قلت: هل فيها من خَبَر؟ قال: نعم، رجل رغِب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها، قلت: صاحبي الذى أريد، فشدَدْت راحلتى، وجئت مكة، ونزلت منزلى الذى كنت أنزل فيه، فسألت عنه، فوجدته مستخفيا، ووجدت قريشا إلبًا عليه، فتلطّفتُ حتى دخلتُ عليه، فسلّمت ثم قلت: من أنت؟ قال: «نبيّ الله»[(٤)]، قلت: وما النبي؟ قال: «رسول الله»، قلت: من أرسلك؟ قال: «الله»، قلت بم أرسلك؟ قال: "أن تُوصَل الأرحامُ، وتحقَن الدماءُ، وتُؤمن السبلُ، وتكسَر الأوثان، ويُعبدَ الله وحده لا يشرك به شيء". فقلت: نعمَ ما أُرسِلتَ به؛ أشهدك أنى قد آمنت بك وصدّقتك، أمكث معك أم ما تأمرنى؟[(٥)]. قال: "قد رأيتَ كراهة الناس لِما جئتُ به، فامكُث فى أهلك، فإذا سمعتَ أنى خرجت مخرجًا فاتّبعنى". فلما سمعتُ به[(٦)] خرج إلى المدنية سرتُ حتى قدمتُ عليه فقلت: يا نبيَّ الله، هل تعرفنى؟ قال: "نعم، أنت السُّلَمىّ الذى جئتنى بمكّة فقلتَ لى كذا، وقلتُ لك كذا"[(٧)].

(١) فى الاستيعاب ص ٤٤٤: «حدث فيها أمر».

(٢) فى الاستيعاب: «الطريق إذ مر».

(٣) فى الأصل: «من أين قال».

(٤) رواية الاستيعاب: «قال نبى، قلت: وما النبى؟ قال: رسول، قلت».

(٥) فى الاستيعاب: «أم تأمرنى أن آتى أهلى».

(٦) فى الاستيعاب: «به أنه خرج».

(٧) فى الاستيعاب: «كذا وقلت كذا».

ومنهم عتبة بن غَزْوان بن جابر[1]، ويقال عُتْبة بن غَزْوان بن الحارث بن جابر ابن وهب[2] بن نَسيب بن زيد بن مالك بن الحارث بن عَوف بن [الحارث بن][3] مازن بن مَنصور بن عِكرمة بن خَصَفة[4] بن قيس عيلان بن مضر بن نزار المازنى حليف لبنى نوْفل بن عبد مَناف[5]، يكنى أبا عبد الله، وقيل أبا غَزْوان، كان إسلامُه بعد ستّة رجال، فهو سابعُ سبعة [فى إسلامه، وقد قال ذلك فى خطبته بالبصرة : " لقد رأيتُنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله سابعَ سبعةٍ][6] مالنا طعامٌ إلا ورق الشَّجَر حتى قَرِحَتْ أشداقُنا " . رضى الله عنهم أجمعين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

ذكر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام

قال محمد بن إسحاق[7] :

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلّوا ذهبوا فى الشِّعاب، فاستخفَوْا بصَلاتِهم من قومهم، فبينا سعدُ بن أبى وقّاص فى نَفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شِعْب من شِعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يَصْنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبى وقّاص يومئذٍ رجلا من المشركين بِلَحْى[8] بعيرٍ، فشجّه[9]، فكان أولَ دم هُرِيقَ فى الإسلام .

(١) ترجمته فى الاستيعاب ٥٠٥ ، وأسد الغابة ٣ : ٣٦٣ ، والإصابة ٢ : ٤٤٨ .
(٢) كذا فى الاستيعاب، وفى أسد الغابة : «وهيب» . (٣) عن أسد الغابة ٣ : ٣٦٣ .
(٤) كذا فى أسد الغابة وفى الأصل : « بن قيس بن عيلان » . (٥) فى أسد الغابة، والاستيعاب : « مناف بن قصى يكنى » . (٦) عن أسد الغابة ٣ : ٣٦٤ . والاستيعاب ص ٥٠٥ ، وفى الأصل : « سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما لنا » .
(٧) نقله ابن هشام ١ : ٢٨١ . (٨) الخشنى ١ : ٨١ «اللحى : العظم الذى على الخد» .
(٩) شجه : جرحه فى وجهه أو رأسه .

٦٥/١٤ ثم أمر[(١)] الله تعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يَصْدَع بما جاء به[(٢)] من عند الله وأن ينادىَ الناس بأمره، وأن يدْعوَهم إلى الله تعالى، فكان[(٣)] يدعو ثلاث سنين مستخفيا، إلى أن أمر الله بإظهار الدعاء.

قال محمد بن سعد[(٤)]: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. ٥

وقال أبو بكر أحمد بن الحسين البَيْهقى[(٥)]: لما أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يُعلم الناس نزولَ الوحى عليه، ويدْعوَهم إلى الإيمان به، كبر ذلك عليه، فنزل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قالت عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحرَس حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القُبّة، فقال [لهم][(٦)]: "أيها الناس، انصرفوا فقد عصمنى الله"؛ ١٠ قيل: يعصمك من قَتلهم أن يقتلوك، فبلَّغ عند ذلك الرسالة.

وعن الزهرىّ[(٧)]، قال: دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام سرا وجهرا، فاستجاب لله تعالى مَنْ شاء من أحْداث الرجال وضعفاء الناس حتى كَثُر من آمن بالله؛ وكفارُ قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مرَّ عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه: إنّ غلامَ بنى عبد المطلبُ ليُكلَّم من السماء، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونَه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فعند ذلك عادَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم وناكَروه؛ وأجمعوا عَلاقِة[(٨)].

(١) انظر طبقات ابن سعد ١ : ١٣٢ (قسم أول). (٢) رواية ابن سعد: «بما جاءه من».
(٣) رواية ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٢ (قسم أول): «يدعو من أول ما نزلت عليه النبوّة ثلاث سنين». (٤) فى الطبقات ١ : ١٣٢ (قسم أول). (٥) فى دلائل النبوّة للبيهقى ورقة ١٤١
(٦) عن دلائل النبوة للبيهقى. (٧) طبقات ابن سعد ١ : ١٣٣. (٨) العلاقة: الخصومة.

قال ابن عباس[(١)] رضى الله عنه : لما أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصَّفا فقال : "يا معشر قريش"، فقالت قريش : محمد على الصَّفا يهتف، فأقبلوا واجتمعوا، فقالوا : مالك يا محمد؟ فقال : "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقوننى"؟ قالوا : نعم، أنت عندنا غير مُتَّهم، وما جرَّبنا عليك كذبا قط، قال : "فإنى نذير لكم بين يدى عذابٍ شديد يا بنى عبدِ المطلب يا بنى عبد مَناف يا بنى زُهرة"، حتى عدَّد الأفخاذ من قريش "إن الله أمرنى أن أُنذِر عشيرتى الأقربين، وإنى لا أملك لكم من الدُّنيا منفَعة، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله" قال : فقال أبولهب : تبًّا لك سائر اليوم، أِلهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ السورةَ كلَّها . قال الواقدى[(٢)] : لما أظهر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن مَعه، وفشا أمره بمكّة، ودعا بعضُهم بعضا، فكان أبو بكر يدعو ناحيةً سرّا، وكان سعيد بن زيد[(٣)] مثله، وعثمانُ مثلَ ذلك، [وكان عُمر يدعو علانيةً وحمزةُ ابن عبد المطلب[(٤)]] وأبو عُبَيدة بن الجراح ؛ فغضِبت قريش من ذلك، وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسَدُ والبَغى، وأشخص[(٥)] به منهم رجالٌ فبادَوه، وتستَّر آخرون وهم على ذلك الرأى، إلا أنهم يُنزِّهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) نقله ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٣ (قسم أوّل)، وابن كثير فى البداية ٣ : ٣٨ على خلاف فى الرواية .

(٢) نقله ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٣ (قسم أوّل) .

(٣) فى طبقات ابن سعد : « زيد مثل ذلك، وكان عثمان » .

(٤) عن ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٣ (قسم أوّل) .

(٥) أشخصوا به : أقلقوه .

ذكر أعداء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

الذين جاهروا بالعداوة

قالوا : كان[(١)] أهل العداوة والمباداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين يَطلبون الجدلَ والخُصومة : أبو جهل بن هشام، وأبو لَهَب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يَغوث، والحارث بن قيس بن عَدىّ، والوليد بن المُغيرة، [وأمية وأُبَىّ ابنا خلَف ، وأبو قيس بن الفاكِه بن المغيرة[(٢)]] ، والعاص بن وائل ، والنَّضر ابن الحارث، ومُنبِّه بن الحجاج، وزُهير بن أبى أُمية ،والسائب بن صيفىّ[(٣)][بن عابد]، والأسود بن عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هشام[(٤)] ، وعُقبة بن أبى مُعَيط ، وأبو الأَصْدَى[(٥)] ، وهو الذى نطحته الأَرْوَى ، والحكَم ابن أبى العاص، وعَدىّ بن الحمرَاء؛ وذلك أنهم كانوا جيرانَه؛ والذين[(٦)] كانت تنتهى عداوةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : أبو جهلٍ ، وأبو لَهَب ، وعُقْبة ابن أبى مُعَيط؛ وكان عُتبة[(٧)] وشَيبة ابنا ربيعة وأبو سُفيان بن حَرب أهلَ عداوة، ولكنهم لم يُشخِصوا بالنبى صلى الله عليه وسلم؛ كانوا كنحو قريش ، ولم يسلم من هؤلاء إلا أبو سُفيان والحكَم بن أبى العاص .

٦٦/١٤

(١) انظر طبقات ابن سعد ١ : ١٣٣ (قسم أول) .

(٢) عن ابن سعد ١ : ١٣٣ (قسم أول) .

(٣) عن ابن سعد أيضا .

(٤) فى طبقات ابن سعد : « ابن هاشم » .

(٥) ابن سعد : « وابن الأصدى الهذلى » .

(٦) فى الأصل : « والذى كانت » تصحيف .

(٧) انظر طبقات ابن سعد ١ : ١٣٤ : (قسم أول) ، وشرح المواهب ١ : ٢٨٢ ، والبداية ٣ : ٤٧ .

ذكر دخولِ قريش على أبي طالب فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان بينهم من المحاورات

قال محمد بن إسحاق[(١)] :

لما رأت قُريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُعتبهم[(٢)] من شيءٍ أنكروه عليه، ورأوا أن عمَّه أبا طالب قد حدِب عليه، وقام دونه فلم يسلِمه[(٣)] لهم، مشَى رجال من أشراف قُريش إلى أبي طالب، وهم : عُقْبة وشيبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس، وأبو سُفيان صَخر بن حرب، وأبو البختريّ العاص بن هشام، والأسود بن المطّلب بن أسَد، وأبو جهل عمرو بن هشام، ونَبيه ومُنَبّه ابنا الحجّاج ابن عامر، والعاص بن وائل، فقالوا : يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامَنا وضلّل آباءَنا، فإما أن تكفَّه عنا، وإما أن تخلِّيَ بيننا وبينه، فإنك على سبيل[(٤)] ما نحن عليه من خِلافه فنكفيكَه، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردّهم ردّا جميلا، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه يُظهِر دينَ الله ويدعو إليه، ثم شَرِيَ[(٥)] الأمرُ بينه وبينهم حتى تَباعد الرِّجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذِكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها، فتذامروا[(٦)] فيه، وحضَّ بعضُهم بعضا عليه،

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٨٢، وانظر عيون الأثر ١ : ٩٩ .

(٢) لا يعتبهم : لا يرضيهم ؛ يقال استعتبنى فأعتبته : أى أرضيته وأزلت العتاب عنه .

(٣) فى عيون الأثر ١ : ٩٩ : « ولم يسلمه » .

(٤) فى الطبرى ٢ : ٢١٨ وعيون الأثر ١ : ٩٩، والبداية : ٣ ؛ ٤٧ : « على مثل » .

(٥) شرى الأمر : اشتدّ واستفحل، وفى الأصل : « سرى » تصحيف .

(٦) تذامروا : أى تلاوموا على فوت الفرصة، أو حض بعضهم بعضا على الجد فى القتال . وانظر شرح المواهب للزرقانى ١ : ٢٤٨ .

ثم مشوا إلى أبى طالب مرّة أخرى فقالوا : يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَه عنّا، وإنا والله لا نصبِر على هذا، من شَتْمِ آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازلَه وإيّاك فى ذلك حتى يهلِك أحدُ الفريقين ؛ ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا خِذلانِه . ٥

فبعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، فأبقِ علىّ وعلى نفسك، ولا تُحمِّلنى من الأمر ما لا أطيق؛ قال : فظَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه[1]، وأنه خاذِله ومسلِمُه، وأنه قد ضَعف عن نُصرته والقيامِ معه، فقال له[2] : "يا عمّ، واللهِ لو وضعوا الشّمس فى يمينى والقمرَ فى يسارى على أن أترك هـذا الأمر حتى يُظْهِره الله أو أهلِك فيه ما تركتُه"؛ ثم استعبَر رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] وقام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبِل يا ابن أخى، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلِمك لشىءٍ أبدا . ١٠

قال[4] : ثم إن قُريشا لما عرفوا[5] أن أبا طالب قد أبى خِذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعُمارة ابن الوليد بن المغيرة، فقالوا له : يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد أنهَدُ[6] فتى فى قُريش وأجملُه، فخذه فلك عَقلُه ونَصرُه، واتّخذه ولدا فهو لك خير، وأَسلِم لنا ابن أخيك هذا ١٥

(١) فى الأصل : « قد بذل » .

(٢) فى البداية (٣ : ٤٨) عن ابن إسحاق : « فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عم » .

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٥ ، وعيون الأثر ١ : ١٠٠ ، والبداية ٣ : ٤٨ : « وسلم فبكى ثم قام » . ٢٠

(٤) القائل ابن إسحاق، وانظر السيرة لابن هشام ١ : ٢٨٥ ، وعيون الأثر ١ : ١٠٠ .

(٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٥ ، وعيون الأثر : « حين عرفوا » .

(٦) أنهد : أشد وأقوى .

الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجُل برجل،[١] قال:[٢] والله لبئس ما تَسومونني، أتعطونني[٣] ابنكم أغذُوه لكم، وأُعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبدا ، فقال له المطعِم[٤] بن عدىّ ابن نوفل بن عبد مَناف بن قُصىّ : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومُك، وجهدوا على التخلُّص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا؛ فقال له أبو طالب : والله ما أنصفونى ، ولكنك[٥] أجمعت خِذلانى ومظاهرة القوم علىّ، فاصنع ما بدا لك، فحقب[٦] الأمرُ، وحَميت الحربُ، وتنابذ القوم، وبادَى بعضُهم بعضا .

قال الواقدى[٧] :

لما أجابهم أبو طالب بما قدّمناه من أنهم ما أنصفوه قالوا له : فأرسِل إليه فلنُعطِه النَّصَف، فأرسل إليه أبو طالب، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يابن أخى، هؤلاء عُمومتك، وأشرافُ قومِك، وقد أرادوا ينصفونك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قولوا أَسمعَ" قالوا : تَدعُنا وآلهتَنا، وندعُك وإلهَك، قال أبو طالب : قد أنصفَك القوم فاقبَل منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرأيتَكم[٨] إن أعطيتكم هذه هل أنتم مُعطِىّ كلمةً إن أنتم تكلّمتم بها، ملكتم بها العَرب، ودانت لكم بها العجَم"؟ فقال أبو جهل : إنّ هذه لكلمةٌ مربِحة، نعم، وأبيك

٦٧/١٤

(١) فى الأصل ، وعيون الأثر : « رجل كرجل » ، وانظر البداية ٣ : ٤٨ .
(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٥ : «فقال» .
(٣) فى الأصل : « أتعطونى » .
(٤) فى الأصل : « فقال له المعطم » تصحيف ، وانظر الطبرى ٢ : ٢٢٠ .
(٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٨ ، وعيون الأثر : « قد أجمعت » .
(٦) حقب الأمر : زاد واشتدّ .
(٧) نقله ابن سعد فى الطبقات ١ : ١٣٥ (قسم أوّل) .
(٨) فى رواية ابن سعد : « أرأيتم » .

لنقـولنَّها وعشرَ أمثالِهـا ، قال : " قولوا لا إله إلا الله " ، فاشمأزُّوا ونَفروا منها وغضِبوا، وقاموا وهم يقولون: ﴿ وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾، ويقال: إن الذى تكلّم بهـا عُقبَة بن أبى مُعَيط ، وقالوا : لا نَعود إليه أبدًا، وما خيرٌ من أن نَغتال محمدا (١) . فلمـا كان من تلك الليلة (٢)، قعَد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء أبو طالب وعُمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع فِتيانا من بنى هاشم وبنى المطّلب ، ثم قال : ليأخُذ كلُّ واحدٍ حديدةً صارمة ، ثم ليتبعْنى إذا دخلت المسجد فليجلس كلُّ فتًى منكم إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظَلِيّة، يعنى أبا جهلٍ، فإنه لم يغب عن شرّ إن كان محمد قد قُتِل ، فقال الفِتيان : نفعل، فجـاء زيد بن حارثة، فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال : يا زَيد، أَحْسَسْتَ (٣)، ابنَ أخى ؟ قال: نعم، كنت معه آنفا، فقال أبو طالب : لا أدخل بيتى أبدًا حتى أراه، فخرج زيد مسرعا حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيتٍ عند الصَّفا، ومعه أصحابه يتحدّثون؛ فأخبَره الخبر، فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى طالب، فقال : يابن أخى، أين كنت ؟ أكنتَ فى خير ؟ قال : نعم، قال : ادخل بيتَك، فدخل رسـول الله صلى الله عليه وسـلم؛ فلما أصبح أبو طالب غدا على النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده فوقف على أندية قُريش ومعه الفِتيان الهاشميّون والمطّلبيّون، فقال : يا معشر قُريش، هل تدرون ما هَممت به ؟ قالوا : لا . فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان : اكشِفوا عما فى أيديكم ، فكشَفوا فإذا كلُّ رجل معـه حَديدة صارمة ، فقال : والله لو قتلتموه ما بقِيتُ منكم أحدا حتى نتفانَى نحن وأنتم ، فانكسر القوم ، وكان أشدَّهم انكسارا أبو جهل .

(١) ابن سعد : « يغتال محمد » . (٢) ابن سعد « كان مساء تلك » .
(٣) أحسست : هل رأيت .

ذكر تحزّب قُريش على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأذاهم له ولأصحابه

قال ابن إسحاق[(١)] :

لما أيِست قُريش من أبي طالب، وأنه لا يَخذُل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يُسلِمه أبدا، تآمروا[(٢)] بينهم على من فى القبائل مِن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [الذين أسلموا معه][(٣)] ، فوثبت كلُّ قبيلةٍ على من فيهم من المسلمين يُعذّبونهم ويَفتِنونهم عن دينهم، فقام أبو طالب حين رأى قُريشا يصنعون ذلك فى بنى هاشم وبنى المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من مَنْع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيامِ دونه، فقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبى لَهَب فإنه تمادَى على غيّه وكُفره .

قال[(٤)] : ثم اجتمع نفَر من قريش إلى الوليد بن المُغيرة ، وكان ذا سِنّ فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشَر قريش، إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإنّ وفود العرب ستفِد[(٥)] عليكم فيه ، وقد سمِعوا بأمر صاحبكم هذا، فأَجمِعُوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلِفوا فيكذِّبَ بعضُكم بعضا ويردَّ قولُكم بعضُه بعضا، قالوا : فأنت يا أبا عبد شَمس فقل، وأَقِم لنا رأيا نقول به، قال : بل أنتم فقولوا أَسْمَعْ، قالوا : نقول كاهن، قال : لا ، واللهِ ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهّان فما هو بزَمزَمة[(٦)]

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٧ .

(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٧ : « تذامروا » ، وانظر الزرقانى ١ : ٢٤٨ ، والبداية ٣ : ٤٩ .

(٣) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٧ ، وانظر الزرقانى ١ : ٢٤٨ ، والبداية ٣ : ٤٩ .

(٤) القائل ابن إسحاق ، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٨ وعيون الأثر ١ : ١٠١ .

(٥) فى عيون الأثر : « ستقدم » .

(٦) فى الأصل : « برمرمة » .

الكاهن ولا سجعه، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون[(١)]، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا : فنقول شاعر ؛ قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا : فنقول : ساحر، قال : ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده[(٢)]، قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق[(٣)]، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق[(٤)] بين المرء وأبيه، وبين المرء [وأخيه، وبين المرء][(٥)] وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره، فأنزل الله تعالى فى الوليد ابن المغيرة : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى خصيما مخالفا ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ . قال ابن هشام : بسر[(٦)] أى كره وجهه، ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ .

٦٨/١٤

(١) فى عيون الأثر : « والله ما هو » .

(٢) فى سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٩ : « بنفثهم، ولا عقدهم » .

(٣) يروى أيضا : « لغدق » بغين معجمة ، وكسر الدال ، وفى الأصل : « لغدقه » ، وانظر شرح المواهب ١ : ٢٥١، وعيون الأثر ١ : ١٠١ .

(٤) فى عيون الأثر ١ : ١٠١ : « يفرق به بين » .

(٥) عن سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٩، وعيون الأثر ١ : ١٠١ .

(٦) فى السيرة ١ : ٢٨٩ .

قال ابن إسحاق[(١)] :

وأنزل الله فى النَّفَر الذين كانوا معه يَصْنَفون القَول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به من عند الله : ﴿ الذِينَ جَعَلُوا الْقُرآنَ عِضِينَ ﴾ أى أصنافا ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

٥ قال ابن إسحاق[(٢)] :

وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتشر ذِكْرُه فى بلاد العرب كلها. قال[(٣)] : ثم ابتدأت قُريش فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم، فأغروا به صلى الله عليه وسلم سفهاءهم، فكذّبوه وآذوه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مُظهرٌ لأمر الله لايستخفِى به، مُبادٍ لهم

١٠ بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفِراقه إياهم[(٤)] على كفرهم .

قال محمد بن إسحاق[(٥)] :

حدّثنى يحيى بن عُروة عن الزُّبير عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال : قلت له ما أكثرُ ما رأيت قريشا أصابوا[(٦)] من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يُظْهِرون[(٦)] من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع

١٥ أشرافهم يوما فى الحِجْر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثلَما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قَطّ ، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا،

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٢٩٠ .

(٢) نقله ابن هشام ١ : ٢٩١ ، وانظر عيون الأثر ١ : ١٠١ .

(٣) نقله ابن هشام ١ : ٣٠٨ .

٢٠ (٤) فى الأصل : « وفراق آبائهم » تحريف .

(٥) انظر تاريخ الطبرى ٢ : ٢٢٣ .

(٦) فى تاريخ الطبرى ٢ : ٢٢٣ : « أصابت ... ... كانت تظهر » .

وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ؛ لقد صَبَرنا منه على أمرٍ عظيم ، أو كما قالوا ؛ فبينما هم فى ذلك إذْ طَلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، قال : فعرفتُ ذلك فى وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم مضى ، فلما مرّ بهم الثانيةَ غمزوه بمثلها ، فعرفتُ ذلك فى وجهه ، ثم مرّ بهم الثالثةَ فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : "أتسمعون يامعشر قريش؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذّبح[1]". قال : فأخذَت كلمتُه القوم حتى ما منهم رَجُل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدّهم فيه وَصاةً[2] قبل ذلك لَيَرْفَؤُه[3] بأحسن مايجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنتَ جهولا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحِجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا دنا منكم وباداكم بما تكرهون تركتُموه ، فبينما هم فى ذلك طلع رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وَثبةَ رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا لما كان يقول مِن عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول : "نعم ، أنا الذى أقول ذلك". قال : فلقد رأيتُ رجلا منهم أخذ بمجمع[4] رِدائه ، فقام أبو بكر دونَه وهو يبكى ويقول : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ، ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشدُّ ما رأيتُ قريشا نالوا منه قطّ[5] .

(١) زاد أبو نعيم فى الدلائل ص ١٦٥ : « ... وأشار بيده إلى حلقه » . وفى الأصل : « بالريح » ، والمثبت عن ابن هشام ١ : ٣٠٩ ، وانظر شرح المواهب ١ : ٢٥١

(٢) الوصاة : الوصية . (٣) ليرفؤه : يهدّئه .

(٤) فى تاريخ الطبرى ٢ : ٢٢٣ : « بجمع ردائه » .

(٥) ذكر هذا الخبر بمعناه فى شرح المواهب ١ : ٢٥١ ، وانظر الطبرى ٢ : ٢٢٣ .

قالت أم كلثوم بنت أبي بكر الصدّيق رضى الله عنهما : لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جبذوه بلحيته[(١)]، وكان رجلا كثير الشعر .

وخرّج الترمذيّ الحكيم فى «نوادر الأصول»، من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاثٍ فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل هذا يَجَأُه وهذا يُتَلْتِله[(٢)]، فاستغاث النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان، فأقبل يَجَأُ ذا ويُتَلْتِل ذا، ويقول بأعلى صوته : ويلكم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[(٣)]، واللهِ إنه لرسول الله، فقُطِعت إحدى ضَفيرتى أبي بكرٍ يومئذ، فقال عليّ : واللهِ لَيَوْمُ أبي بكر خيرٌ من مؤمن آلِ فرعون، ذاك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه فى كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

قال ابن هشام[(٤)] :

حدّثنى بعضُ أهل العلم : أن أشدّ ما لقِى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من قريش : أنه خرج يوما فلم يلقَه أحد من الناس إلّا كذّبه وآذاه [لا][(٥)] حُرٌّ ولا عبد، فرجع صلى الله عليه وسلم إلى منزله فتدثّر من شِدّة ما أصابه، فأنزل الله عز وجل عليه : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ .

---

(١) فى الأصل : «فوق»، وانظر سيرة ابن هشام ١ : ٣١٠ .

(٢) فى شرح المواهب ١ : ٢٥٢ : «وهذا يتلبه» .

(٣) نقله بمعناه فى شرح المواهب ١ : ٢٥٢ .

(٤) فى السيرة ١ : ٣٨٠ .

(٥) فى الأصل : «وآذاه حرّ ولا» .

ذكرُ إسلام حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم

٦٩/١٤

قال محمد بن إسحاق[(١)] :

حدّثنى رجلٌ مِن أسلَمَ كان[(٢)] واعيةً : أن أبا جَهل بن هشام مر برسولِ الله صلى الله عليه وسلم عند الصَّفا فآذاه وشتمه ، ونال منه بعضَ ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيفِ لأمره ، فلم يكلِّمه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدْعان تسمعُ ذلك ، ثم انصرف أبو جهل عنه عامدًا إلى نادِى قريش عند الكعبة ، فلم يلبَث حمزةُ بن عبد المطلب أن أقبل متوشِّحا قوسَه[(٣)] ، راجعا من قَنَصٍ له ، وكان حمزة أعزَّ فتًى فى قريش وأشدّه شكيمة ، فلما مر بمولاة ابن جُدْعان قالت له : ياأبا عُمارة : لو رأيتَ ما لقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبى جَهْل ابن هشام ؛ وجَدَه ههنا جالسًا فآذاه وسبَّه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلِّمه محمد ، فغضِب حمزة ، فخرج يسعَى حتى دخل المسجد فنظر إلى أبى جهلٍ جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ، فشجّه شَجّة منكرة ، ثم قال : أتشتُمه؟ فأنا[(٤)] على دينه أقول ما يقول ، فرُدَّ ذلك علىّ إن استطعت ، فقامت رجال بنى مخزوم إلى حمزة لِينصُروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإنى والله لقد سَبَبت ابن أخيه سَبًّا قبيحا ، وتَمَّ حمزةُ على إسلامه ، وعلى ما بايع[(٥)] عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ؛ فلما أسلم حمزة عرفت

(١) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٣١١ ، وانظر شرح المواهب ١ : ٢٥٥ .

(٢) فى عيون الأثر ١ : ١٠٤ : « وكان واعية » .

(٣) فى عيون الأثر : « متوشحا سيفه » .

(٤) فى سيرة ابن هشام ١ : ٣١٢ ، وشرح المواهب ١ : ٢٥٦ : « وأنا » .

(٥) فى سيرة ابن هشام ١ : ٣١٢ : « ما تابع » ، وانظر شرح المواهب ١ : ٢٦٥ .

قُريش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد عَزّ وٱمتنع، وأن حمزةَ سيمنعه، فكَفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه قبلُ، قال: وكان إسلام حمزةَ قبل إسلام عمر ابن الخطاب — رضى الله عنهما — بثلاثة أيام[1].

ذِكرُ مشيِ عُتبة بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ ٱلمغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماعهما القرآن، واعترافِهما أنه لا يشبه شيئًا من كلامهم، وما أشار [به] عُتبة على أشرافِ قُريش فى أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

قال محمد بن إسحاق[2]:

حدّثنى يزيد بن زياد[3]، عن محمد بن كعب القُرَظىّ قال: حُدِّثت أن عُتبة بن ربيعة — وكان سيّدا — قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، والنبىُّ صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحدَه: يا معشر قُريش، ألا أقوم إلى محمّدٍ فأكلّمَه وأَعرِضَ عليه أمورًا، لعلّه يقبل بعضَها فنعطيه أيّها شاء ويكفّ عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويَكثُرون، فقالوا: بلى ياأبا الوليد، فقُم إليه فكلِّمه، فقام إليه عُتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يٱبن أخى، إنّك منّا حيث قد علمتَ من السِّطة فى العشيرة، والمكانِ فى النسب، وإنّك قد أتيت قومَك بأمرٍ عظيم فرّقتَ به جماعتَهم، وسفّهت به أحلامَهم، وعِبتَ[4] به آلهتَهم ودينَهم، وكفّرت به من مضى

(١) فى شرح المواهب ١ : ٢٥٦ : «سنة ست من النبوّة وقيل فى السنة الثانية»، وانظر أسد الغابة ٢ : ٤٦ — ٥٠ .

(٢) نقله ابن هشام فى السيرة ١ : ٣١٣، وابن سيد الناس فى عيون الأثر ١ : ١٠٥ .

(٣) فى عيون الأثر: «ابن أبى زياد» .

(٤) فى الأصل: «عيبت»، والمثبت رواية ابن هشام .

من آبائهم، فاسمَع منى أَعرِضْ عليك أُمورا تنظر فيها لعلّك تقبل منها[1] بعضها، قال: "قل ياأبا الوليد أسمع"، قال: يابن أخى، إن كنتَ إنما تريد ممّا جئتَ به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالِنا حتى تكونَ أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمرا دونك، وإن كنت تريد مُلكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا[2] تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبْنا لك الطِّبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرِئك منه، فإنه ربّما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عُتبة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يسمع[3] منه قال: "أقد فرغتَ ياأبا الوليد"؟ قال: نعم، قال: "فاستمع منى"، قال: أفعل، قال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. حٰمٓ. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ[4]﴾. ثم مضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيها يقرؤها عليه، فلما سمِعها عُتبة أنصَت لها، وألقى يديه خلفَ ظهره معتمدًا عليهما[5] يستمِع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى السَّجدة[6] فسَجد، ثم قال: "قد سمعتَ ياأبا الوليد ما سمِعتَ، فأنت وذاك".

فقام عُتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلِف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهَب به، فلما جلَس إليهم قالوا: ما وراءَك

(١) كذا فى سيرة ابن هشام ١ : ٢١٣، وفى شرح المواهب ١ : ٢٥٨ : «منا».

(٢) الرئى بفتح الراء فهمزة مكسورة فياء مشدّدة: التابع من الجن، وقيل: التابع المحبوب من الجن. وانظر النهاية (رأى)، وشرح المواهب ١ : ٢٥٨.

(٣) فى سيرة ابن هشام ١ : ٣١٤ : «يستمع».

(٤) سورة فصلت الآيات من ١ — ٤.

(٥) فى الأصل: «معتمدا عليها»، والمثبت رواية ابن هشام.

(٦) عيون الأثر ١ : ١٠٦ : «السجدة منها فسجد».

يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى أنى سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قطّ ، والله ما هو بالشّعر ، ولا بالسّحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونَنّ لقوله الذى سمعتُ نبأٌ [عظيم] ، فإن تصبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزّه عزّكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

٧٠/١٤

وروى أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقىّ بسنده إلى جابر بن عبد الله ، قال : قال أبو جهل والملأ من قريش : لقد انتشر علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشّعر فكلّمه ، ثم أتانا ببيان أمره ؟ فقال عتبة : لقد سمعتُ بقول السحَرة والكهانة والشعر ، وعلمت من ذلك علماً ، وما يخفَى علىّ إن كان كذلك ، فأتاه عُتبة فقال : يا محمد ، أنت خيرٌ أم هاشم ؟ [أنت خيرٌ أم عبد المطّلب] ؟ أنت خيرٌ أم عبد الله ؟ فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فبِمَ تشتم آلهتنا ، وتضلّل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدْنا ألويتَنا لك ، فكنتَ رأسَنا ما بقيت ، وإن كان بك الباه زوّجناك عشرَ نسوةٍ تختارُ من أىّ بنات قريش شئت ، وإن كان بك المالُ جمعْنا لك من أموالنا ما تستغنِى بها أنت وعقِبك من بعدك ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلّم ، فلما فرغ مِن حديثِه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) فى سيرة ابن هشام : «أنى قد سمعت» .

(٢) فى الأصل ، وعيون الأثر ١ : ١٠٦ : «نبأ فإن» ، والرواية المثبتة عن ابن هشام ١ : ٣١٤ .

(٣) فى الأصل : «لغيركم» . (٤) فى سيرة ابن هشام ، وعيون الأثر : «قالوا» .

(٥) دلائل النبوّة ورقة ١٤٦ . (٦) فى دلائل النبوّة : «فأتاه ، فلما أتاه قال له عتبة» .

(٧) عن دلائل النبوّة .

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (١) حتى بلغ قوله تعالى : ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (٢)، فأمسك عُتبة على فِي النبيّ صلى الله عليه وسلم، وناشده الرَّحِم أن يكفّ، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم؛ فقال أبو جهل : يا عُتْبة، ما حسِبنا إلا أنك صَبَوْت إلى محمد وأعجبك أمرُه، فإن كانت بك حاجةٌ جمعنا لك من أموالنا ما يُغنيك عن طعام محمد ، فغضب وأقسم بالله لا يكلّم محمدا أبدا، وقال: لقد علمتم أنّى مِن أكثرِ قريش مالا، ولكنى أتيته، وقصّ عليهم القِصّة، قال : فأجابنى بشىءٍ والله ما هو بسِحرٍ ولا شِعر ولا كَهانة، قرأ علىّ : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حمٓ﴾ إلى قوله : ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عادٍ وثَمُودَ﴾ فأمسكت بفِيه وناشدتُه الرحم أن يكفّ، وقد علمتُم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذِب فيه ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

وأما الوليد بن المغيرة فقد روَى أبو بكر أحمد بن الحسين البَيْهقىّ (٣) بسنده عن عِكرمة عن ابن عباس أن الوَليد بن المغيرة جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال : يا عمّ إن قومك يَرَوْن أن يجمعوا لك مالا ، قال : لِمَ ؟ قال : ليُعطوكَه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قِبَله ، قال : قد علِمتْ قريشٌ أنى من أكثرها مالا، قال : فقل فيه قولا يَبْلُغ قومَك أنك مُنكِرٌ له (٤)، وأنك كاره له ، فقال (٥) : وما ذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّى، ولا أعلم برَجَزِه ولا بقَصِيده منّى، ولا بأشعار الجنّ؛ والله ما يُشبِه الذى يقول شيئا من هذا، [و] (٦) والله إن لِقوله الذى يقول لحَلاوة، وإن عليه لطَلاوة، وإنه لمثمِر أعلاه ، مُغدِقٌ أسفلهُ ، وإنه لَيعلُو وما يُعلَى ، وإنه ليَحطم ما تحته . قال :

(١) سورة فصلت الآيات من ١ — ٣
(٢) سورة فصلت آية ١٣
(٣) دلائل النبوّة ورقة ١٤٥ .
(٤) فى دلائل النبوّة : « منكرلها » .
(٥) فى دلائل النبوّة : « قال » .
(٦) تكملة من دلائل النبوّة .

لا يرضى عنك قومُك حتى تقول فيه . قال : فدَعْنى حتى أُفكّر فيه، فلما فكّر قال : هذا سِحر يُؤْثَر، يأثره عن غيره[(١)] ، فنزل قولُه تعالى : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا[(٢)] ... ﴾ الآيات .

وعن عِكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال له : اقرأ علىَّ، فقرأ عليه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحْسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبَى، وَيَنْهَى عنِ الفَحْشَاءِ والمنْكرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[(٣)] ﴾، قال : أعِد علىّ، فأعاد عليه النبىّ صلّى الله عليه وسلم فقال : والله إنّ له لحلاوة، وإنّ [عليه لطَلاوة[(٤)]، وإن] أعلاه لمثمِر، وإن أسفله لمَغدِق، وما يقول هذا بشَرٍ .

ذِكر اجتماع أشراف قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

٧١/١٤ وما عرضوا عليه وما طلبوا منه أن يُرِيَهم ويُخبرَهم به من القصص، وأخبار مَن سَلف وغير ذلك من غيَّهم ، وما أُنزل عليه فى ذلك ممّا سنذكره إن شاء الله تعالى، ويُترجِم على بعض ما انطوت عليه هذه الترجمة من القَصص بما يدل عليها، ويبيّنها من التراجِم وإن كانت داخلة فيها .

قال محمد بن إسحاق[(٥)] :

ثم إن الإسلام جعل يفشُو بمكّة فى قبائل قريش ، فى الرجال والنساء : وقُريش تحبِس من قَدَرتْ على حبسه، وتفتِن من استطاعت فِتنَته من المسلمين، ثم اجتمعت أشرافُ قريش من كلّ قبيلةٍ، كما رُوِى عن سعيد بن

(١) فى الأصل : « فأثره عن غيره » وانظر دلائل النبوّة ورقة ١٤٥ .
(٢) صورة المدثر آية ١١ .
(٣) سورة النحل آية ٩٠ .
(٤) فى الأصل : « لحلاوة، وإن أعلاه » ، والتكملة عن البيهقى حيث النقل عنه .
(٥) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٣١٥ .

جُبير وابنِ عباس ، قالا : اجتمع عُتبة بن ربيعة ، وشَيْبة بن رَبيعة ، وأبو سُفيان ابن حَرب ، والنَّضر بن الحارث بن كَلَدة ، وأبو البَخْتَرِيّ بن هِشام ، والأسود ابن المطّلب بن أسَد ، وزَمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جَهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أُميّة ، والعاص بن وائل ، ونُبيه ومُنَبّه ابنا الحجّاج السَّهْميّان ، وأمية ابن خَلَف ، أو من اجتمع منهم ، فاجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظَهْر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : اِبعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصِموه حتى تُعذِروا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشرافَ قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك ، فأتِهم ؛ فجاءهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سريعًا ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بَداء ، وكان حريصًا عليهم ، يحبّ رُشْدَهم[1] ، حتى جَلس إليهم فقالوا : يا محمد إنّا قد بَعثنا إليك لنكلّمك ، وإنا والله لا نعلَم رجلا من العرب أدخلَ على قومِه ما أدخلتَ [على قومك][2] ؛ لقد شتمت الآباء ، وعِبت الدِّين ، وسبَبْتَ[3] الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة ، فما بَقِيَ أمر قبيح إلا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك ، وكلّموه بنحو ما كلّمه به عُتبة بن رَبيعة على ما قدّمناه آنفا . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما بي [ما][4] تقولون ، ما جئتُ بما جئتُكم أطلُب به أموالَكم ، ولا الشرفَ فيكم ، ولا المُلكَ عليكم ، ولكنّ الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليكم[5] كتابا ، وأمَرَني أن أكون بشيرا ونذيرا ، فبلّغتُ لكم رسالاتِ ربّي ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة ، وإن

(١) في ابن هشام بعد قوله « رشدهم » : « ويعز عليه عنتهم » .

(٢) تكملة عن ابن هشام الجزء الأول ص ٣١٥ .

(٣) في سيرة ابن هشام : « وشتمت الآلهة » .

(٤) تكملة عن ابن هشام .

(٥) في ابن هشام « علىّ » وهو الصواب .

تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتّى يحكمَ الله بينى و بينكم" أو كما قال — صلى الله عليه وسلم — . [قالوا يا محمد](١) : فإن كنت غير قابل منّا شيئا ممّا عَرَضناه عليك فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلدا، ولا أقلَّ ماء ولا أشدَّ عيشا منّا ، فسلْ لنا ربَّك الذى بعثك به فليسيِّر عنّا هذه الجبالَ التى ضيّقتْ علينا ، وليَبسُطْ لنا بلادنا ، وليَخرقْ(٢) لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليَبعثْ لنا مَنْ مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يُبعث لنا منهم قصيّ بن كلاب ، فإنه كان شيخَ صدق ، فنسألهم عما تقول: أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعتَ لنا ما سألناك عرفْنا به منزلتَك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما بهذا بُعثت إليكم ، إنما جئتُكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلّغتكم ما أُرسلتُ به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظُّكم فى الدنيا والآخرة ، و إن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتّى يَحكمَ اللهُ بينى و بينكم" . قالوا له : فإذا لم تَفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سَلْ ربّك أن يَبعثَ معك مَلَكا يصدقك بما تقول ، و يراجعنا عنك ، وسَلْه فليجعل لك جِنانًا وقُصورا وكُنوزا من ذهب وفضّة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنّك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاشَ كما نَلتمِس ، حتى نعرف فضلَك ومنزلتَك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يَسأل ربّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا"، — أو كما قال — "فإن تَقبلوا ما جئتُكم به فهو حظّكم

(١) تكملة عن ابن هشام يقتضيها سياق الكلام .

(٢) رواية ابن هشام « وليفجر » .

فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكُمَ الله بينى وبينكم" .
قالوا : فأَسقِط السماءَ علينا كِسَفا كما زعمتَ أن ربّك إن شاء فَعَل ، فإنّا لا نؤمن
لك إلّا أن تفعل . فقال صلى الله عليه وسلم : "ذلك إلى الله، إن شاء يفعلُه
بكم فَعَل" قالوا : يا محمد ، أفما علم ربُّك أنّا سنجلس معك ونسألُك عمّا سألناك
عنه ونطلب ، فيتقدّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به ، ويُخبرك بما هو صانع فى ذلك ٥
بنا، إذا لم نَقبل منك ما جئتَنا به ؟ إنه قد بلَغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل باليمامة
يقال له الرحمٰن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمٰن أبدا ، فقد أعذرْنا إليك يا محمد،
وإنا والله لا نتركك وما بلغتَ منّا حتى نُهلِكك أو تُهلِكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد
الملائكة ، وهى بَناتُ الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتىَ بالله والملائكة ٧٢/١٤
قَبيلا ؛ فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم وقام معه ١٠
عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة — وهو ٱبن عمّته — فقال له : يا محمد، عرض عليك
قومُك ما عرضوا فلم تَقبلْه منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتَك
من الله كما تقول ، ويصدّقوكَ ويتّبعوك فلم تَفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك
ما يعرفون به فضلَك عليهم، ومنزلتَك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجِّل لهم
بعضَ ما تخوّفهم به من العذاب فلَم تفعل — أو كما قال له — فوالله لا أومن بك أبدا ١٥
حتى تتّخذ إلى السماء سُلّما ، ثم تَرقَى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك
بصكٍّ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وٱيم الله لو فعلتَ
ذلك ما ظننتُ أنى أصدّقك ؛ ثم ٱنصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا أَسِفا لما فاته ممّا كان
يطمع به من قومه حين دعوه (١) . ٢٠

(١) فى الأصل : « عن دعوة » ، والتصويب عن ٱبن هشام ج ١ ص ٣١٩ .

ذكر قصة أبي جَهْل فى الحَجَر الذى قَصد قَتلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وما شاهَدَه من حماية الله تعالى لنبيِّه ، وكفايتِه إيّاه ورجوعِه إلى قومه وإخبارِهم بما شاهد

قال ابن إسحاق : ولمّا قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إنّ محمدا قد أبى إلّا ما ترَوْن من عيبِ ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيهِ أحلامنا ، وسبِّ آلهتِنا (١) ؛ وإنى أعاهد اللهَ لأجلسنّ له غدا بحَجَر ما أطيق حَمْلَه ، فإذا سجد فَضَخْتُ به رأسَه ، فأسلِمونى عند ذلك أو امنَعونى ، فليصنعْ بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ؛ قالوا : والله لا نُسلِمك لشىء أبدا ، فامض لما تريد ، فلمّا أصبح أخذ حَجَرا كما وصف ، ثم جلس ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى إلى بيت المَقدِس : وكان إذا صلّى صلّى بين الركن اليمانىّ والحجرِ الأسوَد : وجعل الكعبةَ بينه وبين الشام ، وقام يصلّى وقريشٌ فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جَهْل فاعل ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتَمل أبو جهل الحَجَر ثم أتى (٢) نحوَه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقِعا لونُه ، مرعوبا قد يبست يداه على حَجَرِه حتى قذف الحجر من يدِه ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : مالك يا أبا الحَكَم ؟ فقال : قمتُ إليه لأفعل [به (٣)] ما قلتُ لكم البارحة ، فلمّا دنوتُ منه عَرَض لى دونَه فحلٌ من الإبل ؛ والله ما رأيت مثلَ هامتِه

(١) فى السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣١٩ : « وشتم » .

(٢) عبارة السيرة « أقبل » .

(٣) تكملة من ابن هشام .

ولا قَصَرَتِهِ[1] ولا أنيابه لفحلٍ قطّ ، فهمّ أن يأكلني . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ذاك جبريل لو دنا لأخَذَه" .

ومثل هذه القصة أيضا ، مارواه ابن إسحاق قال : قدم رجل من إراش — ويقال إراشة[2] — بإبلٍ له مكة فابتاعها منه أبو جهل ، فمَطَلَه بأثمانها ، فأقبل الإراشيّ حتى وقف على نادٍ من أندية قريش ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى ناحية المسجد جالس ، فقال الإراشيّ : يامعشر قريش ، مَن رجل يُؤْدِينى[3] على أبى الحَكَم بن هشام ؛ فإنّى رجلٌ غريبٌ ابنُ سبيل ، وقد غلبنى على حقّى ؛ فقال له القوم : أترى ذلك الرجلَ الجالسَ؟ — يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يهزءون به — اذهب إليه فهو مُؤْدِيكَ عليه ؛ فأقبلَ الإراشيُّ حتى وقف على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : ياعبد الله ، إن أبا الحَكَم قد غلبنى على حقٍّ لى قِبَلَه ، وأنا غريبٌ وابنُ سبيل ، ولقد سألتُ هؤلاء القومَ عن رجل يُؤْدِينى عليه فأشاروا لى إليك ، فخذ [لى][4] حقّى منه يرحمك الله ، قال : "انطلِق إليه" ، وقام معه صلى الله عليه وسلم فلمّا رأوْه قام [معه][4] قالوا لرجل ممّن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع ؟ قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضَرب عليه بابه ، فقال : مَن هذا ؟ قال : "محمّدٌ فاخْرُجْ إلىّ" فخرج وما فى وجهه رائحة[5] (أى دم) قد انتقع[6] لونُه فقال : أعطِ هذا الرجلَ حقّه

٧٣/١٤

(١) القصرة (بالتحريك) : أصل العنق . (٢) إراشة (بالكسر) : بطن من خثعم .

(٣) من يؤدينى على أبى الحكم ؛ أى على أخذ حق منه ، من آداه على فلان أى أعانه وقواه . ورواية ابن كثير ج ٣ ص ٤٥ « يعدينى » ، وهو بمعناه .

(٤) تكملة عن ابن هشام .

(٥) أى أنه مصفر من الخوف . والذى فى ابن كثير ج ٣ ص ٤٥ « فخرج وما فى وجهه قطرة دم » .

(٦) انتقع لونه (بالبناء للمجهول) : تغير لما نزل به .

قال : نعم ، لا يبرح[1] حتّى أعطِيَه [الّذى له][2] ، ودخل فخرج إليه بحقّه فدفعه إليه ، ثم انصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال للإراشىّ : الحقّ بشأنك ؛ فأقبل الإراشىّ حتّى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيرا ، فقد والله أخذ لى حقّى ، وجاء الرجل الّذى بعثوه معه فأخبرهم الخبر ، قال : ثمّ لم يَلْبَثْ أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : وَيْلَك ! والله مارأينا مِثلَ ما صنعتَ قطّ ! قال : ويحكُم ! واللهِ ما هو إلّا أن ضَرَب علىّ بابى ، وسمعتُ صوته ، فمُلِئْتُ رُعْبا ، ثم خرجتُ إليه وإنّ فوق رأسه لَفَحْلا من الإبل ما رأيتُ مثل هامَتِه ولا قَصَرَته ولا أنيابِه لِفحل قطّ ، والله لو أَبَيتُ لأكلنى .

ذكرُ خبرِ النَّضر بنِ الحارث ، وما قال لقريش ، وإرسالِهم إيّاه إلى يثرب إلى أحبار يهودَ وعُقبةَ بنِ أبى مُعَيْط وما عادا به

قال : ولمّا رجع أبوجهل إلى قريش ، وألقَى الحَجَرَ من يده وقصّ عليهم ما شاهد قام النضرُ بنُ الحارث بنِ كَلَدة فقال : يامعشر قريش ، إنه واللهِ قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعدُ ، قد كان محمّدٌ فيكم غلاما حَدَثا ، أرْضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمَكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغَيه الشيبَ — وقد جاءكم بما جاءكم به — قلتم : ساحر ، لا وآلله ما هو بساحر ، لقد رأينا السَّحَرة ؛ نَفْثَهم وعقدَهم . وقلتم : كاهن ، لا وآلله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكَهَنة ؛ تَخالجهم ، وسمعنا سجعَهم . وقلتم : شاعر ، لا وآلله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافَه كلَّها ؛

(١) فى ابن هشام : « لا تبرح » .

(٢) تكملة من ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨ .

هَزَجَه ورَجَزَه . وقلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخَنْقِه ، ولا وَسْوَسَتِه ، ولا تخليطِه ، يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

قال ابن إسحاق : وكان النضر بنُ الحارث من شياطين قريش ، وممّن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قَدِم الحِيرة وتعلّم بها أحاديثَ ملوكِ الفُرْس و رستم[1] و إسفنديار ، فكان إذا جلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذَكّر فيه بالله وحذّر قومَه ما أصاب مَن قَبْلَهم من الأمم من نِقْمة الله ، خَلَفه فى مجلسه إذا أقام ، ثم قال : والله يا معشر قريش أنا أحسنُ حديثا منه ، فهلمّ[2] فأنا أحدّثكم أحسنَ من حديثه ، ثم يحدّثهم عن ملوك فارسَ ورستم و إسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى !

قيل : والنضر هذا هو الذى قال [فيما بلغنى][3] : ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾[4] ، قال ابن عباس : نزل فيه ثمانُ آياتٍ من القرآن : قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[5] ، وكلّ ما ذُكر فيه الأساطيرُ من القرآن . قال : فلما قال لهم النضر بنُ الحارث ما قال بعثوه ، وبعثوا معه عقبةَ بنَ أبى مُعَيْط إلى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمّد ، وصِفَا لهم صفتَه وأَخبِراهم بقوله ، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل ، وعندهم

(١) هو رستم بن ريسان من ملوك الترك فى زمن الكيانية قتله إسفنديار بن كى يشتاسف . وفى تاج العروس « إسفندياد » .

(٢) ورد فى ابن هشام ، بعد هذه الكلمة قوله « إلىّ » .

(٣) زيادة من ابن هشام بعد هذه الكلمة قوله « فيما بلغنى » .

(٤) سورة الأنعام آية ٩٣ .

(٥) سورة القلم آية ١٥ .

علمٌ حسن — ليس عندنا — من علم الأنبياء ؛ فخرجا حتى قَدِما المدينة فسألا أحبارَ يهودَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمرَه ، وأخبرَاهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقال لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ ، فإن أخبرَكم بهنّ فهو نبيّ مُرْسَل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فَرَوْا فيه رأيَكم ، سلُوه عن فتيةٍ ذهبوا فى الدهر الأوّل، ما كان من أمرِهم ؟ فإنّه قد كان لهم حديثٌ عجيب ؛ وسَلُوه عن رجل طوّافٍ قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها ؛ ما كان نَبَؤُه؟ وسلُوه عن الرُّوح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فاتّبعوه فإنه نبيّ ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل فَروا فيه رأيَكم . فجاءوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد، أَخبِرنا عن فتيةٍ ذهبوا فى الدهر الأوّل قد كانت لهم قصّة عَجَب ؛ وعن رجل كان طوّافا قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها ؛ وأخبِرْنا عن الرُّوح ما هى؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُخبركم بما سألتمْ عنه غدًا"، ولم يستثنِ بالمشيئة، فانصرفوا عنه، فمكث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون خمسَ عشرة ليلةً لا يُحدث اللهُ فى ذلك وحيًا ، ولا يأتيه جبريلُ حتى أرجفَ[1] أهلُ مكّة وقالوا : وعَدَنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا[2] بشيء ممّا سألناه عنه ، وحتى أحزن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحى عنه ، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهلُ مكة ؛ ثم جاءه جبريل من الله بسورة الكهف فيها خبرُ ما سألوا عنه ، فيقال : إنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جاءه : لقد احتبستَ عنّى حتى سؤتُ ظنّا ؛ فقال له جبريل :

٧٤/١٤

(١) يقال : أرجف القوم ، إذا خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن .

(٢) كذا فى ابن هشام . وهو الصواب . والذى فى الأصل : « لا تخبروا » ؛ وهو تحريف .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (١) ﴾ .

ذكر ما اشتملت عليه سورة الكهف مما سألوه عنه

قال أبو محمد عبدُ الملك بنُ هشام رحمه الله تعالى : افتتح اللهُ عزّ وجلّ السورةَ بحمده، وذكر نبوّة رسولِه صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ يعنى محمدا . قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا ﴾ أى معتدلا لا اختلاف فيه . قوله : ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أى عاجل عقوبته فى الدنيا وعذابًا أليما فى الآخرة . قوله : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أى دار الخُلد لا يموتون فيها، الَّذين صدّقوك بما جئتَ به ممّا كذّبك به غيرُهم ، وعملوا بما أمرتَهم من الأعمال . قوله : ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ﴾ يعنى قريشا فى قولهم : إنّا نعبد الملائكةَ وهى بناتُ الله . قوله : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ الّذين أعظموا فراقَهم (٢) . قوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أى قولهم : إنّ الملائكة بناتُ الله . قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أى مُهلكٌ نفسك لحزنه صلى الله عليه وسلم عليهم حين فاتَه ما كان يرجو منهم ، أى لا تفعل . قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى أيّهم أتبع لأمرى، وأعملُ لطاعتى . قوله : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٣) ﴾ أى الأرض،

(١) سورة مريم آية ٦٤ (٢) زاد فى ابن هشام والقرطبي قوله : « وعيب دينهم » .

(٣) سورة الكهف الآيات من ١ — ٨ . والصعيد : وجه الأرض . والجرز : الأرض التى لا تنبت شيئا .

وإنّ ما عليها لفانٍ وزائل ، ولكنْ المرجعُ إلىّ فأجزى كلًّا بفعله ، فلا تأسَ ، ولا يَحزُنك ما ترى وتسمع فيها . ثم آستقبل القصّة فيما سألوه عنه من شان الْفِتْيَةِ (١) .

فقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ، أى قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حجتى (٢) ما هو أعجب من ذلك .

٥ قال آبن هشام : والرقيم الكتاب الذى يرقم فيه بخبرهم ، وجمعه رُقُم . ثم قال : ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ (٣) إلى قوله : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أى لم يشركوا بى كما أشركتم [بى] ما ليس لكم به علم . قال : والشَّطَطُ ، الغُلُوّ (٤) ومجاوزة الحق . قوله : ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ ، أى بحجّة بالغة . ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إلى قوله : ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ .

١٠ قال ابن هشام : تَزاوَرُ ، تميل ، وهو من الزَّور ، و﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ، أى تجاوزهم وتتركهم عن شمالها . والفَجْوة : السعة ، وجمعها الفِجاء . قوله : ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أى فى الحجّة على مَن عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممّن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم فى صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم . قوله : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ إلى قوله ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ (٥) الوصيد : الباب . قال عبيد (٦) بن وهب العبسىّ منشدا :

١٥ بأرضِ فلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها ... علىّ ومعروفى بها غير مُنْكَرِ

٧٥/١٤

(١) رواية ابن هشام ص ١٩١ « ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه » إلخ .

(٢) عبارة ابن إسحاق : « من حججى » .

(٣) تكملة عن ابن هشام والجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٣٤٩ .

(٤) فى الأصل : « العلو » بالمهملة ، والتصويب عن آبن هشام .

٢٠ (٥) سورة الكهف الآيات من ٩ — ١٨

(٦) كذا فى الأصل وابن هشام . والذى فى القرطبى ج ١٠ ص ٣٥١ « عبد بن وهب » .

والوصيد أيضا الفناء، وجمعه وصائد ووُصُد ووُصْدان قوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ أهل المُلك ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾. قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يعنى أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم، فانهم لا علم لهم بهم. قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ﴾ إلى قوله ﴿رَشَدًا﴾ أى لا تقولنّ لشىء سألوك عنه كما قلت فى هذا: إنى مخبرُكم غدًا، واستثنِ بمشيئةِ الله ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ لخير مما سألتمونى عنه رَشَدا، فإنّك لا تدرى ما أنا صانع فى ذلك. قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أى سيقولون ذلك. ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أى لم يخف عليه شىء مما سألوا عنه، وقال الله عزّ وجل، فيما سألوه عنه من أمر الطّوّاف، وهو ذو القرنين: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[1] الآيات، إلى آخر خبره. وقد ذكرنا قصة ذى القرنين فى الباب الأوّل من القسم الرابع من الفنّ الخامس من كتابنا هذا، وهى فى الجزء الثانى عشر[2] من هذه النسخة، ولا فائدة فى إعادتها.

وقال تعالى فيما سألوه عنه من [أمر][3] الرّوح[4]: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[5] رُوِى عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما قال: لمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال

(١) سورة الكهف الآيات من ١٨ — ٨٣ (٢) من تجزئة المؤلف.

(٣) تكملة عن ابن هشام ص ١٩٦

(٤) فى تفسير معنى الروح أقوال كثيرة أوردها القرطبى فى جامعه ١٠ : ٣٢٣.

(٥) سورة الإسراء آية ٨٥

أحبارُ يهودَ : يا محمد، أرأيت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) إيانا تريد أم قومَك ؟ قال : كلّا . قالوا : فإنّك تتلو فيما جاءك إنّا قد أُوتينا التوراة فيها بيانُ كلّ شيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنّها فى علم الله قليل، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه» فأنزل اللهُ تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)، أى أن التوراة فى هذا من علم الله قليل .

ذكر ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال ، وتقطّع الأرض وبعث من مضى من آبائهم من الموتى ، وما سألوه لنفسه ، وما قالوه له بعد ذلك

أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله صلى الله عليه وسلم فيما سأله قومُه لأنفسهم فيما قدّمنا ذكره؛ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (٣)، أى لا أصنع من ذلك إلّا ما شئت .

وأنزل عليه فى قولهم : خذ لنفسك ماسألوه أن يأخذ لنفسه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (٤) . ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ (٥)، أى من أن تمشى فى الأسواق

(١) سورة الإسراء : ٨٥ (٢) سورة لقمان : ٢٧ (٣) سورة الرعد : ٣١
(٤) سورة الفرقان : ٧، ٨ (٥) سورة الفرقان : ١٠

وتلتمس المعاش ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾. وأنزل عليه في ذلك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾[1]، أي جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا ، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رُسُلي ولا يخالفوا لفعلتُ. وأنزل عليه فيما قال عبدُ الله بنُ أميّة : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾[2]، وأنزل عليه في قولهم: إنّا قد بلغنا [أنك][3] إنّما يعلّمك رجل باليمامة يقال له الرحمن، ولن نؤمن به أبدا؛ قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[4] . وأنزل عليه فيما قال أبو جهل وما همّز به قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾[5] إلى آخر السورة. قال ابن هشام : لنسفعنْ : لنجذبنّ ولنأخذنّ . والنادى : المجلس الذى يجتمع فيه القوم ويقضون فيه أمورهم، وجمعُه أندية. يقول: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾[6] أى أهلَ ناديه، كما قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[7] أى أهل القرية . وأنزل عليه فيما عرضوه عليه من أموالهم : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[8].

٧٦/١٤

(١) سورة الفرقان : ٢٠ (٢) سورة الإسراء : ٩٠ — ٩٣
(٣) الزيادة عن ابن هشام ١ : ٣٢٢ (٤) سورة الرعد : ٣٠ (٥) سورة العلق : ٩، ١٠، ١١، ١٢ . (٦) سورة العلق : ١٧ . (٧) سورة يوسف : ٨٢ .
(٨) سورة سبأ : ٤٧ .

ذكر ما كان من عناد قريش بعد ذلك وعقودهم (١)

قال : فلمّا جاءهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحقّ، وعرفوا صدقه فيما حدّث، وموقعَ نبوّته فيما جاءهم به من علم الغُيوب حين سألوه عمّا سألوه عَتَوْا على الله واستمرّوا فى طغيانهم وعلى كفرهم، فقال قائلهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢) ﴾ فإنكم إن ناظرتموه وخاصمتموه غلبكم . فقال أبو جهل يوما — وهو يهزأ برسول الله وما جاء به من الحقّ — : يامعشر قريش، يزعم محمد أنّما جنودُ الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددا [وكثرة (٣)] ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم . فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا (٤) ﴾ إلى آخر القصّة .

قال : ولمّا قال بعضهم لبعض : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ جعلوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو فى صلاته يتفرّقون عنه، ويأبون أن يسمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضَ ما يتلو من القرآن وهو يصلّى استرق السمعَ دونَهم فَرَقا منهم، فإن رأى أنّهم قد عرفوا به أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم أن يستمع؛ وإن خفض صلى الله عليه وسلم صوتَه ظَنَّ الّذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته؛ وسمع هو شيئا دونَهم أصاخَ له يستمع منه، فأنزل الله تعالى قولَه : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ

(١) عقودهم، أى عهودهم، من قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) أى بالعهود .

(٢) سورة فصلت : ٢٦

(٣) الزيادة عن ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٥

(٤) سورة المدثر ٣١ .

بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١) ﴾ يقول : لا تجهرْ بصلاتك فيفرّوا (٢) عنك، ولا تخافت بها، فلا يَسمعها من يحبّ أن يسمعها ممّن يسترقُها دونهم لعلّه يرعَوِى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

ذكر أوّل من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم

رُوى عن عروة بنِ الزّبير عن أبيه قال : كان أوّلَ مَنْ جهر بالقرآن بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عبدُ الله بنُ مسعود . قال : اجتمع يوما أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعتْ قريش هذا القرآنَ يُجهَر لها به قطّ مِنْ (٣) رجل يُسْمِعُهُوه . فقال عبد الله بن مسعود : أنا، قالوا : إنّا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعونى، إن الله سيمنعنى، قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى وقت الضُّحى وقريشٌ فى أنديتها، ثم قال رافعا صوته : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٤) ﴾ ثم استقبلها يقرؤُها ، وتأمّلوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابنُ أمّ عَبْد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعضَ ما جاء به محمّد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه (٥) وهو يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلُغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا بوجهه ، فقالوا : هذا الذى خشِينا عليك . قال : ما كان أعداءُ الله أهوَنَ علىّ منهم الآن ، وإن شئتم لأغادينّهم بمثلِها غدا ، قالوا : لا ، حَسْبُك ، قد أسمعتَهم ما يكرهون . والله الموفّق .

٧٧/١٤

(١) سورة الإسراء : ١١٠ . (٢) رواية ابن هشام « فيتفرقوا » .
(٣) كذا فى الأصل . ورواية ابن هشام «فمن رجل» بصيغة الاستفهام والمعنى عليها يستقيم أيضا .
(٤) آيتا ١، ٢ من سورة الرحمن .
(٥) عبارة ابن هشام « ثم أثروا فى وجهه » .

ذكر ما نال أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

من أذى قريش وعذابهم ليفتنوهم عن دينهم

قال محمّد بن إسحاق : ثم إنهم عَدَوْا على من أسلم وآتبع رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم من أصحابه ، فوثبتْ كلُّ قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم و يعذّبونهم بالضَّرْب والجوع والعطش ، وبرَمْضاءِ مكّة إذا آشتد الحرّ ؛ مَن آستَضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يَفتتن[1] من شدّة البَلاء الذى يصيبه ، ومنهم مَن يعصمه الله ، فكان بلالُ بنُ رَباح[2] مولى أَبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما لبعض بنى جُمَح مولَّدا من مولَّديهم ، وكان صادقَ الإسلام ، طاهرَ القلب ، فكان أميّة بن خلف يخرجه إذا حَميت الظَّهيرة فيَطرحه على ظهره فى بطحاء مكّة ، ثم يأمر بالصَّخْرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفرَ بمحمّد ، وتعبدَ اللاتَ والعُزَّى ؛ فيقول — وهو فى ذلك البلاء — أَحَد أَحَد ، فكان ورقةُ بنُ نوفل يمرّ به وهو يعذّب بذلك وهو يقول : أَحَد أَحَد ، فيقول : أَحَد أَحَد والله يا بلال ؛ ثم يقبل على أميّة بن خلف وهو يصنع به ذلك فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنّه حنانا[3] ؛ حتى مرّ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوما وهم يصنعون به ذلك ، فقال لأميّة : ألا تتقى اللهَ فى هذا المسكين ، حتّى متى ! فقال : أنت أفسدتَه فأنقذه ممّا ترى . قال : أفعَل ، عندى غلام أسوَد أجلدُ منه وأقوى ، وهو على دينك ، أُعطيكَه به . قال : قد قبلتُ ؛ قال : هو لك . فأعطاه أبو بكر

---

(١) فى الأصل : « فمن يفتتن » وما أثبتناه عن ابن هشام (١ : ٢٠٥) .

(٢) فى الأصل ما يفيد أن بلالا كان من موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس كذلك ، فإن بلالا هذا كان من خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا من مواليه . انظر المعارف ص ٨٨ ، وابن كثير جـ ٣ ص ٥٧ .

(٣) لأجعلن قبره موضع حنان ، فأزوره وأتبرك به .

غلامَه ذلك، وأخذه فأعتقَه، ثم أعتق معـه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رِقاب؛ وهم عامرُ بنُ فُهَيرة، شهد بَدْرا وأُحُدا[1]، وأمّ عُمَيس[2]، وزِنّيرة — وكانت رومية لبنى عبد الدار — فأصيب بصرُها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهبَ بصرَها إلّا اللّات والعُـزّى، وما ينفعان. فردّ الله إليهـا بصرَها؛ وأعتق النهديّة وابنتَها، وكانتا لامرأة من بنى عبـد الدّار، فمرّ بهما وقد بعثتهما سيّدتهما بطحين لهـا وهى تقول: والله لا أُعتِقكما أبدا؛ فقال أبو بكر: حِـلّ[3] يا أم فلان؛ فقالت: حلّ أنت؛ أفسدتَهما فاعتِقْهما، قال فبكَم هما؟ قالت: بكذا وكذا؛ قال: أخذتُهما وهما حرّتان، ارجِعا إليها طحينَها؛ قالتا: أو نفرغ منـه يا أبا بكر ثم نردّه إليها؛ قال: وذاك إن شئتما. ومرّ بجارية من بنى مؤمّل (حىّ من بنى عدىّ بنِ كعب) — وكانت مسلمة — وكان عمرُ يعـذّبها لتتركَ الإسلام، وعمرُ يومئذ مشرك، وهو يضربها حتى إذا ملّ قال: إنى أعتذر إليكِ، لم أتركك إلّا ملالة، فيقول: كذا يفعل الله بك. فابتاعها فأعتَقَها؛ فقال أبو قُحافة لأبى بكر: يا بنىّ، أراك تُعتِق رِقابا ضِعافا، فلو أنّك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ رجالا جُلْدا يمنعونَك ويقومون دونك؛ فقـال أبو بكر: يا أبتِ إنّى إنمـا أريد لله عزّ وجلّ ما أريد؛ فيقال: إنّ هـذه الآيات أنزلت فيـه رضى الله عنـه قوله تعـالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى[4] ﴾.

قال محمد بن إسحاق: وكان بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمّه — وكانوا أهل بيتِ إسلام — إذا حَمِيَت الظّهيرة يعذّبونهم برَمْضاء مكّة، فيمرّ بهم رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم، فيقول: "صبرا آل ياسر موعدُكم الجنّة"،

(١) زاد فى ابن هشام ٢٠٣ «وقتل يوم بئر معونة شهيدا». (٢) فى الأصل «أم عيس» بالباء، والتصويب عن ابن هشام. (٣) أى تحللى من يمينك. (٤) الآيات ٥، ٦، ٢١ من سورة الليل.

فأما أمه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام (١) . قال أبو عمر : وهى سُمَيّة ، كانت أمَةً لأبى حُذَيفة بن المغيرة بنِ عبد الله بن عَمرو بن مخزوم ، فزوّجها من حليفهِ ياسر بن عامر بن مالك العَبْسى ؛ فولدت له عمّارا ، فأعتقه أبو حذيفة . وسميّة هذه أوّل شهيدةٍ فى الإسلام . وجاءها أبو جَهْل بحَرْبة فى قُبلها فقتلها ، فقال عمّار : يا رسول الله ، بُلِغ منا — أو بُلِغ منها كلّ مبلغ — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صبرًا يا أبا اليقظان ، اللهم لا تُعَذّبْ أحدا من آل ياسر بالنار » (٢) .

٧٨/١٤ قال ابن إسحاق : وكان أبو جهل هو الذى يُغرى بهم فى رجال قريش إذا سمع برجل قد أسلم ، فإن كان له شرف ومَنَعَة أنّبه وخزّاه : فيقول : تركتَ دين أبيك وهو خير منك ، لنسفّهن حِلْمك ولَنُفَيِّلَنّ (٣) رأيك ، ولنضعنّ شرفك ؛ وإن كان تاجرا ، قال : والله لنُكسِدنّ (٤) تجارتك ، ولنهلكنّ مالك ؛ وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به . وروى عن سعيد بن جُبير قال : قلت لابن عبّاس رضى الله عنهم : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من العذاب ما يُعذَّرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم ، والله إنْ كانوا ليَضربون أحدَهم ويُجيعونه ويُعطشونه ؛ حتى ما يقدر أن يستوىَ جالسا من شدة الضرّ الذى به ، حتى يعطيَهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له : اللّات والعزّى إلٰهان من دون الله ، فيقول : نعم ، حتى إن الجُعَل ليمرّ بهم فيقولون له : هذا الجعَل إلٰهُك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداءً منهم ممّا يَبلغون من جهده . والله المعين .

(١) كذا فى ابن هشام جـ ١ : ٣٤٢ ، وفى ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩ : « فيقتلوها فتأبى إلا الإسلام » ، والذى فى الأصل : « تقتلونها تابا الإسلام » ، ولا يخفى ما فيه من تحريف .

(٢) فى الروض الأنف : « آل عمار » . (٣) لنفيلن ، من فيل رأيه : خطأه .

(٤) فى الأصل : « لنكسرن » . تصحيف . والتصويب عن ابن هشام ١ : ٣٤٢ ، ابن كثير جـ ٣ : ٥٧ .

ذكرُ هجرةِ أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الحبشة ، وهى الهجرة الأولى

قال محمد بن إسحاق : لما رأى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ما يصيب أصحابَه من البلاء والعذاب ، وما هو فيه من العافية لمكانه من الله تعالى ومن عمّه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها مَلِكا لا يُظلم عنده أحد — وهى أرض صدق — حتى يجعل الله لكم فَرَجا مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك من خرج منهم مخافةَ الفتنة ، وفرارا إلى الله بدينهم ، فكانت أوّل هجرة كانت فى الإسلام .

قال الواقدىّ : خرجوا متسلّلين سرًّا ، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، حتى انتهوا إلى الشُّعَيْبةِ[1] منهم الراكب والماشى ، ووفّق الله لهم ساعةَ جاءوا سفينتين للتجّار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وكان مَخرجُهم فى نصف رجب من السنة الخامسة من حين تنبّأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوهم .

قال ابن إسحاق . كان أوّلَ من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس عثمان بن عفان معه امرأته رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن بنى عبد شمس : أبو حذيفة بن عُتْبة ، معه امرأته سَهْلة ابنة سُهَيل ، ولدتْ بأرض الحبشة محمدَ بنَ [أبى][2] حذيفة . ومن بنى أسد بن عبد العزّى : الزبير بن العوّام . ومن بنى عبد الدار : مصعب بن عُمَير بن هاشم . ومن بنى زُهرة بن كلاب :

(١) الشعيبة بكهينة : مرسى السفن من ساحل بحر الحجاز ، كان مرسى سفن مكة قبل جدّة .

(٢) ساقطة من الأصل . والتكملة عن ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٤ .

عبد الرحمن بن عوف . ومن بنى مخزوم : أبو سَلَمة بن عبد الأَسَد ، معه آمرأته أُم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة . ومن بنى جُمَح : عثمان بن مَظْعون بن حبيب . ومن بنى عدىّ بن كعب : عامرُ بن ربيعة ، معه آمرأته ليلى بنت أبى حَثْمة بن غانم ؛ ومن بنى عامر بن لؤىّ : أبو سَبْرة بن أبى رُهْم بن عبد العُزّى[(١)] ؛ ومن بنى الحارث ابن فهر : سُهيل بنُ بَيْضاء ، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة . قال : هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ، وكان عليهم عثمانُ بن مظعون . وزاد الواقدىّ : حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، فجعلهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة . قال : فقدمْنا أرضَ الحبشة ، فجاورْنا بها خَيرَ جارٍ[(٢)] ، أَمِنَّا على ديننا ، وعبدْنا الله تعالى لا نُؤْذَى ، ولا نُسمع شيئا نكرهه . والله أعلم .

ذكر رجوع أهل هذه الهجرة إلى مكّة ، وما قيل فى سبب رجوعهم

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه : لمّا رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قومه كفًّا عنه ، جلس خاليا ، فتمنّى فقال : ليته لا ينزل علىّ شىء ينفّرهم عنى ، وقارب رسول الله صلى الله [عليه وسلم][(٣)] قومَه ودنا منهم ودنَوا منه ، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة ، فقرأ عليهم : ﴿والنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[(٤)] حتى بلغ : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ والعُزّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[(٤)] . ألقى الشيطان على لسانه كلمتين : « تلك الغرانيق العلا ، و إن شفاعتهن لترتجى » ولما بلغ «الغرانيق العلا» ، وفى أخرى[(٥)] : « والغرانقة العلا ، تلك الشفاعة تُرتجى »

٧٩/١٤

(١) ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق أن أبا سبرة كانت معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو (٣ : ٦٧) . وابن هشام (١ : ٣٥٢) .

(٢) زاد ابن هشام (١ : ٣٥٨) . هنا قوله : « النجاشى » .

(٣) ساقطة من الأصل . (٤) سورة النجم الآيات ١ — ٢٠

(٥) كذا فى الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٨ طبع بولاق .

قال الواقدىّ : فتكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بهما (١) ، ثم مضى فقرأ السورة كلّها ، وسجد وسجد القومُ جميعا ، ورفع المغيرة بنُ الوليد ترابا إلى جَبْهته فسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود . ويقال : إن أبا أُحَيْحة سعيدَ بنَ العاص أخذ ترابا فسجد عليه ، ورفعه إلى جَبهته — وكان شيخا كبيرا — فرضوا بما تكلّم به رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يُحيي ويُميت ويَخلق ويَرزق ، ولكنّ آلهتنا هذه تَشفع لنا عندَه ، فأمّا إذ جعلتَ لها نصيبا عندك فنحن معك (٢) ، فكبُر ذلك على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قولهم حتى (٣) جلس فى البيت فلمّا أمسى أتاه جبريلُ فعرض عليه السورةَ ، فقال جبريل : ما جئتك بهاتين الكلمتين ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «قلتُ على الله ما لم يَقُل» . فأوحى الله إليه : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ .

وقال : ففشت تلك السّجْدة فى الناس حتى بلغتْ أرضَ الحبشة ، فبلغ أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن أهل مكّة قد سجدوا فأسلموا ، حتى إن الوليد ابنَ المغيرة وأبا أحيحة قد سَجدَا خلفَ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقال القوم : فمَن بقِىَ بمكّة إذا أسلم هؤلاء ! قالوا : عشائرُنا أحبُّ إلينا ، فخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعةٍ من نهار لَقوا رَكْبًا من كنانة ، فسألوهم عن قريش

(١) قال صاحب الجامع لأحكام القرآن ج ١٢ ص ٨١ : إن هذا الحديث الذى فيه الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ونحوها ولم يدخله البخارى ولا مسلم ولا ذكره فى علمه مصنف مشهور . الخ . وذكر القاضى عياض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم من الإخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه لا قصدا ولا سهوا ولا غلطا ... الخ . ونحن نقطع أن هذا لا يجوز على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المعصوم الصادق فى التبليغ .

(٢) فى الأصل : «فيمن» . والصواب عن (السيرة الحلبية ١ : ٣٠٤) ، (وعيون الأثر ١ : ١٢٠) .

(٣) فى الأصل : «حين» ، وما أثبتناه عن عيون الأثر .

وعن حالهم، فقال الركب : ذكر محمد آلهتهم بخير، فتابعه الملأ، ثم ارتد عنها، فعاد يشتم آلهتهم، وعادوا له بالشر، فتركاهم على ذلك، فأئتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة، ثم قالوا : قد بلغنا، ندخل فننظر ما فيه قريش، ويحدث عهدا من أراد بأهله، ثم نرجع . قال : فدخلوا مكة، ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار، إلا ٥ ابن مسعود فإنه مكث يسيرا، ثم رجع إلى أرض الحبشة . قال الواقدى : فكان خروجهم فى شهر رجب سنة خمس (يريد من النبوّة)[1]، فأقاموا شعبان ورمضان وقدموا فى شوال من السنة .

وحيث ذكرنا هذا الحديث فلنذكر ما جاء فى توهينه .

ذكر ما ورد فى توهين هذا الحديث والكلام عليه فى التوهين والتسليم

١٠

قال القاضى عياض بن موسى بن عياض رحمه الله، فى كتابه المترجم (بالشفا بتعريف حقوق المصطفى) صلى الله عليه وسلم :

اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله، والثانى [على][2] تسليمه .

١٥ أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول : إنه فى الصلاة، وآخر يقول قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول : بل حدّث نفسه فسها، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على

٢٠ (١) هذه من قول المؤلف . انظر الذخائر والأعلاق لابن سلام الباهلى ص ٢٠٤ (طبع الوهبية) .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن الشفا للقاضى عياض جـ ٢ ص ١٢٨

لسانه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك ؛ وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ؛ فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال: «والله ما هكذا أنزلت» إلى غير ذلك من آختلاف الرواة ، ومن حُكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية[1]، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فيما أحسب — الشك فى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة — وذكر القصة . قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال : فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نُبِّه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه .

٨٠/١٤

وأما حديث الكلبيّ فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره، لقوة ضعفه وكذبه كما أشار البزار إليه، قال : والذى منه فى الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ والنَّجم ﴾ وهو بمكة، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. هذا توهينه من طريق النقل، والله أعلم بالصواب .

وأما جهة المعنى : فقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . أما من تمنّيه أن يُنزل عليه مِثلُ هذا من مدح آلهةٍ غير الله وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان، ويشبه عليه القرآن حتى

(١) كذا فى الشفاء للقاضي عياض ص ١١٨ ؛ والذى فى الأصل : « فاتنة » .

يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أنّ من القرآن ما ليس منه، حتى يُنَبِّهه جبريل عليهما السلام، وذلك كله ممتنع فى حقّه صلى الله عليه وسلم، أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قِبل نفسه عمدا — وذلك كفر — أو سهواً، وهو معصوم من هذا كله، وقد تقرر بالبرهان والإجماع عصمته عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدا ولا سهوا، أو أن يتشبه عليه ما يلقيه المَلَك مما يلقى الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو يتقوّل على الله، لا عمدا ولا سهوا[1]، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ[2] ﴾ الآية، وقال: ﴿ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ[3] ﴾ الآية.

ووجه ثانٍ، وهو استحالة هذه القصة نظرا وعُرفا، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام[4]، متناقضَ الأقسام، ممتزجَ المدح بالذم، متخاذلَ التأليف والنظم؛ ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك — وهذا لا يخفى على أدنى متأمل — فكيف بمن رَجَح حلمه، واتّسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه؟!

ووجه ثالث، أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندى المشركين، وضَعَفَة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين، وارتداد مَنْ فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأقل شبهة؛ ولم يَحْكِ أحد فى هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصَّوْلة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا فى قصة الإسراء وقصة القضية[5]، ولا فتنة أعظم من هذه البليّة لو وجِدَت،

(١) زاد هنا فى الشفاء ص ١٣٠ قوله: «مالم ينزل عليه». (٢) سورة الحاقة: ٤٤.
(٣) سورة الإسراء: ٧٥. (٤) فى الأصل: «الا ليثام» تصحيف. والتصويب عن الشفاء. (٥) راجع شرح الشفا ج ٤: ١١٢ فى قصة القضية.

ولا تَشْغيب[1] للعادى حينئذ أشدّ من هذه الحادثة لو أمكنت ؛ فما روى عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ؛ فدل على بُطلها، واجتثاث أصلها .

قال القاضى عياض : ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفّلى المحدّثين، ليلبّس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع، ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآيتين، وهاتان الآيتان ترددان الخبر الذى رَوَوْه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ؛ فمضمونه هذا .

ومفهومه أن الله عصمه من أن يفترى، وثبّته حتى لم يركن إليهم قليلا، فكيف كثيرا ! وهم يَرْوُون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال عليه السلام: «افتريت على الله وقلت مالم يقل» ؛ وهذا ضد مفهوم الآية، وهى تضعّف الحديث لو صح ، فكيف ولا صحة له ! ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كل ما فى القرآن كاد فهو ما لا يكون ، قال الله تعالى : ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[2]، ولم يذهب . قال القاضى القشيرى[3] : ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها، ووعدوه الإيمان به إن فعل، فما فعل ولا كان ليفعل صلى الله عليه وسلم .

٨١/١٤

وأما المأخذ الثانى — وهو مبنىّ على تسليم الحديث لو صحّ ، وقد أعاذنا الله من صحته — فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ذكرها القاضى عياض[4] وضعّف بعضها، واستحسن بعضا، نذكر منها ما استحسنه وجوّزه إن شاء الله .

(١) أى ولا تهييج للفتنة والشر . (٢) سورة النور : ٤٣ .

(٣) فى الأصل : «القشترى» وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما فى القاضى عياض ص ١٢١ .

(٤) الشفاء جـ ٢ ص ١١٦ — ١٢٣ .

منها ما ذكره القاضى أبو بكر فى أجوبته عن هذا الحديث ، قال : لعل النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ذلك أثناء تلاوته ؛ على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، لقول إبراهيم عليه السلام : ﴿هَـذَا رَبِّى﴾[1] على أحد التأويلات ، يريد : أهَذَا رَبِّى؟! ولقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[2] بعد السكت و بيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته ، وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو . قال القاضى عياض : ولا يُعترض على هذا بما روى أنه كان فى الصلاة ، فقد كان الكلام فيها قبل [غير][3] ممنوع ، قال : والذى يظهر و يترجح فى تأويله عند القاضى أبى بكر ، وعند غيره من المحققين على تسليمه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربّه يرتّل القرآن ترتيلا ، ويفصّل الآىَ تَفصيلا فى قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبى صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار ، فظنوها من قول النبى صلى الله عليه وسلم وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله تعالى ، وتحققهم من حال النبى صلى الله عليه وسلم فى ذمّ الأوثان وعيبها ما عرف منه . وقد حكى موسى بن عقبة فى مغازيه نحو هذا ، وقال : إن المسلمين لم يسمعوها ، و إنما ألقى الشيطان ذلك فى أسماع المشركين وقلوبهم .

قال القاضى عياض : ويكون ما روى من حُزن النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

(١) سورة الأنعام : ٧٦ . (٢) سورة الأنبياء : ٦٣ .

(٣) ساقطة من الأصل . والتكملة عن الشفاء جـ ٢ ص ١٢٢ .

وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ (١) ﴾ الآية ، فمعنى ﴿ تَمَنَّى ﴾ تلا ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ (٢) ﴾ أى تلاوةً ، وقوله : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ (٣) ﴾ أى يذهبه و يزيل اللبس به ، ويحكم آياته ، قال : ومما يظهر فى تأويله أيضا أن مجاهدا روى هذه القصة : «والغرانقة العلا» . فإن سلمنا القصة قلنا : لا يبعد أنّ هـذا كان قرآنا ، والمراد بالغرانقة العلا ، وأن شفاعتهنّ لترتجى : الملائكة على هذه الرواية ، و بهذا فسر الكلبيّ الغرانقة أنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله ، كما حكى الله عنهم وردّ عليهم فى هـذه السورة بقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٤) ﴾ ، فأنكر الله كل هذا من قولهم ؛ ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ، فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ، ولبّس عليهم الشيطان ذلك ، وزينه فى قلوبهم ، وألقاه إليهم ؛ نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما للتلبيس سبيلا ، كما نسخ كثيرا من القرآن ورفعت تلاوته . قال : وكان فى إنزال الله تعالى لذلك حكمة ، وفى نسخه حكمة ، ليضلّ به من يشاء ، ويهدى من يشاء وما يضل به إلا الفاسقين ، و ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ (٥) ﴾ .

وقيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة [و بلغ إلى ذكر اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، خاف الكفار أن يأتى بشىء من ذمّها ، فسبقوا

(١) سورة الحج : ٥١ ، وذكر القرطبي خبر القاضي عياض عند تفسيره للآية جـ ١٢ ص ٨٢ .
(٢) سورة البقرة : ٧٨ . (٣) سورة الحج : ٥٢ . (٤) سورة النجم : ٢١ .
(٥) سورة الحج : ٥٣ ، ٥٤

٨٢/١٤ إلى[1]] مدحها بتلك الكلمتين؛ ليخلطوا تلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ويشغبوا عليه على عادتهم، وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ[2]﴾، ونُسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه، فسلّاه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ[3]﴾ الآية، وبين للناس الحقّ من ذلك من الباطل، وحفظ القرآن وأحكم آياته، ودفع ما لبّس به العدوّ؛ كما ضمنه الله تعالى من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[4]﴾ الآية، هذا ما ورد فى الجواب عن هذا الحديث. فلنرجع إلى تتمة أخباره وسيَره صلى الله عليه وسلّم تسليما كثيرا.

ذكر الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة ومن هاجر إليها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الواقدىّ: لما قدم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من الهجرة الأولى اشتدّ عليهم قومهم، ونيطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذى شديدا، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله؛ فهجرتنا الأولى، وهذه الآخرة إلى النجاشىّ ولستَ معنا، فقال صلى الله عليه وسلم: أنتم مهاجرون إلى الله وإلىّ، لكم هاتان الهجرتان جميعا، قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله.

قال ابن سعد: وكان عدّة من خرج فى هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانون ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية، وسبع غرائب. وقد عدّهم أبو محمد عبد الملك بن هشام حسبما رواه عن محمد بن إسحاق بن يسار — رحمهم الله تعالى —

(١) ساقطة من الأصل، والتكملة عن الشفاء ٢: ١٢٤ (٢) سورة فصلت: ٣٦
(٣) سورة النحل: ٤٣ (٤) سورة الحجر: ٩

فلم يزد على ذلك . وأورد أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى رحمه الله فى كتاب (الاستيعاب) ؛ فى تراجم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ أنهم ممن هاجروا إلى أرض الحبشة ممن لم يذكرهم ابن هشام ، نحن نذكرهم إن شاء الله تعالى ونُنبِّه عليهم .

قال ابن هشام : كان منهم من بنى هاشم بن عبد مناف ، جعفر بن أبى طالب معه امرأته أسماء بنت عُميس[(١)] وَلدت بأرض الحبشة عبدَ الله بن جعفر ، ومن بنى أميّة بن عبد شمس عثمان بن عفان رضى الله عنه ، معه امرأته رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أميّة ، معه امرأته فاطمة بنت صفوان ، وأخوه خالد بن سعيد ، معه امرأته أُمَينة بنت خلف بن أسعد الخزاعية ، ويقال فيها هُمَينة ، ولدت بأرض الحبشة سعد بن خالد[(٢)] ، وآمنة بنت خالد . ومن حلفائهم من بنى أسد بن خزيمة عبد الله بن جحش بن رئاب ؛ وأخوه عبيد الله ابن جحش ، معه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب . وذكر أبو عمر فى ترجمة عبد الله بن جحش أنه هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه أبى أحمد وعبد الله ، فعلى هذا يكون أبو أحمد ممن هاجر إلى الحبشة ؛ واسمه عبد بن جحش ، وكان أعمى ، وعدّ أيضا محمد بن عبد الله بن جحش أنه هاجر مع أبيه وكان صغيرا .

قال ابن هشام : وقيس بن عبد الله رجل من بنى أسد بن خزيمة ، معه امرأته بَرَكة بنت يسار [مولاة][(٣)] أبى سفيان بن حرب ، ومُعَيْقيب بن أبى فاطمة ؛ [وهؤلاء][(٤)] آل سعيد بن العاص .

---

(١) فى الأصل « عبس » والصواب عن ابن هشام ، والسيرة الحلبية ، والاستيعاب .

(٢) رواية ابن هشام « سعيد بن خالد » . (٣) ساقطة من الأصل . والتكملة من ابن هشام ١ : ٣٤٦ ، وابن كثير ٣ : ٦٧ . (٤) ساقطة من الأصل . والتكملة عن ابن هشام . وفى ابن كثير ٣ : ٦٧ « وهو من موالى سعيد بن العاص » .

ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. قال أبو عمر: معه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ولدت له هناك محمد بن أبى حذيفة. قال ابن هشام: وأبو موسى الأشعرى واسمه عبد الله ابن قيس. قال أبو عمر فى ترجمة عبد الله بن قيس: الصحيح[1] أن أبا موسى رجع بعد قدومه مكة، ومحالفته من حالف من بنى عبد شمس إلى بلاد قومه، فأقام بها حتى قدم مع الأشعريين نحو خمسين رجلا فى سفينة، فألقتهم الريح إلى النجاشى بأرض الحبشة فوافقوا خروج جعفر وأصحابه منها، فأتوا معهم، وقدمت السفينتان معا: سفينة الأشعريين، وسفينة جعفر وأصحابه. والله تعالى أعلم بالصواب.

٨٣/١٤

ومن بنى نوفل بن عبد مناف: عُتبة بن غَزْوان حليف لهم من بنى مازن؛ ومن بنى زَمعة بن ربيعة وعَمرو بن أمية بن الحارث مات بالحبشة.

قال أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة خالد بن حزام بن خويلد بن أسد[2]: إنه هاجر إلى أرض الحبشة فى المرة الثانية، فنهشته حيّة، فمات فى الطريق قبل وصوله. والله المستعان وإليه المردّ.

ومن بنى عبد [الدار][3] بن قُصَىّ مُصعب: بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار، وسُويبط[4] بن سعد بن حُريملة[5] بن مالك بن عُميلة بن السباق ابن عبد الدار، وجَهْم بن قيس بن عبد بن شرحبيل بن هاشم بن عبد الدار معه امرأته [أمّ][6] حرملة بنت عبد بن الأسود الخزاعية — ويقال: حُريملة — وابناه عمرو بن جهم، وخُزيمة بن جهم؛ وأبو الروم بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف؛

(١) الاستيعاب ١: ٣٩٢ (٢) فى الاستيعاب ١: ١٥٩: «أسيد». (٣) الزيادة عن ابن هشام ١: ٣٤٧ (٤) فى الأصل «سوسط» تصحيف. (٥) فى ابن هشام وغيره: «حرملة». (٦) الزيادة عن ابن هشام ١: ٣٤٧، والاستيعاب، وابن كثير.

ابن عبد الدار بن قُصى أخو مصعب ، وفِراس بن النضر بن الحارث بن علقمة ابن كَلَدة بن عبد مناف بن عبد الدار . وقال أبو عمر فى ترجمة أبى بكر[1] : مولى لبنى عبد الدار ؛ قال يقال : إنه من الأزد كان ممن عذب فى الله فلم يزل كذلك حتى كانت الهجرة الثانية مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن بنى زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ، وعامر بن أبى وقّاص ، وأبو وقاص مالك بن وهيب ، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف ، معه امرأته رملة بنت أبى عوف ، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب . قال أبو عمر بن عبد البر : وطليب بن أزهر بن عبد عوف وأخوه المطلب ، هاجر مع أخيه إلى أرض الحبشة وبها ماتا جميعا .

قال ابن هشام : ومن حلفائهم من هذيل : عبد الله بن مسعود ، وأخوه عتبة بن مسعود .

ومن بَهراء المقداد بن عَمرو بن ثَعلبة ، وكان يقال له : المِقْداد بن الأسود ابن عبد يغوث بن عبد مناف بن زُهرة ، وذلك أنه كان تبنّاه فى الجاهلية وحالفه . حكاه ابن إسحاق .

ومن بنى تَيم بن مرّة الحارث بن خالد بن صخر ، معه امرأته رَيْطة بنت الحارث ابن جبيلة ، ولدت له بأرض الحبشة موسى بن الحارث ، وزينب بنت الحارث ، وفاطمة بنت الحارث[2] ، وعمرو بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .

ومن بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد بن هلال ، معه امرأته أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة ، ولدت له بأرض الحبشة زينب ، وشماسا واسمه عثمان بن عثمان بن الشريد ، وهبّار بن سفيان بن عبد الأسد ، وأخوه عبد الله بن سفيان ، وهشام بن أبى حذيفة بن المغيرة ، وسَلَمة بن هشام بن المغيرة

(١) كذا بالأصل ، ولم نعثر على هذا القول لابن عبد البر فى كتاب : الاستيعاب ، فى ترجمة أبى بكر .
(٢) زاد ابن هشام « عائشة بنت الحارث » .

وعيّاش بن أبي ربيعة بن المغيرة . ومن حلفائهم معتّب بن عوف بن عامر — وهو الذي يقال له عَيهامة — ونسبه أبو عمر فقال : معتب بن عوف بن عمر بن الفضل ابن عَفيف بن كُليب بن حَبشية . قال ابن هشام، ويقال: حُبْشية بن سلول ، وهو الذي يقال له : معتب بن حمراء، وعمّار بن ياسر . ذكره أبو عمر، وشك فيه ابن هشام.

٥ ومن بني جُمح عثمان بن مَظْعون ، وابنه السائب بن عثمان ، وأخواه قُدامة وعبد الله ابنا مظعون . قال أبو عمر : والسائب بن مظعون ممن هاجر إلى أرض الحبشة، وهو أخو عثمان لأبويه، حكاه عن العدوى . قال ابن هشام : وحاطب ابن الحرث بن مَعْمر، معه امرأته فاطمة بنت المجلّل بن عبد الله ، وابناه محمد والحارث ، وقيل وُلدا هناك ، وأخوه حطاب (١) بن الحارث، معه امرأته فكيهة

١٠ بنت يسار، وقيل : ولدت له ابنه محمدا هناك ؛ وسفيان بن مَعْمر بن حبيب معه ابناه : جابر وجنادة، ومعه امرأته أمهما حَسَنة، وابنها شُرحْبيل بن حَسَنة ، وهو شُرحبيل بن عبد الله أحد بني الغَوث بن مُرّ، وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : هو شرحبيل بن عبد الله من بني جُمح، وعثمان بن ربيعة بن أُهبان بن وهب ابن حذافة بن جمح . قال الواقدى : ونبيه بن عثمان بن ربيعة . والله أعلم .

١٥ ومن بني سهم بن عمرو بن هُصيص : خُنيس بن حذافة ، وعبد الله ابن الحارث، وهشام بن العاص بن وائل، وقيس بن حذافة، وأبو قيس بن الحارث ابن قيس ، وعبد الله بن حذافة بن قيس، والحارث بن الحارث بن قيس، ومعمر ابن الحارث بن قيس ، وبشر بن الحارث بن قيس ، وأخ له من أمه من بني تميم ، يقال له : سَعيد بن عمرو ، وسعيد بن الحارث بن قيس ، والسائب

٨٤/١٤

٢٠ (١) في الأصل « خطاب » ويوافقه ابن كثير — والصواب عن ابن هشام والاستيعاب ، وأسد الغابة .

ابن الحارث بن قيس . وقال أبو عمر : وتميم بن الحارث بن قيس ، والحارث ابن قيس بن عدى ، وهو والد بشر والحارث ، وعمير بن رئاب بن حذيفة ، ومحمية ابن جزء[1] حليف لهم من زبيد .

ومن بنى عدى بن كعب معمر بن عبد الله بن نضلة ، وعروة بن عبد العزى ، وعدى بن نضلة وابنه النعمان ، فمات عدى بالحبشة ، فورثه ابنه النعمان ، وهو أول وارث فى الإسلام ، وعامر بن ربيعة حليف لآل الخطاب ، معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة .

ومن بنى عامر بن لؤى أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن مخرمة بن عبد العزى ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وسليط بن عمرو بن عبد شمس ، وأخوه السكران بن عمرو ، معه امرأته سودة بنت زمعة ، ومالك بن ربيعة بن قيس معه امرأته عمرة بنت السعدى ، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، وسعد بن خولة حليف لهم من اليمن .

ومن بنى الحارث بن فهر أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، وسهيل بن وهب وهو ابن بيضاء ، وعمرو بن أبى سرح بن ربيعة ، وعياض بن زهير بن أبى شداد ، وعمرو بن الحارث بن زهير ، وعثمان بن عبد غنم بن زهير ، وسعد بن عبد قيس ابن لقيط بن عامر ، والحارث بن عبد قيس بن لقيط . وقال أبو عمر بن عبد البر : إن عبد الله بن عرفطة بن عدى بن أمية بن خدارة بن عوف بن النجار بن الخزرج الأنصارى هاجر إلى أرض الحبشة مع جعفر بن أبى طالب ، وهو حليف لبنى الحارث بن الخزرج ، وذكره ابن منده[2] أيضا فجميع من هاجر على هذا الحكم

(١) فى الأصل «الحارث» وصوبناه عن ابن عبد البر . (٢) أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن منده الأصفهانى ، ولد سنة ٤٣٤ ، ومات سنة ٥١٢ بأصفهان . ابن خلكان (٥ : ٢١٧) .

بما فيه من زيادات ابن عبد البرّ، خلا أبناءهم الذين خرجوا معهم صغارا، ومن ولد هناك اثنان وتسعون رجلا، وثمانى عشرة امرأة، والأبناء الصغار سبعة. والله أعلم.

ذكر إرسال قريش إلى النجاشىّ فى شأن من هاجر إلى الحبشة، وطلبهم منه وإسلامه

عن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت: لما نَزَلْنا أرض الحبشة جاورْنا بها خيرَ جار، النجاشىّ، [أَمِنّا](1) على ديننا، وعَبدنا الله لا نُؤذَى، ولا نَسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشىّ فِينا رجلَيْنِ جَلْدين، وأن يهدوا للنجاشىّ هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدم، فجمعوا له أَدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بِطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بِطْريق هديته قبل أن تكلّما النجاشىّ فيهم، ثم قدّما إلى النجاشىّ هداياه، ثم سَلاه أن يسلّمهم إليكما قبل أن يكلّمهم. قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشى، ونحن عنده بخير دار، فلم يبق من بطارقته بِطْريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلّما النجاشىّ، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضَوى إلى بلد الملك منّا غلمان سُفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم لنردّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملكَ فيهم فأَشيروا عليه أن يسلّمهم إلينا ولا يكلمهم، فقالوا: نعم، ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشىّ فقبلها، ثم كلّماه فقالا: أيها الملك، إنه قد

(1) الزيادة عن ابن هشام ١: ٣٥٨.

ضَوى[1] إلى بلدك منّا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، جاءوا بدين ٱبتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامِهم وعشائرِهم لتردّهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . قالت : ولم يكن شىء أبغضَ إلى عبد الله وعمرو من أن يسمع إلى كلامهم النجاشىّ ، فقالت بطارقته : صَدَقَا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فأسْلِمْهُمْ لهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم ، قالت : فغضب النجاشىّ وقال : لاها الله ! إذًا لا أسلّمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم[3] ، وأحسنت جوارَهم ما جاورونى .

٨٥/١٤

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا أجبتموه[4] ، قالوا : نقول والله ما علمنا وما أمرَنا نبيُّنا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن ، فلما جاءوا وقد دعا النجاشىّ أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومَكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذى كلّمه جعفر بن أبى طالب فقال : أيها الملك ، كنّا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام [وناكل][5] الميتة ، ونأتى الفواحشَ ، ونقطع[6] الأرحامَ ، ونُسىء الجوار ، ويأكل القوىّ

(١) ضوى : لجأ . (٢) فى الأصل : «قال» ، والصواب عن (ابن هشام ١ : ٣٥٩) .
(٣) كذا فى الأصل . ورواية ابن هشام والديار بكرى فى تاريخ الخميس ١ : ٢٩٠ «منعتهم منهما» .
(٤) فى ابن هشام والديار بكرى « جئتموه » . (٥) الزيادة من ابن هشام .
(٦) فى ابن هشام والديار بكرى « نقطع » .

منا الضعيف ، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منّا ، نعرف نسَبه وصدقَه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة [و][1] الأوثان ، وأمرنا بِصدْق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصِلة الرّحم ، وحُسْنِ الجـوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكْل مال اليتيم ، وقذْف المحصنة ، وأمرنا أن نعبدَ الله ولا نشرك به شـيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعدّد عليه أمور الإسلام ، فصـدقناه ، وآمنّا به واتّبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحدَه فلم نشرك به شيئا ، وحرّمنا [ما][2] حرم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومُنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث ، فلما قهـرونا وظلمونا وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا و بين ديننـا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سـواك ، ورغبنا فى جوارك ورَجَونا ألا نُظْلم عندك أيها الملك ، فقال النجاشى : هل معك ممـا جاء به عن الله من شىء ، قال : نعم ، قال : فاقرأه علىّ ، فقرأ عليه صدْرا من ﴿ كهيعص ﴾[3] ، قال : فبكى والله النجاشى حتى اخضلّت لحيته ، وبكت أساقفتُه حتى اخضلّت مصاحفُهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشىّ : إن هـذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشْكاة واحدة انطلِقا فلا والله لا أسلّمهم إليكما ، ولا يُكادون .

قالت : فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينّه غدا عنهم بما أستأْصِلُ به خَضْراءهم ، فقال له عبد الله بن أبى ربيعة : لا تَفعل فإن لهم أرحاما ، و إن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنّه أنهـم يزعمون أن عيسى بن مريم

(١) ساقطة من الأصل . (٢) فى الأصل : « ممـا » والصواب عن ابن هشام .
(٣) سورة مريم : ١

عَبْدٌ . قالت : ثم غدا عليه [من](١) الغد فقال : يأيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فاسألهم عمّا يقولون فيه ، فأرسل إليهم فسألهم عنه . قالت أم سلمة : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القومُ ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ ، قالوا : نقول والله كما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون فى عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ، نقول هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، قالت : فضرب النجاشىّ بيده إلى الأرض ، ثم أخذ منها عودا ، ثم قال : ما عدا عيسى بن مريم ممّا قلتَ هذا العود . فناخرت(٢) بطارقته من حوله حين قال ماقال ، فقال : و إن نخرتم ، والله أنتم شُيوم بأرضى — والشُّيوم : الآمنون — من سبّكم غَرِم ، من سبّكم غَرِم ، من سبّكم غرِم ! وما أحب أن لى دَبْرا من ذهب ، وأنى آذيت رجلا منكم — والدَّبْر بلسان الحبشة الجبل — ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه . قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار ، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

٨٦/١٤

قال الزهرىّ : فحدثت عروة بن الزبير حديث(٣) أم سلمة قال : هل تدرى ما قوله : «ما أخذ الله منّى الرشوة حين ردّ علىّ ملكى . فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيع الناس فيه» ؟ قلت : لا ، قال : فإن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حدثتنى

(١) زيادة عن ابن هشام . (٢) نخرت الأساقفة : تكلمت بلغتهم . (الديار بكرى ١ : ٢٩١) . وفى ابن هشام « تناخرت » . (٣) فى الأصل « حدثت » والصواب ما أثبتناه عن ابن هشام ، والديار بكرى .

أن أباه كان ملك قومه، ولم يكن له ولد إلا النجاشيّ، وكان للنجاشيّ عمّ له من صلبه اثنا عشر رجلا، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشيّ، وملّكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه اثنى عشر رجلا يتوارثون[1] ملكه من بعده، فغدوا على أبى النجاشيّ فقتلوه وملّكوا أخاه، فمكثوا على ذلك حينا، ونشأ النجاشيّ مع عمه، وكان لبيبا حازما، فغلب على أمر عمه، ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه، قالت: والله لقد غلب[2] هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملكه علينا، وإنْ ملّكه علينا قتلنا أجمعين، لقد عرف أننا نحن قتلنا أباه. فمشوا إلى عمّه فقالوا: إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنّا قد خفناه على أنفسنا، قال: ويلكم! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم! بل أُخرجه من دياركم، فخرجوا به إلى السوق، فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم، فقذفه فى سفينته وانطلق به حتى إذا كانت العشاء من ذلك اليوم، هاجت سحابة من سحائب الخريف، فخرج عمّه يستمطر تحتها، فأصابته صاعقة فقتلته، ففزع الحبشة إلى وَلَده، فاذا هو محمّق ليس فى ولده خير، فرِج على الحبشة أمرهم، فلما ضاق عليهم ماهم فيه من ذلك قال بعضهم لبعض: تَعلّموا والله أن ملككم[3] الذى لا يقيم أمركم غيره للذى بعثم[4] غُدوة، فان كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه، قال: فخرجوا فى طلبه، فأخذوه من الرجل الذى باعوه له، ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سرير

(١) فى الأصل «يتوارثوا» وهو تحريف.

(٢) فى الأصل «علمت»، والصواب عن ابن هشام (١ : ٢٢٢).

(٣) فى الأصل «ملكم»، والصواب عن ابن هشام، والديار بكرى.

(٤) فى الأصل «يقيم»، والصواب عن ابن هشام، وفى الديار بكرى «بعثمه».

الملك وملكوه، فجاءهم التاجر الذى باعوه منه، فقال: إما أن تعطونى مالى، وإما أن أكلمه فى ذلك، قالوا: لا نعطيك شيئا، قال: فإذًا والله أكلمه، قالوا: فدونك. فجاء فجلس بين يديه، فقال: أيها الملك، ابتعتُ غلاما من قوم فى السوق بستمائة درهم، فأسلموا إلىّ غلامى، وأخذوا دراهمى، حتى إذا سِرت بغلامى، أدركونى فأخذوه منّى، ومنعونى دراهمى، فقال لهم النجاشىّ: لتعطنّه دراهمه أو ليضعن غلامُه يده فى يده، فليذهبن به حيث شاء، قالوا: بل نعطيه دراهمه. قالت: فلذلك يقول: «ما أخذ الله منّى الرشوة حين ردّ على مُلكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىّ فأطيع الناسَ فيه». قال: وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته فى دينه، وعدله فى حكمه.

قال ابن إسحاق، وحدثنى جعفر بن محمد عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشىّ: إنك فارقت ديننا، وخرجوا عليه. فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإنْ هُزِمْتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظَفِرتُ فاثبتوا. ثم عمد إلى كتابٍ فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعلها (١) فى قَبائه عند المنكِب الأيمن (٢)، وخرج إلى الحبشة وصفّوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحقّ الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتى فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمتَ أنّ عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم فى عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن الله فقال النجاشىّ ووضع يده على صدره على قَبائه: هو يشهد أن عيسى بنَ مريم، لم يزد على هذا شيئا، وإنما يعنى ما كتب، فرضُوا وانصرفوا، فبلغ ذلك النبى

(١) كذا فى الأصل. والذى فى ابن هشام «جعله» وهو أظهر.

(٢) فى الأصل: «اللاتى»، وهو تحريف؛ والتصويب عن ابن هشام.

صلى الله عليه وسلم، فلما مات النجاشيّ صلى عليه، وٱستغفر له . وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إسلامه .

ذِكْر إسلامِ عمر بنِ الخطاب رضى الله عنه

رُوى عن عبد الله بنِ عمر رضى الله عنهما أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ٨٧/١٤
" اللهم أَعِزّ الإسلام بأحبّ الرجلين إليك : بعمر بنِ الخطاب ، أو أبى جهلِ بنِ هشام"[1]. وعن سعيد بن المسيّب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى عمرَ بن الخطاب أو أبا جهل بن هشام قال : " اللهم ٱشدد دينك بأحبهما إليك " فشدّ دينه بعمر، وعنه صلى الله عليه وسلم : " اللهم أعِزّ الدين بعمر بن الخطاب " .

قال ابن إسحاق ومحمد بن سعد فى طبقاته : ليس بينهما تَنافٍ إلا فى مغايرةِ بعض الألفاظ ، أو زيادةٍ أوردها أحدُهما دون الآخر ، ونحن نورد ما يتعين إيراده منها .

قالا : خرج عمر بن الخطاب متوشّحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه ، قد ذكروا له أنهم قد ٱجتمعوا فى بيتٍ عند الصفا، وهم قريب أربعين : من بين رجالٍ ونساء[2]، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قحافة ، وعلى بن أبى طالب فى رجالٍ من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ولم يخرج فيمَن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نُعيم بن عبد الله النّحّام ، وهو رجل من قومه من بنى عدىّ بن كعب كان قد أسلم وهو يخفِى إسلامه عن عمر، فقال : أين تريد ياعمر؟ فقال :

(١) فى الأصل : « أبا جهل » ، وهو تحريف .

(٢) عبارة ابن هشام : « وهم قريب من أربعين : ما بين رجال ونساء » .

أريد محمدا، هذا[1] الذى فرق أمر قريش وسفّه أحلامَها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: لقد غرّتك نفسك[2] يا عمر، أترى بنى عبد مناف تارِكِيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا! فقال عمر: ما أراك إلا قد صبوتَ وتركت دينك الذى أنت عليه؛ قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إنّ خَتَنَك وأختك قد صَبوَا وتركا دينك الذى أنت عليه.

قال ابن إسحاق: فقال له نُعيم: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأىّ أهل بيتى؟ قال: خَتَنُك وابنُ عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمر عامدا إلى أخته وخَتَنِه، وعندهما خبّاب بن الأرتّ، معه صحيفة فيها: (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حِسّ عمر تغيب خبّاب فى مَخْدع لهم — أو فى بعض البيت — وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخِذِها[3]، فلما دخل عمر قال: ما هذه الهِينَمَةُ[4] التى سمِعتُ؟ قالا: ما سمعتَ شيئا، قال: بلى والله، لقد أخبِرت أنكما اتبعتما[5] محمدا على دينه. فقال له خَتَنُه: أرأيت يا عمر إن كان الحقّ فى غير دينك! فوثب عمر على خَتَنه فبطش به ووطِئَهُ وطْئًا شديدا، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفّه عن زوجها، فضربها فشَجّها، فلما فعل ذلك قالا: نعم قد أسلمنا وآمنّا بالله ورسولِه، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع

(١) رواية ابن هشام: «هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش».

(٢) فى ابن هشام «نفسك من نفسك».

(٣) زاد فى ابن هشام: «وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما».

(٤) الهينمة: الكلام الخفىّ الذى لا يفهم.

(٥) فى ابن هشام: «تابعتما».

فارعوى[1]، وقال [لأخته][2] : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد — وكان عمر كاتبا — فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها[3]، قال : لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها إليها، فطمعت في إسلامه وقالت له : يا أخي إنك نَجِس على شِرْكك، وإنه لا يمسُّها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها ﴿ طه ﴾، فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خَبّاب بن الأرتّ خرج إليه، فقال له : يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه، فإني سمعته أمس يقول : "اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بنِ هشام، أو بعمر بن الخطاب"، فالله الله يا عمر! فقال له عمر : فدلّني على محمد حتى آتيه فأُسلِم، فقال له خَباب : هو في بيتٍ عند الصفا معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشّحه، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر من خَلل الباب[4]، فرآه وهو فَزِع، فقال : يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف، فقال حمزة : فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ايذن له" فأذِن له الرجل، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحُجْزته — أو بمجمع ردائه — ثم جَبَذه جبذة شديدة، وقال : "ما جاء بك يابن الخطاب؟، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة". قال أنس بن مالك في روايته : "حتى ينزل الله بك من الخزي

(١) ارعوى : كف. (٢) التكملة عن ابن هشام (١ : ٣٦٩).

(٣) في الأصل «عاينا»، وما أثبتناه عن ابن هشام.

(٤) زاد ابن هشام «فرآه متوشحا السيف، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع».

ما أنزل بالوليد بنِ المغيرة" . فقال عمر : يارسول الله ، جئتك لأومن بالله و رسوله و بما جاء به من عند الله ، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف بها أهل البيت أن عمر قد أسلم . ٨٨/١٤

قال محمد بن سعد بنِ منيع فى طبقاته : أسلم عمر بن الخطاب بعد أن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار ابن الأرقم بعد أربعين أونيّف وأربعين من رجالٍ ونساء قد أسلموا قبله . ٥

وقال ابن المسيّب : أسلم عمر بعد أربعين رجلا وعشرِ نسوة .

وعن عبد الله بنِ ثعلبة قال : أسلم عمر بعد خمسةٍ وأربعين رجلا و إحدى عشرة آمرأة .

و يردّ هذه الأقوال أن إسلام عمر كان بعد الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة ؛ ١٠ وقد تظافرت الروايات أنّ أهل الهجرة كانوا أكثر من ثمانين رجلا ، ولعل إسلامه وقع وفى مكة ممن أسلم هذه العِدّة التى ذكرت ؛ خلاف من هاجر إلى أرض الحبشة . والله أعلم .

قال ابن إسحاق : حدّثنى نافع[1] عن ابن عمر رضى الله عنهم قال : لما أسلم عمر بن الخطاب قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ قيل : جميل بن معمر[2] الجُمحىّ ، ١٥ قال : فغدا عليه ، قال عبد الله بن عمر : وغدوت معه أتبع أثره وأنظر ماذا يفعل

(١) فى ابن هشام « نافع مولى عبد الله بن عمر » .

(٢) جميل بن معمر هذا هو الذى يقال له : ذو القلبين ، وفيه نزلت « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » وفيه يقول الشاعر :

وكيف ترانى بالمدينة بعد ما قضى وطرا منها جميل بن معمر ٢٠

الديار بكرى ج ١ : ١٢٤

وأنا غلام أعقِـل[1] كلَّ ما رأيت، حتى جاءه، فقال : أعلمتَ يا جميل أنى أسلمت ودخلتُ فى دين محمد ؟ قال : فوالله ما راجعَـه حتى قام يجرّ رداءه ، وآتبعـه عمر وآتبعت أبى، حتى إذا قام على باب المسجد صرَخ بأعلى صـوته : يامعشر قريش — وهم فى أنديتهم حول الكعبة — ألا إنّ ابن الخطاب قد صبأ[2]، فيقول عمر من خلفه : كذبتَ، ولكنّى أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدا عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم و يقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم. قال : وطَلَح — يعنى أعيا — وقاموا على رأسه وهو يقول : اِفعلوا ما بدا لكم ، فأحلِف بالله لو قد كنا ثلثمائة لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

فبينا هم على ذلك إذ أقبـل شيخ من قريش عليه حُلّة حِبرة[3] وقميص موشّى ، حتى وقف عليهـم فقال : ما شأنكم ؟ قالـوا : صبأ عمـر ، قال : قَمَـهْ ! رجل آختار لنفســه أمرا فـماذا تريدون ؟ أترون بنى عدىّ بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ! خلّوا عن الرجل ، قال : فو الله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه . قال : فقلت لأبى بعـد أن هاجر إلى المدينة : يا أبَهْ، مِن الرجل الذى زجر القوم عنـك بمـكة يوم أسلمت وهم يقـاتلونك ، جزاه الله خيرا ؟ قال : ذاك العـاص آبن وائل السّهمىّ، لا جزاه الله خيرا .

قال عبد الله بن مسعود : ما كنا نقدر أن نصلّى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا وصلّى عند الكعبة وصلينا معه . وقال : إن إسلام عمر كان فتحا، و إنّ هجرته كانت نصرا، و إنّ إمارته كانت رحمة .

(١) فى الأصول : «أغيل» ، وهو تصحيف ، وما أثبتناه عن ابن هشام وابن كثير (٣ : ٨١) والمواهب (١ : ٣٣٢) . (٢) صبأ ، ككرم ومنع : خرج من دين إلى دين .
(٣) الحبرة : ضرب من برود اليمن .

وعن صُهيب بن سِنانٍ قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودُعِى إلى الله علانيــة ، وجلسنا حول البيت حلقا ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعضَ ما يأتى به .

وكان إسلام عمر فى ذى الحجة من السنة السادسة من النبوة ، وهو ابن ست وعشرين سنة .

ذكر تعاقد قريش على بنى هاشم وبنى المطلب وانحيازِ بنى هاشم وبنى المطلب إلى أبى طالب ودخولِهم فى شِعبه

قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل السِّيَر : لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا أصابوا فيه أمْنا وقَرارا ، وأن النجاشىّ قد أكرمهم ، ومنع [من لجأ إليه][1] منهم ، وأنّ عمر قد أسلم قبله حمزة بن عبد المطلب ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل ، اجتمعوا وأتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على ألا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم . فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة ، ثم تعاهدوا وتعاقدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علّقوا الصحيفةَ فى جوفِ الكعبة توكيدا على أنفسهم . وكان كاتب الصحيفة[2] منصور بن عِكرمة بنِ عامر بنِ هاشم بنِ عبد مناف بنِ

(١) الزيادة من ابن هشام .

(٢) أكثر المصادر على أن كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة . وفى المواهب : أنه هشام ابن عمرو بن الحارث ؛ وقيل طلحة بن أبى طلحة ، وقيل منصور بن عبد شرحبيل . راجع ابن هشام (١ : ٣٧٥) ، والسيرة الحلبية (١ : ٣٦٦) ، وعيون الأثر (١ : ١٢٦) ، والديار بكرى (١ : ٢٩٧) ، والبداية (٣ : ٩٦) ، والمواهب (١ : ٣٣٥) .

عبد الدار بنِ قصيّ ، ويقال : عمه بَغيض بن عامر ، قاله الزبير وآبن الكلبيّ ؛ — ويقال : النضر بن الحارث — فَشَلَّتْ يدُه .

قال محمد بن عمر بن واقد : وحصروا بنى هاشم فى شِعْب[1] أبى طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآنحاز بنو المطلب ٨٩/١٤
إلى أبى طالب فى شِعبه مع بنى هاشم ، وخرج أبو لهب إلى قريش ، وظاهرهم على بنى هاشم وبنى المطلب ، وقطعوا عنهم المِيرة والمادّة ، فكانوا لا يخرجون إلا من مَوْسِم إلى مَوْسم ، حتى بلغهم الجَهد ، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشِّعْب ، فمن قريشٍ مَنْ سرّه ذلك ، ومنهم من ساءه ، وقال : انظروا ما أصاب كاتب الصحيفة ! فأقاموا فى الشِّعب ثلاث سنين ، ثم أطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على أمر صحيفتهم ، وأن الأرَضة قد أكلت مافيها من جور وظلم ، وبقى ما كان فيها من ذكر الله .

قال : فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طالب ، فذكر ذلك أبو طالب لإخوته ، وخرجوا إلى المسجد ، فقال أبو طالب لكفّار قريش : إن آبن أخى قد أخبرنى — ولم يَكْذبنى قَطّ — أن الله سلّط على صحيفتكم الأرَضَةَ فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعةِ رحِم ، وبقى فيها ما ذكر به الله ، فإن كان آبن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذبا دفعته إليكم فقتلتموه أو آستحييتموه . قالوا : قد أنصفتنا ، فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها . فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَسُقِط فى أيديهم ، ونُكِسوا على رءوسهم . فقال أبو طالب : علام نُحْبس ونُحصر وقد بان الأمر ؟ ! ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة . فقال : اللهم آنصرنا على مَنْ ظلمنا ، وقطع

(١) ويعرف بشعب أبى يوسف ، انظر معجم البلدان .

أرحامنا ، وآستحل ما يحرم عليه منا . ثم آنصرفوا إلى الشِّعب . وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم : فيهم مُطْعِم بن عدِىّ ، وعَدى بن قيس ، وزَمْعة آبن الأسود، وأبو البَخْترىّ بن هِشَام، وزهير بن أبى أميـة . ولبسوا السلاح؛ ثم خرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، وكان خروجهم من الشِّعب فى السـنة العاشرة من النبوّة، وقيل : كان مُكْث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الشِّعب سنتين .

وحكى أبو محمـد عبد الملك بن هشـام ، عن أبى عبد الله محمـد بن إسحـاق — رحمهم الله — فى سبب نَقْض الصحيفة غير ماقدّمناه مما حكاه محمد بن سعدٍ عن الواقـدىّ .

قال آبن إسحاق بعد أن ذكر من شدّة ما لاقاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب من الضائقة ماذكر : ثم إنه قام فى نقض الصحيفة — التى تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب — نَفَر من قريش ، ولم يُبْلِ فيها أحد أحسن من بلاء هشام بنِ عمرو[1] بن ربيعة بنِ الحارث بنِ حبيب بنِ نصر بنِ مالك آبن حِسْل بن عامر بن لؤىّ ، وذلك أنه كان ابن أخى نَضلة بنِ هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان هشام لبنى هاشمٍ واصلا، وكان ذا شرفٍ فى قومه ، فكان يأتى بالبعير وبنـو هاشِم وبنـو المطلب فى الشعب ليلا، وقد أوْقَره طعاما، حتى إذا أقبله فَمَ الشِّعب خلع خِطامه من رأسِه، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشِّعب عليهم، ويأتى به قد أوقره بُرًّا، فيفعل به مثل ذلك .

قال : ثم إنه مشى إلى زُهير بن أبى أميـة بن المغيرة المخزومىّ — وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب — فقال : يا زُهير، وقد رضيت أنا نأكل الطعام ونلبس

(١) فى الأصل : «عمر» ، والصواب عن ابن هشام، والمواهب، وعيون الأثر، والاستيعاب .

الثياب ، وننكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يُبْتاع منهم ، ولا يَنكحون ولا يُنكَح إليهم ، أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم ابنِ هشام ثم دعوتَه إلى مِثلِ ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا ، قال : ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ؟ أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نَقْضِها حتى أنقضها ؛ قال : قد وجدتَ رجلا ، قال : من هو؟ قال : أنا ؛ قال له زهير : اِبغِنا ثالثا ، فذهب إلى المطعِم بنِ عدىّ فقال له : يا مطعم أقد رضيت أن يهلِك بطنانِ من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك ، موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنّهم إليها منكم سِراعا ؛ قال : ويحك ، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد ، قال : قد وجدتَ ثانيا ، قال : من هو؟ قال : أنا ، قال : اِبغنا ثالثا ، قال : قد فعلتُ ، قال : من هو ؟ قال : زهير ، قال : اِبغنا رابعا ، قال : فذهب إلى أبى البَخْتَرِىّ بنِ هِشام فقال له نحوًا مما قال لمُطعم ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم ، قال : فمن هو ؟ قال زهير والمطعِم وأنا معك ، قال : اِبغنا خامسا ، فذهب إلى زمعة بنِ الأسود ابن المطلب ، فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقّهم ، فقال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سَمّى له القوم ، فأتعدوا خَطْم الحَجُون(١) ليلا بأعلى مكة ، فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقُضوها .

٩٠/١٤

وقال زُهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عليه حُلّة ، فطاف بالبيت سَبعا ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكَى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم ! والله لا أقعد حتى تُشَق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فقال أبو جهل

(١) كذا بالأصل . وخطم الحجون : أنفه النادر منه ؛ والذى فى ابن هشام والبداية بالمهملة ، والحطم : الموضع الذى حطم منه ، أى ثلم فبقى منقطعا .

— وكان فى ناحية المسجد — : كذبت ، والله لا تُشَقّ ! قال[1] زَمعة بن الأسود : أنت وآللهِ أكذب ، مارضِينا كتابتَها حيث كُتبتْ ، قال أبو البَختريّ : صدق زَمعة ، لا نرضى ما كتِب فيها ولا نقِرّ به ، قال المطعم : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ؛ نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها !

وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

فقال أبوجهل : هذا أمر قضِيَ بليل ، وتشوورِ فيه بغير هذا المكان[2] — وأبوطالب جالس فى ناحية المسجد — وقام المطعم إلى الصحيفة ليشُقّها فوجد الأَرَضة قد أكلتها ؛ إلا « باسمِك اللهم » .

ثم حكى آبن هشام نحوا ممّا ذكره الواقدِيّ من خبرها على ما قدّمناه ، وأن أولئك الرهط الذين ذكرناهم صنعوا ماصنعوا مما ذكرناه بعد كلام أبى طالب . والله تعالى أعلم .

ذِكر من عاد من أرض الحبشة ممن هاجر إليها ، وكيف دخلوا مكة

قال آبن إسحاق رحمهما الله : وبلغ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دَنَوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدّثوا به من إسلامهم كان باطلا ، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوارٍ أو مُستخفيا . فكان من قدم عليه مكة ، منهم فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة فشهد بَدْرا وأُحدا ، ومن حبِس عنه حتى فاته ذلك .

ومن مات منهم بمكة من بنى عبد شمس : عثمان بن عفان معه آمرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، معه آمرأته سَهْلة بنت سُهيل .

(١) فى الأصل «على» وهو تحريف . (٢) فى الأصل «تشور فيه لغير» ؛ وهو تحريف .

ومن حلفائهم عبد الله بن جَحْش بن رِئاب .

ومن بنى نَوْفل بن عبد مناف عُتبة بن غَزْوان حليف لهم .

ومن بنى أسد بن عبد العُزّى الزبير بن العوّام .

ومن بنى عبد الدار مُصْعب بن عمير، وسُوَيْبِط بن سعد .

٥ ومن بنى عبد [بنِ][1] قصىّ طُلَيب بن عمير .

ومن بنى زُهرة بن كِلاب عبد الرحمن بن عوف، والمِقداد بن عمرو، حليف لهم، وعبد الله بن مسعود، حليف لهم .

ومن بنى مَخْزوم أبو سَلَمة بن عبد الأسد ؛ معه آمرأته أمّ سَلَمة، وشمّاس آبن عثمان، وسَلمة بن هِشام ، حبسه عمه بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق[2] ، وعيّاش

١٠ آبن أبى ربيعة بن المغيرة، ومن حلفائهم عمّار بن ياسر[3]، ومُعتّب بن عوف من خزاعة .

ومن بنى جُمَح عُثمان بن مظعون وآبنه السائب بن عثمان ، وقُدامة وعبد الله آبنا مظعون .

ومن بنى سَهْم خُنَيس بن حُذافة ، وهشام بن العاص بن وائل ؛ حبِس بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق .

١٥ ومن بنى عَدىّ بن كعب عامر بن ربيعة حليف لهم ، معه آمرأته ليلى بنت أبى حَثْمة .

ومن بنى عامر بن لُؤى عبد الله بن مَخْرمة ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو . حبس بعد الهجرة ، فلما كان يوم بدر آنحاز من المشركين إلى رسول الله صلى الله

---

(١) من ابن هشام .

٢٠ (٢) فى ابن هشام (٢ : ٦)، « فلم يقدم إلا بعد بدر وأحد والخندق » .

(٣) فى ابن هشام ما نصه : « إن عمارا يشك فيه ، أكان خرج إلى الحبشة أم لا » .

عليه وسلم، وأبو سَبْرة بن أبي رُهم، معه آمرأته أمّ كلثوم[1]، والسّكران بن عمرو معه آمرأته سَودة بنت زَمْعة ؛ مات بمكة قبل الهجرة . ومن حلفائهم سعد بن خولة .

ومن بني الحارث بن فِهر أبو عُبيدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح ، وعمرو آبن الحارث بن زهير، وسُهيل بن بَيضاء، وعمرو بن أبي سَرْح بن ربيعة بن هلال .

فجميع من قدم مكة ثلاثة وثلاثون رجلا ، فكان من دخل منهم بجوار عثمان آبن مظعون دخل بجوار من الوليد بن المغيرة، فلما رأى مافيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد ، قال : والله إنّ غُدوّى ورَواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشّرْك ، وأصحابى[2] وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لَنَقْصٌ كبير فى نفسى ، فمشى إلى الوليد آبن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس، وَفتْ ذمّتك ، وقد رددت إليكَ جوارك؛ فقال له : يا بن أخى، لعله آذاك أحد من قومى، قال : لا، ولكنى أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره . قال : فآنطلِقْ إلى المسجد فردّ علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى، قال : صدق ، وجدته كريما وفِىّ الجوار[3]، ولكنى أحببت ألا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره، ثم انصرف عثمان .

٩١/١٤

وأبو سَلمة بن عبد الأسد دخل بجوارٍ من أبى طالب بن عبد المطلب ، فمشى إليه رجال من بنى مَخزوم فقالوا : يا أبا طالب[4] ، منعت منا ابن أخيك محمدا؛ فمالك

(١) فى ابن هشام : « أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو » .

(٢) فى الأصل : « أصحاب » . وما أثبتناه عن ابن هشام .

(٣) فى ابن هشام : « وفيا كريم الجوار » .

(٤) فى الأصل : « يا أبا المطلب » ، وما أثبتناه عن ابن هشام .

ولصاحبنا تمنعه منّا ! قال : إنه استجارَ بى ؛ وهـو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى ، فقام أبو لهب فقـال : يا معشر قريش ، والله لقـد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون توثّبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهنّ عنـه أو لنقومنّ معـه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عُتبة . قال : وأقام بقيتهم بأرض الحبشة إلى سنة سبع من الهجرة ، فقدموا بعـد فتح خيبر ، وقد رأينا أن نذكرهم فى هذا الموضع ؛ لتكون أخبارهم متواليـة .

ذكر من قدم من أرض الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر ، ومن قدم بعد ذلك ومن هلك منهم هناك

قال ابن إسحاق : كان من قدم منهم إلى خيبر فى سنة سبع من الهجرة مع جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه فى السفينتين ستة عشر رجلا ، وهم من بنى هاشم بن عبد مناف : جعفر بن أبى طالب ، معه امرأته أسماء بنت عُمَيس ، وابنه عبد الله ؛ ولد بأرض الحبشة .

ومن بنى عَبْـد شمس خالد بن سـعيد بن العاص ، معـه امرأته أمينة بنت خلف ، وابناه سعيد بن خالد ، وأمة بنت خالد ؛ ولدتهما بأرض الحبشة ، وأخوه عمرو بن سَعيد ، ومعيقيب بن[1] أبى فاطمة ، وأبو موسى الأشعرىّ ؛ واسمه عبد الله بن قيس .

ومن بنى أسد الأسود بن نَوْفل بن خُويلد[2] .

(١) فى الأصل : « معيتيب » . وما أثبتناه عن (ابن هشام ٤ : ٤) .

(٢) فى الأصل : « الأسد » . والصواب عن ابن هشام .

ومن بنى عبد الدار [بن][1] قُصىّ جَهْم بن قيس ، معه ابناه عمرو بن جَهْم ، وخُزيمة بنت جَهْم ، وكانت معه امرأته أمّ حَرْملة بنت عبد الأسود ؛ هلكت بأرض الحبشة .

ومن بنى زُهرة بن كِلاب عامر بن أبى وقّاص ، وعُتبة بن مسعود حليف لهم من هُذيل .

ومن بنى تيم بن مُرّة الحارث بن خالد بن صَخْر ، هلكت امرأته رَيْطة بالحبشة .

ومن بنى جُمح عثمان بن ربيعة بن أهبان .

ومن بنى سَهم مَحْمية بن الجَزْء[2] حليف لهم من بنى زُبيد .

ومن بنى عَدىّ بن كعب مَعْمر بن عبد الله بن نَضْلة .

ومن بنى عامر بن لؤىّ أبو حاطب بن عمرو ، ومالك بن ربيعة : معه امرأته عَمرة بنت السعدىّ .

ومن بنى الحارث بن فِهْر الحارث بن [عبد][3] قيس بن لَقيط ، وحمل معهم نساء من نساء مَن هلك هناك .

هؤلاء الذين قدموا مع جعفر فى السفينتين . وقدم بعد ذلك ستة وعشرون رجلا ، وهم :

من بنى أمية قيس بن عبد الله الأسدىّ ، أسد خزيمة ، حليف لهم .

---

(١) ساقطة من الأصل . وما أثبتناه عن ابن هشام .

(٢) كذا ضبط هذا الاسم فى التاج والتكملة من ابن هشام .

(٣) الزيادة من ابن هشام .

ومن بنى أسد يزيد بن زَمعة بنِ الأسود، قتل يوم حُنينٍ شهيدا .

ومن بنى عبد الدار : أبو الروم بن عُمير، وفِراس بن النضر بنِ الحارث بن كَلَدَة .

ومن بنى تَيم بن مرة عمرو بن عثمان بن عمرو .

ومن بنى مخزوم هَبّار بن سفيان ، وأخوه عبد الله ، وهشام بن أبى حُذيفة ابن المغيرة .

ومن بنى جُمح سفيان بن مَعْمر ، وأبناه جُنَادة وجابر ، وأمهما حَسنة (١) ، وأخوهما لأبيهما شُرَحْبيل بن حَسَنة .

ومن بنى سهم قيس بن حذافة بنِ قيس ، وأبو قيس بن الحارث بنِ قيس، وبشر بن الحارث بنِ قيس، وأخ له من أمه من بنى تميم يقال له : سعيد بن عمرو، وسعيد بن الحارث بن قيس ، والسائب بنِ الحارث بنِ قيس ، وعُمير بن رئاب ، ابنِ حُذيفة .

ومن بنى عامر بن لؤىّ سَلِيط بن عمرو .

ومن بنى الحارث بن فهر عثمان بن عبد غَنْم، وسعيد (٢) بن عبد قيس بنِ لَقِيط، وعِياض بن زُهير بن أبى شدّاد .

وهلك بأرض الحبشة ممن هاجر إليها ثمانية ، وهم :

من بنى عبد شمس، من حلفائهم عبيد الله بن جحش بنِ رِئاب ، تنصّر ومات بأرض الحبشة نصرانيا، وكانت معه امرأته أمّ حبيبة بنت أبى سفيان ، فخلف عليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

٩٢/١٤

(١) كذا ضبط هذا الاسم بالتحريك فى التاج ضبطا بالعبارة .

(٢) ويقال فيه سعد كما فى ابن هشام والاستيعاب .

ومن بنى أسد عمرو بن أمية بن الحارث .

ومن بنى زهرة بنِ كلاب المطلب بنِ أزهر بن عوف ، ومعه آمرأته رملة بنت أبى عوف، فولدت له هناك عبد الله بنِ المطلب .

ومن بنى جُمح حاطب بن الحارث بنِ معمّر ، وكان معه آمرأته فاطمة بنت المحلّل (١) بنِ عبد الله، وابناه محمد والحارث ، فقدمت آمرأته وآبناه مع جعفر آبن أبى طالب رضى الله عنه فى أحد السفينتين، وأخوه حطاب بن الحارث، وكان معه آمرأته فُكيهة بنت يَسار قدمت مع جعفرٍ أيضا .

ومن بنى سهم عبد الله بن الحارث بن قيس .

ومن بنى عدىّ بن كعب عُروة بن عبد العزّى بن حُرثان ، وكان مع عدىّ آبنه النعمان، فقدِم مع من قدِم من المسلمين .

فهؤلاء الذين ذكرناهم هم الذين ذكرهم آبن إسحاق، وعدّهم أنهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة ، وحصر عِدّتهم كما تقدّم . وأمّا من ذكرنا ممن ذكر أبو عمر يوسف بن عبد البرّ فى كتابه أنهم ممن هاجر إلى أرض الحبشة فلم نقف على تاريخ عودهم فنذكره .

ذِكر من أنزِل فيه القرآن من مشركى قريش وما أنزِل فيهم

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : ولمّا حَمى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من قريش ومنعه منها ، وقام عمه أبو طالب وقومه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب دونه ، وحالوا بينهم و بين ما أرادوا من البطش به ، جعلت قريش يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه ، والقرآن ينزل فيهم، منهم من سمّاه الله تعالى، ومنهم من نزل فيه فى عامّة من ذكر الله من الكفار .

(١) فى بعض نسخ آبن هشام وأسد الغابة « المجلل » بالجيم .

فكان من سمى ممن نزل فيه القرآن أبو لهب بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، فأنزل الله فيهما قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ . قال : وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[قال ابن إسحاق : فذكر لى أن أم جميل حمالة الحطب ، حين سمعت ما أنزل فيها ، وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله[1]] وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وفى يدها فهر[2] من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة :

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا * وَأَمْرَهُ أَبَيْنَا

وَدِينَهُ قَلَيْنَا

ثم انصرفت .

قال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى .

وأمية بن خلف بن وهب الجمحى ، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه ، فأنزل الله تعالى فيه قوله : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ ، السورة كلها .

(١) الزيادة عن ابن هشام : (١ : ٣٨١) .

(٢) الفهر : الحجر الذى يملأ الكف .

قال ابن هشام : الْهُمَزة : الذى يَشْتُم الرجل علانيـة ، و يكسر عينه عليـه و يغمز به . واللُّمَزة : الذى يعيب الناس سِرًّا و يؤذيهم .

والعاص بن وائل السَّهمىّ ، كان إذا ذكر رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : دعوه فإنما هو رجل أَبْتر لا عقِب له ، لو قـد مات انقطع ذكره واسترحتم منه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .

والكوثر : ماء هو خير من الدنيا وما فيها ؛ وقيل : الكوثر : العظيم ، وقيل : الخير الكثير .

وسئل رسـول الله صلى الله عليه وسلم : ما الكوثر الذى أعطاك الله ؟ فقال : نهر فى الجنة كما بين صَنْعاء إلى أَيْلة[1] ، آنيته كعدد نجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ أبدا ، وأنزل الله فيـه قوله تعـالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا[2] ﴾ ، وكان سبب ذلك أن خَبّاب بن الأرتّ صاحب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم كان نشأ بمكة يعمل السيوف ، وكان قد باع من العاص بنِ وائل السّهمىّ سيوفا عمِلها له ؛ حتى كان له عليه مال ، فجاءه يتقاضاه ، فقال : ياخَبّاب ، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنـة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فِضّـة أو ثياب أو خدم ! قال خباب : بلى ، قال : فأنظِرنى إلى يوم القيامة حتى أرجع إلى تلك الدار ؛ فأقضيك هنالك حقّك ، فوالله لا تكون أنت وأصحابك آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظًّا فى ذلك ، فأنزل الله ذلك فيه .

٩٣/١٤

(١) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام . وقيل من أول الحجاز وآخر الشام ؛ سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام . (معجم البلدان) .

(٢) سورة مريم (٧٧ — ٨٠) .

وأبو جهل بن هشام؛ لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : والله يا محمد لتتركنّ سب آلهتنا أو لنسبنّ إلهك الذى تعبده، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١)، فكفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبّ آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله .

٥ ولما ذكر الله شجرة الزّقوم تخويفا لهم قال أبو جهل : يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزّقوم التى يخوّفكم بها محمد ؟ قالوا : لا، قال : عجوة يثرب بالزّبد، والله لئن استمكنا منها لنزقمنها، فأنزل الله فيه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾(٢)، أى ليس كما يقول .

والنضر بن الحارث بن كَلَدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصىّ؛ ١٠ كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فدعا فيه إلى الله، وتلا فيه القرآن، وحذّر فيه قريشا ما أصاب الأمم الخالية، خلفه فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم وملوك الفرس و إسفنديار، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثا منّى، وما حديثه إلا أساطير الأوّلين اكتتبها كما اكتتبتها، فأنزل الله فيه : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ ١٥ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾(٣) . وأنزل فيه : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٤) . ونزل فيه : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٥)، والأفّاك : الكذّاب .

---

(١) سورة الأنعام (١٠٨) .
(٢) سورة الدخان (٤٣ — ٤٦) .
(٣) سورة الفرقان ٥ — ٦ .
(٤) سورة القلم ١٥ .
(٥) سورة الجاثية ٧ — ٨ . ٢٠

قال : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النَّضْر بن الحارث حتى جلس معهما ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعرض له النَّضْر بكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ إِنَّكُمْ وما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لها وَارِدُونَ . لَوْ كانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لَا يَسْمَعُونَ (١) ﴾ ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي حتى جلس ، فقال له الوليد بن المغيرة : والله ما قام النَّضْر بن الحارث لابنِ عبد المطلب آنفا وما قعد ، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ! فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى : أمَا والله لو وجدته لخصمته ، فسألوا محمدا : أكلُّ ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عَبَده ؟ ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عُزَيْرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فعجب الوليد ومن كان حضر معه في المجلس من قول عبد الله ، ورأوا أنه قد احتجّ وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : "كلّ من أحبّ أن يُعبد من دون الله فهو مع مَنْ عَبَدَه ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ، ومن أمرتهم بعبادته" ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (٢) ﴾ ، أي عيسى بن مريم ، وعُزَيْر ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله .

(١) سورة الأنبياء ٩٨ — ١٠٠ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١ — ١٠٢

ونزل فيما ذكروا أنهم يعبدون الملائكة ، وأنها بنات الله قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

٥ ونزل فيما ذكر من أمر عيسى عليه السلام أنه يُعْبَد من دون الله ، وعَجِب الوليد ومن حضر من حجته : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٢) ، أى يصدّون عن أمرك ، ثم ذكر عيسى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ (٣) ، أى ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء ٩٤/١٤

١٠ الموتى ، وإبراء الأسقام ، فكفى به دليلا على عِلم الساعة ، يقول : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤) .

والأخنس بن شَرِيق بن عمرو بن وَهْب الثقفىّ ، حليف بنى زُهرة ، وكان من أشراف القوم ، وممن يستمع منه ، فكان يُصيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويردّ عليه ، فأنزل الله فيه : ﴿ ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ إلى قوله : ١٥ ﴿ زَنِيمٍ ﴾ (٥) ، والزَّنيم (٦) : العديد للقوم .

والوليد بن المغيرة قال : أيُنزل على محمد وأُترَك ! وأنا لبيب قريش وسيّدها ! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفىّ سيد ثقيف ، ونحن (٧) عظيما القريتين ! فأنزل

(١) سورة الأنبياء ٢٩ . (٢) سورة الزخرف ٥٧ . (٣) سورة الزخرف ٥٩ — ٦١ . (٤) سورة الزخرف ٦١ . (٥) سورة القلم ١٠ — ١٣ .

٢٠ (٦) العديد : الرجل يدخل نفسه فى قبيلة ليعد منها ، وليس له فيها عشيرة .

(٧) فى الأصل : « فهن » وما صوبناه عن ابن هشام (١ : ٣٨٧) .

الله تعالى فيه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، إلى قوله : ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١) .

وأُبَيّ بن خلف بن وهب بن حُذَافة بن جُمَح ، وعُقْبَة بن أبي مُعَيْط — وكانا متصافيين حَسَناً ما بينهما — فجلس عُقْبَةُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، فبلغ ذلك أُبَيّاً ، فأتى عُقبةَ فقال : ألم يبلغني (٢) أنك جالستَ محمدا وسمعتَ منه ! ثم قال : وَجْهي من وجهك حرام أن أكلمك — وأستغلظ من اليمين — إن أنت جلست أو سمعت منه ، أو لم تأته فتتفل في وجهه . ففعل عدوّ الله عُقبة بن أبي مُعَيط ، فأنزل الله فيهما : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾ (٣) . ومشى أبيّ بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [بعظم] (٤) بالٍ قد أرفت (٥) ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرى (٦) ؟ ثم فته بيده ونفخه في الريح نحو النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك النار " ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة الزخرف ٣١ — ٣٢ . (٢) في الأصل : « ألم يبلغك أني » ، وما أثبتناه عن ابن هشام . (٣) سورة الفرقان ٢٧ — ٢٩ (٤) الزيادة عن ابن هشام .
(٥) ارفت : تكسر وتفتت . (٦) في ابن هشام : « وأرم » . (٧) سورة يس ٧٨ — ٨٠

وآعترض رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالكعبة الأسودُ بن المطلب آبن أسد، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل — وكانوا ذوى أسنانٍ فى قومهم — فقالوا : يامحمد، هلم فلنعبد ماتعبد، وتعبد مانعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تعبد خيرا كنا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذتَ بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ... السورة .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ، فقال له زَمْعَة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يَغُوثَ، وأبىّ بن خلف، والعاص بن وائل : لو جعِل معك يامحمد ملَك يحدّث عنك الناس، ويرى معك ! فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾[1] . والله المستعان .

ذكر خروج أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه إلى الهجرة وعوده، وجواره وردّه الجوار

قال : وكان أبو بكر رضى الله عنه كما روى الزهرىّ عن عُروة عن عائشة رضى الله عنها حين ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها ما أصابه من الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار من

٩٥/١٤

(١) سورة الأنعام ٨ — ٩

مكة يوما أو يومين لقيه ٱبن الدَّغُنَّة[1]، ويقال فيه: الدُّغَيْنة — أخو بنى الحارث بن بكر ٱبن عبد مناة بن كنانة، والهُون بن خُزَيمة بن مُدرِكة، وبنى المُصْطَلِق بن خُزاعة، تحالفوا جميعا فسُمّوا الأحابيش[2] للحِلْف — فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ، قال: ولِم؟ فوالله إنك لتَزِين العشيرة، وتُعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتَكسِب المعدوم، ارجع وأنت فى جِوارى. فرجع معه حتى إذا دخل مكة، قام ٱبن الدَّغُنَّة فقال: يا معشر قريش، إنى قد أجرت ٱبن أبى قحافة فلا يعرضنّ له أحد إلا بخير، فكفّوا عنه.

قال: وكان لأبى بكر مسجد على باب داره فى بنى جُمَح، فكان يصلى فيه، وكان رجلا رقيقا، إذا قرأ القرآن ٱستبكى، فتقف عليه الصبيان والعبيد والنساء فيعجبون لما يرون من هيئته، فمشى من قريش إلى ٱبن الدَّغُنَّة رجال فقالوا: إنك لم تُجِر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ماجاء به محمد يَرِقّ، ونحن نتخوّف على صبياننا ونسائنا وضَعَفتِنا أن يَفْتِنهم، فأْتِه فَمُرْهُ أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء.

قالت: فمشى ٱبن الدَّغُنَّة إليه فقال: يا أبا بكر، إنى لم أُجرك لتؤذىَ قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به، وتأذَّوْا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت. قال: أوَ أردّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله؟ قال: فاردُدْ علىّ جوارى، قال: قد رددته عليك، فقام ٱبن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ٱبن أبى قحافة قد ردّ علىّ جوارى فشأنكم بصاحبكم.

---

(١) هو مالك بن الدغنة سيد الأحابيش. (٢) يقال إنهم تحالفوا عند جبل يقال له حبشى، فاشتق لهم منه هذا الاسم، (راجع الروض الأنف ١ : ٢٣١).

ذكر وفاة أبي طالب بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَشْيِ أشراف قريش إليه فى مرضه ، وما قالوه وأنزل فيهم

كانت وفاة أبى طالب بعد نقضِ الصحيفة، وخروج بنى هاشم وبنى المطلب من الشِّعْب بثمانية أشهر وأحدٍ وعشرين يوما، وماتت خديجة بعده بثلاثة أيام. حكاه الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خَلَف الدمياطىّ رحمه الله فى مختصر السيرة النبوية .

وقال محمد بن سعد : كان بينهما شهر وخمسة أيام[1] .

قال[2] محمد بن إسحاق : لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشا ثقله ، فمشى إليه أشراف قريش وهم : عُقْبَه بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خَلَف ، وأبو سفيان بن حرب فى رجالٍ من أشرافهم، فقالوا : يا أبا طالب ، إنك مِنا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى ، وتخوّفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له مِنا ، وخذ لنا منه ، ليكفّ عنا ونكفّ عنه ، وليدعْنا وديننا ، وندعه ودينه .

فبعث إليه فجاءه فقال له : يا بن أخى ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ، ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلمة[3] واحدة تملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم" فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات، فقال : "تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه"، قال : فصفّقوا بأيديهم، وقالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن أمرك لعجب ! ثم قال

(١) ابن سعد ١ : ١٤١ (٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٥٨ (٣) فى ابن هشام : ٢ : ٥٩ : « نعم، كلمة واحدة تعطونيها؟ تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » .

بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل يعطيكم شيئا مما تريدون؛ فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم و بينه ، ثم تفرّقوا . فقال أبو طالب : والله ما رأيتك سألتهم شططا .

قال : فلما قالها أبو طالب طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه[1] ، فجعل يقول له : "ياعم فأنت فقلها؛ أستحل بها لك الشفاعة يوم القيامة"، قال : يا بن أخى لولا مخافة السُّبّة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظنّ قريش أنى قلتها جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها إلا لأسرك بها .

قال ابن عباس : فلما تقارب من أبى طالب الموت ، نظر العباس إليه يحرّك شفتيه ، فأصغى إليه بأذنه ، فقال : يا بن أخى ، والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم أسمع"، ثم هلك أبو طالب .

والذى ورد فى الصحيح : أن آخر ما سمع من أبى طالب ؛ هو على دين عبد المطلب .

٩٦/١٤ قال ابن إسحاق : وأنزل الله فى الرهط الذين اجتمعوا إلى أبى طالب وقالوا ما قالوا ، قوله تعالى : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ[2] ﴾ . قال : يريدون بالملّة الآخرة النصارى؛ لقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ[3] ﴾ .

(١) فى ابن هشام ٢ : ٥٩ : « فى إسلامه » .

(٢) سورة ص ١ — ٧ . (٣) سورة المائدة : ٧٣ .

ذكر وفاة خديجة بنت خُوَيْلِد زوج النبيّ
صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها

كانت وفاة خديجة رضى الله عنها بعد وفاة أبى طالب كما تقدّم ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين على ماصححه الشيخ شرف الدين الدمياطىّ رحمه الله فى مختصر السيرة النبوية ، قال :

وبقيت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الوحى خمس عشرة سنة ، وبعده تسع سنين وثمانية أشهر ، وهى أوّل من أسلم من النساء بلا خلاف ، ولعلها أوّل من أسلم من الناس ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزير صدق . روى أن آدم عليه السلام قال : « إنى لَسيد البشر يوم القيامة إلا رجل من ذريتى فضل علىّ باثنين ؛ كانت زوجته عونا له ، وكانت زوجتى عونا علىّ ، وأعانه الله على شيطانه فأسلم ، وكفر شيطانى » . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أمرت أن أبشر خديجة ببيتٍ فى الجنة من قَصَبٍ ، لا صَخَب فيه ولا نَصب " ، قالوا : والقَصَب ها هنا : اللؤلؤ . ودفنت خديجة بالحَجُون ، ولم تكن شرعت الصلاة على الميت بعد . والله أعلم .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وعوده إلى مكة

قال : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم تكن تناله فى حياة عمه .

قال محمد بن سعد[1] : فبلغ ذلك أبا لهب ، فجاءه فقال : يامحمد ، امض لما أردت وما كنتَ صانعا إذا كان أبو طالب حيًّا فاصنعه ، لا واللات ، لا يُوصل إليك

(١) الطبقات ١ : ١٤١

حتى أموت . قال : وسبّ آبن الغَيْطَلة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه ، فولّى وهو يصيح : يامعشر قريش، صَبَأ أبو عُتبة ، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبى لهب فقال : مافارقتُ دين عبد المطلب، ولكنى أمنع آبن أخى أن يُضام، حتى يمضى لما يريد، قالوا : قد أحسنت وأجملت ووصلت الرّحم، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك أياما يذهب ويأتى، ولا يعترض له أحد من قريش ، وهابوا أبا لهب إلى أن جاء عُقْبَة بن أبى مُعيط ، وأبو جهل ابن هشام إلى أبى لهب فقالا : أخبرك آبن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فقالا[1] له : يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال : "مع قومه"، فخرج أبو لهب إليهما فقال : قد سألته فقال : "مع قومه"، فقالا : يزعم أنه فى النار، فقالا : يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار؟ ، فقال : "نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار" . فقال أبو لهب : والله لا برحت لك عدوّا أبدا ، وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار، فاشتدّ عليه هو وسائر قريش ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف .

قال محمد بن سعد : خرج ومعه زيد بن حارثة ، وذلك فى ليال بقين من شوّال سنة عشر من حين النبوّة، فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدَع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلّمه ، فلم يجيبوه ، وخافوا على أحداثهم ، فقالوا : يا محمد، آخرج من بلدنا والحق بجابك[2] من الأرض . وأغرَوْا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى إن رجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لَتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه . حتى لقد شُجّ فى رأسه شجاجا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعا إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة . ٩٧/١٤

(١) فى الأصل : « فقال » ، وما أثبتناه عن ابن سعد ١ : ١٤٢

(٢) فى السيرة الحلبية ١ : ٣٨٥ : « بمنجاتك » .

وقال ابن إسحاق[1] : لما أغروا به سفهاءهم، لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حائط[2] لعُتبة وشيبة ابنى ربيعة، فجلس فى ظل حبلة[3]، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف، فتحركت له رحمتهما، فدعَوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عَدّاس، فقالا له : خذ قِطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق، ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عدّاس، ثم أقبل حتى وضعه بين يديه صلى الله عليه وسلم، وقال له : كُلْ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بسم الله" فأكل، فنظر عَدّاس إليه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له صلى الله عليه وسلم : "ومن أهل أىّ البلاد أنت يا عَدّاس ؟ ومادينك"؟ . قال : نصرانىّ، وأنا رجل من أهل نِينَوى[4]، فقال له : "أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى" ؟ فقال عَدّاس : وما يدريك ما يونس؟ قال : "ذاك أخى، كان نبيا وأنا نبىّ"، فأقبل عَدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبِّل رأسه وقدميه ويديه، فقال أحد ابنىْ ربيعة لصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عَدّاس قالا له : ويلك! ما لك تُقبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ! قال : يا سيدى، ما فى الأرض شىء خير من هذا العبد، لقد أخبرنى بأمرٍ ما يعلمه إلا نبىّ، قالا : ويحك يا عدّاس ! لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينَك خير من دينه .

قال : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنَخْلَة[5] أتاه جنّ نَصِيبِين[6]، على ما نذكر ذلك إن شاء

(١) ابن هشام ٢ : ٦١
(٢) الحائط : البستان إذا كان عليه جدار .
(٣) الحبلة : شجرة العنب .
(٤) نينوى : من قرى الموصل .
(٥) نخلة : محلة ما بين مكة والطائف .
(٦) نصيبين : قاعدة ديار ربيعة .

الله فى أخبار الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما تقف عليه هناك، وهو فى آخر وفادات العرب .

قال : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنَخْلَة أياما، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك ؟ فقال : " يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فَرَجًا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه"، ثم انتهى إلى حِرَاء، فأرسل رجلا من خُزَاعة إلى مُطْعِم بن عدىّ يقول : " أدخل فى جوارك "؟ فقال : نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: تَلبّسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت؛ فإنى قد أجرت محمدا، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام مُطعِم بن عدىّ على راحلته فنادى : يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمدا؛ فلا يَهْجُه أحد منكم ، فانتهى صلى الله عليه وسلم إلى الرّكن فاستلمه، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومُطْعِم وولده مُطِيفون به ، فلذلك قال حسان بن ثابت الأنصارىّ فى رثائه لمطعِم من قصيدته :

فلو كان مجدٌ يُخْلِد الدهرَ واحِدًا * مِن الناسِ، أبقى مَجْدُه اليومَ مُطْعِما(١)

أجَرْتَ رسولَ الله مِنهمْ فأصبحوا * عبيدَك ما لَبّى مُهِلٌّ وأَحْرَما

وحكى محمد بن إسحاق: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأخنس بن شَرِيق ليُجيره ، فقال : أنا حليف ؛ والحليف لا يُجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو فقال : إن بنِى عامر(٢) لا تُجير على بنى كعب ، فبعث إلى المطعِم بن عدىّ فأجابه .

---

(١) رواية الديوان بشرح البرقوقى : ٣٩٨

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا * من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

(٢) فى الأصل « أنى من بنى عمر » ، وهو تحريف . وصوبناه عن ابن هشام ٢ : ٢٠ ، والحلبية ١ : ٣٩١

ذكر خبر الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى البيت المَقدِس، وخبر المعراج به صلى الله عليه وسلم إلى السمَوات العلا، وإلى سِدرة المنتهى، وماشاهد فى ذلك من الكرامة والاصطفاء والمناجاة، وفرض الصلاة، وغير ذلك مما يراه من آيات ربّه الكبرى، صلّى الله عليه وسلم

وخبر الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح متفق على صحته بنص الكتاب والأحاديث الصحيحة. أما الكتاب العزيز، فقد قال الله عزّ وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (٢).

وأما الأحاديث الواردة فى ذلك فسنذكرها إن شاء الله تعالى.

وكان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا، وقد أتت عليه إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر.

(١) سورة الإسراء: ١. (٢) سورة النجم ١ — ١٨.

٩٨/١٤

وقال ٱبن سعد فى طبقاته عن عائشة وأم هانئ وٱبن عباس قالوا : أُسرِىَ برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة من شِعب أبى طالب [إلى بيت المقدس[1]] . والله أعلم .

والأحاديث الصحيحة بصحة الإسراء قد جاءت من طرق كثيرة ، وقد رأينا أن نبدأ منها بأكملها وأجمعها ، وهو حديث ثابت البُنَانىّ عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، ثم نذكر زيادات عن غيره يتعين ذكرها .

أما حديث ثابت البُنانىّ[2] فهو مما رويناه بإسناد متصل عن مسلم بن الحجاج ، قال حدّثنا شيبان بن فرّوخ ، قال حدّثنا حماد بن سلمة ، قال حدّثنا ثابت البنانىّ عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتيتُ بالبُراق وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طَرْفه ". قال : " فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التى يَرْبط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءنى جبريل بإناء من خمرٍ وإناءٍ من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل : ٱخترتَ الفِطرة ، ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففُتِح لنا فإذا بآدم صلى الله عليه وسلم ، فرحّب بى ودعا لى بخير ، ثم عُرِج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بابْنَى الخالة عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما وسلم ، فرحّبا بى ودعوا لى بخير ، ثم عُرِج بنا إلى السماء الثالثة ،

(١) التكملة من ابن سعد . القسم الأول من الجزء الأول ص ١٤٣

(٢) الحديث في الشفاء ١ : ١٤١ وما بعدها .

وذكر مثل الأوّل ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، وإذا هو قد أُعطى شطر الحسنِ، فرحّب بى، ودعا لى بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء الرابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإدريس فرحّب بى ودعا لى بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون[1] فرحّب بى، ودعا لى بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى فرحّب بى، ودعا لى بخير، ثم عُرِج بى إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه، ثم ذهب بى إلى سِدْرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفِيَلة، وإذا ثمرها[2] كالقِلال". قال: "فلما غَشِيها من أمر الله ماغَشِي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلىّ ما أوحى، ففرض علىّ خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يُطيقون[3] ذلك، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل". قال: "فرجعت إلى ربى فقلت: يارب خفف عن أمتى، فحطَّ عنى خمسا، فرجعت إلى موسى فقلت: حَطَّ عنى خمسا"، قال[4]: إنّ أمتك لا يُطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: "فلم أزل أراجع بين ربى تعالى، وبين موسى حتى قال: يا محمد، إنهنّ خمس صلوات، كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومَنْ همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها

(١) فى الأصل: «موسى» — وما أثبتناه عن مسلم، والشفاء.

(٢) فى دلائل النبوّة ١: ١٩٦ والبخارى: ٤: ٧٢: «نبقها كأنه قلال هجر».

(٣) فى عيون الأثر ١: ١٤٥: «لا تطيق».

(٤) فى الأصل: «فقلت»، وهو تحريف.

كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة". قال: "فنزلت[1] حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فقلت: قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه". ٩٩/١٤

وروى يونس عن ابن شهاب عن أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فُرِج سقف بيتى[2]، فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطَستٍ من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغها فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء". فذكر القصة.

وروى قَتَادة عن أنس عن مالك بن صَعْصَعة الحديث بمثله، وفيه تقديم وتأخير، وزيادة ونقص، وخلاف فى ترتيب الأنبياء والسموات؛ وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود. وهذان الحديثان يدلان على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شُقَّ جوفُه عند الإسراء، وقد تقدم الخبر أنه شُقَّ جوفه وهو عند ظِئره فى حال طفوليته، فيكون على هذا شُقَّ جوفُه مرتين. والله أعلم بالصواب.

ونقل عن الشيخ عبد القادر محمد بن أبى الحسن الصعبىّ فى مختصر السيرة الحديث له قال: روى أبو داود الطيالسىّ فى مسنده[3]، قال: حدثنا حماد بن سلمة قال أخبرنى أبو عِمران الجَوْنِىّ عن رجل عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف هو وخديجة شهرا، فوافق ذلك رمضان، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع: السلام عليكم، قالت: فظننت أنه فَجَأه الحق[4]، فقال:

(١) فى الأصل: «فتركت»، وما أثبتناه عن الشفاء ١: ١٤٣، وعيون الأثر ١: ١٤٥

(٢) فى عيون الأثر، وصحيح مسلم ١: ١٠٢، والشفاء ١: ١٥٣: «بيتى وأنا بمكة».

(٣) ص ٢١٥. (٤) فى مسند الطيالسىّ: «بفجأة الجن». والحق هنا: الموت.

" أبشروا فإن السلام خير " ، ثم رأى يوما آخر جبريل عليه السلام على الشمس جناح له بالمشرق، وجناح له بالمغرب، قالت : فبهتّ منه، قالت[(١)] : فانطلق يريد أهله ، فإذا هو بجبريل عليه السلام بينه و بين الباب ، قال : " فكلمنى حتى أنست به ثم وعدنى موعدا ، فجئت لموعده ، واحتبس علىّ جبريل ، فلما أراد أن يرجع إذا هو وميكائيل عليهما السلام ، فهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض ، و بقى ميكائيل بين السماء والأرض " ، قال : " فأخذنى فسلقنى لِحلاوة القفا[(٢)] ، وشَقَّ عن بطنى ، فأخرج منه ماشاء الله ، ثم غسله فى طَستٍ من ذهب ثم أعاده ، ثم كفانى كما يكفأ الإناء ، ثم ختم فى ظهرى حتى وجدت مَسّ الخاتم ، ثم قال لى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ ولم أقرأ كتابا قط ، فأخذ بحلقى حتى أجهشت بالبكاء ، ثم قال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ " . قال : " فما نسيت بعد ، فوزننى برجل فوزنته ، ثم وزننى بآخر فوزنته ، ثم وزننى بمائة ، فقال ميكائيل : تبعتْه أمته وربّ الكعبة " . قال : " ثم جئت إلى منزلى ، فما يلقانى حجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، حتى دخلت على خديجة فقالت : السلام عليك يا رسول الله " .

فيدل هذا الحديث على أنه شُقّ جوفه أيضا عند الوحى ، كما فيكون شُقّ جوفُه ثلاث مرات ؛ مرة وهو عند ظِئرة ، ومرة عند الوحى فى أول النبوة ، كما يقتضى هذا الحديث ، ومرة ثالثة عند الإسراء ؛ كما روى عن أبى ذرّ ، ومالك بن صَعْصَعَة . والله أعلم .

(١) فى الأصل « قال » وما أثبتناه عن مسند الطيالسىّ ٢١٥ .

(٢) سلقنى لحلاوة القفا : أى ألقانى على ظهرى . وذكر الطيالسى : « صلقنى » ، والأول أشهر .

وإنما أوردنا حديث الطيالسيّ فى هذا الموضع على سبيل الاستطراد ، لأن موضعه يصلح أن يكون عند ذكر حديث المبعث ، وقد أثبتنا هناك الأحاديث الصحيحة ؛ فارجع إلى ما نحن فيه من حديث الإسراء .

وأمّا ما ورد فى الأحاديث الأخر من الروايات التى يتعين ذكرها :

فمنها حديث ابن شهاب وفيه قول كل نبىّ : " مرحبا بالنبىّ الصالح ، والأخ الصالح إلا آدم وإبراهيم فقالا له : والابن الصالح " . ٥

وفيه من طريق ابن عباس رضى الله عنهما : " ثم عُرِج بى حتى ظهرت بمستوًى أسمع فيه صَرِيف الأقلام " .

وعن أنس : " ثم انطلق بى حتى أتيت سِدْرة المنتهى ، فغشيها ألوان لم أدرِ ما هى " ، قال : " ثم أُدْخِلت الجنة "(١) . ١٠

وفى حديث مالك بن صَعْصَعة : " فلما جاوزته — يعنى موسى — بكى ، فنودى ما يبكيك ؟ قال : ربّ ، هذا غلام بعثته بعدى ، يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتى " . ١٠٠/١٤

وفى حديث أبى هريرة : " وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، فحانت الصلاة فأممتهم فقال قائل : يا محمد ، هذا مالك خازن النار فَسَلِّمْ عليه ، فالتفت(٢) فبدأنى بالسلام " . ١٥

وفى حديث أبى هريرة : " ثم سار حتى أتى بيت المقدس ، فنزل فربط فرسه إلى صخرة وصلى مع الملائكة ، فلما قضيت الصلاة ، قالوا : ياجبريل من هذا

(١) زاد فى عيون الأثر ١ : ١٤٥ ، ودلائل النبوة ١٩٨ ، وصحيح مسلم ١ : ١٠٣ « فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » . ٢٠

(٢) فى دلائل النبوة ١٩٠ ، وصحيح مسلم ١ : ١٠٩ : « فالتفت إليه » .

معك ؟ ، قال : هذا محمد رسول الله خاتم النبيين ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حيّاه من أخ وخليفة ! فنعم الأخ ونعم الخليفة ! ثم لَقَوْا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم " . وذكر كلام كل واحد منهم ؛ وهم إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان . ثم ذكر كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : وإن محمدا صلى الله عليه وسلم أثنى على ربه ، فقال : " كلكم أثنى على ربه ، وأنا أثنى على ربى ؛ الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل علىّ الفرقان فيه تِبيان كل شىء ، وجعل أمتى خير أمة ، وجعل أمتى أمة وَسَطا ، وجعل أمتى هم الأولون وهم الآخرون ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وِزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحا وخاتما " . فقال إبراهيم : بهذا فَضَلكم محمد . ثم ذكر أنه عُرِج به إلى السماء الدنيا ، ومن سماء إلى سماء ؛ نحو ما تقدم .

وفى حديث ابن مسعود : " وانتهى بى إلى سِدرة المنتهى ، وهى فى السماء السادسة ؛ إليها ينتهى ما يُعْرَج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها[1] فيُقبض [منها][2] " . قال تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ ، قال : فَرَاش من ذهب .

وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه ، من طريق الربيع بن أنس : " فقيل لى : هذه سِدْرة المنتهى ، ينتهى إليها كل أحدٍ من أمتك خَلَا[3] على سبيلك " . وهى السِّدْرة المنتهى يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبنٍ لم يتغيّر طعمُه ، وأنهارٌ من خمر لذّةٍ للشاربين ، وأنهار من عسل مصفًّى . وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما ، وإن ورقة منها مظلّة الخلق . فغشيها نور ، وغشيتْها الملائكة .

(١) فى الأصل : « يقبض » ، وما أثبتناه عن صحيح مسلم ١ : ١٠٩ ، والشفاء .
(٢) الزيادة عن صحيح مسلم ، والشفاء .
(٣) خلا على سبيلك : أى مضى على طريقتك وسنتك .

قال : فهو قوله تعالى : ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾؛ فقال تبارك وتعالى له : «سل» ، فقال : "إنك اتخذتَ إبراهيم خليلا ، وأعطيتَه مُلكا عظيما ، وكلّمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما ، وألنتَ له الحديد ، وسخّرتَ له الجبال ، وأعطيتَ سليمان مُلكا عظيما ؛ سخّرت له الجنّ والإنس والشياطينَ والرياح ، وأعطيته ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلّمتَ عيسى التوارة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ، وأعذْتَه وأمّه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن له عليهما سبيل" .

فقال له ربّه[1] : « قد اتخذتك حبيبا » فهو مكتوب فى التوراة : « محمد حبيب الرحمن ، وأرسلتك[2] إلى الناس كافة ، وجعلت أمتك [هم[3]] الأوّلون وهم الآخرون ، وجعلت أمتَك لا تجوز لهم خُطْبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلتك أوّل النبيّين خَلقا ، وآخرَهم بَعْثا ، وأعطيتك سبعا من المثانى ولَم أُعطِها نبيّا قبلَك ، وأعطيتك خواتيمَ سورة البقرة من كنزٍ تحت عرشى ، لم أعطها نبيّا قبلك ، وجعلتُك فاتحا وخاتَما » .

وفى الرواية[4] الأخرى ، قال : فأُعطىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا : أعطِىَ الصلوات الخمس ، وأعطِىَ خواتيمَ سورة البقرة ، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئا من أمّته المقحمات[5] .

وقال : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾؛ الآيتين . قيل : رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح . وفى حديث شَرِيك : «أنه رأى موسى فى السابعة» قال : بتفضيل

(١) فى الأصل : « وقال » وما أثبتناه عن الشفاء .

(٢) فى الأصل : « أرسلك » وما أثبتناه عن الشفاء .

(٣) ساقطة من الأصل ، والزيادة عن الشفاء .

(٤) عن ابن مسعود ؛ انظر صحيح مسلم ١ : ١٠٩

(٥) المقحمات : الكبائر من الذنوب .

كلام الله، قال: «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلم إلا الله، فقال موسى: لم أظن أن يُرفع عليّ أحد».

وقد روى عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم صلّى بالأنبياء ببيت المَقدِس. وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينا أنا قاعد ذات يوم إذ دخل عليّ جبريل عليه السلام فوكَز بين كتفيّ، فقمت إلى شجرة فيها مثل وَكْرَى الطائر، فقعد في واحدة، وقعدت في الأخرى فَنَمَتْ[1] حتى سدّت الخافقين، ولو شئتُ لمسستُ السماء، وأنا أقلّب طَرْفي، ونظرتُ جبريلَ كأنه حِلْس[2] لاطِئ[3]، فعرفتُ فضلَ علمه بالله عليّ؛ وفُتِح لي باب السماء، ورأيت النور الأعظم، وإذا دوني الحجاب وفُرَجه الدرّ والياقوت، ثم أوحى الله إليّ ما شاء أن يوحي".

١٠١/١٤

وذكر البزّار عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لمّا أراد الله أن يعلّم رسولَه الأذان جاءه جبريل بدابة يقال لها البُراق، فذهب يركبها، فاستصعبتْ عليه، فقال لها جبريل: أسكني، فوالله ما ركبَكِ عبد أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم؛ فركبها حتى أتى بها إلى الحجاب الذي يلي الرحمن تعالى، فبينا هو كذلك إذ خرج مَلَك [من][4] الحجاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ياجبريل، من هذا؟". قال: والذي بعثك بالحقّ إني لأقرب الخلق مكانا، وإنّ هذا المَلَك ما رأيته منذ خُلِقت قبل ساعتي هذه، فقال الملك: الله أكبر، الله أكبر، فقيل مِن وراء الحجاب: صدق عبدي؛ أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك: أشهد أن

(١) في دلائل النبوّة: «فسمت وارتفعت».

(٢) الحلس: كساء رقيق يوضع تحت القتب أو البرذعة. ولاطئ: لاصق بالأرض — والمراد أن جبريل لما قرب من السماء غشيته مهابة حتى خضع والتصق بالأرض.

(٣) في الأصل: «لاطئا»؛ وهو تحريف. (٤) تكملة من الشفاء.

لا إله إلا الله، فقيل من وراء الحجاب : «صدق عبدى، أنا لا إله إلا أنا» . وذكر مثل هذه فى بقيّة الأذان ، إلا أنه لم يذكر جوابا عن قوله : حىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح ، وقال : ثم أخذ الملك بيد محمد فقدّمه ، فأمّ أهلَ السماء فيهم آدمُ ونوحٌ[(١)] .

قال القاضى عياض بن موسى رحمه الله : ما فى هذا الحديث من ذكر الحجاب فهو فى حقّ المخلوق لا فى حقّ الخالق، فهم المحجوبون ، والبارى جل اسمُه منزّه عما يحجبه ؛ إذ الحُجُب إنما تُحيط بمقدّر محسوس[(٢)]، ولكنّ حُجُبَه على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء وكيف شاء ومتى شاء، كقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[(٣)] . قال : فقوله فى هذا الحديث : «الحجاب» يجب أن يقال : إنه حجاب حُجِب به مَنْ وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمته، وعجائب ملكوته وجبروته . ويدل عليه من الحديث قول جبريل عن المَلَك الذى خرج من ورائه : إن هذا الملك ما رأيتُه منذ خلقتُ قبل ساعتى هذه، فدلّ [على][(٤)] أن هذا الحجاب لم يختص بالذات .

ويدل عليه قول كعب فى تفسيره : سِدْرَة الْمُنْتَهَى، قال : إليها ينتهى علم الملائكة، وعندها يجدون أمر الله لا يجاوزها علمُهم .

قال : وأما قوله «الذى يلى الرحمن»، فيُحمل على حذف المضاف [أى][(٥)] الذى يلى عرش الرحمن، أو أمرًا ما من عظيم آياته، أو مبادئ حقائق معارفه مما هو أعلم به، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[(٦)] أى أهلها .

(١) زاد فى هامش الشفاء جـ ١ ص ١٤٩ : « إبراهيم » .
(٢) فى الأصل : « محبوس » ، وما أثبتناه عن الشفاء .
(٣) سورة المطففين ١٥ . (٤) ساقطة من الأصل ، وما أثبتناه عن الشفاء .
(٥) الزيادة عن الشفاء . (٦) سورة يوسف ٨٢ .

وقوله : « فقيل من وراء الحجاب، صدق عبدى، أنا أكبر » فظاهره أنه سمع فى هذا الموطن كلامَ الله ولكن من وراء حجاب، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (١) [أى] (٢) وهو لا يراه؛ حجب بصره عن رؤيته ، فإن صَحّ القول بأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فيحتمل أنه فى غير هذا الموطن بعد هذا أو قبله رُفِع الحجاب عن بصره حتى رآه . والله أعلم بالصواب .

ذكرُ من قال : إن الإسراء كان بالجسد وفى اليَقَظَة

قد اختلف العلماء على ثلاث مقالات؛ فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، وأنه رؤيا منام . وذهبتْ طائفة إلى أنّ الإسراء كان بالجسد يقظةً إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح. والذى عليه الأكثرون — وقال به معظم السلف — أنه إسراء بالجسد، وفى اليقظة .

قال القاضى عياض بن موسى بن عياض : وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عبّاس ، وجابر، وأنس، وحُذيفة، وعمر، وأبو هريرة، ومالك بن صَعْصَعة، وأبى حَبَّة البدرىّ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جُبَير، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شِهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعِكرمة ، وابن جُرَيج ؛ وهو قول الطبرىّ ، وابن حنبل، وغيرهما ، وقد أبطلوا حُجَجَ من قال خلافَ ذلك بأدلّة يطول علينا شرحُها .

١٠٢/١٤ قال القاضى عياض : والحقّ [من هذا] (٣) والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها ، وعليه تدل الآية ، وصحيح الأخبار والاعتبار —

(١) سورة الشورى ٥١ (٢) الزيادة عن الشفاء ١ : ١٥٠
(٣) زيادة من الشفاء .

ولا يُعدَل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل [إلا][1] عند الاستحالة، وليس فى الإسراء بجسده وحالِ يَقظته استحالة، إذ لو كان مناما لقال: بروح عبده، ولم يقل: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ — وقولُه[2]: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾. ولو كان مناما لَمَا كانت فيه آيةٌ ولا معجزة، ولَمَا استبعده الكفّار ولا كذّبوه فيه، ولا ارتدّ به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به، إذ مثلُ هـذا من المنامات لا يُنكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أنّ خبره إنما كان عن جِسمه وحالِ يقظته إلى ما ذُكِر فى الحديث من ذِكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس فى رواية أنس، أو فى السماء على ما رَوى غيرُه، وذكر مجىء جبريل له بالبراق، وخبر المِعراج واستِفتاح السماء، فيقال[3]: ومن معك؟ فيقول: محمد، ولقاءِ الأنبياء فيها، وخبرِهم معه، وترحيبِهم به، وشأنِه فى فرض الصلاة ومراجعتِه مع موسى فى ذلك، وفى بعض هـذه الأخبار: "فأخذ — يعنى جبريل — بيدى، فعَرَج بى إلى السماء" إلى قوله: "ثم عَرَج بى حتى ظهرتُ بمستوًى أسمعُ فيه صوتَ[4] الأقلام؛ وأنه وصل إلى سِدرة المنتهى، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكَره".

قال ابن عباس رضى الله عنهما: هى رؤيا عينٍ رآها النبى صلى الله عليه وسلم لا رؤيا منام، والآىُ فى ذلك كثيرة، والأدلة واضحة، فلا نطوّل بسردها، وفيما أوردناه منها فيما قدّمنا ذكره كفاية. والله أعلم.

---

(١) ساقطة من الأصل، وما أثبتناه عن الشفاء.

(٢) بالرفع معطوفا على كلمة «الآية» فى الصفحة السابقة. وانظر شرح الشفا للقارى ١/٢٣٣

(٣) فى الأصل: «فيقول»، وما أثبتناه عن الشفاء.

(٤) فى الشفاء: «صريف»، وهو يوافق ما فى عيون الأثر، وصحيح مسلم.

ذكر ما ورد فى رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه تبارك وتعالى ، ومناجاته له ، وكلامه ودنوّه وقربه من ربّه عزّ وجلّ ، ومن جوّز ذلك ومن منعه ، وما قيل فى مشكل حديث الدّنو والقرب

٥ أما الرؤية فقد آختلف السلف فى رؤيته صلى الله عليه وسلم لربّه عزّ وجل ، فأنكرته عائشة .

رُوى عن مسروق أنه قال لعائشة رضى الله عنها : يا أمّ المؤمنين ، هل رأى محمد ربّه ؟ فقالت : لقد قَفّ[1] شعرى مما قلت ، ثلاث من حدّثك بهنّ فقد كذب ، [من حدّثك أن محمدا رأى ربّه فقد كذب][2] ثم قرأت ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾[3] ١٠ الآية [ثم ذكر الحديث][2] . وقالت جماعة بقول عائشة ، وهو المشهور عن آبن مسعود .

ومثله عن أبى هريرة : إنما رأى جبريل ، وآختلف عنه . وقال بإنكار هذا وآمتناع رؤيته فى الدنيا [جماعةٌ][2] من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما أنه رآه بعينه . وروى عطاء عنه : رآه بقلبه ، ١٥ وعن أبى العالية [عنه][2] رآه بفؤاده مرتين .

وذكر آبن إسحاق : أن آبن عمر رضى الله عنهما أرسل إلى آبن عباس رضى الله عنهما يسأله : هل رأى محمدٌ ربّه ؟ قال : نعم ، والأشهر [عنه][2] أنه رأى ربه بعينيه . وقال : إن الله آختص موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخُلّة ، ومحمدا بالرؤية .

---

(١) قف شعرى : وقف من الفزع . (٢) الزيادة من الشفا ١ : ١٥٨

٢٠ (٣) سورة الأنعام ١٠٣

وحجته قوله : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ .

وقال الماوردىّ : قيل إنّ الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فرآه محمّد مرتين، وكلّمه موسى مرتين .

وحكى أبو الفتح الرازىّ، وأبو الليث السَّمَرْقَندىّ ذِكْرَها[1] عن كعب . وروى عبد الله بن الحارث، قال : آجتمع آبن عباس وكعب، فقال آبن عباس : أمّا نحن بنى هاشم فنقول : إنّ محمدا قد رأى ربه مرتين، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال، وقال : إنّ الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، فكلمه موسى، ورآه محمد بقلبه .

وحكى السَّمَرْقَندىّ عن محمد بن كعب القُرَظِىّ، وربيع بن أنس : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت ربى" — وذكر كلمة — فقال : "يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى" . الحديث .

وحَكَى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه، وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكِىّ عن عِكرمة، وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن آبن مسعود، وحكى آبن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة : هل رأى محمد ربه ؟ فقال : نعم .

وحكى النقّاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث آبن عباس، بعينه رآه رآه، حتى آنقطع نَفَسُ أحمد .

وقد آختلف فى تأويل الآية عن آبن عباس وعِكرمة والحسن وآبن مسعود، فحكى عن آبن مسعود، وعِكرمة : رآه بقلبه . ١٠٣/١٤

وعن الحسن وآبن مسعود : رأى جبريلَ . وعن آبن عطاء فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[2]، قال : شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسى للكلام .

(١) أى الحكاية التى ذكرها الماوردى . (٢) سورة الانشراح ١

وقال أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرىّ وجماعة من أصحابه : إنه رأى الله ببصره وعينى رأسه[1] وقال : كل آية أوتيها نبىّ من الأنبياء عليهم السلام فقد أوتىَ مثلَها نبيُّنا، وخص من بينهم بتفضيل الرؤية .

قال القاضى أبو الفضل عياض بن موسى رحمه الله : والحق الذى لا آمتراء فيه أن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقلا، وليس فى العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها فى الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها، ومحال أن يجهل نبىّ مايجوز على الله تعالى وما لايجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذى لايعلمه إلا من علّمه الله، فقال له الله تعالى : ﴿ لَنْ تَرَانِى ﴾ أى لن تطيق ولا تحتمل رؤيتى ، ثم ضرب له مثالا بما هو أقوى من نبيّه موسى وأثبت وهو الجبل . قال : وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته فى الدنيا، بل فيه جوازها على الجملة، وليس فى الشرع دليل قاطع على آستحالتها ولا آمتناعها ، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غيرُ مستحيلة .

قال : ولا حجة لمن يستدلّ على منعها بقوله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لآختلاف التأويلات فى الآية، وقد آستدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية، وعدم آستحالتها على الجملة . وقد قيل : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ، أى لا تُحيط به، وهو قول ابن عباس، وقد قيل : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ . وإنما يدركه المبصرون . قال : وكل هذه التأويلات لا تقتضى منع الرؤية ولا آستحالتها ، وحيث تتطرق التأويلات وتتسلط الاحتمالات ، فليس للقطع سبيل ، وكذلك وجوب الرؤية لنبينا صلى الله عليه وسلم ، والقول بأنه رآه بعينه . فليس فيه قاطع أيضا ولا نصّ، إذ المعوّل فيه على آيتى النجم، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لها ممكن ، ولا أثر قاطع متواتر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بذلك . والله تعالى أعلم بالصواب .

(١) فى الأصل : « وعين رأسه » ، وما أثبتناه عن الشفاء .

وأما المناجاة والكلام والقرب والدنو وما جاء من الكلام على مشكل هذا الحديث ؛ فقد اختلف فى الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بقوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾، وهل كان ذلك الوحى بواسطة أو بغير واسطة ؟ فأكثر المفسرين على أن الموحى اللهُ إلى جبريل ، وجبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . [فذكر عن[1]] جعفر بن محمد الصادق، قال : أوحى الله إليه بلا واسطة . ونحوه عن الواسطى، وإليه ذهب بعض المتكلمين وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس ، وأنكره آخرون . وحكى النقاش عن ابن عباس عنه عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾، قال : " فارقنى جبريل، وانقطعت الأصوات عنى فسمعت كلام ربى، وهو يقول : ليهدأ روعُك يامحمد، أُدْنُ أدن" . وقد تقدم ذكر حديث الأذان، وقول الملك : الله أكبر الله أكبر، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدى ، أنا أكبر ، أنا أكبر .

وقد احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ[2] ﴾، فقالوا : هى ثلاثة أقسام؛ من وراء حجاب كتكليم موسى، وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء، وأكثر أحوال نبينا صلى الله عليه وسلم ، الثالث قوله : ﴿ وَحْيًا ﴾ . قالوا : ولم يبق من تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة، وقد قيل : الوحى هنا ما يلقيه فى قلب النبىّ صلى الله عليه وسلم دون واسطة ، وكلام الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع .

١٠٤/١٤ وأما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ فأكثر المفسرين أن الدنو والتدلّى منقسم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام، أو مختص

(١) الزيادة من الشفاء . (٢) سورة الشورى ٥١ .

بأحدهما من الاخر، أو من سِدْرة المنتهى. وقال ابن عباس : هو محمد دنا فتدلى من من ربه . وقيل : معنى دنا قرب ، وتدلّى : زاد فى القرب ، وقيل : هما بمعنى واحد أى قرب . وحكى مكىّ والماوردىّ عن ابن عباس ، هو الربّ دنا من محمد فتدلى إليه ، أى أمرُه وحكمه . وحكى النقاش عن الحسن، قال : دنا من عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته . قال وقال ابن عباس : هو مقدّم ومؤخر، تدلّى الرفرفُ[1] لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، فجلس عليه ، ثم رفع فدنا من ربه . وفى الصحيح عن أنس بن مالك : "عرج بى جبريل إلى سِدْرة المنتهى، ودنا الجبار ربّ العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسين صلاة". الحديث. وعن محمد بن كعب : هو محمد دنا من ربه ، فكان قاب قوسين . وقال جعفر ابن محمد : أدناه ربه منه ، حتى كان منه كقاب قوسين ، قال جعفر : والدنو من الله لا حدّ له ، ومن العباد بالحدود . وقال أيضا : انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حَجَبَ جبريلَ عن دنوه ، ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلّى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب!

وقد تكلموا على مشكل هذا الحديث، فقال القاضى عياض رحمه الله: اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله و إلى الله فليس بدنو مكان ولا قرب مدى، بل كما ذكرنا[2] عن جعفر الصادق ليس بدنو حدّ، و إنما دنو النبىّ صلى الله عليه وسلم من ربه، وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، و إشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مسرة وتأنيس، و بسط

(١) الرفرف : البساط الأخضر .

(٢) فى الأصل : « بل كان ذكر » ، وما أثبتناه عن الشفاء ١ : ١٦٧

وإكرام، ويتأول فيه ما يتأول فى قوله : "ينزل ربنا إلى سماء الدنيا" على أحد الوجوه ، نزول إفضال وإجمال ، وقبول وإحسان . وقال الواسطى : من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثَمّ مسافة ، بل كل ما دنا بنفسه من الحق تدلّى بعدا ، يعنى عن درك حقيقته ، إذ لا دنو للحقّ ولا بعد .

وقوله : ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ، فمن جعل الضمير عائدا إلى الله لا إلى جبريل على هذا كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطفِ المحلّ ، وإيضاح المعرفة ، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم ، وعبارةً عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التحفّى ، وإنافة المنزلة والمرتبة من الله له ، ويتأول [فيه](1) ما يتأول فى قوله : "من تقرّب منى شِبرا تقربت منه ذراعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة" ، قربٌ بالإجابة والقبول ، وإتيانٌ بالإحسان وتعجيل المأمول .

وقد أخذ الكلام فى هذا المعنى حقّه ، فلنذكر ما كان بعد الإسراء [من](2) الأخبار .

ذكر ما كان بعد الإسراء من إنكار قريش لذلك وما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وصفه لهم البيت المقدّس، وإخباره لهم بخبر عِيرهم، وارتداد من ارتدّ

روى الشيخ الإمام أبو بكر أحمد البيهقى بسنده عن شدّاد بن أوس رضى الله عنه ، قال: قلنا يارسول الله كيف أُسرِىَ بك؟ فذكر نحو ماتقدّم من خبر الإسراء، وفيه زيادة ونقص، قال : وفيه أن جبريل عليه السلام أنزله فصلى بيثرب، ثم صلى

(1) الزيادة عن الشفاء . (2) زيادة يقتضيها المقام .

بمدين عند شجرة موسى عليه السلام، ثم صلى ببيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم عليه السلام، ثم صلى فى المسجد الأقصى، وأنه صلى الله عليه وسلم مرّ بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيرا قد جمعه فلان، قال: "فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد". قال: "ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة، فأتانى أبو بكر فقال: يا رسول الله، أين كنت الليلة فقد التمستك فى مظانّك؟ فقلت[1]: علمتَ أنّى أتيتُ بيت المقدس الليلة؟ فقال: يارسول الله، مسيرة شهر! فصفه لى، قال: "ففتح لى صراط كأنى أنظر إليه، لايسألنى عن شىء إلا أنبأته عنه". فقال: أشهد أنك رسول الله حقا، فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبى كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، فقال: "إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا، ينزلون بكذا وكذا، و يأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم[2] عليه مَسْح[3] أسود، وغرارتان سوداوان" وإنهم أشرفوا ينظرون. فأقبلت العير نصفَ النهار على ما وَصَف لهم صلى الله عليه وسلم.

١٠٥/١٤

وفى رواية يونس بن بُكير فى زيادة المغازى: أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العير، قالوا: متى يجىء؟ قال: "يوم الأربعاء". فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون، وقد ولى النهار ولم تجئ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزِيدَ له فى النهار ساعة، وحبستْ عليه الشمس.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيتُنى فى الحِجْر وقريش تسألنى عن مَسْرَاىَ، فسألونى عن أشياء

(١) دلائل النبوّة: «فقال».
(٢) جمل آدم: أبيض مع سواد المقلتين.
(٣) المسح: الكساء من الشعر.

من بيت المقدس، لم أُثْبِتها[1] فكَرِبت كربا ما كَرِبتُ مثلَه قطّ ، فرفعه الله لى أنظر إليه ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به " .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدّثون بذلك ، فآرتد ناس ممن آمنوا به وصدّقوه ، وسعوا إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل الصبح ! قال : نعم، إنى لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك ؛ أصدقه بخبر السماء فى غَدْوة أو رَوْحة، فلذلك سمى أبو بكر رضى الله عنه الصدّيق .

ذكر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قبائل العرب فى المواسم

قال محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه إلى غير واحد ، قالوا : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين من أوّل نبوّته يدعو مستخفيا، ثم أعلن فى الرابعة ، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين؛ يوافى المواسم كل عام يتبع الحاجّ فى منازلهم بعُكاظ ومَجَنّة ، وذى المجاز[2] يدعوهم؛ حتى بلّغ رسالة ربه تعالى، وأبو لهب يمشى وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب ، فيقولون : أُسرتُك وعشيرتُك أعلم بك حيث لم يتبعوك ، فيقول : "اللهم لو شئتَ لم يكونوا هكذا"، قال الواقدىّ : فكان من سُمّىَ لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم وعرض نفسه عليهم : بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خَصَفة[3] ، وفزارة ،

(١) لم أثبتها : لم أحفظها لاشتغالى بأهم منها . والكرب : الغم .

(٢) عكاظ ومجنة وذو المجاز : أسماء أسواق كانت للعرب فى الجاهلية .

(٣) فى الأصل : « خفصة » ، وهو تصحيف .

وغسّان[1]، ومرّة، وحنيفة، وسُلَيم، وعبس، و بنو نصر، و بنو البَكّاء، وكندة، وكلب[2]، والحارث بن كعب، وعُذْرة، والحَضارمة، فلم يستجبْ منهم أحد .

قال محمد بن إسحاق : حدّثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عبّاد يحدّث[3] أبى قال: إنّى لَغلام شابّ مع أبى بِمِنًى، و رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : "يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما يُعْبَدُ من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدّقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به "، قال : وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان ، عليه حُلّة عَدَنيّة، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ؛ إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تَسلخُوا اللات والعزّى من أعناقكم ، وحلفاءَكم من الجنّ من بنى مالك بن أقَيْش[4]؛ إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه ، قال : فقلت لأبى : يا أبت من هذا الرجل [الذى][5] يتبعه و يردّ عليه مايقول؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب، أبو لهبٍ .

قال ابن إسحاق : حدّثنى الزهرىّ أنه صلّى الله عليه وسلّم أتى بنى عامر ابنِ صعصعة فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له بحيرة بن فِراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب،

(١) فى الأصل : « حسان » ، وهو تصحيف .
(٢) فى شرح المواهب : كعب .
(٣) فى الأصل : « يحدثه » وما أثبتناه عن ابن هشام، وابن كثير، والمواهب .
(٤) إلى هذا الحى تنسب الإبل الأقيشية .
(٥) هذه الزيادة عن ابن هشام .

ثم قال له : أرأيتَ إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على مَنْ خالفك أيكون لنا الأمر بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدف[1] نحورنا [للعرب دونك[2]]؛ فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه ، فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد كانت أدركته السنّ، حتى لا يقدر أن يوافى معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه فى ذلك العام، سألهم عما كان فى موسمهم، فقالوا : جاءنا فتى من قريش؛ ثم أحد بنى عبد المطلب، يزعم أنه نبىّ يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، قال : فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال : يا بنى عامر، هل لها من تلافٍ! هل لذناباها من مطلب[3]! والذى نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلىّ قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم .

١٠٦/١٤

قال : وحدّثنى عاصم بن عمر[4] عن قتادة الأنصارى عن أشياخ من قومه قالوا: قدم سويد بن الصامت أخو بنى عمرو بن عوف [مكة[5]] حاجا أو معتمرا؛ وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم : الكامل لجلده وشرفه ونسبه وشعره ، فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلّة[6] لقمان (يعنى حكمة لقمان) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علىّ؛ فعرضها عليه ، فقال : "إن هذا لكلام حسن،

(١) نهدف : أى نجعلها هدفا لسهامهم . (٢) الزيادة عن ابن هشام .

(٣) هذا مثل مشهور يضرب لما فات . وأصله من ذنابى الطائر اذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به .

(٤) فى الأصل وعيون الأثر : ١٠٤ « عمرو » وما أثبتناه عن ابن هشام وشذرات الذهب ج ٥ : ٥٣ (٥) الزيادة عن ابن هشام . (٦) المجلة : الصحيفة .

لكن الذى معى أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله علىّ هو هدى ونور". فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه، وقال: إنّ هذا لَقول حسن؛ ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج، قال: فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم، وكان قتلُه قبل بُعاث[1].

قال ابن إسحاق أيضا: وحدّثنى الحصين بن عبد الرحمن بنِ عمرو بنِ سعد ابن معاذ عن محمود بن لبيد، قال: لما قدم أبو الحَيْسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلْف من قريش على قومهم من بنى الخزرج، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاهم فجلس إليهم فقال: "هل لكم فى خير مما جئتم له"؟، فقالوا: وما ذلك؟ قال: "أنا رسول الله، بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأنزل علىّ الكتاب". قال: ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال لهم إياس بن معاذ — وكان غلاما حدثا —: أىْ قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحَيْسر حَفْنة من [تراب][2] البطحاء، فضرب بها وجهَ إياس بن معاذ؛ وقال: دعْنا منك، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا، قال: فصمت إياس، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرفوا إلى المدينة، فكان وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس ابن معاذ أن هلك. قال محمود بن لبيد: فأخبرنى مَنْ حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره، ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلما، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ما سمع. والله أعلم.

(١) قبل بعاث: أى قبل يوم بعاث. (٢) تكملة من ابن هشام جـ ٢: ٦٩

ذكر خبر مفروق بن عمرو وأصحابه وما أجابوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعائه قبائل العرب

روى الشيخ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي بسنده عن عبد الله بن عباس، قال: حدّثني[(١)] عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم من فيه، قال: لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدّم أبو بكر، وكان مقدّما في كل خير، وكان رجلا نسابة، فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا من ربيعة، قال: وأي ربيعة أنتم؟ من هامِها[(٢)] أم من لهازمها؟ فقالوا: بل من الهامة العظمى، [فقال أبو بكر: وأيّ هامتها العظمى[(٣)]] أنتم؟ قالوا: من ذُهْلِ الأكبر، قال: منكم عوف الذي يقال[(٤)] [له]: "لا حُرّ بوادي عوف"؟ قالوا: لا، قال: فمنكم جَسّاس بن مرّة، حامي الذمار، ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: فمنكم بِسطام بن قيس، أبو اللواء، ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: فمنكم الحوفزان[(٥)] قاتل الملوك، وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: فمنكم المزدلف[(٦)] صاحب العمامة الفردة، قالوا: لا؛ قال: فمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا.

١٠٧/١٤

(١) الخبر في دلائل النبوّة المجلد الأول، الورقة ٢١٠

(٢) في الأصل: «أهلها» وهو تصحيف. واللهازم جمع لهزم: وهو في أصل اللغة: العظم الناتئ تحت الأذن. (٣) الزيادة عن دلائل النبوّة.

(٤) في الأصل: «يقول»؛ وما أثبتناه عن دلائل النبوّة؛ وانظر مجمع الأمثال ٢: ١٥٧

(٥) الحوفزان: لقب الحارث بن شريك الشيباني.

(٦) المزدلف: لقب عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان؛ لقب بذلك؛ لاقترابه من الأقران في الحروب وازدلافه إليهم؛ وكان إذا ركب لم يعمّ معه غيره (انظر تاج العروس).

قال فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا . قال أبو بكر : فلستم من ذُهْل الأكبر، أنتم من ذُهْل الأصغر . قال : فقام إليه غلام من بنى شيبان يقال له دَغْفل حين بَقَل وجهه(١)، فقال :

إنّ على سائلِنا أن نسألهْ * والعبء لا نعرفه أو نحملهْ

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئا، فمن الرجل؟ قال أبو بكر : أنا من قريش، فقال الفتى: بَخٍ بَخٍ! أهل الشرف والرياسة، فمن أىّ القرشيين أنت؟ قال : من ولد تيم بن مُرة . فقال الفتى : أمكنت والله الرَّامىَ من سواء الثُّغرة، أمنكم قصىّ الذى جمع القبائل من فِهْر؟ فكان يدعى فى قريش مُجَمعا ؟ قال : لا، قال : فمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه، ورجال مكة مسنِتون عجاف(٢)؟ قال: لا، قال: فمنكم شيبة الحمد عبد المطلب، مطعم طير السماء، الذى كأنّ وجهه القمر يضىء فى الليلة الداجية ؟ قال : لا، قال : فمن أهل الإفاضة بالناس أنت ؟ قال : لا ، قال : فمن أهل الحجابة أنت؟ قال : لا ، قال : فمن أهل السقاية أنت ؟ قال : لا، قال : فمن أهل الندوة أنت؟ قال : لا، قال : فمن أهل الرِّفادة أنت؟ قال : لا ، واجتذب أبو بكر زمام ناقته راجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الغلام :

صَادَفَ دَرَّ السيل درءا يَدْفَعُهْ(٣) * يهيضه حينا وحينًا يصرعهْ

---

(١) بقل وجهه : أى أوّل ما نبتت لحيته . وفى الدلائل : « تبين » .

(٢) يشير الى قول ابن الزبعرى :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

اللسان مادة (سنت) .

(٣) فى الأصل : « صادف درتسيل درة » وهو تصحيف، وما أثبتناه عن دلائل النبوّة .

أما والله لو شئت لأخبرتك مَن قريش، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عليّ: فقلت: يا أبا بكر، لقد وقعت من الأعراب على باقعة[1]، قال: أجل يا أبا الحسن، «ما من طامة إلا وفوقها طامة»، و «البلاء موكل بالمنطق».

قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدّم أبو بكر فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس! وفيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق قد غلبهم جمالا ولسانا، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبتيه[2]، وكان أدنى القوم مجلسا، فقال أبو بكر: كيف العددُ فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة، فقال أبو بكر: فكيف المَنعة فيكم؟ قال مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جِدّ، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشدُّ ما نكون غضبا حين نلقى، وإنا لأشدُّ ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجيادَ على الأولاد، والسلاح على اللِّقاح[3]، والنصرُ من عند الله، يُديلنا مرة، ويُديل علينا أخرى، لعلّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: قد بلغكم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا هو ذا، قال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك، وإلام تدعو يا أخا قريش؟ فتقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس، وقام أبو بكر يُظلّه بثوبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،

(١) الباقعة: الرجل الذكى العارف لايفوته شيء. (٢) التريبة: أعلى صدر الإنسان تحت الذقن. (٣) اللقاح: الإبل؛ واحدته لقوح، بالفتح.

وأن محمدا عبده ورسوله ، وإلى أن تأوونى وتنصرونى ، فإنّ قريشا قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنىّ الحميد" .
فقال مفروق بن عمرو : وإلام تدعونا يا أخا قريش؟ فوالله ماسمعت كلاما أحسن من هذا ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، فقال مفروق : وإلامَ تدعونا يا أخا قريش؟ فوالله ماهذا من كلام أهل الأرض، قال : فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، إلى قوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]، فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفِكَ[3] قوم كذبوك وظاهروا[4] عليك — وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام هانئ بن قبيصة فقال : وهذا هانئ شيخنا وصاحب ديننا . قال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإنى أرى إن تركنا ديننا واتبعناك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أوّل ولا آخر، إنه زلل فى الرأى، وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلّة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر فى العاقبة، وكأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال : وهذا المثنّى شيخنا وصاحبُ حربنا، فقال المثنّى : قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا، ومشايعتك على دينك، وإنا إنما نزلنا بين صِيرين[5] : اليمامة والسّمامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما هذان الصِّيران" ؟ . فقال : أنهار كسرى ومياه العرب ، فأمّا ما كان من أنهار كسرى؛ فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره

١٠٨/١٤

(١) سورة الأنعام ١٥١ — ١٥٣ (٢) سورة النحل ٩٠
(٣) أفك : كذب . (٤) ظاهروا عليك، أى أعانوا عليك .
(٥) الصير بالكسر : الماء يحضره الناس، ويروى : بين صيرتين، فعلة منه .

غير مقبول، وأما ما كان مما يلى مياه العرب، فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا، أنا لا نحدث حَدَثا، ولا نأوى محدثا، فإنى أرى أن هذا الأمر الذى تدعونا إليه يا أخا قريش مما يكره الملوك، فإن أحببت أن نأويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دينَ الله لن ينصره إلّا مَنْ حاطه من جميع جوانبه. أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضَهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبّحون الله وتقدّسونه"؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك، قال: فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[1]، ثم نهض قابضا على يد أبى بكر وهو يقول: "يا أبا بكر، أيّةُ أخلاق فى الجاهلية ما أشرفها! بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم من بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم"، قال: فدفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سُرَّ بما كان من أبى بكر، ومعرفته بأنسابهم.

ذكر بيعة العقبة الأولى

قال محمد بن إسحاق: فلما أراد الله تعالى إظهارَ دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [فى][2] الموسم الذى لقى فيه الأنصار[3]، فعرض نفسه على قبائل العرب كما يصنع فى كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا، فقال لهم: "من أنتم"؟ قالوا:

(١) سورة الأحزاب ٤٥ — ٤٦ (٢) من ابن هشام: ٢: ٧٠

(٣) فى ابن هشام: «الذى لقيه فيه النفر من الأنصار».

نفر من الخزرج، قال : "أمِنْ موالى يهود"؟ قالوا : نعم، قال[(١)] : "أفلا تجلسون أكلمكم"؟ قالوا : بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرَض [عليهم][(٢)] الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال : وكان يهودُ معهم فى بلادهم، وكانوا أهلَ كتاب وعِلم، وكانوا هم أهلَ شِرْك وأوثان، وكانوا قد غزَوْهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيًّا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتّبِعه فنقتلكم معه قتل عادٍ و إرَم، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض : يا قوم، تَعَلَّموا والله أنه للنّبىّ الذى توعد[(٣)] به يهود، فلا تسبِقنّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبِلوا منه ما عرَض عليهم من الإسلام، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، وعسى أن يجمَعهم الله بك، فنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، وتعرِض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك. ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدّقوا.

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى[(٤)] : فاختلِف علينا فى أوّل مَنْ أسلم من الأنصار وأجاب. فذكروا الرجل بعينه، وذكروا الرجلين، وذكروا أنه لم يكنْ أحد أوّل من الستة. وذكرهم.

وقال محمد بن عمر بن واقد : هذا عندنا أثبتُ ماسمعنا فيهم، وهو المجمَع عليه، وهم من بنى النجّار : أسعد بن زُرارة بن عُدَس، وعوف بن الحارث [وهو][(٥)] ابن عفراء. ومن بنى زريق : رافع بن مالك. ومن بنى سلمة بن سعد : قطبة

(١) فى الأصل «قالوا» وهو تحريف. (٢) الزيادة عن ابن هشام.
(٣) فى ابن هشام : «توعدكم». (٤) الطبقات جـ ١ ق ١ : ١٤٦.
(٥) تكملة من ابن هشام؛ وعفراء هى أمه؛ (وانظر أسد الغابة ٤ : ١١٥).

ابن عامر بن حديدة . ومن بنى حرام بن كعب : عقبة بن عامر بن نابى . ومن بنى عبيد بن عدى بن ساعدة : جابر بن عبد الله ؛ ولم يذكر ابن إسحاق غيرهم .

قال : ثم قدموا المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام ، فأسلم مَنْ أسلم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدى : وأوّل مسجد قرئ به القرآن بالمدينة مسجد بنى زريق . والله أعلم .

ذكر بيعة العقبة الثانية

١٠٩/١٤

(وقد ترجم عليها بعضهم بالأولى)

قال : فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا .

قال محمد بن سعد : ليس [فيهم][1] عندنا خلاف ، فلقوه بالعَقَبة ، وهى العقبة الأولى ، فبايعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يُفْرَض عليهم الحرب ، وكان من هؤلاء خمسة ممّن حضر البيعة الأولى من الستة المجمع عليهم ، وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وعُقْبة بن عامر ، وقُطْبة بن عامر بن حديدة ، ومنهم من وقع الاختلاف فيه : هل شهد البيعة الأولى أو لم يشهدها ؟ وهم ستة نفر : معاذ بن الحارث [وهو][2] ابن عفراء ، أخو عوف ، وذكوان بن [عبد][3] قيس بن خلدة ، وعبادة بن الصامت ابن قيس ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة ، وأبو الهيثم بن التيهان ، واسمه مالك ، وعويم بن ساعدة ، وهما من الأوس .

وممن لم يشهد البيعة الأولى بلا خلاف : العباس بن عبادة بن نَضْلة .

---

(١) الزيادة عن ابن سعد . (٢) من ابن هشام جـ ٢ : ٧١ (٣) من ابن سعد .

روى محمد بن إسحاق عن عبادة بن الصامت قال : كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء — وذلك قبل أن تفترض الحرب — على ألّا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحدّه فى الدنيا فهو كفّارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله ؛ إن شاء عذب ، وإن شاء غفر . قال : فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرئ بالمدينة ، وكان منزله على أسعد بن زرارة .

قال محمد بن سعد : ثم انصرفوا إلى المدينة ، فأظهر الله الإسلام ، وكان أسعد ابن زرارة يُجمّع[1] بالمدينة بمن أسلم ، وروى أن مصعب كان يُجمّع بهم . والله أعلم .

ذكر بيعة العقبة الثالثة

وهم السبعون (وترجم عليها ابن سعد بالثانية)

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى ، عن محمد بن عمر بن واقد ، بإسناد إلى عبادة بن الصامت ، وسفيان بن أبى العوجاء ، وقَتادة ، ويزيد بن رومان ، قال الواقدى : دخل حديث بعضهم فى حديث بعض ، قالوا : لما حضر الحج مشى أصحابُ النبىّ صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا بعضهُم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج ، وموافاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإسلام يومئذ فاشٍ بالمدينة ، فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلا أو رجلين فى خَمر[2] الأوس والخزرج ،

(١) يجمع : يؤمهم فى صلاة الجمعة .

(٢) الخمر : جماعة الناس وكثرتهم .

وهم خمسمائة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فسلّموا عليه، ثم وعدهم مِنى، وسط أيام التشريق ليلة النَّفر الأوّل؛ إذا هدأت الرِّجْل [أن][1] يوافوه فى الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من مِنى بأسفل[2] العقبة، وأمرهم ألّا ينبهوا نائما، ولا ينتظروا غائبا. قال: فخرجَ القوم بعد هدءة يتسلّلون، الرجل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الموضع، معه العباس بن عبد المطلب، ليس معه غيره.

وقال محمد بن إسحاق: إنهم سبَقوه إلى الشِّعب وانتظروه، وهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان: نَسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدىّ، حتى أقبل ومعه عمُّه العباس.

قال ابن سعد: فكان أوّلُ مَن طلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم: رافع ابن مالك الزُّرَقىّ، ثم توافَى السبعون، ومعهم امرأتان، فكان أوّل من تكلم العباس ابن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزْرج، إنكم قد دعوتُم محمدا إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعزِّ الناس فى عشيرته، يمنعه والله منا مَنْ كان على قوله، ومَنْ لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف، وقد أبى محمد الناسَ كلَّهم غيرَكم[3]، فإن كنتم أهلَ قوّة وجلَد وبَصَر بالحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبة، ترميكم عن قوس واحدة، فارتئُوا رأيكم[4]، ولا تفرّقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإنّ أحسن الحديث أصدقُه. ١١٠/١٤

(١) الزيادة عن ابن سعد جـ ١ ق ١ : ١٤٩

(٢) فى الأصل: «من ثنايا سفل» وما أثبتناه عن الطبقات.

(٣) زاد فى ابن سعد: «وائتمروا بينكم».

(٤) فى الأصل: «عنكم». وما أثبتناه عن ابن سعد.

وقال ابنُ إسحاق[(١)] : إنّ العباس قال : يا معشر الخزرج ، إنّ محمدا منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممّن هو على مثلِ رأينا فيه ، فهو فى عزّ من قومه ، ومَنَعة فى بلده ، وإنّه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم ، واللّحوق بكم ؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانِعوه ممّن خالفه ، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنّكم مسلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآنَ فدعوه ، فإنه فى عزّ ومَنَعة من قومه و بلده .

قال ابن سعد : فقال البَراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وإنا والله لو كان فى أنفسنا غيرُ ما نَنطق به لقلناه ، ولكنّا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق — فيما رواه بسنده عن كعب بن مالك : فقلنا له : سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّب فى الإسلام ثم قال : "أبايعكم على أن تمنعونى فيما تمنعونَ منه نساءكم وأبناءكم" . قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزرنا[(٢)] — يعنى نساءنا — فبايِعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب[(٣)] ، وأهل الحَلْقة ورثناها كابرا عن كابر .

قال ابن سعد : ويقال : إن أبا الهيثم بن التّيهان كان أوّل من تكلم فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٤)] ، وقالوا : نقبَله على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ؛ قال : ولَغطوا . فقال العباس وهو آخذ بيدِ رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر ابن هشام : ٨٤٢ ، إمتاع الأسماع : ٣٥ . (٢) الأزر : جمع إزار ككتاب ، وهو الثوب ، وكثيرا ما يكنون عن المرأة بالإزار ، كما يكنون عنها بالثياب ، والفراش .

(٣) فى ابن هشام : « أبناء الحروب » . (٤) زاد فى ابن سعد قوله : « وصدّقه » .

وسلم : أخفوا جَرْسكم فإن علينا عيونا، وقدّموا ذوِى أسنانكم فيكونون هم الذين يلُون كلامنا منكم ، فإنا نخـاف قومَكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرّقوا إلى محالكم . فتكلّم البراء بن معرور، فأجاب العباس، ثم قال : ابسط يدك يا رسـول الله، وكان أوّل مَنْ ضرب على يد رسـول الله البراء بن معرور — ويقال : أبو الهيثم بن التيهان ، ويقال : أسعد بن زرارة — ثم ضرب السبعون كلُّهم على يده و بايعوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ موسى أخذ من بنى إسرائيل آثنى عشر نقيبا فلا يجِدنّ منكم أحد فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنمـا يختار لى جبريل" ، ثم قال[1] للنقبـاء : "أنتم كُفَـلاء على غيركم ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيـل على قـومى" ، قالوا : نعم ، قال : فلمـا بايعوا وكملوا ، صاح الشـيطان على العقبة بأبعد صوت سمع : يا أهل الأخاشب، هل لكم فى محمد والصُّبَاة معه قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انفضُّوا إلى رحالكم"، فقال العباس ابن عُبادة بن نَضْـلة : يا رسـول الله ، والذى بعثك بالحقّ لئن أحببت لنميلنّ على أهل مِنى بأسـيافنا ، وما أحدٌ عليه سيف تلك الليلة غيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنا لم نؤمر[2] بذلك فانفضُّوا إلى رحالكم" ، فتفرّقوا إلى رحالهم ، فلما أصبح القـوم غدت عليهم جِلّة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شِعب الأنصار، فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنا بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البـارحة ، وواعدتموه أن تُبايعوه على حربنا ، وآيمُ اللهِ ما حىّ من العـرب أبغضُ إلينا إن شَبّت[3] بيننا وبينه الحرب منكم ، قال : فانبعث مَنْ كان هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم

(١) عبارة ابن سعد : « فلما تخيرهم قال للنقباء » الخ .

(٢) فى الأصل : « إنا لن نأمن بذاك » ، والتصويب من ابن سعد .

(٣) فى ابن سعد : « تنشب » .

بالله ما كان هذا وما علمنا ، وجعل ابن أبيّ يقول : هذا باطل ، وما كان هذا ، وما كان قومى لِيفتاتوا علىّ بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومى حتى يؤامرونى ، فلما رجعت قريش مِنْ عندهم رحل البراء بن معرور ؛ فتقدّم إلى بطن يأجج (١) ، وتلاحق أصحابُه من المسلمين ، وجعلت قريش تطلبهم فى كل وجه ، ولا تَعدُّوا طريق (٢) المدينة ؛ وحزّبوا عليهم ، فأدركوا سعد بن عبادة ، فجعلوا يده إلى عنقه بِنسعة (٣) ، وجعلوا يضربونه ويجزون شعره ، وكان ذا جُمّة (٤) حتى دخلوا (٥) مكة ، فجاءه مطعِم بن عدىّ ، والحارث بن أمية بن عبد شمس فخلصاه من أيديهم ، وائتمرت الأنصار حين فقدوا سعد بن عبادة أن يكرُّوا إليه ، فإذا سعد قد طلع عليهم ، فرحَل القوم جميعا إلى المدينة .

ذكر تسمية من شهد العقَبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم

١١١/١٤ قال محمد بن إسحاق : كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، فكان مَنْ شهدها من الأوس أحد عشر رجلا ، وهم أُسَيد بن الحُضَير ، وأبو الهيثم بن التيّهان ، وسلمة ابن سلامة بن وقْش ، وظهِير بن رافع بن عدىّ ، وأبو بردة هانئ بن نيار ، ونهير ابن الهيثم بن نابِى ، وسعد بن خيثمة بن الحارث ، ورفاعة بن عبد المنذر ، وعبد الله ابن جبير بن النعمان ، ومعن بن عدِىّ بن الجَدّ بن عَجْلان ، وعُوَيْم بن ساعدة . وشهدها من الخزرج أحدٌ وستون رجلا : منهم من بنى النجّار أحدَ عشر رجلا ،

(١) يأجج كيسمع وينصر ويضرب : اسم مكان على ثمانية أميال من مكة .

(٢) فى ابن سعد : «طرق» . (٣) النسعة بالكسر : سير مضفور يجعل زماما للبعير وغيره .

(٤) الجمة من شعر الرأس : ما سقط على المنكبين ، وهى أكثر من الوفرة .

(٥) فى ابن سعد : «أدخلوه» .

وهم أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب، ومعاذ بن الحارث بن رفاعة، وأخوه عوف ابن الحارث، وأخوه معوّذ بن الحارث، وعُمارة بن حزم بن زيد، وأسعد بن زُرارة ابن عُدَس[1]، وسهل بن عَتِيك بن النعمان، وأوْس بن ثابت بن المنذر بن حرام، وأبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود، وقيس بن أبي صعصعة، وعمرو بن غُزَيَّة ابن عمرو بن ثعلبة. ٥

ومن بني الحارث بن الخزرج سبعة نفر، وهم: سعد بن الربيع بن عمرو، وخارِجة بن زيد بن أبي زهير، وعبد الله بن رواحة، وبشير بن سعد بن ثعلبة، وعبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، وخَلّاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو، وعُقْبة ابن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة[2].

ومن بني بياضة بن عامر بن زُرَيق ثلاثة نفر، وهم: زياد بن لَبِيد بن ثعلبة ابن سِنان، وفروة [بن][3] عمرو بن ودَقة[4]، وخالد بن قيس بن مالك بن العجلان. ١٠

ومن بني زريق بن عامر بن زريق ثلاثة نفر: رافع بن مالك بن العجلان ابن عمرو، وذَكْوان بن عبد قيس بن خَلَدة بن مخلّد بن عامر بن زريق — وكان خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان معه بمكة فهاجر، فكان يقال له: مهاجريّ أنصاري — وعبّاد بن قيس بن عامر بن خالد. ١٥

ومن بني سلِمَة بن سعد بن عليّ بن أسد أحد عشر رجلا: البراء بن معرور ابن صخر، وابنه بِشر بن البَراء، وسِنان بن صيفيّ بن صخر، والطفيل بن النعمان

(١) عدس: قال ابن برى: صوابه بضمتين، وقال الجوهرى: كقفْل.

(٢) في الأصل: «قسير»؛ وما أثبتناه عن ابن هشام والاستيعاب.

(٣) تكملة من ابن هشام. (٤) في الاشتقاق: وذقة بذال معجمة وقاف، وفي الاستيعاب: ودفة، بدال وفاء، قال ابن هشام: هو الأصح. ٢٠

ابن خنساء ، ومعقل بن المنذر بن سرح ، ويزيد بن المنذر بن سرح ، ومسعود ابن يزيد بن سبيع ، والضحاك بن حارثة بن زيد ، ويزيد بن حرام بن سُبيع ، وجبّار ابن صخر بن أمية بن خنساء ، والطفيل بن مالك بن خنساء .

ومن بنى سواد بن غَنْم بن كعب بن سلمة : كعب بن مالك بن أبى كعب عمرو بن القَيْن بن كعب بن سواد ، وهو الشاعر .

ومن بنى غَنْم بن سواد بن غَنْم خمسة نفر ، وهم : سليم بن حديدة ، ويزيد ابن عامر بن حديدة ، وهو أبو المنذر[1] ، وأبو اليسر ، واسمه كَعْب بن عمرو ، وصيفىّ ابن سواد بن عباد ، وقُطْبَة بن عامر بن حديدة ، أخو يزيد .

ومن بنى نابِى بن عمرو بن سواد بن غَنْم خمسة نفر : ثعلبة بن غنمة بن عدىّ ابن نابى ، وعمرو بن غنمة بن عدىّ ، وعبس بن عامر بن عدىّ . وعبد الله بن أنيس حليف لهم من قضاعة ، وخالد بن عمرو بن عدىّ .

ومن بنى حرام بن كعب سبعة[2] نفر ، وهم : عبد الله بن عمرو بن حرام ، وابنه جابر بن عبد الله ، ومعاذ بن عمرو بن الجموح ، وثابت بن الجِذع — والجذع ثعلبة ابن زيد — ، وعمير بن الحارث بن ثعلبة ، وخديج بن سلامة بن أوس ، ومعاذ ابن جبل بن عمرو بن أوس ، مات بعِمْواس عام الطاعون .

ومن بنى عوف بن الخزرج أربعة نفر ، وهم : عُبادة بن الصامت بن قيس ، والعباس بن عبادة بن نضلة — وكان ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فأقام[3] فكان يقال له : مهاجرىّ أنصارى ، قتل يوم أحد —

(١) كذا فى ابن هشام . والذى فى الأصل : « ابن » .

(٢) فى الأصل : « خمسة » — وما أثبتناه عن ابن هشام : ٢ : ١٠٧

(٣) فى ابن هشام جـ ٢ : ١٠٧ « فأقام معه بها » .

وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة حليف لهم من بنى عُصَيّة من بَلِىّ ، وعمرو بن الحارث بن لَبْدة بن عمرو .

ومن بنى سالم بن غَنْم بن عوف — وهم بنو الحُبَلِىّ — رجلان : رفاعة بن عمرو ابن ثعلبة بن مالك ، وعقبة بن وهب بن كلدة بن الجعد حليف لهم ، وكان ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى مكة ، فكان يقال له : مهاجرى أنصارىّ .

ومن بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج رجلان : سعد بن عبادة بن دُلَيْم ابن حارثة ، والمنذر بن عمرو بن خُنَيْس ، وآمرأتان ، وهما : نسيبة ابنة كعب ابن عمرو ، وهى أم عمارة ، وأم منيع ، واسمها أسماء بنت عمرو بن عدىّ بن نابى ، ولم يصافحهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان لا يصافح النساء ، وإنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررْن قال : آذهبن ، وكان النقباء من هؤلاء اثنى عشر رجلا ، وهم : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع بن عمرو ، وعبد الله بن رواحة ابن آمرئ القيس ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبد الله ابن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت بن قيس ، وسعد بن عبادة بن دُلَيم ، والمنذر بن عمرو بن حنيس[1] ويقال : ابن خنيس ، هؤلاء من الخزرج .

١١٢/١٤

ومن الأوس ثلاثة نفر : أسيد بن حُضَيْر ، وسعد بن خيثمة بن الحارث ، ورفاعة بن عبد المنذر .

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : وأهل العلم يعدّون أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدّون رفاعة . والله أعلم بالصواب .

---

(١) كذا فى الأصل ، والذى فى ابن هشام : « خنش » .

ذكر أوّل آية أنزلت فى القتال

قال محمد بن إسحاق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة الأولى لم يؤذن له فى الحرب، ولم تُحلّ له الدماء، وإنما أمر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه حتى فتنوهم عن دينهم، وأخرجوهم من بلادهم، فلما عتت قريش على الله؛ أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال، فكانت أوّل آية أنزلت فى إذنه تعالى له فى الحرب، قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾(١). ثم أنزل الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾؛ أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه، ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾(٢)، أى حتى يعبد الله لا يعبد غيره.

ذكر أوّل من هاجر من مكة إلى المدينة

قال محمد بن إسحاق : لما أذن الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى الحرب، وبايعه الأنصارُ على الإسلام، والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار؛

(١) سورة الحج ٣٩ — ٤١ (٢) سورة البقرة ١٩٣

وقال: "إن الله قد جعل لكم إخوانا، ودارا تأمنون بها"، فخرجوا أرسالا[1]، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر الإذنَ من الله فى الهجرة إلى المدينة، فكان أوّل من هاجر من المهاجرين من قريش: أبو سلَمة عبد الله بن عبد الأسد ابن هلال بن عبد الله المخزومىّ، وكانت هجرته قبل بيعَة العقبة بسنَة، وكان قد قدِم من أرض الحبشة، فلما آذتْه قريش، وبلَغه إسلامُ مَنْ أسلم من الأنصار هاجر إلى المدينة، فنزل بقرية بنى عمرو بن عوف بقُباء على أحمد بن مبشِّر ابن عبد المنذر، ثم كان أوّل من قدمها بعد أبى سلمة عامر بن ربيعة حليف بنى عدىّ بن كعب، معه آمرأته ليلى بنت أبى حَثْمة بن غانم[2]، ثم عبدالله بن جَحْش ابن رِئاب، حليف بنى أمية آبن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد، وكان رجلًا ضرير البصر، وكان يطوف مكّة بغير قائد، وكانت عنده الفَرْعة بنت أبى سفيان بن حرب، نزل هؤلاء كلهم بقُبَاء على أحمد ابن مبشر أيضا، ثم قدِم المهاجرون أرسالا، ثم خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعياش بن أبى ربيعة فى عشرين من المسلمين، منهم: زيد بن الخطّاب أخو عمر، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، وخُنَيْس ابن حذافة السهمىّ، وواقد بن عبد الله التميمىّ حليف بنى عدىّ، وعبد الله وعمرو ابنا سراقة بن المعتمر — ويقال: عمر بدل عمرو — وخولِىّ بن أبى خولىّ، حليف الخطاب، وأخوه مالك — ويقال: هلال بن أبى خولىّ بدل مالك — وبنو البُكَير الأربعة: إياس، وعاقل، وخالد، وعامر. ويقال: وكان مع عمر ابنه عبد الله ابن عمر.

(١) أرسالا: جماعات.

(٢) فى أسد الغابة: «حثمة بن حذيفة بن غانم».

قال ابن إسحاق: فنزل عمر بن الخطاب، وعيّاش بن أبي ربيعة في بني عمرو ابن عوف بقُباء، فجاء أبو جهل والحارث ابنا هشام إلى عيّاش إلى المدينة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، فكلماه في الرجوع، وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمشُط رأسها مُشط، ولا تستظلّ من شمس حتى تراك، فرِقّ لها. قال عمر ابن الخطاب: فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا [ليفتنوك][1] عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمّك القملُ لامتشطت، ولو اشتد عليها حرّ مكة لاستظلّت. فقال: أبرّ قَسَم أمي، ولي هناك مال فآخذه. قال عمر: فقلت له: يا عياش، والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالا، فلك نصفُ مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبَى إلا أن يخرج معهما، فقلت: أما إذْ فعلتَ فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول، فألزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فأنج عليها، فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا أخي والله لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعقِبني[2] على ناقتك؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض أوثقاه[3] رباطا، ثم دخلا به [مكة][4]، وفتناه فافتتن. رواه ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر.

قال ابن إسحاق: ودخلا به مكة نهارا موثقا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا. قال ابن عمر في حديثه فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صَرْفا ولا عدلا ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى

(١) الزيادة عن ابن هشام ٢ : ١١٨

(٢) تعقبني على ناقتك: من قولهم أعقب زيد عمرا، أي ركبا بالنوبة.

(٣) في ابن هشام: ٢ : ١١٩ «عدوا عليه فأوثقاه ورباطاه».

(٤) الزيادة عن ابن هشام.

الكفر لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله فيهم ، وفى قولنا وقولهم لأنفسهم : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ[1]﴾ ، قال عمر : فكتبتُها بيدى فى صحيفة ، وبعثتُ بها إلى هشام بن العاص ، فلما قرأها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدّثنى مَنْ أثق به أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو بالمدينة : "مَنْ لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن أبى العاص" ؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما ، فخرج إلى مكة ، فقدِمها مستخفيا ، فلقِىَ آمرأة تحمل طعاما فقال لها : أين تريدين يا أمةَ الله؟ قالت : أريد هذين المحبوسَيْن — تعنيهما — فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا قد حُبسا فى بيت لا سقْف له ، فلما أمسى تسوَّر عليهما ، ثم أخذ مَروة[2] فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما[3] ، ثم حملهما على بعيره وسار بهما ، فعثر فدمِيت إصبعه فقال :

هل أنت إلا إصبعٌ دَميتِ * وفى سبيل الله ما لقيتِ

نعود إلى تتمة أخبار عمر فى هجرته — قال آبن إسحاق : ونزل عمر بن الخطاب حين نزل[4] المدينة ومن لحق به من أهله وقومه ، وأخوه زيد بن الخطاب ، وعمرو وعبد الله

(١) سورة الزمر ٥٣ — ٥٥ .
(٢) المروة : واحدة المرو ، وهى حجارة بيض براقة تورى النار .
(٣) زاد فى ابن هشام بعد هذا : « فكان يقال لسيفه : ذو المروة لذلك » .
(٤) فى ابن هشام : « قدم » . ومؤدّى الروايتين واحد .

ابنا سُراقة بن المعتمر، وخُنيس بن حُذافة السهمىّ — وكان صهرَه على ابنته حفْصة خلف عليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعده — وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وواقد بن عبد الله التميمىّ، حليف لهم، وخولىّ بن خولىّ، ومالك بن خولىّ، حليفان لهم، وبنو البكير الأربعة: إياس، وعاقل، وعامر، وخالد، حلفاؤهم، وهم من بنى سعد بن ليث، على رفاعة بن المنذر بقُباء[1]، ثم تتابع المهاجرون[2]، فنزل طلحة بن عبيد الله، وصهيب بن سنان على خُبَيب بن إساف[3] أخى بلحارث بن الخزرج[4]، ويقال: بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة، ونزل حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مَرْثَد كَنَّاز بن حصين، وابنه مرثَد الغنوىّان حليفا حمزة ابن عبد المطلب، وأَنَسة وأبو كبشة موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلثوم ابن هِدم[5] أخى بنى عمرو بن عوف بقُباء — ويقال: بل نزلوا على سعد بن خيثمة، ويقال: بل نزل حمزة على أسعد بن زُرارة — ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخواه الطّفيل والحُصَين، ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبّاد بن المطلب، وسُوَيْبط بن سعد بن حُرَيْملة[6]، أخو بنى عبد الدار، وطُليب بن عمير أخو بنى عبد بن قصىّ، وخبّاب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة أخى بلعجلان بقُباء، ونزل

(١) قباء: على فرسخ من المدينة.

(٢) فى الأصل: «المهاجرين»؛ وهو خطأ من الناسخ.

(٣) ويقال فيه: «يساف» بياء مفتوحة: وهو ابن عتبة، ولم يكن حين نزل المهاجرون عليه مسلما، بل أخر إسلامه حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر (عن الاستيعاب ملخصا).

(٤) زاد فى ابن هشام بعد هذه الكلمة قوله: «بالسنح».

(٥) فى أسد الغابة: «ابن هرم»، بالراء. وفى ابن سعد، والاستيعاب: «ابن الهدم».

(٦) كذا فى الأصل، وابن هشام، وفى الاستيعاب، وأسد الغابة، والتاج، والإصابة: «حرملة».

١١٤/١٤ عبد الرحمن بن عوف فى رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخى بلحارث ابن الخزرج فى دار بلحارث ، ونزل الزبير بن العوام ، وأبو سبْرة بن أبى رُهم بن عبد العزّى على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجُلَاح بالعُصَبة[1] دار بنى جُحْجَبى[2] . ونزل مصعب بن عمير بن هاشم أخو بنى عبد الدار على سعد بن مُعاذ ابن النعمان فى دار بنى عبد الأشهل . ونزل أبو حذيفة بن عُتْبة بن ربيعة ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وعُتْبة بن غزوان بن جابر على عباد بن بِشر بن وقْش أخى بنى عبد الأشهل فى دار بنى عبد الأشهل . ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت ابن المنذر أخى حسان بن ثابت فى دار بنى النجار . وكان يقال : نزل العزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة ، وذلك أنه كان عَزَبا .

ذكر اجتماع قريش فى دار الندوة ، وتشاورهم فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم ، واتفاقهم على قتله ، وحماية الله تعالى له ، وخبر الشيخ النجدىّ ، وهو إبليس ، خزاه الله

قال محمد بن إسحاق ، يرفعه إلى عبد الله بن عباس وغيره قالوا : لما[3] رأت قريش أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد كانت له شِيَعٌ وأصحاب من غيرهم من غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا ، وأصابوا منهم مَنَعة ، فحذِروا خروجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة — وهى دار قصىّ بن

(١) عصبة ، كهمزة ؛ كذا ضبطه ياقوت ، وذكر أنه حصن بقباء ؛ ونقل عن ابن هشام أيضا أنه ضبطه بالضم ثم السكون . (٢) جحجبى : جد أحيحة بن الجلاح اليثربى .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢٤

كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها — يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)، فلما اجتمعوا لذلك، واتعدوا له، غدوا فى يوم الموعد، وهو اليوم المسمى يوم الزحمة (٢)، فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل عليه بت (٣) — قال الواقدى: مشتمل الصماء فى بت (٤) — قال: فوقف على باب الدار، فلما رأوه قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذى اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأيا ونصحا، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع أشراف قريش، وهم: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وطعيمة بن عدى، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبو البخترى ابن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، وأبو جهل ابن هشام، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف، وغيرهم ممن لا يعد من قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا ممن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهير والنابغة، ومن مضى منهم حتى يصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأى، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم

(١) فى ابن هشام: «حين خافوه».

(٢) سمى يوم الزحمة لتزاحم أشراف القبائل القرشية فى دار الندوة.

(٣) فى ابن هشام: «بتلة»، والبتلة والبت: الكساء الغليظ.

(٤) واشتمال الصماء هو أن يشتمل الرجل بالثوب حتى يجلل به جسده ولا يرفع منه جانبا، فيكون فيه فرجة يخرج منها يده، وهو التلفع، (اللسان — شمل).

دونه إلى أصحابه ، ولَأوشكوا أن يَثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره ، فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله [ما[1]] نبالى أينَ ذهب ، ولاحيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه ، أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . قال الشيخ النجدىّ : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حُسْنَ حديثه ، وحلاوة مَنْطِقه ، وغَلَبَته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لَئِن فعلتم ذلك ما أمِنتم أن يحل على حىّ من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم ليسير بهم إليكم حتى يطأكم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ؛ دبِّروا فيه رأيا غير هذا . فقال أبو جهل بن هشام : إنّ لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذَ من كل قبيلة فتى شابا جَليدا نَسيبا وَسيطا فَتيا ، ثم نعطى كلَّ فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمُه فى القبائل جميعا ، [فلم يقدِرْ بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا[2]] ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم . فقال النجدىّ : القول ما قال الرجل ؛ هذا الرأى لا أرى[3] غيره .

١١٥/١٤

وحكى أن هذا الرأى كان رأى الشيخ النجدىّ ، وأنه لما أشار به قالوا : كلّهم : صدق النجدىّ ، صدق النجدىّ ! والله أعلم .

قال : فتفرّق القوم وقد أجمعوا على ذلك .

فأتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخبر ، وقال له : لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ، قال : فلما كانت عَتمة

(١) من ابن هشام . (٢) عن ابن هشام . (٣) ابن هشام : « لا رأى غيره » .

من الليل اجتمعوا على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرصُدونه حتى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانَهم قال لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : "نَمْ على فراشى، وتَسجّ ببُرْدِى هذا الحضرمىّ الأخضر، فنَمْ فيه؛ فإنه لن يخلُصَ إليك شىء تكرهه منهم".

٥ قال : فقال أبو جهل ومَنْ معه على الباب : إن محمدا يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردنّ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم نار تحرقون فيها. قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ حفنة من تراب فى يده، ثم قال : "نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدُهم"، وأخذ الله على أبصارهم

١٠ فلا يرونه، فجعل ينثُر التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من سورة يس : ﴿يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ . إلى قوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١).

ولم يبق منهم رجل إلا وضعَ على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمدا، قال : خيبكم الله،

١٥ قد والله خرج عليكم محمد، ثم ماترك منكم رجلا إلا وقد وضعَ على رأسه ترابا وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كلُّ رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا ينظرون فيه فيرَوْن عليا على الفراش متسجّيا ببُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائما عليه بُردُه. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علىّ عن الفراش؛ فقالوا : والله لقد كان صدَقنا الذى حدّثنا.

---

٢٠ (١) سورة يس ١ — ٩

قال ابن إسحاق : فكانَ مما أنزل من القرآن فى ذلك اليوم قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ (٢) .

ذكر ابتداء هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه

قال محمد بن إسحاق : لمّا هاجر أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، أقام هو بمكة بعدهم ينتظر الإذنَ من الله تعالى فى الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة إلا أبو بكر الصديق، وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما ، ومن حُبس أو فُتن . وكان أبو بكر يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة كثيرا فيقول له : "لا تَعجل لعلّ الله أن يجعل لك صاحبا"، فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يَعنى نفسَه .

وروى عن عائشة أم المؤمنين بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتىَ بيت أبى بكر أحد طَرفَىِ النهار إما بُكْرة وإما عَشية، [حتى] (٣) إذا كان اليوم الذى أذن الله تعالى فيه لرسوله فى الهجرة والخروج من مكة أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حَدَث، فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره ،

(١) سورة الأنفال ٣٠ . (٢) سورة الطور ٣٠ — ٣١

(٣) الزيادة من ابن هشام .

فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أخرج عنّى مَن عندك " قال : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاى، وما ذاك فداك أبى وأمى؟ قال : " إن الله أذن لى فى الخروج " . فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ! قال : " الصحبة " . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ، ثم قال : يا نبىّ الله، إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا . فاستأجرا عبد الله بن أرقط — وقيل : الأريقط — الليثى وكان مشركا، يدلّهما على الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما . قال ابن إسحاق : ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا أبو بكر وآل أبى بكر، وعلى بن أبى طالب، أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده، حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس .

١١٦/١٤

ذكر خبر الغار وما قيل فيه

قال : لما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروجَ أتى أبا بكر فخرجا من خَوْخة لأبى بكر فى ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور — جبلٍ بأسفل مكة — فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فُهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار، وكانت أسماءُ بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

قال ابن هشام : حدّثنى بعضُ أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن قال : لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا دخل أبو بكر قبل

رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس الغار لينظر أفيه سبع أو حيّة يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

قال ابن إسحاق : فأقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ، ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائةَ ناقة لمن يردّه عليهم . وكان عبد الله بن أبي بكر يكون فى قريش يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون فى شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فُهيرة مولَى أبى بكر يرعى فى رِعاء من أهل مكة ، فإذا أمسى أراحَ عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثرَه الغنم حتى يعفّى عليه .

وقال محمد بن سعد بسنده إلى زيد بن أرقم وأنس بن مالك ، والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهم : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الغار أمرَ الله شجرة فنبتت فى وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم فسترته ، وأمر العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر حمامتين وحْشيتين فوقفتا بفم الغار ، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بأسيافهم وعِصيّهم وهَراواتهم حتى إذا كانوا من النبى صلى الله عليه وسلم قَدْر أربعين ذراعا ، نظر أوّلُهم فرأى الحمامتين فرجع فقال له أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار ؟ قال : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فعرفت أنْ ليس فيه أحد . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ، فعرف أنّ الله عز وجل درأ عنه بهما . وقال بعض من حضر فى طلبه : إن عليه من العنكبوت ما هو قبل ميلاد محمد . وقال أبو بكر رضى الله عنه : فنظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رُءوسنا فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا ، فقال : "يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما "! قال : ومكثنا فى الغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر .

قال محمد بن سعد : قالت عائشة رضى الله عنها : وجهزناهما أحبَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفرة فى جِراب، فقطعت أسماء قطعة من نِطاقها فأوكأت به الجراب، وقطعةً أخرى صيرتها عِصاما لفم القربة؛ فلذلك سميت أسماء ذات النّطاقين .

قال محمد بن سعد بسند يرفعه إلى أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما أنها قالت : لما خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه احتمل ماله كلّه معه، — خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف — فانطلق بها معه، فدخل علينا جدّى أبو قحافة وقد ذهب بَصَرُه، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قال فقلت : كلّا يا أبت، إنه ترك لنا خيرا كثيرا . قالت أسماء : فأخذت أحجارا فوضعتها فى كُوّةِ البيت حيث كان أبى يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده فقلت : ضع يا أبت يدَك على هذا المال، فوضع يده عليه وقال : لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم؛ فلا والله ما ترك لنا شيئا، ولكنى أردت أن أسكّن الشيخ بذلك . والله أعلم .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه من الغار، وتوجههما إلى المدينة، وما كان من أمر سُراقة بن مالك، وأم معبد وغير ذلك إلى أن انتهيا إلى المدينة

١١٧/١٤

كان خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه من الغار ليلة الاثنين لأربع خَلَوْن من شهر ربيع الأوّل، وذلك أنه لما مضت الأيام الثلاثة، وسكَن عنهما الناس أتاهما عبدالله بن الأُرَيقط براحلتيهما و بعيرٍ له، فقرّب أبو بكر رضى الله عنه الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدّم له أفضلَهما(١)

(١) فى الأصل : «لفسلهما» والصواب ما أثبتناه كما فى ابن هشام جـ ٢ : ١٣١

ثم قال : اركب فداك أبي وأمي يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني لا أركب بعيرا ليس لي"، قال: فهي لك يارسول الله بأبي أنت وأمي! قال : "لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به"[1] ؟، قال: كذا وكذا، قال: "قد أخذتها بذلك".

قال محمد بن سعد: وكان أبو بكر اشتراهما بثمانمائة درهم من نَعَم بني قُشَيْر، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إحداهما وهي القَصْواء .

قال ابن إسحاق : فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر رضي الله عنه مولاه عامر بن فُهيرة خلفه ليخدمهما في الطريق .

قال أبو بكر رضي الله عنه : أسرينا ليلتنا ويومنا حتى إذا قام قائم الظهيرة وانقطع الطريق ، ولم يمر أحد ، رُفعت لنا صخرة لها ظلّ لم تأت عليه الشمس . قال : فسويت للنبيّ صلى الله عليه وسلم مكانًا في ظلها، وكان معي فَرْو ففرشته ، وقلت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : نم حتى أنفضَ ما حولك ، فخرجت فإذا أنا براعٍ قد أقبل يريد من الصخرة مثلَما أردنا ، وكان يأتيها قبل ذلك فقلت : ياراعي، لمن أنت؟ قال : لرجل من أهل المدينة يعني مكة، قال: قلت: هل في شائك من لَبن ؟ قال : نعم، قال : فجاءني بشاة فحلبت أمسح الغُبار عن ضَرْعها وحلبت في إداوةٍ معي كُثبة[2] من لبن، وكان معي ماء للنبيّ صلى الله عليه وسلم في إداوة فصببتُ على اللبن من الماء لأبرده ، فوافيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قام من نومه فشرب وقال : "ما آن الرحيل" ؟ قلت : بلى، قال : فأرسلنا حتى إذا كنا بأرض صَلبة جاء سُراقة بن مالك بن جُعشُم، فبكى أبو بكر وقال: يارسول الله قد أُتينا، قال : "كلا"، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتطم فرس سراقة — أي

(١) في الأصل : «ابتعتهما»، و«أخذتهما» والصواب، عن ابن هشام .

(٢) كثبة : قليل .

احتبس إلى بطنه — فقال : قد أعلم أن قد دعوتما علىّ فادعوا لى، ولكما علىّ أن أردّ الناس عنكما ولا أضرّكما . قال : فدعا له فرجع ووفى وجعل يردّ الناس ويقول : قد كفيتم ما هاهنا . وقد روى عن سراقة أنه قال لأبى جهل بن هشام :

أبا حَكَمٍ والله لو كنتَ شاهدا * لأمرِ جوادى إذ تسوخُ قوائمُهْ
علمتَ ولم تشككْ بأنّ محمدا * رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاومُهْ !
عليك بكف القوم عنه فإننى * أرى أمرَه يوما ستبدو معالمُهْ
بأمر يودّ الناس فيه بأسرهم * بأنّ جميع الناس طُرا[1] تسالمُهْ

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدّثنى الزُّهرى أنّ عبد الرحمن بن مالك ابن جعشم حدّثه عن أبيه عن عمه سراقة بن مالك قال : لما خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من مكّة مهاجرا إلى المدينة، جعلتْ فيه قريش مائةَ ناقة لمن يردّه عليهم، فبينا أنا جالسٌ فى نادى قومى أقبلَ رجلٌ منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيتُ رَكَبة ثلاثة مرّوا علىّ آنفا، إنى لأراهم محمدا وأصحابه، قال : فأومأتُ إليه بعينى أن اسكت، ثم قلت : إنما همْ بنو فلان يبتغون ضالّة لهم، قال : لعله[2] . ثم قمت فدخلت بيتى وأمرت بفرسى فقِيدَ إلى بطن الوادى، وأمرت بسلاحى فأخرج من دُبُر حُجْرتى، ثم أخذت قِداحى التى أستقسِم بها[3]، ثم انطلقت فلبست لأمتى، ثم أخرجتُ قِداحى فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره : «لا يضره»، قال : وكنت أرجو أن أردّه على قريش فآخذ المائة، فركبت الفرس فى أثره، فبينا فرسى يشتدّ بى عثر فسقطت عنه، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قِداحى فاستقسمت بها فخرج السهم

١١٨/١٤

(١) فى الأصل : « طورا » ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى الدلائل : قال : « لعله، ثم سكت قال فمكثت قليلا ثم قمت » .

(٣) فى الأصل : « الذى » ، ما أثبتناه عن ابن هشام ج ٢ : ١٣٤ .

الذى أكره «لا يضره»، قال فأبيت إلا أن أتبعه فركبت فى أثره، فلما بدا لِى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبتْ يداه فى الأرض وسقطتُ عنه، ثم آنتزع يده من الأرضِ وتبعهما دُخَانٌ كالإعصار، فعرفتُ حين رأيتُ ذلك أنه قد منِع منّى وأنه ظاهر، فناديتُ القوم: أنا سراقة بن جعشم، أَنْظِرونى أكلّمكم، فوالله لا يأتينكم منى شىء تكرهونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر: "قُلْ له وما تبتغى منا"؟ فقال لى ذلك أبو بكر، قلت: تكتب لى كتابا يكون بينى و بينك، قال: "اكتب له يا أبا بكر"، فكتب لى كتابا فى عَظْم أو فى رقعة أو فى خرقة ثم ألقاه إلىّ فأخذته فجعلته فى كِنانتى، ثم رجعتُ فلم أذكر شيئا مما كان، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَفَرغ من حُنَيْن والطائف، فرحت ومعى الكتاب لألقاه فلقيته بالجِعرّانة(١)، فدخلتُ فى كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعوننى بالرماح و يقولون: إليك إليك ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته، واللهِ إنى لأنظر إلى ساقه فى غَرْزه(٢) كأنها جمارة، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت: يا رسول الله، هذا كتابُك أنا سراقة بن جعشم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوم وفاء و برّ، ادْنُه"، قال فدنوت منه فأسلمت. والله الهادى للصواب.

٥ ٢٠ ١٥

* * *

ومروا على خيمتى أم معبد الخزاعية، وآسم أمّ معبد عاتِكة بنت خالد بن منقذ آبن و بيعة، و يقال: عاتكة بنت خالد بن خليف(٣)، وكانت بَرزة(٤) جلدة تجلس بفناء

(١) الجعرانة بكسر الجيم وتشديد الراء: ماء بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة.

(٢) الغرز للرحل: هو كالركاب للسرج، وفى الدلائل والنهاية: «كأنه جمارة»، والجمارة: قلب النخلة وشحمتها. (٣) فى الأصل: «خلف»، وما أثبتناه عن أسد الغابة، والمواهب.

(٤) البرزة: التى تظهر للناس.

٢٠

القبة[1] تَسقى وتُطعم ، فسألوها تمرا ولحما يشترونه منها ، فلم يصيبوا عندها من ذلك شيئا ، وكان القوم مُرْمِلين[2] مُسْنِتين ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة فى كِسْر الخيمة ، فقال : " ما هذه الشاة يا أم معبد " ؟ قالت : شاة خلّفها الجهْد عن الغنم ، قال : " هل بها من لبن " ؟ قالت : هى أجهد من ذلك ، قال : " أتأذنين أن أحلبها " ؟ قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبا فاحلبها . فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها وسمّى الله ، ودعا لها فى شاتها ، فتفاجّت عليه — أى فتحت ما بين رجليها — ودَرّت ، ودعا بإناء يُرْبِض الرَّهْط — أى يُرويهم — فحلب فيه ثجّا[3] ثم سقاها حتى رَوِيَت ، ثم سقى أصحابه حتى رَوُوا ، ثم شرب آخرهم ، ثم حلب إناءً حتى ملأه ثم غادره عندها ، وبايعها وارتحلوا عنها ، وأصبح صوتٌ بمكة عالٍ يسمعونه ، ولا يدرون مَن صاحبُه وهو يقول :

جزى الله ربُّ الناسِ خيرَ جزائِه * رَفيقَيْن[4] قالا خيمتَىْ أمِّ معبَدِ
همـا نزلا بالبرِّ وارتحلا به * فأفلحَ مَن أمسى رفيقَ محمدِ
فيا لَقُصَىٍّ ما زَوَى[5] الله عنكم * به من فعال لا تُجارَى[6] وسُودَدِ
لِيَهْنِ بنى كعبٍ مكانُ فتاتهم * ومقعدها للمؤمنين بمرصَدِ
سَلُوا أختَكم عن شاتِها وإنائها * فإنكمُ إن تسألوا الشاة تشهَدِ
دعاها بشاة حائل فتحلّبَتْ * له بصَريح[7] ضَرَّةُ[8] الشاة مُزْبِدِ
فغادَرها رَهْنا لديها لحالبٍ * تَدِرّ بها فى مَصْدر ثم مَوْرِدِ[9]

(١) فى الأصل : « الهنه » وهو تصحيف ، والتصحيح من السيرة الحلبية ، وفى الدلائل وغيرها : « الخيمة » . (٢) مرملين : نفد زادهم . ومسنتين : مجدبين . (٣) ثجا : أى لبنا كثيرا . (٤) قالا : نزلا وقت القيلولة . (٥) زوى : صرف . (٦) تجارى : بالراء ، وفى رواية بالزاى . (٧) الصريح : اللبن الخالص . (٨) الضرة : أصل الضرع . (٩) فى مصدر ثم مورد : أى يحلبها مرة ثم أخرى ، والمعنى : ترك الشاة عندها ذات لبن .

قال ابن إسحاق : ولما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرْقَط سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل أسْفَل من عُسْفَان[1] ، ثم سلك بهما أسفل أَمَج[2] ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قُدَيْدًا[3] ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخَرّار[4] ، ثم سلك بهما ثنية المَرَة[5] ، ثم سلك بهما لِقْفًا[6] — ويقال لِفْتًا[7] — ثم أجاز بهما مَدْلَجَة لَقْف[8] ، ثم استبطن بهما مَدْلَجَة مَجَاج[9] ، ثم سلك بهما مَرْجِح مَجَاج ، ثم تبطّن بهما [مَرْجِح][10] من ذى الغَضَوَيْن[11] ، ويقال : العَصَوَيْن ، ثم بطن ذى كَشْر[12] ، ثم أخذ بهما على الجَدَاجِد[13] ، ثم على الأَجْرد[14] ، ثم سلك بهما ذا سَلْم[15] [من بطن][16] أعْدَاءِ مَدْلَجَة تَعْهِن[17] ، ثم على العَبَابِيد — ويقال : العَبَابِيب . ويقال : ١١٩/١٤

(١) عسفان كعثمان : موضع بين مكة والمدينة . (٢) أمج : بلد بين مكة والمدينة فيه مزارع .

(٣) قديد : موضع قرب مكة . (٤) الخرار : موضع قرب الجحفة .

(٥) ثنية المرة : موضع ، تخفيف المرأة . (٦) لقف : موضع كثير الماء لا زرع فيه .

(٧) لفت : واد فى طريق المدينة ، وقد وقع الخلاف فى لقف ولفت فى حديث الهجرة وكلاهما صحيح ، وهذا موضع ، وذاك آخر .

(٨) المدلجة : الحوض الذى يفرغ فيه الساقى دلوه .

(٩) مجاج : بفتح الميم موضع ، وفيه خلاف . راجع ياقوت .

(١٠) ساقطة من الأصل ؛ وما أثبتناه عن ابن هشام ٢ : ١٣٦ ، وانظر ياقوت .

(١١) ذو الغضوين : بفتح الغين والضاد المعجمتين تثنية الغضا .

(١٢) فى الأصل « كشد » ، وهو تحريف . وكشر : موضع بين مكة والمدينة .

(١٣) الجداجد : جمع جدجد بضم الجيمين وهى البئر القديمة . ياقوت .

(١٤) الأجرد : أحد جبلى جهينة ، بين المدينة والشام .

(١٥) ذو سلم : واد من أرض بنى البكاء على طريق البصرة إلى مكة .

(١٦) الزيادة عن ابن هشام .

(١٧) تعهن : عين ماء على ثلاثة أميال من السقيا ، بين مكة والمدينة . والأعداء : النواحى .

العِثْيانة — ثم أجاز بهما الفاجة[1] ، ويقال : القاحَة ، ثم هبط بهما العَرْج[2] ، وقد أبطأ عليهم بعضُ ظهرهم فحمل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ يقال له : أوس بن حجر على جمل له إلى المدينة ، وبعث معه غلاما له يقال له : مسعود بن هُنَيْدة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرْج ، فسلك ثنية العائر عن يمين رَكُوبة[3] — ويقال الغابِر — حتى هبط بهما [بطن][4] رِئْم ، ثم قدم بهما قُبَاء على بنى عمرو بن عوف . قال الشيخ شرف الدين الدمياطى : وكان عبد الله بن الأريقط على كفره ، ولم يعلم له إسلامٌ .

ذكر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه إلى المدينة

قال محمد بن إسحاق : كان مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قُباء يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين الضّحا ، وكادت الشمس تعتدل ، وهو صلى الله عليه وسلم ابن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد أن بعثه الله تعالى بثلاث عشرة سنة . وقال الخوارزمىّ : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا يوم الاثنين ، وهو اليوم الثامن من شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين من عام الفيل ، ويوم عشرين من أيلول ، فكان من مبعثه إلى يوم هاجر ودخل المدينة ثلاث عشرة سنة كاملة . قال ابن إسحاق : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا بخروجه من مكة وتَوَكّفوا[5] قدومه ، يخرجون إذا صلوا

(١) الفاجة والقاحة : مدينة على ثلاث مراحل من المدينة ، قبل السقيا بنحو ميل .

(٢) العرج : مكان بين مكة والمدينة على جادة الحاج ، تذكر مع السقيا .

(٣) ركوبة : ثنية بين مكة والمدينة عند العرج .

(٤) ساقطة من الأصل ، والزيادة عن ابن هشام .

(٥) توكفوا : استشعروا قدومه وانتظروه .

الصبح إلى ظاهر الحرّة ينتظرونه ، فلا يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال فيدخلون ، وذلك فى أيام حارة ، حتى إذا كان اليوم الذى قدِم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا على عادتهم ، حتى إذا لم يبق ظل دخلوا بيوتهم ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلوا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من يهود ، فصرخ بأعلى صوته : يابنى قَيْلَة(١) ، هذا جدكم قد جاء ، قال : فخرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سِنّه ، وأكثر الأنصار لم يكن يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فأقبل الناس وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى إذا زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفوه عند ذلك ، قال : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن هِدْم أخى بنى عمرو بن عوف ، وهو الأصح ، وكان إذا خرج من منزل كلثوم جلس للناس فى بيت سعد بن خَيْثَمة ، وذلك أنه كان عَزَبا لا أهل له ، وكان منزل العُزّاب من المهاجرين ، ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على خُبَيْب بن إساف أحد بنى الحارث بن الخزرج بالسُّنْح . وقيل : بل نزل على خارجة بن زيد . وأقام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بمكة ثلاث ليال ، حتى أدّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، ثم لحِق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل معه على كلثوم بن هِدم ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقُباء من يوم الاثنين إلى آخر يوم الخميس أربعة أيام .

---

(١) بنو قيلة : هم الأنصار ، وقيلة : اسم جدة كانت لهم .

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قباء وتحوله إلى المدينة، وصلاته الجمعة، ونزوله على أبي أيوب خالد بن زيد

قال محمد بن إسحاق : ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة من منزل كلثوم فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وادى رانوناء[1] ، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة . قال محمد بن سعد : صلاها بمن كان معه من المسلمين وهم مائة . قال ابن إسحاق : فأتاه عِتْبان بن مالك ، وعباس بن عبادة بن نضلة ، فى رجال من بنى سالم بن عوف ، فقالوا : يارسول الله، أقم عندنا فى العدد والعدّة والمنعة، قال : "خلوا سبيلها فإنها مأمورة" فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة ، اعترضه سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو فى رجال من بنى ساعدة ، فقالوا مثل ذلك ، وقال مثل ما قال لأولئك ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رواحة فى رجال من بلحارث من الخزرج ، فقالوا مثل ذلك ، وقال مثل ما قال، فخلوا سبيلها فانطلقت، حتى إذا مرت بدار بنى عدىّ بن النجار وهم أخواله اعترضه سليط بن قيس، وأبو سليط أسَيْرة بن أبى خارجة[2] فى رجال من بنى عدىّ بن النجار، فقالوا : يا رسول الله هَلُمّ إلى أخوالك إلى العدد والعُدّة والمنعة ، فقال كما قال لأولئك ، فخلوا سبيلها فانطلقت ، حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ مِربد[3] لغلامين يتيمين من بنى النجار ، فى حجر

١٢٠/١٤

(١) رانوناء بنونين : بين قباء والمدينة يلتقى مع بطحان فى دار بنى زريق .

(٢) الذى فى أسد الغابة : « أسيرة بن عمر بن قيس بن مالك » .

(٣) مربد : الموضع الذى يجمع فيه الزرع والتمر للتجفيف .

معاذ بن عَفْراء وهما سهل وسُهيل آبنا عمرو ، فلما بركت ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينزل ، فسارت غير بعيد ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تَجَلْجَلَت[1] ورَزَمت ووضعت جِرانها، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه فى بيته، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى : لما بركت الناقة جعل الناس يكلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النزول عليهم ، وجاء أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب فحطّ رحلَه فأدخله منزله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المرء مع رحله" ، وجاء أسعد بن زُرارة فأخذ بزِمام راحلته فكانت عنده ، قال زيد بن ثابت : فأول هدية دخلتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزل أبى أيوب هديةٌ دخلتْ بها إناءُ قَصْعَة مَثْرُود فيها خبز وسمن ولبن ، فقلت : أرسلتْ بهذه القصعة أمِّى، فقال : "بارك الله فيك"، ودعا أصحابه فأكلوا، فلم أرِم[2] الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة، ثريد وعُراق[3]، وما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلاثة والأربعة يحملون الطعام، يتناوبون ذلك حتى تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل أبى أيوب ، وكان مقامه فيه سبعة أشهر .

وقال آبن إسحاق : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بنى له فيها مسجده ومساكنه . والله أعلم .

(١) فى الأصل : « تجلجلت » ، وما أثبتناه عن آبن هشام ؛ وقال السهيلى : إن ابن قتيبة فسره بتلحلحت — بتقديم اللام — لزمت مكانها ، وكذا فسره فى النهاية : تلحلحت أقامت ولزمت مكانها ولم تبرح ضد تحلحل . ورزمت الناقة : إذا أقامت من الكلال، وجرانها : عنقها .

(٢) فلم أرم : لم أبرح .

(٣) عراق : جمع عرق وهو جمع نادر ، والعرق (بالسكون) : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم .

وبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من منزل أبي أيوب زيدَ بن حارثة ، وأبا رافع ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ، فقدما إلى مكة لفاطمة وأم كلثوم عليهما السلام ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسَوْدة بنت زَمْعة زوجته ، وأسامة بن زيد ، وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر فيهم عائشة ، فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان ، وكانت رُقَيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحبشة مع زوجها عثمان بن عفان . قال ابن إسحاق بسنده إلى أبي أيوب قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في السُّفْل ، وأنا وأم أيوب في العُلْو ، فقلت له : يا نبيّ الله ، بأبي أنت وأمي ، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاظهر أنت وكن في العُلْو ، ونتزل نحن ونكون في السُّفْل ، فقال : "يا أبا أيوب ، إنّ أرْفَق بنا ومن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت" ، قال : فلقد انكسر حُبٌّ(١) لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ، ننشّف بها الماء ، تخوّفا أن يقطُر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، قال : وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردّ علينا فضله تيمّمْتُ أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه ، نبتغي بذلك البركة حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه ، وقد جعلنا له فيه بصلا أو ثوما ، قال : فردّه ولم أر ليده فيه أثرا ، فجئته فزِعا ، فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ؟ فكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك للبركة ، قال : "فإني وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجي(٢) فأما أنتم فكلوه" ، فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة . والله المستعان .

(١) الحب : جرة كبيرة . (٢) أناجي من المناجاة : وهي أن يحدث الإنسان غيره .

١٢١/١٤

ذكر بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيوته بالمدينة

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد قال : حدثنى مَعْمَر بن راشد عن الزهرى قال : بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موضع المسجد، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين ، وكان مِرْبدا لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار ، وكانا فى حَجْر أبى أمامة أسعد بن زُرارة ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى صلى الله عليه وسلم حتى ابتاعه منهما . قال ابن سعد : وقال غير مَعمر عن الزهرى : فابتاعه بعشرة دنانير، وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك ، فكان جدارا مجدّرا ليس عليه سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان أسعد بن زرارة بناه، فكان يصلى بأصحابه فيه، ويجمّع بهم فيه الجمعة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل الذى بالحديقة وبالغَرْقَد الذى فيه أن تقطع ، وأمر باللبن فضُرب ، وكان فى المِرْبَد قبور جاهلية فأمر بها فنُبِشَت ، وبالعظام أن تُغيَّب ، وكان فى المِرْبد ماء مُسْتَنْجِل (١) فسيّروه حتى ذهب، فأسّس رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وأسسوا معه ، فجعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخّره مائة ذراع ، وفى هذين الجانبين مثل ذلك فهو مُرَبّع ، ويقال : كان أقل من المائة، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللبن ، وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه، ويقول : " اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرين ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار " قال : وقال قائل من المسلمين يرتجز :

لَئِن قَعَدْنَا والنبىُّ يعملُ * لذاك مِنّا العملُ المضَلَّلُ

(١) مستنجل : مستنقع، والنجل الماء الذى يخرج من الأرض نزا .

قال: ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللبِن فقال: يارسول الله، قتلونى؛ يحملون علىّ ما لا يحملون، قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وَفْرته[1] بيده، وكان رجلا جَعْدا، ويقول: "ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية"، قال ابن سعد: وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبْلَة المسجد إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: بابا فى مؤخره، وبابا يقال له: باب الرحمة، وهو الباب الذى يدعى باب عاتكة، والباب الثالث الذى يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل طول الجدار بسطةً، وعمده الجذوع، وسقفه جريدا، فقيل له: ألا تسقّفه؟ فقال: "عريش[2] كعريش موسى خشيبات وثُمام[3] الشأن أعجل من ذلك" قال: وبنى بيوتا إلى جنبه باللبِن، وسقفها بجذوع النخل والجريد، فلما فرغ من البناء، بَنَى لعائشة رضى الله عنها [فى البيت الذى يليه شارع إلى المسجد[4]] على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل فقُطِع، وبقبور المشركين فنُبِشت، وبالخَرِب فسويت، قال: فصفوا النخل قِبلة، وجعلوا عِضادتيه[5] حجارة.

ذكر بناء المسجد الذى أُسِّس على التقوى وهو مسجد قُباء

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى بسنده إلى سهل بن سعد وأبى غَرِيّة وأبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنهم قال: لما صُرِفت القبلة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء فقدّم جِدار المسجد إلى موضعه اليوم وأسّسه، وقال:

(١) الوفرة: شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن. (٢) العريش: كل ما يستظل به، سئل الحسن عن معنى "عريش موسى" فقال: إذا رفع يده بلغ العريش أى السقف، وفى الدلائل: قيل لرسول الله إلى متى نصلى تحت هذا الجريد؟ فقال: "ما بى رغبة عن أخى موسى عريش كعريش أخى موسى". (٣) الثمام: نبت ضعيف يسد به خصاص البيوت. (٤) الزيادة من ابن سعد، وفى الأصل: «بنا بعائشة» وهو خطأ (راجع ابن سعد جـ ١: ق ٢: ٢). (٥) العضادة: جانب العتبة من الباب، والضمير للمسجد.

"جبريل يؤمّ بى البيت"، ونقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحجارة لبنائه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه كل سبت ماشيا، وقال صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأسبغ الوضوء ثم جاء مسجد قباء فصلى فيه كان له أجر عُمرة"، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأتيه يوم الاثنين ويوم الخميس، وقال: لو كان بطَرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل. قال: وكان أبو أيوب يقول: هذا المسجد الذى أسس على التقوى. وكان أبىّ بن كعب وغيره يقولون: بل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ١٢٢/١٤

ذكر ما أصاب المهاجرين من حُمّى المدينة، ودعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم

روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدِمها وهى أَوْبَأُ أرض الله من الحمّى، فأصاب أصحابه منها بلاءٌ وسقم، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم. قالت: فكان أبو بكر رضى الله عنه، وعامر بن فهيرة وبلال، مولِيا أبى بكر مع أبى بكر فى بيت واحد فأصابتهم الحمى، فدخلتُ عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا [الحجاب](١) وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدّة الوعك، فدنوت من أبى بكر فقلت: كيف تجدك يا أبتِ؟ فقال:

كلُّ امرئٍ مُصَبَّح فى أهله * والموتُ أدْنَى من شِراكِ نَعْلِهِ

قالت: فقلت والله ما يدرى أبى ما يقول، ثم دنوت إلى عامر بن فُهيرة، فقلت: كيف تجدك ياعامر؟ فقال:

(١) الزيادة عن الديار بكرى ١: ٣٥٠، ودلائل النبوّة.

لقد وَجَدتُ الموتَ قبلَ ذَوْقِه * إنّ الجَبانَ حَتْفُه من فوقِه (١)
كُلّ امْرِئٍ مُجاهد بطَوْقِـه * كالثَّـور يحمى جِلْدَه بِرَوْقِـه (٢)

فقلت : والله مايدرى عامر مايقول؛ قالت : وكان بِلال إذا تركته الحمّى اضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته (٣) فيقول :

ألا لَيْت شِعرى هَلْ أبيتَنّ ليـلةً * بفَـجٍّ (٤) وحَـوْلِى إِذْخرٌ (٥) وجَلِيـلُ (٦)
وهـل أرِدَنْ يوماً مِيَـاهَ مَجَنّـةٍ (٧) * وهل يَبْدُوَنْ لِى شـامَةٌ (٨) وطَفِيلُ

قالت عائشة : فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماسمعت منهم، فقلت : إنهم ليهْذُون، وما يعقلون من شدّة الحمى، فقال : " اللهم حَبِّب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشدّ، وبارك لنا فى مُدّها وصاعها، وانقل وباءها إلى مَهْيَعَة"؛ وهى الجحفة.

ذكر مؤاخاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار

كان ذلك بعد مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ روى محمد بن سعد عن الزهرىّ وغيره قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحقّ والمواساة، يتوارثون بعد الممات دون ذوى الأرحام، وكانوا تسعين رجلا؛ خمسة

(١) الحتف : الهلاك . (٢) الروق : القرن . (٣) عقيرته : صوته .
(٤) فج : موضع خارج مكة فيه ماء اغتسل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم .
(٥) الإذخر : من نبات مكة طيب الرائحة . (٦) الجليل : هو الثمام .
(٧) مجنة، بكسر الميم و بفتحها وهو الأكثر : موضع أسفل مكة على أميال، كانت تقام فيها سوق للعرب .
(٨) شامة وطفيل : قيل هما جبلان بنواحى مكة، وقيل هما عينان .

وأربعون من المهاجرين ، وخمسة وأربعون من الأنصار ، قال ويقال : مائة ؛ خمسون من المهاجرين، وخمسون من الأنصار، فلما كانت وقعة بَدْر وأنزل الله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) . فنسخت هذه الآية ما كان قبلها ، وانقطعت المؤاخاة فى الميراث .

ذكر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أمر بكتبه بين المهاجرين والأنصار، وموادعة يهود، وإقرارهم على دينهم، وما اشترطه فيه عليهم ولهم

كان مضمون الكتاب على ما أورده ابن هشام عن ابن إسحاق : "بسم الله الرحمن الرحيم ، هـذا كتاب من محمد النبيّ [صلى الله عليه وسلم] (٢) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويَثْرب ، ومن تبعهم ولَحِق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم (٣) يتعاقلون بَيْنَهم ، وهم يَفْدُون عانِيَهم (٤) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على رِبْعَتِهم يتعاقلون معاقلهم (٥) الأولى ، وكل طائفة تفدى عانِيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفْدى عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها

١٢٣/١٤

(١) سورة الأنفال ٧٥ (٢) الزيادة من ابن هشام . (٣) ربعة كهنبة : حالة حسنة أو أمرهم الذى كانوا عليه ، وفى النهاية : « إنهم أمة واحدة على رباعتهم ، يقال : القوم على رباعتهم ورباعهم أى على استقامتهم ، يريد أنهم على أمرهم الذى كانوا عليه » . وقوله : يتعاقلون : العقل الدية التى تجب على العاقلة ، وهى دية الخطأ ، والعاقلة : عصبة القاتل . (٤) العانى : الأسير .

(٥) معاقلهم الأولى : أى يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها ، والمعاقل الديات .

بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النّجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، [وبنو النَّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين](١) وبنو الأَوْس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحا(٢) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فِداء أو عَقْل ، وإنه لا يُحالِف(٣) مؤمنٌ مولَى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بَغَى منهم ، أو ابتغى(٤) دسيعة ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ؛ وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنا فى كافر ، ولا يَنْصر كافرا على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم مَوَالى بعض دون الناس ، وإنه مَن [تَبِعنا من](٥) يهود فإن له النصر والأُسْوَة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سِلْم المؤمنين واحدةٌ(٦) ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله عزّ وجل إلا على سَواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غَزَت معنا يُعْقِب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يُبِيء(٧) بعضهم عن بعض ؛ بما نال دماءهم فى سبيل الله عزّ وجل ،

(١) زيادة عن ابن هشام ٢ : ١٤٨ (٢) المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال ، وفى الأصل : «مفدحا» . وما أثبتناه عن ابن هشام . (٣) ولا يحالف : المحالفة : المؤاخاة والمعاقدة . (٤) الدسيعة : العطية ، أى طلب أن يدفعوا له عطية على سبيل الظلم .

(٥) الزيادة من ابن هشام ، وفى الأصل : «وأنه من يهود فإن له النصر» . وهذا خطأ .

(٦) السلم بالكسر ويفتح : الصلح يذكر ويؤنث .

(٧) يبيء : هو من البواء : أى المساواة .

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يُجير مشركٌ مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ، وإن من اعْتَبَطَ[1] مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قَوَدٌ به ، إلا أن يرضى وليُّ المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافةٌ ، ولا يحل لهم [إلا][2] القيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثا ولا يؤويه ، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد [صلى الله عليه وسلم][2] وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ؛ إلا من ظَلَم وأَثِم فإنه لا يُوتِغ[3] إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، [وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى جُشَم مثل ماليهود بنى عوف][2] ، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظَلَم وأَثِم ، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جَفْنَة بطن من بنى ثعلبة [كأنفسهم][2] وإن لبنى الشُّطُنَّة مثل ماليهود بنى عوف ، وإن البرّ دون الإثم ، وإن مَوالى ثعلبة كأنفسهم ، وإنّ بِطانة[4] يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، وإنه لا يُحْجَز على ثأرِ جُرْح ، وإنه مَن قَتَل فبنفسه [فَتَك ، وأهل بيته][2] إلا من ظلم ، وإن الله على أبَرِّ هذا[5] ، وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، [وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبرّ دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ

(١) اعتبط : قتل بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله ، والقود بفتحتين : القصاص . وفى الأصل : « قوديد » ، وهو تصحيف ، وما أثبتناه عن ابن هشام .

(٢) الزيادة من ابن هشام . (٣) يوتغ : يهلك .

(٤) بطانة الرجل : خاصته وأهل بيته . (٥) على أبر هذا : أى على الرضا به .

بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة[1]] ، وإن الجار كالنفس غير مُضَارّ ولا آثم ، وإنه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دَهِم يثربَ ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أُناس[2] حِصّتهم من جانبهم الذى قِبَلهم ، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة — ويقال مع البر المحسن — وإن البرّ دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبرّه ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم ، وإنه من خرج آمِنٌ ، ومن قعد آمِنٌ بالمدينة إلا من ظَلَم وأَثِم ، وإن الله جارٌ لمن برّ واتّقى ومحمد رسول الله " .

١٢٤/١٤

ذكر أخبار المنافقين من الأوس والخزرج وما أُنزل فيهم من القرآن

وقد رأيت أن أجمع ما فرقه أهل السير من أخبار المنافقين ، وأضم بعضه إلى بعض ، وأورده جملة واحدة ، فإن ذلك لم يكن فى وقت واحد ولا فى سنة بعينها ، بل أورده أهل السير بحسب ما وقع ، وفرقوه فى الغزوات وغيرها ، فآثرت جمعه فى هذا الموضع ، وما كان قد وقع فى غزاة أو حادثة نبهت عليه فى موضعه على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن ابن هشام . (٢) فى الأصل : « إنسان » والمثبت عن ابن هشام .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : كان رجال من الأوس والخزرج ممن أسلم وهو على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعثة، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جُنَّة من القتل، ونافقوا فى السِّر، وكان هواهم مع يهود؛ لتكذيبهم وجحودهم الإسلام، فكان منهم من الأوس من بنى عمرو بن عوف، ثم من بنى لَوْذان بن عمرو بن عوف: زُوَيّ بن الحارث، ومن بنى حُبَيْب بن عمرو: جُلَاس بن سُوَيْد بن صامت، وأخوه الحارث بن سويد، قال: وجُلَاس هو الذى قال عند تخلفه عن غزوة تبوك: لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شَرّ من الحمير، فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عُمَيْر بن سعد، وكان فى حجر جُلَاس خلَف على أمه بعد أبيه، فلما تكلم جُلَاس بهذا قال له عمير: والله ياجلاس، إنك لأحبّ الناس إلىّ، وأحسنهم عندى يدا، وأعزّهم علىّ أن يصيبه شىء يكرهه، ولقد قلتَ مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنّك، ولئن صمتُّ عليها ليهلكن دينى، ولإحداهما أيسر علىّ من الأخرى، ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال، فحلف جلاس لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالله لقد كذب علىّ عمير، وما قلت ما قال، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١)، قال ابن إسحاق: فزعموا أنه تاب فحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير. والله أعلم بالصواب.

(١) سورة التوبة ٧٤.

وأما أخوه الحارث بن سُوَيد فإنه قتل المجذَّر بن ذياد البَلَوِىّ فى يوم أُحُد ولحق بقريش ، وكان المجذَّر قتل سُوَيد بن صامت فى بعض الحروب التى كانت بين الأوس والخزرج ، فلما كان يوم أحد قتله بأبيه . قال ابن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما يذكرون — أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقتله إن هو ظفر به ففاته ، وكان بمكة ثم بعث إلى أخيه جُلَاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه ، فأنزل الله فيه — فيما حُكِى عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] إلى آخر القصة . وكان من المنافقين من بنى ضُبيعة ابن يزيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بِجَاد بن عثمان بن عامر . ونَبْتَل ابن الحارث ، وهو الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى : "من أحبّ أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث" ، وكان رجلا جسيما أدْلَم[2] ، ثائر شعر الرأس ، أحمر العينين ، أسفع[3] الخدّين ، وكان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتحدث إليه ويسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال : إنما محمد أُذُنٌ ، من حدثه شيئا صدقه . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4] ، وأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم به وبصفته فيما حكاه ابن إسحاق . وأبو حَبِيبَة بن الأزعر ، وكان ممن بنى مسجد الضِّرار . وثعلبة بن حاطب ، ومُعَتِّب بن قُشَيْر ، وهما اللذان عاهدا الله ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[5] ، ومُعَتِّب هو الذى

١٢٥/١٤

(١) سورة آل عمران ٨٦ (٢) الأدلم : الأسود الطويل . (٣) السفع : السواد مشرب بحمرة . (٤) سورة التوبة : ٦١ (٥) سورة التوبة : ٧٥ .

قال يوم أحد : لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا ها هنا ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾[1] إلى آخر القصة . وهو الذى قال يوم الأحزاب : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط ، فأنزل الله فيه : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2] . والحارث بن حاطب — وقال ابن هشام : ثعلبة والحارث ابنا حاطب ، هما من بنى أمية بن زيد من أهل بدر ، وليسا من المنافقين — والله أعلم . ومنهم عَبّاد بن حُنَيْف أخو سهل ، وبَحْزَج ؛ وهو ممن بنى مسجد الضِّرار ، وعمرو بن خِذَام ، وعبد الله بن نَبْتَل ، وجارية بن عامر ابن العَطّاف وأبناه زيد ومُجَمِّع ؛ وهم ممن بنى مسجد الضِّرار . وكان مُجَمِّع غلاما حَدَثا قد جمع من القرآن أكثره ، فكان يصلى بهم فيه ، فلما كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلّم عمر فى مُجَمِّع ليصلى ببنى عمرو بن عوف فى مسجدهم ، فقال عمر : لا ، أو ليس بإمام المنافقين فى مسجد الضِّرار ! فقال : يا أمير المؤمنين والله الذى لا إله إلا هو ما علمت بشىء من أمرهم إلا على أحسن ما ذكروا ؛ فزعموا أن عمر تركه يصلى بقومه . ومن بنى أمية بن زيد بن مالك وديعة بن ثابت وهو ممن بنى مسجد الضِّرار ، وهو الذى قال : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيه وفيمن قال بقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾[3] إلى آخر القصة .

ومن بنى عُبَيْد بن زيد بن مالك خِذام بن خالد ، وهو الذى أخرج مسجدُ الضِّرار من داره ، وبِشْر ورافع ابنا زيد . ومن بنى النَّبِيت مِرْبَع بن قَيْظِىّ وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجاز حائطه ، ورسول الله

(١) سورة آل عمران : ١٥٤ (٢) سورة الأحزاب : ١٢ (٣) سورة التوبة ٦٥ .

صلى الله عليه وسلم عامدٌ إلى أُحُد : لا أحِلّ لك يا محمد إن كنت نَبِيًّا أن تمرّ بحائطى ، وأخذ فى يده حَفْنة من تراب ثم قال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به ؛ فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصيرة"، وضربه سعد بن زيد بالقوس فشَجّه؛ وأخوه أَوْس بن قَيْظىّ، وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق : إن بيوتنا عَوْرَةٌ، فأْذَنْ لنا أن نرجع إليها، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[1] . ومن بنى ظَفَر — واسم ظفر كعب — حاطب بن أمية بن رافع، وبُشَيْر بن أُبَيْرِق، وهو أبو طُعْمَة سارق الدِّرْعَيْن الذى أنزل الله فيه : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾[2] . وقُزْمَان حليفٌ لهم . قال ابن إسحاق بسنده : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : "إنه لمن أهل النار"، فلما كان يوم أُحُد قاتل قتالا شديدا حتى قتل تسعة من المشركين، وأثبَتَتْه الجراحة، فحمل إلى دار بنى ظَفَر، فقال له رجال من المسلمين : أَبْشِر يا قُزْمَانُ، فقد أبْلَيْت اليوم، وقد أصابك ما ترى فى الله، قال : بماذا أُبَشَّر، والله ما قاتلت إلا حمِيَّة عن قومى، فلما اشتدّت به جراحه أخذ سهما من كنانته، فقطع به رَوَاهِش يده فقتل نفسه . قال ابن إسحاق : ولم يكن فى بنى عبد الأشْهَل منافقٌ ولا منافقة إلا أن الضحاك بن ثابت أحد بنى كعب رهط سعد بن زيد قد كان يُتَّهَم بالنفاق وحُبِّ يهود . قال ابن إسحاق : وكان جُلَاس ابن سُوَيْد قبل توبته، ومعتب بن قُشَيْر، ورافع بن زيد، وبِشْرٌ، هم الذين دعاهم رجالٌ من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعوهم إلى حُكّام الجاهلية فأنزل الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ

١٢٦/١٤

(١) سورة الأحزاب ١٣ . (٢) سورة النساء ١٠٧

أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (١) ﴾ إلى آخر القصة . فهؤلاء الذين ذكرناهم من الأوس .

ومن الخزرج من بنى النجار رافع بن وَدِيعَة ، وزيد بن عمرو ، وعمرو ابن قيس ، وقيس بن عمرو بن سهل . ومن بنى جُشَم بن الخزرج الجَدّ بن قيس ، وهو الذى يقول : يا محمد ائذن لى ولا تَفْتِنِّى ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٢) ﴾ ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال له وهو فى جهازه إلى تبوك : "يا جَدّ ، هل لك العامَ فى جلاد بنى الأصفر" ؟ قال : يا رسول الله ، أو تأذن لى ولا تَفْتِنِّى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "أذنت لك" ، فأنزل الله تعالى فيه ما أنزل . ومن بنى عوف بن الخزرج عبد الله بن أبىّ بن سَلُول ، وكان رأس المنافقين وكانوا يجتمعون إليه . قال محمد بن إسحاق : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وسيد أهلها عبد الله بن أبىّ بن سَلُول ، لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين — حتى جاء الإسلام — غيره ؛ قال : ومعه رجل من الأوس هو فى قومه شريف مطاع ، وهو أبو عامر عبد الله ابن عمرو بن صَيْفىّ بن النعمان ، أحد بنى ضُبَيْعة بن زيد ، وهو أخو حنظلة الغَسِيل (٣) وكان قد ترهّب فى الجاهلية ولبس المُسُوح ، وكان يقال له : الراهب ، فشقيا بشرفهما .

(١) سورة النساء ٦٠ (٢) سورة التوبة ٤٩

(٣) سمى الغسيل لأن الملائكة غسلته ؛ وذلك أنه خرج جنبا حين سمع الصيحة يوم أحد فمات وهو يقاتل فى سبيل الله ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الملائكة لتغسله .

فأما عبد الله بن أُبَىّ فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملّكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضَغِن ، ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه مُلْكا ، فلما رأى قومَه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مُصِرًّا على نفاق . وقد روى عن [أسامة ابن زيد (١)] بن حارثة قال : ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عُبادة يعوده من شكوى أصابته ، على حمار عليه إكافٌ فوقه قَطِيفة فَدَكِية مختطمة بحبل من ليف ، وأردفني صلى الله عليه وسلم خلفه ، قال : فمر بعبد الله بن أبىّ بن سلول ، وهو فى ظلّ مُزاحِم (٢) أُطُمِه ، وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تذمّم (٣) من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلّم ثم جلس فتلا القرآن ، ودعا إلى الله عزّ وجلّ ، وذكّر بالله وحذّر وبشّر وأنذر ، قال : وهو زامّ (٤) لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته ، قال : ياهذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقّا ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدّثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغشه به ، ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه . فقال عبد الله بن رَوَاحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى فاغشنا به وأتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مانحبّ ، وما أكرمنا الله به وهدانا له ، فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يَكُنْ مولاك خَصْمك لم تَزَلْ * تَـذِلّ ويَصْرَعْك الذين تُصارِعُ
وهل يَنْهَضُ البازِى بغير جَناحِه * وإنْ جُذّ يومًا ريشُه فهو واقِعُ

قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عُبادة وفى وجهه ما قال عدوّالله ، فقال سعد : والله يارسول الله ، إنى لأرى فى وجهك شيئا ، لكأنك

(١) الزيادة من ابن هشام . (٢) مزاحم : اسم الأطم . والأطم : الحصن .
(٣) تذمم : استنكف . (٤) زام : رافع رأسه لا يقبل عليه كبرا .

سمعت شيئا تكرهه . قال: "أجل"، ثم أخبره بما قال ٱبن أُبيّ، فقال: يارسول الله ٱرفُق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، و إنا لننظم له الخَرَز لتتوّجه، فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكا. وكانت مقالة عبد الله بن أبيّ هذه قبل تلفظه بالإسلام، وسنورد إن شاء الله تعالى من أخباره فى الغزوات، وٱنحيازه عن المسلمين بثُلُث الناس يوم أُحُد، وما قاله فى غزوة المرَيْسيع وغيرها ما تقف عليه فى مواضعه، مما تستدل به على صحة نفاقه، و إصراره فى الباطن على كفره . وأما أبو عامر فإنه أبى إلا الإصرار على كفره، وفارق قومه حين ٱجتمعوا على الإسلام، فخرج إلى مكة ببضعة عشر رجلا، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق، وهو أوّل من أنشب الحرب يوم أُحُد على ما نذكره إن شاء الله تعالى . قال: وكان أبو عامر قد أتى النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال: ماهذا الذى جئت به ؟ قال: "جئت بالحنيفية دين إبراهيم"، قال: فأنا عليها، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنك لست عليها"، قال: بلى، إنك أدخلت يامحمد فى الحنيفية ماليس منها، قال: "ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية"، قال: الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا — يُعَرِّض برسول الله صلى الله عليه وسلم: أى إنك ما جئت بها كذلك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أجَلْ، فمن كذب يفعل الله به ذلك"، فكان هو ذاك؛ خرج إلى مكة، فلما ٱفتتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، فمات به طريدا غريبا وحيدا .

١٢٧/١٤

ومن المنافقين من أحبار يهود

ممن تعوّذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق: سعد ٱبن حُنَيْف، وزيد بن اللُّصَيْت، ونُعمان بن أوْفَى[1]، وعثمان بن أبى أوفى . وزيد

(١) سيأتى للمؤلف أنه ٱبن أبى أوفى .

ٱبن اللُّصَيْت هو الذى قاتل عمر بن الخطاب بسوق بنى قَيْنُقاع، وهو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، ولا يدرى أين ناقته ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وجاءه الخبر بما قال ودَلّه الله عليها — : " إن فلانا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدرى أين ناقته ، وإنى والله لا آتيكم إلا ماعلمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى هذا الشِّعْب ، قد حبستها شجرة بزِمامها "، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما وصف . ومنهم رافع بن حُرَيْملة وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات : " قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين " . ورفاعة [بن زيد[1]] بن التابوت، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هبت ريح وهو قافل من غزوة بنى المصطلق وٱشتدّت ، حتى أشفق منها المسلمون : " لا تخافوا ، فإنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار "، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجد رفاعة بن زيد مات ذلك اليومَ الذى هبت فيه الريح . وسِلْسِلَة بن بِرْهَام، وكِنَانة بن صُوريا .

وكان هؤلاء يحضرون المسجد يسمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون منهم، ويستهزئون بدينهم . قال ٱبن إسحاق : فٱجتمع يوما منهم فى المسجد ناس، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدّثون بينهم بأقصى أصواتهم[2]، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا، فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس احد بنى النجار — وكان صاحب آلهتهم فى الجاهلية — فأخذ برجله يسحبه حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : أتخرجنى يا أبا أيوب من مِرْبَد بنى ثعلبة ! ثم أقبل أبو أيوب أيضا إلى رافع بن وَدِيعَة أحد بنى النجار فلبّبه

(١) الزيادة من ٱبن هشام . (٢) فى ٱبن هشام : « خافضى أصواتهم » .

بردائه ، ثم نتره[1] نترا شديدا ، ولطم وجهه وأخرجه ، وهو يقول : أُفٍّ لك منافقا خبيثا ! أدراجك[2] يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام عُمارة ابن حَزْم إلى زيد بن عمرو — وكان رجلا طويل اللحية — فأخذ بلحيته فقاده بها قَوْدا عنيفا حتى أخرجه ، ثم جمع عُمارة يديه فلَدَمه[3] بها فى صدره لدمة خرّ منها ، فقال : خدَشْتَنى يا عُمارة ، قال : أبعدك الله يا منافق ، فما أعدّ الله لك من العذاب أشدّ من ذلك ، فلا تقربَن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام أبو محمد مسعود ابن أَوْس من بنى النجار إلى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاما شابا ولا يُعلم فى المنافقين شاب غيره ، فجعل يدفع فى قفاه حتى أخرجه . وقام عبد الله ابن الحارث من بَلْخُدْرة[4] رهط أبى سعيد الخدرىّ إلى الحارث بن عمرو ، وكان ذا جُمّة ، فأخذ بجُمّته فسحبه بها سحبا عنيفا على مامر به من الأرض حتى أخرجه ، فقال له : لقد أغلظت يابن الحارث ، فقال له : إنك أهل لذلك — أى عدوّ الله — لما أنزل فيك ، فلا تقربَنّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنك نَجَس . وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَىّ بن الحارث فأخرجه إخراجا عنيفا ، وأفّف[5] منه ، وقال : غلب عليك الشيطانُ وأمْرُه . ١٢٨/١٤

قال : فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين ؛ وفى هؤلاء من المنافقين ، وفى أحبار يهود أنزل الله تعالى صدر سورة البقرة إلى المائة منها ؛ والله أعلم .

فالذى منها مما يختص بالمنافقين قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ[6] ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[7] ﴾ . وقوله :

(١) نتره : جذبه . (٢) أدراجك : أى ارجع من الطريق التى جئت منها .
(٣) اللدم : الضرب ببطن الكف . (٤) بلخدرة : يريد بنى الخدرة .
(٥) أفف منه : أى قال له أف . (٦) سورة البقرة ٨ (٧) سورة البقرة ١٥

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾[1] أى شك فزادهم الله شكا. وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[2] لأنهم كانوا يقولون: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. وقوله: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ أى من تهود ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى على مثل ما أنتم عليه ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾[3] أى إنما نستهزئ بالقوم ونلعب بهم. ثم ضرب الله لهم مثلا فقال: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾[4] الآية؛ أى يبصرون الحقّ ويقولون به، حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم الله فى ظلمات الكفر فهم لايبصرون هدى، ولا يستقيمون على حقّ. ثم قال تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[5] أى عن الخير، لا يرجعون إلى هدى. وقوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾[6] الصّيِّب: المطر. قال ابن إسحاق: أى هم من ظلمة ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل، على الذى هم عليه من الخلاف والتخوف لكم، على مثل ما وُصِف، من الذى هو فى ظلمة الصّيِّب، يجعل أصابعه فى أذنيه من الصواعق حَذَرَ الموت. ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى منزل ذلك بهم من النقمة. وقوله: ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ أى لشدة ضوء الحقّ ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ أى يعرفون الحقّ ويتكلمون به، فهم من قولهم على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين. ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾[7] أى لما تركوا الحقّ بعد معرفته. والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) سورة البقرة ١٠ (٢) سورة البقرة ١٣ (٣) سورة البقرة ١٤
(٤) سورة البقرة ١٧ (٥) سورة البقرة ١٨ (٦) سورة البقرة ١٩
(٧) سورة البقرة ٢٠

وحيث ذكرنا ما ذكرنا من أخبار المنافقين ، فلنذكر أخبار يهود ، ونجمع ما تفرق منها على نحو ما تقدّم .

ذكر شيء من أخبار يهود الذين نصبوا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل فيهم من القرآن

قال : لما أظهر الله تعالى دينه ، وآطمأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، آجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار ، وآستحكم أمر الإسلام ، نصبت أحبار يهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا ، مع تحققهم نبوته ، وصحة رسالته ، وأنه الذى نص الله تعالى عليه فى التوراة ؛ فكانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعنّتونه ، وهم من بنى النضير : حُيىّ بن أخطب ، وأخواه أبو ياسر وحُدَىّ ، وسلام بن مِشْكَم ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحُقَيْق ، والربيع آبن الربيع بن أبى الحقيق ، وعمرو بن جِحَاش ، وكعب بن الأشرف ، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، وكَرْدَم بن قيس حليفه أيضا . ومن بنى ثعلبة بن الفِطْيَوْن[1] — ويقال فيه الفِطْيَوس — عبد الله بن صُورِيا الأعور ، وهو أعلم أهل زمانه بالحجاز بالتوراة ، وآبن صَلُوبا ، ومُخَيْرِيق ، وكان حبرهم . ومن بنى قَيْنُقاع : زيد بن الصُّلَيْت — ويقال فيه اللُّصَيْت — وسعد بن حُنَيف ، ومحمود بن سَيْحان ، وعُزَيْز آبن أبى عُزَيْز ، وعبد الله بن صَيْف — ويقال ابن ضَيف — وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفِنْحَاص ، وأَشْيَع ، ونُعمان بن أضا ، وبحرىّ بن عمرو ، وشاس ابن عدىّ بن قيس ، وزيد بن الحارث ، ونُعمان بن عمرو ، وسُكَيْن بن أبى سُكَيْن ، وعَدىّ بن زيد ، ونعمان بن أبى أوفى ، أبو أنس ، ومحمود بن دحْية ، ومالك بن صَيْف ، وكعب بن راشد ، وعازر ، ورافع بن أبى رافع ، وخالد ، وأزار بن

(١) الفطيون : كلمة عبرانية ، وهى عبارة عن كل من ولى أمر اليهود وملكهم .

أبى أزار — ويقال فيه : آزر بن أبى آزر — ورافع بن حارثة ، ورافع بن خارجة ، ومالك بن عوف ، ورفاعة بن زيد ، وعبد الله بن سَلَام بن الحارث ؛ وكان حبرهم وأعلمهم ، وكان اسمه الحُصَيْن ، فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

١٢٩/١٤ ومن بنى قريظة الزبير بن باطا بن وهب ، وعَزّال بن سَمْوَال ، وكعب ابن أسد . وشَمْوِيل بن زيد ، وجبل بن عمرو ، والنّحّام بن زيد ، وقَرْدَم بن كعب ، ووهب بن زيد ، ونافع بن أبى نافع ، وأبو نافع ، وعدىّ بن زيد ، والحارث بن عوف ، وكَرْدَم بن زيد ، وأسامة بن حبيب ، ورافع بن رُمَيْلة ، وجبل بن أبى قُشَيْر ، ووهب بن يهوذَا .

ومن يهود بنى زُرَيْق لَبيد بن أعْصَم الساحر . ومن يهود بنى الحارثة : كنانة ابن صُورِيا . ومن يهود بنى عمرو بن عوف قَرْدَم بن عمرو . ومن يهود بنى النجار : سِلسِلة بن بَرْهام ؛ هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العداوة لله تعالى ولرسوله ، لم يستثن منهم إلا عبد الله بن سَلَام ومُخَيْرِيق ، فإنهما أسلما . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع .

ذكر إسلامِ عبدِ الله بنِ سلام[1] ، ومخيريق

أمّا عبد الله بن سلام فإنه كان عالما حبرا من أحبار يهود ؛ حكى محمد بن إسحاق عن خبر إسلامه رواية عن بعض أهله عنه قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته و إسلامه وزمانه الذى كنا نتوكف[2] له ، فكنت مُسِرًّا لذلك صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ،

(١) يلاحظ أنه لا يوجد من اسمه سلام بالتخفيف فى المسلمين ، سلام بالتخفيف فى اليهود . راجع (الروض الأنف ٢ : ٢٥) .

(٢) نتوكف له : أى ننتظر وقوعه .

فلما نزل بقُباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا على رأس نَخْلةٍ أعمل فيها، وعمتى خالدة بنت الحارث[1] تحتى جالسةٌ، فلما سمعتُ الخبر كَبّرتُ؛ فقالت عمتى حين سمعت تكبيرى: خيبك الله! والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادما ما زدتَ. قال: قلت لها: أى عمة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بُعث بما بُعث به؛ قالت: أى ابن أخى، هذا النبى الذى كنا نخبر به أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قلتُ نعم؛ قالت: فذاك إذاً؛ قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ؛ فلما رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامى مِن يهود، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، إنّ يهود قومٌ بُهْتٌ[2]، وإنى أحبّ أن تدخلنى بعض بيوتك فتغيّبنى عنهم، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى، فإنهم إن علموا به بهتونى؛ قال: فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه ثم قال لهم: "أىّ رجل الحصين بن سَلَام فيكم"؟ فقالوا: سيدنا وابن سيدنا وعالمنا؛ فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله، وأومن به، وأصدقه وأعرفه؛ فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بى، فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت، أهل غدر وكذب وفجور؛؟ قال: وأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

---

(١) ويقال: «خالدة». (٢) بهت: جمع بهوت، والبهوت: المباهت مبالغة فى اسم الفاعل، من البهتان وهو الكذب (راجع نهاية ابن الأثير).

وأما مُخَيْريق — قال ابن إسحاق : كان حبرا عالما، وكان غنيا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد فى علمه، وغلب عليه إلْفُ دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحُد وهو يوم السبت، قال : يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أنّ نصر محمد عليكم لحقّ؛ قالوا : إنّ اليوم يوم السبت، قال : لا سَبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأُحُد، وعهد إلى مَن وراءه من قومه : إن قتلت فى هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله؛ فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتِل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى يقول : "مُخَيريق خير يهود"، وقَبَض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله، فعامّة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها .

* * *

قال : وكان مما أنزل الله تعالى فى أمر اليهود صدرا من سورة البقرة، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ أى إنهم قد كفروا بما عندك من ذِكرٍ لهم، وجحدوا ما أُخذ عليهم من الميثاق لك، فقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يستمعون منك إنذارا أو تحذيرا !

١٣٠/١٤

وقوله : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ أى عن الهدى لن يصيبوه أبدا، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢) ﴾ أى بما هم عليه من خلافك .

وقوله تعالى : ﴿ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

(١) سورة البقرة ٦ (٢) سورة البقرة ٧

وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١) ﴾ ، أى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به ، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم .

ثم قال الله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٢) ﴾ أى تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من التوراة ، وتتركون أنفسكم ، وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى ، وتنقضون ميثاقى ، وتجحدون ما تعلمون من كتابى . [ثم (٣)] عدّد عليهم أحداثهم فيما سلف ، فذكر لهم العجل ، وقولهم لموسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (٤) ﴾ وصعقتهم عند ذلك ، ثم إحياء الله لهم وإظلالهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المنّ والسّلوى ، وقوله لهم : ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ (٥) ﴾ أى قولوا ما آمركم به أحطّ به ذنوبكم عنكم ؛ وتبديلهم ذلك ، إلى ما ذكره الله تعالى من أخبارهم مع موسى .

ثم قال الله تعالى والخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ قال الفريق الذى أخبر الله عنهم أنهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه ؛ وهم الذين قالوا لموسى صلى الله عليه وسلم : يا موسى ، قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا ، فأسمعنا كلامه حين يكلمك ، فطلب موسى ذلك من ربه لهم ، فقال تعالى : مرهم فليتطهّروا ويطهّروا ثيابهم ويصوموا ، ففعلوا ، ثم خرج بهم حتى أتى الطور ، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى فوقعوا سُجُودا وكلمه ربه ، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم ، حتى عقلوا ما سمعوا ، ثم انصرف بهم موسى إلى بنى إسرائيل ، فلما جاءهم حرّف فريق ممن سمع ما أمرهم به ، وقالوا

(١) سورة البقرة ٤٠ — ٤٢ (٢) سورة البقرة ٤٤ (٣) الزيادة من ابن هشام .
(٤) سورة النساء ١٥٣ (٥) سورة البقرة ٥٨ (٦) سورة البقرة ٧٥

حين قال موسى لبنى إسرائيل : إنّ الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق : إنما قال كذا وكذا خلافا لما قال الله تعالى لهم، فهم الذين عنى الله تعالى . ثم قال : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾[1] أى بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدِّثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2] أى تقرون بأنه نبىّ، وهو يخبرهم أنه النبىّ الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا، أجحدوه فلا تُقرُّوا لهم به، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[3] أى إلا تلاوة ؛ والأمىّ هو الذى يقرأ ولا يكتب ، معناه أنهم لا يعلمون الكتاب فلا يدرون ما فيه، فهم يجحدون نبوّتك بالظن . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4] قال ابن عباس رضى الله عنهما : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذِّب الله تعالى الناس فى النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا فى النار من أيام الآخرة، وإنما هى سبعة أيام، ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله تعالى ذلك، ثم قال : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ أى من عمل مثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[5] . ثم قال تعالى يذمُّهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ

(١) سورة البقرة ١٤ (٢) سورة البقرة ٧٦ (٣) سورة البقرة ٧٧، ٧٨
(٤) سورة البقرة ٨٠ (٥) سورة البقرة ٨١ .

بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (١) ﴾ أى تركتم ذلك كله . ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٢) ﴾ . ١٣١/١٤

قال ابن إسحاق : أقررتم على أنّ هذا حقّ من ميثاق عليكم ، ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (٣) ﴾ ، أى أهل الشرك ، حتى يسفكوا دماءهم معهم ، ويُخرجوهم من ديارهم معهم ، ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ﴾ وقد عرفتم أن ذلك عليكم فى دينكم ، ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ أى أتفادونهم مؤمنين بذلك وتخرجونهم كفارا بذلك ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤) ﴾ فأنبهم بذلك من فعلهم ، وقد حرّم عليهم فى التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء أسرائهم فكانوا فريقين ، منهم بنو قَيْنُقاع ولَفُّهم (٥) حلفاء الخزرج ، والنَّضير وقُريظة ، ولَفُّهم حلفاء الأوس ، وكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قَيْنُقاع مع الخزرج ، وخرجت بنو النَّضير وقُريظة مع الأوس يظاهر كلُّ واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم ، وبأيديهم

(١) سورة البقرة ٨٣ . (٢) سورة البقرة ٨٤ . (٣) سورة البقرة ٨٥

(٤) سورة البقرة ٨٥ ، ٨٦ (٥) لفهم ، أى من عدّ فيهم .

التوراة يعرفون منها ما عليهم ومالهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، لا يعرفون جنة ولا نارا، ولا بعثا ولا قيامة، ولا كتابا، ولا حلالا ولا حراما، فإذا وضعت الحرب [أوزارها](١) افتدوا أساراهم تصديقا لما فى التوراة وأخذا به، يفتدى بنو قَيْنُقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس، [و](٢) يَفْتدى بنو النَّضير وقُريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم، ويُطِلّون(٣) ما أصابوا من الدماء، وقتلى من قُتِلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم؛ يقول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(٤) أى تفادِيه بحكم التوراة وتقتله، وفى حكم التوراة: ألا تفعل: [تقتله](٥)، وتخرجه من داره، وتظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان ابتغاء عَرَض الدنيا. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أى الآيات التى كانت له من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، والخبر بكثير من الغيوب مما يأكلون وما يدّخرون فى بيوتهم، ثم ذكر كفرهم بذلك كله، فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(٦) ثم قال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ. وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٧)؛ وذلك أنهم كانوا يقولون للأنصار لما كانوا على جاهليتهم: إنّ نبيا يبعث الآن قد أظلّ زمانُه، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم اتبعه الأنصار

(١) تكملة من ابن هشام. (٢) تكملة عن ابن هشام.
(٣) فى الأصل: «ويطلبون»؛ والصواب ما أثبتناه عن ابن هشام. ويطلون هنا: يبطلون.
(٤) البقرة ٨٥ (٥) تكملة عن ابن هشام. (٦) البقرة ٨٧
(٧) البقرة ٨٨، ٨٩

وكفر به يهود ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾، ثم قال : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[1] ، غضب الله عليهم فيما صنعوا من مخالفتهم حكم التوراة، وغضب عليهم بكفرهم بهذا النبيّ الذى أُرسل إليهم ، ثم أنبهم برفع الطور، واتخاذ العجل إلها من دون الله؛ ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2] أى ادعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك ، فأعلمهم أنهم لم يتمنوه فقال : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[3] أى بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك، فيقال: لو تمنوه يومَ قال لهم ذلك مابقى على الأرض يهودىّ إلا مات ، ثم ذكر رغبتهم فى الحياة فقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾[4] أى ماهو بمنجيه ؛ وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثا بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأنّ اليهودىّ قد عرف ماله فى الآخرة من الخزى بما صنع فيما عنده من العلم . والله تعالى الهادى للصواب، وإليه المرجع والمآب .

١٣٢/١٤

ذكر سؤال أحبار يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتراطهم على أنفسهم أنه إن أجابهم عما سألوه آمنوا به ، ورجوعهم عن الشرط

وذلك أنّ نفرا من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يامحمد ، أخبرنا عن أربع نسألك عنهنّ ، فإن فعلت اتبعناك وصدّقناك وآمنا بك ؛ فقال : "عليكم بهذا عهد الله وميثاقه إن أخبرتكم بذلك لتصدقُنّنى" ؟ قالوا : نعم ؛

(١) سورة البقرة ٩٠ (٢) سورة البقرة ٩٤ (٣) سورة البقرة ٩٥ (٤) سورة البقرة ٩٦

قال : "فآسألوا عما بدا لكم" قالوا : أخبرنا كيف يُشبه الولد أمّه، وإنما النطفة من الرجل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَنْشُدُكم بالله وبأيّامه عند بنى إسرائيل هل تعرفون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه" ؟ قالوا : اللهم نعم، قالوا : فأخبرنا كيف نومك ؟ قال : "أَنْشُدكم بالله وبأيّامه عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أن نوم الذى تزعمون أنى لست به تنام عينه وقلبه يقظان" ؟ [قالوا[1] : اللهم نعم ، قال : "فكذلك نومى، تنام عينى وقلبى يقظان"] قالوا : فأخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ قال: "أَنْشُدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه كان أحبّ الطعامِ والشرابِ إليه ألبان الإبل ولحومها ، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحبّ الطعام والشرابِ إليه شكرا لله تعالى ، فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها" ؟ قالوا : اللهم نعم ؛ قالوا : فأخبرنا عن الرُّوح ؟ قال : "أَنْشُدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل، هل تعلمونه جبريل، وهو الذى يأتينى" ؟ قالوا : اللهم نعم ، ولكنه يا محمد ، لنا عدوّ، وهو ملَك، إنما يأتى بالشدّة وبسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ . وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ

(١) الزيادة من ابن هشام .

النَّاسَ السِّحْرَ﴾ وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما ذكر سليمان فى المرسلين قال بعض أحبار يهود : ألا تعجبون من محمد ! يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا، ووالله ما كان إلا ساحرا، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أى بآتباعهم السحر وعملهم به، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾[1]، قال آبن إسحاق : وحدثنى من لا أتهم عن عِكرمة، عن آبن عباس أنه كان يقول : الذى حرم إسرائيل على نفسه : زائدتا الكبد، والكُلْيتان، والشحم، إلا ما على الظَّهْر، فإن ذلك كان يُقرّب للقربان فتأكله النار. والله أعلم بالصواب.

ذكر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه إلى يهود خيبر

عن آبن عباس رضى الله عنهما : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بسم الله الرحمن الرحيم، مِن محمد رسولِ الله صاحبِ موسى وأخيه، المصدِّق بما جاء به موسى، ألَا إنّ الله قد قال لكم : يامعشر أهلِ التوراة — وإنكم تجدون ذلك فى كتابكم : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]، وإنى أَنْشُدكم بالله، وأَنْشُدكم بما أُنزل عليكم، وأَنْشُدكم بالذى أطعم مَنْ كان قبلكم من أسباطكم المَنَّ والسَّلْوَى، وأَنْشُدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى ١٣٣/١٤

(١) سورة البقرة من ٩٧ — ١٠٢ (٢) سورة الفتح ٢٩

أنجاهم من فرعون وعمله إلا اخبرتمونا هل تجدون فيما أنزل عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم؛ ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[1] فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه ".

ذكر ما قاله أحبار يهود فى قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾، و﴿ الٓمٓصٓ ﴾ و﴿ الٓرٰ ﴾، و﴿ الٓمٓرٰ ﴾

حكى محمد بن إسحاق أنّ أبا ياسر[2] بن أخطب مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو: ﴿ الٓمٓ. ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[3]، فأتى أخاه حُيَيّ بن أخطب فى رجالٍ من يهود. فقال: تعلّموا، والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه: ﴿ الٓمٓ. ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾، فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم، فمشى حُيَيّ فى أولئك النفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يامحمد، ألم تذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك: ﴿ الٓمٓ ﴾؟ فقال: "بلى"، قالوا: أجاءك بها جبريل من عند الله؟ قال: "نعم"، فقالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء، ما نعلمه بيّن لنبيّ منهم ما مدّة ملكه، وما أُكل أمته غيرك. فأقبل حُيَيّ بن أخطب على من معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون؛ فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون فى دينٍ إنما مدّة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يامحمد، هل مع هذا غيره؟ قال: "نعم" قال: ماذا؟ قال: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون؛ والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون[4] ومائة، هل مع هذا يامحمد غيره؟ قال: "نعم ﴿ الٓرٰ ﴾". قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه

(١) البقرة ٢٥٦ (٢) فى الأصل: «إياس»؛ صوابه ما أثبتنا كما فى ابن هشام جـ ٢: ١٩٤
(٣) البقرة آية ١ — ٢ (٤) فى الأصل «وثلاثون» وهو خطأ صوابه ما أثبتنا.

إحدى وثلاثون ومائتان ، هل مع هذا غيره يامحمد ؟ قال : "نعم ﴿ الٓمٓ ﴾" قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة ، ثم قال : لقد لُبِّس علينا أمرك يامحمد حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ؟ ثم قاموا عنه ؛ فقال أبو ياسر لأخيه حُيَيّ ولمن معه من الأحبار : مايُدريكم ، لعله قد جُمع هذا كله لمحمد ؛ سبعمائة وأربع [وثلاثون][1] سنة ، قالوا : لقد تشابه علينا أمره ، فيقال : إنّ قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[2] نزلت فيهم ، وقيل : إنما نزلت فى وفد نَجْران ، على ماأذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر شىء من مقالات أحبارِ يهود ، وما أنزل من القرآن فى ذلك

كان من مقالاتهم ما قاله مالك بن الضَّيْف[3] حين بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر لهم ما أُخذ عليهم من الميثاق ، وما عُهِد إليهم فيه ، فقال : والله ماعُهِد إلينا فى محمد عهد ، وما أُخذ له علينا ميثاق ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4] . وقال ابن صَلُوبا الفِطْيونى[5] لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد ، ماجئتنا بشىء نعرفه ، وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾[6] .

---

(١) فى الأصل : « وأربع سنين » والتصويب عن ابن هشام . (٢) آل عمران ٧

(٣) وفى ابن هشام : « الصيف » ؛ بالصاد المهملة ، وهما روايتان كما تقدم . (٤) البقرة ١٠٠

(٥) قال فى الروض الأنف : « الفطيونى كلمة عبرانية ، وهى عبارة عن كل من ولى أمر اليهود وملكهم ، كالنجاشى لمن ملك الحبشة » . (٦) البقرة ٩٩

وقال رافع بن حُرَيملة، ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، و فجّر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(١) قال : وكان حُيَيّ بن أخطب [وأخوه أبو ياسر بن(٢) أخطب] من أشد يهود للعرب حسدا ؛ فكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله عزّ وجل فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣) قال : ولما قدم أهل نَجْرانَ من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رافع بن حُريملة : ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل، فقال رجل من أهل نَجْران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوّة موسى ، وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(٤) . وقال رافع لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله يكلمنا تكليما حتى نسمع كلامه، فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٥) . وقال عبد الله بن صُوريا الفِطيونىّ الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى

١٣٤
١٤

(١) سورة البقرة ١٠٨ (٢) هذه الكلمة أثبتناها عن ابن هشام جـ ٢ : ١٩٧
(٣) سورة البقرة ١٠٩ (٤) سورة البقرة ١١٣ (٥) سورة البقرة ١١٨

إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ؛ وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله تعالى فى أقوالهم : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) . وتكلموا عند صرف القبلة بما نذكره إن شاء الله فى حوادث السنة الثانية .

قال : وسأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد، نفرا من أحبار يهود عن بعض ما فى التوراة ، فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم ، فأنزل الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٢) . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الإسلام ورغّبهم فيه ، وحذّرهم عذاب الله ، فقال رافع بن خارجة ، ومالك بن عوف : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم منا ، وخيرا منا ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

قال : ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزاة بدر جمع يهود فى سوق بنى قَيْنُقاع، وقال لهم : "يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشا" فقالوا : يا محمد ، لا يغرّنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش ، كانوا أغمارا (٤) لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله عزّ وجل فى ذلك من قولهم : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا

(١) سورة البقرة من ١٣٥ — ١٤١ (٢) سورة البقرة ١٥٩ (٣) سورة البقرة ١٧٠

(٤) الأغمار، جمع غمر، مثلثة الغين : وهو الذى لم يجرب الأمور .

فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١).

قال: ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المِدراس (٢) على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: وعلى أى دين [أنت] (٣) يامحمد؟ قال: "على ملة إبراهيم ودينه" قالا: فإن إبراهيم كان يهوديا؛ فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فهلم إلى التوارة فهى بيننا و بينكم"؛ فأنزل الله فيهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٤). وقال أحبار يهود ونصارى نجران حين اجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنازعوا، فقال الأحبار: كان إبراهيم يهوديا، وقالت النصارى: كان نصرانيا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥). وقال عبد الله بن صَيْف (٦)، وعدىّ بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالَوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ

١٣٥/١٤

(١) سورة آل عمران ١٢ — ١٣ (٢) بيت المدراس: بيت اليهود يتدارسون فيه كتابهم.
(٣) الزيادة من ابن هشام. (٤) سورة آل عمران ٢٣، ٢٤
(٥) سورة آل عمران من ٦٥ — ٦٨ (٦) قال ابن هشام: «ويقال ابن ضيف».

تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]. وقال أبو رافع القُرَظيّ حين اجتمعت الأحبار من يهود والنصارى من أهل نَجْران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد، تريد منا أن نعبدك كما يعبد النصارى عيسى بن مريم؟ وقال رجل من أهل نجران يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا أمرني" فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[2]، والربانيون هم العلماء والفقهاء، ثم ذكر تعالى ما أخذ عليهم وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه إذا هو جاءهم، فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ ﴾[3] إلى آخر القصة . والله أعلم .

ذكر ما ألقاه شأس بن قيس اليهوديّ بين الأوس والخزرج من الفتنة، ورجوعهم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم

قال محمد بن إسحاق : مرّ شأس بن قيس، وكان شيخا عظيمَ الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج، قد اجتمعوا في مجلس يتحدثون، فغاظه ما هم عليه

(١) سورة آل عمران من ٧١ — ٧٣ (٢) سورة آل عمران ٧٩، ٨٠
(٣) سورة آل عمران ٨١

من الألفة والجماعة وصلاح ذاتِ البيْن على الإسلام، بعد ما كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد آجتمع ملا بنى قَيْلة[(١)] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا آجتمع ملؤهم بها من قرار؛ فأمر شابا من يهود كان معه أن يجلس معهم[(٢)]، ثم يذكر يوم بُعاث[(٣)] وما كان قبله، وأن ينشدهم بعض ما كانوا قالوه من الأشعار يوم بُعاث، وهو يوم آقتتلت فيه الأوس والخزرج، فكان الظَّفر فيه للأوس، وكان عليهم يومئذ حُضَير بن سِماك الأشهلىّ، أبو أسيد بن حُضَير، وعلى الخزرج عمرو ابن النعمان البَياضىّ، فقُتِلا جميعا، ففعل الشاب ذلك، فتكلم القوم، وتنازعوا وتفاخروا، حتى توثب رجلان من الحيين على الركب؛ أَوْس بن قَيْظىّ الأوسىّ، وجَبّار بن صخر الخزرجىّ، فتقاولا، ثم قال أحدهما للآخر: إن شئتم رددناها الآن[(٤)] جَذَعَة؛ فغضب الفريقان جميعا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة، وهى الحَرّة، وقالوا: السلاحَ السلاحَ، وخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، فقال: "يامعشر المسلمين، الله الله! أبِدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع عنكم به أمر الجاهلية، وآستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم!" فعرف القوم أنها نَزْغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق بعضهم بعضا، ثم آنصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى فى شأس بن قيس: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[(٥)]﴾

(١) قيلة: هى أم الأوس والخزرج.

(٢) فى الأصل: «معه»، وصوبناه عن آبن هشام جـ ٢: ٢٠٤.

(٣) يوم بعاث: من أيام العرب؛ معروف. وسيأتى بعد.

(٤) رددناها الآن جذعة: أى رددنا الآخر إلى أوله.

(٥) سورة آل عمران ٩٨، ٩٩

وأنزل فى أوس بن قَيظىّ وجبّار بن صخر، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) . ١٣٦/١٤

ذكر ما تكلم به يهود فى شأن من أسلم منهم وما أنزل الله تعالى فى ذلك

قال (٢) : لما أسلم عبد الله بن سَلَام، وثعلبة بن سَعْيَة، وأُسَيْد بن سَعْية، وأَسَد ابن عُبيد، ومن أسلم معهم من يهود وآمنوا وصدّقوا ، قال أهل الكفر من أحبار يهود : ما آمن بمحمد واتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣)،

(١) سورة آل عمران ١٠٠ — ١٠٥ (٢) هو ابن إسحاق .

(٣) سورة آل عمران ١١٣ — ١١٤

قال : وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ ، [أى تؤمنون بكتابكم و بما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم كنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم][1] ، ﴿ وإذا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[2] ، قال : ودخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى بيت المِدْراس[3] على يهود ، فوجد جماعة كثيرة منهم قد اجتمعوا إلى حِبْر من أحبارهم يقال له فِنْحاص ، ومعه حِبر آخر يقال له أشْيَع ، فقال أبو بكر لفِنْحاص : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال لأبى بكر : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنىّ ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرِّبا ويُعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الرِّبا . فغضب أبو بكر وضرب وجه فِنْحاص ضربا شديدا

(١) التكملة من ابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٧

(٢) سورة آل عمران من ١١٨ — ١٢٠

(٣) انظر هامش رقم ٢ من صفحة ٣٧٧ من هذا السفر .

وقال: والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا و بينك لضربت عنقك، أى عدوّ الله.
فذهب فِنْحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أنظر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر: "ما حملك على ما صنعت"؟.
فقال: يا رسول الله، إنّ عدوّ الله قال قولا عظيما — وذكر قوله — فلما قال ذلك غضبت لله وضربت وجهه، فجحد فِنْحاص ذلك، وقال: ما قلتُ [ذلك](١)، فأنزل الله فى ذلك تصديقا لأبى بكر رضى الله عنه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(٢)، وأنزل الله تعالى فى أبى بكر وغضبه فى ذلك: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٣). قال: وكان كَرْدَم بن قيس، وأسامة بن حبيب ونافع بن أبى نافع، وبَحْرِىّ بن عمرو، وحُيَىّ بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التّابُوت، يأتون رجالا من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون: لا تُنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها، ولا تسارعوا فى النفقة، فإنكم لا تدرون علامَ يكون، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى من التوراة التى فيها تصديق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا. وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾(٤) قال: وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود، إذا تكلم(٥) رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٣٧/١٤

(١) الزيادة من ابن هشام. (٢) سورة آل عمران ١٨١ (٣) سورة آل عمران ١٨٦
(٤) سورة النساء ٣٧ — ٣٩ (٥) كذا فى الأصل، وفى ابن هشام: «كلم رسول الله».

لَوَى لسانه وقال : أرعنا سمعك يا محمد حتى نُفْهمك ، ثم طعن في الإسلام وعابه ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا . مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) . قال : وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحبار يهود ، منهم عبد الله بن صُوريا الأعور ، وكعب ابن أسد ، فقال : "يامعشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أنّ الذى جئتكم به لحقّ" ، قالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، وأصرّوا على الكفر ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٢) . قال : وقال سُكَيْن ، وعدىّ بن زيد : يامحمد ، مانعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٣) . ودخلت طائفة منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : "أما والله إنكم لتعلمون أنّى [رسول من الله إليكم] (٤)" ! قالوا : ما نعلمه : وما نشهد عليه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله تعالى :

---

(١) سورة النساء من ٤٤ — ٤٦ (٢) سورة النساء ٤٧ .

(٣) سورة النساء ١٦٣ — ١٦٥ (٤) الزيادة من ابن هشام .

﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾[1].
وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن أضا، وبحرى بن عمرو، وشأس ابن عدى[2]، فكلموه وكلمهم، ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[3]. قال: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم عقوبة الله، فأبوا وكفروا وجحدوا، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد ابن عبادة، وعقبة بن وهب: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه بصفته، فقال رافع ابن حريملة، ووهب بن يهود: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4].

ذكر قصة الرَّجم

رُوِى عن أبى هُريرة رضى الله عنه أنه قال: إن أحبار يهود اجتمعوا فى بيت المِدْراس[5] حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وقد زنى رجل بينهم بعد إحصانه بامرأة من يهود قد أحصنت، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة إلى محمد، فاسألوه كيف الحكم فيهما، وولوه الحكم عليهما، فإن عمل فيهما

١٣٨/١٤

(١) سورة النساء ١٦٦ (٢) فى الأصل: «على» والتصويب عن ابن هشام جـ ٢ : ٢١٢
(٣) سورة المائدة ١٨ (٤) سورة المائدة ١٩ (٥) فى ابن هشام: «منهم».

بعملكم من التَّجْبية — والتجبية : الجَلْد بحبلٍ من ليف قد طُلِي بقارٍ، ثم تُسَوَّد وجوههما، ثم يحملان على حمارين، وتجعل وجوههما من قبل أدبارِ الحمارين — فاتبعوه فإنما هو مَلِك، وصدّقوه، وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبيّ، فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه، فأتوه فقالوا : يامحمد، هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصَنت، فاحكم فيهما، فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى أحبارهم في بيت المِدْراس، فقال : "يامعشر يهود أخرِجوا إليّ علماءكم"، فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهوذا، فقالوا : هؤلاء علماؤنا، فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قالوا : هذا عبد الله بن صوريا أعلَمُ من بقي بالتوراة، فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان غلاما شابا مِنْ أحدثهم سِنًّا، فقال له : "يا بن صوريا، أنشُدك الله، وأذكِّرك بأيَّامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن الله حَكَم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في التوراة"؟ قال : اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم لَيعرفون أنك لَنبيٌّ مرسل، ولكنهم يحسدونك، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر برجمهما، فرُجما عند بابِ مسجِده، ثم كَفَر بعد ذلك ابن صوريا، وجَحَد نبوّة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾، أي الرجم، ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ

وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(١) إلى آخر القصة .

ورُوِى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برَجْمهما، فرُجِما بباب مسجده ، فلما وَجَدَ اليهودىّ مَسّ الحجارة قام إلى صاحبته فجَنَأَ(٢) عليها يقيها مسّ الحجارة حتى قُتلا جميعا .

وعن عبد الله بنِ عمر رضى الله عنهما قال : لما حكّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما دعاهم بالتوراة، وجلس حَبْرٌ منهم يتلوها، وقد وضع يده على آية الرّجْم، فضرب عبد الله بن سَلَام يد الحبر، ثم قال : هذه يا نبىّ الله آية الرّجْم، يأبى أن يتلوها عليك ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويحكم يا معشر يهود ! ما دعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم " ؟ ! فقالوا : أما إنه كان فينا يُعْمَل به ، حتى زنى رجل منا بعد إحصانه من بيوت الملوك وأهل الشرف فمنعه الملك من الرجم ، ثم زنى رجل من بعده فأراد أن يرجمه فقالوا : لا والله ، حتى ترجم فلانا ، فلما قالوا ذلك اجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التَّجْبِيَة ، وأماتوا ذكر الرَّجْم والعمل به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فأنا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به " . ثم أمر بهما فرُجما عند باب مسجده ، قال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما : [كنتُ](٣) فيمن رجمهما . قال : واجتمع كعب بن أسد

(١) سورة المائدة من ٤١ — ٤٤ (٢) جنأ عليها : أى أكب عليها ، ويروى «حنا» .
(٣) تكملة من ابن هشام .

وابن صَلُوبا، وعبد الله بن صُورِيا، وشاس بن قيس . وقال بعضهم لبعض : آذهبوا إلى محمد، لعلنّا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا : يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وأنا إن آتبعناك آتّبعك يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، أفنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدّقك ؟ فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

١٣٩/١٤

قال : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحبار يهود أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع ، وعازر بن أبي عازر ، وخالد بن زيد ، وأزار بن أبي أزار (٢) ، وأشيع ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال صلى الله عليه وسلم : " نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون". فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته، وقالوا : لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٣) . قال : وأتاه صلى الله عليه وسلم رافع ابن حارثة ، وسلام بن مِشْكَم، ومالك بن الضّيف، ورافع بن حُرَيْملة فقالوا : يا محمد ، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ، وتؤمن بما عندنا من التوراة ،

(١) سورة المائدة ٤٩ — ٥٠ . (٢) قال ابن هشام : « ويقال آزر بن أبي آزر » .
(٣) سورة المائدة ٥٩

وتشهد أنها من الله حقّ ؟ قال : " بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أُخذ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من أحداثكم ".

قالوا : فإنا نأخذ بما فى أيدينا ؛ فإنا على الهدى والحقّ ، ولا نؤمن بك ولا نتبعك ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

قال : وأتاه صلى الله عليه وسلم النَّحّامُ بن زيد ، وقَرْدَم بن كعب ، وبَحْرِىّ ابن عمرو ، فقالوا : يا محمد ، أما تعلم مع الله إلها غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله غيره ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو " ؛ فأنزل الله تعالى فيهم وفى قولهم : ﴿ قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

قال : وكان رفاعة بن زيد بن التابوت ، وسُوَيْد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، فكان رجال من المسلمين يوادّونهما، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ (٣) . وقال جبل بن أبى قشير (٤) ، وشَمْوِيل بن زيد لرسول الله صلى الله عليه

(١) سورة المائدة ٦٨ (٢) سورة الأنعام ١٩ — ٢٠ (٣) سورة المائدة ٥٧ — ٦١ (٤) فى الأصل : « جبل بن بشير » ، والتصويب من ابن هشام .

وسلم : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

٥ وقال محمود بن سَيْحان ونُعمان بن أضَاء، وبَحْرِيّ بن عمرو، وعُزير بن أبي عُزير، وسَلَام بن مِشْكَم، وفِنْحَاص، وعبد الله بن صُورِيا، وابن صَلُوبا، وكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، وأشيع، وكعب بن أسد، لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أحقّ يا محمد أن هذا الذى جئت به حقّ من عند الله؟ فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمَا والله إنكم لتعرفون أنه ١٠ من عند الله، تجدونه مكتوبا عندكم، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا به ما جاءوا به" فقالوا عند ذلك : يا محمد، أمَا يعلمك هذا إنس ولا جِنّ؟ فقال : "أمَا والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وأنى لرسول الله؛ تجدون ذلك مكتوبا عندكم فى التوراة" قالوا : يا محمد، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء، ويَقْدِر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه، ١٥ وإلا جئناك بمثل ما تأتى به . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٢)، والظهير : العَوْن .

قال : وأتى رَهْط من يهود (٣) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا : يا محمد، هذا الله خلق الخلق فمن خَلَقه؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٤٠/١٤

(١) سورة الأعراف ١٨٧ . (٢) سورة الإسراء ٨٨ .
(٣) فى ابن هشام : « أتى رسول الله » .

حتى انْتَقَع[1] لونُه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكّنه، فقال: خَفِّض عليك يارسول الله، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. اللهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[2]﴾، فلما تلاها عليهم قالوا: فصِفْ لنا كيف خَلْقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عَضُده؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل فقال له مثل ما قال له أول مرة، وجاءه من الله بجواب ما سألوه فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[3]﴾، وكانت سؤالات يهود وعَنَتهم وبغيهم وتحريفهم وتبديلهم كثيرة؛ قد نطق بذلك كله القرآن، وجاء بالردّ عليهم وبتكذيبهم وتفريقهم، ثم سلط الله عليهم المسلمين، وحكّم فيهم سيوفهم فقتلوهم وأجلوهم وآستأصلوا شأفتهم، وأسَرُوا وسَبَوْا منهم، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى الغزوات والسرايا، فلما أيسوا وأُبْلسوا عمدوا إلى تخيُّلات أخر من السِّحر والسّم.

ذكر ما ورد من أن يهود سحروا رسول الله صلى الله عليه وسلم

قالوا: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة الحُدَيبية سنة ست من مُهاجَره، ودخل المحرمُ سنة سبع، جاءت رؤساء يهود الذين بقوا بالمدينة ممن يظهر الإسلام وهو منافق، إلى لبيد بن الأعْصَم اليهودىّ حليف بنى زُرَيق، وكان ساحرا، قد علمت ذلك يهود أنه أعلمهم بالسِّحر وبالسُّموم، فقالوا له: يا أبا الأعصم أنت أسحر منا، وقد سَحَرْنا محمدا، فسحره منا الرجال والنساء فلم نصنع شيئا، وأنت

(١) آنتقع لونه: تغير. (٢) سورة الإخلاص.
(٣) سورة الزمر ٦٧.

ترى أثره فينا ، وخلافه ديننا ، ومن قتل منا وأَجْلَى[1] ، ونحن نجعل لك على ذلك جُعلا على أن تسحره لنا سحرا يَنْكَؤُه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعمد إلى مشط وما يُمْشَط من الرأس من الشعر فعقد فيه عُقَدا وتَفَل فيه تَفْلا ، وجعله فى جُفِّ طَلْعَةِ[2] ذكرٍ ، ثم انتهى به حتى جعله تحت أَرْعُوفَةِ[3] البئر ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا أنكره ، حتى يُخَيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ، وأنكر بصره حتى دَلَّه الله على ذلك[4] ؛ فدعا جُبَير ابن إياس الزُّرَقىّ وكان ممن شهد بدرا فدله على موضع فى بئر ذَرْوَان[5] تحت أُرْعُوفة البئر ، فخرج جُبير حتى استخرجه ، ثم أرسل إلى لبيد بن الأعصم ، فقال : "ما حملك على ما صنعت ، فقد دلنى الله على سحرك وأخبرنى بما صنعت" ؟ فقال : حُبّ الدنانير يا أبا القاسم . قال محمد بن سعد ، قال إسحاق بن عبد الله : فأخبرت عبد الرحمن ابن كعب بن مالك بهذا الحديث ، فقال : إنما سحره بنات أعصم أخوات لَبِيد ، وكنّ أَسْحَر من لبيد وأَخْبَث ، وكان لَبِيد هو الذى ذهب به فأدخله تحت أُرْعوفة البئر ، قال : فلما عَقَدوا تلك العقد أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الساعة بصره ، ودَسّ بناتُ أعصم إحداهنّ ، فدخلت على عائشة فخبّرتها عائشة — أو سمعت عائشة تذكر ما أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بصره — ثم خرجت إلى أخواتها وإلى لبيد فأخبرتهم ، فقالت إحداهنّ : إن يكن نبيا فسيُخْبَر ، وإن يك

(١) فى الأصل : « راجلا » وهو تحريف ، والتصويب عن ابن سعد .

(٢) الجف : وعاء الطلع ، وهو الغشاء الذى يكون فوقه . و « ذكر » صفة لجف .

(٣) الأرعوفة والراعوفة : صخرة تترك فى أسفل البئر إذا حفرت ، تكون ناتئة ، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنق عليها . وقيل : هى حجر يكون على رأس البئر يقوم المستق عليه .

(٤) فى الطبقات : « دله الله عليه » .

(٥) بئر ذروان : بالمدينة فى بستان بنى زريق من اليهود .

غير ذلك فسوف يدلّهه[1] هذا السحر حتى يذهب عقله ، فيكون بما نال من قومنا وأهل ديننا . فدله الله عليه :

وفى الصحيح عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سُحِر[2] ، حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشىء ولم يصنعه ، حتى إذا كان ذات يوم رأيته يدعو ، فقال : "أشَعَرتِ[3] أن الله قد أفتانى فيما استفتيته[4] ، أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلىّ ، فقال أحدهما : ما وجع الرجل ؟ فقال الآخر : مَطْبُوب[5] ، فقال : من طَبّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فيم ؟ قال : فى مُشْط ومُشاطة فى جُفّ طَلْعَة ذكر[6] ، قال : فأين هو ؟ قال : فى ذى ذَرْوان" ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رجع أخبر عائشة فقال : "كأنّ نخلها رءوس الشياطين ، وكأنّ ماءها نُقَاعة الحِنّاء" ، قالت فقلت : يارسول الله ، فأخرجْه للناس ، قال : "أمّا والله قد شفانى ، وخَشيت أن أثوِّر على الناس منه شرا"[7] .

١٤١/١٤

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُخِّذ[8] عن النساء وعن الطعام والشراب ، فهبط عليه مَلَكان وهو بين النائم واليقظان فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال : أحدهما لصاحبه :

---

(١) دله : حيره وأدهشه . وفى الأصل « يدله » ، وهو تصحيف .

(٢) فى الطبقات : « سحر له » .

(٣) أشعرت : أعلمت ؛ والخطاب للسيدة عائشة رضى الله عنها .

(٤) المعنى : أجابنى عما سألته عنه .

(٥) مطبوب : مسحور ؛ عبر عن السحر بالطب كما عبروا عن اللديغ بالسليم تفاؤلا .

(٦) فى الصحيح : « فى بئر ذروان » ، وهما روايتان .

(٧) قال القسطلانى : « الشر تذكر السحر وتعلمه ، وهو من باب ترك المصلحة خوف المفسدة » .

(٨) أخذ : حبس بالسحر .

ما شكواه ؟ قال : طُبّ — يعنى سُحر[1] — قال: ومن فعله ؟ قال : لَبِيد بن أعْصَم اليهودىّ ، قال : ففى أى شىء جعله ؟ قال : فى طَلْعـة ، قال : فأين وضعها ؟ قال : فى بئر ذَرْوَان تحت صخرة، قال: فما شفاؤه ؟ قال تُنزح البئر،وتُرفع الصخرة وتُستخرج الطَّلْعة . وٱرتفع الملكان؛ فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى علىّ وعَمّار فأمرهما أن يأتيا الرَّكىّ فيفعلا الذى سمع ، فأتياها وماؤها كانه قد خُضِب بالحِنّاء فنزحاها ، ثم رفعا الصخرة فأخرجا طَلْعة ، فإذا فيها إحدى عشرة عُقْـدة، ونزلت هاتان السورتان : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قرأ آية ٱنحلت عُقْدة، حتى ٱنحلت العُقَد، وٱنتشر نبىّ الله صلى الله عليه وسلم للنساء والطعام والشراب .

وجاء فى حديث آخر أن جبريل وميكائيل عليهما السلام أخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن السِّحر، وأنه صلى الله عليه وسلم أخذ لَبِيدًا، فاعترف فعفا عنه، رُوى عفوه عنه عن غير واحد ؛ قال عِكرمة : ثم [كان][2] يراه بعـد عفوه فيعرض عنه . وحيث ذكرنا حديث السِّحر فلا بأس أن نصله بالكلام على مشكله . والله أعلم بالصواب .

ذكر الكلام على مشكل حديث السِّحْر

وقد تكلم القاضى عِياض بن موسى بن عِياض على هـذا الحديث فقال : هذا الحديث صحيح متفق على صحته، وقـد طعنت فيه المُلحِدة ، وتذرّعت به لسخف عقولها ، وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك فى الشَّرع ، وقـد نزّه الله الشَّرع والنبى صلى الله عليه وسـلم عما يُدخِل فى أمره لَبْسًا ، وإنما السِّحر مرض من الأمراض

(١) قال فى اللسان : « كنوا بالطب عن السحر تفاؤلا بالبرء؛ كما كنوا عن اللديغ فقالوا : سليم » .
(٢) الزيادة من الطبقات .

وعارض من العِلَل يجوز عليه كأنواع الأمراض ، مما لا ينكر ولا يَقْدَحُ فى نبوته ، وأما ما ورد أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله ، فليس فى هذا ما يُدخِل عليه داخلةً[1] فى شيء من تبليغه و شريعته ، و يقدح فى صدقه ؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، و إنما هـذا فيما يجوز طُرُوُّه عليه فى أمر دنياه التى يبعث بسببها ، ولا فُضِّل من أجلها ، وهو فيها عرضة للافات كسائر البشر ، فغير بعيـد أن يُخَيَّل إليـه من أمورها ما لا حقيقة له ، ثم يتجلى عنـه كما كان .

وأيضا فقد فسّر هذا الحديث الآخر من قوله : "حتى يُخَيَّل إليه أنه يأتى أهله ولا يأتيهنّ" . وقد قال سفيان[2] : وهذا أشدّ ما يكون من السحر، ولم يأت فى خبر منها أنه نقل عنه فى ذلك قول ، بخلاف ما أخبر أنه فعله ولم يفعله ، و إنما كانت خواطر وتخيلات . وقد قيل : إن المراد بالحديث أنه كان يتخيل لشيء أنه فعله، وما فعله لكنه تخييل لا يعتقد صحته ، فتكون اعتقاداته كلها على السَّداد، وأقواله على الصحة . قال : هذا ما وقفت عليـه لأئمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث . قال : لكنه قد ظهر لى فى هـذا الحديث تأويل أجلى وأبعـد من مطاعين ذوى الأضاليل يستفاد من نفس الحديث ، وهو أن عبد الرزاق قد روى هذا الحديث عن ابن المسيّب ، وعُروة بن الزبير ، وقال فيه عنهما : سحر يهود بنى زُرَيق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوه فى بئر حتى كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُنـكر بصره[3] . ثم دلّه الله على ما صنعوا ، فاستخرجه من البئر . ١٤٢/١٤

فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السحر إنما يُسلّط على ظاهره وجوارحه ، لا على قلبه واعتقاده وعقله ، وأنه إنما أتى فى بصره، وحبَسه عن وَطْء

(١) الداخلة : النقيصـة والعيب والفساد . (٢) هو ابن عيينـة كما صرح به فى سـنده فى البخاري . (٣) أي ما أبصره ، أو ينكر نفس رؤيته لتأثير السحر فيه (شرح الشفاء) .

نسائه ، ويكون معنى قوله : "يخيل إليه أنه يأتى أهله ولا يأتيهنّ"، أى يظهر له من نشاطه ومتقدّم عادته القُدرة على النساء ، فإذا دنا منهنّ أصابته أُخْذَةٌ بالسِّحر، فلم يقدر على إتيانهنّ، كما يَعْترى من أُخِذ وٱعتُرِض ، قال : ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله : وهذا أشدّ ما يكون من السِّحر . والله أعلم بالصواب .

ذكر خبر الشاة التى سُمّ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان ذلك فى غَزاة خَيْبر ، بعد أن ٱفتتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لما ٱفتتح خَيْبَر وحصونها وٱطمأنّ ، أهدت إليه زينب ٱبنة الحارث ٱمرأة سَلَام بن مِشْكَم وهى ٱبنة أخى مَرْحَبْ الذى بارز يوم خيبر، وقتل — على ما نذكره إن شاء الله — شاة مَصْلِيَّة، وقد سألتْ : أىّ عضو من الشاة أحَبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها : الذِّراع، وأكثرت فيها السّمّ، ثم سَمّت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الذراع ، فَلَاك منها مُضْغة فلم يُسِغها ، وكان معه بِشْر بن البَراء بن مَعْرور ، فأخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها .

وروى الشيخ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقىّ فى دلائل النبوّة أنه صلى الله عليه وسلم أساغها ، ثم قال لأصحابه : "ٱرفعوا أيديكم فإنّ كتِف هذه الشاة يخبرنى أنها قد بُغِيتُ فيه"(١)، قال بشر بن البراء : والذى أكرمك لقد وجدت ذلك فى أكلتى التى أكلت، فما منعنى أن ألفظها إلا أنى أعظمت أن أنغصك طعامك ، فلما أسغتَ

(١) الحديث فى الدلائل نصه : « يخبرنى أن قد بغيت فيها » ، بغيت : طلبت ، من بغى يبغى بغاء ، بالضم ؛ إذا طلب . (نهاية ابن الأثير) .

مافى فيك لم أكن لأرغب بنفسى عن نفسك، ثم دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فٱعترفت ، فقال : " ما حملك على ذلك " ؟ قالت : بلغتَ من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان مَلِكا ٱسترحت منه ، و إن كان نبيا فسَيُخْبَر ، فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات بشر بن البراء . والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلها ، قيل : سَلَّمها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها . والله تعالى أعلم .

+ + +

وحيث ذكرنا من سيرته صلى الله عليه وسلم ما ذكرناه ، فلنذكر هنا حوادث السنين بعد الهجرة خلا الغزوات والسَّرَايا والوفود ، فإنا نورد ذلك إن شاء الله تعالى فيما بعد على ما تقف عليه .

ذكر الحوادث بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة النبوية على حكم السنين ؛ من السنة الأولى إلى السنة العاشرة خلا ما ٱستثنيناه ، وقدّمناه

حوادث السنة الأولى

فيها جعلت صلاة العصر أربع ركعات ، وكانت ركعتين وذلك بعد مَقْدَمه صلى الله عليه وسلم بشهر . وفيها صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة حين ٱرتحل من قُبَاء إلى المدينة ، صلاها فى طريقه ببنى سالم على ما تقدّم ، وهى أوّل جمعة صلاها ، وأوّل خطبة خطبها فى الإسلام . وفيها بَنَى صلى الله عليه وسلم مسجده ومساكنه ، ومسجد قُباء على ما تقدّم . وفيها آخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار بعد مقدمه بثمانية أشهر ، وقد تقدّم ذكر ذلك . وفيها أسلم عبد الله بنُ سَلَام . وفيها وُلد عبد الله بن الزبير بالمدينة . وفيها مات أبو قيس كلثوم بن الهدهد ، وهو أوّل من مات من المسلمين بالمدينة . ومات سعد بن زُرارة أبو أمامة . وفيها أعْرَس صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله عنها .

حوادث السنة الثانية

١٤٣/٤٤ فى هذه السنة توفيت رُقَيّة بنت النبي صلى الله عليه وسلم زوج عثمان بن عفان، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ببدر، وتوفى عثمان بن مظعون بَعد [رجوع](١) رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزاة بدر وشهدها عثمان . وفيها صُرِفت القبلة .

ذكر صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة وما تكلم به اليهود وما أنزل الله تعالى فى ذلك من القرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة يصلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا ، كما ورد فى صحيح البخارى وغيره . وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبل البيت ، فقال : " يا جبريل وددت أن الله تعالى صرف وجهى عن قِبلة يهود "، فقال جبريل : إنما أنا عبد فادع ربك وسَلْه . وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾(٢) .

قال محمد بن سعد : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين من الظهر فى مسجده بالمسلمين، ثم أُمِر أن يوجّه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ، ودار معه المسلمون ، قال ويقال : بل زار رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ بِشْر بن البراء ابن معرور فى بنى سَلِمَة، فصنعت له طعاما، وحانت الظهر، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ركعتين، ثم أمِر أن يُوَجّه إلى الكعبة، فاستدار إلى الكعبة، واستقبل الميزاب فسمى المسجد مسجد القِبلتين، وذلك يوم الاثنين للنصف من شهر رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مُهاجَره صلى الله عليه وسلم .

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) سورة البقرة ١٤٤

وروى البخاري أن أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلاة العصر، وصلى معه قومٌ، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبل مكة، فداروا كما هم قِبل البيت.

قال ابن إسحاق: ولما صُرفت القبلة أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رفاعةُ ابن قيس، وقَرْدَم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج ابن عمرو، والربيع بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، فقالوا: يامحمد، ما ولّاك عن قِبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟! ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها [نتبعك](1) ونصدّقك — وإنما يريدون فتنته عن دينه — فأنزل الله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(2)، أي إيمانكم بالقِبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعكم إياه الى القبلة الأخرى. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ. وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

(1) الزيادة من ابن هشام. (2) سورة البقرة ١٤٢ — ١٤٣.

إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١) ﴾ . والله أعلم .

ذكر خبر الأذان

١٤٤/١٤

قال محمد بن سعد بسنده إلى نافع (٢) بن جبير، وعُروة بن الزبير، وزيد بن أسلم، وسعيد بن المسيّب ، قالوا : كان الناس فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يؤمر بالأذان ينادِى منادى النبي صلى الله عليه وسلم : «الصلاة جامعة» ؛ فيجتمع الناس فلما صُرِفت القبلة إلى الكعبة أمِر بالأذان، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهَمّه أمر الأذان، وأنهم ذكروا أشياء (٣) يجمعون بها الناس للصلاة ، فقال بعضهم : البُوق ، وقال بعضهم : الناقوس ؛ فبينما هم على ذلك إذْ نام عبد الله ابن زيد الخزرجىّ، فأرِى فى المنام أن رجلا مَرّ وعليه ثَوْبان أخضران وفى يده ناقوس ، قال فقلت : أتبيع الناقوس ؟ قال : ماذا تريد به ؟ فقلت : أريد أن أبتاعه لكى أضرب به للصلاة لجماعة الناس، قال : فأنا أحدثك بخير لكم من ذلك؛ تقول : الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله، حَىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح ، الله أكبر، الله أكبر ، لا إله إلا الله . فأتى عبد الله ابن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : "قم مع بلال فألق عليه ما قيل لك وليُؤذِّن بذلك" ، ففعل . وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : لقد رأيت مثل الذى رآه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فلله الحمد"

(١) سورة البقرة ١٤٤ — ١٤٧ .

(٢) فى الأصل : «رافع بن جبير» وهو تصحيف ، والتصويب عن ابن سعد ، وتهذيب التهذيب .

(٣) فى الأصل : « شيئا » وما أثبتناه عن ابن سعد .

فذلك أثبت . قالوا : وأُذِّن بالأذان وبقى يُنادَى فى الناس : « الصلاة جامعة » ؛ للأمر يحدث ، فيحضرون له يُخبَرون به ، مثل فَتْح يُقرأ ، أو أمر يؤمرون به ، فينادَى : « الصلاة جامعة » ، وإن كان فى غير وقت الصلاة . وقد قدّمنا خبر الأذان من رواية على بن أبى طالب فى قصة الإسراء . والله أعلم .

وفى هذه السنة فُرِض صوم رمضان فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وفُرِضت زكاة الفطر قبل العيد بيومين ، وفيها ضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين ، أحدهما عن أمته ، والآخر عن محمد وآله ، وفيها وُلد النعمان بن بشير ، وفيها أعرس علىّ بن أبى طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنهما . والله أعلم .

حوادث السنة الثالثة

فيها تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم حَفْصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . وفيها توفّى عثمان بن مظعون عند بعضهم . وفيها تزوّج عثمان بن عفان رضى الله عنه أمّ كُلثوم بنت النبى صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة . وفيها ولد الحسن بن على رضى الله عنهما فى النصف من رمضان .

حوادث السنة الرابعة

فيها حُرّمت الخمر فى شهر ربيع الأول ، وقيل : حرّمت فى السنة الثالثة . وفيها صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فى غزوة ذات الرِّقاع . وفيها قُصِرت الصلاة . وفيها وُلِد الحسين بن على رضى الله عنهما . وفيها ماتت زينب بنت خُزيمة الهلالية أم المؤمنين . وفيها تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سَلَمة

فى شوال ، وتزوج زينب بنت جحش فى ذى القعدة على الصحيح . وفيها نزل الحجاب .

ذكر نزول الحجاب على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٤٥/١٤ كان سبب نزول الحجاب ماروا البخارى عن ابن شهاب قال : أخبرنى أنس بن مالك ، قال : كان أول ما أنزل الحجاب فى مُبْتَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ؛ أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم عَروسا ، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ، ثم خرجوا ، وبقى منهم رَهْط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجتُ معه كى يخرجوا ، فمشى صلى الله عليه وسلم ومشيتُ معه ، حتى جاء عَتَبة حُجْرة عائشة رضى الله عنها ، ثم ظنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم خرجوا ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجعتُ معه حتى دخل على زينب ، فإذا هم جلوس لم يتفرقوا ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجعتُ معه حتى بلغ عَتَبة حُجْرة عائشة ، فظنّ أن قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا ؛ فأنزل الله الحجاب ، فضرب بينى وبينه سترا ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (١) الآية . وعن عُروة بن الزُّبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : كان عمر رضوان الله عليه يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احجب نساءك يا رسول الله ، قالت : فلم يفعل . وكان أزواج

(١) سورة الأحزاب ٥٣ .

النبيّ صلى الله عليه وسلم يخرجن لَيْلا إلى لَيْل قِبَل المَنَاصِع[1] فخرجت سَوْدَة بنت زَمْعَة وكانت آمرأة طويلة، فرآها عمر بن الخطاب وهو فى المجلس، فقال: عرفتك يا سَوْدَة — حرصا على أن ينزل الحجاب — فأنزل الله [الحجاب][2]. وفى هذه السنة فُرِضت الزكاة فى المال.

حوادث السنة الخامسة

فيها تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ريحانة بنت زيد النَّضْرية، وجُوَيرية بنت الحارث المُصْطَلِقيّة. وفيها زلزلت المدينة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يَستعتِبكم فأعتِبوه"[3]. وفيها سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل. وقد تقدم ذكر ذلك فى الباب الأول من القسم الثالث من الفن الثالث فى الجزء التاسع من هذه النسخة. وفيها كانت غزوة بنى المُصْطَلِق بالمُرَيْسِيع. وحدث فى هذه الغزوة وقائع نذكرها فى هذا الموضع؛ فيها ما وقع بين المهاجرين والأنصار، وحديث الإفك، وخبر التيمُّم.

ذكر ما وقع بين المهاجرين والأنصار[4] فى غزوة المريسيع

وما قاله عبد الله بن أبيّ بن سلول المنافق

قال محمد بن إسحاق: لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على المُرَيْسِيع — وهو ماء لبنى المصطلق[5] — فى نزوله عن غزوته إياهم، وَرَدت واردةُ الناس،

(١) المناصع (جمع منصع): صعيد واسع آخر المدينة جهة البقيع.

(٢) الزيادة من البخارى، وبالأصل بياض.

(٣) آستعتب: طلب أن يعتب أى يسترضى؛ تقول: آستعتبته فأعتبنى؛ أى آسترضيته فأرضانى.

(٤) فى الأصل: «والآراء»، ولا معنى له.

(٥) بنو المصطلق: هم بنو جذيمة بن كعب؛ من خزاعة.

ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بنى غِفار، يقال له جَهْجَاهُ بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جَهْجَاه وسِنان بن وَبَر الجهنىّ — حليف بنى عوف بن الخزرج — على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنىّ: يا معشر الأنصار! وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين! فغضب عبد الله بن أُبىّ، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم — غلام حَدَث — فقال: أوَ قَدْ فعلوها! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعُدُّنا وجلابيب قريش[1] هـذه إلا كما قال الأوّل: سَمِّن كلبـك يأكُلْك؛ أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ. ثم أقبـل على من حضره من قومه وقال: هـذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتمـوهم[2] أموالكم، والله لو أمسكتم عنهـم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. قال: فمشى زيد بن أرقـم إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال عمر: مُرْ به عبّاد بن بِشْر فليقتله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه! لا، ولكن أَذِّنْ بالرحيل"، فارتحل الناس فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها، وجاء عبد الله بن أبىّ إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم فحلف بالله: ما قلت ما قال زيد بن أرقم عنّى، وما تكلمت به، فقال من حضر من الأنصار: يا رسـول الله، عسى أن يكون الغلام أَوْهَم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل.

١٤٦/١٤

فلما ٱستَقَلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه أُسَيْد بن حُضَيْر فقال: يا نبىّ الله، والله لقد رُحْتَ فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها. قال: "أو ما بلغك

(١) جلابيب قريش: لقب من كان أسلم من المهاجرين؛ لقبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب: الأزر الغلاظ، وكانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك.

(٢) فى الأصل: «أحللتموه بلادكم وقاسمتموه أموالكم»، وما أثبتناه عن ابن هشام.

ما قال صاحبكم "؟ قال : أيّ صاحب ؟ قال : "عبد الله بن أُبيّ" قال، وما قال يا رسول الله ؟ قال: "زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذل" قال: فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال : يا رسول الله ، أرفُقْ به ، فوالله لقد جاء الله بك وإنّ قومه لينظِمون له الخَرَز ليتوّجوه ، فإنه ليرى أنك استَلَبْته مُلْكا. قال: ثم مَتَن(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذاك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم(٢) الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا إلا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياما. قال : وإنما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان من عبد الله بن أُبيّ .

قال: ثم هبت ريح شديدة تخوّفها الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تخوّفوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار". فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بنى قَيْنُقاع — وكان من عظماء يهود، وكهفا للمنافقين — مات ذلك اليوم .

ونزلت السورة التى ذكر الله تعالى فيها المنافقين فى ابن أُبيّ ومن قال بقوله ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأُذُن زيد بن أرقم ثم قال: "هذا الذى أوفى لله بأُذُنه". وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول ما كان من أمر أبيه، فقال : يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، إنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل

(١) متن بالناس : أى ساربهم يومه أجمع .

(٢) فى الأصل : « آذته » ؛ وما أثبتناه عن ابن هشام .

النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نترفّق به ونحسن صحبته ما بقى معنا"، وكان بعد ذلك إذا أحاث حدَثا كان قومه هم الذين يعاتبونه ويُعنِّفونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: "كيف ترى يا عمر؛ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لى اقتله لأُرْعِدَتْ [له][1] آنُفٌ لو أمرتُها اليوم [بقتله][1] لقتَلَتْه"، فقال عمر: قد والله علمتُ لأمرُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى.

٥

* * *

ومن الحوادث فى هذه الغزوة حديث الإفْك.

ذكر حديث الإفك وما تكلم به من تكلم من المنافقين وغيرهم فيه وما أنزله الله تعالى من براءة عائشة، وفضل أبيها رضوان الله عليهما

١٠

هذا الحديث قد تداوله الرواة وأهل الأخبار والسِّيَر، فمنهم من زاد فيه زيادات كثيرة، وذكر تحامُلَ من تحامَلَ فى أمر الإفك، وتعصُّبَ من تعصَّبَ، فعلمت أن إيراد ذلك من أقوالهم يقتضى أن يصير فى نفس من سمعه من أهل السنّة شيئا ممن تكلم عليه بما تكلّم، ولعل ذلك لم يقع، فرأيتُ أن أقتصر منه على ما ثبت فى صحيح البخارىّ، واتّصل لنا بالرواية الصحيحة، وذكرتُ زيادات ذكرها ابن إسحاق — رحمه الله — ويحتاج إلى إيرادها مما لا ضرر فيه، نبهت عليها بعد مساق الحديث على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى. ولنبدأ بحديث البخارىّ[2]:

١٥

١٤٧/١٤ حدّثنا الشيخان المسندان المعمَّران، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى طالب نعمة الصالحىّ الحجّار، وستّ الوزراء أم محمد وزيرة بنت القاضى شمس الدين عمر ابن أسعد بن المنجا التَّنُوخيّة الدِّمشقيان قراءة عليهما وأنا أسمع، بالمدرسة المنصورية

٢٠

(١) الزيادة من ابن هشام. (٢) الحديث من صحيح البخارى ٦ : ٥

التى هى بين القصرين بالقاهرة المعزّية، فى جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة، قالا : حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزّبيدىّ، فى شوّال سنة ثلاثين وستمائة، بدمشق بالجامع المظفّرىّ بسفح جبل قاسيُون، قال : حدّثنا أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شُعيب السِّجْزِىّ[1] قراءة عليه ونحن نسمع ببغداد، فى آخر سنة اثنتين وأوّل سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال : حدّثنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفّر الداودىّ[2] فى شوّال وذى القعدة سنة خمس وستين وأربعمائة، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن حمويه السَّرَخْسىّ فى صفر سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة، قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفَرَبْرىّ بفَرَبْر[3] سنة ستّ عشرة وثلثمائة، قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارىّ قراءة عليه بتِبْرِيز سنة ثمان وأربعين ومائتين، ومرة فى سنة اثنتين وخمسين، قال : حدّثنا يحيى بن بُكَير، قال : حدّثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب، قال : أخبرنى عُروة بن الزُّبير، وسعيد بن المسيّب، وعَلْقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، وكلٌّ حدّثنى طائفةً من الحديث، وبعضُ حديثهم يُصدِّق بعضا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض؛ الذى حدّثنى عُروة عن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج

(١) السجزىّ : نسبة إلى سجستان على غير قياس؛ وفى الأصل «المنجرى» وهو تصحيف.

(٢) فى الأصل «الداوردى»، وصوّبناه عن السمعانى.

(٣) فربر : بلد قرب بخارى.

أقرع بين أزواجه، فأيتهنّ خرج سهمُها خرج [بها][1] رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا فى غَزْوة[2] غزاها فخرج سهمى، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل الحِجاب، فأنا أُحْمَل فى هَوْدجى وأُنزَل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوته تلك وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، آذنَ ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذنُوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأنى أقبلتُ إلى رَحْلى فإذا عِقْد لى من جَزْع ظَفَارِ[3] قد انقطع، فالتمست عِقْدى وحبسنى ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يَرْحَلون لى، فاحتملوا هَوْدَجى فرَحَلوه على بعيرى الذى كنتُ ركبتُ، وهم يحسبون أنّى فيه، وكان النساءُ إذ ذاك خِفافاً لم يُثقلهنّ اللحم، إنما تأكل العُلْقَة[4] من الطعام، فلم يستنكر القوم خِفّة الهودَج حين رفعوه، وكنتُ جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدتُ عِقْدى بعدما استمرّ الجيش، فجئتُ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فأممتُ منزلى الذى كنتُ به، وظننتُ أنهم سيفقدونى فيرجعون إلىّ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمتُ، وكان صَفْوان بن المعَطَّل السُّلَمىّ ثم الذَّكوانىّ من وراء الجيش، فأَدْلَجَ فأصبح عند منزلى، فرأى سواد إنسان نائم، فأتانى فعرفنى حين رآنى، وكان يرانى قبل الحِجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفنى، فخمَّرتُ وجهى بجِلبابى، ووالله ما كلّمنى كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش

(١) الزيادة من البخارى. (٢) هى غزوة بنى المصطلق من خزاعة.

(٣) الجزع: خرز معروف فى سواده بياض كالعروق. وظفار: مدينة باليمن. ويروى «أظفار» بالهمزة المفتوحة وسكون الظاء. (٤) العلقة كغرفة: القليل.

بعدما نزلوا مُوغِرين[1] فى نَحْر الظهيرة ، فهَلك مَن هَلك[2] — وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أُبىّ بن سلول — فقدِمنا المدينة ، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهرا ، والناس يُفيضون فى قول أصحاب الإفك ، لا أشعر بشىء من ذلك ، وهو يريبنى[3] فى وجعى ؛ أنّى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللُّطفَ الذى كنتُ أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلِّم[4] ثم ينصرف ، فذلك الذى يريبنى ، ولا أَشْعر بالشَّر حتى خرجتُ بعدما نقَهتُ ، فخرجت معى أمّ مِسْطَح قِبَل المناصع — وهو مُتبرَّزنا — وكنا لا نخرج إلّا ليلًا إلى لَيْل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريبا من بيوتنا ، وأَمْرُنا أَمْرُ العرب الأُوَل فى التبرز [قِبَل][5] الغائط ، فانطلقت أنا وأم مِسْطح ، وهى بنت أبى رُهْم بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر ابن عامر خالةُ أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، وابنُها مِسْطح بن أُثاثة ، فأقبلت أنا وأم مِسْطح قِبل بيتى قد فرغنا من شأننا ، فعثَرت أمُّ مِسْطح [فى مِرْطها][5] ، فقالت : تَعِس مِسْطح ؛ فقلتُ لها : بِئْس ما قلت : أتسبِّين رجلا قد شَهد بدرا ؟ ! قالت : أىْ هَنتاهْ ، أو لم تسمعى ما قال ؟ قالت قلتُ : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضا على مرضى ، قالت : فلما رجعتُ إلى بيتى ، ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : " كيف تيكم " ؟ فقلت : أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبلهما ؛ قالت : فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أبوىّ ،

١٤٨/١٤

(١) موغرين : داخلين ، ونحر الظهيرة : هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع .

(٢) أى بسبب الإفك . (٣) يريبنى (بفتح أوله وبضمه) : أى يشككنى ويوهمنى .

(٤) زاد البخارى بعد هذا : « ثم يقول كيف تيكم ... الخ » .

(٥) الزيادة عن البخارى .

فقلت لأمِّى : يا أُمَّتاه ، ما يتحدّث الناس ؟ قالت : يا بُنيَّة ، هَوِّنى عليك ، فوالله لَقلَّما كانت آمرأة قَطُّ وضيئةً عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أَكْثرن عليها، قالت فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدّث الناس بهذا ؟ ! قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يَرْقأ[1] لى دَمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب وأُسامة بن زيد رضى الله عنهما حين آستلبث الوحىُ[2] يستأمرهما فى فِراق أهله . قالت : فأما أُسامة بن زيد ، فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يَعلم لهم فى نفسه من الوُدّ ، فقال : يا رسول الله ، أهلُك وما نعلم إلا خيرا . وأما علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقال : يا رسول الله ، لم يُضيِّق الله عليك ، والنساء سواها كثير[3] ، وإن تسأل الجارية تَصدقْك . قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرِيرة ، فقال : "أى بَرِيرة ، هل رأيتِ من شىء يريبك" ؟ قالت بَرِيرة : لا والذى بعثك بالحقّ ، إنْ رأيتُ عليها أمرا أَغمِصُه[4] عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السنّ تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجِنُ[5] فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فآستعذَر من عبد الله بن أبىّ بن سلول ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : "يا معشر المسلمين ، من يَعْذِرنى[6] مِن رجلٍ قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ! فوالله ما علمتُ على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ماعلمتُ عليه إلّا خيراً ، وما كان

(١) لا يرقأ : لا ينقطع . (٢) الوحى : بالرفع فاعل ؛ أى طال لبث نزوله ، وضبط بالنصب على أنه مفعول به ؛ أى استبطأ النبى صلى الله عليه وسلم الوحى .

(٣) فى الأصل : « كثيرون تسأل ... الخ » ، وما أثبتناه عن البخارى .

(٤) إن رأيت : ما رأيت . وأغمصه : أعيبه .

(٥) الداجن : الشاة التى تألف البيوت ولا تخرج إلى المرعى .

(٦) من يعذرنى : من يقوم بعذرى إن كافأته على قبيح فعله ، ولا يلومنى ! أو من ينصرنى ! .

يَدخُل على أهلى إلّا معى" . فقام سعد بن معاذ الأنصارىّ فقال : يا رسول الله، أنا أَعذِرك منه ؛ إن كان من الأوس ضربتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخَزْرج أمرتَنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عُبادة وهو سيّد الخَزْرج ، وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحَمِيّة (١) . فقال لسعد : كذبتَ ، لَعَمْرُ الله (٢) لا تقتله ، ولا تقدر على قتله ، وقام أُسَيْد بن حُضَيْر — وهو ابن عم سعد — فقال لسعد بن عُبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فتثاور الحيّان : الأوسُ والخزرجُ حتى هَمُّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخَفِّضهم (٣) حتى سكتوا وسكتَ . قالت : فبكيتُ يومى ذلك لا يَرقأ لى دمع ، ولا أَكتحل بنوم ، قالت : وأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يَرقأ لى دمع ، يظنان أن البكاء فالق كَبِدى ، فقالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنتْ علىّ امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها ، فجلست تبكى معى ، قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلّم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى ، قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ، ثم قال : " أمّا بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنتِ ألممتِ بذنب ، فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإنّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه " . قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قَلَصَ دمعى حتى ما أُحِسُّ منه قَطْرة ، فقلت لأبى : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال : والله

(١) احتملته الحمية : أى أغضبته . (٢) لعمر الله : اى وبقاء الله .
(٣) يخفضهم : يسكنهم ، ويهون عليهم الأمر .

١٤٩/١٤

ما أدرى ما اقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمّى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السنّ لا أقرأ كثيرا من القرآن : إنّى والله لقد علمتُ ؛ لقد سمعتم هذا الحديث حتى آستقرّ فى أنفسكم وصدّقتم به ، فلئن قلت لكم إنّى بريئة لا تُصدِّقونى بذلك ، ولئن آعترفت بأمرٍ والله يعلم أنّى بريئة منه لتصدقنّى ، والله ما أجد لكم مَثَلا إلا قولَ أبى يوسف ، قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ . قالت : ثم تحوّلتُ فاضطجعتُ على فراشى ، قالت : وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله يبرئنى ببراءتى ، ولكن والله ما كنتُ أظن أنّ الله مُنزلٌ فى شأنى وحيًا يُتلى ، ولَشأنى فى نفسى كان أحقرَ من أن يتكلّم الله فىّ بأمر يُتلى ، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام[1] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزِل عليه ، فأخذه ما يأخذه من البُرَحاء[2] ، حتى إنه ليَتحدَّر منه مثلُ الجُمان[3] من العرَق — وهو فى يوم شاتٍ — من ثِقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سُرِّىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سُرِّىَ عنه وهو يضحك ، فكانت أوّل كلمة تكلّم بها : " يا عائشة ، أمّا اللهُ فقد برّأك " ، فقالت أمّى : قومى إليه ، قالت فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عزّ وجل ، وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ . لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

(١) ما رام : أى ما فارق . (٢) البرحاء : العرق من شدة ثقل الوحى .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .

فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1]، قالت عائشة : فلما أنزل الله تعالى هذا فى براءتى ، قال أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، وكان ينفق على مِسْطح بن أُثَاثة لقرابته وفقره : والله لا أنفق على مِسْطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة — رضى الله عنها — ما قال ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2] . قال أبو بكر رضى الله عنه : بلى والله إنى أحبّ أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مِسْطح النفقةَ التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا . قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جَحْش عن أمرى فقال : " يا زينب ، ماذا علمتِ أو رأيتِ " ؟ ، فقالت : يا رسول الله ، أَحْمِى سمعى وبصرى ، ما رأيتُ إلا خيرا ، قالت : وهى التى كانت تُسامِينى[3] من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله بالورع ، وطَفِقت أختها حَمْنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك . انتهى حديث البخارىّ .

(١) سورة النور ١١ — ٢٠ (٢) سورة النور ٢٢

(٣) تسامينى : أى تضاهينى ، وتفاخرنى بجمالها ومكانتها عند النبى صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو محمد عبد الملك بن هشام بسنده إلى عُروة بن الزُّبير، وعبد الله ابن عبد الله بن عُتْبة، وعبد الله بن الزبير، وعَمْرة بنت عبد الرحمن، كلهم يُحدِّث عن عائشة — رضى الله عنهم — بنحو هذا الحديث، وزاد فيه من قول أُسامة ابن زيد؛ فأثنى خيرا، وقاله؛ ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم إلا خيرا، وهذا هو الكذب والباطل. قال: وأمّا علىّ بن أبى طالب فإنه قال: يارسول الله، إنّ النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تَستخلِف، وآسأل الجارية فإنها ستَصْدُقك. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرِيرة ليسألها، فقام إليها علىّ بن أبى طالب فضربها ضربا شديدا، وقال: أصْدُقِى رسول الله. وساق نحو ما تقدم. وقال فى خبر الوحى: قالت فوالله ما برِح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تَغشّاه من الله ما كان يَتغشّاه، فسُجِّى بثوبه، ووُضِعت له وِسادة من أدَم تحت رأسه، فأمّا أنا حين رأيت ما رأيت فوالله ما فزِعتُ ولا باليتُ؛ قد عرفت أنى منه بريئة، وأنّ الله غير ظالمى، وأمّا أبواى، فوالذى نفس عائشة بيده، ماسُرِّىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننتُ لتخرجنّ أنفسُهما فَرَقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس. وساق الحديث بنحو ماتقدم. ثم قال: قالت ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل عليه من القرآن فى ذلك، ثم أمر بمِسْطح بن أُثاثة، وحسّان بن ثابت، وحَمْنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُرِبوا حدّهم؛ فقال رجل من المسلمين فى ذلك:

لقد ذاقَ حسّانُ الذى كان أهلَه * وحَمْنةُ إذ قالوا هَجِيرًا ومِسْطَحُ (١)
تَعاطَوْا برجم الغيبِ زوجَ نبيِّهم * وسَخْطةَ ذى العَرْش الكريم فأُتْرِحوا (٢)

(١) الهجير: الفحش من القول. (٢) الرجم: الظن، وأترحوا: أحزنوا.

١٥٠
١٤

وآذَوْا رسولَ الله فيها بفَلَّوا * مَخازى تَبْقَى عُمُّوها وفُضِّحُوا
وصُبَّتْ عليهم مُحْصَداتٌ كأنها * شآبيبُ قَطْرٍ من ذُرَى المُزْنِ تَسْفَحُ (١)

وحكى أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة مِسْطح — وهو عوف بن أُثاثة بن عبّاد ابن عبد المطلب بن عبد مناف بن قُصىّ ، وأمه سلمى بنت صخر بن عامر خالة أبو بكر الصدِّيق . قال : وذكر الأموى عن أبيه عن ابن إسحاق قال قال أبو بكر يذكر مِسطحا :

يا عوفُ ويحكَ هَلَّا قلتَ عارِفةً * من الكلام ولم تُتبع بها طمَعَا
وأدركتْكَ حُمَيَّا مَعْشَرٍ أُنُفٍ * ولم تكن قاطعًا يا عَوْفُ مَنْ قطعَا
هَلَّا حَرِبْتَ من الأقوام إذ حسدوا * فلا تقولُ ولو عاينتَه قَذَعَا
لمّا رمَيْتَ حَصانًا غيرَ مُقْرِفَةٍ * أمينَةَ الجَيْبِ لم نعلم لها خَضَعَا
فيمن رماها وكنتم مَعْشَرا أُفُكًا * فى سَيِّءِ القول من لفظ الخنَا شرَعَا
فأنزل الله وَحْيًا فى براءتها * وبين عَوفٍ وبين الله ما صَنَعَا
فإن أَعِشْ أَجْزِ عَوْفًا عن مقالته * شَرَّ الجَزَاءِ إذا أَلْفَيْتُه تَبِعَا

ولعل هذا الشِّعر إن صحّ عن أبى بكر فيكون قاله قبل نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ الآية . فإنه قد صح أن أبا بكر قال عند نزولها : والله إنّى أحِبّ أن يغفر الله لى ، ورَجَع إلى مِسْطح النفقةَ التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها عنه أبدا .

وقال محمد بن إسحاق : حدّثنى أبى إسحاق بن يَسَار عن بعض رجال بنى النجار : أن أبا أيوب خالد بن زيد ، قالت له امرأته أمّ أيوب : ألا تسمع ما يقول

(١) محصدات : يعنى سياطا محكمة الفتل شديدات . شآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر . والذرى : الأعالى . وتسفح : تسيل .

الناس فى عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أكنتِ يا أمّ أيوب فاعلة ؟ قالت : لا واللهِ ما كنتُ لأفعله ؛ قال : فعائشة والله خيرٌ منكِ . فلما نزل القرآن بذكر من قال من أهل الفاحشة ما قال أهل الإفك، ثم قال : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ ، أى فقالوا كما قال أبو أيوب وصاحبته .

٥ قال ابن إسحاق : وكان حسّان بن ثابت قال شعرا يُعرِّض فيه بصفوان بن المعطَّل ، فاعترضه صفوان فضربه بالسيف ، ثم قال :

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيفِ عنكَ فإنّنى * غلامٌ إذا هُوجيتُ لستُ بشاعرِ

فوثب ثابت بن قيس بن شمّاس على صفوان بن المعطَّل حين ضرب حسّان فجمع يديه إلى عنقه بحبل ، ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه ١٠ عبد الله بن رَوَاحة فقال : ما هذا ؟ قال : أما أعجبك[1] ! ضربَ حسّانَ بالسيف والله ما أراه إلا قد قتله ؛ فقال له عبد الله بن رَوَاحة : هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء مما صنعت ؟ قال : لا والله ؛ قال : لقد اجترأتَ ، أطلق الرجل ، فأطلقه ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا ذلك له ، فدعا حسّان وصفوان ، فقال صفوان : يارسول الله ، آذانى وهجانى ، فحملنى الغضب فضربته ، فقال رسول الله ١٥ صلى الله عليه وسلم : "ياحسّان ، أتشوّهتَ[2] على قومى أن هداهم الله للإسلام" ؟ ثم قال : "أحسِنْ يا حسّان فى الذى قد أصابك" قال : هى لك ؛ فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عِوضا عنها بَيْرَحا — وهى قصر بنى حُدَيْلَة — كانت مالا لأبى طلحة وتصدّق بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاها حسّانَ فى ضربته ، وأعطاه

١٥١/١٤

(١) قال السهيلى : «معناه أما جعلك تعجب ، تقول عجبت من الشىء وأعجبنى الشىء إذا كان ذلك العجب من مكروه أو محبوب» . (٢) أتشوهت على قومى : أقبحت ذلك من فعلهم حين سميتهم بالجلابيب من أجل هجرتهم إلى الله ورسوله .

سيرين — أَمَةٌ قِبْطِيَّة — فولدت له عبد الرحمن بن حسّان . قال : وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : لقد سُئل عن ابن المعطَّل فوجدوه رجلا حَصُورا ما يأتى النساء ، ثم قُتِل بعد ذلك شهيدا رضى الله عنه .

وقال حسّان بن ثابت يعتذر من الذى كان منه فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبَةٍ * وتُصبحُ غَرْثَى من لحُوم الغَوافِلِ (١)
عَقِيلة حَىٍّ مِن لُؤَىِّ بن غالبٍ * كِرام المساعِى مجدُهم غير زائِلِ (٢)
مُهَذَّبَةٌ قد طَيَّبَ اللهُ خِيمَها * وطَهَّرها مِن كلِّ سُوءٍ و باطِلِ (٣)
فإن كنتُ قد قلتُ الذى قد زَعَمْتُمُ * فلا رَفعتْ سَوْطِى إلىّ أنامِلى
وكيف ووُدِّى ما حَيِيتُ ونُصرتى * لآلِ رسولِ الله زَيْنِ المحافِلِ
له رَتَبٌ عالٍ على الناس كلِّهِمْ * تَقاصَرَ عنها سَوْرَةُ (٤) المتطاوِلِ
فإنّ الذى قد قِيل ليس بِلائِطٍ (٥) * ولكنه قولُ امرئٍ بِىَ ماحِلِ (٦)

وقد روينا عن البخارىّ رحمه الله بالإسناد المتقدم ، قال : حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن عائشة

(١) الحصان : العفيفة . الرزان : الملازمة موضعها ، التى لا تتصرف كثيرا . ما تزن : أى ما تتهم . غرثى : جائعة . الغوافل : جمع غافلة ؛ أى لا ترتع فى أعراض الناس .
(٢) العقيلة : الكريمة . المساعى (جمع مسعاة) : وهو ما يسعى فيه من طلب المجد والكرم .
(٣) الخيم : الطبع والأصل .
(٤) السورة : المنزلة ، والرتبة .
(٥) اللائط : اللاحق واللازق .
(٦) كذا فى الأصل ، والذى فى ديوان حسان :
* بها الدهر بل قول امرئ بى ماحل *
الماحل المشاء بالنميم .

رضى الله عنها قالت : جاء حسّان بن ثابت يستأذن عليها، قلت : أتأذنين لهذا ؟ قالت : أو ليس قد أصابه عذاب عظيم ؟ قال سفيان : تعنى ذهاب بصره، فقال :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِريبةٍ * وتُصبِحُ غَرْثَى مِن لُحُوم الغَوافِل

قالت : لكن أنتَ[1] .

وعن مسروق أيضا قال : دخل حسّان على عائشة فَشبَّب فقال : حَصانٌ رَزانٌ ... ... البيت . قالت : لستَ كذلك، قلت : تَدعِين هذا يدخل عليك وقد أنزل الله : ﴿وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ ؟ قالت : وأىُّ عذاب أشدُّ من العمى ! وقد كان يَرُدُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر خبر التيمم

من أهل العلم من ذهب إلى أن آية التيمم أنزلت فى غزوة المُرَيْسِيع[2] ، ومنهم من ذهب إلى أنها أنزلت فى غيرها . روى أبو عبد الله محمد البخارىّ رحمه الله بسنده عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبَيْداء — أو بذات الجيش — انقطع عِقْد لى، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه، وأقام الناسُ معه وليسوا على ماء، فأتى الناسُ إلى أبى بكر الصِّدِّيق فقالوا : أَلَا تَرى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناسِ ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضعٌ رأسه على فخذى قد نام، فقال :

(١) إشارة إلى أنه آغتابها فى قصة الإفك .

(٢) المريسيع : ماء لبنى خزاعة بينه و بين الفرع (بضم الفاء والراء) مسيرة يوم، وهذه الغزوة هى غزوة بنى المصطلق . (المواهب) .

حَبَسْتِ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والناسَ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! فقالت عائشة: فعاتبنى أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعننى بيده فى خاصرتى، فلا يمنعنى من التحرك إلا مكانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التَّيمم فتيمَّموا، فقال أُسَيد بن الحُضَيْر: ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر. قالت: فبعثنا البعير الذى كنتُ عليه، فأصبنا العِقْد تحتَه. ١٥٢/١٤

حوادث السنة السادسة[1]

فيها كانت غزوة الحُدَيبيّة، وبيعة الرِّضوان، وهُدنة قريش، على ما نذكر ذلك كله فى الغزوات إن شاء الله تعالى، وفيها خُطَّ الناسُ، فاستسق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس فى شهر رمضان فسُقوا، وفيها هاجرت أمّ كلثوم.

ذكر هجرة أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبى مُعَيْط، وما أنزل الله تعالى فى هجرة النساء

لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة الحُدَيبيّة، بعد أن حلت الهُدْنة، وتقررت القَضِيّة، وكان فيما وقع عليه الصُّلْح: أنه من جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وَلِيِّه ردَّه إليهم، وردَّ من ردَّ من رجال المسلمين، على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى الغزوات. ثم هاجرت أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبى مُعَيط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك المدة، فخرج أخواها عُمارة والوليد، ابنا عقبة، حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألانه أن يردّها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش، فلم يفعل؛ وذلك أن الله عزّ وجل

(١) فى الأصل: «الثالثة» وهو تحريف.

أنزل : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾[1]، فمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء لذلك ، وأمر برد صدقاتهن إليهم إن هم ردوا على المسلمين صدقات من حبسوا عنهم من نسائهم .

قال ابن إسحاق : ولما أنزل الله تعالى قوله : ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، كان ممن طلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، طلق امرأتيه قريبة ابنة أبى أمية ابن المغيرة، فتزوجها بعده معاوية بن أبى سفيان، وأم كلثوم بنت جرول أم عبيد الله ابن عمر الخزاعية ، فتزوجها أبو جهم بن حذيفة بن غانم، وكانوا إذ ذاك على شركهم . والله أعلم .

[حوادث السنة السابعة][2]

فيها تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وصفية بنت حيى بن أخطب، وميمونة بنت الحارث الهلالية . وفيها أسلم أبو هريرة — واسمه فى الجاهلية عمير بن عامر بن عبد ذى الشرى ، وفى الإسلام عبد الرحمن بن صخر الدوسى، وأسماؤه كثيرة بحسب ما ورد من اختلاف أقوال الرواة، وقد صححوا ما ذكرناه، والله أعلم — وعمران بن حصين. وفيها حرمت الحمر الأهلية، ومتعة النساء

(١) سورة الممتحنة ١٠ — ١١ (٢) العنوان ساقط من الأصل .

على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى غزوة خَيْبر . وفيها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرُّسل إلى الملوك ، وقدم حاطب بن أبى بَلْتَعة من عند المُقَوْقِس بمارية بنت شَمْعون القِبْطية أم إبراهيم عليه السلام وأختها شِيرِين . وفيها قدم جعفر بن أبى طالب ومن كان قد بقى من المهاجرين بأرض الحبشة ، وقد تقدم ذكرهم .

حوادث السنة الثامنة

١٥٣/١٤ فيها وُلد إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مارية . وفيها توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها وَهَبَت سَوْدَة زوج النبى صلى الله عليه وسلم يومها لعائشة رضى الله عنها حين أراد طلاقها . وفيها عُمِل مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطب عليه .

ذكر اتخاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر وخطبته عليه

روى محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى بسنده عن أبى هُريرة رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إلى جِذْع فى المسجد قائما ، فقال : " إن القيام قد شَقَّ علىّ " ، فقال له تميم الدارىّ : ألا أعمل لك مِنْبرا كما رأيتُ يُصنع بالشام ؟ ، فشاور رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمين فى ذلك ، فرأوا أن يتخذه ، فقال العباس بن عبد المطلب : إن لى غلاما يقال له كِلاب أَعْمَلُ الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مُرْه أن يعمله " ، فأرسله إلى أَثْلَة بالغابة فقطعها ، ثم عمل منها درجتين ومقعدا ، ثم جاء به فوضعه فى موضعه [اليوم](١) ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه وقال : " مِنْبرى هذا على تُرعة من تُرع الجنة ، وقوائم مِنْبرى رواتب فى الجنة " . وعن سهل بن سعد

(١) الزيادة من ابن سعد .

وقد سئل عن مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أى عُود هو ؟ فقال : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلانة ـ آمرأة سماها ـ فقال : "مُرِى غلامَك النجار يعمل لى أعوادا أكلّم الناس عليها"، فعمل هذه الثلاث درجات من طَرْفَاء الغابة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه فى هذا الموضع . وقد رُوى عن باقُوم الرومىّ أنه قال : صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مِنبرا من طرفاء، ثلاث درجات : القعدة ودرجتيه؛ رواه عنه صالح مولى التَّوْءَمة (١) . حكاه أبو عمر فى ترجمة باقوم . ولما آنتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه كان من حَنِين الجِذْع ما نذكره إن شاء الله تعالى فى معجزاته صلى الله عليه وسلم .

وفى هذه السنة أسلم عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، على ما نشرح ذلك .

ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

كان سبب إسلامهم على ماحكاه محمد بن إسحاق بسنده يرفعه إلى عمرو بن العاص، قال عمرو : لما آنصرفنا مع الأحزاب عن الخَنْدق جمعتُ رجالا من قريش كانوا يرون رأيى، ويسمعون منّى، فقلت لهم : تَعلَّموا والله أنى أرى أمر محمد يعلو الأمورَ عُلوًّا مُنكرا، وإنّى قد رأيت أمرًا فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت؟ قال : رأيت أن نَلْحق بالنّجاشى فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النّجاشىّ، فإنّا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدَىْ محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا : إن هذا

(١) التوءمة : هى بنت أمية بن خلف الجمحى، وإنما قيل لها : التوءمة لأنها كانت معها أخت لها فى بطن . (انظر أسد الغابة) .

لرأيٍ، قلت : فاجمعوا ما يُهدَى له ، وكان أحبَّ ما يُهدَى إليه من أرضنا الأَدَم ، فجمعنا أَدَمًا كثيرا ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه . فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضَّمْرىّ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه ، قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النَّجاشىّ وسألته إياه فأعطانيه فضربتُ عنقه، فإذا فعلتُ ذلك رأت قريش أنى قد أجْزَأْت عنها، فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال لى : مرحباً بصديقى، أهديتَ لى من بلادك شيئا؟ قلت : نعم أيها الملك، قد أهديت لك أَدَمًا كثيرا ، ثم قرّبته إليه فأعجبه ، ثم قلت له : أيها الملك، إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال : فغضب، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت الأرض لدخلت فيها فَرَقا منه ، ثم قلت له : أيها الملك، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتكه ، قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه النّامُوس الأكبر الذى كان يأتى موسى صلى الله عليه وسلم لتقتله ! فقلت : أيها الملك، أكذاك هو؟ قال : وَيْحَكَ يا عمرو، أطعنى واتَّبِعه، فإنه والله لعلى الحقّ، وليظهرنّ على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال : قلت : أفتبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم ، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه، وكتمتهم إسلامى .

١٥٤/١٤

ثم خرجت عامدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقيت خالد بن الوليد وهو مقبل من مكة ، فقلت : إلى أين يا أبا سليمان ؟ فقال : لقد استقام المنْسِم(١)،

(١) استقام المنسم : معناه تبين الطريق ووضح ، وفى الأصل : «المبسم» وفى ابن هشام «الميسم» والتصويب عن الخشنى ، وابن الأثير .

وإن الرجل لنبيّ ، أذهب والله فأسلم فحتى متى ! قال قلت : والله ما جئتُ إلا لأسلم، قال : فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت : يا رسول الله، إنى أبايعك على أن يُغفَر لى ما تقدّم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر، فقال : "يا عمرو : بايع، فإن الإسلام يجُبُّ[1] ما كان قبله، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلها"، فبايعت ثم آنصرفت .

قال ابن إسحاق : وحدثنى من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة كان معهما فأسلم حين أسلما .

حوادث السنة التاسعة

فيها آلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسائه، وأقسم ألّا يدخل عليهنّ شهرا . وكان سبب الإيلاءِ ما رواه البخاريّ بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ العسل والحلواء، وكان إذا آنصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهنّ ، فدخل على حَفْصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس فغِرْتُ، فسألت عن ذلك فقيل لى : أهدت لها آمرأة من قومها عُكّة عسل، فسقت النبيّ صلى الله عليه وسلم منه شَرْبة، فقلت : أمَا والله لنحتالنّ له، فقلت لسَوْدة بنت زَمْعة : إنه سيدنو منكِ، فإذا دنا منك فقولى له : أكلتَ مَغافير، سيقول لكِ : لا، فقولى له : ما هذه الريح التى أجد ؟ فإنه سيقول لكِ : سقتنى حفصة شَرْبة عسل، فقولى له : جَرَسَت[2] نحلُه العُرْفُطَ، وسأقول ذلك، وقولى أنت ياصفية ذلك، قالت : تقول سَوْدة فوالله ما هو إلا أن قام على

(١) يجب : يقطع ويمحو . (٢) جرست : أكلت؛ يقال للنحل الجوارس ، والعرفط : شجر الطلح، وله صمغ كريه الرائحة ، فإذا أكلته النحل حصل فى عسلها من ريحه .

الباب فأردت أن أُبادِئه بما أمرتنى به فَرَقًا منك . ومن رواية مسلم — قالت تقول سَوْدة : فوالذى لا إله إلا هو لقد كِدتُ أُبَادئه بالذى قلتِ لى ، وإنه لعلى الباب فَرَقًا منك . قال البخارىّ : فلما دنا منها قالت له سَوْدَة : يارسول الله ، أكلت مَغَافِير؟ قال : "لا" قلت : فما هذه الريح التى أجد منك ؟ قال : "سَقتنى حَفْصةُ شَرْبة عسل" فقالت : جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُط ، فلما دار الىّ قلت له نحو ذلك ، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حَفْصة قالت له : ألا أسقيك منه؟ قال : "لا حاجة لى فيه" قالت : تقول سَوْدة والله لقد حَرَمْناه[1] ، قلت لها : أسكتى[2] . وفى رواية عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحَفْصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلتَ مَغَافير ، إنى أجد منك رِيح مَغَافير ، قال : "لا ، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حلفت لا تُخبرى بذلك أحدا" ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[3] .

وروى مسلم بن الحجاج فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطَفِق نساؤنا يتعلّمن من نسائهم ، وكان منزلى فى بنى أمية بن زيد بالعَوَالى ، فتغضّبت يوما على امرأتى ، فإذا هى تُراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ماتنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم ليراجِعْنَه ، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل ، فانطلقت فدخلت

(١) حرمناه : منعناه من العسل . (٢) قلت لها اسكتى : أى قالت السيدة عائشة لسودة اسكتى ؛ لئلا يظهر ما دبرته لحفصة . (٣) سورة التحريم آية ١

على حَفْصة فقلت : أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : نعم [فقلت : أتهجره إحداكنّ إلى الليل ؟ قالت : نعم، فقلت[1]] : قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسر ، أفتأمَنُ إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فإذا هى قد هلكت ، لا تراجعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئا ، وسلينى ما بدا لك ، ولا يغرّنك أن كانت جارتك هى أَوْسَمُ وأحبُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، يريد عائشة .

١٥٥/١٤

ومن رواية البخارىّ قال : خرجت حتى دخلتُ على أمّ سَلَمة لقرابتى منها فكلمتها ، فقالت أمّ سَلَمة : عجباً لك يا بن الخطّاب ! دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، فأخذتنى والله أَخْذًا كَسَرَتْنى عن بعض ما كنت أجِد ، فخرجت من عندها .

رجعنا إلى حديث مسلم — قال عمر : وكان لى جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل يوما ، وأنزل يوما ، فيأتينى بخبر الوَحْىِ وغيره ، وآتيه بمثل ذلك ، وكنا نتحدّث أن غَسّان تُنعِل الخيل لِغزونا[2] ، فنزل صاحبى ، ثم أتانى عِشاء فضرب بابى ، ثم نادانى فخرجت إليه ، فقال : حدث أمرٌ عظيم ، فقلت : ماذا ، أجاءت غَسّان؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ، طَلّق النبىُّ صلى الله عليه وسلم نساءَه ، فقلت : قد خابت حَفْصة وخَسِرت ، وقد كنتُ أظنّ هذا كائنا ، حتى إذا صلّيتُ الصبح شددت علىّ ثيابى ، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهى تبكى ، فقلت : أطلقكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : لا أدرى ، ها هو ذا معتزل فى هذه المَشْرُبَة ، فأتيت غلامًا له أسود فقلت : أستأذِنْ لعمر ، فدخل ثم خرج إلىّ فقال : قد ذكرتك له فصَمَتَ ، فانطلقتُ

(١) الزيادة من صحيح مسلم ج ٤ : ١٩٣ .
(٢) فى مسلم : « لتغزونا » .

حتى انتهيتُ إلى المنبر فجلستُ ، فإذا عنده رهطٌ جلوس يبكى بعضهم ، فجلست قليلا ثم غلبنى ما أجِد، ثم أتيتُ الغلام فقلت : استأذِنْ لعمر، فدخل ثم خرج إلىّ، فقال: قد ذكرتك له فصمَتَ، فوَلّيْتُ مدبرا، فإذا الغلام يدعونى، فقال : ادْخُل فقد أَذِن لك ، فدخلتُ فسلّمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو مُتّكِئ على رَمْلِ[1] حصير قد أثّر فى جنبه ، فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلىّ وقال : " لا " فقلت : الله أكبر ، لو رأيتَنا يا رسول الله ، وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء، فلما قَدِمْنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطَفِق نساؤنا يتعلّمْن من نسائهم ، فتغضّبْتُ على امرأتى يوما فإذا هى تراجعنى، فأنكرتُ أن تراجعنى ، فقالت : ما تُنكر أن أراجعك ؟ فوالله إنّ أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم ليراجعْنَه وتهْجُره إحداهنّ اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منهنّ وخَسِر، أفتأمن إحداهنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا هى قد هلكت ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، قد دخلت على حَفْصة فقلت : لا يَغُرَّنك أن كانت جارتُك هى أوْسَمَ منك وأحبَّ إلى رسول الله منك، فتبسم أخرى .

ومن رواية البخارىّ — قال عمر: فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أم سَلَمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر التّبسم فيما قبلها .

قال مسلم فى حديثه : فقلت أستأنس[2] يا رسول الله ؟ قال : " نعم " فجلستُ فرفعتُ رأسى فى البيت ، فوالله ما رأيت فيه شيئا يردّ البصر

(١) رمل حصير : نسجه ، ليس له وطاء سواه .

(٢) المراد بهذه الكلمة الاستئذان فى الأنس والمحادثة ، كما يستفاد من الشرح .

إلا أُهُبًا[1] ثلاثة، فقالت : ٱدع الله يا رسـول الله أن يُوَسِّع على أمتـك ، فقد وَسّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسا ثم قال : " أفى شـك أنت يٱبن الخطاب، أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا " فقالت : ٱستغفرلى يا رسـول الله ، قال : وكان أقسم ألّا يدخل عليهنّ شهرا من شدة مَوْجِدته[2] عليهنّ حتى عاتبه الله عزّ وجلّ .

وعن عُرْوة عن عائشـة رضى الله عنها قالت : لمـا مضى تسع وعشرون ليلة دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم — بدأ بى — فقالت : يارسول الله، إنك أقسمت ألّا تدخل علينا شهرا ، و إنك دخلت من تسع وعشرين، أعدّهُن ؟ فقال : " إنّ الشهر تسـع وعشرون " ثم قال : " يا عائشة ، إنى ذاكر لكِ أمرًا فلا عليك ألّا تَعْجَلِى حتى تَستأمِرِى أَبوَيْك " ثم قرأ علىّ الآية : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ حتى بلغ ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا[3] ﴾ فقالت عائشة : قد علِم واللهِ أن أبوىّ لم يكونا ليأمرانى بفـراقه ، فقالت : أو فى هـذا أستأمر أبوىّ ؟ فإنى أريد الله ورسـوله والدارَ الآخرة . وفيها هَدَم رسولُ الله مسجد الضِّرَار .

ذكر خبر مسجد الضرار وهدمه ومن ٱتخذه من المنافقين

وكان هدم مسجد الضِّرار عند مُنْصَرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تَبُوك ، وكان أصحابه الذين بنـوه ٱثنى عشر رجلا : وهم خِذَام بن خالد ومن داره خرج ، وثَعْلَبَـة بن حاطب ، ومُعَتِّب بن قُشَيْر، وأبو حَبِيبـة بن الأزْعَر ، وعبّاد ٱبن حُنَيْف ، وجارية بن عامر، وٱبناه مجمِّع وزيد، ونَبْتَل بن الحارث ، وبَحْزَج من بنى ضُبَيعة، وبِجَاد بن عثمان من بنى ضُبَيعة، ووَدِيعَة بن ثابت، فأتوا رسول الله

١٥٦/١٤

(١) الأهب : الجلود. (٢) الموجدة : الغضب. (٣) سورة الأحزاب آية ٢٨ — ٢٩

صلى الله عليه وسلم وهو يتجهّز إلى تَبُوك ، فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجدا لِذى العِلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، و إنا نحبّ أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فقال : " إنّى على جَناح سَفَر وحال شُغل — أو كما قال صلى الله عليه وسلم — ولو قد قَدِمْنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه " فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تَبُوك نزل بِذى أَوَانٍ — بلد بينه و بين المدينة ساعة من نهار — أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم أخا بنى سالم بن عوف ، ومَعْن بن عدىّ ، أو أخاه عاصم بن عدىّ ، فقال : " آنطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه " فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدُّخْشُم ، فقال مالك لِمَعْن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل إلى أهله فأخذ سَعَفا من النَّخل فأشعل فيه نارا ، ثم [خرجا](1) يشْتَدّان حتى دخلاه وفيه أهله فحرّقاه وهدماه وتفرّقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(2) .

وفيها لاعَنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بينَ العَجْلانىّ و بين آمرأته فى مسجده بعد صلاة العصر فى شعبان ، وكان عُوَيْمر قدم من تَبُوك فوجدها حُبْلى . وفى شوّال منها

(1) الزيادة من ابن هشام . (2) سورة التوبة ١٠٧ — ١١٠

مات عبدالله بن أبيّ بن سَلُول المنافق، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يصلّ بعدها على منافق؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ (١) الآية .

وفيها ماتت أمّ كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها نَعَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم النجاشيّ فى اليوم الذى مات فيه بالحبشة ، قيل : فى شهر رجب . وفيها أسلم كعب بن زُهير . والله أعلم بالصواب .

ذكر إسلام كَعْب بن زُهَير بن أبى سُلْمَى وامتداحه رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان سبب إسلامه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن الطائف كتب أخوه بُجَيْر بن زُهَيْر إليه يخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بمكة ممن كان يهجوه و يؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش كابن الزِّبَعْرَى ، وهُبَيْرة بن أبى وَهْب قد هربوا فى كل وَجْه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فَطِر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، و إن أنت لم تفعل فانْجُ إلى نَجَائك من الأرض . وكان كعب قد كتب إلى أخيه بُجَيْر لمّا بلغه إسلامه :

أَلَا أَبْلِغَا عَنِّى بُجَيْرًا رسالةً * فهلِ لك فيما قُلْتُ وَيْحَك هل لَكا ؟
شَرِبْتَ مع المَأْمُونِ كأْسًا رَوِيَّةً * فأَنْهَلَكَ المأمونُ منها وعَلَّكَا (٢)
وخالفتَ أسْبَابَ الهُدى واتَّبَعْتَه * على أىِّ شَىْءٍ وَيْبَ غَيْرِك دَلَّكَا (٣)
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمًّا ولا أبًا * عليه ولم تُدرك عليه أخًا لَكَا

(١) سورة التوبة ٨٤ (٢) المأمون : يعنى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قريش تسميه المأمون والأمين . والنهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى .

(٣) ويب غيرك : ويح غيرك .

ويروى :

على خُـلُقٍ لم تُلْفِ يومًا أبًا له * عليـه وما تُلْفِي عليـه أبًا لَكَا

١٥٧/١٤ فإن أنتَ لَم تفعلْ فلستُ بآسِفٍ * ولا قائـل إمَّا عَثَرتَ : لَعًا لَكَا!(١)

وبعث بها إليه، فلما أتت بُجَيْرًا كره أن يكتمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لما سمع](٢) قوله « سقاك بها المأمون » : "صَدَق وإنه لكذوب، [أنا المأمون](٢) " ولما سمع قوله « على خُلُقٍ لم تُلْفِ أمًّا ولا أبًا عليه» قال :" [أَجَلْ](٢) لم يُلفِ عليه أباه ولا أمه " فكتب بُجَيْر إلى كعب :

مَنْ مُبْلِغٌ كَعْبًا فهل لكَ فى التى * تَـلُومُ عليهـا باطلًا وهى أَحْزَمُ

إلى الله ـ لا العُزَّى ولا اللَّاتِ ـ وَحْدَه * فتَنْجُو إذا كان النَّجَاءُ وتَسْـلَمُ

لدى يومِ لا يَنْجُـو وليس بمُفْلِتٍ * من الناس إلا طاهرُ القلب مُسْلِمُ

فدِينُ زُهَـيْرٍ وهو لا شىءَ دِينُـه * ودِينُ أبى سُـلْمَى علىَّ مُحَـرَّمُ

قال : فلما بلغ كَعْبًا كتابُ أخيه ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرْجف به من كان فى حاضره من عَدُوِّه(٣)، فقالوا : هو مقتول، فقـال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر فيها خوفَه، وإرْجَافَ الوُشاة به من عدوّه، وخرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جُهَيْنة، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلّى الصبح فصلّى معه، ثم أشار الجُهَنِىّ لكَعْب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأْمِنْه، فقام حتى جلس إليه، فوضع يده فى يده، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم

(١) لعا : كلمة تقال لمن عثر، دعاء له أن ينتعش من سقطته. (٢) الزيادات من ابن هشام، والذى فى شرح الديوان للسكرى : "صدق ! أنا المأمون، وإنه لكاذب". (٣) حاضره : حيه.

لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله إنّ كَعْبَ بن زُهَيْر قد جاء ليستأمن منك تائبا مُسْلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم " فقال : أنا يا رسول الله كعب بن زُهير ، فوثب رجل من الأنصار وقال : يارسول الله ، دعني وعدوَّ الله أَضربْ عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعه عنك ، فإنه قد جاء تائبا نازِعا (١) " . قال : فغضب كعب على هـذا الحيِّ من الأنصار لِمَا صَنَع به صاحبُهم ، وأنشد كعب قصيدته ، وهى :

بانَتْ سُعادُ فقلبي اليومَ مَتْبُولُ * مُتَيَّمٌ عندها لم يُجْزَ مَكْبُولُ (٢)

وما سعادُ غداةَ البَيْنِ إذ بَرَزَتْ * إلا أغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ (٣)

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً * لا يُشْتَكَى قِصَرٌ منها ولا طُولُ (٤)

تَجْلُو عَوارِضَ ذِى ظَلْمٍ إذا ابْتَسَمَتْ * كأنه مُنْهَلٌ بالرّاحِ مَعْلُولُ (٥)

شُجَّتْ بذى شَبِمٍ من ماء مَحْنِيَةٍ * صاف بِأَبْطَحَ أَضْحَى وهو مَشْمُولُ (٦)

تَنْفِى الرِّياحُ القَذَى عنه وأَفْرَطَه * من صَوْبِ غادِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ (٧)

---

(١) نازعا : أى مائلا إلى الإسلام ، أو كانا عن الشرك .

(٢) بانت : فارقت . متبول : غلبه الحب وهيمه . متيم : ذلله الحب . مكبول : مقيد . يروى : « لم يفد » : من الفداء . ولم يجز من الجزاء .

(٣) البين : الفـراق . ويروى : « غداة البين إذ رحلوا » . والأغن : الذى فى صوته غنة . وغضيض الطرف : فاتر الطرف ، أراد التشبيه .

(٤) الهيف : ضمر البطن ورقة الخاصرة .

(٥) العوارض : الأسنان ما بين الثنية والضرس . والظلم : ماء الأسنان وبريقها . ومنهـل : قد أنهل بالراح : الخمر ، والنهل : أول شربة . والمعلول : قد سقى مرتين ، والعلل : الشرب الثانى .

(٦) شجت : مزجت بالماء . والشبم : الماء البارد . المحنية : منعطف الوادى . الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . مشمول : أصابته ريح الشمال فبردته .

(٧) عنه : أى عن الماء الصافى . أفرطه : ملأه . الصوب : المطر . الغادية : السحابة التى تأتى بالغداة . اليعلول : الغدير . يروى : « من صوب سارية » .

وَيْلَ أُمِّها خُلَّةً لو أنّها صَدَقَتْ * بوَعْدِها أو لَوَ أنَّ النُّصْحَ مقبولُ (١)
لكنها خُلَّةٌ قدْ سِيطَ من دمِها * فَجْعٌ وَوَلْعٌ وإخْلافٌ وتَبْديلُ (٢)
فما تقومُ على حالٍ تكونُ بِهِ * كما تَلَوَّنُ فى أثوابِها الغُولُ (٣)
كانت مَواعيدُ عُرْقوبٍ لها مَثَلًا * وما مَواعِيدُها إلّا الأباطِيلُ (٤)
وما تَمَسُّكُ بالعهدِ التى زَعمتْ * إلّا كما يُمْسِكُ الماءَ الغَرابِيلُ (٥) ٥
أَرْجو وآمُلُ أن يَعْجَلْنَ فى أَبَدٍ * وما لَهُنَّ إخالُ الدهرَ تَعجِيلُ (٦)
فلا يَغُرَّنْكَ ما مَنَّتْ وما وَعدتْ * إنّ الأَمانِيَّ والأحْلامَ تَضْلِيلُ
أَمْسَتْ سُعادُ بأرضٍ ما يُبلِّغُها * إلا العِتاقُ النَّجِيباتُ المَراسِيلُ (٧)
ولا يُبلِّغُها إلا عُذافِرةٌ * فيها على الأَيْنِ إرْقالٌ وتَبْغِيلُ (٨)

---

(١) يروى : «أكرم بها خلة» . وفى الديوان : «يا ويحها خلة» . ١٠

(٢) سيط : خلط . الفجع : المصيبة . الولع : الكذب . يريد أنها قد خلط بدمها الفجع بالمصائب ، والكذب فى الأخبار ، و إخلاف الوعد ، وتبديل خليل بآخر ، وصار ذلك سجية لها .

(٣) الغول : السعلاة ، وهى أنثى الشياطين ، سميت بذلك لأنها فيما زعموا تغتالهم ، أو لأنها تتراءى لهم فى الفلوات ، وتتلون بألوان شتى ، وتضلهم عن الطريق .

(٤) عرقوب : رجل يضرب به المثل فى خلف الوعد ، وكان بالمدينة . ١٥

(٥) يروى : «تمسك بالوصل» .

(٦) أبد : زمن . يريد أنه يتمنى الوفاء بما وعدن على عجل ولو مرة فى الدهر ، وتعجيل : تصديق ، و يروى :

أرجو وآمل أن تدنو مودتها * وما إخال لدينا منك تنويل

(٧) المراسيل : الخفاف . يقول : لا يبلغنى سعاد إلا مثل هذه النوق لبعدها . ٢٠

(٨) فى الديوان وابن هشام : « ولن يبلغها » . عذافرة : شديدة غليظة ، والأين : الإعياء . والإرقال : أن تعدو وتنفض رأسها ، والتبغيل : ضرب من الهملجة المختلطة بالعنق .

من كل نَضّاخَةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ * عُرْضَتُها طامِسُ الأعلامِ مجهولُ (١)
تَرْمِى النِّجادَ بِعَيْنَىْ مُفْـرِدٍ لَهِقٍ * إذا تَوَقَّـدتِ الحُزّانُ والمِيـلُ (٢)
صَخْـمٌ مُقَلَّدُها فَعْمٌ مُقَيَّـدُها * فى خَلْقِها عن بَنَاتِ الفَحْلِ تَفْضِيلُ (٣)
حَرْفٌ أخوها أبوها من مُهَجَّنَـةٍ * وعَمُّهـا خالُهـا قَـوداءُ شِمْلِيـلُ (٤)
يَمْشى القُـرَادُ عليها ثم يُزْلِقُـه * منهـا لَبَـانٌ وأَقْرابٌ زَهالِيـلُ (٥)
عَيْرانَةٌ قُذِفَت بالنَّحْضِ عن عُرُضٍ * مِرْفَقُها عن بَنَاتِ الزَّوْرِ مَفْتُولُ (٦)

١٥٨/١٤

(١) نضاخة : فوارة، يصفها بكرم الأصـل . الذفرى : النقرة خلف أذن الناقة والبعير، أول ما يعرق منهما . عرضتها : همتها ؛ أى قوية على السفر . طامس : دارس . الأعلام : العلامات ، أى قوية على قطع الأعلام المندرسة المجهولة .

(٢) النجاد : المشرف من الأرض ، ويروى : « الغيوب » : ما غاب من الأرض . المفرد : الذى خذل عن صواحبه . اللهق : الشديد البياض . الحزان (جمع حزيز — بزايين) : المكان الغليظ الصلب . والميل جمع ميلاء : العقدة الضخمة من الرمل ، وقيل : هو مد البصر . يقول : إنها لا تكسل ولا تفتر فى الهاجرة .

(٣) مقلدها : رقبتها . فعم : ممتلئ ، ويروى : «عبل» : وهو الضخم . المقيد : الرسغ . بنات الفحل : النوق . أى لها فضل عليهن . فى شرح ابن هشام بيتان بعد هذا البيت ليسا بالأصل :

غلباء وجناء علكوم مذكرة * فى دفها سعة قدامها ميـل
وجلدها من أطوم ما يؤيسه * طلح بضاحية المتنين مهزول

(٤) الحرف : القطعة البارزة من الجبـل ، أى مثله فى القوة والصلابة ، أو حرف الخط فى الرقة والضمورة . أخوها أبوها : أى جمل حمل على أمه فوضعت ناقة ، فصار الجمل أخاها وأباها . والمهجنة من النوق : الكريمة ، والتهجين اختلاف الأبوين ، وهو مدح فى الإبل ، وذم فى بنى آدم . عمها خالها : يعنى أن عمها وخالها من جنس واحد ، أى إنها كريمة الطرفين من أبيها وأمها . قوداء : الطويلة الظهر والعنق . والشمليل : الخفيفة السريعة .

(٥) اللبان بفتح اللام : الصدر ، والأقراب : الخواصر ، والزهاليل : الملس .

(٦) عيرانة : تشبه العير فى صلابتها ، قذفت بالنحض : كاملة الخلق لم ينقصها الحلب ، والنحض اللحم . العرض : الجوانب ، وبنات الزور : الأضلع المقدمات ، المفتول : المدمج المحكم .

قَنْـــوَاءُ فى حُرَّتَيْهَا للبصير بها * عِتْقٌ مُبِينٌ وفى الخَدَّيْنِ تَسْهِيلُ (١)
كأنّ ما فاتَ عَيْنَيْهَا ومَذْبَحَهَا * مِن خَطْمِها ومن اللَّحْيَيْنِ بِرْطِيلُ (٢)
تُمِرُّ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذا خُصَلٍ * فى غارِزٍ لم تَخَـــوَّنْه الأَحَالِيـــلُ (٣)
تَهْوِى على يَسَراتٍ وهْىَ لاهِيَـــةٌ * ذَوَابِـــلٌ وَقْعُهُنَّ الأرضَ تَحْلِيـــلُ (٤)
سُمْرُ العُجَايَاتِ يَتْرُكْنَ الحَصَى زِيَمًا * لَمْ يَقِهِنَّ سَـــوَادَ الأُكْمِ تَنْعِيـــلُ (٥)
يَـــوْمًا يَظَلُّ به الحِـــرْبَاءُ مُرْتَبِئًـــا * كأنّ ضاحِيَـــه فى النـــار مَمْلُولُ (٦)
وقال للقَوْمِ حادِيهِم وقد جَعَلَتْ * بُقْعُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَى قِيلُوا (٧)

(١) قنواء : فى أنفها كالحدب . حرتاها : أذناها . والعتق : الكرم ، وسهلة الخدين : سالمتهما غير مرتفعة الوجنتين .

(٢) المذبح : المنحر . الخطم : الأنف . البرطيل : معول من حديد ، أو حجر مستطيل ، وصفها بكبر الرأس وعظمه .

(٣) عسيب النخل : جريدها . والغارز : الضرع ، قد غرز وقل لبنه . لم تخونه : لم تنقصه . الأحاليل : مجارى اللبن . يريد تمر ذنبها على ضرعها .

(٤) تهوى : تسير بسرعة . ويروى : «تخذى» ومعناهما واحد . واليسرات : القوائم الخفاف . ذوابل : ليست برهلة . وقعهن الأرض : إشارة إلى سرعة رفعها قوائمها ، وتحليل : مثل تحلة اليمين . أى كما يحلف الإنسان على الشىء ليفعلنه ، فيفعل منه اليسير ليتحلل من قسمه .

(٥) سمر : فى ألوانها ، وهى اليسرات فى البيت السابق . العجايات : عصب باطن اليدين . زيما : متفرقة ، يقول : لا يحتجن أن ينعلن لأنهن غلاظ الأخفاف .

(٦) الحرباء : ذكر أم حبين ، وهو حيوان يتلون ألوانا بحر الشمس . مرتبئا : مرتقبا ؛ وذلك إذا كان فوق شرف ، ويروى : «مصطخما» : منتصبا ؛ ويروى : «مصطخدا» : تصلى بحر الشمس . الضاحى : البارز للشمس . مملول : من مللت الخبز ، جعلته فى الملة بفتح الميم : الحفرة المحماة ، أو الرماد الحار .

(٧) الحادى : سائق الإبل . بقع : ذات اللون الأبقع . الجنادب : جراد صغير ، فى أشد ما تكون الهاجرة يكون ذلك . قيلوا : من القيلولة ، وهى الإيراد عند الهاجرة ، وفى الديوان : «ورق الجنادب» ، الورق جمع أورق ، وهو الأخضر إلى سواد ، أو على لون الرماد .

كأنّ أُوْبَ ذِراعيْها وقد عَرِقَتْ * وقد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقِيلُ (١)
أُوْبُ يَدَىْ فاقِدٍ شَمْطَاءَ مُعْوِلةٍ * قامتْ فجاوَبَها نُكْدٌ مثاكِيلُ (٢)
نَوّاحَةٌ رِخْوَةُ الضَّبْعَيْنِ ليس لها * لما نَعَى بِكْرَها الناعون مَعْقولُ (٣)
تَفْرِى اللَّبانَ بكفَّيْها ومِدْرَعُها * مُشَقَّقٌ عن تَرَاقِيها رَعَابِيلُ (٤)
تَسْعَى الوُشَاةُ بجَنْبَيْها وقولُهُمُ * إنك يابْن أبى سُلْمَى لَمقتولُ (٥)
وقال كلُّ صَديقٍ كنتُ آمُلُه * لا أُلْهِيَنَّكَ إنِّى عنكَ مَشْغولُ (٦)
فقلتُ خَلُّوا طريقِى لا أَبَا لكُمُ * فكلُّ ما قَدَّر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أُنْثَى وإن طالت سلامتُه * يومًا على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ (٧)
نُبِّئْتُ أنّ رسولَ اللهِ أوْعَدَنى * والعَفْوُ عندَ رسولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هداكَ الذى أعطاكَ نافِلةَ الـ * ـقُرْآنِ فيها مواعِيظٌ وتَفْصِيلُ (٨)

(١) أوب : رجع ، تلفع : تلحف ، القور جمع قارة : الأكمة ، وقيل جبل يرتفع طولا ولا يرتفع عرضا . والعساقيل : السراب .

(٢) شمطاء : العجوز التى لا ترجو ولدا ، معولة : من العويل ، إنما أراد امرأة نعى لها ولدها ، نكد جمع نكداء : التى لا يعيش لها ولد . مثاكيل جمع مثكال : التى فقدت أولادا كثيرة . ويروى الشطر الأول :

* شدّ النهار ذراعا عيطل نصف *

(٣) رخوة : مسترخية ، الضبع بسكون الباء : العضد ، يريد شديدة الحركة ، والمعقول : العقل .

(٤) تفرى : تشق ، اللبان : الصدر ، مدرعها قميصها : شبه الناقة بالمرأة التى تشق الثياب عن صدرها ، الرعابيل : المتخرقة المتمزقة .

(٥) تسعى من السعاية : وهى الوشاية ، بجنبيها : حولها ، ويروى : جنابيها .

(٦) لا ألهينك : لا أشغلك عما أنت فيه . ويروى : « لا ألفينك » ؛ أى لا أكون معك .

(٧) الآلة : النعش . حدباء : معوجة .

(٨) النافلة ، قال ابن هشام : النافلة العطية المتطوع بها زيادة على غيرها ، وذلك إشارة إلى أن القرآن مع ما أنعم الله على نبيه به من العلوم العظيمة زيادة على تلك العلوم .

لا تأخُذَنِّى بأقوالِ الوُشَاةِ ولم * أذنبْ ولو كَثُرَتْ فِىَّ الأقاويلُ
لقد أقُومُ مَقامًا لو يقومُ به * أَرَى وأَسمعُ ما لو يَسْمعُ الفِيلُ
لظَلَّ تُرْعَدُ مِن وَجْدٍ بوادِرُه * إن لم يَكُنْ مِنْ رسول الله تَنْوِيلُ (١)
حتى وَضَعْتُ يَمِينِى ما أنازعها * فى كَفِّ ذى نَقِمات قَوْلُهُ القِيلُ (٢)
فلَهْوَ أخوفُ عندى إذْ أُكَلِّمه * وقيل إنَّك مَنْسُوبٌ ومَسْئُولُ (٣) ٥
من ضَيْغَمٍ بِضِراء الأرض مُخْدَرُهُ * فى بطن عَثَّرَ غِيلٌ دونه غِيلُ (٤)
يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرغامَيْن عيْشُهما * لحمٌ من الناس مَعْفُورٌ خَرَاذِيلُ (٥)
إذا يُساوِرُ قِرْنًا لا يَحِلُّ له * أَنْ يَتْرُك القِرْنَ إلاّ وَهْوَ مَفْلُولُ (٦)
منه تَظَلُّ حَمِيرُ الجَوِّ نَافِرَةً * ولا تَمَشِّى بِوَادِيه الأَرَاجِيلُ (٧)

(١) لظل ترعد جواب « لو » الأولى وهو دالّ على جواب « لو » الثانية ، الوجد : شدة الحزن . ١٠
والبوادر : اللحم الذى بين العنق والكتف . والذى فى الشروح :

لظل يرعد إلا أن يكون له * من الرسول بإذن الله تنويل

تنويل ، من النائل : وهو العطاء ، والمراد هنا : العفو والأمان ، وفى السيرة الهشامية بعد هذا البيت :

ما زلت أقتطع البيداء مدرعا * جنح الظلام وثوب الليل مسدول

(٢) أنازعها : أى وضعت يمينى فى يمينه وضع طاعة لا أنازعه . ويريد بصاحب النقمات : النبى ١٥
صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان ينتقم من الكفار . القيل : القول الصادق .

(٣) منسوب : مسئول عما صدر منك ، ويروى : مسبور .

(٤) الضيغم : الأسد ، ضراء جمع ضار : من ضرى بكذا ولع به ، والمشهور كما فى الشروح :
« بضراء الأسد مخدره » . عثر : موضع باليمن كثير الأسد ، والغيل : الشجر الملتف . ويروى :

* من خادرٍ من ليوث الأسد مسكنه * ٢٠

(٥) يلحم ضرغامين : يطعمهما لحم الناس ، معفور : ملق فى العفر : التراب . خراذيل ، بمعجمة ومهملة : قطعا . (٦) القرن : مقاومك فى الشجاعة أو العلم ، يساور : يواثب ، مفلول : منهزم ، ويروى : « مجدول » : ملق فى الجدالة وهى الأرض . (٧) الجو هنا : الوادى ، والبر الواسع ، ويروى ضامزة : ساكتة ، مكان « نافرة » . الأراجيل : جمع أرجال جمع رجل .

ولا يـزالُ بِواديه أخُـو ثِقـةٍ * مُطَرَّحُ البَزِّ والدِّرْسينَ مأكولُ (١)
إنَّ الرسـولَ لَنُورٌ يُسْـتَضاءُ به * مُهَنَّـدٌ من سُـيُوفِ اللهِ مَسْلولُ (٢)
أغَرُّ أبْلَجُ يُسْـتَسْقَى الغَمامُ به * كأنَّ طَلْعَتَـه فى الليـل قِنْـدِيلُ (٣)
فى عُصْبةٍ من قريشٍ قال قائلُهم * ببطن مكةَ لَمَّـا أسْـلَمُوا زُولُوا (٤)
زالوا فما زال أنْكَاسٌ ولا كُشُفٌ * عنـد اللِّقـاءِ ولا مِيـلٌ مَعازِيلُ (٥)
يَمشُونَ مَشْىَ الجِمالِ الزُّهْرِ يَعْصِمهُمْ * ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التَّنابِيـلُ (٦)
شُمُّ العَرانِـين أبْطـالٌ لَبُوسُهُـم * مِن نَسْجِ داود فى الهيجا سَرابِيلُ (٧)
بِيضٌ سَوابِغُ قَدْ شُكَّتْ لها حَلَقٌ * كأنَّهـا حَلَقُ القَفْعَاءِ مَجْـدولُ (٨)

١٥٩
١٤

(١) البز : الثياب، والسلاح . والدرسان : الثياب الخلقة، ويروى : «مضرج»، ومقتول .

(٢) الرواية المشهورة : «لسيف»، وهذه الرواية أحسن ؛ لأن النور هو الذى يستضاء به، مهند : مطبوع من حديد الهند .

(٣) أغر : أبيض الوجه بالنور، أبلج : مشرق الوجه، يستسق : يطلب الغيث به من الغمام وهو السحاب، طلعته : أول ما يبدو منه، القنديل : السراج .

(٤) يروى : «فتية»، والمعنى واحد، زولوا : انتقلوا من مكة إلى المدينة، والعصبة : أراد به الجماعة لا العدد الذى هو من عشرة إلى أربعين .

(٥) أنكاس، جمع نكس بكسر النون : الرجل الضعيف المهين، كشف، جمع أكشف : الذى لا ترس معه، ميل جمع أميل : الذى لا سيف معه، أو الذى لا يحسن الركوب ولا يستقر على السرج، والمعازيل جمع معزال : الذى لا سلاح معه .

(٦) الزهر : البيض، يعصمهم : يمنعهم، عرد : فر، ونكل، وجبن، التنابيل جمع تنبال : القصير .

(٧) العرانين : الأنوف، الشمم : حدة فى طرف الأنف مع تشمير، لبوسهم : لباسهم، نسج داود : الدروع، الهيجاء : الحرب، سرابيل جمع سربال : القميص .

(٨) بيض : مجلوة صافية، سوابغ جمع سابغ : الطويل التام، شكت : أدخل بعض حلقها فى بعض وسمرت . ويروى : «سكت» : ضيقت، القفعاء : شجر لها ورق وثمر مثل حلق الدروع، مجدول : مفتول .

ليسوا مَفاريحَ إن نالتْ رِماحُهم * قَوْما وليسوا مَجازيعًا إذا نِيلُوا
لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلّا فى نُحُورهِمُ * وما لهم عن حِياضِ الموتِ تَهْلِيلُ (١)

قال ابن إسحاق : فلما قال كعب فى قصيدته : « إذا عَرَّد السُّودُ التنابيل »، وإنما أراد معشر الأنصار ، وخصّ المهاجرين من قريش بمدحته ، غضبت الأنصار عليه، فقال بعد ذلك يمتدح الأنصار من قصيدة له :

مَن سَرَّهُ كَرَمُ الحياةِ فلا يَزَلْ * فى مِقْنَبٍ (٢) مِنْ صالِحى الأنصارِ
ورِثوا المكارمَ كابرًا عن كابرٍ * إنّ الخِيارَ (٣) هُمُ بنو الأخيارِ
المُكْرِهِين السَّمْهَرِىَّ بأَذرعٍ * كَسَوالِفِ (٤) الهِنْدِىِّ غيرِ قِصارِ
والناظرين بأَعْينٍ مُحْمَرَّةٍ * كالجَمْرِ غيرِ كَليلةِ الإبْصارِ
والبائعين نفوسهم لنبيِّهم * للموتِ يومَ تَعانُقٍ وكِرارِ (٥)
يتطهّرون (٦) يَرَوْنه نُسُكا لهم * بدماء مَن عَلِقوا مِن الكفّارِ
دَرِبُوا كما دَرِبَتْ ببطنِ خَفِيَّةٍ (٧) * غُلْبُ الرِّقابِ من الأُسودِ ضَوارِى
وإذا حَلَلْتَ لِيمنعوك إليهمُ * أصبحتَ عند مَعاقِلِ الأَغْفارِ (٨)

(١) تهليل : هروب من الحرب . (٢) المقنب : ألف وأقل ، قاله أبو عمرو . وقال الأصمعى : هم الجماعة من الفوارس نحو الثلاثين أكثر وأقل ، واحتج أبو عمرو بقول الجعدى : « بألف يكتب أو بقنب » . يكتب : يجمع . (٣) رواية الديوان « الكرام » .

(٤) كذا فى الأصل : وعبارة الديوان رواية السكرى « كصواقل » وفى رواية « كسوافل » .

(٥) كذا فى الأصل وابن هشام . ورواية ابن سلام « يوم الهياج وسطوة الجبار » وفى الأغانى « عند الهياج وسطوة الجبار » وفى ابن الأثير :

والباذلين نفوسهم ودماءهم * يوم الهياج وسطوة الجبار

(٦) رواية الديوان : * يتطهرون كأنه نسك لهم * . (٧) خفية : موضع كثير الأسد .

(٨) فى الديوان « نزلت » . والأغفار : أولاد الأروى ، واحدها غفر بضم فسكون ، والأروى أنثى الوعل .

ضَربوا عَلِيًّا يـومَ بَدْرٍ ضربةً * دانت لوَقْعتِها جميعُ نِـزارِ (١)
لو يَعْـلَمُ الأقْـوامُ علمى كلِّه * فيهـم لَصدَّقـنِى الذين أُمارِى
قـومٌ إذا خَوَت النجومُ فإنهـم * للطارِقين النـازِلـين مَقَـارِى (٢)

قال ابن هشام : ويقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له حين أنشد « بانت سـعاد فقلبى اليوم متبول » : " لولا ذكرتَ الأنصار بخير ، فإنّ الأنصار لذلك أهل " .

ذكر حج أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه بالناس وأذان علىّ رضى الله عنه بسورة براءة

قال : وفى ذى القعدة سنة تسع من الهجرة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصدِّيق رضى الله عنـه أميرا على الحاج ليقيم للمسلمين حجهـم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين، ثم نزلت سورة براءة فى نقض ما بين رسـول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين من العهد الذى كانوا عليـه فيما بينهم و بينـه، ألّا يُصَدّ عن البيت أحدٌ جاءه ولا يُخاف أحدٌ فى الشهر الحرام ، وكان عهدا عاما بينـه وبين الناس من أهـل الشرك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : "اخرج بهذه القصة مِن صدر براءة، فأذِّنْ فى النـاس يوم النَّحر إذا اجتمعوا بمنًى

(١) على : قالوا هو على بن بكر بن وائل . ويقال : على أخو عبـد مناة بن كنانة بن خزيمة من أمه . (شرح ديوان كعب للسكرى) . وفى هامش الأصل : « علىّ هذا الذى ذكره، هو على بن أمية ابن خلف » .

(٢) المقارى : الذين يقرون الضيف . ويروى فى الديوان :

وهم إذا خوت النجـوم فإنهم * للطـائفين السائلين مقارى

أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مُشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدّته " فخرج علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العَضْباء حتى أدرك أبا بكر الصدِّيق رضى الله عنه بالطريق ، فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال : أمير أو مأمور ؛ قال : بل مأمور ، ثم مضيا ، فأقام أبو بكر رضى الله عنه للناس حجهم ، وذلك فى ذى القعدة ، حتى إذا كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فأذن فى الناس بما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : «أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحجُّ بعد العام مُشرِك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عَهد فهو له إلى مدته » وأجّل الناس أربعة أشهرٍ مِن يوم أذّن فيهم ليرجع كل قوم إلى مَأمَنهم وبلادِهم[1] ، ثم لا عهد لمشرِك ولا ذمّة إلا أحد كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مدّة فهو له إلى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العامِ مُشرِك ، ولم يطف بالبيت عُريان ، ثم قدِما على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

١٦٠/١٤

حوادث السنة العاشرة

فيها كانت حَجّة الوداع ، سنذكرها إن شاء الله تعالى فى حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها نزل فى يوم جمعة قوله عزّ وجلّ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[2] . وفيها نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾[3]

(١) فى ابن هشام : « أو بلادهم » . (٢) سورة المائدة ٣

(٣) سورة النور ٥٨

الآية . وكانوا لا يفعلونه قبل ذلك . وفيها مات إبراهيم بن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأوّل . وفى كل سنة من هذه السنين العشر غزوات وسرايا ووقائع تُذكر إن شاء الله تعالى فى مواضعها ؛ والله المستعان الهادى .

* * *

صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع عشر فى الأصل الثانى المرموز له بحرف (ا)

« كمل الجزء الرابع عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ؛ للشيخ الإمام شهاب الدين أحمد النُّويرىّ رحمه الله تعالى ، على يد كاتبه أضعف الخلق وأحقرهم إلى الرحمة ، نور الدين بن شرف الدين العامليّ بلدا ، الشافعىّ مذهبا ، غفر الله له ولوالديه ، ولمن يطالعه ويدعو له . آمين » .

* * *

تم بعون الله تعالى تحقيق الجزء السادس عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » من تجزئة طبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٧ من جمادى الثانية سنة ١٣٧٤ هـ الموافق ١٠ من فبراير سنة ١٩٥٥ م .

ويليه الجزء السابع عشر ، وأوله : « ذكر غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فهـــرس المراجـــع

الاستيعاب لابن عبد البر ، حيدرآباد ١٣١٨

أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، الوهبية ١٢٨٠

الاشتقاق لابن دريد ، جوتنجن ١٧٥٤ م

لإصابة فى تمييز الصحابة ، الشرفية ١٣٢٧

الأصنام لابن الكلبي ، دار الكتب المصرية ١٣٤٣

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، بولاق ١٢٨٥

الاكتفا بما تضمنه من مغازى المصطفى ، مخطوطة دار الكتب ٢٤٤٢ حديث .

الإكمال لابن ماكولا ، مخطوطة دار الكتب ٨ مصطلح .

الإنباه على قبائل الرواه لابن عبد البر نشره القدسى ١٣٥٠

الأنساب للسمعانى ، ليدن ١٩١٢م .

البداية والنهاية لابن كثير ، السعادة ١٣٥١

تاريخ ابن الأثير ، بولاق ١٢٩٠

تاريخ الخميس للدياربكرى ، الوهبية بمصر ١٢٨٣

تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط دار الكتب ١٠٤١ تاريخ تيمور .

تاريخ الطبرى ، الحسينية بالقاهرة ١٣٣٦

تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨

تهذيب الأسماء واللغات للنووى ، المنيرية بالقاهرة .

تهذيب التهذيب ، حيدرآباد ١٣٢٧

تهـذيب الكمال للمزى ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٢٥ مصطلح .

التيجان فى ملوك حمير ، حيدرآباد ١٣٤٧

ثمرات الأوراق لابن حجة ، الوهبية ١٣٠٠

الجامع الصغير للسيوطى ، بولاق ١٢٨٦

جمهرة الأنساب لابن حزم ، المعارف ١٩٤٨ م

حلية الأولياء لأبى نعيم ، السعادة ١٣٥٧

الحماسة بشرح التبريزى

حياة الحيوان للدميرى ، البابى الحلبى ١٣٠٥

الخبر عن البشر للقريزى ، مخطوطة دار الكتب ٩٤٧ تاريخ .

خزانة الأدب للبغدادى ، بولاق ١٢١٩

خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجى ، بولاق ١٣٠١

خير البشر لابن ظفر ، القاهرة ١٢٨٠

خير البشر ، مخطوطة دار الكتب ١٥ مجاميع

دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٢١٢ حديث .

دلائل النبوة لأبى نعيم ، حيدرآباد ١٣٢٠

الروض الأنف للسهيلى ، الجمالية بمصر ١٣٣٢

السيرة الحلبية ، مصر ١٣٢٠

السيرة النبوية لابن هشام ، مصطفى الحلبى ١٣٥٥ ، وجوتنجن ١٨٦٠ م .

شرح السيرة للخشنى ، هندية ١٣٢٩

شرح الشفاء للخفاجى = نسيم الرياض .

شرح الشفاء للشمنى = مزيل الخفا .

شرح المواهب اللدنية للزرقانى ، بولاق ١٢٧٨

صفة الصفوة ، حيدرآباد ١٣٥٥

طبقات ابن سعد ، ليدن ١٣٢١

طبقات القراء ، السعادة ١٣٥١

عيون الأثر لابن سيد الناس نشره القدسى ١٣٥٦

الكامل فى الضعفاء لابن عدى ، مخطوطة ٩٦ مصطلح .

كنوز الحقائق للناوى ، مصر ١٣٠٥

مجمع الأمثال للميدانى ، بولاق ١٢٨٤

المحبر لابن حبيب ، حيدر آباد ١٣٦١
مزيل الخفا عن ألفاظ الشفاء الشمنى ، مخطوطة دار الكتب ٣٧٥ حديث .
المعارف لابن قتيبة ، الحسينية ١٣٥٣
معجم البلدان ، السعادة ١٣٢٤
معجم الطبرانى ، مخطوطة دار الكتب ١٣٥٣ حديث .
المعمرين لأبى حاتم ، السعادة ١٣٢٣
المقتفى من سيرة المصطفى لبدر الدين بن حبيب الموصلى ، مخطوطة دار الكتب ٣٠٩ تاريخ .
المقدمة الفاضلية ، مخطوطة دار الكتب ١٩ تاريخ .
الميسر والقداح لابن قتيبة ، السلفية
نسب قريش ، مخطوط دار الكتب ٤١٥١ تاريخ .
نسب معد لابن الكلبى ، مخطوطة ٩٩٥٩ تاريخ .
نسيم الرياض ، الآستانة ١٢٦٧
النهاية لابن الأثير ، بولاق ١٣١١
الوافى بالوفيات ، مخطوطة دار الكتب ١٢١٩ تاريخ .
وفيات الأعيان ، بولاق ١٢٩٩

الخطأ والصواب

س	ص	الخطأ	الصواب
١٢	٣	طابجة	طابخة
٢	٤	نبت ابن حمل	نبت بن حمل
٧	٤	قينان ابن مهلائيل	قينان بن مهلائيل
٨	٧	أمِرَ	أَمَر
٦	١٢	صلُبه	صُلبه
٢٠	١٢	تابع العروس	تاج العروس
٤	١٣	حزيمة	خزيمة
٩	١٣	الحشنى	الخشنيّ
٥	٢١	سلول بن كعبَ	سلول بن كعبٍ
١	٣٨	توأمان	توءمان
١٤	٤٣	تذمَ	تذمُّ
٢١	٤٧	المسير	الميسر
٦	٤٩	تشُركونهم	تشرَكونهم
١٢	٤٩	أنفذن	أنفدن
١٣	٥١	السادنِ	السادنِ
١	٥٧	خطبه	خطب
٦	٥٧	القائل آبن سعد ... الخ	القائل آبن عبد البر ١ : ١٢
٨	٦٢	وَهَب	وَهْب
١٤	٦٤	الزَّهرى	الزُّهرى
١٠	٨٢	قال	قالت
٢١	٨٧	١ : ٧٧	١ : ٧٣

س	ص	الخطـــأ	الصـــواب
٨	٩١	يعـــزف	يعـــرف
٧	٩٣	فإنى كنت إذ أنا	فإنى كنت أجتنيه إذ أنا
١١	١٠٢	خبر التحدى	خبر النجدى
٢٠	١٠٧	فاران جبال مكة	فاران مكة
١٢	١١٠	تكذَّب	تكذِّب
١٥	١٢٦	اختيارَهم	اختيارِهم
١١	١٤٠	فاحتفط	فاحتفظ
٣	١٤٢	فجيَّهـــلا	فجيِّهـــلا
٩	١٤٢	بعثتم شئتم	بعثتم إذا شئتم
١٠	١٤٤	يقال ابن الهيَّبان	يقال له ابن الهيِّبان
٢	١٥٧	النعمان المنـــذر	النعمان بن المنذر
١٥	١٥٧	قصد منها بيتا منها	قصد بيتا منها
٣	١٧٦	ابن جريح	ابن جريج
٢٢	١٨٣	عامر بن طىء	معن بن طىء
١٩	١٩١	يقتل عمار الفئة الباغية	تقتل عمارا الفئة الباغية
١٨	١٩٦	علاقِة	علاقَة
١٨	٢٣٥	فالها فى نادى	قالها فى نادى
٢٠	٢٣٦	ص ١١٨	ص ١١٨ جـ ٢
٢١	٢٦١	خظم	خطم
٢	٢٦٧	كلـــذة	كلـــدة
١٥	٢٧٧	تملكون	يملكون
١٥	٢٨٦	السيرة الحديث له	الســـيرة له
٢	٢٨٧	قالت فبهت	قال : فبهت
١٥	٢٨٧	عند الوحى، كما فيكون	عند الوحى، فيكون

*
* *

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء السادس عشر من كتاب
"نهاية الأرب فى فنون الأدب" بمطبعة دار الكتب المصرية فى شهر شعبان
سنة ١٣٧٤ هـ (مارس سنة ١٩٥٥ م) ع

محمود عثمان الرزاز

مراقب المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٠١/١٩٤٩/٢٠٠٠)

دار الكتب المصرية
القسم الأدبي

نهاية الأرب
في
فنون الأدب

تأليف
شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر السادس عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان

رتب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى كتابه «نهاية الأرب» على خمسة فنون : الفنّ الأوّل فى السماء والآثار العلوية، والأرض والمعالم السفلية . والثانى فى الإنسان وما يتعلق به . والثالث فى الحيوان . والرابع فى النبات . والخامس فى التاريخ .

وقد أنجز القسم الأدبى بالدار فيما مضى طبع خمسة عشر جزءا؛ تشتمل على الفنون الأربعة الأولى، وقسم من فنّ التاريخ؛ يبدأ بخلق آدم؛ ثم تاريخ الرسل من بعده، وأخبار الأمم والملوك فى مختلف الأصقاع، إلى وقت ظهور الإسلام .

واليوم تقدّم الدار إلى قراء العربية ثلاثة أجزاء، من السادس عشر إلى الثامن عشر؛ وقد حرصت على أن تخرج هذه الأجزاء الثلاثة معا ، لأنها تنتظم موضوعا واحدا من فنّ التاريخ، هو تاريخ السيرة النبوية العطرة .

وقد بسط المؤلف القول فى سيرته صلوات الله عليه؛ مبتدئا بذكر نسبه ونسب آبائه ، ثم تاريخه من يوم مولده إلى وفاته ؛ متناولا جميع الأحداث التى لابست حياته ، والمشاهد التى اقترنت بجهاده ، وأخباره مع الوفود ، وكتبه إلى الملوك ؛ مع ذكر شمائله ومعجزاته؛ جامعا مستوعبا، فى تفصيل محكم، وتبويب متناسق . معتمدا فى ذلك على النقل من كتب السير والمغازى ، وتواريخ الصحابة ؛

وأمهات كتب التفسير، وكتب السنة الصحاح. ومما نقل عنه كتبٌ لم يسبق نشرها؛ وأخرى مما لم نعثر عليه من التراث القديم فى هذا الباب .

وبهذا الجمع والتأليف جاءت هذه الأجزاء أوفى مرجع لسيرة الرسول عليه السلام .

* * *

وقد اعتمد القسم الأدبى فى تحقيق هذه الأجزاء على نسختين :

النسخة الأولى مصوّرة عن نسخة مخطوطة بمكتبة « كبريلى » بالآستانة ؛ وتتألف من واحد وثلاثين جزءا ؛ وهى بالدار برقم (٥٤٩) معارف عامة .

وأصلها مكتوب بقلم معتاد واضح، وعناوين الفصول والأبواب بخط الثلث؛ وهى مكتوبة بخطوط مختلفة ، وأكثر أجزائها بخط « نور الدين بن شرف الدين العاملى »، كتبها ما بين سنتى ٩٦٦، ٩٦٧ هـ . وفى كل صفحة خمسة وثلاثون سطرا، ومتوسط الكلمات فى السطر خمس عشرة كلمة، وقد رمز لهذه النسخة بحرف (ا) .

أما الثانية ؛ فهى نسخة مصوّرة عن نسخة مخطوطة بمكتبة « أياصوفيا » بالآستانة ؛ وهى كسابقتها تتألف من واحد وثلاثين جزءا ، والموجود منها بالدار ثمانية عشر جزءا غير متصلة ؛ محفوظة برقم (٥٥١) معارف عامة، وبآخر كل جزء منها عبارة تشير إلى أنها بخط المؤلف ؛ كتبت ما بين سنتى ٧٢١، ٧٣٠ هـ تقريبا . وعناوين الفصول والأبواب فيها بالخط الثلث، وتحتوى كل صفحة على سبعة عشر سطرا، ومتوسط كلمات كل سطر ثمانى كلمات . وقد رمز إليها بالحرف (ج) .

وبأول كل جزء منها وقفية للكتاب على المكتبة المحمودية التى أنشأها محمود الأستادار بخُط الموازنيين[1] بالقاهرة؛ وتاريخ هذه الوقفية سنة ٧٩٧ هـ .

(١) هذا الخط هو المعروف الآن بشارع قصبة رضوان فى الخيامية بالقرب من باب زويلة . وكانت هذه المكتبة من أكبر المكتبات فى الشرق فى ذاك العصر وكان من أمنائها الحافظ ابن حجر العسقلانى، والحافظ جلال الدين السيوطى .

أما النسخة التى رمز إليها فى الجزء الثامن بالحرف (ب) فهى قطعة مصوّرة عن مكتبة مشيخة علماء الإسكندرية، وتنتهى فى ص ٦٩ من ذاك الجزء .

* * *

وقد رجعنا فى تحقيق الجزء السادس عشر إلى نسخة (ا) فقط ؛ أما السابع عشر والثامن عشر فقد رجعنا فى تحقيقهما إلى (ا) و (ج) .

وقد وقع فى النسختين كثير من الغموض والتحريف ؛ فبذلنا غاية الجهد فى بيان الغامض ، وإيضاح المبهم، وحل المشكل، ورجعنا فى ذلك إلى ما أمكن الرجوع إليه من مصادر المؤلف ؛ ثم إلى أمهات كتب التاريخ والتفسير والحديث واللغة .

وقام الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى الأستاذ الآن بجامعة أنقرة بتركيا، بتحقيق ثلاث عشرة ملزمة من الجزء السادس عشر؛ وتولى مصححو القسم الأدبى تصحيح بقية هذا الجزء ، مع الجزأين : السابع عشر والثامن عشر .

* * *

وقد جدّت الدار أخيرا فى آستحضار بقية الأجزاء الباقية من النسخة المنسوبة لخط المؤلف من المكتبات المختلفة؛ وآستكمال نسخ هذا الكتاب وأجزائه من المكتبات الأخرى ، ليتم تحقيق بقية هذه الأجزاء على المنهج العلمى القويم ؛ ونأمل أن يتم هذا قريبا إن شاء الله .

ومن الله العون والحول، والهداية والتوفيق .

١٦ رجب سنة ١٣٧٤ — محمد أبو الفضل إبراهيم

١٨ مارس سنة ١٩٥٥ — مدير القسم الأدبى بدار الكتب المصرية

فهرس

السِّفر السادس عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرىّ

القسم الخامس من الفن الخامس فى أخبار الملة الإسلامية

صفة

الباب الأوّل من القسم الخامس من الفن الخامس فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ...

نسبه الطاهر صلى الله عليه وسلم ... ...

ذكر أمهات رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ...

ذكر نبذة من أخبار آبائه ... ...

خبر انتزاع البيت ومكة من خزاعة ومن ولى البيت بعد إسماعيل عليه السلام ، إلى أن آنتزعه قصى آبن كلاب ... ...

ذكر ولاية هاشم الرِّفادة والسقاية ... ...

أخبار عبد المطلب بن هاشم ... ...

ذكر ما قيل فى سبب تسميته وكنيته ... ...

ذكر حفر عبد المطلب زمزم ، وما وجد فيها ...

ذكر خبر آستسقاء عبد المطلب لبنى قيس عيلان ،

صفحة

ذكر نذر عبد المطلب نحر ابنه ، وخروج القداح على عبد الله والد رسول الله ، وفدائه ٥٠

ذكر زواج عبد الله آمنة بنت وهب ، أمه عليه السلام ٥٦

خبر المرأة التي عرضت نفسها على عبد الله بن عبد المطلب... ... ... ٥٨

حمل آمنة برسول الله ، وما رأته في ذلك ٦٣

وفاة عبد الله بن عبد المطلب ٦٦

ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٦٧

ذكر أسمائه وكناه ٧٢

ذكر ما جاء في تسميته محمدا ، وأحمد ، ومن تسمى بمحمد قبله من العرب ، واشتقاق ذلك ٧٥

أسماؤه في الكتب المنزلة... ... ... ٧٨

[illegible]ؤه ونعوته التي جرت على ألسنة أئمة الأمة ٧٩

[illegible]نعه وإخوته من الرضاعة وما ظهر من معجزاته في زمن الرضاعة [illegible]مال طفوليته ٨٠

... ... ٨٧

[illegible]له ٨٨

[illegible]ام مع عمه أبي طالب ، وخبر بحيرا الراهب... ... ... ٩٠

... ... ٩٣

[illegible]ول... ... ... ٩٤

[illegible]ة الثانية ، وحديث نسطورا ٩٥

[illegible]خويلد... ... ... ٩٧

صفحة

حضوره هدم الكعبة وبناءها ٩٩

آختلاف قريش فى رفع الركن وتراضيهم به صلى الله عليه وسلم ، وخبر النجدىّ ١٠٢

ذكر المبشرات به صلى الله عليه وسلم قبل مولده ومبعثه وبعد ذلك ١٠٥

خبر سلمان الفارسىّ وقصته فى سبب إسلامه وهجرته إلى المدينة ... ١٢٩

خبر سيف بن ذى يزن وقصته مع عبد المطلب وتبشيره به صلى الله عليه وسلم ١٣٧

خبر مَنْ ذَكَر صفته صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه وذَكَّر قومه بها ١٤٨

ذكر بشائر كهان العرب به صلى الله عليه وسلم ١٥٣

خبر مازن الطائىّ فى سبب إسلامه ١٦٥

ذكر مبعثه صلى الله عليه وسلم ، ومابدئ به من النبوة.. ... ... ١٦٨

ذكر فترة الوحى عنه، وما أنزل بعد فترته ١٧٦

ذكر فرض الصلاة... ... ... ١٧٨

أول من أسلم وآمن بالله تعالى وبرسوله ١٨٠

خبر إسلام على بن أبى طالب ١٨١

خبر إسلام زيد بن حارثة ١٨٣

ذكر من أسلم بدعاء أبى بكر الصديق ١٨٧

ذكر تسمية من كانت لهم سابقة فى الإسلام من العرب من غير قريش ١٩٢

ذكر دعائه صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام ١٩٥

ذكر أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين جاهروا بالعداوة ... ١٩٨

ذكر دخول قريش على أبى طالب فى أمره وما كان بينهم من المحاورات ١٩٩

صفحة
ذكر تحزب قريش عليه صلى الله عليه وسلم ، وأذاهم له ولأصحابه ٢٠٣
ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب ٢٠٨
ذكر مشى عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسماعهما القرآن ٢٠٩
اجتماع أشراف قريش إليه صلى الله عليه وسلم ، وما عرضوا عليه ، وما طلبوا منه أن يريهم إياه ويخبرهم به ٢١٢
قصة أبى جهل فى الحجر الذى قصد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وما شاهده من حماية الله تعالى لنبيه ٢١٧
خبر النضر بن الحارث وما قال لقريش وإرسالهم إياه إلى أحبار يهود بيثرب ، ومعه عقبة بن أبى معيط ، وما عادا به ٢١٩
ذكر ما اشتملت عليه سورة الكهف مما سألوه عنه ٢٢٢
ذكر ما أنزل من القرآن عليه صلى الله عليه وسلم فيما سأله قومه لأنفسهم ، من تسيير الجبال وغيره ٢٢٥
ذكر ما كان من عناد قريش بعد ما عرفوا من صدقه فيما حدث ... ٢٢٧
ذكر أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٢٨
ذكر ما نال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذى قريش ٢٢٩
هجرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة ، وهى الهجرة الأولى ٢٣٢
رجوع أهل هذه الهجرة إلى مكة ، وما قيل فى سبب رجوعهم ٢٣٣
ما ورد فى توهين حديث الغرانيق ٢٣٦
الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة ، ومن هاجر إليها من الصحابة ، ٢٤١
ذكر إرسال قريش إلى النجاشي فى شأن من هاجر إلى الحبشة ، وإسلامه ٢٤٧

صفحة
إسلام عمر بن الخطاب ٢٥٣
تعاقد قريش على بنى هاشم وبنى المطلب ٢٥٨
ذكر من عاد من أرض الحبشة ممن هاجر إليها ، وكيف دخلوا مكة ٢٦٢
ذكر من قدم من أرض الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو بخيبر ٢٦٥
أسماء من هلك بأرض الحبشة ممن هاجر إليها ٢٦٧
من أنزل فيه القرآن من مشركى قريش، وما أنزل فيهم ٢٦٨
خروج أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى الهجرة ، وعوده وجواره
ورده الجوار ٢٧٥
وفاة أبى طالب بن عبد المطلب ومشى أشراف قريش إليه ٢٧٧
وفاة خديجة بنت خويلد ٢٧٩
خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وعوده إلى مكة »
خبر الإسراء والمعراج ٢٨٣
ذكر من قال إن الإسراء كان بالجسد وفى اليقظة ٢٩٣
ذكر ماورد فى رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ٢٩٥
ذكر ما كان بعد الإسراء من إنكار قريش لذلك ٣٠٠
ذكر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قبائل العرب فى المواسم ٣٠٢
خبر مفروق بن عمرو وأصحابه ٣٠٦
بيعة العقبة الأولى ٣١٠
بيعة العقبة الثانية ٣١٢
بيعة العقبة الثالثة ٣١٣

صفحة
تسمية من شهد العقبة ، و بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل آية ٣١٧
أنزلت فى القتال ٣٢١
أوّل من هاجر من مكة إلى المدينة ... ... »
آجتماع قريش فى دار الندوة ٣٢٦
ذكر آبتداء هجرته صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه ٣٣٠
خبر الغار وما قيل فيه ٣٣١
خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر من الغار إلى المدينة ،
وخبر سراقة بن مالك وأمّ مَعْبَد ٣٣٣
قدومه مع أبى بكر إلى المدينة ٣٣٩
خروجه من قُبَاء ، وتحوّله إلى المدينة ٣٤١
بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم و بيوته بالمدينة ٣٤٤
بناء المسجد الذى أسس على التقوى ، وهو مسجد قُبَاء ٣٤٥
ذكر ما أصاب المهاجرين من حُمَّى المدينة ٣٤٦
ذكر مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ٣٤٧
ذكر كتابه الذى أمر بكتبه بين المهاجرين والأنصار ، وموادعة يهود ٣٤٨
أخبار المنافقين من الأوس والخزرج ، وما أنزل فيهم من القرآن ... ٣٥١
ذكر شىء من أخبار يهود الذين نصبوا العداوة له صلى الله عليه وسلم ،
وما أنزل فيهم من القرآن ٣٦٢
إسلام عبد الله بن سَلَام ومُخَيْرِيق ٣٦٣
سؤال أحبار يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآشتراطهم أنه إن
أجابهم عما سألوه آمنوا به ٣٧٠

صفحة
كتابه صلى الله عليه وسلم الذى كتبه إلى يهود خيبر ٣٧٢
ما قاله أحبار يهود فى أوائل السور ٣٧٣
ذكر شىء من مقالات يهود ، وما أنزل من القرآن فى ذلك ٣٧٤
ذكر ما ألقاه شاس بن قيس اليهودىّ بين الأوس والخزرج من الفتنة ٣٧٨
ذكر ما تكلم به يهود فى شأن من أسلم منهم ، وما أنزل الله تعالى فى ذلك ٣٨٠
قصة الرجم ٣٨٤
ذكر ما ورد من أن يهود سحروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٩٠
ذكر الكلام على مشكل حديث السِّحْر ٣٩٣
خبر الشاة التى سُمَّ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٩٥

ذكر الحوادث بعد الهجرة ، من السنة الأولى إلى العاشرة

حوادث السنة الأولى ٣٩٦
حوادث السنة الثانية ٣٩٧
ذكر صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ٣٩٧
ذكر خبر الأذان ٣٩٩
حوادث السنة الثالثة ٤٠٠
حوادث السنة الرابعة ٤٠٠
نزول الحجاب على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٠١
حوادث السنة الخامسة ٤٠٢
ما وقع بين المهاجرين والأنصار فى غزوة المُرَيْسيع ٤٠٢

صفحة

حديث الإفك، وما أنزل الله تعالى من براءة عائشة رضى الله عنها ... ٤٠٥

خبر التيمم... ... ... ٤١٧

حوادث السنة السادسة ٤١٨

هجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وما أنزل الله تعالى
فى هجرة النساء ٤١٨

حوادث السنة السابعة ٤١٩

حوادث السنة الثامنة ٤٢٠

آتخاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ، وخطبته عليه ٤٢٠

إسلام عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وعثمان بن أبى طلحة ... ٤٢١

حوادث السنة التاسعة ٤٢٣

خبر مسجد الضرار وهدمه ، ومن آتخذه من المنافقين ٤٢٧

إسلام كعب بن زهير ، وآمتداحه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٢٩

حج أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالناس ، وأذان على
رضى الله عنه بسورة براءة... ... ... ٤٣٩

حوادث السنة العاشرة ، وفيها كانت حجة الوداع ٤٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه التوفيق والإعانة

ذكر غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما يتصل بذلك من الوقائع التى لم تُذكر فى حوادث السنين لتعلقها بالغزوات ١/١٥

٥ كانت غزوات رسولِ الله صلى الله عليه وسلم التى حضرها بنفسه سبعا وعشرين غَزاة، كلّها بعد هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهى :

غزوة الأَبْواء ، وهى غزوة وَدّان ، ثم غزوة بُواط ، ثم غزوة بدْر الأولى ، ثم غزوة ذى العُشَيْرة ، ثم غزوة بدْرٍ الكبرى ، ثم غزوة بنى قَيْنُقاع ، ثم غزوة السَّوِيق ، ثم غزوة قَرْقَرة الكُدْر ، وهى غزوة بنى سُلَيْم ، ثم غزوة غَطَفان إلى نجد ، ١٠ وهى غزوة ذى أَمَر[1] ، ثم غزوة بنى سُلَيم بِبُحْران ، ثم غزوة أُحُد ، ثم غزوة حَمْراء الأسدِ ، ثم غزوة بنى النَّضير ، ثم غزوة بَدْر الموْعِد[2] ، ثم غزوة ذاتِ الرِّقاع ، ثم غزوة دُومة الجَنْدل ، ثم غزوة بنى المصْطَلِق بالمُرَيْسيع ، ثم غزوة الخَنْدق ، وهى غزوة الأحزاب ، ثم غزوة بنى قُرَيْظة ، ثم غزوة بنى لِحْيان ، ثم غزوة الغابَة ، وهى غزوة ذى قَرَد ، ثم غزوة الحُدَيْبِيَة ، ثم غزوة خَيْبَر ، ثم غزوة الفَتح ، ثم ١٥ غزوة حُنين ، ثم غزوة الطَّائف ، ثم غزوة تَبُوك ؛ ومنهم من عدّ عُمْرة القَضَاء مع الغزوات ، وكانت بعد خَيْبر وقبل الفتْح .

---

(١) ذو أمر : موضع بناحية النخيل بنجد من ديار غطفان .

(٢) غزوة بدر الموعد : هى بدر الآخرة ، وسميت بذلك للواعدة عليها مع أبى سفيان يوم أحد .

قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم من هـذه الغزوات فى تسع ، وهى : بدر الكُبرى ، وأُحُد ، والخَنْدق ، وقُرَيْظة ، والمصْطَلِق ، وخَيْبَر ، والفَتْح ، وحُنَين ، والطّائف ؛ وقيل : إنه قاتل فى بنى النَّضير. والغابَة .

وسَراياه صلى الله عليه وسلم نحو من ستين سرية[1] .

ذكر أوّل لِواء عقده صلى الله عليه وسلم

٥

كان أوّلُ لواء عَقَده رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعمِّه حمزة بن عبد المطلب فى شهر رَمضان على رأس سبعة أشهر من مُهاجَرِه لواءً أبيض ، حمـله أبو مَرْثَد كَنّاز بنُ الحُصَين الغَنَوىّ ، حليف حمزة ، و بعثه رسـولُ الله صلى الله عليه وسـلم فى ثلاثين رجلا من المهاجرين يَعْترِضُ لعِير[2] قريش قد جاءت من الشام تريد مكة ، وفيها أبو جهـل بن هشام فى ثلثمائة رجل ، فبلغوا سِيفَ[3] البحر من ناحية العِيص[4] ، فالتقَوا ، وصفّوا للقتال ، فمشى مجـدىّ بن عمرو الجهنىّ ، وكان موادعا للفريقين جميعا ، إلى هؤلاء مرة ، و إلى هؤلاء مرة ، حتى حجَز بينهم .

١٠

ذكر سرية عُبَيدةَ بن الحارث بن المطّلب إلى بطْن رابِـغ

٢/١٥

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوّال على رأس ثمـانية أشهر من مُهاجَره فى ستين رجلا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وعقد له لواء أبيض ،

١٥

(١) جرت عادة المحدثين وأهل السير أن يسموا كل عسكر حضره النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة ، وما لم يحضره ، بل أرسل بعضا من أصحابه إلى العدو ، سرية و بعثا . راجع كتاب المغازى من كتاب المواهب اللدنية ، جـ ١ صفحة ٤٦٧ .

(٢) العير هنا : الإبل التى تحمل الميرة ؛ لا واحد لها من لفظها .

(٣) سيف البحر : ساحله . (٤) العيص : موضع بناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون إلى الشام .

٢٠

حمله مِسْطَح بن أُثاثة بن المطّلب بن عبد مناف . حكاه محمد بن سعد .
قال ابن إسحاق: أو ثمانين رجلا من المهاجرين، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثَنِيَّة المَرَةِ، فلَقِيَ به جمعا عظيما من قريش .

قال الشيخ شرف الدين الدمياطىّ رحمه الله: فلق أبا سفيانَ بن حرب ، وهو
٥ فى مائتين، على ماء يقال له أحْياء، من بطن رابغ على عشرة أميال من الجُحْفة، فكان بينهم الرّمىُ ولم يسُلّوا السيوف ولم يصطفّوا للقتال، وكان سعد بن أبى وقّاص أوّل من رمَى بسهْم فى سبيل الله ، ثم انصرف الفريقان على حاميتهم (١) ؛ وكان على القوم عِكرِمةُ بن أبى جهل . وقال أبو محمد بن هشام : كان عليهم مِكْرَز بن حفْص ابن الأَخْيَف .

١٠ قال ابن إسحاق : وفرّ من المشركين إلى المسلمين المِقدادُ بن عمرو البَهْرانىّ حليفُ بنى زُهْرة ، وعُتْبة بن غَزْوان بن جابر المازِنىّ حليف بنى نوفل بن عبد مناف، وكانا مسلمَيْن ، ولكنهما جاءا مع القوم ليتوصّلا بهم (٢) .

وقدّم ابن إسحاق هذه السّريّة على سِرية حمزة .

ذكر سَرِيّة سعد بن أبى وقّاص إلى الخَرّار (٣)

١٥ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة على رأس تسعةِ أشهر من مهاجَره فى عشرين رجلا من المهاجرين، وعقد له لواء أبيضَ حمله المِقداد بن عمرو البَهْرانىّ، وساروا يعترضون لعِير قريش، وعهِد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألّا يُجاوزَ الخرار .

قال سعد: فخرجنا على أقدامنا، فكنّا نكمُن النهار ونسير الليل ، حتى صبّحناها
٢٠ صبحَ خمس، فنجد العير قد مرّت بالأمس .

(١) حاميتهم : وجههم . (٢) الضمير فى بهم يعود على الكفار . يريد : أنهما جعلا خروجهما مع الكفار وسيلة للوصول إلى المسلمين . (٣) الخرار : موضع بالحجاز .

ذكر غزوة الأَبْواء[1] وهى غزوة وَدّان[2]
وبينهما ستة أميال

وهذه الغزوةُ أول غَزَاة غزاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وكانت فى صفَر على رأس آثنى عشر شهرا من مُهاجَره ، وحمَل لواءَه حمزةُ بن عبد المطلب ، وكان أبيضَ ، وآستخلف على المدينة سعدَ بن عُبادة ، وخرج فى المهاجرين ليس فيهم أنصارىّ حتى بلغ الأبواء يعترض لعير قريش ، فلم يلقَ كيدا .

وفى هذه الغزاة وادعَ مَخْشِىَّ بن عمرو الضَّمْرِىّ ، وكان سيّدَهم فى زمانه ، على ألّا يغزوَ بنى ضَمْرةَ ولا يغزوه ، ولا يكثروا عليه جمعا ، ولا يعينوا عدوا ، وكتب بينه وبينهم كتابا .

وكانت غيبتُه صلى الله عليه وسلم خمسَ عشرةَ ليلة .

ذكر غزوة بُوَاط

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأوّل على رأس ثلاثةَ عشرَ شهرا من مُهاجرِه[3] وحمل لواءَه سعد[4] بن أبى وقّاص ، وكان أبيض ، وآستخلف على المدينة سعد[5] بن معاذ . [وقال ابن هشام : استعمل عليها السائبَ بن عثمان بن مَظْعون .

(١) الأبواء : قرية من أعمال الفرع من المدينة بينها و بين الجحفا مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا .

(٢) ودان : قرية جامعة من نواحى الفرع على طريق الحاج .

(٣) زيد فى أ : « لطلب كرز بن جابر الفهرى » .

(٤) كذا فى ح . وفى أ : « على بن أبى طالب رضى الله عنه » .

(٥) فى أ : « زيد بن حارثة » .

وخرج فى مائتين من أصحابه يعترض لعير قريش، فيها أُميّة بن خلف الجُمحىّ ومائة رجل من قريش وألف وخمسمائة بعير، فبلغ بُواطا، وهى من جبال جُهَينة من ناحية رَضْوَى، وهى قريب من ذى خُشُب مما يلى طريق الشام، وبين بُواط والمدينة نحوٌ من أربعة بُرُد، فلم يلق كيدا، فرجع صلى الله عليه وسلم.(١)

ذكر غزوة بدر الأولى(٢)

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول على رأس ثلاثةَ عشَر شهرا من مُهاجَره، لطلب كُرْز بن جابر الفِهرىّ، وحمل لواءه على بن أبى طالب، وكان أبيضَ، واستخلف على المدينة زيدَ بن حارثة، وكان كرز قد أغار على سَرْح(٣) المدينة فاستاقه، وكان يرعى بالجَمّاء، فطلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ واديا يقال له سَفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فلم يلحقه، فرجع إلى المدينة.

ذكر غزوة ذى العُشَيرة

العُشَيرة، بالشين المعجمة، وقيل بالسين المهملة، وقيل: العُسَيرا بالألف.

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة، على رأس ستة عشر شهرا من مُهاجَره، وحمل لواءه حمزةُ بن عبد المطلب، وكان أبيضَ، واستخلف على المدينة أبا سَلَمة بن عبد الأسَد المخزومىّ.

---

(١) اضطرب النص هنا فى نسخة أ.

(٢) هذه الغزوة ساقطة من أ. وقد سماها ابن هشام أيضا بغزوة سفوان: وذكرها بعد غزوة العشيرة. راجع صفحة ٤٧٨ حـ أ من المواهب اللدنية.

(٣) السرح: الإبل والمواشى التى تسرح للرعى بالغداة.

٣/١٥ وخرج فى خمسين ومائة ، و يقال فى مائتين من المهاجرين ممن آنتدب ، ولم يُكرِه أحدا على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيرا يعتقبونها[(١)] ، وخرج يعترض لعير قريش حين آبتدأت إلى الشام ، فبلغ ذا العُشيرة ، وهى لبنى مُدْلج بناحية يَنْبُع ، فوجد العيرَ التى خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام ، وهى العير التى خرج أيضا يُريدُها حين رجعت من الشام ، فكانت فيها وقعةُ بدر الكبرى . ٥

وفى هذه الغزاة وادَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنى مُدْلج وحلفاءَهم من بنى ضَمْرة . وفيها كنَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه أبا تُراب[(٢)] ، وقيل فى غيرها .

ذكر سرّية عبدِ الله بن جَحْش الأَسدى إلى نَخْلة

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رجب على رأس سبعةَ عَشَر شهرا من مُهاجَره فى آثنى عشَر رجلا من المهاجرين ، كل آثنين يعتقبان بعيرا . ١٠

قال ابن إسحاق : وكتب [له[(٣)]] رسول الله صلى الله عليه وسلم كِتابا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسيرَ يومين ، ثم ينظر فيه ، ويمضى لما أمره به ، ولا يستكرِه أحدا من أصحابه .

---

(١) يعتقبونها : يتناوبون ركوبها . ١٥

(٢) قال السهيلى : فى الروض ج ٣ ص ٥٨ « إن أصح الأقوال فى تكنية على بأبى تراب ما رواه البخارى فى جامعه وهو : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجده فى المسجد نائما وقد ترب جنبه فجعل يحت التراب عن جنبه و يقول : قم أبا تراب . وكان قد خرج إلى المسجد مغاضبا لفاطمة » .

(٣) زيادة من سيرة ابن هشام .

قال : وكان معه أبو حُذيفة بن عُتْبة بن ربيعة ، وعُكَّاشة بن مِحْصَن ، وعُتبة ابن غَزْوان بن جابر ، وسعد بنُ أبي وقّاص ، وعامرُ بن ربيعة ، وواقدُ بن عبد الله التَّميمىّ ، وخالدُ بن البُكَيْر أحدُ بنى سعد بن لَيث ، وسُهَيْلُ بن بَيضاء . هؤلاء الذين عدّهم آبن إسحاق ؛ وكان معهم المِقدادُ بنُ عمرو ، حكاه محمد بن سعد .

٥ قال آبن إسحاق : فلما سار عبدُ الله بن جحش يومين فتح الكتابَ فإذا فيه : " إذا نظرتَ فى كتابى هذا فآمضِ حتى تنزلَ نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصَّدْ بها قريشا ، وتعلَّمْ لنا من أخبارهم " . فلما نظر عبد الله فى الكتاب قال : سَمْعٌ وطاعةٌ . ثم ذكر ذلك لأصحابه وقال لهم : قد نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أستكرهَ أحدا منكم ، فمن كان يريد الشّهادة ويرغب فيها فلْيَنطلِقْ ، ومن كرِه ذلك فليرجعْ ،

١٠ فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضوْا كلُّهم ، وسلك على الحجازِ حتى إذا كان بمَعْدن فوق الفُرُع يقال له بَحْران ، أضلّ سعدُ بن أبى وقّاص وعُتبة بن غَزْوان بعيرَهما ، فتخلّفا فى طلبه ، ومضى عبد الله وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيبا وأَدَماً[1] وتجارة من تجارة قريش — قال آبن سعد : وخمرا — وفيها عمرو بن الحضْرمىّ ، وعثمان بن عبد الله بن المُغيرة ،

١٥ وأخوه نَوْفل ، والحَكَم بن كَيْسان مولى هشام بن المُغيرة .

فلما رآهم القوم هابوهم ؛ وكان عُكّاشة حلَق رأسه ليطمئن القومُ[2] ؛ فأَمِنوا .

وقال لهم عثمان[3] : لا بأس عليكم منهم . قال : فسرّحوا ركابَهم ، وصنعوا طعاما . قال : فتشاور القوم فيهم ، وذلك آخر يوم من شهر رجب ، فقالوا : والله لئن

(١) الأدم : الجلد . (٢) انظر شرح المواهب ١ : ٤٧٩ .

٢٠ (٣) فى طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٥ : « وقالوا هم عمار » .

تركتموهم فى هـذه الليلة ليدخُلُنّ الحَرَم فليمتَنعُنّ منكم به ، و إن قتلتموهم لتَقْتُلُنّهم فى الشهر الحـرام . فتردّد القوم وهابوا الإقدامَ عليهم ، ثم شجّعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قَدَروا عليـه منهم وأخذِ ما معهم ؛ فخرج واقِد بن عبد الله يقدُم المسلمين ، فرمَى عمرَو بن الحضرمىّ بسهم فقتله ، وآستأسر عثمانَ بن عبـد الله ، والحكَم بن كَيْسان ، وأفلتَ نوفلُ[1] بن عبد الله فأعجزهم . وأقبل عبد الله وأصحابُه بالعير والأسيرَيْن حتى قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلمـا قدموا عليـه قال : ما أمرتُكم بقتال فى الشهر الحرام . ووقَفَ العِـيرَ والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شـيئا ؛ فأُسقِط[2] فى يَدِ القوم ، وظنوا أنهـم قد هلكوا ، وعنّفهم المسلمون فيما صنعوا .

وقالت قريش : قد استحلّ محمد وأصحابه الشهرَ الحرام ، وسفكوا فيه الدّم ، وأخذوا فيه الأموال[3] ، وأسروا الرجال ؛ وأكثرَ الناسُ فى ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يسألونك عنِ الشّهرِ الحَـرامِ قِتالٍ فِيهِ ، قُل قِتالٌ فِيـهِ كَبِيرٌ وصَدٌّ عن سبِيلِ ٱللهِ وكفرٌ بِهِ والمسجِدِ الحرامِ وإِخْراجُ أهلِهِ مِنه أكبرُ عِند ٱللهِ والفِتْنةُ أكبرُ مِن القتْلِ ﴾ أى إن كنتم قتلتُم فى الشهر الحرام فقد صدُّوكم عن سبيل ٱلله وعن المسجدِ الحرام ، وإخراجُكم منه وأنتم أهلُه أكبرُ عند ٱلله من قتْل مَن قتلتم منهم . ﴿ والفِتنةُ أكبرُ مِن القتلِ ﴾ ؛ أى قد كانوا يفتِنون المسلمين فى دينهم حتى يردّوهم إلى الكفر بعد إيمانهم ، فذاك أكبرُ عند الله من القتْل .

(١) فى سيرة ابن هشام : حـ ٢ ص ٢٥٤ : « وأفلت القوم نوفل » .

(٢) أسقط فى يد القوم : « زلوا وأخطئوا وندموا وتحيروا » .

(٣) فى حـ : « وأخذوا الأموال » .

قال: فلما نزلت الآياتُ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العيرَ والأسيرَيْن، وبعثتْ إليه قريش فى فدائهما، فقال: لا. حتى يَقْدَمَ صاحبانا، يعنى سعد ابن أبى وقّاص، وعُتْبة بن غَزْوان، فإنّا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتُلْ صاحبَيكم. فقدِم سعد وعُتْبة، فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. ٤/١٥

فأما الحَكَم بن كَيْسان فأسلمَ وحسُن إسلامه، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتِل يوم بئر مَعُونة شهيدا، وأما عثمان فلحِق بمكة، فكان بها حتى مات كافرا.

قال: فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابِه ما كانوا فيه طمِعوا فى الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطَى فيها اجرَ المجاهدين؟ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيلِ الله أولئك يرجُون رحمةَ الله واللهُ غفورٌ رحيم﴾، قال: وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفَيْءَ فجعل أربعة أخماسه لمَنْ أفاءَه، وخُمسَه إلى الله ورسوله.

قال ابن هشام: وهى أوّل غنيمة غنِمها المسلمون، وعمرو بن الحضْرمىّ أولُ من قتَلَ المسلمون، وعثمانُ والحكَمَ أول من أسرَ المسلمون. وفى هذه السرِيّة سُمى عبدُ الله بن جَحْش أميرَ المؤمنين.

وقال عبد الله بن جحش فى هذه الواقعة، ويقال إنها لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه؛ والذى صحّحه ابن هشام أنها لعبد الله بن جحش، أبياتا يخاطب بها قريشا:

تَعُدُّون قتْلاً فى الحرام عظيمةً ... وأعظَمُ منه لو يَرى الرُّشدَ راشِدُ
صُدودُكُم عمّا يقول محمدٌ ... وكُفرٌ به واللهُ راءٍ وشاهدُ

وإخراجُكمْ مِن مسجد الله أهـلَهُ لئـلَّا يُرى لله فى البيت ساجدُ
فإنَّا وإنْ عـيَّرتُمونا بقتـلهِ وأَرْجَف بالإسـلام باغٍ وحاسدُ
سَقَينا منَ ابنِ الحَضْرمىّ رماحَنا بنخـلةَ لمّـا أَوقد الحربَ واقدُ
دمًا وابنُ عبدِ الله عثمانُ بيننا يُنازعه غُلٌّ من القِـدّ عاند (١)

ذكر غزوة بدر الكبرى (٢)، ويقال فيها بدر القتال، وما يتّصل بها

٥

كان سبب هـذه الغزوة أن رسولَ الله صـلى الله عليه وسـلم سمع بإقبال أبى سُـفيان بن حرْب من الشام فى العـير التى لقريش، وهى التى خرج إليهـا فى غزوة ذى العُشَيرة، وكان فيهـا أموالُ قريش وتجاراتهم، وفيها منهـم ثلاثون أو أربعون، منهم مَخْرَمة بن نَوْفل، وعمرو بن العاص بن وائل، فندبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إليهم، وقال: هذه عِير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنفِلُكُوها، فانتدب النـاسُ، فخفّ بعضُهم وثقُل بعض.

١٠

وكان أبو سفيانَ حين دنا من الحجاز يتحسّس (٣) الأخبار، ويسأل من لقى من الرّكبان عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تخوّفا على ما معه؛ فأخبره بعض الركبان: أن

(١) القد: شرك يقطع من الجلد. وفى شرح المواهب ١: ٤٨١: «عاقد».

(٢) وتسمى هذه الغزوة أيضا غزوة بدر العظمى، والثانية، وبدر الفرقان. وبدر: قرية بين مكة والمدينة على نحو أربع مراحل من المدينة؛ وقيل ماء مشهور أسفل وادى الصفراء، ويقال: إنه ينسب إلى بدر بن يخلد وقيـل بل هو رجل من بنى ضمرة سكن هذا الموضع فنسب إليه. راجع شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٤٨٩، ومعجم البلدان مادة «بدر».

(٣) التحسس: أن تتسمع الأخبار بنفسك.

١٥

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آستنفرَ أصحابَه لقصده، فحذِر عند ذلك، وآستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفَارىّ؛ فبعثه إلى مكة، وأمره أن يستنفر قريشا إلى أموالهم، ويخبرَهم أن محمدا قد عرَض لها فى أصحابه؛ فأسرع ضمضم إلى مكة .

ذِكر رؤيا عاتِكةَ بنت عبد المطلب وخروج قريش إلى بدر

قال محمد بن إسحاق رحمه الله بسنده إلى عبد الله بن عبّاس، وعُروة بن الزبير رضى الله عنهم .

قالا : ورأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضَمْضَم مكة بثلاثٍ رؤيا أفزعتْها، فبعثتْ إلى أخيها العباس، فقالت له : والله لقد رأيت رؤيا أفظعتْنى وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرّ أو مصيبة، فاكتم عنى ما أحدّثك به، قال: وما رأيتِ ؟ قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير حتى وقف بالأبطَح (١)، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا آنفروا يا آل غُدُر (٢)! لمَصارِعكم فى ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا، ثم دخل المسجدَ والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مَثَل به بعيُره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها : ألا آنفروا يا آل غُدَر! لمَصارِعكم فى ثلاث، ثم مثَل به بعيُره على

(١) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٢) فى اللسان : غدر معدول عن غادر للمبالغة، ويقال للذكر : غدر، والأنثى غدار، وهما مختصان بالنداء فى الغالب، وقد ضبطه السهيلى بضم الغين والدال . (راجع جـ ٢ صفحة ٦١ من الروض الأنف) .

٥/١٥ رأس أبى قُبَيس[(١)] فصرخَ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها مكةَ[(٢)] فلا دارٌ منها إلا دخلتها منها فِلْقة ؛ قال العباس : والله إنّ هذه لرؤيا ! وأنتِ[(٣)] فاكتميها .

ثم خرج العباس فلقى الوليدَ بن عُتبه بن رَبيعة ، وكان صديقا له ؛ فذكرَها له واستكْتَمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عُتبة ؛ ففشا الحديث حتى تحدّثت به قريش .

قال العباس : فغدوْت لأطوفَ بالبيت ، وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قُعود يتحدّثون برؤيا عاتكة ، فلما رآنى أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فرغتَ من طوافك فأْت إلينا ، فلما فرغتُ أقبلت حتى جلست معهم ؛ فقال لى أبو جهل : يا بنى عبد المطلب ، متى حدثَتْ فيكم هذه النبيّة ؟ قلتُ : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التى رأت عاتكة ، فقلت : وما رأت ؟ فقال : يابنى عبد المطلب ، أما رضِيتم أن يتنبّأ رِجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! فقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفِروا فى ثلاث ، فسنتربّص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقا ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتبْ عليكم كتابا أنكم أكذبُ أهل بيت فى العرب ؛ قال العباس : فوالله ما كان منى إليه كبيرٌ إلا أنّى جحدْت ذلك ، وأنكرتُ أن تكون رأتْ شيئا ، قال : ثم تفرّقنا .

فلما أمسيت لم تبق آمرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى فقالت : أقررْتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساءَ وأنتَ تسمع ؛ ثم لم تكن

---

(١) أبو قبيس : جبل مشرف على مكة . (٢) فى سيرة ابن هشام : «فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة» . وفى حـ : «ولا دار» . (٣) وفى رواية : «رأيت» .

عندك غِيرة لشيء مما سمعت ! قال : قلت : قد والله فعلتُ ، ما كان منّى إليه من كبير ؛ وأيمُ الله لأتعرضنّ له ، فإن عاد لأكفِينّكُنّه .(١)

قال : فغدوتُ فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديدٌ مُغضَب أرى أنى قد فاتنى منه أمر أُحِب أن أدرِكه منه ، فدخلت المسجد فرأيتُه ، فوالله إنى لأمشى نحوَه أتعرض له ليعود لبعض ما قال ، فأُوقِعَ به ، إذ خرج نحو باب المسجد يشتدّ ،(٢) فقلت فى نفسى : ما له لعنه الله ! أكلُّ هذا فرَق منى أن أشاتمه ! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع ؛ صوتَ ضمضم بن عمرو وهو يصرُخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، قد جدّع بعيره وحوّل رحله ، وشقّ قميصه وهو يقول : يا معشر قريش ، اللّطيمةَ اللّطيمةَ ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوثَ الغوثَ ! قال العباس : فشغلنى عنه ، وشغله عنّى ماجاء من الأمر .(٣)(٤)

فتجهّز الناس سِراعا وقالوا : أيظنّ محمد وأصحابه أن تكون كعِير آبن الحضْرَمىّ ؟ كلّا ! والله ليعلَمنّ غير ذلك ، فكانوا بين رجلين : إمّا خارج ، وإما باعث رجلا مكانه ، وأوعبت قريش فلم يتخلّف من أشرافها أحدٌ ، إلا أن أبا لهب بن عبد المطّلب تخلّف ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغِيرة ، آستأجره بأربعة آلاف درهم كانت لأبى لهب عليه ، فخرج عنه .(٥)

وروَى أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ فى كتابه المترجم بالأغانى(٦) بسند يرفعه إلى مُصعَب بن عبد الله قال :

---

(١) فى السيرة ج٢ ص٢٠٦ والطبرى ج٣ — ٤ ص١٢٩٤ : « غير » . (٢) يشتد : يعدو .

(٣) جدّع بعيره : قطع أنفه أو أذنيه . (٤) اللطيمة : الإبل التى تحمل الطيب والبر .

(٥) يقال : أوعب القوم : إذا خرجوا كلهم إلى الغزو . (٦) راجع الأغانى (ج ٤ ص ١٧٤ طبع دار الكتب المصرية) ، والنص فيه يختلف عن رواية المؤلف هنا .

قَامَرَ أبو لهب العاصىَ بن هشام فى عشرة من الإبل فقمره[1]، ثم فى عشرة فقمَره، [ثم فى عشرة فقمَره][2]، إلى أن خلعه من ماله فلم يُبق له شيئا، فقال له: إنى أرى القِداح قد حالفتْك يآبن عبد المطلب، فهلمّ أُقامرك يآبن عبد المطلب، فأيُّنا غُلب كان عبدا لصاحبه. قال: افعل، ففعلَ. فقمَره أبو لهب، فكرِه أن يسترِقَّه فتغضبَ بنو مخزوم، فمشى إليهم فقال: افتَدوه منى بعشرة من الإبل. فقالوا: لا والله ولا بِوَبَرة. فاسترقّه، فكان يرعى له إبلَه إلى أن خرج المشركون إلى بدر. قال: وقال غيرُ مصعب: فاسترقه وآحتبسَه قَيْنا[3] يعمل [الحديد][4]. فلما خرج المشركون إلى بدر أخرجه أبو لهَب عنه لأنه كان عليلا، على أنه إن عاد أعتقه، فقبل العاصى.

قال ابن اسحاق: وكان أميّةُ بن خلف قد أجمعَ القُعودَ [وكان شيخا[5] جليلا جسيما ثقيلا] فأتاه عُقْبة بن أبى مُعَيط وهو جالس فى المسجد بين قومه بِمِجْمرة[6]، فوضعها بين يديه، وقال: يا أبا علىّ، آستجْمِر، فإنما أنت من النساء. فقال: قَبَحَكَ الله وقبَح ما جئتَ به. ثم تجهّز وخرج مع الناس.

قال: ولما فرغوا من جِهازهم، وأجمعوا المسيرَ، ذكروا ما كان بينهم وبين بنى بَكْر بن عبد مَنَاة بن كِنانة من الحرب، فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خَلْفنا. فكادوا ينْثَنون، فتبدّى لهم إبليس فى صورة سُرَاقة بن مالك المُدْلِجىّ، وكان من أشراف كنانة، فقال: أنا جارٌ لكم من أن تأتيَكم كنانة من خلفكم بشىء مما تكرهونه فخرجوا سراعا.

هذا ما كان من أمر قريش.

---

(١) قمره: غلبه فى المقامرة. (٢) زيادة عن حـ. (٣) القين: الحداد.
(٤) زيادة عن حـ. (٥) زيادة من سيرة ابن هشام.
(٦) فى السيرة: «بمجمرة يحملها، فيها نار وبخور».

ذكر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم

٦/١٥

ومن معه من المسلمين إلى بدر

قال محمد بن إسحاق : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لثمانٍ خلوْن من شهر رمضان .

٥ وقال محمد بن سعد : خرج يوم السبت لاثنتى عشرةَ ليلة خلتْ من شهر رمضان ، على رأس تسعةَ عشرَ شهرا من مُهاجَره ، وآستعمل على المدينة عمرَو ابن أم مَكْتوم ، وآسمه عبد الله ، ليصلّى بالناس ، ثم ردّ أبا لُبابةَ من الرَّوْحاء[1] وآستعمله على المدينة ، وخرج صلى الله عليه وسلم فى ثلثمائة رجل وخمسةَ عشرَ رجلا ، كان من المهاجرين منهم أربعة وسبعون ، وسائرُهم من الأنصار بعد أن رَدّ ١٠ من أصحابه من آستصغرَهم ، ولم يكن غزا بالأنصار قبلها .

قال محمد بن سعد : وتخلّفَ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانيةٌ لعلّة ، ضَرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسِهامهم وأجُورهم ؛ ثلاثة من المهاجرين : وهم عثمان بن عفان ، خلّفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على آمرأته رُقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مريضة ، فأقام عليها حتى ماتت ، ١٥ وطلْحةُ بن عُبيد الله ، وسَعيد بن زيد ، بعثهما يتحسّسان خبر العِير ، وخمسةٌ من الأنصار ، وهم : أبو لُبابة بن عبد المنذر ، خلّفه على المدينة ، وعاصم بن عدىّ ، خلّفه على أهل العالية ، والحارث بن حاطِب ، رده من الرَّوحاء إلى بنى عمرو بن عَوْف لشىء بلغه عنهم ، والحارث بن الصِّمة ، وخَوَّات بن جُبَيْر ، كُسرا بالرَّوحاء .

---

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

وكانت إبِلُ أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعين بعيرا يعْتقِبونها، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، ومَرْثَد ابن أبى مَرْثَد الغنوىّ يعتقبون بعيرا .

قال محمد بن سعد يرفعه إلى ٱبن مسعود قال : كُنا يوم بدر كلّ ثلاثة على بعير، وكان أبو لُبابةَ، وعلىّ، زميلَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا كانت عُقْبةُ النبي صلى الله عليه وسلم قالا له : اركب يا رسول الله حتى نمشى عنك، فيقول : " ما أنتما بأقْوى على المشى منّى، وما أنا أغْنَى عن الأجْر منكما " .

قال ٱبن إسحاق : وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو كبْشَة، وأنَسة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقِبون بعيرا ؛ وكان أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوْف، يعتقبون بعيرا .

قال ٱبن سعد : وكانت الخيل فرسيْن : فرس للمِقْداد بن عمرو، وفرس لمرْثد ابن أبى مرْثَد الغنَوىّ . قال ٱبن إسحاق : وفرس للزُّبيْر بن العوّام .

قال : ودفَع رسول الله صلى الله عليه وسلم اللّواء إلى مُصْعَب بن عُمير بن هاشم ابن عبد مَناف بن عبد الدار، وكان أبيضَ، قال : وكان أمامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوْداوان، إحداهما مع على بن أبى طالب، والأخرى مع الأنصار .

قال ٱبن سعد : وكان لواء الخزرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوْس مع سعد بن مُعاذ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على السّاقة قيْسَ بن أبى صَعْصعة أخا بنى مازن بن النجار . قال : ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

قريبا من الصَّفْراء[1] بعث بَسْبَسَ بنَ عمرو ، وعدِيَّ بنَ أبى الزَّغباء الجُهَنِيَّيْن إلى بدر يَتحسَّسان له الأخبار عن أبى سفيان وعِيره .

ثم ٱرتحل صلى الله عليه وسلم إلى ذَفِران — وادٍ يَسارَ الصَّفراء — وأتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عِيرَهم ، فٱستشار الناسَ وأخبرهم ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسَن ، ثم قام عمر فقال وأحسَن ، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امضِ لما أمرك الله ! فنحن معك فوالله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، ولكِنْ نقول : اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتِلون ، فوالذى بعثك بالحق ، لو سِرتَ بنا إلى بَرْك الغِماد[2] لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغَه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له .

ثم قال : أشيروا علىّ أيها الناس — وإنما يريد الأنصار لأنهم عدد الناس — فقال له سعد بن مُعاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجلْ ؛ قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فٱمض يا رسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحقّ لو ٱستعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك ، ما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقَى بنا عدوّنا غدا ، إنا لصُبُر فى الحرب ، صُدُق فى اللّقاء ،

(١) الصفراء : واد من ناحية المدينة كثير النخل والزرع فى طريق الحاج ، وبينه وبين بدر مرحلة . وقيل : قرية فوق ينبع مما يلى المدينة .

(٢) برك الغماد (بكسر الغين المعجمة ، وقال ابن دريد : بالضم ، والكسر أشهر) : موضع فى أقاصى أرض هجر ، وقيل : موضع فى أقصى اليمن . وقال الهمدانى : موضع بالحبشة .

لعـلّ الله يريك منا ما تقر به عينُك ، فسِرْ بنا على بركة الله ، فقال صلى الله عليـه وسلم : "سيروا وأبشِروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتَين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم" .

٧/١٥ ثم ٱرتحل صلى الله عليه وسلم من ذَفران[1] حتى نزل قريبـا من بدر ، فركب هو وأبو بكر الصـديق حتى وقفا على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش ، وعن محمد وأصحابِه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى مَنْ أنتمـا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتَنا أخبرناك . قال : أوَ ذاك بذاك ؟ قال نعم . قال الشيخ : فإنه بلغنى أن محمدا وأصحابَه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن صدَق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا[2] — للمكان الذى تركَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه — وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صدَقَنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا — للمكان الذى به قريش — ثم قال : من أنتما ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن من ماء . ويقال : إن الشيخَ سُفيان الضَّمْرىّ . قال : ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، فلما أمسَى بعث علىّ بن أبى طالب ، والزُّبَير بن العوّام ، وسعد بن أبى وقّاص ، فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له عليه الخبر ، فأصابوا راوية[3] لقريش فيها أسْلَم ، غلام بنى الحجـاج ، وعَرِيض أبو يَسار ، غلام بنى العـاص ، فأتَوْا بهما ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش ، فقالا : هم وراء هـذا الكَثِيب الذى ترَى بالعُدْوة القُصْوى ، فقال لهما : كم القوم ؟ قالا : كثير ، قال : ماعِدّتهم ؟ قالا : لا ندرى .

(١) ذفران (بفتح أوله وكسر ثانيه ثم راء مهملة وآخره نون) : واد قرب وادى الصفراء .

(٢) فى أ : « فإنهم اليوم » .

(٣) الراوية : الإبل التى يستقى عليها الماء .

قال : كم ينحرون كل يوم؟ قالا : تسعا، ويوما عشرا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين التسعمائة والألف ، ثم قال لهما : فمَن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عُتبة بن ربيعة ، وشَيْبة بن ربيعة ، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام، وحَكيم بن حِزام ، ونوفل بن خُوَيْلد ، والحارث بن عامر بن نَوْفل ، وطُعَيمة بن عدىّ بن نوفل ، والنَّضْر بن الحارث ، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأُميّة بن خلف ، ونُبَيْه ومُنَبّه آبنا الحجاج ، وسُهَيْل بن عمرو ، وعمرو بن عبْد وُدّ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقَتْ أفلاذ كبِدها .

قال : وبلغ أبا سفيان الخبرُ بمَقدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ورد ماء بدر، فرجع إلى أصحابه سريعا وصرف وجهَ عِيره عن الطريق ، فساحل بها[1]، وترك بدرا يسارَه، وآنطلق . وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجُحْفَة[2]، رأى جُهَيْم بن الصَّلْت بن مَخْرَمة آبن عبد المطلب رؤيا فقال : إنّى فيما يرى النائم ، أو إنى[3] لبين النائم واليقظان، إذ نظرتُ إلى رجل أقبل على فرسٍ حتى وقف ، ومعه بعيرٌ له ، ثم قال : قُتل عُتْبة بن ربيعة ، وشَيْبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكَم بنُ هِشام ، وأمية بنُ خلَف، وفلانٌ وفلان ، فعدد رجالا مِمَّنْ كان قُتِل يوم بدر من أشرافِ قريش ، ورأيته ضرب فى لَبَّة بعيره، ثم أرسله فى العسكر، فما بقى خِباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضْحٌ[4] من دمه .

قال : فبلغتْ أبا جهل بن هشام فقال : وهذا أيضا نبىٌّ آخر من بنى عبد المطلب ! سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا .

(١) ساحل بها : أى أخذ بها جهة الساحل .

(٢) الجحفة : قرية على ثلاث أو أربع مراحل من مكة .

(٣) فى أ : « وإنى » . (٤) النضح : الرش .

قال: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا؛ فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرا؛ وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم فيه سوق في كل عام، فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان(١)، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا.

فمضت قريش حتى نزلوا العدوة(٢) القصوى من الوادى، والقلب(٣) ببدر فى العدوة(٤) الدنيا، قال: وبعث الله السماء، وكان الوادى دهسا(٥)، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير.

وقال ابن سعد: كان المسلمون يومئذ يميدون من النعاس ونزلوا على كثيب(٦) أهيل، فمطرت السماء فصار مثل الصفا(٧) يسعون عليه سعيا. وأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَاكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ(٨)﴾.

قال ابن إسحاق: وأصاب قريشا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء

(١) القيان: الجوارى.
(٢) العدوة القصوى: أى جانب الوادى القريب من مكة.
(٣) القلب: جمع قليب، وهو البئر.
(٤) العدوة الدنيا، أى بالجانب الأدنى من المدينة.
(٥) الدهس: كل مكان سهل ليس برمل ولا تراب.
(٦) كثيب أهيل: أى رمل سائل.
(٧) الصفا: الحجارة الصلدة.
(٨) فى قراءة ابن كثير وأبى عمرو.

من ماء بدر نزل به ، فأتاه الحُبابُ بن المنـذر بن الجَمُوح فقال : يا رسول الله ، هذا المنزلُ منزلٌ أنزلَكه اللهُ، ليس لنـا أن نتقدّمه، ولا نتأخرَ عنه، أم هو الرأىُ والحربُ والمكيدة؟ فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : " بل الرأىُ والحربُ والمكيدةُ " . قال يا رسول الله : فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتىَ أدنى ماءٍ من القوم فتنزلَه ، ثم نُعَـوِّر[1] ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليـه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القـوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : « لقد أشرتَ بالرأى » ، فنهض بالنـاس وسار حتى [إذا][2] أتى أدنى ماء من القوم ، نزل عليه ؛ ثم أمر بالقلُب فعُوّرت، وبنى حوضا على القَليب الذى نزل عليه ، فمُلئ ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية .

فقال سعد بن معاذ : يا نبىّ الله، نبْنَى لك عَريشا[3] تكون فيه، وتكون عندك ركائبك ، ثم نلقَى عدُوّنا ، فإن أعزّنا الله وأظْهرَنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك ، فلحِقْت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام ما نحن بأشـدَّ لك حُبًّا منهم ، ولو ظنّوا أن تلقَى حربا ما تخلّفوا عنـك ، يمنعُك الله بهم يُناصِحونك ويجاهدون معك ؛ فأثنى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عليه خيرا، ثم بُنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشٌ، فكان فيه .

قال : وآرتحلت قريش حين أصبحتْ فأقبـلت ، فلمّـا رآها رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم قال : " اللّهمّ هذه قريشٌ قد أقبلت بخُيَلائهـا[4] وفَخْرها ، تُحادّك[5] وتكذّب رسولَك ، اللهم فنصْرَك الذى وعدتَنى، اللهم أَحِنْهم[6] الغداة " .

(١) نعور القلب : ندفنها . (٢) عن سيرة ابن هشام . (٣) العريش : شبه الخيمة يستظل به . (٤) الخيـلاء : الكبر والإعجاب . (٥) تحادّك : تعاديك .
(٦) أحنهم : أى أهلكهم .

قال ابن سعد : كانت قريش تسعمائة وخمسين ، وخيلُهم مائةَ فرس ، وكان لهم ثلاثةُ ألوية ؛ لواء مع أبى عَزيز بن عُمير ، ولواء مع النَّضْر بن الحارث، ولواء مع طلحةَ بن أبى طلحة .

قال ابن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يَسار وغيره، عن أشياخ من الأنصار، قال: لما آطمأنَّ القوم بعثوا عُمير بن وهب الجُمَحىّ فقالوا : آحْزُر(١) لنا أصحابَ محمد ، فجالَ بفرسه حول العَسْكر، ثم رجع إليهم ، فقال : ثلثمائة رجل يَزيدون قليلا أو يَنقُصُونه ، ولكن أمهلونى حتى أنظر ، أللقوم كَمِينٌ أو مَدد ؟ قال : فضرب فى الوادى حتى أبعد ، فلم يَرَ شيئا، فرجع إليهم، فقال: ما رأيتُ شيئا ، ولكنى رأيتُ يا معشرَ قريش البَلايا(٢) تحمل المَنايا(٣) ، نواضحَ يَثرِبَ تحمل الموتَ الناقع(٤) ، قوم ليس معهم [مَنَعة](٥) ولا ملجأ إلا سيوفُهم، أمَا تَرَوْنهم خُرْصا لا يتكلّمون، يتلمّظون تَلمُّظ الأفاعى ؛ واللهِ ما أرى أن يُقتَل رجلٌ منهم حتى يُقتَل رجلٌ منكم ، فإذا أصابوا منكم أعْدادَهم، فما خيرُ العيش بعد ذلك؟ فروّا رأيَكم .

فلما سمع حَكِيم بن حِزام ذلك مشى فى الناس ؛ فأتى عُتبةَ بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبيرُ قريش وسيّدها ، والمطاعُ فيها، هل لك ألّا تزال تُذكَر منها بخير إلى آخر الدهر؟ قال : وما ذاك يا حكيم؟ قال : تَرجعُ بالناس وتحملُ أمرَ حليفك عمرو بن الحَضْرَمىّ . قال : قد فعلتُ ، علىّ عَقْله(٦) ؛ فأتِ آبنَ الحنظَلِيّة ، يعنى أبا جهل بن هشام ، قال : فأتيته فقلتُ : يا أبا الحكم ، قد أرسلنى إليك عُتبة

(١) الحزر: التقدير بالحدس والظن . (٢) البلايا : جمع بلية ، وهى الناقة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت . وكان بعض العرب ممن يقر بالبعث يقول : إن صاحبها يحشر عليها .
(٣) النواضح : الإبل التى يستقى عليها الماء . (٤) الناقع : الثابت البالغ فى الإفناء .
(٥) ساقطة من أ . (٦) عقله : ديته .

بكذا وكذا ، فقال : انتفخ والله سَحْرُه[1] حين رأى محمدا وأصحابَه ، كلا والله لا نَرجع حتى يحكمَ الله بيننا و بين محمد ، ثم بعثَ إلى عامر بنِ الحضرمى فقال: هذا حليفُك يريد أن يَرجِع بالناس، وقد رأيتَ ثأرَك بعينِك ، فقم فٱنشُد خُفْرَتك[2]، ومَقْتَلَ أخيك . فقام عامر فٱكتشف[3] ثم صرَخ : وا عَمْراه ! وا عَمْراه ! فحميت الحرْب[4] وحَقِب[5] أمر الناس ، وٱستوْسقوا[6] على ما هم عليه من الشر . قال : فخرج الأسودُ بن عبد الأسد المخزومىّ ، وكان رجلا شرسا سيِّئَ الخُلق ، فقال : أُعاهد اللهَ لأشربنّ من حوضهم أو لأهدِمنّه ، أو أموتنّ دونَه ، فخرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب ، فلما ٱلتقيا ضربه حمزة فأطَنّ[7] قدمَه بنصفِ ساقه ، وهو دونَ الحوض ، فوقع على ظهره ، ثم جاء إلى الحوض يريد أن يُبِرّ يمينه ، وأتْبعه حمزة فضربه حتى قتله . ثم خرج بعده عتبةُ بنُ ربيعة ، بين أخيه شَيْبة بن رَبيعة ، وٱبنِه الوليد بن عتبة ، حتى إذا بَرَز من الصفّ دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه ثلاثةٌ من الأنصار ، وهم : عَوْف ومُعَوِّذ ٱبنا الحارث ، وعبدُالله بن رَواحة ، فقالوا : مَن أنتم ؟ فقالوا : رَهْطٌ من الأنصار ؛ قالوا : مالنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم : يا محمدُ ، أخرج إلينا أكفاءَنا من قومنا ، فأخرج لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

(١) يقال : « انتفخ سحره » لجبان الذى ملأ الخوف جوفه . والسحر : الرئة .

(٢) انشد خفرتك : أى اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك ، أى عهدهم ، لأنه كان حليفا لهم وجارا .

(٣) اكتشف : تعرى من ثيابه . وفى الطبقات : « فكشف عامر وحث على استه التراب » .

(٤) كذا فى جـ وفى معظم المراجع . وفى أ : « العرب » .

(٥) حقب : اشتد .

(٦) استوسقوا : اجتمعوا .

(٧) أطن : أطار .

عمّه حمزةَ بن عبد المطلب، وعلىّ بن أبى طالب، وعُبيدةَ بن الحارث، فلما دَنَوا منهم قالوا: مَنْ أنتم؟ فسمّى كل رجل منهم نفسَه، قالوا: نَعم أكْفاء كِرام؛ فبارز عبيدةُ — وكان أسنَّ القوم — عتبةَ، وبارز حمزة شيبةَ، وبارز علىّ الوليدَ بن عتبة، فأما حمزةُ وعلىّ فإنهما لم يُمهلا مُبارزيْهما أن قتلاهما، وآختلف عُبيدة وعُتبة بينهما ضربتين كلاهما أثْبَت[1] صاحبه، وكَرَّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عتبة فذَفَّفا[2] عليه، واحتملا صاحبَهما فحازاه[3] إلى أصحابه. ٥

قال محمد بن سعد: وفى عُبيدةَ وعُتبةَ نزل قوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ﴾. قال: ثم زحَف الناس ودنا بعضُهم من بعض. ٩/١٥

وكانت وقعةُ بدر يومَ الجمعة صَبيحةَ سَبْعَ عشرةَ من شهر رمضان، على رأس تسعة عشر شهرا من الهجرة. ١٠

وعدّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصّفوفَ، ورجع إلى العَريش، فدخلَه هو وأبو بكر الصدّيق ليس معه غيرُه فيه، وهو صلى الله عليه وسلم يناشد[4] ربه ما وعدَه من النصر، ويقولُ فيما يقول: اللهمّ إن تَهْلِكْ هذه العصابةُ اليومَ لا تُعبد، وأبو بكر يقول: يا نبىّ الله، بعضَ مناشدتِك ربّك، فإن الله مُنجزُك ما وعدَك. وخَفَق[5] رسول الله صلى الله عليه وسلم خَفْقةً ثم آنتبه، فقال: أبْشِر يا أبا بكر، أتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخذٌ بعِنان فرسِه يقودُه، على ثناياه النَّقع[6]. ١٥

(١) أثبت صاحبه: جرحه جراحة لم يقم معها. (٢) ذفف عليه: أسرعا قتله.
(٣) حازاه: سارا به فى رفق. وفى أ: «جازاه».
(٤) يناشد ربه: يسأله ويرغب إليه. (٥) خفق: نام نوما يسيرا.
(٦) النقع: الغبار. ٢٠

قال ابن إسحاق : ورُمِى مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقُتِل ، وكان أولَ قتيل قُتل من المسلمين ، ثم رُمِى حارثةُ بن سُراقة ، أحدُ بنى عَدِىّ بن النجّار ، وهو يشربُ فى الحوض بسهم ، فأصاب نَحْرَه ، فقُتِل .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس يُحرِّضُهم ، وقال : «والذى نفسُ محمدٍ بيده لايقاتلُهم اليومَ رجل فيقتلُ صابرا محتسِبا مُقبِلًا غيرَ مُدبر ، إلا أدخله الله الجنة» ، فقال عُمَيْر بن الحُمام أخو بنى سَلمة ، وفى يده تمراتٌ يأكلُهن : بَخٍ بَخٍ[1] ! أفما بينى وبين أن أدخلَ الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفَه وقاتل حتى قُتِل .

وقال عَوْفُ بن الحارث — وهو ابنُ عَفراء — يا رسول الله : ما يُضحِكُ[2] الربَّ من عبده ؟ قال : غَمْسُه يدَه فى العدوّ حاسِرا . فنزَع دِرْعًا كانت عليه ، وأخذ سيفَه فقاتل حتى قُتِل .

قال : ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حَفْنة من الحَصْباء فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : شاهَت[3] الوجوه ، ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه فقال : شُدُّوا ؛ فكانت الهزيمةُ على قريش ، فقتَل الله من صناديد قريش مَن قتَل ، وأسَر مَن أسَر .

قال محمد بن سعد : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لما نزلت : ﴿ سَيُهزَم الجمع ويُولّون الدُّبُر ﴾ ، قلت : وأىّ جمع يُهزَم ومَن يَغلِب ؟ فلما كان يوم بدر نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يَثِب فى الدرع وثبا وهو يقول : ﴿ سَيُهزَم الجمعُ ويُولّون الدبر ﴾ ، فعلمت أن الله تعالى سيَهزمهم .

(١) بخ : (بكسر الخاء وإسكانها) : كلمة تقال فى موضع الإعجاب .

(٢) يضحك الرب : أى يرضيه غاية الرضا . (٣) شاهت : قبحت .

قال : ولمّا وضع القومُ أيديَهم يأسرون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم [فى العريش](١) وسعد بن مُعاذ قائم على باب العريش، مُتوشّح السيفَ، فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخافون عليه كَرّة العدوّ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجه سعد بن معاذ الكَراهِيةَ لما يصنع الناس فقال له : لَكأنّى بك يا سعدُ تكره مايصنَع القوم؛ قال : أجَل: والله يا رسول الله، كانت أوّلَ وقْعة أوقعها الله بأهل الشّرك، فكان الإثْخان فى القتل أحبَّ إلىّ من آستبقاء الرجال .

وفى هذا اليوم أنزل الله تعالى الملائكة فقاتَلوا مع المسلمين .

قال محمد بن سعد : لما صَفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه وعبّأهم للحرب ، جاءت رِيح لم يُرَ مثلُها شدّة ثم ذهبت، فجاءت رِيح أخرى ثم ذهبت ، فجاءت ريح أخرى ، فكانت الأولى جبريل عليه السلام فى ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،والثانية ميكائيل عليه السلام فى ألف من الملائكة عن مَيْمَنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثالثة إسرافيل فى ألف من الملائكة عن مَيْسَرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان سِيما الملائكة يومئذ عمائم قد أرخوْها بين أكتافهم : خُضْر وصُفْر وحُمْر من نور ، والصُّوف فى نواصى خيلهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : إنّ الملائكة قد سَوَّمت فسوِّموا . فأَعلَموا بالصوف فى مَغافرهم(٢) وقلانِسهم .

قال : وكانت الملائكة يوم بدر على خيل بُلْق .

وقال آبن إسحاق : حدّثنى عبدُ الله بن أبى بكر أنه حُدِّث عن آبن عباس رضى الله عنهما قال : حدّثنى رجل من بنى غِفَار قال :

(١) زيادة عن الطبري وابن هشام . (٢) المغفر: هو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه .

أقبلتُ أنا وٱبن عمّ لى حتى أَصعَدنا فى جبل يُشرف [بِنا](١) على بدر [ونحن مشركان](٢) ننظرُ الوَقْعة على من تكونُ الدائرةُ(٣)، ننتهب مع من ينتهب ، فبينا نحنُ فى الجبل إذ دَنت منا سحابةٌ ، فسمعنا فيها حَمْحَمةَ الخيل ، فسمعت قائلا يقول : أَقْدِمْ(٤) حَيْزوم . قال : فأمّا ٱبنُ عمى فانكشف قِناعُ قلبه، فمات مكانه . وأما أنا فكدت أَنْ أهلِك، ثم تَماسكْت .

وروى ٱبن إسحاق عن أبى أُسَيْد مالك بن ربيعة — وكان شهد بدرا — قال — بعد أن ذهب بصره — : لو كنتُ اليوم ببدر ومعى بصرى لأَريتُكم الشِّعْب(٥) الذى خرجت منه الملائكة ، لا أَشُكّ ولا أتمارى(٦) .

وعن أبى داوود المازِنىّ، قال : إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسُه قبل أن يصل إليه سيفى ، فعرفت أنه قتله غيرى .

١٠/١٥

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قال : كانت سيما الملائكة يومَ بدر عمائمَ بِيضًا قد أرسلوها فى ظُهورهم، ويوم حُنَيْنٍ عمائمَ حُمرا ، وفى حديث آخر عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائمَ بِيضًا قد أرخوْها على ظهورهم. إلا جبريل فإنه كانت عليه عمامةٌ صفراء .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما، قال : لم تُقاتل الملائكة فى يوم سوى يومِ بدر ، وكانوا فيما سواه من الأيام عَددًا ومَددا لا يَضربون .

---

(١) زيادة عن جـ . (٢) زيادة عن الطبرى ، وابن هشام .

(٣) فى المواهب اللدنية، والروض الأنف : « الدبرة » ، ومعناها : الهزيمة .

(٤) أقدم . كما صوّبه صاحب اللسان : كلمة تزجر بها الخيل . وحيزوم : اسم فرس جبريل عليه السلام . ويقال فيه : « حيزون » .

(٥) الشعب : الطريق فى الجبل . (٦) أتمارى : أشك .

قال : وكان شِعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : أَحَدٌ أَحَدٌ .

قال ابنُ إسحاق : وأقبل أبو جهل يومئذ يرتجز وهو [يقاتل و][1] يقول :

ما تَنْقِم الحرب العَوان منّى * بازلُ عامَين حديثٌ سِنّى[2]

* لِمِثْلِ هذا ولدَتْنى أمّى *

قال : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عَدوّه أمَر أن يُلتَمس أبو جهل بن هشام فى القتْلى ، فمرّ به عبدُ الله بن مسعود، قال : فوجدته بآخر رَمَق فعرفْتُه ، فوضعت رجلى على عنُقه ، فقال لى : لقد ارتقيْتَ يا رُوَيْعِىَ الغنم مُرتقًى صعبا ، ثم قال : أَخبرنى لمن الدائرة اليوم ؟ فقلْت : لله ولرسوله ؛ ثم احتززْت رأسه ، ثم جئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدوّ الله أبى جهل ؛ فقال : آللهِ[3] الذى لا إلهَ غيره ؟ قلت : نعم واللهِ الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسَه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عائشةَ أمّ المؤمنين رضى الله عنها قالت : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يُطرَحوا فى القَليب ، طرحوا فيه إلا أميّة بن خَلف فإنه انتفخَ فى دِرعه فملأَها فذهبُوا ليُحرِّكوه فتزايَل[4] ، فأقرُّوه وألقَوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة ، قالت : ولما أُلقُوا فى القَليب ، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يأهلَ القليب ، هل وجدتُم ما وعدَ ربكم حقا ، فإنى قد وجدتُ ما وَعدنى

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام . (٢) الحرب العوان : هى التى قوتل قبلها مرة . البازل : أصله فى البعير ، يقال : بعير بازل ، إذا استكمل السنة الثامنة ، وطعن فى التاسعة ، والكلام هنا على التشبيه ، يريد أن يقول : أنا مستجمع الشباب مستكمل القوة . (٣) « آلله الذى لا إله إلا هو » : كانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو بالخفض عند سيبويه لأن الاستفهام عوض من الخافض عنده . راجع الروض الأنف ج ٢ ص ٧٢ . (٤) تزايل : تفرق لحمه .

ربى حقا » قالت : فقال له أصحابه : يا رسولَ الله ، أتكلم قوما مَوتى ؟ فقال لهم : " لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حق " . وعن أنس رضى الله عنه نحوُه ، إلا أنّ فيه : فقال المسلمون : يا رسول الله، أتنادى قومًا قد جيّفوا[1] ؟ قال : " ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم[2] ، ولكن لا يَستطيعون أن يُجيبونى " .

٥ قال ابن إسحاق : وكان الفِتية الذين قُتِلوا ببدرٍ — فنزل فيهم قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ — الحارثُ بنُ زَمْعَة بن الأسود ، وأبو قيْس بن الفاكه ابن المغيرة ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلى بن أميّة بن خَلَف ، والعاصُ ١٠ ابن منبّه .

وذلك أنهم كانوا أسلموا بمكة ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم حبسَهم آباؤهم وعشائرُهم بمكة وفَتنُوهم فآفتتنوا ، ثم خرجوا مع قومهم إلى بدر ، فأُصيبوا كلُّهم .

قال : ثم أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بما فى العسكر ممّا جمع الناسُ ١٥ فجُمع ، وآختلف المسلمون فيه ، فقال مَن جمعه : هو لنا ؛ وقال الذين كانوا يقاتلون العدوَّ : والله لولا نحن ما أصبْتموه ، لنحن شَغلْنا عنكم القومَ حتى أصبتم ما أصبتم ؛ وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن يُخالف إليه العدوّ : ما أنتم بأحقَّ منّا ، لقد رأينا أن نقتل العدوّ إذ منحَنا الله

(١) جيفوا : صاروا جيفا .

٢٠ (٢) الجمع بين هذا الحديث و بين قوله تعالى « وما أنت بمسمع من فى القبور » ، تجده واضحا فى الروض الأنف ، جزء ٢ ص ٧٤ ، وفى شرح المواهب اللدنية جزء ١ ص ٥٢٢ .

أكتافهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه مَن يمنعه، ولكنّا خِفْنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كرّة العدوّ فقمنا دونه، فما أنتم أحقّ به منا. فأنزل الله تعالى: ﴿ يسألونك عنِ الأنفالِ قُلِ الأنفالُ لله والرسولِ فاتقوا اللهَ وأصْلِحوا ذاتَ بينِكم ﴾، نزلت السورة بجملتها فى غزوة بدر.

قال: ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا إلى المدينة ومعه الأُسارَى من المشركين والنَّفَل[1]، وجعل على النَّفَل عبد الله بن كعب المازنىّ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مضيق الصفراء، نزل على كَثِيب بين المضيق[2] وبين النازِيَة[3]، يقال له: سَيَر[4]، إلى سَرْحة[5] [به] وهو من المدينة على ثلاث ليال، فقسم هناك النَّفل الذى أفاء اللهُ على المسلمين على السواء.

قال ابن سعد: وتنفّل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفَه ذا الفَقَار، وكان لمنبّه بن الحجّاج، فكان صفيّه يومئذ؛ وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمَه مع المسلمين، وفيه جَمَل أبى جهل بن هشام، وكان مَهْرِيًا[6]، وبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيدَ بن حارثة بشيرًا إلى المدينة، وبعث عبدَ الله بن رَوَاحة إلى أهل العالية.

قال ابن سعد يرفعُه إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر بثلثمائة وخمسةَ عشرَ من المقاتِلة، كما خرج طالوتُ، ١١/١٥

(١) النفل: الغنيمة. (٢) فى الأصل: «المضيقين» وما أثبتناه عن ابن هشام.

(٣) النازية: عين على طريق الآخذ من مكة إلى المدينة، قرب الصفراء.

(٤) السرحة: الشجرة العظيمة. (٥) تكملة من ابن هشام.

(٦) مهرى: نسبة إلى قبيلة مهرة بن حيدان باليمن.

فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجوا، فقال : " اللهم إنهم حُفاةٌ فٱحمِلهم ، اللهم إنهم عُراةٌ فٱكسهُم ، اللهم إنهم جِياعٌ فأَشْبِعهم " .

ففتح الله يوم بدر فٱنقلبوا حين ٱنقلبوا ، وما فيهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين ، فٱكتسوْا وشبِعوا .

٥ وقال يرفعه إلى عِكرِمةَ قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من أهل بدر : عليك بالعِير ليس دونَها شيء ، فناداه العباس : إنه لا يصلح ذلك لك ، قال : لِمَ ؟ : قال : لأنّ الله تعالى وَعدك إحدى الطائفتين ، فقد أعطاك ما وعدك .

ذِكر ورود الخبر بمُصاب أهل بدر على مَن بمكة من كفار قريش
١٠ وهلاك أبي لهب بن عبد المطلب

قال ابنُ إسحاق : كان أوّل من قدم مكة بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخُزاعيّ، فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : قُتِل عُتبة بن ربيعة ، وشَيْبة بن ربيعة ، وأبو الحَكم بن هشام ، وأمية بن خلف، وزَمْعَة بن الأسود ، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجّاج ، وأبو البَخْتَرِيّ ، وجعل يعدّد أشراف قريش ، فقال صفوان بن أمية ١٥ وهو قاعد فى الحِجْر ، : والله إن يعْقِل هذا فاسألوه عنى ، قالوا : ما فعل صَفْوَان بن أمية ؟ قال : هو ذاك جالس فى الحِجر ، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتِلا .

وقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد داخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمتْ أم الفضل ، ٢٠ وأسلمتُ ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، وكان يكتم إسلامه [وكان

ذا مال كثير متفرق فى قومه](١). وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاص ابن هشام بن المغيرة [وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلا](١)، فلما جاء الخبر عن مُصاب أصحابِ بدر كبته(٢) الله وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا، وكنتُ رجلا ضعيفا، وكنت أنحت الأقداح فى حُجْرة زمزم، فوالله إنى لجالسٌ فيها أنحت أقداحى وعندى أم الفضل جالسةٌ، وقد سَرّنا ما جاءنا من الخبَر إذ أقبل أبو لَهب يَجرُّ رِجليه بشرّ، حتى جلس على طُنُب(٣) الحجرة، وكان ظهرى إلى ظهره، فبينما هو جالس إذ قال الناس(٤): هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. فقال أبو لهب: هلمّ إلىّ، فعندك لَعمرى الخبر. قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يابن أخى، أخبرْنى كيف كان أمْر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لَقِينا القومَ فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك ما لُمتُ الناس، لقِينا رجالا بِيضًا، على خيل بُلْق بين السماء والأرض، والله ما تُلِيق(٥) شيئا ولا يقوم لها شىء.

قال أبو رافع: فرفعْتُ طُنُب الحُجرة [بيدى](٦) ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة، فثاورتُه(٧) فاحتملنى، فضرب بى الأرض، ثم برَك على صدرى، وكنتُ رجلا ضعيفا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحُجرة فأخذَته فضربته به ضربة فلَقَت رأسه(٨) شجّة منكرة، وقالت:

---

(١) زيادة من سيرة ابن هشام. (٢) كبته: أذله.

(٣) طنب الحجرة: طرفها. والطنب أيضا: حبل طويل يشدّ به سرادق البيت.

(٤) كذا فى جـ. وفى أ: «للناس». (٥) ما تليق: ما تبقى.

(٦) ساقطة من أ. (٧) ثاورته: واثبته.

(٨) كذا فى أ. وفى جـ: «فلقت فى رأسه». وفى السيرة: «فلعت فى رأسه».

أتستضعفه أن غاب عنه سيده ؟ فقام مولّيًا ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبعَ ليال حتى رماه الله بالعدَسة[1] فقتلته .

وقالت قريش فى قتلى بدر مراثى كثيرة ذكرها ابن هشام وغيره، تركنا إيرادَها رغبة فى الاختصار، ولأنه ليس تحت ذلك كبيرُ فائدة فيما نحن بصدده، إلا أنها تشهد بقتل من قُتِل ممن نذكره إن شاء الله تعالى .

ذِكرُ تسميةِ من شَهِد بدرا من المهاجرين والأنصار
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان جميع مَنْ شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين ومن ضُرب له فيها بسهمه وأجره ثلثمائة رجل وأربعةَ عشرَ رجلا ، من المهاجرين ثلاثة وثمانون[2] ، ومن الأَوْس أحدٌ وستون ، ومن الخزرج مائةٌ وسبعون .

١٢/١٥

فأما من شهد بدرا من المهاجرين ، ومن ضُرب له بسهمه وأجره ، فشهدها من بنى هاشم بن عبد مناف اثنا عشر رجلا ، وهم : سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمزةُ بن عبد المطلب ، وعلىّ بن أبى طالب، وزيدُ ابن حارثة، وأنَسَةُ الحبَشى ، وأبو كَبْشَة الفارسى ، مَوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو مَرْثَد كَنَاز بن حُصَين، وابنُه مَرْثَد، حليفا حمزة بن عبد المطلب، وعُبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخواه : الطفَيلُ، والحصين، ومِسطح ، واسمُه عَوفُ بن أُثاثة بن عبّاد بن المطّلب[3] .

(١) العدسة : قرحة قاتلة كالطاعون . وكان العرب يتشاءمون بها ، ويرون أنها شديدة العدوى .

(٢) فى أ : « ثلثمائة وثمانون » وهو خطأ .

(٣) كذا فى جـ، وهو يوافق ما فى السيرة وأسد الغابة . وفى أ : « ابن عبد المطلب » .

ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف وحلفائهم خمسةَ عشرَ رجلا، وهم : أبو حُذَيفة بن عُتبة بن ربيعة ، وسالمٌ مولاه . ومن حلفائهم من بنى أسَد ابن خُزَيمةَ عبد الله بن جحش بن رِئاب ، وعُكَّاشةُ بن مِحْصَن ، وشُجاع بن وهب ابن رَبيعة ، وأخوه عُقْبة ، ويزيد بن رُقَيْش[1] بن رئاب، وأبو سِنان بن مِحْصَن ابن حُرْثان[2] أخو عُكَّاشة ، وابنه سِنان ، ومُحْرِز بن نَضْلة بن عبد الله وربيعة بن أكثم بن سَخْبَرة بن عمرو . ومن حلفائهم بنى كبير[3] بن غَنْم بن دُودان بن أسد : ثَقَفُ بن عمرو ، وأخواه مالك ، ومُدْلِج[4] ، وهم من بنى حُجْر آل بنى سُلَيم ، وأبو مَخْشى، حليف لهم .

ومن بنى نوفل بنِ عبد مناف رجلان،وهما : عُتْبة بن غَزْوان، وخَبّاب مولاه .

ومن بنى أسد بن عبد العُزّى ثلاثةُ نفر ، وهم : الزبير بن العوّام وحاطبُ بن أبى بَلْتَعة ، وسعد مولاه .

ومن بنى عبد الدار رجلان،وهما: مُصْعَب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار، وسُوَيْبط بن سعد بن حُرَيْملَة، ويقال : ابن حرملة بن مالك بن عُمَيْلة بن السَّبّاق بن عبد الدار .

---

(١) هذه رواية ابن هشام . وفى الاستيعاب، والإصابة، وأسد الغابة : « رقيش بن رباب » . وفى الأصول : « قيس بن رئاب » .

(٢) فى أ : « محصن وحرثان » .

(٣) كذا فى السيرة ، وفى أ « كثير » ، تحريف .

(٤) كذا فى الأصول : وفى رواية أخرى لابن هشام، وفى الاستيعاب : « مدلاج » .

ومن بنى زُهْرة بن كِلاب وحلفائهم تسعةُ نفر ، وهم : عبد الرحمن بن عَوْف ، وسعدُ بن أبى وقّاص ، وأبو وقّاص مالكُ بن أُهَيب[(١)] ، وأخوه عُمَير بن أبى وقّاص . ومن حلفائهم : المِقْدادُ بن عمرو بن ثَعْلبة ، وعبد الله بن مسعود ابن الحارث ، ومسعود بنُ ربيعة بن عمرو ، وذو الشِّمالين[(٢)] عُمَير بن عبد عمرو بن نَضْلة ، وخَبّاب بن الأَرَتّ .

ومن بنى تَيْم بن مرّة ومواليهم أربعةُ نفر ، وهم : أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، ومواليه ، بلالُ بن رَبَاح ، وعامرُ بن فُهَيْرة ، وصُهَيْب بن سِنان .

ومن بنى مخزوم خمسةُ نفر ، وهم : أبو سَلَمة عبدُ الله بن عبد الأَسَد وشَمّاس بن عثمان بن الشَّريد ، واسم شمّاس عثمان ، والأَرْقَم بن أبى الأَرقم ، وأبو الأرْقم هو عبد مناف بن أسد ، وعمّار بن ياسر ، ومُعتِّب بن عوْف بن عامر حليفٌ لهم .

ومن بنى عدىّ بن كعب وحلفائهم اثنا عشر رجلا ، وهم : عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، وأخوه زيد ، ومِهْجَع مولى عمر ، وعمر بن سُرَاقة بن المُعْتَمِر وأخوه عبد الله ، وواقد بن عبد الله بن عبد مَنَاف بن عُرَين ، حليف لهم ، [وعامر[(٣)] ابن البُكَير ، وأخواه خالد ، وإياس ، حلفاء بنى عدىّ ، وخَوْلِىّ بن أبى خَوْلىّ ، وأخوه مالك ، حليفان لهم — ومنهم من عدّ هلال بن أبى خَوْلى — وعامرُ بن أبى رَبيعة ، حليف لهم] .

---

(١) فى أسد الغابة : « وهيب » .

(٢) قال ابن هشام : إنما قيل له : « ذو الشمالين » لأنه كان أعسر .

(٣) ما بين المربعين ساقط من أ .

ومن بنى جُمَح خمسةُ نفر ، وهم : عثمان بن مَظْعون ، وآبنه السَّائب وأخواه قُدَامة، وعبد الله، آبنا مظعون ، ومَعْمَر بن الحارث بن معمر .

ومن بنى سهم بن عمرو : خُنَيْس بن حُذَافة بن قيس .

ومن بنى عامر بن لؤىّ خمسة نفر ، وهم : [أبو سَبْرَة بن أبى رُهْم بن عبد العُزّى (١) ، وعبد الله بن مَخْرَمة بن عبد العزّى ، وعبد الله بن سُهَيل بن عمرو — وكان قد خرج مع أبيه سُهيل، فلما نزل الناس بدرا فرّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدها معه — وعُمَير بن عَوْف ، مولى سُهَيل بن عمرو ، وسعد ابن خَوْلة ، حليف لهم .

ومن بنى الحارثِ بن فِهر خمسةُ نفر، وهم] : أبو عُبيدة عامرُ بن عبد الله ابن الجراح ، وعمْرو بن الحارث بن زُهَير ، وسُهَيل بن ربيعة بن هلال، وأخوه صَفْوان بن وَهب (٢) ، وهما آبنا بيضاء ، وعمرو بن أبى سرح بن ربيعة .

هؤلاء الذين شهدوا بدرا من المهاجرين .

وأما من ضرب له بسهمه وأجره، فثلاثة نفر، وهم (٣) : عثمان بن عفّان — وقد تقدّم خبره — وطلْحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانا قد بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام يتحسّسان له خبر العير ، فقدما بعد غزوة بدر ، فضَرَب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهميهما ، قالا : يا رسول الله ، وأَجْرنا ؛ قال : وأجركما .

١٣/١٥

(١) ما بين المربعين ساقط من أ .

(٢) فى الأصل : « وهيب » . وما ذكرناه رواية أسد الغابة والإصابة والاستيعاب والسيرة .

(٣) ساقطة من أ .

وأما من شهدها من الأوس ومن غاب وضُرِب له فيها بسهمه وأجره ، فهم أحد وستون رجلا ، شَهِدها منهم ستة وخمسون رجلا ، وهم : سعد بن مُعاذ ابن النعمان ، وأخوه عمرو بن معاذ ، والحارث بن أنَس بن رافع[(١)] ، وسعد بن زيد ابن مالك ، وسَلَمة بن سَلامة بن وَقْش ، وعبّاد بن بشر بن وَقْش ، وسلَمة بن ٥ ثابت بن وَقْش ، ورافع بن يزيد بن كُرْز[(٢)] ، والحارث بن خَزَمة بن عدىّ ، حليف لهم ، ومحمد بن مَسْلمة بن خالد ، حليف لهم ، [وسَلَمة[(٣)] بن أسلم بن حَرِيش ، حليف لهم] ، وأبو الهيثم بن التَّيّهان ، وأخوه عُبَيد بن التيهان — قال ابن هشام : ويقال : عَتيك بن التيهان — وعبدُ الله بن سُهَيل[(٤)] ، وقَتادةُ بن النعمان بن زيد ، وعُبيد ابن أوس بن مالك — وعبيد هو الذى يقال له : مُقرِّن ، لأنه قرَن أربعة أسرى ١٠ فى يوم بدر ، وهو الذى أسر عَقيل بن أبى طالب يومئذ ، [ونصر[(٥)] بن الحارث بن عبد بن رِزَاح بن كعب] ، ومُعَتِّب بن عبيد ، وعبد الله بن طارق حليف لهما من بَلِىّ ، ومسعود بن سعد بن عامر ، ويقال فيه : مسعود بن عبد سعد ، وأبو عَبْس بن جَبْر بن عمرو ، وأبو بُرْدة بن نِيَار ، واسمه هانئ ، حليف لهم من بلِىّ ، وعاصم بن ثابت بن قَيْس ، ومُعتِّب بن قُشَير ، وأبو مُلَيل بن ١٥ الأزعر بن زيد ، وعمرو بن معْبد بن الأزعر ، وقيل فيه : عُمَير بن معْبد ، وسهْل بن حُنَيف[(٦)] بن واهب ، ومبُشِّر بن عبد المُنذر بن زَنْبَر[(٧)] ، وأخوه

(١) فى أ : «رابع» ، تصحيف . (٢) كذا فى السيرة والاستيعاب والإصابة . وفى الأصول : «كريز» ، وفى رواية أخرى للاستيعاب : «رافع بن زيد» . (٣) مابين المربعين ساقط من أ .

(٤) فى ج : «سهل» ، والصواب ما أثبتناه . وانظر أسد الغابة . (٥) ما ذكرناه رواية ٢٠ الإصابة . وفى سيرة ابن هشام : «ومن بنى عبد بن رزاح نصر بن الحارث» وفى الأصول : «ورزاح ابن كعب بن نصر بن الحارث» ولم يعرف هذا الاسم فيمن شهد بدرا . (٦) فى أ : «عنيف» ، تصحيف . (٧) كذا فى الإصابة والسيرة . وفى الأصول : «زبير» ، تصحيف .

رفاعة ، وسعد بن عُبيد بن النعمان ، وعُوَيم بن ساعدة ، ورافع بن عُنْجُدة ، وعبيد ابن أبي عُبَيد ، وثَعْلبة بن حاطب ، وأُنَيس بن قَتادة بن ربيعة . ومَعْنُ بن عَدىّ ابن الجدّ من حلفائهم ، وثابت بن ثَعْلبة ، وعبد الله بن سَلَمة ، وزيد بن أسلم بن ثعلبة ، ورِبعىّ بن رافع بن زيد ، هؤلاء الخمسة من حلفائهم من بَلِىّ ، وعبد الله ابن جُبَيْر بن النعمان [وعاصم بن قَيس بن ثابت[1] ، وأبو ضَيَّاح ثابت بن النعمان وأخوه أبو حَنَّة — ويقال : أبو حبّة — وسالم بن عُمير بن ثابت بن النعمان ، والحارث ابن النعمان] بن أمية ، ومُنذر بن محمد بن عُقبة ، وأبو عُقَيل بن عبد الله بن ثعلبة من حلفائهم ، وسَعْد بن خَيثَمة بن الحارث ، ومُنذر بن قُدامة ، ومالك بن قُدامة ابن عَرْجفة ، والحارث بن عَرْجفة ، وتَميم مولى بنى غَنْم ، وجَبْر[2] بن عَتيك بن الحارث ومالك بن نُمَيلة ، حليف لبنى معاوية من مُزينة ، والنعمان بن عَصَر[3] ، حليف لبنى معاوية من بلىّ . هؤلاء الذين شهدوها من الأوس .

وأما من ضُرب له بسهمه وأجره منهم فخمسة نفر ، وهم : أبو لُبابة واسمه بَشير بن عبد الله ، والحارث بن حاطب ، وحاطِب بن عمرو بن عُبيد وعاصم بن عَدىّ بن الجدّ بن العَجْلان ، وخَوَّات بن جُبير بن النعمان .

وأما من شهدها من الخزرج ومواليهم وحلفائهم فمائة وسبعون رجلا : خارِجةُ بن زيد بن أبى زُهَير ، وسعد بن ربيع بن عمرو بن أبى زهير وعبد الله بن رَواحة بن امرئ القيس ، وخلّاد بن سُويد بن ثعلبة بن عمرو

(١) ما بين المربعين ساقط من أ .

(٢) كذا فى جـ وهو يوافق ما فى السيرة ، وفى أ : « جبير » .

(٣) فى الأصول : « عيصر » وهو تحريف .

وبَشير بن سعد بن ثعلبة ، وأخوه سِماك[(١)] بن سعد ، وسُبَيع بن قيس بن عَيْشة[(٢)] بن أمية ، وأخوه عَبّاد بن قيس ، وعبد الله بن عَبْس ، ويزيدُ بن الحارث بن قيس وخُبَيْب بن إِسَاف بن عتبة ، وعبد الله بن زيد بن ثَعْلبة ، وأخوه حُرَيث بن زيد ، وسفيان بن نَسْر[(٣)] بن عمرو بن الحارث ، وتَميم بن يَعار[(٤)] بن قيس ، وعبد الله ابن عُمير بن عدىّ ، وزيد بن المُزَيْن[(٥)] بن قيس ، وعبد الله بن عُرْفطة بن عدىّ ، وعبد الله بن ربيع بن قيس ، وعبد الله بن عبد الله بن أبىّ [بن][(٦)] مالك ، وأوس ابن خَوْلى بن عبد الله بن الحارث ، وزيد بن وديعة بن عمرو بن قيس بن جَزْء وعُقبة بن وَهْب بن كَلَدة ، حليف لهم من بنى عبد الله بن غَطَفان ، ورفاعة بن عمرو بن ثعلبة ، وعامر بن سَلَمة بن عامر ، حليف لهم من اليمن ، وأبو حميضة[(٧)] عبّاد بن قُشَير بن المُقدَّم ، وعامر بن البُكَير ، حليف لهم ، ونَوْفل بن عبد الله بن نَضْلة ، وعُبادة بن الصامت بن قيس بن أَصْرم ، وأخوه أَوْس بن الصامت والنعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد ، وهو الذى يقال له : قَوْقَل[(٨)] ؛ وثابت بن هَزّال ابن عمرو بن قُرْيُوش ، ويقال : قُرْيوس ، ومالك بن الدّخْشم بن مالك ، وربيع

١٤/١٥

(١) فى أ : « عمال » .

(٢) قال ابن الأثير : « ويقال عائشة » .

(٣) فى الأصول : « بشر » ، تصحيف .

(٤) فى الأصل : « معاذ » وهو تصحيف .

(٥) كذا ضبطه الدارقطنى بضم الميم وفتح الزاى وتسكين الياء . راجع أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٤١ .

(٦) زيادة عن جميع المراجع . (٧) وفى رواية عن ابن إسحاق : « أبو خميصة » .

(٨) قال فى الاستيعاب : « إن النعمان هذا كان ذا عز ومنعة ، فكان يقال للخائف إذا جاءه : « قوقل حيث شئت فأنت آمن » . فقيل لبنى غنم وبنى سالم لذلك : قواقلة . وفى القاموس : القوقل : اسم أبى بطن من الأنصار ، لأنه كان إذا أتاه إنسان يستجير به أو بيثرب قال له : « قوقل فى هذا الجبل وقد أمنت » ، أى ارتق .

ابن إياس، حليف لبنى لَوْذان من اليمن، والمُجَذَّر بن زياد بن عمرو، واسم المجذر، عبد الله حليف لهم من بَلِيّ، وعُبَاد[1] بن الخَشْخاش بن عمرو، حليف، ونَجّاب بن ثعلبة بن خَزِمة[2] ويقال: نَجّاث، وعبد الله بن ثعلبة بن خَزِمة، وعتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية، حليف لهم، وهو من بنى سُليم، وأبو دُجانة سِماك بن خَرَشة.

قال ابن هشام: سماك بن أوس بنِ خرشة، والمنذر بن عمرو بن خُنَيس بن حارثة، وأبو أُسَيد مالك بن ربيعة، ومالك بن مسعود البَدِىّ[3]، وعبد ربه بن حَقّ ابنِ أوس بن وَقْش بنِ ثعلبة بن طَريف.

ومن حلفائهم من جهينة[4]: كعب بن جَمّاز بن ثعلبة — ويقال: حِمار، وهو من غُبْشان — وضَمرة، وبَسْبَس، وزياد، بنو عمرو.

وعبد الله بن عامر من بَلِيّ. وخِراش بن الصِّمة بن عمرو بن الجَمُوح، وتَميم مولى خراش بن الصِّمة، وعبد الله بن عمرو بن حَرام، ومُعاذ بن عمرو بن الجَمُوح، ومُعَوِّذ بن عمرو بن الجموح، وخَلّاد بن عمرو بن الجَموح، وعُقبة بن عامر بن نَابى، وحَبيب بن أسود، مولى لهم، وثابت بن ثَعلبة بن زيد بن الحارث، وثعلبة الذى يقال له: الجِذْع، وعُمَير[5] بن الحارث بن ثعلبة بن الحارث، وبِشْر بن البَراء ابن مَعْرور بن صخر، والطُّفَيل بن مالك بن النعمان، وسِنَان بن صَيْفىّ بن صخر وعبد الله بن الجَدّ بن قيس بن صَخر، وخارِجة بن حُمَيِّر، وعبد الله بن حمير، حليفان

(١) كذا فى الأصول، وهو ما يوافق ما فى سيرة ابن هشام وابن كثير وفى أسد الغابة: «عبادة». وفى رواية: «الحسحاس».

(٢) فى الأصول: «خربة»، وهو تصحيف، صوابه من القاموس والإصابة.

(٣) كذا فى الأصول، وفى أسد الغابة والإصابة: «البدن».

(٤) فى أ: «ومن جهينة».

(٥) كذا فى سيرة ابن هشام، والروض الأنف، والإصابة، وأسد الغابة. وفى الأصل: «عمر».

لهم من أشجع من بنى دُهْمان، وجَبّار بن صَخر بن أمية بن خُنَاس، ويزيد بن المُنذر ابن سَرح، وأخوه مَعقِل بن المُنذِز، وعبد الله بن النُّعمان بن بَلْذَمة، ويقال: بُلْذُمة وبُلْذُمة، والضحّاك بن حارثة بن زيد بن ثَعلبة، وسَواد بن زُرَيق بن ثَعلبة؛ ومَعْبد بن قَيْس بن صَخْر، وأخوه عبد الله بن قيس، وعبد الله بن عبد مَناف بن النعمان، والنعمان بن يَسار مولى لبني النعمان، وأبو المُنذر بن يزيد بن عامر بن حَديدة، وسُلَيم بن عمرو بن حَديدة، وقُطْبة بن عامر بن حديدة، وعَنْترة[1] مولى سليم ابن عمرو، وعَبس بن عامر بن عدىّ، وثَعلبة بن غَنَمة بن عدىّ، وأبو اليَسَر، وهو كعب بن عمرو بن عَبّاد بن عمرو، وسهل[2] بن قيس [بن أبى كعب[3]، وعمرو بن طلق بن زيد بن أمية، ومعاذ بن جبل بن عمرو، وحارثة بن مالك بن غَضْب ابن جُشم، وقَيْس بن مِحْصَن بن خالد بن مُخَلَّد، ويقال: قيس] بن حِصْن، وأبو خالد، وهو الحارث بن قيس بن خالد بن مُخَلَّد، وجُبَير بن إياس بن خالد بن مخلد، وأخوه عُقبة بن عثمان بن خَلَدة بن مُخَلَّد، وذَكْوان بن [عبد[4]] قيس بن خَلَدة بن مخلَّد، ومسعود ابن خلدة بن عامر بن مخلد، وعبّاد بن قيس بن عامر بن خالد، وأسعد بن مَزيد ابن الفاكِه بن زيد بن خَلَدة، والفاكه بن بِشر بن الفاكه بن زيد، ومُعاذ بن ماعِص بن قيس بن خلدة، وأخوه عائذ بن ماعِص، ومسعود بن سعد بن قيس ابن خَلَدة، ورِفاعة بن رافع بن مالك بن العَجْلان، وأخوه خلّاد بن رافع، وعُبَيد ابن زيد بن عامر، وزِياد بن لَبِيد بن ثَعلبة بن سِنان، وفَرْوة بن عمرو بن ودْفة[5]

(١) فى الأصول: «عنيزة». وما ذكر هو الصواب.

(٢) فى الأصول: «سهيل».

(٣) ما بين القوسين ساقط من أ.

(٤) زيادة عن الإصابة وأسد الغابة والاستيعاب.

(٥) قال ابن هشام: «ويقال: «وردفاة». وفى الاستيعاب، وأسد الغابة: «ودقة».

ابن عُبَيد، وخالد بن قيس بن مالك بن العَجلان، ورُجَيلة بن ثَعلبة بن خالد بن ثعلبة، وعطيةُ بن نُوَيْرة بن عامر بن عطية، ورافع بن المُعَلَّى بن لَوْذان، وأبو أيوب خالد ابن زَيد بن كُلَيب[1] بن ثعلبة، وثابت بن خالد بن النُّعمان، وعُمارة بن حَزم بن زيد ابن لَوْذان بن عمرو، وسُراقة بن كعب بن عبد العُزّى بن غَزِيَّة، وحارثة بن النعمان ابن زيد بن عُبيد، وسُلَيم بن قيس بن فَهْد[2]، وسُهَيل بن رافع بن أبي عمرو بن عائذ، وعدى بن أبي الزَّغْباء، حليف لبني عائذ من جُهينة، ومسعود بن أَوْس ابن زيد، وأبو خُزَيمة بن أوس بن زيد، ورافع بن الحارث بن سَواد بن زَيد، وعَوف، ومُعوِّذ، ومُعاذ، بنو الحارث بن رفاعة، وهم بنو عَفراء بنت عُبيد بن ثعلبة، والنعمان بن عمرو بن رِفاعة بن سَواد، ويقال: نُعَيمان، وعامر بن مخلَّد بن الحارث ابن سَواد، وعبد الله بن قَيس بن خالد بن خَلَدَة بن الحارث بن سواد، وعُصَيمة، حليف لبني سواد من أَشجع، ووديعة بن عمرو، حليف لهم من جُهَينة، وثابت بن عمرو بن زيد بن عدىّ بن سواد — قال ابن هشام: وزعموا أن أبا الحمراء مولى الحارث بن عَفراء شهد بدرا — وثعلبة بن عمرو بن مِحْصَن بن عمرو بن عتيك، والحارث بن الصِّمة بن عمرو بن عتيك، كُسِر بالرَّوْحاء، فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَهمه، وأُبَىّ بن كعب بن قَيس، وأَنَس بن مُعاذ بن أَنس بن قَيس، وأَوس بن ثابت بن المُنذر بن حَرام، وأبو شَيْخ أُبَىّ بن ثابت[3] بن المنذر بن حرام.

قال ابن هشام: أبو شيخ [أُبَىّ بن ثابت][4] أخو[5] حسان بن ثابت، وأبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود بن حَرام، وحارِثه بن سُراقة بن الحارث بن عَدِىّ،

(١) في أ: «كلب». (٢) كذا في الأصول، وأسد الغابة والإصابة. وفي سيرة ابن هشام: «قهد». (٣) كذا في سيرة ابن هشام. وفي الأصول: «أبو شيخ بن أبي ثابت»، راجع الاستيعاب ص ٧١٥. (٤) الزيادة من سيرة ابن هشام. (٥) كذا في سيرة ابن هشام، وفي الأصل: «أبو».

وعمرو بن ثَعلبة بن وَهب بن عدىّ، وسَليط بن قَيس بن عمرو بن عتيك بن مالك، وأبو سَليط — وهو أُسَيْرة بن عمرو — وثابت بن خَنْساء بن عمرو بن مالك بن عدىّ، وعامر بن أمية بن زيد بن الحَسْحاس بن مالك، ومحرز بن عامر[1] بن مالك بن عَدىّ، وسواد بن غَزِيَّة بن أُهَيب، حليف لبنى عدىّ بن النجار.

٥ وأبو زيد قيس[2] بن سَكَن بن قيس، وأبو الأَعور بن الحارث بن ظالم بن عَبس ابن حَرام، ويقال: أبو الأعور الحارث بن ظالم، وسُلَيم بن مِلْحان، وأخوه حَرام — وآسم مِلْحان: مالِك بن خالد بن زَيد — وقَيْس بن أبى صَعْصَعة — وآسم أبى صعصعة: عمرو بن زيد بن عَوْف — وعبد الله بن كَعب بن عمرو بن عَوف، وعُصَيْمة، حلِيف لبنى مازِن بن النجار من بنى أَسَد بن خُزَيمة، وأبو داود عُمَيْر ١٠ ابن عامر بن مالك بن خَنساء، وسُراقة بن عمرو بن عَطيّة بن خَنساء، وقَيس بن مَخَلَّد بن ثَعلبة بن صخر بن حَبيب، ومسعود بن عبد الأَشْهل بن حارثة بن دِينار، وأخواه لأمه الضَّحّاك، والنُّعمان، آبنا عبد عمرو، وجابر بن خالد بن عبد الأشهل بن حارثة، وسعد بن سُهَيل بن عبد الأشهل، وكَعب بن زَيد بن قَيس بن مالك، وبُجَير بن أبى بُجَير، حليف لبنى قَيس بن مالك.

١٥ هؤلاء الذين عدّهم محمد بن إسحاق.

قال ابن هشام: وأكثر أهلِ العلم يذكرون فى الخَزْرج ممن شهد بدرا عِتبان ابن مالك بن عمرو بن العَجْلان، ومُلَيْل بن وَبَرة بن خالد بن العَجْلان، وعِصْمة بن الحُصَين بن وَبَرة بن خالد بن العَجْلان، وهلال بن المُعلَّى بن لَوْذان بن حارثة.

---

(١) فى أ: «محرز بن مالك».

٢٠ (٢) فى أ: «أبو زيد بن قيس».

ذِكْرُ تسمية من آستُشهد من المسلمين فى غَزاة بدر

كان من آستُشهِد من المسلمين فى غزاة بدر أربعة عشر رجلا، من المهاجرين ستة نفر، وهم : عُبَيدة بن الحارث بن المطلب، قتله عُتبة بن ربيعة، قطع رجله فمات بالصفراء فى قُفول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وعُمَير[1] بن أبى وَقَّاص، وهو أخو سعيد، وذو الشِّمالَين بن عبد عمرو بن نَضلة الخُزاعى، حليف لبنى زُهْرة، وعاقلُ بن البُكَيْر، حليف لبنى عدىّ بن كَعب من بنى سعد بن ليث، ومِهْجَع، مولى عمر بن الخطاب، وصَفوان بن بَيْضاء، من بنى الحارث بن فِهر .

ومن الأنصار ثمانية وهم : سعد بن خَيْثمة، ومبَشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر، ويزيد بن الحارث، وعُمَير بن الحُمام، ورافع بن المُعَلَّى، وحارثة بن سُراقة بن الحارث، وعَوف، ومُعَوِّذ، ابنا الحارث بن رفاعة .

ذكرُ تسمية من قُتل من المشركين فى غزوة بدر

كانت عدّة من قتل من المشركين فى غزوة بدر سبعين رجلا

من بنى عبد شمس ومواليهم وحلفائهم أربعة عشر رجلا، وهم : عُقبة ابن أبى مُعَيط، قُتِلَ صَبْرا[2] بعِرْق الظُّبْيَة[3] عند قُفول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقال — حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله — : فمن

(١) ذكر الواقدىّ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان رد عميرا هذا فى ذلك اليوم، لانه استصغره، فبكى عمير، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم بكاءه أذن له فى الخروج معه، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة (راجع المغازى للواقدى والروض الأنف) .

(٢) يقال للرجل إذا حبس على القتل حتى يقتل : قتل صبرا .

(٣) عرق الظبية : بين مكة والمدينة قرب الروحاء .

للصِّبْية يامحمد ؟ قال : النار ! فقتله عاصم بن ثابت بن الأَقْلح ، وحَنْظلة بن أبى سفيان بن حرب ، قتله زيد بن حارثة ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقال : اشترك فيه حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة ، والحارث بن الحَضْرَمىّ ، وعامر بن الحضرمى ، حليفان لهم . قتل عامرا عَمَّار ابن ياسر ، وقتل الحارثَ النُّعمان بن عَصر ، حليف الأوس ، وعُمير بن أبى عمير ، وابنه ، مَوْليان لهم . قتل عُميرا سالم مولى أبى حُذَيفة ، وعُبيدة بن سعيد ابن العاص بن أُميّة بن عبد شمس ، قتله الزبير بن العوّام ، والعاص بن سعيد بن العاص ابن أمية ، قتله عاصم بن ثابت بن الأَقْلح ، صبرا ، وقيل : قتله علىّ بن أبى طالب ، وعُتبة بن رَبيعة بن عبد شمس ، اشترك فيه عُبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب وعلىّ بن أبى طالب ؛ وشَيْبة بن ربيعة بن عبد شمس ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، والوَليد بن عُتبة بن ربيعة ، قتله على بن أبى طالب ، وعامر بن عبد الله ، حليف لهم من بنى أَنمار ، قتله علىّ ، ووهب بن الحارث ، حليف لهم من بنى أنمار ، وعامر ابن زيد ، حليف لهم من اليمن .

١٦/١٥

ومن بنى نَوْفَل بن عبد مناف رجلان ، وهما : الحارث بن عامر ابن نوفل ، قتله خُبَيب بن إساف ، وطُعَيمة بن عدىّ بن نوفل ، قتله على ، ويقال : حمزة ؛ وروى أبو عُمر بن عبد البر بسنده الى ابن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل طُعَيمة بن عدى صبرا هو وعُقبة بن أبى مُعَيط والنَّضر بن الحارث .

ومن بنى أَسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ سبعة نفر : زَمعة بن الأَسْود ابن المطلب بن أَسد ، قتله ثابت بن الجِذْع ، وقيل اشترك فيه حمزة وعلى ، مع

ثابت، والحارث بن زَمعة، قتله عمار بن ياسر، وعُقيل بن الأسود بن المطلب قتله حمزة، وعلىّ، وأبو البَخْتَرىّ — وهو العاص بن هشام — قال ابن هشام : العاص ابن هاشم بن الحارث بن أَسد ، قتله المُجَذَّر البَلَوىّ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن قتله ، لأنه كان أَكَفَّ الناسِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمّا كان بمكة، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نَقض الصحيفة كما تقدّم ، فلما لقيه المجذّر قال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهانا عن قتلك ، وكان مع أبي البَخْترى زميل له قد خرج معه من مكة ، وهو جُنادة بن مُليحة — رجل من بنى ليث — فقال أبو البَخْترى . وزميلى، فقال المجذّر : لا والله مانحن بتاركى زميلك، ماأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بك وحدك . فقال : لا والله إذا لأموتنّ أنا وهو جميعا ! لا تحدّثُ عنّى نساء مكة أنى تركت زميلى حِرصا على الحياة ، وقال يرتجز .

لن يُسلمَ ٱبنُ حُرّةٍ زميلَه (١) حتى يموتَ أو يرى سبيلَه

ثم ٱقتتلا، فقتل المجذر أبا البخترىّ ، ثم أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : والذى بعثك بالحق ، لقد جهِدت (٢) عليه أن يستأسِر فآتيك به ، فأبى إلا أن يقاتلنى ، فقاتلته فقتلته . ونوفل بن خويلد بن أسد ، قتله علىّ بن أبى طالب ، وعقبة بن زيد ، حليف لهم من اليمن ، وعمير ، مولى لهم .

ومن بنى عبد الدار بن قصىّ أربعة نفر وهم : النضر بن الحارث

(١) فى الأغانى، والطبرى : « أكيله » .

(٢) كذا فى حـ ، وفى السيرة . وفى ا : « عهدت عليه أن يستأنس » .

ابن علقمة بن كلَدة، قتله علىّ صبرا بالصَّفراء[1]، ولما بلغ ابنته[2] قُتيلة بنت النضر خبرُ مقتله كتبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شعرا .

يا راكبا إن الأُثَيْل مَظِنّة ... مِن صبح خامسةٍ وأنت مُوفق[3]
بلّغ به ميْتا بأن تحيّةً ... ما إن تزال بها النجائب تخفق[4]
مِنى إليه وعَبْرةً مسفوحةً ... جادت لمائحها وأخرى تخنُق[5]
هل يسمعنّ النضر إن ناديتُه ... بل كيف يسمع ميّت لا ينطق
ظلت سيوفُ بنى أبيه تَنوشُه ... لله أرحامٌ هناك تشقّق[6]
قسرا يقاد إلى المنيّة مُتعبا ... رَسْف المقيَّد وهْو عانٍ موثق[7]
أمحمد أو لسْت ضِنْءَ نجيبةٍ ... فى قومها والفحل فحل مُعرِق[8]
ما كان ضرَّك لو مننْت وربما ... منّ الفتى وهو المَغيظ المحنَق
النضر أقربُ من قتلت قرابةً ... وأحقّهم إن كان عِتْق يُعتَق
أو كنت قابلَ فدية فَلْيُنفقنْ ... بأعزّ ما يغلو به ما يُنفَق[9]

---

(١) الصفراء : واد من ناحية المدينة كثير النخل والزرع، وهو على مرحلة من بدر .

(٢) وفى الأغانى : « أخته » . (٣) الأثيل : موضع قرب المدينة بين بدر ووادى الصفراء . ومظنة الشيء موضعه ومألفه الذى يظن كونه فيه .

(٤) فى أ : « به » . والنجائب : الإبل الكريمة التى يسابق عليها .

(٥) جادت لمائحها : تعنى أباها لأنه هو الذى يستبكيها ويستنزف دمعها .

(٦) تنوشه : تتناوله . (٧) فى الأغانى، وابن هشام : « صبرا يقاد » . رسف المقيد : مشيه . والعانى : الأسير . (٨) الضنء : الأصل . المعرق : الكريم .

(٩) كذا فى الأصول . وفى الأغانى، ومعجم البلدان الرواية الآتية :

أو كنت قابل فدية فلتأتين ... بأعز ما يغلو لديك وينفق

وقد وردت هذه الأبيات فى الأغانى (١٩١١، طبعة الدار)، وديوان الحماسة ٤٣٧ طبع أوربا، وسيرة ابن هشام، ومعجم البلدان «مادة الأثيل» مع اختلاف يسير فى الترتيب والألفاظ .

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بكى حتى أخضلّت لحيته وقال : ١٧/١٥
" لو بلغنى شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه " حكاه أبو عمر عن عبد الله ابن إدريس، وحكاه الزبير بن بكّار، وقال: فرقّ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دمعت عيناه، وقال لأبى بكر : " يا أبا بكر لو كنتُ سمعت شعرها ما قتلت أباها " وزيد بن مُلَيص، مولى عُمَير بن هاشم، قتله بلال بن رَباح، مولى أبى بكر، ويقال : قتله المِقداد بن عمرو . ونُبيه بن زيد بن مليص ، وعبيد بن سَلِيط حليف لهم من قيس .

ومن بنى تَيْم بن مرّة أربعة نفر وهم : عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم ، قتله علىّ بن أبى طالب ، ويقال : قتله عبد الرحمن بن عوف . وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب، قتله صُهَيب بن سِنان . ومالك بن عبيد الله بن عثمان ، أسِر فمات فى الإسار ، فعدّ فى القتلى . وعمرو بن عبد الله بن جُدْعان .

ومن بنى مخزوم بن يَقَظة بن مرة أربعة وعشرون رجلا : أبو جهل — واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم — ضربه معاذ ابن عمرو بن الجموح فقطع رجله ، وضرب ابنُه [عِكرِمةُ](1) يد معاذ فطرحها، ثم ضربه معوّذ بن عَفراء حتى أثبته ،وتركه وبه رمق، ثم وقف عليه عبد الله بن مسعود واحتزّ رأسه كما تقدّم ، والعاص بن هِشام بن المغيرة، قتله عمر بن الخطاب، وكان خالَ عمر . ويزِيد بن عبد الله ، حليف لهم من بنى تميم، قتله عمّار بن ياسر .

(١) التكملة من سيرة ابن هشام .

(٢) فى ح : « ذفف » .

وأبو مُسافع الأشعرىّ ، حليف لهم ، قتله أبو دُجانة الساعدىّ . وحَرْملة بن عمرو حلِيف لهم ، قتله خارجة بن زيد ، ويقال : بل علىّ [بن أبى طالب][1] . ومسعود ابن أبى أميّة بن المُغيرة ، قتله على بن أبى طالب . وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، قتله حمزة [بن عبد المطّلب][1] ويقال : علىّ ؛ وأبو قيس بن الفاكِه بن المغيرة ، قتله علىّ ، ويقال : عمّار بن ياسِر ، ورِفاعة بن أبى رِفاعة بن عابِد بن عبد الله بن عمر[2] ابن مخزوم ، قتله سعد بن الربيع ، والمنذر بن أبى رِفاعة بن عابد ، قتله معْن بن عدىّ ، وعبد الله بن المنذر بن أبى رِفاعة ، قتله علىّ بن أبى طالب ، والسّائب ابن أبى السائب بن عابد بن عبد الله بن عمر[2] بن مخزوم على ما حكاه ابن إسحاق .

وقال ابن هشام بسند يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما : إن السائب هذا ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش ، وأعطاه يوم الجِعرانة[3] من غنائم حنين ، فقد وقع فيه الخلاف . والأسود بن عبد الأسد[4] بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قتله حمزة ، وحاجب ، ويقال : حاجز[5] بن السائب بن عويمر بن عمرو بن عائذ ، قتله على بن أبى طالب . وعويمر بن السائب بن عويمر ، قتله النعمان ابن مالك القَوقلىّ مبارزة ، وعمرو بن سفيان ، وجابر بن سفيان ، حليفان لهم من طيئ ، قتل عمرا يزيدُ بن رُقَيْش ، وقتل جابرا أبو بُردة بن نِيَار . وحُذيفة ابن أبى حُذيفة بن المغيرة ، قتله سعد بن أبى وقاص ، وهشام بن أبى حذيفة

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام .

(٢) كذا فى السيرة والاستيعاب . وفى الأصل : « عمرو » .

(٣) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب ، نزلها النبى صلى الله عليه وسلم لما قسم غنائم هوازن وهو راجع من غزوة حنين . (معجم البلدان) .

(٤) كذا فى جـ ، وفى الطبرى . وفى أ : « عبد الأسود » .

(٥) كذا فى ابن هشام . وفى الأصول : « حاجر » .

ابن المغيرة، قتله صُهَيب بن سِنان . وزُهير بن أبى رفاعة ، قتله أبو أُسَيد مالك ابن أبى ربيعة . والسائب بن أبى رفاعة ، قتله عبد الرحمن بن عَوف . وعائذ بن السائب بن عُويمر ، أُسِر ثم افتدى فمات فى الطريق من جِراحة جرحه إياها حمزة ابن عبد المطلب، وعُمير، حليف لهم من طيّئ ، وخِيار[1] ، حليف لهم من القارة[2] .

ومن بنى سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لؤىّ سبعة نفر وهم : مُنبّه بن الحجاج بن عامر بن حُذَيفة بن سعد بن سهْم، قتله أبو اليَسَر، أخو بنى سَلمة وآبنه العاص بن مُنبّه، قتله علىّ . ونُبَيْه بن الحجاج ، قتله حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن أبى وقاص، اشتركا فيه، وأبو العاص بن قيس بن عدىّ بن سعد بن سهم ، قتله علىّ ، ويقال : النعمان القوقلىّ، ويقال : أبو دُجانة ، وعاصم بن أبى عَوف بن صُبيرة[3] بن سُعَيد بن سعد بن سهم، قتله أبو اليَسَر أخو بنى سلمة . والحارث بن مُنبّه بن الحجاج ، قتله صُهَيب بن سِنان ، وعامر بن أبى عَوْف بن صُبيرة أخو عاصم، قتله عبد الله بن سلمة، ويقال : أبو دُجَانة .

ومن بنى جُمَح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤىّ أربعة نفر، وهم : أميّة ابن خلف بن وهْب بن حُذافة بن جُمَح ، قتله رجل من الأنصار من بنى مازن ويقال: قتله معاذ بن عَفراء، وخارجة بن زيد، وخُبيْب[4] بن إساف، اشتركوا فيه . وابنه علىّ بن أميّة بن خلف، قتله عمّار بن ياسر . وأوْس بن مِعْير بن لَوْذان بن سعد بن جُمح ، قتله علىّ بن أبى طالب ، ويقال: قتله الحُصين بن الحارث بن المطلب وعثمان بن مَظْعون، اشتركا فيه، وسَبْرة بن مالك، حليف لهم .

١٨/١٥

(١) كذا فى ابن هشام . وفى أ : « جبار » ، وفى حـ : « حبار » .

(٢) القارة : قبيلة تتألف من عضل والديش ابنا الهون بن خزيمة .

(٣) فى الطبرى والسيرة : «ضبيرة» بالضاد المعجمة ، وهما روايتان فيه . وفى الأصل : «صبير» . وفى الجمهرة : «عوف بن هبيرة» .

(٤) فى رواية أخرى للطبرى : «حبيب» .

ومن بنى عامر بن لؤىّ من حلفائهم رجلان، وهما : معاوية بن عامر حليف لهم من عبد القيس، قتله علىّ ، ويقال : عُكَّاشة بن مِحصَن . ومَعْبد بن وهب، حليف لهم من بنى كلب، قتله خالد وإياس آبنا البُكَير، ويقال : أبودُجانة .

فجميع من آنضبط لنا بالأسماء ممن قُتل مِن المشركين يوم بدر ثمانية وستون على الشك فى السائب بن أبى السائب ، والذى ثبت فى صحيح البخارىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه أصابوا من المشركين فى يوم بدر أربعين ومائة ؛ سبعين أسيرا ، وسبعين قتيلا .

ذكر تسمية من أُسِر من المشركين فى غزوة بدر

كانت عدّة من أسِر من المشركين فى يوم بدر سبعين رجلا على ما ورد فى الصحيح ودلّت عليه الآية [فى] قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾[1] يعنى يوم أحد ، وكان قد قُتل من المسلمين يوم أحد سبعون رجلا ، والذى آنضبط لنا بالأسماء من أسرى بدر ستة وستون رجلا .

من بنى عبد المطلب بن هاشم أربعة نفر، وهم : العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، أسره أبو اليَسر كعب بن عمرو بن عبّاد بن عمرو الخزرجىّ ، وكان رجلا قصيرا، والعباس رجلا طويلا ضخما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد أعانك عليه ملك كريم " . وعَقِيل بن أبى طالب بن عبد المطلب ، أسره عُبيد بن أوْس بن مالك الأوسى ، ونوْفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعُتبة، حليف لهم من بنى فِهْر ، قال : وكان العباس وعَقِيل خرجا مُكرَهين .

ومن بنى المطلب بن عبد مناف خمسة نفروهم : السائب بن عُبيد بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطّلب ، ونُعمان بن عمرو بن عَلْقمة بن المطلب ، وعَقِيل بن عمرو حليف لهم، وأخوه تميم بن عمرو، وابنه عمرو بن تميم .

(١) سورة آل عمران آية ١٦٥ .

ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف تسعة نفر وهم : عمرو بن أبى سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس، والحارث بن أبى وَجْزة ـ ويقال: وحْرة بن أبى عمرو ـ ابن أمية، وأبو العاص بن نَوْفل بن عبد شمس ، وأبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس، وخالد بن أَسِيد بن أبى العِيص . ومن حلفائهم : أبو ريشة بن أبى عمرو، وعمرو بن الأزرق، وعُقبة بن عبد الحارث بن الحضْرمى، وأبو العريض يَسار، مولى العاص بن أمية .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف أربعة نفر، وهم : عدِىّ بن الخِيار بن نوفل وعثمان بن عبد شمس، حليف لهم من بنى مازِن بن منصور، وأبو ثَوْر، حليف لهم ونَبْهان، مولى لهم .

١٩/١٥ ومن بنى عبد الدار بن قصىّ ثلاثة نفر وهم : أبو عزيز بن عُمَير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والأسود بن عامر حليف لهم ، وعَقِيل ، حليف لهم من اليمن .

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصىّ أربعة نفر وهم : السّائب بن أبى حُبَيش ابن المطلب بن أسد ، والحُوَيرث بن عبّاد بن عثمان بن أسد . قال ابن هشام : هو الحارث بن عائذ بن عثمان بن أسد، وعبد الله بن حُمَيد بن زُهير بن الحارث، وسالم بن شمّاخ ، حليف لهم .

ومن بنى تيم بن مُرّة رجلان وهما : مُسافع بن عياض بن صَخْر بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم ، وجابر بن الزبير، حليف لهم .

ومن بنى مخزوم بن يَقَظة بن مرة عشرة نفر وهم : خالد بن هِشام بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزُوم ، أسره سواد بن غَزِيّة ، وأمية بن أبى حُذَيفة

ابن المُغيرة، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وصَيْفيّ ابن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله بن عمر[1] بن مخزوم، وأبو المنذر بن أبي رفاعة ابن عابد، وأبو عَطاء عبد الله بن السائب بن عابد، وقَيْس بن السائب، والمطلب ابن حَنْطب بن الحارث بن عُبيد بن عمر بن مخزوم، وخالد بن الأعلم، حليف لهم من خُزاعة، ويقال: عُقَيليّ. وزعموا أنه أوّل من فرّ منهزما[2]، وهو الذى يقول:

ولَسْنا على الأدبار تَدْمَى كُلُومُنا[3] ولكنْ على أعقابنا تقطر الدّما

ومن بنى سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب خمسة نفر وهم: أبو وَداعة ابن صُبَيرة بن سعيد بن سعد بن سَهم، وهو أوّل أسير افتُدِى من أسرى بدر، افتداه ابنُه المطلب بن أبي وداعة، وفَرْوة بن قَيس بن عدىّ بن حُذافة بن سُعيد ابن سهم، وحَنْظلة بن قبيصة بن حُذافة بن سُعيد بن سهم، والحجّاج[4] بن الحارث ابن قيس بن عدى بن سُعيد[5] بن سهم، وأسْلَم، مولى نُبَيه بن الحجاج.

ومن بنى جمح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب أحد عشر نفرا وهم: عبد الله بن أبيّ بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمح [وأخوه[6] عمرو بن أبيّ، وأبو عزّة عمرو ابن عبد الله بن عثمان بن وهْب بن حذافة بن جمح] والفاكِه، مولى أمية بن خلف ووهْب بن عُمير بن وهْب بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جمح، وربيعة بن

(١) فى أ: «عمرو». (٢) فى أ: «منهن». (٣) الكلوم: الجراحات.

(٤) قال السهيلى فى الروض الأنف صفحة ١٠٧ جـ٢: «وأحسب ذكر الحجاج فى هذا الموضع وهما، فإنه من مهاجرة الحبشة وقدم المدينة بعد أحد، فكيف يعد فى أسرى المشركين يوم بدر».

(٥) كذا فى أ، جـ. وفى الروض الأنف: «ولم يوافق الواقدى ولا غيره ابن إسحاق على قوله: «سعيد بن سهم». وقالوا: إنما هو سعد».

(٦) ما بين المربعين ساقط من أ.

دَرّاج بن العنبس بن أُهبان بن وهب بن حُذافة بن جمح، وأبو رُهْم بن عبد الله حليف لهم، ومولَيان لأميّة بن خلف، أحدهما: نِسْطاس، وأبو رافع، غلام أمية ابن خلف. قال ابن هشام: وحليف لهم ذهب عنى اسمه.

ومن بنى عامر بن لُؤىّ خمسة نفر وهم: سُهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وَدّ ابن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، أسره مالك بن الدُّخْشُم أخو بنى سالم ابن عَوْف، وعبد بن زَمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد وَدّ، وعبد الرحمن بن مَشنوء ابن وَقْدان بن قيْس بن عبد شمس بن عبد ودّ، وحبيب بن جابر، والسائب ابن مالك.

ومن بنى الحارث بن فِهْر أربعة نفر وهم: الطُّفيل بن أبى قُنَيع، وعُتْبة بن عمرو ابن جَحْدَم، وشافع، وشفيع، حليفان لهم من اليمن.

ذكر خبر أسارى بدر وما كان من فدائهم، ومن منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأطلقه منهم)، ومن أسلم بسبب ذلك

قال: لما قَفَل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزاة بدر ومعه الأسارَى سمع العباس وهو يئنّ ويتأوّه، قد آلمه الوَثاق، فقلق رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة لذلك، فاستأذنه أصحابه رضى الله عنهم، فى أن ينفِّسوا عن العباس وَثاقه، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن فعلتُم ذلك بجميع الأسرى فنِعْم وإلا فلا». أو كما قال: فنفّسوا عن جميع الأسرى.

ولما قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فرّق الأسارى بين أصحابه وقال: "استوصوا بهم خيرا". ثم جاءه جبريل عليه السلام فى أمر الأسارى

فقال : إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء ، (واستشهد[1] قابلًا منكم سبعون . قال: فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، فجاءوا — أو من جاء منهم) — فقال: " هذا جبريل يخيّركم بين أن تقدّموهم فتقتلوهم ، وبين أن تُفادُوهم ويستشهَد قابِلًا منكم بعدّتهم " . فقالوا : بل نُفاديهم ويدخل قابلًا منا الجنة سبعون . ففادوهم . رواه محمد بن سعد .

وروى ابن قُتَيبة عن ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس : " افدِ نفسَك وابنَىْ أخويْك : عَقيل بن أبى طالب ، ونَوْفَل بن الحارث بن عبد المطلب ، وحليفَك ، فإنك ذو مال " . فقال : يا رسول الله ، إنى كنت مسلما ولكنّ القوم استكرهونى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أعلم بإسلامك إن يكن ما تقول حقا فالله يجزيك به ، وأما ظاهر [أمرك[2]] فقد كان علينا " . قال : فإنه ليس لى مال . قال : " فأين المال الذى وضعتَه عند أم الفضل بمكة حين خرجتَ وليس معكما أحد ؟ ثم قلتَ : إن أصِبتُ فى سفرى هذا فللفضل كذا ، ولعبد الله كذا " . قال : والذى بعثك بالحق ما علم بهذا أحدٌ غيرها ، وإنى لأعلم أنك رسول الله . ففدى نفسَه بمائة أوقيّة ، وكل واحد بأربعين أوقية ، وقال : « تركتنى أسأل الناس فى كفّى » . قال : « وأسلم العباس ، وأمر عَقيلا فأسلم » .

٢٠/١٥

وروى محمد بن سعد قال : لما أُسر نوفل بن الحارث ببدر قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " افدِ نفسك " . قال : ما لى شىء أفتدى به . قال : " افد نفسك

(١) ما بين المربعين ساقط من أ .

(٢) زيادة من جـ .

برماحك التى بجُدّة " . فقال : والله ما علم أحد أن لى بجدّة رماحا غيرى بعد الله، أشهد أنك رسول الله . ففدى نفسه بها، وكانت ألف رمح . وقيل : كان إسلام نوفل وهجرتُه أيام الخندق .

قال ابن إسحاق : وكانت قريش حين ورد عليهم الخبر بمصرَع أصحاب بدرٍ ناحُوا على قتلاهم، ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغَ محمدا وأصحابه فيشمَتوا بكم، ولا تَبعثوا فى أسراكم حتى تستأنُوا[1] بهم لا يأرَب[2] عليكم محمد وأصحابُه فى الفداء . فقال المطلب ابن أبى وَداعة : صدقتم ، لا تعجَلوا ؛ وآنسلّ من الليل فقدم المدينة ، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم ، وانطلق به .

ثم بعثت قريش فى فِداء الأُسارى ، فكان أعلى ما فُدِى به أسير أربعةَ آلاف دِرهم فما دونها إلى ألف درهم .

وقال محمد بن سعد فى طبقاته : كان فِداء أُسارى يوم بدر أربعة آلاف إلى ما دون ذلك ، فمن لم يجد عنده شيئا[3] أُعطِى عشرة من غِلمان المدينة ، فعلّمهم الكتابة ، فإذا حذَقوا فهو فداؤه . وكان أهل مكّة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون . [قال[4]] : فكان زيد بن ثابت ممن عُلِّم .

ذكرُ خبر أبى سفيان فى أمر ابنه عمرو بن أبى سفيان وإطلاقه

قال محمد بن إسحاق : وكان عمرو بن أبى سفيان فى الأسارى، فقيل لأبى سفيان : افدِ ابنَك عَمْرا، فقال : أيُجمَع علىّ دمى ومالى! قتلوا حَنظلة، وأفدى عمرا ! دعُوه فى أيديهم يُمسكوه مابدا لهم . فلم يزل كذلك حتى قدم سعد بن النعمان

(١) تستأنوا بهم : تنتظروا بهم ، أى تؤخروا فداءهم . (٢) لا يأرب : لا يشتد .
(٣) فى الأصول : « شىء » . (٤) زيادة عن ج .

ابن أكّال، أخو بنى عمرو بن عَوف معتمرا، وكان شيخا مسلما، فى غَنَم له بالبقيع[(١)]، وقد كانت قريش عهدوا أنهم[(٢)] لا يَعرضون لحاج أو معتمر إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بمكة فحبسه بابنه عمرو، ثم قال أبو سفيان :

أرهطَ ابنِ أكّالٍ أجيبوا دُعاءَه ... تَفاقدتُم[(٣)] لا تُسلِموا السيّد الكَهْلا
فإنّ بنى عمرو لئامٌ أذلّة ... إذا لم يَفُكّوا عن أسيرهمُ الكَبْلا[(٤)]

قال : فمشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه خبَره، وسألوه أن يعطيَهم عمرو بن أبى سفيان فيَفتكّوا به صاحبَهم، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعثوا به إلى أبى سفيان، فخلّى سبيلَ سعد ابن النعمان.

ذكر خبر أبى العاص بن الربيع فى فدائه وإرساله[(٥)] زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى المدينة وإسلامه بعد ذلك، وردّ زينب عليه بغير نكاح جديد

قال ابن إسحاق : وكان فى الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى ابن عبد شمس، خَتَن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوْجُ ابنته زينب. أسره خِراش بن الصِّمة، أحد بنى حَرَام.

(١) البقيع : مكان مقبرة أهل المدينة.
(٢) فى أ : «وكانت».
(٣) تفاقدتم : يدعو عليهم بأن يفقد بعضهم بعضا.
(٤) الكبل : القيد.
(٥) فى أ : «وإرساله إلى زينب».

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وكان لهالة بنت خويلد أخت خديجة ، فسألت خديجةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه زينب ، فزوجه بها ، وذلك قبل أن ينزل الوحْى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان معها وهو على شِرْكه وهى مسلمة . ٢١/١٥

فلما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أبى العاص [بمال ، وبعثت فيه بقِلادة لها كانت خديجة أدخلتْها بها على أبى العاص] (١) فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رقَّ لها رقّة شديدة وقال : «إن رأيتم أن تُطلِقوا لها أسيرها وتردّوا عليها [مالها] (٢) فافعلوا » . قالوا : نعم يارسول الله . فأطلقوه وردّوا عليها الذى بعثت به ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أن يخلِّى سبيل زينب ، ولم يُظهر ذلك ، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ، فقال : « كونا ببطن يأجج (٣) حتى تمر بكما زينب ، فتصحباها حتى تأتيانى بها » . فخرجا وذلك بعد بدر بشهر ، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها ، فتجهّزت لذلك ، وقدّم لها حموها كنانةُ بن الربيع أخو زوجها بعيرا فركبته ، وأخذ قوسه وكِنانته ، ثم خرج بها نهارا يقود بها ، وهى فى هَوْدج لها ، وتحدّث بذلك رجال قريش ، فخرجوا فى طلبها ، حتى أدركوها بذى طُوى (٤) ، فكان أوّل من سبق إليها هَبّار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزّى الفهرىّ ، فروّعها بالرمح وهى فى هودجها ، وكانت حاملا فطرَحت ، فنثر حموها كنانته ثم قال : والله لايدنو منى

(١) ما بين القوسين زيادة من جـ .

(٢) زيادة من سيرة ابن هشام .

(٣) يأجج : موضع على ثمانية أميال من مكة .

(٤) ذو طوى : واد عند مكة .

رجل إلا وضعتُ فيه سهما، فتكركر[1] الناس عنه. ثم جاء أبو سفيان بن حرب في جِلّة [من][2] قريش فقال: أيها الرجل، كُفّ عنا نبلك حتى نكلّمك. فكفّ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: إنك لم تُصب، خرجتَ بالمرأة على رءوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجْتَ له ببنته علانية على رءوس الناس من بين أظهُرنا أن ذلك على ذُلّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووَهْن، ولعَمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثُؤْرة[3]، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أن قد رددناها فسُلّها سرا وألحِقْها بأبيها. قال: ففعل.

فأقامت ليالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقامت عنده بالمدينة وفرّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قُبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرا إلى الشام — وكان رجلا مأمونا — بمال له وأموال رجال من قريش، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقِيَته سريّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا ما معه وأعجزهم هاربا، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجار بها، فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة الصبح وكبّر وكبر الناس معه خرجت زينب من صُفّة النساء[4] [وقالت]: أيها الناس، إني قد أجَرْت أبا العاص ابن الربيع. فلمّا سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على الناس فقال: "أيها الناس، هل سمعتم ما سمعتُ"؟ فقالوا: نعم، قال: «أما والذى نفس محمد بيده

(١) تكركر: رجع. (٢) زيادة عن ح.
(٣) الثؤرة: الثأر. (٤) كذا في أ، وفي ح: «صرخت».

ما علمت بشيء حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يُجير على المسلمين أدناهم » . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل على ابنته وقال : " أى بُنيّة ، أكرمى مثْواه ، ولا يخلُص إليك فإنك لا تُحِلّين له " .

قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السريّة الذين أصابوا مال أبى العاص فقال لهم : " إن هذا الرجلَ منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبْتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردّوا عليه الذى له فإنّا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فَىْء الله الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحقّ به ". قالوا : يارسول الله ، بل نردّه عليه ، فردّوه عليه ، حتى إنّ الرجل ليأتى بالدَّلو ، ويأتى الرجل بالشّنّة[1] والإداوة[2] ، حتى إنّ أحدهم ليأتى بالشِّظاظ[3] ، حتى ردّوا عليه ماله بأسره لم يفقد منه شيئا ، ثم احتمل إلى مكة ، فأدّى إلى كلّ ذى مال من قريش مالَه ، ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقىَ لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيّا كريما ، قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوّف أن يظنّوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت . ثم خرج حتى قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينبَ على النكاح[4] الأوّل ، ولم يُحدِث شيئا .

(١) الشنة : السقاء البالى . (٢) الإداوة : إناء صغير من جلد .

(٣) الشظاظ : خشبة عقفاء تدخل فى عروتى الجوالقين ، والجمع أشظة . (٤) قال فى الروض الأنف ٢ : ٨٣ : « وذكر عن داود ابن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم ردّ زينب على أبى العاص على النكاح الأوّل ، لم يحدث شيئا بعد ست سنين . ويعارض هذا الحديث ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم ردها عليه بنكاح جديد . وهذا الحديث هو الذى عليه العمل ، وإن كان حديث داود بن الحصين أصح إسنادا عند أهل الحديث ؛ ولكن لم يقل به أحد من الفقهاء فيما علمت ، لأن الإسلام قد كان فرق بينهما ، قال الله تعالى : « لا هنّ حل لهم ولا هم يحلون لهن » ومن جمع بين الحديثين قال فى حديث ابن عباس : معنى ردها عليه على النكاح الأوّل أى على مثل النكاح الأوّل فى الصداق والحباء ، لم يحدث زيادة على ذلك من شرط ولا غيره » .

٢٢/١٥ نرجع إلى تتمة أخبار أسارى بدر :

ذكر خبر الوليد بن الوليد بن المُغيرة

قد تقدّم أنه كان ممن أُسر يوم بدرٍ ، وكان الذى أسره عبد الله بن جحش ويقال : أسره سَليط بن قيْس المازنىّ الأنصارىّ ، فقدم فى فدائه أخواه : خالد وهشام ، فتمنّع عبد الله بن جحش حتى افتكّاه بأربعة آلاف درهم . فجعل خالد يريد ألا يبلغ ذلك ، فقال هشام لخالد : إنه ليس بابن أمّك ، والله لو أبَى فيه إلا كذا وكذا لفعلتُ . ويقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن جحش : لا تقبل فى فدائه إلا شِكّةَ أبيه الوليد — وكانت درعا فَضْفاضة وسيفا وبَيْضة — فأبى ذلك خالد وأطاع هشام لأنه أخوه لأبويْه ، فأُقيمَت الشكة بمائة دينار ، فطاعا بها وسلّماها إلى عبد الله ، فلما افتُدىَ أسلم ، فقيل له : هلّا أسلمت قبل أن تُفتَدى وأنت مع المسلمين ؟ قال : كرهت أن تظنوا أنى جزعت من الإسار . فحبسوه بمكة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو له فيمن دعا له من مستضْعَفى المؤمنين ، ثم أفلت ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد عُمرة القَضِيّة[1] . حكاه ابن عبد البرّ .

ذكر من منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسارى بدرٍ وأطلقه بغير فداء

قال ابن إسحاق : وكان ممن منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير فداء : أبو العاص بن الربيع هذا الذى تقدّم خبره . والمطّلب بن حَنْطَب[2] بن الحارث

(١) هى عمرة القضاء ، ويقال لها عمرة القصاص ؛ سميت بذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم قاضى قريشا عليها . (انظر الروض الأنف ٢ : ٢٥٤) . (٢) فى أ : « حطب » .

ابن عُبيد المخزومىّ، وكان لبعض بنى الحارث بن الخزرج، فتُرك فى أيديهم حتى خلّوا سبيله، فلحق بقومه، وصَيفىّ بن أبى رِفاعة المخزومىّ، تُرِك فى يد أصحابه فلم يأت أحد فى فدائه، فأخذوا عليه العهد ليبعثنّ إليهم بفدائه وخلّوا سبيله، فلم يَفِ لهم بشىء، وأبو عَزّة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن وهب بن حُذافة بن جُمَح كان محتاجا ذا بنات فقال: يارسول الله، لقد عرفتَ مالى من مال، و إنى لذو حاجة وذو عِيال، فامنُن علىّ، فمنّ عليه وأخذ عليه ألّا يظاهر عليه أحدا؛ فقال أبو عَزّة فى ذلك:

مَن مبلِغٌ عنّى الرسولَ محمدًا فإنك حقٌّ والمليكُ حَميدُ
وأنت آمرؤٌ تدعو إلى الحقّ والهدَى عليك من الله العظيم شهيدُ
وأنت آمرؤٌ بُوّئْتَ فينا مَباءةً لها درجاتٌ سهلة وصُعودُ(١)
فإنك مَنْ حاربتَه لمحارَبٌ شقىٌّ ومن سالمتَه لَسعيدُ
ولكنْ إذا ذُكِّرتُ بدرًا وأهلَه تأوّب ما بى حَسْرةٌ وقُعودُ(٢)

ومنهم وهب بن عُمير الجُمحى، ولإطلاقه سبب نذكره.

ذكرُ خبرِ عُمَير بن وهْب و إسلامه، و إطلاق ولده وهب بن عمير

قال ابن إسحق فى سبب إطلاق وهب بن عمير: إنّ أباه عمير بن وهب بن خَلَف بن حُذافة بن جُمح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب جلس مع صَفوان بن أميّة فى الحِجْر بعد مُصاب أهل بدر بيسير — قال: وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش، ممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه، ويَلقَوْن منه عَناء وهو بمكة — فذكر أصحاب القليب(٣) ومُصابَهم. فقال صفوان: والله إنْ

(١) بوّئت فينا مباءة: نزلت فينا منزلة.
(٢) تأوّب: رجع. (٣) القليب: البئر القديمة التى لا يعلم لها حافر.

٢٣/١٥

فى العيش بعدهم خير ، فقال عمير : صدقتَ والله ، أما والله لولا دَيْن علىّ ليس له [عندى](١) قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضَّيعة(٢) بعدى ، لركبْت إلى محمد حتى أقتلَه ، فإن لى قِبلهم عِلة ؛ ابنى أسير فى أيديهم . فاغتنمها صفوان فقال : علىّ دَينُك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالُك مع عيالى أواسيهم ما بقُوا لا يسعنى شىء و يعجز عنهم(٣) ؛ قال له عمير : فاكتُم علىّ شأنى وشأنك ؛ قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذ له ، ثم سُمّ ، ثم انطلق حتى قدِم المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين يتحدّثون عن يوم بدر ، و يذكرون ما أكرمهم الله به ، إذ نظر إلى عُمير حين أناخ على باب المسجد متوشّحا السيف ، فقال عمر : هذا الكلب عدوّ الله عميرُ بن وهب ما جاء إلا لشرّ ، وهذا الذى حرّش(٤) بيننا وحزَرنا(٥) للقوم يوم بدر . ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يانبىّ الله ، هذا عدوّ الله عمير بن وهب قد جاء متوشّحا بسيفه ، قال : فأدخلْه علىّ ، فأقبل عمر حتى أخذ بحِمالة سيفه فى عنقه فلبّبه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ؛ ثم دخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رآه قال : أرسلْه ياعمر ، ادنُ يا عمير ؛ فدنا ثم قال : انعمُوا صباحا — وكانت تحيّةَ أهل الجاهلية بينهم — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحيّة خير من تحيّتك يا عمير ، بالسلام تحيّة أهل الجنة ؛ قال : أما والله إنْ كنتَ يامحمد بها لحديثَ عهد ؛ قال : فما جاء بك ياعمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير

(١) زيادة من السيرة . (٢) الضيعة : الهلاك .
(٣) هكذا فى حـ ، وفى السيرة . وفى أ : « لا يشبعنى » .
(٤) حرش : أفسد . (٥) الحزر : تقدير العدد تخمينا .

الذى فى أيديكم فأحسِنوا فيه، قال : فما بالُ السيف فى عنقك؟ قال: قبّحها الله من سيوف ! وهل أغنت شيئا ! قال : اصدُقنى، ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك ، قال : بل قعدتَ أنت وصفوانُ بن أميّة فى الحِجْر فذكرتما أصحاب القَلِيب من قريش ثم قلتَ : لولا دَين علىّ وعِيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا، فتحمّل لك صفوان بدَينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائلٌ بينك وبين ذلك. قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره[1] إلا أنا وصفوان فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المَساق، ثم شهِد شَهادة الحقّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فقّهوا أخاكم فى دينه، وأقرِئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره"، ففعلوا .

ثم قال: يارسول الله، إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله ، وأنا أحبّ أن تأذن لى فأقدَم مكة ، فأدعوهم إلى الله ، و إلى رسوله ، و إلى الإسلام ، لعل الله يَهديهم ، و إلا آذيتُهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابَك فى دينهم . قال : فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلحق بمكة . وكان صفوان بن أمية يقول لقريش : أبشروا بوقْعة تأتيكم الآن فى أيام ، تُنْسيكم وقعة بدر ، وكان يسأل عنه الرُّكبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف ألا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه بنفع .

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويُؤذى مَنْ خالفه أذًى شديدا، فأسلم على يديْه ناس كثير .

(١) فى ا : « يبصره » .

قال ابن إسحاق : وعُمير بن وهب أو الحارث بن هشام ، قد ذُكر أن أحدهما [الذى](١) رأى إبليس حين نَكَص على عَقِبيه يوم بدر، كما أخبر الله تعالى عنه فى قوله : ﴿وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وقالَ لا غالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإنِّى جارٌ لَكُم فَلَمّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وقالَ إنِّى بَرِىءٌ مِنْكم إنِّى أَرَى ما لا تَرَوْن إنِّى أَخافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقَاب﴾ وكان إبليس قد تشبّه لقريش بِسُراقة بن مالك بن جُعْشُم وقال : أنا جارٌ لكم من بنى بكر بن عبد مَنَاة بن كنانة، كما قدّمنا ذكر ذلك، قال : وكانوا يَرَوْنه فى كل منزل فى صورة سُراقة لا يُنكرونه . فلما ٱلتقى الجمعان يوم بدر ورأى إبليسُ الملائكة نكَص على عقبيه وقال لهم ماقال .

وقد أخذت هذه الغزوة حقَّها من البسْط والإطالة وإن كان ذلك على سبيل الاختصار ، فلنذكرْ غيرها من الغزوات والسَّرايا . والله المستعان .

ذكر سرية عُمير بن عدىّ بن خَرَشة الخَطْمىّ إلى عَصماء بنت مروان من بنى أميّة بن زيد(٢)

٢٤/١٥

قال محمد بن سعد : كانت سريّة عُمير لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان على رأس تسعةَ عشَر شهرا من مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وكانت عصماء عند يزيد بن زيد بن حصن(٣) الخطْمى، وكانت تعيب الإسلام وتُؤذى النبىّ صلى الله عليه وسلم وتحرّض عليه، وتقول الشعر، فجاءها عُمير بن عَدىّ فى جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نَفَر من ولَدها نِيام، منهم من تُرضعه فى صدرها،

(١) زيادة عن جـ . (٢) فى أ : « يزيد » . نسبتها إلى بنى أمية بن زيد الأنصارىّ ؛ قيل لأنها حليفتهم أو لكون زوجها منهم . وانظر الزرقانى ١ : ٥٤٦ .

(٣) كذا فى المواهب اللدنية، والطبقات، وإمتاع الأسماع . وفى أ ، جـ : « حصين » .

فجسّها بيده — وكان ضريرَ البصر — ونحّى الصّبيّ عنها، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها، ثم صلى الصبح مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: قتلتَ بنتَ مرْوان؟ قال: نعم، فهل عليّ في ذلك شيء؟ قال: لا يُنْتَطِح فيها عنزان(١).

قال محمد بن إسحاق: فرجع عمير بن عديّ إلى قومه، وبنو خطْمة يومئذ كثيرٌ موْجهم(٢) في شأن ابنة مرْوان، ولها يومئذ بنون خمسة رجال، فقال: يا بني خطمة، أنا قتلت ابنةَ مروان، فكيدُوني جميعًا ثم لا تُنْظِرونِ(٣). قال: فذلك اليوم أوّلُ ماعزّ الإسلامَ في دار بني خطمة، وكان مَن أسلمَ منهم يَستخفي بإسلامه، وعمير هو أوّل من أسلم من بني خطمة. قال: وأسلم يوم قتلها رجالٌ من بني خطمة لما رأوا من عزّ الإسلام.

ذكر سريّة سالم بن عُمَير العَمْريّ إلى أبي عَفَك اليهوديّ

قال ابن سعد: كانت سريّة سالم في شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة، وكان أبو عَفَك(٤) من بني عمرو بن عوف شيخا كبيرا قد بلغ عشرين ومائة سنة، وكان(٥) يحرّض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الشعر، فقال سالم

(١) هذا مثل مشهور، أراد أن هذا الفعل لا يكون له تغيير، ولا له نكير، أي لا يختلف فيه اثنان. وانظر مجمع الأمثال ٢ : ١٤٨.

(٢) موجهم: اضطرابهم وتحيرهم.

(٣) تنظرون: تؤخرون، بعض آية من سورة هود ٥٥.

(٤) في الأصول: «أبو غفل». والتصويب من طبقات ابن سعد والمواهب اللدنية وسيرة ابن هشام.

(٥) في طبقات ابن سعد: «وكان يهوديا وكان يحرض».

ابن عمير — وهو أحد البكّائين[(١)] وقد شهد بدرا — : علىّ نَذرٌ أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه؛ فجاء وقد نام أبوعفك بالفناء فى ليلة صائفة، فوضع السيف على كبده، ثم اعتمد عليه حتى خَشَّ فى الفراش، فصاح [عدوّ الله][(٢)] ، فثار إليه ناس ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله وقَبروه .

ذكر غزوة بنى قَيْنُقاعَ
(وهى بضم النون وقيل بكسرها[(٣)])

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم السبت النصف من شوّال على رأس عشرين شهرا من مهاجَره .

قال ابن سعد : وكانوا حلفاء عبد الله بن أُبىّ بن سَلُول، وكانوا أشجعَ يهود، وكانوا صاغةً ، فوادعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كانت وقعةُ بدر أظهروا البغْى والحسد، ونبذوا العَهد والمدّة، فأنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿وإما تَخَافَنَّ مِن قَومٍ خِيانةً فَانْبِذْ إِلَيْهِم على سَواءٍ إن الله لا يُحِبُّ الخَائِنين[(٤)]﴾.

وقال أبو عبد الله محمد بن إسحاق فى سبب غزوة بنى قَينقاع : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جَمَعهم بسوق بنى قَينقاع[(٥)] ثم قال : يا معشر يهودَ، احذروا من الله

(١) البكاءون : سبعة نفر أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ، فسموا البكائين . راجع جـ ٨ ص ٢٢٨ من القرطبي . (٢) زيادة عن طبقات ابن سعد . وفى أ : « وصاع وصاح » . وفى جـ : « وصاح، فثار » .

(٣) زيد فى المواهب اللدنية : « بالفتح أيضا ولكن الضم أشهر » .

(٤) سورة الأنفال ٥٨ . (٥) بنو قينقاع : اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة. أضيفت إليهم سوق كانت بها ، فيقال : سوق بنى قينقاع .

مثلَ ما نزل بقريش من النّقمة، وأَسلِموا، فإنكم قد عَرفتم أنّى نبىّ مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وعهدِ الله إليكم؛ قالوا : يا محمد، لا يَغُرّنّك أنك لقيتَ قوما لا علمَ لهم بالحـرب فأصبتَ منهـم فُرصة، إنّا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن النـاس . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل لِلّذِينَ كَفَروا سَتُغْلَبُون وتُحْشَرُون إلى جَهَنَّمَ وبِئْسَ المِهَاد . قَـدْ كان لَكُمْ آيةٌ فى فِئَتَيْنِ ٱلتَقَتا فِئَـةٌ تُقاتِلُ فى سَبِيلِ اللهِ وأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِم رَأْىَ العَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إنَّ فى ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الأَبْصَارِ ﴾[1] . حكاه ٱبن إسحاق بسندٍ يرفعه إلى ٱبن عباس . ٢٥/١٥

وقال ٱبن هشام فى سبب هذه الغزاة : إنّ ٱمرأة من العرب حَلّت بجَلَبٍ[2] لها، فباعتْه بسـوق بنى قَينقاع ، وجلست إلى صائغ بهـا ، فجعلوا يريدونها على كَشف وجهِها ، فأبت ، فعمَد الصائغ إلى طرَف ثو بها فعَقَده إلى ظهرها ، فلمـا قامت ٱنكشفت سوءتُها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثَب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ،وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرَخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فأغضَبهم، فوقع الشر بينهم و بين بنى قَينقاع .

عُدنا إلى مَساق حديث ٱبن سعد ؛ قال : فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، وحمـل لواءَه حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، وٱستخلف على المدينـة أبا لُبَابة بن عبد المنذر، ثم سار إليهم فحاصرهم خمسَ عشْرة ليلة إلى هِلال ذى القعدة، وكانوا أوّلَ من غدر من اليهود، وحاربوا وتَحصّنوا فى حِصنهم، فحاصرهم أشدّ الحصار، حتى قذَف الله فى قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أموالَهم ، وأن لهم النساءَ والذُّرّيّة ، فأمر

(١) من سورة آل عمران آية ١٢ — ١٣ (٢) الجلب : ما جلب من خيل و إبل ومتاع .

بهم فكُتفوا، واستعمل على كتافهم المنذر بن قُدامة السَّلمى . فكلّم عبد الله بن أُبَىّ فيهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وألحّ عليه، فقال: خذهم، لعنهم الله[1]، وتركهم من القتل، وأمرَ بهم أن يُجْلوا من المدينة ، وولّى إخراجَهم منها عُبادة بن الصامت ، فلَحِقوا بأَذْرِعات[2]، فما كان أقلّ بقاءَهم فيها .

وقال ابن إسحاق فى خبر عبد الله بن أُبَىّ بن سلول : إنه قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمكنه الله من بنى قَينقاع، فقال : يامحمد، أَحسِن فى مَوالىّ. وكانوا حلفاءَ الخزرج ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يامحمد، أحسن فى موالىّ . قال : فأعرَض عنه . قال : فأدخَل يده فى جيب دِرع[3] النبى صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَرسلنى، وغضِب حتى ظهر ذلك فى وجهه ، ثم قال : ويحك ! أرسلنى، قال : لا والله لا أُرسلك حتى تحسن فى موالىّ، أربعمائة حاسر[4] وثلاثمائة دارع[5]، قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم فى غَداةٍ واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك .

وحكى أيضا قال : كان لبنى قَينقاع من عُبادة بن الصامت من الحِلف مثل الذى لهم من عبد الله بن أبىّ، فمشى عبادة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حِلفهم ، وقال : أتولّى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار ووِلايتهم . فأنزل الله تعالى فيه وفى عبد الله بن أبىّ :

---

(١) كذا فى أ ، وفى جـ : « لعنهم، وتركهم » .

(٢) أذرعات : بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء .

(٣) فى سيرة ابن هشام : « وكان يقال لها : ذات الفضول » .

(٤) الحاسر : الذى لا درع له . (٥) الدارع : الذى عليه الدرع ، وفى أ : «دراع» .

﴿ يَأَيُّها الذينَ آمنُوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصارَى أَوْلِيَاءَ بعضُهم أولياءُ بَعْضٍ ومَن يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أو أَمْرٍ مِن عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ ﴾ (١) إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ راكِعُونَ ﴾ (١) وذلك لعبادة بن الصامت . ٥

قال محمد بن سعد : وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم [من سلاحهم] (٢) ثلاث قِسىّ، منها : الكَتُوم، كُسِرت بأُحد، والرَّوْحاء، والبَيْضاء، وأخذ دِرْعين : الصَّغْدِيّة، وأخرى فضّة؛ وأخذ ثلاثة أسياف : سيف قَلَعِىّ (٣)، وسيف يقال له : بتّار؛ وسيف آخر؛ وثلاثة أرماح، ووجد فى حصنهم سلاحا كثيرا وآلة الصِّياغة، فأخذ صلى الله عليه وسلم صفيه (٤) والخمسَ ، وفضّ (٥) أربعة أخماس على أصحابه، وكان الذى تولى قبض أموالهم محمدُ بن مَسْلَمة . ١٠

ذكر غزوة السَّوِيق

قال محمد بن سعد : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لخمس خلَوْن من ذى الحجة على رأس اثنين وعشرين شهرا من مهاجره، واستخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبد المنذر، وذلك أن أبا سفيان بن حرب لما رجع المشركون من بدر إلى مكة حرّم الدُّهن حتى يثأر من محمد وأصحابه . ١٥ ٢٦/١٥

(١) من سورة المائدة آية ٥١ — ٥٥ . (٢) النكة من الطبقات لابن سعد .

(٣) سيف قلعى : منسوب إلى القلعة، وهى موضع بالبادية تنسب السيوف إليه .

(٤) الصفىّ من الغنيمة : ما اختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة . ٢٠

(٥) يقال : فض الشىء على القوم أى قسمه وفرقه بينهم .

قال ابن إسحاق : نذر ألا يمسّ رأسه ماء من جنابة[(١)] حتى يغزو محمدا صلى الله عليه وسلم .

قال ابن سعد : فخرج فى مائتى راكب، وقيل : فى أربعين راكبا، فمر بالعُرَيْض، — بينه و بين المدينة نحو من ثلاثة أميال — فقتل رجلا من الأنصار، وأجيرا له، وحرّق أبياتا هناك وثُبَنا، ورأى أن يمينه قد حُلّت، ثم ولّى هاربا. وبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم، فخرج فى مائتى رجل من المهاجرين والأنصار فى أثرهم، وجعل أبوسفيان [وأصحابُه[(٢)]] يتخفّفون للهرب فيلقون جُرُب[(٣)] السويق[(٤)] وهى عامّة أزوادهم، فأخذها المسلمون؛ فسمّيت غزوة السويق، ولم يلحقهم وانصرف . وكانت غيبته عن المدينة خمسة أيام .

قال محمد بن إسحاق : بلغ قَرْقرة الكُدْر[(٥)] ثم انصرف راجعا، فقال المسلمون حين رجع بهم : يا رسول الله، أتطمع لنا أن تكون غزوة ؟ قال : نعم .

ذكر غزوة قَرْقَرة الكُدْر ويقال قَرارة الكُدْر وهى غزوة بنى سُلَيم

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم للنّصف من المحرّم على رأس ثلاثة وعشرين شهرا من مهاجَره، وهى ناحية معدِن بنى سليم، و بينه و بين المدينة ثمانية بُرُد، واستخلف على المدينة عبد الله بن أمّ مكتوم، وحمل لواءه علىّ بن أبى طالب، وكان

(١) قال السهيلى فى الروض الأنف : « إن الغسل من الجنابة كان معمولا به فى الجاهلية بقية من دين إبراهيم و إسماعيل . كما بقى معهم الحج والنكاح » . (٢) ساقطة من ا .

(٣) كذا فى ج . وفى ا : « يخففون الهرب » . (٤) السويق قمح أو شعير يقلى ثم يطحن . (٥) قرقرة الكدر . قال الواقدى : « ناحية المعدن ، بينها و بين المدينة ثمانية برد » . وقال غيره : « ماء لبنى سليم » . راجع معجم البلدان مادة : « كدر » .

قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بهذا الموضع جمعا من بنى سُلَيم وغطفان ، فسار إليهم فلم يجد فى المحالّ أحدا ، ووجد رِعاء[(١)] منهم غلام يقال له : يسار ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ظفر بالنعم فانحدر به إلى المدينة ، فاقتسموا غنائمهم بصِرَار ، على ثلاثة أميال من المدينة ، وكانت النّعم خمسمائة بعير ، فأخرج خُمسَه وقسم أربعة أخماس على المسلمين ، فأصاب كلّ رجل منهم بعيران ، وصار يسار فى سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه حين رآه يصلى . وكانت غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدينة خمس عشرة ليلة .

ذكر مقتل كعب بن الأشرف اليهودىّ وخبر سريّته

قال أبو عبد الله محمد بن إسحاق وأبو محمد عبد الملك بن هشام ومحمد بن سعد — دخل حديث بعضهم فى حديث بعض — : كانت سريّة قتل كعب بن الأشرف لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهرا من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه كان رجلا شاعرا يهجو النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ويحرّض عليهم ويؤذيهم ، وكان لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدَ بن حارثة إلى أهل السافلة وعبدَ الله بن رَواحة إلى أهل العالية بشيرَين إلى مَن بالمدينة من المسلمين بخبر بدر ، فقال كعب بن الأشرف — وكان رجلا من طيئ ، ثم أحدَ بنى نَبْهان ، وكانت أمه من بنى النّضير[(٢)] — : أحقٌّ هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ؟ فهؤلاء أشراف العرب

(١) رعاء : جمع راع .

(٢) قال صاحب الأغانى (ج ١٩ ص ١٠٦ طبع بولاق) : « كعب بن الأشرف مختلف فى نسبه ؛ فزعم ابن حبيب أنه من طيئ ، وأمه من بنى النضير ، وأن أباه توفى وهو صغير ، فحملته أمه إلى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر أمره . وقيل : بل هو من بنى النضير . وكان شاعرا فارسا ... الخ » .

وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبطْن الأرض خيرٌ من ظهرها .

فلما تيقّن الخبرَ خرج حتى قدِم مكة فنزل على المطّلب بن أبي وَداعة السّهمي ، وجعل يحرِّض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُنشد الأشعار[1] ويبكي أصحابَ القَليب من قريش .

ثم رجع إلى المدينة فشبّب[2] بنساء المسلمين حتى آذاهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم اكفنيَ ابن الأشرف بما شئت" ؛ وقال : "من لي بابن الأشرف فقد آذاني" ؟ فقال محمد بن مسلمة ، أخو بني عبد الأشهل : أنا لك به يا رسولَ الله ، أنا أقتله ؛ قال : "فافعلْ إن قدرتَ على ذلك"[3] . فرجع [محمد بن][4] مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُمسِك رمقَه ؛ فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : "لِمَ تركتَ الطعام والشّراب"[5] ؟ فقال : يارسول[الله] ؛ قلت لك قولا لا أدرى هل أفي لك به أو لا ؟ قال : " إنما عليك الجَهْد" قال : يا رسول الله ؛ لابدّ لنا من أن نقول[6] ، قال : "قُولوا ما بدا لكم ، فأنتم في حلّ من ذلك" . فاجتمع على قتله محمد بن مَسْلمة ، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش — وكان أخا كعب من

٢٧/١٥

(١) راجع هذه الأشعار في سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٥٥ — ٥٧ طبعة الحلبي بمصر .

(٢) يروى : أنه شبب بأم الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب . راجع الطبرى القسم الأوّل ٣ ، ٤ ص ١٣٦٩ .

(٣) قال السهيلي في الروض الأنف ج ٢ ص ١٢٣ : « في هذه من الفقه وجوب قتل من سب النبيّ صلى الله عليه وسلم وإن كان ذا عهد ، خلافا لأبي حنيفة رحمه الله ، فإنه لا يرى قتل الذمّي في مثل هذا » .

(٤) زيادة عن ج .

(٥) ساقط من ج .

(٦) زيد في المواهب اللدنية في هذا الموضع : « قولا غير مطابق للواقع لنتوصل به إلى التمكن من قتله » .

الرّضاعة — وعبّاد بن بِشر بن وقش، والحارث بن أوس بن مُعاذ، وأبو عَبْس بن جَبْر[(١)]، أخو بنى حارثة، فقدّموا إليه سِلْكان بن سلامة، فجاءه فتحدّث معه ساعة، وتناشدا شعرا، ثم قال أبو نائلة سِلكان: ويحك يا بن الأشرف! إنى قد جِئتك لحاجة أريد ذكرَها لك، فاكتم عنى؛ قال: أفعلُ، قال: قد كان قدومُ هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب ورمتنا[(٢)] عن قوسٍ واحدة، وقُطِعت عنا السُّبُل حتى ضاع العِيال، وجُهِدت الأنفس، وأصبحنا قد جُهِدنا وجُهِد عيالُنا؛ فقال كعب: أنا آبن الأشرف، والله لقد كنت أخبرك يابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول؛ فقال له سِلكان: إنّا نريد التّنحىَ منه، ومعى رجال من قومى على مثل رأيى، وقد أردتُ أن آتيَك بهم، فنبتاع منك طعاما وتمْرا، ونرهنك ما يكون لك فيه ثِقة ووفاء؛ فقال أترهنونى نساءكم؟ قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشبّ أهل يثْرِب وأعْطَرُهم؛ فقال: أترهنونى أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا وأن يُعيّر أبناؤنا؛ فيقال: هذا رِهينة وَسْقٍ[(٣)]، وهذا رِهينة وسقين، ولكنّا نرهنُك سلاحنا وقدعلمتَ حاجتنا إلى السلاح؛ فقال: نعم إن فى الحَلْقة[(٤)] لوفاء، وإنما أراد سِلْكان ألا يُنكرَ السلاح إذا جاءوا بها، ثم رجع سِلكان إلى أصحابه، وأخبرهم الخبر وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففعلوا.

ومشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بَقِيع[(٥)] الغَرْقد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على آسم الله، اللهم أَعِنْهم. ورجع صلى الله عليه وسلم إلى بيته، وتوجّهوا،

(١) فى الأصل: «حبر» بالحاء المهملة، وهو تصحيف. والتصويب عن الاستيعاب، والطبرى.
(٢) كذا فى الطبقات، وسيرة ابن هشام. وفى الأصل: «ورموه».
(٣) الوسق: حمل البعير. (٤) يريد «بالحلقة»: السلاح كله، وقيل: هى الدروع خاصة.
(٥) بقيع الغرقد (بالغين المعجمة): هو مقبرة أهل المدينة.

وكانت ليلة مقمرة، حتى آنتهوْا إلى حِصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان آبن الأشرف حديث عهدٍ بعرسٍ، فوثب فى مِلْحفَته، فأخذت آمرأته بناحيتها وقالت : إنك آمرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة؛ قال : إنّه أبو نائلة، لو وجدنى نائما ما أيقظنى؛ فقالت : والله إنى لأعرفُ فى صوته الشّر، فقال لها : لو يُدعى الفتى لطعْنة لأجاب .

وفى حديث البخارىّ من رواية سُفيان[1] عن عمرو عن جابر بن عبد الله قالت : أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم؛ فقال : إنما هو أخى محمد بن مسلمة، ورَضيعى أبو نائلة، إن الكريم لو دُعِى إلى طعنة بِلَيل لأجاب؛ قالوا : ونزل إليهم فتحدّثوا معه ساعة ثم قالوا : هل لك يآبن الأشرف أن نتماشى إلى شِعب[2] العجوز فنتحدّث به بقيّة ليلتنا . فقال : إن شئتم . فخرجوا يتماشوْن، فمشوا ساعة، ثم وضع أبو نائلة [يده[3]] فى فود رأس آبن الأشرف، ثم شمّ يده فقال : ما رأيت كالليلة طِيبا أعْطرَ قطّ من هذا ! فقال : هذا عِطْر أمّ فلان، يريد آمرأته، ثم مشى قليلا وعاد لمثلها حتى آطمأنّ، ثم عاد لمثلها، فأخذ بفَوْد رأسه وقال : اضربوا عدوّ الله . فضربوه، فآختلفت عليه أسيافُهم فلم تُغنِ شيئا .

قال محمد بن مسلمة : فذكرت مِغْولا[4] فى سيفى حين رأيت أسيافنا لم تغن، فأخذته وقد صاح عدوّ الله صيحة لم يبْق حولنا حِصن إلا أوقِدت عليه نار، فوضعته فى ثُنّته[5]، ثم تحاملت عليه حتى آنتهى إلى عانته[6] . ثم حزّوا رأسه وحملوه معهم؛ وأصِيب الحارث بن أوس، بجرح فى رأسه أو رجلِه، أصابه بعض أسياف أصحابه

(١) فى أ : « أبى سفيان » . (٢) شعب العجوز : بظاهر المدينة . (٣) زيادة عن ج .
(٤) المغول : شبه سيف قصير يشتمل به الرجل تحت ثيابه . (٥) الثنة : ما بين السرة والعانة .
(٦) فى الأصول : « غايته » ، وهو تصحيف . وانظر شرح المواهب ٢ : ١٥ .

قال محمد بن مسلمة : فخرجنا حتى سَلَكْنا على بنى أميـة بن زيد، ثم على بنى قُريظة ثم على بُعاث[1] حتى استندنا[2] فى حرّة[3] العُريض، وقد أبطأ علينا الحارث، ونزفه[4] الدم فوقفنا له ساعة حتى أتانا فاحتملناه وجئنا به .

قال ابن سعد : فلما بلغوا بقيع الغرقد كبّروا، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة يصلى، فلما سمع تكبيرهم كبّر، وعرف أن قد قتلوه، ثم انتهوا إلى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم فقال : « أفلحتِ الوجوه » قالوا : وجهك[5] يا رسول الله؛ ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله .

قال ابن إسحاق، قال محمد بن مسلمة : وتفَل رسول الله صلى الله عليه وسلم على جرح صاحبِنا فبرأ، فرجعنا إلى أهلينا، فأصبحنا وقد خافت يهود لوقْعَتِنا بعدوّ الله، فليس بها يهودىّ إلا وهو خائف على نفسه .

وفى مقتل كعب بن الأشرف يقول عبّاد بن بِشْر :

صرختُ به فلم يَعرض لصـوتى * وأوفى طالعا من رأس جَدْرِ[6] ٢٨/١٥

فعُدْتُ له فقـال مَنِ المنـادى * فقلت أخوك عبّـاد بن بِشْرِ

وهَـــذى درعُنا رهْنا فخـــذْها * لشهر إن وفى أو نصفِ شهرِ

(١) بعاث : موضع فى نواحى المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية . وفى رواية أخرى : « بغاث » .

(٢) كذا فى ا ، حـ . وفى الطبرى، وابن هشام : « أسندنا » ، أى ارتفعنا .

(٣) الحرّة : الأرض الصلبة الغليظة التى ألبستها حجارة سود نخرة . والعريض : وادى المدينة .

(٤) نزفه الدم : خرج منه كثيرا حتى ضعف .

(٥) فى الطبقات : « ووجهك » .

(٦) الجدر : الحائط . وفى المواهب اللدنية : « خدر » .

فقال معاشرٌ سَغِبوا وجاعوا * وما عدِموا الغنى من غير فقرِ
فأقبل نحونا يهوِى سريعا * وقال : أما[1] لقد جئتم لأمرِ
وفى أيماننا بيضٌ حِدادٌ * مجرّبة بها الكفارَ نفرِى[2]
فعانقه ابنُ مسلمة المردّى * به الكفارُ كالليث الهِزَبرِ
وشدّ بسيفه صَلْتا عليه * فقطّره أبو عبْس بن جبرِ[3]
فكان الله سادسَنا فأُبْنا * بأنعَم نِعمةٍ وأعزّ نصرِ
وجاء برأسه نَفَرٌ كرامٌ * هُمُ ناهِيك[4] من صِدْق وبِرّ

ذكر غزوة غَطَفان إلى نجد

(وهى غزوة ذى أَمَر[5]، ناحية النَّخَيل، وقصة دُعْثُور بن الحارث[6])

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأوّل[7] على رأس خمسة وعشرين شهرا من مهاجَره ، وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعا

(١) فى المواهب، والاستيعاب : « وقال لنا لقد » .

(٢) فى الاستيعاب : « جداد * مجردة » .

(٣) قطره : أسال دمه .

(٤) فى الاستيعاب : « ناهوك » .

(٥) سمى ابن إسحاق هذه الغزوة « غزوة ذات الرقاع » . وقال فى سبب هذه التسمية : « و إنما قيل لها غزوة ذات الرقاع ، لأنهم رقعوا فيها راياتهم؛ و يقال : ذات الرقاع : شجرة بذلك الموضع ، يقال لها : ذات الرقاع» .

(٦) فى سيرة ابن هشام : « غورث بن الحارث » . وفيه روايات أخرى . راجع المواهب اللدنية جـ ٢ صفحة ١٧ .

(٧) فى طبقات ابن سعد أنها كانت فى المحرّم على رأس سبعة وأربعين شهرا من مهاجره .

من بنى ثعلبة ومحارب بذى أَمَر تجمّعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم. جمعهم رجل منهم يقال له: دُعْثُور بن الحارث من بنى محارب، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، وخرج لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأوّل فى أربعمائة وخمسين رجلا، ومعهم أفراس، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان — رضى الله عنه — فأصابوا رجلا منهم بذى القَصَّة[1] يقال له جَبّار من بنى ثعلبة، فأُدخِل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره من خبرهم[2] وقال: لن يُلاقوك، لو سمِعوا بمسيرك هرَبوا فى رءوس الجبال، وأنا سائر معك. فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، فأسلم وضمّه إلى بلال، ولم يلاق صلى الله عليه وسلم أحدا.

قال الشيخ الإمام أبو بكر أحمد البيْهقىّ، رحمه الله: وهربت منه الأعراب فوق ذِرْوة من الجبال، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا أمَر وعسكَر به فأصابهم مطر كثير، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته، فأصابه ذلك المطر فبَلّ ثوبه، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وادىَ ذى أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجِفّ، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقالت الأعراب لدُعثور، وكان سيّدَها وأشجَعها: قد أمكنك محمد، وقد انفرد من أصحابه حيث إن غوّث[3] بأصحابه لم يُغث حتى تقتلَه؛ فاختار سيفا من سيوفهم صارما، ثم أقبل مشتملا على السيف حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف مشهورا، فقال: يا محمد، من يمنعك منّى اليوم؟ قال: الله. ودفع جبريل فى صدره فوقع

(١) ذو القصة: موضع على أربعة وعشرين ميلا من المدينة.

(٢) كذا فى جـ. وفى أ: «بخبرهم».

(٣) غوّث: قال: واغوثاه.

السيف من يده، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام على رأسه ، فقال : من يمنعك منى؟ قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لا أكثر عليك جمعا أبدا ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه ، ثم أدبر ، ثم أقبل بوجهه ثم قال : والله لأنت خير منى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أحق بذلك منك . فأتى قومه ، فقالوا : أين ما كنت تقول وقد أمكنك والسيف فى يدك ؟ قال : قد كان والله ذلك رأيى ، ولكن نظرت إلى رجل أبيض[1] طويل فدفع فى صدرى فوقعت لظهرى ، فعرفت أنه ملك ، وشهدت أن محمدا رسول الله ، والله لا أكثر عليه ؛ وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ونزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم[2] ﴾ الآية . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ولم يلق كيدا ، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة .

٢٩/١٥

ذكر غزوة بنى سُلَيم بِبُحْران[3]

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لستّ خلون من جمادى الأولى على رأس سبعة وعشرين شهرا من مهاجره — وبحران من ناحية الفُرع[4] ، وبين الفرع وبين المدينة ثمانية برد — وذلك أنه بلغه أن بها جمعا كثيرا من بنى سليم ، فخرج فى ثلثمائة رجل من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وأغذّ[5] السير حتى ورد بحران فوجدهم قد تفرقوا فى مياههم ، فرجع ولم يلق كيدا ، وكانت غيبته عشر ليال .

(١) أراد جبريل . (٢) بعض آية من سورة المائدة .

(٣) بحران (بضم الباء وفتحها ، وسكون الحاء) : موضع بناحية الفرع . وفى الأصل : « بنجران » .

(٤) الفرع (بضمتين أو ضم وسكون) : قرية من ناحية المدينة ، ويقال : هى أول قرية مارت إسماعيل وأمه التمر بمكة . (٥) أغذ : أسرع .

ذكر سريّة زيد بن حارثة إلى القَرَدَة

(بالقاف، وضبطه ابن الفرات بالفاء وكسر الراء المهملة)

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهلال جمادى الآخرة، على رأس ثمانية وعشرين شهرا من الهجرة، وهى أوّل سريّة خرج زيد فيها أميرا يعترض لعير قريش فيها صَفْوان بن أميّة، وحُوَيْطب بن عبد العزّى، وعبد الله بن أبى ربيعة، ومعه مال كثير، وكان دليلَهم فراتُ بن حَيّان العِجْلىّ، فخرج بهم على ذات عِرْق، طريق العراق.

قال ابن إسحاق: وفيها أبو سفيان بن حرب، وكان من حديثها أن قريشا خافوا طريقهم الذى كانوا يسلكون إلى الشام حين[1] وقعة بدر فكانوا يسلكون طريق العراق، فخرج منهم تُجّار، وفيهم أبو سفيان بن حرب معه فضّة كثيرة، وهى أعظم تجارتهم.

قال ابن سعد: فبلغ النبىّ صلى الله عليه وسلم ذلك، فوجّه زيد بن حارثة فى مائة راكب، فاعترضوا لها، فأصابوا العِير وأفلت أعيانُ القوم، وقدموا بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم فخمّسها، فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم، وقسم ما بقى بين[2] أهل السريّة، وأُسِر فُرات بن حيّان، فأسلم، فترِك من القتل.

والقَردة: من أرض نجد بين الرَّبَذة والغَمْرة.

---

(١) فى ابن إسحاق: «حيث كان من وقعة بدر ما كان».

(٢) فى ا: «من».

ذكر غزوة أحد

قال محمد بن سعد فى طبقاته : كانت غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا يوم السبت لسبع خلون من شوّال ، على رأس اثنين وثلاثين شهرا من مُهاجَره صلى الله عليه وسلم .

٥ وقال ابن إسحاق : كانت يوم السبت للنصف من شوّال .

وذلك أن قريشا لما أُصيب من أُصيب منهم يوم بدر، ورجع من نجا منهم إلى مكة ، وجدوا العير التى قدم بها أبو سفيان بن حرب موقوفة فى دار النّدوة، فمشت أشراف قريش إلى أبى سُفيان ، فقالوا : نحن طيِّبو أنفس أن تُجهّزوا بربح هذه العير[(١)] جيشا إلى محمد؛ فقال أبو سفيان : وأنا أوّل من أجاب إلى ذلك، وبنو عبد مناف معى؛ فباعوها فكانت ألف بعير، والمالُ خمسين ألف دينار، فسلّم إلى أهل العير ١٠ رءوس أموالهم وأخرجوا أرباحهم، وكانوا يربحون فى تجارتهم للدينار دينارا .

قال ابن سعد وغيره : وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثم تَكُونُ عليهم حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ[(٢)] ﴾ وبعثت قريش رُسلَهم إلى العرب يدعُونهم[(٣)] إلى ١٥ نَصرِهم فأَوْعبوا[(٤)] وأَلَبُوا[(٥)] .

قال ابن سعد : وكتب العبّاس بن عبد المطلب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر قريش، فأخبر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سعدَ بن الرّبيع بكتاب

---

(١) كذا فى الطبقات . وفى الأصول : « هذا العير » . (٢) سورة الأنفال آية ٣٦ .

(٣) فى الأصول : « يدعوهم » . (٤) أوعبوا : خرجوا كلهم فى الغزو .

٢٠ (٥) ألبوا : أتوا من كل جانب . وفى ا : « وأكبوا » .

العباس . وأرجف[1] المنافقون واليهود بالمدينة، وخرجت قريش من مكة بحدّها[2] وجدّها وأحابيشها[3] ، ومن تابعها من كنانة وأهل تهامة، وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل ، فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مائتا فرس[4] وثلاثة آلاف بعير ، وخرجوا معهم بالظُّعن[5] التماسَ الحفيظة[6] ، وألا يفرّوا، وكان معهم خمسَ عشرة امرأة، فخرج أبو سفيان ابن حرب — وهو قائد الناس[7] — معهم بهند بنت عتبة ، وخرج عِكْرمة بن أبي جهْل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صَفوان بن أميّة ببرّة[8] بنت مسعود بن عمرو ابن عمير الثّقفيّة ، وهى أم عبد الله بن صفوان ، وخرج عمرو بن العاص بريْطة بنت مُنبّه بن الحجّاج ، وهى أم عبد الله بن عمرو ، وخرج طلحة بن أبي طلحة — عبد الله بن عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار — بسُلافة بنت سعد بن شُهَيد[9] الأنصاريّة ، وخرجت خُنَاس بنت مالك بن المُضرِّب[10]

٣٠/١٥

(١) أرجف القوم : اختلقوا أخبارا كاذبة يكون معها اضطراب فى الناس .

(٢) بحدها وجدها : بغضها وعظمتها .

(٣) أحابيش قريش : قوم من بنى المصطلق واخون بن خزيمة ، اجتمعوا وحالفوا قريشا عند حبشى ، وهو جبل بأسفل مكة ، فسموا به .

(٤) كذا فى طبقات ابن سعد، وسيرة ابن هشام . وفى الأصول : « فارس » .

(٥) الظعن : جمع ظعينة ، وهى المرأة مادامت فى الهودج .

(٦) الحفيظة : الحمية والغضب .

(٧) كذا فى أ . وفى جـ : «وهو قائد الناس معه بهند» .

(٨) فى السيرة والمواهب اللدنية : « ببرزة » .

(٩) كذا فى السيرة، والطبرى . وفى الأصول : «سهيل» . وفى رواية للطبرى : «سهيد» .

(١٠) ما ذكر رواية السيرة والطبرى . وفى الأصول : « النضر » .

مع ابنها[1] أبى عزيز بن عُمير ، وخرجت عَمْرة بنت عَلقمة إحدى[2] نساء بنى الحارث ابن عبد مَناة .

قال محمد بن إسحاق : ودعا جُبير بن مُطعم غلاما له حبَشيّا ، يقال له : وحشىّ ، يقذف بحَرْبة له قذْف الحبشة ، قلّما يُخطئ بها ، فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلتَ حمزة عمّ محمد بعمّى طُعيمة بن عدى فأنت عتيق .

فكانت هند بنت عتبة كلّما مرّت بوحْشىّ أو مر بها ، قالت : ويها[3] دُسْمة ، اشْف واستشْفِ ، وكان وحشىّ يكنى بأبى دسمة .

قال ابن سعد : وشاع خبرهم ومسيرهم فى الناس حتى نزلوا ذا الحُلَيْفة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنَسا ومُؤْنِسا ابنَى فَضَالة ، ليلة الخميس لخمس مضين من شوّال عيْنيْن له ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبرهم ، وأنهم قد خلّوا إبلهم وخيلهم فى الزرع الذى بالعُريض[4] حتى تركوه ليس به خضراء ، ثم بعث الحُبابَ ابن المنذر [بن الجموح فدخل فيهم][5] فحزَرهم ، وجاءه بعلمهم ، وبات سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضير ، وسعد بن عُبادة ، فى عِدّة ليلة الجمعة ، عليهم السلاح فى المسجد بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحُرِست المدينة حتى أصبحوا ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة كأنّه فى دِرعٍ حَصينة ، وكأنّ سيفَه ذا الفَقار قد انقصم من عند ظُبته ، وكأن بقرا تُذبَح ، وكأنه مُردِفٌ كَبْشا فأخبر بها أصحابه وأوّلَها ، فقال : أما الدّرع الحصينة فالمدينة ، وأما انْقِصام سيفى

(١) كذا فى الطبرى ، والسيرة . وفى أ : «مع أبى أبى عزيز» وفى جـ : «مع أبيها أبى عزيز» .

(٢) فى أ ، جـ : «أحد» .

(٣) ويها : كلمة معناها الإغراء والتحضيض . والدسمة : السواد . وفى الطبرى «إيه أبا دسمة» وفى السيرة : «ويها أبا دسمة» .

(٤) العريض : واد بالمدينة .

(٥) ساقطة من أ ، والحزر : العدّ بالظن والتخمين .

فمصيبة فى نفسى، وأما البقر التى تُذبح فقتلٌ فى أصحابى، وأما مُردِف كبْشا، فكبْش الكَتيبة يقتله [الله][1] إن شاء الله : فكان رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يخرج مِن المدينةِ لهذه الرؤيا، فأحبّ أن يُوافَق على رأيه[2]، فاستشار أصحابه فى الخروج، فأشار عبد الله بن أبىّ بن سلول ألا يخرج، وكان ذلك رأى الأكابرِ من المهاجرين والأنصار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: امكثوا فى المدينة، واجعلوا النساء والذرارِىّ فى الآطام[3]. فقام فِتيان أحداث لم يشهدوا بدرا، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج إلى عدوهم ورغِبوا فى الشهادة، وقالوا : اخرج بنا إلى عدوّنا لا يرَوْن أنّا [قد][4] جبُنّا عنهم وضُعْفنا. فغلَبوا على الأمر، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة بالناس ووعظهم وأمرهم بالجدّ والجِهاد[5]، وأخبرهم أن لهم النصر ماصبروا، وأمرهم بالتهيُّؤ لعدوهم، ففرح الناس بالشخوص، ثم صلى بالناس العصر، وقد حَشَدوا، وحضر أهلُ العوَالى[6]، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته ومعه أبو بكر وعمر، فعمّماه وألْبَساه[7]، وصفّ[8] الناس له ينتظرون خروجه، فقال لهم سعد ابن معاذ وأُسَيد بن حُضير : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء، فرُدّوا الأمر إليه. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لبس لأْمته[9]، وأظهر الدرع وحزم وسطها بمِنْطَقةٍ من أَدَم[10] من حمائل سيفه، واعتمّ وتقلّد السيف، وألقى التُّرْس فى ظهره، فندموا جميعا على ما صنعوا، وقالوا : ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك. فقال صلى الله عليه وسلم : لا ينبغى

(١) ساقطة من أ. (٢) كذا فى أ. وفى ج : « على مثل رأيه ».
(٣) الآطام : الحصون المبنية بالحجارة، والبيوت المربعة المسطحة. (٤) ساقطة من أ.
(٥) فى المواهب : « الاجتهاد » مكان « الجهاد ». (٦) العوالى : قرى بظاهر المدينة.
(٧) فى الأصول : « لبساه » وهو تحريف. (٨) صف : اصطف.
(٩) اللأمة : الدرع أو السلاح كله. (١٠) فى ج « سيف ».

لنبيّ إذا لبس لأمتَه أن يضعها حتى يحكم الله بينه و بين أعدائه ، فانظروا ما آمرُكم به فافعلوا وامْضُوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صَبَرتم . ثم دعا بثلاثة أرماح، فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء المهاجرين إلى على بن أبى طالب، ويقال : إلى مصعب بن عُمَير، ودفع لواء الأوس إلى أُسيد بن حُضَير، ودفع لواء الخزرج إلى الحُبَاب بن المنذر ، و يقال : إلى سعد بن عُبادة ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أمّ مَكتوم، ثم ركب فرسه وتنكّب[1] القَوس وأخذ قناةً بيده، والمسلمون عليهم السلاح قد أظهروا الدروع، فيهم مائة دارع، وخرج السَّعدانِ أمامَه يعدُوان، سعدُ بن معاذ، وسعد بن عُبادة، كل منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله، فمضى حتى إذا كان بالشَّيخينِ[2] — وهما أُطمان، كان يهودى[3] و يهودية يقومان عليهما يتحدّثان، فلذلك سمّيا بالشيخينِ ، وهما فى طرف المدينة — التفت فنظر إلى كتيبة خَشْناء[4] لها زَجَل[5] ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : حلفاء ابن أبيّ من يهود . فقال صلى الله عليه وسلم : لا تستنصِروا[6] بأهل الشّرك على أهل الشرك . وعرض مَن عرض بالشيخين، فردّ من ردّ، وأجاز من أجاز .

قال محمد بن إسحاق : أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سَمُرة[7] بن جُنْدُب الفَزارىّ، و رافع بن خَدِيج أحدَ بنى حارثة، وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان

٣١/١٥

(١) تنكب القوس : ألقاه على منكبه . (٢) فى أ : « كانا » .

(٣) فى معجم البلدان : « كان شيخ وشيخة » . وفى الطبرى : « كان يهودى ويهودية عجوزان » .

(٤) كتيبة خشناء : كثيرة السلاح خشنته .

(٥) الزجل : الجلبة والضوضاء .

(٦) فى الأصل : « لا تستنصر » وما ذكر رواية ابن سعد .

(٧) فى أ : « تمرة » وهو تحريف .

قد ردّهما ، فقيل له : يا رسول الله إن رافعا رامٍ . فأجازه ، فقيل له : إن سمرة يصرع رافعا ، فأجازه . وردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسامةَ بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبَراء بن عازب ، وعمرو بن حَزم ، وأُسيْد بن ظُهَيْر ، ثم أجازهم يوم الخندق ، وهم أبناء خمس عشرة سنة . وردّ عَرَابة ابن أوس وهو الذى يقول فيه الشمّاخ (١) . ٥

إذا ما رايةٌ رفِعت لمجدٍ * تَلقّاها عَرابة باليمين

قال ابن سعد : وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشيخين ، وكان نازلا فى بنى النّجار ، واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مَسلَمة فى خمسين رجلا ، يُطيفون بالعسكر ، وأدلجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السَّحَر ، ودليله أبو خَيْثمة (٢) ، فانتهى إلى أُحُد ، فحانت الصلاة ، وهو يرى المشركين ، فأمر بلالا فأذّن وأقام ، فصلّى بأصحابه الصبح صفوفا . ١٠

قال ابن إسحاق : ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشَّوْط (٣) بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أُبَىّ بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علامَ نَقتل أنفسَنا ها هنا أيها الناس ! فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النّفاق ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حَرَام ، أخو بنى سلمة ، يقول : ياقوم ، ١٥

---

(١) خرج الشماخ يريد المدينة فلقيه عرابة بن الأوس ، فسأله عما أقدمه المدينة . فقال : أردت أن أمتار لأهلى . وكان معه بعيران فأوقرهما له عرابة تمرا وبرا ، وكساه وأكرمه ، فخرج عن المدينة وامتدحه بالقصيدة التى منها هذا البيت .

(٢) كذا فى الأصول ، وهو يوافق ما فى المواهب ، وفى ابن سعد : « أبو حثمة » ، وخطأه صاحب المواهب .

(٣) الشوط ، قال فى معجم البلدان « موضع حائط ، يعنى بستانا بالمدينة » . ٢٠

أذكركم الله أن تخذلوا[(١)] قومكم ونبيكم عندما حضر عدوهم ؛ قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أنه يكون قتال . قال : فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه صلى الله عليه وسلم .

٥ قال ابن سعد : انخزل عبد الله بن أبي بثلثمائة ، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمائة ومعه فرسه وفرس لأبي بردة بن نيار . وأقبل يصف أصحابه ويسوّي الصفوف على رجليه ، وعليه درعان ومغفر[(٢)] وبيضة ، وجعل له ميمنة وميسرة ، وجعل أحدا وراء ظهره ، واستقبل المدينة ؛ وجعل عينين[(٣)] — جبلا — عن يساره ، وجعل عليه خمسين من الرماة ، واستعمل عليهم[(٤)] عبد الله بن جبير ، وقال : قوموا

١٠ على مصافكم[(٥)] هذه فاحموا ظهورنا ، لا يأتونا من خلفنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا ، فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا .

وأقبل المشركون ، وقد صفوا صفوفهم ، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، ولهم مجنبتان[(٦)] مائتا فرس ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية ، ويقال : عمرو بن العاص . وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة ،

١٥ وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة — واسم أبي طلحة عبد الله ابن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار — فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من

(١) هكذا في الأصل ، والقرطبي ، وشرح المواهب اللدنية . وفي السيرة : « ألا تخذلوا » .

(٢) المغفر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها المتسلح .

(٣) عينان : جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة .

٢٠ (٤) في أ : « عليه » .

(٥) كذا في طبقات ابن سعد . وفي الأصول : « هذا » .

(٦) المجنبتان : الميمنة والميسرة .

يحمل لواء المشركين ؟ فقيل : عبدالدار. فقال : نحن أحقّ بالوفاء منهم، أين مُصعَب ابن عُمَير ؟ قال : هأنذا ، قال : خُذِ اللّواء ، فأخذه مصعب ، فتقدّم به بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يأخذ هذا السيفَ بحقّه ؟ فقام رجالٌ ، فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دُجَانة سِماك بن خَرَشة أخو بنى ساعدة، فقال : وماحقّه يارسول الله ؟ قال : تضرب به فى العدوّ حتى ينحنى، قال: أنا آخذه يارسول الله بحقّه . فأعطاه إيّاه . وكان أبو دُجانة إذا أعْلِم بعِصابةٍ له حمراء علم الناس أنه سيقاتِل ، فلما أخذ السيفَ من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرج عِصابَته تلك فعَصب بها رأسَه ، وجعل يتبختر بين الصّفين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه : إنها لمِشْية يُبْغِضها الله ورسوله ، إلا فى هذا الموطن .

قال ابن هشام : إن الزّبير بن العوّام قال : وَجِدْتُ[1] فى نفسى حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فمَنعنِيه وأعطاه أبا دُجانة ، فقلت : والله لأنظرنّ ما يصنع . فاتّبعته ، فأخرج عِصابة حمراء فعصَب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دُجانة عِصابة الموت . وجعل يقول : ٣٢/١٥

أنا الذى عاهدَنى خَليلى * ونحنُ بالسَّفْح لدَى النّخيلِ

أَلَّا أقومَ الدهرَ فى الكَيُّولِ[2] * أضربْ بسيْف اللهِ والرّسولِ

(١) وجدت : حزنت .

(٢) الكيول : آخر الصفوف فى الحرب . وهى رواية اللسان وإحدى روايتى ابن هشام . وفى الأصول : «الكبول» جمع كبل : وهو القيد الضخم . وما ذكرناه أوفق للمعنى . وقد ذكر هذين البيتين صاحب لسان العرب .

قال الزّبير : فجعل لايَلْقى أحدا إلا قَتله . وكان فى المشركين رجل لايدع لنا جريحا إلا ذفّف[(١)] عليه ، فدعوْت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دُجانة ، فاتّقاه بدَرَقته[(٢)] ، وضربه أبو دُجانة فقتله ، ثم رأيته قد حمل السيف على مَفْرِق رأس هند بنت عُتبة ، ثم عدله عنها ، قال الزّبير ، فقلت : الله ورسوله أعلم .

قال أبو دُجانة : رأيت إنسانا يُحمِش[(٣)] الناس حَمْشا ، فصَمَدتُ له ، فلما حملت عليه السيف وَلْوَل ، فإذا امرأةٌ ، فأكرمتُ سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة .

قالوا : وكان أوّلَ من أنشب الحرب يوم أُحُد أبو عامر عبد عمرو[(٤)] بن صيفىّ ابن مالك بن النعمان ، أحد بنى ضُبَيْعة بن زيد ، وكان قد خرج إلى مكة مُباعِدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه خمسون غلاما من الأوس ، وكان يعد قريشا أن لو قد لقى قومَه لم يختلف عليه منهم رجلان . فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعُبْدان أهل مكة ، فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . قالوا : فلا أنعَم الله بك عينا يافاسق — وكان فى الجاهلية يُسمَّى الراهب ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ، كما قدمنا من خبره — قال : فلما سمع ردّهم عليه ، قال : لقد أصاب قومى بعدى شرٌّ . ثم قاتلهم قتالا شديدا ، ثم راضَخَهم[(٥)] بالحجارة فراضخوه ، حتى ولّى هو وأصحابه هاربين .

---

(١) ذفف : أجهز . (٢) الدرقة . الترس المصنوع من الجلد .

(٣) يحمش الناس : يسوقهم بغضب ؛ أى يحرّضهم على القتال ويغضبهم .

(٤) كذا فى السيرة ، والطبرى ، والمواهب اللدنية . وفى أ : « عبد بن حرب عمرو » . وفى ج : « عبد بن عمرو » . (٥) راضخهم : راماهم .

قال : وكان أبو سفيان قد قال لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار يحرّضهم بذلك على القتال : يابنى عبد الدّار، إنكم قد وَلِيتم لِواءَ[1] يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتى الناسُ من قِبَل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإمّا أن تَكْفونا لواءنا[2]، وإمّا أن تُخلُّوا بيننا وبينه فنكْفِيكموه ؛ فهمُّوا به وتواعدوه ، وقالوا : نحن نُسْلِم إليك لواءنا؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نَصْنع ! وذلك أراد أبو سفيان .

قال : ولما التقى الناس، ودنا بعضُهم من بعض، قامت هِند بنت عُتبة فى النّسوة اللاتى معها ، وأخذْن الدّفوف يضْرِبن بها خلف الرجال ويحرّضْنهم ، فقالت هند فيما تقول :

وَيْهًا بنى عبْد الدارْ * ويهًا حُماةَ الأَدْبارْ
* ضرْبًا بكلِّ بتّارْ[3] *

وقالت أيضا :

نحن بناتُ طارق[4] * نمْشى على النّمارق[5]
إن تُقبلوا نُعانق * أو تُدْبِروا نُفارق
* فراق غيرِ وامقْ[6] *

(١) فى السيرة، والطبرى : « لواءنا » .

(٢) كذا فى جـ . وفى أ : « لواء » . (٣) بتار : قاطع .

(٤) فى هامش جـ ما يأتى : « قولها : بنات طارق . تريد النجم ؛ أى نحن شريفات رفيعات كالنجم . وقيل : الشعر لهند بنت طارق بن بياضة الإيادية، قالته فى حرب الفرس لإياد، فتمثلت به هند هذه » . وقال لسان العرب : إن ابن برى قال : إن هندا بنت عتبة هى هند بنت بياضة بن رباح بن طارق الإيادى . وذكر الأبيات برواية أخرى ، وهى تخالف رواية المؤلف وروايتى الطبرى وابن إسحاق . راجع لسان العرب مادّة (طرق) .

(٥) النمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة والطنفسة فوق الرحل .

(٦) الوامق : المحب .

قال . وكان شعار المسلمين يوم أحد . أَمِتْ ، أَمِتْ . ودنا القوم بعضُهم من بعض ، والرّماة يرشُقون خيل المشركين بالنّبل ، فتولّى[1] هوارب ، فبرز طلحة ابن أبي طلحة ، صاحب لواء المشركين ، وقال : مَن يُبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب ، فالتقيا بين الصفّين ، فبدره عليّ بضربة على رأسه حتى فلَق هامته ، فوقع وهو كبْش الكتيبة ، فسُرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وكبّر ، وكبّر المسلمون ، وشدّوا على كتائب المشركين يضربونهم حتى نغضت[2] صفوفهم ، ثم حمل لواءَ المشركين عثمان بن أبي طلحة ، وجعل يرتجز وهو أمام النّسوة :

إنّ على أهلِ اللواءِ حقّا * أن يَخْضِبوا الصَّعْدة أو تَنْدَقّا[3]

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مُؤْتَزَره ، وبدا سَحْره[4] ، ثم رجع حمزة وهو يقول : أنا ابن ساقي الحجيج . فحمل اللواء أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقّاص فأصاب حنجرته ، فأدلعَ[5] لسانه إدلاع الكلب ، فقتله . ثم حمله مُسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، فقتله . ثم حمله كِلاب بن طلحة ابن أبي طلحة ، فقتله الزّبير بن العوّام . ثم حمله الجُلاس بن طلحة بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عُبيد الله . ثم حمله أَرْطاة بن شُرَحْبيل ، فقتله عليّ بن أبي طالب .

(١) في الأصول : « فيولوا » والتصويب من الطبقات .

(٢) « النغض : التحريك والاضطراب » .

(٣) الصعدة : القناة التي ليست مستقيمة . وفي الطبقات : « أن تخضب » .

(٤) سحرها : الرئة .

(٥) أدلع : أخرج .

ثم حمله شُريح بن قاسط[1]، فقُتِل . ثم حمله صُؤاب غلامهم[2]، وهو حبشيّ، فقاتل يومئذ حتى قُطعت يده، فاعتنق اللواء حتى قُتِل عليه، وهو يقول : اللهمّ هل أعذرت، واختُلِف فى قاتله، فقيل : قتله سعد بن أبى وقّاص، وقيل : على بن أبى طالب، وقيل : قتله قُزْمان على الأصح . ٣٣/١٥

قال : فلما قُتل أصحابُ اللواء صار مُلق، حتى أخذته عَمْرة بنت عَلْقمة الحارِثيّة فدفعته لقريش، فلاثُوا[3] به . ثم انكشف المشركون وانهزموا لا يلوون على شىء، ونساؤهم يدعون بالويْل، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم[4] عن العسْكر، ووقعوا ينهبون العسكر، ويأخذون ما فيه من الغنائم .

قال ابن إسحاق بسند يرفعه إلى الزّبير بن العوّام، أنه قال : والله لقد رأيتُنى أنظر إلى خدمِ هندٍ وصواحبِها مشمّراتٍ هوارب، ما دون أخذِهنّ قليلٌ ولا كثير .

قال ابن سعد : وتكلّم الرّماة الذين على الجبل واختلفوا بينهم، وثبت أميرهم عبد الله بن جُبير فى نفر يسير دون العشرة، وقال : لا أُجاوِز أمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووعظ أصحابَه وذكّرهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : لم يُرِد رسولُ الله هذا، قد انهزم المشركون، فما مُقامنا ها هنا؟ فانطلقوا يتبعون العسكر ينتَهبون معهم، وتركوا الجبل . فنظر خالد بن الوليد إلى خُلوّ الجبل وقلةِ أهله،

(١) كذا فى الأصول . وفى طبقات ابن سعد، والمواهب اللدنية : « قارظ » وفى سيرة ابن هشام : « القاسط بن شريح بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار » .

(٢) كذا فى جـ . وفى أ : « غلامهم وحبشى » . وفى سيرة ابن هشام : « غلام لبنى أبى طلحة » .

(٣) لاثوا به : اجتمعوا حوله .

(٤) أجهضوهم : أزالوهم .

فكثر بالخيل ، وتبعه عِكْرِمة بن أبي جهل ، فحملوا[(١)] على المسلمين ، واستدارت رَحاهم ، وحالت الريح فصارت دَبُورا ، وكانت قبل ذلك صَبًا ، ونادى إبليس — لعنه الله — : إن محمدا قد قُتِل . واختلط المسلمون فصاروا يقتتلون[(٢)] على غير شِعَار ، ويضرب بعضُهم بعضا ، ما يشعرُون به من العَجَلة والدَهَش ، وقُتل مُصعب ابن عُمير ، فأخذ اللواءَ ملَك فى صورة مُصعب ، وحضرت الملائكة يومئذ ولم تقاتل ، ونادى المشركون بشعارهم : يا لَلْعزَّى يا لَهُبَل[(٣)] . فقُتل من أكرمه الله بالشهادة من المسلمين ، حتى خلَص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبت صلى الله عليه وسلم معه عِصابة[(٤)] من أصحابه أربعة عشر رجلا ، سبعة من المهاجرين ، فيهم أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، وسبعة[(٥)] من الأنصار . ورمَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوسه حتى اندقّت سِيَتُها[(٦)] ، فأخذها قَتادة بن النعمان فكانت عنده ، ثم ذبّ بالحجارة . وكُسِرت يومئذ رَباعِيته[(٧)] صلى الله عليه وسلم ، وكُلِمت شَفَتَه ، وشُجّ فى وجهه ، وجُرِح فى وجْنته ، وكسِرت البيضة على رأسه ، فسال الدم على وجهه ، فجعل يمسحه ويقول : كيف يُفلح قوم خَضَبوا وجه نَبيّهم ، وهو يدعُوهم إلى ربّهم ؟ فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ لَيس لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أو يَتوبَ عَلَيْهِم ، أو يُعذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمون[(٨)] ﴾ .

(١) فى طبقات ابن سعد : « فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم ، وقتل أميرهم عبد الله ابن جبير ، وانتقضت صفوف المسلمين » .

(٢) فى أ : « يقتلون »

(٣) العزى وهبل : صنمان لقريش .

(٤) فى أ : « مع » .

(٥) كذا فى ج . وفى أ : « ستة » .

(٦) السية . طرف القوس

(٧) الرباعية : السن التى بين الثنية والناب

(٨) آية ١٢٨ من سورة آل عمران

وروى أبو محمد عبد الملك بن هشام بسنده إلى أبى سعيد الخُدرى : أن عتبة بن أبى وقّاص رمى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، فكسر رَباعِيته اليمنى السّفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شِهاب الزُّهرىّ شجّه فى جبهته، وأن ابن قِمئة جَرح وجنته، فدخل حلْقتان من حلَق المِغفر فى وجنته، ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حُفرة من الحُفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيده، ورفعه طلحة بن عُبيد الله حتى استوى قائما، ومَصّ مالك بن سِنان أبو أبى سعيد الخدرىّ، الدّم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم [ثم](١) ازدَرَده، فقال صلى الله عليه وسلم : من مسّ دمُه دمِى لم تَمسّه النار .

قال ابن إسحاق بسند يرفعه إلى محمود بن عمرو : لما غَشِى القومُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رجل يشترى لنا نفسه ؟ فقام زياد بن السَّكَن [فى خمسة من الأنصار، وبعضهم يقول : إنما هو عُمارة بن يزيد بن السكن](٢) . فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا يُقتَلون دونه، حتى كان آخرَهم زياد أو عُمارة، فقاتل حتى أثبتته الجراحة . ثم فاءت فئة المسلمين فأجهَضوهم عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدنوه منى . فأدنَوْه منه، فوسّده قدمَه، فمات، وخدُّه على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : وقاتلت أمُّ عُمارة نَسيبة بنت كعب المازنيّة يومئذ، فحدّثت وقد سئلت عن خبرها، فقالت : خرجت أوّل النهار أنظر ما يصنع الناس، ومعى سِقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدولة والرّيح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزْت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أباشر القتال وأذبّ عنه بالسيف، حتى خلَصت الجراحة إلىّ . وكان على عاتقها جرح أجوف له غَوْر،

(١) ساقطة من أ . (٢) ما بين القوسين ساقط من أ .

فقيل لها : من أصابك بهذا ؟ فقالت : ابن قِمئة[1]، أَقْمَأَه[2] الله، لما ولّى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دلّونى على محمد ، فلا نجوتُ إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عُمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات[3] ، ولكنّ عدوّ الله كان عليه دِرعان .

٣٤/١٥

قال ابن إسحاق : وترّس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دُجانة بنفسه ، يقع النّبل فى ظهره وهو منحنٍ عليه ، حتى كثُر فيه النّبل . ورمى سعد ابن أبى وقّاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال سعد : فلقد رأيته يناولنى النبل و يقول : ارم فداك أبى وأمّى ، حتى إنه ليناولنى السهم ما له من نَصل، فيقول : ارمِ به . قال : وأُصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان، حتى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فكانت أحسنَ عينيه وأحدّهما . قال : وانتهى أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب ، وطلحة بن عُبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقَوْا[4] بأيديهم، فقال : ما يجلسكم؟ فقالوا : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قُوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتِل . قال أنس بن مالك : لقد وجدنا به سبعين ضربة؛ وأصيب عبد الرحمن بن عوف فى فمه فهُتِم، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، فأصابه بعضها فى رجله فعرَج .

(١) كذا فى ج . وفى أ : « أمية » ، تحريف . (٢) أقماه : أذله .

(٣) كذا فى سيرة ابن هشام . وفى الأصول : « ولقد على ذلك ضربته ضربات » وفيها تقديم وتأخير وصوابه عن الطبقات . (٤) فى أ : « حتى ألقوا » .

قال ابن إسحاق : وكان أوّلَ من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وقولِ الناس : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كعبُ بن مالك ، قال كعب : عرفت عينيه تُزهران تحت المِغفر(١)، فناديت بأعلى صوتى : يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأشار إلىّ : أن أنْصِت، قال : فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا [به] ونهض معهم نحوَ الشِّعب، معه أبو بكر، وعمر، وعلىّ، وطلحة بن عُبيد الله، والزّبير بن العوّام، والحارث بن الصِّمة، ورهطٌ من المسلمين ، فلما أسند(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب أدركه أبىّ بن خلف ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله، أيعطف عليه رجال منّا ؟ قال رسول الله : دعوه . فلما دنا تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرْبة من الحارث بن الصّمة، قال : فلما أخذها انتفض مِنا انتفاضة تَطايرنا عنه تطاير الشعراء(٣) عن ظهر البعير إذا انتفض بها ، ثم استقبله فطعنه بها طعنة فى عنقه تَدَأْدأ(٤) منها عن فرسه مرارا ؛ وكان أبىّ بن خلف قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : إنّ عندى العَوْد — فرسا — أعلفه كل يوم فَرَقًا(٥) من ذُرة أقتلك عليه . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما رجع إلى قريش، وقد خدشه فى عنقه خدشا غير كبير، فاحتقن الدّم فيه، فقال : قتلنى والله محمد؛ قالوا : ذهب والله فؤادك ! والله إنْ بك

(١) تزهران : تضيئان . وفى ج : « تزهران من تحت المغفر » .

(٢) أسند : صعد .

(٣) تطايرنا عنه : بعدنا . وفى هامش ج ، «الشعراء : ذباب له لذع» .

(٤) تدأدأ : تدحرج .

(٥) الفرق : مكيال بالمدينة يسع ستة عشر رطلا .

بأس، قال : إنه قد قال لى بمكة : أنا أقتلك، [والله][1] لو بصق علىّ لقتلنى . فمات عدو الله بسَرِف[2] وهم قافلون إلى مكة، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت :

لقد وَرِث الضَّلالةَ عن أبيه * أُبَىٌّ يوم بارزه الرسولُ
أتيتَ إليه تحمِل رِمَّ عظم * وتُوعِدُه وأنت به جَهول[3]
وقد قتلت بنو النجّار منكم * أميَّةَ إذ يُغَوِّث : يا عَقيل[4]
وتَبَّ ابنا ربيعة إذ أطاعا * أبا جهْل، لأمّهما الهبول[5]
وأفلت حارث لما شغلنا * بأسر القوم، أسْرته قَليل

وقال حسان أيضا فيه :

ألا مَن مُبلغٌ عنّى أُبيًّا * فقد أُلقيتَ فى سُحق السّعير[6]
تمنّى بالضّلالة من بعيدٍ * وتُقسم أن قَدرْت مع النّذورِ
تَمنّيك الأمانى من بعيد * وقولُ الكُفْر يرجع فى غُرورِ
فقد لاقيْتَ طعْنةَ ذى حِفاظ * كريم البيت ليس بذى فُجُورِ[7]
له فضلٌ على الأحياء طُرًّا * إذا نابتْ مُلِمّات الأمورِ

٣٥/١٥ قال : ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فَم الشِّعب خرج علىّ بن أبى طالب حتى ملأ دَرَقته[8] من الماء، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشرب منه، فوجد له رِيحا، فعافه وغسل عن وجهه الدّمَ .

(١) ساقطة من أ، وفى ابن هشام : «فوالله» . (٢) سرف : موضع على ستة أميال من مكة، وقيل سبعة، وقيل غير ذلك ؛ تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث .
(٣) الرم : البالى . (٤) يغوث : يقول : واغوثاه .
(٥) تب : هلك . والهبول : الفقد . وفى المواهب اللدنية : « رأمهما » .
(٦) السحق : البعد والعمق . (٧) الحفاظ . الذب عن المحارم .
(٨) الدرقة : الترس إذا كان من جلود ليس فيه خشب .

قال : وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشِّعب، معه أولئك النَّفر من أصحابه، إذ علَت عالية من قُريش الجبلَ، وكان على تلك الخيل خالد بن الوليد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمّ [إنه](١) لا ينبغى لهم أن يعلُونا ! فقاتل عمر بن الخطاب ورهْط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل . ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوَها ، وقد كان بدَّن(٢) وظاهَر بين دِرعين، فلم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها(٣) .

قال ابن هشام : وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر يوم أُحُد قاعدا من الجراح التى أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قُعودا .

قال ابن إسحاق : ولما أراد القوم الانصراف أشرف أبوسفيان على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أَنْعَمتَ(٤) فعال، إن الحرب سِجال، يوم بيوم بدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عمر فأجِبه ، فقل : الله أعلى وأجلّ ، لا سَواء(٥) ، قتلانا فى الجنّة، وقتلاكم فى النار؛ فقال له أبو سفيان : هَلُمّ إلىّ يا عمر؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : ائته فانظر ما شأنُه ؛ فأتاه ، فقال له أبو سفيان :

---

(١) ساقطة من أ .

(٢) بدن : ضعف . ظاهر : طابق .

(٣) كذا فى السيرة . وفى الأصول : « عليه » .

(٤) أنعمت فعال : كان الرجل من قريش إذا أراد ابتداء أمر عمد إلى سهمين، فكتب على أحدهما «نعم» ، وعلى الآخر «لا» ، ثم يتقدم إلى الصنم ويجيل سهامه ، فإن خرج سهم «نعم» أقدم، وإن خرج سهم «لا» امتنع، وكان أبوسفيان لما أراد الخروج إلى أحد استقسى هبل ، فخرج له سهم الإنعام، فذلك قوله لعمر رضى الله عنه : أنعمت فعال ، أى أجابت بنعم فتجاف عنها ، ولا تذكرها سوء، يعنى آلهتهم . هذا ما ذكره صاحب اللسان . وهناك أقوال أخرى تجدها فى جـ ٢ صفحة ٥٧ من المواهب اللدنية .

(٥) لا سواء : لا نحن سواء؛ أى لا نستوى .

أنشُدك الله يا عمر ، أقتلنا محمدا ؟ قال عمر : اللهمّ لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنتَ أصدق عندى من ابن قَمِئة وأبرّ — لقول ابن قمئة لهم : إنى قتلت محمدا — قال : واسم ابن قمئة عبد الله .

وروى البخارى عن البَراء قال : وأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه ، قال : أفى القوم ابن أبى قُحافة ؟ قال : لا تجيبوه ، قال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قُتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا . فلم يملك عمرُ — رضوان الله عليه — نفسه ، فقال : كذبتَ يا عدو الله ، أبقى الله لك ما يُخزيك . قال أبو سفيان : اعْلُ هُبل[1] ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجلّ ، قال أبو سفيان : لنا العزى[2] ولا عُزّى لكم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم ، قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سِجال ، وتجدون مُثْلة لم آمر [بها][3] ولم تسُؤْنى .

قال ابن سعد : ثم نادى أبو سفيان عند انصرافه : إن موعدكم بدر العام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل له : نعم هو بيننا وبينك موعد . ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فقال : اخرُج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا[4] الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم

(١) هبل : اسم صنم كان فى الكعبة .

(٢) العزى : اسم صنم كان لقريش .

(٣) الزيادة من البخارى . ويقال : مثلت بالقتيل ، إذا جدعت أنفه وأذنه أو شيئا من أطرافه .

(٤) جنبوا الخيل : قادوها إلى جنوبهم .

يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرَنّ إليهم فيها ، ثم لأناجزنّهم[1] . قال علىّ : فخرجت فى آثارهم فرأيتهم قد جَنَبوا الخيل وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكّة .

ذكر خبر[2] مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وما فعلته هند بنت عتبة ، وما قالته من الشعر ، وما أجيبت به

كان حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، قد قتل من ذكرنا من المشركين آنفا، ومرّ به سِباع بن عبد العزّى الغُبشانىّ، وكان يكنى بأبى نيار، فقال له حمزة: هلمّ إلىّ يا ابن مقطّعة البُظُور[3] — وكانت أمّه أم أنمار مولاةَ شريق بن عمرو بن وهب الثقفىّ، وكانت ختّانةً بمكّة — فلما التقيا ضربه حمزة فقتله . فقال وحشىّ غلام جبير بن مطعم : والله إنى لأنظر إلى حمزة يهُدّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شىء ، فوالله إنى لأتهيّأ أريده، وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى ، إذ تقدمنى إليه سِباع ، فلما رآه حمزة قال له ما قال ، فضربه حمزة فقتله ، فهززْت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعتْ فى ثُنّته[4] ، حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لِينُوء[5] نحوى فغُلب ، فتركته وإيّاها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، فلم يكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلته لأُعتق .

٣٦/١٥

قال ابن إسحاق : ووقفت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى معها يمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجدعْن[6] الآذان والآنُف ، حتى

(١) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتوارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يقتل أحدهما .

(٢) فى أ : «ذكر مقتل» .

(٣) البظر : لغة فى البظر .

(٤) الثنة : أسفل البطن .

(٥) ينوء : ينهض بجهد ومشقة .

(٦) يجدعن : يقطعن .

اتخذت هنـد من آذان الرجال وآنفهم قلائد وخَدَما[(١)] ، وأعطت قلائدها وخدمها وقُرْطها وحِشيًّا، وبقَرت عن كبِد حمزة فلاكتْها فـلم تسطع أن تُسيغها، فلفظتها، ثم علَت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها ، ثم قالت :

نحن جزَيناكم بيوم بدرِ * والحرْب بعد الحرب ذاتُ سُعر

ما كان عن عُتبة لى من صبْرِ * ولا أخى وعمِّه وبكْرى

شَفيتُ نفسى وقَضَيتُ وَتْرى[(٢)] * شفيتَ وحْشىَّ غَليل صدرى

فشُكْر وحْشىَّ علىّ عُمْرى * حتى تَرِمَّ أَعظُمى فى قبرى[(٣)]

فأجابتها هند بنت أُثاثة بن عَبّاد بن المُطّلب[(٤)] فقالت :

خَزِيتِ فى بدرٍ وبعـد بَدْرِ * يا بنتَ وقّاع عظـيم الكُفْر[(٥)]

صبَّحك الله غَداة الفجْـر * بالهاشميّين الطِّـوال الزُّهر

بكل قطّاع حُسَامٍ يَفْـرِى * حمـزةُ لَيْثى وعلىّ صَقْرى[(٦)]

إذ رام شَيْبٌ وأبوك غَدْرى * فخضَّبا منـه ضواحى النَّحْـر[(٧)]

* ونَذْرك السُّوءَ فشـرُّ نَذْر *

وقالت هند غير ذلك من الشعر وأجيبت بمثله ، وتركنا ذلك اختصارا .

---

(١) خدما : خلاخيل .

(٢) الوتر : الثأر . وفى السيرة ، والمواهب اللدنية ، وأسد الغابة : « نذرى » .

(٣) ترم : تبلى . (٤) كذا فى ابن هشام ، والمواهب ، والإصابة ، وأسد الغابة . وفى الأصول : «ابن عبد المطلب» .

(٥) وقاع : يفتاب الناس . (٦) يفرى : يقطع .

(٧) شيب : تريد شيبة . ضواحى النحر : ما ظهر من الصدر .

قال ابن إسحاق: ومرّ الحُليس بن زَبّان[1] أخو بنى الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش بأبى سفيان ، وهو يضرب فى شِدْق حمزة بُزَجّ الرمح ، ويقول : ذُقْ عُقَق[2] . فقال الحُليس : يا بنى كنانة ، هذا سيّد قريش يَصنع بابن عمه ما ترَون لحمًا[3] ، قال : ويحك ! اكتُمْها عنّى ، فإنها كانت زلة . قال ولما فرغ الناس لقتلاهم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس حمزة ، فوجده ببطن الوادى قد بُقِر بطنه عن كبده ، وجُدِع أنفه وأذناه . فقال حين رآه : لولا أن تحزن صَفيّة ويكون سنّة من بعدى لتركتك حتى تكون فى بطون السِّباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثّلن بثلاثين رجلا منهم . فلما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظه على من فعل بعمّه ما فعل ، قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنُمثّلن بهم مُثْلة لم يُمثّلها أحدٌ من العرب . فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وإنْ عَاقَبتُمْ فعَاقِبُوا بِمثْلِ ما عُوقِبتُمْ بِهِ ولَئِنْ صَبَرتُمْ لَهُوَ خَيرٌ لِلصّابِرين ، واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلّا باللهِ وَلا تَحزَنْ عَلَيهِمْ ولا تَكُ فى ضَيقٍ مِمّا يَمكُرون . إن اللهَ مع الّذِينَ اتّقَوا والذين هُمْ مُحسِنُونَ[4] ﴾ قال : فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر . ونهى عن المَثْل[5] .

---

(١) كذا فى سيرة ابن هشام ، والطبرى . وفى الأصل : «الحليس بن ريان» . وقال ابن إسحق : «الحليس بن علقمة بن أو ابن زبان» (جـ ٢ : ٧٤٣) .

(٢) عقق ، أى ياعاق . (٣) لحما ، أى ميتا . (٤) آية ٢٦ — ٢٨ سورة النحل .

(٥) المثل : التنكيل . فإن قيل : لقد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرنيين ، قلنا : فى ذلك جوابان ، أحدهما : أنه فعل ذلك قصاصا . وثانيهما ، أن ذلك كان قبل تحريم المثلة . راجع الروض الأنف جـ ٢ ص ١٤٢ .

قال ابن هشام: ولما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة قال: لن أُصابَ بمثلك أبدا! ما وقفت موقفا قطّ أغيظ إلىّ من هذا! ثم قال: جاءنى جبريل عليه السلام فأخبر أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله. قال ابن إسحاق يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمزة فسُجِّى ببُرْد[1]، ثم صلى عليه وكبّر سبْع تكبيرات، ثم أُتى بالقتلى يُوضعون إلى حمزة، فصلّى عليهم وعليه معهم، حتى صلّى عليه ثنتين وسبعين صلاة[2]. قالت: وأقبلت صفيّة بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها حمزة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزّبير ابن العوام: الْقَها فارجعها لا ترى ما بأخيها. فقال [لها][3]: يا أمّاه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعى، فقالت: ولم؟ وقد بلغنى أنه قد مُثِّل بأخى، وذلك فى الله عزّ وجلّ، فما أرضانى[4] أنا بما كان من ذلك! لأحتسبنّ[5] ولأصبرنّ إن شاء الله تعالى. فلما جاء الزبير إلى رسول الله [صلى الله عليه وسلم][6] وأخبره بذلك قال: خلّ سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، وصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن. قال: واحتمل ناس [من المسلمين][7] قتلاهم إلى المدينة، فدفنوهم بها. ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: ادفنوهم حيث صُرِعوا.

٣٧/١٥

---

(١) سجى: غطى. (٢) لم يأخذ بهذا الحديث فقهاء الحجاز ولا الأوزاعى لوجهين: أحدهما — ضعف إسناد هذا الحديث. وثانيهما — أنه حديث لم يصحبه العمل، ولا يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى على شهيد فى شىء من مغازيه إلا هذه الرواية. راجع الروض الأنف جـ ٢ ص ١٤٢. (٣) ساقطة من أ. (٤) فى ابن هشام: «فما أرضانا». (٥) فى أ: «أصبرن». (٦) ساقطة من أ. (٧) ساقطة من أ.

ذكر [تسمية[1]] من استُشهد من المسلمين يوم أُحد

قال ابن إسحاق : استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون رجلا، كان منهم من المهاجرين من بنى هاشم : حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه، وقد تقدم خبر مقتله . ومن بنى أمية : عبد الله بن جحش، حليف لهم من بنى أسد بن خُزيمة[2] قتله أبو الحكم[3] بن الأخنس بن شَريق . ومن بنى عبد الدار بن قُصىّ : مصعب ابن عُمَير، قتله عبد الله بن قمئة الليثىّ . ومن بنى مخزوم بن يَقَظة : شمّاس بن عثمان قتله [أُبىّ[4]] بن خلف .

لم يذكر ابن إسحاق غير هؤلاء الأربعة .

وقال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى : وعبد الله، وعبد الرحمن، ابنا الهُبيب، من بنى سعد بن ليث، ووهب بن قابوس المُزنىّ، وابن أخيه الحارث بن عُقبة ابن قابوس . وزاد الثعلبى سعدا مولى عتبة، ولم يذكر الأربعة الذين ذكرهم ابن سعد ، بل عدّ المهاجرين خمسة .

واستشهد من الأنصار ، من بنى عبد الأشهل اثنا عشر رجلا ، وهم : عمرو بن مُعاذ بن النُّعمان أخو سعد ، والحارث بن أنس بن رافع[5] ، وعُمارة بن زياد بن السَّكَن ، وسَلَمة بن ثابت بن وَقْش، وأخوه عمرو بن ثابت ، وأبوهما ثابت، ورِفاعة [بن[6]] وَقْش ، واليمان أبو حُذيفة بن اليمان ، واسمه حُسَيل بن

(١) ساقطة من أ . (٢) فى الأصول : « خزيم » تحريف .

(٣) كذا فى الروض الأنف ، و بن هشام ، وأسد الغابة ، والاستيعاب ، والطبقات . وفى الأصول : « الحكم » . (٤) ساقطة من أ .

(٥) كذا فى الإصابة وأسد الغابة والاستيعاب . وفى الأصل : « الربيع » .

(٦) ساقطة من أ

جابر، أصابه المسلمون فى المعركة ولا يدرون، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَدِيَه[1]، فتصدّق ابنه حُذيفة بدِيَته على المسلمين، وصيفىّ بن قَيْظى، [وخُبَاب ابن قيظى][2]، وعَبّاد بن سهْل، والحارث بن أوس بن مُعاذ.

ومن أهل رائِج[3] ثلاثة نفر، وهم: إياس بن أوس بن عَتِيك، وعُبيد بن التَيّهان، ويقال: عَتيك بن التيّهان. وحبيب بن زيد بن تَيْم. ومن بنى ظَفَر: يزيد[4] بن حاطب بن أميّة بن رافع. ومن بنى عمرو بن عوف، رجلان، وهما: أبو سفيان بن الحارث بن قيْس بن زيد، وحنظلة بن أبى عامر بن صيفىّ بن النعمان، وهو غَسِيل الملائكة، وكان قد التقى هو وأبو سفيان، فلما استعلاه حنظلة رآه شدّاد بن الأسود فقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن صاحبكم لتغسله الملائكة. فسألوا أهله: ما شأنه؟ فسئلت صاحبته فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لذلك غسّلته الملائكة. وقال شدّاد بن الأسود حين قتل حنظلة:

لأَحمِيَنّ صاحبى ونفسى * بطَعْنة مثل شُعاع الشمس

ومن بنى عبيد بن زيد[5]: أُنَيْس بن قتادة. ومن بنى ثعلبة بن عمرو ابن عوف رجلان، وهما: أبو حَيّة[6] بن عمرو بن ثابت، وعبد الله بن جُبير

(١) يديه: يدفع ديته.

(٢) ساقط من أ. وجاء فى الإصابة، وأسد الغابة، والاستيعاب: «خباب أو حباب».

(٣) رائج: أطم من آطام المدينة.

(٤) فى أ: «بن يزيد».

(٥) فى الأصول: «عبد زيد». وما ذكرناه رواية ابن هشام، والإصابة، وأسد الغابة.

(٦) كذا فى الأصول، ورواه صاحب أسد الغابة بالياء والباء.

ابن النّعمان ، وهـو أمير الرّماة . ومن بنى السّلم بن امرئ القيس بن مالك : خَيْثَمة أبو سـعد بن خيثمة . ومن حلفائهـم من بنى العَجْلان : عبـد الله بن سَـلمة . ومن بنى معـاوية بن مالك رجلان ، وهمـا : سُبَيع بن حاطب بن الحارث، ويقال : سُوَيبِق[1] بن الحارث . ومالك بن نُمَيلة، حليف لهم من مُزَينة.

ومن بنى النّجار ثم من[2] بنى سـواد بن مالك خمسة نفـر ، وهم : عمرو بن قيْس بن زيد بن سواد ، وابنـه قيس بن عمـرو ، وثابت بن عمـرو بن زيد ، وعامر بن مَخْلد، ومالك بن إياس . ومن بنى مبذول رجلان ، وهما : أبو هُبيرة بن الحارث ابن علقمة ، وعمـرو بن مُطرف[3] بن علْقمة . ومن بنى عمـرو بن مالك بن النـجار رجلان، وهما : أوْس بن ثابت بن المنذر، وهو أخو حسان، و إياس بن عدىّ.

٣٨/١٥ ومن بنى عدىّ بن النجار رجل واحد ، وهو : أنس بن النّضْر بن ضَمْضم بن زيد ابن حرام بن جُندب بن عامر بن عدىّ بن النجّار ، وقد تقـدّم خبره . ومن بنى مازن بن النجّار رجلان ، وهما : قيْس بن مُخـلَّد ، وكَيْسان عبـد لهم . ومن بنى دينار بن النجار رجلان ، وهمـا : سُليم بن الحارث، ونعمان بن عبـد عمرو . ومن بنى الحـارث بن الخزرج ثلاثة نفر ، وهم : خارجة بن زيد بن أبى زُهير ، وسعد ابن الربيع بن عمرو بن أبى زهير — حكى محمد بن سعد فى طبقاته أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال يوم أحد : مَن رجل ينظر ما فعـل سعد بن الربيـع ، أفى الأحيـاء هـو أم فى الأموات ؟ فقـال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعـل، فنظر فوجده جريحا فى القتلى وبه رمق[4] ، قال الأنصارىّ :

(١) كذا فى ابن هشام والاستيعاب وأسد الغابة . وذكر فى الإصابة : أن سويقا هـذا هو سبيع الذى تقدم ذكره . وفى الأصل : « سويق » وهو تحريف .

(٢) كذا فى جـ . وفى أ : « ومن بنى النجار من بنى سويد » .

(٣) فى الاستيعاب : « مطرف أو معروف » .

(٤) الرمق : بقية الروح .

فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ قال : أنا فى الأموات، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عنى السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيكم وفيكم عين تَطرِف (١) . قال الأنصارى : ثم لم أبرح حتى مات ؛ فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره . وأوس بن الأرقم بن زيد . ومن بنى الأبجر ، وهم بنو خُدْرة ، ثلاثة نفر ، وهم : مالك بن سنان بن عُبيد بن ثعلبة بن عبد [بن] (٢) الأبجر ، وهو أبو أبى سعيد الخُدرىّ ، وسعيد بن سُوَيد بن قيس بن عامر بن عبّاد بن الأبجر، وعُتبة بن ربيع ابن رافع بن معاوية . ومن بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج رجلان ، وهما : ثعلبة بن سعد بن مالك بن خالد، وثقيف (٣) بن فروة بن البدىّ . ومن بنى طَرِيف، رهْط سعد بن عُبادة رجلان، وهما : عبد الله بن عمرو بن وَهب ، وضَمْرة حليف لهم من جُهينة . ومن بنى عوف بن الخزرج خمسة نفر ، وهم : نوفل ابن عبد الله ، وعبّاس بن عُبادة بن نَضلة ، ونُعمان (٤) بن مالك بن ثعلبة ، والمجُذَّر ابن زياد ، حليف لهم من بَلِىّ ، وعُبادة بن الحَسْحاس . ومن بنى الحبْلى، رفاعة

(١) تطرف : تطبق أحد جفنيها على الآخر .

(٢) الزيادة من ابن هشام ، وفى أسد الغابة والاستيعاب : « عبيد بن الأبجر » .

(٣) كذا فى الأصول . وفى رواية للإصابة . وفى ابن هشام : « ثقف » . وفى الإصابة ، وأسد الغابة ، والاستيعاب : « ثقب أو ثقيب » . وفى القاموس : « ثقف ، ثقب » .

(٤) فى أ ، ج : « يعمر بن مالك بن ثعلبة » . ولم نعثر فى المراجع التى بأيدينا على هذا الاسم ممن استشهد من المسلمين يوم أحد . وما ذكرناه رواية ابن هشام ، وأسد الغابة ، والإصابة ، والاستيعاب .

ابن عمرو ، ومن بنى سَلِمة[(١)] ثم من بنى حرام أربعة نفر ، وهم : عبد الله بن عمرو ابن حرام ، وعمرو بن الجَموح بن زيد بن حرام ، وخلّاد بن عمرو بن الجموح ، وأبو أَيْمن[(٢)] مولى عمرو بن الجموح . ومن بنى سَواد بن غَنم ثلاثة نفر ، وهم : سُليم بن عمرو بن حديدة ، ومولاه عنترة ، وسهل[(٣)] بن قَيس بن أبى كعب بن القين . ومن بنى زُرَيق [بن عامر][(٤)] رجلان ، وهما : ذَكوان[(٥)] بن عبد قَيس ، وعُبيد بن المعلّى بن لَوْذان . ومن بنى خَطْمة من الأوس : الحارث بن عَدِىّ بن خَرَشة بن أمية . ومن بنى سالم[(٦)] بن عوف : عمرو بن إِياس .

ذكرُ تسميةِ مَن قُتل من المشركين يوم أُحد

قُتل من المشركين يوم أحد اثنان وعشرون رجلا : من بنى عبد الدار بن قصىّ أحد عشر رجلا — وهم أصحاب اللواء — طلحة بن أبى طلحة ، قتله على بن أبى طالب ، وأبو سعيد بن أبى طلحة ، قتله سعد بن أبى وقّاص ، ويقال : على . وعثمان بن أبى طلحة ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، ومسافع بن طلحة[(٧)] بن أبى طلحة ، قتله عاصم ابن ثابت بسهم ، والجُلَاس بن طلحة ، قتله عاصم أيضا كما تقدّم ، وكِلَاب بن طلحة والحارث بن طلحة ، قتلهما قُزمان حليف لبنى ظَفر ، وأَرْطاة بن عبد بن شُرَحْبيل ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله حمزة ، ويقال : قتله على ، وأبو زيد[(٨)] ابن عمير بن هاشم ، قتله قزمان ، وصؤاب غلام لهم حبشىّ ، قتله قزمان ، والقاسط

(١) فى أ : « مسلمة » . (٢) فى أ : « أبو يمن » .
(٣) فى الأصول : « سهيل » . والتصويب من سيرة ابن هشام . والاستيعاب ، وأسد الغابة .
(٤) زيادة من سيرة ابن هشام . (٥) فى الأصول : « عامر بن ذكوان » . والتصويب من سيرة ابن هشام : والاستيعاب ، وأسد الغابة والإصابة .
(٦) فى أ : « سلمة » . (٧) فى أ : « نافع » .
(٨) كذا فى الأصول . وفى ابن هشام : « أبو يزيد » .

ابن شُرَيح بن هاشم ، قتله قزمان . ومن بنى أسد بن عبد العُزّى بن قصىّ : عبد الله ابن حُميد بن زُهير بن الحارث بن أسد : قتله على بن أبى طالب . ومن بنى زُهْرة ابن كِلاب رجلان ، وهما . أبو الحكم بن الأخنس بن شَرِيق بن عمرو بن وهب الثقفى ، حليف لهم ، قتله على بن أبى طالب ، وسِبَاع بن عبد العُزّى — واسم عبد العزى عمرو بن نضلة بن غُبْشان — حليف لهم من خزاعة ، قتله حمزة كما تقدم . ومن بنى مخزوم أربعة نفر ، وهم : هشام بن أبى أمية بن المغيرة ، قتله قزمان ، والوليد ابن العاص بن المغيرة ، قتله قزمان أيضا ، وأبو أمية بن أبى حذيفة بن المغيرة ، قتله على بن أبى طالب ، وخالد بن الأعلم حليف لهم ، قتله قزمان . ومن بنى جُمَح رجلان ، وهما : عمرو بن عبد الله بن عُمير بن وهب بن حذافة بن جمح ، وهو أبو عزّة ، قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم صبرا — وكان قد أسر يوم بدر ، فمنّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلقه كما ذكرنا ، فقال : لا أكثر عليك جمعا ، فلم يف ، وخرج يوم أحد مع المشركين فأُسر ، ولم يؤسر يومئذ غيره ، فقال : مُنَّ علىّ يا محمد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن لا يُلدَغ من جحر مرتين ، لا ترجع إلى مكة تمسح عارِضَيْك ، تقول : سخرت محمدا مرتين[1] ، ثم أمر عاصم بن ثابت ابن الأقلح فضرب عنقه — وأُبىّ بن خلف بن حذافة بن جُمح ، قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده كما تقدم . ومن بنى عامر بن لؤى رجلان ، وهما : عبيدة[2] بن جابر وشَيْبة بن مالك بن المُضَرّب ، قتلهما قُزمان ، ويقال : قتل عبيدة[3] بن جابر عبدُ الله بن مسعود .

(١) فى الطبقات : « سخرت بمحمد » .

(٢) كذا فى سيرة ابن هشام . وفى الأصول : « عبيد » .

(٣) فى الأصول : « قتل عبيدة بن جابر بن عبد الله بن مسعود » . وما أثبتناه رواية ابن هشام .

قال محمد بن سعد فى طبقاته : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ من أُحد. فصلى المغرب بالمدينة ، وشَمِت عبد الله بن أبىّ بن سَلول والمنافقون بما نِيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه وأصحابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن ينالوا منّا مثلَ هذا اليوم حتى نستلم الرُّكْن . قال : وبكت الأنصار على قتلاهم ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم البكاء فبكى ، وقال : لكنّ حمزةَ لا بواكى له ، فلما رجع سعد بن مُعاذ وأُسيد بن حُضَير إلى دار بنى عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يَتحزَّمْن ، ثم يذهبن فيبكين على عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاءهنّ على حمزة خرج عليهنّ وهنّ على باب مسجده يبكين ، فقال : ارجعْن يرحمكنّ الله ، فقد آسيتُنّ بأنفسكن . ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [يومئذ](١) عن النوْح .

ورُوى عن سعد بن أبى وقّاص رضى الله عنه ، قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، فلما نُعوا لها قالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبّين ؛ قالت : أَرُونيه حتى أنظر إليه ؛ قال : فأشير لها إليه صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا رأته قالت : كل مُصيبة بعدك جَلَل ؛ رضى الله عنها .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كانت فاطمة — رضى الله عنها — تغسل جُرحه ؛ وعلىّ يسكب الماء عليها بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدّم إلا كثرة ، عَمدت إلى قطعة من حصير فأحرقتها ، وألصقت ذلك على الجُرح فاستمسك الدّم ، ولم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إلا تلك

(١) ساقطة من أ .

الليلة ، ثم أصبح نخرج فى طلب العدوّ إلى حمراء الأسد ، على ما نذكره إن شاء الله .

ولنصل غزوة أحد بتفسير ما أنزل الله تعالى فيها من القرآن .

ذكر ما أُنزل[1] على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن فى غزوة أحد ، وما ورد فى تفسير ذلك

قال محمد بن إسحاق ، رحمه الله : وكان مما أنزل الله تعالى فى غزوة أحد من القرآن ستون آية من سورة آل عمران ، أول ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ[2] الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال أبو إسحاق[3] أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابورى — رحمه الله — فى تفسيره المترجم بالكشف والبيان عن تفسير القرآن : إن المشركين أقاموا بأحد يوم الأربعاء والخميس والجمعة ، وذكر نحو ما قدمناه من خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة السبت للنصف من شوّال ، وأنه صلى الله عليه وسلم جعل يَصُفّ أصحابَه للقتال كما يقوّمُ القِدْح ، إذا رأى صدرا خارجا قال : تأخّر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الآية[4] ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تفشلا ، أى تجبُنا وتضعُفا وتخلّفا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهما بنو سلمة بن الخزرج ، و بنو حارثة بن الأوس ،

(١) فى أ : « ما نزل » .

(٢) تبوئ المؤمنين : تتخذ لهم مقاعد ومنازل .

(٣) فى أ : « ابن إسحاق » . وهو تحريف .

(٤) زيادة عن ج .

وكانا جناحى العسكر، وذلك أن عبدالله بن [أبيّ بن سلول](١) لما انخزل بثلث الناس كما قدمنا وقال هو ومن وافقه من أصحابه : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾، همّ(٢) بنو سَلِمة و بنو حارثة بالانصراف معه ، فعصمهم الله تعالى فلم ينصرفوا ، ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكّرهم الله تعالى عظيم نعمته ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ أى ناصرهما وحافظهما ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ثم ذكّرهم الله منّته عليهم إذ نصرهم ببدر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾(٣) إلى قوله : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ قوله : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾. «ليَقطَعَ طَرَفًا» أى يهلك طائفة «أَوْ يَكْبِتَهُمْ» أى يهزمهم «فينقلبوا خائبين» أى لم ينالوا شيئا مما كانوا يرجون من الظفر بكم .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

اختلف العلماء فى سبب نزول هذه الآية، فقال عبد الله بن مسعود : أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المنهزمين عنه من أصحابه يوم أحد ، وكان عثمان بن عفان منهم ، فنهاه الله تعالى عن ذلك ، وتابَ عليهم ، وأنزل هذه الآية . وقال عِكرمة، وقَتادة ، ومِقْسم : أدمى رجلٌ من هُذيل يقال له : عبد الله ابن قمئة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان حتفه أَنْ سلّط الله عليه تَيْسا فنطحه حتى قتله ، وشَجّ عُتبة بن أبى وقاص رأسه وكسر رَبَاعيته صلى الله عليه وسلم، فدعا عليه وقال : اللهم

(١) فى الأصل : «ابن سلام» . وهو خطأ، إذ أن الذى انخزل بثلث الناس هو عبد الله بن أبى ابن سلول، وهو الذى قدم ذكره، وأما عبدالله بن سلام فهو برىء من ذلك . راجع تاريخه فى الاستيعاب جـ ١ ص ٣٩٥ .

(٢) فى جـ : «همت» .

(٣) فى : «نصرهم الله» .

لا يَحُل[1] عليه الحَوْل حتى يموت كافرا [قال[2] : فما حال الحول حتى مات كافرا] فأنزل الله تعالى عليه[3] هذه الآية . وقال الربيع والكلبيّ : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وقد شُجّ فى وجهه وأُصيبت رَباعيتُه ، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَلعَن المشركين و يدعوَ عليهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، لعلمه فيهم أن كثيرا منهم سيُؤمنون .

قولُه تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ قيل : أمثال . وقيل : أُمَم . والسُّنّة الأُمّة ، قال الشاعر :

ما عايَنَ الناسُ من فضلٍ كفضْلِهمُ * ولا رأَوْا مثلَهم فى سالفِ السُّنَنِ

وقيل : أهل سُنَن؛ وقيل : أهل شرائع؛ قال : معنى الآية : قد مضت وسَلَفت منّى فيمن قبلكم من الأمم الماضية المكذّبة الكافرة سُنَنٌ بإمهالى واستدراجى إيّاهم حتى بلغ الكتاب فيهم أجلى الذى أجلت — لإدالة[4] أنبيائى — وأهلكْتهم . ﴿ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ ﴾ أى منهم ، فأنا أُمهلهم وأَستدرجهم حتى يبلغ الكتابُ أجلى الذى أجّلت فى نُصرة النبىّ وأوليائه وهَلاك أعدائه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال : هذه الآية[5] تعزية من الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أحد ، وحثٌّ منه إيّاهم على قتال عدوّهم ، ونهْىٌ عن العَجْز

(١) كذا فى أ ، جـ . وفى الكشف والبيان : « لا يحول » . (٢) ما بين القوسين لم يذكر فى أ . (٣) ساقطة من جـ . (٤) الإدالة : الغلبة والنصرة؛ أى غلبة أنبيائى ونصرتهم ، كما سيوضح بعد فى تفسير بقية الآية . وفى أ : « لا ذالة » . وفى الكشف والبيان للثعلبى : « لا دلالة » وهما محرفتان . (٥) هذه الكلمة ساقطة من جـ .

والفشل، فقال تعالى : "وَلَا تَهِنُوا" أى لا تضعفوا ولا تجبنوا من جهاد أعدائكم [بما[(١)] نالكم يوم أحد من القتل والقرح . "وَلَا تَحْزَنُوا" على ظهور أعدائكم] ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة "وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ" أى لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر[(٢)] "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" .

قوله تعالى : ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أى جرح يوم أحد فقد مَسَّ القومَ جرح مثله يوم بدر . ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى إنما كانت هذه المداولة ليرى الله الذين آمنوا — يعنى منكم — ممن نافق، فيميز بعضهم من بعض. وقيل: المعنى "وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا" بأفعالهم موجودة كما علمها منهم قبل أن كلّفهم. "وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ" يُكرِمُ أقواما بالشهادة، وذلك أن المسلمين قالوا : أَرِنا يوما كيوم بدرٍ نقاتل فيه المشركين ونلتمس الشهادة . فلقُوا المشركين يوم أُحُد ، فاتّخذ اللهُ منهم شهداء .

٤١/١٥

قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ يعنى يطهّر الذين آمنوا من ذنوبهم «وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» يفنيهم ويهلكهم وينقصهم. ثم عزّاهم الله تعالى فقال : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

(١) ما بين القوسين ساقط من أ .

(٢) فى أ : « والنصر » .

وذلك أنه لما قتل عبدُ الله بن قمئة مُصعبَ بن عُمير، وصرخ صارخ — يقال : هو إبليس، لعنه الله — ألا إن محمدا قد قُتل . وانهزم الناس، فقال بعض المسلمين : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أُبَيّ فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان . وجلس بعض الصحابة وألقوا[1] بأيديهم . وقال أناس من أهل النفاق : إن كان محمد قد قُتل فالحقوا بدينكم الأوّل . فقال أنس بن النضر : ياقوم، إن كان قد قُتِل محمد فإن ربّ محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ؟ فقاتلوا على ما قاتَل عليه، ومُوتوا على ما مات عليه ؛ ثم قال : اللّهم إنى أعتذر إليك مما قال[2] هؤلاء — يعنى المسلمين — وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء — يعنى المنافقين — ثم قاتل حتى قُتل . ثم إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انطلق إلى الصخرة، وهو يدعو الناس، فانحدر إليه طائفة من أصحابه، فلامهم صلى الله عليه وسلم على الفرار، فقالوا : يا نبيّ الله، فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قُتلت فرُعِبت[3] قلوبنا فولّينا مدبرين . فأنزل الله تعالى : "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ" أى على فراشه "أو قُتل ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ" أى رجعتم إلى دينكم الأوّل الكفر "وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ" فيرتدّ عن دينه "فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا" بارتداده، وإنما يضرّ نفسه "وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ" أى المؤمنين .

قوله تعالى : "وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ" قيل : الربِّيُّون الألوف والرِّبّة[4] الواحدة عشرة آلاف . وقيل : الربِّيون العلماء والفقهاء . وقيل : الأتباع

(١) كذا فى الأصول وابن هشام، والذى فى المواهب اللدنية عن ابن إسحق : «ألقوا ما بأيديهم» .
(٢) فى جـ : «يقول» . (٣) فى أ : «فزعت» . (٤) كذا فى لسان العرب . وفى الأصل : «الربية» . ولم نعثر فى المراجع التى بأيدينا على هذا اللفظ بهذا المعنى . وفى القرطبى (٤ : ٢٤٠) عن أبان بن ثعلب : «الربىّ عشرة آلاف» وعليه فربيون جمع ربىّ .

وقيل : الربانيون الوُلاة ، والربّيون الرعيّة . وقيل : الرِّبّيون الذين يعبدون الرَّب تعالى. قال : ومعنى الآية ، فما ضَعفُوا عن الجهاد "لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" لما نالهم من الجراح وقتل الأصحاب ، وما عجزوا بقتل نبيهم "وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا" قال قتادة والربيع : يعنى وما ارتدّوا عن بصيرتهم[(١)] ودينهم ، ولكنهم قاتلوا على ما قاتل عليه نبيُّهم حتى لحقوا بالله تعالى . قال السُّدى : وما ذَلُّوا . وقال عطاء: وما تضرّعوا . وقال مقاتل: وما استسلموا وما خضعوا لعدوّهم ، ولكنَّهم صبروا على أمر ربّهم ، وطاعة نبيّهم ، وجهاد عدوّهم "وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ"

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [قال[(٢)]: معنى الآية ، "قَوْلَهُمْ" عند قتل نبيهم "إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا" يعنى خطايانا "وَثَبِّتْ أَقْدَامَنا" لئلا تزول "وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"] .

قوله تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ يعنى النصر والغنيمة ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ الجنة[(٣)] ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال علىّ ، رضى الله عنه : يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى إخوانكم ، وادخلوا فِي دينكم. ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ أى ترجعوا على أوّل أمركم الشرك ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى فتصيروا مغبونين ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى ناصركم وحافظكم على دينكم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ .

---

(١) وفى تفسير الطبرى عن قتادة والربيع : « نصرتهم » .

(٢) ما بين القوسين ساقط من أ . (٣) فى أ : « بالجنة » .

قوله تعالى : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾ قال السدّى : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحدٍ متوجهين نحو مكة انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق ثم إنهم ندموا ، وقالوا : بئس ما صنعنا ، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشّريد تركناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله تعالى[(١)] فى قلوبهم الرعب ، حتى رجعوا عما همّوا به ، فأنزل الله تعالى : "سَنُلْقِي فى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ" يعنى الخوف ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[(٢)] أى حجة وبيانا وعذرا وبرهانا ، ثم أخبر الله تعالى عن مصيرهم ، فقال : ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ أى مقام الكافرين .

٤٢/١٥

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ قال محمد بن كعب القرظىّ : لما رجع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه إلى المدينة ، وقد أصابهم ما أصابهم بأُحدٍ ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ [فأنزل الله تعالى[(٣)] "وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ" أى الذى وعد بالنصر] والظفر ، وهو قوله تعالى : "بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا" الآية . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم [للرّماة[(٤)]] : "لا تبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم" وقوله [تعالى[(٥)]] : ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ أى تقتلونهم قتلا ذريعا شديدا ، وذلك عند هزيمتهم كما تقدّم . قوله : ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ « فَشِلْتُمْ » : أى جبنتم وضعفتم « وتَنَازَعْتُمْ » أى اختلفتم . وهو ما وقع بين الرّماة ، ونزول أكثرهم لتحصيل الغنيمة كما تقدّم ، فكانت الهزيمة بسبب ذلك . قوله : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾

(١) ساقطة فى أ .
(٢) ساقطة من جـ .
(٣) ما بين القوسين ساقط من أ .
(٤) ساقطة فى أ .
(٥) زيادة للإيضاح .

وهو الظفر والغنيمة. قوله: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾[1] يعنى الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ يعنى الذين ثبتوا مع عبد الله بن جُبير أمير الرماة حتى قتلوا. قوله: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ أى ردّكم عنهم بالهزيمة ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ أى فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ يعنى ولقد عفا عنكم إذ تصعدون هاربين ﴿ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾. ثم رجع إلى الخطاب، فقال: ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ قال يقال: أصعَدتَ إذا مضيت حِيال وجهك، وصعِدت إذا ارتقيت فى جبل أو غيره، والإصعاد: السير فى مستوى الأرض وبطون الأودية والشِّعاب، والصعود: الارتفاع على الجبال وغيرها. وقال المبرد: أصعَد إذا أبعد فى الذهاب. قال الشاعر:

ألا أيّهذا السائلى أين أصعَدت[2] * فإن لها فى أهل يثْرِبَ مَوعِدا

وقال الفرّاء: الإصعاد الابتداء فى كل سفرٍ، والانحدار الرجوع منه. وقوله: "وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ" يعنى ولا تعرجون ولا تقيمون على أحد منكم، ولا يلتفت بعضكم إلى بعض هربا وفرارا، قال الكلبى: "على أَحَدٍ" يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم. ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ يعنى فى آخركم ومن ورائكم: إلىّ عباد الله، إلىّ عباد الله، فأنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة. ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ ﴾ أى فجازاكم؛ جعل الإثابة بمعنى العقاب، كقوله: "فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"؛ معنى الآية: أى جعل مكان الثواب الذى كنتم ترجون ﴿ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ قال الحسن: يعنى بغمّ المشركين يوم بدر. وقال غيره: غما على غمّ. وقيل: غما متصلا بغم، فالغم الأوّل[3] ما فاتهم من الغنيمة

(١) زيد فى أ فى هذا الموضع: «ومنكم من يريد الآخرة».
(٢) هذا البيت من قصيدة لأعشى قيس. وفى ديوانه: «أين يممت».
(٣) فى أ: «على ما فاتهم».

والظفر، والغم الثانى ما نالهم من القتل والهزيمة . وقيل: الغم الأول ما أصابهم من القتل والجراح، والغم الثانى ما سمعوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل، فأنساهم الغم الأول . وقيل: غير هذه الأقوال . والله أعلم . قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أى من الفتح والغنيمة ﴿ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ من القتل والهزيمة ؛ هذا أنساكم ذلك الغم ، وهمّكم ما أنتم فيه عما كان قد أصابكم قبل . وقال المفضّل : « لا » صلة . معناه : لكى تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبة لكم فى خلافكم إياه ، وترككم المركز ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

رُوى عن عبد الله بن الزبير عن أبيه ، رضى الله عنهما ، قال : لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتدّ الخوف علينا أرسل الله تعالى علينا النوم، والله إنى لأسمع قول مُعتّب بن قُشير والنُّعاس يغشانى ما أسمعه إلا كالحُلم يقول : لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتلنا ها هنا، فأنزل الله عز وجل الآية . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما . أَمنهم يومئذ بنعاس يغشاهم بعد خوف، وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام . وعن أنس عن أبى طلحة قال : رفعت رأسى

يوم أُحد ما أرى أحدا من القوم إلا وهو يميد تحت حَجَفَته[(١)] من النعاس . قال أبو طلحة : وكنت ممن ألقى الله[(٢)] تعالى عليه النعاس يومئذ، فكان السيف يسقط من يدى فآخذه، ثم يسقط السوط من يدى فآخذه من النوم . « وَطَائِفَةٌ » يعنى المنافقين [معتب بن قُشير وأصحابه][(٣)] « قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ » أى حملتهم على الهمّ « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ » أى لا ينصر محمدا، وقيل : ظنوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل. «ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ» أى كظن أهل الجاهلية والشرك «يَقُولُونَ هَل لَّنَا» أى ما لنا ، لفظه استفهام ومعناه جَحْد «مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ» يعنى التّصرف « قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ » وذلك أن المنافقين قال بعضُهم لبعض : لو كانت لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة، ولم يُقتل رؤساؤنا . فذلك قوله تعالى: « يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا » فقال الله تعالى لنبيه — صلى الله عليه وسلم — قل لهم : «لَوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ» أى لخرج «الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ» أى مصارعهم «وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ» أى ليختبر الله « مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ » أى يخرج ويظهر « مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بما فى القلوب من خير أو شر[(٤)] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ أى انهزموا منكم يا معشر المؤمنين ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أى

(١) الحجفة : الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب .

(٢) ساقطة من أ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من أ . وقال القرطبي : « وكانوا حرجوا طمعا فى الغنيمة وخوف المؤمنين، فلم يغشهم النعاس، وجعلوا يتأسفون على الحضور، ويقولون الأقاويل » .

(٤) كذا فى جـ . وفى أ : « وشر » .

حملهم على الزلل . وقال الكلبي : زين لهم أعمالهم ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ أى بشؤم ذنوبهم . قال المفسرون : بتركهم المركز . وقال الحسن : بما كسبوا قبولهم من إبليس ما وسوس إليهم من الهزيمة . ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى المنافقين عبد الله بن أبىّ وأصحابه ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ فى النفاق ، وقيل : فى النسب . ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ساروا وسافروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّا ﴾ غُزاة فقتلوا ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَلِكَ ﴾ يعنى قولهم وظنّهم ﴿ حَسْرَةً ﴾ وحزنا ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ والحسرة : الاغتمام[1] على فائت كان يُقْدر[2] بلوغه .

قال الشاعر :

فوا حسرتى لم أقض منك لُبانتى * ولم نتمتّع بالجوار و بالقُرب[3]

ثم أخبر تعالى أن الموت والحياة إلى الله ، سبحانه ، لا يتقدّمان لسفر ولا يتأخران لحضر فقال عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أى فى العاقبة ﴿ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أى من الغنائم ﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى فى العاقبة .

قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ أى سهلت لهم أخلاقك ، وكثرة احتمالك فلم تسرع إليهم فيما كان منهم يوم أحد ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا ﴾ أى جافيا سيّئ الخلق قليل الاحتمال . ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ قال الكلبى : فظّا فى القول ، غليظ

(١) فى أ ، جـ : « والحسرة والاعتمام » وهو تحريف .

(٢) فى أ : « يقدر على بلوغه » .

(٣) فى القرطبي : « لم أقض منها ... ولم أتمتع »

القلب فى الفعل ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أى لتفرقوا عنك، وأصل الفضّ الكسر، ومنه قولهم: لا يَفْضُض الله فَاكَ. قال أهل الإشارة فى هـذه الآية: منه العطاء ومنه الثناء.(١) ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أى عمّا أتوا يوم أحد ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ حتى أشفعك فيهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أى استخرج آراءهم، واعلم ما عندهم، وهو مأخوذ من قول العرب: شُرْت الدابّة وشَوّرتُها إذا استخرجْت جريها، وعلمت خبرها، قال: ومعنى الآية وشَاوِرهم فيما ليس عندك فيه من الله عهد، ويدل عليه قراءة ابن عباس "وَشَاوِرْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ". قال الكلبي: يعنى فأظهرهم فى لِقاء العدوّ، ومُكايَدة الحرب عند الغزوة. رُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: "وشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ" قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، وقال مقاتل وقتادة والربيع: كانت سادات العرب إذا لم يُشاوَروا فى الأمر شقّ عليهم، فأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم فى الأمر، فإن ذلك أعطف لهم عليه، وأذهب لأضغانهم، وأطيب لأنفسهم، فإذا شاورهم عليه السلام عرفوا إكرامه لهم. قال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى لا على مشاورتهم. وقرأ جعفر الصادق، وجابر ابن زيد، "فإذا عزمْتُ" بضم التاء، أى عزمتُ لك ووفقتك وأرشدتك فتوكّل على الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ أى يعنكم ويمنعكم من عدوّكم ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ مثل يوم بدر ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ أى يتركم ولا ينصركم، والخذلان القعود عن النصر، والإسلام للهلكة والمكروه، قال: وقرأ عبيد بن عمير "وإن يُخْذِلكم" بضم الياء وكسر الذال، أى يجعلكم مخذولين، ويحملكم على الخذلان والتخاذل،

(١) المعنى: أن الله تعالى هو الذى أعطى رسوله الرحمة، وهو الذى مدحه بها. وفى تفسير الثعلبى: «البناء».

(٢) الإسلام: من أسلمه إذا ألقاه فى الهلكة.

٤٤/١٥

كما فعلتم بأحد ﴿ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد خذلانه ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ أى بأحد ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾ ببدر، وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين رجلا، وقتل المسلمون منهم يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين ﴿ قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا ﴾ أى من أين لنا هذا القتل والهزيمة، ونحن مسلمون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا، والوحى ينزل عليه، وهم مشركون ؟ وقد تقدم فى قصة أسارى بدر خبر التخيير قتلهم أو مفاداتهم، ويقتل منهم مثلهم فى العام القابل، واختيارهم الفداء، وذلك قوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى بأخذكم الفداء واختياركم القتل، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة والمصيبة ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بقضائه وقدره وعلمه ﴿ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ أى ليميز، وقيل : ليرى . وقيل: لتعلموا أنتم أن الله قد علم نفاقهم، وأنتم لم [تكونوا] (١) تعلمون ذلك . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى لأجل دين الله وطاعته ﴿ أَوِ ادْفَعُوا ﴾ أى عن أهلكم وبلدكم وحريمكم، وقيل : أى كثروا سواد المسلمين ورابطوا إن لم تقاتلوا، ليكون ذلك دفعا وقمعا للعدو ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ وهو قول عبد الله بن أبى وأصحابه الذين انصرفوا معه، كما تقدم من خبرهم عند اتباع عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة لهم ومناشدته لهم فى الرجوع . قال الله تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وذلك أنهم كانوا يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر، فبين الله تعالى نفاقهم ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ .

(١) ساقطة من أ .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِم ﴾ قيل : فى النسب لا فى الدين ، وهم شهداء أحد. ﴿ وَقَعَدُوا ﴾ يعنى وقعد هؤلاء القائلون عن الجهاد ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ وٱنصرفوا عن محمد، وقعدوا فى بيوتهم ﴿ مَاقُتِلُوا ﴾ قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يامحمد ﴿ فَٱدْرَءُوا ﴾ أى فادفعوا ﴿ عَنْ أَنفُسِكُمُ الموْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن الحذر يغنى عن القدر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أُصيب إخوانكم يوم أُحدٍ جعل الله أرواحهم فى أجوافِ طيور[1] خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتسرح من الجنة حيث شاءت، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش، فلما رأَوا طيب مَقيلهم ومطعمِهم ومشربِهم، ورأوا ما أعدّ الله لهم من الكرامة، قالوا : ياليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم ، وما صنع الله عز وجل بنا ، كى يرغبوا فى الجهاد ولا ينكُلوا عنه . فقال[2] عز وجل : أنا مخبر عنكم ومبلغ إخوانكم . ففرحوا بذلك وٱستبشروا، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » الآيات ، [إلى][3] قوله « أَجْرَ المؤْمِنِينَ » .

وقال قَتادة والربيع : ذُكر لنا أن رجالا من أصحاب رسول[4] الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: ياليتنا نعلم مافعل إخواننا الذين قتِلوا بأحدٍ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(١) فى ج : « طير » .
(٢) فى ج : « فقال الله » .
(٣) ساقطة من أ .
(٤) فى ج : « من أصحاب النبىّ » .

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية، فقال: جعل الله تعالى أرواح شهداء أحد فى أجواف طير خُضْر، تسرح فى الجنة حيث شاءت، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش، فاطّلع الله عز وجل إليهم اطّلاعةً فقال: هل تشتهون شيئا فأزيدكموه؟ قالوا: ربنا، ألسنا نسرح فى الجنة فى أيها شئنا؛ ثم اطلع إليهم الثانية، فقال: هل تشتهون من شىء فأزيدكموه؟ فقالوا: ربنا، ألسنا نسرح فى الجنة فى أيها شئنا؛ ثم اطلع إليهم الثالثة، فقال: هل تشتهون من شىء فأزيدكموه؟ فقالوا: ليس فوق ما أعطيتنا شىء إلا أنا نُحب أن تعيدنا أحياء، ونرجع إلى الدنيا فنقاتل فى سبيلك، فنقتل مرة أخرى فيك؛ قال: لا؛ قالوا: فتقرئ نبيّنا منا السلام، وتخبره بأن قد رضينا، ورُضى عنا؛ فأنزل الله، عز وجل هذه الآية.

وعن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: قُتل أبى يوم أحدٍ، وترك علىّ بناتٍ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أبشرك ياجابر؟ قلت: بلى يارسول الله[1]؛ قال: إن أباك حيث أصيب بأحدٍ أحياه الله تعالى وكلّمه كِفاحا[2]؛ فقال: ياعبد الله سلنى ما شئت؛ فقال: أسألك أن تعيدنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانيا؛ فقال: يا عبد الله، إنى قضيت ألا أُعيد إلى الدنيا خليقة قبضتها؛ قال: يا رب، فمن يبلغ قومى ما أنا فيه من الكرامة؟ قال الله تعالى: أنا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٤٥/١٥

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى أصحاب بئر معُونة؛ وقيل: فى شهداء بدرٍ. والأحاديث الواردة والأخبار تدل على أنها فى شهداء أحد، والله أعلم.

(١) فى ج: «ياتى الله».

(٢) كفاحا: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.

ذكر غزوة حمراء الأَسد[1]

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند منصَرفه من أحد، قال ابن سعد : لثمان خلون من شوّال على رأس آثنين وثلاثين شهرا من مُهاجَره . وقال آبن إسحاق : كانت يوم الأحد لست عشرة خلت من شوّال . وهذا الخلاف مرتب على ماتقدّم في غزوة أُحد .

قال آبن سعد وغيره : لما آنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد مساء يوم السبت بات تلك الليلة على بابه ناس من وجوه الأنصار، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح يوم الأحَد أمر بلالا أن ينادى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب عدوّكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس . فقال جابر بن عبد الله : إن أبى خلفنى يوم أحد على أخوات لى ، فلم أشهد الحرب ، فأذن لى أسير[2] معك ؛ فأذِن له ، فلم يخرج معه أحد ممن لم يشهد أُحدا غيره . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلوائه ، وهو معقود لم يحلّ ، فدفعه إلى على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، ويقال : إلى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه . وخرج رسول الله[3] صلى الله عليه وسلم ، وهو مجروح ، وحشَد[4] أهلُ العوالى حيث أتاهم الصّريخ ، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسه وخرج الناس معه ، فبعث ثلاثة نفر من أَسلَم طليعةً فى آثار القوم ، فلحق آثنان منهم القوم بحمراء الأسد — وهى من المدينة على عشرة أميال — وهم يأتمرون بالرجوع ،

(١) كذا ضبط فى الأصل ، والقاموس ، والطبرى ، وطبقات ابن سعد . وفى معجم البلدان : « حمراء الأسد » بضم الهمزة وسكون السين .

(٢) فى طبقات آبن سعد : « أن أسير » .

(٣) فى ج : « وخرج صلى الله ... » .

(٤) حشد أهل العوالى : أجابوا مسرعين .

وصفوان بن أميّة ينهاهم عن ذلك، فبصُروا بالرجلين، فقطعوا عليهما فقتلوهما، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه حتى عسكر بحمراء الأسد، فدفن الرجلين فى قبرٍ واحد، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالى خمسمائة نارٍ، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم فى كل وجهٍ، فكبَت الله تعالى عدوّهم، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة فدخلها يوم الجمعة، وقد غاب خمس ليالٍ، وكان قد استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

وقال محمد بن إسحاق، ورفع الحديث إلى أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان: إن رجلا من بنى عبد الأشهل قال: شهدت أُحُدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنا وأخ لى، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج فى طلب العدوّ، قلت لأخى، وقال لى: أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ما لنا دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله وكنت أيسر جرحا من أخى، فكان إذا غُلب حملته عُقْبة[1] ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

قال: وأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ الَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ هم الذين ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد، على ما بهم من ألم الجراح، إلى قوله: ﴿ فَٱنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾.

ذكر سرية أبى سَلمة بن عبد الأسد المخزومى

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قَطَن — وهو جبل بناحية فَيْد، به ماء لبنى [أسد بن][2] خُزيمة — فى هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا من مهاجره.

٤٦
١٥

(١) عقبة: نوبة. (٢) ساقطة فى أ.

وذلك أنه بلغه صلى الله عليه وسلم، أن طُليحة وسلمَة ابنى خُوَيلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما يدعوانهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث أبا سلمة وعقَد له لِواء، و بعث معه مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار، فأصابوا إبِلا وشاء[1]، ولم يلقوا كيدا، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة .

ذكر سرّية عبد الله بن أُنَيْس إلى سُفيان بن خالد الهذَلى

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من المدينة يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا من الهجرة .

وذلك أنه بلغ النبىّ صلى الله عليه وسلم، أن سُفيان بن خالد[2] بن نُبَيْح الهذلىّ ثم اللّحيانى — هكذا سماه محمد بن سعد فى طبقاته .

وقال ابن إسحاق : خالد بن سُفيان بن نُبَيح قد جمعَ الجموعَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إليه عبد الله بن أنيس وحدَه فقتله وجاء برأسه . وكانت غيبته ثمانى عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم . قاله ابن سعد .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، قال قال عبد الله ابن أنيس : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنه[3] قد بلغنى أن ابن[4] سفيان الهذلىّ جمع الناس ليغزونى وهو بنخلة أو بعُرَنة[5] فأته فاقتله . فقلت يا رسول الله انْعَته لى حتى أعرفه؛ قال : إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وآية ما بينك و بينه

(١) شاء : جمع شاة، والكيد : الحرب .

(٢) فى أ : « خالد نبيح » .

(٣) فى ج : « إنى » .

(٤) فى أ : « أبا سفيان » .

(٥) عرنة؛ قال فى المواهب اللدنية : موضع بقرب عرفة، أو قرية بوادى عرفة .

أنك إذا رأيتــه وجدت له قُشَعْرِيرة . قال : فخرجت مُتوشِّحا بسيفى ، حتى دُفِعت [إليه] (١) وهو فى ظُعن يرتاد لهن منزلا ، وذلك وقت العصر ، فلما رأيتــه وجدت له ما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأقبلت نحوه ، وخشيت أن يكون بينى وبينه مجاولة (٢) تشغلنى عن الصلاة ، فصليت وأنا أمشى نحــوه ، أُومئ برأسى ، فلما انتهيت إليــه ، قال : من الرجل ؟ قلت : رجل من العرب سمع بك و بجمعك لهــذا الرجل فجاءك لذلك . قال : أجل ، أنا فى ذلك . قال : فمشيت معه شيئا حتى إذا أمكننى حملت عليه بالسيف فقتلته ، ثم خرجت وتركت ظعائنه مُنْكَبَّات عليه ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أفلح الوجه ؛ قلت : قد قتلته ؛ قال صدقت . ثم قام بى فأدخلنى بيته فأعطانى عصا ، فقال : أمسك هــذه العصا عندك . قال : فخرجت بها على النــاس ، فقالوا : ما هذه ؟ قلت : أعطانيها رســول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنى أن أمسكها عندى ؛ فقالوا : أفلا ترجع إليه فتسأله لِمَ ذلك ؟ قال : فرجعت إليه فقلت : يا رسول الله ، لِمَ أعطيتنى هذه العصا ؟ قال : آيةٌ بينى و بينك يوم القيامة ، إن أقل النــاس المتخصرون (٣) يومئــذ ، قال : فقَرنها عبد الله ابن أنيس بسيفه ، فلم تزل معــه حتى مات ، ثم أمر بهــا فضُمَّت فى كفنه ، ثم دُفِنا جميعا .

قال ابن هشام : وقال عبد الله بن أُنيس فى ذلك :

تركْتُ ابن ثور كالحُوَار وحــوْلَه * نوائحُ تَفْرِى كلَّ جَيْبٍ مُقــدَّد (٤)
تَناوَلْتُــه والظُّعْنُ خلفِى وخلفَــه * بأبيضَ من ماء الحديد مُهنَّــد (٥)

(١) ساقطة فى أ . (٢) فى أ : « مجادلة » .
(٣) المتخصرون : المتوكئون على المخاصر ، وهى العصىّ ، واحدتها مخصرة .
(٤) الحوار : ولد الناقة إذا كان صغيرا . تفرى : تقطع .
(٥) أبيض : سيف . مهند : مطبوع من حديد الهند .

عَجُومٍ لِهامِ الدَّارِعِينَ كأنَّه * شِهابُ غضًى من مُلْهَبٍ مُتَوَقِّدِ (١)
أقولُ له والسيفُ يعجُم رأسَه * أنا ابنُ أُنَيْسٍ فارسا غيرَ قُعْدُدِ (٢)
أنا ابنُ الذى لم يُنْزِلِ الدهرُ قِدْرَه * رحِيبُ فِناءِ الدارِ غيرُ مُزَنَّدِ (٣)
فقلت له خُذْها بضربة ماجِدٍ * حنيفٍ على دِينِ النبيِّ محمدِ (٤)
وكنتُ إذا همَّ النبيَّ بكافرٍ * سبقتُ إليه باللسانِ وباليدِ

ذكر سَرِيَةِ المُنْذر بن عمرو السَّاعِدى إلى بئر مَعُونة

٤٧/١٥

كانت فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من مُهاجَره .

وذلك أن عامر بن مالك بن جعفر أبو براءٍ ملاعب الأسنة (٥) الكِلابى وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأهدى (٦) له فلم يقبل منه ، وعرض عليه الإسلام فلم يُسلم ، ولم يبعد (٧) ، وقال : لو بعثتَ معى نفرا من أصحابك إلى قومى لرجوتُ أن يجيبوا دعوتك . قال : أخاف عليهم أهل نجد ؛ قال : أنا لهم جار . فبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين رجلا من الأنصار شَبَبَة (٨) يسمون القُرّاء (٩) ، وأمَّر

(١) عجوم : عضوض . الهام : الرءوس . الشهاب : القطعة من النار . الغضى : شجر خشبه من أجود الوقود . (٢) القعدد : الجبان اللئيم القاعد عن المكارم . (٣) المزند : الضيق البخيل .
(٤) الحنيف : الذى مال عن دين الشرك إلى دين الإسلام .
ملاحظة : زيد فى أبعد الأبيات : « والله ولىّ المتقين وهو خير الناصرين » .
(٥) الأسنة : جمع سنان وهو نصل الرمح . وسمى ملاعب الأسنة لأن أخاه طفيلا الذى كان يقال له : فارس قرزل ، أسلمه وفر فى يوم سوبان ، وهو يوم كان بين قيس وتميم ، فقال شاعر :
فررت وأسلمت ابن أمك عامرا * يلاعب أطراف الوشيج المزعزع
فسمى ملاعب الرماح ، وملاعب الأسنة .
(٦) فى رواية أنه أهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فرسين وراحلتين ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا أقبل هدية مشرك . (٧) فى رواية لابن هشام : « ولم يبعد من الإسلام » . (٨) رواية ابن إسحاق أربعون ، والصحيح ما هنا كما قال السهيلى ، وهى رواية البخارى ومسلم . وشبة : شبان . (٩) سموا القراء لأنهم كانوا أكثر قراءة من غيرهم . وفى شرح المواهب : أنهم كانوا يصلون بعض الليل ، ويدرسون بعضه ، ويحتطبون ، ويبيعون بعضه يشترون به طعاما لأهل الصفة والفقراء ، وبعضه يأتون به الحجر الشريفة .

عليهم المنـذر بن عمرو ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة — وهى بين أرض بنى عامر وحرّة بنى سُليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهى إلى حرّة بنى سُليم أقرب — فلما نزلوها سرحوا ظهرهم ، وقدّموا حرام بن مِلْحان بكتاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى عامر بن الطُّفيل ، فوثب على حرام فقتله ؛ واستصرخ عليهم بنى عامر فأبَوا ، وقالوا : لا نُخفِر[1] جوار أبى براء ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سُليم ، عُصَيَّة ورِعلا وذَكْوَان ، فنفروا معـه . واستبطأ المسلمون حراما ، فأقبلوا فى أثره ، فلقيهم القوم فأحاطوا بهم ، وكاثروهم[2] فاقتتلوا ، فقُتل أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وفيهم سليم بن مِلحان ، والحَكَم بن كَيْسان .

قال ابن إسحاق : فقتلوا من عند آخرهم إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار فإنهم تركوه ، وبه رمق بين القتلى ، فعاش حتى قُتـل يوم الخندق . قال : وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضَّمْرى ، ورجل من الأنصار — قال ابن هشام : هو المنـذر بن محمد بن عقبـة بن أُحَيْحة بن الجُـلاَح — فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر ، فقالا : والله إن لهذه[3] الطير لشأنا ؛ فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم فى دمائهم ، والخيل التى أصابتهم واقفة . فقال الأنصارى لعمرو بن أمية : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنخبره الخبر ؛ قال الأنصارى : ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتِل فيه المنـذر بن عمرو ؛ ثم قاتل القوم حتى قُتِل ، وأُخذ عمرو بن أمية أسيرا ، فلما أخبرهم[4] أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل ، وجزّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمّه .

---

(١) لا نخفر : أى لا ننقض . (٢) كاثروهم : كانوا أكثر منهم .
(٣) فى أ : « لهذا » . (٤) فى أ : « أخبره » .

فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة[1] من صدر قناة[2] أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا معه ، وكان معهما عَقْد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وجِوار لم يعلم به عمرو ، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤرة من بنى عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن سعد : وقدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بقتل أصحاب بئر معونة ، فقال صلى الله عليه وسلم : «أُبْتَ من بينهم» ! ثم أخبره بقتل العامريين ، فقال : «بئس ماصنعت ، قد كان لهما منى أمان وجوار ، لَأَدِيَنَّهما» ! و بعث بديتهما إلى قومهما ، وقَنَت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا فى صلاة الصبح يدعو على رِعلٍ وذَكْوان وعُصَيّة و بنى لِحيان .

وروى عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قرأنا بهم قرآنا زمانا ، ثم إن ذلك رفع أو نسى : « بلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا[3] » . وقال أنس ابن مالك : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وَجِد[4] على أحد ما وَجَد على أصحاب بئر معونة .

قال ابن سعد : وجاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فى تلك الليلة التى وصل إليه فيها خبر أصحاب بئر معونة مصابُ خُبَيب بن عدىّ ومن معه ، فدعا رسولُ

(١) هى قرقرة الكدر ، قال الواقدى : موضع بناحية المعدن ، قريب من الأرحضية ، بينه و بين المدينة ثمانية برد . وقال غيره : ماء لبنى سليم . (راجع معجم البلدان فى كدر) .

(٢) قناة : واد يأتى من الطائف و يصب فى الأرحضية وقرقرة الكدر .

(٣) قال السهيلى : « ثبت هذا فى الصحيح ، وليس عليه رونق الإعجاز ، فيقال : إنه لم ينزل بهذا النظم ، ولكن بنظم معجز كنظم القرآن» .

(٤) وجد : حزن .

الله صلى الله عليه وسلم على قتلهم بعد الركعة من الصبح، فقال: « اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم سنين كسِنِي يوسف، اللهم عليك ببنى لِحيان وعَضَل والقارَة وزِعْب ورِعل وذَكْوان وعُصَيّة، فإنهم عصَوا الله ورسوله »(١).

ذكر سَرِيّة مَرْثَد بن أبى مرثد الغَنَوى إلى الرّجيع

٤٨/١٥

كانت فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذلك أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، رَهط من عَضَل والقارة، وهم إلى الهُون بن خُزَيمة، فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفرا [من أصحابك](٢) يفقّهونا ويقرئونا القرآن، ويعلمونا شرائع الاسلام. فبعث صلى الله عليه وسلم معهم عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، ومَرْثَد بن أبى مَرْثَد الغَنوى، وخُبَيب بن عدىّ، وزيد بن الدَّثِنة(٣)، وخالد بن البُكَيْر(٤) الليثى، وعبد الله بن طارق، ومعتّب بن عبيد أخو عبد الله لأمّه(٥). وأمّر عليهم عاصما، وقيل: مَرْثدا، فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع — وهو ماء لهُذيل بناحية الحجاز — غدروا [بهم](٦) واستصرخوا عليهم هذيلا، فلم يَرُع القوم، وهم فى رحالهم

(١) قال فى المواهب اللدنية: « ذكر صاحب شرف المصطفى أنه صلى الله عليه وسلم لما أصيب أهل بئر معونة جاءت الحى إليه، فقال لها: اذهبى إلى رعل وذكوان وعصية، عصت الله ورسوله، فأتتهم، فقتلت منهم سبعمائة رجل، بكل رجل من المسلمين عشرة ».

(٢) ساقطة فى أ. (٣) ضبط فى المواهب اللدنية: بفتح الدال وكسر الثاء مع فتح النون المشدّدة. وزاد البرهان: وقد تسكن الثاء. وضبطه صاحب القاموس، بكسر الثاء مع فتح النون المخففة.

(٤) كذا فى الطبرى، والإصابة، وأسد الغابة والاستيعاب. وفى الأصل: « أبى بكير ». وفى الطبقات: « أبى البكير ». ورجحنا ما دوّناه لأن المؤلف ذكره فى موضع آخر من هذه الغزوة موافقا لما أثبتناه. (٥) هو عبد الله بن طارق كما فى الطبقات. (٦) ساقطة فى أ.

إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهم ، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا ، فقالوا : إنا ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم . فأما مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، ومعتّب بن عبيد ؛ فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عَقدا أبدا . وقاتلوا حتى قُتلوا، رضى الله عنهم . وأما زيد بن الدَّثنة وخُبيب بن عدى، وعبدالله بن طارق، فرغبوا فى الحياة، فأعطوا بأيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بمرّ الظَّهْران[1] انتزع عبد الله بن طارق يده من القِران[2] ، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ؛ فقُبر هناك . وأما خُبيب بن عدى وزيد بن الدَّثنة فقدموا بهما مكة ، فأباعوهما[3] من قريش بأسيرين من هُذيل كانا بمكة، فابتاع خُبيبا حُجير[4] بن أبى إهاب التميمى، حليف بنى نوفل، لعقبة بن الحارث ابن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه . وابتاع زيدَ بن الدَّثنة صفوانُ بن أميّة ، ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، و بعثه مع مولى له يقال له : نِسطاس ؛ إلى التنعيم[5] ، فأخرجوه من الحرم ليقتله ، واجتمع لذلك رهط من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أَنْشُدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن[6] مكانك نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمدا

(١) مر الظهران : الظهران ؛ واد قرب مكة ، وعنده قرية يقال لها : مر ، تضاف إلى هذا الوادى ، فيقال : مر الظهران . (معجم البلدان) . (٢) القران : الحبل الذى يشد به الأسيران .

(٣) أباعوهما : عرضوهما للبيع . (٤) كذا فى الأصل ، وفى رواية للإصابة فى الحديث عن مارية مولاته . وفى طبقات ابن سعد ، وسيرة ابن هشام ، والمواهب اللدنية ، والإصابة ، وأسد الغابة ، والطبرى : « حجير » .

(٥) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة .

(٦) فى ج : « الآن عندنا » .

الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس فى أهلى . فقال أبوسفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ؛ ثم قتله نسطاس . وأما خُبيب بن عدى فرُوى عن ماوية[1] مولاة حُجر بن أبى إهاب ، وكانت قد أسلمت ، قالت : كان خُبيب قد حبِس فى بيتى ، فلقد اطلعت عليه يوما وإن فى يده لقِطْفا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما أعلم فى أرض الله عنبا يؤكل ، قالت : وقال لى حين حضره القتل : ابعثى إلىّ بحديدة أتطهّر بها للقتل ؛ فأعطيت غلاما من الحىّ المُوسى ، فقلت له : ادخل بها على هذا الرجل ؛ قالت : فوالله ما هو إلا أن قد ولّى الغلام بها إليه ؛ فقلت : ما صنعتُ ! أصاب والله الرجل ثأره بقتل[2] هذا الغلام ، فيكون رجلا برجل ؛ فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال : لعمرك ، ما خافت أمك غدرتى حتى بعثتك بهذه الحديدة ! ثم خلّى سبيله[3] . ويقال : إن الغلام ابنها .

قال ابن إسحاق : ثم خرجوا بخُبيب ، حتى إذا جاءوا به التنعيم ليصلبوه قال : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع[4] ركعتين فافعلوا . قالوا : دونك فاركع ركعتين . [فركع[5] ركعتين] أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طوّلت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة . فكان خُبيب أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين . قال : ثم رفعوه على خشبته ، فلما أوثقوه ، قال :

---

(١) كذا فى الأصول . وفى روايات كثيرة : «مارية» .

(٢) فى أ : « فقتل » . (٣) فى أ : « سبيلها » .

(٤) فى أ : « أصلى » . (٥) ما بين القوسين ساقط من أ .

اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يُصنع بنا ؛ ثم قال : اللهم أحصِهم[(١)] عددا ، واقتلهم بددا[(٢)] ، ولا تغادر منهم أحدا[(٣)] . ثم قتلوه ، رحمه الله ورضى عنه .

قال ابن[(٤)] هشام : أقام خبيب فى أيديهم حتى انقضت الأشهر الحرم ، ثم قتلوه .

وروى ابن إسحاق أنه قال حين صلب[(٥)] :

٤٩/١٥

لقد جمّع الأحزابُ حولى وألّبوا * قبائلَهم واستجمعوا كل مجمع[(٦)]

وقد قرّبوا[(٧)] أبناءَهم ونساءَهم * وقُرِّبتُ من جِذع طويل مُمنّع

وكلّهم يُبدى العداوةَ جاهدًا * علىّ لأنى فى وِثاق بمَضْيع[(٨)]

إلى الله أشكو غربتى بعد كَربتى * وما جمّع الأحزاب لى عند مَصْرعى

فذا العرش صبّرنى على ما أصابنى * فقد بضّعوا لحمى وقد ضَلَّ مَطمَعى[(٩)]

(١) أحصهم عددا : أى أهلكهم واستأصلهم بحيث لا يبقى من عددهم أحد .

(٢) بددا : قال ابن الأثير : يروى بكسر الباء جمع بدّة ، وهى الحصة والنصيب ، أى اقتلهم حصصا مقسمة ، لكل واحد حصته ونصيبه . ويروى بالفتح ، أى متفرقين فى القتل واحدا بعد واحد من التبديد . وفى الأصول : « مددا » . وهو تحريف .

(٣) قال فى الروض الأنف : « فإن قيل : هل أجيبت فيهم دعوة خبيب ؟ . قلنا : أصابت منهم من سبق فى علم الله أن يموت كافرا ، ومن أسلم منهم فلم يعنه خبيب بدعائه ، ومن قتل منهم بعد هذه الدعوة فإنما قتلوا بددا ، غير معسكرين ولا مجتمعين ، فنفذت الدعوة على صورتها ، وفيمن أراد خبيب رحمه الله » .

(٤) فى أ : « قال هشام » .

(٥) قال ابن هشام : « بعض أهل العلم بالشعر ينكرها له » .

(٦) ألبوا : جمعوا وحضوا .

(٧) فى ابن هشام : « جمعوا » . وقد ذكر هذا البيت بعد البيت الذى يليه .

(٨) ويروى البيت :

وكلهم مبدى العداوة جاهد * علىّ لأنى فى وثاق مضيع

(٩) بضعوا : قطعوا . وفى سيرة ابن هشام : « يأس مطمعى » .

وذلك فى ذاتِ الإله وإن يشأ * يبارك على أَوْصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ (١)

وقد عرّضوا بالكفر والموتُ دونه * وقد ذَرَفت عيناى من غير مَدْمَعِ (٢)

وما بى حِذارُ الموتِ، إنى لميّتٌ * ولكن حِذارى حرَّ نارٍ تلفّعِ (٣)

فلست بمبدٍ للعدوّ تخشّعا * ولا جَزَعا إنّى إلى الله مرجِعى

٥ ولست أبالى حين أُقْتَلُ مسلما * على أى حال كان فى الله مضجعى

وفى رواية ابن شهاب :

* على أى جنب كان فى الله مصرعى *

قالوا : وصُلب بالتّنعيم، وكان الذى تولى صلبه عقبة بن الحارث، وأبو هبيرة العدوى. (٤)

ذكرُ غزوةِ بنى النَّضير

١٠ غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأوّل، سنة أربع، على رأس سبعة وثلاثين شهرا من مهاجره .

وكان سبب هذه الغزوة على ما حكاه محمد بن سعد ، ومحمد بن إسحاق ، وعبد الملك بن هشام، دخل حديث بعضهم فى بعض، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج إلى بنى النضير يستعينهم فى دِية الكِلابيّين أو العامريّين اللذين قتلهما

١٥ عمرو بن أمية الضَّمْرى، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك بما أحببت . وكان

(١) أوصال : أعضاء . شلو : جسد .

(٢) ذكر هذا البيت فى سيرة ابن هشام ، وفى المواهب اللدنية كما يأتى :

وقد خيرونى الكفر والموت دونه * وقد همّت عيناى من غير مجزع

(٣) كذا فى الأصول ، وعليه فهى تتلفع بحذف إحدى التاءين أى تشتمل ؛ يقال : تلفع بالثوب

٢٠ إذا اشتمل به . وفى ابن هشام والمواهب : « بحم نار ملفع » . والحم : الملتهب، ومنه الجحيم .

(٤) راجع شعر حسان بن ثابت فى بكاء خبيب ص ١٨٦ جـ ٣ من سيرة ابن هشام طبع الحلبى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد جلس إلى جنب جدار من بيوتهم، وهو فى نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلىّ، رضوان الله عليهم، فخلا بعض بنى النضير إلى بعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمَن رجل[1] يعلو هذا البيت، فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش[2] ابن كَعْب، أحدُهم، فقال: أنا لذلك؛ فقال سلّام بن مِشْكَم: لا تفعلوا، والله ليُخبَرَنّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه. وجاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فنهض مسرعا كأنه يريد الحاجة فتوجه إلى المدينة، فلما أبطأ على أصحابه قاموا فى طلبه، فلقُوا[3] رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه صلى الله عليه وسلم، فقال: رأيته قد دخل المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتوه، فقالوا: يارسول الله، قمت ولم نشعر. قال: همّت يهود بالغدر فأخبرنى الله بذلك فقمت. ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم محمد بن مَسْلمة: «أن اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرا [أى من الأيام][4] فمن رئِى بعد ذلك ضربت عنقه». فمكثوا أياما يتجهّزون، وأرسلوا إلى ظهْر لهم بذى الجَدْرِ[5] وتكارَوا إبلا من ناس من أشْجَع، فأرسل إليهم عبد الله بن أُبَىّ: أن أقيموا فى حصونكم، ولا تخرجوا من دِياركم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون من عند آخرهم، وتمدّكم قُريظة وحلفاؤكم من غَطَفان. ووافقه على ذلك ودِيعة بن مالك[6] بن أبى قوقل، وسُوَيْد وداعِس، وقالوا

(١) فى أ: «دخل» وهو تحريف. (٢) ضبط بكسر الجيم وتخفيف الحاء فى الطبرى، وطبقات ابن سعد، وابن هشام. وضبط فى المواهب اللدنية بفتح الجيم وتشديد الحاء. (٣) فى أ: «فرأوا».
(٤) هذا التفسير غير موجود فى جـ. (٥) ذو جدر: مسرح على ستة أيام من المدينة بناحية قباء.
(٦) كذا فى الأصل، وفى المواهب والروض الأنف. وفى الطبرى: «ووديعة ومالك بن أبى قوقل».

لهم : إن قوتلتم نصرناكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم ؛ فطمع حُيَيّ بن أخطب فيما قال آبن أُبيّ ، فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك . فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكبّر المسلمون لتكبيره ، وقال : حاربت يهود . واستخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم ، وسار فى أصحابه ، وعلى بن أبى طالب يحمل لواءه ، فصلى العصر بفناء بنى النضير ، فلما رأوه تحصنوا بحصونهم ، وقاموا عليها معهم النبل والحجارة ، وآعتزلتهم قريظة فلم تُعنهم ، وخذلهم عبد الله بن أبيّ ومن وافقه فلم ينصروهم ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ست ليال ، ثم أمر بقطع النّخيل وتحريقها ، فنادوه : يامحمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ! وكان الله عز وجل أمر رسوله ، صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وقالوا : نخرج من بلادك . فقال : لا أقبله اليوم ، ولكن اخرجوا منها ، ولكم دِماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلْقة[1] . فنزلوا على ذلك .

٥٠/١٥

وكانت مدّة حصرهم خمسة عشر يوما ، وولى إخراجهم محمد بن مسلمة ، فحملوا النساء والصبيان وتحملوا على سبعمائة بعير ، وكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجاف[2] بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيْبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبى الحُقَيق ، وكنانة بن الربيع آبن أبى الحُقيق ، وحُيَيّ بن أخطب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة فى قريش . وحزن المنافقون [عليهم[3]] حزنا شديدا ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال والحلْقة ، فوجد من الحلْقة خمسين

(١) الحلقة : الدروع ، وقيل السلاح كله ، وهو المراد هنا .

(٢) النجاف : العتبة . (٣) ساقطة من أ .

دِرعا، وخمسين بيضة ، وثلثمائة سيف وأربعين سيفا ، وكانت بنو النضير صفيا[(١)] لرسول الله صلى الله عليه وسلم، خالصة له حُبسا[(٢)] لنوائبه، لم يخمّسها ولم يُسهم منها لأحد، إلا أنه أعطى ناسا من أصحابه، ووسّع فى الناس، فكان ممن أعطاه رسول الله، صلى الله عليه وسلم من المهاجرين أبو بكر [الصديق][(٣)] رضى الله عنه ، أعطاه بئر حجر، وعمر بن الخطاب بئر جرم[(٤)] ، وعبد الرحمن بن عوف سوالة ، وصُهيب بن سنان الصراطة[(٥)] ، والزبير بن العوّام وأبو سلمة بن عبد الأسد البُويلة[(٦)] ، وسهل بن حُنيف وأبو دُجانة مالا ، يقال له : مال ابن خَرَشة . حكاه محمد بن سعد فى طبقاته .

قال : ولما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير، قال : امضوا فإن هذا أوّل الحشر وإنا على الأثر .

وأنزل الله عز وجل فى بنى النضير سورة « الحشر » بكمالها .

يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِى ٱلْأَبْصَارِ ﴾ .

---

(١) صفيا : أى مختارة . (٢) حبسا : وقفا . (٣) ساقطة فى أ .

(٤) كذا فى أ ، والطبقات . وفى جـ : « حرم » .

(٥) كذا فى جـ . وفى أ : « الهراطه » . وفى الطبقات : « الضراطه » .

(٦) البويلة : مكان معروف بين المدينة وبين تيماء من جهة مسجد قباء إلى جهة الغرب . ويقال لها أيضا : « البويرة » . شرح المواهب اللدنية جـ ٢ ص ٩٩

وقال صاحب معجم البلدان ، فى « النضير » : « لم أر أحدا من أهل السير ذكر أسماء منازل بنى النضير فبحثت فوجدت منازلهم التى غزاهم النبى صلى الله عليه وسلم فيها تسمى وادي بطحان والبويرة » .

قال الأستاذ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، رحمه الله: «أهْلِ الكِتَابِ» بنو النضير «مِنْ دِيَارِهِم» التي كانت بيثرب «لِأَوَّلِ الحَشْرِ» قال الزُّهْرِي: كانوا من سِبط[1] لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا، قال: وكانوا أول حشر في الدنيا حشر إلى الشام[2]. وقال الكلبي: إنما قال: «لأوَّلِ الحَشْرِ» لأنهم أول من حُشِر من أهل الكتاب، ونفوا من الحجاز. وقال مُرَّة الهَمْدانيّ: كان هذا أول الحشر من المدينة، والحشر الثاني من خيْبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأَرِيحا[3] من الشام في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعلى يديه. وقال قتادة: كان هذا أول الحشر، والحشر الثاني: نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم من تخلّف. «مَاظَنَنْتُم» أيها المؤمنون «أن يَخْرُجُوا» من المدينة «وظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللهِ» حيث دربوها وحصنوها «فَأَتَاهُمُ اللهُ» أي أمر الله وعذابه «[مِنْ][4] حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» قيل: بقتل سيدهم كعب بن الأشرف. «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ» قال ابن إسحاق: وذلك لهدمهم بيوتهم عن نُجُف أبوابهم. وقال ابن زيد: كانوا يقتلعون العمد، وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقلعون الخشب[5]، حتى الأوتاد، يخربونها لئلا يسكنها المسلمون حسدا منهم وبغضا. وقال ابن عباس: كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم[6] هدموها لتتسع لهم المقاتل، وجعل أعداء الله ينقبون دورهم من أدبارهم فيخرجون إلى التي

(١) السبط: ولد الولد. والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب.

(٢) كذا في الأصول، ولعل صواب العبارة كما في القرطبي: «وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام». (٣) كذا في الأصول، ومعجم البلدان. وفي القاموس: «أريحاء» كزليخاء وكربلاء.

(٤) ساقطة من أ. (٥) في أ: «الأخشاب». (٦) في أ: «دارهم».

بعـدها ، فيتحصنون فيهـا و يكسرون ما يليهم منها ، و يرمون بالتى خرجوا منها أصحاب رسول الله ، صـلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : كان المسـلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ، وتخربها اليهود من باطنها ، فذلك قوله عز وجل : " يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ " .

٥١/١٥ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ ﴾ الآية . " الْجَلَاءَ " عن الوطن " لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا " بالقتل و بالسَّبْى[1] كما فعل ببنى قريظة " وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا[2] اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " .

قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال ابن إسحاق : اللينة : ما خالف العجوة من النخل . وقال ابن هشام : مالم تكن برنية[3] ولا عجوة . وقال عكرمة و زيد بن رومان وقتادة : النخل كلّه لينة ماخلا العجوة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، اللينة : النخلة والشجرة . وقال سفيان : هى كِرام النخل . وقيل : هى النخلة القريبة من الأرض . وقال مقاتل : هو ضرب من النخل ، يقال لثمرها[4] : اللّون ، وهو شديد الصفرة ، يرى نواه من خارج ، يغيب فيه الضّرس ، وكان من أجود ثمرهم وأعجبها إليهم ، وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن وصيف[5] ، وأحب إليهم من وصيف ، فلما رأوا ذلك يقطع شق عليهم . قال : و جمع اللينة لِين . وقيل : لِيان[6] .

(١) فى ج : « والسبى » .

(٢) « شاقوا الله » : أى عادوه وخالفوا أمره .

(٣) البرنية : واحدة البرنى ، وهو ضرب من التمر أصفر مدور ، وهو أجود التمر .

(٤) كذا فى الأصول . وفى المواهب اللدنية ، والقرطبى « لتمرها » .

(٥) الوصيف : العبد والخادم .

(٦) فى الأصل : « اليان » . وفى لسان العرب : جمع اللينة ، لين ولون وليان .

قال الثعلبي : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني النضير ، وتحصنوا فى حصونهم ، أمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا : يامحمد زعمت أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخيل، وعقر الشجر ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أُنزل عليك الفسادَ فى الأرض ؟ فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ،ووجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم، وخشوا أن يكون[1] ذلك فسادا، واختلف المسلمون فى ذلك، فقال بعضهم: لاتقطعوا، فإنه مما أفاء الله علينا . وقال بعضهم : بل نغيظهم بقطعها . فأنزل الله تعالى الآية بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطع من الإثم ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذنه تعالى .

وفى قطع نخيل بنى النضير يقول حسان بن ثابت :

وهان على سَراة بنى لُؤىّ * حَريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ

وقوله تعالى : « وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ » أى وليذل اليهود ويخزيهم و يغيظهم .

قوله تعالى :﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ " أَفَاءَ اللَّهُ " أى ردّ على رسوله ورجع إليه ، ومنه فَيْء الظلّ [مِنْهُمْ][2] أى من بنى النضير من الأموال " فَمَا أَوْجَفْتُمْ " أوضعتم[3] " عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ " وهى الإبل ، يقول: لم تقطعوا إليها شُقّة، ولم تنالوا فيها مشقة، ولم تكلفوا مؤنة[4]، ولم تلقوا حربا. وإنما كانت بالمدينة فمشوا إليها مشيا ، ولم يركبوا خيلا ولا إبلا إلا النبى

(١) فى أ : « يكن » .

(٢) ساقطة من أ ، جـ .

(٣) أوضعتم : أسرعتم .

(٤) المؤنة : القوت .

صلى الله عليه وسلم ، فإنه ركب جملا فافتتحها صلحا ، وأجلاهم عنها وخزن أموالهم فسأل المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم القسمةَ ، فأنزل الله عز وجلّ الآية ، فجعل أموال بنى النضير خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضعها حيث يشاء ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئا إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة ، وهم : أبو دُجانه سِمَاك بن خرَشة ، وسهل بن حُنَيف ، والحارث بن الصِّمّة . قال : ولم يُسلم من بنى النضير إلا رجلان ، أحدهما سفيان ابن عمير بن وهب ، والثانى سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها . روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : إن أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف[1] المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينفق على أهله منه نفقة سنته ، وما بقى جعله فى الكُراع[2] والسلاح عُدّة فى سبيل الله .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : القرى هى قُرَيظة والنّضير ، وهما بالمدينة ، وفَدَك ، وهى من المدينة على ثلاثة أميال ، وخَيْبر ، وقُرَى عُرَينة و يَنْبع جعلها الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، يحكم فيها ما أراد ، فاحتواها كلها ، فقال ناس : هلا قسمها ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية . قال : و«القربى» قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم بنو هاشم و بنو المطلب . وقوله : « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » أى بين

(١) كذا فى ج . وفى أ : « مالم يرجف » .

(٢) الكراع : أى جماعة الخيل .

٥٢/١٥

الرؤساء والأغنياء والأقوياء، فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس رُبْعَها لنفسه، وهو المِرْباع، ثم يصطفى منها أيضا بعد المِرباع ما شاء، وفيه يقول شاعرهم:

لك المِرباعُ منها والصَّفايا * وحكمُك والنَّشيطةُ والفُضولُ (١)

٥ فجعل الله تعالى [هذا (٢)] لرسوله عليه السلام يقسمه فى المواضع التى أمر بها.

وقوله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» أى ما أعطاكم من الفىء والغنيمة «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ» من الغُلول وغيره «فانتهوا».

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ يعنى كى لا يكون ما أفاء الله على رسوله دولة بين الأغنياء منكم ولكن يكون ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ
١٠ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أى فى إيمانهم. قال قَتادة: هم المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر، وخرجوا حبًّا لله ورسوله، واختاروا الإسلام على ما كانت فيه من شديدة، حتى ذُكر لنا أن الرجل كان يعْصِب الحجر على بطنه ليقيم به صُلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة فى الشتاء ماله دِثار غيرها.

١٥ وعن سعيد بن جُبير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبْزَى، قالا: كان ناس من المهاجرين لأحدهم الدار والزوجة والعبد والناقة، يحج عليها ويغزو، فنسبهم الله تعالى إلى أنهم فقراء، وجعل لهم سهما فى الزكاة.

---

(١) النشيطة: ما يغنمه الغزاة فى الطريق قبل البلوغ إلى الموضع الذى قصدوه. الفضول: ما فضل من الغنائم حين تقسم. وفى أ: «البسيطة».

٢٠ (٢) زيادة عن القرطبي يتطلبها المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال: قوله «تَبَوَّءُوا» توطنوا «الدَّارَ» اتخذوا المدينة دار الإيمان والهجرة، وهم الأنصار، أسلموا فى ديارهم وابتنوا المساجد قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأحسن الله الثناء عليهم. وقوله: «مِنْ قَبْلِهِمْ» أى من قبل قدوم المهاجرين عليهم، وقد آمنوا «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً» أى حزازة وغيظا وحسدا «مِمَّا أُوتُوا» أى مما أعطى المهاجرين من الفىء، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قسم أموال بنى النضير بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار[1] منها شيئا إلا الثلاثة الذين ذكرناهم، فطابت أنفس الأنصار بذلك «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» إخوانهم من المهاجرين بأموالهم ومنازلهم «وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» أى فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون، وذلك أنهم قاسموهم ديارهم وأموالهم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديارکم وتشاركونهم فى هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم عليكم شىء من الغنيمة» فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من ديارنا[2] وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة ولم نشاركهم فيها. فأنزل الله عز وجل. «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» والشحّ فى كلام العرب: البخل ومنع الفضل.

---

(١) فى أ: «المهاجرين»، وهو خطأ.

(٢) فى جـ: «من أموالنا وديارنا».

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1] قال ابن أبي ليلى : الناس على ثلاث منازل : الفقراء المهاجرون، والذين تبوءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم، فاجهد ألا تكون خارجا من هذه المنازل .

٥ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أمر الله عز وجل بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلم أنهم سيفتنون . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد عليه السلام فسببتموهم ، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ نزلت هذه الآيات فى شأن عبد الله بن أبيّ ومن وافقه فى إرسالهم لبنى النضير وقعودهم عنهم، كما تقدّم آنفا، وقوله : « لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ » يقول : يرهبونكم أشدّ من رهبتهم الله تعالى . «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

٥٣/١٥

قوله تعالى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ[2] بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أعلم الله تعالى المؤمنين أن اليهود لا يبرزون لهم بالقتال، ولا يقاتلونهم إلا فى قرى محصنة، أو من

(١) فى أ ، ج : « غفور » وهو خطأ . (٢) فى الأصل : « جدار » . وهى قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو .

وراء جدار «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» يعنى بعضهم فظ على بعض، و بعضهم عدوّ لبعض، وعداوتهم بعضهم بعضا شديدة. وقيل: بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد، فإذا خرجوا لكم فهم أجبن خلق الله. «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» قال قتادة: أهل الباطل مختلفة [أهواؤهم(١)، مختلفة شهاداتهم، مختلفة] أعمالهم، وهم مجتمعون فى عداوة أهل الحق. وقال مجاهد: أراد أن دين المنافقين يخالف دين اليهود. «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ».

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعنى مثل هؤلاء اليهود «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» وهم مشركو مكة «ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ» يوم بدر. قال مجاهد وقال ابن عباس: يعنى بنى قَينُقاع؛ وقيل: مثل قريظة كمثل بنى النضير. ثم ضرب مثلا للمنافقين واليهود فى تخاذلهم فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وهى قصّة بَرْصِيصَا العابد مع الشيطان.

ذكر قصة برصيصا

روى أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبى بسند يرفعه إلى ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قوله تعالى: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ» الآية. قال: كان راهب فى الفَتْرة يقال له برصيصا، قد تعبد(٢) فى صومعة له سبعين سنة، لم يعص الله فيها طرفة عين، و إن إبليس أعياه فى أمره الحيل، فلم يستطع له بشىء، فجمع ذات يوم مَرَدة الشياطين، فقال: ألا أحد منكم يكفينى أمر برصيصا؟ فقال الأبيض، وهو صاحب الأنبياء، وهو الذى تصدّى لرسول الله صلى الله عليه

(١) ما بين القوسين ساقط من أ. (٢) فى أ: «تعبد الله».

وسلم ، وجاءه فى صورة جبريل ليوسوس إليــه على وجه الوحى ، فجاء جبريل حتى دخل بينهما ، فدفعه بيده دفعة هينة ، فوقع من دفعة جبريل إلى أقصى الهند . فقال الأبيض لإبليس : أنا أكفيك . فانطلق فتزيّن بزينة الرهبان ، وحلق وسط رأسه ، ثم مضى حتى أتى صومعة برصيصا ، فناداه ، فلم يجبه برصيصا ، وكان لا ينفتل عن صلاته إلا فى عشرة أيام[1] ، ولا يفطر إلا فى عشرة أيام ، فكان يواصل الصوم الأيام العشرة والعشرين والأكثر ، فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة فى أصل صومعته ، فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته ، فرأى الأبيض قائما منتصبا يصلى فى هيئــة حسنة من هيئة الرهبان ، فلما رأى ذلك من حاله تدبر فى نفسه حين لَهِىَ عنــه فلم يجبه ، فقال له : إنك ناديتــنى وكنت مشغولا عنك ، فما حاجتك[2] ؟ قال : حاجتى أنى أحببت أن أكون معــك فأتأدب بك ، وأقتبس من علمك ، ونجتمع على العبادة ، فتدعو لى وأدعو لك ، قال : إنى لفى شغل عنك ، فإن كنت مؤمنا فإن الله عز وجل سيجعل لك فيما أدعوه للمؤمنين والمؤمنات نصيبا إن استجاب لى . ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض ، فأقبل الأبيض يصلى ، فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوما بعدها ، فلما انفتل رآه قائما يصلى ، فلما رأى برصيصا شدّة اجتهاده ، وكثرة تضرعه وابتهــاله إلى الله عز وجل كلّمه ، وقال له : حاجتك ؟ قال : حاجتى أن تأذن لى فأرتفع إليك . فأذن له ، فارتفع فى صومعته ، فأقام الأبيض معه حولا يتعبد ، لا يفطر إلا فى كل أربعين يوما [ولا ينفتل عن صلاته إلا فى كل أربعين يوما[3]] مرة ، وربما مدّ إلى الثمانين ، فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت[4] إليه نفسه ، وأعجبه شأنه ، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا : إنى منطلق ، فإن لى صاحبا

٥٤/١٥

(١) فى جـ : « فى كل عشرة أيام » . (٢) كذا فى الأصل . وفى القرطبى : « ما حاجتك ؟ » .
(٣) ما بين القوسين لم يذكر فى ا . (٤) تقاصرت نفسه : تضاءلت .

غيرك، ظننت أنك أشدّ اجتهادا مما أرى، وكان يبلغنا عنك غير الذى رأيت . قال: فدخل على برصيصا أمر عظيم، وكره مفارقته للذى رأى من شـدّة اجتهاده، فلما ودعه قال له الأبيض : إن عندى دعواتٍ أعلمكها تدعو بهن، فهن خيرلك مما أنت فيـه، يشفى الله بها السقيم، ويعافى بها المبتلى والمجنون ؛ قال برصيصا : إنى أكره هذه المنزلة، لأن لى فى نفسى شغلا، وإنى أخاف إن علم بهذا الناس شغلونى عن العبادة؛ فلم يزل به الأبيض حتى علمه . ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال : قد والله أهلكت الرجل . قال : فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فخنقـه، ثم جاءه فى صورة رجل متطبب، فقال لأهله : إن بصاحبكم جنونا فأعالجه؟ فقالوا : نعم؛ فقال لهم : إنى لا أقوى على جنّيته، ولكنى سأرشدكم إلى من يدعو الله فيعافى ؛ فقالوا له : دلّنا . قال : انطلقوا إلى برصيصا، فإن عنده اسم الله الذى إذا دعى به أجاب . قال : فانطلقوا إليه فسألوه ذلك، فدعا بتلك الكلمات فذهب عنـه الشيطان . وكان يفعل الأبيض بالناس مثل هذا الذى فعل بالرجل، ثم يرشدهم إلى برصيصا فيدعو لهم فيعافَون . قال : فانطلق الأبيض فتعرض لجـارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة، وكان أبوهم ملِكا فمات فاستخلف أخاه، وكان عمها ملك بنى إسرائيل، فعذبها وخنقها، ثم جاء إليهم فى صورة رجل متطبب، فقال لهم : أعالجها ؟ قالوا : نعم . فعالجها فقال : إن الذى عرض لها مارد لا يُطاق، ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به تدَعونها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لها، حتى تعلموا أنها قد عوفيت وتردّونها[1] صحيحة، قد ذهب عنها شيطانها؛ قالوا : ومن هو؟ قال : برصيصا ؛ قالوا : وكيف لنا أن يقبلها منـا ويجيبنا إلى هذا ؟ هو أعظم شأنا من ذلك. قال: انطلقوا وابتنوا صومعة إلى جانب صومعته حتى تشرفوا عليه، ولتكن

(١) كذا فى الأصل، ولعل صواب العبارة : «تردونها صحيحة وقد ذهب عنها شيطانها» بتأخير الواو.

هذه الصومعة التى تبنون لزيقة صومعته ، فإن قبلها و إلا تضعونها[1] فى صومعتها، ثم قولوا له : هى أمانة عندك، فاحتسب فيها . قال : فانطلقوا إليه فسألوه ذلك ، فأبى عليهم، فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض، ثم اطلعوا عليه ووضعوا الجارية فى صومعتها، وقالوا له : يا برصيصا ، هذه أختنا قد عرض لها عدو من أعداء الله ، فهى أمانة عندك فاحتسب فيها . ثم انصرفوا، فلما انفتل برصيصا عن صلاته عاين تلك الجارية وما بها من الجمال ، فأسقط[2] فى يده، ودخل عليه أمر عظيم ، قال : فجاءها الشيطان فخنقها ؛ فلما رأى برصيصا ذلك انفتل عن صلاته ، فدعا بتلك الدعوات ،فذهب عنها الشيطان،ثم أقبل على صلاته ،ثم جاءها الشيطان فخنقها ، وكان يكشف عن نفسها ويتعرض [بها[3]] لبرصيصا ، وجاءه الشيطان ، فقال : ويحك ! واقعها فان تجد مثلها ، فستتوب بعد، فتدرك ما تريد من الأمر الذى تريد؛ فلم يزل به حتى واقعها، فافترشها ، فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها ، فقال له الشيطان : ويحك ! قد افتضحت، فهل لك أن تقتل هذه وتتوب ؟ فإن سألوك فقل : جاء شيطانها فذهب بها ولم أقوَ عليه . قال : ففعل . فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل ، فجاءه الشيطان وهو يدفنها ليلا فأخذ بطرف إزارها ، فبقى طرف إزارها خارجا فى التراب ،ثم رجع برصيصا إلى صومعته وأقبل على صلاته ، فجاء إخوتها يتعاهدون أختهم ، وكانوا يجيئون فى بعض الأيام يسألون عنها ، ويطلبون إلى برصيصا ويوصونه بها ، فقالوا : يا برصيصا ، ما فعلت أختنا ؟ قال : جاء شيطانها فذهب بها ولم أُطقه . قال : فصدّقوه وانصرفوا . فلما أمسوا وهم مكروبون ، جاء الشيطان إلى كبيرهم

(١) كذا فى الأصل . ورفع الجزاء هنا جائز على ضعف . (٢) أسقط فى يده : تحير .
(٣) الزيادة من تفسير القرطبي (١٨ : ٣٨).

فى المنام ، فقال له : ويحك ! إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا ، وإنه دفنها فى موضع كذا وكذا من جبل كذا وكذا . فقال الأخ : هذا حُلم وهو من عمل الشيطان ، برصيصا خير من ذلك . قال : فتابع عليه ثلاث ليال فلم يكترث ، فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك ، فقال الأوسط مثلما قال الأكبر ، فلم يخبر به أحدا ، فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك ، فقال أصغرهم لإخوته : والله لقد رأيت كذا وكذا . فقال الأوسط : وأنا والله لقد رأيت مثله . وقال الأكبر : وأنا والله لقد رأيت كذا وكذا ، فانطلقوا بنا إلى برصيصا ؛ فأتوه ، فقالوا : يا برصيصا ، ما فعلت أختنا ؟ قال : أليس قد أعلمتكم بحالها وحال شيطانها ! فكأنكم اتهمتمونى . فقالوا : لا والله لا نتهمك . فاستحيوا منه وانصرفوا عنه ، فجاءهم الشيطان فقال ، ويحكم ! إنها لمدفونة فى موضع كذا ، وإن طرف إزارها خارج من التراب . قال : فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا فى نومهم ، قال : فمشوا فى مواليهم ، ومواليهم معهم الفؤس والمساحى[1] ، فهدموا صومعته وأنزلوه ثم كتفوه وانطلقوا به إلى الملك ، فأقر على نفسه ؛ وذلك أن الشيطان أتاه فقال : تقتلها ثم تكابر ، يجتمع عليك أمران قتل ومكابرة ، اعترف . فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة ، فلما صلب أتاه الأبيض عِيانا ، وذلك أن إبليس لعنه الله ، قال للأبيض : وما يغنى عنك ما صنعت ؟ إن قُتل فهو كفارة لما كان منه . فقال الأبيض : أنا أكفيكه . فأتاه فقال : يا برصيصا ، أتعرفنى ؟ قال : لا . قال : أنا صاحبك الذى علمك الدعوات فاستُجيبَ لك ، ويحك ! أما اتقيت الله فى أمانة خنت أهلها ، وأنك أعبد بنى إسرائيل ! أَمَا استحيت ! أما راقبت الله فى دينك ! فلم يزل يعيره ويوبخه ، ثم قال له فى آخر ذلك : ألم يكفك

٥٥/١٥

(١) المساحى : جمع مسحاة ، وهى المجرفة من الحديد .

ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت أشباهك من الناس ! فإن متّ على هذه الحال لم يفلح أحد من نظرائك بعدك . قال : فكيف أصنع ؟ قال : تطيعنى فى خطة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه ، وآخذ بأعينهم ، وأخرجك من مكانك . قال : وماهى ؟ قال : تسجد لى . قال : أفعل . فسجد له ، فقال[1] : يا برصيصا ، هذا الذى أردت منك ، صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك ، إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين .

يقول الله تعالى : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ يعنى الشيطان وذلك الإنسان . ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : فضرب الله هذا المثل ليهود بنى النضير والمنافقين من أهل المدينة ، وذلك أن الله تعالى أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم ، أن يجلى بنى النضير من المدينة ، فدسّ المنافقون إليهم فقالوا : لا تجيبوا محمدا إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم ، فإن قاتلكم كنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . قال : فأطاعوهم ، فدرّبوا على حصونهم وتحصنوا فى ديارهم رجاء نصر المنافقين حتى جاءهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فناصبوه الحرب ، يرجون نصر المنافقين ، فخذلوهم وتبرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قوله : « اتَّقُوا اللَّهَ » أى فى أداء فرائضه واجتناب معاصيه « وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » يعنى يوم القيامة .

---

(١) فى ا : « قال : برصيصا » .

قوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ « نَسُوا اللَّهَ » أى نسوا حق الله وتركوا أوامره « فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ »[1] [يعنى حظ أنفسهم] أن يقدموا لها خيرا « أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

فقد أتينا — أكرمك الله — على تفسير ما أنزل من القرآن فى شأن بنى النضير ٥ مما يتعلق بشرح أخبارهم خاصة على حكم الاختصار ، ولم نتعرض إلى ما سوى ذلك من التفسير .

ذكر غزوة بدر الموعد

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهلال ذى القعدة ، على رأس خمسة وأربعين شهرا من مهاجره صلى الله عليه وسلم . حكاه محمد بن سعد . ١٠

وقال محمد بن إسحاق : كانت فى شعبان . وجعلها بعد غزوة ذات الرقاع ، فتكون على رأس اثنين وأربعين شهرا من الهجرة، والأشبه ما قاله ابن سعد ، لأن الميعاد كان على[2] رأس الحول من غزوة أحد ، وغزوة أحد كانت فى شوال على ما اتفقا عليه ، ولم يختلفا فى الشهر و إنما فى أيام ذكرناها هناك .

قال محمد بن سعد : لما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج، وقدم نُعَيم بن ١٥ مسعود الأشجعى مكة ، فقال له أبوسفيان : إنى قد واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى ببدر، وقد جاء ذلك الوقت، وهذا عام جدب، و إنما يصلحنا عام خصب غَيْداق[3]، ٥٦/١٥ وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيجترئ علينا، فنجعل لك عشرين فريضة[4] يضمنها[5]

(١) ما بين القوسين ساقط من أ . (٢) فى ج : « إلى » . (٣) غيداق : مخصب .
(٤) الفريضة : البعير المأخوذ فى الزكاة، سمى فريضة لأنه فرض واجب على رب المال، ثم اتسع ٢٠ فيه حتى سمي البعير فريضة في غير الزكاة . (٥) فى أ : « يضمها » .

إليك سُهَيل بن عمرو على أن تقدم المدينة فتخذل أصحابَ محمد . قال : نعم . فحملوه على بعير ، فأسرع السير حتى قدم المدينة ، فأخبرهم بجمع أبي سفيان [لهم](١) وما معه من العدّة والسلاح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لأخرجنّ وإن لم يخرج معى أحد .

٥ واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، وسار بالمسلمين وهم ألف وخمسمائة، والخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على بن أبي طالب، وخرج المسلمون ببضائع وتجارات لهم، وكانت بدر الصغرى مجتمَعا يجتمع فيه العرب ، وسوقا تقوم لهلال ذى القعدة إلى ثمان تخلو منه، ثم يتفرق الناس إلى بلادهم .

فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى بدر ليلة هلال ذى القعدة؛ ١٠ وقامت السوق صبيحة الهلال فأقاموا بها ثمانية أيام، وباعوا ما خرجوا به من التجارات، فربحوا للدرهم درهما، وانصرفوا ، وقد سمع الناس بمسيرهم ، وخرج أبو سفيان بن حرب من مكة فى قريش ، وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا حتى انتهوا إلى مَجَنَّة — وهى مرّ الظهران(٢) — ومنهم من يقول : بلغوا عُسْفان(٣) . ثم قال : ارجعوا فإنه لا يصلحنا إلا عام خصب غَيْداق ، نرعى فيه الشجر ونشرب ١٥ اللبن ، وعامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا . فسمى أهل مكة هذا الجيش جيش السّويق، يقولون : خرجوا يشربون السويق . قال : وقدم معبد ابن أبى معبد الخُزاعى مكة بخبر مسير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه ، فقال صفوان بن أمية لأبى سفيان : قد نهيتك يومئذ أن تعد القوم وقد اجترءوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم .

٢٠ (١) ساقطة فى أ . (٢) كذا فى الأصل . وفى المواهب : «مجنة : ناحية الظهران» . وفى معجم البلدان : «وقال الأصمعي : وكانت مجنة بمر الظهران» . (٣) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة .

وقال عبد الله بن رواحة :

وَعدنا أبا سفيان وعدا فلم نجد (١) * لِميعاده صِدقا وما كان وافيا
فأُقسِم لو وافيتنا فلقيتنا * لأُبتَ ذميما وافتقدتَ الموَاليا (٢)
تركنا به أوصال عُتبة وابنَه * وعمْرا أبا جهْل تركناه ثاويا (٣)
عصَيتم رسولَ الله أُفٍّ لدينكم * وأمركم السَّيْء (٤) الذى كان غاويا
فإنى وإن عنَّفتمونى لقائلٌ * فِدًى لرسول الله أهلى ومالِيا
أطعناه لم نَعْدِلْه فينا بغيره * شِهابا لنا فى ظُلمة الليل هاديا

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، ورجعوا إلى المدينة .

وأنزل الله عز وجل فى شأن هذه الغزوة قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ .

قال السُّدِّى : لما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه للسير إلى بدر لميعاد أبى سفيان أتاهم المنافقون فقالوا : نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم فعصيتمونا، وقد أتوكم فى دياركم [فقاتلوكم] (٥) وظفروا، فإن أتيتموهم فى ديارهم لا يرجع منكم أحد . فقالوا : «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» . فالناس فى هذه الآية أولئك المنافقون . وقال أبو معشر : دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة، فسألهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى سفيان، فقالوا: قد جمعوا لكم جموعا

(١) فى سيرة ابن هشام : « بدرا » . (٢) الموالى : جمع مولى، وهو القريب والجار والحليف . (٣) ثاويا : مقيما . (٤) السيء : المنكر . (٥) ساقطة فى أ .

كثيرة فاخشوهم ؛ فقالوا : «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» . فأنزل الله عز وجل «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ» يعنى أبا سفيان وأصحابه «قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ» فخافوهم واحذروهم فإنه لاطاقة لكم بهم «فَزَادَهُمْ إِيمَانًا»(١) يعنى تصديقا ويقينا وجرأة وقوّة . وقوله : «فَانْقَلَبُوا» فانصرفوا ورجعوا «بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ» أى بعافية لم يلقوا بها عدوا ، وبرأت جراحتهم «وَفَضْلٍ»(٢) أى ربح وتجارة ، وهو ما أصابوا من السوق فربحوا «لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ» لم يصبهم قتل ولا جرح ولم ينلهم(٣) أذى ولا مكروه «وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ» فى طاعة الله وطاعة رسوله(٤) صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم قالوا : هل يكون هذا غزوا؟ فأعطاهم الله تعالى ثواب الغزو ورضى عنهم . «وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ» .

٥٧/١٥

[ثم](٥) قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعنى ذلك الذى قال لكم : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ؛ من فعل الشيطان ألقى فى أفواههم لترهبوهم وتجبنوا عنهم «يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ»(٦) أى يخوفكم بأوليائه ، يعنى يخوف المؤمنين بالكافرين ، قال السدىّ : يعظم أولياءه فى صدوركم لتخافوهم . وقرأ عبد الله بن مسعود «يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَه» قال : وكان أبىّ بن كعب [يقرأ](٧) «يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِه» «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ» فى ترك أمرى «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» مصدقين بوعدى فإنى متكفل لكم بالنصر والظفر .

---

(١) فى جـ : «فزادهم ذلك إيمانا» . (٢) فى أ : «وهم» .
(٣) فى أ : «لا ينلهم» . (٤) فى أ : «رسول الله» .
(٥) ساقطة من أ . (٦) فى أ : «يخوفوكم» .
(٧) ساقطة من أ .

ذكر غزوة ذات الرِّقاع[(١)]، وخبر صلاة الخوف

وقصة غورث بن الحارث المحاربى، وخبر جابر بن عبد الله

واختلف فى تسمية ذات الرقاع، فقيل: جبل فيه بقع حمر و بيض وسود. وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم. وقيل: ذات الرقاع، شجرة بذلك الموضع. وفى صحيح البخارى أنهم نقِبت[(٢)] أقدامهم، فلفّوا عليها الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع. والله أعلم.

قال محمد بن سعد: كانت فى المحرم على رأس سبعة وأربعين شهرا من مهاجره صلى الله عليه وسلم. وقال ابن إسحاق: كانت غزوة ذات الرقاع بعد غزوة بنى النضير فى جمادى الأولى، فتكرن على رأس تسعة وثلاثين شهرا من الهجرة، واستعمل على المدينة أبا ذرّ الغفارىّ، ويقال: عثمان بن عفان. ولم يقل ابن سعد غير[(٣)] عثمان رضى الله عنه.

وذلك أن قادما قدم المدينة بجَلب[(٤)]، فأخبر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن أنمارا وثعلبة قد جمعوا لهم الجموع. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج ليلة السبت لعشر خلون من المحرم فى أربعمائة، ويقال: سبعمائة من أصحابه؛ فمضى حتى أتى محالّهم بذات الرقاع — وهو جبل فيه بقع فيها حمرة وسواد وبياض — فلم يجد فى محالّهم أحدا إلا نسوة، فأخذهن وفيهن جارية وضيئة، وهربت الأعراب إلى رءوس الجبال، وحضرت الصلاة، فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف.

(١) غزوة ذات الرقاع: هى غزوة محارب، وغزوة بنى ثعلبة، وغزوة بنى أنمار، وغزوة صلاة الخوف، لوقوعها فيها، وغزوة الأعاجيب، لما وقع فيها من الأمور العجيبة.

(٢) نقبت أقدامهم: رقت جلودها من المشى.

(٣) فى أ: «عن».

(٤) الجلب: ما جلب من خيل و إبل ومتاع.

روى أبو محمد عبد الملك بن هشام بسنده إلى جابر بن عبد الله ، قال : صلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم بطائفة ركعتين ، ثم سلم ، وطائفة مقبلون على العدوّ ، فجاءوا فصلى بهم ركعتين أخريين ، ثم سلم . وروى عنه أيضا من طريق آخر ، قال : صفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صفين ، فركع بنا جميعا ، ثم سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد الصف الأوّل ، فلما رفعوا سجد الذين يلونهم بأنفسهم ، ثم تأخر الصف الأوّل وتقدّم الصف الآخر حتى قاموا مقامهم ، ثم ركع النبي صلى الله عليه وسلم بهم جميعا ، ثم سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الذين يلونه معه ، فلما رفعوا رءوسهم سجد الآخرون بأنفسهم سجدتين ، وركع النبي صلى الله عليه وسلم بهم جميعا ، وسجد كل واحد منهما بأنفسهم سجدتين . هكذا روى عن جابر فى صلاة الخوف بذات الرقاع .

وروى ابن هشام أيضا بسنده إلى عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، فى صلاة الخوف ، ولم يذكر ذات الرقاع ، قال : يقوم الإمام وتقوم معه طائفة ، وطائفة مما يلى عدوهم ، فيركع بهم الإمام ويسجد بهم ، ثم يتأخرون فيكونون مما يلى العدوّ ، ويتقدّم الآخرون فيركع بهم الإمام ركعة ويسجد بهم ، ثم تصلى كل طائفة بأنفسهم ركعة ، فكانت لهم مع الإمام ركعة ركعة وصلوا بأنفسهم ركعة ركعة .

ذكر خبر غَوْرَث[1] بن الحارث المحاربىّ

لما أراد أن يفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم فحماه الله منه وأمكن نبيه صلى الله عليه وسلم من عدوّه وعفوه عنه

٥٨/١٥ وكان من خبر غورث بن الحارث أنه قال لقومه من غطفان ومحارب : ألا أقتل لكم محمدا ؟ قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به . وكان رسول

(١) كذا ضبط فى ج ، ووافقه على ذلك صاحب شرح المواهب اللدنية . ووقع عند الخطيب بالكاف بدل المثلثة . وحكى الخطابى : غويرث بالتصغير .

الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة يَقيل تحتها، فأتاه فاخترط[(١)] سيفه، ثم قال : من يمنعك منى ؟ فقال : الله. فأُرعدت يد غورث، وسقط سيفه، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه، فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، فرجع إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس . ومن رواية الخطابىّ : أن غورث ابن الحارث المحاربىّ أراد أن يفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يشعر به إلا وهو قائم على رأسه، منتضيا[(٢)] سيفه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اللهم اكفنيه بما شئت» . فانكبّ غورث من وجهه من زُلخة[(٣)] زُلّها بين كتفيه، وندر[(٤)] سيفه من يده، وقيل : فيه نزل قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ الآية . وقيل : نزلت فى غير هذه القصة .

ذكر خبر جابر بن عبد الله فى جَمَله، واستغفار النبىّ صلى الله عليه وسلم لأبيه

روى محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى عن وهْب بن كَيْسان عن جابر بن عبدالله قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذات الرّقاع من نَخْل[(٥)] على جمل لى ضعيف، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعلت الرّفاق تمضى، وجعلت أتخلّف، حتى أدركنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : «مالك ياجابر» ؟ قلت : يا رسول الله، أبطأ علىّ جملى[(٦)] هذا، قال : «أنخه» ؛ فأنخته، وأناخ رسول الله صلى الله

(١) اخترط السيف : استله من غمده . (٢) منتضيا : مستلا . (٣) فى هامش ج : الزلخة : وجع الظهر . وفى لسان العرب : يقال : رمى الله فلانا بالزلخة ، بضم الزاى وتشديد اللام وفتحها ، وهو وجع يأخذ فى الظهر لايتحرك الإنسان من شدّته ، ويروى بتخفيف اللام . وفى الأصل : «زلجة» وهى رواية خطأها صاحب اللسان . (٤) ندر : سقط . (٥) نخل : موضع بنجد من أرض غطفان وهو فى طريق الشام من ناحية مصر . (٦) فى ابن هشام : « أبطأ بى جملى » .

عليه وسلم ، ثم قال : أعطنى هـذه العصا من يدك، أو أقطع لى عصا من شجرة؛ قال : ففعلت . فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخسه بها نخساتٍ، ثم قال: اركب . فركبت، فخرج — والذى بعثه بالحق — يُواهق[1] ناقته مواهقة .

قال : وتحدّثت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أتبيعنى جملك هذا يا جابر» ؟ قلت: يا رسول الله، بل أهبه لك؛ قال : «لا، ولكن بِعْنيه»؛ قال : قلت : فسُمْنيه؛ قال : «قد أخذته بدرهم»؛ قلت : لا، إذا تغبنِّى[2] يا رسول الله! قال : «فبدرهمين»؛ قلت : لا . فلم يزل يرفع[3] لى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأوقيّة؛ قلت: فقد رضيت[4]؟ قال : «نعم»؛ قلت: هو لك؛ قال: «أخذته» . ثم قال : «يا جابر، هل تزوّجت بعد[5]» ؟ قلت : نعم يا رسول الله؛ قال : « أثيّبا أم بكرا» ؟قلت: بل ثيّبا؛قال: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك» ؟قلت: يا رسول الله، إن أبى أصيب يوم أحد ، وترك بناتٍ له سبعا ، فنكحت آمرأة جامعة، تجمع رءوسهن وتقوم عليهن؛قال: «أصبت إن شاء الله، أما إنّا لو جئنا صرارا[6] أمرنا بجزور فنحرت،وأقمنا عليها يومنا ذلك،وسَمِعتْ[7] بنا،فنفَضتْ نمارقها» . قلت: يا رسول الله ما لنا من نمارق؛ قال : «إنها ستكون، فإذا أنت قدِمت فاعمل عملا كَيِّسا» . فلما جئنا صِرارا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومَنا ذاك ، فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ودخلْنا ؛ قال : فحدّثت المرأة الحديث وما قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قالت :

---

(١) يواهق ناقته : أى يباريها فى السير ويماشيها . (٢) فى أ : «تعنى» وهو تحريف . وفى الروض الأنف : « تغبنى » . (٣) فى أ : « يدفع » . (٤) كذا فى أ ، ج . وفى ابن هشام : «أفقد رضيت يا رسول الله» ؟ . (٥) فى أ : «قد» . (٦) صرار : بئر على ثلاثة أميال من المدينة كما سيأتى للمؤلف . (٧) الضمير يعود على زوجة جابر بن عبد الله رضى الله عنهما .

فدونك، فسمعٌ وطاعة . قال : فلما أصبحتُ أخذتُ برأس الجمل، فأقبلتُ به حتى أنخته على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، [ثم جلستُ[1] فى المسجد قريبا منه، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم] فرأى الجمل، فقال : «ماهذا» ؟ قالوا : هذا جمل جاء به جابر، قال : «فأين جابر» ؟ فدُعيتُ له، فقال : «يابن أخى خذ برأس جملك فهو لك» ودعا بلالا فقال له : «اذهب بجابر فأعطه أوقيّة» . قال : فذهبت معه فأعطانى أوقية وزادنى شيئا يسيرا . قال : فوالله مازال ينمى عندى ونرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا ؛ يعنى يوم الحرّة[2] .

وقال محمد بن سعد : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جابرا عن دَين أبيه فأخبره، فاستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة خمسا وعشرين مرة . قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جِعال[3] بن سُراقة بشيرا إلى المدينة بسلامته وسلامة المسلمين، وقدم صِرارا يوم الأحد لخمس بقين من المحرّم — وصِرار على ثلاثة أميال من المدينة، وهى بئر جاهلية على طريق العراق — وغاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة .

٥٩/١٥

ذكر غزوة دُومة الجَنْدل

وهى بضم الدال ؛ سميت بدُومى[4] بن إسماعيل لأنه كان نزلها، وهى غير دَومة التى بفتح الدال .

(١) مابين القوسين ساقط من أ . (٢) يشير إلى وقعة الحرة التى كانت بالمدينة أيام يزيد ابن معاوية على يد مسلم بن عقبة المرى . راجع الروض الأنف جـ ٢ ص ١٨٤ (٣) كذا فى ابن سعد والمواهب، والإصابة، وأسد الغابة . وفى القاموس وابن هشام والطبرى «جعيل» . راجع الاختلاف فى هذا الاسم فى الإصابة وأسد الغابة . وفى الأصول : «جوال» . وهو تحريف .

(٤) كذا فى الأصول، والمواهب اللدنية . وفى معجم البلدان : «سميت بدوم بن إسماعيل، وقال الزجاجى : دومان بن إسماعيل . وقيل : كان لإسماعيل ولد اسمه دما، ولعله مغير منه . وقال ابن الكلبى : دوماء بن إسماعيل» .

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأوّل على رأس تسعة وأربعين شهرا من مهاجَره، وذلك أنه بلغه صلى الله عليه وسلم أن بدومة[(١)] الجندل جمعا كثيرا، وأنهم يظلمون من مرّ بهم، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة — وهى طَرَف من أفواه الشام، بينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين المدينة خمس عشرة أوست عشرة ليلة — فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، واستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة الغِفارى، وخرج لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأوّل فى ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويَكمُنُ النهار، ومعه دليل من بنى عُذرة، يقال له: مذكور؛ فلما دنا منهم إذاهم مغرِّبون، وإذا آثار النَّعم[(٢)] والشاء، فهجم على ماشيتهم ورِعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب. وجاء الخبرُ أهلَ دومة الجندل، فتفرّقوا، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم، فلم يجد بها أحدا، فأقام بها أياما، وبث السرايا وفرّقها، فرجعت ولم تصب منهم أحدا[(٣)] وأخذ منهم رجل واحد، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نَعَمَهم؛ فعرض عليه الإسلام فأسلم، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لعشر بقين من شهر ربيع الآخر، ولم يَلْقَ كيدا.

وفى هذه الغزوة وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم عُيَينة بن حِصْن أن يرعى بتغلَمَين[(٤)] وما والاه إلى المراض[(٥)]، والمراض على ستة وثلاثين ميلا من المدينة على طريق الرَّبَذة.

---

(١) فى: أ «أنه». (٢) المراد بالنعم هنا الإبل. (٣) كذا فى الأصول. وفى رواية للمواهب اللدنية: «ولم يصب منهم أحد». (٤) كذا فى الطبرى، وطبقات ابن سعد، ومعجم البلدان، والقاموس. وفى الأصل: «بثعلبين» وهو تحريف «وتغلمين من المراض على ميلين». (٥) زيد فى ابن سعد فى هذا الموضع ما يأتى: «وكان ما هناك قد أخصب، وبلاد عيينة قد أجدبت».

ذكر غزوة بنى المُصْطَلِق[1]، وهى غزوة المُرَيْسيع

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة خمس من الهجرة . حكاه محمد بن سعد .

وقال ابن إسحاق : كانت فى شعبان سنة ست ؛ وجعلها بعد غزوة ذى قَرَد .

وكان سبب هذه الغزوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن الحارث بن أبى ضرار سيّد بنى المصْطَلِق سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب، ودعاهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابوه وتهيئوا للسير، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمى للوقوف على حقيقة الخبر، فأتاهم وكلم الحارث ورجع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالخبر، فندب صلى الله عليه وسلم الناس ، فأسرعوا فى الخروج ، وقادوا الخيول، وهى ثلاثون فرسا ، عشرة منها للمهاجرين وعشرون للأنصار، وخرج معه خلق كثير من المنافقين ، لم يجتمعوا فى غزاة قط مثلها ، واستخلف صلى الله عليه وسلم على المدينة زيد بن حارثة . وقال ابن هشام : استعمل عليها أبا ذرّ الغِفارى . قال : ويقال : نُميلة بن عبد الله الليثى . قال ابن سعد : وكان معه صلى الله عليه وسلم فرسان : لِزاز، والظَّرِب، وخرج يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان، فبلغ الحارثَ بن أبى ضرار ومن معه مسيرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتفرق عنه من كان معه من العرب وخافوا خوفا شديدا، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المُرَيْسيع — وهو ماء لبنى المصطلق بينه وبين الفُرْع نحو من يوم، وبين الفرع والمدينة ثمانية بُرُد — فنزل به وضرب قُبّته، ومعه صلى الله عليه وسلم من نسائه أمهات المؤمنين رضى الله عنهنّ عائشة، وأم سلمة، وتهيّئوا للقتال، وصفّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابَه ، ودفع راية المهاجرين إلى أبى بكر

٦٠/١٥

(١) المصطلق : لقب جذيمة بن سعد بن عمرو، لقب بذلك لحسن صوته ، وكان أول من غنى من خزاعة .

الصدّيق رضى الله عنه، وراية الأنصار إلى سعد بن عُبادة ، فترامَوا بالنَّبْل ساعة ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فحملوا حملةَ رجلٍ واحد ، فما أفلت من القوم إنسان ، قتل منهم عشرة، وأسر سائرهم ، وسُبِيت النساء والذّرارى ، وغنمت النعم والشاء، ولم يُستشهَد من المسلمين إلّا رجل واحد، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأُسارى فكُتفوا، واستعمل عليهم بُريدة بن الحُصيب ، وأمر بجمع الغنائم فجمعت، واستعمل عليها شُقْران مولاه ، وقسم السبي والنعم والشاء، فعُدلت الجزور بعشر من الغنم ، و بيعت الرِّثّة[1] فيمن يريد[2]، قال : وكانت الإبل ألفى بعير والشاء خمسة آلاف شاة، والسبي مائتى أهل بيت ، وصارت جو يرية بنت الحارث ابن أبى ضِرار فى سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عم له[4] فكاتباها على تسع أواق من ذهب، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابتها، فأدّى[5] عنها ، وتزوّجها على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى أخبار أزواجه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن سعد : وكان من السبي من منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير فداء ، ومنهم من أُفدى ، فافتديت[6] المرأة والذرّية بست فرائض ، وقدموا المدينة ببعض السبي، فقدم عليهم أهلوهم فافتدوهم، فلم تبق آمرأة من بنى المصطلق إلّا رجعتْ إلى قومها . وكان شعار المسلمين يوم بنى المصطلق : يا منصور أمِت أمِت؛ وغاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاته هذه ثمانية وعشرين يوما ، وقدم المدينة لهلال رمضان .

---

(١) الرثة : ردىء المتاع، وأسقاط البيت من الخلفان. (٢) فى الطبقات : « يزيد » .
(٣) فى أ : « التى تغير » وهو تحريف . (٤) فى أ : « لها » .
(٥) فى جـ : « فأداها » . (٦) كذا فى ابن سعد . وفى الأصول : «فافتدت» .

وفى هذه الغزاة تكلم عبد الله بن أبىّ بن[1] سلول المنافق بما تكلم به من قوله : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ . ووقع حديث الإفك، وقد قدّمنا ذكر ذلك كلّه فى حوادث السنين بعد الهجرة، فى حوادث السنة الخامسة .

ذكر غزوة الخندق ، وهى غزوة الأحزاب

وكانت فى ذى القعدة سنة خمس من مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم . حكاه ابن سعد . وقال ابن إسحاق : كانت فى شوّال .

قال محمد بن سعد ومحمد بن إسحاق وعبد الملك بن هشام ، رحمهم الله تعالى ، دخل حديثُ بعضهم فى حديث بعض ، قالوا : لما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير وساروا إلى خيبر ، خرج نفر من أشرافهم ووجوههم، منهم سلام بن أبى الحُقَيق ، وحُيىّ بن أخْطب، وكِنانة بن الربيع بن أبى الحُقيق، وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمّار الوائلى، فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل ، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدموا مكّة على قريش ، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ؛ فقالت قريش لهم : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا[2] خير أم دينه ؟[3] فقالوا : بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه . فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[4] وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ

(١) فى أ : « ابن أبى سلول » . (٢) فى أ : « لنا » . (٣) فى أ : « فديننا » .

(٤) الجبت والطاغوت : كل معبود من دون الله .

اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا . أَمْ لهم نَصِيبٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ ٱلناسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلناسَ عَلَى ما آتاهُمُ ٱللهُ مِنْ فضْلِهِ فَقَدْ آتينا آلَ إبراهِيمَ ٱلكِتَابَ والحِكْمَةَ وآتيناهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ ومِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ قالوا : فلما قالت اليهود [ذلك](١) لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا لذلك ، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غَطفان وسُلَيما ، ودعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلموهم(٢) أن قريشا قد بايعوهم على ذلك ، فأجابوهم(٣) واجتمعوا معهم ؛ فتجهزت قريش وجمعوا أحابيشَهم ومن تبعهم من العرب ، وكانوا أربعة آلاف ، وعقدوا اللواء فى دار الندوة ، وحمله عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، وقادوا معهم ثلثمائة فرس ، وكان معهم ألف وخمسمائة بعير ، وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن حرب ، ووافتهم بنو سليم بمَرّ الظَّهْران ، وهم سبعمائة ، يقودهم سفيان بن عبد شمس ، حليف حرب بن أمية ، وهو أبو أبى الأعور السُّلَمى الذى كان مع معاوية بصفّين ، وخرجت بنو أسد يقودهم طليحة بن خويلد الأسدى ، وخرجت غطفان وفزارة ، معهما ألف بعير ، يقودهم عُيينة(٤) بن حِصْن بن حذيفة ابن بدر ، وخرجت بنو مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرّى ، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مِسعر(٥) بن رُخيلة بن نُويرة بن طَريف ، وخرج معهم غيرهم .

٦١/١٥

(١) ساقطة من أ . (٢) فى أ : « فأعلموهم » . (٣) فى أ : « فأجابوا » .

(٤) عيينة هذا هو الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم : « الأحمق المطاع » . لأنه كان يتبعه عشرة آلاف قناة ، وقال فيه أيضا : « إن شر الناس من ودعه الناس اتقاء شره » . وفى رواية : « إنى أداريه لأنى أخشى أن يفسد علىّ خلقا كثيرا » . وسمى عيينة لشتر كان بعينيه ، واسمه حذيفة . راجع المواهب ج ٢ ص ١٢٥ . (٥) فى الطبقات ، وشرح المواهب : « مسعود » وقد ذكر الطبرى الوجهين .

فكان جميع من وافى الخندق عشرة آلاف ، وهم الأحزاب ، وكانوا ثلاثة عساكر ، ومرجع أمرهم إلى أبى سفيان بن حرب ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فُصولُهم[1] من مكة ندب الناس[2] ، وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم فى أمرهم ، فأشار عليه سَلْمان الفارسىّ بالخندق ، فأعجب ذلك المسلمين ، وعسكر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سفح سَلْع[3] ، وجعل سلْعا خلف ظهره ، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، ثم ضرب الخندق على المدينة ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيبا للمسلمين فى الأجر ، فعملوا وجدّوا فى العمل ودأبوا[4] ، وأبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين فى ذلك العمل رجالٌ من المنافقين ، وجعلوا يورّون[5] بالضعف من العمل ، و يتسلّلون إلى أهليهم بغير إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة ، ذكرها لرسول الله صلّى الله عليه وسلم واستأذنه ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى عمله فى الخندق ، فأنزل الله تعالى فى أولئك من المؤمنين قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى فى المنافقين : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا[6] فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ

(١) فصولهم : خروجهم .

(٢) فى الأصول : « نذر » وهو تحريف .

(٣) سلع : جبل بسوق المدينة .

(٤) كذا فى جـ . وفى أ : « ودأبوا فى العمل » .

(٥) يورون بالضعف من العمل : أى يخفون مقصودهم من خذلان المسلمين بإظهار الضعف . وفى المواهب : « بالضعف عن العمل » .

(٦) فى هامش جـ : « اللواذ : الاستتار بالشىء عند الهرب » .

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قال : وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه . روى محمد بن سعد [بسند](١) يرفعه إلى سهل بن سعد قال : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نحفر الخندق وننقل التراب على أكتافنا ، فقال(٢) صلى الله عليه وسلم : «لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة(٣)» . وعن البراء بن عازب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ينقل معنا التراب ، وقد وارى التراب بياض بطنه ، وهو يقول :

لَاهُمَّ(٤) لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

فأنزلنْ سكينةً علينا * وثبِّت الأقدامَ إنْ لاقَينا

إنَّ الأُولَى لقد(٥) بغَوا علينا * إذا أرادوا فتنةً أبَينا

[أبينا(٦)] يرفع بها صوته صلى الله عليه وسلم .

وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق معجزات نذكرها إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لمعجزاته ، ومنها ما يتعيّن ذكره ها هنا ، وهو ماحكاه محمد بن إسحاق عن جابر بن عبد الله قال :

(١) ساقطة من أ . (٢) فى أ : « فقال رسول الله » .

(٣) كذا فى جـ ، وطبقات ابن سعد . وفى أ : «والمهاجرين» . وهذا القول من كلام عبد الله ابن رواحة ، تمثل به عليه الصلاة والسلام . راجع الروايات المختلفة فى صيغته ، وفى كونه شعرا أو غير شعر فى جـ ٢ ص ١٢٧ من المواهب . (٤) كذا فى ابن سعد الذى نقل عنه المؤلف . وفى الأصول : « اللهم » . والشعر لعبد الله بن رواحة ، ارتجز به النبى صلى الله عليه وسلم .

(٥) فى الأصول : «قد» . وما أثبتناه رواية ابن سعد الذى نقل عنه المؤلف . وفى هذه الأبيات روايات كثيرة تجدها فى جـ ٢ ص ١٢٨ من المواهب اللدنية .

(٦) زيادة عن طبقات ابن سعد . وفى المواهب : أنه كان يمد صوته باللفظة الأخيرة لا بالجميع .

اشتدت على الناس فى بعض الخندق كُدْيَة[1]، فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذى بعثه بالحق لَأنهالت حتى عادت[2] كالكَثِيب، لا تردّ فأسا ولا مِسحاة. ٦٢/١٥

قالوا: وفرغوا من حفر الخندق فى ستّة أيام، وكانوا يعملون فيه نهارا وينصرفون ليلا، ورفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم النساء والصبيان فى الآطام، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لثمان مضين من ذى القعدة، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة، ويحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة. وأقبلت قريش ومن شايعها وتابعها، وآجتمع إليها بعد فراغ الخندق، فصار الخندق بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم، وظهور المسلمين إلى سَلْع، وخرج حُيَيّ ابن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظى، صاحب[3] عقد بنى قريظة، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقده، فأغلق كعب دون حُيي باب حصنه، وأبى أن يفتح له، فناداه حيّ: ويحك يا كعب! افتح لى. قال: ويحك! إنك آمرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا. فعاوده مرارا، وهو يأبى عليه حتى [قال له حُيَيّ][4]: والله إن[5] أغلقت دونى إلا عن جَشِيشتك[6] أن آكل معك[7].

(١) الكدية: الحجر الصلد الضخم، والشىء الصلب بين الحجارة والطين، والأرض الغليظة.

(٢) فى أ: «عاد». (٣) فى أ: «وصاحب». (٤) ما بين القوسين ساقط من أ.

(٥) فى أ: «إنى». (٦) الجشيشة: واحدة الجشيش، وهو أن تطحن الحنطة طحنا جليلا، ثم تنصب به القدر ويلقى عليها لحم أو تمر فيطبخ، ويقال لها: دشيشة.

(٧) كذا وردت هذه العبارة فى أ، جـ. وفى المواهب: «والله إن أغلقت دونى إلا تخوفا على جشيشتك أن آكل معك منها».

فأحفظه[1] ذلك، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب! جئتك بعزّ الدهر وبحرٍ طامٍ[2]، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال، [ومن دونه[3]] غطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمى[4] على جانب أُحُد، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه. فقال له كعب: جئتنى والله بذلّ الدهر، وبجهام[5] قد هَرَاق ماءه، يرعد ويبرق، ليس فيه شىء، ويحك يا حُيىّ! فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء. فلم يزل به حُيى حتى سمح له، أن أعطاه[6] عهدا من الله وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك. فنقض كعب بن أسد[7] عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين وصحّ ذلك عنده كبّر، وقال: «حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ» قال: ونجم النفاق وفَشِل الناس، وعظم البلاء، واشتدّ الخوف، وخيفَ على الذرارىّ والنساء، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث سلمة بن أسلم فى مائتى رجل، وزيد بن حارثة فى ثلثمائة يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذرارى من بنى قُريظة، وكان

(١) أحفظه: أغضبه. (٢) طام: مرتفع؛ يريد كثرة الرجال.

(٣) التصويب من المواهب، وفى الأصول: «من رومة» وهو تحريف. (٤) فى أ: «فى فقمى» وهو تحريف. (٥) الجهام: السحاب لا ماء فيه. (٦) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل. وفى المواهب: «وأعطاه عهدا على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك، يصيبنى ما أصابك». (٧) كذا فى الطبرى، وابن هشام. وفى الأصل: «راشد».

عباد بن بشر على حرس قبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وِجاهَ العدوّ لا يزولون يعتقبون خندقهم ويحرسونه ، والمشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبوسفيان بن حرب فى أصحابه يوما ، ويغدو خالد بن الوليد يوما ، [ويغدو[1] عمرو بن العاص يوما] ، ويغدو هبيرة بن أبى وهب يوما ، ويغدو ضرار بن الخطّاب الفهرى يوما ، فلا يزالون يجيلون خيلَهم ، ويجتمعون مرّة ويتفرّقون أخرى ، ويناوشون أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقدّمون رماتهم فيرمون ، فرمى حِبّانُ بن العَرِقة سعدَ بنَ معاذ بسهم فأصاب أَكْحَلَه[2] ، فقال : خذها وأنا ابن العَرِقة . ويقال : رماه أبو أسامة الجُشَمى .

قال ابن هشام : ولما اشتدّ على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عُيينة بن حِصن بن حُذيفة بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرّى ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى [بينه[3] و] بينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا : يا رسول الله ، أمر تحبّه فنصنعه ، أم شىء أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به ، أم شىء تصنعه لنا ؟ قال : بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم[4] من كلّ جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد

(١) ما بين القوسين ساقط من أ . (٢) الأكحل : عرق فى وسط الذراع يكثر فصده .
(٣) ساقطة من أ . (٤) كالبوكم أى اشتدوا عليكم .

كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى[1] أو بيعا، أفحين[2] أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: لِيَجْهدوا علينا.

٦٣/١٥

قال ابن سعد: ثم اجتمع رؤساؤهم أن يغدوا يوما، فغَدَوْا جميعا ومعهم رؤساء سائر الأحزاب، وطلبوا مَضِيقا[3] من الخندق يقتحمون خيلهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يجدوا ذلك وقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها؛ فقيل لهم: إن معه رجلا فارسيا، فهو أشار عليه بذلك؛ قالوا: فمن هناك إذًا، فصاروا إلى مكان ضيّق أغفله المسلمون، فعَبَر منه عكرمةُ بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطّاب، وهُبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد وُدّ [فجعل[4] عمرو بن عبد ودّ] يدعو إلى البراز، ويقول:

ولقد بحِحْتُ من النداء * لجمعهم هل من مُبارِزْ

وكان ابن تسعين سنة، فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال له: يا عمرو، إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خَلّتين إلّا أخذتها منه؛ قال له: أجل. قال له[5]: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام؛ قال: لا حاجة لي بذلك؛ قال: فإني أدعوك إلى النِّزال؛ قال: يابن

(١) القراء: ما يقدّم للضيف من الطعام. (٢) في أ: «فحين».

(٣) كذا في أ، جـ. وفي ابن سعد: «يقتحمون منه خيلهم».

(٤) ما بين القوسين ساقط من أ. (٥) ساقطة من جـ.

أخى ، فوالله ما أحبّ أن أقتلك ؛ فقال له علىّ : ولكنى والله أحبّ أن أقتلك ؛ فحمىَ عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علىّ فتنازَلَا وتجاوَلَا ، فقتله علىّ رضى الله عنه ، وخرجت خيلهم منهزمةً حتى اقتحمت من الخندق . وألقى عِكرمة بن أبى جهل يومئذ رمحه وهو منهزم عن عمرو . فقال حسّان بن ثابت :

فر وألقى لنا رمحَه * لعلك عكرمَ لم تَفعلِ
وولّيتَ تعدو كعَدْوِ الظّليـ(١)ـمِ ما إن(٢) تجورُ عن المَعْدلِ
ولم تلق ظهرَك مستأنسا * كأنّ قفاك قفا فُرْعُلِ(٣)

قال ابن سعد : وحمل الزبير بن العوّام على نوفل بن عبد الله بالسيف فضربه فشقّه باثنتين ، ثم اتّعدوا أن يغدوا(٤) من الغد ، فباتوا(٥) يعبّئون أصحابهم ، وفرّقوا كتائبهم ، ونحّوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد ، فقاتلوهم يومهم ذاك إلى هُوىٍّ(٦) من الليل ، ما يقدرون أن يزولوا من موضعهم ، ولم يصلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ظهرا ولا عصرا ولا مغربا ولا عشاء حتى كشفهم الله تعالى ، فرجعوا متفرّقين إلى منازلهم وعسكرهم ، وانصرف المسلمون إلى قبّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأقام أُسيد بن حُضير على الخندق فى مائتين من المسلمين ، وكرّ خالد بن الوليد فى خيل من المشركين يطلبون غِرّة من المسلمين فناوشوهم ساعة ومع المشركين وحْشِىّ ، فزرقَ الطفيلَ بن النعمان بمِزراقه فقتله وانكشفوا ، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قبّته فأمر بلالا فأذّن وأقام للظهر فصلّى ، ثم بعد

(١) الظليم : ذكر النعام . (٢) كذا فى ابن هشام . وفى ج : « وما إن تحور » .
(٣) فى هامش ج : « الفرعل : صغير الضباع » . (٤) فى ا : « إلى أن يغدوا » .
(٥) كذا فى ج . وفى ا : « فيأتون » . (٦) هوى من الليل : ساعة منه ، أو نحو ثلثه أو ربعه .

ذلك لكل صلاة إقامة إقامة، وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات، وقال : «شغلونا عن الصلاة الوسطى — صلاة العصر — ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا» . ولم يكن لهم بعد ذلك قتال جميعا حتى انصرفوا، إلا أنهم لا يدَعون الطلائع بالليل طمعا فى الغِرّة ، قال : وحُصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بضع عشرة ليلة . وقال ابن إسحاق : أقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر .

ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر بن أُنَيْف بن ثعلبة بن هلال بن حلاوة بن الأشجع[1] ابن رَيْث بن غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمُرْنى بما شئت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما أنت فينا رجل واحد، فخَذِّل[2] عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة» . فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة، وكان لهم نديما فى الجاهلية، فقال : يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودّى إياكم ، وخاصّةَ ما بينى وبينكم ؛ قالوا : صدقت، لست عندنا بمتّهم؛ فقال : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم؛ البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحلوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهْزة[3] أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم[4]، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنا[5] من أشرافهم، ليكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ؛ قالوا : لقد أشرت علينا بالرأى . ثم خرج حتى أتى قريشا ،

(١) كذا فى الأصول، وفى أسد الغابة، والإصابة . وفى ابن هشام : «خلاوة» . وجاءت الروايتان فى الطبرى . (٢) تخذل عنا أى ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا . (٣) النهزة : انتهاز الشىء وهو اختلاسه . (٤) فى أ : «ببلادكم» . (٥) فى ج : «رهناء»

فقال لأبى سفيان ومن معه : قد عرفتم ودّى لكم وفراقى محمّدا ، و إنه قد بلغنى أمر قد رأيت منه علىّ حقا أن أبلّغكوه نصحا لكم ، فاكتموا عنى ؛ قالوا : نفعل ؛ فما هو ؟ قال : تعلّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم و بين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ [لك](١) من القبيلتين : قريش وغطفان ، رجالا من أشرافهم ، ونعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا . ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أهلى وعشيرتى ، وأحبّ الناس إلىّ ، ولا أراكم تتّهمونى(٢) ؛ قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ؛ قال : فاكتموا عنى ؛ قالوا : نفعل . ثم قال لهم مثلما قال لقريش ، وحذّرهم ما حذّرهم . فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عِكرمةَ بن أبى جهل ، فى نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مُقام ، قد هلك الخفّ والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ، ونفرغ فيما بيننا و بينه . فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان بعضنا أحدث فيه حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذى نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رُهُنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضرستكم(٣) الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا(٤) إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلادنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه . فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش

(١) ساقطة من ا . (٢) حذفت نون الرفع هنا وهو جائز على قلة .

(٣) ضرستكم أى نالت منكم كما يصيب ذو الأضراس بأضراسه .

(٤) تنشمروا : أى تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم .

وغَطَفان : والله إن الذى حدّثكم نُعيم بن مسعود لحَقّ ، فأرسَلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ؛ فقالت بنو قُرَيْظَة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذى ذَكر لكم نعيمُ ابنُ مسعود لحقّ ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصةً انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشَمَروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل . فأرسلوا إلى قريش وغَطَفان : إنّا والله لا نقاتل معكم حتى تُعطونا رهنا . فأَبَوْا عليهم ، وقال أبو سفيان : ألا أرانى أستعين بإخوة القِردة والخنازير ! فوقع الاختلاف والخذْلان بينهم ، وبعث الله عزّ وجلّ عليهم ريحا فى ليلة شاتية شديدةِ البَرْد ، فكفَأَت القدور وطرحت الأبنية .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وقع بينهم من الاختلاف أَرسل حُذيفة بن اليمان إليهم لينظر ما فعل القوم ليلا . قال حذيفة : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تُحدِثَنَّ شيئا . فذهبتُ فدخلتُ فيهم ، والريحُ وجنودُ الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِرّ لهم قِدْرا ولا نارا ولا بناءً . فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش ، لينظر امرؤ مَن جليسُه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : فلان ابن فلان . ثم قال أبو سفيان : يامعشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، ولقد هلك الكُراع[1] والخُفّ ، وأخلفنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقِينَا من شدة الرِّيح ماترون ، فارتحلوا فإنّى مرتحِل . ثم قام إلى جَمله وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوَثَب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىّ ألّا أحدث شيئا

(١) الكراع : الخيل .

٦٥/١٥ حتى آتيه ، ثم لو[1] شئت ، لقتلته بسهم . قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر . وسمعتْ غَطَفان ما فعلتْ قريش ، فانشمَروا راجعين إلى بلادهم وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف راجعا إلى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح . وكان شعار المسلمين فى غزوة الخندق (حَمَ لا ينصرون) .

٥

ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن الخندق قال لأصحابه : لن تغزوَكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنّكم تغزوهم[2] . فكان كذلك .

قال ابن سعد : وكانت مدّة الحصار خمس عشرة ليلة، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبع ليال بقين من ذى القعدة سنة خمس . وقد ذكرنا ما قاله غيرُه فى ذلك .

١٠

ذكر تسمية من استُشهد من المسلمين فى غزوة الخندق ومن قُتِل من المشركين

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى : واستشهد من المسلمين فى غزوة الخندق أنس بن أوس بن عتيك من بنى عبد الأشهل، قتله خالد بن الوليد؛ وعبد الله بن سهل[3] الأشهلىّ، وثعلبة بن عَنَمة بن عدىّ، قتله هبيرة بن أبى وهب؛ وكعب بن زيد

١٥

(١) « لو » ساقطة من جـ وابن هشام ؛ وما أثبتناه عن أ .

(٢) حذف المؤلف نون الرفع من الفعل ، وهو جائز على قلة . وقال الدمامينى : إنه شاذ . وقال فى الهمع : لا يقاس عليه فى الاختيار .

(٣) كذا فى أسد الغابة ، والاستيعاب ؛ والطبقات وفى كلا الأصلين : « سهيل » .

من بنى دينار، قتله ضرار بن الخطّاب . وسعد بن معاذ[(١)] مات من جراحة بعد بنى قريظة، والطُّفَيل بن النعمان بن جُشم .

وقتل من المشركين أربعة نفر وهم : عثمان بن أمية بن مُنبّه بن عُبيد بن السبّاق من بنى عبد الدار بن قصىّ، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة، وعمرو بن عبد وُدّ، ويقال : وابنه حِسْل بن عمرو، قتلهما على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ذكر ما أُنزِل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من القرآن فى غزوة الخندق وما ورد فى تفسير ذلك

أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله — صلّى الله عليه وسلّم — فى أمر الخندق والأحزاب قولَه تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ قال أبو إسحاق أحمد ابن محمد بن إبراهيم الثعلبى رحمه الله : قوله : « إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ » يعنى الأحزاب : قريش وغَطَفان ويهود قُرَيظة والنّضير. « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا » قال : وهى الصَّبا[(٢)]. قال عكرمة : قالت الجَنوب للشَّمال ليلةَ الأحزاب : انطلق بنُصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشَّمال : إن الحرّة[(٣)] لا تسرى بالليل؛ وكانت الريح التى أرسلت

(١) رمى حبان بن العرقة سعد بن معاذ يوم الخندق بسهم فقطع أكحله، فحسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتفخت يده ونزفه الدم، فلما رأى ذلك قال : اللهم لا تخرج نفسى حتى تقر عينى فى بنى قريظه . فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة حتى نزل بنو قريظة على حكمه، وكان حكمه فيهم أن تقتل رجالهم وتقسم أموالهم وتسبى نساؤهم وذريتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبت حكم الله فيهم . فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات رحمه الله .

(٢) الصبا : هى الريح الشرقية، ويقال لها : القبول، لأنها تقابل الشمال، والشمال : الريح العقيم التى لا خير فيها . (٣) كذا فى الأصلين . وفى المواهب جـ٢ ص ١٤٦ : « إن الحرائر لا تهب بالليل » . وفى القرطبى جـ ١٤ ص ١٤٤ : « إن محوة لا تسرى بليل » ومحوة من أسماء الشمال؛ لأنها تمحو السحاب وتذهب به .

عليهم الصَّبا، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «نُصرتُ بالصَّبا وأُهلِكتْ عاد بالدَّبور» . قوله : «وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْها» هى الملائكة ، ولم تقاتل يومئذ ، قال المفسرون : بعث الله تعالى عليهم بالليل ريحا باردة ، وبعث الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطّعت أطناب الفَساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضُها فى بعض ، وأرسل الله عليهم الرعب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم حتى كان سيد كلّ حىّ يقول : يابنى فلان ، هلمّ [إلى] ؛ فإذا اجتمعوا عنده قال : النَّجاء النَّجاء ، أُتيتم . لما بعث الله عليهم من الرعب ، فانهزموا من غير قتال[1]] .

قوله تعالى : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال : قوله : «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ» يعنى من فوق الوادى من قبل المشرق ، عليهم مالك بن عوف النَّصْرىّ ، وعيينة ابن حصن الفَزارى فى ألف من غَطَفان ، ومعهم طليحة بن خويلد الأسدى فى بنى أسد ، وحُيَىّ بن أخطب فى يهود بنى قريظة . «وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» يعنى من بطن الوادى من قبل المغرب ، وهو أبو سفيان بن حرب فى قريش ومن تبعه ، وأبو الأعور السّلمى من قبل الخندق . وقال ابن إسحاق : الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، والذين جاءوا من أسفل منهم قريش وغطفان . «وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ» أى مالت وشخصت «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» زالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع . «وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» قال : أما المنافقون فظنوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه سيُغلبون ويُستأصَلون ، وأما المؤمنون فأيقنوا أن ما وعدهم الله حقّ ، وأنه سيظهر دينه على الدين كلّه ولو كره المشركون .

٦٦/١٥

(١) ما بين القوسين ساقط من أ .

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ قال: أى ٱختُبروا ومُحِّصوا، ليُعرَف المؤمن من المنافق «وزُلْزِلُوا»: حُرِّكوا وخُوِّفوا «زِلْزَالًا» تحريكا «شَدِيدًا».

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال: يعنى معتِّب بن قشير وأصحابه «وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أى شَكٌّ وضَعفُ اعتقاد. وقد قدّمنا فى أخبار المنافقين ما تكلم به معتِّب بن قشير فى هذه الغزوة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾. «قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ» أى من المنافقين، وهم أوْس بن قيظىّ وأصحابه؛ قال مقاتل: هم بنو سالم. قال ابن عباس رضى الله عنهما: قالت اليهود لعبد الله بن أُبىّ وأصحابه من المنافقين: ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه! فارجعوا إلى المدينة. «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ» فى الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثة بن الحارث «يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ» أى خالية ضائعة، وهى مما يلى العدوّ، وإنا لنخشى عليها العدوّ والسُّرّاق، قال: وقرأ ابن عباس وأبو رجاء العُطاردىّ «عَوِرة» بكسر الواو، يعنى قصيرة الجدران فيها خلل وفُرجة. وأخبر تعالى أنها ليست بعورة، إن يريدون إلا الفرار.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا[1] وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ قال: يقول: لو دخل عليهم هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم المدينة «من أَقْطَارِهَا» جوانبها ونواحيها «ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ» الشرك «لَآتَوْهَا» أى لجاءوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام وكفروا «وَمَا تَلَبَّثُوا» وما ٱحتبسوا

(١) «لأتوها» من غير مد قراءة نافع، وعليها تفسير المؤلف (أى لجاءوها).

عن الفتنة « إِلَّا يَسِيرًا » ولأسرعوا إلى الإجابة إليها طيبة بها أنفسهم، قال : هذا قول أكثر المفسرين .

وقال الحسن والفرّاء : وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى هَلَكُوا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ قال : « عَاهَدُوا اللَّهَ » أى من قبل غزوة الخندق « لَا يُوَلُّونَ » عدوّهم « الْأَدْبَارَ » قال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة همّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألّا يعودوا لمثلها ، فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم .

وقال قتادة : هم ناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدرٍ من الكرامة والفضيلة، فقالوا : لئن أشهَدَنا الله قتالا لنقاتلنّ . فساق الله تعالى ذلك إليهم فى ناحية المدينة .

وقال مقاتل والكلبى : هم السبعون رجلا الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العَقَبة وقالوا له : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم وأموالكم» . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فمالنا يا رسول الله؟ قال: «لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة» . قالوا : قد فعلنا . فذلك عهدهم ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى عنه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال[1] : أى الذى كتب عليكم[2] « وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا » إلى آجالكم، والدنيا كلّها قليل .

(١) فى أ : « قل » . (٢) كذا فى كلا الأصلين . وفى الكشف والبيان ما يأتى : « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل » الذي كتب عليكم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ أى نصرة ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال : «الْمُعَوِّقِينَ» المثبطين منكم للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا » ودعوا محمدا فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك « وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ » الحرب « إِلَّا قَلِيلًا » دفعا وتعذيرا . قال قتادة : هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس[1]، ولو كانوا لحما لأكلتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك . وقال مقاتل : نزلت فى المنافقين، وذلك أن اليهود أرسلوا إلى المنافقين وقالوا : ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه ! فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا ، وإنا لنُشفق عليكم، أنتم إخواننا وجيراننا ، هَلُمَّ إِلَيْنَا . فأقبل عبد الله بن أبىّ وأصحابه على المؤمنين يعوّقونهم ويخوّفونهم بأبى سفيان ومن معه، وقالوا : ما ترجون من محمد؟ فوالله ما يرفدنا[2] بخير، وما عنده خير، ما هو إلا [أن][3] يقتلنا هاهنا ، انطلقوا إلى إخواننا وأصحابنا . يعنى اليهود، فلم يزدد[4] المؤمنون بقول المنافقين إلا إيمانا واحتسابا .

وقال ابن زيد : لما كان يوم الأحزاب انطلق رجل من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد أخاه، بين يديه شِواء ورغيف ونبيذ، فقال : أنت هاهنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف ! فقال : هلم إلى هذا، والذى يحلف به لا يستقبلها محمد أبدا ؛ فقال : كذبت والذى

(١) أكلة رأس : أى هم قليل يشبعهم رأس واحد . شرح القاموس (مادة أكل) .

(٢) يرفدنا : يعيننا . (٣) تكملة من الكشف والبيان . (٤) فى أ : « يزد » .

يُحلف به — وكان أخاه من أبيه وأمه — أما والله لأخبرن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمرك . فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره ، فوجده قد نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية .

قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ قال: «أَشِحَّةً» بخلاء « عَلَيْكُمْ » بالخير والنفقة فى سبيل الله ، وصفهم الله تعالى بالجبن والبخل « فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » فى رءوسهم من الخوف والجبن، أى كدوران [أعين](1) الذى يُغشَى عليه من الموت « فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ » أى عضوكم ورموكم بألسنة حداد ذربة(2)، وأصل السلق : الضرب . قال قتادة : يعنى بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسم الغنيمة ، يقولون : أعطونا أعطونا ، فإنا قد شهدنا معكم القتال ، ولستم بأحق بالغنيمة منا ؛ وأما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأ مقاسمة، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق . « أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ » يعنى الغنيمة « أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا » .

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ يعنى هؤلاء يحسبون الجماعات لم ينصرفوا عن قتالهم ، وقد انصرفوا جُبْنا منهم وفرقا ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ أى يرجعوا إليهم كرّة ثانية ﴿ يَوَدُّوا ﴾ من الخوف والجبن ﴿ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ ﴾ أى خارجون إلى البادية ﴿ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أى معهم ﴿ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ أى يسأل بعضهم بعضا عن أخباركم ، وما آل إليه أمركم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى رياء من غير حسبة ، ولو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيرا .

(1) ساقطة من أ . (2) كذا فى الكشف والبيان : والذى فى الأصول « ذرية » وهو تصحيف .

ثم قال تعالى مشيرا إلى المؤمنين: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ قال: قوله: « أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » أى سنّة صالحة، [أن](١) تنصروه وتؤازروه، ولا تتخلّفوا عنه، ولا ترغبوا بأنفسكم عن نفسه وعن مكان نصرته كما فعل هو، إذ كُسرت رَباعيته وجُرح، وقتِل عمّه حمزة، وأُوذى بضُروب الأذى، فواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم أيضا كذلك، واستنّوا(٢) بسنّته « لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » أى فى الرخاء والبلاء، ثم ذكر المؤمنين بوعود الله تعالى، فقال: « وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ » الآية، قال: ووعْد الله إيّاهم قولُه: « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ » .

٦٨/١٥

قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ قال: قوله: « صَدَقُوا » أى وفوا به . « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ » يعنى فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد . والنحب: النذر، والنحب أيضا: الموت، قال ذو الرمّة:

عَشيّة فرَّ الحارثيُّون بعد ما ... قَضى نَحْبَه فى ملتقى القومِ هَوْبَرُ(٣)

---

(١) زيادة عن الكشف والبيان .

(٢) فى أ: «استنوا»، وهو تحريف .

(٣) ساقطة من أ . قال ابن هشام: « هوبر من بنى الحارث بن كعب، أراد: يزيد ابن هوبر» .

أى مات ، قال مقاتل : قضى نحبه ، أى أجله ، فقتل على الوفاء ، يعنى حمزة وأصحابه الذين ٱستُشهدوا بأُحُد، رضوان الله عليهم . وقيل : قضى نحبه ، أى بذل جهده فى الوفاء بعهده، من قول العرب : نَحَب فلان فى سيره يومه وليلته، إذا مدّ فلم ينزل، قال جرير :

بِطِخْفَةَ جالَدْنا المـلوكَ وخَيْلُنا عشيَّةَ بِسْطَامٍ جَرَيْنَ على نَحْبِ[1]

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » قال ابن إسحاق : ينتظر ما وعد الله به من نصره، والشهادة على [ما][2] مضى عليه أصحابه . «وما بَدَّلُوا تَبْدِيلا » أى ما شكّوا وما تردّدوا فى دينهم، وما ٱستبدلوا به غيره .

ثم قال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ يعنى قريشا وغطفان ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى بالملائكة والريح ﴿ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ، وبيده الفضل والمنة .

ذكر غزوة بنى قُرَيْظة

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة سنة خمس من مهاجَره . وقال ابن إسحاق : فى شوّال منها .

قال محمد بن إسحاق، ومحمد بن سعد ، دخل حديث بعضهما فى بعض، قالا : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق إلى المدينة هو والمسلمون ،

(١) طخفة بكسر الطاء وفتحها : جبل أحمر طويل حذاءه آبار ومنهل، قال صاحب اللسان : « ويقال : جرين على نذر » . (٢) لم تذكر فى ج .

ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر أتى جبريلُ — عليه السلام — النبيَّ صلّى الله عليه وسلم معتجرا بعمامة من إستَبْرَق، على بغلة عليها رِحالة[(٢)] عليها قطيفة من ديباج، فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم؛ قال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعتُ إلا من طلب القوم: إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير[(٣)] إلى بنى قريظة، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا فأذّن فى الناس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم ألّا تصلّوا العصرَ إلّا فى بنى قريظة. واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّا، فأعطاه لواءه، وقدّمه إلى بنى قريظة، فسار [علىّ][(٤)] حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فرجع حتى لقى رسول الله صلّى الله عليه وسلم بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث؛ قال: أظنّك سمعتَ منهم لى أذًى؛ قال: نعم يا رسول الله؛ قال: لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا. فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال لهم: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نِقْمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جَهولا. ثم نزل صلى الله عليه وسلم على بئر من آبار بنى قريظة من ناحية أموالهم يقال لها: بئر أَنًا؛ ويقال: بئر أُنًى[(٥)]؛ وتلاحق به الناس، فأتى رجال من بعد العشاء الآخرة[(٦)] لم يصلّوا العصر لقول رسول الله صلى الله عليه

(١) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها الرجل على رأسه ويردّ طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه. (٢) الرحالة: سرج من جلود لا خشب فيها تتخذ للركض الشديد.

(٣) فى جـ: «بالسير». (٤) ساقطة من أ.

(٥) كذا ضبط فى سيرة ابن هشام، وفى شرح المواهب اللدنية أقوال فى ضبطه (انظر المواهب ٢: ١٥٤). (٦) فى أ: «عشاء».

وسلم . لا يصلّين أحد العصر إلا ببنى قريظة . فشغلهم ما لم يكن منه بدٌّ فى حربهم وأبوا أن يصلّوا لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم حتى يأتوا بنى قريظة، فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة ، وتخوّف ناس فوت الصلاة فصلّوا، فما عنّف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من الفريقين، ولا عابهم الله تعالى فى كتابه .

٦٩/١٥ قال: وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فى المسلمين، وهم ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا ، فحاصرهم خمسة عشر يوما . قاله ابن سعد .

وقال ابن إسحاق: خمسا وعشرين ليلة أشد حصار حتى جهدهم الحصار، وقذف الله فى قلوبهم الرعب . وكان حُيَيّ بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم ، حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم : يا معشر يهود ، قد نزل بكم ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيّها شئتم ؛ قالوا : وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل [و](١) نصدّقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبيّ مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ؛ قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره؛ قال : فإذا أبيتم هذه فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نُخرِج إلى محمد وأصحابه رجالا مُصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثَقَلاً حتى يحكم الله بيننا وبينه ، فإن نهلِك نهلِك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نَظْهَرْ فلعمرى لنجدنّ النساء والأبناء؛ قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش(٢) بعدهم ؟ قال : فإذا أبيتم علىّ هذه فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلّنا نصيب من محمد وأصحابه غِرّة؛ قالوا : تفسد علينا سَبْتَنا، وتحدث فيه ما لم يُحدث

(١) ساقطة من أ . (٢) فى أ : « خير فى العيش » .

من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه مالم يَخْفَ عليك من المسخ؛ قال: ما بات منكم رجل منذ ولدته أمه ليلة [واحدة](١) من الدهر حازما . ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث إلينا أبا لُبابة(٢) بن عبد المنذر لنستشيره فى أمرنا؛ فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهَش(٣) إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرقّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، أى إنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زلّت(٤) قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عَمَده، وقال: لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىّ. قال: فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو كان جاءنى لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. فأنزل الله تعالى فيه: «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». قالت أم سلمة رضى الله عنها: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السَّحَر وهو يضحك، فقلت: ممّ تضحك أضحك الله سنك يا رسول الله؟ . قال: تِيب على أبى لبابة . قالت: فقلت: أفلا أبشّره يا رسول الله؟ قال: بلى، إن شئت . فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرَب عليهنّ الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك . قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه فقال: لا والله، حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى بيده؛ فلما مرّ عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

(١) ساقطة من أ . (٢) اختار بنو قريظة أبا لبابة لأن ماله وولده وعياله فيهم .
(٣) جهش: فزع وأسرع . (٤) كذا فى الأصول . وفى ابن هشام والمواهب اللدنية والطبرى: «ما زالت» .

قال ابن هشام : أقام أبو لبابة مرتبطا فى الجِذْع ستَّ ليال، تأتيه امرأته فى كلّ وقت صلاة ، فتحلّه للصلاة ، ثم تعود فتربطه .

هذا ما كان من أمر أبى لبابة ؛ وأما يهود فإن ثعلبة بن سَعْية، وأُسيد بن سعْية ، وأسد بن عبيد (١) ، وهم نفر من هَدَل ، قال ابن إسحاق : ليسوا من بنى قريظة ولا النضير، نسبهم فوق ذلك، هم بنو عم القوم، أسلموا فى الليلة التى نزل بنو قريظة فى صبيحتها على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج تلك الليلة عمرو بن سُعدَى القرظىّ فمرّ بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه محمد بن مسلمة ، فلما رآه قال : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سُعدَى — وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا أغدر بمحمد أبدا — فقال محمد بن مسلمة حين عرفه : اللهم لا تحرمنى عثرات (٢) الكرام؛ ثم خلّى سبيله ، فخرج على وجهه، فلم يُدْرَ أين توجّه من الأرض إلى آخر الدهر ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : ذاك رجل نجّاه الله بوفائه؛ ومنهم من يزعم أنه أوثق . والله أعلم .

ذكر نزول بنى قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسؤال الأوس فيهم؛ وتحكيم سعد بن معاذ وحكمه فيهم بحكم الله تعالى وقتلهم

٧٠/١٥

قال : ولما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتواثبت الأوس ، فقالوا : يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت

(١) كذا فى ابن هشام، والمواهب اللدنية، والاستيعاب، والطبرى . وفى الأصول : «أسعد» .

(٢) كذا فى الأصول : وفى بعض نسخ ابن هشام : « إقالة عثرات الكرام » .

فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت . يعنون بنى قينقاع لما أطلقهم[1] صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبىّ بن سلول[2] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ؛ قال : فذاك سعد بن معاذ . وكان سعد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى خَيْمة لامرأة من أسلم يقال لها : رُفَيدة ، كانت تداوى الجرحى محتسبة، فأتاه قومه فحملوه على حمار، ووطّئوا له بوسادة من أَدَم، ثم أتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يقولون له : يا أبا عمرو ، أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولّاك[3] ذلك لتحسن فيهم ؛ فلما أكثروا عليه قال : لقد أَنَى لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم . فرجع بعض من كان معه [من قومه[4]] إلى دار بنى عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ، لكلمته التى سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قوموا إلى سيّدكم" . فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار؛ والأنصار يقولون : قد عمّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقاموا إليه، فقالوا : يا أبا عمرو، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولّاك أمر مواليك لتحكم فيهم ؛ فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم لمَا حكمت ؟ قالوا : نعم؛ قال: وعلى من ها هنا؟ فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ؛ قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسْبَى الذرارىّ[5] والنساء. فقال

(١) فى أ : « أطلقهم رسول الله » . (٢) فى أ : «أبى سلول » . (٣) فى أ : «وليك»
(٤) ساقطة من أ . (٥) الذرارى : الأولاد الذين لم يبلغوا الحلم .

له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرْقِعة[(١)] . أى من فوق سبع سموات ، و يقال : إن اليهود سألوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ . والله تعالى أعلم .

قال : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يوم الخميس لسبع خلون من ذى الحجة ، وأمر بهم فأُدخِلوا[(٢)] المدينة ، فحبسهم فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة ، فحفر بها خنادق ، وجلس هو وأصحابه و بعث إليهم فأُخرجوا إليه أَرْسالا[(٣)] ، فضُربت أعناقهم ، وفيهم حُيىّ بن أخطب ، وكعب بن أسد ، واختلف فى عددهم فقيل : كانوا ستمائة أو سبعمائة . وقيل : بين الثمانمائة والتسعمائة ؛ قال : وقالوا لكعب بن أسد ، وهم يُذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا : يا كعب ، ما تراه يُصنع بنا ؟ قال : أفى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعى لا ينزع ، وأنه من ذُهب [به][(٤)] منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل ! قال : وأُتِى بحُيىّ ابن أخطب ، وعليه حلّة [له][(٥)] فُقّاحية[(٦)] قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة ، لئلا يُسلَبها ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولكن من يَخْذل الله يُخذل ، ثم أقبل

(١) سبعة أرقعة : قال ابن دريد : أرقعة : (جمع رقيع) بتذكير العدد على معنى السقف ، إذ السماء مؤنث سماعى فقياسه سبع أرقعة بتأنيث العدد . وسميت السماء رقيعا لأن بعضها كان يرقع بعضا . و بعضهم يجعل الرقيع السماء الدنيا لاغير ، وكأنها رقعت بالنجوم .

(٢) فى أ : « فأدخلهم » . (٣) أرسالا : أفواجا وفرقا .

(٤) ساقطة من أ . (٥) ساقطة من أ . (٦) فقاحية : أى بلون الورد حين هم أن يتفتح . وفى الأصل : « تفاحية » وهو تحريف .

على الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقَدَر وَمَلحمة كُتبت على بنى إسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه ، فقال جَبَل بن جَوّال الثعلبىّ :

لعمرك ما لام ابن أخطبَ نفسَه * ولكنه من يَخْذُلِ الله يُخْـــذَلِ
لجَاهَد حتى أبلغ النفسَ عُذرَها * وقَلْقَـــل[1] يبغى العـــزّ كلّ مُقلْقَلِ

٥ وروى محمد بن إسحاق بسند يرفعه إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : لم يُقْتَـل من نسائهم إلا امرأة واحدة . قالت : والله إنهـا لعندى تَحدّث معى ، وتضحك ظهرا وبطنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسـلم يقتل رجالها فى السوق ، إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة ؟ قالت : أنا والله ؛ قلت لهـا : ويلك ! مالك ؟ قالت : أُقْتل ؛ قلت : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثته ؛ قالت : فانطلق

١٠ بهـا ، فضربت[2] عنقها ، فكانت عائشة تقول : والله ما أنسى عجبا منها ، طيب نفسها ، وكثرة ضحكها ، وقد عرفت أنها تقتل . قال الواقـدىّ : واسم تلك المرأة : بُنَانة[3] امرأة الحكم القرظىّ ؛ وكانت قتلت خلّاد بن سُويد ، طرحت عليه رَحًى ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنقَها بخلاد بن سويد . قال : وكان علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوّام رضى الله عنهما يضربان أعناق بنى قريظة ، ورسول الله صلى الله

١٥ عليه وسلم جالس هناك .

٧١/١٥

وروى محمـد بن إسحاق عن الزهرى أن الزّبير بن باطا القرظىّ ، وكان يكنى أبا عبدالرحمن — وكان قد منّ على ثابت بن قيس بن شمّاس فى الجاهليّة [يوم بُعَاث[4]] أخذه بجزّ ناصيته ثم خلّى سبيله — فجاءه[5] ثابت يوم قريظة ، وهو شيخ كبير فقال :

(١) قلقل : تحرك . (٢) فى أ : « فضرب » .

٢٠ (٣) كذا فى الطبرى ، والاستيعاب ، والقرطبى ، وأسد الغابة . وفى الأصول : « رمانة » .

(٤) ساقط من أ . (٥) فى أ : « بجاء »

يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفنى؟ فقال : وهل يجهل مثلى مثلك ؛ قال : إنى قد آن أن أجزيَك بيدك عندى ؛ قال : إنّ الكريم يجزى الكريم ؛ ثم أتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، قد كانت للزبير عندى يد، وله علىّ منّة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لى دمه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو لك ؛ فأتاه فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لى دمك ؛ قال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، أهله وولده ؛ قال : هم لك. فأتاه فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطانى امرأتك وولدك، فهم لك ؛ قال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، ماله ؛ فقال : هو لك ؛ فأتاه فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطانى مالك فهو لك ؛ قال : أى ثابت، ما فعل الذى كأنّ وجهه مرآة صِينية يتراءى فيه عذارى الحىّ[1]، كعب بن أسد؟ قال : قتل ؛ قال : فما فعل سيِّد الحاضر والبادى حُيىّ بن أخطب؟ قال : قتل ؛ قال : فما فعل مُقدّمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا كرّنا[2]، عَزّال بن سموءل[3] ؟ قال : قتل ؛ قال : فما فعل المجلسان؟ يعنى بنى كعب بن قريظة، وبنى عمرو بن قريظة ؛ قال : ذهبوا وقتلوا ؛ قال : فإنى أسألك بيدى عندك[4] يا ثابت إلا ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش

(١) فى سيرة ابن هشام : « فيها » .
(٢) كذا فى جـ، والطبرى . وفى أ، وفى هامش جـ : «قدرنا» وفى ابن هشام : «فررنا» .
(٣) كذا فى إمتاع الأسماع، وفى سيرة ابن هشام . وفى الأصل : « سمول » وقد ذكر فى الطبرى بروايات مختلفة، راجع القسم الأول ٣، ٤ ص ١٤٩٦ .
(٤) كذا فى جـ، وسيرة ابن هشام . وفى أ : « بيدك عندى » .

بعد هؤلاء من خير، وما أنا بصابر لله قَبْلَةَ[1] دلْو ناضح حتى ألقى الأحبّة . فقدّمه ثابت فضرب عنقه . فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله « ألقى الأحبة » قال : يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا فيها مخلدا أبدا .

وفى هذه الواقعة يقول ثابت بن قيس :

٥ وفَتْ ذِمّتى أنّى كريمٌ وأننى * صبور إذا ما القوم حادوا[2] عن الصبرِ
وكان زَبِيرٌ أعظمَ الناس مِنّةً * علىّ فلمّا شُدّ كُوعاه[3] بالأسر
أتيت رسولَ الله كيما أفكّه * وكان رسول الله بحرا لنا يجرى

قالوا : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل من أَنْبَت منهم ؛ فسألته سلمى بنت قيس بن المنذر أخت سَلِيط بن قيس — وكانت إحدى خالات
١٠ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت قد صلّت معه القبلتين ، و بايعته بيعة النساء — على رفاعة بن سموءل القرظىّ ، وكان رجلا قد بلغ ، فلاذ بها ، وكان يعرفها ، فقالت : يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، هب لى رفاعة بن سَموءل ، فإنه قد زعم أنه سيصلى و يأكل لحم الجمل . فوهبه لها ، فاستَحْيَتْه .

قال : ثم أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالغنائم فجُمعتْ ، فاصطفى لنفسه
١٥ رَيْحانة بنت عمرو بن خُنَافة إحدى نساء عمرو بن قريظة ، ثم أخرج الخمس من

(١) قبلة دلو ، أى بمقدار ما يقبل الرجل الدلو ليصبها فى الحوض ثم يصرفها ، وهذا كله لا يكون إلا عن استعجال وسرعة . وذكر أبو عبيد الحديث فقال : « قال الزبير : يا ثابت ، ألحقنى بهم ، فلست صابرا عنهم إفراغة دلو » .

(٢) فى أ : « عادوا » .

٢٠ (٣) كذا فى جـ . وفى أ : « كرعاه » .

المتاع والسبي، ثم أمر بالباقى فبيع فيمن يزيد وقسمه بين المسلمين، وكانت السُّهْمان على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهما ، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم ، وصار الخمس إلى مُخَمِّيَة[1] بن جَزْء الزُّبَيدى ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتق منه، ويهب، ويخدم منه من أراد ، وكذلك صنع بما صار إليه من الرِّثّة ، وهى السَّقَط من متاع البيت . ٥

وقال محمد بن إسحاق : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصارىّ أحد بنى عبد الأشهل بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد ، فٱبتاع له بهم خيلا وسلاحا .

وٱستُشهد يوم بنى قريظة من المسلمين : خَلّاد بن سُويد بن ثعلبة بن عمرو الأنصارى الخزرجى، طُرحت عليه رحًى فشدخَتْه شدخا شديدا، ومات أبو سنان ابن مِحْصن بن حُرْثان، أخو بنى أسد بن خزيمة . ١٠ ٧٢/١٥

وأنزل الله عزّ وجل فى شأن بنى قريظة قولَه تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ قال : قوله : « الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ » يعنى قُريظةَ ظاهروا قريشا وغطفان « مِنْ صَيَاصِيهِمْ » أى حصونهم ومعاقلهم ، واحدتها صِيصِيَة « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ » وهم الرجال « وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا » وهم النساء والذرارىّ « وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا » قال يزيد بن رومان [وابن][2] ١٥

(١) كان من مهاجرة الحبشة ، فاستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأخماس .

(٢) ساقطة من أ . ٢٠

زيد ومقاتل : يعنى خيبر . وقال قتادة : كنا نحدث أنها مكة . وقال الحسن : فارس والروم . وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة . والله تعالى أعلم .

ذكر سرية عبد الله بن عَتِيك إلى أبى رافع سلاّم ابن أبى الحُقَيق النضرىّ بخيبر

٥ قال محمد بن سعد فى طبقاته : كانت فى شهر رمضان سنة ستّ من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن إسحاق : كانت هذه السريّة بعد غزوة بنى قريظة . فتكون فى ذى الحجة سنة خمس من الهجرة ، وهو الصحيح إن شاء الله ، ويدلّ عليه أن محمد بن سعد لما ذكر عبد الله بن عتيك فى الطبقات قال فى ترجمته : إن رسول الله ١٠ صلى الله عليه وسلم بعثه فى ذى الحجة سنة خمس إلى أبى رافع سلاّم بن أبى الحقيق بخيبر .

قال محمد بن إسحاق : لما أصابت الأوسُ كعبَ بنَ الأشرف قالت الخزرج : والله لا يذهبون بها فضلا علينا أبدا . فتذاكروا : من رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى العداوة كابن الأشرف ؟ فذكروا ابن أبى الحقيق ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله ، فأذن لهم ، فخرج إليه من الخزرج خمسة نفر ، وهم : عبد الله ١٥ ابن عتيك ، ومسعود بن سِنان ، وعبد الله بن أُنَيس ، وأبو قتادة الحارث بن رِبْعى ، وخُزَاعِىّ[1] بن أسود ، حليف لهم من أسلم .

قالوا[2] : وكان أبو رافع بن أبى الحُقيق قد أجلب فى غطفان ومن حوله من مشركى العرب ، وجعل لهم الجُعْل العظيم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) كذا فى الأصول ، وفى ابن هشام . وفى الطبقات : « الأسود بن خزاعى » .

٢٠ (٢) كذا فى جـ ، وطبقات ابن سعد . وفى أ : « قال » .

فأمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم عبد الله بن عتيك ، ونهاهم أن يقتلوا وليدا أو امرأة ، فخرجوا حتى قدموا خيبر فكمنوا ، فلما هدأت الرِّجْل جاءوا إلى منزله فصعدوا درجة له ، وقدّموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهوديّة ، فاستفتح وقال : جئت أبا رافع بهديّة . ففتحت له امرأته ، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح ، فأشار إليها بالسيف فسكتت ، فدخلوا عليه فعَلَوْه بأسيافهم[1] ، قال ابن أنيس : وكنت رجلا أعشى لا أبصر ، فاتكأتُ بسيفي على بطنه حتى سمعت خَشَّه في الفراش ، وعرفت أنه [قد][2] قضى ، وجعل القوم يضربونه جميعا ، ثم نزلوا وصاحت امرأته ، فتصايح أهل الدار . قال ابن إسحاق : وكان عبد الله بن [عتيك][3] سيئ البصر ، فوقع من الدرجة فوَثِئت يده[4] وَثْئًا شديدا ، قال ابن هشام : ويقال : رِجْله ، قالوا : فحملناه حتى أتينا منهرا من عيونهم — والمناهر ، واحدتها مَنْهرة ، وهو فضاء يكون بين أفنية القوم يلقون فيها كُنَاستهم — فدخلنا فيه .

قال محمد بن سعد : وخرج الحارث أبو زينب في ثلاثة آلاف في آثارهم يطلبونهم بالنيران ، فلم يَرَوْهم ، فرجعوا ، ومكث القوم في مكانهم يومين حتى سكن الطلب . قال ابن إسحاق : فقلنا : فكيف لنا أن نعلم بأن عدو الله قد مات ؟ فقال رجل منا : أنا أذهب فأنظر لكم . فانطلق حتى دخل في الناس ، فوجده ورجال من يهودَ حوله ، وامرأته في يدها مصباح تنظر في وجهه وتحدّثهم وتقول : أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ، ثم أكذبت [نفسي][5] وقلت : ابن عتيك بهذه البلاد !

(١) كذا في جـ . وفي أ : « فعلوه سيافهم وهو تصحيف » . (٢) ساقطة من أ .

(٣) في الأصول : « عبد الله بن أنيس » . والتصويب من ابن هشام ، وأسد الغابة ، والمواهب اللدنية ، والطبري .

(٤) الوثء : صدع يصيب العظم ولا يبلغ العظم فيرم ، وقيل : هو توجع في العظم من غير كسر .

(٥) تكملة من ابن هشام .

ثم أقبلت تنظر فى وجهه وتقول[1] : فاظ[2] وإله يهود . قال : فما سمعت كلمة كانت ألذّ فى نفسى منها ، وجاء فأخبرهم بالخبر ، قالوا : فاحتملنا صاحبنا ، وقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرناه بقتل عدو الله ، واختلفنا عنده فى قتله ، كلنا يدّعيه ، فقال : هاتوا أسيافكم . فجئناه بها ، فنظر إليها ، فقال لسيف عبد الله ابن أنيس : هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعام .

٧٣/١٥

قال الشيخ شرف الدين [عبد المؤمن][3] بن خلف الدمياطى رحمه الله فى سيرته : وفى حديث آخر أن الذى قتله عبد الله بن عتيك وحده ، قال : وهو الصواب . والله أعلم .

وقال حسان بن ثابت الأنصارىّ فى قتل سلام بن أبى الحقيق وابن الأشرف :

لله درّ عِصابةٍ لاقيتهم ... يابن الحُقيق وأنت يا بن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحا كأُسْدٍ فى عرين مغْرِف[4]
حتى أتوكم فى محلّ دياركم ... فسقوكم حتفا ببيض ذُفّف[5]
مستنصرين[6] لنصر دين نبيّهم ... مستصغرين لكلّ أمرٍ مُجحِف[7]

(١) فى ج : « ثم قالت » . (٢) فاظ : مات .
(٣) تكملة من ج .
(٤) فى رواية : « بالبيض الرقاق » يعنى السيوف . مرحا : نشاطا . عرين مغرف : قال أبو ذر الخشنى فى شرح السيرة جـ٢ ص ٣٢٦ : « العرين : غابة الأسد . ومغرف ملتف الأغصان » .
(٥) ذفف : سريعة القتل .
(٦) فى ديوان حسان : « مستبصرين » .
(٧) ومجحف : ذاهب بالنفوس والأموال .

ذكر سرية محمد بن مَسلمة إلى القُرْطاء ، وهم بنو قُرط وقُرَيط من بنى كلاب

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعشر خلون من المحرم ، على رأس تسعة وخمسين شهرا من مهاجَره فى ثلاثين راكبا إلى القُرْطاء[1] ، وهم ينزلون بناحية ضَرِيّة[2] وبين ضريّة والمدينة سبع ليال، فقتل نفرا منهم، وهرب سائرهم، واستاق نعَما وشاءً، ولم يعرض للظّعن، وانحدر إلى المدينة، فخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به، وفَضّ مابقى على أصحابه، فعدلوا الجزور بعشرين من الغنم، وكانت النعم مائة وخمسين بعيرا، والغنم ثلاثة آلاف شاة . وغاب سبع عشرة ليلة، وقدم لليلة بقيت من المحرّم .

ذكر غزوة بنى لِحْيان بناحية عُسفان[3]

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأوّل سنة ست من مهاجَره على ما أورده محمد بن سعد . وقال محمد بن إسحاق : فى جمادى الأولى سنة ست .

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَجَد على عاصم بنِ ثابت وأصحابه — أصحاب الرَّجيع — وَجْدا شديدا، فأظهر أنه يريد الشام .

قال ابن سعد : وعسكر لغزة هلال شهر ربيع الأوّل فى مائتى رجل، معهم عشرون فرسا، واستخلف على المدينة عبد الله بنَ أمّ مكتوم، ثم أسرع المسير حتى انتهى إلى بطن غُرَان ، و بينها وبين عُسفان خمسة أميال ، حيث كان مصاب

(١) كذا ضبطه صاحب المواهب اللدنية ، وانظر جـ ٢ : ١٧٣

(٢) ضرية : قرية لبنى كلاب على طريق البصرة إلى مكة ، وهى إلى مكة أقرب .

(٣) عسفان : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة .

أصحابه، فترحّم عليهم ودعا لهم، فسمعتْ [بهم][1] بنو لحيان، فهربوا[2] فى رءوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يوما أو يومين، فبعث السرايا فى كلّ ناحية، فلم يقدروا على أحد، ثم خرج حتى أتى عسفان، ثم انصرف صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وهو يقول: "آيبون تائبون عابدون، لربّنا حامدون، أعوذ بالله من وَعْثاء السفر وكآبة المنقلَب وسوء المَنظَر فى الأهل والمال". وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة.

ذكر غزوة الغابة، وهى غزوة ذى قَرَد[3]
وهى على بريد من المدينة فى طريق الشام

غزاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى شهر ربيع الأوّل سنة ست من مهاجَره.

قالوا: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون لِقْحة[4] ترعى بالغابة، وكان أبو ذرّ فيها، فأغار عُيَينة بن حِصن ليلة الأربعاء فى أربعين فارسا فاستاقوها وقتلوا ابن أبى ذرّ.

وقال محمد بن إسحاق: وكان فيهم رجل من غِفار وامرأة [له][5]، فقتلوا الرجل وحملوا المرأة [فى اللقاح][5]. وجاء الصّريخ، فنودى: الفزعَ الفزعَ! فنودى:

(١) ساقطة من أ.

(٢) فى أ: «فهربت».

(٣) قرد: بفتح القاف والراء، وحكى الضم فيهما، وحكى ضم أوله وفتح ثانيه.

(٤) اللقحة: الناقة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة.

(٥) زيادة عن ابن هشام.

«ياخيل الله اركبي»؛ وكان أوّل مانودى بها؛ وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج غداة الأربعاء، فكان أوّل من أقدم المِقداد بن عمرو، وعليه الدرع والمِغفر شاهرا سيفه، فعقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء فى رمحه، وقال: اِمض حتى تلحقك الخيول، وأنا على أثرك. واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وخلّف سعد بن عبادة فى ثلثمائة من قومه يحرسون المدينة. قال المقداد: فخرجت فأدركت أخريات العدوّ، وقد قتَل أبو قتادة الحارثُ بن رِبعىّ حبيبَ بن عُيينة بن حِصْن، وغشّاه برده، فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس، فرأوا حبيبا مسجّى[1] ببُرد أبى قتادة [فاسترجع[2] الناس، وقالوا: قتِل أبو قتادة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس بأبى قتادة]، ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع عليه برده، لتعرفوا أنه صاحبه. وقال ابن سعد: إن الذى قتل حبيبا هو المقداد بن عمرو، قتله وقتل قِرفة[3] بن مالك بن حُذيفة بن بدر؛ و إن أبا قتادة قتل مسعدة، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلّم فرسه وسلاحه، وأدرك عكاشة بن مِحصن أوْبارا[4] وابنه عمرو بن أوبار، وهما على بعير واحد، فقتلهما. واستشهد من المسلمين يومئذ مُحرِز بن نضلة، قتله مَسعدة، وأدرك سلمة[5] بن الأكوع القوم وهو على رجليه، فجعل يُراميهم بالنبل و يقول:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَّع[6]

(١) مسجى: مغطى. (٢) مابين القوسين ساقط من أ. (٣) كذا فى ابن سعد، والمواهب اللدنية، والطبرى. وفى الأصل: «قرة». (٤) فى ابن سعد: «أثار». بضم الهمزة. (٥) كان شجاعا راميا يسبق الفرس، وما كذب قط. (٦) يوم الرضع: يعنى يوم هلاك اللئام، من قولهم: لئيم راضع، أى رضع اللؤم فى بطن أمه. وقيل: معناه اليوم يعرف من ارتضعته الحرب من صغره وتدرب بها، و يعرف غيره. راجع المواهب جـ ٢: ص ١٨٢.

حتى انتهى إلى ذى قرد — وهى ناحية خَيْبر مما يلى المُستناخ — قال سلمة : فلحقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس والخيول عشاء، فقلت : يارسول الله، إن القوم عِطاش، فلو بعثتنى فى مائة رجل استنقذت مافى أيديهم من السرح(١)، وأخذت بأعناق القوم . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ملكتَ فأسجِح"(٢)؛ ثم قال : "إنهم الآن ليُقْرَون(٣) فى غَطَفان". وذهب الصريخ إلى بنى عمرو بن عوف، فجاءت الأمداد فلم تزل الخيل تأتى والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى قرد ، فاستنقذوا عشر لِقاح ، وأفلت القوم بما بقى ، وهى عشرة ، وصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى قرد صلاة الخوف، وأقام يوما وليلة يتحسّس الخبر، وقسم فى كلّ مائة من أصحابه جَزورا ينحرونها ، وكانوا خمسمائة ، وقيل : سبعمائة .

ذكر سرية عُكاشة بن مِحصَن الأسدىّ إلى الغَمْر

غمر مرزوق(٤) ، وهو ماء لبنى أسد على ليلتين من فَيْد

قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عكاشة بن محصن إلى الغمر فى أربعين رجلا ، فخرج سريعا ، فنذِر(٥) به القوم فهربوا ، فنزلوا عُلْيا بلادهم، ووجدوا دارهم خُلُوفا(٦)، فبعث عكاشة شجاع بن وهب طليعة، فرأى أثر النعم، فتحمّلوا فأصابوا رَبيئة(٧)

(١) السرح : المال السائم المرسل فى المرعى . (٢) ملكت فأسجح، أى قدرت عليهم فارفق وأحسن العفو . (٣) ليقرون : بفتح الراء وضمها من القرى، وهى الضيافة . وقيل : معنى ضم الراء أنهم يجمعون الماء واللبن . (المواهب ٢ : ١٨٣) .

(٤) فى الأصول ، وكذا فى المواهب : « غمرو مرزوق » . وما أثبتناه عن الطبقات وفى معجم البلدان : غمرة، فقد جاء فيه ما نصه : « وقال ابن الفقيه : غمرة من أعمال المدينة على طريق نجد، أغزاها النبى صلى الله عليه وسلم عكاشة بن محصن » .

(٥) نذر : علم . (٦) أى أصحاب ديارهم غائبين .

(٧) ربيئة : طليعة .

لهم، فأمّنوه، فدلّهم على نَعَم لبنى عمّ له، فأغاروا عليها فاستاقوا مائتى بعير، وأرسلوا الرجل، وحَدَروا[1] النعم إلى المدينة، وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلقوا كيدا.

ذكر سرية محمد بن مَسْلمة إلى بنى ثعلبة بذى القَصّة

قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة إلى بنى ثعلبة، وهم بذى القَصّة فى شهر ربيع الآخر سنة ستّ من مهاجَره، وبين ذى القصة وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا، طريق الرَّبذَة، بعثه فى عشرة نفر فوردوا عليهم [ليلا][2] فأحدق به القوم وهم مائة رجل، فترامَوا ساعة من الليل، ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحا، يُضرب كعبُه فلا يتحرك، وجردوهم من الثياب، ومر رجل من المسلمين بمحمد بن مسلمة فحمله حتى ورد به المدينة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عُبيدة بن الجرّاح فى أربعين رجلا إلى مصارع القوم فلم يجدوا أحدا، ووجدوا نَعَما وشاء، فساقه ورجع.

ذكر سرية أبى عُبيدة بن الجرّاح إلى ذى القَصّة

٧٥/١٥ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الآخر سنة ستّ من مهاجَره فى أربعين رجلا من المسلمين، وسبب ذلك أن بلاد بنى ثعلبة وأَنمار أجدبت، ووقعت سحابة بالمِراض إلى تَغلَمَيْن، والمِراض على ستة وثلاثين ميلا من المدينة، فسارت بنو محارب وثعلبة وأنمار إلى تلك السحابة، واجتمعوا أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى بهَيْفا — موضع على سبعة أميال من المدينة — فبعث رسول الله

(١) حدروا: ساقوا. وفى أ: «قدروا». وهو تحريف.

(٢) ساقطة من أ

صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة ومن معه حين صلّوا المغرب ، فمشوا ليلتهم حتى وافَوا ذا القصّة مع عَمَاية[1] الصبح — وهى[2] موضع فى طريق العراق — فأغاروا عليهم فأعجزوهم هربا فى الجبال ، وأصاب رجلا واحدا فأسلم فتركه ، وأخذ نعما من نعمهم فاستاقه ورِثْة[3] من متاعهم . وقدم المدينة بذلك ، فخمسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم ما بقى عليهم .

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى بنى سُلَيم بالجَمُوم

قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة إلى بنى سليم ، فسار هو ومن معه حتى ورد الجَموم — ناحيةَ بطن نخْل عن يسارها ، و بطن نخل من المدينة على أربعة بُرُد — فأصابوا عليه امرأة من مُزينة يقال لها : حليمة ، فدلّتهم على محلّة من محالّ بنى سُلَيم ، فأصابوا فيها نَعَما وشاء وأَسْرَى ، فكان فيهم زوج حليمة المُزَنيّة ، فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب وهب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمزنيّة نفسَها وزوجَها ، فقال بلال ابن الحارث المُزنىّ فى ذلك :

لَعمركَ ما أخنى[4] المَسُول ولا ونتْ[5] حليمة حتى راح ركبُهما معَا

(١) عماية الصبح : يقال : لقيته فى عماية الصبح ، أى فى ظلمته قبل أن أتبينه .

(٢) هذا ما ذكره المؤلف : وفى معجم البلدان ما يأتى : « قال السكونى : ذو القصة : موضع بين زبالة والشقوق ، دون الشقوق بميلين ، فيه قلب للأعراب يدخلها ماء السماء عذب زلال ، وإلى هذا الموضع كانت غزاة أبى عبيدة بن الجراح ، أرسله إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٣) الرثة : السقط من متاع البيت .

(٤) أخنى : ألحش . وفى أ : « أغنى » .

(٥) فى أ : « دنت » .

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى العِيص لِعير قريش

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الأولى سنة ستّ من مهاجَره فى سبعين ومائة راكب إلى العِيص — وبينها وبين المدينة أربع ليال، وبينها وبين ذى المَرْوَة ليلة — وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن عيرا لقريش قد أقبلت من الشام، فبعثه ومن معه ليتعرض لها، فأخذوها وما فيها، وأخذ يومئذ فِضّة كثيرة لصَفْوان بن أمية، وأسروا ناسا ممّن كان فى العير، منهم أبو العاص بن الربيع، وقدم بهم المدينة، فاستجار أبو العاص بزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجارته، ونادت فى الناس حين صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر: إنى قد أجرت أبا العاص. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما علمت بشىء من هذا](1) قد أجرنا من أجرت. ورد عليه ما أُخذ(2) له كما تقدّم.

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى الطَّرِف إلى بنى ثعلبة

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة سنة ستّ من مهاجَره إلى الطَّرِف — وهو ماء قريب من المَراض، دون النُّخيل، على ستة وثلاثين ميلا من المدينة، طريق البَقَرة على المحجّة — فخرج إلى بنى ثعلبة فى خمسة عشر رجلا فأصاب نَعَما وشاء، وهربت الأعراب، وصبّح زيد بالنّعم المدينة، وهى عشرون بعيرا، ولم يلق كيدا، وغاب أربع ليال، وكان شعارُهم «أمِت أمِت».

---

(١) ما بين القوسين ساقط من أ.

(٢) فى أ: «ما أخذه». وفى الطبقات: «ما أخذ منه».

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمَى ، وهى وراء وادى القُرَى

قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى حِسْمى فى جمادى الآخرة أيضا ، وذلك أن دِحْيَة بن خليفة الكلبى أقبل من عند قيصر صاحب الروم حين بعثه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه ، وقد أجازه[1] وكساه ، ومع دِحية تجارة له ، حتى إذا كان بواد يقال له : شَنَار أو شِنَان[2] ، أغار عليه الهُنَيد بن عارض ، وقيل : [ابن عُوص[3] ، وابنه عارض بن الهُنيد ، وقيل :] عُوص ابن الهُنيد ، الضُّلَعِيّان[4] فى ناس من جُذام بحسمى ، فقطعوا عليه الطريق وأخذوا ما معه ، فلم يتركوا عليه إلا سَمَل[5] ثوب ، فسمع بذلك نفر من بنى الضُّبَيب[6] — [رهط رفاعة بن زيد ممن كان أسلم وأجاب — فنفروا إلى الهنيد وابنه ، وفيهم من بنى الضُّبَيب] النعمان بن أبى جِمال حتى لقُوهم فاقتتلوا ، وانتمى يومئذ قُرّة بن أشقر الضَّفارىّ[7] ثم الضُّلَعىّ ، فقال : أنا ابن لُبنى ، ورمى النعمان بسهم فأصاب ركبته ، وقال : خذها وأنا ابن لُبنى ، ولُبنَى أمّه ، ثم استنقذوا لِدحية متاعَه ، وقدم دِحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة فى خمسمائة رجل وردّ معه دِحية ، فكان زيد يسير الليل ويكمُن النهار ومعه دليل من بنى عُذرة ، فأقبل بهم حتى هجم بهم مع الصبح على القوم ، فأغاروا عليهم ، فقتلوا فيهم فأوجعوا ، وقتلوا الهنيد

٧٦
١٥

(١) أجازه : أعطاه جائزة . وذلك لأنه قارب الإسلام ولم يسلم خوفا على ملكه .

(٢) كذا فى معجم البلدان والطبرى . وفى الأصل : « شيار » .

(٣) ما بين القوسين ساقط من أ .

(٤) الضليع : بطن من جذام .

(٥) سمل ثوب : أى الخلق من الثياب .

(٦) ما بين القوسين ساقط من أ .

(٧) فى أ : « الضفدى » .

وابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونَعَمِهم ونسائهم، فأخذوا ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومن النساء والصبيان مائة، فرحل رِفاعة[1] بن زيد الجذامى فى نفر من قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدفع إليه كتابه الذى كان كتب له ولقومه ليالى قدم عليه فأسلم، وقال: يا رسول الله، لا تحرّم علينا حلالا ولا تحلّ لنا حراما. فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقال أبو يزيد بن عمرو: يا رسول الله، أطلق لنا من كان حيّا، ومن قتل فهو تحت قدمىّ هاتين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق أبو يزيد؛ فبعث معهم عليّا إلى زيد بن حارثة يأمره أن يخلّى بينهم وبين حرمهم وأموالهم، فتوجّه علىّ رضى الله عنه، فلقى رافع بن مَكِيث الجُهَنى بشير زيد بن حارثة على ناقة من إبل القوم، فردها علىّ عليهم، ولقى زيدا بالفحلتين[2] — وهى بين المدينة وذى المروة — فأبلغه [أمر][3] رسول[4] الله صلى الله عليه وسلم، فردّ عليهم كلّ ما كان أخذ منهم.

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى وادى القُرى[5]

قال محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد ابن حارثة إلى وادى القرى أميرا فى شهر رجب سنة ست من الهجرة. ولم يذكر غير ذلك.

---

(١) قدم رفاعة هذا على النبى صلى الله عليه وسلم فى هدنة الحديبية فى جماعة من قومه فأسلموا، وعقد له رسول الله على قومه، وكتب له كتابا إلى قومه فأسلموا. وهذا نص الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله إلى رفاعة بن زيد. إنى بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله، فمن أقبل ففى حزب الله وحزب رسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين». راجع شرح المواهب اللدنية جـ ٢ ص ١٩٢.

(٢) كذا فى الطبقات، ومعجم البلدان. وفى الأصل: «بالنخلتين» وهو تحريف.

(٣) ساقطة من أ. (٤) فى أ: «فابلغه لرسول الله صلى الله عليه وسلم».

(٥) وادى القرى: واد بين الشام والمدينة فيه قرى كثيرة.

ذكر سَرِيّة عبد الرحمن بن عَوْف إلى دُومة[1] الجندل

قال محمد بن سعد رحمه الله : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فى شعبان سنة ست من مهاجره، فأقعده بين يديه وعمّمه بيده وقال : اغزُ بسم الله ، وقاتل[2] فى سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تغُلّ[3] ولا تغدر ، ولا تقتل وليدا . وبعثه إلى كَلْب[4] بدومة الجندل، وقال : إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم . فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأَصْبَغ بن عمرو الكلبىّ، وكان نصرانيا وهو رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من أقام منهم على إعطاء الجزية ، وتزوج عبد الرحمن تُماضِر بنت الأصْبغ وقدم بها المدينة ، وهى أم أبى سَلَمة[5] بن عبد الرحمن .

ذكر سرية على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى بنى سعد بن بكر بفَدَك

قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه فى شعبان سنة ست من الهجرة إلى بنى سعد بن بكر بفَدَك فى مائة رجل ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن لهم جمعا يريدون أن يمدوا يهودَ خيبر، فسار على رضى الله عنه بمن معه ، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى انتهى

(١) دومة الجندل : حصن وقرى من طرف الشام ، بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة .

(٢) فى طبقات ابن سعد : « اغز باسم الله وفى سبيل الله » .

(٣) غل : خان كأغل .

(٤) فى أ : « إلى دومة الجندل » .

(٥) كذا فى أ . وفى ج : « بنت » .

إلى الهَمَج[1] — وهو ماء بين خيبر وفدك، و بين فدك والمدينة ست ليال — فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم فقال : أخبركم على أن تؤمّنونى؟ فأمّنوه فدلّهم، فأغاروا عليهم فأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة، وهربت بنو سعد بالظّعن و رأسهم وَبْر بن عليم، فعزل علىّ رضى الله عنه صفىّ[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَقُوحا تدعى الحَفِدة[3]، ثم عزل الخمس وقسم الغنائم على أصحابه ، وقدم المدينة ولم يلق كيدا . ٥

ذكر سَرِيّة زيد بن حارثة إلى وادى القُرى وقتل أم قِرْفة

كانت هذه السرية فى شهر رمضان سنة ست من مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن زيد بن حارثة خرج فى تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان دون وادى القُرى لقيه ناس من فزارة من بنى بدر، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم، ثم استبل[4] زيد بن حارثة ، وقدم على النبى صلى الله عليه وسلم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم . حكاه محمد بن سعد فى طبقاته . ١٠

وقال محمد بن إسحاق : إن الذى أصاب زيد بن حارثة كان عند غزوة وادى القرى ، فإنه أصيب بها ناس من أصحابه ، وارتُثّ[5] زيد من بين القتلى، ولعل هذه السرية هى التى كانت فى شهر رجب من السنة . ١٥

(١) فى الأصول : « الغمج » ، وصوابه من الطبقات، وانظر معجم البلدان .

(٢) الصفىّ : ما يختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة .

(٣) فى هامش جـ : « الحفدة : السريعة » .

(٤) فى هامش جـ : « استبل، أى عوفى » . وفى أ : « استقبل » . ٢٠

(٥) ارتث : حمل من المعركة رثيثا، أى جريحا وبه رمق .

قال ابن سعد: فخرج زيد بن حارثة بمن معه فكمنوا النهار وساروا الليل، ونَذِرت[(١)] بهم بنو بدر، ثم صبّحهم زيد وأصحابه وكبّروا وأحاطوا بالحاضر[(٢)]، وأخذوا أم قرفة، وهى فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وابنتها جارية بنت مالك بن حُذيفة ابن بدر، فكان الذى أخذ الجارية سلمة بن الأكوع، فوهبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فوهبها صلى الله عليه وسلم لحزْن بن أبى وهب، قال: وعمد قيس ابن المُحسِّر إلى أم قرفة، وهى عجوز كبيرة، فربط بين رجليها حبلا، ثم ربطها بين بعيرين ثم زجرهما فذهبا فقطّعاها[(٣)]، وقتل النعمانَ وعبد الله ابنا مسعدة بن حكمة بن مالك ابن بدر، وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك، فقرع باب النبى صلى الله عليه وسلم فقام إليه عُريانا يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله، وسأله فأخبره بما ظفّره الله به.

ذكر سَرِيّة عبد الله بن رواحة إلى أُسير[(٤)] بن رِزام[(٥)] اليهودىّ بخيبر

كانت هذه السريّة فى شوال سنة ستّ من مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه لما قُتِل أبو رافع سلّام بن أبى الحقيق كما ذكرنا أمّرت يهود عليها أُسَيْر بن رزام، فسار فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجه عبدَ الله بن رَواحة فى ثلاثة نفر من المسلمين فى شهر رمضان سرا

---

(١) نذرت بهم: علموا بهم فحذروهم.

(٢) بالحاضر، أى بمن حضر هناك من فزارة.

(٣) فى شرح المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٩٧ ما يأتى: «ذكر الدولابى: أن زيدا إنما قتلها كذلك لسبها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قيل: ولأنها جهزت ثلاثين راكبا من ولدها، وولد ولدها وقالت: اغزوا المدينة، واقتلوا محمدا».

(٤) فى رواية أخرى: «يسير» بضم الياء وفتح السين.

(٥) فى الأصول: «زارم»، والتصويب من المواهب وابن هشام.

فسأل عن خبره وغِرّته (١) ، فأُخبر بذلك ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، فانتدَبَ له ثلاثون رجلا ، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة فقدموا على أُسَير فقالوا له : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؛ قال : نعم ، ولى منكم مثل ذلك ؛ قالوا : نعم ؛ فقالوا له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك . فطمع أُسير فى ذلك ، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود ، مع كل رجل رَدِيف (٢) من المسلمين ، حتى إذا كانوا بقَرْقَرة (٣) ثِبَار ندم أُسير ، قال عبد الله ابن أُنيس — وكان فى السريّة : فأهوى بيده إلى سيفى ، ففطنت له ودفعت بعيرى فقلت : غدرا أى عدو الله ! فعل ذلك مرتين ، فنزلت فسبقت القوم حتى انفردت إلى أسير فضربته بالسيف ، فأندَرْت (٤) عامة فخذه وساقه ، وسقط عن بعيره وبيده مِحرش (٥) من شَوْحط (٦) ، فضربنى به فشجّنى مأمومة (٧) ، وملنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شدّا ، ولم يصَب من المسلمين أحد ، ثم أقبلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدّثناه الحديث ، فقال : قد نجاكم الله من القوم الظالمين . وتَفَل صلى الله عليه وسلم على شجّة عبد الله بن أنيس فلم تقِح ولم تُؤذه .

---

(١) غرته : غفلته .

(٢) الرديف : الذى يركب خلف الراكب .

(٣) قرقرة ثبار : موضع على ستة أميال من خيبر .

(٤) أندرت : قطعت .

(٥) المخرش والمخراش : عصا معوجة الرأس كالصولجان .

(٦) شوحط : من شجر الجبال تتخذ منه القسى .

(٧) شجة مأمومة : بلغت أم الرأس .

٧٨
١٥

ذكر سرية كُرْز بن جابر الفِهرىّ إلى العُرَنيّين

كانت هـذه السرية فى شوّال سـنة ست من مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا : قدم نفر من عُرَينة ثمانية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا واستوبئوا(١) المدينة، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى لِقاحه، وكانت ترعى بذى الجَدْر — ناحية قُباء قريبـا من عَيْر، على سـتة أميال من المدينة — فكانوا فيها حتى صحّوا وسمنوا، فعدَوا على اللقاح فاستاقوها، فأدركهم يسار مولى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ومعـه نفر، فقاتلهم، فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشّـوك فى لسانه وعينيه حتى مات، فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبر، فبعث فى أثرهم عشرين فارسـا، واستعمل عليهم كُرْز بن جابر الفِهرىّ، فأدركوهم فأحاطوا بهـم وأسروهم(٢) وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة، فخرجوا بهم نحوه، فلقُوه بالزّغابة(٣) بمجتمَع السّيول، فأمر بهم فقُطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِلَتْ أعينهم، وصُلبوا هنالك. وأنزل الله تعالى على رسوله : ﴿ إِنَّمَـا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ . فلم يسمل بعد ذلك عينا، وكانت اللقاح خمس عشرة لِقْحة غِزارا فردوها إلى المدينة، ففقد منها لِقحة تدعى الحناء، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، فقيل : نحروها .

---

(١) استوبئوا : استوخموا . وفى أ : « استوا » .

(٢) فى أ : « وكسروهم » .

(٣) ضبطت فى القاموس بضم الزاى، وفى معجم البلدان بفتحها .

ذكر سرية عمرو بن أمية الضَّمْرىّ وسلمة بن أسلم إلى أبى سفيان بن حرب بمكة

قال محمد بن سعد فى طبقاته : وذلك أن أبا سفيان بن حرب قال لنفر من قريش : ألا أحد يغتر[1] محمدا فإنه يمشى فى الأسواق[2]؟ فأتاه رجل [من الأعراب][3] فقال : قد وَجَدْتَ أجمع الرجال قلبا[4]، وأشدّه بطشا[4]، وأسرعه شدّا[4]، فإن أنت قويتنى خرجت إليه حتى أغتاله، ومعى خنجر[5] مثل خافية النسر؛ قال : أنت صاحبنا؛ فأعطاه بعيرا ونفقة، وقال : اطوِ أمرك؛ فخرج ليلا فسار على راحلته خمسا وصبّح ظهر الحرّة صبح سادسة، ثم أقبل فسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دُلّ عليه، فعقل راحلته، ثم أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مسجد بنى عبد الأشهل، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن هذا ليريد غدرا". فذهب ليجثى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجذبه أُسَيد بن الحضير بداخلة[6] إزاره، فإذا بالخنجر، فسُقِط[7] فى يده، وقال : دمى دمى ! وأخذ أسيد بلبّته فذعته[8]، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اصدُقنى، ما أنت؟" قال : وأنا آمن؟ قال : نعم؛ فأخبره بخبره، فخلّى عنه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) يغتر، أى يأتيه على غفلة. وفى الأصول : « يغز »، وصوابه عن المواهب فيما نقله عن الطبقات. (٢) كذا فى حـ. وفى أ : « فيمشى ». (٣) ساقطة من أ.

(٤) كذا فى الأصل، والطبقات. وفى المواهب : « أشدهم، وأسرعهم ».

(٥) خافية النسر : ريشة صغيرة فى جناح النسر دون العشر ريشات التى فى مقدم الجناح.

(٦) بداخلة إزاره؛ أى طرفه وحاشيته من داخل.

(٧) سقط فى يده : أى ندم. (٨) ذعته : أى خنقه أشدّ الخنق. وفى أ، وحـ، والطبقات : « فدعته » بالدال المهملة. وفى هامش حـ : « دعته : إذا خنقه أشد الخنق » وهو تحريف. والصواب « ذعته » بالذال المعجمة فى الجميع.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرىّ ، وسلمة بن أسلم ابن أبى حريش[(١)] إلى أبى سفيان بن حرب ، وقال : إن أصبتما منه غِرة فاقتلاه ؛ فدخلا مكة ، ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلا ، فرآه معاوية بن أبى سفيان فعرفه ، وأخبر قريشا بمكانه ، فخافوه وطلبوه ، وكان فاتكا فى الجاهلية ، وقالوا : لم يأت عمرو لخير ؛ فحشد له أهل مكة وتجمعوا ، فهرب عمرو وسلمة ، فلقى عمرو عُبيد الله ابن مالك بن عبد الله[(٢)] التيمى [فقتله][(٣)] وقتل آخر من بنى الدّيل ، سمعه يتغنى ويقول :

ولست بمسلم ما دمت حيًّا ولست أدِين دينَ المسلمينا

ولقى رسولين لقريش بعثتهما يتحسّسان الخبر ، فقتل أحدهما وأسر الآخر ، [فقدم[(٤)] به المدينة] فجعل يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله يضحك ؛ هكذا حكى محمد بن سعد .

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام رحمه الله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن أميّة الضَّمْرى ، ومعه جَبّار بن صخر الأنصارىّ ، وذلك بعد مقتل خُبَيب بن عدىّ وأصحابه ، قال : فخرجا حتى قدما مكة ، وحبسا جملهما بشِعب من شعاب يأجج[(٥)] ، ثم دخلا مكة ليلا ، فقال جبّار بن صخر لعمرو : لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين ؛ قال عمرو : فطفنا وصلينا ، ثم خرجنا نريد أبا سفيان ، فوالله إنا لنمشى بمكة إذ نظر إلىّ رجل فعرفنى ، فقال : عمرو بن أمية ، والله إنْ قَدِمها إلا لشرّ ؛ فقلت لصاحبى : النجاء ؛ فخرجنا نشتدّ حتى أصعدنا فى جبل ، وخرجوا فى طلبنا ، حتى إذا علونا الجبل يئسوا منا ، فدخلنا كهفا

٧٩/١٥

(١) كذا فى الأصول ، وفى ابن هشام : « ابن حريش » .

(٢) كذا فى الأصول . وفى المواهب ، والطبقات : « عبيد الله » .

(٣) ساقط من أ . (٤) تكملة من جـ . (٥) يأجج : اسم موضع بمكة .

فى الجبل فبتنا ، وقد رَضَمْنا[1] دوننا حجارة ، فلما أصبحنا غدا رجل من قريش يقود فرسا له ، فغشيَنا ونحن فى الغار ، فقلت : إن رآنا صاح بنا فنؤخذ فنقتل ؛ قال : فخرجت إليه فضربته على ثدييه[2] بخنجر كنت قد أعددته لأبى سفيان ، فصاح صيحة أسمع أهل مكة ، ورجعت فدخلت مكانى ، وجاءه الناس يشتدّون وهو بآخر رَمق ، فقالوا : مَنْ ضربك ؟ قال : عمرو بن أمية . ومات لوقته ، ولم يدلّ علينا ، فاحتملوه ، فقلت لصاحبي لما أمسينا : النجاء ؛ فخرجنا ليلا من مكة نريد المدينة ، فمررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خُبيب ، فقال أحدهم : والله مارأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية ، لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو ؛ قال : فلما حاذى عمرو الخشبة شدّ عليها واحتملها ، وخرجا شدًّا ، وخرجوا وراءه ، حتى أتى جُرْفا بمهْبط مَسِيل يأْجِج ، فرمى بالخشبة فى الجُرف ، فغيّبه الله عنهم ، فلم يقدروا عليه . قال عمرو : وقلت لصاحبي : النجاء ، حتى تأتى بعيرك فتقعد عليه ، فإنى سأشغل عنك القوم ؛ قال : ومضيت حتى خرجت على ضَجْنان[3] ، ثم أويت إلى جبل فدخلت كهفا ، فبينا أنا فيه إذ دخل علىّ شيخ من بنى الدِّيل أعور ، فى غُنَيمة له ؛ فقال : مَنِ الرجل ؟ قلت : من بنى بكر ، فمَنْ[4] أنت ؟ قال : من بنى بكر ؛ فقلت : مرحبا ؛ فاضطجع ، ثم رفع عقيرته فقال :

ولست بمسلم ما دمت حيًّا * ولست أَدِينُ دينَ المسلمينَا

---

(١) رضم الحجارة : جعل بعضها على بعض .

(٢) كذا فى الأصل . وفى ابن هشام : « ثديه » .

(٣) ضجنان : اسم جبل قرب مكة .

(٤) كذا فى جـ . وفى ا : « فقلت : من بكر . قال : فمن أنت من بنى بكر ؟ » .

فقلت فى نفسى : ستعلم ؛ فأمهلته حتى إذا نام أخذت قوسى فجعلت سِيَتها[(١)] فى عينه الصحيحة، ثم تحاملت عليها حتى بلغت العظم، ثم خرجت حتى جئت العَرج[(٢)]، ثم سلكت رَكُوبة[(٣)]، حتى إذا هبطت النَّقيع[(٤)] إذا رجلان من قريش من المشركين، كانت قريش بعثتهما عينا إلى المدينة يتحسّسان؛ فقلت : استأسرا؛ فأبيا، فرميت أحدهما بسهم فقتلته، ثم استأسر الآخر فأوثقته رباطا، وقدمت به المدينة .

ولم يذكر أحد منهما تاريخ هذه السريّة، فى أى شهر كانت، فاذكُره .

ذكر غزوة الحُدَيْبِيَة[(٥)] وما وقع فيها من بيعة الرِّضوان ومهادنة قريش وغير ذلك

كانت غزوة الحُدَيْبِيَة فى ذى الحجة سنة ست من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن سعد : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى العمرة، فأسرعوا وتهيئوا، ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبين، وركب راحلته القَصْواء[(٦)] وخرج، وذلك يوم الاثنين لهلال ذى القعدة، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم . وقال ابن إسحاق : استعمل على المدينة نُمَيلة بن

(١) سية القوس : ما عطف من طرفها .

(٢) العرج : اسم منزل بطريق مكة، أو واد بالحجاز .

(٣) ركوبة : ثنية بين مكة والمدينة عند العرج .

(٤) النقيع : موضع ببلاد مزينة على ليلتين من المدينة .

(٥) الحديبية : بئر سمى المكان بها، وقيل : شجرة حدباء سمى المكان بها . وقيل : قرية متوسطة قريبة من مكة .

(٦) القصواء، لقب ناقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

عبد الله اللَّيثى . قال ابن سعد : ولم يُخرِج رسول الله صلى الله عليه وسلم معه[(١)] بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف فى القُرُب، وساق بُدْنا[(٢)] وساق أصحابه بدنا، فصلى الظهر بذى الحُلَيفة : ثم دعا بالبدن التى ساق فجُلِّلت[(٣)]، ثم أشعرها[(٤)] فى الشقّ الأيمن وقلّدها[(٥)]، وأشعر أصحابه أيضا، وهى موجّهات إلى القبلة، وهى سبعون بَدَنة، فيها جمل أبى جهل الذى غَنِمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولبّى، وقدّم عبّاد بن بشر أمامه طليعةً فى عشرين فارسا من خيل المسلمين، وفيهم رجال من المهاجرين والأنصار، وخرج معه صلى الله عليه وسلم من المسلمين ألف وأربعمائة على الصحيح، وقيل : ألف وستمائة ؛ ويقال : ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلا ؛ وأخرج معه من أزواجه أم سلمة رضى الله عنها، وبلغ المشركين خروجه، فأجمع رأيهم على صدّه عن المسجد الحرام، وعسكروا ببَلْدَح[(٦)] وقدّموا مائتى فارس إلى كُرَاع[(٧)] الغَميم، عليهم خالد بن الوليد، ويقال : عكرمة ابن أبى جهل .

قال محمد بن إسحاق : قال الزهرىّ : لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعُسْفان لقيه بشر بن سُفيان الكعْبى — قال ابن هشام : ويقال : بُسْر — فقال : ٨٠/١٥

(١) حذف المؤلف المفعول هنا، والتقدير ولم يخرج معه أحدا .

(٢) البدن : جمع بدنة، وهى الناقة أو البقرة تنحر بمكة .

(٣) جللت : ألبست ما تصان به .

(٤) أشعرها : أعلمها، وذلك بأن ضرب صفحة السنام اليمنى بحديدة فلطخها بدمها إشعارا بأنها هدى . (٥) قلدها : علق فى عنقها شيئا ليعلم أنها هدى .

(٦) بلدح : واد قبل مكة من جهة الغرب .

(٧) كراع الغميم : موضع بين مكة والمدينة .

يا رسول الله ، هـذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العُوذ المطافيل[(١)] ، قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذى طُوًى ، يعاهدون الله ألا ندخلها عليهم أبدا ، وهـذا خالد بن الوليـد فى خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغَميم . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[(٢)]" .

قال محمد بن سعد : ودنا خالد بن الوليد فى خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فأمر رسـول الله صلى الله عليـه وسلم عبّاد بن بشر فتقدم فى خيله ، فأقام بإزائه وصفّ أصحابه ، وحانت صلاة الظهر ، فصلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الخوف ، فلما أمسى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : تيامنوا فى هذا الموضع العَضل[(٣)] — موضع منعطف فى الوادى — فإن عيون قريش بمرّ الظّهران وبضَجْنان . فسار حتى دنا من الحديبية ، وهى طرف الحرم على تسعة أميال من مكة ، فوقفت[(٤)] يدا راحلته على ثنيّة تهبط على غائط القوم ، فبركت .

---

(١) العوذ المطافيل : النـوق التى وضعت أولادها حديثا . يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان . وفى هامش ج ما يأتى : « حاشية : العوذ : نتاج الناقة القريب العهـد بالولادة . والمطافيل : كل ما يتبع أمه من سائر الحيوان » .

(٢) السالفة : صفحة العنق ، وكنى بانفرادها عن الموت .

(٣) فى حاشـية ج : « العضل : جمع عضـلة ، وهى شجرة إذا أكل منهـا البعير سلحته » . وفى معجم البـلدان : « العضل : موضع بالبادية كثير الفياض » . وفى ابن سـعد وإمتاع الأسماع : « فى هذا العصل » بالصاد المهملة . والعصل : الرمل الملتوى المعوج .

(٤) فى ابن سعد : « فوقعت » .

وقال أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبيّ فى تفسيره : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان بغدير الأشطاط[(١)] قريبا من عُسْفان أتاه عَيْنُه الخزاعىّ، فقال : إنى تركت كعب بن لُؤىّ وعامر بن لؤى قد جمعا لك الأحابيش[(٢)] ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أشيروا علىّ، أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين عاونوهم[(٣)] فنصيبهم ؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين، وإن يجيئوا [تكُنْ][(٤)] عنقا قطعها الله ، أو ترون أن نؤمّ البيت فمن صدّنا عنه قاتلناه ؟ فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ، إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا و بين البيت قاتلناه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فرُوحوا إذًا؛ فراحوا، حتى إذا كان بعُسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى ، وذكر من قوله ومن جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقدمناه إلى قوله : أو تنفرد هذه السالفة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال رجل مِن أَسلَم : أنا يا رسول الله . فخرج بهم على طريق وعر حَزْن بين شِعاب، فلما خرجوا منه، وقد شق ذلك على المسلمين وأفضى إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه . ففعلوا،

---

(١) غدير الأشطاط : موضع تلقاء الحديبية .

(٢) الأحابيش : هم بنو الحون بن خزيمة ، و بنو الحارث بن عبد مناة و بنو المصطلق من خزاعة ، كانوا تحالفوا مع قريش، قيل : تحت جبل يقال له : الحبشى أسفل مكة . وقيل : سموا بذلك لتحبشهم أى تجمعهم .

(٣) كذا فى جـ . وفى أ : « أعاونوهم » .

(٤) كذا وردت هذه العبارة فى أ ، وجـ . وفى تفسير الكشف والبيان : « فإن قعدوا قعدوا موفورين، وإن نجوا عنقا قطعها الله » . والتصويب من شرح المواهب ٢ : ٢١٩ .

فقال : والله إنها لَحِطَّة[١] التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقبلوها ؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس : اسلكوا ذات اليمين ، فى طريق يخرجه على ثنية المُرار[٢] على مهبط من أسفل مكة ، فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش قَترة[٣] الجيش ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خالفهم عن طريقهم ، ركضوا راجعين إلى قريش ينذرونهم ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا سلك ثنيّة المرار بركت به ناقته ، فقال الناس : حَلْ حَلْ[٤] ؛ فقال : ما حل ؛ قالوا : خَلَأَت[٥] القَصْواء ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " ماخلأت وماذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل[٦] ؛ ثم قال : والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش إلى خُطة يعظمون بها حرمات الله ، وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها " ؛ ثم قال للناس : " انزلوا " فنزلوا بأقصى الحديبية على بئر قليلة الماء ، إنما يتبرّضه[٧] الناس تبرّضا ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكا الناس إلى النبى صلى الله عليه وسلم العطش ، فنزع سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه ، يقال له : ناجية بن عُمير بن يَعْمَر بن دارِم ، وهو سائق بُدْن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل فى تلك البئر فغرزه فى جوفها

---

(١) الحطة : يشير إلى قول الله تعالى لبنى إسرائيل : «وقولوا حطة» ومعناه : اللهم حط عنا ذنوبنا .

(٢) فى الأصل : « المران » وهو تحريف .

(٣) قترة الجيش : غباره . وفى أ : « قرة الجيش » .

(٤) حل حل : كلمة تقال للناقة إذا تركت السير . وقال الخطابى : حل واحدة فبالسكون ، وإن أعدتها نونت الأولى وسكنت الثانية . وحكى غيره : السكون فيهما والتنوين كنظيره فى بخ بخ . لكن الرواية بالسكون فيهما . راجع شرح المواهب اللدنية جـ ٢ ص ٢٢١ .

(٥) فى هامش جـ : « الخلأ : حران الإبل » .

(٦) حابس الفيل : أى حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها .

(٧) يتبرضه الناس : أى يأخذونه قليلا قليلا .

جفاش[1] الماء بالرّى ، حتى صدروا[2] عنه ؛ ويقال : إن جارية من الأنصار أقبلت بدلوها ، وناجية فى القَليب يميح[3] على الناس ، فقالت :

يأيها المائح دَلوى دُونَكا * إنى رأيت الناس يَحمدونكا
يُثنون خيرا ويُمجّدونكا * أرجوك للخير كما يرجونكا

٨١/١٥

فقال ناجية :

قد علمت جاريةٌ يَمانيهْ * أنّى أنا المائح وٱسمى ناجيه
وطعْنةٍ ذات رشاش واهيه * طعنتها تحت صدور العاديه[4]

قال ابن إسحاق : ناجية بن جندب بن عُمَير الأَسلمى ؛ قال : وزعم بعض أهل العلم أن البراء بن عازب كان يقول : أنا الذى نزلت بسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن إسحاق والثعلبى : روى عن الزُّهرى عن عُروة بن الزبير عن المِسور بن مَخْرمة ومروان بن الحكم : فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه بُدَيل بن ورقاء الخُزاعى فى نفر من قومه ، وكانت خزاعة عَيْبةَ[5] نُصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة ، فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر ابن لؤى قد نزلا أَعْداد[6] مياه الحديبية ، معهم العُوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب ، وأضرّت بهم ، فإن شاءوا ماددناهم[7] مدة

(١) جاش : فار (٢) صدروا : رجعوا .
(٣) الميح : أن تدخل البئر فتملأ الدلو لقلة مائها .
(٤) العادية : القوم الذين يعدون أى يسرعون العدو .
(٥) عيبة نصح ، أى أنهم موضع نصح .
(٦) أعداد : جمع عدّ ، وهو الماء الذى لا انقطاع له . ويطلق أيضا على الكثرة فى الشىء .
(٧) ماددناهم مدة : جعلنا بيننا وبينهم مدة نترك الحرب فيها .

ويخلوا بيني و بين الناس، فإن أظهر، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا[(١)]، فوالله لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لَيُنْفذنّ الله أمره. قال بُدَيل: سنبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا؛ فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا فى أن تحدثنا عنه بشىء؛ وقال ذوو الرأى منهم: هاتِ كما سمعته يقول؛ قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهم: إنه لم يأت لقتال، و إنما جاء زائرا لهذا البيت. فاتهموه وجبهوه[(٢)] وقالوا: إن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا يحدّث[(٣)] بذلك عنا العرب؛ ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص بن الأخيَف أخا بنى عامر ابن لؤىّ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال: هذا رجل غادر. وفى رواية: «فاجر». فلما انتهى إليه وكلمه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوا مما قال لبُديل بن ورقاء وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال النبى صلى الله عليه وسلم، ثم بعثوا إليه الحُلَيْس بن عَلْقمة أو ابن زَبّان[(٤)]، وكان يومئذ سيّد الأحابيش، وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا من قوم يتألّهون[(٥)]، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه. فلما رأى الهَدْىَ يسيل[(٦)] عليه من عرض الوادى فى قلائده، قد أكل أوباره[(٧)] من طول الحبس عن مَحِلّه[(٨)] رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما

(١) جموا: استراحوا. (٢) جبهوه: لقوه بما يكره.
(٣) هذا فى جـ. وفى ا: «ولا تحدث بذلك العرب عنا».
(٤) كذا فى ابن هشام، والطبرى. وفى الأصل: «ابن ريان».
(٥) فى حاشية جـ: «التأله: التعبد؛ قال رؤبة: ضحكن واستهزأن من تألهى».
(٦) فى ا: «سال». (٧) أوباره: جمع وبر وهو صوف الإبل. وفى ا: «أوتاره».
(٨) محل الهدى: الموضع أو الوقت الذى يحل فيه نحره.

لما رأى ، فقال لهم ذلك ؛ فقالوا له : ياحُلَيس ، إنما أنت أعرابى لا علم لك ؛ فقال : يامعشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاهدناكم، أيُصَدّ عن بيت الله من جاءه معظّما له ؟ والذى نفس الحُليس بيده لتُخَلُّنّ بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد ؛ فقالوا له : مَهْ ، كف عنا ياحليس ، ودعنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ؛ قال : ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عُروة بن مسعود الثقفى، فقال لهم : يامعشر قريش، إنى قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد — وكان عروة لِسُبَيعة بنت عبد شمس — وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى ؛ قالوا : صدقت، ما أنت عندنا بمتّهم . فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ثم قال : يامحمد، أجمعتَ أوْشَابَ[1] الناس ثم جئت بهم إلى بَيْضتك[2] لتفضّها بهم؟ يامحمد، أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإنها قريش قد خرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عَنْوة [أبدا][3] وإنى لأرى وجوها وأوشابا من الناس خليقا[4] أن يفرّوا ويدَعوك ، وايم الله ، لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا غدا عنك . وأبو بكر الصديق رضى الله عنه خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد، فقال لعُروة : امصَصْ بَظْر[5] اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ — واللات طاغية ثقيف التى كانوا

٨٢/١٥

(١) فى حاشية ح : « أوشاب : أى أخلاط من الناس . وأوشاب : مثل أوباش » .

(٢) بيضتك : أصلك وعشيرتك . (٣) ساقطة من أ .

(٤) فى الأصول : « خلقا » ، والتصويب من المواهب .

(٥) أقام أبو بكر رضى الله عنه معبود عروة ، وهو صنمه اللات مقام أمه ، لأن عادة العرب الشتم بذلك بلفظ الأم ، فأبدله الصديق باللات ، فنزله منزلة امرأة تحقيرا لمعبوده . وفى أ : « بضر اللات » .

يعبدونها — فقال : من هذا يامحمد ؟ قال : هذا ابن أبى قُحافة ؛ قال : أما والله لولا يدٌ[1] كانت لك عندى لكافأتك بها ، ولكن هذه بها . قال : ثم جعل يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه ، والمُغيرة بن شُعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديد ، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : اكفُف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألا تصل إليك ؛ قال : فيقول عروة : ويحك ! ما أفظّك وما أغلظك[2] ! قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عروة : من هذا يامحمد ؟ قال : "هذا ابن أخيك المُغيرة بن شُعبة" قال : أى غُدَر ، وهل غسلتَ سوأتكَ إلا بالأمس ؟ — وكان المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من[3] ثقيف ، صحبهم فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما الإسلام فقد قبلناه ، وأما المال فإنه مال غَدْر ، ولا حاجة لنا فيه" . قال : ولما قتلهم المغيرة تهايج الحيّان من ثقيف : رهط القتلى ورهط المغيرة ، فَودَى عُروة المقتولين ثلاث عشرة دِية ، وأصلح ذلك الأمر ، فلذلك قال للمغيرة ما قال — قال : ثم كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عُروة بنحو ما كلم به أصحابه ، فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وَضوءه ، ولا يبصق بُصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدّون[4] النظر إليه تعظيما

(١) كان عروة قد تحمل بدية فأعانه فيها أبو بكر بعشر قلائص ، وكان غيره يعينه بالاثنين والثلاث .

(٢) فى حـ : « ما أفظك وأغلظك » .

(٣) كذا فى حـ . وفى ا : « بنى مالك بن ثقيف » .

(٤) يحدّون : يحدّقون .

له . فرجع إلى قريش فقال : يامعشر قريش، والله لقد وفَدتُ على الملوك، وفدت على قَيصرَ فى مُلكه ،وكسرى فى مُلكه ،والنجاشىّ فى ملكه ،و إنى والله مارأيت ملكا فى قومه قطّ[1] يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمدا ،والله إن تنخّم نُخامة إلا وقعت فى كفّ رجل منهم فدلَك بها وجهَه وجلدَه ، و إذا أمرهم ابتدروا أمره ، و إذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه ، و إذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم ، ومايُحِدّون النظر إليه تعظيما له ، ولقد رأيت قوما لا يُسْلمونه لشىء أبدا ، فَرَوا رأيكم . وفى رواية قال : و إنه قد عرض عليكم خطّة رُشْد فاقبلوها .

قال ابن إسحاق : و بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خراش بن أمية الخُزاعىّ إلى قريش بمكة ، وحمله على بعير يقال له : الثّعلب ، ليبلّغ أشرافهم ما قد جاء له ، فعقروا الجمل وأرادوا قتل خراش ، فمنعتْه الأحابيش ، فخلّوا سبيله . قال : وبعثت قريش أربعين رجلا منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأُخِذوا وأُتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم ، وخلّى سبيلهم ، وكانوا رمَوا فى العسكر بالحجارة والنّبل . ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعثه إلى مكة ، فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول الله، إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدىّ بن كعب أحد يمنعنى، وقد عرفتْ قريش عداوتى إيّاها ، وغلظتى عليها ، ولكنى أدلّك على رجل أعزّ بها منّى، عثمان بن عفان، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم و بعثه إلى أبى سفيان ابن حرب وأشرافِ قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، و إنما جاء زائرا لهذا

(١) فى ا : « ملكا قط فى قومه » .

البيت ومعظما لحرمته . فخرج حتى أتى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ فلما فرغ عثمان من الرسالة قال له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ ؛ فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قُتل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا نبرحُ حتّى نناجزَ القوم" . ودعا الناس إلى البيعة .

ذكر بَيْعة الرِّضْوان

٨٣/١٥ كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، قال الثعلبيّ : وكانت سَمُرة[1] . قال : وكان سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن عثمان بن عفّان قُتل قال : "لا نبرح حتى نناجز القوم"؛ ودعا الناس إلى البيعة، قال : فكان الناس يقولون : بايَعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت . وقال عبد الله ابن مُغَفَّل : كنت قائما على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم وبيدى غصن من السَّمُرة أذبّ عنه وهو يبايع الناس ، فلم يبايعهم على الموت وإنما بايعهم على ألا يفرّوا . قال جابر بن عبد الله : فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجدّ بن قيس أخو بنى سلمة، لَكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته ، مستترا بها عن الناس .

وكان أول مَنْ بايع بيعة الرضوان رجل من بنى أسد يقال له : [أبو][2] سِنان ابن وهب . ثم أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن الذى ذكروا من أمر عثمان باطل . واختلف فى عدد أهل بيعة الرضوان، وهو مبنىّ على الاختلاف فى عدد

(١) السمرة : شجرة الطلح . (٢) ساقطة من أ ، وفى اسمه خلاف ، وانظر أسد الغابة ٥ : ٢٣١

أصحاب عمرة الحديبية كما تقدم ، لم يتخلف منهم إلا الجَدّ بن قيس ، قالوا : ولما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بايع لعثمان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى . روى أن رجلا جاء إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فسأله عن عثمان رضى الله عنه ، أكان شهد بدرا ؟ قال : لا ؛ قال : أكان شهد بيعة الرضوان ؟ قال : لا ؛ قال : فكان من الذين تولّوا يومَ ٱلتقى ٱلجمعان ؟ قال : نعم . قال : فانطلق الرجل ؛ فقيل لعبد الله بن عمر : إن هذا يرى أنك قد عبته ، قال : علىّ به ؛ فأُتى به فقال : أمّا بدر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب له بسهمه [وأجره][1] ؛ وأما بيعة الرضوان فقد بايع له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيَدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من يد عثمان ، وأما الذين تولّوا يوم ٱلتقى الجمعان فقد عفا الله عنهم ، فاجْهَد علىّ جَهْدَك[2] .

وأنزل الله عزّ وجلّ فى الّذين بايعوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم هذه البيعة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ . قال الكلبىّ : معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة . وقال ابن كيسان : قوة الله ونُصرته فوق قوّتهم ونصرتهم . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وهو الجنة . وقوله تعالى فى السورة أيضا : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ . قيل : فتح خيبر ؛ رُوى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة" .

(١) ساقطة من ا .

(٢) اجهد جهدك ، أى ابلغ غايتك .

ذكر هُدنة قريش وما وقع فيها من الشروط

قال : ثم بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سُهَيل بن عمرو أخا بنى عامر بن لؤىّ ، فقالوا : إيتِ محمدا فصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قد سهل أمرُكم، القوم ماتُّون إليكم بأرحامهم، وسائلوكم الصلح، فابعثوا الهَدْى وأظهروا التلبية ، لعلّ ذلك يُلين قلوبَهم" . فلبّوا من نواحى العسكر حتى ارتجت أصواتُهم بالتلبية ، قال : وانتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم فأطال ، وتراجعا ، ثم جرى الصلح بينهما ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر، أليس برسول الله صلى الله عليه وسلم حقا ؟ قال : بلى ؛ قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ؛ قال : أو ليسوا المشركين ؟ قال : بلى ؛ قال : فعلامَ نُعطِى الدّنِيّة[1] فى ديننا؟ قال أبو بكر : أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس نعصى[2] رأيه، فاستمسك بغَرْزه[3] حتى تموت ، فوالله إنه لعلَى الحق ؛ قال عمر : أو ليس كان يحدِّثنا أنا سنأتى البيت نطوف به ؟ قال : بلى ؛ أفأخبرك أنك[4] تأتيه العام ؟ قال : لا ؛ قال : فإنك آتيه ومطوف به . قال: ثم جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألست رسول الله؟ قال : "بلى"؛ قال : ألسنا على الحق

٨٤/١٥

(١) الدنية : الخصلة الخسيسة .

(٢) كذا فى أ ، حـ . وفى الكشف والبيان : «وليس يعصى ربه» .

(٣) فاستمسك بغرزه : أى تمسك بأمره فلا تخالفه ، كالذى يتمسك بركاب الراكب . والغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس .

(٤) كذا فى أ . وفى جـ : «أنه يأتيه» .

وعدوّنا على الباطل؟ قال : "بلى"؛ قال : فلِمَ نعطى الدنيّة فى ديننا إذًا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى" . وفى رواية قال : "إنى عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيّعنى" . قال عمر : ألستَ تحدّثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : "بلى ، هل أخبرتك أنك تأتيه العام؟" قال عمر : لا؛ قال : "فإنك آتيه ومطوّف به" . قال عمر : والله ماشككت منذ أسلمت إلّا يومئذ ، فما زلت أصوم وأتصدّق وأصلّى وأعتق من الذى صنعت [يومئذ][1] مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت خيرا . قالوا[2] : ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : "اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم"؛ فقال سهيل : أما الرحمن فلا أدرى ما هو ؟ ولكن اكتب : باسمك اللهم [كما كنت تكتب ، قال المسلمون : لا والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اكتب : باسمك اللهم"[3]] فكتبها ، ثم قال : "اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو" . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والله إنى لرسول الله وإن كذّبتمونى"؛ ثم قال لعلىّ : "امحُ رسول الله" . فقال : والله لا أمحوك أبدا . فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس يحسن يكتب فمحاه؛ ثم قال : "اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سُهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن

(١) ساقطة من أ .

(٢) فى أ : « قال » .

(٣) ما بين العلامتين ساقط من أ .

بعض ، وعلى أنه من قدم مكّة من أصحاب محمّد حاجّا أو معتمرا أو يبتغى من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله ، ومَنْ قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو الشام، يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، وعلى أنه من أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يردّوه عليه" . فاشتد ذلك على المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ جاءهم منا فأبعده الله، ومن جاءنا منهم ورددناه إليهم فإن علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجا" . وأن بيننا عَيْبة[1] مكفوفة ، وأنه لا إسلال[2] ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه" . فتواثبت خُزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وعلى أن تخلّوا بيننا و بين البيت [فنطوف به .][3]" فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنك أخذتنا ضُغْطة[4] ، ولكن لك ذلك من العام المقبل ؛ فكتب : وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثا، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف فى القُرُب ،وسلاح الراكب ،وعلى أنّ هذا الهدىَ حيثما حبسناه محلّه ، لا تقدّمه علينا ؛فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نحن نسوقه وأنتم تردّون وجوهه" ! قال : فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جَنْدل بن سهيل بن عمرو يرسُف فى قيوده ،

---

(١) عيبة مكفوفة ، أى أمورا مطوية فى صدور سليمة ، إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها .

(٢) لا إسلال ولا إغلال ، أى لا سرقة ولا خيانة .

(٣) ساقطة من أ .

(٤) الضغطة : الإكراه والشدة .

وقد انفلت وخرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، وقال : يا محمد ، قد تمت القضيّة بيني و بينك قبل أن يأتيك هذا ، وهذا أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه إلينا ؛ ثم جعل يجرّه ليردّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أُرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلما ليفتنونى عن دينى ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذّب عذابا شديدا فى الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا جندل ، احتَسِب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عاقدنا بيننا و بين القوم عقدا وصلحا ، وأعطيناهم على ذلك عهدا ، و إنّا لا نَغدِر" . قال : فوثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى جندل يمشى إلى جنبه ، و يقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، و إنما دم أحدهم دم كلب — و يدنى قائم السيف منه — قال : يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضنّ الرجل بأبيه .

قال : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكّون فى الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا ذلك دخل الناسَ أمر عظيم حتى كادوا يَهلِكون ، وزادهم أمرُ أبى جندل شرًّا إلى ما بهم ، قالوا : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب ، وفرغت القضيّة أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين : أبا بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سُهيل بن عمرو ، وسعد بن أبى وقّاص ، ومحمود بن مسلمة[1] أخا بنى عبد الأشهل ، ومِكْرَز بن حَفْص بن الأخيف ، وهو مشرك ، وعلى بن أبى طالب ، وكان هو كاتب الصحيفة . قال : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه

٨٥/١٥

(١) فى ا : « محمود بن أبى سلمة » .

وسلم من قضيته سار مع الهَدْى ، وسار الناس ، فلما كان الهدى دونَ الجبال التى تطلع على وادى الثّنية عرض له المشركون ، فردّوا وجوهه ، فوقف النبى صلى الله عليه وسلم حيث حبسوه ، وهى الحديبية ، وقال لأصحابه : " قوموا فانحروا ، ثم احلقوا " . قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرّات ؛ فلما لم يقم منهم أحد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقى من الناس ؛ فقالت له أم سلمة رضى الله عنها : يا نبىّ الله ، اخرج ولا تكلّم منهم أحدا كلمةً حتى تنحر بَدَنتك ، وتدعوَ حلّاقك فيحلقك . فقام صلى الله عليه وسلم فخرج فلم يكلّم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدنتَه ودعا حلّاقه فحلقه ، وكان الذى حلقه ذلك اليوم خِراش بن أمية بن الفضل الخزاعىّ ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا[1] غمّا . قال عبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله المحلّقين" . قالوا : يا رسول الله ، والمقصّرين ؟ قال : "يرحم الله المحلقين" ؛ قالوا : يا رسول الله ، والمقصّرين ؟ قال : " يرحم الله المحلقين " ؛ قالوا : يا رسول الله ، والمقصّرين ؟ [قال[2] : " يرحم الله المقصّرين "] قالوا : يا رسول الله ، فَلِمَ ظاهرت الترحّم على المحلّقين دون المقصّرين؟ قال: "لأنهم لم يشكّوا". قال ابن عمر : وذلك أنه تربّص قوم قالوا : لعلّنا نطوف بالبيت .

(١) فى أ : « بعضهم » .

(٢) ما بين العلامتين ساقط من أ .

ذكر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة
ونزول سورة الفتح

قال الزُّهرى : وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلا حتى كان بين مكّة والمدينة نزلت سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

روى قَتادة عن أنس قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية قد حِيل بيننا و بين نُسُكنا، فنحن بين الحزن والكآبة، فأنزل الله عزّ وجل : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ الآية كلها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد أنزلتْ عَلَيّ آية هى أحبُّ إلىّ من الدنيا كلها" . وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يسير معه ليلا ، فسأله [عمر][1] عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، قال عمر رضى الله عنه : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن يكون نزل فىّ قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه ، فقال : " لقد أُنزلت علىّ الليلة آية لَهِى[2] أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس" . ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ . وقد اختلف فى الفتح ، ما هو؟ فقال قتادة عن أنس : فتح مكة ، وقال مجاهد والعَوْفىّ : فتح خيبر ، وقال آخرون : فتح الحديبية ، و يدل عليه ما روى عن مُجَمِّع بن جارية الأنصارى ، — وكان أحد القراء الذين قرءوا القرآن — قال : شهدنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزّون[3] الأباعر ، فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس؟ قالوا : أُوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فخرجنا نُوجِفُ[4] ، فوجدنا النبى صلى الله عليه وسلم

(١) ساقطة من أ . (٢) فى القرطبى ج ١٦ ص ٢٥٩ : « سورة ٥ .
(٣) يهزون الأباعر : ينشطونها بالحداء . لتخف وتسرع فى سيرها .
(٤) الإيجاف : سرعة السير .

٨٦
١٥

واقفا على راحلته عند كُراع الغَميم[(١)] ، فلما اجتمع إليه الناس قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ فقال عمر : أو فتح هو يا رسول الله؟ قال : "نعم، والذى نفسى بيده إنه لفتح". وقال الشعبىّ رحمه الله : فتح الحديبية، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، واطعموا نخل خيبر، وبلغ الهَدْىُ[(٢)] مَحلّه ، وظهرت الروم على فارس، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال مقاتل بن حيّان : يسّرنا لك يُسْرا بيّنا . وقال مقاتل بن سليمان : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ فرح بذلك المشركون والمنافقون وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به وبأصحابه ، ما أمْرُنا وأمرُه إلا واحد؛ فأنزل الله عز وجل بعد ما رجع من الحديبية : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ أى قضينا لك قضاء بينا ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فنسخت هذه الآية تلك . قال سفيان الثورى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ ما عملت فى الجاهلية ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ كل شىء لم يعمله . وقال عطاء بن أبى مسلم الخراسانى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ يعنى ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ذنوب أمتك بدعوتك . وقال الزيادىّ : أى لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه . ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى بالنبوّة والحكمة ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى ويثبتك عليه ، وقيل : يهدى بك ، ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ غالبا، وقيل : معزّا .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾، قال الثعلبىّ : أى الرحمة والطمأنينة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بعث الله عز وجل نبيّه عليه السلام بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدّقوه زادهم

(١) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة . (٢) فى أ : « أبلغ » .

الصلاة، [فلما صدّقوه[1] زادهم الزكاة]، فلما صدّقوه زادهم الصيام ، فلما صدّقوه زادهم الحجّ ، ثم زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينَهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿لِيَزدادُوا إِيمانًا مَعَ إِيمانِهِمْ﴾ أى تصديقا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان . وقال الضحّاك : يقينا مع يقينهم . وقال الكلبي : هذا فى أمر الحديبية . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ على الناس قوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقدّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخّر﴾ قالوا : هنيئا مريئا يارسول الله ، قد بين الله ما يفعل بك، فما يُفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ المُؤمنينَ والمُؤمناتِ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدين فِيها ويُكَفِّرَ عنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وكانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عظِيمًا﴾ ثم قال تعالى ﴿ويُعَذِّبَ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشْرِكينَ والمُشْرِكاتِ الظّانِّينَ باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ إن لم يُنصر محمد والمؤمنون ﴿ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بالذلّ والعذاب ﴿وغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ولَعَنَهُمْ وأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ إلى قوله : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلًا ﴾ ثم ذكر الله تعالى قصة البيعة ، وقد تقدّمتْ .

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وأَهْلُونا فاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شيئًا إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أو أَرادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعنى أعراب غِفار ومُزَينة وجُهينة وأشجع وأسلم والدِّيل ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر مَن حول المدينة من الأعراب وأهل البوادى، ليخرجوا معه حذرا من قريش

(١) ما بين العلامتين ساقط من أ .

أن يَعرِضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت ، وأحرم هو صلى الله عليه وسلم بالعُمرة وساق معه الهَدْى ، ليعلم الناس أنه لا يريد حربا ، فتثاقل عنه كثير من الأعراب وقالوا : نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه فنقاتلهم؟ فتخلفوا عنه واعتلوا بالشغل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ ، الآية . أى إذا انصرفت إليهم فعاتبتهم على التخلف عنك ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ ثم كذبهم فى اعتذارهم واستغفارهم ، وأخبر عن إسرارهم و إضمارهم ، فقال : « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أَكَلَةُ رأس ، فلا يرجعون ، فأين تذهبون ؟ انتظروا ما يكون من أمرهم . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هالكين فاسدين ، لا تصلحون لشئ من الخير . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال : ﴿ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ أى عن الحديبية ﴿ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ ﴾ يعنى غنائم خيبر ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أى إلى خيبر ، فنشهد معكم قتال أهلها ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ معناه يريدون أن يغيّروا وعد الله الذى وعد أهل الحديبية ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضا عن غنائم أهل مكة ، إذ[1] انصرفوا عنها عن صلح ولم يصيبوا منها شيئا . وقال ابن زيد :

٨٧/١٥

(١) كذا فى حـ . وفى أ : « إذا » .

هو قوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ قال : والأول أصوب ، لأن قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ نزلت فى غزوة تبوك . قال : ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل مرجعنا إليكم : إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب : ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أى أن نصيب معكم من الغنائم . ٥

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ، قال ابن عباس وعطاء بن أبى رباح وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن أبى ليلى ومجاهد : هم فارس . وقال كعب الأحبار : الروم . وقال الحسن : فارس والروم . وقال عكرمة : هوازن . وقال سعيد بن جُبير : هوازن وثقيف . وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين . وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب . وقال رافع بن خديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ولا نعلم مَنْ هم حتى دعا أبو بكر رضى الله عنه إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم . ١٠

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه الآية قال أهل الزَّمانة (١) : فكيف بنا يارسول؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ يعنى عن التخلف عن الجهاد والقعود عن الغزو ﴿ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ يعنى فى ذلك ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . ١٥

(١) أهل الزمانة : ذوو العاهات . ٢٠

ثم أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم برضاه عن أهل بيعة الرضوان ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾، وقد تقدّم ذكر ذلك آنفا . ثم قال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ . وهى الفتوح التى تفتح لهم إلى يوم القيامة ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ ﴾ يعنى خيبر . وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لغزوة خيبر . ثم قال تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ قال : معناه ووعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها لكم حتى يفتحها عليكم (١) . واختلفوا فيها ، فقال ابن عباس وعبد الرحمن بن أبى ليلى والحسن ومقاتل : هى فارس والروم ، وقال الضحاك وابن زيد وابن إسحاق : هى خيبر ، وعدها الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم قبل أن يصيبها ، ولم يكونوا يذكرونها ولا يرجونها حتى أخبرهم الله بها . وهى رواية عطية وباذان عن ابن عباس . وقال قتادة : هى مكة . وقال مجاهد : مافتحوا حتى اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾، قال : يعنى أسدا وغطفان وأهل خيبر . وقال قتادة : يعنى كفار قريش ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾؛ واختلفوا فى هؤلاء، فقال أنس : إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم (٢) عند صلاة الفجر عام الحديبية ليقتلوهم ، فأخذهم

(١) فى حـ : « معناه أى ووعدكم » .

(٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل بين مكة وسرف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم سلما[1] فأعتقهم ، فأنزل الله عز وجل الآية . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقد قدمنا ذكرهم .

٨٨/١٥ وقال عبدالله بن مغفل : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية فى أصل الشجرة ، وعلى ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة ، فرفعته عن ظهره ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه بين يديه يكتب كتاب الصلح وسهيل بن عمرو ، فخرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا فى وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فخلى عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل الآية . وقيل : غير ذلك . والله تعالى أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ الآية . وهى قصة الحديبية وقد تقدم شرحها . وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ، قال : قوله : ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ أى تقتلوهم ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ، قال ابن زيد : إثم . وقال ابن إسحاق : غُرْم الدية . وقيل : الكفارة ، لأن الله عز وجل إنما أوجب على قاتل المؤمن فى دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم قاتله إيمانه الكفارة دون الدية . وقيل : هو أن المشركين يعيبونكم و يقولون : قتلوا أهل دينهم . والمعرة المشقة ، وأصلها من العُر وهو الجَرب . قال : فلولا ذلك لأذن لكم فى دخول مكة ، ولكنه حال بينكم وبين ذلك . ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾

(١) سلما : قال ابن الأثير : « يروى بكسر السين وفتحها ، وهما لغتان للصلح » . وقال الخطابى : « إنه السلم بفتح السين واللام ، يريد الاستسلام والإذعان » .

أى فى دين الإسلام « مَنْ يَشَاءُ » من أهل مكة قبل أن تدخلوها . قال : وقال بعض العلماء : قوله « لَعَذَّبْنَا » جواب لكلامين أحدهما «وَلَوْلَا رِجَالٌ» والثانى « لَوْ تَزَيَّلُوا » أى تميزوا . وقال قتادة فى قوله : « لِيُدْخِلَ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ » أى أن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركى مكة .

٥ وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل : « لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابًا أَلِيمًا » قال : "هم المشركون من أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم وممن كان بعدهم فى عصره، كان فى أصلابهم المؤمنون ، فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله الكافرين عذابا أليما" .

١٠ قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ ، قال ابن إسحاق : يعنى سهيل بن عمرو حين حمِى[1] أن تكتب بسم الله الرحمن الرحيم . وأن محمدا رسول الله . ﴿ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، قال : كلمة التقوى يعنى الإخلاص ؛ وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى قوله تعالى :

١٥ « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى » : "لا إله إلا الله" . وهو قول ابن عباس وعمرو بن ميمون ومجاهد وقتادة والضحاك وسلمة بن كُهيل وعبيد بن عمير وعكرمة وطلحة بن مُصَرِّف والربيع والسدى وابن زيد . وقال عطاء الخراسانى : هى لا إله إلا الله محمد رسول الله . وعن على رضى الله عنه قال : كلمة التقوى : لا إله إلا الله والله أكبر ، وهو قول ابن عمر . وقال عطاء بن أبى رباح : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،

٢٠ (١) حمى : أنف .

له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وعن الزهري : كلمة التقوى هي بسم الله الرحمن الرحيم .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ، قال : الرؤيا التي أراها إياه في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام . قوله : « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا » أي أن الصلاح كان في الصلح . « فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا » قيل : صلح الحديبية .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي أنك نبي صادق فيما تخبر .

ثم وصف تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . قال الثعلبي رحمه الله تعالى : قوله : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله » تم الكلام هاهنا ، يعني الكلام الأول، ثم قال مبتدئا : « وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » أي غلاظ لا تأخذهم فيهم رأفة . « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » أي متعاطفون متوادون بعضهم على بعض . « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ » أي يدخلهم جنته . « وَرِضْوَانًا » يرضى عنهم . « سِيمَاهُمْ » علامتهم . « فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ » واختلف العلماء في هذه السيماء ، فقال قوم : هو نور وبياض في وجوههم يوم

٨٩/١٥

القيامة ، يعرفون بتلك العلامة أنهم سجدوا فى الدنيا ؛ وهى رواية العَوفى عن ابن عباس . وقال عطاء بن أبى رباح والربيع بن أنس : استنارت وجوههم من كثرة ما صلّوا . وقال شَهْر بن حَوْشَب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال آخرون : هو السَّمْت الحسن والخشوع والتواضع . وقال منصور: سألت مجاهدا عن قوله تعالى : « سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » أهو الأثر يكون بين عينى الرجل ؟ قال : لا ، ربما يكون بين عينى الرجل مثل رُكْبَة البعير ، وهو أقسى قلبا من الحجارة ، ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع . وقال ابن جُرَيج : هو الوقار والبهاء . وقال شَمر بن عطية : هو التهيّج وصُفرة الوجه وأثر السهر . وقال الحسن : إذا رأيتَهم حسبتَهم مرضى ، وما هم بمرضى . وقال عكرمة وسعيد بن جبير : هو أثر التراب فى جباههم . وقال عطية الخراسانىّ : دخل فى هذه الاية كل من حافظ على الصلوات الخمس . « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ » أى ذلك الذى ذكرت « مَثَلُهُمْ » صفتهم « فِي التَّوْرَاةِ » قال : وها هنا تم الكلام . ثم قال : « وَمَثَلُهُمْ » صفتهم «فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ » ؛ قال أنس : « شَطْأَهُ » نباته . وقال ابن عباس: سنبله . وقال مجاهد والضحاك : ما يخرج تحت الحِقْلة[1] فينمو ويتم . وقال مقاتل: هو نبت واحد ، فإذا خرج ما بعده فقد شَطأه . وقال السدّى : هو أن يخرج معه الطاقة الأخرى . وقال الفراء : الأشطاء : الزرع إذا نبت سبعا أو ثمانيا أو عشرا . وقال الأخفش : فراخه ، يقال : أشطأ الزرع فهو مشطئ إذا فرّخ ، قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى * ومن الأشجار أفنان الثمر

قال : وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى أنهم كانوا يكونون قليلا ، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون . قال قتادة : مثل أصحاب

(١) الحقلة ، بالفتح والكسر : ما يبقى من الماء الصافى فى الحوض .

محمد صلى الله عليه وسلم فى الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. «فَآزَرَهُ» قواه وأعانه وشدّ أزره. «فَاسْتَغْلَظَ»، فغلظ وقوى. «فَاسْتَوَى» تم وتلاحق نباته وقام. «عَلَى سُوقِهِ» أصوله. «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» يعنى أن الله تعالى فعل ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم ليغيظ بهم الكفار. قال الشعبىّ بسند يرفعه إلى الحسن فى قوله عز وجل: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» قال: محمد رسول الله. «وَالَّذِينَ مَعَهُ»، أبو بكر. «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» عمر بن الخطاب. «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» عثمان بن عفان. «تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا» على بن أبى طالب. «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وأبو عبيدة. «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ»، قال: هم المبشّرون، أولهم أبو بكر وآخرهم أبو عبيدة. «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» قال: نعتهم فى التوراة والإنجيل كمثل زرع. قال: الزرع: محمد صلى الله عليه وسلم. «أَخْرَجَ شَطْأَهُ» أبو بكر الصديق. «فَآزَرَهُ» عمر بن الخطاب. «فَاسْتَغْلَظَ» عثمان؛ يعنى استغلظ عثمان للإسلام. «فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ» على بن أبى طالب، يعنى استقام الإسلام بسيفه. «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» قال: المؤمنون. «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» قال: قول عمر لأهل مكة: لا نعبد الله سرًّا بعد اليوم. رضوان الله عليهم أجمعين.

ذكر خبر أبى بصير ومن لحق به وانضم إليه

قد اختُلف فى اسمه، فقيل: عُبَيد بن أَسِيد بن جارية. وقال ابن إسحاق: عُتْبة بن أسيد بن جارية. وعن أبى معشر قال: اسمه عتبة بن أسيد بن جارية بن

أسيد بن عبد الله بن سلمة بن عبد الله بن غِيَرة بن عوف بن قسيّ، وهو ثقيف ابن منبّه بن بكر بن هوازن، حليف لبنى زهرة . وخبره و إن لم يكن داخلا فى جملة الغزوات والسرايا فليس هو منافٍ لها، وموجب إيرادنا إياه فى هذا الموضع لتعلقه بغزوة الحديبية، ولأن ردّه كان من شروط الهدنة . ونحن نورده هاهنا على ما أورده الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى، رحمه الله تعالى، فى كتابه المترجم بدلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، وما أورده أبو محمد عبد الملك بن هشام عن محمد ابن إسحاق رحمهم الله تعالى، يدخل حديث بعضهم فى حديث بعض، قالوا :

٩٠/١٥

لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انفلتَ رجل من أهل الإسلام من ثقيف، يقال له : أبو بصير بن أَسِيد بن جارية الثقفىّ من المشركين، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما مهاجرا، وكان ممن حُبس بمكة ، فكتب فيه أزهر بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة، والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و بعثا رجلا من بنى عامر بن لؤىّ ، ومعه مولى لهم ، ويقال : كانا من بنى منقذ ، أحدهما مولى والآخر من أنفسهم ، اسمه جحش بن جابر ، وكان ذا جلَد ورأى فى أنفس المشركين ، وجعل لهما الأخنس فى طلب أبى بصير جُعلا ، فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، و إن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلقْ إلى قومك" . فقال : يا رسول الله ، أتردُّنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ قال : "انطلق ، فإن الله سيجعل لك فرجا

ومخرجا"، ودفعه إليهما، فخرجا به، حتى إذا كانا بذى الحُلَيْفة[1] سلّ جحش سيفه، ثم هزّه وقال: لأضربنّ بسيفى هـذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل، فقال له أبو بصير: أوَ صارم سيفك هذا؟ قال: نعم؛ قال: ناولنيه أنظر إليه. فناوله إياه، فلما قبض عليه ضربه به حتى برَد، ويقال: بل تناول أبو بصير سيف جحش بفيه، وهو نائم، فقطع به إساره، ثم ضربه به حتى برد؛ وطلب الآخرَ فجمز[2] مذعورا مستخفيا، حتى دخل المسجد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم حين رآه: "لقد رأى هذا ذُعْرا"؛ فأقبل واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "ويحك! مالك؟" فقال: قتل صاحبُكم صاحبي. وجاء أبو بصير يتلوه، فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: وَفَت ذمتُك يارسول الله، وأدّى الله عنك، دفعتنى إليهما فتعرفت أنهم سيعذبوننى ويفتنوننى عن دينى، فقتلت المنقذىّ، وأفلتنى هذا. فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: "ويلُ أمّه مِسعر[3] حرب لو كان معه رجال!"، وجاء أبو بصير بسلَبه فقال: خمّس يارسول الله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنى إن خمّسته لم أوفِ لهم بالذى عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلَب صاحبك، واذهب حيث شئت". فخـرج أبو بصير معه خمسـة نفر كانوا قدموا مسلمين من مكة حيث قدم، ولم يطلبهم أحد، وساروا حتى نزلوا بين العِيص وذى المَرْوة من أرض جُهينة، على طريق عيَرات قريش مما يلى سِيف البحر، لا تمر

(١) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة.

(٢) جمز: عدا وأسرع.

(٣) مسعر الحرب: موقدها، يقال: رجل مسعر حرب إذا كان يؤرثها، أى تحمى به الحرب؛ يتعجب النبي من شجاعته وجرأته وإقدامه.

بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها ، وانفلت أبو جندل بن سُهَيل بن عمرو — واسم أبي جندل العاص بن سهيل[1] على ما أورده الزبير بن بكار — في سبعين راكبا أسلموا ، فلحقوا بأبي بصير حين[2] بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ويلُ امه مِسْعَر حرب لو كان معه رجال" ، فقطعوا مادة قريش من طريق الشام . وكان أبو بصير يصلي لأصحابه ، فلما قدم عليه أبو جندل كان هو يؤمهم ، واجتمع إلى أبي جندل ناس من بني غفار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس ، حتى بلغوا ثلثمائة مقاتل ، وهم مسلمون ، فأقاموا مع أبي جندل وأبي بصير ، لا تمرُّ بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها ، وقال أبو جندل في ذلك :

أبلغ قريشًا عن أبي جَندل * أنّا بذي المَرْوة بالساحلِ
في معشرٍ تخفق راياتُهم * بالبِيض فيها والقَنا الذُّبَّلِ[3]
يأبَون أن تبقى لهم رفقة * من بعد إسلامهم الواصلِ
أو يجعل اللهُ لهم مخرجا * والحق لا يُغلب بالباطلِ
فيسلم المرء بإسلامه * أو يقتل المرء ولم يأتَلِ[4]

فأرسلت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله بأرحامهم[5] إلا آواهم ، وقالوا : لا حاجة لنا فيهم . قال البيهقي : وقالوا : من خرج منا إليك فأمسكه غير حرج أنت فيه ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره . فلما كان ذلك من أمرهم ، علم الذين كانوا أشاروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمنع

٩١/١٥

(١) في أ : « سهل » تصحيف . (٢) في أ : « حتى » .
(٣) الذبل : الدقيقة اللاصقة القشر . (٤) لم يأتل : لم يقصر .
(٥) في جـ : « بأرحامها » .

أبا جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير لهم فيما أحبوا وكرهوا . وحكى البيهقى : أن هؤلاء هم الذين مرّ بهم أبو العاص بن الربيع فأخذوا ما معه، فلما بلغهم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلقوا من أسروا من أصحاب أبى العاص، وردّوا إليهم جميع ما أخذوه حتى العِقال، وقد تقدم خبر أبى العاص، وقيل : إنما أُخذ فى غير هذه السَّرِيّة . والله أعلم .

قال : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا إلى أبى بصير وأبى جندل يأمرهما أن يقدما عليه ، ويأمر من معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم، ولا يعترضوا لأحد مرّ بهم من قريش وعيَراتهم . فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى جندل وأبى بصير ، وأبو بصير قد أشرف على الموت ، فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده يقرؤه ، فدفنه أبو جندل مكانه ، وجعل عند قبره مسجدا ، وقدم أبو جندل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ناس من أصحابه ، ورجع سائرهم إلى أهليهم ، وأمنت عيرات قريش .

ذكر غزوة خيبر وفتحها وما يتصل بذلك

قال محمد بن سعد : غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الأولى سنة سبع من مهاجَره . وقال محمد بن إسحاق وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى : فى المحرم من السنة . وخيبر على ثمانية بُرُد من المدينة .

قالوا : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتهيؤ لغزاة خيبر، وأَجْلَب[1] من حوله يريدون الغزاة معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يخرجنّ معنا

(١) يقال : أجلب القوم إذا صاحوا واختلطت أصواتهم .

إلا راغب فى الجهاد"، وشقّ ذلك على من بقى بالمدينة من اليهود، فخرج واستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة الغفارىّ، قاله ابن سعد والبيهقى . وقال ابن إسحاق : استخلف نُمَيلة بن عبد الله الليثىّ ؛ وأخرج معه من أزواجه أم سلمة رضى الله عنها .

٥ قال ابن إسحاق : لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر قال فى مسيره لعامر بن الأكوع — وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع سِنان — : "انزل يا ابن الأكوع، فحُدُ لنا من هَنَاتك"(١)، فنزل يرتجز برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال :

والله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدّقنا ولا صلّينا

١٠ إنا إذا قوم بغَوْا علينا * وإن أرادوا فتنة أبَيْنا

فأنزِلَنْ سَكينةً علينا * وثبّتِ الأقدامَ إن لاقينا(٢)

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يرحمك ربُّك". ومن رواية البيهقى : "غفر لك ربُّك" . قال : وما خص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا قط إلا استُشهِد . قال ابن إسحاق : فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وجبتْ والله

١٥ يا رسول الله، لو متّعتنا بعامر ؛ فقتل يوم خيبر شهيدا، رجع سيفه عليه وهو يقاتل، فكلّمه كَلْما شديدا فمات .

---

(١) هناتك : أى من أخبارك وأمورك وأشعارك .

(٢) ذكر هذا الرجز فى شرح الزرقانى بأسلوب يختلف عما ذكر هنا فى ألفاظه وأبياته . ونقل عن كتاب الفتح : « أكثر هذا الرجز تقدم فى الجهاد عن البراء، وأنه من شعر عبد الله بن رواحة، فيحتمل

٢٠ أن يكون هو وعامر تواردا على ما تواردا عليه ؛ بدليل ما وقع لكل منهما مما ليس عند الآخر، واستعان عامر ببعض ما سبقه إليه ابن رواحة » . جـ ٢ ص ٢٦٢ من شرح المواهب اللدنية .

قال : ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة سلك على عصر[1] فبنى له فيه[2] مسجدا، ثم على الصهباء[3]، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بوادٍ يقال له : الرَّجيع، فنزل بينهم و بين غطفان ليحول بينهم و بين أن يمدّوا أهل خيبر، وكانوا لهم مُظاهرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما سمعت غطفان بمنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر جمعوا ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا مَنقلةً[4] سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسّا ، وظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين خيبر .

قال : ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر قال لأصحابه : "قِفوا" فوقفوا ، ثم قال : "اللّهم ربّ السموات وما أظْلَلْن، وربّ الأرضين وما أقْلَلْن، وربّ الشياطين وما أضلَلْن، وربّ الرياح وما ذَرَيْن، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله" . ٩٢/١٥

قال : ولما نزل بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة، ولم يَصِحْ لهم ديك حتى طلعت الشمس، وأصبحوا وأغدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم، وغدَوا إلى أعمالهم، معهم المَساحى[5]، والكَرازِن — وهى الفُئُوس — والمكاتِل — وهى الزنابيل — فلما نظروا إلى

(١) عصر : جبل بين المدينة ووادى الفرع ورواه بعضهم بالتحريك ، (وانظر ياقوت) .

(٢) فى ج : « فيها » .

(٣) الصهباء : موضع قرب خيبر .

(٤) المنقلة : المرحلة من مراحل السفر .

(٥) المساحى : جمع مسحاة ، وهى المجرفة من الحديد .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : محمد والخميس[1] — يعنون الجيش — فولوا هاربين إلى حصونهم ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين" ، ووعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، وفرق فيهم الرايات ، ولم تكن الرايات إلا يوم خيبر ، إنما كانت الألوية[2] ، فكانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم السوداء من بُرْد لعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تدعى العُقاب ، ولواؤه أبيض ، ودفعه إلى على بن أبى طالب ، وراية إلى الحُباب بن المنذر ، وراية إلى سعد بن عبادة ؛ وكان شعارهم : «يامنصور أمِت» ، وكانت حصون خيبر حصونا ذوات عدد ، منها النَّطاة ، وحصن الصَّعب ابن مُعاذ ، وحصن ناعم ، وحصن قلعة الزُّبير[3] ، هذه حصون النطاة . والشَّق وبه حصون منها : حصن أبىّ ، وحصن النّزار . وحصون الكتيبة منها : القَمُوص ، والوطيح ، وسُلالم . وسنذكر إن شاء الله فتحها حصنا حصنا . قال : وخرج مرْحب اليهودىّ من حصنهم ، قد جمع سلاحه وهو يقول :

قد علمت خيبر أنّى مَرْحَبُ * شاكى[4] السلاح بطَل مُجرَّبُ

أطعن أحيانا وحينا أضرِب * إذا الليوثُ أقبلت تُحَرِّبُ[5]

* إن حِماىَ لَلْحِمى لا يُقرَب *

(١) سمى الجيش خميسا لأنه خمسة أقسام : المقدّمة ، والساقة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب .

(٢) قال فى المصباح : « لواء الجيش علمه : وهو دون الراية » .

(٣) فى شرح المواهب اللدنية جـ ٢ ص ٢٧٣ مايأتى : « مفاد عطف المصنف ما ذكر على النطاة — تبعا لخلطاى — أن النطاة اسم لحصن مغاير لما بعده ، والشامى جعل النطاة اسما لحصن ناعم والصعب والزبير ، فإن وفقت بينهما فقدّر بعد النطاة : وحصونها ثلاثة » .

(٤) شاكى السلاح : يريد حادّ السلاح .

(٥) تحرب : تغضب .

ثم يقول : هل من مبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك وهو يقول :

قد علمت خيبرُ أنى كعبُ * مفرِّج الغُمَّى جرىءٌ صُلْبُ
إذ شبّت الحرب تليها الحربُ * معى حسام كالعقيق عَضْبُ[1]
نطاكمُ حتى يُذال[2] الصعبُ * نعطى الجزاء أو يفىء النَّهب[3]
* بكفِّ ماضٍ ليس فيه عَتْبُ[4] *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من لهذا"؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر ، قتل أخى بالأمس؛ قال : "فقم إليه ، اللهم أعنه عليه". فخرج إليه حتى دنا منه ، فحمل مرحب عليه فضربه ، فاتّقاه بالدَّرَقة ، فأمسكت سيفَه ، وضربه محمد بن مسلمة فقتله . وقد روى أن الذى قتل مرحبا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى اللواء عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ونهض من نهض معه من الناس ، فلقوا أهل خيبر ، فانكشف عمر وأصحابه ، فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُجَبِّنه أصحابه ويُجَبِّنهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذته الشقيقة[5] فلم يخرج إلى الناس ، فأخذ أبو بكر رضى الله عنه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نهض فقاتل قتالا شديدا ثم رجع ، فأخذها عمر رضى الله عنه فقاتل قتالا شديدا أشدّ من القتال الأول ، ثم رجع ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال : "أما والله لأعطينّ الراية غدا رجلا يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله ، يأخذها عَنوة". وفى رواية قال : "يفتح الله على

(١) قال أبو ذر الخشنى : « العقيق هنا جمع عقيقة ، وهى شعاع البرق شبه السيف به » شرح السيرة ٣٤٦ . عضب : قاطع . (٢) فى ابن هشام : «يذل» . (٣) الجزاء : جمع جزية . النهب : ما انتهب من الأموال . (٤) ليس فيه عتب : أى ليس فيه ما يلام عليه .
(٥) الشقيقة : نوع من صداع يعرض فى مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه .

يديه". فبات الناس يذكرون ليلتهم أيّهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أين على بن أبى طالب"؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكى عينيه؛ قال: فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه سلمة بن الأكوع فدعاه، فجاء على بعير له حتى أناخ قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أرمد، قد عصب عينيه بشقّة بُرد قَطَرِىّ(١)، قال سلمة: فجئت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مالك؟" قال: رمِدت؛ فقال: "ادن منى" فدنا منه فتفل فى عينيه، ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، وما وَجِعَهما حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية وقال: "امض حتى يفتح الله عليك" قال: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: "انفُذ(٢) على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرْهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لئن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْر النَّعَم" روى هذا الحديث أو نحوه أهل الصحة. ومن رواية ابن إسحاق عن سلمة بن الأكوع قال: فنهض علىّ بالراية وعليه حلّة أرجوان حمراء، وقد أخرج خملها(٣)، فأتى مدينة خيبر، وخرج مرحب صاحب الحصن، وعليه مِغْفَر مُعصْفر، وحجرٌ قد ثقبه مثل البيْضة على رأسه، وهو يرتجز ويقول:

٩٣/١٥

قد علمت خيبر أنى مرحبُ * شاكى السلاح بطَلٌ مُجَرَّبُ
أطعن أحيانا وحينا أَضرِبُ * إذا الحروبُ أقبلت تَلَهَّبُ
* كأنّ حِماى كالحِمَى لا يُقْرَبُ *

(١) القطرى: نوع من البرود ينسب إلى قرية يقال لها قطر، وهى بين عمان والعقير.
(٢) انفذ على رسلك: أى امض على هينتك.
(٣) الخمل: هدب القطيفة ونحوها مما ينسج وتفضل له فضول.

فبرز له علىّ بن[1] أبى طالب فقال :

أنا الذى سمّتنى أمّى حيدره[2] * كليث غاباتٍ شديدٍ قسْوره[3]

* أكيلكم بالسّيف كيلَ السّندره[4] *

فاختلفا ضربتين، فبدره علىّ رضى الله عنه فضربه ، فقدّ الحجر والمغفر وفلق رأسه ، حتى أخذ السيف فى الأضراس . ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر ، وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبرُ أنى ياسرُ * شاكى السلاح بطلٌ مُغاورُ[5]

إذا الليوثُ أقبلت تُبادرُ * إن حماىَ فيه موتٌ حاضرُ

وهو يقول : هل من مبارز ؟ فخرج إليه الزبير بن العوام رضى الله عنه ، وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى زبّارْ * قَرْمٌ[6] لقوم غير نِكسٍ[7] فرّارْ

أين حماة المجد[8]؟ أين الأخيارْ؟ * ياسرُ، لا يَغررك جمع الكفّار

* فجمعهم مثل السّراب الختّار[9] *

فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : أيقتل ابنى يا رسول الله ؟ قال : "بل ابنك يقتله إن شاء الله" ثم التقيا، فقتله الزبير . ومن رواية أخرى عن سلمة قال : فخرج

---

(١) فى ج : « على عليه السلام » . (٢) الحيدرة فى الأصل : الأسد . وقال ابن الأعرابى : « الحيدرة فى الأسد مثل الملك فى الناس » . (٣) القسورة : العزيز يقتسر غيره، أى يقهره . (٤) السندرة : مكيال كبير . (٥) مغاور : مقاتل كثير الغارات . (٦) القرم هنا : السيد . (٧) النكس : الضعيف .

(٨) كذا فى ج . وفى أ : « ابن حماة المجد ابن الأخيار » . وفى الطبرى : « ابن حماة المجد وابن الأخيار » . (٩) الختار : الخداع .

على رضى الله عنه يهرول هرولة وإنّا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته فى رَضْم حجارة تحت الحصن ، فاطّلع إليــه يهودى من رأس الحصن فقــال : من أنت ؟ قال : أنا علىّ بن أبى طالب ؛ فقــال اليهودى : علوتم وما أنزل الله على موسى . وقال ابن إسحــاق أيضا من رواية أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : خرجنا مع علىّ رضى الله عنــه حين بعثه رســول الله صلى الله عليــه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليــه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود فطرح تُرْسه من يده ، فتناول علىّ بابا كان عنــد الحصن فترّس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتُنى فى نفر معى سبعة ، أنا ثامنهم[(١)] ، نجهد على أن نَقْلِب ذلك الباب ، فما نقلبه .

قال محمد بن إسحاق وأبو بكر البيهقى وغيرهما : إن بنى سهم من أسلم أتَوا رسول الله صلى الله عليه وســلم فقالوا : يا رســول الله ، جهدنا وما بأيدينا من شىء ؛ فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا يعطيهم إياه ؛ فقال : " اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيــدى شىء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها غَناء ، وأكثرها طعاما وودَكا[(٢)] " ، فغدا الناس ، ففتح الله عليهم حصن الصّعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر منه طعاما وودَكا . قال البيهقى : وافتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم حصن ناعم ، فانتقل مَن كان من يهود بحصن مصعب بن معاذ وحصن ناعم إلى قلعة الزّبير ، ويقال : حصن ناعم أوّل ما افتتح من حصونهم ، وعنده قتل محمود بن مسلمة ، ألقيت عليه رَحًى منه فمات . قال : وحصن

(١) فى حاشية ا : « أنا منهم » .

(٢) الودك : الدسم .

الزبير حصن منيع فى رأس قُلّة[1]، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم به ثلاثة أيام، فجاءه رجل من اليهود يقال له : غزال، فقال : يا أبا القاسم، تؤمّنى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النّطاة، وتخرج إلى أهل الشِّق ؟ فإن أهل الشق قد هلكوا رعبا منك، فأمّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهله وماله، فقال اليهودى : إنك لو أقمت شهرا ما بالوا، لهم دُبُول[2] تحت الأرض، يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإذا قطعت مشربهم عليهم أصحروا[3] لك . فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دُبولهم فقطعها، فلما قطع عليهم مشاربهم خرجوا فقاتلوا أشدّ قتال، وقُتل من المسلمين يومئذ نفر، وأصيب من يهود فى ذلك اليوم عشرة، وافتتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان آخر حصون النطاة، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من النطاة تحوّل إلى أهل الشّق، وبه حصون، فكان أوّل حصن بدأ به صلى الله عليه وسلم حصنُ أُبَىّ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على قلعة يقال لها سَمْوان، فقاتل عليها أهل الحصن قتالا شديدا، وخرج رجل من اليهود يقال له غزول، فدعا إلى البراز، فبرز له الحُباب بن المنذر، فاختلفا ضربات، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع، فسقط السيف من يده وهرب إلى الحصن، فتبعه الحباب فقطع عُرْقوبَيه، فوقع، فذفّف[4] عليه، فخرج آخر فصاح : من يبارز ؟ فبرز له رجل

٩٤/١٥

(١) فى الأصلين : « فى رأسه قلة » والتصويب من دلائل النبوة . وجاء فى شرح المواهب اللدنية جـ ٢ ص ٢٧٤ فى هذا الحصن : « وكان اسمه حصن قلة، لكونه كان على رأس جبل » .

(٢) دبول : جمع دبل، وهو الجدول .

(٣) أصحروا : برزوا فى الصحراء .

(٤) ذفف عليه : أجهز عليه .

من المسلمين من آل جحش ، فقتل الجحشيّ ، وقام مكانه يدعو إلى البراز ، فبرز له أبو دُجانة ، قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المِغْفر ، يختال فى مشيته ، فبدره أبو دجانة فضربه فقطع رجليه ، ثم ذفّف عليه وأخَذَ سلبه ، درعه وسيفه : فنفلَه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وأحجموا عن البراز ، فكبّر المسلمون ، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه ، يقدُمهم أبو دجانة الأنصاريّ ، فوجدوا فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب من كان فيه من المقاتلة ، وتقحموا الجُدُر كأنهم الظُّبيّ إلى حصن النِّزار ، فغلّقوه وامتنعوا فيه ، وزحف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه فقاتلهم ، فكانوا أشدّ أهل الشّق رميا بالنبل والحجارة ، حتى أصاب النبل ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلِقت به ، فأخذ النبل فجمعها ، ثم أخذ كفّا من حصباء ، فحَصَب به حصنهم فرجف الحصن بهم ، ثم ساخ فى الأرض حتى جاء المسلمون ، فأخذوا أهله أخذا ، ثم تحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل الكتيبة ، فافتتح القَمُوص ، حصن أبى الحُقَيق ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه بصفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب .

قالوا : ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح ، وحاز من الأموال ما حاز ، انتهوا إلى حِصنيْهم : الوَطِيح والسُّلالِم ، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحا ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسَيِّرهم ، وأن يحقن دماءهم . قال البيهقيّ : حصرهم أربعة عشر يوما وهم لا يطلعون من حصونهم ، حتى همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصب المَنْجنيق (١) عليهم ، فلما أيقنوا

(١) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة .

بالهلكة سألوا الصلح، وأرسل آبن أبي الحُقَيق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَنزل فأكلمك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم"، فنزل كنانة بن الربيع آبن أبي الحقيق فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على حقن دماء مَن فى حصونهم من المقاتلة، وترك الذرّية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلُّون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء والكُراع والحَلْقة[1]، وعلى البزّ إلا ثوبا على ظهر إنسان؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئا" فصالحوه على ذلك. وكان عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق كنز بنى النضير، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، فجحد أن يكون يعلم مكانه، وقال: نفد فى النفقة والحروب؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان أكثر من ذلك"، ثم جاء رجل من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يارسول الله، إنى رأيت كنانة يُطيف بهذه الخِربة كل غداة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة: "أرأيت إن وجدناه عندك، أقتلك؟" قال: نعم؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقى، فأبى أن يؤدّيه، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الزّبير بن العوام به، فقال: "عذّبه حتى تستأصل ماعنده"، فكان الزبير يقدح بزَنْد فى صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة. ويقال: كان ذلك بعد فتح حصن القَمُوص، وقبل فتح الوَطيح والسّلالم.

---

(١) الصفراء والبيضاء هنا: الذهب والفضة. والكراع: الخيل. والحلقة هنا: السلاح كله.

قال محمد بن إسحاق : ولما نزل أهل خيبر على الصلح سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم فى الأموال على النِّصف؛ "على أنا إذا شئنا [أن][1] نخرجكم أخرجناكم"، قال : ولما سمع أهل فدَك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح حصون خيبر بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسألونه أن يُسيِّرهم ، وأن يحقن دماءهم ، ويخلّوا له الأموال ، ففعل ؛ وكان ممن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بينهم فى ذلك مُحَيِّصة بن مسعود أخو بنى حارثة ، ثم سألوا أن يعاملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النِّصف كما عامل أهل خيبر ، فأجابهم إلى ذلك ؛ "على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم" ؛ فكانت خيبر فيئا بين المسلمين، وكانت فدَك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسم، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب .

٩٥/١٥

ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر قدم عليه جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه من أرض الحبشة ومَن كان بقى بها من المسلمين ، فقبَّله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيْه والتزمه ، وقال : "ما أدرى بأيهما أنا أسرّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ! " .

ذكر تسمية من استُشهد من المسلمين فى غزوة خيبر

قالوا : استُشهد من المسلمين فى غزوة خيبر تسعة عشر رجلا . من قريش وحلفائهم خمسة نفر، وهم رِفاعة بن مَسْروح ، من بنى أمية بن عبد شمس ، ومن حلفائهم ربيعة بن أكثم بن سَخْبرة، وثَقف بن عمرو بن سُمَيْط، ومن حلفاء بنى أسد

(١) زيادة عن ابن هشام .

ابن عبد العُزّى أبو عُمَير عبد الله بن الهُبَيْب — ويقال ابن الهَيب — بن أُهَيْب الليثيّ، ومسعود بن ربيعة، حليف لبنى زُهرة، من القارة. ومن الأنصار أربعة عشر رجلا، وهم: بِشر بن البَراء بن معرور، مات من الشاة المسمومة، وفُضَيل بن النعمان، ومسعود بن سعد بن قيس، ومحمود بن مسلمة، وأبو ضَيَّاح النعمان بن ثابت، والحارث بن حاطب، ممن شهد بدرا، وعُروة بن مُرّة بن سُراقة، وأوس بن الفائد[1]، وأُنَيف بن حَبيب، وثابت بن إِثْلة[2]، وطلحة، ومبشر، وعُمارة بن عقبة، وعامر بن الأكوع الأسلميّ، وكان قد برز له يهودى، فبرز إليه وهو يقول:

قد علمت خيبر أنى عامرُ شاكى السلاح بطلٌ مغامرُ

واختلفا ضربتين، فوقع سيف اليهودىّ فى تُرس عامر، ووقع سيف عامر عليه، فأصاب ركبة نفسه وساقه، فمات منها. قال سلمة بن الأكوع: فمررت على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون: بطل عمل عامر؛ فأتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم وأنا شاحب أبكى، فقلت: يا رسول الله، أبطل عمل عامر؟ فقال: "ومَن قال ذلك؟" قلت: بعض أصحابك؛ قال: "كذب من قاله، بل له أجره مرّتين، إنه لجاهدٌ مُجاهِد".

واستُشهد الأسود الراعى — واسمه أسلم، وهو من أهل خيبر — وكان من حديثه ما حكاه محمد بن إسحاق وأبو بكر البيهقى رحمهما الله: أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصِر لبعض حصون خيبر، ومعه غنم كان فيها أجيرًا لرجل من

(١) فى أسد الغابة: «أوس بن الفاتك، وقيل: ابن الفائد بالدال؛ وقيل: الفاكه».

(٢) كذا ضبط فى الإصابة «بكسر الهمزة وسكون المثلثة».

يهود ، فقال : يا رسول الله ، اعرض علىّ الإسلام ؛ فعرضه عليه ، فقال : فماذا لى إن أنا شهدت وآمنت بالله؟ قال : "لك الجنة إن أنت متّ على ذلك"، فأسلم وقال : يا رسول الله ، إنى كنت أجيرا لصاحب هـذه الغنم ، وهى أمانة عندى ، فكيف أصنع بها ؟ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "أخرِجها من عسكرنا ، واحصِب وجوهها[1] ، فإن الله سيؤدى عنك أمانتك ، وسترجع إلى ربّها" . ففعل الأسـود وقال : ارجعى إلى صاحبـك ، فوالله لا أصحبك ، فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن . ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر فقتله ، وما صلّى لله صلاةً قطّ ، فأُتى به رسـول الله صلى الله عليه وسلم فوُضع خلفه ، وسجّى بشملة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أعرض عنه ، فقالوا : يا رسول الله ، لم أعرضت عنه ؟ قال : "إن معه الآن زوجته من الحور العين" .

وقتـل من يهود ثلاثة وأربعون[2] ، منهم : الحارث أبو زينب ، ومَرْحَب ، وأسير ، ويا سر ، وعامر ، وكنانة بن أبى الحقيق ، وأخوه .

٩٦/١٥

ذكر قسم غنائم خيبر

قال محمد بن سعد : أمر رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بالغنائم فجمعت ، واستعمل عليها فَرْوة بن عمرو البيَاضِىّ ، وأمر بذلك فجزّئ خمسة أجزاء ، وكتب فى سهم منها لله ، وسائر السُّهْمان أغفال ، فكان أوّل ما خرج سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأمر ببيع الأربعة أخماس فيمن يزيد ، فباعها فروة ، وقسم ذلك بين

(١) حصبه : رماه بالحصباء .

(٢) فى ابن سعد : « ثلاثة وتسعون » .

أصحابه ؛ وكان الذى ولى إحصاء الناس زيد بن ثابت ، فأحصاهم ألفا وأربعمائة رجل ، والخيل مائتى فرس ، فكانت السُّهْمان على ثمانية عشر سهما ، لكل مائةٍ سهم ، وكان الخمس الذى صار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى منه على ما أراه الله .

وقال محمد بن إسحاق : كانت المقاسم على أموال خيبر، على الشِّق ونَطاة والكُتَيْبَة ، فكانت الكتيبة خُمسَ الله ، وسهم النبي صلى الله عليه وسلم وذوى القربى واليتامى والمساكين ، وطُعْم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وطُعْم رجال مشَوْا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين أهل فَدَك بالصلح ، منهم مُحَيِّصة بن مسعود، أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ثلاثين وَسْقا[1] من شعير، وثلاثين وسقا من تمر، وكانت الشق ونطاة فى سُهمان المسلمين؛ قال : وقسمت خيبر على أهل الحُدَيْبِية ، من شهد منهم ومن غاب ، ولم يغب عنها إلّا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرام ، فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهْم من حضرها . وقال : وكان واديا ها : وادى السُّرَير ووادى خاص، وهما اللذان قسمت عليهما خيبر، فكانت نَطاة والشِّق ثمانية عشر سهما ، نطاة خمسة أسهم، والشق ثلاثة عشر سهما ، فقسمت الشق ونطاة على ألف سهم وثمانمائة سهم ، فكان لكلِّ سهم رأسٌ جُمع إليه مائة رجل؛ قال : ثم قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتيبة — وهو وادى خاص — بين قرابته ونسائه ورجال من المسلمين ونساء أعطاهم منها . وروى بشير بن يَسار قال : لما افتتح النبي صلّى الله عليه وسلّم خيبر أخذها عنوة، فقسمها على ستة وثلاثين سهما، فأخذ لنفسه ولنوائبه وما ينزل به ثمانية عشر سهما، وقسم بين الناس ثمانية عشر سهما . والله أعلم .

(١) الوسق : ستون صاعا ، أو حمل بعير .

وروى أبو داود فى سُننه بسنده إلى عُقْبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : " أترضى أن أزوّجك فلانة ؟ " قال : نعم ؛ وقال للمرأة : " أترضين أن أزوّجك فلانا ؟ " قالت : نعم . فزوّج أحدهما صاحبه ، فدخل بها الرجل ، ولم يَفرِض لها صداقا ولم يعطها شيئا ، وكان ممن شهد الحديبية ، وكان من شهد الحديبية له سهم بخيبر ، فلما حضرته الوفاة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم زَوّجنى فلانة ، ولم أَفرض لها صداقا ، ولم أعطها شيئا ، وإنّى أُشهدكم أنّى أعطيتها من صداقها سهمى بخيبر . فأخذت سهما فباعته بمائة ألف .

ذكر تسمية من قَسم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكُتَيْبَة التى خرجت للخمس وما أعطاهم منها

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكُتَيبة — وهو وادى خاص[1] — لفاطمة ابنته رضى الله عنها مائتى وسق ، ولعلىّ بن أبى طالب مائة وسق ، ولأسامة بن زيد مائتى وسق ، وخمسين وسقا نَوًى ، ولعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها مائتى وسق ، ولأبى بكر الصديق رضى الله عنه مائة وسق ، ولعَقِيل بن أبى طالب مائة وسق وأربعين وسقا ، ولبنى جعفر خمسين وسقا ، ولربيعة بن الحارث مائة وسق ، وللصلت بن مخرمة وابنيه مائة وسق ؛ للصلت منها أربعون وسقا . وقال أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة قاسم بن مخرمة بن المطّلب[2] : أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأخيه الصلت مائة وسق من خيبر ، ولأبى نَبْقة خمسين وسقا ، ولرُكانة بن عبد يزيد خمسين وسقا ، ولابن القاسم بن مخرمة أربعين وسقا ، ولبنات عبيدة بن الحارث وابنه الحصين بن الحارث مائة وسق ، ولبنى عبيد بن عبد يزيد ستين وسقا ، ولابن

٩٧/١٥

(١) خاص . من أودية خيبر .

أوس بن مخرمة ثلاثين وسقا ، ولِمِسْطح بن أُثاثة وابن إلياس خمسين وسقا ، ولأم رُمَيثة أربعين وسقا ، ولنُعيم بن هند[(١)] ثلاثين وسقا ، ولبُحَينة بنت الحارث ثلاثين وسقا ، ولعُجَير بن عبد يزيد ثلاثين وسقا ، ولأم الحكم[(٢)] بنت الزبير بن عبد المطلب ثلاثين وسقا ، ولجُمانة بنت أبي طالب ثلاثين وسقا ، ولعبد الله بن الأرقم الزهري خمسين وسقا ، ولعبد الرحمن بن أبي بكر أربعين وسقا ، ولحَمْنة بنت جحش ثلاثين وسقا ، ولأم الزبير أربعين وسقا ، ولضُباعة بنت الزبير أربعين وسقا ، ولابن أبي خُنَيس ثلاثين وسقا ، ولأم طالب أربعين وسقا ، ولأبي نَضْرة عشرين وسقا ، ولنُمَيلة الكلبيّ خمسين وسقا ، ولعبد الله بن وهب وابنيه تسعين وسقا ، لابنيه منها أربعون وسقا ، ولأم حبيب بنت جَحْش ثلاثين وسقا ، ولمَلْكو بن عَبْدة ثلاثين وسقا ، ولنسائه صلى الله عليه وسلم سبعمائة وسق .

وقال ابن إسحاق أيضا : وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنسائه من فتح خيبر مائة وسق وثمانين وسقا ، ولفاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وثمانين وسقا ، ولأسامة بن زيد أربعين وسقا ، وللمقداد بن الأسود خمسة عشر وسقا ، ولأم رُمَيثة خمسة أوسق .

شهد عثمان بن عفان وعباس وكتب .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر خارصا[(٣)] بين المسلمين ويهود فيخرص عليهم ، فإذا قالوا : تعديت علينا ، قال : إن شئتم فلكم ، وإن شئتم فلنا ، فتقول يهود : بهذا قامت السموات والأرض . ولم يخرص عليهم عبد الله إلا عاما واحدا ومات .

(١) كذا في ابن هشام .
(٢) كذا في الأصلين . وفي ابن هشام : « ولأم حكيم » .
(٣) خارصا : حازرا ومقدرا .

وروى أبو داود رحمه الله فى سننه بسنده عن جابر بن عبد الله من رواية ابن جريج عن أبى الزبير عنه ، قال : خرصها ابن رواحة أربعين ألف وسق ، وإن اليهود لما خيرهم ابن رواحة أخذوا التمر وعليهم عشرون ألف وسق ، ثم خرص[1] عليهم بعده جَبَّار بن صخر بن أمية بن خنساء ، أخو بنى سلمة ، فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأسا فى معاملتهم ، حتى عدوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن سهل ، أخى بنى حارثة ، فقتلوه ، وكان قد خرج إليها فى أصحاب له يمتار[2] منها تمرا ، فوُجد فى عين قد كسرت عنقه ، فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون بقتله ، وجاء أخوه عبدالرحمن بن سهل ، وابنا عمه حُوَيِّصة ومُحَيِّصة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتكلم عبدالرحمن — وكان أصغرهم ، وهو صاحب الدم — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كبّر كبّر"[3] فسكت ، وتكلم حويّصة ومحيّصة ، ثم تكلم بعدهما ، فذكروا قتل صاحبهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتُسَمُّون قاتلكم ثم تحلفون عليه خمسين يمينا فنسلمه إليكم؟" قالوا : يا رسول الله ، ما كنا لنحلف على ما لا نعلم ؛ قال : "أفيحلفون بالله خمسين يمينا ما قتلوه ، ولا يعلمون له قاتلا ، ثم يبرءون من دمه ؟" ، فقالوا : يارسول الله ، ما كنا لنقبل أيمان يهود ، ما هم فيه من الكفر أعظم أن يحلفوا على إثم . قال : فودَاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمائة ناقة . قال[4] : واستقرت خيبر بيد يهود على ما عاملهم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته ، ثم أقرها أبو بكر رضى الله عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيديهم على المعاملة ، ثم أقرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه صدرا من خلافته ،

(١) فى أ : «وخرص» . (٢) يمتار : يجلب . (٣) ويروى : «الكبر الكبر» بضم الكاف وسكون الباء ؛ أى قدموا الأكبر . (٤) أى ابن إسحق .

ثم بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى وجعه الذى قبضه الله فيه : " لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان "، ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت ، فأرسل إلى يهود، فقال : إن الله قد أذن فى إجلائكم، قد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان " فمن كان عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود فليأتنى به أنفذه له ، ومن لم يكن له عهد منه فليتجهز للجلاء . فأجلى عمر بن الخطاب من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا ما كان من أمر خيبر على سبيل الاختصار ، فلنذكر ما اتفق بعد فتح خيبر مما يتعين إلحاقه بهذه الغزوة لتعلقه بها ، فمن ذلك خبر الشاة التى سُمّ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قدمنا ذكر ذلك فى أخبار يهود، وهو فى الجزء الرابع عشر من هذه النسخة[1] ، ومنه خبر الحجاج بن عِلاط .

ذكر خبر الحجاج بن عِلاط وما أوصله إلى أهل مكة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استوفى أمواله

٩٨/١٥

قالوا : وكان الحجاج بن عِلاط السُّلمىّ ثم البَهْزىّ أسلم وشهد خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فتحت خيبر قال : يارسول الله، إن لى بمكة مالا عند صاحبتى أم شَيْبة بنت أبى طلحة، ومال مفترق فى تجار أهل مكة، فأذن لى يارسول الله. فأذن له ، فقال : إنه لابدّ لى يارسول الله من أن أقول . قال : "قل"، قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثَنيّة البيضاء[2] رجالا من قريش يستمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بلغهم أنه قد سار

(١) من تجزية المؤلف .

(٢) فى معجم البلدان : « البيضاء : ثنية التنعيم بمكة، لها ذكر فى كتاب السيرة » .

إلى خيبر ، وقد عرفوا أنها قَرية الحجاز ؛ ريفًا ومنعة ورجالا ، فهم يتحسسون الأخبار، ويسألون الرُّكبان، فلما رأونى قالوا : الحجاج بن علاط عنده والله الخبر ؛ قال : ولم يكونوا قد علموا بإسلامى، فقالوا : أخبرنا يا أبا محمد ، فإنه بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر، وهى بلد يهود وريف الحجاز؛ قال: قلت : قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم ؛ فالْتَبَطوا[1] بجنبَى ناقتى يقولون : إيهِ يا حجاج ! قال : قلت : هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقُتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأُسر محمد أسرا ، وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة ، فيقتلوه بين أَظْهرهم بمن أصاب من رجالهم . فقاموا وصاحوا بمكة ، وقالوا : لقد جاءكم الخبر ، وهذا محمد، إنما تنتظرون أن يُقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم . قال : قلت : أعينونى على جمع مالى بمكة على غُرمائى ، فإنى أريد أن أقدم خيبر ، فأصيب من فَلِّ[2] محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك . قال : فقاموا فجمعوا لى مالى كأحثّ[3] جمع سمعت به . قال : وجئت صاحبتى فقلت : مالى — وقد كان لى عندها مال موضوع — لعلّى ألحق بخيبر، فأصيب من فُرص البيع قبل أن يسبقنى التجار ؛ قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنّى ، أقبل حتى وقف إلى جنبى وأنا فى خيمة من خيم[4] التجار ، فقال : يا حجاج ، ما هذا الخبر الذى جئت به ؟ قال: قلت : وهل عندك حفظ لما وضعتُ عندك؟ قال : نعم ؛ قلت : فاستأخر عنى حتى أفرغ . قال : فلما فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة ، وأَجمعتُ الخروج لقيت العباس فقلت : احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضل، فإنى أخشى الطلب ثلاثا ، ثم قل ما شئت . قال : أفعل؛ قلت : فإنى والله تركتُ ابن أخيك

(١) التبطوا بجنبى ناقتى : أى عدوا إليها مطيفين بها . (٢) الفل : القوم المنهزمون .
(٣) كأحث جمع : كأسرع جمع . وفى ا : « كأحب » .
(٤) فى جـ : « خيام » .

عروسا على بنت ملكهم — يعنى صفيّة بنت حيّ بن أخطب — ولقد افتتح خيبر، وانتثل[1] ما فيها، وصارت له ولأصحابه؛ قال: ما تقول ياحجاج! قلت: إى والله، فاكتم عنى، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالى فرَقا من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك، فهو والله على ما تحب. قال: وسرت حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلّة له، وتخلّق[2] وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة؛ قال: كلا، والله الذى حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وتُرك عروسا على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه. قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذى جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلما فأخذ ماله، وانطلق ليَلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه؛ قالوا: يالَعباد الله! انفلت عدوّ الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن. ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك.

ذكر انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيبر إلى وادى القرى، ونومهم عن صلاة الصبح

قالوا: ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر انصرف إلى وادى القرى، فنزل به مع غروب الشمس، ومعه غلام له يقال له: مِدْعَم؛ أهداه إليه رفاعة بن زيد الجُذامىّ، فبينا هو يضع رَحْل رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه سهم غَرْب[3] فقتله، فقال الناس: هنيئا له الجنة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلا والذى نفس محمد بيده إن شَملته[4] لتحترق عليه فى النار". كان غَلّها

٩٩/١٥

(١) انتثل: استخرج. (٢) تخلق: طلى بالخلوق، وهو ضرب من الطيب.

(٣) سهم غرب: لا يدرى رامية.

(٤) الشملة: كساء غليظ يلتحف به.

من فَيْءِ المسلمين يوم خيبر ، فسمعها رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أصبتُ شِراكَين لنَعلين لى ؛ فقال : " يقَدُّ لك مثلهما من النار " .

قال أبو بكر أحمد البيهقىّ رحمه الله بسند يرفعه إلى أبى هريرة رضى الله عنه ، وساق نحو الحديث فى قتل مِدْعم ، ثم قال : وكانت يهود قد ثَوَى إليها ناس من العرب ، فاستقبلونا بالرّمى حيث نزلنا ، ولم نكن على تعبئة ، وهم يصيحون من آطامهم ، فعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وصفّهم للقتال ، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حُنَيف ، وراية إلى عبّاد بن بِشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله . فبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير ابن العوام فقتله ، ثم برز آخر ، فبرز إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه فقتله ثم برز آخر ، فبرز إليه أبو دُجانة الأنصارىّ رضى الله عنه فقتله ، حتى قُتل منهم اثنا عشر رجلا (١) ، كلما قُتل رجل منهم دعى من بقى إلى الإسلام . قال : ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيصلى بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله ، فقاتلهم صلى الله عليه وسلم حتى أمسى ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قِيدَ رُمح حتى أعطوا بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنم أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه ، وترك الأرض والنخل بأيدى يهود ، وعاملهم عليها ، فلما بلغ يهود تَيْماء ما كان من أمر خيبر وفَدَك ووادى القرى صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية ،

(١) فى دلائل النبوّة : « أحد عشر » .

وأقاموا بأيديهم أموالهم ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة ؛ فلما كان ببعض الطريق قال من آخر الليل : " مَنْ رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام " ؟ وجاء فى الحديث : " من رجل يكلأ لنا الليل " ؟ . فقال بلال : أنا يارسول الله . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الناس فناموا ، وقام بلال يصلى ، فصلى ما شاء الله أن يصلى ، ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمُقه فغلبته عينه فنام ، فلم يوقظهم إلا مَسُّ الشمس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أصحابه استيقاظا ، فقال : " ماذا صنعت بنا يابلال " ؟ فقال : يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك . قال : "صدقت" . ثم اقتاد رسول الله صلى الله عليه وسلم [بعيره](١) غير كثير ثم أناخ ، فتوضأ وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالا فأقام الصلاة(٢) ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، فلما سلّم أقبل على الناس فقال : " إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾(٣) " . وفى الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استيقظ واستيقظ أصحابه أمرهم أن يركبوا حتى يخرجوا من ذلك الوادى ، وقال : "إن هذا وادٍ به شيطان" فركبوا حتى خرجوا من ذلك الوادى ، ثم أمرهم أن ينزلوا وأن يتوضئوا ... الحديث بنحو ما تقدم .

ذكر سرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى تُربة(٤)

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة سبع من مهاجره فى ثلاثين رجلا إلى عُجُز هوازن بتُرَبة — وهى ناحية العَبْلاء على أربع ليال من مكة ، طريق صنعاء ونجران — فأتى الخبر هوازن فهربوا ، وجاء عمر محالّهم(٥) فلم يلق بها أحدا . فانصرف راجعا إلى المدينة .

(١) التكملة عن ابن هشام . (٢) فى ج : « للصلاة » . (٣) سورة طه آية ١٤
(٤) فى أ : « قرية » . وهو تحريف . (٥) فى أ : « محالها » .

ذكر سرية أبي بكر الصديق رضى الله عنه إلى بنى كلاب بنجد

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة سبع من مهاجَره .

روى عن سلمة بن الأكوع قال : غزوت مع أبى بكر رضى الله عنه إذ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فسبى ناسا من المشركين فقتلناهم ، وكان شعارنا : أَمِت أَمِت . قال : فقتلت بيدى سبعة أهل أبيات من المشركين . وعنه أيضا قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر إلى فزارة . وهذا الذى صححه مسلم . وعن إياس بن سلمة بن الأكوع قال : حدثنى أبى قال : غزونا فَزارة وعلينا أبو بكر رضى الله عنه ، أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فلما كان بينه و بين القوم ساعة أمرنا أبو بكر فعرّسنا (١) ، ثم شنّ الغار فورد الماء ، فقتل من قتل وسبى من سبى . ثم [قال (٢) سلمة : فرأيتُ عُنقا (٣)] من الناس فيهم الذرارىّ ، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل ، فرميت بسهم بينهم و بين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، فجئت بهم أسوقهم ، وفيهم امرأة من بنى فزارة ، معها ابنة لها من أحسن العرب ، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر رضى الله عنه فنفلنى ابنتها ، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبا ، فلقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السوق ، فقال : "يا سلمة ، هب لى المرأة" . فقلت : يا رسول الله ، قد أعجبتْنى وما كشفتُ لها ثوبا ؛ ثم لقينى من الغد فى السوق ، فقال : "ياسلمة ، هب لى المرأة ، لله أبوك !" . فقلت : هى لك يا رسول الله ؛ فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة ، ففدى بها ناسا من المسلمين كانوا أسروا بمكة . روى هذا الحديث مسلم .

١٠٠/١٥

(١) عرّسنا : نزلنا فى آخر الليل للاستراحة .

(٢) هنا بياض بالأصلين والتكملة من دلائل النبوة للبيهقى ، وطبقات ابن سعد ، وصحيح مسلم .

(٣) عنقا : جماعة من الناس .

ذكر سريّة بَشِير بن سعد الأنصارى إلى فَدَك

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة سبع من مهاجَرِه فى ثلاثين رجلا إلى بنى مُرَّة بفدك ، فخرج فلقى رِعاء الشاء، فسأل عن الناس فقيل : فى نواديهم ؛ فاستاق النَّعَم والشاء ، وانحدر إلى المدينة ، فخرج الصريخ فأخبرهم فأدركهم الدُّهم[1] منهم[2] عند الليل، فباتوا يرمونهم بالنبل حتى فَنِيَتْ نبل أصحاب بشير وأصبحوا، فحمل المرّيّون عليهم فأصابوا أصحاب بشير ، وقاتل بشير حتى ارتُثّ[3] وضرب كعبه، وقيل : قد مات . ورجعوا بنَعَمِهم وشائهم، وقدم عُلْبَة بن زيد الحارثى بخبرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قدم بعده بشير بن سعد .

ذكر سريّة غالب بن عبد الله الليثى إلى المَيْفَعة

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان سنة سبع من مهاجَرِه إلى بنى عُوَال[4] ، وبنى عبد بن ثعلبة ، وهم بالميفعة ، وهى وراء بطن نخل إلى النَّقْرة قليلا بناحية نجد ، وبينها وبين المدينة ثمانية بُرُد .

بعثه فى مائة وثلاثين رجلا ، ودليلهم يسار، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهجموا عليهم جميعا ، ووقعوا وسط محالّهم ، فقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعما وشاء فحدروه إلى المدينة ، ولم يأسروا أحدا . وفى هذه السرية قتل أسامةُ بن زيد الرجلَ الذى قال لا إله إلا الله ، وهو نَهِيك بن مِرداس بن ظالم من بنى ذبيان بن بَغيض، وقال ابن إسحاق : مِرداس بن نهيك؛ حليف لهم من الحُرَقة من جُهينة . ونقل أبو عمر بن عبد البر أنه عامر بن الأضبط الأشجعىّ، وأن رسول الله صلى الله

(١) فى ج : « فأدركه » . (٢) الدهم : العدد الكثير .

(٣) ارتث : صرع فى الجنوب وبه رمق . (٤) فى أ : « عراك » ؛ وهو تحريف .

عليه وسلّم وَدَاه . قال أسامة : أدركتُه أنا ورجل من الأنصار، فلمّا شَهَرنا عليه السلاحَ قال : أشهد أن لا إله إلّا الله؛ فلم نَنزِع عنه حتّى قتلناه ، فلمّا قدمنا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخبرناه خبَره ؛ فقال : " يا أسامة ، مَنْ لك بلا إله إلا الله؟ " قال: قلت : يا رسول الله، إنه إنما قالها تعوُّذا من القتل؛ قال : " فمن لك بها يا أسامة " ؟ قال : فوالّذى بعثه بالحقّ إنه مازال يردّدها علىّ حتّى لَوددْتُ أنّ ما مضى من إسلامى لم يكن، وكنتُ أسلمتُ يومئذ ، وأنّى لم أقتله . قال : قلت : أَنظِرنى يا رسول الله، إنى أعاهد الله ألّا أقتل رجلا يقول: « لا إله إلا الله » أبدا. قال : "يقول بعدى يا أسامة"، قلت : بعدك. وفى بعض طرق هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأسامة حين قال : « يا رسول الله، إنما قالها تعوّذا من القتل » " هلا شققتَ عن قلبه فتعلَمَ أصادقٌ هو أم كاذب " ! .

ذكرُ سَرِيَّة بَشير بنِ سعد الأنصاريّ إلى يُمْن[1] وجبار[2]

كانت هذه السريّة فى شوّال سنة سبع من مهاجَرِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن جمعا من غَطَفان بالجناب[3] قد واعدهم عُيَيْنة بن حِصْن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فدعا بشيرَ بنَ سعد فعقَد له لواءً، و بعث معه ثلثمائة رجل، فساروا حتى أتوا يُمْن وجَبار، وهو نحو الجناب — والجناب يعارض سَلاح[4] وخيبرَ ووادى القُرَى — فدنوا

(١) يمن : بفتح الياء ، وقيل : بضمها ؛ وقيل : بهمزة مفتوحة وسكون الميم ، (الزرقانى ج ٢ : ٣٠٢) . (٢) جبار : ضبطه الزرقانى بفتح الجيم ، وضبط فى معجم البلدان بضمها .

(٣) الجناب : من أرض غطفان .

(٤) سلاح : موضع أسفل خيبر .

من القوم فأصابوا لهم نَعَما كثيرا ، وتفرق الرُّعاء فحذَّروا الجمع ، فتفرَّقوا ولحقوا بعَلْياء بلادهم ، وخرج بشيرُ بنُ سعد فى أصحابه حتى أتى محالّهم فلم يجد فيها أحدا ، فرجع بالنَّعَم ، وأصاب منهم رجلين ، فأسرهما وقدم بهما المدينة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلما ، فأرسلهما صلى الله عليه وسلم .

ذكر سَرِيّة ٱبن أبى العَوْجاء السُّلَمىّ إلى بنى سُلَيم

٥

بعثه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى ذى الحجّة سنة سبع من مهاجَره فى خمسين رجلا إلى بنى سُلَيم ، وذلك بعد انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة بعد عمرة القضاء ، فخرج إليهم وتقدّمه عَيْنٌ لهم كان معه ، فحذّرهم ، فتجمّعوا ، فأتاهم ابن أبى العوجاء وهم مُعِدّون له ، فدعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتَنا إليه . فترامَوا ساعةً بالنَّبل ، وجعلت الأمدادُ تأتى حتى أحدقوا بهم من كلّ ناحية ، فقاتل القومُ قتالا شديدا حتى قُتل عامّتُهم ، وأصيب ٱبن أبى العوجاء جريحا مع القَتْلى ، ثم تحامل حتّى بلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقدموا المدينةَ فى أوّل يوم من صفَر سنة ثمان من الهجرة .

١٠

ذكر سريّة غالب بنِ عبد الله اللّيثىّ إلى بنى المُلَوّح بالكَدِيد (١)

كانت فى صفر سنة ثمانٍ من مهاجَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . رُوِى عن جُنْدَب بن مَكِيث الجُهَنىّ قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم غالبَ ابنَ عبد الله الليثىّ ، ثم أحد بنى كلب بن عوف فى سريّة ، فكنتُ فيهم ، وأمرهم أن يشُنّوا الغارة على بنى المُلَوّح بالكَدِيد — وهم من بنى ليث — قال : فخرجنا

١٥

(١) الكديد : موضع على اثنين وأربعين ميلا من مكة . ويوم الكديد من أيام العرب .

حتى إذا كنا بقُدَيد[1] لقينا الحارثُ بنُ البرصاء، فأخذناه، فقال: إنما جئت أريد الإسلام. قلنا: إن تكن مسلما لم يَضُرُّك رباطُنا يوما وليلة. قال: فشددناه وَثاقا، وخلّفنا عليه رُوَيْجِلا منّا أسودَ، وسِرْنا حتى أتينا الكَدِيد عند غروب الشمس، فكمَنّا فى ناحية الوادى، وبعثنى أصحابى رَبيئةً[2]، فخرجت حتى آتىَ تلًّا مشرفا على الحاضر[3]، فاستندتُ فيه، فعلوتُ فى رأسه، فنظرتُ إلى الحاضر، فوالله إنّى لَمُنبطِح على التلّ إذ خرج رجلٌ منهم من خِبائه، فقال لامرأته: إنى لأرى على التلّ سوادا ما رأيتُه فى أوّل يومى، فانظرى إلى أوعيتك، هل تفقدين منها شيئا؟ لا تكون الكلاب جرّت بعضها قال: فنظرتْ، فقالت: لا والله ما أفقد شيئا. قال: فناولِنى قوسى وسهمين. فناولتْه، فأرسل سهما فوالله ما أخطأ جنْبى، فانزعه فأضعه، وثبتُّ مكانى، ثم أرسل الآخرَ فوضعه فى مَنكِبى، فانزعه فأضعه، وثبتُّ مكانى، فقال لامرأته: لو كان ربيئةً لقد تحرّك، لقد خالطه سهماىَ لا أبا لَكِ! فإذا أصبحتِ فابتغيهما فخذيهما لا تَمضُغهما الكلاب؛ قال: ثمّ دخل، وأمهلناهم حتى اطمأنّوا ونَأَموا — وكان وجه السَّحَر — شننّا عليهم الغارة، واستقنا النَعَم، فخرج صريخُ القوم فى قومهم، فجاء ما لا قِبَل لنا به، فخرجْنا بها نَحدُرها حتى مررنا بابن البرصاء فاحتملْناه واحتملْنا صاحبَنا، وأدركَنا القومُ حتّى نظروا إلينا، ما بيننا وبينهم إلّا الوادى — وادى قُدَيد — فأرسل الله تعالى الوادىَ بالسَّيل من حيث شاء تبارك وتعالى من غير سحابةٍ نراها ولا مطر، فجاء بشىءٍ ليس لأحد به قوّة، ولا يقدر على أن يجاوِزَه، فلقد رأيتُهم وقوفا ينظرون إلينا، وإنّا لنسوق نَعَمَهم

١٠٢/١٥

(١) قديد بالتصغير: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) ربيئة، أى عينا لهم.

(٣) الحاضر: الحىّ العظيم.

ما يستطيع رجلٌ منهم أن يُجيزَ إلينا، ونحن نَحدُوها سِراعا حتى فُتناهم، فلم يقدروا على طلبنا، قال : فقدمْنا بها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

قال ٱبن سعد : وكانوا بضعةَ عشرَ رجلا، وكان شعارُهم يومئذٍ : أَمِتْ أَمِتْ !

ذكر سَرِيّة غالب بنِ عبد الله اللّيثى أيضا إلى مُصَاب أصحاب بَشير بن سعد بَفدَك

كانت فى صفر سنةَ ثمانٍ من هجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد هيّأ الزبيرَ بنَ العوّام رضى الله عنه ، وقال له : "سِرْ حتى تنتهىَ إلى مُصاب أصحابِ بشير بنِ سعد ، فإنْ أظفَرَكَ الله بهم فلا تبق فيهم" ، وهيّأ معه مائتىْ رجل ، وعقَدَ له لِواءً، فقدِم غالبُ بنُ عبد الله من الكَدِيد ، وقد أظفره الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : "ٱجلس" . وبَعث غالبَ بنَ عبد الله فى مائتى رجل، فيهم أُسامةُ بنُ زيد ، فسار حتى ٱنتهى إلى مُصاب أصحاب بشير، فأصابوا نَعَما، وقتلوا قَتْلى .

ذكر سريّة شُجاع بن وهب الأسدىّ إلى بنى عامر بالسّى[1]

بعثه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى شهر ربيع الأوّل سنة ثمان من الهجرة فى أربعة وعشرين رجلا إلى جَمْع من هَوازنَ بالسّىّ، من ناحية رُكْبة[2]، من وراء المَعدِن[3] ، وهى من المدينة على خمس ليال ، وأمَره أن يُغير عليهم، فسار حتى صبّحهم وهى غارُّون ، فأصابوا نَعَما كثيرا وشاءً ، فٱستاقوا ذلك حتى قدِموا المدينة، وغابت هذه السريّة خمس عشرةَ ليلةً .

(١) السىّ : ماء بين ذات عرق إلى وجرة على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة .
(٢) ركبة (بضم فسكون ففتح) : موضع بالطائف .
(٣) يريد معدن بنى سليم، وهو من أعمال المدينة على طريق نجد .

ذكر سرّية كعب بنِ عُمَير الغفاريّ إلى ذات أَطْلاح[(١)]

بعثه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى شهر ربيع الأوّل سنة ثمانٍ من الهجرة فى خمسةَ عشر رجلا، فساروا حتى أتَوْا إلى ذات أطلاح ، من أرض الشام ، وهى من وراء وادى القُرى، فوجدوا جَمْعا كثيرا من جمعهم؛ فدعَوْهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشَقُوهم بالنَّبْل، فلمّا رأى ذلك أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتَلوهم أشدَّ القتال حتى قتلوا ، وأفلت منهم رجلٌ جريح ، فأتَى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم فأخبَرَه الخبر ، فشَقّ ذلك عليه ، وَهمّ بالبَعْث إليهم، فبلغه أنهم قد ساروا إلى مواضع أُخَر، فتركهم .

ذكر سرّية مُؤْتة

ومؤتة[(٢)] بأدنى البَلْقاء بالقرب من الكَرَك[(٣)] .

كانت هذه السريّة فى جمادى الأولى سنةَ ثمانٍ من الهجرة . وسببُ بعثِ هذه السريّة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث الحارث بن عُمَير الأزديَّ إلى مَلِك بُصْرى بكتاب ، فلمّا نزل مُؤْتة عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغسّانىّ، فقتله ، ولم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسولٌ غيرُه ، فاشتدّ ذلك عليه ، وندب الناسَ فأسرعوا وعسكَروا بالجُرْف[(٤)] ، وهم ثلاثة آلاف ،

(١) فى ا : « أطلاع » ، وهو تحريف .

(٢) مؤتة كذا وردت مهموزة بالأصلين ، وروى فيها ضم الميم وسكون الواو بغير همز .

(٣) الكرك : قلعة حصينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء . وفى ابن سعد : « والبلقاء دون دمشق » .

(٤) الجرف : بضم فسكون : موضع على ثلاثة أميال من المدينة .

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " أمير القوم زيدُ بنُ حارثة ، فإن قُتل فجعفرُ بنُ أبي طالب ، فإن قُتل فعبدُ الله بنُ رَواحة ، فإن قُتل فليرتَضِ المسلمون بينهم رجلا فيَجعلوه عليهم "، وعقَدَ لهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لواءً أبيضَ وسلّمه إلى زيد بنِ حارثة ، وأوصاهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أن يأتوا مَقتلَ الحارث بنِ عُمَير، وأن يَدْعوا من هناك إلى الإسلام "فإن أجابوا، وإلّا فاستَعينوا عليهم بالله وقاتلوهم" ، وخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلم مشيِّعا لهم حتّى بلغ ثنيّة الوَداع[1] ، فوقف وودّعهم وانصرَفَ عنهم ؛ فقال عبد الله بن رَوَاحة :

١٠٣/١٥

خَلَفَ السلامُ على امرئٍ ودَّعْته * في النَّخْل خيرَ مُوَدَّع[2] وخليلِ

فلمّا ساروا من معسكَرهم نادى المسلمون : دفع الله عنكم، وردَّكم صالحين غانمين ! . فقال ابن رواحة :

لكنّني أسأل الرحمنَ مغفرةً * وضربةً ذات فَرْغٍ تَقْذِف الزَّبَدا[3]

في أبيات أُخَر[4] .

قال : فلمّا فَصَلوا[5] من المدينة سمع العدوّ بمسيرهم ، فجمعوا لهم ، وقام فيهم شُرَحْبِيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف ، وقدّم الطلائع أمامه ،

(١) هي ثنية مشرفة على المدينة ، يطؤها من يريد مكة ، قيل في سبب تسميتها بذلك . إنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة .

(٢) كذا في أ ، والذي في جـ وابن هشام جـ ٤ ص ١٦ « مشيع » .

(٣) ذات فرغ ، أي واسعة . وأراد بالزبد هنا رغوة الدم ؛ (الزرقاني جـ ٢ ص ٣٢٣) ملخصا .

(٤) الأبيات في ابن هشام ٤ : ١٥ — ١٦

(٥) فصلوا : خرجوا .

وقد نزل المسلمون مَعان[١] من أرض الشام ، و بلغ الناسَ أن هِرَقْل قد نزل مَآب[٢] من أرض البلقاء فى مائة ألف من بَهْراء ووَائل و بَكْر ولَخْم وجُذَام والقَيْن ، عليهم رجل من بَلِىّ ثم أحد إراشة ، يقال له : مالك بن زافلة[٣] ، فأقاموا ليلتين لينظروا فى أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشجّعهم عبد الله ابن رواحة ، وقال : ياقوم ، والله إنّ التى تكرهون لَلّتى خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتِل الناس بعددٍ ولا قوّة ولا كثرة ، ما نقاتِلهم إلا بهذا الدِّين الذى أكرَمنا الله به ، فانطلِقوا فإنّما هى إحدى الحُسْنَيَيْن : إمّا ظهورٌ[٤] ، وإمّا شهادة . فقال الناس : قد والله صدق ابن رَواحة . قال : فمضى الناسُ حتّى إذا كانوا بتُخوم[٥] البَلْقاء لقيتْهم جموعُ هِرَقْل من الروم والعرب بقرية من قرى البَلْقاء يقال لها المَشارِف ، ثم دنا العدوّ ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مُؤْتة[٦] ، ووافاهم المشركون ، فجاء مِنهم ما لا قِبَل لأحد به من العدَد والسلاح والكُراع[٧] والدِّيباج والحريرِ والذهب

(١) معان ، ضبطه الزرقانى بفتح الميم ، وضبطه البكرى بضمها : حصن كبير من أرض فلسطين ، على خمسة أيام من دمشق فى طريق مكة .

(٢) مآب ، بفتح أوله وثانيه بعده ألف وباء معجمة : موضع بالشام (البكرى) .

(٣) كذا ورد هذا الاسم بالزاى المعجمة فى الأصلين وابن هشام جـ ٤ ص ٢٣ ، والذى فى الزرقانى جـ ٢ : ٣٢٣ « رافلة » بالراء المهملة .

(٤) الظهور هنا : الغلبة .

(٥) التخوم : الحدود الفاصلة بين أرض وأرض .

(٦) مؤتة : قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام ؛ وقيل إنها من مشارف الشام (معجم البلدان) .

(٧) فى الزرقانى جـ ٢ ص ٣٢٤ : أن الكراع جماعة الخيل خاصة .

فعبّأ المسلمون ، فجعلوا على مَيمنتهم رجلا من بنى عُذْرة يقال له : قُطْبة بنُ قَتادَة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له : عُبَايةُ بنُ مالك — و يقال : عُبادة — ثم ٱلتقوا وٱقتتلوا ، فقاتلَ زيدُ بنُ حارثة رضى الله عنه براية رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم حتى قُتِل طَعْنا بالرماح ، ثم أخذ الرايةَ جعفرُ بنُ أبى طالب ، فنزل عن فرس له شَقْراء فعَرْقَبها (١) ، فكانت أوّلَ فرس عُرْقبتْ فى الإسلام ، وقاتَل حتى قُتل ، ضربه رجل من الروم فقطعه نِصفَين فوُجد فى أحد نصفَيه بضعةٌ وثمانون جُرحا ، ووجدْنا فيما أقبل من بدنه (٢) ٱثنتين وسبعين ضربةً بسيف (٣) وطعنةً برمح .

وحَكى أبو محمد عبدُ الملك بنُ هشام أنّ جعفر بنَ أبى طالب أخذ اللّواء بيمينه فقُطِعتْ يده ، فأخذَه بشماله فقُطعتْ ، فٱحتضَنه بعَضُديه حتى قُتِل وهو ٱبن ثلاثٍ وثلاثين سنة ، فأثابه ٱللهُ تعالى بذلك جَناحَين فى الجنّة يطير بهما حيث شاء .

وقال محمد بن إسحاق : كان جعفر يقاتِل وهو يقول :

يا حبّذا الجنّة وٱقترابُها * طيّبةً وباردًا شَرابُها
والرُّوم رُومٌ قد دنا عذابُها * كافرة بعيدة أنسابُها
علىَّ إن لاقيتُها ضِرابُها

قال : ولمّا قُتل جعفر أخذ عبدُ الله بن رُوَاحة الرّاية ، ثم تقدّم بها وهو على فَرسه ، فجعل يستنزِل نفسه (٤) و يتردّد بعض التردّد ، ثم قال :

أقسمْتُ يا نفس لتَنزِلنَّهْ * لَتَنزِلنَّ أو لَتُكرَهنَّهْ

(١) عرقبها ، أى قطع عرقوبها ، وهو الوتر الذى بين مفصل الساق والقدم ، قال فى الروض : « ولم يعب ذلك عليه أحد ، فدل على جوازه إذا خيف أن يأخذها العدو فيقاتل عليها المسلمين » . وفى ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠ « عقرها » .

(٢) فى أ : « يديه » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى أ « بالسيف » .

(٤) يستنزل نفسه ، أى يطلب نزولها عما أرادته وهمّت به .

إنْ أجْلَبَ الناسُ وشَدُّوا الرَّنَّهْ (١) * مالِي أراكِ تَكرَهين الجَنَّهْ
قد طال ما قد كنتِ مطمئنَّهْ * هل أنتِ إلّا نُطْفَةٌ فى شَنَّهْ (٢)

وقال أيضا رضى الله عنه :

يا نفس إلّا تُقتَلى تموتى * هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيتِ
وما تمنَّيتِ فقد أُعطِيتِ * إنْ تفعلِي فِعلَهما هُدِيتِ
وإنْ تَوَلَّيتِ فقد شَقِيتِ

١٠٤/١٥ يريد بقوله : « فِعلَهما » صاحبَيه زيدا وجعفرا ؛ ثم نزل . فأتاه ابنُ عمٍّ له بعَرْقٍ (٣) من لحم ، فقال : شُدَّ بهذا صُلْبَك ، فإنّك قد لقيتَ فى أيّامك هذه ما لقيتَ . فأخَذَه من يده فانتهس (٤) منه نَهْسَةً ، ثم سمع الحَطْمَة (٥) من ناحية الناس ، فقال : وأنتَ فى الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، وأخذ سيفَه وتقدّم ، فقاتَل حتى قُتِل .

ثم أخذ الراية ثابتُ بنُ أرقَم ، وقال : يامعشر الناس (٦) ، اصطلِحوا على رجل منكم ؛ فقالوا : أنتَ ؛ قال : ما أنا بفاعل . فاصطلَحَ الناسُ على خالد بنِ الوليد ، فلمّا أخذ الرايةَ دافَع القوم وحاشَى (٧) بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه ، وانكشف . فكانت

(١) أجلب الناس : اختلطت أصواتهم وضجّوا . وفى السهيلىّ « جلّب » بتشديد اللام . والرنة : صوت فيه ترجيع شبه البكاء .

(٢) النطفة : القليل من الماء الصافى . والشنة : القربة الخلق .

(٣) العرق : العظم الذى عليه بعض اللحم .

(٤) انتهس : أخذ منه بفمه يسيرا (عن أبى ذرّ) . وفى أ : « فانتهش منه نهشة » .

(٥) الحطمة : زحام الناس وحطم بعضهم بعضا .

(٦) فى الزرقانى جـ ٢ ص ٣٢٦ عن ابن إسحاق : « المسلمين » .

(٧) حاشى بهم : انحاز بهم ، من الحشى ، وهى الناحية . وفى ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥٨ : « وخاشى بهم » بالمعجمة ، من المخاشاة ، وهى المحاجزة ، مفاعلة من الخشية ، لأنه خشى على المسلمين قلة عددهم ، وفى الزرقانى جـ ٢ ص ٣٢٧ : « بخيّر خالد الناس ودافع وانحاز وانحيز عنه » .

الهزيمة ، فتبعهم المشركون ، فقُتل من قتِل من المسلمين ، ورُفعت الأرضُ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى نظر إلى معتَرَك القوم ، فلما أخذ خالدُ بنُ الوليد اللواءَ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الآنَ حَمِيَ الوَطِيس"(١) .

قال محمد بنُ إسحاق : ولمّا أصيب القومُ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "أخذَ الرايةَ زيدُ بنُ حارثةَ فقاتَلَ بها حتى قُتِل شهيدا ، ثم أخذَها جعفرٌ فقاتَلَ بها حتى قُتِل شهيدا" ، ثم صَمَت حتى تغيّرتْ وجوهُ الأنصار ، وظنّوا أنّه قد كان فى عبد الله ابنِ رَواحةَ بعض ما يكرهون ، فقال : "ثم أخذَها عبدُ الله بنُ رَواحة فقاتَلَ بها حتى قتِل شهيدا" .

قال ابن إسحاق : وكان قُطْبة بنُ قَتادة العُذرىّ حَمَل على مالكِ بنِ زافلة فقتَلَه وهو على المائة ألف التى اجتمعتْ من العرب ، فقال فى ذلك :

طعنتُ ابنَ زافلةَ بنِ الإراش * برمحٍ مضى فيه ثمّ انْحطَمْ(٢)
ضَربتُ على جِيده ضربةً * فمال كما مالَ غصنُ السَّلَمْ(٣)

قال : ولمّا سمع أهلُ المدينة بإقبال جيش مُؤْتة تلقّوهم بالجُرُف ، فجعل الناسُ يَحثُون فى وجوههم التراب ويقولون : يا فُرّار ، فررتم فى سبيل الله ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "ليسوا بفُرّار ، ولكنّهم كُرّار إن شاء الله" .

---

(١) حمى الوطيس ، أى حمى الضرب وجدّت الحرب واشتدّت .

(٢) انحطم : انكسر .

(٣) الجيد : العنق . والسلم بالتحريك : شجر العضاه ، الواحدة سلمة .

ذكر تسمية من استشهد من المسلمين يوم مؤتة

استشهد من قريش ومواليهم أربعة نفر، وهم: جعفر بن أبي طالب، وزيد ابن حارثة مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومسعود بن الأسود بن حارثة ابن نضلة، ووهب بن سعد بن أبي سرح. واستشهد من الأنصار: عبد الله ابن رواحة، وعبّاد بن قيس، والحارث بن النعمان بن إساف، وسراقة بن عمرو وأبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد، وعمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث بن عبّاد، رضوان الله عليهم أجمعين.

ذكر سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل (١)

وهي وراء وادي القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة. وسبب بعث هذه السرية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف (٢) رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فدعا عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة (٣) المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرسا، وأمره أن يستعين بمن يمر به من بلي (٤) وعذرة وبلقين، فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا، فبعث رافع بن مكيث (٥) الجهني

(١) اختلفوا في ضبط هذه الكلمة اختلافا كثيرا، فمنهم من ضبطها بفتح السين الأولى ومنهم من ضبطها بالضم، ومنهم من ضبطها بالفتح والضم. راجع الزرقاني جـ ٢ ص ٣٣٢

(٢) كذا في الأصلين وابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٩٥، وفي عيون الأثر (٢ : ١٥٧): يريدون أن يدنوا إلى أطراف المدينة.

(٣) سراة القوم: أصحاب الشرف فيهم.

(٤) لأن عمرا كان ذا رحم فيهم، فإن جدته لأبيه كانت بلوية، فأراد عليه السلام أن يتألفهم بعمرو.

(٥) كذا ضبط في الزرقاني جـ ٢ ص ٣٣٣.

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم يستمدّه، فبعث إليه أبا عُبيدةَ بنَ الجرّاح فى مائتين، وعقَدَ له لِواء، وبعثَ معه سَراةَ المهاجِرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمَرَه أن يلحق بعَمرو، وأن يكونا جميعا ولا يختلفا، فلحق بعمرو؛ فأراد أبو عُبيدة أن يؤمّ الناسَ، فقال عمرو: إنما قدمتَ علىّ مَدَدا، وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عُبيدة[1]، وسار حتى وطئ بلادَ بَلِيّ، ودوّخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عُذْرة وبَلْقَيْن، ولقِىَ فى آخر ذلك جَمْعا، فحَمَل عليهم المسلمون، فهرَبُوا فى البلاد وتفرّقوا، ثم قفَل وبعَثَ عوفَ بن مالك الأشجعىّ بريدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فأخبَره بقُفولهم وسلامتِهم وما كان فى غَزاتِهم.

١٠٥/١٥ ذكرُ سَرِيّة أبى عُبيدة بنِ الجرّاح، وهى سريّة الخَبَط[2]

بعَثَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أبا عُبيدة بنَ الجرّاح فى شهر رجبَ سنة ثمانٍ من الهجرة فى ثلثمائة من المهاجرين والأنصار، وفيهم عمرُ بنُ الخطّاب — رضى الله عنه — إلى حىٍّ من جُهَينةَ بالقَبَلِيّة بما يلى ساحل البحر، وبينها وبين المدينة خمسُ ليالٍ، فأصابهم فى الطريق جوعٌ شديد، فأكَلوا الخَبَط، وابتاع قيسُ بنُ سعد جَزُورا ونحَرَها لهم.

رُوِى عن عُبادة بنِ الصامت قال: بعثَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم سَرِيّةً إلى سِيفِ[3] البحر، عليهم أبوعبيدة بنُ الجرّاح، وزوّدَهم جِرابا من تَمْر، فجعل يقوتهم إيّاه حتى صاروا إلى أن يعدّه لهم عدّا، ثم نفِد التمر حتى كان يعطِى كلّ رجل منهم كلّ يوم تمرة، فقسَمها يوما بيننا، فنقصتْ تمرةٌ عن رجل، قال: فوجدنا فقدَها ذلك

(١) زاد فى ابن سعد جـ ٢: ص ٩٥ بعد هذه الكلمة قوله: «وكان عمرو يصلى بالناس».

(٢) الخبط (بالتحريك): ورق العضاه، من الطلح ونحوه من الشجر، يضرب بالعصا فيتناثر.

(٣) سيف البحر: ساحله.

اليوم ، فلمّا جهَدَنا الجوع أخرج الله لنا دابّةً[1] من البحر فأصَبنا من لَحمها ووَدَكِها[2] ، فأقمنا عليها عشرين ليلة حتى سمِنّا وٱبْتَلَلْنا[3] ، وأخَذَ أميرُنا ضِلَعا من أضلاعها فوضعه على طريقه ، ثم أمر بأجسم بعيرٍ معنا فحمل عليه أجسم رجلٍ منّا ، فخرج من تحتها وما مسّت رأسَه ، فلمّا قدِمْنا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخبَرْناه خبَرَها ، وسألناه عمّا صنعنا فى ذلك مَنْ أكلنا إيّاها ، فقال : "رِزْقٌ رزَقَكُموه الله" .

قال ابن سعد : وانصرفوا ولم يلقَوا كيدا .

ذكر سريّة أبى قتادةَ بن رِبْعىٍّ الأنصارىّ إلى خُضْرَة وهى أرضُ مُحارِب بنَجْد

قالوا : بعَثَه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى شعبان سنة ثمانٍ من الهجرة ومعه خمسة عشر رجلا إلى غَطَفان ، وأمَرَه أن يشنّ عليهم الغارة ، فسار الليلَ وكَمَن النهار ، فهجَم على حاضِرٍ منهم عظيم ، فأحاط به ، فصرَخَ رجلٌ منهم : يا خُضْرة وقاتَلَ منهم رجال ، فقتلوا من أشرافهم[4] ، وٱستاقوا النَّعَم ، فكانت الإبلُ مائتى بعير ، والغنمُ ألفَىْ شاة ، وسبَوْا سبْيًا كثيرا ، وجمعوا الغنائم ، فأخرجوا الخُمس ، وقسموا ما بقى على السريّة ، فأصابَ كلَّ رجل منهم آثنا عشَرَ بعيرا ، وعُدِل البعيرُ بعشرٍ من

(١) ذكر الزرقانى أنه نوع من السمك يقال له العنبر .

(٢) الودك (بالتحريك) : الشحم .

(٣) ابتللنا : حسنت حالنا بعد الهزال وأفقنا من ألم الجوع الذى كان أصابنا .

(٤) كذا فى الأصلين . والذى فى الزرقانى جـ ٢ ص ٣٤٠ وابن سعد جـ ٢ ص ٩٦ « فقتلوا من أشرف لهم » أى ظهر .

الغنم، وصارت فى سَهْم أبى قَتادةَ جاريةٌ وَضيئةٌ، فاستوهَبَها منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم، فوهَبَها له، فوهَبَها صلى الله عليه وسلم لمَحْمِيَّةَ بن جَزْء. وغابوا فى هذه السريّة خمسَ عشرةَ ليلةً.

ذكرُ سريّة أبى قَتادةَ بن رِبْعىٍّ الأنصارىِّ إلى بطن إِضَم

كانت هذه السريّة فى أوّل شهر رمضانَ سنة ثمانٍ من هجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلم. ٥

قالوا: لمّا هَمَّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بغَزْوِ أهلِ مكّة بعثَ أبا قتادة فى ثمانية نفر سريّةً إلى بطن إضَم — وهى فيما بين ذى خُشُب وذى المَرْوة وبينها وبين المدينة ثلاثة بُرُد — ليظنَّ ظانٌّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم توجّه إلى تلك الناحية، ولِأَنْ تَذهبَ بذلك الأخبار، وكان فى السريّة محلِّم بنُ جَثّامة اللّيثىّ، فمرّ عامر بنُ الأضبط الأشجعىّ، فسلّم بتحيّة الإسلام، فأمسَكَ عنه القوم، وحمل عليه محلِّم بنُ جَثّامة فقتَلَه لشىء كان بينهما، وسلَبَه بعيرَه ومتاعَه، فلمّا لحقوا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم نزل فيهم من القرآن قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[1] الآية. فمضَوا ولم يلْقَوْا جمعًا فانصرفوا حتى انتهَوْا إلى ذى خُشُب، فبلَغَهم أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قد توجّه إلى مكّة، فأخذوا على يَيْن[2] حتى لقوا النبىَّ صلّى الله عليه وسلم بالسُّقْيا. ١٠ ١٥

(١) سورة النساء: ٩٤

(٢) يين، بفتح فسكون: ناحية من أعراض المدينة على بريد منها (ياقوت).

ذكرُ غزوةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم عامَ الفَتْح والسببِ الّذى أوجبَ نقضَ العهد وفسْخَ الهُدْنة

١٠٦/١٥ كانت هذه الغَزْوة فى شهر رمضانَ سنةَ ثمانٍ من مهاجَرِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعلى رأس اثنين وعشرين شهرا من صُلح الحُدَيْبية .

٥ وسببُ ذلك أنّه لمّا دخل شعبانُ من هذه السنة كلّمتْ بنو نُفاثةَ — وهم من بنى بَكر — أشرافَ قريش أن يعينُوهم على خُزاعَة بالرّجال والسلاح، وكانت خزاعة قد دخلتْ فى عَقد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعهدِه يومَ الحُدَيْبيـة كما قدّمْنا ذكرَ ذلك ، ودخلتْ بنو بكر فى عَقْـد قريش وعهدِها ، قالوا : فلمّا سألوهم ذلك وَعَدوهم ووافَوْهم بالوَتِير[1] متنكّرين متنقّبين ، فيهم صَفْوان بن أميّة ، وحُوَيْطِب بنُ ١٠ عبد العُزّى، ومِكْرَز بنُ حفص بنِ الأَخْيَف، فبيّتُوا خُزاعةَ ليلا، وهم غارّون[2] آمنون فقَتَلوا منهم عشرين رجلا ، ثم ندمتْ قريش على ما صنعتْ، وعلموا أن هذا نقضٌ للمُدّة والعهد الّذى بينهم و بين رسـولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، وخرج عمرو بنُ سالم الخُزاعىّ فى أربعين راكبا من خُزاعة ، فقدِموا على رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم يُخبِرونه بالّذى أصابهم و يستنصرونه .

١٥ قال ابن إسحاق : قدِم عمرو بن سالم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة، فوقف ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم جالس فى المسجد بين ظَهْرانى الناس، فقال :

يا ربِّ إنّى ناشِـدٌ محمّـدَا * حِلْفَ أبينـا وأبيـه الأَتْلَدَا[3]
قـد كنتُمُ وُلْدا وكنّا والِدا * ثُمّتَ أَسـلمْنا فلَمْ ننزِع يدَا[4]

(١) الوتير : ماء قريب من مكة . (٢) غارّون : غافلون . (٣) ناشد : طالب .
٢٠ والحلف، بكسر الحاء وسكون اللام : المناصرة . (٤) الولد، بضم فسكون : لغة فى الولد، بالتحريك . وثمت : حرف عطف أدخل عليه تاء التأنيث .

فانصرْ هداكَ اللهُ نصرا أبدا[1] * وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
فيهمْ رسولُ الله قد تجرّدا * إن سيمَ خسْفا وجهُه تربّدا[2]
في فيلقٍ[3] كالبحر يجري مُزبِدا * إن قريشا أخلفوكَ الموعدا
ونقضوا ميثاقَك المؤكّدا * وجعلوا لي في كَداءٍ رُصّدا[4]
وزعموا أنْ لستُ أدعو أحدا * وهمْ أذلُّ وأقلُّ عددا
هم بيّتونا بالوَتيرِ هُجّدا * وقتّلونا رُكّعا وسُجّدا[5]

يقول : قُتِلْنا وقد أسلمْنا، ويُروَى بدل قوله : * قد كنتُم وُلْدا وكنّا والدا *
* نحن ولدناك فكنتَ وَلَدا *

قال : فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "نُصرتَ يا عَمرو بنَ سالم".

وَروَى محمد بنُ سعد في طبقاته، قال : فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يجرّ رِداءَه ويقول : "لا نُصِرتُ إن لم أنصرْ بني كعب ممّا أنصر منه نفسي". ثم عرَضَ له سحاب، فقال : إن هذا السحاب ليستهلُّ بنصر بني كعب.

قال محمد بنُ إسحاق : وقدِمَ بُدَيل بنُ وَرْقاء في نفر من خُزاعة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأخبَرَه بما أصيب منهم، وبمظاهرةِ قريشٍ بني بكر عليهم

(١) في ج، وفي ابن هشام ج ٤ ص ٣٦ «أعتدا».
(٢) سيم خسفا، أي أولي ذلا. وتربد : تغير.
(٣) الفيلق : العسكر الكثير.
(٤) رصد كركم : جمع راصد، وهو الطالب للشيء.
(٥) بيتونا : قصدونا ليلا.

ثم انصرفوا راجعين إلى مكّة ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه : "كأنّكم بأبى سُفْيان قد جاءكم ليَشُدّ العَقْد و يزيدَ فى المدّة"، ومضى بُدَيل بنُ وَرْقاء وأصحابُه حتى لَقُوا أبا سُفيان بنَ حرب بعُسْفان(١)، قد بعثته قريشٌ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليشُدّ العَقْد، و يزيدَ فى المُدّة، فقال له أبو سُفيان : مِن أين أقبلتَ يا بُدَيل ؟ قال : تَسَيّرتُ فى خُزاعةَ فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى؛ قال : أوَ ما جئتَ محمّدا؟ قال : لا، وفارَقَه ، فقال أبو سُفيان: لئن كان بُدَيل جاء إلى يَثْرِبَ لقد علَفَ النوى بها ، فأتَى مَبرَكَ راحلته فأخذ من بَعْرها ففتّه ، فرأَى فيه النوى ، فقال : أحلِف بالله لقد جاء بُدَيل محمّدا ؛ ثم خرج أبو سفيان حتى قدِم على محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، فدخل على ابنته أمّ حبيبة ، وذهب ليجلس على فراش النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فطوَتْه، فقال: يا بُنَيّة ، ما أدرى أرغبتِ بى عن هذا الفراش، أم رغِبتِ به عنّى، قالت: بل هو فراشُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، وأنت رجلٌ مشرك نجس ، فلم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال: والله لقد أصابكِ بعدى يا بُنَيّة شرّ، ثم خرج حتّى أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فكلّمه ، فلم يردّ عليه شيئا، ثم ذهب إلى أبى بكر وكلّمه أن يكلّم(٢) رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال : ما أنا بفاعل ؛ ثم أتى عمرَ بنَ الخطّاب فكلّمه ، فقال : أنا أشفعُ لكم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فوالله لو لم أجد إلّا الذرّ لجاهدتُكم به ؛ ثم دخل على علىّ بنِ أبى طالب، وعنده فاطمة بنتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعندها الحسنُ ابنها غلامٌ يَدِب بين يديها، فقال: يا علىّ ،

(١) عسفان : على مرحلتين من مكّة على طريق المدينة (معجم البلدان) .

(٢) فى ابن هشام : « يكلم له » .

١٠٧/١٥ إنّك أمسّ القومِ بى رَحِما ، وإنى قد جئتُ فى حاجةٍ فلا أرجعنّ كما جئتُ خائبا (١) ، فاشفع لى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : ويحك يا أبا سُفْيان ، والله لقد عزَمَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه ، فالتفتَ إلى فاطمة فقال : يا بنتَ محمّد ، هل لكِ أن تأمرى بُنَيَّكِ هذا فيُجيرَ بين الناس فيكون سَيّدَ العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بُنَىَّ ذاك أن يُجير بين الناس ، وما يجير أحدٌ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ فقال : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدّت علىّ ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلَم شيئا يُغنى عنك ، ولكنّك سيّد بنى كِنانة . فقم فأجِرْ بين الناس ، ثم الحقْ بأرضك ، قال : أو ترى ذلكَ مُغْنيا عنّى شيئا؟ قال : لا والله ، ما أظنّه ، ولكن لا أجد لك غيرَ ذلك ، فقام أبو سُفيان فى المسجد فقال : أيّها الناس ، إنّى قد أجَرْتُ بين الناس ، ثم ركب بعيرَه وانطلَق ، فلمّا قدِم مكّة على قريش قالوا : ما وراءَك ؟ قال : جئت محمدا فكلّمتُه ، فوالله ما ردّ علىّ شيئا ، ثم جئتُ ابنَ أبى قُحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابنَ الخطّاب فوجدتُه أعدى العدوّ ، ثمّ جئتُ عليّا (٢) فوجدتُه ألينَ القوم ، وقد أشار علىّ بشىء صنعتُه ، فوالله ما أدرى هل يغنى شيئا أم لا ؟ قالوا : وبِمَ أمرَك ؟ قال : أمرَنى أن أجير بين الناس ، ففعلتُ ، قالوا : فهل أجازَ ذلك محمّد ؟ قال : لا ؛ قالوا : ويلك ، والله إنْ زادَ الرجلُ على أن لَعِب منك (٣) ، فما يغنى عنك ما فعلت (٤) ، ثم تجهّز

(١) فى كلا الأصلين : « فلأرجعن » ؛ وهو تحريف ؛ والتصويب عن ابن هشام .

(٢) كذا فى أ وابن هشام ؛ والذى فى ج : « أتيت » .

(٣) فى ابن هشام : « بك » .

(٤) فى ابن هشام : « ما قلت » .

رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم وأخفى مَقصِده، ثم أعلَم الناسَ أنه سائر إلى مكّة، وامَرَهُم بالجدّ والتهيؤ، وقال: "اللهمّ خذ العُيون والأخبار عن قريش حتى نَبْغتَها فى بلادها". والله المعين.

ذكرُ خبر حاطب بن أبى بلتَعَة فى كتابه إلى أهل مكّة، وإعلام الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بذلك، وأخْذِه الكتاب، وما أنزلَ اللهُ عزّ وجلّ فى ذلك من القرآن

قال: ولمّا أجمع رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم المسيرَ إلى مكّة كتب حاطب ابنُ أبى بَلْتَعَةَ كتابا إلى قريش يُخبرهم بالذى أجمَع عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم من الأمر فى المَسير إليهم، ثم أعطاه آمرأةً يقال إنها من مُزَيْنة — وقيل: هى سارة مولاة لبعض بنى عبدالمطلب — وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا، فجعلتْه فى رأسها ثم فتلتْ عليه قرونَها وخرجتْ به، وأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم الخبرُ من السماء بما صَنَع حاطب، فبعثَ علىَّ بنَ أبى طالب، والزبيرَ بنَ العوّام رضى الله عنهما، وقال: أَدْرِكا آمرأةً قد كتب معها حاطبٌ كتابا إلى قريش يحذّرهم ما قد أجمعْنا فى أمرهم، فخَرجا فأدرَكاها بالخَليقة، خَليقة بنى أبى أحمد، فآستنزَلاها وآلتمَسَا فى رَحْلها فلَم يجدا شيئا، فقال لها علىّ: أَحلِف بالله لتُخرِجنّ لنا هذا الكتاب أو لنفتّشنّك، فقالت: أَعرِض عنّى، فأَعرَضَ، فحلّت قرونَ(١) رأسِها فآستخرجت الكتابَ ودفعتْه إليه، فأَتَيا به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فدعا حاطبا فقال: "ما حَمَلك على هذا"؟. قال: يا رسول الله، أما والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله، ما غيّرتُ

(١) القرون: جمع قرن، وهو الضفيرة.

وما بدّلتُ ، ولكنّنى آمرؤٌ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، ولى بين أظهُرِهم ولدٌ وأهل ، فصانعتُهم عليهم ، فقال عمر : يا رسول الله ، دعنى أضربْ عنقه ، فإنّ الرجل قد نافق ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "وما يُدريك يا عمر ، لعلّ الله قد آطّلع على أصحاب بدرٍ يومَ بدر ، فقال : اِعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم" . ٥

هذه رواية محمد بن إسحاق .

وقال الشيخ أبو إسحاق أحمدُ بنُ محمد بنِ إبراهيم الثعلبيّ رحمه الله : إن المرأة سارةُ مولاةُ عمرو بن صيفيّ بنِ هاشم بن عبد مناف ، وإنها أتت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم من مكّة إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهّز لفتح مكة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمسلِمةً جئتِ"؟ قالت : لا . قال : "أمهاجِرةً جئتِ"؟ قالت : لا ، قال : "فما حاجتُك"؟ قالت : كنتُ كثيرةَ العشيرة والأصل والمَوالى ، وقد ذهبتْ موالىّ ، وآحتجتُ حاجةً شديدة ، فقدِمتُ عليكم لتُعطونى وتكسونى وتحملونى . قال لها : "فأين أنتِ من شباب أهلِ مكّة" ، وكانت مغنّيةً نائحة ، قالت : ما طُلب منّى شىء بعد وقعة بدر : فحثّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بنى عبد المطّلب وبنى المطّلب فكسَوْها وحملوها وأعطَوْها نفقةً ، فأتاها حاطب بنُ أبى بلتعةَ حليفُ بنى أَسَد بنِ عبد العُزّى ، فكتب معها إلى أهل مكّة كتابا ، وأعطاها عشرةَ دنانير . ١٠ ١٥

١٠٨ / ١٥ قال الثعلبيّ : هذه رواية زاذانَ عن آبن عبّاس رضى الله عنهما ، قال : وقال مقاتلُ بنُ حيّان : أعطاها عشرة دراهمَ وكساها بُرْدا على أن توصل الكتابَ إلى أهل مكّة ، وكتب فى الكتاب : «من حاطب بن أبى بلتعةَ إلى أهل مكّة ، إن ٢٠

رسولَ الله يريدكم، فخذوا حِذرَكم». فخرجتْ سارة، ونزل جبريل، فأخبر النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم بما فعل حاطب، فبعثَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عليًا، وعمرَ، والزبيرَ، وطلحةَ، وعمّارا، والمقدادَ بنَ الأسوَد، وأبا مَرْثَد، وكانوا كلُّهم فُرسانا، وقال لهم: "انطلِقوا حتّى تأتوا روضةَ خاخ[1] فإنّ بها ظعينةً معها كتاب من حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المشركين، فخذوه منها، وخلُّوا سبيلَها، وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقَها" فخرجوا حتى أدركوها فى ذلك المكان الّذى قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفتْ بالله ما معها كتاب، فبحثوها، وفتّشوا متاعَها فلم يجدوا معها كتابا، فهمُّوا بالرجوع، فقال عليٌّ رضى الله عنه: والله ما كُذِبْنا ولا كَذَبْنا، وسلَّ سيفَه، وقال لها: أخرِجى الكتابَ وإلّا والله لأجرِّدنّك، ولأضربنّ عنقك، فلمّا رأت الجِدَّ أخرجتْه من ذوائبها قد خبّأته فى شَعرها، فخلّوا سبيلَها، ولم يتعرّضوا لما معها، ورجعوا بالكتاب إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: "هل تعرف الكتاب"؟ قال: نعم، قال: "ما حمَلك على ما صنعتَ"؟ فقال: يارسول الله، ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت غريبا فيهم، وكان أهلِى بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلى، فأردت أن أتخذ عندهم يدا، وقد علمت أن الله يُنزِل بهم بأسه، وأنّ كتابى لا يغنى عنهم شيئا؛ فصدّقه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعذَره، فقام

(١) روضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة (معجم البلدان).

عمر بن الخطّاب فقال : يا رسول الله ، دعنى أضربْ عنقَ هذا المنافق ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطّلع على أهلِ بدرٍ يوم بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم يوم بدر" .

وأنزل الله عزّ وجلّ فى شأن حاطب ومكاتبته المشركين قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ ﴾[1] ، قال : أى من مكّة لِأَنْ آمنتم بالله ربّكم ؛ قال : فى الكلام تقديم وتأخير ، ونظم الآية : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ قال : يثقفوكم يروكم و يظهروا،[2] ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أى بالقتل ، ﴿ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ أى بالشتم ، ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ فلا تناصحوهم فإنهم لا يُناصحونكم ولا يُوادّونكم .

قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ قال : معنى الآية : لا تدعُونّكُمْ قراباتكم ولا أولادكم التى بمكة إلى خيانة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وترك مناصحتهم وموالاةِ أعدائهم ، ومظاهرتهم ، فلن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم التى عصيتم الله لأجلهم

(١) سورة الممتحنة الآيات ١ ، ٢ ، ٣

(٢) كذا فى كلا الأصلين . والذى فى القرطبى : « يثقفوكم يظفروا بكم و يتمكنوا منكم » .

﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ فيُدخل أهلَ طاعته والإيمانِ به الجنة، ويدخِل أهل معصيتِه والكفرِ به النارَ .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (١) الآية ، ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١) قال : قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾ (١) يعنى فى إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء ؛ قال : فلما نزلت هذه الآية عادى المؤمنون أقرباءهم من المشركين فى الله، وأظهروا لهم العداوة والبراءة، فعلم الله تعالى شدّة وجد المؤمنين بذلك ، فأنزل : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ؛ قال : ففعل الله عزّ وجل ذلك بأن أسلم كثير من مشركى مكّة، فصاروا للمؤمنين أولياءَ وإخوانا، وخالَطوهم وناكَحوهم .

١٠٩/١٥

قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) معناه : أن تعدلوا فيهم بالإحسان والبرّ ، واختلف العلماء فيمن نزلت فيهم هذه الآية ، فقال ابن عباس : نزلت فى خُزاعة ، منهم هلال بنُ عُوَيمِر ، وخُزَيمة ، وسُراقة بنُ مالك ابنِ جُعْشُم ، وبنو مُدْلِج ، وكانوا صالَحوا النبىّ صلّى الله عليه وسلم على ألّا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا .

(١) الممتحنة : ٤ ، ٦ ، ٧

وقال عبد الله بن الزبير : نزلتْ فى أسماءَ بنتِ أبى بكر رضى الله عنهم ، وذلك أنّ أمّها قُتيلة بنت عبد العزّى بن عبد أسعدَ من بنى مالك بن حِسْل قَدِمتْ عليها المدينةَ بهدايا وهى مُشركة ، فقالت أسماء : لا أقبل منكِ هديّة ، ولا تدخلى علىّ بيتى حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فسألت لها عائشةُ رضى الله عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ، فأمرها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أن تُدخِلها منزلَها ، وتقبلَ هديّتها ، وتحسنَ إليها ، وتكرمَها . وقال مرّة الهَمَذانىّ وعطية العَوْفىّ : نزلتْ فى قوم من بنى هاشم ، منهم العباس . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(١) قال : وهم مشركو مكّة . فلنرجع إلى أخبار غزوة الفتح .

ذكر خروج رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم من المدينة إلى مكّة، ومن جاءه فى طريقه قبل دخوله مكّة

قال : ولمّا تهيّأ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم للغَزاة بعث إلى مَن حوله من العرب فجلَبهم ، وهم أسلم ، وغِفار ، ومُزَينة ، وجُهَينة ، وأشجع ، وسُلَيم ، فمنهم من وافاه بالمدينة ، ومنهم من لحقه فى الطريق ، وكان المسلمون فى غزوةِ الفتح عشرة آلاف ، واستخلف رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على المدينة عبدَ الله بن أمّ مكتوم ؛ قاله محمد بن سعد .

وقال محمد بن إسحاق ، وأبو بكر أحمد البيهقى : استخلف على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن حُصَين بن عُتبة بن خلف الغِفارى ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة يوم الأربعاء لعشرٍ ليالٍ خلون من شهر رمضان بعد العصر ، فلمّا انتهى

(١) سورة الممتحنة : ٩

إلى الصُّلْصُل[١] قدّم أمامه الزبير بن العوّام فى مائة من المسلمين ، وصام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصام الناسُ حتى إذا كان بالكَدِيد[٢] بين عُسْفان[٣] وأَجَ[٤] أفطر، ونادى مناديه : من أحبّ أن يُفْطِر فليفطر، ومن أحبّ أن يصوم فليصم .

قال ابن سعد : فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بقُدَيد[٥] عقد الألْوية والراياتِ ودفعها إلى القبائل .

قال محمد بن إسحاق : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل مَرّ الظَّهْران[٦] وهو فى عشرة آلافٍ من المسلمين، فسبعت[٧] سُلَيم، و بعضهم يقول : أَلْفَتْ مُزَيْنة، وفى كلّ القبائل عدد و إسلام، وأوعب معه المهاجرون والأنصار . قال : ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الطريق لقيَه عَمُّه العباس بنُ عبد المطلب .

قال ابن هشام : لقيه بالجُحْفة[٨] مهاجرا بعياله، وكان قبل ذلك بمكّة على سِقايته، وقد قدّمنا أنه أسْلَم عند انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر، قال : ولقيه أبوسفيان بن الحارث بنِ عبدالمطلب وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، لقِياه بِنِيقِ العُقاب[٩] بين مكة والمدينة، والتمسا الدخول عليه ، وكلّمته أمّ سَلَمة رضى الله عنها فيهما، فقالت : يا رسول الله، ابنُ عمك ، وابن عمتك وصهرُك . فقال : " لا حاجة لى بهما، أما ابن عمى فَهَتَك عِرْضى، وأما ابن عمّتى وصِهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال"، فلما خرج الخبر بذلك إليهما ومع أبى سفيان بُنَىّ له

١١٠/١٥

(١) الصلصل : موضع بنواحى المدينة على سبعة أميال منها . (٢) الكديد كأمير : موضع على اثنين وأربعين ميلا من مكة . (٣) عسفان، بضم أوّله وسكون ثانيه : قرية جامعة على ثلاث مراحل من مكة . (٤) أجّ بالتحريك : بلد من أعراض المدينة . (٥) قديد بالتصغير : موضع قرب مكة . (٦) مر الظهران : موضع على مرحلة من مكة . (٧) سبّعت : أى كانت سبعمائة، وألفت : كانت ألفا . (٨) الجحفة : موضع على أربع مراحل من مكة .
(٩) نيق العقاب : موضع قرب الجحفة .

قال : والله لتأذنن لى أو لآخذن بيد بنى هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا ؛ فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لهما ، ثم أذن لهما فدخلا عليه ، فأسلما ، وأنشد أبو سفيان بن الحارث يعتذر مما كان قد مضى من فعله ، فقال :

لعمرك إنى يوم أحمل راية * لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله * فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى

هدانى هاد غير نفسى ودلنى * على الحق من طردت كل مطرد (١)

أصد وأنأى جاهدا عن محمد * وأدعى وإن لم أنتسب من محمد

هم ما هم من لم يقل بهواهم * وإن كان ذا رأى يلم (٢) ويفند (٣)

أريد لأرضيهم واست بلائط * مع القوم ما لم أهد فى كل مقعد

فقل لثقيف : لا أريد قتالها * وقل لثقيف تلك : غيرى أوعدى

فما كنت فى الجيش الذى نال عامرا * وما كان عن جرا لسانى ولا يدى

قبائل جاءت من بلاد بعيدة * نزائع (٤) جاءت من سهام (٥) وسردد

قال : ولما بلغ إنشاده قوله : «من طردت كل مطرد» ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره وقال : « أنت طردتنى كل مطرد » .

قال : ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران نزلها عشيا ، وأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر

(١) رواية البيت كما فى ابن هشام ٤ : ٤٣ ، والبداية ٤ : ٢٨٧

هدانى هاد غير نفسى ونالنى * مع الله من طردت كل مطرد

(٢) فى ج : « يلام ويفند » . (٣) لائط : ملصق . (٤) النزائع : الغرباء .

(٥) سهام كسحاب ، وسردد بضم أوله وسكون ثانيه ودال مهملة مضمومة ، ويروى بضم أوله وفتح الدال الأولى : موضعان من أرض عك .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال العباس بن عبدالمطلب : واصَباحَ قريش، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكّة عَنْوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنّه لَهلاك قريش إلى آخر الدهر .

قال العبّاس : فجلستُ على بغلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم البيضاء ، فخرجتُ عليها حتى جئتُ الأراك(١) ، فقلت : لعلّى أجد بعض الحطّابة أو صاحبَ لَبَن، أو ذا حاجة يأتى مكّة، فيخبرهم بمكان رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عَنوة .

ذكر مجيء العبّاس بأبى سُفْيان بنِ حرب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وإسلام أبى سفيان ، وخبر الفتح

قال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه : وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبُديل بن وَرْقاء قد خرجوا فى تلك الليالى يتحسّسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به ، فوالله إنّى لأسير على بغلةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، ألتمس ما خرجتُ له ، إذ سمعتُ كلامَ أبى سفيان وبديل ابن ورقاء وهما يتراجعان، وأبوسفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قطّ ولا عسكرا، فيقول له بديل : هذه والله خزاعة قد حَمَستْها(٢) الحرب، فيقول أبو سفيان : خُزاعة أذَلّ وأقلّ أن تكون هذه نيرانُها وعسكرُها ، قال العباس : فعرفتُ صوتَه ، فقلت : يا أبا حنظلة، فعرف صوتى، فقال : يا أبا الفضل، قلت : نعم، قال : مالك فِداك أبى وأمّى ! قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله فى الناس، واصباحَ قريش واللهِ !

(١) الأراك : واد قرب مكّة .

(٢) حمستها بالمهملة : اشتدت عليها ، وفى ج ، وابن هشام : « حمشتها » بالمعجمة ، أى أحرقتها .

قال : فما الحيلة فداك أبى وأمى ! ، قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فأركب فى عَجُز هذه البغلة حتى آتى بك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك ؛ قال : فركب خَلْفى، ورجع صاحباه؛ قال : فجئتُ به، كلّما مررتُ بنار من نيران المسلمين قالوا : مَن هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا : عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على بغلته، حتى مررت بنار عمر ابن الخطّاب .

قال ابن سعد : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد استعمل عمرَ تلك الليلة على الحَرَس ؛ قال العبّاس : فقال عمر : من هذا ؟ وقام إلىّ ، فلما رأى أبا سفيان على عَجُز الدابّة قال : أبوسفيان عدوّ الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عَقْد ولا عَهْد ، ثم خرج يشتدّ نحو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وركضتُ البغلةَ فسبقتْه ، فاقتحمتُ عن البغلة ، ودخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلّم ودخل عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أُمكِن منه بغير عَقْد ولا عهد، فدعنى أضربْ عنقه . قال العبّاس ، قلت : يا رسول الله، قد أجرته ، ثم جلستُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأخذتُ برأسه وقلتُ : والله لا يناجيه الليلةَ رجلٌ دونى ، فلمّا أكثر عمر فى شأنه قلت : مهلا يا عمر، فوالله أن لو كان من رجال بنى عدىّ بن كعب ما قلتَ هذا، ولكنّك قد عرفتَ أنّه من رجال بنى عبد مناف ؛ فقال عمر : مهلا ياعبّاس، فوالله لإسلامك يومَ أسلمتَ كان أحبّ إلىّ من إسلام الخطّاب لو أسلَم ، وما بى إلا أنى قد عرفتُ أنّ إسلامَك كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : " اذهب به ياعبّاس إلى رَحْلِك، فإذا أصبحتَ فأتنى به"؛ قال : فذهبتُ به إلى رحلى، فبات عندى، فلما أصبح غدوتُ

١١١/١٥

به إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا رآه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "ويحك يا أبا سفيان، ألم يَأْنِ(١) لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله"، قال : بأبى أنت وأمّى! ما أحلمَك وأكرَمك وأوصَلَك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعد ؛ قال : "ويحك يا أبا سفيان، ألم يَأْنِ لك أن تعلم أنى رسول الله"؟ ؛ قال : بأبى أنت وأمى! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمَا والله هذه فإنّ فى النفس منها حتّى الآن شيئا ؛ فقال له العبّاس : ويحَك! أَسلِم وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله قبل أن تُضْرب عنقُك ؛ قال : فشهد شهادة الحقّ، فقلت : يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحبّ هذا الفخر، فاجعل له شيئا. قال : "نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"؛ فلمّا ذهب لينصرفَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ياعبّاس، احتبِسْه بمَضيق الوادى عند خَطْم الجبل(٢) حتى تمرّ به جنود الله فيراها". قال : فخرجت به حتى حبستُه حيث أمرنى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن أحبسه ؛ قال : ومرّت القبائل على راياتها كلّما مرّت قبيلة قال : ياعبّاس، من هذه؟. فأقول: سُليم، فيقول: مالى ولسُلَيم، ثم تمرّ القبيلة، فيقول: من هذه؟ فأقول : مُزينة، فيقول : مالى ولمزينة، حتى مرّت القبائل، فما تمرّ قبيلة إلّا سألنى عنها، فإذا أخبرتُه بهم، قال: مالى ولبنى فلان! حتى مرّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار — وإنّما سمّيت بالخضراء لكثرة الحديد وظهورِه فيها — وهم لا يرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، فقال : سبحان الله يا عبّاس! من هؤلاء؟ قلت : هذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) ألم يأن : ألم يحن.

(٢) خطم الجبل : أنفه النادر منه.

فى المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبحَ مُلكُ ٱبن أخيك الغَداة عظيما . قلت : ويحك ! إنها النبوّة ، قال : فنعم إذًا ، ثم قلت : النَّجاءَ[1] إلى قومك ، فسار حتى إذا جاءهم صرَخَ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبى سُفيان فهو آمن ، فقامت إليه هندُ بنتُ عتبة فأخذتْ بشاربه ، فقالت : أُقتُلوا الحَمِيتَ[2] الدَّسِمَ الأَحْمَس ، قُبِّح من طَليعة قوم ! قال : ويلكم ! لا تغرنّكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنّا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناسُ إلى دُورهم وإلى المسجد . والله يؤيّد بنصره من يشاء .

ذكر دخول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه مكّة شرّفها الله تعالى صُلْحا ، ودخول خالد بن الوليد ومن معه من القبائل عَنوة

قال : ولما ٱنتهى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم إلى ذى طُوًى[3] ، وقف على راحلته مُعْتجِرا[4] بشُقّة بُرْد حِبرة حمراء وإنه ليضع رأسَه تواضعا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إنّ عُثْنونَه ليكاد يمسّ واسِطَ الرحل ، ثم فرّق رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الجيش من ذى طُوًى ، وكانت راية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذ مع سعد بن عُبادة رضى الله عنه ، فأمر رسول الله صلّى الله

١١٢/١٥

(١) النجاء : السرعة . (٢) الحميت فى الأصل : زق السمن . والدسم : الكثير الودك . والأحمس : الذى لا خير عنده ، من قولهم : عام أحمس إذا لم يكن فيه مطر . (٣) ذو طوى ، مثلثة الطاء : موضع قرب مكة . (٤) الاعتجار : التعمّم بغير ذؤابة . والحبرة : ضرب من ثياب اليمن .

عليه وسلم الزبيرَ بن العوّام، وكان على المجنّبة اليسرى أن يدخل فى بعض الناس من كُدَى[1]، وأمر سعدَ بنَ عُبادة أن يدخل ببعض الناس مِنْ كَدَاء[2]، فلمّا وجّه سعدٌ للدخول قال : اليومَ يومُ المَلْحمة ، اليومَ تُستحلّ الحرمة ، وفى رواية تُستحلّ الكعبة؛ فسمعها عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بنُ عُبادة ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صَوْلة ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم لعلىّ بن أبى طالب : "أدرِكْه فخذ الرايةَ منه، فأدخلْ أنت بها" . حكاه ابن إسحاق .

وقال محمد بن سعد : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الراية من سعد ودفَعَها لابنه قيس بن سعد .

وذكر يحيى بنُ سعيد الأُموىّ فى السِّيَر : أن سعد بن عُبادة لمّا أخذ الراية مرّ على أبى سفيان ، فقال سعد إذ نظر إليه : اليوم يومَ المَلْحمة ، اليومُ تُستحلّ الحرمة ، اليوم أذلّ الله قريشا ، فأقبل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى كتيبة الأنصار حتى إذا حاذَى أبا سفيان ناداه : يا رسول الله ، أمرتَ بقتل قومِك ؟ فإنه زَعَم سعدٌ ومن معه حين مرّ بنا أنه قاتِلُنا، وقال : اليوم يومُ المَلْحمة، اليوم تُستحَلّ الحُرمة ، اليوم أذلّ الله قريشا ؛ و إنى أَنْشُدُك اللهَ فى قومك، فأنت أبرّ الناس وأوصلُهم وأرحمُهم .

وقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ، والله ما نأمن سعدا أن تكون منه فى قريش صَوْلة؛ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: "يا أبا سفيان، اليوم يومُ المَرْحَمة، اليوم أعزّ الله فيه قريشا". وقال ضِرار بنُ الخطّاب الفِهْرىّ يومئذ :

(١) كدى كقرى : جبل بأسفل مكة .

(٢) كداء كسماء : جبل بأعلى مكة .

يا نبيَّ الهدى إليك لجا حَيٌّ قريشٍ ولات حين لجاءِ (١)
حين ضاقت عليهمُ سعةُ الأر * ضِ وعاداهمُ إلهُ السماءِ
والتقت حلقتا البِطانِ على القو * م ونُودوا بالصَّيلَمِ الصَّلْعاءِ (٢)
إنّ سعدا يريد قاصمةَ الظهـ * ـرِ بأهل الحَجُون والبَطْحاءِ
خَزْرَجيٌّ لو يستطيع من الغيـ * ـظ رمانا بالنَّسر والعَوَّاءِ (٣)
وغِرُ الصدر لا يهمّ بشيء * غير سَفْك الدِّما وهتْك النساءِ
قد تلظّى على البِطاح وجاءت * عنه هندٌ بالسَّوْءة السَّوْآءِ
إذ ينادى بذلِّ حيِّ قريشٍ * وابن حرب بدا من الشّهداءِ
فائن أقحمَ اللواءَ ونادى * يا حماةَ اللِّواء أهل اللّواءِ
ثم ثابت إليه مَن بهم الخزْ * رج والأوس أنجمُ الهَيْجاءِ
لتكونَنّ بالبطاح قريشٌ * فقعة القاع في أكفّ الإماءِ (٤)
فانْهَهُ فإنّه أسَدُ الأُسْـ * ـدِ لدى الغاب والغُ في الدماءِ
إنّه مُطرِق يريد لنا الأمـ * ـرَ سكوتا كالحيّة الصماءِ (٥)

قال : فأرسل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم إلى سعد بن عُبادة فنزع اللواء من يده، وجعله بيد قيس ابنه ، ورأى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أن اللواء لم يخرج

(١) « لجا » مهموز، وتركه هنا للوزن .

(٢) التقت حلقتا البطان : مثل في بلوغ الأمر . البطان : حزام يجعل تحت بطن البعير . والصيلم : الداهية الشديدة .

(٣) النسر والعواء : كوكبان .

(٤) الفقعة (بكسر الفاء) : ضرب من الكمأة ، وهي البيضاء الرخوة ، يشبه بها الرجل الذليل . وفقعة القاع : مثل يضرب في الذل ، لأن الفقعة أردأ الكمأة .

(٥) الحية الصماء : التي لا تنفع منها الرقية ، وهي أخبث الحيات وأضرها .

عنه إذ صار إلى ابنه ، وأبى سعد أن يُسلِّم اللواء إلّا بأمارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسَلَ إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعمامته ، فعرفَها سعد ، فدفعَ اللواءَ إلى ابنه قيس .

قال : وأمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خالد بنَ الوليد ، وكان على المُجنِّبة اليمنى ، أن يدخل ببعض الناس من اللِّيط أسفل مكّة ، وكان معه : أسلَم ، وسُلَيم وغِفار ، ومُزينة ، وجُهينة ، وقبائل من العرب ، وأقبل أبو عبيدة بن الجرّاح بالصفّ من المسلمين ينصبّ لمكّة بين يدى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذاخر[1] ، حتى نزل بأعلى مكّة ، وضُربت له هناك قُبّة ، ونَهى عن القتال ، وعَبر أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الأماكن التى أمرهم صلى الله عليه وسلم أن يدخلوا منها ، لم يلْقَوا كيدا ، إلّا خالد بن الوليد فإن صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو جمعوا جَمْعًا من قريش ، ووقفوا بالخَنْدمة[2] ليقاتلوا خالد بنَ الوليد ، ويمنعوه من الدخول ، وشَهَروا السلاح ورَمَوا بالنَّبل ، فصاح خالد فى أصحابه وقاتلهم ، فقُتل أربعة وعشرون رجلا من قريش ، وأربعة نفر من هُذيل ، وانهزموا أقبح هزيمة ، فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنيّة أذاخِر[3] رأى البارقة فقال : "ألم أنْهَ عن القتال"؟ فقيل : يا رسول الله ، إنّ خالدَ بنَ الوليد قوتل فقاتَل ، فقال : "قضاء الله خير" ، وقتل من المسلمين رجلان كانا سلَكا طريقا غيرَ طريق خالد فقُتِلا ، وهما كُرْز بن جابر الفِهْرىّ ، وحُبَيش[4] بنُ خالد الخُزاعىّ . قاله محمد بنُ سعد .

١١٣/١٥

(١) أذاخر : ثنية بين مكة والمدينة «البكرى ج ١ : ١٢٨» .

(٢) الخندمة : جبل بمكة له يوم معروف . (٣) البارقة : السيوف .

(٤) فى ابن سعد « خالد الأشقر الخزاعى » ، وفى ابن هشام : « خنيس » .

وقال ٱبن إسحاق : قتل من المشركين يومئذ ٱثنا عشر أو ثلاثة عشر رجلا . وقال : وقد كان حِمَاس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر يُعِدّ سلاحا ويُصلح منه قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له ٱمرأته : لماذا تعدّ ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمّد وأصحابه شىء ؛ قال : والله إنى لأرجو أن أخدِمَكِ بعضهم ، ثم قال :

إن يُقبلوا اليوم فمالى عِلّهْ * هذا سلاحٌ كاملٌ وأَلّهْ[1]
* وذو غِرارَين سريعُ السَّلّهْ[2] *

ثم شهد يوم الخَنْدَمَة ، فلما ٱنهزم القوم دخل على ٱمرأته وقال : أغلِق علىّ بابى ؛ قالت : فأين الذى كنت تقول ؟ فقال :

إنّك لو شَهِدتِ يوم الخَنْدَمهْ * إذ فرّ صفوانُ وفرّ عِكْرِمهْ
وٱبو يزيدَ قائمٌ كالمُوتَمهْ[3] * وٱستقبلتهم بالسيوف المسلِمهْ
يَقطَعن كلَّ ساعدٍ وجُمجُمهْ * ضَرْبا فلا تَسمعُ إلا غَمْغمه[4]
لهمْ نَهيتٌ خَلفَنا وهَمْهَمهْ * لا تنطقى فى اللوم أدنى كلمه[5]

قال ٱبن هشام : ويروى للرعّاش الهُذَلىّ .

---

(١) الألّة : جميع أداة الحرب .

(٢) كذا فى جـ وابن هشام جـ ٤ : ٥٠ ، والذى فى أ «القتلة» . وذو غرارين : ذو حدّين .

(٣) المؤتمة : الثكلى .

(٤) الغمغمة : أصوات غير مفهومة .

(٥) النهيت : زئير الأسد . والهمهمة : تردّد الزئير فى الصدر .

وكان ممن فر يومئذ هُبَيرة بنُ أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وهو زوج أم هانئ بنت أبي طالب أخت عليّ لأبويه؛ فأسلمتْ، وهرب هبيرةُ إلى نجران، وقال معتذرا من فراره:

لعمرُك ما ولّيت ظَهرى محمّداً * وأصحابَه جُبْنا ولا خيفةَ القتلِ
ولكننى قَلّبت أمرى فلم أجد * لسيفى غَناء إن ضَربتُ ولا نَبْلِ
وقفتُ فلمّا خفت ضَيعة موقفى * رجعتُ لعَوْدٍ كالهِزَبْرِ إلى الشِّبل

قال ابن هشام: وكان شِعار أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وحُنين والطائف: شعار المهاجرين: يا بنى عبد الرحمن، وشِعار الخَزْرج: يا بنى عبد الله، وشِعار الأَوْس: يا بنى عبيد الله؛ وكان الفتح يوم الجمعة لعشر بقِين من رمضان.

ذكرُ من أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم يوم فتح مكّة وسبب ذلك، ومن قتل منهم، ومن نجا بإسلامه

قالوا: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أصحابَه بقتل ستّة نفر وأربع نسوة، وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عِكْرِمة بنُ أبي جهل، وهبّار ابن الأسود، وعبد الله بنُ سعد بنِ أبي سَرْح، ومِقْيَس بنُ صُبابة[1] الليثى، والحويرث ابن نُقَيْذ بن وهب، وعبد الله بن هلال بن خَطَل الأدرمىّ، وهند بنت عُتبة، وسارةُ مولاة عمرو بن هشام، وَقَرْتَنَى، وقُرَيْبة.

فأما عِكْرمة بن أبى جهل فإنه هرب إلى اليمن ، وأسلمت آمرأتُه أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام ، فاستأمنتْ له رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأمّنه ، فخرجتْ فى طلبه إلى اليمن حتى أتت به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأَسلَم وحسن إسلامه .

حَكى الزبير بنُ بكّار قال : لما أسلم عكرمة قال : يا رسول الله ، علِّمنى خيرَ شىء تَعلمه أقوله ؛ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : " شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله " ، فقال عِكرمة : أنا أشهد بهذا ، وأُشهد بذلك مَنْ حضرنى ، وأسألك يا رسول الله أن تستغفر لى ؛ فآستغفرَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال عكرمة : والله لا أدع نفقةً كنت أنفقها فى صدٍّ عن سبيل الله إلّا أنفقتُ ضِعفَها فى سبيل الله ، ولا قتالا قاتلتُه إلّا قاتلتُ ضِعفَه ؛ ثم آجتهد فى الجهاد والعبادة حتى آستُشهِد رحمه الله فى خلافة عمر بن الخطّاب بالشام ؛ وقيل : استُشهِد فى آخر خلافة أبى بكر ، قيل : فى يوم اليَرْموك . وقيل : فى يوم مَرْج الصُّفَّر[1] ، وقيل : أَجْنَادِين[2] . والله أعلم .

١١٤/١٥

وأما عبد الله بنُ سعد بنِ أبى سَرْح ، فإنه كان قد أسلم ، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى ؛ فارتدّ ورجع إلى قريش ، فلما كان يوم الفتح فرّ إلى عثمان بن عفّان رضى الله عنه ، وهو أخوه من الرضاعة ، فَغَيَّبه حتى أتى به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فآستأمن له بعد أن آطمأن الناس ؛ فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صَمَت طويلا ، ثم قال : " نعم " ؛ فلما انصرف عنه عثمان قال لمن حوله من أصحابه : " لقد صَمَتُّ ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عنقه " ،

(١) مرج الصفّر : موضع بالشام كانت به وقعة لمسلمين مع الروم ، وهو بالغرب من غوطة دمشق .

(٢) أجنادين : موضع بالشام كانت به وقعة مشهورة بين المسلمين والروم .

فقال رجل من الأنصار : فهلّا أومأت إلىّ يا رسول الله ؟ فقال : " إن النبيّ لا يَقتل بالإشارة "، ثم أسلم عبد الله بن سعد بعد ذلك .

وأمّا مِقْيَس بنُ صُبابة، فإن أخاه هشام بن صبابة كان قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى المُصْطَلِق بالمُرَيْسِيع، فأصابه رجل من الأنصار من رهط عُبادة بن الصامت وهو يرى أنه من العدوّ، فقتله خطأ، فقدم مِقْيَس هذا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى المدينة، وأظهر الإسلام، وقال : يا رسول الله، جئتُك مسلما، وجئتُك أطلب ديةَ أخى، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية أخيه، فأقام غيرَ كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتَلَه، ثم خرج إلى مكّة مرتدًّا، فنذَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلَه لذلك، فقتله نُميلة بنُ عبدِ الله، رجل من قومه .

وأما الحويرث بن نُقَيذ فقتله على بن أبى طالب رضى الله عنه، لأنه كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان العباس بن عبد المطلب حمل بنتَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فاطمةَ وأمّ كلثوم من مكّة يريد بهما المدينة، فرمى بهما الحويرث إلى الأرض .

وأمّا عبد الله بن خَطَل، فأمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان مسلما، فبعثه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُصدِّقا[1]، وبعث معه رجلا من الأنصار، وكان معه مولًى له يخدمه وهو مسلم، فنزل منزلا وأمر المولى أن يذبح له تَيْسًا، فيصنع له طعاما، فنام وآستيقظ ولم يصنع له شيئا، فقتله ثم آرتدّ، وكانت فَرْتَنَى وقُريبة قَيْنَتَاه تُغَنّيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتل آبنَ خَطَل

(١) مصدّقا : بتشديد الدال : جامعا للصدقات، وهى الزكاة .

سعيدُ بن جُريث المخزومىّ، وأبو برزة الأسلمىّ، اشتركا فى دمه، وقُتلتْ إحدى قَيْنتيه وهربت الأخرى، حتى آستؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمّنها .

وهند بنت عُتبةَ أسلمتْ . ولما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة على النساء ، ومن الشرط فيها ألّا يسرقن ولا يزنين ، قالت : وهل تزنى الحرّة أو تسرق يا رسول الله ؟ فلما قال : "ولا تقتلن أولادكن"، قالت : قد ربّيناهم صغارا، وقَتَلْتَهم أنت ببدرٍ كبارا، أو نحو هذا من القول ، وشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ زوجها أبا سفيان شَحيح لا يعطيها من الطعام ما يكفيها وولدَها ، فقال : "خذى من ماله بالمعروف ما يكفيكِ أنتِ وولدك" .

وأما سارة فآستُؤْمن لها ، فأمّنها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وأما هبّار فإنه هرب فلم يوجد ، ثم أسلم بعد الفتح وحَسُنَ إسلامه .

ذكر إسلام أبى قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرّة بن كعب

روى محمد بن إسحاق بسنده إلى أسماء بنت أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذى طُوًى قال أبو قحافة لأبنَة له من أصغر ولده : أى بُنيّة ، اظهَرى بى على جبل أبى قُبَيس — قالت : وكان قد كُفّ بصره — فأشرفَتْ به عليه فقال لها : أى بنيّة، ماذا ترين؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأرى رجلا يسعى بين يدى ذلك السواد مقبلا ومدبرا ، قال : أى بُنَيّه ، ذلك الوازع، — يعنى الذى يأمر الخيل ويتقدّم إليها — ثم قالت : قد والله انتشر السواد ، فقال : قد والله إذًا دفعت الخيل، فأسرعى بى إلى بيتى ، قالت : فآنحطّت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل

١١٥/١٥

إلى بيته ؛ قالت : وفى عنق الجارية طَوْق من وَرِق[1] ، فتلقّاها رجل فاقتطعه من عنقها ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "هلّا تركتَ الشيخَ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه"؟ قال أبو بكر : يارسول الله ، هو أحقّ أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت ، فأجلسه بين يديه ، ثم مسح صدره ، ثم قال له : "أسلم" ، قالت : فأسلم ؛ قالت : فدخل به أبو بكر وكأنّ رأسَه ثَغامة[2] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "غيّروا هذا من شَعره" ، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال : أنشد الله والإسلام طوقَ أختى ؛ فلم يجبه أحد ؛ قالت : فقال : أى أخيّة ، احتسبى طَوْقَك ، فوالله إنّ الأمانة فى الناس اليوم لقليل .

وأسلم عبد الله بنُ الزِّبَعْرى عام الفتح وحسن إسلامه ، وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ الأذى فى الجاهلية ، فأسلم واعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل عذرَه ، وكان شاعرا مجيدا ، فقال يمدح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : وله فى مدحه أشعار كثيرة يَنسَخ بها ما قد مضى فى كفره ، منها قوله :

مَنَع الرقادَ بلابلٌ وهمومُ * والليل مُعتلِج الرِّواق بهيم[3]
ممّا أتانى أنّ أحمدَ لامنى * فيه فبتّ كأننى محمومُ
يا خيرَ من حملتْ على أوصالها * عَيْرانةٌ سُرُح اليدين غَشُومُ[4]

(١) الورق : الفضة ؛ وقيل : الذهب والفضة (اللسان) . (٢) الثغامة : نبت أبيض الزهر والثمر ؛ يشبه بياض الشيب به . (٣) البلابل : الوساوس المختلطة ، ومعتلج : مضطرب يركب بعضه بعضا . ورواق الليل : مقدّمه وجانبه . والبهيم : الذى لاضياء فيه .

(٤) العيرانة من الإبل : السريعة فى نشاط . وسرح اليدين : سريعتهما . وغشوم : لا يثنيها عن مرادها شىء .

إنى لمعتذِرٌ إليك من الذى * أسديتَ إذ أنا فى الضّلال مُقيمُ
أيام تأمرنى بأغوى خُطّةٍ * سَهمٌ، وتأمرنى بها مخزومُ
وأمدّ أسباب الرّدى ويقودُنى * أمرُ الغُواة، وأمرهم مَشْئومُ
فاليوم آمنَ بالنبيّ محمّدٍ * قلبى ومُخطئُ هذه محرومُ
مضت العداوة وانقضتْ أسبابُها * وأتَتْ أواصِرُ بيننا وحُلُومُ
فاغفر فِدًى لك والدىّ كلاهما * وارحم فإنك راحم مرحومُ
وعليك من سِمَة المليك علامةٌ * نورٌ أغرُّ وخاتَمٌ مختومُ
أعطاك بعد محبّةٍ برهانَه * شَرَفًا وبرهانُ الإله عظيمُ

ذكر دخولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم المسجد، وطوافِه بالبيت ودخولِه الكعبة، وما فعل بالأصنام

قال: ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة واطمأنّ النّاس، خرج حتى جاء البيتَ، فطاف به سَبعا على راحلته يستلم الرّكن بمِحجَنٍ فى يده، فلما قضى طوافَه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحتْ له، فدخلها، فوجد فيها حَمامةً من عيدانٍ، فكَسرها بيده وطرَحها، ثم وقف على باب الكعبة فقال: "لا إله إلا الله وحده لاشريك له، صدق وعدَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزابَ وحدَه ألا كلّ مأثرةٍ[1] أو دمٍ أو مالٍ يُدّعى فهو تحت قدمىّ هاتين إلّا سِدانة البيت وسِقاية الحاجّ؛ ألا وقتيل الخطأ شبه العمْد بالسوط والعصا، ففيه الديةُ مغلّظة، مائة من الإبل، أربعون منها فى بطونها أولادها؛ يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلّية وتعظّمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب"، ثم تلا قوله

١١٦/١٥

(١) المأثرة: المكرمة المتوارثة.

تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١) ؛ ثم قال: "يامعشر قريش، ما ترون أنّى فاعل فيكم"؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم؛ قال: "اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء" ؛ ثم جلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فقام إليه علىّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه ومفتاحُ الكعبة فى يده ، فقال : يارسول الله ، اجمعْ لنا الحجابةَ مع السِّقاية ؛ فقال : "أين عثمان بن طلحة" ؟ فدُعِى له ، فقال : "هاك مِفْتَاحُك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء"؛ حكاه محمد بن إسحاق .

وقال محمد بن سعد : دفع إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المفتاحَ وقال : "خذوها يا بنى أبى طلحة تالدةً خالدة، لا ينزعها منكم إلّا ظالم" ؛ ودفع السقاية إلى العبّاس بن عبد المطّلب .

قال عبد الملك بن هشام : حدّثنى بعض أهل العلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صُوَر الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيمَ عليه السلام مصوّرا فى يده الأزلام يستقسم بها، فقال : "قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام، ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٢)" ثم أمر بتلك الصور كلّها فطُمست .

قال : ودخل الكعبة ومعه بلال بنُ رَبَاح ، فأمره أن يؤذّن، فأذّن وأبو سفيان بنُ حرب وعتّاب بنُ أَسِيد والحارث بنُ هشام جلوسٌ بفناء الكعبة، فقال عتّاب بن أسيد : أكرم الله أسيدا ألّا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه ؛ فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه محقّ لاتّبعته؛ فقال أبو سفيان : لا أقول شيئا

(١) الحجرات : ١٣ (٢) آل عمران : ٦٧

لو تكلمت لأخبرتْ عنّى هـذه الحَصَى؛ فخرج عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : "قد علمتُ الّذى قلتم"، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتّاب : نشهد أنك رسول الله، والله ما أطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أَخبَرَك .

وقال أبو محمد بن هشام بسند يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم دخل مكّة يوم الفتـح على راحلته، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرّصاص، فجعل النبى صلى الله عليه وسـلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1]، فما أشار صلى الله عليه وسلم إلى صنم منها فى وجهه إلّا وقع لِقفاه، ولا لِقفاه إلّا وقع لوجهه، حتى ما بقى منها صنم إلّا وقع .

قال محمد بن سـعد : كان حول الكعبة ثلثمائة وستّون صـنما، وكان أعظمها هُبَل، وساق الحديث نحو ما تقدّم، فقال تميم بن أسد الخزاعىّ فى ذلك :

وفى الأصنام معتـبَر وعِـلْمٌ * لمن يرجو الثـوابَ أو العِقَابا

قال : ولمـا كان من الغد يوم الفتح خطب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بعد الظهر فقال : " إن الله قـد حرّم مكّة يوم خَلَق السموات والأرض، فهى حرام إلى يوم القيامة، ولم تحلّ لى إلّا ساعة من نهار، ثم رجعتْ لحرمتها بالأمس، فليبلّغ شاهدُكم غائبَكم، ولا يحلّ لنـا من غنائمها شىء"، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسـلم بمكّة خمس عشرة ليلةً يصلّى ركعتين ركعتين، وبثّ السرايا، ثم خرج إلى حُنين .

ذكر سَرِيّة خالد بن الوليد إلى العُزّى وهَدْمها

قالوا : بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بنَ الوليد إلى العُزّى ليَهدِمَها، وذلك بعد الفتح، لخمس ليالٍ بقِين من شهر رمضان سنة ثمانٍ، فخرج فى ثلاثين فارسا

١١٧/١٥

(١) سورة الإسراء ٨١

من أصحابه حتى آنتهوا إليها فهدمها، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: "هل رأيتَ شيئا"؟ قال: لا، قال: "فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فآهدِمْها"؛ فرجع خالد وهو متغيّظ، فجرّد سيفه، فخرجتْ إليه آمرأة عُرْيانة سوداء ثائرة الرأس[1] فجعل السادِن يصيح بها، فضربها خالد بفَرْقها آثنتين، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: "نعم، تلك العُزّى، وقد يئستْ أن تُعبد ببلادكم أبدا"، وكانت لقريش وجميع بنى كنانة، وكانت أعظم أصنامِهم، وكان سدَنتَها بنو شَيْبان من بنى سُلَيم.

ذكر سريّة عمرو بن العاص إلى سُواع وكسرِه

بعَثَه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان بعد الفتح أيضا إلى سُواع، وهو صنم هُذيل ليهدمه؛ قال عمرو: فآنتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ماتريد؟ قلت: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه. قال: لا تقدر على ذلك؛ قلت: لِمَ؟ قال: تُمنَع؛ قلت: حتى الآن أنت فى الباطل وَيْحَك! وهل يَسمع أو يبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرته، وأمرتُ أصحابى فهدموا بيت خِزانته فلم يجدوا فيه شيئا؛ ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

ذكر سريّة سعد بنِ زيد الأشهلىّ إلى مَناة

بعَثَه رسـولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى شهر رمضان أيضا إلى مَناة — وكانت بالمشلّل[2] للأوس والخزرج وغسّانَ — ليهدمها، فخرج فى عشرين فارسا حتى آنتهى إليها وعليها سادن، فقال له السادن: ما تريد؟ قال: هَدْم مناة؛ قال: أنت وذاك. فأقبل سعد يمشى إليها، وتخرج إليه آمرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالوَيْل

(١) ثائرة الرأس: منتشرة شعر الرأس.

(٢) المشلّل: جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر.

وتَضرب صدرَها ؛ فقال السادن : مناة دونك بعضَ غضباتك ؛ ويضربها سعد بن زيد فيقتلها ، ويقبل إلى الصنم معه أصحابه ، ولم يجدوا فى خِزانتها شيئا ، وانصرف راجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك لست بقين من شهر رمضان .

ذكر سريّة خالد بن الوليد إلى بنى جَذيمة بن عامر ابن عبد مناةَ بنِ كنانة، وهو يوم الغُمَيْصاء

قالوا : لما رجع خالد بن الوليد من هَدمِ العزّى ، ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم مقيم بمكة ، بعثه فى شوّال إلى بنى جَذيمة بن عامر ، وكانوا أسفل مكة على ليلة منها بناحيةِ يَلَمْلَم ؛ داعيا إلى الإسلام ، ولم يبعثه مقاتِلا ، فخرج فى ثلثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سُليم ، فانتهى إليهم خالد بن الوليد ، فقال : ما أنتم ؟ قالوا : مسلمون ، قد صلّينا وصدّقنا بمحمد ، وبَنَيْنَا المساجد فى ساحاتنا ، وأذّنّا فيها ؛ قال : فما بال السلاحِ عليكم ؟ فقالوا : إنّ بَيْنَنا وبين بعض العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هُم ، فأخذنا السلاح ؛ قال : فضعوا السلاح ؛ قال : فوضعوه ، فقال لهم : استأسِروا ؛ فاستأسَر القوم ، فأمر بعضهم فكتف بعضا وفرّقهم فى أصحابه ، فلما كان فى السَّحَر نادى خالد : من كان معه أسير فليُدافّه ؛ أى فليُجهِز عليه بالسيف .

فأمّا بنو سُلَيم فقتلوا من كان فى أيديهم ، وأمّا المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم ، فبلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ماصنع خالد ، فقال : " اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد " ؛ وبعث علىّ بنَ أبى طالب فوَدَى[1] لهم قَتْلاهم وما ذهب منهم .

(١) ودى : دفع الدية .

١١٨/١٥ وقد حكى أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانى[(١)] ، خبرَ هـذه السمرية فى قصة عبد الله بن علقمة أحد بنى عامر بن عبد مناة بن كنانة وخبر مقتله ، وذكر خبره مع حُبَيشة ، فروى بسند رفعه إلى ابن دأب قال : كان من حديث عبد الله بن علقمة أنه خرج مع أمه وهو إذ ذاك يَفَعة : دون المحتلِم ، لتزور جارةً لها ، وكانت لها بنت يقال لها : حُبيشة إحدى بنات عامر بن عبد مناة ، فلما رآها عبد الله بن علقمة أعجبته ووقعتْ فى نفسه ، فانصرف وترك أمه عند جارتها ، فبقيتْ عندها يومين ، ثم أتاها ليرجِعَها إلى منزله ، فوجد حُبيشةَ قد زُيِّنت لأمرٍ كان فى الحىّ ، فازداد بها عجبا ، وانصرف بأمه فى غداةٍ تمطِر ، فمشى معها وجعل يقول :

فما أدرِى بَلى إنّى لأدرى * أصَوْبُ القَطر أحْسَنُ أم حُبَيْشُ

حُبيشة والذى خلق الهدايا * وما إن عندها للصبِّ عيش[(٢)]

قال : فسمعتْ ذلك حبيشة ، فتغافلت عنه ، وكرهتْ قولَه ، ثم مشى مَليًّا فإذا هو بظبي على ربوة من الأرض ، فقال :

يا أمَّتا خَبّرينى غيرَ كاذبةٍ * وما يريد مَسُولُ الحقّ بالكذبِ

أأنت أحسنُ أم ظبيٌ برابيةٍ * لا بل حُبيشة فى عينى وفى أرَبى

قال : فزجرته أمه ، وقالت : ما أنت وهـذا ، أنا مزوِّجتك بنتَ عمّك ، فهى أجمل من تلك ، وأتت امرأةَ عمِّه فأخبرتْها خبرَه وقالت : زيّنى ابنتَك له ، ففعلت وأدخلتْها عليه ، فلما رآها أطرق ، فقالت له أمه : أيهما الآن أحسن ؟ فقال :

---

(١) الخبر فى الأغانى ٧ : ٢٨٠ (طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) رواية الأغانى : « وما عن عندها للصب عيش »

إذا غُيِّبتْ عنّى حُبيشة مرّةً * من الدهر لم أملك عزاءً ولا صَبرَا
كأنّ الحشا حَرُّ السعير يَحُشُّه(١) * وقود الغضى فالقلب مضطرمٌ جَمرا

قال : وجعل يراسل الجارية وتراسله ، حتى علِقتْه كما علقها ، وكثر قولُه الشعرَ فيها ، فمن ذلك قوله(٢) :

حُبيشة هل جدّى وجَدّك جامعٌ * بشملكمُ شَملى وأهلِكمُ أهلى؟
وهل أنا ملتفّ بثوبك مرّةً * بصحراءَ بين الأيْكتَين إلى النّخل؟
ومرتشفٌ من رِيق ثغرِك مرّةً * كراحٍ ومِسْكٍ خالَطَا عَسَلَ النّحل

فلما بلغ أهلَها خبرُه ، حجبوها عنه مدّة ، وهو يزيد غراماً بها ، ويكثر قولَه الشعر فيها ، فأتَوْها فقالوا لها : عِدِيه السّرحة ، فإذا أتاكِ فقولى له : نَشدتك اللهَ إن أحببتنى فما على الأرض شىء أبغض إلىّ منك ، ونحن قريب نسمع ما تقولين ؛ فواعدتْه ، وجلسوا قريبا يسمعون ، وجلست عند السرحة ، وأقبل عبد الله لموعِدها ، فلمّا دنا منها دمعتْ عينُها ، وٱلتفتت حيث أهلها جلوس ، فعرف أنهم قريب ، فرجع ، وبلغه ما أمروها به أن تقوله ، فأنشأ يقول :

فلو قلتِ ما قالوا لزِدْتِ جَوًى جوٍ(٣) * على أنه لم يبق سِتر ولا صبرُ
ولم يك حبّى عن نوالٍ بذِلته * فيُسْلِيَنى عنكِ التجلّد والهجر(٤)
وما أنس مِ الأشياءِ لم أنس دمعَهَا * ونظرتَها حتى يُغَيِّبَنى القبر

(١) حش النار : أوقدها .
(٢) فى الأغانى خلاف فى رواية بعض الأبيات .
(٣) رواية الأغانى :
* لو قلت ما قالوا لزدت جوى بكم *
(٤) رواية الأغانى :
* فيسلينى عنه التجهم والهجر *

قال : وبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم على أثر ذلك خالدَ بن الوليد إلى بنى عامر ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلّا قاتلهم ، فصبحهم خالد بالغُمَيصاء وقد علموا به وخافوه ، وكانوا قد قتلوا الفاكه بنَ الوليد وعمّه الفاكه بن المغيرة فى الجاهلية ، فلمّا صبحهم خالد ومعه بنو سليم وهم يطلبونهم بمالك ابن خالد بن صخر بن الشريد ، وإخوته كُرْز وعَمرو والحارث ، وكانوا قتلوهم فى موطن واحد . فلما صبحهم خالد ورأوا معه بنى سليم زادهم ذلك نُفورا ، فقال لهم خالد : أسلِموا ، فقالوا : نحن مسلمون ؛ قال : فألقوا سِلاحكم وانزلوا ، قالوا : لا والله ؛ فقال لهم حِذْيَم[1] بنُ الحارث أحد بنى أَقْرم : ياقوم ، لا تُلقُوا سِلاحَكم ، فوالله ما بعد وضْعِ السلاحِ إلّا القتل ؛ قالوا : والله لا نُلقِى سلاحَنا ولا ننزل ، فما نحن لك ولا لمن معك بآمنين ؛ قال خالد : فلا أمان لكم ؛ فنزلت فرقةٌ منهم فأسَروهم ، وتفرّق بقيّة القوم فرقتين ؛ فأَصعدتْ فرقة وسفلتْ أخرى .

١١٩/١٥ قال ابن دأب : فأخبرنى من لا أتّهم عن عبيد الله بن أبى حَدْرَد الأسلمىّ قال : كنت يومئذ فى جُند خالد ، فبعثنا فى إثر ظُعُنٍ مُصْعدة يسوق بها فتية ، فقال : أدرِكوا أولئك ؛ فخرجنا فى أثرهم حتى أدركناهم ، فمضوا . ووقف لنا غلام على الطريق ، فلما انتهينا إليه جعل يقاتلنا ويرتجز ويقول :

أَرْخِين أطرافَ الذُّيول وارتَعْن[2] * مشىَ حَبِيّات كأن لم يَفزعْن
* إن يُمنع اليوم نساء تُمْنَعْن *

فقاتلنا طويلا ، فقتلناه ومضينا ، حتى لحقْنا الظّعن ، فخرج إلينا غلام كأنه الأوّل ، فجعل يقاتِلنا ويقول :

(١) هـ فى الأصلين يوافق ما فى الإصابة . وفى ابن هشام : «جحدم» . وفى الأغانى «جذيمة» .
(٢) فى الأغانى : * بين أطراف الذيول وارتعن *
ورواية ابن هشام : * رخين أذيال المروط وارتعن *

أقسِمُ ما إنْ خادِرٌ ذو لِبْدَةٍ[1] * يَرزِمُ[2] بين أَيكةٍ ووَهْدَةْ
يَفرِسُ ثُنْيانَ الرجالِ وحدَهْ * بأصدقَ الغداةَ مِنّى نَجْدَةْ

فقاتلناه حتّى قتلناه ، وأدركنا الظُّعُن ، وإذا فيهن غلام وضيء به صُفْرة فى لَوْنه كالمنهوك ، فربطناه بحبل ، وقدّمناه لنقتله ، فقال : هل لكم فى خير ؟ قلنا : ما هو ؟ قال : تدركون بى الظعن أسفلَ الوادى ثم تقتلوننى ؛ قلنا : نفعل ؛ فخرجنا حتى نعارض الظُّعُن بأسفل الوادى ، فلمّا كان بحيث يسمعون الصوت ، نادى بأعلى صوته : إسلَمى حُبَيش ، عند فقد العيش ؛ فأقبلتْ إليه جاريةٌ بيضاءُ حسناء ؛ فقالت : وأنت فأسلم على كثرة الأعداء ، وشدّةِ البلاء ؛ قال : سلام عليكِ دهرا ، وإن بقيت عصرا ؛ فقالت : وأنتَ سلامٌ عليك عشرا ، وشَفْعا ووَترا ، وثلاثة تَتْرَى ؛ فقال :

إنْ يقتلونى ياحُبيش فلم يَدَعْ * هواكِ لهم مِنّى سوى غُلّةِ الصدرِ
فأنتِ الّتى أخليتِ لحمىَ مِن دمى * وعظمى وأسبلتِ الدموعَ على نحرى

فقالت له :

ونحن بكينا من فراقِك مرّةً * وأخرى وآسيناكَ فى العسرِ واليسرِ
وأنت فلا تَبْعَدْ فنِعم فتى الهوى * جميلُ العَفاف والمودّةِ فى ستر

فقال لها :

أريتكِ إن طالبتكم فوجدتكم * بحَرّةِ[3] أو أدركتُكم بالخوانقِ[4]
ألم يك حقًّا أن يُنَوِّل عاشقٌ * تكلّفَ إدلاجَ السُّرى والوَدائقِ[5]

(١) فى الأصل : «ذو ولده» . وما أثبتناه عن ابن هشام والأغانى . (٢) فى الأغانى «يزأر» .
(٣) فى الأغانى والمواهب (٣ : ٥) : «بحلبة» . (٤) الخوانق : موضع بتهامة .
(٥) الودائق : جمع وديقة . وهى شدة الحر فى الظهيرة .

فقالت : بلى والله، فقال :

فلا ذَنب لى قَد قلتُ إذ نحن جيرةٌ * أثيبي بودّ قبـل إحدى الصَّفائِقِ[1]

أثيبي بودّ قبل أن تَشْحَطَ النّوى * ويَنْأَى الخَليـطُ بالحبيب المفارِق

قال ابن أبى حَدْرَد : فقدّمناه فضربْنا عنقَه ، فٱقتحمت الجارية من خِدْرها حتى أهوتْ نحـوه ، فٱلتقمتْ فاه ، فـنزعنا منها رأْسَه ، و إنها لتَتَبَّعُ نفسها[2] حتى ماتت مكانَها ، وأفلت من القوم غلام من بنى أَقْرَم يقال له السَّمَيْدَع حـتى ٱقتحم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ماصنع خالد وشكاه . قال ابن دَأْب : فأخبرنى صالح بنُ كَيْسان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " هل أنكر عليه أحد ماصنع " ؟ قال : نعم ، رجل أصفر رَبْعَة[3] ، ورجل طو ل أحمر ؛ فقال عمر رضى الله عنه : أنا والله يارسـول الله أعرفهما ، أمّا الأوّل فهو ٱبنى ، وأمّا الآخر فمولى أبى حُذيفة ، وكان خالد قد أمر كلّ من أَسَر أسـيرا أن يقتلَه ، فَأطلَقَ عبدُ الله بن عمـرَ وسالمٌ مولى أبى حذيفة أسـيرَيْن كانا معهما ، فبعث رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب بعد فَراغه من حُنَين ، و بعث معه بإبِلٍ وورِق ، وأمره أن يدِيَهم ، فوَداهم . ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله ، فقال : قدمتُ عليهم فقلتُ لهم : هل لكم أن تقبلوا هذا بمـا أصيبَ منكم من القتلى والجَرْحى ، وتحلّلوا رسـولَ الله صلى الله عليه وسلم ممّا عَلِم وممّا لم يعلم ؟ ، فقالوا : نعم ، قال : فدفعتُـه إليهم ، وجعلت أُديهـم حتى إنّى لأدى مِيـلَغَ[4] الكلْب ،

(١) الصفائق : الخطوب ، واحدتها صفيقة . وفى الأغانى : «البوائق» .

(٢) فى الأغانى : «لتكسع بنفسها» .

(٣) الربعة من الرجال : الذى بين الطويل والقصير .

(٤) الميلغ : الإناء الذى يلغ فيه الكلب .

وفضلتْ فضلةٌ فدفعتُها إليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَقبِلوها"؟ قلت: نعم؛ قال: "فوالذى أنا عبدُه لذاك أحبّ إلىّ من حُمر النَّعَم". ١٢٠/١٥

وروَى أبو الفرج أيضا بسند رفعه إلى عمر بن شبّة،(١) قال: قالوا: يُروَى أن خالدا أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فسئِل عن غَزاته بنى جَذيمة، فقال: إن أذِن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تحدّثتُ، فقال: "تحدَّثْ"، فقال: لقيناهم بالغُميصاء بعد وجه الصبح، فقاتَلْناهم حتى كاد قَرْن الشمس يغيب، فَمَنَحنا الله عز وجل أكتافَهم، فاتبعناهم نطلبهم، فإذا غلام له ذوائبُ على فرس فى أخريات الناس، فبوّأتُ(٢) له الرمحَ فوضعتُه بين كتِفيه. فقال: لا إله، فقبضتُ الرمحَ، فقال: إلّا اللّات أحسنتْ أو أساءتْ، فهشمتُه هشمةً أرديتُه بها، ثم أخذته أسيرا، فشددته وَثاقا، ثم كلّمته فلم يكلّمنى، واستخبرتُه فلم يخبرنى؛ فلما كان ببعض الطريق رأى نسوةً من بنى جَذيمة يسوق بهنّ المسلمون، فقال: يا خالد، فقلت: ما تشاء؟ فقال: هل أنت واقفى(٣) على هذه النسوة؟ فأبَيتُ،(٤) فآلى علىّ أصحابى، ففعلت، وفيهنّ جارية تدعى حُبَيشة، فقال: لها: ناولينى يدك، فناولَتْه يدَها فى ثوبها، فقال: إسلَمى حُبيش. قبل نفاد العيش. فقالت: حُيّيتَ عَشْرا، وتسعا تَتْرى، وثمانيا أخرى، فقال:

أريتِك إذ طالبتكم فوجدتكمْ * بنَخْلةَ(٥) أو أدركتكمْ بالحوانقِ
ألم يك حقًّا أن ينوّلَ عاشقٌ * تكلّفَ إدلاجَ السُّرَى والوَدائق

(١) الأغانى ٧ : ٨٩
(٢) بوّأ له الرمح: سدّده.
(٣) كذا فى جـ والأغانى، وفى ا: «أقف».
(٤) آلى علىّ أصحابى، أى حلفوا.
(٥) هى نخلة اليمانية، وفى الأغانى: «حلية» وحلية موضع بتهامة.

فقالت : بلى ، فقال :

فقد قلت إذ أهلى وأهلك جيرةٌ * أثيبي بوُدّ قبل إحدى الصّفائقِ
أثيبي بودّ قبل أن تَشحطَ النّوى * وينأَى الأميرُ بالحبيب المُفارق
فإنى لا ضَيّعتُ سرَّ أمانةٍ * ولا راق عيني بعد عينك رائقُ (١)

٥ قال خالد : فغاظنى ما رأيت من غَزَله وشعره فى حاله تلك ، فقدّمته فضربت عنقَه ، فأقبلت الجارية تسعى حتى أخذت برأسه فوضعتْه فى حجرها ، وجعلت ترشُفُه وتقول :

لا تَبعدَنْ يا عمرو حيًّا وهالكًا * ولا يبعدنَّ المدح مثلك من مِثْلى (٢)
ولا تبعدنْ يا عمرو حيًّا وهالكا * فقد عشتَ محمودَ الثّنا ماجدَ الفعْل
١٠ فمن لِطراد الخيل تُشْجَر بالقَنا * وللنّحر يوما عند قَرقرة البُزْل (٣)

فما زالت تبكى وتردّد هذه الأبيات حتى ماتت ، و إنّ رأسه لفى حجرها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد وُقِفتَ لى يا خالد و إن سبعين مَلَكا لمطيفون بك يحضّونك على قتل عمرو حتى قتلته" . والله أعلم .

ذكر غزوة حُنين ، وهى إلى هوازنَ وثَقيف

١٥ غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى شوّال سنة ثمان من مهاجَره . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكّة ، مشت أشراف هَوازِن وثَقيف بعضها إلى بعض ، وحشدوا وأوْعبوا وَبَغَوْا ، وجمع أمرَهم مالكُ بن عوف النَّصْرى ، وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، وأمرهم فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم حتى نزلوا بأَوْطاس (٤) ، وجعلت الأمدادُ تأتيهم .

٢٠ (١) فى هذا البيت إقواء . (٢) كذا فى الأصلين ، وفى الأغانى :
* لحقّ بحسن المدح مثلك من مثلى *
(٣) تشجر : تطعن . البزل : جمع بازل ، وهو البعير فى السنة التاسعة ، والقرقرة : دعاء الإبل ؛ وهى أيضا هدير الفحل . (٤) أوطاس : واد فى بلاد هوازن .

قال محمد بن إسحاق : اجتمع إليه مع هوازنَ ثقيفٌ كلُّها ، ونصر ، وجُشَم كلها ، وسعد بكر ، وناس من بنى هلال ، وهم قليل . قال : ولم يشهدها من قيس عيلان إلّا هؤلاء ، وغابت عنها من هوازن كعب وكلاب ، ولم يشهدها منهم أحد له اسم ؛ قال : وفى بنى جُشَم دريد بن الصِّمّة ، وهو شيخ كبير ليس فيه شىء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب . قال : وفى ثقيف سيّدان لهم فى الأحلاف : قارب بن الأسود ابن مسعود بن معتّب ، وفى بنى مالك ذو الخمار سُبَيع بن الحارث بن مالك ، وأخوه[1] .

وقال أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى : كان على ثقيف كنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عُمَير الثقفىّ . قال : وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف .

١٢١/١٥ قال ابن إسحاق : وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف . قال : ولما نزل مالك بأوطاس ، اجتمع إليه الناس وفيهم دُرَيد بن الصِّمَّة ، والصِّمَّة : معاوية الأصغر بن بكر ابن عَلَقة ، وقيل : علقمة بن خُزاعة بن غَزِيّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر بن هوازن فى شِجار له يقاد به — والشِّجار الهودج — فلما نزل دريد قال : بأىّ واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نِعْم مجالُ الخيل ، لا حَزْنٌ ضِرْس ، ولا سَهْل دَهْس[2] ، ثم قال : مالى أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار[3] الشاء ؟ قالوا : ساقَ مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ، فقال : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له مابعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار

(١) فى ابن هشام ٤ : ٨٠ « وأخوه أحمر بن الحارث » .

(٢) الحزن : ماغلظ من الأرض . والضرس : الصعب من الحجارة . والدهس : المكان السهل

(٣) يعار الشاء : صوتها .

الشاء ؟ قال : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كلِّ رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، قال : فأَنْقَضَ به ، — أى صاح — ثم قال : راعى ضأنٍ والله ! وهل يردّ المنهزمَ شىء ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ فى أهلك ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد ، قال : غاب الحَدُّ والجِدُّ ، ولو كان يومَ علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب ، ولوددتُ أنكم فعلتم كما فَعلت ، فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ، قال : ذانِكَ الجَذَعان[1] من عامر لا ينفعان ولا يضرّان ، يا مالك : إنك لم تصنع بتقديم البيضة ، بيضة[2] هوازن إلى نحور الخيل شيئا ، ادفعهم إلى متن بلادهم ، وعُلْيَا قومهم ، ثم ألقِ الصُّباء[3] على مُتون الخيل ، فإن كانت لك لَحِق بك مَن وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك ، قد أحرزت أهلَك ومالَك ، قال : لا والله ، لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلُك ، والله لتطيعُنّى يامعشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى . وكره أن يكون لدريد بن الصِّمَّة فيها ذكر ورأى ، قالوا : أطعناك ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتنى .

يالَيتنى فيها جَذَعْ * أَخُبّ فيها وأَضَعْ
أقودُ وَطْفاء الزَّمَعْ * كأنها شاة صدعْ[4]

(١) الجذع بالتحريك : الشاب الحدث .

(٢) بيضة هوازن : أصلهم ومجتمعهم . (٣) فى الأصلين : « الظبا » تحريف . صوابه من ابن هشام . والصباء فى الأصل : جمع صابئ ، وهو من خرج من دين إلى دين . وكان المشركون يسمون المسلمين بهذا . وفى اللسان فى حديث هوازن : «وألق الصبي» (بضم الصاد وتشديد الباء المفتوحة) أى الذين يشتهون الحرب ويميلون إليها . (٤) الخب والوضع : ضربان من السير . والوطفاء : الطويلة الشعر . والزمع : الشعر الذى فوق مربط قيد الدابة ، يريد فرسا صفتها هكذا ، والمراد بالشاة الوعل . وصدع ، أى وعل بين الوعلين ليس بالعظيم ولا بالحقير (الخشنى) .

ثم قال مالك بن عوف للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شَدّة رجلٍ واحد ؛ قال : وبعث مالك بن عوف عُيونا من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم من الرّعب ، فقال : وَيْلكم ! ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالا بيضا ، على خَيلٍ بُلْق ، فوالله ما تماسكنا أنْ أصابنا ما ترى ، فلم يردّه ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

قال ابن إسحاق : ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبرهم بعث إليهم عبد الله بن أبى حَدْرد الأسلمىّ ، وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم عِلْمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل ؛ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فأجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسيرَ إلى هوازِن لِقتالِهم ، وذكر له أن عند صفوان بن أمية أدْراعا وسلاحا ، فأرسل إليه وهو يومئذٍ مشرك فقال : " أعرنا سِلاحك نَلْقَى به عدوّنا " ؛ فقال : أَغَصْبا يا محمد ؟ فقال : " بل عاريّة مضمونة حتى نؤدّيها إليك " ؛ قال : ليس بهذا بأس ؛ فأعطاه مائة دِرع بما يكفيها من السلاح ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يوم السبت لستّ ليال خلون من شَوّال فى اثنى عشر ألفا من المسلمين : عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح بهم مكة ، وألفان من أهل مكة .

قال الثعلبىّ : قال مقاتِل : كانوا أحد عشر ألفا وخمسمائة .

وقال الكلبىّ : كانوا عشرة آلاف ، وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قطّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن نُغلب اليومَ مِن قِلّة " ، حكاه ابن إسحاق .

وقال محمد بن سعد : قال ذلك أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه . قال الثعلبىّ : ويقال : بل قال ذلك رجل من المسلمين يقال له : سلمة بن سلامة .

قال ابن سعد : وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من المشركين كثير، منهم صفوان بن أمية .

قال محمد بن إسحاق بسند يرفعه إلى الحارث بن مالك قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنين، ونحن حديثو عهدٍ بالجاهلية، وكان للكفار قريش ومن سواهم من العرب سِدرةٌ[1] عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط . يأتونها كل سنة يعلّقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكُفون عليها يوما ؛ قال : فرأينا ونحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سِدرةً خضراءَ عظيمة ، فنادينا من جَنَبات الطريق : يا رسول الله، اجعلْ لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال: " الله أكبر، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[2] إنها السُّنن، لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم"، قالوا: وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنينٍ مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوّال ، فلما كان من الليل عَمَد مالكُ بنُ عوف إلى أصحابه فعبأهم فى وادى حنين ، وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حَملةً واحدة ، وعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فى السَّحَر . وصفّهم صُفوفا ، ووضع الألوية والرايات فى أهلها مع المهاجرين : لواء يحمله علىّ بن أبى طالب ، وراية يحملها سعد بن أبى وقّاص، وراية يحملها عمر بن الخطّاب، ولواء الخزرج يحمله حُباب بن المنذر — ويقال : سعد بن عبادة — ولواء الأوس مع أُسيد بن حُضَير ، وفى كل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجل منهم مسمًّى . وكذلك قبائل العرب فيها الألوية والرايات يحملها قوم منهم مسمَّوْن، وكان رسول الله صلى الله عليه

١٢٢/١٥

(١) السدرة : شجرة النبق

(٢) الأعراف : ٣٨ .

وسلم قد قدم سُلَيْما من يوم خرج من مكة، واستعمل عليهم خالد بن الوليد، فلم يزل على المقدّمة حتى قدم الجِعرّانة. قال: وانحدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وادى حنين على تعبئته، وركب بغلته البيضاء «دُلْدُل»، ولبس دِرعين والمِغفَر والبيضة، فاستقبلهم من هوازن شىء لم يَرَوْا مِثْلَه قطّ من السواد والكثرة، وذلك فى غَبَش الصبح (١) وخرجت الكتائب من مَضيق الوادى وسعته، فحملوا حملة، وانكشفت الخيل خيل بنى سليم مولّية، وتبعهم الناس منهزمين، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين، وجعل يقول: يا أنصار الله وأنصار رسوله، أنا عبد الله ورسوله، وثبت معه يومئذ أبو بكر، وعمر، والعباس بن عبد المطلب، وعلىّ بن أبى طالب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان واسمه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، وأخوه ربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن أمّ أيمن بن عبيد فى أناسٍ من أهل بيته وأصحابه.

قال الكلبىّ: كان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة من المسلمين، وانهزم سائر الناس عنه، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للعباس: نادِ، يامعشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة (٢)، يا أصحاب سورة البقرة، فنادى — وكان صيّتا — فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حَنَتْ على أولادها يقولون: يالبّيك يا لبّيك! فحملوا على المشركين، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى قتالهم فقال: "الآن حَمِىَ الوَطِيس (٣).

أنا النبىُّ لا كذِبْ * أنا ابنُ عبد المطّلِبْ"

(١) غبش الصبح: ظلمة آخر الليل، وفى ابن هشام: «عماية الصبح».

(٢) السمرة: شجرة الطلح، وهى التى كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية.

(٣) الوطيس: التنور يخبز فيه. وقيل: هو حجارة توقد العرب تحتها النار ويشوون فيها اللحم، وقيل غير ذلك.

ثم قال للعباس بن عبد المطلب : ناولنى حَصَيات ، فناوله حصيات من الأرض ، ثم قال : "شاهت الوجوه" ورمى بها وجوه المشركين ، وقال : "انهزموا وربّ الكعبة" وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وانهزموا لا يَلوِى أحد منهم على أحد .

قال محمد بن إسحاق : لما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جُفاة مكّة الهزيمة ، تكلّم رجال بما فى أنفسهم من الضِّغْن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام لمعه فى كِنانته ، وصرخ جَبَلة بن الحَنْبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية : ألا بَطَل السِّحْرُ اليوم ! فقال له صفوان : أُسكت فَضَّ الله فاك ! فوالله لأن يَرُبّنى[1] رجل من قريش أحبّ إلىّ من أن يَرُبّنى رجل من هوازن ؛ وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة : اليوم أُدرِك ثأرى من محمد — وكان أبوه قتِل يوم أُحُد — اليوم أقتل محمدا . قال : فبادرت لأقتله ، فأقبل شىء حتى غَشّى فؤادى ، فلم أُطِق ذلك ، فعلمت أنه ممنوع منّى .

وفى رواية أخرى ، قال شيبة بن عثمان : استدبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وأنا أريد أن أقتله بطلحة بن عثمان ، وعثمان بن طلحة . فأطلَعَ الله رسولَه على ما فى نفسى ، فالتفت إلىّ وضرب فى صدرى وقال : "أعيذك بالله ياشَيبة" ، فأُرعدتْ فرائصى ، فنظرت إليه وهو أحبّ إلىّ من سمعى وبصرى فقلت : أشهد أنك رسول الله ، وأنّ الله أطلعك على ما فى نفسى .

وروى محمد بن إسحاق بسنده إلى العبّاس قال : إنى لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذٌ بحَكَمَة[2] بغلته البيضاء وقد شَجَرتُها[3] بها ، وكنت امرأً جسيما شديد الصوت ،

(١) يربنى : يكون ربا لى ، أى ملكا علىّ .

(٢) الحكمة محركة : خاصرة الفرس من لحمه .

(٣) شجرتها بها : أى وضعتها فى شجرها ، وهو مجتمع الحبل

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين رأى ما رأى من الناس "[أين](١) أيها الناس"، فلم أر الناس يَلْوُون على شيء، فقال: "يا عباس، اصرخ، يا معشر الأنصار، يا معشر أصحابِ السَّمُرة" قال: فأجابوا لبّيك لبّيك، قال: فيذهب الرجل لِيثنى بعيره فلا يقدِر على ذلك، ويأخذ دِرعه فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله، فيؤمّ الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا آجتمع إليه منهم مائة آستقبلوا الناس فآقتتلوا؛ فأشرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى ركائبه، فنظر إلى مُجتلَد(٢) القوم، فقال: "الآن حَمِىَ الوَطِيس".

١٢٣/١٥

قال جابرُ بنُ عبد الله: فوالله ما رجعتْ راجعةُ الناسِ من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتّفين عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

قال ابن إسحاق: وآلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أمّ سليم ابنة مِلْحان، وكانت مع زوجها أبى طلحة، وهى حازمة وسطها بِبُرد لها، وإنها لحامِل بعبد الله بن أبى طلحة، ومعها جَمَل أبى طلحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمّ سليم"؟ قالت: نعم، بأبى وأمّى يارسول الله! أُقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "أو يكفى الله يا أمّ سليم"؟ قال: ومعها خِنْجَر، فقال لها أبو طلحة: ماهذا الخنجر معكِ يا أمّ سُلَيم؟ قالت: خنجرٌ أخذتُه إن دنا منّى أحد من المشركين بَعَجْتُه(٣) به.

(١) الزيادة عن ابن هشام.

(٢) مجتلد القوم: مكان جلادهم بالسيوف.

(٣) بعجته: شقه.

وقال محمّد بنُ إسحاق : حدّثنى أبى إسحاق بن يسار أنه حدّث عن جُبير ابن مُطعِم قال : لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مِثل البِجادِ[1] الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا و بين القوم، فنظرتُ، فإذا نملٌ أسودُ مبثوث قد ملأ الوادى، لم أشكّ أنها الملائكة، ولم تكن إلّا هزيمة القوم .

٥ قال ابن إسحاق : ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف، وعسكَر بعضُهم بأَوْطاس، وتوجّه بعضهم نحو نَخلة[2]، وتبعتْ خيلُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَن سَلَك فى نخلة من الناس، ولم تتبع من سَلَك الثّنايا، فأدرك ربيعةُ بنُ رُفَيع بن أُهْبان — وهو ابن الدُّغُنّة — دُرَيدَ بن الصِّمّة وهو فى شِجارٍ له أى هَوْدَج، فأخذ بخِطام جَمَلِه وهو يظنّ أنه امرأة، فأناخ به، فإذا هو شيخ كبير والغلام

١٠ لا يعرفه، فقال له دُرَيْد : ما تريد بى ؟ قال: أقتلك ؛ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بنُ رُفَيع السُّلَمىّ، ثم ضربَه بسيفه فلم يُغن فيه شيئا، فقال : بئس ما سلّحَتْك أُمُّك ! خذ سيفى هذا من مُؤخر الرَّحْل فى الشِّجار، ثم اضرب به، وارفع عن العِظام، واخفض عن الدِّماغ، فإنّى كذلك كنتُ أضرِبُ الرجال، ثم إذا أتيتَ أمّك فأخبِرها أنك قتلتَ دُرَيدَ بنَ الصِّمة. فرُبَّ واللهِ يوم قد منعتُ

١٥ فيه نساءَك ؛ فقتَله . ولمّا رجع ربيعة إلى أمّه أخبرَها بقتله إيّاه، فقالت: أما والله لقد أعتق أمّهاتٍ لك ثلاثا .

قال ابن هشام : ويقال إن الذى قَتَل دُرَيْد بنَ الصِّمّة هو عبد الله بن قُنَيْع ابن أُهْبان بن ثعلبة بن ربيعة ؛ قال : وبعَثَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى آثار من توجّه قِبَل أَوْطاس أبا عامر الأشعرىّ، فأدركَ بعضَ من انهزم، فناوَشوه

٢٠ القتال، فقتل منهم أبو عامر تسعةً مُبارَزةً وهو يدعو كلَّ واحد منهم إلى الإسلام

(١) البجاد الكساء، وجمعه بجد بضمتين . (٢) يريد نخلة اليمانية .

ويقول : اللهم آشهد ؛ ثم برز له العاشر مُعلَما بعمامة صفراء ، فضرب أبا عامر فقتله . وآستخلف أبو عامر أبا موسى الأشعرىّ ، فقاتلهم حتى فتح الله عليه ، وقُتل قاتل أبى عامر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم آغفر لأبى عامر وآجعله من أعلى أمتى فى الجنّة" ، ودعا لأبى موسى .

وقال آبن هشام فى خبر أبى عامر : إنه قتل تسعةً مبارزة يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام ويقول : اللهم آشهد عليه ، فيقتله أبو عامر ، وبقى العاشر ، فحمل كلٌّ منهما على صاحبه ، فدعاه أبو عامر إلى الإسلام وقال : اللهم آشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم لا تشهد علىّ ، فكفّ عنه أبو عامر ، فأفلت ، ثم أسلم بعدُ فحسنَ إسلامه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه قال : "هذا شَرِيد أبى عامر" ، ورَمَى أبا عامر أخوان : العلاء وأَوْفى ابنا الحارث من بنى جُشَم آبن معاوية ، فأصاب أحدهما قلبه . والآخر ركبته ، فقتلاه ، ووَلِىَ الناسَ أبو موسى فحمل عليهما فقتلهما .

وقال أبو الفرج الأصفهانى : إن الذى رمى أبا عامر فأصاب ركبته هو سَلَمَة آبن دريد[1] بن الصِّمّة . وإنه آرتجز فقال :

إنْ تَسْأَلُوا عنّى فإنّى سلمهْ * ابنُ سَمَادِيرَ[2] لمن توسّمهْ
* أضربُ بالسيف رءوسَ المُسْلِمهْ *

قال : وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف فى فوارس من قومه على ثنيّةٍ من الطريق ، وقال لأصحابه : قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم وتلحق أخراكم ، فوقف حتى مضى من لحق بهم من منهزِمة الناس .

(١) فى كلا الأصلين : « زيد » .
(٢) سماديرا : امرأة دريد بن الصمة

١٢٤ ـ ١٥ قال ابن هشام : وبلغني أن خيلا طلعت ومالكٌ وأصحابُه على الثنيّة ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا نرى قوما واضعي رماحهم بين آذان خيلهم ، طويلة بوادّهم[1] فقال : هؤلاء بنو سُليم ، ولا بأس عليكم منهم ؛ فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي ، ثم طلعت خيلٌ أخرى تتبعها ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوما عارضي رماحهم أغفالا[2] على خيلهم ، فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ، ولا بأس عليكم منهم ؛ فلما انتهوا إلى أصل الثنيّة سلكوا طريق بني سُليم ، ثم طلع فارس فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارسا طويل البادّ واضعا رمحه على عاتقه ، عاصبًا رأسَهُ بملاءةٍ حمراء ، فقال : هذا الزبير بن العوّام ، وأحلف باللات ليخالطنّكم ، فأثبتوا له ، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية ، أبصر القومَ فصمَد لهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها .

قالوا : ولما انهزم القوم أمر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم بقتل من قُدِر عليه ، فحَنِق المسلمون عليهم ، فقتلوا الذرّيّة والنساء ، فمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بامرأة قد قتلها خالد بنُ الوليد ، فقال : "ما هذه" ؟ قالوا : امرأة قتلها خالد بنُ الوليد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه : "أدرِك خالد بنَ الوليد فقل له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة" ؛ وأنزل الله تعالى في يوم حُنَين قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ[3] ﴾

(١) البوادّ : جمع البادّ ، وهو باطن الفخذ .

(٢) الأغفال : جمع غفل ، وهو الذي لا علامة له ، يريد أنهم يعلمون أنفسهم بشيء يعرفون به .

(٣) سورة التوبة ٢٥ — ٢٦

قال الثعلبيّ : قال سعيد بن جُبير : أمدّ الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مُسوِّمين (١) .

وقال الحسن ومجاهد : كانوا ثمانية آلاف .

وقال الحسن : كانوا ستة عشر ألفا ؛ قال سعيد بن جبير : حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حُنين قال : لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقفوا لنا حَلْبَةَ شاة ، فلمّا كشفناهم جعلنا نسُوقهم ، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة الشَّهْباء — يعنى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم — فتلقّانا رجال بِيض الثيابِ حِسان الوجوه ، فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فرجعنا ، وركبوا أكتافنا ، فكانت إيّاها . يعنى الملائكة .

قال : وفى الخبر أنّ رجلا من بنى نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل البُلْق ، والرجال عليهم ثياب بِيض؟ ما كنّا نراكم فيهم إلّا كهيئة الشامة ، وما كان قَتْلنا إلّا بأيديهم ، فأخبروا النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : " تلك الملائكة " .

وقال محمد بن سعد : كان سِيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر قد أرْخَوْها بين أكتافهم .

قال ابن إسحاق : واستُشهِد من المسلمين يوم حُنين من بنى هاشم أيْمَن بن عُبيد ، ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بنِ الأسود ، ومن الأنصار سراقة بن الحارث ابن عدِىّ ، ومن الأشعريين أبو عامر .

وقال ابن سعد : ورُقَيْم بن ثعلبة بن زيد بن لَوْذان ، واستحرّ القتل فى بنى نصر ابن معاوية ، ثم فى بنى رئاب ، فقال عبد الله بن قيس ، وكان مسلما : هلكت

(١) مسوّمين ، أى معلمين .

بنو رئاب، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "اللهم أجبر مصيبتهم". قال : وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبايا والأموال فجُمعتْ، وحُدِرت إلى الجعرانة، وعليها مسعود بن عمرو الغِفارىّ، فوقف بها بالجعرانة حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة الطائف وهم فى حظائرهم يستظلّون بها من الشمس، ثم قسمها صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر سرية الطُّفيل بن عمرو الدَّوْسىّ إلى ذى الكَفَّيْن

بعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى شوّال سنة ثمانٍ عند منصرَفه من غزوة حُنينٍ، وتوجُّهِه إلى الطائف ليهدم ذا الكَفَّين صنم عمرو بن حُمَمة الدَّوْسىّ، وأمره أن يستمدّ قومه ويأتيَه بالطائف، فخرج سريعا إلى قومه، فهدم ذا الكَفَّين وجعل يَحُشُّ النار فى وجهه ويقول :

يا ذا الكَفَّين لستُ من عبّادكا * ميلادنا أقدم من ميلادِكا
* إنى حَشَشْتُ[1] النارَ فى فؤادكا *

١٢٥/١٥

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا، فوافَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف بعد مَقدَمِه بأربعة أيام، وقدم الطفيل معه بدبّابةٍ[2] ومَنْجَنيق.

ذكرُ غزوة الطائف

غزاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى شوّال سنة ثمانٍ مِن مهاجَرِه، وذلك أنه لمّا انهزمت هوازن وثَقيفٌ يوم حُنين، وجمعت السبايا والغنائم، سار رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنينٍ يريد الطائف، وقدّم خالدَ بن الوليد على مقدّمته،

(١) حش النار : أوقدها. (٢) الدبابة : آلة تتخذ فى الحروب يدخل فى جوفها الرجال ثم تدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها.

وقد كانت ثقيف رَمُّوا حِصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة، فلما انهزموا من أَوْطاس، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيئوا للقتال، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلك على نخلة اليمانيّة، ثم على قَرْن، ثم على المُلَيح، ثم على بُحْرة الرُّغاء من لِيَة[1]، فابتَنَى بها مسجدا يُصَلّى فيه.

قال ابن إسحاق: وأقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ببحرة الرُّغاء حين نزلها بدم، وهو أول دم أقيدَ به فى الإسلام رجل من بنى أَسَد قتل رجلا من هُذَيل فقُتل به؛ قال: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بلِيَة بحصنِ مالك ابنِ عوف، فهدِم، ثم سلك فى طريق يقال لها: الضَّيْقَة، فسأل عن اسمها. فقال: "ما اسم هذه الطريق"؟ فقالوا: الضَّيْقَة، فقال: "بل هى اليسرى"، ثم خرج منها على نَخِب[2] حتى نزل تحت سِدْرة يقال لها: الصادرة، قريبا من مالِ رجل من ثقيف، فأرسل إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "إمّا أن تخرج وإمّا أن نخرّب عليك حائطك"؛ فأبى أن يخرج، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخرابه؛ ثم مضى حتى نزل قريبا من حِصن الطائف وعسكر هناك، فرَمَوْا المسلمين بالنَّبل رميا شديدا حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلا.

قال ابن إسحاق: وهم[3] سعيد بن سعيد بن العاص، وعُرْفُطة بن جناب، حليف لهم من أسد بن الغوث.

وعبد الله[4] بن أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنهما، رُمِى فاندمل جُرحُه، ثم انتقض[5] بعد ذلك فمات منه فى خلافة أبيه.

ومن بنى مخزوم عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة.

---

(١) هذه أسماء مواضع بالطائف. (٢) نخب: (بفتح ثم كسر): واد بالطائف (ياقوت).
(٣) فى ابن هشام: «من قريش ثم من بنى أمية بن عبد شمس سعيد...». (٤) فى ابن هشام: «ومن بنى تميم بن مرة عبد الله ...». (٥) يقال: انتقض الجرح إذا فسد.

ومن بنى كعب عبد الله بن عامر بن ربيعة، حليف لهم .

ومن بنى سعد بن ليث جُليحة بن عبد الله .

ومن الأنصار ثابت بن الجِذْع ، والحارث بن سهل بن أبى صعصعة ، والمنذر بن عبد الله، ورُقَيم بن ثابت بن ثعلبة الأوسىّ .

٥ قال : فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضِع مسجدِ الطائف اليوم، وكان معه صلى الله عليه وسلم من نسائه أم سَلمة وزينب ، فضرب لهما قُبّتين . وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر يوما، ويقال: خمسة عشر يوما، ونصب عليهم المنجنيق ، ورَمَى عليهم به ، وأهل الطائف أوّل من رُمى بالمنجنيق فى الإسلام .

١٠ قال ابن إسحاق : حتى إذا كان يوم الشَّدْخة (١) دخل نفر من المسلمين تحت دبّابة، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليَخرِقوه، فأرسلتْ عليهم ثقيف سِككَ الحديد مُحماةً بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنَّبل ، فقتِل منهم رجال ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعنابهم وتحريقها ، فقطع المسلمون قطعا ذرِيعا ، ثم سألوه أن يدَعَها لله وللرحم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١٥ "إنى أدعُها لله وللرَّحِم" ، ونادى منادِى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : "أيّما عبدٍ نزل من الحِصن وخرج إلينا فهو حرّ"، فخرج منهم بضعة عشر رجلا، منهم: أبو بَكْرة، فأعتقهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . ودفع كلّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يَمُونه، فشقّ ذلك على أهل الطائف ، ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى فتح الطائف، فاستشار نوفلَ بن معاوية الدّيلىّ، فقال : "ما ترى" ؟ فقال :

٢٠ ثعابٌ فى جُحر، إن أقمتَ عليه أخذتَه، وإن تركتَه لم يضررك .

(١) سمى يوم الشدخة لما شدخ فيه من الناس . والشدخ : كسر كل شىء أجوف، (المواهب ج ٣ : ٣٧) .

قال محمد بن إسحاق : وبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر رضى الله عنه : " يا أبا بكر ، إنى رأيت أنّى أُهديتْ لى قَعْبَةٌ مملوءةٌ زُبْدا ، فنقرها ديك فهَراقَ ما فيها " ، فقال أبو بكر : ما أظن أن تُدرِك منهم يومك هذا ما تريد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وأنا لا أرى ذلك " .

١٢٦/١٥ قال : ثم إن خُوَيْلة بنت حكيم بن أميّة السُّلَمِيّة ، وهى آمرأة عثمان بن مظعون قالت : يا رسول الله ، [أعطِنى](١) إن فتح الله عليك الطائفَ حُلِىّ بادية بنت غَيْلان ابنِ سلمة ، أو حُلِىّ الفارعة بنت عُقَيل ، وكانتا من أحلى نساءِ قريش . قال : فذُكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : " وإن كان لم يؤذن لى فى ثقيف يا خُوَيلة " ؟ فخرجت خويلة فذكرت ذلك لعمر بنِ الخطّاب رضى الله عنه ، فدخل على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ما حديث حدّثتْنِيه خويلة فزعمتْ أنك قد قلته ؟ ، قال : " قد قُلْتُه " . قال : أو ما أذِن فيهم يا رسول الله ؟ قال : " لا " ، قال : أفلا أؤذّن بالرحيل ؟ قال : " بلى " قال : فأذّن عمر فى الناس بالرحيل ، فضجّ الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم تفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فآغدوا على القتال " ، فغَدَوا ، فأصابت المسلمين جِراحات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنا قافلون إن شاء الله " ، فسرّوا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرتحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، وقال لهم : " قولوا لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده " ، فلما آرتحلوا وآستقلوا قال : " قولوا آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون " ، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أُدع على ثقيف ؛ فقال : " اللهم آهد ثقيفا وأْتِ بهم " .

(١) التكملة عن ابن هشام جـ ٤ : ١٢٧

ذكر مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة وقسم مغانم حُنين ، وما أعطاه المؤلَّفة

قال ابن إسحاق : ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف رجع إلى الجعرانة فانتهى إليها ليلة الخميس لثلاثٍ خلون من ذى القعدة ، فأقام بها ثلاثة عشر يوما ، وقسم الفيءَ .

قال محمد بن سعد : كان السَّبى ستة آلاف ، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، والوَرِق أربعة آلاف أوقية فضّة ، فاستأنى[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسَّبْى أن يقدم عليه وفدهم ، وبدأ بالأموال فقسمها ، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم أوّل الناس .

قالوا : فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل . قال : وابنى يزيد ؟ قال : "أعطوه أربعين أوقيّة ومائة من الإبل" ؛ قال : وابنى معاوية ؟ فأعطاه أربعين أوقيّةً ومائةً من الإبل ، وأعطى حكيم بنَ حزام مائةً من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إيها ، وأعطى النَّضير بنَ الحارث بنِ علقمة بنِ كَلَدَة مائةً من الإبل ، وأعطى أَسيدَ بنَ جارية الثَّقفىَّ مائةً من الإبل ، وأعطى العَلاء ابن جارية الثقفىّ خمسين بعيرا ، وأعطى مَخرَمة بن نوفل خمسين بعيرا ، وأعطى الحارث بن هشام مائةً من الإبل ، وأعطى سعيد بنَ يربوع خمسين من الإبل ، وأعطى صفوان بنَ أميّة مائةً من الإبل ، وأعطى قيس بنَ عدىّ مائة من الإبل ، وأعطى عثمانَ بن وهب خمسين من الإبل ، وأعطى سُهيل بنَ عمرو مائةً من الإبل ، وأعطى حُويطب بنَ عبد العُزَّى مائةً من الإبل ، وأعطى هشامَ بنَ عمرو العامرىَّ

(١) استأنى : انتظر .

خمسين من الإبل، وأعطى الأقرعَ بنَ حابس التميمىَّ مائةً من الإبل، واعطى عُيينة ابن حصن مائةً من الإبل، وأعطى مالكَ بنَ عوف مائةً من الإبل، وأعطى العبّاس بنَ مِرْداس أربعين من الإبل، وقيل: أربعة، فقال فى ذلك:

كانت نِهابًا تلافَيتُها * بِكَرِّى على المُهْرِ فى الأَجْرَعِ (١)
وإيقاظِىَ القومَ أن يَرقدوا * إذا هَجَع الناسُ لم أَهْجَعِ
فأصبحَ نَهْبِى ونَهْبُ العُبَيْـ * ـدِ بين عُيَيْنةَ والأقرعِ (٢)
وقد كنتُ فى الحرب ذا تُدْرَإٍ (٣) * فلم أُعطَ شيئا ولم أُمْنَعِ
إلّا أَفائلَ أُعطيتُها * عديدَ قوائمها الأربعِ (٤)
وما كان حِصنٌ ولا حابِسٌ * يفوقان مِرْداسَ فى المَجْمَعِ (٥)
وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما * ومن تَضعِ اليوم لا يُرفعِ

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "اقطعوا عنّى لسانه"، فأعطَوْه حتى رضى، قيل: أعطاه مائةً من الإبل.

١٢٧/١٥ قال ابن سعد: أعطى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذلك كلّه من الخُمس، وهو أثبت الأقاويل عندنا، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم، ثم فَضّها (٦) على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل، وأربعون شاة، فإن كان فارسا أخذ اثنى عشر من الإبل، أو عشرين ومائة شاة، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للفرس الزائد.

(١) النهاب: جمع نهب، وهو ما ينهب ويغنم. والأجرع: المكان السهل.
(٢) العبيد: اسم فرس عباس بن مرداس. (٣) ذا تدرأ، أى ذا دفع عن قومى.
(٤) الأفائل: الصغار من الإبل، الواحد أفيل. (٥) فى رواية ابن هشام «شيخى»، يعنى أباه مرداسا. ويروى: «شيخىّ» بتشديد الياء يعنى أباه وجدّه.
(٦) يقال: فض الشىء على القوم: إذا فرّقه وقسمه.

ذكر قدوم وفد هوازن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامهم وردّ السبايا إليهم

قال : وقدِم وفد هوازن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أربعة عشر رجلا، ورأسُهم زُهَير بن صُرَد، وفيهم أبو بُرْقان عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، فسألوه أن يمنّ عليهم بالسّبي .

قال ٱبن إسحاق بسنده إلى عبد الله بن عمرو : إنّ وفد هوازنَ وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أَسلَموا ، فقالوا : يا رسول الله ، إنّا أصلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يَخْفَ عليك ، فٱمنُنْ علينا .

قال : وقام رجل من هوازن، أحد بنى سعد بن بكر يقال له : زهير، يُكنَى بأبى صُرَد، فقال : يا رسول الله، إنما فى الحظائر[1] عمّاتُك وخالاتك وحواضنك اللّاتى كنّ معك يكفلنك ، ولو أنا مَلَحْنَا[2] للحارث بن أبى شِمر أو للنعمان بن ٱلمنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلتَ به ، رجونا عطفَه وعائدتَه علينا ، وأنت خير المكفولين .

وحكى أبو عمر بنُ عبد البرّ أن أبا صُرَد زهير بن صرد أنشد عند ذلك :

أُمنُنْ علينا رسولَ الله فى كرمٍ * فإنّك المرءُ نرجوه وننتظر[3]
أُمنُنْ على بَيْضةٍ قد عاقها قَدَرٌ * ممزّق شملها، فى دهرها غِيَرُ[4]
يا خير طِفلٍ ومولودٍ ومنتجَبٍ * فى العالمين إذا ما حصّل البَشَرُ
إن لم تَداركهم نَعماء تنشُرها * يا أرجح الناسِ حِلما حين يُختبرُ

(١) الحظائر : جمع حظيرة وهى الزرب الذى يصنع للإبل والغنم ليكنها .
(٢) يقال : ملحنا لفلان أى أرضعناه ، وانظر اللسان (ملح) . (٣) فى الاستيعاب : « ومدحر » (٤) البيضة هنا : مجتمع الناس .

فآمنن على نسوة قد كنت تَرضَعها * إذ فُوك يملؤه من محضها دِررُ
إذ كنت طفلا صغيرا كنت ترضعها * وإذ يزينك ما تأتى وما تَذَرُ
لا تجعلنا كمن شالت نَعامتُه(١) * وآستبقِ منّا فإنّا معشر زُهُرُ
يا خير من مَرِحت كُمْتُ الجياد به * عند الهياج إذا ما آستوقد الشررُ
إنا لنشكر آلاءً وإن كُفِرتْ * وعندنا بعد هذا اليوم مدّخَرُ
إنّا نؤمّل عفوا منك تلبسه * هذى البريّة إذ تعفو وتنتصرُ
فآغفر عفا الله عما أنت واهبه * يوم القيامة إذ يُهدَى لك الظَّفَرُ

قال آبن إسحاق: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم"؟ فقالوا: يا رسول الله، خيّرتَنا بين أموالِنا وأحسابنا، فردّ إلينا أبناءنا ونساءنا فهو أحبّ إلينا؛ فقال لهم: "أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صلّيت الظهر فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا؛ فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم"، ففعلوا ما أمرهم به، فقال: "أمّا ما كان لى ولبنى عبدالمطّلب فهو لكم"، وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقالت الأنصار مِثلَ ذلك؛ فقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حِصن: أمّا أنا وبنو فَزارة فلا، وقال عباس بن مِرداس: أمّا أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: يقول عباس لبنى سليم: وهَنْتُمونى(٢)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) يقال: شالت نعامتهم إذا ماتوا وتفرّقوا، كأنهم لم يبق منهم إلا بقية، والنعامة: الجماعة وانظر اللسان (شول).

(٢) وهّنتمونى: أضعفتمونى.

"إنّ هؤلاء القوم جاءوا مسلمين، وقد كنت ٱستأنيت بسبْيهم، وخيّرتهم فلم يَعدِلوا بالأبناء والنساء شيئا، فمن كان عنده منهم شيء فطابت نفسُه أن يردّه فسبيل ذلك، ومن أبى فليردّ عليهم، وليكن ذلك قرضا علينا، فله بكل إنسان ستّ فرائض من أوّل ما يُفيء ٱلله علينا" قالوا: رَضِينا وسلّمنا، فردّوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتخلّف منهم أحد غير عُيَينة بن حِصن، فإنّه أبى أن يردّ عجوزا صارت فى يده منهم، ثم ردّها بعد ذلك. ١٢٨/١٥

وقد حكى محمد بن إسحاق سببَ تمسّك عيينة بها وردّها، قال: فقال حين أخَذَها: أرى عجوزا إنى لأحسب لها فى الحىّ نسبا، وعسى أن يعظم فِداؤها؛ فلما ردّ الناس السَّبايا بستّ فرائض أبى أن يُردّها، فقال له زهير بن صُرد: خذها عنك، فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديُها بناهِد، ولا بطنُها بوالد، ولا زوجُها بواجِد ولا دَرُّها بماكِد(١)؛ فردّها بستّ فرائضَ حين قال له زهير ما قال. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كسا السبيَ قُبْطيّة قُبْطية، والقَباطى: ثياب بِيض تُتّخذ من الكتّان بمصر.

وحكى محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى فى ترجمة عيينة بن حِصن فى هذه القصة قال: لمّا قدم وفدُ هَوازن على رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وردّ عليهم السبي، كان عيينة قد أخذ رأسا منهم، فنظر إلى عجوزٍ كبيرة فقال: هذه أمُّ الحىّ، لعلّهم أن يُغلُوا بفدائها، وعسى أن يكون لها فى الحىّ نسب. فجاء ٱبنها إلى عيينة فقال: هل لك فى مائةٍ من الإبل؟ قال: لا، فرجع عنه، فتركه ساعة، وجعلت العجوز تقول لٱبنها: ما إربُك فىّ بعد مائةِ ناقةٍ، أُتركه فما أسرع ما يتركنى بغير فداء؛

(١) الدر: اللبن. والماكد: الغزير.

فلما سمعها عيينة قال : مارأيت كاليوم خدعة ، والله ما أنا مِن هذه إلا فى غرور؛ ولا جرم والله لأبعدنّ أثرك منّى ؛ قال : ثم مرّ به ابنها فقال له عيينة : هـل لك فيما دعوتنى إليه؟ ؛ فقال : لا أزيدك على خمسين؛ فقال عيينة : لاأفعل؛ ثم لبث ساعة ، فمرّ به وهو معرِض عنه ، فقال له عيينة : هل لك فى الذى بذلت لى؟ ، قال له الفتى: لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة ؛ قال عيينة : والله لا أفعل، فلما تخوّف عيينة أن يتفرق الناس ويرتحلوا قال : هل لك إلى ما دعوتنى إليه إن شئت؟ : فقال الفتى : هل لك إلى عشر فرائض ؟ قال : لا أفعـل ؛ فلما رحل الناس ناداه عيينة : هل لك إلى ما دعوتنى إليه إن شئت ؟ ؛ قال الفتى : أَرسلْها وأحمدُك ، قال : لا والله ما لى حاجة بحمـدك ؛ فأقبل عيينة على نفسه لائما لهـا ويقول : ما رأيتُ كاليوم أمرا أَنكَد ، قال الفتى : أنت صنعتَ هـذا بنفسك ، عمدتَ إلى عجوز كبيرةٍ ، والله ما ثديُها بناهد، ولا بطنُها بوالد، ولا فُوها ببارد، ولا صاحبُها بواجد ، فأخذتَها مِن بين من ترى؛ فقال له عُيينة : خذها لابارك الله لك فيها ؛ قال : فيقول الفتى : ياعيينة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كسا السبَى فأخطأها من بينهم الكسوة، فهل أنت كاسيها ثوبا؟ قال: لا، والله مالَها ذاك عندى ، قال : لا تفعل ؛ فمـا فارقه حتى أخذ منه سَمَل ثوبٍ ، ثم ولّى الفتى وهو يقول : إنك لَغير بصيرٍ بالفَرْض ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسـلم قد كسا السبى قُبْطِيّة قُبْطية، والقَباطى : ثياب بِيض تُتّخذ من الكتّان بمصر .

قال محمد بن إسحاق : وسأل رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وفد هوازن عن مالك بنِ عوفٍ ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف؛ فقال: "أخبروا مالكا إن هو أتانى مسلما رددتُ إليه أهله وماله، وأعطيته مائةً من الإبل"، فأُخبر بذلك،

فخرج من الطائف فأدرك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجعرانة أو بمكّة، فردّ عليه أهلَه ومالَه، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه. وقال حين أسلم منشدا:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِه * فى الناس كلِّهمُ بمثلِ محمّدِ
أوفَى وأعطَى للجزيل إذا اجْتُدِى * ومتى تشأْ يخبرْك عمّا فى غدِ
وإذا الكَتِيبةُ عرّدتْ أنيابها * بالسّمْهَرِىّ وضَربِ كلِّ مهنّدِ
فكأنه ليثٌ على أشبالِه * وَسْط الهَباءَة خادرٌ فى مَرْصَدِ (١)

فاستعمَلَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه، وتلك القبائل: ثُمالة، وسَلِمة، وفَهْم، فكان يقاتِل بهم ثقيفا؛ لا يخرج لهم سرحٌ (٢) إلّا أغار عليه، حتى ضَيّق عليهم، فقال أبو مِحْجَن بنُ حبيب بن عمرو الثقفىّ فى ذلك:

هابت الأعداءُ جانبَنا * ثم تغزُونا بنو سَلِمهْ
وأتانا مالِك بِهِم * ناقِضا للعهد والحُرُمه
وأتَوْنا فى منازلنا * ولقد كنّا أولِى نَقِمَه

ذكر تسمية من بايع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قريش وغيرها عند قسم مغانِم حنين

١٢٩/١٥

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام رحمه الله: بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرهم وأعطاهم يوم الجعرانة من غنائم حنين: أبو سفيان ابن حرب، ومعاوية بن أبى سفيان، وطُلَيق بنُ سفيان بن أميّة، وخالد بن أَسِيد

(١) الهباءة: الغبار يثور عند اشتداد الحرب. والخادر: الأسد فى عرينه، وهو حينئذ أشد ما يكون بأسا لخوفه على أشباله، يصفه بالقوة. والمرصد: المكان يرقب منه، يصفه باليقظة.

(٢) السرح: المال السائم.

ابن أبى العِيص[1]، وشيبة بن عثمان بن أبى طلحة، وأبو السنابل بن بَعكَك بن الحارث، وعكرمة بن عامر بن هاشم، وزهير بن أبى أميّة بن المغيرة، والحارث بن هشام بن المغيرة، وخالد بن هشام بن المغيرة، وهشام بن الوليد بن المغيرة، وسفيان بن عبد الأسد بن عبد الله، والسائب بن أبى السائب بن عائذ، ومطيع بن الأسود بن حارثة بن نَضْلة، وأبو جَهْم بن حُذَيفة بن غانم، العَدويّان، وصفوان بن أميّة بن خلف الجُمَحى، وأُحَيحة بن أميّة بن خلف، وعُمَير بنُ وهب بن خلف، وعدىّ بن قيس ابن حُذافة السَّهْمى، وحُوَيطِب بنُ عبد العُزّى، وهشام بن عمرو بن ربيعة، ونوفل ابن معاوية بن عروة بن صخر الدِّيلى، وعلقمة بنُ عُلاثة بن عوف، ولَبيد بن ربيعة بن مالك، وخالد بن هَوْذة بن ربيعة بن عمرو بن عامر، وحرملة بن هَوْذة ابن ربيعة، ومالك بن عوف بن سعيد بن يربوع، وعبّاس بن مِرداس السُّلَمىّ، وعيينة بن حِصن بن حذيفة بن بدر الفزارىّ، والأقرع بن حابس بن عقال المُجاشعىّ

ذكر مقالة الأنصار فى أمر قسم الفَىْء، وما أجابهم به رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم، ورَضّاهم به

قال ابن إسحاق بسند يرفعه إلى أبى سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه أنه قال: لما أَعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أَعطَى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وَجَدوا فى أنفسهم حتى كثرتْ بهم القالة، حتى قال قائلهم: لقى والله رسولُ الله قومَه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يارسول الله، إن هذا الحىّ من الأنصار قد وجَدوا عليك فى أنفسهم لما صنعتَ فى هذا الفىء الذى أَصبتَ؛ قسمتَ فى قومك، وأعطيتَ عطايا عظاما

(١) كذا فى ابن هشام (١: ١٣٧) والاستيعاب. والذى فى الأصلين: «عاص».

فى قبائل العرب، ولم يكن فى هذا الحىّ من الأنصار منها شىء . قال: "فأين أنت من ذلك ياسعد"؟ قال : يارسول الله، ما أنا إلّا من قومى ؛ قال : "فاجمع لى قومَك فى هذه الحظيرة"، فخرج سعد فجمعهم فيها ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحَمِد اللهَ وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : "يامعشر الأنصار، ماقالةٌ بلغتْنى عنكم ، وجِدةٌ وجَدْتُموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلّالا فهداكم الله ، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم"! قالوا : بلى، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل ثم قال : "ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار؟"، قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله؟، لله ولِرسوله المنّ والفضل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم : أتيتنا مكذَّبًا فصدّقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم مِن لُعاعةٍ(١) من الدنيا تألفتُ بها قوما ليُسلِموا ، ووكلتُكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رِحالكم ! فوالذى نفس محمدٍ بيده لولا الهجرة لكنت آمرأً من الأنصار، ولو سلكت الناسُ شِعبا(٢) وسلكت الأنصارُ شِعبا لسلكتُ شِعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناءِ الأنصار" ؛ قال : فبكى القوم حتّى أخضلوا(٣) لِحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظًّا ؛ ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّقوا ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة معتمِرا ، وذلك ليلة الأربعاء لثنتى عشرة ليلةً مضت من ذى القعدة ، فأحرم بعُمرة ، ودخل مكّة ، فطاف وسعى وحلق رأسه ، ورجع إلى الجِعرانة من ليلته .

(١) اللعاعة : جرعة من الماء؛ يريد الشىء اليسير .

(٢) الشعب بكسر الشين : الطريق بين جبلين .

(٣) أى بلوها بدموعهم .

١٣٠/١٥

ذكر استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم عتّاب بن أسيد على مكّة ورجوعه إلى المدينة

قال محمد بن إسحاق : ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عُمرته استخلف عتّاب بن أسيد على مكّة ، وخلّف معه مُعاذ بن جَبَل يفقّه الناس في الدّين ويعلّمهم القرآن .

قال ابن هشام : لما استعمل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عتّاب بن أسيد على مكة رزقه كلّ يومٍ درهما ، فقام فخطب الناس فقال : أيّها الناس ، أجاع الله كبد من جاع على درهم ، قد رزقني رسول الله صلى الله عليه وسلم درهما كلّ يوم ، فليست بي حاجةٌ إلى أحد .

قال : وحجّ عتّاب بالناس في سنةِ ثمانٍ على ما كانت العرب تحجّ عليه .

قال ابن سعد : ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سلك في وادي الجعرانة ، حتى خرج على سَرِف (١) ، ثم أخذ الطريق إلى مَرّ الظّهران (٢) ، ثم إلى المدينة ، فقدمها صلى الله عليه وسلم في بقية ذي القعدة أو في أوّل ذي الحجّة .

وقال ابن هشام : لستُّ بقين من ذي القعدة . والله أعلم .

ذكر سريّة عُيَينة بن حِصْن الفزاريّ إلى بني تميم

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحرم سنة تسع من مهاجَره إلى بني تميم في خمسين فارسا من العرب ، ليس فيهم مهاجريّ ولا أنصاريّ ، وكان يسير الليل ويكمُنُ النهار ، فهجم عليهم في صحراء — وكانوا فيما بين السُّقْيا وأرض بني تميم ، وقد

(١) سرف : موضع على ستة أميال من مكة (ياقوت) .

(٢) مرّ الظهران : موضع على مرحلة من مكة .

حلّوا وسرّحوا ماشيتهم ، فلما رأوا الجمع ولّوا — وأُخذ منهم أحد عشر رجلا ؛ ووجدوا فى المحلة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيّا ، فجلبهم إلى المدينة ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحُبِسوا فى دار رملة بنت الحارث ، فقدِم فيهم عدّة من رؤسائهم : عُطارِد بن حاجب ، والزِّبْرِقان بن بدر ، وقيس بنُ عاصم ، ورَباح بنُ الحارث بن مجاشِع ، والأقرع بن حابس ، وقيس بن الحارث ، ونعيم ابن سعد ، وعمرو بن الأهتم ، وربيعة بن رُفَيع ، وسَبْرة بنُ عمرو ، والقَعْقاع بنُ معبد ، ووردان بن مُحرِز ، ومالك بن عمرو ، وفِراس بن حابس ، وكان من شأنهم وكلام خطيبهم وشاعرهم ما نذكر ذلك فى أخبارهم فى وفادات العرب إن شاء الله تعالى ، وذلك فى السفر السادس عشر من كتابنا هذا من هذه النسخة (١) .

قال : وردّ عليهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الأسرى والسّبى .

قال ابن إسحاق : وكان ممّن قُتل يومئذ من بنى العنبر : عبد الله وأخوانِ له بنو وهب ، وشدّاد بن فراس ، وحنظلة بن دارِم . وكان ممّن سبى يومئذ أسماءُ بنتُ مالك ، وكأس بنت أرىّ ، ونَجْوة بنت نَهْد ، وجُميعة بنت قيس ، وعَمْرة بنت مطر .

ذكر خبر الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط مع بنى المُصْطَلق

قال محمد بن سعد : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة ابن أبى معيط إلى بَالمصطلق من خُزاعة يُصدِّقهم ، وكانوا قد أسلموا وبنَوا المساجد ، فلما سمعوا بدنوّ الوليد خرج منهم عشرون رجلا يتلقّونه بالجَزور والغنم فرحا به ، فلما رآهم ولّى راجعا إلى المدينة ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لقُوه

(١) من تجزئة المؤلف . ويوافق جـ ١٨ : ٣٢ (طبع الدار) .

بالسلاح يحولون بينه و بين الصّدقة ، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم من يغزوهم ، و بلغ ذلك القوم ، فقدِم الرَّكْب الّذين لَقُوا الوليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأخبره الخبر على وجهه ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾(١) ، فقرأ عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القُرآن ، و بعث معهم عبّاد بن بِشر يأخذ صدقاتِ أموالهم ، و يعلّمهم شرائعَ الإسلام ، و يقرئهم القرآن ، ففعل ، وأقام عندهم عشرا ، ثم آنصرف إلى المدينة . ١٣١/١٥

ذكر سرِيّة قُطْبة بن عامر بن حديدة إلى خَثْعَم

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفر سنة تسع من مهاجره إلى حىّ من خثعم بناحيــة تَبالة فى عشرين رجلا ، وأمره أن يشُنّ الغارة عليهم ، فخرجوا على عشرة أبعــرةٍ يعتقبونها ، فأخذوا رجلا ، فسألوه فآستعجم عليهم ، وجعل يصيح بالحاضر ويحــذّرهم ، فضربوا عنقَه ، ثم أمهــلوا حتى نام الحاضر ، فشنّوا عليهم الغارة ، فآقتتلوا قتالا شديدا ، وساق المسلمون النَّعَم والشاءَ والنساءَ إلى المدينة ، وجاء سيلٌ فحالَ بينهم و بين قطبة ، فما يجدون إليه سبيلا . وكانت سِهامهم بعد الخمس لكلّ رجل أربعة أبعِرة ، والبعير يُعدَل بعشرة من الغنم .

ذكر سرِيّة الضحّاك بن سُفْيان الكلابىّ إلى بنى كلاب

كانت فى شهر ربيع الأوّل سنة تسع من الهجرة .

قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا إلى القُرْطاء(٢) عليهم الضحّاك ابن سفيان بن عوف الكلابىّ ، ومعه الأَصْيَد بن سلمة بن قرْط ، فلقُوهم بالزَّج(٣) ،

(١) سورة الحجرات : ٦ (٢) القرطاء : بطن من بنى بكر وآسمه عبيد بن كلاب .
(٣) زج لازة : موضع بنجد .

زُجّ لاوة، فدعَوْهم إلى الإسلام فأبَوا، فقاتَلوهم فهُزِموا، فلحِق الأصيد أباه سلمة، وسلمة على فرس له فى غدير الزُّجّ، فدعا أباه إلى الإسلام، وأعطاه الأمان، فسبّه وسبّ دِينَه، فضرب الأصيدُ عُرقوبَى فرسِ أبيه، فلمّا وقع الفرسُ على عُرقوبيه ٱرتكز سلمة رمحَه فى الماء، ثم ٱستمسك به، حتى جاءه أحدُهم فقتَله، ولم يقتله ٱبنُه، وفى هذه السريّة وفى الضحّاك بن سفيانَ يقول عبّاس بنُ مِرْداس :

إنّ الذين وفَوا بما عاهدتَهمْ * جيشٌ بعثتَ عليهمُ الضّحّاكَا
أمّرْتَه ذَرِبَ اللّسان[1] كأنه * لمّا تكنّفه العدوّ يراكا
طَوْرا يُعانِق باليدَيْن وتارةً * يَفْرِى الجَماجِمَ صارِما بَتّاكا[2]

ذكر سريّة عَلْقمةَ بن مُجَزِّز المُدْلِجىّ إلى الحَبشة

كانت هذه السريّة فى شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة، وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بلغه أنّ ناسا من الحبشة ترآهم أهلُ جُدّة، فبعث إليهم علقمةَ بنَ مجزِّز فى ثلاثمائة، فٱنتهى إلى جزيرةٍ فى البحر وقد خاض إليهم، فهربوا منه، فلمّا رجع تعجّل[3] بعض القوم إلى أهليهم، فأذن لهم، وفيهم عبد الله بن حُذافة السّهمىّ، فأمّره علقمة على من تعجّل، وكانت فيه دُعابة، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا نارا يَصْطلون عليها، فقال لهم : عزمتُ عليكم إلّا تَواثبتم فى هذه النار، فقام بعض القوم حتى ظُنّ أنهم واثبون فيها، فقال : اِجلسوا، إنما كنتُ أضحك معكم، فذَكروا ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلم، فقال : "مَن أمَركم بمعصية فلا تطيعوه".

(١) فى ابن هشام ٤ : ١٠٣ « رجل به ذرب السلاح ».
(٢) البتاك والفتاك بمعنى واحد.
(٣) أى أرادوا الرجوع قبل بقية الجيش.

ذكر سريّة عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه إلى الفُلْس صنم طيّئ

بعثه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الآخر سنة تسع فى خمسين ومائة رجل من الأنصار إلى الفُلْس (صنم طيّئ) ليهدمه — (والفُلْس بضم الفاء وسكون اللام) — بعثهم على مائةِ بعير وخمسين فرسا، ومعه رايةٌ سوداء ولواءٌ أبيض، فشنّوا الغارة على محلّة آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفُلس وخرّبوه وملأوا أيديهم من السّبي والنّعَم والشاء، وفى السبي أخت عدىّ بن حاتم، وهرب عدىّ إلى الشام؛ وكان من خبره ما نذكره إن شاء الله فى أخبار الوفود. قال: ووجدوا فى خِزانة الفلس ثلاثة أسياف: رَسُوب، والمِخْذَم، واليمان؛ وثلاثة أدرُع، فلمّا نزلوا رَكَك[1] اقتسموا الغنائم، وعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم صَفِيّه[2]: رَسوب، والمِخذَم، ثم صار له بعدُ السيفُ الآخر، وعزل الخُمس وعَزل آل حاتم فلم يقسمهم، حتى قدِم بهم المدينةَ على رسول الله صلّى الله عليه وسلم. ١٣٢/١٥

ذكر سريّة عُكّاشة بن مِحْصَن الأَسَدىّ إلى الجِناب

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الآخر سنة تسع من مهاجَرِه إلى الجِناب، أرضِ عُذْرة وبَلِيّ، ولم يذكر ابنُ سعد من خبره غير ذلك.

ذكر غَزْوة تَبوك

كانت غزوة تبوك فى شهر رجب سنة تسعٍ من مهاجَرِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان سببها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أنّ الروم قد جمعتْ جموعا كثيرةً بالشام، وأنّ هِرَقْلَ قد رَزَق أصحابَه لِسنة، وأجلبتْ معه لَخْم،

(١) ركك (بالتحريك): محلّة من محالّ سلمى أحد جبلى طيء.

(٢) الصفىّ هنا: ما يأخذه الرئيس لنفسه من الفيء قبل القسمة.

وجُدام ، وعامِلة ، وغَسّان . وقدّموا مقدّماتهم إلى البَلْقاء ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج ، وأعلمهم المكانَ الذى يريد ليتأهّبوا لذلك ، وبعث إلى مكّة وإلى قبائل العرب يستنفِرُهم ، وذلك فى حرّ شديد ، وأمرهم بالصدقة ، فحملوا صدقاتٍ كثيرة ، وقَوُوا فى سبيل الله .

قال ابن هشام : أنفق عثمان بنُ عفّان رضى الله عنه فى جيش العُسْرة فى غزوة تَبوك ألفَ دينار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم ٱرضَ عن عثمانَ فإنّى عنه راضٍ " .

وجاء البكاءون وهم سبعة : سالم بن عُمَير ، وهَرَمىّ بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعُلْبَة بن زيد أخو بنى حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب المازنىّ ، وعمرو بنَ عَنمة ، وسلمة بن صخر ، والعِرباض بن سارية الفزارىّ .

قال : وفى بعض الرُّواة من يقول : إنّ فيهم عبد الله بن مغفّل المُزَنىّ ، ومعقل ابن يسار ، وبعضهم يقول : البكاءون بنو مقرِّن السبعة ، وهم من مزينة ، فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه ، فقال : " لا أجِد ما أحملكم عليه " ، فتولوا وأعينهم تفيض مِن الدمع حَزَنا ألّا يجِدوا ماينفِقون ، فعذرهم الله تعالى .

قال : وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سُوَيلم اليهودىّ ، يثبّطون الناسَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليهم طلحة بنَ عبيد الله فى نفرٍ من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة ، فٱقتحم الضّحاك بن خليفة من ظهر البيت ، فٱنكسرتْ رِجلُه ، وٱقتحم أصحابه فأفلتوا ، فقال الضحّاك فى ذلك :

كادت وبيتِ الله نارُ محمّدٍ * يَشيطُ بها الضحّاك وٱبن أبيرِقِ

فَظَلْتُ وقد طبّقتُ كِبْسَ سويلِمٍ * أنوءُ على رِجلى كَسيرا ومِرْفَقِ (١)
سلامٌ عليكمْ لا أعود لِمثلِها * أخاف، ومن تَشمَلْ به النارُ يُحرَقِ

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التخلّف من غير عِلّة، فأذِن لهم، وهم بضعة وثمانون رجلا .

وَجاءَ الْمُعَذِّرُون مِنَ الْأَعْرَاب لِيُؤْذَنَ لهم، فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم، وهم اثنان وثمانون رجلا؛ ذكر أنهم نفر من بنى غِفار، وكان عبد الله بن أبىّ بنِ سَلول قد عسكر على ثَنِيّة الوَداع فى حلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقلّ العسكرين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف على عسكره أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فصلّى بالناس ، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة ، فلمّا سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلّف عبد الله بنُ أُبَىّ، ومن كان معه ، وتخلّف نفر من المسلمين من غير شكّ ولا ارتياب ، منهم كعب بن مالك، وهلال بنُ أميّة ، ومُرارة بنُ الرّبيع، وأبو خيثمة مالك بنُ قيس السّالِمى، وأبو ذرّ الغِفارىّ؛ وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلَّ بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتّخذوا لواءً أو راية ، ومضى صلى الله عليه وسلم لوجهِه يسير بأصحابه حتى قدم تَبوك فى ثلاثين ألفا من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس، فأقام بها عشرين ليلة يصلّى ركعتين ركعتين، ولحقه بها أبو خيثمة وأبو ذرّ .

١٣٣/١٥

قال محمد بن إسحاق فى سبب مسيرِ أبى خيثمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه جاء يوما إلى أهله بعد أن سار رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أيّاما فى يومٍ

(١) طبّقت : علوت . والكبس بكسر الكاف : البيت الصغير .

حارّ ، فوجد آمرأتين له فى عَرِيشَين[1] لهما فى حائطه ، قد رَشّت كُلّ واحدة منهما عرِيشَها وبرّدتْ له فيه ماء ، وهيّأتْ طعاما ، فلمّا دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى آمرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسولُ الله فى الضِّحّ[2] والرِّيح والحرّ ، وأبو خيثمة فى ظلّ بارد ، وطعامٍ مهيّأ ، وآمرأةٍ حسناء ، فى مالِه مقيم ، ما هذا بالنَّصَف ! ؛ ثم قال : والله لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيِّئا لى زادا ، ففعلتا ، ثم قدّم ناضحَه[3] فآرتحَله ، ثم خرج فى طلب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك .

قال : ولمّا دنا مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبِل ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كن أبا خيثمة " ، قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة ؛ فلمّا أناخ أقبل فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : " أَوْلَى لك يا أبا خيثمة " ! ؛ ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فقال : خيرا ودعا له .

وأما أبو ذرّ الغِفارىّ ، فإنه أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثناء الطريق ، وكان بعيرُه قد أبطأ عليه ، فحمل متاعه على ظهره ، ثم خرج يَتْبَع أثرَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتّى أدركَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أبا ذرّ ، يمشى وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبعث وحدَه " فكان كذلك .

قال : وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبوكَ وهِرقْل يومئذ بحِمْص ، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالد بنَ الوليدِ إلى أُكَيْدِر .

(١) العريش : شبه الخيمة . والحائط هنا : البستان .

(٢) الضّح بكسر الضاد وتشديد الحاء : الشمس .

(٣) الناضح : البعير يستقى عليه ، وارتحله : شدّ عليه الرحل .

ذكر سرية خالد بنِ الوليد إلى أُكَيْدِر بنِ عبد الملك

قالوا: بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم وهو بتبوك خالدَ بن الوليد فى أربعمائةٍ وعشرين فارسا سِرِيَّةً إلى أُكيدِر بنِ عبد الملك بدُومة الجَنْدل، وأُكيدِر مِن كِنْدة، قد ملَكَهم، وكان نصرانيًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بنِ الوليد: "إنّك ستجِده يصيد البقر". فخرج خالدٌ فى شهر رجبَ سنة تسع من الهجرة حتى كان مِن حِصن أُكيدِر بمنظَر العين فى ليلة مقمِرة وصائفة، وهو على سطح له، ومعه آمرأته، فباتت البقر تحكّ بقرونها بابَ القصر، فقالت له آمرأته: ما رأيتُ مِثلَ هذا قطّ؟ قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرِج له، وركب وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخ له يقال له: حسّان، وخرجوا لمطاردة البقر، فلما خرجوا تلقّتهم خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشدّت عليه، فآستأسر أُكيدر، وآمتنع أخوه حسان، وقاتل حتى قتِل، وكان عليه قَباء من دِيباج مخوّص[1] بالذهب، فآستَلَبه خالد، وبعث به إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل قدومه عليه، فجعل المسلمون يلمِسونه بأيديهم، ويتعجّبون منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "أتعجبون مِن هذا؟ فوالّذى نفسى بيده لمنَادِيل سعدِ بن مُعاذٍ فى الجنة أحسن من هذا". قال: ولما أسِر أُكيدِر وقتِل حسّان، هرب من كان معهما، فدخل الحصن، وأجار خالدٌ أُكيدرَ من القتل حتى يأتىَ به رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم على أن يفتح له دُومة الجَنْدل، ففعل، وصالَحَه على ألفى بعير، وثمانمائة فَرَس، وأربعمائة دِرع وأربعمائة رمح، فعزل للنبي صلى الله عليه وسلم صَفِيًّا خالِصا، ثم أخرج الخُمس، وقسم

(١) التخويص بالذهب: أن يجعل للشىء صفائح من الذهب على قدر عرض خوص النخل وفى صورته.

مابق بين أصحابه ، ثم خرج خالدٌ بأكيدر و بأخيه مُصاد . وكان فى الحصن — و بما صالحَه عليه قافلا إلى المدينة ، فقدم على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بأكيدر ، فأهدى له هديّة ، وصالحَه على الجزية ، وحقَنَ دمَه ، ثم خلّى سبيلَه ، فرجع إلى قريته ، فقال بُجير بن بَجْرة :

٥ تبارك سائقُ البَقَرات إنّى * رأيتُ الله يهدِى كلَّ هادِ

١٣٤/١٥ فمن يك حائدا عن ذِى تَبوكٍ * فإنّا قد أُمِرنا بالجهادِ

قال محمد بن إسحاق : ولما انتهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى تبوكَ أتاه يُحَنّة ابن رؤبة صاحب أَيْلة[1] ، فصالح رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية ، وأتاه أهلُ جَرْباء[2] وأذرُح[3] ، فأعطَوْه الجزية ، وكتب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

١٠ ليُحَنّة كتابا ، وهو : " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أَمَنَة مِن الله ومحمدٍ النبيّ رسولِ الله ليُحَنّة بنِ رؤبة وأهلِ أَيْلة ، سُفُنهم وسيّارتهم فى البر والبحر ، لهم ذِمّة الله ومحمدٍ النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حَدَثا فإنه لا يَحول ماله دُون نفسه ، و إنه طيّب لِمن أخذه من الناس ، و إنه لا يَحِلّ أن يُمنَعوا ماءً يردونه ، ولا طريقا يريدونه من

١٥ بَرّ أو بحر " .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعمل على حرسه بتبوكَ عبّاد ابن بشر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَلْقَ كيدا .

---

(١) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام .

(٢) جرباء : موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام (ياقوت)

(٣) أذرح : بلد من أعمال الشراة من نواحى البلقاء . (ياقوت)

وقدِم المدينـة فى شهر رمضان من السنة، وجاءه من كان قد تخلّف عنـه، فحلفوا له، فعذرهم، واستغفَرَ لهم، وأرجأ أمرَ كعب بنِ مالك وصاحبيه حتى نزلتْ توبتُهم، على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى آخر هذه الغزوة .

قال : وجعـل المسلمون يبيعون أسلحتَهم و يقولون : قد انقطع الجهـاد، فبلغ ذلك رسـولَ الله صلى الله عليه وسـلم، فنهاهم، وقال : " لا تزال عِصابةٌ من أمّتى يجاهدون على الحقّ حتّى يخرج الدجّال " .

وكان فى غزوة تبوك وقائع غير ما قدّمناه، قد رأينا إيرادَها فى هذا الموضع .

منها خبر مرور رسول الله بالحِجْر .

ومنها ما أُنْزِل فى أمر المنافقين .

ومنها خبر الثلاثة الّذين خُلِّفوا، وما أنزل من توبتهم .

ذكر خبرِ مرورِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْـر وما قاله لأصحابه

قال محمد بن إسحاق : لمّـا مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفره إلى تبوك بالحِجْر من مَدْيَن، نزلها، واستقى الناس من بئرها، فلمّا راحوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " لا تشربوا من مائها شيئا، ولا يتوضّأ منه للصـلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للإبل ولا تأكلوا منه شيئا، ولا يخرجنْ أحد منكم الليـلة إلّا ومعه صاحب له "، ففعل الناس ما أمرهم رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، إلّا أنّ رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر فى طلب بعيرٍ له، فأما الّذى ذهب لحاجته فإنه خُنِق على مَذْهبِـه (١)، وأما الذى ذهب فى طلب بعيرِه

(١) خنق : صرع . المذهب هنا : الموضع الذى يقضى فيه المرء حاجته .

فاحتملته الرِّيح حتى طرحته بجبلِ طيئ ، وأخبر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : " ألم أنهكم ألّا يخرجَ منكم أحد إلّا ومعه صاحبُه" ! ثم دعا للّذى أصيب[1] فشُفِى ، وأمّا الآخر فإن طيّئا أهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة .

قال ابن هشام : بلغنى عن الزُّهرىّ أنه قال : لما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر سجّى ثوبَه[2] على وجهِه ، واستحثّ راحلته ، ثم قال : " لا تدخلوا بيوتَ الّذين ظلموا إلّا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم مِثل ما أصابهم" .

قال ابن إسحاق : لمّا أصبح الناسُ ولا ماء معهم شكَوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا ، فأرسل الله تعالى سحابةً فأمطرتْ حتّى ارتوى الناس واحتملوا حاجتَهم من الماء .

وفى هذه الغزوة ضلّت ناقة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال زيد بنُ لُصَيب[3] ما قال ، وأُخبِر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بما قال ، فأُخبر بشأنها ، ووُجِدت كما وَصَف صلى الله عليه وسلم على ما قدّمنا ذلك فى أخبار المنافقين .

ذكر أخبار المنافقين وما تكلّموا به فى غزوة تبوك وما أنزل الله عز وجل فيهم من القرآن

كان ممّن أنزل الله عزّ وجلّ فيه من القرآن ما أنزل فى غزوة تبوك الجدُّ ابن قيس ، وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن لى ولا تفتِنّى ؛ وقد تقدّم خبره مع أخبار المنافقين .

---

(١) عبارة الزرقانى جـ ٣ : ٨٧ : « ثم دعا للذى خنق على مذهبه » .

(٢) سجى : غطّى ثوبه وضمّنه معنى وضع فقال : على وجهه .

(٣) ويقال فيه اللصيت (بالتاء) . والخبر فى ابن هشام ٤ : ١٠٦

١٣٥/١٥ وقال قوم منهم: لا تنفروا فى الحر زهادةً فى الجهاد، فأنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]، وقال رهط من المنافقين: منهم وديعة ابن ثابت أخو بنى عمرو بن عوف، ورجل من أشجع، حليف لبنى سلمة يقال له: مُخَشِّن بن حُمَيِّر — وقيل: مَخْشِيّ[2] — وغيرهما بعضهم لبعض: أتحسبون جِلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا، والله لكأنكم غدًا بهم مقرنين فى الحبال، يقولون ذلك إرجافا وترهيبا للمؤمنين.

فقال مَخْشِيّ: والله لوددت أن أقاضَى على أن يضرب كلّ رجل منّا مائة جلدة، وأنا ننفلت أو ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر: "أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل لهم: بلى قد قلتم كذا وكذا"، فانطلق إليهم عمّار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: يارسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. وقال مَخْشِيّ: يا رسول الله، قعد بى اسمى واسم أبى، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[3]. فكان مَخْشِيّ بن حمير ممن عفى عنه، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة، ولم يوجد له أثر. والله الموفق للصواب.

---

(١) سورة التوبة ٨١ — ٨٢

(٢) كذا ضبط هذا الاسم بالعبارة فى تبصير المنتبه لابن حجر والإكمال لابن ماكولا.

(٣) سورة التوبة ٦٥ — ٦٦

ذكر خبرِ الثلاثةِ الذين خُلّفوا ، وما أنزِل فيهم وفى المعذِّرين من الأعراب

والثلاثة الذين خُلِّفوا لم يتخلّفوا عن شكّ ولا نِفاق، وهم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أميّة ، وكان من خبرهم ما حدّثنا به الشيخان المعمَّران المسنِدان شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى طالب نعمة الصالحىّ الحجّار ، وست الوزراء أم محمد وزيرة بنت القاضى شمس الدين عمر بن أسعد بن المنجى التَّنوخيّة الدِّمشقيّان قراءةً عليهما ، وأنا أسمع فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وسبعمائة بالمدرسة المنصورية بالقاهرة المعزّيّة ، قالا : حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدى ، قال : حدّثنا أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب السِّجْزى قراءةً عليه ونحن نسمع ، قال : حدّثنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودىّ ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمّويه السَّرَخْسىّ ، قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن مطر الفَرَبْرىّ ، قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارىّ ، قال : حدّثنا يحيى بن بكير ، قال : حدّثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أنّ عبد الله بن كعب بن مالك ، — وكان قائد كعبٍ من بنيه حين عَمِىَ — قال : سمعتُ كعب بنَ مالك يحدّث حين تخلّف عن قصّة تبوك قال كعب : لم أتخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوةٍ غزاها إلا فى غزوةِ تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتبْ أحدا تخلّف عنها ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عِيرَ قريش ، حتى جمع الله بينهم و بين عدوّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٣٦/١٥ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدرَ أذكرَ فى الناس منها .

كان من خبرى أنى لم أكن قطّ أقوى ولا أيسرَ منّى حين تخلّفتُ عنه فى تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قطّ حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوةً إلّا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرّ شديد ، واستقبل سَفَرا بعيدا ومفازا وعَدوّا كثيرا، فجلّا للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبةَ غَزْوِهم ، فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان .

قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيّبَ إلّا ظن أنّه سيَخفَى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحى الله عزّ وجلّ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظِّلال ، وتجهّز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون معه ، فَطَفِقت أغدو لكى أتجهّز معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئا ، فأقول فى نفسى : أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بى حتى شَمَّرَ بالناس الجِدّ . فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازى شيئا، فقلت : اتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، ورجعت فلم أقضِ شيئا، ثم غدوت، ثم رجعت ، ولم أقض شيئا ، فلم يزل بى حتّى أسرعوا وتفرّط(١) الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ، فلم يُقدر لى ذلك ، فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطفت فيهم أحزننى أنّى لا أرى إلّا رجلا مغموصا(٢) عليه بالنفاق ، أو رجلا ممّن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرنى

(١) أى فات وسبق .

(٢) مغموص : مطعونا عليه فى دينه، متهما بالنفاق . وفى ابن هشام ٤ : ٦٠ : «فى النفاق» .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : "ما فعل كعب" ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه بُرْداه ونظرُه فى عِطفيه (١) . فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ، ما علمتُ عليه إلّا خيرا ، فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

٥ قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى هَمّى ، وطفِقت أتذكّر الكذِبَ وأقول : بماذا أخرج من سَخَطه غدا ، وٱستعنت على ذلك بكل ذى رأيٍ من أهلى ، فلما قيل إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل (٢) قادما راح عنى الباطل ، وعرفت أنّى لم أخرج منه أبدا بشىء فيه كذِب ، فأجمعت صِدقَه ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما ، وكان إذا قدِم من سفر بدأ بالمسجد ،

١٠ فركع فيه ركعتين ، ثم يجلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفِقوا يعتذرون إليه ويحلِفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم وٱستغفر لهم ، ووَكَل سرائرَهم إلى الله ، فجئته ، فلما سلّمت عليه تبسّم تبسّمَ المغضَب ، ثم قال : "تعال" ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : "ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ٱبتعت ظهرك" ؟ فقلت : بلى وٱللهِ ،

١٥ إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سَخَطه بعذر ، ولقد أُعطِيتُ جدلا (٣) ، ولكنّى والله لقد علمت لئن حدّثتك اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عنّى ليوشِكن ٱللهُ أن يُسخطك علىّ ، ولئن حدّثتك حديث صِدقٍ تجد علىّ فيه (٤) إنى لأرجو فيه عقْبى ٱلله ، لا وٱلله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قطّ أقوى

(١) كنى هنا عن إعجابه بنفسه وزهوه وتكبره . (٢) أظل : قرب وأشرف .

٢٠ (٣) أعطيت جدلا ، أى فصاحة وقوة كلام بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلى بما يقبل ولا يردّ .

(٤) تجد : تغضب .

ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك"، فقمت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى، فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ؛ فقلت : من هما ؟ قالوا : مُرارة بن الربيع العَمْرى، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة؛ فمضيت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا — أيها الثلاثة — من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت فى نفسى الأرض، فما هى بالتى أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف فى الأسواق ، فلا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة، وهو ابن عمى، وأحب الناس إلى، فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام، فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك الله . هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟

١٣٧/١٥

فسكتَ . فعدت له فنشدته ، فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، وتولّيتُ حتى تسوّرت الجدار .

قال : فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نَبَطىّ من أنباط أهلِ الشام ممن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلّ على كعب بن مالك ؟ ، فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءنى دفع إلىّ كتابا مِن مَلِك غسّان ، فإذا فيه : « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحِبك قد جفاك ، ولم يجعلْك الله بدارِ هوان ولا مَضْيَعة ، فالحق بنا نُواسِك » . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضا من البلاء ، فتيممتُ[1] بها التنور ، فسجرتُه[2] بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يأتينى ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزِل امرأتك . فقلت : أطلّقها ؟ أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربنّها ، وأرسل إلى صاحِبىّ مثلَ ذلك ، فقلت لامرأتى : الحَقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذ الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أميّة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أميّة شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدُمَه ؟ فقال : "لا ، ولكن لا يقربنّك" قالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، والله ما زال يبكى مذ كان من أمرِه ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك ، كما أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمَه ، فقلت : والله لا أستأذِن فيها رسول الله ، وما يدرينى ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابّ ! فلبثت بعد ذلك عشر

(١) تيممت : توجهت وقصدت .

(٢) سجرته : وقدته بالصحيفة

ليالٍ حتى كملت خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا؛ فلما صليت صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله، قد ضاقت علىّ نفسى، وضاقت علىّ الأرض بما رُحبَت، سمعت صوت صارخ أوفَى[1] على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبةِ الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ[2] صاحبىّ مبشّرون، وركض رجل إلىّ فرسا، وسعى ساع مِنْ أَسْلم فأوفَى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى، نزعت ثوبىّ فكسوته إياهما ببشراه، وآللهِ ما أملك غيرهما يومئذ، وآستعرت ثوبين فلبستهما، وآنطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلقّانى الناس فوجا فوجا يهنّئوننى بالتوبة، يقولون: لِيَهْنِكَ توبةُ الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس، فقام إلىّ طلحةُ بن عبيد الله يُهرول حتى صافحنى وهنّأنى، والله ماقام إلىّ رجل من المهاجرين غيرُه، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يَبرُق وجهه من السرور: "أبشر بخير يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمك"؛ قال: قلت: أمِن عندِك يا رسول الله أم من عندِ الله؟ قال:

(١) أوفى: أشرف.

(٢) فى ابن هشام: «وذهب نحو صاحبى مبشرون».

" لا ، بل من عند الله " ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعةُ قمر ، وكنّا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إنّ من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله و إلى رسول الله ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمسك عليك بعضَ مالك فهو خير لك " ، قلت : فإنى أُمسك سهمىَ الذى بخيبر ، وقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما نجّانى بالصدق ، وإنّ من توبتى ألا أحدّث إلّا صِدقا ما بَقِيت ، فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صِدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ ممّا أبلانى ، ما تعمّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا كذبا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى[1] ، فأنزل الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[2] .

١٣٨ / ١٥

قال كعب : فوالله ما أنعم الله علىّ من نعمةٍ قطّ بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صِدق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحىَ شرّ ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ

(١) فى كلا الأصلين : « بقيت » ؛ وما أثبتناه عن ابن هشام .

(٢) سورة التوبة ١١٧ — ١١٩

لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (١).

قال كعب : وكنا تخلفنا — أيها الثلاثة — عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا (٢) فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال : ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾. ٥

وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفْنا تخلُّفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

انتهت غزوة تبوك، فلنذكر ماسواها من السرايا .

ذكر سرّية خالد بن الوليد إلى بنى عبد المَدان بنَجْران

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فى شهر ربيع الأوّل سنة عشر من ١٠ مهاجَره، ولم يذكر من خبر هذه السرية غير هذا فنذكره .

ذكر سرّية على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى اليمن

يقال : بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : إحداهما فى شهر رمضان سنة عشر من مهاجَره صلى الله عليه وسلم، وعقد له لواءً، وعمّمه بيده، وقال : "امض لا تلتفت، فاذا نزلتَ بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك"، فخرج ١٥ فى ثلثمائة فارس، وكانت أوّل خيل دخلت إلى تلك البلاد، وهى بلاد مَذحِج، ففرق أصحابه، فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونَعَم وشاء وغير ذلك، وجعل على الغنائم بُريدة بن الحُصَيب الأسلمىّ، فجمع إليه ما أصابوا، ثم لقى جمعهم

(١) سورة التوبة ٩٥ — ٩٦

(٢) عبارة ابن هشام جـ ٤ : ١٨١ : « حين حلفوا له فعذرهم » . ٢٠

فدعاهم إلى الإسلام، فأبَوْا ورموا بالنّبل ، ثم حمل عليهم عليٌّ رضى الله عنه بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا ، فتفرقـوا وآنهزموا ، فكفّ عن طلبهم ، ثم دعاهم إلى الإسـلام ، فأسرعوا وأجابوا ، و بايعه نفر من رؤسائهم على الإسـلام، وقالوا : نحن على مَنْ وراءنا من قومِنا ، وهذه صدقاتنا نخذ منها حقّ الله، وجمع عليّ الغنائم فخمّسها، وقَسَم على أصحابه بقية المغنم ، ثم قفل، فوافى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة حين قدِمها للحج سنة عشرٍ . حكاه آبن سعد[1] .

وقال محمـد بن إسحاق ، لمـا رجع عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه من اليمن إلى مكة، دخل على فاطمة بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فوجدها قد حَلّت فقال : مالَكِ يابنت رسولِ الله ؟[2] قالت : أمرنا رسـولُ الله صلى الله عليه وسلم أن نحِلّ بعُمرة فحللنا ، ثم أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم ، فلما فرغ من الخبر عن سفره، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انطلِق فطُفْ بالبيت وحلّ كما حلّ أصحابك " قال : يارسول الله، إنى أهللتُ بمـا أهللتَ، قال: " فآرجِع فآحلل كما حلّ أصحابك " قال : يا رسـول الله ، إنّى قلت حين أحرمت : اللهم إنى أهِلّ بما أهلّ به نبيّك وعبدُك ورسولُك محمد، قال : "فهل معك مِن هَدْى"؟ قال : لا، فأشركه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى هَـدْيِه ، وثبت على إحرامه مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغا من الحجّ، ونحر رسول الله صلى الله عليه وسلم الهَدْى .

١٣٩/١٥ قال : ولمـا أقبل عليّ من اليمن تعجّل إلى رسول آلله، وآستخلف على جندِه الذين معـه رجلا من أصحابه ، فعمد ذلك الرجلُ فكسا كلّ رجل من القوم حُلّة من البزّ الذى كان مع عليّ ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم، فإذا عليهم الحلل، قال :

(١) القسم الأوّل من الجزء الثانى : ١٢٢

(٢) يعنى أنه أنكر عليها ما فعلت .

ويلك ما هـذا ؟ قال : كسوت القـوم ليتجمّلوا إذا قدِموا فى النـاس ؛ قال : انزعها ويلك ! قبل أن تنتهى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فانتزع الحلل من الناس فردّها فى البزّ ، فاشـتكى الناس عليًّا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا ، فقال : " أيها الناس ، لا تشتكوا عليًّا ، فوالله إنه لأخشن فى ذات الله " أو " فى سبيل الله "[1] .

ذكر سريّة أسامة بن زيد بن حارثة إلى أرض الشّراة[2] ناحية البَلْقاء

وهذه السريّة هى آخر سريّة جهّزها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات قبل إنفاذِها ، وكانت لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من هجرة رسـولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيها أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ، وسعد بن أبى وقّاص ، وسعيد بن زيد ، وقَتادة بن النعمان ، وسَلْم بن أسلم بن حَريش ، فتكلم قوم وقالوا : نستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، فخرج وقد عصب على رأسه عِصابة وعليه قطيفة ، فصعد المِنبر ، فحمِد الله وأثنى عليـه ، ثم قال : " أما بعد أيها الناس ، فمـا مقالةٌ بلغتْـنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة ؟ ولئن طعنتم فى إمارتى أسامة لقـد طعنتم فى إمارتى أباه من قبـله ، وأيم الله إن كان للإمارة لخليقا ، وإنّ ابنه من بعـده لخليق للإمارة وإن كان لمِن أحبِّ الناس إلىّ ، وإنهما لمخيـلان لكلّ خير ، فاستوصوا به خيرا ، فإنه من خياركم " ، ثم نزل فدخل بيته ، وذلك يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأوّل ، وخرج الناس إلى الجُرْف ، فتوفّى رسول الله صلى

(١) فى ابن هشام ٤ : ٢٥٠ : « فى سبيل الله من أن يشتكى » .
(٢) الشراة : شراة الشام ، وهى أرض معروفة ، وبها الكهف والرقيم . (ياقوت) .

الله عليه وسلم قبل خروج هـذه السرّية ، فلما وُلّى أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، كان أوّل ما بدأ به بعث أسامة .

هـذا ما أمكن إيراده من غَزَوات رسـولِ الله صلى الله عليه وسلم وسراياه . فلنذكر حجّه وعُمَره صلى الله عليه وسلم .

ذكر حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعُمَرِه

قالوا : حج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة حجّتين ، ولم يحجّ بعد الهجرة إلّا حجّـة الوداع ، وهى فى السنة العاشرة ، وكانت فريضـة الحجّ نزلت فى السنة السادسة من الهجرة ، وفتحتْ مكّة فى سنة ثمان ، فٱستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عتّابَ بنَ أَسِيد ، فحج بالناس تلك السنة ، وفى السنة التاسعة حج أبو بكر الصّدّيق رضوان الله عليه بالناس كما قدّمنا ذِكر ذلك فى مواضعه ، فلما كان فى السنة العاشرة أذّن فى الناس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجّ ، فقدم المدينة بَشَرٌ كثير كلُّهم يلتمس أن يأتمّ برسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، ويعملَ مِثل عمله ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة مغتسِلا مدّهنا مترجّلا متجرّدا فى ثوبين صُحارِيّين : إزارٌ ورداء ، وذلك يوم السبت لخمسٍ ليالٍ بَقِين من ذى القعدة سنة عشرٍ من مهاجرِه ، وٱستَعمل على المدينة أبا دُجانة الساعدىّ — ويقال : سِباع ابن عُرفُطة الغِفارىّ — قالوا : وصلى الظهر بذى الحُلَيفة ركعتين ، وأخرج معه نساءه كلهنّ فى الهوادج ، وأشعر هديه وقلّده ، ثم ركب ناقته ، فلما ٱستوى عليها بالبيداء أحرم من يومه ، وكان على هديه ناجية بن جُندب ، وقيل : إنه أهلّ بالحج مفردا ، وقيل : قَرَنَه بعُمرة ، ومضى صلى الله عليه وسلم يسير المنازل ويؤمّ أصحابَه فى الصلاة فى مساجدَ له قد بناها الناس ، فكان يوم الاثنين بمَـرِّ الظَّهْران ، فغربت له الشمس بسَرِف ، ثم أصبح فٱغتسل ودخل مكة نهارا وهو على راحلته القَصْواء ، وكان تحته

١٤٠
١٥

صلى الله عليه وسلم رحْل رثّ عليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم، وقال: "اللهم اجعله حجًّا لا رِيَاءَ فيه ولا سُمْعة"، فدخل من أعلى مكة من كَداء حتى انتهى إلى باب بنى شَيبة، فلما رأى البيت رفع يديه فقال: "اللهم زِد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة، وزِدْ مَن شَرَّفَه وعظَّمَه ممّن حجّه واعتمره تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وبِرًّا"؛ ثم بدأ فطاف بالبيت، وَرمَل[1] ثلاثةَ أشواط من الحِجر إلى الحِجر، وهو مضطبِع[2] بردائه، ثم صلى خلف المقام ركعتين، ثم سعى بين الصفا والمروة على راحلته من فَوْرِه ذلك، وكان قد اضطرب بالأبطح، فرجع إلى منزله، فلما كان قبل يوم التروية بيومٍ خطب بمكة بعد الظهر، ثم خرج يوم التروية إلى مِنًى، فبات بها، ثم غدا إلى عرفات، فوقف بالهضاب منها، وقال: "كلُّ عرفةٍ [موقفٌ إلّا بطن عُرَنَة][3]"، فوقف على راحلته يدعو، فلما غربت الشمس دفع فجعل يسير العنق[4] حتى جاء المزدلِفة، فنزل قريبا من الغارِ، فصلى المغرب والعِشاء بأذان وإقامتين، ثم بات بها، فلما برق الفجر صلّى الصبح، ثم ركب راحلته، فوقف على قُزَح[5] وقال: "كلّ المزدلِفة موقِفٌ إلّا بطنَ محسِّر[6]"، ثم دفع قبل طلوع الشمس، فلما بلغ إلى محسر أوضع[7]، ولم يزل يلبّي حتى رَمى جَمرة العَقَبة، ثم نحر الهَدْى وحَلَق رأسه، وأخذ من شارِبِه وعارِضَيه، وقلم أظفاره، وأمر بشَعره وأظفاره أن تُدفن، ثم أصاب الطِّيبَ، ولبس القميص، ونادى مناديه بمِنًى: إنها أيّام أكلٍ وشرب وباءة، وجعل يرمى الجِمار فى كلّ يوم عند زوال الشمس، ثم خطب الغد من يوم النّحر بعد الظهر

(١) رمل: هرول. (٢) اضطبع بردائه: أدخله تحت إبطه الأيمن ورد طرفه على يساره وأبدى منكبه الأيمن وغطى الأيسر. (٣) الزيادة عن ابن سعد جـ ٢: ١٢٥

(٤) العنق بالتحريك: ضرب من السير. (٥) قزح كعمر: جبل بالمزدلفة.

(٦) بطن محسر: واد بالمزدلفة. (٧) من الوضع محركة، وهو أهون سير الدواب.

على ناقته القَصْواء ، ثم صَدَر يومَ الصَّدَر الآخر، وقال : "إنما هنّ ثلاث يقيمهنّ المهاجر بعد الصَّدَر"، يعنى بمكة، ثم ودّع البيت، ثم انصرف راجعا إلى المدينة .

ذكر الخُطْبة التى خطبها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

قال محمد بن إسحاق : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبته التى بيّن فيها مابيّن، فحمِد الله وأثنَى عليه، ثم قال :

"أيها الناس، اِسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تَلْقَوا ربّكم كَحُرْمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقَون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغتُ، فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، وإنّ كلّ رِبًا موضوع ، وإن لكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون ، قضى الله أنه لا رِبا، وأن رِبا العبّاس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كلّ دمٍ فى الجاهليّة موضوع، وأن أوّل دمائكم أَضَعُ دمَ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضَعا فى بنى ليث، فقتلتْه هُذَيل — فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهلية" .

"أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنّه إن يُطَع فيما سوى ذلك فقد رضىَ به ، ممّا تَحقِرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم" .

"أيها الناس، إن النَّسِىءَ زيادةٌ فى الكفر يُضَلّ به الّذين كفروا يُحِلّونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطِئوا عِدة ما حرم الله فيُحِلّوا ما حَرّم الله ويحرّموا ما أحلّ الله ، وإن الزمان قد اسْتدار كهيئته يومَ خَلَق الله السّموات والأرض ، وإنّ عدّة الشهور عِند الله اثنا عشَرَ شَهْرا منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثةٌ متواليةٌ، ورجب مُضَر الّذى بين جُمادَى وشعبان" .

" اما بعد أيّها الناس، فإن لكم على نسائكم حقًّا، ولهنّ عليكم حقّا، عليهنّ أن لا يوطئن فُرُشكم أحدا تكرهونه، وعليهنّ ألّا يأتين بفاحشةٍ مبيّنة، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تهجروهنّ فى المضاجع، وتضربوهنّ ضربا غيرَ مبرّح، فإن آنتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وآستوصوا بالنساء خيرا، فإنهنّ عندكم عَوان، لا يملكن لأنفسهنّ شيئا، وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله، وآستحللتم فروجهنّ بكلمات الله، فآعقلوا أيها الناس قولى، فإنّى قد بلّغتُ، وقد تركت فيكم ما إن آعتصمتم به فلن تضلّوا أبدا، أمرًا بيّنًا: كتاب الله وسنّة نبيّه ".

١٤١/١٥

" أيّها الناس، اسمعوا قولى وآعقلوه، تعلّمن أن كلّ مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لآمرئ من أخيه إلّا ما أعطاه عن طِيب نفس، فلا تظلِمُنّ أنفسكم، اللهم هل بلّغتُ "، فقال الناس: اللهم نعم، فقال: " اللّهم آشهد ".

وقال آبن إسحاق أيضا: حدّثنى يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عبّاد، قال: كان الرجل الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة ربيعةُ بنُ أميّة بن خلف. قال: يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قل يأيّها الناس إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول: هل تدرون أىّ شهر هذا؟ فيقوله لهم، فيقولون: الشهر الحرام، فيقول لهم: " إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقَوْا ربّكم كحرمة شهركم هذا"، ثم يقول: " قل يأيّها الناس، إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول هل تدرون أىّ بلد هذا"؟ قال: فيصرخ به، قال: فيقولون: البلد الحرام، قال: فيقول: " قل لهم: إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا"، ثم يقول: " قل يأيّها الناس، إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول هل تدرون أىّ يوم هذا"؟

فيقولون : يوم الحجّ الأكبر ؛ قال : فيقول : "قل لهم : إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا" .

وعن عمرو بن خارجة قال : بعثني عتّاب بن أَسِيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة ، فبلغته ، ثم وقفت تحت ناقةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وإنّ لُغامها (١) ليقع على رأسى ، فسمعته وهو يقول : "أيها الناس ؛ إن الله قد أدى إلى كل ذى حقّ حقّه ، وإنه لا تجوز وصيّة لوارث ، والولد للفِراش ، وللعاهِر الحَجَر ، ومن ٱدّعى إلى غير أبيه ، أو تولّى غيرَ مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناسِ أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرفا ولا عَدلا" .

وأمّا عُمَرُه صلّى الله عليه وسلّم

فقد رَوَى عِكرمة عن ٱبن عباس رضى الله عنهما ، قال : اعتمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعَ عُمر : عُمرة الحديبية ، وهى عُمرة الحصر ، وعُمرة القضاء مِن قابِل ، وعُمرة الجِعرانة ، والرابعة التى مع حجّته .

وعن قتادة ، قلت لأنس بن مالك : كم ٱعتمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؟ قال : أربعا ، عَدّ منها عُمرته مع حجّته ، وقد قدّمنا ذكر عُمرة الحديبية مع الغزوات ، وَذَكرْنا عمرَة الجِعرّانة عند ذكرنا لقسم مغانم حُنين ، وعُمرته مع حجّته قد ٱختلف فيها .

وأمّا عُمرة القضاء

فقد أوردها بعض أهل السِّيَر فى الغزوات ، وترجَم عليها : « عُمرة القضيّة » ، وحُجّة من أوردها فى الغزوات أنه صلى الله عليه وسلم خرج معه السلاح ، ولم يخرج به

(١) لغم الجمل : رمى بلغامه أى زبده .

صلى الله عليه وسلم لقصد الغزاة ، وإنما خرج به آحتياطا . وكان من خبر هذه العمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما آستهل هلال ذى القعدة سنة سبع من مهاجَره أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التى صدّهم المشركون عنها بالحديبية ، وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ؛ فلم يتخلف منها إلا من مات أو قتل بخيبر ، وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من المسلمين عُمّارا ممن لم يشهد الحديبية ، فكانوا فى عُمرة القضيّة ألفين ، وآستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا ذَر الغِفارىّ ، حكاه ابن سعد — وقال ابن إسحاق : عويف بن الأضبط الدِّيلىّ — وساق صلى الله عليه وسلم ستّين بَدَنة ، وجعل على هَدْيِه ناجيةَ بنَ جُنْدب الأسلمىّ . ١٤٢/١٥

قال آبن سعد : وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم السلاحَ والبيض والدُّروع والرماح ، وقاد مائة فرس ، فلما آنتهى إلى ذى الحُلَيفة ، قدّم الخيل أمامه ، عليها محمد بن مسلمة ، وقدم السلاح ، وآستعمل عليه بشير بن سعد ، وأحرم صلى الله عليه وسلم من باب المسجد ، ولبّى والمسلمون معه يلبّون . ومضى محمد بن مسلمة فى الخيل إلى مَرِّ الظَّهْران فوجد بها نفرا من قريش ، فسألوه ، فقال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصبِّح هذا المنزل غدا إن شاء الله ، فأتوا قريشا بالخبر ، ففزعوا ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرّ الظهران ، وقدّم السلاح إلى بطن يأجُج حيث [ينظر](١) إلى أنصاب الحَرَم ، وخلّف عليه أوسَ بن خَوْلىّ الأنصارى فى مائتى رجل ، وخرجت قريش من مكة إلى رءوس الجبال ، فقدّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الهَدْىَ أمامه ، فحُبِس بذى طُوًى ، وخرج على راحلته القصواء

(١) التكملة عن الزرقانى ٢ : ٣٠٥ وابن كثير ٤ : ٢٣١

والمسلمون متوشّحون السيوفَ ، محدِقون به صلّى الله عليه وسلّم يلبّون ، فدخل على الثنية التى تُطلِعه على الحَجون ، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يقول :

خلّوا بنِي الكفّار عن سبيلِهِ * خلّوا فكلّ الخير فى رسولِهِ
يا ربِّ إنّى مؤمنٌ بقِيلِهِ * أعرفُ حقَّ الله فى قبولِهِ
نحن قتلناكمْ[1] على تأويلِهِ * كما قتلناكمْ على تنزيلِهِ
ضربا يزيل الهامَ عن مَقيلِهِ * ويُذهل الخليلَ عن خليلِهِ

قال ابن هشام : قوله « نحن قتلناكمْ على تأويله » إلى آخر الأبيات ، لعمّار بن ياسر فى غير هذا اليوم .

قال ابن سعد : ولما ارتجز ابنُ رَواحة قال له عمر بن الخطّاب : إيهًا[2] يابن رَواحة! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ياعمر، إنى أسمع"؛ فأسكتَ عمر، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : "إيهًا[2] يابن رواحة! ، قل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده" ، فقالها ابنُ رواحة . ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبى حتى استلم الركنَ بمِحْجَنه مُضْطَبعا بثوبه ، وطاف على راحلته ، والمسلمون يطوفون معه وقد اضطبعوا بثيابهم ، ثم طاف بين الصفا والمروة على راحلته ، فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهَدْىُ عند المروة قال : "هذا المَنْحر، وكلّ فِجَاج مكّة مَنحَر" ، فنحر عند المروة ، وحلق هناك ، وكذلك فعل المسلمون ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج فيقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضوا نُسكَهم ؛ ففعلوا ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثا . وتزوج ميمونةَ بنت الحارث الهلاليّة ، فلما كان عند الظهر من اليوم الرابع أتاه سُهَيل بن عمرو وحُوَيْطب بنُ عبد العزّى

(١) فى ج : « ضربناكم » . (٢) إيها : كلمة استزادة واستنطاق .

فقالا : قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا ، فأمر أبا رافع فنادى بالرحيل وقال : لا يمسين بها أحد من المسلمين ، وأخرج عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب من مكة ، وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل سرف وتتام الناس إليه ، وأقام أبو رافع بمكة حتى أمسى ، فحمل إليه ميمونة ، فبنى عليها صلى الله عليه وسلم بسرف ، ثم أدلج فسار حتى قدم المدينة ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

* * *

كمل الجزء السابع عشر من كتاب " نهاية الأرب فى فنون الأدب " للنويرى رحمه الله . ويليه الجزء الثامن عشر وأوله : (وفادات العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

[صورة ما جاء فى آخر هذا الجزء بنسخة ا]

« كمل الجزء الخامس عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للإمام النويرى رحمه الله، وكان الفراغ منه يوم الاثنين المبارك سلخ جمادى الأولى من شهور سنة سبع وستين وتسعمائة ، وذلك على يد كاتبه نور الدين بن شرف الدين العاملىّ بلدا، الشافعىّ مذهبا ، غفر الله له ذنوبه ، وستر عيوبه ، ولمن يدعو له بالمغفرة والرحمة ولوالديه . آمين » .

[صورة ما جاء فى آخر هذا الجزء أيضا بنسخة جـ]

« كمل الجزء الخامس عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويرى عفا الله عنهم ، ووافق الفراغ من كتابته فى يوم الاثنين المبارك لسبع خلون من شهر رمضان المعظم عام اثنين وعشرين وسبعمائة أحسن الله تقضّيها بالقاهرة المعزّية . يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء السادس عشر : ذكر وفادات العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فهـــرس المـــراجع

الاستيعاب لابن عبد البر ، حيدرآباد ١٣١٨

أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، الوهبية ١٢٨٠

الإصابة فى تمييز الصحابة ، الشرفية بمصر ١٣٢٥

الأغانى ، طبع بولاق ١٢٨٥

الأغانى ، طبع دار الكتب المصرية .

الإكمال لابن ماكولا ، مخطوطة دار الكتب ١٧ مصطلح حديث

إمتاع الأسماع للمقريزى ، طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٤١

البداية والنهاية لابن كثير ، السعادة بمصر ١٣٥١

تاريخ ابن الأثير ، ليدن ١٨٩٥

تاريخ الطبرى ، ليدن ١٨٨٩ م .

تفسير الطبرى ، بولاق ١٣٣٠

تفسير القرطبي ، طبع دار الكتب المصرية .

دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوطة دار الكتب رقم ٢١٢ حديث

ديوان الأعشين ، بيانه ١٩٢٧ .

ديوان حسان بن ثابت ، الرحمانية ١٣٤٧

ديوان الحماسة ، طبع بن ١٨٣٨ م .

الروض الأنف للسهيلى ، الجمالية ١٣٣٢

السيرة النبوية لابن هشام ، طبع الحلبي ١٣٥٥

شرح السيرة لأبى ذر الخشنى ، هندية بمصر ١٣٢٩

شرح المواهب اللدنية للزرقانى ، بولاق ١٢٧٨

صحيح البخارى ، بولاق ١٢٩٦

صحيح مسلم ، بولاق ١٢٩٠

طبقات ابن سعد ، ليدن ١٣٢٢

الكشف والبيان للثعلبي ، مخطوطة دار الكتب برقى ٢٥٦ ، ٧٩٧ تفسير .

عيون الأثر ، القدسى ١٣٥٦

معجم البلدان ، جوتنجن ١٨٩٩ م .

معجم ما آستعجم للبكرى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٥ م .

مغازى الواقدى ، كلكتا ١٨٥٥م .

استدراك

ورد فى صفحة ٥٣ سطر ٦ البيت الآتى كما فى الأصلين :

ولسنا على الأدبار تدمَى كلومُنَا ولكن على أعقابِنَا تقطرُ الدَّما

وصوابه هكذا :

فلسْنَا على الأعقابِ تدمَى كلومُنا ولكن على أقدامنا تقطرُ الدَّما

وهو للحُصَين بن الحُمام المُرّى من قصيدة له أولها :

تأخّرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

يقول : نحن لا نولّى فنجرح فى ظهورنا فتقطر دماؤنا على أعقابنا ؛ ولكن نستقبل السيوف بوجوهنا ؛ فإن إصابتنا جراح قطرت دماؤنا على أقدامنا . انظر لسان العرب (مادة دمى)، والحماسة للتبريزى ص ٩٣، والشعر والشعراء ص ٦٣٠

ص	س	الخطـــأ	الصـــواب
٧١	٥	حُلّت	حَلّت
٨٢	١٩	بهند	هند
٨٣	٦	ويهًا دسمة	ويها أبا دسمة
٨٣	١٦	تُذَبح	تُذْبح
٨٦	١٩	حتمة	حثمة
٨٨	١٢	وَجِدْتُ	وَجَدتُ
٩٠	٤	وتواعدوه	وتوعدوه
٩٠	١٩	وقال لسان العرب	وقال صاحب لسان العرب
٩٠	١٩	هى	غير
١٠٢	٧	ويكون	وتكون
١٠٥	٢	بدَيَتَه	بديتِه
١١٢	٦	مِنَته	منّته
١١٥	٢٢	٢٤٠	٢٣٠
١٢٤	٤	يغنى	لا يغنى
١٤٠	١٣	﴿بيُوتَهم﴾	﴿بيُوتَهُمْ﴾
١٤٢	٤	﴿يُخرِبُونَ﴾	﴿يُخْرِبون﴾
١٤٣	٤	الفَسادَ	الفسادُ
١٤٤	١٠	خالصا	خالصة
١٤٧	٢١	وأبو عمرو	وأبى عمرو
١٨٨	١٥	نُخرج	نَخْرج

ص	س	الخطـــأ	الصـــواب
٢١٠	٤	عليمُ	عُليم
٢١١	٥	صلى الله الله	صلى الله
٢١٢	١١	محرش	مخرش
٢٢٠	٥	أن يحبئوا	أن يجيئوا
٢٢١	٢٠	الخلأ	الخلاء
٢٢٥	١٨	بالاثنين	بالاثنتين
٢٣٤	١٣	﴿فَتَحا﴾	﴿فَتْحًا﴾
٢٣٤	٢٠	سورة ٥	سورة « مع حذف الرقم »
٢٣٨	١٦	يا رسول	يا رسول الله
٢٤٠	١٣	﴿كَفرَوُا﴾	﴿كَفَرُوا﴾
٢٥١	١٤	تحرِّب	تحرَّبُ
٣٠٥	٤	المجنَّبة	المجنِّبة
٣٢٤	١٢	غَزِبَّة	غَزِيّة
٣٤٠	١٣	رسولَ	رسولُ
٣٥٩	١٥	الجدَّ .	الجدُّ
٣٦٣	٢	بَدرَ	بَدْرٌ

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء السابع عشر من كتاب
"نهاية الأرب فى فنون الأدب" بمطبعة دار الكتب المصرية فى شهر رمضان
سنة ١٣٧٤هـ (مايو سنة ١٩٥٥ م) م

عبد الحميد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٣/١٩٥٠/٢٠٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر السابع عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

فهرس

السفر السابع عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يتصل بذلك من الوقائع التى لم تذكر فى حوادث السنين لتعلقها بالغزوات ١

أول لواء عقده صلى الله عليه وسلم ٢

سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب إلى بطن رابغ ٢

سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار ٣

غزوة الأبواء ٤

غزوة بواط ٤

غزوة بدر الأولى ٥

غزوة ذى العشيرة ٥

سرية عبد الله بن جحش الأسدى إلى نخلة ٦

غزوة بدر الكبرى ١٠

رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب وخروج قريش إلى بدر ١١

خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين إلى بدر ١٥

قتال الملائكة مع المسلمين ٢٦

صفحة

ورود الخبر بمصاب أهل بدر على من بمكة من كفار قريش، وهلاك أبى لهب بن عبد المطلب ٣١

تسمية من شهد بدرا من المهاجرين والأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٣

تسمية من استشهد من المسلمين فى غزوة بدر ٤٤

تسمية من قتل من المشركين فى غزوة بدر ٤٤

تسمية من أسر من المشركين فى غزوة بدر ٥١

خبر أسارى بدر ، وما كان من فدائهم ، ومن منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلقه منهم، ومن أسلم بسبب ذلك ٥٤

خبر أبى سفيان فى أسر ابنه عمرو وإطلاقه ٥٦

خبر أبى العاص بن الربيع فى فدائه، وإرساله زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وإسلامه بعد ذلك ٥٧

خبر الوليد بن الوليد بن المغيرة ٦١

مَنْ منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسارى بدر وأطلقه بغير فداء ٦١

خبر عمير بن وهب وإسلامه ، وإطلاق ولده وهب بن عمير ٦٢

سريّة عمير بن عدى بن خرشة الخطمى إلى عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد ٦٥

سرية سالم بن عمير العمرى إلى أبى عفك اليهودى ٦٦

غزوة بنى قينقاع ٦٧

غزوة السويق ٧٠

غزوة قرقرة الكدر ٧١

صفحة

مقتل كعب بن الأشرف اليهودى ٧٢
غزوة غطفان إلى نجد ٧٧
غزوة بنى سليم بحران ٧٩
سرية زيد بن حارثة إلى القردة ٨٠
غزوة أحد ٨١
خبر مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ١٠٠
تسمية من استشهد من المسلمين يوم أحد ١٠٤
تسمية من قتل من المشركين يوم أحد ١٠٨
ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن فى غزوة أحد،
وما ورد فى تفسير ذلك ١١١
غزوة حمراء الأسد ١٢٦
سرية أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى ١٢٧
سرية عبد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد الهذلى ١٢٨
سرية المنذر بن عمرو الساعدى إلى بئر معونة ١٣٠
سرية مرثد بن أبى مرثد الغنوى إلى الرجيع ١٣٣
غزوة بنى النضير ١٣٧
ما أنزل الله عز وجل فى بنى النضير ١٤٠
قصة برصيصا ١٤٨
غزوة بدر الموعد ١٥٤
غزوة ذات الرقاع، وخبر صلاة الخوف ١٥٨
خبر غورث بن الحارث المحاربى لما أراد أن يفتك برسول الله
صلى الله عليه وسلم ١٥٩

صفحة
خبر جابر بن عبد الله فى جمله ، واستغفار النبى صلى الله عليه وسلم لأبيه ١٦٠
غزوة دومة الجندل ١٦٢
غزوة بنى المصطلق ، وهى غزوة المريسيع ١٦٤
غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب ١٦٦
تسمية من استشهد من المسلمين فى غزوة الخندق ، ومن قتل من المشركين ١٧٨
ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن فى غزوة الخندق ، وما ورد فى تفسير ذلك ١٧٩
غزوة بنى قريظة ١٨٦
نزول بنى قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسؤال الأوس فيهم وتحكيم سعد بن معاذ وحكمه فيهم بحكم الله تعالى وقتلهم ١٩٠
سرية عبدالله بن عتيك إلى أبى رافع سلّام بن أبى الحقيق النضرى بخيبر ١٩٧
سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء ٢٠٠
غزوة بنى لحيان ٢٠٠
غزوة الغابة وهى غزوة ذى قرد ٢٠١
سرية عكاشة بن محصن الأسدى إلى الغمر ٢٠٣
سرية محمد بن مسلمة إلى بنى ثعلبة بذى القصّة ٢٠٤
سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة ٢٠٤
سرية زيد بن حارثة إلى بنى سليم بالجموم ٢٠٥
سرية زيد بن حارثة إلى العيص ٢٠٦

صفحة
سرية زيد بن حارثة إلى الطرف ٢٠٦
سرية زيد بن حارثة إلى حسمى ٢٠٧
سرية زيد بن حارثة إلى وادى القرى ٢٠٨
سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ٢٠٩
سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفدك ٢٠٩
سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة ٢١٠
سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودى بخيبر ٢١١
سرية كرز بن جابر الفهرى إلى العرنيين ٢١٣
سرية عمرو بن أميـة الضمرى وسـلمة بن أسلم إلى أبى سـفيان بن
حرب بمكة ٢١٤
غزوة الحديبيـة ٢١٧
تجمع قريش للحرب ٢١٨
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خراش بن أمية الخزاعى إلى قريش
بمكة ٢٢٦
بيعة الرضوان ٢٢٧
ذكر هدنة قريش، وما وقع فيها من الشروط ٢٢٩
رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ونزول سورة الفتح ٢٣٤
خبر أبى بصير بن أسيد بن جارية ٢٤٥
غزوة خيـبر ٢٤٨
خبر بنى سهم حين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٥٥
فتح الوطيح والسلالم من حصون خيبر ٢٥٧

صفحة

تسمية من استشهد من المسلمين فى غزوة خيبر ٢٥٩

قسم غنائم خيبر ٢٦١

تسمية من قسم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتيبة التى خرجت للخمس ، وما أعطاهم منها ٢٦٣

خبر الحجاج بن علاط وما أوصله إلى أهل مكة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استوفى أمواله ٢٦٦

انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيبر إلى وادى القرى ، ونومهم عن صلاة الصبح ٢٦٨

سرية عمر بن الخطاب إلى تربة ٢٧٠

سرية أبى بكر الصديق إلى بنى كلاب بنجد ٢٧١

سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى فدك ٢٧٢

سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة ٢٧٢

سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى يمن وجبار ٢٧٣

سرية ابن أبى العوجاء السلمى إلى بنى سليم ٢٧٤

سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح بالكديد ٢٧٤

سريته إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك ٢٧٦

سرية شجاع بن وهب الأسدى إلى بنى عامر بالسى ٢٧٦

سرية كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح ٢٧٧

سرية مؤتة... ... ... ٢٧٧

تسمية من استشهد من المسلمين يوم مؤتة ٢٨٣

سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل ٢٨٣

صفحة

سرية أبي عبيدة بن الجراح، وهي سرية الخبط ٢٨٤

سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى خضرة ٢٨٥

سريته إلى بطن إضم ٢٨٦

غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح ٢٨٧

خبر حاطب بن أبي بلتعة في كتابه إلى أهل مكة، وإعلام الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك وأخذه الكتاب، وما أنزل الله عز وجل في ذلك من القرآن ٢٩١

خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة ٢٩٦

خبر أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٩٧

مجيء العباس بأبي سفيان بن حرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإسلام أبي سفيان، وخبر الفتح ٢٩٩

دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة صلحا، ودخول خالد بن الوليد ومن معه من القبائل عنوة ٣٠٢

شعر ضرار بن الخطاب يوم الفتح ٣٠٤

مَن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم يوم فتح مكة وسبب ذلك، ومن قتل منهم، ومن نجا بإسلامه ٣٠٧

إسلام أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب ٣١٠

إسلام عبد الله بن الزبعرى وشعره في ذلك ٣١١

دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وطوافه بالبيت، ودخوله الكعبة، وما فعل بالأصنام ٣١٢

*

صفحة
سرية خالد بن الوليد إلى العزّى وهدمها ٣١٤
سرية عمرو بن العاص إلى سواع وكسره ٣١٥
سرية سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة ٣١٥
سرية خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة،
وهو يوم الغميصاء ٣١٦
خبر عبد الله بن علقمة مع حبيشة ومقتله ٣١٧
غزوة حنين إلى هوازن وثقيف ٣٢٣
سرية الطفيل بن عمرو الدوسى إلى ذى الكفّين ٣٣٥
غزوة الطائف... ... ... ٣٣٥
مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة، وقسم مغانم حنين،
وما أعطاه المؤلّفة ٣٣٩
قدوم وفد هوازن على رسول الله صلى الله عليه وسلم و إسلامهم
وردّ السبايا إليهم ٣٤١
تسمية من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرها عند
قسم مغانم حنين ٣٤٥
مقالة الأنصار فى أمر قسم الفىء، وما أجابهم به رسول الله صلى الله
عليه وسلم ٣٤٦
استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم عتّاب بن أسيد على مكة،
ورجوعه إلى المدينة ٣٤٨
سرية عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم ٣٤٨
خبر الوليد بن عقبة بن أبى معيط مع بنى المصطلق ٣٤٩
سرية قطبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم ٣٥٠

صفحة

سرية الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كلاب ٣٥٠
سرية علقمة بن مجـزّز المدلجى إلى الحبشة ٣٥١
سرية على بن أبى طالب رضى الله عنـه إلى الفلس ٣٥٢
سرية عكاشة بن محصن الأسـدى إلى الجناب ٣٥٢
غزوة تبوك ٣٥٢
سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك ٣٥٦
خبر مرور رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر وما قاله لأصحابه ... ٣٥٨
أخبـار المنافقين ، وما تكلموا به فى غزوة تبـوك ، وما أنزل الله
عز وجل فيهم من القرآن ٣٥٩
خبر الثلاثة الذين خلّفوا، وما أنزل فيهم وفى المعذّرين من الأعراب ٣٦١
سرية على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى اليمن ٣٦٨
سرية أسامة بن زيد بن حارثة إلى أرض الشراة ٣٧٠
حجّ رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وعُمَره ٣٧١
خطبته فى حجة الوداع ٣٧٣
عمرة القضاء ٣٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيق

ذكر وفادات العرب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما يتّصل بذلك

٥ كانت أكثر وفادات العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة من الهجرة ؛ ولذلك سُمّيت سنةَ الوفود . وذلك أنّ العرب إنما كانوا ينتظرون فتح مكة وإسلام هذا الحىّ من قريش ؛ فلما فتح الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة — شرفها الله تعالى — وأسلم مَنْ أسلم من قريش ، وفَدت عند ذلك وفادات العرب من كل قبيلة وجهة ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، كما قال ١٠ الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

وقد رأينا إيراد ذلك على نحو ما أوْرَده أبو عبد الله محمد بن سعد بن مَنِيع فى طبقاته الكبرى ، ونذكر ما أوْرده ابن سعد ممّن ذكرهم أبو محمد عبد الملك ابن هشام رحمه الله ، إلا أنّا نَبْدأ من ذلك بذكر مَن وَفَد على رسول الله صلى الله ١٥ عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة ، ثم نذكر مَن وَفَد عليه صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة وقبل فتح مكّة ، نقدّمهم على حسب السابقة ، ثم نذكر من عدا هؤلاء من الوفُود الذين وَفَدوا فى سنة تسعٍ ومابعدها ؛ نرتّبهم على ما رتّبهم محمد ابن سعد فى طبقاته فى التقديم والتأخير ، ونستثنى منهم من تقدّم ذكره ؛ فنقول وبالله التوفيق :

ذكر من وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكّة قبلَ الهِجْرَة

وَفَد عليه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة غِفَارٌ ، وأَزْدُ شَنُوءَةَ ، وهَمْدان ، والطُّفَيل بن عَمْرو الدَّوْسىّ ، ونصارى الحبشة .

ذكر وَفْدِ غِفار وقِصّة أبى ذَرٍّ الغِفَارىّ فى سبب إسلامه

رَوَى الشَّيخ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى رحمه الله فى كتابه المترجم بـ «دلائل النبوّة» بسنده إلى عبد الله بن الصَّامت ، قال قال أبو ذرٍّ رضى الله عنه : خرجنا عن قَوْمنا غِفار ، وكانوا يُحِلّون الشّهر الحرام ، فخرجت أنا وأخى أُنَيْس وأُمُّنا ، فانطلقنا حتى نزلنا على خالٍ لنا ذى مال وذى هيئة[1] ، فأكرمَنا وأحسن إلينا ، فحَسَدَنا قومُه ، فقالوا له : إنك إذا خرجت عن أهلك خالَف إليهم أُنَيْس ، قال : فجاء خالُنا فَنَثَا[2] علينا ما قيل له ، فقلت له : أمّا ما مضى من معروفك فقد كدّرتَه ، ولا جماع[3] لك فيما بعد . قال : فقرّبْنا صِرْمتنا[4] فاحتَمَلنا عليها [ويغطّى خالَنا ثوبُه فجعل يبكى][5] وانطلقنا حتى نزلنا بحَضْرة مكّة ، فنافَر أُنَيْسٌ عن صِرْمتنا وعن مِثْلها ، فأتينا الكاهن فخيّر[6] أُنَيْسا ، فأتانا بصِرْمتنا ومِثْلِها معها . قال أبو ذرّ : وقد صلّيْتُ يا ابن أخى قبل أن أَلْقَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين . قال ابن الصامت : فقلت لمن ؟ قال : لله . قلت : فأين تَوَجَّهُ ؟ قال : أتوجّه حيث وَجّهنى الله[7] ؛ أصلّى عِشاء

٢/١٦

(١) فى الدلائل : «هيبة» . (٢) نثا علينا : أى أظهره إلينا وحدثنا به . وفى الدلائل : «فنثالنا» . (٣) جماع : اجتماع . (٤) الصرمة : القطعة من الإبل ، واختلف فى عددها ، فقيل : هى من العشرة إلى الأربعين ، وقيل غير ذلك . (٥) الزيادة من الدلائل . (٦) فى الأصل : «فنفر أنيسا» . وفى الطبقات : «فخبر أنيسا بما هو عليه» . (٧) فى الدلائل : «يوجهنى» .

حتى إذا كان من آخر الليل أُلقِيتُ كأنى خِفَاءٌ[1] — يعنى الثوب — حتى تعلونى الشمسُ . فقال أُنَيْس : إنّ لى صاحبا[2] بمكة فاكْفِنى حتى آتيك . فانطلق أُنَيْسٌ حتى أتى مكة فراثَ[3] علىّ ، ثم أتانى فقلت : ماحبَسَك ؟ قال : لَقيتُ رجلا بمكة يزعم أن الله أرسله على دينك[4] . قال : قلت ماذا يقول الناس فيه؟ قال : يقولون إنه شاعرٌ وساحرٌ وكاهنٌ . قال : وكان أُنَيْس أحد الشُّعراء — وفى رواية عنه : والله ما سمعت بأشعر من أخى أُنَيْس — لقد ناقض اثنى عشر شاعرا فى الجاهلية أنا أحدهم . قال فقال أُنَيْس : لقد سمعتُ قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقْراء الشِّعر[5] فلم يَلْتَئِم ، وما يلتئم والله على لسان أَحَد بعدى أنه شِعْرٌ ، ووالله إنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون . قال : قلت له هل أنت كافىّ حتى أنطلق فأنظر ؟ فقال : نعم! وكُنْ من أهل مكة على حَذَر ، فإنهم قد شَنِفُوا[6] له وتجهّموا . فانطلقت حتى قدمت مكة ، فتضَعَّفْتُ[7] رجلا منهم فقلت : أين هذا الذى تدعونه الصابئ ؟ قال : فأشار إلىّ ، الصابئ[8] ! فمال علىّ أهل الوادى بكل مَدَرة وعَظْم حتى خَرَرتُ مغشيا علىّ . قال : فارتفعت حين ارتفعت كأنّى نُصُبٌ[9] أحمر ، فأتيت زَمْزَم فشربت من مائها ، وغسلت عنّى الدّم ، ودخلت بين الكعبة وأستارها ، ولقد لبثت يابن أخى ثلاثين من بَيْن ليلة ويوم ومالى طعام إلا ماء زمزم ، فسمِنْتُ حتى تكسّرت عُكَنُ بطنى ، وما وجدت على كَبدى سُخْفَةَ[10] جوع . قال : فبينما أهل مكة فى ليلة

(١) الخفاء (بالكسر) : يعنى الكساء وكل شىء غطيت به شيئا فهو خفاء ، وقد فسره المؤلف .

(٢) فى الدلائل والطبقات : إن لى حاجة . الخ . (٣) راث : أبطأ . (٤) فى الدلائل : «على دينه» ؛ أى على دين الله . (٥) أقراء الشعر : طرقه وأنواعه . (٦) شنف له كفرح : أبغضه وتنكره . وتجهم له : استقبله بغلظة ووجه كريه . (٧) تضعفت : استضعفت .

(٨) فى الطبقات : «هذا الصابئ» . (٩) النصب : الصنم ؛ والمعنى أنهم ضربوه حتى أدموه فصار كالنصب المحمر بدم الذبائح . (١٠) سخفة الجوع : رقته وهزاله .

قمراءَ إضْحيان[1]، قد ضرب الله على أَضْبِخَة أهل مكة فما يطوف بالبيت أحدٌ غير امرأتين وهما تدعوان إسافًا ونائلةَ[2]، فأتتا عليّ فى طوافهما فقلتُ: أنكحا إحداهما الأخرى، فما ثناهما ذلك عما قالتا[3]. فأتتا عليّ فقلتُ: هَنٌ مثل الخشبة غيرَ أنى لا أُكْنِى، فانطلقتا تُوَلْوِلانِ وتقولان: لو كان هاهنا أحدٌ من أنفارنا! قال: فاستقبلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وهما هابطان من الجبل، فقال لهما: مالكما؟ قالتا: الصّابئ بين الكعبة وأستارها. قالا: ما قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمةً تملأ الفَمَ. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه [فاستلم الحجر ثم طاف بالبيت هو وصاحبه][4] ثم صلّى، فلما قضى صلاته قال أبو ذرّ: فأتيته فكنتُ أوّل من حيّاه بتحيّة الإسلام؛ فقال: «وعليك ورحمة الله»، ثم قال: «ممن أنت»؟ قلتُ: من غِفَار، قال: فأهوى بيده فوضع يده على جبينه، فقلت فى نفسى: كره أنى انتميت إلى غِفَار، قال: فأهْوَيْت لآخذ بيده، فقَدَعنى[5] صاحبُه وكان أعلم به منّى، ثم رفع رأسه فقال: «متى كنت هاهنا»؟ قلت: منذ ثلاثين من ليلة ويوم[6]، قال: «فمن كان يطعمك»؟ قلت: ما كان لى من طعام إلا ماء زمزم، فسَمِنْت حتى تكسّرت عُكَنُ بطنى، وماوجدت على كبدى سُخْفَةَ جوع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنها مباركةٌ، إنها طعامُ طُعْمٍ[7]، وشفاء سُقْم» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إيذن لى فى إطعامه الليلة، ففعل، فانطلق رسول الله

(١) أضحيان: مضيئة مقمرة. يقال: ليلة إضحيان وإضحيانة؛ والألف والنون زائدتان.

(٢) إساف ونائلة: صنمان. (٣) فى الأصول: «قالا». وفى الطبقات: «عن قولهما».

(٤) الزيادة من الدلائل. (٥) قدعنى: منعنى. وفى ابن الأثير فذهبت أقبل بين عينيه فقدعنى بعض أصحابه. (٦) فى الدلائل: قد كنت ها هنا منذ ثلاثين ليلة ويوم. وفى الطبقات: من بين ليلة ويوم. (٧) طعام طعم: أى يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام.

صلى الله عليه وسلّم وأبو بكر، وآنطلقت معهما حتى فتح أبو بكر بابه، فجعل يقبض لنا من زبيب الطّائف، فكان ذاك أوّل طعام أكلته بها، قال : فغبرتُ[1] ما غبرتُ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنى وُجِّهتُ إلى أرض ذات نخلٍ لا أحسبها إلا يَثْرِبَ، فهل أنت مبلغ عنّى قومَك لعل الله أن ينفعهم بك، ويأجرك فيهم» ؛ قال : فآنطلقت حتى أتيت أخى أُنَيْسًا فقال لى : ماصنعت ؟ قلت : أسْلَمْتُ وصدّقتُ، قال : فما بى رغبةٌ عن دينك، فإنى قد أسلمت وصدّقت . ثم أتينا أُمّنا، فقالت : مابى رغبة عن دينكما، فإنى قد أسلمت وصدقت، قال : ثم آحتملنا حتى أتينا قومنا غِفارا، فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان يؤمّهم خُفافُ بن إيماء ابن رَحَضَة الغِفارىّ[2]، وكان سيّدهم يومئذ، وقال بقيتُهم : إذا قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمنا؛ فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأسلم بقيّتهم؛ وجاءت أَسْلَمُ، فقالوا : يا رسول الله ! إخواننا[3]؛ نُسْلِم على الذى أسلموا عليه . فأسلموا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «غِفار غَفَر الله لها وأَسْلَمُ سالمها الله» .

٣/١٦

وهذه الرواية فى خبر إسلام أبى ذرّ؛ قد روى مسلم فى صحيحه نحوها، وهى تخالف رواية البخارىّ .

وروى البيهقىّ عن أبى ذَرٍّ قال : كنت رُبُع[4] الإسلام، أسلم قبلى ثلاثةُ نفر وأنا الرابع؛ أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : السلام عليك يا رسول الله، أشهد

(١) غبرت ما غبرت : أى مكثت ما مكثت .

(٢) فى أسد الغابة : كان أبوه سيد غفار وكان هو إمام بنى غفار . وفى التاج : خفاف كغراب، وأبوه إيماء بكسر الهمزة والمد وفتحها والقصر، ورحضة قيل محركة ويقال بالضم ويقال بالفتح .

(٣) أى غفار .

(٤) ربع : بضم الباء وإسكانها بمعنى رابع .

أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا عبده ورسوله ، فرأيت الاستبشار فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو عمر بن عبد البر بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما، قال : لما بلغ أبا ذر مَبْعَثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قال لأخيه أُنَيْس : اركب إلى هذا الوادى ، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم ائتنى؛ فانطلق حتى قدم مكة وسمع من قوله ثم رجع، فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وسمعت منه كلاما ماهو بالشعر . قال : ما شَفَيْتنى فيما أردت ، فتزوّد وحمل شَنَّة له فيها ماءٌ حتى قدم مكة فأتى المسجد، فالتمس النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه علىّ بن أبى طالب ؛ فقال : كأنّ الرجل غريبٌ ، قال : نعم ، قال انطلق إلى المنزل ، قال : فانطلقت معه لايسألنى عن شىء ولا أسأله ، فلما أصبحت من الغد رجعت إلى المسجد ، وبقيتُ يومى حتى أمسيتُ وصرت إلى مَضْجَعى ، فمرّ بى علىّ بن أبى طالب، فقال : أما آن للرجل أن يعرف منزله ؟ فأقامه وذهب به معه ، وما يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شىء ، حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك، فأقامه علىٌّ معه، ثم قال : ألا تحدّثنى ما الذى أقدمك هذا البلد؟ قال : إن أعطيتنى عَهْدا وميثاقا لَتُرشِدنى فعلْتُ؛ ففعل؛ فأخبره علىّ أنه نَبِيٌّ، وأنّ ماجاء به حَقٌّ، وأنّه رسول الله ، قال : فإذا أصبحتَ فاتّبعنى، فإنى إن رأيتُ شيئا أخاف عليك قُمْتُ كأنّى أُرِيق الماء ، فإن مَضيتُ فاتبعنى حتى تدخل مَدْخَلى ، قال : فانطلقت أَقْفُوه حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلت معه وحييت رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحيّة الإسلام ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله! فكنت أوّل من حياه بتحية الإسلام، فقال : "وعليك السلام، من

أنت"؟ قلت: رجل من غِفار، فعرض علىّ الإسلام، فأسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ارجع إلى بلاد قومك، وأخبرهم، وأكتُم أمرَك عن أهل مكة، فإنى أخشاهم عليك"، فقلت: والذى نفسى بيده لأصرخنّ بها بين أظهرهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فثاب[1] القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباسُ فأكَبَّ عليه وقال: ويلكم! أولستم تعلمون أنه من غِفار، وأنّ طريق تجاركم إلى الشام عليهم! وأنقذه منهم، ثم عاد إلى مثلها، وثاروا[2] إليه فضربوه، فأكب عليه العباسُ فأنقذه، ثم لَحِق بقومه. وكان هذا أول إسلام أبى ذرّ.

ومن رواية اللّيث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب قال: قدم أبو ذرّ على النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فأَسْلَمَ، ثم رجع إلى قومه، فكان يسخر بآلهتهم، ثم إنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فلمّا رآه وَهِم فى آسمه، فقال: «أنت أبو نَمْلة»؟ قال: أنا أبو ذرّ، قال: «نَعَم أبو ذرّ».

ذكر وفدِ أزدِ شَنُوءَةَ وكيف كان إسْلامُ ضِمادٍ

٤/١٦ روى أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقىّ — رحمه الله — بسنده إلى سعيد بن جُبَير عن آبن عباس رضى الله عنهم، قال: قدم ضِمَاد[3] مكة، وهو رجلٌ من أَزْدِ شَنُوءة، وكان يَرْقِى من هذه الرياح، فسمع سُفهاءَ الناس[4] يقولون: إنّ محمدا

(١) ثاب: أى أقبل. ولعلها «ثار» كقوله بعد «ثاروا». (٢) ثار إلى الشر: نهض. (٣) ضماد ككتاب ابن ثعلبة الأزدى، قال فى أسد الغابة: كان صديقا للنبى صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية، وكان يتطبب ويرقى ويطلب العلم، أسلم أول الإسلام. ويروى ضمام بالميم.

(٤) فى الدلائل: «فسمع سفهاء من سفهاء الناس».

مجنونٌ ، فقال : آتى هـذا الرجل لعـل الله أن يَشْفيه على يدىّ ، قال : فلقيت محمدا ، فقلت : إنى أَرْقِى من هـذه الرياح ، وإن الله يَشْفى على يدى من يشاء ، فهَلُمّ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الحمـد لله نحمده ونستعينه ، مَن يهده الله فلا مضـلّ له ، ومَن يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » ثلاث مرات ، فقال : تالله لقد سمعت قول الكَهَنَة ، وقول السَّحَرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فهلمّ يَدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : « وعلى قومك » ؟ فقال : وعلى قومى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرِيّة فمرّوا بقوم ضِماد ، فقال صاحب الجيش للسريّة : هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟ فقال رجل منهم : مِطْهَرة[1] ، فقال : « ردّوها عليهم فإنهم قوم ضِماد » . رواه مسلم فى صحيحه .

وروى القاضى عِياض بن موسى فى كتابه المترجَم بـ (الشّفا ، بتعريف حقوق المصطفى) : أن ضِمادا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أعِدْ علىّ كلماتك هؤلاء فلقد بَلَغْن قَامُوسَ البحر[2] ، هات يديك أبايعك .

ذكر وفـد هَمْـدان

قال محمد بن سعد رحمه الله تعالى : أخبرنا هشام بن محمد ، قال : حدثنا حِبّان ابن هانِئ بن مسـلم بن قَيْس بن عمرو بن مالك بن لَأْيٍ الهَمْدانىّ ثم الأَرْحَبِىّ[3] عن أشياخهم ، قالوا : قدِم قيسُ بن مالك بن سعد[4] بن مالك بن لَأْيٍ الأَرْحَبِىّ على رسول

(١) المطهرة بالكسر والفتح : إناء يتطهر به ويتوضأ مثل سطل أوركوة ، والمطهرة الأداوة . وزاد فى الدلائل : « أصبت منهم » . (٢) قاموس البحر : قعره . (٣) أرحب : بطن من همدان . قيس بن مالك كاتبه النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم بعد أن كتب إليه . وكتابه صلى الله عليه وسلم إليه مذكور فى أسد الغابة وغيره . (٤) فى نسخة أ : سعد بن سعيد بن مالك ، وفى نسخة جـ : سعد بن منقذ بن مالك ؛ وليس بصحيح ، وإنما هو سعد بن مالك كما فى ابن سعد وغيره .

الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة، فقال: يارسول الله أتيتُك لأومِنَ بك وأنصُرَك؛ فقال له: «مَرحبًا بك، أتأخذونى بما فىّ يامعشر هَمْدان»؟ قال: نعم؛ بأبى أنت وأمّى، قال: «فاذهب إلى قومك، فإن فعلوا فارجع أذهب معك»، فخرج قيس إلى قومه، فأسلموا واغتسلوا فى جَوْف المحورة[1] — وهو ماءٌ يغتسلون فيه — وتوجّهوا إلى القِبلة، ثم خَرَج[2] بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: قد أسلم قومى وأمرونى أن آخذك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نِعمْ وافدُ القوم قيسٌ»، وقال: «وفّيتَ وفّى الله بك»، ومَسَح بناصيته، وكتب عهدَه على قومه هَمْدان: أحمورِها[3] وعَرَبها وخَلائِطها ومَواليها أن يسمعوا له ويُطيعوا، فإنّ لهم ذمّة الله وذمّة رسوله ما أقَمتم الصّلاة وآتيتُمُ الزّكاة؛ وأطْعَمه ثلثمائة فَرَق[4]، من خَيْوَانَ مائتان: زبيبٌ وذُرَةٌ شَطْران[5]، ومن عُمْران الجَوْف[6] مائةُ فَرَق بُرّ، جاريةً أبدًا من مال الله.

ومن طريق آخر له قال: عَرَضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نَفسَه بالمَوْسم على قبائل العرب، فمرّ به رجلٌ من أَرْحَب يقال له: عبد الله بن قيس بن أمّ

(١) كذا فى الأصول وفى ابن سعد. وجوف المحورة: موضع ببلاد همدان، انظر معجم البلدان «جوف». (٢) فى الأصول: «خرجوا»، وما أثبتناه عن الطبقات. والمقام يقتضيه.

(٣) أحمورها: قدم، وآل ذى مران، وآل ذى لعوة، وأذواء همدان، كذا فى الطبقات. وفى أسد الغابة: حمورها (بغير ألف): أهل القرى، من الحمرة سمى أهل القرى بالحمرة لأنهم بيض، والعرب تطلق الأحمر وتريد الأبيض، وعربها أهل البادية. وفيه: وعربهم وحمورهم ومواليهم. وليس فيه خلائط، وإن صح فلعل اللفظ خلطائها، وهو جمع خليط، وهم أخلاط الناس. فى الطبقات: «وغربها (بالغين المعجمة) أرحب، ونهم، وشاكر، ووادعة، ويام، ومرهبة، ودالان، وخارف، وعذر، وحجور». (٤) الفرق (بفتحتين): مكيال؛ يقال إنه يسع ستة عشر رطلا. وخيوان: بلد باليمن.

(٥) شطران بالفتح ويكسر أى نصفان.

(٦) عمران كعثمان: قرية من بلاد مراد باليمن بالجوف بها.

غَزال ، فقال : « هل عند قومك من منعة » ؟ قال : نعم ، فعرض عليه الإسلام ، فأسلم ، ثم إنه خاف أن يُخْفِره قومُه[1] فوعده الحج من قابل ، ثم وجّه الهَمْدانيّ يريد قومه ، فقتله رجلٌ من بنى زُبَيد يقال له ذُباب ، ثم إن فِتْيَة من أَرْحَب قتلوا ذُبابا الزُّبَيدىّ بعبد الله بن قيس . هذا قبل الهجرة .

وأما بعد الهجرة ، فقد روى محمد بن إسحق رحمه الله ، قال : قدم وَفْدُ هَمْدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم مالك بن نَمَط ، وأبو ثور وهو ذو المِشْعار ، ومالك بن أَيْفَع ، وضِمام بن مالك السَّلْمانى ، وعَمِيرة بن مالك الحارِقى ، فلقُوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَرْجِعَه من تَبُوك ، وعليهم مُقَطَّعات الحِبَرات[2] والعمائم العَدَنيّة ، برحال المَيْس[3] على المَهْرِيّة[4] والأَرْحَبِيّة[5] . ومالك بن نَمَط ، ورجل آخر يتجزان بالقوم ؛ يقول أحدهما :

هَمْدانُ خَيْرُ سُوقَةٍ وأَقْيالْ[6] * ليس لها فى العالمين أَمْثالْ
مَحَلُّها الهَضْبُ[7] ومنها الأَبْطالْ * لها إِطَاباتٌ[8] بها وآكالْ

(١) يخفره قومه : ينقضون عهده وذمامه .

(٢) الحبرات جمع حبرة ، وزان عنبة : ثياب يمنية من قطن أو كتان مخطط يقال له : برد حبرة على الوصف أو على الإضافة ، والعدنية نسبة إلى عدن .

(٣) الميس : الشجر الذى يصنع منه الرحال .

(٤) المهرية : نوع من النجائب المنسوبة إلى مهرة ، وهى قبيلة عربية تسكن أعالى اليمن الشمالية .

(٥) والأرحبية نسبة إلى أرحب بطن فى همدان ، وانظر السهيلى ٢ : ٣٤٩ .

(٦) الأقيال جمع قيل وهو الملك فى لغة أهل اليمن .

(٧) يريد المرتفعات من الأرض واحدها هضبة . (٨) الإطابات : الأطعمة الطيبة ، من أطاب قدم طعاما طيبا ، وفى نسخة ج : الرطابات . وآكال : مآكل الملوك كما فى اللسان . وفى شرح السيرة للخشنى ٢ : ٤٤٧ : « آكال : هو ما يأخذه الملك من رعيه وظيفة عليهم له » .

ويقول الآخر :

٥/١٦ إليك جاوزن سواد الريف * في هبوات[1] الصيف والخريف
* مخطمات[2] بحبال الليف *

فقام مالك بن نمط بين يديه ، ثم قال : يا رسول الله ! نصية[3] من همدان من كل حاضر وباد ، أتوك على قلص[4] نواج ، متصلة بحبائل الإسلام ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، من مخلاف[5] خارف ويام وشاكر ، أهل السود[6] والقود ، أجابوا دعوة الرسول ، وفارقوا آلهات الأنصاب ، عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع[7] ، وما جرى اليعفور[8] بضلع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم الحي همدان ، ما أسرعها إلى النصر ، وأصبرها على الجهد ، ومنهم أبدال[9] ، وفيهم أوتاد الإسلام » ، وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ، فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من [محمد][10] رسول الله لمخلاف خارف وأهل جناب[11] الهضب وحقاف[12] الرمل ، مع

(١) الهبوات جمع هبوة وهي الغبرة . (٢) مخطمات : مجعول لها خطام من الليف وهو المسد . وفي هذا الصنف نوع يكون منه الخطام فاخرا وافتخاره يدل على أنه يريد الخطام الفاخر من هذا النوع .

(٣) النصية : الأخيار الأشراف . (٤) القلص : ككتب جمع قلوص كرسول وهو الفتى من الإبل . ونواج : جمع ناجية وهي السريعة لأنها تنجو بصاحبها . (٥) المخلاف : المدينة بلغة اليمن . وخارف ويام وشاكر من قبائل اليمن . (٦) السود : الإبل . والقود : الخيل .

(٧) لعلع : جبل . يذكر ويؤنث . قال ابن الأثير : أنثه لأنه جعله اسما للبقعة حول الجبل .

(٨) اليعفور الظبي الذي يشبه لونه التراب أو الظبي مطلقا . والضلع : القوة والشدة . وفي نسخة من سيرة ابن هشام « بضلع » : اسم موضع . (٩) الأبدال الأولياء والعباد ، الواحد بدل كحمل وأحمال ؛ سموا بذلك لأنهم كلما مات واحد منهم أبدل بآخر . والأوتاد من البلاد : رؤساؤها .

(١٠) الزيادة من سيرة ابن هشام . (١١) جناب الهضب : موضع .

(١٢) الحقاف (بالكسر جمع حقف بالكسر) : الرمل المستطيل المشرف ، ولعل الحديث الشريف يشير إلى رمال الأحقاف ؛ لأنها بالشحر من اليمن .

وَافِدها ذى المِشْعار مالك بن نَمَط ، ومَن أَسْلَم من قَوْمه ، على أن لهم فِراعها[1] ووِهاطها[2] وعَزازها[3] ، يأكلون عِلافها[4] ، ويَرعَوْن عافيها[5] ، لنا منهم من دَفْئهم[6] وصرامهم[7] ما سَلَّموا بالمِيثاق والأمانة ، ولهم من الصَّدقة الثِّلْبُ[8] والنَّابُ والفَصيل[9] والفارِضُ[10] والدّاجِن[11] والكَبْش الحورِىّ[12] ، وعليهم فيها الصّالِغُ[13] والقارِحُ[14] ، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزّكاة ، لهم بذلك عهد الله وذِمامُ رسول الله عليه السلام ، وشاهدهم المهاجرون والأنصار[15] » .

(١) الفراع من الأرض أعاليها . (٢) الوهاط من الأرض المنخفض المطمئن .

(٣) عزاز الأرض : ما صلب منها وخشن واشتد وإنما يكون فى أطرافها . ويقال العزاز المكان الصلب السريع السيل . (٤) العلاف : ما تعلفه الدواب . وهو جمع علف بفتحتين .

(٥) عافيها : النبات الكثير . وفى نسخة ج : عفاها أى عفوها ، والعفو ما ليس لأحد فيه ملك .

(٦) من دفئهم : أى من إبلهم وغنمهم . والدفء : نتاج الإبل وما ينتفع به منها ، سماها دفئا لأنها يتخذ من أوبارها وأصوافها ما يستدفأ به . (٧) الصرام : قطع النخل ، يقال هذا أوان صرامها أى جزها ، والمراد زكاة التمر . (٨) الثلب بكسر المثلثة : الجمل الذى تكسرت أنيابه من الهرم ، والناب : الهرمة من الإناث . (٩) الفصيل : الصغير من الإبل الذى فصل عن أمه ، وقد يقال فى البقر . (١٠) الفارض : المسن الهرم . (١١) الداجن : هى الحلوبة الملازمة للإنسان ؛ من دجن أقام بالمكان ، وسمى ما يألف الإنسان من شاء وطير وغيره دواجن . (١٢) الكبش الحورى : قال ابن الأثير منسوب إلى الحور وهى جلود تتخذ من جلود الضأن . (١٣) الصالغ بالصاد المهملة آخرها معجمة ، وهو من البقر والغنم الذى كمل سنه ، وذلك فى السنة السادسة . كذا فى النهاية . وفى نسخة : الضالع ، وهو تحريف وعلق عليه محش بأنه المسنّ . (١٤) القارح من الخيل هو الذى دخل فى السنة الخامسة . (١٥) أورد ابن هشام فى سيرته أبياتا قالها مالك بن نمط فى مدح رسول الله وهى :

ذكرت رسول الله فى فخمة الدجى ... ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
وهن بنا خوص طلائح تفتلى ... بركبانها فى لاحب متمدد
على كل فتلاء الذراعين جسرة ... تمر بنا مر الهجف الخفيدد
حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذى العرش مهتدى
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه ... وأمضى بحد المشرفى المهند

ذكر وفادة الطُّفَيل بن عمرو الدَّوْسىّ وإسلامه

قال محمد بن إسحق رحمه الله تعالى : كان الطُّفَيْل بن عَمْرو الدَّوْسى يُحدِّث أنه قدم مكّة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بها ، فمشى إليه رجالٌ من قريش — وكان الطُّفَيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا — فقالوا له : يا طُفَيْلُ ! إنك قدِمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بَيْن أظْهُرنا قد أعْضَل بنا ، قد فرّق بين جماعتنا ، وشَتَّتَ أمْرَنا ، وإنما قوله كالسِّحْر يفرّق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نَخْشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ، ولا تسمعن منه شيئا . قال الطُّفَيل : فوالله ما زالوا بى حتى أجْمَعتُ على ألّا أسمعَ منه شيئا ولا أكلِّمه ، حتى حَشَوْت فى أذنى حين غَدَوْت إلى المسجد كُرْسُفا[1] فَرَقا[2] من أن يبلغنى شىءٌ من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه[3] ! قال : فغَدَوْتُ إلى المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ يصلّى عند الكعبة ، فقمت منه قريبا ، فأبى الله إلّا أن يُسْمِعنى بعضَ قوله ، فسمعت كلاما حَسَنا ، فقلت فى نفسى : واثكل أمّى ، واللهِ إنّى لرجلٌ لبيبٌ شاعر ، وما يخفى علىّ الحَسَن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبِلتُه ، وإن كان قبيحا تركتُه ، قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته ، فاتبعته حتى إذا دخل بيته [دخلت عليه[4]] فقلتُ : يا محمد إنّ قومك قد قالوا لى كذا وكذا — للذى قالوا — فوالله ما برحوا يخوِّفوننى أمرَك حتى سَدَدْتُ أذنى بكرسُف ألا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يُسْمِعنى قولك ، فسمعت قولا حسنا ، فاعْرِضْ علىّ أمرَك . قال :

(١) كرسفا : أى قطنا . (٢) فرقا : أى خوفا . (٣) فى ابن سعد : « حتى كان يقال لى ذو القطنتين » . (٤) الزيادة من سيرة ابن هشام .

فعرض علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، وتلا علىّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قطُّ أحْسَنَ منه ، ولا أمْرا أعْدَلَ منه ، فأسلمتُ ، وشهدت شهادة الحقّ ، فقلت : يا نبىّ الله ! إنى آمرؤ مُطاعٌ فى قومى ، وأنا راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فآدعُ الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم إليه .

فقال : « اللهم آجعل له آية » ، فخرجت إلى قومى، حتى إذا كنت بِثَنِيّة تطلعنى على الحاضِر(١) وقع نورٌ بين عينى مثل المِصْباح ؛ قلت : اللهم فى غير وجهى ! إنّى أخْشَى أن يظنوا أنها مُثْلَة وقعتْ فى وجهى لِفراق دينهم ، قال : فتحوّل النّور فوقع فى رأس سَوْطى، فجعل الحاضِرُ يَتَراءَوْن ذلك النّور فى سَوْطى كالقِنْديل المعلّق، وأنا أهبط إليهم من الثّنِيّة حتى جئتهم ، فأصْبحتُ فيهم ، قال : فلما نزلتُ أتانى أبى وكان شيخا كبيرا ، فقلتُ : إليك عنّى يا أبَتِ ، فلستُ منكَ ولستَ منّى ، قال : لِمَ يا بنىّ ؟ قلت : أسلمتُ وتابعت دين محمد ، قال : أى بنىّ ! فدِينى دِينُك ، قلت : فآذهب وآغتسل ، وطهّر ثيابك ، ثم تعالَ حتى أُعلّمك مما عُلّمت ، فذهب فآغتسل وطهّر ثيابه ثم جاء ، فعرضت عليه الإسلام فأسلم ، ثم أتتْنى صاحِبتى ، فقلتُ : إليكِ عنّى فلستُ منكِ ولستِ منّى ، قالت : لم ؟ بأبِى أنت وأمّى ! قلت : فرّق بينى وبينكِ الإسلام ، وتابعتُ دين محمد عليه السلام . قالت : فدينى دِينُك ، قلت : فآذهبِى إلى حِنَا ذِى الشّرى(٢) — قال آبن هشام : ويقال حِمَى ذِى الشّرَى — فتطهّرِى منه .

٦ / ١٦

---

(١) الحاضر والحاضرة : الحى العظيم .

(٢) فى ابن سعد : فاذهبى إلى حمى ذى الشرى بكسر الحاء وإسكان الميم . وهو مهبل من الأرض يستنقع فيه الماء . والحمى : ماء حموه للصنم ، ولعل الحنا هو الحمى بإبدال الميم نونا أو من محنية الوادى .

قال : وكان ذو الشَّرَى صنما لدَوْس ، وكان الحِنَا حِمًى حَمَوْه له ، وبه وَشَلٌ من ماء يهْبط من جبل ، [قال] فقالت : بأبى أنت وأمِّى ، أتخشى على الصَّبيّة[1] مِن ذى الشَّرَى شيئا ؟ قلت : [لا ، أنا ضامن لكِ][2] ، قال : فذهبتْ فاغتسلتْ ، ثم جاءت ، فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت ، ثم دعوتُ دَوْسا إلى الإسلام فأبطئوا علىّ ، ثم جئتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقلت له : يا نبىّ الله ! إنّه قد غلَبَنى على دَوْسٍ الزِّنى[3] ، فادعُ الله عليهم ، فقال : « اللّهُمّ اهدِ دَوْسا ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » ، قال : فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام ، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم أسلموا بعد ذلك ، ووَفَدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما نذكر ذلك — إن شاء الله تعالى — فيمن وفد بعدَ الهجرة .

ذِكر وفد نصارى الحبشة على رسول الله

صلى الله عليه وسلم وإسلامهم

قال محمد بن إسحق : قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عِشرون رجلا أو قريبٌ من ذلك من النّصارى حين بلغهُم خبرُه من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلّموه ، وسألوه — ورجالٌ من قُرَيش فى أنديتهم حولَ الكعبة — فلما فرغوا من مسألته صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الله ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمِعوه فاضَت أعينهم من الدّمع ، ثم استجابوا لله تعالى وآمنوا به

(١) تريد زوجة الطفيل بهذا نفسها . وفى أسد الغابة : « أيخاف علىّ من ذى الشرى » ؟

(٢) الزيادة من سيرة ابن هشام . وفى الأصول : « لا ما أصابك » . ثم بياض .

(٣) فى الطبقات : قد غلبتنى دوس فادع الله عليهم . ويروى أنه قال : إن دوسا قد غلب عليها الزنى والربا الخ .

وصدّقوه ، وعرفوا منه ما كان يُوصَف لهم فى كتابهم من أمْرِه ، فلمّا قاموا عنه اعترضَهُم أبو جهل بن هشام فى نَفَر من قريش ، فقالوا لهم : خيّبكمُ الله من رَكْب ! بعثكُم مَنْ وراءكم من أهل دينكم تَرْتادون لهم لتأتوهم بخَبَر الرّجل ، فلم تَطْمَئِنّ مجالسُكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدّقتموه بما قال ، ما نعلم رَكْبًا أحمقَ منكم ! فقالوا لهم : سلامٌ عليكم لا نجاهِلكم ، لنا ما نحنُ عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نألُ أنفسنا خَيْرا . ويقال : إن النّفر من أهل نَجْران . والله أعلم . فيقال فيهم أنزل الله قوله : « الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ » . إلى قوله : « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ »(١) : وقيل : إنما نزلتْ هذه الآياتُ فى النّجاشى وأصحابه ، والآيات التى فى سورة « المائدة » قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » . إلى « الشَّاهِدِينَ »(٢) ، وكان ممّن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة الأَوْسُ والخَزْرَجُ ، وقد تقدم ذكرهم فى بَيْعة العَقَبة .

ذكر من وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعد الهجرة وقبل الفتح

وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وقبل فَتْح مكّة : عَبْسٌ ، وسَعْدُ العَشيرة ، وجُهَيْنَة ، ومُزَيْنَة ، وسعدُ بن بَكْر ، وأشجع ، وخُثَيْن ، والأشعَرون ، وسُلَيْم ، ودَوْسٌ ، وأَسْلَم ، وجُذامُ .

٧/١٦

(١) آيات ٥٢ — ٥٥ من سورة القصص .

(٢) آيتا ٨٢ — ٨٣ من هذه السورة .

ذكر وفد عَبْس

قال محمد بن سعد : وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم تِسْعة رَهْط من بنى عَبْس فكانوا من المهاجرين الأوّلين، منهم مَيْسرة[(١)] بن مسروق، والحارث بن الربيع — وهو الكامل — وقَنان[(٢)] بن دارِم، وبِشْر بن الحارث بن عُبادة، وهِدْم[(٣)] بن مَسْعدة، وسِباعُ بن زَيْد، وأبو الحِصْن بن لُقمان، وعبد الله بن مالك، وفَرْوة بن الحُصَين بن فَضَالة فأسلموا؛ فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخَيْر، وقال : « أبغونى رجلا يَعْشِركم أَعقِدْ لكم لِواءً » فدخل طلحة بن عُبيد الله فعقد لهم لِواء، وجعل شعارَهم : يا عشرة .

وقال من طريق آخر: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عِيرا لقريش أقبلت من الشام [فبعث[(٤)]] بنى عبس فى سِرية وعقد لهم لِواء، فقالوا : يا رسول الله! كيف نقسم غنيمة إن أصبناها ونحن تسعة ؟ قال : « أنا عاشركم » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قدم ثلاثة نفرٍ من بنى عَبْس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : إنه قدِم علينا قوم[(٥)] فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هِجرة له، ولنا أموالٌ ومواشٍ هى مَعاشنا. فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بِعناها وهاجرنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آتقوا الله حيث كنتم، فلن يلِتكم من أعمالكم شيئا، ولو كنتم بِصَمِدٍ[(٦)] وجازان[(٧)] » .

(١) نسخة ج : « مبشر » والتصويب من الطبقات . (٢) فى أسد الغابة : « قنان بنون مكررة »، قال : أحد التسعة العبسيين . (٣) فى أسد الغابة : « هدم بكسر الهاء وسكون الدال » هو هدم بن مسعود، ثم قال : أحد التسعة الخ وفى ابن سعد : ابن مسعدة كالأصل .

(٤) الزيادة من ابن سعد وبنسخة أ بياض . (٥) فى ابن سعد : « قراؤنا » .

(٦) الصمد، بسكون الميم : اسم ماء للضباب، وفى اللسان للرباب .

(٧) جازان : موضع فى طريق حاج صنعاء .

ذكر وفد سَعْد العَشيرة

قال محمد بن سعد بسنده إلى عبد الرحمن بن أبي سَبْرة الجُعْفي قال : لمّا سَمِعتْ سعدُ العشيرة بخروج النبي صلى الله عليه وسلم وثَب ذُباب — رجلٌ من بني أنَس الله بن سعد العَشيرة — إلى صنم يقال له فَرّاص فحطمه ، ثم وفد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأسلم، وقال :

تَبِعتُ رسولَ الله إذْ جاء بالهُدى * وخَلَّفْتُ فَرّاصًا بِدارِ هَوانِ (١)
شَدَدْتُ عَلَيْه شَدَّةً فتركْتُه * كأَنْ لم يَكُنْ والدّهْرُ ذو حَدَثانِ
فلَمّا رأيْتُ الله أظْهَرَ دينَه * أَجَبْتُ رسولَ الله حِينَ دَعانِي (٢)
فأصبَحْتُ لِلإسْلامِ ماعِشْتُ ناصِرا * وأَلْقَيْتُ فيها كَلْكَلِي وجِرانِي
فَمَنْ مُبْلِغٌ سَعْدَ العشيرةِ أنّني * شَرَيْتُ الذى يَبْقى بآخَرَ فانِي

ذكر وفد جُهَيْنَة

قال ابن سعد : لما قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وَفَد إليه عبد العُزّى بن بدر بن زيد بن معاوية الجُهَنيّ ، ومعه أخوه لأمه أبو رَوْعَة وهو ابن عم له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد العُزّى : « أنت عبد الله » وقال لأبي رَوْعة : « أنت رُعْتَ العَدوّ إن شاء الله » وقال : « من أنتم » ؟ قالوا : بنو غَيّان، قال : «أنتم بنو رَشْدان» وكان اسم واديهم غَوَى فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم رُشْدا، وقال لجَبَلَيْ جُهينة الأشْعَر والأجْرَد : « هما من جبال الجنة

(١) حدثان الدهر (محركة) وحوادثه : نوائبه وما يحدث منه .

(٢) الكلكل : الصدر والجران باطن العنق من ثغرة النحر إلى منتهى العنق فى الرأس ؛ فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل ألقى جرانه على الأرض واستعير للإنسان إذا استقر . والضمير فى « فيها » لدار الإسلام المستفاد من المقام ، أو المدينة المنورة .

لا تطؤهما فتنةٌ »، وخَطّ لهم مسجدَهم، وهو أوّل مسجد خُطّ بالمدينة، وجاء من جُهَينة عمرو بن مُرّة الجُهَنيّ. روى عنه محمد بن سعد بسنده إليه قال: كان لنا صَنَمٌ، وكنا نعظّمه، وكنتُ سادنه، فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كسرتُه، وخرجتُ حتى أقدم المدينة على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقدِمْت فأسلَمْتُ وشهدت شهادة الحقّ، وآمنت بما جاء به من حلال وحرام، فذلك حين أقول:

٨/١٦

شَهِدتُ بأنّ الله حَـقٌّ وأنّنِي * لآلِهَـةِ الأحْجارِ أوّلُ تارِكِ
وشَمَّرْتُ عَنْ ساقِي الإزارَ مُهاجِرًا * إلَيْكَ أَجُوبُ الوَعْثَ بَعْدَ الدّكادِكِ (١)
لِأَصْحَبَ خَيْرَ النّاسِ نَفْسًا ووالِدا * رَسُولَ مَلِيكِ النّاسِ فَوْقَ الحَبائِكِ (٢)

قال: فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فأجابوه إلّا رجلا واحدا ردّ عليه قوله، فدعا عليه عمرو بن مُرّة فسَقَط فُوهُ، فما كان يَقدِرُ على الكلام، وعَمِيَ واحْتاجَ.

ذكر وفد مُزَيْنَة

وهذا الوفْد هو أوّلُ مابدأ به محمد بن سَعْد من الوُفُود فى طبقاته، فقال: كان أول من وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من مُضَر أربَعمائة من مُزَيْنة (٣)، وذلك فى شهر رَجب سنةَ خمس، فجعل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الهِجْرة فى دارهم وقال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم» فرجعوا إلى بلادهم. وقال محمد بن سعد بسَنَدٍ يرفعه إلى أبى مِسْكين، وأبى عبد الرحمن العَجْلانيّ (٤)،

(١) أجوب: أقطع. الوعث: الطريق العسر. الدكادك (جمع دكدك): وهو ما تكبس من الرمل واستوى أو التبد منه بالأرض، أو أرض فيها غلظ. (٢) الحبائك (جمع حبيكة): وهى طرائق النجوم؛ أراد فوق السموات. (٣) مزينة: اسم امرأة عمرو بن أدّ بن طابخة، فذريتها منه يقال لهم مزينة والمزنيون. (٤) العجلانى (بالفتح والسكون): نسبة إلى بنى العجلان، بطن من الأنصار.

قالا : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرٌ من مُزَيْنة، منهم خُزاعىّ بن عبد نُهم[1] فبايعه على قومه مزينة، وقدم معه عشرةٌ منهم، فيهم بِلالُ بن الحارث، والنعمان ابن مُقَرِّن[2]، ثم خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظنّ فأقام، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسّان بن ثابت، فقال : «اذكر خُزاعيًّا ولا تهجه» فقال حسّان :

أَلَا أبلغْ خُزَاعِيا رَسُولا * بأنّ الذَّمَّ يَغْسِلُهُ الْوفاءُ
وأَنَّك خَيْرُ عُثْمانَ بْنِ عَمْرٍو * وأَسْناها إذا ذُكِرَ السَّناءُ
وبايَعْتَ الرّسول وكان خَيْرا * إلَى خَيْرٍ وآداكَ[3] الثَّناءُ
فما يُعْجِزْكَ أو ما لا تُطِقْهُ * مِنَ الأَشْياءِ لا تَعْجِزْ عِداءُ

قال : و«عِداء» بَطْنُه الذى هو مِنْه. فقام خُزاعىٌّ فقال : يا قومُ! قد خَصَّكم شاعرُ الرجل، فأَنْشُدُكم[4] الله. قالوا : فإنّا لا نَنْبُو عليك[5]، فأسلَموا ووَفَدوا على النبي صلى الله عليه وسلم. فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء مُزَيْنة يوم الفتح إلى خُزاعىّ، وكانوا يومئذ ألفَ رجل.

ذكر وَفْد سَعْد بن بَكْر

قال محمد بن إسحق : بعثَتْ بنو سعد بن بَكْر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا منهم يقال له ضِمام[6] بن ثَعْلَبة — قال ابن سعْد : في شهر رجب سنة خمس[7] —

(١) نهم (بالضم) : صنم لمزينة، وبه سموا عبد نهم. (٢) النعمان بن مقرن بن عائذ المزنى، كان معه لواء مزينة يوم فتح مكة، واستشهد فى خلافة عمر بنهاوند سنة ٢١ هـ.

(٣) آدى الشيء : كثر، وآداه ماله كثر حتى ثقل عليه. وفى طبقات ابن سعد طبع ليدن «الثراء» بدل «الثناء». وفى الأصول والطبقات : «وأداك» بهمزة وتشديد الدال.

(٤) يقال : نشدتك الله، وأنشدك الله وبالله وناشدتك الله وبالله أى سألتك وأقسمت عليك.

(٥) لا ننبو عليك : أى لا نمتنع عما تريده منا. (٦) ضمام (بمعجمة مكسورة، وخفة الميم الأولى المفتوحة) : هو من أهل نجد كما فى الموطأ. (٧) قال شارح المواهب : «كان ذلك فى سنة تسع على الصواب خلافا لما زعم الواقدى أنه سنة خمس».

قال ابن إسحق بسنده إلى ابن عباس: فقدِم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله[1]، ثم دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ فى أصحابه. قال: وكان ضِمام رجلا جَلْدا[2] أشعَر ذا غَدِيرتَيْن، فأقبلَ حتّى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه، فقال أيُّكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا ابن عبد المطلب». قال: أمُحمَّدٌ؟ قال: «نعم». قال: يابن عبد المطلب! إنى سائلك ومُغْلِظٌ عليك فى المسئلة، فلا تجِد[3] فى نفسك. قال: «لا أجد فى نفسى، فاسأل عما بدا لك» قال: أَنْشُدكَ اللهَ إلهَك وإلهَ مَن كان قبلك، وإلهَ مَن هو كائنٌ بعدك، آللهُ بعثك إلينا رسولا؟ قال: «اللّهمّ نعم» قال: فأَنشدُك الله إلهك وإلَه من كان قَبْلك، وإلهَ من هو كائنٌ بعدَك، آلله أمرك أن تأمُرَنا أن نعبدَه وحدَه، لا نشرك به شيئا، وأن نَخْلَعَ هذه الأنْدادَ التى كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: «اللّهمّ نعم». قال: فأَنْشُدُك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نُصَلِّى هذه الصلاةَ الخمسَ؟ قال: «نعم». قال: ثم جعل يذكُر فرائضَ الإسلام فريضةً فريضةً: الزّكاةَ، والصّيامَ، والحج وشرائعَ الإسلام كلّها، يَنشُده عن كلِّ فريضة منها كما يَنْشدُه فى التى قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإنِّى أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وسأُؤَدِّى هذه الفرائضَ، وأَجتنِبُ ما نهيتَنى عنه، ثم لا أزيدُ ولا أنقُصُ. ثم انصرف إلى بعيره راجعا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنْ صَدَق ذو العَقِيصَتَيْنِ[4] دخل الجنة»

٩/١٦

(١) عقل البعير: شد على ساقه حبلا بعد ثنى ركبته.

(٢) جلدا: صلبا شديدا، والغديرة: الذؤابة من الشعر المضفور، وأشعر: كثير الشعر طويله.

(٣) فى ابن إسحق طبع أوربا «تجدن» وفى غيرها «فلا تحدث تشابها علي».

(٤) العقيصتان: الضفيرتان من الشعر، وهما الغديرتان.

قال : فأتى بعيره فأطلق عِقَالَه ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أوّل ما تكلم به : بِئْسَت اللاتُ والعُزّى ! فقالوا : مَهْ يا ضِمامُ ! آتِق البرَصَ ، آتِق الجُذامَ ، آتِق الجُنون ! قال : وَيْلَكم ! إنهما والله لا ينفعان ولا يضران ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا ، فأستنقذكم[1] به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأن محمّدا عبدُه ورسوله ، وقد جئتُكم من عنده بما أمرَكُم به ، ونهاكم عنه ، قال : فوالله ما أمْسَى من ذلك اليوم فى حاضِرِه[2] رجلٌ أو امرأةٌ إلا مُسْلما .

قال : يقول عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — فما سمعنا بوَافِد قَوْم كان أفضلَ من ضِمامِ بن ثَعْلبَة .

ذكر وفد أشجع

قال[3] : وقَدِمَتْ أشْجَعُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الخَنْدَق ، وعامُ الخَنْدَق سنةَ خمسٍ من الهِجْرة ، وهم مائةٌ ، رأسُهم مسعود[4] بن رُخَيْلَة بن نُوَيْرَة ابن طَرِيف ، فنزلوا شِعْبَ سَلْع[5] ، فخرج إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرلهم بأحمال التمر ، فقالوا : يامحمد ! لانعلم أحدا من قومنا أقْرَبَ دارا منك منّا ، ولا أقلّ عَددا ، وقد ضِقْنا بحَرْبك وبحَرْب قومك ، فجئنا نُوَادِعُك ، فوادَعَهم .

ويقال : بل قدِمَتْ أشْجَعُ بعد مافرَغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من بنى قُرَيْظَة ، وهم سبعمائة فوادعهم . ثم أسلمو بعد ذلك .

(١) فى ابن إسحق : «أستنقذكم» . (٢) الحاضر : الحى . (٣) فى الطبقات : قالوا . (٤) فى ابن هشام وعقد الجمان : « مسعر » والصواب ما فى الأصول كما فى الطبرى والاستيعاب والإصابة وغيرها . (٥) سلع : جبيل بضاحية المدينة — على ساكنها أفضل الصلاة والسلام — قريب من أحد . والشعب ، بالكسر : الطريق فى الجبل .

ذكر وفد خُشَيْن

قال أبو عبد الله محمد بن سعد : قَدِمَ أبو ثَعْلَبَة الخُشَنِيُّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهّز إلى خَيْبَر ، فأسْلَمَ وخرج معه فشهد خَيْبَر ، ثم قدم بعد ذلك سبعةُ نَفَرٍ من خُشَيْن فنزلوا على أَبِي ثعلبةَ ، فأسلموا وبايعوا ورجعوا إلى قومهم .

ذكر وَفْد الأَشْعَرِين

قالوا : وقدم الأشْعَرون[1] على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم خمسون رجلا ؛ منهم أبو موسى الأشْعَرى ، ومعهم رجلان من عَكّ . وقدموا فى سُفُنٍ فى البحر ، وخرجوا بجُدَّة ، فلما دَنوا من المدينة جَعَلوا يقولون :

غـدًا نَلْقَى الأحِبَّـهْ * مُحَمَّـدًا وحِـزْبَـهْ

ثم قدموا فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفره بخَيْبر ، فلقُوه صلى الله عليه وسلم فبايعوه وأسلموا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأشعرون فى الناس كصُرَّة فيها مِسك[2] » .

ذِكر وَفْدِ سُلَيْم

قالوا : وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من بنى سُلَيْم ، يقال له قَيْس ابن نُسَيَبة[3] ، فسمع كلامه ، وسأله عن أشياء فأجابه ، ووَعى ذلك كلّه ، ودعاه رسول الله

(١) الأشعرون : قبيلة كبيرة باليمن ؛ نسبوا إلى جدهم أشعر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . ويقال : الأشعرون والأشعريون كما يقال قوم يمانون . وأبو موسى : اسمه عبد الله بن قيس ، واختلف فى وقت وفاته فقيل سنة ٤٢ هـ وقيل سنة ٤٤ وقيل غير ذلك . ذكر ابن إسحق أنه قدم مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة .

(٢) الحديث يدل على تفضيل أهل اليمن لرقة قلوبهم ، ولين أفئدتهم ، كما ورد فى أحاديث أخرى

(٣) وقيل : «قيس بن نشبة» .

صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، فأسلم ورجع إلى قومه، فقال: قد سمعتُ برجمة[1] الروم، وهينمة[2] فارس، وأشعار العرب، وكهانة الكاهن، وكلام مقاول حِمْيَر، فما يُشبه كلامُ محمد شيئا من كلامهم، فأطيعونى وخذوا بنصيبكم منه. فلما كان عامُ الفتح خرجتْ بنو سُلَيْم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقوه بقُدَيد[3] وهم سبعمائة. ويقال: كانوا ألفا. وفيهم العباس بن مِرداس السُّلَمى، وأَنَس بن عبّاس بن رِعْل، وراشد بن عبد ربه[4]، فأسلموا وقالوا: اجعلنا فى مقدّمتك، واجعلْ لِواءَنا أحمرَ، وشعارُنا مُقدّم[5]، ففعل ذلك بهم. وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم راشدا رُهاطًا[6] وفيها عَيْنٌ يقال لها عين الرّسول. قال: وكان راشدٌ يَسْدُنُ[7] صَنَمًا لبنى سُلَيْم، فرأى يوما ثَعْلَبين يبولان عليه، فقال:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثَّعْلَبَان بِرَأْسِه * لقَدْ ذَلَّ مَنْ بالَتْ عليه الثَّعالِبُ

ثم شدّ عليه فكسره. وأتى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال له: «ما اسمك»؟ قال: غاوى بن عبد العُزّى، فقال: «أنت راشد بن عبد ربّه» فأسلم وحَسُن إسلامه وشَهِد الفَتْح. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير بنى سليم راشد» وعَقَد له على قومه.

(١) البرجمة: غلظ الكلام؛ والمراد هنا رطانتهم وكلامهم. وفى أ، والبداية: «ترجمة».

(٢) الهينمة: الكلام الخفى لا يفهم.

(٣) قديد: اسم موضع قرب مكة.

(٤) فى أسد الغابة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «ما اسمك»؟ قال: «غاوى بن ظالم» فقال: «أنت راشد بن عبد الله».

(٥) فى البداية لابن كثير طبع السلفية: «مقدما».

(٦) رهاط كغراب: موضع على بعد ثلاث ليال من مكة.

(٧) يسدن: يخدم.

وروى محمد بن سعد أيضا ، عن هشام بن محمد ، قال حدّثنى رجلٌ من بنى سُلَيم من بنى الشَّريد ، قال : وَفَد رجل منا يقال له قُدَد[1] بن عمّار على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعاهده على أَنْ يأتيه بألف من قومه على الخَيْل ؛ وأنْشَأ يقول :

شَدَدت يَمِينِى إذْ أَتَيْتُ مُحَمَّدًا * بِخَيْرِ يَدٍ شَدَّتْ بِحُجْزَةِ مِئْزَرِ
وذاك ٱمْرُؤٌ قَاسَمْتُهُ نِصْفَ دِينِهِ * وَأَعْطَيْتُهُ كَفَّ ٱمْرِئٍ غَيْرِ أَعْسَرِ[2]

ثم أتَى قومَه فأخبرهم الخَبَر ، فخرج معه تِسْعُمائة ، وخَلّف فى الحىِّ مائةً ، وأَقْبَلَ يريد النبىّ صلى الله عليه وسلم فنزل به الموتُ ، فأَوْصى إلى ثلاثة رَهْطٍ من قومه ؛ وهم : عباس بن مِرداس وأَمَّره على ثلثمائة ، وجَبَّارُ بن الحكم وأَمّره على ثلثمائة ، والأخْنَس بن يزيد وأمّره على ثلثمائة . وقال : آيتوا هذا الرجل حتى تَقْضوا العَهْد الذى فى عنق ثم مات ، فمضوا حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أين الرجل الحسن الوجه ، الطويل اللسان ، الصادق الأيمان » ؟ . قالوا : يا رسول الله ! دعاه الله فأجابه ، وأخبروه خبرَه ؛ فقال : « أين تكملة الألف الذين عاهدنى عليهم » ؟ . قالوا : خَلّف مائةً فى الحىِّ مخافةَ حرب[3] كان بيننا وبين بنى كِنانة ، قال : « آبعثوا إليها فإنه لا يأتيكم فى عامِكم هذا شىءٌ تكرهونه » . فبعثوا إليها فأتته بالهَدَّة[4] وعليها المُنْقَع[5] بن مالك بن أمية ، فشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتح وحُنَيْن . وللمنقع يقول العباس بن مِرْداس :

القائِدُ المائةِ التى وَفَّى بِها * تِسْعَ المئِينِ فَتَمَّ ألفٌ أَقْرَعُ[6]

(١) فى الإصابة : قدد (بدالين) بوزن عمر ، ويقال آخره راء ، ويقال : قدن (بفتحتين ونون) .
(٢) كذا فى الأصول والإصابة ، وفى الطبقات : « ألف » بدل « كف » . وبعد البيتين :
وإن آمرأ فارقته عند يثرب * لخير نصيح من معد وحمير
(٣) الحرب ، مؤنثة وقد تذكر ؛ إذا أريد بها القتال . (٤) الهدّة : موضع بين مكة والطائف . (٥) كذا فى جـ . ومثله فى الإصابة وأسد الغابة والطبقات وشرح القاموس ، وفى أ : « المقنع » . (٦) ألف أقرع : أى تام . يقال : سقت إليك ألفا أقرع من الخيل وغيرها أي تاما ، وهو نعت لكل ألف . (اللسان مادة قرع) .

وحكى أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة خَنْساء بنت عمرو بن الشّريد السُّلَمِيّة الشاعرة — واسمها تُماضِر بنت عمرو بن الشّريد بن رَبَاح بن ثَعلبة بن عُصَيّة بن خُفاف بن امرئ القيس بن بُهْثَة بن سُلَيم — أنها قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها من بنى سليم فأسلمت معهم . قال : فذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستنشدها ، ويُعجبه شعرُها ، فكانت تُنْشِدُه ، وهو يقول : « هِيهِ[1] يا خُناس » ويُومِئ[2] بيده . وشهدتْ الخَنْساءُ القادسيّة مع بنيها الأربعة . وسنذكر إن شاء الله خبرها معهم يوم القادسية ، ووَصيتَها لهم فى الحرب فى خلافة عمر بن الخطاب ، عند ذكرنا لفتح القادسية .

ذكر وَفْد دَوْس[3]

قالوا : لمّا أسلم الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوْسىّ — كما تقدم — دعا قومه فأسلموا، وقدِمَ معه منهم المدينةَ سبعون أو ثمانون أهْلَ بَيْت . وفيهم أبو هريرة وعبد الله ابن أُزَيْهِر الدَّوْسىّ ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخَيْبر، فساروا إليه فلقُوه هناك ، فيقال : إنه قَسَم لهم من غَنائم خَيْبَر ، ثم قدموا معه المدينة . فقال الطُّفَيْل ابن عمرو : يا رسول الله ! لا تُفَرِّق بينى وبين قومى ، فأنزلهم حَرّة[4] الدَّجاج ، فقال أبو هريرة حين خرج من دار قومه :

(١) هيه : بكسر الهاء الثانية والفتح فى موضع «إيه» فأبدل من الهمزة هاء . و «إيه» اسم سمى به الفعل ومعناه الأمر ؛ تقول للرجل «إيه» بغير تنوين إذا استزدته من الحديث المعهود بينكما ، فإن نونت استزدته من حديث ما .

(٢) الإيماء : الإشارة بالأعضاء .

(٣) دوس : قبيلة أبى هريرة ، ينسبون إلى جدهم دوس بن عدنان بن عبد الله ، ينتهى نسبهم إلى الأزد . فدوس مصروف لأنه فى الأصل علم لمذكر . (المواهب) .

(٤) كذا فى الأصول والطبقات . ولم نقف على اسم هذه الحرة فيما لدينا من مراجع .

يا طُولَها مِنْ لَيْلَةٍ وعَنائِها * على أنَّها[1] مِنْ بَلْدَةِ الكُفْرِ نَجَّتِ

وقال عبد الله بن أُزَيْهِر : يا رسول الله ! إن لى فى قومى سُلْطة ومكانا فاجعلنى عليهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أخا دوس ، إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً ، فمن صدَق اللهَ نجا ، ومن آلَ إلى غير ذلك هلك . إن أعظَم قومِك ثوابا أعظمُهم صِدْقًا ، ويوشِك الحقّ أن يَغْلب الباطلَ » .

وروى أبو عمر بسنده إلى محمد بن سِيرِين أنه قال : بلغنى أنّ دوسًا إنّما أسلمتْ فَرَقا من قول كعب بن مالك الأنصارى الخَزْرَجى :

قَضَيْنا مِن تِهامَةَ كُلَّ وِتْرٍ * وخَيْبَرَ ثم أغْمَدْنا السُّيُوفا[2]

١١/١٦

نُخَيِّرها ولَوْ نَطَقَتْ لَقالَتْ * قَواطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفا

[فقالت دَوْسٌ : انطَلِقوا فخُذُوا لأنفُسِكم لا يَنْزِلُ بِكُمْ ما نَزَل بثَقِيف[3]] .

ذكر وفد أَسْلَم

قالوا : قَدِم عُمَيْر بن أَفْصَى فى عِصابة من أَسْلم ، فقالوا : لقد آمنا بالله ورسوله ، واتّبعنا مِنْهاجك ، فاجعلْ لنا عندك منزلة ، تعرفُ العربُ فضيلتَنا ، فإنّا إخْوَةُ الأنْصار ، ولك علينا الوَفاءُ ، والنَّصْر فى الشِّدّة والرّخاء ، فقال رسول

(١) فى الأصول : « أنه » وما أثبتناه عن البخارى والطبقات ، والبيت هكذا روى .
وتعقبه الكرمانى بأنه لابد من إثبات فاء أو واو فى أوّله ليصير موزونا ، وتعقب بأن هذا فى العروض يسمى الخرم . ويروى البيت أيضا :

يا ليلة من طولها وعنائها * على أنها من دارة الكفر نجت

(٢) تهامة : ما انخفض من أرض الحجاز . فى سيرة ابن هشام طبع أوربا : « كل ريب » .
والوتر : الثأر . نخيرها : نعطيها الخيرة ، والضمير للسيوف ؛ أى ولو نطقت السيوف لاختارت حرب دوس أو ثقيف . ويروى « أجمنا » بدل « أغمدنا » والمعنى أرحنا .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ا .

الله صلى الله عليه وسلم : « أَسْلَمَ سالَمَها الله ، وغِفارُ غفر الله لها » . وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَسْلَمَ ، ومَنْ أَسْلَمَ من قبائل العَرَب ممن يسْكُن السِّيفَ[1] والسَّهْل كتابا ، فيه ذكر الصدقة والفرائض فى المواشى . وكتب الصَّحيفة ثابت ابن قيس ، وشهد أبو عبيدة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهم .

ذكر وفد جُذام

قالوا : قدِم رِفاعةُ بن زيد بن عُمَيْر بن مَعْبَد الجُذامىّ[2] ، ثم أحد بنى الضُّبَيْب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهدنة قبل خيبر ، وأهْدَى له عبدًا وأسلم ، فكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ، فيه : «هذا كتاب من محمد رسول الله ، لرفاعة بن زيد إلى قومه ، ومن دخل معهم ، يدعوهم إلى الله ، فمن أقبل ففى حِزْب الله ، ومن أَبَى فله أمانُ شهرين» فأجابه قومُه وأسلموا . قال ابن إسحق وغيره : وبعث فَرْوة بن عمرو بن النّافِرة الجُذامىّ ، ثم النُّفَاثىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولًا بإسلامه ، وأهدى له بَغْلة بيضاء ، واسم رسوله مسعود بن سعد وهو من قومه ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابه ، وقبل هديتَه ، وأجاز رسوله باثنتى عشرة أُوقيةً ونَشٍّ[3] ، وكتب إلى فَرْوة جواب كتابه . وكان فَرْوة عاملًا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله مَعان[4] وما حولها من أرض الشام ، فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه فحبسوه عندهم ، فقال : فى مَحْبِسه ذلك :

---

(١) السيف (بكسر السين المشددة) : ساحل البحر .

(٢) الجذامىّ (بضم الجيم ، وبذال معجمة) : نسبة إلى قبيلة .

(٣) النش : نصف أوقية . (٤) معان (بضم الميم وفتحها) : مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء . (معجم البلدان) .

طَرَقَتْ سُلَيْمى مَوْهِنًا أصحابِي * والرُّومُ بين البابِ والقِرْوانِ (١)
صَدَّ الخيالُ وساءه ما قد رأى * وهَمَمْتُ أن أُغْفِي (٢) وقد أبكانِي
لا تَكْحُلِنَّ العينَ بعدىَ إثمدًا (٣) * سَلْمَى ولا تَدْنِنَّ للإتيانِ
ولقد عَلِمتَ أبا كُبَيْشَةَ أنَّنِي * وَسْطَ الأعزَّةِ لا يُحَصُّ (٤) لسانِي
فلَئِنْ هَلَكْتُ لَتَفقِدُنَّ أخاكُمُ * ولئن بَقِيتُ لَتَعرِفُنَّ مكانِي
ولقد جَمَعتُ أجلَّ ما جَمَعَ الفتى * من جَوْدةٍ وشَجاعةٍ وبيانِ

قال : فلما أجمعت الرُّومُ لصَلْبه على ماء لهم بفِلَسْطِين يقال له عَفْراء (٥) قال :

أَلَا هل أَتَى سَلْمَى بأنّ حَلِيلَها * على ماء عَفْرَا فوق إحدى الرَّواحِلِ (٦)
على ناقةٍ لَمْ يَضرِبِ الفَحْلُ أمَّها * مُشَذَّبةٍ أطرافُها بالمناجِلِ

قال : ولما قدّموه ليضربوا عنقه قال :

أَبْلِغْ سَرَاةَ المؤمنين بأنَّنِي * سَلْمٌ لِرَبِّي أَعْظُمِي ومَقَامِي

فضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء .

هذا ما تلخص لنا من أخبار مَن وَفَد بعد الهجرة وقبل الفتح، فلنذكر من وَفَد بعد الفتح .

---

(١) الموهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه . والقروان : يجوز أن يكون جمع قرو وهو حوض الماء مثل صنوان ، ويجوز أن يكون جمع قرىء مثل صليب وصلبان . (الروض الأنف) .

(٢) أغفى إغفاء أو إغفاءة : نام نوما خفيفا .

(٣) الإثمد : الكحل ، وقيل نوع منه . وفى الأصول : « تدين » وقد أثبتناه بالنون كما فى ابن إسحق .

(٤) لا يحص : لا يقطع .

(٥) قال فى المواهب : « عفراء » بفتح العين المهملة ، وإسكان الفاء ، وبالراء ممدود » . وفى الأصول من غير همز .

(٦) الحليل : الزوج . والرواحل فى الأصل : الإبل ، ويريد بإحدى الرواحل الخشبة التى صلبوه عليها .

ذكر من وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة شرّفها الله تعالى وعظمها

١٢/١٦ ولنبدأ من ذلك بذكر وفد ثَعْلَبة ؛ لأنه أوّل وفد كان بعد الفتح . ثم نذكر من وفد فى سنة تسعٍ من الهجرة وما بعدها ، ونورده نحو ما أورده أبو عبد الله محمد بن سعد فى طبقاته ، إلا أنا نستثنى منهم من قدّمنا ذكره بحكم سابقتهم ، وتقدّم إسلامهم .

ذكر وفد ثَعْلَبة

قال أبو عبد الله محمد بن سعد رحمه الله : لمّا قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجِعْرانة[1] ، فى سنة ثمانٍ من الهجرة ، قدِم عليه أربعة نَفَر ، وقالوا : نحن رُسل مَن خَلْفنا من قومنا ، ونحن وهم مُقِرّون بالإسلام ، فأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضيافةٍ ، وأقاموا أيامًا ثم جاءوا ليودّعوه فأمر بلالًا أن يُجيزهم ، كما يُجيز الوفد ، فجاء بنُقَرٍ[2] من فِضّة فأعطى كل رجل منهم خمس أواقٍ ، وقال : « ليس عندنا دراهم » وانصرفوا إلى بلادهم .

ذكر وفد أَسَد

قال محمد بن سعد : قدِم عشرة رَهْط من بنى أَسَد بن خُزَيمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أوّل سنة تسع من الهجرة ، فيهم حَضْرمىّ بن عامر ، وضِرار ابن الأَزْور ، فقال حَضْرَمىّ : يا رسول الله ! أتيناك نَتَدرّع الليلَ البهيم[3] ، فى سنة

(١) الجعرانة (بكسر الجيم و إسكان العين ، وقد تكسر العين وتشدّد الراء) : ماء بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب . (٢) النقر (جمع نقرة) : سبيكة الذهب والفضة .

(٣) تدرع فلان الليل وادرع ؛ إذا وصل فى ظلمته يسرى ، كأنه لبس ظلمة الليل فاستتر به .

شَهْباء[1]، ولم تَبْعث إلينا بَعْثا، فنزل فيهم قوله عز وجل : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

قال : وكان معهم قوم من بَنِي الزِّنْية وهم بنو مالك بن مالك بن ثَعْلبة بن دُودان ابن أَسَد، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم بنو الرِّشْدة » .

٥ وقال أبو إسحق أحمد بن محمد الثعلبيّ رحمه الله : إنّ نفرا من بنى أَسَد، ثم من بنى الحلاف[3] بن الحارث بن سعيد، قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى سنة جَدْبة ، فأظهروا شهادة أن لا إله إلا الله ، ولم يكونوا مؤمنين فى السِّر، وأفسدوا طرق المدينة بالعَذِرات ، وأغلَوا أسعارها ، وكانوا يَغْدون ويَرُوحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : أتتك العرب بأنفسها، على ظهور ١٠ رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذَّراريّ — يَمُنُّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان. ويريدون الصَّدَقة، ويقولون: أعطِنا . فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[4] الآيات . وقيل : نزلت فى الأعراب : مُزَيْنة، وجُهَيْنة، وأَسْلَم، وأَشْجَع ، وغِفَار . وكانوا يقولون : آمنّا بالله ؛ ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما ١٥ استنفروا إلى الحُدَيْبية تخلّفوا، فأنزل الله فيهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أى آنقدنا وآستسلمنا مخافة القتل والسَّبْى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فأخبر تعالى أن حقيقة الإيمان التصديق بالقلب ، وأن الإقرار باللسان، وإظهار شرائعه بالأبدان، لا يكون إيمانا دون الإخلاص الذى محلّه القلب.

---

(١) سنة شهباء : ذات قحط وجدب .

٢٠ (٢) آية ١٧ سورة الحجرات . (٣) كذا فى الأصول، وفى المقتضب لياقوت الورقة ٣١ : « وولد سعد بن ثعلبة بن دودان الحارث وهو الحلاف » . (٤) آية ١٤ سورة الحجرات .

ذكر وفد تميم

قال أبو عبد الله محمد بن سعد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث بِشْر بن سفيان . ويقال : النَّحَّام[1] العَدَوِىّ على صَدَقات بنى كعب من خُزَاعة ، بفاء وقد حَلَّ بنواحيهم بنو عمرو بن جُنْدب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فجمعت خُزَاعة مواشيها للصدقة ، فاستنكرت ذلك بنو تميم ، وأبوا وٱبتدروا القِسِىّ ، وشهروا السّيوف ، فقدِم المُصَدِّق[2] على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره[3] ؛ فقال : « مَن لهؤلاء القوم » ؟ فانتدب لهم عُيَيْنة بن حِصْن ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خمسين فارسا من العرب ، ليس فيهم مهاجرىّ ولا أنصارىّ فأغار عليهم ، فأخذ منهم أحد عشر رجلا ، وإحدى عشرة ٱمرأة ، وثلاثين صبيا ، فجلبهم إلى المدينة ، فقدم فيهم عِدّة من رؤساء بنى تميم ، منهم عُطَارد بن حاجب ، والزِّبْرِقان بن بَدْر ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن سعد ، والأقرع بن حابس ، ورياح ابن الحارث ، وعمرو بن الأهتم ، وغيرهم كما ذكرنا ذلك فى الغَزَوات فى خبر سَرِيّة عُيَيْنة . قال ويقال : كانوا تسعين أو ثمانين رجلا .

قال ابن إسحق : والحُتَات بن يزيد أحد بنى دَارِم . قال : ومعهم عُيَينة بن حِصْن بن حُذَيفة بن بَدْر الفَزَارِىّ ، قالوا : فدخلوا المسجد وقد أذّن بلالٌ بالظهر ؛ والناس ينتظرون خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعجلوا واستبطئوه ، فنادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حُجُراته : يا محمد ! ٱخرج إلينا . فخرج رسول

١٣/١٦

(١) النحام : لقب نعيم بن عبد الله ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « دخلت الجنة فسمعت نحمة من نعيم » أى سعلة .

(٢) المصدق : عامل الزكاة الذى يستوفيها من أربابها .

(٣) فى الأصول : « فأخبروه » والمقام يقتضى الإفراد كما فى طبقات ابن سعد .

١٣/١٦ الله صلى الله عليه وسلم، وأقام بلال[(١)]، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر، ثم أتوه؛ فقال الأقرع بن حابس : يا محمد ، آيذن لى، فوالله إنّ حَمْدى لَزَيْنٌ، وإنّ ذَمِّى لَشَيْنٌ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كَذبتَ، ذاكَ الله تبارك وتعالى» . حكاه ابن سعد .

٥ وحكى محمد بن إسحق أنهم قالوا : يا محمد ، جئناك لنفاخرك ، فأْذن لشاعرنا وخطيبنا . قال : «قد أذِنتُ لخطيبكم فليقل» ، فقام عُطَارد بن حاجب، فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضلُ والمنُّ؛ وهو أهله الذى جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عِظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهلِ المشرق وأكثرَه عددا ، وأيسرَه عُدّة، فمَنْ مثلنا فى الناس؟ ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا ١٠ فليعدِّد مثل ما عَدَّدنا ، وإنّا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنّا نحيا[(٢)] من الإكثار فيما أعطانا ، وأنّا نُعرف [بذلك][(٣)] . أقول هذا[(٤)] لأن تأتونا بمثل قولنا ، وأمرٍ أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قَيْس بن الشَّمّاس أخى بنى الحارث ابن الخَزْرج : «قُم فأجب الرجل فى خُطْبته» . فقام ثابت فقال :

١٥ الحمد لله الذى السمواتُ والأرضُ خَلْقُه ، قضى فيهنّ أمرَه ، ووَسِع كرسيُّه علمَه، ولم يك شىء قطّ إلا من فضله ، وكان من قُدْرته أن جَعَلنا ملوكا، واصطفى من خير خَلْقه رسولاً ، أكرمه نَسباً، وأصدقه حديثًا ، وأفضله حَسَبًا، فأنزل عليه

(١) أى أقام الصلاة .

(٢) نحيا هنا بمعنى نستحيي ، من الحياء .

٢٠ (٣) زيادة من سيرة ابن هشام .

(٤) فى ابن هشام : «لأن تأتوا» .

كتابه ، وآئتمنه على [خلقه](١)] فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوى رحمه ؛ أكرم الناس أحسابًا ، وأحسن الناس وجوهًا ، وخير الناس فِعالاً . ثم كان أوّلَ الخلق إجابة ، وآستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ؛ فنحن أنصار الله ، ووزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله مَنع مالَه ودمَه ، ومن كَفر جاهدناه فى الله أبدًا ، وكان قتلُه علينا يسيرا .

أقول هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات . والسلام عليكم .

فقام الزِّبْرِقان بن بَدْر ، فقال :

نحن الكرام فلا حىٌّ يعادلنا * مِنّا الملوكُ وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ(٢)

[ويروى : « وفينا يُقْسَمُ الرُّبُعُ » ، بدل « تُنْصَب البِيَعُ(٣) »] .

وكَمْ قَسَرْنا من الأحياءِ كُلِّهِمُ * عند النِّهابِ وفَضْلُ العِزِّ يُتَّبَعُ

ونحن يُطْعِم عند القَحْطِ مُطْعِمُنا * من السَّوَاءِ إذا لم يُؤْنَس القَزَعُ(٤)

بما تَرَى الناسَ تأتينا سَرَاتُهُمُ * من كلِّ أرضٍ هُوِيًّا ثم نَصْطَنِعُ(٥)

[ويروى : * مِن كلِّ أرضٍ هَوانًا ثم نُتَّبَعُ(٣) *]

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام .

(٢) البيع (جمع بيعة بالكسر) : كنيسة النصارى ، وقيل كنيسة اليهود . والمراد هنا مواضع العبادة .

(٣) ما بين المربعين فى جـ ، وابن إسحق . والربع : ربع الغنيمة التى كان يأخذها الرئيس فى الجاهلية إذا غزا بعضهم بعضا .

(٤) القزع : قطع من السحاب رقاق . يريد إذا لم تمطرهم السماء فأجدبت أرضهم أطعم مطعمهم .

(٥) الهوى (بضم الهاء) : الإسراع فى السير . وسراة الناس هنا : ذروتهم وسنامهم وليس جمع سرى كما قال فى الروض الأنف .

فَنَنْحَرُ الْكُومَ عُبْطًا فى أَرُومَتِنا * للنَّازِلِين إذا ما أُنْزِلُوا شَبِعُوا[1]
فلا تَرانا إلى حَىٍّ نُفاخِرُهُمْ * إلّا آستقادوا وكانوا الرأسَ يُقْتَطَعُ
فَمَنْ يُفاخِرُنا فى ذاكَ نَعْرِفُهُ * فيرجِعُ القومُ والأخبارُ تُسْتَمَعُ
إنّا أَبَيْنا ولم يأبَى[2] لنا أحدٌ * إنّا كذلك عند الفخرِ نَرْتَفِعُ

قال محمد بن إسحق : وكان حسانُ بن ثابت غائبا ، فبعث إليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم ، فقال حسان : جاءنى رسولُه فأخبرنى أنه إنما دعانى لأجيب شاعر بنى تميم ، فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول :

مَنَعْنا رسولَ اللهِ إذ حَلَّ وَسْطَنا * على أَنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ
مَنَعْناه لَمَّا حَلَّ بين بُيُوتِنا * بأسيافِنا مِن كلِّ باغٍ وظالِمِ
بِبَيْتٍ حَرِيدٍ عِزُّه وثَراؤُهُ * بجابيةِ الجَوْلانِ وَسْطَ الأعاجِمِ[3]
هل المجدُ إلّا السُّودُدُ[4] العَوْدُ والنَّدَى * وجاهُ المُلوكِ وآحتمالُ العظائمِ

قال : فلما آنتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام شاعرُ القوم فقال ما قال ، عَرِضتُ فى قوله وقلتُ على نحو ما قال . قال : ولما فرغ الزِّبْرِقان من إنشاده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسّان بن ثابت : « قُمْ فأجب الرجلَ » فقام حسّان فقال :

١٤/١٦

(١) الكوم (جمع كوماء) : الناقة العظيمة السنام . وعبطا : أى تنحر لغير علة . وفى أرومتنا : أى هذا الكرم متأصل فينا .

(٢) لم يحذف حرف العلة لضرورة الشعر . وفى ابن إسحق طبع أوربا والحلبى « ولا يأبى » .

(٣) البيت الحريد : المنفرد عن البيوت لعزته . جابية الجولان : قرية من أعمال دمشق . يريد نزول النبى صلى الله عليه وسلم وسط حى من الأنصار ، يتصل نسبهم بالغساسنة وهم ملوك الشام ، وسيعود إلى هذا المعنى فيما بعد .

(٤) السودد العود : القديم .

إنّ الذّوائبَ من فِهْرٍ و إخوتهم * قَــدْ بيّنوا سُـنّةً للناسِ تُتّبَــعُ (١)
يَرْضَى بها كُلُّ من كانت سَرِيرَتُهُ * تَقْوَى الإلهِ وكُلُّ الخيرِ يَصْطَنِعُ (٢)

[ويروى :

يَرْضَى بها كُلُّ مَنْ كانت سَرِيرَتُهُ * تَقْوَى الإلهِ و بالأمرِ الذى شَرَعُوا (٣)]

قَــومٌ إذا حاربُوا ضَرُّوا عَدوَّهــمُ * أو حاولُوا النَّفْعَ فى أَشْياعِهِمْ نَفَعُوا (٤)
سَجِيَّــةٌ تلكَ منهم غيرُ مُحْــدَثةٍ * إنّ الخلائقَ فاعلم شَرُّها البِــدَعُ (٥)
إنْ كان فى الناسِ سبّاقُون بَعْدَهُمُ * فكُلُّ سـبقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَــعُ
لا يَرْقَعُ النّــاسُ ما أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ * عنــدَ الرِّقاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا (٦)
إنْ سابَقُوا النّاسَ يومًا فاز سَبْقُهُمُ * أو وازَنُوا أهلَ مَجْــدٍ بالذُّرَى مَتَعُوا (٧)
أَعِفّــةٌ ذُكِرَتْ فى الْوَحْى عِفّتُهُمْ * لا يَطْبَعُونَ ولا يُرْدِيهِمُ طَمَعُ (٨)

(١) الذوائب : الأعالى ، والمراد هنا السادة . وفهر أصل قريش ، وهو فهر بن غالب بن النضر ابن كنانة ، وقريش كلهم ينسبون إليه . ولعله يريد بإخوة فهر الأنصار ، وبالذوائب من فهر المهاجرين . ولك أن تجعل « و إخوتهم » عطفا على الذوائب والمراد بإخوتهم الأنصار .

(٢) السريرة كالسر والسر ما أخفيت ؛ والمعنى أن سنتهم التى بينوها للناس يرضى بها كل من أسر تقوى الإله واصطناع المعروف ، أو بالأمر الذى شرعوه للناس على الرواية الثانية .

(٣) ما بين المربعين فى ج وكذا رواه ابن إسحق بعد انتهاء القصيدة .

(٤) الأشياع (جمع شيعة) : وهم الأنصار والأتباع .

(٥) السجية : الغريزة . والخلائق : جمع خليقة وهى الطبيعة هنا . والبدع : جمع بدعة ، والمراد بها مستحدثات الأخلاق لا ما هو كالغرائز فيها .

(٦) أوهت : شقت وفتقت . يقول : إننا أعزة .

(٧) الذرى : جمع ذروة وهى من كل شىء أعلاه ، والمراد هنا الشرف والعلاء . ويروى «بالندى» وفى أ : بالورى ، ولعله تصحيف . ومتعوا : زادوا ؛ من متع النهار يمتع متوعا ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه .

(٨) لا يطبعون : لا يتدنسون ، ومنه الحديث : « أعوذ بالله من طمع يهدى إلى طبع » أى يؤدى إلى شين وعيب .

لا يَبْخَلُون على جارٍ بفضلِهِمُ * ولا يَمَسُّهُمُ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ (١)

إذا نَصَبْنَا لِحَيٍّ لا نَدِبُّ لَهُمْ * كما يَدِبُّ إلى الوَحْشِيَّةِ الذَّرَعُ (٢)

نَسْمُو إذا الحربُ نالتنا مَخَالِبُها * إذا الزَّعانِفُ من أظفارها خَشَعُوا (٣)

لا يَفْخَرُون إذا نالوا عَدُوَّهُمُ * وإنْ أُصِيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ (٤)

٥ كأنَّهُمْ فى الوَغَى والموتُ مُكْتَنِعٌ * أُسْدٌ بِحَلْيَةَ فى أَرْسَاغِها فَدَعُ (٥)

خُذْ مِنْهُمُ ما أَتَى عَفْوًا إذا غَضِبُوا * ولا يَكُنْ هَمُّكَ الأمرَ الذى مَنَعُوا (٦)

فإنَّ فى حَرْبِهِمْ فاتركْ عَداوَتَهُمْ * شَرًّا يُخَاضُ عليهِ السَّمُّ والسَّلَعُ (٧)

أَكْرِمْ بِقومٍ رسولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ * إذا تَفَاوَتِتِ الأهواءُ والشِّيَعُ (٨)

أَهْدَى لهم مِدْحَتِى قَلْبٌ يُؤازِرُهُ * فيما أُحِبُّ لِسانٌ حائكٌ صَنَعُ (٩)

١٠ فإنَّهم أَفْضَلُ الأحياءِ كلِّهِمُ * إنْ جَدَّ بالناسِ جِدُّ القولِ أو شَمَعُوا (١٠)

---

(١) الطبع : (بالتحريك) : الدنس والعيب .

(٢) نصبنا : أظهرنا الحرب والعداوة ولم نسرها . والذرع : ولد البقرة الوحشية . يقول : إذا حاربنا أعداءنا لا ندب إليهم كما يدب الذرع إلى الوحشية .

(٣) الزعانف من الناس : سفلتهم . وخشعوا : خضعوا .

١٥ (٤) الخور : الضعفاء . والهلع (ككتف) : الجازعون، المفرد هلوع .

(٥) الموت مكتنع : دان قريب . وحلية (بالفتح ثم السكون) : مأسدة بناحية اليمن . والرسغ مفصل ما بين الكف والذراع، وقيل : مجتمع الساقين والقدمين . والفدع : عوج وميل فى المفاصل كلها خلقة أوداء ، كأن المفاصل قد زالت عن مواضعها ، لا يستطاع بسطها معه ، وأكثر ما يكون فى الرسغ من اليد والقدم . (٦) عفوا : من غير مشقة . (٧) السلع : شجر مر،

٢٠ أو سم ، أو ضرب من الصبر ، أو بقلة خبيثة الطعم . (٨) معنى « شيعتهم » هنا : ناصرهم .

(٩) يقال : لسان صنع ، ورجل صنع اللسان ، يقال للشاعر ولكل بليغ ؛ والمعنى : يحسن القول ويجيده . (١٠) شمعوا : ضحكوا وهزلوا . والشموع من النساء : الضحوك اللعوب .

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام رحمه الله : حدّثنى بعض أهل العلم بالشعر من بنى تميم أن الزِّبْرِقان بن بَدْرٍ لمّا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد بنى تميم، قام فقال :

أتيناكَ كَيْما يَعْلَمَ الناسُ فَضْلَنا * إذا آختلفوا عِندَ آحتِضارِ المواسِمِ (١)
بِأنّا فروعُ الناسِ فى كلِّ مَوْطِنٍ * وأنْ ليس فى أرضِ الحجازِ كَدَارِمِ (٢)
وأنّا نَذُودُ المُعْلِمينَ إذا آنْتَخَوْا * ونَضرِبُ رأسَ الأَصْيَدِ المتفاقِمِ (٣)
وأنّ لنا المِرْباعَ فى كلِّ غارةٍ * نُغِيرُ بنجدٍ أو بِأرضِ الأعاجِمِ (٤)

فقام حسان بن ثابت فأجابه، فقال :

هَلِ المَجْدُ إلّا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدَى (٥) * وجاهُ المُلوكِ وآحتمالُ العَظائِمِ
نَصَرْنا وآوَيْنا النَّبِيَّ محمّدًا * على أَنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ
بِحَيٍّ حَرِيدٍ أصلُهُ وثَراؤُهُ (٦) * بِجابِيَةِ الجَوْلانِ وَسْطَ الأعاجِمِ
نَصَرْناه لَمّا حَلَّ وَسْطَ دِيارِنا * بأسيافِنا مِن كلِّ باغٍ وظالِمِ

---

(١) احتضر : حضر . المواسم (جمع موسم) : وهو المجتمع كموسم الحج .
(٢) فروع الناس : أشرافهم . ودارم : حى من تميم فيهم بيتها وشرفها .
(٣) نذود : ندفع . المعلمين : الذين يتخذون لأنفسهم علامة فى الحرب يعرفون بها وهم الشجعان . آنتخوا تعاظموا وتكبروا . الأصيد : الملك لا يلتفت من زهوه يمينا ولا شمالا، ورافع رأسه كبرا . المتفاقم : المتعاظم .
(٤) المرباع : ربع الغنيمة الذى يأخذه الرئيس . ونجد : بلاد العرب لمقابلته بأرض الأعاجم .
(٥) السودد العود : أى القديم . والندى : الجود والكرم .
(٦) فى ديوان حسان : « أصله وذماره » . والذمار، بالكسر : ما يلزم حفظه وحمايته .

جَعَلْنَا بَنِينَا دُونَهُ وَبَنَاتِنَا * وطِبْنَا له نَفْسًا بِفَيْءِ المَغَانِمِ (١)
ونحن ضَرَبْنَا النَّاسَ حتى تَتَابَعُوا * على دِينِهِ بالمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ (٢)
ونحن وَلَدْنَا من قريشٍ عظيمَها * وَلَدْنَا نبيَّ الخيرِ مِنْ آلِ هاشِمِ (٣)
بَنِي دارِمٍ لا تَفْخَرُوا إنَّ فخرَكُمْ * يَعُودُ وَبَالًا عند ذِكرِ المكارِمِ (٤)
هَبِلْتُم، علينا تَفْخَرُونَ وأنتمُ * لَنَا خَوَلٌ من بَيْنِ ظِئْرٍ وخادِمِ (٥)
فإنْ كُنتُمُ جِئْتُمْ لِحَقْنِ دِمائِكُمْ * وأموالِكُمْ أن تُقْسَمُوا فى المقاسِمِ
فلا تَجعلُوا للهِ نِدًّا وأَسْلِمُوا * ولا تَلْبَسُوا زِيًّا كَزِيِّ الأعاجِمِ (٦)
وأَفْضَلُ ما نِلْتُمْ مِنَ المجدِ والعُلَا * رِدافَتُنا عِندَ احْتِضارِ المَوَاسِمِ (٧)

١٥
١٦

قالوا: فلما فرغ حسّان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأَبِي، إنّ هذا الرجلَ لَمُؤَتًّى له (٨)، لخطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولشاعرُه أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ولهم أحلمُ منّا. ونزل فى وفد بنى تميم قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩).

(١) قال الراغب فى مفرداته: قيل للغنيمة التى لا يلحق فيها مشقة فىء. والغنيمة فى الأصل: ما أخذ حربا.

(٢) المرهفات الصوارم: السيوف التى تصرم الأعمار.

(٣) يشير حسان إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مولود من جدة من بنى النجار، وقيل: يشير إلى أن أم عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم كانت جارية من الأنصار.

(٤) الوبال وخامة العاقبة.

(٥) هبلتم، من هبلته أمه فقدته: يدعو عليهم. خول: رعاة وأتباع. الظئر: التى ترضع ولد غيرها.

(٦) الند: الشريك.

(٧) ردافة القوم: الذين هم تبع لهم. وهذا البيت غير موجود فى سيرة ابن هشام، وهو موجود فى ديوان حسان.

(٨) لمؤتى له: لموفق له.

(٩) آية ٤، ٥ من سورة الحجرات.

قال محمد بن سعد : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيس بن عاصم : « هـذا سيّدُ أهلِ الوَبَرِ » وردّ عليهم الأسرى والسَّبْى ، وأمر لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفد ؛ ثنتى عشرة أوقية ونَشًّا[1] ، وهى خمسمائة درهم .

قال ابن إسحق : وكان عَمرو بن الأهتم قد خَلَّفه القومُ فى ظُهْرهم[2] ، وكان أصغرهم سِنًّا ، فقال قيس بن عاصم ، وكان يبغض عمرو بن الأهتم : يا رسول الله ! إنه قد كان رجل منّا فى رِحالنا وهو غلام حَدَث ، وأَزْرى به ، فأعطاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطى القوم ، فبلغ عَمرو بن الأهتم ما قاله قيس فيه ؛ فقال :

ظَلِلْتَ مُفْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ[3] تَشْتُمُنِي * عِندَ النبيِّ فلَمْ تَصْدُقْ ولَمْ تُصِبِ
إنْ تَنْقُصونَا فإنَّ الرُّومَ[4] أَصْلُكُمُ * والرُّومُ لا تَمْلِكُ البغضاءَ للعَرَبِ
وإنَّ سُودَدَنَا عَوْدٌ وسُودَدُكم * مُؤَخَّرٌ عندَ أَصْلِ العَجْبِ والذَّنَبِ[5]

وروى أن الزِّبْرِقان فَخَر يومئذ فقال :

يا رسول الله ، أنا سيّدُ تميم ، والمطاعُ فيهم ، والمجابُ منهم ، آخذُ لهم بحقوقهم ، وأمنعُهم من الظّلم ، وهذا يعلم ذلك . وأشار إلى عَمرو بن الأهتم . فقال عَمرو : إنه شديدُ العارضة ، مانعٌ لجانبه ، مطاعٌ فى أَدَانيه . فقال الزِّبْرِقان : والله لقد كَذَب يا رسول الله ، وما منعه من أن يتكلم إلا الحسد .

---

(١) النش : نصف أوقية . (٢) فى ظهرهم : فى إبلهم .

(٣) الهلباء يعنى آسته ؛ يريد أنها كبيرة .

(٤) وذكر عن ابن الكلبى أنه إنما نسبه إلى الروم لأنه كان أحمر ؛ فيقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم نهاه ، وقال : « إن إسمعيل كان أحمر » . (حاشية نسخة جـ) .

(٥) العجب ، بالفتح : أصل الذنب .

فقال عَمرو : أنا أحسدك ؟! فو الله إنّكَ لَئيمُ الخال، حديثُ المال، أحمقُ الولد، مُبغضٌ فى العشيرة، واللهِ ما كذبتُ فى الأولى، ولقد صدقتُ فى الثانية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ من البيان لَسِحْرا » .

ذكر وفد فَزَارة

وٱستسقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم

قال ٱبن سعد : لمّا رجع رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم من تَبُوك، قدِم عليه وفدُ بنى فَزَارة ، بضعة عشر رجلا ؛ فيهم خارجةُ بن حِصْن ، والحُرُّ ابن قيس بن حِصْن ، وهو أصغرهم، على رِكابٍ عِجافٍ، فجاءوا مُقِرّين بالإسلام . وسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بلادهم ، فقالوا : يا رسول الله ، أَسْنَتَتْ بلادُنا ، وهَلَكَتْ[1] مواشينا ، وأَجْدَبَ جَنابُنا ، وغَرِثَتْ[2] عِيالُنا ، فادعُ لنا ربك . فصعد رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم المِنبر ودعا، فقال : « اللّهمّ ٱسْقِ بلادَكَ وبهائمَكَ، وٱنشر رحمتَكَ، فأَحْيِ بلدَكَ الميت، اللهم ٱسقنا غَيْثًا مُغِيثًا[3]، مَرِيئًا[4] مَرِيعًا[5]، مُطْبِقًا[6] واسعًا ، عاجلًا غيرَ آجل ، نافعًا غيرَ ضارّ . اللّهمّ ٱسْقِنا سُقْيا رَحمةٍ، لا سُقْيا عذابٍ ولا هَدْمٍ ولا غَرَقٍ ولا مَحْقٍ . اللّهمّ ٱسْقِنا الغيثَ وٱنصرنا على الأعداء » فَمَطرت، فما رَأَوا السماءَ سِتًّا[7] ، فصَعِد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المِنبر ، فدعا ، فقال : « اللّهمّ حَوَالَيْنا ولا عَلَيْنا، على الآكامِ والظِّرابِ[8]، وبُطونِ الأودية، ومَنابِتِ الشَّجَر» . قال : فانجابت[9] السماءُ عن المدينة ٱنجياب الثوب .

(١) أسنتت : أجدبت لقلة المطر . (٢) غرث : جاع . (٣) غيث مغيث : عام النفع .
(٤) مرىء : هنىء . (٥) مريع : مخصب . (٦) غيث مطبق : عام .
(٧) ستا أى ستة أيام ، وفى رواية سبتا أى أسبوعا . قال القسطلانى : ولا تنافى بين الروايتين .
(٨) الآكام والظراب : الروابى والمرتفعات . (٩) انجابت السماء : انكشفت .

وفى صحيح البخارىّ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أصابت النـاسَ سـنةٌ[(١)] على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم يخطب على المنبر يوم الجمعة، قام أعرابى فقال : يارسول الله، هَلَك المـالُ،وجاع العيالُ، فادع الله لنـا أَنْ يَسْقِينَا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسـلم يديه ، وما فى السماء قَزَعةُ[(٢)] سحابٍ ، قال : فثار[(٣)] سحابٌ أمثالُ الجبال ، ثم لَمْ ينزل عن مِنبره حتى رأيتُ المطر يَتحادر على لحيته، قال : فمُطِرنا يومَنا ذلك، ومن الغد، ومن بعد [الغَد[(٤)]] والذى يليه إلى الجمعة الأخرى . فقام ذلك الأعرابى — أو رجلٌ غيره[(٥)] — فقال : يا رسول الله ، تَهدّمَ البناءُ ، وغَرِق المـالُ ، فادع الله لنـا ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ، فقال : « اللّهمّ حَوَالَيْنا ولا عَلَيْنا » قال : فما جعل يُشِير بيديه إلى ناحية من السماء إلّا تَفَرَّجت[(٦)]، حتى صارت المدينة فى مثل الجَوْبة[(٧)]، حتى سال الوادى وادى قَناة[(٨)] شهرا . قال : فلم يأت أحدٌ من جهة إلا حَدَّث بالجَود[(٩)].

١٦
١٦

ذكر وفد مُرَّة

قال : قـدِم وفدُ بنى مُرَّة على رسول الله صلى الله عليـه وسلم عند مَرْجِعه من تَبُوك فى سنة تسعٍ ، وهم ثلاثة عشر رجلا ، رأسهم الحارث بن عوف ؛ فقالوا : يا رسـول الله ، إنّا قومُك وعشيرتُك، ونحن قوم من لُؤَىّ بن غالب . فتبسّم

(١) سنة (بفتح السين) : أى جدب وقحط . (٢) قزعة : قطعة من الغيم .
(٣) ثار : هاج . (٤) الزيادة من صحيح البخارى .
(٥) هذا تردد من الراوى يدل على عدم التذكر . (٦) تفرجت : تقطع السحاب ، وفيه دلالة على عظم معجزته صلى الله عليه وسلم . (٧) الجوبة : الحفرة المستديرة الواسعة ؛ أى انجاب السحاب عن المدينة ، وصار مستديرا حواليها ، وهى خالية منه .
(٨) وادى قناة : واد من أودية المدينة عليه حرث ومزارع . (٩) الجود : المطر الكثير .

رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال : « أين تركتَ أهلَك » ؟ قال : بسَلاح[1] وما والاها . قال : « كيف تركتَ البلاد » ؟ قال : واللهِ إنا لَمُسْنِتون[2]، فادع الله لنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللّهمّ اسقِهم الغيثَ » وأمر بلالًا أنْ يُجيزهم، فأجازهم بعشرة أواقٍ، عشرةِ أواقٍ فضّة ، وفَضَّل الحارثَ بن عوف، أعطاه ثنتي عشرةَ أوقيةً . فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد مُطِرت فى اليوم الذى دعا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر وفد مُحَارب

قال : قَدِم وفد مُحَارب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة عشر ، فى حجّة الوَداع ، وهم عشرة نَفَر، منهم سَواء بن الحارث، وابنه خُزَيمة بن سَواء، فأُنزلوا دارَ رَمْلة بنت الحارث ، وكان بلال يأتيهم بغَداء وعَشَاء ؛ فأسلموا وقالوا : نحن على مَن وراءنا ، ولم يكن أحد فى تلك المواسم أفظَّ ولا أغلظَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مُحَارب . قال : ومَسَح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وجهَ خُزَيمة[3] بن سَواء ، فصارت له غُرّة بيضاء ، وأجازهم كما يُجيز الوفد ، وانصرفوا إلى أهليهم .

ذكر وفد كِلاب

قال : قَدِم وفدُ كِلاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسعٍ من الهجرة ، وهم ثلاثة عشر رجلا ، فيهم لَبِيد بن ربيعة ، وجَبّار بن سَلْمى ، فأنزلهم

(١) سلاح : موضع أسفل من خيبر، وماء أيضا لبنى كلاب .

(٢) مسنتون : أصابتهم سنة وقحط وأجدبوا .

(٣) أول الخبر أن خزيمة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى أبقانى حتى صدقت بك ، فقال رسول الله : إن هذه القلوب بيد الله، ومسح وجه خزيمة ... الخ .

دارَ رَمْلة بنت الحارث ، فقالوا : يا رسول الله، إنّ الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله ، وبسنّتك التى أمرتَه ، وأنه دعانا إلى الله ، فاستجبنا لله ولرسوله ، وأنه أخذ الصَّدَقة من أغنيائنا فردّها على فقرائنا .

ذكر وفد رُؤاس بن كلاب

رُوِى عن أبى نُفَيْع طارق بن عَلْقمة الرؤاسىّ أنه قال : قَدِم رجلٌ منّا يقال له عمرو بن مالك بن قيس الرُّؤاسىّ على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم ، ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : حتى نُصيب من بنى عُقَيل بن كعب مثل ما أصابوا منّا ، فخرجوا يريدونهم ، وخرج معهم عمرو بن مالك فأصابوا فيهم ، ثم خرجوا يسوقون النَّعَم ، فأدركهم فارسٌ من بنى عُقَيل ، يقال له ربيعة بن المُنْتَفِق بن عامر ابن عُقَيل ، وهو يقول :

أَقْسَمتُ لا أَطْعَنُ إلّا فارسَا * إذا الكُمَاةُ لَبِسُوا القَوانِسَا (١)

قال أبو نُفَيع : فقلتُ نجوتُم يا معشر الرِّجّالة سائرَ اليوم ، فأدرك العُقَيْلىُّ رجلًا من بنى عبيد بن رُؤَاس : يقال له المُحَرِّش بن عبد الله بن عمرو بن عبيد بن رُؤَاس ، فطعنه فى عَضُده فأخبلها (٢) ، فاعتنق المُحَرِّش فرسَه ، وقال : يا آل رؤاس ! فقال ربيعة : رُؤاسٌ خيلٌ أو أُنَاس ؟ ! فعطَف على ربيعة عَمرو بن مالك فطعنه فقتله . قال : ثم خرجنا نسوق النَّعَم ، وأقبل بنو عُقَيل فى طلبنا حتى انتهينا إلى تُرْبَة (٣) ، فقطع ما بيننا وبينهم وادى تُرَبَة ، فجعل بنو عُقَيل ينظرون إلينا فلا يصلون

(١) القوانس : بيضات الحديد تلبس فى الحرب .

(٢) الخبل : فساد الأعضاء .

(٣) تربة (بالضم ثم الفتح) : واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها .

إلى شيء فمضينا . قال عمرو بن مالك : فأسقط فى يدى ، وقلت : قتلتُ رجلا ، وقد أسلمتُ وبايعتُ النبي صلى الله عليه وسلم ! فشددتُ يدى فى غُلّ إلى عنق ، ثم خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغه ذلك ، فقال : «لئن أتانى لأضربنّ ما فوق الغُلّ من يده» قال : فأطلقت يدى ، ثم أتيتُه فسلّمتُ عليه ١٧/١٦ فأعرض عنّى فأتيته عن يمينه فأعرض عنّى ، فأتيته عن يساره فأعرض عنّى ، فأتيته من قبل وجهه ، فقلت : يا رسول الله ، إن الربّ ليُتَرَضَّى [فيَرْضَى](١) ، فأرض عنّى رضى الله عنك . قال : « قد رَضِيتُ عنك » .

ذِكر وفدِ عُقيلِ بنِ كعبٍ

قال محمد بن السّائب : حدّثنا رجل من بنى عُقَيل بن كعب ، عن أشياخ قومه ، قالوا : وَفَد منّا من بنى عُقَيل بن كعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ربيعُ ابن معاوية بن خَفَاجة بن عمرو بن عُقَيل ، ومُطَرِّف بن عبد الله ، وأنس بن قيس ابن المُنْتَفِق ، فبايعوا وأسلموا ، وبايعوه على مَن وراءهم من قومهم ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العَقِيق عَقِيق بنى عُقَيل ، وهى أرض فيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتابا فى أديم أحمر : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى محمد رسول الله رَبيعًا ومُطَرِّفا وأَنَسًا ، أعطاهم العَقِيق ما أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وسمعوا وأطاعوا » . ولم يعطهم حقّا لمسلم ، وكان الكتاب فى يد مُطَرِّف . ووفد عليه أيضا لَقِيط بن عامر بن المُنْتَفِق بن عامر بن عُقَيل ، فأعطاه ماء يقال له النَّظِيم وبايعه على قومه .

(١) الزيادة من الطبقات .

قال : وقدِم عليه أبو حرب بن خُوَيلد بن عامر بن عُقَيل ، فقرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليه القرآن، وعَرَض عليه الإسلام، فقال : أمَا وَايمُ اللهِ لقد لَقِيتُ اللهَ أو لقيتُ من لَقِيه ، فإنّك لتقولُ قولاً لا نُحْسن مثلَه ، ولكن سوف أضرب بقِداحى هذه على ما تدعونى إليه ، وعلى دِينى الذى أنا عليه، وضَرَب بالقِداح، فخرج على سهم الكفر ، ثم أعاد فخرج عليه ثلاث [مرّات][1] . فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أَبَى هذا إلّا ما تَرَى، ثم رجع إلى أخيه عِقَال[2] بن خُوَيلد، فقال له : قَلَّ خَيْسُكَ . أى قَلَّ خَيرُك . فقال : هل لك فى محمد ابن عبد الله ؟ يدعو إلى دين الإسلام ، و يقرأ القرآن، وقد أعطانى العَقِيق إن أنا أسلمتُ ، فقال له عِقَال : أنا والله أَخُطُّك أكثرَ مما يَخُطُّك محمد ، ثم ركب فرسه وجَرَّ رُمْحَه على أسفل العَقِيق، فأخذ أسفله وما فيه من عَيْن، ثم إنّ عِقَالا قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليه الإسلام ، وجعل يقول له : « أتشهد أن محمدا رسول الله » ؟ فيقول : أشهد أن هُبَيرة بن النَّفّاضة نِعم الفارسُ يوم قَرْنى لَبَان[3] . ثم قال : « أتشهد أن محمدا رسول الله » ؟ قال : « أشهد أنّ الصَّرِيح تَحْتَ الرُّغْوة[4] »، ثم قال له الثالثة : « أتشهد » ؟ قال : فشهد وأسلم .

(١) الزيادة من الطبقات .

(٢) ذكرته الإصابة « عفال » بالفاء وليس بصحيح .

(٣) قال ابن سعد فى الطبقات : « وابن النفاضة هبيرة بن معاوية بن عبادة بن عقيل ، ومعاوية هو فارس الهرار والهرار اسم فرسه ، ولبان . موضع » ، وقال فى معجم ياقوت : لبان بلدة بأرض مهرة بأقصى اليمن .

(٤) الصريح من اللبن المحض الخالص ، والرغوة الزبد ؛ وهذا مثل معناه : إن الأمر مغطى عليك ، وسيبدو لك .

قال : ثم قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحُصَين بن المُعَلَّى بن ربيعة ابن عُقَيل، وذو الجَوْشَن[1] الضِّبَابيّ فأسلما .

ذكر وفد جَعْدة

قال محمد بن سعد : وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم الرُّقَاد بن عمرو بن ربيعة بن جَعْدة بن كعب، فأعطاه صلى الله عليه وسلم بالفَلَج[2] ضَيْعة ، وكتب له كتابا وهو عندهم .

ذكر وفد قُشَيْر بن كعب

قال : وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم نَفَرٌ من بنى قُشَيْر، قبل حجة الوَداع وبعد حُنَين ، فيهم ثَوْر بن عَزْرة بن عبد الله بن سَلَمة بن قُشَيْر فأسلم، فأقطعه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قطيعةً[3]، وكتب له بها كتابا . وفيهم حَيْدة[4] بن معاوية ابن قُشَير، وفيهم قُرَّة بن هُبَيرة بن سَلَمة الخير بن قُشَير فأسلم، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكساه بُرْدا، وأمره أن يتصدّق على قومه؛ أى يَلِي الصدقة[5] .

---

(١) ذو الجوشن : آختلف فى اسمه فقيل أوس بن الأعور ، وقيل شرحبيل بن الأعور . وإنما قيل له ذو الجوشن لأن صدره كان ناتئا . (٢) الفلج : مدينة بأرض اليمامة .

(٣) فى أسد الغابة : أقطعه حمام والد وهما من العقيق .

(٤) فى الأصول : « جندة » وهو تصحيف وصوبناه عن الطبقات والإصابة والدلائل .

(٥) زاد ابن سعد فى الطبقات بعد هذا «فقال قرة حين رجع :

حباها رسول الله إذ نزلت به * وأمكنها من نائل غير منفد
فأضحت بروض الخير وهى حثيثة * وقد أنجحت حاجاتها من محمد
عليها فتى لا يردف الذم رحله * تروك لأمر العاجز المتردد»

ذكر وفد بنى البَكّاء

قال : وَفَد ثلاثة نَفَر من بنى البَكّاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع ، فيهم معاوية بن ثَوْر بن عُبَادة بن البَكّاء ، وهو يومئذ ابن مائة سنة ، ومعه ابن له يقال له بِشْر ، والفُجَيْع بن عبد الله ، ومعهم عبد عمرو البَكّائى وهو الأصمّ ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن ، وكتب له بمائه الذى أسلم عليه «ذِى القَصّة»[1] . وكان عبد الرحمن من أصحاب الصُّفّة[2] ، فأنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلٍ وضيافة ، وأجازهم ورجعوا إلى قومهم .

١٨/١٦ وقال معاوية للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى أتبرك بمسّك وقد كبرتُ ، وابنى هذا بَرٌّ بى فامسح وجهه ، فمسح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وجهَ بِشر بن معاوية ، وأعطاه أَعْنُزًا عُفْرًا[3] ، وبَرَّكَ عليهنّ[4] ، وكانت السَّنة[5] تُصيب بنى البَكّاء ولا تُصيبهم ، وفى ذلك يقول محمد بن بِشْر بن معاوية :

وأَبِى الذى مَسَحَ الرسولُ برأسه * ودعا له بالخير والبركات
أعطاه أحمدُ إذ أتاه أَعْنُزًا * عُفْرًا نواجل لَسْنَ بالجَبَّات[6]
يَملأْنَ رِفْدَ الحىِّ كلَّ عَشِيَّةٍ * ويعودُ ذاكَ المَلْءُ بالغَدَوات[7]
بُورِكْنَ مِنْ مَنْحٍ وبُورِكَ مانحًا * وعليه مِنِّى ما حَيِيتُ صَلاتِى[8]

(١) ذو القصة : اسم الجبل الذى فيه الماء والقصة هو الماء . صححه التاج .

(٢) أصحاب الصفة : هم فقراء المهاجرين ، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . والصفة : الظلة . (٣) ماعزة عفراء : خالصة البياض .

(٤) برك «بالتشديد» عليهن : دعا له بالبركة فيهن . (٥) السنة : الجدب والقحط .

(٦) نواجل : كريمة النسل . وفى الأصول والطبقات «ليس» بدل «لسن» وما أثبتناه عن ابن كثير فى البداية والنهاية . والجبات جمع لجبة : وهى النعجة والعنز التى قل لبنها .

(٧) الرفد : القدح الضخم . وفى الأصول والطبقات والبداية «وفد» ولعله تصحيف . وما أثبتناه عن الإصابة فى اسم « معاوية » . (٨) المنح : العطاء .

ذكر وفد كِنانة وبنى عبد بن عدىّ

قالوا: وَفَد واثِلَةُ بن الأَسْقَع الليثىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى تَبُوك، فصلّى معه الصّبح، فقال: «مَن أنت؟ وما جاء بك؟ وما حاجتك»؟ فأخبره عن نَسَبه، وقال: أتيتك لأومن بالله ورسوله؛ [فقال رسول الله:(١)] «فبايِعْ على ما أحْبَبتَ وكرِهتَ». فبايعه ورجع إلى أهله فأخبرهم؛ فقال أبوه: واللهِ لا أكلّمك كلمةً أبدا، وسمعت أخته كلامَه فأسلمت وجَهّزته، فخرج راجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجده قد سار إلى تَبُوك. فقال: مَنْ يَحملُنى عُقْبةً(٢) وله سَهْمى؟ فحمله كَعْب بن عُجْرة حتى لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد معه تَبُوك. وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِر، فجاء بسهمه(٣) إلى كَعْب بن عُجْرة، فأبى أن يقبله وسَوّغه إياه، وقال: إنما حملتك لله تعالى.

قال: وقَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وَفْد بنى عبد بن عَدِى، وفيهم الحارث بن أُهْبان، وعُوَيْمر بن الأَحْزَم، وحبيب وربيعة ابنا مَلّة، ومعهم رَهْط من قومهم؛ فقالوا: يا محمد، نحن أهل الحَرَم وساكنوه(٤)، وأعزّ من به، ونحن لا نريد قتالك، ولو قاتلتَ غير قريش قاتلنا معك، ولكنا لا نقاتل قريشا. وإنا لنحبك ومَن أنت منه، فإن أصبت منّا أحدا خطأ فعليك ديته، وإن أصبنا أحدا من أصحابك فعلينا ديته. فقال: «نعم» فأسلموا.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. والخبر فى أسد الغابة: فقال «ما جاء بك» قال: أبايع فقال رسول الله «على ما أحببت ...». الحديث.

(٢) عقبة: نوبة، وتعاقب المسافران على الدابة ركب كل واحد منهما عقبة.

(٣) كان أصاب ست فلائص فى هذه الغزوة. وأكيدر، تصغير أكدر: صاحب دومة الجندل.

(٤) فى أ: «وساكنه».

ذكر وفد باهِلة

قال : وقَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُطَرِّف بن الكاهِن الباهلىّ بعد الفتح وافدا لقومه ، فأسلم وأخذ لقومه أمانًا ، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فيه فرائض الصّدقات .

ثم قدم نَهْشَل بن مالك الوائلىّ من باهِلة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وافِدا لقومه ، فأسلم وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمن أسلم من قومه كتابا فيه شرائع الإسلام . كتبه عثمان بن عفّان .

ذكر وفد هلال بن عامر

قالوا : قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نَفَرٌ من بنى هلال ، فيهم عبد عوف بن أَصْرَم بن عمرو بن شُعَيْثة[1] فأسلم؛ فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله . وفيهم قُبَيصة بن المُخارق ، فقال : يا رسول الله ، إنّى حملت عن قومى حَمالة[2] فأَعِنّى فيها؛ قال : « هى لك فى الصَّدَقات إذا جاءت » .

قالوا : ووَفَد زياد بن عبد الله بن مالك ، فلما دخل المدينة ، توجه إلى منزل ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت خالة زياد — أمّه عَزَّة بنت الحارث ، وهو يومئذ شاب — فدخل النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو عندها ، فلما رآه غضب ورجع ، فقالت : يا رسول الله ، هذا ابن أختى ، فدخل إليها ثم خرج حتى أتى المسجد ومعه زياد ، فصلّى الظهر ، ثم أدنى زيادا فدعا له ، ووضع يده على رأسه ، ثم حَدَرها على طَرَف أنفه . فكانت بنو هلال تقول : مازلنا نَتَعرَّف البركة فى وجه زياد . قال الشاعر لعلىّ بن زياد :

١٩/١٦

(١) فى الأصول : شعبة . وما أثبتناه عن الإصابة ، قال : « وشعيثة بمعجمة ثم مهملة ثم مثلثة مصغر » .

(٢) حمالة : كفالة .

يَابْنَ الذى مَسَحَ النبىُّ برأسِهِ * ودعا له بالخير عنـــدَ المسجد
أَعْنِي زيادًا لا أريدُ سـواءهُ * من غائرٍ أو مُتْهِـــمٍ أو مُنْجِدِ (١)
ما زال ذاك النورُ فى عِرْنِينِهِ * حتى تَبوَّأَ بيتَـــهُ فى المَـلْحَدِ

ذكر وفد عامر بن صَعْصَعة

وخبر عامر بن الطفيل وأَرْبَد بن قيس

قال محمـد بن سعد : قـدِم عامر بن الطُّفَيل بن مالك بن جعفر بن كلاب، وأَرْبَد بن ربيعة بن مالك بن جعفـر . — قال ابن إسحق : وأَرْبَد بن قيس ابن جَزْء (٢) بن خالد بن جعفر، وجَبَّار بن سَلْمَى بن مالك بن جعفر — [على رسول الله صلى الله عليه وسلم] (٣) — . — قال ابن سعد — فقال عامر بن الطُّفَيل : يا محمد، مالى إنْ أسلمتُ ؟ قال : « لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم » . قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال : « ليس ذلك لك ولا لقومك » قال : أفتجعل لى الوَبَر ولك المَدَر (٤) ؟ قال : « لا، ولكنّى أجعل لك أعنّة الخيل، فإنك امرؤ فارس » . قال : أو ليست لى ؟ ! لأملأنها عليك خَيْلًا ورَجْلًا (٥) . ثم وَلَّيَا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهمّ اكفنيهما ، اللهمّ واهدِ بنى عامر وأغن الإسلام عن عامر » — يعنى ابن الطُّفَيل .

وقال ابن إسحق : قَدِم عامر بن الطُّفَيْل على رسـول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يريد الغدر به ، وقـد قال له قومه : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم ،

(١) غار الرجل : إذا سار فى بلاد الغور ، وأتهم : أتى أرض تهامة ، وأنجد : أتى أرض نجد . يريد البلاد كلها . (٢) فى الأصول : « جرير » وهو تصحيف ، والتصويب من سيرة ابن هشام وشرح القاموس مادة « جزأ » . (٣) تكملة من طبقات ابن سعد . (٤) عنى بالوبر أهل البوادى ، وهو من وبر الإبل لأن بيوتهم يتخذونها منه ، وبالمدر أهل المدن والقرى ، لأن مبانيها بالمدر ، وهو قطع الطين اليابس . (٥) فى ابن إسحق « ورجالا » والمعنى واحد .

فقال : والله لقد كنت آليتُ ألّا أنتهى حتّى تتبعَ العربُ عَقِبي ، وأنا أتبع عَقِب هذا الفتى من قريش ! ثم قال لأَرْبَد بن قيس : إذا قدِمنا على الرجل فإنى سأشغَل عنك وجهَه ، فإذا فعلتُ ذلك فأعْلُه بالسيف . فلما قَدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامر بن الطُّفَيل . يا محمد ، خالِنى[1] . قال : «لا والله حتى تؤمن بالله وحدَه» ، فجعل يكرر هذا القول ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد عليه مقالته ، وهو فى ذلك ينتظر من أَرْبَد ما أمره به ، فلم يصنع أَرْبَد شيئا ، وكان آخر ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لأملأنّها عليك خَيْلا ورَجْلا ، فلما وَلّى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اكفِنى عامر ابن الطُّفَيل » فلما خرجوا من عنده قال عامر لأَرْبد : ويلك ! أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندى على نفسى منك ، وأيمُ اللهِ لا أخافك بعد اليوم أبدا . قال له أَرْبَد : لا أبالَكَ ! لا تَعْجَل علىّ ، والله ما هَمَمْتُ بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلتَ بينى وبين الرجل ، حتى لا أرى غيركَ ! أفأضربك بالسيف ! قال : وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، بعث الله على عامر بن الطُّفَيل الطاعون فى عنقه ، فمال إلى بيت امرأة من بنى سَلُول ، فجعل يقول : يا بنى عامر ، غُدّة كغُدّة البِكْر ، وموتٌ فى بيت سَلُولِيّة[2] ! قال : ومات فواراه أصحابه ، وخرجوا حتى قدِموا أرض بنى عامر ، فأتاهم قومُهم فقالوا : ما وراءك يا أَرْبَد؟ فقال : لا شىء ، والله لقد

(١) خالنى ، بتشديد اللام ، اتخذنى خليلا وصاحبا ، من المخالة وهى الصداقة . ومن رواه بتخفيف اللام : فهو بمعنى تفرد لى خاليا حتى أتحدث معك . (شرح سيرة ابن هشام لأبى ذر) .

(٢) الغدّة : طاعون الإبل ، والبكر : الفتى منها . وإنما تأسف عامر أن لم يمت فى ميدان القتال كما يموت الشجعان ، كما تأسف أيضا على موته فى بيت سلولية ؛ لأن بنى سلول موصوفون عندهم باللؤم .

دعانا إلى عبادة شيء لوددتُ أنه عندى الآن فأرميه بالنَّبل حتى أقتله ، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه (١) ، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما .

وقال أبو إسحق أحمد بن محمد الثعلبيّ فى هذه القصة ، بسند يرفعه إلى عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : أقبل عامر بن الطُّفَيل وأَرْبَد بن ربيعة يريدان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بالمسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد فاستشرف (٢) الناسُ لجمال عامر ، وكان أعور ، وكان من أجمل الناس ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، هذا عامر ابن الطُّفَيل قد أقبل نحوك ، فقال : « دعه فإنْ يُرِدِ اللهُ به خيرا يَهْدِه » فأقبل حتى قام عليه . فقال : يا محمد ، مالى إن أسلمت ؟ فقال : « لك ما للمسلمين ، وعليك ما على المسلمين » . قال : تجعل لى الأمرَ بعدك ؟ قال : « ليس ذلك إلىّ ، إنما ذلك إلى الله عز وجل ، يجعله حيث يشاء » . قال تجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر ؟ . قال : « لا » . قال : فماذا تجعل لى ؟ قال : « أجعل لك أَعِنَّة الخيل تغزو عليها » . قال : أوليس ذلك لى اليوم ؟ ! قُمْ معى أكلِّمْك . فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أوصى إلى أَرْبَد بن ربيعة إذا رأيتَنى أُكلِّمه فَدُرْ مِن خَلْفه فاضربه بالسيف ؛ فجعل يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويراجعه ، فدار أَرْبَد خَلْف النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فاختطر من سيفه شِبرا ، ثم حبسه الله عزّ وجلّ عنه فلم يقدِر على سَلِّه ، وجعل عامر يومئ إليه ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى أَرْبَد وما يصنع بسيفه ، فقال : « اللهم

٢٠/١٦

(١) فى بعض نسخ ابن إسحق : « يتبعه » .

(٢) استشرف الشيء رفع بصره إليه ، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس .

أكفنيهما بما شئت » . فأرسل الله عزّ وجلّ على أَرْبَد صاعقة فى يوم صائف فأحرقته ، وولّى عامرٌ هاربا ، وقال : يا محمد ، دعوتَ ربّك فقتل أَرْبَد ، والله لأملأنّها عليك خيلا جُرْدًا[1] ، وفتيانا مُرْدًا[2] ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يمنعك الله ذلك وأبناء قَيْلة » يعنى الأوس والخزرج . فنزل عامر بيت امرأة سَلُولِيّة وأنشأ يقول :

تَخَيَّرْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنْ شِئْتَ وُدَّنا * وإنْ شِئْتَ حربًا ذاتَ بأسٍ ومَصْدَقِ
وإنْ شِئْتَ فِتيانًا بكفِّىَ أمرُهُمْ * يَكُبُّون كَبْشَ العارضِ المتألِّقِ

فلما أصبح ضَمَّ عليه سلاحَه ، وقد تغيّر لونه ، وهو يقول :

لَعَمْرِى وما عَمْرِى علىّ بهيِّنٍ * لقد شَانَ حُرَّ الوجهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ[3]
وقد عَلِمَ المَزْنُوقُ أنّى أَكُرُّهُ * على جَمْعِهِمْ كَرَّ المَنِيحِ المُشَهَّرِ[4]
إذا آزْوَرَّ من وقعِ السِّنانِ زجرتُهُ * وأخبرتُه أنّى امرؤٌ غيرُ مُقْصِرِ[5]
وأخبرته أنّ الفِرار خزايةٌ * على المرء ما لم يُبْدِ عُذْرًا فيُعذَرِ[6]
لقد عَلِمت عُلْيَا هَوازنَ أنّنى * أنا الفارس الحامِى حَقِيقةَ جعفرِ

(١) الأجرد من الخيل : القصير الشعر ، وذلك من علامات العتق والكرم .

(٢) المرد (جمع أمرد) ؛ وهو الشاب الذى لم تبد لحيته .

(٣) حر الوجه : ما أقبل عليك منه . ومسهر : هو مسهر بن يزيد الحارثى ، وهو الذى غدر بعامر ابن الطفيل وطعنه بالرمح ، ففلق وجنته وشق عينه .

(٤) المزنوق : اسم فرس عامر . والمنيح : يعنى القدح الذى يكثر به القداح ليس له غنم ولا عليه غرم ؛ كلما خرج ردّ حتى يخرج آخر القداح .

ويروى : * عشية فيف الريح كر المشهر *

وفيف الريح : مكان كانت الوقعة فيه .

(٥) آزورّ : عدل ومال إلى ناحية أخرى ؛ أى إذا مال عن الطعن رددته إليه .

ويروى : * وقلت له ارجع مقبلا غير مدبر *

(٦) خزاية : استحياء .

فجعل يركُض فى الصحراء ويقول : أبرز يا ملك الموتِ! ثم أنشأ يقول :

أَلَا قَرِّبَ المَزْنوقَ[1] إذ جَدَّ ما أَرَى * لِتعرِيضِ يومٍ شرُّه غيرُ حامدِ
أَلَا قرِّباه إنَّ غايةَ جَرْينا * إذا قُرِّبَ المَزْنوقُ بين الصَّفائدِ
بنو عامرٍ قومى إذا ما دعوتُهم * أجابوا ولَبِّى منهمُ كلُّ ماجِدِ

٥ ويقول : واللّاتِ لئن أصحر[2] إلىّ وصاحبه — يعنى مَلَكَ الموت — لأنفذتُهما برُمْحى .

قال : فلما رأى اللهُ عزّ وجلّ ذلك منه ، أرسل مَلَكا فلَطَمه بجناحه ، فأرْداه فى التراب ، وخرجت على ركبته غُدَّة عظيمة فى الوقت ، فعاد إلى بيت السَّلُولِيّة وهو يقول : غُدَّة كغُدَّة البعير ، وموتٌ فى بيت سَلُولية . ثم دعا بفرسه

١٠ فركبه ، ثم أجْراه حتى مات على ظهره .

قال : فرثى لبيدُ بن ربيعة أخاه أَرْبَدَ بجملة من المراثى ؛ فمنها هذه الأبيات :

قَضَّ اللُّبانةَ لا أبا لكَ وٱذْهَبِ * وٱلْحَقْ بِأُسْرَتكَ الكرامِ الغُيَّبِ[3]
ذَهب الذين يُعاشُ فى أكْنافهمْ * وبَقِيتُ فى خَلَفٍ كجِلْدِ الأجربِ[4]
يَتَلَذَّذُون مَلاذَةً ومَجانَةً * ويُعابُ قائلُهمْ وإنْ لم يَشْغَبِ[5]
فَتَعَدَّ عن هذا وقُلْ فى غَيْرِهِ * وٱذْكُرْ شَمائِلَ مَنْ أخٍ لك مُعْجِبِ[6]

١٥

(١) كذا فى الأصول ، والمناسب أن يكون « قربا » بألف الاثنين ؛ لقوله بعد : « ألا قرباه » .
(٢) أصحر : خرج إلى الصحراء . (٣) اللبانة : بقية الحالة . الأسرة هنا القوم . الغيب : الغائبون عنه . (٤) الأكناف (جمع كنف) وهو الجانب يريد : فى رعايتهم . والخلف (بالفتح) : البدل ، يروى بالسكون وهو البقية ، والنسل . شبههم بجلد الأجرب يعنى يشينون من صحبوا كما يشين الجرب الجلد . (٥) كذا البيت كما هو فى الأصول ، وفى الديوان : « يتأثلون مغالة وخيانة » . وفيه :

* يتأكلون خيانة وملاذة *

والمجانة من المجون . وفى نسخة من الديوان : مخانة من الخيانة . وقوله : وإن لم يشعب ، أى لم يفسد والشعب : التفريق والصدع . وفى الديوان : وإن لم يشغب (بالغين) من الشغب وهو تهييج الشر .
(٦) الشمائل : الطبائع ، واحدها شمال . ومعجب : يعجب من رآه وعاشره .

إنَّ الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثلُها * فِقْدانُ كُلِّ أخٍ كضَوْءِ الكَوْكَبِ (١)
مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آباؤُهُمْ * والعِزُّ لا يَأْتِي بِغَيْرِ تَطَلُّبِ
يا أَرْبَدَ الخَيْرِ الكريمَ جُدُودُهُ * أَفردْتَنِي أَمْشِي بِقَرْنٍ أَعْضَبِ (٢)

وقال أيضا فيه :

ما إنْ تُعَدِّى المَنُونُ مِنْ أحَدٍ * لا وَالِدٍ مُشْفِقٍ ولا وَلَدِ (٣)
أَخْشَى على أَرْبَدِ الحُتُوفَ ولا * أَرْهَبُ نَوْءَ السِّماكِ والأَسَدِ (٤)
يا عَينِ هَلَّا بَكَيْتِ أَرْبَدَ إذْ * قُمْنا وقامَ الخُصُومُ فى كَبِدِ (٥)
فَجَّعَنِي الرَّعْدُ والصَّواعِقُ بالفا * رِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجُدِ (٦)

قال : وأنزل الله عزّ وجلّ فى هذه القصّة : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ يعنى تلك المعقبات ﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ . ثم قال تعالى مشيرا لهذين : ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (٧) .

٢١/١٦

(١) الرزية : المصيبة .

(٢) رجل أعضب إذا كان متفردا . والأعضب المكسور أحد قرنيه ؛ وهذا مثل أى ذهب حدى . (شرح الديوان للطوسى) .

(٣) تعدى : تترك . وفى رواية : « تعرى » بالراء ؛ والمعنى : لا تدعه عاريا من المصائب .

(٤) الحتوف : جمع حتف وهو الموت . النوء : المطر . السماك : منزلة من منازل النجوم . والأسد أحد البروج الاثنى عشر . (٥) الكبد (بفتحتين) : المشقة .

(٦) فجعنى : أصابنى بفجيعة وهى المصيبة ؛ يقول : أصابته صاعقة . يوم الكريهة : أى الشدة . النجدة : البطل ذو نجدة .

(٧) آية ١٠ ، ١١ سورة الرعد .

أى ملجأ يلجئون إليه . وقد قيل : ﴿ والٍ ﴾ يلى أمرهم ، ويمنع العذاب عنهم . ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ . قال : ﴿ خَوْفًا ﴾ للمسافر يخاف أذاه ومشقّته . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ للمقيم يرجو بركته ومنفعته . ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ . وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾[1] قال الحسن : شديد الحقد[2] .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : شديد الأَخْذ . وقد روى الثعلبىّ أيضا ، عن إسحق الحَنْظَلىّ ، عن رَيْحان بن سعيد الشّامى ، عن عبّاد بن منصور ، قال سألت الحسن عن قوله عز وجل : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ الآية .

قال : كان رجلٌ من طَواغيت العرب ، فبعث إليه النبىُّ صلى الله عليه وسلم نَفَرًا ليدعُوه إلى الله عز وجل ورسوله أن يؤمن ، فقال لهم : أخبرونى عن ربّ محمدٍ هذا الذى تدعونى إليه ما هو ؟ ومِمَّ هو ؟ من ذهب أم فِضّة أم حديد أم نُحاس ؟ فاستعظم القومُ مقالتَه ، وانصرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : يا رسول الله ، ما رأينا رجلًا أكفرَ قلبًا ، ولا أَعْتَى على الله منه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارجعوا إليه » فرجعوا إليه فجعل لا يزيدهم على مِثل مقالتِه الأولى وأخبث ،[3] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ارجعوا إليه» فرجعوا ، فبيناهم عنده ينازِعونه ويدعونه ويُعظمون عليه ، وهو يقول هذه المقالة ؛

(١) آية ١٢ ، ١٣ من سورة الرعد .

(٢) قال الراغب : أى الأخذ بالعقوبة ، وقيل . المحال من الحول والحيلة والميم فيه زائدة .

(٣) فى تفسير الثعلبى : « أجيب محمدا إلى رب لا أراه ولا أعرفه ، فانصرفوا إليه فقالوا : يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى » .

إذ ارتفعت سحابةٌ فكانت فوق رءوسهم، فرَعَدَت و بَرَقَت فرمت بصاعقة فاحترق الكافرُ وهم جلوس، فجاءوا يَسعَوْن ليخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قومٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا لهم: احترق صاحبكم. قالوا لهم: من أين علمتم؟ قالوا: أُوحِي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الساعةَ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية. والله أعلم في أيهما نزلت. (١) ٥

ولنرجع إلى تتمة خبر وفد عامر بن صَعْصَعَة.

قال محمد بن سعد في طبقاته: وكان في الوفد عبدالله بن الشِّخِّير، فقال: يا رسول الله، أنت سيدنا، وذو الطَّوْل علينا. قال: «السيِّد اللهُ، لا يَستهوينّكم الشيطان».

قالوا: وقدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلْقَمَةُ بن عُلاثَة بن عَوْف، وهَوْذَة بن خالد بن ربيعة وابنه، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالسا إلى جنبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوسِع لعَلْقَمة» فأَوْسَع له، فجلس إلى جنبِه، فقصّ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شرائعَ الإسلام، وقرأ عليه قرآنا، فقال: يا محمد، إن ربّك لكريم، وقد آمنتُ بك، وبايعتُ على عِكْرِمَة بن خَصَفَة أخى قَيْس، وأسلم هَوْذَة وابنه وابن أخيه. ١٠ ١٥

وروى ابن سعد عن عون بن أبى جُحَيْفَة السُّوائىّ عن أبيه قال: قدِم وفد بنى عامر وكنت معهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوجدناه بالأَبْطَح في قُبَّة حمراء، فسلّمنا عليه، فقال: «من أنتم»؟ قلنا: بنو عامر بن صَعْصَعة. قال: «مرحبًا بكم أنتم منّى وأنا منكم».

(١) في تفسير الثعلبي: «فأحرقت الكافر». ٢٠

ذكر وفد ثَقِيفٍ وإسلامها وهدم اللّات

كان قدوم وفد ثقيف[(١)] على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإسلامها فى شهر رمضان سنة سبع مِن مُهَاجره[(٢)] .

قال أبو عبد الله محمد بن إسحق، وأبو محمد عبد الملك بن هشام، وأبو عبد الله محمد بن سعد رحمهم الله، دخل حديث بعضهم فى حديث بعض : لمّا حاصر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الطائفَ لم يَحضُر عُرْوَة بن مسعود ، ولا غَيْلان بن سَلَمة الحصَار ، بل كانا بجُرَش[(٣)] يتعلّمان صنعة العَرّادات[(٤)] والمِنْجَنِيق والدَّبّابات ، فقَدما وقد انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطّائف ، فنصبا المِنْجَنيق والعَرّادات والدبّابات واعتدّا للقتال ، ثم ألقى الله فى قلب عُرْوة الإسلام ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع أثره، حتى أدركه قبل أن يصل المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّهم قاتِلوك » فقال عُرْوة : يا رسول الله ، أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم . قال : فكرر علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ثلاثا ، فقال: « إن شئتَ فاخرج » فخرج ، وكان فيهم كذلك محبّبا مُطَاعا ، فسار إلى الطائف ، فسار خَمْسا

٢٢/١٦

(١) ثقيف ، كأمير : أبو هذه القبيلة من هوازن ، واسمه قسى بن منبه بن بكر بن هوازن ، والنسبة إليه ثقفى . ومقر ثقيف الطائف من بلاد الحجاز فى عهده عليه الصلاة والسلام .

(٢) مهاجره : على صيغة اسم المفعول : أى موضع هجرته والمراد هجرته إلى المدينة .

(٣) جرش، كزفر : مخلاف باليمن منه الأديم والإبل . (قاموس) .

(٤) العرادات، جمع عرادة بشد الراء : شبه المنجنيق صغيرة، والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة لدك الحصون . والدبابات جمع دبابة مشددة : آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها، وقد تطورت الدبابة فأصبحت اليوم من أهم سلاح الحروب .

فقدِم عِشاءً ، فدخل منزله ، فجاء قومُه يُحيّونه بتحيّة الشِّرْك ، فقال : عليكم بتحية أهل الجنة « السّلام » . ودعاهم إلى الإسلام فخرجوا من عنده يأتمِرون به ، فلمّا طلع الفجر أوْفى على غُرْفة له فأذّن بالصلاة ، فخرجت ثَقيفٌ من كل ناحية ، فرماه رجل يقال له أَوْسُ بن عَوْف أخو بنى سالم بن مالك — وقيل : بل هو وَهْبُ بن جابر رجلٌ من الأَحْلاف — بسهم فأصاب أَكْحَلَه[1] فلم يرقأ دمُه ، فقام أشراف قومه ؛ وهم : غَيْلان بن سَلَمَة ، وكِنانَة بن عَبْد يَالِيل ، والحَكَم بن عمرو ابن وهب ، ووجوه الأَحْلاف ، فلبِسوا السِّلاح وحَشَدوا ، فلما رأى عُرْوة ذلك قال : قد تصدّقتُ بدمى على صاحبه ؛ لأصلحَ بذلك بينكم ، وهى كَرامَة أكرمنى الله بها ، وشَهادةٌ ساقها اللهُ إلىّ . وقال : آدفنونى مع الشهداء الذين قُتِلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات فدفنوه معهم ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرُه فقال فيه : « إنّ مَثَله فى قومه لكمَثَل صاحب « يس » دعا قومه إلى الله فقتلوه » .

قالوا : ولحق أبو المُلَيْح بن عُروة ، وقارِبُ بن الأَسْوَد بن مسعود برسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلما ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَوَلَّيا من شئتما » فقالا : نَتَوَلّى اللهَ ورسولَه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وخالكما أبا سُفْيان بن حَرْب » فقالا : وخالنا أبا سُفيان .

قال ابن إسحق : ثم أقامت ثَقيف بعدما قُتِل عُرْوة أشهرًا ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا . وكان

(١) الأكحل : عرق فى وسط الذراع يكثر فصده ، أو هو عرق الحياة يدعى نهر البدن إذا قطع لم يرقأ الدم .

مالك بن عَوْف قد أسلم كما قدمنا فى غزوة حُنَين ، وجعل يُغِير على سَرْحِهم (١) .
قال : وكان عمرو بن أمية أخا بنى عِلَاج مُهاجِرًا (٢) لعبد يَالِيل (٣) بن عمرو ، وكان من أَدْهَى العرب ، فمشى إلى عبد يَالِيل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه أن أخرج إلىّ ، فاستعظم عبدُ يَالِيل مشيَه إليه ، وقال للرسول الذى جاءه : ويلك! أعمرو أرسلك إلىّ ؟ قال : نعم ، وها هو ذا واقفا فى دارك ، فقال : إن هذا لشىء ما كنت أظنه ، لَعَمْرو كان أمنَعَ فى نفسه من ذلك ، وخرج إليه ، فلمّا رآه رَحَّب به ، فقال عَمرو له : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هِجرة (٤) ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيتَ ، وقد أسلمت العربُ كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم . فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض : ألا ترون أنه لا يأمن لكم سَرْبٌ (٥) ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع . فأجمعوا رأيهم أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا منهم ، كما أرسلوا عُرْوة بن مسعود ، فعرضوا ذلك على عبد يالِيل بن عمرو بن عُمَير ، فأبى أن يفعل ، وخشى أن يُصنَع به إذا رجع كما صُنِع بعُرْوة ، فقال : لست فاعلا حتى يرسلوا معى رجالا ، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأَحْلاف ، وثلاثة من بنى مالك ، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وَهْب بن مُعَتِّب ، وشَرَحْبِيل بن غَيْلان بن سَلَمَة بن مُعَتِّب ، ومن بنى مالك عثمان بن أبى العاص بن بِشْر أخا بنى يَسَار ، وأَوْس بن عَوْف أخا بنى سالم ،

(١) السرح : السائمة ترعى بنفسها ، سميت بالمصدر ؛ يقال : سرحت الإبل رعت بنفسها وسرحتها ، يتعدى ولا يتعدى ، وسرحتها بالتشديد للمبالغة والتكثير .

(٢) مهاجر : مقاطع .

(٣) يالِيل كهابيل : صنم أضيف إليه كعبد يغوث وعبد العزى وليس باسم رجل إلا مضافا إلى الصنم .

(٤) الهجرة : الهجر ضد الوصل .

(٥) السرب ، بالفتح : الماشية كلها ، والطريق ، وبالكسر النفس .

ونُمَيْر بن خَرَشَة بن ربيعة أخا بنى الحارث ، فخرج بهم عبد ياليل وهو نابُ[1] القوم وصاحب أمرهم .

وقال ابن سعد : كانوا بضعة عشر رجلا ، وهو أثبت .

قال ابن إسحق : فلما دَنَوْا من المدينة ونزلوا قَنَاةَ[2] ، ألفَوْا بها المغيرة بن شُعْبَة يرعى فى نَوْبَته رِكاب أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وكانت رِعْيَتُها نُوَبًا[3] على أصحابه ، فلما رآهم ترك الرِّكاب عند الثَّقَفيين ، وخرج يَشْتَدّ[4] ليبشِّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقدومهم عليه ، فلقيه أبو بكر الصديق رضى الله عنه قبل أن يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره عن رَكْب ثَقِيف أن قد قَدِموا يريدون البَيْعة والإسلام ، فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أكون أنا أُحدِّثه ؛ ففعل المغيرة . فدخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بقدومهم عليه ، ثم خرج المغيرة إليهم فعلّمهم كيف يُحيُّون رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية .

قال : ولما قَدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ضَرَب عليهم قُبَّة فى ناحية مسجده — كما يزعمون[5] — ، وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كتبوا كتابهم ، وكتبه خالد بيده ، وهو :

---

(١) ناب القوم : سيدهم وكبيرهم .

(٢) قناة : واد بالمدينة عليه حرث ومال .

(٣) النوب : جمع نوبة أى يتناوبون رعيها .

(٤) يشتد : يعدو . وفى ابن هشام : « وضربيشتد » أى وثب يعدو .

(٥) فى الطبقات : ضرب قبة فى المسجد فكان رسول الله يأتيهم الخ وليس فيه : كما يزعمون ، ولا فى شرح المواهب ، ولعله أراد : كما يزعم المؤرخون .

« بسم الله الرحمن الرحيم مِن محمد النبيّ رسول الله، إلى المؤمنين : إنّ عِضاه وجّ[1] وصَيْدَه[2] [حرام][3] لا يُعْضَد[4] ، مَن وُجِد يفعل شيئا من ذلك فإنه يُجلَد وتُنزَع ثيابُه ، فإن تعدّى ذلك فإنه يُؤخَذ فيُبلَغ به النبيَّ — محمدا صلّى الله عليه وسلّم — وأن هـذا أمرُ النبيِّ محمدٍ رسـول الله . وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبـد الله فلا يَتعدَّه أحدٌ فيظلم نفسه فيما أَمَر به محمدٌ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم » .

قال ابن إسحق : وكانوا لا يَطْعَمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأكل منه خالد، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم . ٢٣/١٦

قال : وقد كان فيما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسـلم أن يَدَع لهم الطّاغِيَةَ وهى اللّاتُ؛ لا يَهْدِمها ثلاثَ سنين ، فأبى رسـولُ الله صلّى الله عليـه وسلّم ذلك عليهم ، فمـا بَرِحوا يسألونه حتى سألوه شهرا واحدا بعـد مَقْدَمهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مُسَمًّى . وإنمـا يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلَموا[5] بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهـم، ويَكْرهون أن يُرَوِّعوا قومَهم بهدمها حتى يدخلَهم الإسلامُ . فأبى رسولُ الله صلّى الله عليـه وسلّم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعْبَة فهدماها . وقـد كانوا سألوه مع ترك الطاغيـة أن يُعفِيهم من الصلاة، وألّا يَكْسِروا أوثانهم بأيديهم؛ فقال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : « أمّا كَسْر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منـه ، وأما الصّـلاة فإنه لا خير فى دِين لا صلاة فيه » . فقـالوا : يا محمد ، فستؤتيكها وإن كانت دناءة . فلمـا أسلموا

(١) العضاه، جمع عضاهة وعضة : وهى الشجرة العظيمة أو الخط أو كل ذات شوك .

(٢) وج : موضع بناحية الطائف . وقيل : هو اسم جامع لحصونها . وقيل : اسم واحد منها يحتمل أن يكون على سبيل الحمى له . النهاية . (٣) الزيادة من شرح المواهب .

(٤) عضد الشجر قطعه . (٥) فى السيرة لابن هشام : « أن يتسلموا » .

وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابهم، أمّر عليهم عثمانَ بن أبى العاص ، وكان من أحدثهم سِنًّا ، وكان أحرصهم على التَّفقُّه فى الإسلام وتعلّم القرآن ، فقال أبو بكر الصدّيق ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى عن عثمان بن أبى العاص قال : كان من آخر ما عَهِد إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثنى على ثَقِيف أن قال : « يا عثمان ، تجاوز(١) فى الصلاة وأقدُر الناسَ بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصّغير والضّعيف وذا الحاجة » .

قال ابن إسحق : ولما توجهوا إلى بلادهم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعْبة فى هَدْم الطاغية، فخرجا مع القوم، حتى إذا قَدِموا الطائف أراد المغيرةُ أن يُقدِّم أبا سفيان فأبى ذلك عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك . وأقام أبو سفيان بماله بذى الهَدَم(٢)، فلما دخل المغيرة بن شُعْبة عَلَاها يضربها بالمِعْوَل ، وقام قومه بنو مُعَتِّب دونه خشية أن يُرْمَى أو يُصَاب كما أصيب عُرْوة بن مسعود، وخرج نساء ثَقِيف حُسرا(٣) يبكين ويقُلْن :

لَتُبْكَيَنَّ دُفَّاعُ(٤) * أَسْلَمَها الرُّضَّاعُ(٥)
* لَمْ يُحْسِنُوا المِصَاعُ(٦) *

(١) تجاوز : تساهل بعدم الإطالة فيها ؛ ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « وأقدر الناس بأضعفهم » . أى احمل الناس على رعاية الضعيف .

(٢) الهدم، بفتح فكسر — ياقوت عن الواقدى — ماء ليلى وراء وادى القرى، وفى نسخة من الأصل : بذى العرم ولم نجد له معنى . والمال عند أهل البادية النعم . المصباح . وهو المراد بأقام أبو سفيان بماله .

(٣) حسرا جمع حاسر : بغير هاء مكشوفات الرءوس .

(٤) سموا اللات دفاع اعتقادا منهم أنها هى التى تدفع عنهم الضر .

(٥) الرضاع : اللئام أو الذين رضعوا اللؤم من ثدى أمهاتهم .

(٦) المصاع : الضرب بالسيف .

قال : ويقول أبو سفيان بن حرب، والمغيرة يَضرِبهـا بالفأس : واهًا لكِ ! أهْلًا لكِ[(١)] ! فلما هدمها المغيرةُ بن شُعْبة وأخذَ مالَها وحُلِيَّها ، أرسل إلى أبى سفيان ، وحُلِيُّها مجموعٌ ، ومالها من الذّهب والجَزْع[(٢)] .

وقد كان أبو مُلَيْح بن عُرْوة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقضى عن أبيه عُرْوة بن مسعود دَيْنا كان عليه من مال الطاغية ، فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَعَم » فقال له قارِب بن الأسودَ : وعن الأسودِ يا رسول الله فأقضِه، — وعُرْوة والأسْـودَ أخوان لأبٍ وأمٍّ — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الأسود مات مشركا» ، فقال قارِب : يا رسول الله ، لكن يَصِلُ مُسْلِماً ذا قرابة — يعنى نفسَه — إنّما الدَّين علىّ وأنا الذى أُطْلَب به . فأمر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أبا سـفيان أن يقضى دين عروة والأسود من مال الطّاغيـة؛ فلمّا جمع المغـيرةُ مالَها قال لأبى سفيان : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم قد أمرك أن تقضى عن عُرْوة والأسود دَيْنَهما . فقَضى عنهما .

قال المغيرة : فدخلت ثَقِيف فى الإسلام، فلا أعلم قوما من العـرب بنى أبٍ ولا قبيلة كانوا أصحَّ إسلاما، ولا أبعدَ أن يوجد فيهم غِشٌّ لله ولكتابه منهم .

ذكر وفد عبد القيس[(٣)]

قال محمد بن سعد : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل البحرين أن يَقدُم عليـه منهم عشرون رجلا ، فقَـدِموا ؛ رأسهم عبـد الله بن عَوْف الأشَجّ ،

(١) فى نسخة من سيرة ابن هشام : «واهالك . آهالك» مكررا للحسرة والتوجع ، والذى فى الأصل معناه : توجعا وتحسرا لك أهلا .

(٢) الجزع بفتح الجيم وكسرها : الخرز اليمانى وهو الذى فيه بياض وسواد تشبه به الأعين .

(٣) ينسبون إلى عبد القيس بن أفصى (بصاد مهملة مفتوحة ، على وزن أعمى) بن دعمى (بضم الدال وسكون العين وكسر الميم) بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان .

وفيهم الجارود بن عمرو بن حَنَش ، ومُنقِذ بن حَبَّان وهو ابن أخت الأشجّ ، وكان قدومهم عامَ الفَتْح ، فقيل : يا رسول الله ، هؤلاء وفد عبد القيس ، فقال : « مَرْحبًا بهم نِعْم القومُ عبد القيس » . قال : ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأفُق صبيحةَ ليلة قَدِموا ، فقال : « ليأتينّ ركبٌ من المشرق لم يُكْرَهوا على الإسلام ، قد أنْضَوا الرِّكاب ، وأفْنَوا الزاد ، بصاحبهم علامة ، اللّهمّ اغفر لعبد القيس ، أَتَوْنى لا يسألون مالًا ، هم خيرُ أهل المشرق » .

قال : فجاءوا فى ثيابهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فسلّموا عليه ، فقال : « أيكم عبد الله الأشجّ » ؟ فقال : أنا يا رسول الله . وكان رجلا دَمِيما ، فنظر إليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : « إنه لا يُسْتَق[1] فى مُسُوك[2] الرجال ، إنما يُحتَاج من الرَّجُل إلى أصغَرَيْه لسانه وقلبِه[3] » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فيك خَصْلتان يُحبّهما الله تعالى » فقال عبد الله : وما هما ؟ قال : «الحِلْم والأَناة[4]» . قال : أشىء حَدَث أم جُبِلْتُ عليه؟ . قال : «بل جُبِلتَ عليه » . قال : وكان الجارود نصرانيا ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ورَغّبه فيه .

٢٤/١٦

قال ابن إسحق : فقال يا محمد ، إنّى قد كنت على دِين ، وإنى تاركٌ دِينى لدِينك : أفتضْمَن لى دِينى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَعَم ، أنا ضامنٌ لك أن قد هداك الله إلى ما هو خيرٌ منه » . فأسلم وأسلم أصحابه .

---

(١) فى الطبقات : يستسق . واستق واستسق واحد . (٢) مسوك (جمع مسك بالفتح) : الجلد . (٣) هذا الحديث الشريف من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم ومعناه : إن المرء يعلو الأمور و يضبطها بجنانه ولسانه . (٤) الحلم ، بالكسر : العقل ، والأناة : الوقار والتثبت فى الأمور . قال الراغب : والأناة التؤدة ، وتأنى فلان تأنيا وأنى يأنى فهو آن ، أى وقور .

قال ابن سعد : وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس فى دار رَمْلَة بنت الحارث ، وأجرى عليهم ضيافة ، وأقاموا عشرة أيام ، وكان عبد الله الأشجّ يسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفقه والقرآن ، وأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوائز ، وفضّل عليهم عبد الله الأشجّ ؛ فأعطاه اثنتى عشرة أوقية ونَشًّا ، ومَسَح صلّى الله عليه وسلّم وجهَ مُنْقِذ بن حَبَّان .

ذكر وفد بَكْر بن وائل

قال ابن سعد : قَدِم وفد بَكْر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فى الوفد بشير بن الخُصَاصِيَة (١) ، وعبد الله بن مَرْثَد ، وحَسّان بن خَوْط ؛ ولذلك يقول رجلٌ من ولد حسان (٢) :

أنا ابْنُ حسّانَ بن خَوْطٍ وأبى * رسولُ بَكْرٍ كلِّها إلى النَّبِىّ

قالوا : وقَدِم معهم عبد الله بن أَسْوَد بن شِهاب بن عَوْف بن عمرو بن الحارث بن سَدُوس ، وكان ينزل اليَمَامَة ، فباع ما كان له من مال باليمامة ، وهاجر وقَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجِراب من تَمْر ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة . وحيث ذكرنا وفد بكر بن وائل فلنذكر خبر الأعشى .

---

(١) قيل له ابن الخصاصية نسبة إلى أمه . وكان اسمه زحما فسماه رسول الله بشيرا . وقد اختلفوا فى نسبه ، فقيل بشير بن يزيد بن معبد ، وقيل : بشير بن معبد بن شراحيل . (أسد الغابة) .

(٢) قائله بشر بن حسان الرابز يوم الجمل ، وقد شهد الوقعة مع أبيه ، وكانت راية بكر مع أخيه الحارث بن حسان فقتل فقيل فيه :

* أنعى الرئيس الحارث بن حسان *

ذكر خبر أعشى بنى قيس

وامتداحه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوعه قبل لقائه

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدّثنى خَلّاد بن قُرّة بن خالد السَّدُوسىّ، وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم، أنّ أعشى بنى قيس بن ثَعْلَبَة بن عُكَابة[(١)] ابن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل ، خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام، فقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عيناكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا * وبِتَّ كما باتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا[(٢)]

وما ذاكَ مِن عِشْقِ النِّساءِ وإنَّما * تَناسَيْتُ قبلَ اليومِ صُحْبَةَ مَهْدَدَا[(٣)]

ولكِنْ أَرَى الدَّهْرَ الّذى هو خائنٌ * إذا أَصْلَحَتْ كَفّاىَ عاد فأفْسَدَا[(٤)]

كُهُولًا وشُبّانًا فَقَدتُ وَثَرْوَةً * فللهِ هذا الدّهْرُ كيف تَرَدَّدَا[(٥)]

---

(١) هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن ثعلبة . وفى التاج : ابن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة . وفى بعض المراجع : شراحيل بن عوف الخ . ابن ثعلبة الحصن ابن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .

(٢) تغتمض ؛ استفهام تقرير ، يخاطب نفسه تجريدا ، وليلة أرمد : أى ليلة رجل ، أرمد : آفتقر ، والقوم أمحلوا وهلكت مواشيهم . ويروى : «وعاداك ماعاد السليم» ، والسليم : اللديغ قيل ، له تفاؤلا كما قيل مفازة للفلاة المهلكة ، والمسهد : القليل النوم أرقا ، أو الذى لا ينام .

(٣) يروى : « خلة » مكان « صحبة » . مهددا : آسم آمرأة ، بكعفر ، والألف للإطلاق .

(٤) يقول : إذا آتخذت مالا وآصطفيت أخا جاء الدهر فذهب به .

(٥) الذى فى الديوان (طبع أوروبا) وفى المغنى لابن هشام : « شباب وشيب وافتقار وثروة » .

وما زِلْتُ أَبْغِي المالَ مُذْ أنا يافِعٌ * وَلِيدًا وكَهْلًا حِين شِبْتُ وأَمْرَدا (١)
وأَبْتَذِلُ العِيسَ المَراقِيلَ تَغْتَلِي * مسافَةَ ما بَيْنَ النُّجَيْرِ فَصَرْخَدا (٢)
أَلَا أَيُّهَذَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَّمَتْ * فإنّ لها فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدا (٣)
فإنْ تَسْأَلِي عَنِّي فيارُبَّ سائِلٍ * حَفِيٍّ عنِ الأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَصْعَدا (٤)
٥ أَجَدَّتْ بِرِجْلَيْها النَّجاءَ وراجَعَتْ * يَداها خِنافًا لَيِّنًا غيرَ أَحْرَدا (٥)
وفِيها إذا ما هَجَّرَتْ عَجْرَفِيَّةٌ * إذا خِلْتَ حِرْباءَ الظَّهِيرَةِ أَصْيَدا (٦)

---

(١) اليافع : الغلام الذى قارب الحلم . والوليد : الصبي . والكهل : الذى بلغ الأربعين ، أو جاوز الثلاثين ، أو وخطه الشيب . والأمرد : الذى لا شعر على وجهه ، من تمريد الغصن ، وهو تجريده من الورق ، ونصب وليدا على أنه خبر كان مقدرة . وفى هذا البيت إيلاء (مذ) الجملة الاسمية ، وهو من الشواهد لهذا .

(٢) العيس : الإبل . المراقيل : المسرعة . تغتلى : تغالى فى السير . النجير كزبير : حصن قرب حضرموت . وصرخد : موضع بالشام . ويروى : «وأبتعث العيس المراسيل» . وقال بعض : العيس : الإبل البيض ، وهى ضرب من النجائب .

(٣) يممت : قصدت . يثرب : المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

(٤) الحفى : الذى يكثر السؤال فى إلحاح . وأصعد : ذهب فى الأرض . وأصعد أتى مكة ، وأصعد انحدر فى الوادى .

(٥) أجدت : سلكت . والنجاء : السرعة فى السير . الخناف : لين فى أرساغ البعير ، تقول منه : خنف البعير يخنف خنافا إذا سار فقلب خف يده إلى جانبه الأيمن . وأجرد ، بالحاء المهملة : الذى يخبط بيديه إذا سار . وهذا احتراس .

(٦) عجرفية : لاتبالى فى سيرها لنشاطها . وهجرت : دخلت فى الهاجرة . خلت : حسبت . الحرباء : وهى دويبة تستقبل الشمس حتى تغرب كيفما دارت رافعة يديها ورأسها ، والظهيرة : وقت الهاجرة ، والأصيد : البعير الذى به الصيد ، وهو داء يأخذ الإبل فى رءوسها فلا تزال رافعة رأسها منه ، يصف ناقته بهوج وقلة مبالاة لسرعتها .

وأمّا إذا ما أَدْلَجَتْ فتَرَى لها * رَقِيبَيْنِ جَدْيًا ما يَغِيبُ وفَرْقَدا (١)

فآلَيْتُ لا آوِى لها مِن كَلالَةٍ * ولا مِنْ حَفًى حتّى تُلاقِى مُحَمَّدا (٢)

مَتَى ما تُناخِى عِنْدَ بابِ ٱبنِ هاشِمٍ * تُراحِى وتَلْقَى مِنْ فَواضِلِهِ نَدا (٣)

نَبِيٌّ يَرَى ما لا تَرَوْنَ وذِكْرُه * أغارَ لعَمْرِى فِى البِلادِ وأَنْجَدا (٤)

له صَدَقاتٌ ما تُغِبُّ ونائِلٌ * ولَيْسَ عَطاءُ اليَوْمِ مانِعَهُ غَدا (٥) ٥

٢٥/١٦

أَجِدَّكَ لم تَسْمَعْ وَصاةَ محمّدٍ * نَبِىِّ الإلهِ حَيْثُ أَوْصَى وأَشْهَدا (٦)

---

(١) أدلجت : سارت بالليل ، الجدى بالفتح : كوكب تعرف به القبلة وهو من نجوم بنات نعش الصغرى ، و يقال له جدى الفرقد ، والفرقد أيضا نجم يهتدى به ، وجاء فى الشعر مفردا ومثنى كقوله :

وكل أخ مفارقه أخوه * لعمر أبيك إلا الفرقدان

١٠ والفرقدان : نجمان فى السماء لا يغربان ، ولكنهما يطوفان بالجدى الذى هو من البروج . يصف ناقته بأنها سريعة السير إلى حد الهوج بالنهار ، وفى الليل تستمر سائرة الليل كله راغبة الوصول إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢) آليت : أقسمت . آوى : أقيم . يروى : « لا أرثى » وكلالة : تعب و إعياء . والحفى (مقصور) : انسحاج القدم من كثرة المشى يريد ناقته . «تلاقى» يروى : «تزور» .

(٣) أناخ الجمل : برك ؛ يقال أناخ الجمل نفسه ولا يقال ناخ . فى بعض الأصول : «تريحى» ، من ١٥ أراح : رجعت إليه نفسه بعد الإعياء وصار ذا راحة . فواضله : هى الأيادى الجسيمة أو الجميلة ، الندى : الجود ، و يروى : «يدا» أى نعمة و إحسانا .

(٤) يرى هنا بمعنى علم أى يعلم مالا تعلمون . أغار : من الغور وهو المنخفض من الأرض . وأنجد : من النجد وهو ما ارتفع منها . يريد عم ذكره جميع البلاد .

(٥) تغب : تأتى مرة وتخلف مرة ، يريد لا تنقطع . والنائل : العطاء الذى ينالك . ٢٠

(٦) أجدك : أحقا ، وهو بالفتح والكسر وهو أفصح لا يقال إلا مضافا ، قال الأصمعى : معناه أبجد منك ، ونصبه بطرح الباء ، قال الليث : إذا كسر استحلفه بحقيقته ، و إذا نصب استحلفه بجنه ، وقال بعض : كأنما استحلفه بوالد أبيه . قال أبو حيان : إن الاسم المضاف حقه أن يناسب فاعل الفعل فى الخطاب والتكلم والغيبة ، نحو أجدى وأجدك وأجده لأنه مصدر يؤكد الجملة التى بعده . والوصاة : الوصاية .

إذا أنتَ لم تَرْحَلْ بِزادٍ مِنَ التُّقَى * ولاقَيْتَ بعْدَ المَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا (١)
نَدِمْتَ عَلى أَلَّا تَكونَ كَمِثْلِهِ * فَتُرْصِدَ لِلأَمْرِ الذِى كان أَرْصَدَا (٢)
فَإِيَّاكَ والمَيْتَاتِ لا تَقْرَبَنَّهَا * ولا تَأْخُذَنْ سَهْمًا حَدِيدًا لِتَفْصِدَا (٣)
ولا النُّصُبَ المَنْصوبَ لا تَنْسُكَنَّهُ * ولا تَعْبُدِ الأَوْثانَ واللهَ فاعْبُدَا (٤)
ولا تَقْرَبَنْ جارَةً إِنَّ سِرَّها * عليكَ حَرامٌ فَانْكِحَنْ أو تَأَبَّدَا (٥)
وذا الرَّحِمِ القُرْبَى فلا تَقْطَعَنَّهُ * لِعاقِبَةٍ وَلَا الأَسِيرَ المُقَيَّدَا (٦)
وسَبِّحْ على حِينِ العَشِيَّاتِ والضُّحَى * ولا تَحْمَدِ الشَّيْطانَ واللهَ فاحْمَدَا (٧)
ولا تَسْخَرَنْ من بائِسٍ ذِى ضَرارَةٍ * ولا تَحْسَبَنَّ المالَ لِلْمَرْءِ مُخْلِدَا (٨)

(١) الزاد : المدخر الزائد على ما يحتاج إليه فى الوقت . والتزود : أخذ الزاد ، قال تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » . (مفردات الراغب) .

(٢) كمثله ، الكاف زائدة . أرصد : أعد للأمر عدته ، والرصد : الاستعداد للترقب ، ويروى :

* وأنك لم ترصد لما كان أرصدا *

(٣) الفصد : قطع عرق ليشخب الدم ، فكانوا فى الجاهلية يفصدون لشرب الدم . وحذر الأعشى من أكل الميتة وشرب الدم . (٤) النصب : الأصنام . والنسك : الذبح لها ، وكانوا يعقرون عندها ثم يطلون رءوسها بدم العقيرة . ويروى : وذا «النصب» . ونصبه على التحذير . (٥) سرها : وطأها . وتأبد : تعزب وتعفف عن النساء . (٦) وفى الديوان بدل هذا البيت :

ولا السائل المحروم لا تتركنه * لعاقبة ولا الأسير المقيدا

وفى شرح قصيدة الأعشى (المخطوط رقم ١٧٣٦ أدب) : «فلا تقطعنه لفاقته» ومثله فى حواشى الديوان (طبع أوروبا) . (٧) ويروى : « وصل » مكان « وسبح » والمعنى واحد ، كقوله تعالى : « يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال » « وعلى » للظرفية بمعنى « فى » كقوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » أى فى حين . (٨) البائس : الفقير الشديد الحاجة . الضرارة : الضرر وهو سوء الحال فى البدن أو النفس أو المال ؛ قال الراغب : الضر سوء الحال إما فى نفسه لقلة العلم والفضل والعفة ، وإما فى بدنه لعدم جارحة أو نقص وإما فى حالة ظاهرة من قلة مال وجاه . وفى القصيدة الخطية المذكورة آنفا . « ذى ضرورة » . ويروى :

* ولا تحسبن المرء يوما مخلدا *

والخلد البقاء والدوام .

فلما كان بمكة أو قريبا منها ، آعترضه بعض المشركين من قريش ، فسأله عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسْلِم ، فقال له : يا أبا بصير إنه يحرِّم الزِّنَى . فقال الأعشى له : والله إن ذلك لَأَمْرٌ مالى فيه من أَرَبٍ . فقال : يا أبا بصير فإنه يحرّم الخمر . فقال : أمّا هذه فوالله إنّ فى النفس منها لَعُلَالَاتٍ[1] ، ولكنّى منصرف فأتروّى منها عامى هذا ثم آتيه فأُسْلِم . فآنصرف فمات من عامه ذلك ، ولم يعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر وفد تَغْلِب

قال : وقَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بنى تَغْلِب[2] ، وهم ستة عشر رجلا مسلمين ، ونصارى عليهم صُلُب الذَّهَب ، فنزلوا دار رَمْلَة بنت الحارث ، فصالح صلّى الله عليه وسلّم النّصارى على أن يُقِرّهم على ذِمّتِهِم[3] ، على ألّا يَصْبُغُوا أولادهم فى النّصرانية ، وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم .

ذكر وفد حنيفة

قالوا : قَدِم وفد بنى حنيفة[4] على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهم بضعة عشر رجلا ، فيهم رَجّال[5] بن عُنْفُوَة ، وسَلَمَى بن حَنْظَلة ، وطَلْق بن علىّ بن قيس ،

(١) علالات (جمع علالة) : وهى البقية ؛ يريد بقايا من تعلق النفس بها .

(٢) هم قوم من مشركى العرب طلبهم عمر بالجزية فأبوا أن يعطوها باسم الجزية وصالحوا على اسم الصدقة مضاعفة ، وروى أنه قال : هاتوها وسموها ما شئتم . والنسبة إليها تغلبى ، بكسر اللام على الأصل ، قال آبن السراج : ومنهم من يفتح للتخفيف آستثقالا لتوالى كسرتين مع ياء النسب (المصباح) . وتغلب هذا هو ابن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان .

(٣) وفى : الطبقات «على دينهم» .

(٤) بنو حنيفة : قبيلة كبيرة كانوا ينزلون اليمامة بين نجد والأحقاف وهى أقرب إلى نجد لهذا عدها بعضهم منه ، ينسبون إلى جدهم حنيفة بن لجيم — بالجيم — آبن صعب بن على بن بكر بن وائل .

(٥) رجال ، كشداد . وفى التاج : «ووهم من ضبطه بالحاء المهملة» . وهو فى الطبقات بالحاء .

وحُمْران بن جابر، وعلىّ بن سِنان، والأَقْعَس بن مَسْلَمة[1]، وزيد بن عمرو[2]، ومُسَيْلِمَة ابن حبيب، وهو الكَذّاب. وعلى الوفد سَلْمَى بن حَنْظلة، فأنزلوا دار رَمْلَة بنت الحارث[3]، وأُجْرِيت عليهم ضيافة. فأَتَوْا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى المسجد، فسلّموا عليه وشهدوا شهادة الحقّ، وخَلَّفوا مُسَيْلِمَة فى رِحالهم. وأقاموا أياما يختلفون إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وكان رَجّال بن عُنْفُوَة يتعلّم القرآن من أُبىّ بن كعب، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم، أمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوائزهم: خمسِ أواقٍ لكل رجل، فقالوا: يا رسول الله، خَلَّفنا صاحبًا لنا فى رِحالنا يبصرها لنا، وفى رِكابنا يحفظها علينا، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر لأصحابه. وقال: «ليس بشَرِّكم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم». فقيل ذلك لمُسَيْلِمة فقال: عَرَف أنّ الأمر إلىّ من بعده.

وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إداوةً من ماء فيها فَضْلُ طَهُوره، فقال: «إذا قَدِمتم بلدكم فاكسروا بَيْعتكم[4]، وانْضَحوا مكانها بهذا الماء، واتخذوا مكانها مسجدًا» ففعلوا، وصارت الإداوةُ عند الأَقْعَس بن مَسْلَمَة، وصار المؤذِّن طَلْق بن علىّ، فأذّن فسمعه راهبُ البَيْعة، فقال: كلمةُ حقٍّ. وهرب فكان آخر العهد به.

ثم ادّعى مُسَيْلِمَةُ الكذّابُ بعد ذلك النبوّةَ، وشهد له الرَّجّال[5] أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشركه فى الأمر، فافْتَتَن الناسُ به، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى فى خلافة أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه.

٢٦/١٦

(١) فى الأصل: «ابن سلمة»، وصوابه مسلمة كما فى الطبقات وما يأتى بعد. (٢) فى الطبقات: «ابن عبد عمرو». (٣) قال شارح المواهب: «رملة بنت الحدث بدال بعد الحاء المهملة لا براء قبلها ألف، كما قال ابن سعد وغيره» قال: «وكانت دارها دار الوفود». وهى أنصارية نجارية.
(٤) البيعة: متعبد النصارى. (٥) ابن عنفوة المتقدم.

ذكر وفد شَيْبان

قال : وقَدِم من بنى شَيْبان حُرَيْث[(١)] بن حسّان الشَّيْبانىّ، فبايع رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على الإسلام وعلى قومه ، وصَحِبَه فى مَسيره إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم قَيْلةُ بنت مَخْرَمَة التَّميميّة[(٢)] ، وهى التى أَرْعَدَت من الفَرَق[(٣)] لمّا أتت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال لها : «يا مسكينة عليك السَّكينة» [فهدأت][(٤)] . ٥

رُوِى عن قَيْلَة بنت مَخْرَمة أنها قالت : إنّ حُرَيْث بن حسّان قال : يا رسول الله ، اكتب بيننا وبين بنى تميم بالدَّهْناء[(٥)] لا يجاوزها إلينا منهم إلّا مسافر أو مجاور. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا غلام اكتب له بالدَّهْناء » ،قالت قَيْلَةُ : فلما رأيته أمر له بأن يكتب له بها ، قلت : يا رسول الله، إنه لم يسألك السويّة من الأرض إذ سألك ، إنما هذه الدَّهْناء[(٦)] عندك، مُقَيِّد[(٧)] الجَمَل، ومَرْعَى الغَنَم، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك. فقال [رسول الله][(٨)]: « أَمسِكْ يا غلام، صَدَقت المسكينةُ، المسلمُ أخو المسلم يَسَعُهما الماءُ والشجرُ، ويتعاونان على الفَتّان[(٩)] » . فلما رأى حُرَيْث أن قد حِيل دون كتابه،ضرب بإحدى يديه على الأخرى،وقال: كنتُ أنا وأنتِ ١٠

(١) فى أسد الغابة أن الصحيح اسمه الحارث بن حسان ، وهو من ذهل بن شيبان .

(٢) وهى العنبرية — لأن العنبر من تميم — وهذا هو الصحيح كما فى أسد الغابة . ١٥

(٣) الفرق ، بالتحريك : الخوف ، والرعدة : الاضطراب يصيب الإنسان من الخوف الشديد .

(٤) فى الأصول « فهاجرت » مكان «فهدأت» والسياق لا يستقيم مع الأصول ، ويؤيد ما أثبتنا ما فى الطبقات . (٥) الدهناء : ديار بنى تميم ، تقصر وتمد وهى من أكثر بلاد الله كلأ .

(٦) فى الطبقات : فلما رأيته أمر له بأن يكتب له بها شخص بى وهى وطنى وداري فقلت الخ .

(٧) مقيد الجمل : أى أنها مخصبة ممرعة ، والجمل يقيد فيها ويخلى لا يتعدى مرتعه . ٢٠

(٨) زيادة يقتضيها السياق . (٩) الفتان فى الحديث ، يروى بالضم والفتح ، فالضم جمع فاتن ، أى يعاون أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق ويفتنونهم ، وبالفتح مفرد وهو الشيطان لأنه يفتن الناس عن الدين ، وفتان من أبنية المبالغة فى الفتنة .

[كما قيل] (١) : « حَتْفَها تَحمِلُ ضَأْنٌ بأَظْلافها » (٢) فقلت : أَمَا واللهِ أَن كنتَ لدليلاً فى الظَّلْماء ، جَوَادًا بذى الرَّحْل ، عفيفًا عن الرَّفيقة ، حتى قَدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا تلمنى على حَظِّى إذ سألتَ حظَّكَ . فقال : وما حَظُّكِ فى الدَّهْناء لا أبَا لكِ ؟ ! قلت : مُقَيِّد جَمَلى تسأله لجمل آمرأتك ! قال : لا جَرَم ، إنِّى أُشهِد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أنِّى لك أخٌ ما حييتُ إذ أثبتِ (٣) هذا علىّ عنده . فقلتُ : [أَمَا] (٤) إذ بدأتَها فلن أضيعها . وحديثُ قَيْلَةَ فيه طُولٌ ليس هذا موضعه .

(١) الزيادة من الطبقات .

(٢) هذا مثل ؛ يقول فى مجمع الأمثال للميدانى : يضرب لمن يوقع نفسه فى هلكة . وأصله أن رجلا وجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به ، فضربت بأظلافها الأرض ، فظهر سكين فذبحها به . وهذا المثل لحريث ابن حسان الشيبانى تمثل به بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم لقيلة التميمية ، وكان حريث حملها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأله إقطاع الدهناء ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلمت فيه قيلة ، فعندها قال حريث : كنت أنا وأنت كما قيل : « حتفها تحمل ضأن بأظلافها » ضأن فاعل تحمل وحتفها مفعول .

(٣) فى الطبقات : « أثنيت » .

(٤) الزيادة من الإصابة .

ذكر وفادات أهل اليمن

ذكر وفد طيّئ وخبر زيد الخَيْل وعَدِىّ بن حاتم

قالوا : وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد طيِّئ خمسة عشر رجلا ، رأسهم ، وسيِّدهم زَيْد الخَيْل بن مُهَلْهل ، من بنى نَبْهان ، وفيهم وَزَر بن جابر بن سَدُوس[1] النَّبْهانىّ ، وهو قاتل عَنْتَرَة ، وقَبِيصَة بن الأَسْوَد بن عامر من جَرْم طَيِّئ ، ومالك بن عبد الله بن خَيْبَرى[2] من بنى مَعْنٍ ، وقُعَيْن[3] بن خَلَف من جَدِيلة[4] ، ورجل من بنى بَوْلان[5] ، فدخلوا المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فعَقَلوا رواحلَهم بفِناء المسجد ، ثم دخلوا فدَنَوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليهم الإسلام ، فأسلموا وأجازهم بخمس أواق فضة لكل رجل منهم ، وأعطى زيد الخيل آثنتى عشرة أوقيةً ونَشًّا . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ذُكِر لى رجلٌ من العرب إلا رأيتُه دون ما ذُكِر لى إلّا ما كان من زيد الخيل ، فإنه لم يَبْلغ كلّ ما كان فيه » .

وسَمّاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « زيد الخير » وقَطَع له فَيْد[6] وأرَضِين معه ، وكتب له بذلك كتابا ، فخرج مع قومه راجعًا ، فقال رسول الله صلى الله

---

(١) فى أسد الغابة والإصابة : وزر بن سدوس . إلا أن الإصابة نقل فيها عن الرشاطى : وزر بن جابر . وعنترة الذى قتله هو العبسى المشهور . ونقل عن أبى الفرج أن وزر هذا لحق بالشام وتنصر ومات على ذلك . (٢) خيبرى ، بفتح الراء وألف مقصورة ابن أفلت بن سلسلة بن غنم بن ثوب بن معن . (٣) قعين ، كزبير من القعن وهو ارتفاع فى أرنبة الأنف وقصر فاحش فى الأنف ضد . وفى الطبقات ابن خليف بالتصغير . (٤) جديلة . من قبائل طيّئ ، وهى أم جندب وحور ، يعرفون بأمهم . وفى الطبقات : « ابن جديلة » وليس بصحيح لما رأيت . (٥) هو بولان بن عمرو بن الغوث من طيّئ . (٦) فيد مثال بيع : منزل فى نجد بطريق مكة من العراق . وفى التاج : « قال السكونى كان فيد فلاة فى الأرض بين أسد وطيّئ فى الجاهلية ، فلما قدم زيد الخيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطعه فيد » .

عليه وسلم : « إن يُنْجَ زيدٌ من حُمَّى المدينة فإنَّه[1] » ، فلما انتهى زيد من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له فَرْدة[2] أصابته الحُمَّى فمات ، فعمدت امرأته إلى ما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب له فحرقته بالنار .

هذا ما كان من خبر زيد الخيل .

وأمّا عَدِيّ بن حاتم فكان من خبره أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه إلى الفِلْس[3] — صَنَمُ طيِّئ — ليهدمه ويَشُنّ الغارات ، فخرج فأغار على حاضِر آل حاتم ، وأصابوا ابنة[4] حاتم ، كما قدّمنا ذكر ذلك فى الغزوات والسَّرايا ، فقُدِم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَبَايا طيِّئ . وقيل : إنما سَبَاها من خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلٌ كان عليها خالد بن الوليد ، وهرب عَدِيّ بن حاتم حتى لحق بالشام .

حكى محمد بن إسحق رحمه الله قال : كان عَدِيّ بن حاتم يقول — فيما بلغنى — : ما من رجل من العرب كان أشدّ كراهيةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به منّى ، أمّا أنا فكنت امرأ شريفا ، وكنت نصرانيا ، وكنت أَسِيرُ

٢٧/١٦

(١) فى شرح المواهب : بناء « ينج » للفعول و (إن) جازمة ، أى فإنه لا يصاب بسوء كما قدره بعض ، أو لم يصبه ضرر ، يعنى أن جواب الشرط محذوف تقديره : فإنه لا يصاب بسوء . ولم يقدر فى الإصابة الجواب كأنه اكتفى بوضوحه ، وذكر أنه أصابته الحمى بماء يقال له قروة فمات . (٢) هكذا بالقاف والواو والذى فى شرح المواهب : « فردة بالفاء المفتوحة والدال المهملة بينهما راء ساكنة ثم تاء تأنيث » . راجع معجم ياقوت ، ففيه بسط فى الخلاف بالفاء أو بالقاف ، وتحديد المكان فى جـ ٣ ص ٨٧١ (طبع أوروبا) .

(٣) الفلس بكسر الفاء وسكون اللام هو ضبط القاموس ، وفى ياقوت بضم الفاء ، وأكثرهم على أنه بفتح الفاء . (راجع الأصنام لابن الكلبي ص ١٥ وص ٥٩ طبع دار الكتب) .

(٤) اسمها سفانة ، بفتح السين المهملة وشد الفاء ثم ألف فنون وتاء التأنيث . والسفانة ، اللؤلؤة ، وكان حاتم يكنى بها ، ويقال : هو أجود من أبى سفانة .

فى قومى بالمِرْباع ، أى آخذ منهم رُبْع مَغانمهم التى يغنمونها ، وكنت فى نفسى على دِين ، وكنت مَلكا فى قومى لما كان يُصْنَع بى ، فلما سمعتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهتُه ، فقلت لغلام كان لى عربىّ ، وكان راعيا لإبِلى : لا أبَا لكَ ! أعدد لى من إبلى جمالا ذُلُلا سِمَانا فاحتبسها قريبا منّى ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذِنّى . ففعَل ، ثم إنه أتانى ذات غَدَاة فقال : يا عَدِىّ ، ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيلُ محمد فأصنعه الآن ، فإنى رأيتُ راياتٍ فسألتُ عنها فقالوا : هذه جيوش محمد . فقلتُ : فقرِّبْ إلىّ أجْمالى . فقرَّبها فاحتملت بأهلى وولدى ، ثم قلت : أَلْحَقُ بأهل دينى من النّصارى بالشام ، فسلكت الجُوشِيّة — ويقال الحُوشِيّة[1] — وخلّفتُ بِنْتا لحاتم فى الحاضِر ، فلمّا قدمتُ الشام أقمت بها ، وتُخالِفنى خيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقُدِمَ بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبايا طيّئ ، وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هَرَبى إلى الشام ، قال : فجُعِلت ابنة حاتم فى حظيرة[2] بباب المسجد كانت السَّبايا تُحبَس فيها ، فمرّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت إليه ، وكانت امرأة جَزْلة[3] ، فقالت : يا رسول الله ، هَلَك الوالِدُ ، وغاب الوافدُ ، فامْنُنْ علىّ ، مَنَّ الله عليك . قال : « ومَنْ وافدُك » ؟ قالت : عَدِىّ بن حاتم . قال : « الفارّ من الله ورسوله » ؟! . قالت : ثم مضى وتركنى ، حتى إذا كان من الغد مرّ بى فقلت له مثل ذلك ، فقال مثل ما قال بالأمس ، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مرّ بى وقد يَئِستُ ، فأشار إلىّ رجلٌ من خلفه أنْ قُومِى فكلّميه ،

(١) كذا فى الأصول وابن إسحق ، والذى يستفاد من معجم ياقوت أنها بالشين أو بالسين (راجعه فى الجوسية) .

(٢) الحظيرة : ما أحيط بالشىء سواء كان من خشب أو قصب .

(٣) الجزلة من النساء : التامة الخلق .

قالت : فقمتُ إليه، فقلت : يا رسول الله ، هَلَك الوالدُ، وغاب الوافدُ ، فآمْنُنْ عليّ، منّ الله عليك . فقال : « قد فعلتُ فلا تَعْجَلى بخروجٍ حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذِنِينى » فسألتُ عن الرجل الذى أشار إلىّ أن كلّميه ، فقيل علىّ بن أبى طالب ، قالت : فأقمت حتى قَدِم ركب من بَلِيٍّ أو قُضَاعة[1]، قالت : وإنما أريد أن آتى أخى بالشام، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، قد قدم رهْطٌ من قومى ، لى فيهم ثقة وَبلاغٌ، قالت : فكَسانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَملنى وأعطانى نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام، قال عَدِىّ: فوالله إنّى لقاعد فى أهلى إذ نظرت إلى ظَعِينَة تَصُوب[2] إلىّ تَؤُمّنا ، قال : قلت آبنة حاتم ، فإذا هى هى ، فلما وقفت علىّ آنْسَلَخَت[3] تقول : القاطع الظّالم، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقيّة والديك عورتك ! قال : قلت : أى أُخَيَّةُ ! لا تقولى إلّا خيرا ، فوالله ما لى من عذر، لقد صنعت ما ذكرتِ . قالت: ثم نزلت فأقامت عندى، فقلت لها وكانت امرأة حازمة : ماذا تَرَيْن فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن نلحق به سريعا ، فإن يكن الرّجلُ نبيا فللسّابق إليه فضله ، وإن يكن مِلكا فلن تذل فى عِز اليمن ، وأنت أنت . قال : قلت والله إن هذا الرَّأْى . فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدخلت عليه وهو فى مسجده، فسلمت عليه فقال : «مَنِ الرّجل» ؟ فقلت: عدِى بن حاتم . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فآنطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامِدٌ بى إليه إذ لقيته آمرأةٌ ضعيفة كبيرة

(١) بلى وقضاعة ، أرومة واحدة ، قال الجوهرى : « بلى على فعيل : قبيلة من قضاعة والنسبة إليهم بلوى » . (٢) تصوب : تقصد .

(٣) فى سيرة آبن هشام : «آنسحلت» ، أى أخذت فى اللوم، ومضت فيه مجدة .

فاستوقفته، فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها، فقلت فى نفسى: والله ما هذا بملك.
قال: ثم مضى حتى إذا دخل بى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلىّ
فقال: «اجلس على هذه» قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: «بل أنت» فجلست
عليها، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض، فقلت فى نفسى: والله
ما هذا بأمر ملك. ثم قال: «إيه يا عدىّ بن حاتم ألم تك ركوسيا(١)؟» قلت: بلى، ٥
قال: «وأولم تك تسير فى قومك بالمرباع(٢)»؟ قلت: بلى؛ قال: «فإن ذلك لم يك
يحل لك فى دينك». قال: قلت أجل والله، وعرفت أنه نبىّ مرسل يعلم
ما يجهل، ثم قال: «لعلك يا عدىّ إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى
من حاجتهم، فوالله ليوشكنّ المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك
إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، فوالله ليوشكن ١٠
أن يسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف،
ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم، وأيم الله
ليوشكنّ أن يسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم».
قال عدىّ: فأسلمت. فكان عدىّ يقول: قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة،
والله لتكونّنّ؛ قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، وقد ١٥
رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وأيم الله ٢٨/١٦
لتكونّنّ الثالثة؛ ليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.

---

(١) فى النهاية: «قال لعدى بن حاتم إنك من أهل دين يقال لهم الركوسية». هو دين بين النصارى والصابئين.

(٢) كانوا فى الجاهلية إذا غزا بعضهم بعضا وغنموا أخذ الرئيس ربع الغنيمة خالصا دون أصحابه، وذلك الربع يسمى المرباع. وقد سبق تفسيره. ٢٠

ذكر وفد تُجِيب

قال ابن سعد : قدِم وفد تُجِيب[(١)] على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع من مُهاجَره، وهم ثلاثة عشر رجلا، وساقوا صَدقاتِ أموالهم التى فرض الله عليهم، فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم، وقال : « مَرْحباً بكم » وأكرم منزلهم وحَيَّاهم، وأمر بِلالًا أن يُحسِن ضيافتهم وجوائزهم، وأعطاهم أكثر مما كان يُجيز به الوفد، وقال : « هل بقى منكم أحد » قالوا : غلام خلفناه على رِحالنا وهو أحدثنا سِنّا . قال : « أرسِلوه إلينا » ؛ فأقبل الغلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : إنى امرؤ من بنى أبناء الرَّهْط الذين أتوك آنِفا، فقضيت حوائجهم فاقضِ حاجتى، قال : « وما حاجتك » ؟ قال : تسأل الله أن يغفِر لى ويرحمنى ويجعل غِناى فى قلبى . فقال : « اللهم اغفر له وارحمه واجعل غِناه فى قلبه » . ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ثم وافَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسِم بِمِنًى[(٢)] فى سنة عشرٍ، فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغلام، فقالوا : ما رأينا مثلَه أقنع مِنه بما رزقه الله .

---

(١) تجيب، بضم الفوقية وتفتح وكسر الجيم وتحتية ساكنة وموحدة : بطن من كندة ينسبون إلى جدّتهم العليا تجيب بنت ثوبان بن سليم من مذحج، وهى أم أبدى بن عدىّ (الواقدى) .

(٢) منى : قرية بين مكة وعرفات فيها رمى الجمرات والذبح فى مناسك الحج والمبيت ليلة عرفة وهى ليلة الوقوف — ومنى كإلى وتصرف أى تنون .

ذكر وفد خولان

قال: قَدِم وَفْدُ خَوْلانَ[(١)] على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى شعبان سنة عشر، وهم عشرة نفر، فقالوا: يا رسول الله، نحن مؤمنون بالله مصدّقون برسوله، ونحن على من وراءنا مِن قومنا، وقد ضربنا إليك آباط الإبل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما فَعَل عَمُّ أنسٍ»[(٢)] صَنَمٌ لهم؛ فقالوا: بَشَرٌ وعَرٌ[(٣)]، أبدلنا الله به ماجئت به، ولو قد رجعنا إليه هدمناه. وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء من أمر دينهم، فجعل يخبرهم بها، وأمر من يُعلِّمهم القرآن والسُّنن، وأُنزِلوا فى دار رَمْلة بنت الحارث، وأُجرِيت عليهم الضيافةُ، ثم جاءوا بعد أيام يُودّعونه، فأمر لهم بجوائز ثِنتى عشرة أوقيـة ونَشٍّ، ورجعوا إلى قومهم، فلم يَحُلُّوا عقـدة حتى هدموا عَمَّ أنسٍ. وممن أسلم من خَوْلان أبو مسلم الخَوْلانىّ العابد[(٤)]، واسمه عبد الله بن ثُوَب، ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما قدِم المدينة بعد وفاته، وله خبر عجيب مع الأسود العَنْسىّ، نذكره فى أخباره فى خلافة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه.

(١) خولان أبو قبيـلة، وخولان اسمـه فكل بن عمرو. وفى سيرة ابن هشام: «خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة».

(٢) اسمه فى كتاب الأصنام ص ٤٣: «عميانس». وهذا الصنم بأرض خولان، كان بطن من خولان يقسمون لهـذا الصنم من أنعامهم وحروثهم قسما بينـه وبين الله بزعمهم، فما دخل فى حق (عم أنس) من حق الله الذى سموا له تركوه له، وما دخل فى حق الله من حق (عم أنس) ردوه عليه، وفيهم أنزل الله: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا» الآية.

(٣) العر (بفتح العين وضمها): الجرب، وهو أبغض داء إلى نفوس العرب لذا عطفوه على الشر.

(٤) فى التهذيب وغيره أنه من عباد أهل الشام وزهادهم. والخلاف فى اسم أبيه موجود.

ذِكر وفد جُعْفِي

قال ابن سعد : وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان من جُعْفِيّ[(١)] ، وهما قيس بن سلمة بن شَراحيل ، وسَلَمَة بن يزيد ، وهما أخوان لأم ، وأمهما مُلَيْكَة بنت الحلو بن مالك ، فأسلما فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بلغنى أنكم لاتأكلون القلب » وكانوا يُحرِّمون أكله ، فقالا : نَعَم ، قال : « فإنه لايكمل إسلامكم إلا بأكله » ودعا بقلب فَشُوِى ، ثم ناوله سَلمة فلما أخذه أُرعِدت يده فقال له : « كُلْه » فأكله ، وقال :

عَلى أَنِّى أَكَلْتُ الْقَلْبَ كَرْهًا ٭ وتُرْعَدُ حِينَ مَسَّتْهُ بَنانِى

ثم قالا : يا رسول الله ، إنّ أُمَّنا مُلَيكة بنت الحلو كانت تَفُكّ العانى ، وتُطْعِم البائس ، وترحم المسكين ، وأنها ماتت وقد وَأَدَت[(٢)] بُنية لها صغيرة ، فما حالها ، ؟ قال : «الوائِدة والموءودة فى النـار»[(٣)] فقاما مُغْضَبيْن ، فقال : « إلىّ فارجعا » فقال : « وأمّى مع أمّكما »[(٤)] فأَبَيَا ومَضَيَا ، وهما يقولان : والله إنّ رجلًا أطعمنا

(١) جعفى (ككرسى) : ابن سعد العشيرة بن مذحج .

(٢) الوأد ، من صفات الجاهلية : وهو قتل الجارية دفنا وهى حية ، وسميت موءودة لما يطرح عليها من التراب فيئودها — أى يثقلها — حتى تموت . راجع جـ ١٠ ص ١١٧ و جـ ١٩ ص ٢٣٠ قرطبي .

(٣) الذى ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال فى صغار المشركين : « سألت ربى ألا يعذب اللاهين من ذرية البشر فأعطانيهم » وقوله : «وسألت ربى فأعطانى أولاد المشركين خدما لأهل الجنة » وذلك أنهم لم يدركوا ما أدرك آباؤهم من الشرك والله لايظلم أحدا ولا تعذيب إلا بعد التكليف ، ولأنهم فى الميثاق الأول . ولعل هذا الحديث — إن صح — قاله صلى الله عليه وسلم قبل أن يخبر بعدم تعذيب الأطفال .

(٤) هذا ينافى ما روى أن والدته صلى الله عليه وسلم ماتت على الحنيفية ، وأنها اعترفت ببعث ابنها بالإسلام من عند الله ، وأنها نهته عن الأصنام وموالاتها ، وهذا من التوحيد ، وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم أحيا الله له أبويه فآمنا به ، وإن صح هذا فهو من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، وقد قال الله تعالى له : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » راجع شرح المواهب جـ ١ ص ١٩٩

القلب ، وزعم أنّ أمنا فى النار لأهل ألّا يُتّبع ، فلما كان ببعض الطريق ، لقيا رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، معه إبِل من إبِل الصَّدقة ، فأَوثقاه وطردا الإبِل ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فلعنهما فيمن كان يلعن فى قوله : « لعن الله رِعْلا وذَكْوان وعُصَيَّة ولحيان[1] وآبنا مُلَيْكَة » .

قال محمد بن سعد : وقَدِم أبو سَبْرة وهو يزيد بن مالك بن عبد الله الجُعْفِىّ على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه آبناه سَبْرة وعزيز[2] فأسلموا ، وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم عَزِيزًا عبد الرحمن . وقال له أبو سَبْرة : يا رسول الله : إن بظهر كَفِّى سِلْعَةً[3] قد منعتنى من خِطام راحلتى ، فدعا بقدح ، وجعل يضرب به على السِّلعة ويمسحها فذهبت ، ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ولآبنيه ، فقال : يا رسول الله ، أَقْطِعنى وادى قومى باليمن ، وكان يقال له جُرْدان[4] ففعل ، قال : وعبد الرحمن هذا هو أبو خَيْثَمة عبد الرحمن .

٢٩/١٦

ذكر وفد مُراد

قالوا : قدم فَرْوَة بن مُسَيْك[5] المرادىّ[6] على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُفارقاً لملوك كِنْدة ومُباعدا لهم ، وقال فى ذلك :

---

(١) رعل وذكوان : قبيلتان باليمن من سليم ومنها عصية ، أما لحيان فمن هذيل .

(٢) والذى فى أسد الغابة : « عبد العزى » فسماه صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن فقال : « إنه من خيار أسمائكم إن سميتم عبد الله وعبد الرحمن » . أما الطبقات ففيها : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعزيز ما آسمك فقال عزيز ، فقال : « لا عزيز إلا الله أنت عبد الرحمن » راجع جـ ١ ص ٦٢ .

(٣) السلعة : خراج كهيئة الغدة تتحرك بالتحريك ؛ قال الأطباء : هى ورم غليظ غير ملتزق باللحم يتحرك عند تحريكه وله غلاف ، وتقبل التزايد لأنها خارجة عن اللحم (المصباح) .

(٤) جردان ، كعثمان بالجيم : واد بين عمقين . (٥) فى أسد الغابة : « وقيل مسيكة ، ومسيك أكثر » . (٦) نسبة إلى مراد بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ سمى مرادا لتمرده واسمه : يحابر ، وقيل : مراد من نزار .

لمَّا رَأيْتُ مُلوكَ كِنْدَةَ أَعْرَضَتْ * كالرِّجْلِ خانَ الرِّجْلَ عِرْقُ نَسائِها (١)
قَرَّبْتُ راحِلَتِي أَؤُمُّ محمَّدًا * أرجُو فَواضِلَها وحُسْنَ ثَرائِها (٢)

وبايع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ونزل على سعد بن عبادة ، وكان يتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه ، فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأثنتى عشرة أوقية ، وحمله على بعير وأعطاه حُلَّة من نَسْج عُمان ، وآستعمله على مُراد وزُبَيْد ومَذْحِج ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصَّدَقات ، وكتب له كتابا فيه فرائض الصَّدقة، فلم يزل على الصَّدَقة حتى تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر وفد زُبَيد

قال آبن سعد: قَدِم وفد عمرو بن مَعْدِى كَرِب (٣) الزُّبيدىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فى عشرة نفر من زُبيد، فنزل على سعد بن عُبادة فأكرمه سعد وراح به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم هو ومن معه ، وأقام أياما ، ثم أجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآنصرف إلى بلاده ، فأقام مع قومه على الإسلام ، وعليهم فَرْوَةُ بن مُسيك ، فلما توفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم آرْتَدّ، ثم رجع إلى الإسلام ، وأَبْلَى يوم القادِسية وغيرها .

قال محمد بن إسحق : كان عمرو بن مَعْدِى كَرِب قد قال لقَيْس بن مَكْشُوح المرادىّ حين آنتهى إليهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياقيس ، إنك سيد

(١) النسا : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ ، وهو مقصور ومدّ هنا للشعر .

(٢) فى الإصابة وأسد الغابة : «يممت راحلتى» أؤم : أقصد . وقال آبن هشام : أنشدنى أبوعبيدة :
* أرجو فواضله وحسن ثنائها *

(٣) عمرو بن معدى كرب بن عبدالله بن عمرو بن عصم بن عمرو بن زبيد فارس العرب ، شهد القادسية قالوا : مات على فراشه من لسع حية .

قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد خرج بالحجاز ، يقال إنه نبي ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه ، فإن كان نبيا كما يقول فإنه لن يخفى عليك ، إذا لقيناه اتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه ، فأبى عليه قيس[1] ، فركب عمرو ابن معدى كرب حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرا وتحطم[2] عليه ، وقال : خالفني وترك رأيي ، فقال عمرو في ذلك :

أمرتك يوم ذي صنعا * ء أمرا بينا رشده[3]
أمرتك باتقاء الله * به تأتيه وتتعده[4]
فكنت كذي الحمير غر * ره مما به وتده[5]
تمناني على فرس * عليه جالسا أسده[6]
علي مفاضة كالنهـ * ـي أخلص ماءه حدده[7]

(١) في سيرة ابن هشام : «فأبى عليه قيس ذلك وسفه رأيه» .

(٢) تحطم عليه : تلظى غيظا .

(٣) في السيرة : باديا رشده . ويوم ذي صنعاء يريد يوم صنعاء و « ذي » زائدة وذلك في لسان العرب ، كما روى الأزهري : كنا مع ذي عمرو ، وكان ذو عمرو بالصمان ، يريدون كنا مع عمرو ، وكان عمرو بالصمان . وهذا من الدليل على إضافة « ذو » إلى الأعلام . راجع التاج (حرف ذو) . وقال أبو ذر الخشني في شرحه للسيرة : « يوم ذي صنعاء موضع » وليس له ذكر في كتب المعاجم .

(٤) تتعده : تلتزمه .

(٥) الوتد بالكسر : ما ثبت في الحائط أو الأرض من الخشب ، وفي السيرة :

خرجت من المنى مثل الـ * ـحمير غره وتده

(٦) تمناني : أرادني .

(٧) المفاضة : الدرع الواسعة . والنهي : الغدير من الماء . والحدد (بالحاء المهملة) : المنع والحبس . وفي السيرة : جدده — بالجيم — : الأرض الصلبة .

تردُّ الرُّمْحَ مَثْنِىَّ السِّـ * ـنانِ عوائرًا قِصَدُهْ (١)
فَلَوْ لاقَيْتَنِى لَلَقِيـ * ـتَ لَيْثًا فوقَه لِبَدُهْ (٢)
تُلاقى ضَيْغَمًا شَثْنَ الْـ * ـبَرائِنِ ناشِزًا كَتِدُهْ (٣)
يُسامى القِرْنَ إنْ قِرْنٌ * تَيَمَّمَهُ فيعْتَضِدُهْ (٤)
فيأخُذُهُ فيَرفعُهُ * فيخْفِضُهُ فيقْتَصِدُهْ (٥)
فيدْمَغُهُ فيخْطِمُهُ * فيَخْضِمُهُ فيَزْدَرِدُهْ (٦)
ظَلُومُ الشِّرْكِ فيما أحْـ * ـرَزَتْ أنْيابُهُ ويَدُهْ (٧)

ذكر وفد كِنْدَة

قالوا: قَدِم الأشعث بن قيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بضعة عشر راكبا من كِنْدَة (٨). قاله ابن سعد — وقال ابن إسحق: فى ثمانين راكبا — فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد، وقد رَجَّلوا (٩) جُمَمهم وتكحَّلوا، عليهم جُبَب

---

(١) قصده، بالكسر جمع قصدة: وهو ما تكسر من الرمح. ويروى: غوائر قصده؛ أى متطايرة.
(٢) لبده جمع لبدة: وهو ما على كتفى الأسد من الشعر.
(٣) الضيغم: الأسد. ويروى «شثنا» وهو الأسد أيضا، والذى يتعلق بقرنه ولا يزايله. والشثن: الغليظ الأصابع. والبرائن للسباع كالأصابع للإنسان. والناشز: المرتفع. والكتد: ما بين الكتفين.
(٤) القرن بالكسر: الكفء. يممه: قصده، واعتضده: احتضنه.
(٥) اقتصده: قتله
(٦) يدمغه: يخرج دماغه. ويخطمه: يكسره. ويخضمه: يأكله، ويروى «فيجضمه» بالجيم وهى بمعناها. ازدرده: أكله بلعا.
(٧) الشرك: النصيب والحصة.
(٨) كندة بالكسر: لقب لجد هذا الحى من اليمن وهو ثور بن عفير.
(٩) رجلوا: سرحوا، والجمم: جمع جمة: مجمع الشعر فى ناصية الإنسان.

الحِبرة[1] قد كَفَّفُوها بالحرير، وعليهم الدِّيباج ظاهرٌ مُخَوَّص[2] بالذَّهب، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألم تُسلموا » ؟ قالوا : بَلَى، قال: « فما بال هذا عليكم[3] » قال : فَشقّوه وألقوه، ثم قال له الأشعث بن قيس : يارسول الله، نحن بنو آكل المُرَار، وأنت ابن آكل المرار[4] . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « نَاسِبُوا بهذا النَّسب العبّاسَ بن عبد المطلب ورَبِيعةَ بن الحارث » . قال : وكانا تاجرين، و[كانا][5] إذا شاعا فى بعض العرب، فسئلا ممن هما، قالا : نحن بنو آكل المُرَار : يَتعزَّزان[6] بذلك . وآكُل المُرَار هو الحارث بن عمرو بن حُجْر بن عمرو بن معاوية، وقد تقدم خبره فى وقائع العرب. قال : ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ، نحن بنو النَّضْر بن كنانة ، لا نَقْفُو[7] أمَّنا ولا نَنْتفِى من أَبِينا » فقال الأشعث بن قيس : يامَعْشر كِنْدة، والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين .

قال محمد بن سعد : فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أجازهم بعشرة أواقٍ، وأعطى الأشعث ثنتى عشرة أوقية .

٣٠/١٦

---

(١) الحبرة : ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط ، يقال على الوصف وعلى الإضافة . وكف الثوب : خاط حاشيته . (٢) مخوص : مزين بصفائح من الذهب على قدر خوص النخيل .

(٣) فى شرح المواهب : « فما بال هذا الحرير فى أعناقكم فشقوه » . فرواية شرح المواهب مشعرة بأن كلمة « فشقوه » أمر من رسول الله لهم بخلاف ماهنا .

(٤) هو جد امرئ القيس كما سيأتى ، سمى بذلك كناية عن كثر كان به ، والمرار بضم الميم : شجر مر من أفضل العشب وأضخمه ، إذا أكلته الإبل قلصت مشافرها وبدت أسنانها فصار كناية لمن به كشر. وقيل : سمى بذلك لأن ابنته كانت فى سبي ملك ، فقالت له : كأنك بأبي قد جاء كأنه جمل أكل المرار؛ يعنى كاشرا عن أنيابه ، وقد ورد غير هذا فى بعض الأخبار ، فليراجع شرح المواهب وغيره .

(٥) الزيادة من ابن هشام . (٦) فى الأصول : فيعزران بذلك والتصويب من ابن هشام . وقوله : « يتعززان » : أى يتقويان بذلك. (٧) لانقفو : أى لانتسب إلى أمنا ونترك الانتساب إلى أبينا ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم له جدة من كندة وهي أم كلاب بن مرة .

ذكر وفد الصَّدِف

قال ابن سعد : وَفَد وَفْدُ الصَّدِف[1] على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم بِضعة عشر رجلا ، على قَلائص[2] لهم ، فى أُزُر وأَرْدية ، فصادفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين بيته وبين المِنْبر ، فجلسوا ولم يُسَلِّموا فقال : « أمسلمون أنتم » ؟ قالوا : نعم . قال : « فهلَّا سَلَّمتم » ، فقاموا فقالوا : السلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله ، فقال : « وعليكم السلام ، اجلسوا » فجلسوا ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوقات الصلوات فأخبرهم بها .

ذكر وفد سعد هُذَيْم

قال ابن سعد يرفعه إلى أبى النعمان عن أبيه قال : قدِمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافدا فى نَفَر من قومى ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نَؤُمّ المسجد ، فنَجِد رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلِّى على جنازة فى المسجد ، فانصرف فقال : « من أنتم » ؟ قلنا : من بنى سعد هُذَيم[3] ، فأسلمنا وبايعنا ، ثم انصرفنا إلى رِحالنا ، فأمر بنا فأُنزِلنا وضُيِّفنا فأقمنا ثلاثا ، ثم جئناه نودِّعه ، فقال : « أَمِّروا عليكم أحدَكم » وأَمَر بِلالًا ، فأجازَنا بأواقٍ من فضَّة ، ورجعنا إلى قومنا فرزقهم الله الإسلام .

---

(١) الصدف ، بكسر الدال والنسبة إليه صدفى بفتحها كراهة الكسرة قبل ياء النسب ، وهذا الحى من قبائل حضرموت . وقال : بعضهم : ينسبون إلى صدف بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم من ذرية حمير بن سبا . و إلى هذا تنسب النجائب الصدفية .

(٢) قلائص (جمع قلوص) : وهى الناقة الشابة .

(٣) هذيم بضم الهاء وفتح الذال المعجمة فتحتية فميم : هو سعد بن زيد لكن حضنه عبد أسود اسمه هذيم فأضيف إليه حتى غلب عليه .

ذكر وفد بَلِيّ

روى عن رُوَيْفِع بن ثابت البَلَوِيّ[(١)] قال : قَدِم وفدُ قومى فى شهر ربيع الأول سنة تسع ، فأنزلتهم علىّ فى منزلى ببنى جَدِيلة ، ثم خرجتُ بهم حتى آنتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس مع أصحابه فى بقية من الغَدَاة[(٢)] ، فتقدم شيخ الوفد أبو الضُّبَيب[(٣)] ، فجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم وأسلم ، وأسلم القوم ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضِّيافة ، وعن أشياء من أمر دينهم فأجابهم ، ثم رجعت بهم إلى منزلى ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى [منزلى][(٤)] يحمل تَمْرا يقول: « آستعن بهذا التَّمْر » فكانوا يأكلون منه ومن غيره ، فأقاموا ثلاثا ، ثم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُودِّعونه ، فأمر لهم بجوائز كما كان يُجيز الوفد ، ثم رجعوا إلى بلادهم .

ذكر وفد بَهْراءَ

قال آبن سعد : قَدِم وفدُ بهراء[(٥)] من اليمن ، وهم ثلاثة عشر رجلا ، فأقبلوا يقودون رواحلهم ، حتى آنتهوا إلى باب المِقْداد بن عمرو ببنى جَدِيلة فخرج إليهم ، فرحَّب بهم وأنزلهم ، وأَتَوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فأسلموا وتعلَّموا الفرائض وأقاموا أياما ، ثم جاءوا يُودِّعونه فأمر لهم بجوائزهم ، وآنصرفوا إلى أهلهم .

---

(١) بلى كرضى : نسبة إلى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة .

(٢) عبارة الطبقات : « وهو جالس مع أصحابه فى بيته فى الغداة » .

(٣) فى الطبقات : أبو الضباب . وفى شرح المواهب : أبو الضيب بمعجمة مضمومة بلفظ تصغير ضب . ويرويه بعضهم أبو الضيمس بسين مهملة : ذكره الذهبى .

(٤) الزيادة من شرح المواهب .

(٥) بهراء فعلاء ممدود ، ابن عمرو وأخو بلى بن عمرو ، ينسب إليه بهرانى .

ذِكر وفد عُذْرة

قالوا : قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد عُذْرة، فى صَفَرٍ سنة تسع من مُهَاجَره، وهم آثنا عشر رجلا ، فيهم حمزة بن النعمان العُذْرِىّ، وسليم وسعد آبنا مالك، ومالك بن أبى رِياح، فنزلوا دار رَمْلة بنت الحارث، ثم جاءوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فسلّموا بسلام الجاهلية، وقالوا : نحن إخوة قُصىّ لأمه، ونحن الذين أخرجوا خُزَاعة وبنى بكرٍ عن مكة، ولنا قَرَابات وأرحام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَرْحبًا بكم وأهلًا، ما أعرفنى بكم، ما منعكم من تحية الإسلام » ؟ قالوا : قدِمنا مرتادين لقومنا[1] . وسألوا النبىّ صلى الله عليه وسلم عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم فيها، فأسلموا وأقاموا أياما، ثم آنصرفوا إلى أهليهم، وأمر لهم بجوائز كما كان يُجيز الوفدَ، وكَسَا أحدهم بُرْدا .

٣١/١٦

قال : ووَفَد زَمْل[2] بن عمرو العُذْرىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنشأ يقول حين وَفَد :

إليكَ رسولَ الله أَعملتُ نَصَّها * أُكَلِّفها حَزْنًا وقَوْزا من الرَّمْلِ[3]
لأَنصرَ خيرَ النَّاسِ نَصْرًا مُؤَزَّرًا * وأَعْقِدَ حَبْلًا من حِبالِكَ فى حَبْلِ[4]
وأَشهدَ أنَّ اللهَ لا شىءَ غيرُه * أَدِينُ له ما أَثقلتْ قَدَمِى نَعْلِى[5]

(١) فى شرح المواهب : « مرتادين لأنفسنا ولقومنا » . والمرتاد الطالب للشىء .

(٢) فى أسد الغابة : « وقيل زمل بن ربيعة ، وقيل زميل بن عمرو بن العنز بن خشاف » .

(٣) نص الناقة : آستخرج أقصى ماعندها من السير . والحزن (بالفتح فالسكون) : ماغلظ من الأرض . والقوز : المستدير من الرمل ، والكثيب المشرف .

(٤) مؤزرا : بالغا شديدا . والحبل : العهد .

(٥) فى الأصل : « رجلى » والتصويب من الطبقات : يريد مادمت حيا .

قال : وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمع من صَنَمه ، فقال : « ذلك مؤمن الجن »(١) وعقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم لِواءً على قومه ، فشهد به بعد ذلك صِفِّين(٢) مع معاوية ، ثم شَهِد به المَرْج(٣) فقُتِل .

ذِكر وفد سَلَامان

قال ابن سعد : وفد سبعة من سَلَامان(٤) على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوّال سنة عشر ، فصادفوه وهو خارج من المسجد إلى جنازة ، فقالوا : السلام عليك يارسول الله ، قال : « وعليكم [السلام](٥)] من أنتم » ؟ قالوا : نحن من سَلَامان ، قدِمنا لنبايعك على الإسلام ، ونحن على مَنْ وراءَنا مِن قومنا . فأَمر ثَوْبان(٦) فأنزلهم حيث ينزل الوفد(٧) ، فلمّا صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظُّهْر جلس بين بيتِه وبين المِنْبر ، فقَدِموا إليه فسألوه عن أشياء من أمر الصّلاة وشرائع الإسلام ، وعن الرُّقَى(٨) فأجابهم وأسلموا ، وأجاز كلَّ رجلٍ منهم خمس أواقٍ ، ورجعوا إلى بلادهم .

---

(١) في الإصابة : «وذاك من مؤمني الجن» . (٢) صفين كسجين : موضع على الفرات قرب الرقة ، مشهور بالوقعة بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما ، وفيها قتل عمار بن ياسر وهو مع علي .

(٣) هو مرج راهط : موضع في الغوطة من دمشق ، وفيه كانت الواقعة بين الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم سنة ٧٤ هـ قتل فيها الضحاك ، واستقام الأمر لمروان ولبنيه من بعده .

(٤) قال في شرح المواهب : «سلامان بفتح المهملة وخفة اللام : بطن من قضاعة ينسبون إلى جدّهم الأعلى سلامان بن سعد بن زيد بن لوث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة» .

(٥) الزيادة من شرح المواهب . (٦) ثوبان : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ هو ابن بجدد وقيل ابن بجدر ، حميري من اليمن أو من السراة ، اشتراه رسول الله فأعتقه .

(٧) دار رملة بنت الحارث منزل الوفود . (٨) في شرح المواهب : «قال حبيب — وهو أحد أعضاء الوفد — وسألته عن رقية العين وذكرها له فأذن له فيها» .

ذكر وفد كلب

قال محمد بن سعد بسنده إلى عبد بن عمرو بن جبلة بن وائل بن الجُلَاح الكلبي[(١)] [(٢)]، قال: شخصتُ أنا وعِصام[(٣)] — رجلٌ من بني رَقَاش من بني عامر — حتى أتينا النبيّ صلى الله عليه وسلم، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا.

٥ وقال بسند آخر إلى ربيعة بن إبراهيم الدمشقي قال: وَفَد حارِثةُ بن قَطَن بن زابِر[(٤)] بن حِصْن بن كَعْب بن عُلَيْم الكلبيّ، وحَمَل[(٥)] بن سَعْدانة بن حارثة بن مُغَفَّل ابن كعب بن عُلَيْم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلما، فعقد لحَمَل بن سَعْدانة لواء، فشهد به صِفِّين مع معاوية، وكتب لحارثة بن قَطَن كتابا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ١٠ لأهل دُومَة الجَنْدل[(٦)] وما يليها من طوائف كَلْب مع حارثة بن قَطَن، لنا الضَّاحِية[(٧)]

---

(١) بعضهم ذكره بالإضافة: «عبد عمرو» وهو المتبادر، والبعض ذكره كما هنا.

(٢) نسبة إلى جدهم كلب بن وبرة (بفتح الواو والموحدة من قبائل قضاعة).

(٣) عصام: هو ابن عامر الكلبي وهو الذي كان يتولى نسك صنم لهم يقال له (عمرة) فسمع صوتا من جوفه يقول له: «يا عصام يا عصام، جاء الإسلام، وذهبت الأصنام، ووصلت الأرحام» ففزعوا منه، فشخص هو وعمرو بن جبلة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما سمعوا، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. ١٥

(٤) زابر: بزاي بعدها ألف فباء فراء كذا ضبطه أسد الغابة، وفي الأصول وابن سعد: زائر ولم نجد من رسمه بهذا، وقال: «بن كعب بن حصن» ومثله في الاستيعاب، والأصول كلها على تقديم حصن.

(٥) حمل بمهملة وميم مفتوحتين ابن سعدانة بن حارثة بن معقل، كذا في الإصابة وأسد الغابة: معقل من عقل. (٦) دومة الجندل: حصن مشهور حوله قرى، فيه وقع التحكيم بين علي ٢٠ ومعاوية. وهو في طريق المدينة المنورة من الشام قرب جبل طيء كانت به بنو كنانة من كلب. سميت بدومة الجندل لأن هذا الحصن مبني بالجندل. (٧) الضاحية: «الظاهرة البارزة من العمارة، والبعل: النخل الذي شرب بالعروق من الأرض من غير سقي لقرب مائها. والضامنة من النخل: هو ما كان داخلا في العمارة وتضمنته أمصارهم وقراهم. وفي هامش ج: «الضامنة التي لا يترطب بسرها».

من البَعْل، ولكم الضَّامِنة من النَّخْل؛ على الجارِية العُشْر، وعلى الغائِرة[1] نِصفُ العُشْر، لا يُجْمَع سارِحُكم[2]، ولا تُعَدُّ فارِدَتكم[3]، تُقِيمون الصلاةَ لوقتها، وتُؤتون الزكاةَ بحقِّها، [ولا يُحْظَر عليكم[4]] النَّبَاتُ، ولا يُؤخَذ منكم عُشْر البَتَات[5]، لكم بذلك العهد والميثاق، ولنا عليكم النُّصْحُ والوفاء، وذِمّة الله ورسوله، شهد الله ومَنْ حضر من المسلمين».

ذِكر وفدِ جَرْم

قال ابن سعد: وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان من جَرْم[6]، يقال لأحدهما: الأَسْقَع[7] بن شُرَيْح بن صَرِيم بن عمرو بن رِيَاح[8] بن عوف بن عُمَيرة بن الهُون ابن أَعْجَب بن قُدَامة بن جَرْم [بن رِبَان[9]] بن حُلْوَان بن عِمْران بن الحافِ[10] بن قُضَاعة.

(١) الجارية: التى تسقى بالماء الجارى، والغائرة: التى تسقى بالماء الغائر فى الأرض كالآبار. وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم: «فيما سقت السماء والأنهار والعيون العشر، وفيما سقى بالسوانى أو النضح نصف العشر» السوانى جمع سانية: البعير يستقى عليه من البئر، والنضح الماء الذى يستقى بالدوالى وهى الدلاء أو المنجنون. (٢) كذا فى الأصول والطبقات. والسارح: الماشية التى تسرح إلى الرعى، وهى السائمة، أى لا تجمع لأخذ الزكاة، وإنما تؤخذ منها فى مراعيها متفرقة، أو الخطاب لمجموعهم؛ أى لا تضم سوائم بعضهم إلى بعض عند الزكاة. وفى النهاية: «لا تعدل سارحتكم أى لا تصرف ماشيتكم عن مرعى تريده». (٣) الفاردة: هى الزائدة على الفريضة؛ أى لا تضم إلى غيرها فتعد معها وتحسب (النهاية)، وفى الأصول والطبقات: «لا تعدل فاردتكم» وهو تصحيف وما أثبتناه عن النهاية وغيرها. (٤) الزيادة من الطبقات؛ أى لا تمنعون من الزراعة حيث شئتم. كذا فى النهاية، والذى يتبادر أن المعنى لا تمنعون من الرعى حيث شئتم مما هو ليس بحق لأحد لقاعدة: المباح لمن سبق إليه، وهذا من الأصول المرعية، فالحديث يقررها.

(٥) البتات: هو المتاع الذى ليس عليه زكاة مما لا يكون للتجارة. (٦) جرم: بفتح الجيم نسبة إلى جدهم جرم بن ربان (بالباء الموحدة المشددة). (٧) الأسقع بالسين المهملة كما فى الإصابة وأسد الغابة، وفى الأصول والطبقات بالصاد. (٨) رياح بكسر الراء والياء تحتها نقطتان كما فى أسد الغابة والإصابة. (٩) الزيادة من الطبقات، وقد ضبطه بالراء والياء. وقد تقدم أنه ربان بالموحدة تحتية قبلها راء كما فى الاشتقاق والقاموس.

(١٠) الحاف: مما حذفت العرب ياءه اجتزاء بالكسرة، كقولهم العاص فى العاصى.

والآخر : هَوْذَة بن عمرو بن يزيد بن عمرو بن رِيَاح ، فأسلما وكتب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا .

وروى عن أبي يزيد — وقد قيل فيه بالباء الموحّدة أبو بُرَيْد — عمرو بن سَلِمة الجَرْمىّ أن أباه ونفرا من قومه ، وفدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين أسلم الناس ، وتعلّموا القرآن وقَضَوا حوائجهم ، فقالوا : يا رسول الله من يُصلِّى بنا ؛ أو لنا ؟ فقال : « لِيصلِّ[1] بكم أكثرُكم جَمْعا — أو أَخْذًا — للقرآن » . قال : فجاءوا إلى قومهم فلم يجدوا فيهم أحدا أكثر أخذا ، أو جَمْع من القرآن ما جَمعتُ ، أو أَخَذْتُ ، قال : وأنا يومئذ غلامٌ على شَمْلةٍ[2] ، فقدّمونى فصلّيتُ بهم ، فما شهدتُ جَمْعا من جَرْم إلا وأنا إمامهم إلى يومى هذا .

٣٢/١٦ وعن عمرو بن سَلِمة أيضا قال : كنا بحضرة ماءٍ ممَرُّ الناس عليه ، وكنا نَسْألهم ، ما هذا الأمر ؟ فيقولون : رجلٌ يزعم أنه نبيٌّ ، وأنّ الله أرسله ، وأنّ الله أوحى إليه كذا وكذا ، فجعلتُ يومئذ لا أسمع شيئا من ذلك إلّا حَفظته ، كأنما يُغْرَى[3] فى صدرى بِغِراء ، حتى جمعتُ فيه قرآنا كثيرا ، وكانت العرب تَلُوم[4] بإسلامها الفَتْحَ ، يقولون : انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق ، وهو نبيٌّ . فلما جاءتنا وَقْعَةُ الفَتْح بادر كل قوم بإسلامهم ، فانطلق أبى بإسلام حِوائِنا ذلك ، وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يُقيم ، ثم أقبل فلمّا دَنا منّا تلقّيناه ، فقال : جئتكم والله من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حقًّا ، ثم قال : إنه يأمركم بكذا وكذا ،

(١) فى أسد الغابة : « يؤمكم أقرؤكم » .

(٢) فى الطبقات : فى « شملة » ، والشملة كساء صغير يؤتزر به .

(٣) يغرى : يلصق به ، يقال : غرى هذا الحديث بالكسر يغرى بالفتح كأنه ألصق بالغراء .

(٤) تلوم أى تنتظر ، أراد تتلوم بحذف إحدى التائين تخفيفا .

وينهاكم عن كذا وكذا، وأن تصلوا صلاة كذا فى حين كذا، وصلاة كذا فى حين كذا، إذا حضرت الصلاة فليؤذّن أحدُكم، وليؤمّكم أكثركم قرآنا. فنظر أهلُ حِوائنا[1] فما وجدوا أحدا أكثر قرآنًا منّى للّذى كنت أحفظه من الرُّكبان، فقدّمونى بين أيديهم، فكنتُ أصلّى بهم وأنا ابن ستّ سنين[2]، وكان علىّ بُرْدَة كنتُ إذا سجدتُ تقلّصت[3] عنّى، فقالت امرأة من الحىّ: ألا تغطون عنّا استَ قارئكم؟ فكسَوْنى قميصًا من معقّد[4] البَحْرَيْن، فما فَرِحتُ بشىء أشدّ من فرحى بذلك القميص.

ومن رواية أخرى عنه: فعلّمونى الركوعَ والسجودَ، فكنتُ أصلّى بهم.

ذِكر وفدِ الأزدِ وأهلِ جُرَش

قالوا: قدم صُرَد بن عبد الله الأَزْدىّ[5] فى بضعة عشر رجلا من قومه، وَفْدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلوا على فَرْوَةَ بن عَمْرو، وأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا، وأقاموا عشرة أيام، وكان صُرَد أفضلَهم، فأمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه، وأمَره أن يجاهد بهم مَنْ يَليه، من أهل الشِّرك من قبائل اليمن؛ فخرج حتى نزل جُرَش[6] وهى مدينة حَصينة مُغْلَقة، وبها

(١) الحواء (بالحاء المهملة وواو ممدودة): بيوت مجتمعة من الناس على ماء.

(٢) فى أسد الغابة عن عمرو: قال أممت قومى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام ابن ست أو سبع سنين. (٣) تقلصت: انزوت. (٤) المعقد: ضرب من برود هجر، وهى من قرى البحرين معروفة بهذه البرود، كما عرفت هجر المدينة بفلافلها، فيقال: فلال هجر.

(٥) الأزد: بهمزة مفتوحة وزاى ساكنة ودال مهملة، ويقال بالسين لتقارب مخرجهما إلا أن المشهور الأول، والأزد من أكبر الأرومات القحطانية، وهم ثلاثة: أزد عمان، وأزد شنوءة، وأزد السراة. وجرش (كزفر): مخلاف من اليمن؛ أى ناحية، ومدينة أيضا. (٦) هذه المدينة ينسب إليها جلود ونوق، فيقال: أديم جرشى وناقة جرشية؛ فتحت جرش سنة عشر من الهجرة صلحا.

قبائل من قبائل اليمن . وقد ضَوت[1] إليهم خَثْعَم ، فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فحاصرهم صُرَد ومن معه فيها شهرا ، ثم رجع قافلا، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شَكْر، ظَنّ أهلُ جُرَش أنه إنما ولّى عنهم منهزما ، فخرجوا فى طلبه حتى إذا أدركوه صَفّ صُفوفَه، وحمل عليهم هو والمسلمون ، ووَضَعوا سيوفهم فيهم حيث شاءوا ، وأخذوا من خيلهم عشرين فرسا ، فقاتلوهم عليها نهارا طويلا .

وكان أهل جُرَش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشِيةً بعد العصر ؛ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بأىّ بلاد الله شَكْر » ؟ فقام الجُرَشيّان فقالا : يا رسول الله ، ببلادنا جبل يقال له كَشْر، وكذلك نسمّيه أهلَ جُرَش ، فقال : « إنه ليس بكَشْر ولكنه شَكْر » ، قالا : فما شأنه يا رسول الله ؟ قال : «إنّ بُدْن الله لَتُنْحَر عنده الآن» قال : فجلس الرجلان إلى أبى بكر، أو إلى عثمان[2] . فقال لهما : وَيْحَكُما! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم الآن لَيَنْعَى لكما قومَكما، فقوما إلى رسول الله فَسَلَاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما . فقاما إليه فسألاه ذلك . فقال : « اللهم ٱرفع عنهم » فخرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا من صُرَد فى اليوم الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال فى تلك الساعة، فقصّا على قومهما القِصّة، فخرج وفدهم حتى قَدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، فقال : « مرحبا بكم ،

(١) ضوى إليه : ٱنضم ولجأ ، وخثعم من قبائل اليمن ، قالوا : إنها من معد بن عدنان نزحوا إلى اليمن فصاروا منه .

(٢) هذا شك من الراوى . والعبارة فى المواهب : « إلى أبى بكر وعثمان فقالا لهما ... » الخ» .

أحسن الناس وجوها[(١)]، وأصدقه لقاء، وأطيبه كلاما، وأعظمه أمانة، أنتم منى وأنا منكم » وجعل شعارهم مبزورا، وحَمَى لهم حِمًى حول قريتهم، على أعلام[(٢)] معلومة للفرس والراحلة وللمُثيرة — بقرة الحرث — فمن رعاه من الناس فماله[(٣)] سحت .

ذكر وفد غسّان

قال محمد بن سعد بسنده إلى محمد بن بُكَير الغَسَّانى[(٤)]، عن قومه من غسّان، قالوا : قَدِمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان سنةَ عشر، المدينةَ ونحن ثلاثة نفرٍ، فنزلنا دار رَمْلَة بنت الحارث، ثم أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمنا وصَدَّقنا، فأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوائز وانصرفوا راجعين، فقَدِموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم، فكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان مسلمين[(٥)]، وأدرك الثالث عمر بن الخطاب عامَ اليَرْموك، فلقى أبا عبيدة فخبّره بإسلامه فأكرمه[(٦)] . ٣٣/١٦

ذكر وفد الحارث بن كعب

وما كتب به رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم

قال ابن سعد : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى أربعمائة من المسلمين، فى شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنَجْرانَ[(٧)]،

(١) كذا فى جميع الأصول والطبقات، ولفظ الناس وضع للجميع : كالقوم والرهط والنفر؛ يصح جمع ضميره وإفراده وتذكيره وتأنيثه . (٢) أعلام (جمع علم) : وهو الفصل بين الأرضين .

(٣) ماله سحت : هدر . (٤) فى الطبقات : « عن قومه غسان » .

(٥) هكذا فى الأصول والطبقات، واللفظ حال من النكرة بدون مسوّغ، وقد ورد فى البخارى : « وصلى وراءه رجال قياما » . (٦) فى الطبقات : « فكان يكرمه » . (٧) نجران اليمن؛ وهو موضع من ناحية مكة، قالوا : سميت بنجران بن زيد بن سبإ لأنه نزل بها، وكانوا على النصرانية حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى نجران هذا وقعت حادثة أصحاب الأخدود .

وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا قبل أن يقاتلهم ففعل ، فاستجاب له مَن هنـاك مِن بَلْحارث بن كعب[(١)] ، ودخلوا فى الإسلام ، ونزل خالد بن الوليد بين أظهرهم ، فعلمهم الإسلام وشرائعه ، وكتاب الله وسنة نبيه صـلى الله عليه وسلم ، وكتب بذلك إلى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، فكتب رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى خالد : « أن بَشِّرهم وأَنْذِرهم وأَقدُم ومعك وفدُهم » ، فقدم خالد ومعه وفدهم ؛ فيهم قيس بن الحُصَيْن ، ويزيد بن عبد المَدَان ، وعبد الله بن عبد المَدَان ، ويزيد بن المُحَجَّل ، وعبد الله بن قُرادٍ[(٢)] ، وشَدّاد بن عبد الله القَنَانِىّ ، وعمرو بن عبد الله ، وأنزلهم خالد عليه ، ثم جاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « من هؤلاء الذين كأنهم رجال الهند » ؟ فقيل : بنو الحارث بن كعب ، فسلَّموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسـول الله ، فأجازهم بعشر أواق ، وأجاز قيس بن الحُصَيْن بأثنتى عشرة أوقيـة ونَشٍّ ، وأمَّره رسـول الله صلى الله عليـه وسلم على بنى الحارث ، ثم آنصرفوا إلى قومهم فى بقية شوّال . هذا ما حكاه آبن سعد فى طبقاته .

وقال آبن إسحق : لمـا وقفوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلَّموا عليه ، وقالوا : نشهد أنك لرسول الله ، وأنه لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم الذين إذا زُجِروا آستقدموا[(٣)] » ؟ فسكتوا ، فلم يراجعه منهم أحد ، فأعادها عليهم الثانية والثالثة ، فلما أعادها الرابعة قال يزيد بن عبد المدان : نعم يا رسول الله ، نحن الذين إذا زُجِروا آستقدموا ، قالها أربعَ مِرار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) العرب يقولون فى بنى العباس : بلعباس ، وبنى الحارث بلحارث ، وبنى العرب بلعرب ؛ وذلك طلبا للتخفيف . (٢) كذا فى الأصول والطبقات ويروى قذاذ ، وفى الإصابة : قراد وقداد ، ويروى عبد الله بن قريظ . (٣) المراد : إذا حثوا وحملوا على القتال تنادوا وتجمعوا وتقدموا .

« لو أنّ خالدا لم يكتب إلىّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم » فقال يزيد بن عبد المَدَان : أَمَا والله ما حَمِدناك ولا حَمِدنا خالدا ، قال : « فمن حمِدتم » ؟ قالوا : حمِدنا الله الذى هدانا بك يا رسول الله . قال : « صدقتم » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بم كنتم تغلِبون من قاتلكم فى الجاهلية » ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحدا . قال : « بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم » قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ، قال : « صدقتم » . وأمَّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على بنى الحارث قيسَ بن الحصين ، وأجازهم بعشرِ أواقٍ عشرِ أواقٍ ، وأجاز قيسَ بن الحُصَين بآثنتى عشرة أوقيةً ونَشٍّ ، ثم انصرفوا إلى قومهم فى بقية شوّال ، أو فى صدر ذى القعدة ، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حَزْم ليفقِّههم فى الدِّين ويعلِّمهم السُّنة ، ويعلِّمهم[1] الإسلام ، ويأخذ منهم صدقاتِهم . وكتب له كتابا وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا بيان من الله ورسوله ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ[2] ﴾ عهد من محمد النبى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لعمرو بن حزم حين

(١) هكذا فى الأصول والذى فى شرح المواهب : معالم الإسلام . وفى الطبقات : « يعلمهم الإسلام وشرائعه » .

(٢) العقود (جمع عقد) : وهو العهد استعير من الجمع بين أطراف الشىء ، قال الراغب : يستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء ، ثم استعير ذلك للمعانى نحو عقد البيع والعهد . والعهد : الأمان والموثق والذمة . والآية شاملة لكل ارتباط شرعى بين طرفين فيجب الوفاء به كما أمر الله ، وكذلك ما عقده على نفسه لله من طاعات ملة الإسلام كالحج والصوم وغيرهما ، أما ما لا يجوز كنذر بمعصية فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » .

بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله فى أمره كله فـ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾، وأمره أن يأخذ الحق كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلِّم الناس القرآن ويفقِّههم فيه، وينهى الناس، ولا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم، ويلين للناس فى الحق، ويشتدّ عليهم فى الظُّلم، فإنّ الله كره الظُّلم، ونهى عنه، فقال: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾، ويبشِّر الناس بالجنة وبعملها، ويُنْذر الناس النارَ وعملَها، ويستألِف[1] الناس حتى يُفَقَّهوا فى الدِّين، ويعلِّم الناس معالِم الحج وسنَّته وفريضتَه، وما أمر الله به، والحج الأكبر: الحج الأكبر، والحج الأصغر هو العُمرة، وينهى الناس أن يصلِّىَ أحدٌ فى ثوب واحد صغير، إلا أن يكون ثوبا يُثْنِى طرفَيْه على عاتقيه، وينهى أن يحتبى[2] أحد فى ثوب واحد يفضى بفرجه إلى السماء، وينهى أن يعقِص[3] أحد شعر رأسه فى قَفاه، وينهى إذا كان بين الناس هَيْج[4] عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليُقْطَفوا[5] بالسَّيْف، حتى تكون دعواهم إلى الله وحده

٣٤/١٦

(١) يستألف الناس: يكتسب مودتهم وألفتهم وإيناسهم. (٢) الاحتباء أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعها به مع ظهره ويشد عليها، وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب، وإنما نهى عنه لأنه إذا لم يكن عليه إلا ثوب واحد ربما تحرك أو زال الثوب فتبدو عورته. (النهاية).

(٣) عقص الشعر: ضفره، قال فى النهاية: أصل العقص اللى وإدخال أطراف الشعر فى أصوله، ومنه حديث ابن عباس رضى الله عنهما: «الذى يصلى ورأسه معقوص كالذى يصلى وهو مكتوف» أراد أنه إذا كان شعره منشورا سقط على الأرض عند السجود فيعطى صاحبه ثواب السجود به، وإذا كان مقوصا صار فى معنى ما لم يسجد، وشبهه بالمكتوف وهو المشدود اليدين لأنهما لا يقعان على الأرض فى السجود. (٤) الهيج: الثورة: هاج يهيج هيجا وهيجانا وهياجا بالكسر ثار، والمراد إذا وقع اضطراب بين الناس وتنادوا بالقبائل كما يفعل الجاهلية؛ أمرهم بالدعاء إلى الله تعالى ونهاهم عن دعوة الجاهلية وهى التنادى بالقبائل. (٥) القطف: القطع، ومن هذا المعنى قول الحجاج فى خطبته: «أرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها» يعنى جنيها كما تجنى الثمار وهو قطفها.

لاشريك له ، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق ، وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحون برءوسهم كما أمرهم الله ، وأمر بالصلاة لوقتها ، وإتمام الركوع والخشوع ، يُغَلِّس[1] بالصبح ، ويُهَجِّر[2] بالهاجرة حين تميل الشمس ، وصلاة العصر والشمس فى الأرض مُدْبِرة ، والمغرب حين يُقبِل الليل ، لا تؤخر حتى تبدو النجوم فى السماء ، والعشاء أول الليل ، وأمر بالسعى إلى الجمعة إذا نودى لها ، والغُسْل عند الرَّواح إليها، وأمره أن يأخذ من المغانم خُمس الله، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من العقار[3] عُشر ما سقت العينُ وسقت السماء، وعلى ما سقى الغَرْب[4] نصف العشر، وفى كل عشرٍ من الإبل شاتان، وفى كل عشرين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع[5] : جَذَع أو جَذَعة، وفى كل أربعين من الغنم سائمة[6] وحدها شاةٌ ، فإنها فريضة الله التى افترض على المؤمنين فى الصدقة، فمن زاد خيرا فهو خير له ، وأنه من أسلم من يهودىّ أو نصرانىّ إسلاما خالصا من نفسه، ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم وعليه مثل

(١) الغلس محركة : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح ، وغلسوا دخلوا فيها ، وغلسوا ، بشد اللام : ساروا ووردوا بغلس . (٢) هجر ، بالشد تهجيرا : سار فى الهاجرة ؛ أى يبادر بصلاة الهاجرة ، وهى صلاة الظهر حين تميل الشمس وهو أول الوقت . (٣) العقار ، بالفتح : الضيعة والنخل والأرض ونحو ذلك . (النهاية) . (٤) الغرب ، بسكون الراء : الدلو العظيمة فإذا فتحت الراء فهو الماء السائل بين البئر والحوض ، والمراد فى الحديث الدلو كما هو صريح رواية النسائى «وما سقى بالدوالى نصف العشر» والدوالى جمع الدلاء وهى جمع الدلو ، وقال بعضهم : الدوالى جمع دالية وهى آلة لإخراج الماء .

(٥) التبيع : ولد البقرة لسنة : سمى تبيعا لأنه يتبع أمه فعيل بمعنى فاعل . فى الترمذى وابن ماجه : «فى ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة» والمراد بالتبيع العجل التابع لأمه لهذا فسره عليه الصلاة والسلام بقوله : « جذع أو جذعة » ويوضح هذا رواية النسائى عن معاذ بن جبل حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال : « أمرنى رسول الله حين بعثنى إلى اليمن ألا آخذ من البقر شيئا حتى تبلغ ثلاثين ، فإذا بلغت ثلاثين ففيها عجل تابع جذع أو جذعة » . (٦) السائمة : هى التى تركت ترعى وحدها للنمو والزيادة ، ووصف السوم هو مناط الحكم فى الزكاة .

ما عليهم، ومن كان على نَصرانيته أو يَهوديته، فإنه لا يُردّ عنها، وعلى كل حالِمٍ[(١)] ذكرٍ أو أنثى حُرٍّ أو عبدٍ دينارٌ وافٍ، أو عِوضه ثيابا، فمن أدّى ذلك فإن له ذِمّة الله وذِمّة رسوله، ومَن مَنع ذلك فإنه عدوّ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

ذكر وفدِ عَنْسٍ

قال محمد بن السّائب الكلبيّ: حدّثنا أبو زُفَرَ الكلبيّ عن رجل من عَنْس[(٢)]، قال: كان مِنّا رجل وَفَد على النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه وهو يتعشّى، فدعا به إلى العَشَاء بخلس[(٣)]، فلما تعشّى أقبَل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أشهد[(٤)] أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله» فقال العَنْسيّ: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. فقال: «أراغبًا جئتَ أم راهِبًا» فقال: أمّا الرَّغبة فوالله ما فى يديك مالٌ، وأمّا الرَّهْبة فوالله إنى لبِبلدٍ ما تبلغه جيوشك، ولكنّى خُوّفتُ فخِفتُ، وقيل لى: آمِنْ بالله فآمنتُ. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم فقال: «رُبَّ خَطيبٍ من عَنْس» فمَكَث يختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاء يُوَدّعه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آخرج» و بتّه[(٥)]، أى أعطاه شيئا، وقال: «إن أحْسَسْتَ[(٦)] شيئا فوائِلْ إلى أدْنى[(٧)]

(١) الحالم: الذى بلغ الحلم أى وهو عاقل؛ لأن بلوغ الحلم مع العقل هو مناط التكليف.

(٢) لقب لجد القبيلة، ومنها عمار بن ياسر رضى الله عنه.

(٣) فى أسد الغابة: «فدعا به إلى العشاء فأكل».

(٤) فى الإصابة: «فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل أشهد ..... الخ».

(٥) بتّه أعطاه بتاتا: أى زادا.

(٦) بصيغة الأمر: أى التجئ.

(٧) أدنى: أقرب. فى أسد الغابة: «إلى أهل قرية».

قرية» . فخرج فوُعِك[(١)] فى بعض الطريق ، فوآل إلى أدنى قرية فمات رحمه الله ، وآسمه ربيعة[(٢)] .

ذِكر وفدِ الدارِيّين وما كتب لهم بهِ رسول اللهِ صلى الله عليهِ وسلم وما آختصّ بهِ تميم الدارِىّ وإخوته

قال محمد بن سعد بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله ، ورَوْح بن زِنْباع الجُذامىّ عن أبيه قالا : قدِم وفد الدّارِيّين[(٣)] على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْصَرَفه من تَبُوكَ وهم عشرة نَفَر ؛ فيهم تَميم ونُعَيْم آبنا أَوْس بن خارِجة بن سُود[(٤)] بن جُذَيمة[(٥)] آبن ذِراع بن عَدىّ بن الدّار بن هانِئ بن حبيب بن نُمَارة بن لَخْم ، ويزيد بن قيس آبن خارجة ، والفاكه بن النُّعمان بن جَبَلة بن صَفّارة بن ربيعة بن ذِراع بن عَدىّ آبن الدّار ، وجَبَلة بن مالك بن صَفّارة ، وأبو هِنْد والطَّيِّب آبنا ذَرّ — قال آبن [إسحق][(٦)] : بَرّ — وهو عبد الله بن ذَرّ بن عَمّيت بن ربيعة بن ذِراع ، وهانِئ بن حبيب ، وعَزِيز ومُرّة آبنا مالك بن سَوّاد[(٧)] . قال آبن إسحق : عَرْفة . وقال آبن هشام : عَزّة . وقال آبن إسحق فى مُرّة : مَرْوان[(٨)] .

قال آبن سعد : فأسلموا وسَمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيب عبد الله ، وسَمّى عَزيزاً عبد الرحمن .

(١) فى أسد الغابة : «فأحس حسا» . أى وجعا .

(٢) فى أسد الغابة والإصابة إن آسمه ربيعة بن رواء العنسى .

(٣) نسبة الداريين إلى جدّهم الدار بن هانئ بن نمارة — بضم النون — بن لخم بن عدى ابن الحرث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ .

(٤) وقيل : سواد . (٥) وقيل : خزيمة .

(٦) القائل هو آبن إسحق كما فى سيرة آبن هشام ، واللفظ ساقط من الأصول .

(٧) فى نسخة : « آبن سود » . (٨) وقيل : « مران » .

قال : وأهدى هانِئُ بن حبيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم راوية خَمْر وأفراسا وقَبَاء[(١)] مُخَوَّصا بالذهب، فقبل الأفراس والقَبَاء وأعطاه العباس بن عبد المطلب، فقال : ما أصنع به ؟ قال : « تنزع الذهب فتحليه نساءك، أو تَستَنْفقه، ثم تبيع الدِّيباج فتأخذ ثمنه »، فباعه العباس من رجل من يهود بثمانية آلاف درهم .

٥ قال وقال تميم : لنا جِيرَةٌ من الرُّوم، لهم قريتان يقال لأحداهما حَبْرَى[(٢)] والأخرى بيت عَيْنُون ، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لى ، قال : « فهما لك » فلما قام أبو بكر رضى الله عنه أعطاه ذلك ، وكتب له به كتابا ، وأقام وفد الدار يِّين حتى تُوفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوصى لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بِجَادِّ[(٣)] مائةِ وَسْقٍ من خَيْبر ، هكذا حكى ابن سعد فى طبقاته .

٣٥/١٦

١٠ وشاهدت أنا عند ورثة الصاحب الوزير فخر الدين أبى حفص عمر ، ابن القاضى المرحوم الرئيس مجد الدين عبد العزيز المعروف بابن الخليلى التميمىّ رحمه الله ، كتابا يتوارثونه كابرا عن كابر ، يقولون : هو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه لتميم الدارىّ وإخوته ؛ وهو فى قِطْعة من أَدَم مُربَّعة دون الشِّبْر قد غُلِّفت بالأَطْلَس[(٤)] الأبيض ، يزعمون أن ذلك من خُفٍّ كان لأمير ١٥ المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد بقى بهذه القِطْعة الأَدَم آثارُ أحْرُف خافِية ، لا تكاد تَبِين إلا بعد إمعان التأمُّل ، وتحقيق النظر ، وعلى هذه القطعة

(١) قباء : ضرب من الثياب ، ومخوص : مطرز بالذهب ومزين .

(٢) حبرى كسكرى وتسمى حبرون كزيتون ، وهى مدينة الخليل إبراهيم عليه السلام وغلب عليها اليوم وفيها قبره عليه الصلاة والسلام يزار ، وفى رواية كعب الأحبار أنه دفن فى قبر الخليل صلوات الله وسلامه ٢٠ عليه سارة وإلى جنبه إسحق ويعقوب . وعينون من قرى بيت المقدس بوزن هينون ولينون بسكون المثناة ؛ لفظ عبرى . (٣) فى التاج عن الأصمعى : يقال لفلان أرض جاد مائة وسق ؛ أى تخرج مائة وسق إذا زرعت . وهو كلام عربى . (٤) الأطلس : الحرير ، وليس بعربى .

الأَدَم من الجَلالة ولها من الموقع فى النفوس والمَهابة مايقوِّى أنها صادرة عن المحل المُنِيف[(١)]، وقرين هـذه القِطْعة الأَدَم قِرْطاس أبيض قـديم، يزعمون أن أسلافهم نقلوا ما فيه من الكتابة من كتاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أن تزول حروفه . وفيه تسعة أسطر بما فى ذلك من البَسْملة، وقد رأينا أن نضع ذلك فى هذا الكتاب على هيئته فى العدد، و إن لم يوافق الخط، وهو : ٥

بســم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أنْطَا[(٢)] محمد رسول الله لتميم

الدارىّ واخوته حَبْرُون والمَرْطُوم[(٣)]

و بيت عيْنون و بيت ابراهيم وما فيهن

نطيه بَتّ بذِمتهم ونفذت وسلمت ذلك ١٠

لهم ولأعقابهم فمن اذاهم اذاه

الله فمن اذاهم لعنه الله شهد عَتِيق

ابن ابو قُحَافَة[(٤)] وعمر بن الخطاب وعثمان بن عَفّان

وكتب على بن ابو طالب وشهد .

---

(١) المنيف : المرتفع المشرف من أناف ينيف إنافة ارتفع وأشرف . ١٥

(٢) أنطى : أعطى ، بلغة أهل اليمن . التحقيق أنها لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار يجعلون العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء . وقد قرئ بها « إنا أنطيناك الكوثر » وهى قراءة الحسن وطلحة بن مصرف وابن محيصن ، وقراءتهم من الشواذ . وقد شرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه اللغة بالنطق بها فقال : " لا مانع لما أنطيت " فى أحاديث . وقد تركنا الكتاب النبوى على وضعه كشرط المصنف حيث ذكره على هيئته . ٢٠

(٣) مرطوم كذا فى كل الأصول، وصوابه مرطهوم كما فى مستدرك التاج، قال : «ومرطهوم اسم أرض جاء ذكرها فى كتب رسول الله إلى أبى شمر» .

(٤) كذا فى الأصل ؛ تركناه على شرط المؤلف .

هكذا شاهدت تلك الورقة التى هى قَرِين الكتاب ، والكتاب بأيديهم إلى وقتنا هذا ؛ وهو العشر الآخر من ذى القِعْدة سنة ستّ عشرة وسبعمائة . وهذه الضِّياع الأربعة المذكورة بأيديهم إلى وقتنا هذا، لا يُنازَعُون فيها . وكان الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلى رحمه الله، إذا نابَتْه نائبة، أو صُودِر أو أوذِى بوجه من وجوه الأذى، توسّل إلى الله تعالى بكتاب نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأظهره للملوك، فكفوا عن طلبه، وأفرَجوا عنه . ولنرجعْ إلى أخبار الوفود .

ذكر وفد الرَّهاويِّين

والرَّهاويّون حَىّ من مَذْحِج(١)، قال ابن سعد : وفد خمسة عشر رجلا من مَذْحِج على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشرٍ، فنزلوا دار رَمْلة بنت الحارث، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتحدّث عندهم طويلا . وأهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم هدايا؛ منها فرس يقال له المِرْواح ، فأمر به فشُوِّر(٢) بين يديه فأعجبه . فأسلموا وتعلّموا القرآن والفرائض . وأجازهم كما يجيز الوفد ؛ أرفعهم ثنتى عشرة أوقيّة ونَشًّا، وأخفضهم خمسَ أواقٍ . ثم رجعوا إلى بلادهم .

ثم قدم منهم نفر فحجّوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأوصى لهم بجَادّ مائة وَسْقٍ من خَيْبر فى الكَتِيبة جارية عليهم ، وكتب لهم بها كتابا، فباعوا ذلك فى زمن معاوية .

---

(١) مذحج، مثال مسجد : أبو قبيلة من اليمن ، وهو مذحج بن يحابر بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . قال سيبويه : الميم من نفس الكلمة ، ومذحج أكمة ولدت عليها أمهم فسموا بها .

(٢) شور : أجرى بين يديه ليعرف قوته .

ذكر وفد غامد

٣٦/١٦ قال : قدم وفد غامد[1] على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان وهم عشرة، فنزلوا ببقيع الغرقد[2]، ثم لبسوا من صالح ثيابهم، ثم انطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلّموا عليه وأقروا بالإسلام . وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فيه شرائع الإسلام ، وأتوا أُبَيّ بن كعب فعلّمهم قرآنا . وأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يُجيز الوفد وانصرفوا .

ذكر وفد النَّخَع

قالوا : بعث النَّخَع[3] رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وافِدَيْن بإسلامهم، وهما أَرْطاة بن شَراحيل بن كعب، من بنى حارثة بن سعد بن مالك بن النَّخَع، والجُهَيْش واسمه الأَرْقَم، من بنى بكر بن عَوْف من النَّخَع، فخرجا حتى قَدِما على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرض عليهما الإسلام فقَبِلاه وبايَعا عن قومهما، فأَعْجَبَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم شأنُهما، وحسْنُ هيْئَتهما، فقال: «هل خَلَّفتما وراءَكما من قومكما مثلَكما»؟ قالا : يا رسول الله، قد خَلَّفْنا وراءَنا من قومنا سبعين رجلا كلهم أفضل منا، وكلهم يَقْطَع الأمر ويُنَفِّذ الأشياء، ما يشارِكوننا فى الأمر إذا كان ، فدعا لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقومهما بخير، وقال : « اللهمّ بارك فى النَّخَع » . وعَقَد لأَرْطاة لِواءً على قومه ، وكان فى يده يوم الفتح ، فشهد

(١) غامد : بطن من الأزد باليمن . نسبة إلى جدهم غامد واسمه عبد الله ، قيل سمى غامدا لوقوع شر بين عشيرته ، فتغمد ذنوبهم أى غطاها وسترها ، وقيل غير ذلك .

(٢) بقيع الغرقد : أصل البقيع فى اللغة الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والغرقد كبار العوسج . وبقيع الغرقد مقبرة أهل المدينة .

(٣) النخع : قبيلة من مذحج ، سميت باسم جدها وسمي النخع لأنه انخع عن قومه : بعد عنهم .

به القادِسيّة فقُتِل يومئذ، فأخذه أخوه دُرَيْد فقُتِل — رحمهما الله — فأخذه سيف ٱبن الحارث من بنى جُذَيمة ، فدخل به الكوفة .

قال ٱبن سعد : أخبرنا محمد بن عمر الأسلمىّ، قال : كان آخر من قدم من الوفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد النَّخَع، وقَدِموا من اليمن للنِّصف من المحرم ، سنة إحدى عشرة، وهم مائتا رجل، فنزلوا دار رَمْلة بنت الحارث، ثم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مُقرِّين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل باليمن، وكان فيهم زُرارَةُ بن عمرو .

وحكى أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة زُرَارة بن عمرو ، والد عمرو بن زُرَارة ، قال : قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد النَّخَع، فقال : يا رسول الله، إنى رأيت فى طريق رؤيا هالتنى . قال : « وما هى » ؟ قال : رأيتُ أتانًا[1] خلَّفتها فى أهلى وَلَدت جَدْيا أَسْفَعَ أَحْوَى[2]، ورأيتُ نارا خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ٱبنٍ لى — يقال له عمرو — وهى تقول : لَظَى لَظَى، بصيرٌ وأَعْمَى[3] . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أخلَّفتَ فى أهلك أَمَةً مُسِرّة[4] ولدا » . قال : نَعَم . قال : « فإنها قد ولدت غلاما وهو ٱبنك[5] » قال : فما باله أَسْفَع أَحْوَى ؟ قال : « ٱدن منّى، أبك

(١) أتان : حمارة أنثى ولا يقال أتانة ، وجمع القلة آتن كأعنق والكثرة أتن ، بضمتين .

(٢) الجدى : الذكر من أولاد المعزى . أسفع بزنة أحمر : أسود مشرب بحمرة . أحوى : كالتأكيد لما قبله ؛ إذ الحوة (بالضم) سواد إلى خضرة ، أو حمرة إلى سواد .

(٣) قال شارح المواهب : « كأن معناه تفترق الناس فيها فرقتين ، بصير عرف الحق فاتبعه ، وأعمى لم يهتد إلى طريق الحق فضل » .

(٤) مسرة : مخفية حملا ؛ وفى المواهب « مصرة » بالصاد ، وقال شارحها : « من أصر على الشىء أقام عليه ، والمراد حملها محقق ثابت » وما فى الأصول يوافق ما فى الاستيعاب ، وهو الظاهر .

(٥) دفع به ما قد يدخل عليه من الريبة إذا رأى اللون الغريب .

بَرَص تكتمه » ؟ قال : والذى بعثك بالحق ، ما عَلِمه أحدٌ قبلك . قال : « فهو ذاك ، وأما النار فإنها فتنة تكون بعدى » . قال : وما الفتنة يا رسول الله ؟ قال : يقتل الناسُ إمامَهم ، يَشْتَجِرون اشْتِجار أَطْباق الرأس[1] — وخالف بين أصابعه — دم المؤمن عند المؤمن أحلى من الماء ، يحسب المسىء أنه محسن ، إن مِتَّ أدركتْ ابنَك ، وإن مات ابنك أدركك » . قال : فادع الله لى ألّا تدركنى . فدعا له . قال : وكان قدوم زُرارة بن عمرو هذا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النِّصف من شهر رجب سنة تسع .

وقال الطبرى : قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد النَّخع وهم مائتا رجل ، وفيهم زُرارة بن قيس بن الحارث بن عَدِىّ بن الحارث بن عَوْف بن جُشَم ابن كعب بن قيس بن مُنْقِذ بن مالك بن النَّخع فأسلموا .

ذكر وفد بَجِيلَة

قال ابن سعد : قدم جَرير بن عبد الله البَجَلىّ[2] سنةَ عَشْرٍ المدينة ، ومعه من قومه مائة وخمسون رجلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يطلع عليكم من هذا الفَجّ من خَيْر ذِى يَمَن على وجهه مَسْحةُ مُلْك[3] » فطلع جَرير على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا . قال جَرير : فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فبايعنى ، وقال : « على أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، ثم [تقيم[4]] الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم شهر رمضان ، وتنصح للمسلم ، وتطيع الوالى وإن كان عبدا حبشيا » فقال : نَعَم ، فبايعه .

(١) أطباق الرأس : عظامه . والاشتجار : الاشتباك والاختلاف .

(٢) بجيلة : أمهم نسبوا إليها ؛ وهى بجيلة بنت صعب بن على بن سعد العشيرة .

(٣) مسحة ملك ، ومسحة جمال : أثر ظاهر منه . (٤) الزيادة من الاستيعاب لابن عبد البر .

وقدم قيس بن [أبى][1] غَرْزَة الأَحْمَسِىّ — وقيل غَرْزة بن قيس البَجَلىّ — فى مائتين وخمسين رجلا من أَحْمَس ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أنتم » ؟ فقالوا : نحن أَحْمَس[2] الله . وكان يقال لهم ذاك فى الجاهلية . فقال لهم : « وأنتم اليوم لله » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال : « أعطِ ركْب بَجِيلَةَ وٱبْدَأْ بالأَحْمَسِيِّين » ففعل . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جَرِيرَ ابن عبد الله « ما فعل ذو الخَلَصَة »[3] ؟ قال : هو على حاله ، قد بَقِىَ والله ، نُرِيحُ منه إن شاء الله ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هَدْمِه ، وعقد له لِواءً فقال : إنى لا أثبت على الخيل فمسح صدره ، وقال : « اللهم ٱجعله هاديا مَهْديا » فخرج فى قومه وهم زُهاء مائتين ، فما أطال الغيبة حتى رجع ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَدَمْتَه » ؟ قال : نَعَم ، والذى بعثك بالحقّ ، وأخذتُ ما عليه وأحرقته بالنار ، فتركته كما يَسُوء مَنْ يَهْوَى هَواه ، وما صَدّنا عنه أحدٌ . قال فبرَّكَ[4] رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ على خيل أَحْمَس ورجالها .

٣٧/١٦

ذكر وفد خَثْعَم

قالوا : وفد عَتْعَتُ بن زَحْر ، وأَنَس بن مُدْرِك ، فى رجال من خَثْعَم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما هدم جَرِير بن عبد الله ذا الخَلَصَة ، وقتل من قتل من خَثْعَم ، فقالوا : آمنا بالله ورسوله ، وما جاء من عند الله ، فٱكتب لنا كتابا نتبع ما فيه ، فكتب لهم كتابا شهد فيه جَرِير بن عبد الله ومن حضر .

(١) الزيادة من الاستيعاب وغيره . (٢) الحمس : قبائل من العرب سموا بذلك لأنهم تحمسوا فى دينهم أى تشددوا ؛ كانوا يقفون بمزدلفة ولا يقفون بعرفة ، و يقولون : نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم ، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون . (٣) ذو الخلصة : صنم لدوس ، وخثعم ، و بجيلة وغيرهم ، فأنفذ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم جرير بن عبد الله فهدمه وهدم بنيانه .
(٤) برّك عليه : دعا له بالبركة .

ذكر وفد حضرموت

قالوا : قدم وفد حضرموت مع وفد كندة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بنو وليعة ملوك حضرموت ؛ جمد[1]، ومخوس، ومشرح[2]، وأبضعة، فأسلموا، وقال مخوس : يا رسول الله، أدع الله أن يذهب عنى هذه الرتة[3] من لسانى . فدعا له، وأطعمه طعمة من صدقة حضرموت .

وقدم وائل بن حجر الحضرمى وافدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: جئت راغبا فى الإسلام والهجرة، فدعا له ومسح رأسه ونودى : «الصلاة جامعة» سرورا بقدوم وائل بن حجر . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاوية بن أبى سفيان أن ينزله بالحرة، فمشى معه، ووائل راكب ، فقال له معاوية : ألق إلى نعليك أتوقى بهما الرمضاء[4] . قال : لا ، إنى لم أكن لألبسهما وقد لبستهما . ومن رواية : لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة[5] ليس نعل ملك . قال : فأردفنى ، قال : لست من أرداف الملوك ، قال : إن الرمضاء قد أحرقت قدمى ، قال : أمش فى ظل ناقتى ، كفاك به شرفا .

ويقال : إن وائل بن حجر هذا وفد بعد ذلك إلى معاوية فى خلافته فأكرمه معاوية .

---

(١) فى الأصول والطبقات : « حمدة » ولعله تصحيف عما أثبتناه عن القاموس ، قال فى أسد الغابة : « جمد ، بفتح الجيم وسكون الميم ولا أعرف جمدا من كندة إلا جمدا أحد الملوك الأربعة الذين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوا فى الردة كفارا ، والله أعلم » .

(٢) يقال بالسين والشين .

(٣) الرتة : عقدة وحبسة فى اللسان .

(٤) الرمض : شدة حر الشمس على الرمل وغيره ، والأرض رمضاء .

(٥) السوقة : الرعية ؛ سموا سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم .

قال : ولما أراد وائل بن حُجْر الشُّخُوص إلى بلاده، كتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا وهو :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي لوائل بن حُجْر قَيْل حَضْرَمَوْتَ، إنك أسلمتَ وجعلتُ لك ما فى يدك من الأرضين والحصون، وأن يؤخذ منك من كل عشرة واحد . ينظر فى ذلك ذَوُو عَدْل[1] وجعلتُ لك ألا تُظْلَم فيها ما قام الدين . والنبي — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنون عليه أنصار» .

قال القاضى عياض بن موسى بن عياض — رحمه الله — وفيه :

« إلى الأقيال[2] العباهلة[3]، والأرواع[4] المشابيب[5] » . وفيه :

«فى التِّيعة[6] شاةٌ لا مُقَوَّرَةُ الأَلْياط[7] ولا ضِنَاكٌ[8]، وأنطُوا الثَّبَجة[9]، وفى السُّيُوب[10] الخُمْس ومن زَنَى من أَمْيَكِر[11] فاصْقَعُوه مائةً واسْتَوْفِضُوه[12] عاما، ومن زَنَى من أَمْثَيِب

(١) فى الطبقات « ذوا عدل » .

(٢) الأقيال : الملوك الذين دون التابعة .

(٣) العباهلة : هم الذين أقروا على ملكهم فلم يزالوا عنه ؛ وواحد العباهلة عبهل، والتاء لتأكيد الجمع .

(٤) الأرواع (جمع رائع)، وهم الحسان الوجوه، أو الذين يروعون الناس أى يفزعونهم بمنظرهم هيبة لهم .

(٥) المشابيب : السادة زهر الألوان ؛ واحدهم مشبوب . ورجل مشبوب : أسود الرأس أبيض الوجه، وقيل ذكى الفؤاد شهم .

(٦) فى التيعة شاة : يعنى أن الأربعين من الغنم فيها شاة زكاة .

(٧) مقورة الألياط ؛ يريد غير مسترخية الجلود لهزالها .

(٨) الضناك : السمينة ؛ ويقال للذكر والأنثى بغير هاء .

(٩) أنطوا الثبجة : أعطوا الوسط فى الصدقة، لا من خيار المال ولا من رذاله .

(١٠) السيوب : عروق من الذهب والفضة توجد فى باطن الأرض (الركاز)، الزمخشرى : السيوب جمع سيب يريد به المال المدفون فى الجاهلية أو المعدن ؛ لأنه من فضل الله تعالى وعطائه لمن أصابه .

(١١) أصقعوه : أضربوه، وقوله : « من أميكر » لغة أهل اليمن، يبدلون لام التعريف ميما .

(١٢) استوفضوه : غربوه وأنفوه . و « من امثيب » أى من الثيب على لغة اليمن .

فضرّجوه بالأضاميم[١] ، ولا توصيم[٢] فى الدين ، ولا غمة[٣] فى فرائض الله ؛ وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل[٤] على الأقيال » .

قال محمد بن سعد بسنده إلى أبى عبيدة من ولد عمار بن ياسر قال : وفد مخوس ابن معدى كرب بن وليعة فيمن معه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرجوا من عنده فأصاب مخوس اللقوة[٥] فرجع منهم نفر ، فقالوا : يا رسول الله ، سيد العرب ضربته اللقوة ، فأدللنا على دوائه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا مخيطا[٦] فأحموه فى النار ، ثم أقلبوا شفر عينيه ، ففيها شفاؤه ، وإليها مصيره ، فالله أعلم ما قلتم حين خرجتم من عندى » . فصنعوه به فبرئ .

ذكر وفد أزد عمان

قالوا : أسلم أهل عمان[٧] ، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمى ليعلمهم شرائع الإسلام ، ويصدق أموالهم[٨] ، فخرج وفدهم إلى رسول الله

(١) ضرجوه بالأضاميم : أى أدموه بالضرب ؛ يريد الرجم ، والأضاميم : الحجارة واحدها إضمامة .

(٢) لا توصيم فى الدين : أى لا تفتروا فى إقامة الحدود ولا تحابوا فيها .

(٣) لا غمة فى فرائض الله : أى لا تستر ولا تخفى فرائضه ، وإنما تظهر وتعلن ويجهر بها .

(٤) يترفل على الأقيال : أى يتسود ويترأس ، مستعار من ترفيل الثوب وهو إصباغه وإسباله . وفى النهاية : يسعى ويترفل .

(٥) اللقوة : داء يكون فى الوجه يعوج منه الشدق .

(٦) المخيط : ما خيط به .

(٧) عمان : قطر شرقى جزيرة العرب على المحيط الهادى أو بحر العرب مما يلى خليج فارس ، وعمان : موطن الأزد وقبائلهم ، ومزدهر الدولة العربية اليعربية التى طاردت البرتغال من الخليج ، وشواطئ الهند ، وشرقى أفريقيا بأساطيلها الحربية على عهد اليعربيين ما بين ألف من الهجرة إلى نحو ألف ومائة وخمسين .

(٨) يصدق أموالهم : يأخذ زكاتها .

صلى الله عليه وسلم، فيهم أسد بن بيرح[(١)] الطاحى، فلقوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يبعث معهم رجلا يقيم أمرهم، فقال مخرمة[(٢)] العبدى وآسمه مُدْرِك بن خُوط: آبعثنى إليهم فإن لهم علىّ مِنّةً؛ أسرونى فى يوم جنوب[(٣)] فمنّوا علىّ. فوجّهه معهم إلى عُمان، وقدم بعدهم سَلَمَة بن عَبّاد[(٤)] الأزْدى فى ناس من قومه، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يعبد وما يدعو إليه، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: آدع الله أن يجمع كلمتنا وأُلفتنا. فدعا لهم، وأسلم سَلَمَة ومن معه.

٣٨/١٦

ذكر وفد غافق[(٥)]

قالوا: وقدِم جُلَيْحَة بن شَجّار بن صُحَار الغافقىّ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجال من قومه، فقالوا: يا رسول الله، نحن الكَوَاهِل[(٦)] من قومنا، وقد أسلمنا وصَدَقاتُنا محبوسةٌ بأفنيتنا. فقال: «لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم» فقال عَوْذُ بن سُرَيْر الغافقىّ: آمنا بالله وآتبعنا رسول الله.

ذكر وفد بارق

قالوا: قدِم وفدُ بارِق[(٧)]، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا، وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) كذا فى الأصول، والذى فى أسد الغابة والاستيعاب: «هو بيرح بن أسد الطاحى قدم المدينة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بأيام وكان رآه».

(٢) وقيل: مخرفة (بالفاء) كما فى أسد الغابة، ولم نقف على من سماه مدركا كما فى الأصول.

(٣) يوم جنوب: من أيام العرب، وجنوب: اسم موضع، ولم نجده فى أيام العرب.

(٤) فى الأصول: عباد وهو تصحيف والتصويب من الإصابة.

(٥) غافق: حىّ من الأزد، وغافق هو جد هذا الحى، وهو ابن الشاهد بن عك بن عدنان بن عبدالله آبن الأزد، وإلى هذا الحى نسب الحصن المعروف بالأندلس بحصن غافق قريب من قرطبة.

(٦) الكواهل: الذين يعتمد عليهم فى القيام بشئون من خلفوهم وراءهم.

(٧) لقب سعد بن عدى أبى قبيلة باليمن.

« هـذا كتاب من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لبارِق ألا تُجَذّ ثمارُهم، ولا تُرْعى بلادُهم فى مَرْبع[1] ولا مَصيف إلا بمسألة من بارِق . ومن مرّ بهم من المسلمين فى عَرْك[2] أو جَدْب فله ضيافة ثلاثة أيام . وإذا أَيْنعت[3] ثمارُهم فلابن السّبيل اللّقاط[4] يُوسِع بطنه من غير أن يَقِيه[5] » . ثم شهد أبو عبيدة بن الجرّاح، وحُذَيفة بن اليمان، وكتب أُبَىّ بن كعب .

ذكر وفد ثُمالة[6] والحُدّان

قالوا : قدم عبد الله بن غَلَس[7] الثُّمالىّ ومَسْلَمة بن هارَان[8] الحُذّانى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رَهْط من قومهما بعد فتح مكة ، فأسلموا وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومهم ، وكتب لهم كتابا بما فرض عليهم من الصدقة فى أموالهم ، كتبه ثابت بن قَيْس بن شَمّاس ، وشهد فيه سعد بن عُبَادة ومحمد ابن مَسْلَمة .

---

(١) المربع كمقعد : الموضع الذى يرتبعون فيه فى الربيع ينتجعون الكلأ .

(٢) العرك : من عركتهم الحرب عركا دارت عليهم .

(٣) أينعت : نضجت .

(٤) اللقاط : ما يوجد من الثمار ساقطا فيلتقط .

(٥) كذا فى الأصول ولعل اللفظ : « يقتّه » بمعنى يجمعه ، ودليله ما فى الطبقات : « يقتم » أى يجمع أيضا .

(٦) ثمالة : بطن من الأزد، إليه ينسب محمد بن يزيد المبرد النحوى .

(٧) وفى الطبقات « ابن علس » ، وفى أسد الغابة « ابن عبد الثمالى » .

(٨) فى الأصول : مسيلمة بن هزان وفى الطبقات « مسلية بن هزان » والتصحيح من الإصابة وفيها : « ويقال ابن حدان الحدانى » .

ذكر وفد مَهْرة

قالوا : قدِم وفد مَهْرة[(١)] على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليهم مَهْرىّ[(٢)] بن الأبيض ، فعرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام فأسلموا ، وكتب لهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا الكتاب من محمد رسول الله لمَهْرىّ بن الأبيض على من آمن به من مَهْرَة ألاّ يُؤكَلوا[(٣)] ولا يُعْرَكوا[(٤)] . وعليهم إقامة شعائر الإسلام ، فمن بدّل فقد حارب ، ومن آمن به فله ذمّة الله وذِمّة رسوله . اللُّقَطَة[(٥)] مؤدّاة ، والسّارِحَة[(٦)] مُنَداة ، والتُّفَثُ[(٧)] السَّيِّئة ، والرُّفَثُ[(٨)] الفُسُوق » .

وكتب محمد بن مَسْلَمة الأنصارى .

---

(١) نسبة إلى مهرة بن حيدان — بفتح أوله — حى من قضاعة ، إليه تنسب الإبل المهرية .

(٢) لم نقف على هذا الاسم فى مرجع غير « الطبقات » .

(٣) ألا يؤكلوا : أى لا يغار عليهم .

(٤) يعركون : يؤكل نباتهم ، من عركت الماشية النبات أكلته .

(٥) اللقطة : ما ألتقط من مال ضائع . مؤداة : مردودة لصاحبها .

(٦) السارحة : الماشية التى تسرح بالغداة إلى مراعيها . منداة : التندية أن تورد الإبل فتشرب قليلا ، ثم تحبى بها ترعى ، ثم تردّها إلى الماء ؛ والمراد أنها تورد على الحياض حتى تأخذ حظها من الماء ولا تمنع من الشرب .

(٧) التفث ؛ من معانيه الدرن والوسخ ، والسيئة : الخطيئة ؛ والمراد أن الوسخ الفعل القبيح ، وليس وسخ البدن .

(٨) الرفث : الفحش من القول . والفسوق : العصيان ، والترك لأمر الله عز وجل . والمعنى أن الرفث هو العصيان لله أمرا ونهيا .

قالوا : ووفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من مَهْرَة، يقال له زُهَير[(١)] ابن قِرْضِم بن الجُعَيْل من الشِّحْر[(٢)]، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُدْنيه لبعد مسافته، فلما أراد الانصراف بَتَّته[(٣)]، وحَمله، وكتب له كتابا .

ذكر وفد حِمْيَر

قالوا : قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن مُرارة[(٤)] الرَّهاوِى، رسول ملوك حِمْير بكتابهم وإسلامهم، وذلك فى شهر رمضان سنة تِسع عند مَقْدَمه من تَبُوكَ، وهم : الحارث بن عَبْد كُلَال، ونُعَيْم بن عَبْد كُلَال، والنُّعْمان قَيْل ذِى رُعَيْن، ومَعَافِر، وهَمْدان .

قال ابن إسحق : وبعث إليه زُرْعَةُ ذُو يَزَنٍ مالكَ بن مُرَّة الرَّهاوىّ فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن عَبْد كُلَال وإلى نَعْيم بن عَبْد كُلَال، وإلى النعمان قَيْل ذِى رُعَيْنٍ ومَعَافِر وهَمْدان — أما بعد ذلكم — فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو — أما بعد — فإنه قد وَقَع بنا رسولكم مُنْقَلَبنا من أرض الروم، فلقِينَا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به، وخَبَّر ما قِبَلَكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأنّ الله قد هداكم بهُداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خُمُسَ الله، وسهم

٣٩/١٦

(١) زهير : فيه خلاف فى هذا الاسم، وفى الأصول : «العجين» (راجع الإصابة وأسد الغابة) .

(٢) الشحر : الشط، وهو ناحية على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، وهو ممتد بينها وبين عمان .

(٣) بتته : أعطاه، البتات وهو الزاد، وحمله : أعطاه راحلة تحمله .

(٤) يروى : ابن مرة، وقيل ابن فزارة، والصحيح ابن مرارة (أسد الغابة) .

النبيّ وصَفِيه[1]، وما كُتب على المؤمنين من الصّدقة، من العَقَار[2] عُشْر ما سقت العينُ وسقت السماءُ، وعلى ما سَقى الغَرْبُ[3] نِصفُ العُشْر، وإن فى الإبل الأربعين ابنةَ لبُون، وفى ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفى كل خمس من الإبل شاة، وفى كل عشر من الإبل شاتان، وفى كل أربعين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين من البقر تَبِيع جَذَع أو جذَعة، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدَها شاةٌ، وأنّها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصّدقة، فمن زاد خيرا فهو خير له، ومن أدّى ذلك، وأشهد على إسلامه، وظاهر[4] المؤمنين على المشركين، فهو من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ماعليهم وله ذِمّة الله وذِمّة رسوله، وإنّه من أسلم من يهودىّ أو نصرانىّ فإنّه من المؤمنين، له مالهم، وعليه ماعليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُرَدّ عنها، وعليه الجِزْية على كل حالِم ذكرٍ أو أنثى، حرٍّ أو عبدٍ دينارٌ وافٍ، من قيمة المَعَافر[5] أو عِوَضَه ثيابًا، فمن أدّى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن له ذِمّة الله وذِمّة رسوله، ومن منعه فإنه عدوّ لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد — فإن رسولَ الله محمدًا النبيّ أرسل إلى زُرْعة ذى يَزَن أَنْ إذا أتاكم رُسلى فأوصيكم بهم خيرا: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عُبَادة، وعُقْبة ابن نمر، ومالك بن مُرّة، وأصحابهم، وأن اجمعوا له ماعندكم من الصّدقة، والجِزْية من مخالفيكم، وأبلغوها رُسلى، وأنّ أميرهم معاذ بن جَبَل فلا يَنْقلِبنّ إلا راضيا.

أما بعد — فإن محمدا يشهد أن لا إله إلا الله وأنّه عبده ورسوله، ثم إن مالك ابن مُرّة الرّهاوىّ قد حدّثنى أنك أسلمتَ من أوّل حِمير وقتلتَ المشركين، فأبشر

(١) الصفى: ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة لنفسه قبل أن تقسم الغنائم.

(٢) العقار: الأرض. (٣) الغرب: الدلو.

(٤) ظاهر: عاون وقوى. (٥) المعافر: ثياب من ثياب اليمن.

بخير ، وآمرك بحمير خيرا ، ولا تخونوا ولا تخاذلوا ، فإن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هو مولى غنيكم وفقيركم ، وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته ، إنما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وأن مالكا قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب وآمركم به خيرا ، وأني أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم ، وآمركم بهم خيرا ، فإنهم[1] منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ذكر وفد جيشان

قال محمد بن سعد : قدم أبو وهب الجيشاني على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قومه ، فسألوه عن أشربة تكون باليمن ، فسموا له البتع[2] من العسل ، والمزر[3] من الشعير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تسكرون منهما » قالوا : إن أكثرنا سكرنا ، قال : « فحرام قليل ما أسكر كثيره » ، وسألوه عن الرجل يتخذ الشراب فيسقيه عما له ، فقال : « كل مسكر حرام » .

ذكر وفد سلول

قال أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري رحمه الله : قدم قردة بن نفاثة السلولي ، من بني عمرو بن مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من بني سلول ، فأمره عليهم بعد ما أسلم

---

(١) في نسخة من ابن هشام : « فإنه » .

(٢) البتع (بكسر الباء وسكون التاء وفتحها) : نبيذ يتخذ من عسل ، كأنه الخمر صلابة .

(٣) المزر : نبيذ الشعير .

وأسلموا ؛ فأنشأ يقول :

بَانَ الشَّبابُ فلم أَحْفِلْ به بالَا * وأَقْبَلَ الشَّيبُ والإسلامُ إقبالَا
وقد أُرَوِّى نَدِيمى من مُشَعْشَعَةٍ[1] * وقد أُقَلِّبُ أَوْراكًا وأَكْفَالَا
الحمدُ لله إذ لم يأتِنى أَجَلِى * حتى اكتسيتُ من الإسلام سِرْبالَا

٥ قال وقد قيل : إن البيت الثالث للَبِيد ، قال أبو عُبيدة : لم يقل لَبِيدُ فى الإسلام غيره ، وكان قد عُمِّر مائة وخمسين سنة .

قال أبو عمر : وقَرَدة هذا هو الذى يقول :

أَصبحتُ شيخًا أرى الشَّخصَيْن أربعةً * والشَّخصَ شخصين لمّا مَسَّنِى الكِبَرُ
لا أسمعُ الصَّوتَ حتّى أَسْتَدِيرَ له * وحَالَ بالسَّمْعِ دُونِى المنظَرُ القَصِرُ[2]
وكنتُ أَمشِى على السَّاقَيْنِ مُعْتَدِلًا * فصِرتُ أَمْشِى على ما تُنْبِتُ الشَّجَرُ
إذا أَقُومُ عَجَنْتُ الأرضَ مُتَّكِئًا * على البَرَاجِمِ حتى يَذْهَبَ النَّفَرُ[3]

٤٠/١٦

ذكر وفد نجران وسؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أنزل الله عزّ وجلّ فيهم من القرآن

قال محمد بن إسحق : قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدُ نصارى نَجْران ستُّون راكبًا، فيهم أربعةَ عشرَ رجلًا من أشرافهم، وهم : العاقِبُ عبدُ المسيح ، والسّيد وهو الأَيْهَم ، وأبو حارثة ابن عَلْقَمة، وأَوْسُ، والحارثُ، وزيدُ، وقيسُ،

(١) المشعشعة : الخمر .

(٢) فى الأصول : « دون » مكان « دونى » وفى الاستيعاب :

* وحال بالسمع دونى المنظر العسر *

(٣) عجن الأرض : اعتمد عليها بجمعه إذا أراد النهوض من الكبر . البراجم (جمع برجمة) : مفاصل الأصابع . والنفر (بالتحريك) : الجماعة من الناس ؛ يريد الذين ينفرون معه .

ويَزِيدُ، ونُبَيه وخُوَيلد، وعمرو، وخالد، وعبد الله، ويُحَنّس. ومن هؤلاء الأربعة عشر ثلاثةُ نَفَرٍ إليهم يؤول أمرُهم، وهم العاقِب أميرُ القوم وذو رأيهم، وصاحب مَشُورتهم، والذى لا يُصْدِرون إلا عن رأيه، واسمه عبدُ المسيح.

قال محمد بن سعد: هو رجل من كِندة والسَّيد ثِمالهم[1]، وصاحبُ رَحلهم ومُجْتَمعهم، واسمه الأَيْهَم، وأبو حارثة ابن عَلْقَمة أحد بكر بن وائل أُسْقُفهم[2] وحَبْرهم وإمامهم، وصاحب مِدْرَاسِهم[3].

قال ابن سعد: وكان من الأربعة عشر كُوز وهو أخو الحارث بن عَلْقَمة، وأَوْس أخو السَّيد.

قال: فتقدمهم كُوز وهو يقول:

إليكَ تَعْدُو قَلِقاً وَضِينُها * مُعْتَرِضًا فى بطنِها جَنِينُها[4]

* مُخالِفًا دِينَ النَّصارَى دِينُها *

وقدِم على النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قدِم الوفدُ بعده، فدخلوا [عليه][5] المسجد، عليهم ثياب الحِبَرة[6] وأَرْدِيةٌ مَكْفوفة بالحرير، فقاموا يصلّون فى المسجد نحو الشّرق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دَعُوهم»، ثم أتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم، فأعرض عنهم ولم يكلّمهم، فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زِيِّكم هذا، فانصرفوا يومَهم ذلك، ثم غَدَوا عليه، بزِىّ الرُّهْبان فسلَّموا عليه فردّ عليهم.

(١) ثمالهم: غياثهم الذى يفزعون إليه.

(٢) الأسقف (بتشديد الفاء وتخفيفها): رئيس النصارى فى الدين، أعجمى تكلمت به العرب.

(٣) مدراس: بيت يدرس فيه الكتاب.

(٤) الوضين: الحزام. وفى ابن هشام: «قال هشام بن عروة: وزاد فيه أهل العراق:

* معترضا فى بطنها وضينها *»

(٥) الزيادة من ابن هشام. (٦) الحبرة: ضرب من برود اليمن منمر.

قال محمد بن إسحق : وكان أبو حارثة قد شَرُف فيهم ، ودَرَس كتبهم ، حتى حَسُن عِلْمُه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شَرَّفوه ومَوَّلوه وأخدموه ، وبَنَوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكَرَامات ؛ لِمَا يَبلغهم عنه من عِلْمه واجتهاده فى دينهم ، فلما وَجَّهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نَجْران ، جلس أبو حارثة على بَغْلة له ، وإلى جَنْبه أخوه كُوز ، — ويقال فيه كُرْز[1] — فعثَرت بغلةُ أبى حارثة ، فقال كُوز : تَعِس الأبعدُ ، يريد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبو حارثة : بل أنت تَعِست . فقال : ولم يا أخى ؟ قال : واللهِ إنَّه للنبيُّ الذى كنا ننتظره . فقال له كُوز : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ؛ شَرَّفونا ومَوَّلونا وأكرمونا ، وقد أَبَوْا إلّا خِلَافه ، فلو فعلتُ نزعوا منا كل ما ترى . فأضمر عليها منه كُوز بن عَلْقَمة حتى أسلم بعد ذلك ، فكان يحدِّث عنه هذا الحديث .

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : وبلغنى أنّ رؤساء نَجْرانَ كانوا يتوارثون كُتبًا عندهم ، فكلما مات رئيس منهم وأفضت الرياسة إلى غيره ، خَتَم على تلك الكُتب خاتما مع الخَوَاتم التى قبله ولم يَكْسِرها ، فخرج الرئيس الذى كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يمشى فعَثَر ، فقال ابنه : تَعِس الأبعد — يريد النبيَّ صلى الله عليه وسلم — فقال له أبوه : لاتفعل فإنه نبيّ واسمه فى الوضائع — يعنى الكتب — فلما مات لم يكن لابنه هِمّة إلا أن كَسَر الخَوَاتم ، فوجد فى الكُتب ذِكْر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحَسُن إسلامه فحجّ ، وهو الذى يقول :

* إليكَ تَعْدُو قَلِقًا وَضِينُهَا *

(١) فى الأصول وابن هشام « كور » وما أثبتناه هما الروايتان المعروفتان فى اسم ابن علقمة (راجع القاموس مادتى كوز وكرز) والإصابة وأسد الغابة .

قال ابن إسحق : ولما قدموا صلّوا فى المسجد نحو الشرق، وكلّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منهم الثلاثةُ نَفَر : العاقِب، والسيّد، وأبو حارِثة، وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف من أمرهم، يقولون فى المسيح : هو الله، ويقولون : هو ابن الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، فهم يحتجّون فى قولهم : هو الله بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ من الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طائرا، ويحتجون فى قولهم أنه ابن الله بأنهم يقولون : لم يكن له أبٌ يُعلَم، وقد تكلم فى المهد، [وهذا][1] شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله . ويحتجون فى قولهم إنه ثالث ثلاثة ، بقول الله فَعَلْنا ، وأَمَرْنا، وخَلَقْنا، وقَضَيْنا، فيقولون : لو كان واحدا ما قال إلا فَعلتُ وقَضيتُ وأَمرتُ وخلَقتُ، ولكنه هو، وعيسى، ومريم .

٤١/١٦

قال : فلما كلّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحبْران قال لهما : «أَسْلِما»، قالا : قد أسلمنا قبلك . قال : « كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاكما لله ولَدًا، وعبادتكما الصَّلِيب، وأكلكما الخنزير» قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصَمتَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهما، فأنزل الله تعالى عليه فى اختلاف أمرهم كلّه صَدْر سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية منها .

فقال تعالى: ﴿الٓمٓ . اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال[2] : افتتح السورة بتنزيه نفسه عما قالوا وتوحيده ، ليس معه شريك فى أمره : « الحَيُّ » أى الذى لا يموت، وقد مات عيسى وصُلِب فى قولكم. «القَيُّوم» القائم على مكانه من سلطانه

(١) الزيادة من ابن هشام .

(٢) القائل ابن إسحق .

فى خَلْقه لا يزول، وقد زال عيسى. ثم قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى بالصدق فيما ٱختلفوا فيه ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أى الفصل بين الحقّ والباطل فيما ٱختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أى إنّ الله مُنتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها ومعرفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أى قد علِم مايريدون وما يكيدون وما يضاهون بقولهم فى عيسى؛ إذ جعلوه إلها وعندهم من عِلْمه غيرُ ذلك. ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى قد كان عيسى ممن صُوِّر فى الأرحام لايدفعون ذلك ولا ينكرونه، كما صُوِّر غيرُه من ولد آدم، فكيف يكون إلها وقد كان بذلك المنزل.

ثم قال تعالى تنزيها لنفسه وتوحيدا لها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى «العزيز» فى ٱنتصاره ممّن كفر به إذا شاء «الحكيم» فى حجته وعذره إلى عباده. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى فيهنّ حجة الربّ وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهنّ تصريف ولا تحريف عما وُضِعن عليه. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أى لهنّ تصريف وتأويل، ٱبتلى الله فيهنّ العباد، كما ٱبتلاهم فى الحلال والحرام، ألايُصْرَفْنَ إلى الباطل ولا يُحَرَّفْنَ عن الحق.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أى مَيْلٌ عن الهدى. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أى ماتصرّف منه؛ ليُصدِّقوا به ماٱبتدعوا وأحدثوا لتكون لهم حُجّة وشبهة على ماقالوا.(١) ﴿ٱبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أى اللَّبْس ﴿وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أى تأويل ذلك على

(١) فى ٱبن هشام: «لتكون لهم حجة، وعلى ما قالوا شبهة».

مارَكبوا من الضلالة فى قولهم: خَلَقْنَا وقَضَيْنا . يقول تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فكيف يختلف وهو قولٌ واحدٌ، من ربٍّ واحد. يقول: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أى فى مثل هذا. ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[1]. ثم قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ يشهدون بذلك. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أى بالعدل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ أى ما أنت عليه يا محمد من التوحيد للربِّ والتصديق للرسل. قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى العلم الذى جاءك أنّ الله الواحد الذى ليس له شريك. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أى فيما يأتون به من الباطل من قولهم: خَلَقْنا وفَعَلْنا وأَمَرْنا، فإنما هى شُبهة باطلٍ قد عرفوا مافيها من الحقّ ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أى الذين لا كتاب لهم ﴿أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

ثم جمع تعالى أهلَ الكتابين من اليهود والنصارى فيما أحدثوا وابتدعوا، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ أى ربّ العباد والملك الذى لا يقضى فيهم غيره. ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى

٤٢/١٦

(١) فسر ابن هشام هذه الآية فقال: « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » أى لا تمل قلوبنا وإن ملنا بأحداثنا.

لا يَقدِرُ على هذا غيرُك بسلطانك وقُدرتك ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى بتلك القدرة . ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى لا يقدر على ذلك غيرُك ولا يصنعه إلّا أنت، أى إن كنتُ سلّطتُ عيسى على الأشياء التى بها يزعمون أنه إلٰه ، من إحياء الموتى ، و إبراء الأسقام ، والخَلْق من الطّين ، والإخبار عن الغيوب ؛ لأجعله به آيةً للناس ، وتصديقًا له فى نبوّته التى بعثته بها إلى قومه ، فإن من سُلْطانى وقُدْرتى مالم أُعطه[1] ؛ من إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، و إخراج الحىّ من الميّت ، و إخراج الميت من الحىّ ؛ و رِزق من شئتُ من بَرٍّ أو فاجرٍ بغير حساب ، فكلّ ذلك لم أُسلِّط عيسى عليه ، ولم أُملِّكه إياه ، أفلم يكن لهم فى ذلك عبرة و بينة ! أن لو كان إلها كان ذلك كلّه إليه ، وهو فى قولهم يَهرُب من الملوك و يتنقل منهم فى البلاد ، من بلد إلى بلد .

ثم وعظ المؤمنين وحذّرهم فقال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أى ما مضى من كفركم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ يقول : أطيعوا الله والرسول فأنتم تعرفونه وتجدونه فى كتابكم ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى على كفرهم .

ثم استقبل أمر عيسى عليه السلام ، و كيف كان بدء ما أراد الله تعالى به فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . ثم ذكر أمر امرأة عِمْران فقال : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أى جعلته عَتيقا يعبد الله عزّ و جل ، لا ينتفع به لشىء من الدنيا ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ

(١) عبارة ابن هشام : « مالم أعطه قليك الملوك بأمر النبوة ، ووضعها حيث شئت ... الخ » .

إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [أى ليس الذكر كالأنثى لما جعلتها مُحَرَّرًا لك نذيرة] (١) ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ . يقول الله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أى كفلها بعد أبيها وأمها ؛ يذكرها باليتم ، ثم قَصّ خبرها وخبر زكريا ، وما دعا به وما أعطاه ؛ إذ وهب له يحيى ، ثم ذكر مريم ، وقول الملائكة لها ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قال الثعلبىّ : القائل من الملائكة جبريلُ وحده ، «اصطفاكِ» بولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، «وَطَهَّرَكِ» من مَسِيس الرجال . وقيل : كانت مريم عليها السلام لا تحيض و «اصْطَفَاكِ» بالتحرير فى المسجد «على نساء الْعَالَمِينَ» قال : على عالَمِى زمانها ، ولم تُحرَّر أنثى غيرها . ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال الثعلبى : قوله «اقْنُتِى» أطيعى وأطيلى الصلاة لربك ، قال : كلّمتها الملائكة شِفَاهًا . قال الأوزاعىّ : لما قالت لها الملائكة ذلك ، قامت فى الصلاة حتى وَرِمت قدماها وسالتا دمًا وقَيْحا .

ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ قال ابن إسحق : كفلها هاهنا جُرَيْج الراهب رجلٌ من بنى إسرائيل نجّار ، خرج السَّهْمُ عليه فحملها ، وكان زكريّا قد كفلها قبل ذلك ، فأصابت بنى إسرائيل أزمةٌ شديدة ، فعجز زكريا عن حَمْلها ، فاستهموا عليها ، فخرج السَّهْمُ على جُرَيج الراهب فكفلها . يقول تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى ما كنت معهم إذ يختصمون فى كفالتها ، فخبّره تعالى

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام . والمحرر يطلق على النذير والنذيرة .

بخفىّ ما كتموا منه من العلم عندهم ؛ لتحقيق نبوّته ، والحجة عليهم بما يأتيهم به مما أخفوا منه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ﴾ أى هكذا كان أمره، لا كما يقولون فيه . ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ «وجيهًا» أى شريفا ذا جاه وقدْر «ومِنَ المُقَرَّبِينَ» عند الله ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ يخبرهم بحالاته التى يتقلب فيها فى عُمره ؛ كتقلب بنى آدم فى أعمارهم صغارا وكبارا ، إلّا أنّ الله تعالى خصّه بالكلام فى مَهْده آيةً لنبوّته وتنزيهًا لأمّه . وقوله : « وَكَهْلًا » قال مقاتل : إذا اجْتَمع[1] قبل أن يُرفع إلى السماء . وقال الحسين بن الفضل : «كَهْلًا» بعد نزوله من السماء . وقال ابن كَيْسان : أخبرها أنه يبقى حتى يكتهل . وقيل : يُكلِّم الناسَ فى المهد صبيًّا وكهلا ؛ بشَّرها بنبوّته ، فلأمّه فى المهد مُعجزة وفى الكهولة دَعْوة . وقال مجاهد : « وَكَهْلًا » أى حليما[2] .

٤٣/١٦

قال تعالى إخبارا عن مريم : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ثم أخبرها بما يريد به فقال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ قوله «الْكِتَابَ» أى الكتابة والخطّ . «وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ» التى كانت فيهم من عهد موسى قبله «وَالْإِنْجِيلَ» كتابا آخر أنزله الله إليه ، لم يكن عندهم إلّا ذكره أنه كائن . يقول تعالى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى يُحقّق بها نبوّتى أنّى رسول منه إليكم . ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ﴾

(١) اجتمع الرجل : استوت لحيته ، وبلغ غاية شبابه .

(٢) على هذا يكون « كهلا » معطوفا على « وجيها » .

قال الثعلبيّ: قراءة العامة بالجمع؛ لأنه خَلق طيرا كثيرة، وقُرّاء أهل المدينة «طائِرًا» ذهبوا إلى أنه نوع واحد من الطّير؛ لأنه لم يَخْلُق غير الخُفّاش، قال: وإنما خَصّ الخُفّاش لأنه أكمل الطير خَلْقا؛ ليكون أبلغ فى القدرة؛ لأن لها ثديا وأسنانا وهى تحيض وتطير، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا؛ ليتميز فعل الخَلْق من فِعل الله عزّ وجل؛ وليعلم أن الكمال لله. ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ «الأكمه» الذى يولد أعمى وجمعه كُمْه. وقيل: هو الأعمى وهو المعروف من كلام العرب؛ قال سُوَيْد بن أبى كاهِل:

كَمِهَتْ عيناهُ حتّى ٱبيضَّتَا * فهو يَلْحَى نفسَه حتى نزع (١)

والأبرص الذى فيه وَضَحٌ، قال: وإنما خَصّ هذين؛ لأنهما عَيَاءانِ وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطِّبّ؛ فأراهم الله تعالى المعجزة من جنس ذلك.

قال وهب: ربما ٱجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى فى اليوم الواحد خمسون ألفا، من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يُطق أتاه عيسى عليه السلام، وإنما كان يداويهم بالدعاء، على شرط الإيمان. ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال الثعلبيّ: أحيا أربعةَ أنفسٍ العازَر وكان صديقا له، فأرسلت أختُه إلى عيسى: إنّ أخاك العازَر يموت فأْتِه، وكان بينَه وبينَه مَسيرةُ ثلاثة أيام، فأتاه هو وأصحابه، فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: ٱنطلق بنا إلى قبره. فٱنطلقت معهم إلى قبره وهو فى صخرة مُطْبقة، فقال عيسى عليه السلام: «اللّهمّ ربّ السموات السّبع، إنك أرسلتنى إلى بنى إسرائيل أدعوهم إلى دينك، وأخبرهم أنى أحيي الموتى بإذنك، فأَحْيِ العازَر»، قال: فقام عازَرُ ووَدَكُه يَقْطُر، فخرج من قبره وبقى ووُلِد له. وأحيا ٱبنَ العجُوز، مُرَّ به ميتا على عيسى عليه السلام،

(١) معنى البيت: أن الحسد قد بيض عينه.

وهو يُحمل على سَرير، فدعا الله تعالى عيسى، فجلس على سريره، ونزل عن أعناق الرجال، ولبس ثيابه، وحَمل السَّرير على عنقه، ورجع إلى أهله، فبقى وولد له، وابنة العاشر[1] قيل له: أتحييها وقد ماتت بالأمس؟ فدعا الله عزّ وجلّ فعاشت وبقيت وولدت، وسام بن نوح عليهما السلام، ودعا عيسى بآسم الله الأعظم، فخرج من قبره وقد شاب نصفُ رأسه، فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا، ولكنّى دعوتك بآسم الله الأعظم، ثم قال له: مُتْ، قال: بشرط أن يُعيذنِي اللهُ من سكرات الموت، فدعا الله سبحانه ففعل.

قال الكلبيّ: كان يُحيي الأمواتَ بـ«يا حَيُّ يا قَيُّوم».

قال [تعالى][2]: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى آية لكم أنى رسولٌ من الله إليكم.

يقول [تعالى]: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أى لما سبقنى منها. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أى أخبركم أنه كان عليكم حراما فتركتموه، ثم أَحلّه لكم تخفيفا عنكم، فتصيبون يُسْره وتخرجون من تباعته[3].

يقول [تعالى]: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى هذا الهدى قد حملتكم عليه وجئتكم به. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

(١) وهى التى كان أبوها يأخذ العشور.

(٢) زيادة يقتضيها المقام.

(٣) التباعة (بالكسر): الشىء الذى لك فيه بقية شبه ظلامة ونحوها، وهى التبعة.

فَٱكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى هكذا كان قولهم و إيمانهم، لا كما يقول هؤلاء الذين يحاجونك، ثم ذكر تعالى رَفْعه عيسى إليه حين ٱجتمعوا لقتله، فقال : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ قال أهل المعانى : المكر السَّعىُ بالفساد فى سَتْر ومُدَاجاة . وقال الفرّاء : المكر من المخلوقين الخبُّ والخديعة والحيلة ، وهو من الله ٱستدراجُه العِباد . ثم أخبرهم تعالى، وردّ عليهم فيما أفتروا به لليهود من صَلْبه، وأنّ الله عَصَمه منهم ، ورَفَعه إليه ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ قال الثعلبىّ : ٱختلفوا فى معنى التوفى هاهنا؛ فقال كَعْب والحسن والكلبىّ ومَطَر الورّاق ومحمد بن جعفر بن الزبير وٱبن جُرَيْج وٱبن زيد : معناه إنى قابضك ورافعك من الدنيا إلىّ من غير موت . قال : وعلى هذا القول تأويلان : أحدهما — إنى رافعك إلىّ وافيا لم ينالوا منك شيئا؛ من قولهم تَوَفَّيْتُ هذا، وٱستوفيتُه أى أخذته تامًّا .

٤٤/١٦

والآخر — إنى مُسَلِّمُكَ؛ من قولهم تَوَفَّيْتُ منه كذا أى تَسَلَّمته . وقال الربيع ٱبن أنس : معناه إنى مُنِيمك ورافعك إلىّ فى نومك؛ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ أى يُنِيمكم؛ لأنّ النوم أخو الموت . وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ ﴾ الآية . وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما قال : إنى مُميتك . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ وقوله : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قال : وله على هذا القول تأويلان : أحدهما — ما قال وهب : تَوَفَّى اللهُ تعالى

عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من النهار ثم رفعه إليه . وقال ابن إسحق : النصارى يزعمون أنّ الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار، ثم أحياه ورفعه . والآخر ما قال الضحاك وجماعة من أهل المعانى : إنّ فى الكلام تقديما وتأخيرا، معناه إنّى رافعك إلىّ ومُطهّرك من الذين كفروا ، ومُتوفّيك بعد أنْ أُنزلكَ من السماء . وقال أبو بكر بن محمد بن موسى الواسطىّ : معناه « إنّى مُتوفّيكَ » عن شهواتك وحظوظ نفسك . قال : وذلك أنه لمّا رُفع إلى السماء صار حالُه حالَ الملائكة . وقوله : « وَرَافِعُكَ إِلَيَّ » قال البُنانىّ والشَّيْبانىّ : كان عيسى عليه السلام على طُورِ زيتا فهبّت رِيحٌ، فهرْوَل عيسى، فرفعه الله عزّ وجلّ فى هَرْولته، وعليه مِدْرَعة من شَعْر . وقيل : معناه ورافعك بالدرجة فى الجنة ، ومقربك إلىّ بالإكرام .

وقوله : ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى مُخرِجُك من بينهم ومُنجيكَ منهم . وقوله : ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ﴾ قال قتادة والربيع والشَّعْبىّ ومقاتل والكلبىّ : هم أهل الإسلام الذين اتبعوا دينه وسُنّته من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما اتبعه من دعاه ربًّا . « فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا » ظاهرين قاهرين بالعِزّ والمَنعة والدليل والحُجّة . وقال الضحاك وعلىّ ومحمد بن أبان : يعنى الحواريين فوق الذين كفروا . وقيل : هم الرُّوم . وقال ابن زيد : وجاعل النصارى فوق اليهود، فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود، واليهود مُستذَلّون مقهورون . قال : وعلى هذين القولين يكون معنى الاتباع : الادّعاء والمحبة لا اتباع الدِّين والمِلّة . ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى فى الآخرة . ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى من الدِّين وأمر عيسى .

قوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسَّبْي والجِزية والذِّلّة . ﴿والآخرة﴾ بالنار . ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ . قوله : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية ظاهرة المعنى . قوله : ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أى هذا الذى ذكرته لك ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : «هو القرآن» . وقيل : هو اللَّوحُ المحفوظ ، وهو مُعلَّق بالعَرْش ، من دُرَّة بيضاء ، و « الحكيم » هو المحكَم من الباطل ؛ قاله مقاتل . وقال ابن إسحق : أى القاطعُ الفاصلُ ، الحقُّ الذى لا يخالطه الباطل ، من الخبر عن عيسى ، وعما اختلفوا فيه من أمره ، فلا تقبلنّ خبرا غيره . فقال : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى قد جاءك الحقّ فلا تمترينّ فيه ، وإن قالوا خُلِق عيسى من غير [ذَكَر](1) ، فقد خلقت آدم [من تُراب](2) بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذَكَر ؛ فكان لحمًا ودمًا وعظمًا وشعرًا و بشرًا ، كما كان عيسى ، فليس خلق عيسى من غير ذَكَر بأعجب من هذا .

ثم قال تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى من بعد ما قصصت عليك من خبره ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ قوله : « نَبْتَهِل » أى نتضرع فى الدعاء . وقيل : نخلص فى الدعاء . وقيل : نجتهد ونبالغ فنقول لعن الله الكاذب منّا ومنكم . قال ابن إسحق : ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذى جئت به من الخبر عن عيسى ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ من أمره . ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى إن أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى الذين يعبدون غير الله تعالى ، و يدعون الناس إلى عبادة غير الله .

٤٥/١٦

(١) فى الأصول : « ذلك » وهو تحريف ، والتصويب من سيرة ابن هشام .
(٢) الزيادة من سيرة ابن هشام .

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فدعاهم إلى النَّصَف ، وقطع عنهم الحُجّة ، قال : فلما أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من الله عزّ وجلّ عن عيسى ، والفَصْلُ من القضاء بينه و بينهم ، وأمره بما أمره به من مُلاعنتهم إن رَدُّوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك ؛ فقالوا : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتَنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خَلَوْا بالعاقِب ، فقالوا : يا عبد المسيح ، ماترى ؟ فقال : واللهِ يا مَعْشَرَ النَّصارَى لقد عرفتم أنّ محمدًا لنبيٌّ مُرْسَلٌ ، لقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لَاعَنَ قومٌ نبيًّا قطّ فبقى كبيرُهم ، ولا نَبتَ صغيرُهم ، وأنه الاستئصال منكم إنْ فَعَلْتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إِلْفَ دِينكم ، والإقامةَ على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادِعوا الرجلَ ، ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألّا نلاعنَك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ، ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رِضًا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائتونى العَشِيّةَ أبعثْ معكم القوىَّ الأمين » فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببتُ الإمارة قطّ حُبِّى إياها يومئذ رجاءَ أن أكون صاحبها ، فخرجتُ إلى الظُّهْر مُهَجِّرًا[1] ، فلمّا صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر ، سَلَّم ثم نظر عن يمينه و يساره ، فجعلت أتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عُبَيدة بن الجَرّاح فدعاه له ، وذلك قبل الهجرة .

(١) المهجر : الذى يسير فى الهاجرة ، وهى شدة الحر .

فقال : « آخرج فاقض بينهم بالحق فيما آختلفوا فيه » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة . هذا مارواه آبن هشام عن آبن إسحق .

وقال محمد بن سعد فى طبقاته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عَرَض عليهم المباهلة آنصرفوا عنه ، ثم أتاه عبد المسيح ورجلان من ذوى رأيهم ، فقال : قد بَدَا لنا ألا نُبَاهِلَك ، فآحكم علينا بما أحببت نُعطِك ونصالحك . فصالحهم على ألفى حُلّة : ألف فى شهر رجب ، وألف فى صفر ، أو قيمة كل حُلّة من الأواق ، وعلى عارية ثلاثين دِرْعًا ، وثلاثين رُمْحًا وثلاثين بعيرًا ، وثلاثين فرسًا : إن كان باليمن كَيْد[1] . ولنَجْرانَ وحاشيتهم جوارُ الله وذمة محمد النبىّ رسول الله ، على أنفسهم وملّتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم و بيعهم ، لا يُغيَّر أُسْقُفٌ[2] من سِقّيفاه ، ولا راهب من رَهْبانيّته ، ولا واقِفٌ[3] من وَقْفانيّته ، وفى بعض الروايات لا يُغيَّر وافِهٌ[4] من وَفْهِيّته ، ولا قسيس من قِسِّيسِيّته . والْوَافِهُ : قَيِّم الكَنِيسة .

قال : وأشهد على ذلك شهودا . منهم أبو سفيان بن حَرْب ، والأَقْرَع بن حابِس والمُغِيرة بن شُعْبة ، ورجعوا إلى بلادهم ، فلم يلبث السيّد والعاقِب إلّا يسيرًا حتى رَجَعا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأسلما وأنزلهما فى دار أبى أيوب الأنصارىّ ،

---

(١) كيد : حرب .

(٢) الأسقف : رئيس النصارى فى الدين . وسقيفاه : مصدر كالخليفى من الخلافة ؛ أى لا يمنع من تسقفه وما يعانيه من أمر دينه وتقدمته .

(٣) الواقف : خادم البيعة ؛ لأنه وقف على خدمتها . وقفانيته : خدمته ، ويروى «وقيفاه» بالكسر والتشديد ؛ وهى مصدر كالخصيصى والخليفى .

(٤) ورواه آبن الأعرابى « واهف » وكأنه مقلوب .

وأقام أهلُ نَجران على ما كتب لهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قَبَضه الله تعالى . ثم وُلِّى أبو بكر فكتب بالوَصَاة بهم عند وفاته ، ثم أصابوا رِبًا فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم ، وكتب لهم :

«هذا ما كتب عمرُ أميرُ المؤمنين لنَجْرانَ . من سار منهم إنه آمِنٌ بأمان الله ، لا يَضُرُّهم أحدٌ من المسلمين ؛ وفاءً لهم بما كتب لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ـ أما بعد ـ فمن وَقَعوا(١) به من أُمَراء الشام وأُمَراء العِراق فلْيوسِعهم من جَرِيب(٢) الأرضِ ، ما اعْتَمَلُوا من ذلك فهو لهم صَدَقة ، وعُقْبة لهم بمكان أرضهم ، لا سبيل عليهم فيه لأحدٍ ولا مَغْرَم ـ أما بعد ـ فمن حضرهم من رجلٍ مسلم فلينصرهم على من ظلمهم ، فإنهم أقوام لهم الذِّمة . وجزيتهم عنهم متروكة أربعةً وعشرين شهرا بعد أن يَقْدموا ، ولا يُكلَّفوا إلا مِن ضَيْعتهم(٣) ، غير مظلومين ولا مَعْنُوف(٤) عليهم . شَهِد عثمانُ بن عفان ومُعَيْقِيب بن أبى فاطمة .

٤٦/١٦

قال : فوَقَع ناسٌ منهم بالعراق ، فنزلوا النَّجْرانيّة التى هى ناحية الكوفة .

وحيث ذكرنا وِفادات العرب ، فلا بأس أن نصل هذا الفصل بما يناسبه من خبر الجنّ فى إسلامها ، ونلحق ذلك بما يتعلق به من إخبار الجنّ أصحابَهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أسلم بسبب ذلك ، فإنا عند ذكرنا للمبشِّرات برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكرنا من ذلك طَرَفا ، وأخَّرنا بقيته لنذكره فى هذا الفصل ، ونبهنا عليه هناك .

---

(١) وقعوا : نزلوا . (٢) جريب : هو فى الأصل الوادى ، ثم استعير للقطعة المتميزة من الأرض . ما اعتملوا : استعملوه فى الزراعة . (٣) فى طبقات ابن سعد : «من ضيعتهم التى اعتملوا» .

(٤) لا معنوف عليهم : أى لا يشتد عليهم فى المعاملة ، بل يعاملون باللين والرفق .

ذكر خبر إسلام الجنّ

ودعائهم قومهم إلى الإيمان عند سماعهم القرآن

قال الله تعالى : ﴿ وإذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

وكان من خبر الجنّ ما رُوِى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سُوق عُكَاظ وقد حيل بين الشّياطين وبين خبر السماء ، وأُرسلت عليهم الشُّهُب ، فرجعت الشياطينُ ، فقالوا : مالكم؟ فقالوا : قد حِيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشُّهُب ، قالوا : ماحَالَ بينكم وبين خبر السماء إلّا ماقد حَدَث ، فاضربوا مَشارق الأرض ومَغارِبَها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى قد حَدَث ، فانطلقوا فضَربوا مَشارِقَ الأرض ومَغارِبَها ، ينظرون ماهذا الأمر الذى حَالَ بينهم وبين خبر السماء ، وانطلق الذين توجّهوا إلى نحو تِهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنَخْلَة[2] وهو عامد إلى سُوق عُكَاظ ، وهو يصلّى بأصحابه صلاة الفجر ، فلمّا سمعوا القرآن تَسمّعوا[3] له فقالوا : هذا

(١) الآيات من ٢٩ — ٣٢ سورة الأحقاف .

(٢) نخلة : اسم موضع يعرف بنخلة اليمانية بواد يأخذ إلى قرن والطائف ، قال فى المصباح : « بها كان ليلة الجن ، وبها صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف لما سار إلى الطائف ؛ بينها وبين مكة ليلة » .

(٣) تسمعوا له : تكلفوا سماعه .

الذى حَالَ بينكم وبين خبر السماء . فهنالك رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[1]. وأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحى إليه قولُ الجنّ ، رواه البخارىّ فى صحيحه عن موسى بن إسمعيل ، عن أبى عَوَانة ، عن أبى بِشْر عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس .

وذهب محمد بن سعد إلى أن استماع الجنّ كان بنخلة ، عند عود رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطّائف ، لما توجّه يدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا له ، وذلك قبل الهجرة .

وقال الشيخ أبو بكر أحمد بن الحسين البَيْهَقىّ فى كتابه المترجَم « بدلائل النبوّة ، ومعرفة أحوال صاحب الشريعة » بعد أن ساق حديث البخارىّ قال : وهذا الذى حكاه عبد الله بن عباس إنما هو فى أول ما سمعت الجنّ قراءة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعَلِمت بحاله ، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه ، ثم أتاه داعى الجنّ مرّةً أخرى ، فذهب معه ، وقرأ عليهم القرآن ، كما حكاه عبد الله ابن مسعود .

وقد روى البَيْهَقىّ بسنده إلى عبد الله بن مسعود خبر الجنّ فى القِصَّتَيْن : أمّا الأولى فإنه قال : هبطوا على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نَخْلَة ، فلما سَمِعوه قالوا : أَنْصِتوا ـ قالوا صَهْ ـ وكانوا سبعة ، أحدهم زَوْبَعة ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ إلى قوله : ﴿أُولَئِكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . وعن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم آذَنَته بالجنّ شجرةٌ ؛ رواه البخارىّ ومسلم فى الصحيحين .

(١) آية ١ ، ٢ سورة الجن .

وأما القصة الثانية ، فرواها عن الشَّعْبِيّ عن عَلْقَمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود هل صحب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ الجنّ منكم أحدٌ ؟ فقال : ما صحبه منّا أحدٌ ، ولكنا فقدناه ذاتَ ليلة بمكةَ فقلنا : أُغْتِيلَ ؟ أُسْتُطِيرَ ؟ ما فعَلَ ؟ قال : فبِتْنَا بشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فلما كان فى وَجْه الصُّبْح أو قال فى السَّحَر ، إذا نحن به يجىء من قبل حِرَاء ، فقلنا : يارسول الله ، فذكروا الذى كانوا فيه ، فقال : « إنه أتانى داعى الجنّ فأتيتُهم فقرأتُ عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارَهم ، وآثارَ نيرانهم ، قال : وقال الشَّعْبِيّ فسألوه الزَّادَ ، وقال ابن أبى زائدة : قال عامر سألوه لَيْلَتَئِذٍ الزَّادَ ، وكانوا من جِنّ الجزيرة ، فقال : « كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ الله عليه يقع فى أيديكم أوْفَرَ ما كان لحماً ، وكلُّ بَعْرةٍ أورَوْثةٍ عَلَفٌ لدوابِّكم — قال — فلا تَسْتَنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجنّ » رواه مسلم فى صحيحه . وكان فيما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم : « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ القُرآن » السورة ؛ ويدل على ذلك ما رواه محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر بن عبد الله قال : لما قرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « الرَّحْمَنُ » على الناس سكَتُوا فلم يقولوا شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَلْجِنُّ كانوا أحسنَ جواباً منكم لمّا قرأتُ عليهم « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قالوا لا ولا بشىء من آلاء ربّنا نكذِّب »(١) . ومن رواية أخرى عنه : « قالوا ولا بشىء من نِعَمكَ ربّنا نكذِّب فلكَ الحمد » .

٤٧/١٦

وعن أبى المُلَيْح الهُذَلِىّ أنه كتب إلى عُبَيدة بن عبد الله بن مسعود : أين قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجنّ ؟ فكتب إليه : إنه قرأ عليهم بِشِعْب يقال له الحَجُون . وروى عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنّ نفرًا

(١) الذي فى نسخة للبيهقي مخطوطة : « قالوا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب » .

من الجنّ خمسة عشر بنى إخوةٍ وبنى عمٍّ يأتوننى الليلة فاقرأ عليهم القرآن » . وقيل : كانوا أكثر من هذا . وقد جاء عنه : أنه ذهب إلى موضعهم ، قال : فرأيتُ موضع مَبْرَكِ ستين بَعِيرًا . ولما رأى عبدُ الله بن مسعود رجالَ الزُّطّ[1] قال : ما رأيتُ شبههم إلا الجنّ ليلة الجنّ ، وكانوا مُسْتَنْفرين يتبع بعضُهم بعضًا .

ذكر إخبار الجنّ أصحابهم

بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم و إسلامهم بسبب ذلك

روى أبو عبد الله محمد بن إسمعيل البخارى رحمه الله فى صحيحه ، بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعتُ عمرَ رضى الله عنه لِشيءٍ قطُّ يقول ، إنى لأظنّه كذا إلا كان كما يَظُنّ[2] ؛ بينا عمر جالس إذ مَرَّ رجلٌ جميل[3] ، فقال : لقد أخطأ ظنى أو إنّ هذا على دينه فى الجاهلية[4] ، ولقد كان كاهنَهم ؛ علىّ الرجلَ ، فدُعِى له ، فقال له عمر : لقد أخطأ ظنّى أو إنّك على دينك فى الجاهلية أو لقد كنتَ كاهنَهم ، فقال : ما رأيت كاليوم أستقبِل به رجلٌ مُسلِم . قال : فإنى أعْزِم[5] عليك إلا ما أخبرتَنى . قال : كنتُ كاهنَهم فى الجاهلية . قال : فما أعجَبُ ما جاءتك به جِنّيتُكَ ؟ قال : بينا أنا يوما فى سوق جاءتنى أعرِف فيها الفَزَع ، قالت :

---

(١) الزط : جنس من السودان والهنود .

(٢) لأن عمر رضى الله عنه كان من المحدثين (بتشديد الدال المفتوحة) أى الملهمين بالصواب .

(٣) قال البيهقى : « يشبه أن يكون هو سواد بن قارب » .

(٤) أى فى كونه فى الجاهلية بأن صار مسلما (القسطلانى) .

(٥) أعزم عليك : ألزمك .

أَلَمْ تَرَ الجِنَّ وإِبْلَاسَهَا * ويَأْسَهَا بَعْدُ وإِبْلَاسَهَا (١)
ولُحُوقَهَا بالقِلَاصِ وأَحْلَاسِهَا * ويَأْسَهَا بَعْدُ مِنْ أَنْسَاكِهَا (٢)

قال عمر : صَدَق ، بينا أنا نائمٌ عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ منه صارخٌ لم أسمع صارخًا قطُّ أشدَّ صوتًا منه يقول : يا جُلَيح (٣) ، أمرٌ نَجيح ، رجلٌ يَصيح ، يقول لا إله إلا اللهُ ، فوثَب القومُ ، قلتُ : لا أبرحُ حتى أعلَمَ ما وراء هـذا ، ثم نادى : يا جَلِيح ، أمرٌ نَجيح ، رجل يَصيح ، يقول لا إله إلا اللهُ ، فقلت لا أبرحُ حتى أعلَم ما وراء هـذا ، ثم نادى : ياجَلِيح ، أمرٌ نَجيح ، رجلٌ يَصيح ، يقول لا إله إلا اللهُ . فقمتُ فما نَشِبْتُ أنْ قِيل هذا نبيّ .

قال البَيْهَقيّ : ظاهر هـذه الرواية يُوهِم أنّ عمر رضى الله عنه بنفسه سمع الصّارِخ يَصرُخ من العِجْل الذى ذُبح ، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر فى إسلامه ، وسائر الروايات تدل على أن الكاهن أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ، والله تعالى أعلم .

ذكر خبرِ سَوَادِ بنِ قارِبٍ

روى البَيْهَقيّ رحمه الله تعالى بسنده عن البَرَاء ، قال : بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخطب الناس على مِنبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، إذ قال : أيها الناس ، أفيكم سَوَادُ بن قارِب ؟ قال : فلم يُجِبه أحدٌ تلك السَّنَة ، فلما كانت السَّنَة المقبلة ،

(١) إبلاسها : تحيرها ودهشها . (النهاية) .

(٢) القلاص (جمع قلوص) : الناقة الشابة . أحلاسها : أكديتها . وأنساكها : متعبداتها . والبيتان وردا هكذا فى الأصول والدلائل ، وفى البخارى : ألم تر الجن وإبلاسها * ويأسها من بعد إنكاسها * ولحوقها بالقلاص وأحلاسها . وروى الشطر الأخير ليكون موزونا : (ورحلها العيس بأحلاسها) .

(٣) يا جليح ؛ قال ابن الأثير : « جليح اسم رجل قد ناداه » . ويحتمل أن يكون معناه : المكافح والمكاشف بالعداوة . ونجيح : من النجاح ، وهو الظفر بالبغية . (القسطلانى) .

٤٨/١٦ قال : أيها الناس، أفيكم سَوَاد بن قارِب ؟ قال فقلت : يا أمير المؤمنين، وما سَوَاد ابن قارب ؟ فقال : إنّ سواد بن قارِب كان بدء إسلامه شيئا عجيبا ! قال : فبينا نحن كذلك ؛ إذ طلع سَوَادُ بن قارِب، فقال له عمر : ياسَوادُ، أخبرنى ببَدْءِ إسلامك كيف كان ؟ قال سَوَاد : فإنّى كنتُ نازلا بالهِنْد وكان لى رَئِيٌّ من الجنّ، قال : فبينا أنا ذات ليلة نائم ؛ إذ جاءنى فى منامى ذلك، قال : قم فافهم واعقل إن كنت تعقِل، قد بُعث رسول من لُؤَىّ بن غالب، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وأَنْجَاسِها * وشَدِّها العِيسَ بِأَحْلاسِها (١)
تَهْوِى إلى مَكّةَ تَبْغِى الهُدَى * ما مُؤْمِنُوها مِثْلُ أَرْجاسِها
فَانْهَضْ إلى الصَّفْوَةِ مِن هَاشِم * وأَسْمُ بعَيْنَيْك إلى رَاسِها

ثم أنبهنى وأفزعنى، وقال : يا سَواد بن قارِب، إنّ الله عز وجل بعث نبيا فانهض إليه تَهتدِ وتَرْشُد، فلما كان فى الليلة الثانية أتانى فأنبهنى، ثم أنشا يقول كذلك :

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وتَطْلابِها * وشَدِّها العِيسَ بِأَقْتابِها
تَهْوِى إلى مكةَ تَبْغِى الهُدَى * لَيْسَ قُدَاماها كأَذْنابِها (٢)
فانْهَضْ إلى الصَّفْوَةِ مِنْ هاشِم * وأَسْمُ بعَيْنَيْكَ إلى نَابِها (٣)

---

(١) فى مختصر الدلائل :

عجبت للجن وتجساسها * وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى * ماخير الجن كأنجاسها

(٢) فى مختصر الدلائل :

تهوى إلى مكة تبغى الهدى * ماصادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم * ليس قداماها كأذنابها

(٣) ناب القوم : سيدهم ورئيسهم، وسما يسمو : طلب العز والشرف .

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهنى، ثم قال كذلك :

عَجِبْتُ لِجِنٍّ وتَخْبَارِها * وشَدِّها العِيسَ بأكْوَارِها
تَهْوى إلى مكةَ تَبْغى الهُدَى * ليسَ ذَوُو الشَّرِّ كأخْيَارِها (١)
فَانْهَضْ إلى الصَّفْوَة من هاشِم * ما مُؤمِنُو الجِنِّ ككُفَّارِها

قال : فلما سمعته يكرر ليلةً بعد ليلةٍ وقع فى قلبى حُبّ الإسلام من أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم ما شاء الله، فانطلقتُ إلى رَحْلى فشددتُه على راحِلتى، فما حَلَلْتُ نِسْعَةً (٢) ولا عَقَدتُ أخرى حتى أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو بالمدينة والناس عليه كعُرف الفَرَس (٣)، فلما رآنى قال : « مرحبًا بك ياسَواد بن قارِب، قد علمنا ماجاء بك » قال قلتُ : يارسول الله قد قلتُ شِعرًا فاسمعه منى، قال سَوَاد فقلت :

أتانِى رئِيّ بعد لَيْلٍ وهَجْعَةٍ * ولم يَكُ فِيما قد بَلَوْتُ بكاذِبِ (٤)
ثلاثَ ليالٍ قَوْلُه كلَّ ليلةٍ * أتاكَ نبىٌّ مِن لُؤَىِّ بنِ غالِبِ
فَشَمَّرْتُ عن ساقِى الإزارِ ووَسَّطَتْ * بِىَ الذَّعْلِبُ الوَجناءُ عِنْدَ السَّباسِبِ (٥)

---

(١) فى مختصر الدلائل :

تهوى إلى مكة تبغى الهدى * ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم * بين روابيها وأحجارها

(٢) النسعة : سير مضفور ، يجعل زماما للبعير وغيره ، وتشد به الرحال أيضا ؛ والمراد أنى لم أفعل شيئا حتى جئت النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(٣) عرف الفرس : منبت الشعر من العنق .

(٤) الرئى بوزن كمىّ : التابع من الجن ؛ سمى بذلك لأنه يتراءى لمتبوعه ، أو هو من الرأى من قولهم : فلان رئى قومه إذا كان صاحب رأيهم ، وقد تكسر راؤه لاتباعها ما بعدها . والهجعة الطائفة من الليل . ورواية البيهقى والبخارى : ولم أك فيما قد بلوت .

(٥) شمر عن ساقه الإزار : كناية عن الجد . والذعلب الوجناء : الناقة السريعة الغليظة الصلبة . السباسب (جمع سبسب) : الأرض القفر البعيدة والمفازة .

فأشهدُ أنّ الله لا شيءَ غيرُه * وأنّك مأمونٌ على كلِّ غائبِ
وأنّك أدنى المُرسلين شفاعةً * إلى الله يابْنَ الأكرمين الأطايبِ
فمُرْنا بما يأتيك يا خيرَ من مشى * وإن كان فيما جاء شيبُ الذّوائبِ (١)
فكُنْ لي شفيعًا يومَ لا ذو شفاعةٍ * سِواكَ بمُغْنٍ عن سَوادِ بنِ قارِبِ (٢)

قال : فضحك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى بدَتْ نواجِذُه (٣) ، وقال لى : « أفلحتَ ياسواد » فقال عمر : هل يأتيك رَئِيُّك الآن ؟ فقال : مُنْذ قرأتُ القرآن لم يأتنى، ونِعْم العِوض كتابُ الله عزّ وجلّ من الجِنّ .

قال البيهقىّ : ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن ، الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح، وهو الحديث الذى ذكرناه آنفا قبل خبر سَوَاد .

وقد روى أيضا عن سَوَاد بن قارِب، من رواية سعيد بن جُبَيْر بنحو هذا ، إلا أنه قال : كان سَواد فى جبل من جبال الشَّرَاة (٤) ، وقال : أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة، وقد ظهر، فأخبرته الخبر، وبايعته .

قال البيهقىّ رحمه الله : وقوله أتيت مكة أقرب إلى الصِّحة [مما رويناه فى الروايتين الأوليين (٥)] . والله تعالى أعلم .

---

(١) الذوائب، جمع ذؤابة، وهى الضفيرة من الشعر إذا كانت مرسلة. يقول : مرنا بما يوحى إليك ولو كان فيه شيب شعرنا .

(٢) ويروى : بمغن فتيلا .

(٣) النواجذ؛ قال ثعلب : المراد الأنياب، وقيل : الأضراس كلها .

(٤) الشراة : جبل شامخ عن يسار عسفان ، وبه سلسلة تذهب إلى ناحية الحجاز .

(٥) الزيادة من دلائل البيهقى .

ذِكر خبرِ خُفَافِ بن نَضْلَةَ الثَّقَفِىّ

٤٩/١٦ رَوَى أبو بكر البيهقىّ رحمه الله بسنده إلى ذابِل بن طُفَيْل بن عمرو الدَّوْسِىّ ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قعد فى مسجده ذات يوم، فقدِم عليه خُفَافُ بن نَضْلَةَ آبن عمرو بن بَهْدَلَة الثَّقفىّ، فأنشد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم :

كَمْ قَدْ تَحَطَّمَتِ القَلُوصُ بِىَ الدُّجَى * فى مَهْمَهٍ قَفْرٍ من الفَلَوَاتِ (١) ٥

فِلٍّ مِن التَّوْرِيسِ ليس بِقاعِهِ * نَبْتٌ من الإسْنَاتِ والأَزْمَاتِ (٢)

إنِّى أتانِى فى المنامِ مُساعِدٌ * من جِنِّ وَجْرَةَ كان لِى ومُوَاتِ (٣)

يَدْعُو إليكَ لياليًا ولياليًا * ثُمَّ آحْزَأَلَّ وقال لَسْتُ بِآتِ (٤)

فرَكِبْتُ ناجِيَةً أَضَرَّ بِنِيِّهَا * جَمْرٌ تَخُبُّ به على الأَكَمَاتِ (٥)

حتَّى وَرَدتُ إلى المدينةِ جاهِدًا * كَيْما أَرَاكَ فتَفْرِجَ الكُرُباتِ ١٠

قال : فآستحسنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: « إنّ من البيان كالسِّحْر، وإنّ من الشِّعْر كالحِكَم » .

---

(١) تحطمت : حطمت الأرض بأخفافها . والقلوص : الناقة الفتية، الدجى : سواد الليل مع غيم، مهمه : مفازة بعيدة، الفلوات جمع فلاة : وهى الصحراء الواسعة، أو المفازة لا ماء فيها .

(٢) فل : خالية ، والتوريس : صبغ أصفر؛ يريد أن المهمه القفر خال من اللون الأصفر الذى يكون على وجه الأرض عند المحل ، لهذا قال ليس بقاعه نبت لسببين المحل وأزماته . والأرض يكسو وجهها عند المحل لون اصفرار، فإذا زال بشدة المحل بدا قاع الأرض وهو وجهها كأنها غير منبتة . ١٥

(٣) وجرة : موضع بين مكة والبصرة موحش . ومواة : موافق ومطاوع .

(٤) آحزأل : آرتفع .

(٥) الناجية : الناقة السريعة التى تنجو بصاحبها . بنيها : بلحمها وشحمها ، وفى الإصابة : « بمتنها » أى بظهرها . وفى الدلائل : « بثيبها » وهو تصحيف . الجمر: السير السريع . وفى الدلائل : جمز بالزاى : وهو ضرب من العدو . تخب : تسرع . الأكمات : التلال والروابى . ٢٠

ومن ذلك ما روى عن علىّ بن حسين ، قال : أول خبر قدم المدينة ، أن آمرأة من أهل يَثْرِب تُدعَى فاطمة[(١)] ، كان لها تابع من الجنّ فجاءها يوما فوقع على جدارها ، فقالت : مالكَ لا تدخل ؟ فقال : إنه قد بعُث نبىٌّ يحرِّم الزِّنَى ، فحدثت بذلك المرأة عن تابعها من الجنّ ، وكان أول خبر يُحدَّث به بالمدينة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن جابر قال : أول خبر قدم المدينة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن آمرأة من أهل المدينة كان لها تابع ، فجاء فى صورة طائر حتى وقع على حائط دارهم ، فقالت له المرأة : آنزلْ نُخبرْكَ وتُخبرْنا ، قال : لا ، إنه بُعِث بمكة نبىٌّ مَنَع منا القَرار ، وحَرّم علينا الزِّنى .

ومنه ما رُوِى عن محمد بن عمر بن واقد ، عن تَميم الدارىّ أنه قال : سِرتُ إلى الشّام فأدركنى الليل ، فأتيتُ واديًا فقلت : أنا فى جِوارِ عظيم هذا الوادى اللّيلةَ ، فلما أخذتُ مَضْجَعى إذا قائلٌ لا أراه يقول : عُذْ بالله الأحد ، فإنّ الجنّ لا تُجير على الله أحدا ، وأنه قد بعِث رسولُ الأمّيين ، وصلّينا خلفَه بالحَجُون ، وأسلمنا وآتبعناه ، وآمنا به وصدّقناه ، فأَسْلِمْ تَسْلم . قال تميم : فلما أصبحتُ ذهبتُ إلى دَيْر أيوب[(٢)] ، فسألت راهبه عما سمعتُ من الهاتف ، فقال : صَدَق . وكان ذلك سبب إسلام تميم .

ومنه ما روى عن أبى خُرَيْم[(٣)] فاتِك أنه قال : خرجتُ فى الجاهلية أطلب إبِلا

(١) فى الدلائل «فطيمة» : بالتصغير .

(٢) دير أيوب : قرية بحوران من نواحى دمشق كان بها أيوب عليه السلام .

(٣) هو فاتك بن الأخرم الأسدى .

أضللتها ، فلما كنت بأَبْرَقِ العَزّاف[1] ، عَقلتُ ناقتى وتوسّدتُ ذِراعها ، وقلت : أعوذ بعظيم هذا المكان، فسمعت هاتفا يقول :

تَعوّذْ بالله ذِى الجَلَالِ * ووَحِّدِ اللهَ وَلَا تُبَالِى
* ما هَوْلُ الجِنِّ[2] مِنَ الأَهْوَالِ *

قال فقلتُ : بَيِّنْ لى يَرْحمكَ الله ، فقال :

هذا رسولُ الله ذُو الخيراتِ * يَدْعُو إلى الجنّةِ والنَجاةِ
* يأمُرُ بالصّومِ وبِالصّلاةِ *

قال : فوقع فى قلبى الإسلام، فقلت : مَن أنت أيها الهاتِف ؟ فقال : أنا مالك بن مالك ، إنْ أردتَ الإسلامَ فأنا أكفيك طلب ضالّتك حتى أردّها إلى أهلك ، قال : فركبتُ راحلتى وقصدتُ المدينة ، فقدِمتها فى يوم جمعة ، فأتيتُ المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب، فأنختُ بباب المسجد قلتُ ألبثُ حتى يفرغ من خطبته ، وإذا أبو ذَرٍّ قد خرج فقال لى: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى إليك وهو يقول لك: «مرحباً قد بلغنى إسلامك فادخل فصلِّ مع الناس» قال : فتطهرتُ ودخلت فصلّيتُ، ثم دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبايعنى وأخبرنى بالخبر قبل أن أذكره له ، وقال لى : « أمّا إبِلُكَ فقد بَلَغتْ أهلَكَ ، وقد وَفَى لك صاحبك » فقلت : جزاه الله خيرا ورَحمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آمين » .

---

(١) أبرق العزاف كشداد : ماء لبنى أسد بن خزيمة سموه بذلك لأنهم يسمعون فيه عزيف الجن أى صوتهم ، وهو صوت يسمع بالمفاوز بالليل من الرياح .

(٢) فى أسد الغابة فى ترجمة مالك بن مالك الجنى : ما هول ذى الجن من الأهوال .

ومنه ما روى عن مالك بن نُفَيْع أنه قال : نَدَّ بعيرٌ لى، فركبتُ نَجِيبةً وطلبته، حتى ظَفِرتُ به ، فأخذتُه وانكفأتُ راجعًا إلى أهلى ، فأسريتُ ليلةً حتى كِدتُ أصبح ، فأنختُ النَّجيبةَ والجملَ وعَقَلْتُهما ، واضطجعتُ فى ذُرَى كَثِيب رملٍ ، فلما كلنى الوَسَنُ سمعت هاتفا يقول : يا مالِك ، يا مالِك ، لو فحصتَ عن مَبْرَك العَوْد[1] البارِك، لَسَرَّك ما هنالك، قال: فثُرْتُ وأثرتُ البعيرَ عن مَبْرَكه، واحتفرت[2]، وإذا صنم بصورة امرأة، من صَفاةٍ صفراء كالوَرْس، مجلوة كالمرآة، فاستخرجتها ومسحتها بثوبى ونصبتها ، فاستوت قائمة ، فما تمالكتُ أن خررتُ ساجدا لها ، ثم قمتُ فنحرتُ البعير لها ورششتها بدمه ، وسميتها غَلَاب، ثم حملتها على النَّجيبة وأتيتُ بها أهلى ، فحسدنى كثير من قومى عليها ، وسألونى نَصْبها لهم ليعبدوها معى ، فأبيتُ عليهم ، فانفردتُ بعبادتها ، وجعلتُ لها على نفسى كل يوم عَتِيرة[3]، وكانت لى ثَلَّة من الضأن فأتيت على آخرها ، وأصبحت يوما وليس لى ما أُعْتِره ، وكرهتُ الإخلاف بنَذْرى ، فأتيتها فشكوتُ إليها ذلك ، فإذا هاتفٌ من جوفها يقول : يا مالِ يا مالِ[4] ، لا تأس على المال ؛ سِرْ إلى طَوِىّ[5] الأَرْقَم ، فخذ الكلب الأَسْحَم ، الوالِغ فى الدّم ، ثم صِدْ به نَعَم[6] . قال مالك : فخرجت من فورى إلى طَوِىّ الأَرْقم ، فإذا كلب أسحم هائل المنظر ، قد وَثَب على قَرْهب — يعنى ثورا وحشيا — فصَرعه وأنا أنظر إليه ، ثم بَقَر بطنه ، وجعل يَلِغ فى دمه ، قال : فتهيبته ، ثم أقدمتُ عليه وهو مقبل على عَقِيرته لم يلتفت إلىّ ، فشددت فى عنقه حبلا ، ثم جذبته فتبعنى ، فأتيت راحِلتى فأثرتها ، وقُدْتها إلى

٥٠/١٦

(١) العود : الجمل الكبير المسن المدرب . (٢) احتفر : أخرج التراب من الأرض .
(٣) العتيرة : ما يذبح للأصنام . والثلة : جماعة الغنم . (٤) يا مال : أى يا مالك ؛ فهو مرخم . (٥) الطوى : البئر ، والأرقم ، أحد الأراقم : وهى أحياء من العرب ، ولعل المراد ناحية بئر الأرقم ، والأسحم : الشديد السواد . (٦) سيأتى خبر نعامة اصطادها مالك بالكلب الأسحم .

القَرْهَبِ ، فأنختها وجررته وحملتـه عليها ، ثم قُدْتُها قاصـدا إلى الحيّ ، والكلب يلوذ بي فعَنَّت لى ظبيةٌ ، فجعـل الكلب يَثِب ويجـاذِبنى المَرَس[1] ، فتردّدت فى إرساله ثم أرسـلته ، فمرّ كالسهم حتى آختطفها ، فأتيتـه فجاذبته إياها فأرسلها فى يدى ، فآستفزنى السُّرور ، وأتيتُ أهلى فعَتَرْت الظبيةَ لغـلَاب ، ووزعت لحم القَرْهَبِ ، وبِتُّ بخير ليلة ، ثم باكرتُ به الصّيد ، فلم يفته حمار ، ولا ما طله ثور ، ولا آعتصم منه وَعْل ، ولا أعجزه ظبيٌ ، فتضاعف سرورى به ، وبالغت فى إكرامه ، وسميته سُحَاما ، فلبث بذلك ما شاء الله ، فإنى لَذاتُ يوم أصيد به ، فبَصُرت بنعامة على أُدْحِيّها[2] ، وهى قريبة منى ، فأرسلتـه عليها ، فأجفلت أمامه ، وآتّبعتها على فرس جواد ، فلما كاد الكلب يَثِب عليها ، آنقضّت عليه عُقَاب من الجوّ فكر راجعا نحوى فصِحتُ به فما كَذَّب[3] ، وأمسكت الفرس بجاء سُحَام حتى دخل بين قوائمها ، ونزلت العُقَاب أمامى على صخرة ، وقالت : سُحَام ، قال الكلب : لَبَّيْكِ ، قالت : هَلَكت الأصنام ، وظهر الإسلام ، فأَسْلِم تَنْجُ بسلام ، وإلا فليست بدار مقام . ثم طارت العُقَاب ، وتَبَصَّرتُ سُحَاما فلم أره ، وكان آخر عهدى به .

ومنه مما يشبه هـذه القصة ما رُوى عن قَتادة عن عبد الله بن أبى ذُباب[4] عن أبيه ، أنه قال : كنت مُولَعا بالصيد ، وكان لنا صنم آسمـه فَرَّاض ، كنت كثيرا

(١) المرس : الحبل . وفى نسخة أ : « الرس » وهو تحريف .

(٢) الأدحىّ (بالضم والكسر) : الموضع الذى تبيض فيه النعامة وتفرخ ، فهى أدحية أفعولة من الدحو وهو البسط .

(٣) فما كذب (بالتشـديد) : أى ما آنثنى وما رجع ، وفى الأصول : « فما كرب » بالراء وهو تصحيف . ويؤيد ما أثبتناه ما بهامش نسخة ج : « فما كرب : فما فر ولا آنثنى » .

(٤) أبو ذباب ، يقال فيـه « ذباب » بدون كنية ، كما تقدم . (راجع ص ١٨ من هذا الجزء والإصابة فى ذباب) .

ما أذبح له ، ولم أكن أتخذ جارحا للصيد إلّا رُمِي بآفة ، فلمّا أُدْخِلُ الحيَّ صيداً حيًّا؛ لأنى كنت لا أدركه إلا وقد أشفى على الهلاك، فلمّا طال بى ذلك أتيت فَرَاضا ، فعقَرتُ له عَتِيرة ، ولطّختُه من دمها ، وقلت :

فَرَّاض أَشْكو نَكَدَ(١) الجوارح * مِنْ طائرٍ ذى مِخلبٍ ونابح
وأنتَ للأمر الشَّديد الفادح(٢) * فافتح فقد أسهلت المفاتح

فأجابنى مُجيبٌ من الصَّنم؛ فقال :

دُونَكَ كلباً جارِحًا مباركا * أَعدَّ للوحش سلاحاً شابكا(٣)
* يَفْرِي حُزُونَ الأرض والدَّكادِكا(٤) *

قال : فانقلبت إلى خِبائى ، فوجدت به كلبا خِلاسِيًّا(٥) بهيما(٦) عظيما، أَهْرَتَ(٧) الشِّدقين، شابِكَ الأنيابِ، شَثْنَ(٨) البراثنِ، أشعر مَهُول المنظر، فصفرت به فأتانى، فلاذ بى وبَصْبَصَ(٩)، فسميته حياضا(١٠)، فاتخذت له مَرْبِطا بإزاء فراشى وأكرمته، ثم خرجت به إلى الصيد ، فإذا هو أبصر بالصَّيْد مِنِّى ، وكان لا يثبت له شىء من الوحش، فقلتُ فيه :

حياضُ إنكَ مأمولٌ مَنافعُهُ * وقد جَعَلْتُكَ موقوفًا لِفَرَّاض

---

(١) النكد : الشؤم . (٢) الفادح : المثقل الصعب .

(٣) شابك : ناشب . (٤) يفرى : يشق . حزون الأرض : ما غلظ من الأرض وهو ضد السهولة . الدكادك جمع دكدك : وهو من الرمل ما تكبس بالأرض أو النبد بها .

(٥) الخلاسى : ما كانت أمه سوداء وأبوه أبيض أو العكس .

(٦) البهيم : الأسود . (٧) أهرت : واسع .

(٨) الشثن : الغليظ ، والبراثن للسبع كالأصابع للإنسان .

(٩) بصبص الكلب : حرك ذنبه طمعا أو خوفا .

(١٠) كذا فى الأصول .

وكنت أَعْتر لِفَرَاض من صيده، وأَقْرِى الضَّيْف، فلم أزل به من أوسع العرب رَحْلًا[1]، وأكثرها ضَيْفا، إلى أن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل بى ضيفٌ كان زار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع منه القرآن، فحدّثنى عنه، ورأيت حياضا كأنه يُنْصِت لحديثه، ثم إنّى غدوت أقتنص بحياض، فجعل يحاذبنى ويأبى أن يتبعنى فأجذبه وأمسحه، إلى أن عَنَّ لى تَوْلَب — يعنى جحشا من حمير الوحش — قال: فأرسلته عليه فقصده، حتى إذا قلت قد أخذه حَادَ عنه، فساءنى ذلك، ثم أرسلته على رَأْل — يعنى فرخ نعامة — فصنع مثل ذلك، ثم أرسلته على بقرة، ثم على خِشْف[2]، كل ذلك لا يأتى بخير، فقلت:

٥١/١٦

ألا ما بحياضٍ يَحِيدُ كأنما * رَأَى الصَّيدَ ممنوعًا بزُرْق اللَّهَاذِمِ[3]

قال: فأجابنى هاتف لا أراه:

يَحِيدُ لِأمرٍ لو بدا لك عَيْنُه * لكنتَ صَفُوحًا عاذلًا غيرَ لائمِ

قال: فأخذت الكلب وانكفأت راجعا، فإذا شخص إنسانٍ عظيم الخلق، قد ركب حمارا وحشيا، فتربع على ظهره، وهو يساير شخصا مثله راكبا على قَرْهَب، وخلفهما عبد أسود يقود كلبا عظيما بساجورٍ[4]، فأشار أحد الراكبين إلى حياض وأنشد:

وَيْلَكَ يا حياضُ لِمْ تَصِيدُ * آخنسُ وحِدْ عمّا حوته البِيدُ[5]

الله أعلَى وله التوحيدُ * وعبدُه محمدُ السَّديدُ

سُحْقًا لفَرَاضٍ وما يَكِيدُ * قد ظَلَّ لا يُبدِى ولا يُعِيدُ

(١) الرحل: مسكن الرجل وما يتبعه من الأثاث، وفى الأصول: «رجلا» بالجيم، وهو تصحيف.

(٢) الخشف (مثلث الخاء): ولد الظبى أول ما يولد، أو أول مشيه.

(٣) اللهاذم (جمع لهذم): القاطع من الأسنة. والزرق: صفة الأسنة لونها.

(٤) الساجور: خشبة تعلق فى عنق الكلب. (٥) آخنس: تأخر، والبيد: الصحراء.

قال : فلبثت رُعْباً ، وذَلَّ[1] الكلبُ فما يرفع رأسا ، وأتيت أهلي مغموما كاسف البال ، فبِتُّ أتململ على فراشي ، ثم خَفَتُّ من آخر الليل فإذا نَغْمة[2] ، ففتحت عيني فرأيت الكلب الذى كان الأسود يقوده ، وإذا حياض يقول له : أحسِب صاحبي يقظان ، قال : فتناومت ، ثم قصدنى فتأملنى ورجع إليه ، فقال : قد نام ، فلا عينٌ ولا سمعٌ ، قال : أرأيت العِفرِيتين ؟ وسمعت ما قالا ، قال حياض : نعم ، قال : إنهما قد أسلما وآتبعا محمدا ، وقد سُلِّطا على شياطين الأوثان ، فما يتركان لوثن شيطانا ، وقد عذّبانى عذابا شديدا ، وأخذا علىّ موثقا ألّا أقرب وثنى ، وأنا خارج إلى جزائر الهند ، فما رأيك لنفسك ؟ قال حياض : ماأمرنا إلا واحد ، وذهبا ، فقمت أنظر فلا عين ولا أثر ، فلما أصبحتُ أخبرتُ قومى بما رأيتُ وسمعتُ ، وقلت لهم : تخيروا من ينطلق معى إلى هذا النبي من حُلَمائكم وخُطبائكم ؛ فقالوا لى : أترغب عن دين آبائك ؟ فقلت لهم : إذا كرِهتم شيئا كرِهته ، فما أنا إلا واحد منكم ، ثم آنسللت منهم فكسرت الصنم ، ثم قصدت المدينة فأتيتها ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فجلست بإزاء مِنبره فعقّب خطبته بأن قال : « بإزاء مِنبرى رجلٌ من سعد العَشِيرة ، قَدِم علينا راغبا فى الإسلام ، ولم يرنى ولم أره إلا ساعتى هذه ، ولم أكلّمه ولم يكلّمنى قطّ ، وسيخبركم خبرا عجيبا » ونزل فصلّى ، ثم قال : « آدنُ يا أخا سعد العشيرة » فدنوت فقال : « أخبرنا عن حياض وفَرّاض وما رأيتَ وسمعتَ » قال : فقمتُ على قدمىّ وقصصتُ القِصّة ، والمسلمون يسمعون ، فسرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ودعانى إلى الإسلام ، وتلا علىّ القرآن فأسلمتُ ، وقلتُ فى ذلك :

تَبِعتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى * وخَلَّفتُ فَرّاضًا بِدار هَوَانِ
شَدَدْتُ عليه شَدَّةً فتركتُهُ * كأن لم يكن والدّهرُ ذو حَدَثانِ

(١) ذل : خضع ، وفى الأصول « دل » بالدال المهملة . (٢) النغمة : الكلام الخفي .

رأيتُ له كلبًا يقــومُ بأمرِهِ * فهــدَّدَ بالتَّنكيلِ والرَّجفانِ
ولمـا رأيتُ اللهَ أظهر دينَــهُ * أجبتُ رســولَ الله حين دعانِي
وأصبحتُ للإسلام ماعِشتُ ناصرًا * وألقيتُ فيــه كَلْكَلِي وجِرانِي
فمَنْ مُبلِـغٌ سعدَ العشــيرةِ أنني * شَرَيْتُ الذى يَبقَى بمـا هو فانِي

وقد تقدم فى خبر وفد سعد العشيرة ذكر هذه الأبيات ، وأنها لذُباب ، وأنه الذى كسر الصَّنم ، إلا أنه لم يذكر البيت الذى فيه ذكر الكلب[1] ، والله تعالى أعلم .

ومنــه : ما رُوِى أن ربيعة بن أبى براءٍ ، قال أخبرنى خالى فقال : لمـا أظهر الله علينا رسوله صلى الله عليه وسلم بحُنَيْن انشعبنا فى كل مَشْعَب ، لا يَلْوِى حَمِيم على حَمِيم ، فبينـا أنا فى بعض الشِّعاب ، رأيت ثعلبا قد تَحَوَّى[2] عليه أرْقَم ، والثعلب يعدو عَدْوا شديدا ، فانتحيت[3] له بحجر فما أخطأه ، وانتهيت إليه ، فإذا الثعلب قد سبقنى بنفسه — أى هلك قبل أن أصل إليه — و إذا الأرقم قد تقطَّع وهو يضطرب ، فقمت لأنظر إليــه ، فهتف هاتفٌ ما سمعت أفظع[4] من صوته يقول : تَعْسًا لك وبؤسا ، فقــد قتلت رَئِيسا ، وورثت بئِيسا[5] ، ثم قال : يا دائِر يا دائِر ، فأجابه مجيب من العدوة[6] الأخرى بلَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ، فقــال : بادِر بادِر ، إلى بنى العُذَافِر ، وأخبرهم بما صنع الكافر ، فناديت : إنى لم أشعر ، وأنا عائذ بك فأجِرنى . قال : كلّا ، والحرمِ الأمين ، لا أجير من قاتل المسلمين ، وعَبَدَ غيرَ ربِّ العالمين . قال : فناديت : إنى أُسْلِم ، فقال : إن أسلمت سقط عنك القصاص ، وألْبَتُّكَ[7] الخلاصُ ،

٥٢
١٦

(١) راجع ص ١٨ من هذا الجزء .
(٢) تحوى : التف واستدار .
(٣) انتحيت له : عرضت له وقصدت .
(٤) فى الأصول : « أفضع » .
(٥) بئيسا : شجاعا .
(٦) العدوة (مثلثة العين) : شاطئ الوادى ، والمكان المرتفع .
(٧) ألبتك : أقامك .

و إلّا فلا مَناص . قال فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدا رسـول الله ، فقـال : نَجوتَ وهُدِيت ، لولا ذاك لرديت[1] ، فارجع من حيث جِيت . قال : فرجعت أقفو أدراجى[2] ، فإذا هو يقول : أمتط السِّمع[3] الأَزَل ، يَعْلُ بك التَّـلّ ، فهنـاك أبو عامر[4] يتبع الفَـلّ[5] . قال : فالتفت فإذا سِمْـع كالأسد النَّهد[6] ، فركبته ومَرّ يَنْسِل[7] ، حتى انتهى إلى تَلّ عظيم ، فتوقّل[8] فيه إلى أن تَسنّمه ، فأشرفت منه على خيل المسلمين ، فنزلت عنه وصَوّبت الحُدُور[9] نحوهم ، فلما دنوت منهـم خرج إلىّ فارس ، كالفالج[10] الهائج ، فقال : ألقِ سلاحك لا أُمّ لك ، فألقيت سلاحى . فقال : ما أنت ؟ قلت : مُسلمٌ ، قال : فسلام عليك ورحمة الله ، قلت : وعليك السلام والرحمة والبركة ، مَن أبو عامر ؟ قال : أنا هو ، قلت : الحمد لله ، قال : لا بأس عليك ، هؤلاء إخوانك المسلمون ، أمَا رأيتك بأعلى التّل فارسًا فأين فرسُك ؟ قال : فقصصت عليه القصّه ، فأعجبه ما سمع منى : وسِرتُ مع القوم أقفو بهم آثار هَوَازن حتى بلغوا من ذلك ما أرادوه .

والأخبار فى مثل ذلك كثيرة ، وقد أتينا منها بما نكتفى به ، فنذكر خلاف ذلك من سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رديت : أهلكت . (٢) أقفو : أتبع ، أدراجى : طرق .

(٣) السمع (بكسر السين) : سبع تلده الضبع وأبوه الذئب ؛ وهو أخبث السباع وأشدها . الأزل : الصغير العجز ، صفة لازمة له . (٤) أبو عامر صحابى يأتى ذكره .

(٥) الفل : المنهزمون . (٦) النهد : العظيم الخلق .

(٧) ينسل : من النسلان ، وهو سرعة المشى ، وفى الأصل للذئب .

(٨) توقل : تصعد فى الجبل ، وتسنمه : أرتق ذروته . (٩) الحدور : الانحدار .

(١٠) الفالج : الجمل الضخم ذو السنامين .

ذكر رسلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين بعثهم إلى الملوك وغيرهم، وما كتب به إليهم، وما أجابوا به

كانت رُسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما أورده الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي رحمه الله، أحد عشر رجلا؛ وهم: عمرو بن أمية الضَّمْرىّ، ودِحية بن خليفة الكلبىّ، وعبدالله بن حُذافة السَّهْمىّ، وحاطب بن أبي بَلْتَعة اللخمىّ، وعمرو بن العاص، وسَلِيط بن عمرو العامرىّ، وشجاع بن وهب الأسدىّ، والمهاجر بن أبي أمية المخزومىّ، والعَلَاء بن الحضرمىّ، وأبو موسى الأشعرىّ، ومعاذ بن جبل. هؤلاء الذين أثبتهم.

وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عُمَيْر الأزدى إلى ملكِ بُصْرى بكتاب، فلما نزل مُؤْتة[1] قتله شُرَحْبيل بن عمرو الغَسَّانىّ، وبسبب قتله بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيّة مُؤْتة على ما قدمنا ذكره.

ولعل الشيخ رحمه الله، إنما أثبت من الرسل من بَلّغ الرسالة. وهذا لم يُمْهَل حتى يُبلِّغها، ولم يُقتَل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسولٌ غيرُه. وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غير هؤلاء، ممن نذكرهم إن شاء الله تعالى.

فكان أول ما بَعَثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الرسلَ فى المحرم، سنة سبع من مُهاجَره؛ أرسل ستّةً من هؤلاء الرسل إلى ستّة ملوك، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحُدَيْبية فى ذى الحجة سنة خمس جَهّز الرسلَ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كُتبا، فقيل له: يارسول الله، إن الملوك لا يقرءون كتابا إلا مختوما، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ خاتما من

(١) مؤتة: موضع من أرض الشام من عمل البلقاء.

فضّة فَصُّه منه، نقشه ثلاثة أسطر : «محمد» سطر « رسول » سطر « الله » سطر. وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ؛ حكاه محمد بن سعد فى طبقاته بسنده .

٥ وقال أبو عبد الله محمد بن إسحق بن يَسَار : حدّثنى يزيد بن أبى حبيب المصرىّ أنه وجد كتابا فيه ذكر من بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البُلْدان ، وملوك العرب والعجم، وما قال لأصحابه حين بعثهم، قال : فبَعثتُ به إلى محمد بن شهاب الزُّهْرىّ ، فعرفه ، وفيه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه فقال لهم : « إن الله بعثنى رحمةً وكافةً ، فأدُّوا عنّى يرحمكم الله ، ولا تختلفوا علىّ كما ١٠ اختلف الحواريون على عيسى بن مريم» قالوا : يارسول الله ، وكيف كان اختلافهم؟ قال : « دعاهم لمثل مادعوتكم له ، فأمّا من قَرُبَ[1] به فأحبَّ وسَلَّم ، وأمّا من بعُدَ[2] به فكَره وأَبَى ، فشكا ذلك عيسى منهم إلى الله ، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وُجِّه إليهم » .

٥٣/١٦

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدّثنى من أثق به عن أبى بكر الهُذَلىّ، ١٥ قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه . وساق نحو الحديث

ذكر إرسال عمرو بن أمية الضَّمْرىّ إلى النَّجاشى ملك الحبشة وإسلامه

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشىّ، وكتب معه كتابين، يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن، فأخذ النجاشىّ كتاب رسول الله ٢٠ صلى الله عليه وسلم فوضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض، ثم أسلم

(١) قرب به : بعثه مبعثا قريبا . (٢) بعد به : بعثه مبعثا بعيدا .

وشهد شهادة الحق، وقال : لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجابته، وتصديقه وإسلامه على يدى جعفر بن أبى طالب لله رب العالمين . وكان جعفر ممن هاجر إلى الحبشة كما قدمنا ذكر ذلك . وفى الكتاب الثانى، يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب، وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش الأسدى، فتنصر هناك ومات، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه من قبله من أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة وأن يحملهم، ففعل، وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة، وأصدقها أربعمائة دينار، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية، وجعل كتابى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق من عاج، وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها .

ذكر إرسال دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وكتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى — أما بعد — فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم اليريسيين[1]، و ﴿ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

(١) اليريسون (جمع يريس) : الفلاحون والزراعون؛ نبه بهم على جميع الرعايا، وفى رواية الأريسون .

و بإسنادنا المتقدّم، إلى أبى عبد الله محمد بن إسمعيل بن إبراهيم البخارىّ، قال : حدّثنا الحكم بن نافع أبو اليمان ، قال حدّثنا شعيب، عن الزهرىّ ، قال أخبرنا عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود ، أن عبد الله بن عباس أخبره ، أن أبا سفيان بن حرب أخبره، أنّ هِرَقْلَ أرسل إليه فى ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام، فى المدّة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادّ فيها أبا سفيان وكفّارَ قريش(١)، فأتوه وهم بإيلِيا، فدعاهم فى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بتَرْجُمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبىّ ؟ قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نَسَباً، فقال : أدنوه منى، وقرّبوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لتَرْجُمانه : قل لهم إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كَذَبَنى فكذِّبوه، فواللهِ لولا الحياء من أن يأثِرُوا علىّ كذبا لكَذَبْتُ عنه(٢) . ثم كان أوّل ما سألنى عنه أن قال : كيف نَسَبُه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نَسَبٍ ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قطّ قبلَه ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه مَنْ ملكَ(٣) ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس يَتّبِعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتدّ أحد منهم سَخْطَةً(٤) لدينه بعد أن يدخلَ فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يَغْدِر(٥) ؟ قلت : لا، ونحن منه فى مدّة(٦) لا ندرى ما هو فاعلٌ فيها، قال : ولم تمكنّى كلمة

(١) المدة : هى مدة صلح الحديبية على وضع الحرب عشر سنين .

(٢) « عنه » توافق رواية البخارى، وفى أ وهامش جـ : « عليه » .

(٣) فى رواية : « من ملك » على أن « من » حرف جر و « ملك » بفتح الميم وكسر اللام . (القسطلانى) .

(٤) سخطة : كراهة . (٥) يغدر : ينقض العهد .

(٦) قال القسطلانى : « هى مدّة صلح الحديبية، أو غيبته وانقطاع أخباره عنا » .

أُدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم، قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحربُ بيننا و بينه سِجالٌ[2]، ينال منا وننال منه[3]، قال : ماذا يأمركم؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، واتركوا مايقول آباؤكم، ويأمرنا بالصّلاة، والصّدق، والعفاف، والصّلة، فقال لمترجمانه : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نَسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نَسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أنْ لا ، فقلتُ[4] : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلتُ رجلٌ يأتسى[5] بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه مَنْ مَلَكَ، فذكرت أن لا، قلت : فلو كان من آبائه مَنْ مَلَكَ ، قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا ، فقد أعرِفُ أنه لم يكن ليَذَر الكذب على الناس ، ويكذب على الله، وسألتك أأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنّ ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يَتِمّ ، وسألتك أيرتَدّ أحد منهم سَخْطَة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أنْ لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بَشاشَتُه القلوب ، وسألتك هل يَغْدر، فذكرت أنْ لا، وكذلك الرسل لا تَغْدِر، وسألتك بِم يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصّلاة والصّدق والعَفاف ، فإن كان ما يقول حقًّا، فسيَمْلك موضع قدمىّ هاتَيْن ، وقد

٥٤/١٦

(١) يريد شيئا أنتقصه به . (٢) سجال : نوب؛ أى نوبة عليه ونوبة علينا .

(٣) يقصد المقاتلة التى كانت فى غزوة بدر، وأحد، والخندق .

(٤) فقلت : أى فى نفسى . (٥) يأتسى : يقتدى .

كنت أعلم أنه خارجٌ[1]، لم أكن أظنّ أنه منكم، فلو أنى أعلم أنّى أخلُص إليه لتجشّمت[2] لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[3]. ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى بعث به دِحْيَةُ إلى عظيم بُصْرَى، فدفعه إلى هِرَقْل فقرأه، فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» وذكره كما تقدّم.

٥ قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصَّخَب، وارتفعت الأصوات[4]، وأُخرِجنا، فقلت لأصحابى حين أُخرِجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كَبْشَة[5]، إنه ليخافه مَلِك بنى الأصفر[6]، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علىّ الإسلام.

قال: وكان ابنُ النَّاطُور صاحب[7] إيلياء وهِرَقْل أُسْقُفًا[8] على نصارى الشام يحدّث ١٠ أن هِرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس[9]، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك، فقال ابن الناطور، وكان هِرقل حَزَّاء[10]: ينظر فى النّجوم، فقال لهم حين سألوه: إنى رأيتُ الليلة حين نَظَرتُ فى النجوم مَلِك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يُهِمَّنّك شأنهم،

(١) خارج: أى سيبعث فى هذا الزمان. (٢) تجشمت: تكلفت الوصول إليه.

١٥ (٣) المراد المبالغة فى الخدمة. (٤) أى من عظماء الروم.

(٥) أمر (بفتح الهمزة وكسر الميم): عظم. أمر ابن أبى كبشة: يعنى شأن النبى صلى الله عليه وسلم. وأبو كبشة: كنية أبى النبى من الرضاع، واسمه الحارث بن عبد العزى.

(٦) بنو الأصفر: الروم. (٧) صاحب: منصوب على الاختصاص، ويجوز رفعه على الصفة. راجع القسطلانى جـ ١ ص ١٠٨. (٨) فى رواية البخارى: أسقف. بالبناء للمجهول.

٢٠ (٩) خبيث النفس: رديئها؛ مما حل به من الهم.

(١٠) حزاء: كاهنا، أو أنه ينظر فى النجوم؛ قال القسطلانى: «ينظر فى النجوم خبر ثان لكان إن قلنا إنه ينظر فى الأمرين، أو هو تفسير لحزاء؛ لأن الكهانة تؤخذ تارة من ألفاظ الشياطين، وتارة من أحكام النجوم».

وآكتب إلى مَدائن مُلكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم، إذ أُتى هِرقل برجل، أرسل به مَلك غَسّان، يخبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما آستخبره هرقل قال : آذهبوا فآنظروا أمختتنٌ هو أم لا، فنظروا إليه، فحدّثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال : هم يختتنون، فقال هِرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر . ثم كتب هِرقل إلى صاحب له بِرُومِيَة[1]، وكان نظيره فى العلم، وسار هِرَقْل إلى حِمْص[2]، فلم يَرِمْ[3] حِمْصَ حتى أتاه كتاب من صاحبه، يوافق رأى هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه نَبِيٌّ، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دَسْكَرَة[4] له بحِمْص، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت، ثم آطّلعَ فقال : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرُّشْد ؟ وأن يثبت مُلْكُكم فتُبايعُوا لهذا النبيّ، فحاصُوا حِيصَةَ[5] حُمُر الوَحْش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هِرقل نَفْرَتهم، وأَيِسَ من الإيمان، قال : رُدّوهم علىّ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفًا أختبر بها شِدّتكم على دينكم فقد رأيت[6] . فسجدوا له ورَضُوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هِرقل . رواه صالح بن كَيْسان و يونس ومَعْمَر عن الزُّهْرى .

وقد قدّمنا من خبر هِرقل فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحقيق نبوءته عنده، فى فصل مَنْ بَشّر برسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقف عليه هناك.

---

(١) رومية : من المدائن بديار الفرس . (٢) حمص : إحدى مدن الشام المشهورة وهى بين دمشق وحلب . (٣) لم يرم : لم يبرح منها أو لم يصل إليها .

(٤) الدسكرة : القصر حوله البيوت . (٥) حاصوا : نفروا .

(٦) أى شدتكم، فحذف المفعول للعلم به .

ذكر إرسال عبد الله بن حُذَافَة السَّهْمِىّ إلى كِسْرَى مَلِك الفُـــرْس

بعثه رسول الله صلى الله عليــه وسلم إليه، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معــه كتابا؛ قال عبد الله : فدفعت إليــه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فَقُرِئَ عليه ثم أخذه فمزّقه، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم مَزِّقْ مُلْكه » . وكتب كِسْرَى إلى بَاذَانَ عامِلِه على اليَمَن : أن ٱبعث من عندك رجلين جَلْدين إلى هــذا الرجل الذى بالحجاز، فليأتيا بخبره . فبعث بَاذَانُ قَهْرَمَانَه[1]، ورجلا آخر، وكتب معهما كتابا، فقدما المدينــة، فدفعا كتاب باذان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهما إلى الإسلام، وفَرائصُهما تُرعَد، وقال : « ٱرجعا عنى يومكما هذا حتى تأتيانى الغَدَ فأخبركما بمــا أريد » فجاءاه الغَدَ، فقال لهما : « أبلغا صاحبكما أن ربِّى قد قتل رَبَّه كِسْرَى فى هذه الليلة لسبع[2] ساعات مَضَتْ منها — وهى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جُمادى الأولى سنة سبع من الهجرة — وأن الله تعالى سَلّط عليه ٱبنــه شِيرَوَيْه فقتله » فرجعا إلى بَاذَان بذلك ، فأسلم هو والأبْنَاء[3] الذين باليمن .

٥٥/١٦

(١) قهرمانه : هو كالخازن والوكيل لمــا تحت يده، والقائم بأمور الرجل . فارسىّ معرب .

(٢) فى المواهب : « لتسع ساعات ... » .

(٣) الأبناء : هم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن، لمــا جاء يستنجدهم على الحبشــة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديروها وتزوجوا فى العرب؛ فقيل لأولادهم الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم .

ذكر إرسال حاطِب بن أبي بَلْتَعَة إلى المُقَوْقِس صاحب الإسْكَنْدَرِيّة عظيم القِبْط ، واسمه جُرَيْج بن مِينَا

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابا فأتاه، وأوصل إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه، وقال خيرا، وجعل الكتاب فى حُقّ من عاج، وختم عليه ودفعه إلى جاريته، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، و بعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها .

ولم يزد على هذا، ولم يُسلم المُقَوْقِس ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هَدِيّته ، وأخذ الجاريتين ، وهما مارِية أم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأختها شِيرِينُ، وبَغْلة بَيْضاء، لم يكن فى العرب يومئذ غيرها، وهى دُلْدُلُ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المقوقس : « ضَنّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه »(١) . قال حاطِب : كان المقوقس مُكْرِما لى فى الضِّيافة، وقِلّة اللُّبْث ببابه ، وما أقمت عنده إلا خمسة أيام .

وقال أبو عمر بن عبد البر: إن المقوقس أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم خَصِيّا اسمه مَأْبُورُ، وذكر ذلك فى ترجمة مَارِية، ويقال : هو ابن عم مارِية، والله أعلم .

وقد ذكرنا فى (الحُجّة البالِغَة، والأجْوِبَة الدّامِغَة) ما كان بينهما من المحاورات، وذلك فى الباب الرابع عشر، من القسم الخامس، من الفنّ الثانى، فى السِّفر الثامن من هذه النسخة .

---

(١) قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك حين أخبره حاطب بقول المقوقس : « القبط لا تطاوعنى على اتباعه ، وأنا أضن بملكى أن أفارقه » . (المواهب ٣ : ٤١٩) .

ذكر إرسال شُجاع بن وَهْب[1] الأَسَدِى إلى الحارث بن أبى شِمْر

قالوا : بعث رسـول الله صلى الله عليه وسـلم شُجاع بن وَهْب الأسَدِى، إلى الحارث بن أبى شِمْر الغَسّانى، مَلك البَلْقاء من أرض الشام، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابا، قال شجاع : فأتيتـه وهو بغُوطَة دِمَشْـق، وهو مشغول بتَهْيِئَةِ الأَنْزال[2] والأَلْطافِ لقَيْصَر، وهو جاءٍ من حِمص إلى إيلِيَاء، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه : إنى رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليه، فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا. وجعل حاجبه — وكان رُومِيًّا اسمه مُرِّى[3] — يسألنى عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم، فكنت أحدّثه عن صِفته، وما يدعو إليه، فيَرِقّ حتى يغلبه البُكاء، ويقول : إنى قرأت الإنجيل فأجد صِفَةَ هذا النبىّ بعينه، فأنا أومِنُ به وأصدِّقه، وأخاف من الحارث أن يقتلنى، وكان يكرمنى ويحسن ضِيافتى، وخرج الحارث يوما بخاص، ووضع التّاج على رَأْسِـه، فأَذِنَ لى عليه، فدفعت إليه كتاب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، فقرأه ثم رمى به، وقال : من يَنْتَزِع منّى مُلكى ؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئتُه، علىّ بالناس ! فلم يزل يَفْرِضُ[4] حتى قام، وأمر بالخيول تُنْعَل، ثم قال : أخبِر صاحبك ما ترى . وكتب إلى قَيْصَر يخبره خَبَرِى وما عَزَم عليه، فكتب إليه قيصر : ألا تسير إليـه، وأَلْهِ عنـه، ووافِنِى بإيلِيَاء . فلما جاءه جواب كتابه دعانى فقال لى : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ فقلت : غدًا، فأمر لى بمائة مثقال ذهب، ووصلنى مُرِّى،

٥٦/١٦

(١) فى أسد الغابة : «ابن أبى وهب ويقال ابن وهب» .

(٢) الأنزال (جمع نزل) : مكان النزول، والألطاف : وسائل الراحة .

(٣) ضبطه فى الطبقات بضم الميم، وقال شارح المواهب : هو بكسر الميم مخففا .

(٤) يفرض : يقطع ويوجب للجند عطاءهم من المال ويأمرهم بالتأهب للحرب .

وأمر لى بنفقة وكُسْوَة، وقال : أقرأ على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منِّى السلام . فقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : « بَادَ مُلْكه » وأقرأته من مُرى السلام ، وأخبرته بما قال، فقال صلى الله عليه وسلم : « صَدَق » ومات الحارث بن أبى شِمْر عام الفتح .

ذكر إرسال سَلِيط بن عمرو العامرىّ إلى هَوْذَة[1] بن علىّ الحَنَفى باليَمَامة

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابا، فقدم عليه فأنزله وحَباه، وقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تَهاب مكانى، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك . وأجاز سَلِيطَ بن عمرو بجائزة وكساه أثوابا من نسج هَجَر ، فقدم بذلك كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبره عنه بما قال، فقرأ كتابه وقال : « لو سألنى سَيَابَة[2] من الأرض ما فعلتُ ، بَادَ[3] وبَادَ ما فى يديه » فمات عام الفتح . فهؤلاء السِّتّة الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المحرم سنة سبع[4] .

وبعث صلى الله عليه وسلم العَلاء بن الحَضْرَمى إلى المُنْذِر بن سَاوَى العَبْدِىّ مَلك البَحْرَيْن .

---

(١) هوذة : بفتح وإعجام الذال هذا هو الصحيح، وغلطوا من ضم وأهمل .

(٢) السيابة (بفتح السين وتخفيف الياء وتشدد) : أى قطعة . وفسره بعضهم بالملح أو البسر، على تقدير مضاف أى قدر ملحة أو بسرة من الأرض ؛ أو المراد نفس الملحة أو البسرة بتقدير ناشئة .

(٣) باد : هلك .

(٤) فى أسد الغابة : « سنة ست أو سبع » .

قال محمد بن سعد : بعثه عند مُنْصَرفه من الجِعْرانة[1] إليه، يدعوه إلى الإسلام، وكتب إليه كتابا . فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه وتصديقه، و« أنى قرأت كتابك على أهل هَجَر، فمنهم من أحَبّ الإسلام، وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى مَجُوسٌ ويَهُودٌ، فأحدِث إلىّ فى ذلك أمْرَك » فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك مهما تُصْلِح فلن نَعْزِلَك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجِزية، وبألا تُنكح نساؤهم ولا تُؤكل ذبائحهم[2] » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا هُريرة مع العَلاء بن الحَضْرَمى، وأوصاه به خيرا، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العلاء فرائض الإبل، والبقر والغنم، والثمار والأموال، فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقاتهم .

وبعث صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلى مَلَكَىْ عُمَان .

قال محمد بن سعد : بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة، سنة ثمان من مُهاجَره، إلى جَيْفَر وعَبْدٍ ابنى الجُلُنْدى[3]، وهما من الأَزْد، والملك منهما جَيْفَر، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتابا، قال عمرو : لما قدمتُ عُمَان عمدتُ إلى عبدٍ، وكان أحْلَم الرجلين وأسهلهما خُلُقا، فقلت : إنى رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك، فقال : أخى المقدّم علىّ بالسِّنّ والملك وأنا أوصلك إليه حتى تقرأ كتابك، فمكثت أياما ببابه، ثم دعانى فدخلت عليه

(١) الجعرانة : موضع قريب من مكة . وقد تكسر العين وتشدد الراء .

(٢) أى نساء المجوس وذبائحهم بخلاف اليهود، قال ابن سعد : «وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام فإن أبوا أخذت منهم الجزية، وبأن لا تنكح نساؤهم» . الحديث .

(٣) الجلندى، بقصر فتضم لامه، ويمد فتفتح، كما فى القاموس .

فدفعت إليه الكتاب مَخْتُوما ، ففَضّ خاتَمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنّى رأيت أخاه أرَقّ منه ، فقال : دَعْنى يومى هذا وارجع إلىّ غدا ، فلما كان من الغد رجعت إليه ، فقال : إنى فكّرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضْعَف العرب إن مَلّكْتُ رجلا ما فى يدى ، قلت : فإنى خارج غدا ، فلما أيْقَن بمَخْرَجى أصبح فأرسل إلىّ ، فدخلت عليه فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا ، وصدّقا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وخَلَيَا بيْنى وبين الصّدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا على من خالفنى ، فأخذت الصدقة من أغنيائهم ، فرددتها فى فقرائهم ، ولم أزل مقيما بينهم حتى بلغنا وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥٧/١٦

وبعث صلى الله عليه وسلم المُهاجِر بن أبى أمية المخزُومِى إلى الحارث الحِمْيَرى ، وهو الحارِث بن عبد كُلَال ملِك اليَمَن .

وبعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعرى ، ومعاذ بن جبل إلى اليمن . وكانا جميعا داعِيين إلى الإسلام ، فأسلم عامّة أهل اليمن ، ملوكهم وعامّتهم طوعا . هؤلاء الرسل الذين ذكرهم الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خَلَف الدمياطى فى مختَصَر السيرة .

وقد ذكر محمد بن سعد بن مَنِيع فى طبقاته الكبرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جَرِير بن عبدِ اللهِ البَجَلِى إلى ذِى الكُلاعِ بن ناكور بن حبيب ابن مالك بن حَسّان بن تُبَّع ، وإلى ذى عَمْرو يدعوهما إلى الإسلام ، فأسلما وأسلمت ضريبة بنت أَبْرَهَة بن الصَّبَّاح[1] . وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجرير عندهم ، فأخبره ذو عمرو بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع جَرِير إلى المدينة .

(١) ضريبة بنت أبرهة امرأة ذى الكلاع كما فى الطبقات .

ولم يذكر محمد بن سعد المُهَاجِر، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى اليمن مع معاذ بن جبل مالك بن مُرَارَة .

وذكر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرىّ، فى كتابه المترجَم بالاستيعاب ، فى ترجمة بن أبى أمية ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى الحارث كما قدّمنا .

قال ابن سعد : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جَبَلَة بن الأَيْهَم مَلك غَسّان يدعوه إلى الإسلام فأسلم ، وكتب بإسلامه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدى له هدية ، ولم يذكر اسم المرسل إليه ، ثم كان من أمر جَبَلة بن الأيهم ، وخبر ارتداده ماذكره إن شاء الله تعالى، فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقال محمد بن إسحق رحمه الله : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث أُمَراءَه وعمّاله على الصّدقات ، إلى كل ما أَوْطَأَ[1] الإسلام من البلدان .

فبعث المهاجِر بن أبى أمية بن المُغِيرَة إلى صَنْعَاء، فخرج عليه العَنْسىّ وهو بها . وبعث زياد بن لبيد، أخا بنى بَيَاضَة الأنصارى ، إلى حَضْرَمَوْت وعلى صدقاتها . وبعث عدىّ بن حاتِم على طيِّىء وصدقاتها، وعلى بنى أسد . وبعث مالك بن نُوَيْرَة اليَرْبُوعِى على صدقات بنى حَنْظَلَة ، وفرق صدقات بنى سَعْد على رجلين منهم ؛ فبعث الزِّبْرقان بن بَدْر على ناحية منها، وقَيْس بن عاصم على ناحية .

قال : وكان قد بعث العلاء بن الحضرمىّ على البحرَيْن ، وبعث علىّ بن أبى طالب إلى أهل نَجْران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم .

هذا ماوقفنا عليه من أخبار رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلنذكر من أخباره صلى الله عليه وسلم خلاف ذلك .

(١) فى الأصول : « من أوطاء الإسلام » والتصويب من ابن هشام .

ذكر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهنّ : خديجة بنت خُوَيْلد ، وسَوْدَة بنت زَمْعَة ، وعائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق ، وحَفْصَة بنت عمر بن الخطاب ، وزَيْنَب بنت خُزَيمة بن الحارث ، وأمُّ سَلَمَة هِند بنت أبي أمية ، وزينب بنت جَحْش ، وجُوَيْرِيَة بنت الحارث ، ورَيْحانَة بنت زيد ، وأم حَبِيبَة رَمْلَة بنت أبي سُفْيان بن حَرْب ، وصَفِيّة بنت حُيَيّ ٱبن أَخْطَب ، ومَيْمُونَة بنت الحارث ، هؤلاء المدخول بهنّ ، وهنّ ثنتا عشرة ٱمرأة رضوان الله عليهنّ . وسنذكر إن شاء الله تعالى ، بعد أن نذكر أخبار هؤلاء ، مَن تزوجهنّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يدخل بهنّ ، ومَن وهَبَت نفسها له ، ومَن خَيَّرها فٱختارت الدُّنيا ، ومَن فارقها صلى الله عليه وسلم ، ولنذكر أخبارهنّ على حسب ٱتصالهنّ به صلى الله عليه وسلم . ٥٨/١٦

فأوّل ٱمرأة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم :

خَدِيجة بنت خُوَيْلد

ٱبن أَسَد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ بن كِلاب القُرَشِية ، رضى الله عنها ، وكانت تدعى فى الجاهلية الطّاهِرة (١) ، وأمُّها فاطِمَة بنت زَائِدَة بن الأَصَمّ ، وٱسم الأَصَمّ جُنْدُب ٱبن هَرِم بن رَوَاحَة بن حُجْر بن مَعِيص بن عامر بن لُؤَيّ . وكانت خديجة عند أبي هالة بن زُرارَة بن نَبّاش بن عَدِيّ بن حبيب بن صُرَد بن سَلامة بن جَرْوة بن أُسَيّد بن عَمْرو بن تَمِيم التّميمى . قال أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ٱبن عاصم النّمَرى : هكذا نسبه الزُّبَيْر ، وأمّا الجُرْجانِيّ النّسّابة فقال : كانت خَدِيجة قبلُ عند أبي هالة هِنْد بن النّبّاش بن زُرارة بن وَقْدان بن حبيب بن سلامة بن عدى

(١) كانت توصف أو تنادى فى الجاهلية بالطاهرة ؛ لتركها ما كانت تفعله نساء الجاهلية . (المواهب) .

ابن جَرْوَة بن أَسَيِّد بن عمرو بن تميم ، فولدت له هِنْدا ، قال : ثم آتفقا فقالا : ثم خلف عليها بعد أبى هَالَةَ عُتَيْقُ بن عابد[(١)] بن عبد الله بن عمر بن مَخْزُوم ، ثم خلف عليها بعد عُتَيق المخزومى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة : كانت خَدِيجة تحت عُتَيق بن عابد المخزومى ، ثم خلف عليها بعده أبو هالة هِنْد بن زُرارة ، قال أبو عمر : والأول أصَحّ .

وقال أبو محمد عبد المؤمن بن خَلَف : إنها ولدت لعُتَيق جارية تدعى هِنْدَ ، ثم هلك عنها فخلف عليها أبو هالة فولدت له آبنا و بِنتا . وقال آبن إسحق : ولدت هِنْدَ بن أبى هالة ، وزَيْنَبَ بنت أبى هَالَةَ ، وولدت لعُتَيق عبدَ الله وجارية ، قال : ثم هلك فتزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قدّمنا ذكر زواجه صلى الله عليه وسلم بها ، فلا حاجة إلى إعادته . وولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جميع أولاده ، إلا إبراهيم . وقال أبو عمر : لا يختلفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتزوّج فى الجاهلية[(٢)] غير خَدِيجَة ، ولا تزوّج عليها أحدا من نسائه حتى ماتت ، وهى أوّل من آمن بالله عزّ وجلّ ، و برسوله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق .

قال آبن إسحق رحمه الله : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع من المشركين شيئا يكرهه ، من ردّ عليه وتكذيب له إلا فرّج الله عنه بخديجة ، تثبّته وتصدّقه وتخفّف عنه وتهوّن عليه مايَلْقَى من قومه ، وقد تقدّم من أخبارها فى آبتداء الوحى وآمتحانها الأمر[(٣)] ، وقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الذى يأتيه مَلَك ،

(١) كذا فى الأصول وآبن إسحق ، وفى الآستيعان لآبن عبد البر « عائذ » .

(٢) مقام نبينا عليه الصلاة والسلام يقتضى أن تتأدب معه فنقول قبل النبوة أو قبل البعثة .

(٣) آمتحانها الأمر : أى أمر الوحى ، وأن الذى يأتيه ملك لاشيطان . (راجع آبن هشام ١ : ١٥٤) طبع أوربا .

وغير ذلك ما تقف عليه هناك، مما يستدل به على أنها رضى الله عنها أول من آمن بالله تعالى و برسوله، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة المنتشرة، بفضل خديجة رضى الله عنها؛ فمن ذلك ما رُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيّدة نساء أهل الجنة بعد مَرْيَم بنت عمران فاطمة وخديجة وآسِيَة امرأة فرعون». وعن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها قالت: ما غِرْت على امرأة ما غِرْت على خديجة، وما بِي أن أكون أدركتها، ولكن ذلك لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها، وأن كان ليَذْبَح الشاة فيتتبع بذلك صدائق خديجة يُهديها لهنّ. وعنها رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء، فذكرها يوما من الأيام فأدركتنى الغَيْرة فقلت: هل كانت إلا عجوزا قد أبدلك الله خيرا منها؟ فغضب حتى اهتز مُقَدّم شَعْره من الغضب، ثم قال: «لا والله ما أبْدَلنى اللهُ خيرا منها، آمنتْ بى إذ كفر الناس، وصدّقتْنى إذ كذّبنى الناس، وواستنى فى مالها إذ حَرَمَنى الناس، ورزقنى الله منها أولادا إذ حَرَمنى أولاد النساء» قالت عائشة: فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيّئة أبدا.

وقد قدّمنا من فضلها وما بَشّرها به جبريل عليه السلام، وذكر وفاتها عند ذكرنا لزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ما يستغنى عن إيراده فى هذا الموضع، وهو فى الجزء الرابع عشر من كتابنا هذا من هذه النسخة.

ولما ماتت خَدِيجَة تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاتها بأيام:

سَوْدَة بنت زَمْعَة بن قَيْس

ٱبن عبد شَمْس بن عبد وُدّ بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لُؤَىّ ، ويقال فى حِسْل : حُسَيْل . وأمها الشَّمُوس بنت قَيْس بن زيد بن عمرو بن لَبِيد ٱبن خِداش بن عامر بن غَنْم بن عدىّ بن النَّجّار ، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، بعد موت خديجة ، وقبل العقد على عائشة على المشهور ، وكانت قبلُ عند ٱبن عمّ لها يقال له السَّكْران بن عمرو ، وهو أخو سُهَيْل بن عمرو ، من بنى عامر ٱبن لُؤَىّ . وأَسَنَّت سَوْدَة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهَمّ بطلاقها ، فقالت له : لا تطلقنى وأنت فى حِلّ من شأنى ، فإنما أريد أن أُحْشَر فى أزواجك ، وإنّى قد وَهَبْتُ يومى لعائشة ، وإنى ما أريد ما تريد النساء . فأمسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يقسم لبقية أزواجه دونها ، ونَوْبتها لعائشة ، فكانت كذلك حتى تُوفّى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من تُوفّى عنهن من أزواجه .

٥٩/١٦

قال أبو عمر : وفى سَوْدَة نزل قوله تعالى : « وإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُما صُلْحًا والصُّلْحُ خَيْرٌ »(١) . وقيل : نزلت فى عَمْرة(٢) ، ويقال : خَوْلَة بنت محمد بن مَسْلَمَة ، وفى زوجها سَعْد بن الرَّبيع(٣) . ويقال فى غيرها . والله أعلم . وكانت وفاة سَوْدَة فى آخر زمان عمر بن الخطاب ، ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سَوْدَة :

(١) آية ١٢٨ سورة النساء . (٢) هكذا فى نسخ الأصل ، وفى الإصابة أن الذى نزل فى عمرة بنت حزم قوله تعالى : « ويستفتونك فى النساء » الآية ، حتى قتل زوجها سعد بن الربيع بأحد فجاءت تطلب ميراث ٱبنتها منه رضى الله عنه . (٣) ليست بنت محمد بن مسلمة زوجة لسعد بن الربيع وإنما هى زوجة لرافع بن خديج كما فى لباب النقول للسيوطى وغيره ، قيل فيها نزلت الآية ، وفى الأصول : خويلة بنت سلمة ، والتصحيح من تفسير القرطبي (جـ ٥ : ٤٠٣) وكذا أسباب النزول للواحدى ذكر أن ٱبنة محمد بن مسلمة نزلت فيها الآية .

عَائشة بنت أبى بَكْر الصِّدّيق رضى الله عنهما

وأمها أمُّ رُومَان ٱبنــة عامر بن عُوَيْمر بن عبد شَمْس بن عَتّاب بن أُذَيْنَة بن سبيع بن دُهْمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كِنانة، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فى شوّال سنة عشر من النبوّة، قبــل الهجرة بثلاث سنين، وهى بنت سِتٍّ أو سبع، وبنى بها بالمدينة على رأس سبعة أشهر من الهجرة، وهى ٱبنة تسع سنين، وتوفى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى بنت ثمانى عشرة سنة، ولم يتزوّج صلى الله عليه وســلم بِكْرًا غيرها، وكانت عائشة رضى الله عنها تذكر لجُبَيْر ٱبن مُطْعِم بن عَدِىّ وتُسَمِّى له[1]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُرِى عائشة فى المنام فى سَرَقَة[2] من حرير مُتَوَفًّى خَدِيجَةَ، فقال: «إن يكن هذا من عند الله يُمْضِه» فتزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوّال وٱبْتَنَى بها فى شوّال، فكانت تحبّ أن تدخل النساء من أهلها وأحِبّتها فى شــوّال على أزواجهنّ، وتقول: هل كان فى نسائه عنده أَحْظَى مِنِّى، وقد نكحنى وٱبتنى بى فى شوّال.

قال أبو عمر: فكان مكثُها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تِسع سنين، رُوِى عنها أنهــا قالت: تزوّجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بنت سَبْع سنين، وبَنَى بى وأنا بنت تِسع، وقُبِض عَنِّى وأنا بنت ثمانى عشرة.

قال أبو عمر: وٱستأذنتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى الكُنْيَة فقال لها: «ٱكْتَنِى بٱبنك عبد الله بن الزبير» يعنى ٱبن أختها، وكان مَسْرُوق إذا حدّث عن عائشة يقول: حدّثتْنى الصّادقة ٱبنة الصِّدّيق، البريئة المبرّأة بكذا وكذا. ذكره الشَّعْبى عن مسروق. وقال أبو الضُّحَا عن مسروق: رأيت مَشْيَخَة أصحــاب محمد

(١) كان خطبها مطعم بن عدى لابنه جبير، فخطبها النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لم يعــلم بالخطبة، أو كان قبل النهى. (المواهب ٣: ٢٧٤). (٢) السرقة بفتحات: شقة الحرير.

صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض . وقال عطاء بن أبي رَبَاح : كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا فى العامة . وقال هشام ابن عُرْوَة عن أبيه : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة (١) . وعن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد عن أبيه ، قال : ما رأيت أحدا أرْوَى لشعر من عُروة، فقيل له : ما أرواك يا أبا عبد الله ! قال : وما روايتى فى رواية عائشة ، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرا . قال الزهرىّ : لو جمع علم عائشة إلى جميع علم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل . وروى عن عمرو بن العاص قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أىّ الناس أحب إليك؟ قال : «عائشة»، قلت : فمن الرجال؟ قال : «أبوها» . ومن حديث أبي موسى الأشعرى ، وأنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثَّريد على سائر الطعام » (٢) . ومن فضل عائشة أن الله عز وجل أنزل فى براءتها ما أنزل ، وقد ذكرنا ذلك فى حديث الإفك ، فى حوادث سنة خمس من الهجرة ، وهو فى الجزء الرابع عشر من كتابنا هذا، من هذه النسخة . ورُوى عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال : من سَبّ أبا بكر جُلِد ، ومن سَبّ عائشة قُتِل ، فقيل له : لِمَ ؟ قال : من رماها فقد خالف القرآن؛ لأن الله تعالى يقول : « يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٣) فمن عاد لمثله فقد كفر . وعن القاضى أبي بكر بن الطيّب قال : إن الله تعالى إذا ذكر فى القرآن مانسبه إليه المشركون سبّح نفسه لنفسه؛ كقوله :

٦٠/١٦

(١) فى رواية الترمذى عن عروة : « ما رأيت أحدا أعلم بالقرآن ، ولا بفريضة ، ولا بحرام ولا بحلال ، ولا بفقه ، ولا بشعر ، ولا بطب ، ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة » .

(٢) خرج هذا الحديث البخارى فى باب الثريد وغيره ، ورواه مسلم فى فضل عائشة .

(٣) آية ١٧ سورة النور .

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ »(١) فى آى كثير . وذكر تعالى ما نسبه المنافقون إلى عائشة فقال : « وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ »(٢) سبح نفسه فى تنزيهها من السُّوءِ، كما سبّح نفسه فى تنزيهه من السُّوء . وفضائلها رضى الله عنها كثيرة مشهورة .

وسنذكر إن شاء الله تعالى ، عند ذكرنا لوفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خصّها به صلى الله عليه وسلم ، فى مرضه الذى مات فيه ، من تمريضه فى بيتها ، وأنه مات صلى الله عليه وسلم فى بيتها وفى نَوْبتها ، وبيْن سَحْرِها ونَحْرِها(٣) ، وآخر ما دخل فمَه ريقُها ، وناهِيك بها فضيلة وخُصُوصية . وكانت وفاة عائشة رضى الله عنها بالمدينة ، فى سنة سبع وخمسين، وقيل : فى سنة ثمان وخمسين ، ليلة الثلاثاء، لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، وأمرت أن تُدْفن ليلا، فدفنت بعد الوتْر بالبَقِيع، وصلّى عليها أبو هريرة، ونزل فى قبرها خمسة : عبد الله، وعُرْوَة ٱبنا الزّبير، والقاسِم بن محمد، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن محمد بن أبى بكر، والله أعلم .

وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زواج عائشة :

حَفْصَة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها

وهى أخت عبد الله بن عمر لأبيه وأمه، وأمّها زَيْنب بنت مَظْعُون بن حبيب ٱبن وَهْب بن حُذافَة بن جُمَح، وكانت حَفْصَة من المهاجرات، وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خُنَيْس بن حُذافة بن قَيْس بن عَدِىّ السَّهْمىّ، وكان

(١) آية ٢٦ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٦ سورة النور .

(٣) السحر : الرئة، والنحر : أعلى الصدر ؛ أى مات صلى الله عليه وسلم وهو مستند إلى صدرها وما يحاذى سحرها منه . وفيه غير ذلك .

بَدْرِيا، فلما مات عنها وتأيَّمت، ذكرها عمر لأبى بكر وعَرَضها عليه، فلم يُرجِع إليه أبو بكر كلمة، فغضب من ذلك عمر، ثم عَرَضها على عثمان حين ماتت رُقَيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عثمان: ما أريد أن أتزوّج اليوم، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه عثمان، وأخبره بعرضه حفصة عليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يتزوّج حَفْصَة من هو خير من عثمان، ويتزوّج عثمان من هى خير من حفصة» ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمر فتزوّجها، فلقى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب فقال: لا تَجِد علىّ فى نفسك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذكر حفصة، فلم أكن لأفشِى سِرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تركها لتزوّجتها. وتزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس ثلاثين شهرا من مُهاجَره. قال أبو عمر: وطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم تطليقة ثم ارْتَجَعها؛ وذلك أن جِبْرِيل عليه السلام قال له: «راجِع حفصة فإنها صوّامة قوّامة، وأنها زوجتك فى الجنة». وروى عن عقبة بن عامر قال: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة بنت عمر، فبلغ ذلك عمر فحثى على رأسه التراب، وقال: ما يَعْبَأ الله بعمر وابنته بعد هذا، فنزل جبريل من الغد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «إنّ الله يأمرك أن تراجِع حفصة بنت عمر رحمة لعمر».

قال أبو عمر: وأَوْصَى عمر بعد موته إلى حفصة، وأوصت حفصة إلى عبد الله ابن عمر بما أوصى به إليها عمر، وبصدقة تصدّقت بها [بمال](1) وَقَفَتْه بالغابَة. واختلف فى وفاتها، فقال الدُّولابىّ: عن أحمد بن محمد بن أيوب، توفيت

(1) الزيادة من أسد الغابة عن ابن عبد البر، والذى فى ابن عبد البر «وبمال ...» بزيادة الواو. والغابة: موضع قريب من المدينة من عواليها وبها أموال لأهلها.

فى سنة سبع وعشرين ، وقال أبو مَعْشَر : توفيت فى جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، وقال غيره : توفيت فى شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة، وصلى عليها مَرْوان بن الحَكَم، وحمل سريرها، وهو إذ ذاك أمير المدينة لمعاوية بن أبى سُفيان، وهذا الذى أشار إليه الشيخ أبو محمد الدمياطى فى مختصر السيرة . قال : ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زواج حفصة بنت عمر :

زينب بنت خُزيمَة بن الحارث

٦١/١٦ آبن عبد الله بن عمرو بن عبد مَناف بن هِلال بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية آبن بكر بن هَوازِن القَيْسِيّة الهَوازِنِيّة العامِرية الهلالية، وكانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين ، وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الطفيل بن الحارث ابن المطلِب بن عبد مَناف فطلقها، فخلف عليها أخوه عُبَيْدة بن الحارث فقتل عنها يوم بدر شهيدا، فخلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان على رأس أحد وثلاثين شهرا من مُهاجَره . وقيل : كانت تحت عبد الله بن جَحْش فقتل عنها يوم أُحُد ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى الأول آعتمد الشيخ أبو محمد ، قال : ومكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت فى آخر شهر ربيع الآخر، وصلى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفنها بالبَقيع ، وقد بلغت ثلاثين سنة أو نحوها ، ولم يمت من أزواجه فى حياته غيرها، وغير خديجة، قال : وفى رَيْحانة خلاف . وقال أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى النَّسّابة : كانت زَيْنَب بنت خُزَيْمة أخت مَيْمُونة لأمها، قال أبو عمر : ولم أر ذلك لغيره، والله أعلم .

ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زينب بنت خُزَيْمة :

(١) فى الجاهلية قيد تجنبه الزهرى فى رواية الطبرانى وآبن إسحق ، وذكره آبن أبى خيثمة وقال : « أى وأولى فى الإسلام » .

(٢) ريحانة بنت شمعون إحدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى وفاتها خلاف . وسيأتى ذكرها .

أمّ سَلَمَة هِند بنت أبى أمية

حُذَيْفَة المعروف بزاد الرّاكب بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مَخْزوم بن يَقَظَة ابن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَىّ القرشية المخزومية . وكان أبوها أحد أَجْواد قريش المشهورين بالكرم. وأمها عاتِكة بنت عامر بن رَبِيعة بن مالك بن خُزَيْمة بن عَلْقَمَة ابن فَرَاس . وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أبى سَلَمَة عبد الله بن عبد الأَسَد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مَخْزُوم، وهو ٱبن بَرَّة بنت عبد المطلب عَمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولدت له عمر وزينب، فكانا ربيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو عمر : وَلَدت له عمر وسلمة ودُرّة[1] وزينب . قال ، وكانت هى وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة ، ويقال أيضا : أمّ سَلَمة أول ظَعِينة دخلت المدينة مهاجرة، وقيل : بل لَيْلَى بنت أبى حَثْمَة زوج عامر بن ربيعة .

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سلمة فى ليالٍ بقين من شوّال سنة أربع من مُهاجِره ، وقال أبو عمر : تزوجها فى سنة ٱثنتين[2] من الهجرة بعد وقعة بَدْر ، عقد عليها فى شَوّال، وٱبْتَنى بها فى شوّال ، وقال لها : « إن شئت سبّعت عندك، وسبعت لنسائى ، وإن شئت ثلّثت ودُرْت » فقالت : ثلّث . قال ٱبن هشام : زوجه إياها ٱبنها سَلَمَة بن أبى سَلَمَة، وأصْدَقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فِراشا حشوُه لِيفٌ وقدحا وصَحْفة ومِجْشة[3] . وقد ٱختلف فى وفاتها ؛ فقيل : توفيت فى سنة ستين من الهجرة، وقيل : فى شهر رمضان أو شوال سنة تسع وخمسين ،

(١) فى ٱبن هشام « رقية » مكان « درة » .

(٢) الجمهور على أن الزواج كان سنة أربع ؛ لأن أبا سلمة مات بعد غزوة أحد ، وكانت سنة ثلاث باتفاق .

(٣) المجشة : الرحى .

وقال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن : توفيت فى سنة آثنتين وستين . قال أبو عمر : وصلى عليها أبو هريرة ، وقيل : سعيد بن زيد[1] بوصية منها ، ودخل قبرها عمر وسَلَمَة آبنا أبى سَلَمَة ، وعبيدالله بن عبدالله بن أبى أُمية ، وعبد الله بن وهب بن ربيعة ، ودفنت بالبقيع رحمها الله ، وهى آخر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم موتا ، وقيل : بل مَيْمُونَة آخرهن . والله أعلم .

ثم تزوج صلى الله عليه وسلم بعدها :

زينب بِنت جَحْش بن رِئَاب

آبن يَعْمَر بن صَبْرَة بن مرّة بن كَبِير — بالباء الموحّدة — آبن غَنْم بن دُودَان آبن أَسَد بن خُزَيْمَة .

وكان آسم زينب بَرّة ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وأمها أُمَيْمَة بنت عبد المطلب بن هاشم ، عَمّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن : تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لِهلال ذى القَعْدة سنة أربع على الصّحيح[2] ، وهى يومئذ بنت خمس وثلاثين سنة ، وكانت قبل ذلك عند زيد بن حارثة مَوْلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم فارقها ، فلما حَلّت[3] زوّجه الله إياها ، وهى التى قال الله تعالى فيها : ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[4] ولما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم فى ذلك المنافقون ، وقالوا حرّم

---

(١) لا يصح القول بأن سعيد بن زيد صلى على أم المؤمنين أم سلمة لأنه مات سنة خمسين أو إحدى أو آثنتين ، بلاخلاف ، قال فى الإصابة : «ويمكن تأويله بأنها مرضت فأوصت بذلك ثم عوفيت فمات سعيد قبلها» . (٢) رجح بعضهم كما فى المواهب سنة خمس ، وفى الإصابة سنة ثلاث .

(٣) أى آنقضت عدتها فحلت للزواج . (٤) آية ٣٧ سورة الأحزاب .

٦٢/١٦

محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ﴾[2]، فدعى زيد يومئذ زيد بن حارثة، وكان قبل ذلك يدعى زيد بن محمد. قالت عائشة رضى الله عنها: لم يكن أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم يُسَامِينِي[3] فى حسن المنزلة عنده غير زَيْنَب بنت جَحْش، وكانت تفخر على نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ تقول: إن آباءكنّ أنكحوكنّ وأن الله أنكحني إياه من فوق سبع سموات. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لزيد بن حارثة: «اذكرها عليّ» قال زيد: فانطلقت فقلت لها: يا زينب، أبشرى، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل يذكرك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أُؤَامِرَ[4] ربى؛ فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن. وعن عبد الله بن شَدّاد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: «إن زينب بنت جَحْش أَوَّاهَة» فقال رجل: يارسول الله، ما الأَوَّاهُ؟ قال: «الخاشع المتضرع»، و﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾[5]. وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها؛ قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لنسائه: «أسرعكنّ لحاقًا بى أطولكنّ يدا»[6]، قالت: فكنّ يتطاولن أيهنّ أطول يدا، قالت: فكانت أطولنا يدا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيديها وتتصدق. وعن عائشة رضى الله عنها أيضا، قالت كانت زينب بنت جحش

(١) آية ٤٠ سورة الأحزاب. (٢) آية ٥ سورة الأحزاب.

(٣) تضاهيني وتفاخرني بجمالها ومكانتها عنده عليه السلام.

(٤) أؤامر: أستخير. (٥) آية ٧٥ سورة هود. (٦) طول اليد، كناية عن الجود والكرم؛ وكانت رضي الله عنها صناع اليد، تدبغ وتخرز وتتصدق.

تسامينى فى المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما رأيت آمرأة قطّ خيرا فى الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة. ومن رواية أخرى عنها أنها ذكرت زينب فقالت : ولم تكن آمرأة خيرا منها فى الدين ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد تبذّلا[1] فى نفسها فى العمل الذى تتصدق به وتقترب إلى الله عز وجل. وكانت وفاة زينب بالمدينة فى سنة عشرين من الهجرة ، فى خلافة عمر ، وقيل : فى سنة إحدى وعشرين ، ودفنت بالبقيع رضى الله عنها .

ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زينب :

جُوَيْرِية بنت الحارث

آبن أبى ضِرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جُذَيْمَة، وهو المصْطَلِق بن سعد آبن كعب بن عمرو بن ربيعة، وهو لُحَىّ بن حارثة بن عمرو مُزَيْقِيَاء[2] بن عامر ماء السّماء، الأزدية الخزاعية المصطلقية. سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم المُرَيْسِيع[3] فوقعت جُوَيْرِيَة فى سهم ثابت بن قَيْس بن شَمّاس ، وكاتَبَها على تسع أواقٍ، فأدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كتابتها وتزوجها . وقيل : جاء أبوها فآفتداها ، ثم أنكحها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى سنة ست من الهجرة. وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المُصْطَلِق، وقعت جُوَيْرِيَةُ بنت الحارث فى السّهم لثابت بن قيس بن شَمّاس — أو لآبن عم له —

(١) التبذل : ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة على جهة التواضع ، وفى أ « آبتذالا » .

(٢) مزيقيا : لقب عمرو بن عامر المذكور ، ملك من ملوك اليمن .

(٣) المريسيع (تصغير مرسوع) : ماء لبنى خزاعة من الأزد وهذه الغزوة هى المعروفة بغزوة بنى المصطلق .

فكاتبته على نفسها، وكانت آمرأة حُلْوَةً مُلَاحَةً[1]، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها، قالت عائشة: فوالله ماهو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يارسول الله، أنا جُوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبى ضِرَار سيِّد قومه وقد أصابنى من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوقعتُ فى السّهم لثابت بن قيس بن شَمّاس — أولابن عَمٍّ له — فكاتبته على نفسى، فجئتك أستعينك على كتابتى، قال: «فهل لك فى خير من ذلك»؟ قالت: وماهو يارسول الله؟ قال: «أقضى عنك كتابتك وأتزوجك»، قالت: نعم يارسول الله، قال: «قد فعلت»؛ قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج بجويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا ما بأيديهم، فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيتٍ من بنى المُصْطَلق، فما أعلم آمرأة كانت أعْظَمَ بَرَكَةً على قومها منها.

قال أبو عمر: وكانت جويرية قبلُ تحت مُسَافِع بن صَفْوَان المصطلق، قال: وكان آسمها بَرَّة، فغيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم آسمها وسماها جُوَيْرِيَة، وحفظت جويرية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروت عنه، وتوفيت بالمدينة فى شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين، وصلى عليها مَرْوَان بن الحَكَم وهو والى المدينة وقد بلغت سبعين سنة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم تزوجها وهى بنت عشرين سنة. وقيل: توفيت فى سنة خمسين. والله أعلم.

ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جويرية:

(١) ملاحة: أى شديدة الملاحة، وهو من أبنية المبالغة.

رَيْحَانَة بنت زيد بن عمر بن خُنَافَة بن شَمْعُون

قال أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى رحمه الله: هى رَيْحَانَة بنت شَمْعُون بن زيد بن خُنَافَة[1] من بنى قُرَيْظَة، وقيل من بنى النَّضير. قال: والأكثر من بنى قُرَيْظَة. قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خَلَف رحمه الله: وكانت متزوجة رجلا من بنى قريظة، يقال له الحَكَم، وكانت قد وقعت فى السبى يوم بنى قريظة، وذلك فى ليال من ذى القعدة سنة خمس من الهجرة، فكانت صَفِىّ[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام فأعتقها وتزوجها، وأمهرها اثنتى عشرة أوقية ونَشّا، وأعرس بها فى المحرّم سنة ستّ، فى بيت أم المنذِر سلمى بنت قيس من بنى النجار، وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة، فطلقها تطليقة، فأكثرت البكاء فراجعها، فكانت عنده حتى ماتت بعد رجعته من حَجّة الوَدَاع، فدفنها بالبقيع. وقيل: إنه لم يتزوجها وكان يطؤها بملك اليمين، وأنه خيَّرها بين العِتق والتزويج، أو تكون فى ملكه، فقالت: أكون فى ملكك أخف علىّ وعليك، فكانت فى ملكه حتى توفّى عنها. قال: والأول أثبت.

ثم تزوج صلى الله عليه وسلم:

أمّ حبيبة رَمْلَة بنت أبى سُفْيان

صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَىّ القرشية الأموية، وأمها صَفِيَّة بنت أبى العاص بن أمية عمة عثمان بن عفان، هاجرت أم حبيبة مع زوجها عُبيد الله[3] بن جَحْش إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية، فولدت له هناك

(١) خنافة، بالخاء، أو قنافة بالقاف. (٢) الصفى: ما يختاره رسول الله من الغنيمة.

(٣) فى نسخ الأصل: «عبدالله»، والصحيح: عبيد الله، بالتصغير كما فى الإصابة وشرح المواهب؛ لأن أخاه عبد الله بن جحش استشهد بأحد رضى الله عنه.

حبيبة فكنيت بها ، وتنصّر عبيد الله زوجها ، وآرتدّ عن الإسلام ، ومات على ذلك ، وثبتت أمّ حبيبة على دين الإسلام ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضّمرىّ إلى النجاشىّ ، كما قدّمنا ذكر ذلك فزوّجه إياها ، وكان الذى عقد عليها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية على الأصح ، وأصدقها النجاشىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، وبعث بها مع شُرَحْبِيل بن حَسَنة[1] وجهّزها إلى المدينة ، وذلك فى سنة سبع من الهجرة ، وهذا هو المعروف المشهور. وقيل : إن الذى زوّجها عثمان بن عفان ، وأن العقد كان بالمدينة بعد رجوعها من أرض الحبشة . والأوّل أثبت .

وروى الزبير بن بكّار قال : حدّثنى محمد بن حسن عن عبد الله بن عمرو بن زُهَيْر ، عن إسمعيل بن عمرو أن أمّ حبيبة قالت : ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشى جارية يقال لها أَبْرَهَة ، كانت تقوم على ثيابه ودُهْنِه ، فآستأذنت علىّ فأذنت لها ، فقالت : إن الملك يقول لك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب إلىّ أن أزوّجكِ[2] فقلت : بَشَّرك الله بخير ، وقالت : يقول لك الملك وكِّلى من يزوّجك ، فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكّلته ، وأعطيت أَبْرَهَة سِوارَىْ فِضّة كانتا علىّ ، وخَواتِم فضة كانت فى أصابعى سُرورا بما بَشَّرتْنى ، فلما كان العَشِىّ أمر النجاشىّ جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين يحضرون ، وخطب النجاشى فقال : الحمد لله الملك القدّوس ، السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبّار ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم — أمّا بعد — فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلىّ أن أزوجه أمّ حبيبة بنت

(١) حسنة : هى أمه التى ربته ، وأبوه عبد الله بن المطاع الكندى . (المواهب ٣ : ٢٨٩).
(٢) فى شرح المواهب : «أن أزوّجك منه» .

أبى سفيان ، فأجبتُ إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أصدقتها أربعمائة دينار . ثم سَكَب الدنانير بين يدى القوم، فتكلم خالد بن سعيد، فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون — أما بعد — فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوّجتُه أمّ حَبِيبَة بنت أبى سفيان، فبارك الله لرسوله . ودفع النجاشى الدّنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها؛ ثم أرادوا أن يقوموا، فقال النجاشى : اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم السلام إذا تزوّجوا أن يُؤكل طعامٌ على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرّقوا . وماتت أمّ حبيبة سنة أربع وأربعين (١) . وروى عن علىّ بن حسين قال : قدمت منزلى فى دار علىّ بن أبى طالب، فحفرنا فى ناحية منه فأخرجنا منه حجرا فإذا فيه مكتوب، هذا قبر رَمْلَة بنت صَخْر، فأعدناه مكانه، حكاه أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة أم حبيبة (٢) .

٦٤/١٦

ثم تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أم حبيبة :

صَفِيّة بنت حُيَىّ بن أَخْطَب

ابن سَعْيَة بن ثَعْلَبَة بن عُبَيْد بن كَعْب بن الحارث بن أبى حَبيب بن النَّضِير بن النّحّام بن نَحُوم (٣)، من بنى إسرائيل من سبط هرون بن عِمران عليه السلام .

كان أبوها سَيِّد بنى النَّضِير، وأمّها بَرّة (٤) بنت سَمَوْءَل، أخت رِفاعَة (٥)، وكانت صَفِيّة عند سَلَام بن مِشْكَم القُرَظِىّ الشاعر ، ففارقها فخلف عليها كِنانة بن الربيع

(١) هذا ما جزم به ابن عبد البر وابن سعد، ورجحه البلاذرى؛ وقيل سنة اثنتين وأربعين . (راجع المواهب ٣ : ٢٩٢) . (٢) هو فى ترجمة « رملة » لا ترجمة أم حبيبة .

(٣) نحوم؛ فى أسد الغابة : « ناخوم، قاله اليهود وهم أعلم بلسانهم » .

(٤) فى شرح المواهب : أمها ضرة بفتح الضاد المعجمة . على أن أسد الغابة موافق لما هنا .

(٥) رفاعة صحابى ، قال فى الإصابة : «له ذكر فى الصحيح من حديث عائشة ... » الخ .

ٱبن أبى الحُقَيْق النَّضرِىّ[(١)] الشاعر، فقتل يوم خَيْبر، ولم تلد لأحد منهما شيئا، فٱصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فأعتقها وتزوّجها وجعل عِتقها صداقها، ولم تبلغ يومئذ سبع عشرة سنة.

وحكى محمد بن إسحق فى مَغازيه، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى فى دلائل النبوة، فى غزاة خيبر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ٱفتتح القَمُوص: — حصن ٱبن أبى الحُقَيْق — أتى بصَفيّة بنت حُيَىّ بن أخْطَب، و بأخرى معها، فمر بهما بِلال على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصَكّت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أغربوا[(٢)] عنى هذه الشيطانة» وأمر بصفية فحِيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ٱصطفاها لنفسه، وكانت صفية قد رأت فى المنام، وهى عروس بِكِنانة بن الربيع، أن قمرا وقع فى حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها[(٣)]، فقال: ما هذا إلا أنكِ تَمَنّين ملك الحجاز محمدا: فلطم وجهها لَطْمَة خَضَر[(٤)] عينها منها، فأُتِى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منه، فسألها ما هو فأخبرته هذا الخبر.

وروى عن أنس بن مالك من رواية صُهَيْب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جمع سَبْىَ خَيْبَر جاءه دِحْيَة فقال: أعطنى جارية من السَّبْى، قال: «ٱذهب فخذ جارية» فأخذ صَفيّة بنت حُيَىّ، فقيل: يا رسول الله، إنها سيّدة قريظَة والنّضير،

(١) هذه النسبة إلى النضير، حذفوا الياء وقلبوا كسر الضاد فتحا.

(٢) أغربوا: أبعدوا وفى نسخة: «أعزبوا»، والمعنى واحد.

(٣) فى أسد الغابة: «فذكرت ذلك لأبيها».

(٤) كذا فى نسخ الأصل، والمعنى: ترك بها أثرا أسود، والعرب تقول للأسود أخضر، وفى شرح المواهب: «لطمها على عينها فاخضرت».

ما تصلح إلا لك، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: «خذ جارية من السَّبْي غيرها».
وقال ابن شهاب: كانت مما أفاء الله عليه، حَجَبها وأولَمَ عليها بتَمْر وسَوِيق، وقسم لها، وكانت إحدى أمهات المؤمنين، قال أبو عمر: روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على صفية وهى تبكى، فقال لها: «ما يبكيك»؟ قالت: بلغنى أن عائشة وحَفْصَة تنالان منى، وتقولان نحن خير من صفية، نحن بنات عمّ رسول الله وأزواجه، قال: «ألا قلت لهنّ كيف تكنّ خيرا منّى وأبى هرون، وعمّى موسى، وزوجى محمد صلى الله عليه وسلم». وكانت صفية حليمة عاقلة فاضلة؛ روى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقالت: إن صفية تحب السَّبْت وتصل اليهود، فبعث إليها عمر يسألها، فقالت: أما السَّبْت فإنى لم أُحِبَّه مُنْذ أبدلنى الله به يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحما فأنا أصِلُها، ثم قالت للجارية: ما حملكِ على ما صنعتِ؟ قالت: الشيطان، قالت: فاذهبى فأنت حرة. وتُوفِّيت صفية فى شهر رمضان سنة خمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين. ودفنت بالبقيع، وورثت مائة ألف درهم بقيمة أرض وعَرَض، وأوْصَت لابن أختها بثُلثها، وكان يهوديا.

ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها:

مَيْمُونَة بنت الحارِث

٦٥/١٦

ابنُ حَزْن بن بُجَيْر بن هُزْم[1] بن رُوَيْبَة بن عبد الله بن هِلال بن عامِر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هَوازِن بن منصور بن عِكْرِمة بن خَصَفَة بن قَيْس عَيْلان بن مُضَر.

وأمها هِنْد بنت عَوْف بن زُهَيْر بن الحارث بن حَمَاطَة بن جِمْيَر، وقيل: من كِنانة، وأن زهير بن الحارث بن كِنانة.

(١) هزم — فى القاموس — كزفر، وكذلك فى شرح المواهب وابن إسحق، وفى الأصول: «الحرم».

وأخوات مَيْمُونة لأبيها وأمها : أمُّ الفَضْل لُبابة الكُبْرى بنت الحارث، زوج العباس بن عبد المطلب . ولُبَابَة الصُّغرى زوج الوليد بن المغيرة ، أم خالد بن الوليد . وعَصْماءُ بنت الحارث، كانت تحت أُبَيّ بن خَلَف الجُمحيّ . وعَزّة بنت الحارث ، كانت عند زياد بن عبد الله بن مالك الهلالى .

٥ وأخواتها لأمها : أسْمَاء بنت عُمَيْس ؛ كانت تحت جعفر بن أبى طالب ، فولدت له عبد الله ، وعَوْنا ومحمدا، ثم خَلَف عليها أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، فولدت له محمدا، ثم خلف عليها على بن أبى طالب، فولدت له يحيى، وقيل : إن أسْمَاء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له أمَة الله بنت حمزة، ثم خَلَف عليها بعده شدّاد بن أُسَامة بن الهادِ اللّيْثيّ، فولدت له عبد الله، وعبد الرحمن.

١٠ وسَلَامة بنت عُمَيْس أخت أسماء . وسَلْمَى بنت عُمَيْس كانت تحت عبد الله بن كعب بن مُنَبِّه الخَثْعَمِى . وَزَيْنب بنت خُزَيْمة أخت مَيْمُونة لأمِّها .

قال أبوعمر بسنده إلى ٱبن عباس رضى الله عنهما : كان ٱسم مَيْمُونة بَرّة، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة، وقال : لما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمرا فى سنة سبع ؛ وهى عمرة القَضاء ، خطب جعفر بن أبى طالب

١٥ عليه ميمونة بنت الحارث الهلاليّة، وكانت أختها لأمها أسماء بنت عُمَيس عند جعفر، وسَلْمَى بنت عُمَيس عند حمزة، وأم الفضل عند العباس ، فأجابت جعفر ٱبن أبى طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، فأنكحها النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو مُحْرِمٌ ، فلما رجع بَنَى بها بسَرِفٍ (١) حلالا، وكانت قبله عند أبى رُهْم بن عبد العُزّى بن أبى قَيْس بن عبد وُدّ بن

٢٠ (١) سرف ككتف : موضع قرب التنعيم من ضواحى مكة .

نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤىّ، ويقال: بل كانت عند سَبْرَة بن أبى رُهْم. حكاه أبو عبيدة، وقال عبد الله بن محمد بن عَقيل: كانت ميمونة قبل النبى صلى الله عليه وسلم عند حُوَيْطب بن عبد العُزّى، وقيل: كانت فى الجاهلية عند مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى ففارقها، وخَلَف عليها أبو رُهْم أخو حُوَيْطب فتوفّى عنها، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن شهاب: وهى التى وهَبَت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم، وكذلك قال قتادة، قال: وفيها نزلت ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾[1] الآية، وقد قيل: إن الواهبة خَوْلَة وقيل: أم شريك. قال قتادة: وكانت ميمونة قبله عند فَرْوَة بن عبد العُزّى بن أسد بن غَنْم بن دُودَان، قال أبو عمر: هكذا قال قتادة وهو خطأ، والصواب ما تقدم. والله أعلم. قال الشيخ أبو محمد الدمياطى: وماتت ميمونة بسَرِف فى سنة إحدى وخمسين على الأصح؛ وقد بلغت ثمانين سنة.

فهؤلاء نساؤه المدخول بهنّ، ومات صلى الله عليه وسلم عن تسع منهنّ؛ وهُنّ: عائشة بنت أبى بكر الصِّدّيق، وحَفْصَة بنت عُمَر، وسَوْدَة بنت زَمْعَة، وأم سَلَمَة بنت أبى أمية، وزَيْنَب بنت جَحْش، وجُوَيْرِية بنت الحارث وأم حَبِيبَة بنت أبى سُفْيان؛ وصَفِيَّة بنت حُيَيّ بن أَخْطَب، ومَيْمُونَة بنت الحارث رضوان الله عليهم أجمعين.

ذكر من تزوجهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء

ولم يدخل بهنّ، ومن دخل بهنّ وطلّقهنّ، ومن وَهَبَتْ نفسها له صلى الله عليه وسلم:

فاطمة بنت الضَّحّاك

ابن سفيان بن عَوْف بن كَعْب بن أبى بكر، وهو عُبَيْد بن كِلاب بن رَبِيعة ابن عامر الكلابية.

(١) آية ٥٠ سورة الأحزاب.

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة، سنة ثمان من الهجرة، فلما انصرفه من الجِعْرَانَة، فلما دنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد عُذت بعظيم الحِقى بأهلك»(١) فكانت إذا استأذنت على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: أنا الشَّقِيّة إنما خُدِعتُ. ودَلِهت(٢) وذهب عقلها، وماتت سنة ستين. وروى عن ابن إسحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها بعد وفاة ابنته زَيْنَب، وخيّرها حين أنزلت آية التخيير(٣) فاختارت الدنيا ففارقها، فكانت بعد تَلْقُط البعر(٤)، وتقول: أنا الشَّقية اخترت الدنيا. قال أبو عمر بن عبد البر: وهذا عندى غير صحيح؛ لأن ابن شِهاب يروى عن أبى سَلَمَة وعُرْوة عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خَيّر أزواجه بدأ بها فاختارت الله ورسوله قالت وتتابع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك، قال قتادة وعكرمة: كان عنده حين خيّرهن تِسْعُ نسوة وهنّ اللواتى تُوفّى عنهن، قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن: وقيل إنما طلقها لبياض(٥) كان بها. وقيل: إنما فارقها لأنه كان إذا خرج طلعت إلى المسجد. وقيل: إن الضحّاك عَرَض ابنته فاطمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إنها لم تُصدَع(٦) قَطُّ، فقال: «لاحاجة لى بها». وروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: كان فى نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم سَنَاء(٧) بنت سُفيان بن عوف بن كعب ابن أبى بكر بن كلاب. ومنهن:

٦٦/١٦

(١) الحِقى (بكسر الهمزة وفتح الحاء، وقيل بالعكس): كناية عن الطلاق بالنية، والمعنى طلقتك.

(٢) دله كفرح: ذهب فؤاده من هم أوعشق؛ وقوله: «ذهب عقلها» تفسير «لدلهت».

(٣) آية التخيير ٢٨، ٢٩ سورة الأحزاب. (٤) قال فى المواهب: «ولعل ذلك لتبيعه من ضيق عيشها». (٥) فى رواية، وضح؛ والمراد البرص. (٦) تصدع: يصيبها صداع وهو وجع الرأس، وفى رواية المعارف لابن قتيبة: إنها لم تمرض قط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما لهذه عند الله من خير». (٧) ذكر ابن سعد الاختلاف فى اسم الكلابية فى (ج ٨: ١٠٠).

عَمْرَةُ بنت يَزِيد بن الجَوْن الكلَابية

وقيل : عَمْرَة بنت يزيد بن عُبَيْد بن رُوَاس بن كِلاب الكلَابية، وهو أصَحّ . وفى رواية قال أبو عمر : تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغه أن بها بَرَصًا فطلّقها، ولم يدخل بها . وقيل : إنها التى تعوذت منه حين أدخلت عليه . وقيل غيرها . ومنهن :

العَالِيَة بنت ظَبْيَان بن الجَوْن

ابن عَوْف بن كعب بن أبى بكر بن عُبَيْد بن كِلاب الكلابية . قال أبو عمر : تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت عنده ماشاء الله ثم طلّقها، قال : وقلّ من ذكرها . هؤلاء اللاتى ذُكرن من بنى كِلاب بن ربيعة بن عامر. قال أبو محمد: ومن الناس من جعل التى تزوجها من بنى عامر واحدة ، اختلف فى اسمها ، وأنه لم يتزوج من بنى عامر غيرها، قال : ومنهم من جعلهن جَمْعا، وذكر لكل واحدة منهن قِصّة ، وهؤلاء اللاتى ذكرناهن ، هن المشهورات من بنى عامر .

وممن ذُكِرن فى أزواجه صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت شُرَيح . ذكرها أبو عبيدة فى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهن :

أسْمَاء بنت النُّعْمان بن أبى الجَوْن

ابن الأسود بن الحارث بن شَراحِيل بن الجَوْن بن آكل المُرَار الكِنْدى، تزوج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع من الهجرة ، زوجه إياها أبوها حين قدم (١) ، على اثنتى عشرة أوقية ونَشّ ، وبعث معه أبا أُسَيد؛ فحملها من

(١) أى قدم على رسول الله مسلما كما فى ابن سعد .

نَجْـد حتى نزل بها فى أُطُم[1] بنى ساعدة ، فقالت عائشة : قد وضع يده فى الغرائب[2] يوشِك أن يصرِفن وجهه عنا ، وكانت من أجمل النساء ، فقالت حفصة لعائشة ، أو عائشة لحفصة : آخضِبيها أنت وأنا أمشطها ، ففعلتا ، ثم قالت لها إحداهما : إنه يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول : أعوذ بالله منك ؛ فلما دخلت عليه وأغلق الباب ، وأرخى الستر ، مدّ يده إليها ، فقالت : أعوذ بالله منك ، فقال : « لقد عُذتِ بمَعاذ آلحق بأهلك » وأمر أبا أُسَـيد أن يردّها إلى أهلها ؛ وقال : «مَتِّعْها برازِقِيتين[3]» يعنى كِرْبَاسَيْن ، فكانت تقول : آدعونى الشَّقِية ، وإنما خُدِعت ؛ لمـا رؤى من جمالها وهَيْئتها ، وذكر لرسول الله صلى الله عليه وسـلم مَنْ حملَها على ما قالت ، فقال : « إنهنّ صواحِب يوسف وكيدهنّ عظيم » قال : فلما طلع بها أبو أُسَـيد على أهلها تَصايحوا ؛ وقالوا : إنكِ لغير مباركة ، ما دَهاك ؟ فقالت : خُدِعت ، وقيل لى كَيْتَ وكَيْتَ ، فقالوا : لقد جعلتِنا فى العرب شُهْرَة ، فقالت : يا أبا أُسَـيد قد كان ما كان فـما الذى أصنع ؟ قال : أقِيمى فى بيتـك وآحتجِبى إلا من ذى رحِم ، ولا يطمع فيك طامع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنك من أمهات المؤمنين ؛ فأقامت لا يطمع فيها طامع ، ولا تُرى إلا لذى مَحْرم ، حتى توفّيت فى خِلافة عثمان بن عفّان عند أهلها بنَجْد .

وقال أبو عمر : أجمعوا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجها ، وآختلفوا فى قِصّة فِراقه لها ، فقال بعضهم : لمـا دخلت عليه دعاها فقالت : تعالَ أنت ، وأبت أن تجىء ، هذا قول قتادة وأبى عبيدة . وزعم بعضهم أنها قالت : أعوذ بالله

٦٧
١٦

(١) الأطم : بناء مرتفع كالحصن . (٢) الغرائب (جمع غريبة) : وهى البعيدة عنهم ؛ قال فى الطبقات : «فلما جعل رسول الله يتزوج فى الغرائب قالت عائشة قد وضع يده فى الغرائب ... الخ» .

(٣) رازقيتين : الرازقية ثوب كتان أبيض ، كرباسين : يبان للرازقيتين فارسى معرب . ومتعة المرأة ما وصلت به بعد الطلاق من ثياب أو مال أو طعام .

منك، فقال : « لقد عُذتِ بمَعاذ، وقد أعاذكِ الله منّى » فطلقها، قال قتادة : وهذا باطل إنما قال هذا لآمرأة جميلة تزوّجها من بنى سُلَيم . وقال أبو عُبَيدة : كِلتاهما عاذتا بالله عز وجل منه صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم . وروى البخارىّ فى صحيحه حديث أبى أَسَيد السّاعِدىّ قال : تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أُمَيْمَةَ بنت شَرَاحِيل

فلما دخلت عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أُسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين، وفى لفظ آخر، قال أبو أُسَيد : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجَوْنية، فلما دخل عليها قال : «هبي لى نفسك» فقالت : وكيف تهب الملكة نفسها للسّوقة ؟ فأهوى بيده إليها ليسكتها فقالت : أعوذ بالله منك، قال : « قد عُذتِ بمَعاذ » ثم خرج عليه السلام فقال : « يا أبا أُسَيد آكسها رازِقيتين وألحقها بأهلها» . وروى عن آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : خَلَف عليها المُهاجِر بن أبى أُمَيّة بن المُغِيرَة ؛ فأراد عمر أن يعاقبهما ، فقالت : والله ماضُرِب علىّ الحِجاب ولا سميت بأمّ المؤمنين ، فكف عنهما ، وقيل : تزوّجها عِكرِمة آبن أبى جهل فى الرِّدة ، وقيل : خَلَف عليها بعد المُهاجر قَيْس بن مَكْشُوح المرادِى ، وقال آبن أَبْزَى : الجَوْنيّة التى آستعاذت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تستعِذ منه آمرأة غيرها .

قال أبو عمر رحمه الله : الآختلاف فى الكِنْدية كبير جدا ، منهم من يقول : هى أَسْماء بنت النّعمان، ومنهم من يقول : أُمَيْمة بنت النّعمان ، ومنهم من يقول : أُمَامة بنت النّعمان ، قال : وآختلافهم فى سبب فراقها على ما رأيت ، والآضطراب فيها وفى صواحباتها اللواتى لم يجتمع عليهنّ من أزواجه صلى الله عليه وسلم عظيم . ومنهنّ :

قُتَيْلة بنت قَيْس

أخت الأشْعَث بن قَيْس بن مَعْدِيكَرِب بن معاوية الكِنْدية . رُوِى عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما استعاذت أَسْماء بنت النعمان من النبي صلى الله عليه وسلم خرج والغضب يُعْرَف فى وجهه، فقال له الأشعث بن قيس: لا يسؤك الله يارسول الله، أَلَا أزوّجك من ليس دونها فى الجمال والحسب؟ قال: «مَن» ؟ قال : أختى قُتَيْلَة، قال: «قد تزوجتها» قال: فانصرف الأشْعَث إلى حَضْرَمَوْت، ثم حملها حتى إذا فَصَل من اليَمَن ، بلغه وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فردّها إلى بلاده وارتدّ وارتدّت معه فيمن ارتد ؛ فلذلك تزوجت؛ لفساد النكاح بالارتداد . قال الشيخ أبو محمد : وكان تزوجها قَيْس بن مَكْشُوح المُرادِىّ، وقيل : تزوجها عِكرمة ابن أبى جهل، فوَجَد أبو بكر من ذلك وَجْدا شديدا، وقال: لقد هَمَمْت أن أحرق عليهما بيتهما . فقال له عمر : يا خليفة رسول الله ، إنها والله ما هى من أزواجه ، ما خَيّرها ولا حَجَبها، ولقد بَرَّأَها الله منه بالارتداد الذى ارتدت مع قومها . وكان تزوّجه إياها سنة عشر، وقيل : قبل موته بشهرين، وقيل : تزوّجها فى مرضه . وقال قائلون : إنه صلى الله عليه وسلم أوصى أن تُخيّر ، فإن شاءت ضُرِب عليها الحِجابُ وتحرم على المؤمنين ، وإن شاءت طلقها فلتنكح من شاءت ، فاختارت النكاح، فتزوجها عِكرمة بن أبى جهل . وكان عُرْوَة بن الزُّبَيْر ينكر ذلك، ويقول: لم يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم قُتَيْلة بنت قَيْس، ولا تزوج كِنْدية إلا أخت بنى الجَوْن ؛ مَلَكَها ، وأُتى بها فلما نظر إليها طلّقها ، ولم يَبْنِ بها صلى الله عليه وسلم . ومنهنّ :

عَمْرَة بنت معاوية الكِنْدية

٦٨/١٦ تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الشعبيّ : تزوّج آمرأة من كِندة، فجيء بها بعد وفاته صلى الله عليه وسلم . ذكر ذلك أبو الفرج بن الجَوْزِيّ في التلقيح . ومنهن :

أَسْمَاءُ بنت الصَّلْت

وقيل : سَنَاءُ بنت الصَّلْتِ، قال أبو عمر : وهو الصواب؛ قال : وقال عليّ آبن عبد العزيز بن علي بن الحسن الجرجاني النّسابة : هي وَسْنَاءُ بنت الصَّلْت آبن حبيب بن حارثة بن هِلال بن حَرام بن سِمَاك بن عَوْف بن آمرِئِ القيس آبن بُهْثَة بن سُلَيْم السُّلَمية؛ تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فماتت قبل أن تصل إليه . وقال غيره : فلما بُشِّرت بذلك ضَحِكت، وماتت من الفَرَح . وقال آبن إسحق : سَنَاءُ بنت أَسْماء بن الصَّلْت السُّلَمِيّ، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلقها . وقال أبو نصر آبن ماكولا : سَنَاء بنت أَسْماء ماتت قبل أن يدخل بها . وقيل : لما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت أسماء : لو كان نبيا ما مات حبيبه، فخلّى سبيلها . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي : جاء رجل من بني سُلَيم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، إن لي آبنة من جمالها وعقلها ما إني لأحسد الناس عليها غيرك، فهمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يتزوّجها، ثم قال : وأخرى يا رسول الله، لا والله ما أصابها عندي مَرَضٌ قطّ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لا حاجة لنا في آبنتك، تجيئنا نحمل خطاياها ! لا خير في مال لا يُرْزَأ[1] منه، ولا جسم لا يُنال منه » . وقال أبو عمر آبن عبدالبر : وفي سبب فراقها آختلاف، ولا يثبت فيها شيء من جهة الإسناد . ومنهنّ :

(١) يرزأ : ينقص منه بالمصيبة . وقوله : « جسم لا ينال منه » أي بالمرض .

مُلَيْكة بنت كَعْب الليثيّ

روى محمد بن عمر الواقدى ، عن أبى مَعْشر، قال : تزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم مُلَيْكة بنت كَعْب ، وكانت تذكر بجمال بارع ، فدخلت عليها عائشة فقالت : أما تستحيين أن تنكحى قاتل أبيك؟ فاستعاذت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلقها ، فجاء قومها إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، إنها صغيرة ولا وَلِيّ[1] لها ، وأنها خُدِعت فارتجعها ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنوه أن يزوّجوها قريبا لها من بنى عُذْرة ، فأذن لهم فتزوّجها العُذْرىّ ، وكان أبوها قُتل يوم فتح مكة ، قَتله خالدُ بن الوليد بالخَنْدَمة[2] . قال محمد بن عمر : مما يضعف هذا الحديث ، ذكر عائشة أنها قالت : ألا تستحيين ، وعائشة لم تكن مع النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، وعن عطاء بن يزيد الجُنْدُعى قال : تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم مُلَيْكة بنت كعب الليثى فى شهر رمضان ، سنة ثمان ، ودخل بها فماتت عنده ، قال محمد بن عمر : وأصحابنا ينكرون ذلك ، ويقولون لم يتزوّج كنانية قطّ ، وعن الزُّهْرى مثل ذلك . ومنهنّ :

آبنة جُنْدب بن ضَمْرَة الجُنْدُعى

قال أبو محمد الدمياطى رحمه الله : روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج آبنة جُنْدب بن ضَمْرة الجُنْدُعىّ ، وأنكر ذلك الواقِدى ، وقال : لم يتزوّج كِنانية قط . ومنهنّ :

---

(١) فى الطبقات : لا رأى لها . (٢) الخندمة : جبل بمكة كانت به وقعة يوم فتح مكة ، وله يوم يعرف به ، هزم فيه خالد المشركين .

الغِفَـارِية

قال أبو محمد الدمياطى : قال بعضهم تزوج النبى صلى الله عليه وسلم آمرأة من غفَار، فأمرها فنزعت ثيابها، فرأى بها بياضا، فقال : «آلحقى بأهلك» و يقال : إنمـا رأى البياض بالكِلابية . ومنهن : ٦٩/١٦

خَوْلَة بنت الهُذَيْل بن هُبَيْرة

آبن قُبَيْصَة بن الحارث بن حَبيب بن حُرْفة بن ثَعْلَبَة بن بَكْر بن حَبيب بن عمرو آبن غَنْم بن ثَعْلَبَة .

وأمها [خرنِق][1] بنت خليفـة بن فَرْوَة بن فَضَـالة بن زيد بن آمرِئ القيس الكلبىّ، أخت دِحْيَة بن خليفة . تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهلكت فى الطريق قبل وصولها إليه . حكاه أبو عمر بن عبد البر عن الجُرْجانىّ النسّابة . ومنهنّ :

شَرَافُ[2] بنت خلِيفة بن فَرْوَة الكلبية، أخت دِحْيَة بن خلِيفة الكلبىّ

قال أبو محمد الدمياطى : قال آبن الكلبى حدّثنـا الشَّرْقىّ بن القَطَامِى[3] قال : لمـا هلكت خَوْلَة بنت الهُـذَيْل، تزوج رسـولُ الله صلى الله عليه وسـلم شَرَاف بنت خليفة أخت دِحْيَـة، ثم لم يدخل بها . وقال أبو عمر بن عبد البر : فهلكت قبل دخوله بها . وروى عن عبد الرحمن بن سابِط ، قال : خطب رسول الله صلى

(١) الزيادة من المواهب (٣ : ٣١٢) .

(٢) فى شرح المواهب عن الاستيعاب : « شراف بفتح وتخفيف الراء وضم الفاء ، وعن كتاب العيون بكسرها » .

(٣) فى نسخ الأصل وطبقات آبن سعد : « الشرق بن القطامى » وفى شرح المواهب : « سرى — بالسين — آبن قطامى بفتح القاف والطاء وميم وتحتية خفيفة » .

الله عليه وسلم آمرأة من كلب ، فبعث عائشة تنظر إليها ، فذهبت ثم رجعت ، فقال لها : « ما رأيت » ؟ فقالت ما رأيت طائلا . فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتِ خالًا بخدها آقشعرت كل شعرة منك » فقالت : يا رسول الله ، ما دونك سِرٌّ . ومنهنّ :

خَوْلَة بنت حَكِيم

آبن أُمَيّة بن حارِثة بن الأَوْقَص بن مُرّة بن هِلال بن فالج بن ثَعْلَبَة بن ذَكْوان آبن آمرِئ القيس بن سُلَيْم[1] . ويقال فيها : خُوَيْلَة بنت حكيم ، وأمها صَفِيّة[2] بنت العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مَناف بن قُصَيّ . قال آبن الكلبيّ : كانت خولة بنت حكيم من اللائى وَهَبْن أنفسهنّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأرْجَأها وكانت تخدم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكانت عند عثمان بن مَظْعُون فمات عنها . وعن عُرْوَة قال : خَوْلَة بنت حَكيم ممن وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم . وقال أبو عمر بن عبد البر : خولة تُكنى أمّ شريك ، وهى التى وهبت نفسها للنبيّ ، فى قول بعضهم ، وكانت آمرأة فاضِلة صالِحة ، روى عنها سعد بن أبى وقّاص ، وسعِيد بن المسيّب ، وهى التى قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فتح الله عليك الطائِف فأعطنى حُليّ بَادِيَة بنت غَيْلان ، أو حُليّ الفَارِعَة بنت عُقَيْل كما تقدّم . ومنهنّ :

لَيْلَى بنت الخَطِيم بن عَدِيّ

آبن عمرو بن سَوَاد بن ظَفَر بن الحارث بن الخَزْرَج بن عمرو ، وهو النَّبِيت بن مالك بن الأَوْس ، وهى أخت قيس بن الخطِيم ، وآسم الخطِيم ثابِت ، وآسم ظَفَر كعب .

(١) فى أسد الغابة والإصابة : فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم .
(٢) فى طبقات آبن سعد : « ضعيفة » .

قال محمد بن سعد : عن عاصم بن عمر بن قتادة[(١)] قال : كانت ليلى بنت الخطيم وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقبلها ، وكانت تركب بعولتها[(٢)] ركوبا شديدا ، وكانت سيئة الخلق ، فقالت : لا والله ، لأجعلنّ محمدا لا يتزوّج فى هذا الحىّ من الأنصار ، والله لآتينّه ، ولأهبنّ نفسى له ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم وهو قائم مع رجل من أصحابه ، فما راعه إلا بها واضعة يديها عليه ، فقال : « من هذا ؟ أكله الأسد » فقالت : أنا ليلى بنت سيّد قومها ، قد وهبت نفسى لك ، قال : «قد قبلتك ، ارجعى حتى يأتيك أمرى» فأتت قومها فقالوا : أنت امرأة ليس لك صبر على الضرائر ، وقد أحل الله لرسوله أن ينكح ما شاء ، فرجعت فقالت : إنّ الله أحل لك النساء ، وأنا امرأة طويلة اللسان لا صبر لى على الضرائر ، واستقالته فقال : « قد أقلتك » .

٧٠/١٦ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أقبلت ليلى بنت الخطيم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو مولٍّ ظهره إلى الشمس ، فضربت على منكبيه ، فقال : «من هذا ؟ أكله الأسد» وكان كثيرا ما يقولها ، فقالت : أنا بنت مطعم الطير ومبارى الريح ، أنا ليلى بنت الخطيم ، جئتك لأعرض عليك نفسى ، تزوّجنى ، قال : «قد فعلت» فرجعت إلى قومها ، فقالت : قد تزوّجنى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : بئس ما صنعت ، أنت امرأة غيرى ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم صاحب نساء ، تغارين عليه فيدعو الله عليك ، فاستقيليه نفسك ، فرجعت فقالت : يا رسول الله ، أقلنى ، قال : « قد أقلتك » قال : فتزوّجها مسعود بن أوس بن سواد بن ظفر ، فولدت له ، فبينا هى فى حائط من حيطان المدينة تغتسل ، إذ وثب عليها ذئب فأكل بعضها ، وأدركت فماتت . ومنهنّ :

(١) كذا فى الأصل ، والسند فى ابن سعد : «أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنى محمد بن صالح بن دينار ، عن عاصم بن عمر بن قتادة قال ... » . (٢) تركب بعولتها : المراد أنها شديدة التسلط على أزواجها .

لَيْـلى بنت حَكِيم الأنصارِية

الأَوْسِية، التى وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم، قال أبو عمر بن عبدالبر: ذكرها أحمد بن صالح المصرى فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولم يذكرها[1] غيره فيما علمت. والله تعالى أعلم. ومنهنّ:

أمّ شريك واسمها غُزَيَّة

بنت دُودَان بن عوف بن عمرو بن عامر بن رَوَاحة بن مُنْقِذ بن عُمَيْر بن مَعِيص ابن عامر بن لُؤَىّ. وقال أبو عمر: غُزَيْلة[2] الأنصارية من بنى النجّار.

قال الشيخ أبو محمد عبدالمؤمن رحمه الله: اختلف فيها، فكان محمد بن عمر يقول: هى من بنى مَعِيص بن عامر بن لُؤَىّ، وكان غيره يقول: هى دَوْسِيّة من الأزد، وقيل: هى أنصارِية. وروى ابن سعد، عن محمد بن عمر، عن موسى بن محمد ابن إبراهيم التيمى، عن أبيه قال: كانت أمّ شريك امرأة من بنى عامر بن لؤىّ، مَعِيصية وهبت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها، فلم تتزوج حتى ماتت. وروى عن وَكِيع عن زَكريّا عن عامر فى قوله عز وجل: «تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ»[3]؛ قال: كل نساء وهبن أنفسهن للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فدخل ببعضهنّ وأرجأ بعضا فلم ينكحن بعده، منهنّ: أمّ شريك. وعن الشَّعْبى قال: المرأة التى عَزَلَ[4] رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ شريك الأنصارية. وعن على بن الحسين:

---

(١) تعقبه فى أسد الغابة فقال: «هى ليلى بنت الخطيم الأنصارية الأوسية التى وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ويشتبه الخطيم بالحكيم».

(٢) ورجحه أبو عمر وقال: «وهو الصواب إن شاء الله».

(٣) آية ٥١ سورة الأحزاب. (٤) عزل: فارق.

أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّج أمّ شريك الدَّوسية، ومثله عن عِكرمة . وروى محمد بن سعد عن محمد بن عمر قال : حدّثنى الوليد بن مسلم، عن مُنير بن عبد الله الدَّوْسىّ قال : أسلم زوج أمّ شريك[1] — وهى غُزَيّة بنت جابر بن حَكيم الدَّوْسية من الأَزْد — وهو أبو العَكَر، فهاجر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أبى هريرة، ومع دَوْس حين هاجروا، قالت أمّ شريك : فجاءنى أهل أبى العَكَر فقالوا : لعلكِ على دينه، قلت : إى والله، إنى لعلى دينه، قالوا : لا جَرَم، والله لنعذبنكِ عذابا شديدا، فأرتحلوا بنا من دارنا، ونحن كنا بذى الخَلَصَة، فساروا يريدون منزلا، وحملونى على جمل ثَفَال[2]، شرّ رِكابهم وأغلظه، يطعمونى[3] الخبز بالعسل، ولا يسقونى قطرة من ماء، حتى إذا آنتصف النهار وسخنت الشمس، ونحن قائظون[4]، فنزلوا فضربوا أخبيتهم وتركونى فى الشمس حتى ذهب عقلى وسمعى وبصرى، ففعلوا بى ذلك ثلاثة أيام، فقالوا لى فى اليوم الثالث : آتركى ما أنت عليه، قالت : فما دَرَيْت ما يقولون إلا الكلمة بعد الكلمة، فأشير بإصبعى إلى السماء بالتوحيد، قالت : فوالله إنى لعلى ذلك، وقد بلغنى الجَهْد، إذ وجدت بَرْد دَلْوٍ على صدرى، فأخذته فشربت منه نَفَسا[5] واحدا، ثم آنتُزِع منّى، فذهبت أنظر فإذا هو معلّق بين السماء والأرض، فلم

(١) فى الإصابة ما يدل على أن أبا العكر والد أم شريك، ثم قال : «ويمكن الجمع بأن تكون كنية والدها وزوجها آتفقتا»، وفى أسد الغابة : أنه آبن أم شريك .

(٢) بحاشية نسخة ج : «جمل ثفال بفتح الثاء المثلثة أى بطىء، وبكسر الثاء جلد يبسط تحت الرحى يسقط عليه الدقيق» .

(٣) فى الفعل نونان، الأولى علامة الرفع، والثانية فاصلة بين الفعل والياء، وحذفت إحداهما تخفيفا . وقرئ بالحذف فى : «أتحجونى» و«تأمرونى» .

(٤) قائظون : أى فى وقت القيظ وهو شدّة الحر .

(٥) النفس بالتحريك : الجرعة .

٧١/١٦

أقدر عليه، ثم دُلِّيَ الثانية فشربت منه نَفَسا، ثم رفع، فذهبت أنظر، فإذا هو بين السماء والأرض، ثم دُلِّيَ الثالثة فشربت منه حتى رَوِيت، فأهرقت على رأسي ووجهي وثيابي، قالت: فخرجوا فنظروا، فقالوا: من أين لك هذا يا عدوّة الله؟ قالت فقلت لهم: إنّ عدوّ الله غيري، مَنْ خالف دِينَه، فأما قولكم من أين هذا فمن عند الله رزقا رزقنيه الله، قالت: فانطلقوا سِراعا إلى قِربهم فوجدوها مُوكَأَة لم تُحَلّ، فقالوا: نشهد أن ربك هو ربنا، فإن الذي رزقك ما رزقك في هذا الموضع بعد أن فعلنا بك ما فعلنا، هو الذي شرع الإسلام، فأسلموا وهاجروا جميعا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكانوا يعرفون فَضْلِي عليهم، وما صنع الله إليّ، قال: وهي التي وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وكانت جَمِيلة وقد أسَنّت، فقالت: إني وهبت نفسي لك، وأتصدّق بها عليك، فقبلها النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقالت عائشة: ما في امرأةٍ حين تهب نفسها لرجل خيرٌ، قالت أمّ شريك: فأنا تلك، فسماها الله مؤمنة، فقال تعالى: «وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ»(١). فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة: إنّ الله ليسرع لك في هَوَاكَ(٢) يا رسول الله.

ومنهنّ:

الشَّنْبَاء

ذكرها الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خَلَف الدّمياطي رحمه الله، في أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر لها ترجمة. فلنذكر من خطبهنّ صلى الله عليه وسلم.

---

(١) آية ٥٠ سورة الأحزاب. (٢) في هواك: أي في رضاك؛ قال القرطبي: «هذا قول أبرزه الدلال والغيرة وإلا فلا يجوز إضافة الهوى إليه صلى الله عليه وسلم».

ذِكر من خَطَبَهُنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء ولم يَتّفِق تَزْوِيجُهنّ . منهنّ :

أمّ هانِئ بنت أبي طالب

آبن عبد المطلِب بن هاشم ، وآسمها فَاخِتَة ، وقال آبن الكلبي : آسمها هِنْد ، وهي أخت علي بن أبي طالب ، وعَقِيل وجعفر وطالب ، شقِيقتهم ، وأمهم فاطِمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف . روى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، قال : خطب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي طالب آبنته أمّ هانِئ في الجاهلية ، وخطبها هُبيرة بن أبي وَهْب[1] بن عمرو بن عائذ بن عِمران بن مخزوم ، فزوجها هُبَيرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عمّ ، زوجتَ هُبيرة وتركتني » ! فقال : يآبن أخي إنا قد صاهرنا إليهم ، والكريم يكافِئُ الكريم . ثم أسلمتْ ففرق الإسلام بينها وبين هُبَيرة ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نفسها فقالت : والله إن كنت لأحِبك في الجاهلية ، فكيف في الإسلام ، ولكني آمرأة مُصْبِية وأكره أن يؤذوك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير نِساء رَكِبن المطايا نِساء قريش ، أحْناه[2] على وَلَدٍ في صِغره ، وأرْعاه على زوج في ذات يده » . ومنهنّ :

ضُبَاعَة بِنت عامِر بن قُرْط

آبن سَلَمة بن قُشَيْر بن كَعْب بن رَبِيعَة بن عامر بن صَعْصَعَة .

روى هشام بن محمد الكلبي ، عن أبيه عن أبي صالح عن آبن عباس قال : كانت ضُبَاعَة بنت عامر عند هَوْذَة بن علي الحَنَفي ، فهلك عنها فورّثها مالا كثيرا ،

---

(١) في أسد الغابة والإصابة : « هبيرة بن عمرو » .

(٢) أحناه : أشفقه . وأرعاه : أحفظه ، وذكر الضمير في « أحناه » و « أرعاه » وكان القياس « أحناهن » و « أرعاهن » باعتبار اللفظ أو الجنس أو الشخص أو الإنسان . (القسطلاني ٨ : ١٧) .

فتزوجها عبد الله بن جُدْعان التَّيمىّ، وكان لا يولد له فسألته الطلاق فطلقها، فتزوجها هِشام بن المغيرة فولدت له سَلَمة، وكان من خِيار المسلمين، فتوفى عنها هِشام، وكانت إذا جلست أخذت من الأرض شيئا كثيرا، وكانت تغطى جسدها بشعرها، فذُكِر جمالُها عند النبى صلى الله عليه وسلم، فخطبها إلى ابنها سَلَمَة بن هِشام ابن المغيرة، فقال: حتى أستأمِرها، وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم: إنها قد كبِرت فأتاها ابنها فقالت: ما قلتَ له؟ قال: قلت حتى أستأمرها، فقالت: وفى النبى صلى الله عليه وسلم يُستأمَر! ارجع فزوِّجه، فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسكت عنه. ومنهنّ:

٧٢/١٦

صَفِيّة بنت بَشَامَة[1] بن نَضْلَة العَنبرىّ

قال أبو محمد: كان أصابها سَبَاءٌ، فخيّرها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «إن شئتِ أنا، وإن شئت زَوْجكِ» فقالت: بل زوجى، فأرسلها فلعَنَتْها بنو تميم. ومنهنّ:

جَمْرَة بنت الحارِث بن عَوْف المُزَنِىّ

خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبوها: إن بها سُوءًا ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد بَرِصَت، وهى أمّ شَبِيب بن البَرْصَاء الشاعر. ومنهنّ:

سَوْدَةُ القُرَشِيّة

خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت مُصْبِية فقالت: أكره أن تَضغو[2] صِبْيَتِى عند رأسك، فحمِدها ودعا لها، ذكرها والتى قبلها ابن الجَوْزِىّ

(١) بفتح الموحدة وتخفيف الشين، وقيل: بشدها.

(٢) أى يصيحون ويبكون ويصجون.

فى التّلقيح . وروى عن مجاهد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فَرُدّ لم يعد، فخطب آمرأة ، فقالت : حتى أستأمِر أبى، فلقيت أباها فأذِن لها ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له ، فقال: « قد آلتحفنا لِحافا غيرِك » ولم يسم مجاهد آسم هذه المرأة .

وعُرِض على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أُمَامَة بِنت عَمِّــه حَمْــزَة

آبن عبد المطلب،وقيل : آسمها عِمَارة، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال : « تلك آبنة أخى من الرضاعة » . وعُرِضت عليه أمّ حبيبة أختها .

فجميع من ذكر من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم المدخول بهنّ، وغير المدخول بهنّ، ومن وهبت نفسها له ، أو خطبها ولم يتفق تزويجها ، أوعُرِضت عليه فأباها ، نحوُ أربعين آمرأة على ما ذكرناه من الآختلاف ، ومن أهل العلم من ينكر بعضهنّ، ويقول : إنما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة آمرأة، ست منهنّ قرشيات لا شك فيهنّ ، وهنّ : خَدِيجة،وعائِشة، وسَوْدَة، وأم سَلَمَة، وأم حَبِيبة، وحَفْصَة .

ومن العرب : زينب بنت جَحْش، ومَيْمُونة بنت الحارث، وجُوَيْرِية بنت الحارث، وأَسْمَاء بنت النُّعْمان، وفَاطِمة بنت الضَّحّاك، وزينب بنت خُزَيْمَة .

ومِن غيرهم: رَيْحَانَة بنت زيد من بنى النّضير،وصَفِيّة بنت حُيَىّ بن أَخْطَب.

وعن محمد بن يحيى بن حِبّان قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة آمرأة، فسمى هؤلاء، وزاد مُلَيْكَة بنت كَعْب اللّيْثيــة . وقال أبو عبيدة : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى عشرة آمرأة .

وقال محمد بن عمر الواقدىّ : المجمع عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أربع عشرة آمرأة ، وهنّ اللائى سُمِّين ، وفارق منهن الجَوْنيّة والكِلابية ، ومات عنده خديجة ، وزينب بنت خُزَيمة ، ورَيْحانة بنت زيد ، وقُبِض عن تِسع ، وهنّ المذكورات اللاتى قدمنا ذكرهنّ .

٥ وقال أبو سعيد فى شرف النبوّة : إن جملة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين آمرأة ، طَلّق منهنّ ستّا ، ومات عنده خمسٌ ، وتُوفّى عن عَشْر ؛ واحدة لم يدخل بها ، وكان صَداقه لِنسائه لكل واحدة خمسمائة دِرهم ، إلا صَفيّة فإنه جعل عِتْقَها صَداقَها ، وأمّ حبيبة أصْدَقها عنه النجاشىّ .

ذكر سَرارِى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنّ : ٧٣/١٦

١٠ مارِية بنت شَمْعون القِبطية

وهى أم ولده إبراهيم ، وكانت من جَفْن[1] من كورة أنْصِنَا من صعيد مصر ، أهداها له المُقَوْقِس جُرَيْج بن مِينَا ، ولما ولدت مارِية لرسول الله صلى الله عليه وسلم آبنه إبراهيم قال : « أعتقها ولدها » . وتوفيت مارية فى المحرم سنة ست عشرة ، فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان عمر يحشر الناس بنفسه لشهود ١٥ جنازتها ، وصلى عليها عمر ، ودُفِنت بالبقيع .

ورَيْحَانَة بنت زَيْد النَّضِرية ، وقد تقدّم خبرها فى الزوجات . وقال أبو عبيدة : كان له أربع ؛ وهنّ مارِية وريحانة ، وأخرى جَمِيلة أصابها فى السَّبْى ، وجارِية وهبتها له زينب بنت جَحْش . وقال قَتادة : كان للنبى صلى الله عليه وسلم وَلِيدَتَان مارِية وريحانة ، وبعضهم يقول : رُبَيْحة[2] القُرَظية .

٢٠ (١) ذكر شارح المواهب أن آسمها « حفن » بفتح المهملة وسكون الفاء ، وكذا فى شرح القاموس ، والأصول بالجيم . (٢) ربيحة بالتصغير ، وقيل : النضرية ، والذى فى الإصابة كما فى الأصول « ريحة » بالباء الموحدة ولكن شارح المواهب رسمها بالياء التحتية المثناة .

ذكر أولادِ رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: كان أول من وُلِد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل النبوّة القاسِم وبه كان يكنى، ثم ولدت له زينب، ثم رُقيّة، ثم فَاطِمة، ثم أمّ كُلْثُوم، ثم ولد له فى الإسلام[1] عبد الله فسمى الطّيّب والطّاهِر، وأمهم كلهم خَدِيجَة رضى الله عنها. وكان أول من مات من ولده القاسِم، ثم عبد الله ماتا بمكة، فقال العاصِى بن وائِل السَّهْمِىّ: قد انقطع ولده فهو أبتر؛ فأنزل الله تعالى: «إِنّ شَانِئَكَ[2] هُوَ الْأَبْتَر» وقيل: الطّيّب والطّاهِر اثنان سوى عبد الله. وقيل: كان له الطّاهِر والمطَهّر ولدا فى بطن. وقيل: كان له الطّيّب والمطَيّب وُلدا أيضا فى بطن. وقيل: إنهم كلهم ماتوا قبل النبوّة، وكان بين كل ولدين لها سنة، وكانت تسترضِع لهم. وأمّا البنات فكلهن أدركن الإسلام، وأسلمن وهاجَرْن، وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبارهنّ ومَن تزوجهنّ، وما ولدن على ما تقِف عليه، وهؤلاء كلهم أولاد خدِيجة وُلِدوا بمكة، ثم ولدت له مارِية القِبطِية:

إبراهِيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولِد فى ذى الحِجة، سنة ثمان من الهِجرة؛ قال أبو عمر بن عبد البر: ذكر الزُّبَيْر عن أشياخه، أن أمّ إبراهيم مارِية ولدته بالعالية، فى المَال[3] الذى يقال له اليوم (مَشْرَبَةُ[4] إبراهيم) بالقُفّ[5]، وكانت قابلتها[6] سَلْمَى مولاة النبى صلى الله عليه وسلم،

(١) الأولى أن يقول بعد النبوة. (٢) شانئك: مبغضك، والعرب تسمى من مات له ولد ذكر أبتر، ومن ليس له ولد ذكر. وقيل السورة نزلت فى أبى جهل إذ قال حين مات إبراهيم عليه السلام: بتر محمد.

(٣) المراد به هنا الأعيان المملوكة بالعالية، والعالية على ثلاثة أميال من المدينة المنورة.

(٤) كذا فى كل نسخ الأصل. والصحيح (مشربة أم إبراهيم) كما فى المواهب وغيرها.

(٥) القف: واد بالمدينة — على ساكنها السلام — عليه مال لأهلها. (شرح القاموس).

(٦) القابلة. المولدة، وهى قابلة الحسن والحسين رضى الله عنهما.

آمرأة أبى رافِع ، فبَشَّر به أبو رافِع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فوهب له عبدا ، فلما كان يوم سابِعه عقّ[1] عنه بكَبْش وحلق رأسه ؛ حلقه أبو هِنْد ، وسماه يومئذ ، وتصدق بوزن شعره وَرِقا على المساكين ، وأخذوا شعره فدفنوه فى الأرض .

وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولِد لى الليلة غلام فسميته بآسم أبى إبراهيم » هذا يدل على أنه سمّاه فى وقت وِلادته ، قال الزبير : ثم دفعه إلى أمّ سَيْف آمرأة قَيْنٍ[2] بالمدينة ، يقال له : أبو سَيف ، قال الزبير : وتنافست الأنصار فيمن يُرضِعه ، فجاءت أمّ بُرْدَة بنت المنذِر بن زيد الأنصارىّ ، زوجة البَرَاء بن أَوْس ، فكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن تُرضِعه ، فكانت تُرضعه بلبن آبنها فى بنى مازِن بن النجار ، وترجع به إلى أُمِّه ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ بُرْدَة قِطعة من نَخْل ، فناقلت[3] بها إلى مال عبد الله بن زَمْعَة .

وتوفى إبراهيم فى شهر ربيع الأول سنة عشر ، وقد بلغ سِتة عشر شهرا ؛ مات فى بنى مازِنٍ عند ظِئْره[4] أمّ بُرْدَة ، وهى خَوْلَة بنت المنذِر بن لَبِيد ، وغَسَّلته ودُفِن بالبقيع . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو عاش لوضعت[5] الجزية عن كل قبطىّ » . وقال أيضا : « لو عاش إبراهيم ما رَقّ[6] له خالٌ » .

٧٤/١٦ وفى حديث أنس بن مالك تصريح أن إبراهيم إنما مات عند ظئره أمّ سَيْف ؛ فإنه يقول : فآنطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآنطلقت معه ، فصادَفْنا أبا سَيْف ينفخ فى كِيرِه ، وقد آمتلأ البيت دُخَانا ، فأسرعتُ فى المشى بين يدى رسول الله

(١) عق : ذبح عقيقة ، وهى الشاة التى تذبح يوم أسبوع الولد ، وقال عليه الصلاة والسلام : « قولوا نسيكة ولا تقولوا عقيقة » . (٢) القين : الحداد . (٣) فى الأصول من غير نقط ، وفى الاستيعاب « فناقلت » بالقاف كما أثبتناها . (٤) الظئر : المرضع .
(٥) وضع الجزية : أسقطها . (٦) رق : صار رقيقا .

صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهيت إلى أبى سَيْف فقلت : يا أبا سَيف ، أَمسكْ ، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم » فأمسك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصَّبي فضمه إليه وقال ماشاء الله أن يقول ، قال : فلقد رأيته يَكِيدُ[1] بنَفْسه ، فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : « تدمع العين ويحزَن القلب ولا نقول إلا ما يُرضى الربّ ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » وقال أبو عمر بن عبد البر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى على ابنه إبراهيم من غير رفع صوت ، وقال : « تدمَع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يُرضى الربّ ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » . وعن عطاء، عن جابر قال : أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد عبد الرحمن بن عوف ، فأتى به النخل[2]، فإذا ابنه إبراهيم فى حجر أُمّه وهو يَجُود بنَفْسه ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه فى حِجْره ، ثم قال : « يا إبراهيم إنا لا نغنى عنك من الله شيئا » ؛ ثم ذَرَفَتْ[3] عيناه ، ثم قال : « يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حَقٌّ ووَعْد صِدْقٌ، وأن آخرنا سيلحق أوّلنا لحزنا عليك حزنا هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، تبكى العين ويحزَن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ » . قالوا : ووافق موت إبراهيم كُسُوف الشمس، فقال قوم : إن الشمس انكسفت لموته ، فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يَخْسِفان لموت أحد ولا لحياته؛ فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله و إلى الصلاة » . وقال صلى الله عليه وسلم حين تُوفِّى إبراهيم : « إن له مُرْضِعا فى الجنة تُتم رضاعه » . وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكَبَّر أربعا ، قال ابن عبد البر : هذا قول جمهور العلماء ،

(١) يكيد بنفسه : يجود بها ؛ يريد النزع .
(٢) النخل : موضع قريب من المدينة .
(٣) ذرفت العين : دمعت .

وهو الصحيح، قال : وقد قيل إن الفضل بن عباس غَسّل إبراهيم، ونزل فى قبره مع أُسَامَة بن زيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على شَفِير القبر، قال الزبير : ورُشّ قبره ، وأُعْلِم فيه بعلامة ، وهو أول قبر رُشّ عليه (١) .

فلنذكر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تزوجهنّ ، وما ولدن ووفاتهنّ ، وهنّ أربع :

زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

هى أَسَنّ بناته رضى الله عنهنّ . قال أبوعمر بن عبد البر : وُلِدت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة ثلاثين من مولد النبىّ صلى الله عليه وسلم ، حكاه عن محمد بن إسحق السّرّاج عن عبيد الله بن محمد بن سليمان الهاشمى، وتزوج زينب أبو العاص بن ربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس ، وهو ابن خالتها — أمه هالة بنت خُوَيْلد — قبل أن يُنَزَّل (٢) على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرّق بينهما الإسلام .

وقد ذكرنا من خبر ابن العاص وأَسْره فى غزوة بَدْر وإطلاقه، وسقنا ذلك كله هناك ، وخبر إسلامه ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّ زينب عليه بغير مهر جديد، ولا نكاح جديد . وقيل : بل بمهر جديد ونكاح جديد — والله تعالى أعلم — وولدت له عليّا مات صغيرا ، وأُمَامَة وهى التى حملها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، وعاشت أُمَامَة حتى تزوجها على بن أبى طالب بعد موت فاطمة ، فكانت عنده حتى أُصِيب ، فخلف عليها المغيرة بن يزيد بن الحارث بن عبد المطلب ، فتوفيت عنده ، وماتت زينب فى سنة ثمان من الهجرة .

(١) فى أسد الغابة : «ورش على قبره ماء، وعلم على قبره بعلامة، وهو أول قبر رش عليه الماء» .

(٢) أى قبل أن ينزل القرآن على النبىّ — صلى الله عليه وسلم — بتحريم المسلمات على الكفار (آية ١٠ سورة الممتحنة) .

قال أبو عمر : وكان سبب موتها أنها لما خرجت من مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عَمِد لها هَبّار بن الأَسْوَد ورجل آخر فدفعها أحدهما فيما ذكروا، فسقطت على صخرة فَأَسْقَطَت وأَهْرَاقت الدماءُ، فلم يزل بها مرضها ذلك حتى ماتت رضى الله عنها .

٧٥/١٦ ورُقَيَّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أبو عمر بن عبد البر : ذكر أبو العباس محمد بن إسحق السرّاج، قال سمعت عبيد الله بن محمد بن سليمان بن جعفر بن سليمان الهاشمى يقول : ولدت رُقَية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثلاث وثلاثين سنة، وكانت رقية عند عُتْبَة بن أبى لَهَب، وأختها أم كُلْثُوم عند عُتَيْبَة بن أبى لهب، فلما أنزل الله تعالى : «تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ» ـ السورة ـ قال لهما أبوهما أبو لهب وأمهما أُمّ جَمِيل بنت حَرْب بن أمية، حَمّالة الحطب : فارقا ابْنَتَىْ محمد ، وقال أبو لهب : رأسى من رَأْسَيْكما حرام إن لم تفارقا ابنتى محمد ، ففارقاهما ، فتزوج عثمان بن عَفّان رقية بمكة ، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة ، وولدت له هناك ابنا فسماه عبد الله وبه كان يُكنى ، فبلغ الغلام ستّ سنين ، فنقر عينَه دِيكٌ وتَوَرّم وجهه فمرض ومات . وماتت رقية رضى الله عنها فى شهر رمضان ، على رأس تسعة عشر شهرا من مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بَدْر ، ودفنت عند وصول زيد بن حارثة بالبشارة بوقعة بدر، وكانت قد أصابتها الحَصْبَة ، وتخلّف عثمان بن عَفّان رضى الله عنه عن غزوة بَدْر بسبب مرضها ، بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أبو عمر بن عبد البر : كانت فاطمة هى وأختها أمّ كُلْثُوم أصغر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآختلف فى الصُّغْرى منهما. وقال آبن السَّراج : سمعت عبيد الله الهاشمى يقول : ولدت فاطمة رضى الله عنها فى سنة إحدى وأربعين من مولد النبى صلى الله عليه وسلم، وزَوَّجها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بعد وقعة أُحُد . وقيل : إنه تزوجها بعد أن آبتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله عنها، بأربعة أشهر ونصف، وبنى بها بعد تزويجه إياها بتسعة أشهر ونصف، وكانت سِنّها يوم تزوجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف . قال أبو عمر : وآختلف فى مَهْرِه إياها ، فروى أنه مَهَرَها دِرْعه، وأنه لم يكن له ذلك الوقت صفراء ولا بيضاء، وقيل : تزوجها على أربعمائة وثمانين درهما فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل ثلثها فى الطِّيب ، قال : وزعم أصحابنا أن الدِّرْع قدَّمها علىٌّ من أجل الدخول ، بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه بذلك، فولدت رضى الله عنها له حَسَنا وحُسَيْنا ومُحْسِنا فذهب مُحْسِن صغيرا . وروى أبو عمر بن عبد البر بسنده إلى علىّ رضى الله عنه قال : لما وُلِد الحسن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «أرونى آبنى ماسميتموه» ؟ قلت : سميته حَرْبا، قال : « بل هو حسن » فلما وُلِد الحسين قال : « أرونى آبنى ما سميتموه » ؟ قلت : سميته حربا ، قال : « بل هو حُسَيْن» فلما وُلِد الثالث جاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أرونى آبنى ما سميتموه » ؟ قلت سميته حربا ، قال : «بل مُحْسِن»، ثم قال : «إنى سميتهم بأسماء ولد هارون شَبَّر وشُبَيْر ومُشَبِّر»[1] . وولدت له رُقَيَّة وزينب

(١) قال فى القاموس وشرحه : «شبر كبقم ، وشبير كقمير مصغرا ، وفى التكملة مثل أمير ، ومشبر كمحدث أبناء هرون عليه السلام » .

وأمّ كُلْثُوم، فهلكت رُقَيّة ، ولم تبلغ، وتزوج زينب عبد الله بن جعفر فماتت عنده، وولدت له على بن عبد الله بن جعفر ، وتزوج أمّ كُلْثُوم عمر بن الخطاب فولدت له زيد بن عمر، ثم خلف عليها بعده عون بن جعفر فلم تلد له حتى مات ، وخلف عليها بعده محمد بن جعفر فولدت له حارثة ومات عنها . فخلف عليها عبد الله ٧٦/١٦
ابن جعفر فلم تلد له شيئا وماتت عنده ، وقيل : بل تُوفّى عنها ، وماتت فاطمة رضى الله عنها بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر، وقيل : بستة أشهر، وقيل : بثمانية .

وأمّ كُلْثُوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

قد ذكرنا الاختلاف فى أيهما أصغر سِنّا هى أو فاطمة، وكانت عند عُتَيْبة بن أبى لَهَب ، فلما قال له أبواه ولأخيه ما قالا طَلّقا بنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبنيا بهما ، وجاء عُتَيْبَة حين فارق أمّ كُلْثُوم إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك وسطا عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمَا إنى أسأل الله أن يسلط عليك كلبا من كلابه » وكان خارجا إلى الشام تاجرا مع نَفَر من قريش ، حتى نزلوا مكانا من الشام يقال له الزَّرْقاء ليلا ، فأطَافَ[1] بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عُتَيْبَة يقول : يا ويل أُمِّه[2] ، هو والله آكله بدعوة محمد، قاتلى ابن أبى كَبْشَة[3] وهو بمكة وأنا بالشام . وقال أبو لهب : يامعشر قريش ، أعينونا هذه الليلة، فإنى أخاف دعوة محمد، فجمعوا أحمالهم وفرشوا لعُتَيْبَة فى أعلاها وناموا حَوْلَه ، فقيل : إن الأسد انصرف عنهم حتى ناموا وعتيبة

(١) أطاف بهم : أحاط بهم ، وفى المصباح : أطاف بالشئ. أحاط به .

(٢) الرواية المشهورة : « ياويل أمى ، آكلى ... » . وكذا فى شرح المواهب وغيره .

(٣) فى شرح المواهب : « أقاتلى » . باستفهام .

فى وسطهم ، ثم أقبل يتخطّاهم ويتشمّمهم حتى أخذ برأس عُتَيْبة ففدَغه[1] . قال أبو عمر : ولما ماتت رقية تزوج عثمان بن عفّان بأمّ كُلْثوم فى شهر ربيع الأول من السنة الثالثة من الهجرة ، وبنى عليها فى جمادى الآخرة من السنة ، وتوفيت أمّ كُلْثوم رضى الله عنها فى السنة التاسعة من الهجرة ، ولم تلد لعثمان شيئا ، وكانت وفاتها فى شعبان ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان : «لو كانت عندنا ثالثة زوّجناكها ياعثمان» وصلى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل فى حفرتها على بن أبى طالب ، والفضل بن العباس وأسامة بن زيد . وقد رُوى أن أباطلحة الأنصارى آستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل معهم فى قبرها فأذن له . وغَسّلتها أَسْماء بنت عُمَيْس وصَفِيّة بنت عبد المطلب ، وهى التى شهدت أمّ عَطِيّة غُسْلها ، وحكت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آغسلنها وترا ثلاثا أو خمسا أو أكثر من ذلك » الحديث[2] . قال : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر أم كُلْثوم .

ذكر أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمومة أحد عشر ، أولاد عبد المطلب آبن هاشم ، وهم :

الحارث — وبه كان يُكنى ؛ لأنه أكبر ولده ، ومن ولد الحارث وولد ولده جماعة لهم صحبة من النبى صلى الله عليه وسلم ، منهم أبو سفيان بن الحارث ،

(١) فدغه : شدخه وكسره .

(٢) الحديث فى أسد الغابة فى ترجمة أم عطية : « آغسلنها وترا ثلاثا أو خمسا أو أكثر من ذلك إن رأيتن وآغسلنها بماء وسدر وآجعلن فى الآخرة كافورا أو شيئا من كافور فإذا فرغتن فآذننى » فلما فرغنا آذناه فألقى إلينا حقوه فقال : « أشعرنها إياه » والحقو : الإزار ، وقوله : « أشعرنها » أى آجعلنه شعارها الذى يلى جسدها ، تبركا بأثره الشريف .

أسلم عام الفتح كما ذكرنا فى غزوة الفتح وشهد حُنَيْنا ، ونَوْفَل بن الحارث هاجر وأسلم أيام الخَنْدَق ، وعبد شمس وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

وقُثَم بن عبد المطلب — وهو أخو الحارث لأبويه ؛ مات صغيرا .

الثالث — الزبير بن عبد المطلب ، وكان من أشراف قريش . وٱبنه عبد الله ٱبن الزبير شهد حُنَيْنا وثبت يومئذ وٱسْتُشهد بأَجْنَادِين[1] ، وضُبَاعة بنت الزبير ، لها صحبة ، وأم الحكم بنت الزبير ، روت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الرابع حمزة بن عبد المطلب

كان يقال له : أسد الله وأسد رسوله ، ويكنى أبا عمارة وأبا يَعْلَى[2] . وهو أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرَّضاع[3] . وقد قدّمنا فى أنباء هذه السيرة خبر إسلامه ومقتله فى غزوة أُحُد . ولم يكن له إلا ٱبنةٌ واحدة . وقيل : ٱبنتان . وقد ذكرناهما فيمن عُرِض على رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء فأباهنّ .

والخامس العبّاس بن عبد المُطّلِب

كان يكنى أبا الفضل بٱبنه الفضل بن العبّاس ، وكان العباس أسَنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين ، وقيل : بثلاث سنين ، وأمُّه نَتْلة ، ويقال : نُتَيْلَة بنة جَنَاب بن كُلَيْب بن مالك بن عمرو بن عامر بن زيد مَنَاة بن عامر وهو

(١) أجنادين : موضع بنواحى فلسطين كانت به وقعة بين المسلمين والروم مشهورة ، وهى من الحروب الحاسمة كانت الغلبة فيها للمسلمين .

(٢) فى أسد الغابة : « أبو يعلى وقيل أبو عمارة كنى بابنيه يعلى وعمارة » .

(٣) أرضعتهما ثويبة جارية أبى لهب ، وهى غير حليمة المشهورة التى أرضعت النبى صلى الله عليه وسلم .

الضَّحْيَان بن سعد بن الخَزْرَج بن تَيْم الله بن النَّمِر بن قاسِط . وهى أوّل عربيـة[(١)] كَسَت البيت الحـرام الحريرَ والدِّيباج وأصناف الكِسْوَة . وذلك أن العباس ضَلّ وهو صَبِىٌّ ، فنذرتْ إن وَجدَتْه أن تكسو البيت الحرام، فوجدته ففعلت .

وقـد تقدّم من خَبَر العباس فى غزوة بَدْر عند أسره ، وقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنِّى كنتُ مُسْلما، وإن القوم استكرهونى على الخروج .

وقال أبو عمر بن عبد البر : أسلم العباس قبل خَيْبَر وكان يكتم إسلامه . قال : ويقال إنه أسلم قبل بَدْر ، وكان يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم بأخبار المشركين ، وكان يُحِبّ أن يَقْدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مُقامَك بمكة خيرٌ » فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : « من لقى منكم العباس فلا يقتله فإنه أُخرج كرها » . وكان العبـاس أَنْصَر الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعـد أبى طالب ، ووَلِى السِّقايَة بعد أبى طالب وقام بها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْرِم العباس بعد إسلامه ويُعَظِّمه ويُجِلّه ، ويقول : « هذا عمى وصِنْو أبى » . وكان العباس جَوَادا مُطعِما، وَصُولا للرَّحِم، ذا رَأْى حسن، ودَعْوَة مَرْجُوّة .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه آستسقى بالعباس فى سنة سبع عشرة وذلك عام الرَّمادة[(٢)]، وكانت الأرض أجْدَبَت إجْدابا شـديدا . فقال كَعْب لعمر : يا أمير المؤمنين ، إن بنى إسرائيـل كانوا إذا أصابهم مثل هـذا آستسقوا بعُصْبَة

(١) أول من كسا الكعبـة الديباج تبع ملك حمير على المشهور ، وكأن المصنف أراد أول آمرأة عربية ، ونتلة كحمزة ونتيلة كجهينة بنون وتاء . والنتلة بيض النعام .

(٢) الرمادة : من أرمد القوم أمحلوا وأسنتوا حتى هلكت المواشى ، وقيل : سمى عام الرمادة لتتابع الجدب حتى صير الأرض والشجر مثل لون الرماد . وقيل : عام الرمادة سنة ثمانى عشرة واقتصر عليه العينى عن ابن سعد .

الأنبياء . فقال عمر رضى الله عنه : هذا عَمُّ النبي صلى الله عليه وسلم وصِنْوُ أبيه ، وسَيِّد بنى هاشم . فمشى إليه عمر فشكا إليه ما فيه الناس . ثم قال : اللهم إنا قد تَوَجَّهْنا إليك بعَمِّ نبينا وصِنْو أبيه ، فٱسقنا الغيث ، ولا تجعلنا من القانِطين . ثم قال : يا أبا الفَضْل قم فٱدْعُ . فقام العباس فقال بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم إن عندك سَحابا وعندك ماء ، فٱنْشُر السحاب ، ثم أنزل الماء منه علينا ، فٱشْدُد [به][1] الأصل ، وأطِل به الفَرْع ، اللهم إنك لم تنزل بَلاء إلا بذنب ، ولم تكْشِفه إلا بتَوْبَة ، وقد تَوَجَّه القوم بى إليك فٱسقنا الغَيْث ، اللهم شفِّعنا فى أنفسنا وأهلينا ، اللهم إنا شُفَعاء عمن لا يَنْطق من بَهائمنا وأنعامنا ، اللهم ٱسقنا سقيًا وَادِعا ، نافِعا طَبَقا[2] سَحًّا عامّا . اللهم لا نرجو إلا إيّاك ، ولا ندعو غيرك ، ولا نرْغَب إلا إليك . اللهم إليك نشكو جُوع كل جائع ، وعُرْىَ كل عارٍ ، وخوف كل خائف ، وضَعْف كل ضعيف . فى دعاء كثير .

قال ٱبن عبد البر : وهذه الألفاظ كلها لم تجئ فى حديث واحد ، ولكن جاءت فى أحاديث جمعتها وٱختصرتها ولم أخالف شيئا منها ، وفى بعضها : فسقوا والحمد لله . وفى بعضها قال : فأَرْخَتِ السماء عَزَاليَها[3] فجاءت بأمثال الجبال ، حتى استَوَت الجُفَرُ[4] بالآكام ، وأخْصَبَت الأرض ، وعاش الناس . فقال عمر : هذا والله الوَسِيلَة إلى الله والمكان منه . وقال حَسّان بن ثابت فى ذلك :

---

(١) الزيادة من الاستيعاب .

(٢) طبقا : مالئا للأرض مغطيا لها . سحا : شديد الانصباب .

(٣) العزالى ، جمع عزلاء وزان حمراء : فم المزادة الأسفل . وأرسلت السماء عزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه المزادات . ويروى : « فأرخت السماء شآبيب مثل الجبال » .

(٤) الجفر (جمع جفرة) : وهى الحفرة الواسعة المستديرة .

سَأَل الإمامُ وقَدْ تَتَابع جَدْبُنا * فسقى الغَمامُ بغُرَّة العَبّاسِ
عَمُّ النبي وصِنْو والده الذى * وَرِثَ النَّبِيَّ بذاك دُون النّاسِ
أحيَا الإلهُ به البلاد فأصْبَحَت * مُخْضَرَّة الأَجْنابِ بعد اليَاسِ

٧٨/١٦ وقال الفضل بن عباس بن عُتْبَة بن أبى لَهَب :

٥ بعمِّى سقى الله الحِجازَ وأهلَه * عَشِيَّة يَسْتَسْقِى بشَيْبَتِه عُمَرْ
توجّه بالعباس فى الجَدْبِ راغبا * فما كَرَّ حتّى جاء بالدِّيمَة المَطَرْ

وتُوفى العباس — رضى الله عنه — بالمدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رَجَب . وقيل : من شهر رَمَضان سنة اثنتين وثلاثين فى خلافة عُثْمان بن عَفّان وصلى عليه عثمان ، ودفن بالبَقِيع وهو ابن ثمان وثمانين سنة . وقيل : تسع وثمانين ١٠ سنة . وقال خَلِيفَة بن خَيّاط : كانت وفاة العباس سنة ثلاث وثلاثين ، ودخل قبره ابنه عبد الله . وكان للعباس من الولد : الفَضْل وهو أكبر أولاده وبه كُنِّى ، وعبد الله ، وعُبَيْد الله ، وقُثَم . ولهم صحبةٌ . وعبد الرحمن ومَعْبَد وُلِدا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم استشهدا بإفْرِيقِيّة فى خلافة عُثْمان بن عَفّان ، وأم حبيب ، كلهم من أمِّ الفَضْل لُبَابَة بنت الحارث بن حَزْن الهلالية ، وهى أخت مَيْمُونَة زوج ١٥ النبي صلى الله عليه وسلم ، يقال : إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة ، وكانت من المُنْجِبات ، وفيها يقول عبد الله بن يزيد الهلالى :

ما وَلَدَتْ نَجِيبَة من فَحْلِ * بجَبَلِ نَعْلَمُه وسَهْلِ
كَسِتَّةٍ من بَطْن أمِّ الفَضْلِ * أكْرِم بها من كَهْلَةٍ وكَهْلِ
عَمِّ النبي المصطفى ذى الفَضْل * وخاتم الرُّسْل وخَيْر الرُّسْلِ

وكان له من غير أم الفضل أربعة ذكور، وهم : عَوْن[1]، والحارث أمّه من هذيل. وكَثِير وتَمّام أمهما أمّ وَلَد[2]، وكان أصغر أولاد العباس فكان العباس يحمله ويقول :

تَمّوا بتَمّام فصاروا عَشَرَهْ * يارَبِّ فاجْعَلْهُم كِرَاماً بَرَرَهْ
* واجعل لهم ذِكْراً وأَتْمِم الثَّمَرَهْ *

ويقال : ما رؤيت قبورٌ أشد تباعدا بعضها من بعض من قبور بنى العباس، ولدتهم أمهم أم الفضل فى دار واحدة، استشهد الفَضْل بأَجْنَادين، ومات مَعْبَد وعبد الرحمن بإفريقية، وتوفّى عبد الله بالطائف، وعبيد الله باليمن، وقُثَمُ بسَمَرْقَنْد وكَثِير بيَنْبُع. وتُوفّى العباس بعد أن كَفّ بصرُه. ولم يُسلم من أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حَمْزَة والعباس رضى الله عنهما.

والسادس من عمومته صلى الله عليه وسلم — أبو طالب واسمه عبد مناف وهو أخو عبد الله أبى النبي صلى الله عليه وسلم لأبويه. وعاتِكَةُ صاحبة الرُّؤْيَا فى شأن بَدْر، أمهم فاطِمة بنت عَمْرو بن عائِذ بن عِمْران بن مَخْزُوم. وقد تقدّم من أخباره ونصرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما نستغنى عن إعادته فى هذا الموضع. وكان له من الولد طالبٌ مات كافرا، وعَقِيل وجَعْفَر وعلىّ وأم هانئ لهم صحبة، وجُمَانَةُ. وحكى أبو عمر بن عبد البر : كان علىّ بن أبى طالب أصغر من أخيه جعفر بعشر سنين، وكان جعفر أصغر من عَقِيل بعشر سنين، وكان عَقيل أصغر من طالب بعشر سنين.

والسابع من عمومة رسول الله صلى الله عليه وسلم — أبو لهب.

---

(١) قال أبو عمر : «لم أقف على اسم أمه».

(٢) قال فى أسد الغابة : «أمه أم ولد رومية».

وآسمه عبد العزى كنّاه أبوه بذلك لحسن وجهه، ومن أولاده عُتْبَة، ومُعَتِّب ثبتا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنَيْن، وعُتَيْبَة قتله الأسد بالزَّرْقَاء كما تقدّم[1].

الثامن — عبد الكعبة، وقيل: هو المقوّم[2]، ومنهم من جعل المقوّم غير عبد الكعبة فجعل عمومته آثنى عشر.

والتاسع — حَجْل[3] وآسمه المُغِيرَة.

والعاشر — ضِرَار وهو أخو العباس لأبويه.

والحادى عشر — الغَيْدَاق[4] سمى بذلك لأنه كان أكرم قريش، وأكثرهم إطعاما. ومنهم من جعل الغَيْداق حَجْلا وعدّهم عشرة. حكاه آبن عبد البر. وقد عدّ الزبير ابن بَكّار أولاد عبد المطلب ثلاثة عشر، وعدّ المقوّم غير عبد الكعبة، وجعله شقيق حمزة وحَجْل وصَفيّة. والله أعلم بالصواب

ذِكر عمّات رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان له من العمات صلى الله عليه وسلم ستٌّ: الأولى — صَفيّة بنت عبد المطلب، وأمّها هَالَة بنت وُهَيْب بن عبد مَنَاف بن زُهْرَة، وهى شقيقة حمزة والمقوّم وحَجْل، كانت صفية فى الجاهلية تحت الحارث بن حَرْب بن أمية بن عبد شَمْس، ثم هلك عنها وتزوّجها العَوّام بن خُوَيْلد بن أسد فولدت له الزُّبَير والسّائِب وعبد الكعبة. وتوفيت فى خلافة عمر بن الخطاب سنة عشرين من الهجرة ولها ثلاث وسبعون سنة. ودفنت بالبَقِيع بفِناء دار المغيرة بن شُعْبَة، ولها هِجْرة.

(١) راجع ص ٢١٤ من هذا الجزء، والمواهب ٣ : ٢٣٧

(٢) فى السيرة الحلبية بفتح الواو وكسرها مشدّدة.

(٣) فى السيرة الحلبية: بتقديم الجيم على الحاء والجحل السقاء الضخم، وقيل بتقديم الحاء مفتوحة على الجيم — وهو الثابت هنا — وهو فى الأصل القيد والخلخال. (٤) وآسمه مصعب وقيل نوفل.

وعاتِكَةُ بنت عبد المُطَّلِب

آختلف فى إسلامها، وهى صاحبة الرؤيا[1]، وكانت عند أبى أمية بن المغيرة آبن عبد الله المخزومى، فولدت له عبد الله أسلم وله صحبة[2]، وزُهَيْرا، وقُرَيْبَة الكبرى.

وأَرْوَى بنت عبد المطلب

وقد آختلف أيضا فى إسلامها، وكانت عند عُمَيْر بن وَهْب بن عبد الدّار آبن قصىّ، فولدت له طُلَيْب بن عُمَيْر، وكان من المهاجرين الأوّلين، شهد بدرا وقتل بأَجنادَين شهيدا.

وأُمَيْمة بنت عبد المطلب

كانت عند جَحْش بن رِيَاب، ولدت له عبد الله بن جَحْش قتل بأُحد شهيدا، وأبا أحمد الأعمى الشاعر وآسمه عبد[3]، وزينب زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم، وأمّ حبيبة[4] وحَمْنَة، كلهم له صحبة، وعُبَيْد الله بن جَحْش، أسلم ثمّ تنصّر ومات بالحبشة كافرا.

٧٩/١٦

---

(١) وهى رؤياها فى وقعة بدر؛ قالت: رأيت فى المنام قبل قدوم خبر العير بثلاث ليال رجلا أقبل على بعير، فوقف بالأبطح فقال: آنفروا يا آل غالب لمصارعكم، فى ثلاث، ثم أخذ صخرة فأرسلها من رأس الجبل فأقبلت تهوى حتى ما بقى دار ولا بيت إلا دخل فيها بعضها. فصدّق الله رؤياها. راجع الإصابة وغيرها من كتب السيرة.

(٢) إفراد عبد الله بالصحبة يشعر أن زهيرا ليس بصحابى، والذى فى شرح المواهب أنهما أسلما وصحبا. وفيه: وقريبة بفتح القاف — وقيل بالتصغير.

(٣) فى المواهب (٣ : ٣٤٦): «عبد بلا إضافة، وقيل عبد الله وهو وهم من السابقين».

(٤) أم حبيبة بهاء آخرها، ويروى أم حبيب بلا هاء.

وبَرّة بنت عبد المطلب

وكانت عند عبد الأَسَد بن هِلال بن عبد الله بن عُمَر بن مَخْزُوم ، فولدت له أبا سَلَمَة وٱسمه عبد الله ، وكان زوج أمّ سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأُمّ حَكِيم البَيْضَاء بنت عبد المطلب

٥ وكانت عند كُرَيْز بن رَبِيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، فولدت له أَرْوَى بنت كُرَيْز، وهى أمّ عثمان بن عفان .

هؤلاء أعمامه صلى الله عليه وسلم وعمّاته؛ أسلم منهم حمزة والعباس وصفية بلا ٱختلاف، وٱختلف فى عاتِكة وأَرْوَى، وبقيتهم ماتوا على شركهم. قال أبو عمر ٱبن عبد البر : كان عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طالب والزُّبَير ١٠ وعبد الكعبة وأمّ حكيم وأُمَيْمة وأَرْوَى وعاتِكة ، أمهم كلهم فاطِمَة بنت عمرو ٱبن عَائِذ بن عمران بن مخزوم ، وكان حمزة والمقَوّم وحَجْل وصَفِية أمهم هَالة بنت وُهَيْب، وكان العباس وضِرَار وقُثَم أمهم نُتَيْلَة، وأمّ الحارث سَمْرَاء بنت جُنَيْدب ٱبن جُنْدُب بن حُرْثَان بن سُوَاءَة بن عامر بن صَعْصَعَة، وقيل : صفية بنت جُنْدب ٱبن حُجَيْر بن رِيَاب بن حبيب بن سُوَاءَة، وأمّ أبى لهب لُبْنَى بنت هاجَر بن خُزَاعَة. ١٥ والله تعالى أعلم .

فلنذكر خدمه صلى الله عليه وسلم :

ذكر خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم

الأَحْرار وهم أحد عشر رجلا

أَنَس بن مالك بن النَّضْر

٢٠ ابن ضَمْضَم بن زيد الأنصارى النجّارى، كان يكنى أبا حمزة ، وأمّه أمّ سليم بنت مِلْحَان الأنصارية . خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ٱبن عشر سنين، عند مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة للهجرة ، وٱختلف فى وقت

وفاته فقيل : مات فى سنة إحدى وتسعين ، وقيل : سنة آثنتين وتسعين ، وقيل : سنة ثلاث وتسعين . قال خليفة آبن خياط : مات أنس وله مائة وثلاث سنين ، وقيل : كانت سنه إذ مات مائة وعشر سنين ، وقيل : غير ذلك . وأقل ما قيل فيه مائة سنة إلا سنة ، حكى هذه الأقوال أبو عمر بن عبد البر ؛ قال : ويقال إنه آخر من مات بالبصرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقال : إنه قدم من صُلْبه وولد ولده نحوا من مائة قبل موته ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له فقال : « اللهم آرزقه مالا وولدا وبارك له » قال أنس : فإنى لمن أكثر الأنصار مالا . ويقال : إنه ولد لِأَنَس ثمانون ولدا منهم ثمانية وسبعون ذكرا وأنثيان .

وهِند وأَسْماءُ آبنا حارثة

آبن هند الأَسْلَميان ، شهدا بيعة الرضوان فى إخوة لهما ستةٍ ، وهم : هِند وأَسْماء وخَرَاش وذُؤَيْب وفُضَالة وسَلَمَة ومالِك وحُمْرَان ، ولم يشهدها أخوةٌ فى عددهم غيرهم ، ولَزِم منهم النبىّ صلى الله عليه وسلم هِنْد وأَسْماء ، وكانا من أهل الصُّفَّة ، ومات هِنْد بالمدينة فى خلافة معاوية ، وتوفى أَسْماء فى سنة ست وستين . بالبصرة وهو آبن ثمانين سنة .

ورَبِيعَة بن كَعْب الأَسْلَمى

٨٠/١٦ وهو ربيعة بن كعب بن مالك بن يَعْمَر الأسلمىّ ابو فِرَاس ، وكان من أهل الصُّفَّة ، وكان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر والحضر ، وصحبه قديما ، ومات فى سنة ثلاث وستين بعد الحرّة .

وعبد الله بن مسعود

ابن غافِل بن حبيب بن شَمْخ بن فارِ[(١)] بن مخزوم بن صاهِلَة بن كاهِل بن الحارث ابن تَميم الهُذَلىّ، وكنيته أبو عبد الرحمن، وهو حليف بنى زُهْرَة، وأمه : أمّ عَبْد بنت عبد وَدّ بن سواء[(٢)] بن قويم[(٣)] بن صاهلة بن كاهل بن هُذَيل . أسلم عبد الله فى أوّل الإسلام، وكان سبب إسلامه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يرعى غنما لعُقْبَة بن أبى مُعَيْط، فأخذ شاة حائلا من تلك الغنم فدَرّت عليه لبنا غزيرا فأسلم، ثم ضَمّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وكان يلبسه نعلَيْه إذا قام، و إذا جلس جعلهما فى دُرّاعته[(٤)] حتى يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يمشى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى، ويستره إذا اغتسل، و يوقِظه إذا نام، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذْنُك علىّ أن يُرفَع الحِجابُ وأن تسمع[(٥)] سِوادِى[(٦)] حتى أنهاك» . وكان يعرف فى الصحابة بصاحب السِّوَاد والسِّواك، وهو أحد من شهِد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ومات ابن مسعود بالمدينة فى سنة اثنتين وثلاثين، وصلى عليه عثمان بن عفان، وقيل : عَمّار، وقيل : الزبير بن العوّام ودفنه بالبقِيع ليلا بإيصائه إليه بذلك، ولم يعلم عثمان فعاتب الزبير، وكان يوم تُوفّى ابن بِضع وستين سنة .

---

(١) فى شرح المواهب : ابن شمخ بن فار، بفاء، فألف فراء . وكذا فى الإصابة وأسد الغابة . وفى نسخة ج : ابن فارس .

(٢) فى الإصابة : سواءة . (٣) الاستيعاب : ابن قديم .

(٤) الدراعة : نوع من الثياب . (٥) فى النهاية : تستمع .

(٦) سوادى : سرارى؛ يقال : ساودت الرجل إذا ساررته .

وعُقْبَة بن عامر بن عَبْس

الجُهَنى من جُهَيْنَة بن زيد[(١)] بن سَوْد بن أسْلَم بن عمرو بن الحاف بن قُضَاعة ، وكان يكنى أبا حَمّاد ، وقيل : أبا أسد[(٢)]، وقيل : أبا عمرو ، وقيل : أبا سُعاد ، وقيل : أبا الأسود ، وقيل : أبا عمّار، وأبا عامر . وكان عقبة بن عامر صاحب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقودها به فى الأسفار . قال أبو عمر : سكن عقبة بن عامر مصر، وكان واليا عليها ، وآبتنى بها دارا ، وتوفّى فى آخر خلافة معاوية .

وبِلال بن رَبَاح المؤذِّن

مولى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما ، وكان يكنى أبا عبد الله ، ويقال : أبا عبد الكريم ، وقيل : أبا عبد الرحمن ، وقيل : أبا عمرو ، وقد تقدّم خبره فى أوّل السيرة . وأمه حَمَامَة ، وكان خازنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآخى بينه وبين عُبَيْدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان بلال رضى الله عنه صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان من مُوَلَّدِى السَّراة[(٣)] . مات بدِمَشْق سنة عشرين ، وهو آبن ثلاث وستين سنة ، ودفن بمقبرتها عند الباب الصغير ، وقيل : مات سنة إحدى وعشرين [وهو آبن سبعين سنة[(٤)]] .

وسَعْد مَوْلى أبى بكر الصدّيق

رضى الله عنهما ، خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه الحسن البصرىّ ، ويعدّ فى أهل البصرة .

---

(١) فى التاج وغيره . « زيد بن ليث بن سود ... الخ » .

(٢) وفى أسد الغابة : وقيل : أبو لبيد ، وأبو عمر ، وأبو عبس ، وأبو أسيد ، وأبو أسد وغير ذلك .

(٣) السراة : موضع بين مكة واليمن كما سيأتى للمؤلف . وفى الأصول : « الشراة » بالمعجمة . وما أثبتناه عن أسد الغابة وغيره .

(٤) ما بين القوسين ساقط من أ .

وذو مِخْمَر بن أخى النَّجَاشى

ويقال : ابن أخته، ويقال فيه : ذو مِخْبَر ، خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن عبد البر : وقد عدّه بعضهم فى موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم، له أحاديث خرّجها أهل الشام وهو معدود فيهم .

وبُكَيْر بن شَدّاخ اللَّيْثى

٨١/١٦

وقيل فيه : بَكْر، عدّه الشيخ أبو محمد الدمياطى فى خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

وأبو ذَرٍّ الغِفَارِىّ

ويقال : أبو الذرّ، والأوّل أشهر . واختلف فى اسمه اختلافا كثيرا، فقيل : جُنْدُب بن جُنَادَة، وهو أصحّ ما قيل فيه إن شاء الله . وذكر أبو عمر بن عبد البر الاختلاف فى اسمه ، وترجم عليه بعد ذلك : جُنْدب[2] بن جُنادة بن سفيان بن عبيد ابن الواقِفَة بن حَرَام بن غِفَار بن مُلَيْل بن ضَمْرة بن كِنَانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكة ابن إلْيَاس بن مُضَر بن نِزار الغِفارىّ ، وأمّه رَمْلَة بنت الوَقِيعَة، من بنى غِفار، تقدّم خبر إسلامه فى وفد غِفار فى أوّل هذا[3] السِّفْر، وأقام أبو ذرّ عند قومه بعد إسلامه حتى مضت بَدْرٌ وأُحُدٌ والخَنْدَقُ، ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) ترجم له أسد الغابة ، وذكر أنه من خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان يخدمه وهو غلام فلما احتلم جاء إلى رسول الله فقال له : إنى كنت أدخل على أهلك وقد بلغت مبلغ الرجال ، فقال له رسول الله : " اللهم صدق قوله ولقه الظفر " ، وأورد قصة له فى عهد عمر بن الخطاب كانت من أعلام النبوة ، وبركة دعوته صلى الله عليه وسلم .

(٢) الذى فى الاستيعاب لابن عبد البر : «جندب بن سفيان بن جنادة بن عبيد» الخ .

(٣) راجع ص ٣ وما بعدها من هذا الجزء .

فصحبه إلى أن مات . وقد ذكرنا قِصة أبى ذرّ فى غزوة تَبُوكَ ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رحم الله أبا ذرّ يمشى وحده و يموت وحده و يبعث وحده» وكان من خبره أنه خرج بعد وفاة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه إلى الشام ، فلم يزل به حتى كانت خلافة عثمان بن عفان ، فاستقدمه عثمان لشكوى معاوية ، وأسكنه الرَّبَذَة[1] ، فمات بها وصلى عليه عبد الله بن مسعود ، وكان قد أقبل من الكوفة فدعى إلى الصلاة عليه ، فقال : من هذا ؟ فقيل : أبو ذرّ ، فبكى طويلا وقال : أخى وخليلى عاش وحده ، ومات وحده ، ويبعث وحده ، طُوبَى له . وذلك فى سنة ست وثلاثين من الهجرة . روى عن أبى ذرّ جماعة من الصحابة ، وكان من أوْعِية العلم المُبرِّزين فى الزهد والورع والقول بالحق ؛ سئل علىّ رضى الله عنه عن أبى ذرّ فقال : ذاك رجل وَعَى علما عجز عنه الناس ، ثم أوْكَأ[2] عليه ولم يخرج شيئا منه . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أظَلّت الخَضْرَاءُ[3] ولا أقلّت الغَبْرَاءُ من ذِى لَهْجَة[4] أصدقَ من أبى ذرّ » و«من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر[5] إلى تواضع أبى ذرّ » . وفضائله كثيرة رضى الله عنه .

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَسْلَع ابن شَرِيك » الأَعوَجى التميمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب راحلته ، وأبو سَلام الهاشمى ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه .

---

(١) الربذة (بفتحات) : موضع قرب المدينة . (٢) أوكأ : شدّ عليه بوكاء وهو حبل يشدّ به فم القربة ، أراد لم ينشره بين الناس . (٣) الخضراء : السماء ، والغبراء : الأرض ، وأقلت : حملت . (٤) اللهجة : اللسان .

(٥) الرواية فى الجامع الصغير : " من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى فلينظر إلى أبى ذر " .

ذكر موالِي رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الشيخ[1] أبو محمد الدمياطى رحمه الله تعالى : ومواليه من الرجال أحد وثلاثون ، وهم :

زيد بن حارثة بن شَرَاحيل الكلبي — وكان لخديجة فاستوهبه رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأعتقه ، وقد تقدمت أخباره ومقتله فى مُؤْتة[2] .

وأُسَامة بن زيد بن حارثة — وأمه أم أيْمَن ، بَرَكة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات أسامة فى خلافة معاوية ، فى سنة ثمان وخمسين ، وقيل : سنة تسع ، وقيل : سنة أربع وخمسين ، وصححه أبو عمر . وكان عمره يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة سنة ، وقيل : عشرين ، وقيل : ثمانى عشرة ، وسكن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وادى القُرى ، ثم رجع إلى المدينة فمات بالجُرْف .

وثَوْبَان بن بُجْدُد — وكنيته أبو عبد الله على الأصح ، وهو من أهل السَّراة[3] ، والسراة موضع بين مكة واليمن ، وقيل : من حِمْير ، وقيل : إنه من حَكَم بن سَعْد العَشِيرة ، أصابه سِبَاء فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه ، ولم يزل معه فى السفر والحضر إلى أن توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إلى الشام فنزل الرَّمْلَة ، ثم انتقل إلى حِمْص فابتنى بها دارا : وتوفى بها سنة أربع وخمسين ،

---

(١) فى أ « شيخنا » .

(٢) مؤتة ، بضم الميم وسكون الواو وبغير همز ، عند الأكثر ، وبالهمز عند بعضهم : موضع من عمل البلقاء بالشام ، وهى غزوة مشهورة ، ومن الوقائع الحاسمة .

(٣) فى الأصول : « الشراة » وتقدم القول فيه .

وكان ممن حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدّى ما وَعَى . روى عنه جماعة من التابعين .

وأبو كَبْشَة سُلَيْم — شهد بدرا والمشاهد كلها ، قيل : هو من فارس ، وقيل : من مولّدى أرض دوس ، وقيل : من مولّدى مكة ، ٱبتاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه ، وتوفى فى سنة ثلاث عشرة ، فى اليوم الذى ٱستخلف فيه عمر بن الخطاب ، وقيل : توفى فى سنة ثلاث وعشرين ، فى اليوم الذى ولد فيه عُرْوَة بن الزبير . والله تعالى أعلم .

٨٢/١٦ وأَنَسَة — ويكنى أبا مِسْرَح ، ويقال أبو مَسْرُوح — وكان من مولّدى السَّرَاة — ٱشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه . ذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدرا ، وقال ٱبن إسحق : كان يُأْذَن على النبى صلى الله عليه وسلم إذا جلس فيما حكاه مصعب الزبيرى ، ومات فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه .

وشُقْران — وٱسمه صالح ، وكان حبشيا ، قيل : ورثه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيه وأعتقه بعد بَدْر ، قيل : ٱشتراه من عبد الرحمن بن عوف وأعتقه ، وقيل وهبه له فأعتقه وأوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته[1] .

ورَبَاح — وكان أسود نُوبِيّا ٱشتراه من وفد عبد القيس وأعتقه ، قال أبو عمر : وربما أَذِن على النبى صلى الله عليه وسلم أحيانا ، إذا ٱنفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ عليه الإذْن .

ويَسَارُ — وكان نُوبِيّا أصابه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته ، وهو الذى قتله العُرَنِيّون كما تقدّم .

---

(١) فى أ « بعد » .

وأبو رافع — واسمه أَسْلَم ، وقيل : إبراهيم ، وكان عبدا للعباس ، فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم العباس بَشّر أبو رافع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه ، فأعتقه وزوّجه سَلْمَى مولاته ، فولدت له عبيد الله ، وكان عبيد الله كاتبا لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فى خلافته كلها، قيل : وخازنا أيضا .

٥ ومات أبو رافع فى آخر خلافة عثمان بالمدينة ، وقيل : فى خلافة علىّ ، قيل : وكان أبو رافع قِبْطِيّا .

وأبو مُوَيْهِبَة — وكان من مُوَلَّدى مُزَيْنَة ، اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه .

ورافع[(١)] — قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله : كان مولًى لسعيد بن

١٠ العاص ، فورثه ولده ، فأعتقه بعضهم وتمسّك بعضهم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينه فوهب له ، فكان يقول : أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد حكى أبو عمر ذلك فى أحد القولين عن أبى رافع المقدّم ذكره . والله أعلم .

وفُضَالَة — وهو مذكور فى موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال ابن عبد البر : لا أعرفه بغير ذلك ، قيل : إنه مات بالشام .

١٥ ومِدْعَم — أسْوَد، وهبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم رِفَاعَة بن زيد الجُذامى، وهو الذى قتل بوادى القُرى ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشَّمْلَة التى غَلَّها تُشْعَل عليه نارا[(٢)] » .

وكِرْكِرَة[(٣)] — وكان على بغلة النبى صلى الله عليه وسلم وكان نُوبِيّا أهداه له هَوْذَة ابن على فأعتقه .

٢٠ (١) كنيته أبو البهى، فى أسد الغابة : فأتى النبى يستشفع به على الرجل فوهب الرجل نصيبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . (٢) الغل : أخذ شىء من الغنيمة قبل القسمة ، وقد أخذ مدعم شملة من فىء المسلمين يوم خيبر قبل القسمة . (٣) ضبط فى الإصابة بفتح الكافين وكسرهما ، والنووى بكسر الثانية جزما .

وزيد — وهو جد بِلال بن يَسَار بن زيد[(١)] .

وعُبَيْد، وطَهْمَان — موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختلف فى طَهْمَان، فقيل : طَهْمان ، وقيل : طَهْوَان ، وقيل : ذَكْوَان ، وأما عبيد فروى عنه سليمان التَّيمى .

ومَابُور — أهداه إليه المُقَوْقِس ، وقيل : كان خصيًّا . ٥

ووَاقِد، وأبو وَاقِد[(٢)]، وهِشام، وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن آمرأتى لا تمنع يد[(٣)] لامِس، قال : « طلقها » قال : إنها تعجبنى . قال : « فآستمتع بها » .

وأبو ضُمَيْرَة — قيل : آسمه سَعْد الحِمْيَرِىّ، قال البخارى : وقيل فى آسمه غير ذلك . وكان مما أفاء الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جد حسين ١٠ آبن عبد الله بن ضُمَيْرَة، وقيل : وكان من العرب فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب له كتابا يوصى به فهو بيد ولده ، قال أبو عمر : وقدم حسين آبن عبد الله بن ضُمَيْرة على المهدى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيصاء بأبى ضُمَيْرة وولده، فوضعه المهدى على عينَيْه، ووصله بثلثمائة دينار .

وحُنَيْن — قال أبو عمر بن عبد البر : كان عبدا وخادما للنبى صلى الله عليه ١٥ وسلم، فوهبه لعمه العباس فأعتقه العباس قال : وقد قيل إنه مولى على بن أبى طالب، وعدّه الشيخ أبو محمد فى موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فى نسخ الأصل : هلال ، والصواب ما أثبتناه ، من المواهب وغيره .

(٢) أسد الغابة آعتبرهما واحدا — وإن أفرد كلا منهما بترجمة — حيث أورد حديث « من أطاع الله... » عن واقد كما أورده عن أبى واقد ، وعدهما فى شرح المواهب واحدا أيضا وقال : « واقد أو أبو واقد » . ٢٠

(٣) قال آبن الأثير مادة (لمس) : « قيل معنى لا ترد يد لامس أنها تعطى من ماله من يطلب منها ، وهذا أشبه ؛ قال أحمد : لم يكن ليأمره بإمساكها وهى تفجر » .

وأبو عَسِيب — واسمه أَحْمَر .

وأبو عبيدة سَفِينَة[1] — فكان عبدا لأم سَلَمَة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فأعتقته، واشترطت عليه أن يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدّة حياته، فقال : لو لم تشترطي عليّ ذلك ما فارقته ، وكان اسمه رَبَاح ، وقيل : عُمَيْر، وقيل : رُومَان . وقيل : مِهْرَان . قال الواقدى : وقال أبو عمر : مِهْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير سَفِينَةَ .

سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم سَفِينَةَ بهذا الاسم ؛ لأنه كان معه فى سفر؛ فكان كل من أعيا ألقى عليه متاعه سيفا أو تُرْسا ، فمر النبى صلى الله عليه وسلم به فقال : « أنت سفينة » وكان أسود من مُوَلَّدى الأعْراب .

٨٣/١٦ وأبو هِنْد — وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حقه زوجوا أبا هند وتزوجوا إليه، قال أبو محمد: ابتاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْصَرفه من الحُدَيْبية وأعتقه .

وأَنْجَشَة — وكان حاديًا للجمال ، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له « يا أَنْجَشَةُ رِفْقا بالقَوَارير »[2] .

---

(١) فى أسد الغابة : أبو عبيد مولى رسول الله . هكذا بغير هاء ، وأورد رواية عنه من طريق شهر ابن حوشب . وفى أسد الغابة أن سفينة مولى رسول الله عليه السلام غير أبى عبيدة ، وذكر أن سفينة قال : ركبت سفينة فانكسرت فركبت لوحا منها فطرحنى إلى الساحل فلقينى أسد فقلت : أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطأطأ رأسه ، فجعل يدفعنى بجنبه حتى أوقفنى على الطريق ، فلما أوقفنى على الطريق همهم فظننت أنه يودعنى . (٢) أنجشة عبد أسود حسن الصوت بالحداء — وهو الغناء — فحدا بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فأعنقت الإبل وأسرعت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشة ... » الحديث ويروى « يا أنجشة رويدك ... » الحديث ، والقوارير جمع قارورة : إناء من زجاج شبه به النساء لأنه يسرع إليها الكسر .

وأُنَيْسَة — وكان حبشيا فصيحا شهد بدرا، وأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

وأبو لُبَابَة — كان لبعض عمّات رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه ، وهو معدود فى موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورويفع — سباه رسول الله صلى الله عليه وسلم من هَوَازن فأعتقه . ٥

وسَعْد — وهو الذى روى عنه أبو عثمان النهدى . ذكره أبو عمر بن عبد البر .

هؤلاء المشهورون من موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله : وقد قيل إنهم أربعون ، وزاد يوسف بن الجوزى : أبا كِنْدير ، وسَلْمَان الفارسى ، وسالما ، وسابقا — ذكره أبو عمر — خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيد بن رصولا (١) ، وعُبَيْد الله بن أَسْلَم ، ونُبَيْه : ١٠ وقيل فيه : النَّبِيهُ ، وقيل النُّبَيْه ، بضم النون وفتحها ، ووَرْدَان .

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة أُخَر، منهم أبو الحَمْراء واسمه هلال بن الحارث ، ويقال : هلال بن ظَفَر ، وأفْلَح ، وذَكْوَان، وفى اسمه خلاف ، وأبو عُبَيْد، له رِواية ، وأبو لَقِيط ، وأبو السَّمْح أَيَادٍ (٢) ، وقيل : خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضُمَيْرة بن أبى ضُمَيْرة، قال أبو عمر : ١٥ مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمّ ضُمَيْرة وهى تبكى فقال : « ما يبكيك أجائعة أنت أم عارية » ؟ فقالت : يا رسول الله، فرق بينى وبين ابنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يفرق بين والدة وولدها » ثم أرسل إلى الذى عنده ضُمَيْرة فابتاعه منه .

(١) كذا فى كلا الأصلين وفى الإصابة وأسد الغابة « زيد بن بولا » . ٢٠
(٢) فى هامش الاستيعاب : « زياد » .

وكَيْسَان ، أو مِهْرَان ـ وآسمه هُرْمُز يكنى أبا كَيْسَان ، آختلف فيه على عطاء آبن السائب ، فقيل : كيسان ، وقيل : طَهْمَان ، وقيل : ذَكْوَان ، وأبو بَكْرَة نُفَيْع آبن مَسْرُوح ، وهو آبن سُمَيَّة جارية الحارث بن كَلَدَة الثَّقَفى ، معدود فى مَوَالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقه لما نزل إليه من حِصْن الطَّائف ، وأسلم فكان يقول : أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أبى الناس إلا أن يَنْسُبونى فأنا نُفَيْع بن مَسْرُوح ، وكَنَّاه رسول الله أبا بَكْرَة ؛ لأنه تدلّى إليه من بَكْرَة من الحِصْن .

وأبو سَلْمَى ـ راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل : آسمه حارث ، فهؤلاء عشرة أُخَر لتكملة خمسين . والله أعلم .

ومن النساء[(١)] : أمّ عياش[(٢)] ، وأُمَيْمَة[(٣)] ؛ وأم رافع سَلْمَى[(٤)] ، و بَرَكَة أم أيْمَن[(٥)] ، ومارية[(٦)] ، ورَيْحَانَة[(٧)] ، ورُبَيِّحة ، ومَيْمُونة بنت [أبى][(٨)] عَسِيب ، وخَضْرة[(٩)] ، ورَضْوَى ، وأم ضُمَيْرة[(١٠)] . وذكر أبو عمر بن عبد البر أُمَيْمَة لها رواية ، ومَيْمُونة بنت أبى عَنْبَسة غير ميمونة المذكورة آنفا ، والله أعلم .

(١) قوله : ومن النساء . معطوف على ترجمة الباب حيث قال : ومواليه صلى الله عليه وسلم من الرجال . (٢) أم عياش : قيل كانت أمة لرقية بنت رسول الله فى رواية ، وقيل خادم رسول الله ومولاته . (٣) أميمة مولاة رسول الله ، كانت توضئ رسول الله . (٤) أم رافع : قابلة إبراهيم بن رسول الله وقابلة آبنى فاطمة الزهراء الحسن والحسين رضوان الله عنهم ، وخادم رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٥) وبركة أم أيمن : حاضنة رسول الله ومولاته وهى حبشية .

(٦) مارية القبطية : مولاة رسول الله وسريته أم إبراهيم عليه السلام بن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٧) ريحانة : سرية رسول الله من بنى قريظة ، ويقال : ربيحة كما فى أسد الغابة فتكون نفس ريحانة .

(٨) فى أسد الغابة بنت أبى عسيب . وقيل بنت أبى عنبسة .

(٩) خضرة ، ورضوى : ذكرتا فى موالى رسول الله ، ولم يرو عنهما شىء .

(١٠) أم ضميرة : هى التى ورد بسببها حديث : « لا يفرق بين والدة وولدها » .

ذكر حُرّاس رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى غزواته، وهم ثمانية : سعد بن معاذ حرسه يوم بدر حين نام بالعريش ، وذَكْوان بن عبد الله بن قَيْس ، ومحمد بن مَسْلَمَة الأنصارى حرسه بأُحُد، والزُّبَير ابن العوّام حرسه يوم الخندَق،وعبّاد بن بِشْر ، وسَعْد بن أبى وقّاص، وأبو أيُّوب الأنصارىّ حرسه بخيبر ليلة بَنَى بِصفيّة ، وبِلال حرسه بوادى القُرَى . ولما أنزل الله تعالى : « يأيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ من رَبِّكَ وإنْ لم تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »(١) ترك عند ذلك الحرس .

ذكر كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهم : أبو بكر الصِّدّيق ،وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب وعامر بن فُهَيْرة ، وعبدالله بن الأرْقَم ، وأُبَىّ بن كَعْب ، وثابت بن قيس بن شَمّاس ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وحَنْظَلة بن الربيع الأسدى ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية ابن أبى سُفيان ، وشُرَحبيل بن حَسَنَة ، وكان معاوية وزيد يكتبان الوَحْى . قال الشيخ الإمام الفاضل محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح الأنصارى الخزرجى الأندلسى ثم القرطبى رحمه الله تعالى فى كتاب الأعلام له : والعَلاء بن الحَضْرمى، قال : وكان المداويم على الكتابة زيد ومعاوية ،قال : ويقال إن معاوية لم يكتب له من الوحى شيئا ، وإنما كان يكتب إلى الأطراف ، وكتب له عبد الله بن سرح ثم ارتدّ ، فلما كان يوم الفتح أسلم وحسن إسلامه ، وذكر القضاعى : وكان الزبير ابن العوّام وجَهْم بن سعد يكتبان أموال الصدقة ، وكان حُذيفة بن اليَمان يكتب خَرْص النخل ، وكان المغيرة بن شعبة والحُصَيْن بن نُمَيْر يكتبان المداينات والمعاملات .

(١) آية ٦٧ سورة المائدة .

وذكر الحافظ أبو الخطاب بن دِحْيَة : أن كتابه عليه السلام ينتهون إلى سنة وعشرين، والله أعلم .

قال : وقد قدمنا ذكر رسله صلى الله عليه وسلم .

ذكر رُفَقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

النُّجَبَاء وهم اثنا عشر : أبو بكر، وعمر، وحمزة، وعلىّ، وجعفر، وأبو ذَرّ، والمِقْداد، وسَلْمان، وحُذيفة، وابن مسعود، وعمّار بن ياسر، و بِلال بن رَبَاح .

وكان على بن أبى طالب والزبير بن العوام ومحمد بن مَسْلَمَة وعاصِم بن أبى الأَقْلَح[1] والمِقْداد، رضوان الله عليهم أجمعين يضربون الأعناق بين يديه صلى الله عليه وسلم، وحيث ذكرنا من سيرته صلى الله عليه وسلم ما ذكرنا، فلنأخذ الآن فى ذكر صفاته الذاتية والمعنوية وأحواله صلى الله عليه وسلم .

٨٤/١٦

ذكر صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذاتية

قد وردت الأخبار الصحيحة والمشهورة من حديث علىّ بن أبى طالب وأنس ابن مالك وأبى هُرَيرة والبَرَاء بن عازِب وعائشة أم المؤمنين وابن أبى هَالة وأبى جُحَيْفَة وجابر بن سَمُرَة وأم مَعْبَد[2] وابن عباس، ومُعَرِّض بن مُعَيْقيب وأبى الطُّفَيل، والعدّاء بن خالد وخُرَيْم بن فاتِك وحَكيم بن حِزام، وغيرهم رضوان الله عليهم : أنه كان صلى الله عليه وسلم رَبْعَة[3] من القوم : لا بَائِنٌ[4] من طُول، ولا تَقْتَحِمه[5] عين من قِصَر،

(١) الذى فى أسد الغابة : عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح .

(٢) أم معبد : هى عاتكة بنت خالد الخزاعية .

(٣) ربعة بسكون الباء والفتح لغة : أى معتدل، وقد فسر الربعة بما بعده .

(٤) البائن هنا : المفرط فى الطول . (٥) لا تقتحمه : لا تتجاوزه ازدراء له .

غُصْن بين غُصْنَين، بعيد ما بين المنكبين، أبيض اللون، مُشرب حُمْرة، وفى رواية أزهر اللون، ليس بالأبيض الأمْهق[(١)]، ولا بالآدَم، له شعر رَجِل[(٢)]، يبلغ شَحْمَة أذنيه إذا طال، وإذا قصر إلى أنصافهما، لم يبلغ شَيْبُه فى رأسه ولحيته عشرين شعره، كأن عنقه جِيد[(٣)] دُمْيَة، فى صَفاء الفِضّة، وظاهر الوَضَاءة[(٤)] مُبْلَج[(٥)] الوجه، يتلألأ وجهُه تلألؤ القمر ليلة البدر، حسن الخُلق معتدلُه، لم تَعِبه ثُجْلة[(٦)] ولم تُزْر به صَعْلة[(٧)]، وَسِيما قَسِيما[(٨)]، فى عينَيْه دَعَج[(٩)]، وفى بياضهما عُروق رِقاق حُمْر، وفى أشفاره غَطَف[(١٠)]، وفى صوته صَهَل[(١١)]، وروى صَحَل، وفى عنقه سَطَع[(١٢)]، وفى لحيته كُثّة[(١٣)]، إذا صَمَت فعليه الوَقار[(١٤)]، وإن تكلم سَما[(١٥)] وعلاه البَهاء، أجمل الناس وأَبْهاه من بعيد،

(١) الأمهق : الكريه البياض كلون الجص .

(٢) رجل بكسر الجيم : بين شدة الجعودة ، وشدة السبوطة .

(٣) الجيد : العنق، والدمية بضم الدال : الصورة المنحوتة من رخام أو عاج .

(٤) الوضاءة : الحسن .

(٥) المبلج : المشرق المضيء .

(٦) الثجلة : عظم البطن .

(٧) الصعلة : صغر الرأس، والدقة والنحول فى البدن أيضا .

(٨) الوسيم : الثابت الحسن . والقسيم : جميل الوجه كله ، كأن كل موضع منه أخذ قسما من الجمال .

(٩) الدعج : شدة سواد العين فى شدة بياضها .

(١٠) الغطف : بفتحتين هو أن يطول شعر الأجفان ثم ينعطف ، ويروى بالعين المهملة .

(١١) صهل : حدة وصلابة ، والصحل : بحة فى الصوت وعدم حدته .

(١٢) السطع : طول العنق .

(١٣) الكثة : كثافة الشعر فى غير دقة ولا طول .

(١٤) الوقار : الحلم والرزانة .

(١٥) سما : ارتفع وعلا على جلسائه .

وأحلاه وأحسنه من قريب ، حُلو المَنْطق (١) فَصْل : لا نَزْر ولا هَـذْر (٢) كأنّ منطقه خَرَزات (٣) نَظْم يَنْحَدِرْن ، واسِع الجَبِينِ (٤) ، أَزَجّ (٥) الحواجب فى غير قَـرْن ، بينهما عِرْق يُدِرّه الغضب ، أَقْنَى (٦) العِرْنين ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أَشَمّ (٧) ، سهل الخَدّين (٨) ، ضليع (٩) الفم ، أَشْنَب (١٠) ، مُفَلَّج (١١) الأسنان ، دقيق المَسْرُبَة (١٢) ، من لَبَّتِه (١٣) إلى سُرَّته شعر يجرى كالقَضِيب ، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره ، أَشْعَر الذراعين والمنكبين ، بادِن (١٤) متماسك (١٥) ، سَوَاء الصدر والبطن (١٦) ، سَبِيح الصدر ، ضَخْم الكَرَادِيس (١٧) ، أَنْوَر المتجرّد (١٨)

(١) فصل : بين ظاهر يفصل بين الحق والباطل ، والنزر : القليل ، أى ليس بقليل فيدل على عىّ .

(٢) الهذر : الهذيان ، أى ليس بالقليل الدال على العىّ ولا بالكثير الفاسد ، وفى هامش ج : لا نزر ولا هذر : أى ليس كلامه بقليل لا يفهم ، ولا بكثير يمل .

(٣) الخرزات جمع خرزة : الجوهر ، ونظامه : جعله فى سلك . ينحدرن : يتتابعن فى النزول .

(٤) الجبين : فوق الصدغ .

(٥) أزج الحواجب : الزجج تقوس فى الحاجب مع طول فى طرفه وامتداد ، وقوله : «عرق يدره الغضب» أى يمتلىء دما إذا غضب كما يمتلئ الضرع لبنا إذا در . النهاية .

(٦) أقنى العرنين : القنى فى الأنف طوله ورقة أرنبته مع حدب فى وسطه ، والعرنين : الأنف .

(٧) أشم : الشمم ارتفاع قصبة الأنف واستواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلا .

(٨) سهل الخدين : سائل الخدين غير مرتفع الوجنتين .

(٩) ضليع الفم : أى عظيمه ، وقيل : واسعه ، والعرب تمدح بذلك وتذم بعكسه .

(١٠) أشنب : الشنب البياض والبريق والتحديد فى الأسنان .

(١١) مفلج ، وأفلج : والفلج بالتحريك فرجة بين الثنايا والرباعيات .

(١٢) المسربة : ما دق من شعر الصدر سائلا إلى الجوف .

(١٣) اللبة : الهزمة التى فوق الصدر وتحت العنق .

(١٤) بادن متماسك : البادن الضخم ، والمتماسك الذى يمسك بعض أعضائه بعضا فهو معتدل الخلق .

(١٥) سواء الصدر والبطن : هما متساويان لا ينبو أحدهما عن الآخر .

(١٦) سبيح الصدر : عريضه . فى رواية الترمذى : عريض الصدر .

(١٧) الكراديس : رءوس العظام ، وقيل : ملتقى كل عظمين كالركبتين والمرفقين ، يعنى ضخم الأعضاء .

(١٨) المتجرد : ما كشف من جسده أى مشرق الجسد .

عريض الصدر، طويل الزندين، رَحْب الراحة، شَثْن[1] الكَفّين والقدمين، سائل الأطراف، سَبْط[2] القَصَب، خُمْصان[3] الأخْمَصَيْن، مَسِيح القدمين، يَنْبو عنهما الماء، إذا زال زال قَلِعا[4]، وفى رواية: إذا مشى يَقْلَع — كناية عن قوة الخَطْوِ كالذى يمشى فى طين — ويخطو تكفّيًا[5] ويمشى هَوْنا، ذَرِيع المِشْيَة[6]، إذا مشى كأنما ينحطّ من صَبَب[7]، وإذا التفت التفت جميعا، بين كتفيه خاتم النبوة كأنه زرّ حَجَلَة[8] أو بيضة حمامة، لونه كلون جسده عليه خِيلان[9]، كأن عرقه اللُّؤلُؤ، ولَرِيح عرقه أطيب من ريح المِسْك الأذفر[10]، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم، قال البَراء: ما رأيت من ذى لِمّة[11] فى حُلّة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنّ الشمس تجرى فى وجهه، وإذا ضحك يتلألأ فى الجُذُر[12]،

(١) شثن الكفين والقدمين: أى إنهما يميلان إلى الغلظ والقصر.

(٢) سبط القصب: القصب الساعدان والساقان، أى ممتدان ليس فيهما نتوء ولا تعقد.

(٣) خمصان الأخمصين: أى مرتفع الأخمصين، وهما أسفل القدمين أى إن ذلك الموضع منهما شديد التجافى عن الأرض.

(٤) إذا زال زال قلعا: أراد قوة مشيه، كأنه يرفع رجليه من الأرض رفعا قويا، لا كمن يمشى اختيالا ويقارب خطاه، فإن ذلك من مشى النساء.

(٥) تكفيا: تمايل إلى قدام، ويروى بالهمز.

(٦) ذريع المشى: سريعه واسع الخطو. (٧) ينحط من صبب: من موضع منحدر.

(٨) زر حجلة: الزر أحد الأزرار التى تشد بها الكلل والستور على ما يكون فى حجلة العروس، والحجلة: بيت كالقبة يستر بالكلل وتكون له أزرار. (٩) خيلان جمع خال: هو الشامة فى الجسد.

(١٠) الأذفر: طيب الريح.

(١١) ذى لمة: اللمة من شعر الرأس دون الجمة، فإذا زادت فهى الجمة.

(١٢) الجذر جمع جذر: وهو أصول الأسنان، يتلألأ أصول أسنانه، وفى المواهب: إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه.

وقال جابر بن سَمُرَة، وقد قال له رجل كأنّ وجهه صلى الله عليه وسلم مثلُ السيف، فقال : لا، بل مثلُ الشمس والقمر . وكان مستديرا، وكان عمر بن الخطاب ينشد قول زُهَيْر بن أبى سُلْمى فى هَرِم بن سِنان :

لو كنتَ مِن شيءٍ سِوَى بَشَرٍ * كنتَ المُضِيءَ لِلَيْلةِ البَدْرِ (١)

٥ ثم يقول عمر وجلساؤه : كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن كذلك غيره . وفيه عليه السلام يقول عمه العباس (٢) رضى الله عنه وأرضاه :

وَأَبْيَض يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوَجْهِه * رَبِيعُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِل (٣)

٨٥/١٦ تُطِيفُ به الهُلَّاكُ من آل هاشم * فهم عنده فى نِعْمَة وفَضائل (٤)

وميزانُ حقٍّ لا يَخِيسُ شَعِيرَةً * ووَزّانُ عَدْلٍ وزْنُه غيرُ عائِل (٥)

---

١٠ (١) فى الديوان : كنت المنير، ويروى : كنت المنور ليلة .

(٢) فى نسخ الأصل : العباس، والصواب أن قائل القصيدة أبو طالب والقصيدة مشهورة به .

(٣) ربيع اليتامى ؛ المشهور « ثمال اليتامى » : الملجأ والغياث، وقيل : هو المطعم فى الشدّة، والعصمة : المانع من الضياع والحاجة، والأرامل : المساكين من رجال ونساء . كذا فى النهاية .

(٤) تطيف به : تدور حوله . الهلاك جمع هالك، وهو الذى ينتاب الناس ابتغاء معروفهم .

١٥ (٥) هذا البيت ورد فى نسخ الأصل على هذا الترتيب وليس كذلك فى قصيدة أبى طالب، وإنما البيت كما فى ابن هشام وابن كثير هكذا :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا * عقوبة شر عاجلا غير آجل

بميزان قسط لا يخيس شعيرة * له شاهد من نفسه غير عائل

ويروى : لا يخس، من أخس أى لا ينقص، أما يخيس فمن قولهم : خاس بالعهد إذا نقضه وأفسده،

٢٠ وعائل : جائر .

ذكر صفة خاتم النبوّة

الذى كان بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم

رُوى عن جابر بن سَمُرَة . وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم، فقال : ورأيت خاتمه عند كتفيه مثل بيضة الحمامة يُشْبِهُ جِسمه ، وعن أبى رِمْثَة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا رِمْثة آدْنُ منّى آمسحْ ظهرى » فدنوت منه[1] فمسحت ظهره، ثم وضعت أصابعى على الخاتم فغمزتها[2]، فقيل له : وما الخاتم ؟ فقال : شعر مجتمع عند كتفيه . وعنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت فإذا خَلْف كتفيه مثل النُّفَاخة[3]، قلت : يارسول الله، إنى أُداوِى فدَعْنى حتى أبُطّها[4] وأداويها، قال : «طبيبها الذى خلقها» . وعنه من طريق آخر قلت : يارسول الله إنى طبيب من أهل بيت أطِبّاء، وكان أبى طبيبا فى الجاهلية، معروفا ذلك لنا فأْذَن لى فى التى بين كتفيك، فإن كانت سِلْعَة[5] بطَطتُها فشفا الله نبيه، فقال : « لا طبيب لها إلا الله » وهى مثْل بيضة الحمامة .

ذكر صفة شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوله

روى عن أبى إسحق قال : سمعت البَرَاء يصف شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان شعره إلى شحمة أذنيه . وعنه قال : سمعت البَرَاء يقول : ما رأيت أحدا من خلق الله أحسنَ فى حُلّة حَمْراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) « منه » ساقطة فى ج .

(٢) الغمز : العصر والكبس باليد . وفى كلا الأصلين « غمرتها » بالراء ولعله تصحيف .

(٣) النفاخة : هنة منتفخة تكون فى بطن السمكة .

(٤) البط : شق الدمل والخراج ونحوهما .

(٥) السلعة : غدة تظهر بين الجلد واللحم إذا غمزت باليد تحركت .

إن جُمّته لتضربُ قريبا من مَنْكِبيْه، وفى لفظ، من عاتقيْه . وعن قَتادة قال : قلت لأنس بن مالك كيف كان شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : كان شعرا رَجِلا ليس بالسَّبْط ولا بالجَعْد بين أذُنَيْه وعاتقه . وعن أنس : كان لا يجاوز شعره أذنيه ، وعنه : كان إلى أنصاف أذنيه . وعن على رضى الله عنه قال : كان شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق الوَفْرة[1] ودون الجُمّة . وعن أمّ هانئ قالت : رأيت فى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ضَفَائر أربعا . وعنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم مكة وله أربع غَدَائر . وعن جابر بن سَمُرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير شعر اللحية[2] . وعن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد على قِصَاص[3] شعره .

ذكر عدد شَيْبِ رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومن قال إنه خَضَب

روى عن حُمَيْد الطويل قال : سُئل أنس بن مالك هل خَضَب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ماشانه الله بالشَّيْب ، وما كان فيه من الشَّيْب مايُخْضَب ، إنما كانت شَعَرات فى مقدّم لحيته ، ولم يبلغ الشَّيْب الذى كان به عشرين شعرة . وفى رواية عن أنس أيضا : ما كان فى رأسه ولحيته إلا سبع عشرة أو ثمان عشرة . ٨٦/١٦ وعن جابر بن سَمُرة ، وقد سُئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان إذا دَهَن رأسه لم يتبيّن ، وإذا لم يدهنه تَبَيّن . وعن محمد بن واسع ، قيل :

(١) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن ، والجمة من شعر الرأس ما سقط على المنكبين .

(٢) هذه رواية مسلم عن جابر بن سمرة ، وفى الأصول : « كثير ، يعنى الشعر واللحية » .

(٣) قصاص شعره : منتهى شعر الرأس حيث يؤخذ بالمقص .

يارسول الله، لقد أسرع إليك الشَّيب، فقال: «شيبتنى ﴿الر. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[1] وأخواتها». وعن أبى سلمة، قيل: يارسول الله، نرى فى رأسك شيبا، قال: «مالى لا أشيب وأنا أقرأ هُودًا وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[2] وفى رواية «وما فُعل بالأمم قبلى». وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال أبو بكر: أراك قد شبت يارسول الله، قال: «شيبتنى هُودٌ والوَاقِعَة والمُرْسَلَاتُ وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» ومن رواية «وأخواتها اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، والمرْسَلَاتُ وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» وفى رواية أخرى عن أنس قال قال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه: بأبى وأمى يارسول الله، وما أخواتها[3]؟ قال: «الواقعةُ والقارعةُ وسأل سائلٌ وإذا الشَّمسُ كُوِّرتْ» هذا ما رأيناه مما ورد فى شيبه وسببه.

وأما من قال إنه خضب صلى الله عليه وسلم

فقد روى عن عبد الله بن مَوْهَبَة[4] قال: دخلنا على أم سَلَمة رضى الله عنها، فأخرجت إلينا صُرَّة فيها شعر من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم مخضوبا بالحِنّاء والكَتَم[5]. وعن ربيعة بن أبى عبد الرحمن قال: رأيت شعرا من شعره — يعنى النبى صلى الله عليه وسلم — فإذا هو أحمر، فسألت عنه فقيل لى: أحمر من الطِّيب. وعن أبى جعفر قال: شَمِط[6] عارضا رسول الله صلى الله عليه وسلم فخضبه بحِنّاء وكَتَم،

(١) آية ١ سورة هود. (٢) آية ١ سورة التكوير.

(٣) كذا فى نسخ الأصل، وكأنه سقط من هنا حديث «شيبتنى هود وأخواتها» رواه الطبرانى وابن مردويه وابن عساكر، فقال له أبو بكر: وما أخواتها. (٤) تعقبه فى التهذيب بأن عبد الله ابن موهب لا يعرف فى الرواية، والحديث عن عثمان ابنه مولى طلحة. (٥) الكتم: دهن من أدهان العرب أحمر يجعل فيه الزعفران. (٦) الشمط: الشيب.

وعن أبي رِمْثَة أنه وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ذو وَفْرَة وبها رَدَعٌ[1] من حِنّاء، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يُصَفِّر لحيته بالخَلُوق[2]، ويحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُصَفِّر، وعن عبد الرحمن الثُّمَالِي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغيِّر لحيته بماء السِّدْر، ويأمر بتغيير الشَّعر مخالفة للأعاجم .

هذا ما أمكن إيراده من صفاته الذاتية، وسنذكر إن شاء الله بعد ذكر صفاته المعنوية، حديث هِنْد بن أبي هَالَة؛ لجمعه بين صفاته الذاتية والمعنوية .

ذكر صفات رسول الله المعنوية

صلى الله عليه وسلم

وما ورد فى أكله وشربه ، ونومه وضحكه وعبادته ونكاحه ، وخُلُقه وحِلمه واحتماله ، وعفوه وصبره على ما يكره، وجُوده وكرمه . وسخائه وسماحته، وشجاعته ومجدته، وحيائه وإغضائه، وحسن عشرته وأدبه، وبسط خُلقه، وشفقته ورأفته ورحمته ، ووفائه وحسن عهده ، وصلته للرحم ، وتواضعه وعدله وأمانته وعِفّته ، وصدق لَهْجته، ووَقاره وصَمته وتؤدته[3]، ومروءته، وحسن هَدْيه وزهده وخوفه ربه تعالى، وطاعته له وشدة عبادته صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

---

(١) ردع : لطخ لم يعمه كله .

(٢) الخلوق : طيب معروف مركب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب وتغلب عليه الحمرة والصفرة، وقد ورد تارة بإباحته، وأخرى بالنهى عنه، والنهى أكثر وأثبت؛ لأنه من طيب النساء، وهن أكثر استعمالا له . (النهاية لابن الأثير) .

(٣) التؤدة : التأنى والتمهل والرزانة .

فأما ما ورد فى أكله وشربه ونومه وضحكه وعبادته

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ من الأكل والشرب بالأقل، واعتمد من ذلك على ما يُمْسك الرَّمَق ويَسُدّ الخَلّة، وقد جاءت الأخبار الصحيحة بذلك، ولم تزل العرب والحكماء تمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما؛ لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النَّهَم والحِرْص والشَّرَه، وقلة ذلك دليل على القناعة وملك النفس وقَمْع الشهوة. وقد روينا بإسناد متصل عن المِقدام بن مَعْدِى كَرِب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما ملأ ابن آدم وِعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْن صُلْبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه». ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب. وقد روى عنه عليه السلام أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضَفَف؛ أى كثرة الأيدى[1]. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعا قط، وإنه كان فى أهله ولا يسألهم طعاما ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سَقَوه شرب. قال أهل العلم: ولا يُعترض على هذا بحديث بَرِيرَة، وقوله صلى الله عليه وسلم: «ألم أَرَ الْبُرْمة فيها لحم»؟ إذ لعل سبب سؤاله ظنُّه اعتقادهم أنه لا يحل له، فأراد بيان سنته، إذ رآهم لم يقدِّموا إليه مع علمه أنهم لا يستأثرون به عليه، فصدق عليهم ظنه، وبين لهم ماجهلوه من أمره، بقوله: «هو لها صدقة ولنا هدية». وكان جلوسه صلى الله عليه وسلم للأكل جلوس المُسْتَوْفِز[2]، مُقْعِيا، ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد». وفى حديث صحيح قوله صلى الله عليه وسلم: «أما أنا فلا آكل متكئا» وليس معنى الاتِّكاء

٨٧/١٦

(١) أى تناولا مع الناس. (٢) المستوفز: الذى قعد منتصبا غير مطمئن، مقعيا: أراد أنه كان يجلس على وركيه مستوفزا غير متمكن.

عند المحققين الميل على شِق، وإنما الاتكاء هو التمكن للأكل، والتقعُّد فى الجلوس له، كالمتربِّع وشبهه من تمكن الجلسات التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهَيْئة يستدعى الأكل ويستكثر منه، وكان صلى الله عليه وسلم بخلاف ذلك.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رُفِع الطّعام من بَيْن يديْه قال: «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين». وفى رواية يقول: «الحمد لله حمدًا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مُوَدَّع[1] ولا مستغنىً عنه ربَّنا». وكان لا يأكل على خِوَان[2]، ولا يمتنع من مباح، ولا يتأنّق فى مأكل، يأكل ما وجد، إن وجد تمرا أكله، أو خبزا أكله أو شِواء أكله، وإن وجد لبنا اكتفى به، ولم يأكل خبزا مرقّقا[3]، وأكل صلى الله عليه وسلم الخبز بالخل وقال: «نعم الإدام الخل» وأكل لحم الدجاج ولحم الحُبَارَى[4].

وكان يحب الدُّبّاء[5] ويأكله، ويعجبه الذِّراع من الشاة، وقال: «إن أطيب اللحم لحم الظّهر» وقال: «كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة» وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهنّ، وأكل صلى الله عليه وسلم خبز الشعير بالتمر، وقال: «هذا أُدْم هذا» وأكل البطيخ بالرُّطَب والقِثّاء بالرُّطَب والتمر بالزُّبْد، وكان يحب الحلواء والعسل، وكان يشرب قاعدا، وربما شرب قائما، ويتنفس ثلاثا وإذا فَضَلت منه فَضْلة وأراد أن يسقيها بدأ بمن عن يمينه، وشرب صلى الله عليه وسلم لبنا، وقال: «من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه» وقال: «ليس شىء يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن».

(١) غير مودع: أى غير متروك الطاعة، وقيل: من الوداع. و«ربنا» بالنصب على النداء مع حذف الأداة، وفيه توجيهات أخرى (راجع المواهب ٤: ٤٢١). (٢) الخوان للطعام كالمائدة له.
(٣) الخبز المرقق: الأرغفة الواسعة الرقيقة. (٤) الحبارى: طائر يشبه الأوزة له غبرة فى لونه.
(٥) الدباء: قرع معروف كان صلى الله عليه وسلم يحب أكله، وقيل: هو القرع بأنواعه.

وأما نومه صلى الله عليه وسلم

فكان قليلا، جاءت بذلك الآثار الصحيحة، وقال صلى الله عليه وسلم : «إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي » وكان نومه على جانبه الأيمن آستظهارا على قِلة النوم لأن النوم على الجانب الأيسر أهنأ؛ لهدوّ القلب ومايتعلق به من الأعضاء الباطنة؛ لميلها إلى الجانب الأيسر ، فيستدعى ذلك الآستثقال فيه والطول ، وإذا نام النائم على الجانب الأيمن تعلق القلب وقلق، فأسرع الإفاقة ولم يغمره الآستغراق . وكان صلى الله عليه وسلم ينام أول الليل ثم يقوم من السَّحَر، ثم يوتر ثم يأتى فراشه ، فإذا سمع الأذان وثب ، وكان إذا نام نفخ ، ولا يَغطُّ غَطِيطا، وإذا رأى فى منامه ما يروعه قال : « هو الله لا شريك له » وإذا أخذ مضجعه وضع كفّه اليمنى تحت خدِّه، وقال : « رَبِّ قِنى عذابك يوم تَبعث عبادَك » وكان يقول : « اللهم بآسمك أموت وأحيا » وإذا آستيقظ قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور » .

وأما ضحكه صلى الله عليه وسلم

٨٨/١٦

فكان جُلّه التَّبَسّم، وربما ضحِك من شىء معجِب حتى تبدو نواجِذه من غير قهقهة صلى الله عليه وسلم ، وأما عبارته صلى الله عليه وسلم فكان أفصح الناس ، يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها، يباريها فى منزع بلاغتها، وقد تقدم من كلامه فى كتبه إلى ملوك اليمن وغيرها ما يدل على ذلك ، وإن كان ذلك لا يحتاج فيه إلى إقامة دليل بعد أن أنزل القرآن بلغته . وكان صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بيّن كلامه حتى يحفظه من جلس إليه، ويعيد الكلمة ثلاثا لتُعقَل عنه ،

ويخزن لسانه لا يتكلم فى غير حاجة ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فَصْلٌ لا فُضول ولا تقصير ، وكان يتمثّل بشىء من الشِّعر ويتمثل بقوله (١) :

* ويأتيك بالأخبار مَن لَمْ تُزَوِّدِ *

وبغير ذلك ، صلى الله عليه وسلم .

وأما النكاح وما يتعلق به

فهو مما يكثر التمدح بكثرته وذلك ؛ لأنه دليل الكمال وصحة الذكورية ، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة ، والتمادح به سيرة ماضية وسنة مأثورة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : أفضل هذه الأمة أكثرها نساء . مشيرا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال صلى الله عليه وسلم : «تناكحوا (٢) فإنى مباهٍ بكم الأمم» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن أقدره الله تعالى على ذلك وحببه له ، فكان صلى الله عليه وسلم يدور على نسائه فى الساعة من الليل (٣) والنهار ، وهنّ إحدى (٤) عشرة ، رواه أنس ، قال : وكنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين ، خرّجه النَّسائى . وعن طاوس : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة أربعين رجلا فى الجماع ، ومثله عن صفوان بن سُلَيْم . وقالت سلمى مولاته : طاف النبى صلى الله عليه وسلم ليلة على نسائه التسع ، ويطهر من كل واحدة قبل أن يأتى الأخرى . وقال : « هذا أطهر وأطيب » .

---

(١) البيت لطرفة من معلقته ، وأوّله :

* ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا *

(٢) المشهور «تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم» ولا يعرف حديث بهذا اللفظ الوارد فى الأصول راجع المواهب جـ ٥ ص ٧٧ .

(٣) فى شرح المواهب : فى الليلة الواحدة ثم فسرها بالساعة الواحدة ، ورواية أنس : فى الساعة الواحدة . المواهب ٥ ص ٧٣ .

(٤) إحدى عشرة : تسع زوجات ومارية وريحانة .

وأما خلقه صلى الله عليه وسلم

فقد قال الله عز وجل فيه مخاطبا له صلى الله عليه وسلم : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »(١) قالت عائشة رضى الله عنها : كان خُلُقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه، وقال صلى الله عليه وسلم: «بعثتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق» قال علىّ وأنس رضى الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خُلُقا . وكان صلى الله عليه وسلم — فيما ذكره المحققون — مجبولا على ذلك فى أصل خِلقته وأوّل فِطْرته ، لم يحصل ذلك له باكتساب ولا رياضة ، إلا بجود إلهى وخصوصيّة ربانيّة ، ومن طالع سيرته مُنْذُ صِباه وإلى آخر عمره ، حَقّق ذلك وكذلك سائر الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه .

وأما حِلمه واحتماله وعفوه

مع القدرة، والصبر على ما يكره، فقد جعلوا بين هذه الألقاب فَرْقا، فقالوا : الحِلْمُ حالة تَوْقير وثبات عند الأسباب المُحَرِّكات، والاحتمالُ حبسُ النفس عند الآلام والمؤذيات ، ومثله الصبر ، ومعانيها متقاربة ، وأما العفو فهو ترك المؤاخذة ، وهذا كله مما أدّب الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»(٢) رُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عن تأويلها فقال له : حتى أسأل العالم، ثم ذهب فأتاه فقال : « يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى مَن حرمك وتعفو عمن ظلمك» . وقال تعالى مخاطبا له صلى الله عليه وسلم : «وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ

٨٩/١٦

(١) آية ٥ سورة القلم .

(٢) آية ١٩٩ سورة الأعراف .

مِن عَزْمِ الْأُمُورِ[١] » وقال : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ[٢] » . وقد روى فى حلمه وٱحتماله وعفوه وصبره أحاديث كثيرة وقصص مشهورة ، قد تقدم منها فى أخباره، فى أثناء هذه السيرة جملة كافية، ونحن نشير الآن فى هذا الموضع إليها، وننبِّه فى هذه الترجمة عليها ، منها قصة أُحُدٍ حين ناله من أذى كفار قريش ما ناله مما قدمنا ذكره، فشق ذلك على أصحابه، وقالوا: يا رسول الله، لو دعوت عليهم، فقال : « إنى لم أبعث لَعَّانا ولكنّى بعثتُ داعيًا ورحمةً اللهم ٱهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون » روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه قال فى بعض كلامه: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[٣]» ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا، فلقد وُطِئَ ظهرك وأُدْمِى وجهك وكسِرت رَباعيتك، فأبيتَ أن تقول إلا خيرا، فقلتَ: «اللهم ٱغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» . ومنها قصتا غَوْرَث[٤] بن الحارث، ودُعْثُور بن الحارث حين أرادا أن يَفْتِكا به، وأظفره الله بهما، وأمكنه منهما فعفا عنهما ، كما تقدم ذكر ذلك فى غزوتى غَطَفَان وذات الرِّقاع ، ومنها عفوه عن الذين هبطوا عليه فى عُمْرة الحُدَيْبِية، وأرادوا قتله فأخذوا فأعتقهم صلى الله عليه وسلم، ومنها صفحه عن قريش حين أمكنه الله منهم يوم الفتح ، وهم لا يشكون فى ٱستئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم، لما تقدم من أذاهم له ، فما زاد على أن عفا وصفح، وقال: «ما تقولون إنى فاعل بكم» قالوا : خيرا، أخٌ كريمٌ وٱبن أخ كريم، فقال : «أقول كما قال أخى

(١) آية ١٧ سورة لقمان . (٢) آية ٣٥ سورة الأحقاف .

(٣) آية ٢٦ سورة نوح . (٤) هو الذى سل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفتك به فرماه الله بزلخة بين كتفيه وندر سيفه ، والزلخة وجع فى الظهر لا يتحرك الإنسان من شدته . ودعثور بن الحارث سيد غطفان معدود فى الصحابة وقصة إسلامه فى أسد الغابة ، وفيه الاختلاف فى نسبة هذه الحادثة إلى كل من دعثور وغورث .

يوسف «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»[(١)] . ومما لم نذكره فيما أتينا عليه من سيرته صلى الله عليه وسلم ، ما ورد فى الحديث الصحيح من قول الرجل له : آعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فلم يزده صلى الله عليه وسلم فى جوابه إلا أن بين له ماجهله ، ووعظ نفسه وذكّرها بما قال له ، فقال : « ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خِبتُ وخسرتُ إن لم أعدل » ونهى من أراد قتله من أصحابه . ومنه ما روى عن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه بُرْد غليظ الحاشية ، فجَبَذه أعرابىّ بردائه جَبْذة شديدة حتى أثّرت حاشيةُ البُرْد فى صفحة عاتقه . ثم قال : يا محمد ، آحمل لى على بعيرىّ هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك ، فسكت النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم قال : « المال مال الله وأنا عبده » ثم قال : « ويقاد[(٢)] منك يا أعرابى ما فعلت بى » ؟ قال : لا ، قال « لم » ؟ قال : لأنك لا تكافئ بالسّيئة السّيئة ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعيرٌ وعلى الآخر تمرٌ .

ومنه خبر زيد بن سَعْنَة[(٣)] حين أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه، وكان من أحبار يهود ، فجاءه يتقاضاه دَيْنا عليه ، فجَبَذ ثوبه عن مَنْكِبه ، وأخذ بمجامع ثيابه وأغاظ له ، ثم قال : إنكم يا بنى عبد المطاب مُطُل[(٤)] فانتهره عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشدّد له فى القول، والنبي صلى الله عليه وسلم يتبسّم ، فقال رسول الله

(١) آية ٩٢ سورة يوسف . (٢) يقاد منك : يقتص منك .

(٣) سعنة : بالنون ويقال : سعية بالياء ، والنون أكثر ، كذا فى أسد الغابة .

(٤) مطل بضم الميم والطاء : جمع ماطل ، كذا فى شرح المواهب ، وهو خلاف القياس ؛ أى تسوفون بالوعد مرة بعد أخرى .

صلى الله عليه وسلم : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر، تأمرنى بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضى » ثم قال : « لقد بقى من أجله ثلاث » وأمر عمر يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لِما روَّعه ، فكان سبب إسلامه ؛ وذلك أنه كان يقول : ما بقى من علامات النبوّة شىء إلا وقد عرفتها فى محمد إلا اثنتين ؟ لَمْ أخبرهما ؛ يسبق حِلْمُه جهلَه[1]، ولا يزيده شدةُ الجهل إلا حِلْما ؛ فاختبرته بهذا فوجدته كما وُصِف . والحديث عن حلمه وصبره وعفوه كثير ؛ روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْتصرا من مَظْلمة ظُلِمَها قطُّ ما لم تكن حُرمةً من محارم الله ، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله، وما ضرب خادما ولا امرأة . وجىء إليه برجل فقيل: هذا أراد أن يقتلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن تُراعَ[2] لن تُراعَ ولو أردت ذلك لم تُسَلَّط علىّ » صلى الله عليه وسلم .

٩٠/١٦

وأما جوده وكرمه وسخاؤه وسماحته صلى الله عليه وسلم

ومعانيها متقاربة ، وقد فرق بعضهم بينها بفروق فجعلوا الكرم : الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره ونفعه — وسموه أيضا حُرِّية[3] — وهو ضد النَّذالة . والسَّماحة : التَّجافى عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس، وهو ضد الشَّكاسة . والسَّخاء : سهولة الإنفاق وتجنُّب اكتساب ما لا يُحْمَد، وهو الجُود، وهو ضد التَّقْتير؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأرفع، بهذا جاءت الأحاديث الصحيحة، منها ما رويناه فى صحيح البخارىّ عن ابن المُنكَدِر

(١) الجهل هنا المراد به الغضب . (٢) لن تراع : أى لا فزع ولا خوف .

(٣) الحرية من معانيها : من لم تملكه الصفات الذميمة ، من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية (مفردات الراغب ١١٠) وفى كلا الأصلين « جرية » بالجيم ولعلها محرفة عما أثبتناه .

قال : سمعت جابر بن عبدالله يقول : ماسئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فقال لا .
وعن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : كان النبي صلى الله عليه وسلم أَجْوَد الناس بالخير ، وأجْوَد ما كان فى شهر رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل عليهما السلام أجْوَدَ بالخير من الرِّيح المُرْسَلة . وعن أنس أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه غَنَما بين جَبَلَيْن ، فرجع إلى بلده وقال : أسلموا فإن محمدا يُعطى عطاءَ من لا يخشى فاقة . وقد ذكرنا ما أعطاه صلى الله عليه وسلم من غنائم هَوازِن . وأخباره صلى الله عليه وسلم فى ذلك كثيرة ، وعطاياه فاشِيَة ، لو آستقصيناها لطال بها التأليف ، وكان لا يَبيت فى بَيْته دينارٌ ولا درهم . فإن فَضَل ولم يجد مَن يعطيه وفُجِئه[1] الليلُ لم يأوِ إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قُوت أهله عاما فقط ، من أيسر ما يجد من التَّمْر والشَّعير ، ويضع سائر ذلك فى سبيل الله ، ثم يُؤْثِر[2] من قُوت أهله حتى يحتاج قبل آنقضاء العام ؛ صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين .

وأما شجاعته ونَجْدته صلى الله عليه وسلم

فقد قالوا : الشَّجاعة فضيلة قوة الغضب ، وآنقيادها للعقل ، والنَّجْدة : ثِقَة النفس عند آسترسالها إلى الموت حيث يُحْمد فعلها دون خَوْف ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم منهما بالمكان الذى لا يُجهَل ، قد شهد المواقف الصَّعْبة ، وفَرّ الكُماة والأبطال عنه ، وهو ثابت لا يَبْرح ، ومُقْبِل لا يُدْبِر ، وقد قدّمنا من أخباره وثباته وحملاته فى يومى أُحُد وحُنين ما تقف عليه هناك . وقد روينا بإسناد مُتّصل عن البَراء ، وقد سأله رجل : أفررتم يوم حُنَيْن عن رسول الله

(١) فجئه وفجأه (بالكسر والفتح) : هجم عليه من غير أن يشعر به . (٢) يؤثر : يعطى .

صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَفِرَّ ، ثم قال : لقد رأيته على بَغْلته البَيْضاء وأبو سُفْيَان آخذ بلِجَامِها ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا النبيُّ لا كَذِب » وزاد غيره « أنا ٱبن عبد المطاب » قيل : فما رِىءَ يومئذ أحدٌ كان أشد منه . وقال غيره : نزل النبي صلى الله عليه وسلم عن بغلته .

٥ وذكر مسلم عن العباس قال : فلما ٱلتقى المسلمون والكفار وَلَّى المسلمون مُدْبرين فطَفِقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرْكُض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أَكُفُّها إرادَةَ ألاّ تُسْرع وأبو سُفْيَان آخذ بركابه ، ثم نادى بالمسلمين.(١) الحديث. وقال ٱبن عمر: ما رأيت أشْجع ولا أنْجَد ولا أجْوَد ولا أرْضَى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إنا كنا إذا حَمِيَ البَأْس

١٠ — ويروى ٱشتدّ البَأْسُ — وٱحمرت الحَدَق ، ٱتقَيْنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه ، ولقد رأيتُنى يوم بَدْر ، ونحن نَلُوذُ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أقْرَبُنا إلى العدوّ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا . وقيل : كان الشجاع الذى يقرب منه صلى الله عليه وسلم إذا دَنَا العدوُّ لقربه منه . وعن أنس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس وأجودَ الناس

١٥ وأشجعَ الناس ؛ لقد فَزِع أهل المدينة ليلةً فٱنطلق ناسٌ قِبَلَ الصّوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعًا قد سبقهم إلى الصوت وٱسْتبْراء(٢) الخبر ، على فرس لأبى طَلْحَة عُرْى(٣) ، والسّيف فى عُنقه ، وهو يقول : «لن تُرَاعُوا»(٤) . وقال عِمْران ابن حُصَيْن : ما لَقِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كَتِيبَةً إلاّ كان أول من يضرب .

(١) المشهور : أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس : « ناديا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة» يعنى شجرة الرضوان التى بايعوا تحتها ألا يفروا عنه . كما فى مسلم والبخارى . راجع غزوة حنين فى شرح المواهب ٣ : ١٤ (٢) استبراء الخبر : كشفه والوقوف على حقيقته ، وفى شرح المواهب : استبرأ فعل ماض . (٣) عرى : (بضم المهملة وسكون الراء) : ليس عليه سرج ولا أداة . (٤) لن تراعوا : أى ليس هناك شىء تخافونه .

٢٠

٩١
١٦

وأما حياؤه و إغضاؤه صلى الله عليه وسلم

والحَيَاء : رِقّة تَعْتَرِى وجه الإنسان عند فعل ما يُتَوَقّع كراهتُه أو ما يكون تركه خيرا من فعله . والإغْضَاء : التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أشدّ الناس حَيَاء ، وأكثرهم عن العَوْرات إغْضَاء ، وقد أخبر الله تعالى بحيائه فقال : «إنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنْكُمْ»(١) وعن أبى سعيد الخُدْرِىّ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدَّ حَيَاء من العَذْرَاء فى خِدْرِها ، وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه . وكان صلى الله عليه وسلم لا يُشَافِهُ أحدا بما يكره حياءً وكرم نفس . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بَلَغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ، ولكن يقول : «ما بالُ أقوام يصنعون — أو يقولون — كذا» ينهى عنه ولا يسمِّى فاعلَه . وروى أنس رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل به أثَرُ صُفْرة ، فلم يقل له شيئا — وكان لا يُوَاجِه أحدا بما يكره — فلما خرج قال : « لو قلتم له يغسل هذا » ويروى « ينزعها » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد ، وأنه كان يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره ، صلى الله عليه وسلم .

وأما حُسْن عِشْرَته وأدَبِه و بَسْط خُلُقه صلى الله عليه وسلم

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الناس عِشْرَة ، وأكثرهم أدبا ، وأبسطهم خُلُقا مع أصناف الخلق ، انتشرت بذلك الأخبار الصحيحة ، منها ما رويناه بسند متصل عن قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قِصة فى آخرها ، فلما أراد الانصراف قرب له سَعْدٌ حمارا

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

ووطّأ عليه بقَطِيفَة، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال سعد : يا قيس، آصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال قيس : فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «آركب» فأبَيْتُ، فقال: «إما أن تركب و إما أن تنصرف» فآنصرفت، وفى رواية أخرى: « آركب أمامى فصاحب الدابة أولى بمُقَدَّمها » . وكان صلى الله عليه وسلم لا يدع أحدا يمشى معه وهو راكب حتى يحمله ، فإن أبى قال : « تقدَّمْنى إلى المكان الذى تريد » وركب صلى الله عليه وسلم حِمارا عُرْيًا إلى قُبَاء، وأبو هريرة معه، فقال : « يا أبا هريرة أحملك »؟ فقال : ماشئت يا رسول الله، فقال : « آركب » وكان فى أبى هريرة ثِقَلٌ، فوَثَب ليركب فلم يقدر، فآستمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعا، ثم ركب صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أبا هريرة أحملك » ؟ فقال : ما شئت يا رسول الله ، فقال : « آركب » فلم يقدر على ذلك ، فتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعا ، ثم قال : «يا أبا هريرة أحملك» ؟ فقال : لا ، والذى بعثك بالحق لاصَرَعْتُكَ ثالثا . وكان لا يدع أحدا يمشى خلفه ويقول : « خلوا ظهرى للملائكة » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُؤَلِّف أصحابه ولا ينفِّرهم، ويُكرِم كَرِيم كلِّ قومٍ ويولِّيه عليهم، ويَحْذَر الناسَ ويحترس منهم ، من غير أن يَطْوِى عن أحد منهم بِشْرَه ولا خُلُقَه، يتفقّد أصحابه، ويعطى كلّ جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسُه أنّ أحدا أكرم عليه منه، مَنْ جالسه أو قاربه لحاجة صابَره حتى يكون هو المنصرِف عنه، ومن سأله حاجة لم يَرُدّه إلا بها، أو بمَيْسُور من القول، قد وَسِع الناسَ بَسْطُه وخُلُقُه فصار لهم أبًا وصاروا عنده فى الحق سواء، هكذا وصفه آبن أبى هَالَة، قال : وكان دائمَ البِشْر سَهْلَ الخُلُق لَيِّن الجانب ، ليس بفظّ ولا غليظ ، ولا سَخَّاب[1] ولا فحّاش ،

٩٢/١٦

(١) سخاب : السخب والصخب الصياح، أى ليس بذى صياح ولا بذى فحش .

ولا عَيّاب ولا مَدّاح ، يتغافل عما لا يُشتهى ولا يُؤْيَس منه . وكان صلى الله عليه وسلم يجيب من دعاه ، و يقبل الهدية ، ولو كانت كُراعا[1] ، ويُكافِئ عليها ، قال أنس : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أُفٍّ قطّ ، وما قال لشىء صنعتُه لِمَ صَنعتَه ، ولا لشىء تركتُه لِمَ تركتَه ، ومن رواية أخرى عنه قال : خدمته نحوا من عشر سنين فوالله ما صحبته فى سفر ولا حضر لأخدمه إلا وكانت خدمته لى أكثر من خدمتى له ، وما قال لى أُفٍّ قطّ ، ولا قال لشىء فعلتُه لِمَ فعلتَ كذا ، ولا لشىء لم أفعله ألَا فعلتَ كذا ؟ . وكان صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة فقال رجل : يا رسول الله ، علىّ ذَبْحُها ، وقال آخر : علىّ سَلْخُها ، وقال آخر : علىّ طبخُها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وعلىّ جَمْعُ الحطب» قالوا : يا رسول الله ، نحن نكفيك ، فقال : « علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه» وقام لجمع الحَطَب . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان أحد أحسنَ خُلُقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : « لبيك » وكان يُمازِح أصحابه ويُخالِطهم ويُحادثهم ويُداعِب صِبيانهم ويُجلسهم فى حِجْره ، ويجيب دعوة الحُرّ والعبد والأمة والمِسْكين ، ويَعُود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر ، قال أنس : ما التَقَم[2] أحد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فينحّى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحّى رأسه ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ ، ولم يُر مقدِّما ركبتيه بين يدى جليس له ، وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، لم ير قط مادا رجليه بين أصحابه حتى يُضيِّق بهما على

(١) كُراع كغراب : مستدق الساق العارى من اللحم .

(٢) معنى التقم هنا : جعل فمه يحاذى أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أحد ، يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التى تحته ، ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ، ويكنّى أصحابه ، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوّز فيقطعه بنهى أو قيام ، ويروى : بانتهاء أو قيام ، ويروى : أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفّف صلاته وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد ، إلى صلاته ، وكان أكثر الناس تبسّما ، وأطيبهم نفسا ، ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب .

وأما شفقته ورأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم لجميع الخلق

فقد أخبر الله تعالى بذلك ووصفه بهذه الأوصاف ؛ فقال تعالى : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ[1] بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »[2] وقال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » فكان من شفقته على أمته صلى الله عليه وسلم تخفيفه وتسهيله عليهم ، وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « لولا أن أشقّ على أمتى لأمرتهم بالسّواك مع كل وضوء »[3] وخبر صلاة الليل ، ونهيهم عن الوصال ، وكراهيته دخول الكعبة لئلا يعنت[4] أمته ، ورغبته لربه أن يجعل سبّه ولعنه لهم رحمة ، وأنه كان يسمع بكاء الصّبى فيتجوّز[5] فى صلاته . ومن شفقته صلى الله عليه وسلم أن دعا ربه وعاهده فقال : « أيّما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة[6] وطهورا وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة » . ومن ذلك أنه لما كذّبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال له :

٩٣/١٦

(١) آية ١٢٨ سورة التوبة .
(٢) آية ١٠٧ سورة الأنبياء .
(٣) الوصال فى الصوم : ألا يفطر يومين أو أياما .
(٤) يعنت : يشق عليهم ، أى بالازدحام . فى هامش ج « فى نسخة يتعب أمته » .
(٥) يتجوز : يخفف و يقلل .
(٦) صلاة : دعاء .

إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد أمر مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداه مَلَك الجبال وسلم عليه ، فقال : مرنى بما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشَبَيْن(١) ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا» . وروى ابن المنكدر : أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله أمر السماء والأرض والجبال أن تُطيعك ، فقال : «أُؤَخِّر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم» . ومن ذلك ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : «لا يُبلِغنى أحدٌ منكم عن أحد من أصحابى شيئا ، فإنى أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سَليم الصَّدْر» . وقال ابن مسعود : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَتَخَوّلنا(٢) بالموعظة مخافة السآمَة علينا ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

وأما وفاؤه وحسن عهده وصلته للرحم صلى الله عليه وسلم

فكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ من ذلك الغاية التى لا يُدرك شأوُها ، ولا يُبلَغ مَدَاها ، ولا يطمع طامع سواه بالاتّصاف بها ، جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة والأخبار الصريحة ، من ذلك ما رويناه بإسناد مُتّصل عن عبد الله بن أبى الحَمْسَاء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو فى مكانه ، فقال : «يافتى لقد شققت علىّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» . وعن أنس رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أُتِى بهدية قال : «اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحبّ خديجة» . وعن عائشة

(١) الأخشبان : جبلان مطيفان بمكة وهما أبو قبيس والأحمر .

(٢) يتخولنا : يتعهدنا ، من قولهم : فلان خائل مال ؛ وهو الذى يصلحه و يقوم عليه .

أمّ المؤمنين رضى الله عنها قالت : ما غِرتُ على آمرأة ماغِرتُ على خديجة ؛ لِمَا كنتُ أسمعه يذكرها ، و إن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها[1] ، وآستأذنت عليه أختها فآرتاح إليها ، ودخلت عليه آمرأة فهَشّ لها ، وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، و إنّ حُسْن العَهْد[2] من الإيمان » .

٥ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء غير أن لهم رَحِما سأَبُلُّها بِبِلالها[3] » . وعن أبى قتادة قال : وَفَد وَفْدٌ للنجاشى ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال له أصحابه : نكفيك ، فقال : « إنهم لأصحابنا مُكْرِمين و إنى أُحبّ أن أكافئهم » . ولما جىء بالشَّيْماء أخته من الرضاعة فى سبايا هَوَازن وتعرفت له ، بسط لها رِدَاءه ، وقال لها : « إن أحببت أقمت عندى مكرّمة مُحَبّة

١٠ أو مَتَّعْتك ورجعت إلى قومك » فآختارت قومها فمتعها . وقال أبو الطُّفَيل : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا غُلامٌ ، إذْ أقبلت آمرأةٌ حتى دَنَت منه ، فبسط لها رِدَاءَه فجلست عليه ، فقلت من هذه ؟ قالوا : أمه التى أرضعته . وعن عمرو[4] بن السائب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرّضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شِقَّ ثوْبه من جانبه الآخر

١٥ فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يَدَيْه . وكان يبعث إلى ثَوْبِية مولاة أبى لهب مُرْضعته بِصِلَة وكُسْوة ، فلما ماتت سأل من بقى من قرابتها فقيل : لا أحد . وفى حديث خديجة رضى الله عنها

---

(١) خلائلها : صواحباتها . (٢) العهد : يريد الحفاظ ورعاية الحرمة .

(٣) (البلال) جمع بلل ، وقيل : كل ما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره ؛ أى أصلكم فى الدنيا

٢٠ ولا أغنى عنكم من الله شيئا . (٤) كذا فى الأصول والمواهب ٤ : ٢٧٦ وقال شارحها : « صوابه عمر » . وهو فى التهذيب « عمر » أيضا .

٩٤/١٦ أنها قالت له صلى الله عليه وسلم فى آبتداء النبوّة : أبشر فوالله لا يُخْزِيك[1] الله أبدا ، إنك لتصل الرَّحم ، وتَحْمِل الكَلّ[2] ، وتُكْسِب[3] المعْـدومَ ، وتَقْرِى الضَّيْف ، وتُعِين على نوائب[4] الحقّ .

وأما تَوَاضعه صلى الله عليه وسلم مع علوّ منصبه ورِفْعة مرتبته

فكان صلى الله عليه وسلم أشدّ النـاس تواضعا ، وأقلهم كِبْرا ، وقد جاء أنه خُيِّر بين أن يكون نَبِيًّا مَلِكا أو نَبِيّا عبدا ، فآختار أن يكون نَبِيّا عبدا ، فقال له إسْرَافيل عنـد ذلك : فإن الله قد أعطاك بمـا تواضعت له أنك سيِّد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من تنْشَقّ الأرض عنه ، وأول شافع . ومما رويناه بسند مُتّصل عن أبى أُمَامة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكّئا على عَصًا ، فقمنا له فقـال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعظِّم بعضُها بعضًا » . وقال : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وكان يركب الحمار ، ويُرْدِف خلفه ، ويعـود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبـد ، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم ، حيث ما آنتهى به المجلس جلس ، وعن أنس : أن آمرأة كان فى عقلها شىءٌ جاءته فقالت : إن لى إليك حاجة ، قال : « آجلسى يا أمّ فلان فى أى طُرُق المدينة شئت أجلسْ إليك حتى أقضى حاجتك » قال : فجلست فجلس النبى صلى الله عليه وسلم إليهـا حتى فرغت من حاجتها . قال أنس : حَجّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم على رَحْل رَثّ وعليه قَطِيفة ما تساوى أربعـة دراهم ، فقال :

(١) لا يخزيك : لا يذلك ولا يهينك .

(٢) الكل : الثقل من كل ما يتكلف ، والكل العيال .

(٣) تكسب : تعطى الناس الشىء المعدوم عندهم وتوصله إليهم .

(٤) النوائب : ما ينزل من الحوادث والمهمات .

« اللهم اجعله حجًّا لا رِيَاء فيه ولا سُمْعة » . هذا وقد أهدى فى حجه ذلك مائة بَدَنة ، ولما فتحت عليه مكة دخلها وقد طَأْطَأَ رأسه على رَحْله حتى كاد يمسّ قادِمَته تواضعا لله تعالى .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه لما دخل مكة جاءه أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه بأبيه ليُسْلِم فقال : « لِمَ عَنَّيْتَ[1] الشيخَ يا أبا بكر ألا تركته حتى أكون أنا آتيه فى منزله » وقد تقدّم ذكر ذلك فى الفتح . وعن عائشة والحسن وأبى سعيد وغيرهم رضى الله عنهم ، فى صفته صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم يزيد على بعض ، أنه كان صلى الله عليه وسلم فى بيته فى مِهْنَة[2] أهله ، يَفْلِى[3] ثوبَه ، ويحلب شاتَه ، ويرقّع ثوبه ، ويَخْصِف[4] نعله ، ويخدم نفسه ، ويَقُمّ[5] البيتَ ، ويَعْقِل البعير ، ويَعْلِف ناضِحَه[6] ، ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ويحمل بِضَاعَته من السُّوق . وعن أنس : أن كانت الأَمَة من إِمَاء المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت حتى يقضى حاجتها . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له : « هوّن عليك فإنى لست بمَلِك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القَدِيد[7] » . وعن أبى هريرة قال : دخلت السُّوق مع النبى صلى الله عليه وسلم فاشترى سَرَاوِيل ، وقال للوزّان « زِنْ وأَرْجِحْ » وذكر القصّة ، قال : فوثب إلى يد النبى صلى الله عليه وسلم يقبِّلها فجذَب يده ، وقال : « هذا يفعله الأعاجم بملوكها ولست بمَلِك إنما

---

(١) عنيته : كلفته ما يشق عليه . (٢) المهنة : الخدمة ، ومهنة أهله خدمتهم .

(٣) يفلى : يزيل ما التزق به من قمل غيره ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم نور ، والقمل من الوسخ ، وهو نظيف طاهر . (المواهب ٤ : ٣١٧) . (٤) الخصف : ترقيع النعل .

(٥) يقم : يكنس . (٦) الناضح : الجمل ، أو الجمل الذى يحمل الماء من النهر أو البئر .

(٧) القديد : اللحم المجفف .

أنا رجل منكم » ثم أخذ السّراويل فذهبت لأحمله فقال : « صاحبُ الشيء أحق بشَيْئه أن يحمله » . وقد ذكر الأمين العاصمىّ بعض ذلك فى قصيدة له فقال :

يا جاعلًا سنن النبي شعاره ودِثارَه[1]
مُتمسِّكا بحديثه متتبّعا أخبارَهُ
سُنَنَ الشّريعة خُذْ بها متوسِّما[2] آثارَهُ
وكذا الطريقة فاقتبِسْ فى سُبْلها أنوارَهُ
قد كان يَقْرِى[3] ضيْفَه كرمًا ويحفظ جارَهُ
ويجالس المسكين يؤ ثِرُ قربَه وجوارَهُ
الفقْر كان رِداءَه والجوع كان شِعارَهُ
يَلْقَى بغُرّة[4] ضاحكٍ مستبشرًا زوّارَهُ
بَسَط الرِّداء كرامةً لكريم قَوْم زارَهُ
ما كان مُختالا ولا مَرِحًا[5] يَجُرّ إزارَهُ
قد كان يركَب بالرَّدِيـ ـفِ من الخُضُوع حِمارَهُ
فى مِهْنة[6] هو أوْ صَلا ةٍ ليلَه ونهارَهُ
فتراه يَحْلُب شاة منـ ـزله ويوقد نارَهُ
مازال كَهْف مُهاجريـ ـه ومُكرِمًا أنصارَهُ
بَرًّا بمُحسنهم مُقيـ ـلًا لِلْمُسِيء عِثارَهُ
يَهَبُ الذى تَحْوى يدَا هُ لطالبٍ إيثارَهُ

٩٥/١٦

(١) الدثار : الثوب فوق الشعار . (٢) متوسما : متحليا بآثاره . (٣) يقرى : يطعم .
(٤) الغرة : بياض الوجه . (٥) المرح : الأشر والبطر والتبختر والاختيال .
(٦) المهنة : الخدمة .

زَكَّى عن الدنيا الدَّنِـ ـيَّة ربُّه مقـدارَهُ
جعل الإله صلاته أبدا عليه نُثَارَهُ (١)
فاخْتَرْ من الأخلاق ما كان الرسولُ اختارَهُ
لِتُعَدَّ سُنِّيًّا وتُو شِك أن تَبَوَّأ دارَهُ (٢)

وأما عدله وأمانته وعِفَّته وصِدق لَهْجَته صلى الله عليه وسلم

فكان صلى الله عليه وسلم أعدل الناس، وآمن الناس، وأعَفّ الناس، وأصدق الناس لَهْجَة منذ كان، وكان يسمى قبل نبوّته الأمين، وقد قال صلى الله عليه وسلم: « والله إنى لأمينٌ فى السماء أمينٌ فى الأرض » وقد صدّقه عِداه فى مواطن كثيرة تقدّم ذكرها، وقد قدّمنا قوله صلى الله عليه وسلم للرجل: « ويحك إن لم أعدل فمن يعدل خِبتُ وخَسِرتُ إن لم أعدل ». وقال ابن خالويه: جَزَّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاره ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جَزَّأَ جُزْأَه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: « أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى فإنه من أبلغ حاجة من لايستطيع أمّنه الله يوم الفَزَع الأكبر ». وعن الحسن قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يأخذ أحدًا بقَرْف (٣) أحدٍ ولا يُصدِّق أحدًا على أحد » صلى الله عليه وسلم، ولم تمس يده امرأة قطّ لا يَمْلِك رِقَّها أو نكاحها أو تكون ذات محرم ».

(١) النثار: ما يلقى متفرقا. شبه الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم باللؤلؤ المنثور.
(٢) تبوّأ: نزل وسكن.
(٣) بهامش ج: « قرفت الرجل بسوء ظننته به أو رميته به، وقرفه بالأمر إذا أضافه إليه ».

وأما وَقَاره وصَمْته وتُؤَدَته ومُرُوءَته
وحسنُ هَدْيِه صلى الله عليه وسلم

فقد روينا بإسناد مُتَّصل عن خارجة بن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوْقَر الناس فى مجلسه لا يكاد يُخرج شيئا من أَطْرَافه . وروى أبو سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس فى المجلس ٥ احتبى بيديه ، وكذلك كان أكثر جلوسه مُحْتَبِيا[(١)] . وعن جابر بن سَمُرَة : أنه تَرَبَّع ، وربما جلس القُرْفُصاء[(٢)] ، وكان كثير السُّكوت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يُعرِض عمن تكلم بغير جميـل ، وكان ضحكه تبسُّما وكلامه فَصْلا[(٣)] لا فُضُول ولا تَقْصِير ، وكان ضحك أصحابه عنده التَّبَسّم توقيرا له واقتداء به ، مجلسه مجلس حِلْم وحَيَاء وخَيْر وأَمَانَة ، لا تُرفع فيـه الأصوات ، ولا تُؤْبَنُ[(٤)] فيـه الحُرَم ، إذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما ١٠ على رءوسهم الطَّيْر . وفى صفته : يَخْطُو تَكَفُّؤًا[(٥)] ويمشى هَوْنًا[(٦)] كأنما يَنْحَطّ من صَبَب[(٧)] . وفى الحديث الآخر : « إذا مشى مشى مجتمعا ، يعرف فى مَشْيَته أنه غير غَرِض ولا وَكِل ؛ أى غير ضَجِر ولا كسلان . وقال عبد الله بن مسعود : إنّ أحسن الهَدْىِ هَدْىُ محمد صلى الله عليه وسلم . وعن جابر بن عبد الله : كان فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرْتِيـل[(٨)] أو تَرْسِيل ، قال ابن أبى هَالَة : كان سكوته على أربع : على الحلم ، ١٥

٩٦/١٦

(١) الاحتباء : أن يعتمد على ساقيه ويديه . (٢) بهامش ج : « القرفصاء : جلسة المحتبى بيديه ، يقـال : قرفص إذا شد يديه تحت رجليه ، والحبوضم الساق إلى البطن بثوب » .

(٣) فصلا : بينا ؛ ظاهرا يفصل بين الحق والباطل ، كقوله تعالى : « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » .

(٤) تؤبن : أى يصان مجلسه عن رفث القول ولا تذكر فيه الحرم بقبيح .

(٥) تكفأ : تمايل إلى قدام ، ويروى غير مهموز « تكفى تكفيا » . ٢٠

(٦) هونا : الهون الرفق واللين والتثبت . (٧) الصبب : الموضع المنحدر .

(٨) الترتيل : التأنى والتمهل ، و« أو » إشارة إلى أنه روى بكل منهما وروى بالواو فهو عطف تفسير .

والحَذَر، والتّقْدير، والتفكر . وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عَدّه العادُّ لأحصاه . وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطِّيب والرائحة الحسنة ويحض عليها ويقول : « حُبِّب إلى من دنياكم النِّساءُ ، والطِّيب وجُعلت قُرَّة عَيْنى فى الصلاة » . ومن مُروءته صلى الله عليه وسلم نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب ، والأمر بالأكل مما يلى ، والأمر بالسِّواك ، وإنْقَاء البَرَاجِم[1] والرَّواجِب ، وآستعمال خِصال الفِطرة[2] . صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا أبدا دائما إلى يوم الدين ، آمين .

وأما زُهْده فى الدنيا صلى الله عليه وسلم

فحسبك من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم تُوفّى ودِرْعُه مرهونة عند يهودىّ فى نفقة عياله ، بعد أن فتح الله عليه من الفتوحات ما ذكرناه ، وآتاه من الأخماس والصفايا[3] ما قدمناه ، فآثر[4] بذلك كله ، وكان يقول : « اللهم آجعل رزق آل محمد قوتا[5] » وسنذكر إن شاء الله تعالى فى أحواله ماناله من شِدّة العَيْش والجوع ما تقف عليه هناك .

قالت عائشة رضى الله عنها : لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى بيتى شىء يأكله ذو كَبِد إلا شَطْر[6] شعير فى رَفّ لى ، وقال لى : « إنّى عُرِض علىّ أن تُجْعَل لى

(١) فى هامش ج : « البراجم رءوس السلاميات من ظاهر الكف إذا قبض القابض كفه نشزت ، واحدتها برجمة ، والرواجب : بطون السلاميات ، واحدتها راجبة ، والسلاميات واحدتها سلامى ، وهى العظام التى بين كل مفصلين من مفاصل الأصابع ، ويقال لها الفصوص » .

(٢) الفطرة : الإسلام ، والفطرة هنا سنة الأنبياء عليهم السلام التى أمرنا باتباعها .

(٣) الصفايا جمع صفية : ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة .

(٤) آثر بذلك : فضل وقدم ؛ أى أعطاه لغيره من فقراء المسلمين .

(٥) قوتا : قليلا يكفى لسد الرمق .

(٦) شطر شعير ؛ قيل : المراد به بعض شعير أو نصف منه . قاله فى شرح المواهب ، والرف (بالفتح والشد) : شبه الطاق فى الحائط . (الصحاح) .

بَطْحاء مكة ذهبًا ، فقلت لا يا ربّ أجوعُ يوما وأشبعُ يوما ، فأمّا اليوم الذى أجوع فيه فأتضرّع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فأحمدك وأثنى عليك» .
وفى حديث آخر : « إن جبريل عليه السلام نزل عليه فقال له : إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبًا ، وتكون معك حيثما كنت ؟ » فأطرق ساعة ثم قال : « يا جبريل ، إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له قد يجمعها من لا عقل له » فقال له جبريل : ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت . صلى الله عليه وسلم .

وأما خوفه رَبَّه ، وطاعتُه له ، وشدّة عبادته صلى الله عليه وسلم

فكان ذلك على قدر علمه بربه تبارك وتعالى ؛ ولذلك قال فيما رويناه بسند متصل عن سعيد بن المسيّب : إن أبا هريرة كان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » . ومن رواية عن أبى عيسى الترمذىّ عن أبى ذَرٍّ : « إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّتِ السماء[1] وحُقّ لها أن تئطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيها مَلَك ساجد لله واضع جبهته ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذّذتم بالنساء على الفُرُش ، ولخرجتم إلى الصُّعُدات[2] تجأرون إلى الله ، لوددت أنى شجرة تُعْضَد[3] » . روى هذا الكلام : «وددت أنى شجرة تُعضَد» من قول أبى ذر

(١) أطت : الأطيط صوت الأقتاب ؛ أى إن كثرة ما فيها من الملائكة أثقلها حتى أطت ، هذا مثل ، وليس هناك أطيط .

(٢) الصعدات جمع صعدة : وهى فناء باب الدار وممر الناس بين يديه ، وتجأرون : ترفعون أصواتكم . (٣) تعضد : تقطع .

٩٧/١٦

نفسه وهو أصح. وفى حديث آخر: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آنتفخت قدماه. وفى رواية: كان يصلى حتى تَرِم قدماه، فقيل له أتكلّف هذا وقد غُفِر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟، قال: «أفلا أكون عبدا شكورا». وقالت عائشة رضى الله عنها: كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم دِيمةً[1]، وأيكم يُطيق ما كان يُطيق. وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يُفْطِر، ويُفْطِر حتى نقول لا يصوم. وكان صلى الله عليه وسلم يصوم الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر، ويومَ عاشوراء، وقلّ ما كان يُفْطِر يوم الجمعة، وأكثر صيامه فى شعبان. وقال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فآستاك ثم توضأ ثم قام فصلى فقمت معه، فبدأ فآستفتح البقرة، فلا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: «سبحان ذى الجبروت والملكوت والعظمة» ثم سجد، وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك. وعن حُذيفَة مثله، وقال: سجد نحوا من قيامه، وجلس بين السجدتين نحوا منه، وقال: حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة. وعن عبد الله بن الشِّخِّير قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولجَوْفه أَزِيزٌ كأَزِيزِ المِرْجل[2]. وقال آبن أبى هالة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة. وقال صلى الله عليه وسلم: إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة، وروى سبعين مرة. وعن علىّ

(١) ديمة؛ فى النهاية: الديمة المطر الدائم فى سكون، شبهت عمله فى دوامه مع الاقتصاد بديمة المطر.

(٢) أزيز: صوت الغليان، أى حنين من الخوف، وقيل: هو أن يجيش جوفه ويغلى بالبكاء، والمرجل: الإناء من نحاس يغلى فيه الماء، وقيل: الإناء الذى يغلى فيه الماء مطلقا.

ابن أبي طالب رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال : «المعرفةُ رأسُ مالى، والعقلُ أصل دينى، والحُبُّ أساسى، والشوقُ مَرْكبى، وذكرُ الله أَنِيسى ، والثقة كَنْزِى، والحُزْن رَفيق، والعلم سِلاحى ، والصّبر زادى ، والرِّضا غَنِيمَتِى، والعجزُ فخرى ، والزهدُ حِرْفتى ، واليقينُ قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حَسْبى[1]، والجهاد خُلُقى، وقُرَّة عَيْنى فى الصلاة » . وفى حديث آخر : « وثمرة فؤادى فى ذكره ، وغَمِّى لأجل أمتى ، وشوقى إلى ربى » . ولنصل هذه الفصول التى شرحناها فى صفاته المعنوية صلى الله عليه وسلم بما وَرَد من طِيب رِيحه ، وعَرَقه ، وما يجرى هذا المجرى .

ذكر نبذة مما ورد فى نظافة جسمه ، وطيب ريحه ، وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعَوْرات الجسد صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خصّه الله عز وجل من ذلك بخصائص لم توجد فى غيره ، ومَنَحه مِنحا لم تكن فى سِوَاه ؛ من ذلك ما رويناه عن مسلم ابن الحجاج بإسناده ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما شَمَمْت عَنبرا قطّ ولا مِسْكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن جابر ابن سَمُرة أنه صلى الله عليه وسلم مسح خدّه، قال : فوجدت لِيَدِه بَرْدا وريحا كأنّما أخرجها من جُونَة[2] عَطّار . قال غيره : مَسّها بطيب أو لم يمسّها ، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصبىّ فيعرف من بين الصبيان بريحها . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نام فى دار أَنَس فعرِق ، فجاءت أمّ أنس بقارورة تجمع فيها عَرَقه ، فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك

(١) حسبى (بالفتح) : أى ما أفتخر به ، و (بالسكون) أى الطاعة تكفينى .
(٢) الجونة (بالضم) : التى يعد فيها الطيب ويحرز .

فقالت : نجعله فى طِيبِنا وهو من أطْيَب الطِّيب . وذكر البخارى فى تاريخه الكبير عن جابر : لم يكن النبىّ صلى الله عليه وسلم يمرّ فى طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه . وذكر إسحق بن راهوَيْه : أن تلك كانت رائحته بلا طِيبٍ صلى الله عليه وسلم . وروى المُزَنِىّ[1] عن جابر قال : أردفنى النبى صلى الله عليه وسلم فألتقمت خاتم النبوّة بِفَمِى وكان يَنِمّ علىّ مِسْكا . ونقل القاضى عياض بن موسى قال : حكى بعض المعتَنِين بأخباره وشمائله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أراد أن يتغوّط ٱنشقت الأرض فٱبتلعت غائِطه وبَوْلَه ، وفاحَتْ لذلك رائِحَة طيبة . وأسند محمد بن سعد فى هذا خبرا عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت للنبىّ صلى الله عليه وسلم : إنك تأتى الخَلَاء ولا يرى منك شىء من الأذى . فقال : « يا عائشة أو ما علمتِ أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء فلا يرى منه شىء » قال القاضى عياض : وهذا الخبر وإن لم يكن مشهورا فقد قال قوم من أهل العلم بطهارة الحدَثَيْن منه صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك حديث علىّ بن أبى طالب فى الوفاة وسنذكره إن شاء الله تعالى . وقد جاء عن أمه آمنة أنها قالت : ولدته نظِيفا ما به قَذَر . صلى الله عليه وسلم . ولنختم هذه الفصول بحديث هِند بن أبى هالَة لجمعه بين صفاته صلى الله عليه وسلم الذاتية والمعنوية . والله أعلم .

٩٨/١٦

ذكر حديث هِند بن أبى هالَة

وما تضمن من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذاتية والمعنوية

حدّثنا الشيخان المحدِّثان شرف الدِّين أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن يعقوب الحلبىّ، وزين الدين أبو محمد عبد الحقّ بن قينان بن عبد المجيد القرشىّ — رحمهما الله — قراءة عليهما وأنا أسمع فى شهر رجب عام ثمانية وسبعمائة، قالا : حدّثنا الشيخ

(١) فى ا « المرى » .

أبو الحسن محمد بن أبي علي الحسين بن عتيق بن رشيق الرَّبَعي المالكي سماعا في شوال سنة ثمان وستين وستمائة بمصر، وبقراءة الشيخ زَيْن الدين الثاني على الشيخ نظام الدين الحسين بن محمد بن الحسن بن الخليلي، وبإجازتهما من الحافظ أبي الحسين يحيى ابن علي بن عبد الله القرشي، وتاج الدين علي بن أحمد بن القسطلاني، قالوا أخبرنا أبو الحسين محمد بن أبي جعفر أحمد بن جبير الكناني، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عيسى التميمي إجازة، قال أخبرنا القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليَحْصبي رحمه الله تعالى، قال ابن القسطلاني: وأخبرنا أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مَضَاء إجازة، قال أخبرنا أبو الفضل عياض إجازة، قال القاضي أبو الفضل حدّثنا القاضي أبو علي الحسين بن محمد الحافظ رحمه الله بقراءتي عليه سنة ثمان وخمسمائة، قال حدّثنا الإمام أبو القاسم عبد الله ابن طاهر التميمي، قال قرأت عليه: أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن الحسن النيسابوري، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن المحمدي، والقاضي أبو علي الحسن بن علي بن جعفر الوَخْشي[1]، قالوا: حدّثنا أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعي، قال أخبرنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة الحافظ، قال حدّثنا سفيان بن وَكيع، قال حدّثنا جُمَيع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي إملاء من كتابه، قال حدّثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، يكنى أبا عبد الله عن ابن لأبي هالة عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال سألت خالي هند بن أبي هالة. قال القاضي أبو علي رحمه الله: وقرأت على الشيخ أبي طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد بن خذاذاذ الكرخي الباقلاني، قال

(١) الوخشي نسبة إلى بلد بنواحي بلخ، والذي في شرح القاموس: الحسن بن علي بن محمد بن جعفر.

وأجاز لنا الشيخ الأجل أبو الفضل أحمد بن الحسن بن خَيْرون ، قالا أخبرنا أبو على الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان بن حرب بن مِهْران الفارسىّ ، قراءة عليه ، فأقرّ به ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى ابن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب المعروف بابن أخى طاهر العلوى ، قال حدّثنا إسمعيل بن محمد ابن إسحق بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، قال : حدّثنى على بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، عن أخيه موسى بن جعفر ابن محمد، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه محمد بن على ، عن على بن الحسين قال قال الحسن بن على — واللفظ لهذا السند — : سألت خالى هِند بن أبى هالة عن حِلْيَة[(١)] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان وَصّافا ، وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئا أتعلق به ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فَخْما[(٢)] مُفَخَّما يَتَلَأْلَأ وجهه تَلَأْلُؤ القمر ليلة البدر، أطول من المَرْبُوع ، وأقصر من المُشَذَّب[(٣)] ، عظيم الهامة[(٤)] ، رَجِل[(٥)] الشعر ، إن انْفَرَقَت عَقِيقته[(٦)] فَرَق ، وإلا فلا يجاوز شعره شَحْمة أُذُنه إذا هو وَفَّره ، أزْهَر[(٧)] اللَّوْن ، واسع الجَبِين[(٨)] ، أزَجّ[(٩)] الحواجب ، سَوابِغ[(١٠)] من غير قَرَن ، بينهما عِرْق

٩٩/١٦

(١) الحلية : الزينة ، والصفة . (٢) فخم : عظيم ؛ أى عظيما معظما فى الصدور والعيون .

(٣) المشذب : الطويل البائن الطول مع نقص فى لحمه . (٤) الهامة : الرأس .

(٥) رجل الشعر : بين الجعودة والسبوطة . (٦) انفرقت عقيقته ، ويروى : عقيصته ، أى إن صار شعره فرقين بنفسه فى مفرقه تركه ، وإن لم ينفرق لم يفرقه .

(٧) أزهر اللون : أى نيره ، والأزهر الأبيض المستنير، وهو أحسن الألوان .

(٨) وهو ما فوق الصدغين وهما جبينان ، والمراد بسعتهما امتدادهما طولا وعرضا ، وذلك محمود ، وقد مضى : صلت الجبين : أى واضحه . (٩) أزج الحواجب : الزجج تقوس فى الحاجب مع طول فى طرفه وامتداد ، النهاية ، وفى القاموس : دقة الحاجبين فى طول .

(١٠) سوابغ : تامة طويلة .

يُدِرّه الغضب[1]، أقنى العِرْنين[2]، له نور يعلوه، ويحسبه من لم يتأمله أشمّ[3]، كثّ[4] اللحية، أدْعَج[5]، سهل الخَدّين[6]، ضليع الفم[7]، أشْنَب[8] مُفَلَّج[9] الأسْنان، دقيق المَسْرُبة[10]، كأنّ عنقه جِيدُ دُمْية[11] فى صفاء الفِضة، معتدل الخلق، بادِنا متماسكا[12]، سواء البطن والصّدر، مُشِيحُ[13] الصّدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكَرادِيس[14]، أنور المتجرد[15]، موصول ما بين اللَّبّة والسُّرة بشعر يجرى كالخطّ، عارِى الثديين[16]، ما سوى ذلك، أشعرُ الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر، طويل الزندين، رَحْب الراحة، شثْن[17] الكفّين والقدمين، سائل[18] الأطراف، أو قال سائن الأطراف، سَبْط القَصَب،

(١) يدره: يملؤه دما كما يمتلئ الضرع لبنا إذا در.

(٢) أقنى العرنين: القنا فى الأنف رقة أرنبته مع حدب فى وسطه، والعرنين الأنف.

(٣) أشم: الشمم ارتفاع قصبة الأنف واستواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلا.

(٤) كث اللحية: كثيفها فى غير دقة ولا طول.

(٥) أدعج: الشديد سواد العين مع شدّة بياضها.

(٦) ضليع الفم: عظيمه، وقيل: واسعه.

(٧) أشنب: الشنب: البياض والبريق والتحديد فى الأسنان.

(٨) مفلج، ويروى: أفلج الأسنان: الفلج بالتحريك: فرجة ما بين الثنايا والرباعيات.

(٩) المسربة بضم الراء وفتحها: ما دق من شعر الصدر سائلا إلى الجوف.

(١٠) الدمية: الصورة المصورة. (١١) سواء البطن والصدر: مستويهما.

(١٢) مشيح الصدر: عريضه ويروى: مسيح. (١٣) الكراديس: رءوس العظام.

(١٤) المتجرد: ما كان منكشفا من جسده؛ أى مشرق الجسد.

(١٥) عارى الثديين، ويروى: الثندوتين: أراد أنه لم يكن عليهما شعر، و(ما سوى ذلك) قيد للثديين.

(١٦) شثن: أى يميلان إلى الغلظ والقصر. (١٧) سائل الأطراف: أى ممتدها.

(١٨) سبط القصب: سبط بسكون الباء وكسرها: الممتد الذى ليس فيه تعقد، لا نتوء، والقصب يريد بها ساعديه وساقيه.

خُمصان[١] الأخمصين ، مَسِيح[٢] القدمين ينبو عنهما الماء ، إذا زال[٣] زال تَقَلُّعًا ، ويخطو تكفُّؤًا[٤] ، ويمشى هونا[٥] ، ذريع[٦] المِشْيَة ، إذا مشى كأنما ينحطّ من صَبَب[٧] ، وإذا التفت التفت جميعا ، خافض الطَّرْف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة[٨] ، يَسُوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام . قلت : صف لى منطقه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصلَ الأحزان ، دائم الفكرة ، وليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه[٩] ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فَصْلا[١٠] لا فُضُول فيه ولا تقصير ، دِمثا[١١] ليس بالجافى[١٢] ولا المُهين ، يعظِّم النعمة وإن دقّت ، لا يَذُمّ شيئا لم يكن يُذَمُّ ذَوَاقا ولا يمدحه ، ولا يُقام لغضبه إذا تُعُرِّض للحقّ بشىء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفّه كلها ، وإذا تعجب

(١) خمصان الأخمصين : الأخمص من القدم الموضع الذى لا يلصق بالأرض منها عند الوطء والخمصان المبالغ منه ، أى إن ذلك الموضع منه شديد التجافى عن الأرض .

(٢) مسيح القدمين : أى ملساوان لينتان ليس فيهما تكسر ولا شقوق .

(٣) إذا زال زال تقلعا : أراد قوة مشيه كأنه يرفع رجليه من الأرض رفعا قويا لا كمن يمشى اختيالا ويقارب خطاه فإن ذلك من مشى النساء .

(٤) يخطو تكفؤا : أى تمايل إلى قدام . (٥) يمشى هونا : أى فى رفق غير مختال .

(٦) ذريع المشية : يريد أنه مع هذا الرفق سريع المشية .

(٧) ينحط من صبب : الصبب الانحدار . (٨) الملاحظة : النظر بشق العين الذى يلى الصدغ .

(٩) الأشداق : جوانب الفم وإنما يكون ذلك لرحب شدقيه ، والعرب تمتدح ذلك .

(١٠) فصلا لا فضول فيه : أى بين ظاهر يفصل بين الحق والباطل .

(١١) دمثا : يعنى سهلا لينا .

(١٢) ليس بالجافى ولا المهين : يريد أنه لا يجفو الناس ولا يهينهم ، ويروى : المهين بالفتح : أى ليس بالفظ الغليظ الجافى ، ولا الحقير الضعيف .

قَلَبها ، و إذا تحدّث آتصل[1] بها فضرب بإبهامه اليمنى راحتَه اليسرى ، و إذا غضب أعرض وأشاح[2] ، و إذا فرح غَضّ طرفه ، جُلُّ ضحكه التبسم ، ويَفْتَرّ[3] عن مثل حَبّ الغمام . قال الحسن : فكتمتها الحسين بن على زمانا ، ثم حدثته فوجدته قد سبقنى إليه ، فسأل أباه عن مَدْخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَخْرجه ومجلسه وشكله ، فلم يدع منه شيئا ، قال الحسين : سألت أبى ـ عليه السلام ـ عن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كان دخوله لنفسه مَأْذُونا له فى ذلك ، فكان إذا آوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزء لله تعالى ، وجزء لأهله ، وجزء لنفسه . ثم جزأ جزءه بينه و بين الناس ، فيردّ ذلك على العامة بالخاصة ، ولا يدّخر عنهم شيئا ، فكان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، قِسْمته على قدر فضلهم فى الدّين ، منهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، ويُشغِلهم فيما أصْلَحهم والأمةَ من مسألته عنهم ، و إخبارهم بالذى ينبغى لهم ، ويقول : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى حاجته ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة » لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره .

قال فى حديث سفيان بن وَكِيع : « يدخلون رُوّادا[4] ، ولا يتفرقون إلا عن ذَوَاق[5] ، ويخرجون أدِلّة[6] » ، يعنى فقهاء ، قلت : فأخبرنى عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ، قال :

(١) آتصل : وصل إحدى يديه بالأخرى ، ويروى « فصل » أى فصل كلامه بإشارته .
(٢) أشاح : جد فى الإعراض . وفى هامش ج : « أى مال وآنقبض » .
(٣) يفتر : يبتسم ، حب الغمام : البرد ، شبه ثغره به .
(٤) روادا : أى محتاجين وطالبين لما عنده من النفع لدينهم ودنياهم .
(٥) ولا يتفرقون إلا عن ذواق : « قيل عن علم يتعلمونه » كذا فى هامش ج أى يقوم لأنفسهم وأرواحهم مقام الطعام والشراب لأجسامهم .
(٦) أدلة : جمع دليل جعلهم أنفسهم أدلة مبالغة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ، ويؤلّفهم ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ويولّيه عليهم ، ويَحْذَر الناسَ ويحترس منهم من غير أن يَطْوِىَ عن أحد بِشْره وخُلُقه ، ويتفقّد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويُحسِّن الحسن ويصوِّبه ، ويُقبِّح القبيح ويُوهِنُه ، معتدِل الأمر غير مُختلِف ، لا يَغفُل مخافة أن يَغفُلوا أو يَمِلُّوا ؛ لكل حال عنده عَتَادٌ[1] ، لا يُقَصِّر عن الحقّ ولا يجاوزه إلى غيره ، الذين يلونه من الناس خيارُهم ، وأفضلهم عنده أعمُّهم نصيحةً ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مُواساةً ومؤازرة .

١٠٠/١٦

فسألتُه عن مجلسه عما كان يصنع فيه ، فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يُوطِّن[2] الأماكن ، وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، مَن جالسه أو قارَبه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، من سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بمَيْسُورٍ من القول ، قد وسِع الناسَ بَسْطُه وخُلُقه فصار لهم أبًا ، وصاروا عنده فى الحقّ متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى . وفى الرواية الأخرى : صاروا عنده فى الحقّ سواء ، مجلسه مجلس حِلْم وحَيَاء وصبر وأمانة ، لا تُرفَع فيه الأصواتُ ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَم ، ولا تُنْثَى[3] فلتاتُه — وهذه الكلمة من غير الروايتين — يتعاطفون ،

(١) عتاد : أى ما يصلح لكل ما ينفع من الأمور .

(٢) لا يوطن : « أى لا يتخذ لمصلاه موطنا معلوما ، وقد ورد نهيه عن هذا مفسرا فى غير هذا الحديث » . كذا فى هامش جـ .

(٣) تنثى : تشاع وتذاع .

بالتقوى متواضعين ، يُوقِّرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ، ويرفدون[(١)] ذا الحاجة ويرحمون الغريب .

فسألته عن سيرته صلى الله عليه وسلم فى جلسائه ، فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائمَ البِشْر ، سَهْلَ الخلق ، لَيِّن الجانب ، ليس بفَظٍّ ولا غليظ ، ولا سَخَّاب[(٢)] ولا فَحَّاش ، ولا عَيَّاب ، ولا مدّاح ، يتغافل عما لا يُشْتَهى ولا يُؤْيِس منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذمّ أحدا ولا يعيِّره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثُهم حديثُ أوّلهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجَفْوة فى المنطق ، ويقول : « إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه » ولا يطلب الثناء[(٣)] إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام . هنا انتهى حديث سُفيان بن وَكِيع .

وزاد الآخر ، قلت : كيف كان سكوته صلى الله عليه وسلم ؟ قال : كان سكوته على أربع : على الحلم والحَذَر والتقدير والتفكّر ، فأما تقديره ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى ، وجمع له الحلم صلى الله عليه وسلم فى الصبر ، فكان لا يُغضبه شىء يَسْتفِزّه . وجمع له فى الحذر أربع : أخذه بالحَسَن ، ليُقتدَى به ، وتركه القبيح ليُنتهَى عنه ، واجتهاد الرأى بما أصلح أمّته ، والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة . صلى الله عليه وسلم . فهذه جملة كافية من أوصافه صلى الله عليه وسلم ، فلنذكر أحواله .

(١) يرفدون : يعينون . (٢) تقدم شرح هذه الكلمات . (٣) الثناء : فى هامش ج : « قوله : ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ : قيل مقتصد فى بيانه ومدحه ، وقيل لا من مسلم ، وقيل إلا من مكافئ على يد قد سبقت من النبىّ صلى الله عليه وسلم له » . وفى الأصول : النبأ ، وهو تصحيف .

ذكر أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم

في دنياه، وما ناله من شدّة العيش فيها، وما رُوِى من أحواله في تطيُّبه ولباسه وفراشه، ووسادته، وتختّمه وتنعُّله، وخُفّيه. وسِواكه، ومُشْطه، ومُكْحُلته ومرآته وقَدَحه، وما ورد في حِجَامته، وما ملكه من السِّلاح والدّواب وغير ذلك.

صلى الله عليه وسلم

أما ما ناله صلى الله عليه وسلم من شدة العيش في دنياه

فقد تقدّم من صفاته المعنوية زهده في الدنيا وتقلُّله منها، وأحلنا هناك على ما نورده في هذا الموضع. وسنورد منه ما تقف عليه إن شاء الله.

فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان عامة خبزهم الشعير. وعن أنس بن مالك أن فاطمة رضى الله عنها جاءت بكِسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما هذه الكسرة»؟ قالت: قُرْصٌ خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكِسرة. فقال: «أَمَا إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام». وعن أبى هريرة: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَشُدّ صُلْبه بالحجر من الغَرَث»[1]. وعن مسروق قال: بينما عائشة تحدّثنى ذات يوم إذ بكت؛ فقلت: ما يبكيك يا أم المؤمنين؟ قالت: ما ملأت بطنى من طعام فشئت أن أبكى إلا بكيت؛ أَذكُر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وما كان فيه من الجَهْد. وعنه قال: دخلتُ على عائشة أم المؤمنين وهى تبكى، فقلت: يا أم المؤمنين ما يبكيك؟ قالت: ما أشبع فأشاء أن أبكى إلا بكيت؛

١٠١
١٦

(١) الغرث: الجوع.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بُرّ . وعنها رضى الله عنها قالت : ما شَبِع آلُ محمد غَداءً وعَشاءً من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات حتى لَحِق بالله . ومن رواية عنها : ما رفع عن مائدته كِسْرة فضلًا حتى قُبِض . وعن أبى هريرة قال : كان يمر بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم هِلالٌ، ثم هلال، ثم هلال ، لا يُوقَد فى شىء من بيوته نارٌ، لا لخبز ولا لطبيخ، قالوا : بأى شىء كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال : بالأسودَيْن التمر والماء . قال : وكان له جيران من الأنصار — جزاهم الله خيرا — لهم مَنائحُ[1] يرسلون إليه بشىء من لبن . وعن الحسن قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « والله ما أمسى فى آل محمد صاع من طعام وإنها لتسعة أبيات » والله ما قالها استقلالا لرزق الله ، ولكن أراد أن تَأَسّى به أمته . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم مرتين حتى لحق بالله ، ولا رفعنا له فَضْل طعام عن شبع حتى لحق بالله، إلا أن نرفعه لغائب . فقيل لها : ما كانت معيشتكم ؟ قالت : الأسودان الماء والتمر . قالت : وكان لنا جيران من الأنصار لهم رَبَائِبُ[2] يسقوننا من لبنها، جزاهم الله خيرا . وعن ابن شهاب : أن أبا هريرة كان يمر بالمغيرة بن الأَخْنَس وهو يطعم الطعام ، فقال : ما هذا الطعام ؟ قال : خبز النَّقِىّ[3] واللحم السَّمِين ، قال : وما النَّقِىّ ؟ قال : الدقيق . فتعجب أبوهريرة ثم قال : عجبا لك يا مُغِيرةُ! رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضه

(١) المنائح (جمع منيحة)، وهى المنحة : ناقة أو شاة ينتفع بلبنها زمانا ثم يردّها .

(٢) الربائب (جمع ربيبة) بمعنى مربوبة : الغنم التى تكون فى البيت وليست بسائمة ؛ لأن صاحبها يربيها فى البيت للبنها .

(٣) النقى فسره بالدقيق ، والمراد به لباب البر، بدلالة لفظ : النقى .

الله عز وجل، وما شبع من الخبز والزيت فى يوم مرتين، وأنت وأصحابك تَهْذِرُون[1] ها هنا الدنيا بينكم . وعن قَتادة قال : كنا نأتى أنس بن مالك وخَبَّازُه قائمٌ ، فقال يوما : كلوا فما أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رغيفا مُرَقَّقا[2] حتى لحق بربه ، ولا شاة سَمِيطا[3] قَطّ . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما آجتمع فى بطن النبىّ صلى الله عليه وسلم طعامان فى يوم قطّ ، إن أكل لحما لم يزد عليه ، وإن أكل تمرا لم يزد عليه ، وإن أكل خبزا لم يزد عليه . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : أرسل أبو بكر رضى الله عنه قائمة شاة ليلا فقَطَعْتُ ، وأمسك علىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، أو قطع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأمسكتُ عليه ، فقيل لها : على غير مصباح ؟ قالت عائشة : لو كان عندنا مِصْباح لَأَتدمنا به ، كان يأتى على آل محمد شهر ما يختبزون خبزا ولا يطبخون قِدْرا . وعن عِمْران بن زيد المدينى قال : حدّثنى والدى ، قال : دخلنا على عائشة ، فقلنا : سلام عليك يا أُمّاه ، قالت : وعليك ، ثم بكت ، فقلنا : ما بكاؤكِ يا أُمّاه ؟ قالت : بلغنى أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمس لذلك دواء ، فذكرتُ نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فذلك الذى أبكانى ، خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه فى يوم من طعامين ، كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الخبز ، وإن شبع من الخبز لم يشبع من التمر ، فذلك الذى أبكانى . وعن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تُوفّى يوم تُوفّى ، ودِرْعه مرهونة عند رجل من اليهود بوَسْق من شعير . وسُئِل سهل بن سعد :

---

(١) تهذرون (بذال معجمة) : أى تتوسعون فيها ، قال الخطابى : «يريد تبذير المال وتفريقه فى كل وجه ، وروى : تهذون الدنيا وهو أشبه بالصواب ، يعنى تقتطعونها إلى أنفسكم ، وتجمعونها أو تسرعون إنفاقها» . (النهاية) .

(٢) مرققا : ملينا محسنا ، أو موسعا . (٣) سميطا : مشوية .

أكانت المناخل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ما رأيت مُنْخُلا
١٠٢/١٦ فى ذاك الزمان ، وما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعير منخولا حتى فارق
الدنيا . فقيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نَطْحَنها ثم نَنْفُخ قِشْرها ،
فيطير ما طار ويستمسك ما استمسك . وعن الأعرج ، عن أبى هريرة أن النبىّ
٥ صلى الله عليه وسلم كان يجوع ، قال قلت لأبى هريرة : وكيف ذلك الجوع ؟ قال :
لكثرة من يغشاه وأضيافه ، وقوم يلزمونه لذلك ، فلا يأكل طعاما أبدا إلا ومعه
أصحابه وأهل الحاجة يتتبعون من المسجد ، فلما فتح الله تعالى خيبر اتّسع الناس
بعض الاتساع ، وفى الأمر بعدُ[1] ضيقٌ ، والمعاش شديد فى بلاد ظَفِ[2] ، لا زرع
فيها ، إنما طعام أهلها التمر وعلى ذلك أقاموا . قال مَخْرَمَة بن سليمان : وكانت جَفْنة
١٠ سَعْد تدور على رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ يوم نزل المدينةَ فى الهجرة
إلى يوم تُوفّى ، وغير سعد بن عُبَادة من الأنصار يفعلون ذلك . وكان أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا يواسون ، ولكن الحقوق تكثر والعُدّام[3]
يكثرون ، والبلاد ضيقة ليس فيها معاش ، إنما تخرج ثمرتهم من ماء ثَمَد[4] يحمله
الرجال على أكتافهم ، أو على الإبل ، والإبل أقل ذلك ، وربما أصاب نَخْلَهم القُشَام[5]
١٥ فتذهب ثمرتهم تلك السنة ، والقُشَام : شىء يصيب البلح مثل الجدرى فيَنْتَثر ،
فهذه كانت حاله صلى الله عليه وسلم فى عيشه فى غالب أوقاته ، وهى سنّة الأنبياء
صلوات الله عليهم .

(١) فى نسخة أ : « بعض ضيق » .
(٢) الظف : الغليظ الصلب من الأرض ، والمراد لا زرع فيها ، كما قال .
٢٠ (٣) العدّام — كذا فى نسخ الأصل — جمع عادم كخادم وخدّام ، لأنه عديم فعيل بمعنى فاعل .
(٤) ثمد : الماء القليل الذى لا مادّة له ، أو ما يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف .
(٥) القشام (بالضم) : أن ينقض ثمر النخل قبل أن يصير بلحا .

وأما تطيبه صلى الله عليه وسلم

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ الطِّيب ، وكان يتطيب بالغَالِيَة[1] و بالمِسك ، حتى يُرَى وَبِيصُه[2] فى مَفَارقه ، ويتبخّر بالعُود ويَطْرح معه الكافُور، وكان يعرف فى الليلة المظلمة بطِيبِ رِيحه صلى الله عليه وسلم .

وأما لباسه صلى الله عليه وسلم

وما روى من ألوانه وأصنافه وطوله وعرضه

فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يتجمّل لأصحابه ، فضلا عن تجمّله لأهله ، ويقول : « إن الله يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيأ لهم ويتجمّل » ولبس صلى الله عليه وسلم من الثياب البياضَ والحُمرة والصّفرة والخُضْرة والسّواد .

أما البياض وما جاء فيه — فقد روى عن سَمُرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بالبياض من الثياب فَلْيَلْبَسها أحياؤكم وكفّنوا فيها موتاكم فإنها من خير ثيابكم » وفى رواية عنه « ألبسوا الثياب البيض فإنها أطهر وأطيب وكفّنوا فيها موتاكم » . وعن أبى قِلَابة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ من أحبّ ثيابكم إلى الله البياض ، فصلّوا فيها وكفّنوا فيها موتاكم » .

وأما الثياب الحمر — فروى عن البَرَاء قال : ما رأيت أحدا كان أحسنَ فى حُلّة حمراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعنه : ما رأيت من ذى لِمّة[3] أحسنَ فى حُلّة حمراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عَوْن بن أبى جُحَيْفَة عن أبيه

---

(١) الغالية : نوع من الطيب مركب من مسك وعود وعنبر ودهن . (كذا فى النهاية) .

(٢) الوبيص : البريق ، والمفارق جمع مفرق كمسجد : وهو من الرأس حيث يفرق فيه الشعر .

(٣) اللمة : الشعر يلم بالمنكب .

قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأبْطَح ، وهو فى قُبّـة حمراء ، فخرج وعليه جُبّة له حمراء وحُلّة عليه حمراء . وعن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس بُرْده الاحمر[1] فى العيدين والجمعة . وعن أبى جعفر محمد بن علىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبس يوم الجمعة برده الأحمر، ويعتّم[2] يوم العيدين، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

١٠٣/١٦ وأما الثياب الصُّفر – فقد رُوى عن قَيْس بن سعد بن عُبَادة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعنا له غسلا فاغتسل، ثم أتيناه بمُلْحَفة وَرْسِيّة[3] فاشتمل بها، فكأنى أنظر إلى أثر الوَرْس على عُكَنِه[4] . وعن بكر بن عبد الله المزنى قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مِلْحَفة مُوَرَّسَة ، فإذا دار على نسائه رشّها بالماء . وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : ربما صُبِغ لرسول الله صلى الله عليه وسلم قميصُه ورِداؤُه وإزارُه بزعفران ووَرْس، ثم يخرج فيها . وعن عبد الله بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ ثيابه بالزعفران : قميصه ورِداءه وعِمامَته . وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه رداءٌ وعمامةٌ مصبوغين بالعبير[5]، والعبير عندهم الزعفران . وعن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ ثيابه كلها بالزعفران حتى العمامة .

---

(١) البرد الأحمر : برد يمانى مخطط بحمرة وسواد ، أما لبس الأحمر القانى كما يشعر ما هنا فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم النهى عنه كما فى الصحيحين ، راجع شرح المواهب جـ ٥ ص ٢٧ .

(٢) يعتم : يلبس العمامة .

(٣) ورسية : الورس نبت أصفر يصبغ به ، والورسية المصبوغة به .

(٤) عكنه : جمع عكنة وهى الطى فى البطن من السمن .

(٥) فى نسخة أ : « عنبر » . والعنبر والعبير هو الزعفران ، أو العبير أخلاط من الطيب .

وأما الثياب الخُضْر — فقد رُوِى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الثياب الخضر . وعن أبى رِمْثَة قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه بُرْدان أخضران . والله المنعم .

وأما السَّوَاد وما ورد فيه — فقد روى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة ، وعليه عمامة سَوْداء . وعن حُرَيْث عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب الناس ، وعليه عمامة سوداء . هذا ما وقفنا عليه من ألوان لباسه صلى الله عليه وسلم .

فأما أصناف لباسه صلى الله عليه وسلم وطولها وعرضها ، فإنه عليه الصلاة والسلام لبس الصوف والخِبَرَة والقطن ، ولبس السُّنْدُس[1] والحرير ، ثم تركه ، وورد فى ذلك أخبار نذكر منها ما أمكن .

أما الصوف وما ورد فيه — فقد روى عن أبى بُرْدَة قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فأخرجت إلينا إزَارا غليظا مما يُصنَع باليمن ، وكِسَاء من هذه المُلَبَّدة ، فأقسمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِض فيهما . وعنها رضى الله عنها قالت : جعل للنبىّ صلى الله عليه وسلم بُرْدَة سَوْداء من صوف فلبسها . وعن سهل بن سعد : قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببردة منسوجة ، فيها حاشيتاها . قال سهل : وتدرون ما البردة ؟ قالوا : الشَّمْلَة ، قال : نعم ، هى الشَّمْلَة ، فقالت : يارسول الله ، نسجتُ هذه البردة بيدى فجئت بها أكسوكها ، قال : فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها ، فخرج علينا وإنها لإزاره ، فحسّنها فلان — لرجل من القوم سماه — فقال : يارسول الله ، ما أحسنَ هذه البُرْدَة !

(١) السندس : مارق من الديباج ورفع .

أكسنيها، فقال : «نعم» فجلس ماشاء الله فى المجلس ثم رجع، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم طواعا ثم أرسل بها إليه ، فقال له القوم : ما أحسنت ، كُسِيَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها ثم سألته إياها ، وقد علمت أنه لا يرد سائلا ! فقال الرجل : والله ما سألته إياها لألبسَها ، ولكن لتكون كَفَنى يوم أموت، قال سهل : فكانت كَفَنَه .

١٠٤/١٦ وأما الحِبَرَة وهى من بُرُود اليَمَن فيها حُمرة و بياض فكانت من أحبّ اللباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورُوِى عن قَتَادة قال قلت لأنس بن مالك : أىّ اللباس كان أحبّ وأعْجَب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : الحِبَرَة . وعن محمد بن هلال قال : رأيت على هشام بن عبد الملك بُرْد النبى صلى الله عليه وسلم من حِبَرة له حاشيتان .

وأما السُّنْدس والحرير — فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس ذلك ثم تركه . رُوى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أهدى ملك الروم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُسْتَقَة(١) من سُنْدُس فلبسها ، فكأنّى أنظر إلى يديها تَذَبْذَبَان(٢) من طولها . فجعل القوم يقولون : يا رسول الله، أنزلت عليك من السماء ؟ فقال : « وما تعجبون منها ، فوالذى نفسى بيده إن منديلا من مناديل سعد بن مُعَاذ فى الجنة خير منها » ثم بعث بها إلى جعفر بن أبى طالب فلبسها، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى لم أعطكها لتلبسها » قال : فما أصنع بها ؟ قال : « أبعث بها

(١) مستقة : « هى بفتح التاء وضمها : فرو طويل الكمين ، وهى تعريب مشته ، وقوله : من سندس يشبه أنها كانت مكففة بالسندس وهو الرفيع من الحرير والديباج لأن نفس الفرو لايكون سندسا ، وجمعها مساتق » (النهاية) .

(٢) فى النهاية : « كأنى أنظر إلى يديه تذبذبان ، أى تتحركان وتضطربان ، يريد كميه » .

إلى أخيك النجاشي » . وعن عقبة بن عامر قال : أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فَرُّوجٌ — يعنى قَبَاء حرير — فلبسه، ثم صلى فيه، ثم انصرف فنزعه نَزْعا شديدا كالْكَارِه له ، ثم قال : « لاينبغى هذا للمتقين » .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى فى خَمِيصَة لها أَعْلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما سلّم قال : « اذهبوا بخَمِيصَتى هذه إلى أبى جَهْم فإنها أَلْهَتْنِى آنفا عن صلاتى وأتونى بأنْبِجَانِىّ[1] أبى جَهْم » .

وأما القطن وما ورد فى أَطْوال ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعَرْضها فروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنت يوما أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه بُرْد بَحْرَانِىّ[2] غليظ الحاشية . وعنه : كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم قُطْنيا قصير الطول قصير الكُمّين . وعن بُدَيْل[3] قال : كان كُمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرُّسْغ . وعن عُرْوة بن الزبير رضى الله عنهما : أن طول رداء النبى صلى الله عليه وسلم أربع أذرع ، وعرضه ذراعان وشبْر .

---

(١) أنجانى ، كذا فى الأصول ، والذى فى الصحيحين : « وأتونى بأنجانية أبى جهم » قال : القسطلانى : نسبة إلى منبج بفتح الميم وكسر الموحدة موضع بالشام ، ويقال نسبة إلى موضع يقال له أنجان » ثم قال عن ثعلب : « يقال كساء أنجانى ، قال : وهذا هو الأقرب إلى الصواب فى لفظ الحديث » . راجع جـ ١ ص ٥١٠ .

(٢) بحرانى نسبة إلى البحرين، على لفظ المثنى ، قال فى المصباح : يجوز أن تجعل — النون محل الأعراب مع لزوم الياء مطلقا وهى لغة مشهورة ، لأنه صار علما مفرد الدلالة فأشبه المفردات والنسبة إليه بحرانى .

(٣) قال فى أسد الغابة : « غير منسوب انفرد ابن منده بإخراجه ، وقال : أخرج فى الصحابة وذكره أهل المعرفة فى التابعين وروى عنه : « كان كم رسول الله إلى الرسغين » .

وعنه : أن ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يخرج فيه إلى الوفد ـ ورداؤه حَضْرمىّ ـ طولُه أربع أذرع ، وعرضه ذراعان وشِبْر ، فهو عند الخلفاء قد خَلق، فطوَوْه بثوب يلبسونه يوم الأضحى والفِطر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قميصا قصير اليدين والطول . وعن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى قال: كنت مع عمر، فى حديث رواه عنه قال فقال : رأيت أبا القاسم وعليه جُبّة شَامِيّة ضيقة الكُمَّين .

ذكر صفة إزْرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما كان يقوله إذا لبس ثوبا جديدا

روى عن يزيد بن أبى حبيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرخى الإزار من بين يديْه ، ويرفعه من ورائه . وعن عِكْرِمة مولى ابن عباس، قال : رأيت ابن عباس إذا ائْتَزَرَ أرْخى مقدّم إزاره، حتى تقع حاشيتاه على ظهر قدميه؛ ويرفع الإزار مما وراءه ، فقلت له : لِمَ تأْتَزِر هكذا ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأْتَزر هذه الإزْرة . وعن أبى سعيد الخدرىّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اسْتَجَدّ ثوبا سمّاه باسمه؛ قَميصًا أو إزارًا أو عِمامةً، ويقول : « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك من خيره وخير ما صُنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صُنع له » . وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا لبس ثوبا — أو قال — إذا لبس أحدكم ثوبا فليقل الحمد لله الذى كسانى ما أُوَارى به عورتى ، وأتجمّل به فى حياتى » . وكان صلى الله عليه وسلم يلبس الكساء الصوف وحده فيصلى فيه، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره، ويعقد طرفيه بين كتفيه يصلى فيه . وكان يلبس القَلَانِس

١٠٥/١٦

تحت العمائم ، ويلبسها دونها [ويلبس العمائم[1] دونها] ويلبس القلانس ذات الآذان فى الحرب ، وربما نزع قَلَنْسُوَته ، وجعلها سترة بين يديه وصلى إليها ، وربما مشى بلا قَلَنْسوة ولا عمامة ولا رِداء ، راجلاً يعود المرضى كذلك فى أقصى المدينة . وكان يَعْتَمّ ويُسْدِل طَرَف عمامته بين كتفيه . وعن علىّ أنه قال : عَمَّمَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمامة ، وسدل طرفها على مَنْكِبى ، وقال : «إنّ العمامة حاجز بين المسلمين والمشركين» .

ذكر فِراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ووِسادته

روى عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ، قالت : دخلت امرأة من الأنصار علىّ فرأت فراشَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَبَاءَةً مَثْنِيَّة ، فانطلقت فبعثتْ إلىّ[2] بفراش حَشْوه صوفٌ ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ فقال : « ما هذا » ؟ قلت : يا رسول الله ، فلانة الأنصارية ، دخلت علىّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت هذا . فقال : «رُدِّيه» فلم أردّه ، وأعجبنى أن يكون فى بيتى ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : «والله يا عائشة لو شئتُ لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة» . وعنها : أنها كانت تفرِش لرسول الله صلى الله عليه وسلم عَباءة بأثنتين[3] فجاء ليلة وقد رَبَّعتها فنام عليها ، فقال : « يا عائشة ما لفراشى الليلة ليس كما كان يكون » ؟ قالت قلت : يا رسول الله ، رَبّعتها ، قال : «فأعيديه كما كان» . وعنها قالت : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وِسادةٌ من أَدَم محشوّة لِيفًا ، ودخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على سرير

(١) ساقطة فى ا .

(٢) فى جـ « إليه » .

(٣) أى بثنيتين أثنتين ، كما فى رواية حفصة عند الترمذى .

مَرْمُول[1] بشَريط ، وتحت رأسه مِرْفَقَة[2] من أَدَم مَحشوّة بليف ، وقد أثّر الشّريط بجنبه ، فبكى عمر ، فقال : « ما يبكيك » ؟ قال : يارسول الله، ذكرتُ كِسْرى وقَيْصر يجلسون على سُرُر الذّهب ويَلْبَسون السُّنْدُس والإسْتَبْرَق ، فقال : « أمَا تَرضَوْن أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا » . وعن عبد الله بن مسعود قال : اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر الحصير بجلده، فلما استيقظ جعلت أمسح عنه وأقول: يا رسول الله، ألَا آذَنْتَنَا نَبْسُط لك على هذا الحصير شيئا يقيك منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مالى وللدنيا ، وما أنا والدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » ، وعن المغيرة ابن شعبة قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فَرْوَة ، وكان يستحب أن تكون له فَرْوة مدبوغة يصلى عليها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على الحصير والخُمْرة[3] ، كما روى فى الصحيحين .

ذكر ما لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم
من الخواتم ، ومن قال لم يتختم

قد قدّمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ الخاتم فى سنة سبع من الهجرة عند ما بعث رُسُلَه إلى الملوك، وختم به الكتب التى سَيَّرها إليهم ؛ فلنذكر هنا ما لبسه من الخواتم . وقد روى أنه تختم بالذهب والفضة والحديد الملوىّ عليه الفضة، على ما نذكر ذلك من أقوالهم .

١٠٦/١٦

(١) مرمول بشريط : أى منسوج بما ينسج به الحصير .

(٢) المرفقة : كالوسادة، وفى رواية « نمرقة » .

(٣) الخمرة وزان غرفة : حصير صغير قدر ما يسجد عليه ، ولا تكون خمرة إلا فى هذا المقدار .

روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : آتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمـا من ذهب ، فكان يجعل فصّه فى بطن كفه إذا لبسـه فى يده اليمنى ؛ فصنع الناس خواتيم من ذهب ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فنزعه ، وقال : « إنى كنت ألبس هذا الخاتم وأجعل فصّه من باطن كفى » فرمى به ، وقال : « والله لا ألبسه أبدا » ونبذ النبى صلى الله عليه وسلم الخاتم ، فنبذ الناس خواتيمهم .

ثم آتخذ خاتمـا من فِضّة فَصُّه منه ، ونقش عليـه « محمد رسول الله » ثلاثة أسطر ، كان يختم به الكتب إلى الملوك . وقد روى أن خاتمه كان من حديد ، ملوىّ عليه فِضّة ، وقيل : إنه رآه فى يد عمرو بن سعيد بن العاص حين قدم من الحبشة فقال : « ما هذا الخاتم فى يدك يا عمرو » ؟ قال : هذه حلقة يا رسول الله ، قال : « فما نقشها » ؟ قال : محمد رسول الله ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فتختمه ، فكان فى يده حتى قُبِض ، ثم فى يد أبى بكر حتى قُبِض ، ثم فى يد عمـر حتى قُبِض ، ثم فى يد عثمان ستّ سنين ، وفى السابعة وقع فى بئر أَرِيس (١) . قال أنس آبن مالك : فطلبناه مع عثمان ثلاثة أيام فلم نقدر عليه . وروى عن آبن سِيرين : أن نقشه كان " بسم الله ، محمـد رسول الله " . وقد روى محمد بن سـعد فى طبقاته قال : أخبرنا أحمـد بن محمد بن الوليد الأزرقىّ ، قال حدّثنا عَطّاف بن خالد ، عن عبد الأعلى بن عبـد الله بن أبى فَرْوَة ، عن سـعيد بن المسيّب ، قال : ما تختم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقى الله ، ولا أبو بكر حتى لقى الله ، ولا عمر حتى لقى الله ، ولا عثمان حتى لقى الله ، هكذا روى . والصحيح أنه تختّم صلى الله عليـه وسلم ، وتختموا رضوان الله عليهم أجمعين كما ذكرنا .

(١) بئر أريس : بئر معروفة عند مسجد قباء تلقاءه فى المدينة المنورة .

ذكر نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وخُفَّيْه

روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لنعله قِبالان[1] . وعن عبد الله بن الحارث قال : كان نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لها رِمَالان[2] شِراكهما مَثْنِيّ فى العُقْدَة . وعن سَلَمَة عن هِشام بن عُرْوَة قال : رأيت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مُخَصَّرة[3] معقَّبة مُلَسَّنة لها قِبالان . وعن عُبَيْد ابن جُرَيْج قال قلت لابن عمر : يا أبا عبدالرحمن، أراك تستحب هذه النِّعال السِّبْتِيَّة[4]، قال : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسهما ويتوضأ فيهما . وعن عبد الله بن بُرَيْدَة عن أبيه : أن صاحب الحبشة أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خُفَّيْن سَاذَجَيْن[5] فمسح عليهما ، وفى رواية : أن النجاشى أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خفين أسودين ساذَجَيْن فلبسهما ومسح عليهما .

ذكر سِواك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومشطه، ومُكْحُلته، ومِرْآته، وقَدَحه، وغير ذلك من أثاثه

روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يَرْقُد ليلا ولا نهارا فيستيقظ إلا تَسَوّك قبل أن يتوضأ . وعن قَتَادة عن

(١) قبالان : القبال زمام النعل ، وهو السير الذى يكون بين الأصبعين .

(٢) رمالان تثنية رمال : وهو سير من الجلد كالقبال .

(٣) المخصرة : لها خصر رقيق ، أو التى قطع خصراها حتى صارا مستدقين . ومعقبة : لها عقب من سيور يضم به الرجل . والملسنة : ما فيها طول ولطافة على هيئة اللسان ، أو التى لها لسان ، وهو الهيئة المثبتة فى مقدمها . (٤) السبتية : المدبوغة بالقرظ ، لأن شعرها انسبت بالدباغ ، أو من السبت وهو القطع لأنه قطع عنها الشعر وحلق .

(٥) الساذج ؛ قال فى المواهب : غير منقوشين ، أو لا شعر عليهما ، أو على لون واحد لا يخالط سوادهما لون آخر ، قال : الساذج معرب ساذه .

عكْرمة قال : آستاك رسول الله صلى الله عليه وسلم بجريد رطب وهو صائم ، فقيل لقتادة : إن أناسا يكرهونه ، فقال : آستاك واللهِ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بجريد رَطْب وهو صائم . وعن آبن جريج قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مشط عاج[1] يَمْتَشِط به . وعن ثور عن خالد[2] بن مَعْدان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسافر بالمشط والمِرْآة والدُّهْن والمِكْحل[3] والسِّواك . وعن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ، ويسرِّح لحيته بالماء . وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْحُلة[4] يكتحل بها عند النوم ثلاثا فى كل عين . وعن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتحل فى عينه اليمنى ثلاث مرات ، واليسرى مرتين . وعن أبى رافع قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتحل بالإثمِد وهو صائم . ١٠٧/١٦ وعن عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالإثمِد فإنه يجلو البصر ، وينبت الشعر ، وإنه من خير أكحالكم » . وعن عبيد الله بن عبدالله بن عُتْبَة بن مسعود قال : أهدى المُقَوْقِس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدَح زُجاج ، كان يشرب فيه . وعن عطاء قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قَدَح زجاج ، فكان يشرب فيه . وعن حُمَيْد قال : رأيت قَدَح

(١) العاج : أنياب الفيل ، وعظم دابة بحرية يتخذ منه الأسورة والأمشاط .

(٢) فى الأصول : « ثور بن جابر بن معدان » وهو تصحيف (راجع طبقات آبن سعد جـ ١ : ١٧٠) .

(٣) فى طبقات آبن سعد « الكحل » .

(٤) المكحلة بالضم على غير قياس ، فإذا أريد بها الآلة جاز الكسر .

النبي صلى الله عليه وسلم عند أنس فيه فضّة، أو شُدَّ بفضّة . وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم كان له رَبعة[١] فيها مرآة ومشط عاج ومُكْحُلة ومِقْراض[٢] وسِوَاك . وكان له قَدَح مُضَبَّب[٣] بثلاث ضَبّات من فضّة — وقيل من حديد — وفيه حلقة يُعلَّق بها، وهو أكبر من نصف المُـدّ وأصغر من المدّ، وكان له قدح آخر يُدعَى الرَّيّان، وتَور[٤] من حجارة يدعى المِخْضَب[٥] . ومِخْضَب من شَبَهٍ[٦] يكون فيه الحِنّاء والكَتَم[٧] توضع عند رأسه إذا وجد فيه حرا، ومِغْسَل من صُفْر[٨]، وقَصْعَة، وصاع يخرج به فِطْرته، ومُدّ، وكان له سرير، وقَطِيفَة، وكان له كِساء أسود كساه فى حياته، وكان له ثوبان للجمعة، غير سائر ثيابه التى يلبسها فى سائر الأيام، وكان له مِنْـديل يمسح به وجهه من الوضوء، وربمـا مسح بطرف ردائه صلى الله عليه وسلم .

ذكر ماورد فى حجامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَجّامه

روى عن أنس بن مالك قال : آحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحجمه أبو طَيْبـة، وأمر له بصاعين ؛ وأمرهم أن يخفِّفوا عنـه من ضريبته . وآختلف فى آسم أبى طَيْبة، فقيل : دينار، وقيـل : نافع، وقيـل : مَيْسَرة، وهو مولى

(١) ربعة بفتح فسكون : إناء مربع يكون العطار : هى جلد يجعل فيه طيبه .

(٢) المقراض : الجلمان وهو المقص .

(٣) مضبب : مشعب، والإناء يصان إذا جعل له شعب من فضة أو حديد أو صفر .

(٤) التور : إناء من صفر أو حجارة .

(٥) مخضب : إناء يحضر فيه الخضاب وهو الحناء الذى يخضب بها صلى الله عليه وسلم .

(٦) الشبه : النحاس الشبيه بالذهب .

(٧) الكتم : نبت يخلط بالحناء يخضب به الشعر فيبقى لونه .

(٨) الصفر : النحاس .

بنى حارثة . وعن جابر بن عبد الله قال : أخرج[1] إلينا أبو طَيْبة المحاجم لثمان عشرة من شهر رمضان نهارا، فقلت : أين كنت ؟ قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أحجمه . وعن أنس قال : ٱحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حجمه أبو طيبة مولى كان لبعض الأنصار، فأعطاه صاعين من طعام، وكلّم أهله أن يخفّفوا عنه من ضريبته، وقال : « الحجامة من أفضل دوائكم » . وعن ٱبن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : ٱحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صائم، فغشى عليه يومئذ، فلذلك : كرهت الحجامة للصائم . وعن سَمُرَة بن جُنْدُب قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا حجّامه فحجمه بمحاجم من قرون، وجعل يشرطه بطرف شفرة، فدخل أعرابىّ فرآه ولم يكن يدرى الحجامة، ففزع وقال : يارسول الله، علام تعطى هذا يقطع جلدك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا المحجم » قال : يارسول الله، وما المحجم؟ قال : « هو خير ما تداوى به الناس » . وعن عطاء وٱبن عباس ـ رضى الله عنهم ـ قالا : ٱحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُحْرِم من وَجَع . وعن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتجم ثلاثا، على الأخْدَعين[2] ثِنْتَيْن ، وعلى الكاهل واحدة . وعن سعد ٱبن أبى وقاص : أنه وضع يده على المكان الناتئ من الرأس فوق اليافوخ، فقال : هذا موضع مَحْجَم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يحتجم ، وجاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسميها المغيثة . وكان خالد بن الوليد يحتجم

(١) كذا فى الأصول والطبقات : أخرج، والذى فى أسد الغابة عن ٱبن عباس : « لقيت أبا طيبة لسبع عشرة من رمضان » الخ .

(٢) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق، والكاهل : مابين الكتفين .

على هامته وبين كتفيه ، فقيل له : ماهذه الحجامة ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحتجمها ، وقال : « من أهراق منه هذه الدماء فلا يضره ألّا يتداوى بشيء لشيء » . وروى : أن الأقْرَع بن حابس دخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم فى القَمَحْدُوَة : وهى آخر الرأس ، فقال : لِمَ آحتجمت وسط رأسك ؟ قال : « يابن حابس إن فيها شفاء من وجع الرأس والأضراس والنعاس والمرض » وشك الراوى فى الجنون . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحجامة فى الرأس هى المُغِيثَة أمرنى بها جبريل حين أكلت طعام اليهودية » . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلة أسرى بى ماسررت بملأٍ من الملائكة إلا قالوا يامحمد مُرْ أمتك بالحجامة » . وعن مَعْقِل بن يَسَار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحجامة يوم الثلاثاء لسبع عشرة فى الشهر دواء لِداءِ السَّنة » . وقد كان صلى الله عليه وسلم يحتجم لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين . وعن الأوزاعى ، عن هرون بن رِئاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آحتجم ، ثم قال لرجل : « آدفنه لا يبحث عنه كلب » .

١٠٨/١٦

ذكر ماملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السلاح

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أسياف : ذو الفَقَار تَنَفّله[1] يوم بدر ، وهو الذى رأى فيه الرؤيا فى غزوة أُحد ، وكان قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمُنَبِّه بن الحجاج السَّهْمى ، وثلاثة أسياف ، أصابها من سلاح بنى قَيْنُقاع ، سيف

(١) تنفله : من النفل وهو الغنيمة ، روى الحاكم عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم تنفل ذا الفقار يوم بدر . وسمى سيف النبى صلى الله عليه وسلم ذا الفقار ؛ لأنه كانت فيه حفر صغار حسان .

قَلَعِيّ[١]، وسيف يُدْعَى البَتّار[٢]، وسيف يُدْعَى الحَتَف[٣]، وسيفان أصابهما من الفُلْس[٤]، سيف يُدعَى المِخْذَم[٥]، وآخر يُدعَى الرَّسُوب[٦]، وسيف ورثه من أبيه[٧]، وسيف يقال له العَضْب[٨]، أعطاه إياه سعد بن عُبَادة، وآخر يُدعَى القَضِيب[٩]، وهو أوّل سيف تَقَلّد به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أنس: كان نَعْل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فِضّة، وقَبِيعَتُه[١٠] فضة، وما بين ذلك حلَق الفضّة.

وكان له صلى الله عليه وسلم أربعة أرماح، ثلاثة أصابها من سلاح بنى قَيْنُقاع، وواحد يقال له المُثْنِيّ. وكان له عَنَزَةٌ: وهى حَرْبَة دون الرمح يمشى بها فى يده، وتحمل بين يديه فى العيدين، حتى تُرْكَز أمامه فيتخذها سترة يصلى إليها. وكان له أربعة قِسِى[١١]: قَوْس من شَوْحَط[١٢] تدعى الرَّوْحَاء، وأخرى من شوحط تدعى البَيْضَاء، وأخرى

(١) قلعى: نسبت إلى قلع: قلعة بالبادية قريب من حلوان بطريق همذان.

(٢) البتار: القاطع.

(٣) الحتف: الموت.

(٤) الفلس: صنم لطىء.

(٥) المخذم: من الخذم وهو القطع.

(٦) الرسوب: من الرسب وهو الذهاب إلى أسفل لأن ضربته تغوص فى المضروب به.

(٧) يسمى مأثور.

(٨) العضب: أى القاطع.

(٩) القضيب: يراد به اللطيف من السيوف، ويراد به القاطع.

(١٠) قبيعته: هى التى تكون على رأس قائم السيف، وقيل: هى ما تحت شاربى السيف.

(١١) الذى فى شرح المواهب: سنة، وزاد: الزوراء، والسداد.

(١٢) شوحط: شجر جبلى تتخذ منه القسى.

من نَبْع[1] تُدعَى الصَّفْراء ، وقوس تُدعَى الكَتُوم[2] كُسِرت يوم بدر . وكان له جَعْبَة[3] تدعى الكافور، وكان له مِخْصَرة[4] تسمى العُرْجُون، وكان له مِحْجَن[5] قدر الذراع أو نحوه يتناول به الشيء ، وهو الذي استلم به الرُّكْن[6] في حجة الوَدَاع ، وكان له دِرْعان أصابهما من سلاح بني قَيْنُقاع : دِرْع يقال لها السَّعْدية[7] ، وأخرى يقال لها فِضة .

وعن محمد بن مَسْلَمة قال : رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد دِرعين ، دِرعه ذات الفُضُول ، ودِرعه فِضّة ، ورأيت عليه يوم حُنَيْن دِرْعين ، ذات الفُضُول والسَّعْدية ، ويقال : كانت عنده دِرْع داود عليه السلام التي لبسها لما قتل جَالُوتَ ، وكان له مِغْفَر يقال له السَّبُوغ[8] ، وكان له صلى الله عليه وسلم تُرْس ؛ روى محمد بن سعد في طبقاته قال : أخبرنا عَتّاب بن زياد، قال حدّثنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال سمعت مَكْحُولا يقول : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم تُرْسٌ فيه تِمْثال رأس كَبْش ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه ، فأصبح وقد أذهبه الله تعالى. وفي رواية أخرى : كان له صلى الله عليه وسلم تُرْس عليه تِمْثال عُقَاب ، أُهدِي له فوضع يده عليه فأذهبه الله ، وكان له مِنْطَقة من أديم مَبْشُور[9] فيها ثلاث حِلَق من

(١) نبع : شجر يتخذ منه الرماح والسهام .

(٢) الكتوم : سميت بذلك لانخفاض صوتها إذا رمى عنها .

(٣) جعبة : هي الكنانة يجمع فيها نبله .

(٤) مخصرة : ما يختصره بيده، فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب، قد يتوكأ عليه .

(٥) محجن : عصا معوجة .

(٦) الركن اليماني من الكعبة .

(٧) السعدية : نسبة إلى جبال السعد، ويروى بالغين المعجمة وضم السين : ناحية بسمرقند .

(٨) السبوغ (بالفتح والضم) : بمعنى السابغ وهو الطويل .

(٩) مبشور : مقشور ؛ وهذه الصفة لا توجد في شرح المواهب .

فِضّة، والإِبْزِيم[1] من فِضّة ، والطَّرَف من فضّة ، وكان له راية سوداءُ مُخْمَلَة، يقال لها العُقَاب، ولواء أبيَض وربما جعل الألوية من خُمُر نسائه صلى الله عليه وسلم، ورضى عنهنّ .

ذكر دَوَابّ رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الخيل والبغال والحمير

أما خيله صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكرنا فى الباب الأول من القسم الثالث من الفنّ الثالث من كتابنا هذا ، وهو فى السّفر التاسع من هذه النّسخة ، أن خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم التى ملكها ، على ما ظهر من مجموع الروايات التى أوردناها هناك تسعة عشر فرسا : وهى السَّكْب[2] ، والمُرْتَجِز[3] ، والبحر[4] ، وسَبْحة[5]، وذو اللِّمَّة[6] ، وذو العُقال[7] ، والخُلَيْف[8] ، ويقال فيه : الخَيْف بالخاء المعجمة ، وقيل: النَّحِيف بالنون ، واللِّزاز[9] ، والظَّرِب[10]، والوَرْد[11]، والسَّجْل[12]، والشَّحا[13] ، والسِّرْحان[14] ،

(١) الإبزيم بالكسر : الذى فى رأس المنطقة وما أشبهه ، وهو ذو لسان يدخل فيه الطرف الآخر .

(٢) السكب : الصب سمى بذلك لسرعته فى الجرى ، كأنما هو ينسكب كالماء .

(٣) المرتجز : سمى بذلك لحسن صهيله ، مأخوذ من الرجز الذى هو ضرب من الشعر .

(٤) البحر : سماه رسول الله بذلك حين جرى عليه فكان سريعا فقال له : « ما أنت إلا بحر » .

(٥) سبحة : من قولهم : فرس سابح إذا كان حسن مداليدين فى الجرى .

(٦) ذو اللمة : سمى بذلك لوفرة شعره حتى ألم بالمنكبين .

(٧) ذو العقال ، بشد القاف وتخفيفها : سمى بذلك لظلع فى قوائمه ، والظلع : العرج اليسير .

(٨) الخليف بالتصغير والتكبير : سمى بذلك لسمنه وكبره ، وقيل لطول ذنبه كأنه يلحف الأرض أى يغطيها بذنبه لطوله .

(٩) اللزاز : المجتمع الخلق ، أو من لزبه التزق كأنه يلتزق بالمطلوب

(١٠) الظرب : الجبيل سمى بذلك لقوته وصلابة حافره .

(١١) الورد : لون بين الكميت والأشقر ، شبه بالورد المشموم .

(١٢) السجل : مأخوذ من سجلت الماء صببته . وقيل بكسر السين كما فى المواهب .

(١٣) الشحا : أى بعيد الخطوة . (١٤) السرحان : الذئب .

والمُرْتَجِل[1] ، والأدْهم[2] ، ومُلاوِح[3] ، والعَيْسُوب[4] ، واليَعْبُوب[5] ، والمِرْوَاح[6] ، وقد يكون الأدْهَم هو السَّكْب أو البَحْر ؛ فتكون ثمانية عشر فرسا .

وذكرنا هناك أخبار هـذه الخيل ومن ذكرها . وذهب بعضهم إلى أن خيله صلى الله عليه وسلم كانت عشرة أفراس : السَّكْب ، والمُرتَجِز ، ولزَازُ ، والخِيفُ ، والظَّرِب ، والأَوْرَد ، والضِّرِس[7] ، ومُلَاوِح ، وسَبْحَة ، والبَحْر ، ولم يذكر ما عداها ، والله عز وجل أعلم . ١٠٩/١٦

وأما بغلات رسول الله صلى الله عليه وسلم وحُمُره فقد ذكرنا أيضا فى البـاب الثـانى من القسم الثالث من الفن الثالث فى السـفر التاسع من كتابنا هـذا ، أن بغلات رسول الله صلى الله عليـه وسلم اللاتى ملكهنّ كُنّ سبعا ، على ما ظهر من مجمـوع الروايات التى ذكرناها هناك ، وهنّ دُلْدُل التى أهـداها له المُقَوْقِس ، وفِضّة التى أهـداها له فَرْوَة بن عمرو ، وبغـلة أهداها له كِسْرَى ، وبغلته الأَيْلِيّة التى أهداها له ابن العَلْمَـاء[8] صاحب أَيْلَة ، وبغلة بعثها له صاحب دُومَة الجَنْدل ،

(١) المرتجل : الذى يخلط بين تباعد خطاه وتوسع جريه ، وبين تقاربها وسرعته .

(٢) الأدهم : الأسود .

(٣) ملاوح : الضامر الذى لا يسمن ، والسريع العطش ، والعظيم الألواح .

(٤) العيسوب : قال الزرقانى على المواهب : « وزاد بعضهم العيسوب بتقـديم العين على اليـاء » وفيها أيضا : « اليعسوب » : غرة تستطيل فى وجه الفرس ، وأمير النحل .

(٥) اليعبوب : الفرس الجواد .

(٦) المرواح : من أبنية المبالغة ؛ مشتق من الريح لسرعته كالريح ، أو من الرواح ؛ لتوسعه فى الجرى ، أو من الراحة ؛ لأنه يستراح به .

(٧) فى الأصول : « الضرمز » ؛ وما أثبتناه عن الطبقات ، وقال فى النهاية : إنه صلى الله عليه وسلم اشترى فرسا اسمه الضرس فغزا به يوم أحد وسماه السكب .

(٨) العلماء : تأنيث الأعلم ، مشقوق الشفة العليا .

وبَغْلَة أهداها له يُوحَنّا بن روزيه[(١)] ، وبغلة أهداها له النجاشى صاحب الحبشة ، وفى البَغْلة التى ذكر أن كِسْرى أهداها له صلى الله عليه وسلم نظر ، لما قدمناه من أنه مَزَّق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبه . ومن أهل العلم من ذهب إلا أنهنّ كنّ ثلاثة : دُلْدُل التى أهداها له المقوقس ، وفضة وهبها لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وبغلة أهداها له صاحب أَيْلَة . وكان له صلى الله عليه وسلم من الحُمُر : يَعْفُور ، وعُفَير ، وقد ذكرناهما فى الباب المقدّم ذكره فى السِّفْر التاسع .

ذكر نَعَم رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون لِقْحَة[(٢)] بالغابة ، يراح له منها كل ليلة بقِرْبَتَين عظيمتين من اللّبن ، وكانت له لقحة تُدعى بُرْدَة ، أهداها له الضحّاك ابن سفيان ، كانت تُحْلَب كما تُحْلَب لقحتان غَزِيرَتان ، وكانت له مَهْرِيَّة[(٣)] أرسلها إليه سعد بن عُبَادة من نَعَم بنى عُقَيل ، وكانت له القَصْوَاء[(٤)] ، وهى التى هاجر عليها ، وكان لا يحمله إذا نزل عليه الوَحْىُ غيرها ، وهى العَضْبَاء[(٥)] ، والجَدْعَاء[(٦)] ، وقيل : العَضْبَاء غير القَصْوَاء ، وقد ذكرنا فى الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثالث نَعَمه بأبسط من هذا .

---

(١) كذا فى نسخة جـ ، وفى أ : « روؤبة » هكذا ، والذى فى شرح المواهب : « يحنة بن روبة » بضم التحتانية وفتح المهملة وتشديد النون ، وروبة بضم الراء وسكون الواو بعدها موحدة ، وقال : إنه صاحب أيلة » . وعلى هذا تكون هذه البغلة هى الأيلية المتقدمة لا ريب .

(٢) اللقحة : الناقة القريبة العهد بالنتاج .

(٣) المهرية : من كرائم الإبل تنسب إلى حى مهرة بن حيدان .

(٤) القصواء : من القصو وهو قطع طرف الأذن .

(٥) العضباء : هى المشقوقة الأذنين أو مقطوعتهما .

(٦) الجدعاء : المقطوعة الأنف أو الأذن أو الشفة .

وكان له صلى الله عليه وسلم مائة من الغَنَم . وكانت له سبع مَنائِح[1] : عَجْرة، وزَمْزَم، وسُقْيَا، وبَرَكَة، ووَرِشة[2]، وأَطْلال . وأَطْرَاف، وكانت أُمّ أَيْمَن ترعاهنّ، وكانت له شاة يَخْتَصّ بشرب لبنها، تدعى غَيْثَة، وكان له دِيكٌ أبيض، هذا ما أمكن إيراده فى هذه الفصول، وهو بحسب الاختصار .

وقد آن أن نأخذ فى ذكر مُعْجِزاته صلى الله عليه وسلم، وإنما أخّرنا ذكر المعجزات إلى هذه الغاية لأُمُور: منها أنّ معجزاته صلى الله عليه وسلم كانت فى مدة حياته، تقع خلال غزواته، وغالب أوقاته، فلو ذكرناها قبل نهاية ذكر أحواله صلى الله عليه وسلم، لكنّا قد قدّمنا منها شيئا قبل وقته الذى وقع فيه. ومنها أنّا لمّا ذكرنا صفاته صلى الله عليه وسلم فيما تقدّم، استلزم إيراد أحواله تِلْوَ صفاته، وصار الكلام يتلو بعضه بعضا، ولو ذكرنا المعجزات فى خلال ذلك لانقطع الكلام وانفرط النظام، وأهمّ الأسباب فى تأخير ذكر المعجزات إلى هذه الغاية، أنا أردنا أن تكون معجزاته صلى الله عليه وسلم خاتمةً لهذه السِّيرة الشريفة، وتالية لهذه المناقب المُنِيفة[3] لا يجعل بعدها من أخباره صلى الله عليه وسلم إلا أخبار وفاته عليه السلام .

ذكر معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم

١١٠/١٦ ومعنى المعجزة أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، ولا تكون معجزة إلا مع وُجُود التّحدى بالنبوّة، وأما مع عدم التحدى فهى كرامة، كأحوال الأولياء .

والمعجزة على ضَرْبين : ضَرْبٌ هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عن الإتيان بمثله، كالقرآن على رأى من رأى أن من قدرة البشر أن يأتوا بمثله، ولكن الله تعالى

(١) المنائح : جمع منيحة، وهى الشاة التى تعار للبنها، ثم ترد إذا انقطع لبنها، وفى شرح المواهب : كانت له سبع أعنز منائح، الخ . (٢) فى الأصول والطبقات : «ورسة» وما أثبتناه عن المواهب، وجاء فى القاموس : «ورش ككتف النشيط الخفيف من الإبل وغيرها» . (٣) المنيفة : العالية المشرفة .

صَرفهم عن ذلك ، فعجزوا عنـه ، وكصرف يَهُود عن تمنِّى الموت ، ونحو ذلك . وضَرْب هو خارج عن قدرة البشر كإحياء الموتى، وتَسْبيح الحَصى، وٱنشِقَاق القمر، ونَبْع المـاء من بين الأصابع، وتكثير الطعام، وحَبْس الشمس، ورَدّها بعـد غروبها .

٥ وها نحن نورد فى هذا الفصل من مشاهير معجزاته، وباهر آياته ، ما تقف إن شاء الله تعالى عليه، وقد تقدم من معجزاته صلى الله عليه وسلم فى أثناء هذه السيرة ما تقدم ، ممـا نُنَبّه عليه فى هذا الفصل ، ونُحِيل عليه فى مواضعه، ونشرح ونبين ما أدْمَجْناه قبلُ إن شاء الله تعالى .

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم كثيرة : منها القرآن العظيم، وهو أكبَرها آيةً، ١٠ وأعظمها دلالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ، ومنها ٱنشقاق القَمَر، وحبس الشمس ، وردّها ، وتَفْجير المـاء وٱنبِعاثُه ونَبْعه من بين أصابعه وتكثير الطعام ، وكلام الشَّجَر ، وسَعْيُها إليه ، وحَنين الجذْع ، وتسبيح الطعام والحصى ، وكلام الجمادات، وشهادة الحيوانات له صلى الله عليه وسلم بالنبوة، وكلام الموتى، وإبراء المرضى ، وإجابة الدعاء ، وٱنقلاب الأعيان ، وما أطلعه الله تعالى عليـه من علم ١٥ الغيوب، والإخبار بمـا كان ويكون ، وما جمع له من المعارف والعـلوم ومصالح الدنيا والدين ، وسياسة العالم ، والعِصْمة من الناس ، وغير ذلك مما نشرحه ونبيّنه إن شاء الله تعالى .

فأما القرآن العظيم وما ٱنْطَوى عليه من المعجزات ، فمعجزاته كثيرة نحصرها فى عشرة أوْجُه :

الوجه الأوّل — حُسْن تأليفه والْتِئام كَلِمه وفصاحتُه، ووجوه إيجازه، و بلاغته الخارقة عادةَ[1] العرب، وذلك أنهم خُصّوا من البلاغة والحكم مالم يُخَصّ به غيرهم من الأمم، وحَسْبك أن القرآن أنزل بلغتهم، ومع ذلك فقد قَرَعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم به، ووَبّخهم وسَفّه أحلامهم، وسبّ آلهتهم، وذمّ آباءهم، وشتت نِظامهم، وفرّق جماعتهم، وأنزل الله تعالى فيهم ما أنزل من قوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[3] وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[4] وغير ذلك، فنكَصُوا عن معارضته، وأحجموا عن مماثلته، ورَضُوا بقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ و ﴿فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[5]. و﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[6]. واعترف فصحاؤهم عند سماعه أنه ليس من كلام البشر؛ كالوليد بن المُغِيرة وعُتْبَة ابن رَبِيعة، على ما قدّمنا ذكر ذلك.

الوجه الثانى من إعجازه — صورة نظمه العجيب، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونَثْرها، وسَجْعها ورَجَزِها[7] وهَزَجِها[8] وقريضها[9]، ومبسوطها[10]

(١) عادة بالنصب مفعول خارقة، بمعنى خارجة عن عادتهم (شرح الشفا للشهاب جـ ٢ : ٥١٠)

(٢) آية ٣٨ سورة يونس. (٣) آية ٢٢، ٢٣ سورة البقرة. (٤) آية ٨٨ سورة الأسراء.

(٥) آية ٥ سورة فصلت. (٦) آية ٢٦ سورة فصلت. (٧) الرجز: بحر من الشعر معروف، فهو كهيئة السجع إلا أنه فى وزن الشعر وتسمى قصيدته أرجوزة.

(٨) الهزج: الأغانى، وبحر من الشعر، وبه فسرها.

(٩) قريضها: هو بمعنى الشعر مطلقا. (١٠) مبسوطها: مطوّلات قصائدها.

ومَقبوضها[1]، كما قال الوليد بن المغيرة لقريش عند آجتماعهم كما قدمناه، ومن ذلك جمعه بين الدليل والمدلول، وذلك أنه آحتجّ بنظم القرآن، وحسن وصفه وإيجازه وبلاغته، وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعده ووعيده، فالتّالى له يفهم موضع الحجّة والتّكليف معًا من كلام واحد.

١١١/١٦ الوجه الثالث من إعجازه — ماآنطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوُجد، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾[2]. وقوله فى الروم: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[3]. وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[4]. وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[5] الآية. وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾[6] السورة، فكان جميع ذلك: فتح الله مكة، وغلبتِ الروم فارس، وأظهر الله رسوله، ودخل النا س فى دين الله أفواجا، وآستخلف الله المؤمنين فى الأرض، ومكّن دينهم وملّكهم أقصى المشارق والمغارب، وما فيه من الإخبار بحال المنافقين واليهود، وكشف أسرارهم، وغير ذلك.

الوجه الرابع — ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة والشرائع الدائرة[7]، مما كان لايعلم منه القصة الواحدة إلا من مارس العلوم من أهل الكتاب، وآطلع على الكتب المنزلة القديمة، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضر وذِى القَرْنَيْن ولُقْمان وآبنه وبدء الخلق، وغير ذلك مما فى كتبهم القديمة مما آعترف بصحته العلماء من أحبار يهود، فمنهم من آمن به، ومنهم من صدّ عنه مع عدم إنكارهم لصحته، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[8].

(١) مقبوضها: مختصر أوزانها. (٢) آية ٢٧ سورة الفتح. (٣) آية ٣ سورة الروم.
(٤) آية ٣٣ سورة التوبة و ٢٨ سورة الفتح. (٥) آية ٥٥ سورة النور.
(٦) آية ١ سورة النصر. (٧) الدائرة: المندرسة القديمة. (٨) آية ١٥ سورة المائدة.

الوجه الخامس — الرَّوْعَةُ التي تلحق قلوب سامعيه، وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته؛ قال الله عز وجل: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(٢) هذا في حق المؤمنين به، وأما من كذب به فكانوا يستثقلون سماعه، ويَوَدّون انقطاعه؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «القرآن صَعْب مُسْتصعب على من كَرِهه، وهو الحَكَم» وقد تقدم أن عُتبة بن رَبيعة لما سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ قوله: ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٣) أمسك على فِي(٤) النبيّ صلى الله عليه وسلم وناشده الرَّحِم أن يَكُفّ.

الوجه السادس — كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، وقد تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٥). وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾(٦) وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز باق منذ أنزله الله تعالى وإلى وقتنا هذا، وما بعده إن شاء الله إلى آخر الدهر، حجته قاهرة، ومعارضته ممتنعة.

الوجه السابع — أن قارئه لا يَمَلُّ قراءته، وسامعه لا تَمُجّه مسامعه، بل الإكْبَاب على تلاوته وتَرْديده يزيده حلاوة ومحبة، لا يزال غَضًّا طريا، وغيره من الكلام ولو بلغ ما عساه أن يبلغ من البلاغة والفصاحة يُمَلّ مع الترديد، ويسأم إذا

(١) آية ٢٣ سورة الزمر. (٢) آية ٢١ سورة الحشر. (٣) آية ١٣ سورة فصلت.
(٤) في: أي فم النبي صلى الله عليه وسلم. (٥) آية ٩ سورة الحجر.
(٦) آية ٤٢ سورة فصلت.

أعيد، وكذلك غيره من الكتب[1] لا يوجد فيها ما فيه من ذلك ، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن « أنه لا يَخْلَق[2] على كثرة الرّد ولا تنقضي عِبَرُه ، ولا تَفْنى عجائبُه، هو الفَصْل ليس بالهَزْل » .

الوجه الثامن — أن الله تعالى يسر حفظه لمتعلّميه، وقرّبه على متحفّظيه، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[3] ﴾ فلذلك إن سائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحدُ منها، وإن لازم قراءتها، وداوم مُدارستها، لم يسمع بذلك عن أحد منهم ، والقرآن قد يسر الله تعالى حفظه على الغلمان فى المدّة القريبة والنِّسوان، وقد رأينا من حفظه على كبر سنه، وهذا من معجزاته .

الوجه التاسع — مشاكلة بعض أجزائه بعضا ، وحسن ائتلاف أنواعها ، والتِئام أقسامها، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره على آختلاف معانيه ، وآنقسام السورة الواحدة على أمر ونهى ، وخبر وآستخبار ووعد ووعيد، وإثبات نبوّة وتوحيد، وتقرير وترغيب وترهيب، إلى غير ذلك، دون خلل يتخلل فصوله ، والكلام الفصيح إذا آعتوره مثل هذا ضعفت قوّته ، ولَانَتْ جَزَالَتُه ، وقَلَّ رَوْنَقُه، وتَقَلْقَلَت ألفاظُه، وهذا من الأمور الظاهرة التى لا يحتاج عليها إقامةُ دليل، ولا تقرير حجة، ولا بسط مقال .

١١٢/١٦

الوجه العاشر — جمعه لعلوم ومعارف لم تعهدها العرب، ولا علماء أهل الكتاب، ولا آشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع ، والتنبيه على طرق الحجج العقليات، والردّ على فرق الأمم بالبراهين الواضحة ، والأدلة البينة السهلة الألفاظ ، الموجزة المقاصد ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ

(١) أى الكتب المنزلة . (٢) يخلق : يبلى . (٣) آية ٣٢ سورة القمر .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (١) ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (٢) ﴾ وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا (٣) ﴾ إلى غير ذلك مما اشتمل عليه من المواعظ والحِكم وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب، وغير ذلك مما لا يحصيه واصفٌ، ولا يعده عادٌّ، قال الله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (٤) ﴾، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ (٥) ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله أنزل علىّ القرآن آمِرًا وزاجرًا، وسنّةً خالية، ومثلا مضروبا ، فيه نبأكم وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم ، لا يخلقه طُولُ الردّ، ولا تنقضى عجائبه، هو الحقّ ليس بالهزْل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فَلَجَ (٦) ومن قَسَم به أقْسَط ، ومن عمل به أُجِر، ومن تمسك به هُدِىَ إلى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضلّه الله ، ومن حكم بغيره قَصَمه الله، هو الذكر الحكيم ، والنّور المبين، والصراط المستقيم، وحَبْل الله المتين، والشّفاء النافع، عِصْمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يَعْوَج فيقوَمَ، ولا يَزيغ فيُسْتَعْتَب ، ولا تَنْقَضى عجائبُه ، ولا يَخلُق على كثرة الردّ » . وفى الحديث : « قال الله تعالى لمحمد — صلى الله عليه وسلم — إنى منزِّل عليك تَوْراةً حديثة تفتح بها أعْيُنا عُمْيًا وآذانا صُمًّا، وقلوبا غُلْفا، وفيها ينابيع العلم، وفَهْم الحِكمة ، ورَبيع القلوب» . وقد عدّوا فى إعجازه وجوها كثيرة غير ما ذكرناه فلا نطوِّل بسردها .

وأما انشِقاق القمر، وحبس الشمس ورجوعها — فكان ذلك من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ .

(١) آية ٨١ سورة يس .
(٢) آية ٧٩ سورة يس .
(٣) آية ٢٢ سورة الأنبياء .
(٤) آية ٣٨ سورة الأنعام .
(٥) آية ٢٧ سورة الزمر .
(٦) فلج : غلب وفاز بالنصر على من خاصمه . وأقسط : عدل .

وإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (١) . وقد رويت قصة انشقاق القمر عن ابن مسعود، وأنس بن مالك، وابن عباس، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله ابن عمر، وحُذَيْفة، وجُبَيْر بن مطعم رضى الله عنهم، قال ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اشهدوا » قال ابن مسعود : حتى رأيت الجبل بين فُرْجَتى القمر، وفى بعض طرقه : ومن رواية مسروق عنه أنه كان بمكة، وزاد : فقال كفّار قريش سَحَركم ابنُ أبى كَبْشَة، فقال رجل منهم : إن محمدا إن كان قد سحر القمر فإنه لا يبلغ من سِحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا ؟ فأتوا فسألوا فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك . وحكى السَّمَرْقَنْدى عن الضحاك نحوه . وقال : فقال أبو جهل هذا سِحْرٌ فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى ينظروا أرأَوا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقا، فقالوا — يعنى الكفار — : هذا سِحر مستمر . وقال على رضى الله عنه، من رواية أبى حُذَيْفة الأرحبى : انشق القمر، ونحن مع النبى صلى الله عليه وسلم . وعن أنس : سأل أهلُ مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين، حتى رأوا حِراءَ بينهما، وفى رواية مَعْمَر، وغيره عن قَتادة عنه : أراهم القمر مرتين انشقاقه (٢)، فنزلت الآية ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ﴾. وحكى الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الحليمى (٣) الجرجانى

(١) آية ١ — ٢ سورة القمر . (٢) انشقاقه بالنصب بدل اشتمال من القمر .

(٣) فى هامش ج : « الحليمى هذا شافعى المذهب، مولده سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، ورحل إلى بخارى وكتب الحديث عن أبى سهل محمد بن أحمد بن يوسف وغيره، وتفقه على أبى بكر الأودى وأبى بكر القفال، ثم صار إماما معظما مرجوعا إليه بما وراء النهر وحدث بنيسابور، وروى عنه الحاكم وتوفى فى جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعمائة، وقيل : فى ربيع الأول من السنة » .

فى منهاجه قال : رأيت بِجُخَارى الهلال وهو ٱبن ليلتين منْشقّا بنصفين، عَرْض كل واحد منهما كعرض القمر ليلة أربع أو خمس، وما زلت أنظر إليهما حتى ٱتصلا، ثم لم يعودا كما كانا ، ولكنهما صارا فى شكل أُتْرُجّة ، ولم أمِل طرفى عنهما إلى أن غاب، قال: وكان معى ليلتئذ جماعةٌ كثيفة، من بين شريف وفقيه وكاتب وغيرهم من طبقات الناس، وكلٌّ رأى مارأيت . قال : وأخبرنى من وَثِقت به ، وكان خبره عندى كعِيَانى أنه رأى الهلال وهو ٱبن ثلاث منشقا بنصفين ، قال : وإذا كان هكذا ، ظهر أن قول الله عز وجل : ﴿ وٱنْشَقّ الْقَمَرُ ﴾ إنما هو على الٱنشقاق الذى هو من أشراط الساعة، دون الٱنشقاق الذى جعله الله تعالى آية لرسوله صلى الله عليه وسلم، وحجة على أهل مكة . وبالله التوفيق .

١١٣/١٦

وأما رجوع الشّمس — فقد روى عن أسْماء بنت عُمَيْس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يُوحَى إليه ورأسه فى حِجْر علىّ ، فلم يصلّ العصر حتى غربت الشمس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصليت يا على » ؟ قال : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فٱردد عليه الشمس » قالت أسماء : فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعد ماغربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصّهْباء فى خَيْبر . خرّجه الطحاوى فى مشكل الحديث عن أسماء من طريقين، قال وكان أحمد بن صالح يقول : لا ينبغى لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء؛ لأنه من علامات النبوّة .

وأما حبسها — فقد روى يونس بن بكير فى زيادة المغازى عن ٱبن إسحق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرِى به ، وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العِير ، قالوا : متى تجىء؟ قال : «يوم الأربعاء» فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون ، وقد ولّى النهار ولم يجئ ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزيد له فى النهار ساعة، وحبست عليه الشمس صلى الله عليه وسلم .

وأما نَبْعُ الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم

فقد روى عن أنس بن مالك ، وجابر ، وعبد الله بن مسعود ؛ قال أنس من رواية إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوَضوء(١) فلم يجدوه ، فأُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوَضوء(٢) ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضئوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم . ورواه أيضا عن أنس قَتَادةُ ، وقال : بإناء فيه ماء ما يغمر أصابعه ، ولا يكاد يغمر(٣) ، قال : كم كنتم ؟ قال : زُهَاء ثلثمائة ، وفى رواية عنه : وهم بالزَّوْراء عند السوق . وأما ابن مسعود ، ففى الصحيح عنه من رواية عَلْقَمة : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس معنا ماء ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اطلبوا مَن معه فضل ماءٍ» فأُتِى بإناءٍ فصبه فى إناءٍ ، ثم وضع كفّه فيه ، فجعل الماء يَنْبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى الصحيح عن سالم بن أبى الجعد عن جابر قال : « عطش الناس يوم الحُديبية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه رَكْوَةٌ(٤) فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا : ليس عندنا ماءٌ ، إلا ما فى رَكْوَتك ، فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده فى الرَّكوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، وفيه : فقلت كم كنتم ؟ قالوا : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة . وفى صحيح مسلم

---

(١) الوضوء (بفتح الواو) : الماء الذى يتوضأ به . (٢) بوضوء أى بإناء وضوء .

(٣) كذا فى الأصول ، والذى فى الشفا من رواية قتادة عن أنس : « بإناء فيه ماء يغمر أصابعه أو لا يكاد يغمرها » وهى أوضح .

(٤) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

فى ذكر غَزْوة بُوَاط[1]، قال جابر قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا جابر ناد الوَضوء » وذكر الحديث بطوله : وأنه لم يجد إلا قَطْرة فى عَزْلاء[2] شَجْب ، فأُتِى به النبى صلى الله عليه وسلم فغَمَزه[3] ، وتكلم بشىء لا أدرى ما هو ، وقال : « نادِ بجَفْنة[4] الرَّكْب » فأتيت بها فوضعتها بين يديه ، وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم بسط يده فى الجَفْنة ، وفرق أصابعه ، وصبّ جابر عليه ، وقال : « بسم الله » قال : فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ثم فارت الجَفْنة ، واستدارت حتى امتلأت ، وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتى رَوُوا ، فقلت[5] : هل بقى أحد له حاجة ؛ فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الجفنة وهى مَلْأَى . هذا مختصر ما رُوِىَ من تفجير الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم .

١١٤/١٦

وأما تَفْجيره وانْبِعاثُه وتكثيره ببركته ودعائه صلى الله عليه وسلم

فمن ذلك ما رواه مالك بن أنس رحمه الله فى الموطأ ، عن معاذ بن جبل فى قصة غزوة تَبوك ، وأنهم وَرَدُوا العين ، وهى تَبِضّ[6] بشىء من ماء مثل الشِّرَاك[7] ، فغرفوا من العَيْن بأيديهم حتى اجتمع فى شىء ، ثم غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) بواط : جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة ، هذه الغزوة اعترض فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعير قريش . (٢) العزلاء : فم المزادة ، والشجب : السقاء الذى قد أخلق وبلى وصار شنا . (٣) غمزه : عصره وحركه ، أو وضع يده عليه وكبسه بها .

(٤) جفنة : كقصعة وزنا ومعنى وهو مجاز ، أى الذى يطعمهم ويشبعهم ، أو مجاز بالحذف ، أى يا صاحب جفنة الركب ، وفى النهاية : « ناد يا جفنة » الركب .

(٥) فقلت : أى قال جابر ، وهل نافية أى ما بقى ؛ لهذا قال : فرفع رسول الله يده . ويجوز أن تكون استفهامية . (٦) العين : عين بتبوك ، وتبض : أى تقطر وتسيل .

(٧) الشراك بالكسر : سير النعل شبهه به لضعفه وقلة جريه .

فيه وجهه و يديه، وأعاده فيها بفَرَت بماء كثير فاستقى الناس . وفى حديث ابن إسحق : فانخرق(١) من الماء ماله حِسٌّ كحسّ الصواعق، ثم قال : «يوشك يا مُعَاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد مُلِئَ جِنانا» . ومنه قصة الحُدَيْبِيَة(٢)، وقد تقدّم ذكرها فى الغزوات . ومن ذلك خبر صاحبة المزادتَيْن ، وهو مما روى عن عمران بن حُصَيْن، قال: أصاب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عَطَشٌ فى بعض أسفارهم ، فوجّه رجلين من أصحابه ، وأعلمهما أنهما يجدان امرأة بمكان كذا ، معها بعير عليه مَزَادَتان ، الحديث(٣) . فوجداها وأتيا بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل فى إناءٍ من مزادتها ، وقال فيه ما شاء الله أن يقول ، ثم أعاد الماء فى المزادتين، ثم فُتِحت عَزَالِيهما، وأمر الناس فملأوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئا إلا ملأوه، قال عمران : ويخيل لى أنهما لم تزدادا إلا امتلاء، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزْوَاد حتى ملأ ثوبها، وقال : «اذهبي فإنا لم نأخذ من مائك شيئا ولكن الله سقانا» . وعن عمرو بن شعيب أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم وهو رَدِيفه بِذِى المَجَاز : عطشت وليس عندى ماء ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم وضرب بقدمه الأرض فخرج الماء فقال : «اشرب» . وعن سَلَمَة بن الأكوع ؛ قال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: «هل من وَضوء ؟» فجاء رجل بإدَاوَة(٤) فيها نُطْفَةٌ(٥)

(١) انخرق : انفجر .

(٢) وذلك أنه صلى الله عليه وسلم نزل بأقصى الحديبية على ثمد فيها قليل ماء يأخذه الناس قليلا قليلا فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله العطش ، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فما زال يفور بالماء حتى صدروا عنه . وفى هذه القصة روايات مختلفة فلتراجع فى مظانها .

(٣) القصة بتمامها وما فيها من الاختلاف فى جـ ٥ ص ١٩٦ شرح المواهب . وفى صحيح البخارى فى علامات النبوة.

(٤) إداوة (بكسر الهمزة) : إناء صغير من جلد يتخذ للماء كالمزادة ونحوها .

(٥) نطفة : قليل من الماء .

فأفرغها فى قدح فتوضأنا كلنا، نُدَغْفِقه دَغْفَقَةَ أربع عشرةَ مائة[(١)] . وفى حديث غزوة تَبُوك، وما أصاب الناس من العَطَش، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى أرسل سَحابة فأمطرت حتى ٱرْتَوَى النـاس، وٱحْتَملوا حاجتهم من المـاء، وقد تقدّم ذكره . ومن طريق آخر فى هـذه القصة عن عمر : وذكر ما أصابهم من العَطَش فى جيش العُسْرَة، حتى إن الرجل لينحر بعـيره فيعصر فرْثَه فيشربه، فرغب أبو بكر رضى الله عنه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الدّعاء، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء[(٢)]، فانسكبت فملأوا مامعهم من آنية، ولم يجاوز العسكر. والحديث فى هذا الباب كثير .

وأما تكثير الطعام ببركته ودعائه صلى الله عليه وسلم

فقد رَوَيْنا من ذلك أحاديث كثيرة بأسانيد صحيحة متّصلة، رأينا حذفها هاهنا اختصارا لٱشتهارها وٱنتشارها، منها مارويناه عن جابر رضى الله عنه : أن رجلا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم يستطعمه فأطعمه شَطْر وَسْق شعير، فما زال يأكل منـه وٱمرأته وضيفه حتى كَالَه، فأتى النبى صلى الله عليه وسـلم فأخبره فقال : « لو لم تكله لأكلتم منه وقام بكم» . ومن ذلك حديث أبى طلحة المشهور، وإطعام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده — أى إبْطه — فأمر بها فَفُتَّت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول . وحديث جابر — رضى الله عنه — فى إطعام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخَنْدَق ألف رجـل من صاع شعير، وعَنَاق[(٣)]، قال جابر : فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وٱنْحَرَفوا[(٤)]، وإن

١١٥/١٦

(١) أى ونحن أربع عشرة مائة، والدغفقة : الصب الشديد، يقال : فلان فى نعيم دغفق أى واسع .

(٢) قالت السماء : غيمت وظهر فيها سحاب، من قولهم : قال كذا إذا تهيأ له وٱستعد . (شرح الشفا ٣ : ٢٩) . (٣) عناق : أنثى المعز لم يتم لها سنة . (٤) ٱنحرفوا : أى مالوا عن الطعام .

بُرْمَتنا لتَغِطّ[1] كما هى ، وإن عجيننا ليُخْبَز، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصق فى العجين والبُرمة و بارك. ومن ذلك حديث أبى أيوب الأنصارى: أنه صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبى بكر رضى الله عنه من الطعام زُهاء[2] ما يكفيهما، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أدع ثلاثين من أشراف الأنصار » فدعاهم فأكلوا حتى تركوه ، ثم قال : « أدع ستين » فكان مثل ذلك ، ثم قال : « أدع سبعين » فأكلوا حتى تركوا، وما خرج منهم أحدٌ حتى أسْلَم وبايع ، قال أبو أيوب : فأكل من طعامى مائة وثمانون رجلا . وعن سَمُرَة بن جُنْدب قال : أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم بقصعة فيها لحم فتعاقبوها من غدوة حتى الليل يقوم قوم و يقعد آخرون. ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه قال : كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة ، وذكر فى الحديث : عُجن صاعٌ من طعام ، وصُنِعت شاة فَشُوى سَوادُ[3] بطنها، قال : وأيْمُ الله ما من الثلاثين والمائة إلا وقد حُزّ له حَزّة من سواد بطنها، ثم جُعل منها قَصْعتان فأكلنا أجمعون، وفضل فى القصعتين فحملته على البعير . ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب ، وأبى هريرة وسَلَمَة بن الأكْوَع رضى الله عنهم، فذكروا مَخْمَصَة أصابت الناس مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزْوَاد، فجاء الرجل بالحَثْية من الطعام وفوق ذلك، وأعلاهم الذى أتى بالصّاع من التمر، فجمعه على نِطَع، قال سلَمَة : فحزَرْته كرُبْضَة[4] البعير ، ثم دعا الناس بأوْعِيتهم، فما بقى فى الجيش وِعاءٌ إلا ملأوه و بقى منه. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أدعو له أهل الصُّفّة فتتبّعتهم حتى جمعتهم، فوُضِعت بين أيدينا صَحْفَة فأكلنا ما شئنا وفرغنا، وهى مثلها

(١) تغط : تغلى . (٢) زهاء : مقدار . (٣) سواد بطنها : أى الكبد .
(٤) ربضة البعير ، الذى فى النهاية : كربضة العنز : أى مقدار جثتها إذا بركت .

حين وُضعت ، إلا أن فيها أثرَ الأصابع . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب وكانوا أربعين ، منهم قوم يأكلون الجَذَعة ويشربون الفَرَق[1] فصنع لهم مُدّا من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا وبقى كما هو ، ثم دعا بعُسّ[2] فشربوا حتى رَوُوا وبقى كأنه لم يشرب . وقال أنس ابن مالك : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما آبتنى بزينب أمره أن يدعو له قوما سمّاهم ، وكل من لقيت حتى آمتلأ البيت والحُجْرة ، وقدّم إليهم تَوْرا[3] فيه قدر مدّ من تمر جُعِل حَيْسا[4] ، فوضعه قدّامه وغَمَس ثلاثَ أصابعه ، وجعل القوم يتغدّون ويخرجون ، وبقى التور نحوا مما كان ، وكان القوم أحدا أو آثنين وسبعين . وفى رواية أخرى فى هذه القصة أو مثلها : أن القوم كانوا زُهَاء ثلثمائة ، وأنهم أكلوا حتى شبعوا ، وقال لى : « ارفع » فلا أدرى حين وضعتُ كان أكثر أم حين رَفَعتُ . وفى حديث جعفر بن محمد عن آله ، عن على رضى الله عنهم أن فاطمة رضى الله عنها طبخت قِدْرا لغَدائها ، ووجهت عليّا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليتغدّى معها ، فأمرها فغَرَفتْ منها لجميع نسائه صَحفةً صَحفةً ، ثم له عليه السلام ولعلىّ ، ثم لها ، ثم رفعت القدر ، وإنها لتفيض ، قالت : فأكلنا منها ما شاء الله . ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يزوّد أربعمائة راكب من أَحْمَس ، فقال : يارسول الله ، ماهى إلا أصْوُع ، قال : « آذهب » فذهب فزوّدهم منه ، وكان قدر الفَصِيل الرابض من التمر وبقى بحاله .

(١) الفرق بفتحتين : مكيال يسع ستة عشر رطلا على خلاف فيما يسع . (انظر النهاية) .

(٢) العس (بالضم) : القدح الكبير يروى الثلاثة والأربعة .

(٣) التور : إناء يشرب فيه من صفر أو حجارة وقد يتوضأ منه .

(٤) الحيس : خليط من تمر وسمن وأقط ، وهو فى شرح المواهب كذلك عن الصحيحين .

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى دَيْن أبيه ، وقد كان بَذَل لِغُرَماء أبيه أصل ماله فلم يقبلوه ، ولم يكن فى ثمرها سنين كَفَافُ دَيْنهم ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بجَذِّها وجعلها بَيَادِر(١) فى أصولها ، ثم جاءه فمشى فيها ودعا ، فأَوْفَى جابر غُرَماء أبيه من ذلك ، وفضل مثل ما كانوا يَجُذُّون كل سنة . وفى رواية : مثل ما أعطاهم . قال : وكان الغرماء يهودًا فعجبوا من ذلك . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أصاب الناس مَخْمَصَة فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل من شىء» ؟ قلت : نعم ، شىء من التمر فى المِزْوَد ، قال : « فأتنى به » فأتيته به فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ، ودعا بالبركة ، ثم قال : « آدع لى عشرة » فأكلوا حتى شبعوا ، ثم عشرة كذلك ، حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا ، قال : « خذ ما جئت به وأدخل يدك وآقبض منه ولا تُكِبّه » فقبضت على أكثر مما جئت به فأكلت منه وأَطْعَمْتُ(٢) منه حياةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، إلى أن قتل عثمان فآنْتُهِب منى فذهب . وفى رواية : فقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا من وسق فى سبيل الله . وذُكِر مثل هذه الحكاية فى غزوة تَبُوكَ ، وأن التمر كان بضع عشرة تمرة . ومنه أيضا حديث أبى هريرة رضى الله عنه حين أصابه الجوع ، فآستتبعه النبي صلى الله عليه وسلم فوجد لبنا فى قَدَح قد أهدى إليه ، وأمره أن يدعو أهل الصُّفّة ، قال فقلت : ما هذا اللبن(٣) فيهم ! كنت أحقّ أن أصيب منه شَرْبة أتقوى بها ، فدعوتهم ، وذكر أمر النبي صلى الله عليه وسلم له أن يسقيهم ، قال : فجعلت أعطى الرجل فيشرب حتى يَرْوَى ، ثم يأخذ الآخر حتى رَوِى جميعُهم ، فأخذ النبي

١١٦/١٦

(١) بيادر (جمع بيدر) : موضع تجفيف التمر والبر ونحوه ليخلص من تبنه . والمراد أنه كوّمه فى حديقة نخله .

(٢) أطعمت منه : أى أهلى ومن أردت إطعامه .

(٣) تعجب منه لقلة اللبن ، وأنه لا يكفيهم .

صلى الله عليه وسلم القَدَح وقال : « بقيتُ أنا وأنت آفعد فآشرب » فشربت ثم قال : « آشرب » وما زال يقولها وأشرب حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مَسْلَكا، فأخذ القَدَح فحمد الله وسمّى وشرب الفَضْلة، صلى الله عليه وسلم.

وأما كلام الشجر وشهادتها له بالنبوة

وآنقيادها إليه وإجابتها دعوته صلى الله عليه وسلم

فمن ذلك ما رويناه بسند متصل عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فدنا منه أعرابىّ، فقال: «يا أعرابى أين تريد» ؟ قال: إلى أهلى، قال: « هل لك إلى خير» ؟ قال : وما هو ؟ قال : «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله » قال: من يشهد لك على ما تقول ؟ قال : « هذه الشجرة السَّمُرة[1] » وهى بشاطئ الوادى، فأقبلت تَخُدّ[2] الأرض حتى قامت بين يديه ، فآستشهدها ثلاثا فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها . وعن بُرَيْدة قال : سأل أعرابى النبى صلى الله عليه وسلم آية فقال له : « قل لتلك الشجرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدعوك » قال : فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها و بين يديها وخلفها فتقطعت عروقُها ، ثم جاءت تَخُد الأرض، تَجُر عروقها مُغيرة[3] حتى وقفت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: السلام عليك يارسول الله، قال الأعرابى: مرها فلترجع إلى مَنْبتها فآستوت، فقال الأعرابى : إيذن لى أسجدْ لك ، قال : « لو أمرتُ أحدا

(١) السمرة (بفتح السين وضم الميم) : شجرة عظمية ذات شوك من الطلح، وأشار إليها لقربها منه .

(٢) تخد الأرض : تشقها .

(٣) مغيرة : مسرعة فى مشيها من أغار، ويروى : مغبرة بباء مشددة مكسورة، اسم فاعل؛ يقال: غبر أثار الغبار .

أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها » قال : فأذنْ لى أقبِّلْ يديك ورجليك ، فأذن له .

ومن ذلك ما روى فى الصحيح من حديث جابر بن عبد الله قال : ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته فلم يرشيئا يستتر به ، فإذا بشجرتين بشاطئ الوادى ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما فأخذ بغصن من غصانها فقال : «انقادى علىّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش[1] الذى يصانع قائده . وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك ، حتى إذا كان بالمنصف[2] بينهما قال : «التئما علىّ بإذن الله » فالتأمتا . وفى رواية أخرى ، فقال : « يا جابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الحق بصاحبتك حتى أجلس خلفكما» ففعلت فرجعت حتى لحقت بصاحبتها ، فجلس خلفهما ، فخرجت أحضر[3] ، وجلست أحدِّث نفسى ، فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبِل[4] والشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفة فقال[5] برأسه — هكذا — يمينا وشمالا .

وروى أسامة بن زيد نحوه ، قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه : «هل»[6] ؟ يعنى مكانا لحاجة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقلت :

---

(١) المخشوش : الذى وضع فى أنفه خشاش بكسر المعجمة عود لينقاد بسهولة .

(٢) المنصف : أى حل فى وسط المكان . (٣) أحضر : أسرع فى العدو .

(٤) مقبل خبر رسول وفى ج « مقبلا » بالنصب على الحالية من مقدر ، أى جاء مقبلا ، والجملة خبر المبتدإ . (٥) قال هنا بمعنى أشار ، وأشار الراوى برأسه ، كما أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشجرتين يمينا وشمالا . (٦) هل : استفهام حذف المستفهم عنه للعلم به أو استهجان ذكره . والمعنى هل ترى مكانا لائقا بقضاء الحاجة (شرح الشفا للشهاب ٣ : ٥٢ طبع الآستانة) .

إن الوادى ما فيه موضع بالناس[1]، فقال : « هل ترى من نخل أو حجارة » ؟ قلت : أرى نخلات متقاربات، فقال : «انطلق وقل لهن إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركن أن تأتين لمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل للحجارة مثل ذلك » فقلت ذلك لهن ، فوالذى بعثه بالحق لقد رأيت النخلات يتقاربن حتى اجتمعن ، والحجارة يتعاقدن حتى صرن ركاما خلفهن ، فلما قضى حاجته قال لى : « قل لهن يفترقن » فوالذى نفسى بيده لرأيتهن والحجارة يفترقن حتى عدن إلى مواضعهن . وعن ابن مسعود مثله فى غزاة حنين . وعن يعلى بن مرة — وهو ابن سيابة[2] — وذكر أشياء رآها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أن طلحة — أو سمرة — جاءت فأطافت به ، ثم رجعت إلى منبتها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنها استأذنت أن تسلم علىّ» . وفى حديث ابن مسعود : آذنت[3] النبىّ صلى الله عليه وسلم بالجنّ ليلة استمعوا له شجرةٌ . وذكر أبو بكر بن فورك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار فى غزوة الطائف ليلا وهو وسِنٌ[4]، فاعترضته سدرة فانفرجت له نصفين، حتى جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا، وهى هناك معروفة . وقد روى فى مثل ذلك أحاديث كثيرة .

١١٧/١٦

ومن ذلك قصّة حنين الجذع، والخبر بذلك مشهورٌ منتشر خرّجه أهل الصحيح، ورواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، قال جابر بن عبد الله : كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم على جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار[5]، وفى رواية أنس :

(١) بالناس : أى بسبب الناس . (٢) سيابة أمه .

(٣) آذنت (بالمد) : بمعنى أعلمت ، وفاعله شجرة الآتى . (٤) الوسن : النعاس .

(٥) العشار، بكسر المهملة : النوق الحوامل التى بلغت عشرة أشهر حملها ، جمع عشراء، بضم المهملة .

حتى ٱرْتَجّ المسجد بِخُوَاره[1] . وفى رواية سَهْل بن سَعْد : وكثر بكاء الناس لما رأوا به . وفى رواية المطلب بن أبى وَدَاعَة : حتى تَصَدّع وٱنشَقّ، حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت . وزاد غيره : فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « إن هذا بكى لما فَقَد من الذِّكْر »[2] . وزاد غيره : « والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه[3] لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزُّنا على رسول الله » صلى الله عليه وسلم، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن تحت المنبر. وفى حديث أبىّ بن كعب : فكان إذا صلى النبى صلى الله عليه وسلم صلى إليه ، فلما هُدِم المسجد أخذه أبىّ فكان عنده إلى أن أكلته الأرض وعاد رُفَاتا . وذكر الإسفراينىّ : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم دعاه إلى نفسه فجاءه يخرق الأرض فٱلتزمه، ثم أمره فعاد إلى مكانه . وفى حديث بُرَيْدة فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إن شئت أردك إلى الحائط الذى كنت فيه ، تنبت لك عُروقُك، ويكتمل خَلْقُك ويُجَدّد لك خُوص وثمرة، وإن شئت أغرسك فى الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك » ، ثم أصغى له النبى صلى الله عليه وسلم يستمع ما يقول فقال : بل تغرسنى فى الجنة فيأكل منى أولياء الله وأكون فى مكان لا أبلى فيه . فسمعه من يليه[4] ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قد فعلت — ثم قال — ٱختار دار البقاء على دار الفناء » .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم نطق الجمادات

كتسبيح الطعام فى جوفه، وتسبيح الحصى فى كفّه وكفّ من صبّه فى كفّه من أصحابه ، وسلام الجبال والأحجار والأشجار عليه ، وسجودها له ، وغير ذلك مما يلتحق به على ما نشرحه إن شاء الله تعالى .

(١) فى شرح المواهب : بخواره، وهو بمعنى الأول ؛ أى صياحه . (٢) هو أبو يعلى فى مسنده ، والذى فى شرح المواهب عنه : « والذى نفس محمد بيده » . (٣) ألتزمه : أعتنقه وأضمه . (٤) أى فسمع الجذع من يلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو القريب منه .

فمن ذلك مارويناه بإسناد متصل عن البخاري بسنده، عن علقمة [عن][1] عبدالله قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي غير هذه الرواية عن عبد الله ابن مسعود قال : كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام، ونحن نسمع تسبيحه . وقال أنس بن مالك : أخذ النبي صلى الله عليه وسلم كفًّا من حصًى فسبّحن في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا التسبيح، ثم صببهنّ في يد أبي بكر فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن . وروى أبو ذرّ مثله، وذكر أنهنّ سبحن في كفّ عمر وعثمان . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كنا بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إلى بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . وعن جابر بن سَمُرَة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ » قيل : إنه الحجر الأسود . وعن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله» . وعن جابر بن عبد الله قال : لم يكن صلى الله عليه وسلم يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له . وفي حديث العباس بن عبد المطلب إذ اشتمل[2] عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بنيه بملاءته فأمّنت أُسْكُفّة[3] الباب وحوائط البيت آمين آمين . وعن جعفر ابن محمد عن أبيه قال : مرض النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل بطبق فيه رُمّان وعِنَب، فأكل منه صلى الله عليه وسلم فسبّح . وعن أنس رضي الله عنه قال : صعد

١١٨/١٦

(١) في الأصول « ابن » والتصويب من الشفاء، وعبد الله هو ابن مسعود .

(٢) اشتمل عليه : أي ضمه، والضمير للعباس رضي الله تعالى عنه .

(٣) كذا في الأصول، والحديث في الشفا : « وفي حديث العباس إذ اشتمل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وبنيه بملاءة ودعا لهم بالستر من النار كستره إياهم بملاءته فأمنت ... الخ » والأسكفة : عتبة الباب التي يوطأ عليها .

النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان أُحُدًا فرَجَف بهم فقال: «آثبتْ أُحُدُ، فإنما عليك نَبِيٌّ وصِدِيق وشهيدان»، ومثله عن أبي هريرة في حِراء[1]، وزاد فيه: ومعه عليّ وطلحة والزُّبَيْر، وقال: «إنما عليك نبيٌّ أو صِدِّيق أو شهيد»[2]، والخبر في حِرَاء أيضا عن عثمان قال: ومعه عشرة من أصحابه أنا فيهم، وزاد عبد الرحمن وسعدا، قال: ونسيت الاثنين. وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم حين طلبته قريش قال له ثَبِيرُ[3]: آهبط يا رسول الله، فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله، فقال حراء: إليّ يارسول الله. وقد تقدّم ذكر خبر الأصنام، وسقوطها عند ما أشار إليها بالقَضيب، حين فتح الله تعالى مكة عليه، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا أبدا دائما.

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم

كلام الحيوانات وسكونها وثباتها إذا رأته؛ كقصة الدّاجن[4]، وكلام الضَّبّ والذِّئب، والطائر والظَّبْية، وسجود الغنم والبعير، وخبر سفينَةَ مولاه مع الأسَد، وخبر العنز، وغير ذلك مما نورده إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك ما رويناه بسند متصل عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا داجنٌ، فإذا كان عندنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّ وثبت مكانه، فلم يجئ ولم يذهب، فإذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء وذهب.

ومنه ما روى عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في مَحْفِل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضَبًّا فقال: من هذا؟ قالوا: نبيّ

(١) حراء: جبل بمكة كان يتحنث صلى الله عليه وسلم في غار فيه.

(٢) أو هنا بمعنى الواو للتقسيم. (٣) ثبير: جبل على يمين الذاهب من منى إلى مكة.

(٤) الداجن: الحيوان الذي يألف البيوت، من دجن بمعنى أقام كالطير والشاء.

الله ، فقال : واللّات والعُزّى لا آمنت بك أو يؤمن[1] هـذا الضَّبّ . وطرحه بين يدى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا ضَبُّ » فأجابه بلسان مُبين يسمعه القوم جميعا : لَبّيك وسَعْدَيْك يا زَيْن من وَافَى القيامة ، قال : «من تعبد» ؟ قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه ، قال : « فمن أنا » ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ؛ وقد أفلح من صدّقك ، وخاب من كذّبك . فأسلم الأعرابىّ .

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال : بينا راع يرعى غنما له ، عرض الذئب لشاة منها فأخذها الراعى منـه ، فأقْعَى الذئب وقال للراعى : ألا تتّـقى الله ، حُلْتَ بينى و بين رزق ! قال الراعى : العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس ، فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؛ رسول الله بين الحرّتين يحـدّث الناس بأنْبَاء[2] ما قد سـبق ، فأتى الراعى النبى صلى الله عليـه وسلم فأخبره ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قم فحدِّثهم » ؛ ثم قال : « صَدَق » . ورُوى حديث الذئب عن أبى هريرة . وفى بعض الطرق عنـه قال الذئب : أنت أعجب ! واقفا على غنمك ، وتركت نبيا لم يبعث الله نبيًّا قَطُّ أعظم منه عنده قَدْرًا ، قد فُتحت له أبوابُ الجنة ، وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم ، وما بينك و بينه إلا هذا الشِّعْب فتصير فى جنود الله ، قال الراعى : من لى بغَنَمِى ؟ قال الذئب : أنا أرعاها حتى ترجع ، فأسلم الرجل إليـه غنمه ومضى ، وذكر قصته و إسـلامه ووجوده النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « عد إلى غنمك تجدها بوَفْرِها[3] » فوجدها كذلك ، وذبح للذئب شاة منها .

(١) بنصب يؤمن ، أى إلا أن يؤمن . (٢) فى نسخة من الشفا للقاضى عياض : « من سبق » .

(٣) وفرها : بتمامها وكمالها لم ينقص منها شىء ؛ من قولهم : أرض وفرة لم يرع نباتها .

وروى أن أهْبان بن أوْس هو صاحب القصة ومُكَلِّم الذئب . وروى أيضا أن صاحب القصة سَلَمة بن عمرو بن الأكْوَع ، وأنها سبب إسلامه . وحكى أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة رافع بن عُمَيْرة الطائى أنه كلمه الذئب ، وهو فى ضأنٍ له يرعاها ، فدعاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واللحاق به . قال : وزعموا أن رافع بن عميرة قال فى كلام الذئب إياه .

رَعَيْتُ الضّأن أحْميها بكَلْبِي * من الضَّبع الحَفِيّ[1] وكل ذِيبِ
فلمّا أنْ سمعتُ الذئب نادَى * يبَشِّرنِى بأحمَدَ من قريبِ
سَعَيْتُ إلَيْهِ قد شَمَّرت ثَوْبِى * على السّاقَيْنِ قاصِدَة الرّكيبِ
فَألفَيْتُ النّبيَّ يقول قَوْلًا * صَدُوقا ليس بالقول الكَذُوبِ
يُبشِّرُنِى بدِين الحَقِّ حتى * تَبَيَّنَتِ الشّريعَةُ للمُنِيبِ[2]
وأبصرتُ الضِّياء يُضِىءُ حَوْلِى * أمَامِى إنْ سَعَيْتُ ومِن جَنُوبِى

١١٩/١٦

فى أبيات أخَر .

وروى ابن وهب : أن مثل هذه القصة وقع لأبى سفيان بن حرب ، وصَفْوان ابن أميّة مع ذئب وجداه قد أخذ ظبيا ، فدخل الظّبى الحَرَم فانصرف الذئب فعجبًا من ذلك ، فقال الذئب : أعجبُ من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار . فقال أبو سفيان : واللّات والعُزّى لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنّا خُلُوفا[3] . وقد روى أيضا مثل هذا الخبر ، وأنه جرى لأبى جهل وأصحابه .

(١) الحفىّ ، وفى نسخة أ : « الخفى » والحفى بالحاء المهملة : المبالغ فى الطلب .

(٢) المنيب : الراجع إلى الله .

(٣) الخلوف (بضم المعجمة واللام) : هو مصدر أو جمع خالف ؛ والمراد تركها خالية من أهلها بأن يسلموا جميعا ويرتحلوا إليه صلى الله عليه وسلم . (الشفا) . وعبارة الأصل : « لتتركنها » ، والضمير لمكة .

وعن عباس بن مِرْدَاس السُّلَمىّ أنه لمّا تعجّب من كلام صنمه ضِمَار ، وإنشاده الشعر الذى ذكرناه ، فإذا طائر سقط ، فقال : يا عباس ، أتعجب من كلام ضِمار ، ولا تعجب من نفسك؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ، وأنت جالس !

وعن أنس رضى الله عنه قال : دخل النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ورجلٌ من الأنصار حائطَ[1] أنصارىّ ، وفى الحائط غنم ، فسجدت له فقال أبو بكر : نحن أحقُّ بالسجود لك منها ... الحديث . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم حائطا فجاء بَعِيرٌ فسجد له ، وذكر مثله . ومثله فى الجمل عن ثعلبة بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، ويَعْلَى بن مُرّة[2] ، وعبد الله بن جعفر قال : وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شَدّ عليه الجمل ، فلما دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم دعاه ، فوضع مِشْفَره فى الأرض وبرك بين يديه فخَطَمَه ، وقال : «ما بين السماء والأرض شىء إلا يعلم أنى رسول الله إلا عاصىَ الجنّ والإنس» . وفى حديث آخر : أن النبى صلى الله عليه وسلم سألهم عن شأنه فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه . وفى رواية : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم : «إنه اشتكى كثرة العمل وقلة العَلَف» . وفى رواية : «إنه شكا إلىّ أنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه فى شاقّ العمل من صغره» فقالوا : نَعَم . وقد روى فى قصة العَضْبَاءِ وكلامِها النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعريفِها له بنفسها ، ومبادرةِ العُشْب إليها فى الرّعى ، وتجنّبِ الوحوش عنها ، ونداءِهم لها أنّك لمحمد ، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتى ماتت . ذكره الإسفرائنى . وروى ابن وهب : أن حَمام مكة أظلت

(١) حائط : المراد به هنا البستان .

(٢) قال : أى كل منهم ، أو عبد الله بن جعفر .

النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتحها، فدعا لها بالبركة . وقد ذكرنا قصة الغار وخبر الحمامتين والعنكبوت .

وعن عبد الله بن قُرْط قال : قُرِّب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بدَنات خمس أو ستّ أو سبع لينحَرها يوم عيد، فأزْدَلَفْن[1] إليه بأيّتهنّ يبدأ . وعن أمّ سَلَمَة قالت : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم فى صَحراء فنادته ظَبية : يا رسول الله، قال: « ما حاجتك » ؟ قالت : صَادَنِى هذا الأعرابىّ ولى خِشْفَان فى ذلك الجبل ، فأطلقْنى حتى أذهبَ فأرضعَهما وأرجع ، قال : « وتفعلين » ؟ : قالت : نعم ، فأطلقها فذهبت ورجعت فأوثقها ، فأنتبه الأعرابى . فقال : يا رسول الله، ألك حاجة؟ قال : « تُطلِق هذه الظَّبْية » فأطلقها، فخرجت تعدو فى الصحراء وتقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

ومنه ما روى من تسخير الأسَدِ لسَفِينَةَ

مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذ وجّهه إلى مُعاذ باليمن ، فلقى الأسدَ فعرّفه أنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه كتابه ، فهَمْهَم وتنحّى عن الطريق، وذكر فى منصرفه مثل ذلك . وفى رواية أخرى عنه : أن سفينة تكسرت به، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد، قال فقلت : أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يَغْمِزُنى بمَنْكِبه حتى أقامنى على الطريق . وروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين إصْبَعَيْه ثم خلّاها ، فصار لها مِيسَمًا ، وبقى ذلك الأثر فيها وفى نسلها . وقد روى عن إبراهيم بن حمّاد بسنده كلام الحمار الذى أصابه بخيبر، وقال له :

(١) آزدلفن : تقربن منه .

[ما أسمك[1] قال] : أسمى يزيد بن شهاب ، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم يَعفُورًا وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه فيضرب عليهم الباب برأسه و يستدعيهم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات ، تَرَدَّى فى بئر جَزَعا وحُزْنا فمات . وخبر الناقة التى شهدت عند النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبها أنه ما سرقها وأنها ملكه . وخبر العنز التى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عسكره، وقد أصابهم عطش ونزلوا على غير ماء وهم زُهَاء ثلثمائة ، فحلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأروَى الجُنْد ، ثم قال لرافع : « املكها وما أُرَاك[2] » فربطها فوجدها قد انطلقت . رواه ابن قانع وغيره ، وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الذى جاء بها هو الذى ذهب بها » . وقال عليه السلام لفرسه ، وقد قام إلى الصلاة فى بعض أسفاره : « لا تَبرحْ بارك الله فيك حتى نفرغ من صلاتنا » وجعله قِبْلَته[3] فما حرّك عُضْوا حتى فرغ من صلاته صلى الله عليه وسلم .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم ماروى من كلام الأموات والأطفال وشهادتهم له بالنبوة .

فمن ذلك ماروى عن فَهْد[4] بن عطية : أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتِى بصبىّ قد شَبّ لم يتكلم قطّ ، فقال له : « من أنا » ؟ فقال : رسول الله . وعن مُعَرِّض بن مُعَيْقِيب قال : رأيت من النبي صلى الله عليه وسلم عجبا، جىء

(١) الزيادة من الشفا للقاضى عياض .

(٢) املكها : أى اتخذها ملكا لك لأنها وجدت بأرض العدو ، ويحتمل أن يكون معناه : شدها وأوثقها من ملاك الأمر ، أو من ملك العجين ونحوه . وما أراك : أى لا أظنك تملكها أو تحفظها .

(٣) جعله قبلته : أى جعله فى جهة قبلته ، مانعا وساترا لمن يمر بين يديه صلى الله عليه وسلم .

(٤) فهد (بفاء وهاء ودال) : قال فى شرح المواهب : ليس فى الصحابة من يسمى بذلك . وفى البيهقى : شمر بن عطية الأسدى من تابع التابعين .

بصَبيّ يوم وُلد ، فذكر مثله ، وهو حديث مُبارك اليَمَامة ، ويعرف بحديث شاصُونه[(١)] آسم راويه ، وفيه ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « صدقت بارك الله فيك » ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شَبّ ، فكان يسمى مبارك اليمامة ، وكانت هذه القصة بمكة فى حجة الوداع .

٥ وعن الحسن رضى الله عنه : أتى رجل النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر له أنه طَرَح بُنَيّة له فى وادى كذا ، فآنطلق معه إلى الوادى وناداها بآسمها « يافلانة آحيي بإذن الله » فخرجت وهى تقول : لَبَّيكَ وسَعْديكَ ، فقال لها : « إن أبوَيْك قد أسلما فإن أحببتِ أن أردّك عليهما » قالت : لا حاجة لى فيهما ، وجدت الله خيرا لى منهما .

١٠ وعن أنس رضى الله عنه أن شابا من الأنصار تُوفّى وله أمّ عجوز عمياء قال : فسجّيناه وعزّيناها فقالت : مات آبنى ؟ قلنا : نَعَم ، قالت : اللهم إن كنت تعلم أنى هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعيننى على كل شدّة ، فلا تُحَمِّلَنّ علىّ[(٢)] هذه المصيبة ، قال : فما برحنا أن كشَف الثوب عن وجهه فطَعِم وطَعِمنا .

وروى عن عبد الله بن عبيد الله الأنصارى قال : كنت فيمن دفن ثابت بن قيس ١٥ آبن شمّاس — وكان قتل باليمامة — فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول : محمد رسول الله ، أبو بكر الصدّيق ، عمر الشهيد ، وعثمان البرّ الرحيم[(٣)] ، فنظرنا فإذا هو ميّت[(٤)] . وذكر عن النعمان بن بشير : أن زيد بن خارجة خرّ ميتا فى بعض أزقة

(١) فى الأصول « شاصويه » والتصويب عن الشفا ٣ : ١٠٥

(٢) أى لاتكلفنى حملها ؛ كقوله تعالى : « لا تحملنا مالاطاقة لنا به » ؛ لأن التكليف كالحمل الثقيل .

٢٠ (٣) أى ذو البر والإحسان .

(٤) الذى فى أسد الغابة : « أنه أغمى عليه قبل موته فظنوه ميتا فسجوا عليه ثوبه ، ثم راجعته نفسه بكلام حفظ عنه فى أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ثم مات » .

المدينة، فرفع وسُجّى إذ سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن حوله يقول : أنصتوا. أنصتوا، فحُسِر عن وجهه، فقال : محمد رسول الله، النبيّ الأميّ، وخاتم النبيين، كان ذلك فى الكتاب الأول، ثم قال : صدق صدق، وذكر أبا بكر وعمر وعثمان ثم قال : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم عاد ميتا . ومن ذلك قصة الذِّراع وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ٱرفعوا أيديكم فإنها أخبرتنى أنها مسمومة . وقد تقدّم خبر الذراع . والله مُنْجِى المتقين ووليهم . ٥

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم إبراء المرضى وذوى العاهات، كردّ عَيْن قَتَادة، وكشف بصر الضرير، وتَفْله صلى الله عليه وسلم على جراحات فبرأت، وغير ذلك مما نشرحه إن شاء الله تعالى .

أما عَيْن قَتادة بن النعمان فقد روينا بإسناد متّصل عن سعد بن أبى وَقّاص : أن قَتَادة بن النعمان أصيبت عينه يوم أحد حتى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينَيْه . وذكر الأصمعى عن أبى معشر المدنى قال : أوفد أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم، بديوان المدينة إلى عمر بن عبد العزيز رجلا من ولد قتادة بن النعمان، فلما قدم عليه قال له : ممن الرجل ؟ قال : ١٠

١٢١ / ١٦

أنا ٱبن الذى سالَتْ على الخَدِّ عَيْنُه * فرُدّتْ بكَفِّ المصطفى أحسنَ الرد[1] ١٥

فعادتْ كما كانت لِأول أمْرِها * فياحُسنَ ماعَيْنٍ وياحسنَ ما رُدّ[2]

فقال عمر بن عبد العزيز :

تلك المكارِمُ لا قَعْبانِ مِن لَبَنٍ * شِيباَ بِماءٍ فعَادَا بعْدُ أبْوَالا[3]

(١) يروى أبونا الذى ... الخ . (٢) يروى : وياحسن ماخد، ورواية الأصل هى رواية الأصمعى وليس فيها إيطاء، وهو تكرار القافية، لاختلافهما تعريفا وتنكيرا . ٢٠

(٣) البيت لأمية بن أبى الصلت، وتمثل به عمر بن عبد العزيز، وقعبان تثنية قعب : القدح الضخم، أو الصغير الذى يروى الرجل، شيبا : خلطا .

حكاه ٱبن عبد البر . وروى النَّسائىّ عن عثمان بن حُنَيف أن أعمى قال : يا رسول الله ، ٱدع الله أن يكشف لى عن بصرى . قال[(١)] : «فٱنطلق فتوضأ ثم صلِّ ركعتين ، ثم قل اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيِّ[(٢)] محمدٍ نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجّه بك إلى ربك أن يكشف عن بصرى اللهم شفعْه فِىّ » قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره .

وروى أن ٱبن مُلَاعِب[(٣)] الأسِنّة أصابه ٱستسقاء فبعث إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيده حَثْوة من الأرض فتَفَل عليها ، ثم أعطاها رسوله ، فأخذها متعجبا — يرى أنه قد هُزِئ به — فأتاه بها وهو على شفا فشربها[(٤)] فشفاه الله . وذكر العُقَيْلىّ عن حبيب بن فُدَيْك — ويقال فُوَيك[(٥)] — أن أباه ٱبيضّتْ عيناه ، فكان لا يبصر بهما شيئا ، فنفَثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينَيْه فأبصر ، فرأيته يدخل الخيط فى الإبْرة وهو ٱبن ثمانين .

وأتته ٱمرأة من خَثْعَم معها صبىّ به بلاءٌ[(٦)] لا يتكلم ، فأُتِى بماءٍ فمضمَض فاه وغَسلَ يديه ثم أعطاها إياه وأمرها بسقْيه ومسّه به ، فبرأ الغلام ، وعَقَل عَقْلا ، يَفْضُل عقولَ الناس . وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما قال : جاءت ٱمرأة بٱبن لها به جُنُونٌ ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره فثع[(٧)] ثعّةً فخرج

(١) أى قال النبى صلى الله عليه وسلم . (٢) ويروى : « بنبيك » .

(٣) ٱبن ملاعب الأسنة ، كذا فى الأصول والشفا ؛ والذى فى الإصابة ٱبن أخ ملاعب الأسنة وأن الذى أرسله إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عكّة عسل ، وكان به وجع بطن ، فسقاه فبرأ ، وهذا هو المشهور فى القصة . وملاعب الأسنة هو أبو البراء عامر بن مالك الكلابى ، والصحيح أنه لم يسلم .

(٤) قوله : « فشربها » يدل على أن المرسل إليه هو مشروب كما فى الإصابة وأسد الغابة .

(٥) ويقال : « فريك » بالراء .

(٦) البلاء : عدم القدرة على الكلام أو الذهول وعدم العقل للكلام .

(٧) ثع : قاء ، والثعة المرة الواحدة ، والجرو الكلب الصغير ، وفى المصباح : والصغير من كل شىء .

من جوفه مثل الجرو الأسود فشُفِي . وكانت فى كَفِّ شُرَحْبِيل الجُعْفى سِلْعَة، تمنعه القبض على السيف وعِنان الدابة ، فشكاها إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فما زال يطحَنها بكفِّه حتى رفعها ولم يبق لها أثَرٌ . وسألته جاريةٌ طعاما وهو يأكل ، فناولها من بين يديه ، وكانت قليلة الحَيَاء ، فقالت : إنما أريد من الذى فى فِيكَ، فناولها ما فى فِيهِ،ولم يكن يسأل شيئا فيمنعه، فلما آستقر فى جوفها ألْقِى عليها من الحياء ما لم تكن آمرأة بالمدينة أشدّ حياء منها .

وأما الجراحات التى تَفَلَ عليها فبرأت فكثير

منها أنه صلى الله عليه وسلم بَصَق على أثر سهم فى وَجْه أبى قتادة ، فى يوم ذى قَرَد[1]، قال : فما ضرب علىَّ، ولا قَاح[2] . ومنها أن كُلْثُوم بن الحُصَيْن رُمِى يوم أُحُد فى نحره،فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فبرأ ، وتَفَل على شَجّة عبد الله آبن أُنَيْس فلم تُمَدّ[3] . وتَفَل فى رِجْل زيد بن مُعاذ حين أصابها السيف إلى الكعب حين قَتَل آبن الأشْرَف فبرئت،وعلى ساق على بن الحَكَم يوم الخَنْدَق، إذ آنكسرت فبرئ مكانه وما نزل عن فرسه . وقطع أبو جهل يد معوّذ بن عَفْراء[4] فى يوم بدر، فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وألصقها فلصقت . رواه آبن وهب ، ومن روايته : أن خُبيب[5] بن يَسَاف أصِيب يوم بَدْر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربة على عاتقه حتى مالَ شِقُّه ، فردّه رسول الله صلى الله عليه

(١) ذو قرد : موضع قرب المدينة أغاروا فيه على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فغزاهم .

(٢) ما ضرب : أى ما آلمنى الجرح ، ولا قاح : أى ولا تقيح .

(٣) لم تمد : أى لم تصب بمدّة وقيح .

(٤) عفراء : أمه ، وهو معوذ بن الحارث بن رفاعة .

(٥) خبيب : قال فى أسد الغابة ؛ إنما هو بالمعجمة وضمها ، ويروى : حبيب بن إساف .

وسلم ، ونَفَث عليه حتى صح . ونَفَث على ضربة بساق سَلَمَة بن الأَكْوَع يوم خَيْبر فبرئت . وتَفَل فى عَيْنَىْ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوم خَيْبر وكان رَمِدا فأصبح بارئا . وٱشتكى علىّ مرة بجعل يدعو ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « اللهم ٱشفه أو عافه »(١) ثم ضربه برجله فما ٱشتكى ذلك الوجع بعد ذلك .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم إجابة دعائه

١٢٢/١٦

وهذا فصل متسع جدّا ، نذكر منه ما ٱشتهر وٱنتشر ، وتواترت به الأخبار وتداولته الرُّواة ، ونقله أصحاب السِّيَر ، ولا شك ولا خلاف بين أحد من الأمة فى إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ؛ وقد روى عن حُذَيفة أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده . روى عن أنس بن مالك قال : قالت أمى يارسول الله ، خادمُك أنَسٌ ٱدع الله له ؛ قال : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته » قال أنس : فوالله إن مالى لكثير ، وإن ولدى وولد ولدى ليعادّون اليوم على نحو المائة ، وما أعلم أحدا أصاب من رخاء العيش ما أصبت ، ولقد دفنت بيدى هاتين مائة من ولدى ، لا أقول سقطا ولا ولد ولدٍ . ودعا صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف بالبركة ، قال عبد الرحمن : فلو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهبا ، ولما مات حفر الذهب من تَرِكَته بالفُؤس حتى مَجِلَت(٢) فيه الأيدى ، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفا ، وكنّ أربعا ، وقيل : مائة ألف ، وقيل : بل صولحت إحداهن — لأنه طلقها فى مرضه — على نيف وثمانين ألفا ، وأوصى بخمسين ألفا بعد صدقاته الفاشية فى حياته . ودعا لمعاوية بالتمكين فى البلاد فنال الخلافة . ولسعد بن أبى وقّاص أن

(١) أو عافه : شك من الراوى .

(٢) المجل : تغير يكون فى اليد من كثرة العمل .

يجيب الله دعوته ، فما دعا على أحد إلا آستجيب له . ودعا أن يعـزّ الله الإسلام بعمر أو بأبى جهل فاستجيب له فى عمر رضى الله عنه ؛ قال آبن مسعود : ما زلنا أعزّةً منذ أسلم عمر . وقال لأبى قَتادة : « أفلحَ وجهُك ، اللهم بارك له فى شعره وبَشَره »(١) فمات وهو آبن سبعين سـنة وكأنّه آبن خمس عشرة . وقال للنابغـة : « لا يَفْضُضِ(٢) اللهُ فاك » قال : فما سقطت له سِنّ ، وكان ، أحسن الناس ثغرا(٣) ، إذا سقطت له سِنّ نبتت له أخرى ، وعاش عشرين ومائة سنة ، وقيل : أكثر . ودعا لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « اللهم فقِّهْه فى الدين وعلمه التأويل » فسمى بعْدُ الحِبْر وتَرْجُمان(٤) القرآن . ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة فى صَفْقَة(٥) يمينه ؛ فما آشترى شيئا إلا ربح فيه . ودعا للمِقْدَاد بالبركة ؛ فكان عنده غَرائر من المـال . ودعا كذلك لعُرْوة بن أبى الجَعْد ، قال : فلقد كنت أقوم بالكُنَاسة(٦) فما أرجع حتى أربح أربعين ألفا . ودعا لعلىّ أن يُكفَى الحرّ والقُرّ ، فكان يلبس فى الشـتاء ثياب الصيف ، وفى الصيف ثياب الشـتاء ، ولا يصيبه حَرٌّ ولا بَرْدٌ . ودعا على مُضَر فأُقحِطوا حتى آستعطفته قريش فدعا لهم فسُقوا . وتقدم خبره فى دعائه فى الآستسقاء والآستضحاء(٧) . ودعا على كِسْرَى أن يُمَـزَّق ملكُه فلم يبق له باقيةٌ ، ولم تَعُدْ لفارس مملكة . وقال لرجل رآه يأكل بشماله : « كُلْ بيمينك » قال : لا أستطيع ، فقال : « لا آستطعت »(٨) فلم يرفعها إلى فيه بعدُ . وقال فى عُتْبَة بن أبى لهب : « اللهم سَلِّط

(١) البشر : ظاهر الجلد واليد ، والمراد الدعاء له بأن يبقى معمرا على أحسن تقويم ، كاملا جميع أعضائه . (٢) لا يفضض : لا يسقط الله أسنانك ، من فضه إذا كسره .

(٣) الثغـر : الفم . (٤) الترجمان : الذى ينقل الكلام من لغة إلى لغة ، فتفسير ابن عباس لكلام الله نقل لمعانيه إلى فهوم الناس . (٥) أى فى بيعه وشرائه ، وخص اليمين لأن الأخذ والعطاء بها . (٦) الكناسة : سوق مشهورة بالكوفة . (٧) الاستضحاء : بروز الأرض للشمس ، وظهورها بعدم النبات فيها . (٨) إنما دعا صلى الله عليه وسلم عليه لأنه كان متعنتا إذ كان مستطيعا الأكل بيمينه ، ولم يرفعها لأنها شلت ، وهذا كذلك الذى خطب آبنه منه فقال له : إنها برصاء ولم يكن بها برص فلما ذهب إليها وجدها قد برصت .

عليه كلبا من كلابك » فأكله الأسد كما تقدم . ودعا على مُحَلِّم بن جَثَّامَة ، فمات لسَبْع فلفَظَتْه الأرض ثم وُورِى فلفظته ، فألقوه فى صُدَّين ورَضَموا[1] عليه بالحجارة، والصُّدّ جانب الوادى . ودعواته صلى الله عليه وسلم كثيرة عليه أفضل الصلاة والسلام .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم انقلاب الأعيان

فيما لمسه أو باشره؛ كسيف عُكَاشَة بن مِحْصن ، وعبد الله بن جَحْش، وغير ذلك ، وكان من خبر عكاشة أن سيفه انكسر يوم بدر فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جِذْل[2] حَطَبٍ ، وقال : « اضرب به » فعاد فى يده سيفا صارما طويلا أبيض شديد المتن، فقاتل به ، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد فى قتال أهل الردّة ، وكان هذا السيف يسمى العَوْن . ودفع لعبد الله بن جحش — وقد ذهب سيفه يوم أُحُد — عسيب[3] نخل فرجع فى يده سيفا . ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على ماءٍ[4] فسأل عنه ، فقيل له اسمه بَيْسَان وماؤه ملح ، فقال : « بل هو نَعْمَان وماؤه طيِّب » فكان كذلك . ومنه أنه صلى الله عليه وسلم أعطى قتادة بن النعمان — وكان قد صلى معه العشاء فى ليلة مظلمة مطيرة — عُرْجُونا ، وقال : « انطلق به فإنه سيضىء لك من بين يديك عشرا ،ومن خلفك عشرا[5] ، فإذا دخلت بيتك فسترى سوادا فاضربه به حتى يخرج فإنه الشيطان »

١٢٣/١٦

(١) الرضم : وضع الصخور بعضها فوق بعض كالبناء .

(٢) الجذل : عود غليظ أو أصل من أصول الشجرة ، والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه عرجونا فعاد فى يده سيفا .

(٣) العسيب : جريدة النخل لاخوص عليها . وفى رواية : كان عرجون نخلة .

(٤) هو الذى مر به النبي صلى الله عليه وسلم فى غزاة ذى قرد .

(٥) أى مقدار عشر أذرع .

فانطلق فأضاء له العُرْجون ، ووجد السواد فضربه حتى خرج . ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم زوّد أصحابه سِقَاء من ماء بعد أن أوْكَأه ودعا فيه ، فلما حضرتهم الصلاة نزلوا فحلوه فإذا به لبنٌ طيب وفى فمه زبدة . رواه حَمّاد بن سَلَمَة .

ومما يلتحق بهذا الفصل

أنه صلى الله عليه وسلم ركب فرسا لأبى طلحة ، كان يقطف[1] أو به قطاف ، فلما رجع قال : وجدنا فرسك بَحْرا ، فكان بعد لا يجارى . ونخس[2] جمل جابر بن عبد الله ، وكان قد أعْيَا فنَشِط حتى كان ما يملك زِمامه ، وقد تقدم خبره . وخَفَق فرس جُعَيْل الأشجعى بمِخْفَقه[3] معه وبَرَّك عليها فلم يملك رأسها نشاطا ، وباع من بطنها بأثنى عشر ألفا . وركب صلى الله عليه وسلم حمارا قَطُوفا لسعد بن عُبادة فرده هِمْلاجا[4] لا يُسايَر . ومن ذلك بركة يده صلى الله عليه وسلم فيما لمسه كقصة سَلْمَان فى كتابته ، وما غرس له صلى الله عليه وسلم من الوَدِىّ[5] فأطعمت كلها من عامها ، والذَّهَب الذى أعطاه ، وقد تقدم ذكر ذلك فى إسلام سَلْمَان . ومنه أنه صلى الله عليه وسلم مسح على رأس عُمَيْر بن سعد وبَرَّك فمات وهو ابن ثمانين سنة وما شاب . وكذلك السّائب ابن يزيد ، ومَدْلُوك[6] ، وكان يوجد لعُتْبَة بن فَرْقَد طِيبٌ يغلب طيب نسائه ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح بيده على بطنه وظهره . ومسح على

(١) يقطف : يبطئ فى السير .

(٢) النخس : الطعن فى جنبه أو نحوه بعود أو ما يشبهه .

(٣) الخفق : الضرب ؛ والمخفقة ، الدرة ، وقيل إنها عصا ، وبرك عليه : دعا له بالبركة .

(٤) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة .

(٥) الودى : صغار النخل واحدتها ودية ، وأطعمت : أثمرت .

(٦) مدلوك : هو أبو سفيان الفزارى ، قال : قدمت على رسول الله مع موالى فمسح على رأسى ودعا لى بالبركة ، فكان موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود وسائر شعره أبيض . (أسد الغابة) .

رأس قيس بن زيد الجُذامىّ، ودعا له فهلك وهو ابن مائة سنة، ورأسه أبيض، وموضعُ كَفِّ النبي صلى الله عليه وسلم وما مَرَّت يدُه عليه من شعره أسود، فكان يُدعى الأغَرّ. وروى مثل ذلك لعمرو بن ثَعْلَبة الجُهَنِىّ. ومسح وجه آخر فما زال على وجهه نور. ومسح وجه قَتَادة بن مِلْحَان، فكان لوجهه بريقٌ، حتى كان ينظر فيه كما ينظر فى المرآة. ونضح فى وجه زينب بنت أم سلمة نَضْحة من ماء، فما نعرف كان فى وجه امرأة من الجمال مابها. ومسح على رأس صبي به عاهة فبرأ واستوى شعره، وعلى غير واحد من الصبيان المرضى والمجانين فبرءوا. وأتاه رجل به أُدْرة[1] فأمره أن ينضحها بماء من عَيْن مَجّ[2] فيها ففعل فبرأ. وعن طاوس: لم يؤت النبي صلى الله عليه وسلم بأحد به مَسٌّ فصَكّ فى صدره إلا ذهب. والمس: الجنون. ومَجّ فى دَلْوٍ من بئر ثم صُبّ فيها ففاح منها ريح المسك. وشكا إليه أبو هريرة النسيان فأمره أن يبسط ثوبه، وغرف بيده فيه ثم أمره بضمه ففعل فما نسى شيئا بعدُ. ومن ذلك دُرُور الشياه الحَوائل[3] باللبن الكثير؛ كقصة شاة أم مَعْبَد، وأعْنُز معاوية بن ثور، وشاة أَنَس، وغَنَم حَليمة، وشَارفها[4]، وشاة عبد الله بن مسعود، وشاة المِقْدَاد، والله أعلم.

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم ما أخبر به من الغُيوب، وما يكون قبل وقوعه، فكان كما أخبر به صلى الله عليه وسلم؛ روى عن حُذيفة قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما، فما ترك شيئا يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدّثه[5]، حَفِظه مَنْ حَفِظه ونَسِيَه من نَسِيَه، قد علمه أصحابى هؤلاء،

(١) الأدرة: انتفاخ فى الخصيتين معروف. (٢) مج فيها: تفل ريقه فيها.
(٣) الحوائل (جمع حائل): وهى التى لم تحمل مطلقا. (٤) شارفها: الشارف الناقة المسنة.
(٥) إلا حدثه: أى إلا حدثنا به، وفى نسخة من الشفا: «إلا حدث به».

وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، ثم قال حذيفة : ما أدرى أنسى أصحابى أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضى الدنيا ، يبلغُ من معه ثلثمائة فصاعدا إلا قد سمّاه لنا باسمه وآسم أبيه وقبيلته . وقال أبو ذرّ : لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه علما[1]. ١٢٤/١٦

ومما أخبر به صلى الله عليه وسلم مما يكون فكان، ما أخرجه أهل الصحيح والأئمة، مما وعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من الظُّهور على أعدائه، وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعِراق ، وظهور الأمن حتى تَظْعَن[2] المرأة من الحِيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله ، وأن المدينة ستُغْزَى[3]، وتُفتح خيبر على يدى علىّ فى غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا، وما يؤتَون من زَهْرَتها[4]، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر ، وما يحدث بينهم من الفُتُون[5] والآختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل مَن قَبْلَهم وآفتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة ، وأنه ستكون لهم أنْمَاط[6] ، ويغدو أحدهم فى حُلّة ويروح فى أخرى ، وتوضع بين يديه صَحْفة[7] وترفع أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تُستر الكعبة ، ثم قال آخر الحديث : « وأنتم اليوم خير منكم يومئذ » وأنهم إذا مشوا المُطَيْطاء[8]، وخَدَمتهم بناتُ

(١) أى تذكرنا من طيرانه علما يتعلق به ، فكيف بغيره مما يهمنا فى الأرض .

(٢) تظعن : تسافر . (٣) يشير إلى وقعة الحرة، أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ .

(٤) زهرة الدنيا : حسنها وبهجتها وكثرة خيرها .

(٥) الفتون . الافتتان . وفى نسخة أ : « الفتن » .

(٦) أنماط جمع نمط : وهو ضرب من البسط له خمل رقيق .

(٧) الصحفة : القصعة ، أى تتعدد أصناف مآكلهم .

(٨) المطيطاء : مشية المتبختر ومد اليدين .

فارس والروم ، ردّ الله بأسهم بينهم ، وسلّط شرارهم على خيارهم ، وما أخبر به صلى الله عليه وسلم من قتالهم التُّرْك والخَزَر والرُّوم ، وذهاب كِسْرى وفارس ، حتى لا كسرى ولا فارس بعده ، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده ، وأن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر ، وأخبر بذهاب الأمثل فالأمثل من الناس ، وتَقارُب الزمان ، وقَبْض العلم ، وظهور الفِتَن والهَرْج ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «زُوِيت[1] لى الأرض فأُرِيتُ مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازُوِى لى منها» فكان كذلك ؛ آمتدت فى المشارق والمغارب ، ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة[2] حيث لا عمارة وراءه ، ولم تمتدّ فى الجنوب والشمال مثل ذلك . وقوله صلى الله عليه وسلم : « ويل للعرب من شرٍّ قد آقترب » . وقوله : « لا يزال أهل الغَرْب ظاهرين على الحقّ حتى تقوم الساعة » ذهب آبن المدينى إلى أنهم العرب ؛ لأنهم المختصّون بالسَّق بالغَرْب وهو الدّلو ، وقيل : بل هم أهل المغرب ، ومن رواية أبى أُمَامَة : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق قاهرين لعدوهم حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك » قيل : يا رسول الله وأين هم ؟ قال : « ببيت المقدس » . وأخبر صلى الله عليه وسلم بملك بنى أمية ، وولاية معاوية ، ووصاه ، وآتخاذ بنى أمية مال الله دُوَلا[3] .

وأخبر بخروج ولد العباس بالرايات السود ، وملكهم أضعاف ما ملكوا ، وأخبر بقتل علىّ رضى الله عنه ، وأن أشقاها الذى يَخْضِب هذه من هذه ؛ أى لحيته من رأسه . وقال : يُقْتل عثمان وهو يقرأ المصحف ، وأن الله عسى أن

(١) زويت : جمعت ؛ أى جمعت لى أطراف الأرض فأرانى الله مشارقها ومغاربها ، يروى : « فرأيت » .

(٢) طنجة : الميناء المشهور بالمغرب على المحيط .

(٣) دولا (جمع دولة) : وهو ما يتداول من المال ، فيكون لقوم دون قوم .

يلبسه قميصا، وأنهم يريدون خلعه، وأنه سيقطر دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾[1]. وأن الفتن لا تظهر مادام عمر حيًّا، وأخبر بمحاربة الزبير لعلىّ، ونُبَاح كِلاب الحَوْأَب[2] على بعض أزواجه، وأنه يقتل حولها قتلى كثيرة، وتنجو بعد ما كادت، وأن عمّارا تقتله الفئة الباغيـة، وقال لعبد الله بن الزبير: «ويل للناس منـك، وويل لك من الناس» وقال فى قُزْمَان[3] وقـد أبلى بلاء حسنا مع المسلمين: «إنه من أهل النار» فقتل نفسه. وقال صلى الله عليه وسلم: «يكون فى ثَقيف كذّاب ومُبِير»[4] فكان الكذاب المختار بن أبى عبيد، والمبير الحجاج بن يوسف. وأخبر بالردّة، وأن الخلافة بعده ثلاثون، ثم مُلكا، وقال: «إن هذا الأمر بدأ نبوّة ورحمة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم يكون مُلكا عَضُوضا[5]، ثم يكون عُتُوًّا وجَبْرُوة وفسادا فى الأئمة» فكان كل ذلك كما أخبر. وأخبر أن سيكون فى أمتـه ثلاثون كذّابا فيهم أربع نسوة، وفى حديث آخر: «ثلاثون دجالا كذّابا آخرهم الدّجّال الكذّاب كلهم يكذب على الله ورسوله». وقال صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن يكثر فيكم العجم يأكلون فَيْئَكم[6]، ويضربون رقابكم» فكان كذلك. وقال: «لا تقـوم الساعة حتى يسوق النـاس بعصاه رجل من قَحْطَان[7]». وقال: «هلاك أمتى على يدى أُغَيْلِمة من قريش» قال أبو هريرة راوى الحديث: لو شئت سميتهم لكم،

(١) آية ١٣٧ سورة البقرة. (٢) الحوأب: ماء فى طريق البصرة نبحت كلابها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين ذهبت إلى البصرة فى وقعة الجمل. (٣) قزمان: هو ابن الحارث العبسى المنافق. (٤) كان كذابا لأنه ادعى النبوة بالكوفة، ومبير: مهلك يسرف فى القتل بغير حق.

(٥) عضوضا: أى يصيب الرعية فيه عسف وظلم كأنهم يعضون فيه عضا، وفى رواية: «ثم يكون ملوك عضوض»: جمع عض بالكسر وهو الخبيث الشرس. (النهاية لابن الأثير).

(٦) فى الشفا: «أفيائكم» بصيغة الجمع، واحده فىء، والفىء: الغنيمة.

(٧) أى من عرب اليمن، وقحطان أبو اليمن.

بنو فلان وبنو فلان . وأخبر بظهور القَدَرِيّة والرافضة، وسبّ آخر هذه الأمة أوّلها . وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم، والمُخْدَج[1] الذى فيهم، وأن سِيَماهم التَّحْليق[2] . وقال: « خيركم قَرْنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يأتى بعد ذلك قوم يَشهدون ولا يُسْتَشْهَدون ويخونون ولا يؤتمنون ويَنْذرون ولا يَفُون » . وقال : « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه» . وأخبر صلى الله عليه وسلم بالمُوْتان[3] الذى يكون بعد فتح المقدس . وما وعد من سكنى البصرة، وأن أمته يغزون فى البحر كالملوك على الأسِرّة؛ فكان فى زمن يزيد بن معاوية . وقال : « إن الدِّين لو كان مَنُوطا[4] بالثريا لناله رجال من أبناء فارس » . وقال صلى الله عليه وسلم فى الحسن بن على رضى الله عنهما : « إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فِئتين » . وأخبر بقتل الحسين بالطَّف[5]، وأخرج بيده تربة، وقال : فيها مَضْجعه . وقال فى زيد بن صُوحان : يسبقه عُضو منه إلى الجنة، فقُطِعت يدُه فى الجهاد . وقال لسراقة : « كيف بك إذا لبست سِوَارَى كِسْرى » فلما أتى بهما لعمر ألبسهما إياه، وقال : الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سُرَاقة . وقال : « تبنى مدينة بين دجلة ودُجَيْل وقُطْرُبّل والصَّراة[6] تجبى إليها خزائن الأرض يُخْسَف بها » . فبنيت بغداد . وقال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل طائفتان دعواهما واحدة » . وقال لعمر فى سُهَيل بن عمرو : « عسى أن يقوم مقاما يسرك يا عمر » فقام بمكة مقام أبى بكر يوم بلغهم موت النبى صلى الله عليه وسلم، وخطب بنحو خطبته، وثبّت الناس

١٢٥/١٦

(١) المخدج : الناقص الخلق . (٢) سيماهم : علامتهم، والتحليق قيل : حلق الرءوس، وقيل غير ذلك . (٣) الموتان : الموت الكثير، وكان ذلك فى خلافة عمر بقرية عمواس من قرى بيت المقدس، نزل بها عسكره، وهو أول طاعون وقع فى الإسلام سنة ١٦ هـ

(٤) منوطا : معلقا، والحديث المشهور فى هذا «لو تعلق الدين بالثريا» ويروى «لو تعلق العلم» .

(٥) الطف : موضع قرب الكوفة . (٦) قطربل : قرية بالعراق . والصراة : نهر بالعراق أيضا .

وقوّى بصائرهم ، وقال لخالد حين وجهه إلى أُكَيْدِر : « إنك تجده يصيد البقر » فكان كذلك . وقد تقدّم خبره . وأخبر صلى الله عليه وسلم بوقائع نحن نترقب وقوعها ؛ كقوله : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القُسْطَنْطِينِيَّة » . وأخبر بغير ذلك من الأمور التى وقعت فى حياته فى أماكن بعيدة ، وأخبر بها حال وقوعها كموت النجاشى ، وقتل أمراء مُؤْتَه ، وغير ذلك صلى الله عليه وسلم .

ومن معجزاته عصمة الله تعالى له من الناس

وكفايته إياه مع كثرة أعدائه وتحزبهم وآجتماعهم على أذاه

قال الله عز وجل : ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[2] . وقال : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾[3] . وقال : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[5] . روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القُبّة ، فقال لهم : « يأيها الناس آنصرفوا فقد عصمنى الله ربى عزّ وجل » . وقيل : كان النبى صلى الله عليه وسلم يخاف قريشا ، فلما نزلت هذه الآية آستلقى ، ثم قال : « من شاء فليخذلنى » . وقد تقدم من عصمة الله له وكفايته قصتا دُعثُور وغُورَث ، وخبر

(١) آية ٦٧ سورة المائدة . (٢) آية ٤٨ سورة الطور .
(٣) آية ٣٦ سورة الزمر . (٤) آية ٩٥ — ٩٦ سورة الحجر .
(٥) آية ٣٠ سورة الأنفال .

حَمَّالة الحطب ، وأخذ الله تعالى على بصرها حين أرادته بالفِهر[1] ، وخبر أبي جهل حين أراده بالحجر ، وغير ذلك .

وها نحن نورد في هذا الموضع من ذلك خلاف ما قدّمناه ؛ فمن ذلك ما روى عن الحكم بن العاص أنه قال : تواعدنا على النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا رأيناه سمعنا صوتا خلفنا ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد ، فوقعنا مغشيا علينا ، فما أفقنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله ، ثم تواعدنا ليلة أخرى ، فخرجنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : تواعدنا أنا وأبوجهم بن حُذيفة ليلةً قَتْلَ[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئنا منزله فسمعنا له ، فافتتح وقال : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ إلى : ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾[3] فضرب أبو جهم على عَضُد عمر وقال : أنجُ ، وفرّا هاربين ، فكانت من مقدّمات إسلام عمر . ومن ذلك خروجه صلى الله عليه وسلم على قريش حين اجتمعوا لقتله ، فأخذ الله على أبصارهم حتى ذَرَّا[4] التراب على رءوسهم وخلص منهم . وقصة الغار ، وأَخْذُ الله على أبصارهم ، وخبر سُراقة بن مالك بن جُعْشُم ، وقد تقدّم ذكر ذلك . وفي خبر آخر أنّ راعيا عرف خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر حين هاجرا ، فخرج يَشْتَدّ[5] ليعلم قريشا بشأنهما ، فلما دخل مكة ضُرِب على قلبه فما يدري ما يصنع ، وأُنْسِيَ ما خرج له حتى رجع إلى موضعه . وذكر السَّمَرْقَنْدِيّ : أن رجلا من بني المغيرة أتى النبي صلى الله عليه وسلم ليقتله ، فطمس الله بصره فلم

١٢٦/١٦

(١) الفهر : الحجر قدر ما يملأ الكف . (٢) في شرح الشفا للشهاب : « ليلة منصوب على الظرفية منون ، وقتل منصوب على أنه مفعول له أو بنزع الخافض ؛ أي على قتله أو لقتله ، أو بمقدر أي وأضمرنا قتله » . (٣) آية ١ — ٨ سورة الحاقة . (٤) ذرا : نثر .
(٥) يشتد : يسرع في مشيه .

ير النبي صلى الله عليه وسلم وسمع قوله ، فرجع إلى أصحابه ولم يرهم حتى نادوه، وذكر أنّ فيه وفى أبى جهل نزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) . وقد رُوى عن أبى هريرة أن أبا جهل وعد قريشا : لئن رأى محمدا — صلى الله عليه وسلم — يُصلّى ليَطَأنّ رقبته، فلما صلى النبي صلى الله عليه وسلم أعلموه فأقبل، فلما قرب منه ولّى هاربا ناكصا على عقبيه متّقيا بيديه، فسئل فقال : لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء نارا كدت أهوى فيه، وأبصرت هَوْلًا عظيما، وخَفْقَ أجنحة قد ملأت الأرض . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تلك الملائكة لو دنا لاختطفته عُضوا عُضوا » ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾ (٢) إلى آخر السورة . وقد ذكرنا أيضا قصة شَيْبَة بن عثمان بن أبى طلحة فى غزوة حُنَيْن . وعن فُضَالة بن عمرو قال : أردت قتل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو يطوف بالبيت، فلما دنوت منه قال : « أفضالة » ؟ قلت : نعم، قال : «ما كنت تُحَدِّث به نفسك» ؟ قلت : لا شيء، فضَحِك واستغفر لى ووضع يده على صدرى فسكن قلبي، فوالله مارفعها حتى ماخلق الله شيئا أحَبَّ إلىّ منه . ومنه خبر عامر بن الطُّفَيْل، وأرْبَد بن قيس، وقد تقدم ذكر قصتهما (٣) .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم ما جمعه الله تعالى له من المعارف والعلوم ، وخصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بأمور الشرائع وغير ذلك ، كاطلاعه صلى الله عليه وسلم على أخبار من سلف من الأمم ، وقصص الأنبياء والرسل ، وأخبار الجبابرة والقرون

(١) آية ٨، ٩ سورة يس . (٢) آية ٦ سورة العلق .
(٣) راجع ص ٥١ من هذا الجزء .

الماضية ، وحفظ شرائعهم ، وسرد أنبائهم ، وأيّام الله فيهم ، ومعارضة كل فرقة من أهل الكتاب بما فى كتبهم ، وإعلامهم بأسرارها ومخبآت علومها ، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيّروه ، وأحتوائه صلى الله عليه وسلم على لغات العرب وغريب ألفاظها ، والحفظ لأيامها وأمثالها وحِكَمها ، ومعانى أشعارها ، وما خصه الله تعالى به من جوامع الكلم ، وما علمه من ضروب العلوم وفنون المعارف ؛ كالطبّ والعبارة(١) والفرائض والحساب والأنساب وغير ذلك ، مما جعل أهل هذه العلوم كلامه صلى الله عليه وسلم فيها قدوة وحجة وأصولا يرجعون إليها فى علومهم ؛ كقوله عليه السلام : « الرؤيا لأوّل عابر وهى على رِجل طائر » وقوله : «الرؤيا ثلاث؛ رؤيا حق ، ورؤيا يحدّث بها الرجل نفسه ، ورؤيا تحزين من الشيطان » . وقوله : « إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذِب » . وقوله : « أصل كل داء البَرَدة(٢) » وقوله : « المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة » وقوله : « خير ما تداويتم به السَّعُوط(٣) ، واللَّدُود(٤) ، والحِجامة ، والمَشِيّ(٥) ، وخير الحجامة يوم سبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين ، وفى العود(٦) الهندى سبعة أشفية » وقوله : «ما ملأ آبن آدم وِعاء شرا من بطنه » . وقوله لكاتبه : « ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للملى » . وقد وردت آثار بمعرفته حروف

(١) العبارة : تعبير الرؤيا . (٢) البردة : التخمة وثقل الطعام على المعدة ، سميت بذلك لأنها تبرد المعدة فلا تستمرئ الطعام . (٣) السعوط بالفتح : ما يجعل من الدواء فى الأنف .

(٤) اللدود بالفتح : ما يسقاه المريض فى أحد شقى الفم ، ولديدا الفم جانباه .

(٥) المشى : الدواء المسهل سمى بذلك لأنه يحمل شاربه على المشى والتردد إلى الخلاء .

(٦) العود الهندى : قيل هو القسط البحرى ، وقيل هو العود الذى يتبخر به ، قال فى النهاية : القسط عقار (بالند) : معروف فى الأدوية طيب الريح ، والحديث يروى : « عليكم بهذا العود الهندى فإنه فيه سبعة أشفية » الحديث .

الخَطّ ، وحسن تصويرها ؛ كقوله : « لا تمدّوا بسم الله الرحمن الرحيم » رواه ابن شعبان من طريق ابن عباس ، وقوله فى الحديث الآخر الذى يروى عن معاوية أنه كان يكتب بين يديه — صلى الله عليه وسلم — فقال له : «ألقِ الدّواة[1] ، وحرِّف القلم ، وأقم الباء ، وفرّق السين ، ولا تُعوِّر[2] الميمَ ، وحسّن الله ، ومُدّ الرحمن ، وجوّد الرحيم» وإن لم تصح الرواية أنه صلى الله عليه وسلم كتب ، فلا يبعد أن يكون قد رُزِق علم الخطّ ، ومُنع الكتابة والقراءة . وكذلك حفظه صلى الله عليه وسلم لكثير من لغات الأمم ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « سَنَهْ سَنَهْ[3] » وهى حسنة بالحبشية ، وقوله : و «يكثر الهَرْج» وهو القتل بها ، وقوله فى حديث أبى هريرة : «اشْكَنْبَ[4] دَرْدَمْ » أى وجع البطن بالفارسية ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا من دارس العلوم ، ومارس الكتب ، وداوم المطالعة ، وعكف على الاشتغال . وكان صلى الله عليه وسلم بخلاف ذلك لا يقرأ ولا يكتب ؛ كما أخبر الله تعالى عنه بقوله عز وجل : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ[5] » وفى هذا أكبر آية ، وأعظم دلالة ، وأبين حجة ، وأبهر معجزة له صلى الله عليه وسلم .

١٢٧/١٦

وقد رأينا أن نختم هذه الفصول بذكر

القصيدة التى ابتسمت ثغورها بوصف معجزاته ، وتحلّت نحورها بجواهر صفاته ، ورفلت فى حُلَل الفخار من باهر آياته ، وسحبت ذيول الافتخار بإشارات إلى غزواته ، وفاح أرَجُها فأخجل المِسْك الدارِىّ[6] ، وأشرقت أنوارها على النيرين

(١) ألق الدواة : اجعل لها ليقة وهى صوفة تجعل فى الدواة لتلزق بالمداد .

(٢) لا تعور الميم : لا تطمسها . (٣) الرواية كما فى النهاية : ألبس أم خالد الخميصة ، فجعل يقول : « يا أم خالد سناسنا » ، ثم قال : وتخفف نونها وتشدد .

(٤) اشكنب : يزاد فيها هاء فيقال : اشكنبه . (٥) آية ٤٨ سورة العنكبوت .

(٦) الدارى : نسبة إلى دارين ، فرضة بالبحرين ينسب إليها المسك .

فما ظنك بالدرارى، وهى قصيدة الشيخ الإمام العلامة أبى محمد عبد الله بن زكريا الشقراطيسى[(١)] رحمه الله تعالى، وإنما اقتصرنا عليها وصرفنا الرغبة دون غيرها إليها لاشتمالها على جمل من أخباره السنية، ونكت من آثاره التى هى بكل خير مَلِية، وهى :

٥ الحمد لله منّا باعث الرسل * هَدَى بأحمد منّا أحمدَ السُّبُلِ[(٢)]
خير البرية من بَدْوٍ ومن حَضَرٍ * وأكرم الخلق من حافٍ ومنتعلِ[(٣)]
توراة موسى أتت عنه فصدّقها * إنجيلُ عيسى بحقّ غيرِ مُفْتَعَلِ[(٤)]
أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت * عما رأوا ورَوَوْا فى الأعصر الأُوَلِ
ضاءت لمولده الآفاق واتصلت * بشرى الهواتف فى الإشراق والطَّفَلِ[(٥)]
١٠ وصرح كِسرى تداعى من قواعده * وانقاضَ منكسرَ الأرجاء ذا مَيَلِ[(٦)]
ونار فارس لم تُوقَد وما خَمِدت * مُذْ ألف عامٍ ونهرُ القوم لم يَسِلِ
خرّت لمبعثه الأوثان وانبعثت * ثواقب الشهب ترمى الجنّ بالشُّعَلِ
ومنطقُ الذئب بالتصديق معجزةٌ * مع الذراع ونطق العَيْرِ والجملِ[(٧)]
وفى دعائك بالأشجار حين أتت * تسعى بأمرك فى أغصانها الذُّلُلِ
١٥ وقلتَ عودى فعادت فى منابتها * تلك العروقُ بإذن الله لم تَمِلِ

---

(١) الشقراطيسى : نسبة إلى شقراطيسة من بلاد الجريد بتونس . (شرح القصيدة لأبى شامة) .

(٢) منا بكسر الميم : جار ومجرور متعلق بباعث، ومنا : تفضلا وإحسانا، أحمد السبل : الإسلام .

(٣) يريد بالحافى والمنتعل جميع الخلق .

(٤) فى نسخة (ا) « بقول غير مفتعل » .

٢٠ (٥) الطفل : العشى . (٦) انقاض : انهار، ويروى : « انقاص » بالصاد المهملة . الأرجاء : النواحى، ميل بفتح الياء : ما كان فى أصل الخلقة كميل العنق، وبالسكون : ما كان فى الحادث .

(٧) العير : الحمار .

والسَّرح بالشام لما جئتها سجدت * شُمَّ الذوائبِ فى أغصانها الخضُلِ (١)
والجذع حنَّ لِأن فارقته أسفًا * حنينَ ثَكْلَى شَجَتها لَوْعَةُ الثَّكَلِ (٢)
ما صبرُ مَن صار من عَيْنٍ على أثرٍ * وحالُ مَن حالَ مِن حالٍ إلى عَطَلِ (٣)
حَيِي فمات سُكونا ثم مات لَدُنْ * حَيِي حَنينا فأضحى غاية المَثَلِ
والشاة لما مسحتَ الكفَّ منك على * جَهْدِ الهُزَالِ بأوْصالٍ لها قُحُلِ (٤) ٥
سَحَت ودَرَّت بِشَكْرِ الضرعِ حافلةً * فروَّتِ الركب بعد النَّهْل بالعلَلِ (٥)
وآية الغارِ إذ وُقِّيتَ فى حُجُبٍ * عن كل رِجْسٍ لرِجسِ الكفر مُنْتَحِلِ (٦)
وقال صاحبك الصِّدِّيقُ كيف بنا * ونحن منهم بمَرْأى الناظرِ العَجِلِ
فقلتَ لا تحزن إن الله ثالثنا * وكنتَ فى حُجُبٍ سِتر منه مُنْسَدِلِ
حُمَّت لَدَيْكَ حَمامُ الوحشِ جاثِمةً * كَيْدًا لكل غَوِيِّ القلبِ مُخْتَبِلِ (٧) ١٠
والعَنْكَبوتُ أجادَتْ حَوْكَ حُلَّتِها * فما يُخال خلال النَّسْج من خَلَلِ
قالوا: وجاءت إليه سَرْحَةٌ سَتَرتْ * وجهَ النبيِّ بأغصان لها هُدُلِ (٨)

---

(١) السرح : الشجر العظيم ، شم الذوائب : مرتفعات الأغصان التى فى أطرافها ، الخضل بالضاد المعجمة : الناعمة ، ويروى بالصاد : أى تخصل الشعر فى التفافها واسترسالها .

(٢) الثكلى : التى فقدت ولدها ، شجتها : أحزنتها ، لوعة : حرقة ، الثكل : الحزن . ١٥

(٣) معنى هذا البيت : كيف يصبر الجذع بعد أن انتقل من مشاهدة رسول الله إلى عدمها فصار بالحنين فى حال موته ، بعد أن كان موته بالسكون فى حال حياته وهذا عجيب . (٤) قحل : يابسة .

(٥) سحت : صبت صبا متتابعا ، ودرت ، هكذا فى الأصول ، والذى فى الشرح لأبى شامة : سحت بدرة شكرى الضرع ، وقال : المعنى ؛ بدرة شاة شكرى الضرع أى ممتلئة الضرع . حافلة : ترك حلبها حتى امتلأ الضرع ، النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى . ٢٠

(٦) منتحل : معتقد ؛ أى معتقد لرجس الكفر .

(٧) حمت : قدرت وأحضرت . وجاثمة : ملازمة للمكان لازقة به لخثوم الطير كبروك الإبل ، والكيد : الخداع ، ومختبل : مختل العقل . (٨) هدل : متدلية .

وفى سُـــراقة آيات مُبيِّنـــة * إذ ساخت الجُرْفى وَحْل بلا وَحَلِ (١)

عرجتَ تخترق السبع الطِّباق إلى * مَقامِ زُلْفى كريم قمت فيـــه عَلِ (٢)

عن قابِ قَوْسَيْن أو أدنى هبطتَ ولم * تَسْتكمِل الليـلَ بين المَـرِّ والقَفَل (٣)

دعوتَ للخلق عام المَحْـــل مبتهلا * أفديك بالخلق مِن داعٍ ومُبْتَهِـلِ (٤)

١٢٨/١٦

٥ صَعَّدت كفَّيْك إذ كَفَّ الغَمامُ فما * صَوَبْتَ إلّا بصَوْبِ الوَاكِفِ الهَطِل (٥)

أراق بالأرض ثَجّا صَوْبُ رَيِّقِهِ * فخَلَّ بالأرض نَسْجا رائقَ الحُلَل (٦)

زُهْرٍ من النُّور حَلَّت رَوْض أرضِهم * زَهْرًا من النَّوْرِ ضافى النبتِ مُكْتَهِل (٧)

مِن كل غُصْنٍ نَضِيرٍ مُورِقٍ خَضِرٍ * وكل نَوْرٍ نَضِيدٍ مُونِـقٍ خَضِـلِ (٨)

تحية أحْيَتِ الأحيـاءَ من مُضَرٍ * بعد المضرة تَرْوِى السُّبْل بالسَّبِلِ (٩)

١٠ دامت على الأرض سبعًا غير مُقْلِعةٍ * لولا دعاؤك بالإقـــلاعِ لم تَزُلِ

---

(١) سراقة : هو ابن مالك كان دليل المشركين فى اقتصاص أثر رسول الله حين هاجر، ثم أسلم بعد حنين، ساخت : دخلت وغابت قوائمها ، الجر : أنثى الخيل ، جرد من التاء لأنه من الأوصاف الخاصة ، الوحل : الطين الرقيق . (٢) الطباق : السموات ، لأنها متطابقة ، أو بعضها فوق بعض ، زلفى كقربى وزنا ومعنى ، وعل : من العلو نعت ثان لمقام . (٣) قاب : قدر ، أو أدنى : ١٥ أقرب ، المر : الذهاب ، القفل : الرجوع . (٤) المحل : القحط ، المبتهل : المتضرع .

(٥) صعدت بالتشديد : رفعت ، كف : امتنع ، أو بضم الكاف : منع ، والصوب : النازل ، الواكف : القاطر ، والهطل : المنسكب . (٦) الثـج : الاندفاق ، الريق من كل شىء أفضـله ، حل : نزل ، وفى الأصول : حل بالأرض ولعـله بالروض كما يستفاد من شرح أبى شامة ، نسجا : ناسجا ، رائق : معجب ، الحلل جمع حلة : يريد النبات المختلف الألوان .

٢٠ (٧) زهر : بيض مضيئة جمع أزهر ؛ من النور : أى الضوء ، والزهر الثانى : زهر النبات ، وحلت : من التحلية . (٨) نضير : ناعم حسن ، والنضيد : المتراكب ، المونق : المعجب ، خضل : الندى المبتل ، أو الخضل : الناعم . (٩) السبل الأولى : الطرق ، والسبل الثانية : المطر .

ويومُ زَوْرِك بالزَّوراءِ إذ صَدَرُوا * مِن يُمْنِ كفِّك عن أعْجُوبةٍ مَثَلِ (١)
والماء ينبع جَوْدا من أناملها * وسط الإناء بلا نَهْرٍ ولا وَشَلِ (٢)
حتى توضأ منه القوم واغترفوا * وهم ثلاث مئين جمعُ مُحتفِل
أشبعتَ بالصاع ألفا مُرْمِلين كما * رَوَيْتَ ألفًا ونصفَ الألفِ من سَمَل (٣)
وعاد ما شبع الألفُ الجياعُ به * كما بدَوْا فيه لم ينقص ولم يحُل
أعجزتَ بالوَحْيِ أصحابَ البلاغةِ في * عصرِ البيان فضَلَّتْ أوجُه الحِيَل
سألتهم سُورة في مِثل حِكمتِه * فتلَّهم عنه حَيْنُ العجزِ حين تُلي (٤)
ورام رِجْسٌ كذُوب أن يعارضه * بِغَيٍّ فلم يُحسِن ولم يطل (٥)
مُشبَّج بِرِكِك الإفك ملتبِس * مُلجلَج بزَرِيِّ الزُّورِ والخطَل (٦)
يَمجُّ أولَ حرفٍ منه سامعُه * ويعتريه كَلال العجزِ والمَلَل (٧)
كأنه منطِقُ الوَرْهاءِ شَذَبَه * لَبْسٌ من الخَبَلِ أو مَسٌّ من الخَبَل (٨)
أمَرَّتِ البِئرُ واغْوَرَّتْ لِمَجَّتِه * فيها وأعمى بصيرَ العَيْنِ بالتَّفَل (٩)

---

(١) الزور : الزائر؛ ويستعمل هذا اللفظ في الواحد وغيره بلفظ واحد، أي يوم جاءك الزائرون بالزوراء : موضع بالمدينة ؛ وهو المكان الذي نبع فيه الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم فتوضأ جميع أصحابه ، وصدروا بعد الورود ، واليمن : البركة . (٢) الضمير في أناملها لليد الشريفة ، والوشل : القليل من الماء . (٣) السمل : القليل من الماء يبقى في أسفل الإناء .

(٤) تلهم : صرعهم، والحين بالفتح : الهلاك . (٥) الرجس : القذر، وهو مسيلمة الكذاب ، الغي : العجز والانقطاع عند الكلام، وضد الفصاحة ، والغي : الضلال ، ويطل : من طال امتد ، أو استظهر على القرآن ، أو : يطل من أطال أتى بطائل . (٦) مشبج : مضطرب فاسد ، ملجلج : متردد في الكلام غير مفصح ، الزرى : الحقير ، والزور : الكذب ، والخطل : المنطق الفاحش المضطرب . (٧) يمج : يطرحه ويلقيه . (٨) الورهاء : المرأة الحمقاء تتكلم بما لا يفهم ، شذبه : فرقه وقطعه ، الخبل بسكون الباء : الفساد ، والخبل بفتح الباء : الجنون .

(٩) أمرت : صارت ذات مرارة بعد العذوبة ، وغار ماؤها بمجته .

وأيبس الضَّرعَ منه شُؤْمُ راحتِه * من بعد إرسالِه بالرِّسْل مُنْهمِل (١)
برئتَ من دِينِ قومٍ لا قِوامَ لهم * عقولُهم من وَثاقِ الغَيِّ فى غُلَل (٢)
يستخبِرون خفِيَّ الغيبِ من حَجَرٍ * صَلْدٍ ويرجون غَوْثَ النصرِ من هُبَل (٣)
نالوا أذًى مِنك ـ لولا حِلْمُ خالقِهم * وحجّةُ الله بالإنذارِ لم تُنَل (٤)
واستضعفوا أهل دينِ الله فاصطبروا * لكل مُعْضِل خَطْبٍ فادِحٍ جَلَل (٥)
لاقى بِلالُ بلاءً من أُميَّة قد * أحلّه الصبرُ فيه أكرمَ النُّزُل
إذ أجهدوه بضَنْكِ الضَّنْكِ وهو على * شدائدِ الأَزْلِ ثَبْتُ الأَزْرِ لم يَزِل (٦)
ألقَوْهُ بَطْحًا برَمْضاءِ البِطاحِ وقد * عالوا عليه صُخُورا جَمَّةَ الثِّقَل (٧)
فوحَّدَ اللهَ إخلاصا وقد ظهرت * بظهرِه كُنُدُبِ الطَّلِّ فى الطَّلَل (٨)
إنْ قُدَّ ظَهْرُ وَلِيِّ الله مِن دُبُرٍ * قد قُدَّ قلبُ عدوِّ الله من قُبُل (٩)
نَفَرْتَ فى نَفَرٍ لم تَرْضَ أنفسُهم * إذ نافروا الرِّجْسَ إلّا القُدْسَ من نَفَل (١٠)

---

(١) الشؤم : نقيض اليمن ؛ والراحة : الكف . الرسل بالكسر : اللبن ، المنهمل : الفائض .

(٢) قوام الأمر : نظامه وعماده وملاكه ، والغلل جمع غلة : خرقة يشد بها فم الإبريق ، وفى شرح أبى شامة ؛ فى عقل جمع عقال : وهو الحبل الذى يعقل به البعير .

(٣) هبل : أعظم أصنام قريش فى الكعبة .

(٤) فى شرح أبى شامة : « وحجة الله بالإعذار » .

(٥) معضل : شديد ، فادح : يقال أمر فادح إذا أثقله وبهظه وعجز عنه . الجلل : العظيم .

(٦) أجهدوه : حملوه فوق طاقته من العذاب ، والضنك : الضيق ، وفى الشروح : بضنك الأسر وهو الصواب ، والأزل : الحبس والتضييق ، والأزر : القوة ، والثبت : ثابت القلب . وفى الأصول « شدائد الأزر بيت الأزل » وهو خطأ ، والتصويب من شرح أبى شامة .

(٧) بطحا : مبطوحا ، الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة بالشمس ، والبطاح : الأودية ، عالوا : أعلوا ، جمة : كثيرة .

(٨) الندوب : الآثار ، الطل : المطر الخفيف ، والطلل : ما شخص من آثار الديار على وجه الأرض .

(٩) قد : قطع بالتعذيب .

(١٠) نافروا الرجس : جانبوا الأوثان والشرك ، القدس : الجنة ، النفل : الغنيمة .

بأنفسٍ بُدِّلَتْ فى الخُلدِ إذ بَذَلَت * عن صِدقِ بَذْلٍ ببَدْرٍ أكرمَ البَدَلِ
قالوا : محمد قد حلّتْ كتائبُه * كالأُسْدِ تَزْأَرُ فى أنيابِها العُصُلِ (١)
فويل مكّة مِن آثارِ وَطْأَتِهِ * وويل أُمِّ قُرَيْشٍ مِن جَوَى الهَبَلِ (٢)
فجُدْتَ عفوا بفضل العفوِ منك ولم * تُلِمْ ولا بالِمِ اللَّوْمِ والعَذَلِ
أضربتَ بالصَّفْحِ صفحا عن طَوائلِهم * طَوْلا أطال مَقيلَ القَوْمِ فى المُقَلِ (٣) ٥
رحمتَ واشِجَ أرحامٍ أُتيحَ لها * تحت الوَشيجِ نَشيجَ الرَّوْعِ والوَجَلِ (٤)
عاذوا بِظِلِّ كريمِ العفوِ ذى لَطَفٍ * مُبارِكِ الوجهِ بالتوفيقِ مُشْتَمِلِ (٥) ١٢٩/١٦
أحْبِبْ بخَيْلٍ من التَّكْوينِ قد جُنِبَتْ * بالجانبِ عن جَنَابِ الحقِّ مُعْتَزِلِ (٦)
أَعْمَيْتَ جَيْشا بِكَفٍّ من حَصًى فجَثَوا * وعُطِّلوا عن حَراكِ النَّقْلِ بالنَّقَلِ (٧)
ودعوةٍ بفِناءِ البَيْتِ صادقةٍ * غدا أُميَّةُ منها شَرَّ مُنْخَزِلِ (٨) ١٠

(١) الكتائب جمع كتيبة : طائفة من الجند ، تزأر : تصيح فى غضب ، العصل : الشديدة .

(٢) الجوى : الحزن . الهبل : الثكل . (٣) الصفح : الإعراض ، صفحا : جانبا ، طوائلهم جمع طائلة : العداوة ، طولا : منا وتفضلا ، المقيل : النوم فى القائلة ، وهى وقت الهاجرة ، المقل جمع مقلة : الحدقة ، والمراد العين ، أى صفحك منحهم راحة النوم .

(٤) واشج أرحام : الرحم المشتبكة ، أتيح : تهيأ ، الوشيج : اشتباك القرابة ، النشيج : الغصة بالبكاء فى الحلق من غير انتحاب ، الروع : الفزع ، الوجل : الخوف . (٥) عاذوا : التجئوا واعتصموا ، لطف : رفق ، مبارك الوجه : أى ثبت فيه الخير الإلهى ، وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام . ١٥

(٦) هكذا ترتيب الأبيات فى الأصول ، وهذا البيت بعد قوله : بيض من العون ... فى ترتيب أبى شامة إلى قوله : من كل مهتصر... وترتيب أبى شامة هو المناسب . من التكوين : تكوين الله لها ، جنبت : قيدت ، الجناب : الفناء ، المعنى : قيدت هذه الخيل لناحية أهل الكفر المعتزلين للحق .

(٧) جثا : قعد على ركبتيه ، والنقل بالتحريك : الحجارة ، أى رماهم عليه السلام بحصى فنزل عليهم حجارة عطلت حركتهم . (٨) فناء البيت : السعة التى أمامه ، والمراد البيت الحرام ، انخزل : انقطع ، أمية : هو أمية ابن خلف الجمحى .

غادرتَ جهلَ أبى جهل بمَجْهَلة * وشاب شَيْبَةُ قبل الموت من وَجَل (١)
وعُتْبَـــةُ الشَّرِّ لم يُعْتِب فتعطِفَـه * منك العواطف قبل الفَوْتِ فى مهل (٢)
وعُقْبَةُ الغُمْرُ عقباه لِشِـــقْوَتِه * قد ظَلَّ مِن غَمَراتِ الغَىِّ فى ظُلَل (٣)
وكُلُّ أشْوَسَ عاتِى القلبِ مُنْقَلِبٍ * جعلته بقَلِيبِ البِـئْرِ كالجُعَـــل (٤)
وجاثِمٍ بِمُثـارِ النَّقْـعِ مُشْـــتَعِلٍ * بجاحِمٍ من أُوَارِ النـارِ مُشْتَعِل (٥)
عَقَدْتَ بالخِزْى فى عِطْفَىْ مُقَلِّدِهم * طَوْقَ الحَمـامةِ باقٍ غير منتقِـل (٦)
أمسى خليـلَ صَغارٍ بعـد نَخْوَتِه * بالأمسِ فى خُيَلاءِ الخَيْلِ والخَوَل (٧)
دامٍ يُدِيمُ زَفِـيرا فى جَوانِحِـــه * جُنْحٌ من الشَّكِّ لم يَجْنَح ولم يَمِل (٨)
يُقاد فى القِدِّ خَنْقا مُشْرَبا حَنَقـا * يمشى به الذُّعْرُ مشى الشارِبِ الثَّمِل (٩)

---

(١) غادرت : تركت ، مجهلة : أمر حمله على الجهل .

(٢) فى الشرح « قبل الحين » : وهو الهلاك ، ومهل : رفق .

(٣) الغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور ، غمرات : شدائد ، الغى : الضلال ، ظلل : جمع ظلة .

(٤) الشوس : النظر بمؤخر العين فى تكبر وغيظ وحقد ، أو رفع الرأس تكبرا ، العاتى : الذى بلغ الغاية فى القسوة ، المنقلب : المنصرف ، أى عن الحق ، القليب : البئر ، والإضافة للبيان ، الجعل كصرد : دويبة سوداء تكون فى المواضع الندية .

(٥) جاثم : جالس على ركبتيه ، النقع : الغبار ، الجاحم : الجمر الشديد الاشتعال ، الأوار : اللهب ، وفى الشرح : « أوار النكل » .

(٦) الخزى : الذل والفضيحة ، عطفا الإنسان : جانباه من لدن رأسه إلى وركه . ومقلدهم : الذى يقتدون به ، طوق الحمامة : ما استدار بعنقها ، أى طوقا كطوق الحمامة .

(٧) الخليل : الصديق ، الصغار : الذل والهوان ، النخوة : العظمة والتكبر ، الخيلاء : الكبر والإعجاب ، الخول : الخدم والحشم .

(٨) دام : داميا أى جريح يسيل دمه ، يديم : من الدوام ، والزفير : تنفس الصعداء ، والجوانح : الأضلاع ، والجنح : الظلمة ، لم يجنح : لم يمل .

(٩) القد : السير ، خنقا : مخنوقا ، مشربا : أدخل فيه حتى خالطه ، الحنق : الغيظ ، الذعر : الفزع ، الثمل : السكران ، أى يتمايل فى مشيه خوفا .

أوصالُه من صَلِيل الغُلِّ فى عِلَلِ * وقلبه من غَلِيل الغلّ فى غُلَلِ (١)
يَظَلّ يَحْجُل ساجِى الطرْفِ خافِضَه * بِمَسْكَة الحجْل لا من مَسْكَة الحجَلِ (٢)
أرَحْتَ بالسيف ظهر الأرض من نَفَرٍ * أزحْتَ بالصدق منهم كاذِب العلَلِ (٣)
تركتَ بالكفر صَدْعا غير مُلْتَئِم * وآبَ منك بقَرْحٍ غير مُنْدَمِلِ (٤)
وأفْلَتَ السيفُ منهم كلَّ ذى أَسَفٍ * على الحِمامِ حَماه آجِلُ الأجَلِ (٥)
قد أعتقته عِتاق الخيل وهو يرى * به إلى رِقّ موتٍ رِقّة الغَزَلِ (٦)
فكم بمكة من باكٍ وباكيةٍ * بفَيْض سَجْلٍ من الآماقِ مُنْسَجِلِ (٧)
وكاسِف البالِ بالِى الصبر جُدْتَ له * بِوابِلٍ من وَبالِ الخِزْيِ مُتّصِلِ (٨)
فؤاده من سعِير الغيْظ فى غُلَلٍ * وعينه من غزِير الدمع فى غَلَلِ (٩)

(١) أوصاله : أعضاؤه ومفاصله ، الغل : القيد ، العلل جمع علة : المرض ، والغل بالكسر : الحقد ، وغليه حرارته والتهابه . الغلل : جمع غلة وهى مثل الغليل .

(٢) يحجل : يقفز فى الحجل وهو القيد ، ساجى : ساكن ، الطرف : العين ، المسكة : الإمساك . الحجل : الحجال ، وهى قباب العروس تزين بالستور الواحد حجلة ؛ يقول : إنما سجا طرفه من ذلة الأسر ، لا كما تسجو ألحاظ النساء من لزوم الحجاب ، وإمساكهن فى الحجال .

(٣) أزحت : أزلت وأذهبت ، العلل : الأعذار . (٤) بالكفر : فى الكفر أو فى أهله ، صدعا : شقا ، ملتئم : مجتمع ، آب : رجع ، والقرح : الجرح ، والاندمال : البرء .

(٥) أفلت السيف حملهم السيف على الهرب ، الأسف : الحزن ، الحمام : الموت ، حماه : منعه ، الآجل : المتأخر ، الأجل : أمد العمر . (٦) أعتقته : أنجته ، عتاق الخيل : جيادها ، الرق : العبودية ، والرقة : اللطافة ، والغزل : مداعبة النساء ومغازلتهن .

(٧) السجل : الدلو العظيمة المملوءة ماء ، الآماق : أطراف الأعين التى يخرج منها الدمع ، منسجل : منصب . (٨) كاسف البال : متغير الحال سيئها ، بلى الصبر : فنى ، الوابل : الشديد الانصباب ، وبال الخزى : مضرته وأذاه وثقله ، والخزى : الهلاك . وفى الجود تهكم ؛ كقوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » . (٩) الفؤاد : القلب ، السعير : الاشتعال ، الغيظ : الغضب ، الغلل بالضم جمع غلة : الحرارة فى الصدر من الحزن أو العطش ، والغلل بالفتح : الماء بين الشجر ، والماء الذى ليس له جرى .

قد أسعرت منه صدرا غير مُصْطبِرِ * وحَمَّلتْ منـــه قلبا غـير مُحْتَمِل (١)
ويومَ مكة إذ أشْرَفْتَ فى أُمَمٍ * يضيق عنها فِجاج الوَعْرِ والسَّهَل (٢)
خَوافِق ضاق ذَرْعُ الخافِقَيْن بها * فى قاتِم من عَجاج الخيـل والإبل (٣)
وجَحْفَل قَذَفَ الأرجاءِ ذِى لَجَبٍ * عَرَمْرَم كَزُهاءِ الليـــلِ مُنْسَدِل (٤)
وأنت ـ صلى عليك الله ـ تَقْدُمُهم * فى بَهْوِ إشراقِ نورٍ منـك مُكْتَمِل (٥)
يُنـير فوقَ أغَرِّ الوجهِ مُنْتَجَب * متوّج بعـزيز النصر مُقْتَبِـــل (٦)
تسمُو أمامَ جنـــودِ اللهِ مُرْتَدِيا * ثَوْبَ الوَقارِ لأمر الله ممتثِـــل
خشعتَ تحت لِواءِ العزِّ حين سمتْ * بك المهابةُ فِعلَ الخاضِعِ الوَجِل (٧)
وقـد تَبـاشر أملاكُ السماء بمـا * مُلِّكتَ إذ نِلتَ منـه غاية الأمل
والأرض تَرْجُف من زَهْوٍ ومن فَرَقٍ * والجوُّ يَزْهَر إشراقا من الجَـذَل (٨)
والخيل تختال مَيْـــلا فى أعِنَّتِهـا * والعِيسُ تَنْثال رَهْوا من ثُنَى الجُدُلِ (٩)

(١) فى رواية : أشعرت بالمعجمة. (٢) فى الشرح : أشرفت، وفى الأصول : أشرقت، الفجاج : الطرق الواسعة بين الجبال ، وفى الشرح الوعث ، وهـو المكان اللين تغوص فيه الأقدام ، والسهل بفتح الهاء للضرورة . (٣) خوافق : أى ألوية وبنـود ، بالكسر بدل من الأمم فى البيت السابق ، أو بالضم ، وفى الأصـول : حوافر ، قال الشارح : تصحيف لأنه أراد المجانسة ، والخافقان : أفقـا المشرق والمغرب : أى ضاق وسعهما بها ، القاتم : المغبر الأسود .

(٤) الجحفل : الجيش العظيم ، قذف : متباعد ، الأرجاء : النواحى ، اللجب : اشتباك الأصوات ، عرمرم : كثـير ، زهاء : قـدر ، فى الشرح : « السـيل منسجل » . (٥) البهـو : البناء المقدّم أمام البيوت . (٦) الأغر : الأبيض المنير ، المنتجب : المنتخب .

(٧) فى الشرح : « بهاء العز » : وهو حسنه وجماله ، سمت : علت . فى نسخة : « الخائف الوجل » .

(٨) ترجف : تضطرب ، الزهو : خفة الطرب ، والفرق : الفزع ، والجذل : الفرح والسرور .

(٩) تختال : تتبختر ، العيس : الإبل ، تنثال : تنصب من كل جهة ، الرهو : ضرب من السير ، الجدل جمع جديل : الزمام ، فى شرح أبى شامة : « زهوا » بدل « ميلا » .

لولا الذى خَطَّتِ الأقلام من قَدَرٍ * وسابِقٍ من قَضاءٍ غيرِ ذى حوَلِ

أهَلَّ تَهْلانُ بالتهليلِ من طَرَبٍ * وذابَ يَذْبُلُ تكبيرا من الذُّبُلِ (١)

الملك لله هـذا عِزٌّ من عُقِدت * له النبوّة فوق العـرش فى الأزَلِ

شَعَبْتَ صَدْعَ قريشٍ بعدما قَذَفَتْ * بهم شَعُوبُ شِعابِ السَّهْلِ والقُلَلِ (٢)

مِن كل مُهْتَصِرٍ لله منتصِرٍ * بالسيف مُخْتَصِرٍ بالرُّمْحِ معتَقِـلِ (٣)

يمشى إلى الموت عالِى الكعبِ معتقِلا * أظْمَى الكُعُوب كمشى الكاعِبِ الفُضُلِ (٤)

قد قاتلوا دونك الأقيال عن جَلَدٍ * وجالَدوا بجِـلاء البِيضِ والجَدَلِ (٥)

وصلتهم وقطعتَ الأقربين معًـا * فى الله لولاه لم تَقْطع ولم تَصِـلِ

وجاء جِبريل فى جُنـدٍ لهم عُدَدٍ * لم يبتـذِلها أكُفّ الخلقِ بالعمَلِ

بِيضٌ من العَوْنِ لم تُسْتَلَّ من غُمُدٍ * خيلٌ من الكَوْنِ لم تُسْتَنّ فى طِيَلِ (٦)

١٣٠ / ١٦

(١) تهلان و يذبل جبلان، والذبل: الرماح الذوابل، فى الشرح: * وذاب يذبل تهليلا ... * فالتهليل أولا: لا إله إلا الله، وثانيا: الجبن والفـزع. (٢) شعبت: جمعت، وهو من الأضداد، الصدع: الشق، شعوب: من أسماء الموت، القلل: أعالى الجبال.

(٣) هذا البيت والخمسة الأبيات التى بعده المناسب كما فى شرح أبى شامة أن تكون قبل قوله:

بأنفس بذلت فى الخلد إذ بذلت * عن صـدق بذل يبدر أكرم البدل

ومهتصر: أى كاسر للأقران، فى شرح أبى شامة: «بالبيض مختصر بالسمر معتقل» اختصر الشىء: مسكه بيده كأنما يمس خصره، والسمر: الرماح، المعتقل: الذى جعل رمحه بين ساقه وركابه.

(٤) عالى الكعب: وصف بالشرف والظفر، أظمى الكعوب: أسمر الرماح، أو الكعوب الظمأى والكاعب: الجارية الناهد، الفضـل: المتفضلة فى ثوب واحد من غير قناع، والوجه أن الفضـل هنا وصف لمشى الكاعب لا لها. (٥) الأقيال: الملوك، وفى رواية «الأقتال»: الأعداء، وعليها الشرح، الجلد: الصبر، الجلاد: المضاربة، وفى الشرح «جادلوا» خاصموا، بجلاء البيض: كذا فى الأصول، وفى الشرح بجلاد البيض: أى جمعوا بين حجة اللسان، والمضاربة بالسيوف.

(٦) بيض: سيوف، من العون: من عون الله، الكون: قوله سبحانه: كن فكانت، لم تستن: لم تمرح، فى طيل: فى حبل، سمى بذلك لأن الدابة تطول فيه وتمتد فى المرعى.

أزكى البرية أخلاقا وأطهرها * وأكثر الناس صفحا عن ذوى الزلل
زان الخشوع وقار منه فى خفر * أرق من خفر العذراء فى الكلل (١)
وطفت فى البيت محبورا وطاف به * من كان عنه قبيل الفتح فى شغل
والكفر فى ظلمات الرجس مرتكس * ثاو بمنزلة البهموت من زحل (٢)
حجزت بالأمن أقطار الحجاز معا * وملت بالخوف عن خيف وعن ملل (٣)
وحل أمن ويمن منك فى يمن * لما أجابت إلى الإيمان فى عجل
وأصبح الدين قد حفت جوانبه * بعزة النصر واستعلى على الملل (٤)
قد طاع منحرف منهم لمعترف * وانقاد منعدل منهم لمعتدل
أحببت نخلة أهل الحق فى الخلل * وعز دولته الغراء فى الدول
أم اليمامة يوم منه مصطلم * وحل بالشام شؤم غير مرتحل (٥)
تعرقت منه أعراق العراق ولم * يترك من الترك عظما غير منتثل (٦)

(١) خفر : حياء، الكلل جمع كلة : الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البعوض .

(٢) الرجس : القذر، وفى نسخة الشرح : «الخزى» ، الركس : قلب الشيء على رأسه ورد أوله على آخره، ثاو : مقيم، البهموت : الحوت الذى يزعمون أنه يحمل الثور الحامل للأرض، وزحل : أعلى النجوم السيارة، يريد أن الكفر فى غاية السفل .

(٣) حجزت : منعت ، وملت : نحيت وأذهبت، والخيف : منى، وخيف بنى كنانة الذى نزل فيه النبى صلى الله عليه وسلم عام حجه ، وفى نسخة ج « حيف » بدل « خوف » والحيف الجور والظلم ، والخوف أحسن ، وملل : موضع بين مكة والمدينة، وتنكير الخيف مع علميته للضرورة .

(٤) فى الشرح : « واستولى على الملل » .

(٥) أم : قصد ، مصطلم : مستأصل بالهلاك ، يشير إلى القضاء على مسيلمة الكذاب وقومه . والشؤم : نقيض اليمن ، أى لازمها الشؤم حتى قضى على ممالكها ، وعمها الإسلام .

(٦) تعرقت : أخذ ما عليها من اللحم ، الأعراق جمع عرق بالفتح : العظم ، وهذا مثل ، إشارة إلى استباحة الإسلام لكنوزها وممالكها، منتثل : مستخرج ، من انتثلت البئر إذا استخرجت ترابها .

لم يبق للفرس ليث غير مفترس * ولا من الحبش جيش غير منجفل (١)
ولا من الصين صون غير مبتذل * ولا من الروم مرمى غير متضل (٢)
ولا من النوب جذم غير منجذم * ولا من الزنج جذل غير منجذل (٣)
ونيل بالسيف سيف النيل واتصلت * دعوى الجنود فكل بالجلاد صلى (٤)
وسل بالغرب غرب السيف إذ شرقت * بالشرق قبل صدور البيض والأسل (٥)
وعاذ كل عدو عز جانبه * قد عاذ منك ببذل منه مبتذل (٦)
بذمة الله والإيمان متصل * أو من شبا النصل بالأموال متصل (٧)
يا صفوة الله قد صافيت فيك صفا * صفو الوداد بلا شوب ولا دخل (٨)
ألست أكرم من يمشي على قدم * من البرية فوق السهل والجبل
وأزلف الخلق عند الله منزلة * إذ قيل في مشهد الأشهاد والرسل
قم يا محمد فاشفع في العباد وقل * تسمع وسل تعط واشفع عائدا وسل
والكوثر الحوض يروي الناس من ظمأ * برح وينقع منه لاعج الغلل (٩)

---

(١) انجفل : انهزم . (٢) مبتذل : ممتهن ، ومتضل : مرتمى ، يقال : تناضلوا تراموا بالنبال .

(٣) الجذم : الأصل ، منجذم : منقطع ، والجذل بمعجمة : الأصل أيضا ، منجذل : منقطع .

(٤) سيف : شاطئ . النيل : نهر مصر ، والجلاد : المضاربة ، وأشار إلى أن الأقطار التي ذكرها فتحت بالسيف وعمها الإسلام . (٥) الغرب : المغرب ، غرب السيف : حده ، شرقت : غصت ، البيض : السيوف ، الأسل : الرماح ؛ يريد أن المسلمين لما فرغوا من فتح بلاد الشرق ورويت منها سيوفهم ورماحهم حتى شرقت بدماء أهل الشرك قصدوا نحو المغرب ففتحوا بلاده .

(٦) عاد : صار ، وعاذ : تعوذ واستجار . (٧) الذمة : الأمان ، أي ما بذله لنجاته من القتل إما إيمان بالله وإما جزية ، وشبا النصل : حده وطرفه ، والنصل : السيف .

(٨) صافيت فيك : في زائدة ، أي صافيتك ، صفاء بالمد ؛ قصره للضرورة ، والشوب : الخلط والدخل : الدغل والفساد . (٩) برح : شديد ، ينقع : يسكن ، لاعج : شديد الحرارة ، الغلل جمع غلة : شدة العطش .

أصفى من الثلج إشراقا مذاقتُـه * أحلى من اللبن المضروب بالعسل
نَحلتُـــك الوُدَّ عَلِّى إذ نحلتكه * أُحْبَى بِفضلِك منه أفضلَ النِّحلِ (١)
فما لِجلدِى بِنَضْجِ النـار من جَلَدٍ * ولا لِقلبِى بِهَوْلِ الحشرِ من قِبَـلِ
يا خالق الخلقِ لا تُخْلِق بما أجترمت * يداى وجهِى مِن حُوبٍ ومن زَلِلِ (٢)
وأصحبْ وصَلِّ وواصِلْ كلَّ صالِحةٍ * على صَفِيِّك فى الإصباحِ والأُصُلِ

صلى الله عليه وسلم

١٣١/١٦

وقـد آن أن نأخذ فى ذكر أخبار وفاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم، ونبدأ من ذلك بمـا أنزل عليه عند آقتراب أجله، ثم نذكر آبتداء وجعه والحوادث التى آتفقت فى أثناء مرضه إلى حين وفاته صلى الله عليه وسلم.

ذكر ما أنزِل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

عند آقتراب أجله، وما كان يقوله ممـا آستُدِل به على آقترابه

كان ممـا آستدِل به على آقتراب أجل رسـول الله صلى الله عليه وسلم، نزول سورة الفتح، وتتابع الوحى، وتكرار عرضِ القرآن على جبريل، وآستغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل البقيع والشهداء. روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل عن قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْـحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا (٣)﴾ فقـال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمِرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا الله وفتح علينا. وقال بعضهم: فتح المدائن والقصور. وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، قال عمر: كذلك تقول يآبن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو

(١) نحل: أعطى، والنحلة العطية، حباه: أعطاه، فى الشرح: «أحبى بحبك».
(٢) خلق: بلى، الحوب: الذنب. (٣) آية ١، ٢ سورة النصر.

أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له ؛ قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وذاك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١) فقال عمر رضى الله عنه : ما أعلم منها إلا ما تقول . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلّى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلا يقول فيها : « سبحانك ربّنا وبحمدك اللهم اغفر لى » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ داعٍ من الله ووداعٌ من الدنيا . وعنه رضى الله عنه قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فقال : « إنه نُعيت إلىّ نفسي » قالت : فبكيتُ ، فقال : « لا تبكى فإنك أوّل أهلى بى لحوقا » فضحكتُ . وروى محمد بن سعد بسنده إلى أنس بن مالك : أن الله تبارك وتعالى تابع الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته حتى توفّى ، وأكثر ما كان الوحى فى يوم توفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى ابن سعد أيضا بسنده إلى عِكرمة قال قال العباس : لأعلمنّ بقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ، فقال له : يا رسول الله ، لو اتخذت عرشا فإن الناس قد آذوك ، قال : « والله لا أزال بين ظهرانيهم ينازعونى ردائى ويصيبنى غُبارهم حتى يكون الله يريحنى منهم » قال العباس : فعرفنا أن بقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا قليل . وعن واثِلة بن الأسقع قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أتزعمون أنى من آخركم وفاة ، ألا وإنى من أوّلكم وفاة ، وتتبعونى أفنادا (٢) يُهلك بعضُكم بعضا » . وعن أبى صالح قال : كان جبريل يعرض القرآن كل سنة مرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان العام الذى

(١) آية ٣ سورة النصر .

(٢) أفنادا : أى جماعات متفرقين قوما بعد قوم ، واحدهم فند . (النهاية)

قُبِض فيه عرضه عليه مرتين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف فى شهر رمضان العشر الأواخر ، فلما كانت السنة التى قبض فيها اعتكف عشرين يوما . وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم نحوه .

ذكر استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل بَقيع الغَرْقَد[1] والشُّهداء، وما روى من تخييره بين البقاء ولقاء الله تعالى ، واختياره لقاء ربه عز وجل

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فلبس ثيابه ثم خرج ، فأمرت جاريتى بَرِيرَة فتبعته، حتى إذا جاء البقيعَ وقف فى أدناه ما شاء الله أن يقف، ثم انصرف فسبقته بَرِيرَة فأخبرتنى فلم أذكر له شيئا حتى أصبح، ثم ذكرت ذلك له فقال : « إنى بُعثت لأهل البقيع لأصلى عليهم » . وعنها رضى الله عنها قالت : افتقدت النبىّ صلى الله عليه وسلم من الليل فتبعته فإذا هو بالبقيع فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم لنا فَرَطٌ[2]، وإنا بكم لاحقون ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تَفْتِنَّا بعدهم » قالت : ثم التفت إلىّ فقال : « وَيْحها لو تستطيع ما فَعلتْ » . وعنها رضى الله عنها قالت: وَثَب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مضجعه من جوف الليل ، فقلت : إلى أين بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ قال : « أمرت أن أستغفر لأهل البقيع » قالت : فخرج وخرج معه مولاه أبو رافع ، وكان أبو رافع يحدّث قال : استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم طويلا ثم انصرف ، وجعل يقول : « يا أبا رافع إنى خُيِّرت بين خزائن

١٣٢
١٦

(١) البقيع فى الأصل : المكان المتسع الذى فيه شجر، والغرقد : شجر عظيم كان ينبت فى المكان الذى فى المدينة المنورة فزال فسمى به .

(٢) الفرط فى الأصل : مقدّم القوم ليرتاد لهم الماء ويهيئ لهم وسائله .

الدنيا والخلد ثم الجنة، وبين لقاء ربى والجنة فآخترت لقاء ربى». وعن أبى مُوَيْهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل: «يا أبا مُوَيْهبة إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فآنطلق معى» فخرج وخرجت معه حتى جاء البقيع فآستغفر لأهله طويلا، ثم قال: «ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يَتْبع بعضها بعضا، يَتْبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى» ثم أقبل علىّ فقال: «يا أبا مُوَيْهبة إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة» فقلت: بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فقال: «لا والله يا أبا مُوَيْهبة لقد آخترت لقاء ربى والجنة» ثم آستغفر لأهل البقيع وآنصرف. والجمع بين هذه الأحاديث كلها غير مناف؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما آستغفر لأهل البقيع ليالى، ويؤيد هذا ويَعْضُده ما رواه عطاء بن يَسار عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كانت ليلتها منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أتانا وإياكم ما توعدون، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، اللهم آغفر لأهل بَقيع الغَرْقَد». وعن عطاء بن يَسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتِى فقيل له: آذهب فصَلِّ على أهل البقيع، ففعل ذلك ثم رجع فَرقَد، فقيل له آذهب فصلِّ على الشهداء، فذهب إلى أُحُد فصلى على قتلى أُحُد، فرجع معصوب الرأس، فكان بُدوّ الوجع الذى مات فيه صلى الله عليه وسلم.

وعن عُقبة بن عامر الجُهَنىّ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أُحُد بعد ثمان سنين كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: «إنى بين أيديكم فَرَط وأنا عليكم شهيد، وإنّ موعدكم الحوض، وإنى لأنظر إليه وأنا فى مقامى هذا، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تَنافسوها».

ذكر ابتداء وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم
واستئذانه نساءه أن يمرض فى بيت عائشة رضى الله عنها

كان ابتداء وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الأربعاء، قيل: لإحدى عشرة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة. وقيل: لليلة بقيت من صفر.

٥ روى عن ابن شهاب، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود — دخل حديث أحدهما فى حديث الآخر — عن عائشة رضى الله عنها قالت: بدا برسول الله صلى الله عليه وسلم شَكْوُه الذى تُوفِّى فيه وهو فى بيت ميمونة، فخرج فى يومه ذلك حتى دخل علىّ، قال ابن مسعود عنها: رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع فوجدنى وأنا أجِد صُداعا فى رأسى، وأنا أقول: وارأساه، فقال: «بل أنا يا عائشة

١٠ وارأساه» قالت ثم قال: «وما ضَرّكِ لو متّ قبلى فقمتُ عليك وكفّنتكِ وصليتُ عليكِ ودفنتكِ» قالت قلت: والله لكأنى بك لو قد فعلتَ ذلك لرجعتَ إلى بيتى فأعرستَ فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتام[1] به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعزّ[2] به وهو فى بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يُمرَّض فى بيتى فأذِنّ له، قالت: فخرج يمشى بين

١٥ رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر، عاصبٌ رأسه تَخُطّ قدماه حتى دخل بيتى، قال عبيد الله: فحدثت بهذا الحديث عبد الله بن عباس فقال: هل تدرى مَن الرجل الآخر؟ قال قلت: لا، قال: على بن أبى طالب قالت عائشة: ثم غُمِر[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتدّ به وجعه، فقال:

---

(١) تتام به: تتابع.

٢٠ (٢) استعز به: اشتد به المرض، وأشرف على الموت.

(٣) غمر: أغمى عليه.

« هَرِيقوا علىّ من سبع قِرَب من آبارٍ شَتَّى » وفى رواية : «لم تُحْلَل أوكِيَتُهنّ[1] لعلى أعهد إلى الناس » قالت : فأجلسناه فى مِخْضَب[2] لحفصة بنت عمر ، ثم طَفِقْنا نصبّ عليه من تلك القِرَب حتى جعل يشير إلينا بيده أن قد فعلتنّ ، ثم خرج إلى الناس وصلى بهم وخطبهم صلى الله عليه وسلم . ١٣٣/١٦

ذكر خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما أمر به من سدّ الأبواب التى تشرع إلى مسجده إلا باب أبى بكر الصديق ووصيته بالأنصار

روى عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه ، قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «إن الله خيّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله » فبكى أبو بكر فقلت فى نفسى : ما يُبْكِى هذا الشيخ أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا عن عبدٍ خُيِّر فاختار ؟ قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا به ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر لا تبك ، أيها الناس ، إنّ أَمَنَّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا من الناس خليلا كان أبو بكر ، ولكن أخوّة الإسلام ومودّته ، لا يبقين فى المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبى بكر» . وعن قُتيبة بن سعيد عن الليث بن سعد ، عن يحيى بن سعيد ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أعظم الناس علىّ منًّا فى صحبته وذات يده أبو بكر ، فأغلقوا هذه الأبواب الشارعة كلها فى المسجد إلا باب أبى بكر » قال قُتيبة : قال الليث بن سعد ، قال معاوية ابن صالح ، فقال ناس : أَغْلَقَ أبوابَنا وترك باب خليله ، فقال رسول الله صلى الله

(١) وأوكيتها جمع وكاء : رباط فم القربة . (٢) المخضب : إناء تغسل فيه الثياب .

عليه وسلم : « قد بلغنى الذى قلتم فى باب أبى بكر ، وإنى أرى على باب أبى بكر نورا، وأرى على أبوابكم ظلمة » رواه محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى . وروى بسنده إلى عكرمة عن ابن عباس قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه عاصبا رأسه فى خرقة ، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « إنه ليس أحد أمنّ علىّ فى نفسه وماله من أبى بكر بن أبى قحافة ، ولو كنتُ مُتّخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن خُلّة الإسلام أفضل ، سُدّوا عنى كلّ خَوْخَة فى هذا المسجد غير خَوْخة أبى بكر » وعن أبى الحويرث قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبواب تُسدّ إلا باب أبى بكر ، قال عمر: يا رسول الله ، دعنى أفتح كُوّة أنظر إليك حين تخرج إلى الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا » . وعن أبى البَدّاح بن عاصم بن عدىّ ، قال قال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ، ما بالك فتحت أبواب رجال إلى المسجد ، ومالك سددت أبواب رجال؟ فقال : «يا عباس ، ما فتحتُ عن أمرى ولا سددتُ عن أمرى » قالت عائشة رضى الله عنها فى حديثها : وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنصار ، فقال : « يا معشر المهاجرين ، إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار لا تزيد على هيئتها [التى هى عليها](1) اليوم ، هم عَيْبَتى(2) التى أويت إليها ، أكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » . ومن رواية : « احفظونى فيهم ، اقبلوا من مُحسنهم وتجاوزوا عن مُسيئهم » .

(1) الزيادة من ابن سعد ج ٢ ق ٢ ٤٢ وفى أ « هيئتهم » .

(2) عيبتى : أى خاصتى وأهل سرى ؛ أراد أنهم بطانته وموضع أمانته والذين يعتمد عليهم فى أموره .

ذكر ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وفيه

رُوى عن أبى أُمامة ، عن كعب بن مالك قال : إنّ أحدث عهدى بنبيّكم صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بخمس ، فسمعته [يقول](١) ويُحرِّك كفّه « إنه لم يكن نبىّ قبلى إلا وقد كان له من أمته خليل ، ألا وإنّ خليلى أبو بكر ، إنّ الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » . وعن أبى مُلَيْكة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه : « ادعوا إلىّ أبا بكر » فقالت عائشة : إن أبا بكر رجل يغلبه البكاء ، ولكن إن شئت دعونا لك ابن الخطاب ، قال : « ادعوا إلىّ أبا بكر » قالت : إن أبا بكر رَقّ ، ولكن إن شئت دعونا لك ابن الخطاب . فقال : « إنكنّ صواحب يوسف ، ادعوا إلىّ أبابكر وابنَه(٢) ، فليكتب(٣) أن يطمع فى أمر أبى بكر طامع أو يتمنّى متمنٍّ(٤) » ثم قال : « يأبى الله ذلك والمؤمنون ، يأبَى الله ذلك والمؤمنون » قالت عائشة : فأبى الله ذلك والمؤمنون ، فأبى الله ذلك والمؤمنون . وروى محمد بن سعد بسنده إلى عُروة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود ، والقاسم بن محمد ، كلهم يحدّث عن عائشة رضى الله عنها — دخل حديث بعضهم فى حديث بعض — قالت : بدئ برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت مَيْمُونة(٥) فدخل علىّ وأنا أقول : وارأساه ، فقال : « لو كان ذلك وأنا حىٌّ فأستغفر لكِ وأدعو لكِ وأكفِّنكِ وأدفنكِ » فقلت : واثكلاه ، فوالله إنك لتحبّ موتى ، ولو كان ذلك لظللت يومك مُعَرِّسا ببعض

١٣٤ ١٦

(١) الزيادة من ابن سعد جـ ٢ ق ٢ : ٢٤

(٢) فى شرح المواهب : هو عبد الرحمن .

(٣) فى شرح المواهب : « فأعهد أن يقول القائلون » .

(٤) أى أن تكون الخلافة لفلان أو لقوم غير أبى بكر .

(٥) عبارة الطبقات : « بدئ برسول الله فى وجعه فى بيت ميمونة ... ... الخ » .

أزواجك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أنا وارأساه لقد هممت — أو أردت — أن أرسل إلى أبيك و إلى أخيك فأقضى أمرى، وأعهد عهدى، فلا يطمع فى الأمر، طامع ولا يقول القائلون: أو يتمنى المتمنون» . وقال بعضهم فى حديثه: « ويأبى الله إلا أبا بكر » . وعن محمد بن جُبَيْر قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يذاكره فى الشيء، فقال: إن جئتُ فلم أجدك ؟ قال: « فأت أبا بكر» . وعن عاصم بن عمرو بن قَتادة ، قال : ابتاع النبي صلى الله عليه وسلم بعيرا من رجل إلى أجل فقال : يا رسول الله ، إن جئت فلم أجدك ؟ يعنى بعد الموت ، قال: «فأت أبا بكر» ، قال: فإن جئت فلم أجد أبا بكر، بعد الموت؟ قال : « فأت عمر » ، قال : فإن جئت فلم أجد عمر ؟ قال : « إن استطعت أن تموت إذا مات عمر فمت » .

ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلّى بالناس فى مرضه ، وخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كلّم به الناس ، وكم صلى أبو بكر بالناس صلاة ، وما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أئتم بأبى بكر رضى الله عنه

عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بلال يُؤذِنه بالصلاة فقال : « مُرُوا أبا بكر يصلّى بالناس » فقلت : يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أَسِيف ، وأنه متى ما يقوم مقامك لا يُسمِع الناس، فلو أمرتَ عمر، فقال : « مُرُوا أبا بكر يصلى بالناس » فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل أَسِيف، وأنه متى يقوم مقامك لا يُسمِع الناس، فلو أمرت عمر، فقال : « إنكنّ لأنتنّ صواحب يوسف، مُرُوا أبا بكر يصلى بالناس » فلما دخل أبو بكر

فى الصلاة وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه خِفة فقام يهادى بين[1] رجلين ، ورِجلاه تَخُطّان فى الأرض حتى دخل المسجد ، فلما سمع أبو بكر حِسَّه ذهب أبو بكر يتأخّر ، فأَوْمَأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى جلس عن يسار أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلى قائما ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى قاعدا ، يقتدى أبو بكر بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس يقتدون بصلاة أبى بكر . رواه البخارى فى صحيحه . و روى محمد ابن سعد بسنده عن عُبَيْد بن عُمَيْر الليثى نحوه . وقال : فلما فرغا من الصلاة قال أبو بكر : أى رسول الله ، أراك أصبحت بحمد الله صالحا ، وهذا يوم آبنة خارِجة — آمرأة لأبى بكر من الأنصار — فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مُصلّاه أو إلى جنب المنبر ، فحذّر الناس الفِتَن ، ثم نادى بأعلى صوته ، حتى إن صوته ليخرج من باب المسجد ، فقال : « إنى واللهِ لا يُمسك الناسُ علىّ بشىء ، لا أُحِلّ إلا ما أَحلّ الله فى كتابه ، ولا أحرِّم إلا ما حَرّم الله فى كتابه » ثم قال : « يا فاطمة بنت محمد و يا صفية عمة رسول الله آعملا لما عند الله فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئا » ثم قام من مجلسه ذلك ، فما آنتصف النهار حتى قبضه الله تعالى . وعن سعيد بن المسيّب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بنى عبد مَنَاف لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس ابن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا ، سَلُونى ما شئتم » . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود قال : دخلت على عائشة فقلت لها حدّثينى عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أصَلَّى الناسُ » ؟ فقلت :

(١) يهادى بين رجلين : أى يمشى بينهما معتمدا عليهما من ضعفه وتمايله .

لا ، هم ينتظرونك يا رسـول الله ، قال : « ضعوا لى ماء فى المِخْضَب » قالت : ففعلنا فآغتسل ثم ذهب لِيَنُوءَ[1] فأغمى عليه ثم أفاق ، فقال : « أَصَلَّى الناسُ » ؟ فقلت : لا ، هم ينتظرونك ، فقال : « ضعوا لى ماء فى المخضب » قالت : ففعلنا فذهب فآغتسل فقال : « أَصَلَّى الناسُ » ؟ قلت : لا ، هم ينتظرونك ، والناس عُكُوف فى المسجد ينتظرون رسـول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ، قالت : فأرسل رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى أبى بكر بأن يصلى بالناس ، فأتاه الرسول فقال : إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم يأمرك أن تصلّى بالناس ، فقال أبو بكر — وكان رجلا رقيقا — : يا عمر ، صلِّ بالناس ، فقال له عمر : أنت أحقّ بذلك ، فصلى أبو بكر تلك الأيام . ثم إن النبىّ صلى الله عليه وسلم وجد فى نفسه خِفّة فخرج بين رجلين أحدهما العباس ، فصلى الظهر وأبو بكر يصلّى بالناس ، قالت : فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه النبىّ صلى الله عليه وسـلم ألّا يتأخر ، وقال لهما : « أجلسانى إلى جنبه » فأجلساه إلى جنب أبى بكر فجعل أبو بكر يصلى ، وهو قائم بصلاة النبىّ صلى الله عليـه وسلم ، والناس يصلون بصلاة أبى بكر ، والنبىّ صلى الله عليه وسـلم قاعد ، قال عُبيد الله : فدخلت على عبـد الله بن عبـاس فقلت له : ألا أعرض عليك ما حدّثتنى به عائشة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هات ، فعرضتُ [حديثها][2] عليه فمـا أنكر منه شيئا غير أنه قال : سَمّت لك الرجل الذى كان مع العباس ؟ قلت : لا ، قال : هو علىّ بن أبى طالب .

١٣٥/١٦

وروى محمد بن سـعد ، عن محمد بن عمر ، عن عبـد الرحمن بن عبد العزيز ، وعبد العزيز بن محمد عن عمارة بن غَزِيّة عن محمد بن إبراهيم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض لأبى بكر : « صلِّ بالناس » فوجد رسولُ الله صلى الله

(١) ينوء : ينهض . (٢) الزيادة من صحيح مسلم .

عليه وسلم خِفّة فخرج وأبو بكر يصلّى بالناس، فلم يشعر حتى وضع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يده بين كتفيه، فنكص أبو بكر، وجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم عن يمينه، فصلّى أبو بكر وصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته، فلما انصرف قال: «لم يُقْبَض نبيّ قطّ حتى يَؤُمّه رجل من أمته». وروى نحوه عن أبي معشر، عن محمد ابن قيس. وعن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى وجعه إذا خف عنه ما يجد خرج فصلّى بالناس، وإذا وجد ثقله قال: «مُرُوا الناسَ فليصلّوا» فصلّى بهم ابن أبي قحافة يومًا الصبح فصلّى ركعة، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنبه فأتمّ بأبي بكر، فلما قضى أبو بكر الصلاة أتمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فاته. وعن أبي سعيد الخدرىّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى فى مرضه بصلاة أبي بكر ركعة من الصبح ثم قضى الركعة الباقية. قال الواقدى: ورأيت هذا الثَّبْتَ عند أصحابنا؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى خَلْف أبي بكر. وروى محمد بن سعد بسنده إلى عبد الله بن زَمْعَة بن الأسود قال: عُدْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى تُوفّى فيه، فجاءه بلال يُؤْذِنُه بالصلاة، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مُرِ الناسَ فليصلوا» قال عبد الله: فخرجت فلقيت ناسا لا أكلمهم، فلما لقيت عمر بن الخطاب لم أبغ مَنْ وَرَاءَه، وكان أبو بكر غائبا فقلت له: صلّ بالناس يا عمر، فقام عمر فى المقام وكان عمر رجلا مُجهِرا، فلما كبّر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته، فأخرج رأسه حتى أطلعه للناس من حجرته، فقال: «لا، لا، لا، ليصل بهم ابن أبي قحافة» قال: يقول ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مُغْضَبا، قال: فانصرف عمر فقال لعبد الله بن زَمْعَة: يا ابن أخى أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأمرنى؟ قال فقلت: لا، ولكنى لما رأيتك لم أبغ مَنْ وَرَاءَك، فقال عمر: ما كنت أظنّ حين أمرتنى

إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صلّيتُ بالناس، فقال عبد الله : لمّا لم أر أبا بكر رأيتك أحقّ من حضر بالصلاة . وعن عبد الله ابن عباس قال : حَضرت الصلاةُ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « مُرُوا أبا بكر يصلّى بالناس » فلما قام أبو بكر مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم آشتدّ بكاؤه وآفتتن، وآشتدّ بكاء من خَلْفه، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم، فلما حَضرت الصلاةُ جاء المؤذّن إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : قولوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر رجلا يصلّى بالناس، فإن أبا بكر قد آفتتن من البكاء والناس خلفه، فقالت حفصة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم : مروا عمر يصلى بالناس حتى يرفع الله رسوله، قال : فذهب إلى عمر فصلّى بالناس، فلما سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم تكبيره قال : « من هذا الذى أسمع تكبيره » ؟ فقال له أزواجه : عمر بن الخطاب، وذكروا له ما قاله المؤذّن، وما قالت حفصة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكنّ لصواحبُ يوسف، قولوا لأبى بكر فليصلّ بالناس » قال : فلو لم يستخلفه ما أطاع له الناس . وعن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال : لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجعه إذا وجد خِفّة خرج، وإذا ثقل وجاءه المؤذّن قال : « مروا أبا بكر يصلى بالناس » فخرج من عنده يوما الآمر يأمر الناس يصلون وآبن أبى قحافة غائب، فصلى عمر بن الخطاب بالناس فلما كبّر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا، لا، أين آبن أبى قحافة » ؟ قال : فآنتقضت الصفوفُ وآنصرف عمر، قال : فما برحنا حتى طلع آبن أبى قُحافة وكان بالسُّنح[1] فتقدّم فصلّى بالناس . وعن أنس بن مالك : أن أبا بكر — رضى الله عنهما — كان يصلى بهم فى وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى تُوفِّى فيه، حتى إذا كان يوم الآثنين

١٣٦/١٦

(١) السنح : موضع قرب المدينة .

وهم صفوف فى الصلاة، كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم ستر الحجرة ينظر إلينا، وهو قائم كأنّ وجهه ورقة مصحف، ثم تبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا ونحن فى الصلاة من الفرح . قال : ونَكَصَ أبو بكر على عقبيه ، فأشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن أتموا صلاتكم » قال : ثم دخل وأرخى الستر، فتوفّى من يومه صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر، قال سألت أبا بكر بن عبد الله بن أبى سَبْرة : كم صلّى أبو بكر بالناس ؟ قال : صلى بهم سبع عشرة صلاة، قلت : من حدّثك ذلك؟ قال قال: حدّثنى أيوب بن عبد الرحمن ابن صَعْصَعة، عن عبّاد بن تميم ، عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : صلى بهم أبو بكر ذلك .

ذكر ما اتفق فى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم

خلاف ما ذكرناه ، من اللَّدُود الذى لُدّ به ، والكتاب الذى أراد أن يكتبه ، والوصية التى أمر بها ، والدنانير التى قسمها ، والسواك الذى استَنّ به صلى الله عليه وسلم .

فأمّا اللَّدُود[1] الذى لُدّ به صلى الله عليه وسلم وما قال فيه — رُوى عن أمّ سلمة رضى الله عنها قالت : تخوّفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات الجَنْب[2] وثَقُل فلَدَدْناه، فوجد خشونة اللَّدّ فأفاق، فقال : « ما صنعتم بى » ؟ قالوا : لَدَدْناك ، قال : «بماذا» ؟ قلنا : بالعُود الهِنْدى، وشىء من وَرْس وقَطَرات زيت، فقال : « من أمركم بهذا »؟ قالوا : أسماء بنت عُمَيس ؛ قال : « هذا طِبُّ أصابته بأرض الحبشة ، لا يبقى أحد فى البيت إلا الُتَدّ إلا ما كان من عمّ رسول الله

(١) اللدود : ما يسقاه المريض فى أحد شقى الفم .

(٢) ذات الجنب : علة صعبة ، وهى ورم حار يعرض للحجاب المستبطن للأضلاع .

صلى الله عليه وسلم » يعنى العباس، ثم قال : « ما الذى كنتم تخافون علىّ »؟ قالوا : ذات الجَنْب، قال : « ما كان الله ليسلطها علىّ » . وفى رواية عن أمّ بِشْر بن البَرَاء، قال : « ما كان الله ليسلطها على رسوله، إنها همزة من الشيطان، ولكنها من الأكلة التى أكلتُها أنا وابنك، هذا أوانُ قَطَعَتْ أَبْهَرِى »(١) . ومن حديث عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فجعل بعضهم يَلُدّ بعضا(٢) . وعن هشام قال : كانت أمّ سلمة وأسْمَاء بنت عُمَيْس هما لدّتاه، قال : فالْتَدّت يومئذ ميمونة وهى صائمة؛ لِقَسَم النبى صلى الله عليه وسلم، قال : وكان منه عقوبة لهم .

وأما الكتاب الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتبه ثم تركه لما وقع عنده من التنازع

فقد اختلفت الروايات فى هذا الحديث عن عبد الله بن عباس وغيره، فمن رواية سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أنه قال : اشتكى النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخميس فجعل — يعنى ابن عباس — يبكى ويقول : يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعه فقال : « ائتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تَضِلّوا(٣) بعده أبدا » قال فقال بعض من كان عنده : إنّ نبىّ الله هَجَر(٤)، قال فقيل له : ألا نأتيك بما طلبت ؟ قال : « أو بعد ماذا » ؟ فلم يَدْع به . ومن طريق آخر عن سليمان(٥) بن أبى مسلم عن سعيد بن جُبير قال : فتنازعوا ولا ينبغى عند نبىّ تنازع . فقالوا : ما شأنه أهَجَر ؟ استفهموه، فذهبوا

(١) الأبهر : عرق إذا انقطع مات صاحبه . (٢) كذا فى الأصل، وسند الحديث فى ابن سعد : « عن الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام » .

(٣) لا تضلوا : هو نفى وجزم بحذف النون لأنه بدل من جواب الأمر . ويروى : « لا تضلون » و « لن تضلوا » . (٤) هجر : اختلف كلامه بسبب المرض .

(٥) فى الأصول : « سلمان » والتصويب من الطبقات، وتهذيب التهذيب .

يعيدون عليه . فقال : « دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعوننى إليه » . قال : وأوصى بثلاث، قال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» وسكت عن الثالثة، فلا أدرى قالها[1] فنسيتها، أو سكت عنها عمدا؟ . ومن رواية طلحة بن مُصَرِّف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آيتونى بالكتف والدَّواة أكتب لكم كتابا لا تَضِلّوا بعده أبدا » . قال فقالوا : إنما يَهْجُر رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذه الروايات عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس رضى الله عنهما . وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود عن ٱبن عباس قال : لما حضرت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الوفاةُ، وفى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هَلُمَّ أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده» فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله . فاختلف أهل البيت وٱختصموا، فمنهم من يقول : قَرِّبوا يكتُبْ لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يقول ماقال عمر؛ فلما كثر اللَّغَط والٱختلاف وغُمِر[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قوموا عنى » . قال عبيد الله : فكان ٱبن عباس يقول : إن الرَّزِيّة كلّ الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من ٱختلافهم ولغطهم . وعن عِكرمة عن ٱبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى مرضه : « آيتونى بدواة وصحيفة أكتبْ لكم كتابا لن تَضِلُّوا بعده أبدا » . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من لفلانة وفلانة — من مدائن الروم — إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يموت حتى يفتتحها ، ولو مات لٱنتظرناه كما ٱنتظرت بنو إسرائيل موسى ؛

١٣٧/١٦

(١) ا : « أقالها » . (٢) غمر : أغمى عليه .

فقالت زينب زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم : ألا تسمعون للنبيّ صلى الله عليه وسلم يعهد إليكم ؟ فلَغطوا فقال : « قوموا » فلما قاموا قبض النبيّ صلى الله عليه وسلم مكانه . وعن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : لما كان فى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى توفّى فيه ، دعا بصحيفة ليكتب فيها لأمته كتابا لا يَضلون ولا يُضِلّون ، فكان فى البيت لَغَط وكلام ، وتكلم عمر بن الخطاب ، قال : فرفضه النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وعن محمد بن عمر الواقدىّ عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيننا وبين النساء حجاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغسلونى بسبع قِرب وأتونى بصحيفة ودواة أكتبْ لكم كتابا لن تَضِلُّوا بعده أبدا » فقال النسوة : آيتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحاجته . قال عمر فقلت : اسكتن فإنكن صواحبه إذا مرض عَصَرْتُنّ أعينكنّ ، وإذا صح أخذتن بعنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هُنّ خير منكم » .

هذا ما وقفنا عليه من الروايات المسندة فى هذا الحديث ، وقد تذرّعت به طائفة من الروافض ، وتكلموا فيه وطعنوا على من لغط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى امتنع من الكتابة .

وقد تكلم القاضى أبو الفضل عِياض بن موسى بن عِياض رحمه الله على هذا الحديث ، وذكر أقوال العلماء وما أبدَوه من الاعتذار عن عمر رضى الله عنه فيما قال ، فقال رحمه الله تعالى ، قال أئمتنا فى هذا الحديث : النبيّ صلى الله عليه وسلم غير معصوم من الأمراض ، وما يكون من عوارضها من شدّة وجع وغَشْى ونحوه ، مما يطرأ على جسمه ، معصوم أن يكون منه من القول أثناء ذلك

مايطعن فى معجزته، ويؤدّى إلى فساد فى شريعته، من هذيان أو آختلال فى كلام، وعلى هذا لا يصح ظاهر رواية من روى فى الحديث «هَجَر» إذ معناه هذى يقال: هَجَر هُجْرا إذا أفحش، وأهجر تعدية هجر، وإنما الأصح والأولى «أهجَر»؟ على طريق الإنكار على من قال لا نكتب، قال: وهكذا روايتنا فيه فى صحيح البخارى من رواية جميع الرواة فى حديث الزهرى ومحمد بن سلّام عن آبن عُيَيْنة، قال: وكذا ضبطه الأصيلى بخطه فى كتابه وغيره من هذه الطرق، وكذا رويناه عن مسلم فى حديث سفيان وعن غيره، قال: وقد تُحمل عليه رواية من رَواه هجر على حذف ألف الآستفهام، والتقدير: أهجر؟ أو أن يُحمَلَ قول القائل: «هَجَر» أو أهجَر دهشةً من قائل ذلك وحيرةً؛ لعظيم ما شاهد من حال الرسول صلى الله عليه وسلم وشدّةِ وجعه، وهول المقام الذى آختلف فيه عليه، والأمر الذى همّ بالكتاب فيه، حتى لم يضْبِط هذا القائل لفظه وأجرى الهجر مجرى شدّة الوجع؛ لأنه آعتقد أنه يجوز عليه الهجر، كما حملهم الإشفاق على حراسته، والله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ونحو هذا. وأما على رواية: «أَهُجْرًا»، وهى رواية أبى إسحاق المستملِى فى الصحيح، فى حديث آبن جُبير، عن ابن عباس من رواية قُتَيْبة، فقد يكون هذا راجعا إلى المختلفين عنده صلى الله عليه وسلم، ومخاطبةً لهم من بعضهم، أى جئتم بآختلافكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه هُجْرا ومنكرًا من القول! والهُجْر بضم الهاء الفحش فى المنطق.

١٣٨/١٦

وقد آختلف العلماء فى معنى هذا الحديث، وكيف آختلفوا بعد أمره لهم عليه السلام أن يأتوه بالكتاب، فقال بعضهم: أوامر النبىّ صلى الله عليه وسلم يفهم إيجابها من ندبها من إباحتها بقرائن، فلعل قد ظهر من قرائن قوله صلى الله عليه وسلم لبعضهم ما فهموا أنه لم يكن منه عَزْمَة، بل أمرٌ ردّه إلى آختيارهم، وبعضهم

لم يَفهم ذلك ، فقال : ٱستفهِموه ، فلما ٱختلفوا كَفَّ عنه إذ لم تكن عَزْمة ، ولِما رأوه من صواب رأى عمر رضى الله عنه . ثم هؤلاء قالوا : ويكون ٱمتناع عمر إمّا إشفاقا على النبيّ صلى الله عليه وسلم من تكليفه فى تلك الحال ، وإما إملاء الكتاب ، وأن يدخل عليه مشقة من ذلك كما قال : إنّ النبيّ ٱشتدّ به الوجع .

٥ وقيل : خشى عمر أن يكتب أمورا يعجزون عنها فيحصلون[1] فى الحَرَج بالمخالفة ، ورأى أن الأرفق بالأمة فى تلك الأمور سعة الٱجتهاد ، وحكم النّظر ، وطلب الصواب ، فيكون المصيبُ والمخطئ مأجورا ، وقد علم عمر تقرر الشرع وتأسيس الملّة ، وأن الله تعالى قال : ﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[2] وقوله صلى الله عليه وسلم : « أوصيكم بكتاب الله وعِتْرتى » . وقول عمر : حَسْبنا كتاب الله ، ردٌّ على من نازعه ،

١٠ لا على أمر النبى صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن عمر خشى تَطرّق المنافقين ، ومن فى قلبه مرض لِما كتب فى ذلك الكتاب فى الخلوة ، وأن يتقوّلوا فى ذلك الأقاويل كادّعاء الرافضة الوصية وغيرذلك . وقيل : إنه كان من النبى صلى الله عليه وسلم على طريق المشورة والٱختبار ، هل يتفقون على ذلك أم يختلفون ، فلما ٱختلفوا تركه . وقالت طائفة أخرى : إن معنى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان

١٥ مجيبا فى هذا الكتاب لما طلب منه لا أنه ٱبتداء بالأمر به ، بل ٱقتضاه منه بعض أصحابه ، فأجاب رغبتهم وكره ذلك غيرهم للعلل التى ذكرناها ، وٱستدل فى مثل هذه القضية بقول العباس لعلىّ : انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا كان الأمر فينا علِمناه ، وكراهة علىّ هذا وقوله : « والله لا أفعل » الحديث . وٱستدل بقوله : « دعونى فإن الذى أنا فيه[3] خير » أى الذى أنا فيه خير من إرسال

---

٢٠ (١) يحصلون : يقعون . (٢) آية ٣ سورة المائدة .

(٣) زيادة لفظ « خير » فى الحديث من كتاب الشفا وليست بالأصول .

الأمر وترككم، وكتابَ الله[1] . وأن تدَعونى مما طلبتم . وذُكر أن الذى طُلب كتابه[2] فى أمر الخلافة بعده وتعيين ذلك . هذا ما أورده فى معنى هذا الحديث . والله تعالى أعلم .

وأمّا ما وصّى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه

فقد رُوى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت « الصلاة، وما ملكت أيمانكم »، حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغرغر بها فى صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه . وعن أم سلمة نحوه . وعن كعب بن مالك قال : أغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم أفاق، فقال : « اللهَ اللهَ فيما ملكت أيمانكم ، ألبسوا ظهورهم، وأشبعوا بطونهم، وألينوا لهم القول » . وعن الزهرىّ عن عبيد الله بن عبد الله ابن عُتبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر عهده أوصى ألا يُترَك بأرض العرب دينان . وعن مالك بن أنس عن إسمعيل بن أبى حكيم ، عن عمر بن عبد العزيز قال : آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يَبقينّ دِينان بأرض العرب » . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة أنه كان آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بالرّهاويين الذين هم من أهل الرّهاء، قال: وأعطاهم من خَيْبر وجعل يقول : « لئن بقيتُ لا أدع بجزيرة العرب دِينين » . وعن علىّ بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم أنه قال: أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالداريّين و بالرّهاويّين

١٣٩/١٦

(١) كتاب الله : بالنصب مفعول معه ؛ أى مصاحبين بكتاب الله والتمسك به، فإنه حسبكم .

(٢) فى الشفا : « كتابته أمر الخلافة ... الخ » .

وبالدَّوْسيين خيرا . وعن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاث وهو يقول : « أَلَا لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظنّ » . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : نَعَى لنا نبينا وحبيبنا نفسَه قبل موته بشهر، بأبى هو وأمّى ونفسى له الفداء، فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت أمّنا عائشة وتشدد لنا فقال : « مرحبا بكم، حيّاكم[1] الله بالسلام، رحمكم الله، حفظكم الله، جَبَركم الله، رزقكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، آداكم[2] الله، وقاكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم ؛ وأستخلفه عليكم، وأحذركم الله إنى لكم منه نذير مبين ألّا تَعْلوا على الله فى عباده و بلاده فإنه قال لى ولكم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[3] ﴾ . وقال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ[4] ﴾ قلنا : يا رسول الله متى أجلك؟ قال : «دنا الفراق، والمنقلب إلى الله، و إلى جنة المأوى، و إلى سِدرة المنتهى، و إلى الرفيق الأعلى والكأس الأوفى والحظ والعيش المُهَنَّى » قلنا : يا رسول الله من يَغْسِلك ؟ قال : « رجال من أهلى الأدنى[5] فالأدنى» قلنا : يارسول الله ففيم نُكفِّنك ؟ قال: « فى ثيابى هذه إن شئتم أوفى ثياب مصر أو فى حُلّة يمانية » قال قلنا : يا رسول الله ، من يصلّى عليك ؟ و بكينا وبكى، فقال : « مهلا رحمكم الله وجزاكم عن نبيكم خيرا، إذا أنتم غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى هذا على شَفَة قبرى فى بيتى هذا، ثم آخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى علىّ حبيبى وخليلى جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت معه جنوده من الملائكة بأجمعهم ، ثم آدخلوا علىّ فَوْجًا فَوْجًا، فصلوا

(١) فى آبن سعد : « حباكم » . (٢) آداكم الله : قواكم وأعانكم على عدوكم .
(٣) آية ٨٣ سورة القصص . (٤) آية ٦٠ سورة الزمر .
(٥) الأدنى : الأقرب .

علىّ وسلموا تسليما، ولا تؤذونى بتزكية ولا برّنة[1]، وليبدأ بالصلاة علىّ رجال من أهلى ثم نساؤهم ثم أنتم بعد، وأقرِئوا السلام على من غاب من أصحابى، وأقرِئوا السلام على من يتبعنى على دينى من قومى إلى يوم القيامة » . قلنا : يارسول الله، فمن يدخلك قبرك ؟ قال : « أهلى مَعَ ملائكة كثيرة يرونكم من حيث لا ترونهم » .

وأما الدّنانير التى قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه

فقد روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دنانير فقسمها إلا ستة، فدفع الستة إلى بعض نسائه، فلم يأخذه النوم حتى قال : « ما فعلت الستة » ؟ قالوا : دفعتها إلى فلانة، قال : «آيتونى بها » فقسم منها خمسة فى خمسة أبيات من الأنصار، ثم قال : « آستنفقوا هذا الباقى » وقال : « الآن آسترحت » فرقد . وعن المطلب بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة، وهى مُسْنِدتُه إلى صدرها : « يا عائشة ما فعلت تلك[2] الذهب » ؟ قالت : هى عندى، قال : « فأنفقيها » ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها، فلما أفاق قال : « هل أنفقت تلك الذهب يا عائشة » ؟ قالت : لا والله يا رسول الله، قالت : فدعا بها فوضعها فى كفّه، فعدّها فإذا هى ستة دنانير، فقال : « ما ظنُّ محمد بربه أن لو لقى الله وهذه عنده » ! فأنفقها كلها، ومات من ذلك اليوم .

---

(١) فى الطبقات والمواهب : « رجال أهلى » .

(٢) المشار إليه مقدر؛ أى تلك الدنانير الذهب .

وأما السِّواك الذى آستَنّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته

فقد روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : دخل عبد الرحمن بن أبى بكر على النبى صلى الله عليه وسلم فى شكواه ، وأنا مسندته إلى صدرى ، وفى يد عبد الرحمن سِواك فأمرها أن تقضمه ، فقضمته ثم أعطته رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن حديث آخر عنها قالت : فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وهو فى يده نظرًا عرفت أنه يريده ، فقلت : يا رسول الله ، تريد أن أعطيك هذا السّواك ؟ فقال : « نعم » فأخذته فمضغته حتى لَيَّنته ثم أعطيته إياه ، فآستَنّ به كأشدِّ ما رأيته آستنّ بسواك قبله ثم وضعه ، فكانت عائشة تقول : كان من نعمة الله علىّ وحسن بلائه عندى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى بيتى ، وفى يومى وبين سَحْرى ونَحْرِى (١) ، وجمع بين ريقى وريقه عند الموت . فقال لها القاسم بن محمد : قد عرفنا كل الذى تقولين ، فكيف جمع بين ريقك وريقه ؟ قالت : دخل عبد الرحمن بن أمِّ رُومان أخى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوده ، وفى يده سِواك رطب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالسّواك ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشخص بصره إليه ، فقلت : يا عبد الرحمن ، آقضم السواك فناولنيه ، فمضغته ثم أدخلته فى فِى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسوّك به ، فجمع بين ريقى وريقه .

١٤٠/١٦

(١) السحر الرئة ؛ أى إنه مات وهو مسند إلى صدرها وما يحاذى سحرها منه ، وقيل : السحر ما لصق بالحلقوم من أعلى البطن ، وحكى القتبى عن بعضهم أنه بالشين المعجمة والجيم ، وأنه سئل عن ذلك فشبك بين أصابعه وقدمها عن صدره كأنه يضم شيئا إليه ، أى إنه مات وقد ضمته بيديها إلى نحرها وصدرها ، والشجر التشبيك وهو الذقن أيضا ، والمحفوظ الاول . « النهاية » .

ذكر تخيير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الدنيا والآخرة عند الموت

رُوى عن عُروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت سمعت أنه لا يموت نبىّ حتى يُخيَّر بين الدنيا والآخرة، فأصابت رسول الله صلى الله عليه وسلم بُحّة شديدة فى مرضه، فسمعته يقول : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١) فظننت أنه خُيِّر . وعن المطلب بن عبد الله ، قال قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من نبىّ إلا تُقبض نفسه ثم تُردّ إليه فيخيّر بين أن تُردّ إليه إلى أن يلحق» قالت : فكنت قد حفظت ذلك منه، فإنى لَمُسْنِدتُه إلى صدرى فنظرت إليه حتى مالت عنقه ، فقلت قد قضى وعرفت الذى قال ، فنظرت إليه حتى ارتفع ونظر ، قالت : قلت إذًا والله لا تختارنا ، فقال : « مع الرفيق الأعلى فى الجنة » ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ . وعن سعيد بن المسيّب وغيره أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه لم يُقبض نبىٌّ حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخيَّر » (٢) قالت عائشة : فلما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه على فخذى غُشِى عليه ساعة ، ثم أفاق فأشخص بصره إلى السَّقْف سَقْف البيت ، ثم قال : « اللهم الرفيق الأعلى » قالت : فقلت الآن لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذى كان يحدّثنا وهو صحيح، فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن أبى بُردة بن أبى موسى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسندته عائشة إلى صدرها فأفاق ، وهى تدعو له بالشفاء فقال : « لا ، بل أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد مع جبريل وميكائيل و إسرافيل» .

(١) آية ٦٩ سورة النساء . (٢) نزل برسول الله : أى الموت .

ذكر ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول الموت به

رُوى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : لما نزل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم الموتُ دعا بقدح من ماءٍ فجعل يمسح به وجهه، ويقول: « اللهم أعنِّى على سَكَرات الموت » وجعل يقول : « آدْنُ منِّى يا جبريل ، آدْنُ منِّى يا جبريل، آدْنُ منِّى يا جبريل » . وعن عبدالله بن عباس وعائشة رضى الله عنهم قالا : لما نزل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم طَفِق يلقى خَمِيصَته[1] على وجهه ، فإذا اغتمّ بها ألقاها عن وجهه ويقول : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٤١/١٦ رُوى عن محمد بن جعفر عن أبيه قال : لما بقى من أَجَل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث نزل عليه جبريل فقال : يا أحمد، إن الله أرسلنى إليك إكراما لك، وتفضيلا لك، وخاصّة لك، يسألك عما هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدك؟ قال : « أجدنى يا جبريل مغموما، وأجدنى يا جبريل مكروبا » فلما كان فى اليوم الثانى هبط إليه جبريل فقال له مثل ذلك، وأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أجابه به بالأمس، فلما كان اليوم الثالث نزل إليه جبريل، وهبط معه مَلَك الموت، ونزل معه ملك يقال له إسمعيل، يسكن الهواء لم يصعد إلى السماء قطّ ولم يهبط إلى الأرض منذ يوم كانت الأرض على سبعين ألف مَلَك، ليس منهم مَلَك إلا على سبعين ألف ملك، فسبقهم جبريل، فقال : يا أحمد، إن الله أرسلنى إليك إكراما لك، وتفضيلا لك، وخاصّة لك، يسألك عما هو أعلم به منك، يقول لك : كيف

(١) الخميصة : ثوب خز أو صوف معلم .

تجدك؟ قال : « أجدنى يا جبريل مغموما، وأجدنى يا جبريل مكروبا » ثم آستأذن مَلَك الموت فقال جبريل : يا أحمد، هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمىّ كان قبلك ، ولا يستأذن على آدمىّ بعدك، قال : « آئذن له » فدخل ملك الموت فوقف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله، يا أحمد، إن الله أرسلنى إليك وأمرنى أن أطيعك فى كل ما تأمرنى به، إن أمرتنى أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتنى أن أتركها تركتها، قال : « وتفعل يا ملك الموت » ؟ قال : بذلك أُمرت أن أطيعك فى كل ما أمرتنى ، فقال جبريل : يا أحمد، إن الله قد آشتاق إليك، قال : « فامض يا ملك الموت لما أُمرتَ به » قال جبريل : السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر موطِئى الأرضَ إنما كنتَ حاجتى من الدنيا ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءت التعزية يسمعون الصوت والحسّ ، ولا يرون الشخص : السلام عليكم يأهل البيت ورحمة الله وبركاته « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » إن فى الله عَزَاءً من كل مصيبة ، وخَلَفا من كل هالك ، ودَرَكا من كل ما فات ، فبالله فَثِقوا ، وإياه فآرجوا ، إنما المُصاب من حُرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكانت وفاة رسول الله صلى الله عليه سلم كما جاء فى الأحاديث الصحيحة فى حِجر عائشة وبين سَحْرها ونَحْرها . وقد قيل : إنه توفّى فى حجر علىّ، والصحيح الأوّل . وذلك فى يوم الآثنين حين آشتدّ الضُّحَى[1]، لآثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل، وقيل : لليلتين خلتا منه . ولما مات صلى الله عليه وسلم سُجِّى بثوب حِبَرة، كما روى عن عائشة وأبى هريرة رضى الله عنهما، ودخل أبو بكر رضى الله عنه على

(١) فى ج « استد » وهما بمعنى تقزى ، والمراد : آرتفع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : بأبى وأمى ما أطيب تحياك وتماتك . وفى لفظ : طبت حيا وميتا . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء أبو بكر فدخل عليه فرفعت الحجاب ، فكشف الثوب عن وجهه، فاسترجع فقال : مات والله رسول الله، ثم تحوّل من قبل رأسه فقال : وانبياه ، ثم حَدَر فمه فقبّل وجهه ثم رفع رأسه، فقال : واخليلاه، ثم حَدَر فمه فقبّل جبهته ثم رفع رأسه، فقال : واصَفِيّاه، ثم حدر فمه فَقبّل جبهته، ثم سجّاه بالثوب ثم خرج . وعن عبد الرحمن بن عوف : أن عائشة أخبرته أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح[1] حتى نزل، فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم[2] رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو مُسَجًّى بِبُرْد حِبَرة فكشف عن وجهه ثم أكَبّ عليه يقبّله وبكى، ثم قال : بأبى أنت، والله لا يجمع الله عليك مَوْتَتَيْن أبدا، أما الموتة التى كُتبت عليك فقد مِتّها .

ذكر ما تكلم به الناس حين شكّوا فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبة أبى بكر رضى الله عنه

١٤٢/١٦

رُوى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما تُوفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى الناس فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المسجد خطيبا فقال : لا أسمعَنّ أحدا يقول إن محمدا قد مات ، ولكنه أُرسل إليه كما أُرسل إلى موسى ابن عِمران، فلبث عن قومه أربعين ليلة، وإنى والله لأرجو أن تُقطع أيدى رجالٍ وأرجلهم يزعمون أنه مات . وعن عِكْرِمة قال : لما تُوفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنما عُرِج بروحه كما عرج بروح موسى، قال : وقام عمر خطيبا فوعد

(١) السنح بضم السين والنون، وقيل : بسكون النون : موضع بعوالى المدينة فيه منازل بنى الحارث ابن الخزرج . (٢) تيمم : قصد .

المنافقين ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، ولكن إنما عُرِج بروحه كما عُرِج بروح موسى، لا يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقطع أيدى أقوام وألسنتهم، قال : فما زال عمر يتكلم حتى أزبد شِدْقاه، فقال العباس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأسَن[1] كما يأسَن البشر ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات فادفنوا صاحبكم، أيُمِيت أحدَكم إماتة ويُمِيته إماتتين؟ هو أكرم على الله من ذلك ، فإن كان كما تقولون فليس على الله بعزيز أن يبحث عنه التراب فيخرجه إن شاء الله، ما مات حتى ترك السبيلَ نَهْجا واضحا ، أحلّ الحلال، وحَرَّم الحرامَ، ونكح وطلّق، وحارب وسالم، وما كان راعى غنم يتبع بها صاحبها رءوس الجبال، يخبط عليها العِضاة[2] بمِخْبَطِه ويَمدُر حوضها بيده، بأنصَب ولا أرْأَب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيكم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : لما توفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عمر والمغيرة بن شعبة فدخلا عليه فكشفا الثوب عن وجهه فقال عمر : أغشيًا؟ ما أشدَّ غشىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ثم قاما فلما انتهيا إلى الباب، قال المغيرة : يا عمر، مات والله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : كذبت ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنك رجل تَحُوسُك[3] فتنةٌ، ولن يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يُفنى المنافقين ، ثم جاء أبو بكر وعمر يخطب الناس فقال له أبو بكر : اسكت ؛ فسكت ، فصعد أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ[4] ﴾ ثم قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى

(١) يأسن : يتغير . (٢) فى الطبقات : « الفضاة » .

(٣) « تحوسك » بالسين المهملة رواية ابن الأثير لقول عمر بمعنى تخالطك وتحثك على ركوبها . وفى الأصول والطبقات « تحوشك » بالشين المعجمة . (٤) آية ٣٠ سورة الزمر .

أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١) ثم قال : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت . فقال عمر : هذا فى كتاب الله؟ قال : نعم، قال : أيها الناس، هذا أبو بكر وذو شيبة المسلمين فبايِعُوه فبايَعه الناس . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخل أبو بكر المسجد وعمر بن الخطاب يكلِّم الناس ، فمضى حتى دخل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم الذى توفّى فيه، وهو بيت عائشة، وكشف عن وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم بُرْد حِبَرَة، كان مسَجًّى به فنظر إلى وجهه ثم أكبّ عليه فقبَّله ، فقال : بأبى أنت؛ واللهِ لا يجمع الله عليك موتتين، لقد متّ الموتة التى لا تموت بعدها، ثم خرج أبو بكر إلى الناس، وعمر يكلمهم فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فكلمه أبو بكر مرتين أو ثلاثا، فلما أبى عمر أن يجلس قام أبو بكر فتشهد، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فلما قضى أبو بكر تشهده قال : أما بعد؛ فمن كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، قال الله تبارك وتعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » . قال : فلما تلاها أبو بكر أيقن الناس بموت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وتلقاها الناس من أبى بكر حين تلاها أو كثير منهم ، حتى قال قائل من الناس : والله لكأنّ الناس لم يعلموا أن هذه الآية أنزلت حتى تلاها أبو بكر . فزعم سعيد ابن المسيّب أن عمر بن الخطاب قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعَقِرت (٢) وأنا قائم حتى خررت إلى الأرض، وأيقنت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد

(١) آية ١٤٤ سورة آل عمران .

(٢) العقر (بفتحتين) : أن تسلم الرجل قوائمه إلى الخوف ، فلا يقدر أن يمشى من الفرق والدهش .

مات . وعن الحسن قال : لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم آئتمر أصحابه فقالوا : تربصوا بنبيكم صلى الله عليه وسلم لعله عُرِج به ، قال : فتربصوا به حتى رَبَا بطنه ، فقال أبو بكر : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت . وعن القاسم بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنه أنه لما شك فى موت النبي صلى الله عليه وسلم قال بعضهم : قد مات ، وقال بعضهم : لم يمت ، وضعت أسماء بنت عُمَيْس يدها بين كتفيه ، وقالت : قد توفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد رُفِع الخاتم من بين كتفيه . وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أُخرس عن الكلام لما رَاعَه من موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما تكلم إلا بعد الغد ، وأُقعد آخرون ، منهم على بن أبِى طالب ، ولم يكن فيهم أثبت من أبى بكر والعباس رضى الله عنهما ، قالوا : وعَزّى الناس بعضهم بعضا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكر ذلك للناس قبل موته ، كما روى عن سهل بن سعد ؛ قال قال رسول الله صلى الله وسلم : « سيعزّى الناس بعضهم بعضا من بعدى التّعزية بى » فكان الناس يقولون ما هذا ؟ فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم لقِى الناس بعضهم بعضا يعزّى بعضهم بعضا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٤٣/١٦

ذكر غُسْل رسول الله صلى الله عليه وسلم
ومن غَسّله ، وتكْفِينه وحُنوطه

رُوى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكروا غسله سمعوا من باب الحجرة : لا تغسلوه فإنه طاهر مطهّر ، ثم سمعوا صوتا بعده : آغسلوه فإن ذلك إبليس وأنا الخضر ، وعزّاهم فقال : إن فى الله عَزاءً من كل مصيبة ، وخَلَفا من كل هالك ، ودَرَكا من كل فائت ، فبالله فثِقُوا وإياه فآرجوا ، فإن المُصاب من

حُرِم الثواب . وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : لما توفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم آختلف الذين يغسلونه، فسمعوا قائلا لايدرون من هو، يقول: آغسلوا نبيكم وعليه قميصه، فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه . وعن عَبّاد بن عبد الله عن عائشة قالت : لو آستقبلت من أمرى ما آستدبرت، ما غَسَل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نساؤه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قُبض آختلف أصحابه فى غسله، فقال بعضهم : آغسلوه وعليه ثيابه، فبينما هم كذلك إذ أخذتهم نعْسةٌ، فوقع لِحْىُ كل إنسان منهم على صدره، فقال قائل منهم لا يُدْرَى من هو : آغسلوه وعليه ثيابه، قالوا : وكان الذى تولى غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٌّ بن أبى طالب، والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد، وكان علىٌّ يغسله ويقول : بأبى أنت وأمى، طِبْت مَيتا وحيا . وقيل : كان علىّ يغسل النبى صلى الله عليه وسلم والفضل وأسامة يحجبانه، وقيل : غسل والعباس قاعد والفضل مُحتَضِنُه، وعلىّ يغسله، وأسامة يختلف، وقيل : ولَى غسله العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، والفضل بن العباس وصالح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يغسله أحد غيرى، فإنه «(١) لا يرى أحد عورتى إلا طُمست عيناه» . قال علىّ : فكان الفضل وأسامة يناولانى الماء من وراء الستر، وهما معصوبا العين . قال علىّ : فما تناولت عضوا إلا كأنما يقلبه معى ثلاثون رجلا حتى فرغت من غسله . وقيل : كان معهم شُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن سعيد بن المسيّب قال : غسل النبىَّ صلى الله عليه وسلم، وكفّنه أربعةٌ علىٌّ والعباسُ والفضلُ وشُقْران، وقيل : لم يحضره العباس، بل كان بالباب،

(١) لعله سقط هنا لفظ قال .

وقال: لم يمنعنى أن أحضر غسله إلا أنى كنت أراه يستحى أن أراه حاسرا . وقيل: حضره عَقِيل بن أبى طالب، وأوس بن خَوَلِىّ، وذلك أن أوس بن خَوَلِىّ قال: يا علىّ، أَنْشُدُك الله فى حظِّنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له علىّ: ٱدخل، فدخل فجلس، وقيل: إنما دخل لأن الأنصار قالت: ننا شدكم الله فى نصيبنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأدخلوا رجلا منهم يقال له أوس بن خَوَلِىّ يحمل جرّةً بإحدى يديه . والذى أثبته الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى رحمه الله فى مختصر السيرة قال: تولى غسله علىٌّ والعبّاسُ والفضْلُ وقُثَمُ ٱبنا العباس وأسامة بن زيد وشُقْران موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وحضره أوس ابن خَوَلِىّ الأنصارىّ . وعن علىّ رضى الله عنه قال: لما أخذنا فى جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أغلقنا الباب دون الناس جميعا، فنادت الأنصار نحن أخواله، ومكاننا من الإسلام مكاننا، ونادت قريش نحن عصبته، فصاح أبو بكر: يا معشر المسلمين، كل قوم أحقّ بجنازتهم من غيرهم، فنشدتكم الله فإنكم إن دخلتم أخرتموهم عنه، والله لا يدخل عليه أحد إلا من دُعى . وعن أبى جعفر محمد بن على قال: غسل النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث غسلات بماء وسِدْر، وغسل فى قميص، وغسل من بئر يقال لها الغَرْس لسعد بن خَيْثَمَة بقُبَاء، وكان يشرب منها وولى [غسل][1] سَفِلَته علىّ، والعباس يصبّ الماء، والفضل مُحتَضِنه يقول: أَرِحْنى أَرِحْنى، قطعتَ وَتِينى! إنى أجد شيئا ينزل علىّ مرتين. وعن عبد الله ابن الحارث: أن عليا غسله، يدخل يده تحت القميص، والفضل يمسك الثوب عليه، والأنصارىّ ينقل الماء وعلى يَدِ علىٍّ خرقةٌ تدخل يدُه وعليه القميص . وعن عبد الله بن جعفر الزهرى عن عبد الواحد بن أبى عون، قال قال رسول الله صلى

١٤٤/١٦

(١) الزيادة من الطبقات .

الله عليه وسلم لعلىٍّ فى مرضه الذى توفى فيه : « آغسلنى يا علىُّ إذا متّ » فقال : يارسول الله، ماغسلت ميتا قط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك ستُهَيَّأ، أو تُيَسَّر » قال على : فغسلته فما آخذ عضوا إلا تبعنى، والفضل أخذ بحُضْنِه يقول: أعجل يا علىّ آنقطع ظهرى . وعن سعيد بن المسيّب قال: التمس علىٌّ من النبى صلى الله عليه وسلم عند غسله ما يُلتَمس من الميت فلم يجد شيئا ، فقال : بأبى أنت وأمى، طِبْت حيا وميتا . هذا ما لخصناه فى غسله صلى الله عليه وسلم مما أورده محمد بن سعد فى طبقاته على سبيل الاختصار وحذف الأسانيد . والله أعلم .

وأما تكفينه صلى الله عليه وسلم

فقد آختلف فيه ؛ فقيل : كُفِّن فى ثلاثة أثواب بيض كُرْسُف[1] ، وقيل : فى ثلاثة أثواب أحدها حِبْرة ، وقيل : فى رَيْطَتَين[2] وبُرْد نَجْرانىّ[3] . وقيل : فى ثلاثة أثواب بُرُود يمانية غِلاظٌ إزارٌ ورِداءٌ ولِفَافَة . وقيل : فى حُلّة حمراء وقِبْطية[4] . وقيل : فى حُلّة يمانية وقميص . وقيل : فى حُلّة حِبَرة وقميص . وقيل : فى سبعة أثواب . والذى ورد فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كُفِّن فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيّة من ثياب سَحُول — بلدة باليمن — ليس فيها قميص ولا عمامة ، بل لفائف من غير خياطة . وحُنِّط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فى حَنُوطه المِسْك، وأبقى منه علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه شيئا آدَّخره لحنوطه إذا مات .

---

(١) الكرسف : القطن .

(٢) الريطة : كل ملاءة ليست بلفقتين ، وقيل : كل ثوب رقيق لين .

(٣) نجران : موضع معروف بين الحجاز واليمن .

(٤) قبطية : ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض . وفى الطبقات : « وقطيفة » .

ذكر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

رُوى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: أول من صلّى على رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب، و بنو هاشم، ثم خرجوا، ثم دخل المهاجرون والأنصار، ثم الناس رِفَقًا رِفَقًا[1]، فلما انقضى الناس دخل عليه الصبيان صفوفا، ثم النساء، وقيل: النساء والصبيان. وذكر البيهقى عن الواقدىّ عن موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى قال: وجدت هذا فى صحيفة بخط أبى، فيها: لما كُفّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووُضِع على سريره، دخل أبو بكر وعمر فقالا: السلام عليك أيها النبى و رحمة الله و بركاته، ومعهما نَفَرٌ من المهاجرين والأنصار قَدْر ما يسع البيت، فسلّموا كما سلم أبو بكر [وعمر][2] وصَفُّوا صُفُوفا لا يؤمّهم عليه أحد، فقال أبو بكر وعمر وهما فى الصفّ الأول حِيَال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنا نشهد أن قد بَلّغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حتى أعزّ الله به دينه، وتمّت كَلِماته، فأُومِن به وحدَه لا شريك له، فاجعلنا يا إلهنا ممن يتّبع القول الذى أنزل معه، وٱجمع بيننا و بينه حتى يعرِفنا ونعرّفه[3] بنا فإنه كان بالمؤمنين رءوفًا رَحيما، لا نبتغى بالإيمان بدَلًا، ولا نشترى به ثمنا أبدا. فيقول الناس آمين آمين، ثم يخرجون و يدخل آخرون حتى صلّوا عليه: الرجال والنساء ثم الصبيان. وعن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب عن أبيه عن جده عن علىّ رضى الله عنهم قال: لما وُضِع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السرير قال علىٌّ: لا يؤمّ أحدٌ، هو إمامكم حيّا وميتا، فكان يدخل الناس رَسَلًا

(١) رفقا: جماعات.

(٢) الزيادة من الطبقات.

(٣) فى جـ «تعرفه بنا» وفى الطبقات «حتى يعرفنا ونعرفه».

رَسَلًا[1] ، فيصلّون عليه صَفًّا صفًّا ، ليس لهم إمام ويُكَبِّرون ، وعلىّ قائم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، اللهم إنا نشهد أنه قد بَلَّغ ما أنزل إليه ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمّت كلمته ، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه ، وثبتنا بعده وأجمع بيننا وبينه . فيقول الناس : آمين ، آمين . وقد قيل فى سبب صلاة الناس عليه أفْذاذًا : إنما فعلوا ذلك ليكون كل منهم فى الصلاة أصلًا لا تابعا لأحد . وقيل : ليطول وقت الصلاة فيلحق من يأتى من حول المدينة .

١٤٥/١٦

ذكر قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولَحْده

وما فُرش تحته ومَنْ فَرشه ، ومَن دخل قبره ، ووقت دفنه ، ومدّة حياته صلى الله عليه وسلم

رُوى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته اختلفوا فى مكان دفنه ؛ فقال بعضهم : ندفنه فى مُصلّاه . وقال بعضهم : عند المنبر . وقال بعضهم : ادفنوه مع أصحابه بالبقيع . فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما دُفن نبىٌّ قط إلّا فى المكان الذى توفّى فيه » . وقيل : قال « ما مات نبىٌّ إلا دفن حيث يُقبَض » فرفع فراش النبىّ صلى الله عليه وسلم الذى توفّى عليه وحفر له تحته ، وذلك فى بيت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها . ثم اختلفوا أيلحد له أم لا ؟ وكان فى المدينة حفّاران أحدهما يُلحد وهو أبو طلحة ، والآخر لا يلحد وهو أبو عبيدة . فاتفقوا على أن من جاء منهما أوّلا عَمِل عَمَلَه[2] ، فجاء الذى يلحد فلحد لرسول الله صلى الله

(١) رسلا رسلا : أى فرقا ، ويروى : أرسالا : أى أفواجا .

(٢) فى أ : « عمل عليه » .

عليه وسلم . وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كان بالمدينة رجلان : أبو عبيدة ابن الجراح يَضْرَح حُفَر أهل مكة، وأبو طلحة الأنصارىّ هو الذى يحفر لأهل المدينة، وكان يُلْحد . فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما : اذهب إلى أبى عبيدة، وقال للآخر : اذهب إلى أبى طلحة، وقال : اللهم خِرْ لرسولك ، فوجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة فجاء به فلَحَد له . وقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللّحد لنا والشّقّ لغيرنا » . وقيل قال : « والشّقّ لأهل الكتاب » . قيل : وكان صلى الله عليه وسلم يرى اللحد فيعجبه فألحد له ، وأطبق له تسع لَبِنَات وفُرش تحته فى قبره قَطِيفَة حمراء كان يُغطّى بها صلى الله عليه وسلم نزل بها شُقْران . وأما من نزل قبره صلى الله عليه وسلم فالعباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، والفضل وقُثَم ابنا العباس ، وشُقْران مولاه ، وقيل : أدخلوا معهم عبد الرحمن ابن عوف، قيل : وعَقِيل وأسامة بن زيد، وصالح[1] ، وأوْس بن خَوَلِىّ . والذى صححه الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف رحمه الله : العباس وعلىٌّ والفضل وقُثَم وشُقْران . وزعم المغيرة بن شعبة أنه نزل قبر النبى صلى الله عليه وسلم، وأنه آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبره . روى عن الشعبى قال : كان المغيرة يحدّثنا ها هنا، يعنى [بالكوفة] قال : [أنا][2] آخر الناس عهدا بالنبى صلى الله عليه وسلم لما دُفن وخرج علىٌّ من القبر ألقيت خاتَمى فقلت : يا أبا الحسن خاتَمى ، قال : انزل فخذ خاتمك ، فنزلت فأخذت خاتَمى، ووضعت يدى على اللّبِن ثم خرجت . وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : لما وُضع رسول الله صلى الله عليه

(١) صالح : هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يعرف بشقران .

(٢) الزيادة من الطبقات جـ ٢ ق ٢ : ٧٧ .

وسلم فى لحده، ألقى المغيرة بن شعبة خاتمه فى القبر، ثم قال: خاتمى، خاتمى! فقالوا: أدخل فخذه، فدخل ثم قال: أهيلوا علىّ التراب، فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف ساقيه فخرج، فلما سُوِّى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أخرجوا عنى حتى أغلق الباب، فإنّى أحدثكم عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، فقالوا: لعمْرى لئن كنتَ أردتَها لقد أصبتَها. وأنكر على بن عبد الله بن عباس هذا، وقال: كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم قُثَم بن العباس، كان أصغر من كان فى القبر، وكان آخر من صعِد. والله أعلم.

وأما وقت دفنه صلى الله عليه وسلم ومدة مرضه

فقيل: دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء، وقيل: ليلة الثلاثاء، وقيل: يوم الثلاثاء حين زاغت الشمس. والله أعلم. وسُنِّم[2] قبره ورُشّ عليه الماء. وكانت مدّة مرضه اثنى عشر يوما. وقيل: أربعة عشر يوما. وكان مرضه بالصّداع صلى الله عليه وسلم.

وأما سِنُّه صلى الله عليه وسلم

١٤٦/٥٦

ومدّة مقامه بالمدينة من حين هجرته إلى يوم وفاته صلى الله عليه وسلم

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى، وقد بلغ من السِّن ثلاثا وستين سنة، وقيل: خمسا وستين، وقيل: ستين. وروى محمد بن سعد قال: أخبرنا هشام بن القاسم، قال حدّثنا أبو معشر عن يزيد بن زياد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة فى السنة التى قُبض فيها: «إن جبريل كان يَعْرِض علىّ

(١) لفظ «عنى» ليس فى جـ ولا الطبقات.

(٢) سنم: جعل له سنام أى رفع عن الأرض.

القرآن فى كل سنة مرة ، فقد عَرَض علىّ العامَ مرتين، وأنه لم يكن نبىٌّ إلا عاش نصف عمر أخيه الذى كان قبله ، عاش عيسى بن مريم مائة وخمسا وعشرين سنة، وهذه اثنتان وستون سنة » ومات فى نصف السنة . والذى نقلناه أوّلاً هو الذى صححه العلماء . والله أعلم .

وكان مقامه بالمدينة من لدن الهجرة إلى أن توفّى صلى الله عليه وسلم عشر سنين . ٥

ذكر ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم
وما روى فيه

رُوى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنا لا نُورَث، ما تركناه صَدَقة » . وروى محمد بن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر بن واقد، قال حدّثنا مَعْمَر ومالك وأُسامة بن زيد عن الزهرىّ ١٠ عن عروة عن عائشة؛ قال محمد بن عمر : وحدّثنى مَعْمَر وأُسامة بن زيد وعبد الرحمن ابن عبد العزيز عن الزهرى عن مالك بن أوْس بن الحَدَثان عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقّاص وعباس بن عبد المطلب قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا نورث ما تركناه فهو صدقة» يريد بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسَه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن ١٥ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَقْتَسِم(١) ورثتى دينارا ولا درهما، ما تركتُ بعد نفقة نسائى ومؤنة عاملى فإنه صدقة » . وعن عائشة : إن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهما أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أفاء الله على رسوله ، وفاطمة حينئذ تطلب صدقة النبى صلى الله عليه وسلم التى بالمدينة وفَدَك ، وما بقى من خُمس خيبر، فقال أبو بكر ٢٠

(١) فى الطبقات : « يقتسم » .

رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقةٌ » إنما يأكل آلُ محمد فى هذا المال ، وإنى والله لا أغيِّر شيئا من صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالها التى كانت عليها فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأعملنّ فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئا ، فوَجَدتْ فاطمة على أبى بكر ، فهجرته ولم تكلمه حتى توفيت ، وعاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر . وعن أبى جعفر[1] قال : جاءت فاطمة إلى أبى بكر تطلب ميراثها ، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه ، وجاء معهما علىّ بن أبى طالب ، فقال أبو بكر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نورث ، ما تركنا صدقةٌ » وما كان النبى يَعُول فعلىّ ، فقال علىٌّ : « وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ »[2] وقال زكريا : « يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ »[3] قال أبو بكر : هو هذا ، واللهِ تعلم مثل ما أعلم . فقال علىّ : هذا كتاب الله ينطق ، فسكتوا وانصرفوا . وعن زيد بن أسلم عن أبيه ، قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما كان اليوم الذى توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بويع لأبى بكر فى ذلك اليوم ، فلما كان من الغد جاءت فاطمة إلى أبى بكر — رضى الله عنهما — معها علىّ رضى الله عنه فقالت : ميراثى من رسول الله أبى ، صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أمن الرِّثَّة[4] أو من العُقَد[5] ؟ قالت : فَدَك وخَيْبر وصدقاته بالمدينة أرثها كما ترثك بناتك إذا متّ ، فقال أبو بكر : أبوك واللهِ خير منى ، وأنت واللهِ خير من بناتى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ، ما تركنا

١٤٧/١٦

(١) كذا فى الأصول ؛ وفى الطبقات « جعفر » . (٢) آية ١٦ سورة النمل .
(٣) آية ٥ سورة مريم . (٤) الرثة : الردىء من متاع البيت .
(٥) العقد (جمع عقدة) : الأرض الكثيرة النخل .

صدقةٌ » يعنى هـذه الأموال القائمة ، فتعلمين أن أباك أعطاكها ؟ فوالله لئن قلتِ نعم لأقبلنّ قولك ولأصدقنك . قالت : جاءتنى أمّ أيمن فأخبرتنى أنه أعطانى فَدَك . قال : فسمعتِه يقـول هى لكِ ؟ فإذا قلتِ قد سمعتـه فهى لك ، فأنا أصـدِّقك وأقبلُ قولكِ . قالت : قد أخبرتكَ ما عندى . وعن عمرو بن الحارث خَتَن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخى ميمونة قال : والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته درهما ولا دينارا ، ولا عبدا ولا أمة ، ولا شيئا إلا بغلته البيضاء وسلاحه ، وأرضًا تركها صدقة . وعن زِرّ بن حُبَيْش : أن إنسانا سأل عائشة رضى الله عنها عن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : عن ميراث رسـول الله صلى الله عليه وسلم تسألنى ؟ لا أبالك ! توفّى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولم يدع دينارا ولا درهما ، ولا عبدا ولا أمة ولا شاة ولا بعيرا . وعن ابن عباس نحوه ، قال : وترك دِرعه رَهْنًا عند يهودىّ بثلاثين صاعا من شعير . وقد رُوى أنه صلى الله عليه وسلم ترك يوم مات ثوبى حِبَرة وإزارا عُمَانيا[1] ، وثوبين صُحَاريين ، وقميصا صُحاريا ، وجُبّـة يمنية ، وخَمِيصَة وكِساء أبيض ، وقَلَانس صـغارا لَاطِئة[2] ثلاثا أو أربعا ، وإزارا طوله خمسـة أشبار ، وملحفة مُوَرَّسة . صلى الله عليـه وسلم . هذا الذى أورده الشيخ محب الدين الطبرىّ فى مختصر السيرة .

ذكر ما نال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

وآله من الحزن على فقده ، ونبذة ممـا رَثَوْه به صلى الله عليه وسلم

رُوى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لمـا ثقل النبى صلى الله عليه وسلم جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة : واكَرْبَ أبتاه ، فقال لها صلى الله عليه وسلم :

(١) فى نسخة ا : عتابيا وهو تصحيف .

(٢) اللاطئة : اللاصقة ؛ أى ملتزقة بالرأس .

« ليس على أبيك كرب بعد اليوم » . فلما مات صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة : يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه ، يا أبتاه جنة الفِرْدوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ينعاه ، يا أبتاه من ربه ما أدناه ! قال : فلما دفن قالت فاطمة : يا أَنَسُ أطابت أنفسكم أن تَحْثُوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب ؟ . وعن عِكرمة قال : لما توفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكت أمّ أيمن ، فقيل لها أتبكين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : أما والله ما أبكى عليه ألّا أكون أعلم أنه ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا ، ولكن أبكى على خبر السماء انقطع . وعن عبد الرحمن ابن سعد بن يربوع قال : جاء علىّ بن أبى طالب يوما متقنعا متحازنا ، فقال أبو بكر : أراك متحازنا ، فقال علىّ : إنه عَنانى ما لم يَعْنِك ، قال يقول أبو بكر : اسمعوا ما يقول ! أَنْشُدكم اللهَ أترون أحدا كان أحزن على رسول الله صلى الله عليه وسلم منّى ؟ . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت عثمان بن عفان يقول : توفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحزن عليه رجال من أصحابه حتى كاد بعضهم يُوَسْوِس . وعن القاسم بن محمد : أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب بصره فدخل عليه أصحابه يعودونه ، فقال : إنما كنت أريدهما لأنظر بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمّا إذ قبض الله نَبيّه فما يَسُرّنى[1] أن ما بهما بظبى من ظِباء تَبَالة[2] . وأمّا عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها فإنها لازمت قبره صلى الله عليه وسلم .

ورَثَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جماعةٌ من أصحابه وعمّاته رضى الله عنهم فقال أبو بكر الصِّدّيق رضى الله عنه :

---

(١) فى الأصول : « ما يسوءنى » وما أثبتناه عن الطبقات .

(٢) تبالة : موضع باليمن خصب .

يا عينُ فآبكي ولا تَسأمي * وحُقَّ البُكاءُ على السَّيِّدِ
على خَيْرِ خِنْدِفَ[1] عند البَلا * ءِ أمْسَى يُغَيَّبُ فى المُلْحَدِ
فصلَّى المليكُ ولىُّ العبادِ * وربُّ البِلادِ على أحْمَدِ
فكيفَ الحَياةُ لِفقْدِ الحبيب * وزَيْنِ المَعاشِرِ فى المَشْهَدِ
فَلَيْتَ المماتَ لنا كلِّنا * وكُنَّا جميعًا مع المُهْتَدِى

١٤٨/١٦

وقال أيضا رضوان الله عليه :

لمّا رأيتُ نَبِيّنا مُتَجَدِّلًا * ضاقت علىَّ بعَرضِهِنّ الدُّورُ
وأرْتَعْتُ رَوْعَةَ مُسْتَهامٍ وَالِهٍ * والعَظْمُ مِنِّى واهِنٌ مكسورُ[2]
أعَتِيقُ وَيْحَكَ إنّ حِبّكَ قدثَوَى * وبقيتَ منفَردا وأنتَ حَسِيرُ[3]
يالَيْتَنى مِن قبْلِ مَهْلَكِ صاحبى * غُيِّبْتُ فى جَدَثٍ علىّ صُخُورُ[4]
فَلَتَحْدُثَنّ بَدائعٌ من بعدِهِ * تَعْيَا بهنّ جَوانِحٌ وصُدورُ

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

ارِقْتُ فبات لَيْلِى لا يَزولُ * ولَيْلُ أخى المصيبة فيه طُولُ[5]
وأسْعَدَنِى البكاءُ وذاك فيما * أُصيبَ المسلمون به قليلُ
لقد عَظُمت مصيبتنا وجَلّت * عَشِيَّةَ قيلَ قد قُبِضَ الرسولُ
وأضحَتْ أرضُنا مما عَراها * تكادُ بنا جوانبُها تَميلُ
فقدنا الوَحىَ والتنزيل فينا * يَرُوح به ويغْدُو جِبْرَئيلُ

(١) خندف : ولد إلياس بن مضر ، أحد أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٢) الروعة : الفزعة ، المستهام : الذى أسقمه الهم ، الواله : الذاهب عقله حزنا ، والوهن : الضعف . (٣) الحب بالكسر : المحبوب ، والحسير : المتلهف .
(٤) الجدث : القبر . (٥) فى نسخة أ الصبابة .

وذاك أحقُّ ما سالَتْ عليه * نفوسُ الناس أو كَرَبَت تَسيلُ
نبيٌّ كان يَحْلُو الشكّ عنها[1] * بما يُوحَى إليه وما يَقولُ
ويَهْدِينا فلا نَخْشَى ضلالا * علينا والرسُولُ لنا دَليلُ
أفاطِمُ إن جَزِعْتِ فذاكَ عُذْرٌ * وإن لم تَجْزَعِى ذاك السَّبيلُ
فقَبْرُ أبيك سَيِّدُ كلِّ قَبْرٍ * وفيه سَيِّدُ النّاس الرسولُ

وقال عبد الله بن أُنيس :

تَطاوَلَ لَيْلِى واعترتنى القَوارِعُ * وخَطْبٌ جليلٌ للبليّة جامعُ
غداةَ نَعَى الناعى إلينا محمدًا * وتلك التى تَسْتَكّ منها المَسامعُ
فلو رَدَّ مَيْتًا قتلُ نفسى قتلتُها * ولكنّه لا يدفَعُ الموتَ دافعُ
فآليتُ لا آسَى على هُلْك هالكٍ * من الناس ما اوْفَى ثَبِيرٌ وفارِعُ
ولكِنَّنى باكٍ عليه ومُتْبِعٌ * مُصيبتَهُ إنّى إلى الله راجعُ
وقد قَبَضَ اللهُ النبيِّين قبلَه * وَعادٌ أصيبَت بالرُّزَى والتّبابِعُ[2]
فياليتَ شِعْرى من يقوم بأمرنا * وهل فى قريش من إمام يُنازِعُ
ثلاثةُ رهْط من قريش هُمُ هُمُ * أزِمَّةُ هذا الأمر واللهُ صانِعُ[3]
عَلِىٌّ أو الصِّدّيقُ أو عُمَرٌ لها * وليس لها بعد الثلاثة رابِعُ
فإن قال مِنّا قائلٌ غيرَ هذه * أبَيْنا وقلنا اللهُ راءٍ وسامعُ
فيالَقُريشٍ قَلِّدوا الأمرَ بعضَهم * فإنّ صحيحَ القول للناسِ نافعُ
ولا تُبْطِئوا عنها فُواقًا فإنّها * إذا قُطِعت لم تُمْن فيها المطامِعُ[4]

١٤٩/١٦

(١) الضمير يعود على النفوس ؛ وفى المواهب « عنا » .
(٢) التبابع : ملوك اليمن جمع تبع . (٣) أزمة : جمع زمام .
(٤) فواق : من الزمن مقدار ما بين الحلبتين .

وقال حسان بن ثابت الأنصاريّ :

آليتُ حلفةَ برٍّ غير ذى دَخَل * مِنِّى إليّةَ حقٍّ غير إفنادِ (١)

تالله ما حملتْ أنثى ولا وضعت * مثلَ النبيِّ نبيِّ الرحمة الهادى

ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد * أوفى بذمّة جارٍ أو بميعاد

من الذى كان نورًا يُستضاء به * مُباركَ الأمر ذا حزم وإرشاد

مُصدِّقا للنبيين الأُلَى سلفوا * وأبذلَ الناسِ للمعروف للجادى (٢)

خيرَ البريّة إنّى كنتُ فى نَهَرٍ * جارٍ فأصبحتُ مثل المُفرَدِ الصادى (٣)

أمسى نساؤك عطّلنَ البيوتَ فما * يَضِربْن خلفَ قفا سِترٍ بأوتاد

مثلَ الرواهب يَلبَسنَ المُسوحَ وقد * أيقنّ بالبُؤس بعد النِّعمة البادى (٤)

وقال أيضا :

ما بالُ عينكَ لا تنام كأنّما * كُحِلَتْ مآقيها بكُحلِ الأرمدِ

جزعا على المَهْدىِّ أصبحَ ثاويًا * يا خيرَ من وَطِئ الحصى لا تبعُدِ

يا وَيحَ أنصارِ النبيِّ ورَهْطِه * بعد المغيَّب فى سَوَاءِ المُلحَدِ

جنْبِى يَقِيك التُّربَ لَهْفِى ليتَنِى * غُيِّبتُ قبلَك فى بَقِيعِ الغَرقَدِ (٥)

يا بِكْرَ آمنةَ المبارَكَ ذِكْرُه * وَلَدَتْه مُحْصَنةً بسَعْدِ الأسعُدِ (٦)

نورًا أضاء على البَرِيّة كلِّها * من يُهْدَ للنورِ المبارَكِ يَهْتَدِى

---

(١) دخل : خديعة ومكر . إفناد : كذب .

(٢) الجادى : طالب الجدوى وهى العطية .

(٣) الصادى : من الصدى وهو العطش الشديد .

(٤) البادى : أى الظاهر ، نعت للبؤس .

(٥) فى ديوان حسان : وجهى يقيك ، وبقيع الغرقد : مقبرة المدينة .

(٦) محصنة : عفيفة ، وسعد السعود : منزلة من منازل القمر ، والمراد اليمن والبركة .

أأقيمُ بعدَك بالمدينة بينهم * يالهفَ نفسى ليتنى لم أُولَدِ
بأبى وأمّى من شهدتُ وفاته * فى يوم الاثنين النبىّ المهتدى
وظللتُ بعد وفاته متبلّدا(١) * ياليتنى صُبِّحتُ سُمَّ الأسودِ(٢)
أو حلَّ أمرُ الله فينا عاجلا * فى روحة من يومنا أو فى غد
فتقوم ساعتنا فنلقى سيّدا * محضًا مضاربُه كريمَ المحتِدِ(٣)
يا ربِّ فاجمعنا معًا ونبيَّنا * فى جنة تُفْقِى(٤) عيونَ الحُسَّدِ
فى جنّة الفردوس فاكتبْها لنا * ياذا الجلالِ وذا العُلا والسُّؤدَدِ
واللهِ أسمعُ(٥) ما حييتُ بهالكٍ * إلّا بكيتُ على النبىّ محمّدِ
ضاقت بالانصار البلادُ فأصبحوا * سُودًا وجوهُهم كلون الإثمدِ
ولقد ولدناه وفينا قبرُه * وفضولُ نعمته بنا لم يُجحدِ(٦)
والله أهداهُ لنا وهدى به * أنصارَه فى كلِّ ساعةِ مشهدِ
صلّى الإلهُ ومَنْ يحفُّ بعرشِه * والطيّبون على المبارَك أحمدِ

ووقفت فاطمة الزّهراء رضى الله عنها على قبره صلى الله عليه وسلم فقالت : ١٥٠/١٦

ما ضرّ من قد شمّ تربةَ أحمد * ألا يشمّ مدى الزمان غواليا(٧)
صُبّت علىّ مصائبٌ لو أنها * صُبّت على الأيّام صِرْنَ لياليا

وقالت رضى الله عنها :

أغبرّ آفاقُ السّماءِ وكُوِّرتْ * شمسُ النهارِ وأظلمَ العصرانِ

(١) متبلدا : متحيرا متلهفا ، وضد التجلد . (٢) الأسود : الحية العظيمة .
(٣) المحض : الخالص ، ومضاربه : أصله وقومه وأبوه وشرفه ، وفى ديوانه : ضرائبه وهى السجايا ، والمحتد : الأصل . (٤) تفقى : تقلع ، وفى الديوان : تثنى : أى تصرف .
(٥) يريد لا أسمع . (٦) «لا تجحد» فى الأصول ، وفى الديوان : لم يجحد .
(٧) الغواليا جمع غالية : وهى خلاط من الطيب .

والأرضُ مِنْ بعْـدِ النبيِّ كئيبةٌ * أسَفًا عليه كثيرةُ الرَّجَفَانِ
فلْتَبْكِهِ شَرْقُ البِلادِ وغَرْبُها * ولْتَبْـكِهِ مُضَرٌ وكُلُّ يَمَانِي
ولِيَبْـكِهِ الطَّـوْدُ المعظَّمُ جَوُّه * والبَيْتُ ذو الأسْتَارِ والأرْكانِ (١)
يا خاتَمَ الرُّسْلِ المبارَكِ صِنْوُه (٢) * صَلَّى عَلَيْـكَ مُنَزِّلُ الفُرْقانِ
نفْسي فِـدَاؤك ما لِرأْسِـك مَائلا * ما وَسَّـدُوك وِسَادَةَ الوَسْـنَانِ

وقالت صفية بنت عبد المطلب :

أفاطِـمُ بَكِّي ولا تَسْأَمِي * بصُبْحِكِ (٣) ما طلع الكَوْكَبُ
هو المَرْءُ يُبْكَى وحُقَّ البُكَا * على الماجِدِ السَّـيدُ الطَّيِّبُ (٤)
فأوْحَشَتِ الأرضُ مِن فَقْـدِه * وأيُّ البَرِيَّةِ لا يُنْكَبُ
فمالِيَ بعْـدَكَ حتى المَمَا * تِ إلّا الجَوَى الدّاخِلُ المُنْصِبُ (٥)
فبَكِّي الرسُـولَ وحُقَّتْ له * شُهُـودُ المدينَـةِ والغُيَّبُ
لَتَبْـكِكَ شَمْطاءُ مَضْرورَةٌ * إذا حُجِبَ النّاسُ لا تُحْجَبُ (٦)
لَيَبْـكِكَ شَـيْخٌ أبو وِلْدَةٍ * يطُـوف بعَقْـوَتِهِ أشْهَبُ (٧)
ويَبْكِكَ رَكْبٌ إذا أرْمَلُوا * فـلم يُلْفَ ما طَلَبَ الطُّلَّبُ (٨)
وتَبكى الأباطِحُ مِن فَقْـدِه * وتَبْـكيه مَكّةُ والأخْشَبُ (٩)
فعَيْـنَيَ مالك لا تَدْمَعِـينَ * وحُـقَّ لدَمْعِـكِ يُسْتَسْكَبُ

(١) الطود : الجبل ، والجو هنا : الأودية . (٢) الصنو : المثل .
(٣) فى ج « فصبحك ... » . (٤) كذا فى الأصول وفى الطبقات : « هو الماجد ... » .
(٥) الجوى : الحزن ، المنصب : المتعب . (٦) الشمطاء : العجوز المبيضة الشعر ، المضرورة التى أصيبت بالضرر . (٧) الولدة بكسر الواو : الأولاد ، والعقوة : الساحة ، والأشهب : الجدب والفقر . (٨) أرملوا : نفد زادهم . (٩) الأخشب : جبل مشرف على مكة ، وهما أخشبان : أبو قبيس والأحمر مطيفان بمكة .

وقالت صفية أيضا :

عَيْنِ جودِى بدَمْعة تَسْكاب * للنَّبِىّ المطهَّر الأَوّابِ
عين مَن تَنْدِبين بعد نَبِىٍّ * خَصَّه الله ربُّنا بالكِتَابِ
فاتحٌ خاتِمٌ رءوفٌ رحيمٌ * صادِقُ القِيلِ طيِّب الأثْوابِ
مُشْفِق ناصِح شفيق علينا * رحمة من إلهِنا الوَهّابِ
رحمةُ اللهِ والسّلامُ عليه * وجزاه المليكُ حسنَ الثّوابِ

وقالت أرْوَى بنت عبد المطلب :

ألَا يا عيْنِ ويْحَكِ أسعِدِينِى * بدَمْعك ما بقيتِ وطاوِعينِى
ألَا يا عيْنِ وَيحَكِ وٱستَهِلِّى * على نُور البلادِ وأسْعِدِينِى
فإن عَذَلتْكِ عاذلةٌ فقُولِى * عَلَامَ وفِيمَ ويْحَكِ تعْذِلِينِى (١)
على نُورِ البلاد معًا جميعًا * رسولِ الله أحمد فٱتْرُكِينِى
فإلَّا تُقْصِرى بالعَذْل عَنِّى * فلُومِى مَا بَدَالَكِ أو دَعِينِى
لِأَمْرٍ هَدَّنِى وأذَلّ رُكْنِى * وشَيَّبَ بعدَ جِدَّتها قُرُونِى

وقالت عَاتِكَةُ بنت عبد المطلب :

يا عينِ جُودِى ما بقِيتِ بعَبْرة * سَحًّا على خيرِ البريّة أحمد
ياعيْن فٱحتَفِلِى وسُحِّى وٱسْمَحِى * فابْكِى على نور البلادِ محمّد (٢)
أنَّى لَكِ الوَيلاتُ مثلُ محمّدٍ * فى كُلِّ نائبَةٍ تَنُوبُ ومَشْهَدِ
فٱبْكِى المباركَ والموفّقَ ذَا التُّقَى * حامِى الحقيقةِ ذا الرّشاد المُرْشِد
من ذَا يَفُكّ عن المُغَلّل غُلَّهُ * بعد المُغَيَّب فى الضّريح المُلْحَد

(١) العاذلة : اللائمة .

(٢) ٱسمحى : جودى . فى الطبقات : وٱسجمى : من سجم الدمع إذا سال .

أمْ مَنْ لكلِّ مُدَفَّعٍ ذِى حاجة * ومُسلسَلٍ يَشْكو الحديد مُقَيَّدِ (١)
أم مَنْ لِوَحى الله يَنْزِلُ بيننا * فى كلِّ مُمْسَى ليلةٍ أو فى غَدِ
فعليك رحْمَةُ رَبِّنا وسلامُه * ياذا الفَوَاضِل والنَّدَى والسُّؤدَدِ

وقالت هند بنت أثاثة بن عَبّاد بن المطّلب بن عبد مَنَاف أخت مِسْطَح :

أَشَابَ ذوَائبِى وأذَابَ رُكْنِى * بُكاؤكِ فاطِمُ المَيْتَ الفقيدَا (٢) ٥
فأعطيْتَ العَطاء فلم تُكَدِّرْ * وأَخْدمْتَ الوَلائِدَ والعَبِيدَا (٣)
وكُنتَ ملاذَنا فى كلِّ لِزْبٍ * إذا هَبَّت شآمِيةٌ بَرُودَا (٤)
وإنّك خَيرُ من رَكِب المَطايَا * وأكْرَمُهم إذا نُسِبُوا جُدُودَا
رسولُ الله فارَقَنا وكُنّا * نُرَجِّى أن يكون لنا خُلُودَا
أفاطِم فاصْبِرِى فلقد أصَابَتْ * رزِيّتُكِ التَّهَائِمَ والنُّجُودَا (٥) ١٠
وأهلَ البَرِّ والأبْحَارِ طُرًّا * فلم تُخْطِئْ مصيبتُه وَحِيدَا
وكان الخَيرُ يُصْبِح فى ذُرَاه (٦) * سَعيد الجَدِّ قد وَلَد السُّعُودَا

ورثاه صلى الله عليه وسلم غير هؤلاء مما لو اسْتَقْصَيْنا ذلك لطال، واتّسع فيه المجال، ومَراثيه صلى الله عليه وسلم ومدائحه كثيرةٌ تزداد فى كل عصر، وتَتَضاعف فى كلِّ دهر، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا . ١٥

(١) المدفع : الفقير الذليل .
(٢) الذوائب (جمع ذؤابة) : شعر الناصية ، والركن : الجانب الأقوى
(٣) الولائد : الجوارى .
(٤) اللزب : الطريق الضيق ، والمراد الشدة . وفى أ : « كرب » .
(٥) التهائم : المنخفضات من الأرض ، والنجود : المرتفعات ، أى جميع البلاد . ٢٠
(٦) ذراه : أعلاه ، والجد : الحظ .

[صورة ما هو مكتوب بآخر هذا الجزء بنسخة ا]

كمل الجزء السادس عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب، للنويرى رحمه الله تعالى .

وكان الفراغ منه فى يوم الاثنين المبارك تاسع جمادى الأولى سنة سبع وستين وتسعمائة، على يد كاتبه أفقر الخلق إلى رحمة ربه نورِ الدين بن شرف الدين العاملىّ، غفر الله له ولوالديه، ولمن يقرأ له ولهم الفاتحة آمين .

[صورة ما هو مكتوب فى آخر هذا الجزء أيضا بنسخة جـ]

كمل الجزء السادس عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب على يد مؤلفه فقير رحمة ربه : أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكرىّ التيمىّ القرشىّ المعروف بالنويرىّ عفا الله عنهم .

ووافق الفراغ من كتابته فى يوم السبت المبارك لأربع بقين من شهر رمضان المعظم عام اثنين وعشرين وسبعمائة ؛ أحسن الله تقضيها، بالقاهرة المعزية عمرها الله تعالى .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول الجزء السابع عشر الباب الثانى من القسم الخامس من الفن الخامس فى أيام الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين .

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

***

أتممنا بعون الله تعالى تحقيق الجزء الثامن عشر من كتاب « نهاية الأرب في فنون الأدب » من تجزئة طبعة الدار ، في يوم السبت ١٤ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٤ هـ (١١ من ديسمبر سنة ١٩٥٤ م) .

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع عشر، وأوّله : «الباب الثانى من القسم الخامس فى أخبار الخلفاء الراشدين » ٥

محمد محمد حسنين
المصحح بالقسم الأدبى

إبراهيم إطفيش
المصحح بالقسم الأدبى

فهـــرس المـــراجع

أسباب النزول للواحدى ، هندية ١٣١٥

الاستيعاب لأبى عمر بن عبد البر ، حيدر آباد ١٣١٨

أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير؛ الوهبية سنة ١٢٨٠

الاشتقاق لابن دريد ، جوتنجن ١٨٥٤ م .

الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، السعادة والشرفية سنة ١٣٢٣

الأصنام لابن الكلبى دار الكتب ١٣٤٣

البداية والنهاية لابن كثير، السعادة ١٣٤٨

تاريخ الطبرى ، ليدن ١٨٨٩ م .

تفسير الثعلبى مخطوط ، رقم ١٢٤٦ تفسير .

تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ، حيدر آباد ١٣٢٧

الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبى ، دار الكتب المصرية .

الجامع الصغير للسيوطى ، بولاق سنة ١٢٨٦

دلائل النبوة للبيهقى مخطوط ، رقم ٢١٢ حديث .

دلائل النبوة لأبى نعيم الأصفهانى ، حيدر آباد ١٣٢٠

ديوان الأعشين ، بيانة ١٩٢٧ م .

ديوان حسان بن ثابت الأنصارى ، الرحمانية ١٣٤٧

ديوان لبيد بن ربيعة ، ليدن ١٨٩١م . ومخطوط دار الكتب ٥٤٧ أدب .

الروض الأنف لأبى القاسم السهيلى ، الجمالية ١٣٣٢

سنن النسائى ، الميمنية ١٣١٢

السيرة الحلبية ، بولاق ١٢٩٢

شرح أبى شامة على القصيدة الشقراطيسية مخطوط رقم ٢٤٧ أدب بدار الكتب . ورقم ١٦١١٦ ز .

سيرة ابن هشام ، جوتنجن ١٨٥٨ م . والحلبى بمصر ١٣٥٥

شرح بانت سعاد لابن هشام ، بولاق سنة ١٢٩٠

شرح البخارى للقسطلانى ، بولاق ١٢٩٣

شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ، دار الكتب ١٣٦٣

شرح ديوان كعب ، دار الكتب ١٣٦٩

شرح ديوان لبيد برواية الطوسى ، فينا ١٨٨٠ م .

شرح السيرة النبوية لأبى ذر، الخشنى ، مطبعة هندية ١٣٢٩

شرح الشفا للشهاب الخفاجى ، الآستانة ١٢٦٧

شرح قصيدة الأعشى الدالية مخطوط رقم ١٧٣٦ أدب بدار الكتب .

شرح المواهب للزرقانى ، المطبعة الأميرية بولاق ١٢٧٨

الشفا للقاضى عياض ، الآستانة ١٢٩٠

صحيح البخارى ، المطبعة الأميرية ١٢٩٦

صحيح الترمذى ، بولاق ١٢٩٢

صحيح ابن ماجه ، مصر ١٣١٣

صحيح مسلم : بولاق ١٢٩٠ والآستانة ١٣٣١

الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ، ليدن ١٣٢٢

عقد الجمان ، فى تاريخ أهل الزمان نسخة مصورة بدار الكتب رقم ٧١ م .

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الثامن عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

فهرس

السِّفر الثامن عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرىّ

صفحة

وفادات العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم

مَنْ وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل الهجرة ... ١

وفد غِفار، وقصة أبى ذَرٍّ الغِفَارىّ، وسبب إسلامه وإسلام أخيه وأمّه، ثم إسلام غِفار ٢

طعام أبى ذَرٍّ من ماء زَمْزم، وظهور فائدته وبركته، وما قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤

وفد أزد شَنُوءَة، وكيف كان إسلامُ ضِمَادٍ ٧

وفد هَمْدان ٨

عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لهَمْدان ١١

وفادة الطُّفَيل بن عمرو الدَّوْسىّ وإسلامه، وذكر إحدى معجزاته صلى الله عليه وسلم ١٣

وفادة نصارى الحبشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما نزل فيهم من القرآن ١٥

مَنْ وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وقبل الفتح ١٦

وفد عَبْس ١٧

وفد سعد العَشِيرة، وذكر صنمها فَرَاص وتحطيمه ١٨

صفحة

وفد جُهَينة ١٨

وفد مُزَينة ١٩

وفد سعد بن بكر ، وذكر ما كان من ضِمَام بن ثعلبة ، رسول سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٠

وفد أَشْجَع ٢٢

وفد خُشَيْن والأشْعَرين وسُلَيْم وإسلام الخَنْساء ٢٣

وفد دَوْس ٢٦

وفد أَسْلَم ٢٧

وفد جُذَام... ... ... ٢٨

من وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة

وفد ثعلبة وأسد ، وما نزل فى ذلك من القرآن ٣٠

وفد تميم ، وما وقع فى ذلك من مفاخرة بين تميم والأنصار بالخطب والشعر ، وما نزل فى وفد تميم من القرآن ٣٢

وفد فَزارة ، واستسقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ٤١

وفد مُرَّة ٤٢

وفد مُحارب ، وكِلاب ٤٣

وفد رُؤاس بن كلاب... ... ... ٤٤

وفد عُقيل بن كعب ، وكتاب رسول الله لهم ٤٥

وفد جَعْدة ، وقُشَيْر بن كعب ٤٧

وفد بنى البَكّاء ، وما ظهر فى ذلك من بركة رسول الله لبشر بن معاوية ٤٨

وفد كنانة و بنى عبد بن عدىّ ٤٩

وفد باهلة ، وهلال بن عامر ، ووفود زياد بن عبد الله ٥٠

صفحة

وفد عامر بن صَعْصَعة ، وخبر عامر بن الطُّفَيل وأَرْبد بن قيس ، ومحاولة عامر وأَرْبد آغتيال رسول الله ، وما ظهر فى ذلك من عصمة الله رسوله ، ونزول القرآن فى ذلك ٥١
خبر أحد طواغيت العرب ٥٧
وفد ثقيف وإسلامها وهدم اللّات ،وما فى ذلك من حصار الطائف ، وآستخدام الدبابات ٥٩
عهد رسول الله لثقيف ، وإرساله أبا سفيان لهدم اللّات ٦٣
قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم دَيْنًا من مال اللّات ٦٥
وفد عبد القيس ٦٥
وفد بكر بن وائل ٦٧
خبر أعشى قيس ، وذكر قصيدته التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٦٨
وفد تَغْلِب ، وحنيفة ٧٢
خبر مُسَيْلمة الكذّاب ، وآدّعائه النبوة ٧٣
وفد شَيْبان ، وخبر قَيْلة بنت مَخْرمة مع حُريث بن حسان فى شأن الدّهناء ٧٤

وفادات أهل اليمن

وفد طيئ وخبر زيد الخيل ، وعدىّ بن حاتم ٧٦
خبر عدىّ بن حاتم ، وبعث رسول الله عليًّا لهدم صنم طيئ وأسره سَفَّانة بنت حاتم ٧٧
وفد تُجيب ٨١
وفد خَوْلان ٨٢
وفد جُعْفِىّ ، وخبر الموءودة والوائدة التى سألوا عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ٨٣
وفد مُراد ، وخبر فَرْوَة بن مُسَيْك المرادىّ ٨٤

صفحة

وفد زُبَيد، وأخبار عمرو بن معدى كرب ٨٥

وفد كِنْدَة والهيئة الممتازة التى ظهروا بها ٨٧

وفد الصَّدِف وسعد هُذَيْم ٨٩

وفد بَلِيّ و بَهْراء ٩٠

وفد عُذْرة ٩١

وفد سَلَامان ٩٢

وفد كَلْب، وعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل دُومة الجَنْدل ٩٣

وفد جَرْم، وخبر عمرو بن سَلِمة، وأنه كان يتلقّى القرآن من المسافرين وهو ابن ست ٩٤

وفد الأزد وأهل جُرَش ٩٦

وفد غسان، ووفد الحارث بن كعب ٩٨

عهد رسول الله لعمرو بن حزم ١٠٠

وفد عَنْس ١٠٣

وفد الدارِيِّين وما كتب لهم به رسول الله، وما اختص به تميم الدارِىّ وإخوته ١٠٤

وصف المؤلف للعهد النبوىّ الذى كتبه لتميم كما رآه فى بيت التميميين، ونص العهد ١٠٥

وفد الرَّهاوِيِّين ١٠٧

وفد غامِد والنَّخَع، وذكر رؤيا رآها زُراة بن عمرو فسّرها له رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠٨

وفد بَجِيلة، وبعث رسول الله جرير بن عبد الله البجلىّ لهدم ذى الخَلَصة وما ظهر من بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ١١٠

وفد خَثْعَم ١١١

وفد حَضْرَمَوْت، وذكر وائل بن حُجْر الحضرمىّ ملك الحضارم ١١٢

صفحة

كتاب رسول الله لوائل بن حُجْر، وما فيه من جوامع الكلم، وأصول الأحكام ١١٣

وفد مِخوس بن معدى كرب أحد أقيال كندة ١١٤

وفد أزد عُمان، وإرسال رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمىّ إلى عمان ليعلمهم الشرائع ١١٤

وفد غافق وبارق، وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبارق ١١٥

وفد ثُمَالة والحُدّان ١١٦

وفد مَهْرة، وعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ١١٧

وفد حِمْيَر، وعهد رسول الله لهم، وذكر رسل رسول الله إلى زُرْعة ذى يَزَن ١١٨

وفد جَيْشَان، وسَلُول ١٢٠

وفد نجران وسؤالهم رسول الله، وما أنزل الله فيهم من القرآن ... ١٢١

ما يتوارثه رؤساء نَجْران من ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ١٢٣

تفسير آيات من أوائل سورة آل عمران ١٢٤

ذكر آية المباهلة وتفسيرها، وما كان من تخوّف النصارى من المباهلة ١٣٤

كتاب أمير المؤمنين عمر لنجران ١٣٧

خبر إسلام الجنّ ودعائهم قومهم إلى الإيمان عند سماعهم القرآن ١٣٨

ذكر إخبار الجنّ أصحابهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٤١

خبر سواد بن قارب، وإخبار الجنّ له بمبعث رسول الله، وإنشادهم الشعر فى ذلك ١٤٢

خبر خُفَاف بن نَضْلة الثقفىّ ١٤٦

أول خبر قدم المدينة عن مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من الجنّ ١٤٧

صفحة

خبر تميم الدارىّ بما سمع من الجنّ ١٤٧

خبر أبى خُرَيْم فاتك ، وما سمع من الجنّ عن مبعث رسول الله ... ١٤٧

خبر مالك بن نُفَيْع ١٤٩

خبر ذُباب وكلام الصنم فَرّاص — أو نرّاض — وظهور جنىّ له
فى صورة كلب وحديثه له ١٥٠

ما رُوى عن ربيعة بن أبى بَرَاء من إخبار الجنّ برسول الله صلى الله
عليه وسلم ١٥٤

ذكر رُسُل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وكتبه إليهم ... ١٥٦

ما نقش فى خاتمه عليه والسلام ١٥٧

ذكر تكلم رسله بلغة من أرسلوا إليهم بإلهام من الله ، وخطبته فى رسله
حين بعثهم ١٥٧

إرسال عمرو بن أمية الضَّمْرىّ إلى النجاشى ملك الحبشة ١٥٧

تزويج النجاشى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة ، و إصداقه
إياها عنه ١٥٨

إرسال دحية الكلبىّ إلى قيصر ملك الروم ، وكتاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم إليه ١٥٨

حديث هِرَقْل مع ركب قريش فى أمره عليه السلام ١٥٩

ما حصل من الروم عند سماعهم قراءة الكتاب النبوىّ ، وقول ابن
الناطور صاحب إيلياء ١٦١

إرسال عبد الله بن حُذافة السَّهمىّ إلى كسرى ١٦٣

إرسال حاطب بن أبى بَلْتَعة إلى المُقَوْقِس ١٦٤

إرسال شجاع بن وهب الأسدىّ إلى الحارث الغسانىّ ملك البلقاء ١٦٥

إرسال سَليط بن عمرو العامرىّ إلى هَوْذة بن على ملك اليمامة ١٦٦

إرسال العلاء بن الحضرمىّ إلى المنذر ملك البحرين ، ومعه أبو هريرة ١٦٦

صفحة
بعثه صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلى ملكى عُمَان ١٦٧
بعثه المهاجر بن أمية إلى ملك اليمن ١٦٨
بعثه أبا موسى الأشعرىّ ومعاذ بن جبل إلى اليمن، وجرير بن عبد الله البَجَلىّ إلى ذى الكُلاع وذى عمرو ١٦٨
ذكر كتابه إلى جَبَلة بن الأيهم ١٦٩
إرساله الأمراء والعمال إلى الأقطار الإسلامية ١٦٩

أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم

أمّ المؤمنين خديجة أوّل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧٠
سَوْدة بنت زَمعة ١٧٣
عائشة بنت أبى بكر الصدّيق ١٧٤
حكم من سبّ أبا بكر أو سبّ عائشة ١٧٥
حفصة بنت عمر بن الخطاب ١٧٦
زينب بنت خُزَيمة ١٧٨
أمّ سلمة هند بنت أبى أمية ١٧٩
زينب بنت جحش بن رئاب ١٨٠
ثناء عائشة على زينب بنت جحش ١٨١
جُوَيْرِية بنت الحارث ١٨٢
رَيْحانَة بنت زيد بن عمر ١٨٤
أمّ حبيبة رملة بنت أبى سفيان، وذكر زواجها وهى بالحبشة ١٨٤
صفية بنت حُيَى بن أخطب ١٨٦
رؤيا صفية قبل زواجها برسول الله صلى الله عليه وسلم ١٨٧
ميمونة بنت الحارث ١٨٨

صفحة

ذكر من تزوّجهنّ صلى الله عليه وسلم ولم يدخل بهنّ ومن دخل بهنّ وطلقهنّ ، ومن وهبت نفسها له

فاطمة بنت الضحاك ١٩٠
عمرة بنت يزيد بن الجَوْن ١٩٢
العالية بنت ظِبْيان، وأسماء بنت النعمان ١٩٢
أميمة بنت شراحيل ١٩٤
قُتيلة بنت قيس ١٩٥
عَمرة بنت معاوية الكندية ، وأسماء بنت الصَّلْت ١٩٦
مُلَيكة بنت كعب الليثى ١٩٧
ٱبنة جُنْدب بن ضَمْرة الجُنْدُعىّ ١٩٧
الغِفارية ، وخَولة بنت الهُذيل، وشَرَاف بنت خليفة الكلبية ١٩٨
خَولة بنت حكيم ، وليلى بنت الخطيم ١٩٩
ليلى بنت حكيم الأنصارية، وأم شريك غُزَية... ... ... ٢٠١
الشَّنباء ٢٠٣

مَنْ خطبهنّ صلى الله عليه وسلم ولم يتفق تزويجهنّ

أمّ هانئ بنت أبى طالب ، وضُباعة بنت عامر بن قُرْط ٢٠٤
صفية بنت بَشَامة، وجَمرة بنت الحارث، وسودة القرشية ٢٠٥
أُمامة بنت عمه حمزة ٢٠٦
أزواجه صلى الله عليه وسلم من العرب وأزواجه من غيرهم ٢٠٦
الخلاف فى عدد من تزوّجهنّ ٢٠٧
سراريه صلى الله عليه وسلم ٢٠٧

صفحة

أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم

إبراهيم ٢٠٨
وفاة إبراهيم وتأثره عليه السلام وما قاله حينئذ... ... ... ٢١٠
زينب ٢١١
رقيـة ٢١٢
فاطمة ٢١٣
أم كلثوم ٢١٤

ذكر أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحـارث ٢١٥
قُثم بن عبد المطلب، والزبير، وحمزة، والعباس ٢١٦
ٱستسقاء عمر بالعباس ٢١٧
دعاء الٱستسقاء ٢١٨
أولاد العباس ٢١٩
أبو طالب، وأبو لهب ٢٢٠
عبد الكعبة، وحَجْل، وضرار، والغَيْداق ٢٢١

ذكر عمات رسول الله صلى الله عليه وسلم

صـفية ٢٢١
عاتكة بنت عبد المطلب ، وأروى ، وأميمة ٢٢٢
بَرّة بنت عبد المطلب، وأم حكيم البيضاء ٢٢٣

خدم رسول الله الأحرار وعددهم

أنس بن مالك ٢٢٣
هِند وأسماء ٱبنـا حارثة، وربيعة بن كعب ٢٢٤

صفحة

عبد الله بن مسعود ٢٢٥

عُقْبة بن عامر، وبلال بن رباح، وسعد مولى أبى بكر ٢٢٦

ذو مِخْمَر بن أخى النجاشى، وبُكَيْر بن شَدّاخ، وأبو ذَرٍّ الغِفارىّ ٢٢٧

أَسْلَع بن شَريك، وأبو سلام الهاشمىّ ٢٢٨

موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم

زيد بن حارثة، وأسامة بن زيد، وثَوْبان بن بُجْدُد ٢٢٩

أبو كبشة، وأَنَسة، وشُقْران، ورَباح، ويَسار ٢٣٠

أبو رافع، وأبو مُوَيهِبَة، ورافع، وفُضالة، ومِدْعَم، وكَرْكَرَة ٢٣١

زيد، وعُبَيْد، وطَهْمان، ومَابُور، وواقد، وأبو ضُمَيْرة، وحُنَيْن ... ٢٣٢

أبو عَسِيب، وسفِينَة، وأبو هند، وأَنْجَشَة ٢٣٣

أُنيسة، وأبو لُبَابَة، ورُوَيْفع، وسعد... ... ... ٢٣٤

ذكر جماعة أُخَر من الموالى ٢٣٤

موالى رسول الله من النساء ٢٣٥

حراسه وكُتّابه ٣٣٦

رفقاؤه النجباء ٢٣٧

صفاته الذاتية ٢٣٧

وصف خاتم النبوّة ٢٤٢

صفة شعره وطوله ٢٤٢

عدد شيبه ٢٤٣

ما كان يخضب به ٢٤٤

صفاته المعنوية ٢٤٥

ما ورد فى أكله وشربه ونومه والأصناف التى أكل منها، وأحبّ
ماكول إليه ٢٤٦

صفحة

نومه صلى الله عليه وسلم وضحكه ٢٤٨

نكاحه صلى الله عليه وسلم وما يتصل به ٢٤٩

خلقه، وحلمه، وآحتماله، وعفوه، و بعض من عفا عنهم... ... ... ٢٥٠

جوده، وكرمه، وسخاؤه، وسماحته ٢٥٣

شجاعته، ونجدته ٢٥٤

حياؤه، وإغضاؤه ٢٥٦

حسن عشرته وأدبه و بسط خلقه صلى الله عليه وسلم ٢٥٦

عمله مع أصحابه ٢٥٨

شفقته ورأفته ورحمته لجميع الخلق ٢٥٩

وفاؤه وحسن عهده وصلته للرَّحِم ٢٦٠

تواضعه صلى الله عليه وسلم ٢٦٢

قصيدة فى شىء من صفاته ٢٦٤

عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته ٢٦٥

وقاره وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه ٢٦٦

زهده فى الدنيا ٢٦٧

خوفه من الله وطاعته له وشدة عبادته ٢٦٨

نظافة جسمه، وطيب ريحه وعَرَقه، ونزاهته عن الأقذار، وعورات الجسد ٢٧٠

حديث هِنْد بن أبى هالة وما تضمنه من أوصافه الذاتية والمعنوية ٢٧١

مجلسه وما كان يصنع فيه ٢٧٧

سيرته فى جلسائه ٢٧٨

أحواله وما ناله من شدّة العيش فى دنياه ٢٧٩

صفحة
تطيبه ولباسه وألوانه وأصنافه ، وطوله وعرضه ٢٨٣
الثياب الصّفر ٢٨٤
الثياب الخضر والسواد من ثيابه ، وأصناف لباسه وطولها وعرضها ، والصوف وما ورد فيه ٢٨٥
الحبرة من برود اليمن والسندس والحرير ، وما ورد أنه لبسها ثم تركها ٢٨٦
ما ورد فى ثيابه — صلى الله عليه وسلم — القطنية وأنواعها ٢٨٧
صفة إزرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعائه عند لبسه جديدا ٢٨٨
فراشه ووسادته ٢٨٩
ما لبسه من الخواتم ، والخلاف فى ذلك ٢٩٠
نعله وخفاه ومرآته وقدحه وغير ذلك من أثاثه ٢٩٢
ما ورد فى حجامته وحجّامه ، وما قال فى الحجامة ٢٩٤
سلاحه وأصنافه وأسماؤه ٢٩٦
ذكر دوابه من الخيل والبغال والحمير وأسمائها ٢٩٩
ذكر أنعامه من إبل وغنم وأسمائها وعددها ٣٠١
معجزاته ٣٠٢
أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم وهى القرآن ، ووجوه إعجازه ٣٠٣
الكلام على انشقاق القمر ٣٠٨
رجوع الشمس بعد غروبها ، وحبسها ٣١٠
نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ٣١١
تفجير الماء وانبعاثه وتكثيره ببركته ودعائه ٣١٢
تكثير الطعام ببركته ودعائه ٣١٤
كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوّة ٣١٨

صفحة
قصة حنين الجذع إليه ٣٢٠
نطق الجمادات له ٣٢١
كلام الحيوانات وسكونها إذا رأته صلى الله عليه وسلم ٣٢٣
تسخير الأسد لسفينة مولاه صلى الله عليه وسلم ٣٢٧
كلام الأموات والأطفال له ٣٢٨
إبراء المرضى وذوى العاهات بريقه صلى الله عليه وسلم ٣٣٠
شفاء الجراحات بتفله ٣٣٢
إجابة دعائه... ... ... ٣٣٣
انقلاب الأعيان بلمسه ومباشرته ٣٣٥
إخباره بالغيوب... ... ... ٣٣٧
عصمته من الناس ٣٤٢
ما جمعه الله له من العلوم والمعارف ٣٤٤
القصيدة الشقراطيسية فى معجزاته ، وصفاته صلى الله عليه وسلم ٣٤٧
ما أنزل عليه عند اقتراب أجله ٣٥٩
استغفاره صلى الله عليه وسلم لأهل البقيع ٣٦١
ذكر ابتداء وجعه واستئذانه نساءه أن يمرض فى بيت عائشة ... ٣٦٣
خطبته وأمره بسد الأبواب إلى مسجده إلا باب أبى بكر ٣٦٤
ما قاله فى مرضه لأبى بكر... ... ... ٣٦٦
أمره أبا بكر أن يصلى بالناس فى مرضه ٣٦٧
ما اتفق فى مرضه ولده... ... ... ٣٧٢
الكتاب الذى أراد أن يكتبه ثم تركه لما وقع عنده من التنازع ... ٣٧٣
وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المرض ٣٧٤
ما قاله عمر عند ما كثر اللغط ، والاختلاف فى حضرته صلى الله
عليه وسلم ٣٧٤

صفحة

ذكر أقوال العلماء فى الاعتذار عن عمر ٣٧٥
اختلاف العلماء فى معنى الحديث : «أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا» ٣٧٦
ما وصّى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه ٣٧٨
الدنانير التى قسمها فى مرضه الذى مات فيه ٣٨٠
تخيير رسول الله بين الدنيا والآخرة عند الموت ٣٨٢
ما قاله رسول الله عند نزول الموت به ٣٨٣
ذكر وفاته ٣٨٣
وفاته فى حجر عائشة ٣٨٤
ما حدث عند وفاته فى الناس من شك فى وفاته وهلع البعض ، وخطبة أبى بكر فيهم ٣٨٥
غسل رسول الله، وتعزية الخضر عليه السلام فيه ٣٨٨
تكفينه ٣٩١
الصلاة عليه ٣٩٢
قبره ولحده وفرشه ، ومن دخل قبره ، ووقت دفنه ، ومدة حياته ٣٩٣
وقت دفنه ومدة مرضه، وسنّه ٣٩٥
ميراثه وماروى فيه ٣٩٦
ما نال أصحابه من الحزن على فقده ٣٩٨
رثاؤه صلى الله عليه وسلم والقصائد فى رثائه ٣٩٩

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء التاسع عشر

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

جمهورية مصر العربية
وزارة الثقافة

المكتبة العربية
يصدرها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالاشتراك مع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة
١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا هو الجزء التاسع عشر من كتاب « نهاية الأرب » لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، تصدره الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بعد أن أصدرت دار الكتب منه ثمانية عشر جزءا .

ويشتمل هذا الجزء على تاريخ الثلاثة الأوائل من الخلفاء الراشدين : أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، وذكر صفاتهم ومناقبهم والأحداث التى عاصرت حياتهم ، والفتوح التى كانت فى أثناء خلافتهم .

وقد سرتُ فى تحقيقه على المنهج الذى سار عليه القسم الأدبى بدار الكتب فيما أخرج من أجزاء ؛ من الاعتماد على ما يقابل كل جزء من النسخ المخطوطة والمصورة بها .

وقد وافق هذا الجزء من هذه النسخ نسختان :

الأولى : النسخة المصورة عن مكتبة كبريلى بالأستانة ، وهى نسخة كاملة تقع فى واحد وثلاثين جزءا ؛ محفوظة بالدار برقم (٥٤٩ — معارف عامة) .

والثانية : نسخة مصورة عن نسخة محفوظة بمكتبة أياصوفيا بالأستانة ، وهذه النسخة كسابقتها تقع فى واحد وثلاثين جزءا أيضا . ويظن أنها بخط المؤلف ؛ إلا أنها نسخة ناقصة ، والأجزاء الموجودة منها بدار الكتب ثمانية عشر جزءا غير متصلة ، محفوظة بدار الكتب برقم (٥٥١ — معارف عامة)

وقد سبق أن وُصفت هاتان النسختان فى مقدمة الجزء السادس عشر .

وقد رمزت إلى النسخة الأولى بالحرف (ك) وإلى الثانية بالحرف (ص) .

وقد رجعت فى التحقيق أيضا إلى تاريخ اليعقوبى ، وتاريخ الطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير ، وابن كثير ، وكتاب الرياض النضرة للمحبّ الطبرى ؛ إذ كانت هذه الكتب هى المادة نقل عنها المؤلف فى هذا الفن ؛ فن التاريخ .

ووشيت حواشيه بالقدر من التعليقات الذى يعين على تحرير النص وفهمه .

وأسأل الله أن يوفق لإتمام نشر بقية أجزائه وطبعها ، كما أسأله جلّ شأنه أن يجعل هذا العمل نافعا مقبولا .

محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمَّ يسّر ولا تعسّر ، واختِمْ بخيراتك إنَّك على كل شيء قدير ، وصلَّى الله على سيّدنا محمد .

الباب الثانى من القسم الخامس

فى أخبار الخلفاء الراشدين

أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلىّ ابن أبى طالب ، وأيّام الحسن بن علىّ رضوان الله عليهم أجمعين

ذكر خلافة أبى بكر الصديق

وشىء من أخباره وفضائله

هو أبو بكر ، واسمه عبدُ الله بن أبى قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيْم[1] بن مرّة بن كعْب بن لؤىّ بن غالب ، ومُجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلّم عند مرّة بن كعب. وأمه سَلْمى - وكنيتها أمّ الخير - بنت صخر بن كعب بن سعد ابن تيْم[1] بن مرّة ، وهى بنت عمّ أبيه .

وكان رضى الله عنه يُنعَت بعَتِيق ، وقد اختُلف فى سبب نعته بذلك ؛ فقال اللّيث بن سعد ، وجماعة معه : إنّما قيل له عَتِيق لجماله وعَتاقة وجهه .

وقال مصعب الزُّبيرىّ وطائفة من أهل النَّسب : إنّما سُمّىَ عَتيقا لأنّه لم يكن فى نسبه شىء يُعاب .

وقال آخرون : كان له أخوان : أحدهما يسمّى عَتِيقا ، والآخر عُتيْقًا ؛ مات عَتيق قبله ، فسمِّىَ باسمِه .

ورُوىَ عن مُوسى بن طلْحة ، قال : سألتُ أبى طلحة بن عبيد الله ، قلت له : يا أبت ، بأىّ شىء سُمِّىَ أبو بكر عتيقا ؟ قال : كانت أمّه لا يعيش لها ولد ، فلمّا ولدَتْهُ استقبلت به البيت ، وقالت : اللهمّ إنّ هذا عتيقُك من الموت فهبْه لى .

---

(١) ك : « تميم » وصوابه ما أثبته من ص .

وقال آخرون : إنَّما سُمِّى عَتِيقًا لأَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم قال : « مَنْ سرّه أن ينظُر إلى عَتِيقٍ مِن النَّار فلْينظُرْ إلى هذا » ، فسمّىَ عتيقًا بذلك .

وروى عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ، قالت : إنِّى لفِى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، وأصحابه بالفِناء ؛ وبينهم الستْر ، إذ أقبل أبو بكر رضى الله عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ سَرّه أن ينظر إلى عَتِيقٍ من النار فلْينظُر إلى هذا » .

قالت : وإنّ اسمه الذي سمّاه أهلُه لَعبد الله بن عثمان ، وسمِّىَ رضى الله عنه بالصِّدّيق ؛ لمبادرته إلى تصديق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى كلّ ما جاء به .

وقيل : بل قيل له الصديق ؛ لتصديقه رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى خبر الإسراء .

وقال أبو مِحْجَن الثقفىّ فى أبى بكر رضى الله عنه :

وَسُمِّيتَ صِدِّيقًا ، وكلُّ مهاجِرٍ سواك تسَمّى باسْمِه غيرمنكَرِ (١)
سَبَقْتَ إلَى الإسْلاَمِ ، والله شاهدٌ ، وكنتَ جليسًا بالعريش المشهَّرِ
وبالغار إذ سُمّيتَ بالغارِ صاحبًا وكنت رفيقا لِلنّبىّ المطهّرِ

يعنى بقوله : « بالعريش » فى يوم بدر ؛ لأنه رضىَ الله عنه كان معَ رسول الله صلىّ الله عليه وسلَّم فى العرِيش ؛ لم يكن معه فيه غيرُه . وبقوله :

* وبالغار إذْ سُمِّيت بالغار صاحبـــا *

(١) الاستيعاب ٩٦٥ .

قولَه تعالى : ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . (١)

* * *

ولنبدأ من أخباره رضى الله عنه بذكر شيء من فضائله ، والله المستعان ، وعليه التّكْلاَن .

ذكر نبذة من فضائل أبى بكر الصديق

ومآثره فى الجاهلية والإسلام

كان رضى الله عنه فى الجاهلية وجيهًا ، رئيسا من رؤساء قريش ، وإليه كانت الأَشناق فى الجاهلية ـ والأَشناق الدِّيات ـ فكان إذ حمل شيئا قالت فيه قريش : صدِّقوه ، وامضُوا حَمالته (٢) وحَمالةَ منْ قام معه أبو بكر ، وإن احتملها غيرُه خذلوه ولم يصدّقوه .

وكان رضىَ الله عنه ممّن حرّم الخمر على نفسه ، وتنزَّهَ عنها فى الجاهليّة ، وكانت أشراف قريش تختلف إليه وتزورُه ، وتستشيره وتقتدى برأْيه ، وتتربص فى الأُمور المعضلة إذا غاب إلى أن يقدَم ، ويدلُّ على ذلك ما قدّمناه فى أوائل السّيرة النبوّية من خبره مع الشيخ الكبير الأَزدىّ فى سفره إلى اليمن ، وما بشّره الأَزدىّ به من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، وأنَّه يعاونه على أمرِه ، وأنّ أبا بكر رضى الله عنه لمّا رجع إلى مكّة ، جاءه شيْبة بنُ ربيعة وأبو جهل ابن هشام وأبو البختَرِىّ ، وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، ورجالاتٌ قريش

(١) سورة التوبة ٤٠ .

(٢) الحمالة بالفتح : الدية يحملها قوم عن غيرهم .

مسلمين عليه . وقولهم له : حدث أمر عظيم ؛ هذا محمد بن عبد الله يزعم أنه نبيّ أرسله الله إلى الناس ، ولولا أنت ما انتظرنا به ؛ فإذ جئت فأنت النُّهية[١] ، وقد تقدم ذكر هذه القصة فى المبشرات برسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

ومثل ذلك لا ينتَظرُ به إلا مَنْ لا يمكن أن يُقطع الأمر دونه . وفى هذا أقوى دَلالة على فضله وشرَفه ، ومكانته لديهم . وكان أنسبَ قريش لقريش ، وأعلم قريش بما فيها من خير وشر .

* * *

وأما فضائله رضى الله عنه ومناقبه فى الإسلام فكثيرة جدا ؛ قد أبانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضائل ومناقب ، وخصّه بمزايا لم يخصّ بها غيرَه ، وذكره فى مواطن لم يُذكر فيها سواه .

وقد تقدم من ذلك جملة فى أثناء السيرة النبوية فنشير الآن إليها ، ونذكر ما سواها ممّا تقف عليه إن شاء الله تعالى .

فمن فضائله التى تقدم ذكرها سابقته فى الإسلام ، وأنّه رضوان الله عليه أول مَنْ أسلم من الذكور ، وأول منْ صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى أبوَ عمر بن عبد البرّ بسنده إلى الشعبىّ ، قال : سألت ابنَ عباس - أو سئل ابنُ عباس رضى الله عنهما : أىّ الناس كان أوّلَ إسلاما ؟ فقال : أما سمعت قول حسان بن ثابت :

(١) فى السيرة الحلبية ١ : ٢٧٥ : « فأنت الغاية والكفاية » .
(٢) نهاية الأرب ١٦ : ١٤٨ .

إذا تذكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أخى ثقةٍ فاذكُرْ أخَاك أبا بكرٍ بما فَعلا[١]
خيرَ البرية ، أتقاها وأعدَلَها[٢] بعد النبيّ ، وأوفاها بما حملا
الثانِيَ التالِيَ المحمودَ مشهدُهُ[٣] وأوّلَ الناس حقًّا صدّق الرُّسُلا[٤]

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لحسان بن ثابت : هل قلت فى أبى بكر شيئا ؟ قال : نعم ؛ وأنشده هذه الأبيات ، وفيها بيت رابع ، وهو :

وثانىَ اثنين فى الغار المنيف وقد طاف العدوّ به إذ صعّدوا الجبلا

فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « أحسنت يا حسان » .

وروى أنّ فيها بيتا خامسا ، وهو :

وكان حِبَّ رسول الله إذ علموا[٥] خير البرية لم يَعْدِل به رجلا[٦]

ومما يؤيد أنه رضوان الله عليه أول من أسلم ما رواه الجَرِيرِيّ ، عن أبى نضرة ، قال : قال أبو بكر لعلىٍّ رضى الله عنهما : أنا أسلمت قبلك ... ، فى حديث ذكره ، فلم ينكر عليه .

ومن ذلك أنه رضى الله عنه فَدَى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

رُوِى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما : أنها قالت ، وقد قيل لها : ما أشدُّ ما رأيتِ المشركين بلغُوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان المشركون قُعودا فى المسجدِ الحرام ، فتَذَكَّرُوا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم ، وما يقول فى آلهتهم ، فبينما هم كذلك إذ دخل رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم ،

(١) ديوانه ٢٩٩ .
(٢) الديوان : « أتقاها وأرأفها » .
(٣) الديوان : « المحمود شيمته » .
(٤) الديوان : « وأول الناس طرا » .
(٥) الديوان : « قد علموا » .
(٦) الاستيعاب ٣ : ٩٦٣ — ٩٦٥ .

فقاموا إليه ، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدّقهم ، فقالوا : ألستَ تقول فى آلهتنا كذا وكذا ؟ قال : بلى ، قال : فتشبّثوا به بأجمعهم ، فأتى الصّريخُ إلى أبى بكر ، فقيل له : أدرِك صاحبَك ، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد ، فوجد رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم والناس مجتمعون عليه ، فقال : ويلكم ! ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [1] ! فلهوْا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وأقبلوا يضربونه . قالت : فرجع إلينا فجعل لايمسّ شيئا من غدائِره إلا جاء معه وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

ومنها ، أنه رضى الله عنه أنفق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يملكه ، طيِّبةً بذلك نفسُه .

روى عن هشام بن عُروة ، عن أبيه ، قال : أسلَم أبو بكر وله أربعون ألفًا ، أنفقها كلَّها على رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وفى سبيل الله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نفعنى مالٌ مثل ما نفعنِى مالُ أبى بكر » .

ومن رواية أخرى عنه قال : أسلم أبو بكر يوم أسلم وله أربعون ألف دينار ، وأعتق سبعة كلُّهم يعذَّب فى الله ، أعتق بلالاً ، وعامر ابن فُهَيرة ، وزنِّيرة ، والنَّهْدية [2] وابنتها ، وجارية بنى نوفل ، وأم عُبَيس . وقد تقدّم خبرهم فى السيرة النبوية .

ومنها ، أنه رضى الله عنه أسلم على يديه بدعائِه نصف العشرة

---

(١) سورة غافر ٢٨ . (٢) ص : « والهدية » .

المشهود لهم بالجنة ، وهم : الزُّبير بن العوّام ، وعثمان بن عفّان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوْف ، وسعد بن أبي وقّاص ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وأسلم أبواه ، وصحبا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأسلَم بنوه كلُّهم ، وصحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأبوه أبو قُحافة ، وابنُه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وابن ابنه محمد ابن عبد الرحمن ، وليست هذه المنقبة لأحد من الصحابة غيره .

ومن ذلك أنه رضى الله عنه كان مع رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم فى الغار ، ورفيقه فى هجرته ، وناهيك بهما ! وسمّاه عز وجل فى كتابه : « صاحبه » . فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾[1] .

روى عن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر معه ؛ لم يأمن على نفسه غيره حتى دخلا الغار .

وعن حبيب بن أبي ثابت فى قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَه عَلَيْهِ ﴾[2] . قال : عَلَى أبي بكر ؛ فأمّا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقد كانت عليه السّكِينَة .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : « أنت صاحبِي على الحوض ، وصاحبِي فى الغار » .

وعن سُفيان بن عُيَيْنَة ، قال : عاتب الله عز وجلّ المسلمين

---

(١) سورة التوبة ٤٠ .

كلّهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا أبا بكر ، فإنه خَرَج من المعاتبة ، قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ ﴾ .

ومن فضائله ومزاياه رضى الله عنه ، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قدمه للصّلاة [1] بالمسلمين فى حياته ، وأمر بسدّ الأبواب الشارعة إلى المسجد ، إلّا باب أبى بكر ، وقد تقدّم ذلك[2] .

ومنها ما روى عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، أنه قال : « رأيت فى المنام أنّى وُزِنْت بأُمّتى فرجَحْت ، ثم وُزِن أبو بكر فرجحَ ، ثمّ وزن عمر فرجح » . وهذا دليل على أنه رضوان الله عليه أرجح من الأُمة أكثر من مرتين ، فإنه رجح الأُمة ، وعمر رضى الله عنه فيهم ، ورجح عمر الأُمة . ورؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقٌّ لا محالة .

وُروِي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ما سابقت أبا بكر إلى خير قطُّ إلّا سبقنى إليه ؛ ولوددْت أنى شعْرة فى صدر أبى بكر .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أنَّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمر بالصدقة ، قال عمر بن الخطاب وكان عندى مال كثير . فقلت : والله لأُفضُلَنَّ أبا بكرٍ هذه المرّة ، فأخذتُ نصف مالى وتركت نصفَه ، فأتيت به النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقال : « هذا مال كثير ، فَما تركتَ لأهلك » ؟ قال : تركتُ لهم نصفَه ؛ وجاء أبو بكر بمال كثير ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « ماتركتَ لأهلك » ؟ قال : تركتُ لهم اللهَ ورسولَه .

---

(١) ص : « فى الصلاة » . (٢) ص : « ذكر ذلك » .

وفى رواية : قلت : لا أسابقك إلى شىء أبدا .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾[1] ؛ نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : كنتُ عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عَبَاءة قد خَلَّها[2] فى صدره بخلال ، فنزل عليه جبريل ، فقال : يا محمد : مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قدْ خَلَّها فى صدره بخلال ! فقال : « ياجبريل ، أنفق ماله علىّ قبل الفتح » ، قال : فإنَّ الله عزَّ وجل يقرأ عليك السّلام ، ويقول : قل له : أراضٍ أنت علىّ فى فقرك هذا ، أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أسخط على ربّى ! أنا عن ربّى راض ، أنا عن ربى راض ، أنا عن ربى راض .

وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما ، عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم : قال : هبط علىّ جبريل وعليه طِنْفِسة ، وهو متخلِّل بها ، فقلت : ياجبريل ، لِمَ نزلْتَ إلىّ فى مثل هذا الزِّىّ[3] ؟ قال إنَّ الله أمر الملائكة أن تتخلَّل فى السماء كتخلل أبى بكر فى الأرض .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أصبح منكم صائما اليوم ؟ » قال أبو بكر رضى الله عنه : أنا ، قال : « مَنْ أطعم اليوم مسكينا ؟ » قال أبو بكر : أنا ،

---

(١) سورة الليل ٥ ، ٦ . (٢) خلها فى صدره ، يريد ربطها فى صدره .
(٣) ك : « الرى » تحريف .

قال :« مَنْ عاد اليوم مريضا ؟ » قال أبو بكر : أنا ، فقال : « من شهد اليوم منكم جنازة؟ » [فقال أبو بكر : أنا] (١) ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « ما اجتمعت هذه الخِصال فى رجلٍ قطّ. إلّا دخل الجنة ».

وعن ابن أبى أوفَى ، قال : خرج علينا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأقبل على أبى بكر وقال : « إنى لأعرف اسم رجلٍ واسم أبيه ، واسم أمّه ؛ إذا دخل الجنّة لم تبق غرفةٌ من غرفها ، ولا شُرفة من شُرَفها إلا قال : مرحبا مرحبا ! » ، فقال سَلْمان : إن هذا لغيرُ خائب » : فقال : « ذاك أبو بكر بن أبى قُحافة » .

وعن سلمان بن يسار ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبو بكر وعُمر خيرُ الأرض إلّا أن يكون نبيا » .

قال : وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « الخير ثلثمائة وستون خَصْلة ، إذا أراد الله بعبدٍ خيرا جعل فيه واحدة منهنّ يدخل بها الجنة » ، قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هل فىّ شىء منهنّ ؟ قال : « نعم ، جميعا من كلٍّ » .

وعن أبى هُريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أتانى جبريل فأخذ بيدِى ، فأرانى باب الجنّة الذى تدخل منه (٢) أمّتى ، فقال أبو بكر : وددْت أنى كنت معك حتى أنظر إليه ! فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « إنك يا أبا بكر أوّلُ مَنْ يدخل الجنّة من أمّتى » .

وعن أبى أمامة قال : استطال أبو بكر ذات يوم على عُمر ، فقام

---

(١) تكملة من ص (٢) ص « عنه » .

عمر مغضَبًا ، فقام أبو بكر فأخذ بطرف ثوبه ، فجعل يقول : ارضَ عنى ، اعفُ عنّى ، عفا الله عنك ! حتى دخل عمر الدّار وأغلق الباب دون أبى بكر ولم يكلّمه ؛ فبلغ ذلك النبيَّ صلّى الله عليه وسلم فغضب لأبى بكر ، فلمّا صلّى الظهر جاء عُمر ، فجلس بين يديه ، فصرف النبيّ صلّى الله عليه وسلم وَجْهَه عنْه ، فتحوّل يمينًا فصرف وجهَه عنه ، فلمّا رأى ذلك ارتعدَ وبكَى ، ثم قال : يا رسولَ الله ، قد أرى إعراضَكِ عنى ، وقد علمت أنك لم تفعل هذا إلّا لأمرٍ قد بلغك عنى ، موجِدة علىّ فى نفسك [1] ، وما خير حياتى وأنت علىّ ساخط ، وفى نفسك علىّ شىء ! فقال : « أنت القائل لأبى بكر كذا وكذا ، ثم يعتذر إليك فلا تقبل منه ! » ثم قام النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إنّ الله عز وجل بعثنى إليكم جميعا ، فقلتم : كذبتَ ، وقال صاحبى : صدقتَ ؛ فهل أنتم تاركون لى صاحبى ! فهل أنتم تاركون لى صاحبى ! فهل أنتم تاركون لى صاحبى ! » ثلاثا . فقام عمر بن الخطاب ، فقال : يارسول الله ، رضيتُ بالله ربًّا . وبالإسلام دينا ، وبمحمّد نبيا . فقام أبو بكر فقال : والله لأنا بدأتُه ، ولأنا كنت أظلم ، فأقبل عمر على أبى بكر فقال : ارض عنى رضى الله عنك ، فقال أبو بكر : يغفر الله لك ! فذهب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبُه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : «لقد هممتُ أن أبعثَ رجالاً من أصحابى إلى ملوك الأرض يدعونَهُم إلى الإسلام كما بَعث عيسى بنُ مريم الحواريّين».

(١) كذا فى ص وفى ك : « نفسى » .

قالوا : يا رسول الله ، أفلا تَبعث أبا بكر وعمر فهما أبلغ ! فقال : « لاغنى لى عنهما ؛ إنما منزلتهما من الدِّين منزلة السمع والبصر من الجسد » .

وعن أبى أروى الدَّوْسِىّ ، قال : كنتُ مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلم جالسا ، فطلع أبو بكر وعمر ، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم : « الحمدُ لله الذى أيَّدَنى بكما » .

وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لأبى بكر : « يا أبا بكْر ، إنَّ الله أعطانى ثواب مَنْ آمن بى منذ خَلق آدم إلى أن تقوم الساعة ، وإن الله أعطاك يأبا بكر ثواب مَنْ آمن بى منذ بعثنى إلى يوم تقوم الساعة »

وعن أبى سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم : « لى وزيران من أهل السماء : جبريل وميكائيل ، ووزيران من أهل الأرض : أبو بكر وعمر » .

وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما : أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلَّم قال لأبى بكر [وعمر] (١) : « ألا أخبركما بمثَلِكما من الملائكة ، ومثلِكما فى الأنبياء ؟ أمّا مثلك أنت يا أبا بكر فى الملائكة فمثل ميكائيل ، ينزل بالرحمة ، ومثلُك أيضا فى الأنبياء كمثَل إبراهيم إذْ كذَّبه قومه ، وصنعُوا به ما صنعوا ، فقال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِى فإنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانى فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٢) . ومثَلُك يا عُمر فى الملائكة كمثل جبريل ، ينزل بالبأْس والشدّة والنِّقمة على أعداء الله ؛ ومثلك فى الأنبياء كمثل نوح إذ قال : ﴿ رَبِّ لاَتَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾(٣)

---

(١) سورة إبراهيم ٣٦ (٢) تكملة من ص .

(٣) سورة نوح ٢٦ .

وعن عمّار بن ياسر ، قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « أتانى جبريل آنفًا ، فقلت له : يا جبريل ، حدّثنى بفضائل عمر ابن الخطاب فى السماء . فقال : يا محمد ، لو حدّثتك بفضائل عمر بن الخطاب فى السّماء مثل ما لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ما نفدت فضائل عمر ، وإنّ عُمرَ حسنة من حسنات أبى بكر ».

وعن أبى هُرَيرة رضى الله عنه ، قال : هبط جبريل على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فوقف ثلاثا يناجيه ؛ فمرّ أبو بكر الصديق فقال جبريل : يا محمّد ، هذا ابن أبى قُحافة ؛ قال : يا جبريل ، وتعرفونه فى السماء ؟ قال : إى والذى بعثك بالحقّ ؛ لهو أشهر فى السماء منه فى الأرض ، وإن اسمه فى السماء لَلْحَليم » .

وعن ابن عُمر رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه سلم : « لو وُزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لَرَجح » .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكر ؛ أنّه كان يوم بدر مع المشركين ، فلمّا أسلم قال لأبيه : لقد اهتدفْتَ (١) لى يوم بدر ، فصُرِفت ، عنك ولم أقتلك ؛ فقال أبو بكر : لكنّك لو اهْتدفت لى لم أنصرف (٢) عنك .

وعن ابن غَنْم ، أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال لأبى بكر ، وعمر : « لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : « أتانى جبريل فقال : يا محمّد ، إنّ الله يأمرك أن تستشير أبا بكر » .

---

(١) ك : « اهتديت » . (٢) ص : « أصرف » .

وعن أنس قال : كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم خرج إلى المسجد ومعه المهاجرون والأنصار ، ما أحدٌ منهم يرفع رأسه من حبوته إلا أبوبكر وعمر ، فإنَّه كان يبتسم إليهما ويبتسمان إليه .

وعن الزُّبير بن العوّام ، قال : قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى غزوة تَبُوك : « اللَّهمّ بارك لأُمّتى فى أصحابى ، فلا تسلبهم البركة ، وبارك لأصحابى فى أبى بكر ، فلا تسلبه البركة ، واجمعْهم عليه ، ولا تشتِّت أمره ؛ فإنه لم يزل يؤثر أمرك على أمره . اللهم أعِنْ عمر ابن الخطاب ، وصبِّر عثمان بن عفَّان ، ووفِّق علىّ بن أبى طالب ، وثبِّت الزبير ، واغفر لطلحة ، وسلِّم سعدا ، ووقِّر عبد الرحمن ، وألحق بى (١) السَّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان .

وقيل : لمّا قدم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم من حَجّة الوداع صعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يأيّها الناس ، إنَّ أبا بكر لم يسوُءنى قطّ ، فاعرفوا ذلك له . يأيّها الناس ، إنِّى راضٍ عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب ، وطلحة ابن عبيد الله والزُّبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن ابن عوْف والمهاجرين الأوّلين ، فاعرفوا ذلك لهم . يأيّها الناس ، إنَّ الله قد غفر لأهل بدر والحُديبيَة . يأيّها الناس ، احفظونى فى أحبابى وأصهارى وفى أصحابى ، لا يطلبنّكم الله بمظلمةِ أحدٍ منهم ، فإنها ليست فيما يوهب . يأيّها النَّاس ، ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين ، إذا مات الرجل ، فلا تقولوا فيه إلا خيرا » ، ثم نزل صلَّى الله عليه وسلَّم .

---

(١) ك : « فى » تحريف .

وعن عَمْرو بن العاص ، أنَّه أتى النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقال : أيّ الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال : عائشة ، قال : من الرجال ، قال : أبوها . قال : ثم مَنْ ؟ قال : عمر .

وعن عبد الله بن أبي أوفَى ، قال : كنَّا مع النبيّ صلَّى الله عليه وسلم ، فقال : « إنِّي مشتاق إلى إخواني » ، فقلنا : أوَ لَسْنَا إخوانَك يا رسول الله ! قال : « كلاَّ ، أنتم أصحابي وإخواني » ، فجاء أبو بكر الصديق ، فقال عمر : إنه قال : « إني لمشتاق إلى إخواني ، فقلنا : ألسنا إخوانَك ؟ فقال : لا ، إخواني قوم يؤمنون بي ولم يروني . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا تُحبّ قومًا بلغهم أنَّك تحبني فأحبوك لحبّك إياي ، فأحبهم الله » !

وعنه قال : رأيتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم متَّكِئًا على عليّ ، وإذا أبو بكر وعمر قد أقبلا ، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « أحِبَّهما فحبُّهما يدخل الجنَّة » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : « حبُّ أبي بكر وشكْرُه واجبٌ على أمتي » .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حبّ أبي بكر وعمر إيمان ، وبغضهما كفر » .

وعن ابن عُمر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لمّا ولِد أبو بكر الصّديق أقبل الله تعالى على جنَّة عَدْنٍ ، فقال : وعزّتي وجلالي لا أدخلك إلَّا من يحبّ هذا المولود » ـ يعني أبا بكر .

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ فى السماء الدنيا ثمانين ألف ملَك يستغفرون الله تعالى لمن أحبّ أبا بكر وعمر ، وفى السماء الثانية ثمانين ألف ملك يلعنون مَنْ أبغض أبا بكر وعمر »

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : دخل رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم المسجد بين أبي بكر وعمر ، وهو معتمد عليهما ، فقال : « هكذا ندخل الجنة جميعا » .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوّلُ مَنْ يعطَى كتَابَه من هذه الأمّة أبو بكر ، الناس كلهم يحاسَبُون إلا أبا بكر » .

وعن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « تأْتى الملائكة بأبي بكر الصديق مع النبيّين والصدّيقين تَزُفُّه إلى الجنة زَفًّا » .

وعن ثابت ، قال : قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « أوّلَ مَنْ يعطَى كتابَه من هذه الأُمّة عمر بن الخطاب ، وله شُعاع كشعاع الشمس » فقيل له : فأين أبوبكر يارسول الله ؟ قال : « هيهات ! زَفَّتْه الملائكة إلى الجنة » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « كأنّى بك يا أبا بكر على باب الجنّة تشفع لأُمّتى » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « إذا كان يومُ القيامة نادى مناد من تحت العرش :

ألا هاتوا أصحاب محمد » ، قال : فيؤتَى بأبي بكر الصديق وعمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان ، فيقال لأبي بكر : قِف على باب الجنّة ، فأدخِل الجنة مَنْ شئت برحمة الله ، ودعْ من شئت بعلم الله ، ويقال لعمر بن الخطاب : قفْ على الميزان فثقِّل من شئت برحمة الله ، وخفِّف من شئت بعلم الله ، ويعطى عثمان بن عفّان عصا آس ، التى غرسها الله عزّ وجل فى الجنة ، ويقـال له : ذُدِ النّاس عن الحوض » .

وقد ورد فى الصحيحين من فضائل أبي بكر رضى الله عنه ما فيه مقنع ، وفضائله رضوان الله عليه كثيرة ، وقد ذكرنا جملةً كافية ، فلنذكر صفته .

ذكر صفة أبى بكر الصديق

كان رجلا نحيفا[١] طويلا أبيض ، خفيف العارضين أجْنأ[٢] ، لايستمسك إزاره ، يسترخى عن حَقْوَيه[٣] ، مَعروق الوجه[٤] ، غائر العينين ، ناتئ الجبهة ، عارِى الأشاجع[٥] .

هكذا وصفتْه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها . وكان يخضب بالحِنّاء والكَتَم[٦] .

---

(١) ك : « منحفا » تحريف .
(٢) أجنأ : أشرف كاهله على صدره .
(٣) الحقو ، بالفتح ويكسر : الكشح و الإزار أو معقده .
(٤) معروق الوجه : قليل اللحم فيه .
(٥) الأشاجع : أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف .
(٦) الكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبيّن لونه .

ذكر ما ورد من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

استخلف أبابكر على أمته من بعده وحجة من قال ذلك

قال الفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمرىّ رحمه الله : استخلف[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه على أمته من بعده ؛ بما أظهر من الدلائل البيِّنة على محبّتِهِ فى ذلك ، وبالتعريض الذى يقوم مقام التّصريح ، ولم يصرّح بذلك لأنه لم يؤمَرْ فيه بشىء .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يصنع شيئا فى دين الله إلا بوحى ، والخلافة ركن من أركان الدين .

قال : ومن الدليل الواضح[2] على ما قلنا ، ما حدّثنا سعيد ابن نصر وعبد الوارث بن سُفيان ، قالا : حدّثنا قاسم بن أصبغ ، قال : حدّثنا أحمد بن زُهير ، قال : حدّثنا منصور بن سَلَمَة . وأخبرنا أحمد بن عبد الله ، قال : حدثنا الميمون بن حمزة الحسينىّ بمصر ، قال : حدثنا الطّحاوىّ ؛ قال : حدثنا المزنىّ ، قال : حدّثنا الشافعىّ ؛ قال : حدّثنا إبراهيم بن سعد بن أبى وقّاص عن أبيه عن محمد بن جُبير بن مُطْعِم ، عن أبيه ، قال : أتت امرأة إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ، فسألها عن شىء ، فأمرها أن ترجع إليه . فقالت : يا رسولَ الله ، أرأيت إن جئتُ ولم أجدْك ؟ - تعنى الموت - فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لم تجدينى فأْتِ أبا بكر » .

---

(١) الاستيعاب ٩٦٩ وما بعدها .

(٢) الاستيعاب : « الدلائل الواضحة » .

قال الشافعىّ رحمه الله : فى هذا الحديث دليلٌ على أن الخليفة بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبو بكر .

وقد تقدم فى السيرة النبويّةِ عن عاصم ، عن قتادة ، قال : ابتاع النبى صلى الله عليه وسلّم بعيرًا من رجل إلى أجلٍ ، فقال : يا رسولَ ، إن جئتُ فلم أجدك ؟ ـ يعنى الموت ـ ، قال : فائت أبا بكر ، قال : فإن جئت فلم أجد أبا بكر ؟ [يعنى] [1] ـ بعد الموت ، قال : فائت عمر ، قال : إن جئتُ فلم أجد عمرَ ؟ قال : إن استطعتَ أن تموتَ إذا مات عمر ، فمت .

وساق أبو عمر [2] بن عبد البرّ فى أدلّته على استخلاف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم له أحاديث الصلاة ، وكونه استخلفه أن يصلّىَ بالناس فى مرضه .

وقد قدمنا ذكر ذلك كلّه فى خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وممّا يؤيد ذلك ويعضّده ما قدّمناه من حديث عائشة رضى الله عنها ، وقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لها : « لقد هممتُ ـ أو أردت ـ أن أرسل إلى أبيك ، أو أخيك فأقضِىَ أمرى ، وأعهد عهدى ؛ فلا يطمع فى الأمر طامع ، ولا يقول القائلون ، أو يتمنّى المتمنّون » ثم قال : « كلا يأبى الله ويدفع المؤمنون » ، أو « يدفع الله ويأبى المؤمنون » .

وقال بعضهم فى حديثه : « ويأبى الله إلا أبا بكر » .

وفى الحديث الآخر عن أبى مُليكة ، قال : قال النبىّ صلّى الله

---

(١) تكملة يقتضيها السياق . (٢) ك : « أبو بكر » وهو خطأ .

عليه وسلَّم فى مرضه الذى مات فيه : « ادعوا إلىّ أبا بكر » ، فقالت عائشة : إنَّ أبا بكر رجل يغلبه البكاء ؛ ولكن إن شئتَ دعونا لك ابن الخطاب ؛ قال : « ادعوا إلىّ أبا بكر ، قالت : إن أبا بكرٍ يرقّ ، ولكن إن شئت دعونا لك ابن الخطاب ، فقال : « إنكنّ صواحبُ يوسف ، ادعوا أبا بكر وابنه ؛ فليكتب ؛ أن يطمع فى أمر أبى بكر طامع ، أو يتمنى متمنٍّ » . ثم قال : « يأبى الله ذلك والمؤمنون ، يأبى الله ذلك والمؤمنون ! » .

قالت عائشة : فأبى الله ذلك والمؤمنون .

وفى هذا الحديث والذى قبله تصريح[1] على أنه الخليفة بعده ، ودليلٌ على أن الكتاب الَّذى أراد رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يكتبه ، وتركه لما كثر عنده التنازع ؛ إنما كان المرادُ به أن ينصَّ على أبى بكر فى الخلافة . والله تعالى أعلم .

وروى أبو عُمر بسنده إلى عبد الله بن مسعود ، أنه قال : اجعلوا إمامكم خيركم ؛ فإن رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم جعل إمامنا خيرنا بعده .

وروى الحسن البصرىّ ، عن قيس بن عباد ، قال : قال لى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه : إن رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مرِض ليالىَ وأياما ، ينادَى بالصلاة فيقول : « مرُوا أبا بكر يصلِّى بالناس » ؛ فلما قبِض رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، نظرتُ ، فإذا الصَّلاة علَم الإسلام ، وقِوامُ الدِّين ، فرضينَا لدنيانا ما رضىَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لديننا ، فبايعنا أبا بكر[2] .

---

(١) ص : « التصريح » . (٢) الاستيعاب ٩٧١ .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : أنا خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ ولذلك كان يدعى : يا خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وروى عن ابن أبي مُليكة ، قال : قال رجل لأبي بكر يا خليفة الله ، قال : لستُ خليفة الله ؛ ولكن أنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا راضٍ بذلك .

وروى أبو عمر بسنده ، عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه ، أنه قال : خيرُ هذه الأُمة بعد نبيّها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

وكان عليٌّ رضى الله عنه يقول : سبق رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وصلّى أبو بكر ، وثلّث عمر ، ثم خبطتْنا [1] فتنة يغفر الله فيها عمّن يشاء . وقال : رحم الله أبا بكر ! كان أول من جمع بين اللّوحين [2] .

وقال أبو عمر بن عبد البر : وروينا من وجوه ، عن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب ، أنه قال : ولينا أبو بكر فخير خليفة ، أرحمه بنا ؛ وأحناه علينا [3] .

وقال مسروق : حبّ أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنّة .

وروى عن عليّ رضى الله أنه قال : لا يفضّلُني أحدٌ على أبي بكر وعمر إلّا جلدته جَلْد المفترى .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

---

(١) كذا فى ك ، وفى ص « خبطنا » وفى الاستيعاب : « حفتنا » .
(٢) الاستيعاب ٩٧٢ .
(٣) الاستيعاب ٩٧٢ .

ذكر بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

وخبر السقفية ، وما وقع بين المهاجرين والأنصار من التراجع فى الإمارة

بويع أبو بكر الصّديق رضى الله عنه بالخلافة فى يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل ، سنة إحدى عشرَة من الهجرة ؛ وهو اليوم الّذِى مات فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فى سقيفة[1] بنى سَاعدة ، وذلك قبل أن يُشرَع فى جهاز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وكان من خبر سقيفة بنى ساعدة ، أنّه لمّا تُوفِّىَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، اجتمعت الأنصار فى سَقيفة بنى ساعدة ، وقالوا : نولِّى هذا الأمر بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سَعد ابن عُبادة ، وأخرَجوا سعدا إليهم وهو مريض ، فلمّا اجتمعوا قال سعدلأبيه- أولبعض بنى عمّه : إنى لا أقدر أشكو ، أى أن أسْمِع القوم كلهم كلامى ؛ ولكن تَلقَّ منى قولى فأسمِعْهموه[2] ، فكان سعد يتكلّم ويحفظ الرجلُ قولَه ، فيرفع به صوتَه ، فيسمَعُ أصحابُه ، فقال بعد أن حمِد الله وأثنى عليه : يا معشَر الأنصار ، إنّ لكم سابقَةً فى الدين ، وفضيلةً فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب ؛ إن محمدا صلّى الله عليه وسلم لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة

---

(١) ك : « فى السقيفة » .

(٢) ص : « فاستمعوه » ، وخبر يوم السقيفة فى تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٣ – ٢٢٣

الرحمن ، وخلع الأوثان ، فما آمن به من قومه إلاَّ رجال قليل ؛ واللهِ ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسولَه ، ولا أن يُعِزُّوا دينه ، ولا أن يَدْفعوا عن أنفسهم فيما عُمُّوا به ؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلة ؛ ساق إليكم الكرامة ، وخصّكم بالنعمة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنعَ له ولأصحابه ، والإعزازَ له ولدينه ، والجهادَ لأعدائه . فكنتم أشدَّ الناس علَى عدوِّه من غيركم ؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرهًا ، وأعطى البعيد المقادةَ صاغرا دَاخِرًا (١) ؛ وحتى أثخن (٢) الله لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب . وتوفَّاه الله إليه وهو عنكم راضٍ ، وبكم قرير العين . استبدُّوا بهذا الأمر دون النَّاس ؛ فإنه لكم دون الناس .

فأجابوه بأجمعهم ، أن قد وفِّقتَ فى الرأى ، وأصبت فى القول ، ولَنْ نَعْدُوَ ما رأيت ؛ نولِّيك هذا الأمر ؛ فإنك فينا رفيع ، ولصالح المؤمنين رضًا .

ثم إنهم تراداُّوا الكلام ، فقالوا : فإن أبت مهاجرةُ قريش؟ فقالوا : نحن المهاجرون وصحابةُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم الأولون ، ونحن عشيرتُه وأولياؤه ؛ فعلامَ تنازعوننا الأمرَ من بعده ؟ فقالت طائفة منهم : فإنا نقول إذًا فمنَّا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا أبدا . فقال سعد بن عبادة حين سمعها : هذا أول الوَهَن !

وأتى عمرَ رضى الله عنه الخبرُ ، فأقبل إلى منزل النبيّ صلَّى الله

---

(١) داخرا ، أى ذليلا

(٢) أثخن : أوغل .

عليه وسلّم ، فأرسل إلى أبي بكر ، وأبو بكر فى الدار ، وعلىّ بن أبى طالب دائب فى جهاز النبىّ صلّى الله عليه وسلم ؛ فأرسل إلى أبى بكر ، أن اخرج إلىّ ؛ فأرسل إليه : إنّى مشتغل ، فأرسل إليه : إنه قد حَدث[1] أمرٌ لابدّ لك من حضوره ، فخرج إليه ، فقال : أما علمتَ أنّ الأنصار قد اجتمعتْ فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة ؛ وأحسنُهم مقالة مَنْ يقول : منّا أميرٌ ومن قريش أمير !

فخرجا[2] مسرعيْن نحوهم ، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح ، فتماشوْا إليهم ثلاثتُهم ، فلقيَهم عاصم بن عدىّ وعُوَيم بن ساعدة ، فقالا لهم : أين تريدون ؟ قالوا : نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار . قالا : فارجعوا . فاقضوا أمركم بينكم ؛ فإنّه لم يكن إلا ما تحبون ، فقالوا : لا نفعل .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديثه : فقلت : والله لنأتينّهم ! قال : فأتيناهم[3] وهم مجتمعون فى سقيفة بنى سَاعدة وإذا بين أظهرهم رجل مزمّل ، فقلت : مَنْ هذا ؟ قالوا : سعد ابن عُبادة . قلت : ما شأنُه ؟ قالوا : وَجِع ، فقام رجل منهم ، فحمد الله وقال : أمّا بعد ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهطُنا ، وقد دفّت إلينا من قومكم دافّة .

قال : فلما رأيتُهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، ويغصبونا

(١) ك : « قد حدث لك أمر » .
(٢) ص : « فخرجنا » .
(٣) ص : « خلفناهم » .

الأمر. وقد كنت زوّرت فى نفسِى مقالة أقدّمها بين يدىْ أبي بكر، وكنت أُدارى منه بعض الحدّ، وهو كان أوقَر منى وأحلم، فلمّا أردتُ أن أتكلّم قال لى: على رِسْلِك! وكرهت أن أُغضبه، فقام، فحمِد الله، وأثنى عليه، فما ترك شيئا زوّرت فى نفسى أن أتكلم به لو تكلمت، إلا قد جاء به، أو بأحسن منه.

وقال: أمّا بعد، يامعشرَ الأنصار، فإنّكم لا تذكرون منكم فضلاً إلاّ أنتم له أهلٌ، وإنّ العرب لا تعرف هذا الأمر إلّا لهذا الحىّ من قريش؛ هم أوسط العرب دارا ونسبا، وإنّى قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيّهما شئتم. وأخذ بيدى و بيد أبى عبيدة بن الجراح.

يقول عمر وهوعلى المنبر: وإنّى والله ما كرهتُ من كلامه شيئا غير هذه الكلمة، أن كنت أُقدّمُ فتضرَب عنقى أحبُّ إلىّ مِنْ أن أُؤمّر عَلَى قوم فيهم أبو بكر.

قال: فلما قضى أبو بكر كلامَه قام منهم رجل، فقال: أنا جُذَيْلُهَا المحكَّك، وعُذيقُها المرجَّب؛ منّا أميرٌ ومنكم أمير يا معشر قريش.

قال عمر: وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط، فلما أشفقت الاختلاف قلت لأبى بكر: ابْسط يدك نبايعك، فبسط يده فبايعتُه؛ وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار، ثمّ نَزَوْا على سعد؛ حتى قال قائلهم: قتلتم سعد بن عُبادة. فقلت: قتل الله سعدا! وإنا والله ما وجدنا أمْرًا هو أقوى مِنْ مبايعة أبى بكر، إنّا خشينا إن

فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يُحْدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نبايعَهم على مانرضى ، أو نخالفهم فيكون فَشل .

ومن رواية عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمر الأنصاريّ ، وذَكر ما تكلّم به أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وما قاله الأنصار ، فقال بعد أن ساق ما تقدم أو نحوه ، ثم قال : فبدأ أبو بكر ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ الله بعث محمّدا صلى الله عليه وسلم رسولًا إلى خَلْقه ، وشهيدًا على أُمّته ؛ ليعبدُوا الله ويوحِّدوه وهم يعبدون من دونه آلهةً شتى ، يَزْعمون أنّها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنّما هى حَجَر منحوت ، وخشب منجور . ثم قرأ : ﴿ وَيَعْبُدُون مِنْ دُون اللهِ مَالَا يضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ويَقُولُونَ هَؤلَاء شُفَعَاؤُنَا عِنْد اللهِ ﴾[1] ، وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُم إلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلَى الله زُلْفَى ﴾[2] فعظم على العـرب أن يتركـوا دينَ آبائهم ، فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به ، والمواساةِ [له][3] والصبر معه ، على شدّة أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إيّاهم ، وكلّ الناس لهم مُخالف ، وعليهم زارٍ[4] ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشنَف النّاس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أوّل مَنْ عَبد الله فى الأرض ، وآمن بالله والرّسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده ، ولاينازُعهم

(١) سورة يونس ١٨ .
(٢) سورة الزمر ٣ .
(٣) تكملة من ص .
(٤) زار : محتقر .

ذلك إلا ظالم . وأنتم يامعشر الأنصار ، أنتم مَنْ لاينكَر فضلُهم فى الدّين ، ولاسابقتُهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجْرته ، وفيكم جِلَّة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحدٌ بمنزلتكم ، فنحن الأُمراء ، وأنتم الوزراء ، لاتفاتون بمشورة ولا تقضَى دونكم الأُمور .

قال : فقام الحُباب بن المنذر بن الجَموح ، فقال : يامعشرَ الأنصار ، املِكوا على أيديكم . فإنّ الناس فى فيئكم وفى ظلّكم ، ولن يجترئ مجترئٌ على خِلافكم ، ولن يُصدِر الناس إلا عن رأْيكم ؛ وأنتم أهل العزّ والثّروة ، وأُولو العدد والتجربة ، وذوو البَأْس والنَّجدة ؛ وإنما ينظر الناس إلى ماتَصنعون ، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأْيكم ، وتنتقض [عليكم][1] أُموركم ، فإن أبى هؤلاء إلا ماسمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لايجتمع اثنان فى قرَن ! إنه والله لايرضى العرب أن يؤمّروكم ونبيّها صلى الله عليه وسلّم من غيركم ؛ ولكن العرب لا تمتنع أن تولِّىَ أُمورها من كانت النبوّة فيهم ، ووَلِىّ أُمورهم منهم ؛ ولنا بذلك علَى من أبى من العرب الحجّة الظاهرة والسلطان المبين . مَنْ ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ؛ ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل ، أومتجانف لإثم أو متورّطٌ فى هَلكة ! .

فقام الحُبابُ بن المنذر ، فقال : يامعشر الأنصار ، املِكوا على أيديكم ، ولاتسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من

(١) زيادة من تاريخ الطبرى .

هذا الأمر ، فإن أبَوا عليكم ماسألتموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولَّوْا عليهم هذه الأمور ؛ فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ؛ فإنه بأسيافكم دان [1] لهذا الدّين من لم يكن يدِين ، أنا جُذيلُها المحكَّك وعُذَيقها المرَجّب ؛ أما والله لئن شئتم لنعيدنَّها جَذَعَةً [2] ! فقال له عمر : إذن يقتلك الله ! قال : بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار ، إنّكم أوّل مَنْ نصر وآزر ، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيّر .

فقال بشير بن سعد : أبو النعمان بن بشير :

يا معشر الأنصار ، إنّا والله لئن كنّا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدّين ، ما أردنا به إلا رضا ربّنا ، وطاعة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم . والكدْح لأنفسنا ؛ ماينبغى لنا أن نستطيل بذلك على الناس . ولا نبتغى به من الدنيا عَرَضا ، فإن الله ولىّ المنة علينا بذلك ؛ ألَا إن محمدا صلّى الله عليه وسلّم من قريش ، وقومه أحقّ به وأولى . وايمُ اللهِ لايرانى الله أُنازعهم هذا الأمر أبدا ! فاتقوا الله ولا تخالفوهم . ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر رضى الله عنه : هذا عمر وأبوعبيدة ، فأيّهما شئتم فبايعوا ؛ فقالا : والله لا نتولّى هذا الأمر عليك ، وأنت أفضلُ المهاجرين ، وثانى اثنين إذهما فى الغار ، وخليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الصلاة ، والصّلاة أفضل دين المسلمين ،

(١) دان : خضع .

(٢) جذعة : فتية .

فمن ذا ينبغى له أن يتقدّمك أو يتولّى هذا الأمر عليك ! ابسُط نبايعك[١]

فلمّا ذهبا ليبايعاه سبَقهما إليه بَشير بن سعد فبايَعه ، فناداه المنذر بن الحُباب : يا بشيرَ بن سعد ، عققتَ عَقَاقِ[٢] ! ماأحوجك[٣] إلى ما صنعت ! أنَفَست على ابن عَمّك الإمارة ! قال : لا والله ، ولكن كرهت أن أنازع قومًا [حقا][٤] جعله الله لهم .

قال : ولّما رأت الأوُس ماصنع بشير بن سعد ، وما تدْعُو إليه قريش ، وما تطلب الخزرج من تأْمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض – وفيهم أُسَيد بن حُضَيْر : والله لئن وليتْها الخزرج عليكم مرّة ، لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، و لا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا [فقوموا][٤] فبايعوا أبا بكر . فقاموا إليه فبايعوه ، وانكسر على سعد بن عبادة و على الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمرهم .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه : فروى عن أبى بكر بن محمد الخُزاعىّ : إنّ أسلَم أقبلت بجماعتها حتى تضايقت بها السكك ليبايعوا أبا بكر ، فكان عمر يقول : ماهُوَ إلّا أن رأيتُ أسلمَ ، فأيقنت بالنَّصْر .

قال عبد الله بن عبد الرحمن : فأقبَل النّاس من كلّ جانب يبايعون أبا بكر ، وكادُوا يطئون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعدًا لا تَطئوه ، فقال عمر : اقتلوه ، اقتلوه ، قتله الله ! ثم قام

(١) ص : « ابسط يدك نبايعك » .
(٢) ك : « عقتك عقاق » .
(٣) ص : « ماأخرجك إلى ماصنعت » .
(٤) تكملة من تاريخ الطبرى .

على رأسه فقال : لقد هممت أن أطأك حتى تُنْدَر عِضوُك[١] ؛ فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر ، ثم قال : والله لو حَصَصْتَ منها شعرة ما رجعت وفى فيك واضحة[٢] .

فقال أبوبكر : مَهْلًا ياعمر ، الرفق هاهنا أبلغ ! فأعرض عنه عمر ؛ وقال سعد : أمَا والله لو أنّ بى من قوتى ما أقوى على النهوض لسمعتم منى فى أقطارها وسككها زئيرا يُجْحِرك[٣] وأصحابك . أمَا والله إذا لألحقنَّك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع . احملونى عن هذا المكان ، فحملوه فأدخلوه داره ، وتُرك أياما ثم بُعث إليه أن أقبلْ فبايعْ ؛ فقد بايع الناس وبايع قومُك ؛ فقال : أمَا والله حتّى أرميَكم بما فى كنانتى من نَبْل ، وأخضب منكم سِنان رمحى ، وأضربكم بسيفى ما ملكتْه يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتى ومَنْ أطاعنى من قومى ، فلا أفعل وايمُ الله : لو أن الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعْرَض على ربى وأعلم ما حسابِى .

فلما أُتِىَ أبو بكر بذلك قال له عمر : لا تدعْه حتى يبايع ؛ فقال له بشير بن سعد : إنه قد لجّ [وأبى][٤] وإنه ليس يبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته. فاتركوه ، فليس تركه يضارّكم ، إنماهو رجل واحد . فتركوه ، وقبلوا مشورة بشير بن سعد ، واستنصحوه

(١) أى تزال عن موضعها ، وفى الطبرى : « عضدك » .
(٢) الواضحة من الأسنان : التى تبدو عند الضحك .
(٣) يجحرك وأصحابك ، أى يدخلكم المضايق .
(٤) زيادة من تاريخ الطبرى .

لِمَا بدا لهم منه ؛ فكان سعد بن عبادة لا يصلِّى بصلاتهم ، ولا يجمَع مَعَهم ، ويحجّ ولا يُفيض معهم بإفاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وعن الضّحاك بن خليفة ، أنّ سعد بن عبادة بايع .

وعن جابر ، قال : قال سعد بن عبادة يومئذ لأبى بكر : إنّكم يا معشر المهـاجرين حسدتمونى على الإمارة ، وإنّك وقومى أجبرتمونى على البيعة ؛ فقال أبو بكر : إنّا لو أَجْبَرْناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت فى سَعة ، ولكنّا أجبرناك على الجماعة فلا إقالة فيها ؛ لئن نزعت يدًا من طاعة ، أو فرّقت جماعة لأَضربنّ الذى فيه عيناك .

وحكى أبو عمر بن عبد البرّ رحمه الله ؛ أنّ عمر رضى الله عنه قال : نشدتكم الله ! هل تعلمون أن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أمر أبا بكر أن يصلِّىَ بالناس ! فقالوا : اللهمّ نعم ، قال : فأيّكم تطيب نفسه أن يزيلَه عن مقامٍ أقامه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقالوا : كلنا لا تطيب نفسه ، ونستغفر الله. وبايعوه[1] .

قال : ثم بويع البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم ، وتخلّف عن بيعته سعد بن عبادة ، وطائفة من الخزرج ، وفرقة من قُرَيش ، ثم بايعوه بعدُ غير سعد .

---

(١) الاستيعاب ٩٧٠ .

وقيل : إنه لم يتخلَّف عن بيعته يومئذ أحدٌ من قريش .

وقيل : تخلَّف عنه من قريش : عليّ ، والزُّبير ، وطلحة ، وخالد ابن سعد بن العاص . ثم بايعوه بعد .

وقد قيل : إن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه لم يبايعْه إلا بعد موت فاطمة رضى الله عنها ، ثم لم يزل سامعا مطيعا له ؛ يثنى عليه ويفضّله .

وقيل : إنه تخلَّف عليٌّ وبنو هاشم والزُّبير وطلحة عن البيعة ، وقال الزُّبير : لا أغمِد سيفى حتى يبايع عليّ ، فقال عمر : خذوا سيفه ، فاضربوا به الحجَر ؛ ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة .

وقيل : إنَّ عليًّا لما سمع ببيعة أبي بكر خرج فى قميصٍ ، ما عليه إزار ولا رداء ، عَجِلاً حتى بايعه ، ثم استدعى إزاره ورداءه .

وحكى محمد بن إسحاق رحمه الله ؛ عن عبد الله بن أبي بكر ، أنّ خالد بن سعيد بن العاص قدِم من اليمن بعد وفاةِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فتربّص ببيعته لأبي بكر شهرين ، وكان يقول : قد أمّرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعزلنى ، ثم بايع أبا بكر . فلمّا بعث أبو بكر الجنود إلى الشام ، كان أولَ مَنْ بعث على رُبْعٍ منها خالد بن سعيد ، فلم يزلْ به عمر حتى عزله ، وأمّر يزيد ابن أبى سفيان ، وكان عمر رضى الله عنه قد اضطغن عليه تأخره عن بيعة أبي بكر .

وعن عِكْرمة ، قال : لمّا بُويع لأبي بكر تخلَّف عن بيعتِه عليّ ، وجلس فى بيته ، فلقيَه عمر ، فقال : تخلَّفت عن بيعة أبي بكر ،

فقال : إنِّى أكتب بيمين حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاَّ أرتدىَ برداء إلَّا إلى الصلاة المكتوبة ؛ حتى أجمع القرآن ؛ فإنى خشيت أن ينفلت ، ثم خرج فبايع .

وعن مالك بن مِغول [١] ، عن ابن أبجر ، قال : لما بُويع لأبى بكر الصديق جاء أبو سفيان بن حرب إلى علىّ ، فقال : غَلبَكم علَى هذا الأمرِ أرذلُ بيت فى قريش ! أمَا والله لأملأنَّها خيلا ورَجْلا ! فقال له علىّ : مازلتَ عدوَّ الإسلام وأهلِه ، فما ضرّ ذلك الإسلامَ وأهلَه شيئا. إنَّا رأينا أبا بكر لها أهلا . ورواه عبد الرزاق ، عن ابن المبارك .

ورَوى أبوعمر بن عبد البر بسنده ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن عليًّا والزبير كانا حين بويع [٢] لأبى بكر يدخلان على فاطمة فيشاورانها فى أمرهم ، فبلغ ذلك عمر ، فدخل عليها فقال : يا بنت رسول الله ، ماكان من الخلْق أحدٌ أحبَّ إلينا من أبيك ، وما أحدٌ أحبّ إلينا بعده منك ، وقد بلغنى أن هؤلاء النّفر يدخلون عليك ، ولئن بلغنى لأفعلنّ ولأفعلنّ ! ثم خرج وجاءوها فقالت لهم : إن عمر قد جاءنى وحلف إن عدتم ليفعلنّ ، وايمُ الله ليفينّ بها ، فانظروا فى أمركم ، ولا تنظروا إلىّ ؛ فانصرفوا ولم يرجعوا حتى بايعوا لأبى بكر . رضى الله عنهم أجمعين [٣] .

وهذا الحديث يردّ قول من زعم أن علىّ بن أبى طالب لم يبايع إلا بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها .

---

(١) ص : « معول » .
(٢) ص : « بايع » .
(٣) الاستيعاب ٩٧٥ .

ولما بُويع لأَبي بكر رضى الله عنه ، قال ابن [أَبي] [١] عَزَّة القرشي الجُمحيّ :

شكرًا لمن هُوَ بالثَّناء خَلِيقُ ذهب الَّلجاجُ وبويع الصِّدّيقُ
مِنْ بعد ما ذهبتْ بسعد بَغْلُه ورجا رجاءً دونَه العيُّوق
جاءت به الأَنصار عاصِبَ رأْسِه فأَتي به الصديق والفاروق[٢]
وأَبو عبيدة والَّذين إليهمُ نفس المؤمّل للبقاء تَتُوق
كنَّا نقول لها عليّ والرضا عمرٌ وأَوْلاهم بتلك عَتِيق
فدعت قريش باسمه فأَجابَها إنّ المنوّة باسمه الموثوقُ

وروي عن سعيد بن المسيّب ، قال : لما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجّت مكة ، فسمع أَبو قُحافة ، فقالوا : ما هذا ؟ فقالوا : قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، قالوا : أَمرٌ جَلَلٌ ، فمن وَلِيَ بعده؟ قالوا : ابنُك ، قال : فهل رضيتْ بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم . قال : لامانع لما أَعْطى الله ، ولامعطيَ لما منع الله . والله تعالى أَعلم ، والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) من الاستيعاب ٩٧٦ .

(٢) ص : « فأتاهم الصديق » .

ذكر ما تكلم به أبو بكر الصديق

بعد بيعته وما قاله عمر بن الخطاب

بعد البيعة الأولى وقبـــل البيعة الثانية العـامة

روَى[1] أَنَس بن مالك ، قال : لما بُويع أَبو بكر رضِىَ الله عنه فى السَّقيفة ، وكان الغَدُ ، جلس أَبو بكر على المِنْبر ، فقام عمرُ فتكلَّم قبل أَبي بكر ، فحمِد الله ، وأَثنى عليه بما هو أَهله ، وقال :

أَيها الناس ، إنِّى قد كنت قلت لكم بالأَمس مقالة ماكانت إلاَّ عَنْ رأْيِي ، وما وجدتُها فى كتاب الله ، ولا كانتْ عهدا عِهَده إلينا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم ، ولكن قدكنتُ أَرى أَنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سيُدبِّرُ أَمرنا حتى يكون آخِرَنا ، وإنَّ الله قد أَبقى فيكم كتابَه الَّذى هَدَى به رسولَه ، فإن اعتصمتم به هَداكم الله لما كان هداه له ، وإنَّ الله قد جمعَ أَمرَكم على خيركم ، صاحِب رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين إذهما فى الغار ؛ فقوموا فبايعوا . فبايع الناس أَبا بكر بيعة العامّة بعد بيعة السقيفة .

ثم تكلَّم أَبو بكر ، فحمِد الله وأَثنى عليه بالَّذِي هو أَهله ، ثم قال : أَمّا بعد ؛ أَيها النّاس ، فإنِّى قد وُلِّيتُ عليكم ، ولستُ بخيركم ، فإنْ أَحسنتُ فأَعينونى ، وإنْ أَسأْتُ فقوّمونى ، الصّدق أَمانة ، والكذب خيانة ، والضَّعيف فيكم قوِىٌّ عندِي حتى أُريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوِىّ منكم الضعيف عندِي ، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لايدَع قومٌ الجهادَ فى سبيل الله ، فإنّه لايَدَعه قوم إلَّا ضَرَبهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلَّا عَمَّهم الله بالبلاء .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢١٠ .

أطيعونى ماأطعتُ الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلاَ طاعة لى عليكم ؛ قوموا إلى صلاتكم ، يرحمكم الله .

— يعنى بالصّلاة هنا ،الصّلاة على رسول الله صلَّى الله عليه وسلم — فإن خطبته هذه كانت قبل دفنه صلَّى الله عليه وسلَّم .

وقول عمر بن الخطاب فى كلامه : « إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة » ، إشارة إلى ما كان قد تكلَّم به عند وفاة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من إنكاره أنَّه مات ، على ما قدّمنا ذكره فى خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإنَّما أوضحنا هذا الكلام فى هذا الموضع لئلا يتبادَر إلى ذهن من يسمعه مِمنْ لم يطالع ما قبله ، ولا علِم الواقعة فيتوهّم أن كلامه بذلك رجوعٌ عمّا تكلَّم به بالأمس فى شأْن بَيْعه أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

وعن عاصم بن عدىّ ، أنه قال[1] : وقام أبو بكر رضى الله عنه من بعد الغد — يعنى من يوم بيعته — فحمِد الله ، وأثْنَى عليه ، ثمّ قال : يأَيّها الناس ؛ إنما أنا مثلُكم ، وإنِّى لا أدرى لعلكم ستكلِّفوننى ماكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلم يطيق ، إنّ الله اصطفى محمّدا على العالَمين ، وعصَمه من الآفات ، فإنَّما أنا متَّبِـع ولست بمبتدِع فإن استقمت فاتّبعونى ، وإن زغْتُ فقوّمونى ، وإن رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قُبِضَ ، وليس أحَدٌ من هذه الأُمة يطلبه بمظلمةٍ ؛ ضربةَ سوط فما دونها ؛ ألا وإنما لى شَيْطان يعترينى ، فإذا أتانى فاجتنبونى ، لا أُؤَثِّر فى أشعاركم وأبشاركم ، وإنكم تغدون وتروحون

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

فى أجلٍ قد غُيِّبَ عنكم علمه ، فإن استطعتم ألَّا يَمْضِىَ هذا الأجل إلّا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلاَّ بالله . فسابقوا فى مهل آجالكم من قبل أن تُسلِمَكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ، فإنّ قومًا نَسُوا آجالَهم ، وجعلوا أعمالَهم لغيرهم ، فأنهاكم أن تكونوا أمثالَهُم . الجدّ الجدّ ، والوحى الوحَى[1] ، والنَّجَاة النَّجاة ، وإنَّ وراءكم طالبا حثيثًا ، أجلا مرّه سريع . واحذروا الموتَ ، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تُغْبَط به الأمواتُ .

وقام أيضا رضى الله عنه ، فحمِد الله وأثْنَى عليه ، ثم قال :

إنّ الله لايقبلُ من الأعمال إلاَّما أُريدَ به وجهه ، فأَرِيدُوا الله بأعمالكم ، واعلموا أنَّ ما أخلصتم لله من أعمالكم ، فطاعةٌ أتيتموها ، وحظٌّ ظفِرتم به ، وضرائب أدَّيتموها ، وسلَفٌ قدّمتموه من أيام فانية لأُخرى باقية ، لحين فقْرِكم وحاجتِكم ، واعتبرُوا ياعبادَ الله بمن مات منكم ، وفكِّروا فيمن كان قبلكم .

أين كانوا أمس وأين هم اليوم ! أين الجبّارون الذين كان لهم ذكرُ القتال والغَلبة ومواطن الحروب ؟ قد تضعضع بهم الدّهر وصاروا رميما ، قد تُرِكتْ عليهم القالات[2] ؛ الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبثيات .

---

(١) الوحى : الإسراع .

(٢) ص : « المقالات » .

وأين المُلُوك الَّذين أثاروا الأَرض وعمَرُوها ، قد بَعُدوا ، ونُسِيَ ذكرُهم ، وصاروا كلا شيء . أَلَا إنَّ الله قد أبقى عليهم التَّبِعاتِ ، وقَطَع عنهم الشَّهوات ، ومضَوْا والأَعمالُ أعمالهم ، والدُّنيا دُنْيَا غيرِهم ، وبقينا خَلَفًا بعدهم ، فإنْ نحنُ اعتبرنا بهم نجوْنا .

أين الوُضّاءُ الحسَنة وجوهُهم ، المعجَبُون بشَبابهم ! صاروا ترابًا ، وصار ما فرَّطُوا فيه حسرةً عليهم .

أينَ الذين بنَوا المدائن ؛ وحصّنوها بالحوائط ، وجَعَلُوا فيها الأَعاجيب ! قد تركوها لمَنْ خلْفهم ، فتِلْك مساكنُهم خاوية وهُم فى ظلمات القبور ، هل تحسُّ منهم من أحدٍ ، أو تسمع لهم ركْزًا (١) !

أَيْنَ مَنْ تعرِفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم ؛ فوردوا على ما قدّموا ، فحلُّوا عليه ، وأقاموا للشِّقْوة أو السَّعَادة فيما بعد الموت ؛ أَلَا إنَّ الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحدٍ من خلْقه سبب يُعطيه به خيرًا ، ولا يصرف به عنه شرًّا إلا بطاعته واتِّباع أمره .

واعلموا أنكم عبيد مذنبون ، وأنَّ ما عنده لايُدْرَك إلَّا بطاعته . ألا وإنَّه لا خير بخير بعده النَّار ، ولا شرَّ بشرٍّ بعده الجنة .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) الركز : الصوت الخفى .

ذكر انفاذ جيش أسامة

قد ذكرنا فى السِّيرة النبويّة فى الغَزَوات والسَّرايا ؛ أنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان قد جَهَّز أُسامةَ بنَ زيد قبل وفاته ، وندب معه جماعة من أعيان المهاجرين والأَنصار ، منهم أبو بكر وعمر .

وذكرنا أيضا ما تكلَّمَ به من تكلَّم من الصحابة فى شأْنه ، وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بلغه ذلك ، من الثناء على أُسامة ابن زيدٍ وعلى أبيه زيد بن حارثة ، واستخلافه للإمارة ، وأنّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قُبِضَ وجيش أُسامة بالجُرْفِ .

فلمَّا[1] بويع أبو بكرٍ الصديق رضى الله عنه ، كان أوّلَ ما بدأ به أن أمر منادِيَهُ فنادِى فى الناسِ من بعد الغد من متوفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتمّم بعثَ أُسامة : ألَا لا يبقينَّ فى المدينة أحدٌ من جُندِ أُسَامة إلاَّ خرج إلى عَسْكَرِه بالجُرْفِ .

رُوى ذلك عن عاصم بن عدىّ . وعن هشام بن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، قال : لما بُويع أبو بكر الصِّديق رضى الله عنه ، وجمع الأَنصار على الأَمر الذِى افترقوا عنه ، قال : لِيَتَمّ بعث أُسامة ؛ وقد ارتدَّتْ العرب ، إمّا عامّةً ، وإمَّا خاصّةً فى كلّ قبيلة ، ونَجم النِّفاق ، واشرأَبَّت اليهوديّةُ والنَّصرانية ، والمسلمون كالغنم المَطيرة ؛ فى اللَّيلة الشاتية ؛ لفقد نبيِّهم وقلَّتهم ، وكثرةِ عدوّهم .

فقال له النَّاس : إن هؤلاء جُلُّ المسلمين ، والعرب علَى ماترى قد انتقضَتْ بك ، فليس ينبغى لك أنْ تُفَرِّقَ عنْكَ جماعة المسلمين .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٢٥ ومابعدها .

فقال أبو بكر : والذى نفس أبي بكرٍ بيده ، لو ظننتُ أنَّ السِّباع تخطفُنِى لأنفذتُ بعثَ أُسامة كما أَمَر به رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولو لم يبْقَ فى القرى غيرى لأنفذْتُه .

وعن الحسن بن أبي الحسن ، قال : ضربَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بعْثًا على أهلِ المدينة ومَنْ حولهم ، وفيهم عمر ابن الخطابِ ، وأمَّر عليهم أُسامةَ بن زيد ، فلم يجاوزْ آخِرُهم الخندق حتى قُبِض رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فوقف أُسامة بالناس ، ثم قال [1] لعمر بن الخطاب : ارجع إلى خليفة رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فاستأْذِنْه ، يأْذَن لى [أن] [2] أرجع بالناس ، فإنَّ معى وجوه الناس وحدَهم ، ولا آمن على خليفة رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وثَقَلِ رسول الله وأثقالِ المسلمين أن يتخطَّفهم المشركون . وقالت الأنصار : فإنْ أَبَى إلاَّ أنْ نمضىَ ؛ فأَبلغْه عَنَّا ، واطلب إليه أن يُوَلِّىَ أمْرَنا رجلاً أقدمَ سنًّا من أُسامة .

فخرج عمر بأمر أُسامة ، فأتى أبا بكر ، فأخبره بما قال أُسامة ، فقال أبو بكر : لو خَطَفَتْنِى الكلاب أو الذِّئاب لم أَردَّ قضاءً قضى به رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، قال : فإنّ الأَنصارَ أمرونى أنْ أُبلغَكَ أنَّهُمْ يطلبون إليك أن تولِّىَ أمرهم رجلاً أقدمَ سِنًّا من أُسامة . فوثب أبو بكر وكان جالسًا . فأخذ بلحية عمر ، وقال : ثكلتك أُمُّك وعدِمَتْكَ يابنَ الخطاب ! استعمله رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وتأْمرنى أن أنزعَهُ !

---

(١) ص : « ثم قام » .
(٢) تكملة من ص .

فخرج عمر إلى النَّاس ، فقالوا : ما صنعت ؟ فقال : امضُوا ثكلتكم أُمّهاتكم ! ما لقيت فى سببكم اليوم من خليفةِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم !

ثم خرج أبو بكر رضى اللهُ عنه حتى أتاهم ، فأشخصَهُمْ وشيَّعهم وهو ماشٍ ؛ وأُسامة راكبٌ ، وعبد الرحمن بن عوف يقودُ دابّة أبى بكرٍ ، فقال له أُسامة : يا خليفةَ رسول الله ، والله لتركبَن أو لأَنزلَنَّ ! فقال : والله لاتنزل ووالله لا أركبُ ، وما عَلَىّ أن أُغبِّر قدمىّ فى سبيل الله ساعةً ؛ فإنَّ للغازى بكلِّ خطوةٍ يخطوها سبعمائة حسنة تكتبُ له ، وسبعمائة درجة تُرْفع له ، وتُمحى عنه سبعمائة خطيئة ؛ حتى إذا انتهى أبو بكر ، قال لأُسامة : إنْ رأيتَ أن تعيننى بعمر فافعل ، فأَذِنَ له . ثم قال :

يأَيّها الناس ، قفوا أُوصيكم بعشرٍ فاحفظوها عنِّى : لاتخونوا ولاتَغُلُّوا [1] ولا تغدِروا ، ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأةً ، ولا تعقرُوا [2] نخلاً ، ولا تحرِقوه ، ولا تقطعوا شجرة مُثْمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلاَّ لمأْكلةٍ ، وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم بالصوامع فدَعُوهم وما فرَّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمُون على أقوامٍ يأْتونكم بآنية فيها ألوانُ الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شىءٍ فاذكروا اسم الله عليها . وسوف تلقوْن أقوامًا قد فَحصُوا أوساط رءوسهم [3] ،

(١) الغلول : أخذ شىء من الغنيمة خفية قبل القسمة .

(٢) عقر النخلة : قطعها من أصلها فسقطت .

(٣) فحصوا رءوسهم . أى أن الشيطان جعلها مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها .

وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخْفِقوهم بالسيف خفقا ، اندفِعوا باسم الله .

ثم أوصى أُسامَة أن يفعل ما أَمَره به رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فسار وأَوْقَع بقبائل قُضاعة الَّتى ارتدَّت ، وغنِم وعاد ، وكانت غيبتُه أربعين يومًا ، وقيل : سبعين يومًا ، وقيل : أربعين ؛ سوى مُقامه ومَقْفله راجعا .

وكان إنفاذ جيش أُسامة من أعظم الأُمور نفعًا للمسلمين ، فإنَّ العرب قالوا : لو لم تكن لهم قوّةٌ ما أرسلوا هذا الجيشَ ؛ فكفُّوا عن كثيرٍ مما كانوا عزمُوا على فعله ، وذلك ببركة اتِّباع أمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

ذكر أخبار من ادعى النبوة من الكذابين

وما كان من أمرهم ، وتجهيز أبى بكر الصديق الجيوش إليهم ، وإلى من ارتدّ من قبائل العرب

قال المؤرّخون : كان ادَّعى النبوّة فى حياة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثلاثة ، وهم : الأَسود العنسى ، وطُلَيْحة الأَسدِىّ ، ومُسيلمة الكذَّاب ، وادّعت النبوّة سَجاح بنت الحارث التميميّة .

فأَما[1] الأَسود العَنْسِى ، واسمه عَبْهلة بن كَعْب بن عوف العنسىّ - بالنُّون الساكنة . وعَنْس بطن من مَذْحج - فكان يُلَقَّب ذا الخِمار لأَنه كان متخمّرًا أبدا .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٢٧ وما بعدها .

وقال أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُرِىّ : إنه كان له حِمارٌ [١] مُعْلِم يقول له : اسجد لربكَ ، فيسجد . ويقول له : ابرك فيبرك . فقيل له : ذا الحِمار . والله تعالى أعلم .

وكانتْ رِدّته أوّلَ رِدّةٍ كانتْ فى الإسلام ، وغلب على صنعاء إلى عُمَان إلى الطائف

وكان من خبره ما رُوِى عن الضحّاك بن فيروز الدَّيلمى عن أبيه ؛ قال : أوّلُ رِدّةٍ كانت فى الإسلام باليَمن ، رِدَّةٌ كانت على عهد رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، على يد ذى الخمار عَبْهلة بن كَعْب – وهو الأسود – فى عامَّة مذحج ، خرج بعد الوَدَاع . وكان الأسود كاهنا مشعبِذًا [٢] ، وكان يُريهم الأعاجيب ، ويَسْبِى قلوبَ مَنْ سمع منطقه ، وكان أولِ ما خرج أن خرج من كهف خُبَّان – وهى كانت موطنه وداره ، وبها ولد ونشأ – فكاتبتْه مَذْحِج وواعدوه نجْرَان ، فوثبوا عليها ، وأخرجوا عَمْرو بن حَزْم وخالد بن سعيد بن العاص ، ثم أنزلُوه منزلَهما ، ووثب قيس بن عبد يغوث على فرْوَة بن مُسَيْك فأجلاه ، ونزل منزله ، فلم يلبث عَبْهلة بنجران أن سار إلى صنعاء فأخذها . وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلم جمع لباذام ، حين أسلَم . وأسلمت اليمن كُلُّها على جميع مخالفيها ، فلم يزل عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام حياته لم يعزله عنها ولا عن شىء منها .

---

(١) ك : « جهار » تحريف .

(٢) الشعوذة والشعبذة : أخذ كالسحر ، يرى شىء بغير ما عليه .

ولا أشركَ معه فيها شريكًا حتى مات باذام ، ففرّق رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم عمل اليمن على جماعة من أصحابه ، وهم : شهر بن باذام ، وعامر بن شَهْر الهمْدَانيّ ، وعبد الله بن قيس أبو موسى ، وخالد ابن سعيد بن العاص ، والطَّاهر بن أبي هالة ، ويعلَى بن أُميّة ، وعمرو ابن حَزْم . وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البَيَاضيّ ، وعُكَّاشة ابن ثور بن أَصْغَر الغوْثيّ ؛ علَى السَّكاسِك والسَّكون ، ومعاوية بن كِنْدة . وبعث مُعاذ بن جبل مُعلِّما لأهل البلدين : اليمن وحَضْرموت .

وروِي عن عُبَيد بن صَخْر ، قال : بينما نحن بالْجُنْد ؛ قد أقمناهم على ما ينبغى ، وكتبنا بيننا وبينهم الكتب ؛ إذ جاءنا كِتابٌ من الأَسود : أيها المتورّدُون علينا ، أَمْسِكُوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفِّروا ما جَمَعتم ، فنحن أَوْلَى به . وأنتم على ما أنتم عليه ؛ فقلنا للرسول : مِنْ أين جئت ؟ قال : من كَهف خُبَّان ؛ ثم كان وجهه إلى نجْران حتى أخذها فى عشرٍ لمخرجه ، وطابقَهُ عوامٌّ مذحج ؛ فبينا نحن ننظر فى أمرنا ، ونحن نجمع جَمْعنا إذ أُتِينا . فقيل : هذا الأَسود بشَعُوب [1] ، وقد خرج إليه شَهْر بن باذام ، وذلك لعشرين ليلةً من مَنْجمه ؛ فبينا نحن ننتظر الخبر على مَنْ تكون الدَّبْرة [2] ؛ إذ أتانا أنه قتَل شهرًا ، وهَزَم الأبناء ، وغلَب على صنعاء ، لخمس وعشرين ليلةً من مَنْجمه .

وخرج مُعَاذ هاربا حتى مرَّ بأبى موسى وهو بمأْرِب ، فاقْتحما حضرموت . فأمَّا مُعاذ فإنه نزل فى السَّكُون ، وأمّا أبو موسى فإنَّه

(١) شعوب : قصر باليمن معروف بالارتفاع ، أو بساتين بظاهر صنعاء — ياقوت .
(٢) الدبرة : الهزيمة فى القتال ، وفى ص : « الدائرة » .

نزل فى السَّكاسِك ، وانحازَ سائرُ أمراء اليمن إلى الطَّاهر[1] إلاَّ عَمْرًا وخالدًا ، فإنَّهما رجعا إلى المدينة ، والطَّاهرُ يومئذ فى وسط بلادعَكّ بحِيال صَنْعاء ؛ وغلب الأَسْود على مابين صَهِيد ـ مفازة حضرموت ـ إلى عمل الطائف ، إلى البحرين قِبَل عَدَن ، وطابقت عليه اليَمن ، وعَكّ بتِهَامة معترضون عليه ، وجعل يستطير استطارة الحريق ، وكان معه يوم لَقِىَ شهر بن باذام سبعمائة فارس سوى الرُّكبان ، واستغلظ أمرُه ، ودانت له سواحل من السواحل وعَدَن والجنَد ؛ ثم صنعاء إلى عمل الطائف إلى الأَحسية وغيرها .

وعامله المسلمون بالبقيّة ، وعامله أهل الرِّدةِ بالكُفْر ، والرجوع عن الإسلام .

وكان خليفتُه فى مَذْحِج عمْرو بن معدِى كرب ، وأسند أمر جُنْدِه إلى قيس بن عبدِ يَغُوث ، وأسند أمر الأَبناء إلى فيروز وداذَوَيْه . فلمّا أثخن فى الأَرضِ استخفَّ بقيسٍ وبفيروز وبداذَوَيْه وتزوَّج امرأة شَهْر ، وهى ابنة عم فيروز .

قال أبو عبيد بن صخر : فبينا نحن كذلك بحضْرموت ، ولانأْمن أن يسير إلينا الأَسود ، أوأن يبعث إلينا جيشا ، أو يخرج بحضْرموت خارجٌ يَدَّعى بمثل ما ادّعى به الأَسودُ ، فنحن على ظهرٍ ، تزوَّج مُعاذ إلى بنى بكرة ـ حىٌّ من السَّكون ـ امرأةً يُقَال لها : رَمْلَة ، فحدِبوا لصهره علينا ـ وكان معاذ بها معجَبا ـ فإن كان يقول فيما يدعو الله به : اللَّهم ابعثنى يوم القيامة مع السَّكون ، ويقول أحيانًا :

(١) هو الطاهر بن أبى هالة وانظر الصفحة السابقة .

اللّهم اغفر للسّكون ؛ إذ جاءتنا كتبُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، يأمرنا [فيها] (١) أن نبعث الرجال لمجاولتـه ومصاولته ، وأن نُبْلِغَ كُلَّ من رجا عنده شيئًا من ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

فقام مُعاذ فى ذلك بالّذِي أمِرَه به ، فعرفنا القوّة ، ووثقْنَا بالنّصر .

وعن جُشَيْش بن الدّيلمىّ ، قال : لمّا قدِم علينا وَبَرُ بن يُحَنّس بكتاب النبيّ صلى الله عليه وسلّم يأمُرنا فيه بالقيام على ديننا ، والنُّهوض فى الحرْب ، والعملَ فى الأسود ، إمّا غيلةً ، وإمّا مصادمة ، وأن نُبْلغ عنه مَنْ رأينا أنّ عنده نجْدة [ودينا] (٢) ، فعملنا فى ذلك ، فرأينا أمرا كثيفا ، ورأيناه قد تغيّر لقيس بن عبد يغوث ـ وكان على جنده ـ فقلنا : يُخاف على دَمِه [فهو لأول دعوة] (٢) ، فدعوناه وأنْبَأْناه الشأْن ، وأبلغناه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فكأنّما وقعْنا عليه من السّماء ، وكان فى غمٍّ وضيقٍ بأمرِه ، فأجابنا إلى ما أحببنا من ذلك ، وكاتبْنا النّاس ، ودعوناهم . فأخبره الشيطان بشىء ، فأرسل إلى قيس وقال : ياقيس ، ما يقول هذا ؟ قال : وما يقول ؟ قال : يقول : عمَدت إلى قيس فأكرمتَه ؛ حتى إذا دخل منك كل مَدْخلٍ ، وصار فى العِزِّ مثلَك ؛ مالَ مَيْلَ عدوّك ، وحاول مُلْكَك ، وأضمرَ على الغدر ، إنه يقول : يا أسود يا أسود ! ياسوءة ، يا سوءة ! اقطفْ قُنّتَه ، وخُذْ من قيسٍ أعلاه ؛ وإلاّ سلبك ، أو قطف قُنّتك .

---

(١) تكملة من ص .

(٢) تكملة من تاريخ الطبرى .

فقال قيس وحلف به ؛ كذب وذِي الخِمار ؛ لأنت أعظم فى نفسى ، وأرجى عندِى من أن أحدِّث بك نفسى !

فقال : ما أجفاك ! أتكذِّب الملَك ! صدق الملَك ، وعرفتُ الآن أنَّك تائب مما اطَّلع عليه منك ، ثم خرج فأتانا فقال : ياجُشَيش ، يا فيْروز ، يا داذوَيْه ! إنه قد قال وقلت : فما الرأى ؟ فقلنا : نحن على حذَرٍ ؛ فإنا فى ذلك ، إذ أرسل إلينا ؛ فقال : ألم أشرِّفكم على قومكم ! ألم يبلِّغنى عنكم ! فقلنا : أقِلْنا مرّتنا هذه ؛ فنجونا ، ولم نكد ، وهو فى ارتياب من أمرنا وأمر قيس ؛ ونحن فى ارتياب وعلى خطر عظيم ؛ إذ جاءنا اعتراضُ عامر بن شهـر وذِي زود وذى مُرَّان وذِي الكَلاع وذِي ظُلَيْم عليه ، وكاتبونا وبذلوا لنا النَّصْر ، وكاتبناهم ؛ وأمرناهم ألا يحرّكوا شيئا حتى نُبْرِم الأمر ، وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتابُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إليهم . وكتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران ، إلى عربهم وساكنى الأرض من غير عربهم ، فتنحّوْا ، وانضمّوا إلى مكان [واحد] (١) . وبلغه (٢) ذلك ، وأحسَّ بالهلاك ، وفرَق لنا الرأى ، فدخلت على آزاد — وهى امرأته — فقلت : يا بنت عمٍّ ، قد عرفْتِ بلاء هذا الرجل عند قومك ؛ قتل زوجَك ، وطأْطأ فى قومك القتل ، وسَفَل بمن بَقِيَ منهم ، وفضَح النساء ، فهلْ عندكِ من ممالأة عليه ؟ فقالت : علَى أىّ أمره ؟ قلت : إخراجه ، فقالت : أو قتله ! قلت : أو قتله ، قالت : نعم والله ما خلَق الله شخصًا أبغَض إلىّ منه ؛ ما يقوم لله على حقٍّ ، ولا ينتهى له

(١) من ص والطبرى .
(٢) ص : « وبلغهم » .

عن حُرْمة ، فإذا عزمتم فأعلمونى أخبرْكم بمأتى هذا الأمر . فأخرُج فإذا فيروز وداذوَيْه ينتظرانى ، وجاء قيسٌ ونحن نريد أن نناهضه ، فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا : المَلِك يدعُوك ، فدخلَ فى عشرة من مَذْحِج وهَمْدان فلم يقدِرْ على قتله معهم .

فقال : يا عَبْهلة بن كعب بن غوث ، أمِنِّى تَحصَّنُ بالرجال ! ألم أخبرك الحقَّ وتخبرنى الكذابة [1] ! إنه يقول : ياسوءة ، إلاَّ تقطع من قيس يده ، يقطع قُنَّتك العُلْيا ، حتى ظنَّ أنه قاتله .

فقال : إنه ليس من الحقِّ أن أقتلَك وأنت رسول الله ؛ فمرنى بما أحببتَ ، فأمَّا الخوف والفزع فأنا فيهما مخافَةَ أن تقتُلَنِى ، وإمَّا قتلتَنى فموتة أهون علىَّ من موتاتٍ أموتها كلَّ يوم . فرقّ له وأخرجه ؛ فخرج إلينا ، فأخبرنا . وقال : اعملوا عمَلكم ، وخرج إلينا فى جمعٍ ، فقمنا مُثُولاً له ، وبالباب مائة ما بين بقرةٍ وبعير ، فقام وخطَّ خطًّا ، وأُقيمتْ من ورائه ، وقام من دونها فنحرها غير محبَّسةٍ ولا معقَّلة ، ثم خلاَّها ما يقتحم الخطّ منها شىءٌ ، ثمّ خلاها فجالت إلى أن زَهَقت .

فما رأيتُ أمرًا كان أفظع منه ، ولا يومًا أو حشَ منه ، ثم قال : أحقّ ما بلغنى عنك يا فيروز ؟ — وبوّأ له الحربة — لقد هممتُ أن أنحرك فأُتْبِعَك هذه البهيمة ؛ فقال : اخترتَنا لصِهْرك ، وفضَّلْتَنا على الأبْناء ، فلو لم تكن نبيًّا ما بعنا نصيبنَا منك بشىء ، فكيف وقد اجتمع لَنَا بك أمرُ آخرةٍ ودينا ! لا تقبلنّ علينا أمثال ما يبلغك ؛ فإنّا بحيث تحبّ ؛ فقال : اقسمْ هذه ، فأنت أعلم بمن هنا .

(١) ك : « وتخبرنى الكذبة » .

فاجتمع إلىّ أهل صنعاء ، وجعلت آمر للرهط بالجَزُور ، ولأهل البيت بالبقرة ، ولأهل الحِلَّةِ بعدّة ، حتى أخذ أهلُ كلّ ناحيةٍ بقسطهم. فلحِق به قبل أن يصل إلى داره – وهو واقف علىّ – رجل يسعى إليه بفيروز ، فاستمع له ، واستمع له فيروز ، وهو يقول : أنا قاتله غدًا وأصحابه ، فاغْدُ علىَّ ، ثم التفت فإذا به ؛ فقال : مَهْ ! فأخبره بالَّذِي صنع ؛ فقال : أحسنت ؛ وضرب دابّته داخلاً ، فرجع إلينا فأخبرنا بالخبر ، فأرسلنا إلى قَيْس ، فجاءنا ، فأجمع ملؤهم أنْ أعودَ إلى المرأه ؛ فأخبرها بعزيمتنا لتخبرنا بما تأمر ، فأتيت المرأة ، وقلت : ما عندك ؟ قالت : هو متحرز متحرِّس ، وليس من القَصر شىء إلا والحرسُ محيطون به غير هـذا البيت ؛ فإن ظَهْره إلى مكان كذا وكذا من الطَّريق ؛ فإذا أمسيتم فانقُبوا عليه ، فإنَّكم من دُون الحرس ؛ وليس دون قتله شىء . وقالت : إنكم سترون فيه سراجًا وسلاحًا ، فخرجتُ فتلقَّانى الأَسود خارجًا من بعض منازله ؛ فقال : ما أدخلك علىّ ؟ ووجأ [1] رأسى حتى سقطت ؛ وكان شديدًا ، وصاحت المرأة فأدهشَتْهُ عنِّى ؛ ولولا ذلك لقتلنى ؛ وقالت : ابن عمى جاءنى زائرا ؛ فقال : اسكتِى لا أبا لك ! فقد وهبتُه لك [فتزيَّلتْ عنى] [2] ، فأتيت أصحابى ، فقلت : النَّجاء ! الهرب ! وأخبرتُهم الخبر ، فإنَّا على ذلك حيَارى إذ جاءنى رسولُها : لاتَدعَنَّ ما فارقتُك عليه ، فإنى لم أزلْ به حتى اطمأنّ .

فلمّا أمسينا عملنا فى أمرنا ، وقد واطأنا أشْياعُنا ، وعجلْنا

(١) وجأ رأسه : ضربه .

(٢) من ص ، وفى الطبرى : « فتزايلت » .

عن مراسلة الهَمْدانيّين والحِمْيريّين ، فنقبْنا البيتَ من خارج ، ثم دخلنا وفيه سراجٌ تحت جفنةٍ ، والْتقينا[1] بفيروز — وكان أنجدنا وأشدّنا — فقلنا : انظر ماذا ترى؟ فخرج ونحن بينه وبين الحَرَس معه فى مقصورته ، فلمّا دنا من باب البيت سمع غطيطا شديدًا ، فإذا المرأة جالسةٌ ، فلمّا قام على الباب أجلسه الشيطان ، فكلَّمَه على لسانه وإنه ليغُطُّ جالسًا . وقال أيضًا : مالى ولك يا فيروز ! فخشى إن رجع أن يهلِك وتهلكِ المرأة ، فعاجله فخالطه وهو مثل الجمل ، فأخذ برأسه فقتله ، فدَقَّ عُنُقَه ، ووضع ركبتيْه فى ظهره فدقَّه ، ثمّ قام ليخرج ، فأخذت المرأة بثوبه ، وهِى ترى أنَّه لم يقتله ، فقالت : أين تَدَعُنى؟ قال : أخبر أصحابى بمقتله ؛ فأتانا ، فقمنا معه ، فأردنا حزَّ رأسه ، فحرّكه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه . فقلتُ : اجلسوا على صَدْره ، فجلس اثنَان على صَدْره ، وأخذت المرأة بشعْرِه ، وسمعنا بَرْبَرة [2] ، فأمرّ الشّفرة على حلْقه ، فخار كأشدّ خُوار ثور سمعته قطّ .

فابتدر الحرسُ الباب وهم حول المقصورة ، فقالوا : ما هذا ، ما هذا ؟ فقالت المرأة : النبيّ يوحى إليه ؛ فخمد ، ثم سَمَرْنا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبرُ أشياعنا ؛ ليس غيرنا ثلاثتنا [فيروز وداذويه وقيس][3] ، فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذى بيننا

(١) ص : « واتقينا » .
(٢) البربرة : الصوت المختلط .
(٣) من ص والطبرى .

أو بين أشياعنا ، ثم ينادِي بالأذان فلمّا سمع بذلك ، وطلع[1] الفجر ، نادِي دا ذوَيه بالشِّعار ، ففزع المسلمون والكافرون ، وتجمَّع الحرس فأحاطوا بنا .

ثم ناديت بالأذان ، وتوافت خيولهم إلى الحرس ، فناديتهم ، أشهد أنّ محمدًا رسول الله ، وأن عَبْهلة كذّاب ، وألقينا إليهم رأسه ؛ فأقام وبرّ الصلاة ، وشنّها القوم غارة ، ونادينا : يا أهل صنعاء ؛ مَنْ دخل عليه داخل فتعلَّقوا به ، ومَنْ كان عنده منهم أحد لم يخرج ، فتعلَّقوا به ، ونادينا بمَن فى الطريق : تعلَّقوا بمن استطعتم ، فاختطفوا صبيانا كثيرًا ، وانتهبوا ما انتهبوا ، ثم مضوا خارجين .

فلمّا برزوا فقدوا منهم سبعين فارسًا ركبانًا ، وإذا أهل الطريق والدُّور قد وافوْنابهم ، وفَقَدْنا سبعمائة عَيِّل ، ثم راسلونا وراسلناهم على أن يتركوا لنا ما فى أيديهم ، ونترك لهم ما فى أيدينا ، ففعلوا ؛ فخرجوا لم يظفروا بشىء .

وتردَّدُوا فيما بين صنعاء ونَجْران ، وخلصت صنعاء والجَنَد ، وأعزّ الله الإسلام وأهله ، وتنافسنا الإمارة ، وتراجع أصحابُ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أعمالهم ، فاصْطَلَحْنا على مُعاذ بن جبل فكان يصلِّى بنا ، وكتبْنا إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالخبر ، وذلك فى حياة النبىّ صلَّى الله عليه وسلم ، فأتاه الخبر من ليلته ، وقدمت رُسُلُنا ، وقد ماتَ النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم صبيحة تلك الليلة ، فأجابنا أبو بكر رضى الله عنه[2] .

---

(١) ص : « فأطلع » .

(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٣١ - ٢٣٦ .

وروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : أتى الخبرُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من السماء الليلةَ التى قتِل فيها العَنْسِيّ ليبشّرَنا فقال : قتِل الأسود البارحة ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين قيل : ومن هو ؟ : قال : فيروز .

وعن فيروز ؛ قال : قتلنا الأسود ، وعاد أمرنا كما كان ، إلّا أنّا أرسلنا إلى مُعاذٍ ؛ فتراضينا عليه ، فكان يصلّى بنا فى صَنْعاء ، فوالله ماصلّى بنا إلا ثلاثا ونحن راجعون مؤمّلون ، حتى أتى الخبرُ بوفاةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فانتقضت الأمور ، وأنكرنا كثيرا ممّا كنا نعرف ، واضطربت[1] الأرض .

وكانت مدّة العنسيّ من حين ظهور أمره إلى أن قتِل ثلاثة أشهرٍ .

وعن الضحاك بن فيروز ، قال : كان مابين خروجه بكهف خُبّان إلى مقتله نحوا من أربعة أشهر ، وقد كان قبل مستسرًّا بأمره حتى نادى بعد .

وقال أبو بشر الدّولابيّ : إنّه قتل فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه . والله أعلم .

وقيل : أتى الخبر بمقتله إلى المدينة فى آخر ربيع الأوّل ، سنة إحدى عشرة ، بعد إنفاذ جيش أسامة بن زيد ، فكان ذلك أول فتح لأبى بكر الصديق رضى الله عنه .

روى أبو عمر بن عبد البر بسندٍ يرفعُه إلى شُرَحْبيل بن مسلم

(١) ص : « واضطرمت » .

الخَوْلانىّ أنّ الأسود بعث إلى أبى مسلم عبدالله الخولانىّ ، فلما جاءه قال : أتشهدُ أنّى رسول الله ؟ قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أنّ محمدًا رسول الله ؟ قال : نعم ، فردّد ذلك عليه ؛ كلّ ذلك يقول مثل ذلك . قال : فأمر بنارٍ عظيمة فأُجّجت ، ثم ألقى فيها أبا مسلم ، فلم تضرّه شيئًا . فقيل له : انفِه عنك والّا أفسد عليك مَن اتبعك ، فأمرَه بالرّحيل ، فأتى أبو مسلم المدينة وقد قبِض رسول الله صلّى الله عليه وسلم واستُخْلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد ، وقام فصلّى إلى سارية ، وبَصُر به عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : مِمّن الرجل ؟ فقال : من أهل اليمن ، قال : مافعل الذى أحرقه الكذّاب بالنار ؟ قال : ذاك عبدالله بن ثوب ، قال : أنشدك الله أنت هو ! قال : اللهمّ نعم ، قال : فاعتنقه عمر ، وبكى . ثم ذهب [به] (١) حتى أجلسه فيما بينه وبين أبى بكر ، ثم قال : الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرى فى أمّةِ محمد صلّى الله عليه وسلّم من فُعِل به كما فعل بإبراهيم خليل الله صلّى الله عليه وسلم(٢) .

هذا ما كان من أمر العنسىّ ، وأمّا بقية الكذّابين ؛ فسنذكر أخبارهم عند ذكرنا تجهيزَ أبى بكر الجيوش إن شاء الله تعالى .

---

(١) تكملة من ص .

(٢) الاستيعاب ١٧٥٨ .

ذكر غزوة أبى بكر

وقتاله أهل الردة وعبس وذبيان

قالوا : لما قُبِض رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، ارتدّت العرب كُلُّها إلا قريشًا وثَقِيفا ، وأتت وفُود العرب إلى أبى بكر الصّديق رضى الله عنه مرتدّين يُقرّون بالصّلاة ، ويمنعون الزكاة ، فلم يقبل ذلك منهم وردّهم ، وقال : والله لو منعونى عِقَالًا[1] كانوا يؤدّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتُهم عليها . وخرج فى جمادى الآخرة منها ، واستخلف على المدينة أُسَامة بن زيد ، وقيل : سنا نا الضَّمرىّ ، وسار فنزل بذِى القَصَّة[2] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث نَوْفَل بن معاوية الدّيلمىّ[3] على الصَّدقَة ، فلقيه خارجة بن حُصين بالشَّربَّة[4] ، فأخذ ما فى يديه وردّه على بنى فزارة ، ورجع نوفل إلى أبى بكر بالمدينة .

فأوّلُ حربٍ كانت فى الرّدةِ بعد وفاة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حرب العنسىّ باليمن ، ثم حرب خارجة بن حصين ومنظور بن زبّان بن سيار فى غَطَفان ، والمسلمون غَارُّون[5] ، فانحاز أبو بكر إلى أكَمة فاستتر بها ، ثم هزم الله المشركين .

---

(١) العقال : الحبل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى الصدقة .
(٢) ذو القصة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا .
(٣) ص : « الديلى » .
(٤) الشربة : موضع فى بلاد نجد .
(٥) غارون : غافلون ، وفى ك : « غازون » .

وروى أن أوّل غزاةٍ غزاها أبو بكر : كانت إلى بنى عبْس وذبيان ، وأنه قاتلهم وهزمهم ، وأتبعهم حتى نزل بذِى القَصَّة ، وكان ذلك أول الفتح ، ووضع أبو بكر رضى الله عنه بها النعمان بن مقرِّن فى عدد ورجع إلى المدينة ، فوَثب بنو عبس وذُبيان على مَنْ فيهم من المسلمين فقتلوهم . فحلف أبو بكر رضِى الله عنه : لَيقتُلَنّ فى المشركين بمن قتَلوا من المسلمين وزيادة .

وقدمت رسل رسول الله صلَّى الله عليه وسلم من اليمن واليمامة وبلاد بنى أسد ، ووفود مَنْ كان كاتبه النبى صلى الله عليه وسلم .

وأمِر أمرُه فى الأسود ومُسَيْلمة وطلحة بالأخبارِ والكُتب ، فدفَعُوا كُتُبَهُم إلى أبى بَكرٍ ، وأخْبرَوه الخبر ؛ فقال لهم : لا تَبْرَحُوا حتى تَجىء رسلُ أمرائِكم وغيرهم بأدهى مما وَصَفْتُم ، وأمرّ بانتقاض الأُمور ؛ فلم يلبَثوا أنْ قَدِمَتْ كُتُبُ أمراء النبى صلَّى الله عليه وسلم الله عليه وسلم من كُلّ مكانٍ بانْتِقاضٍ ، عامة أو خاصَّة ، وتبسّط.[1] من ارتدَّ على المُسْلِمين بأنواع الميل .

فحاربهم أبو بكر رضى الله عنه بما كان النبىّ صلّى الله عليه وسلَّم [يحاربهم][2] ، حاربهم بالرسل ، فردَّ رسُلَهُم ، وأتبع الرسُلَ رُسلاً ، وانتظر بمصادَمتهم قدومَ أُسامة بن زيْدٍ ، وطرقَتْ المدينة صدقات نفرٍ كانوا على الصَّدقةِ ؛ وهم صَفْوان بن صفْوانِ ، والزِّبرقانِ بن

(١) ك : « وبسط » .

(٢) تكملة من ص .

بَدْرٍ ، وعدىّ بنِ حاتِمٍ ؛ فازداد المسلمون قُوّةً ، ثم قَدِمَ أُسامَةُ بنُ زيدٍ ، فاستَخْلَفه أبو بكرٍ على المدينة ومعه جنده ليَسْتَريحوا .

ثم خرج بمن كان معه ، فناشدهُ المسلمون ليقيم ، فأبى وقال : لأُوَاسِيَنَّكُمْ بنفسى ، فسار إلى حُسىً وذِي القَصَّةِ حتى نزل بالأَبْرقِ ، فقاتل من به من المشركين فهزمهم ، وأخَذ الحطيئة أسيرًا ، وأقام بالأبرقِ أيامًا ثم رجع إلى المدينة ، ولحقَ مَنْ انهزَمَ من عَبْسٍ وذُبْيَانَ وطُلَيْحَة .

ورُوِىَ عن هشام بن عُرْوة عن أبيه أنَّ أوَّل مَنْ صادَم أبو بكر رضى الله عنه بنى عبسٍ وذُبْيَان ، عاجَلُوه ، فَقَاتَلَهمْ قبل رُجوعِ أُسامة .

ولما قدم أُسامة استُخْلف على المدينةِ ، ومضى حتى انتهى إلى الرَّبَذَة ، فتلقَّى بنى عبسٍ وذبيان وجماعةً من بنى عبدِ مناة بن كنانة ، فلقيهم بالأَبْرقِ ، فَقَاتَلَهُمْ فَهَزَمَهُم اللهُ عَزَّ وجلّ وَفَلَّهم ، ثم رجَعَ إلى المدينة فعَقَد الأَلْوِيَةَ[1] .

والله سبحانَه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجعُ والمآب .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤١ - ٢٤٩ .

ذكر عقد أبى بكر رضى الله عنه الألوية

وتجهيزه الجيوش لقتال أهل الردة وما كاتب به من ارتد وماعهد .

قال أبو جعفر محمدُ بنُ جَريرٍ الطبريّ رحمه الله فى تاريخه (١) ما مختصره ومعناه : لما رَجع أبو بكرٍ رضى الله عنه إلى المدينة ، وأراح أسامةُ وجُنْده ظهْرَهُم [وجمّوا] (٢) ، وقد جاءتْ صدقاتٌ كثيرةٌ تفْضُلُ عَنْهم ، قطع أبو بكرٍ البعوث وعقد الألوية ، فعقد أحد عشر لواءً :

عَقَدَ لخالدِ بن الوليد ، وأمَره بطُلَيْحة ؛ فإذا فرغ سار إلى مالك ابن نُويْرَة بالبُطاحِ إن أقامَ له .

وعقد لعِكْرِمَةَ وأمَره بمسيلِمة الكذّاب باليَمامة .

وعقد للمهاجر بن أبى أُمَيَّةَ ، وأمَره بجنود العَنْسى ومعونة الأبناء على قيس بنِ المكْشُوحِ ، ومن أعَانَهُ من أهل اليمنِ عليهم ؛ ثم يَمْضى إلى كِنْدَة بحضرمَوْت .

وعقد لخالد بن سعيد بن العاص ، وبعثَهُ إلى الحمْقَتيْن من مشارِفِ الشام .

وعقد لعمرو بن العاص وأرسله إلى جماع قُضاعة ووَديعة والحارثِ .

وعقد لحُذَيْفَة بن محصن الغَلْفانيّ ، وأمره بأهلِ دَبَا .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٩ وما بعدها .

(٢) زيادة من تاريخ الطبرى .

ابن هَرْثَمة ، وأمره بمَهْرة وأمرهما أن يجتمع كل واحد منها فى عمله .

وبعثَ شُرَحْبِيل بنَ حَسَنَةَ فى أثرِ عِكْرِمة بن أبي جهلٍ وقال : إذا فُرِغَ من اليمامةِ فالحق بقُضاعةَ ؛ وأنت على خَيْلِكَ تُقاتلُ أهل الرِّدّة .

وعقد لمَعْن بنِ حاجزٍ – ويقال : لِطُرَيْفة بن حاجزٍ – وأمره ببنى سُلَيْم ومن مَعَهُمْ مِن هَوَازِن

وعقد لسُوَيْدِ بنِ مُقرّن ؛ وأمره بتِهَامة اليمن .

وعقد للعلاء بنِ الحَضْرمِىّ ، وأمَره بالبَحْرَيْنِ .

فَفَصَلَتْ الأُمراء من ذِى القَصّةِ ، ولحق بكلِّ أمير جُنْده ؛ وعهدَ إلى كلّ أميرٍ منْهُم ؛ وكتبَ رضى الله عنه إلى سائِر من ارتد نُسْخَةً واحدةً ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبى بكرٍ خليفةِ رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم إلى من بَلَغه كِتَابى هذا من عامّةٍ أو خاصةٍ ، أقامَ على إسلامه أو رجع عنه .

سلام على مَن اتبع الهدى ، ولم يَرْجِعْ بعدَ الهُدىَ إلى الضَّلالةِ والعَمَى ؛ فإنى أَحْمَدُ الله إليكُم الذى لا إله إلاَّ هو ، وأَشْهَدُ أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له ، وأنَّ محمدًا عَبْدُهُ ورسُوله ، وأُقِرُّ بما جاء به .

أما بَعْد ؛ فإنَّ الله أرسلَ محمدًا بالحقّ من عِنْده إلى خَلْقِه بَشِيرًا ونَذيرًا ، ودَاعِيًا إلى الله بإذ نه وسراجًا مُنيرًا ؛ لينذرَ من كان حَيًّا .

ويَحِقَّ القَوْل على الكافرين ، فهدَى الله للحقِّ من أجاب إليه ، وضَرَب رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بإذنه من أدْبَر عنه ؛ حتى صار إلى الإسلامِ طَوْعًا وكَرْهًا ، ثم تُوفِّىَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وقد نفذ لأمرِ اللهِ ، ونَصَح لأُمَّته ، وقَضى الذى عليه .

وكان الله قد بَيَّن له ذلك ولأهل الإسلامِ فى الكتابِ الذى أنْزَلَهُ ؛ فقـال : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُون ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فَهُم الخالِدُون ﴾[2] ، وقال للمؤمنين : ﴿ وما مُحَمدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُل أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُم عَلَى أعْقابِكُمْ وَمَنْ ينقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيئًا وسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .[3]

فمن كانَ إنمَا يعْبُدُ محمدًا ، صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ فإنَّ محمدًا قد مات ، ومَنْ كان إنّما يَعْبُد الله وحـدَهُ لا شريكَ لَهُ ، فإنَّ الله له بالمرصاد ، حَىٌّ قَيُّومٌ لا يموتُ ، ولا تَأْخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ، حافِظٌ لأمْرِه ، منتقم من عدوّه ، يجزيه .

وإنى أُوصيكُم بتَقْوى اللهِ ، وحَظُّكمُ ونَصِيبُكُمْ من اللهِ ، وما جاء به نبيكم ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإنَّ كل من لم يهْدِه الله ضالٌّ ، وكُل من لم يُعَافِه الله مبْتَلًى ، وكل مَنْ لم يُعِنْه الله مَخْذُول .

فَمَنْ هداه اللهُ كان مُهْتَدِيًا ، ومن أَضَلَّهُ الله كانَ ضالاًّ ، فإنَّه قال

---

(١) سورة الزمر ٣٠ .
(٢) سورة الأنبياء ٣٤ .
(٣) سورة آل عمران ١٤٤ .

﴿ من يهْدِ الله فهو المُهْتَدِ ومن يُضْلِلْ فلَنْ تَجِدَ لَهُ وليًّا مُرْشِدًا ﴾ (١) .
ولَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ فى الدُّنْيَا عمَلٌ حتى يقرّبه ، ولم يُقْبَلَ لَهُ فى الآخرة صَرْفٌ ولا عَدْلٌ .

وقد بلَغنى رجُوعُ من رَجَع مِنْكُم عن دينه بعد أنْ أقرَّ بالإسلام ، وعمِل به اغترارًا بالله وجَهَالةً بأَمْرِه ، وإجابة للشيطان .

وقال الله جَلّ ثناؤُه : ﴿ وإذ قُلْنا للملائكةِ اسْجُدُوا لآدَم فَسَجُدوا إلَّا إبليسَ كانَ من الجنِّ فَفَسَق عَنْ أَمْرِربِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلياءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظالِمين بَدَلاً ﴾ . (٢)

وقال : ﴿ إنَّ الشَّيْطَان لكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَدوًّا إنَّمَا يدْعُو حِزبَهُ ليكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِير ﴾ (٣) .

وإنِّى بعثتُ إليكم فلانًا فى جيشٍ من المهاجرينَ والأَنصارِ والتَّابعين لهم بإحسان ، وأمرتُه ألاَّ يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يَدْعُوَهُ إلى داعيةِ الله ، فمن استجاب له وأقرَّ وكَفَّ ، وعَمِلَ صَالِحًا قبِل مِنْهُ ، وأعانَهُ عليه ، ومَنْ أبى أمرت أن يُقَاتِلَه على ذَلِكَ ، ثم لايُبْقى على أحدٍ منهم قَدرَ عليه ، وأنْ يُحْرِقَهُم بالنيران ويَقْتُلَهُمْ كل قِتْلَةٍ ، ويَسْبِىَ النساءَ والذرارِىّ ، ولا يقْبَل مِنْ أحدٍ إلا الإسلامَ .

فمَنْ اتَّبَعَهُ فهو خيرٌ له ، ومن تركه فَلَنْ يُعْجِزَ الله . وقد أمرتُ رسُولِى أن يقرأ كِتابى فى كلّ مجمْعٍ لكم .

والدَّاعيةُ الأَذانُ ؛ فإذا أَذَّن المسلمون فأَذَّنوا كُفُّوا عنهم ، وإن لم

(١) سورة الكهف ١٧
(٢) سورة الكهف ٥٠
(٣) سورة فاطر ٦

يؤذِّنوا عاجِلُوهُم ؛ وإن أذَّنُوا اسْألوهم ما عِلَّتهم ، فإن أبَوْا عاجلُوهُم ، وإن أقرُّوا قبِلَ منهم وحملهم على ما يَنْبَغِى لهم .

قال : فنَفذت الرُّسُلُ بالكتبِ أمامَ الجنودِ ، وخرجَتْ الأُمراءُ ومعهم العُهُودُ .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهدٌ من أبى بكرٍ خليفةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليـه وسلم إلى فلانٍ ؛ حين بعثَهُ فيمَنْ بعثَ لقتالِ مَنْ رجعَ عن الإسلام ؛ عهِد[1] إليه أنْ يتَّقِىَ الله ما استطاعَ فى أمرِه كلِّه ؛ سرِّه وعلانيتِه ، وأمره بالجدِّ فى الله ومجاهدَةِ مَنْ تولَّى عنهُ ، ورجَع عن الإسلامِ ، فإن أجَابُوه أمْسَكَ عنهم ، وإن لم يجيبُوهُ شَنَّ غارتَهُ عليهم حتى يُقِرُّوا له ، ثم ينبِّئهم بالَّذى عليهم والذى لهم ، ويأْخذ ما علَيْهم ، ويُعْطِيهم الذى لهم ؛ لا يُنظِرهم ، ولا يردّ المسلمين عن قتالِ عدوِّهم ، فمَنْ أجاب إلى أمر الله وأقرَّ له قَبِل ذلك منه ، وأعانه عليه بالمعرُوفِ [وإنَّما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله] [2] ، وإذا أجاب الدّعوةَ لم يكن عليه سبيلٌ ، وكان الله حَسِيبَه فيما استسر به . ومَنْ لم يجب داعية الله قُتِلَ وقُوتِلَ حَيْثُ كان ، وحيثُ بلغ مراغِمَـهُ [3] ؛ لا يقبَل من أحدٍ شيئًا أعطاه إلاَّ الإسلام . فمَنْ أجابَهُ وأقَرَّ قُبِلَ منه وعلَّمه ، ومَنْ أبى قاتله ؛ فإنْ أظهرَهُ الله [عليه] (٢) قتل منهم كُلَّ

(١) الطبرى : « وعهد إليه » .
(٢) زيادة من تاريخ الطبرى .
(٣) المراغم : المهرب والمذهب والحصن .

قتلةِ ، بالسلاحِ والنِّيرانِ ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلاَّ الخُمس . فإنه يبلِّغناه ، وأن يمنع أصحابَهُ العجلة والفساد ، وألاَّ يُدخلَ [فيهم حَشْوًا حتى يَعْرفهم ويعلَم ماهم ؛ لا يكونوا عيونًا ، ولئلاَّ يؤتَى المسلمُون من قِبَلهم وأن يقتصد] (١) بالمسلمين ، ويرفق بِهم فى السير والمَنْزِل ، ويتفقدَهم ولا يُعْجِل بعضَهم عن بعضٍ ، ويستوصِىَ بالمسلمينَ فى حسن الصُحْبَةِ ولين القَوْلِ .

والله تعالى أعْلَمُ بالصوابِ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد .

ذكر خبر طليحة الأسدى

وماكان من أمره وأمر من اتبعه من قبائل العرب وماآل إليه أمره بعد ذلك

كان (٢) خبر طلَيْحة بنِ خوَيْلد الأسدىّ ؛ أسد خزَيْمِة ، أنَّه ارتدّ فى حياة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وادَّعى النُّبوّة ، فلمّا ظهر أمْرُهُ وجَّه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ضِرارَ بنَ الأزور إلى عمَّاله على بنى أَسَدٍ ، وأمرهم بالقيام فى أمر طلَيْحة ومَن ارتدَّ معه ، ونزلَ المسلمون بوَارِدَات ، ونزلَ المشركون بِسَميرَاء .

فضعفَ أمر طُلَيْحة ، ومازال المسلمون فى نماءٍ ، والمشركون فى نُقصان حتى همَّ ضرارُ بن الأزور أن يسير إلى طُلَيْحة ، ولم يَبْقَ أحد

(١) زيادة من تاريخ الطبرى .
(٢) انظر تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٩ وما بعدها .

إلاَّ أخذه سَلَما[١] ، فاتَّفَقَ أنَّه ضرب ضَرْبَةً بسيفٍ فنباعنه ، وشاعَتْ تلك الضربة فى النَّاس ، وقالوا : إنَّ السلاحَ لا يَعْمَلُ فى طُلَيْحة ، فبينما الناسُ على ذلك إذ ورد الخبر بوفاةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فما أمسى المسلمونَ مِنْ ذلك اليوم حتَّى عرفوا النقْصَان ؛ وكَثُرَ جَمْعُ طُلَيْحة واستطار أَمْرُهُ ، وادَّعى أنَّ جبريل يأتيه ، وسجع للناس الأكاذيب فكان مما أتى بهَ قَوْلُهُ : « والحمام واليمام ، والصُّردِ الصَّوَّام ، قد ضَمِنَ قبلكُمْ بأعوام ، ليبلُغنَّ ملكنا العِراق والشام » . وأَمَرَ طُلَيْحة الناس بترك السجود فى الصَّلاة ، وتبِعَهُ كثيرٌ من العرب ، وكان أكثر أتباعه أسدٌ وَغَطفان وطيِّىء ، ولما انهزمَتْ عبْسٌ وذبْيَان التحقوا به ببزُاخة ، وأرسل طُلَيحة إلى جديلَةَ والغوْثِ - وهما حَيَّانِ من طيِّىء - أن ينضموا إليه ، فتعجَّل إليه أُناسٌ من الحيَّين ، وأمروا قومهم باللَّحاقِ بهم ، فقدموا على طُلَيْحة وكانوا معه . وبعثَ أبو بكرٍ رضى الله عنه عدِيَّ بن حاتمٍ الطَّائىّ قبْلَ توجيهه[٢] خالدَ بن الوليد إلى قوْمِه ، وقال : أَدْرِكْهُم لايُؤْكَلُوا ؛ فخرج عديّ إليهم ؛ [ففتلهم فى الذِّرْوة والغارب][٣] ، وخرج خالدُ بنُ الوليد فى أثرهِ ، وأمرَه أبو بكر رضى الله عنه أن يَبْدَأَ بطيِّىء على الأكناف ؛ ثم يكون وجهه إلى البُزاخَةِ ، ثم يُثَلِّث بالبُطاح ، ولا يَبْرَحُ إذا فَرَغَ من قومٍ حتى يأْذَنَ[٤] له ، وأظهرَ أبو بكرٍ أنَّه خارجٌ إلى خيْبرَ ومنصبٌ عليهم مِنْها ؛ حتى يَلاقيه بالأكناف ، أكناف سَلْمى .

---

(١) السلم : الاستسلام .

(٢) الطبرى : « قبل توجيه خالد » .

(٣) زيادة من تاريخ الطبرى .

(٤) الطبرى : « يتحدث إليه » .

قال ابن الكلبيّ : وإنّما قال ذلك أبوبكر مكيدةً حتى يبلغ ذَلك عدوَّه فيُرعِبَهم ، وكان قد أَوْعَبَ [١] مع خالد الناس ، فخرج خَالدٌ ، فازْوارّ عَنْ البُزاخَةِ وجَنَح إلى أَجَأ ، وقدم عَدِيٌّ بن حاتم عليهم ؛ ودَعَاهم إلى الإسلام ؛ فأَجَابُوه بعد امتناع ، وقالوا له : أَخِّرْ عنَّا الجيش حتى نستخرجَ من أُلحقَ بالبُزاخة مِنَّا ، فإنَّا إن خالفْنَا طُلَيْحة وهم فى يَدَيْه قتلَهُمْ أو ارتهنَهم ، فاستقبل عديٌّ خالدًا وهو بالسُّنْح ، فقال : ياخالد ، أَمِسكْ عنى ثلاثًا ؛ تجتمع لك خمسمائة مقاتلٍ تضرب بهم عدوَّكَ ؛ خيرٌ من أن تُعْجِلَهم إلى النَّار . وتشاغَلْ بهم ، ففعل وعاد إليْهم وقد أَرْسلوا إلى إخوانهم ؛ فأَتَوْهُم من بُزاخة كالمدَدِ ، ولولا ذلك لم يُتْرَكوا ، فعاد عدِيٌّ بإسلامهم إلى خالد ، وارتحل خالد يريد جَدِيلة ، فقال له عَدِيٌّ : إنَّ طيّئًا كالطائر ، وإنَّ جَدِيلَةَ أَحَدُ جَنَاحَىْ طيّىء ، فأَجِّلْنى لعلَّ الله أن يُنقِذ جديلَة لك كما أنقذ الغَوْث ؛ ففعل ، وأتاهم عديٌّ ؛ فلم يَزَلْ بهم حتى بايَعُوهُ ؛ فجاء بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم أَلفُ راكبٍ ، فكان خيرَ مولودٍ ولد فى أرض طيّىء وأعظمه عليهم بركة .

قال هشام الكَلْبِى : وسار خالدُ بن الوليد إلى طُلَيْحة ، وكان أبو بكرٍ رضى الله عنه قد جعل ثابتَ بن قيسٍ على الأنصار وأَمْرُه إلى خالدٍ ، فلمّا دنا خالِدٌ من القوم ، بَعثَ عُكَّاشةَ بن محصن ، وثابت ابن أقرم بن ثَعْلَبة العَجلانىّ البلَوِىّ حَليفَ الأنصارِ [٢] طليعةً ؛ حتى إذا

(١) أوعب الناس : جمعهم .
(٢) الطبرى : « أحد بنى العجلان » .

دنوْا من القومِ خرجَ طُليحة وأخُوهُ سلمة ينظران ويسألانِ ، فلقياهما فبرزَ سَلَمة لثابت ، وبرز عُكَّاشَة لطُليحة ، فأما سلمة ، فلم يُمْهلْ ثابتًا أنْ قتلَه ، ونادى طليحةُ أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أنْ أعِنِّى على الرَّجُل [فإنّه آكل][1] ، فاعتَونا عَلَى عُكَّاشه[2] ، فقتلاه ثم رجعا ، وأقبل خالدٌ بالناسِ ، فمروا بثابتِ بن أقرم قتيلاً ، فلم يفطنوا له حتى وطئته المطىُّ بأخْفافها ، فكبُرَ ذلك على المسلمين ، ثم نظروا فإذا هُمْ بعُكَّاشة صَرِيعا ، فجزع لذلك المسلمون وقالوا : قُتِل سيّدان مِنْ ساداتِ المسلمين ، وفارسانِ من فرسانهم .

قال : ثمَّ التقى المسلمون بطُليحة ومَنْ معه على بُزاخَة ، واقتتلوا أشدَّ قتال ، وطليحة متلَفِّف فى كسائِه بفِناء بَيْتِه يتنبَّأُ لهم بِزَعْمِه ، وكان عيَيْنية ابن حصْن بن حُذيفة الفزارِىّ مع طليحة فى سبعمائِة من بنى فَزارة يُقَاتِلُ قِتالاً شديدا ، فلما اشتدَّ القتال كرّ عُيينة على طليحة ، فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا ؛ فرجع فقاتل حتى إذا ضرِس[3] القتال ، وهَزَّته الحربُ كرَّ عليه ، فقال له : لا أبا لك ! هل جاءكَ جبريلُ بعد ؟ فقال : لا ، فقال عُيَيْنة : حتى متى ؛ قد والله بلغ منَّا ! ثم رجع فقاتل ؛ حتى إذا بلغ كرَّ عليه فقال : هل جاءك جبريلُ بعد ؟ قال : نعم ؛ قال : فما قال لك ؟ قال : قال لى : « إنَّ لك رَحًا كرحاه . وحديثا لا تنساه » . قال عُيَيْنة : قد عَلِمَ الله أن سيكونُ لك حديث لاتنساه ، ونادى عيينة : يابنِى فَزارة ؛ هكذا فانصرفوا ، فهذا

(١) زيادة من الطبرى .
(٢) اعتونا : تعاونا .
(٣) ضرس القتال : اشتد ، وفى ك : « ضرس من القتال » .

والله كذَّاب ، فانصرفوا وانهزمَ الناس فغشُوا طليحة ، يقولون : ماذا تأمُرُنا؟ وكان طليحة قد أعدَّ فرسه وراحلته عنده ، فلمّا غشيه النَّاس قام فَوَثَبَ على فرسه ، وحمل امرأته النَّوارَ على الراحلةِ فنجا بها ، وقال للناس : مَن استطاع منكم أن يفعل مثل مافعلْتُ وينجوَ بأَهْلِه فليفعل ، ثم سلك الجُوشيّةَ ولحِقَ بالشام فارْفَضَّ جمْعُهُ ، وقتل الله مَنْ قتل مِنْهُم ، وأتت قبائِلُ سُلَيم وهوازن وفزَارَة وأسد وغطفان ، وتلك القبائِلُ يقولون : نَدْخُلُ فيما خرجْنا منه ، ونُؤْمِنُ بالله وبرسوله ونُسلِّم لحكمه فى أموالنا وأنْفُسِنَا .

فبايعهم خالدُ بن الوليد على الإسلام ، ثمّ أقبلَتْ بنو عامرٍ بعد هزيمةِ أهل بُزاخة ، يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، فبايعهم خالدٌ على مابايع عليه أهل البزاخة من أسد وغطفان وطيّىء قبلهم ، وأعطوْهُ بأيديهم على الإسلام .

قال أبو الحسن علىٌّ المعروف بابن الأثير : وكانت[1] بيعته : عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمِنُنَّ بالله ورسوله ، ولتقيمُنّ الصلاة ، ولتؤتُنّ الزكاة ، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكُمْ ! فيقولون : نعم ، ولم يقبل من أحد[2] منهم إلا أن يأْتُوه بالذين حَرَّقوا ومَثَّلُوا ، وعَدَوْا على المسلمين[3] فى حال رِدَّتِهم ، فأتَوْه بهم ، فقبل مِنْهم إلاَّ قُرّة بن هبيرة سيِّد بنى عامرٍ ونفرٌ معه أوثقهم ، ومثَّل بالذين عَدَوْا على المسلمين فأحرقهم بالنيران بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، ونكَّسَهُم فى

(١) الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٣٦ وما بعدها .
(٢) ابن الأثير : من أسد وغطفان وطيىء وسليم » .
(٣) ابن الأثير : على الإسلام » .

الآبار [وأرسل إلى أبى بكر يعلمه مافعل] (١) ، ورضخهم ، وبعث بقرّة وبالأُسارى إلى أبى بكرٍ رضى الله عنه وكتب إليه : إنَّ بنى عامر أقبلَتْ بعد إعراضٍ ، ودخلَتْ فى الإسلام بعد تربّص ، وإنّى لم أقبل من أحدٍ سألنى شيئًا حتى يجيئونى بمن عدا على المسلمين ، فقتلتُهم كُلَّ قِتْلَة ، وبعثتُ إليك (٢) بقرّة وأصحابه .

فكتب أبو بكر إليه : ليزِدْكَ ما أَنْعَمَ اللهُ به عليكَ خيرًا ، فاتّق الله فى أَمْرِك ، فإنَّ الله مع الَّذين اتَّقَوْا والَّذين هم محسنون ، جِدَّ فى أمر الله ولا تنِيَنَّ ولا تظفرنَّ بأحدٍ قتلَ المسلمين إلا قتلْتَه ، ونكَّلْتَ به غيرَه .

وكان عُيَيْنَة بن حِصْنٍ ممن أُسِرَ ، روى عَنْ عُبَيْدَ الله بن عبد الله ابن عتبة بن مَسْعُودٍ . قال : أَخْبرنى مَنْ نظر إلى عيينة بن حصن مَجْمُوعة يدَاهُ إلى عُنُقِهِ فى حبلٍ ، ينخسُه غِلْمان المدينة بالجريد يقولون : أَىْ عَدُوّ الله ، أكفرتَ بالله بعد إيمانك ! فيقول : والله ماكنت آمنت بالله قطُّ . ؛ حكاه أبو جَعْفر الطبرىّ (٣) .

قال : فتجاوَزَ أبو بكرٍ رضى الله عنه ، وحقن له دَمَه . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وأمَّا طُلَيحة وما آل إليه أَمْرُهُ ؛ فإنَّه لَحِقَ بالشام ، ثم نزل على كَلْبٍ ، فأَسلَمَ حين بلغه إسلامُ أسدٍ وغطفان، ولم يزلْ فى بنى كَلْب حتى مات أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وخرج فى خلافة أبى بكر

(١) زيادة من ابن الأثير .
(٢) ص : « و بعث إليه » .
(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٠ .

إلى مكة مُعْتَمِرا ، ومرَّ بجَنَباتِ المدينـــة . فقِيل لأبى بكرٍ هذا : طُلَيْحة ، فقال : ما أصنع به ؟ خلُّوا عَنْه ، فقد هداه الله للإسلام . فمضى نحو مكة ، فقضى عُمْرته ، ثم أتى عُمَرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه للبيعة حين استُخْلِفَ : فقال له عمر : أنتَ قاتل عُكَّاشة وثابت ! والله لا أُحِبُّكَ أبدا ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ما تنقم من رَجُلَيْن أكرمَهُمَا الله بيدىَّ ، ولم يُهنِّى بأيديهما !

فبايعه عُمَر ورجع إلى دار قومه فأقام حتى خرج إلى العراق .

ذكر خبر تميم وأمر سجاح ابنة الحارث بن سويد

كان[1] من خبر بنى تميم أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته فرّق عمَّاله فيهم ، فكان الزِّبْرقان بنُ بدرٍ على الرِّباب وعوف والأبناء ؛ وكان سهم بنُ مِنْجاب وقيس بنُ عاصمٍ على مُقَاعِس والبُطُون ، وصفوان بن صفوان وسَبْرة بن عمرو على بنى عمرٍو ، هذا على بَهْدَى ، وهذا على خَضَّم (قبيلتين مِن بنى تميم) ؛ ووكيع بن مالك ومالك بن نُوَيْرَة على بنى حنظلة ، هذا على بنى مالكٍ ، وهذا على بنى يَرْبوع .

فأمّا صفوانُ فإنَّه لما أتاه الخبر بوفاةِ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ضرب إلى أبى بكرٍ الصِّديق رضى الله عنه بصدَقات بنى عمرو وما ولِىَ منها وبما وَلِىَ سبْرة ؛ وأقامَ سبرة فى قومه لحدَثٍ إن ناب .

وأمّا قيس بن عاصم فإنه قسّم ماوليه من الصَّدقات فى مُقاعِس والبطون ؛ وإنَّما فَعَل ذلك مخالفةً للزِّبْرِقان .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٧ وما بعدها

وأمَّا الزبْرِقانُ فإنَّه أتْبعَ صفوان بالصَّـدقاتِ التى أخذها مِمَّنْ كانَتْ تليه ، وقدم بها إلى المدينة على أبى بكرٍ وهو يقولُ ويُعرِّضُ بقيس بن عاصم :

وَفَيْتُ بأذْوادِ الرَّسول وقد أبتْ سُعاةٌ فلم يَرْدُد بعيرًا مُجِيرُها

ثم ندم قيسُ بن عاصم على ما كان مِنْهُ ، فلما أظلَّه العلاءُ بنُ الحضرمِىّ تلقَّاه بالصَّدقةِ ، وخرج معه ؛ وقال فى ذلك :

أبْلِغَا عنِّى قُريشًا رِسَالةً إذا ماأتتها بيِّناتُ الودائِعِ

قال : وتشاغَل الناسُ فى تلك الحالِ بعضهم ببعض ، ونَشِبَ الشَّرُّ ، فتشاغلَتْ عَوْفٌ والأبناءُ بالبُطون والرِّباب بمقاعِسِ ؛ وتشاغلَتْ عمرو وخضَّم بمالك وبَهْدى بيربُوع ؛ فبينا الناس فى بلاد تميم على ذلك قد شغل بعضهم بعضا ، فَمُسْلِمهم بإزاء مَنْ قدَّم رِجْلاً وأخَّرَ أُخرى ، وتربَّص وارتاب ؛ إذ فجِئتهم سَجاح ابنة الحارث ، قد أقبلَتْ من الجزيرة ؛ وكانت ورهْطها فى بنى تغلب ، فأتت تقود أفناء ربيعة ، معها الهُذيلُ بنُ عِمْران فى بنى تَغْلِب ، وعَقَّة بنُ هلالٍ فى النَّمِر ، وزيادُ بنُ فلانٍ فى إياد ، والسَّليلُ بن قَيْسٍ فى بنى شَيْبَان ؛ فأتاهم أمرٌ دَهِىٌّ ؛ هو أعظمُ مما فيه الناس ؛ لهجومها عليهم ، ولما هُم فيه مِنْ اختلافِ الكلمة والتشاغل بما بينهم . وكانت سَجَاح ابنة الحارث ابن سُوَيْد بن عُقْفَان هى وبنو أبيها بنو عُقْفَانَ فى بنى تغلِب ؛ فاستجاب لها الهُذَيْل ؛ وترك النَّصرانية ، فراسلت مالك بن نُوَيْرَة ودعته إلى الموادعَةِ ، فأجَابَها وحملها على أحْياء بنى تميم ، فقالتْ : نعم

فشأنك بمن رأيتَ ، فإنما أنا امرأة من بنى يَربوع ، فإن كان مُلْكٌ فالمُلكُ مُلْكُكُم . وأرسلتْ إلى بنى مالك وحنظلة تدعوهم إلى الموادعة .

فخرج عُطَارِد بن حاجب ، وسَروات بنى مالِك ، حتى نزلوا فى بنى العَنْبر على سَبْرة بن عمرو هُرَّابا ، وخرج أشباههم من بنى يَرْبُوع حتى نزلوا على الحصين بن نيار فى بنى مازِنٍ ، وقد كرهوا ما صنع مالك ، فلما جاءتْ رسُلُهَا إلى بنى مالكٍ تَطْلُب الموادَعَةَ أجَابَها إلى ذلك وكيعُ بن مالكٍ ، فاجتمع وكيعٌ ومالك بن نويرة وسَجَاح ، وقد وادع بعضُهم بعضًا ، واجتمعوا على قتالِ الناسِ ، وقالوا : بمَنْ نَبْدَأ ؟ بخَضَم أم بِبَهْدَى ، أم بعَوْفٍ والأبناء ، أم بالرِّباب ؟ وكفُّوا عن قيْس بن عاصم لما رأَوْا مِنْ تردُّدِه وطمعوا فيه . فقالت سجاح : « أعدُّوا الركاب ، واستعدُّوا للنِّهاب ، ثم أغِيرُوا على الرِّباب ، فليس دونهم حجابٌ » ، وصمدت سجاح للأحفارِ حتى تنزل بها ، وقالتْ لهم : « إنَّ الدَّهْناء حجازُ بنى تميم ، ولن تَعْدُوَ الرِّباب ، إذا شدَّها المُصاب ، أنْ تكون بالدّجانى والدّهانِى ، فلْينزِلْهَا بعضُكُم » .

فَتَوَجَّه مالك بن نُوَيْرَةَ إلى الدَّجانِي فنزلها ، وسمعت بهذا الرِّبابُ ، فاجتمعوا لها : ضَبَّتُها وعبْدُ مَنَاتِها ، فَوَلِىَ وكيع وبِشْرٌ بنى بكرٍ بن ضَبَّةَ ، وَوَلِىَ ثعلبةُ بن سعد عقَّة ، وَوَلِىَ عَبْدَمناةِ الهُذَيْلُ ، فالتقى وكيعٌ وبِشْرٌ وبنو بكرٍ من بنى ضَبَّةَ فهُزما ، وأُسِرَ سَمَاعَةُ ووكيعٌ وقعقاع ، وقُتِلَتْ قَتْلَى كثيرة ، فاجتمع بعد ذلك روَّساءُ أهلِ الجزيرة ، وقالوا لسجَاح : ماذا تَأْمُرِيننا ؛ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا ؟ فقالت : اليمامة ؛ فقالوا : إنَّ شَوْكة أهل اليمامةِ شَدِيدةٌ ، وقد غَلُظَ أمر مُسيْلَمة فقالت : « عليكم باليمامة ، ودُقُّوا

دَفيف الحمامةِ[١] ، فإنها غزوَةٌ صَرَّامة ، ولا يلحقكُمْ بعدها ملامة » ، فَنَهَدَتْ[٢] لبنى حنيفة ، وبلغ ذلك مُسَيْلمة فهابَها ، وخاف إن هو شُغِل بها أن يدهَمُه شُرَحبيل بن حَسَنة والقبائل ، فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنُها على نفسه حتى يأتيَها .

فأنزلت الجنود على الأمواه له وأمَّنته ، فجاءها فى أربعين مِن بنى حَنيفة . وكانت سجَاح راسِخَةً فى النَّصْرَانية ، قد عَلِمَتْ مِنْ عِلْم نصارى تَغْلِب ، فقال لها مُسَيْلِمةُ : لَنَا نصفُ الأرض ، وكان لقريش نصفها لو عَدَلَتْ ، وقد رَدَّ الله عليكِ النصف الذى رَدَّتْ قريش ، فحباك[٣] به ، وكان لها لو قبلَتْ ؛ فقالت : « لا يَرُدُّ النِّصف إلاَّ مَنْ حذَف ، فاحمل النِّصف إلى خيل تراها كالسَّهَف». فقال مسيلمة : « سَمِعَ اللهُ لمَنْ سمعَ ، وأطمعه بالخيرِ إذا طَمِعَ ، ولا زال أمره فى كُلِّ ما سرَّ نفسه يجتمع . رآكم ربُّكم فحيّاكم ، ومن وحْشَةٍ خَلاَّكم ، ويوم دينه أنجاكم فأحْيَاكُمْ . علينا من صلواتٍ معْشر أبرارٍ ؛ لا أشقياء ولا فجّار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربِّكُم الكُبار ، ربّ الغيوم والأمطارِ » .

وقيل : إنَّ مُسَيْلمة لما نزلتْ به سَجاح أغْلَقَ الحصن دُونَها . فقالت له : انزِلْ . قال : فنحِّى عنكِ أصحابَكِ ، ففعلَتْ . فقال مسيلمة : اضربوا لها قُبَّة وجمِّروها لعلها تذكرُ الباه ، ففعلوا ، فلمَّا دخلت القُبَّةَ نزل مسيْلمة . فقال لأصحابه : ليقف ها هنا عشرةٌ ،

---

(١) الدفيف : تحريك الجناحين والرجلين .
(٢) نهدت : نهضت .
(٣) ك : « فحياك » .

ثمَّ دارسها . فقالتْ : ما أُوحى إلَيْك؟ فقال : « ألم ترَ إلى ربِّك كيف فعل بالحُبْلى ، أخرج منها نسمةً تَسْعَى ، من بين صِفاقٍ[1] وحَشًى » قالت : وماذا أيضًا ؟ قال : أوحى إلىَّ « إنَّ الله خلق النساء أفراجا ، وجعل الرجال لهن أزْواجًا ، فنولِجُ فيهنَّ قُعْسًا إيلاجًا ، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا ، فينتجن لنا سخالاً إنتاجًا » . قالت : أشهدُ أنَّك نبيّ . قال : هل لك أن أتزوَّجَكِ ، وأذِلّ[2] بقومى وقومك العرب ؟ قالت : نعم ، فقال :

الاَ قُومى إلى النَّيْـكِ فقد هُيِّى لكِ المضْجَـعْ
فإن شئت ففى البيـــتِ وإن شئِتِ ففى المخْدَعْ
وإن شئت سَلقْناكِ[3] وإن شئتِ عى أربـــعْ
وإن شئت بثلثيـــــــه وإن شئْتِ به أجمعْ

قالتْ : بل به أجْمَع . قال : بذلك أُوحى إلىَّ ، فأقامَتْ عنده ثلاثة أيامٍ ، ثم انصرفتْ إلى قومها . فقالوا لها : ماعِنْدك ؟ قالت : كان عَلَى حَقٍّ ، فاتَّبعْتهُ فتزوَّجْتهُ ، قالوا : هَلْ أصدقكِ شيئا ؟ قالت : لا . قالوا : فارجِعى إليه ، فقبيح على مثلِكِ أن ترجعَ بغير صداق ، فرجَعَتْ . فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال : مالكِ ؟ قالت : أصدِقْنِى صَدَاقا . قال : مَنْ مؤذِّنُكِ ؟ قالت : شبث بن رِبْعِىّ . قال : علىَّ به ، فأتاه . فقال : نادِ فى أصحابك : إنَّ مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتيْن مما أتاكم به محمّد : صلاة الفجر ، وصلاة العشاء الآخرة .

---

(١) الصفاق : الجلد الأسفل الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر .
(٢) الطبرى : « فآكل » .
(٣) سلق الجارية : بسطها وجامعها ، وفى ص : « صلقناك » ، وهما بمعنى .

قال : وكان من أصحابها الزِّبْرِقان بن بدرٍ وعطارد بن حاجب ونظراؤهم . فقال : إنَّ عامَّةَ بنى تميم بالرَّمْلِ لا يصلُّونها ، فانصرفت سَجَاح ومعها أصحابها ، فقال عُطاردُ بن حاجب :

أَمْسَتْ نبِيَّتُنَا أُنْثَى نطيفُ بهـا وأصبحتْ أَنْبِيَاءُ الناسِ ذكْرَانا

وقيل : إنَّها صالحت مسيلمة على أنْ يَحْمِل لَها النِّصفَ مِنْ غلاَّت اليمامة : وأبت إلا السنة المقبلة يُسْلفُها ، فأعطى لها النصف وقال : خلِّفى على السَّلَفَ مَنْ يجمعُهُ لكِ ، وانصرفى أَنْتِ بنصف العام ، فانصرفَتْ بالنِّصف إلى الجزيرة ، وخَلَّفَتْ الهذيْل وعَقَّةَ وزياداً ؛ لينجزوا النِّصف الثانى ، فلم يفجأْهم إلا دُنوّ خالدِ بنِ الوليد ، فارفضُّوا .

وكان من أمرِ مُسَيْلمة وقتله ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى .

قال : ولم تزل سجاح بالجزيرة فى أَخْوَالِهَا مِنْ بنى تَغْلِب حتى نَقَلَهُمْ معاوية بن أَبى سفيان عامَ الجماعة . وجاءت مَعَهُمْ وحَسُنَ إسلامها وإسلامُهُمْ ، وانتقلَتْ إلى البصرةِ وماتت بها .

وقيل : بَلْ لمّا قتِلَ مُسَيْلمة سارت إلى أخوالها بالجزيرة ، فماتت عندهم ، ولم يُسمع لها بذكْر ، والله تعالى أعلم .

قال أبوجعفر الطبرىّ رحمه الله : وخَرَج[1] الزِّبْرِقان والأَقرعُ إلى أَبى بكر ؛ وقالا : اجعل لنا خَرَاج البَحريْن ؛ ونضمن لك ألاَّ يرجعَ من قومنا أَحدٌ ، ففعل . وكتب الكتاب ، وكان الذى يختلفُ بينهم طلحة بن عُبَيْد الله ، وأشهد شـــهودا . منهم عمر بن الخطاب .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٥ .

فلما أُتِىَ عمر بالكتاب فنظر فيه لم يشهد ، ثم قال : لا والله ولا كرامة ! ومزّقه ومحَاه ، فغضب طلحة ، وأتى أبا بكرٍ ، فقال : أنت الأمير أم عُمَر ؟ فقال : عمر ؛ غير أن الطاعة لى ، فسكتَ .

وشهد الزِّبْرِقان والأقرعُ مع خالدٍ المشاهد كلّها حتى اليمامة ، ثم مضى الأقرعُ ومعه شرحبيلُ إلى دُومَة الجَنْدل .

ذكر مسير خالد الى البطاح

ومَقْتل مالك بن نُوَيْرة

قال أبوجعفر رحمه الله : لمّا[١] انصرفَتْ سَجاحُ إلى الجزيرة ارْعَوَى مالك بن نُوَيْرة ، وندِم وتحيّر فى أمره ، وعَرَف وكِيعٌ وسَماعة قُبْح ما أتيا ، فرجعا رجوعًا حسنًا ؛ [ولم يتجبّرا][٢] ، وأخرجا الصَّدقاتِ واستقبلاها خالد بن الوليد ، فقال خالد : ما حملكما على مُوادعة هؤلاء القوم ؟ فقالا : ثَأْرُكُنَّا نطْلُبه فى بنى ضبَّة ،

فسار خالد يريدُ البُطاحَ دون الحَزْن ، وعليها مالك بن نُوَيْرَة ، وقد تردَّدَتْ الأَنصار على خالد ، وتخلَّفتْ عنه . وقالوا : ماهذا بعهد الخليفة إلينا ، إنَّ الخليفةَ عَهد إلينا إنْ نحن فرغنا مِنْ البُزَاخة واسْتَبْرأْنا بلادَ القوم أن نقيم حتى يكْتُبَ إلينا ؛ فقال خالد : إنْ يَكُ عَهد اليكُمْ هذا ، فقد عهد إلىّ أن أمضىَ ، وأنا الأَمير ، وإلىَّ تنتهى الأَخبارُ ، ولو أنَّه لم يأْتنى له كتابٌ ولا أمرٌ ، ثم رأَيتُ فرصة فكنت إن أَعلمته فاتَتْنى لم أُعلمه حتى أنتهزَهَا ، وكذا لَوْ ابتلِينا بأَمرٍ ليس منه عَهْدٌ إلَيْنَا فيه لم نَدَعْ أَنْ نَرَى أَفضلَ ما بحضرتنا ثم نعمل به ، وهذا مالك بن نُوَيْرة بِحيالنا ، وأَنا قاصدٌ له ومن معى من المهاجرينَ والتابعِين بإِحسانٍ ، ولست أُكرهكم .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٦ وما بعدها .

(٢) زيادة من الطبرى .

ومضى خالد ، وندمت الأنصار وتذامروا ، وقالوا : إن أصاب القومُ خيرا ، إنّه لخيرٌ حُرِمتموه ، وإنْ أصابتهم مصيبة لَيجتنبنّكُم الناس ، فأجمعوا اللّحاقَ بخالد ، وجرّدوا إليه رسولا ، فأقام عليهم حتى لَحِقُوا به ، ثم سار حتى لَحِقَ البُطاحَ ، فلمْ يَجِدوا به أحدا . ووجد مالك بن نويرة قد فرّقهم فى أموالِهم ، ونَهاهُم عن الاجتماع حين تردّدَ عليه أمْرُه ، وقال : يابنى يَرْبُوع ، إنّا قد كُنّا عَصَيْنَا أُمَرَاءَنا إذْ دَعَوْنا إلى هذا الدِّين ، وبَطَّأنا الناس عنه فلم نُفْلِحْ ولم نُنجِح ، وإنّى قد نظرت فى هذا الأمر فوجدتُ الأمر لايتأتّى لهم بغير سياسَة ، فإيّاكُمْ ومُنَاوَأَةَ قومٍ صُنِعَ لهم ، فتفرّقُوا إلى دياركُمْ ، [وادخِلُوا فى هذا الأمر] . (١) فتفرّقُوا على ذلك إلى أمْوالهم .

وخرج مالك بنُ نُويرةَ حتى رجعَ إلى منزله . فلمّا قَدِمَ خالدُ البُطاحَ بثّ السّرايا وأمرهم بداعية الإسلام ، أن يأْتُوهُ بكلّ من لَمْ يُجِبْ ، وإن امتنع أن يَقْتلُوه . فجاءتْهُ الخيْلُ بمالك بن نويرةَ فى نفرٍ معه من بنى ثعلبة بن يربوع ، من عاصم وعُبَيْد ، وعرين وجعفر ، فاختلفَتْ السَّريةُ فيهم ، وفيهم أبو قتادة — وكان مِمَّنْ شهد أنّهُمْ قد أذّنُوا وأقامُوا وصَلُّوا — فلمّا اختلفوا فيهم أمر بهم خالد فَحُبِسوا فى ليلة باردة لايقوم لها شىء ، وجَعَلَتْ تزْدادُ بردا . فأمَر خالدٌ مناديا فنادى : أدفئو أسراكم . وكانتْ فى لُغة كنانة إذا قالوا : دَثِّرُوا الرجل فأَدفِئُوهُ ، كان دِفؤه قَتْلَه ، فظنّ القومُ — وهى فى لغتهم القَتْلُ — أنّهُ أراد القتلَ ، فقتلَوهُم ، فَقَتَلَ ضِرارُ بن الأَزْوَر مالكا . وسمع خالدُ الوَاعية (٢) . فخرج وقد فُرِغَ منهم فقال : إذا أراد الله أمرا أصابَه .

(١) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٢) الواعية : الصراخ والصوت على الميت .

وقد اختلف القومُ فيهم؛ فقال أبوقتاده : هَذَا عَمَلُكَ ! فزبَرَهُ[١] [خالدٌ فغضبَ ، ومضى حتى أتى أبا بكر ، فغضِبَ عليه أبو بكرٍ حتى كلَّمَهُ عُمر فيه ، فلم يرضَ إلاَّ أن يرجعَ إلى خالد ، فرجع إليه حتى قَدِمَ معه المدينة .

وتزوَّج خالدٌ أمَّ تميم ابنة المنهال ، وتركها لينقضىَ طهرُها ، وكانت العربُ تكرَه النِّساء فى الحرب ، فقال عمر لأبى بكرٍ : إنَّ فى سيفِ خالدٍ رَهَقًا [٢] ، فإنْ لمْ يكنْ هذا حَقًّا حَقَّ عليه أن تُقيده ، وأكثرَ عليه فى ذلك ، وكان أبو بكر لا يُقيد من عمَّاله - فقال : هَبْهُ ياعُمَر تأوَّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالدٍ . وَوَدَى مالكا ، وكتب إلى خالد أن يقدم ففعل . فأخبره خبره فعذره وقبل مِنهُ ، وعنَّفَهُ فى التَّزْويج الذى كانت [تعيب][٣] عليه العرب .

وقيل : إنَّ عمرَ بنَ الخطابِ أَلَحَّ على أبى بكر فى عَزْلِ خالد . وقال : إنَّ فى سيفة رهقا . فقال : ياعمر ، لم أكن أَشِيمُ [٤] سيْفًا سَلَّهُ اللهُ على الكافرين .

وقيل : ولما أقبل خالدُ قافِلاً دخل المسجد وعليه قَبَاء ، عليه صدأ الحديد ، معْتجرًا[٥] بعمامة له . قد غرزفيها أسهما . فقام إليه عُمر فانتزعَ الأَسْهُمَ مِنْ رأْسِه فحطَّمهَا ، ثم قال : أقتلتَ أمرأً مسلمًا ثم نزوْتَ على امرأَتِهِ ! والله لأَرْجمنَّكَ بأَحجارِكَ . وخالد لا يكلِّمُهُ

---

(١) زبره : نهره .
(٢) الرهق : السفه والخفة وركوب الظلم .
(٣) تكملة من تاريخ الطبرى .
(٤) شام السيف : أغمده .
(٥) الاعتجار : لف العمامة .

ولا يظنُّ إلاَّ أنَّ رأْى بكرٍ على مثل رأْى عمر فيه ، حتى دخلَ على أبى بكرٍ فأخبره الخبر ، فاعْتذرَ إليه ، فعذره أبو بكرٍ وتجاوزَ عنه ماكان فى حَرْبِهِ تلكَ .

وخَرج خالد حين رَضِىَ عنه أبو بكرٍ وعمر جالسٌ فى المسجدِ ، فقال : هَلُمَّ إلىَّ يا بن أمِّ شَمْلة ؛ فعرفَ عمرُ أن أبا بكرٍ قَدْ رضىَ عَنْهُ فلم يكلِّمه ، ودخل بَيْته .

واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعْلَمُ بالصوابِ ، وإليه المرجعُ والمآب ، وهو حسبى ، ونِعْمَ الوَكيل .

ذكر خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة

كان[1] من خبر مُسَيْلِمةَ أنَّهُ لما قَدِمَ وفد بنى حنيفة إلى رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ كما قدَّمْناهُ فى السيرة النبوية فى أخبار الوفودِ ، وكان مسيلمهُ فى رِحَالهم ، فلمَّا أجازَهُمْ رسول لله صلَّى الله عليه وسلَّم. قالوا : يارسولَ الله ، خلَّفْنا صاحبًا لنا فى رِحَالنا يُبْصِرُهَا لنا ، وفى ركابنا يَحْفَظُهَا علَيْنا ؛ فأمر له رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بمثل ما أمر لأصحابه ؛ وقال : « ليْس بشرِّكم مكانًا لحفظه ركابكم ورحالكم» ، فقيل ذلك لمُسَيْلَمِة . فقال : عَرف أنْ الأمر إلىَّ من بعده .

ثم ادَّعى النبوّة بعد ذلك ، وكان الرَّجَّال[2] بن عُنْفُوة قدهاجر إلى

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٨١ وما بعدها .

(٢) ك « الرحال » ، بالحاء ، صوابه من ص وتاريخ الطبرى .

رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فتعلَّمَ القرآن من أُبَيِّ بن كعب ، وفَقِهَ في الدِّين ، فبعَثَهُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مُعَلِّما لأهل اليَمامَةِ ، وليشغَبَ على مسيْلَمة ؛ ويشدِّد من أمر المسلمين ، وكان أعظم فتنةً على بني حنيفة من مسيلمة ، شهِدَ له أنَّه سمع رسول الله صلَّى الله عليه وسلم يقول : إنه قد أُشْرِكَ معه ؛ فصدَّقُوه واستَجابُوا له ، وأمروه بمكاتبةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ووَعَدُوه إنْ هو لم يَقْبَلْ أنْ يُعِينوه عَلَيْه.

وقُبِضَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ والأمر على ذلك ، فقوِيَتْ شوكةُ مُسيْلمة ، واشْتَدَّ أمْرُه ، وكثُرَتْ جُمُوعه ، وتمكَّن الرِّجَال بْنَ عُنْفُوةَ من مُسَيْلمة ، وعَظُمَ شأنُهُ عِنْده ، فكان لايخالِفُه في أمر ولا يقولُ شيئًا إلا تابَعَهُ عليه ، وكان مسيلمةُ يُصَانِعُ كلَّ أحدٍ مِمَّنْ اتَّبعه ، ويتابِعه على رأْيِه ، ولايبالى أن يطَّلع الناس منه على قبيح ، وضربَ حَرَمًا باليمامةِ ؛ فكان مُحَرَّمًا ، فوقع ذلك الحَرم في الأَحاليفِ ، (أفخاذٌ من بني أُسَيِّد كانَتْ دارُهُم اليمامة) ، فصارَ مكانُ دارِهِمْ الحرَم ، والأَحاليف : سيْحانُ ونُمارةُ ، وبنو جُرْوةَ ، فكانوا يُغيرُون على ثمار أهل اليمامة ، فإن نَذِروا[1] بهم فدخَلوا الحرم أَحْجَمُوا عنهم ، وإنْ لم ينذِروا بهم فذاك ما يريدون ؛ فكثُر ذلك منهم ، حتى استعدَوْا عليهم مسيلمة ، فقال : انظُروا الذي يأْتي من السماء فيكُم وفيهم ، ثم قال لهم : « والليلِ الأَطْحَمْ[2] ، والذئبِ الأَدلم[3] ، ما انتهكَتْ

(١) نذروا : علموا .
(٢) الطحمة : سواد الليل .
(٣) الأدلم : الأسود الطويل .

أَسَيِّد من مَحْرَمٍ » ، ثم عادوا للغارة والعُدْوَى[١] ، فقال : انتظروا الذي يأتيني . ثم قال : « والليل الدَّامِس ، والذئبِ الهامِس[٢] ، ما قطعتْ أَسَيِّد من رَطْبٍ ولا يابِسٍ » ؛ فقالوا : أمّا النخيل فَمُرطِبةٌ[٣] وقد جَدُّوها[٤] ، وأمّا الجُدْرانُ فيابسَةٌ وقَدْ هَدَمُوها ، فقال : اذْهبوا وارجعوا فلا حقَّ لكم .

وكان فيما يقرؤه لهم فيهم : إنّ بنى تميم قوم طُهر لَقاحٌ[٥] ، لامكْرُوه عَلَيْهم ولا إتارة ، نجاورهم ماحيينا بإحْسانٍ ، نمنعهم من كلّ إنسانٍ ، فإذا مِتنا فأَمْرُهُم إلى الرحمن » .

وكان يقول : والشَّاء وألوانِها ، وأعجبُها السُّود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ؛ إنَّه لعَجَبٌ [محض][٦] ، وقدْ حُرِّم المَذْق ، فما لكم تمجّعون[٧] ! .

وكان يقول : « ياضِفْدع ابنة ضِفْدع ، نُقِّى ماَ تِنقَّين ، أعلاكِ فى الماء وأَسْفَلُكِ فى الطين ، لاالشاربَ تمنعين ، ولا الماء تُكَدِّرين » .

وقال أيْضا : « والمبذِّرات زَرعا ، والحاصِداتِ حَصْدًا ، والزَّارِعاتِ قمحًا ، والطَّاحناتِ طحْنًا ، والخابزاتِ خبزا ، والثَّاردات ثَرْدًا[٨] ، واللاَّقماتِ لقما ، إهالةً وسمنًا ، لقدْ فُضِّلْتُم على الوَبَرِ ،

---

(١) العدوى : العدوان والظلم .
(٢) الذئب الهامس : الشديد .
(٣) الطبرى : مرطبة .
(٤) جدوها : قطعوها .
(٥) قوم لقاح : لم يدينوا الملوك .
(٦) زيادة من الطبرى .
(٧) الطبرى : « لا تمجعون » .
(٨) ثرد الخبز : فته ثم بله بمرق .

وما سبقكُمْ أهل المدَر ، ريفكم فامنعوهُ ، والمُعْتَرُّ فآووه[١] ، والباغى فناوئوه » .

قالوا : وأتته امرأة فقالت : إنَّ نخلنا لَسُحُقٌ[٢] ، وإن آبارنا لَجرُزٌ[٣] فادعى الله لمائنا ونخلنا ، كما دعا محمّدٌ لأهل هزمان ، ففعل كما فعل رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، ودعا للنخل ، وتمضمض مِنَ الماء ، ومَجَّهُ فى الآبار ، فيبسَتْ النخْلُ ، وغارتْ الآبارُ .

وقيل : إنَّه نزل على أولادِ بنى حنيفةَ كما فعل رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فمرَّ بيده على رءوسهم ، وحَنَّكهم ، فقرع ولَثِغَ مَنْ فُعِل به ذلك ، وظهر ذلك كلُّهُ بعد مَهْلكه .

قالوا : وجاء طلحة النَّمَرىّ ، فقال : أيْن مُسَيْلمة ؟ فقالوا : مَهْ رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراهُ ، فلما جاءه قال : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم ، قال : مَنْ يأتيك ؟ قال : رحمٰن . قال : أفى نور أوْ فى ظلْمة ؟ فقال : فى ظلْمَة ، فقال : أشْهَدُ أنَّكَ كذّاب ، وأنَّ محمدا صادِقٌ ، ولكنَّ كذَّابَ رَبِيعَةَ أحَبُّ إلىَّ مِنْ صادق مُضَر .

والله سبحانه أعْلم ، وصلَّى الله على سَيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّمَ .

---

(١) المعتر : الفقير .

(٢) سحق : جمع سحوق ؛ وهى الطويلة من النخل .

(٣) جرز : الأرض جدبة .

ذكر الحروب الكائنة بين

بين المسلمين وبين مسيلمة وبين أهل اليمامه وقتل مسيلمة

قد ذكرنا أنَّ أبا بكر الصدِّيق لمَّا عَقَدَ الألوية ، عَقَدَ لِعِكْرِمة ابن أبي جهْلٍ ، وأمره بمَسَيْلمة ، ثم أَرْدفَهُ شُرحبيل بن حَسَنَة ، فعجّل عِكرِمة ، وبادر الحرب ليذْهَبَ بصوتها ، فوَاقَعهم ، فنكبوه ، وأقام شُرَحْبِيلُ فى الطريق حتى أدْركه الخبرُ .

وكتب[1] أبو بكر رضى الله عنه إلى عكرمةَ : يا بنَ أُمِّ عِكْرَمة ؛ لا أرينَّكَ ولا ترانِى على حالها ، ولا تَرْجِعْ فَتوهِنَ الناسَ ، امْضِ على وجهِكَ حتى تساندَ حُذَيْفَةَ وعَرْفَجة . فقاتِلْ معهما أهلَ عُمَان ومَهْرة ، وإنْ شغِلاَ فامْضِ أنْت ، ثم تسيرُ ويسيرُ جُنْدُك ؛ تَسْتَبْرِئون مَنْ مررْتم به حتى تلْتقوا أنتم والمهاجر بن أبى أُميَّة باليمن وحَضْرَمَوْت .

وكتب إلى شُرَحْبِيل يأْمره بالمقام حَتَّى يأتيَهُ أمرُه ، ثم كتب إليه قبلَ أنْ يوجِّه خالد بن الوليد بأيّام إلى اليمامة : إذا قدِمَ عليك خالدٌ ثم فرغتم – إنْ شاءَ اللهُ – فالحَقْ بقضاعةَ حتى تكون أنْت وعمرو بن العاص على مَنْ أبَى منهم وخالفَ .

فلمَّا قدِمَ خالد على أبى بكر الصّديق رضى الله عنه من البُطاحِ رضى عَنْهُ ، وقبلَ عُذْرَهُ كما ذكرنا ، ووجَّهَهُ إلى مُسَيْلمة ، وأَوْعَبَ معه الناس ، وجعل على كلِّ قبيلةٍ رَجُلا ، وجعلَ على المهاجرين أبا حُذيْفة بن عُتْبَة ، وجعل عَلَى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٣١٤-٣١٦ ، وابن الأثير ٢ : ٢٤٦ .

وتعجَّل خالدٌ حَتَّى قدم على أهلِ العسكرِ بالبُطاحِ ، وانتظر البعث الذى ضرِبَ بالمدينةِ ، فلمّا قدِم عَلَيْهِ نهض حتى أتى اليمامة ، وبنو حنيفة يومئذ تزيدُ عدّتهمْ على أربعين ألف مقاتلٍ . وعجَّل شرَحْبيلُ بن حسنة ، وبادر بالقتالِ قبلَ وصول خالد كما فعل عِكرِمة ، فنُكِبَ كما نكِبَ ، فلما قدِمَ خالدٌ لامَهُ ، وسار خالدٌ حتى إذا أطلَّ على بنى حنيفة أسْنَدَ خيولا لعقَّة والهُذَيْلِ وزياد ، وقد كانوا أقاموا على خَرْجٍ أخْرَجَهُ لهم مسيلمة ليلحقوا به سجاح ، وإنَّما أسْنَد خالدٌ تلك الخيولَ مخافةَ أنْ يأتوه مِنْ خَلْفِه ، وأمَدَّ أبو بكرٍ رضى الله عنه خالدا بسَلِيط بنِ عمرٍو بن عبد شَمْس العامِرىِّ القرشِىِّ ليكونَ ردءا له من أنْ يأتيَهُ أحدٌ من خلْفِه ؛ فخرجَ .

فلمَّا دنا من خالد وجَدَ تِلْكَ الخيولَ التى انتابَتْ تِلْكَ البلادَ قَدْ فُرِّقوا فهربُوا ، فكان مِنْهُم قَرِيبا لَهُمْ ، وأمّا مسيلمة فإنَّه لما بَلَغَهُ دُنوُّ خالد بنِ الوليدِ مِنْهُ عَسْكر بعَقْرَباء ، واستنفر النَّاس ، فجعل النَّاسُ يخرجون إليه ، وخرجَ مجّاعة بن مُرارة بنُ سَلْمى الحنفىّ اليمامىُّ - وكان رئيسا من رؤساء بنى حنيفة - فى سريّة يطْلُبُ بثأرٍ له فى بنى عامرٍ وبنى تميمٍ ، فلمَّا كان خالدٌ مِنْ عَسْكَرِ مسيْلمة على ليلة ، إذا مَجّاعَةُ وأصْحَابُهُ وقد غَلَبَهُم الكَرَى - وكانُوا راجِعينَ من بلادِ بنى عامرٍ - فعَرَّسُوا دون ثنيَّةِ اليمامةِ ، فوجَدُوهُمْ نيامًا وأرْسانُ خُيُولِهُمْ بأيْدِيهِمْ تَحتَ خُدُودِهِم ، ولا يَشْعُرونَ بقربِ الجيش مِنْهم ، فأنْبَهوهُم ، وقالوا : مَنْ أنْتُم ؟ قالوا : مُجّاعة ، وهذه حنيفة ، فأوْثَقُوهُم ، وأقامُوا إلى أنْ جاءهُم خالد فأتوه بهم ، فظَنَّ أنَّهم جاءوهُ

ليستقبلُوهُ ، فقال : متى سمعتم بنا ؟ قالوا : ما شَعَرْنَا بك ، إنَّمَا خرجْنَا لثَأْرٍ لنَا فيمن حَوْلَنا من بنى عامر وتميم ، فأمر بهم أنْ يُقْتَلوا ، فقالوا : إنْ كُنْتَ تُريدُ بأهل اليمامة غدًا خيرًا أو شرًّا فاستبْق هذا ، ولا تقتله – يريدون مَجّاعة – فَقَتَلَهُمْ كُلَّهم دونه ، وكانوا ثلاثةً وعشرينَ راكبًا – وقيل : أَرْبَعِينَ . وقيل : ستِّين – وصبَر مجّاعة ، وسار إلى اليمامة ، فخرج مسيلمة وبنو حنيفة ، فنزلوا بَعقْرَباء ، وهى طَرَف اليمامة ؛ دون الأموال ، وريف اليمامةِ وراءَ ظَهُورهم .

وقال شُرَحْبِيلُ بنُ مسيلمة [1] : يابنى حنيفة ، اليومُ يومُ الغيْرَة ، اليوم إنْ هُزِمتم تُسْتَرَدَفُ النساءُ سَبِيّات ، ويُنْكَحْنَ غير حظيَّات ، فقاتِلُوا عن أحسابِكُم ، وامنعوا نساءكُمْ .

فالْتَقَوْا بِعَقْرَبَاءَ واقْتَتَلُوا ، وكانَتْ رايةُ المهاجرينَ يَوْمَئذ مع سالم مولى أبى حُذَيْفَة . وقيل : بَلْ كانَتْ مع زيْد بنِ الخطاب ، فلما قُتِلَ أخذها سالم ، فقالوا له : تخشى عَلَيْنا مِنْ نَفْسِكَ شيئا ؟ فقال : بِئْس حاملُ القرآن إنا إذًا ! وكانت رايةُ الأنصار مع ثابتِ ابنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ ، وكانت العرب على راياتها ، وسَجّاعةُ فى الأسرِ مع أُمِّ تميم زَوْجَة خالد فى فُسْطَاطِهَا ، واقْتَتَل النَّاسُ أَشَدَّ قتال ، ولم يلقَ المسلمون حربا مثلها ، فانهزم المسلمون وخَلَصَ بنو حَنيفة إلى خالد ، فزال عن الفسطاط ، ووصلوا إليه وقطعوه ، ودخل أُناسٌ من بنى حَنيفة على أُمّ تميم ، فأرَادوا قتلهَا ، فمنعها مَجّاعة . وقال : أنا لها جارٌ ، فَنِعْمَتِ الحرّةُ ! فدفعهم عنها .

---

(١) ص : « مسلمة » .

ثم إنّ المسلمين تداعَوْا ؛ فقال ثابت بنُ قيس : بئسما دعَوْتُمْ أَنْفُسَكُم إليه يا مَعْشَر المسلمين ، اللّهُمّ إنّى أبرأُ إليك ممّا يَعْبُدُ هؤلاء - يعنى أهلَ اليمامة - وَأعتَذِرُ إليكَ ممّا يَصْنَعُ هؤلاء - يعنى المسلمين - ثم قَاتَل حتى قُتِلَ ، قُطِعَتْ رِجْله فرمى بها قاتِله فقتلَهُ .

- وله رضى الله عَنْهُ خبرٌ عجيبٌ نذكُرُه إن شاء الله تعالى فى آخر هذه الوقْعة -

قالوا : وحمل خالدٌ فى الناسِ حتى رَدَّهم أبعدَ ما كانوا ، واشتدَّ القتال ، وكانت الحربُ يومئذ تارةً للمسلمين ، وتارةً عليهم ، وقُتِل سالمٌ وأبو حذيفة وزيدُ بنُ الخطابِ وغيْرُهم .

فلما رأى خالدُ ما النَّاسُ فيه ، قال : امتازوا اليوم أيُّها الناس ، لنعلم بلاءَ كلِّ حىٍّ ، ولنعلم مِنْ أين نُؤْتَى ! فلمَّا امتازوا قال بعضهم لبعضٍ : اليوم نستَحيِى من الفرار . وقاتل الناسُ قتالاً عظيماً ، وثبت مُسيلمة ، فعرف خالدٌ أنَّ الفتنـــة لاتَرْكُد إلاَّ بقَتْلِ مُسيلمة ، فبرزَ ودعَا إلى البِراز ، فما يبرز له أحدٌ إلا قتلَهُ ، ودعا مسيلمةَ فأجابه ؛ وعرض عَلَيْهِ أشياء ، فكان إذا هَمَّ بجوابه أعرض بوجهه يستشير شيطانه ، فينهاه أن يَقْبَل ، فأعرضَ بِوَجْهِه مرة ، فركبه خالد وأرهقه فأدبر ، وزال أَصْحَابُهُ ، فكانتْ هزيمَتهم ، وقالوا لمُسَيْلمة : أيْن ماكُنْتَ تعدنا ؟ فقال : قاتلوا عن أحْسَابكم . ونادِى المُحكَّمُ بنُ الطُّفَيْل: يا بنى حنيفةَ ، الحديقة الحديقة ! فدخَلُوها ، وأغلَقُوا بابها عليهم .

قال : وكان البَرَاءُ بنُ مالكٍ أخُو أنسٍ ؛ إذا حضر الحرب أخذتْهُ رِعْدة حتى يقْعُد الرجال عليه ، ثم يبول ، فإذا بال ثار كما يثور

الأَسَدُ ، فأَصابَهُ ذلك ، فقال : إلىّ أيها الناس ؛ أنا البراءُ بنُ مالكٍ ؛ وقَاتَل قِتالا شديدًا ، فلمّا دخل بنو حنيفةَ الحديقةَ ، قال البراء : يا معشر المسلمين ، أَلْقُونى عليهم فيها . فقالوا : لا نفعلْ ، فاحتمل حتى أشرفَ على الجِدارِ واقتحمها عليهم ، وقاتل على الباب ، وفتحه المسلمون ، ودخلوا عليهم ؛ فاقتتلوا أَشَدَّ قتال ؛ وكَثُر القتْلُ فى الفريقيْنِ ، فلم يزالوا كذلك حتى قُتِلَ مُسَيْلمة ، واشترك فى قتله وحشىٌّ ، مولَى جُبَيْر بن مُطْعِم قاتل حمزة بن عبد المطَّلب ، ورجلٌ من الأَنصار ؛ فولَّتْ حنيفة عِنْد قتْله منهزمَةً ، وأَخَذَهُم السَّيْفُ من كُلِّ جانب . وقُتِلَ محكَّم اليمامة ؛ قتلَهُ عبد الرحمن بن أَبى بكرٍ الصِّديق ، رضى الله عنه ؛ رماه بسهمٍ فى نحره وهو يخطبُ ويحرِّض الناس فقتله ، وقُتِلَ من المهاجرين والأَنصارِ من أهلِ المدينة ثلثمائة وستُّون ؛ ومن المهاجرينِ من غير المدينة ثلثمائة ؛ وقتل مِنْ بنى حنيفة بعَقْرَبَاء سبعة آلاف ؛ وفى حديقة الموتِ مثلها ، وفى الطَّلَبِ نحو منها ؛ وخرج خالدٌ بمجَّاعة يرسُفُ فى الحديد ليدُلَّهُ على مُسَيلمة ، فجعل يكشِفُ القَتْلى حتى مرَّ بمحكَّم بن الطُّفَيْلِ ، وكان رَجُلاً جسيماً وسيماً ، فلمّا رآه خالدٌ قال : هذا صاحبُكُمْ ؟ قال : لا ، هذا والله خيرٌ منه وأَكرَمُ ؛ هذا محكَّم اليمامة . ثم مضى حتَّى دخل الحديقة ، فقلَّب له القَتْلى ، فإذا رُوَيجل أَصَيْفر أُخَيْنس (١) . فقال مجَّاعة : هذا صاحبُكمْ قد فرغتم منه ؛ فقال خالدٌ لمجَّاعة : هذا فعل بكم ما فعل ! قال ؛ قَدْ كان ذلك يا خالد . وإنَّه واللهِ ما جاءك إلاَّ سَرَعان (٢) الناس ،

(١) أخينس : تصغير أخنس . والخنس محركة : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة .

(٢) سرعان الناس : أوائلهم .

وإنَّ جَماهير النَّاس لَفِي الحُصون ، فقال : ويلك ، ما تقول ! قال : هو والله الحقُّ ، فهلُمَّ لأُصَالحكُمْ على قومِي .

وَجاء عبد الرحمن بن أَبى بكرٍ وعبدُ الله بن عمر إلى خالد ، فقالا له : ارتحلْ بالنَّاس ، فانزل على الحصونِ ، فقال : دعانى أَبُثُّ الخيول فألتقط مَنْ ليسَ فى الحصون ثم أَرِى ؛ فبثَّ الخيول فحوَوْا ماوجدوا مِنْ مال وصبْيَانٍ ، فضَمُّوهُم إلى العَسْكَرِ ، ونادى بالرحيل لينزلَ علَى الحصون ، فقال له مَجَّاعة : إنَّه واللهِ ما جاءك إلاَّ سَرَعانُ النَّاس ، فإنَّ الحصون لمملوءة رجالاً ، فهلُمَّ إلى الصلح على ما ورائى ، فصالحه على كلّ شىء دون النُّفوس ؛ ثمّ قال مجَّاعة : أَنطلقُ إليهم فأُشاوِرهم ، وننظر فى هذا الأَمر ، ثم أَرجع إليك ، فدخل مجَّاعَةُ الحصونَ وليس فيها إلا النِّساءُ والصِّبيانُ ومشيخة فانِيةٌ ، ورجال ضَعْفَى (١) ؛ فظاهر الحديدَ على النِّساءِ ، وأَمرهُنَّ بنشر شعورهنَّ ، وأَن يُشْرِفن على رءوس الحصون حتى يرجع إليهم ، ثم رجع إلى خالد ، فقال : قد أَبَوْا أَنْ يُجيزُوا ما ضَيَّعْت ، وقدْ أَشْرف لك بعضُهُمْ نقْضًا عَلَىَّ ، وهم منِّى بُراء ، فنظر خالدٌ إلى رءوس الحُصون : وقد اسودَّتْ وقد نَهكَتْ المسلمين الحربُ ، وأَحبُوا أَن يَرْجعوا على الظَّفَرِ . فقال مجَّاعةُ لخالد : إن شئتَ صنعتُ شيئًا ، فعزمت على القومِ ؛ تأْخذ منى رُبْعَ السَّبْى وتدعُ ما بقى ؛ فقال خالد : قد فعلتُ . قال : قد صالحتك ، فلما فرغا فُتحت الحصونُ ، فإذا لَيْسَ فيها إلاَّ النساءُ والصِّبيانُ . فقال خالدٌ لمجَّاعة : ويحك ! خدعتَنى . فقال : قومى ، ولم أَستطع إلا ما صنعتُ .

(١) الطبرى : « ضعفاء » .

وقيل : إنَّ خالدًا صالح مجّاعة على نصف السَّبْى ، والصَّفْراء ، والبَيْضاء ، والحلْقة ، والكُراع ، وحائط [1] من كل قرية يختار [2] خالد ، ومزرعة يختارها ، فتقاضَوْا على ذلك . ثم سَرَّحَهُ وقال : أنتم بالخيار ثلاثا ، والله لَئن لم تُتِمُّوا وتَقْبَلُوا لأَنْهَدَنَّ إليكم . ثم قال : لا أقبلُ منكم خَصلَةً أبدًا إلاَّ القتلَ ، فأتاهُمْ مجّاعة ، فقال : أمّا الآن فاقبلوا . فقال سلمةُ بن عُمَيْر الحنفى : لا والله لا نقبل ؛ تبعَثُ إلى أهل القرى والعبيد . فنقاتل ولا نقاضى خالدا ؛ فإنَّ الحصون حصينة ، والطعام كثير ، والشتاء قد حضَر .

فقال له مجّاعة : إنَّك امرؤٌ مشئوم ، وغرَّك أنى خدعت القوم حتى أجابُونى إلى الصُّلْح . وهل بقىَ منكم أحدٌ فيه خيرٌ وبه دَفْع ! وإنَّما أنا بادرتُكُم .

فخرج مَجّاعة سابع سبعة حتى أتى خالدًا . فقال : بَعْدَ شرٍّ ما رضوا اكتب كتابك . فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما قاضى عليه خالدُ بن الوليد مجّاعة بن مُرارة وسَلَمَة ابن عُمَير ، وفلانًا وفلانا . قاضَاهم على الصَّفْراء والبَيْضاء ونصف السَّبْى . والحلْقة والكُراع . وحائط من كُلِّ قريةٍ ومزرعة ، على أنْ يُسْلِمُوا . ثم أنتم آمِنُونَ بأمان الله ، لكم ذِمّةُ خالدِ بنِ الوليدِ ، وذمة أبى بكرٍ خليفة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . وذِمم المسلمين على الوفاء .

---

(١) الحائط هنا : البستان .

(٢) ص « يختاره خالد .

ووصل كتاب أبي بكر إلى خالدٍ بقتل كلّ محتلم ، وكان قد صالحهم فوفَى لهم . ثمَّ إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ قال لمجّاعة : زوِّجني ابنتَك . فقالَ مجّاعة : مهلا ، إنَّك قاطع ظهرْك وظهْرى مَعَك عند صاحبكَ . قال : أيُّها الرجل ، زوِّجني ، فزوَّجه ، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب ، إليه كتابا يقطر الدَّم ؛ يقول :

يابن أمِّ خالد ؛ إنك لفارغٌ ، تنكح النساء وبفناء بيتك دَم ألفٍ ومائتى رجل من المسلمين لم يجْفَفْ بعد !

فلما نظر خالد فى الكتابِ جعل يقول : هذا عمل الأعيْسر — يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وبعث خالدٌ وفدًا من بنى حنيفة إلى أبى بكر ، فقدموا علَيْه . فقال لهم : ويحكم ! ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذى بلغك مما أصابنا ، كان أمرًا لم يبارك الله له ، ولا لعشيرته فيه . قال : على ذلك ، ما الذى دعاكُمْ به ؟ قالوا : كان يقول : « يا ضفدع نقِّى نقّى ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدِّرين ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشًا قومٌ يعتدون » .

فقال أبو بكر رضى الله عنه : سبحان الله ، ويلكم ! إن هذا الكلام ما خرج من إلٍّ ولا برٍّ (١) . فأين يذهب بكم !

قال أبو جعفر : لما فرغ خالد من اليمامة . وكان مَنْزِلُه الذى

(١) الإل : العهد والقرابة .

به التقى الناس أباضَ (وادٍ من أودية اليمامة) ؛ ثم تَحوَّل إلى وادٍ من أوديتها يقال له : الوبر ، فكان مَنْزِله بها [١] .

ذكر خبر ثابت بن قيس بن شماس فى مقتله

وتنفيذ وصيته للرؤيا التى رئيت بعد مقتله

قد أشرنا عند ذكر مقتله أن له خبرًا عجيبًا نذكره ، ورأينا إيرادَه ها هنا توفيةً للشرط .

حكى الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله ، قال : لما [٢] انكشف المسلمون يوم اليمامة . قال ثابت بن قيسٍ وسالمٌ مَوْلى أبى حذيفة : ما هكذا كنَّا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حفَر كُلُّ واحدٍ منهما له حفرة ، وثبتا وقاتلا حتى قُتِلا . وكان على ثابت يومئذٍ دِرْعٌ له نفيسةٌ ، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين فأخذها ؛ فبينا رجلٌ من المسلمينَ نائمٌ إذْ أتاه ثابتٌ فى منامِه ؛ فقال له : إنِّى أُوصيك بوصية ؛ فإيّاك أن تقول هذا حُلْم فتضيِّعَه ؛ إنى لمّا قُتِلتُ أمسِ مرّ بى رجلٌ من المسلمين ، فأخذ دِرْعِى ، ومنزلُه فى أقصى النَّاس ؛ وعند خبائه فرس يسْتنُّ فى طِوَله [٣] ؛ وقد كفأ على الدِّرع بُرْمةً ؛ وفوقَ البُرْمةِ رحل ، فأْتِ خالدًا فمرْه أن يبعث إلى درعى فيأْخذها . وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم – يعنى أبا بكر – فقل له : إنَّ عَلَىَّ من الدَّيْن كذا وكذا ، وفلان من رقيقى عتيقٌ .

فأتى الرجل خالدًا فأخبره . فبعث إلى الدرع فأتى بها .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٣٠٠ . ٣٠١ .

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٢٠٠ وما بعدها .

(٣) يستن : يقمص . والطول : الحبل .

وحدَّث أبا بكرٍ برؤْياه ، فأَجاز وصيَّته [من بعد موته][1].
قال : ولا نعْلم أحدًا أَجِيزتْ وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيسٍ رحمه الله تعالى .

ذكر أهل البحرين ومن ارتد منهم

وانضم إلى الحطم وما كان من أمرهم

والحطم اسمة شُرَيْح بنُ ضُبَيْعَة . قال أبو عبَيْدَة فى سبب تسميته بالحُطم : إنَّه [2] كان غزا اليمن فى جموع جمعهـا من ربيعة ، فغنِم وسَبَى بعد حرب كانت بينه وبين كِنْدَة ، أسر فيها فرْعان ابن مهديّ بن معدي كرب عَمّ الأَشعث بنِ قيسٍ ، وأَخذ على طريق مفَازة ؛ فضلَّ بهم دليلهم ؛ ثم هرب منهم ، ومات فرْعان عَطشًا ، وهلك منهم ناسٌ كثيرون بالعطشِ ، وجعل شُرَيْح يسوقُ بأَصحابه سَوْقًا حثيثا حتى نجَوْا ، وورَدوا الماء ؛ فقال فيه رُشيْد بنُ رُمَيْضٍ هذه الأَبيات :

بات يقاسِيها غلامٌ كالـزَّلَمْ نامَ الحداةُ وابن هندٍ لم يَنَمْ
هذا أَوانُ الشَّدِّ فاشتدّي زِيَمْ قد لفَّها الليل بسوّاقٍ حُطَمْ
خدَلَّجُ الساقيْنِ خفَّاقُ القدَمْ ليسَ براعى إبلٍ ولا غنمْ
* ولا بجزَّارٍ على ظهْـــرِ وَضَمْ *

فلقِّب يومئذٍ الحُطم لذلك .

---

(١) زيادة من الاستيعاب .
(٢) ك : « أنه كان عن اليمن فى جموع جمعها » ، والمثبت من ص .

قال أبو جعفرٍ محمد بنُ جرير الطبرى رحمه الله : كان[١] من حديث أهل البحْرين أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم اشتكى هو والمنذر ابن ساوَى فى شهرٍ واحدٍ ، ثم مات المنذر بعد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بقَليل ، وارتدَّ[٢] بعدَه أهلُ البحرين ، فأَما عبد القيس ففاءت ، وأمّا بكر فتمَّت على الردَّةِ ، وكان الذى ثنى عبد القيْس الجارود بنُ المعلَّى . وقيل فيه : الجارود بن عمرو بن حبيش بن يعلَى[٣] ، واسمه – فيما يقال – بشر بن عمرو ؛ وإنَّما قيل له الجارود ؛ لأنَّه أغار فى الجاهلية على بكر بن وائلٍ ، فأَصابهم فجرَّدهم .

– وهذه الزيادة فى اسم الجارود عن غير الطبرى –

قال أبو جعفر : وكان الجارود قد قدِم على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وكان نصرانيًّا فأَسلم ، ومكث بالمدينة حتى فَقِه ، ثم رجع إلى قومه فكان فيهم ؛ فلم يلبث إلا قليلاً حتى قبِض رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ فقالت عبد القيس : لو كان محمدٌ نبيًّا لما مات ؛ وارتدُّوا ؛ فبعث إليهم فجمعهم ، وقال : يا معشرَ عبد القيس ؛ إنِّى سائلكم عن أمرٍ فأَخبرونى به إنْ علمتُموه ، ولا تجيبونى إن لم تعلموا ؛ قالوا : سَلْ عمّا بدا لك . قال : تعْلمون أنَّه كان لله تعالى أنبياء فيما مضى ؟ قالوا : نعم ، قال : ترونه أو تعلمونه ؟ قالوا : لا ، بل نعلمه . قال : فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا ؛ قال : فإنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله ،

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٣٠١ وما بعدها ، الأغانى ١٥ : ٢٥٥ .
(٢) ص : « وارتدت » .
(٣) ص : « حلش بن يعلى » .

وأن محمدًا عبده ورسولُه ؛ قالوا : ونحن نشْهد أنَّ لا إله إلاَّ الله ، وأنَّ محمدًا عَبْده ورسولُه ، وأنَّك ضفـ ـيدنا وأملُنا .

وثبتُوا على إسلامهم وخلَّوْا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوى ، فكان المنذر مشتغلاً بهم حياتَه ، فلمّا مات حُصِر أصحابه فى مكانين ، فكانوا كذلك حتى أنقذهم [١] العلاء بن الحضرمىّ .

قال : ولما ارتدَّت ربيعة ومن تابعها . قالوا : نردُّ الملْك فى آل المنذر ، فملَّكوا المنذرَ بن النُّعمان بن المنذر ، وكان يسمَّى الغَرور ، فكان يقول بعد ذلك حين أسلمَ الناس وغلبهم السيف : لستُ بالغَرور ، ولكنى المغرور [٢] .

قال : ولمّا مات النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم خرج الحُطم بن ضُبَيعة أخو قيس بن ثعْلبة فيمن اتَّبعه من بكر بن وائل على الرِّدةِ ، ومن تأشَّب [٣] إليه من غير المرتدِّين ؛ مِمَّن لمْ يَزلْ كافرًا حتى نزل القَطِيف [٤] وهَجَر ، وبعث بعثًا إلى دارِين ، فأقاموا به ليجعل عبدَ القيسِ بينه وبينهم ، وكانوا مخالفين لهم ، يمدُّون المنذر والمسلمين ، وأرسل إلى الغَرور ابن أخى [٥] النعمان بن المنذر ، فبعثه إلى جُؤاثَى ، وقال له : اثبت ، فإنِّى إنْ ظفرت ملَّكْتُك بالبحرين حتى تكون كالنُّعمان بالحِيرة ، وبعث إلى جُواثى فحصَرهم ، وألحُّوا عليهم ، وفى المسلمين المحصُورين رجَلٌ من صالحى المسلمين . يقال له : عبد الله بن حَذَف ،

(١) ص : « أنقدهم » تحريف .
(٢) ك : « الغرور » .
(٣) تأشب : تجمع إليه من هنا وهنا .
(٤) القطيف : مدينة بالبحرين .
(٥) فى الطبرى أخ : ي » .

أحد بنى بكر بن كلاب ، فاشتدّ عليه وعليهم الجوع حتى كادوا يهْلِكُوا ؛ فقال عبد الله بنُ حَذف فى ذلك :

أَلَا أَبْلِغْ أَبا بكرٍ رســـــولاً وفتيان المدينةِ أَجْمَعِينـــا[1]
فهل لكُمُ إلى قـــومٍ كـــرامٍ قُعودٍ فى جُؤَاتَى محْصَرِينـــا
كأَنَّ دِماءهمْ فى كُلِّ فـــَجٍّ شُعَاع الشمْسِ يَغْشَى النَّاظرينا
توكَّلْنَا على الرَّحْمن إنَّـــــا وَجَدْنا الصَّبْرَ للمتوكِّلينـــا

وكان أَبو بكر الصِّديق رضى الله عنه قد عَقَد للعَلاء بن الحضرمىّ ، وأَمَّرَه بالبحْرين كما قدَّمنا ذكر ذلك ، فسار العَلاء فيمن معه ، فلمّا كان بحيال اليَمامة لحِقَ به ثُمامةُ بنُ أُثال فى مُسْلِمة بنى حَنِيفة ، وخرج مع العلاء من بنى عمرو وسعد والرِّباب مثل عسكره ، وسلَك الدَّهناء فنزل ، وأَمَر النَّاس بالنزول ، فنزلوا ، فنفرت الإبل فى جوف الليل ، فما بقىَ بعيرٌ ولا زاد ولا مزاد ولا بناء إلاَّ ذهب عليها فى عرض الرَّمْلِ ، وذلك حين نزل الناس ، وقبل أن يحطُّوا ، فَما هَجَم على جَمْعٍ من الغمِّ ما هجم عليهم ، وأَوصى بَعْضُهمْ إلى بعضٍ ، ونادَى منَادِى العلاء : اجْتمِعوا ، فاجتمعوا إليه ؛ فقال : ما هذا الذى قد ظهر فيكُمْ ، وغلب عليكُمْ ؟ فقال النَّاس : وكيف نلام ونحنُ إن بلغنا غدًا لم تحْمَ شَمْسُه[2] حتى نصير حديثًا ، فقال : أَيُّهَا النَّاس ، لا تُراعوا ، أَلَسْتُمْ مسلمين ! أَلَسْتُمْ فى سبيل الله . ! أَلَسْتُمْ أَنْصَارَ اللهِ ! قالوا : بلى . قال : فابشروا فوالله لا يخذُل الله مَنْ كان فى مثل حالكم .

(١) الأبيات فى الأغانى ١٥ : ٢٥٦ .
(٢) ص : « شمسها » .

ونادى المنَادِى بصلاة الصُّبْح حين طلع الفجر ، فصلَّى بهم ، منهم المتيمّم ، ومنهم من لم يَزَلْ على طُهرِه ، فلمَّا قضى صلاته جَثَا لركبتَيْهِ ، وجَثَا النَّاس ، فنصِب فى الدُّعَاء ، ونصِبوا معه ، فلمع لهم سراب [١] الشَّمْسِ ، فالتفتَ إلى الصفِّ . فقال : رائد ينظُر ما هذا ، ففعل ، ثم رجع فقال : سراب . فأَقبل على الدعاء ، ثم لمع لهم آخر ، فكذلك ، ثم لمع لهم آخر ، فقال : ماء ، فقام وقام الناس معه ، فمشوْا حتى نزلوا عليه ، فشربوا واغتسلُوا ، فما تعالى النهار حتى أَقبلت الإبل تُكْرَد [٢] من كُلِّ وجْهٍ ، فأَناخَتْ عليهم ، فأَقام كُلُّ رجلٍ إلى ظهره ، فأَخذه .

قال منجاب بنُ راشد : فما فقدنا سِلْكا [٣] ؛ فأَرْوَيْنَاها وأَسقيناها العَلَلَ بعد النَّهَلِ [٤] ، وتروّينا ، ثم تَروَّحْنا . وكان أَبو هريْرَةَ رفيقى فلمَّا غِبنا عن ذلك المكانِ . قال لى : كيف عِلْمكَ بموضع ذلك الماء ؟ فقلت : أَنا من أَهدَى العرب بهذه البلاد . قال : فكن معى حتى تقيمَنى عليه ، فكرَرتُ به ، فأَتيْتُ به على ذلك المكانِ ، فقلت : لولا أَنِّى [لا أَرى] [٥] الغديرَ لأَخبرتُكَ أَنَّ هذا هو المكان ، وما رأَيت بهذا المكان ماء ناقعا [٦] قبل اليوم ، وإذا إداوةٌ مملوءةٌ ، فقال : يا أَبا سَهْم ، هذا والله المكان ، ولهذا رجعتُ بك ، وملأْت إدَواتى ثم وضعْتُها على شفيره . فقلت : إن كان مَنًّا من المنِّ وكانت

(١) ك : « شراب » تصحيف .
(٢) الكرد : الطرد ، وفى الأصول : « يرتكد » تصحيف ، صوابه من تاريخ الطبرى .
(٣) السلك : جمع سلكة ، وهو الخيط الذى يخاط به الثوب .
(٤) العلل : الشراب الثانى ، والنهل : الشراب الأول .
(٥) من الطبرى .
(٦) كذا فى الطبرى ، وفى الأصول : « نافعا » .

آية عرفتُها ، وإن كان غياثًا عرفْتُه ، فإذا مَنٌّ من المنِّ ؛ فحمد الله .
ثم سِرْنا حتى ننزل هَجَر .

قال : فأرسل العَلاء بنُ الحضرمىّ إلى الجارودِ ورجلٍ آخر : أن انضما فى عبد القيس حتى تَنْزِلاَ على الحُطَم مما يليكُمَا ، وخرج هو فيمن جاء معه ، وفيمن قدِمَ عليه حتَّى ينزل عليه ما يلى هَجَر ، وتجمّع المشركُون كُلُّهم إلى الحُطَم إلاَّ أهل دارين ، وتجمَّع المسلمون كُلُّهم إلى العَلاء ، وخَنْدَقَ المسلمون والمشركون ، فكانُوا يتراوحون القتال ويَرْجِعونَ إلى خَنْدَقِهم ، فكانوا كذلك شهرًا .

فبينا الناسُ ليلةً إذ سمع المسلمون فى عسكر المشركين ضوضاء شديدةً ، كأنّها ضوضاءُ هزيمة أوقتال ، فقال العلاء : مَنْ يأْتينا بخبر القوم ؟

فقال عبدُ اللهِ بن حَذَف : أنا آتيكم بخبر القوم ؛ فخرج حتَّى إذا دنا من خَنْدقهم أخذوه ؛ فقالوا له : مَنْ أنت ؟ فانْتسبَ لهم ، وجعل ينادى : يا أبجراه ! فجاء أبجر فَعَرفه فقال : ما شأْنك ؟ فقال : لا أُصَغَّر بين اللهازم [1] ، فقال : والله إنى لأظنُّك بئس ابن الأُختِ لأخوالكِ الليلة . فقال : دَعْنى من هذا ، وأَطْعِمْنى ؛ فإنىّ قَدْ مِتُّ جوعًا ؛ فقرَّب له طعامًا فأكل ، ثم قال : زوِّدنى [2] واحْمِلْنى ، فحملَه على بعير ، وخرج عبد الله بن حَذَفٍ حتَّى دخلَ عَسْكر المسلمين ، فأخبرهم أنّ القوم سُكَارَى ، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عسكَرهُمْ ، فوضَعُوا السُّيوف فيهمْ حيث شاءوا ، واقتحوا الخندق

(١) ص : « اللهاذم » تصحيف . وفى تاريخ الطبرى : « لا أضيمن الليلة » .
(٢) ك : « زدنى » .

هُرّابا فمتردٍّ وناجٍ ، ودَهِشٌ ومقتولٌ أو مأسُورٌ ؛ واستولى المسلمون على مافى العسكر ، ولم يسلم رجلٌ إلا بما عليه ، فأمّا أبجر فأفلت ؛ وأمّا الحُطَم فإنّه دَهِشَ ، وطار فؤاده ، فقام إلى فرسه – والمسلمون خلالهم – فلمّا وضع رجلَه فى الرِّكاب انقطع به فمَرَّ به ، عفيفُ بن المنذر والحُطَم يستغيث ؛ يقول : ألا رجلٌ يعقلنى ! فعرف صوته ، فقال : أعطنى رجْلَك ، فأعطاه رِجْلَهُ فنفحها فأطنّها [1] من الفخذ ، وتركه ، فقال : أجْهِزْ علىَّ ؛ فقال : لا ، إنّى أحبُّ [2] ألاّ تموت حتى أُمِضَّك [3] . وجعل الحُطَم لا يمرُّ به أحدٌ من المسلمين فى الليل إلا قال : هل لك فى الحُطَم أن تقتله ! حتى مرَّ عليه قيسُ بن عاصمٍ فقَتله ، فلمّا رأى فخذَهُ نَادِرَةً [4] ، قال : واسوأتاه لو علمت الذى به لم أُحَرِّكْهُ ! وخرج المسلمون بعدما أخذوا الخندق على القوم يطلبونهم ، فلحق قيس بن عاصم أبجر ؛ فطعنه قيس فى العرقوب فقطعه ، فكانت رادَّة ، وأصبح العلاء فقسَّم الأنفال ؛ ونفَّل رجالاً من أهل البلاء ثيابًا .

وأما أهل عُمَان ومَهْرَةَ واليمن ، فإنّ حذيفةَ بنَ محصن الحميرىّ وعَرْفجة سارا إلى القوم ، فاقتتل المسلمون وأهل عُمَان قتالاً شديدًا فهَزَم المسلمون [المرتدين] [5] ؛ وقتلوا منهم فى المعركة عشرة آلافٍ ، وَسَبوُا الذَّارِرِىّ ، وجَمَعُوا الغنائِم ، وبَعثوا الخُمْسَ إلى أبى بكرٍ ، وقَسَّمُوا ما بَقِىَ ، ثم خَرَجُوا نحومَهْرة ، فكشف اللهُ جنود المرتدِّينَ ، وقُتِلَ

(١) أطنها : قطعها .
(٢) ص : « أحبك » .
(٣) ك : « أفضك » .
(٤) نادرة : ساقطة .
(٥) تكملة من ص .

رئيسُهُمْ ، وركِبَهُم المسلمون ، فقتلوا منهم من شاءوا ، وأصابوا مَنْ شاءوا ، وخَمَّسوا الغنائم ، وبعثوا بالخُمس إلى أبى بكرٍ الصِّديق رضى الله عنه ، وقَسَّمُوا ما بقِىَ .

وأمّا من بقىَ مِنْ بقية الأُمراء الذين عقدلهم أبو بكر رضى الله عنه ، وبعثهم إلى من ارتدّ من قبائل العرب ، فإنَّ كل أمير سار إلى مَنْ بعثه إليه فمن رجَع عَن الردةِ ، وفاء إلى الإسلام قُبِل منه ومَنْ أبى قتل ، وأطْفَأَ الله تلك النيران .

رُوِىَ عَنْ عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنَّهُ قال : لقد أقمنا بعد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مقاما كِدْنا نهْلِكُ فيه ، لولا أنَّ الله تعالى مَنَّ علَينْا بأبى بكرٍ ، جمَعنا على أن نقاتل على ابنةِ مخاضٍ وابنة لَبُونٍ ، وأن نأْكل قرى عُرَيْنَةَ ، ونعبد الله حتى يأْتينا اليقينُ .

فعزم الله لأبى بكر على قتالهم ، فو الله مارضىَ منهم إلا بالخُطَّة المخزية أو الحرب المجلِّية ، فأما الخُطة المخزية فأن يُقِرُّوا بأنَّ منْ قُتِلَ منهم فى النار ، وأنَّ مَنْ قُتِلَ منَّا فى الجنة ، وأن يَدُوا قَتْلانا ، ونغنم ما أخذنا منهم ، وما أخَذُوا مِنَّا مردودٌ علينْا ، وأمَّا الحرب المجَلِّية فأن يخرجوا من ديارهم . وكانت هذه الحروب التى ذكرناها .

* * *

وهذه الوقائع كُلُّها فى سنة إحدى عشرة ، وكان فيها حوادثُ أُخر غير ما ذكرناها ، نذكرها إنْ شاء الله تعالى فى حوادثِ السنين فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه بعد نهاية الغزوات . والله أعْلم .

ذكر مسير خالد بن الوليد الى العراق

وما افتتحه وما صالح عليه وما قرره من الجزية

كان إرسالُ خالد بن الوليد إلى العراق فى المحرم سنة ثلاث عشرة من الهجرة[١] .

قالوا : وكان الَّذِى هاج أبا بكرٍ رضى الله عنه ؛ أن المثنَّى بن حارثة الشَّيبانىّ كان يُغير على أهل فارسَ بالسواد ، فبلغ أبا بكر والمسلمين خبره ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : مَنْ هذا الذى تأْتينا وقائعه قبْل معرفةِ نسبه ؟ فقال قيسُ بنُ عاصم : أمَا إنَّه غيرُ خامل الذِّكْر ، ولا مجهول النَّسب ، ولا قليلُ العدد ، ولا ذليل العِمارة[٢] ، ذلك المثنَّى بن حارثة الشيبانى .

ثم قَدم المثنَّى على أبى بكر ؛ فقال : ياخليفة رسول الله ، ابعثْنى على قَوْمى ، فإنّ فيهم إسلاما . أقاتل بهم أهلَ فارس ، وأكفيك أهل ناحيتى من العدوّ ؛ ففعل أبو بكر رضى الله عنه ذلك .

وقدم المثنَّى إلى العراق ، فقاتل ، وأغارَ على أهل فارس ونواحى السواد حَوْلاً ، ثم بعثَ أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكرٍ يسأله المدد ويقول : إن أمددتَنى وسمعتْ بذلك العرب أسرَعُوا إلىّ ، وأذلّ اللهُ المشركين ، مع أنّى أُخبِرك ياخليفة رسول الله أنَّ الأعاجم تخافنا وتتَّقِينا . فقال له عمر : ياخليفةَ رسول الله ، ابعث خالد بن الوليد مدداً للمثنَّى بن حارثة ؛ يكون قريبا من أهل الشام ، فإن استغنى عنه أهلُ

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٢٦١ . وذكر الخبر فى سنة ١٢ ، وانظر الاستيعاب ١٤٥٦ .

(٢) العمارة : الحى العظيم ، وفى الاستيعاب : « الغارة » .

الشام ألحّ على أهل العراقِ ؛ حتى يفتَح الله عليه . حكاه أبو عمر بن عبد البر من حديث الأصمعى عن سلمة بن بلال عن أبى رجاء العُطارِدى[١] .

قال : كتب أبو بكرٍ الصِّديق رضى الله عنه إلى المُثَنَّى بن حارثة : إنّى قد ولَّيتُ خالد بنَ الوليد ، فكن معه ؛ وكان المثنَّى بسواد الكوفة ، فخرج خالد فتلقَّاه ، وقدم معه البصرة .

وحكى أبو الحسن علىٌّ بن محمد الموصلى المعروف بابن الأثير فى تاريخهُ : « الكامل . قال : أرسل[٢] أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد من اليمامة إلى العراق ، وقيل : بل قدم إلى المدينة من اليمامة ، فأرسله إلى العراق ، وأوصاهُ أن يَبْدأ بفرْج الهند ، وهو الأُبُلَّة ، وأن يتألَّف أهل فارس ، وكُلّ من كان فى ملكهم من الأُمم ، فصار حتى نزلَ بيانِقْيـا ، وبَارُوسْمَا وأُلَّيْس ، فَصالحه أَهْلُها على عشرة آلاف دينار سوى جزْية[٣] كِسْرى ، وكان على كلِّ رأْسٍ أربعةُ دراهمٍ فأَخذ منهم الجزْية ، ثم سارَ حتَّى نزل الحيرةَ ، فخرج إليه أشرافُها مع قُبَيْصَة بن إياس الطائىّ ، وكان أميرا عليها بعد النُّعْمانِ بن المنْذِر ، فدعاهُمْ إلى الإسلام ، أو الجزية ، أو المحَاربة فاختاروا الجزيةَ ، فَصالحهم على تسعين ومائة ألفِ درهم ، فكانت أوّلَ جِزية أُخِذَتْ من الفُرْس فى الإسلام ، هى والقُرِيّات التى صالح عليها ، واشترط على أهل الحيرة أن يكونُوا عيونا للمسلمين ، فأجابوا إلى ذلك .

ثم سار خالدٌ لقتالِ هرْمز ، فلمّا سمِع هرْمز بهم كتب إلى أَرْدَشير

(١) الاستيعاب ١٤٥٧

(٢) الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٦١ ومابعدها . (٣) ابن الأثير « خرزة » .

الملك بالخبر واستمدَّه والْتقيـا ، وخرج هُرْمُز ، ودعا خالدا للبِرازِ ووطَّأَ أصحابه على الغَدْرِ به ، فبرز إليه خالدٌ ، ومشى نحوه راجلا ، وبرز هرْمز ، واقتتلا ، فاحتضنه خالدٌ ، وحمل أصحاب هرمز ، فما شغله ذلك عن قتْله ، وحمل القعقاع بن عمرو ، فأنهى أهلَ فارسٍ وركبهم المسلمون ؛ وسمِّيَتْ هذه الوقعة : ذات السَّلاسل ، وكانَتْ عِدّة أصحاب خالدٍ ثمانية عشر ألفا ، ونجا قُبَاذ وأنوشجان ، وأخذ خالد سلَب هرْمز ، وكانت قلنسوته بمائة ألفٍ ، وبعث بالفتح والأَخماس إلى أبى بكر ، وسار حتى نزل بموضع الجسرِ الأَعظم بالبَصْرةِ ، وبعث المثنَّى بن حارثة فى آثارهِم ، وبعث مقرِّن إلى الأُبُلَّة ففتحها ، وجمع الأَموال بها والسَّبْى .

وقيل : إن الأُبُلَّة فُتِحَتْ فى خلافة عمر على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وحاصر المثَنَّى حصن المرأة ، فافتتحه ، وأسلمت المرأة .

ذكر وقعة الثنى

قال[1] : ولما وصل كتابُ هُرمز إلى أردشير بخبر خالد ، أَمَدَّهُ بقارن بن قريانس ، فلقيه المنهزِمُون ، فرجعوا معه وفيهم قُباذ وأنو شجان ، فنزلوا الثِّنى - وهو النهر - وسار إليهم خالد ، والتقوا ، واقتتلوا ، فبرز قارِن فقتله مَعْقِلُ بنُ الأَعْشى ، وقَتَل عاصمٌ أنوشَجان وقتل عَدِىٌّ قُبَاذ . وقُتِلَ من الفُرْسِ مقتلةٌ عظيمةٌ يبلغون ثلاثين ألفا ؛ سوى مَنْ غرق فى الماء ، فقسَّم خالدٌ الفىْ . بعد أن خمَّسَهُ ،

(١) ساير المؤلف فى هذه التسمية ابن الأثير ٢ : ٢٦٣ . وأما الطبرى فقد أسماها « وقعة المذار » . والعرب تسمى كل نهر ثنياً .

وأرسل بالأخماسِ إلى المدينة ، وأعطى الأسلابَ مَنْ سلبها ، وكانت غنيمة عظيمة ، وأخذ الجزيةَ مِنَ الفلاحين ، وكانوا ذِمَّة ، وكان [فى السَّبْى أبو الحسن البصرى ، وكان نصرانيًّا .

ذكر وقعة الولجة

قال :[1] ولمّا وصل الخبر إلى أردشير بعثَ الأندرزغر [وكان فارسا من مولدِى السّواد ، وأرسل بهمن جازويه فى أثره فى جيش ، وكان مع الأندرزغر] [2] الفرس والعرب الضَّاحيَة والدهاقِين ، فعسكروا بالولَجة ، فجاءهم خالدٌ إليها وكمن لهم كَمينا ، وقاتلهم قتالا شديدا ، وخرج كمين خالدٍ من خَلْفِهم فانهزمت الأعاجم ، وأخذهم خالد من أمامهم ، والكمين من خلْفِهم ، فقتِل منهم خلْقٌ كثير . [ومضى] [2] الأندرزغر منهزما ، فمات عَطَشا .

وكانت هذه الوقعة فى صفر سنة اثنتى عشرة ، فأصاب خالدٌ ابنا لجابر بن بُجيْر ، وابنًا لعبد الأسود [3] من بكر بنِ وائل .

ذكر وقعة أليس

قال : لمَّا أصابَ خالدُ بنُ الوليد يومَ الولَجَةِ ما أصاب من نصارى بكربن وائل ، الَّذين أعانُوا الفُرْسَ ، غضِب لهم نصارى قوْمِهم ، فكاتَبُوا الفُرسَ . واجتمعوا على أُلَّيْس [4] ، وعليهم عبد الأسود

(١) ابن الأثير . ٣ : ٢٦٣
(٢) تكملة من ص .
(٣) ك : « بن بكر بن وائل » .
(٤) ك : « اجتمعوا على الفرس » .

العِجْلِيّ ، وكتب أَرْدشير إلى بَهْمَن جاذوَيْهِ ، وأمره بالقدوم على نصارى العرب ، فقدم عليهم بهمن جابان ، وأمره بالتوقفِ عن المُحَارَبة حتى يقدمَ عليه ، وسار بَهْمَنُ إلى أَرْدَشِير يُشَاوِره فيما يَفْعَل ، فوجده مريضا فتوقَّفَ ؛ واجْتمع على جَابَانِ نصارى عِجْل ، وهم اللاَّت وضُبيعة وجابر بنُ بُجَير ، وعربُ الضَّاحية من أهل الحيرة ، فسار إليهم خالد والتقوْا ، واقتتلوا قِتالا شديدا ؛ فقال خالد : اللَّهُمّ إنْ هزمْتَهُم فعلَىّ ألاَّ أستبقىَ منهم مَنْ قدرْتُ عليه ؛ حتَّى أُجْرِىَ من دمائِهم نهرهم ، فانهزمتْ فارس ، فنادى منادِى خالد : الأَسر الأَسر ! إلا من امتنع فاقتلوه ، فأَقبل بهم المسلمون أُسراء ، ووكَّلَ بهم مَنْ يضرب أعناقهم ، فضرب أعناقهم يوما وليلة ؛ فقال له القعقاعُ : لو قتلتَ أهل الأَرض لم تَجْرِ دماؤُهم ، فأَجرى عليه [الماء] (١) فسمِّىَ ذلك الماء نهر الدم . وبلغ عدد القتلى سبعين ألفا ، وكانت الوقعة فى صفر أيضا .

ثم سار إلى أَمْغِيشيا ، وأصابَ فيها مالم يصب مثلَهُ من الغنائم . وأخر بها ، وبعثَ إلى أبىْ بكر بالسَّبى والغنائم ؛ فقال أبو بكر : عَجَز النِّساء أن يلدْن مثل خالد . رضى الله تعالى عنهما .

---

(١) من ابن الأثير .

ذكر وقعة فرات بادقلى وفتح الحيرة

قال :[١] ثم سار خالد من أَمْغِيشْيَا إلى الحِيرة ، وحمل الرِّجال والأَثقال فى السفن ، فخرج مرزُبان الحِيرة ، وهو الأَزادبه ، فعسْكَر عند الغَرِيَّيْن وأَرسل ابنه ، فقطع الماء عن السُّفن ، فبقيتْ على الأَرض ، فسار خالد نحوه فلقيه على فرات بادقلى ، فقتله ، وقتل أَصحابه ، فلما بلغ الأَزاذبة قتلُ ابنه هرب بغير قتالٍ ، ونزل المسلمون على الغَرِيَّيْن ، وتحصَّن أَهلُ الحيرة فحصرهم فى قُصورهم ، وافتتح المسلمون الدُّرُوبَ والدُّورَ ، وأَكْثَروا القتل ، فنادى القسِّيسون والرُّهْبان : يا أَهل القصور ! ما يقتلنا غيركم ! فنادى أَهلُ القصور المسلمين : قد قبلنا واحدة من ثلاث : إمَّا الإسلام ، أَو الجزية ، أَو المحاربة ، فكَفُّوا عنهم ، وصالحهم على مائةِ أَلفٍ وتسعين أَلفا . وقيل : مائتى أَلفٍ وتسعين أَلفا .

وكان فتحُ الحيرة فى شهر ربيع الأَوّل ، وكتب لهم خالدٌ كتابا ، فلمَّا كفر أَهل السواد ضيّعوه ، فلما افتتحها المثنَّى ثانية عاد بشرط آخر ، فلمّا عادوا كفروا ، وافتتحها سعدُ بنُ أَبى وقاصٍ ، ووضع عليهم [أَربعمائة] [٢] أَلف . فقال خالد : ما لقيتُ قوما كأَهل فارسٍ ، وما لقيتُ من أَهل فارسٍ كأَهل أُلَّيْس .

---

(١) ابن الأثير ٢ : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
(٢) من ابن الأثير .

ذكر ما كان بعد فتح الحيرة

قال[١] : وكان الدَّهاقين يتربَّصُونَ بخالد ، ما يصنعُ أهلُ الحيرة ، فلمّا صالحهم واستأْمنوا له أتتْه الدَّهاقِينُ من تلك النَّواحى ، فصالَحُوه على ألفىْ ألفٍ . وقيل : ألف ألف ، سوى ما كان لآل كسرى .

وكتب إلى أهل فارس يدْعُوهم إلى الإسلام أو الجزْيةِ ، فإن أجابُوهُ وإلاَّ حارَبَهُمْ . وجَبَى الخراجَ فى خمسين ليلة ، وأعطاه للمسلمين ، ولم يبقَ لأهل فارس فيما بَيْن الحيرة ودِجلة أمرٌ ، لاختلافهم بموت أردشير ، إلاَّ أنَّهم مجمعون على حرب خالد ، وهو مُقِيم بالحيرة .

ذكر فتح الأنبار

قال : ثم[٢] سار خالدٌ إلى الأنْبَار ، وإنَّما سُمِّيَتْ الأنبار ، لأن أهْرَاء[٣] الطعام كانت بها أنَابير ، وكان [على][٤] مَنْ بها من الجند شِيرُزاد صاحب سَابَاط . فلمَّا التَقوْا أمر خالد رُمَاتَهُ برشْقِ السِّهَامِ . وأنْ يقصدوا عُيُونَهُمْ ، فرَشَقُوا رِشْقا واحدا ، ثم تابَعُوا ، فأَصابوا ألف عينٍ ، فسمِّيتْ هذه الواقعة ذات العيون ، فلما رأى شيرزاد ذلك ، أرسل فى طلب الصُّلح ، فصَالَحه خالدٌ على أنْ يُلْحقه مَأْمَنه فى جريدة ، وليس معهم من المتاع شىء .

---

(١) ابن الأثير ٢ : ٢٦٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٦٩ .

(٣) الأهراء : مخازن الغلال .

(٤) تكملة من ص .

وخرج شيرزاد إلى بَهْمَن جاذويه ، ثم صالح خالدٌ مَنْ حول الأَنْبار وأهل كِلْواذى . والله سبحانه وتعـالى أعْلم والحمد لله وحْدَه .

ذكر فتح عين التمر

قال : ولما[1] فرغَ خالدٌ مِن الأَنبار ، استخلف عليها الزِّبرقان ابن بدر ، وسار إلى عينْ التَّمْر ، وبها مِهْران بنُ بَهْرام جُوبين فى جمع عظيم من العجم ، وعَقَّة بنُ أَبي عقَّةَ فى جمع عظيمٍ من العرب ؛ من النَّمِر ، وتَغْلِب ، وإياد ؛ وغيْرهم . فقال عَقَّة لِمهْرانَ : إنّ العرب أعلم بقتال العرب منكم ، فدعنا وخالدا ؛ فقال : نعم ، وإن احتجتم إلَيْنَا أعنَّاكم ، فالتقى عقَّة بخالدٍ ، فحمل خالدٌ عليه وهو يقيم صُفُوفه ، فاحتضنه وأسره ، فانهزم أصحابُه من غير قتالٍ ، وأُسِرَ أكثرهم . فلما بلغ الخبر مِهران ، هرب فى جنده وترك الحصن[2] ، فانتهى المنهزمون إليه وتحصَّنوا به ، فنازلهم خالدٌ ، فسأَلوا الأَمان ، فأَبى ، فنزلوا على حُكْمِه ، فأَخذهم أسرى ، وقتَل عَقَّة ، ثم قتلَهُم عن آخرهم ، وسبى [كلّ مَنْ][3] بالحِصْنِ وغَنِم ما فيه ، ووجد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلَّمُون الإنجيل ، عليهم بابٌ مغلَق ، فكسره وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رُهُن ، فقسَّمهم فى أهل البلاد ، منهم : أبو زياد مَوْلَى ثقيف ، وأبو عمرة جدُّ عبد الله بنُ عبد الأَعلى

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٦٩ .
(٢) ص : « ونزل الحصن » .
(٣) من ص .

الشاعر ، وسيرين أبو محمد ، ونُصَيْر أبو موسى ، وحُمْرانُ مولى عثمان بن عفانٍ .

وأرسل إلى أبي بكر بالخبر والخمس والسَّبي ، فكان أول سَبْيٍ قدم المدينة من العجم ، وجعل خالدٌ على عيْن التمر عويْمرا السُّلَمِيّ .

ذكر خبر دومة الجندل

قال : ولمّا[1] فرغ خالدٌ من عَيْن التَّمْر أتاه كتاب عياض بن غَنْم ؛ يستمده على مَنْ بإزائه من المشركين ، فسارَ إليه ، وكان بإزائه بَهْراء وكَلْبٌ ، وغسّان ، وتنُوخ ، والضجَاعِمُ ، وكانت دومة الجنْدَل على رئيسين : أُكَيْدِر بن عبد الملك ، والجُودِى بن ربيعة ؛ فأمّا أُكَيْدر فأشار بالصُّلْح ، ولم يَرَ قتالَ خالدٍ ، فلم يقبَلُوا منه ؛ فخرجَ عنهم ، وسمِع خالدٌ بمسيره ، فأرسل إلى طريقه ، وأخذه أسيرا وقتله وأخذ ما كان معه ؛ وسار حتى نزل بدُومَة ، وجعلها بيْنه وبين عياضٍ ، وخرج الجُودِى إلى خالدٍ فى جمعٍ مِمَّنْ عنده من العرب ، وأخرج طائفة إلى عياضٍ ؛ فهزمهم عياضٌ ، وهزم خالدٌ مَنْ يليه ، وأسر الجُودِى ، وانهزموا إلى الحِصْنِ ، فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابِهم ، فبَقُوا حَوْله ؛ فقتلهم خالدٌ ؛ وقتل الجُودى وقتل الأسرى إلاّ أسرى كَلْبٍ ، فإنّ بنى تميم قالوا لخالدٍ : قد أمَّنّاهُمْ ، وكانوا حلفاءهم ، فتركهم لهم ، ثم أخذ الحِصْن فقتل المقاتِلَة ، وسبَى الذُّرِيَّة ، فاشترى خالدٌ ابنة الجُودِى ؛ وكانت موصوفة بالجمال .

وأقام خالدٌ بدُومةِ الجنْدل ؛ فطمِع الأعاجم ، وكاتبهم عرب

(١) ابن الأثير ٢ : ٢٧٠ .

الجزيرة غَضَبًا لعقَّة ، فكانت وقعــة حَصِيد والخنافِس ، بين القعقاع بن عمرو ، خليفة خالدٍ على الحيرة ، وبين روزبة وزرمهر . فَقُتِل روزبه بحصِيد ، وانهزم الأَعاجِمُ إلى الخنافِس ؛ فتبعهم المسلمون ، وهربوا إلى المصيَّخ ، إلى الهذيل بن عمران .

ثم كانت وقعة مصيخ

قال : [١] ولما انتهى الخبر إلى خالدٍ كتب إلى القعقاع وأبى ليلى ، وواعدهم فى وقت معلوم يجتمِعُونَ بالمُصَيَّخ لقتال هُذَيْلِ بن عِمْران ومَنْ معه ، فأغاروا عليه من ثلاثةِ أَوْجُهٍ وهم نائمون فقتلوهم ، وأفلت الهذيْلُ فى نفرٍ قليل ، وكَثُرَ فيهم القتلُ .

وقعة الثنى والزميل

وكان[٢] ربيعة بن بجير بالثِّنْى والزُّمَيل – وهما شرقىّ الرُّصَافَة – قد خرج غضبا لعقَّة ، فلمّا أصابَ خالدٌ أهلَ المصُيَّخ سار إلى الثِّنْى وَبَيَّتَهُم من ثلاثةِ أوجهٍ ، وأوقع بهم وقتلهم ، فلم يُفْلت منهم مخبر ، وسبى وغنم ، وبعث بالخبر والخمس إلى أبى بكرٍ الصِّديق رضى الله عنه ، فاشترى علىّ بن أبى طالب – كرم الله وجهه – بنت ربيعة [ابن بُجير] [٣] التَّغلَبِىّ ، فولدتْ له عُمرَ ورقَيَّة .

---

(١) ابن الأثير ٢ : ٢٧٢ .
(٢) ابن الأثير ٢ : ٢٧٣ .
(٣) من ص وابن الاثير .

ذكر وقعة الفراض

قال : ثم[١] سار خالد إلى الفِراض ، وهى تخوم الشَّام والجزيرة ، فأفطر فيها شهر رمضان لاتِّصال الغزواتِ ، وحميَت الرُّوم ،واستعانوا بمَنْ يليهم من الفُرْس فأعانوهم ، واجتمـع معهم تَغْلِب وإياد والنَّمِر ، وسارُوا إلى خالد ، وبلغُوا الفُرات ، واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانهزمت الرُّوم ومَنْ معهم ، وأمر خالد ألاَّ يُرْفَع عنهم السيْفُ ، فَقُتِلَ فى المعركة ، وفى الطلب مائة ألفٍ ، وأقام خالدٌ على الفراض عشرًا ، ثم أَذِنَ بالرُّجُوعِ إلى الحِيرة لخمس بَقِينَ من ذى القَعْدة سنة ثنتى عشرة ، وخرج من الفراضِ سرًّا ، ومعه عِدَّةٌ من أصحابه يَعْسِف[٢] البلاد ، حتى أتى مَكَّةَ فحجَّ ورجعَ ، وكانت غيبتُهُ عن الجندِ يسيرة ؛ ولم يعلمْ بحجِّه إلاَّ مَنْ أفضى إليه بذلك .

ذكر فتوح الشام

قال : وفى[٣] سنة ثلاثَ عشرَة وجَّه أبو بكر رضى الله عنه الجنودَ إلى الشأْم ، بعد منصرَفِه من مكَّة إلى المدينة ، فبعثَ عمرَو بنَ العاصِ قِبَل فلسطين ، وبعث يزيد بن أبى سفيان وأبا عُبَيْدَة بن الجراح وشُرَحبيل بن حَسَنة ، وأمرهم أن يسلُكوا على البلقاء من عَلْياء الشام . وقيل : أوَّلُ لواءٍ عَقَده أبو بكر رضى الله عنه ، عند توجيهه الجنود إلى الشام لواءُ خالد بن سعيد بن العاص ، ثم عَزَله قبل أنْ يسير ،

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٢٧٤ .
(٢) يعسف البلاد : يضرب فيها سيراً .
(٣) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٢٧٥ وما بعدها

وولَّى يزيد بن أبي سفيان ـ وكان عَزله عَنْ رأْى عمر ـ وقدم عِكْرِمةُ ابنُ أبي جَهْلٍ علَى أبي بكر فيمن كان معه من تِهامة وعُمان والبَحْرين ، فجعل أبو بكرٍ عكرمة ردءًا للنَّاس . وبلغ الرُّومَ ذلك ، فكتبوا إلى هِرَقْل ، فخرج هرقل حتى أتى حِمْصَ ، فأَعدّ لهم الجنود ، وأرسل أخاه إلى عمرو ، فخرج نحوه فى تسعين ألفًا ، فهابَهم المسلمون ، وجميعُ فرق المسلمين واحد وعشرون ألفًا سوى عكرمة ؛ فإنَّه فى ستة آلاف ، فكتبوا إلى عمرو بن العاص : ما الرأْي ؟ فكاتبهم أنَّ الرأْى الاجتماع ، وذلك أنَّ مثلَنا إذا اجتمع لا يُغْلَبُ مِنْ قلَّة . فاتَّعدوا اليرموك ليجتمعـوا به ، وكان المسلمون كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كَتَبُوا به إلى عمرو ، فجاءهم كتابُه بمثل ما رأيِ عمرو . وبلغ ذلك هِرَقْل ، فكتب إلى بَطَارقته أن اجتمعوا لهم ، وانزِلوا بالرُّوم منزلاً واسعَ المطرَّد ضيِّق المَهْرب ، ففعلوا ، ونزلوا الواقواصة ، وهى على ضَفَّة اليرموك ، وصار الوادى خنـدقًا لهم ، وأقبل المسلمون ، فنزلوا عليهم بحذائهم ، فأقاموا صفر وشَهْرَىْ ربيع لا يقدرون من الروم على شئ ، حتى إذا انسلخ شهر ربيع الأول ، كتبوا إلى أبي بكرٍ يستمدونه ، فكتب إلى خالدِ بنِ الوليد يلحق بهم ، وأن يسيرَ فى نصف العَسْكر ، ويستخْلِف على النِّصف الآخر المثنَّى ابن حارثة الشَّيبانىّ ، ففعل . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر مسير خالد بن الوليد الى الشام

وما فعل فى مسيره إلى أن التقى بجنود المسلمين بالشام

لما[1] ورد كتابُ أبى بكرٍ الصِّديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد ، يأْمُرُه بالمسير إلى الشام فى نصف العسكر سار كما أمره ، فلما انتهى إلى سُوى أغار على أهله ، وهم بهراء ، وأتاهم وهم يشربون الخمر ، ومغنيهم يقول :

أَلَا عَلِّلانى قَبْلَ جيشِ أبى بكرِ ... لَعلَّ منايانا قريبٌ وما نَدْرِى
ألا علِّلانى بالزُّجَاج وكـرِّرَا ... عَلَىَّ كُمَيْتَ اللَّونِ صافيةً تَجرِى
أَلَا علِّلَانى من سُلافةِ قهـوةٍ ... تُسلِّى هُمُومَ النفسِ من جَيِّد الخمر
أظنّ خيول المسلمين وخالـدًا ... سَتَطْرُقُكُمْ قبلَ الصَّباحِ مَعَ النَّسر
فهل لكمُ فى السَّيْر قبل قتالِهِمْ ... وقبل خروج المعصرات من الخِدْرِ[2]

فقتـل المسلمون مغنِّيَهم ، وسـال الدَّمُ فى تلك الجفْنة ، وأخذوا أموالهم ، وقتِل حُرقُوصُ بنُ النعمان البهرانىّ . ثم سار خالد حتى أتى أَرَك ، فصـالحوه ، ثم أتى تدمُر فتحصَّن أهلها ، ثم صالحوه ، ثم أتى القَرْيتيْنِ ، فقاتل أهلها وظفر بهم وغنِم ،

(١) ابن الأثير ٢ : ٢٧٩ وما بعدها .

(٢) المعصرات : جمع معصر ؛ وهى الفتاة التى دخلت فى شبابها .

وأتى حُوَارِين [١] فقاتل أَهْلَهَا فهزمهم ، وسار حتى نزل ثَنِيّة العُقَاب ، بالقرب مِنْ دِمشقِ ناشرًا رايتَه ، وهى رايةٌ سوداءُ كانت لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، تُسمَّى العُقابَ ، فسمِّيت الثَّنِيّة بها ، ثم سار فأتى مَرْجَ راهِط [٢] ، فأغار على غسّان ، فقتل ، وسَبَى ، وأرسل سريّة إلى كنيسة بالغُوطةِ ، فقتلوا الرِّجال ، وسبوا النِّساء ، ثم سار حتى وصل إلى بُصْرى ، وعليها أبو عبيدة ابنُ الجراح ، وشُرَحْبيل بن حَسَنةٍ ، ويزيدُ بن أبى سفيان ، فجمع له صاحب بُصْرَى ، فسار إليه خالد هو وأبو عُبَيْدة ، فلَقِيَهُم خالد ، فظفر بهم وهزمهم ، فَدخَلوا حصنهم وطَلَبُوا الصُّلْح ، فصالحهم على كلِّ رأْسٍ دينار فى كلّ عام ، وجَريب حنطة ، فكانت بُصْرى أوّلَ مدينة فتحت بالشَّام على يد خالد بن الوليد ، وأهل العراق . وبعثَ الأخماسَ إلى أبى بكر الصِّديق رضى الله عنه . ثم سار فطلع على المسلمين فى شهر ربيع الآخر ، وطلع باهان على الروم مُنْذِرًا لهم . واتفق قدومُ خالدٍ وقدومُ باهان ، ومع باهان القسيسون والشمامسة والرّهبان يُحَرِّضُون الرّوم على القتال ، وخَرج باهان ، فولىَ خالدٌ قتالَه ، وقاتل الأُمراءُ مَنْ بإزائِهم ، ورجع [٣] ماهان والرُّومُ إلى خَنْدَقِهم ، وقد نالَ المسلمِونَ منهم ، فلزموا خندقَهُمْ غاية شهرهم . والله سبحانه وتعالى أَعْلَمُ .

---

(١) حوارين ، من قرى حلب .
(٢) مرج راهط ، بنواحى دمشق .
(٣) ك : « وجمع باهان والروم » .

ذكر وقعة أجنادين

هذه الوقعة قد ذكرها ابن الأثير [١] رحمه الله بعد وقعة اليَرْمُوك ، واعتمد فى ذلك على أبى جعفر الطبرى رحمه الله ، فإنَّه أوردها على مِنْواله ، ويقتضى سيَاقُ التاريخ أن تكون مُقدَّمة على وقعة اليرموك ؛ وذلك أن خالدَ بن الوليد لماقدِم بُصرى وعليها أبو عُبَيْدة وشُرَحبيل ابنُ حسنة ويزيدُ بنُ أبى سفيان ، صَالَح أَهْلَهَا على الجزية على ما تقدّم ، ثم ساروا جميعا إلى فلسطين مددا لعمرو بن العاص ، وهو مقيم بالعَرَبات ، واجتمعتْ الروم بأَجْنَادين - وهى بين اليَرْموك وبيْت جِبْرين من أرض فلسطين - وعليهم تَذَارِق أخو هِرَقْل لأبويه . وقيل : كان على الرُّوم القبقلار . وسار عمرو بنُ العاص حين سمع بالمسلمين فلقيَهم ، فنزلوا بأَجْنادين ، فبعث القُبْقلار عربيًّا إلى المسلمين يأْتيه بخبرهم ، فعاد إليه ، فقال له : ما وراءَكَ ؟ فقال : باللَّيل رُهبان ، وبالنهارِ فُرسان ، ولو سرقَ ابنُ ملكهم قطعوه ، ولو زنَى رجموه ، لإقامة الحقّ فيهم ، فقال : إنْ كنتَ صدقْتَنِى فبطنُ الأَرض خَيْرٌ مِنْ لقاء هؤلاء على ظهْرِها . ثم التقَوْا يوم السبْت لليلتيْن بقيتا من جُمَادِى الأُولى سنة ثلاث عَشْرةَ ، وظهر المسلمون عليهم ، وانهزم الروم ، وقُتِـلَ القُبقلار وتَذَارق ، واسْتُشْهِدَ رجالٌ من المسلمين .

ثم جمع هرقل للمسلمين ، فالتقوْا باليَرْموك .

والله سبحانه أَعْلَمُ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم .

---

(١) ابن الأثير ٢ : ٢٨٦ - ٢٨٧ ، وانظر تاريخ الطبرى ٣ : ٤١٥-٤١٨ .

ذكر وقعة اليرموك

قال : واجتمع [١] المسلمون باليَرْمُوك ، وقَدْ تكامَلَ عددهُم ستَّة وثلاثين ألفا ، منهم جيشُ خالد تسعة آلاف ، وجيشُ عِكرمةَ ستَّة آلاف . وقيل فى عَدَدِهم غير ذلك . وكان الرُّوم فى مائتى ألفٍ وأربعين ألفَ مقاتلٍ ، منهم : ثمانون ألفَ مُقَيَّدٍ ، وأربَعُونَ ألفَ مُسَلْسَلٍ للموت ، وأربعون ألفا مَرْبوطُون بالعمائم ، وثمانون ألف راجلٍ . وذلك فى جُمَادَى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، وخَرجُوا للِّقاء ، فلما أحَسَّ المسلمون بخرُوجِهم ، قام خالدُ بنُ الوليدِ ، فحمِدَ الله تعالى ، وأثنى عليه ؛ وقال : إنَّ هذا يومٌ من أيَّام الله ، لا ينبغى فيه الفخر . أَخْلِصُوا بجهادكم ، وأَريدُوا الله بعملكم ، وهلمُّوا فلنتعاور [٢] الإمارة ، فليكُنْ عليها بعضُنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غدٍ ، حتى يتأمَّر كُلُّكُمْ ؛ ودعونى أميرَكُم اليوم . فأَمَّرُوهُ ، وهم يَرَوْنَ أنَّ الأَمرَ أَطْوَلُ مما صارُوا إليه ، وخرجتْ الرومُ فى تعبئة لم يَرَ الرَّاءون مثْلَها قَطّ ، وخرج خالدٌ فى تعبئة لم يعبِّئها العربُ قبلَ ذلك ، فخرج فى ستةٍ وثلاثين كُردُوسا [٣] إلى أربعين ، وجعل القلْبَ كَراديس ، وأقام فيه أبا عُبَيْدَةَ ، وجعل الميمنة كَراديس ، وجعل عليها عمرو بن العاص ، وفيها شُرَحْبيل بن حَسَنة ، وجعل الميسرة كَرادِيس ، وعليها يَزيدُ بنُ أبى سفيان ، وجعل على كُردوس

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٣٩٤ وما بعدها . ابن الأثير ٢ : ٢٨١ وما بعدها .
(٢) ص : « فلتتعاون » .
(٣) الكردوس : القطعة العظيمة من الخيل .

من كراديس العراق إنسانا ، وشهد اليرموكَ ألفُ رجلٍ من الصحابة ، فيهم من أهل بدرٍ نحو المائة . فقال رجلٌ لخالدٍ : ما أكْثرَ الرومَ وأقلّ المسلمين ! فقال خالد : ما أكثر المسلمينَ وأقلّ الروم ! وإنّما تكْثر الجنود بالنّصرِ ، وتَقلُّ بالخِذْلان ، لا بعدَدِ الرِّجال .

ثم أمّر خالدٌ عِكرمة والقعقاع بن عمرو – وكانا مجنَّبَتَى القلْب – فأنشبا القتال ، فنشِب والتحم الناسُ ، وتطارد الفرسانُ ؛ فإنّهم على ذلك إذ قَدِم البريدُ من المدينة ، فسأله النّاس عن الخبر ، فأخبرهم بسلامةٍ وأمدادٍ تقبِلُ إليْهم ؛ وإنّما كان قد جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة ، فأبلغوه خالدا ، فأخْبَره بوفاةِ أبي بكر سرًّا ، وأخبره بالّذى أخبر به الجُنْد ، فشكره وأخذ الكتابَ ، فجعله فى كنانَتِهِ . وخَرَجَ جَرجَة (١) من عَسْكَرِ الرّوم ، وكان أحد عظمائهم ، فوقف بين الصّفّين ليخرج إلى خالد ، فخرج إليه ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فواقَفَه بين الصفّين حتى اختلفتْ أعناق دابّتيْهما ، وقد أمِنَ كُلٌّ منهما صاحِبَة .

فقال جَرَجَةُ : ياخالد ، اصدقْنِى ولا تكذِبْنى ، فإن الحُرَّ لا يكذِب ، ولا تخادعْنى ، فإن الكريمَ لا يخَادع المسْتَرْسِلَ ، قد أنزل الله على نبيكم سيفا ، فأعْطَاه لك ، فلا تَسلّه على قومٍ إلاّ هَزَمَهمْ الله ! قال : لا ، قال : ففيم سُمِّيتَ سْيفَ الله ؟ قال : إنّ اللهَ بعثَ فينا نبيَّه صلّى الله عليه وسلّم ، فدعانا ، فنفرْنا منه ، ثم إن بَعْضَنا صدّقه وبعضَنا باعَدَه وكَذّبه ، فكنت مِمّن كذّبَه وقاتلَهُ

(١) ص : « جرحة » .

ثم هدانى الله فتابَعْتُه ؛ فقال : أَنْتَ سيفٌ مِنْ سيوفِ الله سلَّه الله على المشركين ، ودعَا لى بالنصر ، فسُمِّيتُ سيفَ اللهِ بذلك ، فأنا أَشَدُّ المسلمين على الكافرين المشركين ؛ فقال : صَدَقْتَ ، فأَخْبرنى ، إلام تدعونى ؟ قال خالد : إلى الإسلام أو الجزْيَة ، أو الحَرْب . قال فما منزلةُ الذى يُجيبُكُمْ ويَدْخُلُ فيكم ؟ قال : منزلتنا واحدةٌ ، قال : فَهَلْ له فى الأَجْرِ والذُّخْرِ مثلكُمْ ؟ قال : نعم ، وأَفْضلُ ؛ لأَنَّنَا اتَّبَعْنَا نبيّنا وهو حَىٌّ يُخْبِرُنا بالغَيْب ، ونَرى منه العجائبَ ، وأنتم لم ترَوْا مِثْلَنَا ، ولم تَسْمَعُوا ما سَمِعْنَا ، فَمَن دخل بنيّةٍ وصِدْقٍ ، كان أَفْضلَ منَّا . فقلَّب جَرَجة تُرْسَهُ ، ومال مع خالد يُعَلِّمُهُ الإسلام ، وأَسْلم ، فمال به خالدٌ إلى فُسْطَاطِه ، فشنّ[1] عليه قِرْبةً من الماء وصَلَّى به ركْعَتَين .

وحملتْ الروم مع انقلابه إلى خالدٍ ، وهم يَرَوْنَ أنّها مِنْه حيلةٌ ، فأَزالوا المسلمينَ عَنْ مواقِفِهم ، فقال عِكْرِمةُ بن أبى جهلٍ : قاتلتُ مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى كُلّ مَوْطنٍ ، وأَفرُّ منكم ! ثم نادى : مَنْ يُبَايع على الموت ؟ فبايعه الحارثُ بنُ هشامٍ ، وضرارُ ابنُ الأَزْوَر فى أربعمائةٍ مِنْ وجُوه المُسْلِمِين وفُرْسَانهم ، فقاتَلُوا أمام فُسْطَاط خالدٍ حتى أُثْبِتوا[2] جميعا جراحا ، فمنهم مَنْ بَرِئَ ، ومنهم مَنْ اسْتُشْهِدَ .

وحمل خالدٌ ومعه جَرَجَة ـ والرُّومَ خلال المسلمين ـ فنادى الناس

(١) شن : صب .
(٢) أثبتو : جرحوا وبهم رمق .

فثابوا ، وتراجعتْ الرُّوم إلى مواقعهم ، وزحف خالدٌ بالمسلمين إليهم حتى تصافحوا بالسيوف ، وضرب فيهم خالدٌ وجرجَةُ من لدُن ارتفاع النَّهار إلى جُنوح الشمسِ للغرُوبِ ، ثم أُصيبَ جَرَجَةُ ، ولم يُصَلِّ صلاةً سجد فيها إلاَّ الركعتين مع خالدٍ ، وصلَّى الناس الظُّهر والعَصْر إيماءً ، وتضعْضَعَ الرُّومُ ، ونهَد خالدٌ بالقلْبِ حتى كان بين خيْلهم ورجْلهم ، فانهزم الفُرْسانُ ، وخرجَتْ خيْلُهم تشتدّ فى الصحراء .

ولما رأى المسلمون خَيْل الروم أَفْرَجُوا لها ، فذهبَتْ ، فتفرّقت فى البلاد ، وأقبل خالد ومَنْ معه على الرَّجْل ، ففَضُّوهم ؛ فكأنما هُدِمَ بهم حائطٌ ، واقتحموا فى خَنْدَقِهم ، فاقتحمه عليهم ، فعمَدوا إلى الواقوصة ، فهوى فيها المقترنون وغيرهم ، فتهاوَى فيها عِشْرون ومائةُ ألف ، ثمانون ألف مقترن ، وأربعون ألف مُطْلق ، سوى مَنْ قُتل فى المعركة من الفرسان والرجالِ ، وقاتلَ النساءُ يومئذٍ ، وكانت هزيمة الرُّوم مع اللَّيل . وصَعِدَ المسلمون العَقَبة وأصابوا ما فى عسكر الرُّوم ، قتل الله صناديد الرُّوم ورءوسهم وأخا هرقْل ؛ وانتهَتْ الهزيمةُ إلى هِرَقْلٍ وهو دون مدينة حمْص ـ أوبحمص ـ فنادى بالرَّحيل عنها ، وجعلها بينه وبين المسلمين ، وأمَّر عليها أميرًا كما أمَّر على دِمشق .

هذا ما كان من واقعةِ اليرموك على سبيل الاخْتصَارِ

رُوِي عن عبدِ الله بن الزُّبَير ، قال : كنتُ مع أبى باليَرْمُوك وأنا صبىٌّ لا أُقاتل ؛ فلمّا اقتتل النَّاسُ نظرتُ إلى أُنَاسٍ على تلٍّ لا يقاتلون ، فركبتُ فذهبتُ إليهم ؛ فإذَا أبو سُفْيَانَ بن حربٍ ومشيخةٌ منْ قريش

مِنْ مهاجِرَةِ الفَتْح ، فَرَأَونى حَدَثًا فلمْ يتقُونى . قال : فَجعلُوا إذا مال المسلمون ، وركبهم الرُّوم يقـولون : إيه بنى الأَصفر ! وإذا مالت الرّوم ،وركبهم المسلمون قالوا : وَيْحَ بنى الأَصفر ! فلماهُزِمَتْ الرّوم أخبرتُ أبى بذلك ، فضحك وقال . قاتلهم الله ! أَبوْا إلا ضغنًا !النحْنُ خيرٌلهم من الرّوم .

وقد حكى أبو جعفرٍ الطَّبرىّ رحمه الله ، أَنَّ أَبَا سُفْيانَ يومَ اليرموك كان يسيرُ فيقف على الكرَاديس فيقول : الله ، الله ! إنَّكم ذادة العربِ وأَنْصَارُ الإسلام ، وإنَّهم ذادة الرّوم وأنصارُ الشِّركِ ! اللهم إنّ هذا يومٌ من أيَّامك ، اللَّهُم أَنْزِلْ نَصْركَ على عبادِك . والله أَعْلَمُ .

* * *

هذا ما وقع فى خلافة أَبى بكرٍ الصِّديق رضى الله عنه من الغزواتِ والحروب ، والفتوحاتِ ، فلنذكُرْ ماهو خلاف ذلِكَ من الحوادث على السنين ، إن شاء الله تعالى ، والحمد لله وحده .

ذكر ما وقع فى خلافة أبى بكر غير ما ذكرناه

سنة إحدى عشرة

فيها كانت وفاةُ فاطمة بنتِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ورضى عنها ، وذلك فى ليلة الثلاثاء لثلاثٍ خلَوْن من شهر رمضان ، وهى يومئذٍ ابنةُ تسع وعشرين سنة ، أو نحوها . وقيل : تُوُفِّيتْ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهرٍ ؛ قاله أبو جعفر (١) .

ثم قال : والثَّبْتُ عندنا أنها تُوفِّيتْ بعد ستةِ أشهرٍ ، وغسَّلها علىّ بن أبى طالبٍ ، وأسماء بنت عُمَيْسٍ ، وصلَّى عليها العباسُ ابنُ عبد المطلبِ ، ودخل قبرها العباسُ وعلىّ والفضلُ بنُ عباسٍ ؛ قاله الواقِدىُّ .

قال أبو عُمَر : فاطِمةُ(٢) أوَّلُ مَنْ غُطِّىَ نَعْشُها مِنَ النِّساء فى الإسلام ؛ وذلك أنَّها قالت لأسماء بنت عُمَيْس : يا أسماءُ ، إنِّى قد استقبحتُ ما يُصْنَعُ بالنساء ، إنه يُطْرَحُ على المرأةِ الثَّوْبُ ، فيصفها . فقالت أسماء يا بنْتَ رسولِ الله ، ألا أُرِيكِ شيئًا رأيْتُهُ بأرضِ الحبشة ؟ فدَعَتْ بجرائد رطْبَةٍ فحنَتْها ، ثم طرحَتْ عليها ثَوْبًا . فقالت فاطمةُ : ما أحْسَنَ هذا وأجمله ! تُعرفُ به المرأةُ من الرجل ، فإذا أنا مِتُّ فاغسلينى أنت وعلىّ ، ولا تُدْخِلى علىّ أحدًا ، فلمَّا تُوُفيتْ جاءتْ عائشة تَدْخُل ؛ فقالت أسماء : لا تَدْخُلِى ، فشكتْ إلى أبى بكر . فقالت : إنَّ هذه الخثعميّة تحول بيننا وبين بنت رسول الله ، وقد جَعَلَتْ لها مِثْلَ

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٠ .
(٢) الاستيعاب ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ .

هوْدج العروس ؛ فجاء أبو بكرٍ ، فوقف على الباب . فقال : ياأسماء ، ما حملك على أن [منعتِ][1] أزواجَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَدْخُلْنَ على بنتِ رسول الله ، وجعلتِ لها مثل هودجِ العروس ؟ . قالت : أمرتْنِي ألَّا يدخُلَ عليها أحَدٌ ، وأريْتُها هذا الذى صنعتُ وهى حيَّة ، فأمرتْنِى أن أصنَعَ ذلك لها . قال أبو بكر : فاصنعى ما أمرتك ، ثم انصرف[2] .

وفيها انصرف مُعاذُ بنُ جَبَلٍ عن اليمن .

واستقضى أبو بكر عمرَ بن الخطاب رضى الله عنهم .

وفيها أمَّر أبو بكر رضى الله عنه على الموسم عتَّابَ بنَ أُسَيْد ؛ وقيل : بل حجّ بالنَّاس عَبْدُ الرَّحْمَن بن عوف عن تأْميرِ أبى بكر إيّاه .

سنة اثنتى عشرة

فيها مات أبو مَرْثَد الغَنَوىّ ، واسمه كنَّاز بن حِصْن ـ ويقال ابن حصين ـ حليفُ حمزة بن عبد المطلب ؛ صحب رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم هو وابنه مَرْثَد ، وابنه أُنَيْس بن مَرْثَد ؛ وشهد بَدْرًا هو وابنه مَرْثَد ، وشهد هو المشاهد كلَّها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات وهو ابنُ ستٍّ وستين سنة .

وفيها ، فى ذِى الحِجَّةِ مات أبو العاص بنُ الربيع ، واختُلِفَ فى اسمه ، فقيل : لَقيط ، وقيل مُهشم ، وقيل : هُشيم ، والأكثر لَقيط بن الرَّبيع بن عبد العُزَّى بن عبد مناف بن قُصىّ القُرشِىّ

(١) من الاستيعاب ١٨٩٨ .

(٢) بعدها فى الاستيعاب : « فغسلتها » .

العبشّمىّ ويسمى جرو [١] البطحاءِ ، وهو صِهْرُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم على ابنتِه زينب ، وأُمّه هالَة بنتُ خويْلد ، أُخْتُ خديجةَ أُمّ المؤمنين ، وأَوْصى إلى الزُّبَير بن العَوّام ، وتزوّج علىّ ابنته .

وحجّ بالنّاس فى هذه السّنة أبو بكر الصِّديق رضى الله عنه ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفّان رضى الله عنه . وقيل : بَلْ حَجَّ عمرُ بنُ الخطّابِ رضى الله تعالى عنه . والله تعالى أعلم بالصّوابِ .

ذكر وفاة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

ومدة خلافته

قد اختلف فى وقت وفاتِه رضى الله عنه ؛ فقال ابنُ اسحاق : فى يَوْمِ الجمعة لتسعٍ [٢] من جُمَادَى الآخرة سنة ثلاث عشرة .

وقال غيرُه : إنّه مات عشىّ يوم الاثنين . وقيل : ليلة الثلاثاء .

وقيل : عشىّ يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة .

قال ابن عبد البر : هذا قول أكثرهم [٣] .

وقيل : مكثَ فى خِلافته سنتين وثلاثة أشهُرٍ وسبع ليالٍ .

وقال ابن اسحاق : سنتين وثلاثة أشهرٍ إلا خمسَ ليالٍ .

وقيل : سنتين وثلاثة أشهر واثنتى عشرة ليلة .

وقال غيره : وعشرة أيام .

وقال آخرون : وعشرين يومًا .

واختُلف أيضا فى السّبب الذى مات منه ، فذكر الواقِدِىُّ : أنّه اغتسل فى يوم بارد ، فَحُمَّ . ومرض خمسة عشر يومًا .

---

(١) ك : « قرم » . (٢) ص : « لسبع ليال بقين » .
(٣) الاستيعاب ٩٧٧ .

وقال الزبير بنُ بكَّار : كان به طَرَفٌ من السّل . ورُوِيَ عن سلاَّم ابن [أبي][1] مُطيع : أنه سُمَّ ، وأن اليهودَ سمَّته فى حَرِيرة ، وهى الحسو ، فأكل هو والحارثُ بنُ كَلَدَة ، فكَفَّ الحارثُ ، وقال لأبى بكر : أكَلْنا طعامًا مسمُومًا ، سمَّ سنةٍ ، فمات بعد سنة .

وقيل : أصلُ مرضه الغمُّ على رسول الله صلَّى الله عليه وسلم .

وانتهت سنُّه رضى الله عنه عند وفاته إلى سنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : ثلاثًا وستين سنة .

قال أبو عمر بن عبد البر : لا يختلفون فى أن سنَّه انتهتْ إلى ذلك ، إلاَّ مالا يصح[2] .

وقد كان آخر ما تكلَّم به : توفَّنى مسلمًا ، وألحِقْنى بالصالحين .

وغسَّلته زوجته أسماء بنت عُمَيْس بوصيَّة منه وابنه عبد الرحمن ، وأوصى أن يكفَّنَ فى ثوبيه ، ويشترى معهما ثوبٌ ثالث ، وقال : الحىّ أحْوَجُ إلى الجديد من الميِّت ، إنَّما هو للمُهْلة[3] والصَّديد .

وصَلَّى عليه عمرُ بن الخطاب فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكبَّر أربعًا ، وحُملَ على السَّرير الذى حُملَ عليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم ، وهو سرير عائشة رضى الله عنها ، وكان من خشبتى ساجٍ منسوجًا باللِّيف فى ميراث عائشة ، بأربعة آلاف درهم اشتراه مولى لمعاوية ، وجعله للمسلمين . ودخل قبره ابنُه عبدُ الرحمن وعمر بن الخطاب وعثمان وطلحة ، وجُعِلَ رأسُه عند كَتِفَيِ النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم ، وألصقوا لَحْده بلَحْدِهِ ، ودفن رضى لله عنه ليلاً .

---

(١) تكملة من ص . (٢) الاستيعاب ٩٧٧ . (٣) المهلة : القيح .

ذكر نبذة من اخباره واحواله ومناقبه رضى الله عنه

غير ما تقدّم

قد ذكرنا فيما تقدّم من كتابنا هذا فى هذا السِّفْر وما قبله نبذةً من أخباره ، ولمعة من آثاره ، وطَرَفًا من مآثره السنيّةِ ، وجملةً من فضائِله التى هى بجزيل الخيرات مليّة ، وأحببنا أن نُورِدَ فى هذا الموضع نبذةً أُخرى غير ما قدَّمنا ، ونختم هذا الفصلَ بشىء من مناقِبِهِ كما بدأْنَا ، ولا نشترط الاستيعاب لمناقبه ومآثرِه لتوفُّرِها ، ولا الحصر لفضائله الجزيلة لتعدُّدِها وتكرُّرها ، بل نورد من كل نوع منها طرفًا يحتوى على خِصَال منيعة ، وأخلاقٍ شريفةٍ ، ويتحقَّق سامعه أنَّه لو أنفق مِلءَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّه ولا نَصِيْفَه .

كان رضى الله تعالى عنه قد تقلَّل من الدنيا جُهد طاقته ، واقتصر منها على بعض ما يَسُدُّ به بعض خلَّتِه وفاقَتِهِ ، وتجنَّب أموال المسلمين جهْدَه ، وأنفق فى سبيل الله وعلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ما كان عنده ؛ نطقَ بفضله القرآن ، وجاهد فى دين الله فأَذَلّ الله له وبه أَهْلَ الشّرك والطُّغيان ، وشمَّر عن السَّاعد فى قتالِ أهلِ الرِّدّة حين استذلَّهم الشيطان ، وأقدم على حربهم بنفسه وجيوشه حين اشرأَبَّ النفـاق ولمعت بوارقُه ، وناضلهم بكتُبِهِ وكتائِبه حين ظهر الكفر ونُشِرت خوافقُه ، فأَحْمد الله تعالى به ما كان قد اضطرم من نيران الرِّدة ، وأفاء تلك القبائل التى كانت لحرب الإسلام مستعدة ؛ إلاَّ من استمرّ منهم على كفرِه ، وما نزع عن شرِّه ومكرِه ، وأبى إلاَّ جحود هذا الدّين

وقتالِ شعبِه ، ونَفَر عن الرُّجوع والانضمام إلى حزبه ؛ فإن الله تعالى قتله شرّ قِتْلة ، وأباح للمسلمين ماله وأهله ونسلَه .

رُوِيَ أنَّه لما ارتدت العرب ، خرج أبو بكر رضى الله عنه شاهرًا سيفه إلى ذِي القَصَّة ، فجاءه عليُّ بنُ أبي طالب رضى الله عنه ، فأخذ بزمام راحلته ، وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ أقول لك كما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد : شِمْ سيفك (١) لا تَفْجَعْنَا بنفسك ، فوالله لئِن أُصِبْنَا بك لا يكون للإسلام نظام ، وكان له رضى الله عنه بيت مال بالسُّنْح ، وكان يسكنه إلى أن انتقل إلى المدينة ؛ فقيل له : ألا تجعل عليه مَنْ يحرسُه ؟ قال : لا ، فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين ، فلا يبقى فيه شيء ، فلمّا انتقل إلى المدينة جعل بيت المال معه فى داره .

ولما تُوفِّيَ جمع عمر الأُمناء ، وفتح بيت المالِ فلم يجدْ فيه شيئًا غيْرَ دينارٍ سقط من غِرارةٍ ، فترحَّمُوا عليه .

وفى خلافته رضى الله عنه : انفتح معدِن بنى سُلَيم ، فكان يُسوِّى فى قِسمتهِ بين السَّابقين الأوَّلين والمتأخِّرين فى الإسلام ، وبين الحرِّ والعبد ، والذَّكر والأُنثى . فقيل له : لِيقدِّم أَهْلَ السَّبْق على قَدْر منازلهم . فقال : إنَّما أسلموا لِلهِ ، ووجب أجرُهم عليه ، يوفِّيهم ذلك فى الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغٌ .

وكان يشترِي الأَكْسِيةَ ويُفَرِّقها فى الأَرامل فى الشتاء .

قال أبو صالح الغِفَارِيّ : كان عمر رضى الله عنه يتعهّد امرأةً

(١) شم : اغمد .

عمياء فى المدينة بالليل ، فيقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها وَجَدَ غَيْره قد سَبقه إليها ، ففعل ما أرادت ، فرصَدَه عمر ، فإذا هو أبو بكرٍ رضى الله عنه ، كان يأتيها ويقضى أشغالها سرًّا وهو خليفة ؛ فقال : أنْتَ هو لعَمْرِى !

وكان منزل أبى بكر رضى الله عنه بالسُّنْح[1] عند زوجته حبيبة بنت خارجة ، فأقام هناك ستة أشهرٍ بعدما بويع ، وكان يَغْدو على رجليْه إلى المدينة ، وربمّا ركب فرسَه ، فيُصَلِّى بالنَّاس ؛ فإذا صَلَّى العشاء رجع إلى السُّنْح . وكان إذا غاب صَلَّى بالنَّاس عمر ، وكان يَغْدو كُلَّ يوم إلى السُّوقِ فيبيع ويبتاع ، وكانت له قطعةُ غنمٍ تروح عليه ، وربّما خرج هو بنفسِه فيها ، وربّما رُعِيتْ له ، وكان يحلُب للحىِّ أغنامَهم ؛ فلما بُويعَ بالخلافة قالت جَارِيةٌ منهم : الآن لا يَحْلُب لنا مَنَائِحَ[2] دارِنا ، فسمعها ، فقال : بل لعمرِى لأَحلبنّها لكم ، وإنى لأرجو ألا يغيِّرَنى ما دخلتُ فِيه عن خلُق كنتُ عليه ، فكان يحلُبُ لهم ، ثمَّ تحوَّل إلى المدينة بعد ستة أشهر من خلافته . وقال : لا تصلح أُمور النَّاس مع التجارة ، وما يصلح إلا التَّفرغُ لهم ؛ والنظر فى شأْنهم ؛ فترك التجارة ؛ وأنفق من مال المسلمين ؛ ما يصلِحُه ويصلح عيالَه يومًا بيوم ؛ ويحجُّ ويعتمر ؛ فكان الذى فرضوا له فى كلّ سنة ستة آلاف درهم . فلما حضرته الوفاةُ قال : رُدُّوا ما عندنا من مال المسلمين ، فإنِّى لا أصيبُ من هذا المال شيئًا ، وإنَّ أرضِى الذى بكذا وكذا للمسلمين

(١) السنح : إحدى محال المدينة .

(٢) المنيحة : الناقة تدر اللبن ؛ وجمعها منائح .

بما أصبتُ من أموالهم ، فدفع ذلك إلى عمر . وقيل : إنَّه قال : انظروا كم أنْفَقْت منذ وُلِّيتُ من بيت المال ؟ فاقضوه عنِّى ، فوجدوا مبْلَغَهُ ثمانية آلاف . وقيل : إنَّه قال لعائشة رضى الله عنها : أما إنَّا منذ وُلِّينا أمر المسلمين لم نأْكلْ لهم دينارا ولا درهما ، ولكنَّا قد أكلنا من جَرِيشِ طعامهم ، ولبسنا من خشِن ثيابهم ، وليس عندنا من فىء المسلمين إلاَّ هذا العَبْد ، وهذا البعير ، وهذه القطيفة ، فإذا مِتُّ فابعثى بالجميع إلى عمر ؛ فلما مات بعَثَتْه إليه ، فلما رآه بكى حتى سالت دموعُه على الأرض ؛ وجعل يقول : رحم الله أبا بكر! لقد أتعب مَنْ بعده ، يكرِّر ذلك ، وأمر برفعه . فقال له عبد الرحمن ابن عوف : سبحان الله ! تسْلُب عيال أبِي بكر عَبْدًا ، وناضِحًا (١) ، وشِقَّ قطيفةٍ ثمنها خمسة دراهم ! فلو أمْرتَ بردِّها عليهم . فقال : لا ، والذِى بعث محمدا لا يكون هذا فى ولايتى ، ولا خرج أبو بكر منه وأتقلَّدُه أنا .

وقد قيل : إنَّه رضى الله عنه ، كان يأْخُذُ من بيت المال فى كلِّ يوم ثلاثةَ دراهم أجرة ، وإنه قال لعائشة : انظرى يا بُنيَّة ما زاد فى مالِ أبيك منذ ولىَ هذا الأمر فردِّيه على المسلمين . فنظرت فإذا بجُرْدِ (٢) قطيفةٍ لا تساوِى خمسة دراهم ، ومَحَشَّة (٣) ، فجاء الرَّسُول إلى عمر بذلك والنَّاسُ حولَه ، فبكى عمر ، وبكى النَّاس ؛ وقال : رَحِمَكَ اللهُ أبا بكرٍ ! لقد كلَّفت مَنْ بعدك تعبًا طويلا ! فقال الناس : اردُدْه يا أمير المؤمنين إلى أهله .

(١) الناضح : البعير الذى يستقى عليه الماء .
(٢) جرد قطيفة ، قطيفة بالية .
(٣) المحشة : حديدة تحرك بها النار .

قال : كلاَّ ، لا يُخْرِجه من عنقه فى حياته ، وأَرُدُّه إلى عنقه بعد وفاته . ثم أَمَر بذلك ، فحُمِلَ إلى بيت المال .

وحكى أنّ زوجته اشتهت حُلْوًا ، فقال : ليس لنا ما نشترى به . فقالت : أنا أستَفْضِل من نفقَتِنَا فى عدَّة أيام ما نشترى به ؛ قال : افعلى ، ففعلَتْ ذلك ؛ فاجتمع لها فى أيام كثيرة شىءٌ يسير ، فلمَّا عرفته ذلك أخَذه ، فردَّه فى بيت المال . وقال : هذا يَفْضُل عن قوتِنا ، وأسقط من نفقته بمقدار ما استفْضلَتْ فى كُلِّ يومٍ ، وغرامة لبيت المال فى المدة الماضية من مِلْكٍ كان له .

قيل : ولمّا حَضَرتْه الوفاة أتته عائشة رضى الله عنها وهو يعالج الموت ، فتمثَّلت :

لَعَمْرُكِ ما يغنِي الثَّراء عن الْفَتَى إذا حَشْرجَتْ يَومًا وضاق بها الصَّدْرُ[1]

فنظر إليها كالغضبان ، ثم قال : ليس كذلك ، ولكن قولى : ﴿ وجَاءتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[2] . إنِّى قد نحلتُكِ حائط كذا ، وفى نفسى منه ! فردِّيه على الميراث ؛ وقال : إنَّما هو أخواك وأختاك ! قالت : مَن الثانية ؟ إنَّما هى أسماء . قال : ذات بطْن بنت خارجه - يعنى زوجته - وكانت حاملا ، فولدت أمَّ كُلْثوم بعد موته .

وهو رضى الله عنه أوّلُ والٍ فَرَضَتْ له رعيَّتُه نفقتَه ، وأوَّلُ خليفة وُلِّىَ وأبوه حَىّ ، وأوَّل مَنْ جَمَع القرآن بين اللَّوحَيْن بمشورة من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسماه مُصْحَفًا ، وهو أوّلُ من سُمِّىَ خليفة ؛ رضوان الله عليه .

---

(١) البيت لحاتم الطائى ، ديوانه ١٨ . (٢) سورة ق ١٩ .

ذكر أولاد أبى بكر وأزواجه

تزوّج رضى الله عنه فى الجاهلية قَتْلة ـ ويقال : قُتَيْلَة ـ بنت عبد العزّى بن عبد [بن] (١) أسعد بن مُضر بن مالك بن حِسْل ابن عامر بن لؤىّ ، فولدت له عبد الله وأسماء .

وتزوّج أيضًا فى الجاهليةَ أمَّ رُومان ـ بفتح الراء وضمها ـ واسْمُهَا زينب بنت عامر بن عُوَيْمر بن عبد شمس بن عَتَّاب ابن أُذَيْنَه بن سُبَيْع بن دهمان بن الحارث بن غَنَمْ بن مالك بن كنانة . أسلمت وهاجرت ؛ وكانت قَبْلَ أبِى بكر تحت عبدِ الله بن الحارث ابن سَخْبَرة بن جرثومة الخير بن عادية بن مرّة الأَزْدِىّ ، وكان قَدِمَ بها مكّة ، فحالف أبا بكر قبل الإسلام ، ثم تُوُفِّىَ عن أمِّ رُومان ، فولدت له الطُّفيل ، ثم خلف عليها أبو بكر ، فولدت له عبدَ الرحمن وعائشة ؛ فالطُّفيلُ أخوهما لأُمِّهما ، توفيت أم رومان فى ذِى الحجة سنة أربعٍ ، أو سنة خمسٍ ، فنزل رسول الله صلَّى لله علية وسلم فى قبرها ، واستغفر لها . وقال : اللَّهُمَّ لم يَخْفَ عليك ما لقيتْ أمُّ رُومان فيك وفى رسولك .

ورَوِىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنَّه قال : « من سَرَّه أنْ ينظر إلى امرأةٍ من الحُورِ العين فلينظرْ إلى أمّ رُومان » .

وتزوَّج رضى الله عنه فى الإسلام أسماء بنت عُميس الخثعميّة ؛ وهى أختُ ميمونَة زَوْج النبىّ صلى الله عليه وسلَّم لأُمِّها ، وكانت

(١) من ص ، وفى ابن الأثير : قتيلة بنت عبد العزى بن عامر بن لؤى .

عند جعفر بن أبي طالب ؛ وهاجرتْ معه إلى أرض الحبشة ، فولدت له هناك محمد بن أبي بكر ، ثم تزوّجها بعده عليّ بن أبي طالب ، فولدت له يحيى بنَ عليّ . وزعم ابنُ الكلبي أن عون بن عليّ ، أُمُّه أسماء ، ولم يقله غيره .

وقيل : كانت أسماء بنت عُمَيْس تحت حمزة بن عبد المطلب ، فولدت له ابنةً تُسمَّى أمةَ الله . وقيل : أُمَامَة ، ثم خَلَف عليها بَعْدَه شدّاد بنُ الهادِ الليْثى ؛ ثم العتوارىّ ، حليف بنى هاشم ، فولدت له عبدَ اللهِ وعبد الرحمن بنَ شدَّاد ، ثم خلف عليها بعدَ شدّاد جعفر بن أبي طالب . وقيل : التى كانت تحت حمزة وشدّاد سلَمْى بنت عُمَيْس أختها أسماء ، والله تعالى أعْلَمُ بالصواب .

وتزوّج رضى الله عنه فى الإسلام أيضًا أمّ حبيبة بنتَ خارجة ابن زيد بن أبي زهير الأنصارية ، من بنى الحارث بن الخزرج ، فولدت له بعد وفاته أمّ كلثوم .

* * *

ولنصل هذا الفصلَ بذكر شيءٍ من أولاد أبي بكر رضى الله عنهم .

وأمّا عبدُ اللهِ بن أبي بكر رضى الله عنهما ، فكان قديمَ الإسلام إلاَّ أنَّه لم يُسْمَع له بمشْهد إلاَّ شهوده الفتح وحُنينا والطائف . ورُمِىَ بالطائف بسهم ؛ قيل : رماه به أبو مِحجَن ، فاندمل جُرْحُه ؛ ثم انتقض عليه ؛ فمات فى شَوّال سنة إحدى عشرة .

وكان قد ابتاع الحُلَّة التى أرادوا دَفْنَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم فيها بسبعة دنانير ليكفَّن فيها ، فلما حضرتْه الوفاة ، قال : لا تكفِّنُونى فيها ، فلو كان فيها خير كُفِّن رسولُ الله

صلَّى اللهُ عليه وسلم فيها ، ودُفِنَ بعد الظهر ، وصلَّى عليه أبوه ، ونزل قبره عمرُ بن الخطاب وطلحة وعبد الرحمن أخوه .

وكان عبدُ الله رضى الله عنه زَوْجَ عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نُفَيل العدويَّة ، أُخت سعيد بن زيد ، وكانت من المهاجرات ، وكانت حسناء جميلة بارعة ، فأُولع بها ، وشَغَلَتْهُ عن مغازيه ، فأمره أبوه بطلاقها لذلك ؛ فقال : هذه الأبيات :

يقولون طلقها وخَيِّم مكانها ... مقيمًا ، تمنِّى النَّفس أحلامُ نائِمِ
وإنَّ فراق أهلَ بيْتٍ جميعُهمْ ... على كَبْرَةٍ منِّى لإحدَى العظائِم
أرانِى وأهلِى كالعَجول تروَّحتْ ... إلى بَوِّها قبل العِشارِ الرَّوائِم

فعزم عليه أبوه حتى طلقها ، ثم تبعتْها نفسه ، فهجم عليه أبو بكر رضى الله عنه وهو يقول :

أعاتكَ لا أنساكِ ماذَرّ شارِقٌ ... وما ناح قُمرىٌّ الحمام المطوَّقُ
أعاتِك قلبى كلَّ يومٍ وليلةٍ ... إليكِ بما تُخْفى النفوسُ معلَّقُ
فلم أرَ مثلى طلَّق اليومَ مِثلهَا ... ولا مثلَها فى غير جُرْم تُطَلَّقُ
لها خُلُقٌ جزْل ورأْيٌ ومنصبٌ ... وخَلْقٌ سَوىٌّ فى الحياء ومصدَق

فرقَّ له أبوه ، وأمره بمراجعتهـا فارتجعها ؛ وقال هذه الأبيات :

أعاتِك قد طُلِّقْتِ فى غير ريبةٍ ... ورُوجعتِ للأمر الذى هو كائنُ
كذلك أمرُ الله غادٍ ورائـحٌ ... على النَّاسِ فيه أُلفةٌ وتباينُ
وما زال قلبى للتفرّق طائـرًا ... وقلبى لما قد قَرَّب الله ساكن

فإنَّكِ ممَّن زيّن الله وجْهَـهُ وَليس لوجهٍ زانه الله شائن

فلما مات عبد الله صارت عاتكة ترثيه بهذه الأبيات :

رُزئتُ بخير النَّاس بعد نبيِّهمْ وبعد أبي بكر وما كان قَصَّرا
فآليتُ لا تنفكُّ عيني حَزِينةً عليك ، ولاينفك جِلْدِيَ أغْبرَا
فللَّهِ عينًا من رأى مثلَه فتًى أكَرَّ وأحْمِيَ فى الهياج وأصْبَرا
إذا شرعت فيه الأَسِنَّةُ خاضها إلى الموت حتى يترك الرُّمْحَ أحْمرَا

ثم تزوّجتْ بعده زيدَ بنَ الخطاب ، على اختلاف فى ذلك ؛ فقتل عنها يوم اليمامة شهيدًا ، فتزوّجها عمرُ بنَ الخطاب فى سنة اثنتى عشرة ، فأولم عليها ، ودعا عمرُ بنُ الخطاب أصحابَ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ، وفيهم عليُّ بن أبي طالب ؛ فقال له : دعنى أكلِّم عاتكة : قال : نعم ، فأخذ بجانب الحذر . ثم قال : ياعُديَّة نفسها ، أين قولك :

فآليت لا تنفكّ عيني حَزينـةً عليك ولا ينفك جِلْدِيَ أغبرا

فبكت . فقال عمر : ما دعاكَ إلى هذا يا أبا الحسن ؟ ! كلّ النساء يفعلْن هذا ، ثم قُتِلَ عنها عمر ، فقالت تبكيه :

عَيْن جُودِى بعَبْرةٍ ونَحيبِ لا تَمَلِّى على الجوادِ النَّجِيبِ
فجعتْنى المنونُ بالفارس المُعْـــلِم يوم الهِياج والتَّثويبِ
قل لأهل الضَّرّاء والبؤس موتوا قد سَقَتْهُ المنونُ كأْسَ شَعُوبِ

وقالت أيضًا ترثيه بهذه الأبيات :

منِعَ الرقادُ فعاد عَيْنَيَ عائـــدٌ مما تضمَّن قلبيَ المعمـــودُ

يا ليلةً حُبِسَتْ عليَّ نجومُهـــا فسهرتُها والشَّامِتُون رُقُودُ
قد كان يُسْهِرنى حِذَارِكَ مرّةً فاليوم حُـقَّ لعينىَ التَّسْهيـدُ
أبكى أمير المؤمنين ودونَـه للزائرين صفائحٌ وصَعِيد

ثم تزوَّجها الزُّبير بن العوّام فقتِل عنها ؛ فقالت ترثيه بهذه الأبيات :

غدر ابن جُرْموزٍ بفارس بُهمّةٍ يوم اللِّقاء وكانَ غير مُعَرَّد
يا عمرو لو نبّهتَه لوجدتَـــــة لاطائشًا رعشَ الجنَانِ ولااليَدِ
كم غَمرةٍ قد خاضها لم يَثْنهِ عنها طِرادُك يا بن فقع القَرْدَدِ
ثَكِلَتْكَ أمُّك إن ظفرت بمثله فبما مضى ممن يَرُوحُ ويَغْتَدِى
واللهِ ربِّكَ إنْ قتلت لمسلمًـا حلَّتْ عليكَ عُقوبةُ المتعمِّد

ثم خطبها علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بعد انقضاء عِدّتها ، فأرسلت إليه . إنِّى لأضنُّ بك يا بنَ عَمّ رسول اللهِ عن القتل !

وإنما ذكرنا ما ذكرنا من خبر عاتكة فى هذا الموضع على سبيل الاستطراد ؛ فالشَّىء بالشىء يُذكر ، فلنذكر عبد الرحمن ابن أبى بكر .

وأمّا عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه ؛ فهو أسنُّ ولد أبى بكر ، وكان يُكْنى أبا عبد اللهِ . وقيل : أبا محمد ، بابنه محمد الذى يقال له : أبو عَتِيق ، والد عبدِ الله بنِ أبى عَتيق ، وأدرك أبو عَتيق محمد بن عبد الرحمن رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم هو وأبوه وجدّه ، وجدّ أبيه ؛ أربعتهم ، أجمعوا على أنّ هذه المنقبة ليست

لغيرهم ، روى البخاريُّ رحمه الله ، قال : قال موسى بن عُقْبة : ما نعلَمُ أحدًا فى الإسلام أدركوا هم وأبناؤُهم النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أربعة إلاَّ هؤلاء الأربعة : أبو قحافة ، وابنه أبو بكر ، وابنه عبد الرحمن ابن أبى بكر ، وابنه عتيق بن عبد الرحمن .

وعبد الرحمن شقيق عائشة ؛ شهد عبد الرحمن بدرًا وأُحدًا مع قومِه ، ودعا إلى البراز ، فقام إليه أبو بكر ليبارزه ، فذكِر أنّ النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال له : « متِّعنى بنفسك » . ثم أسلم عبد الرحمن ، وحَسُن إسلامه ، وصَحِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هُدْنة الحديبية .

وكان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة ؛ فسمّاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن ، وكان رضى الله عنه من أشجع رجال قريش وأرماهم بسهم ، حضر اليمامةَ مع خالد بن الوليد ، فقتل سبعةً من كبارهم ، منهم محكَّم اليمامةِ طُفَيْل ، رماه بِسَهْمٍ فى نحره فقتله . ولما فُتِحَتْ دمشق نَفَلَهُ عمر ليلى بنت الجودي ، وكان قد رآها قبل ذلك ، وكان يتشبّب بها . وشهد عبد الرحمن الجمل مع عائشة ، وكان ابنه محمد يومئذ مع علىّ .

قال أبو عمر بن عبد البر : ولما [1] قعد معاوية على المنبر ، ودعا إلى بيعة يزيد ، كلَّمه الحسين بن علىّ وعبد اللهِ بن الزُّبير ، وعبد الرّحمن بن أبى بكر ، فكان كلامُ عبد الرحمن : أهرقليّة ! إذا مات كسرى كان كسرى مكانه ! لانفعل والله ابدًا . وبعث إليه معاوية

(١) الاستيعاب ٨٢٥ .

بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعـة ليزيد فردّها عبد الرحمن . وقال : أبيع دينى بدنياى ! وخرج إلى مكة ، فمات بها قبل أن تتم البيعة ليزيد .

ويقال : إنه [مات] فجأة بموضع يقال له : الحُبْشىّ[1] على نحو عشرة أميال من مكّة ، وحُمِل إلى مكة فدفن بها .

وقيل : إنّه توفى فى نَوْمةٍ نامها ، وكانت وفاته فى سنة ثلاث وخمسين . وقيل : سنة خَمْس وخمسين ، والأول أشهر .

ولما اتّصل خبر وفاته بعائشة أمّ المؤمنين أُخْته ، ظَعَنَتْ من المدينة حَاجَّة حتى وقفت على قبره ، وتمثّلت بهذه الأبيات :

وكُنَّا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمة حِقْبـة من الدَّهْرِ حتى قِيلَ لن يتصدَّعَا[2]
فلمَّا تفرَّقْنَا كَأَنِّى ومَالِكًـــا لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معا

وقالت : أَمَا واللهِ لو حضرتُك لدفنتُكَ حيثُ مِتَّ مكانك ، ولو حضرتك ما بَكَيْتُكَ ! رضى الله عنهما .

وأما محمّد بن أبى بكر رضى الله عنهما ، فإنه وُلِدَ فى عَقِب ذى الحجة سنة عشر من الهجرة بذى الحُليفة ، أو بالشجرة ، وسمَّته عائشة محمدًا ، وكنَّتْه أبا القاسم ، ثم كان محمد بعد وفاة أبى بكر فى حِجْر علىّ بن أبى طالب لما تزوّج أُمَّه أسماء بنت عُمَيْس ، وكان محمّد على رجّالةِ علىٍّ يوم الجمل ، وشهد معه أيام صِفِّين ، ثم ولاّه مصر ، فقتِل بها . واختلفوا فى قتله ، فقيل : قتلَه معاوية بن حُديج صَبْرًا ،

---

(١) الحبشى : جبل بأسفل مكة .
(٢) البيتان لمتمم بن نويرة من قصيدة مفضلية .

وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ؛ وقيل : إنَّه لمّا ولاَّه على مصر سار إليه عمرو بن العاص من قِبَل معاوية فاقتتلوا ، فانهزَمَ أصحابُ محمدٍ وفرَّ هو ، فدخل خَرِبةً فيها حِمارٌ ميّت ، فدخل فى جوفه ، فأُحرِق فى جوفِ الحمارِ ؛ وقيل : بل قتله معاوية بن حُدَيْج فى المعركة ، ثم أُحرِق فى جوف الحمار بعد ذلك ، وقيل : إنَّه أتى عمر وبن العاص فقتله صبرا بعد أن قال له : هل معك عهدٌ ؟ هل معك عقد من أحد ؟ فقال : لا ، فأمر به فقُتِلَ .

وكان علىٌّ يثنى على محمدٍ خيرًا ، ويفضِّله ؛ لانه كانت له عبادة واجتهاد ؛ وكان ممّن دخل على عثمان حين أرادوا قتله ، فقال له عثمان : لو رآك أبوك لم يرضَ بهذا المقام منك ! فخرج عنه وتركه ،

روى محمد بن طلحة ، عن كنانة مولى صفيّة بنت حُيَىّ – وكان شهد يوم الدَّار – أنَّه لم يَنَلْ محمد بن أبى بكر دم عثمان بشىء . قال : محمد بن طلحة : فقلت : لكنانة : فلم قيل : إنَّه قتله ؟ قال : معاذ الله أن يكون قتله ! إنَّما دخل عليه ، فقال له عثمان : يا بن أخى ، لستَ بصاحبى ، وكلَّمه عثمان بكلامٍ فخرج ولم يَنَلْ دمه بشىء . فقلت لكنانة : فمن قتله ؟ قال : رجل من أهل مصر يقال له : جَبَلَة ابن الأيهم .

وأمَّا عائشةُ رضى الله عنها فقد تقدّم ذكرها فى السيرة النبوية فى أزواج النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، أمّهات المؤمنين رضى الله عنهنّ .

وأما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه فهى قديمة الإسلام . قال ابن إسحاق : أسلمتْ بعد سبعة عشر ، وكانت تحت الزُّبير

ابن العوام رضى الله عنه ، وهاجرت إلى المدينة وهى حامل بعبد الله ابن الزبير ، فوضعته بقُباء ، وكانت تُسمَّى ذات النِّطاقين ، وقد تقدَّم الخبر فى تسميتها بذلك فى سيرة سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلم عند خروجه من مكة إلى الهجرة .

توفيت أسماءُ بمكَّة فى جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله ، وقد بلغت مائة سنة .

وأمّ كلثوم [1] بنت أبى بكر رضى الله عنه ، تَزَوَّجها طلحةُ بنُ عبيد الله رضى الله عنهما ، فولدت له عائشة بنت طلحة ، فتزوجها عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر الصِّديق . ولعائشة بنت طلحة أخبار تقدّم ذكرها ، وتزوّجت عائشة بعد عبد الله مُصعَبَ بن الزبير ، ولم تلِدْ من أحد من أزواجها غيرَ عبد الله ، ولدتْ له عمرانَ ، وعبدَالرحمن ، وأبا بكر ، وطلحة ، ونفيسة ، تزوجها الوليدُ بنُ عبد الملك ، وكان ابنها طلحة أجودَ أجواد قريش ، وله يقول الحزين الدِّيلىُّ :

فإن تـــك يا طلح أعطيتَنى عُذَافِرةً تَسْتَخِفُّ الضِّفـارَا
فما كان نَفْعُـك مَـــرَّةً ولا مَرَّتين ولكنْ مِـــرارَا
أبوك الذى صَدَّق المصطفَى وسَارَ مع المصطفى حيثُ سارَا
وأُمُّكَ بَيضـاءُ تيميَّـــةٌ إذا نُسِبَ الناسُ كانت نُضَارَا

وطلحة هذا ، ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصِّديق رضى الله عنه .

وطلحة هذا هو جَدِّى الذى أُنسَب إليه . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

---

(١) ص : « وأما أم كلثوم »

ذكر أسماء قضاته وعماله وكتابه

وحاجبه وخادمه

لمَّا وُلِّيَ أبو بكر رضى الله عنه ، قال له أبو عبيدة : أنا أكفيك المال. وقال له عمر : أنا أكفيك القضاء ، فاستعملهما . فمكث عمر سنة لايأتيه رجلان فى محاكمة ، وكان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ومَنْ حضر ، وكان حاجبَه شَدِيد مولاه ، وكان عامله على مكَّة عَتَّاب بن أَسِيْد ، ومات فى اليوم الَّذِي مات فيه أبو بكر . وقيل : مات بعده .

وكان على الطَّائف عثمان بن أبي العاص ، وعلى صنعاء المهاجر ابن أبى أميّة ، وعلى حضْرموت زياد بن لَبِيد ، وعلى خَوْلان يعْلَى بن أُمَية ، وعلى زَبِيد أبو موسى الأَشعريّ ، وعلى الجَنَد معاذ بن جَبل ، وعلى البحرين العَلاء الحضرميّ .

وبعث جرير بن عبد الله إلى نَجْران ، وعبدالله بن ثور إلى جُرَش ، وعِياض بن غَنْم إلى دُومة الجَنْدل .

وكان على الشام أبو عبيدة بن الجراح . وشُرَحْبيل بن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان ، وعمر وبن العاص ؛ كلُّ رجل منهم على جُند وعليهم خالد بن الوليد رضى الله عنه .

وكان خاتمة خاتم رسول الله صلَّى الله عليه وسلم . وقال الزُّبير بن بَكَّار : وكان نقش خاتمه : « نعم القادرَ الله » . وقال غيره : كان نقش خاتمه : « عبدٌ ذليل لربٍّ جليل » .

وعاش أبو قحافة بعده ستة أشهر وأياما .

وفى المعجم الكبير للطَّبرانىّ ، قال : ومات أبو بكر ، فورثه أبواه ، وكانا قد أسلما ، وماتت أمّ أبى بكر قبل أبيه ، ومات أبوه وله سبع وتسعون سنة .

والحمد لله وحده ، وصلَّى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم .

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو أبو حفص عُمر بنُ الخطاب بنُ نُفَيل بن عبد العُزَّى بن رِياح من عبد الله بن قُرْط بن رَزَاح بن عَدىّ بن كعب بن لُؤىّ ابن غالب القُرشىّ العدوىّ ، ويجتمِع نسبه مع نسب رسول الله صلَّى الله عليه وسلم عند كعب بن لؤىّ . وأمة حَنْتَمةُ بنت هاشم بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم – على ماصححه أبو عمر بن عبدالبر –[1] وخطَّأ من قال : إنَّها بنت هشام بن المغيرة ، وقال : لو كانت بنت هشام لكانت أُخت أبي جهل ، وإنما هى بنت عمّه لأن هاشما وهشاما أخوان ، فهاشم والد حَنْتَمةَ أُمّ عمر ، وهشام والد الحارث ، وأبى جهل ، وهاشم ابنُ المغيرة جدّ عمر لأبيه يقال له : ذو الرُّمحَين .

وُلِدَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد الْفِيل بثلاث عشرة سنة ، وروى أُسامة بن زيد بن أسلم عَنْ أبيه ، عن جَده ، قال : سمعتُ عمر يقول : وُلِدْتُ بعد الفِجار الأعظم بأربع سنين .

قال الزُّبير بن بكَّار : كان عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه من أشرفِ قريش ، وإليه كانت السِّفارة فى الجاهلية ؛ وذلك أنَّ قريشًا كانت إذا وقعت بينهم حرب ، أوبينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا ، وإن نافرهم منافر ، أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافرًا ومفاخرًا ، ورضوا به . وقد تقدم خبر إسلامه ، وإظهار الله تعالى الإسلام به ، وإجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه حين قال : «اللَّهم أعزَّ

(١) الاستيعاب ١١٤٤ وما بعدها .

الإسلام بأحدا الرجلين عمر بن الخطاب ، أو بأبى جهل بن هشام » .

فاستجيب فى عمر .

قال ابن مسعود : مازلنا أعزّة منذ أسلم عمر .

ولقِّب بالفاروق لإعلانه بالإسلام ، ففَرقَ بين الحقّ والباطل لمّا أسلم ؛ رضى الله عنه .

ذكر نبذة

من فضائل عمر رضى الله عنه ومناقبه

و فضائله رضى الله عنه كثيرةٌ ، ومناقبه جمّة مشهورة ، قد قدّمنا منها فى ترجمة أبى بكر الصِّديق رضى الله عنهما ماتقدّم : ولنورد فى هذا الفصل من مناقبه خلاف ذلك :

رُوِىَ عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « إنّ الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه » . ونزل القرْآن بموافقته فى أشياء ؛ منها ما رآه فى أسرى بدر ، وفى تحريم الخمر ، وفى حجاب أزواج النبى صلَّى الله عليه وسلم ، وفى مقام إبراهيم .

ورُوِى عن عُقْبة بن عامر وأبى هريرة رضى الله عنهمـا ، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قال : « لو كان بعدى نبىٌّ لكان عُمر » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : « قد كان فى الأُمم قبلكم مُحدَّثون ، فإن كان فى هذه الأمة أحدٌ فعمر بن الخطاب » .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أنا نائِمٌ أُتيتُ بقدَحِ لبَنٍ فشربْتُ منه حتى رأَيْتُ الرِّىّ يخرجُ من أظفارى ، ثم أعطيْتُ فَضْلِى عمر » . قالوا : فما أوَّلت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم .

وعن جابر رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم :

« دخلَتُ الجنَّه ، فرأيتُ فيها دارًا ـ أو قال : قصرًا ـ وسمعت فيه ضوضـأَةً ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لرجلٍ من قريشٍ ، فظننت أنى أنا هو ؛ فقلت : مَنْ هو ؟ قالوا : عمر بن الخطاب ، فلولا غيْرتُك ياأباحفص لدخلته . فبكى عمر وقال : عليك يُغار يا رسول الله ! أوقال عليك أغار ! ».

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « رأيتُنى فى المنام ، والنَّاس يُعْرَضُونَ علىّ ، وعليهم قُمُصٌ منها إلى كذا ، ومنها إلى كذا ، ومَّر علىّ عمر بن الخطاب يجرّ قميصه ، فقيل : يا رسول الله ، ماأوَّلت ذلك ؟ قال : الدِّين » .

ومن رواية اللَّيث بن سعد ، عن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، يقول : « بينا أنا نائِم والنَّاس يُعْرَضُونَ علىَّ ، وعَلَيْهم قُمُص ، منها ما يبلغ الثَّدْىَ ومنها دونَ ذلك ، وعُرِض عَلَىّ عمرُ بنُ الخطابِ رضى الله تعالى عَنْه ، وعليه قميص يَجُرُّه » ، قالوا : فما أوّلتَ ذلك يا رسول الله ؟ قال : الدِّين » .

وقال علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه : خَيْرُ النَّاس بعدَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ، وقال : ماكنَّا نُبْعِد أنَ السّكينة[1] تنطق على لسان عُمر .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لو وُضِعَ علْمُ أحياءِ العرَب فى كفَّة ميزان ، وَوَضِعَ عِلْم عُمَرَ لرجحَ عليهم عِلْمُ عُمَر . ولقد كانوا يرون أنَّه ذهَبَ بتسعة أعْشَارِ العلم ، ولَمَجْلِسٌ كنت أجلسه مع عمر أوْثَقُ فى نفسى من عمل سنة .

---

(١) السكينة ، هنا : الإلهام .

ذكر صفة عمر رضى الله عنه

قد اختلف الناسُ فى صفة عمر رضى الله عنه ؛ فقيل : كان شديد الأُدْمة [١] طُوالا أكثَّ اللحية ، أصلع أعَسْرَ يَسراً ، يَعمل بيديه جميعا ، يخضب بالحناء والكتَم [٢] ، هكذا وصفه زرّبن حبيش وغيره بأنَّه كان شديد الأُدْمَة .

قال أبو عمر : وهو الأكثر عند أهل العلم بأيَّام الناس وسِيَرهم وأخبارهم .

قال [٣] : ووصفه أبو رَجاء العُطَارِدِىّ – وكان مغفلاً – فقال : كان عُمر طويلاً جسيمًا أصلعَ شديد الصَّلَع ، أبيض شديد حُمرة العينين ، فى عارضيه خِفَّةٌ ، سَبَلَته [٤] كثيرة الشعر ، فى أطرافها صُهْبَة [٥] .

وذكر الواقدىّ من حديث عاصم بن عبيد الله بن عمر عن ، أبيه ، قال : إنَّما جاءتنا الأُدْمة من قِبَلِ أخوالى بنى مَظْعون ، قال : وكان أبيض ، لايتزوج إلا لطلب الولد .

قال أبو عمر : وعاصم بن عبيد الله لايُحْتجُّ بحديثه ، ولا بأحاديث الواقدىّ . قال : زَعم الواقدىُّ أنّ سُمْرَةَ عمر وأُدْمته

---

(١) الأدمة : السمرة .

(٢) الكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر .

(٣) الاستيعاب ١١٤٤ : ومابعدها .

(٤) السبلة : ما على الشارب من الشعر .

(٥) الصهب ، محركة والصهبة : حمرة أو شقرة فى الشعر .

إنَّما جاءت من أكله الزَّيت عام الرَّمَادة[١] قال : وهذا منكَرٌ من القول .

وأصحّ ما فى هذا الباب حديث سُفيان الثَّورِيّ ، عن عاصم بن بَهْدلة ، عن زِرّ بن حُبَيْش ، قال : رأيت عمر شديدَ الأُدْمة . وقال أنس : كان أبو بكر يخْضِب بالحناء والكَتَم ، وكان عُمر يخضب بالحناء بَحْتًا .

وعن مجاهد أنَّ عمر كان لايُغَيِّر شَيْبَه .

وقال هلالُ بنُ عبد الله : رأيت عُمَر بن الخطَّاب رضى الله عنه ، رجلاً آدم ضخما كأنَّه من رجال سَدُوس ، فى رجليه رَوَحٌ[٢] .

وقال بعضُهم فى صفتِه : كان طويلاً من النَّاس كراكب الجمل ، أَمْهق[٣] أَصْلَع .

استخلفه أبو بكر رضى الله عنه قبل وفاته ؛ وذلك أنه لمَّا نزل به الموت دعا عبد الرحمن بن عوف . فقال : أَخبِرْنى عن عمر ، فقال : إنَّهُ أفضلُ من رأْيِكَ فيه إلاّ أنّ فيه غِلظة ؛ فقال أبو بكر : ذلك لأنَّه يرانى رقيقا ، ولو أفضى الأَمرُ إليه لترك كثيرًا ممّا هو عليه ، وقد رمقتُه ، فكنتُ إذا غضبتُ على رجل أرانى الرِّضَا عنه ، وإذا لِنْتُ له أرانى الشِّدةَ عليه . ودعا عثمان فقال له : أخبرنى عن عمر ، فقال : سريرتُه خيرٌ من علانيته ، وليس فينا مثله . فقال أبو بكر لهما :

(١) قال فى القاموس : عام الرمادة فى أيام عمر هلكت فيه الناس والأموال .

(٢) قال فى القاموس : « الروح ، بالتحريك : وسعة فى الرجلين دون الفجج ، وكان عمر رضى الله عنه أروح » .

(٣) الأمهق : الأبيض كالجص لا يخالطه حمرة ، وليس بنير .

لا تذكرا مما قلت لكما شيئًا ، ولو تركته ماعدوتُ عثمان ، ولا أدري لعله تاركٌ ، والخِيرة له ألاَّ يلِيَ من أموركم شيئًا ، ولوددت أنِّي كنت من أموركم خِلْوًا ، وكنتُ فيمن مَضَى من سَلَفكم .

ودخل طلحةُ على أبي بكر فقال : استخلفتَ على الناسِ عمرَ ، وقد رأيتَ (١) ما يلقى الناسُ منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ! وأنت لاقٍ ربَّك فسائلك عن رعيَّتك ؛ فقال : أجْلسوني ؛ فأجلسوه ، فقال : بالله تُفَرِّقني ، أو بالله تُخوِّفني ! إذا لقيتُ ربِّي فسألني قلت : استخلفتُ على أهلِك خيرَ أهلِك . ثم أحضر أبو بكر عثمان بن عفان خاليا ، فقال : اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ماعَهِدَ أبو بكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين ؛ أمَّا بعد – ثم أُغمِيَ عليه – فكتب عثمان : أما بعد ؛ فقد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرًا ، ثم أفاق أبوبكر فقال : اقرأْ عَلَيَّ ، فقرأ عليه ، فكبرَّ أبو بكر وقال : خِفْتُ أن يختلفَ الناس إن متُّ في غَشْيَتي ؛ قال : نعم ، قال : جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله . فلمَّا كتب العهد أمرَ به أن يُقرأ على النَّاس ، فجمعهم ، وأرسل الكتاب مع مولًى له ، ومعه عمر ، فكان عمر يقول للناس : أنصتوا واسمعوا لخليفة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنَّه لم يألكم نُصْحًا ، فسكت النَّاس ، فلما قُرِئَ عليهم الكتابُ سمِعوا وأطاعوا .

وكان أبو بكر قد أشرف على الناس ، وقال : أترضَوْن بمن

(١) ك : « وقد لقيت » .

استخلفتُ عليكم ؟ فإنِّى ما استخلفتُ ذا قَرابةٍ ، وإنِّى قد استخلفتُ عليكم عمر ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإنِّى والله ما ألَوْتُ من جَهْد الرأْى ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، ثم أحضر أبو بكر عمرَ ، فقال: قد استخلَفْتُكَ على أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، وأوصاه بتقوى الله ، ثم قال : يا عمر ؛ إنَّ لله حقًّا باللَّيل لا يقبله فى النَّهار ، وحقًّا فى النَّهار لا يقبلُه فى الليل ، وإنه لا يقبلُ نافلةً حتى تُؤَدَّى الفريضة ، ألم تر يا عمر أنَّما ثقلت موازين مَنْ ثَقُلَتْ موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الحقّ وثقله عليهم ! وحَقّ الميزان لا يوضع فيه غدًا حقٌّ إلاَّ أن يكون ثقيلاً ! ألَمْ تر يا عمر أنَّما خَفَّتْ موازين من خَفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ، وخِفَّته عليهم ، وحقَّ الميزان لا يوضع فيه غدًا باطل إلاَّ أن يكون خفيفًا ! ألم تر يا عمر أنَّما نزلت آية الرخاء مع آية الشِّدةِ ، وآية الشدّة مع آية الرَّخاء ليكون المؤمن راغبًا راهبًا ؛ لا يرغب رغْبةً يتمنى فيها على الله ما ليس له ، ولا يرهب رهبةً يُلقِى فيها بيديه ! ألم تر يا عمر أنما ذكر الله أهل النارِ بأسوإِ أعمالهم ، فإذا ذَكرْتَهُم قلت : إنِّى لأرجو ألاَّ أكون منهم ، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنَّه تجاوز[1] لهم ما كان من شيء ؛ فإذا ذكرتُهم قلت : أين عملى من أعمالهم ! فإن حَفِظت وصيتى ، فلا يكون غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ، ولست بمعجزه .

وتوفِّىَ أبو بكر رضى الله عنه ، فلما دُفِنَ صَعِد عمر المنبر ، فخطب النَّاس ثم قال : إنَّما مثل العرب مثل جمل أَنِفٍ[2]

---

(١) ك : « تجاوزتم لهم » .

(٢) الجمل الأنف : المأنوف . وفى نهاية ابن الأثير : وهو الذى عقر الخشاش أنفه فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذى به . وقيل : الذلول » .

اتَّبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقود . وأمّا أنا فوربّ الكعبة لأَحملنَّكُمْ على الطريق .

وكان أول كتاب كتبه إلى أبي عبيدة بن الجراح بتوليته جند خالد بن الوليد ، وبعزل خالدٍ لأَنَّه كان عليه ساخطًا خلافة أبي بكر كلها لوقعته بابن نُوْيرة ، وما كان يَعْملُ فى حربه ، وأَوّلُ ما تكلم به عزل خالد ، وقال : لا يلى لى عملاً أبدًا .

* * *

ذكر الفتوحات والغزوات فى خلافة عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

وفى خلافته رضى الله عنه كثرت الفتوحات على المسلمين ، ولنبدأْ من ذلك بذكر فتوح دمشق ، وما والاه من المدن والثغور والحصون ، ثم نذكر فتوحات العراق ، وما والاه ، ثم فتوح مصر ، وما والاها ، لتكون الفتوحات متوالية ، ولا ينقطع خبرها بأَخبار غيرها ، ولايتداخل فتوح بفتوح ، ثم نذكر الغزوات إلى أَرض الروم ، ثم نذكر الوقائع بعد ذلك خلاف الفتوحات والغزوات على حكم السنين على ما ستَقف عليه ، إن شاء الله تعالى على ذلك .

ذكر فتوح مدينة دمشق

قال : لمّا[١] هَزم الله تعالى أهل اليَرْمُوك استخلف أبو عبيدة على اليَرْموك بشيرَ بن كعب الحِميريّ ، وسارحتى نزل بالصُّفَّر ؛ فأتاه الخبر أن الذين انهزموا من الرُّوم اجتمعوا بفِحْل[٢] ، وأن المدَدَ قد أتى أهل دمشْق من حِمْص ؛ فكتب إلى عمر بذلك ، فأمره أن يبدأ بدمَشْق فإنّها حصْن الشام وبيت المملكة ، وأن يَشْغَل أهل فِحْل بخيْلٍ تكون بإزائهم ، فإذا فُتِحَتْ دمشق سار إلى فِحلْ ،ثم يسير إلى حِمْص هو وخالد ابنُ الوليد ، ويترك شُرَحْبِيل بن حَسَنَةَ ، وعمرَوبن العاص بالأُردنّ وفِلَسطين ؛ فأرسل أبو عُبَيْدة طائفة من المسلمين ، فنزلوا بالقُرب منها ، وبثق[٣] الرُّوم الماء حول فِحْل ، فوحِلت الأَرضُ ، ونزل عليهم المسلمون ، فكان أوّلَ محصورٍ بالشام أهلُ فِحْل ، ثم أهل دمشق .

وبعث أبو عبيدة أيضًا جندًا ، فنزلوا بين حِمْص ودِمشق ، وأرسل جندًا فكانوا بين دمشق وفلسطين وسار هو وخالدُ بنُ الوليد ، فقدما دِمَشْق ، وعليها نِسْطاس[٤] ؛ فنزل أبو عبيدة على ناحية ، وخالدٌ على ناحية ؛ ويزيد بن أبي سفيان على ناحية ، وحصَرهم المسلمون سبعين ليلة ، وقاتلوهم بالزَّحف والمجانيق ، فكان هِرقْل بالقرب من حمص ، فأمّد أهلَ دمشْق بخيل ، فمنعتها خيولُ المسلمين ، وخُذِل

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٢٩٣ ،ومابعدها وتاريخ الطبرى : ٤٣٤ وما بعدها .
(٢) فحل : اسم موضع بالشام .
(٣) بثق السيل موضع كذا : خرقه وشقه فانبثق .
(٤) ك : « فطاس » .

أهلُ دمشق . وَوُلِدَ للبطريق الذي على دمشق مولود ، فصنع وليمةً ، فأكل القومُ وشَرِبوا ، فعلم خالد بذلك دون غيره ، وكان قد اتَّخذ حبالا كهيئة السلاليم ، فلمّا أمسى ذلك اليوم نهض بمن معه وتقدَّمهم هُو والقعقاع بن عمرو ومذعوربن عَدِيّ وأمثاله ، وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السُّور فارتقوا إلينا ، واقصدوا [1] الباب ؛ وارتقى هو وأصحابُه على السّور فى تلك الحِبال ، ثم انحدر ببعض مَنْ معه ، وتَرك بذلك المكان الذي صعِد منه مَنْ يحميه ، وأمرَهُمْ بالتكبير ، وجاء المسلميون إلى الباب وإلى الحبال ، وقصد خالد الباب ، وقتل مَنْ دُونَه ، ثم قتل البَوّابين ، وفتحَ البابَ ، وقتل مَنْ عِندَه من الروم ، ودخل أصحابه المدينة ، وثار أَهْلُهَا لايدرون ما الخبر ، فلما رأوا ذلك قصدوا أبا عبيدة ، وبذلوا له الصلح ، فقبله منهم ، وفتحوا له الباب ، وقالوا : ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ، ودخل أهل كُلِّ باب بصلح ممّن يليهم ، ودخل خالدٌ عَنْوَةً ، والتقى والقوّاد وسط المدينه هذا قتلاً ونهبًا ، وهذا صفحًا وتسكينا ، فأجروا جهة خالدٍ مجرى الصلح ، وكان صلحهم على المقاسمة ؛ الدينار والعقار ودينار عن كل رأْس ، واقتسموا الأَسلاب .

وأرسل أبو عبيدة إلى عمرَ بالفتح ، وأنَّه قسَّم الغنيمة على مَنْ حضر الفتح ، وعلى الجنود التى على فِحل وحمص وغيرهم ، فجاء كتاب عمر إلى أبى عبيدة يأْمره بإرسال جُنْد العراق إلى سعد بن أبى وقاص ، فأرسلهم ، وأمّر عليهم هاشم بن عُتْبة ، وسار أبو عبيدة إلى فِحْل . والله أعلم .

---

(١) ك : « وانضدوا » تحريف .

ذكر شيء مما قبل فى أمر مدينة دمشق ومن بناها

حُكى عن كعب الأحبار ، قال : أوّلُ حائطٍ وضع على وجه الأرض بعد الطُّوفان حائط حَرّان ودمشق ثم بابل .

واختُلف فيمن اختطّ دمشق ؛ فقيل : إن نوحًا عليه السلام اختطها بعد حَرّان . وقيل : نزل جَيْرون بن سعد بن عاد بن عوص دمشق ، وبنى مدينتَهم وسمّاها جَيْرون .

وقيل : هى إرم ذات العماد .

وقيل : إن جَيْرون وبَريد كانا أخوين ، وهما ابنا سعد بن لقمان ابن عاد ، وهمَا اللذان يعرف جيرون وباب البريد بدمشق بهما .

وعن وهب بن منبّه ، قال : دمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل ، وكان حبشيًّا ، وهبَه له نمرود حين خرج إبراهيم من النار ، وكان اسم الغلام دمشق ، فسماها على اسمه ، وكان إبراهيم جعله على كل شيء له ، وسكنها الرّوم بعد ذلك بزمان .

وقيل : إنّ بيوراسب الملك بنى مدينة بابل ، وبنى مدينة صُور ، وبنى مدينة دِمَشق .

وقيل : كان زمن معاوية رجل صالح [بدمشق] (١) ، كان الخضر عليه السلام يأتيه فى أوقات ، فبلغ ذلك معاوية ، فجاء إلى الرجل وسأله أن يجمع بينه وبين الخضِر ، فذكر الرجل ذلك للخضر ،

(١) تكملة من ص .

فأبى ؛ فقال معاوية : قل له : قد قعدنا مع مَنْ هو خير منك ؛ وحدّثناه ، وهو محمّد صلّى الله عليه وسلم ولكن اسأله عن ابتداء بناء دمَشْق كيف كان ، فسأله ؛ فقال : نعم صِرْت إليها ،فرأيتُ موضعَها بحرًا مستجمِعًا فيه المياه ، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ، ثم صرت إليها فرأيتها غَيْضة ، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ، ثم صرت إليها ، فرأيتها بحرًا كعادتها الأُولى ، ثم غبت عنها خمسمائة عام ، وصرت إليها فرأيتها قد ابتدىء فيها بالبناء ونفر يسير فيها .

وعن أبي البختريّ قال : وُلِد إبراهيمُ عليه السلام على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمسين سنة من جملة الدهر الذي هو سبعة آلاف سنة ، وذلك بعد بنيان دمشق بخمس سنين ، وقال : جَيْرون عند باب مدينة دمشق من بناء سليمان ، بنتْه الشياطين ،وكان الشيطان الذى بناه يقال له : جيرون فسُمِّى به . وقيل : إن دِمشْق بناها دمشقين[1] غلام كان مع الإسكندر .

وقيل : إنَّ الذى بنى دمشق بناها على الكواكب السبعة ، وجعل لها سبعة أبواب ، وصُوِّر على باب كيسان زحل ، وقيل : وجد فى كتابٍ : بابُ كيسان لزحل ، وباب شرقى للشمس ، وباب توما للزُّهرة ، وباب الصغير للمشترى ، وباب الجابية للمرّيخ ، وباب الفراديس لعطارد ، وباب الفراديس الآخر المسدود للقمر .

وقيل : إن ملك مصر بنى حصن دمشْق ؛ الذى هو حول المسجدِ ، وداخل المدينة على مساحة مسجد بيت المقدس ، وحمل أبواب مسجد

(١) معجم البلدان : « دماشق » .

بيت المقدس ، فوضعها على أبوابه ؛ فهذه الأبواب التى على الحصن هى أبواب بيت المقدس . حكاه أبو القاسم علىّ بن الحسن بن هبة الله الدمشقى المعروف بابن عساكر فى تاريخ دمشق .

ونعود إلى فتوح الشام .

ذكر غزوة فحل

وفِحْل [١] بكسر الفاء وسكون الحاء المهملة وبعـده لام ، وهو بلد معروف بِغَوْرِ الشَّامِ . قال : لما فُتحَتْ دمشق فى سنة ثلاث عشرة استخلف أبو عبيدة عليها يزيدَ بنَ أبى سفيان ، وسار إلى فِحْل ، وكان أهل فِحْل قد قصدوا بَيْسان . وكانت العرب تسمى هذه الغزوة ذات الرَّدَغَة وبَيْسان وفِحْل .

وكان خالدُ بنُ الوليد على المقدِّمة ، وعلى النَّاسِ شُرَحْبِيل بن حَسَنَة وعلى المُجَنَّبَتَيْنِ أبو عبيدةِ وعمرو بن العاص ، وعلى الخيل ضِرارُ ابن الأَزْور ، وعلى الرَّجْل عياض بن غَنْم .

فنزل شُرَحبيل بالنَّاس علىَ فِحْل ، وبينهم وبين الروم تلك الأَوْحال ، وكتبوا إلى عمر ، وأقاموا ينتظرون جوابه ؛ فخرج عليهم الرّوم ، وعليهم سِقلار بن مِخْراق فأتوهم ، والمسلمون حَذِرُون ، وكان شُرَحْبِيل لا يبيت ولا يُصْبح إلا على تعبئةٍ ؛ فاقتتلوا قتالا شديدًا حتى الصباح ، ويومهم إلى الليل ، فانهزم الرّوم ؛ وقد أظلم الليلُ عليهم ، فحاروا ، وأُصيب رئيسهم سِقْلار والذى يليه [فيهم] [٢] نسطورس ، وظفر المسلمون بهم ، وركبوهم ، فلم يعرف

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٤٤٢ : وتاريخ بن الأثير ٢ : ٢٩٥ .
(٢) تكملة من ابن الأثير .

الروم مَأْخَذَهُم ، فانتهت بهم الهزيمة إلى تلك الأَوْحَال التى كانوا أعدّوها مكيدةً للمسلمين ، فلحقهم المسلمون ، فوخزُوهم بالرماح ، فكانت الهزيمةُ بِفحْل ، والقتل بالرّداغ . فأُصيبت الروم ، وهم ثمانون ألفاً ، لم يُفْلت منهم إلاَّ الشَّرِيد ؛ فصنع الله للمسلمين وهم كارهون ؛ كرهوا البُثوق والأَوحال ، فكانت عونًا لهم على عدوّهم ، وغنموا أموالهم ، وانصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حِمْص .

وقد اختُلف فى فتح فِحْل ودمشق ، وذكروا أن المسلمين لما فرغوا من أَجْنَادِين على رأى من جعلها بعد اليرموك ؛ اجتمع الروم بِفحْل ، فقصدها المسلمون فحاصروها وفتحت ، وكانت فِحْل فى ذى القَعْدة سنة ثلاثَ عشرة ؛ وفتح دمشق فى شهر رجب سنة أربع عشرة . وقيل : كانت وقعة اليرموك فى سنة خمس عشرة ، ولم يكن للروم بعدها وقعة . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق

هذه الفتح أورده ابن الأثير[1] فى حوادث سنة ثلاث عشرة ، قال : لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان على دمشق ؛ وسار إلى فِحْل ؛ وسار يزيد إلى مدينة صَيْدَاء وبيروت ، وَجُبَيْلِ وَعِرْقة[2] ، وعلى مُقَدّمته أخوه معاوية ؛ ففتحها فتحا يسيرًا ، وجلا كثير من أهلها ؛ وتولَّى فتح عِرْقةَ معاوية بنفسه فى ولاية يزيد .

ثم غلب الروم على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر ، وأول خلافة عثمان ؛ وفتحها معاوية ؛ ثم رمّها وشَحَنَها (٣) بالمقاتلة .

(١) الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٩٦ .
(٢) بعدها فى ابن الأثير : « وهى سواحل دمشق » .
(٣) شحنها : حمل فيها الكفاية لضبطها .

ذكر فتح بيسان وطبرية

قال : لما[١] قصد أبو عبيدة حِمْص من فِحْل ، أرسَل شُرَحبيل ومَنْ معه إلى بَيْسَان ، فقاتلوا أهلَها ، وقتلوا منها خَلْقًا كثيرًا ، ثم صالحهم مَنْ بقى على صلح دِمَشق ، وكان أبو عبيدة قد بعث بالأَغْوَر إلى طَبَرِيَّة ، فصالحه أهلها على صُلْح دمشق أيضا ، وأن يشاطروا المسلمين المنازل ، فنزلها الناس ، وكتبوا بالفتح إلى عمَر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه .

ذكر الوقعة بمرج الروم

كانت[٢] هذه الوْقعة فى سنة خمس عشرة ؛ وذلك أنّ أبا عبيدة وخالدًا سارا بمن معهما إلى حِمْص ، فنزلا على ذى الكَلاع ، وبلغ هِرَقْل الخبر فبعث توذر البِطريق حتى نزل بمرْج الرُّوم غَرْب دمشق ؛ ونزل أبو عبيدة بالمرْج أيضا ، ونازله يوم نزوله شنس الرُّومىّ فى مثل خيل توذر مَدَدًا لِتوذَر ، وردءًا لأهل حِمْص ، فكان خالد بإزاء توذر ، وأبو عبيدة بإزاء شنس ، فسار توذر يقصد دِمَشق ، فاتّبعه خالد فى جريدة وبلغَ يزيدَ بنُ أبى سفيان الخبر[٣] ، فاستقبله فاقتتلوا ، ولَحِقَ بهم خالد فأخذهم مِنْ خَلْفِهم ، فقُتِل توذر ،

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٢٩٦ وتاريخ الطبرى ٣ : ٤٤٣ .

(٢) تاريخ ابن الاثير ٢ : ٣٤٠ وتاريخ الطبرى ٣ : ٥٩٨ .

(٣) ك : « خالد بن أبى سفيان » والمثبت يوافق ما فى ابن الأثير

ولم يفلت منْ عسكره إلا الشّريد ، وغنم المسلمون ما معهم ، فقسّمه يزيد فى أصحابه وأصحاب خالد ، وعادَ يزيد إلى دِمشق ، ورجع خالد إلى أبى عبيدة ، فوجده قد قاتل شنس بمرْج الروم ، فقُتلت الرومُ مقتلةً عظيمةً ، وقتل شنس ، وتبعهم المسلمون إلى حمص بالسير إليها ، وسار هو إلى الرِّيف ، وسار أبو عبيدةِ إلى حِمْص .

ذكر فتح بعلبك وحمص وحماة وشيرز

ومعرة النعمان وسلمية واللاذقية وأنطرسوس

قال[1] : وفى سنة خمس عشرة سار أبو عبيدة إلى حِمْص بعد وقعة ملك الروم ، فسلك طريق بعلبك وحصرها ، فطلب أهلُها الأمان فأمَّنهم وصالحهم ، وسار عنهم ونزل حمص ومعه خالدُ بنُ الوليد ، فقاتل أهلها ، ولقِيَ المسلمون بَرْدًا شديدًا ، وحاصر الرُّوم حصارًا طويلاً ، وكان هِرَقل قد أرسل إليهم يعدُهُم المدد ، وأمر أهلَ الجزيرة جميعها بالتَّجهيز إلى حِمْص ، وسيّرَ سَعْدُ بنُ أبى وقاص السرايا من العراق إلى هِيت فحصرها ، وسار بعضهم إلى قَرْقِيسِيَاء فتفرق أهْلُ الجزيرة ، وعادوا عن نجدة أهل حِمص ، وكان أهل حِمْص يقولون : تمسّكوا بالمدينة[2] فإنَّهم حفاةٌ ، فإذا أصابهم البرد تقطَّعت أقدامُهُم ، فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين إصبعٌ ، فلما خرج الشتاء قام شيخ من الرّوم ، ودعاهم إلى مُصَالحة المسلمين ، فلم يجيبوه ، وقام آخر فلم يجيبوه ، فكبّر المسلمون تكبيرة

(١) ابن الاثير ٢ : ٣٤١ .
(٢) ابن الأثير : « بمدينتكم » .

فانهدم كثير من دُورِ حمص ، وتزلزلت حيطانهم ، وكبّروا الثانية والثالثة ، فأصابهم أعظم من ذلك ، وخرج أهلُها يطلبون الصلح ، ولم يعلم المسلمون بما حَدَثَ فيهم ، فصالحوهم على صُلْح دِمَشق . وأنزلها أبو عبيدة السِّمْطَ بنَ الأسود الكندىَّ فى بنى معاوية ، والأشعث ابن ميناس فى السَّكون ، والمِقْداد فى بَلِىّ ؛ وغيرهم ، وبعث بالأخماس إلى عمر مع عبد الله بن مسعود .

ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عُبَادةَ بنَ الصّامتِ . وسار إلى حَماة ، فتلقاه أهلُها مُذْعِنِين ، فصالحهم على الجزية عن رءوسهم ، والخراج عن أرضهم ، ومضى نحو شيْزَر ، فخرجوا إليه فصالحهم [على مثل صلح أهل حماة .

وسار إلى مَعرّة النعمان ـ وكانت تُعرف بمعرّة حِمْص ، ونسبت بعد ذلك إلى النُّعمان بن بشير الأنصارى ، فصالحوه على مثل صُلْح [أهل حِمْص .

ثم أتى اللاَّذقية فقاتله أهلها ، وكان لها بابٌ عظيمٌ يفتحه جمْع من الناس ، فعسكر المسلمون على بُعْدٍ منها ، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة ، تستر الحفرة منها الفارسيْن ، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها ، ورحلوا ، فلمَّا أجنَّهُم الليل عادوا ، واستتروا فى تلك الحفائر ، وأصبح أهل اللاذقيَّة [وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا] (١) ، فأخرجوا سَرْحهم ، وانتشروا بظاهر البلد ، فلم يرُعْهُم إلاَّ والمسلمون يصيحون بهم ، ودخلوا المدينة معهم ،

(١) تكملة من ص .

ومُلِكت عنوة ، وهربَ قومٌ من النَّصارى ، ثم طلبوا الأمان على أنْ يرجعوا إلى أرضهم على خَرَاج يؤدونه قلُّوا أو كثروا ، فردَّت لهم كنيستهم ، وبنى المسلمون بها مسجدًا جامعا ؛ بناه عباده بن الصامت ، ثم وسّع فيه بعد ذلك .

ولما فتح المسلمون اللاَّذقية جَلاَ أهل جَبَلة من الرّوم عنها ؛ وفتح المسلمون مع عبادة بن الصَّامِتِ أنطرطوس ، وكان حصنا فجلا عنه أهله ، وبنى معاوية أنطرطوس ومصّرها ، وأقطع بها القطائع للمقاتلة ، وكذلك فعل ببانياس ، وفتحت سَلْمِيَةِ ؛ وقيل : إنها سُميتِ سَلميَة لأنَّه كان بقربها مدينة تُدْعَى المُؤْتفكَة ، انقلبت بأهلها ، ولم يَسْلَم منها غير مائة نَفْس ، فبنوا لأنفسهم مائة منزل ، وسميت « سل مائة » ، ثم حرَّفها النَّاس . فقالوا : سَلْمِيَة ، ثم مصَّرها صالحُ بنُ عليّ بن عبد الله بن عباس .

ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية

وما تكلم به عند ذلك

قال[1] : ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرين ، فلما زحف ونزل الحاضر زحف إليه الروم ، وعليهم ميناس ، وكان أعظمَهم بَعدْ هِرَقْل ، فقُتِل هو ومن معه عَلى دمٍ واحدٍ .

وسار خالد حتى نزل قِنَّسرين فتحصَّن أهلها منه ، ثم صالحوه على صلح أهل حِمْص ، فأبى خالد إلاَّ إخراب المدينة ، فَأَخْرَبَها ، فلمَّا بلغ ذلك هِرَقْل – وكان بالرُّهَا – سار إلى سُمَيْساط ، ثم منها

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٤٣ وتاريخ الطبرى ٣ : ٦٠١ .

إلى القُسطنطينية ، ولمّا سار عَلاَ نَشَزًا ، ثم التفتَ إلى الشّام . فقال : سلامٌ عليْك ياسوريّه ؛ سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومىٌّ أبدًا إلاخَائِفًا ، حتى يولَد الولد الْمِشئُوم وليته لايولَد ، فما أحلَى فعله ، وأمرَّ فتنته على الرُّوم . ثم سار وأخذ أهْلَ الحصونِ التّى بين إسْكندونه وَطَرسوس معه لئِلاَّ يسير المسْلمون فى عمارةٍ ما بين أنطاكيَة وبلاد الروم ، وخلت تلك الحصون وشَتَّتها هِرقل ، فكان المسلمون إذا مَرُّوابها لا يجدون بِهَا أحدًا ، وربَّما كَمَن عندها الرُّوم ، فأصابوا غِرَّة مِمَّن يتخلف من المسلمين ، فاحتاط المسلمون لذلك . والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المَآب .

ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم

وهى (١) سَرْمِين ، وقورُس ، وَتلّ عزاز ، ومنبِـج ، ودُلوك ، ورَعْبان وبالِس ، وقاصرين ، وجُرْجومة ، ودرب بغراس ، ومَرْعَش ، وحصن الحَدث . قال : ولما فرغ أبو عبيدة من قِنَّسرين سار إلى حلب فبلغه أنَّ أهل قِنَّسرين مَضَوْا ، وَغَدَروا ، فوجَّه إليهم السِّمطَ الكِنْدىَّ فحصرهم وفتحها ، ووصَل أبو عبيدة إلى حَاضِرِ حلب ، وهو قريب منها يَجْمع أصْنافًا مِنَ العرب ، فصالحهم على الجزيةِ ، ثم أسلموا بعد ذلك ، وأتى حلبَ وعلى مقدَّمتة عياض بن الفِهرىّ ، فتحصَّن أهْلُها ، وحصرهم المسلمون ، فلم يلبثوا أن طلبوا الصُّلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وحصُنهم وكنائِسِهمْ ، فأعطَوْا ذلك ، واستثنى عليهم مَوْضَع المسجد .

(١) تاريخ بن الأثير ٢ : ٣٤٤ .

وكان عياض بن غنْم هو الذي صالحَ ، فأجاز أبو عبيدة ذلك . وقيل : صولِحوا عَلَى أنْ يُقَاسِموا منازلهم وكنائسهم ، وقد قيل : إنَّ أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحدًا ؛ لأنَّ أهلها انتقلوا إلى أنطاكِيَة ، وتراسلوا فى الصُّلْح ، فلمَّا تم الصّلح رجعوا ، وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكِيَة ، وقد تحصَّن بها خلقٌ كثيرٌ من قنَّسرين وغيْرها ، فلما فارقها لَقِيَه جَمْع العدوّ فهزَمهم ، وألجأهم إلى المدينة ، وحَصَرها من نواحيها ، فصَالحوه على الجِزية أو الجلاء ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم ثم نقضوا ، فوجّه إليهم عياض بَن غَنْم وحبيب بن مَسلمة ، ففتحاها على الصّلح الأول .

وكانت أنطاكيَة عظيمة الذّكر عند المسلمين ، فلما فُتِحتْ كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتِّبَ جماعة من المسلمين بها مرابِطَةً ، ولا يحبس عنهم العطاء .

وبلغ أبا عبيدة أنَّ جمعًا من الرُّوم بَيْن مَعَّرةِ مَصْرِين وحلب ، فسار إليهم فهزمهم ، وقتل عدة من البَطَارِقة ، وسَبَى وغَنِم ، وفتح معرّة مَصْرِين على مثل صلح حلب ، وجَالتْ خُيولُه ، فبلغت بُوقة ، وفُتَحِتْ قرى الجومَه وسَرْمِين وتبرين ، وغلبوا على جميع أرض قِنَّسرين وأنطاكيَة .

ثم أتي أبو عبيدِة حلَب ، وقد التاث أهلها ، فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة ، وسار يريد قورُس ، وعلى مقدّمَته عياض ابن غَنْم ، فلقيَه راهب من أهلها ، فسأله الصلح ، فبعث به إلى أبي عبيدة ، فصالحه على صلح أنطاكيَة ، وبثَّ خَيْله ، فغلبوا على جمع أرض قُورس ، وفتح تلَّ عزاز .

وكان سَلْمان بن ربيعةَ الباهلىّ فى جيْش أبى عبيدة ، فنزل فى حِصْنٍ بقورس ، يُعْرَف بحصن سلمان ، ثمَّ سار أبو عبيدة إلى مَنْبِـج ، وعياض على مقدّمته ، فلحقه ، وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكيَة ، وسيّره إلى ناحية دلُوك ورَعْبان ، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل مَنْبِـج ، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الرّوم.

وَوَلَّى أبوعبيدة كلَّ كُورَةٍ فتحها عاملاً ، وضمَّ إليه جماعة ، وشحن النواحى المخوفة ، وسار إلى بَالِس ، وبعث جيشًا مع حبيب ابن مسلمة إلى قاصِرين فصالحه أهلُها على الجزية والجلاء ، فجلا أكثرهم إلى بلاد الرُّوم ، وأرض الجزيرة ، واستوْلى المسلمون على الشامِ من هذه النَّاحية إلى الفرات ، وعاد أبو عبيدة إلى جهة فلسطين وكان بجبل اللّكام مدينة يقال لها : جُرْجُومة ، ففتحَها حبيب من أنطاكيَه صلْحًا على أن يكونوا أعوانًا لِلْمُسْلمين ، وسيَّر أبو عبيدة جيشًا مع مَيْسَرة بن مسروق العَبْسِىّ ، فسلكوا درب بغراس من أعمالِ أنطاكيَة إلى بلاد الروم ، وهو أوّل من سلكَه ، فَلَقِىَ جمعًا من الرُّوم ، ومعهم عربٌ من غسّان [وتنُوخ] (١) وإياد يريدون اللّحاقَ بهرَقْل فأوقع بِهم ، وقتل مِنْهم مَقْتَلةً عظيمة . وسيرّ جيشًا آخر إلى مَرْعَش مع خالد بن الوليد ، ففتَحها بالأمان على إجْلاء أهلِها ، فجلاهم وَأخربها ، وسيَّر جيشًا مع حَبيب بن مَسلَمة إلى حِصْن الحدَث ففتحه ؛ وإنما سُمّىَ الحَدَثَ لأنَّ المسلمين لَقُوا عليه غلامًا حَدَثًا ، فقاتلَهم فى أصحابه ، فقيل : دَرْب الحَدَثِ . وقيل : لأنَّ المسلمين أُصِيبُوا به فسُمِىّ بَذلك ، وكان بنو أُميّة يُسمّونه دَرْبَ السّلامة ، والله أعْلمُ .

(١) من ص .

ذكر فتح قيسارية وحصن غزة

وفى[1] سنة خمس عشرة أيضا فِتحتْ قَيْسَارِيَّةِ . وقيل فى سنة تسع عشرة ، وقيل : سنة عشرين . وذلك أنَّ عمر رضى الله عنه كتبَ إلى يزيدَ بن أبى سفيانَ : أن يرسل معاوية أخاه إلى قيسَارِيَّة ، وكتب عمرُ إلى معاوية يأمره بذلك ، فسار معاويةُ إليها وحَصَر أهلَها ، فرجعوا إليه ، وقاتَلوه ، فبلغتْ قَتْلاهم فى المعركة ثمانين ألفا ، ثم كَمُلت فى الهزيمة مائة ألفٍ وفَتَحها ، وكان عَلْقمة بْن مُجَزِّز قد حَصَر القِيقارَ بغزَّة وجعل يُراسِلُه فلم يَشْفِه أحد ممّا يريد ، فأتاه كأنَّه رسول عَلْقَمَة وكلَّمه ، فأمر القِيقار رَجُلاً أن يَقْعُد له فى الطريق ، فإذا مرَّ به قَتَلَه ، فَفَطِنَ به عَلْقَمة ، فقال : إنَّ معى نفرًا يُشركوننى فى الرَّأْى فأنطلِق فآتيكَ بهم ، فبعث القِيقار إلى ذلك الرَّجل ألَّا يتعرَّض له . فخرج عَلقمَةُ مِن عنده ، ولم يَعُد إليه ، وفعل كما فعل عمرو بنُ العاص رضى الله عنه مع الأَرْطَبُون .

---

(١) تاريخ ، ابن الأثير ٢ : ٣٤٦ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٦٠٣ ، ٦٠٤

ذكر بيسان ووقعة أجنادين وفتح غزة

وسبسطية ونابلس وتبنى واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا

قال : لمّا [١] انصَرَف أَبو عُبَيدة وخالدُ بنُ الوليد بعد فِحْل إلى حِمْصَ ـ كما قدّمنا ـ نزل عمرُوبنُ العاص وشُرَحْبيل بن حَسَنة على بَيْسان فافتَتَحها ، وصالحه أهل الأُردُنّ ، واجتمع عَسْكر الرُّوم بغزَّة وأجنادِيْن وبَيْسانَ إلى الأَرْطَبُون بأَجْنَادِين ، فسار عَمرو وشُرَحْبيل إليهم بها ، واستخلف عَمرْو على الأُردنّ أَبا الأَعْوَر ، وكان الأَرْطَبُون أَدْهَى الرُّوم وأَبعدَها غَوْرًا ، وكان قَدْ وضَع بالرَّملة جُنْدًا عظيمًا ، وبإِيلياء كذلك ، فلمَّا بلغَ عُمرَ بن الخطَّاب الخبرُ قال : قد رَمَيْنَا أَرْطبون الرُّوم بأَرطبون العرَب ، فانظروا عَمَّ تنفرج .

وكانَ مُعَاوِيةُ قد شَغل أَهْلَ قَيْساريَّةَ عن عمرٍو ، وجعل عمرو عَلْقمة بن حَكيم ، ومَسْروقَا العَكّىْ على قتال [أهل][٢] إيلِياء ، فشغلُوا مَنْ بها عنْه ، وتتابَعت الأَمداد مِن عمرَ رضى الله عنه إلى عمرٍو ، فأَقام عَمْرو على أجنَادين لايقدر من الأَرْطبون عَلَى شيءٍ ، ولا تَشْفِيه الرُّسل ، فسار إليه بنفسه ، ودخل إليه كأَنَّه رسولٌ ، فَفِطن به أَرْطبُون ، وقال : لا شكّ أن هذا الأَميرُ ، أومَنْ يأْخُذُ الأَميرُ

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٤٦ وما بعدها .

(٢) من ص .

برأيه ، فأمر إنسانًا أن يَقْعدُ على طريقة ، فإذا مَرَّ به يَقْتله ؛ فأدْرك عَمرو ، فقال له : قد سمعتَ منّى ، وسمعتُ منكَ ، وقد وقع قولُك منّى بموْقِع ، وأنا واحدٌ من عَشَرة ، بَعَثَنَا عُمَر إلى هذا الوالى لنكاتِفه فأرْجع وآتيكَ بهم ، فإن رأوْا مارأيْتَ فقد رآه الأمير وأهلُ العسكر ، وإن لم يَروْهُ رَدَدْتَهم إلى مأمنِهم . فقال : نعم ، وردّ الرجلَ الذّى أمره بقتله ، فخرج عمرو من عنده ، وعلم الرُّومىُّ بعدمُفَارَقته أنَّه خدَعه . فقال : هذا أدْهَى الخَلْقِ ، وبَلَغت هذِه الواقعة عمر . فقال : لله دَرُّ عَمرٍو ! ثم التَقَوْا ، واقتتلوا بأجْنَادَين قتالاً شديدًا كَقِتال اليَرْمُوكِ ، فانهزَم أرْطبُون إلى إيلياء ، ففتح عمرو غَزَّة ، وقيل : فُتحتْ غزَّةُ فى خلافةِ أبى بكر رضى الله عنه ، ثم فَتَح سَبْسطِية ونابُلُس بأمان على الجِزْية ، وفتح مدينة لُدّ وتُبْنَى وعمواس ، وبيْت جِبْرِين ويافا . وقيل : فتَحها معاويةُ رضى الله عنه ، وفتح رَفَح . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر فتح بيت المقدس وهو ايلياء

كان (١) فتحُ بيتِ المَقدِس على يد عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه ، سنةِ خمسَ عشرة . وقيل : ستَّ عشرة ، وذلك أن عمْرَو بنَ العاصِ لما فتح هذه الجِهات الَّتى ذكرناها ، أرسَل إلى أرْطَبون رجلاً يتكلَّم بالرُّوميَّه ، وقال له : اسمَع ما يقول ، وكتب معه كتابًا ، فوَصَل إليه ، وأعطاه الكتابَ ، وعنده وُزَراؤه ، فقال لهم : لاَ يَفتح عَمرو شيئا مَن فِلَسْطين بعد أجْنادِين . فقالوا له : من أين عَلِمت ذلك ؟ فقال : صاحبها صِفَتُه كذا وكذا ، وذكر صفَةَ عُمر ، فعاد الرسولُ إلى عمرو ، وأخْبَره بذلك ، فكتَب عمرو إلى عمرَ رضى الله عنهما ، يقول : إنى أُعالج عدوًّا شديدا ، وبلادًا قد ادُّخِرَتْ لك ، فرأْيك . فعلم عُمرُ أنَ عمْرًا لم يَقل ذلك إلا لشىءٍ سَمِعه ، فسار عن المدينة . وقيل : كان سبب قدوم عمرَ إلى الشام ، أنَّ أبا عُبيدة حَصر بيتَ المَقدِس ، فطلب أهلُه أن يصالحَهم على صُلْح أهل مدُن الشَّام ، وأن يكون المتولِّى للعقد عمرُ بنُ الخطَّاب ، فكتب إليه بذلك ، فسار عن المدينة ، واستَخلفَ عليها علىَّ بنَ أبى طالب رضى الله عنه ، وكتب عمر إلى أُمَراء الأَجْناد بموافاته بالجابِيَة ليوم سمَّاه لهم ، وأن يستخلفوا على أعمالهم ، فوافَوْه ، وكان أوّلَ من لَقِيهم يزيدُ بْن أبى سفيان وأبو عُبَيدة ثم خالد بن الوليد على الخُيول ، عليهم الدِّيباج والحرير ، فنَزَل عن فرسه ، ورماهُم بالحِجارة ، وقال : ما أسرع ما رَجعتم عن رأْيكم ! إيَّاىَ تستقبِلُونَنى فى هذا

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٤٧ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٦٠٧ .

الزِّى ! وانَّما شَبِعتم منذ سنتين[١] ، وتالله لوفعلتم ذلك على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيرَكم . فاعتذروا بالسلاح . ودخل عمر الجابية وعَمرو وشُرَحبيل لَم يَقدَما عليه ، فبينما عمرُ بالجابيةِ إذ فزِع الناسُ إلى السِّلاح . فقال : ماشانكُمْ ؟ قالوا : ألاَ ترى إلى الخُيول والسّيوف ! فنظر فإذا كُرْدُوسة[٢] ، فقال : مُسْتأْمنةٌ فلا تُرَاعوا ، فإذا هم أَهْلُ إيلياء يُصالحونه على الجِزْية ، وكان الَّذى صالحَه العوّام ، لأَن أَرْطَبُونَ والتَّذارق دَخَلا مصر لمَّا بلغهما مقدمُ عُمر . وأَخذُوا كتابَهُ على إيلياء وحَيِّزِها ، والرَّمْلة وحيِّزها . وجعل عمرُ رضى الله عنه علقمَة بنَ حكيم على نِصفِ فِلَسطين ، وأسكنَه الرَّملة ؛ وجعل عَلْقمة بن مجزِّز على نِصفِها الآخر ، وأَسكَنَه إيلياء ، وضمَّ عمرَو بنَ العاص وشُرَحْبيل إليه بالجابَية ، فلقيَاه راكبا ، فقبَّلاَ رُكبَته ، فضمَّ كلَّ واحد منهما مُحتضنًا[٣] ، ثم سار إلى البيت المقدس وركِب فرسَه ، فرأى به عَرَجًا ، فنزل عنه ، وأُتِىَ بِبِرْذَوْن فرَكبه ، فجعل يَتَجَلْجَلُ به ، فنَزَل وضَرَب وجهَه وقال : لا أَعْلَم مَنْ علَّمك هذه الخُيَلاء ؟ ثم لم يركبْ بِرْذَونًا بعدَه ، ولا كان ركبه قبلَه ، وفُتحت إيلِياءُ على يَدَيْه ، ولَحق أَرْطَبُون ومن أَبَى الصلحَ بمصر ، فلما ملَكَها المسلمون قُتِل . وقيل : بَلْ لَحق بالرُّوم ، فكان على صَوائفهم ، والْتَقَى هو وصاحب صائفةِ[٤]

---

(١) ك : « سنتان » .

(٢) الكردوسة : القطعة من الخيل ، وفى ك وابن الأثير : « كردوس » .

(٣) ابن الأثير : « محتضنهما » .

(٤) الصائفة : غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والثلج من الروم.

الْمُسْلِمين ، ومع المسلمين رجلٌ من قريش [١] ، فقطع أَرْطَبُون يَده ، وقتله القُرَشِى[٢] ، وفيه يقول ويشير إلى يَدِه :

فإنْ يكنْ أَرْطَبُونُ الرُّومِ أفسَدَها فإنَّ فيها بحمدِ الله مُنْتَفَعَـا
وإنْ يكنْ أَرْطَبُون الرُّومِ قَطَّعَهَـا فقد تركْتُ بها أوصَالَهُ قِطَعَـا

ذكر خبر حمص حين قصد هرقل

من بها من المسلمين

قال[٣] : وفى سنة سَبْعَ عشرةَ قصد الرُّوم أبا عُبيدةَ بنَ الجراح ، ومن معه من المسلمين بِحمْص ، وكان المُهَيِّج للرُّوم على ذلك أنّ أهَل الجزيرة أرَسلوا إلى مَلِكهم ، وبَعَثوه على إرسال الجُنود إلى الشام ووَعَدوه المعونةَ بأنفسهم. ففَعَلَ ذلك . فلما سَمِع المسلمون باجتماعهم ، ضمَّ أبو عبيدة إليه مَسالِحَه ، وعَسْكر بفناء مدينةِ حمص ، وأقبل خالد من قنَّسرين إليهم ، فاستشاره أبوعبيدة فى المناجزة أو التحصن ، فأشار بالمناجزة ، وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبةِ عُمَر ، فأطاعَهم ، وكتب إلى عمرَ بذلك .

وكان عمر قد اتخذ بكل مِصرٍ خُيولا على قَدْره من فُضُول أموال المسلمين عُدَّةً لكونٍ إن كان ، فكان بالكوفة أربعةُ آلاف فَرَس ، والقيِّم عليها سلمان بن ربيعة الباهلىّ ، وفى كل مصر من الأمصارِ

(١) ابن الأثير والطبرى: « من قيس يقال له ضريس » .
(٢) الطبرى وابن الأثير : « القيسى » .
(٣) ابن الأثير ٢ : ٣٧٠ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٥٩٩ .

الثمانية على قَدْره ، فإن كانت ثابتةً رَكِبَها المسلمون وسارُوا إلى أن يتجهز الناس .

وكتب عمرُ إلى سعد بنِ أبي وَقَّاص : أن انْدُب النَّاسَ مع القعقاع ابنِ عَمرٍو وسَرِّحْهم مِن يَومهم ؛ فإنّ أبا عبيدة قد أُحِيط به .

وكتب إليه أيضا : مَرِّح سُهَيلَ بنَ عَدِيٍّ إلى الرَّقَّة ؛ فإن أهل الجزيرة هم الَّذين استثاروا الرّومَ على أهلِ حِمْص ، وأمره أن يُسرِّح عبدَ الله بنَ عِتبان إلى نَصيبين ، ثم لِيقْصدا حَرَّان والرُّها ، وأن يُسرِّح الوليد بن عُقْبةَ على عَرَب الجزيرة مِن ربيعة وتَنُوخ ، وأن يسرِّح عياضَ بن غَنْمٍ ، فإن كانت حربٌ فأَمْرُهم إلى عِياض . فمضى القَعْقَاع في أربعة آلافٍ من يومه نحو حِمْص .

وخرج عياض بن غَنم ومن نُدِب إلى الجزيرة ، وتوجَّه كلُّ أمير منهم إلى الكورة الَّتي أُمِّر عليها ، وخرج عمرُ من المدينة ، وأتى الجابِيَة إعانةً لأبي عُبَيْدَة ، فلمّا بلغ أهلَ الجزيرة الَّذين أعانُوا الرُّومَ على أهل حِمْص خبرُ الجنود الإسلاميّة تفرقوا إلى بلادهم ، فأشار خالدٌ على أبي عُبيدةَ بالخُروج إلى الرّوم ، فخرج إليهم وقاتَلَهم ، وفتحَ الله عليه ، وقَدِم القعقاعُ بعد ثلاثة أيام ، فكَتَبُوا إلى عمرَ بالفتح وبِقدوم المَدَد عليهم والحُكم في ذلك .

فكَتَبَ إليهم : أنْ أشرِكُوهم في المغْنَم ، فإنَّهم نَفَروا إليكم ، وانْفَرَق لهم عَدُوُّكم ، وقال : جزى اللهُ أهلَ الكُوفة خيرًا ؛ يكفون حَوْزتَهم ويُمدّون الأَمْصار ؛ فلمّا فرغوا رَجَعوا . والله أعلم ، وحَسبُنا اللهُ ونِعم الوكيل .

ذكر فتح الجزيرة وأرمينية

قد اختلف أصحاب التَّواريخ فى فتح الجَزيرة وإرْمينيَة ، فمنهم من يقول : إن ذلك من فُتوح أهْلِ العِراق ، ومنهم من يقول : إنَّها من فتوح أهلِ الشام . والأكثر على أنَّها من فُتوح أهل الشّام ، ونحن نَذكُر القولين إن شاء الله تعالى :

فأمّا من قال : إنَّها من فُتوح العِراق فإنَّه يقول(١) : إنَّ سعد بنَ أبى وَقَّاص لمّا أمَره عمرُ رضى الله عنه أن يبْعثَ الجنود التى ذكرناها آنِفا إلى نَصِيبين وحَرّان والرُّها والجَزيزة مع مَنْ ذكَرنا ، وإن كان قتال فأمْرُهم إلى عِياض بن غَنْم . فخرج عِياض ومَن معه ؛ فأرسل سُهيْل بن عَدِىٍّ إلى الرَّقَّة ، فصالحَوُه على الذِّمّة ، وخرج عبدُ الله بن عِتْبانَ على المَوْصِل إلى نَصِيبين ، فلَقُوه وفَعلوا كِفعل أهل الرَّقَّة ، وخرج الوليدُ بن عُقْبة ، فَقدِم عَلى عَربِ الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ ، فنهض معهم مُسلمُهم وكافِرُهم إلاَّ إياد بن نِزار ، فإنَّهم دخلوا إلى أرض الرُّوم ، ولما أخذوا الرَّقَّة ونَصيبين ضَمّ عِياض إليه سهُيلا وعبدَ الله ، وسار بالنَّاس إلى حَرَّان ، فأجابه أهلُها إلى الجِزْية ، فقَبِلَ منهم . ثمّ إنّ عِيَاضًا سَرَّحَ سُهيلاً وعبدَ الله إلى الرُّها ، فأجابوهما إلى الجِزْية ، وأجْرَوْا كلَّ ماأخَذوا من الجزيرة عَنوةً مَجرىَ الذِّمّة ، فكانت الجزيرة أسهَلَ البُلدانِ فتْحا ، ورَجَع سهيلٌ وعبدُ الله إلى الكوفة .

---

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٧٢ ، تاريخ الطبرى ٤ : ٥٣ .

قال : ولمّا بلغ عمر رضىَ الله عنه أنْ إيادا دخلت الرُّوم ، كتب إلى ملك الرُّوم يتهدَّده إن لَم يُخْرِجْهم ، فأخرَجَهم ، فخرج منهم أربعة آلاف ، وتفرَّقَتْ [بقيتهم] (١) ممّا يلى الشَّام والجزيرة من أرضِ الرُّوم ، فكلّ إيادىّ فى أرض العَرب من أولئك الأربعة آلاف .

وقال ابُن إسحاق : إنَّ فَتْح الجزيرة كان فى سنة تسع عشرَة ، وقال : إنَّ عمرَ كتب إلى سعد بن أبى وَقّاص : إذا فتح الله الشَّامَ والعراق فابعثْ جندا إلى الجَزيرة . فبَعَث عياضَ بن غَنْم ، و [بَعَث] (٢) معه جيشا فيه أبو موسى الأشعرىّ ، وعمر بن سَعْد ليس له فى الأمر شىء ، فسار عِياض ونَزَل على الرُّها ، فصالَحَه أهْلُهاَ وأهْلُ حَرّان ، ثم بعث أبا موسى الأشعرىّ إلى نَصِيبين فافتَتَحها ، وسار عِياض إلى دارَا فافتتحها . وَوَجَّه عثمانَ بنَ أبى العاص إلى إرمينِيَة الرابعة فقاتَلَ أهلَها ، ثم صالحَوه على الجِزية ، فَعَلَى هذه الأقوال تكون الجزيرةُ وإرمْينِيَة مُن فتوح العِراق .

وأمّا من قال إنَّها من فُتوح الشام ، فإنه يقول : إنَّ أبا عُبَيدة سيّر عيَاضَ بن غَنْم إليها ففتحها ، وكان قد كَتَب إلى عمرَ بن الخطَّاب بعد انصرافِه من الجابية يسأله أنْ يضمّ إليه عِيَاضَ ابن غنْمَ – إذ أخَذ خالد بن الوليد إلى المدينة – فصَرَفه إليه ، فسيّره أبو عُبيدةَ إلى المدينة ففتَحها ، وذلك فى سنة سبع عشرة .

وقيل : إن أبا عُبَيدة لمّا تُوُفِّىَ استَخلف عِياضا ، فورَد عليه

---

(١) من ص .
(٢) من ص .

كتابُ عمرَ بولاية حِمْصَ وقِنَّسْرِين والجَزيرة ، فسار إلى الجزيرة فى سنة ثمانىَ عشرة للنِّصف من شعبان فى خمسة آلاف ، وعلى ميْمنتِه سعيد بُن عامر الجُمَحِىّ ، وعلى ميْسَرته صفوانُ بن المعَطَّل ، وعلى مقدّمته مَيْسرة بن مسروق ، فانتهت طليعةُ عِياض إلى الرَّقَّة ، فأغارُوا على الفلاَّحين ، وحَصَروا المدينة ، وبثَّ عِيَاض السَّرايا ، فأتَوْه بالأَسْرى والأَطعِمة ، وحَصَرها ستَّة أيام ، فطَلَب أهلُها الصُّلحَ ، فصالحَهَم على أنفُسهم وذراريِّهم وأموالِهم ومدينتِهم . وقال عِيَاض : الأَرضُ لنا ، قد وَطِئْناها وَمَلكْناها ، فأَقَرَّها فى أيديهم على الخَراج ، ووَضَع عنهم الجِزْية . ثم سار إلى حَرّان فَجعل عليها عسكرا ، عليهم صفوانُ وحبيُب بنُ مَسلمة ، فحَصَراها ، وسار هو إلى الرُّها ، فقاتلَه أَهْلُهاَ ثم انهزَموا ، فحَصَرهم فى مدينتهم ، فطلبوا الصلحَ فصالحهم ، وعاد إلى حَرّان ، فوجد صَفوانَ وحَبيباً قد غلبا على حُصون وقُرًى من أعمالِها ، فصالحَه أهلُ حَرَّانَ على مثل صُلْح الرُّها ، وفَتَح سُمَيْساط ، وأتى سَرُوج وراس كَيْفا والأَرض البَيْضَاء . فصالَحَه أَهلُها على مِثل صُلْح الرُّهَا ، ثم غدرَ أَهْل سُمَيْساط ، فرجع إليهم وفتحها ، ثم أتى قُريّات الفُرات ، وهى جسر مَنْبِـج ومايليها فَفتَحها ، وبعث حبيَب بَن مسلمَة إلى مَلَطْيَة ففتحها عَنوةً ، على يد حبيبٍ أيضا ، ورَتَّبَ فيها جُنْدًا من المسلمين مع عاملها . قال : وسار عياضٌ إلى رأس عَيْن ، وهى عين الوَرْدة ، فامتنعت عليه ، فَتَرَكها ، وسار إلى تَل مَوْزَن ففتَحها على صلح الرُّها سنة تسع عشرة . وسار إلى آمِد ، فصالحه أهلها بعد قتال ، وفتح مَيَّافارِقين على صلح الرُّها ثم سار إلى نَصِيبين ، فقاتَلَه أهلُها ، ثم صالَحوه على مِثل ذلك ،

وفَتَح طُورعبدين ، وحصن ماردين . وقصد الموْصل ، ففتح أحدَ الحِصْنين . وقيل : لم يَصِلها ، وأتاه بِطْرِيق الزَّوْزَان فصالحه ، ثم سار إلى أَرْزَن ففتحها ، ودخل الدرب إلى بَدْلِيس ، وبلغ خِلاط فصالحه بِطْريقُها ، وانتهى إلى العين الحامضة من إرمينيَة ، ثم عاد إلى الرَّقَّة ومضى منها إلى مدينة حِمص ، ومات فى سنة عشرين ؛ فَعَلى هذا الخبر يكونُ ذلك من فتوح أهلِ الشام .

وعلى كلا القولين ففتحها على يد عِياض بن غَنْم .

قال : ولما مات عِياض استعمَل عمرُ بنُ الخَطَّاب سعيدَ بنَ عامر ابن حِذْيم ، فلم يلبَث إلاَّ قليلا ومات ، فاستعمل عُمَيرَ بنَ سعد الأَنصاريّ ، فَفَتَح رأْسَ عَيْن بعد قِتال شديد . وقيل : إنَّ عِياضا أَرسَل عمَير بن سعد إليها فَفَتَحها . وقيل : إنَّ عمرَ رضى الله عنه أَرسَلَ أبا موسى الأَشعريّ إلى رأْسِ عَيْن بعد وَفاةِ عِياض ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

انتهَى فتوحُ الشام فى خلافة عمرَ رضى الله عنه ؛ فلنذكر فتوحَ العِراق ، وما والاه .

وإذا انتَهَت الفُتوحاتُ إن شاء الله تعالى ذكَرْنا الغَزَوات إلى أرض الرُّوم من الشام .

ذكر فتوح العراقين وما والاها من بلاد فارس

وغيرها وغزو الترك وفتح خراسان وسجستان وغير ذلك من الوقائع

كان ابتداءُ أمرِ العِراق أن المثنَّى بن حارثَة الشيبَانىّ قَدم على أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه فى مَرَضه الَّذِى ماتَ فيه ، فأوصَى أبو بكر عمرَ بالمبادَرة إلى إرسال الجُيوش معه إلى العِراق ، فلمّا أصبح عمرُ من اللَّيلة الَّتى مات فيها أبو بكر نَدبَ النَّاسَ إلى الخروج مع المثنَّى بن حارثة ، ثم بايع النَّاسَ ، وندبَهم وهو يُبايَع ثلاثا ، فلم ينتدِبْ أحدٌ إلى فارسَ ، وكانوا أثقَلَ الوُجوه على المسلمين ، وأكرهها إليهم لشدّة سُلطانهم وشَوْكتِهم ، فلمّا كان اليَوم الرابع ندب النَّاس إلى العِراق ، فكان أوّل منتدِب أبو عُبَيْد بن مَسعود الثَّقفىّ ، وهو والد المُخْتَار ، وسعد بن عُبَيدَة الأنصارىّ ، وسَلِيط بن قَيْس ، وهو بَدْرىّ .

وتتابع النَّاس ، وتكلَّم المثنَّى بنُ حارثة ، فقال : أيّها النَّاس ، لايعظُمنَّ عليكم هذا الوجه ، فإنا قد فَتَحْنَا ريف فارَس ، وغلبْناهم على خَيْر شِقَّيِ السَّواد ، ونِلْنا منهم ، واجترأْنا عليهم ، ولَها إن شاء اللهُ مَا بَعْدَها . فاجتمع النَّاسُ . وقيل لعمر : أمِّرْ عليهم رجلا من التَّابعين من المهاجِرين والأنصار ، فقال : : والله لا أفعَل ، إنَّما رَفَعهم الله تعالى بسَبْقِهم ومُسَارَعتهم إلى العَدُوّ ، فإذا فعل فعلَهم قومٌ ، وتَثاقَلوا هُمْ ، كان الَّذين ينفِرون خِفافًا وثِقالاً ويَسْبِقون أوْلَى بالرِّياسة ، واللهِ لا أُؤمِّر عليهم إلاَّ أوَّلَهم انتدابا ، ثم دعا أبا عُبَيد وسَعْدًا وسَلِيطا . وقال لسَعْد وسَلِيط : لو سبَقْتماه لولَّيْتُكُما ، وأمَّرَ أبا عُبيد ، وقال له : اسمَع من أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم ، وأشرِكْهم فى الأمر ،

ولم يَمنعْنى أن أُؤَمِّرَ سَليطا إلاَّ سُرْعته إلى الْحَرْب ، وفى التسرُّع إلى الْحَرْب ضَياع ، وأوصَى أبا عُبيد بُجنْده .

وأمَر عُمر المثنَّى بالتقدُّم حتى يقدَم عليه أصحابُه ، وأمَرَهم باستنفار مَنْ حَسُنَ إسلامه من أهلِ الرِّدة ، فَفعلوا ، وسار المثنَّى فقَدِم الحِيرةَ فى عشرٍ ، وقَدِم أبو عُبيد بعدَه بشهر .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ذكر وقعة النمارق

كانت[1] هذه الوقعةُ فى سنة ثلاثَ عشرةَ ، وذلك أن بُوران كانت يومَئذ على الفُرْس ، فأرسلَت إلى رُستم بن الْفَرُّخزاذ — وكان على فَرْج خُراسان — فَحضرَ ، فتوَّجَتْه ، ودَعَت مَرازبةَ فارِس أن يَسمَعوا له ويُطيعوا ، فدانتْ له فارِس ، فكَتَب رُسْتم إلى الدَّهَاقِين أن يثُوروا بالمسلمين ، وبعث فى كلِّ رُسْتاق رجلاً يَثُور بأهْله ، فبعثَ جَابان إلى فرات بادَقْلَى ، وبعث نرْسى إلى كسْكَر ، وواعدهم يوما ، وبعث جُندًا لمُصادَمة المثنَّى ، وبلَغ المثنَّى الخبر فَحذِر ، وعَجِل جابان وَنزَل النَّمارق ، وثارُوا ، وخرج أهلُ الرَّسَاتيق مِن أعلى الفُرات إلى أسفله ، وخرج المثنَّى من الحِيرة ، فَنزَل خَفَّان لئلَّا يُؤتَى من خَلْفِه ، وأقامَ حتى قدِم عليه أبو عُبَيد ، فلمَّا قَدم أقام أيّاما ليستريح هو وأصحابه ، واجتمع إلى جابان بَشَرٌ كثير بالنَّمَارق ، فسار إليه أبو عبيد ، وجعل المثنَّى على الخَيْل ، وكان على مُجَنِّبَتَىْ جابان جُشنس ماه ومَرْدَانْشَاه ، فالتَقَوْا واقتتَلوا بالنَّمارق قتالاً شديدًا ،

(١) ابن الأثير : ٢ : ٢٩٨ ، الطبرى ٣ : ٤٤٦ .

فهَزَمَ اللهُ الفُرْسَ ، وأُسِرَ جَابان ؛ أسره مَطَرُبن فِضَّة التَّيْمى ، وأُسِرَ مردانْشَاه ، أَسَره أَكْتل بن شَمَّاخ العُكْلىُّ فَقَتَله . وأَمّاجابان فإنَّه خَدَع مطرا ، وقال : هَلْ لك أن تؤمِّنَنى ، وأُعْطِيكَ غلامين أَمْرَدَيْن خفيفَين فى عَمَلك ، وكذا وكذا ؟ فخَلَّى عنه ، فأَخذَه المسلمون ، وأتوْا به أبا عُبَيد ، وأخبَروه أنَّه جابان ، وأشارُوا عليه بقتْله ؛ فقال: إنِّى أخاف الله أنْ أقتُلَه ، وقد أمَّنه رجلٌ مُسلِم ، والمسلمون كالجَسَد الواحد ، مالَزِم بعضَهم فقد لزِم كُلَّهم ، وتَرَكَه .

وأرسَلَ فى طلب من انهزم حتى أدْخَلوهم عسكر نَرْسى وقَتَلوا منهم . والله سبحانه وتعالى أعلمُ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ذكر وقعة السقاطية بكسكر

ولما[1] لحق من انهزم من الفرس بكَسْكَر وبها نَرْسى، وهو ابن خالة الملك ، سار أبو عبيد إليهم من النَّمارق ، والمثَنَّى فى تعبئته التى قاتل فيها ، وكان على مجنِّبتَىْ نَرْسى بندَوَيْه وتِيرَوَيه ابنا بسطام خال الملك ، ومعه أهل باروسْما والزَّوابى ، وكانت بُوران ورُسْتم قد بلغهما خبر هزيمة جابان ، فبعثا الجالينوس إلى نَرْسى مددا ، فعاجلهم أبو عُبيد ، فالتقوْا من مكان يُدعَى السَّقاطيَة ، فاقتَتَلوا قِتالا شديدا ، ثم انهزمت الفرْس ، وهَرب نرسى وغَلَب المسلمون على عَسْكَره وأرضِه ، وجَمعوا الغنائم .

وأقام أبُو عُبيد وبعث المثَنَّى إلى باروسما ، وبعث والِقًا إلى

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٩٩ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٤٠٠ .

الزَّوَابى ، وعاصمًا إلى نهر جُور ، فهزموا من كان قد تجمّع هناك وأخربوا ، وسَبَوْا أهل زَنْدَوَرْد وغيرها ، وبذل لهم فَرُّوخ وفروندادَ على أهل باروسما والزَّوابى وكَسْكر ونهر جَوْبَر الخراج مُعَجَّلاً ، فأجابوه إلى ذلك وصارُوا صُلْحا .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمدُ لله وحده ، وصلّى الله على سيّدنا محمد .

ذكر وقعة الجالينوس

قال : ولمّا[1] بعث رُسْتُم الجالينوسَ سار فنَزَل بباقُسْياثا من بارُوسْمَا ، فسار إليه أبو عُبَيد ، وهو على تعبئته فالتَقَوْا بها واقتتَلوا ، فَهزَم اللهُ الفُرْس ، وَهَرَب الجالِينُوس ، وغَلَب أبو عبيد على تلك النَّواحى ، ثمّ ارتَحَل حتى قَدِم الحِيرة .

ذكر وقعة قس الناطف

ويقال لها : وَقْعة الجِسْر ووقعة المَرْوَحَة

ومقتل أبى عُبَيد وغيره

لما[2] رَجَع الجالِينوس إلى رُسْتم منهزما ، قال رُسْتم : أىُّ العَجَم أشَدُّ على العَرَب ؟ قالوا : بَهْمَن جاذوَيْه المعروفُ بذِى الحاجب - وإنّما قيل له ذو الحاجب لأنّه كان يَعصِب حاجبَيْه بعِصابة ليَرفَعها كِبْرا - فوجّهه ومعه فِيلُه ، ورَدَّ الجالينوس ، وقال لبَهْمن : إن انهزم

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٠٠ ، وذكرها الطبرى فى الموقعة التى قبلها .
(٢) تاريخ بن الأثير ٢ : ٣٠١ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٤٥٤

الجالينوس مرّة ثانيةً فاضرِب عنقَه . فأقبل بَهْمن جاذَوَيْهِ ومعه « دِرفس كابيان » راية كِسرَى ، وكانت من جُلودِ النُّمور ، طولها اثنا عَشرَ ذِراعا فى عرض ثمانيةِ أذرُع ، فنزَلَ بقُسّ النَّاطف ، وأقبل أبو عُبَيد فنزل بالمَرْوَحَة ، فرأت امرأتُه دومةأمّ المختار أنَّ رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب ، فشرب أبو عبيد ومعه نفر ، فأخبرتْ أبا عُبيد بما رأت ؛ فقال : هذه إنْ شاء الله الشَّهادة ، وعَهِد إلى النَّاس وقال : إنْ قُتِلتُ فَعلى النَّاسِ فلانٌ ، فإن قُتِلَ فَفلانٌ ... حتى أمَّر الَّذين شربوا من الإناء ، ثم قال : إنقتل [أبو القاسم] (١) فعلى النَّاس المثنَّى . وبعث إليهم بَهمن جاذويه يقول : إمّا أن تَعبُروا إلينا ونَدَعَكم والعُبور ، وإمّا أن تَدَعُونا نعْبُره إليكم ؛ فنهاه الناس عن العبُور ، فأبَى وتَرَك الرأْى ، وقال : لا تكونوا أجرأ على الموت مِنَّا ، فعبرَ إليهم على جِسْر عقده ابن صَلُوبا للفريقين ، فالتقوا واقتتلوا ، فلمّا نظرت الخيُول إلى الفِيَلة وإلى خَيْل الفُرْسِ ، عليهم التَّجافيف ، رأت شيئًا منكرًا لم يكُنْ رأتْ مِثلَه ، فلم تُقدِم عليهم ، فاشتدَّ الأمر على المسلمين ، فترجَّل أبو عُبيد والناس ، ثم مَشوْا إليهم فصافَحوهم بالسُّيوف ، فجعلتْ الفِيَلة لا تَحمل على جماعةٍ إلَّا دفعتْهم ، فنادى أبو عبيد : احْتوِشُوا الفِيْلة واقطعوا بُطُنَها ، واقلبُوا عنها أهلَها ؛ ووثب هوعلى الفِيلِ الأبيَض فقَطع بِطانَه ودفَع الَّذين عليه ، وفعل القومُ مثلَ ذلك ، فما تركوا فِيلاً إلَّا حَطُّوا رَحْلَه ، وقَتَلوا أصحابه . وأهوى الفيلُ لأبى عُبيد فضرَبَه أبو عُبيد بالسَّيف ، وخبَطَه الفيلُ بيَده فوَقع فَوَطِئه وقامَ عليه ، فلمّا بصُر به

(١) من ص .

الناسُ تحتَ الفِيل خشَعتْ أنفُسُ بعضِهم ، ثمّ أخَذ اللّواء الّذى كان أمَّرَه بعده ، فقاتل الفيلَ حتى تنحّى عن أبى عُبَيد ، فاجترّه المسلمون فأحرَزُوه ، ثم قَتَلَ الفِيلَ الأميرُ الّذى بعد أبى عبيد ، وتتابَع سبعةٌ من ثقيف كلهم يأخذ اللّواء ويقاتل حتّى يموت ، ثم أخذ المثنّى اللواء فهرب عنه النّاس ، فلمّا رأى عبدُ الله بنُ مَرْثَد الثّقفىُّ ذلك بادر إلى الجِسْر فقطعه ، وقال : أيها النّاس ، مُوتُوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تَظْفَروا . وحازَ المشركون المسلِمين إلى الجِسْر ، فتواثب بعضُهم إلى الفُرات فَغرق ، وحَمَى المثنّى وفُرسانٌ من المسلمين الناسَ ، وقاتل أبو زُبَيْد الطائىّ حَمِيَّةً للعَرَب ، وكان نَصْرانيًّا ، ثم جاء العُلوجُ وعقدوا الجِسْر ، وعَبر النّاسُ ، وكان آخر من قُتِل عند الجِسْر سَليط بنُ قَيْس ، وعَبَر المثنّى وحَمَى جانِبَه ، فلما عَبرَ ارْفَضّ عنه أهلُ المدينة ، وبقى المَثنّى فى قِلة ، وكان قد جُرِحَ وأُثْبِتَ فيه حَلَق من دِرْعه . وهَلَك من المسمين أربعة آلاف بين قتِيلٍ وغَريقٍ ، وهربَ ألفان وبقى ثلاثة آلاف ، وقُتِل من الفُرس ستّة آلاف ، وأخبِرَ عمرُ عمّن سارَ فى البلاد استحياءً من الهزيمة ، فاشتدّ ذلك عليه ، وقال : اللّهم إنّ كلَّ مُسلِم فى حِلٍّ منّى ، أنا فِئَةُ كلِّ مسلم ، يرحم الله أبا عُبَيد ! لو كان انحاز إلىّ لكنت له فِئةً (١) .

قال : وأراد بَهْمَن جاذَوَيْه العُبورَ خلْفَ المسلمينَ فأتاهُ الخَبَر باختلاف الفُرْس ، وأنّهم قد ثاروا بِرُسْتم ، فرجع إلى المَدائن .

وكانت هذه الوَقْعة فى شعبانَ سنة ثلاث عشرةَ . والله سبحانه وتعالى أعْلَم .

---

(١) فئة : أى موئل .

ذكر وقعة أليس الصغرى

قال[١] : لمّا عاد ذوالحاجب لم يشعر جابان ومَرْدَانْشاه بما جاء به من الخبر ، فخرجا حتى إذا أَخَذَا بالطريق ، وبلغ المُثَنَّى فِعلُهما ، فاستخلف على النَّاس عاصمَ بنَ عمر ، وخرج فى جَريدة[٢] خيلٍ يريدُهما ، فَظَنَّا أنَّه هارب ، فاعترَضاه ، فأخذهما أَسِيرَيْن . وخرج أهل أُلَّيْس على أصحابهما فأتَوْه بهِمْ أسرى ، فعقد لهم بها ذِمَّةً ، وقتَلَهما وقَتلَ الأَسرَى . والله تعالى أعلَمُ .

ذكر وقعة البويب

ولما[٣] بلغَ عمرَ بن الخطَّاب ـ رضى الله عنه ـ وقعةُ الجِسْر ، نَدَبَ النَّاسَ إلى المُثنَّى ، وكان فيمن نَدَب بَجيلة ، وأَمَرُهُم إلى جَرير بنِ عبد الله ، فأتَوا العراقَ ، وقالوا : لا نَكون إلَّا بالشَّام ، فعزَم عليهمْ عمرُ ونَفَّلَهم رُبع الخُمْس ، فأجابُوا ، وسيَّرهم إلى المُثَنَّى ، وبعثَ عِصْمة بن عبد الله الضَّبِّىّ فيمن معه ، وكتبَ إلى أهل الرِّدَّة فلم يأتِه أحدٌ إلَّا رَمَى به المثنَّى . وبعث المثنَّى الرُّسُلَ إلى مَنْ يَليهِ من العَرَب ، فتوافَوْا إليه فى جَمْع عظيم ، وكان فيمن جاءه أَنَس بن هلال النَّمَرِىّ فى جَمْع عظيم من النَّمِر ، نَصارَى ، وقالوا : نُقاتلُ مع قومنا . وبلغ الخبر رُسْتُم والفيْرُزان فبعثَا مِهْران الهَمَذانىّ إلى الحِيرة ، فسمع المثنَّى ذلك وهو بين القادسيّة وخَفَّان ، فاستبْطَن فُراتَ بادَقْلَى ،

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٠٣ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٤٥٩
(٢) الجريدة : خيل لا رجالة فيها .
(٣) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٠٣ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٤٦٠

وكتب إلى جرير وعِصْمة ومَن أتاه من الأمداد بالخَبَر ، وأمَرهم بقَصْدِ البُوَيْب، ومِهْران بإزائه من وراء الفُرات، فاجتمع المسلمون بالبُوَيْب مِمَّا يَلِى الكوفة اليومَ ، وأرسلَ مِهرانُ إلى المثنَّى يقول : إما أن تَعْبُرَ إلينا ، وإمّا أن نَعبُرَ إليكَ ، فقال المثنَّى : اعبرُوا ، فعَبَر مِهران فَنزل بشاطئ الفُرات ، وعَبَّى المثنَّى أصحابَه ، وكان فى شهر رمضان ، فأمرهم بالإفطار ليقوَوْا على عَدوّهم ، فأفطَروا ، وأقبَل الفُرس فى ثلاثة صُفوفٍ ، مع كلِّ صفٍّ فِيلٌ ، ورجّالتهم أمامَ فِيَلِهم ، ولهم زَجَلٌ(١) .

فقال المثنَّى : إنَّ الذى تسمعون فَشَل ، فالزَموا الصَّمت ، ثم التقوْا ، واقتَتَلوا أشدَّ قتالٍ وأعْظَمه ، فقُتِل مِهْران ؛ قتله غلام نصرانىّ من تغلِب ، واستولى على فرسه ، فجعل المثنَّى سَلَبَه لصاحب خَيْله ، وكان التَّغْلَبِى قد جلب خيلاً هو وجماعةٌ من تغلِب ، فلمّا رأوا القتالَ قاتلوا مع العرب ، وانهزمت الفُرْس ، وسبقَهم المثنَّى إلى الجِسْر فافترق الأعاجمُ مُصعِدين ومنحدِرين ، وأخذتْهم خيولُ المسلمين ، وقُتِل منهم قَتلَى كثيرة ، فكانوا يَحْزُرون(٢) القتلَى مائةَ ألف ، وسُمِّىَ ذلك اليوم يومُ الأعْشار ، وأُحْصِى مائةُ رَجُل ، قتلَ كُلَّ رجل منهم عَشرَة . وتَبِعهم المسلمون إلى اللَّيل ، ومن الغد إلى اللَّيل ، وأرسلَ المثنَّى الخيلَ فى طلب العَجَم ، فبلغوا السِّيب ، وغَنِموا من الغنائم والسَّبْى والبقرِ شيئًا كثيرًا ، فقسَّمه المثنَّى فيهم ، ونَفَّل أهلَ البَلاء ، وأعطَى بَجِيلةَ رُبْع الخُمس . وأرسَل إليه الَّذين تَبِعوا

(١) زجل ، أى صوت .
(٢) الحزر : التخمين

من انهزم يعرفونه بسلامتهم ، وأنّه لا مانعَ دونَ القوم ، ويستأذنونه فى الإقدام ، فأذِن لهم ، فأغاروا حتى بلغوا ساباط ؛ فتحصّن أهلُه منهم ، واستباحوا القرى ، ورجعتْ مَسالِحُ الفُرْس إليهم ، وسرّهم أنْ يَتْرُكوا ما وراء دِجْلة .

ذكر خبر سوقى الخنافس وبغداد

قال(١) : ثم خلّف المثنّى بالحِيرة بَشِيرَ بنَ الخصاصِيّة ، وسار يَمْخُر السَّواد ؛ وأرسل إلى مَيْسانَ ودَسْت مِيسان ، وأدْنى المسالِح ، ونَزَل أُلَّيْس (قريةٌ من قرى الأنبار) ، وجاء المثنّى رجلان أحدُهما أنْبارىٌّ فدلّه على سُوق الخَنافِس ، والثانى حِيرِىٌّ ودلّه على سُوقِ بغداد ، فبدأ بسُوق الخَنافِس ؛ لأنّها كانت تقوم قبل سوق بَغداد ، وكان يجتمع بها تُجّار مَدائِن كِسرى والسّواد ، وتَخفِرهم ربيعةُ وقُضاعةُ ؛ فأغار المثنّى على الخنافِس يومَ سُوقها ، فانتسف السُّوقَ وما فيها ، وسَلب الخُفَراء ، ثم رجع فأتَى الأنْبارَ ، فنزل أهلُها إليه ، وأتَوْه بالأعْلاف والزّاد ، وأخذ منهم الأدِلّاء على سُوق بَغْداد ، وسار ليلاً ، فصبّحهم فى أسواقهم فوضع السَّيفَ فيهم ، وأخذَ ماشاء ، وقال لأصحابه : لا تأخذوا إلّا الذهبَ والفضّة والحُرَّ من كلّ شىء ، ثم عاد راجعا حتى أتَى الأنبار ، وكان مَنْ خلفه من المسلمين يَمخُرون السَّواد ، ويَشُنُّونَ الغاراتِ ما بين أسفلِ كَسْكَر وأسفلِ الفُرات ، وجسور مِثْقب إلى عَيْنِ التَّمْر ؛ ولمّا رَجَع المثنّى إلى الأنْبار بعثَ المُضَاربَ(٢) إلى الكَباث ، وعليه فارس العُنّاب التَّغلبىّ ، ثم لحِقهم

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٠٦ ، الطبرى ٣ : ٤٧٢

(٢) ابن الأثير : « المضارب العجلى »

المثنَّى فسار معهم ، فوجدوا الكَبَاث وقد سار من كان به عنه ، فسار المسلمون خلفَهم ، فقتَلوا فى أُخْرِيَات أصحاب فارس العُناب ، وأكثروا القتلَ ورجَعوا إلى الأَنْبار ، وسرّح المثنَّى فُرات بن حيّان التغلَبى وعُتَيْبَة بن النَّهاس ، وأمَرَهما بالغارة على أحياء بنى تَغْلِب بصِفِّين ، ثم اتَّبعهما واستَخلَف على النَّاس عَمرو بنَ أبى سُلْمى الهُجَيْمىّ ، فلما دَنَوْا من صِفِّين فرَّ منْ بها ،وعَبَروا الفُرات إلى الجزيرة وفَنِىَ الزَّاد الَّذى كان مع المثنَّى وأصحابِه ، فأكَلوا رواحلَهم إلَّا مالا بُدَّ منه حتَّى جلودَها ، ثم أدرَكوا عِيرًا من أهل دَبَا وحَوْران فقتلوا مَنْ بها ، وأخَذوا ثلاثةَ نفرٍ من تَغْلِبَ كانوا خُفَراء ، وأخذوا العِير فقال لهم المثنَّى : دُلُّونى ؛ فقال أحَدُهم : أمِّنونى على أهلى ومالى ، وأدُلُّكم على حَىٍّ مِنْ تَغْلِب ، فأمَّنه المثنَّى ، وسار بهم يَوْمه ، فهَجمَ العَشِىَّ على القوم والنَّعَم صادِرَةٌ عن الماء ، وأصحابها جلوس بأَفْنِيَة البيوت ، فقَتَل المقاتِلة ، وسَبَى الذُّرِّية ، واستاقَ الأموال .

وأُخبِر المثنَّى أنَّ جُمهورَ مَن سلَك البلادَ قد انتجَع شاطئَ دِجْلة ؛ فخرج المثنَّى وعلى مجنَّبتيه النُّعمانُ بنُ عَوْف ومَطَر الشَّيْبانِيَّان ، وعلى مقدِّمته حذيفة بن مِحصَن الغَلْفانىّ ، فسارُوا فى طَلبهم فأدرَكُوهم بِتَكْرِيت ، فأصابوا ما شاءُوا من النَّعَم ، وعادُوا إلى الأَنْبار .

ومَضَى عُتَيْبةُ وفُرات ومَنْ معهما حتَّى أغارُوا على صِفِّين ، وبها النمِر وتَغْلِب متسانِدَين ، فأغاروا عليهم حتى رمَوْا طائفةً منهم فى الماء ، فجعلوا ينادُونهم : الغَرَق الغَرَق ! وجَعَل عُتيبة وفرات يُذمران(١)

(١) يذمران : يحضان .

الناسَ ويناديانِهم : تَغْريق بتَحْريق ! يذكِّرانهم يَوْمًا من أيّام الجاهليّة ، كانوا حرّقوا فيه قومًا من بكرِ بنِ وائلَ فى غَيْضة من الْغِياض . ثم رجعوا إلى المثنّى وقد غرّقوهم . فبلغ ذلك عُمر ، فبَعث إلى عُتَيبة وفُرات ، فاستدعاهما وسألهما عن قولهما ، فأخْبرَاه أنّهما لم يَفْعلا ذلك على وَجْه طلب ذَحْل (١) ، إنّما هو مَثَلٌ ، فاستحلَفهمَا على ذلك ورَدّهما إلى المُثنّى .

وكانت هذه الوقائعُ الّتى ذكرناها بالعِراق فى سنة ثلاثَ عشرةَ . ثمّ كانت وقعةُ القادسيّة ، والله أعلم .

ذكر خبر القادسية وأيامها

كان (٢) ابتداءُ أمرِ القادسيّة أنّ الفرسَ لمّا مات مَلِكُهَا أزْدَشير تفرّقتْ آراؤُهَا ، وكان المسلمون قد فَتَحوا من بلادهم ما ذكرناه فى خلافة أبى بكر الصِّدِّيق – رضى الله عنه – فى حياة أزْدَشير ، ثم تابعوا الغارات عليهم ، فاجْتمعَت الفرسُ وقالوا لِرُسْتُم والفَيْرُزان – وهما على أهلِ فارس – : لا زال بكما الاختلاف حتى أوْهَنْتُما (٣) أهلَ فارس ، وأطمعْتُما فيهم عَدوَّهم .

فاجتمعوا واستدعوْا نِساء كِسْرى وسَرارِيَّه ، وكشفوا عمَّن بَقِىَ مِنْ نَسْلِ الملوك الأكاسرة ، فَدلُّوهم على يَزْدَجِرْد ، من ولد شَهْريار ابن كسرى ، فاستدعَوْه وملَّكُوه عليهم وأطاعُوه . فَبلغ خبرُهم المثنّى ابن حارثة ، فكتب بذلك إلى عمر ، فلم يَصل الكتابُ حتّى نَقَض

(١) ذحل ، أى وتر ، وفى ك : « دحل » تحريف .

(٢) ابن الأثير ٢ : ٣٠٩ وما بعدها ، تاريخ الطبرى ٣ : ٤٧٧ وما بعدها ، وذكر ذلك فى حوادث سنة ١٤ .

(٣) ص : « أوهيتما » .

من كان له عَهْدٌ من أهل السَّوادِ ، فخرج المثنَّى حتَّى نَزَل بذى قار ، ونزل النَّاس بالطَّفِّ فى عسكر واحدٍ .

ولما وصل كتابُ المثنَّى إلى عمر قال : والله لَأَضْربنَّ ملوك العجم بملُوك العرب ؛ وكتب إلى عمَّاله على العرب : ألَّا يَدعوا مَنْ له نجدةٌ أو رأْىٌ ، أو فرسٌ ، أو سلاحٌ إلَّا وجَّهُوه إليه ، وذلك فى ذى القعْدة سنة ثلاث عشرةَ .

فاجتمع إليهِ النَّاسُ ، ولم يَدَعْ رئيسًا ولا ذا رأْىٍ وشَرَف ، ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلَّا استشَارَهم فى الخرُوج بنفسه لغَزْوِ الفُرْس ، وأجمعَ رأْىُ وجوهِ أصحاب النَّبىِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَبعث رجلاً من المسلمين ويَضُمَّ إليه الجُنودَ ، واتَّفَقَ رأْيُهم على سعد بن أبى وَقَّاص ، وكان على صَدَقَات هَوازِن ، فكَتبَ إليه عمرُ بانتخاب ذَوِى الرأْى والنَّجْدةِ والسِّلاَحِ ، فجاء كتابه إلى عمر يقول : قد انتخبتُ لك ألفَ فارسٍ ، كُلُّهم له نجدةٌ ورأْىٌ ؛ إليهم انتهَتْ أحسابُهم . فأمره بحرب العراقِ وضمَّ إليه الجيوش ، فخرج فى أربعة آلافٍ ، وأمدَّه عمَرُ بعد خروجِهِ بألفَىْ يمانىّ ، وألفىْ نجدىّ . وكان المثنَّى بنُ حارثَة فى ثمانيةِ آلافٍ ؛ فلمَّا سار سعدٌ تُوُفِّىَ المثنَّى قبل وصولِه ، واجتمع مع سعدٍ ثمانيةُ آلافٍ ، ثم أتتْه قبائلُ العَرَبِ : فكان جميعُ من شَهِدَ القادسيَّة بضعةً وثلاثين ألفًا ؛ منهم تسعةٌ وتسعون بَدْريا ، وثلثمائة وبضعة عشر مِمَّن كانت له صحبةٌ فيما بَيْن بيْعةِ الرِّضْوان إلى ما فوق ذلك ، وثلثمائة مِمَّن كان شَهِدَ الْفَتْح ؛ وسبعمائةٍ مِنْ أبناء الصَّحَابة ، فعبَّأهم سَعْدُ بنُ أبى وقَّاص ، وأمَّر الأُمَرَاء ، وعرَّف على

كلٍّ عشرة عريفا ، وجَعَل أهلَ السَّابقة على الرَّايات ؛ وسار بالجيوشِ حتى نزل القادسيَّة بين العتيق والخَنْدق بحيال القنطرةِ ، وأقام بها شهْرا لم يأْتِهِ من الْفُرس أحدٌ ، فأرسلَ عاصِمَ بن عمرو يطلبُ غنمًا أوبقرًا ، فلم يقْدِرعليها ، وتحصَّنَ مِنْه مَنْ هُناكَ ، فأصاب رَجُلاً بجانب أجَمةٍ ، فسأَلَه عن البقرِ والغنمِ ، فقال : لا أعلم ؛ فصاح ثَوْرٌ من الأَجَمَةِ : كذبَ عَدُوُّ الله ، ها نحن ، فدخل عدوُّ اللهِ ، فاستاق البقَرَ وأتى بها العسكر ، فقسَّمَهَا سعْد على النَّاس . ثم بَثَّ الغارات بَيْن كَسْكر والأنبار ، فَحَوَوْا من الأَطْعمةِ ما قام بهم زمانًا ، فاستغاث أهلُ السَّواد إلى يَزْدَجِرد وقالوا : إمَّا أن تَدفع الْعَرب ، وإمَّا أن نُعطِيَهم ما بأيدينا ، فأرسلَ إلى رُسْتُم وأمره بالمسير للقاء المسلمين ، فاستعفاه من ذلك وسأله أن يُجَهِّزَ الجالِينوس ، فأبى يَزْدَجرد إلَّا مسيرَه ، فعَسْكر بسَاباط ، ثم استعفاه ثانيةً من المَسير ، فأبَى عليه .

واتَّصَلَت الأخبار بسعد ، فكتب إلى عمرَ فأجابه : لا تكرِبنَّك ما يأْتيك عنهم ، واستعِنْ بالله ، وتوكَّلْ عليه ، وابعث إليه رجالاً من أهل المُناظَرةِ والجَلَد يَدْعونه ، فإنَّ الله تعالى جاعلٌ دعاءهم تَوْهينًا لهم ؛ فأرسلَ نفرًا ، منهم : النُّعمانُ بن مُقَرِّن ، وبُسْر بن أبي رُهْم ، وحَمَلة بن جُوَيّة ، وحَنْظلة بن الربيع ، وفُرات بنُ حَيَّان ، وعَدِيّ بنُ سُهَيل ، وعُطارِد بن حاجب ، والمغيرةُ بنُ زُرارة الأَسَديّ ، والأشعثُ بنُ قيس ، والحارث بنُ حسّان ، وعاصم بنُ عمرو ، وعَمرو بنُ مَعدى كَرِب ، والمغيرةُ بنُ شُعبة ، والمُثنَّى بنُ حارثة ، إلى

يَزْدَجِرد دُعاةً ، فقَدِموا عليه ، فأَحضَرَ وُزراءه ، وأَحضَرَ رُسْتُم ، واستشارهم فيما يقول لهم ، واجتمع النَّاسُ ينظرون إليهم ، ثم أَذِنَ إليهم ، وأَحضَر التَّرجُمان ، وقال له : سَلْهُم ما جَاء بكم ؟ وما دَعاكُم إلى غَزْوِنا ، والوَلوع ببلاَدِنا ؟ من أَجل أَنَّنَا تَشَاغلْنا عنكم اجترأْتُم علينا ! فقال النُّعْمَان بنُ مُقَرِّن لأَصحابه : إنْ شئتم تكلَّمتُ عنكم ، ومن شاء آثَرْتهُ . قالوا : بل تكلَّم ؛ فقال : إنَّ الله رَحِمَنا ، فأَرسَل إلَيْنَا رسولاً يأْمُرنا بالخير . وينهانا عن الشَّرّ ، وَوَعَدَنَا عَلَى إجابَتِهِ خيرَ الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلةً إلَّا وقارَبَه منها فِرْقة ، وتباعَدَ عنه فِرقه ، ثم أمر أن نَبْتدئ إلى من خَالَفَه من العرب فبدأْنا بهم ، فدَخَلوا معه على وجهَيْن ؛ مكرهٌ عليه فاغتَبَط ، وطائِعٌ فازداد ، فعرَّفْنا جميعا فَضْلَ ما جاء به على الَّذى كنَّا عليه من العَداوةِ والضِّيقِ ، ثم أَمَرَنا أن نبدأَ بمَنْ يَلِينا من الأُمَم فَنَدْعُوَهم إلى الإنصاف ، فنحن نَدْعُوكم إلى ديننا ، وهو ين حَسَّن الحسَنَ ، وقبَّح القبيحَ كلَّه ، فإن أَبَيْتم فأَمرٌ من الشَّرِ هوَ أَهوَنُ من آخر شرٍّ منه ، الجِزْية ، فإن أَبَيْتم فالمناجَزة ، وإنْ أَجبتم إلى دِيننا خَلَّفْنا فيكم كتابَ اللهِ وأَقَمْنَا عليه . على أَنْ تَحكُموا بأَحكامه ، ونرجع عنكم وشَأْنَكُم وبلادَكم . وإن بَذَلْتُم الْجِزية قبِلْنا ومَنَعنَاكم ، وإلَّا قاتلْناكم :

فتكلَّم يزدجرد فقال : إنِّى لا أَعْلَمُ أُمَّةً فى الأَرض أَشْقى ولا أَقلَّ عَدَدًا ، ولَا أَسْوَأَ ذاتَ بَيْنٍ منكم ، قَدْ كُنَّا نُوكِلُ بكمْ قرى الضَّوَاحى فيَكفُوننا أَمْرَكم ، ولا تطمعوا أَن تقوموا لفارس ، فإن كان غَدْرٌ لحِقكم فلا يغرّنكم منَّا ، وإن كان الْجَهْد فرضنا لكم قُوتًا إلى خِصْبكم ،

وأكرمنا وُجوهكم وكَسَوْناكم ، وملَّكنا عليكم ملِكا يَرْفُقُ بكم . فأَسْكَتَ (١) القوم .

فقام المغيرةُ بنُ زُرارة فقال : أيّها الملك ؛ إنَّ هؤلاء رءوسُ العَربِ وَوُجُوهُهُم ، وهم أشرافٌ يستحْيُون من الأشراف ، وليس كلُّ ما أُرسِلُوا به قَالُوه ، ولَا كلُّ ما تَكَلَّمْتَ به أَجَابُوكَ عليه ، فجاوبْنى لأَكُون الَّذى أُبلغك وهم يشهدون على ذلك . وأمَّا ما ذكرتَ من سوءِ الحالِ فهى على ما وصَفت أو أَشَدّ ، ثمّ ذكر مِن سوءِ عَيْشِ العَرَبِ ، وإرسالِ النبيّ صلَّى الله عليه وسلم إليهم نحوَ قول النُّعمان ، وقتالِ من خالَفَهم أو الْجزية ؛ ثم قال : اختَرْ إن شِئْت الجزيةَ عن يَدٍ وأنت صَاغر ، وإن شئتَ السيفَ ، أو تُسْلِم فتنجِّىَ نَفْسَك .

فقال : لولا أن الرّسل لا تُقْتَل لَقَتَلْتُكم ، ثم قال : لا شىء لكم عندى ؛ واستدعى بوِقْرٍ (١) من تُرابٍ ، فقال : احمِلوه على أَشْرَف هؤلاء ثمّ سُوقوه حتَّى يَخرج من باب المدينة . ارجعُوا إلى صاحبِكم فأَعلِموه أنِّى مُرسِلٌ إليكم [رستم] (٣) حتى يَدفنَكم ويدفنَه معكم فى خندق القادسيّة ، ثم أُورِده بلادَكم حتَّى أُشغِلكم فى أنفسكم بأَشدّ مما نالكم من سابور .

فقام عاصم بن عمرو ليأْخذ التراب ، وقال : أنا أَشْرفهم ، أنا سَيِّد هؤلاء ؛ فحمله على عُنقِه وخرج إلى راحلتِهِ فركبها وأخذ التراب ، وقال لسعد عند عَوْده : أَبشرْ فقد وَالله أعطانَا الله أقاليدَ ملكهم (٤) .

---

(١) أسكت ، مثل سكت .
(٢) الوقر : الحمل الثقيل .
(٣) من ص .
(٤) الأقاليد : جمع أقلود وهو المفتاح .

وقال يَزْدجرد لرُسْتم : ما كنتُ أرى أنَّ فى العَرب مِثلَ هؤلاء . ما أنتم بأحسَن جواباً منهم ، ولقد صدَقَنى القومُ ، لقد وَعَدوا أمرًا ليُدرِكنَّه أو ليموتُنَّ عليـه ، على أنّى وجـدت أفضلهم أحْمَقهُم حيث حَمَل التُّرابَ على رأسه .

فقال رستم : أيُّها الملك ؛ إنَّه أعقلُهم . وخرج رستم وبَعَث فى أثر الوفد ، وقال لثِقَته : إن أدركَهم الرّسولُ تلافَيْنَا أرضَنا ، وإن أعـ زُوه سلبكُم اللهُ أرضَكم . فرجَعَ الرسولُ من الحِيرة بفوَاتهم . فقال : ذهب القومُ بأرضِكم من غير شكٍّ ، وكان منجِّما كاهنا .

ولما سار الوفد أغار سوادُ بنُ مالك التّميمىّ على النِّجاف والفِراض ، فاستاق ثَلثمائة دابّةٍ من بعير وحمارٍ وثورٍ ، وأوْقَرَها سَمَكا ، وصَبَّح العسكرَ ، فقسَّمه سعدٌ بين النَّاس ؛ فسمِّىَ يومَ الحيتانِ . وكانت السَّرايا تَسرِى إلى طلب اللُّحوم ، فإنَّ الطَّعامَ كان كثيرًا عندهم . وكانوا يُسمُّون الأيّام بها ؛ منها يومُ الأباقِر ويوم الحِيتان . وبعث سعدٌ سَرِيّةً أُخرى ، فأغاروا فأصابوا إبِلاً لبنى تَغلِب والنَّمِر فاستاقوها .

وسار رستم من ساباط . وبعث على مُقَدِّمتِه الجالِينُوس فى أربعين ألفًا ، وخرج هو فى ستِّين ألفًا ، وساقَته فى عشرين ألفًا ، وجعل فى المَيْمَنَةِ الْهرْمُزان ، وفى المَيسرة مِهْران بن بهرام الرازىّ . وأرسَل سعد السَّرايا ورُسْتُم بالنَّجَف ، والجالينوس بين النَّجف والسَّيْلَحين . وطاف فى السَّوادِ ، فبعث سَوادا وحُمَيْضَة كلٌّ مِنهما فى مائة ، فأغاروا على النَّهْرين ، وبلغ رستم الخبرُ ، فأرْسَلَ إليهم خَيلا ، وسمع سعد أنَّ خيْلَه قد وغلتْ ، فأرسل عاصمَ بنَ عمرو وجابرًا الأزْدىَّ فى آثارهم .

فلحقهم عاصِمُ وخيْلُ فارس تَحوشُهم ليخلِّصوا ما بأيديهم ، فلمَّا رأته الفُرْس هَرَبوا ، ورجع المسلمون بالغنائم . وأرسل سَعْدٌ عمرو ابن معْدِى كِرب وطليحةَ الأسدىّ طليعةً ، فسارا فى عشرةٍ ، فلم يسيروا إلَّا فَرْسَخًا وبَعْضَ آخرَ حتى رأَوْا مَسالِحهَم وسَرْحهم على الطُّفوف قد ملئوها ، فرَجع عَمرو ومن معه ، وأَبَى طُلَيْحَة إلَّا التقدّم ، ومضى حتَّى دخلَ عسكرَ رُسْتُم ، وبات فيه ، فهتك أَطناب بَيْت رجل واقتاد فرسه ، ثم هتك على آخر بيته وحلَّ فرسه ، ثم فعل بآخر كذلك ، ثم خرج يَعدُو به فرسُه ، ونَذِرَ به[1] النَّاس ، فركِبوا فى طَلَبه ، فأَصبح وقد لَحِقَه فارسٌ من الجُنْد فقَتَله طُليحةُ ، ثم آخرُ فقتله ، ثم ثالث ، فرأَى مصْرع صاحبيْه وهما ابنا عمِّه ، فازداد حَنَقًا ، فلحق به طُلَيْحة ، فكرَّ عليه طُلَيْحةُ فأَسَرَه ، ولحِقَ النَّاس ، فرأَوْا فارسَى الجندِ قد قُتِلا وأُسِرَ الثالث ، وقد شَارَفَ طُلَيْحةُ عَسْكَره فأَحجَموا عنه ، ودخل طُلَيْحةُ على سعد ومعه الفارس وأَخبَرَه الْخَبر ، فسأَلَ التُّرجمانُ الفارسىَّ فطلبَ الأَمانَ ، فأَمَّنَهُ سَعْد ، فقال : أُخبركم عن صاحِبِكُم هذا قَبلَ أَن أُخبِركم عَمَّنْ قُتِلَ ؛ باشرْتُ الحروبَ منذ أَنا غلامٌ إلى الآن ، وسمعتُ بالأَبطال ، ولم أَسمعْ بمثل هذا ، أَنَّ رجلاً قَطَع عَسْكَرين إلى عسكرٍ فيه سبعون أَلْفًا يَخدُم الرجلَ منهم الخمسةُ والعشرةُ ، فلم يَرضَ أَنْ يخرجَ كما دخلَ حتى سَلَب فُرْسانَ الجنْدِ ، وهتَك عليهم البيوت ، فلمَّا أَدْركنَاهُ قتلَ الأَوَّلَ ، وهو يُعدُّ بأَلفِ فارس ، ثم الثَّانِى وهو نظيرُهُ ، ثم أَدْركْتُهُ أَنا ، وما خلَّفتُ بعدى مَنْ يَعْدلُنِى ، وأَنا الثَّائر بالقَتِيلين ، فرأَيت الموتَ

(١) نذر به : علم به .

واستؤْسِرْتُ ، ثم أخبره عن الفرس . وأسلَم ولزِمَ طُلَيْحة ، وكان من أهل البَلاء بالقادِسيَّةِ ، وسمَّاه سعدُ مُسلِمًا .

ثم سار رُسْتُم وقَدَّم الجالِينُوسَ وذا الحاجب حتى وَصَل إلى القادسيّة ، وكان بينَ مَسيرهِ من المدائن ووصُوله أربعةُ أشهرٍ ، رَجَاءَ أن يَضْجَروا فَيَنْصَرفوا ، ووَقَف على العَتيق بحِيال [عَسْكر] (١) سَعدٍ ، وكان معه ثلاثةٌ وثلاثون فيلاً ، منها فِيلُ سابورَ الأبيض ، وكانت الفِيلَة تأْلَفُه . وباتَ رُسْتُم ليلتَه . ثم أصبحَ وأرسل إلى سعدٍ أن أرسِلْ إلينا رجُلاً نكلِّمه ويكلمنا ، فأرسل إليه ربعيّ بن عامر ، فأظهر رستم زِينَتَهُ ، وجلسَ على سريرٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وبَسَطَ البُسُط والنَّمارِق والوَسائد المَنْسوجةَ بالذَّهَبِ ، وأقبَلَ رِبْعيٌّ على فرسِه ، وسَيْفُه في خرقةٍ ، ورُمْحُه مشْدودٌ بعَصَبٍ [وقِدّ] (١) ، فلما انتهى إلى البُسُطِ قيل له : انزِلْ ، فحمَل فرسَه عليها ، ونزل وسطها بوسادتين شقَّهما ، وأدخلَ الحبلَ فيهما ، فلم ينهَوْه وأرَوْه التَّهاوُنَ ، وعليه درعٌ ؛ وأخذ عباءة بعِيره فتدرَّعَها وشَدَّها على وسطِه ، فقالوا له : ضَعْ سلاحك ؛ فقال : لم آتكم فأضعَ سِلاحِي بأمركم ، أنتم دعوتمونى ، فأخبِروا رُسْتم ؛ فقال : ائذَنوا له .

فأقبل يتوكَّأُ على رمحه ويُقارب خطوَة ، فلم يدع نُمْرُقةً ولابساطًا إلَّا أفسدَهُ وهتكه ، فلمّا دنا من رستم جلس على الأرض ، وأركزَ رُمْحَهُ على البُسطِ ؛ فقيل له : ما حَمَلك على هذا ؟ فقال : إنَّا لانستحِلُّ القُعُود على زِينتِكم ، فقال له التَّرجُمَانُ - واسمُه عَبُود

(١) من ص .
(٢) من ص .

من أهل الحِيرة – ما جَاءَ بكم ؟ قال : الله ، وهو بعثنا لنُخرِج مَنْ يشاءُ من عبادِه من ضِيقِ الدُّنيا إلى سَعَتِهَا ، ومن جَوْرِ الأَدْيان إلى عدل الإسلام ، فأرسلَنا بدِينهِ إلى خَلْقِهِ ، فمَن قَبِل ذلك قَبِلْنا منه ، ورجَعْنَا عنه ، وتركناه وأرْضَه ، ومَنْ أباه قاتلناه حتى يَقْضِيَ اللهُ إلى الجنَّةِ أو الظَّفَرِ .

فقال رستم : قد سمعْنا قولَكم ، فهل لكم أنْ تؤخِّروا هذا الأمرَ حتَّى ننظرَ فيه ؟ قال : نعم ، وإنَّ مِمَّا سَنَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ألَّا نُمكِّن الأعداءَ أكثرَ من ثلاث ، فنحن متردِّدُون عنكم ثلاثًا فانظُرْ فى أمرِك ، واختَرْ واحدةً من ثلاثٍ بعد الأجَل : إمَّا الإسلامَ وندعَكَ وأرضَكَ ، أو الجِزْيةَ فتقبلَ فنكُفَّ عنكَ ، وإن احتجتَ إلينا نَصَرْنَاكَ ؛ أو المنَابذة فى اليوم الرَّابع إلَّا أنْ تَبْدَأَنَا ، وأنا كفيلٌ بذلك عن أصحابى .

فقال : أَسَيِّدُ أصحابكَ أنت ؟ قال : لا ، ولكنَّا كالجَسَدِ الواحدِ ، بعضُنَا من بَعْضٍ ، يُجِيرُ أَدْنَانَا على أعلانا .

فخلا رُسْتم برؤساء قومِه ، فقال : هل رأيتم أو سمعتم كلامًا قطُّ أعزَّ وأوضحَ من كلامِ هذا الرَّجلِ ؟ فقالوا : معاذَ الله أنْ نميلَ إلى دِين هذا الكَلْب ، أما تَرَى إلى ثيابهِ ! فقال : وَيْحَكُم ! لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظُروا إلى الرأْيِ والكلامِ والسِّيرة ؛ إنَّ العربَ تستخفُّ باللِّباسِ ، وتَصُون الأحسَاب ؛ ليسوا مِثلَكُم .

فلمَّا كان من الغدِ أرسلَ رُستم إلى سَعْدٍ : أن ابعثْ إلينا ذلك الرجلَ ، فبعثَ إليهم حُذَيْفَةَ بنَ مِحْصَن ، فأقبل فى نحوٍ من ذلك

الزِّىّ ، فلم ينزلْ عَنْ فَرسِه حتَّى وقف على رُسْتُم . فقال له : انزِل ، قال : لا أفعل ، فقال : ما جاء بك ولم يأْتِ الأوَّل ؟ قال : إنَّ أميرَنا يُحِبُّ أنْ يَعدِلَ بيننا فى الشِّدةِ والرَّخاء ، وهذه نَوْبَتِى . فقال : ما جاء بكم ؟ فأجابه نحو الأوّل . فطَلب رستُم الموادَعة إلى يومٍ ما . فقال : نعم ، ثلاثًا من أمسِ ، فردَّه .

وأقبَل رُسْتم على أصحابِه فقال : وَيْحَكُم ! ألا ترون ما أرَى ؟ جاءنا الأوّلُ بالأمس فَغَلَبَنا على أرضِنا ، وحَقَّر ما نُعَظِّم ، وأقام فرسَه على زِبْرِجِنا (١) ؛ وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو فى يُمْنِ الطائر ، يقومُ على أرضِنا دُوننا .

فلمَّا كان الغدُ أرسلَ أن ابعَثُوا لنا رجلاً ، فبعث إليهم المغيرةَ بنَ شُعْبة ، فأقبلَ عليهم ، وعليهم التِّيجانُ والثيابُ المنسوجةُ بالذهب ، وبُسُطُهم على غَلْوةٍ سَهْم (٢) ، لا يُوصَل إلى صاحبهم حتى يُمشَى عليها ، فأقبلَ المغيرةُ حتى جلسَ مع رُسْتم على سريره ، فوثَبُوا عليه وأنزَلوه ومعكوه (٣) ؛ فقال : قد كان يبلغنا عنكم الأحلامُ (٤) ، ولا أرى قومًا أسْفَهَ منكم ؛ إنَّا مَعشَر العَرَب لايستَعْبِد بعضُنَا بعضًا ، فظننتُ أنَّكم تُواسُونَ قومَكم كما نَتَواسَى ، فكان أحسنَ مِن الَّذى صنعتمْ أن تُخبِرونى أنَّ بعضكم أربابُ بَعْضٍ ؛ وأنَّ هذا الأمر لايستقيم فيكم ولا يصْنعهُ أحد ، وأنا لم آتكُم ولكن دَعَوْتُمُونى ، اليومَ علمتُ

(١) الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر .
(٢) الغلوة : مقدار مرمى السهم .
(٣) معكوه : دلكوه بالتراب .
(٤) الأحلام : جمع حلم وهو العقل .

أنَّكم مغلوبون ، وأنَّ مُلْكًا لا يقومُ على هذه السِّيرةِ ولا [على] (١) هذه العقُول .

فقالتْ السُّفِلَةُ : صَدقَ واللهِ الأعرابىّ .

وقالت الدَّهاقين (٢) : والله لقد رَمَى بكلام لا يزال عبيدُنا يَنزِعون إليه ، قاتل الله أوَّلينا حين كانوا يُصغِّرون أمَر هذه الأُمّة !

ثمَّ تَكَلَّمَ رُسْتُم ، فحمِد قوته ، وعَظَّم أمرَهم ، وذكَرَ تَمكُّنَهم فى البلاد ، وقوّة سلطانهم ، وذكر معيشةَ العرب وما هم عليه من الْفَاقةِ ، وقال : كنتم تقصدوننا إذا قَحِطتْ بلادُكُمْ ، فنأمر لكم بشىءٍ من التَّمْرِ والشَّعير ، ثم نردّكم ، وقد علمتُ أنَّه لم يَحملكم على ما صنعتم إلاَّ الْجَهْدُ فى بلادكم ، فأنا آمُرُ لأميركم بكُسْوةٍ وبَغلٍ وألفِ دِرهم ، وآمرُ لكلّ رجلٍ منكم بِوِقْرِ (٣) تَمْرٍ وتنصرفون عنا ؛ فإنِّى لست أشتهى أنْ أقتلكم .

فتكلَّم المغيرةُ ، فحمِد اللهَ وأثنَى عليه ، وقال : إنَّ الله خَلَقَ كُلَّ شىءٍ وَرَزَقه ، فمنْ صنع شيئًا فإنَّما هو بصُنْعه . فأمَّا الَّذى ذكرتَ به نَفْسَك وأهلَ بلادِك فنحن نَعرِفه ، والله صنَعه بكم ، ووضَعه فيكم ، وهو له دُونكم ؛ وأمَّا الَّذى ذكرتَ فينا من سوءِ الْحَالِ والضيقِ فلسنا نُنكِره ، واللهُ ابتلانا به ، والدُّنيا دُوَلٌ ، ولم يزلْ أهلُ الرّخاء يتوقَّعُونَ الشدائدَ حتى تنزل بهم ، ولو شَكَرْتُمْ ما آتاكم الله تعالى لكان شُكركم يَقْصُر عمّا أُوتِيتم ، فأسلَمَكم ضَعفُ الشكر

(١) من ص وابن الأثير .
(٢) الدهاقين : جمع دهقان . وهو زعيم فلاحى العجم ، أو رئيس الإقليم .
(٣) الوقر ، بالكسر : الحمل .

إلى تغيُّر الحالِ ، ولو كنَّا فيما ٱبْتَلَيْنَا به أهلَ الكُفْرِ لكان عظيم ما ٱبتلينا به مُسْتجلبًا من الله رحمةً يُرِدُه بها عنَّا ؛ إنَّ الله تبارَكَ وتَعَالَى بَعثَ فينا رسولاً ؛ ثم ذَكَرَ مِثلَ مَا تَقَدَّمَ من ذكر الإسلام ، أو الجِزْية ، أو القتال. وقال : إنَّ عيالَنَا قد ذاقوا طعامَ بلادكم ، فقالوا : لاصَبْر لنا عنه . فقال رُسْتم إذًا تَموتُون دُونه ! فقال المغيرة : يَدْخُلُ من قُتِلَ منَّا الجنَّة ، ومن قُتل منكم النار ، ويَظفَر من بَقِيَ منَّا بمَن بقيَ منكم . فٱستشاط رستم غضبًا ، ثم حَلفَ ألَّا يرتفع الصُّبحُ غدًا حتى أقتلَكُمْ أجمعين .

وٱنصرف المغيرة ، وخلا رُسْتم بأهلِ فارسَ وقال : أين هؤلاء منكم ! هؤلاء والله الرِّجالُ ، صادقين كانوا أمْ كاذبين ! والله لَئِنْ كانَ بَلَغ مِنْ عَقْلِهِمْ وصَوْنِهم لَسَرَّهُمْ ألَّا يَخْتَلِفُوا ، فما قومٌ أبلغ لِما أرادوا منهم ، وإن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء . فلَجُّوا وتَجَلَّدوا ، فقال : أَطِيعونى يا أهلَ فارس ؛ إنِّى لأرى للهِ فيكم نِقْمةً لا تستطيعون ردَّها .

ثم أرسل إليه سعدٌ ثلاثةً من ذَوى الرَّأْى ، فقالوا له : إنَّ أميرنا يدعوك لما هو خيرٌ لنا ولك ؛ والعافية أن تَقْبَل ما دعاك إليه ، ونَرجعَ إلى أرضنا وتَرجعَ إلى أرضك ، ودارُكُمْ لكم وأمرُكُم فيكم ، وما أصبتُمْ كان زِيادةً لكم دُونَنا ، وكُنَّا عَوْنا لكم على من أرادَكُمْ ، فاتَّق الله ولا يكونَنَّ هلاكُ قومِك على يَدَيْك ، وليس بينك وبين أن نَغْتَبطَ بهذا الأمر إلَّا أنْ تَدخلَ فيه ، وتطردَ [به][1] الشيطانَ عنك ؛ فقال

(١) من ص .

لهم : إنَّ الأمثالَ أوضحُ من كثير من الكلام ، إنَّكم كنتم أهلَ جَهدٍ وقَشَف[١] ، لا تَنتَصفون ولا تَمتَنعون ، فلم نُسيءْ جِوارَكُمْ ، وكُنَّا نَمِيرُكم [٢] ونُحْسِنُ إليكم ، فلمّا طَعِمْتُم طعامَنا ، وشَربتُم شرابَنا ، وَصَفْتُم لقومِكم ذلك ، ووعدتُموهُم ثم أتيتُمونا ، وإنّما مَثَلُكُمْ ومَثَلُنَا كمثلِ رجلٍ كان له كَرْمٌ ،فرأى فيه ثعلبا ، فقال : وما ثعلب ! فانطلق الثَّعْلَبُ فدعَا الثَّعالِبَ إلى ذلك الكَرْم ، فلمَّا اجتمعوا إليه شدّ صاحب الكرم النقب الذى كنّ يدخلن منه فقتلهنّ . فقد علمت أن الذى حملكم على هذا الحرص والجهد ، فارجعوا ونحن نَمِيرُكم ؛ فإنِّى لا أشتهِى أنْ أقتلَكُمْ . ومَثَلُكم أيضًا كالذُّبابِ يَرَى الْعَسَلَ فيَقول : مَن يُوصِلنى إليه وله دِرْهَمَانِ ، فإذا دخلَهُ غَرِق ونَشِب[٣] ، فيقول : مَن يُخرِجنى وله أربعة دراهم ؟

وقال : ما دعاكم إلى ما صنعتم ، ولا أرَى عَدَدًا ولا عُدّة ! قال : فتكلَّم القوم ،وذكروا سوءَ حالِهم ، وما منَّ الله تعالى عليهم من إرسال رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وآختلافِهم أوَّلاً ، وآجتماعِهم على الإسلام ، وما أمَرهم به من الجهاد ، وقالوا : وأمّا ما ضَربْتَ لنا من الأمثالِ فليس كذلك ، ولكن إنَّما مَثَلُكم كمثل رَجُلٍ غَرَس أرضًا وآختَار لها الشَّجرَ ، وأجرَى إليها الأنهارَ وزيَّنها بالقُصُور ، وأقامَ فيها فلاَّحين يسكُنُونَ قُصُورَهَا ويقُومون عَلى جَنَّاتِها ، فخلا

(١) : القشف قذر الجلد وسوء الحال .
(٢) نميركم : نطعمكم .
(٢) نشب ، أى وقع فيما لا مخلص منه .

الفلاَّحون فى القُصور على مالا يُحبّ ، فأطال إمهالَهم فلمْ يستجيبوا[١] ، فدعا إليها غيرَهم وأخرَجَهم منها ، فانْ ذَهَبوا عنهَا يَخْتَطِفهم الناسُ ، وإنْ أقاموا فيها صاروا خَوَلاً [٢] لهؤلاء ، فيَسومُونَهم الخَسْفَ أبدًا ، والله لو لم يكن ما نقول حقاً ولم يكن إلاَّ الدُّنيا لما صَبَرْنا عن الَّذي نحن فيه من لذيذِ عيشِكم ، ورأيْنا من زِبْرجكم ، ولقَارَعْناكم[٣] عليه ؛

فقال رستم : أتعبُرون إلينا أم نَعبُر إليكم ؟ فقالوا : بل اعبُروا إلينا . ورجعوا من عِنْدِه عشِيًّا ، وأرسل سعدٌ إلى النَّاسِ أن يقفُوا مَواقِفَهم ، وأرسَلَ إليهم شأْنَكُم والعبُور ، فأرادوا الجَوازَ على القنطرة فمَنَعَهم المسلمون ، وقالوا : أمّا شيءٌ غلبناكم عليه فلا نَرُدُّه عليكم ، فباتوا يَسْكُرون [٤] العتيق بالتُّرابِ والقصب والبَراذِع حتَّى الصباح ، وجعلوا طريقاً ،واستتم بعد ما ارتفع النهار . ورَأى رُسْتم من اللَّيل كأنَّ مَلَكا نزل من السَّماء ، فأخذ قَسِيَّ أصحابِه فَخَتَم عليها ، ثم صَعِد بها إلى السَّماء ،فاستيقَظ مهمومًا ، واستدعَى خاصَّتَه فقصَّها عليهم ،وقال : إنّ الله ليعِظنا لو اتَّعظنا ، ثمّ ركب ، وعَبَر وعليه دِرْعَانِ ومِغْفَر ، وأخَذَ سلاحهَ وعَبَر الْفُرْسُ العتيقَ ، ثم كانت الحربُ . والله تعالى أعْلَمُ بالصّواب ، وإليه المرجع والمآب .

---

(١) ابن الأثير : « فلم يستحيوا » .
(٢) خولا : خدما .
(٣) قارعناكم : قاتلناكم .
(٤) سكر النهر : سد فاه بالتراب .

ذكر يوم أرماث

كان [١] يوم أرْماث يوم الاثنين من المحرَّم سنة أربع عشرة ؛ وذلك أن الْفُرْس لمَّا عَبَروا العَتيقَ ، جلس رُسْتم على سَرِيره وضرب عليه عليه طَيّاره ، وعَبَّى فى القَلْبِ ثمانية عشر فِيلاً ، عليها الصناديقُ والرِّجالُ ، وفى المجنَّبتين خمسة عشر [٢] ؛ ثمانية وسبعة ، وأقام الجالِينُوس بينه وبين مَيْمَنته ، والفَيْرُزان بينه وبين مَيْسَرتِه ، وكان يَزْدَجِرد قد وَضَع بينه وبين رُسْتم رجالاً على كلّ دَعْوَةٍ رجلا [٣] ، أوّلهم على بابِ إيوانه ، وآخرهم مع رستم ، فكُلَّما فعَل شيئًا قال الَّذى معه للَّذي يليه : كان كذا وكذا ، ثم يقول الثانى ذلك للثالث ، وهكذا إلى أن ينتهى إلى يَزْدَجِرد فى أسرع وقت .

قال : وأخَذَ المسلمون مواقِفَهم ، وكان بسعدٍ دَمامِيلُ وعِرْقُ النَّسا ، فلا يستطيع الجلوسَ ؛ إنَّما هو مُكِبٌّ على وجهِهِ ، وفى صدرِه وِسادة ، وهو على سطح القصر يُشرِفُ على النَّاسِ ، فذكر النَّاسُ ذلك ، وعابَه بعضُهم فقال فى ذلك شعرا :

نُقاتِلُ حتَّى أنزَلَ اللهُ نَصْرَهُ [٤] وسعدٌ بباب القادِسِيَّة مُعْصِمُ
فأبْنَا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ ونِسوةُ سَعْدٍ ليس فِيهنَّ أيِّمُ

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٢٤ ، وأرماث هو اليوم الأول من أيام القادسية .
(٢) ابن الأثير : « وفى المجنبتين ثمانية أو سبعة » .
(٣) كذا فى ابن الأثير وفى ك « رجل » .
(٤) فى ياقوت : « ألم تر أن الله أنزل نصره »

فبلغتْ أبياتُه سعدًا ، فقال : اللّهم إنْ كان كاذبًا وقال الّذي قاله رياءً وسُمْعةً فاقطع عنّى لسانَه ، فإنّه لَواقفٌ فى الصّفِّ يومئذٍ أتاه سَهْم غَرْب(١) ، فأصاب لسانَه ، فما تكلّم بكلمةٍ حتّى لَحِقَ بالله تعالى . ونزل سعدٌ إلى النّاس فاعتَذَر إليهم ، وأراهم ما به من القُروح فى فَخِذيه وأَلْيَتَيْهِ ، فعذَرَه النّاس وعَلِموا حالَه . ولمّا عَجَزَ عن الرُّكوبِ اسْتَخلَف خالدَ بنَ عُرْفُطةَ على النّاس ، فاختُلِف عليه ، فأخَذ نفرًا ممّن شَغَب عليه فحبَسهم فى القَصْر ، منهم أبو مِحْجَن الثّقفىّ ، وقيل : بل كان قد حُبِس فى الخمر .

وأعلم سعْد النّاسَ أنّه قد استَخلف خالدًا ، وإنّما يأمرهم خالدٌ بأمرِه ، فسمِعوا وأطاعوا . وأرسل سعدٌ نفرًا من ذوى الرأى والنّجْدَة ، منهم المغيرة ، وحُذَيفة ، وعاصم ، وطُليحَة ، وقيس الأَسَدىّ ، وغالب ، وعمرو بن معدي كرب وأمثالهم ، ومن الشعراء : الشمّاخ ، والحُطَيئة وأَوْس بنُ مَغْراء ، وعَبْدةُ بنُ الطبيب وغيرهم ، وأمَرَهم بتحريض النّاس على القِتال ففَعلوا ، وكان صَفُّ المشركين على شَفِير العتِيق ، وصفُّ المسلمين على حائط قُدَيْس ، والخنْدَق من ورائهم ، وكان المسلمون والمشركون بين الخَنْدَق والعتيق ، وأمر سعد النّاسَ فقرءوا سورَة الجهاد ، وهى الأنْفال ، فلمّا فرغ القُرّاء منها قال سعد : الزَمُوا مَواقِفكم حتى تُصَلُّوا الظهر فإذا صَلَّيْتم فانّى مُكبِّرٌ فكبِّروا واستعدُّوا ، فإذا سمعتم الثانية فكبِّروا ولْتَسْتَتِمَّ عُدّتكم(٢) ، ثم إذا كبَّرتُ الثالثةَ فكبِّروا ، وليُنشِّط فُرسانكُم النّاسَ ، فإذا كبَّرتُ الرابعةَ فازحَفوا

(١) سهم غرب : لا يدرى راميه .
(٢) ابن الأثير : « والبسوا عدتكم » .

حتَّى تُخالِطوا عدوَّكم ، وقولوا : لا حولَ ولا قوّة إلَّا بالله . فلما كبَّر سعد الثالثة برز أهل النَّجَداتِ فأنشَبوا القتال ، وخرج إليهم من الفُرسِ أمثالهم (١) .

فبرز غالب بنُ عبد الله الأَسَدِىْ ، فخرج إليه هُرْمُز ، وكان من ملوك الباب ، وكان متوَّجًا ، فأَسَرَهُ غالب وأَتَى به سعدًا . وخرج عاصم ابن عمرو(٢) فطارَدَ فارسِيًّا ، فانهزم ، فأَتَّبعه عاصم حتى خالط صفَّهم فحمَوْهُ ، فأَخذعاصمٌ رجلاً على بغْلٍ وعادَ بهِ ،فإذا هوخبّاز المَلِك ، معه طعامٌ مِن طعامِ المَلِك وخَبِيصِة (٢) ، فأَتَى به سعدًا فنَفَّله (٣) أهل موقفه .

وخرج فارسىٌّ يَطلبُ البِراز ، فبرز إليه عَمرو بن مَعدِى كَرِب ، فأَخذه وجَلَدَ به الأَرضَ وذَبَحه ، وأَخذ سِوارَيْه ومِنطقَتَه .

وحَمَلت الفِيَلةُ على المسلمين ، ففرَّقتْ بين الكتائِب ، فنفرَت الخيلُ ، وكانت الفُرسُ قد قصدتْ بَجيلةَ بسبعة عشر فِيلاً ، فنفرتْ خيلُ بَجِيلةَ ، فكادَتْ بَجِيلةُ تَهلِكُ لنِفار خيلِها عنها وعمَّنْ معها .

---

(١) بعدها فى ابن الأثير : « فاعتوروا الطعن والضرب » ، وقال غالب بن عبد الله الأسدى :

قد علمت واردات المسائح ذات اللسان والبيان الواضح
أنى سهام البطـــل المسالح وفارج الأمر المهم الفادح

(٢) فى ابن الأثير : وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ يعـانيه السبب مثلى على مثلك يغريه العتب

(٢) الخبيصة : نوع من الحلوى .

(٣) نفله : أعطاه ، والنفل الغنيمة .

فأرسل سعدٌ إلى بنى أَسَد أن دافِعوا عن بَجِيلة ومَنْ معها ، فخرج طُليحةُ بنُ خُوَيلد ، وحَمَّال بن مالِكٍ فى كتائبهما ، فباشَروا الفِيلة حتَّى عدلها رُكْبانُها ، وخرج إلى طُليحَة عظيمٌ منهم ، فقتله طليحة .

وقام[1] الأَشعثُ بنُ قيس فى كندة ، فأَزالوا مَنْ بإزائهم من الفُرْس ، ثم حَمَل الفُرْس ، وفيهم ذو الحاجب والجالِينُوس ، والمُسلمون ينتظرون التكبيرةَ الرّابعة من سَعْد ، فاجتمعت الفُرْسُ على أَسَدٍ ومعهم تلك الفِيلةُ فثَبَتُوا لهم ، وكَبَّرَ سعْدٌ الرابعة ، فزَحَف المسلمون إليهم ، ورَحَا الْحربِ تَدورُ على أسد ، وحَملتِ الفُيُولُ على الْميمنة والْمَيْسَرة ، فحادَت الخيولُ عنها ، فأَرسَل سعدٌ إلى عاصم بنِ عمرو ، فقال : يا معشرَ بنى تَميم ، أما عندكم لهذه الفِيَلَة مِن حِيلةٍ ؟ قالوا : بلى واللهِ .

ثمّ نادى عاصمٌ فى رجالٍ من قومه رُماةٍ وآخرَين ، [لهم][2] ثقافة ، فقال : يامعشر الرُّماةِ ؛ ذُبُّوا ركْبان الفِيلَة عنهم بالنَّبلِ ، ويا معشرَ [أَهْلِ][2] الثَّقافةِ ؛ اسْتَدْبِروا الفِيَلة ، فقطِّعوا وُضُنَها[3] . وخرج يَحمِيهم وقدجالت المَيمنَة والمَيْسرة ، وأَقبَل أَصحابُ عاصم ، فأَخذوا بأَذناب الفِيلَة فقطَّعوا وُضُنَها ، وارتفع عُواؤُهُم ، فما بقِىَ فِيلٌ إلاَّعوَي ، وقُتِلَ أَصحابُها . ونُفِّس عن أَسدٍ ، ورُدَّ الفُرْسُ عنهم إلى مَوَاقفهم ، ودام القتالُ حتَّى غَربت الشمسُ ، وحتَّى ذهبتْ هدْأَةٌ[4]

---

(١) ك : « وبهذا قام » .

(٢) من ص .

(٣) الوضن : جمع وضين : وهو بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير كالحزام للسرج .

(٤) هدأة من الليل : جزء منه .

من اللَّيل ، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء ، وقد أُصيب من أَسَد تلك الليلة خمسمائة ، وكانوا رِدْءًا للنَّاس ، وكان عاصمٌ حامِيةً للنَّاس .

وكان سعدٌ تزوّج سَلْمَى امرأةَ المثنَّى بنَ حارثة بعدَه ، فلما جال النَّاسُ فى هذا اليومِ ، جعل سعدٌ يتَمَلْمَل جَزَعًا على النَّاس وهو لا يُطيق الجلوس ، فلمَّا رأتْ ما يَصْنَعُ الفرس ، قالت : وامثنَّاه ، ولامُثنَّى للخيلِ اليومَ ! فَلَطَمَ وجهَها وقال : أين المثنَّى عن [1] هذه الكَتيبةِ الَّتى تدور عليها الرحَا ؟ يعنى أَسَدًا وعاصمًا ؛ فقالت : أَغَيْرةً وجُبْنًا ! فقال : واللهِ لا يَعْذِرنى أحدٌ انْ لم تَعْذِرينى ؛ وأنتِ تَرَيْنَ مَابِى . . والله تعالى أعلم بالصَّواب ، وحَسْبنا اللهُ ونعم الوكيل ، وصلَّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم .

ذكر أغواث

قال :[2] لما أَصبَحَ سعدٌ وَكَّلَ بالْقَتْلَى مَنْ يَنقلُهم ليُدْفَنوا ، وأسلَمَ الجَرْحَى إلى النِّساء يَقُمن عليهم ، فبينا الناس على ذلك إذ طَلَعَتْ نواصى الخَيْلِ من الشَّام ، وكان عُمَر لمَّا فُتِحَتْ دِمَشقُ قد كَتَب إلى أبى عُبَيدة يأْمره بإرسال أهلِ العِراق ، فأَرسَلَهم وأَمَّر عليهم هاشمَ بن عُتْبة بن أبى وَقَّاصٍ . وَعَلَى مقدِّمته القَعْقاع بنُ عمرو ، فتعجَّل القَعقاع ، فقَدِم على الناس صبيحةَ هذا اليوم ؛ وقد عَهِد إلى أصحابه أن يتقطَّعوا أعشارًا وهم ألفٌ ، كُلَّمَا بلغ عشرةٌ مدَّ البَصَر سرّحوا عشرةً ، وتقدَّمَ هو فى عَشَرَة ، فأتَى الناسَ فسلَّم عليهم ،

(١) ك : « من » .
(٢) هو اليوم الثانى من أيام القادسية .

وبشَّرهم بالجُنودِ ، وحَرَّضَهم على القِتالِ ؛ وقال : اصنَعوا كما أصنَع ، وطَلَب البِزاز ، فخرج إليه ذو الحاجب ، فعرَفَه القَعْقاع ، ونادي : بالثَّاراتِ أبي عُبيد وسَلِيط وأصحابِ الجِسْر ! واقتتلا ، فقَتَله القَعْقاع .

وجعلتْ خيلُه تَرِد إلى الَّليل ، ونَشِط الناسُ ، وكأنْ لم تكن بالأمس مصيبة ، وانكسرت الأعاجم لقتل ذى الحاجب ، فطلب القعقاعُ البرازَ ، فخرج إليه الفيرزان والبندوان ، فانضمَّ إلى القَعْقاع الحارثُ بن ظَبْيان ، ونادى القَعْقاع : يامعشر المسلمين ، باشِروهم بالسُّيوف ، فإنما يُحصَد الناسُ بها ، فاقتَتَلوا حتى المساء ، فلم يَرَ أهلُ فارسَ فى هذا اليوم ما يُعْجِبُهم ، وأكثرَ المسلمون فيهم القتْلَ ، ولم يقاتِلوا فى هذا اليوم على فِيلة ؛ كانت توابيتُها قد تكسَّرتْ بالأمس ، فاستأنفوا عملَها ، وحَمل بنو عمِّ القَعقاع عشرةً عشرةً على إبلٍ قد ألبَسوها وجلَّلوها وبَرْقَعُوها ، وطافتْ بهم خيولُهم تَحْميهم ، وأمرهم القعقاعُ أن يَحملوا على خيل الفُرْس يتشبَّهون بالفِيلَة ، ففعلوا فى يومٍ أغواث ، كما فَعلَ الفُرْسُ فى يوم أرْماث ، فنَفرت خيلُ الفُرس من الإبل ، فلقُوا منها أعظَمَ مالقىَ المسلمون من الفِيَلَة ، وحَمَل القعقاعُ يومئذ ثلاثين حملةً ، كلَّما طلَعَتْ قطعةٌ حَمَل حملة ، وأصابَ فيها ؛ وقيل : وكان آخرهم يُزُرْجُوهْر الهَمَذانىّ .

وكان أبو محْجَن الثَّقَفىُّ ، واسمُه مالكُ بنُ حبيبٍ ، وقيل : عبدُ اللهِ بنُ حبيب بن عمرو بن عُمَير بن عوف بن عُقْدة بن غبرَة

ابن عَوفٍ بن قَسِيّ ، وهو ثَقيف ، قد حُبِسَ فى القَصر وقُيِّد .

واختُلف فى سبب ذلك ؛ فقيل : كان قد خَالَف على خالدِ بنِ عُرْفُطَة خليفة سَعْدٍ ، وقيل : بل كان عُمَر قد جلَده فى الخمر مِرارًا ثمانيةً وهو لايتوبُ ولا يُقْلِع ، فنفاه إلى جزيرة فى البحر ، وبعث معه رَجُلاً ، فهرَب منه ولحِق بسَعْدٍ ، فكتب إليه عمرُ بحَبْسه . وقيل : بل كان مع سعدٍ ، فأُتِىَ به وهو سَكرانُ ، فأَمَر به إلى القَيْد ، فلما التَحَم القتال قال :

كفى حَزَنًا أَنْ تَرْدِيَ الخيلُ بالقَنَا ... وأُتْرَكَ مشْدُودًا على وثاقيَا
إذا قمتُ عَنَّانِى الحديدُ وأُغْلِقتْ ... مصَارعُ مِنْ دونى تقِيمُ المُنادِيا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فقد تركُونى واحدًا لا أُخَالِيَا
وقد شَفَّ جِسمى أَنَّنى كلَّ شارقٍ ... أُعالج كَبْلاً مُصْمَتًا قد بَرانيا
فلَله دَرِّى يومَ أُترَكُ مُـوثَقًا ... وتَذْهَلُ عنّى أُسْرَتى ورِجالِيـا
حَبيسًا عن الحرب العَوانِ وقد بَدَتْ ... وإعْمَالُ غيرِى يومَ ذاكَ العَوالِيَا
ولِلَّه عهدٌ لا أَخِيسُ بعَهْدِهِ ... لئن فُرِجتْ ألَّا أَزورَ الحوانيا

ثم قال لسَلْمى ابنه خَصَفة امرأة سَعْدٍ : وَيْحَكِ ! خلِّينى ، ولكِ عهدُ اللهِ إن سلَّمنى اللهُ أن أَجِيءَ حتى أَضَعَ رِجْلى فى القَيْدِ ، وإنْ قُتلتُ استرحتمْ منِّى ، فَحلَّتْ عنه ، فوثبَ على فرسٍ لسعدٍ يقال لها : البَلْقَاء ، ثم أخذ الرُّمْح وانطَلَق حتى كان بحيالِ المَيْمنة كبَّر ، ثم حَمَل على مَيْسرةِ الفُرسِ ، ثم رَجَع من خَلْف المسلمين وحَمَل على

مَيْمنتِهِمْ ، وكان يَقصِف[1] النَّاس قَصْفًا منكَرًا ، فتعجب النَّاسُ منه وهم لا يَعرِفونه ، فقال بعضُهم : هو من أصحابِ هاشم ، أو هاشم نفسه . وقال بعضُ الناسِ : هو الخَضِر . وقال بعضُهم : لولا أنَّ الملائكة لاتُبَاشِر الحربَ لقُلْنا إنَّه مَلَك .

وجعل سعدٌ يقول حين ينظرُ إليه وإلى الفُرْسِ :الصَّبْرُ صَبْرُ البَلْقاءِ ، والطعنُ طعنُ أبي مِحْجَن . وأبو محجنٍ فى القَيْد ، فلما انتَصَفَ اللَّيْلُ وتراجعَ المسلمون والفُرْسُ ، أقبلَ أبو محْجن فدَخلَ القصرَ ، وأعادَ رِجلَيه فى القَيْدِ ، وقال :

لقد عَلِمت ثقيفٌ غيْرَ فَخْرٍ ... بأنَّا نَحْنُ أكرمُهم سُيوفَا
وأكثَرُهم دُرُوعًا سَابِغَاتٍ ... وأَصْبَرُهم إذا كَرِهُوا الحُتوفا[2]
وأنَّا وفْدُهم فى كلِّ يومٍ ... فإن عمِيُوا فسَلْ بهمُ عَرِيفًا[3]
وليلةَ قادِسٍ لم يَشعروا بى ... ولم أُشعرْ بمَخْرَجىَ الزُّحوفا
فإنْ أُحْبَسْ فذلِكُمُ بَلَائِى ... وإنْ أُتْرَكْ أُذيقهُمُ الحُتُوفَا

فقالت له سَلْمى : فى أىِّ شىءٍ حَبَسك ؟ فقال : أمَا والله ماحَبَسنى بحرامٍ أكَلْتُه ولا شَرِبْتُه ، ولكنِّى كنتُ صاحبَ شرابٍ فى الجاهليَّةِ ، وأنا امرؤٌ شاعر يَدِبُّ الشِّعرُ على لسانى ، فقلت مرتجِلاً فى ذلك أبياتا :

إذا مِتُّ فادْفنِّى إلى أصلِ كَرْمَةٍ ... تُروِّى عِظامِى بعد مَوْتِى عُروقُهَا
ولا تَدْفِنَنِّى بالفَلاةِ فإنَّنِى ... أخافُ إذا ما مِتُّ ألَّا أذوقها

(١) يقصف الناس : يضربهم ضربا منكرا .
(٢) الحتوف : القتل .
(٣) العريف : رئيس الجماعة .

فلذلك حَبَسنى ، فلمّا أصبَحْتُ أتت سَعْدًا فصالحْته وأخبَرْته بخبرِ أبى مِحْجَن ، فأطلَقَه ، وقال : اذهبْ ، فما أنا بمؤاخِذِكَ بشىءٍ تَقولُه حتّى تَفعلَه ، قال : لا جَرَمَ [واللهِ] (١) لا أُجيبُ لسانى إلى قبيح أبدًا .

وقد قيل : إنَّ سعدًا لمّا أُخبِرَ بأمرِهِ دَعاه وحَلَّ قُيودَه ، وقال : لا تُجلَدنَّ على الخمر أبدًا : فقال أبو مِحجَن : وأنا واللهِ لا أشرَبُها أبدًا ، فقد كنتُ آنَفُ أنْ أدَعَها من أجلِ جَلْدِكم .

وقيل : بل قال : قد كنتُ أشربُها إذ يقامُ عَلَىّ الحدُّ وأطْهُر منها ، فأمّا إذْ بَهْرَجْتَنِى (٢) فوالله لا أشْرَبُها أبدًا .

ذكر يوم عماس ، وهو اليوم الثالث

قال : (٣) وأصبحَ الناس فى هذا اليوم وبين الصفَّيْن من صَرْعَى المسلمين ألفان من جَريح وقتيلٍ ، ومن المشركين عشرةُ آلافٍ ، فَنَقَل المسلمون قَتْلاهم إلى المَقابر ، وجَرْحاهم إلى النِّساء ، [وكان النساء] (٤) والصِّبْيان يَحفرون القُبور ويُداوُون الجَرْحى . وأمّا قتلى المشركين فبين الصَّفَّين لم يُنقَلوا ، وبات القَعقاعُ تلك الليلة يُسَرِّبُ أصحابَه إلى المكان الَّذِى كان فارَقَهم فيه ، وقال : إذا طلعت الشَّمسُ فاقتلوا مائةً مائةً ، فإن جاء هاشم فذاك ، وإلّا جَدَّدْتُمْ للنَّاسِ رَجاءً جديدًا . ولم يَشعر به أحد ، وأصبح النَّاسُ على مواقِفهم .

---

(١) من ص .

(٢) بهرجتنى : زيفتنى ولم تسمع قولى .

(٣) ابن الأثير ٢ : ٣٣١ وما بعدها ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٥٥٠ وما بعدها

(٤) من ص

فلما بزَغَت الشمسُ أقبلَ أصحابُ القعقاع ، فحين رآهم كبَّر وكبَّر المسلمون ، وتقدَّموا وتكتَّبت[1] الكتائبُ ، واختلف الطَّعْنُ والضَّرْبُ ، والمدَدُ متتابع ، فما جاء آخِرُ أصحابه حتَّى انتهى إليهم هاشم ، فأُخبِر بما صنع القَعْقاع ، فعبَّى أصحابَه سَبْعين سَبْعين ، وكان فيهم قيس بنُ هُبَيْرة المعروف بابن المكْشوح المُرادىّ ، فكبَّر وكبَّر المسلمون ، ثم حَمَل على الفُرْس فقاتَلَهم حتى خَرق صفَّهم إلى العَتيق ثمّ عاد ، وكانت الفُرْس قد أصلحوا توابيتَهُم وأعادُوها على الفِيَلَة ، وأقبلت الرَّجّاله حَوْل الفِيَلة يَحْمُونها أن تُقطَع وُضُنَها ، ومع الرَّجّالةِ فُرسانٌ يَحمُونهم ، فلم تَنفِر الخيلُ منهم كما كانت ؛ لاختلاط خيل الفُرْس ورجالِها بها .

قال : ولما رأى سعد الفيُولَ ، وقد فَرَّقَت الكتائبَ وعادت لفِعلِها ، أرسَل إلى القعقاع وعاصمَ ابنَى عمرو : أن اكفِيانى الفِيلَ الأبيض ، وكان بإزائِهما والفُيُولُ كلُّها آلِفةٌ له .

وقال لحَمّال و الرّبيل : اكفِيانى الفيلَ الأَجْرَبَ وكان بإزائهما ، فحمل القعقاع وعاصم برُمْحَيْهما وتقدَّما فى خيل ورَجْلٍ حتَّى وضعاهما فى عَينَىِ الفيل الأبيض ، فنفَض رأْسَه ، وطَرحَ ساسَتَه ، ودَلَّى مِشْفَره . فضرَبه القَعقاعُ ، فرَمَى به ووقع لجَنْبه ، وقَتَلوا من كان عليه . وحمل حَمَّالُ والرَّبِّيل الأَسَدِيّان على الفيل الأجرب ، فطعنه حَمّال فى عَيْنه فأَقْعَى ، ثم استوَى ، وضربَه الرّبيل فأبانَ مِشْفَره ، فتحيّر الفيل ؛ إذا جاء إلى صفِّ المسلمين زَجَروه بالرِّماح ليَرجع ، وإذا أتَى صفَّ الفُرْس نَخَسوه ليتقدّم ، فولَّى الفيلُ وألقَى نَفْسَه فى العَتيق ،

(١) تكتبت : اجتمعت .

وتبعتْه الفِيَلَة فخرقتْ صفوفَ الأعاجم. واقتتل الفريقان حتّى المساء وهم على السَّواء ، فلما أمسَى النَّاسُ اشتدّ القتال ، وصَبَر الفريقان فخرجَا على السَّواء . ثم كانت ليلة الهَرير . والله سبحانه وتعالى أعلمُ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلَّى الله على سيدنا محمد .

ذكر ليلة الهرير

قيل :(١) وإنَّما سُمِّيتْ بذلك لتركهم الكلام ، وإنَّمَا كانوا يَهرُّون هَرِيرًا ، وهى اللَّيلة الَّتى تَلِى يوم عماس . قال : وخرج مسعودُ بنُ مالكٍ الأَسَدىّ ، وعاصمُ بنُ عَمرو ، وقيسُ بنُ هُبيرة وأشباهُهم ، فطارَدوا القومَ ، فإذا هم لايَشُدُّون ولا يُريدون غير الزَّحْفِ ، فقدَّموا صفوفَهم ، وزاحَفهم النَّاسُ بغير إذن سَعْدٍ ، فكان أوّل من زاحَفَهم القَعْقَاع ، فقال سعد : اللَّهم اغفِرْها له وانْصُرْه ، قد أذِنْت له إذْ لم يَستأْذِنِّى . ثم قال : أرى الأَمْر ما فيه هذا ، فإذا كبَّرتُ ثلاثًا فاحمِلوا ، فكبَّرَ واحدةً ، فحملتْ أَسَد ثم النَّخَع ، ثم بَجِيلة ، ثم كِنْدة ، وسعد يقول عند حملةِ كلٍّ منهم : اللَّهم اغفرها لهم ، وانصُرْهُم ؛ ثم زَحَف الرؤَساء ، ورَحَا الحرب تَدُورُ على القَعْقاع ، ولمّا كبّر الثَّالثةَ لحِق النَّاسُ بعضُهم بعضًا ، وخالَطوا القومَ ، فاستقبلوا اللَّيلَ بعد ما صلّوا العِشاء ، واقتَتَلوا ليلتهم إلى الصَّبَاح ، فلمّا كان عند الصُّبح انتهى النَّاسُ ، فاستدلَّ سعدٌ بذلك على أنَّهم الأَغْلَوْنَ .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٣٤ .

ذكر يوم القادسية وقتل رستم

وهزيمة الفرس

قال : وأصبَح النَّاسُ من لَيْلة الهَرِير - وتُسمَّى ليلةَ القادسيَّة - وهم حَسْرَى ، لم يُغمِضُوا ليلتَهم كلَّها ؛ فسار القعقاعُ فقال : إنَّ الدائرةَ بعد ساعةٍ لمن بدأ القومَ ، فاصبرُوا ساعةً وٱحمِلوا ؛ فإنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ .

فٱجتمع إليه جماعةٌ من الرؤساء صَمَدوا لرُسْتم حتى خالَطوا الَّذين دونه ، فلمَّا رأتْ ذلك القبائلُ قام فيهم رؤساؤُهم ، وقالوا : لا يكوننَّ هؤلاء أجدَّ فى أمرِ الله منكم ، ولا هؤلاء - يعنى الفُرْس - أجرأ على الموتِ منكم ،وحَمَلوا وخالَطوا مَنْ بإزائهم ، فاقتَتَلوا حتى قامَ قائمُ الظَّهيرة ، فكان أوّل من زالَ الفَيْرُزان والهُرْمُزان ، فتأخَّرا وثَبَتَا حيثُ ٱنتَهَيا ، وٱنفرجَ القلبُ ورَكَد عليهم النَّقْعُ (١) ، وهبَّتْ ريحٌ عاصفٌ دَبُور ، فقلعتْ طيّار رُسْتم عن سَرِيره ، فهوَى فى العَتِيق ، ومالَ الغبارُ على الفُرسِ ، وٱنتهى القَعْقاع ومن معَه إلى السَّرير فَعثَروا به ، وقد قام رُستم عَنْه حين أطارت الرِّيحُ الطيَّار ، واستَظَلَّ بِظِلِّ بغلٍ من بغالٍ كانت قد قدِمتْ عليها حُمول ، فضرب هِلالُ بنُ عُلَّفة (٢) حِمْل البَغْلِ الَّذى تَحت رُستم ، فقطع حِبالَه وسَقطَ عليه ، فأزاله رُسْتم عن ظَهْره ، ثمّ ضربه هلالٌ ضربةً ، ففرَّ نحو العتيق ، وألقَى نفسَه فيه ، فاقتَحمَه هِلالٌ عليه ،وأخذ برِجْله

(١) النقع : التراب . (٢) ك : « علقمة » .

ثم خرج به ، وضرب جَبينَه بالسَّيفِ حتَّى قتَله ، ثم صَعد على السَّرير وقال : قتلتُ رستم ورَبِّ الكَعْبة ؛ إلىَّ إلىَّ ! فنفَله سعد سَلَبه ، وكان قد أصابه الماءُ ، ولم يظفر بقَلَنْسُوته ، وكانت بمائةِ ألفٍ .

وقيل : إنَّ هلالَ بن عُلَّفة لمّا قَصَد رستم رماه بنُشابة أثبَتَتْ قَدمَه بالرِّكاب ، فَحمَل عليه هلالٌ فضَرَبه فقتَله ، ثم احتزَّ رأسَه فعلَّقه ونادَى : قتلتُ رُسْتم ! فانهزَم قلبُ المشرِكين ، وقام الجالينُوس على الردْم (١) ، ونادى الفرس إلى العبور ؛ وانهزموا وأخذهم السيف والإسار ، وأخَذَ ضِرارُ بنُ الخَطَّاب الدِّرَفْس ، وهو العَلَم الأكبر الَّذى كان للفُرْس ؛ فعوّض عنه بثلاثين ألفا ، وكانت قيمته ألف ألفٍ ومائتىْ ألفٍ ، وجُعِل فى بيتِ المال .

وقُتِل فى هذه المعركة من الفُرسِ عشرةُ آلافٍ سِوَى من قُتل قبلَها ، وأما المُقْترنُونَ فما أفْلَتَ منهم مخبِر ، وهم ثلاثون ألفًا .

وقُتِل من المسلمين قبل ليلةِ الهرَير ألفان وخمسمائة ، وقُتِل فى ليلة الهرَير ويومِ القادسيّة ستَّة آلاف ، فدُفِنوا بالخَنْدق ، ودُفِن من كان قبل ليلةِ الهَرِير على مشرِّق .

* * *

وكان ممن استُشهد فى حَرْب القادسيّة بنو خَنْسَاء الأربعة ، وكان من خبرَهم أنَّ أمَّهم الخَنْساء الشاعرةَ بنتَ عمرِو بنِ الشَّريد السُّلَميّة ، حضرت القادسيَّة ومعها بنوها الأربعة ، وهم رجالٌ ، فقالت لهم مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ : يابَنِىّ ، إنكم أسلَمْتُم طائعين ، وهاجَرْتُمْ مختارِين ،

(١) كذا فى ابن الأثير ، وفى الأصول : الرموم .

ووالله الذى لا إله إلّا هو ، إنّكم لبَنُو رَجُلٍ واحدٍ ، كما أنّكم بنو امرأة واحدةٍ ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فَضَحْت خالَكُم ، ولا هجَّنْتُ حَسَبكم ، ولا غيَّرْتُ نَسَبكم ؛ وقد تَعلَمون ما أعدَّ الله للمُسلمين من الثَّوابِ الجزيلِ فى حَرْب الكافرين ، واعلَموا أنَّ الدارَ الباقيةَ ، خيرٌ من الدَّارِ الفَانيةِ ؛ يقول الله عزَّ وجل : (يـأيُّها الَّذِين آمَنُوا اصْبِروا وصَابِرُوا ورابِطُوا واتَّقُوا الله لعلَّكمْ تُفلحون) (١) ، فإذا أصبحتُم غدًا إن شاء الله سالِمين ، فاغْدُوا إلى قِتال عدوِّكم مُسْتَبْصِرين ، وبالله على أعدائه مستَنْصِرين ، فإذا رأيتمُ الحربَ قد شمَّرت عن ساقِها ، واضطرمَتْ لظًى على سُبَّاقِها (٢) ، وجُلِّلَتْ نارا على أوْراقِها ، فتيمَّموا وَطِيسَها ، وجالِدوا رئيسَها ؛ عند احتِدام خَمِيسها ، (٣) تَظفَروا بالغُنْم والكرامة ، فى دار الخُلْدِ والمُقامة . فخرج بنوها قابِلين لنُصحِها ، عازِمين على قَوْلها ، فلمّا أضاء لهم الصّبحُ باكَروا مَراكزَهم ، وأنشأ أوّلُهم يقول :

يا إخوتى إنَّ العجوزَ النَّاصِحهْ ... قد نصحَتْنا إذ دعَتْنَا البارِحَهْ
مقالةً ذات تبيَانٍ واضِحهْ ... فباكِروا الحربَ الضَّروسَ الكالِحَهْ
وإنَّما تَلْقَوْن عند الصَّائحهْ ... من آل ساسان كلابا (٤) نابحَهْ
قد أيْقَنُوا منكمْ بوقْعِ الجائحَهْ ... وأنتمُ بين حياةٍ صـالِحَهْ
* أو مَوْتةٍ تورِثُ غُنْمًا رابحَهْ *

---

(١) سورة آل عمران ٢٠٠ .
(٢) الاستيعاب : « سياقها ».
(٣) الخميس : الجيش .
(٤) الاستيعاب : « الكلاب » .

وتقدَّم فقاتلَ حتّى قتِل ، ثم حَملَ الثّانى وهو يقول :

إنَّ العجوزَ ذاتُ حَزمٍ وجَلَدْ والنَّظرِ الأَوْفَقِ والرَّأىِ السَّدَدْ
قد أمرَتْنَا بالسَّدادِ والرَّشَدْ نصيحةً منها وَبِرًّا بالولَدْ
فبادِروا الحربَ حُماةً فى العَدَدْ إمَّا لفَوْزٍ بارِدٍ على الكبِدْ
أوميتةٍ تُورِثكم غنم الأَبَدْ(١) فى جَنَّةِ الفِرْدَوسِ والعيشِ الرَّغَدْ

وقاتل حتى اسْتُشْهِدَ . ثم حَمَل الثالث وهو يقول :

والله لا نَعْصِى العجوزَ حَرْفا قد أَمَرَتْنَا حَدَبًا وعَطْفَـــا
نُصْحًا وبرًّا صادقًا ولُطْفَـــا فباكِروا الحَرْب الضَّروسَ زَحْفَا
حتى تَلُفُّوا آل كسرَى لَفًّا أو تَكشِفوهم عن حِماكم كَشْفَا
إنَّا نرى التَّقْصِيرَ منكمْ ضَعْفا والقتل منكمْ نجدةً وعُرْفا(٢)

وقاتَل حتَّى استُشهِد . ثم حَمَل الرابع وهو يقول :

لستُ لخَنْساءٍ ولا للأَخرمِ ولا لعَمرٍو ذى السَّناءِ الأَقْدَمِ
إنْ لم أُرِدْ فى الجيْشِ جَيْشِ الأَعجمِ ماضٍ على الهوْلِ خِضَمٍّ خِضْرِمِ
إمّا لفَـوْزٍ عاجلٍ ومَغنَمِ أو لوَفاةٍ فى السَّبيل الأَكرمِ

وقاتَلَ حتى قُتِلَ ، رحمهم الله(٣) .

فبَلغَها الخبرُ ، فقالت : الحمدُ للهِ الذى شَرَّفَنى بقَتْلهم ، وأرجو من رَبِّى أن يَجْمعنى بهم فى مستقرِّ رحمته .

فكان عمرُ بنُ الخطَّابِ ـ رضى الله عنه ـ يُعطى الخَنْسَاءَ أرزاقَ

(١) الاستيعاب : « عز الأبد » .
(٢) الاستيعاب : « فيكم نجدة وزلفى » .
(٣) الاستيعاب ٤ : ٨٢٧ ا ومابعدها .

أولادِها الأربعةِ ؛ لكلٍّ واحد مائتَىْ دِرْهَم ؛ حتى قُبِضَ رضى الله عنه . حكاه أبوعُمر بنُ عبدِ البَرِّ فى تَرْجَمة الخَنْسَاء .

* * *

تعودُ إلى بقيّة أخبار القادسيّة ؛ قال :

وجُمِعَ من الأسلابِ والأمْوَالِ مالَم يُجمع قبلَه مِثلُه ، وأمَر سعدٌ القعقاعَ وشرحبيلَ باتِّبَاعِهِمْ ، وخرج زُهْرةُ بنُ الحوِيَّة التَّمِيمىّ فى آثارهم فى ثلثمِائة فارس ، فلحق الجالينوسَ، فقتله زُهْرة وأخَذَ سَلَبَه، وقَتلوا أكثرَ الفُرْس وأسروهم.

قيل : رئى شابٌّ من النَّخَع وهو يَسُوق ثمانين أسيرًا من الفُرسِ ، وكان الرجل يُشير إلى الفارسىّ فيأْتيه فيَقْتُله ؛ وربّما أخذَ سلاحَه فَقَتَلَه به ؛ وربّما أمِرَ الرجلُ فَقَتَل صاحبَه .

ولَحِقَ سلمانُ بنُ ربيعةَ الباهِلِىّ وعبدُ الرحمن بنُ ربيعةَ بطائفة من الفُرْس قد نَصَبُوا رايةً وقالا : لا نَبْرح حتّى نموتَ . فقتَلَهُمْ سَلمانُ ومن معه ، وكان قد ثَبتَ بعد الهزيمة بضعةٌ وثلاثون كَتِيبةً من الفُرْسِ ، استحْيَوْا من الفِرارِ ، فَقَصَدهم بضعةٌ وثلاثون من روَّساء المسلمين ، لكلّ كتيبة منها رئيس ، فَقَتَلهم المسلمون .

وكتب سعدٌ إلى عمرَ بالفَتْح ، وبِعدّةِ مَنْ قُتِلوا ، ومن أُصيبب من المسلمين ، وسَمَّى من يَعْرِف ، وبعثَ بذلك سعدَ بنَ عُمَيلة الفَزارِىّ ، واستأْذنه فيما يَفعَل . وأقام بالقادسيّة ينتظر جوابَه ، فأمَره بالمسير إلى المَدائن ، وأن يخلِّف النساءَ والصِّبيانَ بالعَتيق ، ويجعل

معهمْ جُنْدًا كَثِيفًا ، ويَشرَكُهم فى كُلِّ مغنم ؛ ما داموا يَخلفُون المسلمين فى عِيالاتهم ؛ ففعَل .

قيل : وكانت وقعة القادسيةِ فى سنة ستٍّ عشرة . وقيل : فى سنة خمسٍ عشرةَ ، وأَوْرَدَها أبو جعفر الطَّبرىُّ فى سنة أربعِ عشرة ، وأَوْرَدَها أبو الحسن بنُ الأَثير فى تاريخه الكامل ، فى حوادث سنة أربعِ عشرةَ ؛ وذكر الخلاف فيهما . والله سبحانه وتعالى أعلم . فلنذكر ما كان بعدَ القادِسية والله تعالى أعلمُ .

* * *

ذكر ماكان بعد القادسية من الحروب والأيام

يوم بُرْس ، ويوم بابِل ، ويوم كُوثَى .

وهذه الوقائع والأَيّام الَّتى نذكرها فى هذا الموضع تحت هذه التَّرجمة ، قد أَورَدَهَا أبو الحسن علىّ بنُ الأَثير – رحمه الله – فى تاريخه (الكامل) (١) فى حوادثِ سنة خمسِ عشرة ، كأنه رَجَّح قولَ أهلِ الكوفة : إنَّ وقعة القادسيَّة كانت فى سنة خمس عشرة .

قال : لمّا فرغَ سعدٌ من القادسيّة أقامَ بها بعد الفتح شهريْن ، وكاتَبَ عمرَ فيما يفعل ، فكتَبَ إليه بالمسير إلى المدائن كما قدَّمنا ، فسار من القادسيَّةِ لأيّامٍ بَقين من شوّال ، وكُلُّ الناسِ فارس (٢) ، قد نَقَل الله إليهم ما كان فى عَسْكر الفُرسَ ، فوصلتْ مقدِّمة المسلمين برس وعليها عبدُ الله بن المعتمّ ، وزهرة بن الحَوِيَّة وشُرَحبيل

(١) الكامل ٢ : ٣٥٤ .
(٢) ابن الأثير : « وكل الناس مؤد » .

ابن السِّمْط ، فلقيَهم بها بصبهرى فى جمع من الفرس ، فهزمهم المسلمون إلى بابل ، وبها رؤساء القادسية : النَّخِيرجان ، ومهران الرَّازىّ ، والهُرْمزان وأشباههم .

وقد استعملوا عليهم الفَيْرزان ؛ وقدم عليهم بصبهرى منهزمًا من بُرْس ، فوقع فى النهر ، ومات من طعنة ، كان طعنه زُهْرة ، ولما هُزِمَ بصبهرى أقبل بسْطام دِهْقان بُرْس ، فصالح زُهْرة ، وعَقَدَ للمسلمين الجُسور ، وأخبرَهم بمن اجتمع ببابِل من الفُرْس ، فأرسَل زهرة إلى سَعْد يعرِّفه بذلك ،فقَدِم سعد إلى بُرْس ، وسيَّر زُهرة فى المقدِّمة ، وأتبَعَه عبدَ الله وشُرَحْبيل وهاشما ، فنزلوا على الفَيْرُزان ببابِل ، واقتتلوا ، وانهَزَم الفُرْس ، وانطَلَقوا على وَجْهَيْن :

فسار الهُرْمزان نحو الأهواز ، فأخَذها ، وأخرَج الْفيْرُزان نحو نهَاوَنْد ، فأخذها وبها كنوزُ كِسرَى .

وسار النَّخيرجان ومهْران إلى المدائن ، وقَطَع الجِسْر ، وأقام سعد ببابِلَ ، وقَدّم زُهرةُ بين يديْه بُكَيْر بنَ عبد الله اللَّيْثى ، وكَثِير بن شهاب السَّعدىّ حين عَبَرا الصرَاة ، فلحقا بأخْريَات القوم ، وفيهم فيومان والفُرخان فقتلاهما ؛ وجاء زُهْرة فجاز سُورًا ، وتقدَّم نحوَ الفُرْس وقد نزلوا بين كُوثَى والدَّيْر ، وقد استَخلَف النَّخِيرَجان ومهْران على جنودهما شَهْرَيار ، فنازَلَهُمْ زُهْرة ، فبرَزُوا لقِتاله ، وطلب شَهْرَيار المبارَزة ، فخرَج إليه أبو نَباتة نايلُ بنُ جُعْثُم الأعرجىّ ، وكان من شُجْعَانِ تَمِيم ، فَظَفِر به وقَتَله ، وأخَذَ فرَسه وسِوارَيْه

وسَلَبَه ، وانهَزَم أصحابُه ، وأقامَ زُهرَة بكُوثَى حتى قَدِم عليه سَعْدٌ ، فقدّم إليه نايلاً وألبَسَه سِلاحَ شَهْريار وسَوارَيْهِ ، وأركبه بِرْذَوْنَه ، فكان أوّل عربيٍّ سُوِّر بالعِراق . وأقام سعدٌ بها أيّامًا .

وقيل : كانت هذه الوقائع فى سنة سِتٍّ عشرة . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

ذكر خبر بهرسير وهى المدينة الغربية

قال[1] : ثم مَضَى زُهْرة إلى بَهُرَسِير فى المقدِّمات ، فتلقَّاه شِيرَزاد دِهْقان ساباط. بالصُّلح ، فأرسَلَه إلى سعد فصالَحَ على الجِزْية ، ولقى سعد كتيبة كِسْرى الَّتى تُدْعَى بُوران ، وكانوا يحلفون كلَّ يوم ألَّا يَزولَ مُلك فارسَ ما عشنا ، فهزمهم ، فَقَتَل هاشمُ بنُ عتبةَ المقرَّط ، وهو أسدٌ كان كسرى قد ألِفَه ، فقبَّل سعد رأْسَ هاشم وبعَثه فى المقدِّمة إلى بَهُرَسِير ، ووَصَلها سعدٌ والمسلمون ، فلمّا رأوا إيوانَ كسرى ، كبَّر ضِرارُ بن الخَطَّاب ، وقال : هذا ما وَعَدنا اللهُ ورَسوله ، وكبَّر النَّاسُ معه ، فكانوا كلَّما وصلت طائفةٌ كبَّروا ، ثم نَزلوا على المدينة ، وكان نزولُهم فى ذى الحِجّة سنة خَمس عشرةَ . والله أعلم .

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٥٤ .

ذكر فتح المدائن الغربية وهى بهرسير

كان[١] فتحُها فى صفَر سنةَ ستّ عشرةَ . وذلك أنَّ سعد بنَ أبى وقَّاص نزل عليها وحاصَرَها شهريْن ، ونَصَب عليها عشرين مَنْجَنيقا ، وقاتَلَ أهلَها قِتالا شديدًا ، وأرسل سعدٌ الخيولَ ، فأغارتْ على من ليس له عَهْدٌ ، فأصابوا مائةَ ألفِ فلّاح ، فأرسلَ سعدٌ إلى عمرَ يستأْذنه ، فقال : مَنْ جاءكم مّمن يُعِين عليكم فهو أمانُهم ، ومن هرب فأدركْتمُوه فشأْنَكم به ، فَخَلَّى سعدٌ عنهم ، وأرسل إلى الدَّهاقِين ودعاهم إلى الإسلام أو الْجِزْية ولهم الذِّمّة ؛ فتَراجَعوا .

قال : واشتدّ الحِصارُ على أهل المَدائن الغربيَّةِ ، حتى أكَلوا السَّنانيرَ والكلاب ، فبينما هم يحاصِرُونهم إذ أشرفَ عليهم رسولٌ ، فقال : يقول لكم المَلِك : هل لكم إلى المصالحة على أنَّ لنا مايَلِينا من دِجْلَة إلى جَبَلِنا ، ولكم مايليكم من دِجْلَة إلى جَبَلِكم ؟ أما شَبِعْتم ! لا أشبَعَ اللهُ بطونكم ! فقال له أبو مُفَزِّر الأسود بن قُطْبَة ، وقد أنطَقَه اللهُ عزَّ وجلَّ بما لايَدرى لاهو ولا مَنْ معه ، فرجع الرَّجُلُ ، فقَطَع الفُرْس دجلةَ إلى المَدائن الشَّرقيّة الَّتى فيها الإيوان ، فقال له مَن معه : يا أبا مفزِّر ، ما قلتَ للرَّسول ؟ قال : واللهِ ما أدرى[٢] ، وأرجو أن أكونَ قد نَطقتُ بالَّذى هو خيرٌ[٣] ، فنادى سعدٌ فى

---

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) ابن الأثير : « والذى بعث محمدا بالحق ما أدرى » .

(٣) بعدها فى ابن الأثير : « وسأله سعد والناس عما قال فلم يعلم » .

النَّاس ، فنهدُوا إليهم [1] ، فما ظَهَر على المدينة [أحد] [1] ولا خَرجَ إلَّا رجلٌ يُنادِي بالأمان ، فأمَّنُوه ؛ فقال لهم : ما بَقِيَ فى المدينة أحدٌ يَمنعُكم ؛ فدخلوا فما وَجَدوا فيها غيرَ الأسارى وذلك الرّجل ، فسألوه : لأيِّ شيء هَرَبوا ؟ فقال : بَعثَ إليكم المَلِك بالصُّلْح فأجَبْتُموه : ألَّا صُلْحَ بيننا وبينكم أبدًا حتى نأكلَ عَسَلَ أفريدون بأُتْرُجّ كُوثَى ؛ فقال المَلِك : ياوَيْلَتِيه [3] ، إنَّ الملائكة تكلَّم على ألسنتهم تردُّ علينا ، فساروا إلى المدينة القُصْوَى ، ودَخلَ المسلمون المَدِينة ، وأنزَلَهم سعد المَنازِلَ . والله أعلم .

---

(١) نهدوا : هموا .

(٢) من ابن الأثير .

(٣) فى الأصول : « تأويله » ، وصوابه من ابن الأثير .

ذكر فتح المدائن الشرقية

التى فيها إيوان كسرى

قال[١] : وأقام سعدٌ ببَهُرَسِير أيّامًا من صَفَر ، ثم قَصَد المَدائن ، وقطع دِجلَة ، وهى تقذف بالزَّبَد لكَثْرة المدّ ؛ وكان سَبَبُ عُبوره أنَّ عِلْجًا[٢] جاءه فقال : ما مُقَامُكَ ؟ لا يأْتى عليك ثالث حتى يَذهبَ يَزْدَجِرد بكلِّ شىء فى المَدائن ، فهيّجه ذلك على العبُور ، فقام وخطب النَّاس ، وقال : إنَّ عدوَّكُم قد اعتصم منكمْ بهذا البَحْر ، فلا تَخْلُصون إليه معه ، ويَخْلُصُون إليكم فى سُفُنِهم إذا شاءُوا ، وليس وراءكم ما تخَافون منه ، فقد كفاكم اللهُ أهلَ الأيّام ، وقد رأيتُ من الرَّأْىِ أنْ تُجاهِدوا العدوَّ ؛ إلَّا أنِّى قد عزمتُ على قَطْع هذا البحرِ إليهم ؛ فقالوا جميعًا : عزَمَ اللهُ لنا ولك على الرُّشْدِ ، فافْعَل .

فَنَدب الناسَ على العبُور ، وقال : من يبدأُ ويَحمِى لنا الفِراض[٣] حتى تَتَلاحَقَ به النَّاسُ ؛ لكَيْلا يمنعُوهم من العُبور ؟ فانتَدب له عاصمُ بنُ عَمرو ذو البأْسِ فى سِتِّمائة من أهل النَّجَدَاتِ . فاستعمَلَ عليهم عاصِمًا ، فتقدَّمهم عاصمٌ فى سِتين فارسًا ، قد اقتحموا دِجْلَة ، فلمّا رآهم الأعاجم ، وما صَنَعوا أخرَجوا للخيل الَّتى تقدَّمت مِثلَها ، فاقتَحموا عليهم دِجْلة ، فلقُوا عاصِمًا وقد دنا من الفِراض ، فقال عاصم : الرِّماحَ الرِّماحَ ! أشرِعوها ، وتوخَّوا العُيون ، فالتقَوْا ،

(١) ابن الأثير ٢ : ٢٥٦ .
(٢) العلج : الرجل من كفار العجم .
(٣) الفراض : جمع فرضة ، وهى محطة السفن من النهر .

فطعنهم المسلمون فى عيونهم ، فولَّوْا ولحِقَهم المسلمون ، فقَتَلوا أكثرَهم ، ومَنْ نجا صار أعوَر ، وتَلاحَق الستمائة بالسِّتين[١] .

ولما رأى سعدٌ عاصمًا على الفِراض قد منَعها ؛ أَذِن للنَّاس فى الأقتحام ، وقال : نستعين بالله ، ونتوكَّلُ عليه ، حَسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ، ولا حَوْل ولا قوّة إلَّا بالله العلِّى العظيم. وأقتَحَم الناسُ دِجلَة يتحدَّثون كما يتحدَّثون فى البَرِّ ، وطَبَّقوا دِجْلَة حتَّى مايُرَى من الشَّاطىء شىء .

قال : ولم يكن بالمدائن أعجب من دُخول الماء ، وكان يُدعَى يَوم الجَرائيم ، لا يَبقَى أحدٌ إلَّاانتشَرَتْ[٢] له جُرْثومة مِن الأرض يَستريحُ عليها ؛ حتى مَا يَبلُغ الماءُ حزام فرسِه ، فعَبَروا سالمين ، لم يَعْدَم منهمْ أحَد ، ولا عُدِم لأحد شى إلَّا قدحٌ لمالِكِ بنِ عامر سَقَطَ منه فجرَى فى الماء ، ثم ألقَتْه الرِّيح إلى الشَّاطىء ، فأخذَه صاحبُه ، فلمّا رأَى الفُرْسُ عُبورَهم خرجوا هُرَّابا نحو حُلوان ، وكان يزدجرد قد قدِم عِيالُه إليها قبلَ ذلِكَ . ولمّا هَرَب حَمل أصحابُه من بيْت المالِ ما قَدَروا عليه مِمَّا خفّ ، ومن النِّساء والذَّرارىّ ، وتركوا فى الخزائن من المتَاع والثِّياب والأَلْطاف مالا تُدرَك قيمتُه ، وتركوا ما قد أعَدُّوه لِلحصار من الأَطعمة والغَنَم والبقر ، وكان فى بيت المال ثلاثة آلاف ألف ، أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسيّة النصفَ ، وبقِىَ النِّصفُ .

وكان أوّل مَنْ دَخَل المَدائنَ كتيبةُ الأَهْوال ، وهى كتيبة

(١) بعدها فى ابن الأثير : « غير متعتعين » .
(٢) ابن الأثير : « اشمخرت » .

عاصم بنِ عَمرو ، ثم كَتيبةُ الخَرْساء وهى كَتِيبةُ القَعْقَاع بنِ عمرو ، فأخَذوا فى سِكَكِها وأحاطُوا بالقصر الأَبيض وبه من بَقِىَ من الفُرْس ، فأجابوا (١) إلى الجِزْية والذِّمّة ، فتَراجَع إليهم أهل المدائن على مِثلِ عهدهم ، ونَزلَ سعدٌ القصرَ الأَبيَض ، وسرَّح زُهْرةَ فى آثارِهم إلى النَّهْرَوان ، و [سرّح] (٢) مِقدار ذلك فى كلِّ جهة .

وكان سَلْمان الفارسىُّ رائدَ المسلمين وراعيَهم . دعا أهلَ بُهَرَسِير ثلاثا ، وأهلَ القَصْر الأَبيض ثلاثًا . واتَّخذ سعدٌ إيوانَ كِسرى مُصَلًّى ، ولم يغيِّر ما فيه من التماثيل ، ولمّا دَخل الإيوانَ ، قرأ : (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وعيُونٍ * وَزُروع وَمَقَامٍ كَرِيم * ونَعْمةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وأَوْرَثْناها قومًا آخَرِينَ) (٣) .

وصَلَّى فيه صلاةَ الفَتْح ثمانى رَكَعاتٍ لايفصل بينهنَّ (٤) ، وأتمَّ الصلاةَ لأَنَّهُ نَوَى الإقامة ، وكانت أوّل جُمعةٍ أُقيمتْ بالمَدائنِ فى صفر سنة ستّ عشرة .

---

(١) فى ابن الأثير : « ودعوهم فاستجابوا على تأدية الجزية » .

(٢) زيادة من ابن الأثير .

(٣) سورة الدخان ٢٥-٢٨ .

(٤) بعدها فى ابن الأثير : « ولا يصل جماعة » .

ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

قال : [١] وجعَل سعدٌ على الأَقْباض عَمرو بنَ عمرِو بنِ مُقرِّن ، وعلى القِسْمة سَلمَان بنَ ربيعةَ الْبَاهلىّ ، فجمع ما فى القَصر والإيوان والدور ، وأحصَى ما يأْتيه به أهلُ الطَّلب ، ووَجَدُوا بالمدائن قِبابا تُركيَّةً مملوءةً سلالا مختومةً برَصاصٍ فيها آنيةُ الذهب والفِضَّة ، فكان الرجل يطوف ويبيعُ الذَّهبَ بالفضَّة مِثْلاً [٢] بمثلٍ ، ورأَوْا كافورًا كثيرًا فحسِبُوه مِلحًا فعَجَنوا به فوَجَدُوه مُرًّا . وأدركَ الطَّلَب مع زُهرةَ جماعةً من الْفُرس على جِسْر النَّهرَوان فازدحَموا عليهم ، فوَقَع منهم بغْلٌ فى الماء فأَخذه المسلمون وفيه حِلْيَة كِسرَى وثِيابُه ، وخَرَزاتُه ووِشاحه ، ودِرْعه المُجَوْهَر . ولَحِق بعضُ المسلمين بَغلَيْن مع فارسيْن فقَتَلهما ، وأَخَذَ الْبَغْلَيْن فأَوصَلهما إلى صاحبُ الأَقْباض ، وهو يكتب ما يأْتيه به النَّاس ، فاستَوْقَفَه حتَّى يَنظرَ ما جاء به ؛ فإذا على أحدهما سَفَطانِ [٣] فيهما تاجُ كسرى مُفَسَّخًا [٤] ، وكان حِملُه على أُسطُوانَتيْن ، وفيه الجَوْهر ، وعلى البَغْل الثَّانى سَفَطان فيهما ثيابُ كِسرَى من الدِّيباج المَنْسوج بالذَّهب المنظوم بالْجَوْهر ، وغير الدِّيباج منسوجًا منظومًا . وأدرَك القعقاعُ فارسِيًّا فقَتَله وأخذ منه عَيْبَتَيْن فى إحدهما

---

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٥٨ .

(٢) ابن الأثير : « متماثلين » .

(٣) السفط : وعاء كالجوالق ، وفى الأصلين « بسقطان » تحريف ؛ صواب من ابن الأثير .

(٤) ابن الأثير : « مرصعا » .

خمسةُ أسياف ، وفى الأُخرى ستَّة أسْيافٍ ، وأدْرع منها درْعُ كسرَى ، ومَغافِرُه وسَيْفُه ، ودِرعِ هِرَقل وسَيفه ، ودرع شُوبِين وسَيْفه ، ودرعِ سياوْخش وسيفُه ، ودرعُ النعمان وسَيْفه ، وبقيّة السُّيوف لهُرْمز وقُباذ وفَيْروز .

وكان الفُرسُ قد استلبوا أدْراعَ مُلوك الهند والترك والرُّوم وسيوفَهم لمّا غَزَوْهم ، فأحضر القعقاع ذلك إلى سَعد فخَيَّره فى الأسياف فاختار سيفَ هِرَقْل ، وأعطاه دِرْع بَهْرام ، ونفَّل سائرَها إلّا سيْفَ كسرى [وسيف] (١) النعمان ، فبعث بهما إلى عُمَر بن الخطاب ؛ لتسمعَ العربُ بذلك بعد أن حَسَبَهَما فى الأخْماس ، وبَعثَ بتاج كِسرى وحِلْيتِهِ وثيابِه إلى عمَر ليراه المسلمون .

قال : وأدرَكَ عِصمةُ بنُ خالدٍ الضَّبيّ رجلَيْن معهما حماران ، فقتل أحدَهما وهَرَب الآخر ، وأخَذَ الحِمَارَيْن وأتى بهما إلى صاحب الأقْبَاضِ ، فإذا على أحدِهما سَفطَان فى أحدهما فَرَسٌ من ذَهبٍ بسَرْج من فِضَّةٍ على ثفرِه ولبَّته (٢) الياقوتُ والزَّبرجد ، وَلجامٌ كذلك ، وفارسٌ من فِضَّةٍ مُكلَّلةٍ بالجَوهر . وفى الآخر ناقَةٌ من فضَّة عليها شلِيل (٣) من ذهَبٍ ، وكلُّ ذلك منظومٌ بالياقوت ، وعليها رَجُلٌ من ذَهب مكلَّلٍ بالجَوهر ، كان كِسرَى يَصنَعُها على أُسْطُوانتَى التَّاج .

وأدَّى المسلمون الأمانةَ فى المَغْنَم ، ولما جُمِعَتْ الغنائم خمَّسها سعد ، وقسَّم مابقىَ من الخُمسِ والنَّفَل (٤) بين الناس ، وكانوا ستِّين ألفًا كلُّهم فارس ؛

---

(١) من ص . (٢) ابن الأثير : « ولباه » .

(٣) الشليل : مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرحل .

(٤) النفل بالفتح : الغنيمة .

أصابَ كُلاًّ منهم اثنا عشرَ ألفا ، ونَفَّلَ من الأَخْماس فى أهل البلاء ، وقسَّم المنازلَ بين الناس ، وأحضَر العِيالات فأَنزَلهم فى الدُّور ، فأقاموا بالمدائن ؛ حتَّى نزلوا إلى الكوفة بعد فَراغهم من جَلُولاء ، وتَكْرِيت ، والمَوْصِل .

قال : وأرسَل سَعد فى الخُمس كلَّ شىء يَتعجَّب منه العربُ ، وأراد أنْ يُخْرِجَ خمس القَطِيف فلم تَعتَدِل قِسْمتهُ ، فقال للمسلمين : هل تطيبُ نفوسُكم بأَربعة أخماسِه ، ونَبعَث به إلى أميرِ المؤمنين [يضعه] (١) حيث يشاء ؟ قالوا : نَعمْ ، فَبعث به إلى عمَر .

والقَطِيف : بِساطٌ واحدٌ طولُه ستُّونَ ذراعًا ، وعَرضُه مِثلُ ذلك مِقدار جَرِيب . كانت الأَكاسرةُ إذا ذهبت الرَّياحِين بعد الشِّتاء شَربوا عليه ، فكأنَّهم فى رياض ، فيه طُرُقٌ كالقصُور ، وفصوصٌ كالأَنْهار ، أَرضُه مُذْهَبةٌ ، وخِلالُ ذلك فُصوصٌ كالدرّ ، وفى حافاتِه كالأَرْض المَزْروعة والمُبْقْلَةِ بالنَّباتِ والورقِ من الحريرِ على قُضْبانِ الذَّهِب ؛ وأَزهارُه الذَّهبُ والفضَّةُ ، وثمارُه الجوهَرُ وأَشباهُ ذلك .

فلمّا وصلَ إلى عمَر استشار المسلمِين فيه ، فأَشاروا بَقْطعِه ، فَقطَّعه بينهم ، فأَصابَ علىَّ بنَ أَبى طالبٍ رضى اللهُ عنه قطعةٌ منه ، فباعَها بعشرين ألفا ، ولم تكن أَجوَدَ مِن غيرِها .

---

(١) زيادة من ابن الأثير

ذكر وقعة جلولاء وفتح حلوان

كانت [١] وقعةُ جلولاء فى أول ذي القَعْدة سنة ستَّ عشرة ، بينها وبين المدائن تسعةُ أشهُرٍ ، وسببُها أنَّ الفُرْس لمّا هَرَبوا من المدائن انتهوْا إلى جَلُولاء ، فافترقتْ الطُّرقُ بأَهِل أَذْرِبيجانَ والباب ، وأهل الجبال وفارِس ، فقالوا : إن افترقْتُم لم تجتمَعوا أبدًا ، وهذا مكانٌ يُفَرِّقُ بيننا ، فهلُمُّوا فلنجتمع للعربِ به ، ولْنُقاتِلْهم فإنْ كانت لنا فهو الَّذى نحبّ ، وإن كانت الأُخرى كُنَّا قد قضيْنَا الَّذِى علينا ، وأبْلَيْنا عُذْرًا . فاجتمَعوا واحتفَروا خَنْدقًا ، واجتَمعُوا فيه على مِهْران الرازىّ ، وتقدَّم يَزْدَجِرْد إلى حُلْوان ، فبلغ ذلك سعْدا ، فأَرسَل إلى عمر ، فبعث إليْه أنْ سَرِّحَ هاشمَ بنَ عُتْبةَ بن أبى وَقَّاص إلى جَلولاء ، واجعْل على مقدِّمته القعقاعَ بنَ عمرٍو ، وإن هَزَمَ اللهُ الفُرسَ فاجعل القعَقاعَ بين السَّوادِ والجَبَل ، وليكن الجندُ اثنى عَشَرألفا . ففعل سعدٌ ذلك .

وسار هاشمٌ من المدائن فى وجوه المهاجِرين والأَنصار وأعلامِ العَرَب ، فمرّ ببابل مهرُوذ ، فصالَحَه دِهْقانُها ؛ على أن يُفرَش له جَريبُ الأَرضِ دراهمَ ففعل ، ثم قَدِم جَلُولاء فحاصَرَهم فى خنادِقهم ، وأحاط بهم ، وطاوَلهم الفُرس وجَعَلوا لا يَخرُجون إلَّا إذا أرادوا ، وراجعهم المسلمون نحو ثمانين يَوْمًا ، كلُّ ذلك يُنْصَر المسلمُون

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤ وما بعدها ابن الأثير ٢ : ٣٦١ وما بعدها.

عليهم ، وجعلت الأمدادُ تَرِد من يَزدَجِرْد إلى مِهْران ، ومن سَعْدٍ إلى المسلمين .

وخرج الفُرسُ يومًا فقاتَلوا قتالاً شديدًا ، وأرسل اللهُ عليهم ريحًا حتى أظلمتْ عليهم البِلاد ، فسَقَط فُرسانُهم فى الخندقِ ، فجعلوا فيه طُرُقًا تَصعَد منها خَيلُهم ، ففسد الخندقُ ، فنهض المسلمون واقتتَلوا قِتالاً شديدًا لم يقتتلوا مثله ، ولا لَيْلةَ الهَرِير ، إلَّا أنَّه كان أعْجَل . وانتهى القَعْقَاع من الوجه الذي زَحَف منه إلى باب الخَنْدقِ ، وأمَرَ مناديًا فنادَى : يا معشر المسلمين ، هذا أميرُكم قد دخل الخندقَ ، فأقبِلوا إليه ، ولا يمنعكم مَنْ بينكم وبينَه من دخوله ، فَحَملوا وهم لا يَشكُّون أنَّ هاشمًا فى الخندقِ ، فإذا هم بالقَعْقاع ، فانهزم الفُرْس يَمْنة ويسْرة ، واتَّبعهم المسلمون ، فلم يُفْلِتْ منهم إلَّا القليل ، وقُتِلَ منهم يومئذٍ مائةُ ألفٍ ، فجلَّلت القَتْلى المجال ، وما بَيْن يديه وما خلفَه ، فسميَّتْ جَلولاء بما جلَّلَها من قَتْلاهم [1] ، وسار القَعقاعُ فى الطلبِ حتى بلغ خانقين ، فأدْرَك مِهرانَ الرازيَّ فقتَله ، وأدرك الفَيْرُزان ، فنزل وتوقَّل [2] فى الجبل فنجا ، وأصابَ القعقاعُ سَبايَا فأرسَلَهُنَّ إلى هاشم فقسَّمهُنَّ ، فاستولَدَهُنَّ المسلمون ، وممَّن يُنْسب إلى ذلك السَّبيْ أمُّ الشَّعبيّ .

قال : ولمَّا بلغت الهزيمةُ يزْدَجْرد سار من حُلوان نحو الرَّيّ ، واستخلفَ على حُلوانَ خُسْرشنوم [3] ، فلمَّا وصل القعقاعُ قصرَ

(١) بعدها فى ابن الأثير : « فهى جلولاء الوقيعة » .
(٢) وقل فى الجبل : صعد ، كتوقل .
(٣) ابن الأثير : « خسر سنوم » .

شيرين خرج إليه خسرشنوم ، وقدم إليه الزَّينبيُّ دِهْقَانُ حُلْوان ، فقتله القعْقاع ، وهَرَب خسرشنوم ، وآستولَى المسلمون على حُلْوان ، وكان فتْحها فى ذى القعْدة ، وبقىَ القعقاعُ بها إلى أن تحوّل سعدٌ إلى الكوفةِ ، فلحِقَه ، وآستخلَف على حُلوانَ قُباذ ، وكان أصلُه خُراسانيًّا ، وكتبوا إلى عمَر بالفتح ، واستأْذَنوه فى العُبور فأبَى ، وقال : لوَدِدتُ أنَّ بين السَّواد والجبل سدًّا لا يَخْلُصُونَ إلينا ولا نَخْلُصُ إليهم ، حَسْبُنا من الرِّيفِ السَّواد ، إنِّى آثرتُ سلامةَ المسلمين [على الأنفال] [1] .

قال : وجُمِعَتْ الغنائمُ وقُسِّمتْ بعد الخمسِ ، فأصاب كلَّ فارسٍ تسعةُ آلاف ، وتسعةٌ من الدَّوابّ ، وقُسِّم الفَىءُ على ثلاثين ألفا .

وقيل : إنَّ الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألفٍ ، وبَعث سعدٌ بالخمْس إلى عمرَ ، وهو ستَّة آلاف ألفٍ ، وبَعث الحساب مع زِياد بن أبِيه ، فكلَّمه عمرُ فيما جاء له ، فوَصفه له ، فقال له عمر : هل تستطيع أن تقومَ فى النَّاسِ بمثل ما كلَّمْتَنى ؟ فقال : والله ما على الأرض شخص أهيَبَ فى صَدْرِى منك ، فكيف لا أقوَى على هذا مع غيرك ! فقام فى النَّاس فتكلَّم بما أصابُوا وبما صَنعُوا ، وبما يستأْنفون من من الانسياح فى البلاد .

فقال عمر : هذا الخطيبُ المِصْقَع ، فقال : إنَّ جنْدنا [بالفعال] [1] أطلقوا ألسِنَتَنا .

---

(١) من ابن الأثير .

قال : ولمّا قَدِم الخمسُ على عمرَ قال : والله لا يُجِنُّه سَقْفٌ حتى أَقسِمَه ، فبات عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ وعبدُ الله بنُ الأَرْقم يَحرُسانه فى المَسْجدِ ، فلمّا أَصبحَ عمرُ جاء فى النَّاس فَكَشَف عنه ، فلمّا جاء ونظر إلى ياقوتِه وزَبَرْ جَدِه وجوهرِه بكى ، فقال عبد الرحمنُ ابنُ عوفٍ : ما يُبكيكَ يا أَميرَ المؤمنين ؟ فوالله انَّ هذا لَمَوْطن شُكْرٍ . فقال عمر : [والله ما ذاك يبكينى ، وبالله] [1] ما أَعطى الله هذا قومًا إلاَّ تَحاسَدوا وتَباغَضوا ، ولاتَحاسَدوا إلاَّ أَلقَى اللهُ بأْسَهُمْ بينهم .

ومَنعَ عمرُ رضى الله عنه مِن قِسمةِ السَّواد لتعذُّر ذلك بسبب الآجام والغِياض ، ومَفِيضِ [2] المِياه ، وما كان لبُيوتِ النَّار ، ولِسِكَك البُرُدِ ، وما كان لِكسْرى ومَنْ معه ، وخاف الفتنةَ بين المسلمين فلم يُقَسِّمه ، ومنع من بيعِه ، فلا يحلُّ بيعُ شىء من أَرْضِ السَّوادِ ما بين حُلوان والقادسيَّةِ .

قال : وأشترى جَريرٌ أَرضًا على شاطىء الفُراتِ ، فردَّ عمرُ ذلك الشراء وكَرِهه . والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) من ابن الأثير .

(٢) ابن الأثير : « وتبعيض المياه » .

ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة وفتحه الأبلة

قد اختلف المؤرِّخون فى وقتِ ولايته البَصْرة ، وهل كانت من قِبَلِ عمرَ بنِ الخطَّابِ أو من قِبَلِ سعدِ بن أبى وقَّاص بأمرِ عُمَر . فأمّا من يقول : إنَّ وِلايَتَه من قِبَل عُمر ، فإنَّه جعَلَها فى سنة أربعَ عشرة ، وأنَّ نزوله البَصْرة كان فى شهر ربيع الأوّل أو الآخر ، بعَثَه عمرُ إليها ، وكان بالبَصْرة قُطْبَة بنُ قَتادةَ السَّدُوسىّ يُغِير بتلك النَّواحى ، كما يُغيرُ المثنَّى بالحِيرة ، فكتب إلى عمرَ يُعلِمُه مَكانَه ؛ وأنه لو كان مَعه عَدَدٌ يسيرٌ لظفِر بمَن قِبَله مِنَ العَجَم ، فنَفَاهمْ عن بِلادهم . فكَتَب إليه عمرُ يأمره بالمُقامِ والحذَرِ ، ووجَّه إليه شُريحَ بنَ عامر أحدَ بنى سَعدِ بن بكر ، فأقبَل إلى البَصْرةِ ونزل بها قُطْبَةُ ، ومضى إلى الأهْواز حتى انتهى إلى دارِس ، وفيها مَسلحةُ الأعاجم ، فقتَلوه .

فبعثَ عمرُ عُتبةَ بنَ غَزْوان ، وقال له : إنِّى قد استعملتُكَ على أرضِ الهندِ وهى حَوْمةٌ من حَوْمات العدُوِّ ، وأرجو أن يكفيَكَ اللهُ ما حولَها ، ويعينَكَ عليها . وقد كتبتُ إلى العَلاء بنِ الحَضْرَمىّ أن يُمِدَّك بعرفَجة بنِ هَرْثَمة ، وهو ذُو مُجاهَدة ومكايَدة للعدو ، فإذا قَدِم عليك فاستَشِرْه وادعُ إلى الله ، فمنَ أجابَكَ فاقْبَلْ منه ، ومن أبَى فالْجِزْية ، وإلاَّ فالسَّيف ، وأوْصاه ثم قال له : انطلِقْ أنت ومَنْ معكَ ؛ حتى إذا كنتم فى [أقْصَى][1] أرض العَرَب ، وأدْنَى أرضِ العَجَم فأقيموا .

---

(١) من ص .

فسار عُتبةُ ومَن معه حتى إذا كانوا بالمربد[١] تقدَّمُوا حتَّى بلغوا حِيالَ الجِسْر ، فَنزلُوا ، فبلغ صاحبَ الفراتِ خبرُهم ، فأقبَل فى أربعة آلاف ، فالتقَوْا فقاتَلَهم ، عُتبةُ بعد الزَّوالِ وهو فى خُمْسمائة ، فَقَتَلَهم أجمعين ، ولَم يَبق إلاَّ صاحبُ الفُراتِ ، فأُخِذَ أسيرًا .

وأمَّا من يقول : إنَّ سعدَ بنَ أبى وقَّاص أرْسله ، فقال : إنَّ البَصْرة مُصِّرَتْ فى سنة ستّ عشرةَ بعد جَلولاَء وتكْرِيت ، فأرسله سعدٌ إليها بأمْرِ عُمَر ، وإنَّ عُتبةَ لمّا نزل البَصرةَ أقامَ بها نحو شَهْر ، فخرج إليه أهلُ الأُبُلَّة ، وكان بها خمسمائة أُسْوار[٢] يَحْمُونها ، وكانت مَرْفأ السُّفُنِ مِنْ الصِّين ، فقاتَلَهم عُتبةُ فهَزَمهم ؛ حتَّى دخلوا المدينة ، ورجَعَ عُتبة إلى عسكِره ، وألقَى الله الرُّعْبَ فى قلوب الفُرس ، فخَرَجوا عن المدينة وحَمَلوا ماخفَّ ، وَعبَروا الماء ، وأخْلوا المدينة ودخَلَهَا المسلمون وأصابُوا متاعًا وسِلاحًا وسَبْيًا ، فاقْتَسموه بعدَ أنْ خَمَّسَهُ عتبةُ ،وكان المسلمون ثلثمائة ، وكان فَتْحُها فى شهر رجب أو شعبان ، ثم نَزَل موضع مَدينة الرِّزق ، وخَطَّ موضعَ المَسجدِ ، وبناه بالقَصَبِ . وكان أوّلَ مولود وُلِدَ بالبَصرةِ عبدُالرحمن بنُ أبى بَكْرة ، فلمَّا وُلِدَ نَحَر أبوه جَزُورًا فَكَفتْهم لقلةَ الناس ، ثم جمعَ اللهُ أهلَ دَستُميسان ، فلقيهم عتبةُ فَهزَمهم وأُخذ مَرْزُبانُها أسيرًا ، وأخذَ قَتادةُ مِنطقَتَه فبَعَث بهاَ إلى عمَر مع أَنَس بن حُجَيَّة . فقال له عمر : كيفَ النَّاس ؟ فقال : انهالتْ عليهم الدُّنيا ، فهم يَهيلون الذَّهب والفضَّةَ ، فرغَّبَ النَّاسَ فى البَصْرةِ فأتَوْها ، واستعمل عتبةُ مجاشِعَ بنَ مسعود على جماعة وسيَّرهم إلى

(١) المربد : سوق بالبصرة .

(٢) الأسوار، بضم الهمزة ، الفارس من فرسان العجم ، وجمعه أساورة .

الفُراتِ واستخلفَ المغيرةَ بنَ شُعبةَ على الصَّلاةِ ؛ إلى أن يَقدَمَ مُجاشِعٌ فإذا قَدِم فهو الأمير .

وسار عتبةُ إلى عُمرَ ، فظَفِر مجاشعٌ بأهلِ الفُراتِ . وجمع الفيلكان (عظيم من الفُرْس) ، فخرَج إليه المغيرةُ بنُ شعبةَ ، فلقِيه بالمَرْغاب فاقتَتَلوا. فقال نِساءُ المُسلمين : لو لحِقْنا بهم ، فكنَّا مَعَهم ؛ فاتَّخَذْن من خُمُرِهِنَّ رَاياتٍ ، وسرن إلى المسلمين .

وكتب المغيرةُ إلى عمَر بالفتح ، فقال عمر لعُتبةَ : من استعملتَ بالبَصْرةِ ؟ فقال : مجاشعَ بنَ مسعود . قال : أتَستَعمِل رَجُلاً من أهل الوَبَرْ على أهْلِ المدَر ! وأخبَرَه ما كان من المُغيرةِ ، وأمَرَه أن يَرجع إلى عَمِله ، فمات بالطَّريق . وقيل فى وفاته غيرُ ذلك .

وكان مِمَّن سُبِيَ من مَيْسان يَسار أبو الحَسَن البَصْري ، وأرْطَبان جدّ عبد الله بن عَوْنِ بنِ أرْطَبان . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ذكر فتح تكريت والموصل

وفى[1] سنة ستَّ عشرةَ فى جُمَادَى فُتِحَتْ تَكْرِيت ؛ وذلك أنَّ الأنْطاق سار من المَوْصِل إلى تَكْريت ، وخَنْدَقَ عليه ليَحمىَ أرضَه ومعه الرُّوم وإيَاد ، وتَغلِب ، والنَّمِر ، والشَّهارِجة ، فبَلَغ ذلك سَعْدًا فكتب إلى عمرَ ، فأمَره : أنْ سَرِّحْ عبدَ الله بنَ المُعْتَمّ ، واستعمِلْ على مقدِّمته رِبْعيَّ بنَ الأفْكَل ، وعلى الخيل عَرْفَجَةَ ابنَ هَرْثَمة .

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٦٤ .

فسار عبدُ الله إلى تكْريت ، وحصر الأنطاق ومن معه أربعين يَوْمًا ، وتَزاحَفوا فى المدّة أربعةً وعشرين زَحْفًا ، ثم أرسل عبدُ الله إلى العَرب الَّذين مع الأَنْطاق يَدْعُوهم إلى الإسلام ، فأسلَموا ، وأعلِمُوا أنَّ الرُّومَ قد نقلوا متاعَهم إلى السُّفُن ، فأرسل إليهم : إذا سمِعْتم التكبيرَ فاعلموا أنَّا على أبواب الخندقِ ، فخذوا الأبوابَ التى تَلِى دِجْلَة ، وكبِّروا ، واقتلُوا من قَدرتُم عليه ، ففعلوا ذلك ، وأخذت الرُّومَ السيوفُ من كلّ جانب .

وأرسل عبدُ الله رِبْعىَّ بنَ أَفْكَل إلى الحِصنين وهما نينوَى وهو الحِصْن الشَّرقىّ ، والموصِل وهو الحِصْن الغربىّ ، وقال : اسْبِق الخبرَ ، وسَرِّح معه تَغْلِب ، وإياد ، والنَّمِر ، فأظْهَرُوا الظَّفَر والغَنِيمةَ ، وبشروهم ، ووقَفُوا بالأبوابِ . وأقبلَ ابنُ الأَفْكل فاقتَحَم الحِصن فسأَلُوا الصُّلْحَ ، وصارُوا ذِمَّةً ، وقُسِّمَتْ الغنيمة ، فكان سهم الفارِس ثلاثةَ آلاف ، وسهمُ الرَّاجل ألفَ درهم ، وبعثوا بالأَخماسِ إلى عمرَ ، وولَّى الموصلَ ربعىَّ بنَ الأَفْكَل ، والخَرَاج عَرْفَجَة بنَ هرثمة .

وقيل : إنَّ فَتْحَ المَوْصِل كان فى سنةِ عشرين لمّا استعمَل عمرُ عتبةَ بن فَرْقَد لقَصْدِها ، وأنه فَتَح الْمَرْج ، وبانهذرا ، وباعذرا ، وحِبْتون ، وداسن وجميع معاقل الأكراد ، وقَرْدى وبازَبْدى ، وجميع أعْمال المَوْصِل .

وقيل : إنَّ عِياض بنَ غَنْم لمَّا فتح بلَد أَتَى المَوْصِلَ ففتح أَحَد الحِصْنَيْنِ ، وبَعثَ عُتبةَ بنَ فَرْقد إلى الحِصْن الآخر ، فَفَتحه على الْجِزية والخَراج ، والله سبحانه وتعالى أعلمُ .

ذكر فتح ما سيذان

لما [١] رجع هاشمُ بنُ عتبةَ بن أبى وقّاص من جَلولاء إلى المَدائن بلغ سَعْدًا أنَّ آذيْن بن الهُرمُزان قد جمع جَمْعًا وخرج بهمْ إلى السَّهْلِ ، فأرسل إليهم ضِرارَ بنَ الخَطَّاب فى جيْش ، فالْتَقَوْا بسَهْلِ ماسَبذَانَ وٱقْتَتلوا ، فأسرع المسلمون فى المشركين ، وأخَذ ضِرار آذِين أسيرًا فَقَتَله ، ثم خرجَ فى الطَّلَبِ حتى ٱنتهى إلى السَّيرَوان ، فأخذ ماسَبذان عَنْوَةً ، وهرب أهلُها فى الجبال ، فدعاهم فٱستجابوا له ، وأقام بها حتى تَحَوَّلَ سعدٌ إلى الكوفة ، فسار إليه ، وٱستَخلف على ماسَبذَانَ ٱبنَ الهُذَيل الأَسَدىّ ، فكانت أحدَ فُروجِ الكُوفة .

وقيل : إنَّ فتحها كان بعد وَقعةِ نَهَاوَنْد ، والله أعلم .

ذكر فتح قرقيسيا

وفى [٢] سنة ستّ عشرةَ أيضا ، أرسل سعدُ بن أبى وَقّاص عمرَ بن مالك بن عُتبة فى جند ، وجَعَلَ على مقدِّمته الحارثَ بنَ يزيدَ العامرِىّ ، فخرج نحو هِيت ، فنازل مَنْ بها ، وقد خندقوا عليهم ، وكان أهلُ الجزيرة لمّا أمَدُّوا هِرقْلَ على أهلِ حِمْص كما ذكرنا ، بَعَثُوا جُنْدًا إلى أهلِ هِيتَ ، فلمّا رأى عُمر ٱعْتصامَهُمْ بخندَقهم ، تَرَك الأَخْبِيَةَ على حالِها ، وخلَّف عليهم الحارث [٣] فى نصف النَّاس ،

---

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٦٦ .

(٢) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٦٦

(٣) ابن الأثير : « الحارث بن يزيد » .

وسار بالنِّصف الثانى إلى قَرْقِيسيا ، فجاءها على غِرَّةٍ فأَخذَهَا عَنْوةً ، فأَجابوا إلى الجِزْية . وكتب إلى الحارث : إنْ هم أستجابوا فخلِّ عنهم فلْيخرجوا وإلا خَنْدِق على خَنْدَقِهم خَنْدَقًا ، وأجعَلْ أبوابَه ممّا يليك حتى أرى رَأْيِى . فراسلهم ، فأَجابوا إلى العَوْد إلى بلادهم ، فترَكهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

ذكر فتح الأهراز ومناذر ونهر تيرى

وفى[1] سنة سبع عشرةَ فُتِحَتْ الأَهْواز ، ومنَاذِر ونَهرتِيرَى ، وقيل : كان فى سنة ستّ عشرة [2] ، وكان سببُ هذا الفتح : أنَّ الهُرْمُزان ، وهو أحد البيُوتاتِ السَّبْعةَ من أهلِ فارس لمَّا انهزمَ يومَ القادسيَّة قصد خُوزِسْتان فمَلَكها ، وكان يُغِيرُ على أهل بَيْسان ، ودَسْتُمِيسان من مَناذِر ، ونهرتِيرَى ، فاسْتَمدَّ عُتبةُ بنُ غزوان أميرُ البصْرة سَعْدًا ، فأَمدَّه بنُعيم بنِ مُقَرِّن ونُعَيْمِ بنِ مسعود ، وأمرهما أن يأْتيَا أعلى مَيْسان ودَسْتُمِيسانَ حتى يكونا بينهم وبين نهْر تيرى ، ووجَّه عتبةُ بنُ غَزْوان سُلْمى بنَ القَين ، وحَرْملةَ بنَ مُرَيْطة - وكانا من المهاجرين - فنزلا على حدُودِ مَيْسان ، ودَسْتُمِيسان بينهم وبين مَناذِرِ ، ودَعَوا بنى العَمِّ ، فخرج إليهما غالب الوائلىّ ، وكُلَيْب ابنُ وائل والكُلَيْبىّ ، تواعَدوا فى يوم ، أنَّ سُلمى وحَرْملة يخرجان إلى الهُرْمُزان ، وأنَّ غالبًا وكُلَيْبًا يَثُور أحدُهما بمَناذِر ، والآخر بنَهْرتِيرَى ،

(١) تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٧٩ وما بعدها .
(٢) ابن الأثير : « وقيل سنة عشرين » .

فلمّا كان فى ليلة الموْعِدِ خرج سُلمَى وحَرْملة صبيحتها ، وأنهضا نُعيمًا ومن معه ، والتقَوْا هُمْ والْهُرمزان بين دُلْث ونَهر تِيرَى ، واقتتلوا ؛ فبينما هم على ذلك أقبل المددُ من قبل غالبٍ وكُلَيْبٍ ، وأتَى الهُرْمُزانَ الخبرُ بأخْذ مَناذِر ونهرتِيرَى ، فانهزم بمَنْ معه ، فقَتَل المسلمون منهم ما شاءوا ، واتَّبعوهم حتى وقفوا على شاطىء دُجَيل ، وأخذوا ما دونَه ، وعسكَروا بجِبال سُوق الأهواز ، وصار دُجَيْل بين الهُرْمزان والمسلمين ، فعندها طلب الهُرْمزان الصُّلْحَ ، فاستأمروا عتبةَ ، فأجاب إلى ذلك على الأهواز كلِّها ومِهْرجان قذق ما خلا نهرَ تِيرَى ومَناذر ، وما غَلبوا عليه من سُوق الأهواز ؛ فإنه لا يردّ عليهم ، وجعل عتبةُ سُلمى بن القَيْن على مَناذر مَسْلحةً ، وأمْرُها إلى غالبٍ ، وجعل حَرْمَلَة على نهر تِيرَى ، وأمرها إلى كُلَيْب ، فكان سُلمَى وحرملة على مَسالح البصرة ، ثم وقع بين غالبٍ وكُلَيْب وبين الهُرْمُزان اختلافٌ فى حدود الأرضِين ، فَحضر سلمى وحَرْملة لينظرا (١) فيما بينهم ، فوجدا (٢) الحقَّ بيدِ غالبٍ وكليبٍ فحالا (٣) بيْنَه وبينهما ، فكفر الهرمزان ومنع ما قبله ، واستعان بالأكراد وكَثُف [جُنْدُه] (٤) .

فكتب سُلمى ومن معه إلى عُتبة بذلك ، فكتب إلى عمرَ فأمره بقَصْده ، وأمَدَّ المسلمين بحُرْقُوص بنِ زُهير السَّعدىّ ، وكانت له صُحْبةٌ ، وأمَّره على القتال ، وما غلبَ عليه .

---

(١) ك ، ص : « لينظروا ؛ » والصواب ما أثبته من ابن الأثير .
(٢) ك : « فوجدوا » .
(٣) ك : « فجالا » بالجيم .
(٤) من ابن الأثير .

وسار الهُرْمزان ومَنْ معه ، وسار المسلمون إلى جِسْر سُوق الأهواز وأرسلوا إليه : [إمّا][1] أن تعبر إلينا أو نَعبُر إليك . قال : اعبُرُوا إلينا ، فعَبَرُوا فوق الجِسْرِ ، واقتتَلوا ممّا يلى سُوق الأهواز ، فانهزَم الهرمزان وسار إلى رَامَهُرْمُز ، وفتح حُرْقُوص سوقَ الأهواز ونزل بها ، واتَّسقَتْ له بلادُها إلى تُسْتَر ، ووَضَع الجزيةَ ، وكتب بالفتح إلى عمَر بنِ الخطَّاب ـ رضى الله عنه ـ وبعث إليه بالأخماس .

ذكر صلح الهرمزان

وأهل تُسْتَر مع المسلمين

ولما[2] انهزم الهرمزان من سُوقِ الأهوازِ ، جَهَّزَ حُرْقُوص جَزء ابن معاوية فى أثره ، فاتَّبعه وقَتَل مِنْ أصحابِه حتى انْتهَى إلى قرية الشغَر ، فأعْجَزه الهرمزان ، فمالَ جَزْء إلى دَوْرَق ، وهى مدينة سُرّق ، فأخَذَها صافيةً ، ودَعَا مَنْ هَربَ إلى الجِزْية ، فأجابوه .

وكتب إلى عمرَ وعتبة بذلك ، فكتب عمرُ إليه وإلى حُرْقُوص بالمُقَام فيما غَلَبَا عليْه حتى يأْمرَهما بأمره ، فعَمَّر جَزْء البلادَ ، وشَقَّ الأنهار ، وأحْيَا الموات ، وراسَلَهم الهرمزانُ فى طَلب الصُّلح ، فأجاب عمرُ إلى ذلك ، وأن يكون ما أخَذه المسلمون بأيديهم ، فاصطلحوا على ذلك .

ونزل حُرقوص جبلَ الأهْوازِ ، فشقَّ على النَّاسِ الاخْتِلافُ إليه ،

---

(١) من ص .

(٢) ابن الأثير ٢ : ٣٨٢ .

فبلغ ذلك عمرَ ، فأمره بنزولِ السَّهلِ ، وألا يَشُقَّ على مسلمٍ ولا مُعَاهِدٍ ، وبقِىَ حُرْقوص إلى يومِ صِفِّين ، ثم صار حَرُوريًّا وشَهِدَ النَّهْروانَ مع الخوارجِ . والله تعالى أعلَم بالصّواب ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل .

ذكر فتح رامهرمز

قد [1] اختلف النَّاسُ فى وقتِ هذا الفَتْح ، فقيل : كان فى سنةَ سبعَ عشرة . وقيل : سنة تسعَ عشرةَ . وقيل : فى سنة عشرين .

وكان سببُه أن يَزْدَجرِد وهو بمَرْو لَم يَزَل يُثِيرُ أَهْل فارِس، أَسَفًا على ما خرج من مُلْكِهم ، فتحرّكُوا وتكاتبوا هم وأهل الأهوازِ وتعاقَدوا على النُّصرة ، فنُمِىَ الخبر إلى حُرْقوص بنِ زُهَير ، وجَزْء وسُلْمى وحَرْملة ، فكَتَبوا إلى عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه بذلك .

فكتب عمرُ إلى سعدٍ : أن ٱبعثْ إلى الأهواز جنداً كَثيفا مع النُّعمان ابن مقرِّن وعَجِّلْ ، فليَنْزِلوا بإزاء الهرمزان ويتحقَّقوا أمرَه .

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى ، وهو على البصرةِ : أن ٱبعثْ إلى الأهواز جُنْدًا كَثِيفًا ، وأمِّر عليهم سهلَ بنَ عَدىّ ، أخا سهيل ، وابْعَثْ معه البراءَ بنَ مَالِك وعَرْفَجة بن هرثمة وغيرهم ، وعلى أهل الكوفة والبصرةِ جميعًا أبو سَبْرة بن أبى رُهْم .

فخرج النُّعمانُ بنُ مقرِّن فى أهل الكُوفة ، وسار إلى الأهْواز على

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٨٣ ، ابن الأثير ٢ : ٣٨٢ .

البغال ، يجنُبون[1] الخيل ، فخلّف حُرْقوصا وسُلمَى وحرملة ، وسار نحو الهرمزان وهو برامَهُرْمُز . فلمّا سَمِع الهرمزان بمَسير النعمان إليه ، بادَرَ رَجاءَ أنْ يقتطعه ، فالتقيَا بأرْبُك (موضع عند الأهواز) ، واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فهزم اللهُ عزَّ وجلَّ الهُرْمزان ، فترَك رامَهُرْمُز ، ونزل تُسْتَر ، وسار النعمان إلى رامَهُرْمُز فنزلها وصَعِد على إيذج[2] فصالحه تِيرَوْيه عليها ورجع إلى رامَهرُمُز ، وأقام بها ، ووصَلَ أهلُ البَصْرة فنزلوا سوقَ الأهوازِ ، وهم يُرِيدُون رامَهُرْمُز .

فأتاهم خبر الوقعةِ ومسير الهُرْمزان إلى تُسْتَر ، فساروا نحوَه ، وسار أيضًا النُّعمانُ وحُرْقوص وسُلمَى وحَرْملة وجَزء ، فاجتَمعوا على تُسْتَر ، وبها الهرمزانُ وجنودُهُ من أهل فارسَ والجِبال والأهواز ، وهم فى الخَنادق ، وأمدّهم عمرُ رضى الله عنه بأبى موسى الأشعرىّ ، وجعَلَه على أهلِ البصرة ، وعلى جميع النَّاسِ أبو سَبْرة ، فحاصروهم أشهرًا ، وأكثروا فِيهم القَتْل .

وقَتَل البراءُ بنُ مالك فى هذا الحصارِ مائةَ مُبارزٍ سِوَى من قُتِل فى غير المبارزة ، وقتل مثله مجزأة بن ثور وكَعْب بن ثور ، وزاحَفَهم المسلمون[3] أيام تُسْتَر ثمانين زَحْفًا يكون مَرّةً لهم ومَرّةً عليهم ، فلمّا كان آخرَ زحْفٍ فيها ، واشتَدَّ القتالُ ، قال المسلمون : يا بَراء ، اقسِم على ربِّك ليهزمنَّهم ، وكان مُجابَ الدَّعوة فقال : اللهُمَّ آهزِمْهم لنا ، واستَشْهِدْنى ، فهزَموهم حتى أدخلوهم

(١) يقال : جنب الدابة إذا قادها إلى جنبه .
(٢) الطبرى : « ثم صعد لايذج » .
(٣) الطبرى : « المشركون » .

خنادقهم ، ثم اقتحموها عليهم ، فدخلوا مدينتهم [1] ، وأحاط بها المسلمون ، فضاقت المدينة بهم . فبينما هم كذلك إذْ خرج إلى النعمان رجلٌ يَسْتَأْمِنهُ على أنْ يَدُلَّه على مَدْخَلٍ يَدْخُلون منه ، ورُمِيَ فى ناحية أبى موسى بسَهْمٍ مكتوبٍ عليه : إنْ أَمَّنْتمونى دَلَلْتُكُم على مكانٍ تأْتون منه المدينة ، فأَمَّنُوهُ فى سَهْمٍ ، ورُمى إليهم بسَهمٍ آخر وقال : اسلكوا مَنْ قِبَل مَخرَجِ الماءِ ؛ فإنَّكم ستفتحونها . فندبَ أبو موسى النَّاسَ فانتدبوا ، وندبَ النُّعمانُ أصحابَه مع الرّجل الَّذِى جَاءَهُم ؛ فالْتقوْا هم وأهلُ البصرةِ على مَخرج الماء ، فدخلوا فى السّرب ؛ ولمّا دخلوا المدينة كبَّروا وكبَّرَ المسلمون من خارج ، وفُتِحت الأبوابُ فاجْتَلَدوا فيها ، فأَنامُوا كل مُقاتِل .

وقَصَد الهرمزان القَلْعة ، فتحصَّنَ بها ، ولحقَ به جماعةٌ ، وطافَ به الَّذين دخلوا البلد ؛ فنزل إليهم على حُكْمِ عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضى الله عنه ؛ فأَوْثَقُوهُ واقتسموا ما أفاءَ اللهُ عليهم ، فكان قسمُ الفارس ثلاثةَ آلافٍ ؛ والرَّاجلِ ألفا .

وجاءَ صاحبُ السَّهمِ والرَّجل الذى خرج بِنفسِهِ فأَمَّنُوهُمَا ، ومن أَغْلَقَ بابَه معهما .

وخرج أبو سبرة فى أثرِ المنهزِمين إلى السُّوس ، فنزل عليها ، ومعه النُّعمانُ وأبو موسى ؛ وكتبوا إلى عُمَر ، فكتب بِرَدّ أبى موسى إلى البَصْرة ، فانصَرَف إليها ، وأرسل أبو سَبْرة وفدًا إلى عُمَر رضى الله عنه ، فيهم : أنسُ بنُ مالكٍ والأحنفُ بنُ قيسٍ ؛ ومعهم

(١) الطبرى : « وأرزوا إلى مدينتهم » .

الهُرْمزان فقدِموا به المدينةَ وألبَسوه كُسوتَهُ من الدِّيباجِ المُذهَبِ ، وتاجُهُ كانمُكَلَّلاً بالياقوتِ و [عليه] [1] حِلْيَتُه ،ليَراه عمرُ والمسلمون. فوجدوا عمرَ فى المسجدِ مُتَوسِّدًا بُرْنُسه ، وكان قد لَبِسَه لِوفدٍ قَدِم عليه من الكوفة ، فلمّا آنصَرفوا تَوسّدَه ونام ، فجلسوا وهو نائم والدِّرةُ فى يَدِه .

فقال الهُرْمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ، فقال : أين حرسُه وحُجَّابه ؟ فقالوا : ليس له حارسٌ ولا حاجبٌ ولا كاتب . فقال : ينبغى أن يكون نَبِيًّا ، قالوا : بل يعملُ بعمل الأنبياء [وكثر الناس] [1] .

فآستيقظَ عمرُ واستوَى جالسًا ، ثم نظر إليه، وقال : أَلْهُرْمُزان؟ قالوا : نعم ، فقال : الحمدُ لله الذى أَذَلَّ بالإسلام هذا وأشباهه ، فأَمَرَ بنَزْعِ ما عليه ، فَنَزَعُوه وألبَسوه ثوبًا صَفيقًا [2] . فقالله عمر : كيف رأيتَ عاقبةَ الغَدْرِ ، وعاقبةَ أمرِ اللهِ ! فقال : يا عمر ، إنّا وإيّاكم فى الجاهليّة ، كان الله قد خلّى بيننا وبينكم [فَغَلَبْناكم] [3]، فلمّا كان الأمرُ معكم غَلَبْتُمونا . ثم قال له عمر : ما حُجّتُك وما عُذْرك فى آنتقاضِك مرّةً بعد أُخْرى ؟ قال : أخافُ أنْ تَقْتُلَنِى قبلَ أنْ أُخبِرك . قال : لا تخفْ ذلك ، وآسْتَسْقَى ماءً ، فأُتِىَ به فى قَدحٍ غليظٍ . فقال : لو متُّ عطَشًا لم أَسْتَطِعْ أنْ أشربَ فى مثلِ هذا ، فأُتِىَ به فى

(١) من تاريخ الطبرى .
(٢) ثوب صفيق : ثخين كثير الغزل ، ضد السخيف .
(٣) تكملة من ص .

إناءٍ يَرْضاه . فقال : إنِّى أخاف أن أُقْتَل وأنا أَشْرَبُ . فقال له عُمرُ : لا بأْسَ عليكَ حتى تشربَهُ ، فأَكْفَأَه ؛

فقال عمر : أَعِيدُوا عليه ولا تجمعُوا عليه بَيْنَ القَتْلِ والعطشِ . فقال : لا حاجةَ لى فى الماء ؛ وإنما أردتُ أن أستأْمِنَ به . قال : فإنِّى قاتِلُكَ ، قال : قد أَمَّنْتَنِى . قال : كَذَبْتَ ، قال أَنَسُ : صدقَ يا أميرَ المؤمنين ، قد أَمَّنْتَهُ . فقال : يا أنسُ ، أنا أُؤَمِّنُ قاتلَ مجزأةَ ابنَ ثور والبرَاء بن مالك !

وكان الهرمزان قَتَلهما بيَدِه فى هذه الوقعةِ ، ثم قال : والله لتأْتِيَنِّى بمَخْرج أو لأُعاقبَنَّك ، قال : قد قلتَ لا بأْسَ عليك حتى تُخبِرَنى وحتى تشربَ ، فقال عمر رضى الله عنه : خَدَعْتَنِى ، والله لا أَنْخَدِعُ إلَّا أن تُسْلِمَ ، فأَسلَمَ ، ففَرَضَ له فى ألفيْن فى كلِّ سنةٍ ، وأَنزَلَه المدينةَ . والله أعلم .

ذكر فتح السوس

ولما [1] نزلَ أبو سَبْرة على السُّوسِ فى سنة سبع عشرةَ بعد فتحِ تُسْتَر كان بها شَهْرَيار أخو الهُرْمُزان ، فأَحاط المسلمون بها وناوشُوهُم القتالَ مَرَّاتٍ ، كل ذلك يُصيب أهلُ السوس فى المسلمين ، فأَشرَفَ عليهم الرُّهبانُ والقِسِّيسون ، فقالوا : يا معشر العربِ ، إنَّ مِمَّا عَهِدَ إلينَا علماؤُنا أنَّ السُّوس لا يَفتحها إلَّا الدَّجَّالُ ، أو قومٌ فيهم الدَّجَّال ، فإنْ كان فيكم فَسَتَفْتَحونَها ، وكان صافُ بنُ صَيَّادٍ مع المسلمين فى خَيْل النُّعمان . ثم ناوشَ أَهْلُهَا المسلمين مرَّةً ، وصاحوا بهم

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٨٩ ومابعدها ، تاريخ ابن الأثير ٢ : ٣٨٦ ومابعدها .

وغاظوهم ، فأتى صاف بابَ السُّوسِ فَدَقَّهُ برجْلِهِ ، فقال : انفتِحْ ، وهو غضبان فتقطَّعَت السلاسِلُ ، وتكسَّرت الأَغْلَاقُ ، وتفتَّحت الأَبوابُ ، ودَخلَ المسلمونَ ، وألقى المشركون بأَيدهم ، وتَنادَوْا : الصُّلْحَ الصُّلْحَ ! فأَجابهم المسلمون إلى ذلك بعد أَنْ دخلوها عَنْوةً ، واقتسموا ما أَصابوا ، ثم افْتَرَقُوا .

فسارَ النعمان حتى أَتى أَهلَ نَهَاوَنْد ، وكان كِتابُ عمرَ قد ورد بصرفِهِ إليها لمّا تجمّعت الأَعَاجمُ بها ، وسار المقترِب ، فنزل على جُنْديسابُور . والله سبحانه وتعالى أَعلَم ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل .

ذكر مصالحة جنديسابور

قال [١] : وسار المسلمون عن السُّوس فى سنة سبعَ عشرة ، فنزلوا جُنْدَيْسابُور وزرّ [٢] بنُ عبد اللهِ يحاصرهم ، فأَقاموا بها ، فلَم يَفجأْ النَّاسَ إلَّا وقد فُتِحَتْ الأَبوابُ ، وأَخرجوا أَسواقهم ، وخرجَ أَهلُهَا ، فسأَلهم المسلمون ، فقالوا : أَرْسَلْتم إلينا بالأَمان فقبلْناه وأَقرَرْنا بالجِزْيةِ [على أَن تمنعونا] [٣] فقالوا : ما فَعَلنا ، فإذا عبد يُدْعَى مُكنِفًا [٤] كان أَصلُه منها ، فعل هذا ، فقال المسلمون : هو عَبْدٌ ؟ قالوا : نعم ، قالوا : نحن لانعرفُ العبدَ من الحرِّ ، فإن شئتم فاغْدِرُوا ، فكَتبوا بذلك إلى عمرَ بن الخطَّاب رضى الله عنه ، فأَجاز ذلك ، وانصرفوا عنهم . والله تعالى أَعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٨٧ .
(٢) ابن الأثير : « ربن » .
(٣) من ص وابن الأثير .
(٤) ابن الأثير : « مكثفا » .

ذكر انسياح الجيوش الاسلامية فى بلاد الفرس

وفى سنة سبع عشرةَ أذن عمرُ رضى الله عنه للمسلمين فى الانسياج فى بلادِ الفُرْس ، وكان سبب ذلك أنَّ عمرَ لما أُتِى بالهُرْمزان قال للوفدِ : لعلَّ المسلمين يُؤْذُونَ أهل الذِّمّةِ ، فلهذا يَنتقِضون بكم ! قالوا :ما نَعلم لَّا وَفاءً . قال : فكيف هذا ! فلم يشفه أحدٌ ، قال له الأحنف : يا أمير المؤمنين ، إنَّك نهيْتَنا عن الانسياح فى البلاد ، وإنَّ مَلِكَ فارس بين أظهرُهم ، ولا يزالون يُقَاتلونَنَا مادام مَلِكهم فيهم ، ولم يجتمعْ مَلِكانِ متفقان حتى يُخْرِج أحدُهما صاحِبَه ، وقد رأيتُ أنا لَم نأخذ شيئًا بعد شىء إلا بانبِعاثهم وغَدْرِهم ، وأنَّ مَلِكَهم هو الذى يَبْعثهم ، ولايزال هذا دأْبهم حتى تأْذن لنا فنَسيحَ فى بلادهم ، ونُزِيل مُلْكَهم ، فهناك ينْقطع رجاءُ أهلِ فارسَ . فقال : صَدَقْتَنى واللهِ ، ورجع إلى قوله ، وانتهى إلى رأْيه ، وأذِن للمسلمين فى الانسِياح . فأَمَرَ أبا موسى الأشعرىّ أن يسيرمن الْبَصْرَةِ إلى منقطع ذِمّة البَصْرة ، فيكون هنالك حتى يَأْتِيَهُ أمْرُهُ ، وبعث بأَلْوِيَة من وَلاَّهُ مع سُهَيْلِ بنِ عَدِىّ ، فدفع لواءَ خُراسانَ إلى الأَحْنف بن قيس ، ولواءَ أرد شير خُرَّة وسابُور إلى مُجاشِع بن مسعود السُّلمىّ ، ولواء إصْطَخر إلى عثمانَ بن أبى العاص الثَّقَفِى ولواء فسَاودرا بجرد إلى سارية ابن زُنَيْم الكِنانىّ ، ولواء كِرْمان إلى سُهَيْل بنِ عَدِىّ ، ولواء سِجِسْتان ، إلى عاصمِ بنِ عَمرو ، ولواء مُكْرانَ إلى الحكم بن عُمَيْر التَّغْلَبىّ ، فخرجوا ولم يتهيَّأْ مسيرُهم إلى سنة ثمانى عشرة ، وأمدَّهم عمرُ بنَفَرٍ من أهل الكوفة ، فأمدّ سُهيلَ بنَ عَدِىّ بعبدِ الله بن عبدِ الله بن

عِتْبانِ ، وأمدّ الأَحْنَف بعَلْقَمة بن النَّضر وبعبد الله بنِ عَقِيل وبربْعىّ بنِ عامر ، وأَمَدَّ عاصمَ بن عمرو بعبد الله بن عُمَير الأَشْجَعىّ ، وأَمدَّ الحَكَم بن عُمَير بشهاب بن المُخارِق .

وقيل : كان ذلك فى سنة إحدى وعشرين . وقيل : فى سنة اثنتين وعشرين ، وسنذكره إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لِفتُوحِ هذه الجهات والمَسير إليْها ، والله تعالى أعلَم .

ذكر غزوة فارس من البحرين

كانت هذه الغَزْوة فى سنة سبعَ عشرةَ ، وكان عمرُ رضى الله عنه يقول لمّا أُخذِت الأَهوازُ وما يليها : وددْتُ أن بيننا وبَيْن فارسَ جبلاً من نارٍ لا نَصِل إليهمْ منه ، ولا يصِلُون إلينا .

وكان العلاءُ بنُ الحَضْرمىّ على البحريْن فى خلافة أَبى بكر رضى الله عنه فعزَله عمر ، ثم أعاده ، وكان يناوئ سعدَ بنَ أَبى وَقَّاص ، ففاز العَلاَء فى قتال أَهلِ الرِّدَّةِ بالفَضْلِ : فلمّا ظفِر سعد بأَهْل القادسيَّةِ ، وأَزاحَ الأَكاسرةَ جاء بأَعظمَ ممّا فعله العَلاء . فأَراد العَلاء أَن يَصْنَع فى الفُرسِ شيئًا ، فلم يَنظُر فى الطاعةِ والمعصية بجدّ ، وكان عمر رضى الله عنه نهاه وغيرَه عن الغزو فى البحْرِ .

فندب العلاء الناسَ إلى فارس ، فأَجابوه ، وفرَّقهم جُنْدًا ، فجعل على أَحدها الجارُود بن الْمُعَلَّى ، وعلى الآخر سَوّار بن همّام ، وعلى الآخر خُلَيد بن المُنذِر بن ساوَى ، وخُليد على جميعِ النَّاسِ ، وحَمَلهم فى البحر إلى فارس ، فخرجوا من البحر إلى إصْطَخر ، وبإزائهم أَهلُ

فارس ، وعليهم ٱلهربِذ ، فحالت الفُرْس بين المسلمين وبين سُفُنِهِمْ ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا بمكانٍ يُدْعَى طاوُس ، فَقُتِلَ ابن السَّوّار والجارُود ، وكان خليد أمر أصحابَه أن يقاتلوا رجّالةً ، فقتلُوا من الفُرْسِ مَقتلةً عظيمة ، ثم خرجوا يريدون الْبَصْرَةَ ، ولم يجدوا فى الرجوع إلى البَحْر سبيلا ، وأخذت الفرسُ عليهم طريقَهُمْ ، فعسكَرُوا وامتَنَعوا .

فلمَّا بلغ عمرَ ما صَنَعَ العَلاءُ ، أرسَل إلى عُتبةَ بنِ غَزْوان يَأْمُرُهُ بإنفاذ جيشٍ كثيفٍ إلى المسلمين بفارسَ قبل أن يَهلِكوا ، وقال : إنِّى قد أُلقِىَ فى رُوعى كذا وكذا ، نحو الَّذى وَقَع ، وأَمَرَ العلاء بأثقلِ الأشياءِ عليه ، وهو تأميرُ سَعْدٍ عليه .

فشخصَ العلاءُ إلى سعد بمن معه ، وأرسل عتبةُ اثنى عشر ألفَ مقاتلٍ ، فيهم : عاصمُ بنُ عمرو ، وعَرْفَجة بن هَرْثَمة والأحنف ابن قَيْس وغيرهم ، فَخَرجوا على البِغال يجنُبون الخَيْلَ ، وعليهم أبوسَبْرة بنُ أبى رُهْم حتى الْتَقَى بخُليد ، وتوالت الأمَدادُ ، ففتَح الله على المسلمين ، وأصابُوا من المشركين ما شاءُوا . والله تعالى أعلم .

ذكر وقعة نهاوند وفتحها

كانت[1] هذه الوقعةُ فى سنة إحدى وعشرين . وقيل : فى سنة ثمانى عشرةَ . وقيل : فى سنة تسع عشرةَ .

وكان الذى هَيَّجَ أمرَ نَهاوَند أنَّ المسلمين لمّا خلَّصُوا جُنْدَ العَلاء ، وفتحوا الأهوازَ ، كاتب الفرسُ مَلِكَهُمْ ، وهو بَمَرْو ، وَحَرَّكُوهُ ،

(١) ابن الأثير ٣ : ٢ ومابعدها ، وتاريخ الطبرى ٤ : ١١٤ ومابعدها .

فكاتبَ الملوكَ مابين الباب والسِّنْد وخُراسان وحُلْوَان ، فاجتمعوا بنَهَاوَنْد ، ولمّا وصلها أوائلهُم بلغ سعداً الخبرُ ، فكتَبَ به إلى عمرَ ؛ وثار بسعدٍ أقوامٌ ووشَوْا بِهِ ، وألَّبُوا عليه ، وسعَوْا إلى عمرَ ولم يَشْغَلْهم ما نزل بالنَّاسِ عنه .

فقال عمر : والله لا يَمنعُنى ما نزل بكم من النَّظَر فيما لديكم ، وكان من عزِل سَعْد ما نذكره إن شاء الله تعالى فى حوادث السِّنين .

وقدم سعد على عمرَ ، وقد استخلفَ عَلى الكوفةِ عبدَ اللهِ بنَ عبد اللهِ عُتْبان ، فأقرَّهُ عُمَر .

قال : ونفرتْ ملوكُ الأعاجم لكتابِ يَزْدَجِرْد ، واجتمعوا بِنَهَاوَنْد على الفَيْرزان فى خمسين ومائةِ ألف مقاتلٍ . وكان سَعْدٌ قد كاتب عمر بالخبرِ كما ذكَرْنَا ، ثم شافهه به لمّا قدِمَ عليه ، وقال له : إنَّ أهل الكُوفَةَ يَسْتَأْذِنُونَكَ فى الانسياحِ ، وأنْ يبدءُوهم ليكون أهيبَ لهم على عدوِّهم .

فجمع عمرُ النَّاسَ وآستشارهم ، وقال : هذا يومٌ له ما بعدَه ، وقد هَمَمْتُ أن أسيرَ فيمن قبَلى ومَن قدرتُ عليه ، فأَنزِلَ منزلاً وسطًا بين هذين المِصْرَيْنِ ، ثم أستنفرهم فأكون لهم رِدْءًا ؛ حتى يفتحَ اللهُ عليهم ويقضىَ ما أَحَبّ ؛ فإنْ فتحَ الله تعالى عليهم صَبَبْتُهُمْ فى بلدَانِهِمْ.

فقال له طلحةُ بنُ عبيد الله : يا أميرَ المؤمنين ، قد أعلمتْك الأُمورُ ، وعَجَمْتْك البلايا[1] ، واحْتَنكَتْك التَّجَاربُ ، وأَنْتَ وشأْنُكَ ، وأَنتَ ورأْيُكَ ، لا تَنْبُو فى يديْك ، ولانَكِلّ عليكَ ، إليك هذا الأَمر ،

(١) ابن الأثير : « البلا بل » .

فمرْنا نُطِعْ ، وادعُنَا نُجِب ، واحْمِلْنَا نَرْكَب ، وقُدْنا ننقد ؛ فإنَّك ولِيُّ هذا الأمر ؛ وقد بلوْتَ وجرَّبْتَ وٱختَبَرْتَ ، فلم ينكشف شيءٌ من عواقبِ قضاء اللهِ لك إلا عن خِيار . ثم عاد فجلس .

فعاد عمرُ لمَقالته ، فقام عثمانُ بنُ عفَّان رضى الله عنه ، فقال : أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتبَ إلى أهلِ الشَّامِ فيَسيروا من شامهم ، وإلى أهل اليَمَنِ فيَسيروا من يَمَنِهِمْ ، ثم تسير أنت بأهل الحَرَمين إلى الكوفَة والبَصْرة ، فتلْقى جَمْعَ المشركين بجمعِ المسلمين ؛ فإنَّك إذَا سِرْتَ[1] قلَّ عِنْدَك ما قد تكاثرَ من عدد القومِ . وقد كنتَ أعزَّ عِزا ، وأكثرَ . يا أميرَ المؤمنين إنَّك لا تَستبقِى بعدَ نفسِكَ من العَربِ باقية ، ولا تمتنع من الدنيا بعزيز ، ولا تلوذ منها بحَريز . إنَّ هذا يومٌ له مابَعْدَهُ من الأيّامِ ، فاشْهَدْهُ برأْيِكَ وأعوانِكَ ، ولا تغبْ عنه . وجلس .

فعاد عمر بن الخطَّاب رضى الله عنه لمقالَتِهِ ، فقام إليهِ عليُّ بنُ أبى طالب رضى اللهُ عنه ، فقال : أمّا بعدُ ، يا أمير المؤمنين ، فإنَّكَ إن أشْخَصْتَ أهلَ الشّامِ من شامهم ، سارتْ الرُّومُ إلى ذراريِّهم ، وإنْ أشْخَصْتَ أهل اليمن من يَمَنِهم ، سارت الحبشة إلى ذراريِّهم ، وإنْ شخصْتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليْك العربُ من أطرافها ، وأقطارِهَا ، حتى يكون ماتَدَعُ وراءَك أهمَّ إليك ممَّا بين يديك من العَوْرات ، والعِيالات . [أقْرِرْ هؤلاء] [2] في أمصارهم ، واكتُبْ لأهلِ

(١) ابن الأثير : « إذا سرت بمن معك » .
(٢) من ابن الأثير .

البَصْرةِ أن يتفرّقوا ثلاثَ فِرَقٍ ، فرقة فى حَرَمِهم وذراريِّهم ، وفرقةٌ فى أهلِ عَهْدِهم ؛ حتى لا ينتَقِضوا ، ولتَسِرْ فرقة إلى إخوانهم بالكُوفة مَدَدًا لهم . إنَّ الأعاجِمَ إنْ ينظروا إليك قالوا : هذا أميرُ العَرَب فى أصلها ، فكان ذلك أشدَّ لكَلَبِهِم[1] عليك . وأمّا ما ذكرت من مسير القومِ فالله هو أكرَهُ لِمَسِيرهم منك ، وهو أقْدَرُ على تغيير ما تكرَهُ .

وأمّا عَدَدُهُمْ ، فإنّا لم نكُنْ نقاتِلُ فيما مضى بالكثرةِ ؛ ولكن بالنَصْرِ. فقال عمر : هذا هو الرأْىُ ، وكنتُ أُحبّ أن أُتابعَ عليه .

وقيل : إنَّ طلحةَ وعثمانَ أشارَا عليه بالمُقام ، والله تعالى أعلم .

ثم قال عُمَرُ : أشيرُوا علىّ برجل أُولِّيهِ ذلك الثَّغْرِ ، وليكن عراقيًّا . فقالوا : أنتَ أعلَمُ بجُنْدِكَ ، وقد وَفَدوا عليكَ . فقال : واللهِ لأُوَلِّيَنَّ أمرَهم رجُلاً ليَكونَنَّ أوّلَ الأَسِنَّة إذا لقيَها غدًا . فقيل : مَنْ هُوَ ؟ قال : النُّعمان بن مُقرِّن المُزَنىّ . فقالوا : هُوَ لها .

وكان النُّعمان يومئذ معه جَمْعٌ من أهل الكوفةَ قد افتَتَحوا جُنْدَ يْسابور والسُّوس كما قدّمنا ، فكتَب إليه عمرُ رضى الله عنه يأْمره بالمَسير إلى ماه ، فيَجمَع[2] الجيوشَ عليه ، فإذا اجْتمعوا سارَ بهم إلى الفيرزان ومن معه .

وقيل : بل كان النُّعمان بكَسْكَر ، فسأَله أن يَعزِله ويَبعثَه إلى جيش من المسلمين ، فكتب إليه عُمَرُ يأْمره بنَهاوَنْد ، فسارَ ، وكتَب عمرُ

(١) ك : « لكلمتهم » .
(٢) ابن الأثير : « لتجتمع » .

إلى عَبدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عِتْبان أن يَستنفِرَ[1] الناسَ مَعَ النُّعمان .

فندَبَ النَّاس ، فخرجوا وعليهم حُذيفةُ بنُ اليمان ، ومعه نُعيمُ ابنُ مقرِّن ، فقَدِموا على النُّعمان ، وتقدَّم عمرُ إلى الجُنْد الَّذِين كانوا بالأَهوازِ أن يَشْغَلُوا الفُرْسَ عن المسلمين ، وعليهم المقترِب ، وحَرْمَلة ، ووَرْقاء ، فأقاموا بتُخومِ أَصفَهان ، وقطعوا أَمْدَادَ فارِسَ عن أَهْلِ نَهاوَنْد ، واجتمعَ النَّاسُ على النُّعمانِ ، وفيهم حذيفةُ بن اليمَانِ ، وابنُ عمر ، وجريرُ بنُ عبدِ الله البَجَلِيّ والمغيرةُ بن شُعْبة ، وغيرُهم .

فَرَحل [النُّعمان] [2] وعَبَّى أَصحابَه وهم ثلاثون ألفًا ، فجَعل على مقدِّمته نُعَيْمَ بنَ مقرِّن ، وعلى مجنِّبته حُذَيفة وسُوَيْد بن مقرِّن ، وعلى المجرّدة القَعْقَاع بن عمرو ، وعلى الساقَة مُجاشع بنُ مسعود . وقد توافتْ إليْه أَمْداد المَدينةِ ، فيهم المغيرةُ بنُ شعبة ، فانتهوا إلى الأَسْبِيذهان ، والفرسُ وقوفٌ على تعبيتهم ، وأَميرُهم الفَيْرُزان ، وعلى مجنَّبته الزرْدق وَبهْمَن جاذوَيْه ، وقد تَوافَى إليه بنَهَاوَنْد كلُّ من غاب عَنْ القادِسيَّةِ . فلمّا رآهم النعمان كبَّر وكبَّر معه النَّاس ، فتزلزلتْ الأَعاجمُ ، وحَطَّتِ العربُ الأَثقالَ ، وضُرِبَ فُسطاط النُّعْمان ، فابتَدَره أَصحاب الكوفة ، من كان من أَشْرَافِهَا ، فضَربوه ، منهم : حذيفةُ ابنُ اليَمان ، وعُقْبَة بنُ عَمرو ، والمغيرةُ بنُ شُعْبَة ، وبَشِير بنُ الخَصاصِيّة ، وحنظلة الكاتب ، وجريرُ بنُ عبدِ الله البَجَلِيّ ، والأَشعثُ بنُ قيس الكندى وسعيدُ بنُ قَيْس الهَمْدانيّ ، ووائلُ

(١) ابن الأثير : « ليستنفر » .
(٢) من ص .

ابن حُجر وغيرهم ، فلم يُرَ بُناةُ فسطاطٍ بالعِراق كهؤلاء ، وأنشب النُّعمانُ القتالَ بعد حَطِّ الأثقالِ فاقتتلوا يومَيِ الأربعاء والخميسِ ، والحَرْبُ بينهم سِجَالٌ ، ثم انجحَروا في خَنَادِقِهم يومَ الجُمْعَة ، وحصَرهم المسلمون ، وأقاموا عليهم ما شاء الله ، والفُرْسُ بالخيار إنْ شاءوا خرَجوا ، وإن شاءوا أقاموا ، فخاف المسلمون أن يطولَ أمْرُهُم ؛ حتى إذا كان يوم الجمعة تجمَّعَ أهْلُ الرأْى من المسلمين ، وقالوا : نراهم علينا بالخيار ، وأتَوا النعمان فى ذلك ، وهو يروِّى فى الَّذِى رأَوْا فيه ، فأخبَروه ، فبعث إلى مَنْ بقىَ من أهل النَّجَداتِ والرأْى ، فأحضَرَهُمْ ، وقال : قد ترَوْن المشركين واعتصامَهم بخَنادِقهم ومُدُنهم ، وأنَّهم لا يخرجون إلَيْنَا إلاَّ إذَا شَاءُوا ، ولا يَقدِر المُسْلِمُون على إخراجهم ، وقد تَرَوْن الَّذى فيه المسلمون من التَّضايق ، فما الرأْىُ الذى به نستخرجُهُمْ إلى المناجزة ، وتَرْك التطويل ؟

فتكلَّم عَمْرُو بنُ ثُبَىّ ، وكان أكبر النَّاسِ [يومئذ سنًّا] (١) ، وكانوا يتكلَّمون على الأَسْنَان ، فقال : التَّحَصُّن عليهمْ أشدُّ من المُطاوَلة عليكم ، فَدَعْهُم وقَاتِلْ مَنْ أتاكَ منهم ، فرَدّوا عليه رأْيه [جميعا] (٢) .

وتكلَّمَ عَمْرُو بنُ مَعْدِى كَرِبَ فقال : ناهِدْهُم وكاثِرْهم ولاتَخَفْهُم ، فردُّوا جميعًا عليه رأْيَه ، وقالوا : إنَّما تُنَاطح بنا الجُدْران ، وهى أعوان علينا .

---

(١) من ابن الأثير .

(٢) من ابن الأثير .

فقال طُلَيحةُ بنُ خُوَيْلد الأَسَدىّ : أرى أن تَبعث خَيْلا مؤدية لينشبوا الْقِتَالَ ، فإذا اخْتَلَطُوا بهم رَجَعُوا إِلَيْنَا استطرادا ، فإنَّا لم نستطرِدْلهم فى طُولِ ماقاتَلْنَاهم ، فإذا رَأَوْا ذلك طمِعُوا وخَرَجوا إلينا . فقاتَلْناهم حتَّى يقضىَ الله فيهم وفينا ما أَحَبَّ ، فأَمَرَ [النعمان] القعقاعَ بنَ عَمْرٍو ، وكان على المجرَّدةِ ، فأَنْشَبَ القتالَ ، وأخرجَهُمْ من خنادِقِهم كأنَّهم جبالٌ مِنْ حَديد ، وقد تواثقوا [1] ألاَّ يفرّوا وقرن بعضهم ببعضٍ ، كُلُّ سبعة فى قِرَانٍ ، وأَلْقَوْا حَسَبك الحديد بينهم ؛ لَئِلاَّ ينهزِمُوا ،فَلمَّاخَرَجُوا نكَص القَعْقَاعُ ، فاغتنمتها الأَعاجمُ ففعلوا كما ظنَّ طليَحْة . وقالوا : هى هى .

ولحقَ الْقَعْقَاعُ بالنَّاسِ ، وانقطعَ الفُرْسُ عن حِصْنهم ، وأمر النُّعمانُ أَصحابَه أَنْ يَلْزَمُوا الأَرضَ ولايُقاتِلوا حتى يأْذنَ لهم ، فَفَعَلوا ، وٱستَتَروا بالحَجف[2] من الرَّمْى ، وأَقبل المشركون يرمونهم حتى أَفْشَوا فيهم الجِراح ، والنُّعمانُ ينتظر بالقتالِ أَحبَّ السَّاعاتِ كانت إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ؛ وذلك عند الزَّوالِ ، فلمَّا كان قريبا من تلك الساعةِ ركب النُّعمانُ فَرَسَهُ ، وسار فى النَّاس يُحَرِّضهم على القتالِ ، ويذكِّرهم ويُمَنِّيهم الظَّفرَ ، وقال : إنِّى مكبِّرٌ ثلاثًا ، فإذا كبَّرتُ الثالثة فإنِّى حَامِلٌ ، فٱحمِلوا ، فإنْ قُتِلْتُ فالأَمير بَعْدِى حُذَيفة ، فإنْ قُتِلَ ففُلان ، حتى عَدَّ سبعةً آخرهم المغيرةُ ، ثم قال : اللهمَّ أَعزِزْ دِينَك بنصرِ عِبادِك . وقيل : بل قال : اللَّهُمَّ إنِّى أَسأَلك أَنْ تُقِرَّ عينى اليومَ بفتحٍ يكون فيه عِزُّ الإسلام ، وٱقْبِضنى شهيدًا .

(١) ابن الأثير : « توافقوا » .

(٢) الحجف : الترس من جلود بلاخشب .

فبكى النَّاسُ ثم رجع إلى موقفه ، فكبَّر ثلاثًا ، والنَّاس سامِعُونَ مُطِيعُونَ مستَعِدُّون للقتال ، وحَمَل وحَمَلَ النَّاسُ ، وانْقَضَّتْ رايتُه نحوَهم انقضاضَ العُقاب ، فاقتَتَلوا قِتالاً شديدًا لم يُسمَع بوقْعةٍ كانت أشدَّ منها ، وصَبَر المسلمون صبرًا عظيماً ، وانهزَمَ الأعاجم ، وقُتِلَ منهم ما بين الزَّوالِ والإعتَام ما طَبَّق أرضَ المَعْرَكة حتى زَلِق النَّاسُ والدَّوابُّ فى الدماء ، فلمّا أقرّ اللهُ عينَ النُّعمانِ بالفتْحِ اسْتُشْهد ، زَلِقَ به فَرَسُه فَصُرِع . وقيل : بل رُمِىَ بسَهْمٍ فى خاصِرَته فمات ، فسجَّاه أخوه نعيم بنُ مقرِّن بثوب ، وأخذ الرّايةَ وناوَلَها حُذيفة ، وتقدّم إلى موضعِ النُّعمان .

وقال المغيرة : اكتموا مُصابَ أميرِكم ، لئلا يَهِنَ الناس ، ودام القتال فى الفُرْسِ حتى أظلم اللَّيل ، فانهزموا ، ولزِمَهم المسلمون وعَمِىَ عليهم قَصْدُهم ، فأخذوا نحوَ اللِّهْب[1] الَّذي كانوا دونَه ، فوقعوا فيه ، فكان الواحدُ منهم يقع فيقع عليه ستَّةٌ ، بعضُهم على بعض فى قيادٍ واحدٍ فَيُقْتَلُونَ جميعاً ، وعَقَرَهُم حَسَكُ الحديد ، فمات منهم فى اللِّهْب مائة ألفٍ أو يَزِيدُون سِوَى من قُتِلَ منهم فى المعركة .

وقيل : قُتِلَ فى اللِّهَبِ ثمانون ألفاً ، وفى المعركة ثلاثون ألفاً سوى من قُتِلَ فى الطَّلبِ ، ولم يُفْلِتْ[2] إلاَّ الشَّريد ، ونجا الفَيْرُزان مِن الصَّرْعَى ، فَهَرَب نحو هَمَذان ، واتَّبعه[3] نُعَيْم بنُ مقرِّن ، وقَدِمَ

(١) اللهب : شق فى الجبل .
(٢) كذا فى ابن الأثير ، وفى الأصول : « لم يفتل » .
(٣) ابن الأثير : « فاتبعه » .

القعقاعُ أمامَه ، فأدرَكَه بثنيّة هَمَذَان ، وهى إذ ذاك مشحونةٌ من بغالٍ وحُمُر مُوقَرة عَسَلا .

فحبَسَه الدّوابّ[1] فلمّا لم يجدْ طريقاً نزلَ عن دابّتِهِ ، وصعِدَ فى الْجَبلِ ، فأدرَكَهُ القعقاعُ ، فقتَلَهُ المسلمونَ على الثَّنِيَّة ، وقالوا : إنَّ للهِ جنودًا منها العَسَل ، واستاقوا تلك الدَّوابّ بأحْمَالِهَا ، وسُمِّيتْ الثَّنِيَّةُ ثنيَّةَ الْعَسَلِ ، ودخَلَ المنهزمون هَمَذان ، والمسلمون فى آثارهم ، فنزلوا عليها ، وأخذوا ما حولَهَا ، فلمّا رأى ذلك خسرشنوم استأمنهم .

ولمّا تمّ الظَّفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النُّعمان ، فقال لهم أخوه مَعقِل : قد أقَرّ اللهُ عينَه [بالفتح][2] وخَتَمَ له بالشَّهادة ، فاتّبعُوا حذيفة ، ودَخَلَ المسلمون نَهَاوَنْد يومَ الوقعة [بعد الهزيمة][2] واحْتَوْوا على ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأَسْلاَبِ والأَثاث وجمعوه إلى صاحب الأَقباض ، وهو السائب بنُ الأَقْرع .

وانتظروا إخوانَهمُ الَّذين على هَمَذَان مع نُعَيم والقعقاع ، فأتاهم الهرْبِذُ صاحبُ بيت النَّار ، وقال لحذيفة ، أتُؤمِّنَنِى وَمَنْ شئتَ على أنْ أُخرِجَ لكَ ذخيرةً لكسرى تُرِكَتْ عندى لنوائب الزَّمان ؟ قال نعم ، فأحضَر جَوْهَرًا نفيساً فى سَفَطَيْن ، فأرسلوهما[3] مع الأخماس إلى عمر رضى الله عنه بعد أن نَفَّل حذيفة منها ، وأرسلَ مابقىَ[4] مع السائِبُ بن الأقرع الثَّقفىّ .

(١) بعدها فى ابن الأثير : على أجله » .
(٢) من ابن الأثير .
(٣) ابن الأثير : « فأرسلهما » .
(٤) ابن الأثير : « الباقى » .

قال السائب : فلمّا فرغت القسمةُ احتملْتُ السَّفَطيْن ، وجئت بهما إلى عمر ، فإذا هو قد خَرجَ يتوقَّعُ الأخبارَ ، وكان قد رأى الواقعة فباتَ يتَمَلْمَلِ ، فقال ماوراءك ؟ فقلتُ : فتح اللهُ على المسلمين ، واستُشهد النُّعمانُ بنُ مقِّرن ، فأعظم الفتحَ ، واسترجَعَ على النُّعمانِ وبَكى حتى نَشَج [1] ، ثمّ أخبرته بالسَّفَطين فقال لى : أدْخِلْهُمَا بيتَ المالِ حتَّى ننظرَ فى شأْنِهما ، والْحقْ بجُنْدكَ .

قال : ففعلت ، وخرجت مسرعاً إلى الكوفةِ ، وباتَ عمرُ ، فلمَّا أصبح بعث فى أثرى رسولا ، فما أدركنى حتى دخلْتُ الكوفة ، فأنختُ بعيرى ، وأناخَ بعيرَهُ على عرقوب بعيرى ، وقال ، الْحق بأمير المؤمنين .

قال : فركبتُ معه ، وقدِمتُ على عمرَ ، فلمَّا رآنى قال : مالى وللسائب ! قلت : وماذا ؟ قال : ويْحك ، والله ما هو إلاَّ أنْ نمتُ اللَّيلةَ التى خرجْتَ فيها ، فأتت الملائكة تستحثُّنى إلى السَّفَطيْن يشتعلان نارًا ، يقولون ، لنَكْوينَّك بهما ، فأقول : إنى سأقْسِمُهما بين المسلمين ، فخذهُما عنِّى فبِعْهما فى أعْطيةِ المسلمين وأرزاقِهم .

قال : فخرجتُ بهما فوضعتهما فى مسجدِ الكوفةِ ، فابتاعهما منِّى عمرُو بن حُرَيْث المَخْزومىّ بألْفَى ألف درهم ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلافِ ألف ، فما زال أكثرَ أهلِ الكوفة مالاً .

قال : وكان سهمُ الفارس بنَهاوَنْد ستَّةَ آلافٍ ، والرَّاجل ألفين .

---

(١) نشج الباكى : غص بالبكاء من غير انتحاب .

ولمّا قدم سَبْيُ نهاوند المدينة ، جعَل أبو لؤلؤة غُلامُ المغيرةِ بنِ شُعبةَ لا يَلقَى منهم صغيرًا إلاَّ مَسَح رأْسَه وبَكى ، وقال : أكلَ عمرُ كَبِدى ، وكان مِن نَهاوَنْد ، فأَسرتْه الرُّوم ، وأَسَرَهُ المسلمونَ .

وكان المسلمون يسمُّون [فَتْحُ] (١) نَهَاوَنْد فَتْحَ الفُتوح ؛ لأَنَّه لم يكن لِلفُرْسِ بعَده اجتماعٌ ، ومَلَك المسلمون بلادهم . والله سبحانه وتعالى أعلَم والحمد لله وحده .

ذكر فتح دينور والصيمرة وغيرهما

لما (٢) انصَرَف أبو موسى الأَشعريُّ من نَهاوَنْد ، وكان قد جاء مَدَدا على بعث أَهْلِ البصرةِ ، فمَرَّ بالدِّينَور ، فأَقام عليها خمسةَ أيّام ، وصالَحَه أهلُهَا على الجِزْيةِ ، ومَضَى ، فصالحه أهل الشِّيروان على مِثْل صُلْحِهم ، وبعث السائب الأَقرع إلى الصَّيْمرَة وهى مدينةُ مهرجان قذق ففتحها صُلْحا ؛ والحمد لله وحَده ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمّد .

ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما

لما (٣) انْهَزَم المشركون من نَهَاوَنْد دخَلَ مَن سَلِم منهم هَمَذَان ، فحاصَرَهم نُعَيمُ بنُ مقرِّن والقعقاعُ بنُ عمرو ؛ فلمّا رأى ذلك خسرشنوم استأْمَنَهم ، وقَبِلَ الْجِزْية على أن يَضمَنَ هَمَذَان ودَسْتَبَى ؛ وألاَّ يُؤْتَى المسلمون منهم ، فأَجابوه إلى ذلك وأَمَّنُوه هُوَ ومن معه

(١) من ص .
(٢) ابن الأثير ٣ : ٧ .
(٣) ابن الأثير ٣ : ٧ .

من الفُرْس ، وأقبل كلُّ من كان هَرَب ، وبلغَ الخبرُ أهلَ الماهيْن ، فاقتَدَوْا بخسرشنوم ، وراسلوا حُذَيْفَةَ ، فأجابهم ، ودخل مَاه دِينار ، وَبَهْرَاذان على مثل ذلك . وكان قد وَكَّل النُّسْير بنَ ثَوْرٍ بقلعةٍ قد لجأ إليها قومٌ ، فحَاصَرَهم وافتَتَحها ، فنسبت إلى النُّسَيْر .

ولمّا رجع نُعَيْمٌ والقَعْقَاع ، كَفرَ أهلُ هَمَذَان مع خسرشنوم ، فخرج نعيمُ بنُ مقرِّن إليها فى سنة اثنتين وعشرين ، واستولى على جميع بلادها وحاصرها ، فسأله أهلها الصلح ففعل ، وفتحها الثانية ، وقبل منهم الجزية . وقيل إن فتحها كان فى سنة أربع وعشرين ، بعد وفاة عمرَ بستَّةِ أشهرٍ . والله أعلم .

قال : وبينما نُعَيم بهمَذَان فى الفتحِ الثَّانى ، وهو فى اثنَىْ عَشَرَ ألفًا من الجند ، فكاتب الديلم ، وأهلَ الرَّىّ ، وأذْرَبِيجَان ، إذ خرج مُوتَى فى الدَّيْلَم ، ونَزَلَ بواج الرُّوذ ، وأقبل الزَّينبىّ أبو الفَرُّخان فى أهلِ الرِّىّ وأقبل إسفنْدِيار أخو رُسْتُم فى أهلِ أذْرَبِيجان ، فاجتمعوا وتحصَّن منهم أمراء المَسالِح ، وبعثوا إلى نُعيمٍ بالْخَبَرِ ، فاستخْلف يزيدَ بنَ قيسٍ الْهَمَذَانىّ ، وخرج إليهم ، فاقتتلوا بَواج الرُّوذ قِتالاً شديدًا ، وكانت وقعةً عظيمةً تعدلُ وقعةَ نَهَاوَنْد ، فانهزم الْفُرْسُ أقْبَحَ هَزِيمة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأرسل نُعَيم إلى عمرَ بقصد الرَّىّ ، وقتالِ مَنْ بِهَا ، والمُقَامِ بها بعد فَتْحِها .

وقيل : إنّ المغيرةَ بنَ شُعْبة ، وهو عامل الكوفة أرسل جريرَ ابن عبدِ اللهِ إلى هَمَذَان ، فقاتَلَه أهلُهَا ، وأُصِيبَ بسهمٍ فى عَيْنِهِ ، فقال : أحْتَسِبها عند اللهِ الَّذى زَيَّن بها وَجْهى .

وقيل : كان فَتَحَهَا على يد المغيرة نفسهِ . وقيل : فَتَحَهَا قَرَظَةُ ابنُ كَعْبٍ الأَنْصَارىّ رضى الله عنه ، والله تعالى أَعلَمُ وهو حَسْبُنَا ونعمَ الوكيل .

ذكر فتح أصبهان وقم وقاشان

وفى[1] سنةِ إحدى وعشرين بَعث عمرُ رضى الله عنه عبدَ اللهِ ابنَ عبد الله بنِ عِتْبَان إلى أَصْبَهَان ، وكان شجاعًا من أشرافِ الصَّحابة ، ووجوهِ الأَنصارِ ، وأمدَّه بأَبى موسى الأَشعرىِّ ، وجعل على مجنِّبتَيْهِ عبدَ الله بنَ وَرْقاء الرِّياحىّ وعصمة بن عبد الله ، فسار إلى نهَا ونَدَ ورجعَ حذيفةُ إلى عمله على ما سَقَتْ دِجلةُ وما وراءها . وسار عبدُ الله فيمن كان معه ومن تَبِعه من جُنْد النُّعمانِ الَّذين بِنَهَاوَنْد نحو أَصبهان ، وعلى جُنْدِها الأَسْبِيذان ، وعلى مقدِّمَته شَهْرِيارُ بْنُ جَاذَوِيه (شيخٌ كبيرٌ) فى جمعٍ عظيم ، فالتقى المسلمون ومقدِّمة المشركين بُرْسْتاقِ لأَصبَهان ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، فبرزَ الشيخُ ودعَا إلى البِراز ، فَبَرَز له عبد اللهِ بن وَرْقاء فقَتَلَهُ عبدُ اللهِ ، وانهزمَ الفرسُ ؛ فسُمِّى ذلك الرُّسْتاقُ برستاقِ الشَّيْخ ، وصالَحهم الأَسبيذان على الرُّسْتاق ، وهو أَوّل رُسْتاق أُخِذ مِن أَصبَهان .

ثم سار عبدُ الله إلى مدينة جَىّ ، وهى مدينةُ أَصبِهَان ، والمَلِك بأَصبهَان الْفَاذُوسفان ، فَنَزَل بها ، وحاصَرها ، فصالَحَهُ

(١) ابن الأثير ٣ : ٨ .

المِلِكُ عليها ، على الْجِزية على من أَقَامَ ، وأن يُجْزَى مَنْ أُخِذَتْ أرضُه عنوةً مجزاهم ومَنْ أَبى وذَهَبَ كانتْ أرضُه للمسلمين .

وقدم أبوموسى على عبدِ اللهِ من ناحيةِ الأَهْوازِ ، وقد صالح القوم ، فَدَخَل القومُ فى الذِّمة إلا ثلاثين رجلاً من أهل أَصبَهَانَ لحقوا بكَرْمان ، ودخل عبدُ اللهِ ومَن معه المدينة ، وكَتَب بذلك إلى عمرَ ، فكتب إليه : أن سِرْحَتَّىَّ تقدم على سُهَيْلِ بنِ عَدِىّ ؛ حتى تكونَ معه على قتالِ مَنْ بِكَرْمان . فاستَخْلَف على أصبَهَان السَّائِبَ بن الأَقْرَع ، ولَحِق بسُهَيْل قبل وصولهِ إلى كرْمان ، وافتتح أبو موسى قمّ وقاشان .

ذكر فتح قزوين وأبهروزنجان

وفى[1] سنة اثنتين وعشرين بعث المغيرة بن شعبة وهو أميرُ الكوفة البراءَ بنَ عازبٍ فى جيْشٍ إلى قَزْوينَ ، وأَمَرَه إنْ فَتَحَها أن يغزُوَ الدَّيلم .

فسار حتَّى أتى أَبْهَرَ ، وهو حصنٌ ، فقاتَلُوه ، ثم طَلَبُوا الأَمان ، فأَمَّنَهُمْ وصالَحَهم ، ثم غزا قَزْوِينَ ، فأَرسَل أهلُها إلى الدَّيْلَمَ يطلبون النُّصْرَةَ منهم ، فَوَعَدوهم ، فَوصَل المسلمون إليهم ، فخرجوا لِقِتالهم والدَّيْلَم وقوفٌ على الجَبَل لا يَمُدُّون يدًا ، فلمَّا رأى أَهْلُ قزوين ذلك طلبوا الصُّلْح ، فصالحهم على مِثل صُلْح أَبْهَرَ . وغزا الدَّيْلَمَ حتَّى أدَّوْا إليه الإتاوة ، وغزَا جِيلانَ والطَّيْلَسَان ، وفَتَحَ زَنْجَانَ عَنْوَةً .

ولمّا وُلِّىَ الوليدُ بنُ عُقْبة الكوفةَ ، غزا الدَّيْلَمَ ، وجيلانَ ، ومُوقانَ ، والبير والطَّيْلَسَان ، والله سبحانه وتعالى أَعْلَمُ .

---

(١) ابن الأثير ٣ : ١١ .

ذكر فتح الرى

قال[1] : وسار نُعيمُ بنُ مقرِّن من وَاج الرُّوذ بأمرِ عمرَ حتّى قدِمَ الرَّىّ ، وخرج الزَّيْنَبِىّ أبو الفَرُّخان منها ، فلقى نُعَيماً طالبا ومسالِما ومحالفا لملك الرَّىّ وهو سِياوخْش بن مهرانَ بن بَهْرام بن جُوبين ، فاستمدَّ سياوخش أهلَ دُنْبَاوَنْد وطَبَرِسْتان وقُومِس ، وجُرْجان ، فأمدُّوه ، والتقوْا مَعَ المسلمين فى سَفْحِ جبلِ الرَّىّ الَّذى بجانب مدينَتِها ، فاقتتَلوا .

وكان الزينَبِىُّ قال لنُعَيم : إنَّ القوم قد كَثُرُوا وأنت فى قِلَّة ، فابْعَثْ معى خيلاً لأُدخل بها مدينتهم مِنْ مَدْخَلٍ لا يَشعرون به ، وَنَاهِدْهم أنت ، فإذا خرجْنا نحن عليهم فإنَّهم لا يَثبتون لك . فبعثَ معه خيلاً من اللَّيْلِ ، عليهم ابنُ أخيه المُنذرُ بْن عَمرو ، فأدخلهم الزينبىّ المدينةَ ، والقومُ لا يَشعُرُون ، وبيَّتَهم نعيمٌ ، فشَغَلَهم عن مَدِينتهم ، واقتتَلوا وصبَرَوا حتى سَمِعوا التكبيرَ من ورائهم ، فانهزَموا ، وقتِلَ منهم مقتلة عظيمة ، وأفاء الله تعالى على المسلمين بالرَّىّ نحوا مما فى المَدائن ، وصالحهم الزينبىّ على الرَّىّ ، وأخربَ نُعيمٌ مدينتَهُمْ ، وهى الَّتى يُقَال لها : العَتِيقة . فأمر الزينبىّ فبَنَىَ مدينةَ الرَّىّ ، وكتب نعيمٌ إلى عمرَ بالفَتْح ، وبعث بالأَخْماسِ ، وراسله المَصْمُغان فى الصُّلح على شىء يُفتدَى به منه على دُنْبَاوَنْد ، فأجابه إلى ذلك .

وقد قيل : إنَّ فتح الرَّىّ كان على يد قَرَظَةَ بن كعب بن ثعلبةَ

---

(١) ابن الأثير ٣ : ١١ .

الخَزْرجيّ فى سنة ثلاثٍ وعشرين ، حكاه أبو عمرَ بنُ عبد البرّ .

وقيل : فى سنة إحدى وعشرين . وقيل غيرُ ذلك ، والله تعالى أعلم . بالصَّواب ، وإليه المَرجع والمآب .

ذكر فتح قومس وجرجان وطبرستان

قال[1] : لمّا أرسل نُعيمُ بنُ مقرِّن إلى عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه بالفتح والأخماس كَتَب إليه عمرُ رضى الله عنه بإرسال سُوَيْد بنِ مقرِّن ومعه هند بنُ عمرو وغيره إلى قُومِس ، فسارَ سُويْدٌ نحوَها ، فلم يَقم له أحد ، فأخذها سِلْمًا ، وعَسْكَرَ بها ، وكاتَبَه الَّذين لَجئوا إلى طَبَرِستان مِنْهم ، والَّذين أخذُوا المفاوِزَ ، فأجابهم إلى الصُّلْحِ والْجِزيْةِ ، وكتب لهم بذلك .

ثم سار سُويد إلى جُرْجانَ ، فَعَسكَرَ بِبِسْطام ، وكتب إلى مَلِك جُرْجانَ وهو رُزْبَان صُول ، فصالَحَه على الْجِزية وكفاية حَرْبِ جُرْجان ، وأن يعينَه سُوَيد إنْ غُلِب ، فأجابَه سويدٌ إلى ذلك ، وتلقَّاه رُزْبَان قبل دخوله جُرْجان ، ودخل معه ، وعَسْكَرَ سُوَيْدٌ بها حتى جَبَى الخراجَ ، وسَدَّ فُروجَها بتُرْكِ دِهِسْتان ، ورفَع الجزية عَمَّن قامَ معه بمنعِها ، وأخَذَهَا من الْبَاقِين .

وقيل : كان فَتْحُهَا فى سنةِ ثمانى عشرةَ . وقيل : فى سنة ثلاثين فى خلافة عثمان .

قال : وأرسل الإصبهبذ صاحب طَبَرِسْتان إلى سُويْد فى الصُّلْح ، على أن يتوادَعا بها ويَجعَل له شيئًا على غير نَصْرٍ ولامَعُونةٍ على أحد ،

(١) ابن الأثير ٣ : ١٢ .

فقبل ذلك منه ، وكتب له كتابًا ، والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصّواب ، وإليه المَرجع والمآب .

ذكر فتح أذربيجان

كان[١] عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه ، بعثَ بُكَيْرَ بنَ عبدِ اللهِ إلى أذْرَبِيجان ، وأمَرَ نُعَيم بنَ مقرِّن أن يمدّهُ بسِماكِ بنِ خَرَشةَ ، فأمَّده به بعد فتح الرَّىّ ، فسار بُكَيْر حتى طلع بجبالِ جَرْمِيذان ، فطلعَ عليه إسفنديار بن الفرّخزاذ مهزوما من واج الرُّوذ ، فاقتتَلوا ، فهَزَم اللهُ الفُرْسَ وأُخِذَ إسفِنْدِيار أسيرًا ، فقال له إسفنديار : الصُّلح أحبُّ إليكَ أم الحربُ ؟ قال : بل الصُّلح . قال : أمْسِكْنِى عندكَ ؛ فإنّ أهل أذْرَبيجان إنْ لم أصالحْ عليهم ، أو أجىء لهم لم يقوموا لك ؛ وجَلَوْا إلى الجبال الّتى حولَها ، ومن كان على التحصين تحصَّن ليوم ما ، فأمسَكَه عنده وصارتْ إليه البلاد[٢] إلاَّ ما كان من حِصْنٍ . وقدِمَ عليه سِماكُ بنُ خَرَشة ، وإسفنديار فى أسرِه ، وقد افتتح[٣] مايليه ، وافتتح عُتبةُ بنُ فَرْقَدٍ ما يليه .

وكتب بُكَير إلى عمرَ يستأْذنه فى التَّقدّم ، فأذن له أن يتقدَّمَ نحو البابِ ، وأن يستخلفَ على ما افْتَتَحه ، فاستخلفَ عتبةَ بنَ فرقد ، فأقرَّ عتبةُ سماكَ بنَ خرشةَ على عمل بُكَير الّذى كان افتَتَحه ، وجمع عمرُ أذربِيجَانَ كلَّها لعُتْبَة بن فَرْقد . وكان بهرام بن الفرُّخزاذ قصد

---

(١) ابن الأثير ٣ : ١٣ .
(٢) من ابن الأثير .
(٣) ك : « انفتح » .

طريقَ عُتْبَةَ ، فاقتتلوا ، فانهزَم بهرامُ ، فلمَّا بلغ خبرهُ إسفنديار وهو فى الإسار عند بُكَير ، قال : الآن تمَّ الصُّلح ، وطُفِئَتْ نيران الحربِ ، فصالَحَه وأجاب أهلُ أذْرَبيجانَ إلى ذلك ، وعادتْ سِلْمًا ، وكتب بكيرٌ وعتبةُ بذلك إلى عمرَ ، وبَعثَا بالخُمْس .

ولمّا جمع عمرُ لعُتْبَةَعَمَلَ بُكَيْرٍ ، كَتَب لأهْلِ أذْرَبيجانَ كتابًا بالصُّلْحِ .

ذكر فتح الباب

كان[١] فتح الباب فى سنة اثنتين وعشرين ، وكان عمرُ رَضى الله تعالى عنه ردَّ أبا موسى الأشعرىَّ إلى البَصْرة ، وبعثَ سُراقةَ بنَ عَمرو ؛ وكان يُدعَى ذا النُّور[٢] إلى الباب ، وجعل على مقدِّمته عبدَ الرحمن ابن ربيعة ، وكان يُدعَى ذا النُّور أيضا ، وعلى مجنِّبتَيْه[٣] حذيفة بن أُسَيد الغِفارىّ وبُكَير بن عبد الله اللَّيثىّ ، وكان بكير قد سَبَقه إلى الباب عند منصرَفه من أذْرَبِيجان ، وجعل على المقاسِم سَلْمَانَ بنَ ربيعة الباهلىّ.

وكان عمر قد أمدّ سُرَاقةَ بحبيب بنِ مَسلمةَ من الجزيرة ، وجعل مكانَه زياد بن حنظلةَ ، فسار سُراقةُ وعبدُ الرحمن بن أُمَامة ، فلمَّا أَطَلَّ عبدُ الرحمن على الباب كاتبَه ملِكُها شهرِيار ، (من ولد شهريار المَلِك) ، واستأْمَنَهُ على أنْ يأتيَه ، ففعل ، فأتاه فقال له : إنِّى نازلٌ بإزاءِ عدوٍّ كَلِب ، وأُمَم مختلفةٍ ليس لهم أحساب[٤] ، ولا ينبغى لذى الحَسَب والعَقْل أن يعينَهم على ذِى الحَسَب ، وأنتم قد غلبتمْ على بلادى وأنا منكم . ويدى فى أيديكم ، وجِزْيَتى إليكم ، والنَّصرُ لكم ، والقيام بما تُحبّون ، فلا تَسُومُونا الْجِزيَة ، فتوهِّنُونا لعدوّكم ، فسيَّره عبد الرحمن إلى سُراقة ، فلقيَه بِمثل ذلك ، وقال : لابدَّ من الجِزْيَةِ مِمَّنْ يقيمُ ولا يحاربُ العدوّ ، فاتَّفقا على ذلك ، وأجازَه عمرُ رضى الله عنه - وأرضاه واستحسَنَه .

---

(١) ابن الأثير ٣ : ١٤

(٢) ك : « ذا النون » .

(٣) ك : « مجنبته » .

(٤) ك : « حساب » .

ذكر فتح موقان

ولما [١] فَرغَ سُراقةُ من الباب أرسل بُكيرَ بنَ عبد الله ، وسلمانَ ابنَ ربيعة ، وحبيب بنَ مسلمة وحذيفة بن أَسِيد إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأَرْمِينِيَةَ ، فوجَّهَ بُكَيْرًا إلى مُوقان ، وحَبيبًا إلى تفليس ، وحذيفة إلى جبال اللاَّن ، وسَلْمانَ إلى الوَجْه الآخَر ، وكتب سراقة بالفتح وبإرسالهم إلى عمر ، فَسُرَّ بذلك .

ثم مات سُراقةُ بعد أنْ استَوْثَقَ له الأَمرُ ، واستُخلِفَ عبدُ الرحمن ابن ربيعة ، ولم يَفتتحْ أحدٌ من القوّاد إلا بكيرَ بنَ عبدِ اللهِ ؛ فإنَّه صالح أهلَ مُوقانَ على الجِزْيةِ ؛ على كل مُحْتَلم دينارٌ ، وذلك بعد أن فَضَّ أهلَ مُوقان ، ثم تَراجَعوا .

وقيل : كان الفتح فى سنةِ إحدى وعشرين ، وأقرّ عُمرُ عبدَ الرحمن على فَرْجِ الباب ، وأَمَرَه بغَزْوِ التُّركِ . والله تعالى أعلم ، وصلَّى الله على سيدّنا محمدٍ وعلى آله الطيبِّين الطاهرين ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل .

ذكر غزو الترك

قال [٢] : ولمّا أمرَ عُمر رضى الله عنه عبدَ الرحمن بنَ ربيعةَ بغَزْو التُّرك خرج بالنَّاس [حتى قطع الباب] [٣] فقال له شَهْرَيار : ما تريد أن تَصْنَع ؟ قال : أُريد بلنْجَر والترك . قال : إنَّا لنرضَى منهم

(١) ابن الأثير ٣ : ١٤ .
(٢) ابن الأثير ٣ : ١٤ .
(٣) من ابن الأثير .

[أنْ يَدَعُونَا مِنْ دون البابِ . قال عبدالرحمن : لكنَّا لا نَرضَى حتى نَغزُوَهم فى ديارِهم ، وتاللهِ إنَّ معنا أقوامًا لو يأْذن لنا أميرُنا فى الإمعان لبلغت بهم الرّوم . قال : وما هم ؟ قال : أقوامٌ صَحِبوا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسَلَّم ، ودَخَلوا فى هذا الأمرِ بنيَّةٍ فلا يزالُ النَّصْرُ معهم ، فغزَا بَلَنْجَر ، فقالوا : ما اجترأ علينا إلاَّ ومعه الملائكة تمنعهم من الموْتِ ، فهربوا وتحصَّنوا ، ورجعَ بالغنيمة والظَّفر . وقد بلغتْ خيْلُه البيضاء على رأْسِ مائتَىْ فرسخٍ من بَلَنْجَر ، وعاد ولم يُقْتل منهم أحدٌ ، ثم غزاها أيّام عثمان بن عفَّان رضى الله عنه غَزَواتٍ ، فَظَفِر كما كان يَظفَر .

ثم غزاهم بعد أنْ كان من أهْلِ الكوفةِ فى حَقِّ عثمانَ رَضى الله عنه ما نَذكُره ، فتذامَرتِ التُّرْك واجتمعَوا فى الغياضِ ، فرمَى رجلٌ منهم رجلاً من المسلمين بسَهْمٍ عَلَى غِرَّةٍ ، فقَتَله ، وهرب الرَّامى عن أصحابه ، فلمّا نظر التُّركُ إلى المسلم وقد قُتِلَ خرجوا على عبد الرحمن ومَن معه ، واقتتَلوا أشَدَّ قتالٍ ، ونادى مُنَادٍ من الجوّ : صَبْرًا عبدَ الرَّحمن ، وموعِدُكُم الجنَّة ! فقاتَل حتى قُتِلَ ، وانكشف أصحابُه ، وأخَذَ الرايَةَ أخوه سَلمانُ بنُ ربيعة ، فنادى منادٍ من الجوِّ : صَبْرًا سَلْمان . فقال سَلْمان : أو ترَى جَزَعًا ! وخرج بالنَّاسِ على جِيلان إلى جُرْجان ، ولم تمنعهم هذه الحَرْب من [اتخاذ جسد] (١) عبدِ الرَّحْمنِ ، فهم يَستَسْقُون به حتَّى الآن . والحمد لله وحدَه ، وصلَّى اللهُ على مَنْ لانبيَّ بعدَه .

---

(١) من ابن الأثير .

ذكر غزو خراسان

وفى[1] سنة اثنتين وعشرين غزا الأحنفُ بنُ قيْس خُراسانَ ، على قول بعضهم . وقيل : بل كان فى سنة ثمان عشرةَ ، وسببُ ذلك أنَّ يَزْدَجرد لمّا سار إلى الرَّىّ بعد هزيمة أهلِ جَلُولاءَ ، انتهى إليها ، وبها أبان جَاذَوَيْه ، فوثب أبانُ عليه وأخَذَه . فقال يَزْدَجِرد : يا أبان، تَغْدِر بى ! قال : لا ؛ ولكن قد تركْتَ مُلْكَكَ ، فصار فى يد غيْرِكَ، فأحببتُ أنْ أكتتبَ على ما كان لى من شىء ، وأخذ خاتَمَ يَزْدَجِرد واكتَتَب الصِّكاك بكلّ ما أعجَبَه ، وختَم عليها ورَدَّ الخاتَمَ ، ثم أتى بعد ذلك سعدًا فردَّ عليه كلَّ شىء فى كتابه . وسار يَزْدَجِرد من الرَّىّ إلى أصبَهَان ، ثم إلى كَرْمَانَ والنَّار معه ، ثم قصدَ خُراسانَ والنَّارُ معه ، فنزل مَرْوَ ، وبَنَى للنَّارِ بيتًا ، واطمأنَّ وأمِنَ أنْ يُؤْتَى ، ودَانَ لَهُ مَنْ بَقِىَ من الأعاجمِ .

وكاتَبَ الْهُرْمزان ، وأثار أهْلَ الجبالِ والفيرزان ، فنَكَثوا ، فأذِنَ عمرُ رضى الله عنه للمسلمين فدَخَلوا بلادَ الفُرْسِ ، فسار الأحنفُ إلى خُراسان فدخلها من الطَّبَسَين ، فافتتح هَراةَ عَنْوَةً ، واستخلفَ عليها صُحَاربن صَخْر العَبْدِى . وقيل فيه : صُحارُ بنُ عبَّاس بن شراحبيلِ ، ثم سار نحو مَرْو الشَّاهِجان ، فأرسل إلى نَيْسابور مطرِّفَ بنَ عبد اللهِ ابن الشِّخِّير ، وإلى سَرْخَس الحارث بن حَسَّان .

---

(١) ابن الأثير ٣ : ١٦ .

فلمّا دنا الأحنفُ مِن مَرْو ، خرجَ يَزْدَجرد منها إلى مَرْوَ الرُّوذ ، ونزل الأحنفُ مَرْوَ الشَّاهِجان .

وكتب يزدجرد إلى خاقانَ مَلِكِ التُّرك وإلى مَلِك الصُّغْد وإلى مَلِك الصِّين يستمدُّهم .

وخرج الأحنفُ من مَرْوِ الشّاهجان ، واستخلَف عليها خالدَ ابن النُّعمان البَاهليّ بعد أنْ لحقتْه أمدادُ الكُوفَةِ . فلمّا سمع به يَزْدَجِرد سار من مروالرّوذ إلى بَلْخ ، ونزلها الأحنف ، والتقى أهلُ الكُوفَةِ ويَزْدَجرد ببَلْخ ، فانهَزَم يَزْدَجرد ، وعَبَر النَّهْرَ ، ولحق الأحنفُ بأهل الكُوفَةِ ، وقد فتح الله عليهم ، وافتتَحَ ما بين نَيْسابور إلى طَخَارِسْتَان ، وعاد إلى مَرْو الرُّوذ ، واستخلفَ على طَخَارِسْتانَ رِبْعِيَّ ابنَ عامرٍ ، وكتبَ إلى عمرَ بالفتح . فقال عمر : وددت أنَّ بيننا وبينها بحرًا مِنْ نارٍ . فقال عليٌّ : ولِمَ يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : لأنّ أهلها سينقضُّون [منها] (١) ثلاثَ مرَّاتٍ ، وكتب إلى الأحنف أن يقتصرَ على ما دون النَّهْرِ ولا يَجوزه .

قال : ولمّا عَبَرَ يَزْدَجِرد مهزومًا ، أنْجَده خاقانُ التُّرْكِ ، وأهل فَرْغانَةَ والصُّغد ، فرجَعَ يَزْدَجِردُ وخاقان إلى خُراسان ، فَنَزَلا بَلْخَ . ورجع أهلُ الكوفة إلى الأحنف بمَرْو الرُّوذ ، فنزل المشركون عليه بها . وكان الأحنف لما بلغه خبرُ عُبور يزجرد وخاقان النَّهرَ إليه ، خرج ليلاً يتسمَّعُ ؛ لعلّه يسمَعُ برأْيٍ ينتفعُ به . فمرَّ برجلَيْن يُنقِّيان عَلَفًا ، وأحدهما يقولُ لصاحبه : أسندنا الأسيرُ إلى هذا الجبلِ ؛

(١) من ابن الأثير .

فكان النَّهرُ بيننا وبين عدوِّنا خَنْدَقًا ، وكان الجبلُ فى ظُهُورِنا (١) ، فلا يأْتونا من خَلْفِنَا ، وكان قتالُنَا من وجهٍ واحدٍ رجَوْتُ أن يَنْصُرَنَا اللهُ عزَّ وجَلَّ . فرجع ، فلمَّا أصبح جمَعَ النَّاسَ ورحَلَ بهمْ إلى سَفْح الجبل ، وكان معه من الْبَصْرةِ عشرةُ آلافٍ ، ومن الكُوفةِ نحوٌ منهم .

وأقبلتْ التُّركُ ومَنْ معها فنزلُوا بهم ، وجعلوا يُنادُونَهم ويراوِحونَهُم ويَنْجَحِرون فى اللَّيْلِ . فخرج الأحنفُ ليلةً طليعةً لأصحابه ؛ حتَّى إذا كان قريبًا من عَسْكَرِ خاقانَ وقَفَ ، فلمّا كان وجه الصُّبح خرج فارسٌ من التُّركِ وهو مُطَوّق ، فضربَ بِطَبْله ، ثم وقف ، فحمل عليه الأحنفُ ، فاقتتلاَ ، فقتَلَهُ الأحنفُ ، وأخذَ طَوْقه ،ووقف واحد آخر وآخر بعده ، ففعل بهما كذلك ، ثم انصَرف إلى سكره .

وكانت عَادَةُ التُّركِ أنَّهم لا يخرجون حتى يخرجَ ثلاثةٌ من رجالهم أكفاء ، كلُّهُم يضرِبُ بطبْلَه ، ثم يخرجُونَ بعدَهم ، فلمّا خرجوا وجَدُوا فُرْسَانهم ، فتطيّر خاقان من ذلك ، وقال : قد طال مُقَامُنَا ، وأُصيبَ فُرسانُنَا ، وليس لنا فى قتالِ هؤلاء القومِ خيرٌ ، ورجع .

وارتفع النَّهارُ ولم يَرَ المسلمون أحدًا ، وأتاهم الخبرُ بانصِراف التُّركِ إلى بَلْخ ، وكان يَزْدَجِرْد تركَ خاقانَ يُقَاتِلُ بمَرْو الرُّوذِ ، وانصرف إلى مَرْو الشَّاهجان ، فلمّا وصلها تحصَّن حارثة بن النُّعْمان ومن معه ، فحصرهم ، واستخرَجَ خزائنَه من مَوْضِعَها .

وأراد أن يلحقَ خاقان لمَّا بلغه انصرافُه عن مَرْوالرُّوذِ إلى بَلْخ ؛ فأشار عليه أهْلُ فارسَ بمصالحَة المسلمين ، فأبَى ذلك ، فاعتزَلُوه

(١) ك : « ظهورها » .

وقاتَلوهُ ، فانهَزَم ، واستولَوْا على خزائِنِهِ ، وتوجَّه هو نحوَ خاقان وعبرَ النَّهْر إلى فَرْغانة ، وأقام ببَلَد التُّرْكِ مدَّةَ خلافةِ عمر – رضى اللهِ عنه – إلى أن كَفَرَ أهلُ خراسان فى زمنِ عُثْمان ، فكاتَبُوهُ وكاتَبَهُمْ ، ثم قُتِل على ما سنذكره – إن شاء اللهُ تعالى – فى خلافةِ عثمان .

قال : ثم أقبل أهل فارس بعد انهزامِ يَزْدَجِرْد على الأحنف ، وَصَالَحُوه ودفعوا له الخزائن ، وتراجعوا إلى بلادهم ، واغتبَطوا بالمسلمين ، فأصابَ الفارسَ يومَ يَزْدَجِرْد كسهمه يومَ القادسيَّة .

وسار الأحنفُ إلى بَلْخ ونزلَها ، ثم رجع إلى مَرْو الرُّوذ ، وكتب بهذا الفتح إلى عمر .

قال : ولمّا عَبَر خاقانَ ويَزْدَجِرْد إلى النَّهْرِ ، لَقِيا[1] رسولَ يزدجرد الَّذِى كان أرسلَهُ إلى مَلِك الصِّين ، فأخبرَه أن مَلِكَ الصِّين قال له : صِفْ لى هؤلاءِ القَوْمَ الَّذين أخرَجُوكم من بلادِكُمْ ، فإنِّى أراك تذكُرُ قلَّةً منهم ، وكثرةً منكم ، ولا يبلغُ أمثالُ هؤلاء القليل منكم مع كَثْرتكم إلاَّ بخيرٍ عندهم وشرٍّ فيكم . فقال : سَلْنى عمَّا أحببتَ . فقال : أيُوفُون بالعَهْدِ ؟ قال : نعم . قال : وما يقولون لكم قبلَ القتال ؟ قال : يَدْعُونَنَا إلى واحدةٍ من ثلاثٍ : إمَّا دِينُهم فانْ أحبَبْنَا أجرَوْنَا مَجراهم ، أو الجِزْية ، أو المُنابَذَةُ . قال : فكيف طاعَتُهُمْ فى أمرائِهِمْ ؟ قلت : أطوَعُ قومٍ لرَشِيدهم . قال : فما يُحِلُّون وما يحرِّمون ؟ فأخبره . قال : هل يُحِلُّون ما حُرِّمَ عليهم ، أو يحرِّمون ما أُحِلَّ لهم ؟ قال : لا . قال : هؤلاء القوم لا يزالون على الظَّفَرِ

(١) ك : « لقوا » .

حتى يُحِلُّوا حَرَامَهم ويُحَرِّموا حلاَلَهُم ، ثم قال : أَخْبِرْنى عن لِباسِهم ، فأخبره ، وعن مَطاياهُم . قال : الخَيْل العِراب ، ووصَفها لهم . قال : نِعْمَ الحُصون ! ووصف له الإبلَ وَبَرْكها وقِيامَها . فقال : هذه صِفةُ دوابَّ طِوالِ الأعناقِ .

وكتب معه إلى يَزْدَجِرد : إنَّه لم يمنعْنى أن أبعثَ إليكَ بِجُنْدٍ أوّلُه بمَرْوَ وآخِرُهُ بالصِّين الجهالة بما يحقّ علىّ ، ولكنّ هؤلاء القوم الَّذين وَصَفَ لى رسولُكَ لو يحاوِلونَ الجبالَ لهَدُّوها ، ولو خلا لهم سِرْبُهُم أزالونى ما داموا على ما وصفَ ، فَسَالِمْهُم وارضَ مِنْهم بالمُسالَمَةِ ، ولا تَهْجِهِمْ مالم يَهيجوكَ . .

فأقامَ بَزْدَجِردُ بفَرْغانةَ ومعه آلُ كسري بعهدٍ من خاقان .

قال : ولمّا وصل كتـــابُ الفَتْح إلى عمرَ رضى الله عنهَ ، جَمَع النَّاسَ وخطَبَهم ، وقرأه عليهم ، وحمِدَ اللهَ على إنجازِ وعْدِه ، ثم قال : ألا وإنّ مَلِك المجوسيّةِ قَدْ هلك ، فليسوا يَملِكون من بلادهم شِبرًا يَضُرّ بمُسلِمٍ ، ألا وإنَّ الله تعالى قد أورثكم أرضَهم وديارَهُمْ وأموالَهُم وأبناءهم ، ليَنْظُرَ كيف تعملون ، فلا تبدّلوا فيَستبدِل اللهُ بكم غيرَكم ؛ فإنِّى لا أخافُ على هذه الأُمّة إلاَّ مِن قِبَلِكم .

وقيل : إنَّ فتْحَ خُراسانَ كان فى زمنِ عثمانَ رضى الله عنه ، وسنذكره إن شاء الله سبحانه وتعالى فى موضعِه .

ذكر فتح شهرزور والصامغان

وفى[١] سنة اثنتين وعشرين كان فتحُ شهْرَزُور ؛ فتحها عُتْبَة ابنُ فَرْقَد صُلْحًا على مِثل صُلْحِ حُلوانَ بعد قِتالٍ [٢] ، وصَالَح أهل الصَّامَغَانِ ،ودارابَاذ على الجِزْيةِ والخراج ، وقَتَلَ خلْقًا كثيرًا من الأكرادِ ، وكتب إلى عمر : إنَّ فُتُوحى قَدْ بلغتْ أذْرَبِيجان ، فولَّاهُ إيَّاها ، وَوَلَّى هَرْثَمةَ بنَ عَرْفَجة المَوْصِل ، ولم تزلْ شَهْرَزور وأعْمَالُهَا مضمومةً إلى الموصل حتى أُفْرِدَتْ عنها فى آخر خلافةِ الرّشيد . والله تعالى أعلم وحسبُنَا الله ونعم الوكيلِ ، نعم المولى ونعم النَّصِير ؛ والحمد لله وحدَه .

ذكر فتح توج

كان [٣] فَتْحها فى سنة ثلاثٍ وعشرين ؛ وذلك أنه لمّا خرجَ أهلُ البَصْرةِ الَّذِين توجَّهُوا إلى بلادِ فارسَ أمراء عليها ، كان معهم ساريةُ بنُ زُنَيمٍ ، فساروا ، وأهْلُ فارسَ مجتمعون بتوَّج ، فلم يَقْصدهم المسلمون ، وتوجَّه كُلُّ أميرٍ إلى الجهةِ التى أُمِرَ بها ، وبلغَ ذلك أهْلَ فارسَ ، فافترقُوا إلى بُلْدانِهم ، كما افترقَ المسلمون ، فكانت تلك هزيمتهم وتشتَّتْ أُمُورهم ، فقصدَهم مجاشعُ بنُ مسعودٍ بسابورَ وأزْدَشير فالتقَوْا بتَوَّج ، واقتتَلُوا ما شاءَ الله ، ثم انهزم الفُرْسُ

(١) ابن الأثير ٣ : ١٩ .
(٢) بعدها فى ابن الأثير : « فكانت العقارب تصيب الرجل من المسلمين فيموت » .
(٣) ابن الأثير ٣ : ١٩ .

وقتَلَهم المسلمون شرَّ قِتلةٍ ، وغَنِموا ما في عسكرهم ، وحصَروا تَوَّجَ فافتَتَحوها ، فقَتَلوا منهم خَلْقًا كثيرًا ، وغَنِمُو ما فيها .

وتوّج هي [التي] (١) استنقَذتْها جيوش العَلاء بن الْحَضْرَمِيِّ أيَّامَ طاوُس ، ثم دُعُوا إلى الجِزْيةِ فرَجَعوا وأقرُّوا بها ، وأرسلَ مجاشع ابنُ مسعودٍ بالبشارة والأَخْماسِ إلى عمرَ رضى الله عنه ، والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر فتح اصطخر وجور وكازرون والنوبندجان

ومدنية شِيَراز وأَرّجان وسينيزوجنابا وجَهْرَم

وفي (٢) سنة ثلاثٍ وعشرين قصد عثمان بن أبي العاصِ (٣) إصْطَخر (٤) فالْتَقَى هو وأَهْلُهَا بجور ، فاقْتَتَلُوا ، وانهزمَ الفُرسُ ، وفَتَح المسلمون جُور ، ثمَّ إصْطَخْر ، وقتلوا ما شاء الله ، وفرَّ منهم مَنْ فَرَّ . فدعاهم عثمانُ إلى الجِزْيةِ والذِّمَّةِ ، فأَجابَه الهِرْبِذُ إليها ، وتَراجَعوا .

وكان عثمانُ قد جمعَ الغنائمَ وخمَّسَها ، وبعثَ الخمسَ إلى عمرَ ، وفتح كازَرُون والنُّوبندَجان وغلب على أَرْضِها .

وفَتَح هو وأبو موسى مدينةَ شِيراز ، وأَرَّجان ، وفتحا سِينِيز على الجِزْيةِ والخَراج . وقصد عثمانُ أيضا جنابا ففتحها ، وفتح هو وأبو موسى مدينةَ شِيرازَ ، ولقِيَهُ جَمْعٌ من الْفُرسِ بناحية جَهْرَمَ [فهزمهم] (٥) وفتحها .

(١) من ابن الأثير .
(٢) ابن الأثير ٣ : ٢٠ .
(٣) ابن الأثير : « أبي العاص الثقفي » .
(٤) ابن الأثير : « أهل إصطخر » .
(٥) من ص .

وقيل : إنَّ فَتْحَ إصْطَخْر كان في سنة ثمان وعشرين ، والله سبحانه وتعالى أعلمُ . .

ذكر فتح فساود رابجرد

وفى [١] سنة ثلاث وعشرين أيضا قصد سارية بن زُنيم الدِّيلىّ فَسَاودَرا بِجرْد ، وانتهى إلى عسكرهم وحاصَرَهم ما شاء الله تعالى . ثم استمدُّوا وتجمَّعوا ، وتجمَّعت إليهم الأكرادُ من فارسَ [٢] ، فدَهَم المُسلمين أمرٌ عظيمٌ ، وأتاهم الفُرْس من كلّ جانب ، فرأى عمرُ رضى الله تعالى عنه فيما يَرَى النَّائمُ تلك الليلةَ معركَتَهُمْ وعددهم في ساعةٍ من النَّهار ، فنادى من الغَدَاة : الصَّلاة جامعةٌ ، حتى إذا كان فى السَّاعة التى رأى فيها ما رأى خرج إليْهم ، وكان قد رآهم والعدُوّ في صحراء ، إن أقام المسلمون فيها أُحيطَ بهم ، وإن استَنَدوا إلى الجَبَل لم يُؤْتَوْا إلاَّ مِنْ وجْه واحد .

فقام عمر فقال : يأيُّهَا النَّاس ، إنِّى رأيتُ هَذَيْن الْجَمْعَيْنِ .... وأخْبَرَ بِحالهما ، وصاحَ عمرُ رضى الله عنه وهو يخطبُ : يا سارية ، الجَبَل الجَبَل ! ثم أقبل عليهم وقال : إنَّ لِلهِ جُنودًا ؛ ولَعَلَّ بعضهم أن يُبَلِّغَهم .

فسَمِعَ ساريةُ ومن معه الصَّوْتَ ، فلجئوا إلى الجَبَل ، ثم قاتلوهم فهَزَمَهم الله . وأصاب المسلمون مغانم ، وأصابوا سَفَطا فيه جوهر ، فاستوهبه منهم سارية ، وبعثَ به وبالفتحِ مع رجلٍ إلى عمرَ ، فقدِمَ

(١) ابن الأثير ٣ : ٢١ .
(٢) ابن الأثير : « أكراد فارس » .

عليه ، وأَخْبَرَه الخبر ، وقصة الجوهر ، فصاح به عمر وقال : لا ولا كَرامة ! اقْسِمه بين الجُنْدِ ، وطردَهُ ، ورَدَّ السَّفَطِ .

وسأَل أهلُ المدينةِ الرَّسُولَ ، هل سمعوا يومَ الوقعة شيئًا ؟ قال : سمِعْنَا : « يا ساريَةُ الجَبَل » . وقد كدنا نَهْلِك ، فلجأْنا إليه ، ففَتَحَ الله سبحانَهِ وتعالى علينا . والله أعلمُ بالصّواب ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم .

ذكر فتح كرمان

وفيها (١) قَصَد سُهَيْلُ بن عَدِيٍّ كَرْمان ، ولحقه عبدُ الله بنُ عبد الله بن عَتْبَان ، وحُشِدَ [له] (٢) أهلُها واستعانوا بالقُفْص ، فاقتتلوا في أدنى أرضِهم ، فقتَلَ النُّسَيرُ بنُ عَمرو العِجْلىّ مَرْزُبانَها (٣) ، وفتَحَها المسلمون .

وقيل : إنَّ الَّذِى فَتَحها عبدُ اللهِ بنُ بُدَيْل بنِ وَرْقاء الخُزاعىّ فى خلافة عمرَ ، ثم أَتَى الطَّبَسَين مِن كَرْمان ، ثم قدِمَ على عمرَ فقال : أَقطِعْنى الطَّبَسَين ، وأراد أن يفعل . فقيل : إنَّها رُسْتَاق ، فامتَنَع .

---

(١) ابن الأثير ٣ : ٢٢ .
(٢) من ص .
(٣) المرزبان : من ألقاب رؤساء الفرس .

ذكر فتح سجستان

فى[١] سنة ثلاث وعشرين أيضا قصَدَ عاصم بن عمرو سجستان ، ولحقه عبدُ اللهِ بنُ عُمَير ، فاستقبلَهم أهلُهَا فالتَقَوْا فى أدنى أرْضِهم ، فَهَزَمهم المسلمون واتَّبَعُوهم حتى حاصَروهم بزَرَنْج ، فَطلبوا الصُّلْح على زَرَنْجوما سادوا عليه من الأَرَضين ، واصْطلحوَا على الخَراج ، فكانت سِجْستانُ أعظَمَ من خُراسان وأبعدَ فُروجا ، يُقَاتِلُون الْقُنْدهارَ والتُّرْكَ ، وأممًا كثيرةً .

وقيل فِي فتح سِجْسَتَان غيرُ هذا ، وسنذكره إن شاء الله تعالى فى موضعه .

ذكر فتح مكران

وفيها [٢] قصدَ الحكمُ بنُ عمرو التغلَبيّ مُكْرانَ ، ولحقَ به شـــهابُ بنُ المخارِق وســـهيلُ بنُ عدىّ وعبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عِتْبان ، فانتهوْا إلى دُوَيْن النَّهْرِ ، وأهلُ مُكرانَ على شاطئه ، فاستمدَّ مَلِكُهم ملكَ السِّندِ ، فأمَّده بجيشٍ كَثيفٍ ، فالتَقَوْا مع المسلمين فَهُزِمُوا ، وقُتِلَ منهم فِي المعركةِ مَقتلةٌ عظيمةٌ ، واتَّبعهم المسلمون يقتُلونهم أيامًا ؛ حتى انتَهَوْا إلى النَّهْرِ ، ورجع المسلمون إلى مُكْرَان فأقاموا بها ، وكتبَ الحكمُ إلى عمرَ بالفتح ، وبعث إليه بالأَخْماس مع صُحار العَبْدىّ . فلمَّا قَدِم المدينةَ سأله عُمَرُ عن مُكْران ،

(١) ابن الأثير ٣ : ٢٢ .
(٢) ابن الأثير ٣ : ٢٣ .

فقال : يا أمير المؤمنين ، هى أرضٌ سَهْلُها جَبَلٌ ، وماؤُها وَشَلٌ ، وتمرُها دَقَل ، وعدوُّها بطل ، وخيرُها قليل ، وشرُّها طويل ، والكثيرُ منها قليلٌ ، والقليل بها ضائع ، وما وراءها شرٌّ منها .

فقال عمر : أسجّاعٌ أنت أم مُخْبِر ! لا والله لا يَغْزُوها لى جَيْشٌ أبدًا ، وكتب إلى مُهيْل والحكم ألاَّ يَجُوزَنَّ مُكرانَ أحدٌ من جُنودِكما ، وأمرهما ببَيْع الفِيَلةِ الَّتى غَنِمها المسلمون ، وقَسْم أثمانِها على الغانمين.

ذكر فتح بيروذ من الأهواز

وهى بفتح الباء الموحدة ، وسكون الياء المثنّاة من أسفل ، وضمّ الراء وسكون الواو وذال معجمة .

قال : لمّا[1] فصلت الخُيولُ إلى الكُوَر اجتمع ببيْرُوذ جمعٌ كثير من الأكرادِ وغيرِهم ، وكان عمرُ رضى الله عنه قد عهد إلى أبى موسى أن يسيرَ إلى أقصى ذمة البصرة كما ذَكَرنا ؛ حتى لا يُؤتَى المسلمون فى أعقابِهم . فسار أبو موسى وٱلتَقَى معهم فى شهر رمضان ، سنة ثلاث وعشرين ببَيْرُوز من بَين نَهْرِ تِيرى ومَنَاذِر ، فقام المهاجرُ ابنُ زياد وقد تحنّط ، فقاتَلَ حتى قُتِلَ ، وٱشتَدَّ جزعُ الربيعِ بنِ زِياد على أخيه المُهاجِر ، وعَظُم عليه فَقْدُهُ ، فرقَّ له أبو موسى وٱستخلَفَه على جُنْده .

وخَرج أبو موسى حتى بلغ أَصْبَهَان ، وكان مع المسلمين بها حتى

(١) ابن الأثير ٣ : ٢٤ .

فُتِحَتْ ، ثم رجع إلى البَصْرة ، وفتح الربيعُ بنُ زياد بَيْرُوذ ، وغَنِم ما كان تجمَّع بها .

وأَوْفَدَ أبو موسى وَفْدًا إلى عمرَ بالأَخماس ، وطلبَ ضَبَّة بنُ مِحَصن الغنويّ أن يكون في الوفد ، فلَم يُجِبْهُ أبو موسى ، وكان أبو موسى قد اختار مِنْ سَبْى بَيْروذ ستِّين غُلامًا . فانطَلَقَ ضبَّةُ إلى عمَر شاكيا ، وكتب أبو موسى إلى عمرَ يُخْبره ، فلمّا قدم ضبَّةُ على عُمَر سلَّم عليه ، فقال : مَنْ أنت ؟ فأَخبَرَه ، فقال : لا مرحبًا ولا أَهْلاً ! فقال : أما الرَّحْبُ فمن اللهِ ، وأمّا الأَهْلُ فلا أَهْل . ثم سأله عمرُ عن حاله فقال : إنَّ أبا موسى انتقَى ستِّين غلامًا من أَبْنَاء الدَّهَاقين لنفسه ، وله جارية تُغَدَّى جَفْنة ، وتُعَشَّى جَفْنة تُدعَى عقيلة ، وله قفيزان ، وله خاتمان ؛ وفوَّض إلى زياد بن أبي سُفيان أمورَ البَصْرة ، وأجازَ الحطيئة بألف .

فاستدعى عُمر أبا موسى ، فلمّا قَدِم عليه حجَبَه أيّامًا ، ثم استدعاه ، فسأَل عُمرُ ضَبَّةَ عمَّا قال : فقال : أخذ ستِّين غلامًا لنفسه . فقال أبو موسى : دللتُ عليهم ، وكان لهم فداء ، ففديتُهم وقسَّمتُهُ بين المسلمين ، فقال ضبة : ما كَذَب ولا كَذَبْتُ ، وقال : له قَفِيزان ، فقال أبو موسى : قفيزٌ لأهلي أقوتُهُمْ به ، وقفيزٌ للمسلمين في أيديهم يأْخذون به أرزاقهم . فقال ضَبَّة : ما كَذَب ولا كذبْتُ .

فلمّا ذَكَرَ عَقيلة سكَتَ أبو موسى ولم يعتذر ، فعلمَ أنَّ ضبَّةَ قد صَـدقه . قال : ووَلَّى زيادا ، قال : رأيتُ له رأْيًا ونُبْلا

فأسْنَدْتَ إليه عملى . قال : وأجَاز الحطيئة بألفٍ ، قال : سَدَدْتُ فمَه بمالى أن يشتِمَنى ، فردّه عمرُ ، وأمره أن يُرْسِلَ إليه زيادًا وعَقِيلة ، ففعَلَ .

فلمّا قَدِم عليه زيادٌ سأله عن حاله وعطائه والفرائضِ والسُّنن ، والقرآن ، فرآه فقيهًا ، فرَدَّه ، وأمَر أُمَراءَ البَصرةِ أن يسيروا برأْيه ، وحَبس عقيلة بالمدينة ، وقال عُمر : ألاَ إنَّ ضَبَّةَ غَضب على أبى موسى ورَدَّه مُراغَمًا ، أن فاتَه أمرٌ من أمرِ الدنيا يصدق عليه ، وكَذَب فأفسد كذبُه صدقَه . فإيّاكم والكَذِب ! فإنَّه يهدى إلى النَّارِ .

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعى والأكراد

قال (١) : كان عمرُ بنُ الخطَّاب رضى الله عنه إذا اجتمع إليه جيشٌ من المسلمين ، أمّر عليهم أميرًا من أهل العِلم ، فاجتمع إليه جيشٌ ، فبعث عليهم سَلَمَةَ بنَ قيس الأَشْجَعىّ وقال له : سِرْ باسم الله تعالى ، وقاتِلْ فى سبيلِ الله من كَفَر بالله ؛ فإذا لَقِيتم عدوَّكم فادْعُوهم إلى الإسلام ، فإن أجابوا وأقاموا بِدَارهم فعليهم الزَّكاةُ ، وليس لهم من الفَىْءِ نصيب ، وإن ساروا معكم فلهم مِثلُ الَّذى لكم ، وعليهم مثلُ الَّذى عليكم ، فإن أبَوْا فادعوهم إلى الْجِزْية ، فإنْ أجابوا فاقبَلوا منهم ، وإن أبَوْا فقاتِلوهم ، وإن تحصَّنوا منكم وسألوا أنْ يَنزلوا على حُكم الله ورسولِه ، أو ذِمَّةِ اللهِ ورسوله ، فلا تجيبوهم ؛ فإنكم لاتدرون ما حكمُ الله رسوله ، وذمّتهما فيهم ، ولا تَغْدِروا ، ولا تَقْتُلوا وَليدًا ، ولا تُمثِّلُوا .

(١) ابن الأثير ٣ : ٢٥ .

فساروا حتّى لقوا عدوًّا من الأكراد المشركين ، فدَعَوْهم إلى الإسلام أو الجزية ، فأَبَوْا فقاتَلوهم وهَزَموهم ، وقَتَلوا المُقَاتِلة ، وسَبَوُا الذَّرِيّة فقسَّمَهَا بينهم ، ورأى سَلَمَةُ جوهرا فى سَفَط ، فاسترْضَى عنه المسلمين وبَعَثَه إلى عمَر ، فغضب ووجأه فى عُنُق رسوله وأعادَه ، فباعه سَلَمَة ،وقَسَمَ ثمنَه فى المسلمين ، فكان الفَصّ يباع بخمسةِ دراهمَ ، وقيمته عشرون ألفًا .

ذكر فتوح مصر وما والاها

كان فتُح مصرَ على يد عمَرو بنِ العاص والزُّبَير بنِ العوّامَ رضىَ الله عنهما ، وقد اختُلِف فى السَّنةِ التى فُتحتْ مصرُ فيها ، فقيل : فى سنةِ عشرين . وقيل : سنةَ سِتٍّ عشرةَ . والصحيح أنها فُتِحَتْ قبل عام الرَّمادة ، وكان عامُ الرَّمادة فى سنة ثمانِىَ عشرةَ ؛ فإنّ عَمرَو ابنَ العاصِ حمل منها الطَّعامَ إلى المدينة فى بَحْرِ القُلْزُم على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى حوادث السّنين .

وقد اختُلف أيضا فى سبب مَسيرِ عَمرٍو إليها ، واختُلف فى كيفيّة الفتح ، وكيف كان .

وقد رَوَى الشيخُ أبو القاسم عبدُ الرحمن بُن عبدِ الله بنِ عبد الحَكَم - رحمه الله - فى فُتوحِ مصرَ[1] أخبارًا بأسانيدَ متّصلةً إلى جماعة ممَّنْ شَهِدوا الفتحَ وغيرهم ، اختصَرْنا ذِكرَها ، مَدارُها على ابنِ لَهِيعة عن عبد الله بن أبى جعفر وعيّاش بن عبّاس العَتَبانىّ وعلىّ بن يزيدَ

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٥٣ وما بعدها .

ابن أبي حبيب ، واللَّيْث بن سعد وغيرهم ، دخل حديثُ بعضهم في حديثِ بعض . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله وحده .

ذكر مسير عمرو الى مصر

قالوا : لمّا قدم عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه إلى الجابية ، قام إليه عمرُو بنُ العاصِ رضى الله عنه ، وخلاَ بهِ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ائذَنْ لى أنْ أسيرَ إلى مصر ، وحرَّضه عليها وقال : إنَّك إنَّك إنْ فتَحتَها كانتَ قوّةً للمسلمين وعَوْنًا لهم ، وهى أكثر الأرض أموالاً ، وأعجَزُ عن القتال والحَرْبِ . فتخوَّفَ عمرُ على المسلمين وكَرِهَ ذلك ، فلم يَزَل عَمرو يعظِّم أمْرها عنده ، ويهوِّنُ عليه فتحَها ، حتَّى رَكَن لذلك ، فَعقَد له على أربعةِ آلافِ رجلٍ كلُّهم من عَكّ ، ويقال : ثلاثة آلافٍ وخمْسمائة . وقيل : ثلثهم من غافق ، وقال له : سِرْ وأنا مستخيرٌ اللهَ فى مَسيرِكَ ، وسيأْتِيكَ كِتَابِى سريعًا إن شاء الله تعالى ، فإذا أدْرَكَكَ كِتابى بالانصراف عن مصرَ قبلَ أن تَدخُلَها ، أو شَيْئًا مِنْ أرْضِها فانصرفْ ، وإن أنتَ وصلتها قبل ذلك فامْضِ لوَجْهك ، واستعِنْ بالله واسْتنصِرْهُ .

فسار عَمروٌ من جَوْفِ اللَّيل ، ولم يشعُرْ به أحدٌ من النَّاسِ ، واستخار عمرُ اللهَ تعالى ، فكأنَّه تَخوَّفَ على المسلمين فى وَجْهِهم ذلك .

فكتب إلى عَمروٍ أن يَنصرفَ بمن معه ، فأدْرَكَه الكِتاب[1] وهو

(١) ابن عبد الحكم : « فأدرك الكتاب عمرا » .

برَفَح ، فتخوَّف إنْ هو أخَذَ الكتاب ، وفتحه أن يَجِد فيه الانصرافَ ، فلَم يأْخذه من الرّسول ، ودافَعَه حتَّى انتهى إلى قريةٍ فيما بين رَفَح والعريش ، فسأَل عنها ، فقيل : إنَّها من أرضِ مصرَ ، فأَخذ الكتابَ وقرأَهُ على المسلمين ، وقال لمن معه : ألستُم تَعلمُون أنّ هذه القَرْيَة مِن مِصْرَ؟ قالوا : بلى : قال : فإنّ أمير المؤمنين عهد إلىَّ وأمرَنى إنْ لحقنى كتابُهُ ولم أدْخُلْ مصرَ أنْ أرجعَ؛ ولمْ يَلْحَقْنى كتابُه حتى دخلْنا أرضَ مصرَ ، فسِيروا وامْضُوا على بَرَكة اللهِ عزَّ وجلّ .

وقد قيل : إنَّ عَمرو بنَ العاص كان بِفلَسطينَ ، فقَدِمَ (١) بأصحابه إلى مصرَ بغيرِ إذنِ عُمَرَ ، وكتب إليه يُعْلِمُهُ ، فكتب عَمرُ إليه ، فأتاه كتابُه وهو دُونَ العَريش ، فلَمْ يَقْرَأْ كتابَه حتَّى بلغ العَرِيش فقرأَه ، فإذا فيه :

مِن عُمرَ بنِ الخطَّابِ إلى عمرو بنِ العاص : أمَّا بعد ، فإنَّك سِرْتَ إلى مصرَ ومَنْ معك ، وبها جُموعُ الرُّوم ؛ وإنمّا معك نفرٌ يسيرٌ ، ولعَمْرى لو كانوا بكلّ أُمّتك(٢) ما كانوا لذلك ، وما سِرْتَ بهم ، فإن لم تكُنْ بلغتَ مِصْرَ فارجعْ .

فقال عَمرو : الحمدُ للهِ ، أيّةُ أرضٍ هذه ؟ قالوا : مِنْ مصر . فتقدّمَ كما هو . ويقال : بل كان عمروٌ فى جنده بقَيْسَارِيَّة ، فكتب إلى عمرَ بن الخطَّاب ، وعمرُ إذ ذاك بالجابية ، وهو يستأْذنه على (٣) المَسِير إلى مصرَ ، وأمر أصحابَهُ فتنحَّوْا من منزلتهم كأنَّهم

(١) ك : « فتقدم » .
(٢) ابن عبد الحكم : « ثكل أمك » .
(٣) ك : « يستأذنه بالمسير » .

يريدون أن يتحوّلوا مِن منزلٍ إلى منزل ، فسارَ بهم ليلاً ، فلمّا فَقَدَه أمراءُ الأجناد استَنْكَروا فعلَه ، ورأَوْا أنْ قد غَرَّرَ ، فَرفَعوا ذلك إلى عمرَ ، فَكَتَبَ إليه :

إلى العاصِي ابنِ العاص ، أمّا بعد ، فإنَّكَ قد غَرَّرتَ بمَن معك ، فإنْ أدرَكَكَ كتابي ولَم تَدخُل مصر فارجع ؛ وإن أدرَكَك وقد دخلْتَ فامضِ ، واعلمْ أنّي مُمِدُّكَ .

ويقال : إنَّ عمرَ رضى الله عنـــه كتب إلى عَمْرو بعد فتح الشَّامِ : أن انْدُب النَّاسَ إلى المَسيرِ معكَ ، فمن خفَّ معك فسِرْ به . وبعث بالكتابِ مع شَرِيك بن عَبْدة ، فندبَهم عَمرو ، وأسرَعَ في الخروج ، ثم دخل عثمانُ بنُ عفَّـــان رضى الله عنْـــهَ على عمرَ ، فأخبَرَه عمرُ بذلك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ عَمْرًا فيه إقدامٌ وحُبٌّ لِلإمارة ، فأخشى أن يخرجَ في غيرِ ثقةٍ ولا جَماعةٍ ؛ فيعرِّضَ المسلمين للتهلُكَةِ رجاءَ فرصةٍ لا يَدْرِى تكون أم لا !

فندِمَ عمرُ على كتابه إلى عَمرٍو ، وكتب إليه أنْ ينصرفَ إنْ كان لم يدخل أرضَ مصرَ على ما تقدَّم .

قالوا : ونفرَتْ راشدةُ وقبائلُ مِنَ العربِ مع عَمرو ، فسارَ بهم ؛ فأدرَكَه عِيدُ النَّحْرِ بالعَرِيش ، فضحّى هناك . ولمّا بلغ المقوقِسَ مسيرُ عَمرٍو إلى مصرَ ، توجَّهَ إلى الفُسْطَاط ، وكان يجهِّزُ الجيوشَ على عمرٍو ، وكان على القصْرِ رجلٌ من الرُّومَ ، يقال له : الأُغيرج واليًا تحتَ يد المقوقس .

وتقدَّمَ عمروٌ فكان أوّلَ موضعٍ قُوتِلَ به الفَرَما ، قاتَلَهُ الرُّومُ هناك قتالاً شديدًا .

قال : وكان بالإسكندريةِ أُسْقُفٌ لِلْقِبْطِ يقال له : أبو ميامين ، فلمّا بَلَغَه قدومُ عَمرٍو كَتَبَ إلى القِبْط يُعْلِمُهُم أنَّه لا يكونُ لِلرُّومِ دولةٌ ، وأنَّ مُلكَهُمْ قد انقطع ، ويأمرهم بتلَقِّى عَمرو .

فيقال : إنّ القِبطَ الَّذين كانوا بالْفَرَمَا كانوا يومئذٍ لعمروٍ أعوانًا ، ثم سار عَمرٌو من الفَرَما لا يدافِعُ إلاَّ بالأمرِ الخفيف ، حتَّى نزل بِلَبِيس فقاتَلُوه بها نحوًا من شَهرٍ حتَّى فتح الله عليه ، ثم مضى حتَّى أتَى أُمَّ دُمَيْن فقاتَلُوه بها قِتالاً شديدًا ، وأبطأَ عليْه الفتحُ ، فكتب إلى عمرَ يستمدُّهُ ، فأَمَدَّهُ بأربعةِ آلافٍ تمامَ ثمانيةِ آلافٍ ، فقاتلهم ، وجاء رجل من لَخْمٍ - قيل : هو خارجةُ بنُ حُذافَةَ إلى - عمرَ ، فقال له : انْدُبْ معى خيلاً حتَّى آتِيَ من ورائهم عند القتال (١) ، فأخرَج معه خَمسِمائة فارسٍ ، فسار بهم من وراء الجَبَل حَتَّى دَخَلوا مُغارَ بنى وائلٍ قُبَيل الصّبحِ ، وكانت الرّومُ قد خَنْدَقوا خَنْدَقًا ، وجعلوا له أبوابًا ، وبثُّوا فى أَفْنِيَتِها حَسَكَ الحديدِ ، فالْتَقَى القومُ حينَ (٢) أَصْبَحُوا ، وخرجت الخيلُ من ورائهم فانْهَزَموا حتَّى دخلوا الحصنَ ، وهو القَصْر الَّذى يقال له : بابليون .

(١) ك : « الباب » .
(٢) ك : « حتى » .

ذكر حصار القصر وماقيل فى كيفية الاستيلاء عليه

وانتقال الروم والقبط الى الجزيرة

قال[١] : ولمّا انهزَمُوا إلى القصر حَصَرهم عمرُو بن العاصِ ومن معه حِينًا ، وقاتَلَهم قِتالاً شديدًا صَباحًا [٢] ، ثم كتب إلى عمرَ يستمدُّهُ ، فأمَّده بأربعةِ آلافِ رَجُلٍ ، على كلِّ ألفٍ منهم رجلٌ [وكتب إليه : قد أمددْتك بأربعة آلافٍ] [٣] على كلِّ ألف رجل : الزُّبيرُ بن العَوَّامِ والمقدادُ بن عَمرو ، وعُبادة بن الصَّامتِ ، وسَلَمَةُ بن مَخلد ، ومنهم من جَعَلَ بَدَلَ سَلَمَة خارجةَ بن حُذافَة

وقال عُمَر له فى كتابه : اعلم أنَّ مَعَكَ اثنى عشر ألفًا ، ولا يُغلب اثنا عشَرَ ألفًا من قِلَّةٍ . وقيل : إنَّه لمّا أشْفَقَ عمرُ ، أرسل الزُّبيرَ فى اثنى عشر ألفًا ، فلمّا قدم تلقَّاه عَمرو ، ثم أقْبَلا ، فركبَ الزُّبيرُ وطاف بالخَنْدَقِ ، وفرَّقَ الرِّجالَ حولَه ، وألَحَّ عَمْرو إلى القَصْر ، ونَصَب عليه المَنْجَنِيقَ . وأبطأَ الفتحُ . فقال الزُّبيرُ : إنِّى أهبُ نفسى للهِ وأرجو أن يفتحَ اللهُ بذلك على المسلمين ، فوضع سُلَّمًا إلى جانب الْحِصْنِ من ناحية سُوقِ الحمَامِ ، ثمَّ صَعِدَ ، وأمَرهم أنَّهم إذا سمِعُوا التَّكْبِيرَ أن يجيبُوهُ جميعًا ، فلَم يَشعر الرُّومُ إلاَّ والزُّبيرُ على الحِصن يكبِّر وبيَدِهِ السَّيْفُ ، وتحامل النَّاس على السُّلَّمِ حتى

---

(١) ابن عبد الحكم ٦١ .

(٢) ابن عبد الحكم : « يصبحهم ويمسيهم » .

(٣) من ابن الحكم .

خشىَ عمرو أن ينكسِرَ بهم ، فنهاهم ، ولمَّا صاروا بأعلى الحصن كبَّروا جميعًا ، وأجابهم المسلمون من خارجِ الحِصْنِ ، فمَا شكَّ أهلُ الحصنِ أن العربَ قد اقْتَحَمُوا جميعًا ، فهرَبوا ، فعَمَد الزُّبيرُ وأصحابهُ إلى باب الحِصنِ ففَتَحُوه ، واقتحمه المسلمون ؛ فحينئذٍ سأل المقوقسُ الصُّلْحَ على نفسِه ومَن معه ؛ على أن يَفْرِض للعَرَبِ على القِبط دينارَيْن على كُلِّ رجلٍ منهم ، فأجابهم عمرٌو إلى ذلك .

وكان مُكْثُهم على بابِ القصرِ حتَّى فتحوه سبعةَ أشهرٍ ، والله تباركَ وتعالى أعلم .

قال ابن عبدِ الحَكَم : وقد[1] سمعتُ فى فَتْحِ القَصْرِ وجْهًا آخرَ ، ورواه بِسَنَدِهِ إلى خالدِ بنِ يزيد ، عن جماعة من التَّابعين ، يَزيدُ حديثُ بعضهم على حَدِيث بعضٍ ، قالوا : لمَّا حَصَر المسلمون بابِليون ، وبه جماعةٌ من الرُّومِ ، وأكابرِ القِبطِ وعليهم المقوْقَس ، فقاتلهم شهرا ، فلمَّا رأى القوم الجِدَّ من المسلمين تنحىَّ المقوقِس وجماعةٌ من أكابر القبط ورؤسائهم ، وخرجوا من باب القَصْرِ القِبلىِّ ، ودونَهم جماعةٌ يقاتِلون العَرَب ، فلحِقُوا بالجَزيرة .

قال : وهى موضعُ الصِّناعةِ اليوم ، وأمروا بقطْعِ الجِسْرِ ، وذلك فى زَمَن زيادة النِّيلِ ، وتخلَّف الأَعْيَرِج بالقَصْرِ بعدَ المقوقِس ، ثم تحوَّلَ إلى الجزيرة فى السُّفُن . والله أعلم .

---

(١) ابن عبد الحكم ٦٤ وما بعدها .

ذكر ارسال المقوقس الى عمرو فى طلب الصلح

وجواب عمرو له واجتماع المقوقس وعبادة بن الصامت

وما وقع بينهما من الكلام وقبول المقوقس الجزية

قال (١) : وأرسَل المقوقسُ إلى عَمرو يقول : إنَّكم قد وَلَجتُمْ بلادَنا (٢) ، وألححتمْ على قِتالِنَا ، وطالَ مُقامُكم فى أرضنا ؛ وإنَّما أنتم عُصْبَةٌ يسيرةٌ ، وقد أظلَّتْكم الرّومُ ومعهم من العُدَد والسّلاح ، وقدأحاط بكم هذا النِّيل ، وإنما أنتم أُسارَى فى أيْدِينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نَسمَعْ منهم ؛ فلعله أنْ يأْتِيَ الأمرُ فيما بيننا وبينكم على ما تُحِبُّون ونُحِبّ ؛ وينقطعَ عنَّا وعنكمْ هذا القِتالُ قبل أنْ تغْشَاكم جُموعُ الرُّومِ ؛ فلا يَنفعنَا الكلام ولا نَقدِر عليه ، ولعلَّكُمْ أنْ تَنْدَمُوا ... ونحو ذلك من الكلام .

فلما أتتْ رُسُلُ المقوقِسِ عَمرًا حبَسَهم عنده يومين وليلتين ؛ حتى خافَ عليهم المقوقِسُ وقال لأصحابه : أتَرَوْنَ أنَّهم يَقتلُون الرُّسُلَ ويحبِسونهم ، ويستحلُّونَ ذلك فى دينهم ؟ وإنَّما أراد عَمرو بذلك أن يَرَوْا حال المسلمين ، ثم ردّهُمْ عَمرو . وأجابَهَ مع رُسُله : إنَّه ليس بينى وبينكمْ إلاَّ إحدى ثلاث خِصال : إمَّا أن دخلتُم فى الإسلامِ وكنتُمْ إخواننا ، وكان لكم مالنا ، وعليكمْ ما علينا ، وإنْ أبَيْتُمْ

---

(١) ابن عبد الحكم ٦٥ .

(٢) ابن عبد الحكم : « فى بلادنا » .

فأعْطَيْتُمْ الجزْيَةَ عَنْ يَدٍ وأنتم صاغِرُون. وإما أن جاهَدْناكم بالصبْر والقتالِ حتى يحكُمَ اللهُ بيننا وبينَكم ، وهو خيرُ الحاكمين .

فلمّا جاءتْ رُسُل المقوقِسِ إليه ، قال : كيْفَ رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأيْنَا قَوْمًا ، ٱلموتُ أحبُّ إلى أحدِهم من الحياةِ ، والتَّواضُعُ أحبُّ إليهم من الرِّفعةِ ، ليس لأحدهم فى الدُّنيا رغبةٌ ولا نَهْمَة ؛ إنَّما جلوسهم على التُّرابِ ، وأكْلُهُم على الرُّكَبِ ، وأميرُهم كواحدٍ منهم ، ما يُعْرفُ رفيعُهُمْ مِنْ وضيعِهم ، ولا السَّيِّدُ فيهم من العبْدِ ، وإذا حضرتِ الصَّلاةُ لم يتخلَّف عنها منهم أحدٌ : يَغسلون أطرافَهم بالماءِ ، ويتخشَّعُون فى صلاتهم .

فقال المقوقس : والَّذى يُحلَف به ، لو أنَّ هؤلاء ٱستقبَلوا الجبالَ لأزالوها ، وما يَقْوَى على قتالِ هؤلاء أحَد ؛ ولئن لم نَغْتَنِمْ صُلْحَهم اليومَ وهم مَحصُورون بهذا النِّيلِ لم يُجِيبُونَا بعد اليوم ، إذا أمْكَنَتْهم الأرضُ وقَوُوا على ٱلْخُروج مِن موضعهم . ثم ردّ رُسَلَه إلى المسلمين ، أن ٱبعثوا إلَيْنَا رُسُلاً منكم ، نُعامِنهم ونَتَداعى نحن وهمْ إلى ما عساه انْ يكونَ فيه صَلاحَ لنا ولكم .

فبعث عَمرُو بنُ العاصِ عشرةَ نفر ، أحدهم عبادةُ بنُ الصَّامِتِ ، وأمره أن يكون متكلِّمَ القومِ ، وألاَّ يُجيبَهم إلى شىءٍ دَعَوْه إليه إلاَّ إلى إحْدَى هذه الثَّلاث خصال .

فلمّا دخلوا على المقوقِس تقدَّمَ عُبادةُ ، فَهابَه المقوقس لِسوادِه ، فقال : نحُّوا عنِّى هذا الأسوَدَ . وقدِّموا غيرَه يكلِّمُنى . فقالوا جميعًا : إنَّ هذا الأسَوَدَ أفضلُنا رأيًا وعِلْمًا ، وهو سَيِّدنا وخَيْرنا ، والمقدَّمُ

علينا ، وإنَّما نرجعُ جميعًا إلى قَولِهِ ورأْيِهِ ، وقد أَمَره الأَميرُ دُونَنَا بما أَمَرَهُ به ، وأَمَرَنا ألاَّ نخالفَ رأْيَه وقولَه ، قال : وكيف رَضِيتُمْ أَنْ يكونَ هذا الأَسْوَدُ أفضلَكُمْ ، وإنَّما ينبغى أن يكون دُونكم . قالوا : إنَّه وإنْ كان أَسوَدَ كما تَرى ، فإنَّه مِنْ أَفضلِنَا موْضِعًا ، وأَفضلِنا سابقةً وعَقْلاً ورأْيًا ، وليس يُنْكَرُ السَّوادُ فينا .

فقال المقوقسُ لِعُبَادَة : تقدَّمْ يا أَسود وكلِّمْنى برفقٍ ، فإنِّى أَهابُ سَوادَك ، وإن ٱشتدّ كلامُكَ علىَّ ٱزدَدْتُ[1] لِذلك هَيْبَةً ، فتقَدَّمَ إليه عُبَادَةُ فقال : قد سمعْتُ مَقالَك ، وإنَّ فيمن خلَّفْتُ من أَصحابى أَلفَ رجلٍ كلُّهم أَشدُّ سوادًا منى ، وأَفْظَعُ مَنْظَرًا ؛ ولو سمعتَهم ورأَيتَهُمْ لكنتُ أَهيَبَ لهم منك لى ، وأَنا قد وَلَّيْتُ وأَدبَر شبابى ، وإنِّى بحمد اللهِ مع ذلك ما أَهابُ مائةَ رجلٍ من عدوِّى لو ٱستقبلونى جميعًا ، وكذلك أَصحابى ؛ وذلك إنَّما رغبتُنَا وهِمَّتُنَا الْجِهَادُ فى سبيل الله وٱتِّباع رِضْوانه ، وليس غزونا ممَّن حارب الله لرغبةٍ فى دُنيا ولا طلبًا للاستكثار منها ؛ إلا أَن الله عزَّ وجلَّ أَحَلَّ ذلك لنا ، وجَعَل ما غَنِمْنَا من ذلك حَلالاً ، وما يُبَالِى أَحدُنا أَكان له قِنطارٌ مِنْ ذهب أَم كان لا يَمْلُك إلاَّ دِرْهَمًا ؛ لأَنَّ غايةَ أَحدِنا من الدُّنيا أَكْلة يأْكُلها يَسُدُّ بها جوعته لليله ونَهَارِه[2] ، وشَمْلَةٌ يَلتَحِفُها . فإن كان أَحدُنا لا يَملكُ إلاَّذلك كفَاهُ ؛ وإنْ كان له قنطارٌ من ذهبٍ أَنفقَهُ فى طاعة الله تعالى ، وٱقتَصَر على هذا الَّذى بيَدِهِ ، وبَلَّغه ما كان فى الدُّنيا ؛ لأَنَّ الدُّنيا ليست بنعِيم ، ورَخَاؤُها ليس برَخاء ، وإنمَّا النَّعيم والرَّخَاءُ فى الآخرة ؛

(١) ك : « أردت » ، تحريف .
(٢) ك : « ليله ونهاره » .

وبذلك أَمَرنا ربُّنَا عزَّ وجلَّ ، وأَمرَنا به نبيُّنَا ، وعهِدَ إلينَا ألاَّ تكون همَّةُ أحدنُا من الدُّنيا إلاَّ ما يمسك جَوْعَتَهُ ، ويَستُر عورَتَه ، وتكونَ هِمَّته وشُغْلُه فى رضا رَبِّه ، وجهادِ عدوِّه .

فلمَّا سَمِعَ المقوْقِسُ ذلك منه ، قال لمن حَوْلَه : هل سمعتمْ مِثلَ كلامِ هذا الرَّجلِ قطّ ؟ لقد هِبْتُ مَنظَره ، وإنَّ قولَه لأَهْيَبُ عندى مِن مَنْظَرِه ، إنَّ هذا وأَصحابَهُ أَخرجَهم الله لخَرابِ الأَرضِ ، ما أَظنُّ ملْكَهُم إلاَّ سيغْلِبُ على الأَرضِ كُلِّها .

ثم أَقبلَ على عُبادة فقال : أَيّها الرجلُ الصّالحُ ، قد سمعتُ مقالتَكَ ، وما ذكرتَ عَنْك وعن أَصحابكِ ، ولعَمرِى ما بلغْتُم مابلغْتُم إلاَّ بما ذكرتَ ، وما ظهرتُم على من كان إلاَّ لحبِّهم الدُّنيا وَرَغبتِهم فيها ، وقد توجَّه إلينا لقتالكم مِنْ جَمْع الرُّومِ مالا يُحْصَى عددُه ، قومٌ معروفون بالنَّجدةِ والشِّدَةِ ، لا يُبَالِى أَحَدُهم مَنْ لقىَ ولا من قاتَل ، وإنَّا لنعلم أَنَّكم لن تَقْوَوا عليهم ولَنْ تُطِيقُوهم لضَعْفِكم وقلَّتِكُمْ ، وقد أَقمتُمْ بين أَظْهُرِنَا أَشهُرًا ، وأَنتم فى ضِيقٍ وشِدّةٍ مِن معاشكم وحالِكم ، ونحن نرقُّ عليكم لضَعْفِكُمْ وقلَّتِكُمْ ، وقلَّةِ ما بأَيديكم ، ونحن تطيبُ أَنفُسُنا أن نصالحكم ، على أَن نَفْرِض لكلِّ رجلٍ منكم دِينارَيْن ، ولأَميركم مائةَ دينار ، ولخليفتِكُمْ أَلف دينار ، تقبضُونَها وتنصرفون إلى بلادكم ، قبل أَن يغشَاكُمْ ما لا قِوام لكمْ به .

فقال عُبادة : يا هذا ، لا تَغُرَّنَّ نفسَكَ ولا أَصحابَك ، أَمَّا ما تخوِّفُنَا به مِنْ جَمْع الرُّومِ وعددِهم وكثْرتِهم ، وأَنَّا لا نَقْوى عليهم ؛ فلَعمْرِى ماهذا بالذى تخوِّفنا به ؛ ولا بالَّذِى يَكْسرنا عمَّا نحن

فيه ؛ إنْ كان ما قلْتُمْ حقا ؛ فذلك والله أرغَبُ ما يكون فى قِتالهم ، وأشدُّ تحريضًا عليهم ؛ لأنّ ذلك أعذَرُ لنا عند ربِّنا إذا قَدِمْنَا عليه ؛ إن قُتِلْنَا عن آخرِنا كان أمكَنَ لنا فى رِضوانِهِ وجَنَّتِهِ ، وما من شىء أقرَّلأعيُنِنا ولا أحبَّ إلينا من ذلك ، وإنَّا منكم حينئذٍ لعَلَى إحدى الْحُسْنَيَيْن :

إمَّا أن تَعْظُم لنا بذلك غنيمة الدنيا إنْ ظَفِرنا بكم ، أو غنيمةُ الآخرةِ إن ظَفِرتُم بنا ؛ وإنَّها لأَحَبُّ الخَصْلتيْنِ إليْنَا بعد الاجتهادِ مِنَّا ، وإنَّ الله عزَّ وجلّ قال لنا فى كتابِهِ : (كَمْ مِنْ فِئةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فِئةً كثيرةً بإذن اللهِ واللهُ مع الصَّابِرِين) (١) .

وما منَّا رجلٌ إلاَّ وهو يدعو ربَّه صَباحًا ومساءً أنْ يرزقه الله الشَّهادةَ وألاَّ يَرُدَّهُ إلى بلدِهِ ، ولا إلى أرْضِه ، ولا إلى أهلِه وولدِهِ ، ولَيْسَ لأحدٍ منَّا هَمٌّ فيما خلَّفَه ، وقد استودَعَ كلٌّ مِنَّا ربَّه أهلَه وولَده ؛ وإنَّما همُّنا ما أمامَنا .

وأمّاقولُكَ : إنَّا فى ضِيقٍ وشِدَّةٍ من معاشِنَا وحالِنَا ، فنحن فى أوسَع السَّعةِ ؛ لو كانتْ الدُّنيا كلُّها لنا ما أردْنَا منها لأنْفُسِنَا أكثرَ ممَّا نحن عليه ، فانظرْ الَّذي تُريد فبيِّنه لنا ؛ فليس بيننا وبينكم خَصلةٌ نَقبَلها منك ولا نجيبكَ إليها إلاَّ خَصلة من ثلاثٍ ، فاخترْ أيَّها شئتَ : ولا تُطمِع نفسَك بالباطل ؛ بذلك أمَرنى أميرى ، وبها أمرَهُ أميرُ المؤمنين ، وهو عهدُ رسولِ الله صلى اللهعليه وسلَّم مِنْ قَبلُ إليْنَا .

إمّا أجَبْتم إلى الإسلام الَّذى هو الدِّينُ الَّذي لا يَقبلُ اللهُ تعالى

(١) سورة البقرة ٢٤٩ .

غيرَهُ ، وهو دِينُ أنبيائه ورُسُله وملائكتِهِ . أمرَنا اللهُ أن نقاتِلَ مَنْ مَنْ خالفَه ورَغِبَ عنه ؛ حتى يَدخُلَ فيه ، فإن فعل فإنّ له مالَنا ، وعليه ما عَلَيْنَا ، وكان أخانا فى دِين اللهِ . فإنْ قبلْتَ ذلك أنتَ وأصحابُكَ فقد سعدتُمْ فى الدنيا والآخرةِ ، ورجَعْنَا عن قتالِكم ، ولم نستحِلَّ أذاكُمْ ، ولا التَّعرضَ لكم ، وإن أَبَيْتُمْ إلاَّ الْجِزْيَةَ ، فأدُّوا إلينا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغِرون ، نُعامِلكم على شىءٍ نَرضَى به نحن وأنتُم فى كلِّ عام أبدا ، ما بقينا وبقيتم ، ونقاتلُ من ناوَأكم وعَرَض لكم فى شىءٍ من أرضِكم وبلادِكم وأموالِكم ، ونقومُ بذلك إن كنتم فى ذِمّتنا ، وكان لكم به عهدُ اللهِ إليْنَا ، وإن أَبَيْتُمْ فليس بيننا وبينكم إلاَّ المحاكَمة بالسَّيف حتى نَموتَ عن آخِرِنا ، أو نصيبَ ما نريدُ منكم ، هذا دِينُنا الَّذى نَدينُ اللهَ تعالى به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيرُه ، فانظروا لأنفسكم .

فقال له المقوقِسُ : هذا مالا يكون أبدًا ؛ ما تُرِيدُونَ إلاَّ أنْ تتَّخِذُونَا خَوَلاً أو نكونَ لكم عبيدًا ما كانت الدّنيا .

فقال عُبادةَ : هو ذاك : فاختَرْ ما شئتَ . قال : أفلا تجيبوننا إلى خَصْلةٍ غير هذِه الخِصالِ ؟ فرفع عُبادةُ يديه فقال : لا وربِّ هذه السَّماءِ ، وربِّ هذه الأرضِ ، وربِّنا وربِّ كلِّ شىءٍ : مالكم عندنا خصلةٌ غيرها ، فاختاروا لأنفسكم .

فالتفتَ المقوقِسُ عند ذلك إلى أصحابِه فقال : قد فرغَ القومُ ، فما تُريدون ؟ فقالوا : أو يَرْضَى أحدٌ بهذا الذُّلِّ ! أمَّا ما أرادوا من

دخولنا فى دِينهم فهذا مالايكون أبدًا ؛ أنْ نتركَ دينَ المسيح بنِ مريم ، وندخلَ فى دينِ غيرِهِ ولا نعرفه. وأمّا ما أرادوا مِنْ أن يَسْبُونا ويَجعلونا عبيدًا أبدًا ، فالموْتُ أيسَرُ مِنْ ذلك ، لو رضُوا مِنَّا أن نُضْعِف لهم ما أعطيْناهم مِرارًا كان أهْوَنَ علَيْنَا .

فقال المقوقِسُ لعُبادة : قد أبَى القومُ ، فما تَرَى ؟ فراجعْ صاحِبَكَ على أنْ نعطيَكُمْ فى مرَّتكم هذه ما تمنَّيْتُمْ وتَنصرِفون .

فقام عُبَادةُ وأصحابُه ، فقال المقوقِسُ لمن حوله : أَطِيعُونِى وأَجِيبُوا القومَ إلى خَصْلةٍ من هذه الثَّلاثِ ، فوالله ما لكم بهم طاقةٌ ، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبُنَّهم إلى ما هو أعظمُ كارِهين .

قالوا : وأىَّ خَصْلةٍ تجيبهم إليها ؟ قال : إذًا أُخبِركم ؛ أمّا دخولكم فى غيرِ دينكم فلا آمُرُكُم به ، وأمّا قتالُهم فأنا أعلَم أنَّكم لن تَقْوَوْا عليهم ، ولن تَصبِرُوا صَبْرَهم ، ولابُدَّ من الثَّالثةِ . قالوا : أفنكون لهم عبيدًا أبدًا ! قال : نعم ، تكونون عبيدًا مسلَّطين فى بلادكم ، آمنين على أنفسكم ، وأموالِكم وذَراريِّكم ، خيرٌ لكم من أن تَموتُوا عن آخركم ، وتكونوا عبيدًا تُباعون وتُمزَّقون فى البلاد ، مستعبَدِين أبدًا فى البلاد . أنتمُ وأَهْلُوكم وذراريُّكُم .

قالوا : فالموتُ أهوَنُ علينا . فأَمَروا بقَطْع الجِسْربين الفُسْطاط والجيزةِ ، وبالقَصْر من القِبط والرُّوم جمعٌ كثيرٌ ، فألَحّ عليهم المسلمون عند ذلك بالقِتال ؛ حتى ظَفروا بمن فى القَصْر ، فقَتَلوا منهم خلقًا كثيرًا ، وأَسَروا مَنْ أَسَروا ، وانحازَتْ السُّفُن كلُّها إلى الجَزيرةِ .

هذا والمسلمون قد أحدق بهم الماءُ من كلِّ وجهٍ ، لايَقْدِرون على أن

يتقدَّموا نحوَ الصَّعيد ولا غيرِه من المَدائن والقُرَى ، والمُقَوْقِس يقول لأصحابه : أَلَم أُعلِمْكم هذا وأخافهُ عليكم ؟ ما تَنتَظرون ؟ فواللهِ لَنُجَيبنَّهم إلى ما أرادوا طوعًا ، أولنجيبنَّهم إلى ماهو أعظمُ مِنه كَرْها ، فأَطيعونى من قبلِ أنْ تَندَموا ؛ فعند ذلك أذعَنوا إلى الجِزية ، ورَضُوا بها على صُلْحٍ يكون بينهم يَعرِفونه .

فأرسل المقوقِسُ إلى عمرو يقولُ له : إنِّى لم أزَلْ حَرِيصًا على إجابتك إلى خَصْلةٍ من تلك الخِصالِ التى أرسلْتَ إلىَّ بها ، فأَبى ذلك علىَّ مَنْ حَضَرَنى من الرُّوم والقِبْط ، فلم يكن لى أن أفتَاتَ عليهم فى أموالهم ، وقد عَرَفوا نُصْحِى لهم ، وحبِّى صَلاحَهم ، ورَجَعوا إلى قَوْلى ، فَأَعْطِنِى أمانًا أجتمعُ أنا وأنت فى نفرٍ من أصحابى وأصحابِك ؛ فإن آستقام الأَمرُ بيننا تَمَّ ذلك لنا جميعًا ، وإن لم يتمَّ رجعْنا إلى ما كُنَّا عليه .

فآستشار عَمرو أصحابَه فى ذلك فقالوا : لا تُجبْهم إلى شىءٍ من الصُّلح ولا الْجِزْيةِ حتى يَفتحَ الله علينا ، وتَصيرَ كلُّها لنا فَيْئًا وغنيمةً كما صار القصرُ لنا وما فيه .

فقال عَمرو : قد علمتمْ ما عهد إلىَّ أميرُ المؤمنين فى عهده ، فإنْ أجابُوا إلى خَصْلةٍ من الخِصالِ الثَّلاثِ الَّتى عَهِدَ إلىّ فيها أجبتهم إليها ، وقبلتُ منهم مع ما قد حال هذا الماءُ بيننا وبين ما نُريدُ من قتالهم . فآجتَمَعُوا على عهدٍ بينهم ، واصطلَحوا على أن يُفْرِضَ على جميع مَنْ بمصر أعلاها وأسفلها من القبطِ دينارينْ عَنْ كلِّ نفسٍ : شريفهم

ووضِيعهم وضعيفهم ، ومَنْ بلغَ الحُلُمَ منهم ، ليس على الشَّيخ الفانى ، ولا على الصَّغير الذى لم يبلغ الحُلُم ، ولا النساء شىءٌ ، وعلى أنّ للمسلمين عليهم النُّزُل بجماعتهم حيث نزلوا ، ومَنْ نزلَ عليه ضَيفٌ واحدٌ من المسلمين ، أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثةِ أيّامٍ ، مُفْتَرَضٌ ذلك عليهم ، وأنّ لهم أرضَهم وأموالَهم لايُتَعرَّض لهم فى شىءٍ منها ، فَشُرِط هذا كلُّه على القِبْطِ خاصَّةً ، وأحْصَوْا عددَ القِبْطِ يومئذٍ خاصَّةً مَنْ بلغَ منهم الجزيةَ ، وفُرِضَ عليه الديناران ، رَفَعَ ذلك عرفاؤُهم بالأيْمان المؤكدَّةِ ، فكان جميعُ من أُحصِىَ منهم بمصر أكثر من ستَّةِ آلاف ألفِ نَفْس ، فكانت فَرِيضتهم يومئذٍ اثنَىْ عشرَ ألفِ ألف دينارٍ فى كلِّ سنةٍ .

ورُوِى عن يحيى بن مَيْمُون الحَضْرَمِىّ ، قال : بلغتْ عِدَّتُهم ثمانية آلافِ ألفٍ .

قال : وشَرطَ المُقَوْقِس للرُّومِ أن يُخَيَّروا ، فمن أَحَبَّ منهم أنْ يقيمَ على مِثلِ هذا المُقامِ أقامَ على ذلِكَ لازمًا له ، مفترَضًا عليه مِمَّن أقامَ بالإسكَنْدَرِيَّةِ ، وما حولَها من أرضِ مصرَ كلِّها ، ومَنْ أرادَ الخروجَ منها إلى أرض الرُّومَ خرجَ ، وعلى أنّ للمقوقِس الخيارَ فى الرُّوم خاصَّةً ، حتى يكتبَ إلى مَلِك الرّومِ يُعلِمه ما فعل ، فإن قبل ذلك ورضيَه جاز عليهم ، وإلا كانوا جميعا عليه ، وكتبوا به كتابا ، وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتابا يُعَلِمُهُ بالأمرِ كلِّه . فكَتَب إليه يقبِّح رأيَه ويعجِّزه ويردّ عليه ما فَعَلَ ، وأَمَرَهُ بقتالِ

المسلمين بالرُّومِ إنْ أبَى القِبْطُ القتال ، وكتبَ إلى جماعةِ الرُّوم بِمثل ذلك .

فجمَعَ المقوقِسُ الرُّومَ وقال : اعلمُوا يا معشر الرُّومِ أنِّى والله لا أخرجُ ممّا دخلتُ فيه ، بعد أنْ ذَكَر لهم شجاعةَ العَرَبِ وصبْرَهم وجلَدَهم وحُبَّهم الموْت وغيرَ ذلك مِنْ حالهم ، ثم قال : واللهِ إنِّى لأعلم أنَّكُمْ ستَرجِعُونَ غدًا إلى قَولى ورأْيى ، وتتمنَّوْنَ أن لو كنتم أطعْتُمُونى ؛ وذلك أنِّى قد عاينتُ ورأيتُ ، وعرفتُ ما لم يُعَايِن المَلِكُ ، ولمْ يَرَهُ ولم يَعْرِفْهُ . أمَا يَرضَى أحدُكم أن يكون آمِنًا فى دَهْرِه على نفسِه ومالِه وولدِه بدينارَيْنِ فى السّنة !

ثم أقبَلَ المقوقِسُ على عَمرِو بنِ العاصِ فقال له : إنَّ المَلِكَ قد كَرِه ما فعلْتُ ، وعجزَّنى ، وكتب إلىّ وإلى جماعة الرُّومَ ألاَّ نرضَى بمصالَحتكَ ، وأمَرَهُمْ بقتالِك حتى يَظفروا بك ، أو تَظفرَ بهم ؛ ولم أكُنْ أخرُجُ ممّا دخلتُ فيه ؛ وعاقدْتُكَ عليه ؛ وإنّما سُلطانى على نفسى ومن أطاعنى ؛ فقد تمَّ صُلح القِبْطِ فيما بينَك وبينهم ؛ ولم يأْتِ من قِبَلهم نقضٌ .

وأمَّا الرُّومَ فأنا منهم بريءٌ ، وأنا أطلبُ إليكَ أنْ تُعطِيَنِي ثلاثَ خِصَالٍ ، قال عمرو : وما هى ؟ قال :

لا تنقض بالقِبْط ، وأدخِلْنى معهم ، وأَلْزِمْنِى ما ألزَمْتَهم ، وقد اجتمعتْ كلمَتِى وكَلمَتُهُمْ على ما عاهدتُكَ عليه ، فهم مقيمون لك على ما تُحِبُّ .

وأما الثانية ، فإن سألَكَ الرّومُ بعد اليومِ أن تصالحَهُمْ

فلا تصالِحْهُمْ حتَّى تجعلَهم فَيْئًا وعبيدًا ؛ فإنَّهم أهلُ ذلك ؛ فإنِّى نصحتُهُمْ فاسْتَغْشُونِى (١) .

وأمَّا الثَّالثةُ : فأَطلبُ إليكَ إنْ أنا مِتُّ أن تأْمرهم(٢) يدفنونى فى أبى يُحَنَّس بالإسكندَرِيَّة .

فأجابه عَمرو إلى ما طَلب على أن يقيمُوا له الجِسْرَيْن جميعًا ، والجسُورَ ما بين الفُسْطَاط إلى الإسكندْريّة ، ويقيموا لهم الأَنْزالَ والضِّيافةَ والأَسواق ، ففعلوا ذلك ، وسارت القِبْط أعوانًا للمسلمين على الرُّوم .

(١) ابن عبد الحكم ٧٣ : « فاستغشوا نصحى » .
(٢) ص : « إن تأمرهم يدفنى » .

ذكر مسير عمرو لقتال الروم وما كان من الحروب بينهم

إلى أن فتحت الإسكندرية

قال(١) : واستَعدّتْ الرُّومُ وآستَجاشتْ ، وقدمتْ عليهمْ مَراكبُ كثيرةٌ من أرضِ الرُّومِ ، فيها جمعٌ من الرُّومِ عظيمٌ بِالعُدَّة والسِّلاح ، فخرج إليهم عمرُو بنُ العاص ، ومَن معه ، وذلك حين أمكَنه الخروجُ ، وخرجَ معه جماعةٌ من روَساء القِبْطِ وقد أصلَحوا لهم الطُّرُقَ ، وأقامُوا الجسُورَ والأسواقَ ، وخرجَ عَمرو فلم يَلقَ من الرومِ أحدًا حتَّى بلغ تَرْنوط ، فلِقيَ بها طائفةً منَ الرُّومِ ، فقاتلوه قتالا خفيفًا ، فهزَمَهم ، ومضى بمَنَ معه حتى لقيَ جمع الرُّومِ بكوم شَرِيك ، فاقْتَتلوا به ثلاثةَ أيَّامٍ ، ثم فتح اللهُ على المسلمين ، وانهزم الرُّوم .

وقيل : بل لمّا انهزموا مِنْ تَرْنوط ، بعثَ عمرُو بنُ العاصِ شَرِيك ابن سُمَيّ فى آثارِهم ، وكان على مقدّمة عمرو . فأدرَكَهم شَرِيك عند الكوْم (٢) ، فقاتَلَهم ، فمن النَّاسِ من يقول : إنَّه هزَمَهم ، ومنهم من يقول : إنَّه قاتَلَهم إلى الكَوْم ، فاعْتَصَم به ، وأحاطتْ به الرُّوم ، فأمر شَريكٌ أبا ناعمة مالِكَ بن ناعمةَ الصَّدَفى ، وهو صاحب الْفَرَسِ الأَشْقَر الذى يقال له : أشقر صَدِف ، وكان لا يُجارَى ، فانحطَّ عليهم من الكوم ، وطلبتْه الرُّومُ فلم تدرِكْهُ ، فأتى عَمرًا

---

(١) ابن عبد الحكم ٧٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : « عند الكوم الذى يقال له كوم شريك » .

فأخبَرَه ، فأقبل عمرو نحوَ الروم فانهزموا ، وبالفَرَس الأشقر (١) هذا سُمِّيَتْ خَوخةُ الأشقر الَّتى بمصر ؛ وذلك أنَّه نَفَقَ (٢) فدفَنَه صاحبُه هناك ، فسُمِّىَ المكان به .

قال : ثمّ ٱلتَقَى عَمرو والرُّوم لسُلَيْطِس ، فاقْتَتلوا بها قتالاً شديدًا ، ثم هزَمَهم الله (٣) . ثم التَقَوْا بالكِرْيَوْن فاقْتَتلوا هناك بِضعةَ عشرَ يَومًا ، وكان ابنهُ عبدُ الله بنُ عمرو على المقدِّمة ، ففشتْ فيه الجِراحة وصَلَّى عَمرو بالنَّاسِ صلاةَ الخَوفِ ، بكلِّ طائفةٍ ركعةً وسجدتين . ثم فتحَ اللهُ على المسلمين ، وقتلُوا من الرُّومِ مَقتلةً عظيمةً ، واتَّبعوهم حتَّى بلغوا الإسكندريةَ فتحصَّنَ بها الرّوم ، وكانت عليهم حصون مَنيعةٌ ، حِصْنٌ دونَ حصنٍ ، فنزل المسلمون ما بين حُلْوَةَ إلى قَصْرِ فارس ، إلى ما وراء ذلك ، ومعهم رؤساءُ القِبْطِ ، يَمُدُّونهم بما احتاجوا من الأطعمةِ والأعلاف .

هذا ورسلُ مَلِك الرُّومِ تختلِفُ إلى الإسكندرية فى المراكب ، والأمداد تأتيهم من قِبَله ، وكان يقول : لئن ظهرَتِ العربُ على الإسكندريَّةِ كان ذلك انقطاعُ مُلْكِ الرُّومِ وهلاكُهم ؛ لأنَّه ليس للرُّومِ كنائس أعظمُ منْ كنائِس الإسكندريّة ، ونجهّز المَلِك ليباشرَ القِتالَ بنفسه ، وأمر ألاَّ يتخلَّفَ عليه أحدٌ مِنَ الرُّومِ . وقال : ما بقاءُ

---

(١) ابن عبد الحكم : « الفرس الأشقر الذى يقال له : « أشقر صدف وكان لا يجارى سرعة » .

(٢) نفق ، أى هلك .

(٣) بعدها فى ابن عبد الحكم : « وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة ، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو » .

الرّوم بعدَ الإسكندريةِ ! فلمّا فرغَ من جَهازِه أهلَكَه اللهُ فماتَ ، وكَفَى اللهُ المسلمين مؤنَتَه .

وكان موتُه فى سنة تسعَ عشرةَ ، فكسرَ اللهُ بموتِهِ شوْكةَ الرُّوم ، ورجعَ جمعٌ كبيرٌ مِمّن كان توجّه لإعانة أهلِ الإسكندرية ، فاستُأسَدَتِ العَرَب عند ذلك ، وألحَّتْ بالقتالِ ، فقاتلوا قتالاً شديدًا ، فبرز رجلٌ من الروم ، وبَرَزَ له مَسلَمة بن مَخَلد، فصَرَعه الرُّومىّ وألقاه عن فَرَسه ، وأهوَى إليه ليقتُلَه حتَّى حَماه رجلٌ من أصحابِه ، وكان مسلمةُ لايُقام له ؛ ولكن غلبتْهُ المقاديرُ ، فشقَّ ذلك على المسلمين .

وكان مسلمةُ ثقيل البدن ، كثير اللَّحم ، فاشتدّ غضبُ عمرو ، وقال : ما بالُ الرَّجلِ المَسَتّه الَّذى يُشبِه النِّساء يتعرّض إلى مَداخِل الرجال ويتشبَّه بهم ! فغَضِب مَسلمةُ من ذلك ولَم يراجعْه ، ثم اشتدَّ القتالُ حتَّى اقتحم المسلمون حِصْنَ الإسْكندريَة ، وقاتلوا فيه ، ثم جالَتْ الرُّوم حتَّى أخرجوهم جميعًا من الحِصن ، إلاَّ أربعةً ، منهم عمرُو ابنُ العاص ، ومَسلمةُ بنُ مَخْلَد ، فأغلَقوا الحِصْنَ عليهم ، والتجئوا إلى ديماس (١) من حمَّامات الروم ، فأنزل الرُّومَ رُوميًّا يتكلَّمُ بالعربيّة ، فقال لهم : إنَّكم قد سِرْتمُ أُسارَى فى أيدينا ، فاستأْسِرُوا ولا تقتلوا أنفسَكُمْ .

ثم قال لهم : إنَّ فى أيدى أصحابكم منَّا رجالاً أسَرُوهم ، ونحن نعطيكم العهودَ ونفادى بكم أصحابنا ، ولا نَقْتلكم ، فأبَوْا عليهم .

---

(١) الديماس : الحمام .

ثم قال لهم الرّومى : فهل لكم إلى خَصلةٍ وهى نَصَفٌ فيما بَيْنَنَا وبينكُمْ ، أن تُعطونا العهدَ ونعطيكُمْ مِثلَه ؛ على أن يَبرُز منّا رجلٌ، ومنكم رجلٌ ، فإنْ غلب صاحبُنَا صاحبَكم استأْسَرْتم لنا ، وأمكنتُمُونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبُكُمْ صاحِبَنَا خَلَّيْنا سبيلَكُمْ . فرضُوا بذلك وتعاهدوا عليه .

فبرَز رجلٌ من الرُّومِ وقد وثقِت الرُّومُ بنَجْدَتِهِ و شدَّته ، فأراد عَمرو أن يَبْرُزَ فمنعه مَسلَمة وقال : أنا أكفيكَ إنْ شاء اللهُ . فقال عمرو : دُونَك ؛ فربَّمَا فرّجها الله بك. فبرز مَسلمةُ للرُّومِى فَتَجَاوَلا ساعةً ، ثم أعان اللهُ مَسْلَمَة فقتله ، وكبَّرَ وكبَّر أصحابُه ، ووَفَى لهم الرُّومُ بما عاهَدوهم عليه ، فَفَتَحُوا لهم بابَ الحِصْن ، فخرجوا ، والرُّومُ لا يَدْرون أن أميرَ القومِ فيهم ، ثم بلغهم ذلك ، فأَسِفوا على ما فاتهم منه ، ونَدِمَ عَمرو وٱستَحَيا من مقالتِهِ لمَسلَمة ما قال ، فاستغفر له عمرو .

قال[1] : ولمّا أبطَأَ الفتحُ على عمر ، كتب إلى عمرو :

أمَّا بعدُ ، فقد عجبتُ لإبطائكم عن فتحِ مصرَ ، وأنكم تقاتلونهم منذُ سنتين ؛ وما ذاك إلاَّ لما أخَذْتُمْ[2] وأحْبَبْتُمْ من الدنيا ما أحبَّ عدوُّكُم ، وإنَّ الله تعالى لا يَنصرُ قومًا إلا بصدق نِيَّاتهم . وقد كنتُ وَجَّهْتُ إليك أربعةَ نَفَرٍ ، وأعلمتُكَ أنَّ الرجلَ منهم مقام ألفِ رجلٍ على ما كنتُ أعرفُ ؛ إلاَّ أنْ يكونوا غيرَّهُم ما غيَّر غيْرَهمْ ، فإذا أتاكَ كتابى هذا فاخْطُب النَّاسَ وحُضَّهم على قتالِ

(١) ابن عبد الحكم : ٧٩ .
(٢) ابن عبد الحكم : « أحدثتم » .

عدوِّهم ، ورغِّبهم فى الصَّبْرِ والنِّيَّةِ ، وقدِّم أُولئك الأربعة فى صدور النَّاسِ ، ومُرِ النَّاسِ جميعا أَن تكون لهم صَدْمةٌ كصدْمَةِ رجلٍ واحدٍ وليكُنْ ذلك عند الزَّوالِ يومَ الجمعةِ ؛ فإنَّهَا ساعةُ نزول الرَّحمةِ ، ووقت الإجابةِ ، ولْيَعِجّ النَّاسُ إلى اللهِ ويسألوه النَّصْر . ففعلوا ففتح الله عليهم .

قال (١) : ويقال : إن عَمرو بنَ العاصِ استشار مسلمَةَ بنَ مخلد فى قتال الرّوم ، فقال له مسلمةُ : أرى أن تَنظرَ إلى رجلٍ له معرفةٌ وتجاربُ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فتَعقِدله على النَّاسِ ، فيكون هو الَّذِى يُبَاشر القتالَ ويكفيكَه . فقال عمرو : ومَنْ ذاك ؟ قال : عُبادةُ بنُ الصّامت . فدعا عمرو عُبادةَ ، فأتاه وهو راكبٌ على فرسه ، فلمَّا دنا منه أراد النُّزول ، فعزَمَ عَمرو عليه ألاَّ يَفْعَلَ ، وقال : ناوِلْنِى سِنانَ رُمْحكَ ، فناوَلَه عُبادةُ إيّاه ، فنزع عَمرو عمامَتَهُ عن رأْسِهِ وعَقَد له ووَلاَّه قِتالَ الرُّومَ .

فتقدَّمَ عُبادةُ فصافَّ(٢) الرّومَ وقاتَلَهُمْ ، ففتح الله على يدَيْهِ الإسْكَنْدَرِيّة من يومِهِ ذلك . وكان حصارُهم الإسكندرية أربعَةَ عشر شهرًا ، خمسة أشهر فى حياة هِرَقْلَ ، وتسعةَ أشهرٍ بعد موته ، وفُتِحَتْ يومَ الجمعةِ مستهلَّ المحرَّم ، سنةَ عشرين ، وقُتِلَ من المسلمين على الإسكندرية فى طول هذه المدة اثنان وعشرون رجلا .

---

(١) ابن عبد الحكم ٧٩ .

(٢) كذا فى ابن عبد الحكم ، وفى الأصول : « فصادف » .

ذكر الفتح الثانى وما وجد بالاسكندرية

وعدة من ضربت عليه الجزية

قال : : ولمَّا (١) فُتِحَت ، الإسكندريّة هربَ الرّومُ منها فى البرِّ والبحرِ ، فخلَّف عَمرو من أصحابه بها ألفَ رجلٍ ، ومضى فى طلبِ من انهزم من الروم فى البر ، فرجع من كان هرب منهم فى البحر إلى الإسكَنْدَرية ، فقَتَلُوا من كان بها من المسلمينَ إلاَّ من هَرَبَ منهم ، وبلغ ذلك عَمْرًا ، فكَرَّ راجعاً إليها ، فأتاه رجل يقال له ابن بَسَّامة ، كان بوابًا بالإسكندريّة ، فسأل عَمْرا أن يؤمّنه على نفسه وأرضِهِ وأهلِ بيتِهِ ويفتَح له البابَ ، فأجابه عَمرو إلى ذلك ، ففتحَ له ابن بَسَّامةَ ، فدخل عمرو ، وكان مَدْخله من ناحية القَنْطرة التى يقال لها قنطرةُ سُليمان ، وكان مدخله الأوَّل من باب المدينَةِ الذى من ناحية كنيسة الذَّهَب ، ووَفَى عَمرو لابن بَسَّامة (٢) .

وبعث عمرو إلى عمرَ بنِ الخطَّاب معاويةَ بنَ حُدَيج بشيرًا بالفتح ، فقال معاويةُ : ألا تكتب معى كتابًا ؟ فقال عمرو : وما أصنع بالكتابِ ! ألستَ رجلاً عربيًا تُبلِّغُ الرسالة ، وما رأيتَ وحضرتَ ! فَقَدِمَ عَلَى عمر فأخبره (٣) الخبر ، فخرَّ ساجِدًا ، وجمع النَّاسَ وأخبَرَهُمْ ، ثمَّ كَتب عَمرو بعد ذلك إلى عُمَر :

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) بعدها فى ابن عبد الحكم : « وقد بقى لابن بسامة عقب بالإسكندرية إلى اليوم » .

(٣) ابن عبد الحكم : « فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية » .

أمّا بعدُ ، فإنّى قد فتحتُ مدينةً لا أصفُ ما فيها ؛ غير أنّى أصبْتُ فيها أربعةَ آلافِ بنية (١) ، بأربعة آلافِ حمّام ، وأربعين ألف يهودىٍّ عليهم الْجِزية ، وأربعمائة مَلْهًى للمُلوك .

قال ابن عبد الحَكَم (٢) : لمّا فَتَحَ عَمرو الإسكندريّة وجد فيها اثنى عشرَ ألف بَقّالٍ يَبِيعونَ البقلَ الأخضرَ .

قال : ورحلَ(٣) منها فى اللّيلة التى دَخلَ فيها عمرُو بنُ العاصِ ، أو فى اللّيْلَةِ التى خافُوا فيها دَخُوله سبعونَ ألفَ يهودىٍّ .

قال : وقال حسين بن شُفىّ بن عبيد : كان بالإسكندرية فيما أُحْصِىَ من الحمّاماتِ اثنا عشر ديماسًا ، أصغرُ ديماس منها يسعُ ألفَ مجلسٍ ، كلُّ مجلسٍ منها يَسَع جماعة نفرٍ . وكان عدّةُ مَنْ بالإسكندريّة من الرّومِ مائتى ألف من الرِّجال ، فلحق بأرض الرُّومِ أهلُ القوّةِ ، ورَكِبوا السُّفُن ، وكان بها مائةُ مَرْكَبٍ مِنَ المراكبِ الكبار ، فَحُمِل فيها ثلاثون ألفًا مع ما قَدَروا عليه من المال والمتاع والأهلِ ، وبقىَ مَنْ بقىَ من الأُسارى مِمّن بلغ الخَراج ، فأُحصِىَ يومئذٍ ستّمائة ألفٍ سوى النساء والصِّبيان ، فاختلفَ النّاسُ على عمروٍ فى قَسْمِهِمْ ، وكانَ أكثرُ النّاسِ يريدون قَسْمَها .

فكتبَ عمرُو إلى عمرَ يَستأْذِنه فى ذلك ، فكتَب إليه عمرُ : لا تَقْسِمها ، وذَرْهم يكون خَراجُهم فَيْئًا للمسلمين وقوّةً لهم على جهادِ عدوِّهم ، فأقرّها عَمرو ، وكانت مصرُ كُلُّها صُلْحًا بفريضة دينارَيْن

(١) ابن عبد الحكم : « منية » تحريف .
(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٨٢ .
(٣) ابن عبد الحكم : « ترحل » .

دِينَارَيْن على كلِّ رجلٍ لا يُزاد على أحدٍ مِنهم فى جزيةِ رأْسهِ أكثر من ذلك ؛ إلاَّ أنَّه يُلْزَمُ بقدر ما يتوسَّعُ فيه من الأَرضِ والزَّرع ، إلا الإسكندريّة ، فإنَّهُمْ كانوا يؤدُّون الجِزيةَ والخَراجَ على قدر ما يُرَى من وليّهم ؛ لأَنَّ الإسكندريَةَ فُتِحَتْ عَنْوَةً مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ ولا عَقْدٍ ، ولم يكن لهم صُلْحٌ ولا ذِمّةٌ .

قال : وكانت قُرًى مِنْ مِصْرَ قاتلت المسلمين ، وظاهَرُوا الرُّومَ عليهم ، وهى : بَلْهِيب ، وقرية الخيسُ ، وسُلْطَيْس ، وقَرْسَطا ، وسَخا . فَسُبُوا ، فوقعَتْ سَبَايَاهُمْ بالمدينةِ ، فردَّهم عمرُ بنُ الخطَّابِ إلى قُراهم ، وصَيَّرهُمْ وجماعةَ القِبْطِ ذِمَّةً ، وكتب بردِّهم .

وقيل : إنَّما كتب عمر فى أهل سُلْطَيْس خاصّةً يقول : من كان منهم فى أيديكم ، فخيّروه بين الإسلام ، فإن أسلم فهو من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وان اختار دينَه فخلُّوا بينه وبين قَرْيته ، وأن تُجْعَلُ القُرى الَّتى ظاهرتْ مع الإسْكَندُريّة ذِمَّةً للمسلمين ، يَضرِبون عليها الخَراج .

ذكر من قال ان مصر فتحت عنوة

قال[١] : وقد ذَهب آخَرون إلى أنّ مصرَ فُتحتْ عَنْوةً بغير عَهْدٍ ولا عَقْدٍ .

رُوِىَ عن سُفيانَ بنَ وَهْبَ الخَوْلانيّ ، قال : لمّا فتحْنَا مصرَ بغير عَهْدٍ قام الزُّبيرُ بنُ العوّام ، فقال : اقْسِمها يا عَمرو ، فقال عَمرو : والله لا أَقْسِمُهَا حتى أكتبَ إلى أمير المؤمنين . فكَتَب إلى عُمَر ، فأَجابه أن أَقِرَّها حتَّى يَغْزُوَ منها حَبّلُ الحَبَلة .

وقيل : إنَّ الزُّبَيْر صُولحَ على شيءٍ أُرْضِيَ به .

وَرَوَى ابنُ لهِيعةَ بسَنده إلى عَمرِو بنِ العاصِ أَنَّه قال : لقد قعدتُ مَقْعدِى هذا وما لأَحدٍ من قِبْط مصرَ علىَّ عهدٌ ، إنْ شئتُ قتلتُ ، وإنْ شئتُ خمَّستُ ، وإن شئتُ بعْتُ إلاَّ أهل أنطابُلُس ؛ فإنَّ لهم عهدًا نُوفِى لهمْ به .

وعن ربيعةَ بن أبى عبدِ الرّحمن أن عَمرو بن العاص فتحَ مِصرَ بغير عهدٍ ولاعَقْدٍ ،وأنّ عمرَ بنَ الخطابِ حَبَسَ درَّها وضَرْعَهَا[٢] ؛أنْ يخرجَ منه شيءٌ نظرًا للإسلام وأهلِهِ .

وعن عُروة بنِ الزُّبير : أَنَّ مصرَ فُتِحَتْ عَنْوَةً .

وعن عبدِ المَلِك بنِ جُنادةَ قال : كتب حَيّانَ بنُ شُرَيْح – وكان من أهل مصرَ من موالى قريش – إلى عمرَ بنِ عبد العزيز يسأله أن يجعلَ

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٨٨ وما بعدها .
(٢) ابن عبد الحكم : « «وصرها » .

جزية مَوْتَى القِبْطِ على أَحْيَائِهِمْ . فسأل عمر عِراكَ بنَ مالك ، فقال عِراك : ماسمعتُ لهم بعْهدٍ ولا عَقْدٍ(١) .

فكَتَب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى حيّان ، أن يَجْعَلَ جِزْيةَ مَوتَى القِبْطِ على أحيائهم .

وعن عبد الله بن بُكَيْر قال : خرج أبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمن يريدُ الإسكندرية فى سَفينةٍ ، فاحتاجَ إلى رجل يُجذِّف به ، فسخَّر رجلاً من القِبْطِ ، فكُلِّمَ فى ذلك فقال : إنَّهم بمنزِلة العَبيد إن احتجتُ إليهم .

وعن ابن شهاب أنه قال : كان فتحُ مصر ، بعضُها بِعهْدٍ وذمّةٍ ، وبعضها عَنْوَةً ، فجعَلَهَا عمرُ بن الخطَّابِ جميعًا ذِمَّةً ، وحَمَلهم على ذلك ، ومضى ذلك فيهم إلى اليوم .

ذكر أخبار الاسكندرية وبنائها وما اتفق فى ذلك

من الأعاجيب

لمّا رأيتُ جماعةً من المؤرِّخين اقتَصروا فى أخبار الإسكندريّة عند ذكرهمْ لفُتوحها على ما ذكرتُ أو نحوِه ، ومنهم من اختَصَرَ ذلك ، واقتصرَ على مجرَّد الفَتح ، ولم يتعرّضوا إلى ما سِواه من أخبارها ، آثرتُ أن أضمَّ إلى ما شرحْتُه من أخبار فتحِها ذِكرَ أخبار بنائِها ، وسَبَبه وما شاهَدُوه بأبنيتِها من العَجائب ، وكيفَ تُحيِّلَ على وَضْعِها حتَّى تمَّتْ ، ودفع ظلمة الضَّررِ عن سُكَّانِها لمَّا ادْلَهَمّت ، لأنّ مثل هذا الثَّغرِ العظيم الَّذى شاع فى الآفاق ذِكْرُهُ واشتَهَرَ ، وحَمِدَ

(١) بعدها فى ابن عبد الحكم : « إنما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد » .

من ٱلتجأ إليه ممَّنْ نبتْ به الْغُربةُ وعاقبةُ السَّفرِ ، وحقَّقَ بٱختياره صِدْقَ الخبَرِ عنه وتيقَّنَ الخَبَرِ ، لا يُقتصر فيه على هذه النُّبذةِ التى ذكرناها ، واللُّمعةِ الَّتى أوردْناها ؛ بل يتعيَّنُ بسطُ القولِ فيه ، وأنْ يتكلَّمَ المؤلِّفُ إذا ٱنتهى إليه بمِلء فيه . وربمّا اعترضَ علىَّ معترِضٌ لم يُطالِع مجموعَ ما ألَّفْتُ ، ولا وقفَ على جملةٍ ما صنَّفْتُ ، فيقولُ : كيف ٱقتصرَ على فتوح مصرَ على مُجرّدِهِ وهى أَصْلُ بِلاده ، وقاعِدةُ عباده ، وبَسَط القولَ فى الإسكندرية وهى على الحقيقة من مضافاتِها ، وولايةٌ من جملة وِلايَاتها ! وقد تَجول فيه خَيْلُ الٱعتراضِ ، ويعدلُ عن ٱلٱنشراح إلى الانقباض ، ويتوَّهَمُ أنَّ ذلك عن عَجْزٍ أو قِصَرٍ ، وإنْ بَسَط العُذْر فيقول : عن مَلالٍ وضَجَرٍ. وليس الأَمْر – ولله الحمدُ – كذلك ؛ لأنَّا ذكرنا أخبارَ مصرَ فى كتابنا هذا فى أربعة مواضعَ سَلَفَتْ منه ، فذكرْنا خصائصَها وما فُضِّلتْ به على غيرها فى الباب الثانى من القِسم الخامس من الفنّ الأَوّل ؛ وكلُّ ذلك فى السِّفْر الأَوّل من كتابِنَا فى خصائص البلاد ، وذكرْنا أخبارَ نيلها فى الباب السَّابع من القسم الرّابع من الفنِّ الأَوّلِ فى الأَنْهَار ، وذكرنا أخبارَ ما بها من المَبانى القديمة والآثارِ العظيمة ، فى الباب الثَّالث من القسم الخامِس من الفنِّ الأَوّل . وذكرنا أخبارَ مَنْ مَلَكَهَا من ملوكِ الأُمَم قَبل الطُّوفَانِ وبعدَه ، وما بَنَوْه بها من المُدُن ، وما أقاموه من المَنارات والأَهرام والبَرابى وغيرِ ذلك من المبانى ، وما وضعوه بها من العجائبِ والطِّلَّسْماتِ والحِكَم ، وما أثارُوا من المَعادن وما دبَّروه من الصَّنعةِ وما شَقُّوه وأنبطُوه من الأَنهار ، وغير ذلك من أخبارِها وعجائبها ، وذلك فى الباب الثانى

من القسمِ الرَّابعِ من الفنِّ الخامسِ ، وهو فى السِّفرِ الثَّانى عشر ، والثالث عشر من هذا الكتاب ، فلا اعتراضَ بعدَ ذلك علىَّ ولا تقصيرَ تَنْتَسِب نسبتُه إلىَّ .

ولنأْخذ الآن فى أخبارِ الإسكندريةِ ،قال أبو الحسن علىُّ بنُ عبدِ الله [المسعودىّ] رحمه الله فى كتابه المترجَم « بِمُروجِ الذَّهَبِ » (١) .

ذَكَرَ جماعةٌ مِنْ أهلِ العلم أنَّ الإسكندر المَقْدُونىَّ لمّا استقامَ مُلكُه فى بلاده ، سار يختارُ أرضًا صحيحةَ الهواءِ ، والتُّرْبةِ والماء ، فانتهى إلى موضعِ الإسكندريةِ ، فأصاب فى موضعها آثارَ بُنْيَان وعُمُدا كثيرةً من الرُّخام ، وفى وَسَطها عَمودٌ عظيمٌ مكتوبٌ عليه بالقَلَم المسنَدِ وهو القلمُ الأوّلُ من أقلامِ حِمْيَرَ ومُلوكِ عادٍ : « أنا شَدّادُ بنُ عادٍ ، شَدَدْتُ بساعدَىّ البلاد ، وقطعتُ عظيمَ العِمادِ ، من الجِبال والأطوادِ ، وأنا بنَيْتُ إرَمَ ذات العِمادِ ، الَّتى لَمْ يُبْنَ مِثلُها فى البلاد ، وأردت أن أبنىَ هاهنا كإرَم ، وأنقُلَ إليها كلّ ذى قدَمٍ وكَرَمٍ (٢) ، من جميع العشائرُ والأُمَمَ ، [وذلك إذ لا خوف ولا هرم ، ولا اهتمام ولا سقم] (٣) ، فأصابنى ما أعجَلَنى ، وعمَّا أردْتُ إليه قطعنى مَعَ وقوعِ (٤) ما أطالَ همِّى وشَجَنى ، وقَلَّ نَوْمى وسَكَنى ، فارتحلتُ بالأمسِ عن دارى ، لا لقَهْرِ مَلِكٍ جبّارٍ ، ولا خَوْفَ جَيْشٍ جرّار ، ولا عَنْ رغْبَةٍ (٥) ولا صَغارٍ ؛ ولكن لتمامِ الأقْدَار (٦) ، وانقطاع الآثار ،

(١) مروج الذهب ١ : ٣٧٠ وما بعدها .
(٢) المسعودى : « إقدام وكرم » .
(٣) من المسعودى .
(٤) فى الأصلين : « وقوعها » ، وما أثبته من المسعودى .
(٥) المسعودى : « رهبة » .
(٦) المسعودى : « المقدار » .

وسلطانِ العزيزِ الجبّارِ : فمن رَأى أثَرِى ، وعَرَفَ خَبَرِى ، وطُولَ عُمُرِى ، ونفاذَ بصرى ، وشدّةَ حَذَرِى ، فلا يغترَّ بالدُّنيا بَعْدِى » .... وكلامٌ كثيرٌ يُرِى فيهِ فَناءَ الدُّنيا ، ويَمنعُ من الاغترارِ بها ، والسّكونَ إليها ، لمَ يذكرْه المسعودىّ .

قال[1] : فنَـزَل الإسكنـدرُ مفكِّرا يتدبَّرُ هذا الكلامَ ويَعتبِر ، ثم بعثَ بحَشْر الصُّنَّاع من البلاد ، وخطّ الأَساس ، وجعل طُولَها وعَرْضها أميالاً ، وأمر بنقلِ الرّخام والمَرْمَرِ والأَحجارِ من جزيرةِ صِقلِّيَةَ ، وبلادِ إفريقيّةَ ، وأَقْرِيطيش ، وأقاصى [بحر] [2] الرُّوم[3] . وجزيرة رودس وغيرها ، فَنُقِلَتْ فى المَراكِب ، وأمرَ الصُّنَّاعَ والفَعَلة أن يَدُوروا بما رَسَم لهمْ من أَساسِ المدينة ، وعَمِلَ على كلِّ قطعةٍ من الأَرضِ خشبةً قائمةً ، وجعل من الخشبة إلى الخشبة حِبالاً مَنوطَةً بعضُها ببعضٍ ، وأوصلَ جميعَ ذلك بعمودٍ من الرّخامِ كان أمامَ مَضربِهِ . وعلَّقَ على العمودِ جَرَسًا عظيماً مُصَوِّتًا ، وأمرَ النَّاسَ والقُوَّام على الصُّنَّاعِ والبَنَّائِينَ والفَعَلةَ ، أنَّهم إذا سمعوا صوتَ ذلك الجَرَسِ أن يضعُوا أَساسَ المدينة دَفْعَةً واحدة من سائِر أَقطارها . وأَحَبَّ الإسكندرُ أن يجعلَهُ فى وقتٍ يختاره ، وطالعِ سَعْدٍ[4] يأْخذه ، فَخَفَق الإسكندرُ يومًا برأْسه ، فأَخذتْه سِنةٌ فى حالِ ارتقابِهِ للوقتِ[5] . فجاء غرابٌ فجلس على حبل الجَرَس الكبيرِ فحرّكه ، وخرج صوتُ

(١) المصدر نفسه .
(٢) من المسعودى .
(٣) بعدها فى المسعودى : « مما يلى مصبه من بحر أقيانوس » .
(٤) المسعودى : « يختاره ذى طالع سعيد » .
(٥) المسعودى : « ارتقابه الوقت المحمود » .

الجَرَس ، وتحرَّكَت الحِبال ، وخَفَقَ ما عليْهَا من الأجراس الصِّغار ، وكان قد عُمِلَ ذلك بحركات فَلْسَفِيَّة .

فلمّا سمع الصُّنَّاعُ حسَّ أصواتِ الجَرَس وصنعوا الأَساسَ[١] دفعةً واحدةً وارتفعَ الضَّجيجُ بالتَّحْميد والتَّقْديس ، فاستيقظَ الإسكندرُ من رَقْدتِهِ ، وسأَلَ عن الخبرِ : فأُخبرِ به ، فقال : أَردْتُ أَمرًا واللهُ أَرادَ غيرَهُ ، ويأْبى اللهُ إلاَّ ما يُريدُهُ ، أَردتَ طولَ بقائها ، وأَراد اللهُ سرعَةَ فَنائها وخَرابها ، وتَدَاوُلَ المُلوكِ إيَّاها .

قال : ولمّا [٢] أُحْكِمَ بِناؤُها ، وثُبِّت أَساسُها ، وجَنَّ اللَّيْلُ عليهم ، خرجَتْ دوابٌّ من البَحرِ أَتتْ على جميعِ ذلك البُنيان ؛ فقال الإسكندر حين أَصبحَ : هذا بَدْءُ الخَرابِ فى عُمْرانها ، وتحقُّق مراد البارى فى زوالِهَا . وتطيَّر من فِعْلِ الدَّوَابِّ ، وتكرَّرَ ذلِكَ من فعلِ الدَّوابِّ فى كلِّ يوم ، والإسكندر يوكِّل به من يحرسُهُ ، وهو يُصْبِحُ خرابًا ، فقَلِق لذلك ، وراعَه ما رأَى ، ففكَّر ما الَّذِى يَصْنع ! وأَىّ حِيلةٍ يَعمَلَ فى رفع أَذى الدَّوابِّ عن المدينة ، فسنَحَتْ له الفكرةُ ليلةً ، فلمَّا أَصبحَ أَمر الصُّنَّاعَ أَنْ يتَّخذوا تابوتًا من الخَشَب طولُه عشرة أَذرُعٍ فى عرض خمسةِ أَشْبارٍ ؛ وجعل فيه جاماتٍ من الزُّجاجِ ، وطُلِيَتْ بالقَارِ وغيرِهِ من الأَطْلِية التى تَمنَعُ الماءَ أَن يَدخل التَّابوت ، وجعلَ فيه مواضعَ للحِبالِ ، ودخل فيه ومعه رجلان من كُتَّابه ممّن له علم بإتقان التَّصْوير ، وأَمر أَنْ يستر[٣] عليه ، وعليهم باب

(١) المسعودى : «فلما رأى الصناع تحرك الحبل وسمعوا تلك الأصوات وضعوا الأساس ... »

(٢) المصدر نفسه ١ : ٣٧١ وما بعدها .

(٣) المسعودى : « أن يسد عليه الأبواب » .

التَّابُوتِ ، ويُطلَى بتلك الأَطْلِيةِ (١) ، وأَمَرَ بمَرْكَبين، فعُلِّق التَّابُوتُ بينهما وجعل فى أسفله من الخارجِ مثْقَلات الرَّصاصِ والحديدِ ، وشَدَّ حبالَه إلى المَرْكبيْن ، وأخرَجَهما إلى اللُّجَّةِ ، وسمَّر بعضَها بخشبٍ إلى بعضٍ لئلاَّ يَفترِقا ، وأَرْخَوا التَّابوتَ فى البحْرِ ، فاَستقرَّ بقرارِه ، فنظر من تلك الجاماتِ إلى دوابِّ البحرِ وحَيواناتِه ؛ فإذا بِصُورِ شياطينَ على أمثال النَّاس ، رءوسُهم كرءوس السِّباع ، وفى أيديهم الفُئُوس والمَقامع والمَناشير ، يُحاكُون بذلك صُنَّاعَ المدينةِ ، فأثبتَ الإسكندر ومن معه تلك الصُّوَر ، وأَحكَمُوها فى القراطيس على هيئاتها وأشكالِها وقُدودِها ، ثم حَرَّك الحِبَالَ ، فرفعه مَنْ بالمركب.

فلمّا خرج أَمرَ المصوِّرين بتصوير تلك الصُّوَر ، وصُنْعِها من النُّحَاسِ والحديد والحِجارة ، فعُمِلتْ تماثِيلُها ، ثم نصبها على الأَعمدة بشاطئ البحر ، وأمر بالبِناء فبُنِى ، فلمّا جَنَّ اللَّيْلُ ، وظهرتْ تلك الدَّوابُّ من البحر ، نظَرتْ إلى أَشْكَالِ صُوَرِها على العُمُدِ فرجعتْ إلى البحر ولم تَعُد ، فتمَّ بناءُ الإسكندريّة ، وشُيِّدتْ ، فأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ على أبوابها : « هذه الإسكندرية ، أردْتُ أَنْ أَبنِيَهَا على الفَلاح والنَّجاح ، واليُمْنِ والسُّرور ، والثَّبَاتِ على الدُّهُورِ (٢) ، فلم يُرِدِ البارى ملِك السَّمٰواتِ والأَرض ومُفْنِى الأُمَمِ أن أَبنِيَهَا (٣) كذلك ، فبنيتُهَا وأَحْكَمْتُهَا ، وشيَّدْتُ سُورَهَا ، وآتانى اللهُ من كُلِّ شىءٍ [عِلْمًا وحكما ، وسهّل لى وجوه الأَسباب ، فلم يتعذَّر علىّ فى العالَم شَىء] (٤) مِمّا

(١) المسعودى : « الأطلية الدافعة الماء » .
(٢) المسعودى : « فى الدهور » .
(٣) المسعودى : « نبنيها »
(٤) من المسعودى .

أَردْتُهُ ، ولا أمتَنع علىّ شىءٌ ممَّا طلبتُهُ ، لطفًا من اللهِ عزَّ وجلّ وصُنْعًالى ، وصَلاحًا لعبادهِ [١] من أهلِ عصرى ، والحمدُ لله ربّ العالمين ، لا إله إلاَّ الله هو ربُّ كلِّ شىءٍ . ورسم بعد هذه الكتابة كلَّ ما يَحدُثُ من العُمرانِ والخرابِ ، وما يؤول أمرُها إليه إلى آخِر وقْتِ دُثورِ العالَم .

وكان بناؤُها طَبقاتٍ ، وتحتَها قناطرُ مقنطَرةٌ تُدَوِّرها [٢] ، ويسير تحتها الفارسُ ، وبيَده رُمْحٌ لا يُطْبَقُ به حتَّى يدورَ جميع أبراجِها وقناطِرِهَا ، وعمل لتلك العقودِ والأَبْرَاجِ مخاريقَ للضِّياء ، ومَنافِذَ للهواء .

قال : وكانت الإسكندريَّةُ تضِيئُ باللَّيلِ من غير مِصْباحٍ لشدَّة بياضِ الرّخامِ والمَرْمَرِ ، وأسواقُهَا وأزقَّتُهَا وشوارعُهَا مقنطرةٌ بها لئلاَّ يُصيبَ أهلَها المطرُ .

قال : وكان عليها سبعةُ أسوارٍ من أحجارٍ [٣] مختلفةِ الألوانِ ، بينها خَنادقُ ، بَيْنَ كلِّ خَنْدَقٍ وسُورٍ فَصْل [٤] .

قال : وربّما عُلِّقَ فيها شِقاقُ الحرير الأَخضرِ لاختطاف بياضِ السُّورِ أبصارَ النَّاسِ لشدّةِ بياضِه ، فلمّا سكنَها أهلُها كانت آفات البحْرِ تخطفُ أهل المدينة باللَّيْلِ ، فيصبِحُون وقد فُقِدَ منهم العددُ الكثيرُ ، فأهمَّ ذلك الإسكندر ، فاتَّخَذ الطَّلَّسَماتِ على أعمِدةٍ هُنالِك ،

---

(١) المسعودى : « صلاحا لى ولعباده » .
(٢) المسعودى : « عليهادور المدينة » .
(٣) المسعودى : « من أنواع الحجارة » .
(٤) المسعودى : « فصلان » .

تدعَى المَسالَّ ، وهى باقيةٌ إلى هذا العَصْر ، فأمتنع الدّوابُّ من التَّعرُّضِ إلى أهلِها بعد ذلك ، فأَمِنوا .

وأمّا المَنارة فقد ذكرناها فى الباب الثالث من القسم الخامسِ من من الفنِّ الأوّلِ فى السفرِ الأوّل ، فلا حاجة إلى إعادة ذكرها ثانيا .

* * *

نعودُ إلى أخبار فُتوحِ مصرَ إن شاء الله تعالى :

ذكر تحول عمرو بن العاص من الاسكندرية

إلى الفسطاط واختطاطه

قال[١] ابنُ لَهيعة : إنَّ عمروَ بنَ العاصِ لمّا فَتَح الإسكندريّة ورأى بيوتَهَا وبِنَاءَهَا ، هَمَّ أن يسكُنَهَا ، وقال : مساكن قد لَقِيناها . فكتب إلى عمرَ يستأْذِنه فى ذلك ، فسأَلَ عُمرُ الرسولَ : هل يَحولُ بينى وبين المسلمين ماءٌ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ إذا جرى النِّيلُ .

فكتب عُمَرُ إلى عَمرو : إنى لا أُحِبّ أن ينزِلَ المسلمون مَنزِلا يَحُول بينى وبينهم الماء فى شتاءٍ ولا صيْف . فتَحَوَّل عَمرو من الإسكندريّة إلى الفسطَاط ؛ وإنما سمِّيت الفُسْطاط لأَنّ عَمرَو بنَ العاص لمّا توجه إلى الإسكندرية ، أمر بنَزْع فُسْطاطِهِ ، فإذا فيه يمامٌ قد فَرّخَ . فقال عمرو : لقد تَحَرَّم منّا بمُتَحَرَّم ، فأَمر بِهِ فأُقِرَّ فى موضعه ، وأَوصَى به صاحبَ القصْرِ : فلمّا قَفَلَ المسلمون من الإسكندريّة قالوا : أين ننزِلُ ؟ قالوا : الفُسْطاط - يريدون فُسْطاط عَمرو ، وكان مضروبًا فى موضعِ دار عمرو بنِ العاصِ الّتى عُمِرَتْ بعدُ - واختطَّ عمرٌو المسجدَ الجامعَ العمْرِى ، وكان ما حَوْله حدائقُ وأعناب ، فنصَبُوا الحبالَ حتى استقامتْ لهم ، ووضعُوا أَيديَهم ؛ فلم يزلْ عمرُو قائِمًا حتَّى وضعوا القِبْلةَ ، واتخذ عَمرُو فى المسجدِ مِنْبَرًا .

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٩١ وما بعدها

فكتبَ إليه عمرُ بنُ الخطَّابِ رضى الله عنه :

أمّا بعدُ ،فإنَّهُ بلغنى أنك اتَّخذْتَ منبرًا تَرْقَى به على رِقاب المسلمين ، أو ما يِحْسبِك أن تقومَ قائمًا ، والمسلمون تحتَ قدمَيْك ! فعزمتُ عليك لَما كسرتَه .

قال : واختطّ الناسُ بعد ذلك . فكَتب عَمرو إلى عُمر : إنا قد اختططْنَا لك دارًا عند المسجد الجامع .

فكتب إليه عمر : أنَّى لرجلٍ بالحجازِ تكون له دارٌ بِمصر ! وأمره أن يَجعلَها سُوقًا للمسلمين ، فَفَعَلَ ، فكان يباع بها الرَّقيق .

قال : ولمّا اختطّ المسلمون تَرَكوا بينهم وبين البحر والحِصْن فَضَاءً لتغريق دوابِّهم وإبادَتِها ، فلَم يزلَ كذلك حتَّى ولِىَ معاوية ابن أبى سفيان ، فاشترى دُورَ قومٍ منهم ، وأقْطعهم من ذلك الفَضَاء ، فسمِّيت القطائعَ ، وبناها أُولئك دُورًا لهم بدلَ دُورِهم .

قال : واختَّطتْ هَمْدان ومَنْ والاها الجيزةَ ، فكتب عمرو إلى عمرَ يعرِّفه أمرَ الخطط .

فكتب إليه عمرُ يقولُ له : كيف رضيتَ أنْ تُفَرِّقَ أصحابَك ! ولم يكن ينبغى لك أنْ تَرْضَى لأحدٍ من أصحابِكَ ، أنْ يكون بينك وبينه بحرٌ لاتَدرِى ما يَفْجَؤهم . فلعلَّك لا تقدِرُ على غياثِهِمْ حتَّى ينزل بهم ما تَكرَهَ ، فأجمعهم إليك ، فإن أَبَوْا عليك وأعجَبَهُمْ موضِعُهُمْ ، فابنِ عليهم مِنْ فَىْءِ المسلمين حِصْنًا .

فعرضَ عمرٌو ذلك عليهم ، فأَبَوْا ، وأعجبهم موضِعُهُمْ بالجزيرةِ ،

فبنى لهم عمرُو بن العاصِ الحصْنَ الَّذِى بالجيزة ، فى سنة إحدى وعشرين ، وفرغَ مِنْ بنائه فى سنةِ اثنتين وعشرين . والله سبحانه وتعالى أعلمُ وحسبُنَا اللهُ ونعم الوكيل .

ذكر خبر أصل النيل وكيف كانت عادة القبط

وإبطال عمرو تلك العادة

قال [١] ابنُ لَهِيعة : لمّا فتح عمرُو بنُ العاصِ مصرَ أتاه أهلُها حين دخل بَؤُونةَ من أشهرُ القِبْط [٢] ، فقالوا له : أيها الأميرُ ، إنَّ لِنيلنا هذا سنَّةً لا يَجرِى إلاَّ بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان لِثنتَيْ عشرةَ ليلةً تَخلُو من هذا الشّهْر ، عَمَدْنا إلى جاريةٍ بكرٍ من أبويْها فأرضَيْناهما ، وجَعَلْنَا عليها من الحُلِىِّ والثيابِ أفضلَ ما يكون ، ثم ألقيناهَا فى هذا النِّيل . فقال لهم عَمرو : إنَّ هذا لا يكون فى الإسلام ، وإنَّ الإسلام يهدمُ ما كان قَبلَه .

فأقاموا بَؤُونة وأبِيب ومسرى ، لا يجرى كثيرًا ولا قليلاً ؛ حتَّى هَمّوا بالجَلاء ، فلمّا رأى عَمرو ذلك كتب إلى عمرَ بنِ الخطابِ رضى الله عنه بذلك ، فكتب إليه : قد أصبتَ ، إنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قَبلَه ، وقد بعثْتُ إليك ببِطاقةٍ فَألقِها فى داخلِ النِّيلِ إذا أتاك كتابى . فلمّا قَدِمَ الكتابُ على عمرو فَتَحَ البِطاقَةِ ؛ فإذا فيها : من عبدِ اللهِ عمَر أميرِ المؤمنين ، إلى نِيلِ أهل مصرَ :

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) فتوح مصر : « من أشهر العجم » .

أمّا بعدُ، فإن كنتَ تَجْرِى من قبَلِكَ فلا تَجْرِ ، وإن كان اللهُ الواحدُ القهّارُ الّذِى يُجريكَ ، فنسألُ اللهَ الواحدَ القهارَ أن يُجرِيَكَ .

فألقَى عَمرو البِطاقَةَ فى النِّيلِ قبل يومِ الصَّلِيبِ بيَوْمٍ ، وقد تَهيَّأَ أهلُ مصرَ للجَلاَء ، فأصبحُوا وقد أجرَى اللهُ[1] عز وجل النيلَ ستةَ عشرَ ذراعا فى ليلةٍ ، وانقطعتْ تلك السُّنَّة السَّيِّئة عن أهلِ مِصرَ .

ذكر ما قرر فى أمر الجزية من الخراج

قال[2] : وكانت فَريضةُ مصرَ لحَفْرِ خُلْجَانها ، وإقامة جسورِها ، وعمارة قناطِرِها ، وقطع جزائرِها مائةَ ألفٍ وعشرين ألفًا ، معهم الطُّور والمَساحِى والأداة يَعتقبون ذلك لايَدَعونه[3] شِتاءً ولا صَيْفًا .

ثمّ كتبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضى الله عنه إلى عَمرٍو أنْ يُختم على رقاب أهل الذِّمَّةِ بالرَّصاصِ ، ويُظْهِرُوا مَناطِقَهُمْ ، ويَجزُّوا نَواصِيَهَم ، ويُرْكَبوا على الأكُفِ عرضًا . وألاَّ يَضرِبوا الجِزيةَ إلاَّ على من جَرَت عليه المَواسِى ، ولايَضرِبوا على النساءِ ، ولا على الْوِلْدَانِ ، ولايَدعَوهم يتشبَّهون بالمسلمين فى لَبُوسِهم .

قال : ولمّا استَوْسَق لعَمرو بنِ العاصِ الأمرُ ، وأقرَّقِبْط مصرَ على جِباية الرُّوم ، وكانت جبايتُهُمْ بالعَدْلِ : إذا عُمِرت القريةُ ، وكَثُر أهلُهَا زِيدَ عليهم ، فإذا قَلَّ أهلُهَا وخَرِبَتْ نُقِصوا . فكانوا يَجمَعون خرَاجَ كلِّ قريةٍ ومافيها من الأرضِ العامِرةِ . فيبدرون[3] فيُخرِجون من الأرض فَدادِينَ لكَنائسهم وحَمَّاماتهم . ثم يُخرَجُ منها عددٌ لِضيافةِ المسلمين ،

(١) ابن عبد الحكم : « وقد أجرى الله » .

(٢) ابن عبدالحكم ١٥١ وما بعده .

(٣) فى الأصلين : « فيبدون » . وماأثبته من فتوح مصر .

ونُزولِ السُّلطانِ ، فإذا فَرَغُوا ، نظروا إلى ما فى كُلِّ قريةٍ من الصُّنَّاع والأُجَراءِ فقسَّمُوا عليهم بقدر احتمالِهم ؛ فإن كانت فيها جالية قسَمُوا عليها بقدر احتِمالها ، وقلَّما كانت تكون إلا للرجل المُنْتَاب أو المتزوِّج ، ثم يُنظرُ ما بقىَ من الخراجِ فيقسِّمُونه بينهم على عدد الأَرضِ ، ثم يقسِّمون ذلك بين من يريد الزَّرع منهم على قَدْر طاقتِهم ، فإنْ عجز أحدُ وشكا ضَعفًا عن زرعِ أرضِهِ ، وزَّعُوا[1] ما عجز عَنْه على الاحتمالِ ، وإنْ كان منهم من يريدُ الزِّيادة ، أُعطِىَ ما عَجَزَ عنه أهلُ الضَّعفِ ؛ فإنْ تَشاحُّوا قَسَموا ذلك على عدّتهم ، وكانت قسْمَتُهم على قَرارِيطَ ، الدنيار بِأَربعة وعشرينَ قيراطًا ، يقسِّمون هذه الأَرض على ذلكِ .

قال : وكذلك رُوِى عن النَّبِىِّ صَلَّى الله عليه وسلم أنَّه قال : « إنَّكُمْ سَتفتَحون أرضًا يُذكَرُ فيها القِيراطُ ، فاسْتَوْصُوا بأَهلِها خَيْرًا » .

قال : وجَعَلَ [عَلِيهِمْ][2] لكلِّ فدّانٍ نصف إردبٍّ قمحا ، ووَيْبَتَيْن من شعيرٍ إلاَّ القُرْط فلمْ تكن عليه ضريبة ، والوَيْبَة يومئذٍ ستَّة أَمْدادٍ كأنَّه يريد بذلك البِدارَ .

قال : ورُوِى عن اللَّيْثِ بنِ سعد رحمه الله ، أنّ عَمرو بنَ العاص جَبَى مصر اثنى عشر ألف ألف دينار .

وقال غَيْرُ اللَّيْثِ : جباها المُقَوْقِس قَبْلَه بسَنة عشرين ألف ألف دينار . قال اللَّيْثُ : وجباها عبدُ الله بنُ سَعْدٍ حين استعْمَله عليها عثمانُ أربعةَ عشرَ ألف ألف دينار .

---

(١) فى الأصلين : «زرعوا» وما أثبته من ابن عبدالحكم . (٢) تكملة من ص .

فقال عثمانُ لعمرو : يا أبا عبدِ اللهِ : درَّتْ بَعدَكَ اللَّقحةُ بأكثر مِنْ دَرِّها الأوّل . فقال عمرو : أضررتُم بولَدها .

وكتبَ عمرُ إلى عُمرٍو أن يسأل المقوقِسَ عن مصرَ ، من أيّ شيء تأتى عِمارتُهَا وخرابُهَا ؟ فسأله عَمرو ، فقال : تأتى عِمارتُها وخَرابُها من وجوه خمسة ، أن يُسْتَخْرج خراجها فى إبَّانٍ واحدٍ ، عند فَراغ أهلها مِن زَرْعهم ، ويُرْفع خراجُهَا فى إبّانٍ واحد عند فراغ أهلها من عَصْر كُرومِهم ، وتُحفرَ فى كلّ سنة خُلُجُها ، وتُسَدّ تُرَعُها وجُسُورُها ، ولا يُقْبَل محلُ أهلها ، يريد البَغْى ، فإن فُعِلَ هذا فيها عَمِرت ، وإن فُعِلَ بخلاف هذا خربتْ ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

ذكر خبر المقطم

رُوِى (١) عن اللَّيْثِ بنِ سعْدٍ ، قال : سأل المقوقِسُ عَمرَو بن العاص أن يَبِيعَه سفحَ المقطَّم بسبعين ألفَ دينار ، فعَجِب عَمرو من ذلك . وقال [أكتب] (٢) فى ذلك إلى أميرِ المؤمنين ، فكَتَب بذلك إلى عمرَ ، فكتب إليه ، اسألْه لِم أعطاكَ به ما أعْطاك وهى لا تُزْرَعُ ولا يُسْتَنْبَط بها ماء ولا يُنتفَع بها ؛ فسأله ، فقال : إنَّا لنجدُ صِفتَهَا فى الكتبِ ، أنَّ فيها غِراسَ الجَنَّةِ . فكتبَ بذلك إلى عُمَرَ فكتب عمر إلى عمرو : انَّا لا نعلم غراسَ الجنَّةِ إلاَّ للمؤمنين ،

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٥٦ وما بعدها .

(٢) من ص وفتوح مصر .

(٣) فتوح مصر : « ماء » .

فأقبرْ فيها من مات قِبلَكَ من المسلمين ، ولا تبعْه بشيء ، فكان أوّل رجلٍ دُفِن فيها رجلٌ من المَعَافِر يقال له : عامر .

قالوا : والمقطَّم ما بين القُصَيْر إلى مَقْطِع الحجارةِ ، وما بعد ذلك فمِنَ اليَحْمُوم .

وقد اختُلِفَ فى القُصَير . فقال ابنُ لَهِيعة : ليس بقُصَير موسى النبيّ عليه السّلام ؛ ولكنّه موسى السّاحر .

وقال كعبُ الأحبارِ : هو قُصَير عَزيزِ مصرَ ، كان إذا جرى النيلُ يترفَّع فيه . ويقال : بل كان موقدًا يُوقَدُ فيه لفرعون إذا هو رَكب مِنْ مَنْف إلى عيْنِ شمس . وكان على المقطَّم مَوقِدٌ آخر ؛ فإذا رأوا النارَ عَلِموا برُكوبه ، فأعَدُّوا له ما يُريدُ ، وكذلك إذا انصَرَفَ .

والله تعالى أعلَم ، وحسبُنَا الله ونعم الوكيل .

ذكر خبر خليج أمير المؤمنين

وهذا[1] الخليج كانت السُّفُن تسير فيه مِنْ مصرَ إلى بحرِ القُلْزُمِ ، تحملُ الطَّعامَ والأصنافَ إلى مكَّةَ والمدينة .

وكان من خبرِه على ما رُوِىَ عن اللَّيْثِ بن سعدٍ أنَّ النَّاسَ بالمدينة أصابَهم جَهْدٌ شديدٌ فى خلافةِ عمرَ بنِ الخطَّاب فى عامِ الرَّمَادَةِ ، فكَتَب إلى عَمرو :

من عبدِ الله أميرِ المؤمنين ، إلى العاصِى ابنِ العاص .

سلامٌ عليك ، أمّا بعد ؛ فَلَعَمرى يا عَمرو ما تُبالى إذا شبعتَ

(١) فتوح مصر ١٦٢ وما بعدها .

أنت ومَنْ معك أنْ أهلِكَ أنا ومَنْ معى : فيا غَوْثاه ، ثم يا غَوْثاه ! يردِّدُ قولَه .

فكتَبَ إليه عمرو :

لعبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين ، من عَمرِو بنِ العاصِ .

أمّا بعد . فيا لبَّيْكَ ثمّ يا لبَّيْك ، وقد بعثْتُ إليك بِعَيرٍ أوّلُها عندَك وآخرُها عندى ، والسّلامُ عليك ورحمةُ اللهِ .

وبعثَ إليه بعيرٍ عظيمةٍ ، فكان أوّلُها بالمدينةِ ، وآخرُها بمِصر يَتْبعُ بعضُها بعضًا ، فلمَّا قَدِمتْ على عُمَر وَسَّعَ بها على الناسِ ، ودفع إلى أهل كُلِّ بيتٍ بالمدينةِ وما حولَها بَعيرًا بما عليه من الطَّعامِ . وبعثَ عبدَ الرحمن بنَ عَوْف والزَّبيرَ بنَ العوّام وسعدَ بنَ أبى وَقّاص أن يقسِّمُوها على النَّاسِ ، ويَدْفَعُوا [1] إلى أهلِ كُلِّ بيتٍ بعيرًا بما عليه ، وأنْ يأْكلوا الطَّعَامَ ، ويَنحَرُوا البعيرَ فيأْكلوا لحمَهَ ، ويأْتَدِموا شَحمَه ، ويَحْتَذُوا جِلدَهُ ، وينتَفِعوا بالوِعاء الذى كان فيه الطَّعام لِمَا أرادُوا . فوسّع الله بذلك على النَّاس ، فلمّا رأى ذلك عمرُ حَمِدَ الله ، وكَتب إلى عَمرو أن يَقْدَمَ عليه ، هو وجماعة أهلِ مصرَ ، فقَدِمُوا عليه .

فقال عُمَر : يا عَمرو ، إنّ اللهَ تعالى قد فَتَحَ على المسلمين مصرَ ، وهى كثيرة الخيرِ والطَّعامِ ، وقد أُلْقِىَ فى رَوْعِى لما أحببتُ من الرِّفقِ بأهلِ الحرمَيْن والتَّوسِعةِ عليهم [2] ، أن أحْفُرَ خليجًا من نِيلِ مصرَ حتّى يَسيلَ فى البحر ؛ فهو أسهَل لما نريد مِنْ حَمْلِ الطَّعامِ

(١) ك : « فدفعوا » .

(٢) بعدها فى ابن عبدالحكم « حين فتح الله عليهم مصر ، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين . »

إلى المدينة ومكّة ، فإنّ حَمْلَهَ [على] [1] الظّهر يتعذّر ، ولا نَبلغ منه ما نريد . فانطلِق أنتَ وأصحابُك ، فتَشاوَروا فى ذلك حتّى يَعتدلَ فيه رأْيُكم ، فانطلق عَمرو فأَخبرَ مَنْ كان معه من أَهْلِ مصر ، فَثَقُل ذلك عليهم ، وقالوا : نتخوّفُ أنْ يدخُلَ فى هذا ضررٌ على مصر ؛ فَنَرَى أن تُعظِّم ذلك على أميرِ المؤمنين وتَقولَ له : إنَّ هذا الأَمرَ لا يعتدلُ ولا يكونُ ، ولا نجدُ إليه سبيلا .

فرجع عمرو بذلك إلى عُمَر ، فلمّا رآه ضَحِك وقال : والَّذِى نَفْسِى بيدِه لكأَنّىَ أنظرُ إليكَ يا عَمرو ، وإلى أصحابِك حين أخبرتَهُمْ بما أمرتُ به ، فثقُلَ ذلك عليهم ، وقالوا لك كذا وكذا . لِلَّذى كان منهم . فقال : صدقتَ والله يا أميرَ المؤمنين ، لقد كان الأَمرُ على ما ذكرت .

فقال عمرُ : يا عَمرو ، انطلقْ بعزيمةٍ منّى حتى تجدَّ فى ذلك ، ولا يأْتى عليكَ الْحَوْلُ حتّى تفرُغَ منه إنْ شاءَ الله تعالى . فانصرفَ عَمرو ، ثمَّ احتفَرَ الخليجَ الَّذِى كان فى حاشيةِ الفُسطاط الَّذِى يُقَالُ له : خليجُ أميرِ المؤمنين ، فساقَه من النِّيل إلى القُلْزُم ، فلم يأْتِ الحولُ حتّى جَرَتْ فيه السُّفُنُ ، فَحَمَل فيه ما أراد من الطَّعامِ إلى المدينة ومكّة ، فنَفَعَ اللهُ بذلك أهلَ الحرمَيْن ، وسُمِّى خليجَ أمير المؤمنين ، ثمَّ لم يزلْ يُحمَلُ فيه الطَّعامُ إلى زَمَنِ عمرَ بنِ عبد العزيز ، ثمَّ ضَيّعه الوُلاةُ بعد ذلك فترِك وغَلَب عليه الرَّملُ ، فانقطع ، فصارَ مُنتهاه إلى ذَنَبِ التِّمْسَاحِ من ناحيةَ طَحَا القُلْزُم .

---

(١) من ص .

قال : ويقالُ : إنَّ عمرَو بنَ العاص قال لعمرَ بنِ الخَطَّاب . لمّا قَدِمَ عليه : يا أميرَ المؤمنين ، قد عرفتَ أنَّه كانت تأْتينا سفنٌ فيها تجارٌ من أهلِ مصرَ قبلَ الإسلام ، فلمّا فتحْنا مصرَ انقَطع ذلك الخليج ، واسْتَدّ ، وتركتْه التُّجارُ ؛ فإن شئتَ أن تَحفِرَهُ فنُنشِىءَ به سُفُنًا يُحمَل فيها الطعامُ إلى الحِجاز فعلتُه . فقال له عُمَر : نعم ، فافعل .

فلمّا ذَكَر عَمرو ذلك لأَصحابه كرهوه على ما تَقدَّمَ ، فعزَم عمرُ على عَمرٍو أن يَحْفِره فَحَفَره .

ويقال : إنّ عمر بنَ الخطَّابِ رضىَ الله عنه لمّا كَتَب إلى عَمرو بما كَتَب واستَغاثَه ، كَتَب [عمرو][1] إليه :

أمّا بعد ، فيالبَّيك ثمّ يا لبيَّك ، أتتْك[2] عِيرٌ أوّلها عندَك وآخرها عندى ، مع أنِّى أرجو أن أجِدَ السَّبيلَ إلى أن أحْمِلَ إليك فى البحْرِ . ثم إنّ عمرًا نَدِم على كتابِه في الحَمْل إلى المدينة ، وقال : إنْ أمكنتُ عمرَ من هذا خرَّب مِصرَ ونقلَهَا إلى المدينة ، فكتب إليه : إنِّى نظرتُ فى أمرِ البَحْر ، فإذا هو عَسِرٌ لا يُلْتَأَم ولا يُستطاع . فكتب إليه عُمَرُ : إلى العاصى بنِ العاص : قد بَلَغَنى كتابُكَ ، تعتلُّ فى الَّذى كنتَ كتبْتَ إلىَّ به من أمرِ البحرِ ، وأيْمُ الله لتَفعَلَنَّ أو لأَقلَعنَّك بأذُنك ولأَبعَثنَّ من يَفعَل ذلك .

فعرفَ عَمرو أنه الجدّ من عُمَر ، ففعل ، فبعث إليه عُمَرُ ألاتدع

(١) من ص .

(٢) ص : « جاءت » .

بمصرَ شيئًا من طعامِهَا وكِسْوتِها وبَصلِهَا وعَدَسِها وخَلِّها إلاَّ بَعَثتَ إلينا منه .

ويقال : إنَّما دَلَّ عَمرَو بنَ العاصِ على الخليج رجلٌ من قبطِ مصر ،أتاه فقال له : أرأيْتَ إنْ دللتُكَ على مكانٍ تجرى فيه السُّفُنُ حتى تنتهىَ إلى المدينة ومكَّةَ ، أتَضَعُ عنِّى الْجِزيَةَ . وعن أهلِ بيتى ؟ قال : نَعَم ، وكَتَبَ إلى عمر ، فقال : افعلْ . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر الخبر عن فتح الفيوم

رُوِى [1] عن سَعيد بن غُفَيْرٍ وغيرِه ، قالوا : لما تمَّ الفتحُ للمسلمين ، بعثَ عمرُو بنُ العاص جَرائدَ الخيْلِ إلى القُرَى الَّتى حَوْلَها ، فأقامت بالفيّوم سنةً لم يَعلَم المسلمون بمكانها ؛ حتى أتاهم رجلٌ فذَكَرَها لهم ، فبَعث عَمرٌو معه ربيعةَ بنَ حُبَيش بن عُرفطة الصَّدفىّ ،فلمّا سلكوا فى المجابة لَم يَرَوْا شيئًا ، فهَمُّوا بالانصراف فقال : لا تَعجَلوا ، سِيروا [2] ، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى طَلَع لهم سوادُ الفيُّومِ ، فَهَجموا عليها ، فلَم يكن عند أهلِها قِتال ، وألْقَوْا بأيْدِيهِم .

قال : ويقالُ : بل خَرَج مالكُ بن ناعمة الصّدفى - وهو صاحبُ الفَرَس الأشقَر على فرسِه - ينفُضُ المجابة ، ولا عِلْمَ له بما خلفها من الفيّوم ، فلمّا رأى سوادَها رَجَع إلى عَمرو ، فأخبَرَه بذلك .

ويقال : [بل] [3] بعثَ عمرُو بنُ العاصِ قيسَ بنَ الحارثِ إلى الصَّعيد ، فسار حتَّى أتى القَيْسَ ، فنَزَلَ بها ؛ وبه سُمِّيتْ ، فذكر ذلك لعمرو .

(١) فتوح مصر ١٦٩ .
(٢) بعدها فى ابن عبد الحكم : « فإن كان كذب ، فما أقدركم على ما أردتم » .
(٣) من ص .

فقال ربيعةُ بنُ حُبيش : كُفِيت ، فركِبَ فرسَه . فأجاز عليه البحرَ ، وكانت أُنثى ، فأتاه بالْخَبَرِ ، ويقال : إنَّه أجازَ من ناحيةِ الشَّرقيَّةِ حتى انتَهَى إلى الفَيُّوم . والله تعالى أعلَم ، وحسبُنَا الله ونعم الوكيل .

ذكر فتح زويلة وطرابلس الغرب

وبرقة وحصن سبْرت

كان[1] فتحَ زَوِيلةَ فى سنة إحدى وعشرين ؛ وذلك أن عمرَو بنَ العاصِ بعثَ عُقبةَ بنَ نافِعِ الفِهْرىَّ إليها ، فافتَتَحَها صلْحًا ، وما بين برقةَ وزويلة سلْمًا للمسلمين . وقيل : فتَحَهَا فى سنة عشرين ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمدُ للهِ وحدَه .

ثم سار عمرُو بنُ العاصِ من مِصْرَ فى سنة اثنتين وعشرين إلى بَرقة ، فصـــالَح أهلَها على الْجِزية ، وأن يبيعُوا مِنْ أبنائهم من أرادوا بَيْعَه ، فلمَّا فرغ من بَرْقة سَار إلى طَرَابُلس الغَرْب ، فحاصَرَها شَهْرًا ، فلم يظفَرْ بها ، وكان قد نزل شرقيَّها ، فخرج رجلٌ من بنى مُدْلِج يتصيّد فى سبعة نفرٍ فسَلَكوا غربَ المدينة ، فلمَّا رجعوا اشتدّ عليهم الحرُّ ، فأخذوا على جانب البحرِ ولم يكن السّورُ متَّصلاً بالبحر ، وكانت سُفُن الرُّوم فى مَرساها تُقَابِلُ بيوتَهم ، فرَأى الْمُدْلجىُّ وأصحابُهُ مسلَكًا فى البحر إلى البلدِ ، فدخَلوا منه ، وكبَّروا ، فَلَجَأَ الرُّومُ إلى سُفُنِهم ؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّ المسلمين قد دخلوا المدينةَ ، فنظر عَمرو ومن معه ، فرأى السُّيوفَ فى المدينة ، وسَمِعوا الصِّياح ، فأقبلَ

(١) بعدها فى عبد الحكم : «وكان يقال لفرسة الأعمى» .

(٢) ابن عبد الحكم ١٧٠ ومابعدها .

الجيشُ حتَّى دخل المدينة ، فلَمْ يفلتْ من الرومُ إلاَّ بما خفَّ حملُهُ فى مراكبهم .

وكان أهلُ حصنِ سبْرت قد اطْمَأنُّوا ، فجهَّزَ (١) إليهم جيْشًا كثيفًا ، فصبَّحوها وقد فَتَح أهلها الباب ، وسرَّحوا مَواشِيَهَم فدخلها المسلمون مغالبةً وغنموا ما فى الحصن ، وعادوا إلى عَمْرو .

ثم سارعمرو إلى برْقة وبها لُواتة ، وهم من البَرْبَر ، فصالَحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينارٍ يؤدُّونها جِزْيةً ، وشرطوا أن يَبِيعوا مَنْ أرادُوا بَيْعَه من أولادهم فى جِزْيَتِهِمْ .

قال المؤرِّخ : وكان سببُ مَسيرِ البَرْبر إليها وإلى غيرِها من بلاد الغرب ؛ أنَّهم كانوا بنواحِى فِلَسْطِين ، فلما قتِلَ مَلِكهم جالوت ، ساروا نحوَ الغرب ، وتفرقوا ، فسارت زناتَة ومَغيلة ، وهما قبيلتان من البَرْبرِ ، فسكنوا الجبال ، وسكنتْ لُواتةُ برقةَ ، وتُعْرَفُ قديماً بأنطابُلُس – وقيل فيها : أنْطَابلُس – وانتَشَرُوا فيها حتى بلغوا السُّوس ، ونزلوا ونزلتْ هَوَّارةُ مدينةَ لَبْدة ، ونزلتْ نَفُوسة مدينة سَبَرْت ، وجلا مَنْ كان بها من الرُّوم [من أجْل ذلك] (٢) كذلك ، وأقام الأفارقُ وهم خدَم الرُّومِ على صلحٍ يؤدّونَه لمن غَلَبَ على بلادهم .

* * *

انتهتْ الفُتوحاتُ فى خلافةِ عمرَ رضى الله عنه . والله سبحانه وتعالى أعلمُ ، وحسبنا اللهُ ونعم الوكيل .

---

(١) ص « فجرد »

(٢) زيادة من فتوح مصر .

ذكر الغزوات الى أرض الروم

كان أوّلَ مَنْ غَزَا أرضَ الروم من المسلمين أبو بحريّة عبدُ الله ابنُ قيس فى سنة عشرين ، وقيل : أوّلُ من دَخَلها ميسرةُ بنُ مسروقٍ العَبْسى ، فسَلِم وغَنِم ، ثمّ غزاها مُعاويةِ بنُ أبى سُفيانَ فى سنةِ اثنتين وعشرين ، ودخلها فى عشرةِ آلافِ فارسٍ من المسلمين .

وفى سنة ثلاث وعشرين غزا معاويةُ الصائفة ، ومعه عُبَادةُ بنُ الصّامتِ وأبو أيّوب الأنْصاري وأبوذَرّ وشدّادُ بنُ أوس .

وفيها فَتَح معاويةُ رضى الله عنه عَسْقَلاَنَ على صُلْح .

ذكر ما اتفق فى خلافة عمر بن الخطاب

غير الفتوحات والغزوات

سنة ثلاث عشر : فى هذه السّنة ، تُوفىَ الأَرقمُ بنُ أَبى الأَرقَمِ يومَ مات أَبو بكر الصِّديق رضى الله عنهما ، وهو الَّذى كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مستخفيًا بدَاره بمكَّة أَوّلَ ما أُرْسِل صلَّى الله عليه وسلَّم .

* * *

سنة أَربع عشرة : فى هـذه السنة أَمَرَ عُمر رضى الله عنه بالقيامِ فى شهر رمضانَ فى المساجدِ ، وجَمَعهم على أُبىّ بنِ كعبٍ ، وكتبَ إلى الأَمصارِ بذلك .

وفيها ، ضرب عمرُ رضى الله عنه ابنه عبدَ الله وأَصحابه فى شرابٍ شَرِبوه ، وضربَ أَيضا أَبا مِحْجَن الثَّقَفىّ فى الشَّراب .

وفيها حجّ عمرُ رضى الله عنه بالنَّاسِ .

وكان العمّال على مَكَّة : عَتَّابُ بنُ أَسِيد فى قولٍ ، وعلى اليَمَن يَعلَى ابن مُنْيَةَ ، وعلى الكُوفةِ سعد بن أَبى وَقَّاص ، وعلى الشام أَبو عُبيدة بن الجرَّاح ، وعلى البحر عثمانُ بنُ أَبى العاص ، وقيل : العلاءُ بنُ الحَضْرمىّ ، وعلى عمارةَ حُذَيْفَةُ بنُ مِحْصَن .

وفيها مات أَبو قحافة ، والد أَبو بكرٍ الصِّديق رضى الله عنهما ، ومات سعدُ بنُ عُبادةَ الأَنصارىّ ، وكان أَسنَّ مَنْ أَسلمَ ممّن بنى هاشمٍ رضى الله عنْه .

* * *

ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

سنة خمس عشرة : وفى هذه السنة فَرَض عمرُ رضى الله عنه للمسلمين الفُرُوضَ ، ودوَّن الدّواوِين ، وأَعطى العطايا على السَّابقة فى الإسلام لاعَلَى البيوتِ .

قال : ولمّا فرض العطايا أعطَى صفوان بنَ أُميّةَ والحارثَ بنَ هشام وسُهَيْل بنَ عَمرو فى أهل الفتحِ أقلَّ ممّا أعطى مَنْ قبلهم ، فامتَنَعوا من أخذِه ، وقالوا : لا نَعترِفُ أن يكونَ أحدٌ أكرمَ منّا ، فقال : إنِّى إنَّما أعطيتُهمْ على السَّابقة فى الإسلام لا فى الأحساب ، فقالوا : نَعَمَ إذْن ، وأَخَذُوا .

وخرج الحارثُ وسُهيل بأهليهما نحوَ الشّام ، فلم يَزَالاَ مجاهدَيْن حتَّى أُصِيبا فى بعض تلك الدُّروبِ . وقيل : ماتَا فى طاعون عَمْواس .

وقيل : لمّا أراد عمرُ وَضْع الدِّيوان ، قال له علىُّ بنُ أبى طالبٍ ، كرّمَ الله وجْهَهُ وعبدُ الرَّحمن بنُ عوفٍ رضى الله تعالى عنهم : ابْدَأْ بنفسِك . فقال : لا ، بل أبدأُ بعَمِّ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ثمّ الأَقْرَب فالأقرب . ففرَض للعبّاسِ ، وبَدَأَ به ، وجعَلَ له خمسةً وعشرين ألفًا ، [وقيل : فرض له اثنى عشر ألفا] (١) ثم فرض لأهل بدْرٍ لكلٍّ منهم خمسة آلافٍ ، وألحق بهم أربعةً لم يكونوا منهم ، وهم : الحَسَن والْحُسَيْن أبو ذَرّ وسَلْمَان (٢) رضى الله تعالى عنهم .

---

(١) من ص .
(٢) ك : « وعثمان » .

وفَرَض لمَن بعد بدر إلى الحُدَيْبِيَة لكلٍّ منهم أربعة آلافٍ ، وفرض لمن بعد الحَدَيْبِيَة إلى قِتال الرِّدَّة ، لكل منهم ثلاثة آلافٍ ، كان منهم من شهد الفَتْح .

وفرض لأهل الأيّام قبل القادِسيَّةِ ، وأهلِ الشَّامِ ، فى ألفين ألفين .

وفَرَض لأهل البلاء منهم فى ألفين وخَمْسَمائة ، فقيل له : لو ألْحقْتَ أهَلَ القادسيّة بأهل الأيام ! قال : لم أكن لأُلحقَهُم بدرجةِ من لم يُدْرِكوا . وقيل لَهُ : قد سوَّيْتَ من بَعُدتْ دارُهُ بمَنْ قرُبَتْ داره ، وقاتَلهَم عن فنائه ، فقال : مَنْ قَرُبَتْ داره أحقُّ بالزِّيادةِ ، لأنَّهم كانوا رِدْءًا للحُتوف ، وشَجًى للعدوّ ، فهلاَّ قال المهاجرون مِثلَ قولِكُمْ حين سَوَّيْنَا بين السابقين منهم والأنصار ! فقد كانتْ نصرةُ الأنصارِ بفنائِهم ، وهاجرَ إليهم المهاجرون من بعدُ . والله أعلمُ .

وفَرَضَ لمَنْ بعْدَ القادِسيَّةِ واليَرْمُوك ألفًا ألفًا .

وفرض للرَّوَادفِ الَّتى فى خمسمائةٍ خمسمائة ، وللرَّوادف الثلث فى ثلثمائة . سَوَّى كلَّ طبقة فى العطاءِ ، قويَّهم وضعيفهَم ، عربيَّهم وعجميَّهم . وفرضَ للرّوادف الربع فيها فى مائتين وخمسين .

وفرض لمَنْ بعدَهم وهم أهلُ هَجَر والعِباد على مائتين .

وأعْطَى نساءَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم رضى الله عنهن عشرة آلافٍ عشرة آلافٍ إلاَّ مَنْ جرى عليها المِلْك . فقال نسوةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : ما كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُفَضِّلُنَا عليهنّ فى القِسمةِ ، فسوِّ بيننا ؛ فَفَعَلَ ، وفضَّل عائشةَ

رضى اللهُ عنها بألفيْنِ لمحبّة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم إيّاهَا ، فلم تأخُذْهَا .

وجعل لنساء أهلِ بدرٍ خمسمائة خمسمائة ، ونساء مَنْ بعدَهم إلى الحُدَيْبِيَة أربعمائة أربعمائة ، ونساء مَنْ بَعَدَهم إلى الأيّام ثلثمائة ثلثمائة ، ونساء أهل القادسيّة مائتين مائتين ، ثم سَوّى بيْنَ النِّساء بعد ذلك .

وجَعَل الصبيان سواءً على مائةٍ مائةٍ ، ثم جمع ستّين مِسْكِينًا وأطعمَهم الخبز ، فأحصَوْا ما أكلوا ، فوجدُوهُ يخرج من جَرِيبَيْن ، ففرَض لكلِّ إنسانٍ منهم ولعِياله جَرِيبَيْنِ فى الشَّهْرِ .

وقال عمرُ رضى الله عنه قبل موتِهِ : لقد هَمَمْتُ أنْ أجعل العطاء أربعة آلافٍ أربعَة آلافٍ ، [ألفٌ] (١) يجعَلها الرجلُ فى أهلِهِ ، وألف يَتزوّدُها معه ، وألف يتجهّزُ بها ، وألفٌ يَرْتفِقُ بها ؛ فمات قبل أنْ يَفْعَل .

وقال له رجل عند فرْضِ العطاء : يا أميرَ المؤمنين ، لو [كُنْت] (١) تركْتَ فى بيوتِ الأموال عدَّةً لكَوْنٍ إنْ كان فقال : كلمةٌ ألقاها الشيطانُ على فِيك . وَقانِى اللهُ شَرَّها ، وهى فتنةٌ لمَنْ بعدِي ؛ بل أُعِدَّ لهم ما أعدَّ الله ورسوله ، [طاعة الله ورسوله] (١) . هماعُدّتنا الّتى بهما أفْضَيْنَا إلى ما تَرَوْنَ ؛ فإذا كان المال ثَمَنَ دِينِ أحدِكُم هَلَكْتم .

وقال عمرُ رضى الله عنه للمسلمين : إنِّى كنتُ امرأً تاجرا (٢)

---

(١) من ص .

(٢) ك : « تجرا » .

يُغْنِى الله عِيالى بتجارتى ، وقد شغلْتُمونى بأمرِكم هذا ، فما تَرَوْنَ أنَّه يَحِلّ لى فى هذا المال ؟ فأكثرَ القومُ ، وعلىٌّ رضى الله عنه ساكِتٌ ، فقال : ما تقولُ يا علىّ ؟ فقال : ما أصلَحَك وأصلَحَ عِيالَك بالمعروف ، ليس لك غيرُه . فقال القومُ : القولُ ما قال علىّ . فأخَذَ قُوتَهُ (١) ، واشتدتْ حاجةُ عُمرَ رضى الله عنه . فاجتمعَ نفر (٢) من الصَّحابةِ منهم عثمانُ ، وعلىٌّ ، وطلحةُ ، والزبير ، فقالوا : لو قلْنَا لعمرَ فى زيادةٍ يزيدها إيّاه فى رِزْقه ؟ فقال عثمانُ رضى الله عنه : هلمُّوا فلنستبرئ ما عنده مِن وَراء وراء . فأتَوْا حفصةَ ابنتَه فأعلَموها الحالَ ، واستكْتَموها ألاَّ تُخبِر بهمْ عُمَر . فلقيتْ عمرَ فى ذلك ، فغَضِب وقال : مَنْ هؤلاء لأسوءَنّهم ؟ قالت : لا سبيلَ إلى عِلْمهم . قال : أنت بينى وبينهم ، ما أفضلُ ما اقتَنَى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى بَيتِكِ من الْملبَس ؟ قالت : ثوبيْن ممشَّقَين كان يَلبَسهما للوَفْد والجُمع ، قال : فأىّ الطعام نالَه عندَك أرفَع ؟ قالت : خَبَزنا خُبْز شَعيرٍ ، فَصَبَبْنَا عليه وهو حارٌّ أسفل عُكَّة (٣) لنا ، فجعلتها دَسِمةً حُلْوة ، فأكل منها . فقال : أىّ بسط كان يُبسَطُ عندَكِ كان أوطَأ ؟ قالت : كساءٌ ثخينٌ كنَّا نرقَعُهُ برُقْعةٍ فى الصَّيفِ فإذا كان الشتاء بسَطْنَا نصفَهُ ، وتَدَثَّرْنَا بنصفِه . قال : ياحفصةُ ، فأبلغيهم أنّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم

(١) ك : « قوة » ، تحريف .
(٢) ك : « رجالا » .
(٣) العكة : إناء يوضع فيه السمن .

قَدَّر فوضعَ الفضولَ مواضعَها ، وتَبلَّغ بالتَّرْجِية ، فوالله لأَضعنَّ الفُضولُ مواضعَها ، ولأُتبلَّغنَّ بالترْجِية ؛ وإنَّما مَثَلى ومثلُ صاحِبىَّ كثلاثةٍ سلكُوا طريقًا ، فمضى الأُولُ وقد تزوّدَ فَبَلَغ المنزل ، وتَبِعه الآخرُ فسَلَكَ طريقَه فأَفضَى إليه ، ثم اتّبعه الثالث ؛ فإن لزمَ طريقَهُمَا ورَضِىَ بزادِهما لحق[1] بهما ، وإن سَلَك غيرَ طريقِهما لم يُجَامِعْهما .

* * *

سنة ست عشرة : وفى هذه السّنة حجّ عمرُ رضى الله عنه بالنَّاس ، وفيها غَرَّبَ[2] عمر رضى الله عنه أبا مِحْجن الثَّقَفِىَّ إلى ناصع .

وفيها حَمَى الرَّبذَةَ بخيل المسلمين .

وفيها ماتت ماريةُ أُمُّ إبراهيمَ بنِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وصلَّى عليها عُمَر ، ودَفَنَهَا بالبَقيعِ ؛ وذلك فى المحرّم .

وفيها كتب عمرُ التَّاريخَ بمشورة علىِّ بنِ أَبى طالبٍ رضى الله عنه .

وفيها حجَّ عمرُ بالنَّاس ، واستخلفَ على المدينةِ زيدَ بنَ ثابت .

والله تعالى أَعلمُ بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

* * *

(١) ك : « لزم » .
(٢) ك : « عذب » .

ذكر بناء الكوفة والبصرة

سنة سبع عشرة : فى هذه السنةِ اختُطَّت الكوفةُ والبصرةُ ، وتحوّل سعدُ بنُ أبى وقّاصٍ من المَدَائنَ إلى الكوفةِ ، وكان سببُ ذلك أنّ سعدًا أرسَل إلى عمر بما فتح الله عليه ، فلمّا رأى الوفْدَ سألهم عن تغيُّرِ ألوانهم وحالِهِمْ ؛ فقالوا : وُخومَة [1] البِلاد [غيّرتْنا] [2] ، فأمَرَهم أنْ يرتادوا مَنزِلاً يَنزِله النّاسُ .

وقيل : بل كَتَب حُذيفةُ إلى عُمر : إنَّ العربَ قد نزَفتْ بُطونُها ، وخَفَّت أعضاؤُها ، وتغيّرتْ ألوانُها . وكان مع سعدٍ ، فكتب عمر إلى سَعْدٍ : أخبرنى ما الَّذِى غَيّر ألوانَ العَرَبِ ولحُومَهم ؟ فكتب إليه : إنَّ الَّذِى غيَّرهم وُخومةُ البلادِ ، وأنّ العربَ لايوافِقُهَا إلّاماوافق إبِلَها من البُلْدان . فكتب إليه ، أن ابعثْ سَلْمانَ وحذيفَةَ فلْيرتَادَا منزلاً بريًّا بَحْريًّا ، ليس بينى وبينكم بحر ولاجِسر ، فأرسَلَهما سعد .

فخرج سَلمانُ حتّى أتَى الأنبارَ ، فسار فى غربىِّ الفُراتِ لا يَرضَى شيئًا حتّى أتَى الكَوفَة ، وخرج حذيفةُ فى شرقىِّ الفراتِ لايَرضَى شيئًا حتى أتى الكُوفة – وكلّ رملة وحَصْباء مختلِطيْن فهو كُوفة – فَأتَيَا عليها وفيها دِيرَاتٌ ثلاثة : دَيْرُ حرقة ، ودَيْر أُمِّ عَمرو ، ودير

---

(١) ك : « حومة » تحريف .

(٢) تكملة من ص .

سِلْسِلة وخصاصٌ خِلال ذلك[١] ، فأعجبتْهُمَا البقعةُ ، فنزَلاَ وصَلَّيا ، ودَعَوا الله تعالى أنْ يَجعلَها منزلاً مُبَاركًا . فلمّا رَجَعا إلى سعدٍ بالخَبَر ، وقدم كتابُ عمَر أيضًا عليه ، كتب سعدٌ إلى القَعْقَاعِ بن عمرٍو وعبدِ اللهِ بن المُعْتمِرِ ، أن يَستخلِفا على جندهما ويَحضُرَا عنْده ، ففعَلاَ . فارتحل سعدٌ من المَدائن حتَّى نَزل الكوفة فى المحرّم سنة سبع عشرةَ ،فلمّا نزلها سعدٌ كتبَ إلى عمرَ : إنِّى قد نزلْتُ بكُوفة ، منزلاً بين الحِيرة والفُرات ، بَرِّيًّا بحريًّا ، يُنبتُ الحَلْفاء والنَّصِىّ[٢] ، وخيّرتُ المسلمين بينها وبين المدائن ، فمن أعجبَهُ المقامُ بالمدائنِ تركتُه فيها كالمَسْلحة . ولمّا استقرُّوا بها عرفوا أنفسَهم ، ورجع إليهم ما كانُوا فَقَدوا مِنْ قُوَّتِهِمْ . واستأْذَن أهلُ الكوفةِ فى بُنْيَانِ القَصَبِ ، واستأْذنَ فيه أهلُ البَصْرةِ ، فاستقرَّ منزلُهم فيها فى الشهر الَّذى نَزَل أهلُ الكوفة بعد ثلاثِ نَزَلات فيها قَبْلَها . فكتبَ إليهم [عمر][٣] : إنَّ العسكرةَ أشدُّ لَحَرْبكم ، وأذكَر لَكم ، وما أُحِبّ أنْ أخالِفَكُمْ ، فابتنى أهل المِصرين بالقَصَبِ .

ثمَّ إنَّ الحريقَ وَقَعَ بالكوفةِ والبصرةِ ، وكانتْ الكوفةُ أشدَّ حريقًا ، وكان الحريقُ فى شوَّالٍ . فبعثَ سعْدٌ نفرًا منهم إلى عمر يستأْذِنُهُ فى البنيان باللَّبِن ، فقدمُوا عليه بخبرِ الحريق ، واستأْذنوه ،

---

(١) ك : « وخلال ذلك » .
(٢) النصى : نبت أبيض ناعم .
(٣) من ص .

فقال : افعَلوا ، ولايزيدُ بناءُ أحدِكم عن ثلاثةِ أبياتٍ ، ولا تَطَاوَلوا بالبُنْيان ، وألزَمُوا السُّنَّة تَلزَمكم الدّولة .

فرجع القومُ إلى الكوفةِ بذلك ، وكتب عمرُ إلى أهلِ البصْرَةِ بمثلِ ذلك ، وكان على تَنزِيلِ الكوفةِ أبو هياج بن مالكٍ ، وعلى تنزيلِ البَصْرةِ عاصم بن الدّلف أبو الجرْباء ، وقَدّر المناهجَ أربعين ذراعًا ، وما بَيْنَ ذلك عشرين ذراعا ، والأزِقَّةَ سبعةَ أذرُعٍ ، والقطائعَ سبعين ذراعًا . وأوّلُ شيءٍ خُطَّ فيهما مَسْجِداهما ، وقام فى وسطهما رجلٌ شديدُ النَّزْع ، فرَمَى فى كلِّ ناحيةٍ بسَهْمٍ ، وأمرَ أن يُبْنى ما وَراءَ ذلك . وبنىَ ظُلَّة فى مقدِّمةِ مسجدِ الكُوفة على أساطينَ رُخامٍ من بناءِ الأكاسرةِ فى الحِيرة ، وجعلوا على الصَّحْنِ خَنْدقًا لئلاَّ يقتحِمَه أحدٌ ببنيان ، وبنوْا لسعدٍ دارًا بحياله ، وهى قصرُ الكوفة ، بناه رُوزْبة من آجُرٍّ بُنْيَانِ الأكاسرةِ بالحِيرة ، وجعل الأسواقَ على سُنة المساجِدِ ، مَنْ سبقَ إلى مَقْعَدٍ فهوَ له ، حتَّى يقومَ منه إلى بيتِهِ ، ويَفْرُغَ من بَيْعه .

قال : وبلغ عمرَ أنَّ سعدًا قال : وقد سمع أصواتَ النَّاسِ من السُّوقِ : سَكِّتوا عنِّى التَّصْوِيتِ ، وإنَّ النَّاس يُسمُّونَه قصرَ سَعْدٍ . فبعثَ محمد بنَ مَسلمةَ إلى الكُوفةِ ، وأمره أن يُحْرِقَ بابَ القصْرِ ، ثم يَرجع ،ففعل . وبلغ سعدًا ذلك ،فقال : هذا رسولٌ أرسل لهذا ! فاستدعاه ، فأبَى أن يَدخُلَ إليه ، فخرج إليه سعدٌ ، وعرض عليه نفقةً ، فَأَبَى أنْ يأخذَها ، وأبْلَغَهُ كتابَ عمرَ إليه وفيه :

---

(١) من ص .

بلغنى[1] أنَّكَ اتَّخَذْتَ قصرًا جعلْتَهُ حصنًا ، ويُسَمّى قصرَ سَعْدٍ ،وبينك وبين النَّاسِ بابٌ ،فليس بِقَصْرِك ؛ ولكنَّه قصرُ الخبالِ ، انْزِلْ منه ممّا يلى بُيوتَ الأموالِ ، وأَغلِقْهُ ، ولا تَجْعَل على القصرِ بابًا يُمنَع الناسَ من دخوله .

فحلَفَ له سَعْدٌ ما قال الَّذى قالوا ، ورجعَ محمدٌ ، وأَبلغَ عمرَ قولُه ، فصدَّقه .

وكانتْ ثُغورُ الكوفةِ أربعةً : حُلْوان وعليها القعقاعُ بنُ عمرو ، وماسَبَذانُ وعليها ضِرارُ بنُ الخطَّابِ ، وقرقِيسِياء وعليها عَمرُو بنُ مالك ، أو عمرو بن عُقْبة بن نَوْفل ، والمَوْصِل وعليها عبدُ اللهِ بنُ المعتمِر . وكان بها خلفاؤُهُم إذا غابوا عنها .

ووَلِىَ سعدٌ الكوفةَ بعدما اختُطَّت ثلاث سنين ونصفا ، سِوَى ما كان بالمَدائِن قَبلَها . والله تعالى أعلمُ .

ذكر عزل خالد بن الوليد

وفى هذه السَّنَةِ عُزل خالدُ بنُ الوليد عمّا كان عليه من التَّقدُّمِ على الجُيوشِ ، وسببُ ذلك أنَّه أَدْرَبَ[2] هو وعياضُ بنُ غنم ، فأصابا أموالاً عظيمةً ، وكانا توجَّهَا من الجابيةِ بعد رجوعِ عمرَ إلى المدينة .

وقيل : إنَّ مسيرَ خالدٍ معَ عياض كان لفتح الجزيرةِ ، فبلغ النَّاس

(١) ص : « بلغه » .

(٢) يقال أدرب القوم ؛ إذا دخلوا أرض العدو من بلاد الروم .

ما أصابَ خالدٌ ، فانْتَجَعه رِجالٌ وكان فيهم الأشعثُ بنُ قيسٍ ، فأجازه بعشرةِ آلافٍ ، ودخل خالدٌ الحمَّامَ ؛ قيل : حمّام آمِد، فتدلَّكَ بغسل فيه خَمْرٌ ، فكتبَ إليه عمرُ :

بلغنى أنَّك تدلَّكْتَ بخمرٍ ، واللهُ قد حَرَّمَ ظاهرَ الخمْرِ وباطِنَهُ منه ، فلا تمسُّها أجسادكم . فكَتَب إليه : إنَّا قتلْنَاهَا فعادَتْ غَسُولاً غيرَ خَمْرٍ . فكتب إليه عمر : إنَّ آل المغيرة ابْتُلُوا بالْجفَاء ، فلا أماتكُم اللهُ عليه .

فلمّا فَرَّقَ خالدٌ فى الَّذِين انتَجعُوه الأموالَ ، سمِع بها عُمر ، فكتب إلى أبى عُبيدةِ بنِ الجرّاح مع البريد أن يُقِيمَ خالدًا ويَعقِلَه بعمامته ، ويَنزِع عنه قَلَنْسُوَتَه حتَّى يُعْلِمَكُم من أيْنَ أجاز الأشعثَ ، أمِنْ مالِهِ أمْ مِنْ إصابةٍ أصابَها ؟ فإنْ زعم أنَّها من مالِهِ فقد أسرَفَ ، وإنْ زَعَمَ أنَّها مِنْ إصابةٍ ، فقد أقرّ بخيانةٍ . وٱعْزِلْهُ على كُلِّ حالٍ ، واضْمُمْ إليْكَ عَملَه .

وكان خالدٌ على قِنَّسْرِينَ من قبَلِ أبى عبيدة ، فكتبَ أبوعُبيدةَ إلى خالد ، فقدِم عليه ، ثمّ جمعَ النَّاسَ وجلسَ علىَ المنبرِ ، وقامَ البريدُ قُبالةَ خالدٍ ، فسألَ خالدًا من أيْن أجاز الأشعث ؟ فلم يجبْه ، وأبو عُبَيْدَة ساكتٌ لا يتكلَّم .

فقال بلالٌ :إنَّ أميرَ المؤمنين أمرَفيك بكذا وكذا ، ونَزَعَ عمامَتَهُ فلم يَمنَعْه ، ووَضَع قلَنْسُوَته ، وأقامَه وعَقَله بعمامَتِهِ ، وقال له : أمِن مالِك

أجزت ؟ أم مِنْ إصابةٍ أصبْتَها ؟ فقال : لا ، بل مِنْ مَالى ، فأطْلَقَهُ ، وأعاد قَلَنْسُوَتَه ،ثمَّ عَمَّمَهُ بيَدِهِ ،ثم قال : نسمعُ ونطيعُ لُولاتِنا ، ونفخِّم ونخدِمُ مَوالِينا .

قال : فأقام خالدٌ متحيِّرًا لا يَدْرِى : أمعزولٌ هو أم غير معزولٍ ! ولم يشافِهْه أبو عُبيدة بذلك تكْرِمَةً له .

فلمّا تأخّرَ قدومُهُ على عمرَ ظنَّ الَّذى كان ، فكَتبَ إلى خالدٍ بالإقبالِ إليه ، فرجعَ خالدٌ إلى قِنّسْرِين فخطبَ النَّاسَ ، وودَّعهم ، ثم رجعَ إلى حِمْص ففَعل مِثلَ ذلك ، ثم سارَ إلى المدينة . فلمَّا قدِم على عمرَ شكَاهُ وقال : شكوتُكَ إلى المسلمين ، وباللهِ إنَّك فى أمرى لغيْرُ مُجْمِلٍ ، فقال له عمرُ : من أيْن هذا الثَّراءُ ؟ فقال : من الأنْفَالِ والسُّهْمان ، مازاد على ستِّين ألفًا فَلَكَ.

فقوَّم عمرُ مالَه ، فرآهُ عشرين ألفًا ، فجعلها عمر فى بَيْتِ المالِ ، ثمّ قال : ياخالدُ ، واللهِ إنَّك علىَّ لَكَرِيمٌ ، وإنَّكَ إلىَّ لَحَبِيبٌ .

وكتب إلى الأمصار : إنِّى لم أعزِلْ خالدًا عن سَخْطَةٍ ولا خِيانَةٍ ، ولكنَّ النَّاسَ فخَّمُوهُ وفُتِنُوا به . فخفتُ أنْ يوكلوا إليْهِ ، فأحبَبْتُ أنْ يَعلَموا أنَّ الله هو الصانع ، ولا يكونوا بعَرَضِ فِتْنَةٍ ، وعوَّضَه عمَّا أخَذ منه . والله تعالى أعلمُ ، وحَسْبُنَا الله ونعم الوكيل

ذكر بناء المسجد الحرام

[وفى هذه السنة اعتمر عمر بن الخطّاب رضى الله عنه وبَنى المسجد الحرام ، ووَسَّع فيه ، وأقام بمكّة عشرين ليلة ، وهدم على أقوام أبوْا أن يبيعوا ، ووضَعَ أثمان دُورِهم فى بيت المالِ حتى أخذوا ، وكانت عُمْرتُه فى شهر رجب ، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت ، واستأذنه فأذن لهم وشرط عليهم ، أنَّ ابن السبيل أحقُّ بالظلّ والماء] (١).

ذكر عزل المغيرة بن شعبة

وفى هذه السّنةِ عَزَلَ عمرُ رضى الله عَنْهُ المغيرة بنَ شُعْبَة عن البَصْرة ، واستعمل عليها أباموسى الأَشْعَرِيّ ، وكان سببُ ذلك أنَّه كان بينه أوبين أبى بَكْرَةَ مُنافَرةٌ ، وكانا مُتجاوِرَيْن بينهما طريق ، وكانا فى مشْرِبَتَيْن، فى كل واحدة منهما كُوَّةٌ مقابِلةٌ للأُخرى ، فاجتمعَ إلى أبى بَكْرة نفرٌ يتحدَّثون فى مَشْرَبَتِهِ ، فهبَّتْ الرِّيحُ ، ففتحتْ بابَ الكُوّةِ ، فقام أبو بَكْرَة ليَرُدّه ، فبَصُرَ بالمغيرة ، وقد فَتَحت الريحُ بابَ كُوَّتهِ ، وهو بين رِجْلَى امْرأةٍ ، فقال للنَّفَرِ : قُومُوا وانْظُرُوا ، فَنَظَرُوا ، وهم : أبو بَكْرة ونافعُ بنُ كَلَدة ، وزيادُ بنُ أَبِيه ، وهو أخو أَبى بَكْرَةَ لأُمّهِ ، و شبلُ بنُ مَعْبَدٍ البَجَلىّ ، فقال لهم : اشهَدُوا . قالوا : ومَنْ هذه ؟ قال : أُمّ جَمِيل بنت الأَفْقَم ، وكانت من بنى عامِرِ بن صَعْصَعَة ، وكانتْ تَغْشَى المُغيرةَ والأُمراء ، وكان بعضُ النِّساء يَفْعَلْن ذلك

(١) من ص .

فى زَمانها ، فلمَّا قامتْ عَرَفوها . فلمّا خرج المغيرةُ إلى الصَّلاةِ منعه أبو بَكْرة .

ورَوَى أبوالفَرَج الأصبهانىّ صاحبُ الأغانى [1] فى كتابه بسند رفعه إلى أنس بن مالك وغيره : أنَّ المغيرَة بنَ شُعْبَةَ كان يخرجُ مِنْ دارالإمارة وسط النَّهار ، وكان أبو بكْرةَ يلقاه فيقول : أينَ يذهبُ الأمير ؟ فيقولُ : آتِى حاجة . فيقولُ له : حاجةُ ماذا ! إنَّ الأميرَ يُزَارُ ولا يَزُورُ . قال : وكانت المرأةُ التى يأْتيها جارةً لأبى بكْرة . قال : فبيْنَا أبو بكْرةَ فى غرفةٍ له مع أخويه نافعٍ ، وزيادٍ ، ورجل آخرَ يقالَ له : شبلُ بنُ معبدٍ ، وكانت غرفة جارته تحتَ غُرْفَة أبى بَكْرة ، فضربت الرِّيحُ بابَ المرأةِ ففتحَتْهُ ، فنظر القوْمُ ؛ فإذا هُمْ بالمغيرةِ يَنْكِحُهَا ، فقال أبو بَكْرة : هذه بَلِيَّةٌ ابتُليتُم بها ، فانظروا ، فَنَظَروا ؛ فإذا أبو بَكْرَةَ نزَل ، فجلسَ حتَّى خرج إليه المغيرةُ مِنْ بيْتِ المرأةِ ، فقال له : إنَّه قد كان من أمرِك ما قد علمتَ ، فاعتزِلْنا .

قال : وذهب ليُصلِّىَ بالنَّاسِ الظُّهْرَ ، فمنعه أبو بَكْرَةَ ، فقال : واللهِ ما تُصَلِّى بنا وقد فعلْتَ ما فعلْتَ . فقال النَّاسُ : دَعُوه فليصلِّ ، فإنَّه الأميرُ . ثم تَقارَبوا فى الرِّوايةِ فقاموا : وكَتَبوا إلى عمر ، فبعث أبا موسى أميرًا على البَصْرةِ ، وأمره بلزوم السُّنَّةِ ، فقال : أَعِنِّى بعِدَّةٍ من أصحابِ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، فإنَّهم فى

(١) الأغانى ١٦ : ٩٥ وما بعدها (طبعة دار الكتب) .

هذه الأُمّةِ كالمِلْحِ . قال : خُذْ مَنْ اخترتَ ، فأخذ تسعةً وعشرين رجُلاً ، منهم أنسُ بنُ مالِكٍ ، وعمرانُ بنُ حُصَيْن ، وهشامُ ابنُ عامرٍ ، وخرج بهم فقدِم البصْرةَ ، ودفعَ كتابَ إمْرَتِهِ إلى المغيرةِ وفيه :

أمّا بعدُ : فإنَّه بلغنى نبأٌ عظيمٌ ، فبعثتُ أبا موسى أميرًا ، فسلِّم إليه ما فى يَدِكَ ، والْعَجَل .

فرحَلَ المغيرةُ ومعه أبو بَكْرة والشّهود ، فقَدِموا على عُمَر ، فقال له : المغيرة : سَلْ هؤلاءِ الأَعْبُد كيف رأَوْنى ، أمستقبِلَهم أم مستدبِرَهم ؟ وكيف رأوا المَرأةَ فعَرَفوها ؟ فإنْ كانوا مُسْتَقْبِلِىَّ فكيفَ لم أستَتِر ! وإن كانوا مستَدْبِرِىَّ فبأىّ شىءٍ استحلُّوا النَّظَرَ فى منزلِى على امرأتى ! واللهِ ما أتيْتُ إلاَّ امرأتى ، وكانت تُشْبِهُهَا .

فشهد أبو بَكْرة أنَّه رآه على أمِّ جميلٍ ، يُدْخِلُه كالمِيلِ فى المُكْحُلَةِ ، وأنَّه رآهما مستدبِرَيْن ، وشهد شِبل ونافع مثلَ ذلك .

وأمّا زِياد فإنَّه قال : رأيتُه جالسًا بيْن رجْلَىِ امْرأةٍ ، فرأيت قدميْن مخضُوبَتيْن تَخفِقان ، واستَيْن مكشوفَتَيْن ، وسمعتُ حَفَزَانا شديدًا .

قال : هل رأيت كالمِيل فى المَكْحَلَةِ ؟ قال : لا ، قال : هل تعرِفُ المرأه ؟ قال : لا ، ولكنْ أشبِّهُهَا .

قال : ففتح ، وأمَرَ بالثَّلاثةِ فجُلِدوا الحدَّ ، فقال المغيرةُ : اشْفِنِى من الأَعْبُدِ . قال : اسْكُتْ ، أسكتَ اللهُ نَأْمَتَك ، أما واللهِ لو تَمَّتِ الشَّهادَةُ لرَجمتُكَ بأحجارِك .

وفى هذه السنةِ تزوّجَ عمرُ أمَّ كُلثومٍ بنتَ علىِّ بن أبى طالبٍ ،

وهى بنتُ فاطمةَ بنتِ رسول الله صلَّى الله عليه وسَلَّم ، ودخل بها فى ذى القَعْدة .

وحجّ عُمَرُ رضى الله عنه بالنَّاس فى هذه السنة .

وفى هذه السنة أسلم كعبُ الأحبار .

وفيها ، فى ذى الحجةِ حَوَّل عمرُ رضى الله عنه المقامَ إلى موضعِه اليوم ، وكان ملصقًا بالبيْتِ .

* * *

سنة ثمان عشرة :وفيها ٱستقضى عمرُ شُريحَ بن الحارثِ الكِنْدىّ على الكوفةِ ، وكعبَ بن سورٍ على البَصْرةِ ، وكعْب هذا مِمَّن أسلم على عَهْدِ النَّبىّ صَلَّى الله عليه وسلَّم ولم يَرَه ، وكان لولايته القضاء سببٌ نذكُرُه .

سبب ولاية كعب بن سور قضاء البصرة

حُكِى عن الشَّعبىّ ، أنَّه كان جالسًا عند عمرَ بن الخطَّابِ رضى الله عنه ، فجاءت امرأةٌ فقالتْ : ما رأيتُ رجُلاً [قطُّ] (١) أفضلَ مِن زوجِى ، إنَّه لَيبيْتُ ليلَهُ قائماً ، ونهارَه صائِمًا فى اليوم الحارّ ما يُفطِر ، فٱستغفرَ لها عَمَر ، وأثنى عليها ، وقال : مِثلُكِ أثْنى بالخيْرِ وقاله ، فاستحْيَتْ المرأةُ وقامت راجعةً .

فقال كعبُ بنُ سور : يا أميرَ المؤمنين ، هَلاَّ أعَدْتَ المرأة على زوجِهَا إذْ جاءتك تستعْدِيك ! فقال : أكذلك أرادتْ ؟ قال : نعم ، قال : رُدُّوا علىّ المرأة ، فرُدّتْ . فقال لها : لا بأْسَ بالحقِّ أن تقُولِيه ،

(١) من ص .

إنَّ هذا زعَم أنَّكِ جئْتِ تشتكين أنّه يجتنِب [١] فراشكِ ، قالت : أجَلْ ، إنِّى امرأةٌ شابّةٌ ، وإنِّى أبتغِى ما تبتغِى النِّساء ، فأرسل إلى زوجها فجاء ، فقـال لكعب : اقضِ بينهما ، فقال : أميرُ المؤمنين أحقُّ أنْ يقْضِيَ بينهما ، فقال : عزمْتُ عليك لتقضِيَنَّ بينهما ؛ فإنَّك فهمْت من أمرِهما مالم أفْهَم ! قال : فإنِّى أرى أنَّ لها يومًا من أربعةِ أيّام ؛ وكان زوجُها له أربعُ نسوة ، فإذا لم يكن له غيرُها فإنِّى أقضى لها بثلاثة أيّام ولياليهنَّ يتعبَّدُ فيهِنَّ ، ولها يومٌ وليلةٌ .

فقال عمر : واللهِ جاء رأْيُكَ الأوّلُ أعجبَ إلىَّ من الآخر ، اذهبْ فأنت قاضٍ على أهلِ البصرةِ . فلم يزلْ قاضيًا على البَصْرةِ إلى أنْ قُتِلَ يومَ الجملِ ؛ وذلك أنّه لمّا اصطفّ النَّاسُ للقتال خرج وبيده المُصْحَف فنشرَه ، وجَال بين الصَّفيْنْ يُناشِد النَّامَس فى دمائهم ، فأتاه سهْمٌ غرْبٍ [٢] فقتله .

وقد قيل : إنَّ المُصَحفَ كان فى عُنُقه ، وعليه بُرنُس وبيَدِهِ عَصًا وهو آخِذٌ بخِطام الجَمَلِ ، فأتاه سَهمٌ فقتله .

وروِى أبو عُمَربنُ عبدِ البَرّ رحمه الله بسنده إلى محمد بن سِيرين ، قال : جاءتْ [٣] امرأةٌ إلى عمرَ بن الخطَّابِ ضى الله عنه ، فقالت : إنَّ زوْجِى يصومُ النهارَ ، ويقومُ اللَّيل ، فقال : ماتُرِيدين ؟ أتُرِيدين أنْ أنْهَاهُ عن صِيامِ النَّهارِ ، وقيامِ اللَّيل ! قال : ثم رجَعْتْ

---

(١) ك : « تجنب » .

(٢) سهم غرب ، بالسكون ويحرك : لا يدرى راميه .

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ١٣٠٨ — ١٣٢٠ .

إليه فقالت مِثل ذلك ، فأجابها بِمثلِ جوابِهِ ، ثم جاءت الثالثة فقالت له كما قالتْ ، فأجابها بِمثِل جوابِهِ . وكان عنده كعب بن سُور ، فقال كعبٌ : إنَّها امرأةٌ تشتكِى زوجَها .

فقال عُمر : أمّا إذْا فطِنْت لها فاحكم بينهما ، فقام كعْب : وجاءتْ بزوجها فقالت :

يـأيُّهَا القاضِى الفقيهُ أرْشدُهْ ألهَى حَلِيلى عن فِراشِى مسجِدُهْ
زهدُه فى مَضْجَعِى وتعبُّدُهْ نهارَه وليله ما يَرْقُـــدُهْ
ولستُ من أمرِ النِّساء أحَمُدْه فامضِ القضا ياكعبُ لاتُرَدِّدُهْ

فقال الزَّوْجُ :

إنِّى امرؤٌ قد شفَّنِى ماقدنزلْ فى سُورةِ النُّورِ وفى السَّبْعِ الطِّوَلْ
وفى كتابِ الله تخويفٌ جَلَلْ فرُدَّها عنِّى وعن سُوءِ الجَدَلْ

فقال كعبٌ :

إنَّ السعيدَ بالقضاء مَنْ فَصَلْ ومن قضى بالحقِّ حقًّا وعَدَلْ
إنّ لها عليك حقًّا يا بَعَلْ من أرْبع واحدةٌ لمَنْ عَقَلْ
* امضِ لها ذاك ودَعْ عنكَ العِلَلْ *

ثم قال : أيُّها الرجلُ إنَّ لك أن تتزوَّج من النِّساءِ مَثنَى وثُلاثَ ورُباعَ ، فَلكَ ثلاثةُ أيّامٍ ، ولامرأتِك هذه يومٌ ، ومن أربعِ ليالٍ ليلة ، فلا تُصَلِّ فى ليلتها إلاَّ الفريضة .

فبَعثه عمرُ قاضيًا على البَصْرة . والله تعالى أعلم .

ذكر القحط وعام الرمادة

وفى [١] هذه السّنَة أصابَ النَّاسَ مجاعةٌ شديدةٌ وجَدْبٌ وقَحْط ، وهو عام الرَّمادة ، وكانت الريحُ تَسْفِى تُرابًا كالرّماد ، فسُمِّىَ لذلك عامَ الرَّمادةِ ، وٱشتدّ الجوعُ حتَّى كان الوحشُ يَأْوِى إلى الإنس ، وكان الرجلُ يَذبَحُ الشَّاةَ فيعَافها من فَيْحِها [٢] ، وأقسَمَ عُمَر لا يذوقُ سمنًا ولا لبنًا ، ولا لَحْمًا ؛ حتَّى يَحيَا النَّاسُ .

وكتب إلى الأُمراءِ المقيمين بالأمصار يستغيثُهم لأهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلَها ، فكان أوّل مَنْ قَدِمَ عليه أبو عبيدة بنُ الجراحِ بأربعةِ آلاف راحِلة من طَعام ، فولاَّه عمرَ قِسْمتَها فيمن حولَ المدينة ، فقسَّمَهَا وٱنصَرَف إلى عَمَله ، وتتَابَعَ النَّاسُ ، وٱستغْنى أهلُ الحِجاز .

وأرسلَ عمرُو بنُ العاصِ الطَّعَامَ من مصرَ فى البَرِّ والبحْرِ ، فصار الطعام فى المدينة كسِعْرِ مصرَ .

واسْتسْقَى عمر رضى الله عنه بالعبّاس بنِ عبد المطَّلِبِ عمِّ رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ وذلك أنَّ أهلَ بيتٍ مِنْ مُزَيْنة ، قالوا لصَاحِبِهم وهو بلالُ بنُ الحارثِ : قد هلَكْنَا ، فٱذبحْ لناشاةً ، فقال : ليس فيهنَّ شىءٌ ، فلم يزالوا به حتَّى ذبح فسَلَخَ عن عظْمٍ أحمرَ ، فنادَى : يا محمّداه ! فأُرِىَ فى المنامَ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم أتاه ،

---

(١) الكامل لابن الاثير ٢ : ٣٨٨ .

(٢) ابن الأثير : « قبحها » .

فقال : أَبْشِرْ بالحِياة ، ائتِ عُمرَ فأقرِأْه منِّى السلام ، وقلْ له : إنِّى عهدتُكَ ، وأنت فى العهدِ شديدُ العَقْدِ ، فالكَيْسَ الكَيْسَ يا عمر .

فجاء بلالٌ حتَّى أتى بابَ عمر ، فقال لِغُلاَمه : استأْذِن لرسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، فأتى عمر فأخْبَرَهُ ففزِع وقال : رأيتَ مَسّا ؟ قال : لا . قال : فأدخِلْهُ ، فأَدْخَلَهُ ، فأَخبَرَهُ الخبرَ ،فخرج عمرُ فنادَى فى النَّاسِ ، وصَعِدَ المِنْبَرَ ، قال : نَشَدْتكم الله الَّذِى هداكم للإسلام ، هل رأَيْتم شيئًا تكرهُون ؟ قالوا : اللَّهُمّ لا ، ولِمَ ذاك ؟ فأَخبرهُم فَفَطِنُوا ولم يفطِنْ عمر، فقالوا : إنَّمَا استبطأناك فى الاَستسقاءِ ، فاَستسقِ بنا . فنادَى فى النَّاس ، فخرج وخرج معه العبّاسُ ماشِيًا ، فخطبَ وأَوْجَزَ ، وصلَّى ، ثم جَثَا لركْبَتَيْهِ وقال : اللَّهم عجزَتْ عنَّا أنصارُنا ، وعجزَ عنَّا حَوْلُنَا وقُوَّتُنَا ، وعجزتْ عنَّا أنفسُنا ، ولا حولَ ولا قُوة إلاَّ بك ، اللَّهم فاَسقِنا ، وأَحْيِ العبادَ والبلادَ.

وأخذ بيد العبّاس ، وإنَّ دموعَ العبَّاس تَتَحادَر على لِحيَته ، فقال : اللَّهمّ إنَّنا نتقرّبُ إليك بعمِّ نبيِّك ، وبقيَّةِ آبائه ، وأكبرِ رِجاله، فإنَّكَ تقولُ – وقولُكَ الحقُّ : (وأمَّا الجدارُ فكان لِغُلاميْن يَتِيمَيْنِ فى الْمَدِينةِ) [1] ، فحَفِظتَهما بصلاحِ أبيهِمَا ، فاحفظ اللَّهمَّ نبيَّكَ فى عمِّه ، فقد دَنَوْنا إليْكَ مستشفعِين ومستغفِرين ، ثم أقبلَ على النَّاسِ ؛ فقال : استغفروا ربّكُمْ إنَّه كان غفَّارًا .

والعبّاسُ يقولُ وعَيْنَاه تَذْرِفانِ . ولِحيتُه تَجولُ على صَدْرِهِ : اللَّهم أنتَ الرَّاعى فلا تُهْمِل الضَّالة . ولا تَدَعِ الكبيرَ بدارِ مَضِيَعة ؛

(١) سورة الكهف ٨٢ .

فقد ضرع الصَّغيرُ ، وَرَقَّ الكَبير ، وارتفعت الشَّكْوى ، وأنت تعلَم السِّرَّ وأخفَى .

اللَّهمَّ فأَغْنِهِمْ بغِناك قبلَ أنْ يَقْنَطُوا فيَهلِكوا ؛ فإنَّه لا ييئَسُ إلا القومُ الكافرون .

فنشأَت طُرَيْرة [1] من سحاب ، فقال النَّاس : تَروْنَ ، تَروْن ! ثم مَثَتْ فيها ريحٌ ، ثم هَدَرَتْ ودرّتْ ، فوالله ما بَرِحوا حتّى اعتلقُوا الحذاء ، وقلَّصوا المآزِر ، فَطَفِقَ النَّاسُ بالعبَّاسِ يَمْسَحون أركانه ، ويقولون : هنيئًا لكَ ساقى الحرميْن !

فقال الفضل [2] بنُ العباسِ بن عُتْبة بن أبى لَهبَ فى ذلك :

بعَمِّى سَقَى اللهُ الحجازَ وأَهْلَـــه عشيَّةَ يستسقى بشيبتِهِ عُمَرُ
توجّه بالعبَّاسِ فى الجَدْبِ راغبًـــا إليه ، فما إنْ رامَ حتَّى أتَى المَطَرُ
ومنَّا رسولُ اللهِ فينـــا تُراثُه فهل فوقَ هذا للمُفاخِرِ مُفتَخَرُ

ذكر طاعون عمواس وتسمية من مات فيه

وفى هذه السنةِ كان طاعون عَمواس بالشَّام ، وعَمواسُ قريةٌ بين الرَّمْلة وبيتِ المَقدسِ . قال ابنُ عبدُ البَرّ : وقيل : إنَّ ذلك لقولهم : عم واس . قال ذلك الأصمعىّ .

(١) الطريرة : الطريقة من السحاب .

(٢) ك : « الفضيل بن الفضل » .

مات فيه خمسة وعشرون ألفًا ، منهم : أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ ، واسمه عامرُ بنُ الجرَّاح . وقيل عبدُ الله بنُ عامرِ بنُ الجرَّاح .

قال أبو عُمَر : والصَّحيح (١) أنَّ اسمَه عامرُ بنُ عبد اللهِ ابن الجَّراحِ بن هلالِ بن أهيب بن ضَبَّة بن الحارث بن فِهْرْ بنِ مالك [ابن النَّضر بن كنانة] (٢) القرشيُّ الفهريُّ . شهد بدرًا وما بعدها من المشاهدِ كُلِّها مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم [وهاجر الهِجْرة] (٢) الثانية إلى أرض الحبشة ، وكان نحيفًا معروقَ الوجه ، طُوالا [أَجْنَأ] (٣)

وهو أحد العَشَرةِ المشهود لهم بالجنَّةِ ، وكان رضى اللهُ عنه من كبار الصَّحَابةِ وفُضَلائِهم ، وأهل السَّابقةِ [منهم] (٢) .

قال رسولُ اللهِ صلَّى ا عليه وسلم : لكلِّ أُمَّةٍ أمينٌ ، وأمينُ هذه الأُمَّةِ أبو عُبَيدة بن الجَرَّاح .

وقد تقدَّم فى أثناءِ السِّيرة النَّبويةِ خبرُ وفْد نجران ، وسؤالُهم أنْ يبعثَ معهم مَنْ يَحكمُ بينهم ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم : « ائتونى العشيَّةَ أبعثْ معكم القويَّ الأمينَ » ، فبعثَه معهم .

ورُوِىَ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضى الله عنه : أنَّ أهلَ اليَمَنَ قَدِموا على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقالوا : ابعَثْ معنا رجلاً يعلِّمُنَا . فأَخَذَ بيَدِ أبى عُبَيدة ، وقال : هذا أمينُ هذه الأُمَّةِ .

وقال أبو بكر رضى الله عنه يومَ السَّقيفة : قد رضيتُ لكُمْ أحَدَ هذين الرَّجُلَيْنِ ، يعنى عُمَرَ وأبا عُبَيْدَة .

---

(١) والاستيعاب ٧٩٤ .

(٢) من ص .

(٣) رجل أجنأ : أشرف كاهله عن صدره

وقال له عُمرُ رضىَ الله عنهما ؛ إذ دخل عليه الشّام ، وهو أميرها : كُلُّنَا غيَّرتْهُ الدُّنيا غيرك .

وكانت سِنُّه يوم تُوفِّىَ ثمانيًا وخمسين سنةً ، وكانتْ وفاتُه رضى الله عنه بالأُرْدُنّ ، وصَلَّى عليه مُعاذ بنُ جَبَل ، ونزل فى قبره هو وعَمرو ابنُ العاصِ ، والضَّحّاكُ بنُ قيسٍ .

وقبرُ أبى عُبيدَة بالقُربِ من قرية عَمْيَا مِن غَوْرالشَّام معروفٌ هناكَ ، قد زُرْته أنا غيْرَ مرَّةٍ رضى الله عنه .

ومنهم[1] : معاذُ بنُ جبلٍ ، وهو أبو عبدِ الرّحمنِ معاذُ بنُ جبلِ ابنِ عمرو بنِ أوسِ بن عائذِ بنِ عَدِىّ بن كعبِ بنِ عمرو بنِ إدّى ابن سعد بن علىّ بنِ أسد بن شاردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصارىّ الخزرجى ثم الجُشَمىّ .

وقد نسبَهُ بعضُهم فى نَسَبِ بنى سلِمةَ بنِ سعد بن علىّ ، قال ابن اسحاق : معاذُ بنُ جبلٍ من بنى جُشَم بن الخزرج ، وإنَّما ادَّعتْه بنو سلِمة ، لأنَّه كان أخا سَهْل بن مُحمَّد بنِ الجدّ بنِ قَيْس لأُمّه .

قال الواقدىُّ وغيرُه : كان معاذُ بنُ جبلٍ طُوالاً ، حَسَنَ الشَّعْرِ عظيمَ العنينيْن ، أبيضَ ، بَرَّاقَ الثَّنَايا ، لم يُولَدْ له قطُّ .

وقال ابنُ الكلبىّ ، عن أبيه : إنَّه ولد له عبد الرّحمن بن مُعاذ . مات بالشام فى الطّاعون أيضًا ، فانقرض بنو إدّى بموْته .

وقيل : إنّ عبدَ الرحمنِ قاتَلَ مع أبيه يومَ اليَرْموكِ . ومعاذ بن جبلٍ أحد السَّبعين الَّذِين شَهِدُوا بَيْعةَ العَقَبةِ ، وآخىَ رسولُ اللهِ صلَّى الله

(١) أى وممن توفى فى هذه السنة .

عليه وسلَّم بينَه وبين عبدِ الله بنِ مسعود ، قاله الواقدىّ ، وقال : هذا ما لا خلافَ عندنا فيه .

وقال ابن اسحاق : آخَى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بينه وبين جعفر بن أبى طالبٍ .

شهد مُعاذ بَدْرًا والمشاهِدَ كلَّهَا ، وبعثَة رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قاضيًا إلى الجَنَدِ من أرضِ اليَمَنِ ، يعلِّمُ النَّاسَ القرآن وشرائعَ الإسلام ، ويَقْضِى بينهم ، وجعل إليه قَبْضَ الصَّدقاتِ من العمَّالِ الَّذِين باليَمَنِ ، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم قد قَسَّمَ اليمن على خمسةِ رجالٍ : خالد بن سعيد على صَنْعَاء ، والمُهاجِر بن أبى أُمَيَّةَ على كِنْدة ، وزيادبن لَبيد على حَضْرَمَوْتَ ، ومعاذ بن جبلٍ على الجَنَدِ ، وأبى موسى الأشعرى على زَبِيد وزَمعة وعَدَن والسَّاحل .

وقال له رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم حين وَجَّهَهُ إلى اليمن ، بمَ تَقْضى ؟ قال : بما فى كتاب الله عزَّ وجلّ . قال : فإنْ لم تجده ؟ قال بما فى سنَّةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، قال : فإن لم تجدْ ؟ قال : أجتهدُ برأْيى . فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « الحمد لله الَّذى وفَّق رسولَ رسول الله لما يحبُّ رسولُ الله » .

وروى أبو عُمَر بن عبدالبّر بسنده عن كعب بن مالكٍ ، قال : كان [1] معاذ بنُ جبلٍ شابًّا جميلاً ، من أفضلِ شباب قوْمه [2] ، سَمْحا ، لايُمْسِكُ ؛ فلم يزلْ يَدّانُ حتَّى أغلق مالَه كلَّه من الدَّين ، فأتى

(١) الاستيعاب ١٤٠٢ وما بعدها .

(٢) الاستيعاب : « من أفضل سادات قومه » .

النَّبىَّ صلَّى الله عليه وسلم ، فطلبَ إليه ان يسأَل غُرماءه أن يَضعوا له ، فأَبَوا ، ولو تركوا لأَحدٍ مِنْ أَجلِ أحدٍ لتركوا لمعاذ بن جبلٍ من أَجْلِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فباعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله كلَّه فى دينِهِ ، حتَّى قام معاذٌ بغير شيءٍ ، حتى إذا كان [عام][1] فتح مكَّة ، بعثه النبىُّ صلى الله عليْه وسلَّم إلى طائفةٍ من أَهل اليمن ليجبره فمكث معاذٌ باليَمَنِ أميرًا .

وكان أوّل من اتَّجر فى مالِ الله هو ، فمكثَ حتَّى أصابَ وحتَّى قُبض رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. فلمّا قَدِم قال عمرُ لأَبى بكرٍ : ارسلْ إلى هذا الرّجلِ فدعْ له مايعيِّشُه ، وخُذْ سائرَه منه ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : إنَّما بعثَهُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ليجبره ، ولستُ بآخذٍ منه شيئًا ؛ إلاّ أنْ يُعْطِيَنِى. فانطلق عمر إليه إذ لم يُطعْه أبو بكر ، فذكر ذلك لمعاذ ، فقال معاذٌ : إنَّما أرسَلَنى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم ليجْبرنى ، ولستُ بفاعل ، ثمّ أتى معاذ عمرَ وقال : قد أطَعْتُك ، وأنا فاعِلٌ ماأمرتَنِى به ، إنّى رأيتُ فى المنامِ أنِّى فى حَوْمةِ ماءٍ ؛ قد خشيتُ الغرقَ فخلَّصْتَنِى منه ياعمر .

فأَتَى معاذُ أبا بكرٍ ، فذكر ذلك له ، وحلف لَهُ أنَّه لايكتُمهُ شيئًا فقال أبو بكر : لا آخذ منك شيئًا ، قد وهبْتُه لك ، فقال : هذا خير حَلٌّ[2] ،وَطاب ، فخرج معاذ عند ذلك إلى الشام . قال أبو عمر : كان عمر قد استعمله فى الشام [حين مات أبو عبيدة][3] ولما مات

(١) من الاستيعاب .
(٢) فى الأصلين : « حين » ، والمثبت من الاستيعاب .
(٣) من ص .

أبوعبيدة ، استعمل عمر بنُ الخطَّاب معاذَ بنَ جبلٍ على الشَّامِ ، فماتَ مِنْ عامه ؛ وذلك فى الطَّاعون ، فاستعمل موضِعَهُ عمرَو بنَ العاصِ .

وقال المدائنىّ : ماتَ معاذٌ بناحية الأَرْدنِّ فى طاعون عَمْواس فى سنة ثمانى عشرة ، وهو ابنُ ثمانٍ وثلاثين .

وقال غيره : كان سِنُّهُ يوم مات ثلاثًا وثلاثين سنة .

وقبرُ معاذ بغوْرِ الشَّام ، بالقربِ من قرية[1] القُصَيْر من شرقيِّها معروف هناك ، قد زُرْتَهُ غيرمرَّةٍ ، وبينه وبين قبْرِ أبى عُبَيْدة نحو من [مَرْحَلَة] [2] .

ومنهم يزيدُ بنُ أبى سُفْيان بن حَرْبِ بنِ أُميَّة بن عبد شمسِ ابن عبد مناف ، كان أفضلَ بنى أبى سُفْيان ، وكان يقال له يزيدُ الخير . أسلَم يومَ فتح مكَّةَ ، وشهد حُنَيْنًا ، واستعمَلَه أبو بكْرٍ رضى الله تعالى عنه وأوْصاه [3] ، وخرج يشيِّعُه راجِلاً .

وروى أبو بِشْر الدُّولابىّ : أنَّه مات سنة تسعٍ عشرة بعد أن افتتح قِيساريَّة .

ومنهم الحارثُ بنُ هشام بن المغيرة بنِ عبد الله بن عمر بنِ مخزوم القرشىّ المخزومىّ ، وهو أخو أبى جَهْلٍ لأبويه .

أسلَمَ يومَ الفتح ، وحَسُن [4] إسلامُه ، وشَهد حُنَيْنًا ، وأعطاه

(١) ك : « عمارة » .
(٢) تكملة من ص .
(٣) ك : « فأرضاه » .
(٤) ك : « وشهد إسلامه » .

رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مائةً من الإبل ، وأعْطى المؤلَّفةَ قلوبهم ، ثم خرج إلى الشَّامِ فى خلافة عمرَ رضى الله عنه راغبًا فى الرِّباطِ والجهادِ فتبعه أهل مكَّةَ يبكون فِراقَه ، فقال : إنَّها النَّقْلةُ إلى الله تعالى ، وما كنتُ لأُوثِرَ(١) عليكم [أحدا] (٢) ، فلم يزلْ بالشَّام يجاهد حتَّى مات فى طاعون عَمواس .

وقال المَدائنىّ : إنَّه قُتِلَ يومَ اليَرْموك ، فى شهر رجب سنة خمس عشرة ، والله سبحانة وتعالى أعلم .

ومنهم سُهَيلُ بنُ عمرو بن عبدِ شمس بن عبد ودّ بنِ نضر بنَ مالك بن جبل بنِ عامر بنِ لؤىّ بنِ غالب القرشىّ العامرىّ . يُكْنَى أبا يزيد ، وكان أحد الأشراف من قريْش وسادتهم ، وهو الَّذى عاقَدَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يوم الحُدَيْبِيَة وقاضَاه كما تَقَدَّم .

أسلم يومَ الفتحِ وحَسُنَ إسلامُه ،وقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم لعمر بنِ الخطابِ فى سُهَيل بنِ عمرو : « دَعْه فَعَسى أنْ يقومَ مقامًا نَحْمدَهُ » ، فكان المقامَ الَّذى قامه فى الإسلام أنَّه لما ماج أهلُ مكَّة عند وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، وارتدَّ من ارتدَّ من العرب ، قام سُهيلٌ خطيبًا فقال : واللهِ إنِّى لأعلمُ أنَّ هذا الدِّينَ سيمتدُّ امتداد الشَّمسِ من طُلُوعها إلى غروبها ، فلا يغرَّنكم هذا عنْ أنفُسِكم ، ـ يعنى أبا سفيان ـ فإنَّه يَعلمُ مِن هذا الأمرِ ماأعلَم ؛ ولكنه قد جَثَم على صَدْرِه بَحسدِ بنى هاشم .

---

(١) ك : « الأمير » تحريف .

(٢) تكملة من ص .

وأتى فى خطبتة بِمثل ما جاءبه أبو بكر الصِّديق رضى الله عنه بالمدينة.

وَرَوى ابنُ المُبارَكِ عن جريرِ بنِ حازم[1] ، قال : سمعتُ الحسن يقول : حضر النَّاسُ بابَ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، وفيهم سهيلُ بنُ عمرو ، وأبوسُفْيان بن حَرب ، وأولئك الشيوخُ من قريشٍ ، فخرج آذِنُه فجعل يأْذَن لأَهِل بَدْرٍ ، لِصُهَيْب وبِلال . فقال أبو سفيان : مارأيتُ كاليومِ قطُّ ؛ إنَّه ليؤْذَن لهؤلاء العبيدِ ونحن جلوسٌ لايُلتَفت إلينَا ! فقال سهيلٌ : أيُّها القومُ : إنِّى والله قد أرى الَّذى فى وُجوهِكم ، [فإن كُنْتُم غِضابًا فاغضَبوا على أنفسكم ، دُعِىَ القومُ ودُعيتُم ، فأَسْرَعُوا وأبطأْتُم .

أمَا والله لمَا سَبَقو كم به مِنَ الفَضْلِ أشدُّ عليكم فَوْتًا من بابِكُم هذا الَّذِى تَنافَسون عليه ، ثم قال : أيُّها القومُ ، إنَّ هؤلاء القومَ قد سبقوكم بما ترَوْنَ ، ولا سبيل إلى ماسبقوكم إليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزَمُوْه ، عسى أن الله يرزقَكُمْ شهادةً ثم . نَفَض ثوبَه فقامَ ولَحِقَ بالشَّامِ .

وقال المَدائنىّ : إنَّه قُتِلَ باليَرْموك ، والله تعالى أعلمُ .

ومنهم : عُتْبَةُ بنُ سُهَيْلٍ ، وعامر بنُ غَيْلانَ الثَّقَفى ، مات وأبوه حَىٌّ ، ومات غيرُ هؤلاء ، رحمهم الله تعالى .

---

(١) ك : « حاذرة » تحريف .

ذكر قدوم عمر الى الشام بعد الطاعون

قال [١] : لمّا هلكَ النَّاسُ بالطاعون ، كتب أُمراءُ الأَجنادِ إلى عمر رضى الله عنه بما فى أَيدِيهم من المَواريث ، فجَمَع النَّاسَ واستشارَهم وقال لهم : قد بدا لى أَن أَطوفَ على المسلمين فى بُلْدانهم ؛ لأَنظرَ فى آثارهِم ، فأَشِيروا علىَّ ، وكان أَراد أَن يَبْدأَ بالعِراقِ ، فصرف كعبُ الأَحبارِ رأْيَه عن ذلك ، فخرج إلى الشَّام ، واستخلَفَ على المدينةِ علىّ بن أَبى طالب ، وجعل طريقه على أَيْلة ، فلما دنامنها رَكِبَ بعيره وعلى رَحْله فرْوٌ مقلوبٌ ، وأَعطى غلامَه مركَبَهُ ، فلمّا تلقَّاه النَّاسُ قالوا : أَين أَميرُ المؤمنين ؟ قال : أَمامكم - يَعنِى نفسَه - فساروا أَمامَه ، وانتهى هو إلى أَيْلَةَ فَنزَلها .

وقيل للمتلقِّين : قد دَخَل أَمير المؤمنين ، فرجَعوا ، وأَعطى عُمَرُ الأَسُقُفَّ [٢] بها قَميصَهُ وقد تخرَّقَ ظهْرُه ؛ ليغسِلَهُ ويرقَعَهُ ، ففعل ، وأَخَذه ولَبِسه ، وخاطَ له الأَسقفُ قميصًا غيرَه ، [فلم يأْخذه] [٣]

فلمّا قدِم إلى الشامِ قسَّم فيها الأَرزاق ، وسَمَّى الشَّواتى والصَّوائفَ ، وسدّ فُروجَ الشام ومسالِحَها ، وأَخذ يَدُور بها ، واستَعمل عبيد الله بن قيس على السَّواحلِ من كُلّ كُوَرة ، واستعمل معاوية على دِمَشْقَ

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٩٣ .

(٢) الأسقف عند النصارى . القسيس ، وهو دون المطران .

(٣) من ص .

وخَراجها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبى سُفْيان ، وعزل شرحبيلِ بنَ حَسَنة ، وقام بعذره فى النَّاس ، وقال : إنىّ لم أعزِلْه عن سَخْطَةٍ ، ولكنِّى أريدُ رجلاً أقوى مِنْ رجلٍ ، وكان شُرَحْبِيل على خَيْل الأردنّ ، فضمّ ذلك إلى معاوية .

قال : ولمّا قَدِم عمر رضى الله تعالى عنه تلقَّاه معاوية فى موكِب عظيم ، فلما رآه عمر قال : هذا كِسْرَى العَرَب ، فلمَّا دنا منه قال : أنت صاحبُ الموكِبِ العظيم ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، قال : مع مايَبْلُغُنِى مِنْ وقوفِ ذوى الحاجاتِ ببابِكَ ! قال : مع مايَبْلُغُكَ من ذلك ، قال : ولِمَ تفعل هذا ؟ قال : نحن بأرض ، جَوَاسِيسُ العدوّ بها كَثيرةٌ ، فيجبُ أنْ نُظهِرَ مِن عِزِّ السلطان مايُرْهِبُهم ، فإنْ أمرتَنِى فعلْتُ ، وإنْ نهيْتَنِى انتهيْتُ . فقال عُمر : يامعاوية ، ماأسألك عن شىءٍ الاتركْتَنِى فى مثِل رواجِبِ الفرس[1] ، لئن كان ماقلْتَ حقًّا ، إنَّه لرأىُ لبيب ، وإنْ كان باطلاً إنَّها لخدعةُ أرِيب .قال : فمرْنِى ياأمير المؤمنين . قال : لا آمُرُكَ ولا أنها ك .

قال عمرُو بنُ العاصِ : ياأمير المؤمنين ، ماأحسنَ ماصدَر هذا الفتى عما أوردتهَ فيه . قال : لحُسن مَصَادِرِه ومواردِه جَشَّمنَا ما جَشَّمنَاه .

وَروَى أبو عمَر بنُ عبدِ البَرّ :أنَّ عمر بن الخطَّابِ رَزَق معاوية على عمله بالشَّام عشرَة آلافِ دينار فى كُلِّ سنةٍ .

قال المؤرِّخ : واستَعمل عمرُ رضى الله عنه عمرو بن عنبسةَ على

(١) الرواجب : مفاصل أصول الأصابع .

الأهراء[١] ، وقسم مواريث أهل عَمْواس ، فورثَ بعضُ الورثَةِ من بَعْضٍ ، وأخرجها إلى الأحْيَاء ، من ورثةِ كلٍّ منهم ، ورجع عمرُ إلى المدينة فى ذى القَعْدة من السَّنَةِ .

قال : ولمّا كان بالشّام وحضرت الصَّلاةُ قال له النَّاس : لو أمَرْت بِلالاً فأذَّن ! فأمرَه ، فأذَّن ، فما بقىَ أحَدٌ ممَّن أدرك النبىَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وبلالٌ يؤذِّن إلاَّ بكى حتَّى بلَّ لِحْيَتَهُ ، وعمرُ أشدُّهم بُكَاءً ، وبكى مَنْ لمْ يدْرِكْهُ لبُكائهم .

وحجَّ عمرُ رضى اللهُ بالنَّاسِ فى هذه السَّنَةِ .

• • •

سنة تسع عشرة : فى هذه السنةِ سالتْ حرَّة ليلى وهى بالْقُرْبِ من المدينة نارًا ، فأمرَ [عُمرُ] [٢] بالصَّدقةِ ، فتصدَّقَ النَّاسُ ، فانطفأتْ . وفيها مات أُبىُّ بن كعْبٍ . وقيل : مات سنةَ عشرين ، وقيل اثنتين وعشرين . وقيل : اثنتين وثلاثين ، والله تعالى أعلم .

وحجَّ عمرُ رضى اللهُ تعالى عنه بالنَّاس فى هذه السَّنةِ .

• • •

سنة عشرين من الهجرة : فى هذه السَّنةِ عَزَل عمر رضى الله عنه قدامةَ بنَ مظعون [٣] عن البحرين ، ووَلَّى عثمان بنَ أبى العاص .

---

(١) ك : « الأهواز ، تحريف .

(٢) من ص .

(٣) بعدها فى ابن الأثير : « وحده فى شرب الخمر » .

وقيل: بل استَعمَل أبا هُريرة على البحرين، واليمامة (١)، [وقيل: استعمل أبا بكْرة على البحرين واليمامةَ](٢).

وكان سببُ عزْلِ قُدامة، أنَّ الجارودَ بنَ المعلَّى سيّد عبد القيْسِ قدِمَ على عمرَ من البحرين، فقال: ياأمير المؤمنين، إنَّ قدامةَ شَرِبَ فسَكِر، وإنِّى رأيْتُ حدًّا من حدُودِ اللهِ حقًّا علىَّ أن أرْفعه إليك. فقال عمرُ: مَنْ يَشْهَدُ معك؟ فقال: أبوُ هريرة، فدعا أبا هريرة فقال بِمَ تشْهَدُ؟ قال: لم أرَهُ يشْرَبُ، ولكنْ رأيتُه سَكران يَقِىءُ. فقال عمرُ: لقد تنطَّعْتَ فى الشَّهادةِ.

ثُم كَتب إلى قُدامة أن يَقْدَمَ عليْه من البحريْن، فقدم، فقال الجارودُ: أقِمْ على هذا حدَّ كتابِ اللهِ. فقال عمرُ: أخصْمٌ أنت أم شهيد؟ [فقال: شَهيد](٢). فقال: قد أدّيْتَ شهادَتك.

فصَمَتَ الجارودُ، ثم غَدا على عمرَ فقال: أقِمْ على هذَا حدَّ اللهِ فقال عمرُ: ما أراك إلاَّ خَصْمًا، وما شهدَ أحدٌ بعدُ إلاَّ رجُلاً واحدًا.

فقال الجارودُ: إنِّى أنشدُكَ اللهَ! فقال عمرُ: لتُمسِكنَّ عنِّى لسانَكَ وإلاَّ سُؤْتُكَ. فقال: ياعمرُ، أما والله ماذَاكَ بالحقِّ أن يشْربَ ابنُ عمِّك الخَمْرَ وتسوءنى! ثم قال: ياعمرُ، إنْ كنتَ تشك فى شَهادَتِنَا فأرسِلْ إلى ابنةِ الوليدِ فسلْهَا، وهى امرأة قُدامة.

---

(١) فى ابن الأثير: «واستعمل أبا بكرة على اليمامة والبحرين.

(٢) من ص.

فأرسل عمرُ إلى هند ابنة الوليد ينشدها ، فأقامت الشَّهادَةَ على زَوجِهَا ، فقال عمرُ لقُدَامة : إنّ حادُّك ، فقال : لو شربتُ كما يقولون ما كان لكم أن تَحدّونى ، فقال عمرُ : لِمَ ؟ قال قدامةُ : قال الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْس علَى الذِين آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ جُناحٌ فيما طعموا إذا ما اتَّقَوْا وآمنُوا . . . ﴾ (١) الآية .

فقال عمرُ : أخطأتَ التأويلَ ، إنّك إذا اتَّقيْتَ الله اجتنبْتَ ماحرَّمه علَيْكَ ، ثم أقبل عمرُ على النَّاس فقال : ماترونَ فى جَلْدِ قُدامَة ؟ فقالُوا : مانرى أن تَجلدَه ماكان مريضًا ، فسكتَ على ذلكَ أيّامًا ، ثم أصبحَ يومًا قد عزَمَ(٢) على جَلْدِه ، فقال لأصحابه : ماترون فى جَلْدِ قدامة ؟ فقالوا : مانرى أن تجْلِدَه ما كان وَجِعًا ، فقال عمر : لأنْ(٣) يَلقَى الله تحتَ السِّياط أحبُّ إلىّ من أنْ ألقاه وهُو فى عُنُقى . ائتُونِى بَسوْطٍ تامٍّ ، وأمَر بُقدامه فجُلِدَ ، فغاضَبَ قدامةُ عمرَ وهَجَره ، [فلم يزل كذلك حتَّى حجّ عمر وقدامةُ معه ، فلمّا قَفَلاَ مِنْ حَجِّهما ، ونزل عمر بالسُّقْيَا نام ، فلمّا استيقَظَ قال : عجِّلوا علىَّ بُقدامة ، فوالله لقد أتانى آتٍ فى مَنَامِى فقال : سَالِمْ قُدامةَ فإنَّه أخوكَ .

فلمّا أتوْهُ أبَى أنْ يأْتِيَ ، فأمر عمرُ به إنْ أبى أن يَجُرُّوه إليه ، فجاءه فاستغفرَ له عمرُ وكلَّمَهُ ، فكان ذلك أوّل صُلْحِهما .

---

(١) سورة المائدة ٩٣ .
(٢) ص : « قدم » .
(٣) ك : « لئن » .

حكاه أبو عُمَر . قال : وكان قدامةُ خالَ عبدالله وحفصةَ ابنَىْ عمرَ رضى الله عنهم (١) .

ذكر اجلاء يهود خيبر منها

وفى هذه السَّنَةِ أَجْلَى عمرُ رضى الله عنه يهودَ خَيْبَر ، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لمّا فتح اللهُ عليه خيبر ، دَعَا أَهلَها فقال لهم : إنْ شئتم دفعْتُ إليكم هذه الأَموال [على](٢) أن تُعملوها ، وتكون ثِمارُهَا بيننَا وبيْنكُم ، وأَقِرُّكُمْ على ماأَقرَّهُ اللهُ عزَّ وجلّ . فقَبِلوا ذلك [واشترط عليهم](٢) ،أنَّا متَى شِئْنَا أَنْ نخرجَكُم أخرجْنَاكُمْ ، وقَدْ تقدَّمَ ذكرُ ذلك مستوفًى فى السِّيرةِ النَّبويّة ، فى غَزاةِ خَيْبر .

فلمّا قُبِضَ رسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم أَقرَّهم أبو بكرٍ رضى الله عنه على ماأَقرَّهم عليه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأَقرَّهُمْ عمُر رضى الله عنه بعدَه إلى هذه السَّنةِ .

ثم بلغَهُ أَنَّ رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال فى وجَعِه الَّذِى قبضَهُ اللهُ فيه : « لايجتمِعَنَّ فى جَزِيرة العربِ دِينانِ » ، ففَحص عن ذلكَ حتَّى أَتاه الثَّبْت ، فأَرسلَ إلى يهود فقال : إنَّ الله قد أَذِن لى فى إجْلائِكم ، وقَدْ بلغَنِى أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، قال : لايجتمعَنَّ بجزيرة العربِ دينانِ ، فمن كان عنده عَهْد من رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلم فليأْتِنِى به أُنْفِذه له ، ومن لم يكُنْ عنده عَهْدٌ

(١) الاستيعاب ١٢٧٧
(٢) من ص .

فليتجهّز[١] للجَلاء ، فأَجْلَى مَنْ لَمْ يكن عندَهُ عَهْدٌ مِنْ رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم .

وقال ابنُ إسحاق : حدّثنى نافعٌ مولَى عبد الله بنِ عُمَر ، عن عبد الله بن عمر قال : خَرجْتُ أنا والزُّبيرُ بنُ العوّامِ ، والمقدادُ ابنُ الأَسْوَدِ إلى أموالنا بخَيْبَر نتعهّدها ، فلمّا قَدِمنا تفرقنا فى أَمْوالنا .

قال عبد اللهِ : فعَدا[٢] علىّ تحت الليل شىءٌ وأنا نائمٌ على فِراشى ، فنزعْتُ يَداى مِنْ فرَقى[٣] ، فلمّا أصبحْتُ استصْرختُ علىّ صاحباى ، فَأَتَيانى فسألانى : مَنْ صنع بك هذا ؟ فقلتُ : لاأدرى ، فأَصلَحانى ثم قَدِما بى على عمرَ ، فقال[٤] : هذا عمل[٥] اليهود .

ثُمّ قام فى الناس خَطيبًا فقال : أيُّها النّاس ، إنَّ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم كان عامَل يهود خيْبَر على أنّا نخرجُهُمْ إذا شِئْنَا ، وقد عَدوْا على عبدالله بنِ عمر ، فقدعوا يديْه كما بلغكم ، مع عَدْوتِهم على الأنصارِىّ قَبْله ، لانشكّ أنّهم أصحابُه ، ليس هناك عدوٌّ غيرُهُم ، فمن كان له مال بخيبَر فليلحق به ؛ فإنّى مخرجٌ اليهود ، فأخرجهم .

قال : ورَكب عمرُ فى المهاجرين والأنصار ، وأخرج معه جبار ابن صخرِ بن أُميّة – وكان خارِص[٦] أهلِ المدينة وحاسِبَهم – وزيدَ

(١) ك : « فليستجهز » .
(٢) ك : « فعدا » .
(٣) ك : « مرفق » .
(٤) ك : « فقلت » .
(٥) ك : « عملت » .
(٦) الخارص : هو الذى يقطع النخل ، وفى ك . « حارص »

ابنَ ثابت ، وهما قسّما خيبرَ على أهلِها على أصلِ جماعةِ السُّهْمان التى كانت عليها .

وفيها أيضًا أجْلِىَ نصارىَ نَجْرانَ إلى الكُوفة .

وفيها بعث عمر علقمة بن مجزز المدلجى إلى الحبشة ، وكانت تطرفت بلاد الشام ، فأُصيبَ المسلمون ، فجعل عمرُ على نفسه ألاَّ يحملَ فى البحر أحدًا أبدا - يعنى للغَزْو .

وقيل : كان ذلك فى سنة إحدى وثلاثين فى خلافة عثمانَ رضى الله عنه . ، .

* * *

ذكر عزل سعد بن أبى وقاص عن الكوفة

ومن ولىَ بعدَه فى هذه السنة

سنة إحدى وعشرين : [وفى هذه السنة] [1] عزلَ عمرُ بنُ الخطابَ رضى الله عنه سعدَ بنَ أبى وَقَّاص عن الكوفة ؛ حين شكاهُ أهلُهَا ، ووَلَّى عمَّار بنَ ياسِر الصَّلاة ، وعبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ بيتَ المال ، وعثمان ابنَ حُنيف مساحَةَ الأرضِ ، ثم عَزَل عَمّارًا ؛ لأنّ أهلَ الكُوفةِ شَكَوْه ، فاستَعْفَى .

وأعاد سَعْدًا على الكوفةِ ثانيةً ، ثم عَزَله ، وولىّ جُبَيْر بنَ مُطعِم ، ثم عَزَله قبلَ أنْ يَخرُج إليها ، وكان سببُ عزله أنّ عمرَ رضى الله عنه ولاه ، وقال له : لا تذكُرْه لأحد ، فسمع المغيرةُ بنُ شُعْبة أنّ عمرَ

(١) من ص

خلا بُجبيرِ بنِ مُطعم ، فأرسلَ امرأته إلى امرأةِ جُبَيْر لتعرِضَ عليها طعامَ السَّفرِ ، فقالت : نعم ، جِيئينى به .

فلمّا علم المغيرةُ جاء إلى عمرَ ، فقال : بارك الله لك فيمَنْ ولَّيْتَ . وأخبَرَهُ الخبرَ ، فعَزَله ، وولَّى المغيرةَ بنَ شعبة الكُوفة ، فلم يزلْ عليها إلى أن قُتِلَ [عُمَر] (١) .

وقيل : إنّ عمر رضى الله عنه لمّا أراد أن يُعيدَ سَعْدًا إلى الكُوفَةِ أَبَى عليه ، وقال : أتأْمُرنى أنْ أعودَ إلى قوم يزعمون أنِّى لا أُحسِن أنْ [أُصَلِّىَ ، فتَرَكه ووَلَّى خالد بَن الوليد] (٢) .

وقيل : فى سنة اثنتين وعشرين ، قيل : كانت وفاتُه بِحمْص ، ودُفِن فى قريةٍ على مِيلٍ منها . وقيل : بل تُوفِّىَ بالمدينة .

ولمّا حضرتْه الوفاةُ قال : لقد شهدتُ مائةَ زحْفٍ أوزُهاءها وما فى جَسَدى موضعُ شِبْرٍ الاَّ وفيه ضَربةٌ أو طَعْنةٌ أو رَمْيَةٌ ، ثمّ هأنذا أموتُ على فِراشى كما يموتُ العَيْرُ ! فلا نامت أعيُن الجُبَنَاء .

حَكى أبو عمَر : أنَّه لَم تَبقَ امرأةٌ من بَنى المُغيرة إلاَّ وضَعَتْ لِمَّتهَا على قبرِ خالدِ بنِ الوَليد ، أى حلقَتْ رأْسَهَا .

قال المؤرِّخ : وكان الأُمراءُ فى هذه السّنةِ على الأَمصار ، عُمَير بن سَعْد على دِمَشق وحَوْران وحِمْص وقِنَّسْرِين والجَزيرة . ومعاوية

---

(١) من ك .

(٢) من ص

ابن أبى سُفيَان على البَلْقاء والأُرْدنّ وفِلَسْطِين والسَّواحل وأنطاكِيَة وقلقية ومَعّرة مصرين ، والعمّال على بقية الأمصار مَنْ ذَكَرْنا .

وفيها وُلِدَ الحسنُ البَصْرِى والشّعبىُّ . وفيها مات العلاءُ [ابنُ] (١) الحَضْرمىّ أميرُ البحْرين ، فاستَعْملَ عمرُ رضى الله عنه مكانَه أبا هُريرة .

وحجَّ عمرُ رضى الله عنه بالنَّاس ، واستخْلَفَ على المدينة زيدَ بنَ ثابت.

* * *

سنة اثنتين وعشرين: فى هذه السنَّةِ وُلِدَ يزيدُ بنُ معاوية ، وعبدُ الملكِ بنُ مروان ، وكان عمّالُه على الأمصار مَنْ ذَكَرْنا إلاَّ الكوفةَ والبَصْرة ؛ فإنّ عاملَه على الكُوفةِ المغيرةُ بنُ شعبةَ ، وعلى البصْرةِ أبو موسى .

* * *

سنة ثلاث وعشرين : وفى هذه السنَّةِ حجَّ عمرُ رضى الله عنه بالنَّاسِ ، وحجَّ معه أزواجُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وهى آخر حجَّةٍ حجَّها .

وفيها كان مَقْتَلُ عمرُ رضىَ الله عنه وأرضاه بمنِّه وكرمِه .

---

(١) من ص

ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب

ومدة خلافته

قد[1] اختُلف فى تاريخِ مَقْتَلِهِ رضىَ اللهُ عنه ، فقال الواقدىُّ : لثلاثٍ بَقِين من ذى الحِجَّةِ سنةَ ثلاثٍ وعشرين . وقال الزُّبير : لأربعٍ بَقِين من ذى الحِجّة .

وروِىَ عَنْ مَعدانَ بن أبى طلحة اليَعْمُرىّ ، قال : قُتِلَ عمرُ يومَ الأربعاءِ لأربعٍ بَقين مِنْ ذى الحِجّة .

وكانت خلافَتُهُ رضى الله تَعَالى عَنْه عَشْرَ سنين ونصفًا وخمسَ ليالٍ ، وعمرُهُ ثلاثٌ وسِتُّون سنةً على الصَّحيح .

وقتلَهُ أبو لؤلؤة غلامُ المغيرةَ بنِ شُعبة ؛ وذلك أنّ عمرَ رضى الله عنه خرجَ يومًا يطوفُ فى الأسواق ، فلقيَهُ أبو لؤلؤة فَيْرُوز – وكان نصرانيًّا ، وقيل : مَجُوسيًّا – وقد ذكرْنا ما كان يقوله لمّا قَدِم سَبْىُ نَهَاوَنْد : أَكَل عمرُ كَبِدِي ، فلمّا لقِيَه قال : يا أميرَ المؤمنين ، أَعْدِنِى على المغيرة بن شعبة ؛ فإنّه يكلِّفُنى خَراجًا كثيرًا ، قال : كم يحمِّلك؟ قال : مائة درهم فى الشّهر. وقيل : إنّه قال : درهمان فى كلّ يومٍ ، قال : وما صناعتُكَ ؟ قال : نجّارٌ نقّاش حدّادٌ . قال : فما أرى خراجَكَ كثيرًا على ما تَصنَع من الأعمالِ ، وقد بلغنى أنّكَ تقولُ : لو أردتُ أنْ أصنَعَ رحاً تَطَحنُ بالرِّيحِ لفعلْتُ . قال : نعم ، قال :

(١) انظر خبر مقتله رضى الله عنه فى تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٦ وما بعدها

فاعمْل لى رحًا . قال : إنْ سلِمْتُ لأعملَنّ لك رحًا يتحدَّث بها أهلُ المَشْرقِ والمغربِ .

فقال عمرُ : قد أوْعَدَنى العِلْجُ الآن ، ثم انصرَف عمر إلى منزله .

فلمّا كان من الغدِ جاء كعبُ الأحبارِ إلى عمرَ ، فقال : : يا أميرَ المؤمنين ، اعهَدْ فإنَّك ميِّتٌ فى ثلاثٍ ، قال : وما يُدْرِيك ؟ قال : أجدُهُ فى كتابِ التوراة . قال عمر : إنَّك لتجدُ عمَر بنَ الخطَّابِ فى التَّوراة ؟ قال : اللَّهم لا ؛ ولكنِّى أجِدُ صِفَتَكَ وحِلْيتك . قال : وعمر لا يَجِد وَجَعًا ،ثم جاءه من الغَدِ وقال : بقِىَ يومانِ ، ثم جاءه من غَدِ الغَدِ وقال : قد مضى يوْمانِ ، وقد بقى يومٌ .

فلمّا أصبحَ خرج عمرُ إلى الصَّلاةِ ، و كان يوكِّل بالصفوف رجُلاً ، فإذا استَوتْ كبَّر ، ودخَل أبو لؤلؤة فى النَّاس ، وفى يدِهِ خنْجَرٌ له رأْسان ، نصَابُهُ فى وَسَطِه ، فضربَ عُمرَ سِتَّ ضَرَباتٍ . إحداهُنَّ تحتَ سُرَّتِهِ ، وهى الَّتى قتلَتْهُ ، وقتِلَ معه كُلَيْب بن البُكير اللَّيثىّ وجماعةٌ غيره .

رُوِىَ أنه طُعِنَ معه اثنا عشرَ رجلاً ، وقيل : ثلاثة عشر ، ماتَ مِنْهم ستَّةٌ ، فلمّا وجَدَ عمر حَرَّ السِّلاحِ سقط ، وأمَر عبدَ الرَّحمنِ ابنَ عوفٍ فصلَّى بالنَّاسِ وهو طريحٌ ، فاحْتُمِلَ ، فأُدْخِل بَيْتَه ودعا عبد الرَّحمنِ ، فقال : إنِّى أُريدُ أنْ أعهدَ إليْك ، قال : أتشيرُ علىَّ بذلك ؟ قال : عُمر : اللَّهمَّ لا ، فقال : واللهِ لا أدخُلُ فيه أبدًا . قال : فهبْنِى صَمْتًا ؛ حتَّى أعهدَ إلى النَّفَرِ الَّذِين تُوُفِّىَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو عنهم رَاضٍ ، ثم دعا عليًّا ، وعُثْمانَ .

والزُّبَيرَ ، وسَعْدًا ، وقال : انتظروا أَخَاكُمْ طلحة ثلاثًا ، فإنْ جاء وإلاَّ فاقْضُوا أمرَكم .

أَنشُدكَ الله يا عليّ ، إن وليتَ من أُمورِ النَّاسِ شيئا على ألاَّ تَحمَل بنى هاشم على رقِاب النَّاس .

أَنشُدكَ الله يا عثمانُ ، إنْ وليتَ من أُمورِ النَّاس شيئًا ألاَّ تحمل بنى أَبي مُعَيْط على رقابِ النَّاسِ .

أَنشُدُك اللهَ يا سَعْد إن وَليتَ من أمور النَّاسِ شيئًا ألاَّ تحمَل أَقارِبَكَ على رقابِ النَّاسِ .

قُوموا فَتشاوَرُوا ، ثم اقْضُوا أمرَكم ، وليصَلِّ بالنَّاسِ صُهَيبٌ ، ثم دعا أَبا طلحةَ الأَنصاريَّ فقال : قُمْ على بابهم فلا تَدَعْ أحدًا يدخل إليهم ، وَأَوْصِ الخليفةَ مِنْ بَعْدِى بالأَنْصَار الَّذِين تبوّءوا الدَّارَ والإيمانِ ، أَن يُحْسِن إلى مُحْسِنهم ، وأَنْ يعْفُوَ عن مُسيئِهم ، وأَوْصِ الخليفةَ بالعَربِ ؛ فإنَّهم مادَّةُ الإسْلامِ ، أَن تؤخذ من صدقَاتِهم حَقُّها ، فتُوضَع فِى فُقَرَائِهم ، وأَوْصِ الخليفةَ بذِمّةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَن يُوفِىَ لهم بِعَهْدِهم .

اللَّهُمَّ هَلْ بلَّغْتُ ! لقد تركتُ الخليفةَ من بَعْدِى على أَنقى من الرَّاحةِ، ثم قال لأبنهِ عبدِ الله : انظرْ مَنْ قَتَلَنى ؟ فقال : قَتَلَكَ أَبولؤلؤة ، فقال : الحمدُ للهِ الَّذى لم يجعل منيَّتى على يَدَ رَجلٍ [ما] (١) سَجَدَ لله سجدةً واحدةً ، وأَرسل عبدَ الله ابنَه إلى عائشةَ ، فاستأْذَنَها

(١) من ص .

أنْ يُدْفنَ مع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه ، ثم قال : يا عبدَ اللهِ ، إن اختلفَ القومُ فكنْ مع الأكْثَرِ ، فإنْ تساوَوْا فكُنْ مع الحِزْبِ الَّذِي فيه عبدُ الرّحمن بنُ عَوْفٍ .

يا عبدَ اللهِ ، ائذَنْ للنَّاسِ ، فدخل عليه المهاجِرُونَ والأنصار ، فجعلوا يسلِّمونَ عليه ، فيقولُ لهم : هـذا عن مَلإٍ مِنْكُمْ ؟ فيقولون : معاذ الله ! ودخل كعبُ الأحبارِ مع النَّاسِ ، فلما رآه عمرُ رضى الله تعالى عنه قال :

وأوْعَدَنى كعبٌ ثلاثًا أعُدُّهـــا ولاشكَّ أنَّ القولَ ما قالَهُ كَعْبُ
وما بى حذارُ الموتِ إنِّى لَميِّـــتٌ ولكن حذار الذَّنْبِ يَتْبَعُه الذَّنْبُ

قال : ولمّا طعنَ أبو لؤلؤة عمرَ ، ومَنْ طُعن معه ، رَمَى عليه رجلٌ من أهل العراقِ بُرْنسًا ، ثم نزل عليه ، فلمّا رأى أنَّه لا يستطيعُ أنْ يتحرَّكَ ، وجَأَ نفسه فَقَتَلها .

قال أبو عُمَر بنُ عبدِ البَرِّ : ومن أحسنِ شيءٍ يُرْوَى فى مَقْتلِ عمرَ وأصحِّه ما رواه بسندِه إلى عمرو بن ميمونٍ ، قال :(١) شهدْت عُمَر يومَ طُعِنَ ومات ، وَما منعَنى أن أكونَ فى الصَّفِّ المقدَّم إلاَّ هَيْبَتُه ـ وكان رجلاً مَهيبًا ـ فكنتُ فى الصَّفِّ الَّذى يليه ، فأقبلَ عمر ، فعرَض له أبو لؤلؤة غلامُ المغيرةِ بنِ شُعْبة ، ففاجأ عمرَ قبل أن تَستَوِىَ الصّفُوفُ ، ثم طعَنَهُ ثلاثَ طَعَناتٍ ، فسمعتُ عمرَ وهو يقولُ : دُونكم الكَلْبَ فإنَّه قد قَتَلَنِى ، وماجَ النَّاسُ وأسرَعوا إليه ، فجرح

(١) الاستيعاب ١١٥٣

ثلاثة عشرَ رجُلاً ، فانكفأ عليه رَجلٌ من خَلْفِه فاحتَضَنَهُ ، وحُمِلَ عمرُ ، فماج النَّاسُ بعضُهم فى بَعْضٍ حتَّى قال قائلٌ : الصّلاة يا عبادَ اللهِ ، طلعتِ الشمسُ .

فقدَّموا عبَدالرّحمنِ بنَ عوفٍ فصلّى بنا بأَقْصَرِ سورتيْنِ فى القرآن ، (إذا جاءَ نَصْر اللهِ والْفَتْح) و (إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ) ، واحتُمِلَ عمرُ ، ودخلَ النَّاسُ عليه ، فقال : يا عبدَ اللهِ بنَ عبّاسٍ ، اخرج فنادِ فى النَّاسِ : أعن مَلَإٍ منكمْ هذا ؟ فخرج ابنُ عبَّاسٍ ، فقال : أيُّها النَّاسُ ، إنّ أميرَ المؤمنين يقول : أعن ملأٍ منكم هذا ؟ فقالوا : معاذَ الله ! والله ما علمنا ولا اطَّلَعْنَا . وقال : ادْعُوا إلىّ الطبيبَ فَدُعِى الطبيبُ فقال : أىُّ الشَّرابِ أحبُّ إليك ؟ فقال : النَّبِيذُ ، فَسُقِىَ نبيذًا فخرج مِنْ بعضِ طعَناته ، فقـال النَّاسُ : هذا دمٌ ، هذا صديدٌ ، فقال : اسْقونى لَبَنًا ، فسُقِىَ لبنًا ، فخرجَ مِنَ الطَّعْنَةِ ، فقال له الطَّبيبُ : لا أرى أنْ تُمْسِىَ ، فما كنتَ فاعلاً فافعل .

وروى أبوعمَر أيضا بسندِه إلى عَوْفِ بنِ عَوْفِ بنِ مالكٍ الأَشْجَعىّ : أنَّه[1] رأى فى المنامِ ، كأَنَّ النَّاسَ جُمِعُوا ، فإذا فيهم [رَجل][2] فَرَعهم فهو فوْقَهم بثلاثةِ أذرعٍ .

قال : فقلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فقالوا : عمر . قلت : ولم ؟ قالوا : لأَنْ فيه ثلاثَ خصالٍ ، لأنَّه لا يخافُ فى اللهِ لوْمةَ لائمٍ ، وأنَّه خليفةٌ مستَخْلَف ، وأنَّه شهيدٌ مُسْتَشهَد .

قال : فأتى أبو بكر فقصَّها عليه ، فأرسلَ إلى عمرَ فدعَاهُ ليبشِّرَه ،

(١) الاستيعاب ١١٥٦ .
(٢) من الاستيعاب .

فجاء عمرُ فقال لى أبو بكر : اقصص ، قال : فلمَّا بَلَغَتْ خليفة مستخلَفٌ ، زَبَرَنى[1] عمرُ وانتَهَرَنى ، وقال : اسْكُتْ ، تقول هذا وهو حَىٌّ !

قال : فلمّا كان هذا بعد ،ووَلِى عمرُ ،مَرَرْتُ بالمسْجدِ وهوعلى المنبرِ ، فدعانى وقال : اقصصْ علىَّ رؤْياك ، فقصَصْتُهَا ، فلمّا قُلْتُ : إنَّه لا يخاف فى اللهِ لومةَ لائمٍ قال : إنِّى لأرجو أن يجعلَنى اللهُ منهم ، قال فلمّا قلْتُ : « خليفةٌ مُسْتَخْلَفٌ » قال : قد استخلَفَنى اللهُ ، وأسأله أن يعينَنى على ما ولاَّنى ، فلما أنْ ذكرْتُ : « شهيدٌ مستشهَد » ، قال : أنَّى لِى بالشّهادةِ وأنا بين أظْهُرِكُمْ تَغْزُونَ ولا أغْزُو ! ثم قال : بلى يأْتى الله بها إن شاء ، يأْتى الله بها إن شاء[2] .

وقد رَوَى مَعمَر عن الزُّهرى ، عن سالم ، عن ابن عمرَ رضى الله تعالى عنهم :أنَّ النَّبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم رأى على عمرَ قميصًا أبيضَ ، فقال : أجديدٌ قميصُكَ هذا ، أم غسيلٌ ؟ قال : بَلْ غَسِيلٌ . قال : «البسْ جديدًا ، وعِشْ حميدًا ، ومُتْ شهيدًا ، ويرزُقُكَ الله قرَّة عَيْنٍ فى الدُّنيا والآخرة » ، قال : وإيّاكَ يا رسول الله .

ورُوِى عن عائشةَ رضى الله عنها ، قالت : ناحت الجِنُّ على عمرَ قبلَ أنْ يُقْتَلَ بثلاثٍ ، فقالتْ :

أبعدَ قتيلٍ بالمدينةِ أظْلَمَتْ ... له الأرضُ تهتزُّ العِضَاهُ بأسْوُقِ

(١) زبرنى : نهرنى .

(٢) الاستيعاب ١١٥٦

جَزَى اللهُ خيرًا من إمامٍ وباركتْ يدُ اللهِ في ذاك الأديمِ الممـزَّقِ
فمن يَسْعَ أو يَرْكَبْ جناحَيْ نعامةٍ ليُدْرِكَ ما قدَّمْتَ بالأمْسِ يُسْبَقِ
قَضَيْتَ أمورًا ثم غادرْتَ بَعْدَها بَوائقَ من أكمامِهَا لم تُفَتَّقِ
وما كنتُ أخشَى أنْ تكونَ وفاتُه بكفٍّ سَبَنْتَى أزرقِ العَيْنِ مُطرِقِ(١)

والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) السبنتى : النمر .

ذكر قصة الشورى

قال : وقيل[١] لعمرَ : لو استخلفْتَ يا أميرَ المؤمنين؟ قال : لو كان أبو عبيدةَ حَيًّا لاستخلفتُه ، وقلتُ لربِّى إنْ سألنى[٢] : سمعتُكَ وسمِعْتُ نبيّك يقولُ : إنَّه أمينُ هذه الأمّةِ ، ولو كان سالمٌ مَولَى أبى حُذَيفَة حيًّا لاستخلفتُه ، وقلتُ لربِّى إن سَألَنى : سمعتُ نبيَّك يقول : « إنّ سالماً شديدُ الحبِّ لله » .

فقال له رجلٌ : أدُلُّكَ على عبدالله بن عمر ؟ فقال : قاتلَكَ اللهُ ! ما أردت بهذا ويحك ! كيف أستخلف مَنْ عجز عن طلاق امرأته ! لا أرَب لنا فى أموركم ، ما حمِدْتُهَا فأرغَبُ فيها لأحدٍ من أهل بيتى ، إن كان خيْرًا قد أصبْنا مِنْه ، وإنْ كان شرًّا قد صُرِفَ عنَّا ، بِحَسْب آلِ عمرَ أن يُحَاسَبَ منهم رجلٌ واحدٌ ، ويُسأَل عَنْ أُمّةِ محمَّد ! أما لقد جَهدتُ نفسِى ، وحرَمْتُ أهلى ، وإنْ نجوتُ كَفافًا لا أَجْر ولا وزْرَ ، إنِّى لَسعيدٍ . أنظرُ فإن استَخلفْتُ ، فقد آستخلَفَ مَنْ هو خيْرٌ منِّى ، وإنْ أتْرُكْ فقد ترك من هو خيرٌ منى ، ولنْ يضيِّعَ اللهُ دينَه .

فخرجُوا ، ثم راحُوا فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، لوعهدتَ عهدًا ! فقال : قد كنْتُ أجمعْتُ بعد مقالتى أن أنظُرَ فأُولِّىَ رجلاً أمركم ، وهو أحْراكم أنْ يحملكُم على الحقِّ ـ وأشار إلى علىٍّ ـ فرهِقَتْنِى غَشْيةٌ ،

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٣٤ ومابعدها

(٢) ك : « إن يسألنى » .

فرأيتُ رجلاً دخل الجنَّةَ ، فجعلَ يقطِفُ كل غَضَّةٍ ويانِعةٍ فيضمه إليه ، ويُصَيِّره تحته ، فعلمْتُ أنَّ الله بالغُ أمرِه ، فما أَرْدتُ أن أَتحمَّلَها حيًا وميِّتًا .

عليكم هؤلاء الرّهط الَّذين قال رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّهُمْ مِنْ أهل الجنَّةِ ، وهم : عليٌّ وعثمانُ وعبدُ الرَّحْمن وسعد ، والزُّبير بنُ العوام ، وطلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ ، فلتختاروا منهم رجُلاً ، فإذا وَلَّوْا واليًا فأَحْسِنُوا مُوازَرَته وأَعِينوه ، وخَرَجوا .

فقال العبّاسُ لعليٍّ : لا تدخُلْ معهم ، إنِّى أكرَهُ الخلافَ ، قال : إذَنْ ترى ما تكره ، فلما أصبحَ عمرُ دعا عليًّا ، وعثمانَ ، وسعدًا ، وعبدَ الرّحمن ، والزبيرَ ، فقال : إنِّى نظرتُ فوجدتُكُمْ رؤساءَ النَّاسِ وقادتَهم ، ولا يكون هذا الأمرُ إلاَّ فيكم ، وقد قُبِضَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو عنكم راضٍ . إنِّى لا أخاف النَّاسَ عليكم إن استَقمْتُمْ ؛ ولكنِّى أخافكمْ فيما بينكم ، فيختلف النَّاس ، فانهضُوا إلى حُجرةِ عائشة بإذنها ، فتَشَاوروا فيها . ووضَعَ رأْسه وقد نَزَفه الدَّمُ ، فدخلوا فتناجَوْا ؛ حتى ارتفعتْ أصواتُهم .

فقال عبدُ اللهِ بنِ عمر : سبحان الله ! إنَّ أميرَ المؤمنين لم يَمُتْ بعد ، فسمَعَهُ عمر : فانتبَه ، وقال : أعرِضُوا عن هذا ، فإذا أنا مِتُّ فتشاوروا ثلاثةَ أيَّامٍ ، وليصلِّ بالنَّاسِ صُهَيبٌ ، ولا يأْتِيَنَّ اليومُ الرابعُ إلاَّ وعليكم أميرٌ منكم ، ويحضُر عبدُ اللهِ بنُ عمرَ مُشِيرًا ، ولا شيء له من الأمرِ ، وطلحة شريككم فى الأمرِ ، فإنْ قدمَ فى الأيّام الثَّلاثةِ فأَحْضِرُوه ، وإنْ مضتْ الأيّام الثَّلاثةُ قبل قدومه فأمضوا

لأَمْركم . ومَنْ لى بطلحة ؟ فقال سعدُ بنُ أَبى وقَّاص : أنا لكَ بهِ ، ولا يُخالِف إن شاء الله تعالى .

فقال عمرُ رضى اللهُ عنه : أَرجو ألاَّ يخالِف إن شاء الله ، وما أَظن أَنْ يلىَ هذا الأَمر إلا أَحد هذيْن الرَّجُلين : علىّ أَو عثمان .

فإن وُلِّىَ عثمانُ ، فرجل فيه لِين، وإن وُلِّىَ علىّ ففيه دُعابة[1] وأَحْرِ به أَن يَحمِلَهم على الحقِّ ، وإن تُولُّوا سعْدًا فأَهْلُهَا هو وإلاَّ فليستعن به الوالى ؛ فإنِّى لم أَعْزِلْه عن ضَعْفٍ ولا جِناية ، ونِعْمَ ذُو الرأْى عبد الرّحمن ابن عوف ! فاسمَعوا منه .

وقال لأَبى طلحة الأَنْصَارِى : يا أَبا طلحة ، إنّ الله تعالى طالما أَعزَّ بكم الإِسْلام ، فاختَرْ خمسينَ رجُلاً من الأَنصارِ ، فاستَحِثَّ هؤلاء الرّهْطَ حتَّى يختارُوا رجُلاً منهم .

وقال للمقدادِ بن الأَسْوَدِ : إذا وضَعْتُمُونى فى حُفْرَتِى ، فاجمعْ هؤلاء الرّهطَ فى بيتٍ حتَّى يختاروا رجُلاً .

وقال لِصُهَيْب : صَلِّ بالنَّاسِ ثلاثةَ أَيامٍ ، وأَدخل هؤلاء الرَّهْط بيتًا ، وقُمْ على رءوسهم ، فإن اجتمعَ خمسةٌ وأَبى واحدٌ فاشْدَخ رأْسَه بالسَّيفِ ، وإن اتَّفق أَربعةٌ وأَبَى اثنان فاضربْ رءوسهما ؛ وإنْ رضِىَ اثنان رجلاً ، واثنان رجُلاً ، فحكِّمُوا عبَد الله بن عمرَ ؛ فإن لم ترضَوْا بحكمِه فكونوا مع الَّذِين فيهم عبدالرّحمن بنُ عَوْفٍ ، واقتلوا الباقين إنْ رغِبُوا عمَّا اجتمعَ فيه النَّاس ، فخرجوا ؛ فقال علىٌّ لقومٍ معه مِنْ بنى هاشِمٍ : ان أُطِعْ فيكم قومَكُم لم تؤمَّروا أَبدا ، وتلقَّاه

(١) ك : « رعاية » تحريف .

عَمُّه العبّاسُ فقال : عُدِلَتْ عنّا ، قال : وما عِلْمُكَ ؟ قال : قرن بى عثمانَ ، وقال : كونوا مع الأكثرِ ، فإن رضىَ رجلان رجُلاً ، ورجُلانِ رجُلاً فكونوا مع الذين فيهم عبدُ الرَّحْمن ، فسَعْدٌ لا يخالِفُ ابن عَمِّه ، وعبدُ الرّحمن صهرُ عثمان لا يَخْتلفان فيولِّيها أحدُهما الآخر . فلو كان الآخران معى لم يَنفَعانى .

فقال له العبّاسُ : لم أَدْفَعْكَ فى شىءٍ إلاَّ رجعْتَ إلىَّ مستأْخِرًا لما أكْره ، أشرْتُ عليك عند وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أن تسأله فيمن هذا الأمرُ ، فأبيتَ ، وأشرتُ عليك بعد وفاتِه أنْ تُعاجِلَ الأمَر فأبيْتَ . وأشرتُ عليك حين سمَّاك عمرُ فى الشّورى ألاَّ تدخُلَ معهم فأبَيْت .

احفظْ عنِّى واحدةً ، كلَّما عَرَضَ عليك القومُ ، فقل : لا . إلاَّ أن يُوَلُّوكَ ، واحذرْ هؤلاء الرَّهْطَ ؛ فإنَّهم لا يبرحُونَ يدفعوننا عن هذا حتَّى يقوم به لنا غيرنا . وأيمُ اللهِ لا تناله إلاَّ بشرٍّ لا ينفعُ معه خيرٌ .

فلمّا مات عمر ودُفِن ، جمعَ المقدادُ أهلَ الشُّورى فى بيْت المسور ابن مخرمة ، وقيل : فى بيت المال . وقيل : فى حُجْرَة عائشةَ بإذنها ، وطلحةُ غائبٌ . وأمروا أبا طلحة أن يَحْجُبَهُمْ .

وجاء عمرُ بنُ العاص والمغيرةُ بنُ شعبة فجلسا بالباب ، فحصبَهما سَعْدٌ وأقامهما ، وقال : تريدان أن تقولا : حَضَرْنا وكنَّا فى أهلِ الشُّورَى ! فتنافسَ القومُ فى الأمْرِ وكثر بينهم الكلامُ ، فقال أبو طلحة : أنا كنتُ لأنْ تَدْفعُوها أخوَف منّى لأن تَنافَسوها ، [لا] (١) وَالَّذِى

(١) من ص .

ذَهَب بنفسِ عمرَ لا أزيدُكُمْ على الأيّامِ الثلاثةِ الّتى أمر ، ثم أجلسُ فى بيتى فأنظرُ ما تَصْنَعون .

فقال عبدُ الرّحمن : أيُّكُمْ يُخْرِجُ منها نفسَه ويتقلَّدُها على أن نولِّيَهَا أفضلَكُمْ ، فلم يجبْه أحدٌ ، فقال : أنا أنخلِعُ منها .

قال عثمانُ : أنا أوّل مَنْ رضِىَ ، قال القومُ : قد رضِينا ، وعلىٌّ ساكِتٌ ، فقالَ ما تقول أبا الحَسَن ؟ قال : أعْطِنِى مَوْثِقًا لتؤْثِرَنَّ الحقَّ ولا تتَّبِع الهوى ، ولا تخصّ ذا رحِمٍ لرحِمه ، ولا تألُوا [الأُمّة ، فقال : اعطُونى مواثقكم على أن تكونوا معى على من بدَّلَ وغيّر ، وأن ترضوْا من اخترت لكم ، وعلىّ ميثاق الله ألاّ أخصّ ذا رحِمٍ لرحمه ولا آلو المسلمين] (١) قال : فأخذ منهم ميثاقاً ، وأعطاهم مِثلَه .

فقال لعلىٍّ : تقولُ : إنّى أحقُّ مَنْ حَضَرَ هذا الأمر ، لِقَرابتك من رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ وسابِقَتك وحُسْنِ أثَرِك فى الدِّين ؛ ولم تُبْعِد ؛ ولكن أرأيتَ لو صُرِف هذا الأمرُ عنك ولم تحضُرْ إلى هؤلاء الرَّهْطِ ، من تَراهُ أحقّ به ؟ قال : عثمان ، وخلا بعثمان فقال : تقول : شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمه ولى سابقة وفضل ، فأين يُصرف هذا الأمر عنّى ؟ ولكن لو لم تحضر ، أىّ هؤلاء أحقُّ به ؟ قال علىّ . ولقى علىٌّ سَعْدًا فقال : اتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءلون به والأرحامَ ، أسألُك برحِم ابنى هذا مِن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم [وبرحِمَ عمّى حمزة ألا تكون مع عبد الرحمن ظهيرًا لعثمانَ علىّ . ودار عبد الرحمن ليلقى أصحابَ رسول الله ومَنْ وافَى المدينةَ من أمراء الأجْنَادِ وأشرافِ النَّاسِ

(١) من ص .

يشاوِرُهم ؛ حتَّى إذا كانت اللَّيلة الَّتى صبيحتُها يُسْتَكمَل الأجل ، أتَى منزلَ المسوَر بن مَخْرَمة فأيقظَه وقال له : لم أَذُقْ فى هذه اللَّيْلة كثيرَ غَمْضٍ ، انْطَلِقْ فادعُ الزُّبيرَ وسعدًا ؛ فدعاهما ، فبدأ بالزُّبير فقال له : خلِّ عبد بنى مَناف ، وهذا الأمر ، قال : نصيبى لعلىّ . وقال لسعد : اجعلْ نصيبَك لى ، فقال : إن آخْتَرْتَ نفسَكَ فنَعَم ، وإنْ اخترْتَ عثمانَ فعلىٌّ أحبُّ إلىَّ ، أيّها الرّجلُ ، بايعْ لنفسك وأرِحْنا وارفعْ رءوسَنا .

فقال : قد خَلَعْتُ نفسى على أنْ اختارَ ، ولو لَمْ أفعَلْ لم أُرِدْها ، إنِّى رأيتُ روضةً خضراءَ كثيرة العُشْبِ ، فدخَلَ فحْلٌ ما رأيتُ أكرمَ منه ، فمرَّ كأنَّه سَهْمٌ لم يلتفِتْ إلى شىءٍ منْها ؛ حتَّى قطعها ، لم يُعَرِّجْ . ودخَلَ بعيرٌ يَتْلوه ، فاتَّبع أثره حتَّى خرج منها ، ثم دخل فحلٌ عَبْقَرِىٌّ يجُرُّ خِطامه ومَضى قَصْدَ الأوَّلَيْن ، ثم دخل بعيرٌ رابعٌ فوقع فى الرَّوضةِ ، ولا واللهِ لا أكون الراتعَ الرابع ، ولا يقوم مقامَ أبى بكرٍ وعمرَ بَعدهما أحدٌ فيَرضى النَّاسُ عنه .

قال : وأرسلَ المسور ، فاستدعَى عليًّا فناجاه طويلاً وهو لا يشكُّ أنّه صاحبُ الأمرِ ، ثم نهَض ، ثم أرسَل إلى عثمان فتناجَيَا حتَّى فرّق بينهما الصُّبْحُ ، فلمّا صلَّوا الصبحَ جمعَ الرّهطَ ، وبعث إلى مَنْ حضره من المُهاجِرينِ وأهلِ السّابقةِ والفَضْلِ من الأنصار ، وإلى أُمراء الأجنادِ ، فاجتمعوا حتى آلتحمَ المسجدُ بأهله ، فقال :

أيّها النَّاس ، إنَّ النَّاسَ قد أحبُّوا أن يرجعَ أهلُ الأمصارِ إلى أمصارِهم ، وقد علموا مَنْ أميرهم ، فأشيروا علىَّ .

(١) ك : « قطعتها » .

فقال عمّارُ بن ياسِر : إذا أَرْدَتَ ألاَّ يختلفَ المسلمون فبايع عليًّا .

فقال المِقدادُ بنُ الأَسودِ : صدَقَ عمّارُ إنْ بايعت عليًّا ، قلنا : سمْعنا وأطعْنَا .

وقال ابن أبي سَرْح : إذا أردْتَ ألاَّ تَختلفَ قريْش فبايعْ عثمان .

فقال عبد اللهِ بنُ أبي ربيعة : صدقْتَ ، إن بايعْتَ عثمانَ قلْنَا : سمعنا وأطعْنَا .

فشَتَم عمّار ابنَ أبي سَرْحٍ ، وقال : متى كنْتَ تنصَحُ المسلمين ! فتكلَّم بنو هاشمٍ وبنو أُميَّة ، فقال عمّار : أيّها النَّاس ، إنَّ الله أكْرَمنا بنبيّه ، وأعزَّنا بدِينه ، فأنَّى تَصرفُونَ هذا الأمرَ عن أهل بيْتِ نبيِّكم !

فقال رجلٌ من بني مخزومٍ : لقدْ عَدوْتَ طَوْرَكَ يابْنَ سُميَّة ، وما أنت وتأْمير قُرَيْش لأنفسِها !

فقال سعدُ بنُ أبي وقَّاص : يا عبدَ الرّحمنِ . افرغْ قبلَ أنْ يفْتَتِنَ النَّاسُ . فقال عبدُ الرحمنِ : إنِّي قد نظرْتُ وشاوَرْتُ ، فلا تجعلُنَّ فيها أيّها الرّهطُ على أنفسِكم سبيلاً ، ودعا عليًّا . فقال : عليك عهدُ اللهِ وميثاقُه ، لتَعملَنَّ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه ، وسيرةِ الخليفتيْن مِنْ بعده ؟ فقال : أرجو أن أفعلَ ، فأعمَل بمَبلغِ علمي وطاقتي .

ودعا عثمانَ فقال له مِثلَ ما قال لعليٍّ ، فقال : نعم ، فرفع رأْسه إلى سقفِ المسجدِ ويدهُ في يد عثمان ، فقال : اللَّهمَّ اسمعْ واشهدْ ، اللَّهمَّ إنِّي قد جعلْتُ ما في رقَبتي من ذاك في رقبةِ عثمانَ ، فبايَعَهُ .

وقيل : وخرج عبدُ الرحمن بنُ عَوْفٍ وعليه عِمامتُه الَّتي عمَّمَهُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم متقلِّدًا سيفه ، حتَّى ركبَ المنبر ،

فوقف وقوفًا طويلاً ، ثم دعا دعاءً لا يَسمعُه النَّاسُ ، ثم تكلَّم فقال :

أيّها الناسُ ، إنِّى قد سألتُكُمْ سِرًّا وجهرًا عن إمَامِكم ، فلم أجِدْكُمْ تَعدِلونَ بأحدِ هذيْن الرّجليْن : إمّا علىّ ، وإمّا عُثْمان .

فقُمْ إلىَّ يا علىُّ ، فقام إليه فوقفَ تحت المنبرِ ، وأخذَ عبد الرحمنِ بيَدِهِ فقال : هل أنتَ مبَايِعِى على كتابِ اللهِ وسنةِ نبيّه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وفعْلِ أبى بكر وعمر ؟ قال : اللَّهُمَّ لا ، ولكن على جَهْدِي مِن ذاك وطاقَتى .

قال : فأرْسَلَ يَدَه ثمّ نادي : قم إلىَّ يا عثمان ، فأخذ بيَدِهِ ، وهو فى موقفِ علىٍّ الَّذى كان فيه ، فقال : هل أنتَ مُبايِعِى على كتاب الله وسنَّةِ نبيِّهِ وفعِلِ أبى بكرٍ وعمر ؟ فقال : اللَّهُمَّ نعم ، قال : فرفع رأْسَه إلى سَقْفِ المسجدِ ويدُه فى يدِ عثمان ، فقال : اللَّهُمَّ اسمَعْ واشهَدْ ثلاثًا ، اللَّهُمَّ إنِّى قد جعلْتُ ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان ، قال : فازدحم النَّاس يبايعون عثمانَ حتى غَشَوْهُ عندَ المِنبرِ ، فقعد عبدُ الرحمن مَقعَدَ النبىِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من المنبر ، وأُقعِد عثمانُ على الدّرجةِ الثَّانية ، فجَعَلَ النَّاس يبايعونه ، وتلكَّأ علىّ .

فقال عبدُ الرّحمن : ﴿ فمَنْ نكث فإنَّمَا ينكُثُ على نفسِه ، ومن أوْفَى بما عَاهَدَ عليهُ الله فسيُؤْتيه أجرًا عظيماً ﴾ (١) .

فرجع علىٌّ يَشُقّ النَّاسَ حتى بايعَ عثمانَ وهو يقول : خدعة ، وأىّ خدعة !

---

(١) سورة الفتح ١٠ .

وقيل : لمّا بايعَ عبدُ الرحمن عثمانَ قال عليٌّ : ليس هذا أوّلَ يوم تظاهرتمُ فيه علينا ، فصبرٌ جميلٌ ، واللهُ المستعانُ على ما تَصِفُون ، والله ما ولّيتَ عثمانَ إلا ليُردَّ الأمْرَ إليك ، واللهُ كلَّ يوم [هو] (١) فى شأن .

فقال عبدالرحمن : يا عليّ ، لاتجعل على نفسِكَ حجّةً ولا سَبيلا ، فخرجَ عليٌّ وهو يقول : سيبلغُ الكتابُ أجلَه .

فقال المقدادُ : يا عبدَ الرحمن ، أما واللهِ لقد تركْتَه ، وإنّه من الذين يَقْضُون بالحقّ وبه يَعْدِلون .

فقال : يا مقدادُ ، والله لقد اجتهدتُ للمسلمين ، قال : إن كنتَ أردْتَ الله فأثابَكَ اللهُ ثوابَ المحسنين .

وقال المقداد : ما رأيت مِثل ما أتى إلى أهْلِ هذا البيتِ بعد نبيِّهم ، إنّى لأعجبُ من قُرَيش أنهم تركُوا رجلاً ، لا أقولُ ولا أعلمُ أنَّ رجلاً أقْضَى بالعَدلِ ،ولا أعلم منه ،أما واللهلوأجِدُ أعوانًاعليه!

فقال عبدُ الرحمن : يامقدادُ ، اتّق الله ؛ فإنّى خائفٌ عليك الفتنةَ .

فقال رجلٌ للمقدادِ : رحمك اللهُ ! مَنْ أهلُ هذا البيت ؟ ومَنْ هذا الرَّجل ؟ قال : أهل البيت بنو عبدِ المطّلبِ ، والرجلُ عليُّ بنُ أبى طالب .

فقال عليٌّ : إنَّ النَّاسَ ينظرون إلى قريش ، وقريشٌ تنظر بينها

---

(١) من ص .

فتقول : إن ولِّىَ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا ، وإن كانت فى غيرِهم تداولتُموها بينكم .

قال : وقَدِم طلحةُ فى اليوم الرّابع الذي بُويعَ فيه عثمان ، فقيل له : بايعُوا لُعثمان ، فقال : كلُّ قريش راضٍ به ؟ قالوا : نعم . فأتى عثمانَ فقال له عثمان : أنتَ على رأسِ أمْرِكَ ، إن أبيتَ رددْتُها . قال : أتردُّها ؟ قال : نعم . ثُم قال أكلُّ النَّاسِ يايَعوك ؟ قال ، نعم . قال : قد رضيتُ ، لاأرغَبُ عمّا أجمعوا عليه ، وبايَعَه .

حكاه ابن الأثير فى تاريخه الكامل [1] ، عن عَمر وبن ميمون . وفيه زيادةٌ عن الطَّبرىّ .

ورَوَى أبوجعفر الطَّبَرِىّ رحمه الله فى قصَّة الشُّورَى ، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة نحوَما تقدّم ؛ الاَّ أنَّه ذَكَر زِيادات ذكرْنا بعضَها فى أثْناء هذه القصّة ، ونَذكُر بقيَّتها الآن .

قال [2] : لما دُفِن رضى الله عنه جَمعَهم عبدُ الرحمن وخَطبَهم ، وأمَرَهم بالاجتماع وتَركِ التفرقِ .

فتكلَّم عثمانُ رضى الله عنه ، فقال : الحمد لله الذى اتخذ محمدًا نبيًّا وبَعثَه رسولاً ، وصَدَقَهُ وعْدَه ، ووهَب له نصْرَه على كلِّ من بَعُد نسبًا ، أو قَرُب رَحِمًا ، صلَّى الله عليه ، جعلنا الله له تابعين ، وبأمره مهتدين ، فهو لنا نورٌ ونحن بأمره نقومُ ، عند تَفرُّقِ الأهواء ، ومُجادَلة الأعداء ، جعلنا الله بفضلِهِ أئمةً ، وبطاعته أمراء ، لايَخرجُ أمرُنا مِنَّا ، ولايدخُل

(١) الكامل لابن الأمير ٣ : ٣٤-٤٠ .

(٢) الطبرى : ٤ : ٢٣٤ وما بعدها .

علينا غيرُنا الاَّ من سَفِه الحقَّ ،ونَكَل عن القَصْدِ ، وأحْر[1] بها يابن عَوْف أن تُتَرك ، وأجْدِرْ بها[2] أن تكون إن خُولِف أمرك ، وتُرِك دعاؤكَ ، فأنا مُجيبٌ وداعٍ إليك ، وكفيلٌ بما أقولُ زَعيم ، وأستغفر اللهَ لى ولكم .

ثمّ تكلَّمَ الزبيرُ بعدَه ، فقال : أمّا بعد ، فإنَّ داعىَ الله لايُجَهُل ومُجيبَه لايُخْذَلُ ، عند تفرُّقِ الأهواء ، وَلىّ الأعناقِ ، ولن يُقَصِّر عما قُلْتَ إلاَّ غَوِىٌّ ، ولن يترك مادعوتَ إليه إلاَّ شَقِىٌّ ، ولولا حدودٌ للهِ فرضتْ ، وفرائضُ لله حُدَّتْ ، تراح على أهلِها ، وتحيا لاتموتُ ؛ لكان الموتُ من الإمارة نجاةً ، والفِرارُ من الولاية عصمة ، ولكنْ للهِ علينا إجابةُ الدَّعوة ،وإظهارُ السُّنَّةِ ، لئلاَّ نَمُوتَ مَوْتَةً[3] عميَّة ،ولا نَعْمَى عَمَى جاهليَّة ، فأنا مُجيبُك إلى مادعَوْتَ ، ومُعِينُك على ماأمَرْتَ ولا حول ولا قوَّةَ إلاَّ بالله العلىِّ العظيم ، وأستَغْفِر الله لى ولكم .

ثم تكلَّم سعدٌ فقال . الحمد لله بديئًا ، بمحمّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنارتْ الطُّرُقُ ، واستقامتِ السُّبُل ، وظهر الحقُّ ،ومات كلُّ باطِل ، إيّاكم أيُّها النَّفَرُ وقولَ الزُّورِ ، وأُمْنِيَّةَ أهْلِ الغُرورِ ! فقد سلَبَت الأمانىُّ قومًا قبلكم ، وَرِثوا ماوَرِثتُم ، ونالوا مانِلْتُمْ ،فاتخَذوا الله عَدْوًّا ، ولَعَنَهم لعنًا كثيرًا ، قال اللهُ تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِين كَفَروا مِن بَنى إسرائيلَ ... ﴾[4]

---

(١) فى الأصلين : « وأحرها » ، وما أثبته من الطبرى .

(٢) الطبرى : « وأحذر بها » .

(٣) الطبرى : « ميتة » .

(٤) سورة المائدة ٧٨ ، ٧٩ .

إلى قوله :﴿ لَبِئْسَ ماكَانُوا يَفْعلون ﴾ .

إنِّى نكبتُ قرَنِى [١] وأخذْتُ سهمى الفالجِ [٢] ، وأخذتُ لطلحة بن ابن عبيْد الله ما ارتضيْتُ لنفسِى ، فأنَّا كفيلٌ به ، وبما أعطيتُ عنه زعيمٌ ، والأمر إليكَ يابن عَوْفٍ ، بَجهْد النَّفسِ ، وقَصْد النُّصْحِ ، وعلى الله قَصْدُ السبيلِ وإليه الرُّجُوعُ ، واستغفرُ اللهَ لى ولكم ، وأعوذُ باللهِ من مخالفتِكُمْ .

ثم تكلَّم علىُّ بنُ أبى طالبٍ رضى الله عنه ،فقال : الحمدُ لله الذى بَعَث محمدًا منَّا نبيًّا ،وبَعثَه إلينا رسولاً ، فنحن بيتُ النبوّة ، ومعدن الحِكمة ، وأمانُ أهلِ الأرض ، ونَجاةٌ لمن طَلَب ؛ لنا حَقٌّ إن نُعْطَه نأْخُذه ، وإنْ نُمْنَعْهُ نَرْكَب أعجازَ الابلِ ، ولو طال السُّرىَ . لو عهد إلينا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم عهدًا لأنْفذْنا عَهْدَهُ ، ولو قال لنا قولاً لجادَلْنا عليه حتَّى نَموتَ ، لن يسرع أحدٌ قَبْلى إلى دعوةِ حقٍّ ، وصِلَةِ رحم ، ولا قوَّةَ الاّ بالله .

اسمعُوا كلامى ، وعُوا مْنطِقى ، عسَى أن تَرَوْا هذا الأمْر بعد هذا المجتَمع تُنتَضَى فيه السُّيوفُ ، وتُخان فيه الْعُهودُ ، حتى تكونوا جماعةً ، ويكو ن بعُضكم أئمةً لأهل الضَّلالَةِ ، وشِيعةً لأهل الجَهالَةِ

ثم قال [٣] :

فإنْ تكُ جاسِمٌ هلكتْ فإنِّى بما فعلتْ بنوعبدِ بن ضَخْمِ

---

(١) كذا فى الطبرى . والقرن هنا الجعبة ، ونكب قرنه ، أى نثر ما فيه من السهام. وانظر اللسان

(٢) الفالج : المنتصر .

(٣) الطبرى : « ثم أنشأ يقول » .

مطيعٌ فى الهَواجِرِ كلَّ عىٍّ بصيرٌ بالنَّوىَ من كلِّ نَجْمِ

فقال عبدالرحمن : أيّكم يطيبُ نفسًا أن يخرج نفسه من هذا الأمر ، ويولِّيه غيره ؟ قال : فأمسكوا عنه . وذكر نحو ما تقدم .

* * *

فلنرجع إلى بقيَّة أخبارِ عمرَ رضى الله عنه .

قال : ومات عمرُ لأربع بقين من ذى الحجّة ، قاله الوا قِدىُّ .

وقال غيرُه : يومَ الاثنين لليلتين بقِيتَا منه ، وقيل : طُعِنَ يومَ الأربعاء لأربع بقين من ذى الحِجَّة ، سنة ثلاثٍ وعشرين ، ودُفِنَ يومَ الأحدِ هـلالَ المحرّم ، سنة أربع وعشرين فى حُجْرة عائشةَ رضى الله عنها ، ورأسُه قبالَة كتفَىْ أبى بكر رضى اللهُ عنهما ، وصلَّى عليه صُهَيب الرّومىّ . والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصّواب .

ذكر أولا عمر بن الخطاب

رضى الله عنه وعنهم وأزواجه

تزوّج رضى الله عنهْ فى الجاهليّةِ زينبَ بنتَ مَظْعون بنِ حبيب ابنِ وَهْب بن حُذافة بن جُمَح ، فولدَتْ له عبَد اللهِ وعبدَ الرحمن الأكبر وحفصةَ أمَّ المؤمنين رضى الله عنهم .

وتزوّجُ مُلَيْكةَ بنت جَرْوَلِ الخُزَاعِىّ فى الجاهليَّةِ [فولدت له عبيد الله ففارقها فى الهدنة ، وقيل : كانت أمّ عبدالله وأمّ زيد الأصغر أمّ كلثوم بنت جَرْوَل الخُزَاعىّ] (١) . وكان الإسلام فرّق بينها وبين عُمرَ .

وتزوّج قُرَيْبةَ بنت أبى أميَّة المَخْزومىّ فى الجاهليّة ،ففارَقَها فى الهُدْنة أيضًا ،فتزوّجها بعدَه عبدُ الرحمنِ بنُ أبى بكرٍ الصّديق رضى اللهُ عنه .وقُرَيْبة أختُ أمِّ سَلَمة زوج النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم .

وتزوّج أمَّ حكيم بنت الحارثِ بن هشامِ المَخْزومىّ فى الإسلام ، فولدتْ له فاطمةَ ، فطلَّقَها ، وقيل : لم يُطَلِّقْهَا .

وتزوَّجَ جميلةَ بنت عاصم بن ثابت بنِ أبى الأقلحِ الأوسِىّ فى الإسلام ،فولدتْ له عاصمًا فطَلَّقَها ،وقيل : لم يطلِّقْهَا .

وتزوّجَ أمَّ كلثومٍ بنتَ علىّ بنِ أبى طالبٍ رضى الله عنه ، وأمُّهَا فاطمةُ بنت رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأصدَقَها أربعين ألفًا فولدتْ رُقَيَّةَ وزيدًا .

---

(١) من ص .

وتزوّج لُهيَّة[1]، امرأة من اليَمَن ، فولدَتْ له عبدَ الرحمن الأوسط، وقيل الأصغر . وقيل: كانت أمَّ ولدٍ، وكانت عنده فُكَيْهبة أمّ ولد فولدتْ له زَيْنب ، وهى أصغرُ وَلَدِ عُمَر .

وتزوّج عاتكة بنتَ زيد بنِ عمرو بن نفيل، وقد تقدّمَ خبرُها عند ذكر عبدِ اللهِ بن أبى بكر .

ومن أولاده رضى اللهُ عنه : عبدُ الرّحمن ، وكنيتُه أبو شَحْمة ؛ وقيل : إنه كان له ولدٌ يقال له : مجبّر .

* * *

ولنفصّل هذا الفصلَ بذكرِ شيءٍ من أخبار مَنْ أدرك رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم من أولادر عمرَ ، ومَنْ وُلِدفى حياتِهِ [أما عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فإنَّه أسلم مع أبيه ، وهو صغير لم يبلغ الحلُم وكان أول مَشاهِدِه][2] الخَندق . وقيل : أُحُد ؛ لأنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ردَّه يومَ بدر لصغرِ سِنِّهِ ، وشهدَ الحَديْبية ، وكان رضى اللهُ عنه من أهل الوَرَع والعِلم ، كثيرَ الاتّباع لآثارِ رسولِ الله صلَّى الله عليه سلَّم ، شديدَ التَّحَرّي والاحتياطِ فى فَتْواه .وكان لايتخلَّفُ عن السَّرايا على عَهْدِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، ثم كان بَعْدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم كثير الحَجّ . وقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لحفصةَ بنتِ عمر : «إن أخاكِ عبدَ اللهِ رجلٌ صالِحٌ لو كان يقومُ من اللَّيْل» ،فما تَركَ بَعْدهَا قيامَ الليْلِ . وقعد عن حربِ عَلِيّ لمّا أشْكَلَتْ عليه لَوَرعِه ، ثم ندِم على ذلك

(١) ك . « لهبة » .
(٢) من ص .

حين حضرَتْهُ الوفاةُ ، فقال : ما أجِدُ فى نفسى من أمرِ الدُّنيا شيئًا إلا أنِّى لمْ أُقَاتِلْ مع علىٍّ الفئة الباغية .

قال ميمونُ بنُ مِهران : مارأيت أورعَ من ابن عمر ، ولا أعلمَ من ابن عبّاس .

وأفتَى فى الإسلام ستِّين سنةً ، ونشرَ نافعٌ عنه عِلْمًا جَمًّا .

ورُوِىَ عن يوسفَ بن المَاجشون ، عن أبيه وغيرِه : أنَّ مَرْوان بنَ الحَكَم دخل فى نفرٍ على عبدالله بن عمَر بعد ما قُتِلَ عثمان ، فعَرَضُوا عليه أن يبايعوا له ، فقال : كيفَ لِى بالنَّاس ؟ قال : تقاتِلُهم ونُقاتل معك ، قال : والله لواجتمع علىّ أهلُ الأرض ، إلا أهل فدَك ما قاتلتُهم فخرجوا من عندِه ومَروان يقول :

إنى أرَى فتنةً تَغْلِى مَراجِلُها والمُلك بعدَ أبى ليلى لمن غَلَبَا

قال : وكانت وفاةُ عبد اللهِ بمكَّة سنة ثلاثٍ وسبعين ، بعد قَتْلِ ابن الزُّبيْرِ بثلاثةِ أشهُر أو نحوِها ، وقيل : ستَّة أشهُرٍ ، وأوصى أن يُدْفَنَ فى الحِلِّ ، فلم يُقْدَرْ على ذلك من أجْلِ الحجاج ، فدُفِنَ بذِى طُوًى ، بمقبُرةَ المهاجِرين .

وكان الحجاجُ قد أمَر رجُلاً فَسَمَّ زُجَّ رُمْحِه ، وزَحَمَهُ فى الطَّريقِ ، ووَضَع الزُّجَّ فى ظهرِ قَدمِه ؛ وذلك أنَّ الحجاجَ خَطَبَ يومًا ، وأخَّر الصَّلاة ، فقال ابنُ عُمَر : إنَّ الشَّمْسَ لاتَنْتظِرُك ، فقال الحجّاج : لقد هَمَمْتُ أن أضربَ الذى فيه عَيْناك . فقال : إنْ تفعَلْ فإنَّك سفيهٌ سَلْطٌ[1] . وقيل : إنَّه أخفَى قوله ذلك عن الحجَّاج فلم يُسْمِعْهُ .

(١) السلط والسليط : الطويل اللسان

وكان عبدُ الله يتقدّم فى المواقفِ بعرفةَ وغيرِها[إلى المواضع][1] التّى كان رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم يقف فيها ، فكان ذلك يَعِزُّ على الحَجّاجِ ، فأمر الحجاج رجلاً معه حَرْبَةٌ مسمومةٌ ، فلما دفع النّاس من عَرفةَ ، لصق به ذلك الرّجل ، فأمَرَّ الحربةَ على قَدَمِه وهو فى غَرْزِ راحلتِهِ ، فمَرِض منها إيّامًا ، فدخلَ عليه الحجّاجُ يَعودُه ، فقال : مَن فَعل ذلك بك ياأبا عبد الرّحمن؟ قال : وما تصنَعُ به ؟ قال : قتلنى اللهُ إن لم أقتُلْه . قال : ماأراكَ فاعِلاً ، أنت الذي أمرتَ الّذي نَخَسَنى بالحَرْبة . قال لانَفعَل ياأبا عبدالرحمن وخرجَ عنه . وقيل : إنّه قال للحجّاج : إذ قال له : مَنْ فَعلَ بك ؟ قال : أنت الّذِى أمرتَ بإدخال السّلاح فى الحَرَمِ ، فلبثَ أيّامًا ثم مات رضى اللهُ عنه ، وصَلّى عليه الحجّاج .

وأما عبدُ الرّحمن الأكبر ، فإنّه أدرك لسنّهِ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه ولم يَحفَظْ عنه .

وعبدالرحمن الأوسط وهو أبو شَحْمة هو ؛ الذى ضَرَبه عمرُو ابنُ العاصِ بمصرَ فى الخمر ، ثم حَمَله إلى المدينة فضربه أبوه أدَبَ الوالدِ ، ثم مَرض وماتَ بعدَ شهر .

كذارواه مَعمَر عن الزّهرىّ ، عن سالم ، عن أبيه ، وأهلُ العراق يقولون : إنّه مات تحت سِياطِ عُمر .

قال ابن عبد البَّر : وذلك غلط . وقال الزُّبيْر : أقام عليه عمر حدّ الشراب ، فمرض ومات

وعبدالرحمن الأصغرِ ، هو أبو المجبّر ، واسم المجبَّر عبدالرحمن

(١) من ص .

ابنُ عبدالرحمنِ بن عمر ،سُمِّى المجبَّر لأنَّه وَقَع وهو غُلامٌ فتكسَّر ، فأُتِى به إلى عمته حَفْصة أمِّ المؤمنين ، فقيل لها : انظرى إلى ابن أخيكِ المكسَّر فقالت : ليس بالمكسَّر ولكنَّه المجبَّر .

وقال الزُّبيرُ : هَلَك عبدُ الرحمن الأصغر ، وترك ابنًا صغيرًا ، أو حَمْلا ، فسمَّتْه حفصةُ : عبد الرحمن ، ولقَّبَتْه المجبَّر ، وقالت : لعلَّ الله يجبُره .

وعبيْد الله بن عمر وُلِدَ على عهد رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولم يُنْقل أنَّه رَوَى عنه ، ولاسَمِع منه ، وهو الَّذى حدَّهُ عمرُ فى شُرْبِ الخَمْرِ ، وهو الَّذى وَثَبَ على الهُرمزان فقَتَله ، وقتل معه نصرانيًّا اسمُه جُفَيْنَة من أهل الحِيرة ، وقد اتهمهما أنَّهما أغْرَيَا أبا لُؤْلؤة بقَتْل عُمر . وقتل أيضًا ابنةً لأبى لؤلؤة طِفلة ، ولما ضَرَبَ الهُرْمزانَ بالسَّيف قال : لاإله إلاَّ الله ، فلمَّا قَتَل هؤلاء أخَذَه سعدُ ابنُ أبى وَقَّاص وحَبَسَه فى داره ، وأحضره عند عثمان . وكان عبيد الله يقول : واللهِ لأقتلنَّ رجالاً مِمَّن شرِك فى دمِ أبِى ، يُعرِّض بالمهاجرين والأنصارِ .

قالوا : وإنَّما قتل هؤلاء ، لأنَّ عبدَ الرحمن أبى بكر قال غداةَ قتِل عمر :رأيْتُ عشيَّة أمسِ الهُرْمزان ، وأبا لؤلؤة ، وجُفَينْة ، وهم يتناجَوْن ، فلمَّا رأونى ثاروا ، وسَقَط منهم خِنْجر له رأسان ، نصابه فى وَسَطه ، وهو الخِنْجر الذى ضُرِبَ به عمر ، فقَتَلهم عُبيدُ الله .

فلمَّا أحضَرَهُ عثمان قال : أشيروا علىَّ فى هذا الَّذِى فَتَقَ فى الإسلام ما فَتَقَ ، فقال علىّ : أرى أنْ تقتُلَه . فقال بعضُ المهاجرين : قُتِلَ

عمر أمس ، ونَقْتُل ابنَه اليوم ! فقال عمرُو بنُ العاصِ : إنَّ الله قد أعفاكَ أن يكون لك هذا الحَدَث ، ولك على المسلمين سلطانٌ . فقال عثمان : أنا وليُّه ، وقد جعلتُها ديةً ، واحتملتُها (١) فى مالى .

وقيل فى فداء عُبيدِ الله غير ذلك .

[قال القُماذيانُ بنُ الهُرْمِزَان (٢)] : كانت العَجَمُ بالمدينة يستروح (٣) بعضُها إلى بعض ، فمرّ فيروز بأبى ، ومعه خِنجر له رأسان ، فتناوَلَه منه ، وقال له : ما تصْنَعُ به ؟ قال : أَسُنُّ به ، فرآه رجلٌ ، فلمّا أُصِيبَ عمر قال : رأيتُ الْهُرْمُزانَ دَفَعه إلى فيروز ، فأقبلَ عبيْد اللهِ فقَتَلَه .

فلمّا ولِّىَ عثمانُ أمكنَنِى منه ، فخرجْتُ به وما فى الأرضِ أحدٌ إلاَّ معى ، إلاَّ أنَّهم يَطلبُون إلىّ فيه ، فقلْتُ لهم : أَلِى قَتْلَه ؟ قالوا : نعم ، وسَبُّوا عُبيدَ الله ، قلْتُ : أفلَكُمْ مَنْعُه ؟ قالوا : لا ، وسَبُّوه ، فتركْتُه للهِ ولهم ، فحملُونى ، فوالله ما بلَغْتُ المنزلَ إلاَّ على رُءوسِ النَّاسِ .

والأوّلُ أصحُّ وأشهرُ ؛ لأنَّ عليًّا لما ولِىَ الخلافةَ أراد قتل عبيدِ اللهِ ، فهربَ منه إلى معاوية بالشّامِ ؛ ولو كان إطلاقه بأمْرِ ولىِّ الدّمِ لمَ يَعرِض له علىٌّ رضى الله عَنْه .

قال أبو عمر : وكان عبيدُ اللهِ من أنجادِ قريشٍ وفُرْسانِهم ، قُتِلَ بصِفِّينَ مع معاويةَ ، وكان يومئذ على الخَيْلِ ، فرماه أبو زُبَيْد الطائىّ .

---

(١) ك : « واحتملها » .
(٢) من ص .
(٣) ك : « يتزوج »

وقيل : كان قد خرج فى اليوم الذى قُتِلَ فيه ، وجعل امرأتين له بحيْث تنظران إلى فعِله وهما : أسماء بنتُ عُطَارِد بن حاجب التَّميمىّ ، وبحريّة بنت هانئ بن قبيصة ، فلمّا بَرز شدّت عليه ربيعة فنشِب[1] بينهم فقَتَلُوه ، وكان على ربيعةَ يومئذ زيادُ بْنُ خَصفة التَّميمىّ ، فقيل له : إنَّ هذه بحريّة ، فسقطَ عبيدُ اللهِ مَيِّتًا قُرْبَ فُسْطَاطِه ، وقد بَقِىَ طُنُبٌ من طِنبَة الفُسْطاطِ لا وَتَدَ لَه ، فجرُّوه ، وشدُّوا الطُّنُبَ بِرِجْلِهِ ، وأقبلَتْ امرأتاه حتَّى وقفتَا عليه ، فبَكَتَا وصاحَتَا ، فخرجَ زيادُ بنُ خصفة [فقيل له : إن هذه بحرية بنت هانئ] [2] فقال : ما حاجتُكِ يا بنت أخى ؟ فقالتْ : زَوْجِى قُتِلَ ، تَدْفَعُه إلىّ ، قال : نعم ، فَخُذِيه ، فحملتُه على بَغْلٍ ، فذكر أنّ يديْه ورجْلَيْهِ خَطَّتا على الأَرضِ من فَوقِ البغْلِ[3] . واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ بالصَّواب ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، وصلَّى اللهُ على سيّدنا محمّد .

(١) ك : « فثبت » .
(٢) من ص الاستيعاب .
(٣) الاستيعاب ١٠١١، ١٠١٢ .

ذكر عمال عمر

رضى الله عنه وعنهم على الامصار

قد ذكرْنا عُمّا لَه فى حوادث السِّنين ، ورأيْنَا أنْ نجمعَهُمْ فى هذا الموضع فنقول : كان عمّالُه رضى الله عنهم : على مكّة عَتّاب ابنَ أَسِيد ، وعلى اليَمَن والطائف يَعْلَى بن مُنْيَة ، وعلى البَحْرين واليَمامة العَلاء بنَ الحَضْرمىّ ، ثمّ عثمان بن أبى العاص ، ثم قُدامة ابنَ مظعون ، ثم أبا بَكْرة ، وعلى عُمان حُذَيفةَ بن مِحْصَن ، وعلى البَصْرَةِ – أول من كان بها – قُطْبَةَ بن قَتادةَ السَّدوسىّ ، يَغْزو بتلك الناحية ، كما كان المثنّى يَفعلُ بناحية الحِيرة . ثم كتبَ إلى عمر يُعْلِمُهُ بمكانه ، ويستمدُّهُ ، فوجَّه إليه شُريحَ بنَ عامر ، أحد بنى سعدِ بنِ عمروِ بنِ بكر ، فسار إلى الأهوازِ ، فقتله الأعاجمُ بدارس ، فاستعمل عمرُ عُتْبَة بنَ غَزْوان ، ففتحَ الأُبُلَّةَ ، ثم سار إلى عمر ، فأعاده إلى عَمَلِهِ ، فمات فى الطَّريقِ ، فكانت إمارتُهُ ستَّةَ أشْهرٍ ، فاستعمل بعده أبا سَبْرَة بن أبى رُهْم على أحدِ الأقوالِ ، ثم المغيرةَ بنَ شُعْبة ، ثم عَزَلَه كما تقدّم بيانُه ، فاستعمَل أبا موسى الأشعرى ، ثمّ صَرفه إلى الكوفةِ ، واستعمَل عمرَ بنَ سُراقة ، ثم صَرَفه إلى الكوفةِ ، وصرف أبا موسى إلى البصْرةِ فعَمِل عليها ثانيةً ، ثمَّ صرفَهُ وأعاده ثالثةً.

وعلى مُضافاتِ البصرةِ جماعةً [فكان على مَناذر غالب الوائلىّ ، وعلى نهر تيرى حرملة بن مرَيطة ، وعلى سوق الأهواز حرقوص بن زهير.

وعلى الكوفة ومايَليها] (١) ، أوّلُ من استعمَل عليها سعد بن أبى وقّاص ، فكان عليها إلى سنةِ عشرين ، فعَزَلَه لشكَايةِ أهلها ، وأقَرّ خليفتَهُ على الكوفةِ ، وهو عبدُ الله بنُ عبدِ الله بن عتْبان ، ثم استعمَل عُمَرُ عمّارَ بنَ ياسر بن مسعود كما تَقَدَّم ، ثم المغيرة بن شعبةَ .

وعلى ثُغُورِ الكوفةِ مَنْ قَدَّمنا ذكره ، وعلى الجَزيرة وما يليها عِياض بن غَنْم ، ثم ضمَّه عمر إلى أبى عبيدة ، واستعمل حبيبَ ابنَ مَسلمَة على خَراج الجزيرةِ وعَجَمِها ، والوليدَ بنَ عقبة على عَرَبِهَا ، وعلى المَوْصِل من كان على حَرْبِها رِبْعىّ بن الأفكل ، وعلى خرَاجِهَا عرْفجةُ ابن هرثمة ؛ وذلك فى سنة ستّ عشرةَ .

وقيل : كان على الحربِ والخراجِ [بها عتبة بنُ فرقد ، وقيل كان ذلك إلى عبد الله بن مغنم ، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح] (٣) ، وكان تحت يده جماعةٌ على الأعمال ، فكان خالدُ بنُ الوليد على قِنّسْرِين ، وحِمْص ، ويزيدُ بنُ أبى سفيان على دمشق ومعاوية على الأُردنّ ، وعلقمة بن مجزِّز على فلسطين وعبد الله بن قيس على السواحل . فلما مات أبو عبيدة استعمل عمرُ معاذ بن جبل فمات من عامه ، فاستعمل يزيد بن أبى سفيان ، فمات ، فاستعمل معاوية على دمشق والأُردنّ ، ثم استقر فى سنة إحدى وعشرين عمير بن سعد على دمشق وحوران وحمص وقنّسرين والجزيرة ، ومعاوية بن أبى سفيان على البَلْقَاء

(١) من ص .
(٢) من ص .
(٣) من ص .

والأُرْدُنّ ، وفِلَسطين ، والسَّواحل، وأنطاكية ، وقلقيةَ ، ومعرَّة مصرين .

وعلى مصرَ عمرو بن العاص ، وكان العمّالُ فى سنة وفاته إلى آخر سنة ثلاثٍ وعشرين .

وعلى مكَّةَ نافعَ بن عبد الحارثِ الخُزاعىّ ، وعلى الطائفِ سُفيانَ ابن عبد الله الثَّقَفىّ . وعلى صَنْعَاء يَعلَى بن مُنْيةَ ، وعلى الجَنَدِ عبدَ اللهِ بنَ أبى ربيعة ، وعلى الكوفة المغيرة بنَ شُعْبة ، وعلى البصْرةِ أبا موسى الأشعرىّ ، وعلى مصر عمرو بن العاصِ ، وعلى حمصَ : عُمَير بن سعد ، وعلى دمشق معاوية ، وعلى البحرين وما والاها عثمان ابن أبى العاص الثقفىّ .

كتابه

عبد الله بن خلف الخُزاعىّ وزيد بن ثابت ، وعلى بيت المال زيد ابن أرقم .

قضاته

يزيد بن أخت النَّمِر بالمدينة .

وأبو أمية شُريحُ بن الحارث الكِنْدى بالكوفة ، ويقال : إنَّ شُرَيْحًا أقام قاضيًا سِتّين سنةً إلى أيّام الحجّاج ، فعُطِّلَ ثلاثَ سنين ، وامتَنَعَ من الحكم ، وذلك فى أيّام فتنةِ ابن الزُّبيْرِ . ولمّا وُلِّىَ الحجّاجُ استعْفاه ، فأعْفَاه ، ومات سنة سبع وثمانين وله مائةٌ وعشرون سنةً .

وقيل : مائة سنة ، وليس هو فى عدادِ الصَّحَابة رضى الله تعالى عنهم ، بل من كبارِ التَّابعين .

وعلى قَضاء البَصْرة كَعْب بن سور .

وعلى قضاء مِصْر قيسُ بنُ العاص السَّهْمِيّ ، ثم كعبُ بن سَيّار بن ضبّه ، ثمّ عثمان بنُ قيس بن أبى العاص .

وكان حاجبهُ يَرْفأ مولاه ، وخاتَمه خاتم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

وقال أبو عمرُ بنُ عبدِ البّرِ : كان نقشُ خاتَمِة : « كَفَى بالموت واعِظًا ياعُمرَ » .

ذكر خلافة عثمان بن عفان

رضى الله عنه

هو أبو عبْد اللهِ ، وقيل : أبو عمرو ، وقيل فى تكْنِيَتِه بأبى عبد الله : إنَّ رقيةَ بنت رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولدتْ له ابنًا فسمَّاه عبد الله ، فاكتنى به ، ومات ، ثم ولد له عمرو ، فاكتنى به إلى أن مات.

وقيل : إنَّه كان يُكْنَى أبا ليلى عثمان بن عفانَ بن أبى العاص بن أُميَّة بن عبدِ شمس بن عبد مناف ، ، ويجتَمِع مع نَسبِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى عبدِ مناف ، ولُقِّبَ بذى النُّورَيْن ، لأنه تزوَّجَ ابْنتَىْ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم [رقيَّةَ وأمَّ كُلْثوم] (١) .

وقيل للمهلَّب بن أبى صُفرةَ : لم قيل : عثمانُ ذو النُّورَيْنِ ؟ قال : لأنه لا نَعلَم أن أحدًا أرسلَ سِتْرًا على ابنتىْ نبىٍّ غيره .

وأمُّه أروى بنتُ كُرَيزِ بنِ ربيعة بنِ حبيب بنتِ عبدِ شمسِ بن عبد مَناف ، وأمُّها البيضاء ، أمُّ حَكيم بنت عبد المطَّلبِ ، عمَّةُ رسولِ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم .

وُلِدَ فى السَّنةِ السادسة بعد عام الفيلِ . والله وسبحانه وتعالى أعلم . بالصَّوابِ ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، وصلَّى الله على سيِّدِنا محمد . »

---

(١) من ص .

ذكر صفته ونبذة من فضائله

كان رضى الله عنه طويل القامة ، حسن الوجه وقيل : كان رَبْعةً ، ليس بالقصير ولا بالطَّويل ، حسنَ الوجهِ رقيقَ البَشَرةِ ، كبيرَ اللِّحيَةِ ، عظيمًا أسمر اللَّونِ ، كثير الشَّعْرِ ، ضَخْم الكرادِيس (١) ، بعيدَ مابينَ المنكبَيْن ، وكان يصفِّر لحيتَه ، ولما كَبِر شدَّ أسنَانَه بالذَّهب ، وهو رضى الله عنه أحدُ العَشَرةِ الَّذين شَهِد لهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالجنَّةِ ، ومات وهو عنْهم راضٍ .

وله رضى الله عنه فضائل ومآثرُ وسابقةٌ فى الإسلامِ

قال علىٌّ رضى الله وعنه : كان عثمانُ أوصَلنَا للرَّحِم ، وكان مِنَ الَّذِين آمنوا واتَّقَوْا وأحسَنوا ، والله يحبُّ المحسنين .

واشترى رضى الله عنه بئرَ رُومَة ، وكانت رَكيَّةً ليهُودىٍّ ، يبيعُ للمسلمين ماءها ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : « مَنْ يَشْتَرِى بئر رُومة فيجعلها للمسلمين ، يضرِبُ بَدَلْوِه فى دِلائهم ، وله بها مَشْربٌ فى الجنَّة ؟ » . فأتى عثمانُ اليهودىَّ فساومَه بها ، فأبى أنْ يبيعَهَا كلَّها ، فاشترى منه نِصْفَها باثنى عشر ألف درهمٍ فجَعَلَه للمسلمينِ ، فقال له عثمان : إنْ شئْتَ جعلْت على نصيبى يَوْمَيْن ، وإنْ شئتَ علىَّ يومٌ ولك يومٌ ، قال : لا ، بل لك يوم ولِى يومٌ . فكان إذا كان يومُ عثمان استقَى المسلمون مايكفيهم يومَيْن ، فلمَّا رأى اليهودىُّ ذلك ، قال : أفْسَدْتَ عَلَىَّ رَكِيَّتِى ، فاشْترِ النِّصفَ الآخَر ، فاشتراه بثمانيةِ آلافٍ .

وقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : « مَنْ يزيدُ فى مسجدِنا ؟ »

(١) الكردوسة : كل عظمين التقيا فى مفصل .

فاشترى عثمانُ رضى الله عنه موضع خمس سَوَارٍ ، فزادَه فى المسجد .

وجهّزَ رضى الله عنه جَيْش العُسْرة بتسعمائةٍ وخمسين بعيرًا ، وأتمَّ الألف بخمسين فرسًا .

وعن قتادة رضى الله عنه ، قال : حملَ عثمانُ مافى جيْش العُسْرة على ألفِ بعَير ، وسَبْعِين فرسًا .

وعن محمدِ بنِ بكير : أنَّ عثمانَ رضىَ اللهُ عنه ، كان يُحيِى اللَّيلَ بركعةٍ يقرأُ فيها القرآنَ. ورُوِىَ أنَّه كان يصومُ الدَّهْرَ رضى الله عنه .

ذكر بيعة عثمان

رضى الله عنه

بُويع له بالخلافةِ كما تقدَّمَ فى قصَّةِ الشُّورَى ، وقد اختُلف فى يومِ بَيْعَتِه ،وهو مُرَتَّبٌ على الخلافِ فى تاريخ وفاةِ عمرَ رضى الله عنهما ، فقيل : [فى] (١) يوم السَّبْتِ غرَّة المحرم ، سنةَ أربع وعشرين . ولم يذكر أبو عُمرَ بنُ عبدِ البَرِّ غيرَه (٢) .

وقيل : يوم الاثنين لليلةٍ بقيَتْ من ذى الحجّةِ ، سنةَ ثلاثٍ وعشرين ، فاستقبَل بخلافتِه شهرَ المحرَّم ، سنة أربع وعشرين ، قاله أبو جعفر .

قال : وقيل : لعشر خلوْن من المحرّم بعد مقتلِ عمرَ بثلاث ليالٍ .

---

(١) من ص .

(٢) الاستيعاب ١٠٤٤ .

قال : استُخْلِفَ وقد دخل وقت العصْرِ ، وقد أَذَّنَ مؤذِّنُ صُهَيْبٍ ، واجتَمعوا فى ذلك بين الأذان والإقامة ، فخرج فصَلَّى بالنَّاس ، وزادهم مائةً مائةً ، وَوَفَّدَ أهل الأَنْصَارِ ، وهو أَوّلُ مَنْ صَنعَ ذلك .

قال : وقيل : لمّا بايع أهلُ الشُّورَى عثمانَ رضىَ الله عنه ، خرج وهو أشدُّهم كآبةً ، فأَتَى مِنبر النّبِىّ صَلَّى الله عليه وسلَّم [فخطب فحمد الله وأثنى عليه وصلَّى على النبىّ صلى الله عليه وسلم] (١) وقال :

أيها النَّاسُ ، إنَّكُمْ فى دارِ قُلْعة (٢) ، وفى بقيّة أَعْمَارٍ ، فبادروا آجالكم بخير ما تَقْدِرُون عليه ، فلقَدْ أتيتُم صُبْحتم أو مُسِّيتُم ، ألا وإنَّ الدُّنْيَا طُوِيَتْ على الغُرورِ ﴿ فلا تغرنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُم بالله الغَرور ﴾(٣) واعتَبِرُوا بمَنْ مضى ، ثم جِدُّوا ولاتَغفُلوا ؛ فإنَّه لا يَغْفُل عنكم .

أين أبناءُ الدُّنيا وإخوانُها الَّذين أثارُوهَا وعَمروها ، ومُتِّعُوا بها طويلاً ! ألم تَلْفِظْهم ! رمُوا بالدّنيا حيث رَمَى اللهُ بها . واطلبوا الآخرة ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلّ قد ضربَ لها مَثَلاً ولِلَّذى هو خير ، فقال : ﴿ واضرب لهمْ مثلَ الحياةَ الدُّنيا كماءٍ أنزلْنَاه من السَّماءِ ...﴾ إلى قوله : ﴿ والباقياتُ الصّالحاتُ خيرٌ عِنْدَ ربِّكَ ثوابًا وخيرٌ أَمَلاً ﴾ . (٤)

---

(١) من ص .

(٢) دار قلعة ، أى ليست دار إقامة ، يقال : هم على قلعة ، أى على رحلة ، وفى حديث على : « أحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة ، أى تحول دار وارتحال .

(٣) سورة فاطر ٥ .

(٤) سورة الكهف ٤٦ .والخطبة فى تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٣

وكان أوّلُ كتابٍ كتبَهُ إلى عمّاله :

أمّا بعدُ (١) ، فإنَّ الله تعالى أمر الأئمةَ أن يكونوا رُعاةً ، ولم يتقدّمْ إليهم أن يكونوا جُبَاةً ، وأنَّ صدرَ هذه الأُمّةِ خُلِقُوا رُعاةً ، ولم يُخْلَقُوا جُباةً ، وليوشِكَنَّ أئمّتُكُمْ أنْ يَصِيرُوا جُبَاةً ، ولا يكُونوا رُعاةً ؛ فإذا عَادُوا كذلك انقطعَ الحياءُ والأمانة والوفاءُ .

ألا وإنَّ أعدَلَ السِّيرة أن تنظروا فى أمورِ المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالَهُمْ ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذِّمةِ فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بالَّذِى عليهم ، ثم العدوّ الذى تَنْتَابون ، فاسْتَفْتِحُوا عليهم بالوفاء .

وكان أولُ كتابٍ كتبه إلى أمراء الأجنادِ فى الفروج :

أمّا (٢) بعد ، فإنَّكُمْ حماةُ المسلمين وذادَتُهم ، وقَدْ وضعَ لكم عمر رضى اللهُ عنه ما لم يغبْ عنّا ، بل كان عن ملإٍ منّا ، ولا يَبلُغنا عن أحدٍ منكم تغييرٌ ولاتبديلٌ ، فيغيّر اللهُ بِكُمْ ، ويستبدلُ بكم غيرَكم . فانظروا كيف تكونون ، فإنّى أنظر فيما ألزَمَنِى الله النَّظرَ فيه والقيامَ عليه .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٥ .

ذكر الفتوحات والغزوات فى خلافة عثمان

ذكر خلاف أهل الاسكندرية

وفى[1] سنةِ خمسٍ وعشرين نقضَ أهلُ الإسكندريةِ الصُّلْحَ؛ وذلك أنَّ الرّومَ حضرُوا إليهم من القُسْطَنْطِينيّة ، ونفذ منهم منّويل الخَصِىّ ، واتفقُوا مَعَ مَنْ بها مِن الرّومِ ، ولم يُوَافِقْهُم المقوقِسُ ، وثَبَتَ على صُلْحِه ، فثبتَ لذلِكَ.

وسار عَمرُو بنُ العاص إليهم ، وسار إليه الرُّومُ ، واقْتتلُوا أشَدَّ قتالٍ ، فانْهزمَ الرومُ وتَبِعهم المُسلمون إلى أنْ أدْخلُوهم الإسكندريّةَ ، وقتلُوا منهم فى البلدةِ مَقتلةً عظيمةً ، وقُتِلَ منّويل الخصىّ .

وكان الرُّومُ لمّا خَرجُوا من الإسْكَنْدريّةِ أخَذُوا أموالَ أهلِ تلك القُرَى ، مَن وافَقَهم ومن خالَفَهم ، فلمّا ظَفر بهم المسلمون جاء أهلُ القُرَى الّذِين خَالَفُوهم فقالوا لعمْرِو بن العاص : إنَّ الرّومَ أخذوا أموالَنا ودوابَّنا ، ولم نخالفْ نحن عليكم ، وكُنَّا على الطّاعةِ ، فردّ عليهم ما غَرِمُوا مِنْ أموالهم بعد إقامةِ البيِّنةِ .

وهدمَ عمرٌو سورَ الإسكندريّةِ .

ذكر غزو ارمينية وغيرها وما وقع من الصلح

كان[2] عثمانُ رضىَ اللهُ عنه قد استعملَ سعدَ بنَ أبى وقّاص على الكوفةِ ، ثم عزَلَه ، واستَعملَ الوليدَ بنَ عُقْبة بن أبى مُعَيْط — وهو أخُو عثمانَ لأُمِّه — فعزل الوليدُ عُتْبةَ بنَ فَرقَدٍ عن أذْرَبِيجان ،

(١) فتوح مصر ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٨ ، ابن الأثير ٣ : ٤٣ .

فنقضُوا العهدَ فغزاهم الوليدُ فى سنةِ خمسٍ وعشرينَ ، وجعَل عَلَى مقدِّمتِهِ ٱبنَ شُبَيْلٍ الأَحْمسِيَّ ، وأغار على أهل مُوقَانَ وما جاورها ، ففَتَحَ وغَنِم وسَبَى ، وطلبَ أهلُ كُوَرِ أَذْرَبِيجانَ الصُّلْحَ ، فصالحهم على صُلْحِ حُذَيْفة ، وهو ثمانمائة ألف درهمٍ ، فقبضَ المالَ ثم بثَّ سراياهُ ، وبَعثَ سَلْمانَ بنَ ربيعةَ الباهِلِيَّ إلى أهل إرْمينيَةِ فى ٱثنى عشر ألفًا فقتلَ وسبَى وغَنِمَ ، ثم انصرفَ وقد ملأَ يدَهُ حتى أتَى الوليد . وعادَ الوليدُ وجعل طريقَهُ على الْمَوْصلِ ، ثم أتى الحَدِيثةَ (١) .

قال : ولمّا نزل الوليدُ بنُ عقبة الحديثةَ ، أتاه كتابُ عثمانَ رضى الله عنه يقول : إنَّ معاويةَ كتب إلىَّ أنَّ الرّومَ قد أجلبتْ على المسلمين فى جموعٍ كثيرةٍ ، وقد رأيتُ أن يمدَّهم أخوانُهُمْ من أهلِ الكُوفةِ . فابعثْ إليهم رَجُلاً له نجدة وبأْسٌ فى ثمانيةِ آلافٍ ، أو تسعةِ آلافٍ ، أو عشرةِ آلافٍ من المكانِ الَّذي يأْتيكَ كتابى فيه ، والسّلام.

فقامَ الوليدُ فى النَّاسِ ، وأعلَمَهُم الحال ، وندَبَهم مع سَلْمان ٱبنَ ربيعَةَ الباهِلِيّ ، فٱنتَدَبَ معه ثمانيةُ آلافٍ ، فمضَوْا حتَّى دخلوا مع أهلِ الشّامِ إلى أرضِ الرّومِ ، فشَنُّوا الغاراتِ ، فأصابَ النَّاسُ ما شاءُوا ، وافتتحوا حصونًا كثيرةً .

وقيل : إنَّ الذي أمدَّ حبيبَ بنَ مسلمةَ بسلمانَ بن ربيعة ، كان سعيدَ بنَ العاص لمّا كان على الكوفةِ ؛ وكان سببُ ذلك أنَّ عثمانَ كتبَ إلى معاويةَ يأمره أنْ يُغْزِيَ حبيبَ بنَ مسلمةَ فى أهلِ الشّامِ إرمينِيَة ، فوجَّهَهُ إليها ، فأتى قاليقَلاَ فحصرها ، وضيَّقَ على مَنْ كان بها ،

(١) ك : « الحديبية » تحريف .

فطَلَبُوا الأمانَ على الجلاء أو الجِزْية ، فجلا كثيرٌ منهم ؛ فلحقُوا ببلاد الرُّوم ، وأقام حبيبٌ بها فيمن معه أشهُرًا ، ثم بلغَهُ أنَّ بِطْرِيق إرْمَنْياقُس – وهى مَلَطْيَة ، وسِيوَاس وقُونِية ، وما والاها من البلاد إلى خليج القسطَنْطِينيَّة – وآسمُه الموريان ، قد توجَّه نحوه فى ثمانين ألفًا من الرُّوم . فكتبَ إلى معاوية بذلك ، فكتب معاويةُ إلى عثمانَ ، فأرسلَ عثمان إلى سعيدِ بنِ العاصِ ، يأمره بإمداد حبيب ، فأمدَّه بسلمان فى ستةِ آلافٍ ، فأجمع حبيب على تبييت الرّومِ ، فسمعَتْهُ امرأتهُ أمّ عبدِ الله بنتُ يزيدَ الكَلْبيّة ، فقالت : أينَ موعِدُك ؟ فقال : سُرادِقُ الموريان ، ثم بيَّتهم ، فقتل مَنْ وقفَ له ، ثم أتى السُّرادقَ فوجد امرأتَهُ قد سبقته إليْهِ ، ولمّا انهزمَتِ الرّومُ عاد حبيبٌ إلى قَالِيقَلا ، ثم سار فيها فنزلَ مربالا ، فأتاه بِطريقُ خِلاط بكتابِ عياضِ بنِ غَنْم بأمانه فأجراه عَلَيْه ، وحمَل إليه البِطْريقُ ما عليه من المالِ .

ونزلَ حبيبٌ خِلاطَ ، ثم سار منها ، فلقيه صاحِبُ مُكْس ، وهى من البُسْفُرْجان ، فقاطعه على بلاده ، ثم سار منها إلى أزْدشاط وهى القريةُ التى يكون بها القِرْمِزُ الّذى يُصْبَغُ به ، فنزل على نَهْرِ دَبيل ، وسرّح الخيولَ إليها وحصرها ، فتحصَّن أهلُها ، فنصبَ عليهم مَنجنيقًا ، فطلَبُوا الأمانَ ، فأجابهم إليْه ، وبثَّ السّرايا فبلغَتْ خيلُهُ ذاتَ اللُّجُم ؛ وإنَّما سُمِّيتْ ذاتَ اللُّجُم لأنَّ المسلمين أخَذُوا لُجُمَ خَيْلهم ، فكَبَسَهم الرُّومُ قبل أنْ يُلجِموهَا ، ثم ألجَمُوهَا وقاتَلوهم فظفِرُوا بهم .

ثم وجّه سريَّةً إلى سِراجِ طَيْر وبَغْرَوَنْد ، فصالَحه بِطريقُهَا على إتاوة ، وقدم عليه بطريقُ البُسْفُرْجان ، فصالحه على بلاده ، وأتى

السَّيْسَبان فحارَبَهُ أهلُها فهزمَهُم، وغَلَب على حصونهم . وسار إلى جُرْزَان ، وفتح عدَّةَ حُصُونٍ ومُدُنٍ تُجاوِرُها صُلْحًا .

وسار سلمانُ بنُ ربيعة إلى أرّان ، ففتحَ البَيْلَقان صُلْحًا، على أنْ يؤمِّنَهم على دمائهم وأموالِهم ، وحيطانِ مُدُنِهم، واشترط عليهم ، الجزيةَ والخراجَ ، ثم أتى سلمانُ مدينةَ بَرْذَعةَ فعَسْكَرَ على الثُّرْثور (نهرٌ بينه وبينها نحو فَرْسَخٍ) فقاتَلَهُ أهلُهَا أيّامًا، وشنَّ الغاراتِ على قُراها ، فصالَحوه على مثلِ صُلْحِ البَيْلَقَانِ ، ودخَلَهَا ؛ ووجَّه خيلَه ففتحتْ رساتيقَ الولاية ، ودعا أكرادَ البلاشجان إلى الإسلام ؛ فقاتلوه فظفر بهم ، فأقرَّهم على الجزيةِ ، وأدَّى بعضُهُمْ الصَّدقة وهم قليلٌ ، ووجَّه سَرِيَّةً إلى شَمْكور ففتحوها ، وهى مدينةٌ قديمةٌ ، ولم تزلْ معمورةً حتىّ أخربها السّاوَرْدِيَّةُ ، وهم قومٌ تجمّعُوا لمّا انصرف يزيدُ بنُ أسِيد عن إرْمِينيَة ، فَعظُم أمرُهُم ، ثم عمَّرها بغا فى سنةِ أربعين ومائتين، وسمَّاها المتوكِّليَّةَ ، نسبةً إلى المتوكِّلِ .

وسار سلمان إلى مجمع الرَّسّ والكُرّ ، ففتح قَبَلَةَ ، وصالحه صاحبُ شَكّى وغيرها على الإتاوَه ، وصالحه مَلِكُ شَرْوَانَ ، وسائر ملوك الجبالِ فأهلُ مَسقَط والشّابَران ، ومدينة البابِ . والله تعالى أعلمُ بالصوابِ .

ذكر غزو معاوية الروم

وفى[1] سنة خمسٍ وعشرين ، غزا معاويةُ بنُ أبى سفيانَ الرُّوم ، فبلغَ عَمُّوريَةَ فوجد الحصونَ الَّتى بين أنطاكيَةَ وَطَرَسوسَ خاليةً ، فجعل عندها جماعةً كثيرةً من أهل الشّامِ والجزيرة ؛ حتى انصرف من غَزاتِهِ. ثم أغزَى بعد ذلك يزيدَ بن الحُرّ العَبْسىَّ الصائفَةَ وأمره أن يَفْعَلَ مثل ذلك ، ولما خرجَ هدمَ الحصونَ إلى أنْطاكيَة . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح كابل

وفى[2] سنة خمسٍ وعشرين بعثَ عثمانُ بنُ عفَّان رضى الله عنه عبد الله بن عامر إلى كابُل ، فبَلَغها فى قولٍ ، وكانت أعظمَ مِنْ خُراسانَ ولم يزلْ إلى أنْ مات معاويةِ ، فامْتَنَعَ أهْلُهَا . والله سبحانه وتعالى أعلمُ .

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٤٤ ، تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٧ .
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٤٤ .

ذكر غزو افريقية وفتحها

وفيها [١] بعثَ عمرُو بنُ العاصِ عبدَ الله بنَ سعدِ بن أَبِى سَرْحٍ إلى أطرافِ إفريقيَّةَ غازيًا بأمرِ عُثمانَ فغَنِم وعاد ، وكتبَ إلى عُثمانَ يستأذنُه فى غَزْوِها ، فأذن له ، وعزلَ عمرَو بنَ العاص عن خَراجِ مصْرَ . واستعملَ عبدَ اللهِ بنَ سعد فى سنةِ ستٍّ وعشرين ، فتَنَازَعا الأمر .

فكتبَ عبدُ اللهُ إلى عُثْمَانَ أنَّ عَمْرًا كسرَ علىَّ الخراجَ ، وكتب عمرٌو إنَّ عبدَ اللهِ كسرَ عَلَىَّ مكيدةَ الحرْبِ . فعزَلَ عثمان عَمْرًا واستقدمَه ، واستعمل عبدَ اللهِ على حربِ مصرَ وخراجِها ، وأمره أنْ يغزوَ إفريقيَّة وقال : إنْ فتح اللهُ عليكَ فلكَ خُمْس الخمسِ نَفْلا .

وأمَّر عثمانُ عبدَ اللهِ بنَ نافعِ بن عبد القيس وعبد اللهِ بن نافع ابن الحارث على جُنْدٍ ، وسرَّحَهما ، وأمَرهما بالاجتماع مع عبد الله ابن سَعْدٍ على صاحب إفريقيَّة ، ثم يقيمُ عبدَ اللهِ فى عَمَلِهِ [فخرجوا] [٢] ووصلوا إلى أرض إفريقيَّة فى عشرةِ آلافٍ من شُجْعَانِ الإسلامِ ؛ فصالحهم أهلُ إفريقيَّة على مالٍ يؤدُّونَه ، ولم يُقْدِمُوا على دخولِ إفريقيَّة والتَّوغُّلِ فيها لكثْرةِ أهلِها .

ثم أرسلَ عبدُ الله إلى عُثمانَ يستشيره فى قَصْدِ إفريقيَّةَ ، وفَتْحِهَا ، فجهَّز إليه عثمان جماعة من أعيان الصَّحابة ، منهم عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ وغيره ، فسار بهم ابنُ سعدٍ إلى إفريقيَّة .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٤٥ وما بعدها

(٢) من ص .

فكان مِنْ أمرِ فَتْحِ إفريقيّةَ ما نذكرُه إنْ شاء الله تعالى فى الباب السَّادِسِ من القسم الخامسِ من هذا الفنِّ فى أخبارِ إفريقيّة ، وبلادِ المغرب بما هو أبسطُ مِنْ هذا القولِ ، وهو السِّفر الثّانى والعشرون من هذه النُّسْخةِ .

قال : لمّا فُتِحَتْ سُبَيْطِلة وهى دارُ المُلْكِ ، وُجِد فيها من الأَمْوالِ مالم يكن فى غيرها ، فكان سَهْمُ الفارِسِ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ ، وسهم الرّاجلِ ألف دينارٍ .

وبعثَ عبدُ اللهِ بنُ سعدٍ جُيُوشَه فى البلادِ ، فبَلَغَتْ قَفْصَةَ ، فسَبَوْا وغَنِمُوا ، وبعثَ عَسْكَرًا إلى حِصْنِ الأَجَمِ ، وقد احتمى به أهلُ البلادِ ، فحصَرَه وفتَحَه بالأمانِ ، فصالحه أهلُ إفريقيّة على الفىء ، ألفٍ وخمسِمائة ألف دينارٍ .

وسار عبد اللهِ بنُ الزُّبيْر إلى عثمانَ بالبشارةِ ، وتنفَّلَ[1] بابنة الملكِ ، ثم عاد عبد الله بنُ سَعْدٍ من إفريقيّة إلى مِصْرَ ، وكان مقامه بها سنةً وثلاثةَ أشهرٍ ، ولم يفقدْ مِنَ المسلمين إلاَّ ثلاثةَ عشر رَجُلاً ، وحُمِلَ خُمْسُ إفريقيّةَ إلى المدينةِ ، فابتاعه مروانُ بنُ الحكم بخمسمائة ألف دينارٍ ، فوضَعَها عنه عُثْمَانُ وهو مما أُخِذَ عليه ، وأنْكَرَهُ الصَّحابةُ رضى الله تعالى عنه ، وقال فى ذلك عبد الرحمن بن حنبل أحد الصّحابة رضى الله تعالى عنهم :

أحلفُ باللهِ جَهْدَ اليَمينِ ماتَرَكَ اللهُ أمْرًا سُدَى
ولكنْ جعلْتَ لنا فتنـةً لكى نُبْتَلى بك أو تُبْتَلَى

(١) فى ابن الأثير ٣ : ٤٦ : « ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك » .

دعوْتَ الطريدَ فأدْنَيتَهُ خلافًا لِمَا سنَّه المُصْطَفى
وولَّيْتَ قُرْباكَ أمرَ العبادِ خلافًا لسنَّةِ مَنْ قد مَضَى
وأعطيْتَ مروان خُمْسَ الغَنيمَ ةِ آثرته وَحَمَيْـتَ الحِمَى
ومالاً أتانى به الأشعرىُّ مِن الفَىءِ أعطيْتَهُ مَن دَنَا
فإنَّ الأمِينَيْنِ قد بيَّنَا منارَ الطَّرِيقِ عليه الهدي
فما أخذا غِيلةً دِرْهَمًا ولا قَسَّمَا دِرْهما فى هوى

قال : ولما فُتحت إفريقيَّة أمرَ عثمانُ عبد اللهِ بن نافع بن عبدِ القيسِ أن يسيرَ إلى الأندلس ، فأتاها من البحرِ ، ففتحَ الله تعالى على المسلمين .

وفى سنة سبع وعشرين فُتِحَتْ إصْطَخْر ، وهو الفتحُ الثانى ، وكان فتحُهَا الآن على يدِ عثمانَ بن أبى العاص .

وقد ذكرنا الأول فى خلافةِ عمرَ . وفيها غزا معاويةُ بنُ سفيانَ رضى الله تعالى عنه قُبْرُس .

ذكر فتح جزيرة قبرس

كان[1] فتحها على يدِ معاوية بن أبى سفيان ، واختُلِفَ فى وقته ، فقيل : فُتِحَتْ فى سنة ثمانٍ وعشرين ، وقيل : فى سنة تسع وعشرين ، وقيل : فى سنةِ ثلاثٍ وثلاثين .

وكان قد ألحَّ على عمر رضى الله عنه فى غزوِ البحْرِ ، وذكر قربَ

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، تاريخ ابن الأثير ٣ : ٤٨ .

[الرّوم] (١) من حِمْص ، وقال : إنَّ قريةً من قُرَى حِمْص ليَسْمَع أهلُها نُبَاحَ كلابهم وصِيَاحَ دَجاجِهم .

فكتب عمرُ إلى عَمرو بنِ العاص : أنْ صِفْ لى البحرَ وراكبَه ، فكتبَ إليه عمرو : إنى رأيتُ خلقًا كبيرًا يَركَبه خَلْقٌ صغير ، ليس إلاَّ السّماء والماء ، إنْ رَكَد خرقَ القلوبَ ، وإنْ تحرّكَ أزاغَ العقول ، يَزْدَادُ فيه اليقينُ قلَّة ، والشّكّ كثرةً ، هُمْ فيه كدُودٍ على عودٍ ، إنْ مالَ غَرِقَ ، وإنْ نَجَا بَرِقَ .

فلمّا قرأ كتابَ عمرو ، كتب إلى معاويةَ : والّذِى بعثَ محمدًا بالحقِّ لا أحملُ فيه مسلمًا أبدًا ، وقد بلغنى أنَّ بحر الشّام يُشرفُ على أطولِ شىء من الأرضِ ، فيستأذن اللهَ كلَّ يومٍ وليلةٍ فى أن يُغْرِقَ الأرضَ ، فكيف أحمل الجنودَ على هذا الكافرِ ، لَمُسلِمٌ أحبُّ إلىَّ ممَّا حَوَتِ الرُّوم . فإيّاكَ أنْ تَعرِّضَ إلىّ ، فقد علمتَ مالقىَ العَلاءُ مِنِّى .

وتركَ مَلِكُ الرُّومِ الغزوَ ، وكاتبَ عمر وقاربه ، فلمّا كان زمن عثمان كتبَ معاويةُ إليه يستأذنه فى غزو البحرِ مرارًا ، فأجابَهُ إلى ذلك وقال : لا تَنْتَخِبَ [الناس] (١) ولا تُقْرِعْ بينهم ، خيِّرهم ، فمن اختارَ الغزوَ طائعًا ، فاحْمِلْه وأعِنْه ، ففعل .

واستعملَ عبدَاللهِ بنَ قيس الحارثىّ حليف بنى فَزَارَة ، وسار المسلمون إلى قُبْرس ، وسار إليها عبدُ اللهِ بنُ سعدٍ من مصر ، فاجْتَمَعُوا عليها فصالَحهم أهلُهَا على جِزْيةٍ ، وهى سبعة آلافِ دينار فى كلِّ سنةٍ ، ويؤدُّون للرّومِ مِثلهَا ، لا يمنعُهم المسلمون مِنْ ذلكَ ، وليس على المسلمين

(١) من ص .

[منعهم][1] مِمَّن أرادَهُمْ مِنْ ورائِهم . وعليهم أن يُؤذنوا المسلمين بِمَسيرِ عدوِّهم من الرُّومِ ، ويكون طريقُ المسلمين إلى العَدْوّ عليهم ، فقبلُوا ذلك منهم ، وعادوا عنهم .

وشهدَ هذه الغزاة جماعةٌ من الصحابةِ ، منهم : أبو ذَرّ الغفارى ، وعُبادةُ بنُ الصَّامِت ، ومعه زوجتُه أمُّ حَرام بنت مِلْحان ، وأبوالدَّرداء شدَّادُ بنُ أوسٍ .

وفى هذه الغزاةِ ماتت أمُّ حَرام ، ألقتهْا بَغْلتُها بجزيرة قُبرس فانْدَقَّ عنقُها ، وكان رسول اللهِ صلى الله عليه وسلَّم أخبرَها أنَّها مِن أوّلِ من يغزو فى البحرِ .

قال : وبقىَ عبدُ اللهِ بنُ قيس على البحرِ ، فغزا خمسين غَزاةً فى البحْرِ ، من بَيْنِ شاتِية ، وصائفة ، لم يُنكَبْ أحَدٌ مِنْ جُنْدِه ، وكان يدعو اللهَ أن يُعافِيَه فى جُنْدِه ، ثم خرجَ هو فى قارِبٍ طلِيعةً ، فانتهى إلى المَرْفأ من أرْضِ الرُّومِ ، وعليه مساكينُ يسألون ، فتصدَّق عليهم ، فرجعَتْ امرأةٌ منهم إلى قريتها ، فقالت : هذا عبدُ اللهِ بنُ قيْس فى المَرْفأ فبادَروا إليه ، وهجموا عليه ، فَقَتلوه ، بعدُ أنْ قاتلَهُم ، فأُصيبَ وحْدَه ، ونجا الملاَّحُ حتَّى أتى أصحابَهُ فأعلَمَهم ، فجاءوا حتَّى رسَوْا بالمرفأ وعليهم سُفيانُ بنُ عوف الأزْدِىّ ، فخرج إليهم فقاتلَهُمْ .

وقيل لتلك المرأةِ بعد ذلك : بأىِّ شىءٍ عَرَفْتِ عبدَاللهِ بنَ قيس ؟ قالت : كان كالتَّاجرِ ، فلمّا سألْتُه أعطانى كالمِلكِ ، فعرفْتُه بهذا .

ولمّا كانت سنة اثنتين وثلاثين أعَان أهلُ قُبْرس الرّومَ على غَزْوِ

(١) من ابن الأثير

المسلمين بمراكبَ أعطَوْهم إيّاها ، فغزاهم معاوية فى سنة ثلاث وثلاثين فَفَتَحها عَنْوةً ، فقَتَل وسَبَى ، ثم أقرَّهم على صُلْحهم ، وبعثَ إليهم اثنى عشر ألفًا فبنوا المساجدَ ، وبنى بها مدينةً .

وقيل : كانت الغزوةُ الثانيةُ فى سنهِ خمسٍ وثلاثين .

وفى سنةِ ثمانٍ وعشرين غزا حبيبُ بنُ مسلمةَ سورية مِنْ أرضِ الرُّومِ . والله تعالى أعلمُ ، وحسبُنَا الله ونعمَ الوكيلُ .

ذكر نقض أهل فارس وغيرهم

وفتح إصَطخْر ودرابجرْد

وفى سنةِ تسع وعشرين نقض أهلُ فارس بعُبَيد الله بن مَعمَر ، فسار إليهم ، فالتقوْا على باب إصطَخر ، فقُتِلَ عبيدُاللهِ ، وانهَزَم المسلمون . فبلغ الخبرُ عبدَ اللهِ بنَ عامرٍ أميرَ البَصْرةِ ، فاستنْفَر أهلَ البصرةِ وسار إلى فارسَ ، فالتقَوْا بإصْطَخْر ، واشتدّ القتالُ ، فهزم المسلمون الفُرْسَ ، وقُتِلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ ، وفُتَحِتْ إصْطَخْر عَنوةً ، وأتى درابجرد ، وقد غدرَ أهلُها ، ففتحها وسار إلى مدينة جُور ، فانتقَضتْ إصطَخر ، فلم يرجعْ إليها ، وتمَّمَ السيرَ إلى جُور فحاصَرَها ، وكان هرمُ بنُ حيّان محاصرًا لها ، وكان المسلمون يُحَاصرُونَهَا وينصرفون عنها فيأْتُونَ إصطخْر ، ويغزون نواحِيَ كانت تَنتقِضُ عليهم ، فلم يزلْ عبدُ الله بنُ عامر عليها حتَّى فَتَحَها .

وكان سببُ فتْحها أنَّ بعض المسلمين قام يصَلِّى ذاتَ ليلةٍ ، وإلى جانبه جرابٌ له فيه خُبْزٌ ولحم ، فجاء كَلْبٌ فجرَّه وعَدَابِه حتَّى دخل

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٥٠ : ٥١ .

المدينة مِنْ مَدْخلٍ خفيٍّ ، فلزِمَ المسلمون ذلك المَدْخَل حتَّى دخلوها منه وفَتَحوها عَنْوةً ، فلمَّا فرغَ ابنُ عامرٍ منها عاد إلى إصْطَخْر وفتحَها عنوةً بعدَ أنْ حاصرَها ورَماها بالمَجانيق ، وقتلَ بها خلقًا كثيرًا من الأعاجمِ ، وأفْنَى أكثرَ أهلِ البيُوتاتِ ، ووجوه الأساوِرة ، وكانوا قد لجئوا إليها .

وقيل : إنَّ أهل إصطخْر لما نكَثُوا عادَ إليها ابنُ عامرٍ قبل وصوله إلى جُور ، فملكَهَا عنوةً ، وعاد إلى جُور ، وأتى درابجرد فملكَهَا ، وكانت منتقضةً أيضاً ، ووطئَ أهلَ فارسٍ وطأةً لم يزالوا مِنْها فى ذُلٍّ .

وكتبَ إلى عثمانَ بالخبر ، فكتَب إليه أن استعْمل على بلادِ فارس هرمَ بنَ حيّان اليَشْكريّ ، وهرمَ بنَ حيّان العَبْديّ ، والخرِّيت ابنَ راشِد ، والتَّرجمانَ الهُجَيْميّ .

وأمره أن يفرّقَ كُورَ خُراسانَ على جماعَة ، فيجعَلَ الأحنفَ بَن قيْسٍ على المَرْوَيْنِ . وحبيبَ بنَ قُرَّة اليَرْبُوعيّ على بَلْخ ، وخارجَة ابنَ عبدِاللهِ بنِ زُهَيْر على هَراةَ ، وأمَيرَ بنَ أحمرَ على طُوس ، وقيسَ ابنَ هُبَيْرةَ وقيسًا السُّلميّ على نيسابور ، واللهُ أعلمُ .

ذكر غزو طبرستان

فى[1] سنة ثلاثين غزا سعيدُ بنُ العاص عاملُ الكُوفَة طَبَرِسْتان ومعه الحسنُ والحسينُ وابنُ عبّاسٍ ، وابنُ عمر ، وعبدُ الله بنُ عمرو بن العاص وحذيفةُ بنُ اليمانِ . وابنُ الزُّبيرُ وغيرهم ، ولم يَغْزُها غيْرُه أحد على أصحّ الأقوالِ .

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٥٤ .

وقد ذكرْنا فيما تقدّمَ فى خلافة عمر رضى الله عنه فتحهَا ، والخلاف فيه .

قال : فأتَى سعيدٌ جُرجانَ ، فصالحوه على مائتى ألفٍ ، ثم أتى طَميسة وهى كلُّها منْ طبرستان ، مُتاخمة جُرجانَ على البَحر ، فقاتَله أهلُهَا ، فصلَّى صلاةَ الخَوْف وحاصَرهُم ، فسألوه الأمانَ فأعطاهم ، عَلَى ألاَّ يَقْتُلَ منهم رجلاً واحدًا ، واحتَوَى على مافى الحصْنِ ، وفتح سعيدٌ ناميَة ، وليست مدينة ، هى صحارى . . والله أعلم .

ذكر غزو الصوارى

كانت[1] هذه الغزوة فى سنة إحدى وثلاثين ، وقيل فى سنة أربع وثلاثين ، وكان سببها أنَّ المسلمينَ لمّا فعلوا بأهل إفريقيّة ما فعلوا عند فتحها ، عَظُمَ ذلك على قُسْطَنْطين بنِ هرَقْل ، فخرج فى جمعٍ لم يجمع الرُّومُ مثلهَ مذكان الإسلام .

قيل : خرج فى خمسمائة مركبٍ ، وقيل : فى ستّمائة ، وخرج المسلمون ، وعلى أهل الشَّامِ معاويةُ بنُ سفيان ، وعلى البحرِ عبدُ الله ابنُ سعد بنِ أبى سَرْح ، فالتقَوْا ، وقرَّبوا السّفنَ بعضَها إلى بعض ، فاقتتلوا بالسُّيوف والخناجرِ ، فأنزل اللهُ نصْرَه على المسلمين ، فانهزَم قُسْطَنْطين جريحًا ، ولم يَنْجُ من الرُّومِ إلا الشَّريد ، وأقام عبدُ الله بنُ سعدٍ بذات الصَّوارى بعدَ الهزيمة أيَّامًا ورجع .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٥٨ .

وأمّا قُسْطَنْطين فإنّه وصلَ فى مَركَبه إلى صِقلِّيَة ، فقال أهلُهَا : أهلَكْتَ النَّصْرانيّةَ ، وأفنَيْتَ رِجالَها ، لو أتانا أهل المغرب لم يكُنْ عندنا منَ يمنعُهُمْ ، ثم أدخلوه الحَمّام وقَتَلوه . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر مقتل يزد جرد آخر ملوك بنى ساسان

قال (١) : لمّا فتح عبدُ الله بنُ عامرٍ بلادَ فارسَ على ما قدَّمناه ، هَرَب يزدجردُ إلى خُراسان ، فوجّه عبدُ الله فى طلبِه مجاشعَ بن مسعودٍ وقيل : غيره ، فأتبعه إلى كرْمان ، وكثُر الثَّلجُ والبرْدُ ، فهلك جيْشُ مجاشعٍ ، ورَجَع هو .

واختُلفَ فى قتْلِ يَزْدَجِرْد ، فقيل : هَرَب من كرْمانَ إلى مَرْوَ ومعه خُرُّزَاذ أخورُسْتُم ، فرجعَ عنه إلى العراقِ ، وأوْصَى به ماهَوَيْه مرزُبانَ مَرْو ، فسألَه يَزْدَجِرْد مالاً فمنَعَهَ مخافةَ أهل مَرْو على أنفسهم فأرْسَلُوا إلى التُّرك يَسْتَنْصرُونَهم عليه ، فأتَوْهُ فبيَّتوه وقتَلوا أصحابه ، فخرج ماشيًا إلى وَسَط المَرْغاب ، فأوى إلى بيْت رجلٍ ينقرُ الأرحاءَ ، فلما نام قَتَلَهُ .

وقيل : بل قَتَله أهلُ مَرْو ، ولم يستنصرُوا بالتُّرْك . وقيل : غيرُ ذلك ، والله سبحانَه وتعالى أعلمُ ، وهو حَسْبى .

---

(١) ابن الأثير ٣ : ٥٩ .

ذكر فتح خراسان

قال : [1] كان أهلُ خُراسانَ قد غَدَروا لمّا قُتلَ عمرَ بنُ الخطّاب رضى اللهُ تعالى عنه ، ونَقَضُوا ، فلمّا افتتح عبدُ الله بنُ عامر بلادَ فارسَ عادَ إلى البَصْرة ، واستخلفَ على إصْطَخر شريكَ بنَ الأعورِ الحارثىّ ، فبنى شَريك مسجد إصْطَخْر ، ثم تجهَّزَا بنُ عامرٍ من البصرة ، واستخلفَ عليها زيادَ بنَ أبيه ، وسار إلى كِرْمان واستعملَ عليها مجاشعَ بنَ مسعود السُّلَمى ، وله صحبةٌ ، وأمرَه بمحاربة أهلها ، وكانُوا قد نكَثُوا .

واستعمَل على سجستانَ الربيعَ بنَ زياد الحارثىّ ، وكانُوا قدْ أعدُّوا له أيضًا ، ونَقَضُوا الصُّلْحَ .

وسار عبدُ الله بنُ عامرٍ إلى نيسابورَ ، وعلى مقدّمَته الأحنف بنُ قيس ، فأتى الطَّبَسَيْن ، وهما حصْنان ، وهما بابَا خُراسانَ ، فصالَحه أهلُهَا ، وسار إلى قوُهِسْتانَ فقاتَلَهُ أهلُها ، فقاتَلَهُمْ حتَّى ألجأهم إلى حصنِه ، وقَدم عليه ابنُ عامرٍ ، فصَالَحه أهلُهَا على ستِّمائة ألف درْهَم ، وبثَّ سراياه فَفَتَحت البلادَ ، وفتحَ بهقَ ، وبُشت ، (وهى بالشِّين المعجمة) ، وليست بُسْت المعروفة ، ثم فتحَ نيسابورَ بَعْدَأَنِ استولَى عَلَى أعمالها ، وبعد أنْ حاصَرَها أشهُرًا .

وكان لكلّ ربع منها مَرْزبان من القُرى يَحفَظه ، فطلبَ أحدُهم الأمان والصُّلْحَ على جميع نيسابورَ ، فصالحَه على ألف ألف درهم ،

(١) ابن الأثير ٣ : ٦١ .

وولَّى نيْسابورَ قيسَ بنَ الهيثَم السُّلَمىّ ، وسيَّر جيْشًا إلى نَسَا ، وبيوَرْد ففتحوهما صُلْحًا ، وسيَّر سَريَّةً أُخرى إلى سَرْخَس ، فقاتَلَ أهلَها ،ثم طلَبُوا الأَمانَ والصُّلْحَ على مائة رجل ، فصالح مَرْزُبانها على ذلك، فأُجيب إلى ذلك ، وسَمَّى مائةرجلٍ ، ولَم يذكر نفْسَه ، فَقَتَله ، ودَخَل سَرْخَسَ عَنْوةً ، وأتى مَرْزبان طُوس إلى عبد الله ، فصالحَه على ستِّمائة ألف درْهَم .

وبعثَ جيْشًا إلى هَراة عليهم عبدُ الله بنُخازم ، وقيل غيره ، فسار مَرْزُبانُهَا إلى ابن عامرٍ وصالحه على هَراةَ ، وباذَ غيس وبُوشَنْج على ألفَىْ ألف درْهم ، ومائتَىْ ألف درْهم .

وكانتْ مَرْوُ كلُّها صلحًا إلا قريةَ السِّنْج ، (وهى بكسر السين المهملة) ، فإنَّها فُتحَتْ عنوةً .

ووجَّه الأَحنفَ بنَ قيس إلى طَخارِسْتانَ ، فمرَّ بُرسْتاقٍ يُعْرَفُ بُرسْتاقِ الأَحنف ، فصالحُوه على ثلثمائة ألف درهم ، ومضى إلى مَرْوِالرُّوذ ، فقاتله أهلُهَا ، فهزَمهَم . ثم صالحهم مرزبانُهَا على ستِّمائة ألف درْهَمٍ .

فاجتمع أهلُ طَخارستان والجُوزجَان والطَّالقان ، والفارِياب ومَن حَولَهم ، فلقوْه فى خلقٍ كثير ، فالتقَوْا واقتتلُوا ، فهزمهم المسلمونُ وقتلوا منهم قتلاً ذريعًا ، وعاد إلى مَرْوالرُّوذ ، ولَحق بعضُ العدوّ بالجُوزجان ، فوجَّه إليهم الأَحنفُ بنُ قَيس الأَقْرعَ بنَ حابِسُ التَّميمىّ فى جيشٍ ، وقال : يابنىتميم ، تحابُّوا وتَباذَلوا تَعتدلْ أمورُكُم ،

وابدءوا بجِهاد بطُونكم وفُروجِكُمْ يَصْلُحْ لكم دينكُمْ ، ولاتَغُلُّوا فيَسلَم لكُمْ جهادكُمْ .

فسار الأقرعُ فلقىَ العدوَّ بالجُوزجان ، فكانت بالمسلمين جَوْلةٌ ، ثم عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجُوزجان عَنْوةً ، وفَتح الأَحنفُ الطالقان صُلْحًا ، وفَتَحَ الفارياب ، وقيل :بل فتَحَهاأَميرُبنُ أَحمرَ .

ثم سار الأَحنفُ إلى بَلْخ ، وهى مدينةُ طخارِسْتان ، فصالحه أَهلُهَا على أَربعين أَلف . وقيل : سبعمائة أَلف .

فاستعملَ على بَلْخ أَسيدَ بنَ المُتَشَمِّس ، ثم سار إلى خُوارزْم ، وهى على نَهرْ جَيْحون ، فلم يَقدرْ عليها ، فعاد إلى بَلْخ .

ولمّا تمَّ هذا الفتحُ لعبد الله بن عامرٍ ، قال النَّاسُ : مافُتحَ لأَحَدٍ مافتِح عليك فارس ، وكرْمان ، وسجِسْتَان ، وخُراسان ، فقال : لأَجعلنَّ شكْرِى لله على ذلك ؛ أَنْ أَخرجَ محرِمًا من موقفى هذا . فأَحرمَ بعُمْرةٍ منْ نَيْسابور

وقَدمَ على عُثمَان ، واستخلفَ على خُراسانَ قيسَ بن الَهيْثم ، فسار قيسٌ فى أَرضِ طخارِسْتان ، فلَمْ يأْت بلدًا منها إلا صالحَه أَهلُهَا ، وأَذْعَنوا له ، إلا سِمِنْجان ، فإنَّه فتَحهَا عنوةً . والله سبحانه وتعالى أَعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ذكر فتح كرمان

قال (١) : لمّا سار عبدُ الله إلى خُراسان استعمل مجُاشعَ بنَ مسعود السُّلَمىّ على كرْمانَ كما ذكرتا ، وأمَرَه أن يفتَتِحَها ، وكان أهلُها قد نكَثُوا وغدَرُوا ، ففتحَ هميدعنْوةً ، واستَبْقَى أهلَها وأمَّنهم ، وبنى بها قَصْرًا يُعْرَفُ بقصْرِ مُجاشع ، وأتى السِّيرجان ، وهى مدينة كَرْمان فأقام عليها أيّامًا يسـرةً ، وقد تحصَّن أهْلُهُا فقاتَلهَم وفتَحها عنوةً ، فجلا كثيرٌ من أهلها .

وفتح جِيرَفْت عَنْوةً ، وسار فى كرمانَ فدَوَّخ أهلَها ، وأتى القُفْص وقد تجمَّع له خلق كثيرٌ من الأعاجم الذين جَلَوْا ، فقاتَلهم ، فظَفر بهم وَظَهر عليهم ، وهرَب كثيرٌ من أهل كرْمان ، فركبوا البحرِ ولحقَ بعضهم بمُكْران ، وبعضهُم بِسجِسْتان ، فأُقْطِعَتِ العربُ منازلَهم وأراضيَهم ، راحتَفروا لها القُنِىَّ فى مواضعَ منها ، وأدَوُا العُشْرمنها . والله تعالى أعلَم ، وصلَّى الله على سيّدنا محمد وصحبه وسلَّم .

(١) ابن الأثير ٣ : ٦٤ .

ذكر فتح سجستان وكابل وغيرها

قد ذكرْنا[١] أنَّ عبدَ الله بنَ عامر استعمل على سِجستان الربيعَ ابن زِياد الحارثىّ وسِجِسْتان من الفُتوحات فى خلافة عُمَر ، ولمّا نقض أَهلُهَا ؛ سَار الربيعُ وقطعَ المفازَةَ حتى حصْن زالق ، فأَغارَ على أهله فى يوم مِهْرجان وأخذ الدِّهْقان ، فافتَدى نفسَه بأَنْ ركز[٢] عنَزَة[٣] وغَمَرها ذهبًا وفضَّةً ، وصالحه على صُلْح فارس ، ثم أَتى بلدةً يُقَال لها : كَرْكُويه فصالحه أَهلُهَا ، وسار إلى زَرَنْج ،فنزل على مدينة روشت بقرب زَرَنْج ، فقاتله أَهْلُهَا وأُصيبَ رجالٌ من المسلمينَ ، ثم انهزم المشركون ، وقُتلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ ،وأَتى الربيعُ ناشِرُوذ فَفتَحها ، ثم أَتى شِرْواذ فغلب عليها ، وسار منها إلى زَرَنْنج فنازَلهَا ، وقاتَلهُ أَهْلُهَا ، وأُصيبَ رجالٌ من المسلمين ، ثم انهزم المشركون ، وقُتلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ .

وأَتى الرَّبيعُ ناشِرُوذ ففتَحها ، ثم شَرْواذ فَغَلب عليها ، وسار إلى زَرَنْج فنازلَهُ أَهلُها ، فهزَمَهم وحصَرَهم ، فأَرسلَ إليه مَرْزُبا نُها ليصالِحه واستأْمَنَه ليحضُر عنده ، فأَمَّنَهُ ، وجلس الربيعُ على جَسَدٍ منْ أَجساد القتْلَى ، واتَّكأَ على آخَر ، وأَمر أَصحابَه ففعَلوا مثْلَه ،فلمّا رآهم المَرْزُبان هالَه ذلك ، فصالَحَه على أَلف وصيف مع كُلِّ وصيف جامٌ منْ ذَهَبٍ ودخل المسلمون المدينةَ .

ثم سارمنها إلى سَناروذ ،وهوَوادٍ ، فعَبرَه ، وأَتى القريةَ التى بها

(١) ابن الأثير ٣ : ٦٤ .
(٢) ك : « غرز » .
(٣) العنزة : رميح بين العصا والرمح ، فيه زج .

مَرْبط فرس رُسْتُم الشَّديد ، فقاتلَهُ أهلُهَا فظَفِر بهم . ثم عاد إلى زَرَنج وأقام بها نحوَ سنةٍ ،وعاد إلى ابن عامرٍ ، واستخلفَ عليها عاملاً ، فأخرجَ أهلُها العاملَ ، وامتنعُوا .

فكانت ولايةُ الرَّبيع سنةً ونصفًا ،سَبَى فيها أربعين ألفَ رأسٍ

وكان كاتِبُه الحسَنُ البصريّ ، فاستعمل ابنُ عامر عبدَ الرَّحمن بنَ سَمُرة بن حبيب بن عبدِ شمس على سجستان ، فسار إليها ، فحصَرَ زَرَنْج ، فصالَحَهُ مَرزْبانُها على ألفى ألف دِرهم وألف وصيف .

وغلبَ عبدُ الرّحمنِ على مابين زرَنج والكَثّ من ناحية الهند ، وغلبَ من ناحية الرُّخَّج على مابينه وبين الداون ، فلمّا انتهى إلى بلد الداون وحصَرهم فى جبلِ الزُّوز ، ثم صالَحهم ودخلَ الزُّوز ، وهو صَنَمٌ من ذهب عيْناه ياقُوتَتَانِ ، فقطع يَده وأخذ الياقوتيين وقال لَلْمرزُبان : دُونَك الذَّهبَ والجوْهَرَ ، وإنَّما أردتُ أنْ أُعْلِمَكَ أنَّه لايَضرّ ولا ينفعُ .

وفتحَ كابُل ، وزابُلستان ، وهى ولاية غزنة ، ثم عادَ إلى زَرَنْج ، فأقامَ بها - تى اضطربَ أمرُ عثمان ، فاستخلفَ عليها أميرَ بنَ أحمر ، وانصرف فأخرجَ أهلُهَا أميرًا وامتَنَعوا .

* * *

وفى سنة اثنتين وثلاثين غزا معاويةُ بنُ أبى سفيان مضيق القُسطنطينيّة و عه زوجَتُه عاتكة بنتُ قرَظة ، وقيل : فاختة . والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصَّواب ، وإليه المرجعُ والمآب .

ذكر خروج قارن ببلاد خراسان وقتله

فى سنة[١] اثنتين وثلاثين جَمَعَ قارِن جمعًا كثيرًا من ناحية الطَّبَسَين وأهل باذغيس وهَراةَ وقُهِسْتان ، وأقبل فى أربعين ألفًا .

وقال قيسُ بن الهيثَم أميرُ خراسانَ من قِبَلِ ابن عامرٍ لعبد الله ابن خازم : ما تَرى ؟ فقال : أرى أن تُخلِّيَ البلادَ ؛ فإنّى أميرُها ، ومَعِى عهدُ ابنِ عامِر ؛ إن كانت حَرْبٌ بخُراسانَ فأنا أميرُها ، وأخرج كتابًا كان قد افتعَله ، فكَرِه قيسٌ منازَعتَهُ وخلاَّه والبلادَ .

وأقبلَ إلى ابنِ عامرٍ فلامَه ، وقال : تركْتَ البلادَ خرابًا ، وأقبلْتَ ! فقال : جاءنى تعهُّدك . .

ولمّا توجَّه قيسُ بنُ خازِمٍ إلى قارِن فى أربعةِ آلافٍ ، أمرَهم أن يحمِلوا الوَدَكَ ، فلمّا قرُبُوا من ذلك ، وقَرُبَ من الوَدَك ، أمرَ النَّاسَ أن يُدرِجَ كلُّ رجلٍ منهم على زُجِّ رمحه خرقةً أو قُطْنًا ، ثم يكثِّروا دهنَه ، ثم سار حتَّى أمسَى ، فقدّم أمامه ستمائةً من أصحابه ، ثم اتَّبَعهم ، وأمرَ النَّاسَ أنْ يُشْعلُوا النيران فى أطراف الرِّماح ، وانتهتْ مقدّمته إلى معسكر قارن نصفَ اللَّيلِ [فناوَشوهُمْ][٢] ، وهاج النَّاس على دَهَش ، وكانُوا قد أمنِوا من البَيات ، ودنا ابن خازِم منهم ، فرأوا النيرانَ يَمْنةً ويَسْرة تتقدّم وتتأخَّرُ ، وترتفعُ وتنخفضُ ، فهالَهم ذلك

(١) ابن الأثير ٣ : ٦٨ .
(٢) من ص .

وأهلُ المقدّمة يقاتلُونَهم ثم غشيَهُمْ ابنُ خازم بالمسلمين ، فقُتِلَ قارن وانهزمَ المشركون ، واتبعوهم يقتّلونَهم كيف شاءُوا ، وأصابُوا سَبْيًا كثيرًا .

وكتبَ ابنُ خازمٍ بالفتحِ إلى ابنِ عامرٍ ، فرضىَ وأقَرَّهُ على خُرَاسَان ، فكان عليها حتَّى انقضَتْ حَرْبُ الجمَل .

وقيل : لمّا جمع قارن استشار قيس بنُ عبد الله عبدَ الله بنَ خازِم فيما يَصنعَ (١) ؟ فأشار عليه أن يلحقَ بابنِ عامرٍ ، فيخبِرُه بكثرة العدوّ ، وقال له: إنك لاتُطيقُ كثرةَ مَنْ قد أتاك ، فاخرجْ بنفسكَ ونقيمُ نحن بالحصونِ ونُطاولهم حتَّى يأْتيَنا مَددُكُم .

فخرجَ قيس ، فلمّا أبعدَ أظهرَ ابنُ خَازِم عَهْدًا ، وقال : قد ولاَّنى ابنُ عامرٍ خُراسانَ ، وسار إلى قارِن فظَفِر بِهَ كا تقدَّمَ .

وفى سنة ثلاث وثلاثين غزامعاويةُ حصْنَ المرأة من أرض الرّوم ، بناحية مَلَطْيَةَ .

وفيها سار الأَحنفُ بنُ قيسٍ إلى خُراسانَ ، وفتحَ المَرْوَيْن : مَرْو الرُّوذ ومَرْو الشَّاهجان .

* * *

انتهتْ الفتوحاتُ والغزواتُ ، والله سبحانه وتعالى أَعْلَمُ بالصواب . وإليه المرجعُ والمآب ، وحسبنا اللهُ ونعم الوَكيلُ وصلَّى الله على سيّدنا محمد

(١) ك : « ما يصنع » .

ذكر ما وقع فى خلافة عثمان

غير الغَزَوات والفُتوحات على حُكْم السِّنين

سنة أربع وعشرين

فى [١] هذه السّنة كَثُرَ الرُّعافُ بالنَّاس ، فسمِّىَ عامَ الرُّعاف .

وفيها استَعمل عثمانُ سعَد بنَ أَبى وَقَّاص على الكُوفة ، وَعزَل المغيرةَ بنَ شُعبْة عنها ، فعمل سعدٌ عليها سنةً وبعضَ أُخرى .

وقيل : بل أَقرَّ عثمانُ عُمَّالَ عمر رضى الله عنه سنةً ؛ لأَنَّ عمرَ رضى الله عنه أَوصَى بذلك ، ثم عزلَ المغيرةَ ، واستعملَ سعدا .

وحجّ عثمانُ بالنَّاس .

* * *

سنة خمس وعشرين

فى هذه [٢] السَّنَة عزلَ عثمانُ سعدَ بنَ أَبى وقَّاص عن الكُوفة فى قول بعضهم ، واستعملَ الوليد بنَ عقبة بن أَبى مُعَيط بنِ أَبى عَمرو ذَكْوان بن أُميَّة بن عبد شمس ، وهو أَخو عثمان لأُمّه . وسبب ذلك أَنَّ سعدا [٣] رضى الله عنه اقترضَ من عبد الله بنِ مَسْعودٍ قَرْضًا ، فلمّا تقاضاه ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه لم يتيسَّر له قضاؤه ، فارتفع بينهما الكلامُ

فقال سعدٌ : ماأَراك إلاَّ ستَلْقى شرًّا ، هل أَنت إلاَّ ابن مسعودٍ ، عبد [مِنْ] [٤] هُذَيل ! فقال : أَجَلْ ، والله إنِّى لابْنُ مسعودٍ ، وانَّكَ لابن حُمَيْنة [٥] .

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٤١ . (٢) ابن الأثير ٣ : ٤٢ .
(٣) فى الأصول : « عثمان » : وهو خطأ صوابه من ابن الأثير .
(٤) من ص . (٥) ك : « حمته » .

وكان هاشم بن عُتْبَة بن أبي وَقَّاص حاضرًا فقال : إنكما لَصاحبَا رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، يُنظَر إليكما . ثمّ ولَّى عبدُ الله ، فخرج واستعان بأُناسٍ على استخراجِ المالِ منْ سَعْدٍ ، واستعانَ سعدٌ بأُناسٍ على إنظاره ، فافترَقوا وبعضُهم يلُومُ بعضًا .

فكان ذلك أوّل مانَزَغَ به الشيطانُ بين أهل الكوفة ، وأوّل مِصَرٍ [1] نزغ الشيطانُ بين أهله الكُوفة .

وبلغ الخبرُ عثمانَ ، فَغَضِبَ وَعزَلَ سعدًا ، وأقرّ عبدالله ، واستعملَ الوليدَ بنَ عُقْبة مكان سَعْدٍ ، وكان على عرب الجزيرَة عاملا لعمر ، وعثمان بعدَه ، فلمّا قَدمَ الكُوفة قال له سعد : أَكِسْتَ بعدنا أم حمُقنا بعدَك ! قال : لاتجزعَنَّ أباإسحاق ، كُلُّ ذلك لم يكن ؛ وإنما هو المُلكُ يتغدَّاه قومٌ ويتعشَّاه قومٌ آخرون. قال سعد : أراكم والله ستجعلُونَها مُلْكًا .

وقيل : لمّا قدم الوليدُ أميرًا على الكوفة ، أتاه ابنُ مسعودٍ فقال : ماجاءبِك ؟ فقال : جِئْتُ أميرًا . قال ابنُ مسعود : ماأدْرِى صَلحتَ بَعْدَنا أم فسدَ النَّاسُ ! .

وفيها وُلدَ يزيدُ بنُ معاوية ، وقيل : فى سنة اثنتين وعشرين وقد تقدّم .

وحجّ بالنَّاس عثمانُ .

* * *

(١) ك : « مصرع نزل » تحريف ، وصوابه فى ص وابن الأثير .

سنة ست وعشرين

فى هذه السنة زاد عثمانُ بنُ عفانَ رضى الله فى المسجد الحرام ووسَّعَه ، وابتاعَ أملاكَ قَوْمٍ وامتَنَع آخرون ، فهَدمَ عليهم ، ووضع الإيراد فى بيت المال ،فصاحُوا بعُثْمانَ فحبسهم ، وقال : قد فَعَل بكم عمرُ هذا فلَم تصيحُوا ! فكلَّمَهُ فيهم عبدُ الله بنُ خالد بن أَسيد فأَطلقَهُم .

وبها استَعمل عثمانُ رضى الله عنه عبدَ الله بن أَبى سَرْحٍ على مصر ، وكان أَخا عثمانَ منَ الرَّضاعة ، وعزلَ عمرو بنَ العاص .

* * *

سنة سبع وعشرين

فى هذه السنة حجَّ عثمانُ بالنَّاس .

وفيها من الغَزَوات ماتقدَّم بيانهُ .

* * *

سنة ثمان وعشرين

فى هذ السَّنَة تزوَّجَ عثمانُ نائلَة بنت الفَرافصَة ، وكانت نصرانيَّة ؛ فأَسلمتْ قبلَ أَنْ يَدخلَ بها .

وفيها بنَى عثمانُ رضى اللهُ عنه الزَّوْرَاءَ .

وحج بالنَّاس عثمانُ رضى اللهُ عنه فى هذه السَّنة ،

* * *

سنة تسع وعشرين

ذكر عزلِ أبي موسى الأشعرى عن البصرة وعثمان بن العاص عن عمان والبحرين واستعمال عبد الله بنِ عامر على ذلك

قيل (١) : كان عزْلُ أبي موسى الأشعريِّ عن البصرة ، وعَزْلُ عثمانَ بن أبي العاص عن عُمانَ والبحرينِ ، واستعمالُ عبد الله بن عامر على أعمالها فى هذه السَّنة .

وقيل : كان لثلاث سنينَ مضتَ منْ خلافَة عثمانَ [وكان سبب عزل أبي موسى أن أهل إيذَج والأكراد كَفَروا فى السنة الثالثة من خلافة عثمان](٢) فنادَى أبو موسى فى النَّاس وحضَّهم على الجهاد ، وذَكَر من فَضْلِ الماشى للجهاد ما ذكر ، فحَمَل قومٌ على دَوابِّهم ، وأجمعوا على أن يَخرجُوا رَجَّالةً لينالوا فضل الماشى .

وقال آخرون : لانعْجل حتَّى ننظُر مايَصْنع ، فإنْ أشبه قولَه فعلُه فعلْنا كما يفعَلُ ، فلمّا خرجَ أخرجَ ثَقَلَه على أربعين بغلاً ، فعلقوا بعنانِ دابّته ، فقالوا : احملْنا على بعض هذه الفضول ، وارغَبْ فى المَشْيِ كما رَغَّبتنا ، فَضَرَبهم بَسوطٍ ، وتركوا دابَّته . وأَتَوْا عثمان فاستعفَوْهُ منه . وقالوا : ما كلُّ مانعلم نُحبُّ أن تسألَنا عنه ، فأبدلْنا ماسواه ، فقال : مَن تحبُّون ؟ فقال : غيلان بن خرَشةَ ، وفى كلِّ أحدٍ عوِضٌ منْ هذا العبد الذى قد أكلَ أرْضَنا .

---

(١) ابن الأثير ٣ : ٤٩ .

(٢) من ص .

أمامنكم خسيس فتَرفعُونه ! أما منكم فقيرٌ فتجبرونه . يامَعشرَ قريش حتَّى متى يأكُلَ هذا الشيخُ الأشعريُّ هذه البلاد !

فعزل عثمانُ أبا موسى ؛ وأمَّرَ عبدَ الله بن عامر بن كُرَيْز بن حبيب ابنِ عبد شمس بنِ عبد مناف بنِ قُصَىّ القرشىّ العَبْشَمىّ ، وهو ابن خال عثمان ، وممّن وُلدَ على عهد النَّبىّ صَلَّى الله عليه وسلَّم .

وعزل أيضًا عثمانُ عثمانَ بن أبى العاص عن عُمَان والبحرين ، واستعملَ عبدَ الله على ذلك كُلِّه ، وكان إذْذاك ابنَ خمسٍ وعشرين سنة .

واستعمل عثمانُ رضى الله عنه على خُراسانَ عميرَ بن عثمان بن سَعدٍ ، فأثْخَنَ فى خُراسَان حتَّى بلغَ فَرْغانة ؛ فلم يَدعْ دُونَها كُورةً إلا أصلَحها .

واستعملَ على سجستانَ عبدَ الله بنَ عُمَير اللَّيثى ، فأثخَن فيها إلى كابُل .

وبعث إلى مُكران عبيد الله بن مَعمَر ، فأثخنَ فيها حتى بلغ النَّهر وبعثَ على كَرْمانَ عبدَ الرَّحمن بنَ عُبَيْس .

ثم عزلَ عبدَ الله بن عُمَير عنْ سجستان . واستعملَ عبدَ الله بنَ عامرٍ فأقرَّهُ عليها سنةً ثم عزَلَه . واستَعمَل عاصم بنَ عمرو ، وعزل عبدَ الرحمن بنَ عُبَيْس ، وأعادَ علىَّ بن سُهَيل ؛ وصرفَ عبدَ[2] الله ابنَ مَعَمر إلى فارِسَ ؛ واستعملَ مكانه عميرَ بنَ عثمانَ ، واستعمل على خُراسانَ أميرَ بن أحمرَ اليَشْكُرىّ ؛ واستعمل على سجستانَ فى سنة أربع عمرانَ بن الفَضْل البُرْجُمىّ .

---

(١) ك : « فترفعوه » (٢) ابن الأثير : عبيد الله » .

ذكر الزيادة فى مسجد النبى

صلَّى الله عليه وسلَّم

وفى[1] سنة تسعٍ وعشرين أيضًا فى شهر ربيع الأوّل ، زادَ عثمانُ رضى الله عنه فى مسجدرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فجعلَ طُولَه ستين ومائةَ ذراع وعرْضَه خمسين ومائة ذراعٍ ، وجعَلَ أبوابه على ما كانت أيامَ عمرَ ستَّةَ أبوابٍ ، وبناه بالحجارةِ المنقوشة ، وجعل عَمَده من حجارَة فيها رَصاصٌ . والله تعالى أعلمُ وهو حسبى .

ذكر اتمام عثمان الصلاة

وما تكلم الناس به فى ذلك

وفى[2] هذه السَّنَةِ حجَّ عثمانُ رضى الله عنه بالنَّاسِ ، وضرب فسْطَاطَه بِمنًى ، وهو أوَّلُ فُسْطَاطٍ ضُرِبَ بِمنًى ، وأتمَّ الصلاَة بها وبعرَفة ،فكان أوّل ماتكلَّم به النَّاسُ فى عثمانَ ظاهِرًا حين أتمَّهَا ، فعاب عليه ذلك غيرُ واحدٍ من الصَّحابة ، وقال علىُّ بنُ أبى طالب رضى اللهُ عنه : ماحَدَث أمرٌ ، ولاقَدُم عَهْد ، ولقد عهدتُ النبىَّ صلَّى الله عليْه وسلم ، وأبا بكرٍ وعُمرَ يُصَلُّون ركعتيْن ، وأنتَ صَدْرًامن خِلاَفَتِكَ . فقال : رأىٌ رأيْتُهُ .

وبلغ الخبرُ عبدَ الرّحمن بنَ عَوْفٍ ، وكان معه ، فجاءه وقال : ألم تُصَلِّ فى هذا المكان ركعتيْن مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأبى بكرٍ

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٥١ .
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٥٣ .

وعُمرَ ، وصلَّيْتهما أنتَ ! قال : بلى ؛ ولكنِّى أُخبِرتُ مِنْ بعضَ النَّاسِ أنَّ بعضَ مَنْ حجَّ من اليَمَن وجُفَاةِ النَّاس قالوا : إنَّ الصلاَة للمقيم ركعتان ، واحتجّوا بصَلاَتى ، وقد اتَّخذتُ بمكَّة أهلاً ولى بالطَّائِف مال.

فقال له عبدُ الرحمن : مافى هذا عُذْرٌ ، أمّا قولُكَ : اتخذتُ بها أهلاً ، فإنَّ زوجَكَ بالمدينةِ تخرج بها إذا شئتَ ، وإنما تسْكُنُ بُسكْنَاك . وأمّامالَك بالطَّائِفِ فبينك وبينه مسيرةُ ثلاثِ ليالٍ . وأمّا قولُكَ عن حاجّ اليمنِ وغيرهم فقد كان رسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم ينزل عليه الوحْىُ والإسلامُ قليل ، ثم أبو بكر وعمر ، فصلَّوْا ركعتَين ، وقد ضَرَبَ الإسلامُ بجِرانِه . فقال عثمان : هذا رأْىٌ رأيتُه .

وقيل : كان ذلك سنة ثلاثين ، والله أعلم .

* * *

سنة ثلاثين

ذكرُ عَزْلِ الوليدبنِ عقبة عن الكوفةِ

وولايةِ سعيدبنِ العاص

فى هذه السنة (١) ، عَزَل عثمانُ رضى الله عنه الوليدَ بنَ عُقْبة عن الكُوفة ، واستعمَلَ عليها سعيدَ بنَ العاصِ ، وكانَ سببُ عزله أنَّ أهلَ الكوفةِ نسبوه أنَّه يَشربُ الخَمرَ ، وذكروا ذلك لعثمان ، فاستَدْعاه وطلبَ مَن ذَكَر ذلك عنه ، فقال : أتشهدونَ أنَّه يشربُ الخمرَ ؟ فقالوا لا ، قال فكيف قُلْتُم عنه إنَّه شَرِبها ؟ فقالوا اعتصَرْناها من لِحيتِهِ ، وهو يقئُ الخمرَ ، فأمَر بجلدِه ، فجلده عبدُ الله بنُ جعفرِ بنِ أبى طالبٍ أربعين .

وقيل : إنَّ الوليدَ سَكِرَ وصلَّى بأهلِ الصُّبْحِ أربعًا ، ثم التَفَت إليهم وقال : أزيدُكُم ؟ فقال ابنُ مسعودٍ : ما زلنا [مَعَك (٢)] فى زيادةٍ مُنْذُ اليوم ، فقال الحُطَيئة :

شَهد الحُطَيئةُ يومَ يَلقَى ربَّهُ ... أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ (٣)

نادَى وقد تمَّتْ صلاتُهُمُ ... أأزيدُكُم ؟ سكرًا ومايدْرى (٤)

فأبَوْا أبا وَهْبٍ ولو أذنوا ... لقرنْتَ بين الشَّفْعِ والوترِ

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٥٢ ، الاستيعاب ١٥٥٢ .

(٢) من ص .

(٣) ديوانه ٨٥ .

(٤) الديوان : ثملا وما يدرى » .

وقال أيضًا :

تكلَّمَ فى الصَّلاةِ وزادَ فيها عَلانيةً وجاهَرَ بالنِّفَاقِ(١)
ومَجَّ الخمرَ فى سَنن المصلَّى ونادَى والجميعُ إلى افتراقِ
أزيدكُم على أنْ تَحمدُونى فما لكمُ وما لِى مِنْ خَلاقِ !

قالوا : ولمّـا استُعمَل سعيدُ بنُ العاص ، قال بعضُ شعرائِهم :

فررْتُ مِن الْوليدِ إلى سعيدٍ كأَهلِ الحِجْر إذْ جزِعوا فَباروا(١)
يُلينا من قريشٍ كُلَّ يومٍ أميرٌ محدِثٌ أو مُستشارُ
لنا نارٌ نُخَوَّفُها فَنخشَى وليس لهمْ ولا يخشَوْنَ نارُ

قال : واستعمَل عثمانُ سعيدَ بنَ العاص بن سعيد بنِ العاص بن أميّةِ وهو والد عَمرو بن سعيد الأشدق ، فسار إلى الكوفة ومعه مَنْ كان قد شَخَص من أهلِ الكوفةِ مع الوليدِ ، فلمّا وصَلَها صَعِد المنبرَ ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليْه ثم قال : والله لقد بُعِثْتُ إليكُمْ وإنى لكارة ؛ ولكنِّى لم أجِدْ بُدًّا إذ أُمِرْتُ أنْ أأْتَمِرَ . ألاَ إنَّ الفِتْنةَ قد أطلعتْ خَطْمَهَا وعينيْها ، ووالله لأَضربَنَّ وَجْهَهَا حتَّى أقْمَعَها أو تُعْيينى ، وإنَّى لرائدٌ نفسى اليومَ . ونَزَل .

وسأل عَن أهْل الكوفةِ ، فعرفَ حالَ أهلِها ؛ فكتبَ إلى عثمان : إنَّ أهلَ الكوفةِ قداضطربَ أمْرُهم ، وغُلِب أهلُ الشرفِ منهم والبيوتاتِ والسابقةِ ، والغالبُ على تلك البلادِ روادِفُ قدِمَتْ ، وأعرابٌ لحقَتْ حتى لايُنظَر إلى ذى شرفٍ ولا بَلاءٍ من نازلتِها ولا نا بتتِها .

فكتب إليه عثمان : أمَّا بعد ، ففضِّل أهلَ السَّابقةِ والقدمةِ ،

(١) الاستيعاب ١٥٥٥

مِمَّن فَتَحَ اللهُ عليه تلك البلادَ ؛ وليكنْ من نَزَلها غيرهم تبعًا لهم إلاَّ أنْ يكونوا تَثَاقلوا عن الحق ، وتركوا القيامَ به ، وقام به هؤلاء . واحفظْ لكلٍّ منزلتَهُ ، وأَعِطهم جميعًا بقِسْطِهم من الحقِّ ، فإنَّ المعرفة بالناسِ بها يُصَاب العدْلُ .

فأرسَل سعيدٌ إلى أهلِ الأيام والقادِسيَّةِ ، فقال : أنْتُم وجوهُ النَّاس ، والوجْهُ ينبئُ عن الجسد ، فأَبْلِغُونا حاجةَ ذى الحاجَةِ . وأدخل معهم مَنْ يحتملُ مِن اللَّواحِق والرَّوادف ، وجَعَل القرّاء فى سَمَرِه ، ففَشَتِ القالةُ فى أهِل الكُوفِة .

فكتبَ سعيدٌ إلى عثمانَ بذلك ، فجمعَ النَّاسَ وأخبرَهم بما كتبَ ، فقالوا له : أَصبْتَ لاتُطمِعْهم ، هم ليسوا له بأَهْل ؛ فإنَّه إذا نَهَض فى الأُمورِ مَنْ ليس لها بأهلٍ لها لم يحتملْها وأفسدَها .

فقال عثمانُ : ياأهلَ المدينةِ ، استعدّوا واستمسِكُوا ، فقد دبَّتِ إليكُمْ الفِتَن. والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصَّواب ، وإليه المرجعُ والمآب .

ذكر جمع القرآن

كان سببُ ذلك أنّ حُذيفة بنَ اليَمانِ كانَ قد توجَّهَ مددًا لعبد الرَّحْمنِ ابن ربيعة لحِصار البابِ ، وكان مع سعيدِ بنِ العاص عاملُ الكوفة ، فخرج معه سعيدُ بنُ العاصِ حتَّى بلغَ أَذْرَبِيجانَ ، فأقامَ حتى عاد حُذَيْفَه ، فلمّا عادا ورجَعَا ، قال لسعيدِ بنِ العاصِ : لقد رأيتُ فى سَفْرتى هذه أمرًا لئن نزل بالنَّاسِ ليختلِفُنّ فى القرآن ، ثم لا يقومون عليه أبدًا .

قال : وما ذاكَ ؟ قال : رأيتُ أُناسًا مِن أهلِ حِمْصَ يزعمون أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنَّهم أخَذُوا القرآن عن المقداد ، ورأيتُ أهل الكوفةِ يقولون مِثلَ ذلك ، وأنَّهم قرءُوا على ابنِ مَسْعُودٍ ، وأهلَ البصرةِ يقولون مثلَ ذلك ، وأنَّهم قرءُوا على أبى موسى ، ويسمُّونَ مصحفَه لُبابَ القلُوبِ .

فلمّا وصلوا إلى الكُوفةِ أخبرَ حذيفةُ النَّاسَ بذلك ، وحذَّرهم ما يخافُ ، فوافقه أصحابُ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، وكثيرٌ مِنَ التَّابعينَ .

فتفاوضَ حذيفةُ ، وابنُ مسعودٍ ، فغضِبَ سعيدٌ وقام ، وتفرَّقَ النَّاسُ وسار حذيفةُ إلى عثمانَ ، وأخبره بما رأى ، وقال : أنا النَّذِيرُ العُرْيان ، فأَدْرِكْ الأُمَّة .

فجمعَ عثمانُ الصَّحابةَ وأخبرَهم الخبرَ ، فأعظَمُوهُ ، فأرسل إلى

حفصة بنتِ عمرَ رضى الله عنهما : أن أرْسِلِي إلينَا بالصُّحِفِ لننْسَخَهَا وكانت هذه الصُّحُف هى التى كُتِبَتْ فى أيّام أبى بكرٍ رضى الله عنه ، وكانت عندَهُ ثم عند عمر ، ثم كانتْ عند حفصةَ ، فأخذها عثمانُ منها ، وأمر زيدَ بنَ ثابت وعبدَ اللهِ بنَ الزُّبيرِ وابنَ عبَّاسٍ وسعيدَ بنَ الْعَاصِ وعبدَ الله بنَ عَمْرو بن العاصِ ، وعبدَ الرحمن ابنَ الحارثِ بنِ هشام فنسخوها فى المصاحفِ .

وقال عثمان : إن اختلَفْتُم فاكتُبوا بلغةِ قُريشٍ ؛ فإنمّا نَزَل بلسانها .

قال زيدٌ : فجعلْنَا نكتبُ؛ فإذا اختلَفْنَا فى شىءٍ جَمَعْنَا أمْرَنا على رأْيٍ واحدٍ ، فاختلَفْنَا فى التَّابوتِ ، فقلتُ : التَّابُوه . وقال النَّفرُ القُرَشيُّون التَّابوت . فأبيتُ أنْ أرجعَ إليهم ، وأبَوْا أنْ يرجعوا إلىَّ فرفَعْنَا ذلك إلى عثمانَ ، فقال : اكتُبُوا التَّابوتَ .

قال زيد : وذكرتُ آيةً كنتُ سمعتُهَا من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لم أجِدْها عند أحدٍ حتَّى وجدتُهَا عندَ خُزيمةَ بن ثابتٍ الأنصارىّ وهى : (لقدْ جاءَكُم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم * فإنْ تولَّوْا فقُلْ حسبىَ اللهُ لا إله إلاَّ هو عليه توكَّلْتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم)(١) .

قال : وكُتِبَتْ أربعُ نسخٍ ، فبعث نسخةً إلى الكوفةِ ، وأُخرى إلى البصرةِ ، وأُخرى إلى الشّامِ ، وأمسكَ واحدةً لنفسِه ، وأعاد الصُّحُفَ إلى حَفْصةَ ، وأمر أن يُحْرَقَ ما سِوى ذلكِ .

---

(١) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩ .

وقيل : إنَّ النُّسخَ كانتَ سبعةً ، وأنَّه وجَّه نُسخةً إلى مكَّة ، وأُخرى إلى اليَمَن ، وأُخرى إلى البَحْرَيْن ، والأَوّلُ أَصَحُّ .

قال : فعرفَ النَّاسُ فَضْلَ عثمانَ إلاَّ أهلَ الكوفة ، فإنَّ المصحفَ لمّا قَدِمَ عليهم فَرِح به الصحابة ، وامتَنَع عبدُ الله بنُ مسعود ومن وَافَقَهم . فقام ابن مسعود . فيهم فقال : ولا كلّ ذلك ، فإنكم قد سبقْتُم سبقًا بيِّنًا ، فاربَعوا على ظَلْعِكُم .

ولمّا قَدِمَ عليٌّ رضى اللهُ عنه إلى أهلِ الكُوفَةِ ، قام إليه رجلٌ ، وعاب عثمانَ بجَمْعه الناسَ على الصُّحف ، فنهاه ، وقال : لو وليتَ منه ما وَلِىَ عثمانُ سلكْتَ سبيلَهُ رضى الله عنهما .

وفيها زاد عثمانُ رضى الله عنه النِّداء الثَّالِثَ يوم الجمعةِ على الزَّوْراء ، الله سبحانه وتعالى أعلمُ .

ذكر سقوط خاتم النبى صلى الله عليه وسلم

وفيها سقط خاتمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من يدِ عثمانَ فى بئرِ أَرِيسَ وهى على مِيلَيْن من المدينة ، وكانت قليلةَ الماء ، فما أُدْرِك قَعرُها بعدُ ، ولمّا سقط من يدِهِ ، نَزَحوا ما فيها من الماء فما قَدَروا عليه ، فلمّا أَيِسَ منه : صَنَع خاتَمًا آخرَ على مِثَالِه ونَقْشِه ، فكان فى إصبَعِهِ حتى قُتِلَ .

وقيل : إنَّه نقشَ عليه : « آمَنْتُ بالَّذى خَلَق فَسوَّى » .

وقيل : كان عليه « لتُنْصَرُنَّ أو لتَنْدَمُنَّ » ، والله تعالى أعلم .

ذكر خبر أبى ذر الغفارى فى اخراجه الى الربذة

وما تكلم الناس به فى ذلك ووفاة أبى ذر رضى الله عنه

وفى [1] سنة ثلاثين أخرَج عثمانُ رضى الله عنه أباذَرّ الغِفارِىّ ، وأسمُه جُنْدُب بن جُنادة .

وقد ذُكِرَ فى سببِ ذلك أُمورٌ كثيرةٌ ، منها ما أَوْرَده أبو أحمد يحيى بنُ جابر البَلاذُرِىّ ، فى كتاب « جُمَل أَنْسَابِ الأَشْراف » وغيرُه .

قال البَلاذُرِىّ : لمّا أعطَى عثمانُ رضى الله عنه مروانَ بنَ الحَكَمِ ما أعطاه ، وأعطى الحارثَ بنَ الحَكَم بن أبى العاص - وهو أخو مَرْوان - ثلثمائة ألف درهمٍ ، وأعطى زيدَ بنَ ثابت الأنصارى مائةَ ألفِ درهم ، جعل أبو ذَرٍّ يقول : بشِّر الكافرين بعذاب أليمٍ : ويتلو قولَه تعالى : ﴿ والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ .. ﴾[2] الآية .

فَرفَع مروانُ ذلك إلى عثمان ، فأرسلَ إلى أبى ذرٍّ : أن انْتَهِ عمّا يبلُغُنى عنك ، فقال : أَيَنْهانى عثمانُ عن قراءةِ كتابِ اللهِ ، وعَيْب من تَرَكَ أمرَ اللهِ ! فواللهِ لأَنْ أُرضِىَ اللهَ بسَخَط عثمانَ أحبُّ إلىّ مِنْ أن أُسْخِط اللهَ برِضاه ، فأغضبَ ذلك عثمان ، وصَبَرَ وكَفَّ عنه ، ثم قال عثمانُ يومًا : أيجوزُ للإمام أن يأْخذَ من المالِ ، فإذا أيسَرَ قَضَى ؟ فقال

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٥٦ وما بعدها .
(٢) سورة التوبة ٣٤ .

كعبُ الأحبارِ : لا بأس بذلك . فقال أبو ذَرّ : يابْنَ اليهوديَّيْن أتعلِّمُنا ديننا ! فقال عثمان : ما أكثر ذاك لى وأوْلعَك بأصْحابي ! الحق بمَكْتَبِكَ ، وكان مكتبُه بالشَّامِ ، إلا أنَّه كان يقدمُ حاجًّا ، ويسأل عثمانَ الإذْنَ له فى مُجَاوَرةِ قبر رسول الله صلَّى الله عليْه وسلَّم . فيَأْذَن له فى ذلك .

وقيل : إنَّه إنَّما صار إلى الشامِ لأنَّه [رأى البِناءَ قد بلغ سَلْعا ، فقال لعثمان : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا بلغ البناء [سَلْعا] (١) فالهَرب » ، فأذَنْ لى آتِيَ الشأْمَ فأغْزُو هناك . فأذِنَ له ، فكان أبو ذَرّ يُنكِرُ على معاويةَ أشياءَ يفعلُهَا ، فبعثَ إليه معاوية ثلثمائة دينارٍ ، فقال : إنْ كانت صلةً فلا حاجةَ لى فيها . وبنى معاويةُ الخَضْراءَ بدمشقَ ، فقال : يا مُعاويةُ ، إنْ كانت هذه من مالِ اللهِ فهى الخِيانةُ ، وإن كانت من مالِك فهى الإسْرافُ ، فسَكتَ معاويةُ .

وكان أبو ذَرٍّ يقول :واللهِ لقد حَدَثَتْ أعمالٌ ما أعْرِفُهَا ، والله ما هى فى كتاب اللهِ ، ولا سنَّةِ نبيّه ، والله إنِّى لأرى حقا يُطْفَأ ، وباطلاً يَحيَا ، وصادِقًا مكذَّبا ، وأثرَةً بغير تُقًى .

فقال حبيبُ بنُ مسلمة لمعاويةَ : إن أبا ذَرٍّ مُفسِدٌ عليك الشَّامَ ، فتداركْ أهلَه إن كانتَ لك بهم حاجَةٌ .

فكتبَ معاويةُ إلى عثمانَ ، فكتبَ إليه عثمانُ :

أمّا بعدُ ، فاحمِلْ جُنْدبًا إلىَّ عَلَى أغْلظِ مَرْكَبٍ وأوْعَرِه .

---

(١) من ص .

فوجّه معاويةُ مع أبي ذَرٍّ من سار معه الليلَ والنهار ، فلمّا قَدِمَ المدينةَ جعلَ يقولُ : [تستعمل] (١) الصِّبيان ، وتَحمِي الحِمَى ، وتُقرِّبُ أولادَ الطُّلَقاء !

فبعثَ إليه عثمانُ : الحَقْ بأيِّ أرضٍ شِئْتَ . فقال : بمكّة ؟ فقال : لا ، قال : فبيْت المَقْدِس؟ قال : لا ، فبأحد المِصْرَيْن ؟ قال : لا ، قال: ولكنى مسيِّرُكَ إلى الرَّبَذةِ ، فسيَّرَه إليها ، فلم يزلْ بها حتَّى مات .

وذكَر البَلاذُرى فيما حكاه كلامًا كثيرًا ، وَقَع بين عثمانَ بن عفَّان وعلىّ بنِ أبي طالبٍ رضى الله عنهما بسبب ذلك أغضيْنَا عن ذكرِهِ

وحُكِيَ أنَّ أبا ذرٍّ بلغه أنَّ معاويةَ يقول : إنَّ المالَ مالُ اللهِ ، ألا إنّ كلَّ شىءٍ فللهِ ، وأنَّه يُريدُ أنْ يحتَجِبَهُ دون الناس ، ويمحوَ اسمَ المسلمين : فأتاه أبو ذَرٍّ فقال : مايَدْعُوك إلى أنْ تسمِّىَ مالَ المسلمين. مالَ اللهِ ! فقال : يَرحمُكَ اللهُ يا أبا ذرٍّ ! ألسْنا عبادَ اللهِ ، والمالُ مالُه ، قال : فلا تَقُلْهُ ، قال : سأقولُ مال المسلمين .

وكان أبو ذرٍّ يذهبُ إلى أنَّ المُسْلمَ لا ينبغى أنْ يكون فى مِلكه أكثر من قُوتِ يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ إلاَّ شىء يُنفقه فى سبيل اللهِ أو يُعِدّه لغَرِيم ، ويأخذُ بظاهر القرآن : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ ...(٢)) الآية ، وكان يقومُ بالشام ويقولُ : يا معشَر

(١) من ص .
(٢) سورة التوبة ٣٤ .

الأغنياء ، واسُوا الفُقَراء ، بَشِّرُوا الَّذِين يَكنزون الذَّهبَ والفضّة ولا يُنفقونها فى سبيلِ اللهِ بمكاوٍ من نارٍ تُكْوَى بها جِبَاهُهُمْ وجُنُوبُهم وظهورُهُم . فما زال حتَى وَلع الفقراءُ بِمثل ذلك ، وأوجَبود على الأغنياء .

وشكا الأغنياءُ ما يلقَوْنَ منهم إلى معاوية ، فأرسلَ معاويةُ إليه بألفِ دينار فى جُنْح اللَّيْلِ ، فأنفقَها ، فلمّا صلَّى معاويةُ الصُّبْح دعا معاوية رسولَه الذى أرسلَه إليْه ، فقال : اذْهَب إلى أبى ذَرّ ، فقلْ له : أَنْقِذْ جَسَدِى من عذابِ معاويةَ ، فإنهُ أرسلَنى إلى غيرك ، وأنِّى أخطأتُ بك ، ففعَلَ ذلك . فقال له أبو ذُرٍّ : يا بُنىّ ، قل له : والله ما أصبحَ عندنا من دنانيركِ دينارٌ ، ولكن أخَّرْنا ثلاثةَ أيّامٍ حتَّى نَجمَعَها .

فلمّا رأى معاويةُ أنَّ فِعْلَهُ صَدَّق قولَه كتبَ إلى عثمان : إنَّ أباذرٍّ قد ضيَّقَ علىَّ ، وقد كان كذا وكذا ، الَّذى يَقولُه الفقراء .

فكتبَ إليه عثمان : إنّ الفتنة قد أخرجَتْ خَطْمَها وعَيْنَيْها ، ولم يَبْقَ إلاَّ أن تَثِبَ ، فلا تَنْكِإِ القَرْح ، وجَهِّز أبا ذرٍّ ، وابعَثْ معه دليلاً ، وكَفْكِف النَّاسَ ونفسَكَ ما اسْتَطَعْتَ .

فَبَعَثَ له بأبى ذرٍّ ، فلمَّا قَدِمَ المدينة ورأى المجالسَ فى أصلِ جبل سَلْعٍ قال ، بشِّرْ أهلَ المدينة بغارةٍ شَعْوَاء ، وحَرْب مِذْكار[1] ودخل على عثمانَ فقال له : ما بالُ أهلِ الشَّامِ يشكونَ ذَرَبَ[2]

(١) مذكار : قوية .
(٢) ذرب اللسان : حدته .

لسانِكَ ؟ فأخبَرَه . فقال : يا أبا ذَرٍّ ، علىَّ أنْ أقْضِيَ ما عَلَيَّ ، وأنْ أدْعُوَ الرَّعيّةَ إلى الاجتهاد والاقتصاد ، وما علىَّ أنْ أجْبُرَهُم على الزُّهدِ .

فقال أبو ذَرٍّ : لا ترضَوْا من الأغنِياءِ حتَّى يَبذُلوا المعروفَ ، ويُحْسِنُوا إلى الجِيرانِ والإخوان ، ويَصِلوا القَرابات [1] ، فقال : كعبُ الأحْبَارِ – وكان حاضرًا : من أدَّى الفريضة فقد قَضَى ما عليه ، فضَرَبه أبو ذرٍّ فشجَّه ، وقال : يابْن اليَهوديّة ، ما أنتَ وما هاهُنا !

فاستوْهَبَ عثمانُ كعْبًا شجَّتَه ، فوَهَبَه ، فقال أبو ذَرٍّ لعثمان : تأْذنُ لى فى الخروجِ من المدينةِ ؛ فإنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أمَرَنى بالخروج منها إذا بلغَ البناءُ سَلْعًا ؟ فأذِنَ له ، فبلغ الرَّبَذَةَ [2] ، وبنى بها مسجدًا ، وأقطَعَه عثمانُ صِرْمةً [3] مِنَ الإبلِ ، وأعطاه مملوكيْن ، وأجرى عليه فى كُلِّ يومٍ عطاءً ، وكذلك أجرَى على رافع بن خُدَيجٍ ، وكان قد خَرَج أيضًا من المدينة لشىءٍ سَمِعه .

قال : وكان أبو ذرٍّ يتعاهَدُ المدينةَ مخافةَ أنْ يعودَ أعرابيًّا ، وأخرجَ معاويةُ إليه أهلَه ، فخَرجوا ومعهم جِرابٌ يُثْقِلُ يَدَ الرَّجُل ، فقال : انظروا إلى هذا الَّذى يُزَهِّدُ فى الدّنيا ما عندَهُ ؟ فقالت امرأتُه : والله ما هو دينارٌ ولا درهم ولكنَّها فُلوسٌ كان إذا خرجَ عطاؤُه ابتاع منه فُلوسًا [4] لحوائجنا . .

وَروَى البُخَارىُّ رحمه الله فى صحيحه بسنده إلى زَيْد بن وهْبٍ ، قال : مررْتُ بالرَّبَذةِ ، فإذا أنا بأبى ذَرٍّ – رضى الله عنه ، فقلتُ له :

---

(١) ك : « القرابة » . (٢) ك : « فنزل الربذة » .
(٣) الصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين .
(٤) كذا فى الأصلين ، ولعلها : « فلوساً » .

ما أَنْزَلَكَ مَنزِلَكَ هذا ؟ قال : كنتُ فى الشَّامِ ، فاختلفْتُ أنا ومعاوية [فى الَّذِين يَكنزِون الذَّهبَ والفضَّةَ ولا ينفِقُونها فى سبيل اللهِ . قال معاويةُ : نزلتْ فى أهل الكتابِ ، فقلْتُ : نزلَتْ فينا وفيهم ، فكان بينى وبينه فى ذاك [كلام] (١) ، وكتبَ إلى عثمانَ رضى الله [عنه يشْكُونى ، فكتبَ إلىَّ عثمانُ أن اقدم المدينة ، فقدمْتُها ، فكثُر علىَّ النَّاسَ حتَّى كأنَّهم لم يرَوْنى قبلَ ذلك ، فذكرْتُ ذلك لعثمان رضى الله عنه فقال لى : إنْ شئتَ تنحَّيتَ فكُنْتَ قريبًا ؛ فذلك الَّذى أَنْزَلَنِى هذا المنزل ، ولو أَمَّرُوا علىَّ حبَشيًّا لسمعتُ وأطعْتُ .

وأقامَ أبو ذَرٍّ بالرَّبَذةِ إلى سنةِ اثنتين وثلاثين ، فمات بها رضى الله عنه ، ولمّا حضرتْه الوفاةُ قال لأبنتِه : استشرِفى يا بُنَيَّة ، هل ترِيْنَ أحدًا ؟ قالت : لا ، قال : فما جاءتْ ساعتى بعدُ ، ثم أمرَها فذبَحَتْ شاةً ثم طبختْهَا ، ثم قال : إذا جَاءكِ الَّذِين يَدْفُنُونَنى — فإنَّه سَيَشْهُدنِى قومٌ صالحون — فقولى لهم : يُقْسِمُ عليكم أبو ذرّ ألاَّ تركَبُوا حتى تأْكُلُوا ؛ فلمَّا نَضِجَتْ قِدْرُها قال لها : انظرُى ، هل تَرَيْنَ أحدًا ؟ قالت : نعم ، هؤلاء رَكْبٌ . قال : استَقْبِلِى الكعْبَةَ ، ففعلَتْ . فقال : بسمِ اللهِ ، وباللهِ ، وعلى ملَّةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وماتَ . فخرجتْ ابنتُه ، فتلقَّتْهم(٢) وقالتْ : رحمكم الله ،

(١) من ص .
(٢) ص : « فلقيتهم » .

اشْهَدُوا أَبا ذرٍّ قالوا : وَأَيْنَ هو ؟ فأشارتْ إليه ، قالوا : نَعَمَ ، ونَعْمَةَ عَيْن ، لقد أكرَمَنا الله بذلك .

وكان فيهم ابنُ سعودٍ – رضى الله عنه – فبَكَى ، وقال : صَدَقَ رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم ، قال « يموتُ وحْدَه ، ويُبْعَثُ وحْدَه » .

فغسَّلوه وكفَّنوه ، وصلَّوْا عليه ودَفَنوه ، فقالت لهم ابنتُه : إنَّ أبا ذَرٍّ يقرأُ عليكم السَّلامَ ، وأقْسَم ألاَّ تَركَبُوا حتَّى تأْكُلُوا ، فَفَعَلوا ، وحَملوا أهلَه معهم حتَّى أقْدَموهم مكَّة ، ونَعَوْه إلى عُثمانَ ، فضَمَّ ابنتَه إلى عِيالِهِ .

وقيل : كانتْ وفاتُه فى سنة إحدى وثلاثين .

وقيل : إنَّ ابن مسعودٍ لم يحملْ أهلَ أبى ذَرٍّ معه ، إنَّما تركَهُم حَتَّى قَدِم على عثمانَ بمكَّة فأعلمَه بمَوْتِهِ ، فجعَلَ عثمانُ طريقه عليهم ، فحمَلَهُمْ معه .

سنة احدى وثلاثين

فيها حَجَّ عثمان رضى الله عنه بالنَّاسِ .

وفيها ماتَ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطلب ، وصَخْرُ ابنُ حرْبٍ ، وهو ابْنُ ثمانٍ وثمانين سنةً .

* * *

سنة اثنتين وثلاثين

فى هذه السَّنَةِ مات العّباس بنُ عبد المطَّلب ، وكان قد كُفَّ بصرُه ، وله من العمرِ ثمان وثمانون سنة .

ومات عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ، وصلَّى عليه عمَّارُ بنُ ياسر ، وقيل : عثمان .

وتُوفِّىَ عبدُ اللهِ بن زيد بن عبد ربّه الَّذى أُرِيَ أمرَ الأذان .

وتُوفِّىَ عبدُ الرحمن بنُ عَوْف رضى اللهُ عنه . والله سبحانه وتعالى أعلمُ .

ذكر وفاة عبد الرحمن بن عوف

وشيء من أخباره ونسبه

هو أبو محمّدٍ عبدُ الرحمن بنُ عَوْفِ بن الحارثِ بن زهْرة بن كِلاب ابنِ مُرّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب القُرَشيُّ الزُّهريّ .

وكان اسْمُهُ فى الجاهليّةِ عبدَ عمرو ، وقيل : عبد الكعْبَةِ ، فسّماه رسولُ الله صلَّى الله عليْه وسلَّم عبدَ الرّحْمنِ .

وأُمُّه الشفاء بنتُ عَوْف بنِ عبدِ الحارث بن زُهْرة .

وُلِدَ بعد عام الفيلِ بعَشْرِ سنين ، وأسلَم قبلَ أنْ يدخُلَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم دارَ الأَرْقَم ، وكان من المهاجرين الأوّلين ، جمَع الهجرتَيْنِ جميعا ؛ إلى أرضِ الحَبَشة ، ثم قَدِم قبلَ الهجرة مهاجرًا (١) إلى المدينةِ ، وهو أحدُ العَشَرة المشهودِ لهم بالجنَّةِ ، وأحد السّتَّة الَّذِين جَعَلَ عمرُ رضىَ الله عنه الشُّورَى فِيهم .

وشهدَ عبدُ الرحمن بَدْرًا ، والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم ، وبَعَثَه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى دَوْمة الجَنْدَلِ ، وعَمَّمَهُ بيَدِه ، وأَسْدَلَها بَيْن كتِفَيْهِ ، وقال له : سِرْ بِاسم اللهِ ؛ وأَوْصاه بوَصايا الأُمَراء ، ثم قال : إنْ فتحَ اللهُ عليك فتزوّجْ بنت مَلِكِهم أو شَريفِهم .

وكان الأَصبغُ بنُ ثعلبةَ بن ضَمضم الكلْبيّ شريفهم ، فتزوَّج عبدُ الرحمن ابنَته تماضُرَ بنت الأَصْبغ ، فهى أُمُّ أبى سَلَمَة الفقيه

---

(١) ك « ثم قدم قبل الهجرة وهاجر إلى المدينة » .

ابنُ عبدِ الرحمن ، وكان له من الولدِ سالم الأكبر ، ماتَ قبل الإسلام ، وإبراهيم ، وحُمَيد ، وإسماعيل ، وعُرْوة قُتِلَ بإفريقيّة ، وسالم الأصغر ، وأبو بكر ، وعبدُ اللهِ الأكبر قُتِلَ بإفريقيّة ، والقاسمُ ، وعبدُ الله الأصغرِ ، هوأبو سَلَمَة الفقيه ،وعبدُ الرحمن بنُ عبد الرحمن ، ومصعب ، وعثمان ، ومحمد ، [ومَعْن] [1] وزيد ، وأُمُّ القاسم وُلِدَتْ فى الجاهلية ، وجُوَيْرية ، وهم لأُمّهاتِ أولادٍ شَتَّى ذكرهُنَّ الزُّبيرُ بنُ بَكَّار .

ولعبدِ الرحمن بنِ عَوْف رضى الله عنه ، فضائلُ كثيرةٌ ، ومناقبُ جَمَّةٌ ؛ منها أنّ رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم صَلَّى خَلْفَه فى سَفرٍ .

ورُوِىَ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم . أنَّه قال : « عبدُ الرحمن ابنُ عوفٍ سيِّدٌ من ساداتِ المسلمين » .

وقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : « عبدُ الرحمن بنُ عَوْفٍ أمينٌ فى السماء ، وأمينٌ فى الأرض » .

وكان رضى اللهُ عنه رجلاً طويلاً ، أَجْنَأَ [2] ، أبيضَ مُشْرَبًا بُحُمْرةٍ ، حسنَ الوجْهِ ، رقيقَ البَشَرَةِ ، لا يغيِّر لحيتَه ولا رأْسَه .

ورُوِيَ عن سهلة بنتِ عاصم زوجته قالت : كان عبدُ الرحمن أبيضَ أَعْيَنَ [3] ، أَهدَبَ الأشفَارِ [4] ، أَقْنَى [5] ، طويلَ النَّابَيْنِ

---

(١) من ص .
(٢) رجل أجنأ : أشرف كاهله على صدره .
(٣) أعين : واسع العين .
(٤) الشفر : أصل منبت العين فى الجفن .
(٥) قنا الأنف : ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه .

الأَعْلَيَيْن ، ورُبّما أَدْمَيَا شَفَتَهُ ، له جُمّة [١] ، ضخمَ الكَفَّين ، غليظ الأَصابع ، جُرِحَ [يومَ أُحُدٍ] [٢] إحدى وعشرين جِراحة ، وجُرِحَ فى رِجْله ، فكان يَعْرُج منها .

وقال أبو عمر بنُ عبدالبَرّ [٣] : كان عبدُ الرّحمنِ تاجرًا مَجْدودًا [٤] فى التِّجارةِ وكَسَبَ مالاً كثيرًا ، وخلَّف ألفَ بعيرٍ ، وثلاثةَ آلافِ شاةٍ ، ومائةَ فرسٍ تَرعَى بالبَقِيع ، وكان يَزرعُ بالجُرْفِ على عشرين ناضِحًا [٥] فكان يأْخُذُ مِنْ ذلك قُوتَ أهلِهِ سنةً ، وخلَّفَ مالاً كثيرًا جدا .

رَوَى عَمرو بنُ دينارٍ ، عن صالح بن إبراهيم بن عبدالرّحمن بن عَوْفٍ قال : صالحْنَا امرأَةَ عبدِالرحمن بن عَوْفٍ التى طلَّقَها فى مَرَضه عن ثُلُث الثّمن ، بثلاث وثمانين ألفًا .

ورَوَى غيرُه أنَّها صولحَتْ بذلك على رُبعْ الثمن من مِيراثِه .

وَحَكى ابن الأثير فى تاريخه الكامل : أنَّ عبدَ الرّحمن بنَ عَوْفٍ رضى اللهُ عنه أَوْصَى لكلِّ رجلٍ بَقِىَ من أَهْلِ بَدرٍ بأَربَعمائةِ دينار ، وكان عُدّتُهم يومئذٍ مائة رجلٍ ، وقسَّم ماله على ستَّةَ عَشَر سهما ، فكانَ كُلُّ سَهْمٍ ثمانين وألف دينارٍ .

وقال أبوعُمَر : ورُوِىَ أنَّه أعتق فى يومٍ واحدٍ ثلاثين عبدًا . ولمّا حضرتْه الوفاةُ بَكَى بكاءً شديدًا ، فسئلَ عن بُكَائه فقال : إنَّ مصعبَ

---

(١) الجمة : مجتمع الشعر .
(٢) من ص .
(٣) الاستيعاب ٨٤٧ وما بعدها .
(٤) مجدودا : محظوظا .
(٥) الناضح : البعير يستقى عليه .

ابنَ عُميرٍ كان خيْرًا مِنّى ، تُوفِّىَ على عَهْدِ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ولمْ يكُنْ له مايُكَفَّن فيه ، وإنَّ حمزةَ بن عبد المطلب كان خيرًا مِنّى لم نجد له كفنًا ، وإنِّىَ أخشَى أنْ أكُونَ ممِنْ عُجِّلتْ لهَ طَيِّباتُه فى حَياتِه الدّنْيا ، أو أخافُ أن أحْتبِسَ [1] عَنْ أصحابى بكثرةِ مالى .

وقد تقدَّم أن هذا المالَ الذّى اكتَسبَه كان ببركة دعاءِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

وكانت وفاتُه رضى الله عنه بالمَدينة . فى هذه السَّنَةِ .

وقيل : فى سنة إحدى وثلاثين ، وصَلَّى عثمان رضى الله عنه عليه بوصيّةٍ منه ، ودُفِنَ بالبَقيع .

واختُلِفَ فى مبلغ سنِّه ، فقيل : توفِّىَ وهو ابنُ خمسٍ وسبعين ، وقيل : اثنتين وسبعين ، وقيل : ثمانٍ وسبعين . والله أعلم .

---

(١) ك : « أحبس » .

سنة احدى وثلاثين

ذكر خبر من سار من أهل الكوفة إلى الشام وما كان من أمرهم

فى[١] هذه السَّنةِ سيَّر عثمانُ رضى الله عنه نفرًا من أهلِ الكوفةِ إلى الشَّام ، وكان سببُ ذلك أنَّ سعيدَ بنَ العاص لمّا ولاَّه عثمانُ الكوفةَ اختارَ وجوه النَّاسِ ، وأهلَ القادِسيَّةِ ، وقُرّاءَ أهلِ الكُوفةِ ، فكان هؤلاء يَدْخلونَ عليه فى منزله ، وإذا خرجَ فكلُّ النَّاسِ يَدْخلون عليه ، فدخلوا عليه يومًا ، فبينما هُمْ يتحدَّثون ، قال حُبَيْش ابن فلان : ما أجْوَد طلحة بنَ عبيد الله ! فقال سعيدٌ : إنَّ مَنْ لِه مثلُ[٢] النشاسْتَج لحقيقٌ أن يكونَ جوادًا ، واللهِ لو كان لى مِثْلُه لأعاشكُمْ اللهُ [به][٢] عيشًا رغدًا .

فقال عبُد الرحمن بن حُبَيش ، وهو حَدَث : والله لوَدِدْتُ أنَّ هذا المِلطاط لك ، وهو ماكان للأكاسِرةِ على جانِب الفُراتِ الَّذى يَلِى الكُوفة ، فقالوا : فَضَّ اللهُ فاكَ ،والله لقد هَمَمْنا بَك ، فقال أبُوه : غلامٌ فلا تجاوِزه ،فقالوا : يتمنَّى سَوادَنا ، ويَتمنَّى لكم أضعافَه . فثارَ بِه الأشْترُ وجُنْدُبَ وابن ذى الحنكة[٣] ، وصَعْصعةُ ، وابنُ الكَوّاء ، وكُمَيْل ، وعُمَيرُ بنُ ضابئ ، فأخَذوه ، فثارَ أبوه ليَمنَع عنه ،

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٦٩ ، وتاريخ الطبرى ٤ : ٣١٧ – ٣٢٩ ، وفيهما ذكر هذا الخبر فى حوادث سنة ٣٣

(٢) من ص .

(٣) ك : « الحبلة » .

فضَرَبُوهُمَا حتَى غُشِيَ عليها ، وجعَل سعيدٌ يُناشِدُهم ويأبَوْن ، حتى قضَوْا منهما وَطَرا ، فسمِعَتْ بذلك بنو أَسَد ، فجاءوا ، وفيم طليحة ، فأحاطوا بالقصر ، وركبَتْ القبائِلُ فعاذوا بسعيدٍ ، فخرجَ سعيدٌ إلى النَّاسِ ، فقال : أيُّها النَّاس ، قوم تَنَازعوا ، وقد رَزَق اللهُ العافية . فردَّهم ، فتراجَعُوا . وأفاقَ الرجلانِ ، فقالا : قاتَلْنا غاشيتَك ، فقال : لايَغُشُّونى أبدًا ، فكُفَّا ألسنتَكُمَا ولا تجرِّئا النَّاسَ ، ففعَلا ، وقَعَد أولئك النَّفَرُ فى بُيوتِهِمْ ، وأقبلُوا يَقَعَون فى عثمانَ رضى الله عنه .

وقيل : بل كان السَّبَبُ فى ذلك أنَّه كان يسمُر عند سعيدٍ وُجُوهُ أهلِ الكوفةِ ، منهم : مالكُ بنُ كعب الأَرْحَبىّ ، والأسودُ بنُ يزيد وعلقمةُ ابن قيْس النَّخَعيّانِ ، ومالِكُ بنُ الأَشْتَر ، غيرهم .

فقال سعيدٌ : إنَّماهذا السَّوَادُ بُسْتانُ قريشٍ ، فقال الأَشترُ : تزعم أنَّ السَّوادَ الذى أفاءه اللهعلينا بأسيافنا بستان لكولقومك! وتكلَّم القومُ معه ، فقال عبدالرحمن الأَسَدىّ ، وكان على شُرطةِ سَعيد : أتردّون على الأميرِ مَقالتهَ ! وأغلظَ لهم ، فقال الأَشترُ : من هاهنا لايفوتنَّكم الرَّجُل ،فوثبَوا عليه فوطئوه وطْئًا شديدًا حتَّى غُشِى عليه ، ثم جَرُّوا بِرجْله فنُضِح بماءٍ فأفاق ، وقال : قتلنى مَنْ انتخبْتُ ، فقال : والله لايسمُر عندى أحدٌ أبدا ، فجعلوا يَجْلسون فى مَجالسهم يشْتمون عثمانَ وسعيدًا ، واجتمعَ إليهم النَّاس حتَّى كَثُروا .

فكتبَ سعيدٌ وأشرافُ أهلِ الكوفةِ إلى عثمانَ فى إخراجِهم ، فكتب إليهم أن يُلحِقوهُم بمُعاويةَ ، وكتب إلى معاويةَ : إنَّ نَفرًا قد خُلقُوا

للفِتنةِ ، فقُمْ عليهم وانْهَهُمْ ، فإنْ آنَستْ منهمْ رُشْدًا فأقْبَلْ [مِنْهم][1] وإنْ أعْيَوْك فارددهم[2] عليّ .

فلمّا قدموا على معاوية أنزلهم كنيسةَ مَرْيم ،وأجْرَى عليهمْ ماكان عليهم بالعِراقِ بأمرِ عثمانَ وكان يَتغدّى ويَتعشّى معهم .

فقال لهم يومًا : إنّكُمْ قوم مِنَ العَرَبِ لكم أسنانٌ وألْسنة ،وقد أدركتُمْ بالإسلام شرفًا ، وغَلبتُم الأُممَ ، وحُزْتُم مَراتبهم ومَواريثَهمْ ، وقدْ بلغَنِى أنّكُمْ نقمتُم قريشًا ؛ ولولم تكُنْ قريشٌ كنتُمْ أذِلّة ، إنّ أئِمتكم لكم جُنّةٌ ، فلا تفترفُوا عن جُنّتِكُمْ ، وإنّ أئمتكُمْ يَصْبرُون[3] لكمْ على الجَوْرِ ، ويَحْمِلون عَنكم المَئُونة ، واللهِ لتَنْتَهُنّ أوليبتلينّكمُ اللهُ بمَنْ يسُومُكُمْ ولا يحمدُكم على الصّبْرِ ، ثم تكونون شركاءهم فيما جَرَرْتُم على الرّعيّةِ فى حياتِكُمْ وبعْدَ وفاتِكُمْ .

فقال صَعْصعة : أمّا ما ذكَرْتَ من قريشٍ فإنّها لم تكن أكثَر النّاسِ ، ولا أرفقها ، ولا أمنعَهَا فى الجاهليّة فتخوّفنا ، وأمّا ماذكرتَ من الجُنّةِ ؛ فإنّ الجُنّةَ إن اخترقَتْ خُلِص إلينا .

فقال معاويةِ :عرَفْتُكم الآن ، وعلمتُ أنّ الّذِى أغْراكُمْ على هذا قِلّة العُقولِ ؛ وأنتَ خطيبُهُم ، ولا أرى لك عَقْلاً ، أعَظّم عليك أمرَ الإسلام وتُذكّرنى الجاهليّة ! أخْزى اللهُ قومًا أعظَمُوا أمرَكُمْ .

افقَهوا عنّى ـ ولا أظُنّكُمْ تَفْقهون ـ أنّ قريشًا لم تعزّ فى جاهليّة ولا

---

(١) من ص .
(٢) ك : « فردوهم » .
(٣) ك : « يصرون » .

إسلام إلاَّ بالله تعالى ، لم تكُنْ بأكثرِ العَرَبِ ولا بأشَدِّهم ؛ ولكنَّهُمْ كانوا أكرمَهُمْ أحسابًا ، وأمحضَهُمْ أنسابًا ، وأكملَهُمْ مروءةً ، ولَم يَمْتنعُوا فى جاهلِّية -والنَّاسُ يأكل بعضهُم بعضًا- إلا باللهِ ، فبوّأهم[1] حرمًا آمنًا ،يُتخطَّفُ النَّاسُ مِن حَوْلِهم ، هل تعرفُون عَربًا أو عَجَمًا أو سُودًا أو حُمْرًا ، إلاَّ وقد أصَابَهُ الدَّهْرُ فى بَلَدِه وحُرْمَتِهِ ؛ إلاَّ ما كان مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فإنَّهم لم يُرِدْهُم أحدٌ من النَّاسِ بكَيْدٍ إلاَّ جعل اللهُ خدَّهُ الأسفلَ ؛ حتى أرادَ الله أنْ يَسْتَنْقِذَ مَن أكرمَ ، واتَّبَع دِينَهُ من هَوانِ الدُّنْيا وسُوء مَرَدّ الآخرة ، فارتضى لذلك خير خَلْقِه ، ثم ارتضى له أصحابا فكان خيارُهُم قريشًا ، ثم بَنَى هذا المُلك عليهم ، وجعلَ هذه الخلافةَ فيهم ، فلا يَصلُح ذلك إلاَّ عليهم ، فكان اللهُ تعالى يَحُوطُهم فى الجاهليّةِ ، وهمْ على كُفرِهم ، أفتراه لايَحوطُهُمْ وهم على دِينِهِ ! أفٌّ لك ولأصحابِكَ !.

أمّا أنتَ ياصَعْصَعة ، فإنَّ قَرْيَتَك شَرُّ القُرىَ ، أنْتَنُها نَبْتًا ، وأعمقُهَا واديًا ، وأعرَفُها بالشَّرّ وألأمُهَا ، ألأمُ العَرَب ألقابًا وأصهارا ، نُزَّاع الأمم ، وأنتمْ جِيرانُ الخَطِّ ، وفَعَلةُ فارِس ، حتَّى أصابتْكُم دعوةُ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، لم تسكُنْ البحرينْ فتشرَكُهم فى دعوةِ النَّبِىّ صلَّى الله عليه وسلَّم . فأنتَ شَرّ قومِكَ ، حتى إذا أبْرَزَك[2] الإسلام وخلَطَك بالناس[3] أقبلْتَ تبتَغى دينَ اللهِ عِوَجًا ، وتَنْزِعُ إلى الذِّلَّةِ ، ولا يضرُّ ذلك قريشًا ، ولا يضعهم ولن يمنعَهُمْ من تأديةِ ما عليهم ، إنَّ الشيطانَ عنكم غيرُ غافلٍ ، قد عرّفكم بالشَّرِّ فأغْرَى بكم النَّاس

(١) ك : « مأواهم » .
(٢) ك : « أنذرك » .
(٣) ك : « بالإسلام » .

وهو صارِعُكمْ ، ولا نُدرِكون بالشر أمرًا أبدًا ؛ إلاَّ فتَح اللهُ عليكم شرًّا منه وأخزَى .

ثمَّ قامَ وتركَهُم . فتقاصَرتْ إليهم أنفُسُهم .

فلمَّا كان بعد ذلك أتاهم فقال : إنى قد أذنتُ فاذهبوا[1] حيثُ شِئْتُم ؛ لاينفعُ اللهُ بكم أحدًا أبدا ولايضُرُّه ، ولاأنتمْ برجالِ منفعَةٍ ولامَضَرَّةٍ فإن أردْتُم النجاةَ فالزَمُوا جماعَتَكُمْ ، ولا يُبْطِرنَّكم الإنْعام ، فإنَّ البَطَرَ لا يغْتَرِى الخيارَ ، فاذْهبوا حيثُ شئْتُم ، فسأكتُبُ إلى أميرِ المؤمنين فيكم .

فلمّا خرجُوا دعاهم وكلَّمَهُم نحوَ كلامِه الأوّل ، وكتبَ إلى عثمان أنَّه قدم علىّ أقوامٌ ليستْ لهم عقولٌ ولا أدْيان ، أضجرَهُم العدلُ ؛ لايريدُون اللهَ بشىْء ، ولايتكلَّمُون بحجّة ؛ إنَّما هَمُّهم الفتنةُ ، وأموالُ أهلِ الذِّمّة ، واللهُ مبتلِيهم ومختبِرُهم ، ثم فاضحُهم ومُخزيهم ، ولَيسُوا بالَّذين ينكثُون أحدًا إلاَّ مع غيرِهم ، فانْهَ سَعِيدًا ومَنْ عندَه عنهم ؛ فإنَّهم ليسوا لأكبر مِن شَغَبٍ أو نَكِيرٍ .

قال : ولمّا خرجوا من دِمَشْقَ قالوا : لانرجع إلى الكُوفةِ ، فإنَّهم يَشْمَتون بِنَا ، ولكِنْ مِيلُوا إلى الجَزِيرةِ ، فسمِعَ بهم عبدُ الرحمنِ بنُ خالدِ بنِ الوليدِ وكان على حِمْصَ ، فدعاهم وقال : ياآلَةَ الشَّيْطان ، لا مرحبا بكم ولا أهلا ! قدرجَعَ الشيطانُ مَحْسورا ، وأنتُمْ بعدُ نِشاطٌ ؛ خَسَّر اللهُ عبدَ الرحمنِ إنْ لم يؤدِّبْكم[2] ، يامعشرَ مَنْ لا أدرِى ، أعَرَبٌ أم عَجَم! لا تقولوا لى مايبْلغنى أنَّكم قلْتُم لمعاوية : أنا ابن خالد بن

(١) ك : « تذهب » ؛ تحريف .
(٢) ك : « إن لم يؤذكم » .

الوَليدِ ، أنا أبنُ من عَجَمتْهُ العاجِماتُ ، أنا ابنُ فاقئ الرُّدَّه .

والله لئن بلغَنى ياصعصعةُ أنَّ أحدًا مِمَّنْ معى دَقَّ أنْفَكَ ، ثمّ أمَضَّكَ ، لأُطيرنَّ بك طيرةً بعيدةَ المَهْوَى . وأقامَهُم شهرا ، كلَّمَا ركبَ أمشاهم . فلمَّا مرّبه صعصعة قال : يابن الخَطِيئة ، أعلمتَ أنَّ مَنْ لم يصْلحه الخيْرُ أصلَحَه الشَّرّ ، مالَك لاتقول كما بلغنى أنَّك قلْتَ لسعيد ومعاوية ! فيقولون : نتوبُ إلى اللهِ ، أقِلْنَا أقالَك الله ، فما زالوا به حتَّى قال : تابَ اللهُ عليكم .

وسَرّحَ الأشتَرَ إلى عثمان ، فقدِمَ إليْهِ ثانيا ، فقال له عثمان ؛ احلل حيث شئت ، قال : مع عبد الرحمن بن خالد ؟ فقال ، ذاك إليك ، فرجعَ إليه .

وقد حَكَى بعضُ المؤرّخِينَ مِنْ أخبارِهم نحوَما ما تقدم ، وزاد فيه : إنَّ معاويةَ لمّا عادَ إليهم من القابلةِ وذكَّرهم ، كان ممّا قال لهم : واللهِ إنّى لا آمركم بشىءٍ إلا قَدْ بدأْتُ فيه بنفسى ، وأهل بيتى ، وقد عرفَتْ قريشٌ أنَّ أبا سفيان كان أكرمها ، وابنَ أكرمِها ؛ إلاَّ ماجعلَ اللهُ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ، فإنَّه انتخَبَهُ وأكرَمَهُ ، وإنى لأظُنُّ أنَّ أبا سُفْيان لو وَلَدَ النَّاسَ لم يَلدْ إلاَّ حازِما .

قال صَعْصعة : كذبتَ ، لقد وَلَدهم خيرٌ من أبى سُفْيان ، مَن خَلقَه اللهُ بيَده ، ونَفَخ فيه من رُوحه ، وأمَر الملائكةَ فسجَدُوا له ، وكان فيهم البَرُّ والفاجرُ ، والأحمقُ والكيّسُ .

فخرجَ تلك الليلةَ من عندِهم ، ثم أتاهُم من القابلة فتحدث

عِنْدَهم طويلاً ثمَّ قال : أيُّها القومُ ، ردُّوا خيرًا أو اسْكُتوا ، وتفكَّروُا وانْظُروا فيما ينفعُكُمْ وينفَعُ أهاليَكم المسلمين فاطْلبُوه

فقال صعصعة : لستَ بأهلِ ذلك ولاَ كَرامة ، لك أنْ تُطاعَ فى مَعْصِيَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ! . فقال : أليس أوّل ما ابتدأتكم به أن أمرتُكُمْ بتقوى الله وطاعَتِهِ وأنْ تعتصمُوا بحبلِ الله جميعًا ولا تفرَّقُوا .

قالوا : بلْ أمرْتَ بالفُرْقةِ وخلافِ ماجاء به النَّبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم

قال : فإنىّ آمُرُكُمْ الآنَ ، إنْ كنتُ فعلتُ فإنىّ أتوبُ إلى اللهِ وآمُرُكُم بتقواه وطاعتِهِ ، وطاعةِ نبيِّهِ ، ولزومِ الجماعةِ ، وأنْ توقِّروا أئمّتَكُمْ ، وتَدُلُّوهم عَلَى أحْسَنِ ما قَدَرْتُم عليه .

فقالَ صعصعة : فإنَّا نأْمُرك أنْ تعْتزِلَ عملَكَ ؛ فإنَّ فى المسلمينَ مَنْ هو أحقُّ به منك ؛ مَنْ كان أبوه أحسَن قَدَمًا من أبيك فى الإسلام وهو أحسَن قدمًا فى الإسلام من أبيك .

فقال : والله إنَّ لى فى الإسلام قدمًا ، ولَغَيْرى كان أحسن قدمًا مِنِّى ، ولكن ليسَ فى زمانى أحدٌ أقوىَ على ما أنا فيه مِنِّى ، ولقد رأى ذلك عمرُ بنُ الخطَّابِ ، فلو كان غيرى أقوى مِنِّى لم تكُنِ عند عَمر هَوادةٌ لى ولالغيرى ، ولم أحدِثْ من الحَدَثِ ماينبغى أنْ أعتَزِلَ عملِى ، ولورأى ذلك أميرُ المؤمنين لكَتبَ إلىّ فاعتزلْتُ عمله ، فمهلاً فإنَّ فى ذلك وأشباهِه مايَتمنَّى الشيطانُ ويأْمرُ .

ولعمرى ، لو كانتْ الأُمورُ تُقْضَى على رأْيِكُمْ وأمانِيِّكُمْ ، ما استقامت

[لأهلِ الإسلام يومًا وليلة ، فعاودوا الخيرَ وقُولُوه ، وإنّ لله لسَطَوَاتٍ ، وإنّى لخائفٌ عليكم أنْ تتابَعُوا فى مُتابَعة الشَّيْطَان ، ومعصيةِ الرّحمن فيُحِلّكُم بذلك دارَ الهَوان فى العاجلِ والآجلِ .

فوثَبوا عليه ، وأخَذُوا رأسه ولحيتَهُ . فقال : مه ! إنّ هذه ليستْ بأرضِ الكُوفةِ ، واللهلو رأى أهل الشّام ماصنعتُمْ فىَّ ما ملكتُ أنْ أنهاهُمْ عنكم حتى يقتلوكُم ، فلَعَمرى إنّ صنيعَكم لَيُشبه بعضُه بعضًا ، ثم قام مِن عندهم .

فكَتَبَ إلى عثمانَ نحوَ ما تقدّمَ ، فكتبَ إليه يأمره أن يُردّهم إلى سعيدِ بنِ العاصِ إلى الكوفَةِ ، فردَّهُم ، فأطْلَقُوا ألسنتَهُمْ ، فضجّ سعيدٌ مِنْهم إلى عُثمانَ ، فكتب إليه أنْ يسيِّرَهم إلى عبدِ الرحمن بنِ خالد بِحمص ، فسيّرهم إليه ، فأنْزَلهم وأجْرى عليهم رِزْقًا . وكانوا[1] : الأشتر ، وثابتَ بنُ قيْس الهَمْدانى ، وكُمَيل بنُ زيادٍ ، وزيد وصَعصعة ابنَا صُوحان ، وجُنْدُب بنُ زُهَير الغامِدِىّ ، وجُنْدُب بنُ كعبِ الأزْدىّ ، وعروة بن الجَعد ، وعمرو بن الحِمَق الخُزاعىّ ، وابن الكَوّاء .

* * *

وفيها مات المقدادُ بنُ عمرو ، المعروفُ بابنِ الأسودِ ، وتُوفّىَ الطُّفيلُ والحصينُ ابنَا الحارثِ بنِ عبدِ المطّلبِ بنِ هاشم .

وحجّ عثمان بالنّاسِ .

* * *

(١) ك : « وهم كانوا » .

سنة أربع وثلاثين

ذكرُ خبرِ يومِ الجَرَعة وعزلِ سَعيد وخروجه عن الكُوفة واستعمال أبي موسى الأشعريّ

وفى[1] هذه السنة توجّه سعيدُ بنُ العاص أميرُ الكوفة إلى عثمانَ ، وقد استعملَ على أعمالِه قبل مَسيره بسنةٍ وبعض أخرى على أذْرَبِيجان الأشعثَ بنَ قيس ، وعلى الرَّىِّ سعيدَ بنَ قيس ، وعلى هَمَذَان النُّسَيْر الْعِجْلىّ ، وعلى أصْبَهانَ السائبَ بنَ الأقرع ، وعلى ماه مالكَ بنَ حبيب ، وعلى الْمَوْصل حكيمَ بنَ سلام الحرّانى ، وعلى قَرْقِيسيا جريرَ ابنَ عبدِ اللهِ ، وعلى البابِ سليمانَ بن ربيعة ، وعلى حُلوان عُتَيْبَةَ ابنَ النَّهّاس . وجعلَ القعقاعَ بنَ عمرو على الحربِ ، وخلَتْ الكوفةُ من الرُّؤَساء . فخرج يزيدُ بنُ قيس وهو يريدُ خلعَ عثمانَ ، ومعه الَّذِين كان ابنُ السَّوْداء يكاتِبُهم ، فأخذه القعقاعُ بنُ عمرو فقال : إنَّمَا نَستَعْفِى من سعيد . فترَكه ، وكاتبَ يزيدُ النَّفَرَ الَّذِين كانوا سُيِّروا من الكوفةِ إلى الشّام فى القدومِ عليه ، فسار الأشترُ والَّذِين كانوا عند عبد الرّحمنِ بن خالد ، فسبَقَهم الأشترُ . فلم يَفجأ النَّاس بالكُوفة يومُ جمعة إلا والأشترُ على باب المسجد يقول : جئتكُمْ من عندِ أمير المؤمنين عثمانَ ، وتركتُ سعيدًا يُريده

(١) ابن الأثير ٣ : ٧٣ .

على نقصان نسائكم على مائة دِرْهم ، وردَّ أُولِى البَلاء منكمْ إلى ألْفَيْن ، ويزعمُ أنَّفيكم بُسْتان قريش ، فاستخلَفَ النَّاس ، وجَعَل أهلُ الرأْى ينهوْنَهم فلا يَسمَعُون منهم .

فخرج يزيدُ ، وأمَرَ مُنادِيًا ينادى : مَنْ شاء أنْ يَلحقَ بيزيد لِيَرُدّ سعيد فليفعلْ ، فبقىَ أشرافُ النَّاس وحلماؤُهم فى المسجد ، وعمرُو ابنُ حُرَيْثٍ يومئذٍ خليفة سعيد ،فصعِدَ المِنبرَ ، فحَمِد اللهَ وأثنَى عليه ، وأمرَ النَّاسَ بالاجتماعِ والطاعةِ .

فقال له القعقاعُ بنُ عمرو : أتَرُدُّ السَّيْلَ عن أدْراجِه ؟ هَيْهات ! لا والله لا يَسْكُن الغَوْغاء إلاَّ المَشْرَفِيَّة (١) ويوشكُ أن تُنتضَى ، ثم يَعجّون (٢) عَجيجَ العدّان (٣) ، ويتمنَّوْن ما همْ فيه اليَوْم ، فلا يَرُدّه الله عليهم أبدًا ، فاصبِرْ . قال : أصبِرُ ، وتَحَوَّل إلى مَنزِله .

وخرج يزيدُ بنُ قيس فنزل الجَرَعة ، وهى قريب من القادِسيّة ، ومعه الأَشْتَر ، ووصل إليهم سعيدُ بنُ العاص ، فقالوا : لا حاجة لنا بكَ ، فقال : إنَّما كان يكْفِيكُمْ أنْ تبعثُوا إلى أميرالمؤمنين رجلاً وإلىّ رجلاً ، وهَلْ يخرُجُ الألفُ لهمْ عُقولٌ إلى رجلٍ . ثم انصرفَ عنهمْ ، ومَضَى حتَّى قدمَ على عثمانَ فأخبَرَهُ الخبرَ ، وأنَّ القومَ يريدون البَدَل ، وأنهم يختارونَ أبا مُوسى . فولاَّه عثمانُ ، وكتبَ إليهم :

أمّا بعد ، فقد أمّرتُ عليكم مَنْ اخترتُمْ ، وأعفيْتُكُمْ مِن سعيد ،

(١) المشرفية : سيوف تنسب إلى مشارف ، قرى من أرض العرب تدنو إلى الريف .
(٢) يعجون : يصيحون
(٣) ابن الأثير : «العيدان» ، الطبرى : العتدان . والعتود : الجدى الذى استكرش .

ووالله لأُقرِضَنَّكُمْ عِرْضى ، ولأَبْذُلَنَّكُمْ صَبْرى ، ولأُصْلحَنَّكُمْ جَهْدِى ، فلا تَدَعوا شيئًا أَحبَبْتُموه لا يعصَى اللهُ فيه [إلاَّ سألتموه ، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه] (١) إلاَّ ما استعفَيتم منه . أنزِل فيه عندَ ما أَحبَبْتُم ؛ حتى لا تكون لكمْ على اللهِ حُجَّة ، ولنَصْبِرَنَّ كما ما أَمرَنا ؛ حتَّى تَبلغوا ما تُرِيدون .

ورَجَع الأُمَراءُ من قُربِ الكُوفةِ ، فرجعَ جَريرٌ من قَرْقِيسياء ، وعتيبة [بن النهاس] (١) من حُلوان ، وخطبهُم أَبو موسى ، وأَمرهم بلزُومِ الجماعةِ وطاعةِ عثمانَ . فأَجابوه إلى ذلك ، وقالوا : صلِّ بنا . فقال : لا ، إلاَّ على السَّمعِ والطاعةِ لعثمان ، قالوا : نعم ، فصلَّى بهم . وأَتاه وُلاتُه فوَلاَّهم . واللهُ سبحانه وتعالى أَعلم ، وهو حسبي .

---

(١) من ص .

ذكر ابتداء الخلاف على عثمان

ومن ابتدأ بالجُرْأة عليه

كان [١] أوّل من ابتدأ بالْجُرْأةِ عليه عبدُ الرحمن بنُ عوف ؛ وذلك أنّ إبلاً من إبلِ الصدقةِ جِيءَ بها إلى عثمانَ ، فوَهَبَها لبعض بنى الحَكَمَ ، فبلغ ذلك عبدَ الرحمن ، فأخَذَها ، وقسَّمَهَا بين النَّاسِ وعثمانُ فى الدار .

وكان أولَ من اجترأ عليه فى المَنطق جَبَلَةُ بنُ عَمْرو السّاعدىّ ، مَرّ به عثمانُ وهو فى نادِى قومِه وبيَدِه جامِعة [٢] ، فسَلَّم عثمان ، فَرَدَّ القومُ ، فقال جبلة : لِم تردُّون على رجلٍ فَعَلَ كذا وكذا ! ثم قال لِعُثمان : واللهِ لأَطْرَحَنّ هذه الجامِعةَ فى عنُقِكَ ، أو لتتركَنَّ بطانَتَك هذه الخَبِيثةَ ؛ مَرْوان وابنُ عامِرٍ [وابن سَعْدٍ] [٣] ، ومنهم من نزلَ القرآنُ بذمّه ، وأباحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَمَه .

وحَكَى أبو جعفر الطَّبَرىّ : أنَّه مَرّ به وهو بفناءِ داره ومعه جامِعة ، فقال يا نَعْثَل [٤] والله لأقتلنَّك ولأحملنَّكَ على قَلُوصٍ جَرْباء ، ولأحملنَّكَ إلى حَرّة النَّارِ [٥] .

قال : ثم جاءَهُ مرّةً أُخرى ، وعثمانُ على المِنبرِ ، فأنزَلَه عنه

---

(١) ابن الأثير ٣ : ٧٥ ومابعدها . وتاريخ الطبرى ٤ : ٣٦٥ وما بعدها .

(٢) الجامعة : الغل يوضع فى العنق .

(٣) من ص ، وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

(٤) فى القاموس : نعثل رجل من أهل مصر ، قيل : كان يشبه عثمان رضى الله عنه ، ويقال له إذا نيل منه » .

(٥) الطبرى ٤ : ٣٦٥

قال أبو جعفر : وعن أبي حبيبةَ ، قال [١] : خطبَ عثمانُ النَّاسَ فى بعضِ أيّامه ، فقال عمرُو بنُ العاص : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّك قد ركبتَ نَهَابِير[٢] ، وركبنا معك ، فتُبْ نَتُبْ . فاستَقْبَلَ عثمانُ القبلةَ ، وشَهَر يَدَيْه ، قال أبو حُبَيْبَة : فلم أرَ يوما أكثرَ باكيًا ولا باكيةً من يومئذ .

قال : ثمّ خطبَ الناسَ بعد ذلك ، فقام إليه جَهْجَاهُ الغِفَارِىّ فصاح : يا عثمانُ ، ألا إنّ هذه شارِف[٣] ، قد جئْنَا بها ، عليها عَباءة وجامِعة ، فأنزِل فلندرّعْكَ العَباءة ، ولنَطْرَحْكَ فى الجامعةِ ، ولنحملنَّكَ على الشّارف ، ثم نَطرحْكَ فى جَبَلِ الدُّخان .

فقال عثمانُ : قبَّحكَ اللهُ ، وقبَّح ما جئتَ به !

قال أبو حبيبة : ولم يكن ذلك منه إلا عن مَلإ من النَّاسِ ، وقام إلى عثمانَ شيعته من بنى أُميَّةَ ، فحمَلَوه فأدخَلوه الدّار[٤] .

ورَوى عن يحيى بنِ عبدِ الرحمن بنِ حاطب عن أبيه ، قال : أنا أُنظر إلى عثمانَ يخطبُ على عصا النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم التى كان يخطبُ عليها أبو بكر ، فقال له جَهْجَاه : قمْ يَا نَعْثَل ، فأنزِل عن هذا المِنبرِ ، وأخذَ العَصا فكسرَها على رُكبَتِه اليمنى ، فدخلَتْ شَظيّةٌ منها فيها ، فبَقِىَ الجُرح حتَّى أصابتْه الأَكَلَةَ ، فرأيتُهَا تُدوِّد . ونزل عثمانُ وحَمَلوه ، وأمَر بالعصا فشدّوها ، فكانت مُضَبَّبَةً ، فما خرجَ

(١) الطبرى ٤ : ٣٦٦ .
(٢) النهابير : المهالك .
(٣) الشارف من النوق : المسنة الهرمة .
(٤) الطبرى ٤ : ٣٦٦ .

بعد ذلك اليوم إلاَّ خَرْجةً أو خَرْجتيْن حتى حُصِر ، فقتل[1] .

هذا ما كان من أمرِ أهل المدينة .

وأمّا ما كان من أهل الأمصار ، فكان سبب خلافهم أنّ عبدَ اللهِ ابن سَبَأ المعروف بابن السَّوْداء ، كان يهوديًّا ، فأسلَمَ أيّامَ عثمان ، ثم تنقَّلَ فى الحِجاز ، ثم بالبَصْرةِ ، ثم بالكُوفةِ ، ثم بالشام ، يريدُ إضلالَ النَّاسِ ، فلم يقدرْ منهم على ذلك ، وأخرجَهُ أهلُ الشّام ، فأتَى مصرَ ، فأقامَ فيهم ، وقال لهم : العجبُ ممن يُصَدِّق أنّ عيسى يرجعُ ، ويكذِّبُ أنّ محمدًا يرجعُ ، ووضعَ لهم الرّجعةَ ، فقبِلُوا ذلك معه ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنَّه كان لكلِّ نبيٍّ وصىّ ، وعلىٌّ وصىُّ محمّدٍ ، فمن أظلمُ ممّن لم يُجِز وصيَّةَ رسولِ الله ، ووَثَب على وصيِّه ! وإنَّ عثمانَ أخذَها بغيْرِ حقٍّ ، فانهضُوا فى هذا الأمرِ ، وابدءوا بالطَّعْنِ على أمرائِكُمْ ، وأظهروا الأمرَ بالمعروفِ ، والنهىَ عن المنكرِ تستميلوا به النَّاس . وبثَّ دُعاتَه ، وكاتبَ من استفسدَ فى الأمصار ، وكاتبُوه ، ودَعَوْا فى السِّرّ[2] إلى ما عليه رأْيُهُمْ .

ثم كان أهلُ الكوفةِ أوّلَ مَنْ قامَ فى ذلك ، فاجتمعَ ناسٌ منهم فتذاكَرُوا أعمالَ عثمانَ ، فاجتمعَ رأْيُهم أنْ يُرسِلوا إليه عامرَ بنَ عبدِ اللهِ التَّميْمِىّ ، ثم العَنْبَرىّ ، وهو الَّذى يُدْعى عامرَ ابنَ عبدِ القيس ، فأتاه ، فدخل عليه فقال : إنَّ ناسًا من المسلمين اجتمعُوا ونظروا فى أعمالِك ، فوجَدُوك قد ارتكبْتَ أُمورًا عظَامًا ، فاتّقِ اللهَ وتُبْ إليه .

---

(١) كذا فى الطبرى وفى الأصلين : « فقيل » .

(٢) ك : « السير » .

فقال عثمانُ : انْظُروا إلى هذا ، فإنّ النَّاس يزعمُون أنَّه قارئ ، ثم هو يجيء فيكلِّمُنى فى المحقَّرات ، ووالله ما يَدْرِى أينَ الله ؟ فقال عامر : بل واللهِ إنِّى لأَدْرِى أنّ اللهَ لَبالْمِرْصاد .

فأرسلَ عثمانُ إلى معاوية ، وعبدِ الله بنِ سعد ، وسعيدِ بنِ العاص ، وعمرو بنِ العاص ، وعبد الله بن عامر ، فجمعَهُم وشاورَهم ، وقال لهم : إن لكلِّ أميرٍ وزراء ونُصَحاء وإنكُم وُزرائِى ونُصَحائى ، وأهلُ ثِقَتى ، وقد صنعَ النَّاسُ ما قد رأيتُمْ ، وطلبوا إلىّ أنْ أعزلَ عُمَّالِى ، وأنْ أرجعَ عَنْ جميع ما يَكْرَهون إلى ما يحِبُّون ، فاجتهدُوا رأْيَكم .

فقال ابنُ عامرٍ : أرَى يا أميرَ المؤمنين أن تَشغَلَهم بالجهادِ عنك حتَّى يَذِلُّوا لك ، ولا تكون همّةُ أحدهم إلا فى نفسَه وما هو فيه من دَبَر[1] دابَّتِهِ وقَمَلَ فَرْوَتِهِ .

وقال سعيد : احْسِمْ عنك الداءَ فاقطعْ عنك الَّذى تخافُ ، فإنَّ لكُلِّ قومٍ قادةً ، مَتَى تَهلك تَفرَّقُوا ولا يجتَمعُ لهم أمْر ، فقال عثمان : هذا هو الرأْىُ لولا ما فيه .

وقال معاوية : أُشيرُ عليك أن تأْمرَ أُمراءَ الأجنادَ فيكْفِيَكَ كلُّ رجلٍ منهم ما قبَله ، وأكفيك أنا أهلَ الشام .

وقال ابن سَعد : إنَّ الناسَ أهلُ طمعٍ ، فأعطِهم من هذا المالِ ، تَعطِفْ عليك قلوبُهُم .

ثم قام عمروُ بنُ العاص فقال : يا أميرَ المؤمنين ، انَّك قَدْ ركبْتَ

(١) الدبر : داء فى الإبل .

لنَّاس بمِثلِ بنى أُميَّة . فقلْتَ وقالوا ، وزُغْتَ وزَاغُوا ، فٱعتَدِل أَو ٱعتزِلْ ، فإن أَبَيْتَ فاعتزِمْ عَزْمًا ، وٱمضِ قُدُما .

فقال له عثمانُ : مالَكَ قَمِلَ فَرْوُك ، أهذا الجدّ منك ! فسكتَ عَمرو حتَّى تَفَرَّقوا ، فقال : واللهِ يا أميرَ المؤمنين لأَنت أكرمُ علىَّ من ذلك ؛ ولكِنِّى علمتُ أن بالبابِ من يُبَلِّغ النَّاسَ قولَ كلّ رجلٍ منَّا ، فأَرَدْتُ أن يَبْلُغَهُمْ قَوْلى ، فَيثقُوا بى ، فأَقود إليك خيرًا ، وأَدفَعُ عنك شرًّا .

ثم ردَّ عثمانُ عماله إلى أعمالهم ، وأمرهم بتجهيز الناسِ فى البُعوثِ ، وردَّ سعيدَ بنَ العاصِ إلى الكوفةِ ، فلقيَهُ الناسُ من الجَرَعةِ فردُّوه كما نقدمَ ، وتكاتبَ أهلُ الأمصار ، لمّا أفسَدَ أمرَهم ابنُ السوْداء (١) ، وصار أهلُ كلِّ مصر يكتب إلى أهلِ المِصر الآخرَ بعُيوب يضعونها لوُلاتِهم ، وينالُون منهم حتى ذَاع ذلك فى سائرِ البلادِ ، ووَصَل إلى المدينةِ .

فيقولُ أهلُ كلِّ مصر : إنا لَفِى عافية مما ٱبتُلِىَ به هؤلاء . ثمّ تكاتبَ نفرٌ من أَصحابِ رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلم وغيرهم ، بعضُهم إلى بعض فى سنة أربع وثلاثين أنْ اقْدَموا فإنّ الجهادَ عندنا ، ونالَ الناسُ مِنْ عثمانَ ، وعَظَّموا عليه ، وليس أحدٌ من الصحابة يَنهى ولايَذُبُّ ، إلا نَفَرٌ ، منهم زيدُ بنُ ثابتٍ ، وأبو أُسَيدٍ الساعدىّ ، وكعبُ بنُ مالك ، وحسّانُ بنُ ثابت ، فاجتمعَ الناس ، فكلَّموا علىّ ابن أبى طالبٍ رضى اللهُ وأرْضاه وكَرّم وجْهه .

(١) ابن السوداء : عبد الله بن سبأ .

ذكر كلام على لعثمان وجوابه له

قال[١] : ولمّا اجتمعَ الناسُ إلى عليٍّ رضى الله عنه ، وكلَّمُوه ، دخل إلى عثمان فقال : إن الناسَ وَرَائِى ، وقد كَلَّمُونى فيك ، واللهِ ما أدرى ما أقولُ لك ، ولا أعرفُ شيئًا تجهَلُه ، ولا أدُلُّك على أمرٍ لا تعرفُه ، إنك لتعلم ما نَعلَمُ ، ماسَبَقْنَاك إلى شىءٍ فنُخبِرك عنه ، ولا خَلَوْنا بشىءٍ فنبلِّغَك ، وما خُصِصْنا بأمرٍ دونك ، وقد رأيتَ وصَحِبْتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وسمعتَ منه ، ونِلْتَ صِهْرَه ، وما ابن أبى قُحافةَ بأَوْلَى بالعملِ منك ، ولاابن الخطاب بأَولى بشىء من الخير منك وأنتَ أقربُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم رَحِمًا ، ولقدْ نِلْتَ من صهرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم مالَم يَنالا ، ولا سَبقَاك[٢] إلى شىءٍ ، فالله ، الله فى نَفْسِكَ ، فإنك واللهِ ما تُبصَّر عن عَمًى ، وما تُعلَّمُ من جَهالةٍ ، وإن الطريقَ لواضحٌ بيِّن ، وإن أعلامَ الدِّينِ لقائمة .

اعلَمْ يا عثمانُ أنّ أفْضَل عبادِ اللهِ [عِند الله][٣] إمامٌ عادلٌ ، هُدِىَ وهَدَى ، وأقامَ سُنةً معلومةً ، وأماتَ بدعةً مكروهةً[٤] ، فوالله إنّ كلاًّ لبيِّن ، وإن السُّنَن[٥] لقائمةٌ لها أعلامٌ ، وإنّ البدعَ لقائمة لها أعلامٌ ، وإن شرّ الناس عندَ اللهِ إمامٌ جائرٌ ضلّ وأضلّ[٦] ، فأماتَ سنةً معلومةً

(١) الطبرى ٤ : ٣٣٦ ، ومابعدها ، ابن الأثير ٣ : ٧٦ ، ٧٧
(٢) ك : « سقناك » .
(٣) من ص والطبرى .
(٤) ك : « متروكة » ، وكذلك الطبرى .
(٥) ك : « السنة » .
(٦) الطبرى : « وضل به »

وأحْيَا بِدْعةً متروكة ، وإنِّى أُحَذِّرُك اللهَ وسَطَوَاتِهِ ونَقَمَاتِهِ ، فإن عذابَه شديدٌ أليم ، وأُحذِّرُك أنْ تكون إمامَ هذه الأُمةِ الذى[1] ، يُقتَلُ فَيَفتَح عليها القتْل والقِتالَ إلى يومِ القيامةِ ، وتُلبِسُ أُمُورَها وتَتركهم شِيَعًا ؛ لا يُبصرون الحق لعلوّ الباطل ، يَموجون فيها مَوْجًا ، ويَمرَجُون فيها مَرْجًا .

فقال عثمانُ : قد علمتُ والله ليَقولُنّ الَّذِى قلْتَ ، أما والله لو كنتَ مكانى ما عنَّفْتُكَ ولا أَسْلَمْتُك ، ولا عِبْتُ عليك ، ولا جئتُ منكَرًا ، أنْ وصلْتُ رحِمًا ، وسدَدْتُ خَلَّة ، وآويتُ ضائعًا ، ووَلَّيْتُ شبيها بمن كان عمر ولىّ . أنشُدُك اللهَ يا علىّ ، هل تَعلمُ أنَّ المغيرَةَ بنَ شعبة ليس هناك ! قال : نعم ، قال : فتعلمُ أنّ عمرَ ولاَّهُ ؟ قال : نعم ، قال : فلِمَ تلومُنى أنْ وَلَّيْتُ ابنَ عامر فى رَحِمِه وقَرَابَتِهِ ؟ قال علىّ : إنّ عمرَ كان يَطأُ على صِماخِ مَن ولَّى إنْ بلغَهُ عنه حرفٌ جَلَبَهُ ، ثم بلغَ به أقْصَى العُقوبةِ ، وأنْتَ لا تَفعلُ ، ضعُفْتَ ورفقْتَ على أقربائِك .

قال عثمانُ : وهم أقرباؤُك أيضًا . قال : أجَل ، إنَّ رَحِمَهُمْ منِّى لقريبة ؛ ولكنَّ الفضلَ فى غيرهم .

قال عثمانُ : هل تعلَمُ أنَّ عمرَ وَلَّى معاوية ، فقد ولَّيتُه ؟ قال علىّ : أنشُدُك اللهَ ! هل تعلمُ أنَّ معاويةَ كان أخوف لِعُمَر مِن يَرْفَأَ (غلامٍ له) ؟ قال : نعم ، قال : فإنّ معاويةَ يقطع الأُمورُ دونك ، ويقولُ للنَّاسِ : هذا أمرُ عثمان ، وأنْتَ تعلَمُ ذلك ، فلا تغيّر عليه .

(١) الطبرى : « المقتول » .

ثم خرجَ عليٌّ مِنْ عنده ، وخرجَ عثمانُ على أثرِه ، فجلس على المِنبرِ ثم قال :

أمّا بعد ، فانَّ لكلِّ شيءٍ آفةً ، ولكُلِّ أمرٍ عاهةً ، وإنَّ آفةَ هذه الأُمّةِ ، وعاهةَ هذه النِّعْمة ، طَعَّانُون يُرُونكم ما تُحِبُّون ، يسترُون عنكُمْ ماتكرهُون ، ويقولُون لكم ويقولون ، أمثالُ النَّعامِ ، يَتْبَعُون أوَّلَ ناعق ، أحبُّ موارِدِها إليها البعيد ، لا يشربون إلاَّ نَغَصًا ، ولا يَرِدُون [1] إلاَّ عَكَرًا ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعْيتْهم الأُمورُ [2] ، ألا فقد عِبْتُم عليّ واللهِ بما أقررْتُمْ لابن الخطَّابِ بمثلِهِ ، ولكنَّهُ وَطِئكم بِرِجْلِهِ ، وضربَكم بيَدِهِ ، وقَمَعَكُمْ بلسانِهِ ، فدِنْتُمْ له على ما أحبَبْتُمْ أو كرهْتُمْ ، ولنْتُ لكم ، وأوطأتُكُمْ كتِفى ، وكَفَفْتُ يَدِى ولسانى عنكُمْ ، فاجترأْتُمْ عَلَيَّ . أما واللهِ لأنا أعزُّ نَفَرًا ، وأقربُ ناصرًا ، وأكثرُ عَدَدًا ، وأحرى أن قلتُ هَلُمَّ أُتِيَ إليّ ، ولقد أعددْتُ لكم أقرانَكُم ، وأفضلْتُ عليكم فضولاً ، وكَشَرْتُ لكمْ عن نَابِى ، وأخرجْتُم منّى خُلُقًا لم أكن أُحْسِنُهُ ، ومَنطقًا لم أنطِقْ به ، فكفُّوا عنّى ألسنتَكُمْ وطعنَكُمْ وعيْبَكُمْ عَلَى وَلاتِكُمْ ، فإنِّى قد كَفَفتُ [3] عنكم مَنْ لو كان هو الِذّى يُكلِّمكم لرضيتُمْ منه بدون مَنْطِقى هذا ، ألا فما تَفقِدون من حَقِّكُمْ ؟ والله ما قصّرْتُ عَنْ بلوغ ما بَلَغ من كان قَبْلِى ، ولم يَكُونوا يَختلفون عليه .

(١) ك : « ولا يرون » .
(٢) بعدها فى الطبرى : « وتعذرت عليهم المكاسب » .
(٣) ك : « كفكفت » .

فقام مروانُ بنُ الحكم فقال : إنْ شئتُمْ حكَّمْنَا واللهِ بيننَا وبينكم السيفَ ، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فَرشْنا لكمْ أعراضَنَا فَنَبَتْ بِكُمْ مَغَارِسُكُمْ تَبْنُونَ فى دِمَنِ الثَّرَى

فقال له عثمانُ : اسْكتْ لاسكتّ ، دَعْنى وأصحابى ، مامنطقُكَ فى هذا ؟ ألم أتقدَّمْ إليك ألاَّ تَنطق ! فسكت مروانُ ، ونَزَل عثمانُ (١)

(١) بعدها فى ابن الأثير ٣ : ٧٧ « عن المنبر ، فاشتد قول الناس وعظم ، وزاد تألبهم عليه » .

ذكر ارسال عثمان الى الأمصار ليأتوه بأخبار عماله

وما يقول النَّاسُ فيهم

قال[1] : لما تكاتَبَ أهلُ الأمصارِ بعُيوب وُلاتِهم التى وَضَعوها ، وشاعَ ذلك ، وأتت الأخبارُ إلى المدينة ، أتَى أهلُ المدينةِ إلى عثمانَ وقالوا : يا أميرَ المؤمنين إنا نخبرك عن النَّاس بما يأتينا ، وأخبَروه ، فاستشارَهم فأشاروا أن يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصار ، ليأتُوه بأخبار العُمّالِ ، فأرسلَ محمدَ بن مَسلَمة إلى الكُوفةِ ، وأُسامةَ بنَ زَيْدٍ إلى إلى البَصْرةِ ، وعمّارَبنَ ياسِرٍ إلى مِصْر ، وعبدَ الله بنَ عمَر إلى الشَّام . وفرّق رجالاً سواهم ؛ فرجَعوا جميعًا قبل عمّار ، فقالوا : ماأنكَرْنا شيئًا ولا أنكَرَه أعلامُ النَّاسِ ولا عَوامُّهم . وتأخَّرَ عمّار حتَّى ظَنُّوا أنَّه اغْتِيلَ ، فجاء كتابُ عبدِ اللهِ بنِ أبى سرح يذكرُ أنَّ عمّارا قد استمالَه قومٌ وانقَطعوا إليه ، منهم عبدُ اللهِ بن السَّوْداء ، وخالدُ بنُ مُلجَم ، وسُودانُ بنُ حُمران ، وكنانةُ بنُ بِشْر .

فكتبَ عثمانُ إلى أهلِ الأمْصَارِ : إنِّى آخذُ [عُمّالِى[2]] بموافاتى فى كلّ موسْم ، وقدر فع إلىّ أهلُ المَدينة أن أقوامًا يُضرَبون ويُشتَمون ، فمن ادّعى شيئًا من ذلك فلْيُوافِ المَوسم ، ليأخذ بحقِّه منِّى أو من عُمّالى ، أوتَصَّدقُوا فإنَّ اللهَ يَجزِى المتَصّدقين .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٤٠ وما بعدها ، ابن الأثير ٣ : ٧٧ وما بعدها .
(٢) من ص.

فلمّا قرئ كتابه في الأمصار بَكى الناسُ بكاء شديدا ، ودَعَوْا لعثمانَ رضى الله عنه . وقدمَ عمّالُ الأمصارِ إلى مكّة فى المَوْسم : عبدُ اللهِ عامر أميرُ البصرةِ ، وعبدُ اللهِ بنُ سعد أميرُ مصر ، ومعاويةُ أميرُ الشّام وأدْخلَ معهم فى المشورة سعيد بنَ العاص ، وعمرَو بنَ العاصِ .

فقال عثمانُ رضى اللهُ عنه : ويَحكُم ! ماهذه الشكايةُ وما هذه الإذاعة ! إنّى والله لخائف أن تكونوا مَصْدُوقًا عليكم ، وما يُعْصَب هذا إلّا بى ، فقالوا : ألَم تبعثْ ؟ ألم نَرْجعْ إليك الخبرَ عن القَوْم ؟ ألم ترجعْ رسُلُك ولَم يشافِههم أحدٌ بشىءٍ ، والله ما صَدَقُوا ولا بَرُّوا ولا نعلمُ لهذا الأمر أصلاً ، ولايحلُّ الأخذُ بهذه الإذاعة . فقال : اشيرُوا علىَّ .

فقال سعيد : هذا أمرٌ مَصْنوع يُلقَى فى السِّرّ ، فَيتحدَّثُ به النَّاسُ ، ودواء ذلك طلبُ هؤلاء ، وقتلُ الَّذِين يَخرجُ هذا مِنْ عِنْدِهم .

وقال عبدُ اللهِ بنُ سعد : خذْ من النَّاسِ الَّذِى عليهم إذا أعطيتَهُمْ الَّذِى لهم ، فإنَّه خيرٌ من أنْ تَدَعَهُم .

وقال معاوية :قد ولَّيْتَنِى فوَلَيْتُ قوما لايأْتيك عنهم إلاَّ الخيرُ ، والرّجلان أعلمُ بناحِيَتَيْهما ، والرأْىُ حُسنُ الأدب .

وقال عمرو : أرى أنَّكَ قد لِنْتَ لهم ، وتَراخَيْتَ عليهم ، وزِدْتَهم على ماكان يَصنعُ عُمر ، فأرى أن تَلزمَ طريقَ صاحِبَيْك ، فتشتدّ فى موضع الشدّة ، وتلين فى موضِع الِّلين .

فقال عثمانُ : قد سمعتُ كلّ ما أشَرْتُم به علىَّ ، ولكل أمرٍ باب

يُؤْتَى منه . إنَّ هذا الأمرَ الَّذِى يُخافُ على هذه الأمةِ كائنٌ ، وإنَّ بابهُ الَّذى يُغْلَق عليه فيُكَفْكَف به ، اللينِ والمُؤاتاة إلاَّ فى حدود اللهِ ، فإنْ فُتِح فلا يكون لأحدٍ علىَّ حُجةٌ حَقٌّ . وقد علمَ اللهُ أنِّى لم آل الناسَ خيرًا ، وأنَّ رَحَا الفِتنةِ لدائرة ، فطوبى لعثمانَ إنْ مات ولم يحرِّكْها . سكِّنُوا النَّاسَ ، وهيِّئوا لهم[1] حقوقَهَمْ ؛ فإذا تُعُوطِيَتْ حقوق اللهِ عزَّ وجلَّ فلا تدْهِنُوا فيها .

وكان هذا بمكَّة . فلمَّا قِدم عثمانُ المدينةَ دعا عليًّا وطلحةَ والزُّبيْرَ ، وعنده معاوية ، فحمِدَ معاويةُ اللهَ ، ثم قال : أنتم أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وخِيرتُه مِن خلقِهِ ، ووُلاةُ أمرِ هذه الأمَّة ، لا يَطمَعُ فيه أحدٌ غيرُكم ، اخترتُمْ صاحِبَكُم عن غيرِ غَلَبةٍ ولا طمع ، وقد كبرَ وولَّى عمره ، ولو انتظرتُمْ به الهَرَم لكان قريبًا ؛ مع أنِّى أرجو أنْ يكون أكرمَ على الله أنْ يُبْلِغَه ذلك ، وقد فشتْ مقالةٌ خِفتُها عليكم ، فما عَتَبْتُم فيه من شىء فهذه يَدِى لكم به ، ولا تُطمِعُوا النَّاسَ فى أمْرِكم ، فوالله إن طَمِعُوا فيه لارأيتُم منها أبدا إلاَّ إدْبارا[2] .

فقال علىُّ بنُ أبى طالب : مالَكَ وذاك لا أمَّ لك ! قال : دعْ أمِّى فإنَّها ليستْ بِشَرِّ أمَّهاتِكم ، قد أسلمتْ وبَايَعت النبىَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأجِبْنى عمَّا أقولُ لك .

فقال عثمانُ : صدق ابنُ أخى ، أنا أُخبركم عَنِّى وعمَّا ولِيتُ ، إنَّ صاحِبَىَّ اللَّذَيْنِ كانا قَبْلى ظَلَما أنفُسَهما ، ومَنْ كان منهما بَسبيل

(١) ك والطبرى : « وهبوا » .
(٢) ك : « الأدبار » .

احتِسابا ، وإن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يُعْطِى قَرابتَه ، فأنا فى رَهْطِ أهلِ عَيْلَة ، وقِلَّة مَعاش ، فبسطْتُ يدى فى شىء من ذلك المال لِما أقوم به فيه ، فإنْ رأيْتُمْ ذلك خَطأً فردّوه ، فأمرى لأمركم تبع .

فقالوا : أصبْتَ وأحسنْتَ ، قد أعطيْتَ عبدَ اللهِ بنَ خالدِ بن أَسِيد خمسين ألفًا ، وأعطيْتَ مَروانَ خمسَة عشر ألفًا . فأخذ منهما ذلك ، فَرضُوا وخَرَجوا راضين .

ولمّا رأى معاويةُ ما النَّاس فيه قال لعثمان :اخرجْ معى إلى الشام فإنَّهم على الطاعة قبلَ أن يَهجُمَ عليك مالاقِبَلَ لك به ،فقال : لاأبيعُ جِوارَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ وإن كان فيه قَطْعُ خَيْطِ عُنُقى .

قال : فأبعثُ إليك جُندًا منهمْ يُقِيمون معك لنائبةٍ إن نابَت المدينة ، فقال : لاأُضَيِّقُ على جِيرانِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقال : واللهِ إنك لَتُغْتالَنَّ ، فقال : حسبىَ اللهُ ونعمَ الوكيل .

وخرج معاويةُ ، فمرَّ بنفر من المهاجِرين ؛ فيهم علىٌّ وطلحةُ والزُّبير وعلى معاويةَ ثِيابُ سَفَره ، فقام عليهم ، فقال : إنَّكم قد علِمتُمْ أنَّ هذا الأمرَ كان النَّاسُ يتغَالَبُون عليه حتَّى بعثَ الله نبيَّهُ ، فكانوا متفاضِلِين بالسابقةِ والقدمةِ والاجتهادِ ، فإنْ أخَذوا بذلك فالأمرُ أمرُهم ، والنَّاسُ لهم تبع ، وإنَ طَلَبوا الدُّنيا بالتغالُب سُلِبوا ذلك وَرَدّه اللهُ إلى غيرِهِم ، وإنَّ الله على البدَل لقادر ، وإنى قد خَلَّفْتُ

فيكم شيخاً ، فاستوصوا به [خيرا] (١) ، وكاتِفُوه تكونوا أسعدَ منه بذلك . ووَدَّعَهم ومَضَى إلى الشَّام .

فقال عليٌّ رضى الله تعالى عنه : كنتُ أرَى فى هذا خيرًا .

فقال الزُّبيرُ : والله ماكان قطُّ أعظم فى صَدْرِك وصدورِنا منه اليوم . والله سبحانه وتعالى أعلمُ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

(١) من ص .

سنة خمس وثلاثين

ذِكْرُ مسيرِ مَن سار إلى عثمان رضى الله عنه مِن أهل الأمصار

قال[1] : ولمّا فَصَل الأُمراء عن المدينةِ ، وقدموا على أمصارهم وذلك فى سنة خمسٍ وثلاثين ، وكان المنحرفُون عن عثمانَ قد اتّعدوا يومًا يخرجون فيه بالأمصار جميعا إذا سارَ عنها الأُمَراء ، فلم يتهيّأ لهمْ ذلك . ولمّا رجع الأمراءُ ولم يتمّ لهم الوُثوبُ تكاتَبُوا فى القدوم إلى المدينةِ ، لينظُروا فيما يريدُون ويسألوا عثمانَ عن أشياء ، لِتَطيرَ فى النّاس

فخرج المِصْرِيُّون وفيهم الرحمن بنُ عُدَيْس البَلَوىّ فى خمسمائة . وقيل : ستّمائة ، وقيل : فى ألف ، وفيهم كنانةُ بنُ بِشْر اللّيثى ، وسُوادان بن حُمْران السَّكونىّ ، وعليهم جميعًا الغافِقىّ بن حرب العَكّىّ .

وخرجَ أهلُ الكوفةِ وفيهم زيدُ بنُ صُوحان العَبْدىّ ، والأَشْتَر النَّخَعىّ ، وزيادُ بنُ النَّضْر الحارثىّ ، وعبدُ اللهِ بن الأَصمّ العامرىّ ، وهم عِدَادِ أهل مِصْرَ.

وخرجَ أهلُ البصرةِ وفيهم حكيم بن جَبَلة العَبْدِىّ ، وذَرِيجُ ابنُ عبّاد العَبْدىّ ، وبشرُ بنُ شُرَيْح القَيْسى ، وابنُ المُحترِش ، وهم بِعَدادِ أهلِ مِصرَ ، وأميرهم حُرْقوصُ بنُ زُهَير السَّعْدىّ .

---

(١) الطبرى ٤ : ٣٤٠ وما بعدها ، ابن الأثير ٣ : ٧٧ وما بعدها .

فخرجوا جميعًا فى شوّال ، وَأَظْهَرُوا أنّهم يريدون الحَجّ ، فلما كانوا من المدينةِ على ثلاثٍ ، تَقدَّم ناسٌ من أهلِ البَصْرةِ ، فنزلُوا ذا خُشُبٍ ، وكانَ هواهم فى طلحة ، وتقدَّم ناس من أهلِ الكوفة فنزلوا على الأعوَص وهَواهم فى الزُّبيرِ ، وجاءهم ناسٌ من أهلِ مِصرَ وهواهُم فى عَلِيّ ، ونَزل عامّتهم بذِى المروة .

فاجتمعَ نفرٌ من أهلِ مصرَ وأتَوْا عليًّا ، ونفرٌ من أهلِ البصرةِ ، وأتَوْا طلحةَ ، ونفرٌ من أهلِ الكُوفةِ فأتَوْا الزُّبيرَ ، واجتمعوا بهم فكلٌّ طَرَدَهم وأبعَدهم ، فعادُوا إلى أصحابهم .

وقيل : إنَّ عثمانَ لما بَلَغَهُ نُزُولهم بذى خُشُبٍ ، جاءَ إلى علىٍّ وكلَّمه فى رَدّهم ، فقال علىّ : على أىّ شىءٍ أَرُدُّهم ؟ فقال عثمان : على أن أصير إلى ماأشرْتَ إليه ورأيْتَه لى .

فركبَ علىٌّ ومُحمد بنُ مَسَلمة وابو المُضرّس وكلَّموهم فى الرُّجوع ، فرجَعُوا ، فعاد علىٌّ إلى عثمانَ برجوعهم ، فسُرّ بذلك .

فلمّا فَارَقَه جاء مروانُ بنُ الحكِم إلى عثمانَ من الغَدِ فقال له : تكلَّم وأَعلِم النَّاسَ أنَّ أهلَ مِصرَ رجعوا ، وأنَّ مَابَلَغهم عن أميرهم كان باطلاً قبل أنْ يأْتىَ النَّاسُ مِنْ أمْصارِهم ، ويأْتيَك ما لا تَستطيعُ رَدَّه ، ففَعَل عثمان ، فلمّا خَطَبَ النَّاسَ قال عمروُ بنُ العاصِ : اتَّقِ اللهَ ياعثمان ، فإنَّك قدركبْتَ أمورًاوركبْنَاهَامعك ، فتُبْ إلى اللهِ نَتُبْ .

فناداه عثمانُ : وانَّك هُنالك ! قَمِلَت واللهِ جُبّتُكَ ، منذُ عزلتُكَ

عن العَمَل ، فنُودِيَ من ناحية أُخرى : تُبْ إلى اللهِ ، فَرفَع رأْسَه وقال : اللّهمّ إنى أوّلُ تائبٍ . وخرجَ عمرُو بنُ العاص حتّى أَتَى فِلَسْطين .

وفى روايةٍ عن عَلْقَمة بنِ وَقَّاص : إنَّ عَمرو بن العاص قامَ إلى عثمان وَهو يخطبُ ، فقال : ياعثمانُ ، إنَّك قد ركبْتَ بالنَّاسِ النَّهَابِير وَرِكبوها ، فتُبْ إلى اللهِ ولْيتُوبُوا . فالتَفَتَ إليه عثمان وقال : وإنَّكَ لهُنا يا بن النابغة ! ثمَّ رَفع يَدَيْه واسَتقْبلَ القِبلةَ وقال : أتوبُ إلى اللهِ ، اللهمّ أنا أوّل تائب إليْك .

قال ابن الأثير الجَزَرىّ : وقيل[1] : إنَّ عليًّا لمّا رجع من عند المصريِّين بعد رجوعِهمْ أتى عثمان ، فقال : تكلَّمْ كلامًا يسمعُه النَّاسُ منك ، ويشهدُون عليك ويشهدُ اللهُ على ما فى قلبك من النُّزوع والإنابة[2] ؛ فإنَّ البلادَ قد تمخَّضت عليك ، فلا آمَنُ أن يَجىء ركبٌ آخَرُ من الكُوفةِ والبصرة ، فتقول : يا علىّ ، اركَبْ إليهم ، فإنْ لم أفعَلْ رأيتنى قد قَطعتُ رَحِمَك ، واستخففْتُ بحقّكَ .

فخرج عثمانُ فخطبَ خُطبةً نزعَ فيها ، وأَعطَى الناسَ مِن نفسِه التَّوبةَ ، وقال أنا أولُ من اتَّعظَ ، أَستغفرُ اللهَ مما فعلْتُ وأتوبُ إليه ، فِمْثلى نَزَعَ وتابَ ؛ فإذا نزلتُ فليأْتِنِى أشرافكُمْ فليرَوْا رأْيَهم ، فوالله لِئن ردَّنِى الحقُّ عبدًا لأَسْتَنَّ بُسّنة العَبْدِ ، ولأَذلَّنّ ذُلَّ العَبدِ ، وما عن اللهِ مَذهَب إلاَّ إليه ، فواللهِ لأُعطينَّكم[3] الرضا ، ولأُنحِّينَّ مروانَ وذَويه ، ولا أحتجبُ عنكم .

---

(١) تاريخه ٣ : ٨٢ .

(٢) ابن الأثير : « الأمانة » .

(٣) ك : « لأعطيتم » .

فرقَّ النَّاسُ وبكَوْا حتَّى أُخْضِلَتْ(١) لحَاهم ، وبكَى هو أيضًا ، فلمَّا نزل وَجَد مروانَ وسعيد بنَ العاصِ ونفرًا من بنى أميَّة فى منزله ، لم يكونُوا شهدُوا خُطبَتَهُ .

فلمَّا جلس قال مروانُ : يا أميرَ المؤمنين ، أتكلَّمُ أم أسكُت؟ فقالَتْ نائلةُ ابنةُ الفَرافصَة امرأةُ عثمانَ : لا ، بل اصمُتْ ، فإنَّهم واللهِ قاتِلُوه ومُؤثِمُوه ، إنه قد قال مقالةً لاينبَغِى له أنْ ينزِعَ عنها .

فقال لها مروانُ : ما أنتِ وذاك ؟ فوالله لقَدْ مات أبوكِ وما يُحسِنُ يتوضَّأ ، فقالت : مهلاً يا مَرْوان عن ذِكر الآباء ، تُخْبِرُ عن أبى وهو غائبٌ تَكْذِب عليه ! وإنَّ أباك لا يستطيعُ أنْ يدفعَ عنه . أما والله لولا أنَّه عمُّه ، وأنَّه ينالُه غَمُّه لأخبرتُكَ عَنْه بما لَم أكذِب . قال : فأعرَض عنها مروانُ ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، أتكلَّمُ أم أسْكُتُ ؟ قال : تكلَّمْ ، فقال : بأبى أنتَ وأمِّى ! والله لوددْتُ أنَّ مقالتَكَ هذه كانتْ وأنتَ ممتنعٌ ، فكنتُ أوَّلَ من رضِىَ بها ، وأعانَ عليْها ؛ ولكنَّكَ قلْتَ ما قلْتَ حين قد بلغَ الحزامُ الطُّبْيَيْن ، وبَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى ، وحين أعْطَى الخُطَّةَ الذَّليلةَ الذَّليلُ ، واللهِ لإقامةٌ على خطيئة يُستغْفَرُ منها ، أحسنُ من تَوبةٍ يخافُ عليها ، وأنتَ إن شئتَ تقرُّ بالتَّوبةِ ، ولم تُقِرَّ بالخطيئة ، وقد اجتمعَ بالباب أمثالُ الجبالِ من النَّاس .

فقال عثمانُ : فاخرجْ إليهم وكلِّمْهُم ، فإنِّى أستحيى أنْ أكلِّمَهُمْ ، فخرجَ مروانُ إلى البابِ والناسُ يَركبُ بعضُهم بعضا ، فقال :

---

(١) أخضلت : ابتلت .

ما شأنُكم ؟ قَدْ اجتمعْتُم كأنَّكُمْ قد جئتُمْ لنَهْب ، شاهَتْ الوجُوهُ ! إلامَنْ أُرِيد ، جئتُم تُرِيدُون أنْ تَنزِعُوا مُلْكَنَا من أيدينا ، اخرُجُوا عنَّا ، والله لئنْ رُمْتمونا لَيمرّن عليكُمْ منَّا أمرٌ لايَسُرّكم ، ولا تحمدوا غِبَّ رَأْيِكم ، ارجعوا إلى منازلكُمْ ، فإنَّا واللهِ ما نحنُ بمغلوبين على ما فى أيْديِنا .

فرجَعَ النَّاسُ ، وأتى بعضُهم عليًّا فأخبَرَه الخبرَ ، فأقبل على عبدِ الرحمن ابنِ الأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ فقال : أحضرْتَ خُطبةَ عثمان ؟ قال : نعم ، قال : أفحضرْتَ مقالةَ مَرْوانَ النَّاس ؟ قال : نعم ، فقال عليٌّ . أيْ عِبادَ الله ، يا للمسلمين ! إنِّى إنْ قعدْتُ فى بيتى قال لى : تركْتَنِى وقرابَتِى قرابَتِى وحَقِّى ، وإنِّى إنْ تكلَّمْتُ فجاء ما يريدُ يَلعبُ به مَرْوان ، فصار سَيِّقَةً له يَسُوقُهُ حيْثُ يشاءُ ، بعد كِبَرِ السِّنِّ ، وصُحْبَةِ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم . وقام مُغْضَبًا حتَّى دخلَ على عثمانَ فقال له : أما رضيتَ من مروانَ ولا رضىَ منك إلاَّ بتحرُّفِك عن دينكَ ، وعن عَقْلِكَ ، مِثل جَمَلِ الظَّعِينَةِ . يُقَادُ حيْثُ يَشاءُ رَبُّه . واللهِ ما مروانُ بذى رأْيٍ فى دِينه ولا نفسِه ، ولا وايْمُ اللهِ إنِّى لأَراه يورِدُكَ ثمَّ لا يُصْدِرُكَ ، وما أنا عائد بعدَ مُقامى هذا لمعاتَبَتِكَ ، أذهبتَ شَرفَكَ ، وغُلِبْتَ على رَأْيك .

فلمَّا خرجَ عليٌّ دخلَتْ على عثمانَ امرأتُه نائلة فقالتْ : قد سمعْتَ قولَ عليٍّ لك ، وليس يُعَاوِدُكَ ، وقَدْ أطَعْتَ مروان يقودُك حيْثُ شاء قال : فما أصنَعُ ؟ قالت : تتَّقِى اللهَ ، وتَتَّبِعَ سنَّةَ صاحبَيْكَ ؛ فإنَّك متى أطعْتَ مروانَ قتَلَكَ ، ومروانُ ليس له عندَ النَّاسِ قَدْرٌ ولاهيبَةٌ

ولا محبّةً ؛ وإنّما تركَك الناسُ لمَكانِه ، فأرْسِلْ إلى عليٍّ فاستصْلِحْه فانَّ له قرابةً [منك] (١) ، وهو لا يُعْصَى .

فأرسل عثمانُ إلى عليٍّ فلَم يأْتِه وقال : قَدْ أعلمْتُه أنّى غيرُ عائد ، فبلغَ مروانمقالةُ ناثلةِ فيه ، فجلسَ بين يدى عثمانَ فقال : ياابنَةَ الفَرافِصة ، فقال عثمانُ : لا تَذكُرَنَّهَا بحَرْفٍ ، فأسوئ وجهَكَ ، فهى واللهِ أنصحُ لى مِنْك ، فكَفَّ مَرْوان .

وأتَى عثمانُ إلى عليٍّ بمَنزلِه ليلاً وقال له : إنّى غيرُ عائد ، وإنّى فاعلٌ ، فقال له عليٌّ : بعد ما تكلّمتَ على مِنبرِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم ، وأعطيْتَ من نفسِكَ ، ثم دخلْتَ بيتَكَ . فخرج مروانُ إلى النّاسِ يشتُمُهم على بابِكَ ويُؤْذيهم !

فخرج عثمانُ من عنده وهو يقولُ : خذلْتَنِي وجَرَأْتَ النّاسَ علىّ ، فقال له عليٌّ : واللهِ إنّى لأكثَرُ النّاس ذَبًّا عنك ؛ ولكنّى كلّمَا جئْتُ بشئٍ أظنُّه لك رضا ، جاء مروان بأُخرى ، فسمعتَ قوله ، وتركت قولِى . ولم يَعُدْ علىٌّ يَعمَل ما كان يعملُ إلى أنْ مُنعَ عثمان الماء . فغضبَ غضبًا شديدًا حتّى دخلتْ الرّوايا على عثمانَ رضى الله عنه . واللهُ أعلم .

---

(١) من ص .

ذكر مقتل عثمان رضى الله عنه

ولمّا (١) عاد المِصريُّون وغيرُهم ، ظُنَّ أنّ الفِتْنَة قد رَكَدَتْ ، والبليّةَ قد سكَنَتْ ، فلم يفجأْ أهلُ المدينةِ إلاَّ والتَّكْبِيرُ فى نواحِيها ؛ وقد عاد القوم ، فجاءهم أهلُ المدينةِ وفيهم علىٌّ ، فقال : ما ردَّكُم بعدَ ذَهابِكُم !

وقيل : إنّ الَّذى سألهم محمّد بنُ مَسلَمة ، فأخرجُوا صحيفةً فى أُنبوبَةِ رَصاصٍ وقالوا : وجدْنا غلامَ عثمانَ بالبُويْب على بَعيرٍ من إبلِ الصَّدَقةِ ، ففتَّشْنا متاعَه ، فوجدْنا فيه هذه الصَّحيفةَ ، يأْمرُ فيها عاملَ مصرَ بجَلْد عبدِ الرحمن بن عُدَيْس وغيرِه ، وصلْب بعضِنَا .

قيل : وكان الَّذى أُخِذتْ منه الصَّحيفةُ أبو الأعورِ السُّلَمِىّ .

فدخلَ علىٌّ ومحمدُ بنُ مَسْلَمَة على عثمانَ وأعلَمُوهُ بما قال القَوْمُ ، فأقسمَ باللهِ ما كتبَه ولا عَلِمَ به . فقال محمدٌ : صَدَق ، هذا مِن فِعْلِ مَرْوان ، ودخلَ عليه المِصْريّون ، فلم يسلِّموا عليه بالخِلافَةِ ، وتكلَّمُوا ، فذكر ابنُ عُدَيْس ما فعلَ عبدُ اللهِ بنُ سعد بالمسلمين وأهلِ الذِّمَّةِ ، وأنَّه استأْثَر بالغنائم ؛ فإن قيل له فى ذلك قال : هذا كتاب أميرِ المؤمنين ، وذكر أشياء ممّا أحْدَثَهَا عثمانُ بالمدينةِ .

وقال : خرجْنا من مصرَ نريد قَتْلَكَ ، فردَّنا علىٌّ ومحمدُ بن مُسَلَمة ، وضَمِنَا لنا النزوعَ عن كلِّ ما تكلَّمْنَا فيه ، فرجعْنَا إلى بلادِنَا ، فرأَيْنَا

(١) ابن الأثير ٣ : ٨٤ وما بعدها ، الطبرى ٤ : ٣٦٥ وما بعدها .

غلامَك وكتابَك وعليه خاتَمكُ ، تأمُرُ بجَلْدنَا والمُثلةِ بنا ، وطولِ حبْسِنَا . فحلفَ أنّه ما كتبَ ولا أمرَ ولا عَلِمَ

فقال محمدٌ وعليٌّ : صدق [عثمان] (١) . قال المصريُّون : فمَنْ كتبه ؟ قال : لا أدرى . قالوا : فيُجتَرَأُ عليك ، ويُبعثُ غلامُك وجَمَل الصَّدَقةِ ، وينقَشُ على خاتَمِك ، ويُبعَثُ إلى عامِلِك بهذه الأُمورِ العظيمةِ وأنت لا تعلَمُ ! [قال : نعم] (٢) . قالوا : ما أنت إلاّ صادقٌ أو كاذبٌ ، فإن كنْتَ كاذبًا فقد استحقَقْتَ الْخَلْعَ لِما أمرْتَ به من قَتْلِنَا بغيرِ حقٍّ ، وإن كنت صادقًا فقد استحققتَ الخلع . اضْعُفِك عن هذا الأمر ، وغَفْلَتِكَ ، وخُبْث بطانَتِكَ ، ولا نَتْرُكُ هذا الأمر بيَدِ مَنْ يُقطعُ الأمرُ دونَه .

فقال : لا أنزعُ قميصًا ألبَسنِيه اللهُ ؛ ولكنّنِى أتوبُ وأنزع .

قالوا : قد رأيْنَاك تتوبُ ، ثمَّ تَعودُ ، ولسْنَا منصرفينَ حتَّى نَخْلَعَك ، أو نقتُلَك (٣) ، أو تُلحَق أرواحُنَا باللهِ ، وإنْ مَنَعَك أهلُكَ وأصحابُكَ قاتلْنَاهم .

فقال : أمّا أنْ أتبرّأ من خلافةِ اللهِ فالقتْلُ أحبُّ إلىَّ من ذلك ، وأمّا قتالُكُمْ مَنْ مَنَعنى فإنّى لا آمُر بقتل أحدٍ بقتالِكُمْ ، فمن قاتَلَ فبغيْرِ أمْرى .

وكَثُرتْ الأصواتُ واللَّغَطُ ، فقام عليٌّ وأخرَج القومَ ومضى إلى منزلِهِ .

---

(١) من ص .
(٢) من ص .
(٣) ك : « نتركك » .

قال : لمّا رجع أهلُ مصرَ ، رجع أهلُ الكُوفةِ وأهلُ البَصْرةِ فكأنّما كانُوا على مِيعادٍ [واحد(١)] ؛ فقال لهم عليٌّ رضى اللهُ عنه : كيف علمتُمْ يا أهلَ الكوفةِ ، ويا أهلَ البصرةِ بما لَقِيَ أهلُ مصر ، وقد سِرْتُمْ مراحلَ حتّى رجعْتُمْ ! هذا واللهِ أمرٌ بيِّتَ بليلٍ ! فقالوا : ضعُوه كيْفَ شِئْتُم ، لا حاجةَ لنا فى هذا الرجلِ ، ليعتزِلْنَا .

قال : ثم أحاطَ القومُ بعثمانَ ، ولم يَمنعُوه من الصلاةِ ، ولا مَنعُوا مِنْ اجتماعِ النّاسِ به

وكتبَ عثمانُ إلى أهلِ الأمصارِ يَسْتَنْجِدُهم ، ويأمُرُهم بالحثِّ للمَنْعِ عنه ، ويعرِّفُهم ما النّاسُ فيه ، فخرجَ أهلُ الأمصارِ على الصَّعْبِ والذَّلولِ .

فبعثَ معاويةُ حبيبَ بنَ مَسلَمة الفِهْرِىّ (٢) ، وبعثَ عبدُ اللهُ ابنُ سعد معاويةَ بنَ حُدَيج . وخرج من الكوفة القعقاعُ بنُ عمرو .

وقام بالكوفةِ نفرٌ يحضُّونَ على إعانةِ أهلِ المدينة ، منهم عقبةُ ابنُ عمرو ، وعبدُ اللهِ بنُ أبى أوْفَى ، وحنظلةُ الكاتب وغيرُهُمْ من أصحاب رسول الله صلّى اللهُ عليه وسلم .

ومن التابعين مسروقٌ الأسود وشريْح وعبدُ اللهِ بنُ عُلَيم وغيرهم .

وقام بالبَصرةِ عمرانُ بنُ حصيْن ، وأنَس بنُ مالك ، وهشامُ ابنُ عامر وغيرُهم من الصحابةِ .

---

(١) من ص .
(٢) ك : « العنزى » .

وقام بالشّام جماعةٌ من الصَّحابةِ والتّابعين ، وكذلك بمصر .

قال : ولمّا جاءت الجمعةُ التى على إثْرِ دخولِهم المدينة ، خرج عثمانُ فصلّى بالنّاسِ ، ثم قام على المِنبَرِ وقال : يا هؤلاء ، اللهَ اللهَ ، فو اللهِ إنّ أهلَ المدينةِ ليعلَمُون أنّكُمْ ملعُونُون على لسانِ محمّد ، فامْحُوا الخطأَ بالصواب .

وقام محمدُ بنُ سلمة وقال : أنا أشهدُ بذلك ، فأقْعَدَهُ حكيمُ ابنُ جَبَلَة ، وقام زيْد بنُ ثابت ، فأقْعَده محمدُ بنُ أبى قُتَيْرة (١) ؛ وثارَ القومُ بأجْمَعِهم ، فحصَبُوا النّاسَ حتّى أخرجُوهم من المسجدِ ، وحَصَبُوا عثمانَ حتّى صُرِع عن المِنبَرِ مغشيًّا عليه ، فأُدْخِلَ داره ؛ واستَقتلَ نفرٌ من أهلِ المدينةِ معه ، منهم سعدُ بنُ أبى وقّاص ، والحسنُ ابنُ علىّ وزيدُ بنُ ثابت وأبوهريرة ، فعزم عليهم عثمانُ بالانصراف ، فانصَرَفُوا ، وجاءهُ علىٌّ وطلحةُ والزُّبيرُ يعودونَه ، وعنده جماعةٌ من بنى أميّة ، منهم مروانُ بنُ الحَكَم ، فقالوا كلُّهُم لعلىٍّ : أهلكْتَنا وصَنَعْتَ هذا الصُّنْعَ ! واللهِ لئن بلغْتَ الذى تريدُ لنُمرّن عليك الدُّنيا ، فقام مُغضَبًا ، وعاد هو والجماعةُ إلى منازِلِهم .

قال : وصَلّى عثمانُ بالنّاس فى المَسجد بعدمَا نَزَلُوا به ثلاثين يومًا ، ثمّ مَنَعوه الصّلاةَ ، وصَلّى بالنّاس أميرُهم الغافِقىّ ، وتفرّقَ أهلُ المدينةِ فى حِيطانِهم ، ولَزِموا بيوتَهُمْ ، لا يجلسُ أحدٌ ولا يخرجُ إلاّ بسَيْفه ؛ ليَمتنع به (٢) .

---

(١) ك : « قبيرة » .
(٢) ك : « ليتفع » .

قال : وفى أثناء ذلك استشارَ عثمانُ نُصَحاءَهُ فى أمرِهِ ، فأشاروا عليه بالإرسال إلى علىٍّ فى رَدِّهم ، ويُعْطيهم ما يُرضِيهم ؛ ليطاوِلَهُمْ حتَّى تأتيَه أمدادُه ، فقال : إنَّهم لا يَقبلون التعلُّل ، وقد كان منِّى فى المرّةِ الأُولى ما كان .

فقال مَروانُ : أعطِهم ما سألوك ، وطاوِلْهم ما طاوَلُوكَ ؛ فإنَّهم قومٌ بَغَوْا عليكَ ولا عَهْدَ لهم .

فدعَا عليًّا وقالَ له : قد تَرَى ما كان من أمرِ النَّاسِ ، ولا آمَنُهم على دَمِى ، فاَرْدُدْهم فإنِّى أُعطِيهم ما يريدُون من الحقِّ منِّى و [من] (١) غيرى . فقال علىٌّ : النَّاس إلى عَدْلِكَ أحْوَجُ منهم إلى قَتْلِكَ ، وقد كنتَ أعطيتَهُمْ عهدًا فلَم تَفِ به ، فلا تُفْرِدنى هذه المرّة فإنِّى مُعطيهم عليْكَ الحقّ .

قال : أعطِهم ، فوالله لأفينَّ لهم . فخرج علىٌّ إلى الناس فقال لهم : إنَّما طلبتم الحقَّ وقد أُعطِيتُمُوه ، وقد زَعَمَ أنَّه منصِفُكُمْ من نفسِه ومن غيره ، فقال النَّاسُ : قَبِلْنَا ، فاستَوْثِقْ منه لنا ؛ فإنَّا لا نرضى بقولٍ دون فِعْلٍ ، فدخل عليه علىٌّ فأعلَمه ، فقال : اضرِب بَيْنِى وبينهم أجَلا يكون لى فيه مُهلة ، فإنه لا أقدر على ردِّ مَا كَرِهُوا فى يومٍ واحد منك . فقال له علىّ : أمَّا ما كان بالمدينة فلا أجَلَ لك فيه ، وما غاب فأجلُه وصولُ أمرِك . . قال : نعم ، فأجِّلْنى فيما فى المدينةِ ثلاثةَ أيّامٍ ، فأجابَهُ إلى ذلك .

وكتبَ بينهم كتابًا على ردِّ كلِّ مَظلمةٍ ، وعَزْلِ كُلِّ عاملٍ كَرِهوه ،

(١) من ص .

فكفَّ الناسُ عنه ، فجعلَ يتأهَّبُ للقتالِ ، ويستعِدُّ بالسِّلاح ، واتخذ جُندًا . فلمَّا مضتِ الأيَّامُ الثلاثة ولم يُغَيِّرْ شيئًا ثار به القوم .

وخرجَ عمرُو بنُ حزم إلى المصريِّين فأعلَمهَم الخبر ، وهم بذى خُشبٍ ،فقدِمُوا المدينةَ وطلَبَوا منه عَزْلَ عُمّاله ،وردَّ مَظالِمهم .

فقال : إنْ كنتُ أستعمِلُ من أردْتُم ،وأعزلُ مَنْ كرِهْتُمْ ، فلَسْتُ فى شىءٍ مِنْ الأمْرِ ، والأمرُ أمرُكُمْ . فقالوا : واللهِ لتَفْعَلَنَّ أو لتُخلعنَّ أو لتُقْتَلَنَّ . فأبَى عليهمْ ، فحَصَروه ، واشتد الحصارُ ، فأرسلَ إلى علىٍّ وطلحةَ والزُّبيرِ فحضَروا ، فأشرفَ عليهم وقال : يأيُّها الناسُ ،اجلسوا ،فجلسَ المُحاربُ والمسَالمُ ، ثم قال : ياأهَل المدينة ، أستَوْدِعُكم الله ، وأسألُه أنْ يحُسِنَ عليكم الخلافةَ مِن بعْدِى ، ثم قال : أنشُدُكم باللهِ !هل تعلمُون أنَّكم دَعَوْتمُ اللهَ عِنْدَ مصابِ عمرَ أنْ يَختارَ لكم ، وأنْ يجمعَكُمْ على خيرِكُمْ ! أتقولُون إن اللهَ لم يَستجبْ لكم ، وهُنْتُمْ عليه ، وأنتُمْ أهلُ حَقِّه ! أم تقولُون : هانَ على اللهِ دِينُه ، فلَم يبالِ مَنْ وَلَّى ، والدِّين لم يَتفرّقْ أهلُه حينئذ[1] ؟ أم تقولون : لم يكُنْ أخْذٌ عَنْ مَشُورةٍ ، إنما كان عَنْ مُكابَرةٍ فوَكَّلَ اللهُ الأمّةَ إذ عَصَتْه ولم يُشَاوِرُوا فى الإمامةِ ! أم تقولون :إن الله لم يعلَمْ عاقبةَ أمرى !

وأنْشدكم باللهِ ! أتعلَمُون لى سابقةَ خَيرْ وقدَم خيرٍ قَدَّم اللهُ لى مايُوجِبُ على كلِّ من جاءَ بَعْدِى أن يَعْرِفُوا لِى فضلَها ، فمهلاً لاتقتلُونِى فإنه لايَحِلُّ إلا قتل ثلاثة :رَجُل زَنَى بعْدَ إحصانهِ ، أو كفر

(١) ك : « يومئذ » .

بعدَ إيمانِهِ ،أو قتلَ نفسًا بغيْرِ حق .فإنكُمْ إنْ قتلْتُمُونى وضَعْتُم السيف على رِقابِكُمْ ، ثم لَم يَرفع اللهُ عنكُمْ الاختلافَ أبدًا .

قالُوا : أمّا ماذكَرْتَ من استخارة الناسِ بَعْدَ عمرَ ، ثم وَلَّوْك فإنّ كلّ ما صنعَ اللهُ الخِيرةَ ، ولكن اللهَ جعلَك بَلِيّةً ابتلى بها عبادَه .

وأما ماذكرْتَ من قَدمِكَ وسلَفِك مع رَسول الله صلّى اللهُ عليْه وسلم فقد كنتَ كذلك ،وقَدْ كنتَ أهلاً للوِلايةِ ، ولكن أحدثتَ ماعلمتَه ، ولا نَترك إقامةَ الحقِّ عليك مخافةَ الفتنةِ عامًا (١) قابلاً .

وأمّا قولُكَ : إنه لايَحِلّ إلا قتل ثلاثة ، فإنا نجدُ فى كتَابِ اللهِ قَتْل غيرِ الثلاثة الذِين سَمَّيْتَ ، قتْلَ من سَعىَ فى الأرضِ فسادًا ، أو قتْلَ مَنْ بَغَى ، ثم قاتَلَ على بَغْيِهِ ، وقَتْلَ مَنْ حَالَ دون شيءٍ من الحقِّ ومَنَعه وقاتَلَ دُونَه .وقد بغيْتَ ومنَعْتَ الحقَّ وحُلْتَ دُونَه ، وكابرْتَ عليه ، ولم تُقِد من نفسِك مَنْ ظلمتَ ، وقد تمسَّكتَ بالإمارةِ علينَا ، فإنْ زعمْتَ أنَّك لمَ تكابرْنا عليه فإنَّ الَّذِين قَامُوا دُونَكَ ومنعُوكَ منَّا إنَّما يقاتلون لتَمسّكِك بالإمارةِ ، فلو خلَعْتَ نفسكَ لانْصَرفُوا عَنَ القتالِ معك .

فسَكتَ عثمانُ ولزِمَ الدارَ ، وأمَر أهلَ المدينةِ بالرجوعِ ، وأقسمَ عليهم فرجَعُوا ، إلا الحسنَ بنَ علىٍّ ،ومحمدَ بنَ طلحة ، وعبدَ الله بنَ الزُّبير وأشباهًالهم ، واجتمعَ إليهم ناسٌ كثيرٌ ، وكانت مُدةُ الحصارِ أربعين يومًا ، فلمَّا مضَتْ ثمانى عشرةَ ليلةً ، قَدِمَ رُكبانٌ من الأمْصار فأُخبِرُوا خبرَ مَن تهيّأ لهم من الجنودِ ، فحالوا بينَ النَّاسِ وبيْنَه ، ومنعُوهُ

(١) ك : « عاملا » تحريف .
(٢) ك : « لتقيتك » .

كُلَّ شيء حتَّى الماء ، فأرسَل إلى عليٍّ سِرًّا ، وإلى طَلحةَ والزُّبير ، وإلى أزواج النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم ، يقولُ لهم : إنَّهم قد مَنعُوني الماء ، فإن قَدَرتُمْ أنْ تُرسِلوا إلينا ماءً فافعَلُوا ، فكان أوّلُهم إجابةً عليٌّ ، وأمُّ حَبيبة ، فجاء عليٌّ فى الناسِ فقال : يأيُّها الناس ، إنَّ الَّذِى تَفعَلُونَ لايُشْبِه أمْر المؤمنين ، ولا أمْرَ الكافرين ، فلا تَقطعوا عن هذا الرّجل الماء ولا المادّة ؛ فإنَّ الرُّومَ وفارسَ لتَأْسِر فتطْعِمُ ، وتسْقِى . فقالُوا : لا واللهِ ولا نَعْمةَ عَينٍ ، فَرمى بعمامَتِهِ فى الدّارِ بأنِّى قد نَهضْتُ ورجَعْتُ ، وجاءتْ أمُّ حَبيبةَ على بَغْلةٍ لها إداوة (١) ، فضربوا وجهَ بَغلَتِها فقالتْ : إنَّ وَصايَا بنى أُميَّةَ عندَ هذا الرَّجلِ ، فأحببْتُ أنْ أسألَه عنها لئلا تهْلِكَ أموالُ الأيتامِ والأراملِ ، فقالوا : كاذبة ، وقطعُوا حَبْلَ البغْلَةِ بالسَّيْفِ ، فَنَفَرت ، وكادَتْ تَسقُطُ عنها ، فتلَقَّاها النَّاسُ ، ثمْ ذهَبُوا بها إلى منزلها .

فأشرفَ عثمانُ يومًا ، فسلَّمَ عليهم ، ثم قال : أنشُدكم اللهَ ، هَلْ تعلمون أنِّى اشتريْتُ بئر رُومة من مَالِى ليُسْتَعْذَبَ بها ، فجعلْتُ رِشائى فيها كَرجُلٍ من المسلمين ؟ قالوا : نعم ، قال : فلمَ تَمنَعونى أن أشربَ منها حتَّى أُفْطِرَ على ماء المِلح ! ثم قال : أنشُدُكم الله ! هَلْ تعلمونَ أنِّى اشتريتُ أرضَ كذا فزِدْتُها (٢) فى المسجدِ ؟ قيل : نعم . قال : فهل علمتُمْ أنَّ أحدًا مُنِعَ أنْ يُصلِّىَ فيه قبْلى ؟ ثم قال : أنشُدكم الله ! هل تعلمون أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال عنِّى كذا وكذا أشياءَ فى شأنِهِ ؟

(١) الإدواة : الإناء .
(٢) ك : « فزودتها » .

فَفشَا النَّهْىُ فى النَّاسِ ، يقُولون : مَهْلاً عن أميرِ المؤمنين فقام الأَشترُ : فقال : لعلَّهُ قد مَكَرَ به وبكُمْ .

قال : وبلغَ طلحةَ والزبيرَ مالقىَ علىّ وأُمّ حَبيبة ، فلَزِمو بيوتَهُم ، وبقِىَ عثمانُ يَسْقيه آلُ حَزْمٍ فى الغفَلاتِ .

قال : وخرجَتْ عائشةُ رضى الله عنها إلى الحج ، فاسْتَتْبَعَتْ أخاها محمدًا ، فأَبى ، فقالتْ : واللهِ لئن استطعْتُ أن يَحرمَهُمْ الله مايُحاوِلون لأَفعلَنَّ .

فقال له حنظلة الكاتب : تَسْتَتْبِعُك أُمُّ المؤمنين فلا تَتْبَعُها ، وتَتْبع ذُؤْبانَ العَرَب إلى مالاَ يَحِلّ ! وإنَّ هذا الأَمرَ إنْ صارَ إلى التَّغالُب غَلبتْك عليه بنو عَبدِ مناف. ثم رَجَع حنظلَة إلى الكوفةِ وهو يقولُ بالله المستعانُ ، وعليه التُّكْلان :

عَجِبتُ لِما يخوضُ الناسُ فيه ... يَرُومُونَ الخِلاَفةَ أَنْ تَزُولاَ
ولو زالتْ لزالَ الخيرُ عنهمْ ... ولاقَوْا بعَدها ذُلاًّ ذَليلاَ
وكانُو كاليهَودِ أَوكالنَّصَارى ... سَواءً كلُّهمْ ضَلُّوا السَّبِيلاَ

قال : ثم أَشرفَ عثمانُ على النَّاسِ ، واستَدْعى عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ ، فأَمَرَه أن يَحجّ بالنَّاسِ ، وكان ممِنْ لزِمَ البابَ ، فانطلَقَ .

قال : ولمّا رأَى المصريُّون أَنَّ أَهَل الموسم يريدُونَ قَصْدَهم بعد الحجِّ مع مايليهم من مسير أَهلِ الأَمصارِ ، قالوا : لايُخْرجنَا من هذا الأَمْرِ الَّذِى وَقَعْنَافيه إلاَّ قتلُ هذا الرّجلِ ، فيشْتغلُ النَّاسُ عنَّا . فتقدَّمُوا إلى البابِ ، فَمنَعهم الحسَنُ ، وابنُ الزبيرُ ، ومحمدُ بنُ طلحة ، ومَروانُ

وسعيدُ بنُ العاص ومن معهم من أبناءِ الصَّحابَةِ ، واجْتَلَدوا فزَجرَهُم عثمان ، وقال : أنتُمْ فى حِلٍّ مِن نُصْرَتِى ، فأبَوا ، ففتَح البابَ ليمنَعَهُم ، فلمّا خَرج ورآه المصريُّونَ رجَعُوا ، فرَكِبَهُم هؤلاء ، وأقسَمَ عثمانُ على الصَّحَابةِ ليَدْخُلُنَّ ، فدخَلُوا ، فأغلقَ البابَ دون المصريِّين فثارُوا إلى البابِ ،وجاءوا بنارٍ ، فأحْرَقوا السَّقيفةَ التى على البابِ ، وثارَ بِهِمْ أهلُ الدار ، وعثمانُ يُصَلِّى ، قد افتتح طه ، فماشَغَله ماسَمِع حتَّى أتَى عليها ، فلمّا فَرَغ جَلَس إلى المُصحفِ فقرأ : (الَّذِين قَالَ لهُم النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قد جَمعُوا لكمْ فاخْشَوْهُم فزَادَهُم إيمانًا وقالوا : حَسْبُنَا اللهُ ونعمُ الوكيلُ) (١)

قال : ثمَّ قال عثمانُ للحَسَن : إن أباكَ الآنَ لَفِى أمرٍ عظيم مِن أمرِك ، فأقْسمتُ عليك لمَا خَرجتَ عليه ،فتقدَّموا فقاتَلُوا ، ولم يَستَمعُوا قولَه ،فبرزَ المغيرةُ بنُ الأخنسِ بن شريق الثَّقَفىّ حليفُ بنى زهرة وكان تعجَّل الحج فى عصابة لينصروا عثمان وهو معه فى الدارِ ،وارتَجَز.

قد عَلمتْ ذاتُ القُرونِ المِيل والحَلْى والأنامِل الطُّفولِ
لتَصْدَقَنْ بَيْعَتى خليلى بصارِمٍ ذى رَوْنقٍ مَصْقولِ
* لا أستَقِيلُ إذْ أقلْتُ قِيلِى *

وحَكى أبو عمرَ(٢) أنَّ المغيرةَ بنَ الأخنسِ قال لعثمان حين أحرقوا بابَهُ : والله لاقال الناسُ عنَّا : إنَّا خذلْنَاكَ ، وخَرَجَ بَسيْفه وهو يقول :

لمّا تَهَدَّمَت الأبْوابُ واحترَقَتْ تيمَّمْتُ منهنَّ بابًا غيرَ مُحترِقِ

(١) سورة آل عمران ١٧٣ .
(٢) الاستيعاب ١٤٤٤ .

حقاً أقولُ لعبدِ اللهِ آمُرهُ إن لم تقاتلْ لَدَى عثمانَ فانطلقِ
واللهِ أتْرُكُه ما دامَ بى رَمَقٌ حتَّى يُزايَلَ بينَ الرأْسِ والعُنقِ
هو الإمامُ فلسْتُ اليومَ خاذِلَهُ إنَّ الفِرَارَ علىَّ اليومَ كالسَّرَقِ

وحَمَل على النَّاسِ فضَربَهُ رجلٌ على ساقِهِ فقطَعها ، ثم قَتَله ، فقيل إنَّ الَّذِى قتله تقطَّعَ جُذامًا[1] بالمدينةِ .

وقال قتادَةُ : لمّا أقبلَ أهلُ مِصرَ إلى المدينةِ فى شأْنِ عثمانَ رأى رجل منهم فى المَنامِ كأَنَّ قائلاً يقول له : بَشِّرْ قاتَل المغيرة بنِ الأخنسِ بالنَّار ، وهو لا يَعرفُ المُغيرة ، رأى ذلك ثلاثَ ليالٍ ، فجعل يحدِّثُ أصحابَه . فلمّا كان يومُ الدّارِ . خرجَ المغيرةُ فقاتَلَ[2] ، والرجلُ يَنظرُ إليه فقتَل ثلاثةً ، فلمّا قَتلَهم وَثَب إليْه الرجُل فحذفه ، فأصابَ رِجْله ، ثم ضَربَه حتَّى قَتله ، ثم قال : مَنْ هَذَا ؟ فقالوا : المغيرةبن الأَخْنَس ، فقال : لا أرانى إلاَّ صاحبَ الرؤيا المبشِّر بالنَّار ، فلم يزلْ بشرّ حالٍ حتَّى هَلَكَ .

وخرج الحسنُ بنُ علىٍّ وهو يقول :

لادِينهُمْ دِينِى ولاأنا منهمُ حتَّى يسيرَ إلى طَمارِ شَمَامُ[3]

وخرج محمدُ بنُ طلحةَ وهو يقولُ :

أنا ابنُ مَنْ حامَى عليه بأُحُدْ ورَدَّ أحزابًا على رغم معدْ

(١) فى الأصول : « خذاما » ، وما أثبته من الاستيعاب
(٢) الاستيعاب : « يقاتل » .
(٣) طمار : المكان العالى من الجبل وغيره . وشمام : اسم جبل بالعالية .

وخرج سعيدُ بنُ العاصِ وهو يقول :

صبْرنا غَداةَ الدارِ والموتُ واقفٌ بأسيافِنا دوَ ن ابن أرْوَى نُضارِبُ
وكُنَّا غَداةَ الرَّوْع فى الدّار نُصْرَةً نُشافِهُهُمْ بالضَّرب والموتُ ثاقبُ

وكان آخر مَنْ خرج عبدُ الله بنُ الزُّبَيرِ ، وأقبلَ أبو هريرةَ والنَّاسُ محجِمُونَ ، فقال : هذا يومٌ طابَ فيه الضَّرْبُ ، ونادَى : (ياقومِ مالِى أدْعُوكُمْ إلَى النَّجَاةِ وتَدْعُونَنِى إلى النَّارِ)(١) .

وجاء عبدُ اللهِ بنُ سَلاَم يَنْهاهم عن قَتلْهِ ، فقال : ياقوم ، لاتَسُلُّوا سيفَ اللهِ فيكم ، فواللهِ إنْ سَلَلْتُمُوه لاتُغمِدوه ، ويْلَكم ! إنَّ سُلطانكُمْ اليومَ يَقومُ بالدِّرّةِ ، فإن قتلتُمُوه لايقومُ إلابالسَّيْفِ ، وَيْلكم ! مدينتكُمْ محفوفةٌ بالملائكةِ ، فإن قتلتُموه ليترُكُنَّها .

فقالوا : يابن اليهودية ، ماأنتَ وهذا ! فرجع عنهم .

قال : ثمَّ اقْتَحمُوا على عثمانَ دارَه ، مِنْ دَارِ عمرو بنِ حَزْم حتَّى ملئوها ولمَ يَشعُر مَنْ بالبابِ منهم ، ففى ذلك يقول الأحوصُ يهجُو آلَ حَزْم .

لاترثِينَّ لحزمِىٍّ رأيتَ به ضُرًّا ولو طُرِحَ الحَزْمِىُّ فى النَّارِ(٢)
الباخسين لمَروانٍ بذِى خُشُبٍ والمُدْخلين على عُثمانَ فى الدّارِ

قال : ولمّا صارُوا فى الدّارِ نَدَبُوا رجلا ليقتلَهُ ، فدخل عليه فقال : اخلَعْها وَنَتْرُكُكَ . قال : لستُ خالعا قميصا كسَاينهِ اللهُ تعالَى حتَّى يُكرِمُ اللهُ أهلَ السعادة ، ويُهينَ أهَلَ الشَّقاوةِ ، فخرج

(١) سورة غافر ٤١ .
(٢) ديوانه ١٣٢ ، وروايته : « لا تأوين » .

عنه ، فأدخلُوا عليه رجلا من بنى ليث ، فقال : لستَ بصارحبى لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم دَعَالكَ أنْ تُحفظَ يومَ كذا وكذا ، ولَنْ تُضيَّعَ ، فرجع عنه وفارَقَ القومَ . ودخل عليه رجلٌ من قُريش فقال له : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلم استغفَرلك يومَ كذا وكذا فلَنْ تُقَارِفَ دمًا حراما ، فرجعَ وفارقَ أصحابه .

ودخل عليه جماعةٌ كلُّهم يَرْجعُ ، آخرُهم محمدُ بنُ أبى بكر ، فلمَّا خرجَ ثار قُتَيْرَةُ وسُودانُ بنُ حُمرانَ والغَافِقِى ، فضَربَه الغافِقىّ بحديدة ، وضرب المصحفَ برجْلِهِ ، فدار المصحفُ ، واستقرَّ بين يديْه ، وجاء سُودانُ ليضْربَه فأكَبَّتْ عليه نائلة بنتُ الفَرافِصةِ ، واتَّقَت السيفَ بيَدها فَقَطَع أصابعها وشيئا من الكفِّ ، ونصفَ الإبهامِ فوَلَّتْ ، فغَمَزَ أورْاكَها ، وقال : إنها لكَبِيرة العَجُز ، وضربَ عثمانَ فقتَلَه .

وقيل : إنَّ الَّذِى قَتَله كِنانةُ بنُ بِشْر التُّجيبىّ ، وكان عثمانُ قد رأى النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فى تلك الليلة وهو يقولُ له : إنَّك تُفْطِرُ اللَّيلةَ عندَنا .

ولما قُتِلَ قَطرَ من دَمِه على المصحف على قوله تعالى : (فسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ) .

قال : ودخل غِلمةٌ لعثمانَ مع القوم لينصرُوه ، فقال عثمانُ : مَنْ كفَّ يَدَه فهوحُرٌ ؛ فلما ضَربَه سُودانُ ضَربَ بعضُ الغلمان رقبةَ سُودان فقَتَله ، ووَثَب قُتَيْرةُ على الغُلامِ فقَتلَه ، وانتَهَبُوا ما فى البيْت ، وخرجوا ، وأغلَقُوا البابَ على ثلاثة قَتْلَى .

فلمّا خرجُوا وثبَ غلامٌ لعثمانَ على قُتَيْرةَ فقتَله ، وثار القومُ فأخَذُوا ما وَجَدُوا[1] حتى أخَذُوا ما عَلى النِّساء ، وأخَذَ كلثومٌ التُّجيبيُّ مُلاءة كانتْ على نائلةَ ، فضَربه غلامٌ لعُثمان فقتَله ، وانتَهبَ القومَ بيْتَ المال .

قال : ووثبَ عَمرُو بنُ الحَمِق على صَدْرِ عثمانَ وبه رَمَق ، فطعَنه تسعَ طَعنَاتٍ ، وأرادَ قطْعَ رَأْسِه ، فوقعَتْ نائلةُ وأمُّ البَنِينَ عليه فصِحْن وضَرَبْنَ الوجوه ، فقال ابن عُدَيس : اتْرُكوه ، وأقبل عُميرُ ابنُ ضابئ البُرْجُمِيّ فوثبَ على عثمانَ ، فكسر ضِلعا منْ أضْلاَعِهِ ، وقال له : سَجنْتَ أبِي حتَّى ماتَ فى السِّجْنِ .[2]

وكان قَتْلُه يومَ الجُمُعِة لثمانى عشرةَ ، أو سبع عَشرةَ ليلةَ خَلَت من ذى الحِجّةِ ، سنةَ خمسٍ وثلاثين . ذَكَره المَدائنى عن أبى مَعْشَر عن نافع ، وعن أبى عثمانَ النَّهْدِىّ ؛ أنَّه قِتلَ وَسَطَ أيّام التَّشْريقِ .

وقال ابنُ اسحاق : قُتِلَ عثمانُ عَلَى رأْسِ إحدى عشرةَ سنة ، وأحدَ عشَر شهرا ، واثنَيْنِ وعشرين يوما من مقتَلِ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، وعلى رأْسِ خمسٍ وعشرين سنة من متوفَّى رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم .

وقال الواقدىّ رحمه الله : قُتِلَ يومَ الجمعُة لثمانِ ليالٍ خلت من ذى لحجة يوم التروية . وقد قيل : إنه قتل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذِى الحجةِ .

رَوَى هذه الأقوالَ كلهَّا أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ .

---

(١) من ص .

(٢) الاستيعاب ١٠٤٨ .

واختُلِف فى مدة الحصارِ . فقال الواقدىّ : حاصَروه تسعة وأربعِين يوما . وقال الزُّبير بنُ بَكَّار : حاصروه شهرَيْن وعشرين يوما ؛ وقيل غير ذلك .

وقد تقدَّمَ أنَّه رضى الله عَنْه صلَّى بالنَّاس بعد أنْ نَزَلوا به ثلاثين يوما ، ثم منعوه الصَّلاة ، وصَلَّى بالنَّاسِ أميرُهم الغَافِقِىّ .

وقد قيل : إنَّه لمّا مُنِع عثمانُ الصلاَة جاء سَعْدٌ القَرظ وهو المؤذِّن إلى علىٍّ بنِ أَبى طالب ، فقال : مَنْ يُصَلِّى بالنَّاس ؟ فقام : خالدُ بنُ زيد ، وهو أَبو أَيوّبَ الأَنصارىّ ، فصلَّى أياما ، ثم صَلَّى علىٌّ بعدَذلك بالنَّاس .

وقيل : بل أَمَر علىٌّ سهلَ بنَ حُنَيف فصَلَّى بالنَّاسِ من أوّلِ ذى الحجّة إلى يوم العيد ، ثم صلَّى علىٌّ بالنَّاس العيدَ ، وصَلَّى بهمْ حتى قُتِلَ عثمانُ . والله أعلمُ .

حكى أَبو عُمرَ بنُ عبدِ البرِّ فى مَقتَلِ عثمانَ ، قال : كان[1] أَولُ مَنْ دخل عليه الدارَ محمَّدبنُ أَبى بَكْر ، فأَخذ بِلحْيَتِهِ فقال : دَعْها يابن أَخِى ، فواللهِ لقد كان أَبوكَ يُكْرِمُهَا ، فاستَحيَا وخرج ، ثم دَخَل عليه رومانُ بنُ سْرحان ، رجلٌ أَزْرق قَصِير مَجْدُور ، عِدادُه فى مُراد ، وهو من ذى أَصْبَح ، معه خِنْجَر ، فاستقبَلَهُ به ، وقال : على على أَىّ دِينٍ أَنتَ يانَعثل ؟ فقال : لسْتُ بنَعْثل ولكنى عثمانُ ابنُ عفَّانَ ، وأَنا على مِلَّة إبراهيَم حنيفا مُسِلما وما أَنا مِنَ المشرِكين . قال : كذَبْتَ ، وضَربَه على صُدْغه فقتَلَهُ ، فخرّ ، فأَدخَلَتْه امرأَتُه نائلةُ بينها وبين ثيابِهَا ، وكانت امرأَة جَسيمة .

(١) الاستيعاب ١٠٤٤ : ١٠٤٥ .

ودخل رجلٌ من أهِل مصرَ معه السَّيْفُ مصلتًا فقال: والله لأقطعنَّ أنفَكَ ، فعالَجَ المرأةَ فكشَفتْ عن ذِراعيْها ، وقبضَتْ على السيِّف فقَطَع إبْهامَها ، فقالت لغلامٍ لعثمانَ يُقَالُ له رَباح ، ومعه سيفُ عثمانَ : أعِنِّى على هذا ، وأخرِجْه ، فضرَبَه الغلامُ بالسيْفِ فقتَله .

قال : وأقام عثمانُ يومَه ذلك مطروحا إلى اللَّيْلِ ، فحمله رجالٌ على بابٍ ليَدْفِنُوه ، فعرضَ لهم ناسٌ ليمنَعُوهم من دَفْنِه ، فوجَدُوا قبرا قد حُفِرَ لغيره فدَفَنُوه فيه ، وصلَّى عليه جُبَيْرُ بنُ مطعِم .

وقال محمدُ بنُ طلحة : حَدَّثَنِى كنانةُ مولَى صفية بنت حُيَىّ بن أخطَب ، فقال : شهِدتُ مقتلَ عثمان ، فخرج من الدارِ أمامى أربعة من شباب قريش مضرّجين بالدّمِ ،محمولين ، كانوا يَذُودُونَ عن عثمانَ وهم الحسنُ بنُ علىٍّ ، وعبدُ اللهِ بنُ الزُّبير ، ومحمدُ بنُ حاطِب ، ومروانُ ابنُ الحَكَم .

قال محمدُ بنُ طلحة : فقلْتُ له : هل نَدِي محمّدَ بنَ أبى بكر بشىء من دمِه ؟ فقال : مَعاذَ اللهِ ، دخل عليه فقال له عثمان : يابن أخى لستَ بصاحِبِى ، وكَلَّمَهُ كلاما فَخَرج ، ولم يندّ بشىء من دمه .

قال : فقلْتُ لكنانة : مَنْ قَتَلَهُ ؟ قال : رجلٌ مِنْ أهلِ مصر ، يقالُ له : جَبَلةُ بنُ الأيْهَم ، ثم طاف بالمدينةِ ثلاثا يقول : أنا قاتِلُ نعثَل .

ورَوَى أبو عُمَر أيضا بسندِه إلى مالك بن أنس ، قال [1] : لمّا قُتِلَ عثمانُ أُلقِىَ على المِزْبَلة ثلاثة أيّام ، فلمّا كان فى اللَّيْلِ أتاه اثنا عشر رجلا ، منهم حُوَيْطِبُ بنُ عبدِ العُزَّى وحكيم بنُ حِزام ،

(١) الاستيعاب ١٠٤٧ .

وعبدُالله بنُ الزُّبير ، وجُدَىّ بنُ مالِك بنِ أبى عامر ، فاحتملوه ، فلمّا صاروُا به إلى المقبرة ليدَفِنُوه ناداهم قومٌ من بنى مازن : واللهِ لئن دفنتموه هاهنا ، لنخبرنَّ النَّاس غدًا ، فاحتملوه ، وكان على باب ، وإنَّ رأْسَهُ كان على البابِ يقول: طَقْ طَقْ حتَّى صَارُوا به إلى حَشّ كوكب[1] فاحْتَفَرُوا له ، وكانتْ عائشة بنتُ عثمان معها مصباح فى حُقٍّ[2] ، فلمَّا أخرجُوه ليدفنوه صاحَتْ ، فقال لها ابنُ الزُّبير : واللهِ لئن لم تسكتى لأَضربَنَّ الذى فيه عيناك ، فسكتَتْ ، فدفن .

قال مالك : وكان عثمان يمرّ بحَشّ كوْكَب فيقولُ : إنَّه سيُدَفَن هاهنا رجل صالح .[3] .

وعن هشامِ بنِ عروة ، عن أبيه ، قال : أرادوا أنْ يُصَلُّوا على عثمان رضى الله عنه فمنعوه ، فقال أبو جهم بنُ حذيفة : دعوه ، فقدصلَّى عليه اللهُ ورسولُه .

وقَدْ قيل : إنَّ علىَّ بنَ أبى طالب ، وطلحةَ ، والزبيَر ، وزيدَ بن ثابت ، وكعبَ بنَ مالك ، وعامرَ بَن نمير من أصحابِهِ شَهدُ واجنازَتَهُ .

وقِيلَ : إنه كُفِّنَ فى ثيابِهِ ولم يُغْسَل .

واخْتُلِفَ فى سنة يوم قُتِل .

فقال ابنُ اسحاق : قُتِلَ وهو ابنُ ثمانين سنة . وقال غيره : قُتِلَ وهو ابنُ ثمان وثمانين ، وقيل : تسعين .

وقال قتَادةُ : قُتِلَ وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة .

---

(١) حش كوكب : مكان خارج البقيع .

(٢) الاستيعاب : فى جرة .

(٣) الاستيعاب ١٠٤٨

وقال الواقدىّ : لاخلافَ عندنا أنه قُتِلَ ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، وهو قولُ أبى اليقظان .

ودُفِنَ ليلاً بموضع يقال له : حَشّ كَوْكب ، وكوكب رجلٌ من الأنصارِ (الحَشّ : البستان) ، كان عثمانُ قد اشتراه وزاده فى البَقِيع ، وهو أوّلُ من قُبِر فيه .

قال :وقَدْ قيل : إنه صلَّى عليه عَمرو بن عثمان ابنه ، وقيل : بل صلَّى عليه حكيمُ بنُ حِزام ،وقال : بل صلَّى عليه المسورُ بنُ مَخرَمة . وقيل : بل جُبيرُ بنُ مُطعِم . وقيل : بل مروانُ بنُ الحَكَم ، وقيل : كانوا خمسةً أو ستةً وهم : جبيرُ بنُ مُطعِم ، وحكيمُ بنُ حزام ، وأبو جهم ابنُ حذيفة ، ونيارُ بنُ مُكرم ، وزوجتاه نائلة وأُمُّ البنين بنتَ عُيَيْنَة .

ونزل قَبْرَهُ دينارٌ ، وأبو جَهم ، وجُبَيْر ، وكان حكيمُ ونائلةُ وأُمُّ البنين يُدْلُونه ، فلمّا دفَنُوه غيّبوُا قَبرَه .

ورَوَى أبو الفَرج الاصفهَانى بسندٍ رفعه إلى نائلةَ بنتِ الفَرافِصه : كتبتْ[1] إلى معاويةِ ، وبعَثْتْ بقميصِ عثمانَ رضى اللهُ عنه مع النعمانِ بنِ بَشِيرٍ وعبدِ الرحْمنِ بنِ حاطبِ بن أبى بلتعة :

من نائلةَ بنتِ الفَراقصة ، إلى معاوية بنِ أبى سُفْيان :

أمّا بعدُ ، فإنّى أذكّركم باللهِ الذِى أنعَمَ عليكم ، وعلَّمكُم الإسلام وهَداكم من الضلالة ، وأنْقذَكُمْ من غوايةِ الكُفرِ[2] ، ونصرَكُمْ على العدوّ ، وأسْبغَ عليكم النعْمة ، فأنشدكُم الله تعالى ، وأُذَكِّركُمْ حقه

(١) الأغانى ١٦ : ٣٢٤ وما بعدها .
(٢) الأغانى : « من الكفر ».

وحق خليفتِه أنْ تَنْصُرُوه بعزمة اللهِ عليكم ، فإنه قال تعالى : ﴿ وإنْ طائفتان مِن المؤمنين اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بينهما ، فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأُخْرى فَقَاتِلُوا التى تبغى حتى تفىء إلى أَمْرِ اللهِ ﴾ .

وإن أميرَ المؤمنين بُغِىَ عليه ، ولو لم يكن له عليكم [حَقٌّ] (١) إلا حقُّ الوِلايةِ ثمّ أُتِىَ عليه بما أُتِىَ لحُقَّ على كلِّ مسلم يرجُو أيامَ الله أن ينصره لقِدَمِه فى الإسلام ، وحُسْنِ بَلاَئِهِ ؛ فإنه أجابَ داعىَ اللهِ ، وصدّق كتابَه ورسولَهُ ، واللهُ أَعْلَمُ به إذا انتجبَهُ ، فأعطاه شرفَ الدنيا ، وشرفَ الآخِرة .

وإنِّى أقصُّ عليكم خبرَه ،لأنِّى مُشاهِدةٌ أمرَه كُلَّه حتى أُفضِىَ إليه .

إن أهَل المدينة حَصَروه فى دارِه يَحرُسونه لَيْلَهم ونهارَهم ، قِيامًا عَلى أبوابه بسلاحِهم ، يمنعونه كل شىء قَدَروا عليه حتى منَعوه الماء يُحضرونه الأذَى ، ويقولون له الإفْك . فمكثَ هو ومَنْ معه خَمْسِين ليلةً ، وأهلُ مصر قد أسنَدوا أمرَهم إلى محمدِ بن أبى بكر وعّمارِ بنِ ياسر ، وكان علىٌّ مع المُحَرِّضين (٢) للمصريِّين فى أهلِ المدينةِ ، ولم يُقَاتلْ مع أميرِ المؤمنين ولَم ينْصُرْه ، ولم يأْمرْ بالعدلِ الذى أَمَر اللهُ تباركَ وتعالى به ، فظلتْ تُقَاتلُ خُزاعة ، وبكر ، وسعد بن بكر ، وهُذَيْل ، وطوائفُ من مُزَينة ، وجُهَينةَ ، (٣) وأنباطِ يَثْرِب ، ولا أرىَ سائرهَم ، ولكنِّى قد سمّيْتُ الَّذين كانوا أشدَّ الناسِ عليه فى أول أمرِه وآخِرِه ، ثمّ إنه رمِىَ بالنبْل والحجارة ، فَقُتِلَ مَمّنْ كان فى الدارِ ثلاثة نفرٍ ، فأتَوْه

(١) من ص والأغانى .
(٢) ك : « الحضريين » تصحيف ، صوابه فى ص والأغانى .
(٣) ك : « هجين » تصحيف .

يَصرُخون إليه ليأْذنَ لهم فى القِتالِ ، فنهاهمْ عنه ، وأمرَهمْ أن يَرُدُّوا إليهم نَبْلَهُم فَردّوهَا إليهم ، فلَم يزدْهم ذلك على القِتالِ إلاَّ جُرأةً فى الأمرِ وإغراقًا ، ثم أحرقوا بابَ الدارِ .

فجاءه نفرٌ مِن أصحابِه وقالوا : إنَّ فى المسجدِ ناسًا يُرِيدُون أنْ يأْخذوا أمْرَ النَّاس بالعَدْل ، فاخرُجْ إلى المسجدِ حتَّى يأْتوكَ ، فانطلق ، وقد كان نفرٌ مِنْ قريش على عامّتهم السِّلاح ، فلبَسَ دِرْعَه ، وقال لأصحابِهِ : لولا أنتُم مالبسْتُ دِرْعا ، فوثب عليه القومُ ، فكلَّمَهُم الزبيرُ ، وأخَذ عليهم الميثَاقَ فى صحيفَةٍ ، بَعَثَ بها إلى عثمانَ رضى الله عنه : إنَّ عليكم عهد اللهِ وميثاقَه ألا تَغُرُّوه بشىءٍ ، فكلَّمُوه وتحرّجُوا ، فوضع السلاحَ فلم يكن إلاَّ وَضْعه حتى دخلَ عليه القومُ يَقدُمهم ابنُ أبي بكر ، حتى أخَذُوه بلحيَتِهِ ودَعَوْه باللَّقَبِ ، فقال : أنا عبدُ اللهِ وخليفَتُه ، فضربُوه فى رأْسِه ثلاثَ ضَربَاتٍ ،وطعَنُوه فى صدرِه ثَلاث طَعَناتٍ ، وضربُوه على مُقَدَّم الجبين فوقَ الأنْفِ ضَربةً أسْرعتْ فى العَظْم ، فسقطتُ عليه ، وقد أثْخَنُوهُ وبه حياة ، وهم يُريدون قَطْعَ رأْسِهِ ليذهبوا به ،فأتَتْنِى بنتُ شَيْبة بن ربيعة ، فألقتْ بِنَفْسِهَا مَعِى عليه ،فَوُطِئنا وَطْئًا شديدًاوعُرِّيبا مِن ثيابِنَا ،وحرمة أمير المؤمنين أعظَم ، فقتلوه رحمهُ اللهُ فى بَيْته ، وعلى فِراشه .

وقدأرسلتُ إليكم بثوبِهِ ، وعليه دَمُه ، وإنَّه واللهِ لئن كان أثِمَ مَنْ قَتَلَهُ لا يَسْلَم مَنْ خَذَلَه ، فانظُروا أين أنتم مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّا نشتَكى مامَسّنا إليه ، ونَسْتَنْفِرُ وليَّه ، وصالح عِباده . ورحمةُ

اللهِ على عثمان ، ولَعنَ اللهُ مَنْ قتلَه ، وصرعَهُم فى الدنْيا والآخِرة مصارِعَ الخزىِ والمَذَلَّةِ ، وشَفَى منهم الصُّدورَ .

فحلف رجالٌ مِنْ أَهْلِ الشام ألاَّيطئوا النساءَ حتَّى يَقتلُوا قتلَة عثمان ،أو تَذهبَ أَراوحُهم. وكان أَمرُهُمْ فى القتالِ مانذكره إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما ،قاله ابنُ إسحاق . وقال غيرُه : إلاَّ ثمانية أَيام . وقيل : إلاَّ ستَّة عشر يوما .

رُوِىَ عن عائشةَ أُمِّ المؤمنين رضى الله عنها ، أَنها قالت ، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : ادعُوا لى بعضَ أَصحابِى ، فقلْتُ: أَبو بكر؟ ، قال لا ، فقلْتُ : عمر ؟ قال : لا ، فقلْتُ : ابن عمِّكَ علىٌّ ؟ قال : لا ، فقلْتُ : عثمان ؟ قال : نعم . فلمّا جاء قال لى بيَدِه[1] فتنحَّيتُ ، فجعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُسارّه ولونُ عثمانَ متغيِّر ، فلمّا كان يومُ الدَّارِ وحُصِر ، قيل له : أَلاَ تُقاتِل ؟ قال : لا ، إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَهِد إلىَّ عهدًا ، وأَنا صابرٌ نَفْسِى عليه .

وعن موسى بن طلحة ،قال :أَتيْنَا عائشةَ رضى الله عنها لنسْأَلَهَا عَنْ عثمان فقالت : اجلسوا أُحدِّثْكم عمّا جئْتَم له : إنَّا عَتَبنا على عثمان رضى الله عنه فى ثلاثِ خلال ـ ولم تَذكرهنّ ـ فعَمَدَوا إليه حتَّى إذا مَاصُوه كما يُماصُ الثوبُ اقتحموا عليه الفِقر الثَّلاثة : حرمةَ البيْتِ الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمَة الخِلاَفَةِ ؛ ولقد قَتَلوه ، وإنَّه لمن أَوصَلهم للرَّحم وأَتْقاهمْ لربِّه .

(١) ك : « بعده » ، والأصوب ما أثبته من ص.

وعن أبي جعفر الأنصاريّ قال : دخلْتُ مع المصريين على عثمان ، فلمّا ضربوه خرجْتُ أشتدّ ، حتّى ملأْتُ فُروجِي عَدْوًا ، حتّى دخلْتُ المسجد ؛ فإذا رجلٌ جالسٌ فى نحوِ عشرةٍ ، عليه عمامةٌ سوداء ، فقال : ويْحك ! ما وراءك ؟ قال : قلْتُ : قد والله فُرِغ من الرَّجلِ ، قال : تَبًّا لكمْ آخرَ الدّهر ! فنظرتُ ، فإذا هوَ عليٌّ رضى الله عنه .

ورُوِىَ عن مباركِ بنِ فضالة قال : سمعت الحَسَن يقول : سمعتُ عثمانَ يخطبُ يقول : يأيُّها الناس ، ماتَنقِمون علىَّ ، وما مِنْ يَومٍ إلا وأنتم تَقسِمون فيه خَيْرا !

قال الحَسَن : وسمعتُ مُنادِيا يُنادِى : يأيّها النَّاس، اغدوا على أعطِياتِكُم ، فيغدون فيأْخذُونَها وافرة ، حتّى والله سمعتُه يقول : اغدُوا على كُسْوتِكم ، فيأْخذون الحُلَل ، واغْدُوا على السَّمن والعَسَل .

قال الحَسَن : أرزاقٌ دارَّه ، وخيرٌ كثير ، ما على الأرض مؤمنٌ يخاف مؤمِنًا إلاَّ يودُّه وينصُرُه ؛ فلو صَبرَ الأنصارُ على الأثَرةِ لوَسِعَهم ما كانوا فيه من العَطَاءِ والأرْزَاق ، ولكنَّهم لم يصبروا ، وسَلُّوا السيْفَ مع مَنْ سَلّ ،فصار عن الكفَّار مُغْمَدًا ، وعلى المسلمين مَسْلولا إلى يوم القيامة .

وعن محمد بن سيرين ، قال : كَثُر المالُ فى زمن عثمان حتى بِيعَتْ جاريةٌ بوَزْنِها ، وفرسٌ بمائةِ ألفِ درهم ، ونَخْلَةٌ بألفِ دِرهم .

وقد ذكر بعضُ من أرّخَ أسبابًا كثيرةً ؛ جعلها مَنْ أقدمَ على قَتْلِ عثمانَ ذريعةً له ، وتَمَسّك بها ، أغضَيْنَا عن ذِكرِها ، وهو رضى الله عنه مبرّأ من كلّ سوء ونَقْص ، فلنذكرُ خِلافَ ذلك .

ذكر أزواج عثمان وأولاده

تزوّج رضى اللهُ عنه رُقَيّةَ ، وأمَّ كُلْثوم آبنتَىْ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، فولدَتْ له رقيّةُ عبدَ الله ، هَلَك . وتزوّج فاخته بَنت غَزْوان ، فولدَتْ له رقيّةُ عبدَ الله الأصغر . وتزوّج أمَّ عَمرو بنت جُنْدُبٌ الدَّوْسيَّة ، فولدتْ له عمرًا ، وخالدًا ، وأبانًا ، وعمر ، ومريم ، وتزوّج فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزوميَّة ، ولدتْ له الوليدَ ، وسعيدًا ، وأم سعيد ، وتزوّجَ أمَّ البنين بنتَ عُيَيْنة بن حِصْن الفَزَاريّة ،فولدتْ له عبدَ الملكِ ، هلك . وتزوّجَ رَمْلة بنتَ شيبة بن ربيعة ، ولدتْ له عائشة وأمَّ أبان ، وأمّ عَمرو ، وتزوّج نائلةَ بنتَ الفَرافِصَة الكلبيّة .

وقد رَوَى أبو الفَرَجِ الأصفَهانىُّ فى سببِ زواجِ عثمانَ نائلةَ سَنَدًا رفعهُ إلى خالدِ بنِ سعيد ، عن أبيه ، قال : تزوّج سعيدُ بنُ العاص وهو على الكوفةِ هِنْدًا بنتَ الفَرافِصةِ بنِ الأحوص بنِ عمرو بنِ ثعلبة ، فبلغَ ذلك عثمان ،فكتبَ إليه : قد بلغنى أنَّكَ تزوَّجْتَ امرأةً ، فاكتبْ إلىّ نسبَها وجمَالَهَا ، فكتبَ إليه : أما بعد ، فإنّ نَسَبَها أنَّها بنتُ الفَرافصِة بن الأحَوَص ، وجَمَالَها أنَّها بَيْضاء مَدِيدة .

فكتبَ إليه : إنْ كان لها أختٌ فزوِّجْنيها ، فكتَب سعيد ، وبعثَ إلى الفَرافصة يخطبُ إحدى بناتِه على عثمانَ رضى اللهُ عنه ، فأمر الفَرافصةُ آبنَه ضَبًّا فزوّجها إيّاه ، وكان ضَبٌّ مُسلِما ، والفَرفصة

نصرانيا ، فلمّا أرادُوا حَمْلَهَا ، قال لها أبوها : يا بنتى إنَّك تَقدمين على نساء من نساء قريْش ، هنّ أقدَرُ على الطِّيبِ منكِ ، فاحفظى عنِّى خَصْلتين :تكَحَّلِي وتطيَّبِى بالماء حتَّى تكون ريحُك رِيحَ من أصابَه مطر .

فلمّا قدمتُ على عثمانَ قعدَ على سريره ، ووضع لها سريرًا حِيالَه ، فجلسَتْ عليه ، فوضعَ عثمان قُلَنْسِيتَه فَبَدَا الصَّلَعُ ، فقال : يا بنت الفَرافصَة ، لايَهُولَنَّكِ ما تَرَيْن مِن صَلَعى ، فإنّ وراءه ما تُحِبِّين ، وقال : إما أن تقومى إلىّ ، وإمّا أنْ أقومَ إليكِ . فقالت : أمّا ماذكرتَ من الصّلَعِ فإنِّى من نساء أحبُّ بُعولَتِهنّ إليهنّ السادةُ الصُّلْع ، وأمّا قولك : إمّا أن تقومى إلىّ ، وإمّا أن أقومَ إليْكِ ، فوالله ما تجشَّمْتُ من جَنَبَات السَّماوَة أبعدُ ممَّا بينى وبينَكِ ، بل أقومُ إليْك . فقامتْ فجلسَتْ إلى جَنْبِه ، فمسحَ رأْسَهَا ودَعَا لها بالبَرَكة ، ثم قال لها : اطْرَحى عنك رِداءَكِ ، فطرحَتْه ، ثم قال لها : خِمَارَكِ ، فطرحَتْه ، ثم قال لها : انزَعى دِرْعَك . فنزَعَتْه ، ثم قال لها : حُلِّى إزارَكِ . فقالت : ذا إليْك ، فحلَّ إزَارَهَا ، وكانتْ من أحْظَى نسائِهِ عندَهُ (١) .

ولدتْ له مريم . وقيل : ولدتْ له أمّ البَنين بنتُ عُيينةَ عبدَ الملك ، وعُثْمَة (٢) وولدت له نائلةُ عَنْبَسة ، وكان له منها أيضًا ابنة تُدعَى أمّ المؤمنين وأمّ البَنين ، كانت عند عبدِ الله بن يزيدَ بن أبى سُفْيان .

وقُتِلَ عثمانُ وعندَه رَمْلة بنت شَيْبة ، ونائلة وأمّ البنين ، وفاخته ، غير أنَّه طلَّق أمَّ البنين وهو محصور .

فهؤلاء أزواجُه فى الجاهليّة والإسلام ، وأولادُه رضى اللهُ تعالى عنه .

(١) الأغانى ١٦ : ٣٢٣ ، ٣٢٤ (٢) ك : « عقبة » .

كتابه وقضاته وحجابه وأصحاب شرطته

كاتبُهُ مروانُ بنُ الحَكَم ، وقاضِيه كعبُ بنُ سُور ، وحاجبُه عمران ، مولاه ، وصاحبُ شرطَتِهِ عبدُ اللهِ بنُ قُنفُذ التَّمِيمىّ ، وهو أوّلُ من اتّخذ صاحبَ شُرْطة ، وكان على الدِّيوان وبيتِ المال زيدُ بنُ ثابت . والله تعالى أعلَمُ بالصوابِ ، وهو حَسبِى ونِعمَ الوكيل .

ذكر عماله على الأمصار فى سنة مقتله

كان عمَّالُه فى هذه السنةِ على مكَّة عبدالله بن الحَضْرمىّ ،وعلى الطائِف القاسم بن ربيعة الثَّقَفىّ ، وعلى صَنْعاء يَعلَى بن مُنْية ،وعلى الجَنَدِ عبد اللهِ بن ربيعة ، وعلى البصرةِ عبد اللهِ بن عامر ، وكان قد خرج منها ولم يُوَلّ عثمانُ عليها أحَدا ، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعرىّ ، وعلى الصّلاة ، وعلى خراج السواد جابر بن فلان المُزَنىّ وسِماك الأنصارى ، وعلى حَرْبِها القَعْقاع بن عَمرو ، وعلى قَرْقِيسيا حرير ابن عبدِ اللهِ ، وعلى أذْرَبِيجانَ الأشعث بن قيس الكنْدِىّ ، وعلى حُلوان عُتيبة بن النَّهّاس ، وعلى ماه مالك بن حَبيب ، و على همذان النُّسَير ، وعلى الرَّىّ وأصَفَهان السائب بن الأقْرع ، وعلى ماسَبَذان حبيش ، وعلى بيْت المال عُقْبَة بنُ عمرو [1] ، وعلى الشّام معاويةُ بن أبي سُفْيان . ولمعاوية عمّالٌ وهم عبدُ الرحمن بنُ خالد بنِ الوليدعلى حمْص ، وحبيبُ بنُ مَسلمةَ الفِهْرِى على قِنَّسْرِين ، وأبوالأعَور السُّلَمى على الأرْدُنّ ، وعلقمة بن حكيم الكِنانِي علىَ فِلسْطِين وعبدُ

(١) ك : « عمر » .

اللهِ بن قَيس الفَزَارىّ على البَحْر ، وكان عامل عثمانَ على مصرَ عبد اللهِ بن سَعْد بن أَبِي سَرْح ، ثم سار إلى عثمان فى رَجَبَ سنة خمسٍ وثلاثين ، واستَخلف عنْه بمصرَ عقبةَ بنَ عامر ، فقام محمدُ ابنُ أَبِي حُذَيفة فى شَّوال ، وأَخرج عقبة ، وتـأَمّر بمصر ، وعاد عبدُ اللهِ ابنُ سعد فلم يمكِنه ؛ فتوجّه إلى عَسْقلانَ ، ومات بها .

وكان القاضى بمصْر عَمارُ بنُ قيسِبنِ أَبِي العاص ، ثم مات بعد مَقْتَل عثمانَ فلم يكُنْ بمصْر قاضٍ إلى أَيّام معاوية بنِ أَبى سُفْيانَ رضى الله تعالى عنهم . والله تعالى أَعْلَمُ ، وهوحسبى ونعم الوكيل .

ذكر شيء مما رثى به عثمان من الشعر

ولما قُتِلَ رضى الله عنه رَثاه جماعةٌ ، منهم : حسّانُ بنُ ثابت وغيرُه فكان مما قال حسّانُ بنُ ثابت :

إن تُمْسِ دارُ ابنِ أَرْوَى اليومَ خاليةً ... بابٌ صريعٌ وبابٌ مُخْرَقٌ خَرِبُ[1]
فقد يُصادِفُ بَاغِي الخيرِ حاجتَه ... فيها ويأْوِى إليها الجُودُ والحَسَبُ

وقال أيضًا ممّارثاه به فى أبياتٍ أُخرى :

من سَرَّه الموتُ صِرْفا لا مِزاجَ له ... فليأْتِ مأْدُبةً فى دارِ عُثْمانَا[2]
ضَحّوا بأَشْمط عُنوان السجود به ... يُقطِّع الليَل تسبيحًا وقُرآنا
صبرًا فِدًى لكُمُ أُمِّى وما وَلَدَتْ ... قد يَنفَع الصبرُ فى المَكْروهِ أَحْيانا
لَتَسْمَعَنَّ وشيكًا فى دِيارهمُ ... اللهُ أكبرُ واثاراتِ عُثْمانَا

وقد قيل : إنَّ البيت الثانى من هذه الأبيات «ضَحّوْا بأَشْمَط.» ليس له ، وقال بعضهم : هو لِعمرانَ بنِ حِطان

وقال أبو عُمَر :وقد زاد أهلُ الشّام فيها أبياتًالم أَرَ لِذكرها وَجها[3]

قال ابن الأثير[4] : يعنى ما فيها من ذكر علىٍّ رضى الله عنه ، وهو :

---

(١) ديوانه ٢٢ .
(٢) ديوانه ٤٠٩ .
(٣) الاستيعاب ١٠٤٩ .
(٤) الكامل ٣ : ٩٦، ٩٧ .

ياليتَ شعرى وليتَ الطيرتُخبرنى ماكان شأْن علىٍّ وابنِ عفَّانا(١)

وقال أيضا :

قتلتمْ ولىَّ اللهِ فى جوفِ دارِهِ وجئتمْ بأمرٍ جائرٍ غيرِ مهتدِ (٢)

فلا ظفرتْ أيمْانُ قَوْمٍ تعاونُوا على قَتْلِ عثمانَ الرَّشيدِ المسدَّدِ

وقال كعبُ بنُ مالك :

ياللِّرجال لأمْرٍ هاج لى حَزَنَا لقد عجبتُ لمِن يَبكى على الدِّمَنِ (٣)

إنِّى رأيتُ قتيلَ اللهِ مُضْطَهَدًا عثمانَ يُهدَى إلى الأجداثِ فى كَفَنِ

ياقاتَلَ اللهُ قومًا كان أمْرَهمُ قتلُ الإمامِ الذكىِّ الطيِّبِ الرُّدُنِ

لم يَقْتُلوه على ذَنْبٍ أَلَمَّ بِهِ إلاَّ الَّذِى نطقُوا زُورًا ولم يكُنِ

وقال أيضا ـ ونسبت لحسّان وقيل : للوليدِ بنِ عُقْبة ، والله تعالى أعلمُ

وكفَّ يَدَيْهِ ثم أغلقَ بابَهُ وأيقَنَ أنَّ الله ليس بغافلِ (٤)

وقال لأهلِ الدار لا تَقتُلوهُمُ عَفا اللهُ عن ذنبِ امرئٍ لم يُقاتِلِ

فكيفَ رأيتَ الله ألقَى عليهمُ العَداوَةَ والبَغْضَاء بعدَ التَّواصُلِ

وكيف رأيت الخَيْرَ أدبَر بعدَهُ عن النَّاسِ إدبار السَّحاب الحَوافِلِ

وقال حُميدُ بنُ ثَوْرٍ الهِلالىّ :

إنَّ الخلافةَ لمَّا أظْعَنَت ظَعَنَتْ من أهلِ يثربَ إذ غيرُ الهدى سَلَكُوا(٥)

---

(١) ابن الأثير ٣ : ٩٦ .
(٢) ديوانه ١٠٣ .
(٣) ديوانه ٢٨٢ .
(٤) الاستيعاب ١٠٥ .
(٥) ديوانه ١١٤ .

صارتْ إلى أهلها منهم ووارثها لمّا رأى الله فى عثمانَ ما انْتَهَكوا

وقال قاسمُ بنُ أُميَّةِ بنُ أبى الصَّلْت :

لعَمْرِى لبئس الذَّبْحُ ضَحيتُم به وخُنتُمْ رسولَ اللهِ فى قتلِ صاحبِهِ(١)

وقالت زينب بنت الزُّبير بن العوّام :

أَعْطَشْتُمُ عثمانَ فى جَوْفِ دارِهِ
شربتُمْ كَشُرْبِ الهيم شُرْبَ حَمِيمِ(٢)

وكيف بنا أم كيف بالنَّومِ بعدَمَا أُصِيبَ ابنُ أروَى وابْن أُمِّ حكيمِ

وقالت لَيْلَى الأَخيَلِيّة :

قُتِلَ ابنُ عَفَّان الإما مُ وضاعَ أَمْرُ المُسلمِينَا(٣)
وتشتتَتْ سُبُلُ الرَّشا دِ لصادرِين ووارِدِينَا
فانهضْ مُعاوِيَ نَهضةً تَشفى بها الداء الدَّفينا
أنت الَّذى من بعدِه تُدْعَى أميرَ المؤمنينا

وقال أَيمنُ بنُ خُرَيم(٤) :

ضَحَّوْا بعثمانَ فى الشَّهرِ الحرام ضُحىً فأىّ ذبْحِ حرامٍ ويْلَهمْ ذَبَحوا
وأىَّ سُنَّةِ كفرٍ سَنَّ أوّلُهمْ وباب شَرٍّ على سلطانِهمْ فَتَحوا
ماذا أرادُوا أَضَلَّ اللهُ سعيَهُمُ بسَفْكِ ذاكَ الدمِ الذَّاكى الذى سَفَحُوا

ورَثاه غيرُهم ممّن لو ذكرْنا شعَرهم لأنبسط به الخَبر .

---

(١) الاستيعاب ١٠٥١ ونسبه إلى القاسم بن أمية بن أبى الصلت .
(٢) الاستيعاب ١٠٥١ .
(٣) الاستيعاب ١٠٥١ وفيه : أيمن بن خزيمة .
(٤) الاستيعاب ١٠٥١ .

تم الجزء التاسع عشر من كتاب نهـــاية الأرب ويليه الجزء العشرون وأوله أخبار على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

فهـــرس
الجـزء التاسع عشر
من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صـفحة

الباب الثانى من القسم الخامس فى أخبـار الخلفاء الراشـدين : أبى بكر وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعى بن أبى طالب وابنه الحسن ٧

ذكر خلافة أبى بكر الصديق ٨

ذكر نبذة من فضائله ومآثره فى الجاهلية والاسـلام ١٠

ذكر صـــفته ٢٤

ذكر ما ورد من أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم استخلفه على أمتـه من بعده ٢٤

ذكر بيعته وخبر يوم السقيفة وما وقع بين المهاجرين والأنصـار من التراجع فى الامارة ٢٩

ذكر ما تكلم به بعد بيعته وما قاله عمر بن الخطاب بعد البيعـة الأولى وقبل البيعة الثانية ٤٢

ذكر انفاذ جيش أسـامة ٤٦

ذكر أخبـار من ادعى النبـوة من الـكذابين وما كان من أمرهم وتجهيز أبى بكر الجيوش اليهم والى من ارتد من قبائل العرب ٤٩

ذكر غزوة أبى بكر وقتاله أهل الردة وعبس وذبيان ٦١

ذكر عقد أبى بكر الألوية وتجهيزه الجيـوش لقتـال أهل الردة وما كاتب به من ارتد ٦٤

ذكر خبر طليحة الأسـدى وما كان من أمره وأمر من اتبعـه من قبـائل العرب ٦٩

ذكر خبر تميم وأمر سجاح ابنة الحارث بن سويد ٧٥

ذكر مسير خالد الى البطاح ومقتل مالك بن نويرة — — — — ٨٢

ذكر خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة ٨٥

ذكر الحروب الكائنة بين المسلمين وبين أهل اليمامة وقتل مسيلمة ٨٩

ذكر خبر ثابت بن قيس بن شماس فى مقتله ٩٧

ذكر أهل البحرين ومن ارتد منهـم وانضـم الى الحطم وما كان من أمرهم ٩٨

صفحة

ذكر مسير خالد بن الوليد الى العراق وما افتتحه وما صالح عليه وما قرره من الجزية ١٠٦
ذكر وقعة الثنى ١٠٨
ذكر وقعة الولجة ١٠٩
ذكر وقعة أليس ١٠٩
ذكر وقعة فرات بادقلى وفتح الحيرة ١١١
ذكر ماكان بعد فتح الحيرة ١١٢
ذكر فتح الأنبار ١١٢
ذكر فتح عين التمر ١١٣
ذكر خبر دومة الجندل ١١٤
وقعة مصيخ ١١٥
وقعة الثنى والزميل ١١٥
ذكر وقعة الفراض ١١٦
ذكر فتوح الشام ١١٦
ذكر مسير خالد بن الوليد الى الشام وما فعل فى مسيره الى أن التقى بجنود المسلمين بالشام ١١٨
ذكر وقعة أجنادين ١٢٠
ذكر وقعة اليرموك ١٢١
ذكر ماوقع فى خلافة أبى بكر غير ما تقدم ١٢٦
سنة احدى عشرة ١٢٦
سنة اثنتى عشرة ١٢٧
ذكر وفاة أبى بكر الصديق ومدة خلافته ١٢٨
ذكر نبذة من أخباره وأحواله ومناقبه غير ماتقدم ١٣٠
ذكر أولاده وأزواجه ١٣٥
ذكر أسماء قضاته وعماله وكتابه وحاجبه وخادمه ١٤٤
خلافة عمر بن الخطاب ١٤٦
ذكر نبذة من فضائله ومناقبه ١٤٨
ذكر صفته ١٥٠
ذكر الفتوحات والغزوات فى خلافته ١٥٤
ذكر فتوح مدينة دمشق ١٥٥
ذكر شىء مما قيل فى أمر مدينة دمشق ومن بناها ١٥٧

صـفحة

ذكر غزوة فحل ١٥٩
ذكر فتح بلاد ساحل دمشق ١٦٠
ذكر فتح بيسان وطبرية ١٦١
ذكر الوقعـــة بمرج الـروم ١٦١
ذكر فتح بعلبك وحمص وحماة وشيزر ومعرة النعمـان وسـلمية
والاذقية وأنطرسوس ١٦٢
ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية ١٦٤
ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم ١٦٥
ذكر فتح قيسارية وحصـن غزة ١٦٨
ذكر بيسان ووقعة أجنادين وفتح غزة وسـبسطية ونابلس وتبنى ١٦٩
ذكر فتح بيت المقدس وهو ايلياء ١٧١
ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين ١٧٣
ذكر فتـح الجـزيرة وأرمينية ١٧٥
ذكر فتوح العراقين وما والاها من بلاد فارس وغيرها ١٧٩
ذكر وقعـة النمـارق ١٨٠
ذكر وقعة السقاطية بكسكر ١٨١
ذكر وقعة الجاليتوس ١٨٢
ذكر وقعة قس الناطف (ويقال لها وقعة الجسر) ١٨٢
ذكر وقعة أليس الصغرى ١٨٥
ذكر وقعة البويب ١٨٥
ذكر خبر سوقى الخفانس وبغداد ١٨٧
ذكر خبر القادسية وأيامهـا ١٨٩
ذكر يوم أرماث ٢٠٣
ذكر يوم أغواث ٢٠٧
ذكر يوم عماس (وهو اليوم الثالث) ٢١١
ذكر ليـلة الهـرير ٢١٣
ذكر يوم القادسـية وقتل رستم وهزيمة الفرس ٢١٤
ذكر ماكان بعد القادسية من الحروب والأيام ٢١٩
ذكر خبر بهرسير وهى المدينة الغربية ٢٢١
ذكر فتح المدائن الغربية وهى بهرسير ٢٢٢
ذكر فتح المدائن الشرقية التى فيها ايوان كسرى ٢٢٤

صفحة

ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها ٢٢٧
ذكر وقعة جلولاء وفتح حلوان ٢٣٠
ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة وفتحه الأبلة ٢٣٤
ذكر فتح تكريت والموصل ٢٣٦
ذكر فتح ماسبذان ٢٣٨
ذكر فتح قرقيسيا ٢٣٨
ذكر فتح الأهواز ومناذر ونهر تيرى ٢٣٩
ذكر صلح الهرمزان وأهل تستر مع المسلمين ٢٤١
ذكر فتح رامهرمز ٢٤٢
ذكر فتح السوس ٢٤٦
ذكر مصالحة جنديسابور ٢٤٧
ذكر انسياح الجيوش الاسلامية في بلاد الفرس ٢٤٨
ذكر غزو فارس من البحرين ٢٤٩
ذكر وقعة نهاوند وفتحها ٢٥٠
ذكر فتح دينور والصيمرة وغيرهما ٢٦٠
ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما ٢٦٠
ذكر فتح أصبهان وقم وقاشان ٢٦٢
ذكر فتح قزوين وأبهروزنجان ٢٦٣
ذكر فتح الرى ٢٦٤
ذكر فتح قومس وجرجان وطبرستان ٢٦٥
ذكر فتح أذربيجان ٢٦٦
ذكر فتح الباب ٢٦٨
ذكر فتح موقان ٢٦٩
ذكر غزو الترك ٢٦٩
ذكر غزو خراسان ٢٧١
ذكر فتح شهرزور والصامغان ٢٧٦
ذكر فتح توج ٢٧٦
ذكر فتح اصطخر وجور وكازرون والنوبندجان ومدينة شيراز وأرجان وسينينير وجنابا والنوبندجان وجهرم ٢٧٧
ذكر فتح فسا ودرابجرد ٢٧٨
ذكر فتح كرمان ٢٧٩

صـفحة

ذكر فتح سـجستان ٢٨٠
ذكر فتـح مكران ٢٨٠
ذكر فتـح بيروذ من الأهواز ٢٨١
ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعى والأكراد ٢٨٢
ذكر فتـوح مصر وما والاها ٢٨٤
ذكر مسير عمرو بن العـاص الى مصر ٢٨٥
ذكر حصار القصر وما قيل فى كيفية الاستيلاء عليه وانتقـال الروم والقبط الى الجزيرة ٢٨٥
ذكر ارسال المقوقس الى عمرو فى طلب الصـلح وجواب عمرو له واجتماع المقوقس وعبادة بن الصـامت وما وقع بينهمـا من الكلام وقبـول المقوقس الجزية ٢٩١
ذكر مسير عمرو لقتال الروم وما كان بينهم من الحـروب الى أن فتحت الاسكندرية ٣٠٢
ذكر الفتح الثانى وما وجـد بالاسـكندرية وعـدة من ضربت عليـه الجـزية ٣٠٧
ذكر من قال ان مصر فتحت عنوة ٣١٠
ذكر أخبار الاسـكندرية وبنائها وما اتفق فى ذلك من الأعاجيب ٣١١
ذكر تحـول عمرو بن العاص من الاسـكندرية الى الفسطاط واختطاطه ٣١٩
ذكر خبر أصل النيل وكيف كانت عادة القبط وابطال تلك العادة ٣٢١
ذكر ما قرر فى أمر الجزية والخـراج ٣٢٢
ذكر خبـر المقطم ٣٢٤
ذكر خبـر خليج أمير المؤمنين ٣٢٥
ذكر الخبر من فتح الفيوم ٣٢٩
ذكر فتح زويلة وطرابلس الغرب وبرقة وحصن سبرة ٣٣٠
ذكر الغزوات الى أرض الروم ٣٣٢
ذكر ما اتفق فى خلافة عمر بن الخطاب غير الفتـوح والغـزوات ٣٣٣
سـنة ثلاث عشرة ٣٣٣
سـنة أربع عشرة ٣٣٣
سـنة خمس عشرة ٣٣٤
ذكر فرض العطاء وعمل الديوان ٣٣٤
سـنة ست عشره ٣٣٨

صفحة

سنة سبع عشرة ٣٣٩
ذكر بناء البصرة والكوفة ٣٣٩
ذكر عزل خالد بن الوليد ٣٤٢
ذكر بناء المسجد الحرام ٣٤٥
ذكر عزل المغيرة بن شعبة ٣٤٥
سنة ثمان عشرة ٣٤٨
ولاية كعب بن سور قضاء البصرة ٣٤٨
ذكر القحط وعام الرمادة ٣٥١
ذكر طاعون عمواس وتسمية من مات فيه ٣٥٣
ذكر قدوم عمر الى الشام بعد الطاعون ٣٦١
سنة تسع عشرة ٣٦٣
سنة عشرين ٣٦٤
ذكر اجلاء يهود خيبر منها ٣٦٦
سنة احدى وعشرين ٣٦٦
ذكر عزل سعد بن أبى وقاص عن الكوفة ومن ولى بعده
فى هذه السنة ٣٦٨
سنة اثنتين وعشرين ٣٧٠
سنة ثلاث وعشرين ٣٧٠
ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب ومدة خلافته ٣٧١
ذكر قصة الشورى ٣٧٨
ذكر أولاد عمر بن الخطاب وأزواجه ٣٩١
ذكر عمال عمر على الأمصار ٣٩٨
كتابه ٤٠٠
قضاته ٤٠٠
ذكر خلافة عثمان بن عفان ٤٠٢
ذكر صفته ونبذة من فضائله ٤٠٣
ذكر بيعته ٤٠٤
ذكر الفتوحات والغزوات فى خلافة عثمان ٤٠٧
ذكر خلاف أهل الاسكندرية ٤٠٧
ذكر غزو أرمينية وغيرها وما وقع من الصلح ٤٠٧
ذكر غزو معاوية الروم ٤١١

صفحة

ذكر فتح كابل ٤١١
ذكر غزو افريقية وفتحها ٤١٢
ذكر فتح جزيرة قبرس ٤١٤
ذكر نقض أهل فارس وغيرهم وفتح اصطخر ودرابجرد ٤١٧
ذكر غزو طبرستان ٤١٨
ذكر غزو الصواري ٤١٩
ذكر مقتل يزدجرد آخر ملوك بني ساسان ٤٢٠
ذكر فتح خراسان ٤٢١
ذكر فتح كرمان ٤٢٤
ذكر فتح سجستان ٤٢٥
ذكر خروج قارن ببلاد خراسان وقتله ٤٢٧
ذكر ماوقع فيخلافة عثمان غيرالغزوات والفتوحات علىحكم السنين ٤٢٩
سنة أربع وعشرين ٤٢٩
سنة خمس وعشرين ٤٢٩
سنة ست وعشرين ٤٣١
سنة سبع وعشرين ٤٣١
سنة ثمان وعشرين ٤٣٢
سنة تسع وعشرين .. ..
ذكر عزل أبي موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن العاص عن عمان والبحرين واستعمال عبد الله بن عامر على ذلك ٤٣٢
ذكر الزيادة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٣٤
ذكر اتمام عثمان الصلاة وما تكلم الناس به في ذلك ٤٣٤
سنة ثلاثين ٤٣٦
ذكر عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة وولاية سعيد بن العاص ٤٣٦
ذكر جمع القرآن ٤٣٩
ذكر سقوط خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ٤٤١
ذكر خبر أبي ذر الغفاري في اخراجه الى الربذة وماتكلم الناس به في ذلك ووفاة أبي ذر ٤٤٢
سنة احدى وثلاثين ٤٤٩
سنة اثنتين وثلاثين ٤٤٩
ذكر وفاة عبد الرحمن بن عوف وشيء من أخباره ونسبه ٤٥٠
سنة ثلاث وثلاثين ٤٥٤

صـفحة

ذكر خبر من ســـار من الكوفة الى الشـــام وما كان من أمرهم ٤٥٤
ســـنة أربع وثلاثين ٤٦٢
ذكر خبر يوم الجرعة وعزل سعيد وخروجه عن الكوفة واستعمال أبى موسى الأشـعرى ٤٦٢
ذكر ابتداء الخلاف على عثمان ومن ابتدأ بالجرأة عليه ٤٦٥
ذكر كلام على لعثمان وجوابه له ٤٧٠
ذكر ارسال عثمان الى الأمصار ليأتوه بأخبار عماله وما يقـــوله النـــاس فيهم ٤٧٤
ســـنة خمس وثلاثين ٤٧٩
ذكر خبر مقتل عثمان ٤٨٥
ذكر أزواجه وأولاده ٥٠٧
ذكر كتابه وحجابه وأصحاب شرطته ٥٠٩
ذكر عماله على الأمصار فى سنة مقتله ٥٠٩
ذكر شيء مما رثى به عثمـــان من الشعر ٥١١

المراجع

الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (مكتبة نهضة مصر)
تاريخ ابن الأثير (نشرة منير الدمشقى)
تاريخ الطبرى (نشرة دار المعارف)
تاريخ المسعودى (نشرة المكتبة التجارية ١٩٤٨ م)
ديوان حاتم (طبع ببيروت سنة ١٩٦٨ م)
ديوان حسان (نشرة المكتبة التجارية سنة ١٩٢٩ م)
ديوان الحطيئة (مطبعة التقدم بالقاهرة)
ديوان حميد بن ثور (طبع دار الكتب)
السيرة الحلبية (طبع بولاق ١٢٩٢ هـ)
فتوح مصر لأبن عبد الحكم (طبع اوربا)
نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى (طبع دار الكتب)

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٤١٦٩

[بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقى] (١)

ذكر خلافة على بن أبى طالب

رضى الله عنه

هو أبو الحسَن علىُّ بن أبى طالب بن عبد المُطَّلِبِ بن هاشِم ، أُمه فاطمة بنت أَسَد بن هاشم ، أسلمتْ ، وهاجرتْ ، وهى أوَّل هاشِميَّة ولدت (هاشميًّا ، وهو أوَّل خليفة أبَواه) (٢) هاشميَّان ، ثم ابنه الحسَن ، ثم محمد الأمين ، رضى الله عنهم (٣) .

ذكر صفته

رضى الله تعالى عنه

قال ابن الأثير الجَزَرىّ فى تاريخه (٤) : كان – رضى الله عنه – شديد الأُدْمَة ، قَصير القامة (٥) ، كبير البطن ، أَصْلَعَ الرأس ، عريضَ اللحية .

---

(١) ذكر هذا الافتتاح فى نسخة (ص) ، ولم يثبت فى نسختى (ك) و (ن) .

(٢) سقط هذا من نسخة (ك) ، وثبت فى (ص) و (ن) .

(٣) جاء فى أسد الغابة ج ٥ ص ٥١٧ أن فاطمة بنت أسد « هى أول هاشمية ولدت لهاشمى وهى أيضا أول هاشمية ولدت خليفة ، ثم بعدها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدت الحسن ، ثم زبيدة امرأة الرشيد ولدت الأمين ، لانعلم غيرهن ، ثم إن هؤلاء الثلاثة لم تصف لهم الخلافة » .

(٤) الكامل ج ٣ ص ١٩٩ .

(٥) الذى قاله ابن الأثير فى تاريخه : « هو إلى القصر أقرب » وهذا هو المناسب لما يأتى .

وقال أبو عمر ابن عبد البر[١] رحمه الله : أَحْسَنُ مارأيتُ فى صفته رضى الله عنه ـ أنه كان رَبْعَةً[٢] من الرجال ، إلى القِصَر ماهو ، أَدْعَجَ[٣] العينَيْن ، حسَن الوجه ، كأنَّه القمرُ ليلةَ البَدْر حُسْنا ، ضَخْمَ البطن عريضَ المَنْكِبَيْن ، شَثْنَ الكفَّين[٤] ، أَغْيَدَ[٥] ، كأنَّ عُنُقَه إبريقُ فضَّة ، أَصْلَعَ ليس فى رأسه شعرٌ إلاَّ مِن خَلْفِه ، كبير اللحية ، لمَنْكِبَيْه مُشاشٌ[٦] كمُشاشِ السبع الضارِى ، لايَبِينُ[٧] عَضُدُه مِن ساعِده ، قد ادَّمَجَت ادِّماجا[٨] إذا مشَى تكفَّأ[٩] ، وإنْ أَمْسَك بذراع رجل أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفَّس ، وهو إلى السِّمَن ماهو ، شديدُ الساعد واليد ، إذا مشَى إلى الحرب هَرْوَل[١٠] ، ثَبْت الجَنان[١١] قوىّ شجاع ، منصور علىَ مَن لاقاه ، رضى الله عنه .

---

(١) فى كتابه « الاستيعاب فى أسماء الأصحاب » ج ٣ ص ٥٧ ، ثم انظر (وقعة صفين) ص ٢٦٢ .

(٢) ليس بالطويل البائن ولا بالقصير البائن ، وقد جاء ذلك فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم ج ١٨ ص ٢٣٧ ، إلا أن النبى كان أقرب إلى الطول ، وعليا كان أقرب إلى القصر .

(٣) شديد سواد العينين مع سعتهما .

(٤) أى أنهما تميلان إلى الغلظ .

(٥) مائل العنق لين الأعطاف .

(٦) المشاش : رءوس العظام .

(٧) فى الاستيعاب : « لايتبين » ، وهما بمعنى واحد .

(٨) أورد صاحب الرياض النضرة ج٢ ص ١٥٦ صفة على رضى الله عنه مشتملة على مثل ماهنا ، ثم قال فى شرح هذا الموضع منها : « يريد أن عظمى عضده وساعده لينهما قد اندمجا . وهكذا هو فى صفة الأسد ، والضارى : المتعود للصيد » ١٠ ه فيكون « ادَّمجت » بتشديد الدال بمعنى «اندمجت » ، ويجوز أن يكون « أدمجت » بضم الهمزة وسكون الدال وكسر الميم ، لقول اللغويين : رجل مدمج بسكون الدال أى كالحبل المحكم الفتل .

(٩) أسرع فى المشى كأنه يميل إلى قدام من سرعة مشيه .

(١٠) أسرع فى المشى دون أن يعدو .

(١١) ثابت القلب .

ذكر نبذة من فضائله

رضى الله تعالى عنه

هو ـ رضى الله عنه ـ أَوَّلُ من أسلم ، عند بعضهم ، على ما فى ذلك من الاختلاف فيه وفى أبى بكر ، رضى الله عنهما ، وأيّهما سبق إلى الإسلام ... وقد ذكرنا ذلك كله فى ابتداء السيرة النبويّة ، فى السِّفْر الرابعَ عشرَ من هذه النسخة[1] ، فلا فائدة فى إعادته ، فلنذكر من فضائلة خلاف ذلك :

أجمعوا[2] على أنه ـ رضى الله عنه ـ صلَّى إلَى القبلتَين ، وهاجر وشهد جميعَ المَشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلاَّ غَزْوَةَ تَبُوكَ[3] ، فإنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام خلَّفه بالمدينة علَى عِياله ، وقال له : أنت مِنِّى بمنزلة هارُونَ من موسَى إلاَّ أنَّه لانبيَّ بعدى . رواه جماعة من الصحابة[4] .

ورُوِىَ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا آخَى بين المهاجرين ، [ثم آخَى بين المهاجرين والأنصار[5]] ، قال فى كل واحد منهما لعلىّ : « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » ، وآخَى بينه وبين نفسه. ولذلك قال علىٌّ لأصحاب الشُّورَى[6] : أَنْشُدُكم[7] اللهَ ، هل

(١) أنظر ص ١٨٠ من السفر السادس عشر من هذه النسخة المطبوعة .

(٢) الاستيعاب ج ٣ ص ٣٣ .

(٣) تبوك : موضع بين وادى القرى والشام ، وقد سبق « ذكر غزوة تبوك » فى الجزء السابع عشر ص ٣٥٢ .

(٤) أنظر صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٧٥ والرياض النضرة ج ٢ ص ١٦٢ وغيرهما .

(٥) سقطت هذه الجملة من (ك) ، وثبتت فى (ص)، (ن) كما فى الاستيعاب ج ٣ ص٣٥ وقد سبق فى نهاية الأرب ج ١٦ ص ٣٤٧ قوله : « لماقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض . وآخى بين المهاجرين والأنصار » .

(٦) روى ابن عبد البر بسنده عن أبى الطفيل قوله : لما احتضر عمر جعلها شورى بين على وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد . فقال لهم على : أنشدكم الله . . الخ

(٧) أنشدكم : أسألكم واستحلفكم .

فيكم أحدٌ آخَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بينه وبينه- إذ آخَى بين المسلمين -غيرى ؟ قالوا : اللهمَّ لا وربِّنا . وكان يقول : أنا عبدُ الله وأخو رسولِ الله ، لايقولُها أحدٌ غيرى إلاَّ كذَّاب .

وروى بُرَيدة وأبو هُرَيرة وجابر والبَرَاءُ بن عازِبٍ وزَيد بن أرْقَمَ ، كلٌّ منهم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم غَدير خُمّ (١) : « من كنتُ مَولاه فعليٌّ مَولاه » وفى رواية بعضهم « اللهُمَّ والِ مَن والاه ، وعادِ مَن عاداه » .

وقد ذكرنا (٢) فى غزوة خَيْبَر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لأُعْطِيَنَّ الرايةَ غدًا رجلا يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبُّه اللهُ ورسولُه ليس بفرَّار ، يفتح اللهُ على يدَيه » وأنَّه أعطى الرايةَ لعليّ ، ففتح الله علَى يدَيه .

وبعثه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى اليَمن ، وهو شابّ ، ليَقضيَ بينهم ، فقال : يارسولَ الله إنِّى لاأدرى ماالقضاء ؟ فضرَب

---

(١) « خم » اسم رجل صباغ ، أضيف إليه الغدير الذى بالجحفة بين مكة و المدينة . وقد جاء فى الرياض النضرة ج ٢ ص ١٦٩ قول البراء بن عازب : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فنزلنا بغدير خم ، فنودى فينا : « الصلاة جامعة » وكسح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فصلى الظهر ، وأخذ بيد على وقال : ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا : بلى ، فأخذ بيد على وقال : اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وجاءت فى صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٧٩ رواية أخرى عن زيد ابن أرقم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى « خما » بين مكة والمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ، ثم قال فى آخر الحديث : أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى . وانظر البداية والنهاية ج ١٧ ص ٣٤٦ .

(٢) ج ١٧ ص ٢٥٢ – ٢٥٣ ، وانظر فى صحيح البخارى الحديثين ٣٤٦٥ ، ٣٤٦٦ وانظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٥ ص ١٧٦ .

رسولُ الله عليه الصلاة والسلام صدرَه بيده وقال : « اللهُمَّ اهْدِ قلبَه وسدِّدْ لسانَه[١] » قال عليٌّ فواللهِ ما شككتُ بعدها فى قضاءٍ بيْنَ اثنَيْن .

ولما نزل قولُه تعالى : ﴿ إنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكم تطهيرا ﴾ [٢] دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمةَ وعليًّا وحسَنا وحُسَينا فى بيت أُمِّ سَلَمة وقال : اللهُمَّ إنَّ هؤلاء أهلُ بيتى فأَذهِبْ عنهم الرجسَ[٣] وطهِّرْهم تطهيرا [٤] .

قال أبو عمر : وروت طائفةٌ من الصحابة أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : لايحبّك إلاَّ مؤمنٌ ولا يُبْغِضك إلاَّ منافق .

وقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام : « يَهْلِكُ [٥] فيك رجُلانِ : مُحِبٌّ مُطْرٍ [٦] وكذَّاب مُفْتَرٍ [٧] » .

وقال له : « تفترقُ فيك أُمَّتى كما افترقتْ بَنُو إسرائيلَ فى عيسى .

---

(١) سدد لسانه : قومه ووفقه للسداد ، أى للصواب .

(٢) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٣) الرجس : الإثم ، أو كل مستقذر من عمل ، كما ذكره النووى .

(٤) هذا الحديث ذكره الترمذى فى صحيحه برواية أخرى فانظره بشرح النووى ج ١٥ ص ١٩٤ ، وهناك ج ١٥ ص ١٧٥ رواية تتعلق بآية أخرى .

(٥) كذا جاء فى (ن) و(ص) والاستيعاب ج ٣ ص ٣٧ ، وفى (ك) : « هلك » .

(٦) « مطر » من الإطراء ، وهو مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه .

(٧) « مفتر » من الافتراء ، وهو اختلاق الكذب . وقد روى أحمد عن على رضى الله عنه قوله « يهلك فى رجلان : محب مفرط بما ليسا فى ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى » . وفى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ١ ص ٣٧٢ رواية لقول على « يهلك فى رجلان : محب غال ومبغض قال » . وجاء فى نهج البلاغة ج ٣ ص ٣٠٦ قول على « وسيهلك فى صنفان : محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق . ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا مَدِينةُ العِلم ، وعلىٌّ بابُها ، فمن أراد العلْمَ فلْيَأْتِهِ مِن بابِه » .

وقال فى أصحابه : « أقضاهم علىٌّ » .

وقال عُمر رضى الله عنه : « علىٌّ أقْضانا » .

وكان عُمر يتعوَّذُ بالله مِن مُعْضِلَةٍ ليس لها أبو حَسَن [١] !

وقال علىٌّ فى التى وضعَتْ لستَّةِ أشهُرٍ [٢] ، فأراد عُمر [٣] رجْمَها : إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وحَمْلُه وفِصالُه ثلاثون شهرا ﴾ [٤] [ويقول ﴿ وفِصالُه فى عامَيْن ﴾ [٥]] [٦] .

وكان ـ رضى الله عنه ـ أعلمَ الناسِ بالفَرائض [٧] ، وله فى ذلك أخبار .

منها ما رواه أبو عمر ابن عبد البر [٨] بسنده عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قال : جلس رجلان يتغدّيان ، مع أحدهما خمسة أرغفة ، ومع الآخر ثلاثةُ أرغفة ، فلما وضعا الغَداء بين أيديهما مَرَّ بهما رجلٌ ، فسلَّم ،

---

(١) فى النهاية ولسان العرب : (معضلة) أراد المسألة الصعبة أو الخطة الضيقة المخارج من الإعضال أو التعضيل ، ويريد بأبى حسن على بن أبى طالب .

(٢) ذكر الطبرى وابن كثير فى تفسيريهما أن امرأة من جهينة تزوجت رجلا من قبيلتها ثم ولدت لستة أشهر بعد دخولها عليه .

(٣) تبع المؤلف أبا عمر ابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب ج ٣ ص ٣٩ ولكن الذى رواه الطبرى وابن كثير فى تفسيريهما عن الجهنى أن الذى أراد الرجم هو عثمان رضى الله عنه .

(٤) الآية ١٥ من سورة الأحقاف .

(٥) الآية ١٤ من سورة لقمان .

(٦) زيادة ـ عن ابن جرير وابن كثير فى تفسيرهما ـ يتم بها الاستدلال ، وجاء فى رواية أخرى قوله تعالى « حولين كاملين » .

(٧) الفرائض : علم قسمة المواريث . وهى مأخوذة فى اللغة من الفرض ، بمعنى التقدير ، لأن المواريث مقدرة .

(٨) فى الاستيعاب ج ٣ ص ٤١ ـ ٤٢ .

فقالا له : [اجلسْ] (١) للغَداء . فجلس وأكل معهما ، واستوفَوْا فى أكلهم الأرغفة الثمانية ، فقام الرجلُ وطرح إليهما ثمانية دراهم ، وقال خذا هذه عوضًا ممَّا أكلتُ لكما ونِلْتُه من طعامكما . [فتنازعا ،] (١) وقال صاحبُ الخمسةِ الأرغفة : لى خمسةُ دراهم ولك ثلاثة . فقال صاحبُ الأرغفة الثلاثة : لا أرضَى إلا أن تكونَ الدراهمُ بيننا نصفين. فارتفعا إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، فقصَّا عليه قصَّتَهما ، فقال لصاحب الثلاثةِ [الأرغفةِ] (١) : قد عرَضَ عليك صاحبُك ماعَرَض وخُبْزُه أكثرُ من خبزك فارْضَ بالثلاثة . فقال : لاواللهِ لارضِيتُ منه إلاَّ بمُرّ الحق . فقال علىٌّ : ليس لك فى مر الحق إلا درهمٌ واحد وله سبعة . فقال الرجل : « سُبْحانَ اللهِ ياأميرَ المؤمنين ! هو يَعرض عَلَىَّ ثلاثة فلم أرْضَ وأشرتَ عَلَىَّ بأخذها فلم أرْضَ ، وتقول لى الآن : إنه لايجب لك إلاَّ درهمٌ واحد ! » فقال له [علىّ]) (١) : « عرَض عليك صاحبُك أن تأْخذ الثلاثةَ صلحًا ، فقلت : لا أرضى إلا بمر الحق ، ولا يجبُ لك فى مر الحق إلا واحد . » فقال له الرجل : فعرِّفْنى (٢) الوجهَ فى مر الحق حتَّى أقبلَه . فقال : « أليس للثمانيةِ الأرغفةِ أربعةٌ وعشرون ثُلُثا ؟ أكلتموها وأنتم ثلاثةُ أنفُس ، ولا نَعلَمَ الأكثَر منكم أكلاً ولا الأقلَّ ، فتُحْمَلون [فى] (١) أكلكم علَى السواء . » قال : بَلَىَ . قال : فأكلتَ أنت ثمانيةَ أثلاث ، [وإنما لك تسعةُ أثلاث ، وأكل صاحبُك ثمانيةَ أثلاث] . (١) وله خمسةَ

---

(١) زيادة من الاستيعاب .

(٢) كذا جاء الاستيعاب . وفى النسخة (ك) : « تعرفنى » . وفى النسخة (ن) « تعرفنى» غير منقوطة الحرف الأول .

عشرَ ثُلُثا ، أكل منها ثمانية وتبقى [له] (١) سبعة ، وأكل لك واحدا من تسعة ، فلك واحدٌ بواحدك ، وله سبعةٌ [بسبعته] (١) . فقال له الرجل : رضِيتُ الآن ! .

وأتَتْه امرأةٌ وهو على المنبر فقالت : تَرَكَ أخى سِتَّمِائة دينار وأُعطيتْ دينارا ! (وتظلمتْ من ذلك) فقال : لعل أخاكِ تَرَكَ زوجةً وأُمًّا وبنتَيْن واثنَىْ عشر أخًا وأنتِ . قالت : نعم . فقال : قد أستَوْفَيتِ حقَّك (٢) . وهذه المسألة مشهورة مسطورة فى كتب الفقه ، وتسمى « الدِّينارِيَّه » و « المنبرية » (٣)

وهو – رضى الله عنه – مِمَّن جَمَع القرآنَ علَى عهْد النبى صلى الله عليه وسلم ، هو وعثمانُ بن عفَّان وعبد الله بن مسعود وسالمٌ مولَى أبى حُذيفةَ بن عُتْبةَ بن ربيعة (٤) .

وعن (٥) محمد بن سيرِيَن قال : لمّا بُويع أبو بكر الصدِّيقُ رضى

---

(١) زيادة من الاستيعاب .

(٢) للزوجة خمسة وسبعون دينارا (الثمن) وللأم مائة دينار (السدس) وللبنتين أربعمائة دينار (الثلثان) .

فلم يبق إلا خمسة وعشرون دينارا ، لإخوتها أربعه وعشرون – كل منهم ديناران – ولها دينار واحد .

(٣) تطلق « المنبرية » فى كتب الفقة والميراث على مسألة أخرى للإمام على أيضا وقد كان يخطب على منبر الكوفة ، قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٦ : « وهو الذى قال فى المنبرية صار ثمنها تسعا ، وهذه المسألة لو أفكر الفرضى فيها فكرا طويلا لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنك بمن قاله بديهة واقتضبة ارتجالا؟ ! » .

(٤) كان سالم بن معقل من الفرس ، وأعتقته مولاته زوجة أبى حذيفة ، فتولى أباحذيفة ، وتبناه أبوحذيفة إلى أن جاء حكم التبنى . » وقد صار سالم من خيار الصحابة وقرائهم المعروفين .

(٥) روى صاحب الاستيعاب ج ٢ ص ٢٥٣٤ هذا الخبر بسنده . وذكره ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٦ والسيوطى فى الإتقان ج ١ ص ٥٩ وصاحب الرياض النضرة ج ١ ص ١٦٨ .

الله عنه أبطأ [علىٌّ] (١) عن بيعته وجلس فى بيته ، فبعث (٢) إليه أبو بكر : ما بَطَّأ بك عنّى ؟ أكرِهْتَ إمارتى ؟ فقال : ما كرِهتُ إمارتَك ، ولكنّى آلَيتُ أن لا أرتدىَ رِدائى - إلاّ إلَى صلاة - حتى أجمعَ القرآن ! : قال ابُن سِيرِينَ : فبلغنى أنه كتبه علَى تنزيلِه ، ولو وُجد ذلك الكتابُ لَوُجِد فيه علمٌ كثير .

وفى علىٍّ - رضى الله عنه - يقول إسماعيلُ بن محمد الحِميَرىُّ من أبيات :

سائلْ قُرَيشًا بها إن كنتَ ذا عَمَهٍ (٣) :
مَن كان أثبتَها فى الدِّين أوتادا ؟
مَن كان أقدمَها سِلْمًا (٤) وأكثرَها
عِلما وأطهرَها أهلاً وأولادا ؟
مَن وحَّدَ اللهَ إذْ كانت مُكذِّبةً
تدعو مع الله أوثانًا وأندادا ؟
مَن كان يُقْدِمُ فى الهَيْجاءِ إنْ نكَلُوا (٥)
عنها وإن بَخِلُوا فى أزْمةٍ جادا ؟

---

(١) سقط هذا من (ص) . وثبت فى (ك) و (ن) كما فى الاستيعاب .

(٢) جاء قبل هذا عند ابن أبى الحديد قوله : « فقيل لأبى بكر : إنه كره إمارتك»

(٣) العمه : التردد والتحير .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة و «السلم » قد جاء فى الشعر بمعنى الإسلام ، كقول امرئ القيس بن عابس :

فلست مبدلا بالله ربا ولا مستبدلا بالسلم دينا

وجاء بيت إسماعيل الحميرى فى الاستيعاب ج ٣ ص ٦٧ وأسد الغابة ج ٤ ص ٤٠ بلفظ « من كان أقدم إسلاما وأكثرها . . . » .

(٥) الهيجاء : الحرب . ونكلوا : تأخروا وجبنوا .

مَن كان أَعْدلَها حُكْمًا وأَبْسَطَهـــــا
علما وأَصْدقَها وعدًا وإيعـــادا ؟
إن يَصْدُقوك فلن يَعْدُوا أَبا حســـنٍ
إنْ أنت لم تَلْقَ لِلأَبرار حُسَّـــادا !
إن أنت لم تَلْقَ أقواما ذَوى صَلَفٍ[1]
ذَوى[2] عِنَادٍ لحقِّ اللهِ جُحَّادا !

وفضائلُه – رضى الله عنه – ومآثرُه كثيرة ، وفيما أوردْناه منها وما نُورِدُه بعدُ – إن شاء الله – كفايةٌ عن بَسْط . . فلنذكر بَيْعَتَه رضى الله عنه .

ذكر بيعة على
رضى الله تعالى عنه

بُويع له – رضى الله عنه – [بالخلافة[3]] يومَ قُتل عثمان[4] وقيل : بل بُويع له يومَ الجمعة لخمسٍ بقِينَ من ذى الحجّة سنة خمس وثلاثين

وقد اختلف فى كيفية بيعته :

فقيل : إنه لما قُتل عثمان – رضى الله عنه – اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من المهاجرين والأنصار ، فأتَوْا عليًّا ،

(١) الصلف : ادعاء ما لا يوجد إعجابا وتكبرا ، والتكلم بالمكروه .
(٢) فى (ك) : « وذوى » . وفى (ن) و (ص) : « وذى » . وفى الاستيعاب وأسد الغابة : « وذا » .
(٣) زيادة من الاستيعاب ج ٣ ص ٥٥ حيث نقل المؤلف منه هنا .
(٤) قتل عثمان رضى الله عنه يوم الجمعة لثمانى عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين .

وقالوا [له] [١] : إنه لابُدَّ للناس مِن إمام ، فقال : لاحاجةَ لى فى أمركم ، مَن اخترتم رضيته . قالوا : لا نختارُ غيرَك . فقال : لاتفعلوا ، فإنى أكون وزيرًا خيرًا من أن أكون أميراً . فقالوا : والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعَك . قال : ففى المسجد ، فإنَّ بَيْعتى لا تكون خفيا [٢] ، ولا تكون إلاَّ [عن رضا المسلمين .] [٣]

وكان فى بيته ، وقيل : فى حائط [٤] لبنى عَمرو بن مَبْذول ، [٥] فخرج إلى المسجد يتوكَّأُ علَى قَوس ، فبايعه الناس .

وكان أوّلَ مَن بايعه طَلْحةُ بن عُبَيد الله ، فنظر إليه حبيب بن ذُؤَيب ، فقال : « إنَّا لله [٦] ! أوّلُ مَن بَدَأَ البَيْعة [٧] يَدٌ شَلاَّء ! [٨] لا يتمُّ هذا الأمر » . وبايعه الزُّبير ، فقال لهما : إنْ أحبَبْتما أن تُبايعانى وإنْ أحببتما بايعْتُكما . فقالا : بل نُبايعُك . وقالا بعد ذلك : إنَّما فعلْنا ذلك خَشْيةً علَى نفوسنا ، وعرفْنا أنَّه لا يُبايعُنا .

---

(١) كذا جاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٩٨ حيث نقل المؤلف منه هنا . وفى المخطوطة وأتوه وقالوا : » .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل : « خفيه » .

(٣) هكذا جاءت الرواية فى تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٣ ص ٤٥٠ وهى الأصل ، ونقلها ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٤ . وجاء فى المخطوطة والكامل « فى المسجد » وقد سبق ذكر « المسجد » فى هذا الكلام .

(٤) الحائط — ههنا — : البستان من النخيل ونحوه إذا كان عليه جدار .

(٥) فرع من الخزرج ، وقد كان أكثر الأنصار — من الأوس والخزرج — يؤيدون عليا .

(٦) هكذا جاء فى المخطوطة تبعا لابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٩٨ وجاء فى رواية أخرى لابن الأثير — بعد ذلك — — ص ٩٩ : إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٧) هكذا جاء المخطوطة تبعا لابن الأثير فى الرواية الأولى . وفى الرواية الأخرى : « أول يد بايعت » .

(٨) كان طلحة قد أبل فى يوم أحد بلاء حسنا ، ووقى النبى بنفسه ، فالتقى النبل عنه بيده حتى شلت أصابعه . وسيبين المؤلف ذلك فى ذكر مقتل طلحة » .

وبايَعَه الناسُ ، وجاءوا ، بسَعْد بن أبي وَقَّاص[١] ، فقال له عِلِيٌّ : بايعْ . فقال : « لا ، حتَّى يُبايعَ الناسُ ، واللهِ ماعلَيك منِّى بأسٌ » قال : خلُوا سبيلَه .

وجاءوا بابْنِ عُمَر[٢] ، فقال مثلَ قوله[٣] ، فقال : ائْتنى بكَفِيل[٤] ، فقال : لاأرى كَفيلا . قال الأَشْتَرُ : دَعْنِى أضرِبْ عُنقَه ! قال [علىٌّ][٥] : « دعُوه ، أنا كَفيلُه ، ــ إنَّك ــ ما علمتُ ــ سَيِّئُ الخُلقِ صغيرًا وكبيرًا ! » .

وبايعه الأَنصارُ إلا نَفَرًا يَسيرا ، منهم حَسَّانُ بن ثابت ، وكَعْبُ بن مالك ، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد ، وأبو سعيد الخدْرِى[٦] ومحمد بن مَسْلمة ، والنُّعْمان بن بَشِير ، وزَيد بن ثابت ورافع بن خَدِيج ، وفَضالة بن عُبَيْد ، وكَعْب بن عُجْرَة ، كانوا[٧] عُثْمانيَّة .

ولم يبايع أيضا عبدالله بن سَلاَم ، وصُهَيب بن سنان ، وسَلَمة[٨] .

---

(١) سعد هو أحد الستة الذين جعل فيهم عمر الشورى ، كطلحة والزبير ، ولما قتل عثمان اعتزل الفتنة ولزم بيته . .

(٢) كان عبد الله بن عمر من أهل الورع ، ولورعه أشكلت عليه حروب على وقعد عنه ، انظر الاستيعاب ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٣) أى قال : « لا حتى يبايع الناس » .

(٤) أى : ضامن ألا تبرح ،وفى تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٣ ص ٤٥١ « ايتنى بحميل » ، و « الحميل » بمعنى الكفيل ، وفى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ١ ص ٣٤٠ « فأعطنى حميلا ألا تبرح » .

(٥) الزيادة عند ابن جرير وابن الأثير .

(٦) هو سعد بن مالك ، نسب إلى جده « الأبجر » الذى يقال له خدرة » .

(٧) هكذا فى النسختين (ن) و(ص) . وفى « ك » : « وكانوا » .

(٨) فى المخطوطة « مسلمة » والتصويب من الكامل والقاموس وشرحه ، وتجد ترجمته فى الاستيعاب ج ٢ ص ٨٦ والإصابة برقم ٣٣٨١ ج ٢ ص ٦٥ .

ابن سَلامة بن وَقْش، وأسامة بن زَيد، وقُدَامة بن مَظْعون، والمِغْيرة ابن شُعْبة .

وأخذ النُّعمانُ بن بَشِير قميصَ عُثْمانَ الَّذى قُتِلَ فيه وأصابعَ امرأتِهِ نائلة [١] ، وسار بهم [٢] إلى الشام .

وقيل فى بَيعته : إنَّ عُثمان لمَّا قُتِل بقيت المدينةُ خمسةَ أيَّام وأميرها الغافقى بن حَرْب ، وهم يلتمسون مَن يُجيبهُم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه ، فأتَى المصريّون عليًّا فباعَدَهم ، وأتَى الكوفيُّونَ الزُّبَيرَ فباعَدَهم ، واتى البصريُّون طَلحةَ فباعَدَهم ؛ وكانوا مجتمعين على قَتْل عُثمان مختلفين فيمن يَلِى الخلافةَ ، فأرسلوا إلى سَعْدٍ يطلُبونه [٣] فقال : إنِّى وابْنَ عُمر لاحاجة لنا فيها ، وأتوا ابْنَ عُمر فلم يُجِبْهم ، فبقوا حَيارَى ، وقال بعضُهم لبعضٍ : لَئِنْ رجَع النَّاسُ إلَى أمصارهم بَغَير إمام لم نأمَن الاختلافَ وفسادَ الأُمَّة ، فجمعوا أهلَ المدينة وقالوا لهم : ياأهلَ المدينة ، أنتم أهلُ الشُّورَى ، وأنتم تَعْقِدون الإمامة ، وحكمكم جائز على الأُمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ، ونحن لكم تبع ، وقد أجلناكم [٤] يومكم ، فوالله لئن لم تَفْرُغوا لنقتُلَنَّ [٥] عليًّا وطَلحة والزُّبير وأناسًا كثيرا . فغشِيَ الناسُ عليًّا ، فقالوا : نُبايعُك فقد ترَى ما نَزَل بالإسلام وما ابْتُلِينا به مِن بين القُرَى ! فقال علىٌّ :

---

(١) لما جاء المعتدون ليقتلوا عثمان انكبت عليه زوجته نائلة واتقت . السيف بيدها فقطع أصابعها .

(٢) كذا وقع فى المخطوطة . وفى الكامل : « به » ؛ .

(٣) بعثوا إلى سعد بن أبى وقاص وقالوا : إنك من أهل الشورى فأقدم نبايعك .

(٤) كذا فى النسختين (ن) و (ص) والكامل لابن الأثير . وفى (ك) : « أجلنا لكم » .

(٥) فى الكامل : « لنقتلن غدا » .

« دَعُونى والْتَمِسُوا غَيرِي ، فإنَّا مستقبلون أمرًا له وُجوهٌ وله أَلْوانٌ ، لا تقومُ به القلوبُ ، ولا تثبُت عليه العقولُ » فقالوا : « نَنْشُدكَ اللهَ ! ، ألاَ ترَى مانحن فيه ؟ ألاَ ترَى الإسلامَ ألاَ ترَى الفِتْنة ؟ الاَ تخافُ الله ؟ » قال : « قد أَجَبْتُكم ، واعْلموا أنِّى إن أجبْتُكم ركِبْتُ بكم ما أعلم ، وإنْ تركتمونى فإنَّما أنا كأَحدِكم [١] إلاَّ أنِّى مِن أَسْمَعِكم وأَطْوَعِكم لمَن ولَّيْتموه » ... ثمَّ افترقوا علَى ذلك ، واتعدَوا الغَدَ .

وتشاوَرَ الناسُ فيما بَيْنَهم ، وقالوا إنْ دخل طلحةُ والزُّبَيرُ فقد استقامت ، فبعث البصريُّون إلى الزُّبَير حُكَيْمَ بن جَبَلة ، ومعه نفر فجاءوا به يَحْدُونه [٢] بالسَّيف ، [فبايَع] [٣] . وبعثوا إلى طلحةَ الأَشْتَرَ فى نفر ، فأتاه فقال : دَعْنى أنظُر مايصنعُ الناسُ . فلم يدَعْه ، فجاء به يَتُلُّه تلاًّ [٤] عنيفا فبايع .. فكان الزبير يقول : جاءنى لصٌ من لصوص عَبْد القَيْس فبايَعْتُ والسَّيفُ علَى عنقى !

وأَهلُ مصر فرِحون لِما [٥] اجتمع علَيه أَهلُ المدينة ، وقد خشَعَ أَهْلُ الكوفةِ والبصرة أَنْ صاروا تَبَعًا لأَهل مصر ، وازدادوا بذلك علَى طَلحةَ والزُّبَيرُ غَيْظًا .

---

(١) كذا فى (ك) . وفى (ص) : « أحدكم » كما جاء عند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٥٦ وج ٢ ص ١٧٠ .

(٢) يحدونه : يسوقونه .

(٣) ثبتت فى النسخة (ك) وسقطت من (ن) .

(٤) أى يدفعه دفعا .

(٥) فى تاريخ الطبرى : « بما » .

قال [١] : ولمَّا أصبحو يومَ البَيْعة – وهو يوم الجُمعة – حَضَر الناسُ المسجدَ ، وجاء عليٌّ رضى الله عنه ، فصعِد المِنبرَ وقال : « أيُّها الناسُ عن مَلإٍ وإذْن [٢] إنَّ هذا أمْرُكم ، ليس لأحد فيه حقٌّ إلاَّ مَن أمَّرْتمْ ، وقد افترقْنا بالأمسِ علَى أمر ، وكنتُ كارهًا لأمركم ، فأبَيْتُم إلاَّ أنْ أكون علَيكم ، ألاَ وإنَّه ليس لى دُونَكم إلاَّ مفاتيحُ مالِكم معى وليس لى أنْ آخُذَ درهما دُونكم ، فإنْ شِئْتم قعدتُ لكم ، وإلاَّ فلا أحِدُّ [٣] علَى أحد . » فقالوا : نحن علَى ما فارقْناك علَيه بالأمس . فقال : اللهُمَّ اشْهَدْ .

قال : ولما جاءوا بطَلحةَ ليُبايعَ قال : إنما أبايعُ كَرْها . فبايَعَ . . ثم جِيءَ بالزُّبَير ، فقال مثْلَ ذلك وبايع ، وفى الزُّبَير اختلاف . . ثم جِيءَ بَعْدَه بقوم كانوا قد تخلَّفوا ، فقالوا : نبايع علَى إقامةِ كتاب الله فى القريب والبَعيد والعزيز والذليل . فبايَعهم . . . ثمَّ قام العامَّةُ فبايَعوا . . وتفرَّقوا إلَى منازلهم .

ورجع عليٌّ إلَى بيته ، فدخل عليه طلحة والزُّبَير فى عَدد من الصحابة ، فقالوا : « ياعليُّ ، إنَّا قد اشترطنا إقامةَ الحُدود ، وإنَّ هؤلاء القومَ قد اشتركوا فى قتْل هذا الرجل . » فقال : « يا إخْوَتاه ، إنى لست أجْهَلُ ماتعلمون ، ولكنْ كَيف أصنع بقوم يَملكوننا ولا نملكُهم ؟

(١) القائل ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٩٩ وأصل ذلك فى رواية الطبرى ج ٣ ص ٤٥٦ .

(٢) أى : عن تشاور من مقدميكم وجماعتكم .

(٣) كذا فى (ن) و (ص) أى : أغضب . وفى تاريخ الطبرى : « أجد » بمعنى أغضب أيضا . وفى تاريخ ابن الأثير و (ك) : « آخذ » .

هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عُبْدانُكم (١) ، وثابتْ (٢) إليهم أعرابكم (٣) وهم خلالكم (٤) يسُومونكم (٥) ماشاءوا ، فهل ترَوْن موضعاً لقدرة على شيء مِمَّا تريدون؟ » قالوا : لا . قال : « فلا والله لا أرَى إلاَّ رأيًا ترَوْنه أبدًا إلاَّ أنْ يشاء الله ، إنَّ هذا الأمرَ أمْرُ جاهليّة ، وإنَّ لهؤلاء القَوم مادَّةً (٦) . إنَّ الناسَ من هذا الأمرِ - إنْ حُرِّكَ - علَى أمور : فرقة ترَى ماترَوْن ، وفرقةٌ ترَى مالا ترَون ، وفرقةٌ لاترَى هذا ولا هذا حتَّى يهدأ الناس ، وتقع القلوبُ مَواقِعَها ، وتؤخذَ الحقوق . فاهْدَءُوا عنِّى ، وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عُودوا » .

واشتدَّ علىٌّ علَى قريش ، وحال بينهم وبين الخروج [وتركها] (٧) علَى حالها ، وإنَّما هيَّجه على ذلك هرَبُ بنى أمَيَّة وتفرُّق القوم .

وحكى أبو عمر ابن عبد البر (٨) قال : لمّا بايع الناسُ علىَّ بنَ أبى طالب دخل عليه المغيرةُ بن شُعْبة (٩) ، فقال له : « ياأميرَ المؤمنين ، إنَّ لك عندى نصيحةً » . قال : وماهى ؟ قال : « إنْ

---

(١) « عبدان » بضم العين أو كسرها مع سكون الباء : جمع عبد .

(٢) ثابت : رجعت واجتمعت .

(٣) كذا فى النسخة (ن) وهو مثل مافى تاريخى ابن جرير وابن كثير ووقع فى (ص) و(ك) : « أعرانكم » .

(٤) هكذا جاء فى تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٤٥٨ ، ى : هم بينكم. وفى المخطوطة هنا « خلاصكم » . وفى تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٠٠ : « خلاطكم » .

(٥) يسومونكم : يكلفونكم .

(٦) أى : ما أعينوا .

(٧) زيادة من ابن الأثير .

(٨) فى الاستيعاب ج ٣ ص ٣٩٠ .

(٩) المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب المشهورين فى ذلك العهد ، وهم : معاوية ابن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وزياد ، والمغيرة .

أردتَ أن يستقيمَ لك الأمرَ فاستعمِلْ طَلحةَ علَى الكوفة ، والزُّبَيْرَ على البصرة ، وابعثْ إلى معاويةَ بعهده علَى الشام حتى تُلزِمَه طاعتَك ، فإذا استقرَّت لك الخلافةُ فادْرَأهم [١] كيف شئتَ برأيِك » . فقال [عليّ] [٢] : « أمّا طلحةُ والزُّبَيْرُ فسأرَى رأيِي فيهما ، وأمّا مُعاويةُ فلايَرانى اللهُ مُستعملاً له ولا مستعينًا به مادام علَى حاله ، ولكنّى أدعُوه إلَى الدخولِ فيما دخلَ فيه الناسُ [٣] ، فإنْ أبَى حاكمْتُه إلَى اللهِ تعالى » . فانصرف عنه المُغيرةُ مُغْضَبا لمّا لم يَقْبل منه نصيحتَه . . فلمّا كان الغَدُ أتاه فقال : « ياأميرَ المؤمنين ، نظرتُ فيما قلتُ بالأمس وما جاوبتَنى به ، فرأيتُ أنّك قد وُفِّقْتَ لِلخيرِ وطلبتَ الحق » . ثم خرج [٤] عنه ، فلقِيَهُ الحسَنُ وهو خارجٌ ، فقال لأبيه : ما قال هذا الأعْوَر ؟ (يعنى المُغيرة ، وكان المغيرة قد أصيبتْ عَيْنُه يومَ اليَرْمُوك) قال : أتانى أمسِ بكذا وأتانى اليومَ بكذا . قال : نَصَحك والله [أمس] [٥] وخَدَعك اليومَ . فقال له عليٌّ : إنْ أقررتُ معاويةَ علَى مافى يده كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدا [٦] .

---

(١) ادرأهم : ادفعهم .

(٢) زيادة من الاستيعاب .

(٣) فى الاستيعاب : « المسلمون » .

(٤) كذا جاء فى (ك) والاستيعاب . وفى (ص) : « وانصرف » .

(٥) سقط « أمس » من النسخة (ك) . وثبت فى (ص) .

(٦) فى القرآن الكريم : ﴿ وما كنت متخذ ، المضلين عضدا ﴾ فى الآية ٥١ من سورة الكهف .

وقال المُغيرةُ فى ذلك :

[نصَحتُ عليا فى ابْن هِنـد نصيحةً]
فرَدَّ (١) فلا يسمعْ لها الدهرَ ثانيَهْ
وقلتُ له : أرسِلْ إلَيْه بعهـدِه
علَى الشامِ حتَّى يستقرَّ مُعاويَهْ
ويَعلمَ أهلُ الشامِ أنْ قَدْ مَلكْتَـه
فأمُّ ابْن هِندٍ بَعْدَ ذلِك هاويَـهْ
وتحكُمُ (٢) فيه ما تُريدُ فإنَّـه
لداهيَةٌ - فارْفُقْ به - وابْنُ داهِيَهْ
فلَمْ يَقْبَل النُّصحَ الَّذى جئْتُه به
وكانت له تلك النصيحةُ كافيَـهْ

ورُوِىَ (٣) عن ابن عبّاس - رضى الله عنهما - نحوُه ، إلاَّ أنَّه قال « أتَيْتُ عليًّا بعد قتْل عُثمان ، عند (٤) عَوْدى من مكَّة (٥) ، فوجدتُ المُغيرةَ بن شُعبة مسْتخلِيا به ، فخرج مِن عنده ، فقلتُ له : ماقال لك هذا ؟ فقال : قال لى قبْلَ مَرَّتِه هذه « إنَّ لك حقَّ الطاعة والنصيحة ، وأنت بقيَّة الناس ، وإنَّ الرأى اليَومَ يُحْرَزُ (٦) به

(١) فى مروج الذهب ج ، ص ١٦ : « فردت » .
(٢) سقط هذا البيت من نسخة الاستيعاب التى بأيدينا ومن مروج الذهب .
(٣) فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٠١ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٦٠ .
(٤) كذا فى تاريخ الطبرى وابن كثير ، وجاء فى المخطوطة « بعد » .
(٥) كان عثمان - قبل مقتله - قد دعا ابن عباس واستعمله على الحج ، فذهب إلى مكة وأقام للناس الحج ، ثم رجع إلى المدينة بعد قتل عثمان بخمسة أيام .
(٦) كذا جاء فى النسخة (ص) . وفى النسخة (ك) : « تحرز » .

ما فى غَدٍ ، وإن الضَّياع اليومَ يَضِيعُ به ما فى غد ، أَقْرِرْ مُعاويةَ وابْنَ عامرٍ وعُمَّالَ عُثمان علَى أعمالهم ، حتَّى تأْتِيَك بَيْعَتُهم [ويَسْكُنَ الناسُ] (١) ثُمَّ اعْزِلْ مَن شِئت » فأَبَيْتُ عليه ذلك ، وقلتُ : لا أُداهِنُ فى دِينى ولا أُعطَى الدَّنِيَّةَ فى أمْرى (٢) . قال « فإنْ كنتَ أَبَيْتَ علَىَّ فاعْزِلْ مَن شِئتَ واتْرُكْ مُعاوية ، فإنَّ فى مُعاويةَ جُرْأَةً ، وهو فى أهل الشام يُسْتَمَعُ منه ، ولك حجةٌ فى إثباته ، فإنَّ عُمرَ بن الخطَّاب [كان] (٣) قد ولَّاه الشام » فقلتُ ؛ لا واللهِ لا أستعملُ مُعاويةَ يومَيْن . ثمَّ انصرف مِن عندى وأنا أعرفُ فيه أنَّه يرَى أنِّى مُخطىء ، ثم عاد إلىَّ الآنَ فقال : « إنِّى أشرتُ عليك أوَّلَ مرَّةٍ بالذَّى أشرْتُ ، وخالفتَنى فِيه ، ثمَّ رأيتُ بعد ذلك أن تصنعَ الَّذى رأيتَ ، فتعزِلهم وتستعينَ بمَن تَثِقُ به ، فقد كفى الله ، وهم أهْوَنُ شَوْكةً ممَّا كان » .. قال ابْنُ عبَّاس : فقلت لعلىّ : أمَّا المَرَّةُ الأُولَى فقد نَصَحك ، وأمَّا المَرَّةَ الثانية فقد غَشَّك . قال : ولِمَ نصحنى ؟ قلتُ : لأنَّ مُعاويةَ وأصحابَه أهلُ دنيا ، فمتى تُثبتْهم لايُبالُوا (٤) من وَلَىَ هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا « أخذ هذا الأمر بغيْر شُورَى ، وهو قتَلَ صاحبنا » ويُؤلبوا (٥) عليك ، فيَنْتَقِضْ عليك أهلُ الشام [وأهلُ العراق ، مع أنِّى لا آمَنُ طلحةَ والزُبَيْر أن يكُرَّا عليك] (٦) وأنا أشيرُ علَيك أن تُثبتَ

(١) ثبت هذا فى النسخة (ك) . وسقط من (ن) .

(٢) الدنيه : الخصلة المذمومة .

(٣) ثبت « كان » فى (ن) و (ص) . وسقط من (ك) .

(٤) وقع فى المخطوطة هنا « لا يبالون » مع ظهور الجزم بحذف النون فى « يقولوا » بعد « متى » الثانية .

(٥) هذا هو الظاهر المناسب للعطف على « يقولوا » . ووقع فى المخطوطة « ويؤلبون » .

(٦) ثبت هذا فى النسخة (ن) كما فى تاريخى الطبرى وابن الأثير . وسقط من (ك) .

معاوية ، فإنْ بايَعَ لك فعلَىَّ أن أقلَعَه من منزله . قال [علىّ] [(١)] : والله لا أعطيه إلا السيْفَ ! ثم تمثَّل :

وما ميتةٌ إنْ مُتها غيرَ عاجز [(٢)] بعارٍ إذا ماغالت النفس غولُها [(٣)]

فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، أنت رجل شجاع ، لستَ صاحبَ رأىٍ فى الحرب ؛ أمَا سمعتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحربُ خَدْعَة » [(٤)] ؟ فقال : بَلَى . فقلت : أمَ [(٥)] والله لَئِنْ أطعتَنى لأُصْدِرنَّهم بعد [(٦)] وُرُود ، ولأتركنَّهم ينظرون فى دُبر الأُمور لايعرفون ما كان وجْهُها ، فى غير نُقصان عليك ولا إثم لك . فقال : يا ابْنَ عباس ، لستُ مِنْ هُنَيَّاتِك [(٧)] ولا من هُنَيَّات مُعاوية فى شىء ، فقلتُ له : أطِعْنى ، والْحَقْ بمالِكَ بِيَنْبُع [(٨)] ، وأغلِقْ بابَك

(١) ثبت هذا فى تاريخى الطبرى وابن الأثير . وسقط من المخطوطة .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) وتاريخى ابن جرير وابن الأثير ، وجاء فى (ص) : «م» . وجاء فى ديوان الأعشى ص ١٧٥ : « فما »

(٣) الغول : ماأغتال النفس وأهلكها . يقال « غالته غول » إذا وقع فى مهلكة . والبيت للأعشى فى ختام قصيدة .. وقد اقتدى بعلى بن أبى طالب فى تمثله بهذا البيت أبو العباس السفاح ، فانه لما خرج يدعو إلى البيعة قال : من أحب الحياة ذل ، ثم تمثل بقول الأعشى : فما ميتة » : إن متها . . . الخ .

(٤) « خدعة » بسكون الدال مع فتح الخاء أوضمها أوكسرها ، أو بفتح الدال مع ضم الخاء . والمراد أن أمر الحرب ينقضى بخدعة .

(٥) « أم » كذا جاء فى المخطوطة . وهى بمعنى « أما » الاستفتاحيه التى تجىء للتنبيه وتكثر قبل القسم ، ولكن ألفها الأخيرة حذفت على قلة ، وقد جاءت « أما » فى تاريخى الطبرى وابن الأثير .

(٦) كذا فى (ن) كما جاء ابن عند ابن الأثير وغيره ، أى: أن مايكون من حالة معهم حينئذ كحال من يرجع قوما عن الماء بعد وروده . وفى (ك) و (ص) : « بغير » .

(٧) « هنيات » تصغير « هنات » أو هنوات » ، وكل من هذه الكلمات تذكر عند إرادة خصال غير حسنة .

(٨) ينبع : قرية ذات نخيل وزرع ومياه فى غرب المدينة المنورة ، على شاطئ البحر وفيها مال لعلى .

عَليك ، فإنّ العربَ تجولُ جَولةً وتضطربُ ولا تجدُ غَيْرَك ، فإنّك واللهِ لَئن نهَضتَ مع هؤلاء اليومَ [١] لَيُحَمِّلَنَّك الناسُ دَمَ عُثمان غدا ! . . فأَبَى عليّ ، وقال : تُشير عَلَيّ وأَرَى فإذا عصَيْتُك فأَطِعْنى قال : فقلتُ « أفعلُ ، إنَّ أَيْسَر مالَكَ عندى الطاعةُ » . فقال له عليٌّ : تسير إلَى الشام فقد ولَّيْتُكَها. فقال ابْنُ عباس : « ماهذا برأى ، مُعاويةُ رجلٌ من بنى أُمَيَّة ، وهو ابن عم عثمان ، وعامِلُه ، ولستُ آمَنُ أَنْ يضربَ عُنقى بعثمان ، وإنَّ أدنى ماهو صانع أن يحبسنى فيتحكَّمَ علَىّ لقرابتى منك . وإن كلَّ ما حُمِلَ علَىَّ حُمل علَيك [٢] ، ولكن اكتُبْ إلى مُعاوية فمَنِّه وعِدْه » . فقال : لاوالله لاكان هذا أبدا !

وخرج المُغيرةُ فلَحِقَ بمكة .

ذكر تفريق على عماله وخلاف معاوية

رضى الله عنهما

وفى سنة ست وثلاثين فرَّقَ عليٌّ – رضى الله عنه – عُمَّالَه علَى الأمصار ، فبعث عُثمانَ بن حُنَيْف على البصرة ، وعُمارة بن شِهاب على الكوفة ، وعُبَيْد الله بن عبّاس على اليمن ، وقَيْس بن سعد علَى مصر ، وسَهْل [٣] بن حُنَيْف على الشام .

فأَما سَهْلٌ فإنه خَرَج ، حتى إذا كان بِتَبُوكَ [٤] لِقِيَتْه خَيْلٌ [٥] فقالوا : مَن أنت ؟ قال : أميرٌ . قالوا : علَى أىِّ شىء ؟ قال : علَى

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) وتاريخى الطبرى وابن الأثير . وفى النسخة (ك) : « القوم »

(٢) كذا جاء فى المخطوطة . وعند الطبرى وابن الأثير : « وإن كل ما حمل عليك حمل على»

(٣) أخو عثمان بن حنيف ، وهما صحابيان .

(٤) موضع بين وادى القرى والشام ، وقد سبق ذكره .

(٥) أى : فرسان خيل .

الشام . قالوا : إنْ كان عُثمان بَعثك فَحَيَّ هَلاً بك [١] ، وإن كان بَعَثك غَيْرُه فارجعَ . قال : أوَماسمعتم بالَّذى كان ؟ قالوا : بلَى ... فرجع إلَى علىٍّ .

وأمَّا عُمارة فلمَّا بلغ زُبَالة[٢] لقيه طُلَيْحَةُ بن خُوَيلد ، وكان قد خرج يطلب بثأر عُثمان ، فقال له : ارْجِعْ فإنَّ القومَ لا يريدون بأميرِهم بَدَلاً ، فإنْ أبَيْتَ ضربت عنقك . . . فرجع إلَى علىٍّ .

وأمَّا قَيْس بن سعد فإنَّه لما انتهىَ إلَى أيْلَةَ [٣] لقِيَتْه خَيْلٌ ، فقالوا : مَن أنت ؟ قال : قَيْس بن سعد . قالوا امْضِ . فمضَى حتى دخل [مصر] [٤] ، فافْترق أهْلُ مصر فِرَقًا : فِرقةٌ دخلتْ فى الجماعة فكانوا معه ، وفرقةٌ اعتزلتْ بخرنبا ، [٥] وقالوا : « إنْ قتل قَتَلة عثمان فنحن معكم ، وإلاَّ فنحن علَى جَدِيلتنا [٦] حتَّى نُحْرَك [٧]

(١) حى هلا : كلمة تقال عند الدعاء إلى الشىء ،والإقبال عليه ، أى : أنك حينئذ أهل هذا .

(٢) زبالة : قرية بطريق مكة من الكوفة ، وكانت بها أسواق .

(٣) أيله : مدينة معروفه على خليج العقبة ، وكانت مقصودة ، لمن كانوا يقدمون من الحجاز إلى الفسطاط بطريق البر .

(٤) كذا فى النسخة (ن) وتاريخ ابن الأثير ، وسقطت هذه الكلمة من (ك) .

(٥) جاء فى هامش النسخة (ص) مانصه : «بخرنبا» بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء وفتح النون و الباءالموحدة ، بعدها ألف» ، وهو تابع لابن الأثيرفى الكامل ج ٣ ص١٠٥ حيث ذكرهذا الضبط ، ولكن المحققين لا يصححون هذا ، بل يرون أنها « خربتا » بفتح الخاء أو كسرها مع كسر الراء وسكون الباء قبل التاء المثناه الفوقية ، وكذلك تكررت فى مواضع من الجزء الأول من النجوم الزاهرة ، وقال ياقوت فى معجم البلدان : « «خزنبا : قال نصر : موضع من أرض مصر ، لأهلها حديث فى قصة على ومحمد بن أبى بكر ، وهو خطأ ، وقد سألت عنه أهل مصر فلم يعرفوا إلا خربتا» ، وقال فى موضع آخر : «خربتا» :هكذا ضبط فى كتاب ابن عبد الحكم ، وقد ضبط الحازمى بالنون ثم الباء ، هو خطأ ». والمعروف الآن أن « خربتا » قرية تابعة لمحافظة « البحيرة » وأنها بكسر الخاء والباء مع سكون الراء .

(٦) الجديلة : الحال والطريقة .

(٧) نحرك : نصاب السيوف ، وهذه الكلمة جاءت فى النسخة (ن) ، وفى (ك) « تخزك

أونصيبَ حاجتنا » ، وفرقةٌ قالت نحن مع علىٍّ مالم يُقِدْ مِن إخوانِنا[١] وهم فى ذلك مع الجماعة . . . فكتب قَيْسٌ إلى علىٍّ بذلك .

وأمّا عُثمان بن حُنَيْف فسار حتّى دخل البَصْرة ، ولم يرُدّه أحد ولا وجد لابْنَ عامر[٢] فى ذلك رأيا ولا استقلالاً بحرب ، وافترق الناس بها : ففِرْقة دخلتْ فى الجماعة ، وفرقةٌ اتَّبعَت القومَ ، وقالت فرقة « ننظُر ما يقول أهلُ المدينة فنصنَعُ ماصنعوا » .

وأمّا عُبَيْد الله بن عبّاس فانْطلق إلى اليمن ، فخرج يَعْلَى بن مُنْيَة[٣] بعد أنْ جمع المالَ – ولحِق بمكة ، وأنفق المالَ فى حرب الجمل .

قال[٤] : ولمّا رجع سهل بن حُنَيْف دعا علىٌّ طلحة والزُّبَير فقال « إنَّ الأمْر الذى كنتُ أحذِّركم قد وقع ، وإنَّ الَّذى قد وَقع لايُدْرَك إلاَّ بإماتة[٥] ، وإنَّها فِتْنةٌ كالنار كلما سُعِرتْ ازدادت اضْطِراما ، واستثارت » . فقالا[٦] : – ائذن لنا نخرج من المدينة ، فإما أن نكاثر ، وإما أن تدعنا . فقال : سأمسك الأمر ما أستمسك ، فإذا لم أجد بدا فآخر الداء الكى ! .

---

(١) أى : مالم يقتل إخواننا بما فعلوه فى الخليفة عثمان بن عفان .

(٢) ابن عامر : عبدالله بن عامر بن كريز ، وكان ابن خال عثمان بن عفان ، وقد ولاه عثمان البصرة .

(٣) هو يعلى بن أمية بن أبى عبيدة بن همام بن الحارث التميمى الحنظلى حليف قريش ، ينسب حينا إلى أبيه « أمية » وينسب حينا إلى أمه «منية » وسيأتى النسبان قريبا فى وقعة الجمل ، وقد استعمله عمر بن الخطاب على بعض اليمن فحمى لنفسه حمى ، فعزله عمر ، ثم استعمله عثمان ابن عفان على صنعاء اليمن ، وانظر الاستيعاب ج ٣ ص ٦٦١ وتهذيب الأسماء ج ٢ ص – ١٦٥ والإصابة ج ٣ ص – ٦٦٨ .

(٤) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٠٣ .

(٥) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل : « بإماتته » .

(٦) كذا جاء عند ابن الأثير ، وفى المخطوطة : « فقالوا » .

وكتب إلى معاوية وإلى أبي موسى ، فأجابه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة ، وبيّن الكارِهَ منهم [للذى كان] (١) والراضِيَ ومَن بيْن ذلك ، حتى كان على [كأنّه] (٢) يشاهدهم . . وكان رسوله إلى أبي موسى معبد الأسلمى .

وكان رسوله إلى مُعاوية سَبْرة الجُهَنى ، فلم يُجِبْه مُعاوية بشىء وكلّما تنجّز جوابَه لم يزِدْه علَى قوله :

أَدِمْ إدامةَ حِصْنٍ أو خُذًا (٣) بِيَدِى
حرْبًا ضَرُوسًا تشُبُّ الجَزْلَ والضَّرَمَا(٤)

فى جارِكُم وابْنِكم إذْ كان مَقْتَلُـــه
شَنْعَاءَ (٥) شَيَّبَتِ الأَصْداغَ واللِمَما

أَعْيَى المَسُودُ بها والسَّيِّـــدون فلم
يوجَدْ لها غيرُنا مَوْلًى ولا حَكَمَـا

حتى إذا كان [الشهر الثالث من مقتل عثمان] (٦) فى صَفَر دعا مُعاويةُ رجلا من بنى عَبْس ، اسمه قَبِيصة ، فدفع إليه طُومارا (٧) مختوما ، عنوانه « مِن مُعاويةَ إلى علىّ » وقال له : إذا دخلتَ المدينةَ فاقْبض

(١) الزيادة من الكامل لابن الأثير .
(٢) كذا جاء فى المخطوطة كالكامل ، وفى تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٣ ص ٤٦٤٣ : « أوجدا » .
(٣) تشب : توقد . والجزل : الحطب اليابس الغليظ . والضرم : السعف الذى فى طرفه نار ، والجمر .
(٤) كذا جاء فى النسخة (ن) . وفى (ك) : شنعا » .
(٦) الزيادة من ابن الأثير : .
(٧) الطومار : الصحيفة .

علَى أسفل الطُّومار . وأوصاه بما يقول ، وأعاد رسول علىٍّ معه ، فقدما المدينةَ فى شهر ربيع الأوّل ، ودخل العَبْسىُّ كما أمره مُعاوية ، والناسُ تنظر إلَى الطُّومار ، حتَّى دفَعه إلَى علىٍّ ، ففَضَّه ، فلم يجِد فيه كتابًا فقال للرسول : ما وراءك ؟ قال : وأنا آمِنٌ ؟ قال : نعَم ، إن الرُّسُل لا تُقْتَل . قال تركتُ قومًا لا يرضَوْن إلاَّ بالْقَوَد[1] . قال : مِمَّنْ ؟ قال « مِنْ خَيْط رَقَبَتِك ! وتركتُ ستِّين ألفَ شَيخ يَبكى تحت قميص عُثمان ، وهو منصوبٌ لهُم ، قد ألْبَسُوهُ مِنْبَرَ دِمَشق ! » قال : « أمِنِّى يطلبون دَمَ عُثمان ؟ ألستُ مَوْتورا بتِرَةِ[2] عُثمان ؟ اللهُمَّ إنِّى أبْرَأُ إلَيْك من دَم عُثمان ! نجا - والله - قَتَلَةُ عُثمان إلاَّ أنْ يشاء الله فإنه إذا أراد أمرا أصابه ! اخْرُجْ . » قال وأنا آمِنٌ ؟ قال : وأنت آمِن . فخرج العَبْسىّ ، فقالوا[3] : « هذا الكَلْب رسولُ الكلب ! اقتُلوه ! » فنادى : يا آلَ مُضَر . يا آلَ قَيْس ، الخيل والنبل ، وبالله أُقْسم لَيَرُدَّنَّها عليكم أربعةُ آلافِ خَصِىّ ! فانظروا كم الفُحول والرِكاب ؟ » وتعاوَوا[4] علَيه ، فمنعتْه مُضَر ، وجعلوا يقولون له : « اسْكتْ » فيقول : « لا والله ، واللهِ لا يُفلح هؤلاء أبدًا ، أتاهم ما يُوعَدون ، لقد حَلَّ بهم ما يَحْذَرُون ، انتهت واللهِ أعمالُهم وذهَبَت ريحهم[5] .

---

(١) القود : القصاص .

(٢) جاء عند ابن جرير وابن الأثير : كترة » والترة : الثأر والظلم فيه ، والموتور : المصاب بقتل حميمه ولم يدرك ثأره .

(٣) القائلون هم السبئية كما جاء عند ابن جرير وابن الأثير .

(٤) تعاووا (بالعين أو بالغين) أى : تجمعوا وتعاونوا .

(٥) فى القرآن الكريم : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ والمراد بالريح الدولة والقوة .

قال : وأظهر عليٌّ العزْمَ علَى قِتال مُعاوية ، وكتب إلى عُمَّاله أنْ يَنتدبوا الناسَ إلى الشام .

ثم استأْذَنَه طلحةُ والزُبيرُ فى العُمْرة ، فأَذِنَ لهما .

ودعا عليٌّ ابْنَه محمد بن الحَنَفِيَّة ، فدفع إليه اللِواء ، وولّى عبدَ الله بن عباس مَيْمَنَته ، وعَمْرو بن أبي سَلَمَة - أوعَمرو بن سُفْيان بن عبد الأسد - مَيْسَرته ، وجعل أبا لَيْلَى بن عمر بن الجَرَّاح (ابن أخى أبى عبيدة) علَى مقدّمته ، واستخلف على المدينة قَثَم بن العبّاس .

ذكر ابتداء وقعة الجمل

ومسير عائشة وطلحة والزبير ومن معهم إلى البصرة وما كان من الحرب إلى أن استقروا بها وإخراج عثمان بن حنيف عامل على رضى الله عنه

كان ابتداء وقعة الجمل أنَّ عائشة رضى الله عنها كانت قد خرجتْ إلَى الحجِّ وعُثمانُ مَحْصورٌ - كما ذكرنا - فلمَّا قضت الحجَّ وعادت أتاها الخبرُ بقتْلِه وخلافة عليٍّ ، وهى بسَرِف[1] ، فرجعتْ إلى مكة وهى تقول : « قتِل - واللهِ - عُثمانُ مظلومًا ! واللهِ لأَطْلُبَنَّ بِدَمِه ! » وطلبتْ مكة ، فقصدت الحجْر ، فسمرت فيه ، واجتمع الناس إلَيها ، فقالت : « أيُّها الناس ، إنَّ الغَوْغاء مِن أهل الامصار وأهل المياه وعَبيد أهل المدينة اجتمعوا علَى هذا الرجلِ المقتولِ ظُلما بالأمس ، ونقَموا[2] عليه استعمالَ مَنْ حدَثتْ سنُّه ، وقد استعمَلَ أمثالَهم

(١) سرف : موضع على ستة أميال من مكة .
(٢) نقموا : أنكروا .

مَنْ قَبْلَه ، ومَواضِعَ مِن الحِمَى حَماها لهم [١] ، [وهى أمور قد سُبِق بها لايصلُح غَيْرُها ،] [٢] فتابَعَهم ، ونَزَع [لهم] [٢] عنها (اسْتصلاحًا لهم) [٢] ، فلمَّا لم يَجِدوا حُجَّة ولا عُذْرًا بادرُوا بالعُدْوان ، فسفَكوا الدمَ الحرامَ ، وأستحلُّوا البلَدَ الحرامَ والشهْرَ الحرَام ، وأخذوا المال الحرام ، واللهِ لإصبعٌ من عُثمانَ خَيرٌ من طِباق الأرض أمثالهم ! ووالله لو أنَّ الَّذى اعْتَدوْا به عليه كان ذنبًا لخلَصَ منه كما يخْلُص الذَّهبُ من خَبَثة أو الثَّوبُ من دَرَنه إذ مَا صُوه [٣] كما يُماصُ الثَّوْبُ بالماء ! » فقال عبدُ الله بن [عمرْو بن] [٤] الحَضْرَمى (وكان عامِلَ عُثمـانَ علىَ مكة) : « ها أنا [ذا] [٥] أوّل طالب » ، فكان أوَّلَ مُجيب ، وتبعه [٦] بنو أمَيَّة علَى ذلك ، وكانوا قد هرَبوا من المدينة إلَى مكة بعد قتل عُثمان ، وتبعهم سَعيد بن العاص والوَليد ابن عُقْبة .

---

(١) قال عثمان — رضى الله عنه دفاعاً عن نفسه : « وأما الحمى فان عمر حمى الحمى قبل لإبل الصدقة فلما وليت زادت إبل الصدقة ، فزدت فى الحمى لما زاد فى إبل الصدقة » . انظر تاريخ ابن جرير الطبرى فى ج ٣ ص سنة ٣٩٠ .

(٢) الزيادة من تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٤٦٨ .

(٣) فى النهاية : « فى حديث عائشة قالت عن عثمان : مصتموه كما يماص الثوب ثم عدوتم عليه فقتلتموه ، الموص : الغسل بالأصابع يقال : مصته أموصه موصا ، أرادت أنهم استتابوه عما نقموا منه فلما أعطاهم ما طلبوا قتلوه » .

(٤) هذا هو الصواب ، كما ذكراه ابن حجر فى الإصابة ج ٢ ص ٣٥١ وابن جرير وغيره فى أسماء عمال عثمان ، وهو غير عبد الله بن عامر بن كريز القرشى وإلى البصرة الذى يأتى مذكره بعد أسطر . وقد جاء فى المخطوطة « عبد الله بن عامر الحضرمى » وهو خطأ وقع أيضا فى نسخ الطبرى وابن الأثير فى هذا الموضع .

(٥) كذا جاء فى تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٦٤٨ . ووقع فى المخطوطة : « ها أنا أول طالب » .

(٦) كان عبد الله بن الحضرمى حليفا لبنى أمية .

وقَدم عليهم عبدُ الله بن عامر[١] من البَصْرة بمال كثير ويَعْلى ابن أُمَيَّة (وهو ابْنُ مُنْيَة)[٢] مِن اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف ، فأناخ بالأَبْطَح .

وقدِم طَلحةُ والزُّبَيْر من المدينة ، فلقيا عائشة : فقالت : ماوراءكما ؟ فقالا : « إنَّا تحمَّلْنا هُرَّابا[٣] من المدينَة من غَوْغاء وأعراب ، وفارقْنا قَومًا حَيارَى، لا يعرفون حَقًّا ولا يُنكرون باطلا ولا يمنعون أنفسَهم » ، فقالت : انْهَضوا إلى هذه الغَوْغاء . فقالوا : نأتى الشام. فقال ابنُ عامر : « قد كفاكم مُعاويةُ الشَّامَ ، فأْتُوا البَصرة ، فإنَّ لى بها صنائع ، ولهم فى طَلحةَ هَوًى » ، قالوا : « قَبَحك الله! فواللهِ ماكنتَ بالمُسالم ولا بالمُحارب ، فهلاَّ أقمتَ كما أقام مُعاويةُ فنكتفِيَ بك ، ثم نأْتِيَ الكوفةَ فنسدَّ علَى هؤلاء القوم مَذاهبَهم » . فلم يجدوا[٤] عنده جوابا مقبولا .

حتَّى إذا استقام لهم الرأىُ علَى البصرة قالوا : « يا أُمَّ المؤمنين ، دَعِى المدينة ، فإنَّ مَنِ معنا لا يُطيق مَن بها من الغَوْغاء ، [واشْخَصى[٥] معنا إلَى البَصرة ، فإنَّا][٦] نأْتى بلدا مضيعا ، وسيحتجُّون علينا [فيه][٦] ببَيْعة علىٍّ فتُنْهضينهم[٧] كما أنْهضتِ أهلَ مكة ،

---

(١) سبق أنه ابن خال عثمان بن عفان وواليه على البصرة .

(٢) سبق ذكره وأنه عامل عثمان على صنعاء اليمن .

(٣) أى : ارتحلنا هاربين .

(٤) كذا جاء عند الطبرى وابن الأثير . وفى المخطوطة : « فلم تجد » .

(٥) أى : اذهبى .

(٦) الزيادة من تاريخ الطبرى .

(٧) كذا جاء عند الطبرى وابن الأثير وفى المخطوطة « فتنهضهم » . . وقد جاء فى بعض الروايات أن طلحة والزبير قالا لعائشة : « إنا نأتى أرضا قد أضيعت وصارت إلى على ، —

فإنْ أصلح اللهُ الأمرَ كان الذى أردنا ، وإلاَّ دَفِعنا [عن هذا الأمر] (١) بجهدنا ، حتَّى يقضىَ الله ما أراد » . فأجابتْهم إلَى ذلك .

ودعَوا عبدَ الله بن عمر ليَسيرَ معهم ، فأبَى ، وقال : « أنا رجل من أهل المدينة ، أفعَلُ مايفعلون » . فتركوه .

وكان أزواجُ النبىِّ صلى الله عليه وسلم مع عائشة على قَصْد المدينة ، فلما تغيَّرَ رأيُها إلَى البَصْرة تَرَكْنَ (٢) ذلك . وأجابَتْها حَفْصَةُ علَى المَسِير معها ، فمنَعَها أخوها عبدُ الله (٣) .

وجَّهزهم يَعْلَى بن مُنْيَة بستِّمِائة ألف وستمائة بعير ، وجهَّزهم ابنُ عامر بمال كثير .

ونادَى مُناديها : « إنَّ أمَّ المؤمنين وطَلحة والزُّبير شاخِصون إلى البَصرة ، فمن أراد إعزازَ الإسلام وقتالَ المُحِلين (٤) والطلبَ بثأْر عُثمان وليس له مَرْكب ولا جَهاز فلْيَأْت » . فحملوا ستِّمِائة علَى ستمائة بعير ، وساروا فى ألْف – وقيل فى تسْعِمائة – من أهل المدينة ومكة ، وتلاحقتْ بهم الناس ، فكانوا فى ثلاثة آلاف رجل .

وأعان يَعْلَى بن مُنْيَة الزُّبَيْر بأربعمائة ألف ، وحمَل سبعين

= وقد أجبرنا على على بيعته ، وهم محتجون علينا بذلك وتاركوا أمرنا ، إلا أن تخرجى فتأمرى ما أمرت بمكة » .

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .

(٢) كذا جاء عند الطبرى وابن الأثير ، وفى المخطوطة « تركوا » .

(٣) عبد الله بن عمر بن الخطاب أخو أم المؤمنين حفصة لأبيها وأمها . كما سبق فى هذا الكتاب ج ١٨ ص – ١٧٦ .

(٤) كذا جاء عند ابن جرير وابن الأثير . و « المحلون » يراد بهم هنا : الذين أحلوا ماحرم الله وانتهكوا حرماته ، وهذا يناسب ماسبق قريبا من قول عائشة « سفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام » ، وفى المخطوطة « المخلين » بالخاء المعجمة ، والمعنى عليه غير بعيد .

من قُرَيش ، وأعطَى عائشةَ جَمَلاً ، اسْمُه « عَسْكر » ، واشتراه بمِائتَىْ دِينار ، وقيل : بثمانين دينارا ، وقيل : كان لرجل من عُرَيْنة ، فابْتِيع منه بمَهْرِيّة[1] وأربعِمائة درهم أو ستمائة درهم .

وخرجتْ عائشة من مكة ومعها أُمَّهات المؤمنين إلى ذات عِرْق[2] فبكَوْا علَى الإسلام ، فلم يُرَ يَوم[3] كان أكثرَ باكيًا وباكيةً مِن ذلك اليوم ، وكان يُسَمَّى « يَوْم النَّحِيب » . .

وكتبتْ أُمُّ الفَضْل[4] بنتُ الحارث (أُمُّ عبد الله بن عبَّاس) إلَى عليٍّ بالخبر .

ولماخرجتْ عائشةُ مِن مكة أذَّنمَرْوانُ[5] بن الحَكَم ، ثمَّ جاء حتَّى وقف علَى طَلحة والزُّبيرْ فقال : علَى أيِّكُما أسَلِّمُ[6] بالإمْرة وأُؤَذِّنُ بالصلاة فقال عبدُالله بن الزُّبيْر : علَى أبي عبدِ الله (يعنى أباه) . وقال محمد ابن طَلحة : علَى أبي محمدٍ (يعنى أباه) . فأرسلتْ عائشةُ إلى مَرْوانَ فقالت : أتريد أنْ تفرِّق أمْرَنا ، لِيُصَلِّ بالناس ابْنُ أخْتى[7] (تعنى

(١) ناقة مهرية من نوع سريع معروف من الإبل . ينسب إلى « مهرة » .
(٢) موضع على مرحلتين من مكة . ينزل فيه مريد لحج من أهل العراق ليحرم بالحج منه .
(٣) كذا جاء عند ابن جرير وابن الأثير ، ووقع فى المخطوطة « يوما » .
(٤) هى لبابة بنت الحارث الهلالية ، اشتهرت بكنيتها .
(٥) مروان بن الحكم القرشى الأموى أبو عبد الملك ، وهو ابن عم عثمان وكاتبه فى خلافته .
(٦) كذا جاء عند ابن جرير . وفى المخطوطة : « أسأله » .
(٧) ابتعدت بذلك عن ذكر الشيخين اللذين وقع فيهما الاختلاف .

عبدَ الله بن الزُّبَيْر) . وقيل بل صَلَّى بالناس عبدُ الرحمن[١] بن عَتَّاب بن أَسِيد حتَّى قُتِل .

ولما انتهَوْا إلَى ذاتِ عِرْقٍ لَقِيَ سعيد[٢] بن العاص مَرْوانَ بن الحكم وأصحابه[٣] فقال : أَيْن تذهبون وتتركون ثَأْرَكم علَى أَعْجاز الإبل وراءكم ؟ (يعنى عائشة وطَلحة والزُّبَيْر) اقْتُلُوهم ثمَّ ارْجِعوا إلَى مَنازِلِكم ! فقالوا : نَسيرُ فَعَلَّنا نقتُلُ قَتَلَةَ عُثمان . . فخلا سعيد ابن العاص بطَلحة والزُّبَير ، فقال : اصْدُقانى إنْ ظَفِرتما لمن تجعلان الأَمر ؟ قالا : نَجعلُه لأَحدِنا أَيّنا اختاره الناس . قال : بل تجعلونه لولد عُثمان فإنَّكم خرجتم تطلبون بِدَمِه فقالا : نَدَعُ شُيوخَ المهاجرين ونجعلُها لأَبنائهم ! قال : فلا أَرانى أَسعَى إلاَّ لإخراجها من بنى عبد مَناف[٤] فرجع ، ورجع عبد الله بن خالد بن أَسِيد[٥] ، فقال المُغيرة بن شُعبة : « الرأى ما قال سعيد ، من كان ها هنا من ثَقيف فلْيرجع » ، ورجع .

ومضَى القومَ ، ومعهم أَبَانُ والوَليد ابنا عُثمان ، وكان دليلهم رجلا من عُرَيْنة ، وهو الَّذى ابْتِيع منه الجملُ (عَلى أَحد الأَقوال) ، قال العُرَنىُّ : فسِرْتُ معهم ، فلا أَمرُّ على وادٍ إلاَّ

---

(١) هو من الأمويين ، صحابى أو تابعى ، انظر الإصابة ج ٣ ص ٧٢ وشرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ٣ ص ٤١ .

(٢) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى .

(٣) بنى أمية .

(٤) قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٤٢ « طلحة من تيم بن مرة والزبير من أسد بن عبد العزى بن قصى ، وليس أحد منهما من بنى عبد مناف » .

(٥) عبد الله بن خالد أموى ، وهو ابن عم عبد الرحمن بن عتاب الذى سبق ذكره قريبا .

سألونى عنه ، حتى طَرَقْنا الحَوْأَبَ - وهو ماء[١] - فنبَحَتْنا كِلابُه فقالوا : أىُّ ماءٍ هذا ؟ قلتُ : هذا ماءُ الحَوْأَب ، فصرختْ عائشة بأعلَى صوتها ، واسترجعتْ[٢] وقالت : إنِّى لَهِيَهْ ! سمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : « لَيت شِعرى أيَّتُكُنَّ تَنْبَحُها كلاب الحَوْأَب ! » ثم ضربتْ عَضُدَ بَعيرها فأناخته ، وقالت : « رُدُّونى ! أنا والله صاحبةُ ماءِ الحَوْأَب ! » فأناخوا حَولَها يوما وليلة ، فقال لها عبد الله بن الزُّبَير : « إنه كذب ، وليس هو ماء الحَوأب » ولم يزل بها وهى تمتنع حتّى قال لها : النَّجاءَ النَّجاءَ ! قد أدرككم علىُّ بن أبى طالب . » فارتحلوا نحوَ البصرة ، فلما كانوا بفنائها لَقِيَهم عُمَير بن عبد الله التميمى فقال : (يا أمَّ المؤمنين ، أنشُدكِ اللهَ أن تقدمى اليومَ على قوم لم تُراسلى منهم أحدا ، فعجِّلِى ابْنَ عامر فإنَّ له بها صَنائع ، فليذهب إليهم[٣] » فأرسلته .

وكتبتْ عائشةُ إلَى رجال من أهل البصرة ، وإلَى الأَحْنَف بن قَيس وأمثالِه ، وأقامت بالحَفِير[٤] تنتظر الجواب .

ولما بلَغ ذلك أهل البصرة دعا عثمانُ بن حُنَيف عِمْرانَ بن حُصَيْن وأبا الأَسْوَد الدُّؤلىّ وقال : انطَلِقا إلَى عائشة واعْلَما عِلْمَها وعِلْمَ مَن معها ، فأتَياها وقالا : إنَّ أميرَنا بعثَنا إليكَ ليسألَكِ عن مَسِيرِكِ فهل أنتِ مُخْبِرَتُنا ؟ فقالت : « واللهِ ما مِثْلِى يَسِيرُ بالأمرِ المكتوم

(١) من مياه العرب على الطريق بين البصرة ومكة . ويصلح هذا الموضع لنزول المسافرين .

(٢) قالت : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٣) زاد ابن جرير الطبرى : « فليلقوا الناس حتى تقدمى ويسمعوا ماجئتم فيه »

(٤) الحفير : ما حفره أبو موسى الأشعرى على طريق البصرة إلى مكة فكان ماؤه عذبا .

إنَّ الغَوْغاء من أهل الأمصار ونُزَّاع [١] القبائل غَزَوْا حَرَمَ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام وأحدثوا فيه الأحداث [٢] ، وآوَوْا فيه المُحْدِثين [٣] ، فاسْتَوْجبوا لعنة الله ولعنة الرسول ، مع مَانالوا مِن قَتْل إمامِ المسلمين بلاتِرَةٍ [٤] ولا عُذْر ، فاستحلُّوا الدمَ الحرامَ فسفكوه ، وانْتَهبوا المالَ الحرامَ ، وأحلُّوا البلدَ الحرام والشهرَ الحرام ، ومزَّقوا الأعراضَ والجلود ، وأقاموا فى دار قَوم كارِهين لمقامِهم ضارِّين مُضِرِّين [٥] غير نافعين ولا مُنتفعين ، لا يَقدرون علَى امتناع ولا يأمنون ، فخرجتُ فى المسلمين أُعْلمهم ما أتَى هؤلاء ، وما فيه الناس وراءنا ، وماينبغى لهم أنْ يأتُوا فى إصلاح هذه القصّة » وقرأتْ : ﴿ لاخَيْرَ فى كثيرٍ مِن نَجْواهُمْ إلاَّ مَنْ أمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْمَعروفٍ أو إصلاحٍ بَيْنَ الناس [٦] ﴾ [ثم قالت [٧] :] « نهض [٨] فى

(١) النزاع من القبائل : جمع « النازع » وهو الغريب الذى نزع عن أهله وعشيرته أى : بعد وغاب .

(٢) الأحداث : جمع حدث ، وهو : الأمر الحادث المنكر الذى ليس بمعتاد ولا معروف فى السنة ، كما ذكره صاحب النهاية « فى حديث المدينة : من أحدث فيها حدثا ، أو آوى محدثا » .

(٣) آووا المحدثين : نصروا الجانين أو أجاروهم من خصومهم وحالوا بينهم وبين أن يقتص منهم .

(٤) الترة : الثأر .

(٥) قد جاء اللفظان بمعنى واحد ، وقد يكون المراد بـ « مضرين » : الذين يكرهون غيرهم على الأمور التى يريدونها .

(٦) من الآية ١١٤ من سورة النساء .

(٧) زيادة يقتضيها المقام .

(٨) عند الطبرى : « نهض » .

الإصلاح فيمن [١] أمر الله وأمر رسوله الصغير والكبير والذكر والأُنثَى ، فهذا شأْنُنا إلَى معروفٍ نأْمُركم به ونحضُّكم علَيه ، ومُنكرٍ نَنهاكم عنه ونحُثكم علَى تغييره فخرجا مِن عندِها ، فأَتَيا طلحةَ فقالا له : ما أَقْدَمَك ؟ قال : الطَّلَبُ بدمِ عُثمان . فقالا : أَلَمْ تُبايع عليًّا؟ قال : « بلَى ، والسَّيفُ علَى عنقى ، وما أَستقيل عليًّا البَيْعة إنْ هُوَ لم يحلْ بَيْنَنا وبين قَتَلة عُثمان » . ثم أَتَيا الزُّبَير فقالا له وقال مثْلَ ذلك . فرجعا إلَى عائشة فودَّعاها ، فودَّعت عمْرانَ ، وقالت يا أبا الأَسْوَد ، إيَّاكَ أَنْ يَقُودَك الهوَى إلَى النار ﴿ كُونُوا قَوَّامِين للهِ شُهَداء بالْقِسْط. ﴾ (الآية) [٢] . وسَرَّحَتْهما ، ونادَى مُناديها بالرَّحيل .

ومضَيا حتَّى أَتَيا عُثمانَ بن حُنَيْف ، فَبَدَرَ أبو الأَسْوَد عِمرانَ فقال :

يا ابْنَ حُنَيْفٍ قد أُتِيتَ فانْفِرِ [٣] .
وطاعِنِ القَوْمَ وجالِدْ واصْبِرِ
وابْرُزْ لهُمْ مُسْتَلْئِمًا [٤] وشَمِّرِ

فاسْتَرْجع [٥] عُثمان ، وقال : دارَتْ رَحَى الإسلام [٦] ورَبِّ الكعبة ! ونادَى فى الناس ، وأَمَرَهم بلبْسِ السلاح .

---

(١) عند الطبرى : « ممن » .
(٢) الآية ٨ من سورة المائدة .
(٣) انفر : تقدم للقتال .
(٤) مستلئما : لابسا اللأمة ، هى الدرع عدة الحرب .
(٥) قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .
(٦) روى أبو داود عن عبدالله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تدور رحى الإسلام بخمس وثلاثين أوست وثلاثين أوسبع وثلاثين » . . قال الخطابى فى شرحه ج ٤ ص ٣٤٠ : دوران الرحى كناية عن الحرب القتال ، شبهها بالرحى الدوارة التى تطحن الحب ، لما يكون فيها من تلف الأرواح وهلاك الأنفس . =

وأقبلتْ عائشةُ فيمن معها حتَّى انتَهَوا إلَى المِرْبَد [١] ، فدخلوا مِن أعْلاه ، ووقفوا حتَّى خرج عُثمان بن حُنَيْفٍ فيمن معه ، وخرج إلَى عائشة مِن أهل البَصْرة مَن أراد أن يكونَ معها ، فاجتمع القومُ كلُّهم بالمِرْبَد : عائشةُ ومَن معها فى مَيْمَنته ، وعُثمان ومَن معه فى مَيْسَرته .

فتكلَّم طَلحةُ ، فأنْصتوا له ، فحمِد اللهَ وأثنَى عليه وذكرَ عُثمان وفضْلَه وما استُحِلَّ منه [٢] ، ودعا إلَى الطلَب بدَمِه ، وحثَّهُم عليه . وتكلَّم الزُّبَيْر بمثل ذلك . فقال مَن فى مَيْمَنة المِرْبَد : صَدَقا وبَرَّا ! وقال مَن فى مَيْسَرته : « فجَرا ، وغَدَرا ، وأمَرا بالباطل ! بايَعا عليًّا ثم جاءا يقولان ما يقولان ! » وتحاثَى [٣] الناسُ وتحاصَبُوا [٤] .

فتكلَّمتْ عائشة ، فحمِدت الله وأثْنت علَيه ، وقالت : كان الناس يتجنَّوْن علَى عُثمان ، ويَزْرُون [٥] علَى عُماله ، ويَأْتوننا بالمدينة فيسْتَشيروننا فيما يُخْبروننا عنهم ، ويَرَوْن حَسَنا مِن كلامِنا فى إصلاح بَيْنِهم ، فننظر فى ذلك فنجِدُه بَرِيًّا تَقِيًّا وَفِيًّا ،

= قال الشاعر يصف حربا « فدارت رحانا واستدارت رحاهمو . . . . » قال زهير « فتعرككم عرك الرحى بثفالها . . . » .

(١) المربد : كان من أعظم محال البصرة أسواقها سككها .

(٢) فى رواية ابن جرير : وذكر عثمان وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتى إليه .

(٣) تحاثى الناس : تراموا التراب فرماه بعضهم فى وجه بعض ولم يذكر أصحاب الصحاح والنهاية واللسان والقاموس وشرحه هذا اللفظ فى مادته ، وذكروا « استحثى » لهذا المعنى الذى هو ظاهر فى التفاعل ، مثل « تحاصبوا » الآتى ، وسيأتى « تحاثوا » قريبا ، كما جاء هذا اللفظ عند ابن جرير وابن الأثير .

(٤) تحاصبوا : تراموا بالحصباء ، أى الحصى .

(٥) يزرون : يعيبون .

ونجدهم فَجرَةً غَدَرة كَذِبَه ، وهم يُحَاوِلون غَيْرَ مايُظهرون ، فلمَّا قدَروا علَى المُكاثرة كاثروه ، فاقْتَحموا علَيه دارَه ، واسْتحلُّوا الدمَ الحرام والمالَ الحرام ، والبلدَ الحرام ، بِلاتِرَةٍ [1] ولا عُذْر ، ألاَ إنَّ فيما ينبغى – لا ينبغى لكم غيرُه – أَخْذَ قَتَلَةِ عُثمان ، وإقامةَ كتاب الله ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذين أُوتوا نَصيبًا مِن الكتابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنهم ﴾ (الآية [2]) .

فافْترق أصحاب عُثمان بن حُنَيْف فِرقتَين : فقالت فرقةٌ : صدَقَتْ واللهِ وبَرَّت وجاءت بِالمعروف ، وقالت فِرقة خِلافَ ذلك . فتحاثَوْا وتحاصَبُوا وأَرْهَجوا [3] ، فلمَّا رأت عائشة ذلك انْحدرتْ وانحدرأهلُ المَيْمنة مُفارِقِين لعُثمان بن حُنَيْف ، حتَّى وقفوا فى المِرْبد فى موضع الدبّاغِين ، وبقِىَ أَصحاب عُثمان علَى حالهم ، يتدافعون حتَّى تحاجزوا ، ومال بعضهم إلى عائشة [4] .

وأقبل حُكَيم بن جَبَلة ، وهو علَى خَيْل ابن حُنَيْف ، فأَنْشَب القِتال ، فأَشْرَع أَصحاب عائشة رماحَهم ، وأمسكوا اليُمْسِك [5] ، فلم يَنْتَهِ ولم يَنْثَنِ ، وأَصحابُ عائشة كافُّون [إلاَّ مادافعوا عن أنفسهم [6]] ثمَّ اقتتلوا على فَمِ السِّكَّة ، وأَشرف أهل الدُّور ممن كان له فى أحَد

(١) الترة : الثأر .

(٢) من الآية ٢٣ من سورة آل عمران .

(٣) أرهجوا : أثاروا الغبار .

(٤) وبقى بعضهم مع عثمان بن حنيف على فم السكة ، كما ذكره ابن جرير ج ٣ ص ٤٨٢ .

(٥) هذا هو المناسب للفعلين بعده ، وعبارة ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٠٩ « وأمسكوا ليمسك حكيم وأصحابه » . وفى المخطوطة وتاريخ ابن جرير : « ليمسكوا » .

(٦) الزيادة من تاريخ ابن جرير .

الفريقين هَوًى ،فرمَوْا فى الأُخرَى بالحجارة. وأمرت عائشة أصحابَها فتيامَنوا ، حتَّى انتهَوْا إلَى مَقْبرة بنى مازِن ، فوقفوا بها مَلِيًّا[1] ، وثاب إلَيْهم الناس ، فحجز الليل بينهم. ورجع عُثمان إلَى القَصْر ، ورجع الناس إلَى قبائلهم ، وأتى أصحاب عائشة إلى ناحية دار الرزْق [وباتوا يتأهَّبون ، وبات الناس يأتونهم ، واجتمعوا بساحة دار الرزق [2]] .

وأصبح عُثمان فغاداهم[3] ، وخرج حُكَيْم ، فاقتتلوا قِتالا شديدا من حين بَزَغت الشمس إلَى أن زالت ، وقد كثُر القتل فى أصحاب ابن حُنَيْف ، وفشت الجِراحة فى الفريقَين ، ومُنادى عائشة يُناشِدهم ويدعوهم إلَى الكفِّ ، فيأبَوْن ، حتَّى إذا مسَّهم الشرُّ وعضَّتْهم الحربُ نادَوْا أصحاب عائشة إلَى الصلح ، فأجابوهم . وتداعَوْا[4] وكتبوا بينهم كتابا[5] علَى أن يبعثوا رسولا إلَى المدينة يسأَلُ أهلَها ،

(١) مليا : زمنا طويلا .

(٢) سقطت هذه العبارة من النسخة (ك) وثبتت فى النسخة (ن) .

(٣) غاداهم: أتاهم أفى وقت الغداة .

(٤) كذا فى المخطوطة ، أى : دعا بعضهم بعضا . وعند الطبرى « تواعدوا » . وعند ابن الأثير « توادعوا » .

(٥) الكتاب — كما ذكره ابن جرير وغيره — هو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين ، وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين ، أن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما فى يده ، وأن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما فى أيديهما ، حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم كعب بن سور من المدينة ، ولا يضار واحد من الفريقين الآخر فى مسجد ولا سوق ولا طريق ولا قرضة ، بينهم عيبة مكفوفة ، حتى يرجع كعب الخبر ، فان رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما ، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته وإن شاء دخل معهما ، وإن رجع أنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان ، فان شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة على وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما ، والمؤمنون أعوان الفالج منهما » .

فإن كان طَلْحة والزُّبَير أكْرِها علَى مُبايعة علىٍّ خرج ابْنُ حُنَيْفٍ عن البصرة وأخْلاها لهم ، وإنْ كانا لم يُكْرَها على البَيْعة خرج طَلْحةُ والزُّبَير .

فسار كَعْب [١] بن سُورٍ حتَّى أتَى المدينةَ ، فقدِمَها يومَ جُمعة فسأل أهلَها هل أُكْرِهَ طَلْحةُ والزُّبَير علَى بَيْعة علىٍّ أمْ أتَيَاها طائعَيْن؟ فلَم يُجِبْهِ أحد إلا أُسامة ابن زَيد فإنه قال : اللهمَّ إنَّهما لم يُبايعا إلاَّ وهما مُكْرَهان . فواثَبَه سَهْل بن حُنَيْف والناسُ ، وثار صُهَيْبٌ وأبو أيُّوبَ فى عِدَّة من الصحابة ، منهم محمد بن مَسْلَمة ، حين خافوا أن يُقْتَلَ أسامة ، فقالوا : اللهمَّ نَعَمْ . فتركوه ، وأخذ صُهَيْب أسامةَ بِيَدِه إلَى منزله .

وبلغ عليًّا الخبرُ [٢] ، فكتَب إلَى عُثمان بن حُنَيف أنَّهما لم يُكْرَها علَى البَيْعة .

فلمَّا عاد كَعْب بن سُورٍ أمَر عثمانَ بالخروج عن البَصرة ، فامْتَنع ، واحتجَّ بكتاب علىٍّ ، فجمع طَلحة والزُّبَير الرجالَ فى لَيلة مُظْلمة ذاتِ رِياح ومطر ، وقصدوا المسجدَ واقتتلوا ، فقُتِل من أصحاب ابن حُنَيْفٍ أربعون رجلا ، ودخل الرجال على ابن حُنَيْفٍ فأخرجوه [إلَيْهما] [٢] ، فما وصل وفى جهه شَعْرةٌ ، فاستعظَما ذلك ، وأرسلا إلَى عائشة فى أمره ، فأرسلتْ أنْ خلُّوا سبيلَه ، وبقِىَ طَلْحةُ والزُّبَيْر بالبصرة ومعهما بَيْتُ المال والحرس ، واستتر مَن لم يكن معهما .

وبلغ حُكَيْمَ بن جَبَلَة ما حَلَّ بعُثمان [بن حُنَيْف] [٣] فقال : لستُ

(١) كان قاضى البصرة .

(٢) كذا جاء عند ابن الأثير . وفى المخطوطة « على » .

(٣) كذا جاء فى (ك) وتاريخ ابن الأثير . وسقط من (ن) .

أخافُ الله إنْ لم أنصُرْه . فجاء فى جماعة من عبْد القَيْس ومن تبعه من رَبِيعة – وكان بَيْنه وبين عبد الله بن الزُّبَيْر محاورات [١] – ثمَّ التَقَوْا واقتتلوا قتالا شديدا ، فكان حُكَيْمٌ بحِيال طَلْحة ، وذَرِيح بحيال الزُّبَير ، وابن المُحَرِّش [٢] بحيال عبدالرحمن بن عَتَّاب ، وحُرْقُوص ابن زُهَير بحِيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فقُتِل حُكَيْمٌ وابْنُه وأخوه ، وقُتِل ذَرِيح ، وأفْلَتَ حُرْقُوص فى نَفَر من أصحابه وجىء إلى طلحة والزبير بمن كان فيهم ممن غزا المدينة ، فقتلوا .

وكانت هذه الوَقْعة لخمسٍ بَقِينَ من شهر ربيع الآخِر من السنة وبايَعَ أهلُ البصرة طَلْحَةَ والزُّبَيْر .

ذكر مسير على الى البصرة

وما اتَّفق له فى مسيره ومن انضمَّ إلَيه ومراسلته أهل الكوفة

قال : وكان علىٌّ رضى الله عنه قد تجَّهز لقصدِ الشام لقتال مُعاوِية ، لما أظهر الخلاف عليه ، كما تقدم ، فبينما هو علَى ذلك أتاه الخبرُ عن طَلْحة والزُّبَيْر وعائشة من مكة بما عزموا عليه ، فلما بلغه ذلك وأنهم يريدون البَصرة سرَّه ذلك ، وقال : إن الكوفة فيها رجال [من] [٣] العرب وبَيُوتاتُهم . فقال له ابن عبَّاس – رضى الله عنهما – :

(١) انظر المحاورات بين حكيم بن جبله وعبد الله بن الزبير عند ابن جرير وابن الأثير .

(٢) « ابن محرش » هكذا ضبطه بعض العلماء بالحاء المهملة والراء المشددة ، وضبطه بعضهم بقوله « ابن المخترش » بالخاء المعجمة والتاء بعدها ، واسمه : خويلد ابن عمرو بن صخر .

(٣) جاءت هذه الزيادة فى النسخة (ن) .

« إنَّ الَّذى سَرَّكَ من ذلك لَيَسُوءُنى ، إنَّ الكوفة فُسْطاط فيه من أعلام العرب ولا يزال فيها مَن يَسْمُو إلَى أمرٍ لا ينالُه ، فإذا كان كذلك شَغَبَ علَى الَّذى قد نال مايُريد ، حتَّى يكسِرَ حِدَّته . » فقال علىٌّ : إنَّ الأمرَ لَيُشْبِهُ ماتقول .

وتهيَّأ للخروج إلَيهم ، فنَدَب أهلَ المدينة للمَسِير معه ، فتثاقلوا فبعث إلَى عبد الله بن عمر كُمَيْلا النَّخَعى (١) ، فجاء به ، فدعاه إلى الخروج معه ، فقال : « إنَّما أنا من أهل المدينة ، وقد دخلوا فى هذا الأمر ، فدخلتُ معهم ، فإنْ يخرُجوا أخرجْ معهم [وإنْ يقعدوا أقعُدْ . » قال : فأعطِنى كَفيلا . قال : لا أفعل (٢)] . فقال له علىٌّ : لولا ماأعرِف مِن سُوءِ خُلقك صغيرا وكبيرا لأنكرْتَنى ! دعُوه فأنا كَفيله . فرجع ابنُ عُمَر إلى أهل المدينة وهم يقولون : « واللهِ ماندرِى كيف نصنع ؟ إنَّ الأمرَ لَمُشْتَبه علَينا ، ونحن مقيمون حتَّى يُضىء ! » فخرج مِن تحت لَيلته . وأخبر أمَّ كُلثوم (ابْنةَ علىٍّ ، وهى زوجةُ عُمر) بالَّذى سمِع وأنَّه يخرُج مُعْتمرا مُقيما علَى طاعة علىٍّ ماخلا النهوض (٣) . فأصبح علىٌّ فقيل له : حَدَثَ الليلة حدثٌ هو أشدُّ من أمْرِ طَلْحة والزُّبَيْر وعائشة ومُعاوية ! قال : وماذاك ؟ قالوا : خرَج ابنُ عُمر إلى الشام ! فأتى السوقَ ، وأعدَّ

(١) كميل بن زيادة بن نهيك النخعى ، كان شريفا مطاعا من رؤساء الشيعة ، عاش حتى قتله الحجاج .

(٢) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) كما جاءت عند ابن جرير وابن الاثير . وسقطت من النسخة (ك) .

(٣) كان على رضى الله عنه قد قال لابن عمر حين دعاه إلى الخروج معه : « انهض معى » .

الظَّهْر (١) [والرِّحال ، وأعدّ] (٢) لكل طريقٍ طُلاَّبا ، وماجَ الناس ، فسمِعتْ أمُّ كُلثوم ، فأتت عليًّا فأخبرته الخبر (٣) ، فطابت نفسُه ، وقال : « انصرِفوا ، والله ما كذَبتْ ولا كذَب ، وإنَّه عندى ثِقَة » . فانصرَفوا .

ثم أتَى عليًّا الخبرُ بمَسِير طَلحةَ والزُّبيرِ وعائشة من مكة نحوَ البَصِرة ، فدعا وجوهَ أهلِ المدينة وخَطَبهم ، فحمِد اللهِ وأثنَى علَيهِ وقال : « إنَّ آخِرَ هذا الأمرِ لا يصلُح إلاَّ بما صلَح أوَّله ، فانصُروا اللهَ ينصرْكم ويُصْلِحْ لكم أمركم . » فتثاقلوا ، فلمَّا رأى زِياد بن حَنْظَله تثاقُلَ الناس انْتَدَب (٤) إلَى عليٍّ رضى الله عنه وقال له : مَن تثاقَلَ عنك فإنَّا نَخِفُّ معك فنقاتل دُونَك . وقام أبو الهَيْثم (٥) ابن التَّيِّهان وخُزَيْمَة بن ثابت . قال ابن الأثير (٦) : « قال الحكم : ليس بِذى الشهادتَين ، مات ذو الشهادتين أيّامَ عُثمان رضى الله عنه » . وقال أبو عُمر ابن عبد البر فى ترجمة (٧) خُزَيْمة بن ثابت

(١) الظهر : الإبل التى يحمل عليها وتركب .

(٢) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) ، وعبارة ابن جرير : « ودعا بالظهر فحمل الرجال » ، وعبارة ابن الأثير : « وأعد الظهر والرجال » .

(٣) كذا جاء فى (ن) ، وفى (ك) : « بالخبر » .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة وتاريخ ابن الأثير . وجاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى : « ابتدر » .

(٥) أبوا الهيثم بن التيهان صحابى أنصارى ، اسمه مالك ، وله ترجمة فى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ٢ ص ٥٣٩ والاستيعاب ج ٣ ص ٣٦٨ والإصابة ج ٣ ص ٣٤١ وأسد الغابة ٤ ص ٢٧٤ .

(٦) فى الكامل ج ٣ ص ١١٣ ، وعبارته مأخوذة من ابن جرير فى تاريخه ج ٣ ص ٤٦٧ .

(٧) ج ١ ص ٤١٧ – ٤١٨ من الاستيعاب .

ذى الشهادتين [١] : (إنه شهد مع علىٍّ حرب الجمل وصِفِّين فدلَّ علَى أنه هو ، والله أعلم .) فأجابا عليًّا إلَى نصرته .

وقال أبو قَتادة الأنصارى لعلىٍّ : « يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَلَّدنِى هذا السَّيفَ ، وقد أغمدتُه زمانا ، وقد حان تجريدُه علَى هؤلاء القوم الظالمين الَّذين لم يألُوا الأمةَ غِشا ، وقد أحببتُ أن تقدِّمَنى ، فقدِّمْنى » .

قال [٢] : ولما أراد علىٌّ المَسِيرَ إلَى البصرة وكان يرجو أن يُدركَ طَلحة والزُّبَيْرَ فيرُدهما قبل وصولهما إلَى البصرة ، فلمَّا سار استخلف علَى المدينة تمَّام بن العبَّاس ، وعلَى مكة قُثَمَ بن العَبَّاس ، وقيل : أمَّرَ علَى المدينة سَهْلَ بن حُنَيْف ، وسار فى تَعْبِئَته التى كانت لأهل الشام ، وذلك فى آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين .

وخرج معه مَن نشطَ من الكوفيين والبصريين متخففين فى تسعمائة ، فلقِيَه عبد الله بن سَلاَم فأخذ بعِنانه ، وقال : « يا أميرَ المؤمنين ، لاتخرُجْ منها ، فوالله لئن خرجتَ منها [٣] لا يعودُ إليها سلطانُ المسلمين أبدا ! » فسَبُّوه ، فقال : « دعُوه ، نِعْمَ الرجلُ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » . وسار حتَّى انتهَى إلَى الرَّبَذة [٤] ، فأتاه خبر سَبْقِهم إلَى البَصرة ، فأقام بها يأتَمِر ما يفعل .

---

(١) سمى خزيمة : « ذا الشهادتين » لأن النبى صلى الله عليه وسلم جعل شهادته كشهادة رجلين .

(٢) القائل ابن الأثير فى الكامل .

(٣) فى رواية ابن جرير الطبرى ج ٣ ص ٤٧٤ : « لا ترجع إليها ولا يعود . . . »

(٤) الربذة : قرية بين المدينة وفيد .

ذكر ارسال على الى أهل الكوفة

وعَوْد رُسله وإرسال غيرهم

وما كان من إخراج أبي موسى الأشعريّ

عن الكوفة وانضمام أهل الكوفة إلى عليّ

وما كان فى خلال ذلك من الأخبار

قال : ولماأقام عليٌّ – رضى الله عنه– بالرَّبَذة أرسل منها محمدَ بن أبي بكر الصديق ومحمدَ بن جعفر رضى الله عنهم إلَى أهل الكوفة ، وكتب إليهم : « إنى قد اخترتكم علَى الأمصار ، وفزِعتُ إلَيكم لما حدَث ، فكونوا لدين الله أعْوانا وأنصارا ، وانْهضوا إلينا ، فالإصلاحَ نريد ، لتعودَ هذه الأمّة إخوانا » . فمضَيا .

وأقام بالرَّبَذة ، وأرسل إلَى المدينة ، فأتاه مايُريد من دابّة وسلاح .

ثم قام فى الناس فخطَبهم وقال : إنَّ الله تبارك وتعالى أعَزَّنا بالإسلام ورفَعَنا به ، وجعَلَنا إخوانا بعد ذِلَّة وقِلَّة وتباغُض وتباعُد ، فجرَى الناس علَى ذلك ماشاء الله ، الإسلامُ دِينُهم ، والحقُّ فيهم ، والكتابُ إمامُهم ، حتَّى أصيبَ هذا الرجلُ بأيدى هؤلاء القوم الَّذين نَزَغَهم[1] الشيطانُ ، لينزَغَ[2] بين هذه الأمَّة ، ألاَ وإنَّ هذه لابُدَّ مفترقة كما افترقَت الأمم قبلها ، فنعوذ باللهِ من شر ما هو كائن

ثم عاد ثانية فقال : إنَّه لابد مما هو كائن أن يكون ، ألا وإن

(١) نزغهم : نخسهم ووسوس لهم .

(٢) ينزغ : يفسد .

هذه الأمّة ستفترق[١] علَى ثلاث وسبعين فِرقةً ، شرُّها فرقةٌ تنتحلنى[٢] ولا تعمل بعملى ، وقد أدركتم ورأيتم[٣] ، فالزَموا دِينَكم ، واهْدُوا بهَدْيى ، فإنه هَدْى نبيّكم ، واتّبعوا سُنّته ، وأعْرِضوا عمّا أشكل علَيكم حتّى تَعرضوه علَى القرآن ، فما عرفه القرآنُ فالْزَموه ، وما أنْكره فرُدُّوه ، وارْضُوا بالله ربًّا ، وبالإسلام دِينا ، وبمحمد نبيًّا ، وبالقرآن حكما وإماما .

قال : ثمَّ أتاه جماعة من طيّىء ، وهو بالرَّبذة ، فقيل له : هذه جماعة قد أتتك ، منهم مَن يُريد الخروجَ معك ، ومنهم من يُريد التسليمَ عليك . فقال : جزى اللهُ كُلاًّ خَيرا ﴿ وفضَّلَ اللهُ المجاهِدِين علَى القاعِدين أجْرًا عظِيمًا ﴾[٤] . فلمَّا دخلوا علَيه قال لهم : ماشهِدتمونا قال به ؟ قالوا : شهِدْناك بكلِّ ما تُحب . فقال : « جزاكم الله خيرا ! قد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافَيْتم بصدقاتكم المسلمين » . فنهض سعيد بن عبيد الطائى فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنَّ من الناس مَن يُعبِّر لسانُه عن قلبه ، وإنّى — واللهِ — ماكلُّ[٥] ما أجد فى قلبى يعبّر عنه لسانى ، وسأَجْهَد وبالله التوفيق ، أمّا أنا فسأَنصح

(١) هذا مأخوذ من حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أحمد بن حنبل وابو داود عن معاوية بن أبى سفيان أنه قام فقال : ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا فقال : « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، اثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة » . انظر معالم السنن ج ٤ ص ٢٩٥ .

(٢) تنتحلنى : تنتسب إلى .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة مثل الذى رواه ابن جرير . وجاء فى الكامل لابن الأثير : « وقد أدركتهم ورأيتهم » .

(٤) من الآية ٩٥ من سورة النساء .

(٥) كذا جاء عند الطبرى . وفى المخطوطة هذه العبارة : « وإنى والله ماأجد لسانى يعبر عما فى قلبى » .

لك فى السر والعلانية ، وأقاتل عدوَّك فى كل موطن ، وأرَى من الحقِّ لك ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك » . فقال : « يرحمك الله ! قد أدَّى لسانك عما يُجِنُّ ضميرُك » . (١)

قال : ثم سار علىٌّ – رضى الله عنه – من الرَّبَذة ، وعلَى مقدّمته أبوليلى بن عمرو بن الجراح ، والراية مع ابنه محمد بن الحنفيّة ، وعلىٌّ على ناقة حمراء يقود فرسًا كُمَيْتا ، فلمَّا نزل بِفَيْد (٢) أتته أسد وطيِّىء ، فعرّضوا عليه أنفُسَهم فقال : فى المهاجرين كفاية . وعرضتْ عليه بَكْرُ بن وائل أنفسها ، فقال لها كذلك .

قال : وانْتَهَى إلَى ذى قارٍ (٣) أتاه عُثمان بن حُنَيْفٍ وليس فى وجهه شعرة (٤) – وقيل : إنَّه أتاه بالرَّبَذةَ – فقال : ياأميرَ المؤمنين بعثْتَنى ذا لحيْة وقد جئتُكَ أمْرَد ! قال : أصبتَ أجرًا وخيرا ! . وأقام بِذِى قار ينتظر جوابَ أهل الكوفة (٥) .

وكان مِن خَبر محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر أنَّهما أتَيا أبا موسَى الأشْعَرىَّ بكتاب علىٍّ ، وقاما فى الناس بأمره ، فلم يُجابا بشىء ، فلما أيِسُوا دخَل ناس من أهل الحجا علَى أبى موسى فقالوا : ما ترَى فى الخروج ؟ فقال : « كان الرأىُ بالأمس ليس اليوم (٦) ، إن

(١) زاد الطبرى وابن الأثير : « فقتل معه بصفين ، رحمه الله » .

(٢) فيد : موضع فى منتصف الطريق بين العراق والحجاز .

(٣) ذوقار : موضع قريب من الكوفة ، اشتهر عند العرب بوقعة مشهورة كانت بين بكر وكسرى .

(٤) كان محاربوه قد نتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه .

(٥) كذا جاء فى المخطوطة ، وعند ابن جرير وابن الأثير « أمسوا » .

(٦) كذا جاء فى المخطوطة والكامل لابن الأثير . وفى تاريخ ابن جرير : « باليوم » .

الَّذى تهاونتم به فيما مضَى هو الذى جَرَّ عليكم ما ترَوْن ، إنَّما هما أمران : القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا » فلم يَنفِر إلَيه أحد ، فغضب محمد ، فأغلظا لأبى موسى ، فقال لهما : « واللهِ إنَّ بَيْعة عُثمان فى عُنقى وعُنق صاحِبكما ، فإنْ لم يكن بُدٌّ مِن قِتالٍ لانُقاتلْ أحدًا حتَّى نَفْرُغَ من قَتَلة عُثمان حيث كانوا » .

فانطلقا إلَى علىٍّ فأخبراه الخبر وهو بذِى قار ، فقال للأشْتَر وكان معه : « أنت صاحبنا فى أبى موسى والمعترض فى كل شىء ، اذهبْ أنت وابن عبّاس فأَصلِحْ ماأفسَدْتَ » .

فخرجا ، فقدِما الكوفةَ ، فكلَّما أبا موسى ، واستعانا عليه بنَفَر من أهل الكوفة ، فخطَبهم أبو موسى فقال « أيُّها الناس ، إنَّ أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الَّذين صحِبوه [فى المَوَاطِن] (١) أعلَمُ بالله ورسوله ممَّن لم يصحَبْه ، وإنَّ لكم علَيْنا حقًّا ، وأنا مُؤَدٍّ إلَيكم نصيحة ، كان الرأى ألاَّ تستخفُّوا بسلطان الله ، وألاتجترئوا علَى الله ، وأن تأخذوا مَن قدِم علَيكم من المدينة فتردُّوهم إلَيها حتَّى يجتمعوا فهم أعلمُ بمن تصلُح له الإمامة [منكم] (٢) ، وهذه فِتنةٌ صمَّاء (٣) ، النائم (٤) فيها خَير من اليقظان ، والْيَقظانُ خَير من القاعد ، والقاعدُ خَير من القائم ، والقائمُ خَير من الراكب ، والراكبُ خير من الساعى ،

(١) الزيادة من رواية ابن جرير الطبرى .

(٢) الزيادة من رواية ابن جرير .

(٣) الفتنة الصماء هى التى لاسبيل إلى تسكينها ، لأن الأصم لايسمع النداء فلا يقلع عما بفعله : وقيل : هى كالحية الصماء التى لاتقبل الرقى .

(٤) هذا وما يتصل به بعده مأخوذ من حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى ذكره قريبا .

فكونوا جُرْثُومة[١] من جراثيم العرب ، فأغمِدوا السُّيوف ، وأنصلوا[٢] الأَسِنَّة ، واقصعوا الأَوْتار ، وآوُوا[٣] المظلوم والمُضْطَهَد ، حتّى يَلتئمَ هذا الأَمر ، وتنجلىَ هذه الفِتْنة » .

فرجع ابنُ عبّاس والأَشترُ إلَى علىٍّ ، فأخبراه الخبر .

فأرسل ابْنَه الحسَنَ وعَمّارَ بن ياسِر ، رضى الله عنهما ، وقال لعَمّار : انطلِقْ فأَصلِحْ ما افسدتَ . فأقبلا حتّى دخلا مسجد الكوفة ، فكان أوّل مَن رآهما مسروق[٤] بن الأَجْدع ، فسلّم عليهما ، وأقبل علَى عَمّار فقال : يا أبا اليَقظان عَلامَ قتلتم عُثمان ؟ قال : علَى شتْم أعراضِنا وضَرْبِ أبْشارِنا[٥] ! قال : فَوَاللهِ ما عاقبتم بمثل ماعُوقبتم به ولا صبَرتم فكان خيرًا للصابرين[٦] ! .

فخرج أبو موسى فلقِيَ الحسَنَ فضمّه إلَيه ، وأقبل علَى عَمّار قال : يا أبا اليَقْظان أعَدَوْتَ علَى أمير المؤمنين فيمن عدا فأَحْلَلْتَ نفسك مع الفُجّار ؟ فقال : لم أفعلْ ولم يَسوْنى ! فقطع الحسَنُ عليهما [الكلام[٧]] ، وأقبل علَى أبى موسى فقال له : « لِمَ تُثَبِّطُ

(١) الجرثومة : الأصل .

(٢) انصلوا الأسنة : انزعوا أسنة الرماح ، أى : أخرجوا الأسنة من أماكنها إبطالا للقتال .

(٣) كذا جاء فى النسخة (ن) وتاريخ ابن جرير وابن الأثير ، أى : ضموه إليكم . وحوطوه بينكم . وفى النسخة (ك) : « وانصروا » .

(٤) كذا جاء فى تاريخ ابن جرير والقاموس والإصابه ج ٣ ص ٤٩٢ حيث ترجمته . وفى المخطوطة : « المسروق » .

(٥) أبشار : جمع بشر ، و « بشر » اسم جنس جمعى واحده : بشرة ، وهى ظاهر الجلد .

(٦) مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ الآية ١٢٦ من سورة النحل .

(٧) الزيادة من الكامل لابن الأثير .

الناسَ عَنَّا ؟ فَوَاللهِ ماأردْنا إلاَّ الإصلاح ، ولا مِثْلُ أميرِ المؤمنين يُخافُ علَى شيء ! » قال : صدقتَ ، بأبِي أنت وأُمِّي ! ولكن » المُستشار مُؤْتَمنَ (١) ، سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنها ستكونُ فِتنة ، القاعدُ فيها خَيْرٌ من القائم ، والقائمُ خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب (٢) » وقد جعلَنا الله إخوانًا ، وحرَّم علينا دماءنا وأموالنا .

فغضب عَمّار ، وسَبَّه ، وقام فقال : ياأيُّها الناسُ إنَّما قال له وحْدَه « أنتَ فيها قاعدا خيرٌ منك قائما » ! .

فقام رجل من بنى تميم ، فسَبَّ عَمّارا وقال : أنت أمسِ مع الغَوْغاء واليومَ تُسَافِهُ أميرنا ! .

وثار زَيد بن صُوحان وأمثالُه ، وثار الناس ، وقام زَيْدٌ علَى باب المسجد ، ومعه كتابٌ من عائشة إلَيه تأمُرُه بملازمة بَيته أو نُصْرتها ، وكتابٌ إلَى أهل الكوفة بمعناه ، فأخْرَجَهما فقرَأهما على الناس ، فلما فَرَغ منهما قال : « أُمِرَتْ أنْ تقرَّ فى بَيْتها (٣) ، وأمِرْنا أنْ نقاتِلَ حتَّى

---

(١) « المستشار مؤتمن » حديث رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد أنه أمين على مااستشير فيه .

(٢) هذا الحديث رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة ، فقد رواه البخارى عن أبى هريرة فى الحديثين ٦٦٥٤ ، ٦٦٥٥ ، ورواه مسلم عن أبى هريره وأبى بكرة ، انظر شرح النووى ج ١٨ ص ٨ — ٩ ، وروى الترمذى أن سعد بن أبى وقاص قال عند فتنة عثمان بن عفان أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إنها ستكون فتنة . . » ثم عقبة بقوله « قال أبوعيسى : وفى الباب عن أبى هريرة وخباب بن الأرت وأبى بكرة وابن مسعود وأبى واقد وأبى موسى وخرشة ، وهذا حديث حسن » ج ٩ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٣) يشير إلى قول الله تعالى : ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ .

لا تكونَ فِتْنة [١] ، فأَمَرْتَنا بما أُمِرْتَ به ، ورَكِبْتَ ما أُمِرْنا به ! » .

فقال له شَبَث بن رِبْعِيّ : ياعُمَانِيّ [٢] ، سرقتَ بِجَلُولاء [٣] فقطعت يدك ! وعصيْتَ أمَّ المؤمنين [فقتلك الله [٤]] ! .

وتهاوى الناس . قام أبو موسى فقال : أيُّها الناس ، أطيعونى ، وكونوا جُرْثُومة مِن جراثيم العرب ، يأْوِى إلَيكم المظلوم ، ويأْمَنُ فيكم الخائف إنَّ الفِتنة إذا أقبلتْ شَبَّهتْ ، وإذا أدبرتْ بيَّنَتْ [٥] وإنَّ هذه الفِتْنة بَاقِرة [٦] كَدَاء البَطْن [٧] ، تجرى بها [٨] الشَّمال والجَنوبُ والصَّبا والدَّبور ، تَذَرُ الحكيمَ وهو حَيْران كابْنِ أَمْس ، شيمُوا [٩] سُيوفكم ، واقصِدوا [١٠] رِماحَكم ، وقطِّعو أوْتارَكم والْزَموا بيوتَكم ، خلُّوا قريشا إذ أبَوْا إلاَّ الخروجَ مِن دار الهجرة وفِراقَ أهل العلم [١١] ، استنصحونى ولا تستغشونى ، أطيعونى يسلم لكم دينكم ،

---

(١) يشير إلى قول الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ .

(٢) قال ابن جرير وابن الأثير : زيد من « عبد القيس » وهم يسكنون عمان .

(٣) جلولاء : قرية بالعراق كانت بها وقعة مشهورة على الفرس للمسلمين .

(٤) الزيادة من ابن جرير .

(٥) أى أنها إذا أقبلت شبهت على القوم وأوهمتهم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها ويركبوا منها مالا يجوز ، فاذا أدبرت وانقضت بان أمرها فعلم من دخل فيها أنه كان على الخطأ .

(٦) كذا رواها ابن جرير فى تاريخه ، وقال صاحب النهاية : فى حديث أبى موسى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سيأتى على الناس فتنة باقرة تدع الحليم حيران » أى : واسعة عظيمة . وفى المخطوطة : « فاقرة » .

(٧) فى النهاية : « إن هذه لفتنة باقرة كداء البطن لا يدرى أنى يؤتى له » أى أنها مفسدة للدين مفرقة للناس وشبهها بداء البطن لأنه لا يدرى ماهاجه وكيف يداوى ويتأتى له .

(٨) كذا رواها ابن جرير ، وفى المخطوطة : « به » .

(٩) شيموا : اغمدوا .

(١٠) اقصدوا : اكسروا .

(١١) فى تاريخ الطبرى : « العلم بالإمرة » .

ودنياكم ويشقى بجر هذه الفتنة من جناها .

فقام زيد ، فشال يَدَه المقطوعة ، فقال : ياعبد اللهِ بن قَيْس[١] رُدَّ الفُراتَ عن أدْراجه ، ارْدُدْهُ مِن حيثُ يجيءُ حتَّى يعودَ كما بدأ فإنْ قدَرتَ علَى ذلك فستقدرُ علَى ماتريد ، فدَعْ عنك مالستَ مُدْرِكَه ، سيروا إلَى أمير المؤمنين وسيّد المسلمين ، انفِروا إلَيه أجمعين تصُيبوا الحقَّ ! .

فقام القَعْقاعُ بن عَمْرو[٢] فقال : « إنِّى لكم ناصح ، وعلَيكم شَفيق ، أحِبُّ لكم أن تَرشُدوا ، ولأقولَنَّ لكم قولا هو الحقُّ ، أمَّا ماقال الأميرُ فهو الحقُّ لو أنَّ إلَيه سبيلا ، وأمَّا ما قال زَيْد فزَيْدٌ عدوُّ هذا الأمير فلا تسنصِحوه ، والقولُ الَّذى هوالحق أنه لابُدَّ من إمارة تنظم الناس ، وتَزَعُ[٣] الظالم ، وتُعِزُّ المظلومَ وهذا أميرُ المؤمنين مَلِيءٌ[٤] بما وَلِى ، وقد أنصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلَى الإصلاح ، فانفِروا وكونوا مِن هذا الأمر بمرْأىً ومَسْمَع » .

وقال عَبْدُ خَيْرٍ الخَيْوانى : يا أبا موسى هل بايعَ طَلحةُ والزبير عليًّا ؟ قال : نَعَمْ ! قال : هل أحدَث علىٌّ مايحلّ به نقْض بَيعته ؟ قال : لاأدرى . قال : « لادَرَيْتَ ! نحن نتركك حتَّى تدرك ! هل تعلم أحدا خارجا من هذه الفتنة ؟ إنَّما الناس أربعُ فرَق : علىٌّ

(١) عبد الله بن قيس هو أبو موسى الأشعرى .

(٢) القعقاع بن عمرو التميمى كان من الصحابة والفرسان .

(٣) هكذا جاء عند ابن جرير وابن الأثير ، و « تزع » بمعنى : تكف وتمنع وتزجر وفى المخطوطة « ترع » .

(٤) ملىء : مضطلع ناهض .

بظَهْر الكوفة ، وطَلحة والزُّبَير بالبصرة ، ومُعاوية بالشام ، وفرقة بالحجاز لاغَناء بها ولا يقاتَل بهاعدوّ . » فقال أبو موسى : أولئك خَيْرُ الناس وهى فتنة ! فقال عَبْدُ خَير : غَلَب عليك غشك ياأبا موسى !

فقال سَيْحان بن صُوحان : إنّه لابُدَّ لهذا الأمرِ وهؤلاء الناس مِن والٍ ، يَدْفَع الظلم ، ويُعِزُّ المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا وَلِيكم[1] وهو يدعوكم لتنظروا فيما بَيْنَه وبَين صاحبَيه ، وهو المأمونُ على الأمّة ، الفقيه فى الدين ، فمن نهَض إليه فإنّا سائرون معه .

فلما فرغ سَيْحان قال عَمّار : « هذا ابْنُ عمّ رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يستنْفِركم[2] إلَى زوجة رسول الله وإلى طَلحة والزُّبَير ، وإنّى أشهَدُ أنها زوجتُه فى الدنيا والآخرة ، فانظروا ثم انظروا فى الحقّ ، فقاتِلوا معه » . فقال له رجل : أنا[3] مع مَن شهِدْتَ له بالجنة علَى مَن لم تشهَدْله ! فقال له الحسَن : اكْفُفْ عنّا [ياعَمّار][4] فإنّ للإصلاح أهلا ! .

وقام الحسَنُ رضى الله عنه ، فقال : أيّها الناس أجيبوا دَعْوَةَ أميركم ، وسِيروا إلَى إخوانِكم ، فإنه سَيُوجَد لهذا الأمر مَن يَنْفِرُ إلَيه ، ووالله لأنْ يَلِيَه أولُو النُّهَى أمْثَلُ فى العاجِل والآجِل ، وخَيرٌ فى العاقبة ، اجيبوا دعْوَتنا ، وأعِينونا على ماابْتُلِينا به وابْتُلِيتُم ، وإنّ أمير المؤمنين يقول : « قد خرجتُ مَخْرجى هذا ظالمًا أو مظلوما ، وإنى أذكّرُ

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وعند الطبرى وابن الأثير « واليكم » .
(٢) يستنفركم : يستنصركم .
(٣) كذا جاء فى المخطوطة وتاريخ ابن الأثير وجاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى « لهو »
(٤) الزيادة من ابن جرير .

اللهَ رجلا رعَى حقَّ الله إلاَّ نَفَرَ ، فإنْ كنتُ مظلومًا أعانَنى ، وإن كنتُ ظالما أخذ منى ، واللهِ إنَّ طَلحة والزُّبَير لَأَوَّلُ مَن بايَعنى وأَوَّلُ مَن عَذرَ فهل استأثرتُ بمالٍ أو بدَّلتُ حُكما ؟ » فانفِرُوا ، فمرُّوا بالمعروف وانْهَوْا عن المنكر .

فسامح الناس وأجابوا ورضُوا ، وتكلم عَدِىُّ بن حاتم ، وهِنْد بن عَمرو ، وحُجْرُ بن عَدِىّ ، وحثُّوا الناسَ على اللحاق بعلىٍّ وإعانته ، فأذعَنَ الناسُ للمَسِير .

فقال الحسَنُ رضى الله عنه : « أيُّها الناس ، إنِّى غادٍ ، فمن شاء منكم أن يخرُج على الظَّهر [1] ، ومَن شاء فى الماء » ، فنفَرَ معه تسعةُ آلاف ، أخذ فى البَرِّ ستَّةُ آلاف ومِائتان ، وبقيَّتهم فى الماء .

وقيل : إنَّ عليًّا — رضى الله عنه — أرسل الأَشْتَرَ بعد ابنه الحسَن وعَمّار — إلَى الكوفة ، فدخلها والناسُ فى المسجد ، وأبو موسى يخطُبهم ويُثَبِّطُهم ، والحسَنُ وعَمّار معه فى مُنازعة ، وكذلك سائر الناس ، كما تقدم ، فجعل الأَشْتَر لايَمُرُّ بقبيلة فيها جماعة إلاَّ دعاهم ويقول : اتَّبِعونى إلَى القصر ، فانتهىَ إلى القصر فى جماعة من الناس ، فدخلوا (وأبو موسى فى المسجد يخطُبهم ويُثَبِّطهم ، والحسَن يقول له : اعتزِلْ عملَنا لاأمَّ لك وتَنَحَّ عن مِنْبَرنا ! وعمّار يُنازعه) فأخرج الأَشْتَرُ غِلْمان أبى موسى مِن القصر ، فخرجوا يَعْدُون ويُنادُون : « يا أبا موسى ، الأَشتر قد دخل القصر ، فضربَنا ، وأخرجَنا » فنزل أبو موسى ، فدخل القصرَ ، فصاح به الأَشْتَرُ : « اخرُجْ

(١) الظهر : الإبل التى يحمل عليها وتركب .

لاأُمَّ لك ! أَخْرَج الله نفسك ! » فقال : أَجِّلْنى هذه العشِيَّةَ . فقال هى لك ولا تبيتَنَّ فى القصر الليلةَ . ودَخل الناسُ ينهبون متاع أبى موسى ، فمنَعَهم الأَشترُ ، قال : أَناله جارٌ . فكفوا عنه .

فنفَرَ الناسُ فى العدد المذكور . وقيل : إنَّ عدد من سار من الكوفة اثنا عشَر ألف رجلٍ ورجلٌ ، قال أبو الطُّفيل : سمعتُ عليًّا رضى الله عنه يقول ذلك قبل وصولهم ، فقعدتُ فأَحصَيْتُهم ، فمازادوا رجلا ولا نقَصوا رجلا ! .

وكان على كِنانه وأَسَد وتميم والرباب ومُزَينة مَعْقِل بن يَسار الرِّياحى[1] ، وعلى سُبْع[2] قَيْس سعدُ بن مسعود الثَّقَفى عمُّ المختار[3] ، وعلى بكر وتَغْلِب وَعْلَةُ بن مَحْدوج[4] الذُّهْلى[5] ، وعلى مَذْحِج والأَشعَريين حُجْرُ بن عَدِىّ ، [وعلى بَجِيلة وأَنْمار وخَثْعَم والأَزْد مِخْنَف بن سُلَيم لأَزْدى ، فقدِموا على علىّ رضى الله عنه [6]] بِذِى قار ، فلقِيَهم فى ناس فرحَّب بهم ، وقال : « ياأَهلَ الكوفة ، ولِيتم ملوك العجم وفضَضْتم جُموعَهم ، حتى صارت إلَيكم مَواريثهم ، فأَغنَيْتم حَوْزتكم ،

(١) كذا جاء فى المخطوطة وغيرها ، والمعرف أن « معقل بن يسار » صحابى سكن البصرة وحفر نهرمعقل بها ، ويقال له « المزنى » لأنه بن مزينة ، وأن « الرياحى » هو « معقل بن قيس الرياحى » من تميم ، وهو المذكور فى أمراء على يوم الجمل ، وانظر الإصابة ج ٣ ص ٤٩٩ .

(٢) روى الطبرى فى تاريخه ج ٣ ص ٥١٣ أنه « خرج إلى على اثنا عشر ألف رجل وهم أسباع . . . » ثم ذكر « سبع قيس » و « سبع بكر بن وائل » ، و« سبع مذحج و « سبع بجيلة » .

(٣) المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى .

(٤) كذا جاء فى تاريخى ابن جرير وابن الأثير ، وفى المخطوطة « وعلة بن مجلوع »

(٥) من ذهل بن ثعلبة ، من بكر .

(٦) سقطت هذه العبارة من النسخة (ك) وثبتت فى النسخة (ن) .

وأعَنْتم الناسَ على عدوّهم ، وقد دعَوْتكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من أهل البصرة ، فإن يَرجعوا فذاك الَّذى نريد ، وإن يلجُّوا داويناهم بالرفق حتى يبدءونا بظلم ، ولم ندعْ أمرًا فيه صلاح إلا آثرناه على مافيه الفساد ، إن شاء الله تعالى » .

قال : وكان رؤساء الجماعة من الكوفيين : القَعْقاعَ بن عمرو وسعدَ بن مالك وهندَ بن عمرو والهَيْثم بن شهاب ، وكان رؤساء النُّفَّار زيدُ بن صُوحان والأَشْتَر وعَدِىّ بن حاتم والمسّيب بن نَجَبَه ويزيد ابن قَيس وأمثال لهم ليْسوا دونهم [إلاَّ أنهم] (١) لم يُؤَمَّروا ، منهم حُجْر بن عَدِىّ .

ذكر مراسلة على طلحة والزبير وأهل البصرة

فى الصلح وإجابتهم إليه وانتظام الصلح وكيف أفسده قتلة عثمان

قال : وأقام علىٌّ – رضى الله عنه – بذى قار ، فأرسل القَعْقاعَ بن عمرو إلى أهل البصرة وقال له : الق هذين الرجلين وادعهما إلى الأُلفة والجماعة وعظِّمْ عليهما الفُرقة . (وكان القعقاع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم) .

فخرج حتَّى قدِم البَصرة ، فبدأ بعائشة فسَلَّم عليها وقال : أىْ أُمَّهْ ، ما أَشْخَصَكِ وما أَقْدَمَكِ هذه البلد ؟ قالت : أىْ بُنَىَّ ، الإصلاح بَيْن الناس . قال : فابعثى إلَى طَلحة والزُّبَير حتَّى تسمعى كلامى وكلامهما ، فبعثتْ إلَيهما ، فجاءا ، فقال لهما : إنِّى سألْتُ أمَّ المؤمنين ما أَقْدَمَها ؟ فقالت الإصلاح ، فما تقولان أنتما ؟ أمُتابعان

(١) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) وسقطت من (ك)

أم مُخالفان ؟ قالا : مُتابعان . قال : فأخبرانى ما وَجْهُ هذا الإصلاح فوالله لئن عَرَفناه ليصلحنَّ ولئن أنكرناه لا يصلح [١] . قالا : قَتَلَة عُثمان ، فإنَّ هذا إنْ تُرِكَ كان تَرْكًا للقرآن ! قال : « قد قتلتما قَتَلَةَ عُثمان من أهل البصرة ، وأنتما قبل قتلهم أقربُ إلَى الاستقامةِ منكم اليوم ! قتلتم ستَّمائة رجل فغضبتْ لهم ستةُ آلاف واعتزلوكم ، وخرجوا من بَيْن أظهُركم ، وطلبتم حُرْقُوصَ بن زهير فمنعه ستة آلاف فارس ، فإنْ تركتموهم كنتم تاركين لِما تقولون ، وإن قاتلتموهم والَّذين اعتزلوكم فأُدِيلُوا عليكم فالَّذى حذرتم وقويتم [٢] به هذا الأمرَ أعظمُ مِمَّا أراكم تكرهون [٣] ، وإن أنتم منعتم مُضَر ورَبيعة من هذه البلاد اجتمعوا علَى حربكم وخذلانكم نُصْرةً لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدَث العظيم والذنب الكبير ! » قالت عائشة فما تقول أنت قال « أقول إنَّ هذا الأمرَ دواؤه التسكين ، فإذا سكن اختُلِجُوا ، فإن أنتم بايَعتمونا فعلا خيرَ وتَباشيرُ رَحمة ودَرك بثأر ، وإن أبَيْتم إلاَّ مُكابَرةَ هذا الأمر واعْتسافه كانت علامة شرّ وذهاب هذا الثأر [٤] ، فآثِروا العافية تُرْزَقوها ، وكونوا مفاتيحَ خَيركما كنتم ، ولا تُعرِّضونا للبلاء فتتعرّضوا له فيَصْرَعَنا وإيَّاكم ، وايْمُ اللهِ إنِّى لأقول هذا القولَ وأدعوكم إلَيه وإنى لخائف أن لايتمّ حتَّى يأخذَ الله حاجته من هذه الأُمّة التى قَلَّ

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) وجاء فى (ك) : « لئن عرفناه لنصلحن ولئن أنكرناه لا نصلح » .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة والكامل ، وعند ابن جرير : « قربتم » ، وتأتى بمعنى «طلبتم »

(٣) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ج ص ٢٣٧ : يعنى أن الذى تريدونه من قتل قتلة عثمان مصلحة ولكنه يترتب عليه مفسدة هى أربى منها .

(٤) هكذا جاء فى رواية ابن جرير ج ٣ ص ٥٠٣ ، وجاء فى المخطوطة : « المال »

متاعها ونزل بها مانزل ، فإنَّ هذا الأمر الَّذى حدثَ أمرٌ ليس يُقدر ، وليس كقتل الرجلِ الرجلَ ولا النَّفَر الرجلَ ولا القبيلة [الرجلَ] (١) قَالوا : « قد أصبْتَ وأحسنتَ ، فارجِع ، فإن قدِم علىٌّ وهو علَى مثل رأيك صلَح هذا الأمر ».

فرجع إلَى علىّ ، فأخبره ، فأعجبه ذلك ، وأشرف القومُ على الصلح ، كرِهَ ذلك مَن كرهه ، ورضِيَه من رضيه (٢) .

وأقبلتْ وُفود العرب من أهل البصرة نحو علىّ بذى قار ، قبل رجوع القَعْقاع ، لينظروا مارأى إخوانهم من أهل الكوفة ، وعلَى أىِّ حال نهضوا إليَهم ، وليُعلموهم أنَّ الذى عليه رأْيُهم الإصلاح ، ولايخطُر لهم قتالُهم علَى بال .

فلما لقُوا عشائرَهم من أهل الكوفة قال لهم الكوفيون مثل مقالتهم ، وأدخلوهم علَى علىّ فأخبروه بخبرهم .

ورجعتْ وُفود أهل البصرة برأى أهل الكوفة ، ورجع القَعْقاع من البصرة .

فقام علىّ رضى الله عنه خطيبا ، فحمدِ اللهَ وأثنَى عليه ، وذكر الجاهلية وشقاءها ، والإسلامَ والسعادة ، وإنعامَ الله علَى الأُمّة والجماعة بالخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الَّذى يَليه ، ثم الَّذى يليه ، ثم حدَثَ هذا الحدثُ الَّذى جَرَّه علَى هذه الأمَّة أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسَدوا مَن أفاءها الله علَيه) وعلى الفضيلة (التى مَنَّ الله

(١) الزيادة من ابن جرير وابن الأثير وجاء فى البداية والنهاية : « ولا القبيلة القبيلة » .
(٢) جاء فى البداية والنهاية بعد هذا : « وأرسلت عائشة إلى على تعلمه أنها جاءت للصلح ، وفرح هؤلاء وهؤلاء » .

بها)، وأرادوا رَدَّ الإسلامِ والأشياء علَى أدْبارها ، والله بالِغ أمره . ثم قال : ألاَ وإنِّى راحل غدًا ، فارْتحِلوا ، ولا يَرْتَحِلَنَّ معنا أحدٌ أعان عَلى عُثمان بشىء من أمور الناس ، ولْيُغْنِ السفهاءُ عنى أنفسهم . والله أعلم بالصواب .

ذكر اجتماع قتلة عثمان بذى قار وتشاورهم

وما اتفقوا عليه من المكيدة التى اقتضت نقض الصلح ووقوع الحرب

قال : ولما قال علىٌّ رضى الله عنه مَقالتَه بذِى قار ، وأمَرَ ألاَّ يرتحلَ معه أحد مِمَّن أعان عَلَى عُثمان بشىء اجتمع نفَرٌ منهم عِلْباء بن الهَيْثَم وعَدِى بن حاتم وسالم بن ثَعْلَبة القَيْسى وشُرَيْح بن أبى أوْفَى[1] والأشْتَر ، فى عِدَّة[2] مِمَّن سار إلَى عثمان أو رضِى بسَير من سار إليه وجاء معهم المصريون وابن السوداء[3] وخالدُ بن مُلْجم ، فتشاوَرُوا فقالوا « ماالرأى ؟ هذا علىٌّ وهو واللهِ أبْصَرُ بكتاب الله مِمَّنْ يطلب قَتَلَة عُثمان ، وأقربُ إلَى العمل بذلك ، وهو يقول مايقول ، ولم يَنْفِر إلَيْه إلاَّ هم[4] والقليلُ من غَيرهم ، فكيف به إذا شامَّ القومَ وشامّوه[5] ورأوْا قِلَّتنا فى كثرتهم ؟ وأنتم واللهِ تُرادون ،

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى تاريخى الطبرى وابن الأثير « شريح بن أوفى » والخلاف فى هذا الاسم ملحوظ فى كثير من الكتب .

(٢) ذكر ابن كثير أنهم اجتمعوا « فى ألفين وخمسمائة ، وليس فيهم صحابى وسيذكر المؤلف هذا العدد قريبا فى كلام ابن السوداء .

(٣) ابن السوداء : عبد الله بن سبأ .

(٤) كذا جاء فى رواية ابن جرير ج ٣ ، ص ٥٠٧ ، وفى المخطوطة (سواهم)

(٥) يقال « شامت فلانا » إذا قاربته وتعرفت ماعنده .

وما أنتم بالحى [1] من شىء ! » فقال الأشتر : « قد عرفنا رأىَ طَلحة والزُّبَيْر فينا ، وأمّا رأىُ علىّ فلم نعرف رأيَه إلَى اليوم ، ورأى الناس فينا واحد ، فان يصطلحوا مع علىّ فعلَى دمائنا ، فهَلُمُّوا بنا نَثِبْ علَى علىّ فنُلْحِقَه بعثمان ، فتعود فتنه يُرْضَى مِنّا فيها بالسكون . » فقال عبد الله بن السوداء « بئس الرأىُ والله [رأيتَ] [2] ، أنتم ياقَتَلَةَ عُثمان بِذِى قار ألفان وخمسُمائة ، أو نحوٌ من سِتّمائة ، وهذا ابْن الحَنْظَلِيَّة – يعنى طَلحة – وأصحابُه فى نحو خمسة آلاف بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلا ! » فقال عِلْباء بن الهَيْثَم « انصرفوا بنا عنهم ، ودَعُوهم ، فإن قلُّوا كان لعدُوِّهم علَيهم ، وإن كثُروا كان أحْرَى أن يصطلحوا علَيكم ، ودعُوهم وارْجِعوا فتعلَّقوا ببلدٍ من البلدان حتَّى يأتِيَكم فيه من تقْوَوْن به ، وامتنِعوا من الناس. » فقال ابن السوداء « بئس والله مارأيتَ ، وَدَّ واللهِ الناسُ أنَّكم انْفَردتم ولم تكونوا مع أقوام بُرَآء ، ولو انفردتم لتخطَّفَكم الناسُ وكُل شىء ! » فقال عَدىّ بن حاتم : « واللهِ مارَضِيتُ ولا كرهتُ ، ولقد عِجبْتُ من تردُّد مَن تردَّد عن قتله فى خَوض الحديث ، فأمَّا إذْ وقع ماوقع ونزَل من الناس بهذه المنزلة فإنَّ لنا عَتادًا من خيول وسلاح ، فإنْ أقدمتم أقدمنا ، وأن أمسكتم أمسكنا ! » فقال ابن السوداء : أحسنت ! وقال سالم بن ثَعْلَبة : « مَن كان أراد بما أتَى الدنيا فإنى لم أردْ ذلك ، ووالله لئن لقيتُهم غدًا لا أرجع إلى شىء [3]

(١) كذا جاء فى المخطوطة والكامل لابن الأثير ، ٣ ص ١٢٠ ، وجاء فى تاريخ ابن جرير : « بأنجى » .

(٢) الزيادة من ابن جرير وابن الأثير .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٢١ ، وجاء فى تاريخ الطبرى ج ٣ ، ص ٥٠٨ « لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتى » .

وأحلف بالله إنكم لتفرقون الناس بالسيف [١] فرّقَ قوم لاتصير أمورُهم إلاّ إلَى السيف ! » فقال ابن السوداء : قد قال قولا . وقال شريح بن أبي أوفى : « أبرموا أمرَكم قبل أن يخرجوا [٢] ، ولاتؤخروا أمرًا ينبغي لكم تعجيلُه ، ولاتعجّلوا أمرًا ينبغي لكم تأخيرُه فإنّا عند الناس بِشَرِّ المنازل ، ولا أدرى ما الناس صانعون إذا ماهم التقَوْا ! » وقال ابن السوداء : « ياقوم ، إن عِزّكم فى خلط الناس ، فإذا التقَى الناس غدًا فأنشِبوا القتال ، ولا تُفرغوهم للنظر ، فمن أنتم معه لايجدبدًّا من أن يمتنع ، ويشغلُ الله عليًّا وطَلحة والزُّبَير ومَن رأى رأيَهم عمّا تكرهون ! » .

فأبصروا الرأْى ، وتفرّقوا عليه ، والناس لايشعرون .

ذكر مسير على رضى الله عنه

ومن معه من ذى قار إلى البصرة ووقعه الجمل

قال : ولما أصبح علىّ رضى الله عنه سار من ذِى قار وسار معه الناس حتّى نزل علَى عبد القَيْس ، فانضمُّوا إليه ، ثم سار فنزل الزاوية ، وسار من الزاوية يريد البصرة ، وسار طَلحة والزُّبَير وعائشة من الفُرْضة ، فالتقَوْا عند موضع قصر عبيدالله بن زياد ، وذلك فى النصف من جمادَى الآخِرة سنة ست وثلاثين ، [حكاه ابن الأثير [٣] ،

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى (ن) « لتفرقون السيف » .
(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وعند ابن جرير « تخرجوا » ، وعند ابن الأثير « تحرجوا » .
(٣) فى الكامل ج ٣ ص ١٢١ .

وقال أبو جعفر [١] : كانت وقعة الجمل فى يوم الخميس لعشرٍ خَلَوْن من جمادَى الآخر سنة ست وثلاثين] [٢] .

وسبق علىّ أصحابه ، وهم يتـلاحقون به ، فلما نزل قال أبوالجرباء للزُّبَير : الرأى أن تبعث [الآن] [٣] ألف فارس إلَى علىّ قبل أن يتوافَى إليه أصحابه . فقال : « إنَّا لَنعرف أمورَ الحرب ، ولكنَّهم أهل دعْوَتنا ، وهذا أمر حدَث لم يكن قبل اليوم ، من لم يلْقَ الله فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة ! وقد فارقنا وافدهم علَى أمر ، وأنا أرجو أن يتمَّ لنا الصلح ، فأبشروا ، واصبروا . » .

وأقبل صبرة بن شيمان فقال لطلَحةوالزُّبير : انتهزا بنا هذا الرجل ، فإنَّ الرأي فى الحرب خَيْرٌ من الشدّة)! فقالاَ : « [إنَّا وهم مسلمون] [٤] ، إن هذا أمر لم يكن قبـل اليوم فينزِل فيه قرآن أو تكونَ فيه سنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد زعم قوم أنه لا يجوز تحريكُه [اليوم] [٤] ، وهم علىّ ومن معه ، وقلنا نحن : لا ينبغى لنا أن نتركه [اليوم] [٤] ولانؤخره ، وقد قال علىّ : ترك هؤلاء القوم شر وهو خير من شر منه ، وقد كاد يبين لنا ، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين [بإيثار] [٤] أعَمِّها منفعةً .

---

(١) ابن جرير الطبرى فى تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٥٣٩ قد أتبعه بقوله « فى قول الواقدى » ، وما حكاه ابن الأثير منقول أيضا عن أبى جعفر الطبرى فى تاريخه ج ٣ ص ٥١٤ حيث قال : « فالتقوه عند موضع قصر عبيد الله بن زياد فى النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦ يوم خميس » .

(٢) سقطت هذه الجملة من النسخة (ك) وثبتت فى النسخة (ن)

(٣) الزيادة من ابن جرير الطبرى .

(٤) الزيادة من ابن جرير .

وقال كَعب بن سُور : ياقوم اقطعوا هذا العنق من هؤلاء القوم . فأجاباه بنحو ماتقدم .

قال : ولما نزل علىّ ونزل الناس أرسل شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرحوم العبدى أن اخرجْ فإذا خرجت فمِلْ بنا إلى عسكر على ، فخرجا فى عبد القَيس وبَكْر بن وائل ، فعدلوا إلى عسكر علىّ ، فقال الناس من كان هؤلاء معه غلب . وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال ، إنما يرسل علىّ إليهم يكلمهم ويدعوهم .

قال : وقام علىّ فخطب الناس ، فقام إليه الأعور بن بُنان المِنْقَرى فسأله عن إقدامهم علَى أهل البصرة ، فقال له علىّ : علَى الإصلاح وإطفاء النار [1] لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويَضَع حربهم . قال : فإن لم يجيبوا . قال : تركناهم ماتركونا . وقال : فإن لم يتركونا .قال : دفعناهم عن أنفسنا . قال : فهل لهم فى هذا مثل الذى عليهم ؟ قال : نعم .

وقام إليه أبو سلام [2] الدالانى فقال : أترَى لهؤلاء القوم حجةً فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك ؟ قال : نعمْ . قال : فترَى لك حُجَّةً بتأخيرك ذلك ؟ قال نعمْ ، إنَّ الشىء إذا كان لايُدْرَك فالحكم [3] فيه أحْوَطه وأعمُّه نفعا . قال : فما حالُنا وحالُهم إن ابتلينا غدا ؟ قال : إنى لأرجو ألا يُقتل منا ومنهم أحد نقَّى قلبَه لله إلاَّ أدخله الله الجنة . . وقال فى خطبته : « أيُّها

(١) جاء فى رواية ابن جرير «النائرة » هى : (الفتنة) ، ونائرة الحرب: شرها وهيجها .

(٢) عند ابن جرير وابن الأثير : « أبو سلامة » .

(٣) كذا جاء عند ابن جرير ، وجاء عند ابن الأثير : « أن الحكُم » ، وجاء فى المخطوطة « أن الحلم » .

الناس املكوا [أنفسَكم ، وكُفُّوا] [١] عن هؤلاء القوم أيديَكم وألسِنتكم ، وإيَّاكم أن تسبقونا ، فإن المخصوم غدا من خصم اليوم ».

وبعث إليهم حكيمَ بنَ سلام [٢] ومالكَ بنَ حبيب ، يقول : إن كنتم على ما فارقتم [عليه] [٣] القعقاع فكُفُّوا حتى ننزل فننظر فى هذا الأمر .

وخرج إليه الأحنَف بن قَيس وبنو سعد مشمِّرين ، قد منعوا حُرقوص بن زُهَير وهم معتزلون . وكان الأحنَف قد بايَع عليًّا بالمدينة بعد قتْل عثمان ، لأنه كان قد عاد من الحج فبايع [٤] ، فلما قدِم طلحة والزُّبَير اعتزل بالجَلحاء ومعه زُهاء ستة آلاف (والجلحاء من البصرة على فَرْسخَين) فقال لعلىّ : إنَّ قومنا بالبصرة يزعُمون أنَّك إن ظفِرْت علَيهم غدا قتلتَ رجالهم وسبَيْتَ نساءهم ! قال : « مامِثْلى يُخاف هذا منه ! وهل يحِلُّ هذا إلاَّ لمن تَوَلَّى وكفر [٥] ؟ وهم قوم مسلمون . » قال : اختَرْ منِّى واحدةً من اثنتَين : إمَّا أن أقاتلَ معك ، وإمَّا أن أكُفَّ عنك عشرة آلاف سَيف . [قال : اكففْ عنَّا عشرة آلاف سَيف .] [٦] فرجع إلَى الناس ، فدلهم إلَى القعود ، ونادَى : « ياآلَ خِنْدِف » ، فأجابه ناس ، ثم نادى : « ياآل [٧] تَمِيم » ،

(١) الزيادة من ابن جرير ج ٣ ص ٥٠٩ .

(٢) عند ابن جرير وابن الأثير : « حكيم بن سلامة » .

(٣) الزيادة من ابن جرير وابن الأثير ، وسوف يأتى فى الرد مايؤيده .

(٤) انظر ما ذكره ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٢٢ من قول الأحنف .

(٥) زاد ابن جرير فى روايته : ألم تسمع إلى قول الله عز جل ﴿ لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر ﴾ .

(٦) ثبتت هذه الجملة فى النسخة «ن» كما جاء عند ابن الأثير ، سقطت من النسخة ك .

(٧) جاء فى المخطوطة والكامل « يا آل » بثبوت الهمزة الممدة فى هذا الموضع والموضعين التاليين له ، وجاء فى تاريخ ابن جرير (بآل) بلا همزة فى المواضع الثلاثة

فأجابه ناس ، ثم نادى : « ياآل سَعْد » ، فلم يَبْقَ سعدىّ إلاّ أجابه ، فاعتزل بهم ، ونظر مايصنع الناس ، فلما كان القتالُ وظفر علىّ دخلوا فيما دخل فيه الناس وافرين .

قال : ولما تراءى الجمعان خرج الزُّبَيْر على فرس وعلَيه سلاح ، فقيل لعلىّ : هذا الزُّبَير فقال : أمَا إنَّه أحْرَى الرجلَين إنْ ذُكِّر بالله أنْ يذكر وخرج طلحة ، فخرج إلَيهما علىّ ، [فدنا منهما] [1] حتى اختلفتْ أعناقُ دوابِّهم ، فقال لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخَيلا ورجالا ، إن كنتما أعددتما عُذرا عند الله فاتَّقِيَا الله ، ولا تكونا ﴿ كالَّتى نقَضَتْ غَزْلَها مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أنْكاثًا ﴾ [2] ، ألَمْ أكُنْ أخاكما فى دينكما تُحرِّمان دمى وأحرِّم دماءكما ؟ فهل من حَدَثٍ أحلَّ دمى ؟ فقال طلحة : اللبث [3] علَى دم عثمان . فقال علىّ رضى الله عنه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ [4] ياطلحة ، تطلب بدم عُثمان فلعن الله قَتَلَةَ عثمان ! ياطلحة ، أتَيْتَ بعِرْسِ رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بهـا وخبَأْت عِرسك فى البيت ! أما بايعتنى ؟ قال : بايعتُك والسيفُ علَى عُنقى ! . ثم قال للزُّبير : ماأخرجك ؟ قال أنت ، ولا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أولَى به منَّا . فذكَّره علىّ رضى الله عنه بأشياء ، ثم قال : أتذكُرُ يوم مَررتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غَنْم ، فنظر إلىّ ، فضحك وضحكتُ إليه ، فقلتَ : لا يَدَعُ ابنُ أبى طالب زهوه ! فقال لك رسول الله عليـه الصلاة

(١) الزيادة من ابن جرير ج ٣ ص ٤١٥ .
(٢) من الآية ٩٢ من سورة النحل .
(٣) وفى تاريخى ابن جرير وابن الأثير : ألبت » .
(٤) من الآية ٢٥ فى سورة النور .

والسلام : « إنَّك لَتُقاتِلُه وأنت ظالم له » ؟ ! فقال : اللهمَّ نعمْ ولقد كنت أُنسيتها ولو ذكرتُ ما سرت مسيرى هـذا ، والله لا أُقاتلُك أبدا ! .

وقيل : إنَّه قال له : كَيف أرجع وقد الْتقتْ حَلْقَتا البَطَان [1] ؟ هذا والله العارُ الَّذى لايغسِله الدهر ! قال يا زُبَير ارجعْ بالعار خَير من أن ترجع بالعار وبالنار .

فرجع الزُّبَير إلَى عائشة فقال لها : ياأُمَّاه ، ما شهِدتُ مَوطِنا إلاَّ ولى فيه رأىٌ وبصيرة غَيْرَمَوطنى هذا ! قالت : وما تريد أن تصنع قال : أدعُهم وأذهب ، ثم قال لابْنِه عبد الله : علَيك بحربك [2] وأما أنا فأرجع إلَى بيتى . فقال له : مايَرُدُّك ؟ قال : مالو عِلمْتَه لكسَرَك [3] . فقال له ابْنُه : بل رأيتَ عُيونَ بنى هاشم تحت المغافِر [4] فراعَتْك ، وعلمتَ أنَّ سيوفَهم حِدادٌ تَحملُها فِتْيَةٌ أنْجاد . فغضِب الزُّبير ثم قال : أمِثلى يُفزَّع بهذا ؟ وأحفَظَه ذلك ، وقال : إنِّى حلفتُ إلاَّ أقاتله . قال : فكفِّرْ عن يمينك وقاتِلْه ، فأعْتَق غلامه مكحُولا ، وقيل : أعتق سرجس .

ففى ذلك يقول عبد الرحمن بن سليمان التميمى :

لم أرَ كاليوم أخا إخوانِ أعجبَ من مكَفِّر الأيمانِ

(١) البطان : الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير ، وفيه حلقتان ، فإذا التقتا فقد بلغ الشد غايته ، قال صاحب لسان العرب : ومن أمثال العرب التى تضرب للامر إذا اشتد : « التقت حلقتا البطان » . وفى مجمع الأمثال ج ٢ ص ١٣٥ : « يضرب فى الحادثة إذا بلغت النهاية » .

(٢) فى النسخة (ك) : « بحربك » ، وفى النسخة (ن) : (بحزبك) .

(٣) صرفك عن مرادك .

(٤) المغافر جمع المغفر أو المغفرة ، وهو مايلبسه الدارع على رأسه فى الحرب من الزرد ونحوه .

(فى أبيات أخر) .

وقيل : إن الزُّبَير نَزَع سنانَ رُمحه ، وحمل علَى جَيْش علىّ ، فقال علىّ لأصحابه : أفرِجوا له فإنه قد أُغضِب ، وإنَّه منصرفٌ عنكم فقالوا : إذن واللهِ لانبالى بعد رجوعه بجمعهم وماكنانتَّقى سِواه .

وقيل : إنَّ الزُّبَيْر إنَّما عاد عن القتال لمَّا سمع أنَّ عَمَّار بن ياسِر مع علىّ ، فخاف أن يُقتل عمار ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياعَمَّار تقتلك الفِئةُ الباغية » فردَّه ابْنُه عبدُ الله [1] .

وافترق أهلُ البصرة ثلاث فِرَق : فِرْقة مع طَلحة والزُّبَير وفرقة مع علىّ ، وفرقة لاترَى القتال ، منهم الاحْنفُ بن قَيْس وعِمْران بن حُصَيْن .

وجاءت عائشة فنزلتْ فى مسجد الحُدَّان[2] فى الأَزْد ، ورأْسُ الأَزْد يومئذ صَبِرة بن شَيمان ، فقال له كَعْب بن سُور : إنَّ الجموع إذا تراءت لم تستطع ، إنَّما هى بحور تَدَفَّق ، فأَطِعْنى ولا تشهَدْهم واعتزلْ بقومك ، فإنى أخاف الأَّ يكونَ صُلح ، ودَعْ مُضَر ورَبيعة فهما أَخَوانِ ، فإن اصطلحا فالصلحَ أَرَدْنا ، وإن اقتتلا كنَّا حُطَاما علَيهم غدا . (وكان كَعْب فى الجاهلية نصرانيّا) فقال صَبرة : أَخشَى أن يكون فيك شىء من النصرانيَّة ! أَتأْمرُنى أن أَغيبَ عن إصلاح بين

(١) ذكر ابن جرير فى تاريخه ج ٣ ص ٣ ص ٥١٩ وابن الأثير فى تاريخه ج ٣ ص ١٢٢ قول على للزبير بن العوام : « قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ففرق بيننا وبينك » . . وقال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٦ : ولم يزل الزبير مواليا لعلى متمسكا بحبه ومودته : حتى نشأ ابنه عبد الله وشب ، فنزع به به عرق من الأم ، ومال إلى تلك الجهة ، وانحرف عن هذه ، ومحبة الوالد لولده معروفة فانحرف الزبير بانحرافه .

(٢) الحدان : إحدى محال البصرة القديمة ، سميت باسم قبيلة من الأزد .

الناس ، وأنْ أخذُلَ أمَّ المؤمنين وطَلحة والزُّبَيْر إن رَدُّوا عليهم الصلح ، وأدَعَ الطلبَ بدم عُثمان ، واللهِ لا أفعلُ هذا أبدا ! . فأطبَقَ أهل اليمن على الحضور .

وحضر مع عائشة المِنْجابُ بن راشد فى الرِّباب (وهم تَيْم وعَدِىّ ونَوْر وعُكْل ، بنو عَبْد مَناة بن أُدّ بن طابِخَة بن إلْياس ، مُضَر ، وضَبَّةَ ابن أُدّ بن طابخة) (١) ، وحضر أيضا أبو الجَرْباء فى بنى عمرو بن تميم ، وهلال بن وَكيع فى بنى حنظلة ، وصَبِرة بن شَيمان على الأَزْد ، ومجُاشع بن مسعود السُّلَمى علَى سُليم ، وزُفَر بن الحارث فى بنى عامر و [أَعْصُر بن النعمان علَى] (٢) غطفان ، ومالك بن مِسْمَع على بكر ، والخِرِّيت بن راشد على بنى ناجية ، وعلى اليمن ذو الاجرة الحميرى .

قال : ولما خرج طلحة والزبير نزلت مُضَرُ جميعُها وهم لايشكُّون فى الصلح ، [ونزلت رَبيعة فوقهم وهم لايشكُّون فى الصلح ،] (٣) ونزلت اليمن أسفلَ منهم وهم كذلك ، ونزلت عائشة فى الحُدَّان ، والناس بالزَّابُوقة على رؤسائهم .

هؤلاء – وهم أصحاب عائشة – ثلاثون ألفا ؛ وهؤلاء – وهم أصحاب علىّ – عشرون ألفا .

---

(١) قد يطلق الفظ « الرباب » على بنى عبد مناة بن أد ؛ وكانوا قد تحالفوا مع بنى عمهم ضبة بن أد على بنى عمهم تميم بن مر بن أد . وقد يطلق لفظ « الرباب » عاما لهؤلاء المتحالفين من بنى عبد مناة وضبة . وهم خمس قبائل صاروا فى تجمعهم كاليد الواحدة . وقد سبق فى نهاية الأرب ج ٢ ص ٤٣٨ أنهم « سموا الرباب لانهم غمسوا أيديهم فى رُبّ . إذ تحالفوا على بنى تميم » . . ويرى بعض العلماء أنهم سموا « ربابا » لأنهم كانوا فرقا جماعات ؛ فيكون « الرباب » جمع « الربة » بمعنى الفرقة .

(٢) الزيادة من ابن جرير .

(٣) الزيادة من ابن جرير ج ٣ ص ٥١٦ – ٥١٧ وابن الأثير ٣ – ١٢٣ .

وردُّوا حكيما ومالكا [1] : « أنَّا على ما فارقْنا عليه القَعْقاع » . ونزل علىٌّ بحِيالهم ، ونزلت مُضَر إلى مُضَر ، وربيعة إلى رَبيعة ، واليَمَن إلَى اليَمَن ، وكان بعضهم يخرج إلى بعض لا يذكرون إلاَّ الصلح ، فخرج علىّ وطَلحة والزُّبَير فتواقفوا فلم يَرَوْا أمرًا أمْثل من الصلح ووضْعِ الحرب ، فافترقوا علَى ذلك .

وبعث علىّ رضى الله عنه من العَشِىِّ عبدَ الله بن عباس إلى طلحة والزُّبَير ، وبعثا إلَيه محمدَ بن طَلحة ، وأرسل علىّ وطلحةُ والزُّبَير إلَى رؤساء أصحابهم بأمر الصلح ، فباتوا بلَيْلةٍ لم يَبيتوا بمثلها للعافية الَّتى أشرفوا علَيها والصلح ، وبات الَّذين أثاروا أمْرَ عُثمان بشرٍّ ليلة ، وباتوا يتشاورون ، فاجتمعوا علَى إنشاب الحرب ، فغَدَوْا مع الغَلَس وما يشعُر بهم أحد ، فخرجوا متسَلِّلين ، فقصد مُضَرُهم إلَى مُضَرهم ، ورَبيعتهم إلَى ربيعتهم ، ويَمَنَهم إلَى يمنهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهلُ البصرة ، وثار كلُّ قوم فى وجوه أصحابهم الَّذين أتَوْهم ، وذلك فى يوم الخميس لعشر خلَوْن من جمادَى الآخِرة .

قال : وبعث طَلحة والزُّبَير إلَى المَيْمنة وهم ربيعة أميرا عليها عبدَالرحمن بن الحارث بن هشام ، وإلى المَيْسَرة عبدَالرحمن بن عَتَّاب ، وثبتا فى القلب ، وقالا : ماهذا ؟ قالوا : طرقَنا أهلُ الكوفة لَيْلا ! قالا وقد علِمنا أنَّ عليًّا غَيْرُ مُنْتَه حتَّى يَسْفِكَ الدِّماء وأنَّه لن يطاوعَنا !

---

(١) سبق أن عليا « بعث إليهم حكيم بن سلام ومالك بن حبيب . يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع فكفوا حتى ننزل فننظر فى هذا الأمر » فالرادون هنا هم قوم عائشة وطلحة والزبير الذين بعث إليهم على . وهم يردون على تلك الرسالة ، فخرج الرسولان من عندهم حتى قدما على على بهذا الرد الذى ذكره المؤلف هنا : فارتحل على حتى نزل بحيالهم ..

فردَّ أهل البصرة أولئك الكوفيين إلَى عسكرهم ،فسمع علىّ وأهلُ الكوفة الصَّوتَ ـ وقد وضع السَّبَئِيَّةُ رجلا قريبا منه ـ فلما قال علىٌّ ماهذا قال ذلك الرجلُ : ماشعَرنا إلاَّ وقومٌ منهم قد بيَّتونا فردَدْناهم فوجدْنا القومَ علَى رِجْل ، فركبوا ، وثار الناس ، فأرسل علىٌّ صاحب المَيْمَنة إلَى الميمنة ، وصاحبَ المَيْسَرة إلَى المَيْسَرة ،وقال : لقد علمتُ أنَّ طَلحة والزُّبَيْر غيرُ مُنْتَهِيَين حتَّى يَسْفِكا الدماء وأنهما لن[1] يطاوعانا . والسَّبَئِيَّة لاتفتر ، ونادى علىّ فى الناس : كُفُّوا فلا شىء ! . وكان من رأيهم جميعًا فى تلك الفتنة ألاَّ يقتتلوا حتَّى يُبْدَءُوا (يطلبون بذلك الحجَّة) وألاَّ يَقْتُلوا مُدْبِرًا ، ولا يُجْهِزُوا علَى جريح ، ولا يستحلُّوا سَلبًا ، ولا يَرْزَءُوا بالبصرة سلاحا ولا ثيابا ولا متاعا .

وأقبل كعب بن سُور حتى أتَى عائشةَ فقال : « يا أُمَّ المؤمنين ، أدرِكى الناسَ ، فقد أبَى القومُ إلَّا القتالَ ، لعلَّ اللهَ يُصلح[2] بكِ » . فركبتْ وألبسوا هَوْدَجَها الأدراع ، فلما برزتْ من البيوت وهى علَى الجمل وكانت بحَيْثُ تسمع الغَوْغاء وقفت ، واقتتل الناسُ وقاتل الزُّبَيْر ، فحمل عليه عَمَّار بن ياسِر ، فجعل يحُوزُه[3] بالرُّمح والزُّبَيْر كافٌّ عنه ، وقال له : أتقتلنى يا أبا اليَقْظان[4] ؟ قال[5] : لا يا أبا عبد الله ! وإنَّما كفَّ الزُّبَيْر عنه لقول رسول الله صلَى الله عليه وسلم « تقتل عَمَّارَ بن ياسر الفئَةُ الباغية » ، ولولا ذلك لقتله .

---

(١) كذا جاء عند ابن جرير ٣ ص ٥١٨ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٢٤ ،وجاء فى المخطوطة « لم » .

(٢) كذا جاء فى رواية ابن جرير . وجاء فى المخطوطة : « أن يصلح » .

(٣) يحوزه : يسوقه .

(٤) أبو اليقظان : كنية عمار بن ياسر .

(٥) كذا جاء فى رواية ابن جرير ، وجاء فى المخطوطة : « فيقول » .

قال : ثم اعتزل الزُّبَيْر الحربَ وانصرف ، وصَلِيَها [١] طَلحة ، فأصابه سَهْم غَرْبٌ [٢] شَكَّ رجْلَه بصَفْحة الفَرس ، ثم دخل البَصرةَ ومات بها . وسنذكر إن شاء الله أخباره وأخبار الزبير بعد نهاية وقعة الجمل .

وانهزم القوم يريدون البصرة ، فلمَّا رَأوا الخيلَ أطافت بالجمل عادوا قلبا كما كانوا حَيْثُ الْتقَوْا وعادوا فى أمر جديد .

فقالت عائشة لكعب بن سُور وهو آخذ بخِطام الجمل : خَل عن الجمل وتقدَّمْ بالمُصْحف فادْعُهُم إلَيه . (وناولتْه مصحفا من هَوْدجها) فاستقبل القومَ [بالمصحف] [٣] ، والسَّبئيَّة أمامَهم (يخافون أن يجرى الصلح) (١) ، فرشقوه رشْقا واحدا ، فقتلوه ورمَوْا أمَّ المؤمنين فى هَوْدجها ، فجعلتْ تُنادى : « البقيَّةَ البقِيَّةَ يابَنِىّ ! » ويعلو صوتُها « اللهَ اللهَ ! اذكرُوا اللهَ والحساب ! » فيأبَوْن إلاَّ إقداما ، فكان أوَّل شىء أحدثتْـه حين أبَوْا أن قالت : « أيُّها الناس الْعنوا قَتَلةَ عُثمان وأشياعَهم ! » وأقبلتْ تدعو ، فضجَّ الناسُ بالدعاء ، فسمع علىٌّ فقال : ماهذه الضَّجّة ؟ قالوا : عائشة تدعو علَى قَتَلة عُثمان وأشياعِهم . فقال : اللهُمَّ الْعَنْ قَتَلة عُثمان !

وأرسلتْ إلى عبد الرحمن بن عَتَّاب وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام : أن اثْبُتا مكانكما . وحرَّضَت الناس حين رأت القومَ

---

(١) صليها : قاسى شدتها .

(٢) سهم غرب – بسكون الراء أو فتحها – : لا يعرف راميه .

(٣) الزيادة من ابن جرير .

يريدونها ولا يكُفُّون ، فحملتْ مُضَرُ البصرة حتى قَصَفتْ[١] مُضَرَ الكوفةِ ، حتى زُحِم عليٌّ ، فنَخَس قفا محمدٍ ابنه ، وكانت الراية معه ، وقال له : احمِلْ . فتقدَّمَ حتَّى لم يجد متقدَّما إلاَّ على سِنان رمح ، فأخذ عليٌّ الرايةَ من يده ، وقال : يابُنَيَّ بَيْنَ يَدَيَّ . وحملتْ مُضَرُ الكوفة فاجْتَلَدوا[٢] قُدَّامَ الجمل حتَّى ضَرسوا[٣] ، والمُجنِّبات[٤] علَى حالها لا تصنع شيئا ، واشْتدَّت الحرَبُ ، فأصيبب زَيد بن صُوحان ، وأخوه سَيْحان ، وارْتُثَّ[٥] أخوهما صَعصَعة ، فلما رأى عليٌّ ذلك بعَث إلَى رَبيعة وإلَى اليمن : أن اجْمَعوا مَن يَليكم .

فقام رجل من عبد القَيْس من أَصحاب عليّ فقال : ندعوكم إلَى كتاب الله : فقالوا : كيف يَدْعونا إلَيْه مَن لايستقيمُ ولا يُقيم حدودَ الله ؟ وقد قُتِل كَعْب بن سُور داعى الله ورمتْه رَبيعة رَشْقا واحدا فقتلوه ! ودعتْ يَمَنُ الكوفة يَمَنَ البصرة فرشقوهم ، وأَبَى أَهلُ الكوفة إلاَّ القتال ، ولم يُريدوا إلاَّ عائشَة ، فذكَّرتْ أَصحابَها ، فاقتتلوا ، حتى تنادَوْا فتحاجَزوا ، ثم رجعوا فاقتتلوا ، وتزاحَف الناس ، فظهرتْ يَمَنُ البصرة علَى يَمَنِ الكوفة فهزمتهم ورَبيعةُ البصرة علَى رَبيعة الكوفة فهزمتهم ، ثم عاد يَمَنُ الكوفة فقُتل علَى رايتهم عشرة : خمسة من هَمْدان وخمسة من سائر اليمن ، فلما رأى ذلك يَزيدُ بن قَيْس

(١) القصف : الدفع الشديد .

(٢) اجتلدوا : تضاربوا بالسيوف .

(٣) ضرسوا : عضتهم الحرب .

(٤) هكذا جاء عند ابن جرير ٣ ص ٥٢٣ ولكل جيش من الجيشين مجنبتان ، وهما : ميمنة وميسرته . وجاء فى المخطوطة : « والمجنبتان على حالهما لا تصنع شيئا » والتثنية لا تناسب الفعل « تصنع » .

(٥) ارتث الجريح : حمل من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح .

أَخَذَها فثبَتَتْ فى يده . ورجعتْ رَبيعة الكوفة فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقُتل علَى رايتهم وهم فى الميسرة زَيد[١] وعبد الله بن رقبة وأبو عبيدة بن راشد بن سُلْمى وهو يقول : « اللهمَّ أنت هدَيْتنا من الضلالة ، واستنقذتنا من الجَهالة ، وابتلَيْتنا بالفتنة ، فكنَّا فى شُبْهة وعلَى رِيبة » [حتى][٢] قتل .

واشتدَّ الأمر حتَّى لزِقَتْ مَيْمَنةُ أهل الكوفة بقَلْبهم ، ومَيْسَرةُ أهل البصرة بقَلْبِهم ، ومنعوا مَيْمنة أهل الكوفة أن يختلطوا بقَلْبهم وإنْ كانوا إلَى جَنْبهم ، وفَعَل مثلَ ذلك مَيْسرةُ أهل الكوفة بمَيْمَنة أهل البصرة .

فلما رأى الشُّجعانُ من مُضَرِ الكوفة والبصرة الصبرَ تنادَوْا : طَرِّفوا إذا فرَغ الصبر . فجعلوا يقصدون الأَطراف (الأَيدِىَ والأَرْجُلَ) فما رُؤى وقعة كانت أعظمَ منها قبلها ولا بعدها ولا أكثَرَ ذِراعا مقطوعة ورِجلا مقطوعة ! وأُصيبتْ يَد عبد الرحمن بن عَتَّاب قبلَ قتْله .

فنظرتْ عائشةُ عن يَسارها ، فقالت : مَن القومُ عَن يَسارى ؟ فقال صَبِرة بن شَيْمان : بَنُوكِ الأَزْد . قالت : يا آل غَسَّان حافظوا اليوم فجِلادكم[٣] الَّذى كنَّا نسمع به ! وتمثَّلتْ :

وجالَدَ من غسَّان أهل حفاظِها ... وهِنْبٌ[٤] وأوسٌ جالدتْ وشبيبُ

---

(١) هو زيد بن صوحان العبدى ، أخو صعصعة وسيحان ، انظر ترجمته فى الاستيعاب ج ١ ص ٥٥٩ والإصابة ج ١ ص ٥٨٢ ، ٥٦٨ .

(٢) كذا جاء عند ابن جرير ج ٣ ص ٥٢٥ ، وجاء فى المخطوطة » : « وقتل » .

(٣) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « جلادكم » .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة كتاريخ ابن جرير ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٢٦ « وكعب » .

فكانت الأَزْدُ يأْخذون[١] بَعَرَ الجمل فيشَمُّونه ويقولون : بَعْرُجَمل أمِّنا رِيحُه ريحُ المِسك ! .

وقالت لمَن عن يَمينها : مَن القومُ عن يَمينى ؟ قالوا بكْر بن وائل. قالت : لكم يقول القائل :

وجاءوا إلَيْنَا فى الحديد كأنَّهم
من العِزَّةِ القَعْسَاء[٢] بَكْرُ بْنُ وائلِ

إنَّما بإزائكم عبد القيْس . فاقتتلوا أشدَّ من قتالهم قبل ذلك .

وأقبلتْ علَى كتيبة بَيْن يَدَيْها فقالت : مَن القوم ؟ قالوا بَنُو ناجية . قالت : بَخٍ بَخٍ[٣] ! سُيوف أبْطحِيَّة[٤] قُرَشية ! فجالدوا جِلادا يُتفادَى منه.

ثم أطافت بها بنوضبة ، فقالت : وَيْهًا[٥] ! جَمْرة الجَمَرات[٦] فلما رقُّوا خالطهم بنو عَدِىّ بن عبد مَناه ، وكثروا حَولها ، فقالت : مَن أنتم ؟ قالوا : بنوعَدِىّ خالطنا إخواننا ، فأقاموا رأْسَ الجمل ، وضربوا ضرباً ليس بالتعذير[٧] ، ولا يَعْدِلون بالتَّطْرِيف ، حتَّى

(١) فى النسخة (ك) : « يأخذون » ، وفى النسخة » (ن) : « تأخذ » .
(٢) القعساء : الثابتة .
(٣) بخ : كلمة للمدح والاستحسان وإظهار الرضا ، وتكرر للمبالغة فى ذلك .
(٤) الأبطح : مكان بمكة بين جبليها : أبى قبيس والأحمر ، ويقال لمن ينزلون فى هذا المكان من قريش « قريش البطاح » .
(٥) ويها : كلمة إغراء وتحريض .
(٦) فى خزانة الأدب ج ١ ص ٣٦ : واعلم أن جمرات العرب ثلاث : وهم بنونمير بن عامر وبنو الحارث بن كعب وبنوضبة بن أد ، والتجمير فى كلام العرب التجميع ، وإنما سموا بذلك لأنهم متوافرون فى أنفسهم لم يدخل معهم غيرهم .
(٧) إذا قصر قوم فى أمر ولم يبالغوا فيه قيل : « عذروا » بتشديد الذال ، والتعذير مصدر ، وهو منفى هنا .

إذا كثر ذلك وظهر فى العسكريَن جميعا رامُوا الجمل ، وقالوا : لايزولُ القومُ أو يُصْرَعَ الجمل . وصارت مَجَنِّبَتا علىّ إلَى القَلْب ، وفعل ذلك أهلُ البصرة ، وكره القَوْمُ بعضُهم بعضا .

وأخذ عَمِيرَةُ بن يَثْرِبىّ رأْسَ الجمل ، وكان قاضى البصرة ، فقال علىّ مَن يَحمل علَى الجمل ؟ فانتَدب له هِنْد بن عمرو الجملى المُرادى ، فاعترضه ابنُ يَثْرِبىّ ، فاختلفا ضربتَين ، فقتله ابن يَثْرِبىّ ، ثم حمل عِلْباءُ بن الهَيْثَم ، فقتله ابن يَثْرِبىّ ، وقُتل سَيْحان بن صُوحان ، وارْتُثَّ صَعْصَعه [1] ، فنادَى عَمار بنُ ياسر ابنَ يَثْرِبىّ : لقد عُذْتَ بحَرِيز [2] وما إلَيك من سبيل فإن كنتَ صادقا فاخرُجْ من هذه الكتيبة إلَىّ . فتَرَك الزِّمامَ فى يد رجل من بنى عَدِىّ وخرج ، حتَّى إذا كان بَيْن الصفَّين تقدَّم عَمّار ، وهو ابنُ تسعين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وعلَيْه فَرْوٌ قد شَدَّ وسطه بحبل من لِيف ، وهو أضعف من بارَزه ، فاسْتَرْجَع [3] الناسُ وقالوا : هذا لاحقٌ بأصحابه ! فضربه ابْنُ يَثْرِبىّ ، فاتَّقاه عَمّار بدَرَقته [4] ، فنشِبَ سَيفُه فيها ، فعالجه فلم يخرجُ ، وأَسَفَّ [5] عَمّار لرجلَيْهِ فضربه فقطَعَهما ، فوقع علَى اسْتِه وأُخذ أسيرا ، فأُتِىَ به إلى علىّ ، فقال : اسْتبقِنى ! فقال : أبَعْدَ ثلاثة تقتلُهم ؟ وأمر به فقُتل ، وقيل : إنَّ المقتول عَمْرو بن يثْرِبىّ [6]

---

(١) انظر ماسبق قريبا .

(٢) عذت : التجأت . حريز : حصين .

(٣) استرجع الناس : قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٤) الدرقة : قطعة من جلد يحملها المحارب للوقاية من السيف ، كالترس .

(٥) أسف : دنا .

(٦) انظر ترجمة عمرو بن يثربى فى الإصابة ج ٣ ص ١١٩ .

وإنَّ عَمِيرة[1] بقِيَ حتَّى ولِيَ قضاء البصرة مِن قبَل مُعاوية .

قال : ولما قُتل ابنُ يَثربيّ تَرك العَدَوِيُّ الزِّمامَ بيد رجل من بنى عَدِيّ ، وبرز ، فخرج إليْه رَبيعة العُقَيْليّ ، فاقتتلا ، فأثْخَنَ كلٌّ واحد منهما صاحبه ، فماتا جميعا .

وقام مقام العَدَوِيّ الحارث الضَّبِّيُّ ، فما رُؤِى أشدّ منه ، وجعل يقول[2] :

نحن بنى[3] ضَبَّةَ أصحابُ الجَمَلْ
نُبَارِزُ القِرْنَ إذا القِرْنُ نزَلْ
نَنْعَى ابْنَ عَفَّانَ بأطراف الأَسَلْ
المَوتُ أحلَى عندنا من العَسَلْ
رُدُّوا علَيْنَا شيْخَنا ثُمَّ بَجَلْ[4]

وارْتُجِزَ غَيرُ ذلك .

فلم يَزَل الأمرُ كذلك حتَّى قُتِل علَى خِطام الجمل أربعون رجلا ، قالت عائشة : ما زال جملى معتدلا حتَّى فقدت أصوات بنى ضَبَّة .

قال[5] : وأخذ الخِطام سبعون رجلا من قُرَيش ، كُلُّهم يُقْتَلُ وهو آخذٌ بخطام الجمل .

(١) فى القاموس : « عمرو بن يثربى صحابى ، وعميرة بن يثربى تابعى » .

(٢) جرى المؤلف هنا على أن القائل هو الحارث الضبى ، كابن الأثير فى الكامل ، وذكر ابن جرير فى تاريخه هذا القول ج ٣ ص ٥٢٦ وذكر قولا آخر ج ٣ ص ٥٣٦ أن القائل عمرو بن يثربى الضبى وهذا القول الثانى هو الذى اتجه إليه صاحب الإصابة ج ٣ ص ١١٩

(٣) كذا جاء فى النهاية ولسان العرب بالنصب على الاختصاص ونص المبرد على نصبه مرتين فى الكامل . انظر رغبة الآمل ج ٢ ص ٦٧ - ٦٨ ج٤ ص ١٠١ وجاء فى المخطوطة « بنو » .

(٤) بجل : حسب .

(٥) القائل : الشعبى ، انظر تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٥٣٦ .

وكان محمد بن طَلْحة مِمَّن أخذ بخِطامه ، وقال: يا أُمّاه مُرِيني بأمرِكِ. قالت: آمُرُكَ أن تكونَ كخَيْرِ ابْنَيْ[1] آدمَ إنْ[2] تركت. فجعل لا يَحمل عليه أحدٌ إلاَّ حمل وقال: « حمٓ لا يُنْصَرون »[3] واجتمع عليه نَفَرٌ[4] كُلُّهم ادَّعَى قتْلَه ، فأنفذه بعضهم بالرُّمح ، ففي ذلك يقول :

وأشْعَثَ قَوَّامٍ بآيات ربِّـــه قليلِ الأذَى فيما تَرَى العَيْنُ مُسْلِمِ
هتكْتُ له بالرمحِ جَيْبَ قميصه فخَرَّ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ ولِلْفَمِ[5]
يُذَكِّرُنِي حامِيمَ والرمْحُ شاجِرٌ فهَلاَّ تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التقدُّمِ[6]
علَى غَيْرِ شيءٍ غَيْرِ أنْ لَيْسَ تابعًا عليًّا ، ومَن لا يَتْبَعِ الحَقَّ يَنْدَمِ

(١) كذا جاء فى الإصابة ج ٣ ص ٣٧٧ والبداية والنهاية ج ٧ ص ٢٤٣ وفيه إشارة إلى قصة ابنى آدم بسط أحدهما يده لقتل أخيه وامتناع الاخر الآية ٢٧ وما بعدها من سورة المائدة . وجاء فى المخطوطة وغيرها : « بنى » .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) . وجاء فى (ن) : « وإن» .

(٣) لعل هذا مأخوذ من الحديث النبوى الذى رواه أصحاب السنن : « إن يبتم فليكن شعاركم حم لا ينصرون » وانظر شرحه فى النهاية واللسان (ح م م) وقد اقتصر المؤلف فيما يتعلق بشأن محمد بن طلحة و (حاميم) على هذه الرواية التى ذكرها ابن الأثير ، وسيأتى فى الشعر قول قاتل محمد « يذكرنى حاميم » وقد اختلف العلماء فى تذكير حاميم ، فقال بعضهم « كلما حمل عليه رجل قال نشدتك بحاميم ، يريد بما فى (حم عسق) من قوله تعالى ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى﴾ وقال بعضهم : « كان شعار أصحاب على يوم الجمل (حم) وكان القاتل مع على ؟ فلما طعن محمدا قال محمد (حم) فأنشد القاتل الشعر » وقال بعضهم : « قال محمد بن طلحة لما طعنه القاتل أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، فهذا معنى قوله : يذكرنى حاميم ، أى تلاوة هذه الآية لأنها من (حم) سورة المؤمن » .

(٤) جاء فى تسمية العلماء لهؤلاء النفر : كعب بن مدلج الأسدى وابن المكعبر الضبى وشداد بن معاوية العبسى وعصام بن المقشعر وشريح بن أوفى أو ابن أبى أوفى — والأكثر النخعى . . وذكر الزبير أن الأكثر على أن الذى قتله وقال الشعر عصام بن مقشعر . وكذلك رجحه أبو عبيد الله المرزبانى فى موضعين من معجم الشعراء ص ٢٦٩ ، ٣٤٥ .

(٥) من النحويين من استشهد بهذا البيت على أن اللام بمعنى « على » أى : على اليدين والفم ، كقوله تعالى « ويخرون للأذقان » أى : على الأذقان .

(٦) استشهد بهذا البيت أبو عبيدة فى (مجاز القرآن) منسوبا إلى شريح ، انظر لسان =

قال : وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف ، فجعل لا يدنو منه أحد إلا خَبَطه بالسَّيف ، فأقبل إليه الحارث بن زهير وهو يقول :

يا أُمَّنَا (١) يا خيْرَ أمٍّ نعلمُ
أمَا تَرَيْنَ كم شجاعٍ يُكْلَمُ (٢)
وتُخْتَلَى هامَتُهُ (٣) والمِعْصَمُ

فاختلفا ضربتَيْن ، فقَتَل كلُّ واحد منهما صاحِبَه . وأحْدَق أهلُ النَّجدات والشجاعة بعائشة ، فكان لا يأخذ الخطام أحدٌ إلاَّ قُتِل ، وكان لا يأخذه والراية إلاَّ معروفٌ ، فينتسب : « أنا فلانِ بن فلان » ، فإنْ كانوا لَيُقاتلون علَيْه وإنَّه لَلْمَوْتُ لا يُوصَل إلَيْه [إلاَّ بطَلَبة] (٤) ! وما رامَهُ أحدٌ من أصحاب عليّ إلاَّ قُتِل أو أفلت ثمَّ لم يَعُد ، وحمل عديّ بن حاتم عليهم ففُقئتْ عينه . وجاء عبد الله بن الزُّبَيْر ولم يتكلم ، فقالت عائشة : مَن أنت ؟

= العرب وتاج العروس ، وكذلك استشهد به البخارى ، فى تفسير سورة (المؤمن) من صحيحه ، انظر فتح البارى ٨ ص ٣٩١ – ٣٩٢ واستشهد به الزمخشرى فى (الكشاف) ج ١ ص ٦٦ .. و « شاجر » معناه : مختلف أو ذو طعن .

(١) فى (ك) : « ياأمنا » . وفى (ن) : « ياأمتا » بالتاء .

(٢) يكلم : يجرح .

(٣) تختل هامته : يقطع رأسه .

(٤) زيادة يقتضيها المقام ذكرها ابن جرير ج ٣ ص ٥٣٢ .

قال ابْنُكِ وابنُ أختِكِ . قالت : واثُكْلَ أسماء! فانتهى إليه الأشتر فضربه الأشترُ على رأسه ، فجرحه جرحا شديدا ، وضربه عبدُ الله ضربةً خفيفة ، واعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَه ، وسقطا على الأرض يعتركان ، فقال عبدُ الله بن الزُّبَير : « اقتُلُونى ومالكا »[1] فلو يعلمون مَن « مالِكٌ » لَقتلوه ، إنَّما كان يُعْرَف بالأشتر[2] ، فحمل أصحابُ علىّ وعائشة فخلصوهما .

قال : وأخذ الخِطامَ الأسودُ بن أبى البَخْتَرِىّ القرشى فقُتل[3] ، وأخذه عمرو بن الأشرف الأزدي فقتل ، وقتل معه ثلاثة عشر رجلا من أهل بَيْته ، وجُرح عبد الله بن الزُّبَير سبعا وثلاثين جراحة من طعنة ورمية وضربة ، وجُرح مَرْوانُ بن الحَكَم .

فنادَى علىّ : اعْقِروا الجملَ فإنَّه إن عُقِرَ تفرَّقوا . فضربه رجل ، فسقط ، فما سُمع صوتٌ أشدُّ من عَجِيجه .

وقيل فى عَقْر الجمل : إنَّ القَعْقاع لقِىَ الأشْتَرَ وقد عاد من القتال عند الجمل . فقال : هل لك فى العَوْد ؟ فلم يُجِبْه ، فقال : ياأشْتَرُ

---

(١) فى الكامل ج ٣ ص ١٢٨ ومرج الذهب ج ٢ ص ١٣ :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

(٢) الأشتر : اسمه مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة النخعى ، وكان فارسا شجاعا من كبار الشيعة » ولقب بالأشتر لأن رجلا من إياد ضربه فى يوم اليرموك على رأسه فسالت الجراحة قيحا إلى عينه فشترتها ، هذا هو المشهور فى تلقيبه ، وهناك وجه فى تلقيبه ذكره أسامة بن منقذ فى لباب الآداب ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣) تبع المؤلف هنا ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٢٩ وهذا القول جاء فى رواية لابن جرير الطبرى فى تاريخه ٣ ص ٥٢٨ ولكن ابن جرير ذكر قولا آخر ج ٣ ص ٥٤٥ بعد انتهاء وقعة الجمل يفيد أنه لم يقتل فيها . قال : قصدت عائشة مكة فكان وجهها من البصرة ، وانصرف مروان والأسود بن أبى البخترى إلى المدينة من الطريق . ويؤيد القول بما ذكره ابن حجر فى ترجمة الأسود من كتاب الأصابة ١ ص ٤٢ فارجع إليه .

بعضُنا أعلمُ بقتال بعضٍ منك . وحمَل القَعْقاعُ ، والزِّمام مع زُفَرَ بن الحارث الكِلابىّ ، وكان آخِر من أخذ الخِطامَ ، فلم يَبْقَ شَيخ من بنى عامر إلاَّ أُصيب قُدَّام الجمل ، وزحَف القَعْقاع إلى زُفَرَ بن الحارث ، وقال لبُجَيْر بن دُلَجَه – وهو من أصحاب علىّ – : يابُجَيْرُ صِحْ بقولك فليُعَقِّروا الجمل قبل أن يُصابوا أوتُصابَ أمُّ المؤمنين . فقال بُجَيْر : « يا آل ضَبَّة ، ياعمرو بن دُلَجَة ، ادْعُ بى إلَيْك » فدعاه ، فقال : أنا آمِن حتَّى أرجعَ عنكم ؟ . قالوا : نعم . فاجتَثَّ ساقَ البَعير ، فرمَى بنفسه علَى شِقِّه وجَرْجَر[1] البَعيرُ ، قال القَعْقاع لمن يَليه : أنتم آمِنون واجتمع هو وزُفَرُ علَى قطْع بِطَان[2] الجَمل وحملا الهَوْدَجَ فوضعاه ، وإنه كالقُنْفُذِ لما فيه من السِّهام ، ثم أطافا به ، وفرَّ مَن وراءَ ذلك من الناس.

فلمَّا انهزموا أمر علىٌّ مناديا فقال : ألاَ لا تتبعوا مُدْبرا ، ولا تُجْهِزُوا عَلَى جَريح[3] ولا تدخلوا الدُّور .

وأمر علىّ نفرًا أن يحملون الهَوْدَج من بَيْنِ القتلَى ، وأمر أخاها محمد بن أبى بكر أن يضرب علَيْها قُبَّة ، وقال انظُرْ : هل وصل إليها شىء من جِراحة ؟ فأدخل رأسَه هَوْدجها ، فقالت : مَن أنت ؟ فقال : أبْغَضُ أهلِكِ إلَيْك . قالت ابْنُ الخَثْعَمِيَّة[4] ؟ قال : نعمْ . قالت : الحمد لله الذى عافاك .

---

(١) جرجر البعير : ردد صوته فى حنجرته .

(٢) بطان الجمل : الحزام الذى يجعل تحت بطنه .

(٣) أى : لا يقتل من صرع وجرح منهم .

(٤) الخثعمية : أسماء بنت عميس الخثعمية : وهى أخت ميمونه زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت أسماء من المهاجرات إلى الحبشة ، وهى إذ ذاك زوج جعفر بن أبى طالب ، فولدت له هناك محمد بن جعفر وعبد الله وعونا . ثم هاجرت معه إلى المدينة ، فلما قتل جعفر يوم مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمدا هذا ، ثم مات عنها أبو بكر فتزوجها =

وقيل : لما سقط الجمل أقبلَ محمد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر إليه ، فاحتملا الهَوْدَج ، فنحّياه ، فأدخل محمد يَدَه فيه ، فقالت : مَن هذا ؟ قال : أخوكِ البَرّ (١) قالت : عُقُق (٢) ! قال : يا أُخَيَّةُ هل أصابكِ شيء ؟ قالت : ما أنتَ وذاك ؟ قال : فمَنْ إذًا الضُّلاَّل ؟ قالت : بل الهُداة ! وقال لها عمّار : كيف رأيتِ بَنِيكِ اليومَ ياأُمّاه ؟ قالت : لستُ لك بأُمّ ! قال : بَلَى وإنْ كرهْتِ . قالت : فَخَرْتم أنْ ظَفِرْتُم وأتَيْتُم مِثلَ الّذى نَقَمْتُم هَيْهاتَ واللهِ لن يَظفَرَ مَن كان هذا دَأْبه ! فأبرزوا هَوْدَجَها ، فوضعوها لَيْس قُرْبَها أحَد .

وأتاها عليّ فقال : كَيف أنتِ ياأُمَّهْ ؟ قالت : بخَيْر . قال : يَغفِرُ اللهُ لَكِ . قالت : ولَكَ .

وجاء أعين بن ضُبيعَة المُجاشِعيّ حتى اطّلع فى الهودج ، فقالت إلَيْكَ لَعَنَكَ الله ! فقال : والله ما أرَى إلاحُمَيْراء . فقالت هَتَكَ اللهُ سِتْرَكَ وقَطَع يَدَكَ وأبْدَى عَوْرتك ! فقُتل بالبصرة وسُلِبَ وقُطِعَتْ يَدُه ورُمِيَ عُرْيانا فى خَرِبةٍ من خربات الأَزْد ! .

ثم أتَى وُجوهُ الناسِ إلَى عائشة ، وفيها القَعْقاع بن عمرو ، فسلَّم عليها ، فقالت : واللهِ لَوَدِدْتُ أنى متُّ قبْلَ هذا اليوم بعشرين سنة !

= على بن أبي طالب فولدت له يحيى بن على . وقد ثبت أنها ولدت محمد بن أبي بكر فى طريق المدينة إلى مكة فى حجة الوداع ، كما فى حديث جابر الطويل فى صحيح مسلم . ثم نشأ محمد بن أبي بكر فى حجر على بن أبي طالب ، إذ تزوج على أمه ، ثم كان موقفه فى موقعة الجمل مع أخته عائشة ما ذكره المؤلف ، وسيذكر – فيما بعد – ولايته لمصر ومقتله وأن « عائشة رضى الله عنها جزعت عليه جزعا شديدا » .

(١) البر : المحسن لمعاملة الأقربين من الأهل .

(٢) عقق : عاق أهله ، من العقوق ، ضد البر .

وكان عليّ يقول بعد الفراغ من القتال :

إِلَيْكَ أَشْكو عُجَرِى وبُجَرِى[1]
ومَعشرًا أَغْشَوا[2] عَلَىَّ بَصَرِى
قتلتُ منهم مُضَرِى بمُضَرِى
شفَيْتُ نَفْسِى وقتلتُ مَعْشَرِى !

قال : ولمّا كان الليلُ أدخل محمدُ بن أبى بكر عائشةَ البصرة ، فأنزلها فى دار عَبد الله بن خَلَفٍ الخُزاعى[3] – وهى أعظم دار فى البصرة – علَى صَفِيَّةَ بنت الحارث بن [طَلْحة بن][4] أبى طَلْحة بن عبد العُزَّى ، وهى أمّ طَلْحَةِ الطَّلَحاتِ بن عبد الله بن خَلَف .

وتسلَّل الجرحَى من بَيْن القَتْلى فدخلوا البصرة .

وأقام علىّ بظاهِر البصرة ثلاثا ، وأذِنَ للناس فى دفن مَوْتاهم ، فخرجوا إِلَيْهم فدفنوهم ، وطاف علىّ فى القتلَى ، فلما أَتَى كَعْبَ بن سُور قال : « أَزَعَمتم[5] أنّما خرج معهم السفهاءُ وهذا الحبْرُ قد تَرَون ! »

(١) فى النهاية ولسان العرب : « حديث على : أشكو إلى الله عجرى وبجرى ، أى : همومى وأحزانى ، وأصل العجرة : نفخة فى الظهر فاذا كانت فى البطن فهى بجرة وقيل : العجر العروق المتعقدة فى الظهر ، والبجر : العروق المتعقدة فى البطن ، ثم نقلا إلى الهموم والأحزان ، أراد أنه يشكو إلى الله أمورهم كلها ماظهر منها وما بطن .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وعند ابن جرير : « غشوا » ، وفى الكامل لابن الأثير : « أغشوا » .

(٣) عبد الله بن خلف الخزاعى له ترجمة فى الإصابة رقم ٤٦٥٠ ٢ ص ٣٠٣ وكان كاتبا لعمر بن الخطاب على ديوان البصرة ، وشهد وقعة الجمل مع عائشة فقتل ، وكان أخوه عثمان مع على .

(٤) الزيادة من تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٥٣٩ وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٦ ٨١ : ١٢٠ والإصابة ج ٢ ص ٢٣٧ ولسان العرب والقاموس مع تاج العروس وخزانة الأدب ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٥) كذا جاء فى المخطوطة موافقا لما فى الكامل ، وجاء فى تاريخ ابن جرير « زعمتم » وهو أقرب لما يأتى .

وجعل كلّما مَرَّ برجل فيه خَيْر قال : « زَعَم مَن زَعَم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء وهذا العابد المجتهد فيهم ! » وصلى علىّ على القتلى مِن بَيْن الفريقَيْن ، وأمَرَفدُفِنَت الأطراف فى قبر عظيم ، وجَمع ماكان فى العسكر من شىء وبعث به إلَى مسجد البصرة ، وقال : مَن عرف شيئا فلْيأخذْه إلاّسلاحا كان فى الخزائن علَيْه سِمَة السلطان .

قال[1] : وكان جميع القتلَى عشرة آلاف ، نصفُهم من أصحاب علىّ ، ونصفُهم من أصحاب عائشة ، حكاه أبو جعفر الطبرى ، وقال غيره : ثمانية آلاف . وقيل : سبعةَ عشرَ ألفا . قال أبو جعفر : وقُتل من ضَبَّة ألفُ رجل ، وقُتل من عَدِىّ حَول الجمل سبعون كلُّهم قد قرأ القرآن سوَى الشباب ومَن لم يقرأ .

قال[2] : ولمّا فرغ علىّ من الواقعة أتاه الأحنَفُ بن قَيس [فى بنى سعد] [2] ، وكانوا قد اعتزلوا القتال ، كما ذكرنا ، فقال له علىّ : لقد تربَّصْتَ . فقال : ماكنتُ أرانى إلاّ قد أحسنت ، وبأمرك كان ماكان ياأميرَ المؤمنين ، فارْفُقْ ، فإنّ طريقَكَ الّذى سلكتَ بعيد ، وأنت إلىّ غدًا أحْوَجُ منكَ أمْسِ ، فاعْرِفْ إحسانى ، واستصْفِ مَوَدَّتى لِغَدٍ ، ولاتقُل[3] مِثْلَ هذا فإنّى لم أزَلْ لك ناصحا .

ثم دخل علىّ البَصرةَ يومَ الاثنين ، فبايَعه أهلُها ، حتّى الجرحَى والمُسْتأمِنة ، واستعمل علىّ عبدَ الله بنَ عبّاس علَى البَصْرة ، وولّى

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٣١ .

(٢) الزيادة من الكامل ، ويقتضيها ضمير الجمع الآتى بعدها.

(٣) كذا جاء فى المخطوطة والكامل ، وجاء فى تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٥٤٠ « ولا تقولن » .

زياداً الخراجَ وبَيتَ المال ، وأمَر ابْنَ عبّاس أن يسمع منه ويُطيع وكان زياد معتزِلا (١) .

ثم راح عليّ رضى الله عنه إلَى عائشة فى دار عبد الله بن خَلَفٍ الخُزاعى ، فوجد النساءَ يبكِين علَى عبد الله وعُثمانَ ابْنَىْ خَلَف ، وكان عبد الله قتل مع عائشة ، وعثمان قتل مع على ، وكانت صفية زوجة عبد الله مختمرة تبكى ، فلما رأته قالت له : ياعلى ، يا قاتل الأحبّة ، يامُفرقَ الجمع ، أيْتَم اللهُ منك بَنِيكَ كما أيْتمْتَ ولَدَ عبدِ الله منه . فلم يرُدّ علَيها شيئا ، ودخل علَى عائشة فسلم علَيها وقعد عندها ، ثم قال : جَبَهَتْنا صفيّة . أمَا إنّى لم أرَها منذ كانت جارية ! فلما خرج أعادت علَيه القول ، فكفّ بَغلتَه ، وقال : لقد هممْتُ أن أفتَحَ هذا الباب (وأشار إلى باب فى الدار) وأقتُلَ مَن فيه (وكان فيه ناس من الجرحَى فأُخبر بمكانهم ، فتغافلَ عنه) (٢) .

قال : ولمّا خرج مِن عند عائشة قال له رجل من الأزْد : واللهِ لاتغلِبُنا هذه المرأة ! فغضب وقال : « مَهْ (٣) ، لا تَهْتِكُنّ سترًا ، ولا تدخلُنّ دارا ، ولا تَهيجُنّ امرأةً بأذًى ، وإنْ شتَمْنَ أعراضَكم ، وسفَّهْنَ أمراءَكم وصلَحاءَكم ، فإنّ النساء ضعيفات ، ولقد كنّا

(١) كان زياد ممن اعتزل ولم يشهد المعركة ، ولما جاء عبد الرحمن بن أبى بكر فى المستأمنين مسلما — بعد مافرغ على من البيعة — قال له على رضى الله عنه : وعمك المتربص المقاعد بى (يعنى زيادا) . فقال : والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد وإنه على مسرتك لحريص ولكنه بلغنى أنه يشتكى . فلما قابل على زيادا واعتذر إليه زياد قبل عذره ، واستشاره وأراده على رضى الله عنه على البصرة ، فقال زياد : رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس فإنه أجدر أن يطمئنوا وينقادوا وسأكفيكه وأشير عليه . فكان ابن عباس .

(٢) عبارة ابن جرير : « وكان أناس من الجرحى قد لجئوا إلى عائشة ، فأخبر على بمكانهم ، فتغافل عنهم » .

(٣) مه : اسكت واكفف .

نُؤمَرُ بالكفِّ عنهنَّ وهنَّ مُشركات ، فكَيْفَ إذا كُنَّ مسلمات ؟ » ومضَى ، فلحِقه رجل فقال : ياأميرَ المؤمنين ، قام رجلان علَى الباب فتناولا مَن هو أمَضُّ شتيمة لك من صفيّة . فقال : ويَحْك لعلّها عائشة ! قال : نعمْ ، قال أحدُهما :

« جُزِيتِ عَنَّا أُمَّنا عُقوقا » .

وقال الآخر :

« يا أُمَّتا [1] تُوبى فقد خَطِيتِ » .

فبعث القعقاعَ بْنَ عَمرو إلَى الباب ، فأقبلَ علَى مَن كان علَيه ، فأحالوا علَى رجلَيْن من أزْد الكوفة ، وهما عَجْلانُ وسعد ابنا عبد الله فضربهما مائةَ سَوط ، وأخرجهما من ثيابهما .

قال : وسألَتْ عائشةُ رضى الله عنها عَمَّنْ قُتل من الناس معها وعلَيها ، فكُلَّما نُعِيَ واحدٌ من الجميع قالت : رحِمه الله ! فقيل لها كيف ذلكِ ؟ قالت : كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان فى الجنة وفلان فى الجنة [2] .

ثم جهَّز علىّ رضى الله عنه عائشةَ بكُلِّ ماينبغى لها من مَرْكب وزادٍ ومتاع وغيرِ ذلك ، وبعث معها كُلَّ مَن نجا ممَّن خرج معها إلّا من أحبَّ المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ، وسيَّر معها أخاها محمدَ بن أبى بكر رضى الله عنهم . فلمَّا كان

(١) كذا جاء بالتاء فى النسخة (ك) ، ووقع فى النسخة (ن) : « ياأمى » ، وجاء فى تاريخ ابن جرير : « يا أمنا » بالنون .

(٢) زاد ابن جرير : « وقال على بن أبى طالب يومئذ : إنى لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقى قلبه إلا أدخله الله الجنة » .

اليَوم الذى ارتحلتْ فيه أتاها علىّ فوقف لها ، وحضر الناس ، فخرجتْ [وودعوها] (١) وودَّعَتْهم وقالت : يابَنىَّ ، لا يعتِب بعضُنا على بعض ، إنه والله ماكان بينى وبين علىّ فى القديم إلاَّ مايكون بين المرأة وأحْمائها ، وإنه علَى مَعْتَبِتى لَمِنَ الأخيار . فقال علىّ رضى الله عنه : صدقتْ والله ماكان بينى وبينها إلا ذاك ، وإنَّها لَزَوجة نبيِّكم فى الدنيا والآخرة .

وكان خروجها من البَصرة يَومَ السبت غُرَّةَ شهر رجب سنة ستٍّ وثلاثين ، وشيَّعها علىّ أميالا ، وسَرَّح بَنيه معها يَوما . وتوجَّهَتْ إلى مكَّة ، فأقامت إلَى الحجّ ، فحجَّت ، ثُم رجعتْ إلَى المدينة .

قال : ولمَّا فرغ علىّ من بَيْعة أهل البصرة نظَر فى بيت المال ، فرأى فيه ستَّمِائة ألفٍ وزيادة ، فقسمها علَى من شهد معه ، فأصاب كلَّ رجل منهم خمسُمِائة درهم ، فقال لهم : إنْ أظفركم اللهُ بالشام فلكم مثلُها إلَى أعْطياتكم ، فخاض فى ذلك السَّبَئِيَّة ، وطعَنوا علَى علىّ [مِنْ وَراءِ وراءٍ] (٢) ، وطعنوا فيه أيضا حين نهاهم عن أخذ أموالهم ، فقالوا : يُحِلُّ لنا دماءهم ويُحرِّم علَيْنا أموالَهم (٣) !

قال : وأراد علىّ رضى الله عنه المُقامَ بالبَصرة لإصلاح حالها ،

---

(١) الزيادة من تاريخ ابن جرير البرى ج ٣ ص ٥٤٧ .

(٢) الزيادة من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٢ وسبقه ابن جرير .

(٣) فى تاريخ ابن جرير ٣ ص ٥٤٥ : كان من سياسة على ألا يقتل مديرا ولا يذفف على جريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا . فقال قوم يومئذ : ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ! فقال على : القوم أمثالكم ، من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتله ، منى على الصدر والنحر ، وإن لكم فى خمسه لغنى .

فأعجلَتْه السَّبَئِيَّة عن المُقام ، فإنَّهم ارتحلوا بغَيْر إذْنه ، فارتحل فى آثارهم ، لِيَقطعَ علَيهم أمرًا إنْ أرادوه .

فلْنَرجعْ إلَى مَقْتَل طلحة والزبير .

ذكر مقتل طلحة

رضى الله عنه وشىء من أخباره

هو أبو محمد طَلْحةُ بن عُبَيْد الله بن عُثمانَ بن عَمرو بن كَعْب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب القرشى التَّيْمِى .

وهو أقرب العشرة إلَى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يجتمع نسبُه مع نسب أبى بكر فى عَمْرو بن كعب بن سعد .

ويجتمع نسَبُه ونسبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى مُرَّة ابن كعب .

وأم طلحة : الحَضْرَمِيَّة ، وهى الصَّعْبة بنت عبد الله بن عباد (١) ابن مالك بن ربيعة بن أكبر بن مالك بن عويف بن مالك بن الخَزْرَج ابن إياد بن الصَّدِف(٢) من حَضْرَمَوْتَ من كِنْدَةَ ، يعرف أبوها عبدُ الله بـ « الحَضْرَمِىّ » .

ويعرف طَلحة بـ « طَلْحة الخَير » و « طلحة الفيّاض » . قيل

(١) كذا جاء فى المخطوطة والرياض النضرة « عباد » ، وجاء فى الاستيعاب والإصابة : « عماد » .

(٢) فى القاموس : الصدف — ككتف — : بطن من كندة ينسبون اليوم إلى حضرموت . وفى جمهرة أنساب العرب ص ٤٣١ : « والصدف هم فى بنى حضرموت ، وهو الصدف ابن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر . » .

سُمِّىَ بالفيَّاض لأنَّه اشترَى مالاً بموضع يقال له « بيسَانَ » ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ماأنت إلا فيَّاض » ، فسُمِّىَ بذلك من يومِئذ .

وهو رضى الله عنه أَحَدُ العشرة المشهود لهم بالجنَّة ، وأَحَدُ الستة أصحاب الشُورَى الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ (١) .

وآخَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بَيْنَه وبَيْن كَعْب بن مالك حين آخَى بين المهاجرين والأنصار ، وقسم له سهمه وأجره يَوم بَدر (٢) . وقد تقدم خبره فى ذلك (٣) .

ثم شهِد أُحُدًا وما بعدها ، وأَبْلَى يَوْمَ أُحُدٍ بَلاءً حسنا ، ووَقَى رسولَ الله عليه الصلاة والسلام بنفسه ، اتَّقَى عنه النَّبْلَ بِيده حتى شُلَّت إصبعُه وضُرب فى رأسه ، وحَمل رسولَ الله علَيه الصلاة والسلام علَى ظهره حتى صعِد الصخرةَ ، فقال عليه السلام لأبى بكر رضىَ الله عنه : « اليَومَ أَوْجَبَ طَلحةُ (٤) ياأبا بكر » .

---

(١) ذكر صاحب الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على ماء يقال له : « بيسان » مالح ، فقال هو « نعمان » وهو طيب ، فغير اسمه فاشتراه طلحة ، ثم تصدق به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنت يا طلحة إلا فياض ، فبذلك قيل له « طلحة الفياض » .

(٢) لم يشهد طلحة وقعة بدر ، كما سبق فى هذا الكتاب : أن طلحة وسعيد بن زيد كانا قد بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم — قبل أن يخرج من المدينة إلى بدر إلى الشام يتحسسان له خبر العير ، فقدما بعد غزوة بدر فضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم سهميهما ، قالا : يا رسول الله . وأجرنا . قال : وأجركما .

(٣) نهاية الأرب ج ١٧ ص ٣٦ .

(٤) شرح صاحبا النهاية ولسان العرب حديث « أوجب طلحة » بقولهما : أى عمل عملا أوجب له الجنة . وذكر صاحب الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٥١ أن الحديث=

ويُروَى أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نظرَ إلَيه فقال : « مَن أحبَّ أن ينظرَ إلَى شهيد يمشى علَى وجه الأرض فلْيَنْظُرْ إلَى طَلحة » .

وحكى أبو عُمر ابن عبد البر رحمه الله فقال : زعم بعضُ أهلِ العلم أنَّ عليًّا رضىَ اللهعنه دعاهيومَ الجمل ، فذكَّرهأشياءَ مِنسوابقه وفضْلِه ، فرجع طَلحةُ عن قتاله ، علَى نحو ما صنعَ الزُّبَير واعتزل فى بعض الصفوف ، فرُمِىَ بسهم ، فقطع من رجله عرْقَ النَّسا ، فلم يزل دمُه ينزف حتَّى مات [1] . ويقال : إنَّ السهم أصاب ثُغْرة نَحْره ، وإنَّ الذى رماه مَرْوانُ بن الحَكَم وقال : لا أطلب بثأرى بعد اليوم . وذلك أنَّ طلحة ـ فيما زعموا ـ كان مِمَّن حاصَرَ عُثمان واشتد عليه . قال ابن عبد البر : ولا يختلف العلماء [2] فى أن مرْوانَ بن الحكم قَتَل طلحةَ يومَئِذٍ[3] ، واستدلَّ على ذلك بأخبار [رواها من قول مروان تدل علَى أنه قاتِلُه] [4] .

قال : وقد رُوِى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : واللهِ إنِّى لأرجو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطَلحةُ والزُّبَيرُ مِمَّن قال الله

= أخرجه أحمد والترمذى ، ثم ذكر ج ٢ ص ٢٥٣ رواية البغوى وغيره « أوجب طلحة الجنة » بذكر المفعول به .

(١) ذكر أبو عمر ابن عبد البر قول الأحنف : لما التقوا كان أول قتيل طلحة بن عبد الله

(٢) فى الاستيعاب لابن عبد البر : « ولا يختلف العلماء الثقات » .

(٣) زاد ابن عبد البر « وكان فى حز به » ، وقال فى موضع آخر كان مروان مع طلحة يوم الجمل ، فلما اشتبكت الحرب قال مروان : لاأطلب بثأرى بعد اليوم . ثم رماه بسهم . . . . . الخ .

(٤) ثبتت هذه الجملة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .

تبارك وتعالى فيهم : ﴿ ونَزَعنا ما فى صُدُورِهم مِنْ غِلٍّ إخوانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقابِلِين ﴾ (١) .

وروى أبو عمر بسنده إلى قَيْس بن أبى حازم قال : رمَى مَرْوانُ طَلْحةَ يَومَ الجمل بسهم فى رُكبته ، فجعل الدّم يَسيل ، فإذا أمسكوه استمسك وإذا تركوه سال ، فقال : دَعُوه فإنّما هو سهم أرسله الله . قال فمات ، فدفَنّاه عنَى شاطىء الكَلاّء (٢) ، فرأى بعضُ أهله أنه أتاه فى المنام فقال : «ألا تَريحوننى من هذا الماء فإنى قد غرقتُ!» ثلاثَ مِرَار يقولها ، قال : فَنبَشوه فإذا هو أخضر كأنّه السِّلْق ، فنَزَحوا (٣) عنه الماء ، فاستخرجوه ، فإذا ما يَلِى الأرضَ مِن لحيته ووجهه قد أكلتْه الأرض ، فاشترَوْا له دارًا من دُور آل أبى بكر بعشرة آلاف ، فدفنوه فيها .

وروى أيضا بسنده إلى علىّ بن زيد عن أبيه أن رجلا رأى فيما يَرَى النائمُ أنّ طَلحة بن عُبَيد الله قال : « حَوِّلُونى عن قبرى فقد آذانى الماء ! » ثم رآه ، حتّى رآه ثلاث ليال ، فأتَى ابْنَ عبّاس فأخبره ، فنظروا فإذا شِقُّة الذى يَلِى الارضَ فى الماء ، فحوّلوه ، قال : فكأنى أنظر إلَى الكافُور فى (٤) عينَيْه لم يتغيّر إلاّ عَقِيصته فإنها مالت عن موضعها .

وقتل رضى الله عنه وهو ابنُ ستّين سنة ، وقيل : ابن اثنتين وستّين ، وذلك يَوم الجَمل ، لعَشْرٍ خَلَوْنَ من جُمادَى الآخِرةِ سنة ستٍّ وثلاثين .

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الحجر .

(٢) الكلاء : مرفأ السفن بساحل النهر ، وأطلق على موضع بالبصرة .

(٣) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى (ك) : « فنزعوا » .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الاستيعاب ج ٢ ص ٢٤ : « بين عينيه »

وكان رضى الله عنه رجلا آدَمَ ، حَسَن الوجه ، كثيرَ الشَّعر ، ليس بالجَعْد القطط (١) [ولا بالسَّبْط.] (٢) وكان لايغيّر شعره (٣) .

وسمع علىّ رجلا يُنشد :

فتىً كان يُدْنيه الغِنَى من صديقه إذا ما هو اسْتغْنَى ، ويُبْعِدُهُ الفَقْرُ

فقال : ذاك أبو محمد طَلحةُ بن عُبَيد الله .

وحكى الزُّبَيْر (٤) أنَّه سمع سُفْيان بن عُيَيْنة يقول : كانت غَلَّةُ طَلحة بن عُبَيد الله أَلْفًا وافيًا كلَّ يَوم ! (قال : والوافى وزنه وزن الدِّينار ، وعلَى ذلك وزن دراهم فارس التى تُعرف بالبغلية) .

ذكر مقتل الزبير بن العوام

رضى الله عنه وشىء من أخباره

هو أبو عبد الله الزُّبَيْر بن العَوَّام بن خُوَيْلد بن أَسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ ، القرشى الأَسَدى .

وأمُّه صفيّة بنت عبد المُطَّلب ، عَمَّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أَحَدُ العشرة المشهودِ لهم بالجنة ، وأحدُ الستَّة أصحاب الشُّورَى ، وهو قديم الإسلام ، واختُلف فى سنِّه يَوم أسلم ، فقيل :

---

(١) القطط : الكثير الجعودة .

(٢) كذا ثبت فى النسخة (ن) كالاستيعاب ج ٢ ص ٢٢٥ ، وسقط من النسخة (ك) ، والسبط من الشعر : المنبسط المسترسل ، والمراد أن شعر طلحة : كان وسطا بين الجعد والمسترسل (وهما ضدان) .

(٣) كانوا يكرهون تغيير الشيب بنتف شعره ، وأما تغيير لونه فغير مكروه ، فمن ذوى الشيب من يقبل عليه ، ومنهم من لا يقبل . . . . وقد ذكر الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٦٢ أن الزبير بن العوام « كان لا يغير شيبه » كذلك .

(٤) هو الزبير بن بكار فى الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٥٨ .

خمسَ عشرةَ سنة ، وقيل ست عشرة ، وقيل : اثنتى عشرة سنة وقيل : ثمانى سنين . والأول أصح .

وآخَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بَيْنه وبين عبد الله بن مسعود حين أخَى بين المهاجرين ، ولما أخَى بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سَلمة بن سَلاَمة بن وَقْش

وكان له رضى الله عنه من الولَد – فيما حكاه بعضهم – عشرة ، وهم : عبد الله وعُرْوَة ومُصْعَب والمُنْذِر وعمرو وعبيدة وجعفر وعامر وعمير وحمزة .

وكان الزُّبَيْر رضى الله عنه أوّل من سَلَّ سَيفا فى سبيل الله ، وذلك أنه نُفِخَتْ فيه نَفْخةٌ مِن الشَّيطان : « أُخِذَ رسولُ الله علَيه الصلاة والسلام » ، فأَقْبَلَ يشُقُّ الناسَ بسَيفه ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم بأَعْلَى مكَّة ، فقال له رسولُ الله : مالَكَ يازُبَير ؟ قال : أُخْبِرْتُ أنك أُخِذْتَ ! فصلىَّ علَيه ودعا له .

ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الزُّبَيْر ابْنُ عَمَّتى وحَوارِيُّ مِن أُمَّتى » . وقال : « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوارِىّ ، وحَوارِيُّ الزُّبَير » . وسمع ابن عُمَر رضى الله عنه رجلا يقول : « أنا ابن الحَوارِىّ » ، فقال إن كنتَ ابْنَ الزُّبَيْر وإلاَّ فلا .

وذكر [1] فى معنى « الحَوَارِىّ » : الخالص ، وقيل الخَليل ، ولذلك قال جرير [2] :

---

(١) ابن عبد البر فى الاستيعاب ج ص ٥٨١ – ٥٨٢ .

(٢) فى ديوان جرير ص ٤٥٤ ، وقبله : =

أفبعد مقتلهم خليل محمد (١) ترجو القُيون مع الرسول سبيلا

وقيل : الحَوَارِىّ : الناصر . وقيل : الصاحب المستخلص .

وجَمَع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أَبَوَيْه للزُّبَيْر مَرَّتَين : يَوْمَ أُحُد ويَوْمَ بنى قُرَيْظة ، فقال : « ارْمِ فداك أبى وأُمِّى ! »(١) .

قال أبو عمر ابن عبد البر : وكان الزبير تاجرا ! مَجْدودًا(٢) فى التجارة ، قيل له يَوما : بمَ أدركتَ فى التجارة ماأدركتَ ؟ فقال : لأنى لمْ أشترِ غَبْنا (٣) ولم أرْدُدْ رِبْحًا والله يُبارك لمن يشاء .

وروى عن كعب قال : كان للزُّبَيْر ألفُ مملوك يؤدُّون إلَيه الخَراج فما يُدخِل بَيْتَه منه درهما واحدا . يعنى أنه كان يتصدق بذلك .

وكان سبب قتله رضى الله عنه أنَّه لما انصرف من وقعة الجمل وفارَق الحرب مرَّ بالأَحْنَف فقال : هذا الذى جمع بَيْن المسلمين حتَّى ضرب بعضُهم بعضا ثم لحق ببَيْته ! ثم قال للناس : مَن يأْتينى بخبره ؟ فقال عَمْرو بن جُرْمُوز : أنا .

وقيل : إنَّ الزُّبَيْر لمَّا انصرف نزل بعَمْرو بن جُرْمُوز ، فقال له : « ياأبا عبدِ الله ، جنَيْتَ حربا ظالما أو مظلوما ثمَّ تنصرف ! أتائب أم عاجز ؟ » فسكت عنه الزُّبَيْر ، ثم عاودَه ، فقال : ظُنَّ فىَّ كلَّ شىء

= إنى تذكرنى الزبير حمامة تدعو بمجمع نخلتين هديلا
قالت قريش : ما أذل مجاشعا جارا وأكرم ذا القتيل قتيلا !
لو كان يعلم غدر آل مجاشع نقل الرحال فأسرع التحويلا
بالهف نفسى إذ يغرك حبلهم هلا اتخذت على القيون كفيلا

(١) الرواية فى الديوان : « أفبعد متركهم خليل محمد » .. وقد عبر جرير عن الزبير بـ « الحوارى » فى قوله :

دعاكم حوارى الرسول فكنتمو عضاريط ياخشب الخلاف المصرعا

(٢) مجدودا : صاحب حظ . (٣) غبنا : خدعا .

غَيْرَ الجبُن . فانصرف عنه ابْنُ جُرْمُوز وهو يقول : « والَهْفى علَى ابن صفيّة ! أضرمها نارًا ثم أراد أن يلَحْقَ بأهله ! قتلنى اللهُ إن لم أقتُلْه ! » ثم رجع إليه كالمتنصِّح ، فقال : « يا أبا عبدِ الله دُونَ أهلِكَ فَيافٍ ، فخذْ نَجِيبى[1] هذا وخَلِّ فرسَك ودِرْعَك ، فإنهما شاهدان علَيك بما نكره » . وأراد بذلك أن يلقاه حاسِرا[2] ، ولم يزَلْ به حتّى تركهما عنده وأخذ نَجِيبَه ، وسار معه ابْنُ جُرْمُوزٍ كالمُشَيِّع له ، حتّى انتهيَا إلَى وادى السِّباع[3] ، فاسْتَغْفله[4] ابْنُ جُرْمُوز وطعَنه . وقيل : إنّه اتبعه إلَى الوادى فقتله وهو فى الصلاة . وقيل : بل قتله وهو نائم .

وفى ذلك تقول عاتكة[5] بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل العَدَوية زوجته ترثيه[6] :

غَدَرَ ابن جُرْمُوزٍ بفارِسِ بُهْمَـــــة
يَومَ اللقاءِ وكان غَيْرَ مُعَـــرَّدِ[7]
يا عَمْرَو لو نبَّهْتَـــــه لوَجدتَـــه
لا طائشًا رَعِشَ الجَنان[8] ولا اليَدِ

(١) النجيب من الإبل : القوى السريع .
(٢) حاسر : لادرع عليه ولا وقاية .
(٣) وادى السباع : على أربعة فراسخ من البصرة ، كما فى خزانة الأدب ج ٤ ص ٣٥٠ وانظر معجم البلدان .
(٤) فى خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٥٨ : « وأراه أنه يريد مسايرته ومؤانسته ، فقتله غيلة » .
(٥) عاتكة من المهاجرات ، حسناء بارعة الجمال ، تزوجت مرات وقتل أزواجها ورثتهم بشعرها ، وسيذكر المؤلف فى هذا الجزء ترجمة أخيها : سعيد بن زيد .
(٦) انظر هذا الرثاء فى الأغانى ج ٦ ، ص ١٢٦ وذيل أمالى القالى ص ١١٢ والموشى ص ٨٠ والاستيعاب ج ٤ ص ٣٦٤ وابن عساكر ج ٥ ص ٣٦٦ والرياض النضرة ج ٢ ص ٣٠٤ .
(٧) يقال للجيش « بهمة » ، ومنه قولهم « فلان فارس بهمة » والمعرد : الهارب
(٨) الجنان : القلب .

كم غَمْرةٍ قد خاضها لم يَثْنِـــــهِ
عنها طِرادُكَ يا ابْنَ فقع القرددِ (١)
ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ إن ظَفِرْتَ بمثلـــه (٢)
فيما مضَى مِمَّنْ يَروحُ ويَغتـدى
واللهِ رَبِّك إنْ قَتَلتَ لَمُسْلِمـــا
حَلتْ علَيك عُقوبـةُ المُتعمِّـدِ (٣)

قال : فلمَّا رجع برأسه وسَلَبِه(٤) قال له رجل من قومه : « فضَحتَ واللهِ اليَمَنَ أوَّلهَا وآخِرَهَا بقتلك الزُّبَيْرَ رأسَ المهاجرين وفارسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوارِيَّه وابْنَ عَمَّتِه ! واللهِ لو قتلتَه فى حرب لَعَزَّ ذلك علَينا ولمَسَّنا عارُك ! فكيف فى جِوارِك وحرمك ؟ ! »

قال : وأتَى ابْنُ جُرْمُوزٍ عَلِيًّا ، فقال لحاجبه : استأْذِنْ لقاتل الزُّبَيْر . فقال علىّ رضى الله عنه ائْذَنْ له وبَشِّرْهُ بالنار ، قد سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : بَشِّرْ قاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بالنار ! فقال ابْنُ جُرْموزٍ :

أَتَيْتُ عليا برأسِ الزُّبَيْـــــ
ـرِ أرجو لَدَيْه به الزُّلْفَـهْ

(١) الغمرة : الشدة . و لفقع : نوع من الكمأة ، والقردد : أرض مرتفعة إلى جنب وهده ، يشبهون بهذا الفقع الرجل الذليل لأن الدواب تنجله بأرجلها .
(٢) ويروى : « فاذهب فما ظفرت يداك بمثله » .
(٣) هذا البيت من شواهد النحو . انظر العينى ج ٢ ص ٢٧٨ والسيوطى ص ٢٦ وخزانة الأدب ج ٤ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .
(٤) السلب : مايأخذه القاتل مما كان للقتيل من سلاح وثياب ودابة .

فبشَّرَ بالنار إذْ جئتُـــــهُ
فَبِئْسَ بِشارةُ ذِى التُّحْفَهْ
وسِيانِ عندىَ قتْلُ الزُّبَيْـــرِ
وضَرْطَةُ عَيْرٍ بِذِى الجُحْفَهْ (١)

وحكى أبو عمر ابن عبدالبر فى كتابه المترجم بـ « الاستيعاب »(٢) من رواية عمرو بن جاوان عن الاحنف بن قيس قال : لما بلغ الزبير سَفَوان (موضعا بالبصرة كمكان القادسيّة من الكوفة) لقِيَهُ النعر(٣) (رجل من بنى مُجاشع) فقال : « أين تذهب ياحَوارِىَّ رسولِ الله ؟ إلَىَّ ، فأنت فى ذِمَّتى لايوصَل إلَيك » ، فأقبل معه ، وأتى إنسان الأحنفَ فقال : هذا الزُّبَير قد لُقِىَ بسَفَوان ، فقال الأحْنَف : « ماشاء اللهُ كان ، قد جمع بَيْن المسلمين حتّى ضرَب بعضُهم حواجِبَ بعضٍ بالسُّيوف ، ثم يلحق ببَيْته وأهله !! » فسمعه عميرة(٤) بن جُرْمُوزٍ وفَضالة بن حابس ونُفَيْعٌ فى غُواة من غُواة بنى تَميم ، فركبوا فى طلبه ، فلقوه مع النعر ، فأتاه عميرةُ بن جُرْمُوزٍ مِن خَلْفه وهو علَى فَرَسٍ له ضعيفة فطعنه طعنة خفيفة ، وحمل علَيه الزُّبَيْرُ علَى فرس له يقال له « ذوالخِمَار »(٥) ، حتى إذا ظنَّ أنه قاتله نادَى صاحبَيْه : « يا نُفَيْعُ

(١) انظر الأبيات مع شىء من التغيير فى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ١ ص – ٧٩ .
(٢) ج ١ ص ٥٨٥ .
(٣) جاء فى شرح ديوان جرير ص ٤٥٥ أنه « النمر بن الزمام من بنى مجاشع » .
(٤) المشهور فى اسم القاتل « عمرو » كما سبق فى شعر عاتكة ، وقد يقال له « عميرة » أو « عمير » كما فى الاستيعاب ج ١ ص ٥٨٤ والرياض النضرة ٢ ص ٢٧٣
(٥) فى القاموس : « ذو الخمار : فرس الزبير بن العوام يوم الجمل » .

يافَضالة » فحملوا علَيه حتَّى قتلوه ... قال :[١] وهذا[٢] أصُّح مما تقدَّم .

وكان مقْتَلُه يَو مَ الخميس لِعشرِ خَلَوْنَ من جُمادَى الآخِرة[٣] سنةَ ست وثلاثين .

وكانت سِنُّه يَومَ قُتِلَ سبعا وستِّين سنة ، وقيل ستًّا وستين .

وكان الزُّبَيْر رضى الله عنه أسمر رَبْعَةً معتدِلَ اللحم خفيفَ اللحية .

وقال حَسّان بن ثابت يمدح الزُّبَيْر ويفضِّله :[٤]

أقامَ علَى عَهْدِ النبيِّ وهَدْيِـــــهِ
حَوَارِيُّهُ والقَــوْلُ بالفعلِ يُعْـــدَلُ

أقامَ علَى مِنهاجِـهِ وطريقِـــــه
يُوَالى ولى الحقِّ والحقُّ أعْـــــدَلُ

هو الفارِسُ المشهورُ والبطـــلُ الذِى
يصُولُ إذا ما كان يَوْمٌ مُحَجَّـلُ[٥]

---

(١) أبو عمر ابن عبد البر .

(٢) يؤيده ماورد فى ديوان جرير ، وقد ذكر جرير حادثة الزبير فى هجائة للفرزدق المجاشعى قريبا من أربعين مرة ، ولم يكن جرير بعيداً عن عصر الزبير .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة والرياض النضرة ج ٢ ص ٢٧٤ ، وجاء فى الاستيعاب ج ١ ص ٥٨٤ والإصابة ج ١ ص ٥٤٦ « جمادى الأولى » ، ولكن صاحب الاستيعاب أعقب ذلك بقوله « وفى ذلك اليوم كانت وقعة الجمل » وقد قال ابن جرير ج ٣ ص ٥٣٩ « وكانت الواقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ فى قول الواقدى » .

(٤) ديوان حسان ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .

(٥) محجل : مشهور .

وإن امْرَأً كانتْ صَفِيةُ أُمـــهُ
ومَنْ أَسَـــدٌ فى بَيْته لَمُرَفَّلُ (١)

لهُ مِن رَسُولِ اللهِ قُرْبَى قَرِيبَـــةٌ
ومِنْ نُصْرة الإسلامِ مَجْدٌ مُؤَثَّـــلُ (٢)

فكَمْ كَرَّةٍ ذَبَّ الزُّبَيْرُ بسيْفِـــه
عن المُصْطفَى والله يُعْطِى ويُجْزِلُ (٣)

إذا كشَفَتْ عن ساقها الحربُ حَشَّها
بأَبْيَضَ سَبَّاقٍ إلَى الموتِ يُرْقِلُ (٤)

فما مِثْلُهُ فيهم ولا كانَ قبلَـــهُ
ولَيْسَ يكونُ الدَّهرَ ما دام يَذْبُلُ (٥)

ورُوِىَ (٦) عن عبد الله بن الزُّبَيْر رضِىَ الله عنهما أنه قال : لمَّا وقف الزُّبَيْر يَوْمَ الجَمَل دعانى ، فقُمتُ إلَى جَنْبه ، فقال « يابُنَىَّ : إنَّه لا يُقْتَلُ اليوم إلاَّ ظالمٌ أو مظلوم ، وإنِّى لا أرانى (٧) إلاَّ سأُقتل اليَومَ

(١) مرفل : معظم .
(٢) مؤثل : مؤصل .
(٣) جاءت فى الأصل « كرة » وهى المناسبة لسياق البيت وجاءت فى بعض الكتب « كربة » . ذب : دفع .
(٤) كشفت الحرب عن ساقها : اشتدت . حشها : أشعلها . أبيض : سهف . يرقل : يسرع .
(٥) يذبل : جبل بنجد ، يريد دائما .
(٦) روى البخارى فى صحيحه هذا الحديث (٢٩١) بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير عن أخيه عبد الله بن الزبير ، وهذا فى باب (بركة الغازى فى ماله حيا وميتا) .
(٧) لا أرانى : لا أظننى .

مظلوما ، وإنَّ مِن أكبر هَمِّىَ لَدَيْنى ، أفَتُرَى دَيْنَنا يُبْقِى من مالِنا شَيئا ؟[١] وقال : يابُنَى بع مالنَا واقْضِ دَيْنى . وأوْصَى بالثُّلثُ وثُلثِه لِبَنِيه (يَعنى بَنى عبد الله بن الزُّبَيْر) يقول : الثلث إليك[٢] فإنْ فَضَلَ مِن مالِنا فَضْلٌ بَعْدَ قضاءِ الدَّيْن فثُلثُه لوَلَدك . قال هشامٌ وكان بَعْضُ وَلَدِ عبدِ اللهِ قد وازَى[٣] بعضَ بَنِى الزُّبَيْر : خُبَيْبٌ وعَبَّاد[٤] ، وله[٥] يومَئِذٍ تسعةُ بَنين وتِسْعُ بنات . قال عبد الله فجعل يُوصِينى بدَيْنه ويقول : يابُنَىَّ إن عجَزتَ عن شىءٍ منه فاستعِنْ علَيهِ مَولاى . قال[٦] : فَوَاللهِ ما دَرَيْتُ ما أراد ، حتَّى قلتُ : ياأبَتِ مَن مَوْلاك ؟ قال : الله تعالى . فَوَاللهِ ما وقعتُ فى كُرْبةٍ من دينه إلاَّ قلتُ : « يامَوْلَى الزُّبَيْر اقْضِ عنه دَيْنَه » فَيقْضِيَه .

فقُتل الزُّبَيْر رضى الله عنه ولم يَدَعْ دِينارا ولادِرهما إلا أرضِينَ منها الغابةُ[٧] وإحدَى عشْرةَ دارًا بالمدينة ودارَيْن بالبصرة ودارًا بالكوفة ودارًا بمصر .

قال[٨] : وإنَّما كان دَيْنُه الذى علَيه أنَّ الرجلَ كان يأْتيه بالمال

---

(١) قال ذلك استكثارا لما عليه وإشفاقا من دينه .
(٢) فى صحيح البخارى « ثلث الثلث » .
(٣) وازى : ساوى ، وللغويين كلام فى هذا اللفظ .
(٤) هما ولدا عبد الله بن الزبير .
(٥) أى للزبير .
(٦) عبد الله بن الزبير .
(٧) الغابة : أرض عظيمة من عوالى المدينة .
(٨) عبد الله بن الزبير .

فيَستودعُه إيّاه ، فيقول الزُّبَيْر رضى الله عنـه لا [١] ، ولكنّه سَلَفٌ ، فإنّى أخشَى علَيه الضَّيْعَة .

وماوَلِىَ إمارةً قَطُّ ولا جِباية خَرَاجٍ ولا شَيْئا إلاّ أنْ يكون فى غَزْوة مَعَ النبى صلى اللهَ عليه وسلم أومعَ أبى بكر أو عُمر أو عثمان رضى الله عنهم .

قال عبد الله بنُ الزُّبَيْر : فحَسَبْتُ ماعلَيه من الدَّين فوجدتُه ألفَىْ ألفٍ ومِائتَىْ ألفٍ .

قال : فلقى حَكِيمُ بن حِزام عبدَالله بنَ الزُّبَيْر فقال : ياابْنَ أخى كَمْ علَى أخى من الدَّيْن ؟ فكتَمه وقال : مِائةُ ألْفٍ . فقال حَكيمٌ : واللهِ ماأرَى أمْوَالكم تَسَعُ لهذه . فقال له عبدُ الله : أفرأيْتَكَ إنْ كانت ألفَىْ ألفٍ ومِائتَىْ ألفٍ ؟ قال : ما أراكم تطِيقون هذا فإنْ عجَزتم عن شىء منه فاستعينوا بى .

قال : وكان الزُّبَيْر رضى الله عنه اشترَى الغابةَ بسبعين ومِائةِ ألْف ، فباعَها عبدُ الله بألْفِ ألفٍ وستمائةِ ألْف ، ثم قام فقال : من كان له علَى الزُّبَيْر حقٌّ فلْيُوافِنا بالغابة . فأتاه عبد الله بن جعفر ، وكان له علَى الزُّبَيْر أرْبَعُمِائة ألْف ، فقال لعبد الله : إن شئتم تركتُها لكم . قال عبد الله : لا . قال : فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخِّرون إن أخَّرتم . فقال عبد الله : لا . قال : فاقْطَعوا لى قطعةً . فقال عبد الله لك من هٰهُنا إلى هٰهُنا . فباع منها [٢] فقضَى دَيْنَه فأوْفاه ، وبقِىَ

---

(١) أى : لا أقبضه وديعة .

(٢) أى : من الغابة والدور .

منها[١] أربعةُ أسْهُم ونصفٌ ، فقدِم[٢] على مُعاويةَ وعنده عَمْرو بن عُثمان[٣] والمُنْذر بن الزبَير وابن زَمَعَةَ[٤] ، فقال له مُعاوية : كم قُوِّمَت الغابةُ ؟ قال : كلُّ سهم[٥] بمائة ألف . قال : كم بَقِيَ قال : أربعةُ أسْهُم ونصفٌ . فقال المُنْذِرُبن الزُّبَير : قد أخذتُ سَهْمًا بمِائةِ ألف . وقال عَمروبن عثمان : قدأخذتُ سهما بمِائةِ ألفٍ . وقال ابن زَمْعَةَ : قد أخذت سهما بمائة ألف . فقال مُعاوية : كم بَقِيَ فقال : سهمٌ ونصفٌ . قال : أخذتُه بخمسين ومائة ألف . (قال وباع عبد الله بن جَعْفر نصيبه مِن مُعاوية بستِّمِائة ألف[٦])

قال : فلمَّا فَرَغ ابنُ الزُّبَير من قضاء دَينه قال بَنُو الزُّبَير : اقْسِمْ بَيْنَنا مِيراثَنا . قال : لاواللهِ لا أقْسِمُ بَيْنكم حتَّى أُنادىَ بالموْسِم أربعَ سِنين : « ألاَ مَن كان له علَى الزُّبَيْر دَيْنٌ فَلْيَأْتِنا فَلْنَقْضِه » .

قال : فجعل كلَّ سنة ينادى بالموْسِم ،فلمّا مضَى أربعُ سِنينَ قَسَم بَيْنهم . قال : وكان للزُّبَير أربَعُ نسْوَةٍ ، ورَفَعَ الثُّلث ، فأصاب كلَّ امرأةٍ ألفُ ألفٍ ومِائتا ألْفٍ ، فجَمِيعُ مالِه[٧] خمسون ألفَ ألفٍ ومِائتا ألفٍ . هكذا أورده البُخارىُّ رحمه الله فى صحيحه ، وعَقَدَ جُملةَ المال فى آخِره على ماذكرنا .

---

(١) أى : من الغابة بغير بيع .
(٢) عبد الله بن الزبير .
(٣) ابن عفان .
(٤) عبدالله بن زمعة .
(٥) أى : من أصل ستة عشر سهما .
(٦) فربح مائتى ألف .
(٧) الذى تركه الزبير عند وفاته ، ويحتوى على الوصية والميراث والدين .

والذى دلّ عليه الحسابُ أنَّ جُملةَ المال تسعةٌ وخمسون ألفَ ألف وثمانمِائة ألف ، وذلك أنَّ نصيبَ الزوجاتِ الأربع (وهو الثُّمُنُ بعد وفاء الدَّيْن ورفْعِ الثلث الذى أوصَى به لبنى عبدالله) اشتمل علَى أربعة آلاف ألف وثمانِمِائة ألف ، يُضْرب فى ثمانية فتكون ثمانية وثلاثين ألفَ ألفٍ وأرْبَعَمِائه ألفٍ ، ويكون ثُلُثُ الوصية (وهو نصف هذه الجملة) تسعةَ عشرَ ألفَ ألفٍ ومائتى ألف ، والدَّين ألفى ألف ومائتى ألف ، فتخرج الجملة على ماذكرناه[1] .

ذكر وقعة صفين وابتداء أمرها

كانت وقعةُ صِفِّين فى أواخرِ سنة ست وثلاثين وأوائل سنةِ سبع وثلاثين .

وذلك أنه لمّا فرغ علىٌّ رضى الله عنه من حرب الجمل أقام بالبصرة ، ثمَّ انتقل إلى الكوفة ، وأرسل إلَى جرير بن عبدالله البَجَلى – وكان عثمانُ قد استعمله على هَمَذان – وإلَى الأشْعَث بن قَيْس – وكان على أذْرَبِيجان – فأمَرهما بأخذ البيْعة والحضورِ إلَيه ، ففعلا ذلك .

وأراد علىٌّ أن يُرسلَ إلَى مُعاوية رسولا ، فقال جَرير : أرْسِلْنى إلَيْه[2] فقال الأشْتَرُ لعلىّ : لا تفعلْ [فإنَّ هَواه مع مُعاوية][3] فقال علىّ

(١) الجملة التى ذكرها المؤلف هى التى انتهى إليها الحساب فى آخر قسم المال ، منها تسعة آلاف ألف وستمائة ألف حصلت من نماء العقار والأرضين فى المدة التى أخر فيها عبدالله بن الزبير قسم التركة استبراءا للدين ، والباقى جملته الأصلية التى أوردها البخارى ، انظر شرح الكرمانى للبخارى ج ١٣ ص ١٠٣ وإرشاد السارى ج ٦ ص ٣٧٠ ، وغيرهما .

(٢) جاء فى رواية ابن جرير ج ٣ ص ٥٦٠ « ابعثنى إليه ، فإنه لى ود ، حتى آتيه فأدعوه إلى الدخول فى طاعتك » .

(٣) ثبتت هذه الجملة فى النسخة (د) ، وسقطت من (أ) .

دَعْهُ حتَّى نَنظُرَ ما يرجع به . فبعَثه ، وكتب معه إلَى مُعاوية يُعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار عَلَيْه [١] ، وما كان مِن نكْثِ طَلحة والزُّبَيْر وحرْب الجمل ، ودعاه إلَى البَيْعة والدخولِ فيما دخل فيه المُهاجرون والأنصار .

فلما قدِم جَريرٌ علَى مُعاويةُ ماطَلَه بالجواب ، واستشار عَمْرَو بْنَ العاص ، وكان قد قدِمَ علَيْه وانْضمَّ إلَيه ، علَى ما نذكر ذلك إن شاء الله فى أخبار مُعاوية ، فأشار عمروٌ عليَه أن يجمعَ أهلَ الشام ويُلزمَ عَلِيًّا دَمَ عُثمان ، ففعل ، فأجمع أهلُ الشام علَى حرْب علىّ .

فعاد جرير إلى علىّ وأعْلَمه ذلك ، وأنَّ أهلَ الشام يبكون علَى عُثمان ويقولون : إنَّ عليًّا قَتَله ، وآوَى قتَلَتَه ، وإنهم لاينتَهُون عنه حتَّى يقتُلَهم أو يقتلوه . فقال الأَشْتَرُ لعلىّ : كنتُ نهَيْتُك عن إرسال جَرير ، وأخبرتُك بعداوته وغِشه ، فأَبَيْتَ إلاَّ إرسالَه . ثم تقاوَلَ الأَشْتَرُ وجَرير مُقاولةً أدَّتْ إلَى مُفارقة جَرير لعلىّ ولَحاقه بمعاوية .

قال : وخرج علىّ رضِى الله عنه ، فعسكر بالنُّخَيلة ، [٢] وتخلَّف عنه نَفَرٌ من أهل الكوفة ، منهم ميسرة الهمدانى ومسعود [٣] أخذا أعْطِياتِهما وقصدا قَزْوين . وقدِمَ علَيه عبدُ الله بن العباس فى أهل البَصْرة .

وبلَغ ذلك مُعاوية ، فاستشار عمرَو بن العاص ، فقال له : « أمّا إذا سار علىّ بنفسه فى الناس فسِرْ بنفسك ، ولا تغِبْ عنه برأْيك

---

(١) على بيعته .

(٢) النخيلة : موضع قرب الكوفة من جهة الشام .

(٣) كذا جاء الاسمان فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٤٢ « منهم مرة الهمدانى ومسروق » .

ومَكِيدتك . » فتجهّز مُعاوية بأهل الشام ، وقد حَرَّضَهم عَمرو وضعّف عليًّا وأصحابه ، وقال : « إنَّ أهل العراق قد فرّقوا جَمْعَهم ووهّنوا شَوْكتهم ، وفَلُّوا حَدَّهم ، وأهلُ البَصرة مخالفون لعلىٍّ بمن قُتِل منهم ، وقد تفانت صَنادِيدُهم وصناديدُ أهل الكوفة يَوْمَ الجَمَلِ ، وإنَّما سار علىٌّ فى شِرْذِمة قليلة ، وقد قُتِلَ خَليفتُكم ، فاللهَ اللهَ فى حقِّكم أن تُضَيِّعوه ، وفى دَمِكم أنْ تُطِلُّوه ! » وكتب معاوية (فى أجْنادِ) [1] أهل الشام ، وعَقد لِواءً لعَمرو ، ولواءً لابنَيْه : عبدِ الله ومحمد ، ولِواءً لغُلامه وَرْدَان . وسار مُعاوية وتأنَّى فى مَسيره.

قال : وبعث [2] علىّ رضى الله عنه زيادَ بن النَّضْر الحارثىّ فى ثمانية آلاف ، وبعث شُرَيْح بن هانئ فى أربعة آلاف ، وسار علىّ من النُّخَيْلَة ، وأخذ معه مَن بالمَدائن من المُقاتلة ، وولَّى علَى المدائن سعْدَ ابن مسعود (عَمَّ المختار بن أبى عبيد الثَّقَفى) ، ووجه من المدائن مَعْقل بن قَيس فى ثلاثة آلاف ، وأمره أن يأْخذ على المَوْصِل حتَّى يُوافِيَه علَى الرَّقَّة .

فلما وصل علىّ [3] الرقة قال لأهلها ليعملوا جِسْراً يَعْبُر علَيه إلَى أهل الشام ، فأبَوْا ، وكانوا قِد ضَمُّوا سُفُنَهم إلَيهم ، فنهض مِن عندهم لِيعْبُر علَى جِسْر مَنْبِجَ ، وخلف عليهم الأَشْتَرَ ، فناداهم الأَشْتَرُ : « أُقْسِم باللهِ لَئن لم تعملوا جِسراً لأمير المؤمنين يَعْبُر علَيه

---

(١) كذا جاء عند ابن جرير ج ٣ ص ٥٦٢ ، وجاء فى المخطوطة (إلى) قال ابن الأثير فى النهاية : « الشام خمسة أجناد : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين ، كل واحد منها يسمى جندا ، أى المقيمين بها من المسلمين المقاتلين » .

(٢) المراد بهذه البعثة تقديم طليعة أمام الجيش .

(٣) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى (ك) والكامل : « إلى » .

لأُجَرِّدَنَّ فيكم السَّيف ، ولأَقتُلَنَّ الرجال ولآخُذَنَّ الأَموال ! » فلقِيَ بعضُهم بعضًا وقالوا : « إنَّه الأَشْتَرُ ، وإنَّه قَمِنٌ أن يَفِيَ لكم بما حَلَفَ عليْه أو يأْتِيَ بأَكثَرَ منه ! » فنصَبوا جِسْرًا فعَبَرَ عليه عليٌّ وأصحابُه .

قال : ولما بلَغَ [1] عليّ الفُراتَ دعازيادَ بن النَّضْر وشُرَيح بن هانىء فيمَن معهما فسرحهما أمامه نحومعاوية علَى حالهما التّى خرجا علَيها من الكوفة ، وكان سبب عَوْدِهما أنَّهما أخذامِن الكوفة علَى شاطىء الفُرات مما يَلِي البَرَّ ، فلمَّا بلغا « عاناتِ » بَلَغَهما أنَّ مُعاوية قد أقبلَ فى جُنود الشام ، فقالا : « واللهِ ما هذا لنا برأى ، أن نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر ، وما لنا خَيْرٌ أن نَلْقَى جنودَ الشام بِقِلَّةٍ مَن مَعنا » فذهبوا ليعبُروا من عانات ، فمنَعَهم أهلُها ، فرجعوا ! [حتَّى عبَروا] [2] مِن هِيت [3] ، فلحِقوا عليًّا دُونَ قَرْقِيسِيا [4] ، فقال علىّ : مُقَدِّمَتى تأْتينى مِن وَرائى ! فأَخبره شُرَيح وزياد بما كان ، فقال : سُدِّدْتُما . فلمَّا عَبرَ الفُراتَ سَيَّرهما أمامَه .

فلمَّا انْتَهَيَا إلَى سُور الرُّوم لقيَهما أبو الأَعور السُّلَمِيُّ فى جُند من أهل الشام ، فأَرسلا إلَى علىّ فأَعلماه .

فأَرسل علىّ إلَى الأَشتر ، وأَمره بالسرعة ، وقال : « إذا

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة والكامل ، وجاء فى تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٥٦٤ ووقعه صفين ص ١٧٠ « قطع » .

(٢) زيادة من ابن جرير الطبرى ونصر بن مزاحم .

(٣) بلد على الفرات من جهة بغداد .

(٤) بلد على نهر الخابور بينه وبين الفرات .

قدمْتَ فأنت عليهم ، وإيَّاك أن تبدأ القومَ بقتال إلاَّ أن يبدَءوك ، حتَّى تلقاهم فتدعُوَهم ، وتسمعَ منهم ، ولا يحملْك بغْضُهم على قتالهم قبل دُعائهم والإعذارِ إليهم مَرَّةً بعد مرة ، واجعلْ على مَيْمنتك زيادا ، وعلى مَيْسرتك شُرَيحا ، ولا تَدْنُ منهم دُنُوَّ مَن يُريد أن يُنْشِبَ الحرب ، ولا تَباعَدْ تَباعُدَ مَن يهاب البأس ، حتَّى أُقْدِمَ عليك ، فإنِّى حَثيثُ السَّير فى أثرك إن شاء الله تعالى » . وكتب إلى شُرَيح وزياد بذلك ، وأمرهما بطاعة الأشتر . .

فسار الأشترُ حتَّى قدِم عليهم ، وكفَّ عن القتال ، ولم يَزالوا مُتوقفين حتَّى إذا كان عند المساء حَمَل عليهم أبو الأعْور ، فثبَتوا له واضْطربوا ساعة ، ثمَّ انصرف أهل الشام ، وخرج إليهم من الغَد هاشمُ بن عُتبة المرقال ، وخرج إليْه أبو الأعْوَر ، فاقْتتلوا يَومَهم ، وصبَر بعضُهم لبعض ، ثمَّ انْصرفوا ، وحمَل عليهم الأشتر ، وقال أرُونى أبا الأعْوَر ! فتراجَعوا ، ووقف أبو الأعْوَر وراء المكان الذى كان فيه أوَّلَ مَرَّة ، وجاء الأشترُ فصَفَّ أصحابه مَكانَ أصحاب أبى الأعوَر بالأمس ، وقال الأشتر لسِنان بن مالك النَّخَعِىّ : انْطَلِقْ إلى أبى الأعْوَر فادْعُه إلى البِراز . فقال : إلى مُبارزتى أو مبارزتك ؟ فقال : للأشتر لو أمرتك بمبارزته لفعلت . قال : « نَعَمْ واللهِ لو أمرتَنى أن أعْتَرِضَ صَفَّهم بسَيفى لَفعلتُ . فدعاه ، وقال : إنَّما تدعو لمبارزتى . فخرج إليهم فقال : أمِّنونى فإنِّى رسول . فأمَّنوه ، فانْتَهَى إلى أبى الأعْوَر فقال له : إنَّ الأشترَ يدعوك إلى أن تبارزَه . فسكت طويلا ، ثم قال : إنَّ خِفَّة الأشتر وسُوءَ رأيه حملاه على إجلاء عُمَّال عُثمانَ عن العراق وتقبيح محاسِنه ، وعلى أنْ سار إليْه

فى داره حتّى قتله وأصبح متّبعًا بدمه ، لاحاجةَ لى فى مُبارزته . فقال له سِنانٌ : قد قلتَ فاستمِعْ مِنّى أُجِبْكَ . قال : لاحاجةَ لى فى جوابك ، اذْهَبْ عنّى . فصاح به أصحابُه ، فانصرفَ عنه ، ورجع إلَى الأشتر فأخبرَه ، فقال : لنفسه نَظَرَ . فوقفوا حتّى حجَز اللّيلُ بَيْنَهم وعاد ، الشاميُّون من الليل[1] .

وأصبح علىّ رضى الله عنه غُدْوَةً عند الأشتر ، وتقدّم الأشترُ ومَن معه[2] فانْتَهَىَ إلَى مُعاوية ، فواقفه ، ولحق بهم علىّ ، فتَواقَفوا طويلا .

ثمّ إنَّ عليًّا طلب لعَسْكَره مَوضعا ينزِلُ فيه ، فكان مُعاوية قد سبق فنزل منزِلاً اختاره بَسيطًا واسعا أَفْيَحَ[3] ، أَخَذَ شَرِيعة[4] الفُرات ، ولَيْس فى ذلك الموضع شَرِيعةٌ غَيْرُها ، وجعل مُعاوية علىَ الشَّرِيعة أبا الأَعْوَر .

فأَتَى الناسُ عليًّا ، فأخبروه بفعلهم ، وتعطَّش الناس ، فدعا صَعْصَعةَ بن صُوحانَ ، فأرسله إلَى مُعاوية يقول : « إنَّا سِرْنا مَسِيرَنا هذا ونحن نَكْرَهُ قِتالَكم قبل الإعذار إلَيْكم ، فقدَّمْتَ إلَيْنا خَيْلَك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نُقاتلك ، [وبدأْتَنا بالقتال][5] ونحن مِن رأيِنا الكفُّ حتّى ندعُوَك ونحتجَّ علَيْك ، وهذه أخرَى قد فعلتموها ، منعتم الناسَ

(١) فى تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٥٦٦ : « انصرفوا من تحت ليلتهم » .
(٢) فى تلك المقدمة .
(٣) كل موضع واسع يقال له « أفيح » .
(٤) الشريعة : مورد الناس أو الحيوان على الماء الجارى .
(٥) الزيادة من تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٥٦٨ .

من الماء ، والناس غيرُ مُنْتَهِينَ [أو يشربوا] (١) ، فابْعَثْ إلَى أصحابك فلْيُخَلُّوا بيْنَ الناس وبين الماء ، ولْيَكُفوا لِنَنْظُرَ فيما بَيْنَنا وبَيْنكم وفيما قَدِمْنا له ، فإنْ أردتَ أن نترك ماجئنا له ونقتتلَ عَلَى الماء حتى يكونَ الغالِبُ هو الشارِبَ فعَلْنا » . فجاء صَعْصَعةُ إلَى مُعاوية وقصَّ علَيْه الرسالةَ ، فاستشار مُعاويةُ أصحابه وقال : ماتَرَوْن ؟ فقال الوَلِيدُ ابن عُقْبَةَ وعبد الله (٢) بن سَعْد : امْنَعْهم الماء كما منعوه ابْنَ عفَّان ، اقْتُلْهُمْ عَطَشا قَتَلَهم اللهُ ! فقال عَمر وبن العاص : « خلِّ بَيْنَ القومِ وبين الماء فإنَّهم لن يَعْطَشوا وأنت رَيَّان ، ولكن بغير الماء فانظر فيما بَينك وبَينهم » . فأعاد الوَلِيدُ وابْن سَعدمَقالتهما ، قالا : « امْنَعْهم الماءَ إلَى الليل ، فإنْ هم لم يَقدِرُوا علَيْه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمة ، امنَعْهم الماءَ منعهم اللهُ يَوْمَ القيامة ! قال صَعْصَعة : إنَّما يمنعه الله الفَجَرَةَ وشرَبَةَ الخمر ، لَعَنَك الله ولعن هذا الفاسق (يعنى الوَليد ابن عقبة) . فشتموه وتهدَّدُوه . (وقد قيل : إنَّ الوليد وابن أبي سَرْح لم يَشْهدا صِفِّين .)

ورجع صَعْصَعةُ فَأَخْبَرَ بما كان . . . وسَيَّر مُعاويةُ الخيلَ إلَى أبي الأَعْور لِيَمْنَعَهم الماء . فلمّا سمع علىّ ذلك قال لأَصحابه : قاتِلوهم عَلَى الماء ! .

فقال الأَشعَثُ بن قَيْس الكِندىّ : أنا أسير إلَيْهم . فسار

---

(١) الزيادة من تاريخ ابن جرير ، و « أو » بمعنى « إلى » أو « إلا » .

(٢) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب القرشي العامرى . وكان أخا عثمان من الرضاعة ، وسيذكره المؤلف قريبا بلفظ « ابن أبي سرح » ، وانظر الإصابة ج ٢ ص ٣١٦-٣١٧ .

إلَيهم ، فلما دَنَوْا منهم ثاروا إلَى وجوههم يَرْمُونهم بالنَّبْل ، فترامَوْا ساعة ، ثم تَطاعنوا بالرِّماح، ثم صاروا إلَى السيوف فاقتتلوا [بها] (١) ساعة .

وأرسل مُعاوية يَزِيدَ بن أَسَدِ البَجَلِىّ القَسْرى (جَدَّ خالدِ بن عبدالله) فى الخَيل إلَى أبى الأعْوَر ، فاقتتلوا . . وأرسل عَلِىّ شَبَثَ بن رِبْعِىّ الرياحى ، فازداد القتال .

فأَرْسل مُعاوية عَمرو بن العاص فى جند كثير ، فأَخذ يَمُدُّ أبا الأعوَر [ويزيدَ بن أسد] (٢) . . وأرسل علىّ الأَشْتَرَ فى جمع عظيم وجعل يَمُدُّ الأشعث وشَبَثا . .

فاشتدَّ القِتالُ حتى خَلَّوا بَيْنَهم وبين الماء ، وصار فى أيدى أصحاب علىّ ، فقالوا : والله لانسْقيه أهل الشام ، فأَرسل علىّ إلَى أصحابه أنْ خُذوا من الماء حاجتَكم ، وخَلُّوا عنهم ، فإن الله تعالىَ نصرَكم علَيهم بِبَغْيِهم وظُلمهم .

ومكث علىّ رضى الله عنه يومَيْن لا يُرسلُ إلَيهم أحدا ولا يأْتيه منهم أحد .

---

(١) الزيادة من ابن جرير الطبرى فى تاريخه ج ٣ ص ٥٦٧ .

(٢) الزيادة من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٤٥ .

ذكر ارسال على الى معاوية وجوابه[١]

قال : ثمّ دعا علىٌّ رضى الله عنه أبا عَمْرَةَ بَشيرَ بن عَمْرو بن مِحْصَن الأنصارى وسعيدَ بن قيس الهَمَدانى وشَبثَ بن رِبْعِىّ التميمى ، فقال لهم : ائتوا هذا الرجلَ وادعوه إلَى الله تعالى وإلَى الطاعة والجماعة . فقال له شَبَث يا أميرَ المؤمنين ألاَ نُطْمِعُه فى سُلطانٍ تُوليه إيّاه ومَنْزلةٍ يكون له بها عندك أثَرَةٌ إنْ هو بايَعك ؟ قال انطلِقوا إليْه واحْتجُّوا عليه وانظروا مارأيه . وكان ذلك أوّل ذى الحجة من سنة ست وثلاثين .

فأتَوْه فدخلوا علَيه ، فابتدأ بَشِير بن عمرو الأنصاريُّ فحمد اللهَ وأثنَى علَيْه ، ثمْ قال : « يامعاوية إنَّ الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلَى الآخرة ، وإنَّ الله مُحاسِبُك بعملك ومُجازيك علَيه ، وإنى أنْشُدُك الله أن لا تفرِّقَ جماعةَ هذه الأمة وأن لاتَسْفكَ دماءها بيْنها » . فقطع عليه مُعاوية الكلامَ وقال : هلاَّ أوصَيْتَ بذلك صاحبَك ؟ فقال صاحبى ليس مِثْلَك ، إنَّ صاحبى أحقُّ البريَّة كُلِّها بهذا الأمر فى الفضل والدِّين والسابقةِ فى الاسلام والقرابةِ بالرسول[٢] صلَّى الله عليه وسلم » قال : فماذا تقول[٣] ؟ قال نأمرك[٤] بتقوَى الله وإجابةِ ابن عمِّك إلَى مايدعو إليَه من الحق فإنَّه أسلم لك فى دنياك وخَيْرٌ لك فى عاقبة أمرك . قال معاوية : « ونترُكُ دَمَ عُثمان ! لاوالله لاأفعل ذلك أبدا ! »

قال : فذهب سعيد بن قيس يتكلَّم ، فبادره شَبَثَ بن

(١) زاد بعده فى المخطوطة : « وأيام صفين الستة » . وسيأتى ذكر هذه الأيام الستة فى غير هذا الفصل .

(٢) فى تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٥٧١ : « من الرسول » .

(٣) فى الكامل ج ٣ ص ١٤٦ : « يقول » .

(٤) فى الكامل : « يأمرك » .

رِبْعِيّ ، فحمِد اللهَ وأثنَى عليه، ثم قال : « يامعاوية ، قد فهمتُ ماردَدْتَ عَلَى ابن مِحْصَن ، وإنَّه واللهِ لايخفَى علَينا ما تطلب ، إنك لم تجِدْ شَيْئًا تَسْتَغْوِى به الناسَ ، وتستميلُ به أهواءَ هم ، وتستخلِصُ به طاعتَهم ، إلاَّ قَوْلَك : قُتِلَ إمامُكم مظلوما فنحن نَطلب بدَمِه ، فاستجاب لك سُفهاءُ طَغام، وقد علمنا أنك أبطأت عليه بالنصر[1] ، وأحببت له القتلَ ، لهذه المنزِلة التى أصبحتَ تطلُب ، ورُبَّ مُتَمَنٍّى أمر وطالبه يحول الله دونه ، وربما أُوتِىَ المتمنىَ أمنيته وفَوق أُمْنِيَّتِه ، ووالله مالَكَ فى واحدة منها خير ، واللهِ إن أخطاك ماترجو إنَّك لَشَرُّ العرب حالا ، وإنْ أصبْتَ ما تتمنَّاه لا تُصيبه حتَّى تستحقَّ مِنْ ربِّك صُلِيَّ النار ، فاتَّق اللهَ يامُعاويةُ ، ودَعْ ماأنت علَيه ، ولا تُنازع الأَمرَ أَهْلَهْ » .

قال : محِمد اللهَ مُعاويةُ ، ثم قال : « أمَّا بَعْدُ ، فإنَّ أوَّلَ ماعرَفتُ به سَفَهَك وخِفَّةَ حلْمِك أنَّك قطَعْتَ عَلَى هذا الحَسِيبِ الشريفِ سيِّدِ قوْمِه مَنْطِقَه ، ثمَّ اعترضتَ بَعْدُ فيما لاَ عِلْمَ لك به ، فقد كَذَبْتَ ولَؤُمْتَ أيُّها الأعرابىُّ الجلْفُ الجافى فى كلِّ ماذكرتَ ووصفتَ ! . انصرِفوا مِن عندى فلَيْس بَيْنى وبَيْنَكم إلاَّ السَّيفُ ! » وغضب ، وخرج القَوْمُ ، فقال له شَبَث[2] « أتَهُولُ بالسَّيف ؟ أُقسم باللهِ لَنُعَجِّلَنَّها إلَيك ! » .

فأتَوْا عليًّا رضى الله عنه فأخبروه بذلك . فكان علىٌّ يأمر الرجلَ ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه ، ويخرج إليه آخر

---

(١) أى : عثمان .

(٢) أى : قل له وهو خارج ، وعبارة ابن جرير الطبرى : « وخرج القوم وشبث يقول » ، وكذلك قال ابن مزاحم فى وقعة صفين ص ٢١١ .

من أصحاب معاوية ومعه جماعة ، فيقتتلان فى خَيْلهما ، ثُمَّ ينصرفان. وكرهوا أنْ يُلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام خَشْيَةَ الاستئصال والهلاك .

فكان علىّ يُخرج مَرَّةً الأَشْتَرَ ، ومَرَّةً حُجْرَ بن عَدِىّ الكِندى ، ومرة شَبَث بن ربْعِىّ ، ومَرَّةً خالد بن المعمّر ، ومَرَّةً زِياد بن النَّضْر الحارثى ، ومَرَّة زياد بن خَصَفة التَّيْمىّ ، ومَرّة سعيد بن قيس الهَمْدانى ، ومرَّة مَعْقِل بن قَيْس الرِّياحى ، ومَرَّة قيس بن سعيد الأَنصارى . وكان الأَشتر أكثر خروجا .

وكان معاوية يخرج إلَيْهم عبد الرحمن بن خالد بنِ الوليد ، وأبا الأَعور السُّلَمى ، وحبيب بن مَسْلَمة الفهرى ، وابن ذى الكَلاع (١) الحميرى ، وعُبَيد الله بن عُمر بن الخطاب ، وشرحْبِيل بن السِّمْط الكِندى ، وحمزة بن مالك الهَمْدانى .

فاقتتلوا أيّامَ ذى الحِجَّة كلَّها ، ورُبَّما اقتتلوا فى اليوم الواحد مرَّتَين .

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة هنا مثل ما فى تاريخى ابن جرير وابن الأثير . وكان الأولى أن يقولوا : « وذا الكلاع » لأنه هو نفسه « ذو الكلاع الأصغر » الذى كان فى هذا العهد ، فلا موجب لنسبته إلى جده الأكبر ، وقد ذكره بلفظ « ذى الكلاع » بن عبد البر وابن حجر وكثير من علماء الحديث ، وسيذكره المؤلف أيضا بلفظ « ذى الكلاع » لابن جرير وابن كثير هنالك . واسمه : « أسميفع » وقد يختصر فيقال « سميفع » أو « أيفع » ابن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذى الكلاع الأكبر ، وكان ذو الكلاع الأصغر رئيسا فى قومه ، وقد أسلم فكتب إليه النبى صلى الله عليه وسلم بالتعاون على مسيلمة الكذاب وغيره ، وكان يكنى « أبا شرحبيل » أو « أبا شراحيل » .

ذكر الموادعة بين على ومعاوية فى شهر المحرم

وما كان بينهما من المراسلة والأجوبة فى الشهر

قال : وفى شهر المحرم سنة سبع وثلاثين جرت مُوادَعة[١] بين علىّ رضى الله عنه ومُعاويةَ بن أبى سفيان ، توادَعا علَى ترْك الحرب بَيْنهما حتَّى ينقضِى الشهر ، طمعًا فى الصلح . . واختلفتْ فيه بَيْنهما الرسائل .

فبعث على رضى الله عنه عَدِىَّ بن حاتم ويَزيد بن قَيْس الأَرْحَبى وشَبَث بن ربْعِىّ وزياد بن خَصَفَة .

فَتكلَّم عَدِىُّ بن حاتم ، فحمد الله ، فقال : « أمَّا بَعْدُ ، فقد جئناك ندعوك إلَى أمْرٍ يجمع اللهُ به كلمتَنا وأمَّتَنا ، ويَحْقِن[٢] به الدماء ، ويُصلح[٣] بهذاتَ البَيْن ، إنَّ ابن عمِّك سيِّد المسلمين أفضلُها سابقة ، وأحسنُها فى الإسلام أثرًا ، وقد استجمع له الناس ، ولم يبْقَ أحدٌ غَيْرك وغير مَن معك ، فاحذَرْ يامعاوية لايُصيبك[٤] وأصحابك مثلُ يَوْمِ الجمل » . فقال له مُعاوية : « كأنَّك جِئتَ مُهَدِّدًا لم تأْت مُصْلحا ، هَيْهاتَ ياعَدِىّ ، كلاَّ ! واللهِ إنِّى لابْنُ حَرْب[٥] ،

---

(١) أى : مسالمة على ترك الحرب فى المدة المذكورة .

(٢) فى النسخة (ك) : « ونحقق » .

(٣) فى النسخة (ن) : « ونصلح » .

(٤) فى تاريخ ابن جرير الطبرى : « لا يصبك » .

(٥) معاوية هو ابن أبى سفيان صخر بن حرب ، فاسم جده « حرب » ، ولا تخفى مناسبة ذكره لحال الحرب .

ما يُقَعْقَعُ لى بالشَّنان[١] ! وإنَّك واللهِ لمِن المجلِبين علَى عُثمان ، وإنك من قَتَلَتِه ، وإنى لأرجو أن تكونَ مِمَّنْ يقتله الله به » .

فقال شَبَث وزياد بن خصفَة جوابًا واحدا : أتَيْناك فيما يُصْلحنا وإيَّاك ، فأقبلْتَ تضرِب لنا الأمثال[٢] ، دَع ما لا ينفع ، وأجِبْنا فيما يعُمُّ نفعُه .

وقال يَزيدُ بن قَيس : إنَّا لم نأتِ إلاَّ لِنُبلِّغَك ما أرْسلْنا به إلَيك ونُؤَدِّىَ عنك ماسمِعْنا منك ، ولم نَدَعْ أنْ ننصَحَ لك ، وأن نذكُرَ ما تكونُ به الحُجَّةُ علَيك ، ويَرجعُ إلَى الألفة والجماعة ، إنَّ صاحِبَنا من قد عرف المسلمون فضيلَه ، ولا يخفَى علَيك ، فاتَّقِ اللهَ يا معاويةُ ولاتخالِفْه ، فإنَّا واللهِ مارأيْنا فى الناس رجلا قَطُّ. أعْمَلَ بالتقوَى ولا أزْهَدَ فى الدُّنيا ولا أجْمَعَ لخِصال الخَير كلِّها منه » .

فحمِد اللهَ معاوية ، ثم قال : أمَّا بَعْدُ ، فإنَّكم دعَوتم إلَى الطاعَة والجماعة ، فأمَّا الجماعة التى دعوتم إلَيها فَنِعِمَّاهِىَ[٣] ، وأمَّا الطاعة

---

(١) (يضرب المثل) « ما يقعقع له بالشنان » لمن لا يتضع لحوادث الدهر ولا يروعه مالا حقيقة له . والقعقعة : تحريك الشيء يسمع له صوت . والشنان: جمع شن، وهى القربة البالية ، وأصل المثل أنهم كانوا إذا أرادوا حث الإبل على السير حركوا قربة بالية يسمع لها صوت فتفزع الإبل وتسرع ، قال النابغة :

كأنك من جمال بنى أقيش يقعقع خلف رجليه بشن

وقد تمثل بهذا المثل – بعد معاوية – الحجاج الثقفى فى خطبة مشهورة ، انظر الكامل للمبرد بشرحه رغبة الآمل ج ٤ ص ٧٦ ، ٨٧ .

(٢) سبق ذكر المثل « ما يقعقع لى بالشنان » ، وروى ابن جرير فى آخر كلام معاوية تمثله بمثل ثان هو « قد حلبت بالساعد الأشد » أى أخذت بالقوة إذ لم يتأت الرفق .

(٣) كذا جاء فى وقعة صفين ص ٢٢٣ وعند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٣٤٤ . وجاء فى المخطوطة : « فمعنا هى » .

لصاحبِكم فإنَّا لانراها ، لأنَّ صاحِبَكم قتل خليفتَنا ، وفرَّق جماعتَنا ، وآوَى ثَأْرَنا ، وصاحِبُكم يزْعُمُ أنَّه لم يقتله ، فنحن لانرُدُّ علَيه ذلك ، فلْيَدْفعْ إلَيْنا قَتَلَةَ صاحِبنا لِنقتلهم ونحن نُجيبكم إلَى الطاعة والجماعة .

فقال شَبَث بن رِبْعِيّ : يامُعاويةُ أيسُرُّك أن تقتل عَمّارا ؟ قال « وما يمنعنى مِن ذلك ؟ واللهِ لو تمكَّنتُ مِن ابْن سُمَيَّةَ لقتلْته بمَوْلَى عُثمان[1] ! » فقال شَبَثُ : « والذى لا إلهَ غيرُه لاتصلُ إلَى ذلك حتَّى تَنْدُرَ الهامُ[2] عن الكواهِل وتضيقَ الأرضُ الفضاء علَيك ! » فقال مَعاوية : « لو كان كذلك لكانت علَيك أضْيَقَ ! » . وتفرَّقَ القَوم .

وبعث مُعاوية إلَى زِيادبن خَصَفة ، فخلا به ، وقال له : « ياأخا رَبِيعة ، إنَّ علِيًّا قطع أرْحامَنا ، وقتل إمامَنا ، وآوَى قَتَلَةَ صاحِبنا ، وإنِّى أسألك النصرَ علَيه بعشيرتك ، ثم لَكَ عَهْدُ الله ومِيثاقُه أنْ أُوَلِّيَك إذا ظهرتُ[3] أىَّ المِصْرَيْن أحببْتَ » . فقال زِياد : « أمّا بَعْدُ ، فإنى على بَيِّنَةٍ مِن ربِّى ، وبِما[4] أنْعَمَ اللهُ علَىَّ فلَنْ أكونَ ظَهِيرا[5] للمجرمين ! » وقام فقال مُعاوية لعَمرو بن العاص : ليس نكلِّم رجلا منهم فيُجيب إلَى خَيْر ، ماقلوبُهم إلاَّ كقلب واحد ! .

---

(١) فى رواية ابن أبى الحديد : « كنت أقتله بنائل مولى عثمان » .

(٢) تندر الهام : تسقط الرءوس .

(٣) ظهرت : غلبت .

(٤) كذا جاء فى تاريخ ابن جرير ج ٤ ص ٣ ووقعة صفين ص ٢٢٤ ، وقد جاء فى القرآن الكريم ﴿ قال « رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ . وجاء فى المخطوطة : « وما » .

(٥) ظهيرا : عونا .

وبعث مُعاوية إلَى علىٍّ حَبِيبَ بن مَسْلَمة الفِهْرِيّ وشُرَحْبِيلَ بن السِّمْط. ومَعْنَ بن يزيد بن الأخنس ، فدخلوا علَيه ، فحمِد اللهَ حبيبٌ وأثنَى علَيْه ، ثم قال : « أمَّا بَعْدُ فإنَّ عُثمانَ كان خليفَة مَهْدِيًّا ، يعمل بكتاب الله ويُنيبُ إلَى أمْرِه ، فاستثقلتم حياتَه ، واستبطأتم وَفاتَه ، فعَدَوْتم علَيْه فقتلتموه ، فادْفَعْ إلَيْنا قَتَلَةَ عُثمان إنْ زَعَمتَ أنك لم تقتلْه ، ثم اعْتزل أمْرَ الناس ، فيكونَ أمرُهم شُورَى بَيْنَهم ، يولُّونَه مَن أجْمعوا علَيه » . فقال له علىّ رضى الله عنه : « ماأنتَ - لاأمَّ لك - والعَزْلَ وهذا الأمر[1] ؟ اسكتْ ! لستَ هنالِكَ ولابأهلٍ له » . فقال : واللهِ لَتَرِيَنِّى بحَيْثُ تكرَهُ ! فقال علىّ : « وما أنتَ ؟ لاأبقَى اللهُ علَيك إن أبقيتَ علَينا ، اذْهَبْ فصَوِّبْ وصَعِّدْ مابَدالَكَ ! » وقال شُرَحْبيل : « ماكلامى إلاَّ مثلُ كلام صاحبى ، فهل عندك جواب غَيرهذا ! » فقال علىّ نعم[2] ، عندى جواب غَيْرُه : .

ثم حَمِدَ اللهَ وأثنَىْ علَيه وقال : (أمَّا بَعْدُ ، فإنَّ اللهَ تعالى بعث محمدًا بالحق ، فأنقذ به من الضلالة والهَلَكة ، وجمع به من الفُرْقة ، ثم قبضه اللهُ إلَيه ، فاستخلف الناسُ أبا بكر ، [ثم][3] استخلف أبو بكر عُمر ، فأحسنا السيرة ، وعدلا [فى الأمة][4] ، وقد وجَدْنا علَيهما أنْ

---

(١) أصل العبارة عند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٣٤٥ : « ما أنت لا أم لك والولاية والعزل والدخول فى هذا الأمر » .

(٢) كذا جاء فى رواية ان جرير الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ٤ وشرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ١ ص ٣٤٥ ، وهذا هو الظاهر المناسب لما بعده ، وجاء فى المخطوطة : « ليس » .

(٣) كذا جاء عند ابن أبى الحديد ، وفى المخطوطة : « و » .

(٤) الزيادة من ابن جرير الطبرى وابن أبى الحديد وابن مزاحم فى وقعة صفين ص ٢٢٦ .

تولّيا الأمور [دوننا] [١] ونحن آلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغفرنا لهما ذلك ، وولىَ الناسَ عُثمان ، فعمل بأشياء عابها الناس ، فساروا إليه فقتلوه ، ثم أتانى الناس [وأنا مُعتزلٌ أمورَهم] [٢] ، فقالوا لى : بايعْ . فأبَيْتُ ، فقالوا : بايعْ فإنَّ الأمَّة لا ترضَى إلاَّ بك ، وإنَّا نخاف إن لم تفعل أن يتفرَّق الناس . فبايعتُهم ، فلم يَرُعْنى إلاَّ شِقاقُ رجُلَيْن قد بايعانى ! وخلافُ مُعاويةَ الذى لم يجعل [اللهُ عزَّ وجلَّ له] [٣] سابقةً فى الدِّين ، ولاسَلَفَ صِدْقٍ فى الإسلام ، طَلِيقٌ ابن طَليق ، وحزْبٌ [٤] مِن الأحزاب ، لم يَزَلْ حَرْبًا لله ولرسوله هو وأبوه حتَّى دخلا فى الإسلام كارهَيْن ، ولا عَجَبَ إلاَّ من خِلافِكم [٥] معه ، وانقيادِكم له ، وتتركون آل بيت [٦] نبيّكم الذين لا ينبغِى لكم شقاقُهم ولا خِلافهُم ، ألاَ إنِّى أدعوكم إلَى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ، وإماتة الباطل وإحياء الحق ومَعالِم الدين ، أقول قَوْلى هذا وأستغفرُ اللهَ لى ولكم وللمؤمنين » .

فقالا : نشهَد أنَّ عُثمان قُتِل مظلوما . قال : لا أقوُل « إنَّه قُتِلَ ظالماً أو مظلومًا » . قالا : مَنْ لم يزعُمْ أنه قُتِل مظلومًا فنحن منه بَرَاء . وانصرَفا فقال علىّ رضى الله عنه : ﴿ إنَّك لاتُسْمِعُ المَوْتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوْ مُدْبرينَ ، وما أنتَ بهادِى العمْى

---

(١) الزيادة من ابن أبى الحديد .

(٢) الزيادة من ابن جرير وابن ابى الحديد .

(٣) الزيادة من ابن جرير وابن أبى الحديد .

(٤) كذا جاء عند ابن أبى الحديد ، وجاء فى المخطوطة : « حزبا » .

(٥) كذا جاء عند الطبرى ، وهو المناسب لـ خلافهم » الآتى بعده ، وفى المخطوطة اختلافكم » .

(٦) كذا جاء فى المخطوطة كالكامل ، وجاء فى تاريخ ابن جرير « آل نبيكم »

عَنْ ضَلالَتِهِمْ ، إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُون ﴾[١] .
ثمَّ قال لأصحابه : لايكُنْ هؤلاء فى الجِدِّ فى ضَلالِهم أجَدَّ مِنكم فى الجِدِّ فى حَقِّكم .

قال : ولما انْسَلَخَ شَهْرُ اللهِ المحرَّمُ وانقضت مُدَّةِ الموادَعة أمَر علىٌّ رضى الله عنه مُناديا فنادَى[٢] : « يا أهلَ الشام ، يقول لكم أميرُ المؤمنين : قد استدَمْتُكم لتُراجعوا الحقَّ وتُنيبُوا إلَيْه ، فلم تنتَهوُا عن الطُّغْيان ، ولم تُجيبوا إلَى الحقِّ ، وإنى قد نَبَذْتُ إلَيْكُمْ عَلَى سَواءٍ[٣] ، إنَّ اللهَ لايُحِبُّ الخائنين » .

قال : واجتمع أهلُ الشام إلَى أُمَرائهم ورُؤسائهم ، وخرج مُعاويَة وعَمرو بن العاص يُكَتِّبانِ الكَتائب[٤] ويُعَبِّئانِ الناسَ ، وكذلك فعل علىٌّ رضى الله عنه .

وقال علىٌّ للناسْ : لاتقاتِلوهم حتَّى يُقاتلوكم ، فأنتم بحمدِ اللهِ علَى حُجَّة ، وتركُكُم قتالَهم [حتَّى يَبْدَءُوكم][٥] حُجَّةٌ أخرَى

(١) الآيتان ٨٠ ، ٨١ من سورة النمل .

(٢) ذكر نصر بن مزاحم وابن أبى الحديد أن المنادى مرثد بن الحارث الجشمى .

(٣) أى إنى قد طرحت إليكم عهدكم مستو أنا وأنتم فى العلم بإنهاء الموادعة التى كانت بينى وبينكم ، يريد أنه لم يغدر بهم فيقاتلهم بغتة ، بل أعلمهم بنبذ الموادعة ، ليكون الطرفان على سواء فى العلم بذلك والاستعداد للخطوة التالية . وهذا مأخوذ من الآية ٥٨ فى سورة الأنفال : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ﴾ .

(٤) الكتائب : جمع كتيبة ، وهى القطعة من الجيش ، وتكتيب الكتائب إعدادها .

(٥) الزيادة من رواية ابن جرير الطبرى ، وهى فى نهج البلاغة مع شرحه لابن أبى الحديد ج ٣ ص ٤١٧ ، وقد ذكرها ابن مزاحم فى وقعة صفين ص ٢٣٠ .

فإذا هزَمتموهم فلا تقتُلوا مُدْبرًا ، ولا تُجْهزوا على جريح[١] ، ولا تكشفوا عَورة ، ولا تُمَثِّلُوا بقتيل[٢] ، فإذا وصلتم إلى رحال القَوم فلا تَهْتِكُوا سِترا ، ولا تدخلوا دارًا [إلاَّ بإذن][٣] ، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم [إلاَّ ما وجَدتم فى عسْكرهم][٤] ، ولا تَهيجوا امْرأةً [بأذًى][٥] ، وإن شتَمْنَ أعراضَكم ، وسبَبْن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنَّهنَّ ضِعافُ القُوَى ، والأنفُس[٦] .

وحرَّض أصحابَه فقال رضى الله عنه : عِبادَ اللهِ ، اتَّقُوا اللهَ ، وغُضُّوا الأبْصارَ ، واخْفِضُوا الأصواتَ ، وأقِلُّوا الكلامَ ، ووَطِّنوا أنفُسَكم علَى المُنازَلة والمجاولة والمزاولة[٧] والمناضلة والمعانقة والمكادمة والملازمة ، ﴿ فَاثْبُتُوا وأذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *[٨] وَلَا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ ريحُكُمْ واصْبِرُوا إنَّ اللهَ معَ الصَّابرين[٩] ﴾ اللهُمَّ ألهمْهُم الصبْرَ ، وأنزلْ عَلَيهم النصر ، وأعْظِمْ لهم الأجْر .

---

(١) فى النهاية : « حديث على رضى الله عنه : لا يجهز على جريحهم . أى من صرع منهم وكفى قتاله لا يقتل ، لأنهم مسلمون ، والقصد من قتالهم دفع شرهم ، فإذا لم يمكن ذلك إلا بقتلهم قتلوا » .

(٢) «مثل» بفتح الثاء مع تشديدها أو تركه ، يقال : مثل بالقتيل ، إذا قطع شيئا من أطرافه .

(٣) ، (٤) ، (٥) الزيادة من رواية ابن جرير الطبرى .

(٦) فى الكامل ج ٣ ص ١٤٩ بعد هذا :

« وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه فى كل موطن » .. وأصل ذلك ما رواه نصر بن مزاحم عن عبد الله بن جندب عن أبيه أن عليا كان يأمرنا فى كل موطن لقينا معه عدوه ... الخ انظر وقعة صفين ص ٢٢٩ — ٢٣٠ وابن أبى الحديد ج ١ ص ٣٤٥ .

(٧) كذا جاء فى المخطوطة والكامل ج ٣ ص ١٥٠ وجاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٧ وشرح ابن أبى الحديد ج ١ ص ٣٤٦ « والمبارزة » .

(٨) من الآية ٤٥ فى سورة الأنفال .

(٩) من الآية ٤٦ فى سورة الأنفال .

وأصبح عليّ رضى الله عنه فجعل على خَيْل الكُوفة الأَشْتَر ، وعلى خَيْل البَصرةِ سَهْلَ بن حُنَيف ، وعلَى رَجَّالة الكُوفة عَمَّار بن ياسِر ، وعلَى رَجَّالَةِ البَصْرة قَيْس بن سعد بن عُبَادة ، وهاشِم بن عُتْبَة بن أبي وَقَّاص المعروف بالمِرْقال[١] وجعل معه الراية ، وجعل مسْعَر بن فَدَكِيّ علَى قُرَّاء أهل الكوفة وأهل البصرة[٢] .

وبعث مُعاوية علَى مَيْمَنته ابن ذى الكَلاَع الحِمْيَرِىّ[٣] ، وعلَى مَيْسَرته حَبيب بن مَسْلمة الفِهْرِىّ ، وعلَى مُقدِّمته أبا الأَعور السُّلمى و [كان] علَى خَيْل دِمَشق ، [و][٤] عمرو بن العاص [علَى خيول الشام كلها][٤] وعَلَى رَجَّالة دمشق[٤] مُسلم بن عُقْبة المُرى ، وعلى [رَجَّالة][٥] الناس كلهم الضحاك بن قَيْس . . وبايع[٦] رجالٌ من أهل الشام علَى الموت ، فعَقَلوا أنفُسهم بالعمائم ، فكانوا خمسة صفوف .

والْتَقَوْا أوَّلَ يَوم من صفر سنة سبع وثلاثين ، وكان الذى خرج فى هذا اليوم الأَشْتر علَى أهل الكوفة ، وحَبيبُ بن مَسْلمة علَى أهل

---

(١) فى القاموس : والمرقال هاشم بن عتبة ، لأن عليا رضى الله عنه أعطاه الراية بصفين فكان يرقل بها (أى : يسرع) . وقال ابن جرير فى تاريخ ج ٤ ص٣١ هاشم يدعى المرقال لأنه كان يرقل فى الحرب .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل لابن الأثير : «على قراء الكوفة وأهل البصرة » ، وجاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى : « على قراء أهل البصرة ،وصار أهل الكوفة إلى عبد الله بن بديل وعمار بن ياسر » .

(٣) انظر ما سبق ، وفى شرح ابن أبى الحديد ج ١ ص ٣٤٦ «ذا الكلاع الحميرى »

(٤) الزيادة من تاريخ ابن جرير الطبرى .

(٥) فى المخطوطة : « وعلى رجالتها » ، وصرح ابن جرير بـ « دمشق » .

(٦) عند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٣٤٧ : «وتبايع » ، والذى هناك « وقعة صفين » ص ٢٣٩ .

الشام ، فاقتتلوا عامَّةَ النهار ، ثمَّ تراجعوا وقد انتصف بعضُهم من بعض .

ثمّ خرج فى اليوم الثانى هاشم بن عُتْبة فى خيل ورجال ، وخرج إلَيه من أهل الشام أبو الأَعْوَر السُّلمى ، فاقتتلوا يومَهم ذلك ، ثمَّ انصرفوا .

وخرج فى اليوم الثالث عمّار بن ياسِر ، وخرج إلَيه عَمرو بن العاص ، فاقتتلوا أشدَّ قتال ، وقال عمّار لزياد بن النَّضْر وهو علَى الخَيل : احمِل علَى أهل الشام ، فحمل ، وقاتله الناس وصبروا له ، وحمل عمار فأزال عمر وبن العاص عن موضعه ، وبارَزَ يومَئذٍ زِيادُ بن النَّضْر أخاه لأُمِّه[1] واسمه : عَمرو بن[2] معاوية من بنى المُنْتَفِق ، فلمَّا الْتَقَيَا تعارفا ، فانصرف كلّ واحد منهما عن صاحبه ، وتراجع الناس

وخرج من الغد فى اليوم الرابع محمد بن علىّ ، هو « ابن الحَنَفِيَّة » وخرج إلَيْه عُبَيْد الله بن عُمر بن الخطَّاب ، فى جمعَيْن عظيمَين ، فاقتتلوا أشدَّ القِتال ، وأرسل عُبَيدالله إلَى محمد يدعوه للمُبارَزة ، فخرج إلَيه ، فحرَّك علىٌّ دابَّتَه ، ورَدَّ ابْنَه ، وبَرَز علىٌّ إلَى عُبَيد الله ، فرجع عُبَيد الله ، وتراجع الناس[3] .

وخرج فى اليوم الخامس عبدُ الله بن عبّاس ، خرج إلَيْه الوَليد

---

(١) قال ابن أبى الحديد ج ١ ص ٣٤٧ : « وأمهما هند الزبيدية » .

(٢) فى (وقعة صفين) ص ٢٤١ « يقال له معاوية بن عمرو العقيلى » .

(٣) قال ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٨٠ وغيره : « فقال ابن الحنفية : يا أبت لم منعتنى من مبارزته فوالله لو تركتنى لرجوت أن أقتله . قال على رضى الله عنه : يابنى لو بارزته أنا لقتلته ، ولو بارزته أنت لرجوت لك أن تقتله ، وما كنت آمن أن يقتلك » .

ابن عُقبة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وطلب ابنُ عبّاس الوَليدَ ليُبارِزَه فأَبَى ، ثم انصرفا .

[وخرج فى اليوم السادس قَيْس بن سعد الأَنصارى وخرج إِلَيْه ابن ذى الكلاع الحِمْيَرِىّ ، فاقتتلوا قتالا شديد ، ثم انصرفوا .] (١)

قال(٢) : ثم عاد الأَشْتَرُ يَومَ الثلاثاء(٣) ، وخرج إليه حَبيب ، فاقتتلا قتالا شديدا ، وانصرفا عند الظهر .

ثم إنَّ عليًّا رضى الله عنه قال : حَتَّى مَتَى لا نُناهِضُ هؤلاء القومَ بأَجمعنا ؟ فقام فى الناس عَشِيةَ الثلاثاء ليلةَ الأَربعاء خطيبا ، فحمد الله وأَثنَى علَيه وقَال : الحمد لله الذى لا يُبْرَم ما نقَض ، وما أَبْرَم لم ينقُضْه الناقضون ، ولو شاء الله ما اختلف اثْنانِ مِن خَلْقه ، ولا اختلفت الأُمَّة فى شىء ، ولا جَحَدَ المفضولُ ذا الفَضلِ فَضْلَه ، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأَقدارُ ، فنحن بمرأًى من ربِّنا ومَسْمع ، فلو شاء عجَّل النِّقْمة ، وكان منه التغيير ، حتى يُكذبَ الظالمَ ، ويُعْلِمَ المُحِقَّ(٤) أَيْنَ مَصِيرُه ، ولكنَّه جعل الدُّنيا دار الأَعمال(٥) ، وجعل الآخرةَ دار القَرار ، ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَساءُوا بِما عَمِلوا ويَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾(٦) ، أَلاَ وإنكم لاقُو القَوْم غَدًا ،

---

(١) الزيادة من الكامل ج ٣ ص ١٥٠ .

(٢) ابن الأثير فى الكامل .

(٣) قال ابن جرير « اليوم السابع » ثم قال : « وذلك يوم الثلاثاء » .

(٤) كذا جاء عند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٨١ . وجاء فى المخطوطة « الحق »

(٥) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) : « الأغمار » .

(٦) من الآية ٣١ من سورة النجم .

فأَطِيلوا الليلةَ القِيامَ ، وأكثروا تلاوةَ القرآن ، واسألوا اللهَ النصرَ والصبر ، والقَوْهُمْ بالجِدِّ والحَزْم ، وكونوا صادقين .

فقام القومُ يُصلحون سِلاحَهم ، فمر بهم كَعْب بن جُعَيْل[1] فقال :

أَصبَحتِ الأُمَّة فى أمرٍ عَجَبْ والمُلْكُ مجموعٌ غَداً لِمَنْ غَلَبْ
فقلتُ قَوْلا صادقا غَيْرَ كَذِبْ : إنَّ غَدًا تَهْلِكُ أَعْلامُ العَرَبْ !

ذكر الحروب التى كانت بصفين بعد الأيام الستة

فى يومىْ الأَربعاء والخميس وليلة الهرير ويوم الجمعة
إلى أن رُفِعت المصاحف وتقرَّر أمر الحكمَيْن .

قال[2] : وعَبَّأَ علىّ رضى الله عنه الناسَ ليلتَه حتَّى الصباح ، وزحَف بالناس ، وخرج إلَيه مُعاوية فى أهل الشام ، فسأَل علىٌّ عن القبائل من أهل الشام ، فعرف مواقِفَهم ، فقال للأَزْد : اكْفُونا الأَزْدَ ، وقال لخَثْعَم : اكْفُونا خَثْعَم ، وأَمَرَ كُلَّ قبيلة أَن تَكفِيَه أختهَا من الشام ، إلاَّ أَنْ تكونَ قبيلة لَيس منها بالشام أَحَدٌ فيصرِفها إلَى قبيلة أُخرى لَيس بالعراق منهم أحد ، مثل بَجِيلة ، لم يكن بالشام منها أحد إلاَّ القليل ، فصرفهم إلى لَخْم .

فتناهض الناسُ يَومَ الأَربعاء[3] ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انصرفوا عند المساء وكلٌّ غَيْرُ غالب .

---

(١) قال ابن أبى الحديد : وبات كعب بن جعيل التغلبى شاعر أهل الشام تلك الليلة يرتجز وينشد ... الخ ، والرجز هناك أكثر مما هنا . انظر وقعة صفين ص ٢٥٣ .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٥١ .

(٣) قال ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٨٣ : « يوم الأربعاء سادس صفر » .

فلمّا كان يوم الخميس صلّى عليٌّ بغَلَس ، وخرج بالناس إلَى أهل الشام ، وجعل عليٌّ رضى الله عنه علَى مَيْمنَته عبدالله بن بُدَيْل بن وَرَقاء الخُزَاعيّ (وله صحبة[1] ، وكان مِمَّنْ أسلم يَوْمَ الفَتْح ، وقيل : قبْله) ، وجعل علَى مَيْسَرته عبدَ الله بن عبّاس ، والقُرَّاء مع ثلاثة نفَر : عَمَّار بن ياسر وقَيْس بن سعد وعبد الله بن بُدَيْل ، والناس على راياتهم ومَراكز هم ، وعليٌّ رضى الله عنه فى القَلْب فى أهل المدينة بين أهل الكوفة والبَصرة ، وأكثر مَن معه من أهل المدينة الأنصار ، ومعه عدد من خُزَاعة وكِنانة وغيرهم من أهل المدينة .

وزحَف عليٌّ رضى الله عنه بهم إلَى أهل الشام ، ورفع مُعاوية قُبَّة عظيمة ، وألْقَى عليها الثياب ، وبايعه أكثَرُ أهل الشام علَى الموت ، وأحاط بقُبَّته خَيْلُ دمشق ، وزحف عبدالله بن بُدَيْل فى الميَمْنَة نحو حبيب بن مَسْلَمة وهو فى المَيْسَرة ، فلم يزل يَحُوزُهم[2] ويكشِف خيْلَهم حَتَّى اضْطَرَّهُم إلَى قُبَّة مُعاوية عند الظُّهر .

وحرَّض عبدُ الله بن بُدَيْل أصحابَه ، فقال بعْدَ أن حمِد اللهَ وأثنَى علَيه ، وصلَّى علَى النبىّ عليه الصلاة والسلام : ألا إنَّ مُعاوية ادَّعَى مالَيس له ، ونازَعَ الحقَّ أهلَه ، وعانَد مَن لَيس مثْلَه ، وجادَل بالباطل لِيُدْحِضَ به الحقَّ ، وصال علَيكم ، بالأعراب والأحزاب الذين زَيَّنَ لهم الضَّلالة ، وزرَع فى قلوبهم حبَّ الفِتنة ، ولَبَّسَ علَيهم الأمر ، وزادهم رِجْسًا إلَى رِجْسِهم ، وأنتم والله على الحق ، على نور من ربكم وبرهان مبين ،

---

(١) انظر الاستيعاب ج ٢ ص ٢٦٨ والإصابة ج ٢ ص ٢٨٠ . وجمهرة أنساب العرب ص ٢٢٧ .

(٢) يحوزهم : يجمعهم ويسوقهم .

فقاتلوا الطُّغاة الجُفاة ﴿ قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ويُخْزِهِمْ ويَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ويَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِين ﴾[1] ، قاتِلوا الفِئَة الباغِيَة الَّذِينَ نازَعوا الأَمْرَ أهله ، وقد قاتلتُموهم معَ رسول الله صلى الله عليْه وسلم ، فو اللهِ ماهم فى هذه بأَزْكَى ولا أَتْقَى ولا أَبَرَّ ، قوموا إِلَى عَدُو الله وعدُوِّكمْ رحمكم الله[2] .

وقال الشَّعْبِى[3] : كان عبد الله بن بُدَيْل رحمه الله فى صِفِّين عَلَيه دِرْعانِ وسَيْفانِ ، وكان يَضرِبُ أهلَ الشام ويقول :

لم يبق إلا الصبر والتوكلْ مع التمشى فى الرعيل الأَوَّلْ
مشى الجمال فى حياض المنهلْ والله يقضى ما يشاء ويفعلْ[4]

ولم يَزَلْ يضرب بسَيْفه حتَّى انْتَهَى إِلَى مُعاوية فأَزاله عن مَوْقِفه وأَزال أَصحابه الذين كانوا معه . (وسنذكر خبر مَقتله فى هذا اليَوْم فى موضعه إن شاء الله تعالى) .

قال : وحَرَّض علىٌّ رضى الله عنه أَصحابَه ، فقال رضى الله عنه فى كلام له : فسَوُّوا[5] صفوفَكم كالبُنْيَان المَرْصُوص ، وقَدِّموا

---

(١) الآية ١٤ من سورة التوبة .

(٢) اعتمد المؤلف فى نقل هذه الخطبة على كتاب الاستيعاب ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٣) انظر الاستيعاب والإصابة ج ٢ ص ٢٨١ .

(٤) روى ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٨٦ هذا الرجز هكذا :

لم يبق غير الصبر والتوكل والترس والرمح وسيف مصقل
ثم التمشى فى الرعيل الأول مشى الجمال فى حياض المنهل

فتجىء القافية مكسورة اللام . وما هنا مثل (وقعة صفين) ص ٢٧٦ .

(٥) ذكر على قبل ذلك قول الله تعالى ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ الآية ٤ من سورة الصف ، انظر ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٠٣٧ .

الدَّارِع[١] ، وأخروا الحاسِر[٢] ، وعَضُّوا علَى الأَضراس[٣] ، فإنَّه أَنْبَى[٤] للسُّيُوف عن الهَام ، والْتَوَوا فى أطراف الرِّماح ، فإنَّهُ أَمْوَرُ[٥] للأَسِنَّة[٦] ، وغُضُّوا الأَبصار ، فإنه أَرْبَطُ للجَأْش ، وأَسْكَنُ للقلوب ، وأَمِيتُوا الأَصوات ، فإنَّه أَطْرَدُ للفشل ، وأَوْلَى بالوَقار ، راياتِكم فلا تُمِيلُوها ولا تُزيلوها ولا تَجعلوها إلاَّ بأَيْدِى شُجْعانِكم واستعينوا بالصدق والصبر ، فإن[٧] بعد الصبر ينزل النصر .

قال : وقام يَزيدُ بن قَيْس الأَرْحَبِىُّ يُحَرِّض الناس ، فقال : إنَّ المسلم من سلم فى دينه ورأْيه ،وإن هؤلاء القوم واللهما يقاتلوننا إلا علَى هذه الدنيا ليكونو جَبَّاربن فيها مُلوكا ، فلوظَهروا عَلَيكم ـ لا أراهم الله ظُهُورًا ولا سُرورا ـ لَرَمَوْكم بمثْلِ سَعِيد والوَلِيد وابْنِ عامر السَّفِيه الضَّالِّ ، يُجِيزُ أَحَدَهم بمثل دِيَتِه ودِيَة أَبيه وجده فى مجلسه ، ثم يقول : « هذا لى ولا إِثْمَ عَلَىَّ » ، كأَنما أُعْطِىَ تُراثه عن أَبيه وأُمِّه ، وإنما هو مال الله أَفاءه[٨] اللهُ عَلَينا بأَرماحنا وسيوفنا ، فقاتلوا

---

(١) الدارع : لابس الدرع .

(٢) الحاسر : الذى لا درع عليه ولا مغفر .

(٣) قال ابن أبى الحديد : يجوز أن يريد أمرهم بالحنق والجد ، ويجوز أن يريد أن العض على الأضراس يشد شئون الدماغ ورباطاته .

(٤) نبا السيف عن الرأس : كل ولم يحك فيه .

(٥) كذا ورد منصوصا عليه فى نهج البلاغة وشرحه لابن أبى الحديد ج ٢ ص ٢٦٧ ووقع فى المخطوطة وغيرها (أصون) .

(٦) قال ابن أبى الحديد : أمرهم بأن يلتووا إذا طعنوا ، لأنهم إذا فعلوا ذلك فبالحرى أن يمور السنان ، أى يتحرك عن موضع الطعنة فيخرج زالقا ،وإذا لم يلتووا لم يمر السنان ولم يتحرك عن موضعه فيخرق وينفذ فيقتل .

(٧) كذا جاء فى المخطوطة ، ولعله « فإنه » .

(٨) أفاءه الله علينا : رده علينا وجعله لنا من أموال من خالف دينه .

عِبادَ الله القومَ الظالمين ، فإنَّهم إن يَظْهَروا عَلَيكم يفْسِدوا عَلَيكم دِينكم ودُنْياكم ، وهم مَن قد عرَفتْم وخَبَرْتم ، واللهِ ما ازْدادوا إلَى يومِهم إلاَّ شرًّا[1] .

قال : ولما انْتَهَى عبد اللهِ بن بُدَيل بمَنْ معه إلَى قُبَّةِ مُعاوية ؛ أقبل الذين تَبايَعوا عَلَى الموت إلَى مُعاوية ، فأمرهم أنْ يَصْمدوا لابْنِ بُدَيْل فى المَيْمَنة ، وبعث الى حبيب بن مَسْلَمة فحَمَل بالميسْرة عَلَى مَيْمَنِة علىٍّ فهزمهم ، وانْكَشَف أهل العِراق مِن قِبَل المَيْمَنة حتَّى لم يَبْقَ إلاَّ ابْنُ بُدَيْل فى مِائتين أو ثلاثِمِائِة من القُرَّاء ، قد اسْتند بعضُهم إلَى بعض ، وانجفل[2] الناس .

وأمر علىٌّ سهْل بن حُنَيْف فاسْتقدم فيمن كان معه من اهل المدينة ، فاستقبلتهم جُموع عظيمة لأهل الشام فاحتملتهم حتَّى أوقفتهم فى المَيْمَنَة ، وكان أهل اليمن فيما بَين المَيْمَنه إلَى مَوْقِف علىّ فى القَلْب ، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلَى علىّ رضى الله عنه ، فانصرف يمشى نحو المَيْسَرة ، فانكشفت عنه مُضَر من المَيْسَرة ، وثبَتَتْ ربيعة ، ودنا أهل الشام منه فمازاده قربهم إلا إسراعا

وكان الحسن والحُسَين ومحمد بنو علىّ رضى الله عنه معه ، والنَّبْلُ يَمُرُّ بَيْن عاتِقِه ومَنْكِبِه[3] ، وما مِنْ بَنِيهِ أحدٌ إلاَّ يَقِيه بنفسْه ، فبَصُرَ به أحمر مولى أبى سفيان أو عُثمان ، فأقبل نحوه ، فخرج إليه كَيْسان مولى علىّ فاختلفا ضربتَيْن ، فقتله أحْمَر ، فأخذ علىّ

(١) عند ابن أبى الحديد ج ٢ ص ٤٨٥ : « والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شرا».
(٢) انجفل الناس : انقلعوا وأسرعوا فى الهزيمة .
(٣) عند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٨٦ : « بين عاتقيه ومنكبيه » .

بجنب[١] دِرْع أحْمَر فجذبه وحمله علَى عاتِقِهْ ثم ضرب به الأرْضَ فكسر مَنْكِبَيه وعضديه .

قال : ولمادنا منه أهلُ الشام قال له الحسن رضى الله عنه : ما ضَرَّك لو سَعَيْت حتَّى تَنْتَهِيَ إلَى هؤلاء القومِ من أصحابك ؟ فقال : يابُنَىَّ إنَّ لأبيك يومًا لايَعْدوه ولا يُبطِئُ به عنه السَّعْىُ ، ولا يعجِّل به إلَيْه المَشْى ، إنَّ أباك والله لايبالى أوقع علَى الموت أم وقع الموت عليه !

قال : ولما وصل إلَى رَبيعة نادى بصوت عالٍ كغير المُكْتَرِث لما فيه الناس : لمنْ هذه الرايات ؟ قالوا : رايات ربيعة . قال : بل راياتُ عَصَم الله أهلها ، فصبَّرَهم وثبَّتَ أقدامَهم . . . وقال لحُضَيْن[٢] بن المُنْذِر : يافتَى ألاَ تُدْنِى رايتَك هذه ذراعا ؟ قال ؛ والله عشرة أذْرُع. فأدناها حتَّى قال علىّ رضى الله عنه : حسْبُك مَكانُك .

قال ولمَّا انْتَهَى علىٌّ إلَى رَبيعة تنادَوْا بَيْنَهم : إنْ أُصِيبَ فيكم أَمِيرُ المؤمنين وفيكم رجل حىٌّ افْتضحتم فى العرب ! فقاتلوا قتالا شديدا ماقاتلوا مثله ، فلذلك قال على رضى الله عنه[٣] :

لِمَنْ رايَةٌ سَوداءُ[٤] يَخْفِقُ ظلُّها
إذا قيلَ « قَدِّمْها حُضَيْنُ » تَقَدَّمَا

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل ج ٣ ص ١٥٢ : «بجيب » ، وعند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٨٧ : « فى جيب » .

(٢) كذا جاء (حضين) بالنون عند الطبرى وابن الأثير وابن أبى الحديد وغيرهم ، وجاء فى المخطوطة : « حضير » .

(٣) قال ابن أبى الحديد : « أقبل الحضين بن المنذر يومئذ وهو غلام يزحف برأيه ربيعة – وكانت حمراء – فأعجب عليا عليه السلام زحفه وثباته فقال : ... »

(٤) كذا جاء فى المخطوطة مثل تاريخى الطبرى وابن الأثير والكامل للمبرد ومروج الذهب وجمهرة أنساب العرب ولسان العرب (ح ض ن) . وجاء فى شرح ابن أبى الحديد : « حمراء » .

ويُقْدِمُها فى المَوْتِ حَتَّى يُزِيرَهـــا
حياضَ المَنايا تَقْطُرُ المَوتَ والدَّمَا

أَذَقْنَا ابْنَ حَرْب طَعْنَنَا وضِرَابَنـــا
بأَسْيافِنَا حَتَّى تَوَلَّى وَأَحْجَمَا (١)

جَزَى اللهُ قَوْمًا صابَرُوا فى لقَائهمْ
لَدَى المَوْتِ قوما(٢) ما أَعَفَّ وأَكْرَمَا !

وأَطْيَبَ أَخْبَارًا وأَكْرَمَ شيمَـةً (٣)
إذا كان أَصْواتُ الرِّجال تَغَمْغُمَا (٤)

رَبيعَةَ أَعْنى أَهْلُ بَأْس ونَجْـدَة
إذا ماهُمُو لاقَوْا خَميسًا عَرَمْرَمَا (٥)

قالْ : ومَرَّ الأَشتَرُ بعلىّ وهو يقصد المَيْسَرة ،والأَشْتَرُ يركُض نحو الفَزَع (٦) قِبَلَ المَيْمَنة ، فقال له علىٌّ : إيتِ هؤلاء القَومَ فقل لهم « أَيْن فِرارُكم مِن الموت الذى لن تُعْجِزوه إلَى الحياة التى لاتبقَى لكم ؟ » . فمضى الأَشتر فاستقبل الناس مُنهزِمين ، فقال لهم ماقال علىٌّ ، ثم قال : « أَيُّها الناس أنا الأَشتر ، إلَىّ أنا الأَشتر » ، فأَقبل

(١) قيل : إن هذا البيت من أبيات لحضين بن المنذر نفسه صاحب الراية .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة مثل تاريخى الطبرى وابن الأثير . وجاء فى شرح ابن أبى الحديد وكتب النحو – باب التعجب – وشواهده : « خيرا » ، وهناك تغير آخر فى البيت .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة مثل تاريخى الطبرى وابن الأثير . وجاء عند ابن أبى الحديد : « وأحزم صبرا يوم يدعى إلى الوغى » .

(٤) الغمغم : مايحدث من الأصوات عند القتال .

(٥) خميسا عرمرما : جيشا كثيرا ، وسمى الجيش بالخميس لأنهم كانوا يقسمونه بخمسة أقسام : المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

(٦) الفزع يأتى فى العربية بمعنى الخوف والاستغاثة والإغاثة .

إليه بعضُم وذهب البعض ، فنادى : « أيُّها الناس ، ماأقبَحَ ماقاتلتم مُنْذُ اليوم ! أخلِصوا إلىَّ مَذْحجا [١] » فأقبلتْ مَذْحِج إلَيْه ، فقال لهم : « ماأرضَيْتم ربَّكم ، ولا نصحتم له فى عَدُوِّكم ، وكيف ذلك وأنتم أبناءُ الحرب [٢] ، وأصحاب الغارات ، وفِتْيان الصياح ، وفُرْسان الطِّراد ، وحُتُوف الأقران ، ومَذْحج الطِّعَان الذين لم يكونوا يُسْبَقون بثأرهم ، ولا تُطَلُّ دماوهم ، وماتَفعلون[٣] هذا اليومَ فإنه مأثور عنكم بعده ، فانصَحُوا واصْدُقُوا عدُوَّكم اللِقاء ، فإن الله مع الصادقين ، والذى نفسى بِيَدِه مامِن هؤلاء - وأشار إلَى أهل الشام - رجلٌ علَى مِثْل جَناح بَعُوضة مِن محمد[٤] ، اجلوا سواد وجهى يرجع فيه دَمُه ، علَيكم بهذا السواد الأعظم ، فإن الله لو قد فضَّه تَبِعه مَن بجانبيه ! » . قالوا : تَجدُنا [٥] حيْث أحببتَ . فقصد نحو عُظْمِهم مِمَّا يَلِى المَيْمَنة يَزْحَف إلَيْهم ويرُدُّهم .

واستقبله شباب من هَمْدان ، وكانو ثمانِمائَة مقاتل يومَئِذ ، وكانوا صبروا فى المَيْمَنة حتَّى أُصيب منهم ثمانون ومائةُ رجل ، وقتِل منهم أحَدَ عشَرَ رئيسا : كان أوّلُهم ذُوَيب بن [٦] شُرَيْح ، ثم

---

(١) كان الأشتر ينتسب إلى مذحج ، ويقول فى رجزه فى حرب صفين :

إنى أنا الأشتر معروف الشتر إنى أنا الأفعى العـراق الذكر

لست ربيعيا ولست من مضر لكننى من مذحج الشم الترر

(٢) جاء فى رواية ابن جرير : « الحروب » .

(٣) جاء فى رواية ابن جرير « تفعلوا » فتكون (ما) قبلها شرطية جازمة .

(٤) هكذا جاء فى المخطوطة كما فى تاريخ ابن جرير . وجاء فى الكامل لابن الأثير « من دين » وعند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٨٧ : « من دين الله » .

(٥) عند ابن أبى الحديد : « خذ بنا » .

(٦) كذا جاء فى المخطوطة كالكامل ، وعند الطبرى وابن أبى الحديد : « كريب » .

شُرَحْبِيل ، ثم مَرْثَد ، ثم هُبَيْرة ، ثم يَرِيم ، ثم سُمَير ، أولاد شُرَيْح قُتِلوا [١] ، ثم أخذ الراية عميرة [٢] ثم الحارث ابنا بشير [٣] فقُتلا ، ثم أخذها سُفْيان وعبد الله وبَكر بَنُو زَيد فقتِلوا جَميعا [٤] ، ثم أخذ الراية وَهْب بن كُرَيْب فانصرف هو وقومُه وهم يقولون : «لَيْت لنا عِدَّتَنا من العرب ، يُحالفوننا على الموت ، ثمَّ نَرجِع ، فلانَنصرف أو نُقتَلَ أو نَظْفَرَ ! » ، فسمعهم الأَشْتَر فقال لهم : أنا أُحالفكم لَى ألاَّ نَرْجعَ أبدًا حتَّى نَظْفَرَ أونَهْلِكَ جميعًا ! فوقفوا معه .

قال : وزحَف الأَشتر نحو المَيمَنة ، وثاب إليه الناس وتراجعوا من أهل البصرة وغيرهم ، فلم يقصد كَتيبة إلاَّ كشَفها ، ولا جمعًا إلاَّ حازَه وردَّه ، وقاتل قتالا شديدا ، ولزمه الحارث بن جُمهان [٥] الجُعفِيّ ، فما زال هو ومَن رجَع إلَيه يُقاتلون حتَّى كَشَف أهلَ الشام ، وألحَقَهم بمعاوية والصفِّ الذي [٦] معه ، وذلك بين صلاة العصر والمغرب ، وانتهى إلَى عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقاء وهو فى عِصْابة من القُرَّاء نحو المِائتَيْن أو الثلاثِمِائَة قد لصِقوا بالأرض كأنَّهم

(١) يعنى أن هؤلاء الرؤساء الستة كانوا إخوة أبناء شريح ، وقد قتلوا فى هذه المعركة واحدا بعد واحد .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة كالكامل ، وعند الطبرى : « عميم » .

(٣) كذا جاء عند الطبرى وابن الأثير ، وجاء فى المخطوطة : « بشر » .

(٤) ذكر الطبرى قتل هؤلاء الإخوة الثلاثة قبل قتل عميرة والحارث ، وما جاء هنا مثل ما ذكره ابن الأثير فى الكامل .

(٥) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : (جهمان) ويأتى الاختلاف أيضا فيما سيجىء .

(٦) كذا جاء فى (ك) ، وجاء فى (ن) : « الذين » .

جُثًا [١] ، فكشف عنهم أهلَ الشام فأبصروا إخوانَهم ، فقالوا : ما فَعل أميرُ المؤمنين ؟ (قال : حيٌّ صالح فى المَيْسَرة يُقاتل الناس أمامَه . فقالوا : الحمد لله قد كنّا ظننّا أنْ قد هَلَكَ وهلكتم . ثم قال عبد الله بن بُدَيْل رحمه الله [لأصحابه] [٢] : اسْتقْدِموا بنا . فقال له الأشتَر : « لاتفعلْ ، واثبُتْ مع الناس ، فقاتلْ ، فإنه خيرٌ لهم وأبقَى لك ولأصحابك » ، فأبَى ، ومضَى نحو مُعاوية وحولَه كأمثال الجبال ، وخرج عبد الله أمامَ أصحابه فقتَل مَن دنا منه ، حتّى قَتَلَ جماعة ، ودنا مِن مُعاوية ، فنهض إلَيه الناس من كل جانب ، وأُحيطَ به وبطائفة من أصحابه ، فقاتل حتّى قُتِل ، وقتِل ناسٌ من أصحابه ، ورجعتْ طائفةٌ منهم مُجرحين ، فبعَث الأشتر الحارث بْنَ جُمْهان الجُعْفِيَّ ، فحمل علَى أهل الشام الذين يتبعون مَن انهزم من أصحاب عبد الله ، حتّى نَفَّسُوا عنهم ، وانتهَوْا إلَى الأشتر .

وحكى أبو عُمَر ابن عبد البر عن الشعبى فى قتل عبدالله : أنّه لما انتهَى إلَى مُعاوية أزاله وأزال أصحابَه عن مَواقفهم ، وكان مع معاوية يومَئذ عبدالله بن عامر ، فأقبل أصْحاب معاوية علَى عبدالله بن بدَيْل يرجُمونه بالحجارة حتّى أثْخَنوه ، وقُتِل ، فأقبل مُعاوية وعبد الله بن عامر معه ، فألقَى علَيه ابْن عامر عِمامتَه غَطَّى بها وجهه ، وترحَّم علَيه [٣] ، فقال معاوية : اكشفوا وجهه . فقال ابن عامر : والله لا تمثل [٤] به وفىَّ روح ! فقال معاوية : اكشفوا عن وجهه فقد وهبناه لك . ففعلوا ،

---

(١) الجثا : جمع جثوة ، بمعنى أتربة مجموعة .

(٢) الزيادة من ابن جرير الطبرى .

(٣) قال ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤٨٦ : « وكان له من قبل أخا وصديقا » .

(٤) فى الاستيعاب ج ٢ ص ٢٦٩ : « يمثل » بالياء مبنيا للمجهول .

فقال معاوية : هذا كبش [١] القوم ورب الكعبه ، اللهم أظفر بالأشتر والأشعث بن قيس ، والله مامثل هذا إلا كما قال الشاعر[٢]:

أخُو الحرب إنْ عَضَّتْ به الحربُ عَضَّها
وإنْ شَمَّرَتْ يَومًا به[٣] الحربُ شَمَّرَا
كَلَيْثِ هزَبْرٍ كان يَحمى ذمـــارَهُ
رَمَتْهُ المَنَايَا قَصْدَها فَتَقَطَّـــرَا

ثمَّ قال مُعاوية : إنَّ نساء خُزاعة لو قَدَرَتْ أنْ تُقاتلَنى فَضْلاً عن رجالها لفعلتْ . انتَهى كلام الشَّعْبى[٤] .

قال : وزحَف الأشترُ لعَكٍّ والأشعَريِّين ، وقال لمَذْحج : اكْفُونا عكًّا . ووقف فى هَمْـدان وقال لكنْـدَة : اكْفُونا الأشعريِّين . فاقْتتلوا قِتالا شديداً إلى المساء ، وقاتلهم الأشترُ فى هَمْدان وطوائف من الناس ، فما زال أهَل الشام عن مواضعهم حتى ألحقوهم بالصفوف الخمسة المُعَقَّلة بالعَمائم حَوْل مُعاوِية ، ثم حمل عليْهم حملةً أُخرَى فصَرعَ أربعة صفوف من المُعَقَّلين بالعمائم .

---

(١) يطلق العرب لفظ « الكبش » مجازا على قائد القوم ورئيسهم وحاميهم والمنظور إليه فيهم ، قال عمرو بن معد يكرب :

نازلت كبشهمو ولـــم أر من نزال الكبش بـــدا

وقال عمرو بن الإطنابة : والضاربين الكبش يبرق بيضه . . . الخ .

(٢) هو حاتم طيء ، كما ذكره ابن جرير الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ١٦ .

(٣) عند ابن أبى الحديد : (وإن شمرت عن ساقها . . . . .) .

(٤) انظر روايته فى (وقعة صفين) ص – ٢٧٦ – ٢٧٨ .

ودعا مُعاوية بفرسه فركبه ، وكان يقول : أردتُ أنْ أنهزِمَ فذكرتُ قول ابن الإطْنابة [١] وكان جاهليًا :

أَبَتْ لى عِفَّتى [٢] وأَبَى بَـــلائى
وإقْدامى عَلَى البَطَل المُشِيحِ [٣]
وإعطائى عَلَى المكروه مـــالى [٤]
وأَخْذى الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وقَوْلى كُلَّمَا جَشَأَتْ وجاشَـتْ [٥] :
مَكانَكِ تُحْمَدى أَوْ تَسْتَرِيحى [٦]

---

(١) ابن الإطنابة هو عمرو بن عامر بن زيد مناة بن مالك الخزرجى الشاعر ، والإطنابة : أمه ، وهى امرأة من بلقين كما قال ابن جرير الطبرى .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ن) مثل تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٧ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٥٤ والأمالى للقالى ج ١ ص ٢٥٨ والبداية والنهاية ج ٧ ، ص – ٢٦٤ والمزهر السيوطى ج ٢ ص ١٩٧ ومجالس ثعلب ج ١ ص ٨٣ ولباب الآداب ص ٢٢٣ ، وجاء فى النسخة (أ) : « همتى » وجاء فى العقد الفريد ج ١ ص ١٠٤ : « شيمتى » .

(٣) قال العينى فى شواهده الكبرى ج ٤ ص ٤١٥ والسيوطى فى شرح المغنى ص ١٨٦ : المشيح : المجد فى الأمر .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة كتاريخى ابن جرير وابن الأثير والبداية والنهاية ج ٧ ص ٢٦٥ ، وجاء فى أمالى القالى ومجالس ثعلب والمزهر : « وإعطائى على الإعدام مالى » ، وجاء فى الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٣ : « وإجشامى على المكروه نفسى » وجاء فى العقد الفريد وشواهد العينى وشواهد السيوطى ولباب الآداب ولسان العرب (ش ى ح) : « وإقدامى على المكروه نفسى » .

(٥) هذه الرواية المشهورة ، يريد بقوله (جشأت) نفسه ، أى ارتفعت إليه من فزع وحزن ، وجاشت أى خافت فهمت بالفرار . وقال البكرى فى شرح أمالى القالى ج ١ ص ٥٧٤ ٥٧٥ من سمط الآلى : « وروي غير واحد : وقولى كلما جشأت لنفسى وهو أحسن » وهذه الرواية هى التى جاءت فى لسان العرب (ج ش أ) .

(٦) « مكانك » اسم فعل بمعنى اثبتى ، وقوله « تحمدى » مضارع على صيغة المجهول مجزوم لوقوعه فى جواب الطلب باسم الفعل ، أى : اثبتى تحمدى ، أو تستريحى . وفى مجالس ثعلب : « مكانك تمذرى ، أو تستريحى » .

قال[١] : فمنعَنى هذا القول[٢] من الفرار ، ونظر إلى عمرو فقال له : « اليَوْمَ صَبْرٌ ، وغدًا فخْر » . فقال : صدقت .

قال[٣] : وتقدم عُقْبة بن حديد النميرى[٤] وهو يقول : « ألا إن مَرْعَى الدُّنيَا أصبح هَشِيمًا[٥] ، وشجرها حَصِيدًا[٦] ، وجَديدها سَمِلاً[٧] ، وحُلْوها مُرّالمَذاق ، وإنى قد سئِمْتُ الدنيا ، وإنّى أتمنى الشهادة وأتعرضُ لها فى كل جَيشٍ وغارة ، فأبى اللهُ إلا أنْ يُبلغنى هذا اليَوم ، وإنّى متعرِّضٌ لها مِن ساعتى هذه ، وقد طمِعْتُ ألا أُحْرَمَها ، فما تنتظرون عبادَ اللهِ بجهاد من عادَى الله ! (فى كلام طويل)[٨] ، وقال : يا إخْوَتى ، قد بِعْتُ هذه الدارَ بالتّى أمامَها ، وهذا وجهى إليَها ! فتبِعَه إخوتُه عُبَيد الله وعَوْف ومالك ، وقالوا : لانطلُبُ رِزق الدنيا بعدَك ! فقاتلوا حتى قتُلوا ، وهم من أصحاب علىّ .

وكان مِمنْ قُتِل فى هذا اليَوْمَ من أصحاب علىّ أبو شداد قيْس ابن المَكْشُوح ، واسْمُ المَكْشوح[٩] : هُبَيْرة بن هِلال (عند

---

(١) أى معاوية .

(٢) انظر رواية القالى لقول معاوية ، وقد ذكر السيوطى فى شواهده ما قيل فى هذه الأبيات « أنها أجود ما قيل فى الصبر فى مواطن الحروب » وقد افتتح البحترى بها حماسته .

(٣) ابن الأثير فى الكامل .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة مثل الكامل ، وعند ابن جرير : « النمرى » .

(٥) هشيما : يابسا متكسرا .

(٦) حصيدا : مقطوعا ، وفى الكامل لابن الأثير : « خضيدا » .

(٧) سملا : باليا .

(٨) انظر تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ١٩ .

(٩) المكشوح لقب قيل له لأنه ضرب على كشحه ، أوكوى عليه .

أكثرهم) ، وكان قيْسٌ يَوْمَئِذٍ صاحِبَ راية بَجِيلة ، وذلك أن بَجِيلة قالت له : ياأبا شداد خُذْ رايتنا اليَوم . فقال : غيْرى خيْرٌ لكم . قالوا : مانُريد غيْرَك . قال فوالله لئِن (١) أعطيْتُمونيها لا أنتهى بكم دُوَن صاحب التُرْس المُذْهَب (وكان على رأس مُعاوية رجلٌ قائم معه تُرْسٌ مُذْهَب يستُر به مُعاوية من الشمس) ، قالوا : اصْنعْ ماشِئْت . فأخذ الراية ثم زحف بها ، فجعل يُطاعِنُهم حتى انْتهَى إلى صاحب التُّرْس ، وكان فى خيْل عظيمة ، فاقْتتل الناسُ قتالا شديدا ، وشد أبو شداد على صاحب التُّرْس ـ وقيل : كان صاحب التُّرْس المُذْهَب عبدالرحمن بن خالدبن الوَليد ـ فاعْترضه دُونه مَوْلًى رُومىّ لمُعاوية ، فضرب قدَمَ أبى شدّاد فقطعها ، وضربه أبو شدّاد فقتله ، وأُشْرِعَتْ إليه الرماح فقتلوه ، وأخذ الراية عبدُ الله بن قَلْع الأَحْمَسِى ، فقاتل حتى قُتل ، ثم أخذها عَفِيف بن إيَاس فلم تزلْ فى يَدِه حتى تحاجَز الناس . . وقُتل غيْرُ هؤلاء مِمنْ له صحبة .

قال : وخرجَتْ حِمْيَر فى جمعها ومَن انْضم إليْها من أهل الشام ، وتقدمَهم ذوالكلاع (٢) ، ومعهم عُبَيْد الله بن عُمَر بن الخطاب وهم مَيْمَنة أهل الشام ، فقصدوا رَبيعة مِن أهل العراق ، وكانت رَبيعة مَيْسَرة أهل العراق ، وفيهم ابن عبّاس ، فحملوا على رَبيعة حملةً شديدة ، فتضعْضعَت رايةُ رَبيعة ، وكانت الراية مع أبى ساسان حُضيْن بن المُنْذر ، فانْصَرَف أهلُ الشام عنهم ، ثم كر عُبيْد الله

(١) كذا جاء فى رواية ابن جرير ج ٤ ص ١٨ ، وجاء فى الاصابة ج ٣ ص ٢٧٥ « إن » وجاء فى المخطوطة : « لو » .

(٢) هو ذو الكلاع الأصغر ، ومن أجداده ذو الكلاع الأكبر ، والتعبير هنا بـ « ذوالكلاع » أولى من التعبير بـ « ابن ذى الكلاع » فيما سبق .

ابن عمر وقال : ياأهل الشام ، إن هذا الحى من أهل العراق قتلةُ عُثمان وأنصارُ علىّ ، فشدوا على الناس شدّة عظيمة ، فثبتت رَبيعة وصبرَت صبرا حسنا إلاّ قليلا من الضُعَفاء والفَشَلة ، وثبت أهلُ الرايات وأهل الصبر والحفاظ وقاتلوا قتالا حسنا ، ثم تراجع مَن انهَزَم مِن رَبيعة ، واشتد القتال حتّى كثُرَت القَتلى ، فقُتل سُمَيْر بن الريان العِجْلىّ ، وكان شديدَ البأْس ، وأتى زِياد بن خَصَفة عَبْدَ القيس فأعلمهم بما لقِيَتْ بَكرُ بْن وائل مِن حِمْيَر ، وقال : ياعَبْد القَيْس لابَكرَ بَعْدَ اليَوم ! فقاتلوا معهم ، فقُتِل ذُوا الكلاع الحِمْيَرى وعُبَيْد الله بن عُمر ابن الخطاب ، وجرح عمّار بن ياسِر فقال : « اللهمّ إنّك تعلمُ [أنّى][1] لو أعلَم أن رِضاك فى أنْ أضَعَ ظُبَة[2] سيفى فى بطنى ثم أنحَنى علَيْها حتّى تخرُجَ مِن ظهرى لفعلتُه ! وإنّى لا أعلَم اليوم عملا هو أرضَى لك من جِهاد هؤلاءِ الفاسقين ، ولو أعلم عملا هو أرضَى لك منه لَفعلتُه ! واللهِ إنّى لأرَى قومًا ليضرُبُنّكم ضربا يَرْتابُ منه المُبْطلون ، وايْمُ اللهِ لوضربونا حتّى يَبْلُغوا بنا سَعفاتِ[3] هَجَرَ لعلِمْتُ أننا علَى الحق وأنّهم علَى الباطل ! » ثم قال : « مَن يَبْتغى رِضْوانَ رَبِّه فلا يرجع إلَى مال ولا ولد ! » فأتاه عصابة فقال : « اقْصِدوا بنا هؤلاءِ القَوْمَ الذين يطلبون دَمَ عُثمان ، واللهِ ماأرادوا الطلَبَ

(١) الزيادة من ابن جرير وابن الأثير .

(٢) ظبة السيف : طرفه وحده .

(٣) هكذا جاء فى تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير والاستيعاب وشرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة والنهاية ولسان العرب ، قال صاحب النهاية : « السعفات : جمع سعفة ، بالتحريك وهى أغصان النخيل قيل : إذا يبست سميت سعفة وإذا كانت رطبة فهى شطبة وإنما خص هجر للمباعدة فى المسافة ولأنها موصوفة بكثرة النخيل (. وجاء فى النسخة (ن) : « شماف » وفى النسخة (ك) : « شعاب » .

بدَمِه ، ولكنَّهم ذاقوا الدنيا واستحبُّوها ، وعلِموا أنَّ الحقَّ إذا لزِمَهم حالَ بَيْنَهم وبَيْنَ ما يتمرَّغون فيه مِنها ، ولم تكن لهم سابِقة [(١)] يستحقُّون بها طاعةَ الناسِ والولايةَ عليْهم ، فخدَعُوا أتْباعَهم أنْ قالوا : إمامُنا قُتِلَ مَظلوما ، ليكونوا بذلك جَبابِرة مُلوكا ، فبلغوا ما تَرَوْن ، ولولا هذه ماتِبعَهم من الناس رجُلانِ ، اللهمَّ إن تنصُرْنا فطال مانصرتَ ، وإن جعلت لهم الأمر فادَّخِرْ لهم بما أحدثوا فى عبادك العذابَ الأليم ! » ثم مضَى ومعه تلك العِصابة ،فكان لايمُرُّ بوادٍ من أودِية صِفِّين إلاَّ تَبِعَه مَن كان هناك من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم.

ثم جاء إلَى هاشم بن عُتْبة بن أبى وَقَّاص - وهو المِرْقال - وكان صاحبَ راية علىّ رضى الله عنه ، فقال : « ياهاشم ، أعَوَرًا وجُبْنا ؟ لا خيْرَ فى أعْوَرَ لايَغشى البَأْس ، ارْكب ياهاشم » . فركب معه وهو يقول [(٢)] .

أعْوَرُ يَبْغى أهْلَه مَحَـــــلاَّ
قد عالج الحياةَ حتَّى مَلاَّ
لابُدَّ أنْ يَفُلَّ [(٣)] أو يُفَـلاَّ
يَتْلُهم [(٤)] بذِى الكُعُوبِ [(٥)] تَلاَّ

وعَمار يقول : « تقدَّمْ يا هاشم ، الجنَّة تحت ظلال السيوف ،

(١) فى تاريخ ابن جرير : « سابقة فى الإسلام » .
(٢) انظر ابن أبى الحديد ج ٢ ص ٢٦٩ ففيه زيادة .
(٣) يفل : يكسر
(٤) يتلهم : يصرعهم، هكذا جاء (يتلهم) بالباء عند وابن جرير وابن الأثير ولم ينقط الحرف الأول فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « نتلهم » بالنون .
(٥) ذو الكعوب : الرمح .

والمَوْت [فى] (١) أطراف الأَسل ، وقد فُتِحَتْ أبواب السماء ، وتَزَيَّنَت الحُورُ العِين ، اليَوْم ألقَى الأَحِبَّه ، محمَّدًا وحِزبه (٢) ! »

وتقدَّم حتَّى دنا مِن عَمْرو بن العاص ، فقال له : « يا عَمْرو ، بِعْتَ دِينك بمصر ! تَبًّا لَك ! تَبًّا لك ! » فقال : لا ولكن أطلب دَمَ عُثمان . قال : « أشهد علَى عِلْمِى فيك إنَّك لاتطلب بشىء مِن فِعْلك وَجْهَ الله ، وأنك إنْ لم تُقْتَل اليَوْمَ تَمُت غَدا ، فانظرْ إذا أُعْطِىَ الناسُ علَى نِيَّاتِهم ما نِيَّتُك ؟ لقد قاتلْت صاحبَ هذه الراية ثلاثا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الرابعة ماهى بِأَبَرَّ ولا أَتْقَى ! » .

ثم قاتل عَمَّار فلم يرجع ، وقُتِل ، وقال قَبْلَ أن يُقْتَلَ : إيتُونى بآخِرِ رِزقٍ لى من الدنيا ! فأُتِىَ بِضَياحٍ من لَبن فى قَدَح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تقتُل عَمارًا الفِئَةُ الباغية ، وإنَّ آخِر رِزقه ضَياحٌ مِنْ لَبَن » (والضياح) ؛ الممزوجُ بالماء من اللبن (٣) .

قال : وقَتَلَه أبو الغادِيَه (٤) ، واحتَزَّ رأسَه ابْن حُوَىٍّ (٥)

---

(١) الزيادة من ابن جرير ، وجاء فى الكامل : « تحت » ، وسقطت الكلمة من المخطوطة .

(٢) يكتب هذا فى بعض الكتب على أسلوب كتابة الشعر .

(٣) جاء فى النهاية ولسان العرب : « فى حديث عمار : إن آخر شربة تشربها ضياح ، الضياح والضيح بالفتح : اللبن الخاثر يصب فيه الماء ثم يخلط ، رواه يوم قتل بصفين وقد جئ بلبن يشربه » .

(٤) أبو الغادية اسمه يسار بن سبع الجهنى .

(٥) قال ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٥ : « ولد السكسك بن أشرس بن كندة ثمانية عشر ذكرا ، ولهم ثروة عظيمة بالشام ، منهم حوى بن ماتع بن زرعة بن ينحض بن حبيب بن ثور بن خداش ، من بنى عامر بن السكسك وهو قاتل عمار بن ياسر » .

السَّكْسَكِيّ ، وقد كان ذوالكَلاَع سَمِع عَمْرو بن العاص يقول : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لِعَمّار « تقتلُك الفِئَةُ الباغية وآخِرُ شَرْبَةٍ تشرَبُها ضَيَاحٌ مِنْ لَبَن (١) » . فكان ذو الكَلاَع يقول لعَمْرو : ما هذا وَيْحَكَ ياعَمْرو ! فيقول : إنّه يَرْجع إلَيْنا ، فقُتِل ذُو الكَلاع قبل عَمّار مع مُعاوية ، وأصِيبَ عَمّار بَعْدَه مع على ، فقال عَمْرو لمُعاوية : « والله ماأدرى بقتل أيِّهما أنا أشدُّ فَرَحًا : بقتْلِ عَمّار أو بقتْلِ ذى الكَلاع ، واللهِ لو بَقِىَ بَعْدَ قتل عَمّارٍ لمَالَ بعامَّة أهل الشّام إلَى علىّ ! » . فأتَى جماعة إلَى مُعاوية ، كُلُّهم يقول : « أنا قتلتُ عَمارا » ، فيقول عَمْرو : فما سمعتَه يقول ؟ فيَخْلِطون ، فأتاه ابْنُ حُوَىّ فقال : أنا قتلتُه فسمعتُه يقول « اليَوْم أَلْقَى الأحبَّه ، محمّدًا وحِزْبَه » . فقال له عَمْرو : أنت صاحبُه . ثم قال « رُوَيْدًا ، واللهِ ماظفرت يداك (٢) ، ولقد أسْخَطْتَ رَبَّك ! » .

وقيل : إنَّ أبا الغادِيَة قَتَل عَمّارا وعاش إلَى زمن الحَجّاج ، فدخل علَيه ، فأكرَمَه الحَجّاج وقال : أنت قتلتَ ابْنَ سُمَيَّة ؟ (يعنى عمارا) قال : نَعَمْ . قال : مَنْ سَرَّه أن ينظرَ إلَى عَظيم الباع يَوْم القِيامة فلْينْظرْ إلَى هذا الذى قتَل ابْنَ سُمَيَّة . ثم سأله أبوالغادية حاجَةً فلم يُجِبْه إلَيها ، فقال : نُوَطِّىء لهم الدنيا ولا يصلُونا منها

(١) أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعمار « تقتلك الفئة الباغية » فقد ورد فى الحديث الصحيح بروايات مختلفة عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة وأم سلمة عند مسلم والترمذى وغيرهما . . وأما « آخر شربة » فهو حديث رواه أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب ج ٢ ص ٤٨٠ عن عبد الله بن سلمة ، ونقله ابن أبى الحديد ج ٢ ص ٥٣٨ وانظر البداية والنهاية ٧ ص ٢٦٧ .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) وجاء فى (ن) : « بداك » .

ويزعُم أنّى عظيمُ الباعِ يَوم القِيامة ! [فقال الحَجّاج][1] : أَجَلْ واللهِ مَن كان ضِرْسُه مِثْلَ أُحُدٍ ، وفخِذُه مِثْلَ جَبَل وَرِقانَ ، ومَجْلِسُه مِثْلَ المَدينة والرَّبَذَة ، لَعَظِيم الباعِ يَوْمَ القيامة ، واللهِ لَوْ أَنَّ عَمّارا قَتَله أهلُ الأَرض لدخلوا كلُّهم النار ! .

وقال أبوعبدالرحمن السلمى : لمَّا قُتِلَ عَمّار دخلتُ عَسْكرَ معاوية لأَنظرَ هل بَلَغ منهم قتْلُ عَمّار مابلغ مِنّا ـ وكُنّا إذا تركْنَا القِتال تحدَّثوا إلَيْنا وتحدثنا إلَيهم ـ فإذا مُعاوية وعَمْرو وأبو الأَعور وعبد الله ابن عَمْرو يتسايرون ، فأَدخلتُ فَرَسى بَيْنَهم لِئلاَّ يفوتَنى ما يقولون ، فقال عبد الله بن عَمْرو لأَبيه : يا أَبَتِ قَتَلْتم هذا الرجلَ فى يومكم هذا وقد قال رسولُ الله ما قال ! قال وما قال ؟ قال : أَلَمْ يَكُنْ المسلمون ينقُلون فى بناء مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم لبنَةً لَبِنَةً وعَمارٌ ينقل لَبِنَتَينْ لَبِنَتَيْن ؟ فغُشِىَ علَيه ، فأَتاه رسولُ الله علَيه الصلاة والسلام ، فجعل يمسَحُ الترابَ عن وجهه ويقول « وَيْحَكَ يابْنَ سُمَيَّة ! الناسُ ينقلون لَبِنَةً لَبِنَةً ، وأَنت تنقُل لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَين رغبةً فى الأَجْر ، وأَنت مَع ذلك تقتلك الفئَةُ الباغِيَة ! » . فقال عَمْرو لمُعاوية : أَمَا تسمع ما يقول عبدُ الله ؟ قال : وما يقول ؟ فأَخبره ، فقال مُعاوية : أَنحن قتلناه ؟ إنَّما قتَلَه مَن جاء به ! قال فخرج الناسُ من أَخْبيَتِهم وفَساطِيطهم يقولون[2] : إنَّما قتَله مَن جاء به . فلا أَدْرِى مَنْ كان أَعْجَبَ ؟ : أَهُوَ أَم هم ؟ .

قال : ولمَّا قُتِلَ عمار قال علىٌّ رضى الله عنه لِرَبيعة : أَنتم دِرْعِى ورُمْحِى .

---

(١) الزيادة من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٥٨ حيث نقل المؤلف .

(٢) كذا جاء فى (ن) ، وجاء فى (ك) : « تقول » .

فانتدب له نحو من اثنى عشر ألفا ، وتقدمهم عليٌّ على بغلة ، فحملوا معه حَملةَ رجل واحد ، فلم يَبْقَ لأهل الشام صفٌّ إلا انْتَقَض ، وقتلوا كُلَّ من انْتَهَوْا إليه ، حتَّى بلَغُوا مُعاوية ، فناداه عليّ : فقال عَلامَ يُقْتَلُ الناسُ بَيْنَنا ؟ هَلُمَّ أُحاكِمْكَ إلَى الله ، فأيُّنا قَتَلَ صاحِبَه استقامت له الأُمور . فقال عَمْرٌو : أَنصَفَكَ . فقال مُعاوية لعَمْرو : ماأنصفْتَ ، إنك لَتَعْلَمُ أنه لم يَبْرُزْ إليه أحدٌ إلا قَتَله . فقال عَمرو مايحسُنُ بك ترْكُ مُبارَزَته ، فقال مُعاوية : طمِعْتَ فيها بعدى ! .

قال[1] : وكان أصحاب على قد وكَّلوا به رجُلَين يحفظانه ، لِئَلا يُقاتِلَ ، فكان يحمِل إذا غفَلا فلا يَرجع حتى يَخْضِبَ سَيفه ، وإنه حمل مَرَّة فلم يرجع حتَّى انثنى سيفه ، فألقاه إليهم ، وقال لولا أنَّه انثنَى مارجعتُ إليكم . فقال الأعمش[2] لأبى عبد الرحمن : هذا والله ضرب غير مُرتاب ! .

قال[3] : وأما هاشم بن عُتْبة بن أبى وَقَّاص فإنَّه دعا الناسَ عند المساء وقال : ألا من كان يريد اللهَ والدارَ الآخرة فإلىّ . فأقبل إليه الناس ، فحمل على أهل الشام مِرارا ، ويصبرون له ، وقاتل قتالا شديدا ، وقال لأصحابه : « لايَهُولنَّكم ماترَوْن من صبرهم ، فوالله ما هو إلاَّ حَمِيَّةُ العرب وصبْرُها تحت راياتها ، وإنهم لَعَلى الضلال وإنَّكم لعَلى الحق » ثم حَرَّض أصحابه ، وحمل فى عِصابة من القُرَّاء فقاتل قِتالا شديدا ، فقتل يَوْمَئِذٍ تسعة أوعشرة ، وحمل عليه الحارث ابن المنذر التَّنوُخى ، فطعنه فسقط ، وأرسل إليه علىّ : أن قدِّمْ

(١) ابن الأثير فى الكامل .

(٢) الأعمش راوى هذا الحديث عن أبى عبد الرحمن السلمى .

(٣) كذا جاء عند ابن جرير وابن الأثير ؛ وجاء فى المخطوطة (وهم لا يزالون) .

لِواءك ، فقال لرسوله : انظر إلى بطنى ! فنظر إليه ، فإذا هو قد انشق !

قال [١] : ومَرّ علىّ بكتيبة من أهل الشّام فرآهم لا يزولون [عن مَوْقفهم] [٢] ـ وهم غسّان ـ فقال : « إنّ هؤلاء لا يزولون إلاّ بطعن [٣] وضرْب يَفْلِق الهامَ ويُطِيحُ العِظام ، وتسْقُط منه المَعاصِم والأكُف ، وحتى تُقْرع جِباههم بعُمُد الحديد ، أيْن أهل النصر والصبر وطُلاّب الأجر ؟ » فأتاه عصابة من المسلمين ، فدعا ابنه محمدا فقال : « تقدّمْ نحْوَ هذه الراية مشيا رُوَيْدًا على هِينَتِك [٤] ، حتّى إذا أشرعت فى صدورهم الرِّماح فأمسكْ حتّى يأتِيَك أمرى » . ففعل ، وأعد [لهم] [٥] علىّ مثلهم وسيرّهم إلى ابنه محمد ، وأمره بقتالهم ، فحمل عليهم فأزالهم [٦] عن مواقفهم ، وأصابوا منهم رجالا .

قال [٧] : ومرّ الأسْوَد بن قيس المُرادى بعبد الله بن كعب [المُرادى] [٨] وهو صَرِيع ، فقال له عبد الله : ياأسوَد . قال : لبَّيْك . وعَرَفه [٩] ونزل إليه وقال له : « عَزّ علىّ مَصْرَعك !

---

(١) ابن الأثير فى الكامل .

(٢) الزيادة من ابن جرير .

(٣) جاء فى نهج البلاغة وشرحه لابن أبى الحديد ج ٢ ص ٢٦٨ « وإنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك » .

(٤) أى : على عادتك فى السكون والرفق .

(٥) ثبتت فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .

(٦) كذا جاء فى (ك) وجاء فى (ن) : فحملوا عليهم فأزالوهم » .

(٧) ابن الأثير فى الكامل .

(٨) الزيادة من الكامل وتاريخ ابن جرير والاستيعاب والإصابة .

(٩) عرفه بآخر رمق ، كما روى ابن جرير .

إنْ كان جارُك ليَأْمَنُ بَوائِقك[١] ، وإنْ كُنت لمِن الذاكرين الله كثيرا ! أوْصنى رحمك الله ! » قال : « أوصيك بتقوَى الله ، وأنْ تُناصح أمير المؤمنين ، وتُقاتل معه المخلين [٢] ، حتّى يظهَرَ أو يَلحَق بالله ، وأبلِغْه عنّى السلام وقل له : قاتِلْ على المعركة حتّى تجعلها خلْف ظهرك ، فإنه من أصْبح غدًا والمعركة خلف ظهره كان العالى » . ثمّ لم يلبث أن مات ، فأقبل الأسْود إلى علىّ فأخبره ، فقال : « رحمه الله ! جاهد عدوّنا فى الحياة ، ونصح لنا فى الوفاة ! » . . وقيل : إن الذى أشار على علىّ بهذا عبد الرحمن بن حَنْبَل الجمحى .

قال : فاقتتل الناس تلك الليلة كُلّها إلى الصباح ، وهى ليلة الهَرِير ، فتطاعَنوا حتى تقصّفت الرِّماح ، وترامَوْا حتى نفِد النَّبْل ، وأخذوا السيوف ، وعلى يسير بين الميَمْنة والمَيْسَرة ، ويأمر كلّ كتيبة أن أن تقدّمَ على التى تليها ، فلم يَزلْ يفعل ذلك حتّى أصبح ، والمعركة كلُّها خلْف ظهره ، والأشتر فى الميْمَنة ، وابن عباس ، فى المَيْسَرة وعلىٌّ فى القلْب ، والناس يقتتلون من كل جانب (وذلك يَوْم الجمعة) وأخذ الأشتر يَزْحَف بالمَيْمَنة ، وكان قد تولاها عَشِيّة الخميس وليْلة الجمعة إلى ارتفاع الضحَى ، وهو يقول لأصحابه : ازْحَفوا قِيدَ [٣] هذا الرمح . ويزحَف بهم نحْوَ أهل الشام ، فإذا فعل ذلك

---

(١) روى مسلم فى صحيحه ج ٢ ص ١٧ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » قال ابن الأثير فى النهاية : أى : غوائله وشروره ، واحدها بائقة وهى الداهية .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة بالخاء المعجمة ، وجاء عند ابن جرير وابن الأثير (المحلين) بالحاء المهملة .

(٣) قيد : قدر .

بهم قال : ازحَفوا قِيدَ هذا القوس . فإذا فعلوه سألهم مِثل ذلك ، حتّى ملَّ أكثر الناس الإقدام ، فلما رأى الأشتر ذلك دعا بفرسه فركبه وترك رايته مع حيان بن هَوْذة النَّخعى ، وخرج يسير فى الكتائب ويقول : مَنْ يَشْرِى[1] نفسَه ويقاتِل مع الأشتر [حتّى][2] يظهَرَ أو يلحَقَ بالله ؟ فاجتمع إليه جمع كثير ، فيهم حيّان بن هَوْذة النخعى وغيره ، فرجع بهم إلى المكان الذى كان فيه ، وقال لهم : « شُدُّوا شدَّة - فِدًى لكم خالى وعمِّى - تُرْضُون بها الربَّ ، وتُعِزُّون بها الدين » ثمّ نزل فضرب وجه دابَّته ، وقال لصاحب رايته : أقدِمْ بها . وحمل بالقوم[3] فضرب أهلَ الشام حتّى انتهى بهم إلى عسكرهم ، فقاتلوه عند العسكر قتالا شديدا ، وقُتِل صاحب رايته ، لمّا رأى علىٌّ الظَّفر من ناحيته أمَدَّه بالرجال .

فقال عَمْرو لِوَرْدان[4] : تدرِى ما مَثلى ومَثلك ومَثل الأشتر ؟ قال : لا . قال « كالأشقر إن تقدّم عُقر وإن تأخَّر عُقر[5] ! لئن تأخَّرت لأضرِبنَّ عُنقك ! » قال : أمَا واللهِ يا أبا عبدِ الله لأُورِدَنَّك حِياض المَوت ضعْ يَدَك على عاتقى . ثم جعل يتقدّم ويتقدم[6] ويقول : والله لأُورِدَنَّك حِيَاض المَوت . واشتد القتال .

فلمّا رأى عَمرو أنَّ أمر أهل العراق قد اشتدَّ ، وخاف الهلاك ،

---

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « يشترى » .

(٢) الزيادة من ابن جرير .

(٣) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « وحمل على القوم » .

(٤) وردان : مولى عمرو بن العاص .

(٥) عند ابن جرير : « نحر » .

(٦) كذا جاء فى المخطوطة . وجاء عند ابن جرير : « ثم جعل يتقدم وينظر إليه أحيانا » .

قال لمُعاوية : هل لك فى أمر أعرِضُه عليك لا يزيدنا إلاّ اجتماعًا ولا يَزيدُهم إلاّ فُرْقة ؟ قال : نعم . قال : « نرفع المصاحف ، ثم نقول لما فيها هذا حكم الله بَيننا وبَينكم ، فإنْ أبى بعضُهم أنْ يَقْبَلها وجدت فيهم مِن يقول : ينبغى لنا أن نقبل . فتكون فُرْقةٌ بينهم ، فإنْ قبِلوا ما فيها رفعْنا القتال عنّا إلى أجَل » .

ذكر رفع أهل الشام المصاحف

وما تقرر من أمر التحكيم وكتاب القضية

قال : ولما أشار عَمْرو بن العاص على مُعاوية برفع المصاحف أمر برفْعها ، فرُفِعَتْ بالرماح [١] ، وقال [٢] : « هذا كتاب الله بَيْننا وبَينكم ، مَن لِثُغُور الشام بعد أهله ؟ مَنِ لِثُغور العراق بعد أهله ؟ » .

فلما رآها الناس قالوا : نُجيب إلى كتاب الله ! فقال لهم علىٌّ رضى الله عنه : « عِبَادَ الله ، امْضُوا على حقكم وصِدْقكم قتالَ عدوِّكم [٣] ، فإن مُعاوية وعَمْرًا وابْن أبى مُعَيْط وحبيبا [٤] وابن أبى سَرْح والضحاك [٥] ليْسوا بأصحاب دِين ولا قُرآن ، أنا أعْرَف بهم منكم ، قد صحِبْتُهم أطفالا ثم رجالا ، فكانوا شر أطفال وشر رجال ! وَيْحَكم ! واللهِ

(١) قال نصر فى وقعه صفين و بن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة : « ربطت المصاحف فى أطراف الرماح » .

(٢) كذا وقع فى المخطوطة ، وعند ابن جرير وابن الأثير : « وقالوا » .

(٣) كذا جاء فى رواية ابن جرير ج ٤ ص ٣٤ ، يقال « صدقوا القتال » إذا تصلبوا فيه واشتدوا ، ووقع فى المخطوطة : « وقتال » .

(٤) عند ابن جرير : « وحبيب بن مسلمة » وعند ابن أبى الحديد ج ١ ص ١٨٤ « وابن مسلمة » .

(٥) عند ابن جرير : « والضحاك بن قيس » .

مارفعوها إلا خديعةً ووهنًا [١] ومَكيدة ! » فقالوا له : لايَسَعُنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبَله ! فقال لهم عليٌّ رضى الله عنه : « فإنّى إنما أقاتلهم ليَدِينوا بحُكم الله [٢] ، فإنهم قد عصَوُا اللهَ فيما أمرهم ، ونسُوا عهده ، ونبَذوا كتابه ! » . فقال مِسْعَر بن فدَكىّ التميمى وزيد بن حُصَين الطائى فى عصابة من القُرّاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : « ياعلى ، أجبْ إلى كتاب الله عزوجل إذْ دُعِيت [إليه] [٣] ، وإلا دفعناك [٤] بِرُمَّتِك [٥] إلى القوم أو ونفعلْ بك كما فعلنا بِابْنِ عفّان ! » : قال : « فاحفظوا عنّى نهْيى إياكمْ ، واحفظوا مقالتكم لى ، [فإنْ تُطيعونى فقاتلوا ، وإن تعْصُونى فاصْنعوا] [٦] ما بَدا لكم ! » .

قالوا : ابعثْ إلى الأشتر فليَأْتِك . فبعث عليٌّ يَزيد بن هانئ إلى الأشتر يستدعيه ، فقال : « ليست هذه الساعة بالساعة التى ينبغى لك أن تُزيلنى [فيها] [٧] عن مَوْقِفى : إنى رجَوتُ أن يفتح الله لى ! » .

---

(١) عند ابن جرير : « ودهنا » والدهن : إظهار خلاف المضمر .

(٢) فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٦١ « الكتاب » ، وفى تاريخ ابن جرير « هذا الكتاب » ، وفى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة : « القرآن » .

(٣) ثبتت فى النسخة (ن) ، وسقطت من (ك) .

(٤) عند ابن جرير : « ندفعك » .

(٥) الأصل فى هذا التعبير أن يقال عند تسليم الأسير ونحوه ، والرمة : قطعة حبل يشد بها الأسير ، أى : يسلمونه إليهم بالحبل الذى شد به تمكينا لهم منه ، ثم اتسع فيه حتى قالوا أخذت الشىء برمته ، أى : كله .

(٦) كذا جاء فى الكامل لابن الأثير ، وفى تاريخ ابن جرير قريب منه ، وجاء فى المخطوطة : « افعلوا » دون بقية الجملة الشرطية .

(٧) الزيادة من ابن جرير .

فرجع يزيد فأخبره ، وارتفعت [١] الأصوات ، وارتفع الرهجُ من ناحية الأشتر ، فقالوا : واللهِ ما نراك إلا أمرته أن يُقاتل ! فقال : « هل رأيتمونى سارَرْتُه ؟ أليس كلمته على رؤوسكم وأنتم تسمعون ؟ » فقالوا : « ابعث إليه فليَأْتك ، وإلا واللهِ اعتزلناك ! » فقال : « ويْلك يايزيد ! قل له أقْبِلْ إلى ، فإن الفتنة قد وقعت ! » فأبلغه ذلك ، فقال الأشتر : أَلِرَفْعِ المصاحف ؟ قال : نعَمْ . قال : « واللهِ لقد ظننتُ أنها ستوقع اختلافا وفُرْقة ، إنها مشورة ابن العاص ، ألاترى إلى الفتح ؟ ألا ترى ما يَلْقوْن ؟ ألا ترى ما صنع الله لنا ؟ أينبغى أن أدَعَ هؤلاء وأنصرف عنهم ؟ » فقال له يزيد : أتحب أن تظفر وأميرُ المؤمنين يسلم إلى عدوِّه أوْ يُقتل ؟ قال : « لا واللهِ ! سُبْحانَ الله ! » فأعلمه بقولهم ، فأقبل إليهم الأشتر وقال : « ياأهل العراق ، ياأهل الذُّلّ والوَهن ، أحِين عَلِوْتُم القوم وظنُّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المَصاحف يدعونكم إلى مافيها ؟ وهم واللهِ قد تركوا ما أمَر اللهُ به فيها وسُنة مَن أنزلت عليه ! فأمهِلونى فوَاقًا [٢] فإنِّى قد أحسست بالفتح ، قالوا : لا . قال : أمهِلونى عَدْوَ الفرَس فإنى قد طمِعتُ [فى النصر] [٣] قالوا : إذن ندخُلَ معك فى خطيئتك ! قال : « فخبِّرُونى عنكم متى

---

(١) عبارة ابن جرير ٤ ص ٣٥ : « فارتفع الرهج وعلت الأصوات » ، وكذلك قال ابن أبى الحديد ج ١ ص ١٨٦ وزاد : « وظهرت دلائل الفتح والنصر لاهل العراق ، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام » .

(٢) فى النهاية ولسان العرب : « فواق الناقة » ، والفواق — بفتح الفاء وضمها : — ما بين الحلبتين من الراحة ، ولكن لسان العرب تصحفت فيه كلمة « الأشتر » بـ « الأسير » .

(٣) الزيادة من ابن جرير ج ٤ ص ٣٥ وابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٦١ وابن أبى الحديد ج ١ ص ١٨٦ .

كنتم مُحِقِّين ؟ : أحِين تُقاتلون وخِيارُكم يُقْتلون ؟ فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مُبْطِلون ! أم أنتم الآن مُحقُّون ؟ فقتلاكم الذين لا تُنكرون فضْلهم وهم خيْرٌ منكم فى النار ! » فقالوا : « دَعْنا منك ياأشتر ، قاتلناهم لله ، وندَعُ قتالهم لله ! » فقال : « خُدعْتم فانْخدَعتم ودُعِيتم إلى وضْع الحرب فأجَبتم ، يا أصحاب الجِباهِ السُّود[1] ، كنا نظنُّ صلاتكم زهادةً فى الدنيا وشوقًا إلى لقاء الله ، فلا أرَى مرادكم إلا الدنيا ، ألا قبْحا يا أشباهِ النِّيب الجلاَّلة [2] : ما أنتم بِرائِين بعدها عزًّا أبدًا ، فابْعدُوا كما بَعِدَ القوْمُ الظالمون ! » فسبوه وسَبهم ، وضربوا وجه دابته بسياطهم ، وضرب وجوهَ دوابهم بسَوطه ، فصاح به وبهم علىٌّ رضى الله عنه ، فكفُّوا .

وقال الناس : قد قبِلْنا أن نجعل القرآن بَيننا وبَينهم حَكما. فجاء الأشعث بن قيْس إلى على فقال له : أرَى الناسَ قد رضُوا بما دعَوْهم إليه من حُكم القرآن ، فإن شئت أتيتُ مُعاوية فسألْتُه مايريد. قال : إيتِه . فأتاه فقال : يا مُعاوية لأىِّ شىء رفعتم هذه المَصاحف ؟ قال : « لِنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه ، تبعثون رجلا ترضِوْن ، ونبعث رجلا نرضى به ، نأْخذ عليهما أن يعمَلا بما فى كتاب الله لا يَعْدُوَانِه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه » . فقال له الأشعث : « هذا الحق ، هذا الحق » . فعاد إلى على فأخبره ، فقال الناس : قد رضينا وقبِلْنا .

فقال أهل الشام : قدرضِينا عَمْرًا . فقال الأشعثُ وأولئك القومُ

(١) ذكر ابن أبى الحديد أنهم « قد اسودت جباههم من السجود » .
(٢) النيب : النوق المسنة ، والجلالة التى تأكل البعر .

الذين صاروا خوارج : فإنا قدرضِينا بأبى مُوسَى الأشْعَرى . فقال علىّ رضى الله عنه : « قد عصَيْتمونى فى أول الأمر ،فلا تعصُونى الآن ، لاأرَى أن أُوَلِّىَ أباموسى » . فقال الأشعث وزيد بن حصين [١] ومِسْعَرُ بن فدَكِىّ : لانرضى إلا به فإنه قد حذرنا ماوقعْنا فيه ! قال على « فإنه ليس [لى] [٢] بثقة ، قد فارقنى وخذَّل الناس عنى ، ثم هرَب منى حتى آمنتُه بعد أشهر ، ولكنْ هذا ابنُ عباس أولِّيه ذلك » . قالوا « واللهِ مانُبالِى أنت كُنت أم ابن عبّاسْ ، لانُريد إلا رجلا هو منك ومن مُعاوية سَواء [٣] » . قال على : فإنى أجعل الأشتر . قالوا : وهل سَعَّرَ [٤] الأرض غيْر الأشتر ؟ قال : قد أبَيْتم إلا أبا موسَى . قالوا : نعم : قال : فاصنعوا ماأردتم ! فبعثوا إليه وقد اعتزل القتال وهو بعُرْض [٥] فأتاه مَوْلًى له فقال : إنّ الناسَ قد اصطلحوا . فقال الحمد لله . قال : قد جعلوك حَكما . قال : [إنا لله وإنا إليْه راجعون [٦]] وجاء أبو موسَى حتى دخل فى العَسْكر .

وجاء الأشتر عَلِيا فقال : ألِزّنى [٧] بعَمْر وبن العاص ، فوالله لئن ملأت عَيْنى منه لأقتُلنه ! .

---

(١) « حصن » كذا جاء هنا فى المخطوطة ، وهو الموافق لما فى الإصابة ج ١ ص ٥٦٥ ، وجاء فيما سبق « حصين » وهو الموافق لما عند الطبرى وابن الأثير .

(٢) الزيادة من ابن جرير الطبرى .

(٣) زاد ابن جرير : « ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر » .

(٤) سعر الأرض : أشعل فيها نار الحرب .

(٥) قال ابن أبى الحديد ج ١ ص ١٨٩ « وهو بأرض من أرض الشام يقال لها عرض » .

(٦) من الآية ١٥٦ فى سورة البقرة .

(٧) ألزنى : شدنى وألصقنى بعمرو بن العاص .

وجاء الأحْنف بن قيْس فقال : « ياأمير المؤمنين ، إنك قد رُمِيت بِحَجَر الأرض[١] ، وإنّى قد عَجَمْت[٢] أبا موسَى وخَلَبْتُ أشْطُرَه[٣] ، فوجدته كلِيلَ الشفْرة[٤] قريبَ القعْر ، وإنه لا يصلُح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصيرَ فى أكُفِّهم ويبعُد عنهم حتى يصير بمنزلة النجم منهم ، فإن أبيت أن تجعلنى حكما فاجعلنى ثانيا أو ثالثا ، فإنه لن يَعقِد عُقْدة إلا حَلِلْتُها ، ولا يَحُلُّ عُقدة أعقِدها إلا عقدت [لك][٥] أخرَى أحكمَ منها ! » . فأبَى الناس إلا أبا موسَى والرضا بالكتاب ، فقال الأحنف بن قيْس : إنْ أبَيْتم إلا أبا موسَى فأدفئوا ظهره بالرجال .

وحضر عمرو بن العاص عند علىّ لتُكْتَب القضيَّة بحضوره ، فكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماتقاضَى عليه أمير المؤمنين » فقال عمرو :[٧] هو أميركم أمَّا أميرنا فلا . فقال له الأحنف : لا تَمْحُ اسْمَ أمير المؤمنين فإنى أتخوَّف إنْ محَوْتَها ألاَّ ترجعَ إلَيْك أبَدًا ، لا تَمْحُها وإنْ قتل [الناس][٨] بعضهُم بعضا ، فأبَى ذلك علىٌّ

(١) جاء فى النهاية ولسان العرب : « فى حديث الأحنف : قال لعلى حين ندب معاوية عمرا للحكومة : لقد رميت بحجر الأرض ، أى : بداهية عظيمة تثبت ثبوت الحجر فى الأرض»

(٢) عجمت : عرفت .

(٣) أى : اختبر أحواله من خير وشر وحلو ومر تشبيها بحلب جميع أخلاف الناقة ما كان منها حفلا وغير حفل ودارا وغير دار .

(٤) الكيل : الذى لا يقطع . الشفرة : المدية ، كما جا فى بعض الروايات .

(٥) روى ابن جرير هذه الكلمة فى هذا الموضع وجاءت فى المخطوطة بعد «أعقدها » .

(٦) فى النسخة (ك) : « ليكتب » .

(٧) زاد ابن جرير وابن كثير فى أول كلام عمرو بن العاص : اكتب اسمه واسم أبيه » .

(٨) الزيادة من ابن جرير ابن والأثير . .

مَلِيًّا من النهار ، ثم قال الأشعث بن قيْس : امْحُ هذا الاسم . فمُحى ، فقال عليّ رضى الله عنه : « الله أكبر ! سُنَّة بسنة ، والله إنّى لكاتِبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِية ، فكتبتُ : « محمد رسول الله » فقالوا : لستَ برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فأمرنى رسول الله عليه الصلاة والسلام بمَحْوِه ، فقلت : لا أستطيع . فقال أرنِيه . فأَرَيْتُه فمحاه بيده وقال : إنَّك ستُدْعَى إلَى مثلها فتُجيب ! » . فقال عمرو : « سُبْحانَ الله ! أنُشبَّه بالكُفَّار ونحن مؤمنون ؟ » فقال عليٌّ رضى الله عنه : يا ابن النابغة ومتَى لم تكن للفاسقين وليًّا وللمؤمنين عدُوا ؟ فقال عمرو : والله لايجمع بَيْنى وبَيْنك مجلس بعد هذا اليوم أبدا ! فقال عليّ : إنى لأرجو أن يطهِّر الله مجلسى منك ومن أشباهك .

وكتب الكتاب : هذا ماتقاضَىْ عليه عليّ بن أبى طالب ومُعاوية ابن أبى سفيان ، قاضى عليٌّ على أهل الكوفة ومن معهم ، وقاضى مُعاوية على أهل الشام ومن معهم ، أنَّا ننزل عندحكم الله وكتابة ، وألاَّ يجمع بَيننا غيره ، وأنَّ كتاب الله بَيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيِى ما أحيا ونُمِيت ما أمات ، فما وجد الحَكَمَان فى كتاب الله — وهما أبو موسَى عبد الله بن قَيْس وعَمرو بن العاص — عمِلا به ، وما لم يجدا فى كتاب الله تعالى فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المفرِّقة . وأخذ الحَكَمان من عليّ رضى الله عنه ومن مُعاوية ومن الجند من العهود والمواثيق أنهما آمِنان علَى أنفُسهما وأهلهما ، والأُمَّةُ لهما أنصارٌ علَى الذي يتقاضيان عليه ، وعلى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمَّة ولايردَّاها فى حرب ولا فُرقة حتَّى

يعصيا ، وأجّلا القضاء إلى رمضان ، وإن أحبّا أن يؤخرا ذلك أخّراه ، وإن مكان قضيّتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد جماعة من الطائفتين .

وقيل للأشتر : لتكتب [١] فيها . فقال : « لا صحبتْنى يَمينى ولا نفعتْنى بعدها شِمالى إن خُطَّ لى فى هذه الصحيفة خط ! أوَلستُ على بَيِّنَةٍ من ربِّى من ضلال عدوّى ؟ أوَلستم قد رأيتم الظَّفر ؟ » . فقال له الأشعث : ما رأيت ظَفَرًا هَلُمَّ إلَينا فإنه لا رغبةَ بك عنّا . فقال : « بلَى والله الرغبةُ عنك فى الدنيا للدنيا وفى الآخرة للآخرة ! ولقد سفك الله بسَيْفى دماء رجال ما أنت عندى خَيْر منهم ولا أحْرَم دما ! » .

قال : وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس حتى مَرَّ علَى طائفة من بنى تميم ، فيهم عُرْوَة بن أُدَيَّة (أخو أبى بِلال) فقرأه عليهم ، فقال عروة : تحكّمون فى أمر الله الرجال ، لا حُكم إلاَّ لله . ثم شَدَّ بسَيفه فضرب به عَجُزَ دابّة الأشعث ضربةً خفيفة ، واندفعت الدابّة ، وصاح به أصحاب الأشعث فرجع .

وكُتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاثَ عشرةَ خلت من صفر سنة سبع وثلاثين . واتفقوا أن يكون اجتماع الحَكمين بِدُومَه الجَنْدَل [٢] ، أو بِأَذْرُح [٣] ، فى شهر رمضان .

---

(١) فى الكامل لابن الأثير . : « ليكتب » .

(٢) دومة الجندل : موضع بين الشام والمدينة المنورة .

(٣) أذرح : بلد فى أطراف الشام ، كما قال ياقوت ، وقد كرر ذكر الخلاف فى الموضعين ، وستأتى فى « ذكر اجتماع الحكمين » عبارة تفيد اتصال أذرح بدومة الجندل .

قال : وقيل لعليّ : إن الأشتر لايُقِرُّ بما فى الصحيفة ولا يرَى إلاَّ قتالَ القَوم . فقال عليّ رضى الله عنه : « وأنا والله ما رضِيتُ ولا أحببتُ أن ترضَوْا ، فإذْ أبَيْتُم إلاَّ أن ترضَوْا فقد رضِيت ، وإذْ رضِيتُ فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديلُ بعد الإقرار ، إلاَّ أن يُعصَى اللهُ ويُتعدَّي كتابه ، فتقاتلوا مَن ترك أمر الله . وأمّا الذى ذكرتم مِن ترْكه أمرى وما أنا علَيه فليَس من أولئك ، ولستُ أخافه علَى ذلك ، يالَيْتَ فيكم مِثْلَه اثنين ، يالَيْتَ فيكم مثله واحدا يرَى فى عدوِي ماأرَى ، إذَن لخفَّتْ عليّ مؤنتكم ، ورجوت أن يستقيم لى بعض أوَدكم[1] ، وقد نهَيْتكم فعصَيتمونى ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن[2] :

وهل أنا إلاَّ مِن غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

والله لقد فعلتم فعْلةً ضَعْضَعَت قوَّة ، وأسقطت مُنَّة ، وأوْرثتْ وَهْنا وذلَّة ، ولما كنتم الأعلَيْن ، وخاف عدوُّكم الاجْتياح ، واستَحَرَّ[3] بهم القتل ، ووجدوا ألَمَ الجِراح ، رفعوا المصاحف فدعَوْكم إلَى مافيها ليَفْتنوكم عنهم ، ويقطَعوا الحرب ، ويتربّصَوا بكم رَيْبَ

---

(١) الأود : العوج .

(٢) أخو هوازن : دريد بن الصمة معاوية الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر بن بكر بن علقة بن خزاعة بن غزية بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، شاعر فارس جاهلى ، أدرك الإسلام فلم يسلم ، وخرج مع قومه هوازن فى يوم حنين مظاهرا للمشركين ، وكان شيخا كبيراً فانيا ليس فيه شىء إلا التيمن برأيه ومعرفته للحرب فقتل يومئذ على شركه .. والبيت من قصيدته الدالية الطويلة التى رثى بها أخاه عبد الله ، وهى فى الأغانى ج ١٠ ص٨–٩ من طبع دار الكتب المصرية والحماسة بشرح المرزوقى ج ٢ ص ٨١٢ – ٨٢١ والأصمعيات ص١١١– ١١٥ وجمهرة أشعار العرب ص٢٢٤–٢٢٧ ، وسيأتى تمثل ببيت آخر من هذه القصيدة .

(٣) استحر : اشتد وكثر .

المَنُون ، خَدِيعةً ومَكيـدة ، فأعطَيْتموهم [ماسألوا] [١] ، وأبَيْتم إلاَّ أن تُدْهِنوا وتحيروا [٢] ، وايْمُ اللهِ ما أظنُّكم بعْدَها توفَّقون لرشد ، ولا تصيبون بابَ حزم » .

قال : ثم تَراجع الناس عن صِفِّين .

هذا ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، وهو الذي اعتمد عليه عز الدين على بن محمد ابن الأثير الموصلى فى تاريخة (الكامل) ، من حرب [٣] صِفِّين ، وقد أسقطنا بعض ما أورداه ، وأتيْنا بألفاظ لم يأتِيا بها نسبناها إلَى من حكاها .. وأخبار أيام صِفِّين كثيرة ، قد بسَط أهلُ التاريخ فيها القول ، وذكروا ما اتفق فى أيامها يَوْمًا يَوما ، رأينا تَرْك ذلك والإغضاء عنه أوْلَى ، وكنا نُؤْثِر ألاَّ نُلِمَّ بذكر أيام صِفِّين ولا وقعة الجمل ، وإنما ضرورة التاريخ دعت إلَى ذلك .

وحكى أبو عمر بن عبد البر فى ترجمة بُسْر بن أرْطاة من كتابه الاستيعاب [٤] : أنَّ مُعاوية أمر بُسْر بن أرْطاة بن أبى أرْطاةَ ، وكان معه بِصِفِّين أن يَلْقَى عَلِيًّا فى القتال ، وقال له : « سمعتك تتمنَّى لقاءه ، فلو أظفرك الله وصرَعْتَه حصَلت علَى دنيا وآخرة » ، ولم يزل يشجِّعه ويمنِّيه ، حتَّى رآه فقصده فى الحرب ، قال : وكان

---

(١) الزيادة من ابن جرير وابن الأثير .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء عند ابن جرير ج ٤ ص ٤٠ « وتجوزوا » وعند ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٦٣ « وتجيروا » .

(٣) كذا جاء فى النسخة (ك) . وفى النسخة (ن) : « خبر » .

(٤) ج ١ ص ١٦٠ .

بُسر بن أَرْطاةَ من الأَبطال الطُّغاة ، فالْتَقَيَا ، فصرعه عليٌّ ، وعرَض له معه مثل ما عرض - فيما ذكر - لعليّ معْ عَمرو بن العاص . قال وذكر ابن الكلبي فى كتابه فى أخبار صِفِّين أن بُسْر بن أَرْطاة بارَز عليا يَوْم صِفِّين ، فطعَنه عليٌّ فصرعه ، فانكشف له ، فكفَّ عنه ، كما عرض له - فيما ذكروا - مع عمرو بن العاص ، ولهم فيها أشعار مذكورة فى موضعها من [ذلك] (١) الكتاب ، منها فيما ذكر ابن الكلبي والمدائنى قول الحارث بن النضر السَّهْمى (٢) - وكان عدوا لعَمرو ابن العاص وبُسْر بن أَرْطاة - :

أفى كُلِّ يَوْم فارسٌ لَيس يَنْتهى ... وعَوْرَتُهُ بَيْن العَجاجة (٣) باديَهْ
يَكُفُّ لَهَا (٤) عَنْهُ عليٌّ سنانَه ... ويضحك منه (٥) فى الخَلاء مُعاويَهْ
بَدَتْ أَمْس من عَمْرٍو فَقَنَّع رأسه ... وعَوْرة بُسْرٍ مِثْلُها حَذْوَ حاذيَهْ
فقُولا لعَمْرٍو ثم بُسْرٍ (٦) : ألا انْظُرَا ... سَبِيلَكما ، لا تلقَيَا الليثَ ثانِيَهْ
ولا تَحْمَدَا إلَّا الحَيَا وخُصَاكُما ... هُمَا كانتا واللهِ للنَّفْسِ وَاقِيَهْ
ولَوْلاهُما لم تَنْجُوَا مِن سِنَانِه ... وتِلْكَ بما فيها عَنِ العَوْدِ نَاهيه
وكُونَا (٧) بعيدًا حيثُ لا تبلُغُ القَنَا ... نُحُورَكُما إنَّ التَّجَارِبَ كافِيَهْ

(١) الزيادة من الاستيعاب ، والاشارة إلى كتاب ابن الكلبى .
(٢) شاعر من الصحابة ، انظر الإصابة ج ١ ص ٢٩١ .
(٣) العجاجة : ما أثير من الغبار حتى يكسو كل شىء جاء عليه ، ورعاع الناس .. وفى الاستيعاب : « وسط العجاجة » .
(٤) فى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ٢ ص ٣٠١ : « بها » .
(٥) فى لاستيعاب وشرح ابن أبى الحديد : « منها » .
(٦) عند بن أبى الحديد : « فقولا لعمرو وابن أوطاة : ابصرا » .
(٧) قبل هذا بيت عن ابن عبد البر وابن أبى الحديد ، وهو :
متى تلقيا الخيل المغيرة صيحه ... وفيها على فاقركا الخيل ناحية

قال أبو عمر : إنَّما كان انصراف عليٍّ عنهما وعن أمثالهما من مَصْرُوع أو مُنهزِم ؛ لأنه كان لايرَى فى قتال الباغين علَيْه من المسلمين أن يَتَّبِع مُدْبِرا ولا يُجْهِز علَى جَريح ولا يقتُل أسِيرا ، وتلك عادته فى حروبه فى الإسلام ، رضى الله عنه .

وروى أبو عمر ابن عبد البر أيضا بسند يرفعه إلى يَزيد ابن حبيب قال : اصطحب قَيْس بن خَرْشَه ، وكعب الأحبار ، حتَّى إذا بلَغا صِفِّين وقَفَ كعبٌ ثم نظر ساعة فقال : « لاإله إلا الله ، ليُهْرَاقَنَّ بهذه البُقْعَة من دِماء المسلمين شىء لم يُهْرَق ببقعة من الأرض » فغضب قَيْسٌ وقال : « وما يُدريك ياأبا إسحاق ؟ فإنَّ هذا من الغَيْب الذى اسْتأْثر الله به » فقال كعب : مامن شِبْر من الأرض إلاَّ وهو مكتوبٌ فى التَّوراة التى أنزل اللهُ علَى نبيِّه موسَى بن عِمْرانَ عليه السلام ما يكون عليه إلَى يوم القيامة .

واختُلف فى عِدّة من شَهِدِ صِفِّين ، فقيل : كان جَيش علىٍّ رضى الله عنه تسعين ألفا ، وجَيش مُعاوية مِائة وعشرين ألفا ، وقيل : أقل من ذلك (١) .

وقُتِل من العِراق خمسة وعشرون ألفا ، منهم عمّار بن ياسر وخمسة وعشرون بَدْرِيًّا ، وقُتِل من عسكر معاوية خمسة وأربعون ألفا .

قال ، ولمَّا رجع علىٌّ رضى الله عنه إلَى الكوفة خالفه الحَرُورِيّة وأنكروا تحكيمَ الرجال ، وكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله فى أخبار

(١) الاستيعاب ج ١٢ ص ٢٤٢ .

الخوارج علَى علىٍّ ، وكان فيما بين رجوع علىٍّ واجتماع الحَكَمَيْن مانذكره إن شاء الله تعالى فى حوادث السنين .

ذكر اجتماع الحكمين

قال . ولما جاء وقت اجتماع الحَكَمَيْن أرسل علىٌّ رضى الله عنه أربعَمِائة رجل علَيْهم شُرَيْح بن هَانِىء الحارثى ، وأرسل عبدَ الله بن عباس يصلى بهم ويَلِى أمورهم ؛ ومعهم أبو موسَى الأشعرى . وأرسل مُعاوية عمْرو بن العاص فى أربعمِائة من أهل الشام ، حتى تَوَافَوْا من دُومَة الجَنْدَل بأَذْرُح[1]

وكان عمْرو إذا أتاه كتاب من مُعاوية لايَدرِى أحدٌ ماجاء فيه ، ولا يسْأله أهل الشام عن شىء ؛ وكان أهل العراق يسألون ابنَ عبَّاس عن كلِّ كتاب يصل إلَيه من علىٍّ ، فإن كتمه[2] ظَنُّوا به الظُّنُون وقالوا : نراه كتب بكذا وكذا ؛ فقال لهم ابنُ عبّاس رضى الله عنْه : « أما تعقلون ، أما ترون رسولَ مُعاوية يجىء فلا يعلمُ أحدٌ ماجاء به ولا يُسمع لهم صياح ؟ وأنتم عندى كُلَّ يوم تظنُّون الظُّنون » .

قال وحضر معهم عبد الله بن عُمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق ، وعبدالله بن الزُّبَير ، وعبد الرحمن الحارث بن هشام ، وعبد الرحمن بن عبد يَغُوثَ الزهرى ، وأبوجَهْم بن حُذَيفة العَدَوى ، والمغِيرة بن شُعْبةَ . وكان سَعْد بن أبى وَقَّاص على ماء لبنى سُليْم بالبادية ، فأتاه ابنه عمر فقال له : « إنَّ أبا موسَى وعَمرا

(١) انظر ما سبق فى هذين الاسمين .

(٢) كما جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى (ن) « كتمهم » .

قدشهدَهم نفرٌ من قُريش فاحضر معهم ، فإنَّك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد أصحاب الشُّورَى ، ولم تدخل فى شىء كرِهتْه هذه الأُمّة ، وأنت أحقُّ الناس بالخلافة » فلم يفعل ، وقيل : بل حضرهم سعد وندِم علَى حضوره ، فأحرم بعُمْرة من بيت المقدس .

قال : ولما اجتمع الحَكَمان قال عمرو بن العاص ؛ ياأبا موسَى ألستَ تعلم أنَّ عُثمان قُتل مظلوما ، قال أشْهَد . قال : ألستَ تعلم أنَّ مُعَاوِيَة وآلَ مُعاوية أوْلِياؤه ؟ قال : بلى . . قال : « فما[1] يَمنعك منه وبَيته فى قُريش كما قد علمتَ ؟ فإن خِفت أن يقول الناس ليستْ له سابقة فقل : وجدتُه ولىَّ عثمان الخليفةِ المظلوم ، والطالبَ بدمه ، الحسَنَ السياسة والتدبير ، وهو أخو أم حَبِيبَة زَوْج النبىّ عليه الصلاة والسلام ، وكاتِبه ، وقد صحبه » وعرَّض له عَمرو بسُلطان ، فقال أبو موسَى : « ياعَمرو ، اتَّقِ الله ! أمَّا ماذكرتَ من شرف مُعاوية فإن هذا لَيس علَى الشرف يُوَلاَّه أهله ، ولو كان علَى الشرف لكان لآلِ أبْرَهَة بن الصَّبَّاح ، إنَّما هو لأهل الدِّين والفضل ، مع أنى لو كنتُ مُعطِيَه أفضل قُريش شرفا أعطيتُه على بن أبى طالب ، وأمّا قَولُك إنَّ معاوية ولىُّ دمِ عُثمان فوَلِّهْ هـذا الأمر ، فلم أكن لأُوَلِّيَه مُعاوية وأدعَ المهاجرين الأوَّلين ، وأمَّا تعريضك لى بالسلطان ؛ فَوَاللهِ لوخرج لى مُعاويةُ من سلطانه كُلِّه ما وَلَّيْتُه ، وما كنتُ لأرتشِىَ فى حكم الله ،

(١) ذكر ابن جرير فى تاريخه ج ٤ ص ٤٩ أن عمرا استشهد بقول الله تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ، إنه كان منصورا ﴾ ثم قال فما يمنعك من معاوية . . . الخ .

ولكنك إن شئت أن تُحيِّى اسم عُمر بن الخطاب » قال له عمرو : [1] فما يمنعك من ابنى عبد الله وأنت تعلم فضله وصلاحه ؟ فقال له : إن ابنك رجل صِدْقٍ ، ولكنك قد غَمَسْتَه فى هذه الفتنة . فقال عمرو : إن هذا الأمر لايصلح إلا لرجل يأكل ويُطعم . وكانت فى ابن عمر غفلة ، فقال له : ابن الزبير : افْطَنْ وانْتَبِهْ ، فقال : والله لا أرشو عليها شيئًا أبدا . وقال : يا ابن العاص إنَّ العرب قد أسندتْ إلَيك أمرها بعد ما تقارعوا بالسيوف فلا تَرُدَّنَّهم فى فتنة .

وكان عمرو قد عَوَّد أبا موسَى أن يقدِّمه فى الكلام ، يقول له : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأَسَنُّ منِّى فتكلم. فتعوَّدَ ذلك أبو موسَى ، وأراد عَمرو بذلك كلِّه أن يقدِّمه فى خَلْع علي . فلمّا أراده عمرو علَى ابنه وعلَى معاوية فأَبَى ، وأراد أبو موسَى عَمْرًا علَى ابن عُمَر فأَبَى عَمْرو ، قال له عَمْرو : خبِّرْنى ما رأيك ؟ قال : « أرى أن نخلعَ هذين الرجلَين ونجعلَ الأمر شُورَى ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أَحَبُّوا » . فقال عمرو : الرأْيُ ما رأيتَ .

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال عَمرو : ياأبا موسى أَعْلِمْهم أن رأينا قد اتفق . فتكلم أبو موسَى فقال : إن رأينا قد اتفق علَى أمر نرجو أن يُصلح الله به أمر هذه الأُمة . فقال عمرو : صَدَقَ وبَرَّ ، تقدمْ يا أبا موسَى . فتقدَّمَ أبوموسَى ، فقال له ابن عباس : « وَيحك ! والله إنى لأَظنُّه قد خَدَعَك ، إن كنتما قد اتفقتما علَى أمر فتقدَّمْه فليتكلَّمْ به قبلك ، فإنه رجل غادِر ، ولا آمَنُ أن يكون قد أعطاك

---

(١) ذكر ابن جرير فى رواية أن عمرا قال لأبى موسى ! إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك . . . الخ .

الرضَى بَيْنكما ، فإذا قمتَ فى الناس خالفك ! » وكان أبو موسى مُغَفَّلا ، فقال : إنا قد اتفقنا ، فتقدَّمَ فقال : « أيُّها الناس ، إنَّا قد نظرنا فى أمر هذه الأُمّة ، فلم نر أَصْلَحَ لأمرها ولا أَلَمَّ لشَعَثِها من [أمر] (١) قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلَع عليا ومُعاوية ويولِّى النّاسُ أمرَهم مَن أحبُّوا ، وإنى خلعتُ عليا ومعاوية ، فاستقبِلوا أمْرَكم وولُّوا علَيكم من رأيتموه أهلا » . ثم تنحَّى ، وأقبل عمرو فقام وقال : « إن هذا قد قال ما سمعتموه ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأُثَبِّتُ صاحبى معاوية ، فإنه وَلىّ عثمان بن عفَّان ، والطالِبُ بدمه ، وأحقُّ الناس بمقامه » ، فقال سعد : ما أضعَفَك يا أباموسَى عن عمرو ومكايدة ! فقال أبو موسى : فما أصنع ؟ وافقنى على أمر ثم نَزَع عنه ! فقال ابن عبّاس : لاذنب لك يا أبا موسَى الذنبُ لمن قدّمك فى هذه المقام ! قال : غدر فما أصنع ؟ قال ابن عمر [انظروا] (٢) إلَى ما صار أمر هذه الأُمة : إلى رجل لايبالى ماصنع وآخر ضعيف . وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : لو مات الأشعَرىّ قبل هذا اليوم كان خيرًا له . وقال أبومُوسَى لعمرو : « لاوفَّقك الله ، غدرتَ وفجرتَ ، [إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أوتتركه يلهث » فقال له عمرو :] (٣) إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.

قال : والتمس أهل الشام أبا موسَى فهرب إلى مكة ، ثم انصرف

---

(١) كذا جاء عند ابن جرير ج ٤ ص ٥١ وابن الأثير ج ٣ ص ١٦٨ وجاء فى النسخة (ك) (راء) ، وفى النسخة (ن) : « رأى » .

(٢) الزيادة من الكامل لابن الأثير .

(٣) سقطت هذه العبارة من النسخة (ك) وثبتت فى النسخة (ن) كما جاءت عند الطبرى وابن الأثير .

عمرو وأهل الشام إلَى مُعاوية فسلَّموا عليه بالخلافة ، ورجع ابن عباس وشُرَيْح إلَى علىٍّ رضى الله عنه ، فكان علىّ إذا صلَّى الغَداة يقْنُتُ فيقول : اللهم العن معَاوية وعمرًا وأبا الأعور وحَبِيبا وعبدَالرحمن ابن خالد والضحاك بن قَيس والوَليد . فبلغ ذلك مُعاوية ، فكان إذا قَنَتَ لَعَن عليًّا وابن عبّاس والحسَنَ والحُسين والأشتر .

وقيل : إن معاوية حضر الحكمين ، وأنه قام عشية فى الناس فقال : أما بعد ، من كان متكلما فى هذا الأمر فَلْيُطلع لنا قرنه. قال ابن عُمر : فأطلقت حُبْوَتى وأردتُ أن أقول : «يتكلم فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام » فخشِيتُ أن أقول كلمة تفرِّق الجماعة ويُسْفَك بها دَمٌ ، فكان ما وعد الله فى الجِنَان أحَبَّ إلَى من ذلك ، فلما انصرفت إلَى المنزل جاءنى حبيب بن مَسْلَمة فقال : مامنعك أن تتكلم حين سمعتَ هذا الرجل يتكلم ؟ قلتُ : أردت ذلك ثم خشيتُ . فقال حبيب : وفُقْتَ وعُصِمْت . وقد ورد ذلك فى الصحيح .

ذكر أخبار الخوارج

الذين خرجوا على عهد علىّ وما كان من أمرهم

كان أوّل من خرج علَى علىٍّ رضى الله عنه حَسَكَة بن عَتَّاب الحَبَطىّ ، وعِمْران بن فُضَيْل البُرْجُمىّ ، خرجا فى صعاليك من العرب بعد الفراغ من وقعة الجمل ، حتى نزلوا زَالِقَ [1] من سِجِسْتَان ، وقد نَكَبُو [2] أهلها فأصابوا منها مالا ، ثم أتوا زَرَنْج [3] وقد خافهم

(١) زالق : سواد بسجستان .

(٢) جاء فى النسخة (ن) كما عند ابن الأثير : وقد نكث أهلها .

(٣) زرنج : قصبة سجستان .

مرزبَانُها فصالَحهم ودخلوها ، فبعث عليٌّ عبد الرحمن ابن جَرْو الطائى فقتله حَسَكَة ، فكتب عليٌّ إلى عبدالله بن عبّاس يأمره أن يولى سِجِسْتان رجلا ، ويسيِّره إليهَا فى أربعة الآف ، فوَجّه رِبْعِيّ[1] بن كأس العَنبرى ، ومعه الحصين بن أبى الحُرّ العنبرى ، فلمّا ورَد سجِسْتان قاتلهم حَسَكَة فقتلوه وضبط. ربْعِى البلاد .

قال ابن الأثير[2] وكان فَيْرُوز حُصَيْن ينسب إلى الحصين ابن أبى الحرُ هذا ، وهو من سجستان .

ذكر خبرهم[3] بعد صفين

قد ذكرنا فى وقعة صفين أنه لمّا رُفِعت المصاحف ، تكلّم أولئك القوم مع علىٍّ بما ذكرناه ، وأبَوْا إلاّ ترْكَ الحرب والرجوعَ إلَى كتاب الله ، وموافقة علىٍّ رضى الله عنه لهم فيما رأَوْه ، على كُرْه منه . فلما رجع علىٌّ من صِفّين بعد كتابة الصحيفة ، خالفت عليه الحَرُورِيّة[4] وأنكروا تحكيم الرجّال ، ورجعوا علَى غير الطريق الذى أقبلوا فيه ، أخذوا على طريق البرّ وعادوا وهم أعداء متباغضون ، يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط ، يقول الخوارج : يا أعداء الله أدْهنتم فى أمر الله ! ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا وفرّقْتُم جماعتَنا ! فلمّا انتهَى علىٌّ إلَى الكوفة فارقتْه الخوارج وأتت حَرُوراء[5] فنزل بها

(١) ربعى بن كأس : كأس أمه وهى من أشراف العرب ، وهو ربعى بن عامر التيمى .
(٢) فى الكامل ج ٣ ص ١٣٥ .
(٣) كذا جاء فى ك « ، وجاء فى (ن) : « سيرهم » .
(٤) زاد ابن الأثير فى الكامل ج ٣ص ١٦٣ : « وخرجت ، وكان ذلك أول ماظهرت »
(٥) نقل ابن أبى الحديد ج ١ ص ٢١٥ عن كتاب صفين : « خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حروراء » .

[منهم] (١) اثنا عشر ألفا ، ونادى مُناديهم : « إن أمير القتال شَبَثُ بن رِبْعىّ التميمى ، وأمير الصلاة عبدالله بن الكوّاء اليَشْكرى ، والأمرشورَى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . فلما سمع علىٌّ رضى الله عنه وأصحابُه ذلك ، قامت إليه الشِّيعَة فقالوا له : « فى أعناقنا بَيعة ثابتة (٢) نحن أولياء من واليْت وأعداء من عادَيت » . فقالت الخوارج : « استبقتم أنتم وأهلُ الشام إلى الكفر كفَرَسَىْ رهَان ، بايع أهل الشام مُعاوية علَى ما أحبّ (٣) وكرهوا ، وبايعتم أنتم عليًا أنكم أولياء من والَى وأعداء من عادى » فقال لهمْ زِياد بن النَّضْر : « والله ما بسَط علىٌّ يده فبايعناه قطُّ إلاَّ علَى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ولكنكم لمّا خالفتموه جاءته شيعته فقالوا : نحن أولياء من واليَتْ وأعداء من عادَيت ، ونحن كذلك ، وهو على الحق والهدى ، ومن خالفه ضال مُضِل » . قال : وبعث علىٌّ رضى الله عنه عبدَ الله بن العبَّاس إلَى الخوارج ، وقال له . لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتَّى آتيك . فخرج إليهم ، فأقبلوا يكلِّمونه ، فلم يصبر حتَّى راجعهم ، فقال : « مانَقَمتم من الحَكَمين ، وقد قال الله عز وجل : ﴿إن يُرِيدَا إصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما﴾ (٤) فكيْف بأُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ » . فقالت الخوارج : « أمَّا ما جعل الله حُكمه إلَى الناس وأمرهم بالنظر فيه فهو إليهم ، وماحكَم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم فى الزَّانى مِائة جلدة ، وفى

---

(١) الزيادة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .

(٢) عند ابن جرير وابن الأثير : « ثانية » .

(٣) عند ابن جرير وابن الأثير : « أحبوا » .

(٤) من الآية ٣٥ فى سورة النساء .

السارق القطْع ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا » . قال ابن عبّاس : فإن الله تعالى يقول ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[1] فقالوا : وتجعل الحكم فى الصيد والحَدَث بَيْن المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين ؟ وقالوا له : أعَدْلٌ عندك عَمرو بن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ؟ فإن كان عدْلا فلسنا بعدول ، وقد حكّمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضَى الله حكمه فى معاوية وأصحابه أن يُقْتَلوا أو يَرْجِعوا ، وقد كتبتم بينكم وبينهم كتابا وجعلتم بينكم الموادَعَة ، وقد قطع الله الموَادعَة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت « برآءة » إلاّ مَن أقَرّ بالجزية .

وبعث علىٌّ رضى الله عنه زيادَ بن النَّضْر فقال : انظ بأيّ رءوسهم هم أشد إطاقَة . فأخبره أنه لم يَرَهم عند رجل أكثرَمنهم عند يَزيد ابْن قَيس ، فخرج علىٌّ رضى الله عنه فى الناس حتّى أتَى فُسْطاط يَزِيد ابن قَيس ، فدخله ، فصَلّى فيه ركعتين ، وأمّره على أصْبِهَان والرّيّ ، ثم خرج حتّى انتهَى إلَيْهم وهم يخاصِمون ابن عباس ، فقال له : ألم أنْهَك عن كلامهم ؟ ثم تكلم فقال : اللهم هذا مقام من يَفْلِج فيه كان أولى بالفَلْج[2] يوم القيامة . [ثم][3] : قال لهم :من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكواء قال : فما أخرجكم علَينا ؟ قالوا : حكومتكم يوم صِفّين . قال : « أنْشُدكم الله ، أتعلمون أنهم حَيْثُ رفعوا المصاحف ، وقلتم : نجيبهم ، قلت لكم : إنى أعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسلوا بأصحاب دين ! » وذكر ما كان قال لهم ، ثم قال « وقد اشترطتُ

(١) من الآية ٩٥ فى سورة المائدة .

(٢) الفلج – بفتح الفاء وضمها – : الفوز ، وفى الكامل ج ٣ ص ١٦٦ : « من يفلج فيه كان أولى بالفلاح » .

(٣) الزيادة من ابن جرير وابن الأثير .

على الحَكَمَيْن أن يُحْيِيا ما أَحْيَى القرآن وأن يُميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف ، وإن أَبَيَا فنحن من حكمهما بَرَاء » . قالوا : فخبِّرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ فقال : « إنا لسنا حكَّمنا الرجال ، إنما حكمْنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خَطّ مسطور بين دَفَّتين ، لاينطق ، إنما يتكلم به الرجال » قالوا : فأخبرنا عن الأجل لِمَ جعلتَه بينكم ؟ قال : « ليعلم الجاهل ، ويَثْبت العالمُ ، ولعلَّ الله عز وجل يُصلح فى هذه الهُدْنَة هذه الأُمة ، ادخلوا مصركم رحمكم الله » . فدخلوا من عند آخرهم .

ذكر خبرهم عند توجيه الحكمين

قال [1] : لما أراد علىٌّ رضى الله عنه أن يبعث أبا موسَى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج ، وهما زُرْعَة بن بُرْج الطائى وحُرْقُوص ابن زُهَيْر السعدي ، فقالا له : لا حكم إلاَّ لله تعالى ، فقال على رضى الله عنه : لاحكم إلا لله تعالى ، قال حُرْقُوص : « تُبْ من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، وارجع بنا إلى عدونا نقاتلْهم حتَّى نلقَى ربنا » . فقال على : قد أردتكم علَى ذلك فعصيتمونى ، وقد كتبْنا بَيننا وبين القوم كتابا ، وشرطنا شروطا ، وأعطَينا عليها عهودا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَوفوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتمْ ﴾ [2] فقال حُرْقُوص : ذلك ذنب ينبغى أن تتوب منه . فقال علىٌّ رضى الله عنه : ماهو ذنب ولكنه عجْزٌ من الرأي ، وقد نهيتكم ، فقال زُرْعة : ياعلى لئن لم

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٦٩ وأصله عند ابن جرير الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ٥٢ .

(٢) من الآية ٩١ فى سورة النحل .

تدع تحكيم الرجال لأُقاتِلَنَّك أطلب وجه الله . فقال على : « بُؤْسًا لك ! ماأشقاك ! كأنى بك قتيلا تَسْفِى [١] عليك الرياح ! » قال : وددت لو كان ذلك ، فخرجا من عنده يُحكِّمان .

وخطب على رضى الله عنه يوما ، فحكِّمت [٢] المحكِّمة فى جوانب المسجد ، فقال علىٌّ : « الله أكبر ! كلمة حقٍّ أُريدَ بها باطل [٣] ان سكتوا غمَمْناهم [٤] ، وإن تكلموا حَجَجْناهم وإن خرجوا علينا قاتلناهم » . فوثب يزيد بن عاصم المحاربى فقال : « الحمدلله غَير مودَّع ربنا ولامستغنى عنه ، اللهم إنَّا نعوذ بك من إعطاء الدَّنِيَّة فى ديننا ، فإن إعطاء الدنية فى الدين إدْهان فى أمر الله وذُلٌّ راجع بأهله إلَى سخط الله ، يا علىُّ أبالقتل تُخوِّفنا ؟ أمَا إنى لأرجو أن نضربكم بها عمًّا قليل غيرَ مُصْفَحات ، ثم لتعلم أيُّنا أولَى بها صِلِيًّا » . ثم خرج هو وإخوة له ثلاثة ، فأُصيبوا مع الخوارج بالنَّهْرَوَان ، وأُصيب أحدهم بعد ذلك بالنُّخَيْلَة .

ثم خطب علىٌّ رضى الله عنه يوما آخر ، فقام رجل فقال : لاحكم إلا لله ، ثم توَالى عِدّة رجال يحكِّمون ، فقال علىّ : « الله أكبر كلمة حق أُرِيدَ بها باطل ، أمَا إنَّ لكمْ عندنا ثلاثا ما صحِبتمونا : لا نمنعكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفَىْءَ

(١) سفت الريح التراب تسفيه : ذرته أو حملته .

(٢) أى قالوا : « لا حكم إلا الله » .

(٣) جاء فى نهج البلاغة شرح ابن أبى الحديد ج ١ ص ٢١٤ : ومن كلام له عليه السلام فى الخوارج لما سمع قولهم « لاحكم إلا الله » قوله عليه السلام : كلمة حق يراد بها باطل ، نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله ، وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل فى إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر . . . وفى رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال : حكم الله أنتظر فيكم ! .

(٤) غمنناهم : غطيناهم وسترناهم ، وفى (ك) : « عممناهم » .

مادامت أيْديكم مع أيْدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا ، وإنما ننظر فيكم أمر الله » . ثم رجع إلى مكانه من الخطبة .

ذكر اجتماع الخوارج بعد الحكمين

وتوليتهم أمرهم عبـد الله بن وهب وخروجهـم عن الكوفة وانضمام خوارج البصرة إليهم ، وما كاتبهم عليٌّ به وجوابهم وغير ذلك

قال : ولمّـا كان من أمر الحكمين ما ذكرناه ، لقى بعض الخوارج بعضا واجتمعوا فى منزل عبد الله بن وهب الراسبى ، فخطبهم ، فزهّدهم فى الدنيا ، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم قال اخرُجوا بنا من هذه القَرية الظالمِ أهلُها إلَى بعْض كُوَر الجبال أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه البِدَع المضلّة ، فقال حرقوص بن زُهَيْر : « إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وَشِيك ، فلا تدعُوَنّكم زينتُها وبَهْجتها إلَى المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ، فإن الله[1] مع الذين اتّقَوا والذين هم مُحسنون »

وقال حمزة بن سنان الأسدي : « ياقوم ، إن الرأْي ما رأيتم فولُّوا أمركم[2] رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من عِمَاد وسِناد وراية تحفون بها ، وترجعون إليها » فعرضوها على زيدبن حصين[3] الطائى فأبى ، وعرضوها على حُرْقُوص فأبى ، وعلى حمزة بن سنان وشُرَيح

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى (ن) : « فالله » .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى (ن) : (أموركم) .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة ، وهذا الاسم يقال فيه « حصن » كما ذكره ابن حجر فى الإصابة ، ويقال فيه « حصين » كما ذكره الطبرى وابن الأثير ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك

ابن أَوْفَى العبسىّ فأَبَيا ، وعرضوها على عبد الله بن وَهْب فقال : « هاتوها ، أَمَا والله لآخذُها رغبةً فى الدنيا ، ولا أدعها فَرَقا من الموت » فبايعوه لعشر خلَوْن من شوال سنة سبع وثلاثين ، وكان يقال : له ذو الثفِنات [١] .

ثم اجتمعوا فى منزل شريح بن أبى أوفى [٢] العبسى ، فقال ابن وهب : اشْخَصوا [٣] بنا إلَى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فإنكم أهل الحق . قال شُريح : « نخرج إلى المدائن ، فننزلها ، ونأخذ بأبوابها ، ونُخرج منها سكانها ، ونبعث إلَى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا » . فقال زيد بن حصن : « إنكم إن خرجتم مجتمعين تُتُبِّعتم ، ولكن اخرجوا وِحدانا مستَخفين ، فأمّا المدائن فإن بها من يمنعكم ، ولكن سيروا حتى تنزلوا من جسر [٤] النهروان ، وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة » . قالوا : هذا الرأي .

وكتب عبد الله بن وهب إلَى من بالبصرة منهم يُعلمهم ما اجتمعوا عليه ، ويحثهم على اللّحاق بهم ، وسير الكتاب إليهم ، فأجابوا .

قال : ولما غزم مَن بالكوفة من الخوارج على الخروج ، تعبّدوا لَيلتهم - وكانت ليلة الجمعة - ويَومَ الجمعة ، وساروا يوم السبت ، فخرج شُريح بن أوفى العبسى وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ

(١) كان عبد الله بن وهب قد أثر طول السجود فى ثفناته ، والثفنات : جمع ثفنة . وهى الركبة . . وهناك من غير الخوارج « ذو الثفنات » زين العابدين على بن الحسين بن على وعلى بن عبد الله بن عباس .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) وجاء فى النسخة (ن) : « شريح بن أوفى » .

(٣) اشخصوا : اذهبوا .

(٤) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى (ك) : « مر » .

مِنْها خَائِفًا يَتَرَقبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظالِمِينَ • ولما تَوَجه تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السبِيلِ ﴾ (١)

قال : وخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائى ، فأتبعه أبوه ليرده فلم يقدر عليه ، فانتهى إلى المدائن ثم رجع .

وأرسل عدي إلَى سعد بن مسعود عامل علىٍّ على المدائن يُحذِّره أمرهم ، فحَذِر ، وأخذ أبواب المدائن ، وخرج فى الخَيل ، واستخلف بها ابن أخيه المختار بن أبى عبيد ، وسار فى طلبهم فأُخبر عبد الله ابن وهب خبره ، فترك طريقه وسار على بغداد ؛ ولحقهم سعد بن مسعود بالكَرْج فى خمسمائة فارس عند المساء ، [فانصرف إليهم عبد الله فى ثلاثين فارسا ، فاقتتلوا ساعة] (٢) وامتنع القوم منهم ، وقال أصحاب سعد لسعد . « ماتريد من قتال هؤلاء ولم يأْتك فيهم أمر ، خلِّهم فليذهبوا ، واكتب إلى أمير المؤمنين ، فإن أمرك باتِّباعهم فاتَّبعهم ، وإن كفاكهم غيرُك كان فى ذلك عافية لك » فأَبَى علَيهم ، فلما جَن علَيهم الليل عَبَر عبد الله بن وهب دجلة إلى أرض جَوْخَى (٣) ، وسار إلى النهروان ، فوصل إلى أصحابه وقد أيِسوا منه .

وسار جماعة من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم ، فردهم أهلوهم كرها ، منهم القَعْقاع بن قيس الطائى عم الطِّرِماح ابن حكيم ، وعبد الله بن حكيم بنْ عبد الرحمن البكائى .

---

(١) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة القصص .

(٢) سقطت هذه الجملة من النسخة (ك) ، وجاءت فى (ن) والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٧٠ وتاريخ ابن جرير ج ٤ ص ٥٦ .

(٣) جوخى مقصور الآخر مع فتح الجيم أوضمها : نهر عليه كورة واسعة فى سواد بغداد .

قال : ولما خرجت الخوارج من الكوفة أتى عليًّا أصحابُه وشيعتُه فبايعوه ، وقالوا : نحن أوْلياء من والَيت وأعداء من عادَيت . فشرط لهم فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأمّا خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا فى خمسمائة رجل ، وجعلوا عليهم مسعربن فَدَكِي التميمى ، فعلم بهم ابن عباس ، فأتبعهم أبا الأسْود الدُّؤَلى ، فلحق بهم بالجسر الأكبر ، فتواقفوا حتى حجز بينهم الليل ، وأدْلَج [1] مسعر بأصحابه ، وسار حتى لحق بعبد الله ابن وهب .

قال : ولما خرجت الخوارج وهرب أبو موسى الأشعري إلَى مكة ، ورَدّ علىٌّ ابن عباس رضى الله عنهما إلَى البصرة ، قام علىٌّ بالكوفة خطيبا فقال : « الحمد لله وإن أتى الدهر بالخَطْب الفَادِح والحِدْثان الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، أمّا بَعْدُ ، فإن المعصية تُورِث الحَسْرة ، وتُعقِب الندم ، وقد كنت أمرتكم فى هذَين الرجلين وفى هذه الحكومة أمْرِي ، ونَحَلْتُكم [2] رأْيِي ، لو كان لقَصِير [3] أمر ، ولكن أبَيْتم إلا ما أردتم ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هَوَازان [4] :

أمرتُهمو أمْرى بمنْعَرج اللِّوَى [5] فلم يَسْتَبِينوا الرُّشْد إلا ضُحَى الْغَدِ

---

(١) أدلج : سار بالليل .

(٢) نحلتكم : اعطيتكم .

(٣) هو قصير بن سعد صاحب جذيمة الأبرش ، وله قصة مع الزباء ذات أمثال ، والمثل المراد هنا : « لا يطاع لقصير أمر » .

(٤) أخوهوازن هو دريد بن الصمة ، والبيت من قصيدته الدالية الطويلة التى رثى بها أخاه عبد الله ، وقد سبق ذكر دريد وقصيدته .

(٥) منعرج اللوى : منعطف الرمل .

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حَكَمَيْن ، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات القرآن ، واتبع كلٌّ واحد منهما هَوَاه بغير هُدًى من الله ، فحكما بغير حُجّة بينة ولا سنّة ماضية ، واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشُدْ ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح (١) المؤمنين ، استعِدُّوا وتأهبّوا للمسير إلَى الشام ، وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله يَوم الاثنين » . ثم نزل .

وكتب إلى الخوارج بالنَّهْرَوَان : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى زيد بن حصنٍ وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس ، أمَّا بعدُ فإن الرجلين اللذَين لرتضينا حَكَمَيْن قد خالفا كتاب الله تعالى ، واتَّبعا أهْواءهما بغير هُدًى من الله ، فلم يعملا بالسنَّة ، ولم يُنْفِذا للقرآن حكما ، فبرئ الله منهما ورسوله والمؤمنون ، فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا إلَيْنا ، فإنا سائرون إلَى عدوِّنا وعدوِّكم ، ونحن علَى الأمر الأول الذى كنَّا عليه » .

فكتبوا إليه : « أمّا بعْدُ فإنك لم تغضب لربّك ، وإنما غضبت لنفسك ، فإن شهِدتَ على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلاَّ فقد نابذناك علَى سَواء إن الله لا يحبّ الخائنين » .

فلما قرأ كتابهم أيِس منهم ، ورأى أن يدَعَهم ويمضِىَ بالناس [حتَّى يناجز أهل الشام] (٢) فقام فى أهل الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أمّا بعدُ فإنه من ترك الجهاد فى الله ودَاهَن فى أمره كان

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) . وجاء فى (ن) : « وصالحو » .
(٢) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) وسقطت من (ك) .

على شَفا هَلَكة ، إلا أن يتداركه الله بنعمته ، فاتقوا الله تعالى ، وقاتِلوا من حَادَّ الله ، وحاول أن يطفئ نور الله ، وقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين ، الذين ليسوا بقرّاء القرآن ولا فُقَهاء فى الدين ، ولا عُلماء بالتأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل فى سابقة الإسلام ، والله لو وُلّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كِسْرَى وهِرَقْل ، تيسّروا [1] للمسير إلى عدوّكم من أهل المغرب ، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليَقْدَموا عليكم ، فإذا اجتمعتم شخصنا إن شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكتب إلى ابن عباس رضى الله عنه : « أمّا بَعْدُ فإنا خرجنا إلى معسكرنا بالنُّخيلة ، وقد أجمعنا على المسير إلى عدوّنا من أهل المغرب ، فاشْخَص إلى الناس حتى يأتيك رسولى ، وأقم حتى يأتيك أمرى ، والسلام عليك » .

فقرأ ابن عباس الكتاب على الناس ، وندبهم مع الأحنف ابن قيس ، فشخص ألف وخمسمائة ، فخطبهم [2] وقال : « يا أهل البصرة ، أتانى كتاب أمير المؤمنين ، فأمرتكم بالنفير [3] إليه ، فلم يشخص منكم إلا ألف وخمسمائة ، وانتم ستون ألف مقاتل سِوَى أبنائكم وعبيدكم . ألاَ انفِروا مع جارية [4] بن قُدَامة السعْدىّ ، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا ، فإنّى موقع بكلّ من وجدته متخلفا

(١) تيسروا : تهيئوا .

(٢) ذكر ابن جرير فى روايته لسبب الخطبة ج ٤ ص ٥٨ أن ابن عباس استقلهم ، أى رآهم قليلا .

(٣) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وفى (ن) : « بالنفر » .

(٤) وقع فى المخطوطة « حارثة » بالحاء المهملة ، والصواب « جارية » كما نص عليه بالجيم ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١١٣ ، ١٨١ ، ١٨٣ وله ترجمة فى حرف الجيم من من الاستيعاب ج ١ ص ٢٤٥ وأسد الغابة ج ١ ص ٢٦٣ والإصابة ج ١ ص ٢١٨ .

عن دعوته ، عاصيا لإمامه ، فلا يلُومَن رجل إلا نفسه » . فخرج جارية واجتمع إلَيه ألف وسبعمائة ،فوافَوْا عليًا وهم ثلاثة آلاف ومائتان .

فجمع علي رضى الله عنه رءوس أهل الكوفة ورءوس الأَسْباع [١] ووجوه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ياأهل الكوفة ، أنتم إخوانى وأنصارى وأعوانى على الحق ، وأصحابى إلى جهاد المخلين [٢] ، بكم أضرب المُدْبِر ، وأرجو تمام طاعة المُقْبل ، وقد استنفرت أهل البصرة ، فأتانى منهم ثلاثة آلاف ومائتان ، فلْيكتب لى رئيس كلّ قبيلة ما فى عشيرته من المقاتلة [وأبناء المقاتلة] [٣] الذين أدركو القتال ، وعُبْدان عشيرته ومواليهم ، ويرفع ذلك إلينا.

فقام إلَيه سعيد بن قَيْس الهَمْدانى فقال : ياأمير المؤمنين ، سمعا وطاعة ، أنا أول الناس أجاوب بما طلبت . وقام مَعْقِل بن قيس ، وعَدىّ بن حاتم ، وزياد بن خَصَفة ، وحُجْر بن عدّى ، وأشراف الناس والقبائل ، فقالوا مثل ذلك ، وكتبوا له ماطلب ، وأمروا أبناءهم وعبيدهم [ومواليهم] [٤] أن يخرجوا معهم ، فرفعوا له أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا من الأَبناء ممن أدرك ، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم ، فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفا ، سوى أهل البصرة وهم ثلاثة آلاف ومائتا رجل .

---

(١) قال ابن أبى الحديد ج ١ ص ١٨١ : « وكانت الكوفة يومئذ أسباعا» وأسباع جمع سبع بضم السين ، وقد مضت الإشارة إلى هذا فيما سبق .

(٢) (المخلين) جاء بالخاء المعجمة فى (ك) ، وبالحاء المهملة فى (ن) ، وقد سبقت الإشارة إلى مثل هذا .

(٣) ثبتت هذه العبارة فى (ن) . وسقطت من (ك) .

(٤) الزيادة من ابن جرير الطبرى ، ويأتى مايناسبها .

وكتب إلى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال من عنده من المقاتلة ، وبلغ عليا رضى الله عنه أن الناس يقولون : « لوساربنا إلَى قتال هذه الحَرُورية فإذا فرغنا منهم توجهنا إلَى قتال المخلين » . فقال لهم : « بلغنى أنكم قلتم كَيْتَ وكَيْتَ ! وإن غير هؤلاء الخارجين أهمُّ إلينا ، فدَعُوا ذكرهم ، وسيروا إلَى قوم يقاتلونكم ، كيما[1] يكونوا جَبّارين ملوكا ، ويتخذوا عباد الله خَوَلاً » . .

فناداه الناس أنْ سِرْبنا ياأمير المؤمنين حَيثُ أحببت . وقام إلَيه صَيفى بن نُشيل[2] الشيبانىّ فقال : « يا أمير المؤمنين ، نحن حزبك وأنصارك ، نعادي من عاداك ، ونشايع من أناب إلى طاعتك ، فسربنا إلى عدوك من كانوا وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تُؤتَى من قلةِ عدد ، ولا ضعفِ نية أتباع » . وقام إليه محرزبن شهاب التميمىّ فقال : « ياأمير المؤمنين ، إن قلب شيعتك كقلب رجل واحد فى الاجْتماع على نُصرتك ، والجد فى جهاد عدوّك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلَى أىّ الفريقين أحببت ، فإنَّا شيعتك الذين نرجو فى طاعتك وجهاد من خالفك صالحَ الثواب ، ونخاف فى خِذلانك والتخلف عنك شدةَ الوَبال » . .

وأجمع على المسير [علىّ][3] إلى الشام ، فشغله عن ذلك أمر الخوارج وقتالهم على مانذكره .

---

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) ، ووقع فى النسخة فى (ك) : « كما » .
(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وعند الطبرى : « فسيل » .
(٣) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) ، وسقطت من (ك) .

ذكر قتال الخوارج

قيل : كان سبب ذلك أن الخوارج من البصرة لما دنوا من من النهْروان رأوا رجلا يسوق بامرأة على حمار ، فدعوه وانتهروه فأفزعوه ، وقالوا له : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن خَبّاب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا له : أفزعناك ! قال : نعم قالوا لارَوْع علَيك ، حَدِّثنا عن أبيك حديثا سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعنا به ، فقال : حَدثنى أبى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : تكون فتنة يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت فيها بدنُه ، يُمسى فيها مؤمنا ويصبح كافرا ، ويُصبح مؤمنا ويُمسى كافرا ، قالوا : لهذا الحديث سألناك ، فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنَى علَيهما خيرا . فقالوا : ماتقول فى عُثمان فى أوّل خلافته وفى آخرها ؟ قال : إنه كان محقًّا فى أولها وآخرها ، قالوا : فما تقول فى علىّ قبل التحكيم وبعده ؟ قال : أقول إنه أعلَمُ بالله منكم ، وأشَدُّ تَوَقِّيا علَى دينه ، وأنفذُ بصيرة . قالوا : إنك تتبع الهوَى وتُوالى الرجالَ علَى أسمائها لاعلَى أفعالها ، والله لنقتلنك قِتلَة ماقتلناها أحدا ، فأخذوه وكتفوه ، ثم أقبلوا بامرأته وهى حُبْلَى مُتِمٌّ (١) حتى نزلوا تحت نخل مَوَاقر ، فسقطت رُطبة ، فأخذها أحدهم فتركها فى فيه ، فقال له آخر : أخذْتها بغير حلها وبغير ثمن . فألقاها ، ثم مر بهم خِنزير لأهل الذمة ، فضربه أحدهم بسَيفه ، فقالوا له : هذا فساد فى الأرض . فلِقَى صاحبَ الخنزير فأرضاه . فلما رأى عبد الله

(١) حبلى متم : قريبة الوضع .

ابن خَبّاب ذلك منهم قال : « إن كنتم صادقين فيما أرَى فما على منكم من بأْس ، إنّى مسلم ما أحدثتُ فى الإسلام حدَثا ، ولقد أمنتمونى ، فقلتم : لاَروع عليك » فأضجعوه فذبحوه ، وأقبلوا إلى المرأة فقالت : أنا امرأة ، ألاتتَقون الله . فبقروا بطنها وقتلوا ثلاث نسوة من طيىء ، وقتلوا أمّ سِنان الصيْداوية .

فلما بلغ عليًّا رضى الله عنه ذلك بعث إليهم الحارث بن مُرّة العبدىّ ليأْتيهم ، وينظر مابلغه عنهم ، ويكتب به إليه ، فلما دنا منهم يسألهم قتلوه . وأتى الخبر إلَى على ، فقال له الناس : « ياأمير المؤمنين علام نَدَعَ هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى عيالنا وأموالنا ! سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سرنا إلَى عدوّنا من أهل الشام » . فأجمع علىّ رضى الله عنه علَى ذلك ، وخرج وسار إليهم . فأرسل إلَيهم أن ادفعوا إلينا قَتلة إخواننا منكم أقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم حتّى ألقى أهل المغرب ، فلعل الله يقبل بقلوبكم [1] ، ويردّكم إلَى خيرمما أنتم عليه [من أمركم] [2] فقالوا : كُلُّنا قَتلهم ، وكلُّنا مُستحلٌّ لدمائكم ودمائهم . فراسلهم مرة بعد أُخرى .

وخرج إليهم قيس بن سعد بن عُبادة ، فكلّمهم ونصحهم ، وأشار عليهم بالمراجعة والدخول فيما خرجوا منه ، فأبَوْا . وخطبهم أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه وحذّرهم تعجيل الفتنة . وأتاهم علىّ رضى الله عنه فكلّمهم ووعظهم وذكرهم . فتنادوا : « لاتخاطبوهم

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، مثل الكامل لابن الأثير ، وجاء فى ابن جرير الطبرى « يقلب قلوبكم » .

(٢) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) . وسقطت من (ك) .

ولاتكلمّوهم ، وتهيئوا للقاء الله ، الرواح الرواح إلى الجنة » . فعاد عليّ عنهم .

ثم إن الخوارج قصدوا الجسر ، فقال أصحاب عليّ له : إنهم عبروا النهر ، فقال : لن يعبروه ، فأرسلوا طليعة ، فعاد . وأخبر[1] أنهم عَبَروا النهر ، وكان بينهم وبينه عَطْفة من النهر ، فلخوف الطليعة منهم لم يقربهم فعاد ، فقال : قد عبروا النهر . فقال عليّ رضى الله عنه : « والله ماعبروه ، وإن مصارعهم لدون الجِسر ، ووالله لايُقْتَل منكم عشرة ، ولايَسْلَم منهم عشرة » . وتقدم عليّ إليهم فرآهم عند الجسر لم يعبروه ، وكان الناس قد شكّوا فى قوله وارتاب به بعضهم ، فلما رأوهم لم يعبروا كَبّروا وأخبروا عليًا رضى الله عنه بحالهم ، فقال والله ماكَذَبْتُ ولا كُذِبت .

ثم عبّأ أصحابه ، فجعل على ميمنته حُجر بن عديّ ، وعلى مَيْسرتهِ شَبَث بن رِبْعىّ أو مَعْقل بن قَيس الرِّياحى ، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري رضى الله عنه ، وعلى الرّجالة أبا قتادة الأنصاريّ رضى الله عنه ، وعلى أهل المدينة – وهم سبعمائة أوثمانمائة . قيس بن سعد ابن عُبادة رضى الله عنه .

وعبأت الخوارج فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصن الطائى ، وعلى الميسرة شُرَيح بن أبى أوفى العبسىّ ، وعلى خيلهم حمزة بن سِنان الأسديّ ، وعلى رَجّالتهم حُرْقوص بن زُهَيْر السَّعْديّ .

وأعطى عليّ رضى الله عنه أبا أيُّوب الأنصاريّ راية أمان ، فناداهم

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) وهو المناسب لما يأتى بعده ، وفى النسخة (ك) : « فعادوا وأخبروا » .

أبو أيوب فقال : « من جاء هذه الرايةَ فهو آمِن ممنَّ لم يقتل ولم يتعرض ، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، لاحاجة لنا بعد أن نُصِيب قَتَلة إخواننا منكم في سفك دمائكم » . فقال فَرْوة بن نوفل الأشجعيّ : « والله ماأدري على أى شيء نقاتل عليا ؟ : أرى أن أنصرف حتى تتضح لى بصيرتى فى قتاله ، أو أتابعه » . فانصرف فى خمسمائة فارس ، حتى نزل البَنْدَنِيجَيْن[1] والدَّسْكرة ، وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلوا الكوفة .

وخرج إلى عليّ رضى الله عنه نحو مائة ، وكان الخوارج فى أربعة آلاف ؛ فبقى مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة ، فزحفوا إلى عليّ رضى الله عنه وكان قد قال لأصحابه : كُفُّوا عنهم حتى يبدءوكم . فتنادوا . الرواح إلى الجنة . فحملوا على الناس فافترقت خيل عليّ فرقتين . فرقة نحو الميمنة ، وفرقة نحو الميسرة ، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل ، وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة ، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسّيوف فما لبثوا أن أناموهم ، فلما رأى حمزة بن سنان الهلاك نادَى أصحابه أن انزِلوا ، فذهبوا لينزلوا فلم يلبثوا حتى حمل عليهم الأسود بن قيس ، وجاء تهم الخيل من نحو عليّ فأهلكوا فى ساعة ، فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا .

قال : وأخذ عليّ مافى عسكرهم من شيء ، فأما السِّلاح والدّواب

(١) كذا جاء عند الطبرى وابن الأثير وياقوت وغيرهم . قال ياقوت : هى بلدة مشهورة فى طرف النهروان من ناحية الجبل . وفى المخطوطة : « البندجين » .

وما شُهِرَ [١] عليه فقسمه بين المسلمين ، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه ردّه على أهله حين قدم .

وطاف عديّ بن حاتم فى القتلى على ابنه طَرفة ، فدفنه ، ودفن رجال قتلاهم ، فقال علىّ حين بلغه ذلك تقتلونهم ثم تدفنونهم ! ارتحلوا . فارتحل الناس ولم يُقْتَل من أصحاب علىّ إلا سبْعة ؛ منهم يزيد بن نوبرة وله صحبة [٢] وسابقة .

وهؤلاء الخوارج هم الذين ورد فى أمرهم فى الصحيح [الحديث] [٣] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن قوما يخرجون يَمْرُقون من الدِّين كما يَمْرُق السَّهْم من الرَّمِيَّة [٤] علامتهم رجل مُخْدَج اليد [٥] » فالتمسه علىّ فى القتلى فوجده ، فنظر فى عضده فإذا لحم مجتمع كثدي المرأة ، وحَلَمة عليها شَعَرات سُود ، فإذا مُدَّت امتدت حتى تُحاذِي يده الطُّولَى ، ثم تُترك فتعود إلى مَنْكِبه . وكان علىّ رضى الله عنه يحدِّث الناس بهذا الحديث قبل وقعة الخوراج [٦] .

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، مثل ما فى الكامل لابن الأثير ؛ وجاء فى تاريخ الطبرى « وما شهدوا به عليه الحرب » .

(٢) انظر الاستيعاب ج ٣ ص ٦٥٥ وأسد الغابة ج ٥ ص ١٢٢ والإصابة ج ٣ ص ٦٦٤ .

(٣) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) وسقطت من (ك) .

(٤) أى يجوزونه ويخرقونه ويتعلونه كما يخرق السهم الشىء المرمى به ويخرج منه .

(٥) مخدج اليد : ناقص اليد .

(٦) انظر فى صحيح البخارى « كتاب استتابة المرتدين » ومن أبوابه « باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم » و « باب من ترك قتال الخوارج للتألف وأن ينفر الناس عنه » وقد روى بسنده عن على رضى الله عنه الحديث « سيخرج قوم . » وروى أيضا بسنده عن أبى سلمة وعطاء بن يسار أنهما « أتيا أبا سعيد الخدرى فسألاه عن الحرورية : أسمعت النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا أدرى ما الحرورية ؟ سمعت النبى صلى الله عليه =

وقيل كانت هذه الوقعة فى سنة ثمان وثلاثين .

قال : ولمّا فرغ علىّ رضى الله عنه من هذه الوقعة حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ الله قد أحسن بكم ، وأعزّ نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم . قالوا : : « ياأمير المؤمنين ، نَفِدت سهامنا ، وكَلّت سيوفُنا ، ونَصَلت [1] أسنةُ رماحنا وعاد أكثرها قصدا [2] ، فارجع إلى مصرنا . فلنستعدّ [بأحسن عُدّتنا] [3] ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عِدّتنا فإنه أقوى لنا على عدوّنا » . وكان الذى تولّى كلامَه الأشعث بن قيس ،

فأقبل حتّى نزل النُّخَيْلة ، فأمر الناس أن يلزموا عسْكرهم ، ويوطّنوا على الجهاد لعدوهم أنفسهم ، وأن يُقلوا زيارة أبنائهم ونسائهم حتّى يسيروا إلى عدوهّم . فأقاموا فيه أياما ثم تسللُوا من معسكرهم ، فدخلوا إلاّ رجالا من وجوه الناس وترك العسكر خاليا . فلما رأى علىّ ذلك دخل الكوفة ، وانكسر عليه رأيه فى المسير . وخطبهم مرة بعد أخرى ، وحثّهم على الخروج إلى الشام فلم يتهيأ له ذلك . وحيث

= وسلم يقول : يخرج فى هذه الأمة – ولم يقل : منها – قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حلوقهم أوحناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية » وروى أيضا بسنده عن أبى سلمة عن أبى سعيد قال (. . . آيتهم رجل إحدى يديه أوقال ثدييه مثل ثدى المرأة أوقال مثل البضعة تدردر ، يخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد : أشهد أنى سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن عليا قتلهم وأنا معه ، جىء بالرجل على النعت الذى نعته النبى صلى الله عليه وسلم » وانظر حديث (ذى الثدية) عند ابن أبى الحديد ج ١ ص ٢٠٢ – ٢٠٥ وانظر فى النهاية ولسان العرب شرحه فى المواد : خ د ج ، ودن ، ث دن ، ث دى ، م رق ، رمى ، دردر .

(١) نصلت : خرجت .

(٢) قصدا : قطعا .

(٣) الزيادة من رواية ابن جرير الطبرى .

ذكرنا أخبار الخوارج فلنذكر أخبار من خرج بعد أصحاب النَّهْروان . والله الموفق للصواب .

ذكر أخبار من خرج بعد أصحاب النهروان

قال : ولما قُتِل أهلُ النَّهْروان خرج أَشْرَس بن عوف الشَّيْبانىّ علَى علىّ رضى الله عنه بالدَّسْكَرة فى مِائتين ، ثم سار إلى الأَنبار فوجه إلَيْه علىّ رضى الله عنه الأَبرش بن حسان فى ثلثمائة فواقعه ؛ فقتل الأَشْرس فى شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين .

ثم خرج هلال بن علقمة[1] من تَيْم الرِباب ومعه أخوه مجالد ، فأَتى ماسَبَذَان ، فوجه إليه علىّ مَعْقل بن قيس الرِّياحىّ فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر من مائتين ، وكان قتلهم فى جُمادَى الأُولى منها .

ثم خرج الأَشهب بن بشر ، وقيل الأَشعث ، وهو من بَجِيلة فى مائة وثمانين رجلا ، فأَتى المعركة التى أصيب فيها هلال وأصحابه فصلَّى عليهم ، ودَفَن من قدر عليه منهم ، فوجه علىّ إلَيه جارية بن قدامة السَّعدىّ ، وقيل حُجْر بن عدى ؛ فاقتتلوا بجَرْجَرايا[2] من أرض جُوخَى فقتل الأَشهب وأصحابه فى جُمادَى الآخرة منها .

ثم خرج سعيد بن قفل التيمىّ من تَيم الله بن ثعلبة فى شهر رجب بالبَنْدَنِيجَيْن ومعه مائتا رجل ، فأَتى دَرْزِيجَانَ[3] وهى من المدائن

(١) ابن الأثير : « الكامل » ٣ ص ١٨٣ .

(٢) جرجرايا : بلد من أعمال النهروان الأسفل ، بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى .

(٣) هكذا جاءت الكلمة فى معجم البلدان لياقوت ، وقد وردت هذه الكلمة فى النسخة (ن) غير منقوطة الرابع والخامس ، وفى (ك) جملا بتاء فجيما ، وعند ابن الأثير جملا نونا فجيما .

على فرسخين ، فخرج إليهم مجيعدبن[1] مسعود فقتلهم فى الشهر المذكور .

ثم خرج أبو مريم السَّعدىّ التميمىّ فأتى شَهْرَذورَ وأكثر من معه من الموالى .

وقيل : لم يكن معه من العرب غير خمسة نفر ، واجتمع معه مائتا رجل ، وقيل : أربعمائة . وجاء حتّى نزل على خمسة فراسخ من الكوفة ، فأرسل علىّ إليه يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة ، فلم يفعل ، وقال : ليس بيننا غير الحرب ، فبعث إليه شُرَيح بن هانئ فى سبعمائة ، فحمل الخوارج على شريح وأصحابه فانكشفوا وبقى شريح فى مائتين ، فانحاز إلى قرية فرجع إليه بعض أصحابه ، ودخل الباقون الكوفة ، فخرج علىّ بنفسه ، وقدّم بين يديه جارية بن قدامة السَّعدىّ ، فدعاهم جارية إلى طاعة علىّ وحذّرهم القتل ، فلم يجيبوا ، ودعاهم علىّ أيضا فأبوا عليه ، فقتلهم أصحاب علىّ ولم يسلم منهم غير خمسين رجلا استأمنوا فأمّنهم . وكان فى الخوارج أربعون رجلا [جرحى][2] فأمر علىّ بإدخالهم الكوفة ومداواتهم حتى برئوا . وكان قتلهم فى شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين .

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٨٨ : « سعد بن مسعود » وقد سبق فى هذا الجزء أنه كان « على سبع قيس سعد بن مسعود الثقفى » .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وفى (ن) : (فتراجع) .

(٣) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) ، وسقطت من (ك) .

ذكر خلاف الخريت بن راشد التميمى

وبنى ناجية على علىّ رضى الله عنه وما كان من أمرهم

قال [١] وفى سنة ثمان وثلاثين أظهر الخِرِّيتُ بن راشد الناجى الخِلافَ علَى علىّ رضى الله عنه ، وكان قد شهد مع علىّ الجمل وصِفِّين فى ثلثمائة من بنى ناجية خرجوا إليه من البصرة ، وأقاموا معه بالكوفة إلى هذه السنة ، فجاء إلَى علىّ فى ثلاثين راكبا ، فقال له : « ياعلى والله لاأطيع لك أمرا ، ولا أصلِّى خلفك ، وإنى غدًا مفارقٌ لك » . فقال له على : « ثكلتك أمّك ! إذًا تعصى ربّك ، وتنكث عهدك ، ولا تضر إلا نفسك ؛ خبرنى لم تفعل ذلك ؟ » قال : « إنك حكّمت الرِّجال ، وضعُفت عن الحق ، وركنت إلى القوم الذين ظلموا ، فأنا عليك زار وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مُبَاين » . فقال له علىّ : « هَلمّ أدارسك الكتاب ، وأناظرك فى السُّنَن ، وأفاتحك أمورا أنا أعلم بها منك ، فلعلك تعرف ما أنت له الآن منكر » . قال : فإنى عائدٌ إليْك . قال : «لاتستهوينّك الشياطين ، ولا يَستخفنك الجهّال ؛ والله لئن استرشدتَنى وقبلتَ منى لأهدينك سبيلَ الرّشاد » . فخرج من عنده منصرفا إلى أهله ، وسار من ليلته هو وأصحابه .

فقال زياد بن خَصَفة البكريّ : «ياأمير المؤمنين ، إنه لم يَعظم عَلينا فَقدُهم فنأسَى عليهم ، إنهم قلما يزيدون فى عددنا لو أقاموا ، ولَقَلما ينقصون من عددنا بخروجهم عنا ، ولكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٨٣ .

كثيرة ممن يقدمون عليه[١] من أهل طاعتك ، فأْذن لى فى اتباعهم حتى أردّهم عليك » . فقال : تدري أين توجهوا ؟ قال : لا ، ولكنى أسأل وأتبع الأثر ، فقال له : اخرج يرحمك الله ، وأنزل دَيْر أبى موسى ، وأقم حتى يأتيك أمرى .

فخرج زياد فأتى داره وجمع أصحابه من بكر وائل ، وأعلمهم الخبر فسار [معه] [٢] منهم مائة وثلاثون رجلا . فقال : حسبى . ثم سار فأتى دَيْر أبى موسى فنزله ينتظر أمر على .

وأتى عليا كتاب من قَرظَة بن كَعْب الأنصاريّ يخبره أنهم توجهوا نحو ، نِفَّر [٣] ، وأنهم قتلوا رجلاً من الدّهاقين ، كان قد أسلم ، فأرسل علىٌّ رضى الله عنه إلَى زياد يأمره باتباعهم ويخبره خبرهم ، وأنهم قتلوا رجلاً مُسلما ، ويأمره بردّهم إليه ، فإن أبَوْا يناجزهم . وسيَّر الكتاب مع عبد الله بن وَأْل ، فاستأذنه فى المسير مع زياد ، فأذنَ له ، وسار بالكتاب إلى زياد .

وساروا حتى أتوا نِفَّر ، فقيل : إنهم ساروا نحو جَرْجَرايا ، فتبعوا آثارهم حتى أدركوهم بالمذَاد[٤] وهمْ نزول ، قدأقاموا يومهم وليلتهم واستراحوا ، فأتاهم زياد وقد تقطع أصحابه وتعبوا ، فلما رأوهم ركبوا خيولهم ، وقال لهم الخِرِّيت : أخبرونى ماتريدون ؟ فقال له زياد ــ وكان مجربا رفيقا ــ : « قد ترَى مابنا من التعب ، والذي جئناك

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، مثل ما فى تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٨٨ ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٨٣ : « عليك » .

(٢) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) وسقطت من (ك) ــ

(٣) نفر : قرية بالعراق .

(٤) المذار : بلد بالعراق .

له لايصلحه الكلام علانية ، ولكن ننزل ثم نخلو جميعا ، فنتذاكر أمرنا ، فإن رأيت ماجئناك به حظا لنفسك قبلته ، وإن رأينا فيما نسمع منك أمرا نرجو فيه العافية لم نرده عليك » . قال : فانزل . فنزل زياد ومن معه على ماء هناك ، فأكلوا شيئا وعلفوا دوابهم ، ووقف زياد فى خمسة فوارس بين أصحابه وبين القوم وقال : إنَّ عِدَّتنا كِعدَّتهم ، وأرى أمرنا يصير إلى القتال فلا تكونوا أعجز الفريقَين . وخرج زياد إلى الخرِّيت ، فسمعهم يقولون : جاءنا القوم وهم كالُّون تَعِبُون فتركناهم حتَّى استراحوا ، هذا واللهِ سوءُ الرأى . فدعاه زياد وقال : ما الذى نقمته[1] علَى أمير المؤمنين وعلَينا حتَّى فارقتنا ؟ » فقال : « لم أرْضَ صاحبكم إماما ، ولا سيرتكم سيرة ، فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشُّورَى » . فقال له زياد : « وهل يجتمع الناس على رجل يُدانى صاحبك الذي فارقْته علما بالله وسنَّته وكتابه . مع قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسابِقته فى الإسلام » ؟ فقال [له][2] : « ذلك ما قال لك » . فقال له زياد : ففيم قتلتَ ذلك الرجل المسلم ؟ قال : ما أنا قتلته إنما قتله (طائفة من)[3] أصحابى . قال : فادفعهم إلينا . قال : ما إلَى ذلك سبيل . فدعا زياد أصحابه ، ودعا الخِرِّيت أصحابه ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فتطاعنوا بالرماح حتَّى لم يبقَ رمح ، وتضاربوا بالسيوف ، حتى انحنت ، وعُقِرت عامَّة خُيولهم ، وكثرت الجراحة فيهم ، وقتُل من أصحاب

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وفى (ن) : « نقمت » .

(٢) ثبتت الكلمة فى (ن) وسقطت من (ك) .

(٣) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) وسقطت من (ك) .

زياد رجلان ، ومن أولئك خمسة ، وجاء الليل فحجز بينهم ، وقد كَرِه بعضُهم بعضا ، وجرح زياد . فسار الخِرِّيت من الليل ، وسار زياد إلى البصرة .

وأتاهم خبر الخِرِّيت أنه أتى الأهواز فنزل بجانب منها ، وتلاحق به ناس من أصحابه فصاروا نحوما ئتين ، وكتب زياد إلى عليّ رضى الله عنه بخبرهم ، وأنه مقيم يداوي الجرحَى وينتظر أمره .

فلما قرأ على كتابه قام مَعقِل بن قيس فقال : « يا أمير المؤمنين ، كان ينبغى أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل واحد عشرة ، فإذا لحقوهم استأصلوهم وقطعوا دابرهم ، فأما أن يلقاهم عددهم فلعمرى لَيَصبرُنَّ لهم ، فإن العِدّة تَصْبر للعِدة » . فقال على تَجهز يامَعْقِل إليهم ، وندب معه ألفين من أهل الكوفة منهم يزيد بن مَعْقِل[1] الأزدي

وكتب علىّ إلى ابن عباس يأمره أن يبعث من أهل البصرة رجلا شجاعا معروفا بالصلاح فى ألفى رجل إلَى مَعْقِل ، وهو أمير أصحابه حتّى يأتى مَعْقِلا ، فإذا لِقيَه كان مَعْقِلٌ الأمير ، وكتب إلَى زياد بن خَصفة يشكره ويأمره بالعود .

قال : واجتمع علَى الخِرِّيت عُلُوج كثيرٌ من أهل الأهواز أرادوا كسر الخراج ، ولصوصٌ وطائفة أخري من العرب تَري رأيه ، وطمع أهل الخراج [فى كسره][2] ، فكسروه ، وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس

(١) كذا جاء فى المخطوطة : وجاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٩٣ : « المغفل » بالغين المعجمة والفاء ، وانظر مايأتى .

(٢) الزيادة من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٨٥ .

(وكان عاملا لعلىّ فى قول من يزعم أنه لم يمت فى سنة سبع وثلاثين) .

فقال ابن عبّاس لعلىّ : أنا أكفيك فارس بزياد ؛ يعنى ابن أبيه ، فأمره بإرساله إليها ، فأرسله فى جمع كثير ، فوطىء بلاد فارس ، فأدّوا الخراج واستقاموا .

قال : وسار مَعْقِل بن قَيْس ، وقَدم الأهواز ، وأقام ينتظر مدد البصرة ، فأبطئوا عليه ، فسار يطلب الخِرِّيت ، فلم يسر يوما حتى أدركه المدد مع خالد بن مَعْدان الطائى ، فساروا جميعا فلحقوهم بقرب جبل من جبال رامَهُرْمُز ، فصفّ مَعْقِل أصحابه ، فجعل علَى مَيْمنته يزيد بن المغفِل[1] ، وعلَى مَيْسَرته مِنْجاب بن راشد الضَّبىّ من أهل البصرة . وصَفّ الخرِّيت أصحابه ، فجعل من معه من العرب ميمنَة ، ومن معه من أهل البلد والعُلوج[2] ميسرة ومعهم الأكراد ، فحرّكَ مَعْقِل دابّته[3] مرتين ، ثم حمل فى الثالثة ، فصبروا له ساعة ثم انهزموا ، فقتل أصحابُ مَعْقِل منهم سبعين من بنى ناجية ومن معهم من العرب ، وقتلوا نحوًا من ثلاثمائة من العُلوج والأكراد .

وانهزم الخرِّيت فلحق بأسياف البحر وبها جماعة كبيرة من قومه ، فمازال يسير فيهم ويدعوهم إلَى خلاف علىّ ، ويخبرهم أن الهدى فى حربه ، حتى اتبعه منهم ناس كثير .

وأقام مَعْقل بأرض الأهواز ، وكتب إلى علىّ رضى الله عنه بالفتْح فقرأ علىّ الكتاب على أصحابه واستشارهم ، فقالوا كلهم : نرى

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وفى النسخة (ن) : « معقل » ، وانظر ماسبق .
(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وفى (ن) : « العلوج » دون واو قبلها .
(٣) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل : « رأسه » ، وفى تاريخ الطبرى « رايته » .

أن تأمر مَعْقِلا يتبع آثار الفاسق حتّى يقتله أو ينفيه ، فإنّا لا نأمن أن يُفسد عليك الناس . فكتب إلَى مَعْقِل يُثنى علَيه وعلى من معه ، ويأمره باتباعه وقتله أو نفيه .

فسأل مَعْقِل عنه فأُخبِر بمكانه بالأسياف ، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة عليّ وأفسد من عنده من عبد القَيس وسائر العرب . وكان قومه قد منعوا الصَّدَقة عام صِفِّين وذلك العام ؛ فسار إليهم مَعْقِل وأخذ على فارس فانتهى إلى أسياف البحر ، فلما سمع الخرِّيت بمسيره قال لمن معه من الخوارج : أنا على رأيكم وإن عليًا لم ينبغِ له أن يحكِّم . وقال للآخرين من أصحابه : إنّ عليًّا حكَّم ورضى فخلعه حَكَمُه الذى ارتضاه . وقال سِرًّا للعثمانية . أنا والله على رأيكم ، قد واللهِ قُتِل عثمانُ مظلوما . فأرضى كلَّ صنف منهم . وقال لمن منع الصدقة :شُدُّوا أيديكم على صدقاتكم ، وصِلوُا بها أرحامكم ، وكان فيها نصارَى كثير قد أسلموا ؛ فلما اختلف الناس قالوا : والله لديننا الذى خرجنا منه خير من دين هؤلاء الذى لاينهاهم دينهم عن سفك الدماء ، فقال لهم الخرِّيت ، ويْلكم[1] ، لا يُنْجيكم من القتل إلا قتال هؤلاء القوم والصبر ، فإنّ حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يُقَتل ولا يقبلون منه توبةً ولا عُذرا . فخدعهم وجمعهم وأتاهم من كان من بنى ناجية وغيرهم خلق كثير .

فلما انتهى مَعقل إليه نَصَب راية أمان ؛ وقال : « من أتاها من الناس فهو آمن إلاَّ الخرِّيت وأصحابه الذين حاربونا أول مرة » . فتفرق عنِ الخرِّيت جل من كان معه من غير قومه . وعبّأ مَعْقِل

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) ،وفى (ن) : «ويحكم» .

أصحابه ، وزَحَف بهم نحو الخرِّيت ومعه أصحابه مسلمهم ونصرانيهم ومانع الزكاة منهم ، وحَرَّض كلٌّ واحد منهما أصحابه ، ثم حَمَلَ مُعقل ومن معه فقاتلوا قتالا شديدا وَصبرَوا ، ثم إن النُّعمان بن صُهْبان [الراسبى] (١) بَصُرَ بالخرِّيت ،فحمل عليه فطعنه ، فصُرِع عن دابّته ، ثم اختلفا ضربتَين ، فقتله النعمان ؛ وقتِل معه فى المعركة سبعون ومائةُ رجل ، وذهب الْباقون يمَينا وشمالا ، وسبَى معْقِل من أدركه من حَريمهم وذَراريهم ، وأخذ رجالا كثيرا ، فأما من كان مسلما فخلاَّه وأخذ بَيعته وترك له عياله ، وأمّا من كان ارتدَّ فعرض علَيهم الإسلام ، فرجعوا ، فخلَّى سبيلهم وسبيل عيالهم ، إلاَّ شيخا نصرانيا منهم يقال له الرُّمَاحِس لم يُسلم فقتله .

وجمع مَن منع الصدقة ، وأخذ منهم صدقة عامين .

واحتمل الأُسارَى وعيالهم وأقبل بهم ، وشيعهم المسلمون ، فلما ودّعوهم بكى الرجال والنساء بعضُهم إلى بعض حتَّى رحمهم الناس . ثم مرَّ بهم حتى أقبل علَى مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشَّيْبانى ، وهو عامل علىٌّ علَى أَرْدَشِير (٢) خُرَّهْ ، وهم خمسمِائة إنسان ، فبكَى النساء والصبيان وصاح الرجال : « ياأبا الفضل ، ياحامِيَ الرجال ، ومأْوَى العُضْب (٣) وفَكَّاك العُناة (٤) ، امْنُنْ علَينا فاشْترنا وأعتقنا » . فقال مَصْقلة : أقسم بالله لأَتصدَّقَنَّ علَيكم إنَّ الله يجزى المتصدقين (٥) . فاشتراهم

(١) الزيادة جاء ت فى النسخة (ن) وسقطت من النسخة (ك) .

(٢) أرد شير خره : اسم كورة من أعظم كور فارس ، وهو اسم مركب معناه : بهاء أرد شير ، وأرد شير ملك من ملوك الفرس .

(٣) العضب : جمع الأعضب ، وهو من لا ناصر له .

(٤) العناة : جمع العانى ، وهو الأسير .

(٥) مأخوذ من الآية ٨٨ فى سورة يوسف .

من مَعْقِلٍ بخمسمِائة ألف، فقال له معقل : عَجِّل المالَ إلَى أمير المؤمنين . فقال أنا باعث الآن بعضه ثم [أبعث كذلك] [١] حتى لايبقَى منه شيء ؛ وأقبلى مَعْقِل إلَى علىّ فأخبره بما كان منه فاستحسنه.

وبَلَّغ عليا أنَّ مَصْقَلة أعتق الأُساري ولم يسألهم أن يعُينوه بشيء ، فقال : ما أظنُّ مَصْقَلة إلاَّ قد تحمل حَمالة سترونه عن قريب منها مُبلدا ، وكتب إليه بحمل المال أو يحضر عنده ، فحضر عنده ، وحمل من المال مِائتى ألف .

قال ذُهْل بن الحارث : فاستدعانى مَصْقَلة ليلة فطَعمنا ، ثم قال : إن أمير المؤمنين يسألنى هذا المال [٢] ولا أقدر عليه . فقلت : والله لوشئت ما مضت جُمعة حتى تحمله . فقال : « والله ماكنت لأُحمِّلها قومى ؛ أمَا والله لوكان ابن هُند[٣] ما طالبنى بها ، ولو كان ابن عَفَّان لوهبها لى » . قال فقلت : إن هذا لا يرَى ذلك الرأى ، لايترك منها شيئا . فهرب مَصْقَلة من ليلته فلحق بمعاوية .

وبلغ عليا ذلك فقال : ماله أقرحه الله ! فعَل فِعْل السيِّد وفَرَّ فرار العبد ، وخان خِيانة الفاجر ، أما إنه لو أقام فعجز ما زدنا على دينه [٤] ، فإن وجدنا [٥] له شيئا أخذناه وإلاَّ تركناه » . ثم سار علىّ إلى داره فهدمها ، وأجاز عِتْق السَّبْى ، وقال : أعتقهم مُبْتاعهم وصارتْ أثمانهم دَيْنا على مُعْتِقهم .

---

(١) زيادة تؤخذ من ابن جرير ، وفى المخطوطة : « لذلك » .
(٢) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى النسخة (ك) : « فلا » .
(٣) ابن هند : معاوية بن أبى سفيان .
(٤) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وفى (ن) : « حبسه » .
(٥) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى (ك) : « تهيأ » .

وكان أخوه نُعَيم بن هُبَيرة شيعة لعلىّ ، فكتب إليه مَصْقَلة من الشام مع رجل من نصارَى تَغْلِب ، اسمه حُلْوان يقول له : « إن معاوية قد وعدك الإمارة والكرامة ، فأَقبِلْ ساعةَ يلقاك رسولى والسلام [عليك] [1] فأخذه مالك بن كعب الأَرحبىّ فسرحه إلى علىّ رضى الله عنه ، فقطع علىّ يده ، فمات . وكتب [2] نُعَيم إلى أخيه يلومه على لَحَاقه بالشام ، ومافعله من هربه .. وأتاه [3] التغلبيون فطلبوا منه دِيَة صاحبهم فوَداه لهم . وقال مَصْقلة :

لَعَمرى لَئن عاب أهل العـراق عَلَىَّ انتعاشَى بنى ناجيـــهْ
لأعظم مـــن عتقهم رقهم وكَفِّى بعتقهمو حاليهْ [4]
وزايدت فيهم لإطـــلاقهم وغاليتُ إن العُلا غاليهْ [5]

وحيث ذكرنا من أخبار علىّ ما قدمناه ، فلنذكر ماوقع فى مدة خلافته خلاف ذلك على حكم السنين .

---

(١) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) ، وسقطت من (ك) .

(٢) انظر الشعر الذى كتبه نعيم إلى أخيه فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٠٤ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٨٧ .

(٣) أى أتى التغلبيون مصقلة ، لأنه الذى بعث التغلبى فكان سببا فى هلاكه .

(٤) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى (ك) : « عاليه » .

(٥) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى (ك) « وعاليت إن العلا عاليه » .

ذكر ما اتفق فى مدة خلافته

رضى الله عنه

خلاف ما قدمنا ذكره على حكم السنين مما هو متعلق به خاصة ، خلاف ما هو مختص بمعاوية فإنا نذكره فى أخباره إن شاء الله تعالى

سنة ست وثلاثين

ذكر ولاية قيس بن سعد مصر

وما كان بينه وبين معاوية من المكاتبة وما أشاعه معاوية عنه حتّى عزله علىّ رضى الله عنه عن مصر واستعمل محمد بن أبى بكر الصّديق رضى الله عنهما .

قال : وفى سنة ست وثلاثين فى ثالث صفر بعث علىّ رضى الله عنه قَيس بن سعد بن عُبادة أميرًا على مصر ، وقال له : « سر إلَى مصر قد وَلَّيْتُكَها واخرج إلى رَحلك ، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتّى تأتيها ومعك جند ؛ فإن ذلك أرعبُ لعدوك وأعزّ لوليك ، وأحسن [1] إلى المحسن ، واشْدُد على المريب ، وارفُق بالعامّة والخاصّة ، فإن الرِّفق يُمن » . فقال له قَيس : « أمّا قولك أخرج إليَها بجند فوالله لئن لم أدخلها إلاّ بجند آتيها به من المدينة لا أدخلها أبدا ، فأنا أدع ذلك الجند لك ، فإن كنت احتجت إليهم كانوا قريبا منك وإن أردت أن تبعثهم إلَى وجه من وجوهك كانوا عُدَّة » .

وخرج قيس حتى دخل مصر [2] فى سبعة من أصحابه كما ذكرنا ذلك . ولما قدم صعد المنبر و جلس عليه ، وأمر بكتاب علىّ رضى الله عنه فقرىء عَلى أهل مصر بإمارته عليهم ، ويأمرهم بمتابعته ومساعدته

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى (ك) : « فأحسن » .

(٢) فى النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩٦ أنه وصل إليها فى مستهل شهر ربيع الأول

وإعانته على الحقّ . ثم قام قيس فقال : « الحمد لله الذي جاء بالحق ، وأمات الباطل وكَبَت الظالمين ، أيُّها الناس : إنا قد بايعْنا خيرَ من نعلم بعد نبينا ، فقوموا أيها الناس فبايعوه علَى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن نحن لم [نعمل] [1] لكم بذلك فلا بَيعة لنا عليكم » . فقام الناس فبايعوه .

واستقامت مصر ، وبعث قَيس عليها عُمّاله إلاّ قرية يقال لها خِرْبتا [2] فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان ، عليهم رجل من بنى كِنانة ثم من بنى مُدْلِج اسمه يزيد بن الحارث . وكان مَسْلَمة بن مُخَلَّد أيضا قد أظهر الطلب بِدَمِ عُثمان ، فأرسل إليه قَيس » : ويحك ! . أعلىّ تَثِب ؟ ! فوالله ما أُحبّ أن لى ملك الشام إلَى مصر وأنى قتلتُك » . بعث إليه مَسْلَمة : إنى كاف عنكَ مادمتَ أنت والىَ مصر . وبعث قيس إلى أهل خِربتا إنى لا أكرهكم على البَيْعة ، وإنى أكفُّ عنكم . فهادنهم وجَبَى الخراج ، ليس أحد ينازعه .

فكان قَيْس أثقَل خلق الله علَى معاوية ، لقربه من الشام ومخافةَ أن يُقبِل علىٌّ فى أهل العراق ، وقيس فى أهل مصر ، فيقعَ بينهما ؛ فكتب معاوية إلى قيس : « سلام [3] عليكم ؛ أمّا بعد ، فإنكم نَقَمتم [4] على عثمان ضَرْبةً بسوط ، أو شَتْمة لرجل ، أو تسيير آخر ، أو استعمال فتى ، وقد علمتم أن دمه لا يحلّ لكم ؛ فقد ركبتم عظيما

(١) كذا جاء عند الطبرى ج ٣ ص ٥٥١ وابن الأثير ج ٣ ص ١٧٣ ، وجاء فى المخطوطة : « تعلم » .

(٢) انظر فى أوائل هذا الجزء فى (ذكر تفريق على عماله) الكلام فى هذا اللفظ وهل هو « خرتبا » أو « خربتا » ؟ .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة ، وعند بن الأثير : « عليك » .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة ، وفى النجوم الزاهرة ج ١ ص٩٩ « فإنكم إن كنتم نقمتم » .

وجئتم أمرًا إدًّا ، فتب إلى الله ياقيس ، فإنك من المُجْلِبين على عثمان ، فأمّا صاحبك ، فإذا استيقنّا أنه أغرَى به الناس ، وحملهم حتّى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عُظْمُ قومك ، فإن استطعتَ ياقَيس أن تكون ممن يَطْلب بدم عثمان فافعل ، وتابِعْنا على أمرنا ، ولك سلطان العراقَين إذا ظهرتُ مابقيت ، ولمن أحببتَ من أهلك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ، وسَلْنى ماشئتَ فإنى أعطيكه ، واكتب إلَىّ برأيك » .

فلما أتاه الكتاب أحبّ أن يدافعه ولا يبدى له أمره ، ولا يتعجل إلى حربه ، فكتب إليه : « أمّا بعد ، فقد [بلغنى كتابُك و] (١) فهمتُ ماذكرتَه [فيه ، فأمّا ماذكرتَ] (١) من قتل عثمان ، فذلك شىء لم أقارفه . وذكرت أن صاحبى هو الذى أغرَى به حتّى قتلوه فهذا ما لم أطلع عليه ، وذكرت أن عُظْم عشيرتى لم تَسلم [من دم عثمان] (١) فأوّل الناس كان فيها قياما عشيرتى ، وأمّا ماعَرضتَه من متابعتك فهذا أمر لى فيه نظر وفكرة ، وليس هذا مما يُسْرَع إليه ، وأنا كافٌّ عنك ، وليس يأتيك من قبلى ما تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله تعالى » .

فلما قرأ معاوية كتابه رآه مقاربا مباعدا (٢) ، فكتب إليه : « أمّا بعد ، فقد قرأت كتابك فلم أرَك تدنو فأعدُّكِ سِلْما ، ولا تتباعد فأعدُّك حَرْبا ، وليس مثلى يُصانِع المخادِع وينخدع للمكايد ومعه عَدَد الرجال وأعنّة الخيل ، والسلام .

(١) الزيادة من النجوم الزاهرة .
(٢) « فلم يأمن مكره ومكيدته » كما فى النجوم الزاهرة .

فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لاتفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له مافى نفسه ، فكتب إليه : « أما بعد ، فالعجب من اغترارك بى وطمعك فىّ ، واستسقاطك رأيى ، أتسومنى الخروجَ من طاعة أَوْلَى الناس بالإمارة ، وأقولهم بالحق ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك ، طاعة أبْعَد الناس من هذا الأمر ، وأقْوَلهم بالزُّور ، وأضلِّهم سبيلا ، ولد ضالين مضلين، طاغوت من طواغيت إبليس . وأمّا قولك : إنّى مالئ عليك مصر خيلا ورجلا[1] ، فو الله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهمّ إليك إنك لذو وجد[2] ، والسلام .

فلما رأى معاوية كتابه أيِس منه ، وثقل عليه مكانه ، ولم تنجع حيله فيه فكاده ، من قبل علىّ ، فقال لأهل الشام : لا تَسبُّوا قَيس بن سعد ، ولاتدعوا إلى غزوه ، فإنه لنا شيعة ، تأتينا كتبه ورسله ونصيحته لنا سرا ، ألا ترَون مايفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا ، يُجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويُحسن إليهم . وافتعل كتابا [3] عن قَيْس بالطَّلب بدم عثمان ، والدخول معه فى ذلك ، وقرأه على أهل الشام .

فبلغ ذلك عليا فأعْظَمه وأكْبَره ، ودعا ابنيه وعبد الله بن جعفر فأعلمهم ذلك ، فقال ابن جعفر : يا أمير المؤمنين ، دع ما يربيك إلى

(١) فى النجوم الزاهرة : « وأما قولك : سمك أعنة الخيل وأعداد الرجال ».
(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل وغيره . « إنك لذو جد » والجد: الحظ
(٣) انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٥٤ والنجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠١ .

إلى ما لا يريبك[1] اعزل قيسا عن مصر . فقال : والله إنى لأصدّق بهذا عنه . فقال عبد الله : اعزله ، فإن كان هذا حقا لا يعتزل لك.

فبينما هم كذلك إذ جاء كتاب قيس يخبر بحال المعتزلين وكفّه عن قتالهم ، فقال ابن جعفر : ما أخوفنى أن يكون ذلك ممالأة منه ، فَمُره بقتالهم ، فكتب إليه يأمره بقتالهم ، فأجابه : « أما بعد ، فقد عجبت لأمرك ! تأمرنى بقتال قوم كافّين عنك ، مُفرغيك لعدوّك ومتى حادَدْناهم ساعدوا عليك عَدُوّك ؛ فأطعنى ياأمير المؤمنين ، واكفف عنهم ، فإن الرأي تركهم ، والسلام .

فلما قرأ الكتاب قال ابن جعفر : ياأمير المؤمنين ؛ ابعث محمد ابن أبى بكر[2] على مصر واعزل قيسا . فبعث محمدا إلى مصر - وقيل : بعث الأشقر النَّخَعىّ فمات بالطريق فبعث محمدا - فقدم محمد على قَيس بمصر ، فقال له قيس : « مابال أمير المؤمنين ؟ ما غَيَّره ؟ أدخل أحد بينى وبينه ؟ » قال : لا ، وهذا السلطان سلطانك . قال ، لا : والله لأقيم .

وخرج إلى المدينة وهو غضبان ، فأخافه مروان بن الحكم فخرج من المدينة هو وسهيل بن حُنَيْف إلى علىّ رضى الله عنه فشهدا معه صِفِّين ، فبعث معاوية إلى مروان يتغيظ عليه ويقول له : لو أمددت عليا بمائة ألف مقاتل كان أيسر عندى من قَيْس بن سعد فى رأيه ومكانه .

---

(١) « دع مايريبك إلى مالا يريبك » حديث رواه الترمذى والنسائى وأحمد بن حنبل عن الحسن بن على وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) قال ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٣٩ : « وكان ابن جعفر أخا محمد أبى بكر لأمه » .

ولما قدم قيس على عليّ وأخبره الخبر ، علم أنه كان يقاسى أمورا عظاما من المكايد وعَظُم محلّ قَيْس عنده وأطاعه فى الأمر كله .

قال . وأما محمد بن أبى بكر فإنه لما قدم مصر قرأ كتاب عليّ رضى الله عنه إلى أهل مصر عليهم ، ثم قام فقال : « الحمد لله الذي هدانا وإياكم لِما اختُلِف فيه من الحقّ ، وبصرنا وإياكم كثيرا مما كان عَمِيَ عنه الجاهلون ، ألاَ إنَّ أمير المؤمنين ولّانى أمرَكم ، وعهد إلىَّ ماسمعتم ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، فإن يكن ماترون من إمارتى وأعمالى طاعةً لله فاحمدوا الله على ماكان من ذلك ، فإنه هو الهادى له ، وإن رأيتم عاملاً لى بغير الحق فارفعوه إلى وعاتبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد وأنتم جديرون ، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته » . ثم نزل .

فلم يلبث إلا شهرا حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كانوا قد وادَعَهم قيْس بن سعد ، فقال لهم : إماأن تدخلوا فى طاعتنا وإما أن تخرجوا عن بلادنا . فأجابوه : إنَّا لا نفعل ، فدعنا حتى ننظر إلى مايصير أمرنا إليه ، ولا تَعْجَل بحربنا . فأبى عليهم ، فامتنعوا وأخذوا حِذْرهم ، وكانت وَقعَة صِفِّين وهم هائبون لمحمد ، فلما رجع عليّ ومعاوية وصار الأمر إلى التحكيم طمعوا فيه ، وأظهروا له المبارزة ، فبعث محمد الحارث بن جُهْمان[1] الجُعْفىّ إلى أهل خِربتا فقاتلهم فقتلوه ، فبعث إليهم رجلا من كَلْب يُدعى ابن مضاهم فقتلوه . ثم كان من خبر محمد بن أبى بكر مانذكره إن شاء الله تعالى .

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وفى (ن) : « جمهان » مثل ابن جرير وابن الأثير .

وفى هذه السنة قدم أبراز مرْزبان مرْوَ إلى علىّ رضى الله عنه بعد الجمل مقرا بالصلح ، فكتب له كتابا إلى دهاقين مَرْو والأساورة ومن بمرو ، ثم إنهم كفروا وأغلقوا نَيسابور ، فبعث علىّ خُلَيْدبن قُرَّة ـ وقيل : ابن طريف ـ اليرْبوعىّ إلى خُراسان .

وفيها مات حُذَيفة بن اليمَان قبل وقعة الجمل .

وفيها مات سلمان الفارسّى فى قول بعضهم ، وكان عمره مائتين وخمسين سنة هذا أقلّ ماقيل فيه ، وقيل : ثلاثمِائة وخمسين سنة ، وكان قدأدرك بعض أصحاب المسيح عليه الصلاة والسلام .

وفيها استعمل علىّ رضى الله عنه على الرّىّ يزيد بن حُجَيَّة التَّيمىّ (تَيْم اللّات) فكسر من خراجها ثلاثين ألفا ، فكتب إليه علىّ يستدعيه ، فحضر فسأله عن المال ، وقال : أين ما غَلَلْتَه من المال ؟ فقال : ماأخذت شيئا ؛ فخفقه بالدِّرة خَفَقات وحبسه ، فوكل به سعدا مولاه فهرب منه يريد الشام ، فسوغه معاوية المال ، فكان ينال من على ، وبقى بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية ، فسار معه إلى العراق فولاّه الرىّ . وقيل : إنه شهد مع علىّ الجمل وصِفّين والنَّهْروان ، ثمّ وَلاّه بعد ذلك الرىّ وهو الصحيح .

سنة سبع وثلاثين

فيها بعث علىّ رضى الله عنه جَعْدة بن هُبيرة المخزومى إلى خراسان بعد عودته من صِفّين ، فانتهى إلى نَيسابور ، وقد كفروا وامتنعوا

فرجع إلى علىّ ، فبعث خُلَيد بن قرةَّ اليَرْبوعى ، فحاصر أهلها حتى صالحوه وصالحه أهل مَرْو .

وحَجَّ بالناس فى هذه السّنة عُبيد الله بن عباس[1] رضى الله عنهما.

سنة ثمان وثلاثين

فى هذه السَّنَة ملك عمروبن العاص مصر ، وقتل محمد بن أبى بكر علَى مانذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار معاوية .

ذكر خبر عبد الله بن الحضرمى

حين بعثه معاوية إلى البصرة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفى هذه السنة بعد مقتل محمد بن أبى بكر بعث معاوية عبد الله ابن عمرو الحضرمىّ إلَى البصرة ، وقال له : إنَّ جُلَّ أهلها يرَون رأيَنا فى عثمان ، وقد قُتلوا فى الطلب بدمه ، فهم لذلك حَنِقون يودّون أن يأتيهم من يجمعهم ، وينهض بهم فى الطلب بثأرهم ودم إمامهم ، فانزل فى مضَرو تَودَّدْ للأزد فإنهم كلّهم معك ، وَادِعْ ربيعةَ فلن ينحرف عنك أحدٌ سواهم ؛ لأنهم تُرَابيّة[2] كلّهم وأحذرهم .

فسار ابن الحَضْرمىّ حتَّى قدم البصرة ، وكان ابن عباس قد خرج إلَى على بالكوفة ، واستخلف زياد ابن أبيه على البصرة ، فنزل ابن الحضرمىّ فى بنى تميم ، فأتاه العثمانية وحضره غيرهم ، فخطبهم وقال : « إن إمامكم إمام الهدى قُتِل مظلوما ، قتله علىّ فطالبتم بدمه ، فجزاكم الله خيرا » .

---

(١) قال ابن الأثير فى الكامل : « وكان عامل على على اليمن » .

(٢) أى من شيعة « أبى تراب » وتلك كنية على رضى الله عنه .

فقام الضحاك بن قيس [١] الهلالىّ وكان على شُرْطة ابن عباس فقال : قَبَّح اللهُ ماجئتَنا به ، وما تدعونا إليه ، وسَبَّه ، وذكر فضل علىّ رضى الله عنه ، .

فقال عبد الله بن خازم [٢] السُّلَمىّ للضحاك : اسكت ، فلست بأهل أن تتكلم ، ثم أقبل على ابن الحضرمىّ فقال : نحن أنصارك ويدك ، والقول قولك ، اقرأ كتابك . فأخرج كتاب معاوية إليهم يُذكِّرهم فيه آثار عثمان ، ويدعوهم إلى الطلب بدمه ، ويضمن أنه يعمل فيهم بالسُّنَّة ، ويعطيهم عطاءين فى كلّ سنة .

فلما فرغ من قراءته قام الأحنف ، فقال : لاناقتى فى هذا ولاجملى . واعتزل القوم .

وقام عمرو بن مرجوم [٣] العبدىّ [٤] فقال : أيها الناس ، الزموا طاعتكم وجماعتكم ، ولاتنكثوا بيعتكم فتقع بكم الواقعة .

وكان العباس بن صُحار العبدىّ مخالفا لقومه فى حبّ علىّ ، فقام وقال : لننصرنّك بأيدينا وألسنتنا . فقال له المثنى بن مُخَرِّبة [٥] العبدىّ : والله لئن لم ترجع إلى المكان الذى جئتنا منه لنجاهدنك بأسيافنا ورماحنا ، ولا يغرنك هذا الذى تكلم . (يعنى ابن صحار) .

---

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى (ك) : « زيد » .
(٢) بالخاء المعجمة والزاى ، كما نص عليه ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٨٣ .
(٣) بالجيم كما نص عليه صاحب الإصابة ، وجاء فى النسخة (ن) «مرحوم» وفى النسخة (ك) محروم » .
(٤) من عبد القيس ، قال ابن سعد : قدم فى وفد عبد القيس ، .
(٥) بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وكسر الراء المشددة وآخره باء موحدة ، كما نص عليه ابن الأثير فى الكامل .

فقال ابن الحضرمىّ لِصَبْرة بن شَيْمان : أنت نابٌ من أنياب العرب فانصرنى . فقال : لو نزلت فى دارى لنصرتك .

فلما رأى زياد ذلك خاف ، فاستدعى حضين بن المنذر ومالك ابن مِسْمَع ، وقال : أنتم يا معشر بكر بن وائل أنصار أمير المؤمنين وثقاته ، وقد كان من ابن الحَضْرمىّ ما تَرَوْنَ ، وأتاه من أتاه ، فامنعونى حتى يأتى [أمر] (١) أمير المؤمنين ». فقال حُضَيْن بن المنذر: نعم . وقال مالك – وكان يميل إلى بنى أمية – . هذا أمْر لى فيه شركاء أستشير فيه وأنظر(١).

فلما رأى زياد تثاقل مالك أرسل إلى صَبْرة بن شَيمان الحدّانىّ الأزدىّ يطلب أن يُجيره وبيت مال المسلمين ، فقال : إن حملته إلى دارى أجرتكما ، فنقله إلى داره بالحُدّان ونقل المنبر ، فكان يُصلّى الجمعة بمسْجد الحدّان .

وكتب زياد إلى علىّ رضى الله عنه بالخبر ، فأرسل إليه أعْيَن ابن ضُبَيْعة المجاشعىّ ثم التميمى ، ليفرق قومه عن ابن الحضرمى ، فإن امتنعوا قاتل بمن أطاعه من عصاه ، وكتب إلى زياد يُعلمه ذلك .

فقدم أعْيَن فأتى زيادا فنزل عنده ، وجمع رجالا وأتى قومه ، ونهض إلى ابن الحضرمىّ ومن معه فدعاهم فشتموه ، وواقفهم نهاره ، ثم انصرف عنهم ، فدخل عليه قوم ، قيل : إنهم من الخوارج ، وقيل : وضعهم ابن الحضرمى على قتله ، فقتلوه غيلَة ، فلما قُتِل أعْيَن أراد زياد قتالهم ، فأرسلت تميم إلى الأزد : إنا لم نتعرض لجاركم

(١) الزيادة من ابن الأثير .

فما تريدون إلى جارنا ؟ فكرهت الأزد قتالهم ، وقالوا : إن عرضوا لجارنا منعناه .

وكتب زياد إلى على بخبر أعْيَن وقتله ، فأرسل علىّ جارية بن قُدَامة السَّعدىّ وهو من بنى سعد من تميم ، وبعث معه خمسين رجلا من تميم ، وقيل : خمسمائة رجل ، وكتب إلى زياد يأمره بمعونته والإشارة عليه .

فقدم جارية البصرة ، فحذَّره زياد ما أصاب أعْيَن ، فقام جارية فى الأزد وجزاهم خيرا ، وقال :عرفتم الحقَّ إذ جهله غيركم. وقرأ كتابَ علىّ إلى أهل البصرة يُوبِّخهم ويتهـددهم ويعنفهم ويتوعدهم بالمسير إليهم والإيقاع بهم وقعة تكون وَقْعة الجمل عندها هَباءً . فقال صَبْرة ابن شَيْمان : سمعًا لأمير المؤمنين وطاعة : نحن حرب لمن حاربه ، وسلم لمن سالمه . وصار جارية إلى قومه فقرأ عليهم كتاب علىّ رضى الله عنه ووعدهم ، فأجابه أكثرهم .

فسار إلى ابن الحضرمىّ ومعه الأزد ومن تبعه من قومه ، وعلى خيل ابن الحضرمىّ عبد الله بن حازم السُّلَمىّ ، فاقتتلوا ساعة ، وأقبل شَرِيك ابن الأعور فصار مع جارية ، فانهزم ابن الحضرمىّ فتحصن بقصر سنْبيل ومعه ابن حازم ، [فأتته] [1] أمه عَجْلى وكانت حبشية ، فأمرته بالنزول فأبى ، فقالت: والله لتنزلنَّ أو لأنزعنَّ ثيابى. فنزل ونجا ، وأحرق جارية القصر بمن فيه ، فهلك ابن الحضرمىّ وسبعون رجلا منهم معه ، وعاد زياد إلى القصر .

(١) فى الأصل « فأمر أمه عجلى . . . . » الخ .
وما أثبتناه عن ابن الأثير .

قال وكان قصر سنْبِيل لفارس وصار لسنْبِيل السعدىّ ، وحوله خندق .
وكان فيمن احترق دراع بن بدر أخو حارثة بن بدر ، فقال عمرو بن العَرَنْدَس :

رَدَدْنَـــا زيادًا إلَى داره وجار تميمٍ دُخانًا ذَهبْ
لَحا اللهُ قومًا شَوَوْا جارَهم ولم يَدْفعُوا عنه حَرَّ اللَّهبْ

وقال جرير [1] :

غَدَرْتُمْ بالزُّبَيْر فما وَفيْتُمْ وَفاء الأَزدِ إذ مَنعوا زيادَا
فأَصبح جارُهم بنجَاةِ عِـزٍّ وجارُ مُجاشعٍ أَمْسَى رَمادَا
فلو عاقدتَ حَبْلَ أَبى سعيـدٍ لَذادَ القومَ ما حَمَلَ النِّجَادَا
وأَدْنَى الخيلَ مِنْ رَهَجِ المنايَا وأَغشاها إلاسِنَّةَ والصِّعادَا [2]

قال [3] : وحَجَّ بالناس فى هذه السَّنة قُثَم بن العبَّاس من قبل علىّ [4] رضى الله عنهم .

سنة تسع وثلاثين

فى هذه السَّنة بَثَّ معاوية سراياه فى بلاد على رضى الله عنه ، فكان من خبرهم مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار معاوية .

وفيها استعمل علىّ رضى الله عنه زياد بن أبيه على كِرْمان وفارس فضبطها بعدأن اضطربت أمورها [5] .

---

(١) انظر ديوان جرير ص ١٤٢ – ١٤٣ .
(٢) الصعاد : الرماح ، والصعدة – فى الأصل – : القناة المستوية .
(٣) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٨٨
(٤) وكان قثم عاملا لعلى على مكة ، كما قال ابن الأثير .
(٥) قال ابن الأثير : سبب ذلك أنه لما قتل ابن الحضرمى واختلف الناس على على ، طمع أهل فارس وكرمان فى كسر الخراج فطمع أهل كل ناحية وأخرجوا عاملهم .الخ

وحَجَّ بالناس فى هذه السَّنة عُبيد الله بن عباس من قبل علىّ ، وقيل : قُثَم بن العباس ، وقيل : إن معاوية بعث يزيد بن شَجْرة الرَّهاوىّ ليحجّ [بالناس فاختلف هو وعبيد الله بن عباس ، ثم اتفقا على أن يحج] (١) بالناس شَيْبة بن عثمان فحَجّ . والله أعلم .

وفيها تَوجّه الحارث بن مُرَّة العبدى إلى بلاد السِّنْد غازيا متطوعا بأمر علىّ رضى الله عنه فغنم وأصاب سبيا كثيرا ، وقسم فى يوم واحد ألف رأس وبقى غازيًا إلى أن قُتِل بأرض القيقان هو ومن معه [إلا قليلا] (٢) فى سنة اثنتين وأربعين .

سنة اربعين

فى هذه السَّنَة بعث معاوية بُسْر بن أَرْطاة إلى الحجاز واليَمَن ، ففعل من الأفعال القبيحة وسفك من الدماء المحرمة مانذكره فى أخبار معاوية .

وفيها جرت مهادنة بين علىّ ومعاوية بعد مكاتبات طويلة على وضع الحرب ، ويكون لعلى العراق ولمعاوية الشام لايدخل أحدهما بلد الآخر بغارة ، واتفقا على ذلك .

وفيها فارق عبد الله بن عباس البصرة ولحق بمكة فى قول أكثر أهل التاريخ ، وسبب ذلك أنه مر بأبى الأسود فقال له : « لو كنت من البهائم لكنت جَمَلا ، ولو كنت راعيا لما بلغت المرعى » . فكتب أبو الأَسْوَد إلَى علىّ رضى الله عنه : « . . . إن ابن عمك قد أكل

(١) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) وبها يظهر وجه الكلام ، وسقط من النسخة (ك)
(٢) الزيادة من ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٩١ .

ماتحت يده بغير علمك ، ولم يسعني كتمانك رحمك الله ، فانظر فيما هناك وكتب إليّ برأيك فيما أحببتَ والسلام » .

فكتب إليه عليّ : « أما بعد فمثلك من نصح الإمام والأُمة ، ووالى على الحقّ ، وقد كتبتُ إلى صاحبك فيما كتبتَ إليّ ، ولم أُعلمه بكتابك فلا تدع إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح ، فإنك بذلك جدير ، وهو حق واجب عليك والسلام .

وكتب إلى ابن عباس في ذلك ، فكتب إليه ابْن عباس : « أمّا بعد فإن الذي بلغك باطل ، وإني لما تحت يدي ضابط ، وله حافظ ، فلا تُصدِّق الظَّنين[1] والسلام . فكتب إليه عليّ : أمّا بعد ، فأعلمني ما أخذت من الجزية ، ومن أين أخذت ، وفيما وضعت » .

فكتب إليه ابن عباس : « أمّا بعد ، فقد فهمت تعظيمك مَرْزأة ما بلغك أني[2] رَزَأْتُه من أهل هذه البلاد ، فابعث إلى عملك من أحببت فإنّي ظاعن عنه والسلام » .

واستدعى أخواله بني هلال بن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ، فحمل مالاً وقال : هذه أرزاقنا اجتمعت ، فتبعه أهل البصرة ، فلحقوه بالطَّفّ يريدون أخذ المال فقال قيس : والله لايوصَل إليه وفينا عين تَطْرِف . فقال صَبْرة بن شَيْمان الحُدَّانيّ : « يامعْشر الأزد إن قيسا إخواننا وجيراننا وأعواننا على العدوّ ، وإن الذي يصيبكم من هذا المال القليل ، وهم لكم خير من المال » . فأطاعوه ، فانصرفوا وانصرف معهم بكر وعبد القيس .. وقاتلهم بنو تميم فنهاهم الأحنف ، فلم يسمعوا

(١) كذا جاء في النسخة (ن) مثل الكامل ، وجاء في (ك) : « الضنين » .
(٢) رزأه ماله : أصاب منه شيئا .

منه ، فاعتزلهم ، وقاتلهم بنو تميم فحجز النـاس بينهم .. ومضى ابن عباس إلى مكة المشرفة .

وقيل بل أقام بالبصرة إلى أيام الحسن ـ رضى الله عنه وأرضاه ، وشهد صلح الحسن ومعاوية .

والأول أصح ، والذى شهد الصلح عُبيد الله بن عباس .

ذكر مقتل على بن أبى طالب

رضى الله عنه وشىء من سيرته

كان مقتله فى شهر رمضان سنة أربعين ليلة الجمعة . قيل : لسبع عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : لإحدى عشرة ليلة . وقيل : فى شهر ربيع الآخر . والأول أصح .

وقاتله عبد الرحمن بن مُلْجَم المرادىّ ثم التَّجُوبىّ[1] ، وأصله من حِمْير ، ولم يختلفوا [2] فى أنه حليفٌ لمُراد ، وعداده فيهم .

وكان سبب قتله أن عبد الرحمن هذا ، والبُرَك بن عبد الله التَّميمى الصريمى واسمه الحجاج ، وعمرو بن بكر التَّميمىّ السَّعدىّ وهم من الخوارج ، اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس ، وعابوا وُلاتهم ، ثم ذكروا أهل النَّهروان ، وقالوا : « ما نصنع بالبقاء بعدهم ؟ فلو شَرَيْنا نفوسنا ، وقتلنا أئمة الضَّلالة ، وأرحنا منهم البلاد ! » . فقال ابن مُلْجَم : أنا أكفيكم عليا . وقال البُرَك : أنا أكفيكم معاوية

(١) فى القاموس « تجوب : قبيلة من حمير » وانظر فى الاستيعاب ج ٣ ص ٥٦ سبب التسمية .

(٢) هذا من كلام ابن عبد البر فى الاستيعاب .

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا على ذلك ، وسمُّواسيوفهم واتَّعَدُوا لسَبْعَ عشرةَ من رمضان ، وقصد كل منهم الجهة التى يريدها .

فأما البُرَك بن عبد الله فإنه توجه إلى معاوية ، فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف فوقع فى أَلْيته ، وأُخذ فقتل . وقيل : لم يقتله وإنما قطع يده ورجله . وبعث معاوية إلى الساعديّ ، وكان طبيبا ، فقال له : « اختر إمّا أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف ، وإما أن أسقيك شَرْبة تقطع منك الولد » . فقال : « أمّا النارفلا صبرلى عليها ، وأما الولد ففى يزيد وعبد الله ماتَقَرُّ به عينى . فسقاه شربة فبرئ ولم يولَد له بعدها .

وأما عمرو بن بكر ـ فإنه جلس لعمرو بن العاص فى تلك الليلة ، فما خرج لشكاية نالته فى بطنه ، فأُمر خارجة ابن حبيبة ـ وكان صاحب شُرْطته ـ أن يصلى بالناس ، فخرج ليصلّى ، فشَدَّ عليه وهو يَرَى أنه عمرو بن العاص فقتله . فأُتى به إلى عمرو فقال : من هذا ؟. قالوا : عمرو . قال ومن قتلتُ ؟ قالوا : خارجة . قال : أما والله ماظننته غيرك. فقال : أردتَنى وأراد الله خارجة ؛ وقتله عمرو . هكذا نقل ابن الأثير فى تاريخه الكامل [1] فى هذه الواقعة فى القاتل والمقتول .

(١) ج ٣ ص ١٩٨ .

وقال أبو عمر بن عبد البر[1] : إن القاتل اسمه زاد ويه رجل من بنى العَنْبر بن عمرو بن تميم ، قال وقيل : مولى لبنى العَنْبر . وفى المقتول إنه خارجة بن حُذَافة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد ابن عويج بن عدّى بن كعب القرشىّ العدوىّ ، وأمه فاطمة بنت عمرو بن بُجْرة العَدويّة . وقال فى ترجمته : كان أحد فرسان قريش ، يقال : إنه كان يعدل بألف فارس ، قال : وذكر بعض أهل النسب والأخبار أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر ليمدّه بثلاثة آلاف فارس ، فأمدّه بالزّبير بن العوام ، والمِقداد بن الأسْود ، وخارجة بن حُذافة هذا ، وقال : إنه لما قُتِل وأُدخل القاتل على عمرو فقال : من هذا الذى تدخلونى عليه ؟ فقالوا : عمرو بن العاص ، فقال : ومن قتلته ؟ قيل : خارجة ، فقال : أردت عمراً وأراد الله خارجة ، وقيل : إن ذلك من كلام عمرو كما تقدم . وفى ذلك يقول عبد الجيد بن عبدون :

وليتها إذ فَدَتْ عَمْرًا بخارجةٍ فَدَتْ عليا بمن شاءت من البشر

وأمّا عبد الرحمن بن مُلْجَم — لعنه الله تعالى آمين — فإنه أتى الكوفة واشترى سيفا بألف ، وسقاه السم حتى لقطه ، وكان فى خلال ذلك يأتى عليا رضى الله عنه فيسأله فيعطيه ، ويستحمله فيحمله ، إلى أن وقعت عينه على قَطَام بنت علقمة ، وهى تَيْم الرِّبَاب ، وقيل هى من بنى عِجْل بن لُجَيْم ، وكانت تَرى رأىَ الخوارج ، وكان علىٌّ قد قتل أباها وإخوتها بالنَّهْرَوان ، وكانت امرأة رائعة جميلة ، فأعجبته وأخذت بمجامع قلبه ، فخطبها ، فقالت : لقد آليْت أن لا أتزوج إلاّ على مهر لا أريد سواه . فقال : وما هو ؟ فقالت : ثلاثة آلاف

(٢) فى الاستيعاب ج ١ ص ٤٢٠ — ٤٢١ .

درهم وعبد وقَيْنة وقتل على بن أبى طالب . فقال : « والله لقد قصدت لقتل على بن أبى طالب والفتك به ، وما أقدمنى إلى هذا المصر غيرُ ذلك ، ولكنى لما رأيتك آثرت تزويجك » . فقالت : ليس إلاَّ الذى [قلت لك . فقال لها : « وما يَعْنيكك أو يعنينى [1] منك قتلُ علىٍّ ؟ وأنا أعلم أنى إن قتلته لم أَفُت » . فقالت : « إن قتلته ونجوتَ فهو الذى أردت ، تبلغ شفـاء نفسى ويهنيك العيش معى ، وإن قُتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها » . فقال لها : لك ما اشترطتِ

ففى ذلك يقول ابن مُلْجَم :

ثلاثة آلاف وعبدٌ وقَيْنَةٌ وضرب علىٍّ بالحُسام المصَمَّم
فلا مَهْر أغْلى من علىٍّ وإن غلا ولا فَتْك إلاَّ دُونَ فَتْك ابن مُلْجم

[وقد رويت هذه لغيره ، وأولها :] [2]

فلم أر مهْرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فَصيح وأعْجَم

وقالت قَطَامِ له : إنى سألتمس لك من يَشُدّ ظهرك . فبعثت إلى ابن عم لها يدعى وَرْدَان بن مجالد ، فأجابها .

ولقى ابن مُلجم شَبِيبَ بن بَجَرة الأشجعى فقال له : ياشَبِيب هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ قال : وما هو ؟ قال : تساعدُنى على قتل علىٍّ بن أبى طالب ، فقال : « ثكِلَتْك أمُّك ! لقد جئت شيئًا إدًّا ، كيف تقدر على ذلك ؟ » قال : « إنه رجل لاحَرَس له ، ويخرج إلى المسجد منفردا دون من يَحرُسه ، فنكمن له فى المسجد ،

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الاستيعاب ج ٣ ص ٥٨ والرياض النضر ج ٢ ص ٢٤٦ « وما يغنينى وماذا يغنينى منك » بالغين المعجمة فى الكلمتين .

(٢) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) . وقد روى ابن جرير الأبيات الثلاثة لابن مياس المرادى .

فإذا خرج إلى الصلاة قتلناه ، فإن نجونا نجونا ، وإن قُتلنا سَعِدنا بالذكر فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة » . فقال : « ويلك ! إن علياً ذو سابقة فى الإسلام وفَضْل ، والله ماتنشرح نفسى لقتله » . قال: « ويلك ! إنه حكَّم الرجال فى دين الله ، وقَتَل إخواننا الصالحين ، فنقتله ببعض من قَتَل ، فلا تشُكَّن فى دينك » . فأجابه ، وأقبلا حتى دخلا على قَطَام ، وهى معتكفة فى المسجد الأعظم فى قُبَّة ضربتْها لنفسها ، فدعتْ لهم .

وأخذوا أسيافهم وجلسوا قُبَالَة السُّدّة التى يخرج منها علىٌّ رضى الله عنه ، فخرج إلى صلاة الصبح يوم الجمعة ، فبدره شَبِيب فضربه فأخطأه ، ووقع سيفه بعِضَادة الباب ، وضربه عبد الرحمن بن ملجم على رأسه ، وقال : الحكم لله ياعلىُّ لالك ولا لأصحابك . فقال علىّ رضى الله عنه : فُزْتُ ورب الكعبة ! لايفوتنكم الكلب ! .

وهرب شبيب خارجا من باب كِنْدَة ، فلحقه رجل من حَضْرَمَوْت يُقال له : عُوَيْمَر ، فصرعه ، وأخذ سيفه ، وجلس على صدره فصاح الناس : عليكم بصاحب السيف ، فخاف عويمر على نفسه فتركه ونجا ، فهرب شبيب فى غمار الناس .

وهرب وَرْدَان إلى منزله ، فأتاه رجل من أهله ، فأخبره وَرْدان بما كان ، فانصرف وجاء بسيفه وقتل وردان .

وأما ابن ملجم فإنه لما ضرب عليّاً حمل على الناس ، فأفرجوا له ، فتلقَّاه المغيرة بن الحَكَمَ بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب ، فرمى عليه قَطِيفَة واحتمله وصرعه وقعد على صدره .

واختلفوا : هل ضربه فى الصلاة ؟ أو قبل الدخول فيها ؟ وهل استخلف من أتمّ بهم الصلاة أو هو أتمها ؟ قال أبو عمر بن عبد[١] البر : والأكثر أنه استخلف جَعْدَة[٢] بن هُبَيْرة ، فصلّى بهم تلك الصلاة .

قال :[٣] ثم قال على رضى الله عنه لأصحابه حين أخذوا ابن ملجم : احبسوه فإن مِتُّ فاقتلوه ولا تمثلوا به ، وإن لم أمت فالأمر إلى فى العفو أو القصاص .

وقيل[٤] : إنه قال لهم : « النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه وإن بقيت رأيت فيه رأيى ، يابنى عبد المطلب لاألفيتكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون : قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يُقْتَلَنَّ إلا قاتلى » .

وأتت[٥] أم كلثوم ابنة على رضى الله عنهما إلى ابن مُلْجَم وهو مكتوف فقالت : « أى عدو الله ، إنه لابأس على أبى ، والله مُخزيك » . قال : فعَلَى من تبكين ؟ والله لقد شريته بألف وسممّته بألف ، ولو كانت الضربة بأهل مصر مابقى منهم أحد .

قال : ثم أوصَى علىّ رضى الله عنه أولاده بتقوى الله ، ولم ينطق إلا بقول « لاإله إلا الله » حتى مات رضى الله عنه وأرضاه .

روى[٦] عن صُهَيْب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ

---

(١) فى الاستيعاب ج ٣ ص ٥٥٩ .
(٢) أم جعدة هى أم هانىء أخت على بن أبى طالب .
(٣) أبو عمر ابن عبد البر .
(٤) انظر الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٩٦ .
(٥) انظر تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ١١٢ والكامل .
(٦) انظر لهذه الرواية وما بعدها الاستيعاب ج ٣ ص ٦٠ — ٦١ .

رضى الله عنه : من أشقَى الأولين؟ : قال : الذى عَقَر الناقة . قال : فمن أشقى الآخرين ؟ قال ؟لا أدرى . قال : « الذى يضربك علَى هذا » يعنى يافُوخه ، « فيَخْضب هذه » يعنى لحيته .

وعن ثعلبة الجُمَانى قال : سمعت على بن أبي طالب رضى الله عنه يقول : والذى فلق الحبَّة وبرأ النَّسَمة لتُخضبن هذه (يعنى لحيته) من دم هذا (يعنى رأسه) .

وروى النسائى من حديث عمار بن ياسر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أشقى الناس الذى عقر الناقة والذى يضربك على هذا ـ ووضع يده على رأسه ـ حتى تُخضب هذه ، (يعنى لحيته) .

وعن ابن سِيرِين عن عَبِيدة قال : كان على بن أبي طالب رضى الله عنه إذا رأى ابن ملجم قال [1] :

أريـد حياته[2] ويريد قتـلى عَذِيرَكَ[3] من خليلك من مراد

(١) قال على رضى الله عنه هذا البيت متمثلا به ، وهو من قصيدة لعمرو بن معد يكرب الزبيدى قالها لابن أخته قيس بن مكشوح المرادى ، وكان بينهما تباعد وتنافس فكان مما قاله قيس :

فلو لاقيتنى لا قيت قرنـا وودعت الأحبـة بالسلام

ومما قاله عمرو بن معد يكرب :

تمنانى ليلقانى قييـس وددت وأينما منى ودادى

« قييس » تصغير « قيس » . ويروى « أبى » .

أريـد حياته ويـريد قتلى عـذيرك من خليلك من مـراد

ولو لاقيتنى ومعى سـلاحى تكشف شحم قلبك عن سـواد

وقوله (أريد حياته ويريد قتلى) مما كثر التمثل به وإدخاله فى الشعر ، فقد تمثل به عبيد الله بن زياد كما سيأتى وتمثل به غيرهما .

(٢) هكذا جاء فى بعض الروايات . وجاء فى بعض الروايات « حباءه » والحباء : العطية ، قال البغدادى فى خزانة الأدب ج ٤ ص ٢٨١ : « يقول : أريد نفعه وحباءه مع إرادته قتلى وتمنيه موتى فمن يعذرنى منه ؟

ويروى : أريد حياته » .

(٣) فى خزانة الأدب : البيت من شواهد سيبويه : قال الأعلم : الشاهد فيه نصب عذيرك =

وكان عليّ رضى الله عنه كثيرا ما يقول : ما يمنع أشقاها - أو ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه من دم هذا - ويشير إلى لحيته ورأسه - خِضابَ دمٍ لاخِضابَ عِطْر ولا عَبِير ؟ .

وروى عمر بن شَبَّة عن أبي عاصم النَّبِيل (١) وموسى بن إسماعيل عن سُكَيْن بن عبد العزيز العبدى ، أنه سمع أباه يقول : جاء عبد الرحمن [بن ملجم] (٢) يستحمل عليا فحمله ، ثم قال :

أريد حياتَه ويُريد قَتْلى عَذِيرَك مِن خَليلك من مُراد

أما إن هذا قاتلى . قيل : فما يمنعك منه ؟ قال : إنه لم يقتلنى بعدُ .

وأُتِى علىٌّ رضى الله عنه فقيل له : ابن مُلْجَم يَسُمّ سيفه ، ويقول : إنه سيفتِك به فَتْكَةً يتحدّث بها العرب . فبعث إليه فقال له : لِمَ تَسُم سيفَك ؟ قال لعدوِّى وعدوِّك . فخلَّى عنه .

وفى كلام على رضى الله عنه يقول بكر بن حماد (٣) :

وهَزَّ علىٌّ بالعراقَيْن لحيـــــةً مصيبتُها حلت علَى كلِّ مُسلِم
فقال : سيأتيها من الله حادث ويَخْضِبها أشقَى البريَّة بالدَّم
فباكَرَه بالسيف شُلَّتْ يمينُه لِشُؤْم قَطَامِ عند ذاك ابن مُلْجَمِ
فياضربةً من خاسر ضَلَّ سَعْيُه تَبَوَّأ منها مَقْعَدا فى جهنَّمِ

=ووضعه موضع الفعل بدلا منه ، والمعنى هات عذرك ، والتقدير : اعذرنى منه عذرا ، واختلف فى العذير ، فمنهم من جعله مصدرا بمعنى العذر ، وهو مذهب سيبويه ، ومنهم من جعله بمعنى عاذر كعليم وعالم» . وانظر سيبوية ومعه الأعلم فى الكتاب ج ١ ص ١٣٩ .

(١) أبو عاصم النبيل : الضحاك بن مخلد بن الضحاك الشيبانى .

(٢) الزيادة من الاستيعاب ج ٣ ص ٦٠ حيث نقل المؤلف .

(٣) فى الاستيعاب ج ٣ ص ٦٦ « فيها » .

ففاز أمير المؤمنين بحَظِّـــه وإن طَرَقَت فيه الخطُوب بمعظم
ألا إنما الدنيـا بلاءٌ وفِتنـةٌ حلاوتُها شِيبَت(١) بِصَابٍ وعَلْقَم

وحكى عن عثمان بن المغيرة قال : لما دخل رمضان ، كان على رضى الله عنه يتعشى ليلة عند الحسن رضى الله عنه ، وليلةً عند الحسين ، وليلةً عند ابن جعفر رضى الله عنهم ، لايزيد على ثلاث لُقَم ، ثم يقول رضى الله عنه : يأتينى أمر الله وأنا خَمِيصٌ (٢) ، وإنما هى ليلة أو ليلتان ، فلم يمض قليل حتى قتل .

وقال الحسن (٣) ابن كثير عن أبيه قال : خرج علىّ رضى الله عنه (٤) من الفجر ، فأقبل الإوَزّ يصحن فى وجهـه ، فطردوهن عنه ، فقال : ذَرُوهُنّ فإنّهن نَوَائِح ، فضربه ابن ملجم فى ليلته .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهما يوم قُتل على : خرجت البارحة وأبى يصلّى فى مسجد داره ، فقال لى : « يابنى إنى بِتُّ أُوْقِظ أهلى لأنها ليلة الجمعة صبيحة بدر (٥) فملكتنى عيناى فنمت ، فسنَحَ(٦) لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ماذا لقيتُ من أمتك من الأَوَدِ واللّدد(٧) ، فقال لى : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم من هو خير منهم وأبدلهم بى من هو

(١) شيبت : مزجت .
(٢) خميص : جائع .
(٣) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وفى الرياض النضرة : « الحسين بن كثير » ، وفى النسخة (ك) : « الحسن بن كرب » .
(٤) فى الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٤٥ حيث ذكر هذا الحديث : « إلى الفجر » .
(٥) ذكر ابن عبد البر فى آخر روايته لهذا الحديث فى الاستيعاب ج ٣ ص ٦٢ « وذلك فى صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان : صبيحة بدر » .
(٦) سنح : عرض .
(٧) جاء فى هامش النسخة (ك) : « الأود : العوج ، واللدد : الخصومة » .

شر منى » فجاء ابن النَّبّاح [١] فآذَنَه بالصلاة فخرج ، وخرجت خلفه ، فضربه ابن ملجم فقتله .

وروى أبو عمر ابن عبد البر بسنده إلى عبد الله بن مالك قال : جُمِع الأَطبَّاء لعلىّ رضى الله عنه يوم جُرِح ، وكان أبصرهم بالطب أُثَيْر بن عمْر السَّكُونى ، وكان يقال له : أُثَيْر بن عمريا ، وكان صاحب كِسرَى يتطبَّب له ، وهو الذى يُنسب إليه صحراء أُثَير [٢] ، فأَخذ أُثير رئةَ [شاة] [٣] حارَّة [٤] ، فتتبع عرقا منها فاستخرجه فأَدخله فى فى جراحة على ، ثم نفخ العرق فاستخرجه فإذا علَيه بياض دماغ . وإذا الضربة قد وصلت إلَى أم رأسه ، فقال : ياأمير المؤمنين اعهد عهدك فإنك ميِّتٌ .

وفى ضربة ابن ملجم يقول عِمْران بن حِطَّان الخارجى يمدح ابن مُلْجَم :

لله دَرُّ المُرادي الذى سفكَتْ كَفَّاه مُهْجَة شرِّ الخلق إنسانا
أَمْسَى عَشِيَّةَ غَشَّاه بضربتـــه مِمَّا جناه من الآثام عريانا
يا ضربةً من تَقىٍّ ما أَراد بهـا إلا ليبلغَ من ذى العرش رِضْوانا
إنى لأَذكره حينا فأَحسبـــه أَوْفَى البرية عند الله ميزانا

(١) فى الاستيعاب والرياض النضرة : « ثم انتبه ، وجاءه مؤذنه بالصلاة » ، واسم مؤذنه : عامر بن النباح .

(٢) بالكوفة .

(٣) الزياده من الاستيعاب حيث نقل المؤلف ، ومن معجم البلدان لياقوت .

(٤) أى : حديثة الذبح .

فقال بَكْر بن حماد التَّاهَرْتى (١) معارضًا له :

قل لابن مُلْجَمٍ والأقدارُ غالبةٌ ... هدمتَ ويحك للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشى على قدم ... وأولَ الناس إسلاما وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما ... سَنَّ الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهْر النبىِّ وَمَولاه وناصره ... أضحت مناقبُه نورا وبرهانا
وكان منه على رغم الحَسُودِ له ... مكان هارون من موسَى بن عمرانا
وكان فى الحرب سيفا صارِمًا ذكَرا ... ليثا إذا لقِىَ الأقرانُ أقرانا
ذكرتُ قاتله والدمع مُنْحَدِرٌ ... فقلت: سبحانَ رَبِّ الناس سبحانا
إنى لأحسبه ما كان من بشر ... يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقَى مُرادٍ إذا عُدَّت قبائلها ... وأخسَر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الأُولَى التى جلَبت ... علَى ثَمُودَ بأرض الحِجْر خُسْرانا
قد كان يخبرهم أن سوف يَخْضِبها ... قبل المنيَّة أزمانا فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمَّلَه ... ولا سَقَى قبر عِمران بن حِطَّانَا
لقوله فى شقى ظل مُجْتَرِمًا ... ونال ما ناله ظلما وعدوانا :
« ياضربةً من تقىٍّ ما أراد بها ... إلاَّ ليبلغَ من ذِى العرشِ رِضْوانا »
بل ضربة من غوى أوردته لَظَى ... فسوف يلْقَى بها الرحمن غَضبانا
كأنه لم يُرِدْ قصْدًا بضربته ... إلَّا لِيصْلَى عذاب الخُلْد نيرانا

(١) التاهرتى : منسوب إلى « تاهرت » بفتح الهاء وسكون الراء ، مدينة ببلاد المغرب ، وكان أبو عبد الرحمن بكر بن حماد من حفاظ الحديث بهذه المدينة ، وهو القائل:

ما أخشن البرد وريعانه ... وأطرف الشمس بتاهرت !
تبدو من الغيم إذا ما بدت ... كأنما تنشر من تخت
فنحن فى بحر بلا لجة ... تجرى بنا الريح على سمت

وأبياته النونية التى ذكرها المؤلف تجدها فى الاستيعاب ج ٣ ص ٦٢ — ٦٣ ومروج الذهب ج ٢ ص ٤٣ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٩٩ .

وقالت أم الهَيثَم بنت العريان النخعية ، ومنهم من يرويها لأبى الأسود الدؤلى[١] :

أَلا يا عَيْنُ وَيْحَكِ أَسْعِدينـــا ... أَلاَ تَبكى أَميرَ المؤمنينـــا
تُبَكِّى أُم كُلْثُومٍ علَيـــه ... بعَبْرَتِها فقد رَأَتِ اليقينـــا
أَلا قُلْ للخوارج حيثُ كانوا ... فلاقَرَّتْ عيونُ الشامتينـــا
أَفِى شهر الصيام فجَعْتُمُونا ... بخَير الناس ضُرًّا أَجْمَعينـا
قتلتم خيرَ مَنْ ركب المَطَايَا ... وذَلَّلَها ومَن ركب السَّفِينا
ومَن لَبِسَ النعال ومن حَذَاها ... ومن قَرأَ المثَانِىَ والمبينا[٢]
وكلُّ مَناقِب الخَيرات فيـــه ... وحبُّ رسول ربِّ العالمينـا
لقد عَلِمَتْ قُرَيْشٌ حَيْثُ كانت ... بأَنك خيرُهم حسبا ودينـا
إذا أستقبلتَ وَجْهَ أَبى تُرَاب[٣] ... رأَيت البَدْر فوق الناظرينـا
وكنَّا قبلَ مقتَلِهِ[٤] بخَيْرٍ ... تَرَى مَوْلَى رسول الله فينا
يُقِيمُ الحقَّ لا يَرتاب فيـه ... ويَعْدِلُ فى الْعِدَا والأَقْرَبِينا

(١) عبارة الاستيعاب ج ٣ ص ٦٦ حيث نقل المؤلف : « وقال أبو الأسود الدؤلى ، وأكثرهم يرويها لأم الهيثم بنت العريان النخعية » ، والشعر منسوب إلى أبى الأسود فى ديوانه ص ١٧٤ — ١٧٥ وفى إنباه الرواة ج ١ ص ١٩ والأغانى ج ١٢ ص ٣٢٩ بعد أن ذكر خطبة أبى الأسود إثر مقتل على وأن معاوية كتب إليه ودس إليه رسولا يعده ويمنيه فقال هذه الأبيات ، ونسبها أبو الفرج الأصبهانى نفسه فى كتابه (مقاتل الطالبيين) ص ٤٣ إلى أم الهيثم بنت الأسود النخعية . ومما ينظر إليه ذكر الهيثم بن الأسود بن العريان فى البيان والتبيين ، وهو نخعى ، قال صاحب الإصابة ج ٣ ص ٦٢١ يكنى « أبا العريان » .

(٢) المبين : القرآن ، وفيه إشارة إلى الآية ١٠ من سورة الحجر .

(٣) فى الاستيعاب « أبى حسين » .

(٤) كذا جاء فى النسخة (ن) والاستيعاب ، وفى النسخة (ك) : « موتته » .

وليس بكاتمٍ عِلْمًا لَدَيْـــه ولم يُخْلَقْ من المتجبِّرينـــا
كأنَّ الناسَ إذْ فَقَدوا عليا نَعَامٌ حَارَ فى بَلَدٍ سِنِينـــا
فلاتشمَتْ مُعاوية بن صَخْر فإنَّ بقيـــة الخلفاء فينـــا

قال : ولما مات علىٌّ رضى الله عنه غسله ابناه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، وكُفِّن فى ثلاثة أثْوَاب لَيس فيها قميص ، وصلَّى علَيه ابنه الحسن ، وكبَّر سبع [1] تكبيرات .

قال : ولمَّا قُبِضَ رضى الله عنه بَعَث الحسنُ رضى الله عنه إلى ابن مُلْجَم فأحضره ، فقال للحسن : « هل لك فى خصلة ؟ إنى واللهِ أعطَيْتُ اللهَ عهدا أن لا أعاهد عهدا إلاَّ وفيتُ به ، وإنى عاهدت الله عند الحَطِيم أن أقتل عليا ومُعاوية أو أموتَ دونهما ، فإن شئتَ خلَّيْتَ بَيْنى وبَيْنه ، ولك عَهْدُ الله على أنى إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتِيك حتَّى أضع يدى فى يدك » . فقال له الحسن : لا والله . ثم قدّمه فقتله ، فأخذه الناس فأدرجوه فى بوَارِى [2] وحَرّقوه بالنار .

واختلف فى موضع قبر علىٍّ رضى الله عنه ، فقيل : دفن فى قصر الإمارة بالكوفة ، وقيل : فى رحْبَة الكوفة ، وقيل : دفن بنَجَفِ

(١) كذا جاء فى المخطوطة والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٩٧ ، وجاء فى تاريخ ابن جرير ج ٤ ص ١١٤ : « تسع تكبيرات » ، وجاء فى الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٤٧ « أربع تكبيرات » .

(٢) البوارى : جمع البورى وهو الحصير المنسوج من القصب .

الحيرة فى موضع بطريق الحيرة ، وقيل : عند مسجد الجماعة [١] ، وقال الواقدى : دُفن ليلا وأُخفى قبره .

وكانت مدة خلافته خمس سنين إلاَّ ثلاثة أشهر ، وقيل : أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام ، وقيل : وثلاثة أيام ، وقيل : وأربعة عشر يوما .

وكان عمره ثلاثا وستين سنة ، وقيل : خمسا وستين ، وقيل : تسعا وخمسين ، والأول أصح .

وأما سيرته رضى الله عنه فى خلافته فقد تقدمَّ من فضائله ما قدّمناه فى صدر هذا الفصل .

وكان من سيرته رضى الله عنه أنه يسير [٢] فى الفَىء بسيرة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه فى القسم ، وإذا ورد عليه مال لم يُبق منه شيا إلا قسمه ، ولا يترك فى بيت المال إلا ما يَعْجِز عن قسمته فى يومه ذلك ، ويقول : يادنيا غُرِّى غيرى ، ولم يكن يستأثر من الفَىْء بشىء ، ولا يخصُّ به حميما ولا قريبا .

وروى أبو عمر [٣] بسنده إلى مُجَمِّع التميمى [٤] أن عليا رضى الله عنه قسم مافى بيت المال بين المسلمين ، ثم أمر به فكُنِس ، ثم صلَّى فيه رَجَاء أن يشهد له يوم القيامة [٥] .

---

(١) جاء فى تاريخ ابن جرير ج ٤ ص ١١٧ : « ودفن عند مسجد الجماعة فى قصر الإمارة » .

(٢) انظر الاستيعاب لأبى عمر بن عبد البر ج ٣ ص ٤٧ .

(٣) فى الاستيعاب ح ٣ ص ٤٩ وكذلك ما بعده .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الاستيعاب : « التيمى » .

(٥) وانظر الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٩ .

وبسنده إلى سُفيان عن عاصم بن كُلَيب عن أبيه قال : قدِم على عليٍّ المالُ من أصْبهان ، فقسمه سبعة أسباع ، ووجد فيه رغيفا فقسمه سبع كِسَر ، وجعل على كل جزء كِسرة ، ثم أقْرَع بينهم : أيُّهم يُعْطَى أولا .

وعن مُعاذ [١] بن العلاء عن أبيه عن جده قال : سمعت على بن أبي طالب يقول : ما أصبتُ فيكم [٢] إلا هذه القارُورَة أهداها إليَّ الدهْقَان ، ثم نزل إلى بيت المال ففرَّق كُلَّ مافيه ، ثم جعل يقول :

أفلح من كانت له قوصرَّه [٣] يأْكل منها كل يوم تَمْره [٤]

وعن عنترة الشيباني قال : كان على رضى الله عنه يأْخذ الجزية والخراج من أهل كل صناعة من صناعته وعمل يده ، حتى يأْخذ من أهل الإبر والمسالّ والخيوط والحبال ، ثم يقسمه بين الناس ، ولا يدع فى بيت المال مالاً يَبيت فيه حتى يقسمه ، إلا أن يغلبه شغل ، فيصبح إليه وهو يقول . يادُنْيا لاتَغُرِّيني وغرِّى غيرى .

وكان [٥] رضى الله عنه لا يخصص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات ، وإذا بلغه عن أحدهم خيانة كتب إليه : ﴿ قَدْجَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِنْ ربكم ﴾ [٦] ﴿ وأَوفُوا الْكَيْلَ والمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » ﴾ [٧] ﴿ وَلاَ تَبخَسُوا

(١) رواه أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب ج ٣ ص ٤٩ .
(٢) فى الاستيعاب : « من فيئكم » .
(٣) قوصرة بشد الراء وتخفف : وعاء للتمر ، وانظر اللسان .
(٤) ويروى : مره .
(٥) انظر الاستيعاب ج ٣ ص ٤٧ .
(٦) من الآية فى ٥٧ سورة يونس .
(٧) من الآية ١٥٢ فى سورة الأنعام .

النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (١) إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ. بما فى يديك من عملنا حتى نبعث إليك من يتسلمه منك . ثم يرفع طرفه إلى السماء فيقول : اللهم إنك تعلم أنى لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك .

ومواعظه رضى الله عنه ووصاياه لعماله إذ كان يخرجهم إلى أعماله (٢) كثيرة مشهورة ، وقد قدّمنا منها فى الباب الرابع ، من القسم الخامس ، من الفن الثانى ، من كتابنا هذا ، ماتقف عليه هناك ، وهو فى السفر السادس من هذه النسخة (٣) .

قال أبو عمر بن عبد البر (٤) : قد ثبت عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما من وجوه أنه قال : لم يترك أبى إلا ثمانمائة درهم أو سبعمائة درهم فَضَلَتْ من عطائه ، كان يعدّها لخادم يشتريها لأهله وأمّا تقشفه فى لباسه ومَطْعَمه ، فكان من ذلك على الغاية القُصوى . روى (٥) عن عبد الله بن أبى الهذيل قال: رأيت عليا رضى الله عنه خرج وعليه قميص غليظ. دارس ، إذا مدّكُمّه بلغ إلى الظفر ، وإذا أرسله صار إلى نصف الساعد . وعن الحسن بن جرموز عن أبيه قال : رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه يخرج من مسجد الكوفة وعليه قَطَرِيّتان ، مؤتَزِرًا بالواحدة مُرْتَديًا بالأُخرى ، وإزاره إلى نصف الساق ، وهو يطوف فى الأسواق ، ومعه دِرَّة يأمرهم بتقوى الله وصِدْق

(١) من الآيتين ٨٥ ، ٨٦ فى سورة هود .
(٢) كذا جاء فى النسخة (ن) وسقط من النسخة (ك) .
(٣) انظر ج ٦ ص ١٩ – ٣٢ من « نهاية الأرب » المطبوع .
(٤) فى الاستيعاب ج ٣ ص ٤٨ .
(٥) هذا وما بعده من الاستيعاب .

الحديث ، وحسن البيع ، والوفاء بالكيل والميزان . وعن [إسحاق بن][1] كعْب بن عُجْرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علىٌّ مخشوشن[2] فى ذات الله تعالى .

ذكر أزواج على

رضى الله عنه وأولاده وكاتبه وقاضيه وحاجبه

أول زوجة تزوجها فاطمة[3] بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلم ورضى عنها ، ولدتْ له الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وقد قيل : إنها ولدت ابنًا اسمه مُحْسِن توفى صغيرا ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى.

وتزوج بعدها أم البنين ابنة حرام[4] الكلابية ، فولدت له العباس وجعفرا وعبد الله وعثمان ، قُتِلوا مع الحُسين بالطَّفِّ .

وتزوج لَيْلى بنت مسعود بن خالد النهْشَلية التميمية ، فولدت عبيد الله وأبا بكر قتلا مع الحسين ، وقيل : إن عبيد الله قتله المختار بن أبى عبيد .

---

(١) الزيادة من الاستيعاب لأبى عمر بن عبد البرج ٣ ص ٥١ حيث نقل المؤلف ، لأن الصحابى الراوى للحديث هو كعب بن عجرة .

(٢) ذكر صاحب الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٥ رواية أبى عمر عن كعب بن عجرة ، وذكر قبلها رواية احمد بن حنبل عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : اشتكى الناس عليا يوما ، فقام رسول الله فينا فخطبنا فسمعته يقول : « أيها الناس ، لا تشكوا عليا ، فوالله إنه لأخشن فى ذات الله عز وجل » أو قال : « فى سبيل الله » ، ثم قال صاحب الرياض فى شرحه : الأخشن مثل الخشن ، واخشوشن للمبالغة ، أى : اشتدت خشونته .

(٣) قال ابن جرير فى تاريخه ج ٤ ص ١١٨ وابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٩٩ « لم يتزوج عليها حتى توفيت عنده » .

(٤) حرام : ذكره ابن حجر فى باب الحاء والراء من القسم الثالث فى الإصابة ج ١ ص ٣٧٥ فقال : حرام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كلاب ... الخ ووقع فى المخطوطة : « حزام » .

وتزوج أسماء بنت عميس الخَثْعَمية ، فولدت له محمدًا الأصغر ويَحْيَى ، وقيل : إن محمدًا لأُمِّ وَلد ، وقيل : إنها ولدت عَوْنا .

وله من الصَّهْبَاء بنت ربيعة التغلبية – وهى من السَّبْى الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعَيْن التَّمر فى خلافة أبى بكر – عُمَر ورقيَّة ، فعُمِّر عمرُ هذا حتَّى بلغ خمسا وثمانين سنة ، وحاز نصف ميراث علىٍّ رضى الله عنه ، ثم مات بينبُع .

وتزوج علىّ رضى الله عنه أُمَامَة بنت أبى العاص بن الربيع ، وأمها زينب بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، فولدت له محمدًا الأوسط .

وله محمد الأكبر ، وهو ابن الحنفية ، أُمُّه خَوْلَة بنت جعفر ، من بنى حَنِيفة .

وتزوج أم سعيد ابنة عروة بن مسعود فولدت له أم الحسن ورَمْلَة الكبرى .

وكان له بنات من أمهات شتّى ، وهُنَّ : أمّ هَانىء ومَيْمُونة وزينب الصّغْرى ورَمْلة الصغرى وأم كُلْثُوم الصغرى وفاطمة وأُمَامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجُمَانة ونَفِيسَة ، وكلهن لأُمهات أولاد .

وتزوج محياة[1] ابنة امرئ القَيْس[2] بن عَدِىّ الكلبية ، فولدت له جارية هلكتْ صغيرة .

---

(١) « محياة » كذا جاء عند الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ١١٩ وعند ابن حجر فى الإصابة ج ١ ص ١١٣ ؛ ولم تنقط هذه الكلمة فى النسخة (ن) ، ووضعت نقطة خاء فى النسخة (ك) .

(٢) هو امرؤ القيس بن عدى بن أوس بن جابر الكلبى . كان أميراً على من أسلم بالشام من قضاعة فى عهد عمر بن الخطاب ، وقد خطب إليه حينئذ على وابناه الحسن والحسين ، فزوجهم بناته . فكانت سلمى زوجة الحسن . والرباب زوجة الحسين .

فجميع أولاد عليّ رضى الله عنه خمسة عشر ذكرا ، وهم : الحسن والحُسين ومُحْسِن- على خلاف فيه- والعبّاس وجعفر وعبد الله وعثمان وعُبيد الله وأبو بكر ومحمد بن الحنفية ومحمد الأوسط. ومحمد الأصغر ويحيىّ وعَون وعمر، النسل منهم للحسين والحسن [ومحمد بن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية] (١)

ومن البنات تسع عشرة ، وهن : زينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى ورقية وأم الحسن ورملة الكبرى وأم هانئ وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأُمَامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجُمانة ونفيسة وجارية ابنة الكلبية ،

وكان كاتبه عبد الله (٢) بن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب له سعد بن نِمْرَان الهَمْدَانى .

قاضيه شُرَيحْ بن الحارث .

صاحب شرطته معقل بن قيس الرياحى ، وقيل : سليمان بن صُرَد الخزاعى .

حاجبه قُنْبُرُ مولاه ، وكان قبله بِشْر مولاه .

نقش خاتَمه : الملك لله الواحد القهار .

وتقدم ذكر عُمّاله .

---

(١) كذا ثبت هؤلاء فى النسخة (ن) ، كما ثبتوا فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٠ ، وسقطوا من النسخة (ك) .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الإصابة ج ٤ ص ٦٧ فى أولاد أبى رافع القبطى مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «عبيد الله» ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٠ « كان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خازنا لعلى على المال » .

ذكر خلافة الحسن بن على بن أبى طالب

رضى الله عنهما

هو أبو محمد الحسن بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب ، وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسنذكر إن شاء الله نبذة من فضائله وأخباره عند ذكرنا لوفاته ، ونذكر فى هذا الموضع مايختص بالخلافة دون غيره .

بويع له يوم وفاة أبيه فى شهر رمضان سنة أربعين ، وأول من بايعه قَيس بن سعد بن عُبادة ، وقال له : ابسُطْ يَدَك أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال المحِلِّين . فقال له الحسن : على كتاب الله وسنة رسوله ، فإنهما يأتيان على كل شرط . فبايعه الناس ، وكان الحسن يَشرُط عليهم : « إنكم سامعون مطيعون ، تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت » . فارتابوا بذلك وقالوا : ماهذا لكم بصاحب وما يريد هذا إلاَّ القتال . .

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه ، لمّا ضربه ابن ملجم دخل عليه جُنْدُب بن عبد الله فقال : « إن فقدناك ـ ولا نفقدك ـ أفنبايع الحسن ؟ » فقال على رضى الله عنه : « ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر » . فلما مات بايعه الناس ، ولم تطل مُدَّته حتَّى سَلَّم الأمر لمعاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه ؛ لأسباب نذكرها إن شاء الله تعالى

ذكر تسليم الحسن بن على الخلافة

إلى معاوية بن أبى سفيان

قال [١] : كان على بن أبى طالب رضى الله عنه قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت ، وتجهز لقصد الشام لقتال معاوية فقتل قبل ذلك .

فلما بايع الناس الحسن تجهز بهذا الجيش ، وسار من الكوفة فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ، وذلك عند مابلغه مسير معاوية إليه فى أهل الشام .

ووصل الحسن إلى المدائن ، وجعل قَيس بن سعد بن عُبادة علَى مقدمته فى اثنى عشر ألفا ، وقيل : بل كان الحسن قد جعل على مقدمته عبيد الله [٢] بن عباس ، فجعل عبيد الله [٢] على مقدمته فى الطلائع قيس بن سعد .

ووصل معاوية مَسْكِن [٣] .

فلما نزل الحسن المدائن نادى منادٍ فى العسكر : أَلَا إنَّ قَيس ابن سعد قُتل فانفروا . فنفروا . وأَتَوا سُرَادق الحسن ، وانتهبوا [٤]

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٠٣

(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٣ « عبد الله » ، وانظر ما سبق فى فراق عبد الله بن عباس للبصرة .

(٣) فى الاستيعاب ج ١ ص ٣٧٠ : « وذلك بموضع يقال له مسكن من أرض السواد بناحية الأنبار » وسيأتى نقل المؤلف لذلك .

(٤) تبع المؤلف ابن جرير وابن الأثير فى قصة الانتهاب ، وروى أبو الفرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين ص ٦٣ أن الحسن لما نزل ساباط خطب خطبة قال فيها : « إنما تكرهونه فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة » فنظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا : ما تروته يريد بما قال ؟ وركبتهم الظنون ، وثاروا ، فشدوا على فسطاطه فانتهبوه ... الخ ؛ وكذلك ذكر بن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة ج ٤ ص ١٠ .

مافيه ، حتّى نازعوهِ بِساطا كان تحته ، وأخذوا رداءه من ظهره ، ووثب عليه رجل من الخوارج من بنى أسد يقال له ابن أَقَيْصِر [١] بخنجر مسموم فطعنه به فى أَلْيَته ، ووثب الناس على الأسدى فقتلوه .

فازداد لهم بغضا ومنهم ذُعْرا ، ودخل المقصورة البيضاء بالمدائن [٢] ، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفى ، عم المختـار بن أبى عُبَيْد ، فقال له المختار وهو شاب : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وماذاك ؟قال : تستوثق [٣] من الحَسَن وتستأمن به إلَى مُعاوية . فقال له عمه : « عليك لعنة الله ! أثب على ابن بنت رسول الله وأوثقه ؟ بئس الرجل أنت ! »

فلما رأى الحسن رضى الله عنه [تفرق الناس عنه] [٤] كتب إلى معاوية وشرط شروطا ، وقال : إن أعطيتنى هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تَفِيَ لى به . وقال لأخيه الحسين وعبد الله ابن جعفر : إننى قد أرسلت إلَى مُعاوية فى الصلح . فقال له الحسين : أنشدك الله أن لا تُصدِّقَ أحْدُوثةَ معاوية وتكذِّب أحُدوثة أبيك ! فقال له الحسن : اسكتْ أنا أعلم بالأمر منك .

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى مقاتل الطالبيين ص ٦٤ : فقام إليه رجل من بنى أسد من بنى نصر بن قعين يقال له « الجراح بن سنان » فلما مر فى مظلم ساباط قام إليه فأخذ بلجام بغلته وبيده معول ، ثم طعنه ، فوقعت الطعنة فى فخذه ... الخ ، ويشبه ما جاء فى جمهرة أنساب العرب ص ١٨٤ حيث ذكر ابن حزم بنى نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد ومنهم « جراح بن سنان الذى وجأ الحسن بن على رضى الله عنه بالخنجر فى مظلم ساباط » .

(٢) وأقام عند أميرها يعالج نفسه .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة مثل الكامل لابن الأثير ، وفى تاريخ ابن جرير : « توثق الحسن » .

(٤) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك)

فلما انتهى كتاب الحسن إلى معاوية أمسكه ، وكان قد أرسل عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سَمُرة بن جندب إلى الحسن قبل وصول الكتاب إليه ، ومعهما صحيفة ، بيضاء مختوم على أسفلها ، وكتب إليه : أن اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ماشئتَ فهو لك . فلما أتت الصحيفةُ إلى الحسن اشترط أضعاف الشروط التى سأل معاوية قبل ذلك ، وأمسكها عنده .

فلما سلم الحسن رضى الله عنه الأمر لمعاوية ، طلب الحسن أن يعطيه الشروط التى اشترطها فى الصحيفة [التى ختم عليها معاوية] (١) فأبَى ذلك ، وقال : قد أعطيتك ما كتبتَ تطلب .

قال : ولما اصطلحا قام الحسن رضى الله عنه فى أهل العراق فقال : « ياأهل العراق إنه سخّى بنفسى عنكم ثلاث : قتلكم أبى وطعْنكم إياى وانتهابكم متاعى » . .

قال : وكان الذى طلب الحسن من معاوية أن يعطيه مافى بيت مال الكوفة (ومبلغه خمسة آلاف ألف . وقيل : سبعة آلاف ألف) وخراج دَارَ بَجْرَد (من فارس) وأن لايُشْتَم علىٌّ . فلم يُجبه إلى الكفّ عن شتم علىٍّ : فطلب أن لا يُشْتَم وهو يسمع ، فأجابه إلى ذلك ، ثم لم يَفِ له به أيضا . فأما خراج داربجرد فإن أهل البصرة منعوه منه وقالوا : هوفيئنا ، لا نعطيه أحدا . وقيل : كان منعهم بأمر معاوية أيضا . وقيل : إن معاوية أجرى على الحسن رضى الله عنه بعد ذلك فى كل سنة ألف ألف درهم .

---

(١) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) مثل الكامل ، وسقطت من النسخة (ك) .

وتسلم معاوية الأمر لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين . وقيل : فى شهر ربيع الآخر . وقيل : فى جُمادَى الأُولَى فى النصف منه .

وقيل : إنما سلم الحسن الأمر إلى معاوية ؛ لأنه لما راسله معاوية فى تسليم الخلافة إليه خطب الناس فحمد الله وأثْنَى عَلَيه وقال : « إنا واللهِ مايَثْنينا عن أهل الشام شكٌّ ولاندم ، وإنما كُنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فشِيبت السلامةُ بالعداوة والصبرُ بالجزع ، وكنتم فى مسيركم إلى صِفِّين ودِينُكم أمامَ دُنْياكم ، وأصبحتم اليوم وَدُنياكم أمام دينكم ، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصِفِّين تبكون له ، وقتيل بالنهْرَوَان تطلبون ثأره ، وأما الباقى فخاذل ، وأما الباكى فثائر ، ألَا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عِزٌّ ولانَصَفه ، فإذا أردتم الموتَ ردَدْناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل بِظُبا السيوف ، فإن أردتم الحياةَ قبِلناه وأخذنا لكم الرضا » . فناداه الناس من كل جانب : البقية البقية ، فأمضَى [1] الصلح .

فلما عزم على تسليم الأمر إلى معاوية خطبَ الناس فقال : « أيها الناس ، إنما نحن أُمراؤكم وضيفانكم ، ونحن أهل بيت نبيكم عليه الصلاة والسلام الذين أذهب الله عنهم الرِّجْسَ وطهرهم تطهير » وكرر ذلك حتى مابقى فى المجلس إلاَّ من بكَى حتى سُمع نَشِيجه ، وأرسل إلى معاوية وسَلَّم إليه الأمر .

فكانت خلافة الحسن علَى قول من يقول [« سلَّم الأمر فى ربيع

(١) فى الكامل ج ٣ ص ٢٠٤ « وأمض الصلح » .

الأول » خمسة أشهر ونصف شهر ، وعلى قول من يقول « فى ربيع الآخر » سته أشهر وأياما ، وعلى قول من يقول [1]] « فى جمادى الأُولَى » سبعة أشهر وأياما .

وحكى أبو عمر بن عبد البر[2] رحمه الله أن الحسن رضى الله عنه لما [قُتِل أبوه بايعه أكثر من أربعين ألفا ، كلهم قد كانوا بايعوا أباه عليًّا قبل موته علَى الموت ، ثم[3]] خرج لقتال معاوية وخرج معاوية لقتاله ، فلما تَرَاءَي الجَمْعان ــ وذلك بموضع يقال له مسْكِن من أرض السواد بناحية الأنبار ــ علم أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأُخَرى ، فكتب إلى معاوية أنه يصير الأمر إليه ، علَى أن يشترط عليه أن لا يطالب أحدًا من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشىء مما كان فى أيام أبيه ، فأجابه معاوية وكاد يطير فرحا إلاَّ أنه قال : أمّا عشرة أنفس فلا أُؤَمِّنهم ، فراجعه الحسن فيهم ، فكتب إليه يقول : إنى آلَيْتُ أنى متَى ظفرت بقَيْس بن سعد أن أقطع لسانه ويَدَه . فراجعه الحسن : أنى لا أبايعك أبدا وأنت تطلب قيسا أو غَيْرَه بتبِعَةٍ قَلَّتْ أو كثُرت ، فبعث إليه معاوية حينئذ برقٍّ أبيض وقال : اكتب ماشئتَ فيه وأنا ألتزمه . فاصطلحا على ذلك ، واشترط عليه الحسن رضى الله عنه : أن يكون له الأمر من بعده ، فالتزم ذلك كُلَّه معاوية ، فقال له عمرو بن العاص : إنه قد انْفَلَّ[4] حدُّهم وانكسرتْ

(١) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) مثل الكامل ، وسقطت من النسخة (ك)
(٢) فى الاستيعاب ج ٣ ص ٣٧٠ .
(٣) الزيادة من الاستيعاب
(٤) انفل : انثلم وانكسر ، والحد : البأس والقوة .

شوكتهم . فقال له معاوية : « أمَا علمت أنه قد بايَعَ عليا أربعون ألفا على الموت ؟ فوالله لايُقتلون حتَّى يُقتل أعدادهم من أهل الشام ، ووالله مافى العيْش خيرٌ بعد ذلك » . فاصطلحا على ماذكرناه .

وكان الحسن رضى الله عنه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ابنى هذا سيِّد يصلح الله به بين فئتَيْن عظيمتين من المسلمين[1] »

قال : ولما بايع الحسن معاوية كان أصحاب الحسن يقولون له : ياعار المؤمنين . فيقول : العار خير من النار .

وروى أبو عمر بسنده[2] إلى أبى الغَرِيف[3] قال : كنا فى مقدمة الحسن بن علىّ رضى الله عنهما علَى اثنى عشر ألفا بمَسْكِن مستميتين ، تقطر أسيافنا من الجِدّ[4] والحرص على قتال أهل الشام ، وعلينا أبو العمرطه[5] ، فلما جاءنا صلح الحسن كأنما كُسِرت ظهورُنا من الغيظ والحزن ؛ فلما جاء الحسن رضى الله عنه الكوفة أتاه شيخ منَّا يُكنَى أبا عامر سيفان بن ليلى ، فقال : السلام عليك يامُذِلَّ المؤمنين . فقال : « لاتقُلْ هذا ياأبا عامر ، فإنى لم أُذِل المؤمنين ، ولكنِّى كرهت أن أقتلهم فى طلب الملك » .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه – رقم ٣٥٠٠ – عن أبى بكرة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح ... الخ ، انظر شرح الكرمانى ج ١٥ ص ٢١ ورواه أيضا الترمذى وغيره .

(٢) فى الاستيعاب ج ١ ص ٣٧٢ .

(٣) أبو الغريف : هو عبيد الله بن خليفة الهمدانى .

(٤) كذا جاء « الجد » فى النسخة (ك) بالجيم ، وجاء فى (ن) « الحد » بالحاء .

(٥) فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٠١ : « أبو العمرطه عمير بن يزيد بن عمرو ابن شراحيل بن النعمان بن المنذر بن مالك بن ربيعة بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع ، شيعى ، قاتل مع حجر بن عدى ، وولى ابنه الحسين بن أبى العمرطه شرطة الحجاج » .

قال أبو عمر : ولا خلاف بين العلماء أن الحسن إنما سلم الخِلافَة لمعاوية حياتة ،لاغير ، ثم تكون له من بعده ، وعلى ذلك انعقد بينهما ما انعقد فى ذلك الوقت ، ورأى الحسن ذلك خَيْرًا من إراقة الدماء فى طلبها ، وإن كان عند نفسه أحقَّ بها .

قال[1] : ودخل مُعاويةُ الكوفةَ وبايعَه الناس ، فأشار عليه عَمرُو بن العاص أن يأمر الحسن بن على فيخطُب الناس ، فكِره ذلك معاويةُ وقال : لاحاجةَ لنا بذلك : فقال عمرو : « ولكنى أُريد ذلك ليبدُوَ للناس عِيُّهُ ، فإنه لايدرى هذه الأُمور ماهى » ولم يزل بمعاوية حتى أمر[2] الحسَنَ رضى الله عنه أن يخطب ، وقال له : ياحسن قم فكلِّمْ الناس فيما جَرَى بَيْننا . فقام الحسن رضى الله عنه فتشهد وحَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال فى بديهته : أمَّا بَعْدَ أيُّها النـاس فإن الله هداكم بأوَّلِنا وحَقَنَ دماءَكم بآخِرِنا ، و إنَّ لهـذا الأمر مدة ، والدنيا دُوَلٌ ، وإن الله عز وجل يقول : ﴿ وإنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ . إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ[3] ﴾ . فلما قالها ، قال له معاوية : أجلس . ثم قام معاوية فخطب الناس ، ثم قال لعمرو : هذه من رأيك .

ومن رواية[4] عن الشعبى أن الحسن خطب فقال : « الحمد لله

---

(١) أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب بسنده عن ابن شهاب ج ١ ص ٣٧٣ .

(٢) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢ ومقاتل الطالبيين ص ٧٢ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٤ .

(٣) من الآيات ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ فى سورة الأنبياء .

(٤) فى الاستيعاب ج ١ص ٣٧٤

الذى هدَا بنا أوّلكم وحقَن بنا دماء آخركم ، ألا إن أكْيَس الكَيْس التُّقىَ ، وأعجز العجز الفُجور ، وإنَّ هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إمَّا أن يكون أحقَّ به منِّى ، وإما أن يكون حقى فتركته لله تعالى وإصلاح أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحقن دمائهم » . ثم الْتفت إلَى معاوية فقال : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ . ثم نزل ، فقال معاوية لعمرو : ماأردتَ إلاَّ هذا . وحقدها معاوية علَى عمرو .

ولحق الحسن رضى الله عنه بالمدينة ، بأهل بيته وحشمه ، والناس يبكون عند مسيرهم من الكوفة .

والحسن رضى الله عنه آخر الخلفاء حقيقة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الخلافة ثلاثون ثم تكون ملكا وملوكا » (١) فكانت هذه المدة من خلافة أبى بكر رضى الله عنه وإلى آخر أيام الحسن.

ولم يزل الحسن رضى الله عنه مقيما بالمدينة إلى أن مات علَى ما نذكره إن شاء الله فى حوادث سنة تسع وأربعين .

وحيث ذكرنا الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، وذكرنا أخبار من مات أو استشهد من العشرة ، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثناء أخبار الخلفاء ، فلنصل هذا الباب بذكر من بقى من العشرة ، وهما : سَعْد بن أبى وَقَّاص وسَعِيد بن زيد ، ليكمل عِدَّة العشرة فى هذا الباب ، وإن كانت وفاتُهما فى غير أيام الخلفاء .

---

(١) الحديث الذى رواه أحمد وغيره : « الخلافة بعدى فى أمتى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » وفى رواية : « ثم يكون ملكا بعد ذلك » ، وجاء فى النهاية ثم « يكون ملك عضوض » بفتح العين ، أى يصيب الرعية فيه عسف وظلم ، ثم جاءت فيها رواية أخرى : « ثم يكون ملوك عضوض » بضم العين جمع عض وهو الخبيث الشرس .

ذكر أخبار سعد بن أبى وقاص ووفاته

رضى الله عنه

هو أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص ، واسم أبي وقاص مالك ابن أُهَيْب بن عبد مَنَاف بن زهرة بن كِلاب القرشى الزُّهْرى .

كان رضى الله عنه سابع سبعة فى الإسلام ، أسلم بعد ستة ، وهو ابن تسع عشرة سنة .

وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وأحد السّتَّة الذين جعل عُمر رضى الله عنه الشُّورَى فيهم ، وأخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو عنهم راضٍ .

وكان رضى الله عنه مُجابَ الدعوة مشهوراً بذلك ، تُخاف دعوته وتُرجَى لاشتهار إجابتها ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه : « اللهم سدِّد سهمه وأجب دعوته [1] » .

وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وذلك فى سَرِيَّة عُبَيْدَة ابن الحارث ، وقد تقدم ذكره فى السيرة النبوية فى الغزوات والسرايا [2] .

وجمع رسول الله عليه الصلاة والسلام له بين أبوَيْه فى قوله صلى الله عليه وسلم « ارم فدِاك أبى وأُمِّى » ولم يقل ذلك إلاَّ له وللزبيَر بن العوام .

وكان أحد الفرسان الشجعان من قريش [3] ، وهو الذى كَوَّف

---

(١) وروى الترمذي أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اللهم استجب لسعد إذا دعاك .

(٢) جاء فى نهاية الأرب المطبوع ج ١٧ ص ٢ : « ذكر سرية عبيدة بن الحارث ابن المطلب إلى بطن رابغ ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال على رأس ثمانية أشهر من مهاجره فى ستين رجلا من المهاجرين . . . » ثم جاء فى الصفحة التالية : « فكان بينهم الرمى ولم يسلوا السيوف ، ولم يصطفوا للقتال ، وكان سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم فى سبيل الله »

(٣) زاد أبو عمر فى الاستيعاب ج ٢ ص ٢١ : « الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مغازيه » .

الكوفة ونفى الأعاجم وتولَّى قتال الفرس[1] كما تقدم ذكر ذلك فى خلافة عُمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وكان أميرًا علَى الكوفة ، فشكاه أهلُها ورمَوْه بالباطل ، فدعَا علَى الذى واجهه بالكذب دَعْوَة ظهرتْ إجابته فيها .

ولمَّا جعله عُمر بن الخطاب فى أصحاب الشُورَى قال : إن وَلِيَها سعد فذاك وإلاَّ فلْيستعن به الوالى فإنى لم أعزِلْه عن عجز ولاخيانة .

وكلَّمه ابنه عمر بن سعد أن يدعُوَ لنفسه بعد مَقْتَل عثمان فأَبَى .

وكان رضى الله عنه ممَّن لزم بيته وقعد فى الفتنة ، وأمر أهله أن لا يخبروه من أخبار الناس بشىء حتَّى تجتمع الأُمة على إمام ، فطمِع مُعاوية فيه وفى عبـد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة ، فكتب إليهم[2] يدعوهم إلى عونه على الطلب بدم عثمان ، ويقول لهم إنهم لايكفِّرون ما أتوه من قتله وخذلانه إلاَّ بذلك ، وقال : إن قاتله وخاذله سواء ، فى نَثْر ونظم كتب به إليهم ، فأجابه كُلُّ واحد منهم يردُّ عليه ما جاء به من ذلك ، ويُنْكر عليه مقالته ، ويعرِّفه أنه ليس بأهلٍ لما يطلبه ، وكان فى جواب سعد :

مُعاوِيَ داوُك الداءُ العَيَـــاءُ وليس بما تَجِيءُ به دَوَاءُ
أيدعونى أَبو حَسَن عـــلىٌّ فلم أَرُدُدْ عليـــه ما يشـــاءُ
وقلتُ له أَعْطِنِي سَيْفا قصيرا تُمَازُ به العداوةُ والوَلاءُ

(١) عبارة أبى عمر : « وتولى قتال فارس ، أمره عمر بن الخطاب على ذلك ، ففتح الله على يديه أكثر فارس ، وله كان فتح القادسية وغيرها » .

(٢) انظر شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ١ ص ٢٦٠ .

فإنَّ الشرَّ أصغرُه كبيرٌ وإنَّ الظَّهْر مُثْقِلُه (١) الدِّماءُ
أتطمعُ فى الذى أعْيَا عليا على ماقدْ طمعْتَ به العَفَاءُ !
ليومٌ منه خيرٌ منك حيًّا ومَيْتًا أنت للمرء الفِدَاءُ
وأما أمر عُثْمَانٍ فدَعْهُ فإنَّ الرَّأىَ أذْهَبَه البَلاءُ

وكانت وفاة سعد رضى الله عنه فى قصره بالعَقِيقِ ، على عشرة أمْيَال من المدينة ، وحُمل إلَى المدينة علَى رقاب الرجال ، ودُفن بالبقيع وصلَّى عليه مَرْوان بن الحَكَم ، واختُلف فى وقت وفاته ، فقال الواقدى : توفى فى سنة خمس وخمسين ، وهو ابن بِضْع وسبعين سنة ، وقال أبو نعيم مات سنة ثمان وخمسين ، وقال الزبير والحسن بن عثمان وعمرو بن على الغَلاَّس : توفى فى سنة أربع وخمسين ، وهو ابن بِضْع وسبعين ، وذكر أبوزرعة عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال : توفى وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، ورُوى عن ابن شهاب أن سعد بن أبى وَقَّاص رضى الله عنه : لما حضرته الوفاة دعا بخَلِق جُبَّة له من صوف ، فقال : كفِّنُونى فيها فإنى كنْت لَقيتُ المشركين فيها يوم بَدْر [وهى علىَّ] (٢) وإنما كنت أخبَؤُها لهذا اليوم ، رضى الله تعالىَ عنه وأرضاه .

ذكر أخبار سعيد بن زيد

رضى الله عنه ووفاته

هو أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمْرو بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رَزاح بن عديّ بن كعب بن لُؤىّ ابن غالب القرشى العَدَوى . وأمه فاطمة بنت بَعْجة بن مُلَيْح الخزاعيةَ .

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وفى الاستيعاب ج ٢ ص ٣٥ « يثقله » .
(٢) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) مثل الاستيعاب ، وسقطت من (ك) .

وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصهره ، كانت تحته فاطمة ابنة الخطاب أخت عمر ، وكانت أخته عاتكة بنت زيد تحت عمر .

وكان سعيد رضى الله عنه من المهاجرين الأولين ، قديم الإسلام[1] لم يشهد بَدْرًا ،وضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ، وقد قدمنا ذكر ذلك فى غزوة بدر[2] ، وشهد ما بعد بدر من المشاهد ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة .

وكان أبوه زيد بن عمرو يطلب دين الحنيفية - دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام - قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يذبح للأنْصَاب ، ولا يأكل مما ذُبِحَ لها ، ولا يأكل الميتة ولا الدم ، وخرج فى الجاهلية يطلب الدِّين هو وورَقَة بن نَوْفَل ، فعرضت عليهما اليهود دينهم فتهوَّد وَرَقَة ، ثم لِقيَا النصارى فترك وَرَقَةُ اليهودية وتنَصر ،وأَبَى زَيد أن يأْتِي شيئًا من ذلك ، وقال : ماهذا إلا كدين قومنا تُشركون ويُشركون ، ولكنَّكم عندكم من الله ذِكر ولا ذِكر عندهم . فقال له راهب : إنك تطلب دِينا ماهو على الأرض اليوم . قال وما هو ؟ قال : دين إبراهيم عليه السلام .

---

(١) فى الاستيعاب ج ٢ ص ٢ والإصابة ج ٢ ص ٤٦ والرياض النضرة ج ٢ ص ٣٠٣ أن إسلامه كان قديما قبل عمر بن الخطاب وكان إسلام عمر عنده فى بيته .

(٢) تقدم فى نهاية الأرب ج ١٧ ص ٣٦ أن طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل كانا قد بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام يتجسسان له خبر العير ، فقدما بعد غزوة بدر ، فضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهميهما ، قالا : يا رسول الله ، وأجرنا . قال : وأجركما .. وكذلك جاء فى « ذكر مقتل طلحة » من هذا الجزء .

قال : وما كان عليه إبراهيم ؟ قال : كان يعبد الله لا يشرك به شيئا ، ويصلّى إلى الكعبة . فكان زيد على ذلك حتى مات .

ومن رواية أخرى قال : خرج وَرَقة بن نَوْفل وزيد بن عمْرو يطلبان الدين حتّى مرّا بالشام ، فأما وَرَقة فتنصّر ، وأمّا زَيد فقيل له : إن الذى تطلب أمامَك ، فانطلق حتّى أتى المَوْصِل فإذا هو براهب فقال : من أيْن أقبل صاحب الراحلة ؟ قال مِنْ بَيْت إبراهيم . قال : ماتطلب ؟ قال : الدِّين . قال : فعرض عليه النصرانية ، فقال : لاحاجة لى فيها ، وأبى أن يقبل ، فقال : إن الذى تطلب سيظهر بأرضك . فأقبل وهو يقول :

لَبَّيْك حَقًّاحقًّا . تعبّدا ورِقًّا .

[وقال] : (١) .

مهما تجشّمْنى فإنى جاشِمُ . عذت بما عاذ به إبراهيمُ .

قال : وأتى سعيد بن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنَّ زَيدا كان كما قد رأيت وبلغك فاستغفر له . قال عليه الصلاة والسلام : «نعم ، فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » فاستغفر له .

قال أبو عمر : وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه قد أقطع سعيد بن زيد أرضا بالكوفة فنزلها وسكنها إلى أن مات ، وسكنها من بعده من بنيه الأسود بن سعيد .

وكانت وفاة (٢) سعيد فى سنة خمسين أو سنة إحدى وخمسين ، وهو ابن بِضْع وسبعين سنة رضى الله عنه وأرضاه .

---

(١) الزيادة من الاستيعاب ج ٢ ص ٤٠ حيث نقل المؤلف هذه الرواية كما نقل ماسبقها .

(٢) توفى بأرضه بالعقيق ، وحمل إلى المدينة ودفن بها .

الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الخامس

فى أخبار الدولة الأُموية

أول من ملك من ملوك هذه الدولة معاوية بن أبى سفيان ؛ هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان صَخر بن حَرْب بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مَنَاف بن قُصِىّ بن كِلاَب ، يجتمع نسبه ونسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مَناف بن قصى .

وأمه هِند بنت عُتْبة بن ربيعة بن عَبد شمس بن عبد مَناف .

ولى معاوية دِمَشْق عاملاً لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى سنة ثمانى عشرة [1] كما ذكرنا ذلك فى خلافة عُمر ، [وأقام بقية أيَّام عُمر] [2] وأيام عُثمان بن عفَّان رضى الله عنهما بكمالها إلَى أن قُتل . فلما بُويع علىّ رضى الله عنه امتنع من مبايعته ، وكان بينهما من الحروب ما ذكرناه فى خلافة على .

وسُلِّم علَيه بالإمارة [3] بعد اجتماع الحَكَمَيْن فى سنة سبع

---

(١) قال ابن عبد البر فى الاستيعاب ج ٣ ص ٣ ص ٣٩٥ : « ولاه عمر على الشام بعد موت أخيه يزيد » ثم ذكر أن ذلك كان فى سنة تسع عشرة .

(٢) ثبتت هذه الجملة فى النسخة (ن) وسقطت من النسخة (ك) .

(٣) المعروف أنه صار أميرا على الشام بجعله عاملا للخليفة هناك ، قال أبو عمر فى الاستيعاب ج ٣ ص ٣٩٨ : « كان أميرا بالشام نحو عشرين سنة وخليفة مثل ذلك » وأما بعد اجتماع الحكمين فقد سلم عليه أصحابه وأهل الشام خاصة بالخلافة ، قال ابن جرير الطبرى فى تاريخ سنة ٣٧ بعد اجتماع الحكمين ج ٤ ص ٥٣ : « ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة » . وسيصرح المؤلف بهذا فى (ذكر ملك عمرو ابن العاص مصر) .

وثلاثين ، وبويع له بعد وفاة عليّ رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة أربعين ببيت المقدس ، قاله أبو بشر الدُّولابي [١] رحمة الله عليه ، ثم بُويع له البَيعة العامَّة بالكوفة بعدأن خلص له الأمر وتسلَّمه من الحسن بن عليّ رضى الله عنهما ، على ماتقدم ، فى سنة إحدى وأربعين ، فى شهر ربيع الأول لخمس بَقِينَ منه [وقيل : فى ربيع الآخر] [٢] . وقيل : جُمادَى الأولى . .

ولنبدأ من أخباره بما كان منها فى خلافة عليّ رضى الله عنه ، مِمَّا لم نذكره هناك ،ثم نذكر من أخباره بعد أن خلص له الأمر ، فنبدأ هناك بما وقع فى أيَّامه من الغَزَوات والفتوحات ، ثم نذكر أخبار الخوارج عليه ، ثم حوادث السنين خِلافَ ذلك على نحو ماقدمناه فى أخبار غيره ، إن شاء الله تعالى .

ذكر قدوم عمرو بن العاص على معاوية وصلحه معه

كان عمروبن العاص قد فارق المدينة وقدم إلى فلسطين فى آخر أيام عثمان ، فأقام هناك حتى قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وقد ذكرنا فى خلافة عثمان سبب خروج عمرو ، فلما أتاه الخبر بقتل عثمان قال : « أنا أبو عبد الله ، أنا قتلته وأنا بوادى السبع [٣]

(١) هو محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد الرازى الدولابي . ولعل بعض أجداده نسب إلى عمل الدولاب الذى يستقى به الماء ، وهناك بعض المواضع يسمى « الدولاب » فهل نسب أبو بشر إليه مع كونه من الرى ؟

(٢) ثبتت هذه الجملة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .

(٣) السبع بسكون الباء وفتحها ، قال ياقوت : السبع : ناحية فى فلسطين بين بيت المقدس والكرك ، فيه سبع آبار ، سمى الموضع بذلك ، وكان ملكا لعمرو بن العاص ، أقام به لما اعتزل الناس ، وأكثر الناس يروى هذا الموضع بفتح الباء .

إن يلِ هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سيبا ، وإن يله ابن أبي طالب ، فهو أكره من يليه إلى ! » .

فأتاه الخبر ببيعة على ، فاشتد عليه ، فأقام ينتظر مايصنع الناس ، فأتاه خبر مسير عائشة وطلحة والزبير ، فأقام ينتظر مايصنعون ؛ فأتاه خبر وقعة الجمل ، فأرتج عليه .

فسمع أن معاوية امتنع من بيعة على رضى الله عنه وأنه يعظم شأن عثمان ، فدعا ابنيه[1] ، فاستشارهما ، وقال : « ما تريان ؟ أما على فلا خير عنده ، وهو يدل بسابقته ، وهو غير مشركى فى أمره » . فقال له ابنه عبد الله : « يا أبت ، توفى النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون ، فأرى أن تكف يدك وتجلس فى بيتك حتى يجتمع الناس » . وقال له محمد : « يا أبت ، أنت نَابٌ[2] من أنْيَاب العرب ؛ ولا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت »[3] . فقال عمرو : « أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يامحمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياىَ وشَرّ لى فى آخرتى » .

ثم خرج ومعه ابناه حتّى قدم على معاوية (وقيل : إنه ارتحل من فلسطين وهو يبكى كما تبكى المرأة ، ويقول : واعثماناه ! أنعى الحَيَاء والدِّين ، حتى قدم دمشق) فوجد أهلَ الشام يحُضُّون مُعاوية علَى الطلب بدم

---

(١) فى الكامل لابن الأثير – حيث نقل المؤلف – ج ٣ ص ١٤١ : « فدعا ابنيه عبد الله ، ومحمدا » وقد ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب ج ٣ ص ٣٤٦ قول الواقدى : محمد بن عمرو بن العاص شهد صفين وقاتل فيها ولم يقاتل أخوه عبد الله ، وقال الزبير مثل ذلك .

(٢) الناب : سيد القوم . وفى الإصابة ج ٣ ص ٣٨١ « أنت فارس أبيات العرب »

(٣) كذا جاء فى المخطوطة والكامل لابن الأثير ، وجاء فى الإصابة : « ذكر »

عثمان . فقال لهم : أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم . ومعاوية لايلتفت إليه ، فقال له ابناه : ألاترى إلى معاوية لايلتفت إليك ، انصرف إلى غيره ، فدخل عليه فقال : « والله لعَجَبٌ لك أنى أرفدك بما أرفدك وأنت مُعْرِض عنى ، إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن فى النفس مافيها ، حيث تقاتل مَن تَعلم سابقتَه وفضله وقرابته ، ولكنَّا إنَّما أردنا هذه الدنيا » . فصالحه معاوية وعطف عليه واقتدى بآرائه ، وشهد عمرو معه صفين ، وحكَّمه ، وكان من أمره معه ما تقدم ، والله أعلم .

ذكر مقتل محمد بن أبى حذيفة

وشىء من أخباره

كان أبوه حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، قتل يوم اليَمامة وترك ابنه محمدا هذا ، فكفله عثمان وأحسن تربيته . وكان فيما قيل قد أصاب شَرَابا فحده عثمان ، ثم تَنَسَّك بعد ذلك وأقبل على العبادة .

وطلب من عثمان أن يُوَلِّيَه عملا فقال له : لوكنت أهلا لذلك لولَّيْتك ، فقال له : إنى قد رَغبت [1] فى غَزْو البحر فأْذَنْ لى فى إتيان مصر . فأذن له وجهّزه ، فلما قدمها رأى الناس عبادته فلزموه وعظَّموه .

وغزا مع عبد الله بن سعد غزوة الصوارى [2] ، وكان محمد

(١) كذا جاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٥ ، ولم تتبين الكلمة فى (ن) ، وجاء فى (ك) : « ركبت » .

(٢) غزوة الصوارى أو « ذات الصوارى » كان سببها أن المسلمين لما انتصروا فى أفريقيه خرج الروم فى جمع كبير ، وخرج المسلمون للدفاع والجهاد ، وكان عليهم فى هذه الحرب البحرية عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، جاء فى النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٠ ، ٩١ « ثم غزا فى البحر من ناحية الإسكندرية ، فلقيه قسطنطين بن هرقل فى ألف مركب ، وقيل : =

يعيب ابن سعد ، ويعيب عثمان بتوليته[1] ، ويقول : استعمل رجلا أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه .

وكتب عبد الله إلى عثمان : إن محمدا قد أفسد علىَ البلاد هو ومحمد بن أبي بكر .

فكتب عثمان رضى الله عنه إليه : أمّا ابن أبي بكر فإنه يوهب لأبيه ولعائشة ، وأما ابن أبى حذيفة فإنه ابنى وابن أخى وتربيتى وهو فرخ قريش .

فكتب إليه : إن هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير .

فبعث عثمان إلى ابن أبي حذيفة ثلاثين ألف درهم ومحملا عليه كسوة . فوضعهما محمد فى المسجد وقال : يا معشر المسلمين ألاَ ترَوْن إلَى عثمان يخادعنى عن دينى ويرشونى ، عليه . فازداد أهل مصر تعظيما له وطعنًا علَى عُثمان ، وبايعوه على رئاستهم .

فكتب إليه عثمان يذكّره برّه به وتربيته إيّاه وقيامه بشأنه ، ويقول له : كفرت إحسانى أحَوجَ ماكنتُ إلى شكرك . فلم يردّه ذلك عن ذمّه وتأليب الناس عليه ، وحثهم إلى المَسير إلى حصره ومساعدة من يريد ذلك .

= فى سبعمائة ، والمسلمون فى مائتى مركب ، وتقاتلا ، فانتصر أمير مصر عبد الله وهزم الروم ، وانما سميت غزوة ذات الصوارى لكثرة صوارى المركب واجتماعها » . ويقال : إنها سميت بذات الصوارى لأن هذا الاسم كان لإقليم يجلب منه قدماء المصريين الخشب لبناء سفنهم..وقد أحسنت الجمهورية العربية المتحدة فى اختيارها ذكرى هذه المعركة البحرية فى احتفالها بيوم البحرية .

(١) كان أول ما تكلم به محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر فى حق عثمان فى غزوة الصوارى .

فلماسار المصريون إلَى عثمان أقام هو بمصر ، وخرج عنها عبد الله ابن سعد بن أبي سَرْح ، فاستَوْلَى عليها وضبطها ولم يزل مقيمًا بها حتى قُتل عثمان وبُويع عليٌّ رضى الله عنه ، واتفق معاوية وعمرو بن العاص [على خلاف عليّ] [1] فسار عمرو بن العاص إليه وقتله .

وقد اختلف فى قتله ، فمن المؤرخين من قال : إن عمرو بن العاص سار إلى مصر هو ومعاوية قبل مقدم قيس بن سعد إليها ، وأرادا دخول مصر فلم يقدراعلى ذلك ، فخدعا محمدا حتى خرج إلى العريش فى ألف رجل فتحصن بها ، فنصبا عليه المنجنيق حتَّى نزل فى ثلاثين من أصحابه فقتل . وهذا القول ليس بشيء يُعتمد عليه ، وهو بعيد جدا ، لأن على بن أبي طالب استعمل قيس بن سعد علَى مصر أول ما بويع ، ولو كان قتل محمد بن أبي حذيفة [قبل وصول قيس بن سعد إلى مصر] [2] لاسْتَوْلَى معاوية على مصر ، ولا خلاف أن استيلاء معاوية على مصر كان بعد صِفِّين ، وإنَّما ذكرنا هذا القول لنبين بطلانه ، وقد علَّلَه بعض المؤرخين بنحو هذا التعليل ، واستدل على بطلانه [3] .

وقد قيل غير ذلك : وهو أن محمد بن أبي حذيفة سيَّر المصريين إلَى عُثمان ، فلما حضروه [4] أخرج محمدٌ عبدَ الله بن سعيد بن أبي سرح عن مصر وهو عامل عثمان [واستولى] [5] عليها ، فنزل عبد الله على تخُوم مصر وانتظر أمر عثمان ، فطلع عليه راكب ، فسأله ،

(١) الزيادة من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٥ حيث نقل المؤلف .
(٢) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .
(٣) انظر ابن الأثير فى تاريخه الكامل ج ٣ ص ١٣٥ .
(٤) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل ج ٣ ص ١٣٦ : « حصروه » .
(٥) الزيادة من الكامل .

فأخبره بقتل عثمان وببيعة علىّ رضى الله عنه ، فاسترجع ، وأخبره بولاية قيس بن سعد علَى مصر ، وأنه قادم بعده فقال عبد الله : « أبْعَدَ اللهُ محمدَ بن أبى حذيفة ! فإنه بغَى علَى ابن عَمّه وسعَى علَيه ، وقد كفله وربّاه وأحسن إليه ، فأساء جواره ، وجهّز إليه الرجال ، حتّى قُتل ، ثم ولى على [1] من هو أبعد منه ومن عثمان ، ولم يُمتعه بسلطان بلاده شهرا ولم يره لذلك أهلا » . وخرج عبد الله هاربا حتّى قَدِم علَى معاوية [2] .

وقيل : إن عمرو بن بن العاص سار إلى مصر بعد صفين ، فلقيه محمد بن أبى حذيفة فى جيش كثير ، فلما رأى عمرو كثرة من معه أرسل إليه فاجتمعا ، فقال له عمرو : « إنه قد كان ماترى ، وقد بايعت هذا الرجل – يعنى معاوية – وما أنا راض بكثير من أمره ، وإنى لأعلم أنّ صاحبك عليًا أفضل من معاوية نفسا وقدَما ، وأوْلَى بهذا الأمر ، فواعِدْنِى موعدا ألتقى معك فيه فى غير جيش ، تأتى فى مِائة وآتِى فى مثلها ، وليس معنا إلاّ السيوف فى القُرُب » . فتعاهدا وتعاقدا علَى ذلك واتّعَدَا العريش ، ورجع عمرو إلى معاوية فأخبره الخبر ، فلما جاء الأجل سار كل واحد منهما فى مائة ، وجعل عمرو جيشًا خلْفَه ، فلما الْتَقَيا بالعريش ، قدم جيش عمرو [على أثره] [3] فعلم محمد أنه قد غدر به ، فدخل قصرا بالعريش فتحصّن به ، وحصره عمرو ، ورماه بالمنجنيق حتّى أخذ أسيرا ، فبعث به إلَى معاوية فسجنه ، وكانت

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « عليه » .

(٢) عقب ابن الأثير فى الكامل هذا بقوله : « وهذا القول يدل على أن قيساً ولى مصر ومحمد بن أبى حذيفه حى ، وهو الصحيح » . .

(٣) الزيادة من الكامل لابن الأثير .

ابنة[1] قرظة امرأة معاوية ابنةَ بن محمد عمة أبي حذيفة ، أُمُّها فاطمة بنت عتبة ، فكانت تصنع له طعاما ترسله إليه ، فأرسلت إليه يوما فى الطعام مَبَارِد ، فبَرَدَ بها قُيودَه ، وهرب ، فاختفى فى غار ، فأُخذ وقُتل .

وقيل : إنه بقَى محبوسًا إلى أن قُتل حُجْر بن عَدىّ ، ثم هرب فطلبه مالك بن هبيرة السَّكُونى ، فظفر به فقتله غضبًا لحُجْر ، وكان مالك قد شفع إلى معاوية فى حجر فلم يُشَفعه .

وقيل : إن محمد بن أبى حذيفة — لما قتل محمد بن أبى بكر — خرج فى جَمْع كثير على عمرو ، فأمَّنه عمرو ، ثم غدر به ، وحمله إلى معاوية ، فحبسه ، ثم إنه هرب ، فأظهر معاوية للناس أنه كره هربه ، وأمر بطلبه فسار فى طلبه عبيد الله بن عمر[2] بن ظلام الخثعمى فأدركه بحُوارن فى غار ، وجاءت حُمُر تدخل الغار ، فلما رأت محمدًا نفرت منه ، وكان هناك ناس يحصدون ، فقالوا : والله إن لنفرة هذه الحُمُر لشأنا ، فذهبوا إلى الغار فرأوه ، وخرجوا من عنده ، فوافقهم عبيد الله فسألهم عنه ووصفه لهم ، فقالوا : هو فى الغار ، فأخرجه ، وكره أن يأتى به معاوية فيخلى سبيله ، فضرب عنقه . والله أعلم .

---

(١) هى فاختة ابنة قرظة .

(٢) عند ابن جرير وابن الأثير : « عمرو » .

ذكر ملك عمرو بن العاص مصر

ومقتل محمد بن أبي بكر ووفاة الأشتر وما يتصل بذلك

قد ذكرنا فى أخبار على رضى الله عنه استعماله محمد بن أبي بكر على مصر ، وما كان بينه وبين أهل خَرِبْتَا[1] وقتلهم ابن مُضَاهِم ، ثم خرج معاوية بن حُدَيْج السَّكُونى ، ودعا إلى الطلب بدم عثمان فأجابه ناس وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر ، فبلغ ذلك عليا ، فاستدعى الأشتر ، وكان قد توجَّه إلى نَصِيبين بعد صِفِّين ، فحضر إليه فأخبره خبر أهل مصر ، وقال له : « ليس لها غيرك ، فاخرج إليها ، فإنى لو لم أوصك اكتفيت برأيك ، فاستعن بالله ، واخلط الشِّدة باللين ، وارفق ماكان الرفق أبلغ ، وتشدَّد حين لايغنى إلا الشِّدة »

فخرج الأشتر إلى مصر ، فبلغ معاوية ذلك ، فعظم عليه ، وكان قد طمع فى مصر ، فعلم أن الأشتر إن قدمها كان عليه أشد من محمد بن أبي بكر رضى الله عنه ، فبعث معاوية إلى المقدَّم على أهل الخراج بالقُلْزُم وهو الجابستار[2] وقال له : إن الأشتر وقد ولى مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيتَ وبقيتُ . فخرج الجابستار حتى أتى القُلْزُم وأقام به .

وخرج الأشتر من العراق إلى مصر ، فلما انتهى إلى القُلْزُم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول ، فنزل عنده ، فأتاه بطعام فأكل وأتاه بشَرْبة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه إياه ، فلما شربها مات .

---

(١) انظر ماسبق فى « خربتا » .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٧١ « الجايستار » .

وأقبل معاوية يقول لأهل الشام : إنَّ عليًا قد وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله عليه فكانوا يدعون عليه [١] .

وأقبل الذى سقاه إلى معاوية فأخبره بمُهْلَك الأشتر ، فقام معاوية خطيبًا ، ثم قال : أمَّا بَعْدُ ، فإنه كانت لعلىٍّ يَمينانِ ، قُطعت إحداهما يَوم صِفِّين - يعنى عَمَّار بن ياسر - ، وقُطعت الأُخرَى اليَوم - يعنى الأَشْتَر - .

فلما بلغ ذلك عليا قال : لِلْيَدَيْنِ وللِفَم [٢] ! [وكان ثقل عليه لأشياء نُقلتْ عنه ، وقيل : إنه لما بلغه قَتله] [٣] استرجع [٤] وقال : « مالِكَ ! وما مالِك ؟ وهو موجود مثل ذلك ؟ لو كان من حديد لكان قَيْدا ، أومن حجر لكان صَلْدًا ، على مثله فلْتَبْكِ البوَاكى ! » [٥] .

ثم كتب إلى محمد بن أبى بكر باستقراره على عمله ، وأوصاه.

وقيل : إنه إنما ولى الأشتر بعد قتل محمد بن أبى بكر .

قال : ولما كان من الحَكَمَيْن ما كان ، وبايع أهلُ الشام معاويةَ بالخلافة ، لم يكن له همٌّ إلاَّ مصر ، وكان يَهابُ أهلَها [لِقُرْبِهم منه و] [٦] لشدَّتهم وما كان من رأيهم فى عثمان ، وكان يرجو أنه إذا ظهر [٧] علَيْها ظهر علَى حرب على رضى الله عنه لعِظَم خَراجها ، فدعا

(١) ذكر ابن جرير وابن الأثير أنهم كانوا يدعون الله عليه كل يوم .

(٢) هذه كلمة تقال للرجل إذا دعى عليه بالسوء ، معناه : كبه الله لوجهه ، أى خر إلى الأرض على يديه وفيه .

(٣) الزيادة من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٧٨ .

(٤) استرجع : قال « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٥) قال ابن الأثير فى الكامل عقب هذا : « وهذا أصح ، لأنه لو كان كارها له لم يوله مصر » .

(٦) الزيادة من الكامل .

(٧) ظهر : غلب

معاوية عَمرو بن العاص ، وحَبيب بن أبي مَسْلَمة ، وبُسْر بن أرطاه ، والضحّاك بن قَيس ، وعبد الرحمن بن خالد ، وأبا الأعور والسُلَمى ، وشُرحْبيل بن السِّمْط الكِنْدي ، فقال لهم : أتَدْرُون لِمَ جمعتكم ؟ فإني جمعتكم لأمر لى مهمّ . فقالوا : لم يُطلع الله علَى الغيب أحدا ، ولم نعلم ما تريد .

فقال عمرو بن العاص : لتسألنا عن رأينا فى مصر ، فإن كنت جمعتنا لذلك ، فاعزم واصبر ، فنعم الرأى رأيت فى افتتاحها ، فإن فيه عزّك وعزّ أصحابك ، وكَبْت عدوك ، وذلّ أهل الشقاق عليك.

فقال معاوية : أهَمكَ يا بن العاص ما أهمكَ. وذلك أن عَمْرا صالح معاوية على قتال على رضى الله عنه على أن له مصر طُعْمة ما بقى .

وأقبل معاوية على أصحابه وقال : أصاب أبو عبد الله ، فما تَرَوْن ؟ قالوا : مانَرَى إلاّ مارأى عمرو .

ثم كتب معاوية إلى مَسْلَمة ابن مُخَلّد ومُعاوية بن حُدَيج السّكونى - وكانا قد خالفا عليًا - يشكرهما على ذلك ، ويحثهما على الطلب بدم عثمان ، ويَعِدُهما المواساة فى سلطانه . وبعثه مع مولاه سُبَيْع .

فلما وقفا عليه أجاب مَسْلَمة بن مخلّد الأنصارى عن نفسه وعن ابن حُدَيج : « أمّا بَعْدُ ، فإن الأمر الذى بَذلنا له أنفسنا ، واتبعنا أمر الله نرجو به ثواب ربنا ، والنّصر على من خالفنا ، وتعجيل النّقمة على من سعى على إمامنا ؛ وأما ما ذكرت من المواساة فى سلطانك ، فبالله إن ذلك أمرٌ مالَهُ نَهضْنا ، ولا إيّاه أردنا ، فعجّل علينا[1] بخَيْلك

(١) كذا جاء فى المخطوطة وتاريخ ابن جرير الطبرى ، وجاء فى الكامل : « إلينا » .

ورجالك ، فإنَّ عدونا قد أصبحوا لناهائبين ، فإن يأتنا مدد يفتح الله عليك ، والسلام .

فجاءه الكتاب وهو بفلسطين ، فدعا أولئك النفر وقال لهم : ماتَرَوْن ؟ قالوا : نري أن تبعث جندا . فأمر عمرو بن العاص ليتجهز إليها ، وبعث معه ستة آلاف رجل ، وأوصاه بالتؤدة وترك العجلة .

وسارعمرو حتى نزل أدانى أرض مصر ، فاجتمعت العثمانية إليه ، فأقام بهم ، وكتب إلى محمد بن أبي بكر : « أما بَعْدُ ، فتَنَحَّ عنّى بدمك يا بن أبي بكر ، فإنّى لا أحب أن يصيبك منى ظُفر ؛ إنَّ الناس بهذه البلاد قدأجمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها ، إنى لك من الناصحين » وبعث إليه [بكتاب معاوية] فى المعنى ، ويتهدده بقصده حصار عثمان .

فأرسل محمد الكتابين إلى على رضى الله عنه ، ويخبره بنزول عمرو بأرض مصر ، وأنه رأى التثاقل ممن عنده ، ويستمده .

فكتب إليه يأمره أن يضم شيعته إليه ، ويعده إنفاذ الجيوش إليه ويأمره بالصبر لعدوّه وقتاله .

وقام محمد فى الناس فندبهم إلى الخروج إلى عدوّهم مع كنانة بن بشر ، فانتدب معه ألفان ، وخرج محمد بن أبى بكر بعده فى ألفين ، وأقبل عمرو نحو كنانة ، فلما دنا منه سَرَّح الكتائب كتيبة بعد كتيبة ، فجعل كنانة لاتأتيه كتيبة إلاحمل عليها ، فألحقها بعمرو ، فلمّا رأى ذلك بعث إلى معاوية بن خديج ، فأتاه فى مثل الدَّهْم[1] ،

(١) الدهم : العدد الكثير .

فأحاطوا بكنانة وأصحابه ، واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب ، فنزل كنانة عن فرسه ونزل معه أصحابه ، فقاتل بسيفه حتّى قُتل ، وبلغ قتله محمد بن أبي بكر ، فتفرّق عنه أصحابه ، وأقبل عمرو بجمع ، ولم يبق مع محمد أحد .

فخرج محمد يمشي في الطريق ، فانتهى إلى خَرِبة فأوَى إليها ، وسار عمرو بن العاص حتّى دخل الفُسطاط ، وخرج مُعاوية بن حُدَيج في طلب محمد بن أبي بكر ، فانتهى إلى جماعة علَى قارعة الطريق فسألهم عنه ، فقال أحدهم : دخلتُ تلك الخَرِبة فرَأيْتُ فيها رجلا جالسا ، فقال ابن حُديج : هو هو . فدخلوا فاستخرجوه وكاد يموت عطشا ، وأقبلوا به نحو الفسطاط .

ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهم إلَى عمرو وكان في جنده ، وقال : أيقتل أخي صبرا ؟ ابعث إلى ابن حُديج فانْهه عنه . فبعث إليْه يأمره أن يأتيه بمحمد ، فقال : قتلتم كنانة بن بشر وأخلِّي أنا محمدا ﴿ أكُفَّارُكُم خَيْرٌ من أولئكم أم لكم براءةٌ في الزبُر ﴾[1] هَيْهات هيهات !

فقال لهم محمد بن أبي بكر رضى الله عنه : اسقوني ماء . فقال ابن حُدَيج : « لاسقاني الله إن سَقَيْتُك قطرة أبدا ؛ إنكم منعتم عثمان شُرْبَ الماء ، والله لأقتلنَّك حتى يسقيك الله من الحَمِيم والغَسَّاق » . فقال له محمد : « ياابن اليهودية النَّسَّاجة ، ليس ذلك إليك ، إنَّما ذلك إلَى الله ، يسقي أولياءه ، ويُظمىء أعداءه ؛ أنت وأمثالك ، أمَا والله لو كان

(١) الآية ٤٣ من سورة القمر .

سيفى بيدى مابلغتم مِنِّى هذا » . قال له : أتدرى ما أصنع بك ؟ أدخلك جَوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار . فقال محمد : « إن فعلتَ بى ذلك فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله ، وإنى لأرجو أن يجعلها الله عليك وعلَى أوليائك ومعاوية وعمرو نارًا تَلَظَّى ، كلَّما خَبَتْ زادها الله سَعيرا » . فغضب منه وقتله ، ثم ألقاه فى جيفة حمار ، ثم أحرقه بالنار .

فلما بلغ ذلك عائشة رضى الله عنها جزعت عليه جزعا شديدا ، وقنتت فى وتر[1] الصلاة تدعو على معاوية وعمرو ، وأخذت عِيالَ محمد إليها ، وامتنعت عائشة بعد ذلك أن تأكل شواء حتَّى ماتت . وقد قيل : إن محمد بن أبى بكر قاتل عمرا ومن معه قتالا شديدا ، فقتل كنانة وانهزم محمد ، فاختبأ عند جَبَلة بن مسروق ، فدُلّ عليه معاوية ابن حديج ، فأحاط به ، فخرج إليه محمد فقاتل حتى قُتل . وكان ذلك فى سنة ثمان وثلاثين .

قال : وأما علىّ رضى الله عنه ، فإنه لما أتاه كتاب محمد ندب الناس إلى الخروج ، فتثاقلوا فخطبهم وحثهم على الخروج ووبخهم على التثاقل ، فقام إليه كعب بن مالك الأرحبيّ[2] فقال : يا أمير المؤمنين : اندب الناس ؛ لهذا اليوم كنت أدخر نفسى ، ثم قال : أيها الناس ، اتقوا الله وأجيبوا إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٧٩ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٨٠ « فى دبر الصلاة » .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة والكامل لابن الأثير . وجاء فى تاريخ ابن جرير ج ٤ ص ٨١ — ٨٢ « مالك بن كعب الهمدانى ثم الأرحبى » وسيأتى قريبا أن عين التمر فيها « مالك بن كعب » .

عدّوه وأنا أسير إليه ، فخرج معه ألفان . فقال له على رضى الله عنه : سِرْ فوالله ما أظنّك تدركهم حتى ينقضى أمرهم ، فسار بهم خمسا .

ثم قدم الحجّاج بن غَزيّة من مصر فأخبره بالخبر ، وأتاه عبد الرحمن بن شَبيب الفزارى من الشام وكان عينه هناك فأخبره أن البشارة من عمرو وردت بقتل محمد وملك مصر وسرور أهل الشام بقتله ، فقال على ؛ أمَا إن حزننا عليه بقدر سرورهم به ، لابل يزيد أضعافا : وأرسل إلى الجيش فأعادهم .

وقام فى الناس خطيبا فقال : « ألاَ إن مصر قد افتتحها الفَجَرة أولُو الجور والظلم ، الذين صدُّوا عن سبيل الله ، وبَغَوا الإسلام عِوَجا ، ألاَ وإن محمد بن أبى بكر استشهد ، فعند الله نَحتسبه ، أمَا والله إنه كان ـ ماعلمتُ ـ لممَّنْ ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب هَدْى المؤمن ، والله لا ألوم نفسى على تقصير ، وإنى بمقاساة الحرب لجدُ خَبير ، وإنى لأُقدم على الأمر ، وأعرف وجه الحزم ، وأقوم فيكم بالرأى المصيب ، وأستصرخكم معلنا ، وأناديكم نداء المستغيث ، فلا تسمعون لى قولا ، ولا تطيعون لى أمرا ، حتّى تصير الأُمور إلَى عواقب المساءة ، فأنتم القوم لايُدْرَك بكم الثأر ، ولا تنقض بكم الأوتار ، ودعَوْتكم إلى غياث إخوانكم مُنْذُ بضع وخمسين ليلة ، فتَجَرْجرْتم جَرْجرَة [1] الجمل الأَشْدق ، وتَثاقَلْتُم إلى الأرض تثاقُلَ مَن ليست له نيَّة فى جِهاد العدوّ ، ولا اكتساب

(١) الجرجرة : صوت يردده البعير فى حنجرته ؛ والمراد الضجة والصياح .

الأجر ، ثم خرج إلىّ منكم جُنَيْدٌ مُتَذائِب[1] ، كأنّما يُساقُون إلى المَوْت وهم يَنْظُرون ، فأُفٍّ لكم ! ! . ثم نزل رضى الله عنه .

ذكر سرايا معاوية الى بلاد على بن أبى طالب رضى الله عنه

لمّا كان من أمر الحَكَمَيْن ما ذكرنا ، وملك معاوية مصر ، استشرفت نفسُه إلى غير ذلك ، فلما كان فى سنة تسع وثلاثين بَثّ سراياه فى أطراف بلاد علىّ رضى الله عنه .

فبعث النعمان بن بشير فى ألف رجل إلى عين التمر[2] وفيها مالك بن كعب مَسْلَحة لعلىّ فى ألف رجل ، وكان مالك قد أذن لأصحابه فأتوا الكوفة ، ولم يبق معه إلاّ مائة رجل ، فلما سمع خبر النعمان كتب إلى علىّ رضى الله عنه يستمده ، فندب الناس إلى الخروج ، فتثاقلوا ، وواقع مالكٌ النعمان ، وجعل وراء القرية فى ظهر أصحابه ، وكتب مالك إلى مخنَف بن سُلَيم يستغيثه وهو قريب منه ، فوجه مخنَف ابنه عبد الرحمن فى خمسين رجلا ، فانتهوا إلى مالك وقد كسروا جفون سيوفهم واستقتلوا ، وذلك بعد أن قاتلوا قتالا شديدا ، فلما رآهم أهل الشام انهزموا بعد العشاء ، وظنوا أنّ لهم مددا ، وتبعهم مالك فقتل منهم ثلاثة نفر .

وبعث سفيان بن عوف فى ستة آلاف ، وأمره أن يأتى هِيت[3]

---

(١) جاء فى النهاية : « وفى حديث على رضى الله عنه : خرج منكم إلى جنيد متذائب ضعيف ، المتذائب : المضطرب من قولهم : تذاءبت الريح ، أى اضطرب هبوبها

(٢) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة .

(٣) هيت : بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار .

فيقطعها ، ثم يأتى الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها ، فأتى هِيتَ فلم يجد بها أحدا ، ثم أتى الأنبار وفيها مَسْلَحة لعلى تكون خمسمائة رجل ، وقد تفرقوا فلم يبق منهم إلاّ مِائتا رجل ، وكان سبب تفرقهم أن أميرهم كُمَيْل [١] بن زياد بلغه أن قوما بقَرْقِيسيا [٢] يريدون الغارة على هِيتَ ، فسار إليهم ، فأتى أصحاب سفيان وكُمَيل غائب ، فقاتل سفيان من وجد هناك فصبروا له ، ثم قُتِل صاحبُهم وهو أشرس ابن حسّان البكريّ وثلاثون رجلا ، واحتمل أصحاب سفيان ما فى الأنبار من أموال أهلها ورجعوا إلَى معاوية ، وبلغ الخبرِ عليا فأرسل فى طلبهم فلم يُدْرَكوا .

وبعث عبد الله ابن مَسْعَدة بن حكيم بن مالك بن بدر الفزاريّ فى ألف وسبعمائة رجل إلَى تَيْماء [٣] وأمره أن يأخذ صدقة من مَرّ به من أهل البوادى ويقتل من امتنع ، ففعل ذلك ، وبلغ مكة والمدينة ، واجتمع إليه بشر كثير من قومه . وبلغ ذلك عليا فأرسل المسيَّب بن نَجبَة الفَزارى فى ألفى رجل ، فلحق عبد الله بتيماء فاقتتلوا قتالا شديدا حتّى زالت الشمس ، وحمل المسيَّب علَى ابن مَسْعدة فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله ، ويقول له : النَّجاء النَّجاء . فدخل ابن مَسْعَدة وجماعة من أصحابه الحصن وهرب الباقون نحو الشام ، وانتهب الأعراب إبل الصَّدَقة التى كانت مع ابن مَسْعدة وحصره ثلاثة

(١) هو كميل بن زياد بن نهيك النخعى .

(٢) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور ، وعندها مصب الخابور فى الفرات ، فهى فى مثلث بين الخابور والفرات ، كما ذكره ياقوت

(٣) تيماء : موضع فى أطراف الشام ، بين الشام ووادى القرى

أيام ، ثم ألقى الحطب فى الباب وحرقه ، فلما رأوا الهلاك أشرفوا عليه وقالوا : قومك يامسيّب ! : فرَقّ لهم وأمر بالنار فأُطفئت ، وقال لأصحابه : قد جاءنى عيون فأخبرونى أن جندا قد أتوكم من الشام .

وبعث معاوية أيضا الضحّاك بن قَيس فى ثلاثة آلاف رجل ، أمره أن يمر بأسفل وَاقِصة[1] ، ويغير على كل من مربه ممن هو فى طاعة علىّ من الأعراب ، فسار وقتل الناس وأخذ الأموال ، ومضى إلى الثعلبية[2] فأغار على مسْلَحة علىّ وانتهى إلى القُطقُطَانَة[3] ، فلما بلغ ذلك عليا أرسل حُجْر بن عَدِىّ إليه فى أربعة آلاف وأعطاهم خمسين درهما ، فلحق الضحاك بتدمر فقتَل من أصحابه[4] تسعة عشر رجلا ، وقُتل من أصحابه رجلان ، وحجز بينهما الليل فهرب الضحاك وأصحابه ، ورجع حجْر ومن معه .

وسار معاوية بنفسه حتى شارف دجلة ثم رجع .

وبعث معاوية يزيدَ بن شَجْرة الرَّهاوىّ[5] إلى مكة لأخذ البيعة له ، وإقامة الحج بالناس ، ومعه ثلاثة آلاف ، فسار إلى مكة وبها قُثَم بن العباس من قبل علىّ ، فأراد مفارقتها[6] ، واللَحاق ببعض شِعابها ، فنهاه

---

(١) واقصة : موضع بطريق مكة من الكوفة .

(٢) الثعلبية : من منازل طريق مكة من الكوفة ، بعد الشقوق وقبل الخزيمية وسميت بثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء كما ذكره ياقوت .

(٣) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية .

(٤) فى الكامل ج ٣ ص ١٨٩ « فقتل منهم »

(٥) قال ابن الأثير : الرهاوى : منسوب إلى الرهاء ، قبيلة من العرب ، وقد ضبطه عبدالغنى بن سعيد بفتح الراء ، قبيلة مشهورة ، وأما المدينة فبضم الراء . انظر القاموس .

(٦) لما سمع قثم بن العباس بمسير يزيد بن شجرة خطب أهل مكة وأعلمهم بمسير الشاميين ودعاهم إلى حربهم ، فلم يجيبوه بشىء فعزم على مفارقة مكة .

أبو سعيد الخدرىّ ، وكتب قُثَم إلى على يستمده ، ووصل يزيد إلى مكة قبل التَّرْوية بيومَيْن ، فما تَعرض للقتال ، ونادَى فى الناس : أنتم آمنون إلاَّ من قاتلنا ونازعنا . واتفق قُثَم ويزيد أن يعتزلا الصلاة بالناس ،واختارا شَيْبَه بن عثمان ،فصلَّى بالناس وحَج بهم ،ولما انقضى الحج رجع يزيد إلَى الشام ، وأقبلتَ خيل علىّ مَدَدًا لقُثَم ، وفيهم الرَّيّان ابن ضَمْرة الحنفى ، وأبو الطُّفَيْل ، وعليهم مَعْقل بن قيس ، فتبعوه فأدركوه وقد دخل وادى القُرَى ، وظفروا بنفر من أصحابه فأخذوهم أسارِي ورجعوا بهم إلَى على ، ففادى بهم أسارى كانت لهم عند معاوية .

وبعث معاويةُ عبدَ الرحمن بن قَبَاث بن أَشْيَم إلى بلاد الجزيرة وبها شَبيب بن عامر بنَصِيبين[1] ، فكتب إلى كُمَيْل بن زياد وهو بهيت يعْلِمه خبرهم ،فسار كُمَيْل إليهم نَجْدةَ له فى سِتمائة فارس ،فأدركوا عبد الرحمن ومعه مَعْن بن يزيد السُّلَمىّ فقاتلهما كُمَيْل فهزمهما ، وغلب على عسكرهما ، وأكثر القتل فى أهل الشام ، وقُتل من أصحاب كُمَيل رجلان ، وأقبل شَبِيب بن عامر من نَصِيبين فرأى كُمَيْلا قد أوقع بالقوم فهنأه بالظَّفر ، واتَّبع الشاميين فلم يدركهم ، فعبر الفُرات وبثَّ خَيله فأغارت على أهل الشام حتَّى بلغ بَعْلَبَكّ[2] ، فوجه إليه معاوية حبيب بن مَسْلَمة فلم يدركه ،ورجع شبيب فأغار على نواحى الرقَّة[3] ، فلم يدع للعثمانية بها ماشية إلا استاقها ، ولاخيلا

(١) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة ، على طريق القوافل من الموصل إلى الشام . كما ذكره ياقوت .

(٢) بعلبك : مدينة قديمة بالشام مشهورة بآثارها .

(٣) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات .

ولا سلاحا إلاّ أخذه ، وعاد إلى نَصِيبين . وكتب إلَى علىّ رضى الله عنه فكتب إليه ينهاه عن أخذ أموال الناس إلاّ الخيل والسلاح الذى يقاتلونه به ، وقال : رحم الله شَبِيبا ، لقد أبعد الغارة ، وعجّل الانتصار .

ولما فعل شَبِيب ذلك وقدم يزيد بن شَجْرة على معاوية بعث معاوية الحارث بن نمر التَّنُوخىّ إلى الجزيرة ليأتيه بمن كان فى طاعة علىّ ، فأخذ من أهل دارا[1] سبعة نفر من بنى تغلب ، وكان جماعة من بنى تغلب قد فارقوا عليًّا إلى معاوية فسألوه فى إطلاق أصحابهم فلم يفعل فاعتزلوه أيضا ، وفادى معاوية بهم من كان أسرهم مَعْقل بن قيس من أصحاب ابن شجرة .

وبعث معاويةُ زهير بن مكحول العامرىّ إلى السَّماوة[2] ليأخذ صدقات الناس ، فبلغ ذلك عليا فبعث ثلاثة نفر ، وهم : جعفر بن عبد الله الأشجعىّ ، وعُروة بن العشبة والجُلاَس بن عُمَيَر الكلبيين[3] ؛ ليأخذوا صدقه من فى طاعته من كلب وبكر بن وائل ، فوافوا زُهيرا فاقتتلوا ، فانهزم أصحاب علىّ رضى الله عنه ، وقُتل جعفر ، ولحق ابن العشبة بعلىّ فعنفه وعلاه بالدِّرَّة ، فغضب ولحق بمعاوية . وأما ابن الجُلاَس فإنه مَرَّ براع فأخذ جُبتَّه وأعطاه جبة خَزٍّ فأدركته الخيل ،

(١) دارا : مدينة بين نصيبين وماردين .
(٢) بادية السماوة : بين الكوفة والشام .
(٣) كذا جاء فى المخطوطة ، والظاهر هنا « الكلبيان » بالرفع ، وجاء بالنصب فى الكامل لأنه لم يجىء فيه « وهم » فكانت الأسماء منصوبة .

فقالوا : أين أخذ هؤلاء التُّرابيون[١] ؟ فأشار إليهم : أخذوا ها هنا . ثم أقبل إلى الكوفة .

وبعث أيضا مسلم بن عُقبة المُرىّ إلى دُومة الجندل ، وكان أهلها قد امتنعوا من بيعة علىّ ومعاوية جميعا ، فدعاهم إلى طاعة معاوية وبيعته ، فامتنعوا ، وبلغ ذلك عليًا ، فبعث مالك بن كعب الهمَذانى فى جمع إلى دُومة الجندل ، فلم يشعر مسلم إلاَّ وقد وافاه مالك ، فاقتتلوا يوما ثم انصرف مسلم منهزما ، وقام مالِكٌ أياما يدعو أهل دُومة الجندل إلى بيعة علىّ ، فأبَوْا وقالوا : لانبايع حتى يجتمع الناس على إمام ، فانصرف عنهم وتركهم .

ذكر مسير بسر بن أرطاة

إلى الحجاز واليمن وما فعله

وفى سنة أربعين بعث[٢] معاويةُ بُسْر بن أرطاة بن أبى أرطاة — واسم أبى أرطاة عُمير ، وقيل[٣] عُويمر الشَّامىّ[٤] من بنى عامر بن لؤى — إلى الحجاز واليمن فى ثلاثة آلاف فارس ، فسار من الشام حتّى قدم المدينة ، وعامل المدينة يومئذ أبو أيوب الأنصارىِ من قبل علىّ رضى الله عنهما ، ففرَّ أبو أيُّوبَ ولحق بعلى ، ودخل بُسْر المدينة ولم يقاتله أحد ، فصعد منبرها فنادى : يادِينار ، يانجار ، يا زُرَيق

(١) أى أتباع أبى تراب على بن أبى طالب .

(٢) وذلك بعد تحكيم الحكمين ، كما فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٠٦ والاستيعاب ج ١ ص ١٥٨ .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة مثل الاستيعاب ج ١ ص ١٥٤ ، وجاء فى جمهرة أنساب العرب ص ١٦١ والإصابة ج ١ ص ١٤٧ « واسم أبى (أرطاة) عمير بن عويمر » .

(٤) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وقد قال أبو عمر فى الاستيعاب « يعد بسر بن أرطاة فى الشاميين » . وجاء فى النسخة (ك) : « الشيبانى » ، ومن المعروف أنه عامرى قرشى .

(وهذه بطون من الأنصار) شَيْخى شيخى، عهدته ههنا بالأمس، فأين هو ؟! (يعنى عثمان). ثم قال: والله لولا ماعَهد إلَى مُعاوية ماتركتُ بها مُحتلِما إلاّ قتلته. ثم أمر أهل المدينة بالبيَعة لمعاوية، وأرسل إلى بنى سلِمة [1] فقال: مالكم عندي أمان ولامُبايَعة حتّى تأتونى بجابر بن عبد الله. فأُخبِرَ، فانْطلق إلَى أمّ سَلَمة زَوج النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها: «ماذا تَرَين ؟ فإنى خشِيت أن أقتل، وهذه بَيعة ضلالة!» فقالت: «أرَى أن تُبايع، وقد أمرتُ ابْنى عُمَر بن أبى سَلَمة وخَتَنى بْنَ زَمْعَة أن يُبايعا»، وكانت [2] ابنتها زينب تحت ابن زَمعه [3]، فأتى جابر إلى بسر فبايعه لمعاوية، وهدم بسر دورا بالمدينة.

ثم انطلق حتّى أتى مكة، وفيها أبو مُوسَى الأشعرى، فخافه أبو موسَى علَى نفسه أن يقتله، فهرب، فقيل ذلك لبُسْر، فقال: ماكنتُ لأطلُبه وقد خلع عليا. ولم يطلبه.

وكتب أبو مُوسَى إلَى اليَمَن: أن خَيْلا مبعوثة من عند مُعاوية تقتل الناس ممَّن أبَى أن يقرَّ بالحكومة.

ثم مضى بُسْر إلَى اليَمَن، وعامِلُ اليمن من قِبَل علىٍّ رضى الله عنه عُبَيد الله بن عبَّاس، فلما بلغه أمْرُ بُسْر فرَّ إلَى الكوفة حتّى أتَى

---

(١) قال ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٩٣ «بكسر اللام، بطن من الأنصار» وهم بنو سلمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، ومن بنى أسد جابر بن عبد الله، هو وأبوه صحابيان.

(٢) جاء بهذه الجملة ليشرح معنى «الختن».

(٣) ابن زمعة: عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى الأسدى، أمه: قريبة بنت أبى أمية، أخت أم سلمة، وزوجته: ابنة خالته زينب بنت أبى سلمة.

علياً ، واستخلف علَى اليَمن عبد الله بن عبد المَدان الحارثى[١] ، فأتاه بُسْر فقتله وقتل ابْنَه[٢] ، ولِقَى ثَقَلَ[٣] عُبَيد الله بن العباس رضى الله عنه وفيه ابنان صغيران لعُبَيد الله بن العبَّاس فقتلهما ، وهما عبد الرحمن وقُثَم .

وقيل : إنهما كانا عند رجل من بنى كِنَانة بالبادية ، فلما أراد قتلهما قال له الكنانى : « لِمَ تقتل هذَين ولا ذنب لهما ؟ فإن كنت قاتِلَهما فاقتلْنى معهما ! » ، فقتله ، وقتلهما بعده .

وقيل : إنَّ الكِنانىَّ أخذ سيفه وقاتل عن الغلامَين وهو يقول :

اللَّيْث من يمنع حافات الدارْ .

ولا يزال مصلتا دُون الجارْ .

وقاتَل حتَّى قُتل وأخذ بُسْرٌ الغلاميَيْن فذبحهما ، فخرج نسوة من بنى كِنانة ، فقالتْ امرأة منهن : « ماهذا ؟ قتلتَ الرجال فَعَلَامَ تقتل الوِلْدان ؟ واللهِ ما كانوا يُقتَلون فى جاهلية ولا إسلام ! واللهِ إنَّ سُلطانا لا يقوم إلاَّ بقتل الضَّرع[٤] الصغير والشيخ الكبير وبِرَفْع الرحمة وعُقوقِ الأَرحام لسُلطانُ سوء ! » فقال لها بُسْر : والله لقد

---

(١) عبد الله بن عبد المدان قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فى وفد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : من أنت قال : أنا عبد الحجر . قال : أنت عبد الله . فأسلم وبايع . وأبوه عبد المدان اسمه عمرو . وجده الديان اسمه يزيد .

وكان عبيد الله بن عباس قد تزوج عائشة بنت عبد الله بن عبد المدان واستعان أباها عبد الله على اليمن .

(٢) مالك بن عبد الله بن عبد المدان .

(٣) الثقل : متاع المسافر وحشمه وكل شىء نفيس مصون .

(٤) الضرع : الضعيف .

هممْتُ أن أضَعَ فيكن السيف . فقالت له : تالله إنها لأُخْت التى صنَعْتَ وما أنا لَها مِنك بآمِنة ! ثم قالت للنساء [التى[1] حولها] : وَيْحَكُنَّ ! تَفَرَّقْن ! .

وقَتل بُسْرٌ فى مسيره ذلك جماعةً من شِيعة علىّ باليمَن .

وبلغ عليا الخبر ، فأرسل جاريةَ بن قُدَامة فى ألفَيْن ، ووَهْبَ ابن مسعود فى ألفَيْن ، فسار جارية حتَّى أتى نَجْرانَ ، فقتل بها ناسا من شِيعة عُثمان ؛ وهرب بُسْرٌ منه ، واتبعه جاريةُ إلَى مكة ، فقال : بايِعوا أمير المؤمنين . فقالوا : قدهلك فلِمَنْ نُبايع ؟ قال : لِمنْ بايَع له أصحابُ على فبايَعوا خوفًا منه .

ثم سار حتَّى أتَى المدينة ، وأبو هُرَيْرة يصلِّى بالناس ، فهرب منه ، فقال جارية : لو وجدت أبا سِنَّوْر لقتلتُه . ثم قال لأهل المدينة : بايعوا الحسن بْنَ على ، فبايَعوا ، وأقام يَومَه ، ثم عاد إلَى الكوفة ، ورجع أبو هُرَيْرَة يصلِّى بهم .

وكانت أم ابنَى عُبَيْدالله أمّ الحَكَم جويرية بنت خُوَيْلد بن قارظ ، وقيل : عائشة بنت عبد الله بن عبد المَدَان ، فلما قُتِل ولداها وَلِهَتْ[2] عليها ، فكانت لا تعقِل ولا تُصْغى ، ولا تزال تَنْشُدُهما فى المواسم وتقول :

---

(١) يبدأ من هنا مقدار كبير سقط من النسخة (ك) وثبت فى النسخة (ن) .

(٢) ولهت : اشتد حزنها وذهب عقلها .

ها[١] مَنْ أحس بُنَيَّ اللَذَيْنِ هما
كالدُّرتَين تَشَظَّى[٢] عنهما الصـــدفُ

هَامَنْ أحسَّ بُنَيَّ اللذَيْنِ همـــا
سمعى وعقلى فقلبى اليوم مُخْتَطَفُ

هَامَنْ أحسَّ بُنَيَّ اللذَيْنِ همـــا
مُخُّ العظَام فمُخِّى اليَوْمَ مُزْدَهَفُ[٣]

من ذُلّ والهَة حَيْرَى مُدَلَّهَـــة[٤]
علَى صبيَّيْنِ ذَلاًّ إذْ غَدا السَّلَـــفُ

نُبِّئْتُ بُسْرًا وما صدَّقتُ ما زعَموا
من قتلهم ومن الإثْمِ الَّذى اقْتَرَفوا

أَحْنَى علَى وَدَجَىْ[٥] إبْنَىَّ[٦] مُرْهَفَةً
مَشْحُوذَةً وكذاكَ الإثْمُ يُقْتَرَفُ

قال[٧] : فلمّا سمع علىّ بقتلهما جزِع جزَعا شديدا ، ودعا على بُسرٍ فقال : اللهُم اسْلُبْه دِينَه وعقله . فأصابه ذلك ، وفَقَد عقله ؛ فكان يَهْذِى بالسَّيْف ويطلبه ، فيُؤْتَى بسَيف من خشب ، ويُجْعَل

---

(١) « ها » كذا جاء فى المخطوطة موافقا للاستيعاب ج ١ ص ١٥٦ ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٩٣ : « يا » ، وكذلك أولا البيتين التاليين .
(٢) تشظى : انشق .
(٣) مزدهف : ملهوب به .
(٤) المدلهة : الساهية القلب الذاهبة العقل .
(٥) الودج : عرق فى العنق يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة .
(٦) همزة « ابن » همزة وصل ، ولكنها صارت إلى القطع هنا لضرورة شعر .
(٧) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٩٣ .

بين يَدَيْه زِقٌّ منفوخ ، فلايَزال يضربه ، فلم يزل كذلك إلَى أن مات .

قال[١] : ولما استقرَّ الأمر لمُعاوية دخل علَيه عُبَيْد الله بن عبَّاس وعنده بُسْر ، فقال لبُسْر : وَدِدْتُ أن الأرض أنبتتنى عندك حين قتلْتَ ولدَىَّ . فقال بُسْر : هاك سَيفى . فأهْوَى عُبَيْد الله ليتناوله ، فأخذه مُعاوية وقال لبُسْر : « أخزاك الله شَيْخا قدخرِفْتَ ! والله لوتمكَّن منه لبدأ بى ! » قال عُبَيْد الله : أجَلْ ثم ثَنيتُ به .

وقيل : إن مَسِير بُسْرٍ إلى الحجاز كان فى سنة اثنتَين وأربعين ، وإنه أقام بالمدينة شهرا يستعرض الناس ، لايقال له عن أحد « إنه شَرِك فى دم عثمان » إلاَّ قتله .

وحكى أبو عُمر بن عبد البر[٢] عن أبى عَمرو الشيبانى قوله : لماوجَّه مُعاويةُ بن أبى سفيان بُسْرَ بْنَ أرْطاة الفِهْرى لقتل شِيعة علىّ ، قام إليه مَعْن أو[٣] عمرو بن يزيد بن الأخْنَس السُّلَمى وزياد[٤] بن الأشهب الجعدى فقالا : « ياأمير المؤمنين نسألك بالله والرَّحِم ألاَّ تجعَلَ لبُسْرٍ علَى قَيْس سُلطانا ، فيقتل قيسا بما قتلتْ بنو سُلَيم من بنى فِهْر وكِنانة يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكّة » . فقال له مُعاوية : يابُسْر ، لاأمْرَ لك على قَيْس . فسار حتَّى أتى المدينة فقتل ابنَىْ عُبَيْدالله بن عبّاس ، وفرَّ أهل المدينة ودخلوا الحَرَّةَ : حَرَّةَ بنى سُلَيم .

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢) الاستيعاب ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) المشهور فى هذه النسبة « معن بن يزيد بن الأخنس السلمى » ، وقد بايع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إنهم ثلاثتهم شهدوا بدرا مسلمين .

(٤) كان زياد بن الأشهب بن أدر بن عمرو بن ربيعة بن جعدة العامرى الجعدى من أشراف أهل الشام عظيم المنزلة عند معاوية .

هكذا قال الشيباني : إنه قتل ابنيْ عبيدالله بالمدينة . والأكثر أنه قتلهما باليَمَن على ماذكرنا .

قال[1] : وفى هذه الخَرْجة أغار بُسْرٌ علَى هَمْدان وقتل وسبى نساءهم ، فكُنَّ أوَّلَ مسلماتٍ سُبِينَ في الإسلام . وقتل أحياء من بنى سعد .

وروى أبو عُمر[2] بسنده عن أبى الرُّباب وصاحب له أنهما سمعا أبا ذَر يدعو ويتعوذ في صلاة صلاَّها طال قِيامُها وركوعُهَا وسجودها ، قال : فسألناه : مِمَّ تعوَّذْتَ ؟ وفِيمَ دَعَوْتَ ؟ فقال : تعوذتُ بالله من يوم البَلاء أن يَدركنى ويومِ العَوْرة أن أدركَه . فقلنا : وماذاك ؟ فقال : أما يوم البلاء فتلتقى فِئَتَانِ من المسلمين فيقتل بعضهُم بعضا ، وأما يوم العَوْرة فإن نساء من المسلمات يُسْبَيْنَ فيُكْشَفُ عن سُوقهنَّ فأيَّتُهُنْ كانت أعظمَ ساقا اشْتُرِيَتْ علَى عِظَمِ ساقها ، فدعَوْتُ الله ألاَّ يدركنى هذا الزمان ولعلكما تدركانه . قال : فقتل عثمان ثم أرسل مُعاوية بُسْرَ بن أرْطاة إلَى اليَمَن فسبَى نساءً مسلماتٍ فأقمن في السُّوق .

هذا ماكان من أخباره فى خلافة علىّ رضى الله عنه ممَّا يدخل فيما نحن بصَدَده ، فلنذكر الآن ماتفق له فى مدة ولايته بعد أن خلص له الأمر ، ونبدأ بالغَزَوات والفتوحات .

---

(١) أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب .
(٢) فى الاستيعاب .

ذكر الغزوات والفتوحات

في أيام معاوية بعد أن استقل بالأمر

فى سنة اثنتَيْن وأربعين كان غزو الروم ، فهُزِموا ، وقُتل جماعة كبيرة من بَطارقتهم .

وفيها كان غزو اللان[1] .

وفى سنة ثلاث وأربعين غزا بُسْرُ بن أَرْطاة الرُّوم حتَّى بلغ القُسْطَنْطِينية ، وشتَّى بأَرضهم ، حكاه الواقدى ، وأنكره غيره وقال : لم يُشَتِّ بُسْر بأَرض الروم قَطُّ ، وكان بُسْر إذ ذاك يلى البصرة من قبل معاوية على ما نذكره فى حوادث السنين .

وفيها اسْتَعمل عبد الله بنُ عامر عبدَ الرحمن بْن سَمُرة علَى سِجِسْتان ، فأَتاها ، فكان يغزو البلد وقد كفَر أهله فيفتحه ، حتى بلغ كابُل ، فحصَرها أشهُرا ، ونصب عليها مَجانِيقَ فثَلَمَتْ سُورها ثُلْمَة عظيمة ، فبات عليها عَبَّاد بن الحُصَين الحَبَطى ليلة — وكان على الشرطة — فمازال يطاعن المشركين حتَّى أصبح ، فلم يقدروا على سدها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ، ودخلوا البلد عَنْوَةً[2] . وساروا إلَى زَرَاوَن ، فهرب أهلها ، فغلب عليها ، ثم سار إلَى خُشَّك ، فصالحه أهلها . ثم أَتَى الرُّخَّج ، فقاتلوه ، فظفِر بهم وفتحها ، ثم صار إلى زابُلِسْتان — وهى غَزْنَة وأعمالها — وكانوا قد نكثوا ففتحها . وعاد إلى كابُل ، وقد نكَث أهلها ففتحها .

---

(١) اللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينية .

(٢) زاد ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢١٧ — حيث نقل المؤلف — قوله : « ثم صاروا إلى بست ففتحها عنوة » .

ذكر غزو السند

قال : وفى سنة ثلاث وأربعين استعمل عبد الله بن عامر - وكان على البصرة وخُراسان وسِجِسْتان - عبْد الله بن سوَّار العبدى عل ثغر السِند[1] - ويقال : بل كان ابن سوار من قِبَلِ معاوية - فغزا القِيقان ، فأصاب مَغْنما ، ووفد على معاوية وأهدى له خَيلا[2] ، ثم غزا القِيقان مرة ثانية ، فاستنجدوا بالترك ، فقتلوه وكان كريما ، لم يوقِد أحد في عسكره نارا[3] ، فرأى ذات ليلة في عسكره نارا ، فقال : ماهذه ؟ قالوا : امرأة نُفَسَاء يُعْمَل لها الخَنبِيص ، فأمر أن يُطْعَم الناسُ الخَنبِيصَ ثلاثة أيّام .

وفي سنة أربع وأربعين دخل المسلمون بلاد الروم مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وشتَوْا بها . . . وغزا بُسْر بن أرْطاة في البحر .

وفيها غزا المهلَّبُ بن أبي صُفْرة ثغر السِند ، وقاتلهم ، ولقِيَ المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارسا من الترك ، فقاتلوه قتالا شديدا ، فقُتلوا جميعا .

وفي سنة ست وأربعين كان مَشْتَى مالك بن عبد الله[4] بأرض

---

(١) كان قد توجه إلى ثغر السند فى سنة ٣٨ وأول سنة ٣٩ الحارث بن مرة العبدى متطوعا بإذن على بن أبى طالب ، فظفر وأصاب مغنما ، ثم قتل فى سنة ٤٢ بأرض القيقان .

(٢) خيلا قيقانية ، كما قال ياقوت فى معجم البلدان .

(٣) نارا غير ناره ، كما قال ياقوت .

(٤) مالك بن عبد الله بن سنان بن سرح بن وهب بن الأقيصر الخثعمى ، وكان يعرف بمالك السرايا .

الروم ، وقيل : بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وقيل : بل كان مالك بن هُبَيْرة السَّكُونى[١].

وفى سنة سبع وأربعين كان مَشْتَى مالك بن هُبَيْرة بأرض الروم ومَشْتَى أبى عبد الرحمن القَيْنِىّ[٢] بأَنْطاكِيَة .

وفيها غزا الحكَم بن عمرو بعض جبال الترك ، ومعه المهلَّب بن أبى صُفرة فغنموا ، وأخذ الترْك عليهم الشعاب والطرق ، فعيِىَ الحكَمَ بالأمر فولَّى المهلَّبَ الحرب ، فلم يزل المهلَّبُ يحتال حتَّى أخذ عظيما من عظماء الترك ، فقال له : إمَّا أن تُخْرِجَنا من هذا المَضِيق أو أقتلك ، فقال له التركى : « أوْقِد النار حِيَالَ طريق من هذه الطرق وسَيِّر الأثقال نحوه ، فإنهم سيجتمعون فيه ويُخلون ماسواه من الطرق ، فبادِرْهم إلى طريق آخر ، فما يدركونكم حتَّى تخرجوا منه » . ففعل ذلك ، فسلم الناس بما معهم من الغنائم[٣].

وفيها أيضا سار الحَكَم أيضا إلى بلاد الغُور فغزا من بها وكانوا قد ارتدُّوا ، فأخذهم عَنْوة بالسيف ، وفتحها ، وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا ، ولما رجع الحكم من هذه الغزاة مات[٤] بمَرْو ،

(١) مالك بن هبيرة بن خالد بن مسلم بن الحارث بن المخصف بن مالك بن الحارث ابن بكر بن ثعلبة بن عطية بن السكون كان شريفا بالشام .

(٢) أبو عبد الرحمن بن كعب بن ثعلبة بن القينى ، كان معروفا بكنيته ، ويقال له « ذو الشكوة » لأنه كانت له شكوة إذا قاتل ، والشكوة : وعاء من جلد للماء واللبن . وهو من بنى القين وهو النعمان بن جسر من قضاعة .

(٣) ذكر الطبرى هذه القصة فى سنة إحدى وخمسين .

(٤) انظر تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٨٦ حيث قال : وفى هذه السنة كانت وفاة الحكم بن عمرو الغفارى بمرو منصرفه من غزوة أهل جبل الأشل . . الخ : وانظر ترجمة الحكم فى الاستيعاب ج ١ ص ٣١٤ والإصابة ج ١ : ص ٣٤٦ .

فى قول بعضهم ، وكان الحَكَم قد قطع النهر فى ولايته ولم يفتح ، وكان أول المسلمين شرب من النهر مولًى للحَكَمِ ، اغترف بتُرسه فشرب ، وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلَّى ركعتين ، وكان أول المسلمين فعل ذلك .

وفي سنة ثمان وأربعين كان مَشْتَى عبد الرحمن القَيْنى بأَنْطاكِيَة وصائفة عبد الله بن قيس الفزارى ، وغزوة مالك بن هُبَيْرة السَّكونى البحر ، وغزوة عُقْبة بن عامر الجهُنى بأهل مصر فى البحر وبأهل المدينة .

ذكر غزوة القسطنطينية

وفى سنة تسع وأربعين - وقيل : فى سنة خمسين - بعث مُعاوية جيشا كَثيفا إلى بلاد الروم عليهم سُفْيان بن عوف وكان في هذا الجيش عبد الله بن عباس وعبد الله بن عُمر وعبد الله بن الزُّبير وأبو أيُّوب الأنصارى ، وعبد العزيز بن زُرارة الكلابى[1] وغيرهم .

وأمر مُعاوية ابْنَه يزيد بالغَزاة معهم ، فتثاقل واعتلَّ ، فأمسك عنه أبوه ، فأصاب الناسَ فى غَزاتهم جوعٌ ومرض شديد ، فقال يزيد :

ما إنْ أُبالى بما لاقت جموعُهُمُـــو
بالْغَذْقَذُونَة[2] من حُمَّى ومن مُومِ[3]

(١) كان عبد العزيز بن زرارة رجلا شريفا ذا مال كثير ، فأشرف عنبسة فواجه المال فأعجبه ، فقال زرارة : اللهم إنى أشهدك أنى حبست نفسى وأهلى ومالى فى سبيلك ثم أتى أباه فأخبره بذلك ، فقال : ارتحل على بركة الله . فتوجه نحو الشام. وشهد غزاة القسطنطينية .

(٢) كذا جاء هذا الاسم - وهو اسم بلد - فى موضعين من معجم البلدان لياقوت محرفا كما حرف فى نسخ الكامل لابن الأثير .

(٣) المومِ : نوع من الحمى ومن الجدرى .

إذا اتَّكَأْتُ على الأنماط مُرْتَفِقًا
بِدَيْرِ مُرَّانَ عِنْدِى أُمُّ كُلْثُوم

(وأم كلثوم : امرأته ، وهى ابنة عبد الله بن عامر) فبلغ مُعاوية شِعْرُه ، فأقسم عليه : لَيَلْحَقَنْ بسُفيان فى أرض الرُّوم لِيُصيبَه ماأصاب الناس[٣] . فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه ، فلحِق بهم .

وأَوْغل المسلمون فى بلاد الروم ، حتَّى بلغوا القُسْطَنْطِينِيَّة ، والْتَقَوْا بالروم ، واقتتلوا فاشتدّت الحرب بينهم فى بعض الأيام فلم يزل عبد العزيز بن زُراره يتعرض للشهادة ، فلم يُقْتَل ، فأنشأ يقول :

قد عِشْتُ فى الدهر أطوارًا على طُرُق
شَتَّى ، فصادفْتُ منها اللين والبشعا
كُلًّا بَلَوْتُ ، فلا النَّعماء تُبْطِرُنى
ولا تخشَّعْتُ من لأْوَائها جزعا[٢]
لا يملأُ الأمرُ صدرى قبل مَوْقِعه
ولا أَضِيقُ به ذَرْعًا إذا وقعا

ثمَّ حمل على من يَليه : فقَتَل فيهم ، وانْغَمَس بيْنهم ، فشَجَرَه[٣] الروم برماحهم ، حتى قتلوه ، رحمه الله ، فبلغ قتْله مُعاوية ، فقال

---

(١) جاء فى معجم البلدان أن معاوية قال : « لا جرم ليلحقن بهم ويصيبه ماأصاب وإلا خلعته » .

(٢) تبطرنى : تجعلنى أطغى وأتكبر . واللأواء : الشدة والمحنة .

(٣) شجره : طعنه .

لأبيه : هلَكَ واللهِ فتى العرب ! فقال : ابْنى أو ابنُك ! قال ابْنُك فآجَرَكَ الله ! فقال[1] :

فإنْ يَكُنِ المَوْتُ أَوْدَى بـــــه
وأصبح مُخُّ الكلابِىِّ رِيـــرَا[2]
فكُلُّ فَتًى شـــارِبٌ كَأْسَـــهُ
فإمَّا صغيرًا وإمَّا كبيـــرَا

قال : ثُم رجعوا إلى الشام ، وتُوُفِّىَ أبو أيُّوب الأنصارى عند القُسْطَنْطِينيَّة ، فدُفِن بالقرب من سُورها ، فأهلها يستسْقون به .

وفى سنة خمسين غزا بُسْرُ بن أَرْطاة وسُفْيانُ بن عَوْف الأَزدى أرض الروم ، وغزا فضالة بن عبيد الأنصارى فى البحر .

وفى سنة إحدى وخمسين كان مَشْتَى فَضالة بن عبيد بأرض الروم ، وغزوة بُسْر بن أَرْطاة الصائفة .

وفي سنة اثنتين وخمسين غزا سُفْيان بن عَوف الأَزدى الروم ، وشتى بأرضهم ، وتُوُفِّىَ بها في قول ، فاستخلف عبد الله بن مسعدة الفَزارى ، وقيل : إن الذي شتى فى هذه السنة بأرض الروم بُسْر بن أرطاة ومعه سُفْيان بن عَوف. وغزا الصائفة محمد بن عبد الله الثقفى .

---

(١) فى الإصابة ج ١ ص ٥٤٧ أنه استرجع ، أى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ».
(٢) مخ ريـر : ذائب فاسد من الهزال .

ذكر فتح جزيرة أرواد

وفى سنة أربع وخمسين فتح المسلمون يقدمهم جُنادة بن أبى أُميّة جزيرة أَرْواد بالقرب من القسطنطينية ، وأقاموا بها سبع سنين ، فلما مات معاوية وولِىَ ابنه يزيد أمرهم بالعودة فعادوا .

وفيها كان مَشْتَى محمد بن مالك بأرض الروم ، وصائفة مَعْن ابن يزيد السُّلمى .

وفيها استعمل مُعاوية عُبَيْدَ الله بنَ زِياد بن أبيه على خُراسان ، فقطع النهر إلى جبال بُخارَى على الإبل ، فكان أولَ من قطع جبال بخارَى فى جيش ، ففتح رَامَنِى ، ونَسَفَ ، وبيكَنْد . وسنذكر ذلك إن شاء الله فى حوادث سنة أربع وخمسين .

وفى سنة خمس وخمسين كان مشْتَى سُفيان بن عَوف الأَزْدى بأرض الروم ، فى قول ، وقيل : بل شتَّى فى هذه السنة عمرو بن محرز ، وقيل : عبد الله بن قَيس الفزارى ، وقيل : بل مالك بن عبدالله

وفى سنة ست وخمسين كان مَشْتَى جُنادة بن أبى أمية بأرض الروم ، وقيل : عبد الرحمن بن مسعود ، وقيل : غز افيها فى البحر يزيد بن شَجْرة وفى البَرّ عِياض بن الحارث .

وفيها قطع سعيد بن عثمان بن عَفّان النهر إلى سَمَرْقَنْد ، فخرج إليه [أهل] (١) الصُّغْد ، فقاتلهم ، وسنذكر ذلك إن شاء الله فى حوادث سنة ستّ وخمسين .

---

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى كما يأتى ، والصغد : قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى .

وفى سنة سبع وخمسين كان مَشْتَى عبد الله بن قيس بأرض الروم .

وفى سنة ثَمانٍ وخمسين غزا مالك بن عبد الله الخَثْعمى أرض الروم ، وعمرو بن زيد الجُهَنى فى البحر ، وقيل : جُنادة بن أبى أُميّة

وفى سنة تسع وخمسين كان مَشْتَى عمرو بن مرة الجُهَنى بأرض الروم فى البر ، وغزا فى البحر جُنادة بن أبى أُميَّة ، وقيل لم يكن فى البحر غَزاة فى هذه السنة .

وفيها غزا المسلمون حصهن كَمْخ ومعهم عُمَير بن الحُباب السُّلَمِى فصعد عُمَير السُّور ، ولم يزَلْ يقاتل عليه وحْدَه حتَّى كشَف الرومَ وصعد المسلمون ، ففَتَحُه بِعُمَيْر .

وفى سنة ستين كانت غزوة مالك بن عبد الله سورية ، ودخولُ جُنادة رُودِس ، وهدمه مدينتها في قول بعضهم .

فهذه الغزواتَ والفتوحات التى كانت في أيام معاوية .

فلنذكر أخبار الخوارج عليه وماكان من أمرهم .

ذكر أخبار الخوارج

فى أيام معاوية وما كان من أمر هم

كان أول من خرج بعد أن استقل معاوية بالأمر فَرْوة بن نوفل الأشجعى ، وكان قد اعتزل في خمسمائة من الخوارج ، وسار إلى شَهْرَزور ، وترك قتال علىّ والحسَن .

فلما ولِىَ معاوية قال : « جاء الآن مالا شكَّ فيه ، سيروا إلى معاوية فجاهِدوه » . فسار بهم حتى نزل النُّخيلة (عند الكوفة) .

وكان الحسن بن عليّ قد سار يريد المدينة ، فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال فَرْوَة بن نوفل ، فلحقه رسوله بالقادسيّة ، أو قريبًا منها ، فلم يَرجع ، وكتب إلى معاوية يقول : « لو آثرْتُ أن أقاتل أحدا من أهل القِبلة لبدأْتُ بقتالك ، فإنى تركته[1] لصلاح الأُمة وحَقْنِ دمائها »

فأرسل إليهم مُعاوية جمعًا من أهل الشام ، فقاتلوهم ، فانهزم أهل الشام .

فقال مُعاوية لأهل الكوفة : والله لا أَمَانَ لكم عندى حتّى تَكْفُونِيهِم ! فخرج أهل الكوفة إليهم ، فقاتلوهم ، فقالت الخوارج لهم : « أليس مُعاوية عدوّنا وعدوّكم ؟ دعُونا حتّى نقاتلَه ، فإن أصبْناه كُنّا قد كَفَيناكم عدُوّكم ، وإن أصابنا كنتم قد كُفِيتُمونا » . فقالوا : لابُدَّ لنا من قتالكم . فأخذتْ أشْجَعُ صاحِبَهم فَرْوَة[2] ، فوعظوه ، فلم يَرجع ، فأدخلوه الكوفةَ قهرا .

فاستعمل الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحَوْساء (رجل من طَيِّئ) فقاتَلهم أهل الكوفة ، فقتلوهم في شهر ربيع الأول ، أو ربيع الآخر ، سنة إحدى وأربعين . وقُتِل ابن أبي الحَوْساء[3] ، وكان حين ولى أمْر الخوارج قد خُوِّفَ من السلطان أن يصلبه إذا ظفر بهم ، فقال :

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، أى : تركت القتال ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٥ : « تركتك » .

(٢) لأن فروة أشجعى .

(٣) الذى قتل ابن أبي الحوساء هو خالد بن عرفطة ، كما جاء فى الاستيعاب ج ١ ص ٤١٤ والإصابة ج ١ ص ٤١٠ ، وسيأتى له ذكر .

ما إنْ أُبالى إذا أرواحُنا قُبِضَتْ
مَاذا فَعَلْتم بأَوْصالٍ وأَبْشـــارِ
تَجْرِى المَجَرَّةُ والنَّسْرانِ عَنْ قَـــدَرٍ
والشمس والقمر السارى بمقـــدارِ
وقد علِمْتُ وخَيْرُ القَوْلِ أنفعُـــه
أنَّ السعيد الَّذِى ينجو من النـــارِ

ثم خرج حَوْثرة بن وداع ، وذلك أنه لمَّا قُتل ابن أبى الحوساء اجتمع الخوارج فولَّوْا أَمْرَهم حَوثرة بن وداع بن مسْعود الأَسَدى ، فقام فيهم ، فعاب فَرْوَةَ بن نَوْفل فى شكِّه فى قتال علىّ رضى الله عنه ، ودعا الخوارجَ وساربهم من بَرَاز الرُّوز ـ وكان بها ـ حتَّى قِدم النُّخَيلة فى مِائة وخمسين ، وانضمَّ إلَيهم فَلُّ ابْن أبى الحَوْساء ، وهم قليل .

فدعا معُاوية أبا حَوْثرة فقال له : اخْرُجْ إلَى ابنك لعله يرِقُّ إذا رآك . فخرج إليه وكلَّمه وناشده وقال له : ألاَ آتِيك بِابْنك لعلك إذا رأيتَه كرِهتَ فِراقه ! فقال : أنا إلَى طعنة برمح من يد كافر أتقلب فيه ساعة أشْوَقُ منِّى إلَى ابْنى ! فرجع أبوه فأخبر معاوية بمقالته . فسيَّر إليه عبدَ الله بن عَوف بن أحمر (١) فى ألفين ، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج ، فدعا ابْنَه إلى البِراز ، فقال له : ياأَبَتِ لك فى غيرى سَعة .

(١) كذا جاء فى المخطوطة وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٦ : « عبد الله ابن عوف الأحمر » .

فقاتله ابنُ عوف وقَتله مُبارزة ، وقتل أصحابه إلاّ خمسين رجلاً دخلوا الكوفة ، وذلك فى جُمادَى الآخِرة من السنة[1] .

ورأى ابْنُ عَوف بوجه حوثرة أثَرَ السجود ، وكان صاحِب عبادة فندِم علَى قتله ، وقال :

قتلتُ أخا بنى أَسَـــد سَفاهًـــا
لَعَمْرُ أبِى فما لُقِّيتُ رُشْـــدى
قتلتُ مُصَلِّيًا مَحْيـــاه لَيـــل
طويلُ الحُزْنِ ذا بِرٍّ وقَصْـــد
قتلت أخا تُقًى لأنالَ دُنْيـــا
وذاك لِشِقْوَتى وعثـارِ جَـــدِّى
فهَبْ لى تَوبـة ياربِّ واغفـــرْ
لما قارفتُ من خطأٍ وعَمْـــد

ثم خرج فَرْوَة بن نَوْفل الأَشْجَعى على المُغيرة بن شُعْبة ، وذلك بعد مَسير معاوية ، فوجَّه إليَه المغيرة خيلا عليها شَبَثُ بن رِبْعِىٍّ ، وقيل : مَعْقِل بن قَيس ، فلقيه بشَهْرَزُور ، وقيل بالسواد .

وخرج شبيب بن بَحَرَة ، وكان شَبيب مع ابن مُلْجم حين قتل عليًّا ، كما ذكرنا ، فلما دخل معاوية الكوفة أتاه شَبيب كالمتقرب إليه ، فقال : أنا وابنُ مُلْجم قتلنا عليا . فوثب معاوية مذعورا من مجلسه

(١) أى : سنة إحدى وأربعين .

حتّى دخل منزله ، وبعث إلى أشجع[1] وقال : « لئن رأيْتُ شبيبا أو بلَغنى أنه ببابى لأُهْلِكَنّكم !][2] أخرجوه عن بلدكم ! » .

فكان شبيب إذا جَنَّ عليه الليل خرج فلم يَلق[3] أحدا إلا قتله . فلما وَلِىَ المغيرة خرج عليه بالطَّفِّ (بقرب الكوفة) ، فبعث المغيرة خيلا عليها خالد بن عُرْفُطة[4] ، وقيل : مَعْقِل بن قَيس ، فاقتتلوا ، فقتل شبيب وأصحابه .

وبلغ المغيرةَ أنَّ مُعَين[5] بن عبد الله - وهو رجل من مَحارِب - يريد الخروج ، فأخذه وحبسه وبعث إلَى معاوية يخبره ، فكتب إليه : إنْ شهدَ أنى خليفة فَخَلِّ سبيله . فأحضره المغيرة ، فأبى أن يشهد بخلافة معاوية[6] ، فقتله .

ثُمَّ خرج أبو مَرْيَم مَوْلَى بنى الحارث بن كَعْب ، ومعه امرأتان : قَطَام وكحيلة ، وكان أوَّلَ من أخرج معه النساء ، فعاب عليه ذلك أبو بِلال بن أُدَيَّة ، فقال : قد قاتل النساء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين بالشام ، وسأردُّهما فردَّهما . فوجَّه إلَيْه

---

(١) كان شبيب بن بجرة منسوبا إلى قبيلة أشجع ، كما كان فروة الخارجى أشجعيا ، انظر تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ١١١ .

(٢) إلى هنا ينتهى ماسقط من النسخة (ك) وثبت فى النسخة (ن) مع مراجعته على ما أثبته ابن الأثير فى الكامل .

(٣) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : (يأت) .

(٤) خالد بن عرفطة بن أبرهة بن سنان هو الذى قتل عبد الله بن أبى الحوصاء الخارجى فيما سبق .

(٥) قال ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٠٦ : كان اسمه « معنا » فصغر .

(٦) وقال معين : أشهد أن الله عز وجل حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور .

المُغيرة جابِرًا البَجَلى ، فقاتله ، فقُتل أبو مَرْيَمَ وأصحابُه بِبَادُورَيا .

وخرج أبو ليلى – وكان أسود طويلا – ومعه ثلاثون من المَوالى فبعث إليه المغيرة مَعْقِل بن قَيس الرِّياحى ، فقتله بسَواد الكوفة فى سنة اثنتين وأربعين .

وخرج سَهم بن غالب الهُجَيْمى فى سنة إحدى وأربعين بالبصرة علَى عبد الله بن عامر ، فى سبعين رجلا ، منهم الخَطِيم الباهِلى واسمه زياد [1] بن مالك ، وإنما قيل له « الخَطِيم » لِضربة ضُرِبَها علَى وجهه . فنزلوا بين الجِسْرين والبصرة [2] ، فمرَّ بهم عُبَادة بن قرص [3] الليثى ، وقد انصرف من الغزْو ومعه ابنه وابن أخيه ، فقال لهم الخوارج : مَن أنتم ؟ قالوا : قوم مسلمون . قالوا : كذَبتم . قال عبادة : « سُبْحانَ الله ! اقْبَلُوا منَّا ماقَبِل النبى صلى الله عليه وسلم منى ، فإنى كذَّبْتُه وقاتلته ، ثم أتَيْتُه فأسلمتُ ، فقبِل ذلك منِّى » . قالوا : أنت كافر ، وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه ، فخرج إلَيهم ابنُ عامر فقاتلهم ، فقتل منهم عِدَّة ، وانْحاز بقيَّتهم إلَى أجَمة ، وفيهم سَهم والخَطِيم ، فأمَّنهم ابنُ عامر ورجعوا ، وكتب إلَى معاوية ، فأمره بقتْلهم ، فلم يقتلهم ، وكتب إلى معاوية : إنِّى جعلتُ لهم ذِمَّتك .

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة كما فى الاستيعاب ج ٢ ص ٤٥٢ ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٩ : « يزيد » .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة كما فى الكامل ، وجاء فى الاستيعاب أنهم خرجوا « بناحية جسر البصرة » .

(٣) فى الإصابة ج ٣ ص ٢٦٩ : « عبادة بن قرط أو قرص بن عروة بن بجير بن مالك ... والصحيح أنه ابن قرص بالصاد » وفى الاستيعاب ج ٢ ص ٤٥١ : « عبادة ابن قرص الليثى ، ويقال : ابن قرط » والصواب عند أكثرهم : « قرص » .

فلمّا أتى زياد بن أبيه البصرة فى سنة خمس وأربعين هرب الخَطيم إلى الأهواز ، واجتمع إلى سهم جماعة ، فأقبل بهم إلى البصرة ، فتفرق عنه أصحابه ، فاختفى[1] وطلب الأمان[2] ، فلم يؤمّنه زياد ، وبحث عنه وأخذه فقتله وصلبه فى داره . . وقيل : إنه لم يزل مستخفيا حتّى مات زياد ، فأخذه عُبَيْد الله بن زياد وصلبه فى سنة أربع وخمسين ، فقال رجل من الخوارج :

فإنْ تكُن الأحزابُ باءُوا بصَلْبِـــه
فلا يُبْعدنَّ اللهُ سَهْمَ بْنَ غَالب

وأما الخَطيم فإن زيادا سأله عن قتل عبادة ، فأنكره ، فسيره إلى البحرين ، ثم أعاده[3] بعد ذلك ، وقيل : إنه قتله[4] .

ذكر خبر المستورد الخارجى

وفى سنة اثنتين وأربعين تحرك الخوارج الذين كانوا انحازوا عمن قُتل يوم النهروان ، واجتمعوا فى أربعمائة وأمّروا عليهم المُسْتَوْرِد بن عُلَّفَة التَّيمى ، من تيْم الرِّبَاب ، وبايَعوه فى جُمادَى الآخِرة ، واتَّعَدوا للخروج فخرجوا فى غُرّة شعبان سنة ثلاث وأربعين .

فبلغ المُغيرة أنهم اجتمعوا فى منزل حيّان بن ظَبْيَان السُّلَمىّ وتواعدوا للخروج ، فأرسل صاحِبَ شُرطته ، وهو قَبِيصه بن الدَّمّون ،

(١) قيل : إنهم تفرقوا عند استخفائه .
(٢) ظن أنه يسوغ له عند زياد ما ساغ له عند ابن عامر .
(٣) كذا ذكره ابن الأثير فى الكامل .
(٤) كذا ذكره أبو عمر ابن عبد البر فى الاستيعاب ج ٢ ص ٤٥٢ .

فأحاط بدارحيّان ، وإذا عنده مُعاد بن جُوَين وهو من رءوس الخوارج ونحو عشرين رجلا ، وثارت امرأته وهى أمُّ وَلَد كانت له [كارهة] (١) فأخذتْ سيوفهمَ وألقَتْها تحت الفراش ، [وقاموا ليأخذوا سيوفهم] (٢) فلم يجدوها فاستسلموا ، فجىء بهم إلى المغيره ، فحبسهم بعد أن قَرَّرهم فلم يعترفوا بشىء قالوا : وإنما اجتمعنا لقراءة القرآن ، ولم يزالوا فى السجن نحوْ سنة ، وسمع إخوانهم فحذِروا .

وخرج صاحبهم المُسْتَوْرد فنزل الحيرة ، واختلف الخوارج إليه ، ثم تحول إلى دار سليم بن مجدوع العبدى ، وهو مهره .

وبلغ المغيرة الخبرُ وأنهم عزموا على الخروج فى تلك الأيام ، فجمع الرؤساء فخطبهم وقال لهم : « ليَكْفِنِى كلُّ رجل منكم قومه ، وإلاَّ والله تحولت عما تعرفون إلى ما تنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون » . فرجعوا إلى قومهم فناشدوهم الله والإسلام إلاَّ دلوُهم على من يريد تهييج الفتنة .

فبلغ المستورد ذلك فخرج من دار سُلَيم بن مَخْدُوج ، وأرسل إلى أصحابه فأمرهم بالخروج فخرجوا متفرقين ، واجتمعوا فى نحو ثلاثمائة رجل وساروا إلى الصرَّاة (٣) .

وبلغ المغيرة بن شعبة خبرهم ، فندب معقل بن قيس فى ثلاثة آلاف فارس اختارهم من الشيعة .

---

(١) الزيادة من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢١٢ .

(٢) الزيادة من الكامل .

(٣) الصراة : نهر بالعراق .

وأما الخوارج فإنهم ساروا إلى أن بلغوا المَذَارَ [١] فأقاموا بها .

وبلغ ابن عامر بالبصرة خبرهم ، فندب شُرَيك بن الأعور الحرثى ، وانتخب معه ثلاثة آلاف فارس أكثرهم من ربيعة ، فسار بهم إلى المذار. وسار مَعْقِل وقدَّم أمامه أبا الرَّواغ فى ثلاثمائة ، فأتى بهم إلى المَذَار وقاتل الخوارج عامة نهاره وهم يهزمونه ويعود إلى القتال ، ثم أدركه مَعْقل فى سبعمائة من أهل القوة ، فجاء وقد غربت الشمس فصلوا المغرب ، وحملت الخوارج عليهم فانهزم أصحاب معقل ، وثبت هو فى نحو مِائتين ونزل إلى الأرض فتراجع إليه أصحابه وأتاه بقية الجيش .

فبينما هم على ذلك بلغ الخوارج أن شُريك بن الأعور قد أقبل من البصرة فى ثلاثة آلاف ، فأشار المُسْتَورد على أصحابه بالرجوع من حيث جاءوا ، وقال : « إنا إذا رجعنا نحو الكوفة لم يتبعنا أهل البصرة ، ويرجعوا عنا فنقاتل طائفة أسهل من قتال طائفتين » . فانحاز بأصحابه إلى البيوت ، وخرج من الجانب الآخر وسار ليلته ، ولم يعلم الجيش بمسيرهم ، وبات معقل وأصحابه يتحارسون [٢] إلى الصباح ، فأتاهم خبر مسيرهم .

وجاء شُرَيك ، فدعاه معقل أن يسير معه ، فأبى أصحاب شريك اتِّباعهم [٣] ، فاعتذر إليه لمخالفة أصحابه ورجع .

---

(١) المذار : بلد بين واسط والبصرة .

(٢) كان معقل قد بعث من يأتيه بخبر الخوارج حين لم ير سوادهم ، فعاد إليه يخبره بسيرهم ، فخاف معقل أن تكون مكيدة منهم ليأتوا جيشه ليلا ، فاحتاط هو وأصحابه وتحارسوا.

(٣) قالوا لشريك : لا والله لا نقتل ، إنما أقبلنا نحو هؤلاء لننفيهم من أرضنا ونمنعهم من دخولها ، فإذا كفانا الله مؤنتهم فإنا منصرفون إلى مصرنا ، وفى أهل الكوفة ما يمنعون به بلادهم من هؤلاء الأكلب .

ودعا معقل أبا الرواغ ، وأمره باتباعهم ، فى ستمائة فارس ، فاتبعهم ، فأدركهم نحو جَرْجَرَايا مع طلوع الشمس ، فحمل المستورد على أبى الروّاغ ، فانهزم أصحابه وثبت فى مائة فارس وقاتلهم طويلا ، ثم عطف أصحابه من كل جانب ، وصدَقوهم القتال ، فلما رأى المستورد ذلك علم أن معقلا إن أتاهم بمن معه هلكوا ، فمضى بأصحابه وعبَر دجْلة إلى بَهُرَسِير ، وتبعهم أبو الروّاغ حتى نزل بهم إلى ساباط ، فقال المستورد : هؤلاء حماة معْقل وفرسانه ولو علمت أنى أسبقهم إليه بساعة لَسرت إليهم فواقعته ، ثم ركب بأصحابه حتّى انتهى إلى جسر ساباط ، فقطعه ، ووقف أبو الرواغ ينتظرهم للقتال وقد عبّأ أصحابه .

وسار المستورد حتى أتى دَيْلَمَانَ ، وبها معقل ، فلما رآهم نصب رايته [ونزل] (١) وقال : يا عباد الله الأَرضَ الأَرض ! فنزل معه نحوُ مِائتى رجل ، فحملت الخوارج عليهم ، فاستقبلوهم بالرماح جُثاةً على الرُّكَب ، فلم يقدروا عليهم ، فتركوهم ، وعدلوا إلى خيولهم [فحالوا بينهم وبينها] (٢) وقطعوا أعِنَّتها فذهبت ، ثم رجعوا إلى معقل وأصحابه فحملوا عليهم ، واشتدّ الأمر على معقل ومن معه .

فبينما هم كذلك أقبل أبو الروّاغ بمن معه ، وكان سبب عَوْده أنه أقام ينتظر عودة الخوارج إليه ، فلما أبطأوا عليه أرسل من يأتيه بخبرهم فرأوا الجسر مقطوعا ففرحوا بذلك ظنا منهم أن الخوارج فعلوا ذلك هيبة ، فرجعوا إلى أبى الرواغ فأخبروه أنهم لم يروهم ، وأن الجسر قد قطعوه هيبة لهم ، فقال أبو الرواغ : « لعمرى ما فعلوا هذا

(١) الزيادة من ابن جرير فى تاريخه ج ٤ ص ١٥٦ .
(٢) الزيادة من ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢١٦ .

إلاَّ مكيدة ، وما أراهم إلا قد سبقوكم إلى مَعْقِل حيث علموا أن فرسان أصحابه معى ، وقد قطعوا الجسر ليَشْغلوكم به عن لحَاقهم ، فالنجَاء النجاء فى الطلب » ثم أمر أهل القرية فعقدوا الجسر ، فعبر عليه ، واتَّبع الخوارج ، فلقيه أوائل الناس منهزمين ، فصاح بهم : إلىَّ إلىَّ : فرجعوا إليه ، وأخبروه الخبر وأنهم تركوا معقلا يقاتلهم ، وما يظنونه إلا قتيلا ، فجدّ فى السير ، وردَّ معه من لقيه من المنهزمين ، وانتهى إلى العسكر ، فرأى راية معقل منصوبةً والناس يقتتلون ، فحمل أبو الرواغ وأصحابه على الخوارج فأزالهم غير بعيد .

ووصل أبو الرواغ إلى معقل فإذا هو متقدِّم يحرِّض أصحابه ، فشدوا على الخوارج شَدَّة منكرة ، ونزل المستورد ومن معه إلى الأرض ونزل أصحاب معقل أيضا ، ثم اقتتلوا طويلا من النهار بالسيوف أشدَّ قتال ، ثم إن المستورد نادى معقلا ليبرز إليه ، فبرز إليه ، فمنعه أصحابه ، فلم يقبل [منهم] (١) وكان معه سيفه ومع المستورد رمحه ، فقال أصحاب معقل له : خذ رمحك . فأبَى ، وأقدم على المسْتَوْرد ، فطعنه المستورد برمحه ، فخرج السِّنان من ظهره ، وتقدم مَعْقِلٌ والرمح فيه إلى المستورد ، فضربه بسيفه فخالط دماغه فماتا جميعا .

وكان معقل قال لأصحابه : إن قُتِلت فأميركم عمرو بن مُحْرز بن شهاب التميمى ، فلما قُتل مَعْقل أخذ عمرو الراية ، وحمل هو وأصحابه

---

(١) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ولم تثبت فى النسخة (ك) ، وقد قال معقل لأصحابه : لا والله لا يدعونى رجل إلى مبارزة أبدا فأكون أنا التاكل .

على الخوارج فقتلوهم ، فلم ينْجُ منهم غير خمسة أو ستة ، وانْكَفَتَ[1] الخوارج بعد ذلك مُدَّة ولاية زياد بن أبيه إلى سنة خمسين .

فخرج قُرَيْب الأزدى وزحّاف الطائى بالبصرة وهما ابنا خالة ، وكان زياد يومئذ بالكوفة ، وسَمُرة بالبصرة[2] فأتى الخوارج بنى ضُبَيْعة[3] وهم سبعون رجلا فقتلوا منهم شيخا ، فاشتد زياد فى أمر الخوارج فقتلهم وأمر سَمُرة بذلك ، فقتل منهم بَشرا كثيرا ، وخطب زياد على المنبر فقال : « يا أهل البصرة والله لتكفُنّنى هؤلاء . أو لأبْدَأنَّ بكم ، واللهِ لئن أفلت رجل منهم لاتـأخذون العام من عطاياكم درهما » فسار الناس إليهم فقتلوهم .

ثم خرج زياد بن خراش العِجْلَى فى سنة اثنتين وخمسين فى ثلاثمائة فأتى أرض مَسْكِن من السَّواد ، فسرّح إليه زيادُ بن أبيه خيلا عليها سعد بن حذيفة ، أوغيره ، فقتلوهم وقد صاروا إلى ماه (٤)

وخرج رجل من طىء اسمه مُعاذ فى ثلاثين رجلا[5] فبعث إليه زياد مَن قتله وقتل أصحابه ، ويقال بل حلّ لِواءه واستـأمن .

وخرج طَوّاف بن غَلاّق فى سنة ثمان وخمسين بالبصرة ، وكان سبب خروجه أن قوما من الخوارج بالبصرة كانوا يجتمعون إلى رجل اسمه

---

(١) انكفتوا : انصرفوا عن الخروج للقتال .

(٢) كان معاوية قد كتب بعهد زياد على الكوفة والبصرة ، فاستخلف زياد على البصرة سمرة بن جندب ، وشخص إلى الكوفة ، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة .

(٣) كان بنو ضبيعة بالبصرة لهم محلة هناك سميت « ضبيعة » باسمهم .

(٤) ماه : قصبة الكوفة ، لأن « مسكن » موضع بالكوفة ، وماه قصبة البلد ، فارسية ، كما فى القاموس .

(٥) أتوا نهر عبد الرحمن بن أم الحكم ، ولذلك قيل لهم « أصحاب نهر عبد الرحمن » .

حراز[1] فيتحدثون عنده ويعيبون السلطان ، فأخذهم عبيد الله بن زياد فحبسهم ، ثم أحضرهم ، وعرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضا ويخلّى سبيل القاتلين ، ففعلوا ، فأُطلقوا ، وكان طواف ممن قَتَل ؛ فعَذَلهم أصحابهم وقالوا : قتلتم إخوانكم ، قالوا أكُرهنا وقد يُكرهَ الرجلُ على الكفر وهو مطمئنٌ بالإيمان ، وندم طوّاف وأصحابه ، وقال أما مِن تَوبة ؟ فكانوا يبْكون ، وعرضوا على أوْلياء من قَتلوا الدِّيَة ، فأبَوْا قبولها ، وعرضوا عليهم القَوَد ، فأبَوْا .

ولقى طوّافٌ الهَنُهاثَ بن ثَور السدوسى ، فقال له : ما تَرَى لنا من توبة ! فقال : ما أجد لك إلا آية فى كتاب الله عزّ وجل : ﴿ ثُمَّ إنَّ ربَّك للَّذين هَاجَرُوا مِنْ بَعدِ ما فُتنوا ثم جاهَدُوا وصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعدِها لغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .[2] فدعا طوّاف أصْحابه إلى الخروج على أن يَفتكوا بابن زياد ، فبايعوه فى هذه السنة ، وهم سبعون رجلا من عبد القيس بالبصرة ، فسعَى بهم رجل من أصحابهم إلَى ابن زياد ، وبلغ ذلك طوّافًا فعجل الخروج ، فخرجوا من لَيلتهم ، فقتلوا رجلا ، ومضوا إلى الجَلْحَاء[3] ، فندب ابْنُ زياد الشُرَط. والبُخَارِية[4] فقاتلوهم ، فانهزم الشُرَط. حتى دخلوا البصرة ، واتبعوهم ، وذلك يوم الفِطْر فكاثَرَهم الناس ، فقاتلوا فقُتِلوا ، وبقِيَ طوّاف فى ستة نَفر

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) : « جرار » ، وجاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٨٧ « جدار » .

(٢) الآية ١١٠ من سورة النحل .

(٣) الجلحاء : موضع على فرسخين من البصرة .

(٤) البخارية : طائفة من بخارى ، سباهم عبيد الله بن زياد ونقلهم إلى البصرة ، وبنى لهم فيها سكة خاصة نسبت إليهم ، وهم يبلغون الألفين ويجيدون الرمى بالنشاب ، ففرض لهم عبيد الله عطاء وأسكنهم تلك السكة .

وعطش فرسه ، فاقتحم به الماء ، فرماه البُخَارِيَّةُ بالنُّشَّاب حتّى قتلوه وأُخِذَ فصُلب ، ثم دفنه أهله .

ذكر عروة بن أدية وأخيه مرداس بن أدية

وغيرهما من الخوارج

قال : وفى سنة ثمان وخمسين اشتدَّ عُبَيد الله بن زياد على الخوارج ، فقتل منهم جماعة كثيرة ، منهم عُرْوَة بن أُدَيَّة

وكان سبب قتله أن عُبَيْد الله بن زياد خرج فى رِهان له ، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس إليه ، وفيهم عُرْوَة بن أُدَيَّة وهو أخو مِرْداس بن أُدَيَّة ، وأُدَيَّة أمهما وأبوهما ، جدير[1] وهو تميمى ، فأقبل عُرْوة على زياد يعظه ، فكان ممّا قال له : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آية تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُم جَبَّارِينَ ﴾[2] قال : فلما قال له ذلك ظنَّ ابن زياد أنه لم يقله إلاَّ ومعه جماعة[3] فركب وترك رِهانه ، فقيل لعروة : لَيَقْتُلَنَّك . فاختفى ، فطلبه ابن زياد فأُتِىَ الكوفة ، فأُخِذَ وأُتِىَ به إلى ابن زياد فقَطع يدَيْه ورجليه وقتله[4] وقتل ابنته .

وأما أخوه أبو بِلال مِرْداس فكان عابدا مجتهدًا عظيم القدر فى الخوارج

---

(١) هكذا بالجيم يكتبه بعضهم . ويراه بعضهم بالحاء (حدير) . وفى جمهرة أنساب العرب ص ٢١٢ : « وأبوهما جرير بن عامر بن عبيد بن كعب بن ربيعة » وذكر أنهما من بنى ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم .

(٢) الآيات ١٢٨ ، ١٢٦ ، ١٣٠ من سورة الشعراء .

(٣) لما رأى فيه من الجرأة .

(٤) لما قطعت يداه ورجلاه دعا به ابن زياد وقال له : كيف ترى قال : أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك ، فقتله .

وشهد صِفِّين مع عليّ فأنكر التحكيم[١] ، وشهِد النَّهْرُوان مع الخوارج ، وكانت الخوارج كلها تتولاه .

وكانت البَثْجاء امرأة من بنى يَرْبُوع - تحرِّض على ابن زياد وتذكر تجبُّره وسوء سيرته ، وكانت من المجتهدات ، فذكرها ابن زياد ، فقال لها أبو بلال : إن التَّقِيَّة[٢] لا بأس بها فتغيبى فإن هذا الجبار قد ذكرك . فقالت : أخشى أن يلقى أحد بسببى مكروها ، فأخذها ابن زياد فقطع يديها ورجليها ورماها فى السوق ، فمرّ بها أبو بلال فعض على لحيته وقال : « لهَذه أطيب نفسا بالموت منك يا مرداس ! ما مِيتَةٌ أَمُوتها أحبّ إلىّ مِن مِيتة البثجاء ! » .

ومرّ أبو بلال ببعير قد طُلِى بقَطِران فغُشِىَ عليه ، ثم أفاق فتلا : ﴿ سَرَابِيلُهُم من قَطِران وتَغْشَى وُجُوهَهُمَ النارُ ﴾[٣] .

ثم إن ابن زياد ألح فى طلب الخوارج حتى ملأ منهم السجون .

وحبس أبا بلال مِرْداس بن أُدَيَّة[٤] ، فرأى السجان عبادته ، فأذِن له كُل ليْلة فى إتيان أهله ، فكان يأتيهم ليلا ويعود إلى السجن مع الصبح ، وكان لمرداس صديق يسامر ابن زياد ، فذكر ابن زياد الخوارج ليلة فعزم على قتلهم [إذا أصبح][٥] ، فانطلق صديق مرادس إليه وأعلمه الخبر ، وبات السجان بليلة سوء خَوْفًا أنه لا يرجع ،

---

(١) قيل : إن أبا بلال أول من قال « لا حكم إلا لله » على ملعب الخوارج يوم صفين .

(٢) التقية : الحذر .

(٣) الآية ٥٠ فى سورة إبراهيم .

(٤) حبس أبا بلال قبل أن يقتل أخاه عروة بن أدية .

(٥) الزيادة من تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٢٣٢ .

فعاد على عادته ، فقال له السجان : أما بلغك ماعزم عليه الأمير ؟ قال : بلى ، قال : وكيف أتيت ؟ قال : لم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب [بسببي](١) وأصبح ابن زياد فقتلهم ، فلما أحضر مرداس قام السجان ـ وكان ظِئْرًا(٢) لعُبَيْد الله ـ فشفع فيه وقص عليه قصته ، فوهبه له وخلّى سبيله .

ثم خاف من ابن زياد ، فخرج في أربعين رجلا إلى الأهواز ، فكان إذا اجتاز به مالٌ لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ، ثم يردُّ الباقي ، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم أسلَم (٣) بن زُرعة الكلابي ، وقيل : أبو الحُصين التيمي ، وكان الجيش ألفَيْ رجل ، وذلك في سنة ستين ، فلما أتوه ناشدهم أبو بلال الله أن ينصرفوا عنه ، فأبَوْ ودعاهم أسلم إلى مُعاوَدة الجماعة ، فقالوا أتردُّنا إلى ابن زياد الفاسق ؟ فرمى أصحاب أسلَم رجلا من الخوارج فقتلوه ، فقال أبو بلال : قد بدءوكم بالقتال . فشدَّ الخوارج على أسلَم وأصحابه شَدَّةَ رجل واحد ، فهزموهم ، فقدموا البصرة ، فلامه ابن زياد على ذلك ، وقال : « هزمك أربعون وأنت في ألفيْن ؟ لاخير فيك ! » فقال : لأن تلومني وأنا حيٌّ خيرٌ من أن تثني عليَّ وأنا ميتٌ وكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به : « أبو بلال وراءك » . فشكا ذلك إلى ابن زياد ، فنهاهم ، فانتهوا .

---

(١) الزيادة من تاريخ ابن جرير الطبرى .

(٢) ظئره : زوج مرضعته . والأصل فى لفظ « الظئر » أن يطلق على المرضعة لغير أولادها ، ثم أطلق على زوج المرضعة .

(٣) ذكر ياقوت فى معجم البلدان أنه « معبد بن أسلم الكلابى » .

وقال رجل (١) من الخوارج :

أألفا مُؤْمنٍ منـــكم زَعَمْتُمْ ويقتلهم بِآسَكَ (٢) أربعـــونا
كَذَبْتم لَيس ذاك كما زَعَمتم ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونـــا
هُمُ الفئَةُ القليلة قـــد علمتم علَى الفِئَة الكثيرة ينصرونا

هذا ما كان من أخبار الخوارج ، فلنذكر حوادث السنين .

ذكر الحوادث فى أيام معاوية بن أبى سفيان

غير ما تقدم ، على حكم السنين منذ خلص له الأمر إلى أن توفى إلى رحمة الله

سنة احدى واربعين

فى هذه السنة خلص الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ؛ بمبايعة الحسن ابن على رضى الله عنهما له كما تقدم ، فسمى هذا العام « عام الجماعة » وذلك لاجتماع الناس على إمام واحد ، وهو معاوية .

وروى أنه لما سار الحسن رضى الله عنه عن الكوفة عرض له رجل فقال : يامُسوِّد وجوه المؤمنين . فقال : لا تعذلنى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِىَ(٣) بنى أميّة يَنْزُون على منبره رجلا رجلا ، فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ(٤) ﴾ وهو نهر فى الجنة ، و﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاه فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ *

(١) هو عيسى بن فاتك الخطى ، أحد بنى تيم الله بن ثعلبة كما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ، وذكر سبعة أبيات .
(٢) آسك : بلد من نواحى الأهواز قرب أرجان .
(٣) فى المنام .
(٤) الآية الأولى من سورة الكوثر .

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [١] يملكها بعدك بنو أميّة ، وقد خرّج هذا الحديث [٢] أهل الصحة . وكانت دولة بنى أمية ألف شهر .

ذكر صلح معاوية وقيس بن سعد بن عبادة

فى هذه السنة تَم الصلح بين معاوية وقيس بن سعد ، وكان قيس قد خرج على مقدمة الحسن فى اثنى عشر ألفًا كما ذكرنا .

وقيل: إن عُبيد الله بن عباس كان على مقدمته ، وكان قيس بن سعد على مقدمة عبيد الله ، فلمّا علم عُبيد الله ماعزم عليه الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية كتب إليه يسأل الأمان لنفسه وعلى ما أصاب من مال وغيره ، فأجابه إلى ذلك ، وفارق عُبَيد الله جندَه وتركهم بغير أمير ، فأمّروا عليهم قَيْس بن سعد ، وتعاقدوا على قتال معاوية حتى يشرط له ولهم على ما أصابوا من الدماء والأموال ، فراسله معاوية فى الدخول فى طاعته ، وأرسل إليه بسجِلّ وختم أسفله ، وقال: اكتب فيه ما شئت فهو لك ، فاشترط لنفسه ولشيعة علىٍّ الأمان على ماأصابوا من الدماء والأموال ، ولم يشترط مالا ، فأعطاه ذلك ، ودخل قيس فى طاعة معاوية .

---

(١) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة القدر .

(٢) هذا الحديث رواه الترملى فى تعليقات ج ١٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ عن محمود ابن غيلان عن أبى داود الطيالسى عن القاسم بن الفضل الحدانى عن يوسف بن سعد ، ثم قال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل ، وقد قيل عن القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازن ، والقاسم بن الفضل الحدانى هو ثقة ، وثقة يحيى ابن سعيد وعبد الرحمن بن مهد ، ويوسف بن سعد رجل مجهول ، ولا نعرف هذا الحديث على =

ذكر استعمال معاوية المغيرة بن شعبة على الكوفة

وفي هذه السنة استعمل معاوية المغيرةَ بن شعبة على الكوفة . وكان قد استعمل عليها عبد الله بن عمرو بن العاص ، فأتاه المغيرة وقال : « استعملتَ عبد الله على الكوفة ، وأباه بمصر ، فتكون أميرا بين نابَيْ أَسَد » . فعزله ، واستعمل المغيرة .

وبلغ عمرو بن العاص ماقاله المغيرة ، فدخل على معاوية وقال : « استعملتَ المغيرة على الخراج ، فيغتال المال ، ولا تستطيع أن تأخذه منه ، استعمل على الخراج رجلاً يخافك ويتقيك » فعزله عن الخراج وأقره على الصلاة [1] .

ولما ولى المغيرة استعمل كثير بن شهاب علَى الرَّيِّ ، وكان يُكثر سبَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على المنبر .

ذكر استعمال بسر بن أرطاة

على البصرة وعزله ، واستعمال عبدا لله ابن عامر عليها

وفي هذه السنة استعمل معاوية بُسْر بن أرْطاة بن أبي أرْطَاة على البصرة ، وكان سبب ذلك أن الحسن لما صالح معاوية وثَب حُمْران ابن أبَان على البصرة ، فأخذها وغلب عليها ، فبعث إليه معاوية بُسْر بن أرطاة ؛ وأمره بقتل بني زياد بن أبيه ، وكان زياد علَى

= هذا اللفظ إلا من هذا الوجه » . ، ورواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره ج ٣٠ ص ١٤٣ وإن كان لم يرجحه . ورواه الحاكم والطبرانى والبيهقى فى الدلائل ، وذكر الآلوسى فى تفسيره ج ٣٠ ص ١٨٨ قول المزنى فيه : « حديث منكر » ثم تردد فى هذا القول .

(١) وبعد ذلك لقى المغيرة عمرو بن العاص فقال له : أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت به فى عبد الله قال : نعم ، قال : هذه بتلك .

فارس ، قد أرسله عليها على بن أبى طالب رضى الله عنه كما تقدم .

فلما قدم بُسْر البصرة خطب على منبرها فشتم عليا ، ثم قال : نشَدْتُ الله رجلا يعلم أنى صادق إلاَّ صدّقنى أو كاذب إلاَّ كذبنى ، فقال أبو بَكْرة (١) ؛ اللهم إنَّا لا نعلمك إلا كاذبا ! فأمر به فخنِقَ ، فقام أبو لُؤْلُؤة الضَّبىّ فرمَى نفسه عليه فمنعه ، فأقطعه أبو بكرة مائة جَرِيبٍ (٢) ، وقيل لأبى بكْرة : ماحملك على ماقلتَ ؟ فقال : يُناشدنا الله ثم لا نَصْدُقه .

وكان معاوية قد كتب إلى زياد : أن فى يديك ما لا من مال الله فأدِّ ماعنـدك منه . فكتب إليه زياد : « أنه لم يبق عندى شىء ، وقد صرفت ماكان عندى فى وجهه ، واستودعتُ بعضه لنازلة إنْ نزلت ، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمه الله تعالى » . فكتب إليه معاوية أن أقبِل ننظر فيما وليت ، فإن استقام بيننا أمر وإلا رجعت إلَى مأمنك . فامتنع زياد .

فأخذ بُسْرٌ أولاده الأكابر ، منهم عبد الرحمن وعبيد الله وعبّاد وكتب إليه : لتقدمَنَّ على أمير المؤمنين أولأقتلَنَّ بنِيك ، فكتب إليه زياد : لست بارِحًا مكانى حتى يحكم الله بينى وبين صاحبك ، وإن قتلت ولدى فالمصير إلى الله تعالى ، ومن ورائنا الحساب ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ

(١) أبو بكرة : نفيع بن الحارث أو مسروح ، وكان قد تدلى إلى النبى صلى الله عليه وسلم من حصن الطائف ببكرة ، فكناه صلى الله عليه وسلم أبا بكرة ، واشتهر بهذه الكنية .

(٢) الجريب فى المساحة : قيل : عشرة آلاف ذراع ، وقيل : ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، وقالوا : يختلف مقدارها بحسب اصطلاح أهل الأقاليم ، والجريب فى الطعام أربعة أقفزة . انظر المصباح .

ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون﴾[١] فأراد بسر قتلهم وأتاه أبو بكْرة[٢] فقال له : قد أخذت ولد أخى بلا ذنب ، وقد صالح الحسن معاوية على ماأصاب أصحاب علىّ رضى الله عنه حيث كانوا ، فليس عليهم ولا علَى أبيهم سبيل ، وأجّله أيامًا حتَّى يأتى بكتاب معاوية ، فركب أبو بَكْرة إلى معاوية وهو بالكوفة ، فلما أتاه قال له : يامعاوية إن الناس لم يعطوك بَيْعتهم على قتل الأطفال ! قال : وماذاك ياأبا بَكْرة ؟ قال : بُسْر يريد قتل بنى أخى زياد ، فكتب إليه بتخليتهم ، فأخذ كتابه وعاد ، فوصل البصرة يوم الميعاد ، وقد أخرج بُسْر أولاد زياد مع طلوع الشمس ، ينتظر بهم الغروب ليقتلهم ، واجتمع الناس لذلك وهم ينتظرون أبا بكرة ؛ إذ رُفع على نَجِيب أوبرذَوْن يكدّه[٣] ، فوقف فنزل عنه وألاَحَ بثَوْبه ، وكبّر وكبرّ الناس معه ، وأقبل يسعَى على رجليه ، فأدرك بُسْرا قبل أن يقتلهم ، فدفع إليه الكتاب ، فأطلقهم .

وكان زياد قد تحصّن بالقلعة التى تسمَّى « قلعة زياد » .

وأمّا بُسْر فلم يطُل مُقامه بالبصرة ، بل عزله معاوية فى بقية سنة إحدى وأربعين ، وأراد أن يستعمل عُتْبة بن أبى سفيان[٤] ، فكلمه ابن عامر وقال له : إن لى بالبصرة وَدائع وأموالا ، فإن لم تولِّنى عليها ذهبت . فولاّه البصرة ، فقدِمها فى آخر سنة إحدى وأربعين ، وجعل إليه خُراسان وسِجسْتان ، فجعل على شُرطته حبيب بن شهاب

---

(١) آية ٢٢٧ من سورة الشعراء .

(٢) سيأتى فى « ذكر استلحاق معاوية بن أبى سفيان زياد بن أبيه وهو ابن سمية » أن سمية أم زياد ولدت أبا بكرة – واسمه نفيع – عند الحارث بن كلدة الطبيب الثقفى .

(٣) يكده : يستعجله .

(٤) أى : أراد معاوية بن أبى سفيان أن يستعمل أخاه عتبة بن أبى سفيان على البصرة .

وعلى القضاء عَمِيرة بن يَثْرِبِىّ أخا عمرو ، وقد تقدم فى وقعة الجمل أن عَميرة قُتل فيها ، وقيل : المقتول عمرو[١] .

واستعمل ابنُ عامر قَيْس بن الهَيْثَم على خُراسان ، وكان أهل باذَغِيس وهَراة وبوشَنْج[٢] قد نكثوا ، فسار إلى بَلْخ ، فأخرب ثُوبَها رَها[٣] ، وكان الذى تولى ذلك عطاء[٤] بن السائب مَولى بنى لَيث ، واتخذ قناطر على ثلاثة أنهار من بَلْخ على فرسخ ، فقيل : قناطر عطاء ، فسأل أهلُها الصلح ومراجعة الطاعة ، فصالحهم قَيس ، وقيل : إنما صالحهم الربيع ابن زياد سنة إحدَى وخمسين ، ثم قدِم قَيس علَى ابن عامر فضربه وحبسه ، واستعمل عبدالله بن خازم ، فأرسل إليه أهل هَراة وباذَغِيس وبوشَنْج يطلبون الأمان والصلح ، فصالحهم وحمل إلى ابن عامر مالا .

وفيها ولد على بن عبد الله بن العباس ، وقيل : ولد سنة أربعين قبل قتل على رضى الله عنه ، والأول أصح .

وحج بالناس فى هذه السنة عُتْبَة بن أبى سفيان ، وقيل : عَنْبَسة بن أبى سفيان .

---

(١) الراجح أن المقتول فى وقعة الجمل هو عمرو بن يثربى أخو عميرة بن يثربى ، انظر الإصابة ج ٣ ص ١١٩ وجمهرة أنساب العرب ص ١٩٥ والقاموس .

(٢) بوشنج : بلدة خصيبة من نواحى هراة ، وكذلك « باذغيس » من نواحى هراة .

(٣) نوبهار ببلخ بناء : كان أهلها يعظمونه تعظيما ، وتفسير النوبهار : البهار الجديد ، وكان من عاداتهم أنهم إذا بنوا بناء يهتمون به كللوه بالريحان وتوخوا لذلك أول ريحان يطلع فى ذلك الوقت ، فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما يظهر من الريحان ، فكان البهار ، فسمى « النوبهار » لذلك .

(٤) وكان يقال له « عطاء الخشك » لأنه أول من دخل من المسلمين باب هراة الذى يقال له « خشك » .

سنة اثنتين واربعين

فى هذه السنة ولّى معاوية مَرْوان بن الحكم المدينة ، وخالد بن العاص بن هشام مكة ، فاستقضى مروانُ عبد الله بن الحارث ابن نوفل (١) .

ذكر قدوم زياد بن أبيه

على معاوية بن أبى سفيان

فى هذه السنة قدم زياد بن أبيه على معاوية ، وكان معاوية قد كتب إليه يتهدّده ، حين قُتل على رضى الله عنه ، فقام زياد خطيبا فقال : العجب من ابن آكلة الكبود(٢) ، وكهف النفاق ، ورئيس الأحزاب يتهدّدنى وبينى وبينه ابناعمٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى ابن عباس والحسن بن على رضى الله عنهم - فى سبعين ألفا ، واضِعِى سيوفِهم علَى عواتقهم ، أمَا والله لئن خلص إلى لَيجِدَنِّى أحمر ضرّابا بالسيف(٣) »

فلما صالح الحسن معاوية اعتصم زياد بقلعته كما تقدم ثم ، كان من خبر بَنِيه مع بُسْر بن أرطاة ماذكرناه ، فأهَمّ معاوية أمرُه ، وكان زياد قد استودع عبد الرحمن بن أبى بكْرة ماله ، فبلغ معاوية ذلك ،

---

(١) عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى ، وأمه هى هند بنت أبى سفيان ، فكان معاوية خاله ، وكان مرضيا ظاهر الصلاح .

(٢) كانت هند بنت عتبة - وهى أم معاوية - فى جيش المشركين يوم أحد وقد شقت عن بطن حمزة بن عبد المطلب وأخرجت كبده ، وجعلت تلوكها ، فلم تستطع أن تسيغها ، فلفظتها . انظر نهاية الأرب ج ١٧ ص ١٠١ .

(٣) أحمر : شديدا . ثم انظر ما يأتى قريبا فى « ذكر استلحاق معاوية بن أبى سفيان زياد بن أبيه » .

فبعث إلى المغيرة بن شعبة لينظر فى أموال زياد ، فأخذ عبدَ الرحمن فقال له لئن كان أبوك أساء إلىَّ لقد أحسن عمك[١] ـ يعنى زيادا ـ فكتب إلى معاوية : إنى لم أجد فى يد عبدالرحمن مالاً يحلُّ لى أخذه . فكتب إليه معاوية : أن عذِّبْ عبد الرحمن . فقال لعبدالرحمن : احتفظ بما فى يدك ، وألقى على وجهه حريرة[٢] ونضحها بالماء فغُشِى عليه ، فعل ذلك ثلاث مرات ، ثم خلاَّه ، وكتب إلى معاوية : إنى عذَّبته فلم أجد عنده شيئا .

ثم دخل المغيرة على معاوية فقال له[٣] : ذكرت زيادا واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتى . فقال المغيرة : مازياد هناك؟ فقال معاوية : « داهية العرب ! معه أموال فارس ، يدبِّر الحيَل ، مايؤمننى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هم قد أعادوا الحرب جذعة ! » واستكتمه معاوية ذلك ، فقال المغيرة : أتأْذن لى يا أمير المؤمنين فى إتيانه ؟ قال : نعم وتلطَّفْ له ، فتأتاه المغيرة وقال له : إن معاوية استخفه الوَجَل حتى بعثنى إليك ، ولم يكن أحدٌ يمُدّ يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع فخذْ لنفسك قبل التَّوْطِين فيستغنى معاوية عنك .

---

(١) كان الشهود على المغيرة عند عمر بن الخطاب أربعة : أبو بكرة ونافع وشبل ابن معبد وزياد ، وكلهم أولاد سمية ، إلا أن زيادا لم يقطع الشهادة ، فسلم المغيرة من الجلد بسبب زياد .

(٢) تطلق « الحريرة » على ما طبخ من الدقيق واللحم ، وعلى قطعة الحرير .

(٣) قال معاوية للمغيرة حين نظر إليه :

إنما موضع سر المرء إن باح بالسر أخوه المنتصح
فإذا بحت بسر فـــإلى ناصح يستره أولا تبح

فقال : يا أمير المؤمنين إن تستودعنى تستودع ناصحا شفيقا ورعا وثيقا فما ذاك يا أمير المؤمنين قال : ذكرت زيادا .... الخ .

قال : أَشِرْ عَلَيَّ وارْمِ الغَرَض الأَقصَى فإن المستشار مؤْتَمنٌ . فقال المغيرة : أرى أن تصل حَبْلَك بحبله وتَشْخص إليه . [قال : أرَى][1] ويقضى الله . وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عود المغيرة عنه .

فخرج زياد من فارس نحو معاوية ، ومعه المِنْجاب بن راشد الضبّى ، وحارثة بن بدر ، وقدم على معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما حمل منها إلَى علىّ رضى الله عنه ، وما انفق منها فى الوجوه التى تحتاج إلى النفقة ، وما بقى عنده وأنه مُودَع للمسلمين ، فصدّقه معاوية فيما أنفق وفيما بقى عنده وقبضه منه ، وقيل : إن زيادا لما قال لمعاوية : قد بقيت بقية من المال ، وقد أودعتها [قوما][2] فمكث معاوية يروده ، فكتب زياد كتبا إلى قوم يقول : قد علمتم مالى عندكم من الأمانة ، فتدبروا كتاب الله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ . ﴾ الآية[3] فاحتفظوا بما عندكم . وسمى فى الكتب المال الذى أقرَّبِهِ لمعاوية ، وأمر رسوله أن يتعرّض لبعض من يُبْلغ ذلك معاوية ، ففعل رسوله ، وانتشر ذلك ، فقال معاوية لزياد حين وقف على الكتب : أخاف أن تكون مَكَرْتَ بى فصالحنى على ما شئت ، فصالحه على ألفى ألف درهم ، وحملها زياد إليه ، واستأذنه زياد فى نزول الكوفة فأذن له ، فكان المغيرة يكرِّمه ويعظِّمه ، وكتب معاوية إلى المغيرة ليُلزم زيادا وحُجْر ابن عدى وسليمان بن

---

(١) الزيادة من تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ١٣٥ .

(٢) الزيادة من تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ١٣٦ .

(٣) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

صُرَد وشَبِيب بن رِبْعَى وابن الكوّاء [١] وابن الحَمِق [٢] بالصلاة فى الجماعة ، فكانوا يحضرون معه الصلاة [٣] .

وحج بالناس فى هذه السنة عَنْبَسة بن أبى سُفْيان .

سنة ثلاث واربعين

فيها استعمل عبدُالله بن عامر عبدَ الرحمن بن سَمُرة على سِجِسْتان واستعمل عبد الله بن خازم على خراسان وعزل قيْس بن الهيثم عنها [٤]

وحج بالناس فى هذه السنة مروانُ بن الحَكَم وكان على المدينة .

وفيها توفى محمد بن مَسْلمة الأنصارى ، وعبد الله بن سَلاَم ، وعمرو بن العاص .

ذكر وفاة عمرو بن العاص

وشىء من أخباره واستعمال عبد الله ابن عمرو على مصر

كانت وفاته بمصر يوم عيد الفطر من هذه السنة على الأصح وكان له يوم مات تسعون سنة ، ودفن بالمقطَّم من ناحية السَّفْح ، وصلى عليه ابنه عبد الله ، ثم رجع فصلَّى بالناس صلاة العيد .

وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم فى الجاهلية مذكورا بذلك فيهم .

---

(١) ابن الكواء : عبد الله بن أبى أوفى ، ذكره الطبرى فى تاريخه ج٤ ص ١٦٢ وابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢١٩ .

(٢) عمرو بن الحمق ، كذا ذكره ابن جرير الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) قال ابن الأثير فى الكامل ج ٣ص ٣١١ : « وإنما ألزمهم ذلك لأنهم كانوا من شيعة على » .

(٤) انظر ماقيل فى سبب ذلك فى تاريخ ابن جرير ج ٤ ص ١٦٠ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢١٨ .

وكان حسن الشِّعر ، فمن شعره يخاطب عُمارة بن الوليد بن المغيرة عند النَّجَاشِىّ :

إذا المرءُ لم يترك طعامًا يُحبُّه ولم ينهَ قلبًا غاويًا حيثُ يمَّما
قَضَى وَطَرًا منه وغَادَرَ سُبَّةً إذَا ذُكِرتْ أمثَالُهَا تملأُ الفما

وكان أَحَدَ الدُّهَاة فى أمور الدنيا المقدَّمين فى الرأى ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا استضعف رجلا فى رأيه قال : أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد . يريد خالق الأضداد .

حكى أنه جُعل لرجل ألفُ درهم على أن يسأل عمرو بن العاص وهو على المنبر عن أُمِّه ، فسأله ، فقال : أُمِّى سَلْمى بنت حَرْمَلَة تلقَّب النابغة من بنى عَنَزَة ، ثم أحد بنى جَلَّان ، أصابتْها رِماح العرب [1] فبيعت بعُكَاظ ، فاشتراها الفاكِه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدْعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدتْ له ، فأنجبتْ ، فإن كان جُعِل لك شىء فخذه .

قالوا : ولما حضرته الوفاة قال : « اللهم أمرتنى فلمْ آتمر ، وزجرتنى فلم أنزجر » ووضع يده فى موضع الغُلّ ثم قال : « اللهمَّ لا قوىٌّ فأنتصر ، ولا برِىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر ، لاإله إلا أنت » . فلم يزل يردِّدها حتَّى مات .

وروى أبو عمر ابن عبد البر [2] بسنده إلى الشافعى رضى الله عنه أنه قال . دخل ابن عباس رضى الله عنهما على عمرو بن العاص فى مرضه فسلَّم عليه وقال : كيف أصبحتَ ياأبا عبد الله ؟ قال : « أصبحتُ وقد أصلحتُ من دنياى قليلا ، وأفسدتُ من دِينى كثيرا ، فلو كان

(١) سبيت وهى من بنى جلان بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار .
(٢) فى الاستيعاب ج ٢ ص ٥١٣ .

الذى أصلحتُ هو الذى أفسدتُ ، والذي أفسدتُ هو الذى أصلحتُ لفُزْت ، ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت ، ولو كان يُنجينى أن أهرُبَ هربتُ ، فصرتُ كالمَنْجنيق بين السماء والأرض ، لا أرقَى بيدَيْن ولا أهبط برجلين ، فعِظْنى بعظة أنتفع بها يابن أخى » . فقال ابن عباس : « هيهات ياأبا عبد الله ، صار ابن أخيك أخاك ، ولانشاء أن تبكى إلابكيت ، كيف يؤمر برحيل من هو مقيم ؟ » . فقال عمرو على حينها من حين ابن بضع وثمانين سنة تُقنطنى من رحمة ربى ، اللهم إن ابن عباس يقنِّطنى من رحمتك فخذ منى حتى ترضى . فقال ابن عباس : هيهات ياأبا عبد الله أخذتَ جَديدًا وتعطى خَلقا ، قال : مالى ولك يا ابن عباس ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها .

وروى [1] بسنده إلى يزيد بن أبى حبيب : أن عبد الرحمن بن شُمَاسَة حدّثه قال : لما حضرتْ عمرو بن العاص الوفاةُ بكَى ، فقال له ابنه عبد الله : « لم تبكى ؟ أجزعا من الموت ؟ » قال : لا والله ولكن لما بعده ، فقال له : لقد كنتَ عَلَى خَير ، وجعل يذكِّره صُحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفُتُوحَه الشام . فقال له عمرو : « تركت أفضل من ذلك كله ، شهادة أن لا إله إلا الله ، إنى كنت على ثلاثة أطباق [2] ، ليس منها طَبَق إلاَّعرفت نفسى فيه ، كنت أوَّلَ شىء كافرا ، فكنتُ أشدَّ الناس علَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلومتُ حينئذ وجبتْ لى النار ، فلما بايعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أشدَّ الناس حياء منه ، فما مَلأْتُ عينى من رسول الله صلى الله

(١) فى الاستيعاب ج ٢ ص ٥١٤ .
(٢) الأطباق : المراد بها الأحوال .

عليه وسلم حياء منه ، فلومتُ يومئـذ قال الناس : هنيئا لعمرو أسلم وكان علَى خَيرٍ ومات علَى خَير أحواله فتُرجَى له الجنة ، ثم تلبَّست بعد ذلك بالسلطان وأشياء فلا أدرى أعلىَّ أم لى ؟ فإذا متُّ فلا تبكيَنَّ علَىَّ باكية ، ولا يتبعنى مادح ولا زار ، وشُدُّوا علىَّ إزاري فإنى مخاصَم ، وشنّوا علَىّ التراب فإن جنبي الأيمن ليس بأحقّ من جنبي الأيسر ، ولا تجعلُنَّ فى قبرى خشبة ولا حجرا ، وإذا واريتمونى فاقعدوا عندي قدر نَحْر جزور وتقطيعها [(١) بينكم] أستأنس بكم ! » . ولما مات استعمل معاوية بعده علَى مصر ابنه عبد الله بن عمرو .

سنة اربع واربعين

فى هذه السنة حج معاوية بالناس .

وفيها عمل مروان بن الحكم المقصورة ، وهو أول من عملها بالمدينة ، وكان معاوية قد عملها بالشام لمَّا ضربه الخارجى .

ذكر عزل عبد الله بن عامر عن البصرة

واستعمال الحارث بن عبد الله

فى هذه السنة عزل معاوية عبد الله بن عامر عن البصرة ، وسبب ذلك أنه كان كريما حليما لينًا لايأخذ على أيدي السفهاء ، ففسدت البصرة فى أيامه ، فشكا ذلك إلى زياد ، فقال له : جَرِّد [فيْهم] (٢) السيف ، قال : إنى أكره أن أصلحهم بفساد نفسى ! .

فلما علم معاوية حال البصرة أراد عزل ابن عامر ، فأرسل إليه

(١) الزيادة من الاستيعاب .

(٢) الزيادة من تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ١٦٢ .

يستَزيره ، فجاء إليه ، فرده إلى[1] عمله ، فلما ودعه قال له معاوية : «إنى سائلك ثلاثا [فقل : هُنَّ لك» .] [2] قال : هُنَّ لك وأنا ابن أم حكيم[3] فقال : ترد علىّ عملى ولا تغضب . قال : قد فعلتُ . قال : وتَهَب لى مالَكَ بعَرَفَة . قال : قد فعلت .قال : وتَهَب لى دُورَك بمكّة . قال قد فعلتُ . قال : وصلتك رحم ! قال ابن عامر : « يا أمير المؤمنين إنى سائلك ثلاثا ، فقل هُنَّ لك » . قال هُنَّ لك وأنا ابن هِنْد ، قال : ترد علىّ مالى بعرفة . قال : قد فعلتُ . قال : ولا تحاسب لى عاملا ولا تتبع لى أثرا . قال : قد فعلت . قال : وتُنكحنى ابنتك هند . قال : قد فعلتُ .

ويقال : إن معاوية قال له : « اختر إمّا أن أتبع أثرك وأحاسبك بما صار إليك وأردك إلى العمل ، أو أعزلك وأسوّغك ما أصبت » . فاختار العزل وأن يسوّغه ما أصاب ، فعزله ، واستعمل الحارث ابن عبد الله الأزدى ، وكان ابن عامر قد استعمل على خراسان ، قبل مَقْدمه عبدالله بن أبى شيخ اليشكرى ، وقيل : بل استعمل عليها طُفَيْل بن عَوْف اليشكرى .

---

(١) عند الطبرى وابن الأثير « على » .

(٢) الزيادة من ابن جرير فى تاريخه وابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢١٩ .

(٣) كانت أم عامر والد عبد الله هى أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم .

ذكر استلحاق معاوية بن أبى سفيان

زياد بن أبيه وهو ابن سُمَيَّة

وفى هذه السنة استلحق معاوية زيادَ بن أبيه، وقد ذكر عز الدين أبو الحسن على بن الأثير فى تاريخه الكامل[١] سبب ذلك وكيفيته، وابتدأ حال سُمَيَّة فقال: كانت سُمَيَّة أم زياد لِدِهْقان زَنْدَوَرْد[٢]، بكَسْكَر فمرض الدهقان، فدعا الحارثَ بن كَلَدَة الطبيب الثقفى، فعالجه، فبرأ، فوهبه سُمَيَّة، فولدت عند الحارث أبا بكرة واسمه نُفَيْع، فلم يُقِرِّبه، ثم ولدت نافعا فلم يُقِرِّبه أيضا، فلما نزل أبو بكرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم حين حصر[٣] الطائف، قال الحارث لنافع: أنت ولدى، وكان قد زوج سُمَيَّة من غلام له اسمه عُبَيْد[٤]، وهو رومى، فولدت له زيادا.

قال: وكان أبو سفيان بن حرب سار[٥] فى الجاهلية إلى الطائف فنزل على خمار يقال له أبو مريم السَّلولى - وأسلم أبو مريم[٦] بعد ذلك، وصحب النبى صلى الله عليه وسلم - فقال أبو سفيان لأبى مريم: قد اشتهيت النساء فالتمس لى بَغِيًّا، فقال هل لك فى سمية؟ فقال: هاتها على طول ثدييها وذَفَر بطنها. فأتاه بها، فوقع

---

(١) ج ٣ ص ٢١٩ - ٢٢١.

(٢) زندورد: بلد قرب واسط، وكسكر: كورة صارت قصبتها واسط.

(٣) كذا جاء فى النسخة (ك)، وجاء فى النسخة (ن): «حصر»... هذا وقد روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نازلا بالطائف، فنادى مناديه: «من خرج إلينا من عبيدهم فهو حر» فخرج إليه نافع ونفيع - يعنى أبا بكرة وأخاه - فأعتقهما، وانظر نهاية الأرب ج ١٧-٣٣٧: وانظر تسمية «أبى بكرة» فيما سبق من هذا الجزء.

(٤) انظر خزانة الأدب ج ٢ ص ٥١٧.

(٥) كذا جاء فى النسخة (ك)، وجاء فى النسخة (ن): «صار».

(٦) أبو مريم السلولى: مالك بن ربيعة، وهو مشهور بكنيته.

عليها ، فعَلِقت بزياد ، ثم وضعته سنة إحدى [1] من الهجرة .

فلما كبر ونشأ استكتبه أبو موسى الأشعرى حين ولى البصرة .

ثم إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استكفى زيادا أمرا ، فقام فيه مقاما مرضيا ، فلما عاد إليه حضر وعند عمر المهاجرون والأنصار ، فخطب خطبة لم يسمعوا بمثلها ، فقال عمرو بن العاص : «لله دَرّ هذا الغلام . لو كان أبوه من قريش لساق العرب الناس بعصاه» . فقال أبو سفيان وهو حاضر : والله إنى لأعرف أباه ومن وضعه فى رحم أمه . فقال له على بن أبى طالب : ومن هو يا أبا سفيان ؟ قال : أنا . قال : « مهلا يا أبا سفيان ، اسكت ، فإنك تعلم أن عُمر لو سمع هذا القول منك لكان إليك سريعا » .

وروى أبو عمر ابْن عبد البر [2] بسنده إلى ابن عبَّاس : أن عُمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث زيادا فى إصلاح فساد وقع باليمن ، فرجع من وجهه ، وخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها (وذكر كلام عمرو بن العاص ومقالة أبى سفيان وكلام علىٍّ رضى الله عنه بنحو ما تقدم) قال : فقال أبو سفيان :

أَمَا واللهِ لَوْلا خوْفُ شَخْص يَرانى يا علىُّ من الأعـــادى
لأظهر أمرَه صَخْرُ بن حَرْب ولم يَكْنِ المقالةَ عن زِياد
وقد طالتْ مُجَامَلَتى ثَقِيـــفًا وَتَرْكِى فيهمو ثَمَرَ الفُؤَاد

---

(١) كذا جاء فى الأصل ، يريد السنة الأولى من الهجرة ، وهذه إحدى الروايات فى ميلاد زياد . وفى الاستيعاب وأسد الغابة : ولد عام الهجرة ، وقيل : قبل الهجرة. وقيل : يوم بدر ، وفى الطبقات : ولد عام الفتح ، وهو سنة ثمان من الهجرة .

(٢) فى الاستيعاب ج ١ ص ٥٦٩ .

نعود إلى ماحكاه ابن الأثير قال : فلما ولى علىٌّ رضى الله عنه الخلافة استعمل زيادا على فارس فضبطها وحَمى قِلاعها ، واتصل الخبر بمعاوية فساءه ذلك ، فكتب إلى زياد يتهَدّده ، ويعرض له بولادة أبى سفيان إياه ، فلما قرأ زياد كتابه قام فى الناس فقال : « العجَبُ (١) كُلُّ العجب من ابن آكِلة الأكباد(٢) ، ورأس النفاق ، يخوِّفنى بقصده إيَّاىَ وبينى وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار . أما واللهِ لو أذِن لى فى لقائه لوجدنى أحمر مخشيا(٣) ضرّابًا بالسيف » .

وبلغ ذلك عليا رضى الله عنه فكتب إليه : « إنى قد ولَّيْتُك ماوليتك وأنا أراك له أهلا ، وقد كان من أبى سفيان فلتة من أمانى الباطل وكَذِب النفس ، لا توجب له ميراثا ولا تحل لك نسبا ، وإن مُعاوية يأتى الإنسان مِن بين يَدَيْه ومن خَلْف ، وعن يمينه وعن شِماله فاحذَرْ ثم احذَرْ ، والسلام » ..

فلما قُتل علىّ رضى الله عنه وكان من أمر زياد ومصالحة معاوية ماذكرناه ، وضع زياد مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشيبانى ، وضمن له عشرين ألف درهم ؛ ليقول لمعاوية : « إن زيادا قد أكل فارس برا وبحرا ، وصالحك على ألْفَىْ ألف دِرهمْ ، والله ما أرى الذى يُقال إلاّحقًّا » فإذا قال لك يقال : وما يقال ؟ فقل : إنه ابن أبى سفيان . ففعل مَصْقَل ذلك .

---

(١) انظر ما سبق فى « ذكر قدوم زياد بن أبيه على معاوية بن أبى سفيان » .

(٢) آكلة الأكباد : أمه ، أكلت كبد حمزة رضى عنه حين قتل يوم أحد ، والمراد بأكلها أنها لاكتها ، انظر نهاية الأرب ج ١٧ ص ١٠٠ — ١٠١ .

(٣) يخشاه الناس .

ورأى معاوية أن يستصفى مَودته باستلحاقه ، فاتفقا على ذلك ، وأحضر الناس وحضر من شهد لزياد ، وكان فيمن حضر أبو مريم السّلوُلى ، فقال له معاوية : بم تشهد يا أبا مريم ؟ فقال : أشْهد أنَّ أبا سفيان حضر عندى وطلب منى بَغِيًّا ، فقلت ليس عندى إلاَّ سُمَيَّة فقال : ايتنى بها علَى قذَرها ووَضَرها . فأتيته بها ، فخلا معها ، ثم خرجتْ من عنده وإن إسْكتيها ليقْطُران مَنِيًا . فقال له زيْاد : مهلا أبا مريم إنما بعثت شاهدا ولم تُبعث شاتما . فاستلحقه معاوية .

وكان استلحاقه أولَ ما رُدّت فيه أحكام الشريعة علانية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر .

قال (١) : وقد اعتذر الناس عن معاوية فى استلحاقه إياه ، فقالوا : إن أنْكِحَةَ الجاهلية كانت أنواعا ، منها أن الجماعة يجامعون البَغِىَّ فإذا حملت وولدت ألحقت الولد بمن شاءت منهم ، فلما جاء الإسلام حرم هذا النكاح ، إلا أنه أقَرّ نسب كلّ ولد إلى من كان ينسب إليه من أى نكاح كان ، فتوهّم معاوية أن ذلك جائز له ، ولم يفرق بين ما استلحق فى الجاهلية والإسلام .

قال أبو عمر ابن عبد البر (٢) : ولما ادّعى معاوية زيادا دخل عليه بنو أمية ، وفيهم عبد الرحمن بن الحَكَم ، فقال : يامعاوية لولم تجد إلا الزِّنْج لاستكثرت بهم علينا قِلَّة وذلَّة ، فأقبل معاوية علَى مَرْوان ، وقال : أخرج عنا هذا الخليع ، فقال مَرْوان : والله إنه لخليع ما يطاق . فقال معاوية : « والله لولا حلمى وتجاوزى لعلمت أنه لا يطاق ،

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٢١ .
(٢) فى الاستيعاب ج ١ ص ٥٧٠ — ٥٧١ .

ألم يبلغْنى شعره فىَّ وفى زياد ؟» . ثم قال لمروان أسمعْنيه ، فقال :

أَلاَ بَلِّغ (١) مُعاويةَ بنَ صَخْرٍ لقد ضاقتْ بِما تَأْتى اليَدان
أَتَغضبُ أن يُقالَ : أبوك عَفٌّ وتَرْضَى أن يُقال : أبوك زَانى ؟
فأَشهدُ أن رَحْمَك من زِيادٍ كرَحْم الفِيل من وَلد الأَتان
وأشهد أنها حملتْ زيادا وصخرٌ مِنْ سُمَيَّةَ غَيْر دَان

قال (٢) : وهذه الأَبيات تروى ليزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغ (٣) الحِمْيَرِى الشاعر ، ومَن رواها له جعل أوَّلَها :

أَلا بَلِّغْ (٤) مُعاوية بن صَخْر مُغَلْغَلَةً مِنَ الرجل اليَمَانى

قال أبو عمر : وروى عمر بن شَبَّة وغيره أن ابن مُفَرِّغ لما شفَعت فيه اليَمانية إلَى مُعاوية أو ابنه يزيد ، وكان قدلقى من عبَّاد بن زياد وأخيه عبيدالله مالقى من النَّكال مما يطول شرحه ، فلما وصل إلى معاوية بكَى وقال : « ياأمير المؤمنين ركب منِّى مالم يُرْكَب من مسلم قطُّ ، علَى غير حَدَثٍ فى الإسلام ولا خَلْع يَد من طاعة » . وكان عبيد الله ابن زياد قد أمر به فسُقى دواء ، ثم حمل على حمار وطيفَ به وهو يَسْلَح فى ثيابه ، فقال معاوية : ألست القائل ؟ :

أَلا بلِّغ معاوية بن صخر . . . وذكر الأَبيات .

فقال ابن مُفرِّغ : «لا والذي عظَّم حقَّك ورفع قدرك ياأمير المؤمنين

---

(١) فى الاستيعاب : « أبلغ » .
(٢) أبو عمر ابن عبد البر .
(٣) سمى جده « مفرغاً » لأنه راهن على أن يشرب عسا من لبن فقرغه .
(٤) فى الاستيعاب : « أبلغ » .

ماقلتها قط ولقد بلغنى أن عبد الرحمن بن الحَكَم قالها ونسبها إلىّ »

قال ألست القائل ؟ :

شهدتُ بأنَّ أمّك لم تباشرْ أبا سُفيان واضعة القناع
ولكن كان أمْرٌ فيه لُبْسٌ على وَجَل شديد وارْتياع

أو لست القائل أيضا ! :

إنَّ زيّادا ونافعًا وأبا بَكْرَةَ عندِى منْ أعْجَب العَجَبِ
هُمُو رِجالٌ ثلاثةٌ خُلقُوا فى رَحْم أنْثَى ما كلُّهم لأبِ (١)
ذا قُرَشِيٌّ كما يقول وذَا مَوْلًى وهذا بزَعْمِهِ عَرَبى

فى أشعار قُلْتَها لزياد وبنيه تهجوهم ! أغْرُب لاعفا الله عنك ! فقد عفوت عن جُرْمك ، ولوصحبتَ زيادا لم يكن شىء مما كان ، اذهبْ فاسكن أى أرض أحببتَ » . فاختار الموصِل .

قال أبو عمر : وليزيد بن مُفرِّغ فى هجْو زياد وبنيه – من أجل مالقى من عَبَّاد بن زياد بخراسان – أشعارٌ كثيرةٌ منها :

أعبّادُ ما لِلُؤم عنك مُحَوَّلٌ ومالَكَ أمٌّ فى قريْش ولا أبُ
وقلْ لعُبَيْد الله مالك وَالدٌ بحقّ ولا يَدرى امْرء كيفَ تُنْسَب

(١) جاء فى مروج الذهب ج ٢ ص ٥٧ : « فى رحم أنثى مخالق النسب » .

وقوله[١] فى زياد :

فَكِّرْ ففى ذاك إنْ فكَّرتَ مُعْتَبَرٌ هلْ نِلْتَ مَكْرمَةً إلاَّ بِتَأْمِيرِ
عاشَتْ سُمَيَّةُ ما عاشَتْ وما علمَتْ أن ابنها من قُرَيْش فى الجَماهِيرِ

قال[٢] : وكان أبو بَكْرة أخا زياد لأُمِّه ، فلما بلغه أن معاوية استحلفه وأنه رضى بذلك آلى يمينًا ألاَّ يكلِّمه أبدا ، وقال : « هذا زَنَّى أُمَّه وانتفَى مِن أبيه ، لا والله ماعلمتُ سُميَّة رأت أبا سفيان قطُّ ، وَيْلَه ! ما يصنع بأُم حَبِيبة زَوْج النبى صلى الله عليه وسلم ؟ أيريد أن يراها ؟ فإن حجبتْه فضَحتْه ، وإنْ رآها فيالهَا مُصيبة ، يهتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم حُرْمةً عظيمة ! » .

فلما حجَّ زياد ودخل المدينة أرادوا الدخول على أم حَبيبة ، ثم ذكر قول أبى بَكْرة فانصرف عن ذلك . وقيل : إن أم حبيبة حَجَبَته ولم تأذن له فى الدخول عليها ، [قيل][٣] وإنه حج ولم يزرها من أجل قول أبى بكرة ، وقال : جزى الله أبا بكرة خيرا لم يدع النصيحة على كل حال .

قالوا[٤] : وكتب زياد « إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها :

---

(١) روى أن عبيد الله بن زياد قال : ما هجيت بشىء أشد على من قول ابن مفرغ ، فكر ففى ذاك .... الخ البيتين .

(٢) أبو عمر ابن عبد البر فى الاستيعاب .

(٣) الزيادة من الاستيعاب .

(٤) ذكر هذا القول ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٢١ .

من زياد بن أبي سفيان » وهو يريد أن تكتب إليه « إلى زياد بن أبي سفيان » فكتبت إليه « من عائشة أم المؤمنين إلى ولدها زياد » .

وكان يُقال لزِياد قبل الاستلحاق « زياد بن أبِيه » و « زياد بن أُمِّه » و « زياد بن سُميَّة » و « زياد بن عُبَيْد الثَّقَفِيّ » .

وروى أبو عمر[1] بسنده إلى أبي عثمان النهدى قال : اشترى زياد أباه عُبَيْدًا بألف دِرهم فأعتقه . . فكُنَّا نَغيظه بذلك .

سنة خمس وأربعين

ذكر ولاية زياد البصرة وخراسان وسجستان
وما تكلم به زياد عند مقدمه ومن استعمله زياد من العمال

وفى هذه السنة عزَل معاوية الحارث بن عبدالله الأزدى عن البصرة وكان قد استعمله عليها فى [أوَّل][2] هذه السنة ، ثم عزَله ، فكانت ولايته أربعة أشهر ، واستعمل زيادا على البصرة وخُراسان وسِجِسْتان ، ثم جمع له الهند والبحرَيْن وعُمان .

فقدِم زياد البصْرة فى آخر شهر ربيع الآخر من السنة ، فدخلها والفِسْقُ فيها ظاهر فاشٍ .

فخطب خطبة بَتْراء[3] لم يحمد الله فيها (وقيل : بل حمِد الله

(١) فى الاستيعاب ج ١ ص ٥٦٨ .
(٢) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .
(٣) ذكر الجاحظ فى البيان والتبيين ج ٢ ص ٦ « أن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمون الخطبة التى لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد البتراء » .

فقال : الحمدلله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نِعَمِه وإكرامه ، اللهم كما زِدْتَنا نِعَمًا فألْهِمْنا شكرًا على نعمك فينا .) أمَّا بَعْدَ فإنَّ الجَهالة الجَهْلاء والضَّلالة العَمْياء والفجر[1] المُوقد لأهله النار[2] الباقى عليهم سَعِيرها : ما يَأْتيه سُفهاؤكم ويشتمل عليه حُلماؤكم من الأُمور العظام ، فيَشِب[3] فيها الصغير ، ولا يَنْحاش عنها الكبير كأن لم يسمعوا نبيَّ الله ، ولم يقرءوا كتابَ الله ، ولم يعلموا[4] ما أعدَّ اللهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل مَعْصِيَته فى الزمن السَّرْمَدى الذى لايزول ، أتكونون كمن طَرَفَتْ عَيْنَه الدنيا[5] وسَدَّتْ مَسامِعَه الشهوات واختار الفانية علَى الباقية ؟ ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحَدَثَ الذى لم تُسْبَقوا إليه (وفى نسخة[6] بعد قوله « لم تسبقوا إليه » قال : من تركَكم الضعيف يُقْهَر ويُؤْخَذ ماله والضعيفة المسكينة فى النهار المُبْصِر) هذه المَوَاخِير[7] المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المُبْصِر ، والعدد غير قليل ! ألم تكن

(١) فى البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢ « والغى » :

(٢) كذا جاء فى المخطوطة وتاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦٥ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٢ ، وجاء فى البيان والتبيين ج ٢ ص ٦٢ والعقد الفريد ج ٤ ص١١٠ « الموفى بأهله على النار » .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة والكامل ، وجاء فى تاريخ الطبرى والبيان والتبيين والعقد الفريد : « ينبت » .

(٤) جاءت الأفعال « يسمعوا » و « يقرءوا » و « يعلموا » بالياء فى النسخة (ك) ولم تتقط أوائلها فى النسخة (ن) ، وجاءت بالتاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى والكامل والبيان والعقد .

(٥) أى : طمحت ببصره إليها ، من قولهم « امرأة مطروقة بالرجال » إذا كانت طماحة إليهم ، وقيل : طرقت عينه أى صرفتها إليها ، كما فى النهاية .

(٦) كذا جاء فى النسخة (ن) ، ولم يثبت فى النسخة (ك) .

(٧) قال صاحب النهاية : المواخير جمع ماخور ، وهو مجلس الريبة ومجمع أهل الفسق والفساد وبيوت الخمارين .

منكم نُهاةٌ[١] تمنع الغُواة عن دَلَج[٢] الليل وغارة النهار ؟ قرَّبتم القرابة وباعدتم الدِّين ! تعتذرون بغير العُذْر وتُغَطُّون[٣] على المختلس ! كلُّ امْرِئٍ منكم يذُبُّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يخشى[٤] مَعادا ! ما أنتم بالحُلَماء ، ولقد اتبعتم السُّفَهاء ، فلم يَزَل بهم ماتَرَوْن[٥] من قيامكم دُونَهم حتَّى انتهكوا حُرَمَ الإسلام ثم أطرقوا وَراءكم كُنُوسًا فى مَكانِس[٦] الريَب ! . حرامٌ عَلَىَّ الطعام والشراب حتَّى أُسَوِّيَها بالأرض هَدْمًا وإحراقا ! إنى رأيت هذا الأمر لا يصلُح إلاَّ بما صلح به أوَّلُه : لِين فى غير ضعف ، وشدة فى غير جبْريَّة وعُنْف . وإنِّى أُقْسِم بالله لآخُذَنَّ الوَلِىَّ بالولىِّ والمُقيمَ بالظاعن ، والمقْبِلَ بالمدْبر ، والصحيحَ منكم فى نفسه بالسقيم ، حتَّى يَلْقَى الرجُل منكم أخاه فيقول : انْجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْد[٧] ، أو تستقيمَ لى قَناتُكم ! إن كذْبة المِنبر

---

(١) النهاة : جمع الناهى ، كما تكون الغواة جمع الغاوى .

(٢) دلج الليل : يراد به السير فى الليل ، وأكثره يكون للسرقة أو الفجور .

(٣) فى الكامل : « تعطفون » ، وفى البيان : « تغضون » .

(٤) فى تاريخ الطبرى والبيان والعقد : « ولا يرجو »

(٥) فى العقد « بكم ماترون » ، وكذلك بعض نسخ البيان ، وفى بعضها : « بهم مايرون » .

(٦) يقال : كنس الظبى فى كناسه أو مكنسه ، إذا تغيب واستتر فى بيته ، قال صاحب النهاية فى شرح هذه الجملة من خطبة زياد : المكانس : جمع مكنس ، مفعل من الكناس ، والمعنى استتروا فى مواضع الريبة .

(٧) « انج سعد فقد هلك سعيد » مثل من أمثال العرب ، انظر مجمع الأمثال فى حرف النون ج ٢ ص ٣٠١ ، و « سعد » و « سعيد » ابنا ضبة بن طابخة بن الياس بن مضر ، وكانا قد خرجا فى طلب إبل لأبيهما تفرقت فى الليل ، فوجدها سعد فردها ، ومضى سعيد فى طلبها حتى لقيه الحارث بن كعب فقتله وأخذ بردبه ، انظر مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٠١ والفاخر ص ٥٩ .

مشهودة (١) ، فإذا تعلّقتم عَلَيَّ بكذبة فقد حلّت لكم مَعْصِيَتِى ! مَن بُيِّت (٢) منكم فأنا ضامنٌ لما ذهب له ، إيَّاىَ ودَلج الليل ، فإنى لا أوتى بمُدْلِج إلاَّ سفكتُ دمه ، وقد أجّلتُكم فى ذلك بقَدْر مايأتى الخبرُ الكوفةَ ويرجعُ إليكم . وإيَّاىَ ودعوَى الجاهليّة (٣) ، فإنى لاأجد أحدًا دعابها إلاَّ قطعتُ لسانه ، وقد أحدثتم أحداثا لم تكُنْ ، وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوما غرّقناه ، ومن حرّق قوما حرّقناه ، ومن نقَب بَيْتا نَقَبتُ عن قلبه ، ومن نَبَش قبرًا دفنتُه فيه حيّا ! فكُفُّوا عنّى أيديَكم وألسِنَتكم أكفُفْ عنكم يدى ولسانى ، ولا يظهر من أحدٍ منكم خلافُ ماعلَيه عامّتكم إلاَّ ضربتُ عنقه ! وقد كانت بينى وبين أقوام إحَنٌ(٤) فجعلت ذلك دَبْرَ أذُنى وتحت قدمى (٥) ، فمن كان منكم محسنا فلْيَزْدَدْ إحسانا ، ومن كان مُسيئا فلْينزِعْ عن إساءته ، إنّى لو علمتُ أن أحدكم قد قتله(٦) السلُّ من بغضى لم أكشف له قِناعا ولم أهتِك له سِترًا حتى يُبْدِىَ لى صفحته ، فإذا فعل لم أناظره . فاستأنفوا أمورَكم ، وأعينوا على

(١) روى أبو على القالى فى النوادر ص ١٨٥ قول زياد فى خطبته : « ألا وإنها ليست كذبة أكثر عليها شاهدا من الله ومن المسلمين من كذبة إمام على منبر » .

(٢) بيت : أصيب من شخص أوقع به ليلا .

(٣) ما كان عليه أهل الجاهلية من التعصب القبلى الأعمى يدعو بعضهم بعضاً عند الحادث فيقول : « يالفلان » ، وفى الصحيحين وغيرهما حديث النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » .

(٤) إحن : جمع إحنة ، بمعنى حقد .

(٥) روى المبرد فى الكامل قول زياد : « الإمرة تذهب الحفيظة ، وكانت من قوم إلى هنات جعلتها تحت قدمى ودبر أذنى » ، وقال المرصفى فى شرحه ج ٤ ص ١١٦ : « دبر : معناه خلف ، يريد تصاممت فلم أصغ إليه » .

(٦) رواية المبرد فى الكامل : « أخذه » .

أنفسكم ، فرُبَّ مُبْتَئِس بقدومنا سيُسَرّ ومسرورٍ بقدومنا سَيبْتَئِس(١) أيُّها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادَة(٢) ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطاناه ، ونذُود عنكم بفَىء الله الذ خوَّلَناه ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما وُلِّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفَيْئَنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى مَهما قصَّرتُ عنكم(٣) فإنى لا أُقصِّر عن ثلاث : لستُ محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارِقا بِلَيْل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبَّانه ، ولا مُجَمِّرا(٤) لكم بَعْثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدّبون ، وكَهْفكم الذى إليه تأْوُون ، ومتى يصلحوا تصلحوا(٥) ، ولا تُشْربوا قلوبَكم بُغضَهم ، فيشتدَّ لذلك غيظُكم ، ويطولَ له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم ، أسأل الله أن يُعين كلاًّ على كلّ ، فإذا رأيتمونى أُنْفِذ فيكم الأمر فأَنْفِذوه على أذْلاله(٦) . وايمُ اللهِ إن لى فيكم لَصَرْعَى كثيرة ، فليحذَر كلّ امرئ منكم أن يكون من صَرْعاى ! .

---

(١) ذكر المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ ص ٦٧ أن زياداً قال :

ألا رب مسرور بما لا يسره وآخر محـزون بما لا يضره

(٢) ذادة : جمع ذائد ، وسيأتى الفعل ، « نذود » أى : ندافع .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى تاريخ الطبرى والكامل والبيان : « عنه » .

(٤) تجمير الجنود : حبسهم فى أرض العدو عن العودة إلى أهلهم ، وقد جاء فى وصية عمر بن الخطاب قوله : « ولا تجمرهم فى البعوث فتقطع نسلهم » .

(٥) كذا جاء فى البيان والتبيين ، وجاء فى تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير : « ومتى تصلحوا يصلحوا » .

(٦) أذلاله : طرقه ومذاهبه ، فالأذلال : جمع ذل — بكسر الذال — وهو ما مهد من الطريق ، قال صاحب النهاية : « ومنه خطبة زياد : إذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله » .

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : أشهد أيها الأمير أنك أوتيتَ الحكمة وفَصْلَ الخطاب . فقال : « كذبتَ ، ذاك نبيُّ الله داود عليه الصلاة والسلام[١] » .

فقال الأحنف : « قد قُلتَ فأحسنتَ ، أيُّها الأمير[٢] والثناء بعد البَلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لا نُثنى حتَّى نَبْتَلِى ، ولا نحمَد حتَّى نُعْطَى » . فقال زياد : صدقتَ .

فقام أبو بلال مِرْداس بن أُدَيَّة وهو يقول :[٣] أنبأنا الله بغير ما قلتَ ، قال الله تعالى : ﴿ وإبراهيم الَّذى وَفَّى ، ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وأَنْ لَيْسَ لِلإنسان إلاَّ ماسَعَى وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾[٤] فأَوْعَدَنا الله خيرًا ممّا أوعدتَنا يازياد[٥] فقال زياد : إنالانجد إلى مانريد منك ومن أصحابك سبيلا حتَّى نخوضَ إليكم الباطلَ خَوْضًا ! . (وقيل : إنه قال : حتى نخوضَ إليها[٦] الدماء) .

---

(١) يشير إلى قول الله تعالى فى قصة داود : ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ الآية ٢٠ من سورة ص .

(٢) زاد الحصرى فى زهر الآداب ج ٢ ص ١٠٢٥ والقالى فى النوادر ص ١٨٦ وابن قتيبة فى عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٤٢ : « الفرس بشده ، والسيف بحده ، والمرء بجده ، وقد بلغ بك جدك ما ترى » .

(٣) عند ابن جرير والجاحظ وابن عبد ربه : يهمس وهو يقول :

(٤) الآيات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ من سورة النجم .

(٥) ذكر القالى فى نوادره أن أبا بلال بعد أن تلا القرآن قال : « وأنت تزعم أنك تأخذ بعضنا ببعض وتقتل بعضنا ببعض » وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين أنه قال : « وأنت تزعم أنك تأخذ البرى بالسقيم والمطيع بالعاصى والمقبل بالمدبر » فسمعه زياد .

(٦) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) : « إليه » .

وقيل : إنّه لمّا قدم العراق خطب ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إنّ معاوية غَيْرُ مَخُوف عَلَى قَومه ، ولم يكن لِيُلْحِقَ بنسَبه من ليس منه ، وقد شهدت الشهودُ بما قد بلغكم ، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع ، والله حَيْثُ وضع البينات كان أعلم ، وقد رحلت عنكم وأنا أعرِف صديقى من عدوِّى ، وقد قدِمتُ علَيكم ، وصار العدوُّ صديقا مناصحا ، والصديق عدوا مُكاشِحا ، فاشتمل كُلُّ امرئ علَى مافى صدره ، فلا يكونَنَّ لسانهُ شَفْرةً تَجرى علَى وَدَجِه ، ولْيَعلم أحدُكم إذا خلا بنفسه أنى قد حملتُ سَيفى بيده ، فإن شَهَره لم أغمده ، وإن أغمده لم أشهره » . ثم نزل .

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن .. وأجَّل الناسَ حتَّى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر ، وكان يؤخر العشاء الآخرة ، ثم يصلِّى ويأمر رجلا فيقرأ سورة البقرة أو مثلَها يرتِّل القرآن ، فإذا فرغ أمهل بقدر مايَرَى أنَّ إنسانا يبلغ أقصَى البصرة ، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنسانا إلا قتله .

فخرج ذات ليلة ، فأخذ أعرابيا ، فأتى به زيادا ، فقال : هل سمعتَ النداء ؟ قال : « لا والله قدِمتُ بحَلُوبة لى ، وغشِينى الليل ، فاضطررتها إلى موضع ، وأقمتُ لأُصبح ، ولا علم لى بما كان من الأمير » . قال : أظنك والله صادقا ولكن فى قتلك صلاح الأُمة . ثم أمر به فضربت عنقه .

وكان زياد أول من شدّد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وجرّد السيف ، وأخذ على الظِّنة ، وعاقب بالشُّبهة ، وخافه الناس خوفا شديدا ، حتَّى أمِنَ بعضُهم بعضا ، وحتى كان الشىء يسقط من الرجل

أو المرأة فلا يَعْرِض له أحد حتّى يأتيه صاحبه فيأخذه ، ولا يغلق أحد بابه ، وأَدَرَّ العطاء ، وبنى مدينة الرزق ، وجعل الشُّرَط أربعة الآف .

وقيل له ، إن السبيل مخوفة فقال : «لا أعانى شيئا وراء المِصْر حتّى أصلح المصر ، فإن غلَبنى فغَيْرُه أشدُّ غلبة منه » . فلما ضَبط المصر وأصلحه تكلّف ما وراء ذلك وأحكمه ، وهو أول من سِيْرَ بيْن يديه بالحراب والعُمُد ، واتخذ الحرس خمسمِائة لا يفارقون المسجد . والله أعلم .

ذكر عمال زياد بن أبيه

قال : ولمّا وُلى زياد استعان بعدّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، منهم عِمْران بن حُصَين الخُزاعى وَلّاه قضاء البصرة ، وأَنَس بن مالك وعبد الرحمن بن سَمُرة وسَمُرة بن جندب . فأمّا عِمْران فاستعفاه من القضاء فأعفاه ، واستقضى عبدالله بن فَضالة اللَيْثى ، ثم أخاه عاصم ، ثم زُرَارة بن أَوْفى .

وجعل خُراسان أرباعا ، فاستعمل على مَرْوَ أمير بن أحمر اليَشْكُرِى وعلى نَيْسَابور خُلَيْد بن عبد الله الحنفى ، وعلى مَرْو الرُّوذ والفَارِيَاب والطَّالَقَان قيس بن الهَيْثم ، وعلى هَراة وباذَغِيس وبُوشَنْج نافع بن خالد الطائى ، ثم عزله واستعمل الحَكَم بن عمرو الغفارى ، وكانت له صحبته ، وكان زياد قد قال لحاجبه : ادع لى الحَكَم (يريد الحكم بن أبى العاص الثقفى) ليوليه خراسان ، فجاء بالحكم الغِفارى ، فقال له زياد : ما أردتك ولكن الله أرادك ، فوَلّاه خراسان وجعل معه رجالا على جِباية الخراج ، منهم أَسْلَم بن زُرعة الكلابى وغيره ، وغزا الحكم طخارسْتان فغنم غنائم كثيرة ثم مات ، واستخلف أنس بن

أبى أُنَاس بن زُنَيْم فعزله زياد ، وكتب إلى خُلَيْد بن عبد الله الحنفى بولاية خراسان ، ثم بعث الربيع بن زياد الحارثى رضى الله تعالى عنه [إلى خراسان] (١) فى خمسين ألفا من البصرة والكوفة .

[وحج بالناس فى هذه السنة مروان بن الحكم ، وكان على المدينة] (٢)

سنة ست واربعين

ذكر وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

وفي هذه السنة مات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان قد عظُم أمره عند أهل الشام ومالوا إليه لغَنَائه بالروم ولآثار أبيه ، فخافه معاوية ، فأمر ابن أُثَال النصراني أن يحتال فى قتله . [ضمن له أن] (٣) ويضع عنه خراجَه ما عاش ، ويولِّيه خَراج حِمْص

فلمَّا قدم عبد الرحمن من الروم دَسّ إليه ابنُ أُثال شربةً مسمومة مع بعضْ مماليكه ، فشربها ، فمات بحمصْ ، فوَفَّى له معاوية .

ثُمَّ قدِم خالد بن عبد الرحمن المدينة ، فجلس يوما إلَى عُرْوَة بن الزُّبَير فقال له عروة : ما فعل ابن أُثَال ؛ فقام من عنده وسار إلى حِمْص فقَتل ابن أُثال ، فحمِل إلَى معاوية فحبسه أياما وغرمه ديته ، ورجع إلى المدينة فأَتَى عُرْوة فقال له ما فعل ابن أُثال ؟ فقال : قد كَفَيتكه ولكن مافعل ابن جُرْمُوز ؟ (يعنى قاتل الزبير) فسكت عروة .

وقد روى (٤) فى خبر عبد الرحمن بن خالد أن معاوية لمّا أراد البَيْعة

---

(١) الزيادة من تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ١٧٠ .
(٢) ثبتت هذه الجملة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .
(٣) الزيادة من الكامل ج ٣ ص ٢٢٥ .
(٤) انظر الاستيعاب ج ٢ ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

ليزيد خطب أهل الشام وقال : «يا أهل الشام ، إنى قد كبر سنى وقرب أجلى ، وقد أردت أن أعقد لرجل يكون نظاما لكم ، وإنما أنا رجل منكم ، فارتؤا رأيكم » . فأصفقوا[1] واجتمعوا . وقالوا : رضينا عبد الرحمن ابن خالد . فشق ذلك على معـاوية وأسرها فى نفسه ، ثم مرض عبد الرحمن فأمر معاوية طبيبا عنده مكينا أن يأتيه فيسقيه سقية يقتله بها ، فأتاه فسقاه فانخرق بطنه فمات . ثم دخل أخوه المهاجر بن خالد دمشق مستخفيا ، هو وغلام له ، فرصدا ذلك اليهودى ، فخرج ليلا من عند معاوية ، ومعه قوم ، فهجم عليه المهاجر فهربوا عنه فقتله المهاجر .

وقد قيل[1] إن الذى قتل ابن أثال أو اليهودى خالد بن المهاجر بن خالد ، وأن عروة بن الزبير ، كان يعيره بترك الطلب بثأر عمه ، فخرج خالد ونافع مولاه من المدينة حتى أتيا دمشق ، فرصد الطبيب ليلا عند مسجد دمشق ، وكان يسمر عند معاوية ، فلما انتهى إليهما ومعه قوم من حشم معاوية ، حملا عليهم ، فانفرجوا ، وضرب خالد بن المهاجر اليهودى فقتله ، ثم انصرف إلى المدينة ، وقال لعروة بن الزبير :

قضى لابن سيف الله بالحق سيفه ... وعرى من حمل الذحول[2] رواحله
سل ابن أثال هل ثأرت ابن خالد ؟ ... فهذا ابن جرموز فهل أنت قاتله ؟

---

(١) انظر الاستيعاب ج ٣ ص ٤٣٦ — ٤٣٧ .

(٢) الذحول : جمع ذحل ، وهو الثأر ، يقول تعرت رواحله من الثأر إذا أخذت به .... هذا وفى الاستيعاب بيت بين البيتين وهو :

فإن كان حقا فهو حق أصابه ... وإن كان ظنا فهو بالظن قاتله

وحج بالناس فى هذه السنة عتبة بن أبى سفيان .

سنة سبع وأربعين

فى هذه السنة عُزل عبدالله بن عمرو بن العاص عن مصر ، واستُعمل عليها معاوية ابن حُدَيْج وكان عثمانيا ، فمرّبه عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما فقال : « يامعاوية ، قد أخذتَ جزاءك من معاوية ، قد قتلتَ أخى محمدا اتَلِىَ مصر ، فقد وَليتها » . فقال : ماقتلت مُحمدا إلا بما صنع بعثمان ، فقال عبد الرحمن : فلو كنتَ إنما تطلب بدم عثمان ماشاركت معاوية فيما صنع ، حيث عمل عَمْرو بالأشعرى ماعمل ، فَوَثبتَ أول الناس فبايعته .

وحجّ بالناس فى هذه السنة عُتْبة بنْ أبى سُفْيان ، وقيل : عنْبَسة ابن أبى سُفيان .

سنة ثمـــان وأربعين

فى هذه السنة استعمل زيادٌ غالب بن فَضالة اللَيْثى علَى خُراسان وكانت له صحبة .

وحجّ بالناس مَرْوان بن الحَكَم وهو يتوقّع العزلَ لمَوْجدة كانت من معاوية علَيه ، وارتجع معاوية منْه فَدَك وكان وهَبَها له .

سنة تسع واربعين

فى هذه السنة عَزَل مُعاوية مَرْوانَ بن الحَكَم عن المدينة ، فى شهر ربيع الأول ، وأمَّرَ سَعيدَ بن العاص[١] ، فكانت ولاية مَرْوان المدينة ثمانِىَ سنين وشهرين ، وكان علَى قضاء المدينة عبدالله[٢] بن الحارث بن نوفل ، فعزله سعيدٌ حين وُلِّى ، واستقضَى أبا سَلَمة بن عبد الرحمن .

ذكر وفاة الحسن بن على بن أبى طالب

رضى الله عنه

قد اختُلف فى وقت وفاته رضى الله عنه ، فقيل : [فى سنة تسع وأربعين ، وقيل : بل مات][٣] فى شهر ربيع الأول سنة خمسين ، وقيل : مات فى سنة إحدى وخمسين ، ودفن فى بَقِيع الغَرْقَد[٤] ، وصلى عليه سعيد بن العاص أمير المدينة ، قدَّمه الحسين للصلاة عليه ، وقال له لولا أنها سُنَّة ماقدمتك .

قال أبو عمر بن عبد البر[٥] : وقد كانت عائشة رضى الله عنها أباحت له أن يُدْفَن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بَيْتها ،

---

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، الأموى القرشى ، أبو عثمان ، لزم بيته بعد مقتل عثمان بن عفان ، واعتزل أيام الجمل وصفين ، فلم يشهد شيئا من تلك الحروب ، إلى أن انتهى الأمر إلى معاوية فعاتبه على اعتزاله ، ثم ولاه المدينة ، فكان يعاقب بينه وبين مروان فى ولايتها .

(٢) سبق ذكره .

(٣) الزيادة من النسخة (ن) والاستيعاب ج ١ ص ٣٧٤ ، وسقطت من النسخة (ك) .

(٤) بقيع الغرقد : مقبرة المدينة المنورة ، وكان هذا الموضع قديما منبت الشجر المسمى بالغرقد .

(٥) فى الاستيعاب ج ١ ص ٣٧٤ .

وكان قد سألها ذلك فى مرضه ، فلمّا مات مَنَع من ذلك مَرْوانُ بن الحكم وبَنُو أُمَيّة .

وروى[1] أبو عمر : أن الحسن لما حضرتْه الوَفاة قال للحسين أخيه : « ياأخى إن أباكَ رحمه الله لما قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم استشرف لهذا الأمر رجاء أنْ يكون صاحبَه ، فصرفه الله عنه ، وولاّها أبا بكر ، فلما حضرتْ أبا بكر الوَفاةُ تشوّف لها أيضا ، فصرِفت عنه إلى عُمر ، فلما احْتُضِرَ عمر جعلها شُورَى بين ستة هو أحَدُهم ، فلم يشكّ أنها لا تَعْدوه ، فصرِفَت عنه إلى عثمان ، فلما هَلَك عُثمان بُويِع له ، ثم نُوزِع حَتّى جَرَّد السيف ، وطلبها ، فما صفا له شىء منها ، وإنى والله ماأرى أن يَجْمعَ اللهُ فينا أهْلَ البيْتِ النبُوّةَ والخلافة[2] ، فلا أعرفنَّ ما استخفَّك سفهاء أهل الكوفة : فأخرجوك ، وإنى قد كنتُ طلبت إلى عائشة إذا متُّ أن تأْذَنَ لى فأُدْفَن فى بيتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : نَعَم ، وإنى لاأدرى لعلها كان ذلك منها حياء[3] ، فإن طابت نفسُها فادفِنّى فى بيتها ، وما أظن إلاّ أن القوم سيمنعونك إذا أردتَ ذلك ، فإن فعلوا فلا تُراجِعْهم فى ذلك ، وادفِنّى فى بَقِيع الغَرْقَد ، فإن لى بمن فيه أُسوة

فلمّا مات الحسن رضى الله عنه أتى الحسين عائشة فطلب ذلك إليها

---

(١) فى الاستيعاب ج ١ ص ٣٧٦ .

(٢) روى الشيرازى فى الألقاب عن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : إن عليا وفاطمة والحسن والحسين دخلوا على النبى صلى الله عليه وسلم فسألوه الخلافة . فقال : « ما كان الله ليجمع فيكم أمرين : النبوة والخلافة » . ذكره فى البيان والتعريف .

(٣) زاد صاحب الاستيعاب : « فإذا أقامت فاطلب ذلك إليها » .

فقالت : نَعَمْ وكرامة . فبَلغَ ذلك مَرْوانَ بن الحكم[١] فقال : « كذبَ وكَذبتْ ، والله لايُدْفَن هناك أبدا ، منعوا عُثمان من دَفْنه فى المقبرة ويريدون دفن الحسن فى بيت عائشة . » . فبلغ ذلك الحسين فدخل هو ومن معه فى السلاح ، واسْتَلْأَمَ مَرْوان فى الحديد أيضا ، فبلغ ذلك أبا هُرَيْرَة رضى الله عنه فقال : « والله ماهو إلاَّ ظلم ، يُمْنَع الحسن أن يُدْفَن مع أبيه ! والله إنه لابْنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ثم انطلق إلى الحسين فكلَّمه وناشدَه الله وقال له : « أليس قد قال أخوك : إن خفتَ أن يكون قتال فردَّنى إلى مقبرة المسلمين ؟ » . فلَم يَزَل به حتى فَعَل ، وحمله إلى البَقيع ، فلم يَشهده يَوْمئذ من بنى أمية إلاَّ سَعيد بن العاص ، فقدَّمه الحسين للصلاة ، وقال : هى للسنة[٢] . وشهدها خالد بن الوَليد بن عُقْبة بعد أن ناشد بنى أمية أن يخلوه يشهد الجنازة فتركوه فشهد دفْنه فى المقبرة ، ودُفِن إلَى جَنْب أمِّه فاطمة رضى الله عنهما .

قال[٣] : وقال أبو قتادة وأبو بكر بن حفص : سُمّ الحسن ابن علىّ رضى الله عنهما ، سمَّتْه امرأته جَعْدة بنت الأشْعَث بن قَيس الكندى . قال : وقالت طائفة كان ذلك منها بتدسيس معاوية إلَيها ومابَذَل لها [فى ذلك ، وكان لها ضرائر][٤] وأنه وعدها بخمسين ألف

---

(١) ذكر ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٢٨ وغيره أنهم لما أرادوا دفنه فى بيت عائشة عند النبى صلى الله عليه وسلم لم يعرض لهم سعيد بن العاص ، وهو الأمير على المدينة ، فقام مروان بن الحكم وجمع بنى أمية وشيعتهم ومنع عن ذلك .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) : « السنة » .

(٣) أبو عمر فى الاستيعاب ج ١ ص ٣٢٥ .

(٤) الزيادة من الاستيعاب .

درهم ، وأن يزوّجها من يزيد ، فلما فعلتْ وفّى لها بالمال ، وقال : حُبُّنا ليزيد يمنعنا من الوفاء لكِ بالشرط. الثانى .

وروى قتادة قال : دخل الحسين على أخيه الحسن رضى الله عنهما فقال : « ياأخى إنى سُقيت السمَّ ثلاث مرات ، ولم أُسْق مثل هذه المرة ، إنى لأضع كبدى ! » . فقال الحسين : مَن سقاك ياأخى ؟ قال : « ما سؤالك عن هذا ؟ أتريد أن تقاتلهم ؟ أَكِلْهم إلى الله . » .[1] فلمَّا مات وَرَد البَريدُ بموته على معاوية فقال : « ياعَجبا من الحسن ! شرب شربة من عسل بماء رُومة[2] فقَضَى نَحْبَه ! » .

وأتى ابن عبّاس معاوية فقال له : يا بن عباس احتسب الحسن لايحزنك الله ولا يسوءك . قال : أمّا ما أبقاك الله يا أمير المؤمنين فلا يحزننى الله ولا يسوؤنى ، فأعطاه على كلمته ألف ألف درهم وعروضا وأشياء . وقال : خذها فاقسمها على أهلك .

ومات الحسن رضى الله عنه وله من السن يومئذ سبع وأربعون سنة . وقيل : ستٌّ وأربعون سنة .

وكان رضى الله عنه وأرضاه ورِعا فاضلا ، دعاه وَرَعه وفضله إلى ترك الخلافة رغبة فيما عند الله ، وقال : والله ما أحببتُ منذ علمتُ ما ينفعنى ويضُرنى أن أَلِيَ أمْر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، على أن يُراقَ فى ذلك مَحْجَمة دم .

وحج بالناس فى هذه السنة سعيد بن العاص .

---

(١) وجاء فى رواية أخرى قول الحسين لأخيه الحسين : « فإن كان الذى أظن فالله أشد نقمة وإن كان غيره فما أحب أن يقتل بى برىء » .

(٢) روقه : بئر بالمدينة .

سنة خمسين

ذكر وفاة المغيرة بن شعبة

فى هذه السنة تُوُفِّىَ المُغِيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس وهو ثقيف .

وكان الطاعون قد وقع بالكوفة فهرب المغيرة منه ، فلما ارتفع عاد إلى الكوفة ، وطُعِن فمات [١] فى شعبان من السنة ، وكان طوالا أعور ، ذهبت عينه يوم اليَرْمُوك ، وتُوُفِّىَ وهو ابن سبعين سنة .

وكان المغيرة من الدُّهاة ، رُوِىَ عن الشعبى قال : كان دُهَاة العرب أربعة : مُعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ، فأما معاوية فللأناة والحلم ، وأما عمرو فللمعضلات ، وأما المغيرة فللمبادهة [٢] ، وأما زياد فللكبيرة والصغيرة .

وحكى الرياشى عن الأصمعى قال : كان معاوية يقول : أنا للأناة ، وعمرو للبديهة ، وزياد للصغار والكبار ، والمغيرة للأمر العظيم.

ولما دُفن وقف على قبره مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشيبانى وقال :

إنَّ تحت الأحجار حَزْما وجُودا وخَصيماً أَلَدَّ ذا معْلاَقِ [٣]
حيَّة فى الوِجَارِ [٤] أَرْبَد [٥] لايَنْـ فَعُ منه السَّليمَ نَفْثُ الرَّاقِى

(١) مات فى داره بالكوفة حيث كان أميرا عليها لمعاوية ، وسيأتى ذكر ذلك .
(٢) المبادهة : المفاجأة .
(٣) الألد : الشديد الخصومة ، والمعلاق الشديد التعلق بالخصم .
(٤) الوجار بالفتح والكسر . الجحر .
(٥) الأربد : الحية الخبيثة .

ثم قال ، أمَا والله لقد كنتَ شديد العداوة لمن عاديتَ ، شديدَ الأخوّة لمن آخيتَ .

وكان المغيرة كثيرالزواج ، قال أبوعمر[١] : قال نافع أحصن المغيرة ثلاثمائة امرأة فى الإسلام . قال[٢] : وغيره[٣] يقول : ألف امرأة

ولمّاحضرته الوفاة استخلف على الكوفة ابنه عُرْوَة ، وقيل : استخلف جَرِيرا ، فولّى معاوية زيادا .

ذكر ولاية زياد الكوفة

قال[٤] : ولما مات المغيرة استعمل معاوية زيادا على الكوفة ، وهو أوّل من جمع له بين الكوفة والبصرة ، فسار إلى الكوفة ، واستخلف على البصرة سَمُرة بن جُنْدُب ، فكان زياد يقيم بالكوفة ستة أشهر ، وبالبصرة ستة أشهر .

ولمّا وصل الكوفة خطبهم ، فَحُصِب وهو على المنبر ، فجلس حتّى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصّته فأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال : ليأخُذنَّ كلُّ رجل منكم جليسه ، ولا يقولَنَّ لاأدرى من جليسى . ثم أمر بكرسى فوضِع[٥] على باب المسجد ، ثم دعاهم أربعةً أربعةً يحلفون : مامِنَّا من حَصَبك ، فمن حلف خلاّه ، ومن لم يحلف حبسه ، حتى صاروا ثلاثين ، وقيل : ثمانين ، فقطع أيديَهم ، واتخذ زياد المقصورة حين حُصِب .

---

(١) فى الاستيعاب ج ٣ ص ٣٨٩ .
(٢) أبو عمر يرويه فى الاستيعاب عن ابن وضاح .
(٣) غير نافع .
(٤) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٢٨ .
(٥) عند ابن جرير ج ٤ ص ١٧٥ « فوضع له » .

قال : وأما سَمرةُ فإنه أكثر القتل بالبصرة لمّا استخلفه زياد عليها ، قال ابن سيرين : قتل سمرة فى غيبة زياد هذه ثمانية آلاف . فقال زياد : أتخاف أن تكون قتلت بريئا ؟ قال : لو قتلت معهم مثلهم ماخشيت. وقال أبو السُّوار العدوى : قتل سمرة من قومى فى غداة واحدة سبعة وأربعين ، كلهّم قد جمع القرآن .

وركب سمرة يوما ، فلقيَتْ أوائل خيله رجلا فقتلوه ، فمرَّ به سَمُرة وهو يتشحّط فى دمه ، فقال : ماهذا ؟ قيل : أصابه أوائل خيلك ، فقال إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسِنَّتَنا .

ذكر ما قصده معاوية

من نقل المنبر من المدينة إلى الشام
ومن قصـــد ذلك بعده من الأُمراء

فى هذه السنة أمر معاوية بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يحْمَل إلى الشام ، وقال : لا يُتْرَك هو وعصا النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهم قتلة عثمان . فطلب العصا ، وهى عند سعد القَرَظ.[1] وحرّك المنبر ، فكُسفت الشمس حتى رُؤيت النجوم بادية ، فأعظم الناس ذلك ، فتركه .

وقيل : أتاه جابر وأبو هريرة فقالا : يا أمير المؤمنين لايصلح أن تخرج منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضع وضعه ، وتنقل

(١) سعد القرظ : صحابى كان يؤذن فى حياة الرسول والخلفاء من بعده ، وقد اشتكى إلى النبى صلى الله عليه وسلم قلة المال فى يده، فأمره بالتجارة ، فخرج إلى السوق ، فاشترى شيئا من قرظ ، فباعه ، فربح فيه ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم، فأمره بلزوم ذلك ، فقيل له «سعد القرظ» ، والقرظ – بفتح القاف والراء – يطلق على ورق السلم وثمر السنط .

عصاه إلى الشام فانقل المسجد ، فتركه وزاد فيه ست درجات ، واعتذر مما صنع .

فلما ولى عبد الملك بن مَرْوان هَمّ بالمنبر ، فقال قَبيصة بن ذؤيب أذكرك الله أن [1] لا تفعل ، إن معاوية حركه فكُسفت الشمس ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على منبرى آثما فليتبوأ مقعده من النار » وهو مَقْطع الحقوق بينهم [2] بالمدينة . فتركه عبد الملك .

فلما وَلِيَ الوَلِيد ابنهُ وحَج هَمّ بذلك ، فأرسل سعيد بن المسيّب إلى عمر بن عبد العزيز فقال : كلّم صاحبك لايتعرّض للمسجد ولا لله والسخط له ، فكلّمه عمر فتركه .

فلما حَجّ سليمان بن عبد الملك أخبره عُمر بما كان من الوَليد ، فقال سليْمان : « ماكنتُ أحبُّ أن يُذْكَر عن أمير المؤمنين عبد الملك هذا ، ولا عن الوَليد ، مالنا ولهذا ؟ أخذْنا الدنيا فهى فى أيدينا ، ونريد أن نعمِد إلى علَم من أعلام الاسلام يوفَدُ إليه فنحملَه ، هذا مالا يصلح ! » .

وفيها عَزل مُعاويةُ مُعاويةَ بن حُدَيْج عن مصر ، واستعمل عليها مَسْلَمة بن مُخَلَّد مع إفريقية [3] وكان على إفريقية عُقبة بن نافع ، وكان قد اختَطَّ قَيْرَوانَها ، وكان موضِعَه غَيْضة لاترام من السباع والحيّات فدعا الله عليها ، فلم يبق منها شىء إلا خرج هاربا ، حتّى إنْ كانت السباع لتحمل أولادها ، وبنى الجامع ، فلما عزله معاوية عن إفريقية

(١) فى الكامل ج ٣ ص ٢٣٠ « أن تفعل » .
(٢) فى الكامل « وعندهم » ، وقد تبع المؤلف الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ١٧٨ .
(٣) قال الطبرى : « فهو أول من جمع له المغرب كله ومصر وبرقة وإفريقية وطرابلس » .

وأضافها إلى مَسْلَمة بن مُخلَّد استعمل[1] على إفريقية مَوْلًى له يقال له : « أبو المهاجر » ، فلم يزل عليها حتّى هلك معاوية .

وقيل : إن عُقبة بن نافع ولى إفريقية فى هذه السنة وعمَّر مدينة القيروان ، وكانت غَيْضة على ما تقدم ، فدعا الله تعالى ، وكان مستجاب الدعوة ، ثم نادى : « أيَّتُها الحيّات والسِّباع ، إنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنّا فإنا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه » . فنظر الناس إلى الدوابّ تحمل أولادها وتنتقل ، فأسلم كثير من البربر ، وقطع الأشجار [وأمر ببناء المدينة ، فبنيت][2] وبنى المسجد الجامع ، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم ، وكان دور القيروان ثلاثة آلاف باع وستمائة باع . وسنذكر إن شاء الله تعالى ذلك بما هو أبسط من هذا فى أخبار إفريقية وبلاد الغرب .

ذكر وفاة الحكم بن عمرو الغفارى

وفى هذه السنة توفى الحكم بن عمرو الغفارى بمرو ، على أحد الأقوال ، وله صحبة ، وكان زياد قد كتب[3] إليه : « إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن أصطفى له الصَّفْراء والبيضاء ، فلا تقسم بيْن الناس ذهبا ولا فضة » . فكتب إليه الحكم : « بلغنى ما أمر به أمير المؤمنين ، وإنى وجدت كتابَ الله قبْل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو أن السماوات والأرضَ كانتا رَتْقًا على عبد ثم اتقى الله لَجعل له

(١) عبارة الطبرى وابن الأثير : « ولى مسلمة بن مخلد مولى له يقال له أبو المهاجر افريقيه » .

(٢) الزيادة من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٠ حيث نقل المؤلف .

(٣) كتب إليه بعد انصرافه من غزوة جبل الأشل .

فرجًا ومَخْرَجًا ، والسلام عليك » . ثم قال للناس : اغدوا على أعطياتكم وما لكم ، فقسمه بينهم[1] ، ثم قال : اللهم إن كان لى عندك خير فاقبضْنى إلَيك . فمات ، واستخلف لمَّا حضرتْه الوفاةُ أَنَس بن أبى أُنَاس .

وحج بالناس فى هذه السنة معاوية ، وقيل : بل حج ابنه يزيد .

وفيها توفى عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ، وأبو موسى الأشعرى ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين ، وتوفى غيرهم من الصحابة[2] رضى الله عنهم .

سنة احدى وخمسين

فى هذه السنة استعمل زياد بن أبيه الربيع بن زياد الحارثى على خراسان بعد وفاة الحَكَم ، وكان الحكم قد استخلف أَنَس بن أبى أُنَاس كما ذكرنا فعزله زياد ، وولى خُلَيْد بن عبد الله الحَنَفى ، ثم عزله ، وولى الربيع فى أول سنة إحدى وخمسين ، وسير معه خمسين ألفا بعيالهم من أهل الكوفة والبصرة ، منهم بُرَيْدة بن الحُصَيْب وأبو بَرْزَة ، ولهما صحبة ، فسكنوا خراسان ، فلمَّا قدمها غزا بَلْخ ففتحها صلحا ، وكانت قد أغْلِقت بعد ما صالحهم الأحنف ، وفتح قُهَسْتان عنوة وقتل مَن بناحيتها من الأتراك ، وبقى منهم نَيْزَك طَرْخَان فقتله قُتَيْبَة بن مسلم فى لايته . والله ولى التوفيق .

---

(١) أى : قسم بينهم ما غنموه من الغنائم مع عزله مقدار الخمس .

(٢) ممن توفى فى هذه السنة سعد بن أبى وقاص – على أحد الأقوال – وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعقيل بن أبى طالب ودحية بن خليفة الكلبى وزيد بن خالد الجهنى ومدلاج ابن عمرو السلمى .

ذكر مقتل حجر بن عدى

وعمرو بن الحَمِق وأصحابهما

وفى هذه السنة كان مقتل حُجرْ بن عدى وأصحابه ، وسبب ذلك أن معاوية لما استعمل المغيرة بن شُعْبة على الكوفة ، أمر بشتم علىّ رضى الله عنه وذمِّه والترحُّم على عثمان والاستغفار له وعَيْب أصحاب على ، فأقام المغيرة علَى الكوفة وهو أحسن الناس سيرة ، غير أنه لا يَدَعُ شتم علىٍّ والوقوع فيه ، والدعاء لعثمان والاستغفار له ، فلما سمع ذلك حُجْر بن عَدِىّ قال : بل إيا كم قد ذَمّ الله ولعن ! ثم قام فقال : أنا أشهد أن من تذُمّون أحقُّ بالفضل ، ومن تزكُّون أوْلَى بالذم ! فيقول له المغيرة يا حُجْر اتِق هذا السلطان وغضبه وسطْوَته ، فإن غضب السلطان يُهلك أمثالك . ثم يكُفُّ عنه .

فلما كان فى آخر إمارته قال فى علىّ وعثمان ما كان يقول ، فقام حُجر فصاح بالمغيرة صَيحة سمعها كُل من فى المسجد ، وقال له : « مُرْ لنا أيُّها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستَها عنا ، وليس ذلك لك ، وقد أصبحتَ مُولَعا بذم أمير المؤمنين » . فقام أكثر من ثُلُثَى الناس يقولون : صدق حُجروَبرٌ ، مُرْ لنا بأرزاقنا ! فنزل المغيرة ودخل القصر ، فجاءه أصحابه وقالوا : علام تترك هذا الرجل يجترئ علَيك فى سلطانك ؟ فقال لهم : « قد قتلته ، سيأتى بعدى أمير يحسبه مثلى ، فيصنع به ماتَرَوْنه ، فيقتله ، إنى قد قَرُب أجَلى ، ولا أحبّ أن أقتل خيار أهل هذه المصر فيسعد وأشقى ، ويعز فى الدنيا معاوية ويشقى فى الآخرة المغيرة ! »[1] ثُمَّ تُوُفِّىَ المُغيرة[2] .

(١) جاء فى رواية ابن جرير ج ٤ ص ١٨٩ زيادة قول المغيرة : « ولكنى قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئهم : وحامد حليمهم ، وواعظ سفيههم حتى يفرق بينى وبينهم الموت .

(٢) ذكر ابن جرير أن المغيرة ولى الكوفة سنة ٤١ وتوفى سنة ٥١ .

ووُلِّىَ زياد ، فقام فى الناس فخطبهم عند قدومه فترحَّم على عثمان وأثنَى علَى أصحابه ، ولعَن قاتِليه ، فقام حُجْر ففعل كما كان يفعل بالمُغيرة .

ورجع زياد إلى البصرة ، واستعمل علَى الكوفة عمرو بن حُرَيْث فبلغه أن حجرا يجتمع إلَيه شِيعة علىٍّ رضى الله عنه ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم حصبوا عمرو بن حُرَيث . فشخَص إلَى الكوفة ، وصعِد[1] المنبر فحمد الله وأثنى علَيه ، وحُجْر جالس ، ثم قال : « أمّا بَعْدُ ، فإنَّ غِبَّ البَغْيِ والغَىِّ وَخِيم ، إن هؤلاء جَمُّوا فأَشِروا[2] ، وأمِنونى فاجترءوا علَى الله ، لئن لم تَستقيموا لأُدَاوِيَنكم بدوائكم ، ولستُ بشىء إن لم أمنع الكوفة من حُجْر وأدعْه نكالاً لمن بعده ! وَيْل امِّك ياحُجْر ، سقط العشاء بك علَى سِرْحان[3] ! » وأرسل إلَى حُجْر يدعوه وهو فى ناحية المسجد ، فأتاه الرسول يدعوه إلَيه ، فقال أصحابه ، لايأتيه ولا كرامة ! فرجع الرسول فأخبر زيادا ، فأمر صاحب شُرْطته ـ وهو شَدّاد بن الهَيْثَم الهلالىّ ـ أن يبعث إلَيه جماعة ، ففعل ، فسَبَّهم أصحاب حُجْر فرجعوا فأخبروا زيادا .

---

(١) وقد لبس قباء سندس ومطرف خز أخضر ، وفرق شعره .

(٢) جموا : استراحوا . وأشروا : بطروا وطغوا .

(٣) «سقط العشاء بك على سرحان» مثل عربى يضرب فى طلب الحاجة التى يؤدى صاحبها إلى التلف ، قيل : إن أصله أن رجلا خرج يلتمس العشاء فوقع على ذئب فأكله ، و « السرحان » يأتى بمعنى الذئب ، وقيل : «سرحان» اسم رجل فاتك يتقيه الناس فقال رجل : والله لأرعين إبل هذا الوادى ولا أخاف سرحان ، فهجم عليه سرحان وقتله وأخذ إبله .

فجمع أهْلَ الكوفة وقال : « تشجُّون بِيَدٍ وتأسُون بأُخرَى[١] ، أبدانكم معى وقلوبكم مع حُجْر الأحمق ، هذا والله من دَحْسكم[٢] ، واللهِ لَتَظْهَرَنَّ لى براءتُكم ، أولآتِينكُّم بقوم أقيم بهم أودكم وصَعَركم[٣] » . فقالوا : معاذَ اللهِ أن يكون لنا رأى إلاَّ طاعتك ومافيه رضاك . قال : فَلْيَقُم كلُّ رجل منكم فليدْعُ مَن عند حُجرْ من عشيرته وأهله . ففعلوا ذلك ، وأقاموا أكثر أصحابه عنه .

وقال[٤] زياد لصاحب شرطته : انطلِق إلَى حُجرْ فإن تبعك فأتِنى به ، وإلاَّ فشُدّوا عليهم بالسيوف[٥] حتى تأتونى به . فأتاه صاحب الشرطة يدعوه ، فمنعه أصحابه من إجابتهم ، فحمل عليهم ؛ فقال أبو العمّرطة الكِنْدِى لحجر : « إنه ليس معك من معه سيف غيرى ، وما يغنى عنك سيفى ؟ قمْ فالحق بأهلك يمنعك قومك » . وزياد ينظر إليهم وهو على المنبر ، فغشِيَهم أصحاب زياد ، وضرب رجل رأس عمرو ابن الحَمِق بعمود فوقع ، وحمله أصحابه إلى الأزد فاختفى عندهم حتى خرج ، وانحاز أصحاب حُجر إلى أبواب كندة ، وضرب بعض الشُّرَط يَدَ عائذ[٦] بن حملة التميمى وكسر نابه ، فأخذ عمودا

---

(١) مثل عربى ، قال الزمخشرى فى أساس البلاغة : « فلان يشج مرة ويأسو أخرى ، إذا أخطأ وأصاب » ، وقال الميدانى فى مجمع الأمثال : «يشج ويأسو : يضرب لمن يصيب فى التدبير مرة ويخطىء مرة ، قال الشاعر :

إنى لأكثر ما سمعتى عجبا يد تشج وأخرى منك تأسونى

(٢) الدحس : الإفساد والدس .

(٣) الأود : الاعوجاج ، والصعر : الميل بالخد تهاونا واستكبارا .

(٤) فى تاريخ ابن جرير : « لما رأى زياد أن جل من كان مع حجر أقيم عنه قال ... » .

(٥) كذا جاء فى المخطوطة مثل الكامل ج ٣ ص٣٣٤ ، وجاء فى تاريخ ابن جرير ج ٤ ص ١٩١ « وإلا فمر من معك فلينتزعوا عند السوق ثم يشدوا بها عليهم » ، وهذا هو المناسب لما يأتى .

(٦) فى الأصل « عامر » ، والتصويب من الكامل وغيره .

من بعض الشُّرط. فقاتل به ، وحمى حُجرا وأصحابه حتى خرجوا من أبواب كندة ، وأُتِىَ حُجْر ببغلته فقال له أبو العمرّطَة : اركبْ فقد قتلتنا ونفسك. وحمله حتى أركبه ، وركب أبو العمرطة فرسه ، ولحقه يزيد بن ظريف المُسْلىّ فضرب أبا العمرطة بالعمود على فخذه ، وأخذ أبو العمرطة سيفه فضرب به رأسه فسقط . فكان ذلك السيف أول سيف ضُرب به فى الكوفة فى اختلاف بين الناس .

ومضى حُجْر وأبو العمرّطَة إلى دار حُجر ، واجتمع إليهما ناس كثير ، ولم يأته من كندة كثير أحد ، ثم اختفى حُجْر ، وتنقّل من مكان إلى آخر ، والطلب خلفه ، حتى أتى الأَزْد ، واختفى عند ربيعة بن ناجِد .

فلما أعياهم طلبه دعا زياد محمد بن الأشعث ، وقال له : والله لَتَأْتِيَنِّى به أو لأَقْطَعَنَّ كل نخلة لك ، وأهدِمُ دُورَك ، ثم أقطعك إرْبًا إرْبًا ، فاستمهله ، فأمهله ثلاثا ، وأقام حُجر ببيتِ رَبِيعة يوما وليلة ، فأرسل إلى محمد بن الأشعث يقول له : لِيأْخذْ له أمانا من زيادٍ حتى يبعث به إلى معاوية ، فجمع محمد جماعة ، منهم جَرير ابن عبد الله ، وحجر بن زيد ، وعبد الله بن الحارث أخو الأشتر ، فدخلوا على زياد فاستأمنوا له أن يرسله إلى معاوية فأجابهم ، فأرسلوا إلى حُجر فحضر عند زياد ، فلما رآه قال : « مرحبا أبا عبد الرحمن ، حربٌ أيام الحرب ، وحربٌ وقد سالم الناس ! على أهلها تجنى بَرَاقِش[1] » . فقال حجر : « ما خَلَعْتُ طاعة ، ولا فارقت جماعة ،

(١) براقش : كلبة سمعت وقع حوافر الدواب ، فنبحت ، فدلت العدو على أصحابها بنباحها ، فاستباحهم العدو وأوقع بهم ، فضرب مثلا لكل من يعمل عملا يرجع ضرره إليه .

وإنى على بيعتى » . فأمر به إلى السجن ، فلما وَلَّى قال زياد : والله لأحرِّضَنَّ على قَطْع خَيْط رقبته .. وطلب أصحابه .

فخرج عمرو بن الحمق حتَّى أتَى الموصل ومعه رفاعة بن شَدَّاد ، فاختيفا بجبل هناك ، فرُفع خبرهما إلى عامل الموصل ، وهو عبد الرحمن ابن [عبدالله] (١) عثمان الثقفى ، ويعرف بابن أم الحكم وهو ابن أخت معاوية(٢) ؛ فسار إليهما فخرجا إليه ، وكان عمرو قد اسْتَسْقَى بطنُه ، فأُمسِك ، وركب رِفاعة فرسه وحَمَلَ على القوم ، فأفرجوا له ، فنجا ، وكتب عامل الموصل إلى معاوية بخبر عمرو بن الحمِق ، فكتب إليه معاوية : « إنه يزعم أنه طعن عثمان تسع طعنات بمشَاقِص(٣) معه ، فاطعنه كما طعن عثمان » . فطعنه فمات فى الأُولى منها أو الثانية .

وجدّ زيّاد فى طلب أصحاب حُجر ، فهربوا منه ، وأخذ من قدر عليه منهم ، فاجتمع له اثنا عشر رجلا فى السجن .

ثم دعا رؤساء الأرباع يومئذ ، وهم عمرو بن حريث على ربْع أهل المدينة ، وخالد بن عُرْفُطَة على ربع تميم وهَمْدَان ، وقيس بن الوليد على ربع رَبيعة وكِندة ، وأبو بُرْدَة بن أبى موسى على ربع مَذْحج وأسد ، فشهد هؤلاء أن حُجر بن عدى جمع الجموع ، وأظهر شتم الخليفة ، ودعا إلى حربه ، وزعم أن هذا الأمر لايصلح إلا فى آل أبى طالب ،

---

(١) الزيادة من تاريخ ابن جرير ج ٤ ص ١٩٧ وانظر ترجمة عبد الرحمن فى الإصابة ج ٣ ص ٧٠ وترجمة أبيه عبد الله فى الإصابة ج ٢ ص ٣٤٤ ، والذى ذكره ابن جرير أن الذى سار إلى ابن الحمق ورفاعة هو عبد الله بن أبى بلتعة وبعد أن قبض على عمرو بن الحمق بعث به إلى عبد الرحمن الثقفى عامل البصرة .

(٢) لأن « أم الحكم » بنت أبى سفيان .

(٣) المشاقص : جمع مشقص ، بكسر الميم : السهم العريض ، أو النصل العريض أو الطويل من كل منهما .

وأنه وَثَب بالمِصْر وأخرج عامل أمير المؤمنين ، وأظهر عذر أبي تراب[١] والترحُّمَ عَلَيه والبراءة من عدوه وأهل حزبه ، وشهدوا أن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه على مثل رأيه وأمره .

ونظر زيادٌ فى شهادة الشهود فقال : إنى أحب أن يكونوا أكثر من أربعة ، فدعا الناسَ ليشهدوا فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة ابن عبيد الله ، والمنذر بن الزبير ، وعُمارة بن عقبة بن أبي مُعَيط ، وعمر بن سعد بن أبي وَقَّاص وغيرهم[٢] .

وكتب فى الشهود شُرَيْح بن الحارث القاضى وشُرَيْح بن هَانىء ، فكان شُريح بن هانىء يقول : ما شهدت[٣] .

ثم دفع زيادُ حُجر بن عدى الكندى وأصحابه (وهم الأَرْقَم بن عبد الله الكندى ، وشريك بن شَدّاد الحضرمى ، وصَيفى بن فَسِيل الشيبانى ، وقَبيصة بن ضُبَيْعة العبسى ، وكريم بن عفيف الخثعمى وعاصم بن عَوف البَجلى ، وَورْقَاء بن سُمَى البَجَلى ، وكدام بن حَيّان ، وعبد الرحمن بن حسان ؛ العنْزيان التميميان ، ومحرز بن شهاب التميمى ، وعبد الله بن حويّة السعدى التميمى) إلى وائل ابن حُجْر الحضرمى وكثير بن شهاب ، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى الشام ، فلحقهم شُرَيْح بن هَانِئ بعد مسيرهم ، وأعطى وَائِلا كتابا وقال : أبلغه أمير المؤمنين .

---

(١) أبو تراب : كنية على بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٢) انظر تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٢٠٠ .

(٣) وكان شريح القاضى يقول : سألنى عنه فأخبرت أنه كان صواما قواما !

فسازوا حتّى انتهوا إلى مَرْج عَذْراء[1] بالقرب من دِمشق ، وأتبعهم زياد برجلين وهما عتبة بن الأخنس من سعد بن بكر ، وسعد بن نمران الهمدانى ،فكملوا أربعة عشر رجلا ، فلما انتهوا إلى مرج عَذْراء بعث معاوية إلى وائل بن حُجر ، وكثير بن شهاب فأدخلهما ، وأخذ كتابهما فقرأه ، ثم قرأ كتاب شُرَيْح فإذا فيه : « بلغنى أن زيادا كتب شهادتى ، وإن شهادتى على حُجر أنه ممن يقيم الصلاة ويُؤْتى الزكاة ويديم الحج والعمرة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؛ حرام الدم والمال ، فإن شئت فاقتله ، وإن شئت فدعه » .

فقال معاوية : ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم .

فقام يزيد بن أَسَد البَجَلى فاستوهبه ابنى عمه وهما عاصم ووَرْقاء ، وكان جرير بن عبدالله البَجَلى قد كتب بتزكيتهما وبراءتهما[2] فأطلقهما معاوية ، وشفع وائل بن حجر فى الأرقم فتركه له ، وشفع ابن الأعور السُّلَمى فى عُتبة فتركه له ، وشفع حُمْرة[3] بن مالك الهمدانى فى سعد بن نمران فوهبه له ، وشفع حبيب بن مسلمة فى عبدالله بن حوية فتركه له ، وقام مالك بن هُبيرة السَّكُونى ؛ فقال : دع لى ابن عمى حُجرا ، فقال : « هو رأس القوم ، وأخاف إن خلَّيتُ

---

(١) قال ابن جرير فى تاريخه ج ٤ ص٤٠٣ : « انتهوا بهم إلى مرج عذراء ، وبينها وبين دمشق اثنا عشر ميلا » .

(٢) كتب جرير بن عبد الله البجلى الصحابى : « إن امرأين من قومى من أهل الجماعة والرأى الحسن سعى بهما ساع ظنين إلى زياد ، فبعث بهما فى النفر الكوفيين الذين وجه بهم زياد إلى أمير المؤمنين ، وهما ممن لا يحدث حديثا فى الإسلام ولا بنيا على الخليفة ، فلينفعهما ذلك عند أمير المؤمنين » .

(٣) « حمرة » بضم الحاء وبراء مهملة ، ابن مالك بن ذى المشعار بن مالك بن منبه الهمدانى ، ووقع فى المخطوطة « حمزة » .

سبيله أن يفسد علىَّ مصره ، فأحتاجَ أن أشخصك إليه بالعراق ! » فقال : « والله ما أنصفتنى يا معاوية ! قاتلت معك ابن عمك يوم صِفِّين حتّى ظفرتَ وعلا كَعْبك ، ولم تخف الدوائر ، ثم سألتُك ابن عمى فمنعتنى إياه » . ثم انصرف فجلس فى بيته .

فبعث معاوية هُدْبة بن فياض القُضاعى ، والحصين بن عبد الله الكلابى وأبا شريف البدّى إلى حُجْر وأصحابه ؛ ليقتلوا من أمروا بقتله ، فأتَوْهم عند المساء ، فلما رأى الخَثْعَمى[1] أحدهم أعور[2] قال : يقتل نصفنا ويترك نصفنا ! فكان كذلك[3] ، وعرضوا عليهم قبل القتل البراءةَ من علىٍّ ولَعْنَه ويتركوهم ، فامتنعوا من ذلك ، فحفرت القبور وأحضرت الأكفان .

فقام حُجْر بن عدِىّ وأصحابه يصلُّون عامَّة الليل ، فلما كانَ من الغد قُدِّموا للقتل ، فقال لهم حُجر : اتركونى حتى أتوضأ وأصلى فإنى ما توضأت إلّا صلَّيْت . فتركوه ، فصلَّى ثم انصرف ، وقال : والله ما صلَّيْتُ صلاة قطُّ أخفَّ منها ، ولولا أن تظنوا بى جزعا من الموت لاستكثرت منها . ثم قال : « اللهم إنا نستعديك على أمتنا ، فإن أهل الكوفة شهدوا علَينا ، وإن أهل الشام يقتلوننا ، أمَا والله لَئن قتلتمونى بها إنّى لأول فارس من المسلمين هلك فى واديها ، وأول رجل من المسلمين تبحثه كلابها » . ثم مشى إليه هُدْبة بن فياض بالسيف ، فارتعد ، فقالوا له : زعمت أنك لاتجزع من الموت فابرأ

(١) الخثعمى : كريم بن عفيف .
(٢) الأعور : هدبة بن فياض القضاعى من بنى سلامان بن سعد .
(٣) جاء رسول معاوية بتخلية ستة وبقتل ثمانية .

من صاحبك وندعك . فقال : «ومالى لا أجزع وأرى قبرًا محفورًا وكفنًا منشورا وسيفًا مشهورًا . وإنى والله إن جزعتُ من القتل لا أقول ما يُسخط الرب» . فقتلوه وقتلوا خمسة[1] .

فقال عبد الرحمن بن حسان ـ وكريم الخثعمى : ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين فنحن نقول فى هذا الرجل مثل مقالته . فاستأذنوا معاوية فيهما ، فأذن بإحضارهما ، فلما دخلوا عليه قال كَرِيم : «الله الله يامعاوية ! فإنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة ، ثم مسئول عما أردت بسفك دمائنا . فقال : ماتقول فى علىٍّ ؟ قال : أقول فيه قولك . قال : أتبرأ من دينه الذى يدين الله به ؟ فسكت ، وقام شَمر ابن عبد الله من بنى قحَافَه بن خَثْعَمْ ، فاستوهبه إيّاه ، فوهبه له علَى ألاَّ يدخل الكوفة .

ثم قال لعبد الرحمن : ما تقول فى علىٍّ يا أخا ربيعة ؟ قال : دعنى لا تسألنى فهو خير لك . قال : والله لا أدَعُك . قال : «أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرا ، من الآمرين بالحق والقائمين بالقِسط والعافين عن الناس رضى الله عنه» . قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : هو أول من فتح أبواب الظلم ، وغَلَّق أبواب الحق . قال : قتلتَ نفسك . قال : بل إياك قتلتُ ولا ربيعة بالوادى . (يعنى ليشفعوا فيه) فردَّه إلى زياد وأمره أن يقتله شرَّ قِتْلة ، فدفنه حيا .

وكان عدة من قتل سبعة وهم : حُجر بن عدى ، وشريك بن

(١) الخمسة الذين قتلوا مع حجر بن عدى هم : شريك وصيفى وقبيصة وكدام ومحرز ، فإذا عد حجر بن عدى منهم كانه عدهم ستة كما عدهم ابن جرير الطبرى ، وسيأتى قريبا ذكر السابع .

شَدّاد ، وصَيْفى بن فَسِيل ، وقَبيصة بن ضُبَيْعة ، ومحرز بن شهاب ، وكدام بن حيان ، وعبد الرحمن بن حسّان الذى دُفِن حيا .

قال : وأما مالك بن هُبَيْرة السّكُونى حين لم يُشَفِّعْه معاوية فى حُجر ، فإنه جمع قومه وسار بهم إلى عذراء ليخلِّص حجرا وأصحابه ، فلقيه قتَلَتُهم ، فلما رأوه علموا أنه جاء ليخلِّص حُجرًا ، فقال لهم : ماوراءكم ؟ قالوا : قد تاب القوم وجئنا لنخبر أمير المؤمنين . فسكت وسار إلى عذراء فلقيه بعض من جاء منها فأخبره بقتل القوم ، فأرسل الخيل فى قتَلَتهم فلم يدركوهم . ودخلوا على معاوية فأخبروه ، فقال لهم : إنما هى حرارة يجدها فى نفسه ، فكأنها قد طَفِئت . وعاد مالك إلى بيته ولم يأتِ معاوية ، فلما كان الليل أرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم ، وقال : « ما منعنى أن أشفّعك إلا خوف أن تُعيدوا لنا حربًا ، فيكون فى ذلك من البلاء على المسلمين ماهو أعظم من قتل حُجر » . فأخذها وطابت نفسه .

قال[1] : ولما بلغ الحسن البصرىّ قتلُ حُجر وأصحابه قال : أصلوا عليهم وكفنوهم ودفنوهم واستقبلوا بهم القبلة ؟ قالوا : نعم . قال : حَجوهم[2] وربِّ الكعبة ! » .

قال : ولمّا بلغ خبرُ حُجر عائشة رضى الله عنها ، أرسلتْ عبدالرحمن ابن الحارث إلى معاوية فيه وفى أصحابه ، فقدم عليه وقد قتلهم ، فقال له عبد الرحمن : أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟ قال : « حين غاب عنّى مِثْلُك من حُلَماء قومى ، وحمّلنى ابن سُمَيّة فاحتملت ! » .

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٤٢ .
(٢) حجوهم : غلبوهم بالحجة .

وقالت عائشة : « لولا أنَّا لم نُغيرٌ شيئا إلا صارت بنا الأُمور إلى ماهو أشدُّ منه لغيرّنا قَتل حُجر ! أما واللهِ إنْ كان ماعلِمْتُ لمسلمًا حجَّاجا مُعْتمرا ! » .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : « أربع خصال كُنَّ فى معاوية ، لو لم تكن فيه إلاَّ واحدةٌ منهن لكانت مُوبِقةً : انْتِزاؤه [1] علَى هذه الأُمَّة بالسيف ، حتى أخذ الأمر عن غير مَشُورة ، وفيهم بقايا الصحابة وذَوو الفضيلة ، واستخلافه ابْنَه بعده سِكِّيرا خِمِّيرا يلبس الحرير ويضرب بالطَّنابير ، وادِّعاؤه زيادا ، وقدقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الولدللفراش وللعاهر الحَجر . وقتْلهُ حُجْرًا وأصحابَ حُجْر ، فيا وَيْلا له من حُجر وأصحاب حُجْر ! » .

قيل : وكان الناس يقولون : أول ذُلٍّ دخل الكوفةَ موت الحسن ابن على ، وقتل حُجرْ بن عدِىّ ، ودعوة زياد .

وقالت هند [2] بنت زيد الأنصارية ترثى حُجرا وكانت تتشيع .

تَرَفَّع أيّها القمَرُ المُنيـــرُ تبَصَّرْ هَلْ ترى حُجْرًا يَسيرُ
يَسير إلى مُعاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ لِيَقْتُلَه كما زَعَم الأميـــرُ
تَجَبرَّتِ الجَبابرُ بعد حُجْـــر وطابَ لها الخَوَرْنَقُ [3] والسَّديرُ
وأصبحت البلادُ له مُحُولا [4] كأَن لم يُحْيِها مُزْنٌ مَطير

(١) انتزاء : افتعال من النزو ، وهو تسرع الإنسان إلى الشر ووثبه .
(٢) فى الأصل « زينبة » والتصويب من الكامل وغيره .
(٣) الخورنق : نهر بالكوفة ، والسدير : نهر بناحية الحيرة ، والمشهور أنها قصران عظيمان بالحيرة .
(٤) المحول جمع محل بمعنى القحط .

ألا يا حُجْر حُجْر بَنِى عَـدِىٍّ تَلَقَّتْك السلامةُ والسرورُ
أخافُ عليك ما أَرْدَى (١) عَدِيًا وشيْخًا فى دِمَشْقَ له زَئيرُ
فإن يَهْلِكْ فكل زَعيمِ قَوْمٍ مِن الدنيا إلى هُلْكٍ يَصيرُ

وقد قيل فى قَتل حُجر غير ما تقدم ، وهو أن زيادا خطب يوم جُمعة فأطال الخطبة وأخَّر الصلاة ، فقال له حُجر بن عدى : الصلاة. فمضى فى خطبته فقال له : الصلاة . فمضى فى خطبته ، فلما خَشِى حُجر فَوْتَ الصلاة ضرب بيده إلى كَفٍّ من حصى ، وقال إلى الصلاة وقام الناس معه ، فلما رأى زياد ذلك نزل فصلَّى بالناس ، وكتب إلى معاوية وكبر (٢) عليه ، فكتب إليه معاوية ليشُدَّه فى الحديد ويرسله إليْه ، فلَّما أراد أخذه قام قومه ليمنعوه ، فقال حجر : لا ولكن سمعا وطاعة . فشُدّ فى الحديد ، وحُمل إلَى معاوية ، فلما دخل عليه قال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال معاوية : « أأمير المؤمنين أنا ؟ والله لأقتلنَّك (٣) ولا أستقيلك ! أخرجوه فاضربوا عنقه ! ». فقال حُجر للذين يَلُونَ أمره : دعونى حتى أُصلى ركعتين . فقالوا : فصلَّى ركعتين خَفَّفَ فيهما ثم قال : لولا أن تظنوا بى غير الذى أردت لأطلتهما ، وقال لمن حضره من قومه : لا تطلقوا عنى حديدا ولا تغسلوا عنى دما ، فإنى مُلاَقٍ معاوية غدًا على الجَادَّة (٤) ! » . وضربت عنقه ..

---

(١) أردى : أهلك .
(٢) «كبر» كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء عند الطبرى وابن الأثير «كثر» .
(٣) فى الكامل وتاريخ الطبرى : لا أقيلك .
(٤) الجادة : معظم الطريق ووسطه ، والمراد طريق الحساب بين يدى الله تعالى .

قال[١] فلقيتْ عائشة مُعاوية فقالت : أين كان حِلمك عن حُجر ؟ فقال : لم يحضرنى رُشْدٌ ! وقال ابن سيرين : بلغنا أنَّ معاوية لما حضرتْه الوفاةُ جعل يقول : يومى منك ياحُجْرُ طويل ! .

وحج بالناس فى هذه السنه يزيد بن معاوية

سنة اثنتين وخمسين

كان فيها من الغزاة وأمر الخوارج ما قدمنا ذكره .

وحج بالناس فى هذه السنة سعيد بن العاص .

سنة ثلاث وخمسين

فى هذه السنة توفى عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، على أحد الأقوال ، وقيل بعد ذلك[٢] .

ذكر وفاة زياد بن أبيه

كانت وفاته بالكوفة يوم الثلاثاء لأربع خَلَوْن من شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ، واختلف فى مولده ، فقيل : ولد عام الهجرة ، وقيل : قبل الهجرة وقيل ولد يوم بدر . وقال المدائنى : ولد عام التاريخ .

وكان يكنى « أبا المغيرة » حكاه أبو عمر[٣] قال : وليست له صحبة ولا رواية ، قال : وكان رجلا عاقلا فى دنياه ، داهية ، خطيبا ، له قدر وجلالة عند أهل الدنيا .

---

(١) محمد بن سيرين .

(٢) انظر ما يأتى فى أواخر «ذكر مسير معاوية إلى الحجاز وكيف أخذ البيعة ليزيد على أهل الحجاز» .

(٣) فى الاستيعاب ج ١ ص ٥٦٧ .

قال أبو جعفر الطبرى [١] رحمه الله : وكان زياد كتب إلى معاوية : « إنى قد ضبطتُ لك العراق بشمالى ، ويمينى فارغة ، فاشغلها بالحجاز » . ففعل . فلما بلغ ذلك أهلَ الحجاز أتى نفرٌ منهم عبدَ الله ابن عمر بن الخطاب ! فذكروا ذلك له ، فقال : ادعوا الله عليه يكفيكموه . فاستقبل القبلة واستقبلوها ، فدعوا ودعا ، وكان من دعائه أنْ قال : اللهم اكفِنَا يمينَ زياد ! فخرجت طاعونة على إصبع يمينه ، فمات منها

فلما حضرته الوفاةُ دعا شُرَيْحا القاضى فقال : قد حدث بى ماترى ، وقد أمرت بقطعها فأَشِرْ عَلَىَّ . فقال شريح : إنى أخشى أن يكون الأَجَل قد دنا فتلقَى الله أجْذم ، وقد قطعت يدك كراهية لقائه ، أو أن يكون فى الأجل تأْخير ، فتعيش أجْذَم ويُعَيَّرَ ولدُك » فقال : لا أبيت والطاعونَ فى سِجَاف [٢] واحد [٣] ، وخرج شُريح من عنده فسأله الناس ، فأخبرهم فلاموه ، وقالوا : هلا أشرت بقطها ؟ فقال : « المستشار مؤتمن [٤] » . وقيل أراد زياد قطعها ، فلمّا رأى النار والمكاوِىَ جزِع وتركها وقيل : تركها لما أشار عليه شُرَيْح .

ولمّا حضرته الوفاة قال له ابنه : هلاَّ هيأْتُ لك ستين ثوبا أكفنك بها ، فقال : يابُنَىَّ قد دنا من أبيك لباس خير من لباسه أو سلب سريع !

---

(١) فى تاريخه ج ٤ ص ٢١٤ .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، والسجاف : السر ، وجاء فى النسخة (ن) « فى لحاف » كما عند الطبرى ج ٤ ص ٢١٥ . وابن الأثير ج ٣ ص ٢٤٥ .

(٣) جاء فى رواية ابن جرير الطبرى : « فعزم أن يفعل ، فلما نظر إلى النار والمكاوى جزع وترك ذلك » . وانظر ما سيأتى قريبا .

(٤) « المستشار مؤتمن » حديث رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعبارة ابن جرير هنا : « فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المستشار مؤتمن » .

فمات ودفن بالثُّوَيَّة إلى جانب الكوفة ، وهو موضع فيه مقبرة الكوفة .

فلما بلغ موته ابن عمر قال : « اذهبْ ابن سُميَّة ! لا الآخرةَ أدركتَ ، ولا الدنيا أبقيت عليك ! » .

قال : وكان زياد فيه حمرة ، وفى عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية مخروطها ، عليه قميص ربما رقَّعه .

وفيها مات الربيع بن زياد الحارثى عامل خراسان قبل وفاة زياد ، وكان سبب موته أنه سخط قتْل حُجر بن عدى ، حتى إنه قال: «لاتزال العرب تُقتل بعده صَبْرا [1] ! ولو نَفَرتْ عند قتله لم يُقتل رَجلٌ منهم صَبْرًا ، ولكنها أقرّتْ فذَلَّت ! » ثم مكث بعد هذا الكلام جمعة ، ثم خرج يوم الجمعة فقال : « أيها الناس ، إنى قد مللْتُ الحياة ، وإنّى داعٍ بدَعْوة فأمِّنوا » . ثم رفع يدَيْه بعد الصلاة فقال : اللهمَّ إن كان لى عندك خَير فاقبضْنى إليك عاجلا ! وأمَّن الناس ، ثم خرج ، فما توارت ثيابه حتى سقط ، وحُمل إلى بيته ، واستخلف ابنه عبد الله ، ومات من يومه ، ثم مات ابنه بعده بشهرين ، واستخلف خُلَيد بن يَرْبُوع [2] الحَنفى ، فأقرَّه زياد ، ولما مات زياد كان على البصرة سَمُرة بن جُندب ، وعلى الكوفة عبد الله بن خالد بن أَسِيد ، فأقرَّ معاوية سَمُرةَ على البصرة ثمانية عشر شهرا ، وقيل ستة أشهر ثم عزله ، فقال سمرة : « لعن الله معاوية ! والله لو أطعت الله كما أطعته ماعذبنى أبدا ! » .

وحج بالناس فى هذه السنة سعيد بن العاص .

---

(١) جاء فى المصباح المنير : « كل ذى روح يوثق حتى يقتل فقد قتل صبرا » .

(٢) كذا جاء فى المخطوطة مثل الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، وجاء فى تاريخ ابن جرير ج ٤ ص ٢١٧ « عبد الله » .

سنة اربع وخمسين

ذكر عزل سعيد بن العاص عن المدينة واستعمال مروان

فى هذه السنة عزل معاوية سعيدَ بن العاص عن المدينة ، واستعمل مروان بن الحَكَم .

وكان سبب ذلك أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص أن يهدم دار مَرْوان ، ويقبض أمواله كلَّها فيجعلَها صافية[1] ويقبض منه[2] فَدك ، وكان وهبها له ، فراجعه سعيد فى ذلك ، فأعاد معاوية الكتاب بذلك ، فلم يفعل سعيد ، ووضع الكتابين عنده ، فعزله معاوية وولَّى مروان ، وكتب إليه يأمره بقبض أموال سعيد وهدم داره فأخذ الفَعَلَةَ وسار إلى دار سعيد ليهدمَها ، فقال له سعيد : ياأبا عبد الملك أتهدم دارى ؟ قال : نعم كتب إلىَّ أمير المؤمنين ولو كتب إليك فى هدم دارى لفعلت . فقال : ماكنت لأفعل : قال : بَلَى والله[3] قال : كلاَّ . وقال سعيد لغلامه : ائتنى بكتابَىْ معاوية ، فجاء بالكتابين ، فلما رآهما مروان قال : كتب إليك فلم تفعل ، ولم تُعلمنى ! فقال سعيد : ماكنت لأَمُنَّ عليك وإنما أراد معاوية ليحرِّض بيننا ! فقال مروان : والله أنت خير منى ! وعاد ولم يهدم داره .

وكتب سعيد إلى معاوية : « العجب لما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا ، إنه يُضغن بعضنا على بعض ، فأمير المؤمنين فى حلمه وصبره

---

(١) الصافية : ما يعود لبيت المال من الأملاك والأراضى .

(٢) فدك : بلدة قريبة من خيبر ، مما أفاء الله على رسوله من اليهود بعد جلائهم .

(٣) زاد ابن جرير فى قول مروان : « لو كتب إليك لهدمتها » .

على مايكره من الأخبثين وعفوه، وإدخاله القطيعة بيننا والشَّحْناء، وتوارث الأولاد ذلك، فوالله لو لم نكن بنى أب واحد إلاَّ لما جمعنا الله عليه من نصرة الخليفة المظلوم، وباجتماع كلمتنا لكان حقًّا عليك أن ترعى ذلك!» فكتب إليه معاوية يعتذر من ذلك ويتنصّل، وأنه عائد إلى أحسن مايعهده. -

وقدم سعيد على معاوية فسأله عن مروان فأثنى عليه خيرا.

وفى هذه السنة عزل معاوية سَمُرة بن جُنْدب عن البصرة، واستعمل عليها عبد الله بن عمرو بن غَيْلان ستة أشهر.

ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على خراسان

ومسيره إلى جبال بُخارَى

وفى هذه السنة استعمل معاوية عُبَيْد الله بن زياد على خُراسان وسبب ذلك أنه قدِم عليه بعد وفاة أبيه، فسأله معاوية عن عُمال أبيه، فأخبره بهم، فقال: لو استعملك أبوك لاستعملتك. فقال عبيد الله: أنْشُدُك الله أن يقولها لى أحد بعدك «لو استعملك أبوك وعمُّك استعملتك». فولاه خُراسان وكان عمره خمسا وعشرين سنة.

فسار إليها، وقطع النهر إلى جبال بُخارَى على الإبل، فكان أوَّلَ من قطع جبال بُخارىَ فى جَيش، ففتح رَامَنِى ونَسَف وبِيكَنْد، وهى من بُخارَى، ومن ثَمَّ أصاب البُخارية وغنم منهم غنائم كثيرة، ولما لَقِىَ الترك وهزمهم، كان مع ملكهم زوجته، فأعجلوها عن لبس

خفيها ، فلبست أحدهما وبقى الآخر ، فأخذه المسلمون [فقُوِّم] (١) بمائتى ألف درهم . وظهر منه بأس شديد

وحج بالناس فى هذه السنة مَرْوَان بن الحكم [وكان على المدينة] (٢) وكان على الكوفة عبد الله بن خالد ، وقيل : الضحاك بن قيس وعلى البصرة عبدالله بن عمرو بن غيلان ، والله أعلم .

سنة خمس وخمسين

ذكر ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة

فى هذه السنة عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن غيلان عن البصرة ، وولاّها عُبيد الله بن زياد .

وسبب ذلك أن عبد الله خطب على منبر البصرة ، فحصبه رجل من بنى ضَبّه ، فقطع يده ، فأتاه بنو ضَبّة وقالوا : « إن صاحبنا جَنَى ماجنىَ وقد عاقبته ، ولا نأمَن أن يبلغ خبره أمير المؤمنين فيعاقِب عُقوبةً تَعُمّ ، فاكتب لنا كتابا إلى أمير المؤمنين ، يخرج به أحدنا إليه ، تخبره أنك قطعته على شُبْهَة وأمرٍ لم يصح » فكتب لهم ، فلما كان رأس السنة توجّه عبد الله إلى معاوية ، ووَافاه الصنبّيون بالكتاب ، وادّعوا أنه قطع صاحبهم ظلما ، فلما رأى معاوية الكتاب قال : « أمّا القَوَد من عُمّالى فلا سبيل إليه ، ولكنّى أدى صاحِبَكم من بيت المال » . وعزل عبدَ الله عن البصرة ، واستعمل ابن زياد عليها ، فولى ابنُ زياد على خُراسان أسلمَ بن زرعة الكلابى .

---

(١) الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .
(٢) الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .

وفيها عزل معاوية عبد الله بن خالد عن الكوفة ، وولاّها الضحاك ابن قيس ، وقيل : كان قبل ذلك كما تقدم .

وحج بالناس فى هذه السنة مروان بن الحَكم وهو أمير المدينة .

سنة ست وخمسين

ذكر البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد

فى هذه السنة بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية العهد ، قال [1] : وكان ابتداء ذلك وأوّلُه أن مُعاوية لمّا أراد أن يعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة ، ويستعمل سَعيد بن العاص عليها ، فبلغه ذلك ، فشخص إلى معاوية ليستعفيه حتّى تظهر للناس كراهيتُه للولاية ، فجاء إلى يزيد وقال له : « إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكبَراء قريش ، وإنّما بقى أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم ، وأحسنهم رَأيا ، وأعلمهم بالسياسة ، وإنى لا أدرى مايمنع أمير المؤمنين أن يعقِد لك البيعة » . قال : أوترى ذلك يتم ؟ قال : نعم فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المُغِيرة ، فلما حضر المغيرة عند مُعاوية قال له معاوية : مايقول يزيد ؟ فقال : « ياأمير المؤمنين قد رأيتَ ما كان من سفك الدماء ، والاختلافِ بعد عُثمان ، وفى يزيدَ مِنك خلَفٌ ، فاعقد البيعة له ، فإنْ حَدث بك حدَثٌ كان كَهْفًا للناس ، ولاتُسْفَك الدماء ولا تكون فتنة ، قال : ومن لى بهذا ؟ قال : « أنا أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زيادٌ أهل البصرة وليس بعد هذين المِصْرَيْن من يخالفك » . قال : « فارجعْ إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك وترَى ونَرَى » .

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٤٩ .

فودّعه ورجع إلى أصحابه فقال : لقد وضعت رجْلَ معاوية فى غَرْز بعيد[1] الغاية على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ورجع المغيرة ، فلمّا قدم الكوفة ذاكر من يثق إليه من شِيعة معاوية فأجابوا إلى بَيعته ، فأوفد منهم عشرة ، ويقال أكثر ، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم ، وجعل عليهم ابنه موسى ، فقدموا على معاوية وزينوا له بَيْعة يزيد ، ودعَوْه إلى عَقْدها ، فقال : لاتعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم ، ثم قال لموسى ، بكم اشترى أبوك مِنْ هؤلاء دينهم ؟ قال : بثلاثين ألفا . فقال : لقد هان عليهم دِينُهمْ .

وقيل : أرسل أربعين رجلا ، وجعل عليهم ابنه عُرْوَة بن المغيرة ، فلما دخلوا على معاوية قاموا خطباء فقالوا : إنما أشخصنا إليك النظر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقالوا : « ياأمير المؤمنين ، كبرتْ سنُّك ، وخفْنا انتشار الحبل ، فانصب لنا علَمًا وحُدّ لنا حَدًّا ننتهى إليه » . فقال أشيروا على . فقالوا : نشير بيزيد بن أمير المؤمنين ، فقال : أوَقد رضِيتموه ؟ قالوا : نعم . قال : وذاك رأيكم ؟ قالوا : نَعَمْ ورأىُ مَن وراءنَا . فقال معاوية لعُروَة سِرًّا عنهم : بكم اشترى أبوك مِن هؤلاء دينهم ؟ قال . بأربعمائة دينار . قال : لقد وجد دينهم عندهم رخيصا ، وقال لهم : « ننظر ما قدمتم له ، ويقضى الله تعالى ماأراد ، والأناة خير من العجلة » . فرجعوا وقد قَوِىَ عزم معاوية على البَيعة ليزيد .

---

(١) الغرز : ركاب كور الجمل ، وهو مثل ركاب السرج للفرس .

ذكر مراسلة معاوية زيادا فى شأن البيعة

وما دار بين زياد وبين عُبَيْد بن كعب النُمَيْرى من الرأى وما اتفقا عليه

قال : ولمّا قوِىَ عزم مُعاوية علَى البيَعة ليزيد ، كتب إلى زياد ابن أبيه يستشيره ، وزياد إذ ذاك يلى البصرة ، فلما ورد عليه كتاب معاوية أحضر عبيد بن كعب النميرى وقال له : « إن لكلِّ مستشير ثِقَة ، ولكل سِرّ مُستَوْدَع ، وإن الناس قد أبْدعَ [1] بهم خَصلتان : إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها ، وليس موضع السر إلاّ أحد رجلَين : رجل آخرة يرجو ثوابا ، ورجل دنيا له شرف فى نفسه وعقل يصون حَسَبه ، وقد خَبَرتهما منك ، وقد دعوتك إلَى أمر أبهمت عليه بطون الصحف ، إن أمير المؤمنين كتب إلى يستشيرنى فى كذا وكذا ، وإنه يتخوّف نفرة الناس ويرجو طاعتَهم ، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم ، ويزيد صاحب رَسْلة وتهاوُن ، مع ماقد أولِع به من حُبِّ الصيد فالْقَ أميرَ المؤمنين وأدِّ إلَيه عنِّى فَعَلاتِ يزيد ، وقل له رُوَيْدَك [بالأمر] [2] وأحرى أن يتمّ لك ، ولا تعجل فإن دَرَكًا فى تأخيرٍ خيرٌ من فَوْت فى عجلة » . فقال له عبيد : أفلا غير هذا ؟ قال : وما هو ؟ قال : « لاتُفسدْ علَى معاوية رأيَه ، ولا تُبغِّض إليه ابنه ، وألقى أنا يزيد [3] وأخبره أن أمير المؤمنين كتب إلَيك يستشيرك فى البيعة له ، وأنك تتخوّف خلاف الناس ، لهنَات ينقِمونها علَيه ، وأنك ترى له ترك ما يُنْقَم علَيه ؛ لتستحكم له الحجّة على الناس ويَتمّ ما يريد ، فتكون

---

(١) أبدع بهم : قطع بهم وخذلهم .

(٢) الزيادة من الطبرى فى ج ٤ ص ٢٢٥ وابن الأثير ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٣) فى تاريخ الطبرى : « وألقِ أنا يزيد سرا من معاوية » .

قد نصحتَ أمير المؤمنين ، وسلمْتَ مما يخاف من أمر الناس » . فقال زياد : « لقد رميت الأمر بحجره ! اشْخَصْ علَى بركة الله ، فإن أصبتْ فما لاينكر ، وإن يكن خطأً فغير مستغَشٍّ ، ونقول ماترى ويقضى الله بغيب مايعلم » .

فقدِم عبيد على يزيد ، فذكر ذلك له ، فكَفَّ عن كثير مما كان يصنع .

وكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتُّؤدة وألاَّ يعجل . فتأخر الأمر حتَّى مات زياد ثم عزم معاوية على البيعة .

ذكر ارسال معاوية الى مروان بن الحكم

وأمر البيْعة وإنكار أهل المدينة ذلك وما وقع بسببه

قال : ولما عزم معاوية على البيعة ليزيد أرسل إلى عبد الله بن عمر بمائة ألف درْهم ، فقبلها ، فلما ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر رضى الله عنه : « هذا أراد ؟ إن دينى إذًا عندى لرخيص ! » وامتنع .

ثم كتب معاوية بعد ذلك إلَى مَرْوان بن الحكم ، وهو علَى المدينة يومئذ ، يقول : «إنى قد كبِرَت سِنِّى ، ورقَّ عظمى ، وخشيتُ الاختلاف على الأمة بعدى ، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي ، وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة مَن عندك ، فاعْرِضْ ذلك عليهم ، وأعلمنى بالذى يردُّون عليك » .

فقام مروان فى الناس وأخبرهم ، فقال الناس : أصاب ووُفِّق ، وقد أحببنا أن يتخيَّر لنا فلا يألو[1] . فكتب مَرْوان إلى معاوية

(١) يألو : يقصر .

بذلك ، فأعاد عليه الجواب بذكر يزيد ، فقام مروان فى الناس فقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده.

فقام عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما فقال : « كذبتَ والله يامروان ، وكذب معاوية ، ماالخِيَار أردتما لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنكم أردتم أن تجعلوها هِرَقْلِيّة ، كلما مات هِرَقْل قام هرقل ! ». فقال مروان : هذا الذى أنزل الله فيه ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍ لَكُمَا ﴾ الآية[1] . فسمعتْ عائشة رضى الله عنها مقالته ، فقامت من وراء الحجاب وقالت : يامروان ! فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه ، فقالت : « إن القائل لعبد الرحمن إنه نزل فيه القرآن كذب ، والله ماهو فيه ، ولكنه فلان بن فلان ، ولكنك أنت فَضَضٌ من لعنة نبى الله عليه الصلاة والسلام » .

وقام الحسين بن على رضى الله عنهما فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

فكتب مروان إلى معاوية بذلك ، فأوجب ذلك مسيره إلى الحجاز بعد أن أخذ بيعة أهل العراق والشام ! .

---

(١) الآية ١٧ من سورة الأحقاف .

(٢) فى النهاية : « ومنه حديث عائشة قالت لمروان : إن النبى لعن أباك ، وأنت فضض من لعنة الله ، أى : قطعة أو طائفة منها » . وروى ابن أبى خيثمة من حديث عائشة فى هذه القصة أنها قالت : « أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت فى صلبه » . وأبوه هو الحكم بن أبى العاص ابن أمية ، وقد روى الرواة فى أسباب لعنه أن النبى صلى الله عليه وسلم رآه يعمل من الأعمال مالا يجوز ، وقد نفاه إلى الطائف ، وانظر ما يأتى قريبا .

ذكر من وفد الى معاوية من أهل الأمصار

فى شأن البيعة . وماتكلم به بعضهم وبيعة أهل العراق والشام ليزيد

قال : وكان معاوية قد كتب إلى عمّاله بتقريظ يزيد ووصفه ، وأن يُوفدوا إليه الوفود من الأمصار ، فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو[1] بن حزم من المدينة ، والأحنف بن قيس فى وفد أهل البصرة ؛ فقال محمد بن عمرو لمعاوية : إن كل راع مسئول عن رعيته فانظر مَن تُولِّى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأخذ معاوية يهتز[2] حتى جعل يتنفّس فى يوم شاتٍ[3] ، ثم وَصَله وصرفه .

وأمر معاوية الأحنف بن قيس أن يدخل على يزيد فدخل عليه ، فلما خرج من عنده قال له : كيف رأيت ابن أخيك ؟ قال : رأيت شبابا ونشاطا وجلدا ومزاحا .

ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى لما اجتمع الوفود عنده : إنى متكلم فإذا سكتُّ فكن أنت الذى تدعو إلى بيعة يزيد وتحثنى عليها ، فلما جلس معاوية للناس تكلّم فعظّم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها ، وما أمر الله تعالى به من طاعة ولاة الأمر ، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة ، وعرض ببيعته .

فعارضه الضحاك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ياأمير

---

(١) كذا جاء فى الكامل وكتب الصحابة ، وجاء فى المخطوطة « عمر » .

(٢) كذا جاء فى الأصل ، والذى فى الكامل « بهر » وهو بضم الباء ما يعترى الإنسان عند السعى الشديد والعدو من التهييج وتتابع النفس .

(٣) فى العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٩ : « فأخذ معاوية بهر حتى تنفس الصعداء وذلك فى يوم شات » .

المؤمنين ، إنه لابد للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء ، وأصلح للدهماء ، وآمن للسبيل ، وخيراً فى العافية ، والأيام عوج[1] رواجع ، والله كل يوم فى شأن ، ويزيد بن أمير المؤمنين فى حسن هَدْيه وقَصْد سيرته[2] علَى ما علمت ، وهو من أفضلنا علما وحلما ، وأبعدنا رأيا ، فولِّه عهدك ، واجعله لنا علَما بعدك ، ومَفْزَعا نلجأُ إليه ونسكن إلى ظله » . . وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من[3] ذلك .

ثم قام يزيد بن المقنّع العُذْرىّ فقال : هذا أمير المؤمنين (وأشار إلى معاوية) فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد) ومن أبَى فهذا (وأشار إلى سيفه) فقال معاوية : اجلس فأنت سيّد الخطباء .

وتكلم من حضر من الوفود ، فقال معاوية للأحنف : ماتقول ياأبا بحر ؟ فقال : « نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذَبْنا ، وأنت ياأمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليْله ونهاره ، وسرِّه وعلانيته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله تعالى ولهذه الأمة رضًى فلا تُشاور فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوِّده الدنيا ، وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا » . . وقام رجل

---

(١) كذا جاء فى الكامل ج ٣ ص ٢٥١ ولم تتقط الكلمة فى المخطوطة . وجاء فى العقد الفريد « والأنفس يغدى عليها ويراح » .

(٢) قصد سيرته : استقامة سيرته .

(٣) قال : أيها الناس ، إن يزيد أمل تأملونه ، وأجل تأمنونه ، طويل الباع ، رحب الذراع ، إذا صرتم إلى عدله وسعكم ، أمير المؤمنين ولا خلاف منه » . فقال معاوية : اجلس أبا أمية فقد أوسعت وأحسنت .

من أهل الشام فقال : « ماندرى ماتقول هذه المَعَدِّيَّة [١] العراقية ، وإنما عندنا سمع وطاعة وضرب وازْدلاف [٢] .

فافترق الناس يحكون قول الأحنف [٣] .

قال : وكان معاوية يعطى المقارب ، ويُدَارِى المباعد ويلْطُف به ، حتى استوثق له أكثر الناس ، وبايعوه ، فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز .

ذكر مسير معاوية الى الحجاز

وكيف أخذ البيعة ليزيد على أهل الحجاز

قال : وفى هذه السّنة اعتمر معاوية فى شهر رجب ، وسار إلى الحجاز فى ألف فارس ، فلما دنا من المدينة لقيه الحسن بن على رضى الله عنهما أول الناس ، فلما نظر إليه معاوية قال : «لامرحبًا ولا أهلا ! بَدَنَةٌ يترَقْرَق دمها واللهُ مُهريقُه ! » قال : مهلا فإنى لست بأهل لهذه المقالة . قال : بلَى ولشَرٌّ منها .

ثم لقيه عبد الله بن الزُّبَير فقال له : « لا مرحبا ولا أهلا ! خَبٌّ ضَبٌّ ، تَلْعَة يُدخل رأسه فيضرب بذَنَبه ، ويوشك والله أن يؤخذ بذَنَبه ويُدَقّ ظهره ، نحِّياه عنى » فضرب وجه راحلته .

ثم لقيه عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق فقال له معاوية : « لامَرْحبا ولا أهلا ! شيخ قد خَرِف وذهب عقله » ثم أمر بضرب وجه راحلته : ثم فعل بابن عمر نحو ذلك .

---

(١) المعدية : الجماعة المنسوبة إلى معد بن عدنان .

(٢) الازدلاف : الاقتراب إلى الأقران فى الحرب .

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٣ ص ٢٥١ .

فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم حتّى دخل المدينة ، فحضروا بابه فلم يؤذَن لهم على منازلهم ، ولم يَرَوْا منه ما يحبون ، فخرجوا إلى مكة . فأقاموا بها .

وخطب معاوية بالمدينة ، فذكر يزيد فمدحه ، وقال : « من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله ؟ وموضعه ؟ وما أظن قوما ينتهين حتى يصيبهم بَوَائق تجتَثُّ أصولهم ، ولقد أنذرتُ إن أغنت النُّذُر » ثم أنشأ متمثلا :

قَدْ كنتُ حذَّرْتُك آل المصطلِق وقلتُ يا عمرُو أطعْنى وانطَلِق
إنَّك إن كلَّفْتَنى مالم أُطِقْ ساءك ما سرَّك منِّى من خُلُقْ
دُونَك ما اسْتَسْقَيْتَه فَاحْسُ وذُقْ

ثم دخل على عائشة رضى الله عنها وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه ،فقال : « لأقتلنهم إن لم يبايعوا » فشكاهم إليها ،فوعظته عائشة وقالت : بلغنى أنك تتهدَّدهم بالقتل ، فقال : « ياأم المؤمنين ، هم أعزُّ من ذلك ، ولكنى بايعتُ ليزيد ، وبايعه غيرهم ، أفَتَرَيْنَ أن أنقض بيعة قد تمت ؟ » . قالت : فارفق بهم فإنهم يصيرون إلى ما تحبُّ إن شاء الله . قال : أفعل . وكان فى قولها له : مايؤمنُك أن أقعد لك رجلا يقتلُك وقد فعلت بأخى ما فعلت ؟ تعنى محمدا فقال لها : كَلاَّ يا أم المؤمنين إنى فى بيت أمن . قالت : أجَلْ .

ومكث معاوية بالمدينة ماشاء الله ، ثم خرج إلى مكة ، فلقيه

الناس ، فقال أولئك النفر : نتلقّاه لعله قد ندم على ماكان منه ، فلقوه فى بطن[1] مَرّ ، فكان أول من لقيه الحسين رضى الله عنه ، فقال له معاوية : مرحبًا وأهلا بابن رسول الله وسيِّد شَبَاب المسلمين . وأمر له بدابّة وركب وسايره ، ثم فعل بالباقين مثل ذلك[2] ، وأقبل يسايرهم ولا يسير معه غيرهم حتى دخل مكة ، فكانوا أول داخل عليه وآخر خارج ، ولا يمضى يوم إلا ولهم منه صلة ، ولا يذكر لهم شيئا ، حتّى قضى نسُكَه وحمل أثقاله وقرب مَسيره ، فقال بعضهم لبعض : « لاتُخدعوا فما صنع هذا لحبِّكم ، وما صنعه إلا لما يريد أن يفعل ، فأعدوا له جوابا » فاتفقوا على أن يكون المخاطب له عبد الله ابن الزبير .

فأحضرهم معاوية وقال : « قد علمتم سيرتى فيكم ، وصِلتى لأرحامكم وحملى ماكان منكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردتُ أن تقدِّموه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تُولُّونَ وتعزلون وتؤمِّرون ، وتَجْبُون المال وتقسمونه ، ولا يعارضكم فى شىء من ذلك » . فسكتوا ، فقال : ألا تُجيبون ؟ مرّتين .

ثم أقبل على عبد الله بن الزبير ثم قال : هاتِ فلَعَمرى إنك خطيبهم . قال : نعم ، نخيرّك بين ثلاث خصال . قال : اعْرِضْهُنَّ . قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر رضى الله عنهما ، قال معاوية : ماصنعوا ؟ قال : قُبِض

(١) مر الظهران على مرحلة من مكة .

(٢) فى العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧١ : « وقال لعبد الرحمن بن أبى بكر : مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق . وقال لابن عمر : مرحباً بصاحب رسول الله وابن الفاروق ، وقال لابن الزبير : مرحباً بابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته . ودعا لهم بثواب فحملهم عليها » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا ، فارتضَى الناس أبا بكر . قال : ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف . قالوا : «صدقتَ فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عَمَد إلَى رجل من قاصية قريش ليس من بنى تيم[1] فاستخلفه ، أو كما صنع عمر ، جعل الأمر شُورَى فى ستة نفر ، ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه » .

قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟ قال : لا ، قال : فأنتم ؟ قالوا : قَوْلُنا قوله : قال « فإنى أحببت أن أتقدم إليكم ، إنه قد أعذر من أنذر : إنى كنت أخطب ، فيقوم إلى القائم منكم فيكذِّبنى على رؤوس الناس : فأحمل ذلك وأصفح ، وإنىَّ قائم لمقالة فأقسم بالله لَئن رَدَّ علىَّ أحدٌ منكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمةٌ غيرها حتَّى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقينَّ رجل إلا على نفسه ! »

ثم دعا صاحب حَرَسه حضرتهم فقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلَين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد علىَّ كلمةً بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما .

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن هؤلاء الرَّهْطَ سادة المسلمين وخيارهم ، لا يُبْرم[2] أمرٌ دُونهم ولا يُقْضَى إلاَّ عن مشورتهم ، وإنهم قد رضُوا وبايَعوا ليزيد ، فبايعوا على

(١) يعنى أن أبا بكر لم يستخلف أحداً من أولاده ولا أقاربه بنى تيم ، فقد كان أبو بكر بن أبى قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، ولكنه استخلف عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى ، فعمر عدوى ، وأبو بكر تيمى .

(٢) انظر العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧٢ ، وفى المخطوطة « لايبتز » .

اسم الله » . فبايَع الناس وكانوا يتربّصون بَيعة هؤلاء النفر ، ثم ركب معاوية رواحله وانصرف إلى المدينة .

فلقى الناس أولئك النَفر فقالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون فلمّا أرضيتم وأُعطيتم بايعتم ! قالوا : والله مافعلنا . قالوا : فما منعكم أن تردُّوا علَى الرجل ؟ قالوا : كادنا[1] وخِفنا القتل .

وبايعه أهل المدينة ، ثم انصرف إلى الشام ، وجفا بنى هاشم ، فأتاه ابن عبّاس فقال له : مابالُك جَفَوتنا ؟ قال : إن صاحبكم لم يبايع ليزيد فلم تنكروا ذلك عليه . فقال : « يامعاوية ، إنى لخليق أن أنحاز إلى بعض السواحل ، فأُقيم به ، ثم أنطلق بما تعلم حتى أدع الناس كلهم خوارج عليك » . قال يا أبا العباس تُعْطَوْن وتُرْضَوْن وتُرادُّون[2] ! .

وقيل : إن ابن عمر قال لمعاوية : « أُبايعك علَى أنى داخل فيما تجتمع عليه الأمة ، فوالله لواجتمعت على حبشى لدخلت معها » . ثم عاد إلى منزله ، فأغلق بابه ، فلم يأْذن لأحد .

وقد ذكرنا وفاة عبدالرحمن بن أبى بكر فى سنة ثلاث وخمسين ، والمشهور أنه كان فى هذه الحادثة باق[3] ، وقد ورد خبره مع مروان ابن الحكم وما قالته عائشة رضى الله عنها فى الصحيح[4] .

---

(١) فى العقد الفريد : « كادكم بنا وكادنا بكم » .

(٢) راده فى الكلام : راجعه إياه .

(٣) قال ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٥٢ : « قلت : ذكر عبد الرحمن بن أبى بكر لا يستقيم على قول من يجعل وفاته سنة ثلاث وخمسين ، وإنما يصح على قول من يجعلها بعد ذلك الوقت » . وقد ذكر ابن حبان أنه مات سنة ثمان وخمسين .

(٤) روى البخارى فى كتاب التفسير من صحيحه الحديث ٤٥٠٩ : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية ، فخطب ، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن =

ذكر استعمال سعيد بن عثمان بن عفان

على خراسان وغزوه

فى هذه السنة استعمل معاوية سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان وعزل ابن زياد عنها ، وكان سبب ذلك أنه سأل معاوية أن يستعمله على خراسان ، فقال : إن بها عُبيد الله بن زياد . فقال : « والله لقد اصْطنعك أبى حتّى بلغتَ باصطناعه المَدَى الذى لا تُجارَى إليه ولا تُسامى ، فما شكرتَ بلاءه ولا جازيتَه [بآلائه] (١) ، وقدَّمْتَ [علىَّ] هذا - يعنى يزيد - وبايعتَ له ، واللهِ لأنا خيرٌ أبًا وأمًّا ونفسا ! » فقال معاوية : أمَّا بَلاءُ أبيك فقد يحقُّ علىَّ الجزاء به ، وقد كان من شكرى لذلك أنّى طلبتُ بدمه ، وأمَّا فضل أبيك علَى أبيه فهو والله خيرٌ منّى ، وأمّا فضل أمِّك علَى أمِّه فلعمْرى امرأةٌ من قُرَيش خَيرٌ من امرأة من كَلْب (٢) ، وأمّا فضلُك عليه فو اللهِ ما أحبُّ أن الغُوطة (٣) مُلِئتْ به رجالا مثلك ! » فقال له يزيد : « يا أمير المؤمنين ، ابن عمّك ، وأنت أحقُّ مَن نظر فى أمره ، قد عَتَب علَيك فأَعْتِبْه (٤) » . فولاّه حربَ خُراسان ، وولّى إسحاق ابن طَلحة (٥) خَراجَها ، فمات إسحاق بالرّىّ فوُلِّىَ سعيد حربها وخراجها .

= ابن أبى بكر شيئاً ، فقال : خلوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا ، فقال مروان إن هذا الذى أنزل الله فيه : والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانى فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى . اه وانظر ما سبق قريباً .

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٢٦ .

(٢) أم سعيد بن عثمان هى فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية القرشية ، وأم يزيد ابن معاوية هى ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية .

(٣) الغوطة : الكورة التى منها دمشق ، وهى معروفة ببساتينها .

(٤) الإعتاب : الإرضاء .

(٥) كان إسحاق ابن خالة معاوية .

فلمَّا قدِم خُراسان قطع النهر إلَى سَمَرْقَنْد ، فخرج إليه [أهل] [1] الصُّغْد ، فتواقفوا يومًا إلى الليـــل ولم يقتتلوا ، ثمَّ اقتتلوا من الغد ، فهزمهم سعيد ، وحَصرَهم فى مدينتهم ، فصالحوه وأعطَوْه رُهُنًا منهم خمسين غلاما من أبناء عظمائهم ، فسار إلى التِّرْمِذِ ففتحها صلحا ، ولم يَفِ لأهل سَمَرْقَنْد ، وجاء بالغلمان معه إلَى المدينة . وفى هذه الغزوة قتِل قُثَم بن العبّاس بن عبد المُطَّلب .

وحج بالناس فى هذه السنة الوَلِيد بن عُتْبة بن أبى سُفيان

سنة سبع واربعين

فى هذه السنة عَزل معاوية مَرْوان بن الحَكَم عن المدينة ، واستعمل الوليد بن عتبة بن أبى سُفيان . وقيل : لم يعزل مروان فى هذه السنة [2] .

وحج بالناس الوليد بن عُتبة .

سنة ثمان واربعين

فى هذه السنة تُوُفِّيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وتوفى هَمِيرة بن يَثْرِبىّ قاضى البصْرة ، فاستقضى مكانه هِشام بن هُبَيرة.

وحج بالناس الوليد بن عُتبة .

---

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٢٧ ، والصغد : قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى .

(٢) وقيل : فى سنة ثمان وخمسين .

ذكر عزل الضحاك عن الكوفة

واستعمال عبد الرحمن بن أم الحكم وطرده عنها

واستعماله على مصر وطرده عنها أيضا

فى هذه السنة عزل مُعاوية الضحَّاك بن قَيس عن الكوفة ، واستعمل عليها عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفى ، وهو ابن أم الحكم ، وأم الحكم أخت معاوية ، فخرج الخوارج بالكوفة فى ولايته على ماقدمناه من خبرهم .

ثم طرد أهل الكوفة عبد الرحمن لسوء سيرته ، فلحق بخاله معاوية ، فولاه مصر ، فاستقبله مُعاوية بن حُدَيْج على مَرْحَلَتَين من مصر ، فقال له : ارجعْ إلى خالك فلعمرى لاتسيرفينا سيرتك فى إخواننا من أهل الكوفة ، فرجع .

ثم وفَد مُعاوية بن حُدَيج إلى معاوية ، وكان إذا قدم زُيِّنت له الطرق [بقباب الرَّيحان] [1] تعظيما لشأنه ، فدخل على معاوية وعنده أخته أمّ الحَكم فقالت : مَن هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : « بخ بخٍ [2] ! هذا معاوية بن حُدَيج ! » فقالت : « لامرحبا ! تسمع بالمَعْيدىّ خَيْرٌ من أن تراه [3] . فسمعها ابن حُدَيج ، فقال : « علَى رِسْلك يا أم الحكم ، والله لقد تزوجتِ فما أكرمتِ ، وولدتِ فما أنجبت ، أردتِ أن يلىَ ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار فى إخواننا من أهل الكوفة ، ما كان اللهُ لِيُرِيَه ذلك ، ولو فعل لضربناه ضربا يُطَأْطِئُ

(١) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .

(٢) « بخ » اسم فعل ، يقال عند إظهار الرضا والإعجاب ، ويكرر للمبالغة .

(٣) مثل عربى يضرب لمن خبره خير من رؤيته .

منه ولو كره هذا القاعد ! » يعنى معاوية ، فالتفت إليها معاوية فقال : كفى . فكفَّت .

سنة تسع وخمسين

فى هذه السنة استعمل معاوية النُّعمان بن بَشير الأنصارى على الكوفة ، بعد ابن أم الحكم .

واستعمل معاوية عبد الرحمن بن زياد على خُراسان فبقى عليها إلى أن قُتل الحسين ، ثم قدم على يزيد ومعه عشرون ألف ألف درهم ، فقال له يزيد : « إن شئت حاسبناك وأخذنا مامعك ورددناك إلى عملك ، وإن شئت أعطَيناك مامعك وعزلناك ، وتعطى عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم » قال : بل تُعطينى ما معى وتعزلنى . ففعل ، وأرسل عبد الرحمن إلى ابن جعفر بألف ألف ، وقال : هذه خمسُمائة ألف من يزيد وخمسُمِائة ألف منى .

ذكر عزل عبيد الله بن زياد

عن البصرة وعوْده إليها

وفى هذه السنة عزل معاوية عُبَيد الله بن زياد عن البصرة وأعاده إليها ولم يُوَلِّ غيره .

وسبب ذلك أن ابن زياد وفد على معاوية فى وجوه أهل البصرة وفيهم الأحنف بن قيس ، وكان ابن زياد لا يكرمه ، فلما دخلوا علَى معُاوية رحبَّ بالأحنف وأجْلسه معه على سريره ، فأحسن الوفدُ الثناءَ على عُبَيد الله بْن زياد والأحْنَفُ ساكت ، فقال له معاوية : مابالك يا أبا بحر لاتتكلم ؟ فقال : إن تكلمتُ خالفت القوم . فقال معاوية :

انهضوا ، عزلتُه عنكم واطلبوا واليًا ترضَوْنه : فلم يَبْقَ من القوم رجل إلا أتى رجلا من بنى أُمَيَّة أو من أهل الشام ، والأحنف لم يبرح من منزله ولم يأت أحدًا ، فلبثوا أيَّاما ، ثم جمعهم معاوية ، وقال لهم : من اخترتم فاختلفتْ كلمتهم[1] ، والأحنف ساكت ، فقال[2] : مالك لاتتكلم ؟ فقال : « إن ولَّيْتَ علينا أحدا من أهل بيتك لم نعدل بعُبَيْد الله أحدا ، وإن ولَّيتَ غيرهم فانظر فى ذلك » . فردَّه معاوية عليهم ، وأوصاه بالأحنف وقبح رأيَه فى مباعدته .

وحج بالناس فى هذه السنة عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وفيها توفى سعيد بن العاص .

سنة ستين

ذكر وفاة معاوية بن أبى سُفْيان وماأوصَى به عند وفاته

كانت وفاته بدمشق فى شهر رجب منْ هذه السَّنة ، قيل : فى مُسْتَهَلِّه ، وقيل : فى النصف منه ، وقيل : لأربع بَقِينَ منه ، وقيل : فى يوم الخميس لثمانٍ بَقين من شهر رجب سنة تسع وخمسين[3]

قال[4] : وكان معاوية قد خطب الناس قبل موته فقال : « إنى

---

(١) سمى كل فريق منهم رجلا .

(٢) معاوية .

(٣) تبع فى ذلك ما جاء فى الاستيعاب ج ٣ ص ٣٩٨ ، وعبارة الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ٢٣٩ : « وقال على بن محمد : مات معاوية بدمشق سنة ٦٠ يوم الخميس لثمان بقين من رجب ، حدثنى بذلك الحارث عنه » وقال الطبرى قبيل هذا : « اختلف فى وقت وفاته بعد إجماع جميعهم على أن هلاكه كان فى سنة ٦٠ وفى رجب منها » .

(٤) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٥٩ .

لزرع[١] مستحصد[٢] وقد طالت إمْرتى عليكم حتى مِلْتكم ومِلْتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، لن يأتيكم بعدى إلا من أنا خير منه ، كما أن من كان قبلى كان خيرا منى ، وقد قيل : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إنى أحببت لقاءك فأحبِبْ لقائى وبارك لى فيه » . فلم يمض غير قليل حتى ابتدأ به مرضه الذى مات فيه .

قال[٣] ولمّا مرض[٤] دعا ابنه يزيد وقال : « يابنى إنى قد كَفَيْتُك الشَّدَّ والتَّرحال ، ووطَّأْتُ لك الأمور ، وذللت الأعداء ، وأخضعت لك رِقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ، فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فأكرمْ من قدِم عليك منهم ، وتعاهَدْ من غاب وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزِل عنهم كُلَّ يوم عاملا فافعل ، فإنَّ عزْلَ عامل أيْسَرُ من أن يُشهر عليك مِائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام ، فليكونوا بِطانتك وعيْبتك[٥] ، فإنْ رابَك[٦] من عدوِّك شىء فانتصرْ بهم ، فإذا أصبتَهم فاردُدْ أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغيرها تغيرتْ أخلاقهم ، وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلاَّ أربعة نَفَر من قُريش : الحسين بن على وعبد الله بن عُمر وعبدالله بن الزُّبَير وعبدالرحمن بن أبى بكر ، فأمَّا ابن عمر فرجل قد

(١) فى الكامل : « كزرع » .
(٢) استحصد الزرع : حان أن يحصد .
(٣) ابن الأثير فى الكامل ، وأصله فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٣٨
(٤) قال الطبرى : « مرض مرضته التى هلك فيها » .
(٥) عيبتك : موضع سرك .
(٦) كذا جاء فى المخطوطة مثل الكامل ، وجاء فى تاريخ الطبرى « نابك » .

وقذَتْه[١] العبادة ، فإذا لم يَبْقَ أحد غيره بايعك ، وأمّا الحسين فإنه رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ، فإن خرج فظفرْتَ به فاصْفَحْ عنه ، فإن له رَحمًا ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمّا ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله[٢] ليست له همّة إلاّ في النساء واللهو ، وأما الذى يجْثُم لك جُثُوم الأسد ، ويرواغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته فرصة وَثَب ، فذاك ابن الزبير ، فإنْ هو فعَلها بك فظفِرْتَ به فقطِّعْه إرْبًا إرْبًا ، واحقنْ دماء قومك ما استطعت » .. هكذا في هذه الرواية[٣] ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر ، والصحيح أنه مات[٤] قبل معاوية .

وقيل إن يزيد كان غائبا في مرض أبيه وموته ، وأن معاوية أحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المُرِّيّ وأمرهما أن يؤدِّيا عنه هذه الرسالة إلى يزيد ابنه . وصححه ابن الأثير .

قيل : ولما اشتدّت عِلّته وأُرجِف به قال لأهله : احشوا عيني إثْمِدا وادْهنوا رأسي ، ففعلوا وبرّقوا وجهه[٥] ، ثم مُهِّد له مجلس

---

(١) وقذته : غلبته .

(٢) في تاريخ الطبرى : « مثلهم » ، والذى جاء هنا مثل الكامل .

(٣) وذكر ابن جرير رواية ثانية فيها قول معاوية : « وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير » .

(٤) وذكر ابن حبان أن عبد الرحمن بن أبي بكر مات سنة ثمان وستين ، وقيل غير ذلك كما سبق .

(٥) عند ابن جرير وابن الأثير : « برقوا وجهه بالدهن » .

وأذن للناس ، فدخلوا وسلموا قياما ولم يجلس أحد ، فلما خرجوا تمثل بقول الأول وهو الهذلى[١] :

وتجلُّدِى للشّامِتين أُرِيهمُو أنِّى لِرَيْب الدهو لا أتَضَعضعُ
وإذا المَنِيَّةُ أنْشبتْ أظفارَهـا ألْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمة[٢] لاتَنفعُ

ومات فى يومه .

وكان يتمثّل ـ وقد احْتُضِر[٣] ـ :

فهل منْ خالد إمّا هلكْنـــا ؟ وهلْ بِالمَوْتِ ياللَنّاسِ عارُ ؟

ورَوى محمد بن عبد الله بن الحكم قال : سمعت الشافعىَّ رضى الله عنه يقول : لمَّا ثقُل مُعاوية كان يزيد غائبا ، فكتب إليه بحاله فلمَّا أتاه الرسول أنشأ يقول :

جاء البَرِيدُ بقِرْطاسٍ يخُبُّ به[٤]
فأوْجس القلبُ من قِرطاسه فَزَعا

قلنا : لك الوَيْلُ ! ماذا فى صحيفتكم
قال :الخليفةُ أمسَى مُثْبَتًا[٥] وجعا

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى يرثى بنين له ماتوا فى عام واحد بقصيدة مشهورة تجدها فى أول ديوان الهذليين ، وانظر المفضلية ١٢٥ فى المفضليات وجمهرة أشعار العرب ص ٢٦٤ — ٢٧٣ والاستيعاب ج ٤ ص ٦٧ والإصابة ج ٤ ص ٦٥ وشواهد العينى ج ٣ ص ٣٩٣–٣٩٤ وخزانة الأدب ج ١ ص ٢٠٢ وحماسة البحترى ص ٩٩ ، ١٢٨ وأمالى القالى مع شرح البكرى فى سمط اللآلى ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٨٩

(٢) التميمة : ما يعلقه بعض الناس على أولادهم لاتقاء العين والحسد بزعمهم .

(٣) وبلغه أن قوماً يفرحون بموته .

(٤) القرطاس : الصحيفة . والخبب : السير السريع .

(٥) المثبت : الذى لا يفارق الفراش لثقل مرضه .

فمادت الأرضُ أو كادت تَميدبنا
كأنَّ ثَهْلانَ[١] من أركانه انْقلعا

أوْدَى ابنُ هنْدٍ[٢] وأوْدَى المجديتبعه
كانا جميعا وظلاًّ يسْريان معًا

لايَرفعُ الناس ماأوْهَى[٣] وإن جَهَدُوا
أن يرفعوه ، ولا يُوهُون ما رفعًا

أغَرُّ أبْلجُ[٤] يُسْتَسْقَى الغمامُ به
لو قارَعَ الناسَ عن أحلامهم قرَعا

والبيتانِ[٥] الأخيران للأعشَى .

قال : فلمَّا وصل إلَيه وجده مغمورا فأنشأ يقول :

لوْ عاش حيٌّ إذًا لَعاش إمـا
مُ الناس لا عاجزٌ ولا وَكِل[٦]

الحُوَّلُ القُلَّبُ الأرِيبُ[٧] ولنْ
يدفع رَيْبَ المَنِيَّة الحِيَـــلُ

(١) ثهلان : جبل .
(٢) أودى : هلك . وهند : أم معاوية .
(٣) أوهاه : أضعفه وأسقطه .
(٤) الأغر : السيد الشريف فى قومه . والأبلج : الذى يكون طلق الوجه مضيئه .
(٥) هذا من قول الإمام الشافعى كما فى الاستيعاب ج ٣ ص ٣٩٩ وهما البيتان ٧٢ ، ٧٣ من عينيه الأعشى فى ديوانه ص ١١١ ، ١٠٧ وجاء أولهما بلفظ :
لا يرفع الناس ما أوهى وإن جهدوا طول الحيـاة ولا يوهون ما رفعا
وجاء ثانيهما بلفظ :
أغر أبلج يستسقى الغمام بـــه لو صارع الناس عن أحلامهم صرعا
(٦) الوكل : البليد الذى يكل أمره إلى غيره .
(٧) الحول : البصير بالحيل وتحويل الأمور . والقلب : البصير بتقليب الأمور . والأريب : العاقل .

قال فأفاق معاوية وقال : يا بنى إنى صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج لحاجته ، فاتبعته بإداوة[١] ، فكسانى أحد ثوبيه الذى يلى جلده ، فخبأته لهذا اليوم ، وأخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام من أظافره وشعره ذات يوم ، فأخذته وخبأته لهذا اليوم ، فإذا أنا مِتُّ فاجعل ذلك القميص دون كفنى مما يلى جلدى ، وخذ ذلك الشعر والأظافرْ فاجعله فى فمى وعلى عينى ومواضع السجود منى ، فإن نفع شى فذاك ، وإلاَّ فإن الله غفور رحيم .

وهذه الرواية تدل على أن يزيد أدركه قبل وفاته ، وقد قيل : إنه أوصى بها غير يزيد[٢] والله أعلم .

قال ابن الأثير : وتمثل معاوية عندموته بشعر الأشهب بن زُمَيْلَة[٣] النَّهْشَلى[٤] :

---

(١) الإداوة : إناء صغير من جلد .

(٢) ذكر الطبرى فى إحدى روايات تاريخه ج ٤ ص ٢٤٢ أن معوية مات ويزيد بحوارين. وكانوا كتبوا إليه حين مرض ، فأقبل وقد دفن ، فأتى قبره فصلى عليه ودعا له ، ثم أتى منزله . وانظر ما يأتى .

(٣) كذا جاء فى المخطوطة والكامل لابن الأثير « زميله » بالزاى ، كما نص عليه العينى فى شواهده الكبرى ج ١ ص ٤٨٢ تابعاً للمرزبانى فى معجم الشعراء ، وفى أكثر الكتب « رميلة » بالراء ، كما نص عليه صاحب خزانة الأدب ج ٢ ص٥٠٩ وتراه فى تاريخ الطبرى وأمالى القالى وسمط اللآلى والبيان والتبيين والحيوان . وانظر ترجمة الأشهب بن رميلة فى الأغانى ج ٩ ص٢٦٩ (طبع دار الكتب المصرية) والإصابة ج ١ ص ١٠٧ .

(٤) قال الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص٢٤١ : شعر الأشهب بن رميلة النهشلى يمدح به القباع .

إذَا متّ مات الجُودُ وانقطع النَّدَى
مِنَ الناس إلاَّ من قَلِيلٍ مُصَرَّدِ (١)
ورُدّتْ أكُفُّ السائلين وأمْسَكوا
مِن الدِّين والدنيا بخِلْفٍ مُجَدَّدِ (٢)

فقالت إحَدى بناته : كلاَّ ياأمير المؤمنين بل يدفع الله عنك . فقال متمثِّلا :

وإذا المَنِيَّة أنشبتْ أظفارَها . . . . . (البيت) وقال لأهله : اتَّقُوا الله فإنه لاواقى لمن لايتَّقى الله ! ثُمَّ قضَى (٣)

وأوْصَى أن يُرَدَّ نصف ماله إلَى بيت المال (٤) .

وأنشد لما حضرته الوَفاة : .

إنْ تُناقشْ يَكُنْ نقاشُكَ يا ربّ
ب عذابًا ، ولا طَوْقَ لى بالعذاب
أو تُجاوِز فأنْت رب صَفوحٌ
عن مُسِيءٍ ذنوبه كالتراب

قال : ولمّا مات خرج الضحَّاك بن قَيْس حتَّى صعِد المنبر ، وأكفانُ معاوية علَى يَدَيْه ، فحمد الله وأثنَى عليه ، ثم قال : « إنَّ معاوية كان

(١) مصرد : مقلل ، ففيه مبالغة فى القلة .
(٢) الخلف : ضرع والفرس والناقة ونحوها . والمجدد : الذاهب اللبن ، والمعروف بهذا المعنى فى هذه المادة « الأجد » و « المتجدد » .
(٣) قضى : مات .
(٤) قال الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ٢٤٢ وابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص٢٦٠ « كأنه أراد أن يطيب له الباقى ، لأن عمر قاسم عماله » .

عَوْد (١) العرب ، وحَدّ (٢) العرب ، وجَدّ (٣) العرب ، قطَع الله به الفِتنة ، وملّكه على العباد ، وفتح به البلاد ، ألاَ إنه قد مات ، وهذه أكفانه ونَحن مُدْرِجوه فيها ، ومُدْخِلوه قبره ، ومُخَلُّون بَيْنه وبَيْن عمله ، ثُمَّ هو البَرْزَخ إلَى يوم القيامة ! فمن كان يريد أن يشهده فعند الأُولَى » . . قال : وصلى عليه الضحاك لغَيبة يزيد ، وكان بحُوَّارِين (٤) فقدِم بعد دفنه فصلَّى على قبره .

وكان مُلْكه تِسعَ عشرةَ سنةً وثلاثة أشهر وأيَّامًا تقريبا منذ خلص له الأمر .

وكان عمره خمسا وسبعين سنة ، وقيل : ثلاث وسبعين ، وقيل : ثمان وسبعين ، وقيل توفى وهو ابن خمس وثمانين سنة .

وكان أوَّلَ من اتخذ الخدام الملازمة (٥) فى الإسلام . وأوَّل من علَّق الستور واتخذ الحرَس وأرباب الشُّرَط . واستخدم الحجاب وركب الهَمَاليج (٦) ، وقيدت بين يديه الجنَائب (٧) ولبس الخزَّ والوشْيَ الخفيف ، وعمل الطِّراز بمصر واليَمَن والرُّها والإسْكندرية .

(١) العود : الجمل الكبير المدرب ، ويشبه به الرجل كذلك .

(٢) الحد : البأس والفاصل بين شيئين .

(٣) الجد : الحظ والسعادة والغنى .

(٤) حوارين ، بتشديد الواو : من قرى الشام ، وهى غير « حوارين » بتخفيف الواو التى فى الجزيرة .

(٥) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « الأزمة » وجاء فى لاستيعاب « أول من اتخذ الخصيان فى الإسلام .

(٦) الهماليج : جمع هملاج ، وهو البرذون الحسن السير ، ويسمى « الرهوان » .

(٧) الجنائب : جمع جنيبة وهى الدابة تقاد إلى جنب ، والناقة يعطيها الرجل القوم يمتارو عليها له .

وأولُ من قَتل مسلما صَبْرا ، قَتل حُجْرَ بن عَدىّ وأصحابه كما تقدم .

وهو أول من اقتنى الضِّياع ، وأحدث فى أيامه ديوان الخاتَم ، وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو (١) بن الزُّبيرَ بمائة ألف درهم ، وكتب له بها علَى زِياد ، فصيرّ(٢) عمرو المائة مائتين ، فلما [رفع] (٣) حساب زياد أنكرها معاوية ، وأخذ عمرًا بردِّها (٤) ، فوفَّاها عنه أخوه عبد الله . ثم أمر معاوية بخَتْم الكتب وحَزْمها .

وزاد فى مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعله ثمانِىَ درجات ، وأول من جعل درجات المنبر خمس عشرة مَرْقاة ، واتخذ المقصورة (٥) فى المسجد .

وأول خليفة بايَع لابنه ، وأول من وضع البريد ، وأول من سمى الغالية التى يطيَّب بها « غالية » .

وكان يقول : أنا أول الملوك .

ذكر شىء من سيرته وأخباره

كان يُضْرَب بحِلْم معاوية المَثَل ، ولم يعرف له زَلَّة تنافى الحلم إلاَّ قتْل حُجرْ بن عَدِىّ وأصحابه .

وقد نقل من كلامه ألفاظ ، منها أنه قال : إننى لَأَرفَع نفسى أن يكون ذنب أعظم من عفوى ، وجهلٌ أكثر من حِلمى ، وعَوْرةٌ لا أواريها بسترى ، أوإساءة أكثر من إحسانى . .

---

(١) أمر معاوية لعمرو بهذا فى معونته وقضاء دينه .

(٢) فض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين .

(٣) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) .

(٤) وحبسه .

(٥) عمل معاوية المقصورة فى الشام لما ضربه الخارجى ، ثم عمل مروان المقصورة فى المدينة

وقال : العقل والحلم أفضل ما أُعْطِيَ العبد ، فإذا ذكَّر ذَكَر ، وإذا أُعطى شكر ، وإذا ابْتُلِيَ صبر ، وإذا غضِب كَظَم ، وإذا قدر غفر ، وإذا أساء استغفر ، وإذا وعد أنجز . .

قال عبد الله [1] بن عُمَير : أغلظ رجل لمعاوية ، فأكثر ، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ فقال : إنى لاأحُول بين الناس وألسنتهم . مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا .

وروى ابن شِهاب عن حُمَيد بن عبد الرحمن قال : أخبرنا المِسْورَ ابن مَخْرمة أنه وفَد على معاوية ، قال : فلمَّا دخلتُ عليه سلَّمت ، فقال : مافعل طعنك على الأُمة يامِسْور ؟ قلت : دعنا من هذا وأحسن فيما قدِمْنا له ، قال : والله لتكلمنى بذات نفسك . قال فلم أَدَعْ شيئا أعيبه علَيه إلاَّ أخبرته به . فقال : « لاأبرأ من الذنوب ! أفمالك يامِسْور ذنوب تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟ » قلت : بَلَى . قال : « فما جعلك أحقَّ بأن ترجُوَ المغفرة مِنِّى ؟ فَوَاللهِ لَمَا أنا [2] أَلِى من الإصلاح بين الناس وإقامة الحُدود والجهاد فى سبيل الله والأمور العِظام التى ليست [3] أحصيها ولاتحصيها أكثرُ ممَّا تَلِى . وإنى لعلى دين يتقبَّل الله فيه الحسناتِ ويعفو عن السيِّئات ، ووالله لَعَلَى [4] ذلك ماكنت لِأُخيرَّ بين الله وبين ماسواه إلااخترتُ الله علَى ماسواه . قال المِسْوَر : ففكرّتُ حين قال ماقال فعرفتُ أنه خَصَمنى ! قال : فكان

(١) كذا جاء فى المخطوطة مثل الكامل لابن الأثير ، وجاء فى رواية الطبرى « عبد الملك بن عمير » .
(٢) فى الاستيعاب ج ٣ ص ٤٠٢ : « فوقه لما آل من الإصلاح » .
(٣) فى لاستيعاب : « لست » .
(٤) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ك) كما فى الاستيعاب ، وسقطت من النسخة (ن) .

إذا ذكر بعد ذلك دعا له بخير . قال أبو عمر [١] : هذا الخبر من أصحّ ما يُروَى عن ابن شهاب .

وقد نُسب معاوية إلى بُخلٍ مع كثرة عَطاياه ، فمن ذلك ماحُكِيَ أن عبيد الله بن أبي بَكْرة دخل علَى معاوية ، ومعه ولد له ، فأكثر من الأكل ، فلحظه معاوية ، وفطن عبيد الله ، فأراد أن يغمز ابنه [فلم يمكنه] [٢] فلم يرفع رأسه حتى فرغ من أكله ، ثم عاد عبيد الله وليس معه ابنه ، فقال معاوية مافعل ابنك التِّلْقَامَة [٣] ؟ [قال : اشتكَى] [٤] .

ذكر صفة معاوية وأولاده وأزواجه

وكُتَّابه وقضاته وحجَّابه وشرطه وعُمّاله

كان معاوية طويلا أبيض اللون إذا ضحك تقلّصت شَفته العليا ، وكان يخضب بالحِنَّاء والكَتَم .

وأما نساؤه وولده : فمن نسائه مَيْسُون ابنة بَحْدَل بن أُنَيْف الكَلْبية ، وهي أم يزيد ، وقيل ، ولدت له بنتا اسمها « أَمَة ربِّ المَشارق » فماتت صغيرة .

ومنهن فاخِتَة ابنة قَرظة بن عبد عمرو بن نَوفل بن عبد مَناف ، ولدت له عبد الرحمن وعبد الله ، وكان عبد الله أحمق ، وعبد الرحمن مات صغيرا .

---

(١) أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب

(٢) الزيادة من تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٥

(٣) التلقامة : الكبير اللقم .

(٤) الزيادة من الكامل ، ساقطة من الأصل .

ومنهن نائلة ابنة عُمارة الكلبية ، تزوجها وقال لمَيْسُون : انظرى إليها ، فنظرت إليها وقالت : « رأيتها جميلة ، ولكنى رأيت تحت سُرّتها خالا ، ليوضعن رأس زوجها فى حجرها » فطلقها معاوية ، فتزوجها حبيب بن مَسلمة الفهرى ، ثم خلف عليها بعده النُّعمان ابن بشَير ، فقتل ووضع رأسه فى حجرها[1] .

ومنهن كَتْوة[2] ابنة قَرظه ، أُخت فاختِة ، غزا قُبْرُس[3] وهى معه فماتت هناك .

وأما كتابه فكان كاتبه وصاحب أمره سرْجُون الرومى ، وكتب له عبيد الله بن أُوَيْس الغسّانى .

وقضاته . كان على القضاء فَضَالة بن عبيد الأنصاري ، فمات فاستقضى أبا إدريس الخَوْلانى .

وكان على ديوان الخاتم عبد الله بن مِخْصَن الحِمْيرىّ ، ونَقْش خاتمه « لكل عمل ثواب » ، وقيل : كان نقشه « لاحول ولا قوة إلا بالله » .

وحاجبه سَعْد مولاه ، ثم صفوان مولاه .

وكان على شرطته قيس بن حمزه الهمدانى ثم عزله ، واستعمل زَمْل[4] ابن عمرو العُذْرىّ ، وقيل : السكْسَكىّ .

---

(١) كان النعمان بن بشير أميراً على حمص ليزيد ، فلما مات يزيد صار النعمان زبيريا كالضحاك بن قيس ، فلما قتل الضحاك فى وقعة « مرج راهط » وانتصر المروانيون طلب أهل حمص النعمان وقتلوه واحتزوا رأسه ، فقالت امرأته نائلة ابنة : عمارة ألقوا رأسه فى حجرى فأنا أحق به

(٢) فى الأصل : لبوة ، والتصحيح من الكامل وتاريخ الطبرى .

(٣) قبرس : جزيرة معروفة .

(٤) فى الإصابة ج ١ ص ٥٥١ والقاموس : زمل بن عمرو بن أبي العنز بن خشاف العذرى ، صحابي ، ويقال له « زميل » مصغراً .

وكان على حَرَسه رجل من الموالى يقال له الختاز ، وقيل : أبو المُخَارِقِ مالك مولى حِمْيَر .

وأما عمّاله فقد تقدم ذكرهم ، وكان العُمّال عند وفاته : على المدينة الوليدبن عُتْبة بن أبى سفيان ، على مكة عمرو بن سعيد الأشدق ، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد ، وعلى الكوفة النُّعمان بن بَشير ، وعلى خُراسان عبد الرحمن بن زياد ، وعلى سجِستان عبّاد بن زياد ، وعلى كِرمَان شريك بن الأعور ، وعلى مصر مسلَمة ابن مُخَلَّد الأنصارى ، وكان القاضى بمصر سليمان بن عمير عشرين سنة .

ذكر بيعة يزيد بن معاوية

هوأبوخالدَ يَزِيد بن مُعاوية بن أبى سُفْيان صَخْر بن حَرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مَناف بن قُصَىّ ، وأمه مَيسُونَ بنت بحدَل الكلبية .

وهو الثانى من ملوك بنى أُمَيَّة ، بويع له بعد وفاة أبيه فى شهر رجب سنة ستين .

فكان أول ما بدأ به يزيد أنْ كتب إلى الوَليد بن عُتبة بن أبى سفيان ، وهو عامل المدينـــة ، يخبره بموت معـاوية (١) ، وكتابا آخر

(١) نص كتاب يزيد بن معاوية إلى ابن عمه الوليد بن عتبة – كما ذكره الطبرى –: «بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد أميرالمؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد فإن معاوية كان عبداً من عباد الله ، أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له ، فعاش بقدر ، ومات بأجل قرحمه الله ، فقد عاش محموداً ، ومات براً تقياً ، والسلام » .

صغيرا فيه : « أمّا بعدُ فخُذ حُسَينا وعبدَ الله بن عُمر وابن الزبير بالبيعة أخذًا ليس فيه رُخْصَةٌ حتّى يبايعوا والسلام » .

فلما أتاه نَعىُ معاوية استدعى (١) مروان بن الحكم ، وكان قبل ذلك قد صَارمَه وانقطع عنه (٢) ، فلما جاءه وقرأ عليه الكتاب بموت معاوية استرجع (٣) وترحَّم عليه ، واستشاره الوَلِيد كيف يصنع ، قال : « أرى أن تدعُوَهم الساعة وتأمرهم بالبيعة ، فإن فعلوا قبلتَ منهم وكففْتَ عنهم ، وإن أبَوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إنْ علموا بموته وَثَب كلُّ رجل بناحية ، وأظهر الخِلافَ ودعا إلى نفسه ، أمّا ابن عُمر فلا يرى القتال ، ولا يحبُّ أن يلِيَ علَى الناس إلاّ أن يُدفَع إلَيه هذا الأمر عفوا » .

---

(١) ذكر الطبرى وابن الأثير أن الوليد لما أتاه نعى معاوية فظع به وكبر عليه ، ثم ما أمره به يزيد من أخذ هؤلاء الرهط بالبيعة ، ففزع عند ذلك إلى مروان بن الحكم .

(٢) لما عزل مروان عن المدينة واستعمل عليها بعده الوليد بن عتبة صار مروان يجيء متكارها فلما رأى الوليد ذلك شتمه عند جلسائه ، فبلغ ذلك مروان فانقطع عنه .

(٣) قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

ذكر ارسال الوليد بن عتبة

إلى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، وما كان بينهم في أمر البيعة وخروجهما إلى مكة رضي الله عنهما

قال (١) وأرسل الوليدُ عبدَ الله بن عمرو بن عثمان ، وهو غلام حدث ، إلى الحسين وابن الزبير يدعوهما ، فوجدهما في المسجد ، فأتاهما في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس ، فقال : أجيبا الأمير فقالا : انصرفْ الآن نأتيه .

فقال ابن الزبير للحسين : ماتراه بعث إلَينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها ؟ فقال الحسين رضي الله عنه : أظن طاغِيَتهم هَلَك فبعث إلينا ليأخذَنا بالبَيعة قبل أن يفشُو في الناس الخبر . فقال : وأنا ما أظن غيره ، فما تريد أن نصنع ؟ قال الحسين : أجمع فِتْيانى الساعة ثم أمشي إليه وأجلسهم علَى الباب وأدخل عليه . قال : فإني أخاف عليك إذا دخلت . قال : لاآتيه إلا وأنا قادر على الامتناع .

فقام الحسين رضي الله عنه فجمع إليه أصحابه وأهل بيته ، ثم أقبل إلى باب الوليد ، وقال لأصحابه : « إني داخل ، فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ بأجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم » .

ثم دخل فسلَّم ومَروان عنده ، فقال الحسين : « الصِّلة خيرٌ من القَطيعة ، والصلح خير من الفساد ، وقد آن لكما أن تجتمعا ، أصلح الله ذات بَيْنكما » وجلس ، فأقرأه الوليد الكتاب ،

(١) ابن الأثير في الكامل ج ٣ ص ٢٦٤ ، وأصله في تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥١ .

ونعَى إليه مُعاوية ، ودعاه إلَى البَيعة ، فاسترجع الحسين وترحّم على معاوية ، وقال : « أما البيعة فإن مثلى لايبايع سِرا ، ولا تَجتَزِى بها منى سرا ، فإذا خرجت إلى الناس ودعَوتَهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحد » فقال له الوليد ـ وكان يحب العافية ـ انصرف. فقال له مَروان : « لئن فارقك الساعة ولم يبايع لاقدرتَ منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلَى بينك وبينه ، احبسه ، فإن بايَع وإلاَّ ضربتَ عنقه » . فوَثَب الحسينُ عند ذلك وقال : « يا ابن الزرقاء أنت ، تقتلنى[1] أو هو ؟ كذبتَ والله ولَؤمتَ[2] ! ثم خرج حتَّى أتَى منزله .

فقال مروان للوليد : عَصيتَنى ! لا والله لايمكنك من نفسه بمثلها أبدا ، فقال الوليد : « وَيحَ[3] غيرك يا مروان ! ، والله ماأحب أن لى ماطلعت عليه الشمس وغَرَبَتْ عنه من مال الدنيا ومُلكها وأني قتلتُ حسينا إن قال لا أبايع ! والله إنى لأظن أمرأً يحاسَب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة ! » قال مروان : قد أصبت بقولك هذا [يقول][4] وهو غير حامد له على رأيه .

وأمَّا ابن الزُّبَير فإنه أتَى داره وجمع أصحابه واحترز ، فألَّح الوليد فى طلبه وهو يقول « أمهلونى » . فبعث الوليد إليه مَوالِيه فشتموه ، وقالوا له : يا ابن الكاهليه لَتأتِينَّ الأمير أو لَيقتلنَّك

(١) فى تاريخ الطبرى : « أم » .
(٢) كذا جاء هنا مثل الكامل ، و الطبرى « وأثمت » .
(٣) كذا فى الأصل ، وفى تاريخ الطبرى « ويح غيرك » .
(٤) الزيادة من الكامل وتاريخ الطبرى .

فقال لهم : والله لقد لستربتُ لكثرة الإرسال ، فلاتُعجلونى حتّى أبعث إلى الأمير من يأتينى برأيه . فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال له : «رحمك الله ، كُفَّ عن عبد الله فإنك قد أفزعته وذعرته (١) ، وهو يأتيك غدا إن شاء الله تعالى ، فمر رسلك فلينصرفوا عنا » فبعث إليهم ، فانصرفوا وخرج ابن الزبير من ليلته هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث فسارا نحو مكة (٢) فسرح الوليد الرجال فى طلبه فلم يدركوه ، فرجعوا ، وتشاغلوا به عن الحسين يومهم .

ثم أرسل الوليد الرجال إلى الحسين (٣) فقال لهم : أصبحوا ثم تَرَون ونرَى . فكَفُّوا عنه ، فسار من ليلته (٤) نحو مكة ، وأخذ معه بنيه وإخوته وبنى أخيه وجُلّ أهل بيته إلاّ محمد بن الحنفية فإنه قال للحسين رضى الله عنهما : « ياأخى أنت أحب الناس إلىّ وأعزُّهم علىّ ، ولست أدّخِر النصيحة لأحدٍ من الخلق أحقّ بها منك ، تنح ببيعتك (٥) عن يزيد وعن الأمصار مااستطعت ، وابعث رسلك إلى الناس فادعُهم إلى نفسك فإن بايعوك حمدت الله على ذلك ، وإن اجتمع الناس على غيرك لم يَنْقُص الله بذلك دِينَك ولا عقلك ، ولا يُذهب به مروءتك ولا فضلك ، إنى أخاف أن تأتى مصر وجماعةً من الناس فيختلفون عليك ، فمنهم طائفة معك ، وأُخرى عليك ، فيقتتلون ، فتكون لأول الأسنّة ، فإذا

(١) زاد الطبرى فى روايته : « بكثرة رسلك » .
(٢) وتجنبا الطريق الأعظم مخافة الطلب
(٣) عند المساء .
(٤) قال الطبرى : « وهى ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب سنة ٦٠ ، وكان مخرج ابن الزبير قبله بليلة ، خرج ليلة السبت » .
(٥) كذا جاء فى الأصل مثل الكامل ، وجاء فى تاريخ الطبرى : « بتبعتك » .

خير هذه الأمة كلها نفسا وأبًا وأما ، أضيَعُها دمًا وأذلُّها أهلا ! » قال الحسين : فأين أذهب يا أخى ؟ قال : « انزل مكة ، فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نبتْ بك لحقتَ بالرمال وشَعَفَ الجبال[1] وخرجت من بلد إلى أخرى ، حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس ، ويَفرُق لك الرأى ، فإنك أصوب ما تكون رأيا وأحزمه عملا حين تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور أبدا أشكَلَ منها حين تستدبرها ! » قال : قد نصحتَ وأشفقتَ وأرجو أن يكون رأيك سديدا موفقا إن شاء الله .

ثم دخل المسجد وهو يتمثل بقول يزيد بن مُفَرِّغ :

لا ذعرتُ السَّوامَ فى شَفَقِ[2] الصُّبْحِ مُغِيرا ولا دُعيت يَزيدا
يَومَ أُعطى من المَهابة[3] ضَيْمًا والمَنايا يَرْصُدْنَنى أن أحِيدا

ثم خرج نحو مكة وهو يتلو ﴿ فَخَرَج منها خائفا يَتَرَقَّبُ قال رَبِّ نَجِّنى مِن القَومِ الظالمين ﴾[4] ، ولما دخل مكة قرأ ﴿ ولمَّا تَوجَّهَ تِلْقاءَ مَدينَ قال عَسَى ربِّى أن يَهدِيَنى سَواءَ السَّبيل ﴾[5]

(١) شعف الجبال : رءوسها .

(٢) كذا جاء « شفق » فى الأصل مثل الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٦٥ والمعروف فيه « فلق » كما جاء فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٥٣ ومروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٨٦ والخصائص لابن جنى ج ٣ ص ٢٧٣ وشرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ١ ص ٣٠٢ وجاء فى ترجمة يزيد بن مفرغ من وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣١٥ « غلس » .

(٣) كذا جاء فى الأصل وتاريخ الطبرى ، وجاء فى الكامل « من المهانة » وفى شرح ابن أبى الحديد « من المخافة » ، وفى وفيات الأعيان « على المخافة » ، وفى مروج الذهب (مخافة الموت » .

(٤) الآية ٢١ من سورة القصص .

(٥) الآية ٢٢ من سورة القصص .

قال : وأمّا ابن عمر فإنّ الوليد أرسل إليه ليبايع ، فقال : إذا بايع الناس بايعتُ . فتركوه ، وكانوا لا يخافونه .

وقيل : إن ابن عمر كان بمكة هو وابن عبّاس ، فعادا إلى المدينة ، فلقِيا الحسين وابن الزُّبَير ، فقالا لهما : ماوراءكما ؟ قالا : موت معُاوية وبيَعة يزيد ، قال ابن عمر : لاتفرّقا جماعة المسلمين . وقدم هو وابن عبّاس المدينة ، فلما بايع الناس بايعا .

قال : ودخل ابن الزُّبَير مكة وعليها عمرو بن سعيد فقال : أنا عائذ بالبيت . ولم يكن يصلى بصلاتهم ، ولا يُفيض بإفاضتهم ، وكان يقف هو وأصحابه ناحية .

ذكر استعمال عمرو بن سعيد على المدينة

وإرسال عمرو بن الزُّبَير بالجيش إلى مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزُّبير وهزيمة جيشه ، ووفاة عمرو بن الزُّبير تحت السِّياط.

وفى هذه السنة عزل يزيد بن معاوية الوليد ابن عُتْبة عن المدينة ، واستعمل عليها عمرو بن سعيد الأشدق ، فقدمها فى رمضان ، واستعمل على شرطته عمرو بن[1] الزُّبير ، لما كان بينه وبين أخيه من البغضاء ، فأرسل إلى نَفَر من أهل المدينة فضربهم ضربا شديدا : لهواهم فى أخيه عبد الله ، منهم أخوه المُنذر بن الزُّبير وابنه محمد بن المنذر وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، ومحد بن عمارْ بن ياسر ، وغيرهم[2] ، فضربهم الأربعين إلى الخمسين إلى الستين .

(١) سبق أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم ... الخ .

(٢) وهناك من فر منه إلى مكة ، كعبد الرحمن بن عثمان وعبد الرحمن بن عمرو بن سهل .

فاستشار عمرو بن سعيد عمرو بن الزُّبير فيمن يرسله إلى أخيه فقال : لاتوجِّه إليه رجلا أنكأ له منى ، فجهز معه سبعمائة فيهم أُنيس بن عمرو الأسلمى .

فجاء مروان بن الحكم إلى عمرو بن سعيد فقال له : « لاتَغز مكة ، واتق الله ولا تُحِل حرُمةَ البيت ، وخلوا ابن الزبُّير فقد كَبِر ، له ستون سنة » فقال عمرو بن الزبير : والله لَنغزوَنَّه فى جوف الكعبة على رغم أنف من رغم .

وأتى أبو شُرَيْح (١) الخُزاعى إلى عمرو فقال له : لاتغز مكة فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنَّما أُذِن لى فى القتال فيها ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس » فقال له عمرو : نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ (٢) .

فسار عمرو بن الزبير وسَار أُنَيْس فى مقدمته .

وقيل إن يزيد كتب إلى عمرو بن سعيد أن يرسل عمرو بن

(١) اختلف فى اسم أبى شريح ، والراجح خويلد بن عمرو بن صخر بن عبد العزى العدوى الكعبى الخزاعى ، وقد أسلم قبل فتح مكة ، وكان معه لواء خزاعة يوم الفتح .

(٢) هذا الحديث رواه الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص٢٥٧ وذكره ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٦٦ وهو حديث صحيح رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما بسنديهما عن أبى شريح أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لى أيها الأمير أحدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى، حين تكلم به أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم ،وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار . وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب » فقيل لأبى شريح : ما قال لك عمرو ؟ قال : « أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح . إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة » . انظر شرح الكرمانى لصحيح البخارى ج ٢ ص ١٠٢ وج ٩ص ٤١ وشرح النووى لصحيح مسلم ج ٩ ص ١٢٧

الزبير إلى أخيه عبد الله ، فأرسله ومعه جيش نحو ألفى رجل ، فنزل أنيس بذى طُوَى (١) ، ونزل عمرو بالأبطح (٢) ، فأرسل عمرو إلى أخيه : برّ يمين يزيد ـ وكان قد حلف أنه لا يقبل بَيعته إلاّ أن يُؤْتَى به فى جامعة (٣) ـ تعال حتّى أجعل فى عنقك جامعة من فضة لا ترى ، ولا يضرب الناس بعضهم ببعض ، فإنك فى بلد حرام .

فأرسل عبد الله بن الزبير عبدَ الله بن صفوان نحو أنيس فيمن معه من أهل مكة ممن اجتمع إليه ، فهزمه بذى طُوى ، وقتل أنيس. وسار مصعب بن عبد الرحمن إلى عمرو بن الزُّبير ، فتفرق عن عمرو أصحابه ، فدخل دار ابن عَلقمة ، فأتاه أخوه عُبَيدة فأجاره ، ثم أتى عبد الله فقال : قد أجرت عمرا . فقال : « أتجير من حقوق الناس هذا مالا يصلح ، وما أمرتك أن تجير هذا الفاسق المستَحِلّ لحرمات الله ! » . ثم أقاد عمراً من كل من ضربه إلا المنذر وابنه فإنهما أبيا أن يستقيدا ، ومات عمرو بن الزبير تحت السياط .

ولنرجع إلى أخبار الحسين رضى الله عنه .

ذكر مقدم الحسين الى مكة

وماورد عليه من كتب أهل الكوفة ، وإرساله مسلم بن عقيل إليهم وما كان فى خلال ذلك

قال : لما خرج الحسين من المدينة إلى مكة لقيه عبد الله بن مُطيع ، فقال له : جُعلتُ فداك أين تريد ؟ قال : أمّا الآن فمكة وأمّا بعدُ

(١) ذو طوى : موضع قرب مكة يعرف الآن بالزاهر . كما فى تاج العروس .

(٢) الأبطح : مسيل وادى مكة . وفى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٥٦ « فسار عمرو ابن الزبير حتى نزل فى داره عند الصفا » .

(٣) جامعة : غل . لأنها تجمع اليدين إلى العنق .

فإنى أستخير الله . فقال : خار الله لك وجعلنا فِداك ، فإذا أتيتَ مكة فإيَّاك أن تقرب الكوفة فإنها بلد مَشْئومة ، بها قُتل أبوك وخُذل أخوك ، واغْتِيل بطعنة كادت تأتى على نفسه ، الزَم فإنك سَيِّدَ العرب ،لايعدل بك أهل الحجاز أحدًا ويتداعى إليك الناس من كل جانب ، ولا تفارق الحرم فِداك عمى وخالى ، فوالله لئن هلكتَ لنُسْترَقَّنَّ بعدك ! » .

فأقبل حتّى نزل مكة ، وأهلها يختلفون إليه ويأْتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق ، وابن الزُّبير يأْتى إليه ويُشير عليه بالرأى ، وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير ، لأن أهل الحجاز لايبايعونه ما دام الحسين بمكة .

قال : ولما بلغ أهل الكوفة موتُ معاوية وامتناعُ الحُسين وابن عُمر وابن الزُّبير رضى الله عنهم من البيعة ، أرْجفوا بيزيد ، واجتمعت الشِّيْعة فى منزل سليمان بن صُرَد ، فذكروا مسير الحسين رضى الله عنه إلى مكة ، وكتبوا إليه عن نفر منهم : سليمان بن صرَد[1] والمسيّب بن نَجَبَة ورِفاعة بن شدّاد وحبيب بن مُظهر[2] : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وسلام عليك ، فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ،

(١) سليمان بن صرد أبو مطرف الخزاعى له ترجمة فى الإصابة ج ٢ ص ٧٥ وله ذكر فى جمهرة أنساب العرب ص ٢٢٦

(٢) كذا جاء فى ترجمته فى الإصابة ج ١ ص ٣٧٣ ، ومن رجزه فى معركة الحسين :

أنا حبيب وأبى مظهر فارس هيجاء وحرب تسعر
أنتم أعد عدة وأكثر ونحن أوفى منكم وأصبر
ونحن أعلى حجة وأظهر حقاً وأتقى منكم وأعذر

وقد اختلفت كتابة اسم أبيه فى مواضع وروده فى المخطوطتين والكتب بين « مظهر » و « مظاهر » و « مطهر » .

أمّا بعد فالحمد لله الذى قَصَم عدوَّك الجبار العنيد الذى انتزَى على هذه الأُمة فابتَزَّهَا أمرها وغَصَبَها فيئها وتأمّر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها واستبقى شِرارها ، وإنه ليس علينا إمام ، فأقبِل ، لعل الله يجعلنا بك على الحق ، والنُّعمان بن بَشير فى قصر الإمارة لسنا نجتمع معه فى جُمعة ولا عيد ، ولو بلَغنا إقبالُك إلَينا أخرجناه حتّى نُلحقه بالشام إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » . وسيّروا الكتاب مع عبد الله بن سبْع الهمْدَانى وعبد الله بن وَائل[1] .

ثم كتبوا إليه كتابا آخر وسيّروه بعد ليلتين ، فكتب الناس معه نحوًا من مِائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا إليه رسولا ثالثا يحُثُّونه على المسير إليهم ، ثم كتب إليه شَبَث بن رِبْعِىّ وحَجّار بن أَبْجَر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رُوَيْم وعَزْرَة بن قيْس[2] وعمرو بن الحجاج الزُّبيدى ومحمد بن عُمَيْر التميمى بذلك .

فلما اجتمعت كتبهم عنده كتب إليهم : «أمّا بعد فقد فهمتُ كلَّ الذى اقتصصتم ، وقد بعثت إليكم أخى وابنَ عمّى وثِقَتى من أهل بيتى مُسلمَ بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلَّى بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إلَىَّ أنه قد اجتمع رأى ملَئكم وذَوِى الحجى منكم على مثل ماقدِمتْ به رسلكم ، أقْدَم عليكم وَشِيكًا إن شاء الله تعالى ،

(١) اختلفت الكتب فى كتابة هذا الاسم .

(٢) كذا جاء فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٦٢ وهو عزرة بن قيس بن غزية الأحمسى البجلى ، وفى المخطوطة والكامل « عروة بن قيس » .

فلَعَمرى ماالإمام إلا العالم[١] بالكتاب ، والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام » .

وقدم على الحسين رضى الله عنه من البصرة يزيد بن أبى نُبَيْط.[٢] وابناه عبد الله وعبيْد الله إلى مكة ، فكانوا معه حتى قُتل وقتلوا معه .

ثم دعا الحسين مُسلم بنَ عقيل فسيَّره إلى الكوفة ، وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطْف فإن رأى الناس مجتمعين له عجّل إليه بذلك .

فسار مسلم إلى المدينة ، فصلى فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وسلم ، وودع أهله ، وسار حتى بلغ الكوفة ، فنزل فى دار المختار وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فكلما اجتمع إليه جماعة منهم قرأ عليْهم كتاب الحسين ، فيبكون ويَعِدونه النصرة والقتال ، فبلغ النُّعمانَ بن بَشير أمير الكوفة ذلك ، فصعد المنبر فقال : « أمّا بعدُ فلا تسارعوا إلى الفِتنة والفرْقة ، فإن فيهما تهلك الرجال وتُسفك الدماء وتُغصب الأموال » ثم قال : « إنى لا أُقاتل من لم يقاتلْنى ، ولا أَثِبُ على من لا يثب علىّ ولا أُنَبِّه نائمكم[٣] ولا أتَحرّش بكم ، ولا آخذ بالقَرْف ولا الظِّنّة ولا التهمة ، ولكنكم إن أبديْتُم صفحتكم ونكثتم بَيْعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذى لا إله إلا هو لأضربنكّم بسيفى مادام[٤] قائمه فى يدي ، ولو لم يكن لى منكم ناصر ولا معين . أمَا إنى لأرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يُرِدِ به الباطل »

(١) فى تاريخ الطبرى والكامل : « العامل » .
(٢) عند الطبرى وابن الأثير : « ابن نبيط » .
(٣) كذا جاء فى المخطوطة مثل الكامل ، وفى تاريخ الطبرى : « ولا أشاتمكم » .
(٤) عند الطبرى وابن الأثير : « ما ثبت »

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمى حليف بنى أمية فقال : « إنه لا يصلح ماترى إلا الغَشْم ، إن هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين » . فقال : لأن أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحبُّ إلىَّ من أن أكون من الأعَزِّين فى معصية الله » . ثم نزل . وكان حليما ناسكا يحب العافية . وقيل : إنه لم يقل ذلك ، وإنما قال : يا أهل الكوفة إن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى من ابن بنت بحدل .

ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على الكوفة

وقدومه إليها وخبره مع هانى بن عروة

قال : ولما تكلم النعمان بن بشير بما تكلم به ، كتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، ومبايعة الناس له ، ويقول : « إن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قويًا ينفذ أمرك ، ويعمل مثل عملك فى عدوّك ، فإن النعمان رجل ضعيف أو هو يتضعّف » ثم كتب إليه بعده عمارة بن الوليد بن عقبة وعمر بن سعد بن أبى وَقَّاص بنحو ذلك .

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سرجون مَولَى معاوية ، فأقرأه الكتب ، واستشاره فيمن يولِّيه أمر الكوفة ، وكان يزيد عاتبا علَى عُبيد الله بن زياد ، فقال له سرجون : أرأيْتَ لو نُشِر لك معاوية أكنت تأخذ برأيه ؟ قال : نعم . فأخرج له عهدَ عُبيد الله على الكوفة ، فقال : هذا رأى معاوية ومات وقد أمرَ بهذا الكتاب ، فأخذ يزيد برأيه ، وجمع له بين الكوفة والبصرة ، وكتب له بعهده

وسَيَّره إليه مع مسْلم بن عمرو الباهلىّ والِدِقُتيبة ، وأمره بطلب مسلم بن عَقِيل وقتله أو نفيه .

فلمّا وصل كتابه إلى عُبيد الله تجهز ليسير من الغد .

وكان الحسين قد كتب إلى أشراف البصرة ، منهم مالك بن مِسْمع ، والأحنف بن قيسْ والمنذر بن الجارود ، ومسعود بن عمرو ، وقيس بن الهيثم ، وعمر بن عبيد الله بن مَعْمَر . يدعوهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فإن السنة قد ماتت ، والبدعة قدأُحييت ، فكلهم كتم كتابه إلاالمنذر بن الجارود ، فإنه خشى أن يكون دسيسا من بن زياد ، فأتاه بالرسول والكتاب ، فضرب عنق الرسول ، وخطب الناس ثم قال فى آخر كلامه : « ياأهل البصرة ، إن أمير المؤمنين ولاّنى الكوفة ، وأنا غادٍ إليها بالغد ، وقد استخلفت عليكم أخى عُثمان بن زياد ، فإياكم والخلاف والإرجاف ، فواللهِ لئن بلغنى عن رجل منكم خِلافٌ لأقتلنَّه وعَرِيفَه ووليَّه ، ولآخذن الأدنى بالأقصَى حتى تستقيموا ولا يكون فيكم خلاف ولا شِقاق[1] إنى أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطىء الحصَى ، فلم ينتزعنى شَبَهُ خالٍ ولا ابن عمّ ! » .

ثم خرج من البصرة ومعه مسلم بن عمرو الباهلىّ وشريك ابن الأعور الحارثى وحَشَمُه وأهل بيته ، وكان شريك شِيعيا . وقيل : كان معه خمسُمائة فتساقطوا عنه ، وكان أول من سقط شريك ، ورجَوا أن يقف عليهم فيسبقه الحسين إلى الكوفة ، فلم يقف على أحد منهم حتّى دخل الكوفه وحده ، فجعل يمر بالمجالس فلا يشكُّون أنه

(١) عند الطبرى وابن الأثير : « مخالف ولا مشاق » .

الحسين بن عليّ فيقولون : مرحبا بك يا ابن رسول الله ، وهو لايكلمهم ، وخرج إليه الناس من دورهم ، فساءه ما رأى منهم .

وسمع به النعمان ، فأغلق عليه الباب ، وهو لايشكُّ أنه الحسين ، وانتهى إليه عبيد الله ومعه الخلق يصيحون ، فقال له النعمان : « أنشُدك الله إلا تنحيت عني ، فَوَاللهِ ماأنا مسلم إليك أمانتي ، ومالي في قتالك من حاجة ! » فدنا منه عبيد الله وقال : « افتح لافتحت ! » فسمعها إنسان خلفه فرجع إلى الناس فقال : إنه ابن مَرجانة [1] ! » ففتح له النعمان فدخل ، وأغلقوا الباب وتفرق الناس .

وأصبح فجلس على المنبر ، وقيل بل خطبهم من يومه ، فقال : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين وَلاّني مِصركم وثَغْركم وفيئكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم ، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشِّدة عَلى مُريبكم وعاصيكم ، وأنا متبع فيكم أمره ، ومُنْفذ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم كالوالد البر ، ولمطيعكم كالأخ الشقيق ، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فَلْيُبقِ امرؤ على نفسه » . ثم نزل .

وأخذ العُرفاء والناسَ أخذا شديدا ، وقال : « اكتبوا إلى الناس الغرباء ، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ، ومن فيكم من الحَرورية وأهل الريب الذين رأيُهم الخِلاف والشِّقاق ، فمن كتبهم لي فقد بريء ، ومن لم يكتب لنا أحدا فليضمن لنا مافي عرافته لايخالفنا فيهم مخالف ، ولايبغي علينا منهم باغ ، فمن لم يفعل فبرئت منه الذمَّة ، وحلال

(١) مرجانة : أم عبيد الله بن زياد ، وسيأتي بعض ما يتعلق بها .

لنا مالُه ودمه ، وأيُّما عَريف وُجد فى عِرافته أحد من بُغْية أمير المؤمنين لم يرفعه إلينا صُلِب على باب داره ، وأُلغيت تلك العِرافيه من العطاء وسُيِّر إلى موضع بعُمان » . ثم نزل .

قال : وسمع مسلم ابن عَقِيل بمقالة عُبيد الله فخرج من دار المختار وأتى دار هانئ بن عُروة المرادى فدخل بابه واستدعاه ، فخرج إليه ، فلما رآه كرِه مكانه ، فقال له مسلم : أتيتك لتجيرنى وتضيفنى . فقال هانئ . « ـ لقد كلّفتَنى شَطَطا ، ولولا دخولك دارى لأحببت أن تنصرف عنى ، غير أنه يأخذنى من ذلك ذِمام [1] ، ادخل ! » فآواه ، واختلفت الشيعة إليه فى دارهانىء .

قال ومرض هانئ ، فأتاه عُبيد الله يعوده ، فقال له عُمارة بن عمير [2] السلولىّ : دعنا نقتل هذا الطاغية ، فقد أمكن الله منه ، فقال هانئ ما أحب أن يُقْتَل فى دارى ، وجاء ابن زياد فجلس عنده ثم خرج ، فما مكث إلا جمعة حتى مرض شريك بن الأعور ، وكان قد نزل على هانىء ، وكان كريما على ابن زياد وعلى غيره من الأُمراء ، وكان شديد التشيع ، فأرسل إليه ابن زياد : إنى رائح إليك العشية . فقال لمسلم ابن عَقِيل : « إن هذا الفاجر عائدى العشية فإذا جلس فاقتله ثم اقصد القصر ليس أحد يحول بينك وبينه ، فإن بُريتُ من وجعى سرت إلى من بالبصرة فكفيتك أمرهم » . فلمّا كان من العشىّ أتاه عُبيدالله فقام مُسلم بن عُقِيل ليدخل ، فقال له شريك لايفوتنّك إذا جلس . فقال هانىء بن عُروة : إنى لاأحبّ أن يقتل فى دارى . وجاء عُبيد

(١) الذمام : العهد .

(٢) فى تاريخ بن جرير : « عبيد » .

الله فجلس عند شريك وأطال ، فلما رأى شريك أن مسلما لايخرج خشِى أن يفوته ، فأخذ يقول : « ماتنظرون بسلمَى أن تحيُّوها ! اسقونيها [١] وإن كانت فيها نفسى ! » يقول ذلك مَرَّتين أوثلاثا ، فقال عبيد الله : « ماشأنُه ؟ ترَونه يخلط ! » فقال هانئ : « نعم ، مازال هذا دأبه قُبيل الصبح حتَّى ساعته هذه » . فانصرف .

وخرج مسلم ، فقال له شريك : مامنعك من قتله ؟ فقال : « أمران : أحدهما كراهية هانئ أن يُقتَل فى منزله ، والثانى حديثٌ حدَّثَه علىٌّ [٢] رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الإيمانُ قَيْدُ [٣] الفَتْك فلايفتك مؤمن » . فقال هانئ : لوقتلتَه لقتلتَ فاسقا فاجرا كافرا غادرا !.

ومات شريك بعد ذلك بثلاث ، فصلَّى عليه عُبيد الله ، فلمَّا علم أنه كان يحرِّض مُسْلما على قتله قال : والله لا أُصلِّى على جنازة عراقى أبدا ! .

قال : وكان عُبيد الله بن زياد قد أعطى مَوْلًى [٤] له ثلاثة آلاف درهم وأمره أن يتلطَّف فى الدخول على مسلم بن عَقيـل وأصحابه ،

---

(١) كذا جاء فى الأصل مثل الكامل ، وفى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٧١ « اسقنيها » .

(٢) ورواه أبو داود وأحمد وغيرهما عن أبى هريرة والزبير ومعاوية .

(٣) كذا جاء ضبطه فى بعض كتب الحديث ، وضبط فى مادة (ف ت ك) من نسخ النهاية لابن الأثير « قيد » بتشديد الياء مفتوحة ، وجاء فى مادة (ق ى د) من النهاية : « قيد الإيمان الفتك ، أى أن الإيمان يمنع عن الفتك كما يمنع القيد عن التصرف ، فكأنه جعل الفتك مقيداً ومنه قولهم فى صفة الفرس : هو قيد الأوابد » ، وكذلك جاء فى لسان العرب . ويرى بعض العلماء أن الحديث « الإيمان قيد الفتك » أحسن من قول امرىء القيس « قيد الأوابد » انظر فيض القدير ج ٣ ص ١٨٦ ، والفتك : أن يقتل الرجل جهاراً آمناً غافلا .

(٤) اسمه « عقيل » .

[وقال] [١] : أعطِهم هذا المالَ وأعْلِمْهم أنك منهم واعْلم أخبارَهم . ففعل ، وأتى مُسلمَ بن عَوْسَجة الأسديّ [٢] فقال له : « ياعبد الله ، إنى امرُؤٌ من أهل الشام ، أنْعَم الله علىَّ بحُبّ أهل البيت ، وهذه ثلاثة آلاف درهم أردتُ بها لِقاء رجل منْهم بلغنى أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سمعتُ نفَرًا يقولون : إنك تعرف أمر هذا البيت ، وإنى أتيتك ليقبض المال وتدخلنى على صاحبك أبايعه ، وإن شئت أخذت بيعتى له قبل لقائه » . فقال : « لقد سَرَّنى لقاؤك إيَّاى لتنال الذى تحبّ ، وينصر اللهُ بك أهل [بيت نبيه] [٣] وقد ساءنى معرفة الناس هذا الأمر من قبل أن يتم ، مخافة هذا الطاغية وسطوته » فأخذ بيعته و لمواثيق المعظمة ليناصحنَّ ولَيَكْتُمنَّ .

واختلف إليه أيّاما ، حتى أدخله على مسلم بن عَقِيل ، فأخذ بيعته وقبض ماله ، وذلك بعد موت شريك ، وجعل يختلف إليهم ويعلم أسرارهم وينقلها إلى ابن زياد .

وكان هانئ قد انقطع عن عُبَيد الله بعذر المرض ، فدعا عبيدُ الله محمدَ بن الأشعث وابن أسماء [٤] بن خارجة ، وعمر بن الحجاج الزُّبيديّ ، فسألهم عن هانئ وانقطاعِه ، فقالوا إنه مريض . قال :

---

(١) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .

(٢) زاد الطبرى وابن الأثير « بالمسجد » .

(٣) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، وسقطت من (ك) .

(٤) ابن أسماء هو حسان بن أسماء بن خارجة ، كما يأتى قريباً ، وفى تاريخ الطبرى والكامل : « وأسماء » .

بلغنى أنه يجلس على باب داره وقد برئ ، فأْتُوه فمُروه لايدع ما عليه فى ذلك [من الحق] (١) .

فأتَوه فقالوا له : « الأمير قد سأل عنك ، وقال : لو أعلم أنه شاكٍ لعُدْتُه ، وقد بلغه أنك تجلس على باب دارك ، وقد استبطأك ، والجَفا لا يحتمله السلطان ، أقْسَمنَا علَيك لَمَّا ركبتَ معنا » . ففعل فلما دنا من القصر أحسَّت نفسه بالشر ، فقال لحسّان بن أسماء ابن خارجة : يابن أخى إنى لهذا الرجل لَخائف ، فما ترى ؟ فقال ما أتخوف عليك شيئا ، فلا تجعل على نفسك سبيلا ، ولا يعنم أسماء (٢) مما كان شيئا .

قال : فدخـــل القوم على ابن زياد ، فلما رأى هانىء بن عُرْوَة قال لشُريح القاضى : أتتك بحائن رجلاه (٣) . فلما دنا منه قال عُبيد الله (٤) :

أُريدُ حياتَه (٥) ويُريد قَتْلى عَذِيرَكَ مِنْ خَليلكَ مِن مُراد

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٢) كذ جاء هنا مثل الكامل وتاريخ الطبرى ، وانظر ما سبق قريبا .

(٣) « أتتك بحائن رجلاه » مثل عربى قديم، قيل : قائله عبيد بن الأبرص الأسدى إذمر بالنعمان بن المنذر فى يوم بؤسه فقال له النعمان : ما جاء بك يا عبيد ؟ قال : أتتك بحائن رجلاه . وقيل : قائله الحارث ابن جبلة ، إذ هجاه الحارث بن عيف العبدى ثم وقع فى أسره . انظر الفاخر ص ٢٥٠ — ٢٥١ ومجمع الأمثال ج ١ ص ٢٣ وقال صاحب لسان العرب : حان الرجل : هلك ، وفى المثل « أتتك بحائن رجلاه » والأولى أن يفسر « الحائن بالذى قدر حينه ، أى هلاكه ، كما ذكر الميدانى فى شرح المثل « لا يملك الحائن حينه » ج ٢ ص ١٧٧

(٤) قال عبيد الله بن زياد هذ البيت متمثلا به، وقد تمثل به على بن أبى طالب من قبل ، والبيت من قصيدة لعمرو بن معد يكرب وقد سبق بيان ذلك .

(٥) فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٧٢ « حياته » ، وفى الكامل ج ٣ ص ٢٧٠ «حياته» وانظر ما سبق .

فقال له هانئ وماذاك ؟ فذكرله خبر مُسلم بن عَقِيل ، وأنه فى داره ، فأنكر ذلك ، وطال بينهما النزاع ، فاستدعى عبيد الله مولاه الذى كان يأتيهم ، فجاء فوقف بين يديه ، فقال : أتعرف هذا فقال نعم . وعلم هانئ أنه كان عَيْنا عليهم ، فَسُقط فى يده ساعة ، ثم راجعته نفسه فقال : « اسمع منى وصدقنى ، فوالله لا أكذبك ، والله مادعوته ولاعلمت بشىء من أمره حتى رأيته [جالسا] (١) على بابى يسألنى النزول علىّ ، فاستحييت من رَدِّه ودخلنى من ذلك ذِمام ، فأدخلته دارى وضِفته ، وقد كان من أمره الذى بلغك ، فإن شئت أعطيتُك الآن مَوْثِقا تطمئن إليه ، ورَهينة تكون فى يدك حتّى أنطلق وأخرجه من دارى وأعود إليك » فقال : لاوالله لاتفارقنى أبدا حتّى تأتينى به . قال : لاآتيك بضيفى لتقتله أبدا ، فقال ابن زياد : والله لَتأتينِّى به أولأضربَنَّ عنقك . قال إذًا والله تكثر البارقة (٢) حول دارك . فقال : أبِالبارقة تخوفنى ؟ ! .

وقيل إن هانئا لما رأى ذلك اللعين قال : أيها الأمير إنه قد كان الذي بلغك ، ولم أضيع يدك عندى ، فأنت آمن وأهلك فسرحيث شئت ، فأطرق عُبيد الله عند ذلك ومِهْرانُ (٣) قائم على رأسه ، فقال واذلاه ! هذا الحائك يؤمنك فى سلطانك ! فقال : خذه ، فأخذ مهران ضفيرتى هانئ ، وأخذ عُبيد الله القضيب ولم يزل يضرب به أنفه وجبينه وخديه حتى كسر أنفه ، وسَيَّل الدِّماء على ثيابه ، ونثر لحم

(١) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .

(٢) البارقة : السيوف .

(٣) مهران الترجمان كان له تأثير فى عبيد الله بن زياد .

خديه وجبينه على لحيته حتى كسر القضيب ، وضرب هانئ يده إلى قائم سيف شُرطى وجبذه فمنع منه ، فقال عُبيد الله : أَحَرُورى [١] ! أحللت بنفسك وحل لنا قتلك ، ثم أمر به فأُلقى فى بيت وأُغلق : فقام إليه أسماء بن خارجة وقال : « ياغادر أرسله ؛ أمرتنا أن نجيئك بالرجل فلما أتيناك به هشمت وجهه ، وسيَّلتَ دمه ، وزعمت أنك تقتله » . فأمر به عُبيد الله فلُهز وتُعْتع [٢] ثم تُرِك فجلس [٣] . وأما ابن الأشعث فقال : رضينا بما رأى الأمير ، لنا كان أو علينا .

وبلغ عمرو بن الحجاج أن هانئا قد قتل ، فأقبل [فى [٤]] مَذْحج حتَّى أحاطوا بالقصر ، ونادى : « أنا عمرو بن الحجاج ، هذه فرسان مَذْحج ووجوهها ، لم نخلع طاعة ، ولم نفارق جماعة . فقال ابن زياد لشُرَيح القاضى : « ادخل علَى صاحبهم ، فانظر إليه ، ثم اخرج إليهم فأعلمهم أنه حى [لم يُقتل وأنك قد رأيته [٥]] ، فدخل عليه ، وخرج إليهم فقال . قد نظرت إلى صاحبكم وأنه حىّ لم يقتله ، فقالوا : إذ لم يقتله فالحمد لله ، ثم انصرفوا .

---

(١) نص لفظ عبيد الله « أهرورى » بالهاء بدلا من الحاء ، كما ذكره الجاحظ فى البيان والتبيين ج ١ ص ٧٢ وذكر فى مواضع من هذا الكتاب وابن قتيبة فى المعارف أن عبيد الله كان خطيباً على لكنة كانت فيه ، لأنه نشأ فى الأساورة — وهم قوم من العجم نزلوا البصرة قديماً — مع أمه مرجانة ، وكان زياد قد زوجها من شيرويه الأسوارى ودفع إليها عبيد الله .

(٢) اللهز : الدفع والضرب . والتعتعة : التحريك بعنف .

(٣) كذا جاء فى الأصل موافقاً لما فى الكامل ، وجاء فى تاريخ الطبرى : « فحبس » . ومما يذكر أن عبد الله بن زياد تزوج هند بنت أسماء بن خارجة كما فى الأغانى ج ١٨ ص ١٢٨ .

(٤) ثبتت هذه الكلمة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .

(٥) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٧٤ .

ذكر ظهور مسلم بن عقيل

واجتماع الناس عليه ، ومحاصرته عُبيد الله بن زياد بالقصر وكيف خذله من اجتمع إليه وتفرقوا عنه وخبر مقتله ومقتل هانئ بن عُروة

قال [١] : ولما أتى الخبر مسلم بن عَقِيل خرج من دار هانئ ، ونادى فى أصحابه : « يامنصور أمت » [٢] وكان قدبايعه ثمانية عشر ألفا ، وحوله فى الدور أربعة آلاف ، فاجتمع إليه ناس كثير ، فعقد لعبد الله بنُ عزَير الكِندىّ على ربع كندة ، وقال : سر أمامى . وعقد لمسلم بن عَوْسَجة على ربع مَذْحج وأسد ، وعقد لأبى ثُمَامة الصائدىّ على ربع تميم وهمدان ، وعقد لعباس بن جَعْدة الجَدَلىّ على ربع المدينة ، وأقبل نحو القصر .

فلما بلغ ابن زياد إقبالُه تَحرز بالقصر وأغلق الباب ، وأحاط مسلم بالقصر ، وامتلأ المسجد والسوق بالناس ، ومازالوا يجتمعون حتّى المساء ، وضاق بعبد الله أمره ، وليس معه فى القصر الإثلاثون رجلا من الشُّرَط ، وعشرون من الأشراف وأهل بيته ومواليه ، وأقبل أشراف الناس يأتون [ابن زياد] [٣] من قبل الباب الذى يلى دار الروميين ، والناس يسبون ابن زياد وأباه .

فدعا ابن زياد كثير بن شهاب الحارثى ، وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مَذْحج فيخذِّلَ الناسَ عن ابن عقيل ويخوفَهم ، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كِنْده وحضرموت فيرفع راية

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٧١ .
(٢) كان هذا شعارهم .
(٣) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٧٦ .

الأمان لمن جاءه من الناس ، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شَوْر الذُّهْلى ، وشَبَث بن رِبْعى التميمى ، وحَجَّار بن أَبْحَر العجْلى ، وشمر بن ذى جَوْشَن الضبابىّ [1] وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم ، لقلة من معه .

وخرج أولئك النفر على الناس من القصر ، فمنوا أهل الطاعة ، وخوَّفوا أهل المعصية ، فلما سمع الناس مقالة أشرافهم تفرقوا ، حتَّى إن المرأة لتأتى ابنها وأخاها ، فتقول : « انصرفْ ، الناسُ يَكْفونك » ، ويفعل الرجل مثل ذلك .

فمازالوا يتفرقون حتى بقى مُسْلم بن عَقِيل فى المسجد فى ثلاثين رجلا [2] ، فلما رأى ذلك خرج نحو أبواب كِنْدة ، فلما وصل إلى الباب لم يَبْقَ معه أحد ، فمضى فى أزقَّة الكوفة لايدري أين يذهب .

فانتهى إلى باب امرأة من كِنْدة يقال لها طَوْعة (أم ولد كانت للأشعث ، فأعتقها ، فتزوجها أسيد الحضرمىّ ، فولدت له بلالا وكان بِلال قد خرج مع الناس ، وهى تنتظره) فسلَّم عليها ، وطلب منها ماء فسقته ، فجلس ، فقالت : ياعبد الله ألَم تشرب ؟ ! قال : بلى ؛ فقالت ، فاذهب إلى أهلك ؛ فسكت ، فكررت ذلك عليه ثلاثا فلم يبرح ؛ فقالت : سبحان الله ! إنى لاأحِلُّ لك الجلوس على بابى . فقال : ليس لى فى هذا المصر منزل ولا عشيرة ، فهل لكِ فى أجر معروف ، ولعلِّى أكافئك به بعد اليوم . قالت وماذاك ؟ قال :

(١) كذ جاء فى الأصل مثل الكامل ، وجاء فى تاريخ الطبرى : « العامرى »
(٢) هم الذين صلوا معه المغرب .

أنا مُسْلم بن عَقِيل ، كَذَبنى هؤلاء القوم وغَرُّونى . قالت : ادخُلْ ؛ فأدخلته بيتًا فى دارها [غير البيت الذى تكون فيه] [١] وعرضت عليه العَشاء فلَم يتعشَّ ، وجاء ابنها فرآها تكثر الدخول فى ذلك البيت ، فسألها ، فلم تخبره ، فألحَّ عليها ، فأخبرته ، واستكتمته وأخذت عليه الأيمان بذلك .

قال [٢] : وأمَّا ابن زياد ، فلما سكنت [٣] الأصوات قال لأصحابه : انظروا هل تَرَون منهم أحدا ؟ فنظروا فلم يَرَوا أحدا ، فنزل إلى المسجد قبل العَتَمة [٤] ، وأجلس أصحابه حول المنبر ، وأمر فنودى : « برئت الذمة من رجل من الشُّرَط والعُرفاء والمناكب والمقاتلة صَلَّى العَتمة [٥] إلا فى المسجد » فامتلأ المسجد ، فصلَّى بالناس ، ثم قام فحمد ثم قال : « أمَّا بعد ، فإن ابن عَقِيل السَّفيه الجاهل قد أتَى ما رأيتم من الخلاف والشِّقاق ، فبرئت الذمَّة من رجل وجدناه فى داره ، ومن أتانا به فله ديته » وأمرهم بالطاعة ولزومها ، وأمر الحصين ابن تميم أن يُمسك أبواب السكك ، ثم يفتش الدُّور .

وأصبح ابن زياد فجلس ، فأتَى بِلال إلى عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث وأخبره بمكان ابن عَقِيل ، فأتَى عبد الرحمن أباه وهو عند ابن زياد فساره بذلك ، فأخبر محمد ابن الأشعث ابنَ زياد ، فقال له : قم فأتنى به الساعة ؛ وبعث معه عمرو بن عُبَيد الله بن عباس

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٧٨ .
(٢) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٧٢ .
(٣) كذا جاء بالنون فى النسخة (ك) ، وجاء « سكتت » بالتاءين فى النسخة (ن) .
(٤) عتمة الليل : ظلمته .
(٥) كانت الأعراب يسمون صلاة العشاء « صلاة العتمة » تسمية بالوقت .

السُّلَمى فى سبعين من قيس ، فأتَوا الدار ، فخرج ابن عقيل إليهم بسيفه حتّى أخرجهم من الدار ، ثم عادوا إليه فحمل عليهم فأخرجهم مرارا ، وضربه بكر بن حُمْران الأحمرىّ فقطع شَفَته العُليا وسقط سنّتاه ، وضربه مسلم على رأسه وثَنّى بأُخرى، على حبل العاتق فكادت تطلع على جوفهْ ، فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيت ، وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار فى القصب ويلقونها عليه، فلما رأى ذلك خرج عليهم بسيفه فقاتلهم فى السكة ، فقال له محمد بن الأشعث : لك الأمان فلا تقتل نفسك ؛ فأقبل يقاتلهم ويقول :

أقسمـت لاأُقْتَلُ إلاّ حُـرّا وإنْ رأيتُ الموتَ شيئا نُكْرَا
ويخلط البارِدُ سخناً مرا رد شعاع النفس مُسْتقَرّا (١)
كلُّ امْرِىء يَومًا مُلاقٍ شرًّا أخاف أن أُكْذَبَ أو أُغَرّا

فقال له محمد بن الأشعث : إنك لا تُكذَب ولا تُخدع ، القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك ، وكان قد أثخِن بالحجارة ، وعجز عن القتال ، وأسند ظهره إلى حائط تلك الدار ، فأمّنه ابن الأشعث والناس غَيْر عمرو بن عُبيدالله السُّلَمى فإنه قال : لاناقتى فيها ولا جملى (٢) .

وأتى ببغلة فحُمل عليها ، وانتزعوا سيفه ، فكأنه أيس من نفسه فدمعت عيناه وقال : هذا أول الغدر . قال محمد : أرجو ألا يكون عليك بأس . قال : وما هو إلا الرجاء ! أين أمانكم ! ثم بكى ، فقال له عمرو بن عُبيد الله :

(١) كذا جاء فى الأصل ، وجاء عند الطبرى وابن الأثير : « رد شعاع الشمس فاستقرا »
(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) : « لا ناقة له فى هذا ولا جمل » .

مَن يطلب الذى تطلب إذا نزل به مثلُ الذى نزل بك لم يبك ، فقال : ما أبكى لنفسى ، ولكن أبكى لأهلى المنقلبين إليكم : أبكى للحُسين وآل الحسين . ثم قال لمحمد بن الأشعث : « إنى أراك تعجز[1] عن أمانى ، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلا يخبر الحسين بحالى ، ويقول له عنى : ليرجع بأهل بيته ولايغره أهل الكوفة ، فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ؟ » فقال ابن الأشعث : والله لأفعلنّ . وفعل[2] وأبَى الحسين الرجوع .

قال : وجاء محمد بمسلم إلى القصر فأجلسه على بابه[3] ودخل هو إلى ابن زياد فأخبره بأمانِه ، فقال له : ماأنت والأمان ! ما أرسلناك لتُؤمنه ، إنما أرسلناك لتأتينا به .

قال : ولما جلس مسلم على باب القصر رأى جَرّة فيها ماء بارد فقال اسقونى من هذا الماء ، فقال له مسلم بن عمرو الباهلى : أتراها ماأبرَدَها ! واللهِ لا تذوق منها قَطرةً حتّى تذوقَ الحميم فى نار جهنّم ! فقال له ابن عَقِيل : من أنت ؟ قال : « أنا مَن عرف الحقّ إذ أنكرتَه ، ونصح الأمة وإمامَه إذ غششته ، وسمعَ وأطاع إذ عصيته ، أنا مسلم بن عمرو . فقال له ابن عقيل : لأُمك الثُّكْل ،

---

(١) عند الطبرى وابن الأثير : « متعجز » .

(٢) دعا محمد بن الأشعث إياس بن المثل الطائى ، من بنى مالك بن عمرو بن ثمامة ، وكان شاعراً ، وكان لمحمد زواراً ، فقال له محمد : الق حسيناً فأبلغه هذا الكتاب، وكتب فى الكتاب ما أمره به مسلم بن عقيل ، وأعطى لرسوله إياس زاده وجهازه وراحلته ومتعة لعياله ، فخرج الرسول ومضى أربع ليال حتى استقبل الحسين بموضع يسمى «زبالة» ، فأخبره الخبر وبلغه الرسالة فقال له الحسين : كل ما حم نازل وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا .. وانظر ما سيأتى

(٣) وكان على باب القصر أناس ينتظرون الإذن ، منهم مسلم بن عمرو وعمارة بن عقبة ابن أبى معيط وعمرو بن حريث وكثير بن شهاب .

ما أجفاك وأفظّك وأقسى قلبك وأغلظك ! أنت يا ابن باهلة أولَى بالحميم والخلود فى نار جهنم منى ! » قال : فدعا عُمارة بن عُقْبة بماء بارد فصبّ له فى قدح ، فأخذ يشرب فامتلأ القدح دما : فعل ذلك ثلاثا ، ثم قال : لو كان من الرِّزق المقسوم لشربته .

وأُدخل على ابن زياد ، فلم يسلم عليه بالإمرة ، فقال له الحَرَشِى : ألاَ تسلِّم على الأمير . فقال : إن كان يريد قتلى فما سلامى عليه ! وإن كان لايريده فلَيَكْثُرَنَّ تسليمى عليه .فقال ابن زياد : لَعَمرى لَتُقْتَلَنَّ . قال : فدعنى أُوصى إلى بعض قومى . قال : افعل . فقال لعمر بن سعد بن أبى وَقَّاص : « إن بينى وبينك قرابة ، ولى إليك حاجة وهى سر » . فلم يُمكنه من ذكرها ، فقال له ابن زياد : لاتمتنع من حاجة ابن عمك . فقام معه ، فقال : «إن علىّ بالكوفة دَينا استدنتُه[1] أنفقته : سبعمائة درهم ، فاقْضِها عنّى ، وانظر جُثّتى فاستوهِبْها فَوارِها ، وابعث إلى الحسين فاردُدْه » . فقال عمر لابن زياد : أتدرى ماسارّنى ؟ فقال: أكثرتُمْ عَلَى ابن عمك ؛ فقال : الأمر أكبر من هذا . قال : اكتم على ابن عمك : قال الأمر أكبر من هذا ، وأخبره بما قال . فقال ابن زياد لايخونك الأمين ، ولكن قد يُؤْتَمن الخائن . أمّا مالُكَ فهو لك تصنع به ما شِئتَ ، وأمّا حُسين فإن لم يُرِدْنا لم نُرِدْه ؛ وإن أرادنا لم نكُفَّ عنه ، وأمّا جُثّته فإنا لا نُشفِّعُك فيها » وقيل : إنه قال : وأمّا جثته فإذا قتلناه لا نبالى ما صُنِع بها .

ثم قال : يا ابن عَقيل ، أتيتَ الناس وأمرهُم جميع وكلمتهم واحدة

(١) فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٨٢ : « استدنته منك قدمت الكوفة » .

لتشتيت بَيْنهم ، وتفريق كلمتهم. قال : « كلا ولكن أهل هذا المصر زعموا أنَّ أباك قتل خيارهم ، وسفك دماءهم وعمِل فيهم أعمال كِسْرىَ وقَيْصَر فأتيناهم لنأْمُر بالعدل ، وندعُوَ إلَى حكم الكتاب . فقال وما أنت وذاك ؟ ثم كانت بينهما مقاولة قال له ابن زياد فى آخرها : قتلنى الله إن لم أقتلك قِتْلةً لم يُقْتَلْها أحدٌ فى الإسلام ، فقال : « أمَا إنك أحقُّ مَن أحدث فى الإسلام ماليس فيه ، أمَا إنك لا تَدَعُ سوء القتلة وقُبْحَ المُثْلة وخُبْثَ السِّيرة ولُؤمَ الغلبة لأحدٍ من الناس أحقَّ بها منك ! » فشتمه ابنُ زياد وشتم حُسَيْنا وعليًا وعَقيلا ولم يكلِّمه مسلم .

ثم أمَر به ، فأُصْعِد فوق القصر وهو يستغفر الله تعالى ويُسبِّح ، وأُشْرِف به على موضع الحدادين [1] فضربت عنقه ، وكان الذى قتله بُكير بن حُمْران ، ثم أتبع رأسه جسده .

قال وقام محمد بن الأشعث فكلَّم ابن زياد فى هانئ بن عروة ، وقال قد عرفت منزلته من المصر وبيته ، وقد علم قومه أنى أنا وصاحبي . سقناه إليك ، فأنْشُدك اللهَ لمَّا وهبته ، فإنى أكره عداوة قومه ! »

فوعد أن يفعل ، ثم بدا له فأمر به حين قُتِل مسلم فأُخْرِج إلى السوق فضربتْ عُنقه .

وبعث عُبيد الله بن زياد برأسيهما إلى يزيد ، فكتب إليه يزيد يشكره ، ويقول له : « قد بلغنى أن الحسين بن علىّ توجه نحو العراق ، فضع المراصد والمَسالح واحترس ، واحبس على التُّهمة ، وخُذْ بالظِّنَّة ، غير ألاَّ تقتل إلا من قاتلك » .

(١) جاء فى تاريخ الطبرى : « أشرف به على موضع الجزارين اليوم » .

قال : وكان مخرج [مسلم بن[١]] عَقِيل بالكوفة [٢] لثَمان ليالٍ مَضَيْنَ من ذى الحجّة سنة ستين . وقيل : لتِسْع[٣] مَضَيْنَ منه .

وكان فيمن خرج معه المُختار[٤] بن أبى عُبيد ، وعبد الله[٥] بن الحارث بن نَوفل ، وطلبهما ابن زِياد وحبسهما .

وكان فيمن قاتل مسلما محمد بن الأشعث ، وشَبَث بن رِبْعىّ - وهو أحد من كتب إلى الحسين - والقَعْقاع بن شَوْر ، وجعل شَبَثُ يقول : انتظروا بهم إلى[٦] الليل يتفرقوا . فقال له القَعْقاع : إنك قد سَدَدْت عليهم وجه مَهْرَبهم ، فافْرِجْ لهم يتفرقوا .

وحج بالناس فى هذه السنة عمرو بن سعيد الأشدَق ، وهو عامل مكة والمدينة . وفيها مات أبو أُسَيْد الساعِدى[٧] ، واسمه مالك ابن رَبيعة ، وهو آخر من مات من البَدْرِيِّين[٨] ، وقيل : مات سنة خمس وستين . ومات حَكِيم بن حِزام[٩] وله مِائة وعشرون سنة ، ستون

---

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .
(٢) يوم الثلاثاء .
(٣) يوم الأربعاء .
(٤) خرج المختار براية خضراء .
(٥) خرج عبد الله براية حمراء وعليه ثياب حمر .
(٦) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) : « انتظروا بهم الليل » .
(٧) ينتهى نسبه إلى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكان مشهوراً بكنيته .
(٨) شهد بدرا وأحدا وما بعدها ، وكانت معه راية بنى ساعدة يوم الفتح .
(٩) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى هو بن أخى خديجة بنت خويلد زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان حكيم من سادات قريش ، وكان صديق النبى قبل المبعث ، وكان يوده بعد البعثة ، ولكنه تأخر إسلامه حتى أسلم عام الفتح ، وقد جاء الإسلام وفى يد حكيم الرفادة .

فى الجاهليه وستون فى الإسلام . ومات جماعة ممن لهم صحبة فى هذه السنة .

سنة احدى وستين

ذكر مسير[1] الحسين بن على رضى الله عنهما

وخبرِ مَن نَهاه عن المسير

كان مقتله بالطَّف علَى شاطئ الفُرات من أرض كَرْبَلاء ، وذلك فى يوم الجمعة لعَشْر خَلَوْنَ من المحَرَّم من هذه السنة .

ولْنبدأ بخبر مَسيره من مكة شرَّفها الله تعالى ، وسببِ مَسيره ومن أشار عليه بالمُقام بمكة وترْك المسير إلى الكوفة ، ثم نذكر ما كان من خبره فى مسيره إلى أن قُتِل رضى الله عنْه ، فنقول :

كان مسيره من مكَّة لقصْد الكوفة يَوم التَّرْوِيَة ، وكان سبب مسيره إلى الكوفة ما ورد عليه من كُتُب أهلها كما تقدم ، ثم أكَّد ذلك عنده وحَمَلَه عليه وقوَّي عزْمَه ورودُ كتاب مُسلم بن عَقيل بن أبى طالب عليه يخبره أنه بايَعه بالكوفة ثمانيةَ عشر ألفا ، ويستحثُّه على المسير إليها ، وكان هذا من مسلم فى ابتداء أمره[3] .

---

(١) ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٦ ممن توفى فى هذه السنة صفوان بن المعطل الصحابى ، وأبو مسلم الخولانى عبد بن ثوب ببلاد اليمن وهو الذى دعاه الأسود العنسى إلى أن يشهد أنه رسول الله فقال : لا أسمع أشهد أن محمداً رسول الله ، ويقال : إنه توفى فيها النعمان ابن بشير والأظهر أنه مات بعد ذلك ... وذكر ابن العماد فى شذرات الذهب ج ١ ص ٦٥ ممن توفى فى هذه السنة عمرة بن جندب الفزارى وعبد الله بن مغفل المزنى وبلال بن الحارث المزنى .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « مقدم » .

(٣) كان مسلم بن عقيل حيث ذهب فى أول أمره بالكوفة إلى دار هانىء بن عروة وبايعه ثمانية عشر ألفاً أرسل إلى الحسين مع عابس بن أبى شبيب الشاكرى كتاباً كتب فيه : « أما بعد إن الرائد لا يكذب أهله وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجل الإقبال حين يأتيك كتابى ، فإن الناس كلهم معك ، ليس لهم فى آل معاوية رأى ولا هوى ، والسلام » ، وانظر ما سيأتى .

قال [١] : ولما عزم الحسين رضى الله عنه على المسير إلى الكوفة أتاه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له : « إنى أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنتَ تَرى أنك تستنصحنى قلتها وأدَّيْتُ ماعلى من الحق فيها ، وإن ظننت أنك لاتستنصحنى كففت عمَّا أريد ! » فقال له : قل فوالله ما أستغشك ولا أظنك بشىء من [٢] الهوى . قال : « قد بلغنى أنك تريد العراق ، وإنى مشفق عليك أنك تأتى بلدا فيه عمّاله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال ، والناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمَنُ عليك أن يقاتلك من وعَدك نصره ومن أنت أحب إليه ممَّن يقاتلك معه ! » فقال له الحسين رضى الله عنه : جزاك الله خيرا يا ابن عمّ ، فقد علمت أنك مشيت بنصح ، وتكلمت بعقل ، ومَهْما يُقْضَ من أمر يكن ، أخذتُ برأيك أو تركته ، فأنت عندى أحمدُ مُشير ، وأنصَحُ ناصح .

وأتاه عبد الله بن عباس فقال له : قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبيِّنْ لى ما أنت صانع فقال له : قد أجمعتُ السير فى أحد يومَىَّ هذَين إن شاء الله تعالى . فقال له ابن عباس : «فإنى أعيذك بالله من ذلك ؛ خبِّرْنى رحمك الله ، أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ونفَوْا عدوّهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعَوْك إليهم وأميرهُمْ عليهم ، قاهرٌ لهم ، وعُمَّاله تجبى بلادهم ، فإنما دعَوك إلى الحرب ، ولا آمَن عليك أنْ يَغُرُّوك ويَكذِبوك ويخالفوك ويخذُلوك ويستنفروا إليك ، فيكونوا

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٢) فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٨٧ : « ما أظنك بسيء الرأى ولا هوى القبيح من الفعل » .

أشدّ الناسِ عليك ! » فقال الحسين : فإنى أستخير الله وأنظر ما يكون. فخرج ابن عباس .

وأتاه عبدالله بن الزُّبير فحدَّثه ساعة ، ثم قال: « ماأدرى مَاتركُنا هؤلاء القوم ، وكَفُّنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، وولاة هذا الأمر دُونَهم ؛ خبِّرْنى ماتريد أن تصنع ؟ ! » فقال الحسين : « لقد حدَّثتُ نفسى بإتيانى الكوفة ، ولقد كتب إلىّ شيعتى بها ، وأشراف الناس وأستخير الله » . فقال ابن الزبير : أما إنه لو كان لى بها مِثْل شيعتك ما عدلت عنها . ثم خشى أن يتهمه ، فقال أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمر هاهنا ماخالفنا عليك وساعدناك وبايعناك ونصحناك . فقال له الحسين رضى الله عنه : « إن ابى حدثنى أن لها كَبْشًا به تُسْتَحل حرْمتها ، فما أُحبّ أن أكون[1] ذلك الكبش ! » قال : فأقم إن شئت وتولينى أنا الأمر فتُطاع ولا تُعصَى ، قال : ولا أريد هذا الأمر أيضا. ثم إنهما أخفيا كلامهما ، فالتفت الحسين إلى من هناك وقال : أتدرون مايقول ؟ قالوا لا قال : فإنه يقول قمْ فى هذا المسجد أجمعْ لك الناس ، ثم قال الحسين : « واللهِ لَأَنْ أُقتَل خارجا منها بشبر أَحَبُّ إلَّى مِن أن أُقتل فيها ، ولَأَنْ أُقتل خارجًا منها بشبرين أَحَبُّ إلىَّ من أن أُقتل خارجا منها بشبر ، ويم الله ، لو كنت فى جُحْرِ هامة من هذه الهَوام لاستخرجونى حتى يقضوا فىَّ حاجتهم ، والله لَيَعْتَدُنَّ [علَى[2]] كما اعتدت اليهود فى السَّبْت ! » فقام ابن الزُّبير وخرج من عنده .

(١) جاء عند الطبرى وابن الأثير : « أكون أنا » .
(٢) الزيادة من الطبرى وابن الأثير .

فلما كان مِن العَشِيِّ أو من الغَدِ أتاه ابن عبّاس فقال : « يا ابن عم ، إنى أتصبر ولا أصبر ، إنى أتخوَّفُ عليك فى هذا الوجه الهلاكَ والاستئصال ، إن أهل العراق قومٌ غُدُر [1] فلا تَنفر إليهم [2] ، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم لينفوا عاملهم وعدوَّهم ، ثم قدَمْ عليهم ، فإن أبيتَ إلاَّ أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشِعابا ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت على الناس فى [3] عُزْلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبثُّ دعاتك ، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحبّ فى عافية ! » فقال له الحسين : « يا ابن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مُشْفِق ، وقد أزمعتُ وأجمعتُ المسير ! » فقال ابن عباس : « فإن كنت سائرًا فلا تسرْ بنسائك وصبيانك ، فإنى لخائف أن تقتل كما قُتِل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه ! » ثم قال له ابنُ عباس : « لقد أقررتَ عين ابن الزُّبير بالخروج من الحجاز ، وهو اليوم لاينظر إليه أحد معك ، والله لو أعلم أنى إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتّى يجتمع علينا الناس أطعتَنى فأقمتَ لفعلتُ ذلك ! » . ثم خرج من عنده .

فمرَّ بابن الزُّبير فقال : قَرَّت عينك يا ابن الزبير ، ثم قال [4] :

(١) كذا يجىء على الوصف ، ويجوز أن يكون « غدر » بفتح الغين وسكون الدال مصدرا مضافا إليه .

(٢) أى : فلا تسرع إليهم ، وجاء فى تاريخ الطبرى والكامل : « فلا تقربنهم »

(٣) كذا جاء فى الأصل مثل الكامل ، وجاء فى البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٠ « وكن من الناس فى معزل » وجاء فى مروج الذهب ج ٢ ص ٨٦ « فإنها فى عزلة » .

(٤) أى : قال هذا الرجز القديم متمثلا به ، كما تمثل به قيس بن سعد فى قوله لمعاوية ابن أبى سفيان : « فلونك أمرك يا معاوية ، فإن مثلك كما قال الشاعر : يالك من قبرة بمعمر ... » أنظر العقد الفريد ج ٤ ص ٣٤ .

يا لكِ من قُبَّرةٍ بِمَعْمَرِ (١) خَلاَ لكِ الجوُّ فبِيضِي واصْفِرِي (٢)
وَنَقِّرِي ما شئت أن تنقرِي (٣)

هذا حسين يخرج إلى العراق ويُخلِّيكَ والحجاز .

قال وخرج حسين من مكة يوم التَّرْوِية (٤) ، فاعترضه رُسل عمرو بن سعيد مع أخيه يحيَى يمنعونه ، فأَبَى عليهم ومضَى ، وسار فمر بالتنعيم (٥) فرأى عِيرًا قد أقبلتْ من اليَمن ، بعث بها بَحير

(١) القبرة : طائر صغير . والمعمر : المكان الواسع من جهة الماء والكلأ ينزل فيه النازلون فيعمرونه .

(٢) « خلاك الجو فبيضى واصفرى » مثل يضرب فى الحاجة يتمكن منها صاحبها ، كما ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٤٩ ، وذكر بن عبد ربه فى العقد الفريد ج ٣ ص ١٢٦ — ١٢٧ أن هذا المثل يقال فى « الرجل يخلو بحاجته » .

(٣) نقر الطائر فى الموضع : سهله ليبيض فيه ، وقيل : التنقير مثل الصفير .. وقد زاد ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٠ ، ص ١٦٥ فى التمثل بهذا الرجز مشطور رابعاً : « صيادك اليوم قتيل فابشرى » والمعروف فى رواية الرجز القديم : « قد رحل الصياد عنك فابشرى » .. والمشهور أن قائل هذا الرجز هو طرفة بن العبد الشاعر ، كما فى الحيوان ج ٣ ص ٦٦ ، ج ٥ ص ٢٢٧ والفاخر ص ١٨٩ — ١٩٠ والصحاح (ع م ر ، ق ب ر) ومجمع الأمثال وحياة الحيوان ، وذلك أن طرفة كان وهو صبى صغير مسافراً مع عمه فنزلا على ماء عليه قبرات ، فنصب طرفة فخاخها ، فنفرت ، وقعد عامة يومه فلم يصد شيئاً ، فانتزع فخه من التراب وحمله وارتحل مع عمه والتفت وراءه فرأى القبرات يلقطن ما نثر لهن من الحب ، فقال هذا الرجز ... وذكر ابن برى فى حواشيه على الصحاح أن هذا الرجز لكليب بن ربيعة التغلبى ، وليس لطرفه كما ذكر الجوهرى ، وذلك أن كليباً خرج يوماً فى حماه ، فإذا هو بقبرة على بيضها ، فلما نظرت إليه صرصرت وخفقت بجناحيها ، فقال لها : أمن روعك أنت وبيضك فى ذمتى ، ثم دخلت ناقة البسوس إلى الحمى فكسرت البيض ، فرماها كليب فى ضرعها ، فهاجت حرب بكر وتغلب ابنى وائل بسببها أربعين سنة ، انظر لسان العرب فى (ب ر) وفى (ع م ر ، نق ر)

(٤) يوم التروية هو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة ، سمى به لأن الحجاج كانوا يرتوون فيه من الماء وينهضون إلى منى .

(٥) التنعيم : موضع قريب من مكة فى الحل ، على فرسخين منها .

ابن رَيسان الحميرى عامل اليمن إلى يزيد ، وعليها الوَرْس[1] والحُلَل ، فأخذها الحسين ثم سار ، فلما انتهى إلى الصَّفَاح[2] لقيه الفرزدق الشاعر[3] فقال له الحسين : بين لى خبر الناس خلفك فقال : « الخبير سألت ، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل مايشاء ! » فقال الحسين صدقت ، لله الأمر يفعل مايشاء ، وربُّنا كل يوم فى شأن ، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه ، هو المستعان على أداء الشكر ، وإن حَالَ القضاء دون الرجاء فلم يتَعد[4] من كان الحق نيته ، والتقوى سريرته .

قال وأدرك الحسين كتابُ عبد الله بن جعفر مع ابنيه عَون ومحمد يقول : « أمّا بعد ، فإنى أسألك بالله لمّا انصرفتَ حين تقرأ كتابى هذا فإنى مُشفِق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، إن هلكت الآن طُفئ نور الأرض فإنك عَلَم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير ، فإنى فى إثر كتابى ، والسلام ! » .

وقام عبدالله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد وقال : « اكتُب للحسين كتابا تجعل له فيه الأمان ، وتمنيه فيه البِرَّ والصِّلة ، وترفق

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) مثل الكامل وتاريخ الطبرى ، وجاء فى النسخة (ك) : « الوشى » . والورس : نبت أصفر يزرع باليمن ويصبغ به — والوشى : نوع من الثياب المنقوشة .

(٢) الصفاح : موضع بين حنين ومكة .

(٣) كان الفرزدق يحج بأمه ويسوق بعيرها ، فلقى الحسين خارجاً من مكة ، فسأله الحسين : من أنت ؟ قال : الفرزدق : امرؤ من العراق ، فقال له الحسين : بين لى ... الخ .

(٤) عند الطبرى وابن الأثير : « فلم يعتد » .

فى كتابك ، وتسأله[1] الرجوع لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع . فقال له عمرو اكتب ماشئت ، وأتنى به حتى أختمه . فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ، ثم أتى به عمر بن سعيد : فقال : اختمه وابعث به مع أخيك يحيى فإنه أحرَى أن تطمئن به نفسه ، ويعلم أنه الجِدّ منك ففعل . وكان مضمون الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن على ، أما بعد ، فإنى أسأل الله أن يَصرِفَك عمّا يُوبقك ، وأن يَهديك لما يُرشدك . بلغنى أنك قد توجهت إلى العراق ، وإنى أعيذك بالله من الشِّقاق ، فإنى أخاف عليك فيه الهلاك ، وقد بعثت إليك عبدَ الله ابن جعفر ويحيى بن سعيد ، فأقبِل إلىّ معهما ، فإن لك عندى الأمانَ والصلة والبر وحسن الجِوار ، لَكَ الله علىّ بذلك شهيد وكفيل ، وراع ووكيل ، والسلام عليك » .

فأخذا الكتاب ولحقا حسينا ، فأقرأه يحيىَ الكتاب . وكان ممّا اعتذر به أن قال : إنى رأيت رُؤْيا ، رأيت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرت بأمر أنا ماضٍ له ، فقالا له : ما تلك الرؤيا ؟ قال : ما حدّثتُ أحدا بها ولا أنا محدِّث أحدًا بها حتّى ألقى ربّى .

وكتب الحسين إلى عمرو بن سعيد : « أمّا بعدُ ، فإنه لم يشاقق اللهَ ورسولَه من دعا إلى الله وعمِل صالحا وقال إننى من المسلمين ، وقد دعَوْتَ إلى الأمان والبِرّ والصلة ، فخير الأمان أمان الله ، ولن يؤمن بالله يوم القيامة من لم يخفْه فى الدنيا ، فنسأل الله مخافة فى

(١) كذا جاء فى الأصل مثل تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٩١ ، وجاء فى الكامل ج ٣ ص ٢٧٧ : « وأسأله » .

الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة ، فإن كنتَ نويتَ بالكتاب صِلتى وبرى فجُزيت خيرًا فى الدنيا والآخرة ، والسلام » .

قال[١] : ولمّابلغ ابْنَ زياد مَسيرُ الحسين من مكة بعث الحُصين ابن نُمير[٢] التّميمى صاحِبَ شرطته ، فنزل القادسية ، ونظم الخيل مابين القادسية إلى خَفّان[٣] ، ومابين القادسية إلى القُطْقُطانة وإلى جبل لَعْلَع .

وأقبل الحسين حتى إذا بلغ الحاجز من بطن الرُّمة بعث قيس بن مُسْهر الأسدىّ ثم الصَّيداوى إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن على إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لاإله إلا هو . أمّا بعد ؛ فإن كتاب مُسْلم بن عَقِيل جاءنى يخبرنى فيه بحسن رأيكم ، واجتماع مَلئِكم على نصرنا والطلب بحقّنا ، فنسأل الله أن يحسن لنا الصنع ، وأن يُثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شَخَصْتُ إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثَمانٍ مَضَيْنَ منْ ذى الحجّة يوم التَّرْوِية ، فإذا قدم عليكم رَسولى فانكمشوا[٤] فى أمركم وجِدوا ، فإنى قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله ؛ والسلام عليكم ورحمة الله » .

---

(١) ابن الأثير فى الكامل .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) : « تميم » ، واللذى فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٣ أنه الحصين بن نمير بن ناتل بن ليد بن جشنة بن الحارث بن سلمة بن شكلة ابن السكون ، وسيأتى وصفه بالسكونى .

(٣) خفان : موضع فوق القادسية ، وهو وما بعده مواضع بين الكوفة ومكة .

(٤) انكمشوا : تشمروا .

وكان مُسْلم بن عَقِيل قد كتب إلى الحسين قبل أن يقتل بسبع وعشرين ليلة ، أمّا بعد ؛ فإن الرائد لا يكذب أهله ، إن جميع [(١)] أهل الكوفة معك ، فأقبل حين تقرأ كتابي والسلام .

قال : وأقبل قيس بنُ مُسْهر بكتاب الحسين إلى أهل الكوفة ، فلما بلغ القادسية أخذه الحُصين بن نُمير [(٢)] فبعث به إلى ابن زياد ، فقال له عُبيد الله : اصعد [القصر] [(٣)] فسُبَّ الكذّاب ابن الكذّاب الحسين بن علي . فصعد قَيس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، إن هذا الحسين بن علّي رضى الله عنهما خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه » ثم لَعن عُبيد الله بن زياد وأباه ، واستغفر لعلّيّ ، فأمر به عُبَيد الله فرُمي من فوق القصر فتقطع فمات .

قال[(٤)] : ثم أقبل الحسين رضى الله عنه يسير نحو الكوفة ، فانتهى إلى ماء مياه العرب ، فإذا عليه عبد الله بن مُطيع العدَوىّ فلما رأى الحسين قام إليه ، فقال : بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ، ما أقدمك ؟ واحتمله فأنزله فقال له الحسين : إنه كان من موت معاوية ماقد بلغك ، فكتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم . فقال : « أذكرك بالله [(٥)] يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تُنْتَهك ، أنْشُدك الله

(١) فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٩٧ «جمع» ، وانظر ما سبق .
(٢) انظر ماسبق قريبا ، وفى المخطوطة « تميم » .
(٣) الزيادة من ابن الأثير والطبرى .
(٤) ابن الأثير فى الكامل ، وأصله عند الطبرى .
(٥) عند الطبرى وابن الأثير : « أذكرك الله » .

فى حرمة قريش [١] ، أنْشُدك الله فى حرمة العرب ، فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنى أُميَّة لَيقتلُنَّك ، ولَئن قتلوك لايهابون بعدُ أحدا أبدا ، والله إنها لحرمة الاسلام تُنْتَهك ، فلا تفعل ، ولا تأْت الكوفة ، ولا تُعرِّض نفسك لبنى أُمية ! » فأَبى إلاَّ أن يمضى .

فلما نزل بزرود [٢] أتاه الخبر بقتل مسلم ابن عَقِيل وهانئ ابن عروة ، فاسترجع [٣] مرارا ، فقال له عبد الله بن سليم والمذرى ابن المُشْمَعِلّ الأَسديان ، وكانا قد لحقاه حين قضيا حجهما : « ننْشُدك الله فى نفْسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا ، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة ، بل نتخوف أن يكونوا عليك ! » فوثب بنو عَقِيل فقالوا لا : والله لا نبرح حتَّى نُدرك ثأْرنا أونذوق ماذاق أخونا . فقال الحسين رضى الله عنه : لاخير فى العيش بعد هؤلاء . فقال له بعض أصحابه : إنك والله ما أنت مثل مُسلم بن عَقيل ، ولو قدِمْتَ الكوفةَ لكان الناس إليك أسرع . فانتظر الحسين حتى إذا كان السَّحر قال لفتيانة وغلمانه : أكثروا من الماء . فاستقوا فأكثروا ، ثم ارتحلوا حتَّى انتَهَوا إلى زُبَالة [٤] .

وقيل : كان الحسين لايمرّ بماء إلااتبعه أهل ذلك الماء ، حتى انتهى إلى زُبَالة ، فأتاه خبر مقتل أخيه من الرَّضاعة عبد الله بن يُقْطر ،

---

(١) كذا جاء فى الأصل مثل الكامل ، وجاء فى تاريخ الطبرى : « رسول الله صلى الله عليه وسلم »

(٢) قال ياقوت : « لعلها سميت بذلك لابتلاعها المياه التى تمطرها السحائب ، لأنها رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفه » .

(٣) استرجع : قال « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٤) زبالة : موضع معروف بطريق مكة من الكوفة .

وكان سَرَّحه إلى مُسلم بن عَقيل من الطريق ، وهو لايدرى أنه أُصيب فأخذه الحصين بالقادسية ، فبعث به إلى زياد فقال له : اصعد فوق القصر فالعن الكذابَ ابن الكذَّاب ثم انزل حتى أرى فيك رأيى ، فصعد فلما أشرف على الناس قال : « أيها الناس ، إنى رسول الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، لتنصروه وتؤازروه على ابن مَرْجانة ابن سمية الدَّعى ! » فأمر به عُبيد الله فألقى من فوق القصر إلى الأرض فتكسرت عظامه وبقى به رمق ، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير اللخمى[1] فذبحه ، فلمّا عِيب عليه ذلك قال : إنما أردت أن أريحه .

فلمّا بلغ الحسينَ الخبر قال لأصحابه : من أحبَّ منكم الانصراف فلينصرف غير حرج ، ليس عليه منا ذِمَام ؛ فتفرق الناس عنه حتى بقى فى أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة .

قال : وإنما فعل ذلك لأنه علم أن الأعراب ظنت أنه يأتى بلدا قد استقامت له طاعة أهله ، فأراد أن يعلموا عَلامَ يقدمون .

قال ثم ارتحل الحسين وسار حتى مر ببطن العقبة فنزل بها ، فأتاه بعض الأعراب فسأله عن مقصده فأخبره ، قال : « إنى أنشُدك الله لمّا انصرفت ، فوالله ماتقدم إلاّ على الأَسِنَّة وَحدَّ السيوف ، إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفَوْك مؤنة القتال ووطَّئوا لك الأشياء فقدمتَ عليهم ، كان ذلك رأيا ، فأما على هذه الحال التى تذكر فإنى

(١) قال بعض العلماء : لم يكن الذى ذبحه عبد الملك بن عمير ، ولكنه رجل جعد طوال يشبه عبد الملك .

لا أرى لك أن تفعل ! » فقال الحسين : يا عبد الله ، إنه ليس يخفَى علىَّ مارأيت ، ولكن الله لا يُغْلَب على أمره ! .

ثم ارتحل منها وقد استهلَّت إحدى وستين ، وسار حتَّى نزل شَراف[1] فلما كان فى السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء وأكثروا ، ثم ساروا منها صَدْرَ يومهم حتَّى انتصف النهار ، فكبَّر رجل من أصحابه فكبر الحسين ، وقال : ممَّ كَبَّرْتَ ؟ قال : رأيت النخل ، فقال عبدالله بن سليم والمذرى ابن المُشْمَعِل الأسديان : والله إن هذا المكان ما رأينا فيه نخلة قط ، قال : فما تريان . قالا : نراه والله [رأى][2] هَوادى[3] الخيل . فقال الحسين : وأنا والله أرى ذلك ، مَالنا ملجأٌ نلجأُ إليه نجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ؟ فقيل له : « بَلى هذا ذوحُسَم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك ، فإن سبقَت القوم إليْه فهو كما تريد ، فمال إليه ، فما كان بأسرع من أن طلعتْ هَوداى الخيل ، فلما رأوْهم قد عدلوا عن الطريق عدلوا عنها إلى قصدهم ، فسبق الحسين إلى ذى حُسَم ، فنزل وأمر بأبنية[4] فضُربت ، وجاء القوم وهم ألف فارس عليهم الحرُّ بن يزيد التميمى ، فجاءوا حتى وقفوا مقابل الحسين رضى الله عنه : وكان مسير الحر ومن معه من القادسية من قبل الحُصَين بن نُمير[5] التميمى .

(١) شراف : موضع بعد العقبة وواقصة وقبل القرعاء فى الطريق من مكة إلى الكوفة .

(٢) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٠٢ .

(٣) هوادى الخيل : أوائلها ، والهادى والهداية : العنق ، لأنها تتقدم على البدن ولأنها تهدى البدن .

(٤) أبنية : جمع بناء ، وهو مايسكنه الناس ، فيطلق على مايضربه العرب فى الصحراء من خيمة وغيرها .

(٥) كذا جاء فى تاريخ الطبرى والكامل ج ٣ ص ٢٧٩ : « نمير » وجاء فى المخطوطة : « تميم » وانظر ما سبق .

فلم يزل الحُرُّ مواقفا حسينا حتى حضرت صلاة الظهر ، فأمر الحسين الحجاج بن مسروق الجُعفى أن يؤذن ، فأذن ، فلما حضرت الإقامه خرج الحسين رضى الله عنه ، فى إزار ورداء ونعلين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيُّها الناس ، معذرة إلى الله وإليكم ، إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ، وقدمت على رسلكم أن اقْدمْ علينا فإنه ليس لنا إمام لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق ، إن كنتم على ذلك فقد جئتكم ، فإن تُعطونى ماأطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمَقْدَمى كارِهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه ، وقال للمؤذن : أقِم. فأقام الصلاة ، فقال الحسين للحر: أتريد أن تصلى بأصحابك؟ فقال : لا ، بل صَلِّ أنت ونصلى بصلاتك ، فصلَّى بهم الحسين ، ثم دخل واجتمع إليه أصحابه .

وانصرف الحر فدخل خيمة قد ضُربت له ، واجتمع عليه جماعة من أصحابه ، وعاد بعض أصحابه إلى صَفِّهم الذي كانوا فيه ، ثم أخذ كل رجل بعِنان دابته وجلس فى طلبها .

فلما كان وقت العصر أمر الحسين أصحابه أن يتهيئوا للرحيل ففعلوا ، ثم خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر وأقام ، وصلى الحسين بالقوم جميعا ، ثم سلم وانصرف إليهم بوجهه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أمّا بعد ، أيها الناس ، فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضَى لله ، ونحن أهلَ البيت أوْلَى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجوْر والعُدْوان ، فإن أنتم كرِهتمونا وجهِلتم حَقَّنا وكان رأيكم غير ماأتتنى به

كتبكم ، وقدِمت علَيَّ به رُسُلكم ، انصرفتُ عنكم » ، فقال له الحر : إنَّا واللهِ ماندرى ماهذه الكتب والرسل التى تذكر . فأمر الحسين رضى الله عنه بإخراج كتبهم ، فأُخرجت فى خرجين مملوءين ، فنثرهما بين أيديهم ، فقال الحر : إنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك ، وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نُقْدِمك الكوفة على عُبيد الله بن زياد . فقال له الحسين : الموت أَدْنَى إليك من ذلك ، ثم قال لقومه : قوموا فاركبوا ، وركب نساؤهم .

فلما أرادوا الانصراف حال القوم بينهم وبين المسير ، فقال الحسين للحر : ثَكِلَتْك أُمُّك ! ماتريد؟ قال له : « أمَا واللهِ لو غيرُك مِن العرْب يقولها وهو على مثل الحال التى عليها ما تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله كائنًا من كان ، ولكن واللهِ ما إلى ذكر أُمِّك من سبيل إلا بأحسن مانقدر عليه » ، فقال له الحسين : ماتريد؟ قال : أُريد أن أنطلق بك إلى عُبيد الله بن زياد . فقال له الحسين : إذًا والله لا أتبعك فقال الحر : إذًا واللهِ لا أدعك . فَترادَّا القول ثلاث مرات ، فلما كثر الكلام بينهما قال الحر : « إنى لم أُومَرْ بقتالك ، إنما أُمرت أن لا أُفارقك حتى أُقْدِمَك الكوفة ، فإذا أبيت فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة يكون بينى وبينك نصفا ، حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه ، أو إلى عُبيد الله إن شئت ، فلعل الله أن يرزقنى العافية من أن أُبْتَلَى بشىء من أمرك ! » قال : فتياسر عن [1] طريق العُذَيب والقادسية ، وبينه حينئذ وبين العُذَيب ثمانية وثلاثون ميلا . ثم سار والحرُّ يسايره .

(١) عبارة الطبرى : « قال : فخذ من ههنا فتياسر . . . . » .

قال [١] : ثم إن الحسين خطبهم [٢] فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من رأى سلطانا جائرا ، مستحلاً لحُرَم الله ، ناكثا لعهده ، مخالفا لسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان حقًّا على الله أن يُدخلهُ مُدْخَله » . ألاَ وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطَّلوا الحدود واستأثروا بالفَىء ، وأحَلُّوا حرام الله ، وحَرَّمُوا حلاله ، وأنا أحق من غيرى [٣] ، وقد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلمونى ولا تخذلونى ، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رُشْدكم ، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهلكم ، فلكم بى أُسْوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدى وخلعتم بيْعتى فلَعَمرى ماهى لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبي وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغترَّبكم ، فحظَّكم أخطأتم ونصيبكم ضيَّعتم ، ومن نكَث فإنما ينكُث على نفْسه ، وسيُغنى الله عنكم ، والسلام .

فقال له الحر : إنى أُذكِّرك الله فى نفْسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لَتُقْتلنَّ ، فقال الحسين رضى الله عنه : أبالموت تخوِّفنى ؟ ! وهل يعدو بكم الخَطْب أن تقتلونى ! وما أدرى ما أقول لك ؟ ! ولكنى أقول

(١) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٨٠ .
(٢) أى : خطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد التميمى بالبيضة .
(٣) الزيادة من تاريخ الطبرى .

كما قال أخو الأوس لابن عمه ، [لقيه] [١] وهو يريد نصرة النبي صلى الله عليه وسلم ، [له] [٢] فقال أين تذهب فإنك مقتول ؟ ! فقال :

سأمضي ومابالموت عار على الفتى إذا مانوى خيراً وجاهد مسلما
وآسى الرجالَ الصالحين بنفسه وفارقَ مَثْبورًا وخالف مُجْرِمًا
فإن عشتُ لم أندم وإن متّ لم أُلَمْ كفى بك ذُلاً أن تعيش وتُرْغمَا

قال : فلما سمع الحُرّ ذلك تنحى عنه ، فكان يسير ناحية عنه ، حتى انتهوا إلى عُذَيب الهِجانات [٣] ، فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم يجنبون فرسا لنافع بن هلال يقال له الكامل ، ومعهم دليلهم الطِّرِمَّاح وهو يقول :

يا ناقتا لا تُذْعَرِى من زَجْـرِى وشَمِّرى قبلَ طلوعِ الفجرِ
بخير رُكْبانٍ وخيرِ سَفْرِ حتَّى تجلِّى بكريم النحـر
الماجد الحر رحيب الصَّدر أتَى به اللهُ لخيرِ الأمْـــرِ
ثُمَّت أبقاه بقاء الدهر

فلما انتهوا إلى الحسين رضى الله عنه والتحقوا به ، فقال الحر : إن هؤلاء النفر الذين من أهل الكوفة ليسوا ممن أقبلوا معك ، وأنا حابِسُهم أو رادُّهم ؛ فقال الحسين رضى الله عنه : « لأمنعنهم

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .
(٢) الزيادة من تاريخ الطبرى .
(٣) عذيب الهجانات : موضع بطريق الكوفة .

مما أمنع منه نفسى ، إنما هؤلاء أعوانى وأنصارى ، وقد كنتَ أعطيتنى ألا تَعْرِض لى حتى يأتيَك كتاب من ابن زياد » ؛ قال : أجَلْ ولكن هؤلاء لم يأتوا معك (١) .

فقال : « هم أصحابى ، وهم بمنزلة من جاء معى ، فإن تممتَ علَى ما كان بينى وبينك وإلا ناجزتك » . فكفَّ عنهم الحرُّ .

وسألهم الحسين عن خبر أهل الكوفة ، فقال له مجمّع بن عبد الله العائذى ـ وهو أحد الأربعة ـ : « أمَّا أشراف الناس فقد أعظِمَتْ رشوتهم ومُلِئَتْ غرائرهم ، فهم إلبٌ (٢) واحد علَيك ، وأمّا سائر الناس بَعْدُ فإن أفئدتهم تَهْوِى إليك وسيوفهم غَدًا مشهورةٌ علَيك ! » . فقال : هل لكم برسولى إليكم عِلْم ؟ فقالوا : من هو ؟ قال : قَيس ابن مُسْهِر الصيْداوى . قالوا : نعم ؛ وأخبروه بمقتله ، فترقرقت عينا حسين ولم يملك دَمْعه ، ثم قال : ﴿ فمنهم من قَضَى نَحبَهُ ومنهم مَن يَنتظر وما بَدَّلوا تَبْدِيلا (٣) ﴾ اللهُم اجعل لنا ولهم الجنةَ نُزُلا ، واجمع بيننا وبينهم فى مستقر رحمتك ورغائب مذخور ثوابك .

قال : ودنا الطِّرِماح من الحسين ، فقال له : « والله إنى لأَنْظُر فما أرى معك أحدا ، ولو لم يقاتلْك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازِميك لكان كُفْوًا لهم (٤) ، وقد رأيتُ قبل خروجى من الكوفة إليك بيوم ظَهْرَ الكوفة وفيه من الناس ما لم تَرَ عَيناى فى صَعيد واحد جمعًا أكثر

---

(١) من هنا يبدأ ما صار بياضا فى النسخة (ك) وثبت فى النسخة (ن) انظر ص ٤٥٥ .

(٢) الإلب : القوم يجتمعون على عداوة إنسان ، وقد تألبوا أى تجمعوا .

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

(٤) كذا جاء فى المخطوطة وفى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٠٦ والكامل ج ٣ ص ٢٨١ : « لكان كفى بهم » .

منه ، فسألتُ عنهم ، فقيل : اجتمعوا ليُعْرَضوا ثم يُسَيَّروا إلَى الحسين ، فأنشدُك اللهَ إن قدرتَ علَى ألا تَقْدَمَ إلَيهم شِبرًا إلا فعلتَ ، وإن أردتَ أن تنزل بلدا يمنعك الله به حتَّى ترَى من رأيك ويستبين لك ما أنت صانع فسِرْ حتَّى أُنزِلَك مَناعَ جبلنا الذى[1] امتنعنا به من ملوك غَسَّان وحِميَرَ ومن النُّعمان بن المُنْذِر ومن الأَسْوَد والأَحمر ، فأسير معك حتَّى أُنزلك القرية ، ثم لتبْعثْ إلى الرجال ممَّن بِأَجَأَ وسَلْمَى[2] من طَيِّىء ، فوالله لا يأتى عليك عشرة أيام حتَّى يأتيك طيىء رِجالا ورُكبانا ، ثم أَقِمْ فينا ما بدالك ، فإن هاجك هَيْجٌ فأنازعيم لك بعشرين ألف طائىٍّ يضربون بين يديك بأسيافهم ، ووالله لايوصَل إليك أبدا وفيهم عَيْن تطْرِف ! » .

فقال له : جزاك الله وقَوْمَك خَيرا ، إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قولٌ لسنا نقدر معه على الانصراف ، ولا ندرى عَلامَ تتصرف بنا وبهم الأمور ! .

قال الطِّرِمَّاح : فودَّعته وقلتُ : « إنى قد امْتَرْتُ لأهلى مِيرةً ، ومعى نفقة لهم فآتيهم فأصنع ذلك فيهم ، ثم أقبل إليك إن شاء الله ، فإن ألحقْكَ فواللهِ لأكونَنَّ من أنصارك » . فقال لى : فإن كنتَ فاعلا فعجِّلْ رحمك الله .

قال الطِّرِمَّاح : فلما بلغتُ إلَى أهلى وضعتُ عندهم مايُصلحهم ،

---

(١) فى تاريخ الطبرى : « الذى يدعى أجأ » .

(٢) أجأ وسلمى : جبلان لقبيلة طيىء ، وقد ذكرها قوت « سبب نزول طيىء الجبلين واختصاصهم بسكناها دون غيرهم من العرب » .

وأوصيتُ ، وأخبرتهم بما أريد ، وأقبلت حتى دنَوْتُ من عُذَيْبِ الهجانات [١] ، فأتانى نَعْىُ الحسين هناك [٢] ! .

قال المؤرِّخ [٣] : ثم مضَى الحسين إلى قصر بنى مُقاتل [٤] ، فنزل به . قال عقبة بن سمعان : فلمّا كان آخِر الليل أمر الحسين بالاستقاء من الماء ، ثم أمرنا بالرحيل ، ففعلنا ، فلمّا سِرنا ساعة خَفَق [٥] الحسين برأسه خفقة فقال : « إنّا لله وإنّا إلَيه راجعون . الحمد لله رب العالمين » يُعيدها مرّتين أو ثلاثا ، فأقبل عليه ابنه علىّ بن الحسين ، فاسترجع وحمد الله وقال : « يا أبَتِ ، جُعِلْتُ فِداك ، مِمَّ حمِدتَ الله واسْتَرْجَعْتَ ؟ » قال : « يابُنَىَّ ، إنى خفقت برأسى خفقة ، فعَنَّ لى فارس علَى فرس فقال : القوم يسيرون والمنايا تسيربهم . فعلمتُ أنها أنفسُنا نُعِيَتْ إلَينا ! » قال : ياأبَتِ ألَسْنا علَى الحق ؟ قال : بَلَى والَّذِي إليه مَرْجع العباد . قال : ياأبَتِ إذَن لا نُبالى أن نموت مُحقِّين . فقال له : جزاك الله خَيْرَ ما يَجزى ولدًا عن والده .

فلما أصبح نزل فصلى الغَداة ، ثم عَجّل الركوب ، وسار حتّى انْتَهَى إلَى نِينَوِى ، والحُرُّ ومَن معه يسايرونه فإذا راكب على نَجيب عليه السلاح يمسك قوسا مُقبل من الكوفة ، فوقفوا جميعا ينتظرونه ،

---

(١) عذيب الهجانات : موضع بطريق الكوفة .

(٢) زاد ابن الأثير : « فرجع إلى أهله » .

(٣) ابن جرير الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ٣٠٧–٣٠٨ ، وتوهمه ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٨٢ .

(٤) فى معجم البلدان لياقوت : « قصر مقاتل : منسوب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة التيمى » .

(٥) خفق برأسه : حرك رأسه حتى يثبت ذقنه على صدره وهو نائم قاعدا .

فلما انتهى إليهم سلمَ على الحرّ وأصحابه ، ولم يسلم علَى الحسين ، ودفع إلى الحُرّ كتابا من عُبيد الله بن زياد : « أمّا بَعْدُ ، فَجَعْجِعْ (١) بالحسين حين يبلغك كتابِي ويُقدم عليك رسولى ، فلا تُنزِلْه إلاّ بالعرَاء فى غير حِصْن وعلى غَير ماء ، وقد أمرتُ رسولى أن يلزَمَك فلا يفارقك حتى يأتيَنى بإنفاذك أمرى ، والسلام » .

فقال الحُر : هذا كتاب الأمير عُبيد الله بن زياد ، يأمرنى فيه أن أُجَعْجع بكم فى المكان الذى يأتينى فيه كتابه ، وهذا رسوله ، وقد أمره ألاّ يفارقنى حتى أُنفذ رأيه وأمره .

قال : فأخذهم الحُرُّ بالنزول فى ذلك المكان علَى غير ماء ولا قرية ، فقالوا : دَعْنا نَنزل فى هذه القرية (يَعْنون نِينَوَى) أو هذه القرية (يَعنون الغَاضِرِيَّة) أو هذه الأخرى (يعنون شَفِيَّة) . فقال : لا والله ما أستطيع ذلك ، هذا رجل بُعِث عَيْنًا علَىَّ .

فقال زُهَير بن القَيْن للحسين : « ياابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قِتالُ هؤلاء الساعةَ أهْوَنُ علَينا من قتال مَن يأتينا من بعدهم ، فلَعمرى لَيأْتِيَنَّا من بعدما نرَى مالا قِبَلَ لنا به ! » فقال له الحسين : ما كنتُ لأبدأهم بالقتال . فقال له زهير : « سِرْ بنا إلى هذه القرية حتَّى ننزلها فإنها حصينة وعلَى شاطىء الفُرات ، فإنْ منعونا قاتلناهم ، فقتالُهم أهْوَنُ علَينا من قِتال من يجىء بعدهم » . فقال له الحسين : أيَّةُ قَريةٍ هى ؟ قال : العَقْر . فقال الحُسين : اللهم إنى

(١) جعجع بالحسين : ضيق عليه المكان ، وقد ذكر صاحب النهاية هذه العبارة من كتاب زياد .

أعوذ بك من العَقْر ! [1] ثم نزل ، وذلك يوم الخميس الثانى من المحرَّم سنة إحدى وستين .

فلما كان الغد قدم عليهم عُمر بن سَعد بن أبى وقَّاص من الكوفة . وكان سبب مسيره لقتال الحسين أن عُبَيد الله بن زياد كان قد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة ، يسير بهم إلى دَسْتَبَى ، وكانت الدَّيْلَم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها ، فكتب ابن زياد له عَهْدَه على الرَّىّ ، وأمره بالخروج ، فخرج وعسكر بالناس ، فلما كان من أمر الحسين ما كان ، دعا ابنُ زياد عُمَرَ بن سعد وقال : سر إلى الحسين فإذا فرغنا مِمَّا بَيْنَنا وبَيْنَه سرتَ إلَى عملك . فاستعفاه ، فقال : نعم ، على أن تردَّ علينا عهدنا . فلما قال له ذلك قال : أمهلنى اليومَ حتَّى أنظر . فاستشار عمرُ نصحاءه ، فكلُّهم نهاه ، وأتاه حمزة بن المغيرة بن شعبة — وهو ابن أخته — فقال له : « أنشُدُك اللهَ ياخالى ألاَّ تسير إلى الحسين فتأثَمَ بربك وتقطَعَ رحِمَك ! فواللهِ لأن تخرج من دنياك ومالِك وسلطانِ الأرض كلِّها — لو كان لك — خَيْرٌ من أن تلقَى الله بدم الحسين ! » فقال : أفعل إن شاء الله . وبات لَيلتَه مفكرا فى أمره فسُمِع وهو يقول :

أأترك ملك الرَّىِّ والرَّىُّ رغبتى
أمَ ارْجعُ مذموما بقتـــل حُسَيْنِ
وفى قتله النارُ التى ليس دونهـا
حجابٌ ، وملك الرى قُرَّةُ عَيْنِ

(١) أنظر معجم البلدان وتاج العروس فى « العقر » و « كربلاء » .

ثم أتى ابنَ زياد فقال له : إنك قد ولَّيْتنى هذا العمل وسمع الناس به ، فإن رأيت أن تُنفذ لى ذلك وتبعث إلَى الحسين من أشراف الكوفة مَن لست أغنى ولا أجزأ عنك فى الحرب منه ـ وسَمَّى له أناسا ـ ؛ فقال له ابن زياد : لا تعلمنى بأشراف الكوفة ، فلستُ أستأمرك فيمن أريد أن أبعث ، فإن سرتَ بجندنا وإلاَّ فابعث إلينا بعهدنا ؛ قال : فإنى سائر . فأقبل فى ذلك الجيش حتى نزل بالحسين

فلما نزل به بعث إليه عزرة [1] بن قَيْس الأَحْمَسى ، فقال له : ائته فاسأله : ما الذى جاء بك؟ وماذا تريد ؟ وكان عَزْرة ممَّن كتب إلى الحسين ، فاستحيىَ منه أن يأتيَه ، فعرض عُمر ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلُّهم أباه وكرهه .

فقام إليه كثير بن عبد الله ، وكان فارسا شجاعا ، فقال : أنا أذهب إليه ووالله إن شئتَ لأفتِكَنَّ به . فقال عُمر : ما أريد أن يُفْتَكَ به ولكن أن تسأله : ما الذى جاء به ؟ فأقبل إليه ، فلما رآه أبو ثمامة الصائدى قال للحسين : أصلحك الله ، قد جاءك شرُّ أهل الأرض وأجرؤه على دمٍ وأفتكه . فقام إليه ، فقال له : ضع سيفك . قال لا واللهِ ولا كرامة ، إنما أنا رسول فإن سمعتم أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم ، وإن أبَيْتم انصرفت عنكم . فقال له رجل : فإنى آخذ بقائم سيفك ثم تكلم بحاجتك . قال : لا والله لاتمسّه . فقال له : أخبرنى ما جئت به وأنا أبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر . فاسْتَبَّا ، ثم انصرف إلى عمر فأخبره الخبر .

---

(١) قال صاحب الإصابة ج ٣ ص ١٠٥ فى ترجمته : «عزرة بن قيس بن غزية الأحمسى البجيلى .... ».

فدعا عمر قُرَّة بن قيس الحنظلى ، فقال له : ويحك ياقرة ، الْق حسينا فاسأله : ماجاء به ؟ وماذا يريد ؟ فأتاه فأخبره رسالة ابن سعد ، فقال له الحسين : كتب إلىَّ أهلُ مصركم أن أقدم عليهم ، فأمَّا إذ كرهتمونى فإنى أنصرف عنهم. فانصرف قُرَّة إلى عمر فأخبره الخبر ، فقال عمر : إنى لأرجو أن يعافينى الله من حربه وقتاله .

ثم كتب إلى عبيد الله ين زياد : « [1] أما بعد ، فإنى حَيْثُ نزلت بالحسين بعثتُ إليه رسولى ، فسألته عمَّا أقدمه وماذا يطلب وماذا يسأل ، فقال : كتب إلىَّ أهل هذه البلاد وأتتنى رسلُهم فسألونى القدوم ففعلت ، فأمَّا إذْ كرهونى وبَدَالهم غيرُ ماأتتنى به رسلهم فأنا منصرف عنهم » .

فلما قُرِئَ الكتاب علَى ابن زياد قال :

الآنَ إذْ علقَتْ مَخالِبُنا بـــه
يرجو النجاةَ ولاتَ حينَ مَنـاصِ

وكتب إلى عمر بن سعد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمّا بعدُ فقد بلغنى كتابك وفهمت ماذكرت ، فاعرض على الحسين أن يبايع يزيدَ بن معاوية أمير المؤمنين هو وجميعُ أصحابه ، فإذا هو فعل رأيْنَا والسلام » فلما قرأ عمر الكتاب قال : قد أحسستُ ألاَّ يقبلَ ابنُ زياد العافيةَ .

قال : وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد : « أمَّا بعد ، فُحْل

(١) أثبت الطبرى البسملة فى أول هذا الكتاب .

بَين الحسين وأصحابه وبَيْن الماء ، فلا يذوقوا منه قَطرة ، كما صُنع بالتقيِّ الزكيِّ المظلوم أميرِ المؤمنين عثمانَ بنِ عَفَّان » .

فبعث عُمر عمرو بن الحجاج على خمسِمِائة فارس ، فنزلوا علَى الشَّريعة ، وحالوا بَيْن الحسين وأصحابه وبين الماء ، ومنعوهم أن يسقوا منه قطرة ، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث .

وناداه عبد الله بن أبي حصين الأزدى : « ياحسين ، ألا تنظر إلى الماء كأنه كَبِد السماء ! والله لاتذوق منه قطرة حتَّى تموت عطشا ! » . فقال الحسين : « اللهم اقتلْه عطشا ولا تغفر له أبدا ! » . قال أبو جعفر الطبرى فى تاريخه (١) : قال حميد بن مسلم « واللهِ لقِد عُدْتُه بعد ذلك فى مرضه ، فَوَاللهِ الذى لا إله إلا هو لقد رأيتُه يشرب حتَّى يَبْغَر (٢) ، ثم يَقِيء ، ثم يعود فيشرب حتَّى يَبْغَر ، فما يَرْوَى ، فمازال ذلك دأبه حتَّىْ لَفَظ غُصَّته » (يعنى نفسه) .

قال : فلمّا اشتدَّ علَى الحسين ومن معه العطش دعا أخاه العبّاس ابن علىّ ، فبعثه فى ثلاثين فارسا وعشرين راجلا ، وبعث معهم بعشرين قِرْبة ، فدنَوْا من الماء ، وقاتلوا علَيه ، حتَّى مَلَئُوا القِرَب وعادوا بها إلى الحسين .

قال : ثم بعث الحسين إلى عُمر بن سعد أن الْقَنِى الليلَة بين عسكرى وعسكرك . وكان رسوله إليه عَمْرو بن قَرَظة بن كَعبْ

(١) ج ٤ ص ٣١٢ .
(٢) يكثر الشرب فلا يروى بسبب داء أصابه .

الأنصارى [١] ، فخرج عمر فى نحو من عشرين فارسا ، وأقبل الحسين فى مثل ذلك ، فلمّا التقيا أمر الحسين أصحابه أن يتنحّوْا عنه ، وأمر عمر بمثل ذلك ، فتكلما ، فأطالا حتّى ذهب من الليل جانب ، ثم انصرف كل منهما إلى عسكره .

قال : وتحدّث الناس فيما بينهم ظنا يظنّونه أن الحسين قال لعمر ابن سعد : اخرجْ معى إلى يزيد بن معاوية ونَدَع العسكَرَين . فقال له عمر : إذن تُهْدَم دارى . قال : إذن أبنيها لك . قال : إذن تُؤْخذ ضِياعى . قال : إذن أعطيك خيراً منها بالحجاز . فكرِه ذلك عمر بن سعد . . فتحدث الناس بذلك من غير أن يكونوا سمعوه .

قال : وذكر جماعة من المحدّثين أن الحُسَين قال : اختاروا منى خِصالا ثلاثا : إما أن أرجع إلى المكان الذى أقبلتُ منه ، وإما أن أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرَى فيما بينى وبينه رأيَه ، وإما أن أن أسير إلى أىّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلا من أهله لى مالهم وعلى ماعليهم .

وأنكر عُقبة بن سمعان هذه المقالة وقال : « صحِبْتُ الحسين ، فخرجتُ معه من المدينه إلى مكة ، ومن مكة إلى العراق ، ولم أفارقه حتى قُتل ، وليس من مخاطبته الناسَ كلمةٌ بالمدينة ولا بمكة ولا فى الطريق ولا بالعراق ولا فى عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتهُا ، ألاَ واللهِ ماأعطاهم مايتذاكر الناسُ ويزعُمون من أنْ يضع يده فى يد يزيد بن معاوية ولا أن يسيِّره إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعونى

(١) الخزرجي ، كان أبوه صحابيا من ساكنى الكوفة .

أرجع إلى المكان الذِى أقبلتُ منه ، أودَعُونى أذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر : إلَى مَ يصير أمْرُ الناس ؟ .

وقيل : التقَى الحسين وعمر بن سعد مِرارًا ثلاثا أو أربعا ، فكتب عمر إلى عبيد الله بن زياد : « أما بعد ، فإن الله قد أطفأ النائرة (١) وجَمَع الكلمة ، وأصلح أمْر الأُمّة ، هذا الحسين قد أعطانى أن يرجع إلَى المكان الذى منه أتَى ، أو أن نسيرَه إلى ثَغْر من الثغور شِئْنا فيكونَ رجلا من المسلمين له مالهم وعلَيه ماعليهم ، أو أن يأتى يَزيدَ أميرَ المؤمنين فيضَعَ يدَه فى يده فيرَى فيما بَيْنَه وبينه رأيَه ، وفى هذا لكم رِضىً وللأُمة صلاح » .

فلما قرأ عُبَيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق علَى قومه ، نَعَمْ ، قد قبلتُ .

فقام إليه شمر بن ذى الجَوْشَن (٢) فقال : « أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلَى جَنْبك ، واللهِ لَئن رحل من بلادك ولم يضعْ يده فى يدك ليَكونَن أوْلَى بالقوة والعزة ولتكونَن أوْلَى بالضعف والعجز ، فلا تُعْطه هذه المنزلة فإنها من الوَهن ، ولكنْ لِيَنزِلْ علَى حكمك هو وأصحابُه ، فإن عاقبتَ فأنت ولىُّ العقوبة ، وإن عفَوْتَ كان ذلك لك ، واللهِ لقد بلغنى أن الحسين وعُمر بن سعد يجلسان بين العسكرَين فيتحدثان عامة الليل » .

---

(١) النائرة : نار الحرب وشرها .

(٢) الجوشن : الدرع أو الصدر ، وذو الجوشن : اسمه شرحبيل بن قرط الأعور ، وقيل : أوس ، ولقب بذلك لانه دخل على كسرى فأعطاه جوشنا فلبسه ، فكان أول عربى لبسه ، أو لأنه كان ناتئ الصدر .

فقال له ابْنُ زِياد : « نِعْمَ ما رأيْتَ ، اخرُجْ بهذا الكتاب إلَى عُمر بن سعد ، فلْيَعْرض علَى حسين وأصحابِه النزولَ علَى حكمى ، فإن فعلوا فلْيَبعثْ بهم إلى سلْما ، وإن هم أبَوْا فلْيُقاتلْهم ، فإن فعل فاسمع له وأطعْ ، وإن هو أبَى أن يقاتلَهم فأنت أمير الناس وثب علَيه فاضْربْ عنقه وابعثْ إلى برأسه » .

وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد : « أمَّا بَعْدُ ، فإنِي لم أبعثْكَ إلَى الحسين لِتكُفَّ عنه ، ولا لِتُطاوِلَه ، ولا لتُمَنِّيَه السلامة والبقاء ، ولا لِتقعُدَ له عندى شافعا ، انظرْ ، فإنْ نزل الحسين وأصحابه علَى الحكم واستسلموا فابعث بهم إلَيَّ سلْما ، وإنْ أبَوْا فازْحَفْ إلَيهم حتَّى تقتلهم وتمثِّل بهم ، فإنهم لذلك مستحقُّون ، فإن قُتِل الحسين فأَوْطِىء الخَيْلَ صدره وظهره ، فإنه عاقٌّ مُشاقٌ قاطع ظَلُوم ، فإن أنت ، مضَيْتَ لأمْرنا فيه جَزَيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبَيْتَ فاعتزلْ عملنا وجندنا ، وخَلِّ بَيْن شمرٍ وبين العسكر ، فإنَّا قد أمرناه بأمْرنا ، والسلام » .

فأقبل شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد ، فقرأه ، فقال له عمر : « مالَكَ ؟ وَيْلك ! لاقرَّب الله دارك ، وقبح الله ماقدِمتَ به علَيَّ ! واللهِ إنى لأظنُّك أنت الذى ثَنَيْتَه أن يَقْبل ماكتبتُ به إلَيه ، أفسدتَ علَينا أمرًا كنا نرجو أن يصلح ، لا يستسلم واللهِ حسينٌ أبدا ، واللهِ إن نفسًا أبِيَّةً لبَيْنَ جنبَيْه ! » .

فقال له شمر : أخبرْنى ما أنت صانع : أتَمضِى لأمْر أميرك وتُقاتل عدوّه وإلاَّ فخَلِّ بَيْنى وبين الجند والعسكر ؟ فقال : لا ، ولا كرامةَ لك ، ولكنِ أنا أتولَّى ذلك .

فنهض إليه عشيةَ الخميس لتسع مَضَيْن من المحرَّم .

وكان شمر لمَّا قبض كتاب ابن زياد إلَى عمر بن سعد قام هو وعبد الله بن أبى المحل ، وكانت عمَّتُه أمّ البنين ابنة حزام عند علىّ بن أبى طالب فولدتْ له العبَّاس وعبد الله وجعفرا وعثمان . قال عبد الله : « أصلَح اللهُ الأمير ، إنَّ بَنِى أختنا مع الحسين ، فإن رأيْتَ أن تكتُب لهم أمانًا فعلتَ » . فقال : نَعَمْ ونَعْمَةَ عَيْنٍ (١) فأمر كاتِبَه فكتب لهم أمانا .

فلمَّا نهض عُمر إلَى الحسين جاء شمر حتَّى وقف على أصحاب الحسين فقال : أين بَنو أختنا ؟ فخرج إليه العبَّاس وعبد الله وجعفر وعثمان بنو على ، فقالوا : مالَك ؟ وما تريد ؟ قال : أنتم يابَنى أختى آمنون ، فقالوا له : لعنك الله ولعن أمانَك ! لئن كنت خالنا أتؤمِّننا وابْنُ رسول الله لا أمانَ له !

قال : ثمَّ إن عُمر بن سعد نادى : يا خَيْلَ الله اركبى وابشرى . فركب الناس ، ثم زحَف بهم نحوهم بعد صلاة العصر ، والحُسَينُ جالس أمام بيته مُحْتَبِيًا بسيفه ، إذْ خَفَقَ برأسه علَى ركبَتَيْه ، وسمعتْ أخته الصيحة ، فدنت منه فأيقظتْه وقالت : أما تسمع الأصواتَ قد اقتربتْ ! فرفع الحسين رأسه فقال : إنى رأيْت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : إنك تروح إلينا . فلطمتْ وجهها وقالت : واوَيْلَتاه ! فقال : ليس لكِ الويل ياأُخَيَّة ، اسكتى رحمكِ الله (٢) ! .

(١) أى : أفعل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

(٢) جاء فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣١٥ : « اسكتى رحمك الرحمن » .

وقال له العبَّاس : ياأخى أتاك القوم . فنهض ثم قال : ياعبَّاس أركب بنفسى . فقال له العباس : بل أروح أنا . فقال : اركبْ أنت ياأخى حتَّى تلقاهم فتقولَ لهم : مالكم ؟ وما بدا لكم ؟ وتسألهم عمَّا جاء بهم . فأتاهم العباس فاستقبلهم فى نحو عشرين فارسا ، فقال لهم : مابدا لكم ؟ وماتريدون ؟ قالوا : جاء أمْر الأمير بأن نَعْرِض عليكم أن تنزلوا علَى حكمه أو نُناجِزَكم . قال : فلا تَعْجَلوا حتَّى أرجِعَ إلَى أبى عبد الله فأعْرِض علَيه ماذكرتم . فوقفوا ، وانصرف راجعا يركُض إلَى الحُسين فأخبره الخبر ، فقال له الحسين : ارجعْ إليهم فإن استطعتَ أن تؤخِّرهم إلى غُدوة لعلنا نصلى لربنا الليلةَ وندعوه ونستغفره . فرجع العبّاس إليهم فقال . « ياهؤلاء ، إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه الليلة ، حتَّى ينظر فى هذا الأمر ، فإن هذا الأمر لم يَجْرِ بَيْنكم وبَيْنه فيه منطِق ، فإذا أصبحنا الْتَقينا إن شاء الله ، فإمّا رضيناه فأتَيْنا الأمر الذّى تسألوننا وتسومونناه ، أو كرهناه فردَدْناه » .

قال : وإنَّما أراد الحسين أن يردَّهم عنه تلك العشيَّة حتَّى يأمر بأمره ويُوصى أهله .

فاستشار عُمر بن سعد شمر بن ذى الجَوْشَن فى ذلك ، فقال شمر أنت الأمير والرأىُ رأيك : فأقبل عمر على الناس فقال : ماذا تَرَوْن ؟ فقال له عمرو بن الحجَّاج الزبيدى : سبحانَ الله ! واللهِ لو كان من الدَّيْلم ثم سألوك هذه المنزلةَ لكان ينبغى لك أن تُجيبَهم إلَيها . وقال قيس بن الأشعث : أجِبْهم إلَى ما سألوك فلَعَمرِى لَيَصْبَحُنَّك

بالقتال غُدْوَةً . فقال : واللهِ لو أعلم أن يفعلوا . أخَّرْتُهم العشِيَّة . . ثم رجع عنهم .

قال : وجمع الحسين أصحابه بعد مارجع عمر بن سعد عنهم فقال : « أثنِي علَى الله تبارك وتعالى أحسَنَ الثناء ، وأحمَدُه علَى السَّرَّاء والضراء ، اللهُم إنى أحمَدُك علَى أن أكرمتَنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهْتَنا فى الدين ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفْئدة ، فاجعلنا لك من الشاكرين [1] ، أما بعد ، فإنى لا أعلم أصحابا أوْفى ولا خيرًا من أصحابى ، ولا أهلَ بَيْتٍ أبَر ولا أوْصَلَ مِن أهل بيتى ، فجزاكم اللهجميعا عنى خيرا ، ألاَ وإنى لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، ألاَ وإنى قد أذِنتُ لكم ، فانطلِقوا جميعا فى حِلّ ، ليس عليكم منى ذِمام [2] ، هذا الليل قد غشِيكم فاتخِذوه جَمَلا ، ثم ليَأْخُذْ كُل رجل منكم بِيَدِ رجل من أهل بيتى ، ثم تفرقوا فى البلاد ، فى سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما يطلبوننى ولو قد أصابونى لَهَوْا عن طلب غيرى ! » .

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر : « لِمَ نفعل ذلك ؟ لِنَبْقَى بَعدك ! لا أرانا الله ذلك أبدا ! » . بدأهم بهذا القول العباس بن على ، ثم تكلموا بهذا ونحوه ، فقال الحسين : يا بنى عَقيل ، حسبكم من الفتك بمُسْلِم ، اذهبوا فقد أذِنتُ لكم !. قالوا : « فماذا يقول الناس ؟ يقولون : أنا تركنا شيخنا وسيدنا

(١) جاء فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣١٧ بدلا من هذه الجملة قوله : « ولم تجعلنا من المشركين » .

(٢) ذمام : حق .

وبنى عمومتنا خير الأعمام ، لم نَرْمِ معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، ولاندرى ، ماصنعوا !الا واللهِ لانفعل ، ولكن نَفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نَرِدَ مَوْرِدَك فقبح الله العَيش بعدك ! » .

وقام إليه مُسلم بن عَوْسَجة الأَسَدى ، فقال : « أنحن نتخلَّى عنْك ولم نُعْذِرْ إلَى الله فى أداء حقك ؟ أمَا واللهِ لا أفارقك حتى أكْسِر فى صدورهم رمحى وأضربَهم بسيفى ما ثَبت قائمُه فى يدى ! واللهِ لو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دُونَك حتَّى أموت ! » .

وقال له سعد بن عبد الله الحنفى : « والله لانخلِّيك ، حتَّى يعلمَ الله أنَّا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك ، والله لو علمتُ أنى أحْيا ثم أُحْرَق حيًّا ثم أُذْرَى - يُفْعَل بى ذلك سبعين مَرَّة - مافارقتُك حتى ألقَى حِمامى دُونَك ! فكيف لا أفعل ذلك وإنما هى قتْلة واحدة ، ثم هى الكرامة التى لا انقضاء لها أبدا ! » .

وقال زُهَير بن القَيْن : « واللهِ لَوَدِدْتُ أنى قُتِلْتُ ثم نُشِرْتُ ثم قُتلت ، حتَّى أُقْتَلَ هكذا ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفِتْية من أهل بيتك ! » .

وتكلَّم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا فى وجه واحد ، فقالوا « واللهِ لانفارقك ، ولكن أنفسنا لك الفداء ! ونَقِيك بنُحورنا وجِباهنا وأيدينا وأبداننا ! فإذا نحن قُتلنا وَفَيْنا وقَضَيْنا ما علَينا ! » . . وهذا القول من كلام الحسين وكلامهم مَرْوِىّ عن زَيْن العابدين علىّ ابن الحُسين رضى الله عنهما

قال (١) : وسمعتْه زَيْنَبُ أختُه فى تلك الليلة وهو فى خباء له يقول – وعنده حوى مولى أبى ذر الغفاري وهو يعالج سَيفه ويصلحه – :

يا دهرُ أُفٍّ لك من خليـــــــل
كَم لك بالإشراق والأصيـــل
من صاحبٍ أو طالبٍ قَتِيـــــلِ
والدهرُ لا يَقْنَعُ بالبَدِيـــــلِ
وإنَّمَا الأمرُ إلَى الجَليـــــلِ
وكُلُّ حَىٍّ ســـالِكُ السبيـــلِ

فأعاد ذلك مَرَّتَين أو ثلاثا ، فلمّا سمعتْه لم تَملك لنفْسها أن وثَبَتْ تجرُّ ثَوْبَها وإنها لحاسِرة حتَّى انتهت إلَيه فقالت : « واثُكْلاه ! لَيت الموت أعْدَمنى الحياة ! اليوم ماتت فاطمة أمِّى وعلىٌّ أبى وحَسَنٌ أخى ! ياخليفة الماضى وثِمال الباقى ! » . فنظر إليها وقال : ياأُخَيَّة لا يُذْهِبَنَّ حِلْمَكِ الشيطان . قالت : بِأبى وأُمِّى أنتَ استقتلت نفسى فِداؤُك ! فردَّد غُصَّته ، وتَرَقْرَقَتْ عيناه ، ثم قال : « لو تُرِكَ القَطا لَيْلاً لَنام (٢) ! » . فقالت : « ياوَيْلَتا ! أفَتُغْصَبُ نَفْسَك اغتِصابا ؟

(١) القائل : زين العابدين : قال : إنى جالس فى تلك العشية التى قتل أبى صبيحتها ، وعمتى زينب عندى تمرضنى إذ اعتزل أبى بأصحابه فى خباءله ، وعنده حوى مولى أبى ذر الغفارى : وهو يعالج سيفه ويصلحه ، وأبى يقول : يادهر أف لك . . . . . الخ .

(٢) تمثل بعجز بيت لحذام ابنة الديان ، وله قصة ذكرها الميدانى فى مجمع الأمثال والمفضل بن سلمة فى الفاخر والجاحظ فى الحيوان والعينى فى شواهده الكبرى وذلك أن الديان وقومه جاءهم أعداؤهم ليلا ، فلما كانوا قريبا منهم أثاروا القطا – من الطير – فمرت بأصحاب الديان ، فخرجت حذام الى قومها فقالت :

ألا ياقومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلا لناما =

فذلك أقْرَح لِقلبي وأشدُّ علَى نفسى ! » . ثم لطمتْ وجهَها وأهوت إلَى جَيْبها فشقتْه ، ثم خرَّت مَغْشِيا علَيها ، فقام إليها الحسين فصبَّ علَى وجهها الماء وقال لها : « يا أُخَيَّه ، اتَّقِى الله ، وتَعَزَّىْ بعَزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لايبقَوْن ، وأن كلَّ شىء هالك إلاَّ وَجْهَه ، الذى خلق الأرض بقدرته ، ويبعث الخلق فيعودون وهو فَرْد وَحْدَه ، وأبى خَيْرٌ منّى ، وأمِّى خَيْرٌ منى ، وأخى خير منى ، ولى ولهم ولكل مسلم أُسْوَةٌ برسول الله صلى الله عليه وسلم ! » . فعزَّاها بهذا ونحوه ، وقال لها : « يا أُخَيَّة ، إنى أقسم علَيْكِ فأَبرِّى قَسَمى ، ألاَّ تشُقِّى علَىَّ جَيْبًا[1] ، ولا تَخْمِشى علَىَّ وجها ، ولا تَدْعِى علَىَّ بالوَيْل والثُّبور إذا أنا هلكتُ » .

ثم خرج إلى أصحابه ، فأمرهم أن يقرِّبوا بيوتهم بعضَها إلى بعض ، وأن يُدخلوا الأطناب بعضها فى بعض ، وأن يكونوا هم بَيْن البيوت ، فيستقبلوا القوم من وجه واحد ، والبيوتُ من وَرائهم وعن أيمانهم وعن شَمائلهم .

قال : وقاموا الليل كلَّه يصلُّون ويستغفرون ويدْعُون ويتضرَّعون.

فلما صلى عُمر بن سعد الغَداة ، وذلك يوم السبت ، وهو يوم عاشوراء ، وقيل : يوم الجمعة ، خرج فيمن معه من الناس .

= أى : أن القطا لو ترك ما طار فى هذه الساعة ، فقد أتاكم القوم ، فقال ديسم بن طارق بصوت عال : —

اذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

وهناك بعض الراويات الأخرى .

(١) أخذ ذلك من حديث النبى صلى الله عليه وسلم .

وعبّأ الحُسَين أصحابه بالغَداة [١] ، وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا ، فجعل زُهَير بن القَيْن فى ميمنته ، وحبيب بن مُظَهِّر [٢] فى ميسرته ، وأعطى رايته العبَّاس أخاه ، وأمر بحَطَب وقصب فأُلقى فى مكان مخفض من ورائهم كأنه ساقيه [٣] كانوا عملوه [٤] فى ساعة من الليل ، وأضرم فيه نارا ، لِئَلاَّ يُؤْتَوْا من ورائهم ، فنفعهم ذلك .

وجعل عُمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزُّبيدى ، وعلى مَيسرته شمْر بن ذى الجَوْشَن ، وعلى الخيل عَزْرة بن قيس الأَحْمَسى ، وعلى الرجال شَبَث بن رِبْعِىّ ، وأعطى الراية ذُوَيدًا [٥] مَولاه ، وجعل على رُبع المدينة عبد الله بن زهير الأَزْدى ، وعلى ربع ربيعة وكِنْدة قَيس بن الأَشعث بن قيس ، وعلى ربع مَذْحِج وأَسَد عبد الرحمن بن أبى سَبْرة الحَنَفَى ، وعلى رُبع تَميم وهَمْدان الحُرّ بن يزيد الرِّياحى . . فشهد هؤلاء كلُّهم مقتل الحسين إلا الحرّ بن يزيد : فإنه عَدَل إلى الحسين وقُتِل معه على ما نذكره .

قال : ولما أقبلوا إلى الحسين أمر بفُسْطاط فضُرِب ، ثم أمر

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة وجاء فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٠ « وصلى بهم صلاة الغداة » .

(٢) اختلفت الكتب فى كتابة هذا الاسم انظر ما سبق ، وتاريخ الطبرى والإصابة ج ١ ص ٣٧٣ ، ٥٢٧ .

(٣) لم ينقط فى المخطوطة الحرفان الأخيران من هذه الكلمة ، وجاء فى تاريخ الطبرى والكامل ج ٣ ص ٢٨٦ : « ساقية » وقد تكون : « ساقته » والساقة : مؤخر الجيش .

(٤) حفروه فى ساعة من الليل فجعلوه كالخندق .

(٥) كذا جاء الاسم فى المخطوطة وتاريخ الطبرى : « ذريدا » وجاء فى الكامل : « دريدا » .

بمِسْك ، فمِيث[1] فى جَفْنة عظيمة ، ثم دخل الحسين ذلك الفُسْطاط. واستعمل النُّورَة ، ثمَّ خرج فركب دابَّته ، ودعا بمُصحَف فوضعه أمامه ، ورفع يدَيه فقال : « اللهمَّ أنت ثِقَتى فى كلِّ كَرْب ، ورجائى فى كلِّ شِدَّة ، وأنت لى فى كل أمرٍ نَزل بى ثِقة وعُدَّة ، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقِلُّ فيه الحيلة ، ويَخْذُل فيه الصديق ، ويشمَت فيه العدوُّ أنزلتُه بك وشكوتُه إليك ، رغبةً مِنِّى إلَيك عَمَّن سِواك ، ففرَّجْتَه وكشفتَه وكَفَيْتَنِيه ، فأنت ولىُّ كلِّ نعمة ، وصاحب كلِّ حسنة ، ومُنْتَهَى كلِّ رغبة ! » .

وأقبلوا نحو الحسين ، فنظروا إلى النار تَضْطَرِم فى الحَطَب والقصَب ، فقال شمر بن ذى الجَوْشَن : يا حسين استعجلت النار فى الدنيا قبل يوم القيامة . فقال له الحسين : ياابْنَ راعية المِعْزَى أنت أَوْلَى بها صلِيًّا ! .

ثم ركب الحسين راحلته ، وحمل ابنه عليًّا علَى فَرَسِه « لاحِق » .

ذكر ما تكلم به الحسين رضى الله عنه

قبل إنشاب الحرب وماوعظ به الناس وما أجابوه
وما تكلم به أصحابه وما أُجيبوا به وخبر مقتله

قال : ولما ركب الحسين راحلته نادَى بأَعلَى صوته نداء يُسمع جل الناس : أيها الناس ، اسمعوا قَولى ، ولا تُعجلونى حتَّى أعظكم بما يحقُّ لكم ، وحتَّى أعتذر لكم من مقدمى عليكم ، فإن قبلتم عذرى وصدقتم قولى وأعطيتمونى النصف كنتم بذلك أسعد ولم يكن

(١) ماثه : أذابه .

لكم علىّ سبيل ، وإن لم تقبلوا منى العذر ولم تُعطوا النَّصَف من أنفسكم ﴿ فأَجْمِعُوا أَمْرَكم وشُركاءَكم ، ثم لا يَكُنْ أَمْرُكُم عَلَيكم غُمَّةً [1] ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ ولا تُنْظِرُونِ ﴾ [2] ، ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الكِتابَ وهو يَتَوَلَّى الصَّالحين [3] ﴾ .

ثم [4] حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملائكة الله وأنبيائه [5] ، ثم قال : أما بعد ، فانسُبونى وانظروا من أنا ؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم ، وعاتِبوها ، فانظروا هل يصلُح لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ؟ ألستُ ابْنَ بنتِ نبيّكم وابْنَ وَصِيِّه وابن عمِّه وأوَّلِ المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه ؟ أَوَ ليس حمزة سيّدُ الشهداء عمَّ أبى ؟ أو ليس جعفرٌ الطيّار فى الجنة بجناحَيْن بِعَمِّى ؟ أَوَلَمْ يبلُغْكم قول مستفيض فيكم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ولأخى : « هذان سيِّدا شباب أهل الجنة » ؟ فإن صدقتمونى بما أقول ، وهو الحق ، وما تعمّدت كذبا مذ علمت أن الله يمقُت عليه أهلَه ويضرُّ به من اختلقه ، وإن كذبتمونى فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم ، سلوا جابر بن عبد الله الأنصارى

---

(١) مستورا ، بل أظهروه وجاهرونى .

(٢) من الآية ٧١ من سورة يونس

(٣) الآيـــة ١٩٦ من سورة الأعراف .

(٤) قال الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص — ٣٢٢ وابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص — ٢٨٧ : إن أخوات الحسين لما سمعن كلامه السابق بكين وصحن : فأرسل إليهن أخاه العباس وابنه عليا ليسكتاهن ، وقال : لعمرى ليكثرن بكاؤهن : ثم حمد الله . . . . الخ .

(٥) روى الطبرى عن الضحاك أنه ذكر من ذلك ما الله أعلم وما لا يحصى ذكره ، وأقسم إنه ما سمع متكلما أبلغ فى منطق منه .

أو أبا سعيد الخُدْرِيّ أو سَهْل بن سعد الساعِدى أو زيد بن أرقم أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ولأخى ، أمَا فى هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمى ؟ ! .

فقال له شمر : هو يعبد الله علَى حَرْفٍ إن كان يدرى مايقول . فقال له حبيب بن مظهّر : « واللهِ إنى لأَراك تعبد الله على سبعين حَرْفا ، وإنى أشهد أنك صادق وأنك لا تدرى ما تقول ، ، قد طَبَع اللهُ على قلبك ! » .

ثم قال الحسين : فإن كنتم فى شك من هذا القول أفتشكُّون أنى ابن بنت نبيّكم ؟ فواللهِ ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى منكم ولا من غيركم ! أخبرونى أتطلبونى بقتيل منكم قتلته ، أومال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحة ؟ ! .

فلم يكلّموه ، فنادى : « ياشَبَث بن رِبْعِىّ ، وياحجار بن أبحر ، ويا قَيس بن الأشعث ، ويا يزيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إلَىّ أنْ قد أيْنَعت الثمار ، واخضر الجناب ، وطَمت الجِمام [1] ، وإنما تقدَم على جند لك مجند ، فأَقبِلْ . ؟ »

قالوا : لم نفعل قال : « سبحان الله ! بلَى والله لقد فعلتم ! »

---

(١) طمت : بتخفيف الميم وتشديدها ، يقال « طما الماء » إذا ارتفع ، « وطما البحر » إذا امتلأ ، ويقال : « طم الماء » إذا غمر : و « طم الشيء » إذا كثر ، ومنه « طم الأمر » إذا عظم وتفاقم . . والجمام : « ماعلا رأس المكيال فوق طفافة ، ويأتى « الجمام » جمعا لـ « الجم » وهو معظم الماء والكثير من الشيء ، ولـ « الجمة » وهى مجتمع ماء البئر ومعظم الشيء .

ثم قال : أيُّها الناس إذ كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض .

فقال له قيس بن الأشعث : أوَلا تنزل علَى حُكم بنى [(١)] عمك فإنهم لن يُرُوك إلا ماتحبّ ولن يصل إليك منهم مكروه . فقال له الحسين « أنت أخو أخيك (٢) ، أتريد أن يطلبك بنوها هاشم بأكثر من دم مُسلم بن عَقيل ؟ لا واللهِ لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل ولا أُقرُّ إقرار العبيد ! ! عباد الله ، إنِّى عُذت بربِّى وربِّكم أنْ تَرْجُمُونِ [(٣)] إنى عُذْتُ بربِّى وربِّكم من كلِّ متكبِّر لا يؤمن بيَوْمِ الحساب [(٤)] ! »

ثم أناخ راحلته ، ونزل عنها ، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها ، وأقبلوا يزحفون نحوه .

فخرج زُهَير بن القَين علَى فرس له شاكى السلاح ، وقال : « ياأهل الكوفة ، نَذَارِ لكم من عذاب الله نَذَار ، إن حقًّا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد وملة واحدة ، مالم يقع بيَننا وبَينكم السيف ، فأنتم للنصيحة أهْلٌ ، فإذا وقع السيف انقطعت العِصمة ، وكنا أمّة وأنتم أمّة ، إن الله قد ابتلانا وإيَّاكم بذرية محمد صلى الله عليه وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون .

---

(١) كذا جاء عند الطبرى ، وهو المناسب لما بعده ، وجاء فى الكامل : « ابن عمك ، يعنى ابن زياد » .

(٢) يشير الى ما صنعه أخوه محمد بن الأشعث إذ قال لمسلم بن عقيل . « لك الأمان ، إن القوم بنوعمك : وليسوا بقاتليك ولاضاربيك » ثم أقبل بمسلم إلى قصر عبيد الله بن زياد ولم يهتم عبيد الله بهذا الأمان ، وقتل مسلما ، كما مر .

(٣) من الآيـة ٢٠ من سورة الدخان .

(٤) من الآيـة ٢٧ من سورة غافر .

إنَّا ندعوكم إلى نصرهم وخِذْلان الطاغية ابن الطاغية عُبَيد الله بن زياد ؛ فإنكم لا تذكرون منهما إلاَّ سُوءا ، يَسْمُلان أَعْيُنَكم ، ويقطعان أيديَكم وأرجُلكم ، ويمثُلان بكم ، ويرفعانكم على جُذوع النخل ، ويقتلان أماثِلكم وقُرَّاءكم ، أمثال حُجْر بن عَدِىّ وأصحابه ، وهانئ بن عُرْوة وأشباهه ! »

قال : فسَبُّوه ، وأثنَوْا على عُبَيد الله بن زياد ، ودعَوْا له ، وقالوا : والله لانَبْرَحُ حتَّى نقتلَ صاحبك ومَن معه أو نبعثَ به وبأصحابه إلى الأمير عُبَيد الله سَلَمًا .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة أحقُّ بالودّ والنصر من ابن سُمَيَّة ، فإن كنتم لم تنصروه فأُعيذكم بالله أن تقتلوه . خلُّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية ، فلَعمرى إن يزيد ليرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين ! » .

فرماه شمر بسهم وقال : اسكتْ ، أسكت الله نَأْمَتَك (١) ، أبْرَمْتَنا بكثرة كلامك !

فقال له زهير : « ياابن البَوَّال على عَقِبَيْه ، ما إيَّاك أخاطب ، إنما أنت بَهيمة ، والله ماأظُنُّك تُحْكِم من كتاب الله آيتَين ، فأبشِرْ بالخِزْى يوم القيامة والعذاب الأليم ! »

فقال له شمر : إن الله قاتِلُك وصاحبك عن ساعة . قال : « أفَبالموت تخوِّفنى ؟ فوالله لَلْموتُ أحبُّ إلَىَّ من الخُلْد معكم ! » ثم رفع صوته وقال : « عباد الله ، لايغُرَّنَّكم من دينكم هذا الجِلْفُ الجافى وأشباهُه ،

(١) النأمة : النغمة والصوت ، يقال « أسكت الله نأمته » اى : أماته .

فواللهِ لاتنال شفاعةُ محمد قوما هَراقوا دماء ذُرِّيَّته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذَبَّ عن حريمهم ! »

فأتاه رجل من قبل الحسين فقال له : « إن أبا عبد الله يقول لك : أقبِلْ ، فلَعَمْرى لئن كان مُؤْمِن آلِ فِرْعَوْنَ نصح قومه وأبلغ فى الدعاء[1] لقد نصحتَ لهؤلاء وأبلغتَ لو نفع الصلح والإبلاغ ! » .

قال : ولمّا زحَف عمر بن سعد إلى الحسين أتاه الحُرُّ بن يزيد فقال له : « أصلحك الله ، أمُقاتِلٌ أنت هذا الرجل ؟ ! » قال : « إى واللهِ ، قتالا أيْسَرُه أن تسقط الرءوس وتَطِيحَ الأيدى ! » قال : أفمالكم فى واحدة من الخِصال التى عَرَض علَيكم رضًى ؟ قال عمر : « أمَا واللهِ لو كان الأمر لى لفعلتُ ! ولكنَّ أميرك قد أبى ذلك » . فأخذ الحُرُّ يدنو من الحسين قليلاً قليلا ، وأخذته رِعْدَة ، فقال له رجل من قومه يقال له « المهاجر بن أوس » . [ماتريد يا ابْنَ يزيد ؟ أتريد أن تحمل ؟ فسكت ، وأخذه مِثْلُ العُرَوَاء[2] ، فقال له :][3] « يا ابن يزيد ، إنَّ أمْرك لمُرِيب ! واللهِ مارأيتُ منك فى مَوقفٍ قَطُّ مِثْلَ شىء أراه الآن ! ولوقيل لى : مَن أشجعُ أهلِ الكوفة رجُلاً ؟ ماعَدَوْتك ! فما هذا الذى أرَى منك ؟ » فقال له : « إنى ـ واللهِ ـ أخَيِّرُ نفسى بَيْن الجنة والنار ، واللهِ لاأختار علَى الجنة شيئا ولو قُطِّعتُ وحُرِّقت ! » .

---

(١) يشير إلى قول الله تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من ل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه : وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ... ﴾ انظر الآية ٢٨ وما بعدها فى سورة غافر .

(٢) العرواء : مس الحمى .

(٣) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٥ .

ثمّ ضرب فَرَسه ، فلحِق بالحسين ، فقال له : « جعلنى اللهُ فِداك يا ابن رسول الله ، أنا صاحِبُك الذى حبسْتُك عن الرجوع ، وسايَرْتُك فى الطريق ، وجَعْجَعْتُ بك فى هذا المكان ، ووالله الذى لا إله إلا هو ما ظننتُ أن القوم يردُّون عليك ما عرَضتَ علَيهم أبدا ولا يبلُغون منك هذه المنزلة ! فقلت فى نفسى : لا أبالى أن أطيع القوم فى بعض أمرهم ولا يَرَوْن أنى خرجتُ من طاعتهم ، وأمَّا هُمْ فسيَقبلون من الحسين بعضَ هذه الخصال التى يَعْرِض عليهم ، ووالله لو ظننتُ أنهم لا يقبلونها منك ما ركبْتُها منك ! وإنّى قد جئتك تائبًا ممَّا كان منى إلى ربِّى مُوَاسيًا لك بنفسى حتَّى أموتَ بين يدَيْك ! أفَتَرَى ذلك لى توبة ؟ » قال : نعم يتوب الله عليك ويغفر لك .

قال : فتقدم الحُرّ ، ثم قال : « أيُّها الأمير[1] ، ألاَ تقبلون من الحسين خَصْلة من هذه الخصال التى عَرَض عليكم فيعافيَكم الله من حربه وقتاله ؟ » فقال له عمر : « قد حَرَصْتُ ، لو وجدتُ إلى ذلك سبيلا فعلتُ ! » فقال : « يا أهل الكوفة ، لأُمِّكم الهَبَلُ[2] ! دعَوْتموه حتَّى إذا أتاكم أسلمتموه ! وزعمتم أنكم قاتلو أنفُسكم دُونَه ثُمَّ عَدَوْتم عليه لتقتلوه ! أمسكتم بنَفَسه وأخذتم بكَظَمِه[3] وأحطتم به من كل ناحية ، فمنعتموه التوجُّه فى بلاد الله العريضة ، حتَّى يأمَنَ ويأمَنَ أهل بيته ، فأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٥ والكامل ج ٣ ص ٢٨٨ « أيها القوم » وهو أولى لمناسبة ما بعده .

(٢) الهبل : الثكل .

(٣) الكظم : مخرج النفس ، ويقال « أخذ بكظمه » إذا أصابه بالكرب والغم .

نفعا ولا يدفع عنها ضُرا ! ومنعتموه ومَن معه من ماء الفُرات الجارى الذى يشربه اليهودىُّ والنصرانىّ والمجوسىّ ، وتمرَّغ فيه خنازير السَّواد وكلابُه ، وهاهم قد صَرعهم العطش ! بئس ما خلفتم محمدا فى ذرِّيَّته ! لا أسقاكم الله يوْم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عمَّا أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه ! » فرمَوْه بالنَّبْل ، فرجع حتَّى وقف أمام الحسين .

وزحف عمر بن سعد ، ثم نادى : « يا ذُوَيْد [1] ، أدْن رايتك » ثم رمَى بسهم وقال : اشهدوا أنى أوَّل من رَمَى بسهم . . . ثم ارْتمىَ الناس .

وخرج يسار مولى زياد بن أبيه وسالم مولى عُبيد الله بن زياد ، فقالا : مَن يُبارز ؟ فخرج إليهما عبد الله بن عُمير الكلبى ، فقالا له : مَن أنت ؟ فانتسب لهما ، فقالا له : لانعرفك ، ليخرجْ إلينا زُهَير بن القَين أوحبيب بن مُظَهِّر أو بُرَيْر بن خُضَير . وكان يسار أمام سالم ، فقال له الكلبى : « ياابن الزانية ، أوَبكَ رغبةٌ عن مبارزة أحد من الناس ؟ وهل يخرج إليك أحد من الناس إلاَّ وهو خير منك ؟ ! » ثم حمل عليه فضربه بسيفه حتَّى بَرَد [2] ، فإنه لمشتغل به يضربه إذ شدَّ عليه سالم فلم يأبَهْ له ، حتَّى غشِيَه فبَدَره الضربة ، فاتَّقاه الكلبى بيده اليُسْرَى فأطار أصابع كفِّه اليسرَى ، ثم مال عليه الكلبىُّ فضربه حتَّى قتله .

وكان الكلبىُّ هذا قد رأى النادر من أهل الكوفة بالنُّخَيلة وهم

(١) أنظر ما سبق فى هذا الاسم .
(٢) برد ، مات .

يعرضون ليسرّحوا إلى الحسين ، فقال : « واللهِ لقد كنتُ على جهاد أهل الشرك حريصا ، وإنى لأرجو ألاّ يكونَ جهادُ هؤلاء الذين يغزُون ابْنَ بنتِ نبيِّهم أيْسَرَ ثوابًا عند الله من ثوابه إيَّاى فى جهاد المشركين ! » فدخل علَى امْرأته أمِّ وَهْب بنت عبد (١) ، فأخبرها بما سمع وأعلمها بما يريد ، فصوَّبَتْ رأيه وقالت : أخرِجْنى معك ! فخرج بها ليلا حتَّى أتى الحسينَ فأقام معه ، فلمَّا قَتل العبدَيْن أقبل يرتَجز ويقول :

إنْ تُنْكِرونى فأنَا ابن كَلْبِ
حَسْبِى بِبَيْتى فى عُلَيْمٍ حَسْبِى
إنِّى امْرُؤٌ ذُو مرَّة وعَصْبِ
ولسْتُ بالخَوَّارِ عنْدَ النَّكْبِ
إنِّى زَعيمٌ لَكِ أمَّ وَهْبِ
بالطعْنِ فيهم مُقْدِمًا والضَّرْبِ
ضَرْبِ غُلامٍ مُؤْمنٍ بالرَّبِّ

فأخذت امرأتُه أمُّ وَهْب عمودا ثمّ أقبلتْ نحوه تقول له : « فِداك أبى وأمِّى ! قاتِلْ دُونَ الطيِّبين ذُرِّيَّة محمد صلى الله عليه وسلم ! » فأقبَلَ إلَيها يردُّها نحو النساء . وأخذتْ تُجاذب ثوبه وقالت : لن أدَعَك دُون أن أموتَ معك ! فناداها الحسين فقال : « جُزيتِم مِن أهل بيتٍ خيرا ! ارجعى رحمك الله إلى النساء فاجلسى معهُنَّ ، فإنه ليس علَى النساء قِتال . » فانصرفتْ إليهن .

وحمل عمرو بن الحجَّاج ، وهو فى الميمنة ، فلمَّا دنا من الحسين

(١) من قبيلة النمر بن قاسط .

جَثَوْا له على الرُّكَب ، وأشرعوا الرماحَ نحوهم ، فلم تُقْدِم خيلُهم علَى الرماح ، فذهبت الخيلُ لِترجع : فرشَقُوهم بالنَّبْل ؛ فصرَعوا منهم رجالا وجرحوا آخرين .

وجاء عبد الله بن حَوْزة التَّميمى حتَّى وقف أمام الحسين ، فقال له : يا حسين [1] فقال : ما تشاء ؟ قال : أبشِرْ بالنار . قال : « كلاَّ ، إنى أَقْدَمُ علَى ربّ رحيم شفيع مُطاع ! مَن أنت ؟ » . قال أصحابه : هذا ابن حَوْزة . قال : رَبِّ حُزْهُ إلَى النار ! فاضطرب به فرَسُه فى جدْوَل ؛ فوقع فيه ، وتعلَّقت رجله بالرِّكاب ، ونَفَر الفرس ، فمرَّ به يضرب برأسه كلَّ شجرة وحجر حتَّى مات ، وانقطعت فخذه وساقه وقدمه .

ثم بَرَز الناسُ بعضُهم إلى بعض ، فصاح عمرو بن الحجاج بالناس : « يا حَمْقَى ، أتدرُون من تقاتلون ؟ فُرسان المصر قومًا مستميتين لا يبرُز [2] لهم منكم أحد ، فإنهم قليل ؛ والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم ! » فقال عمر : « صدقت ، الرأى ما رأيت » [3] .

ثم حمل عمرو بن الحجّاج على الحسين من نحو الفُرات ، فاضطربوا ساعة ، فصُرِع مُسلم بن عَوْسَجة الأَسَدىّ من أصحاب الحسين ، ثم [4] مات ، فترحّم الحسين عليه ثم قال : ﴿ فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، ومنهم مَنْ يَنْتَظِرُ وما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [5] .

(١) فى تاريخ الطبرى ج ص ٣٢٧ : « ياحسين ، ياحسين » .
(٢) فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٣١ : « لايبرزن » .
(٣) ومنع الناس من المبارزة ، كما ذكره ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٩٠ .
(٤) مشى الحسين إليه وبه رمق .
(٥) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

وحمل شَمِر بن ذى الجَوْشَن بالمَيْسَرة علَى من يليه من أصحاب الحسين ، فثبتوا له وطاعنوه ، فقُتِل الكلبى [١] ، بعد أن قَتَل رجلين آخَرَين وقاتل قتالا شديدا ،فكان هو القتيلَ الثانى من أصحاب الحسين .

وقاتَل أصحابُ الحسين قتالا شديدا ، فكانوا لا يحملون علَى جانب من خيل الكوفة إلاَّ كَشَفوه ، فلمَّا رأى ذلك عَزْرَة بن قَيس — وهو على خيل الكوفة — بعث إلى عمر بن سعد فقال : « ألاَ ترى ماتَلْقَى خيلى منذ اليْوم من هذه العِدَّة اليسيرة ؟ ابعث إليهم الرجالَ والرُّماة ! » . فقال عمر لشَبَث بن ربْعِىّ : تقدَّمْ إليهم . فقال : سُبْحانَ الله ! أتعمِد إلَى شيخ مُضَر وأهل المصرعامّه تبعثه فى الرُّماة ؟ لم تجد من تندُبُ لهذا ويُجزى عناك غيرى ! » وكان لا يزالون يَرَوْن من شَبَث الكراهةَ لقتال الحسين .

قال [٢] : فلما قال شَبَث ذلك دعا عمر بن سعد الحُصَين بن نمير [٣] وبعث معه المجفَّفة [٤] وخمسمائة من المرامية ، فلمَّا دنَوْا من الحسين وأصحابه رشَقُوهم بالنبل ، فلم يلبثوا أن عقروا خيولَهم وصاروا رَجّالة كلهم .

وقاتل الناس أشدّ قتال حتَّى انتصف النهار ، وهم لا يقدرون

---

(١) هو عبد الله بن عمير ، من بنى عليم ، وقد سبق قريبا ذكره ورجزه ، وقتله مولى زياد ومولى عبيد الله .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٢٩١ .

(٣) انظر ما سبق فى هذا الاسم .

(٤) المجففة : الطائفة التى تلبس : « التجفاف » من الآلات الواقية فى الحرب .

علَى أن يأتُوا الحسين وأصحابَه إلاَّ مِن وَجْه واحد ، لاجتماع أبْنِيَتهم وتقارب بعضها من بعض.

فأرسل عمر بن سعد رجالا يُقَوِّضونها عن أيمانهم وعن شمائلهم ، ليحيطوابهم ، فكان النفر من أصحاب الحسين الثلاثةُ والأربعة يتخلَّلون البيوتَ فيقتلون الرجلَ وهو يقوِّض وينهَب . فأمر بها عمر بنْ سعد فأحرقت ، فقال الحسين : « دعوهم يحرقوها ، فإنهم إذا أحرقوها لايستطيعون أن يجوزوا إليكم منها ! » . فكان ذلك كذلك : وجعلوا لا يقاتلونهم إلاَّ من وجه واحد .

وخرجت أم وهب امرأة الكلبيّ تمشى إلى زوجها ، حتَّى جلستْ عند رأسه ، فجعلتْ تَمسح التراب عن وجهه وتقول : هَنيئًا لك الجنة ! فقال شمر لغلام اسمه رستم : اضربْ رأسها بالعَمُود . فضرب رأسها ، فشدَّخه [1] ، فماتت مكانها .

وحمل شَمِر حتَّى بلغ فُسْطاط الحسين ونادَى : « عَلَيَّ بالنار حتَّى أحرق هذا البيت على أهله » . فصاح النساء وخرجْنَ من الفُسْطاط ، وصاح به الحسين ودعا عليه [2] ، فردَّه شَبَث بن رِبْعِيّ عن ذلك ، وحمل زُهير بن القَيْن فى عشرة من أصحابه على شمِر ومن معه فكشفهم [عن البيوت حتى ارتفعوا عنها] [3] وقتلوا أبا عَزَّة الضِّبابيّ من أصحاب شمر ، وعطف الناس عليهم فكَثَّروهم [4] ،

(١) شدخه (بتشديد الدال أو تخفيفها) : كسره .

(٢) قال : « يا ابن ذى الجوشن ، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتى على أهلى حرقك أنت بالنار » .

(٣) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٣٤ .

(٤) فاقوهم بكثرتهم .

فقال أبو ثُمامة عمرو بن عبد الله الصائدى للحسين : « ياأبا عبد الله ، نفسى لك الفداء ، إنى أرَى هؤلاء قداقتربوا منك ، ولا والله لاتُقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله ! وأحبُّ أن ألقَى ربِّى وقدصلَّيْت هذه الصلاةَ التى قد دنا وقتُها ! » فدعا [1] له الحسين وقال : نَعَمْ هذا أوّل وقتها . ثم قال سَلُوهم أن يكفُّوا عنَّا حتَّى نصلِّى . ففعلوا ، فقال لهم الحُصَين بن نُمَير : إنها لاتُقبل . فسبّه حبيب بن مظهَّر ، فحمل عليه الحُصَين ،وخرج إليه حبيب بن مظهَّر ، فضرب وجه فرسه بالسيف ، فشَبّ ، فسقط عنه الحُصَين ، فاستنقذه أصحابه ، وقاتل حبيب قتالا شديدا ، فقتل بديل به صريم التميمى ، وحمل عليه آخر من تميم ، فطعنه ، فوقع ، فذهب ليقوم ، فضربه الحصين على رأسه بالسيف ، فوقع ، فنزل إليه التميمى فاحتزَّ رأسه .

فقال حسيْن عند ذلك [2] : أحتسب نفسى وحُماة أصحابى ! !

وحمل الحُرّ بن يزيد وزُهَير بن القَيْن فقاتلا قتالا شديدا ، فقتل الحُرّ ، وقتل أبو ثُمامه الصائدى ابنَ عمّ له كان عدوّه .

ثم صلَّى الحسين صلاة الظهر بأصحابه صلاة الخَوف ، ثم اقتتلوا بعد الظهر ، فاشتدّ قتالهم ، ووُصل إلى الحسين فاستقدم سعدبن عبد الله الحنَفِىّ أمامه ، فاستهدف لهم يرمُونه بالنبل حتَّى سقط ، وقاتل زُهَير بن القين قتالا شديدا وجعل يقول :

---

(١) قال الحسين : « ذكرت الصلاة ، جعلك الله من المصلين الذاكرين » .

(٢) عبارة الطبرى وابن الأثير : « لما قتل حبيب بن مظهر هد ذلك حسينا ، وقال عند ذلك . . . » .

أنا زُهَير وأنا ابن القَيْـنِ
أَذُودُهمْ بالسيـــفِ عن حسَينِ

وجعل يضرب على مَنْكِب الحسين ويقول !

أَقْدِمْ هُدِيتَ هادِيًا مَهْدِيًّـــا
فالْيَوْمَ تَلْقَى جَدَّكَ النَّبِيَّـــا
وحَسَنًا والمُرْتَضَى عَلِيًّـــا
وذا الجناحَيْنِ (١) الفَتَى الكمِيَّـا
وأَسَدَ الله (٢) الشهيد الحَيَّـــا

قال : فحمل على زهير كثير بن عبد الله الشعبي ومهاجر بن أوس فقتلاه .

قال : وكان نافع بن هلال البَجَلي (٣) قد كتب اسمه على أفواق (٤) نَبْله ، وكانت مسمومة ، فقَتَل بها اثنى عشر رجلا سِوَى من جَرَح ، فضرب حتى كُسرت عَضُداه ، وأخذ أسيرا ، فأُتِيَ به شَمِرٌ عمرَ ابنَ سعد والدم يسيل على لحيته ، فقال له عمر : « ويحك يانافع ! ما حَمَلك على ماصنعتَ بنفسك ؟ » قال : « إنَّ ربي يعلم ماأردتُ ! والله لقد قتلتُ منكم اثْنَيْ عشر سِوَى من جرحتُ ، وما ألوم نفسي ،

(١) ذو الجناحين جعفر ابن أبي طالب ، عم الحسين ، استشهد بمؤتة من أرض الشام مجاهدا للروم مقبلا غير مدبر ، فى جسده بضع وتسعون بين طعنة ورمية ، وقد رآه النبى صلى الله عليه وسلم ذا جناحين مضرجين بالدم يطير مع الملائكة فى الجنة ، وفيه رمز لطيف ، لأنه قاتل حتى قطعت يداه .

(٢) أسد الله : حمزة بن عبد المطلب ، عم النبى وأبى الحسين : استشهد بأحد ، ولقبه النبى صلى الله عليه وسلم « أسد الله » .

(٣) فى تاريخ الطبرى : « الجمل » .

(٤) أفواق : جمع فوق (بضم الفاء) وهو مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

ولو بقيَتْ لى عضُدٌ وساعدٌ ما أسرتمونى ! » فقال له شَمِر : اقتلهْ أصلحك الله . قال : أنت جئتَ به فإن شئتَ فاقتلْه . فانتَضَى (١) شَمِر سيفَه ، فقال له نافع : « أمَا واللهِ لوكنتَ من المسلمين لعظُم عليك أن تلقَى الله بدمائنا ! فالحمد لله الذى جعل مَنايانا علَى يَدِ شِرار خلقه ! » فقتله .

ثم حمل شَمِر علَى أصحاب الحسين ، فلما رأَوْا أنهم قد كُثِرُوا وأنهم لا يقدرون علَى أن يمنعوا الحسين تنافسوا أن يُقتَلُوا بين يَدَيه ، فجاءه عبد الله وعبد الرحمن ابنا عَزْرَة الغِفاريّان فقالا : قد جازَنا العدُّو إليك فأحببنا أن نقتل بين يَدَيك ! فرحَّب بهما ، وقال : ادْنُوَا منى فدنَوَا منه ، فجعلا يقاتلان قريبًا منه .

وجاءه الفتيان الجابريان : سيف بن الحارث بن سُرَيع ومالك ابن عبد بن سُريع ، وهما ابنا عمّ وأخَوانِ لأمّ ، وهما يبكيان ، فقال : « مايبكيكما ؟ واللهِ إنى لأرجو أن تكونا عن ساعة قَرِيرَىْ عَين ! » قالا : « واللهِ ماعلى أنفسنا نبكى ، ولكنَّا نبكى عليك ! نراك قد أُحِيطَ بك ولا نقدِرُ أن نمنعك ! » . فقال : جزاكما الله خيرا ! (٢) .

وجاء حَنْظلة بن أسعد الشِّبامىّ فوقف بين يدَى الحسين ، وجعل ينادى : ﴿ ياقَوْمِ ، إنِّى أخاف عَلَيكمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزابِ ، مثْلَ دأْب قَوْمِ نُوح وعَادٍ وثَمُودَ والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وما اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبادِ ، وياقَوْمِ إنِّى أخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ ،

(١) انتضى سيفه : استل سيفه من غمده .

(٢) روى الطبرى قول الحسين لهما : « جزاكما الله يا ابنى أخى بوجه كما من ذلك ومواساتكما إياى بأنفسكما أحسن جزاء المتقين » .

يوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصمٍ ، ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فما لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[1] يا قَومِ لاتقتلوا الحسين فيُسْحتَكُم[2] اللهُ بعذابٍ « وقد خاب مَنِ افْتَرَى ! » . فقال له الحسين : « رَحِمَكَ الله ! إنهم قد استَوْجبوا العذاب حِينَ ردُّوا علَيك ما دعَوْتَهم إليه من الحق ونهضوا إليك ليستبيحوك ، فكَيْفَ بهم الآنَ وقد قتلوا إخوانَك الصالحين ؟! » قال : « صدقتَ أفلا نرُوح إلى ربنا ونلحق بإخواننا ؟ ! » . قال : رُحْ إلَى خيرٍ من الدنيا وما فيها وإلى مُلْكٍ لا يَبْلَى . فسلَّم علَى الحسين واسْتقدَمَ فقاتَل حتَّى قُتل .

ثم استقدم الفَتَيـان الجابريان ، فودعا حسينا ، وقاتلا حتَّى قُتلا .

وجاء عابس بن أبي شَبيب الشاكرى وشَوْذَب مولى شاكر إلى الحسين ، فسلَّما عليه ، وتقدما فقاتلا ، فقُتل شَوْذَب ، وتقدم عابس نحوهم بالسيف ، وبه ضربة على جبينه ، وكان أشجع الناس ، فجعل ينادى : « ألاَ رجلٌ لرجل ؟ » . فعرفه ربيع بن تميم الهَمْدانى ، فقال : « أيها الناس ، هذا الأسد الأسود ، هذا ابن أبي شَبيب ، لا يخرجَنَّ إليه أحدٌ منكم ! » . فقال عمر بن سعد : ارضخوه بالحجارة . فرمَوْه من كلِّ جانب ، فلما رأى ذلك ألْقَى دِرْعَه ومِغْفَرَه ثم شدَّ علَى الناس ، فهزمَهم بين يَدَيْه ، ثم عطفوا عليه من كلِّ جانب ، فقتلوه ، فادَّعَى قتلَه جماعةٌ وأتَوا ابنَ سَعْد ، فقال : «لاتختصِموا

(١) من الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ من سورة غافر .

(٢) جاء فى الآية ٦٠ من سورة طه : ﴿ ... فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ﴾

هذا لم يَقتله إنسان واحد ! » . ففرق بينهم [بهذا القول] (١) .

وجاء أبو الشعثاء يزيد بن أبي زياد الكندى ، وكان راميًا ، فجثا على ركبتَيه بين يدى الحسين فرمىَ بمائة سهم ماسقط منها خمسة أسهُم ، وكان يزيد هذا مِمَّن خرج مع عُمر بن سعد ، فلَّما رَدُّوا ما عَرَض علَيهم الحسين عَدَل إلَيه ، فقاتل حتَّى قُتل .

وكان آخر من تبقَّى مع الحسين من أصحابه سُوَيد بن عمرو ابن أبي المطاع الخَثْعَمىّ .

وكان أوَّل قتيل من بنى أبي طالب يومَئذٍ علىّ الأكبر ابن الحسين ، وأمه لَيلَى ابنة أبي مُرّة بن عُرْوة بن مسعود الثقفية ، وذلك أنه حَمَل علَى الناس وهو يقول :

أنا علىُّ بن الحسين بن عَلِي
نحن ورَبِّ البيت أوْلَى بالنَّبِى
تاللهِ لا يحكُمُ فينا ابن الدَّعى

فعل ذلك مِرارا وهو يشُدُّ علَى الناس بسيفه ، فاعترضه مُرَّة بن مُنقذ بن النعمان العبدى ، وطعنه ، فصُرِع ، وقطعه الناس بأسيافهم ، فقال الحسين : « قَتل اللهُ قوما قتلوك يا بُنَىّ ! ما أجرَأهم علَى الله وعلَى انتهاك حُرْمة الرسول ! علَى الدُّنيا بَعدَك العَفاء ! » وأقبل الحسين إلَيه ومعه فِتيانه فقال : احملوا أخاكم . فحملوه حتَّى وضعوه بين [(٢) يدَى الفُسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه .

---

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٣٩ .

(٢) هنا ينتهى ما كان بياضا فى النسخة (ك) وثبت فى النسخة (ن) ، مع مراجعته على ما أثبته ابن جرير الطبرى فى تاريخه وابن الأثير فى الكامل . انظر ماسبق ص ٤٢١

وشدَّ عثمان بن خالد الجُهَنى وبشر بن سوط الهمَدْانى علَى عبد الرحمن بن عَقيل بن أبى طالب [فقتلاه ، ورمَى عبد الله بن عَزْرة الخثعمى جعفر بن عقيل بن أبى طالب] (١) فقتاه ، ورمَى عمرو بن صبيح الصدائى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفَّه على جَبهته فلم يستطيع أن يحركها ثم رماه بسهم آخر فقتله .

وحمل الناس عليهم من كل جانب ، فحمل عبد الله بن قطبة الطائى على عَون بن عبد الله بن جعفر فقتله ، وحمل القاسم بن الحسَن ابن علىّ فحمل عليه عمرو بن سعد بن نُفيل الأزدى : فضرب رأسه بالسيف فوقع القاسم إلى الأرض لوجهه ، وقال : ياعمّاه ! فانقضَّ الحسين إليه كالصقر ، ثم شدّ شدة ليث أغضب ، فضرب عمرا بالسيف ، فاتقاه بالساعد ، فقطع يده من المرفق : فصاح ، وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمرا ، فاستقبلته بصدورها ، وجالت عليه بفرسانها ، فوطئته حتَّى مات ، وانجلت الغَبَرة والحسين قائم على رأس القاسم وهو يفْحَص برجليه . والحسين يقول : « بُعْدًا لِقومٍ قتلوك ومن خصمهم يوم القيامة [فيك] (٢) جَدُّك ! » ثم قال : « عزَّ واللهِ علَى عمِّك أن تدعوَه فلا يجيبك ، وأن يُجيبَك فلا ينفعك صَوْتُ واللهِ كثُرَ واترُه وقلَّ ناصرُه ! » ثم احتمله علَى صدره حتَّى ألقاه مع ابنه علىّ ومن قُتِل من أهل بيته .

قال : ومكث الحسين طويلا من النهار ، كلّما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه وكِره أن يتولَّى قتله وعظيم إثمه ، فأتاه رجل من

(١) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .
(٢) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٤١ والكامل ج ٣ ص٢٩٣ .

كِنْدة يقال له « مالك بن النسير » فضربه على رأسه بالسيف ، فقطع البُرْنُس ، وأدْمَى رأسه ، وامتلأ البُرْنُس دَمًا ، فقال له الحسين : « لا أكلتَ بها ولا شربْتَ ! وحشرك الله مع [القوم] (١) الظالمين ! » وألقى ذلك البرنس ، ثم دعا بقَلَنْسُوَة فلبسها واعتم . وجاء الكِنْدِىُّ فأخذ البُرْنُس وكان من خَزّ ، فقدِم به على امرأته ، وأقبل يغسله من الدم ، فقالت له : « أسلَبُ (٢) ابْنِ بنت رسول الله يدخل بَيْتى ؟ أخرِجْه عنى ! » فلم يزَل ذلك الرجل فقيرًا بشرٍّ حتَّى مات .

قال : ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو صغير ، فأجلسه فى حِجْره فرماه رجل من بنى أسد بسهم فذبحه ، فأخذ الحسين دمه بيده فصبّه فى الأرض ، ثم قال : « اللهمّ رَبِّ إن كنتَ حبستَ عنا النصر من السماء فاجعلْ ذلك لما هو خير ، وانتقِمْ من هؤلاء الظالمين ! » ورمى عبد الله بن عُقبة الغَنَوى أبا بكر بن الحسين بسهم فقتله ، وقتل إخوة الحسين وهم العبّاس وعبد الله وجعفر وعثمان .

قال : واشتدّ عطشُ الحسين ، فدنا من الفُرات ليشرب فقال رجل من بنى أبان بن دارِم : « وَيْلَكم ! حُولُوا بينه وبين الماء » ، وضرب فرسه ، واتبعه الناس حتىّ حال بينه وبين الفُراتِ ، فقال الحسين : اللهم أظمئه ! وانتزع الأبانىّ سَهما فأثبته فى حَنَك الحسين ، فانتزع الحسين السهمَ ، ثم بسَط كفَّيْه فامتلأ دما ؛ فقال اللهم إنى أشكو إليك مايُفعل بابن بنت نبيك ، اللهم أحْصِهم عَددًا واقتلهم بَدَدًا (٣) ، ولا تبق منهم أحدا . وقيل أن الذى رماه حصين

(١) ثبت هذه الزيادة فى النسخة (ك) ولم تثبت فى النسخة (ن) .
(٢) السلب : ما يؤخذ سلبا .
(٣) أى متفرقين فى القتل واحدا بعد واحد .

ابن نمير . قال : فما مكث الذى رماه إلاَّ يسيرا ، ثم صب الله عليه الظمأ فجعل لايَرْوَى ، والماء يُبَرَّد له فيه السُّكر ، وعِسَاسٌ[1] فيها لبن ، وقلال فيها الماء ، وإنه ليقول : ويلكم ؛ اسقونى ، قتلنى الظمأ ؛ فيعْطَى القُلَّةَ أو العُسّ فيشربه ، فإذا شربه اضطجع هنيهة ، ثم قال : ويلكم ، اسقونى قتلنى الظمأ ، فيعطى القُلَّة والعُسّ فيشربه ، فما لبث إلا يسيرًا حتَّى انقدَّ بطنُه انقداد بطن البعير .

قال . ثم إن شَمِر بن ذى الجوْشَن أقبل فى نحو عشرة من رجاله أهل الكوفة قِبَل منزل الحسين الذى فيه أهله وعياله ، فمشى نحوهم فحالُوا بينه وبين رَحْله ، فقال : ويلكم ؛ إن لم يكن لكُم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا فى دنياكم أحرارا ذَوِى أحساب ، امنعوا رحلى وأهلى من طَغَامكم وجُهَّالكم . قال شمر : ذاك لك يا ابن فاطمة . وأقدم شمر عليه بالرَّجالة منهم أبو الجَنُوب عبد الرحمن الجُعْفىّ ، وصالح بن وهب اليَزَنىّ ، وسنان بن أنس النَّخَعىّ ، وخولىّ بن يزيد الأصبحى ، وجعل شَمِر يحرِّضهم على الحسين ، وهو يحمل عليهم فينكشفون عنه ؛ ثم أحاطوا به ، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله ، فأخذته زينب بنْت علىّ لتحبسه ، فأَبَى الغلام ، وجاء يَشْتدُّ حتَّى قام إلَى جنب الحسين ، وقد أهْوَى بن كعب بن عبيد الله — من بنى تيم الله بن ثعلبة — إلى الحسين بالسيف ، فقال له الغلام : يا ابن الخبيثة أتقتل عمِّى ؟ ! فضربه بالسيف فاتَّقاه الغلام بيده ، فأطَنَّها[2] إلى الجلدة[3] ، فنادى الغلام :

(١) عساس : جمع عس ، وهو القدح الضخم .
(٢) أطنها : قطعها .
(٣) فإذا يده معلقة .

يا أُمّتاه ، فضمه الحسين إليه وقال : « ياابن أخي اصبرْ علَى مانزل بك ، واحتسب فى ذلك الخير ، فإن الله يُلحقك بآبائك الصالحين : برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلىّ وحمزة وجعفر والحسن » ثم قال الحسين : « اللهمَّ أمسِك عنهم قَطْر السماء ، وامنعْهم بَرَكَاتِ الأرض ، اللهم فإنْ متَّعتهم إلَى حين ففرِّقْهم فِرَقًا ، واجعلهم طَرائقَ قِدَدا ، ولا تُرْضِى عنهم الوُلاة أبدا ، فإنهم دَعَوْنا لينصرونا ، فعَدَوْا علَينا فقتلونا ! » ثم ضارب الرجَّالة حتَّى انكشفوا عنهم .

قال : ودنا عمر بن سعد من الحسين فخرجت زينب بنت علىّ أخت الحسين فقالت . ياعمر ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه ؟ فجعلت دموع عمر تسيل على خدَّيْه ولحيته ، وصرف وجهه عنها .

ومكث الحسين طويلا من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يَتَّقى بعضهم ببعض ، ويحبّ هؤلاء أن يكْفهم هؤلاء ، فنادَى شَمِر ابن ذي الجَوْشَن فى الناس ، وَيْحكم ؛ ماتنتظرون بالرجل ؟ ! اقتلوه ثَكِلَتْكم أمهاتكم ! فحملوا عليه من كل جانب ؛ فضرب زُرْعة بن شَريك كفَّه اليسرى ، وضُرب على عاتقه ثم انصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو ، وحمل عليه فى تلك الحال سِنان بن أنس النَّخعى فطعنه بالرمح فوقع ، وقال لخَولىّ بن يزيد الأصبحى احتز رأسه ، فأراد أن يفعل فضعف وأرْعد ، فقال له سِنان : فَتَّ الله عَضُدك ، وأبان يدك ، ونزل إليه فذبحه وأخذ رأسه فدفعه إلى خولى .

وسُلب الحسين ماكان عليه ؛ فأخذ سراويلَه بحر بن كعب ، فكانت

يداه فى الشتاء تضخان الماء ، وفى الصيف تيبسان كأنهما عود. وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وهى من خَزٍّ ، فكان يُسَمَّى بعد « قيس قطيفة » . وأخذ نعليه الأسود الأودى ، وأخذ سيفه رجل من بنى نَهْشَل. ومال الناس على الورس والحُلل والإبل فانتهبوها ، وانتهبوا ثقلَه ومتاعَه وما علَى النساء ، حتى إن كانت المرأة لَتُنازَع ثوبَها فيؤخذُ منها .

ووُجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة ، وكان سُوَيْد بن عمرو بن أبى المطاع قد صُرِع ، فوقع بين القتلَى مُثْخنا بالجراح ، فسمعهم يقولون : قُتل الحسين فوجد خِفَّة فوثب ومعه سكين فقاتلهم بها ساعة ، ثم قتله عروة بن بطان الثعلبى ، فكان آخر قتيل من أصحاب الحسين

قال . وانتهوا إلى على بن الحسين وهو زين العابدين ، فأراد شَمِر قتله وكان مريضا فمنعه حُمَيد بن مسلم ، وجاء عمر بن سعد فقال : لايدخلنَّ بيت هؤلاء النسوة أحدٌ . ولا يعرضنَّ لهذا الغلام المريض : ومن أخذ من متاعهم شيئا فلْيردُدْه عليهم ، فماردّ أحدٌ شيئا ، فقال الناس لِسنَان بن أنس : « قتلتَ حسين بن على وابنَ فاطمة بنتِ رسول الله ، قتلتَ أعظم العرب خَطرا ، أراد أن يزيل ملك هؤلاء ، فأْت أمراءك فاطلبْ ثوابكَ منهم ، فإنهم لو أعطوك بيوت أموالهم فى قتله كان قليلا » فأقبل على فرسه حتى وقف على باب فُسْطاط عمر بن سعد ، ثم نادَى بأعلَى صوته :

أَوْقِرْ ركابى فضّة وذهبـا أنا قتلتُ السيّد المحجّبا (١)
قتلتُ خيرَ الناس أما وأبا وخَيْرَهم إذ يُنْسَبون نَسَبَا

فقال عمر بن سعد : أشهد أنك مجنون ، أدخِلوه ؛ فلمّا دخل حذفه بالقضيب وقال : يامجنون أتنظم بهذا الكلام ؟ لو سمعك ابنُ زياد لضَرَبَ عنقك . وقيل : إنه قال ذلك لعُبيد الله ابن زياد ، فقال : فإن كان خير الناس أما وأبا فلم قتلته ؟ وأمر به فضربت عنقه ، خسر الدنيا والآخرة .

ذكر تسمية من قتل مع الحسين بن على

رضى الله عنهما ومن سلم ممن شهد القتال

قال : ولمّا قُتل الحسين جاءَت كِندة بثلاثة عشر رأسا وصاحبهم قَيس بن الأشعث ، وجاءت هَوازن بعشرين رأسا ، وصاحبهم شَمِر بن ذى الجَوْشَن ، وجاءت بنو تميم بسبعة عشر رأسا ، وجاءت بنو أسد بستة ، وجاءت مَذْحِج بسبعة ، وجاء سائر الجيش بسبعة ، فذلك سبعون رأسا .

منهم إخوة الحسين ستة ، وهم : العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد — وليس هو ابن الحنفية — وأبو بكر ، أولاد علىّ بن أبى طالب

ومن أولاد الحسين : علىٌّ ، أمه ليلى بنت أبى مرّة بن عروة الثقفى ، وعبد الله ، وأمُّه الرَّباب بنت امرئ القَيس الكلبى .

(١) فى النسخة (ن) وتاريخ الطبرى والكامل : « إلمحجبا » وهو المشهور ، وفى النسخة (ك) : « المحتجبا » .

ومن أولاد الحسن بن علىّ ثلاثة : وهم أبوبكر ، وعبدالله ، والقاسم .

ومن أولاد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب : عَون ، ومحمد .

ومن أولاد عقيل بن أبى طالب : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله ، ومسلم بالكوفة

ومن مَوَالى الحسين : سليمان ، ومنجح .

وتكملة من قُتل ممن اتبعه ، وقد ذكرنا بعضهم بأسمائهم فى أثناء هذه القصة .

وأما من سلم منهم : فالحسن بن الحسن ، وعمرو بن الحسن لصغرهما ، وعلىّ بن الحسين لمرضه ، والضحاك بن عبد الله المشرقى ؛ وذلك أنه جاء إلى الحسين فقال : « يا ابن رسول الله ، قد علمت أنى قلت لك : إنى أقاتل عنك ما رأيت مُقاتَلاً ، فإذا لم أرَ مقاتَلا فأنا فى حِلٍّ من الانصراف » فقال له الحسين : « صدقتَ ، وكيف لك بالنجاة ؟ إن قدرتَ عليه فأنت فى حِلّ » وذلك بعد أن فنى أصحاب الحسين ، قال الضحاك : فأقبلت إلى فرسى وكنتُ قد تركته فى خِبَاءٍ حيث رأيتُ خيل أصحابنا تُعقر ، وقاتلت راجلا ، فقتلت رجلين ، وقطعت يد آخر ، ودعا لى الحسينُ مِرارا قال : فاستخرجت فرسى واستَوَيتُ عليه ، وحملت على عرض القوم فأفرجوا لى ، وتبعنى منهم خمسة عشَر رَجلا ، ففُتُّهُمْ ، فسَلِمتُ .

ومنهم عقبة بن سمعان مولى الرَّبَاب ابنة امرىء القيس الكلبية امرأة الحسين ، أخذه عمر بن سعد فقال : ما أنت ؟ فقال : أنا عبد

مملوك فخلّى سبيله ، فنجا . ومنهم الرقع [١] بن ثمامة الأسدى ، وكان قد نَثَر نبله فقاتل فجاءه نفر من قومه فأمّنوه ، فخرج إليهم فلما أخبر ابن زياد به نفاه إلى الزارة [٢] .

ذكر ما كان بعد مقتل الحسين

مما هو متعلق بهذه الحادثة

قال : ولما قُتل الحسين نادَى عُمربن سعد فى أصحابه : من يَنتدب للحسين فيوطئه فرسه ، فانتدب له عشرة ، منهم إسحاق بن حيوة الحضرمى ، وهو الذى سَلَب قميص الحسين فبَرِصَ بعد ذلك ، فداسوا الحسين بخيولهم حتّى رضّوا ظهره وصدره .

قال : ودفن جُثّة الحسين وجثث أصحابه أهْل الغاضرية من بنى أسد بعد ما قتلوا بيوم .

وقتل من أصحاب ابن سعد ثمانية وثمانون رجلا سِوى الجرحى ، فصلّى عليهم عُمر ودفنهم .

قال : وسرح عمر برأس الحسين من يومه ذلك مع خَولىّ بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدى إلى عُبيد الله بن زياد ، فأقبل به خَوَلى فوجد باب القصر مُغلقا ، فأتَى منزله فوضعه تحت إجّانة [٣] فى الدار ، ثم دخل البيت فأوَى إلى فراشه ، فقالت له امرأته وهى النَّوَار بنت مالك الحَضْرَمِيّة : ما الخبر ؟ قال : جئتكِ بغنَى الدهر ، هذا رأس الحسين معكِ فى الدار ، قالت . فقلتُ : وَيْلَكَ ! جاء الناس

(١) كذا فى النسخة « ك » ، وفى النسخة « ن » : « المرقع » ، وفى شرح القاموس : رقيع ، كزبير ، الأسدى .

(٢) الزارة : قرية بالبحرين . (٣) إجانة : إناء تغسل فيه الثياب .

بالذهب والفضة وجئتَ برأس ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لايَجمع رأسى ورأسَك بيت أبدا ، قالت : فقمت من فراشى فخرجت وجلست أنظر ، فوالله مازلت أنظر إلى نور يسطَع مثل العمود من السماء إلى الإجّانة ، ورأيت طيرًا بيضًا ترفرف عليها [1] ، فلما أصبح غدا بالرأس إلى عبيد الله بن زياد .

وقيل : بل الذى حمل الرأس شَمِربن ذى الجَوْشَن ، وقيس ابن الأشعث ، وعمرو بن الحجاج ، وعزرة بن قيس ، فجلس ابن زياد ، وأذِن للناس فأُحضرت الرؤوس بين يديه ، فجعل ينكت بقضيب بين ثَنِيَّتَى الحسين ، فلما رآه زيد بن أرقم لايرفع قضيبه ، قال له : اعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فَوَالله الذى لاإله غيره لقد رأيت شَفَتَىْ رُسولِ الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما ! ثم بكَى ، فقال له ابن زياد : أبكَى الله عينك ، فَوَالله لولا أنك شيخ قد خرِفْت وذهب عقلك لضربتُ عُنقك . فخرج وهو يقول : أنتم يامَعْشَر العربِ العبيدُ بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة وأمَّرْتم ابن مَرْجانه ، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم فرضيتم بالذل [2] فبعدًا لمن رضى بالذل] قال : وأقام عمر بن سعد يومه هذا والغد ، ثم أذن فى الناس بالرحيل إلى الكوفة ، وحمل معه بنات الحسين وأخواته ، ومن كان معه من الصبيان ، وعلىّ بن الحسين مريض ، فاجتازوا به على الحسين وأصحابه صَرْعَى ، فصاح النساء ولَطَمن الخدود ، وصاحت زينب أخته : « يامحمداه ! صلِّى عليك ملائكة السماء ، هذا حسين

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) . وجاء فى النسخة (ن) « حولها » .
(٢) ثبتت هذه العبارة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .

بالعراء مُرْمِل (١) بالدماء مقطَّع الأعضاء ! يا مُحمداه ! وبناتك سَبايا ! وذُريتك مقتَّلة تسْفِى عليها الصَّبا ! » فأبْكَتْ كل عدوّ وصديق .

قال : ولما أدخلوا على عبيد الله لبست زينب أرْذَل ثيابها وتنكَّرت ، وحفَّ بها إماؤها ، فقال عبيد الله : من هذه الجالسة ؟ فلم تكلِّمه حتَّى قال ذلك ثلاثا وهى لاتكلِّمه ، فقال بعض إمائها : هذه زينب بنت فاطمة ، فقال لها ابن زياد : الحمد لله الذى فضحكم وقتَّلكم وأكذب أحْدُوثتكم . فقالت : الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وطهَّرنا تطهيرا لا كما تقول ، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر . قال : فكيف رأيت صُنْعَ الله بأهل بيتك ؟ قالت : كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتَحاجّون إليه وتَخاصَمون عنده ، فغضب ابن زياد واستشاط ، ثم قال لها : قد شفَى الله نفسى من طاغيتكِ والعُصاة المَرَدَة من أهل بيتك . فبكت ثم قالت : لعمرى لقد قتلت كهلى وأبرزت أهلى وقطعت فرعى واجتثثْت أصلى ، فإن يَشْفِك هذا فقد اشتفيتَ . فقال لها عبيدالله . هذه شجاعة فلَعَمرى لقد كان أبوكِ شجاعا ، قالت : ما للمرأة والشجاعة ؟ إن لى عن الشجاعة لشغلا . ونظر عبيد الله إلى على بن الحسين فقال له : ما اسمك ؟ قال : أنا على بن الحسين ، قال : أولم يقتل الله على بن الحسين ، فسكت . فقال له ابن ياد : مالك لاتتكلم ؟ قال : قد كان لى أخ يقال له علىٌّ فقتله الناس ، قال : إن الله قتله ، فسكت علىّ ، فقال : مالك لاتتكلم ؟ قال : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ

(١) مرمل : متلطخ .

حِين مَوْتِهَا ﴾ (١) . ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (٢) قال : أنت والله منهم ، ثم قال لرجل : ويحك انظر هذا هل أدرك ؟ والله إنى لأحسبه رجلا ، فكشف عنه مُرىّ بن معاذ الأحمرى فقال : نعم قد أدرك ، قال : اقتله ، فقال على : من توكّل بهؤلاء النسوة ؟ وتعلقت به زينب عمته ، فقالت : يا ابن زياد حَسْبُكَ مِنَّا أَمَا رويتَ مِن دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحدا ؟ واعتنقته وقالت : أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلتَه لما قتلتَنى معه ، وقال علىّ : ياابن زياد إن كان بينك وبينهنّ قرابة فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحة الإسلام . فنظر إليهن ساعة ثم نظر إلى القوم فقال : ياعجبا للرَّحِم والله إنى أظنها وَدّت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه ، دَعُوا الغلام ، انطلِقْ مع نسائك .

ثم نودى : « الصلاة جامعة » فاجتمع الناس فى المسجد الأعظم فصعد ابن زياد المنبر ، فقال : الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته ، فوثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدى : وكان من شيعة على ، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع على ، والأخرى بصِفّين معه ، وكان لايكاد يفارق المسجد الأعظم ، يصلّى فيه إلى الليل ثم ينصرف ، فقال : يا ابن مَرْجانة إنَّ الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ، والذى ولاك وأبوه ، يا ابن مرجانة تقتلون أبناء النبيين ، وتكلّمون بكلام الصدِّيقين . فقال ابن زياد : علىّ

(١) من الآية ٤٢ من سورة الزمر .
(٢) من الآية ١٤٥ من سورة آل عمران .

به ، فوثبت عليه الجَلاوِزة[١] فأخذوه ، فنادَى بشعار الأزد « يامَبْرور » فوثبت إليه فئة من الأزد ، فانتزعوه ، وأتَوْابه أهله ، فأرسل إليه منْ أتاه به فقتله ، ثم أمر بصلبه فى السَّبْخَة[٢] فصلب .

قال : وأمر ابن زياد برأس الحسين فطيف به فى الكوفة .

قال : ثم أرسل ابن زياد رأس الحسين ورؤوس أصحابه مع زَحْربن قيس إلى يزيد بن معاوية ومعه جماعة ، وقيل : مع شَمِر وجماعة ، وأرسل معهم النساء والصبيان ، وفيهم على بن الحسين ، وقد جعل ابن زياد الغُلّ فى يديه وعنقه ، وحملهم على الأقتاب ، فلم يكلمهم علىٌّ فى الطريق ، فدخل زَحْر بن قيس على يزيد فقال له : ماوراءك ويلك وما عندك ؟ قال : أبشر ياأمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره ، وَرَد علينا الحسين بن علىّ فى ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته ، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عُبيد الله بن زياد أو القتال ، فاختاروا القتال ، فغدَوْنا عليهم مع شروق الشمس فأحطنابهم من كل ناحية ، حتّى أخذت السيوف مأخذها من هَامِ القوم ، فجعلوا يهربون إلى غير وَزَرٍ[٣] ، ويلوذون منا بالآكام والحُفَر لوَاذًا[٤] كما لاذ الحمائم من صَقْر ، فوالله ياأمير المؤمنين ما كان إلا جَزْر جَزُور[٥] ، أو نومة قائل[٦] حتى أتينا

(١) الجلاوزة : الشرطة .
(٢) السبخة : موضع بالبصرة .
(٣) الوزر : الملجأ .
(٤) لواذا : التجاء .
(٥) الجزر : النحر ، والجزور : الفتى من الإبل .
(٦) القائل : النائم وقت الظهيرة .

علَى آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرَمَّلة [١] ، وخدودهم معفرة[٢] ، تصهَرَهم الشمس وتسفى عليهم الريح ، زُوَّارهم العِقْبان والرخَم بِقِىٍّ [٣] سَبْسَبٍ . قال : فدمَعَتْ عينا يزيد وقال : كنت أرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سُمَيَّة ، أمَا والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين. قال : ولما وصل علىّ بن الحسين ومن معه والرأس إلى دمشق ، وقف مُحَفِّر بن ثعلبة العائذى ، وكان عبيد الله قد تركهم معه ومع شَمِر على باب يزيد بن معاوية ، ثم رفع صوته وقال : هذا مُحفِّر بْن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة ، فأجابه يزيد ماوَلدت أمُّ مُحَفِّر شرٌّ وألأمُ ، ولكنه قاطع ظلوم . ثم دخلوا على يزيد فوضعوا الرأس بين يديه وحدثوه ، فسمعت الحديث هندُ بنت عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، وكانت تحْت يزيد ، فتقنَّعتْ بثوبها وخرجتْ فقالت : ياأمير المؤمنين رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ؟ قال : نعم فأعْوِلى عليه وحِدِّى علَى ابن بنت رسول الله وصريحة قريش ، عجِّل عليه ابن زياد فقتله ، قتله الله ، ثم أذَن للناس فدخلوا عليه ، والرأس بين يديه ، ومعه قضيب وهو ينكت فى ثغره ، ثم قال : إن هذا وأنا كما قال الحُصين بن الحُمام :

أبَى قومُنا أنْ يُنْصفونا فأنْصَفتْ قواضبُ[٤] فى أيماننا تُقطرالدِّما

---

(١) مرملة : ملطخة بالدماء .

(٢) معفرة : من العفر ، وهو التراب

(٣) بقى بالكسر والتشديد من القوا : الأرض القفر الخالية ، والسبسب (نمت) : المفازة المستوية .

(٤) قواضب : سيوف .

نُفلِّق هامًا [١] من رجال أعزَّة علَينا وهُم كانوا أعَقَّ وأظلما [٢]

فقال أبو برزة الأسلمى : « أتنكت بقضيبك فى ثَغْر الحسين ؟ أمَا لقد أخذ قضيبُك فى ثَغْره مأْخَذا لربَّما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرْشفه ، أما إنك يايزيد تجئ يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجئ هذا ومحمد شفيعه ! » ثم قام فولَّى . فقال يزيد : ياحسين والله لو أنى صاحبك ما قتلتك ، ثم قال : « أتدرون من أين أتى هذا ؟ قال : أبى خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدِّى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه ، وأنا أحق بهذا الأمر منه . فأما قوله : أبوه خير من أبى فقد حاجَّ أبى أباه إلى الله وعلم الناس أيُّهما حُكم له ، وأما قوله : أمى خير من أمه فلَعَمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما قوله جدِّى رسول الله خير من جده ، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يَرَى لرسول الله فينا عِدْلا ولانِدًّا ، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ، ولم يقرأ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاء ﴾ [٣] .

قال : ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه ، فجعلت فاطمة وسُكَيْنَة ابنتا الحسين تتَطاوَلان لتنظرا إلى الرأس ، وجعل يزيد يتَطاوَل ليستر عنهما الرأس ، فلما رأين الرأس صحن ، فصاح نساء يزيد وولْوَلْن وبنات معاوية ، فقالت فاطمة بنت الحسين ،

---

(١) الهام : مفرده هامة : هى الرأس .

(٢) أنظر المفضلية ١٢ من المفضليات والحماسة بشرح المرزوقى ج ١ ص ١٠٩ ، ٣٩١ والأغانى ج ١٤ ص ٧ والشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٣٠ والمؤتلف والمختلف ص ٩١ وخزانة الأدب ج ٢ ص ٧ .

(٣) من الآية ٢٦ فى سورة آل عمران .

وكانت أكبر من سُكَيْنة : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ فقال : يا ابنة أخي أنا لهذا كنت أكره ، فقام رجل من أهل الشام فقال : هب لي هذه ، يعني فاطمة بنت علي ، فأخذت بثياب أختها زينب وكانت أكبر منها ، فقالت زينب : كذبت ولو متُّ ، ما ذلك لك ولا له ، فغضب يزيد وقال : كذبتِ والله إن ذلك لي ، ولو شئتُ أن أفعله لفعلته ، قالت : كلاَّ واللهِ ما جعل الله ذلك لك ، إلا أن تخرج من مِلَّتنا وتدين بغير ديننا ! فغضب يزيد واستطار ، ثم قال . إياىَ تستقبلين بهذا ، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك ، قالت زينب : بدين الله ودين أبي وأخي اهتديتَ أنت وأبوك وجَدُّك ، قال : كذبتِ يا عدوة الله ، قالت أنت أمير تشتم ظالما وتقهر بسلطانك . فاستحيي وسكت ؛ ثم أُخرجن وأُدخلن دور يزيد فلم تبقى امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأتم ، وسألَهن عمَّا أخذِ منهن فأضْعَفَه لهن ، وكانت سُكَيْنة تقول : ما رأيت كافرا بالله خيرا من يزيد بن معاوية .

قال : ثم أمر بعليّ بن الحسين فأُدخل مَغْلولا ، فقال : لورآنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَغْلُولِين لفك عنا ؛ قال : صدقتَ ؛ وأمر بفك غُلِّه عنه ، فقال علي : لو رآنا رسول الله صلى الله عليه وسلم علَى بعد لأحبَّ أن يقرِّبَنا ؛ فأمر به فقُرِّب منه ، وقال له يزيد : ياعليُّ أبوك الذى قطع رَحِمى وجهل حقِّى ونازعَنى سلطانى فصنع الله به مارأيت . فقال علَّى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١) ﴾ فقال

(١) الآيتان ٢٢، ٢٣ من سورة الحديد .

يزيد : ﴿ مَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكم (١) ﴾ ثم سكت عنه ، وأمر بإنزاله وإنزال نسائه فى دارٍ علَى حِدَة ، وكان يزيد لايتغدَّى ولايتعشَّى إلاَّ دعا عليًّا إليه ، فدعاه يوما فجاء ومعه عمرو بن الحسن وهو غلام صغير ، فقال يزيد لعمرو : أتقاتل هذا ؟ يعنى خالدا ابنه ، فقال : أعطِنى سكِّينا وأعطه سكينا حتَّى أقاتله . فضمه يزيد إليه وقال شِنْشِنَةٌ (٢) أعرفها من أخْزَم ، وهل تلد الحيّة (٣) إلاحُيَيَّة ؟

وقيل : لمّا وصل رأس الحسين إلَى يزيد حسُنتْ حال ابن زياد عنده ، ووصله ، وسرَّه مافعل ، ثم لم يلبث إلاَّ يسيرا حتَّى بلغه بُغض الناس له ، ولعنهمُ إياه ، وسَبُّهم ، فندم على قتل الحسين ، وكان يقول : « وما علَىَّ لو احتملت الأذَى وأنزلت الحسين معى فى دارى وحكَّمتُه فيما يريد ، وإن كان علىَّ من ذلك وَهْن فى سلطانى ، حفظًا لرسول الله ورعايةً لحقّه وقرابته ، لعن الله ابن مَرْجانة ، فإنه اضطره ، وقد سأله أن يضع يده فى يدى ، أو يَلْحَقَ بثَغْر حتَّى يتوفَّاه الله ، فلم يُجبه إلَى ذلك ، وقَتله ، فبغضنى بقتله إلى المسلمين ،

---

(١) من الآية ٣٠ فى سورة الشورى .

(٢) هذا مثل يضرب فى قرب الشبه ، تمثل به يزيد ، وأصله أن رجلا من طيء يسمى « أخزم » كان عاقا لوالده ، فلما مات ترك بنين يشبهون له فى العقوق ، فوثبوا يوما على جدهم أبى أخزم وضربوه وأدموه ، فقال :

إن بنى ضرجونى بالـــدم شنشنة أعرفها من أخـــزم

والشنشنة : الطبيعة والعادة .

(٣) هذا مثل تمثل به يزيد كسابقه ، جاء فى تاج العروس (ح ى ى) « ومن أمثالهم : لا تلد الحية إلا حيية » وحيية : تصغير حية وكنى الحريرى فى مقاماته عن أبى زيد وابنه بـــ « الحية والحيية » .

وزرع فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى البَرُّ والفاجر بما استعظموه من قتلى حسينا ، مالى ولابن مَرْجانة[1] لعنه الله وغضب عليه ! » .

قال : ثم ندم ابن زياد أيضا على قتله الحسين ، وقال لعمر بن سعد : يا عمر ائتنى بالكتاب الذى كتبته إليك فى قتل الحسين ؟ قال : مضَيْتُ لأمرك وضاع الكتاب ، قال : لتجئ به ؛ قال : ضاع قال : لتجئ به ؛ قال : ترك واللهِ يُقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذارًا إليهن ، أمَا واللهِ لقد نصحتُك فى حسين نصيحة لونصحتها أبى سعدَ ابن أبى وقَّاص لكنت قد أدَّيْت حقه ! » فقال عثمان بن زياد : « صدق ، واللهِ لَوَدِدت أنه ليسْ من بنى زياد رجل إلا وفى أنفه خزامة إلى يوم القيامة ، وأنَّ حسينا لم يُقتل ! » فما أنكر ذلك عُبيد الله بن زياد على أخيه .

ذكر ورود الخبر بمقتل الحسين

رضى الله عنه إلى المدينة وعود أهله إليها

قال : لما قُتل الحسين أمر عُبَيدُ الله بنُ زياد عبدَ الملك بن الحارث[2] السُّلَمى بالمسير إلى المدينة ؛ ليبشِّر عمرو بْن سعيد أمير المدينة بقتل الحسين ، فاعتذر عبدالملك ، فزجره ابن زياد ، فخرج حتَّى قدم المدينة ، فلقيه رجل من قريش فقال : ما الخبر ؟ فقال : الخبر عند الأمير . فاسترجع[3] القرشى ، وقال : قتُل واللهِ الحسين !

(١) سبق ذكر مرجانة أم عبيد الله بن زياد ، وقد جاء حديثها فى مقتل الحسين فى رواية لابن جرير الطبرى فى تاريخه ج ٤ ص ٣٧١ : « كانت مرجانة امرأة صدق فقالت لعبيد الله حين قتل الحسين عليه السلام : ويلك ماذا صنعت وماذا ركبت »

(٢) فى تاريخ ج ٤ ص ٣٥٦ : « أبى الحارث »

(٣) قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ودخل عبد الملك على عمرو بن سعيد فأخبره بقتل الحسين ، فقال : نادِ بقتله ، ففعل ، قال عبد الملك : فلم أسمع واعية[1] قَطُّ مثلَ واعية نساء بنى هاشم فى دورهن على الحسين! فلما سمع عمرو بن سعيد أصواتَهنَّ ضحك وقال : واعيةٌ بواعية عثمان[2] وأنشد بيت عَمرو بن مَعْدِى كَرِب :

عَجَّتْ نساءُ بنى زياد عَجَّةً كعَجيجَ نسوتنا غَداةَ الأَرْنَب[3]

(والأَرْنَب : يوم كان لبنى زُبَيد على بنى زياد من بنى الحارث بن كعب) ثم صعد عمرو المنبر فأعلم الناس بقتل الحسين .

---

(١) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه .

(٢) ذكر الميدانى فى مجمع الأمثال ج ٢ ص ٣٧٩ أن عمرو بن سعيد تمثل بالمثل « يوم بيوم الحفض المجور » أى يوم بيوم عثمان ، كما تمثل بالبيت « عجت نساء . . . » ثم ذكر أصل هذا المثل ، وكذلك ذكر الأصل القالى فى أماليه ج ٢ ص ١٩٢ .

(٣) كان من خبر هذا الشعر أن قبيلتى « جرم » و « نهد » كانتا مجاورتين لبنى « الحارث » ، فقتلت جرم رجلا من أشراف بنى الحارث يقال له « معاذ بن زيد » ، فارتحل الجرميون إلى « بنى زبيد » وهط عمرو بن معد يكرب ، فخرجت بنو الحارث يطلبون بثأرهم ومعهم بنو نهد ، فجعل عمرو جرما أمام بنى نهد : وجعل نفسه وقومه أمام بنى الحارث ، ولكن جرما انهزمت سريعا : فكان ذلك سببا فى كسر بنى زبيد فى ذلك اليوم ، ثم إن عمرا غزا بنى الحارث فأصاب فيهم وانتصف منهم ، فقال :

لما رأونى فى الكتيفة مقبلا وسط الكتيبة مثل ضوء الكوكب
واستيقنوا منا بوقع صادق هربوا وليس أوان ساعة مهرب
عجت نساء بنى زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ويذكر بعض الرواة رواية أخرى : أن البيت لرجل من بنى أسد ؛ ولفظه : عجت نساء بنى زبيد عجة . . الخ ، ومن المؤلفين من خلط بين الروايتين . وقد ذكر القالى فى أماليه ج ١ ص ١٢٦ أن مثل هذا البيت قول الشاعر :

رفعنا الحموش عن وجوه نسائنا إلى نسوة منهم فأبدين مجلدا

وذكر القالى أن « الأرنب » موضع ، وكذلك تبع صاحب اللسان والتاج من نقل عن القالى ولم يسلم ذلك له ، ولم تذكره كتب البلدان والمعروف أن أرنب انتفجت فى ذلك اليوم فتفاءلوا بالظفر : فظفروا : فسمى « يوم الأرنب » والعرب تتيمن بالأرنب إذا انتفجت .

قال : ولمّا نودِىَ بقتله خرجت زينب بنت عَقيل ابن أبى طالب ومعها نساؤها حاسِرة ناشِرةً شَعرها ، تلوى ثيابها ، وهى تقول :

ماذا تقولون إنْ قال النبىّ لكم : ماذا فعلتُمْ وأنْتُم آخر الأُمَمِ ؟
بعترَتى وبأهلى بعد مُفتَقَـــدى منهم أُسارى وقتلَى ضُرجوا بِدَمِ
ما كان هذا جزائى إذْ نَصَحْتُ لكم أن تَخْلُفُونى بسُوءٍ فى ذَوِى رَحِمى

وقيل : سَمِع بعضُ أهل المدينة يَومَ قتل الحسين منادياً ينادى :

أيُّها القاتلون جَهْلا حُسيْنـــا أبْشروا بالعذاب والتَّنْكيـــل
كلُّ أهل السماء يدْعُو علَيكم من نَبِى ومَلْأك وقَبِيـــــلِ
قد لُعنْتم علَى لسان ابن داوُ دَ ومُوسَى وحامل[1] الإنْجيل

ورُوِىَ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى الليلة التى قُتل فيها الحسين وبيده قارورة ، وهو يجمع فيها دما ، فقلت : يا رسول الله ماهذا ؟ قال هذه دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى ! » فأصبح ابن عباس فأعلم الناس بقتل الحسين ، وقَصَّ رُؤياه .

ورُوِىَ أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطَى أمَّ سَلَمة ترابا من تربة الحسين ، حمله إليه جبريل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا صار التراب هذا دمًا فقد قُتل الحسين » فحفظتْ أمُّ سَلَمة ذلك التراب فى قارُورة ، فلمَّا قُتِل الحسين صار ذلك التراب دما

(١) كذا جاء فى الأصل مثل تاريخ الطبرى ، وجاء فى الكامل « وصاحب » .

فأعلمت الناس بقتله . وهذا القول يستقيم على قول من يقول إن أمّ سلمة تُوفِّيَت بعد الحسين [١] .

قال [٢] : ولما أراد يزيد أن يُسيرَ آل الحسين إلَى المدينة ، أمر النعمانَ بن بَشير أن يجهِّزهم بما يُصلحهم ، ويسيِّر معهم رجلا أمينا من أهل الشام ، ومعه [٣] خَيل تسيربهم إلى المدينة ، ودعا عليا ليودعه وقال : « لَعن الله ابنَ مَرْجانة ، أمَا واللهِ لو أنِّى صاحِبه ما سألنى خَصلة أبدا إلاَّ أعطيتُه إيَّاها ، ولَدفعتُ الحَتْف عنه بكلّ ما استطعتُ ، ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن قضى الله بذلك ! كاتِبْنى بأيَّة حاجة تكون لك » وأوصَى بهم ذلك الرسول .

فخرج بهم ، فكان يسايرهم ليلا فيكونون أمامه بحيث لايفوتون طَرْفه ، وإذا نزل تنحى عنهم هو وأصحابُه ، فكانوا حَوْلهم كهيئة الحرَس ، وكان يسائلهم عن حوائجهم ويلطُف بهم حتَّى دخلوا المدينة . فقالت فاطمة بنت على لأختها زينب : لقد أحسن هذا الرجل إلينا فهل لك أن نصله بشىء ؟ فقالت : والله مامعنا ما نصله به إلاَّ حلينَا ، فأخرجتا سوارين ودُمْلُجين لهما فبعثتا به إليه ، واعتذرتا ، فردَّ الجميع ، وقال : لو كان الذى صنعته للدنيا لكان فى هذا ما يرضينى ، ولكن والله ما فعلتُه إلاَّ لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أنظر الكامل ج ٣ ص ٣٠٣ .
(٢) ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٣٠٠ .
(٣) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « ومعهم » .

ذكر ما ورد من الاختلاف

فى مَقَر رأس الحسين وأين دفن

قد اختلف المؤرخون فى مقررأسه ، فمنهم من قال : إنه دفن بدمشق ، ومنهم من زعم أنه نقل إلى مَرْو ؛ ومنهم من يقول . إنه أعيد إلى الجسد ودفن بالطَّف ؛ ومنهم من قال : دفن بعَسْقَلان ، ثم نقل إلى مصر ؛ ومنهم من قال : دفن بالمدينة عند قبر أمه فاطمة رضى الله الله عنهما . وقد رأينا أن نذكر أقوالهم فى ذلك ومستحجهم[1] .

قال : فأما من قال إنه دفن بدمشق فإنه يقول : إنه لمّا قُتل الحسين رضى الله عنه : وحُمل رأسه إلَى عُبيد الله بن زياد بالكوفة كما تقدم وقصد حمله إلى دمشق ، طلب منْ يقوره فلم يجبه إلاَّ طارق بن المبارك مَوْلى بنى أمية وكان حجّاما ، ففعل ، وقد هُجى أبو يعلَى الكاتب ، وهو أحد أسْباط طارق هذا ، فقيل فيه :

شَقَّ رأسَ الحسين جَدُّ أبى يَعْـ ... ـلَى وسَاطَ[2] الدِّماغَ بالإبْهامِ

ثم أرسل ابن زياد به إلى دمشق ، فنصبه يزيد بن معاوية بها ثلاثة أيام ، ووُضع فى مسجد عند باب المسجد الجامع ؛ يعرف بمسجد الرأس ، (وهو تجاه باب الساعات ، كان بابه هناك ، ثم سُدّ وفُتح من مشهد زين العابدين فى سنة ثلاثين وستمائة ونحوها) ، ثم كان الرأس فى خزانة يزيد بن معاوية .

واختلف أيضا القائلون إنه دفن بدمشق فى المكان الذى دفن فيه بها . فحكى ابن أبى الدنيا فى المقتل عن منصور بن جمهور أنه قال : دخلتُ

---

(١) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) « وحججهم » .

(٢) ساطه : خلطه وقلبه .

خزانة يزيد بن معاوية ، فلما فُتحت أصبت[1] جونة حمراء فقلت لغلام لى يقال له سليم : احتفظ بهذه الجونة فإنها كنز من كنوز بنى أمية ؛ فلما فتحتها وجدت بها رأسا وورقة مكتوب فيها : « رأس الحسين بن على بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وإذا هو مخضوب بالسواد ، فلفه فى ثوب ثم دفنه عند باب الفراديس ، عند البرج الثالث مما يلى المشرق. وحكى الاسترباذى فى كتابه « الداعى إلى وداع الدنيا » عن أبى سعيد الزاهد أنه قال : قبر الحسين بكربلاء ورأسه بالشام فى مسجد دمشق على رأس أسطوانة ، وقال غيره : على عمودين يمين القبلة ، وقيل إن يزيد دفنه فى قبر أبيه معاوية ، ومنهم من قال : فى مقابر المسلمين .

وأما من قال : إنه بمَرْوَ فانه يقول : إن أبا مسلم الخراسانى لما استَوْلَى علىَ دمشق ، أخذ الرأس ونقله إلى مَرْو ، ودفن بها فى دار الإمارة : وأن الرأس حُشى بالمسك وكُفّن وصُلّى عليه مرة بعد أخرى .

وأما من قال : إنه أعيد إلى الجسد ودفن معه ، فمنهم من يقول : إن يزيد أعاده بعد أربعين يوما ؛ ومنهم من يقول : بل استقر فى خزانة السلاح إلى أن ولى سليمان بن عبد الملك فأحضره وقد قَحَل[2] ؛ وبقى عظم أبيض فجعل عليه ثوباً وجعله فى سَفَط[3] وصلّى عليه ودفن فى مقابر المسلمين ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز بعث إلى خازن السلاح يطلب منه الرأس ، فطالعه بما كان من أمره فأمره بنبشه وأخذه ، فالله أعلم بما

---

(١) الجونة : السلة .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ن) : « قحل » ومعناه : يبس ، وجاء فى النسخة (ك) : « نحل » .

(٣) السفط : وعاء كالقفة ، وحرفه بعض العامة إلى « سبت » .

صنع به ، لكنهم أستدلوا من ديانة عمر بن عبد العزيز وصلاحه وخيره أنه نقله إلى الجسد ودفن معه .

وأما من قال : إنه كان بعَسْقلان ثم نقل إلى مصر فاستنادهم فى ذلك إلى رؤيا منام ، وذلك أن رجلا رأى فى منامه ، وهو بعسقلان أن رأس الحسين فى مكان بها ، عيّن له فى منامه فنبش ذلك[1] الموضع ، وذلك فى أيام المستنصر بالله العُبَيدى صاحب مصر ، ووزارة بَدْر الجمالى ، فابتنى بدر الجمالى له مشهدا بعسقلان ، فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن تغلب الفرنج على عسقلان ، فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، فحمل إلى القاهرة فى البحر .

وحكى محمد بن القاضى المكين عبد العزيز بن حسين[2] فى سيرة الصالح بن رُزِّيك ، قال : لما ولى عباس بن أبى الفتوح الوزارة بمصر فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، فى مستهلّ جُمادى الآخرة وصل الخبر بتملُّك الفرنج عَسْقَلاَن ، فنقل رأس الحسين فيها — من المشهد الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكمله الأفضل[3] — إلى القاهرة ، فكان وصوله إليها فى يوم الأحد ، ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وكان قد سَيَّر أحد الأستاذين الخواص لتلقِّيه إلى مدينة تِنِّيس[4] ، فوصل فى عشارى[5]

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « فنبش فى ذلك » .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « عبد العزيز الحسين » .

(٣) الأفضل : هو ابن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وقد قتل الأفضل فى شهر رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة ، انظر النجوم الزاهرة ج ٥ .

(٤) جاءت هذه الكلمة فى الأصل غير منقوطة وغير واضحة ، والأقرب أنها « تنيس » وهى مدينة قديمة فى جزيرة صغيرة فى الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة .

(٥) عشارى : نوع من السفن المصرية الخاصة بعظماء الدولة وصفها عبد اللطيف البغدادى فى مختصر أخبار مصر طبع أوربا ص ١٧٢ .

من عشاريات الخدمة ، ودخل فيه إلى خليج القاهرة ، وأدخل من باب البستان المعروف بالكافورى ، فى ليلة الاثنين التاسع من الشهر ، وسلك به إلى القصر الغربى إلى أن وصل إلى القصر الشرقى ، ولم يزل الحال على ذلك إلى أن حدث من عبّاس وابنه ماحدث ، من قبل الظافر وإخوته وابن أخيه ، على مانذكر ذلك إن شاء الله فى أخبارهم فى كتابنا هذا ، فلما نهض الصالح بن رُزِّيك فى الطلب بثأرهم ، وولى الوزارة ، لم يقدِّم شيئا على الشروع فى بناء المشهد بالقصر ، فى الموضع المعروف بقبة الخَراج من دهاليز باب الدَّيْلَم وكمّل المشهد ، فلما كان فى ليلة يسفر صباحها عن تاسع المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، خرج ابن رُزِّيك من داره راجلا إلى الايوان ، فأُخرج الرأس فحمله خاشعا مستكينا إلى أن أحله بالضريح ، ومدحه الشعراء ، فمن ذلك قول أحدهم :

أدركتَ من عبّاس ثأرًا دُونَـه ... ما أدرك السّفّاح من مَرْوان
وحقَرْتَ ما فَخَرَ ابنُ ذى يَزَنٍ به ... لمَّا أقرَّ المُلْك فى غَمْدان
وجمعتَ أشلاء الحسين وقدْ غَدَتْ ... بَدَدًا فأضحتْ فى أعزِّ مكان
وعرفتَ للعُضْوِ الشريف محلَّه ... وجليلَ موضعه من الرحمنِ
أكرمتَ مَثْواه لَدَيْكَ وقَبْلُ فى ... آل الطَّرِيد غدا بِدار هَوَان
وقضيتَ حقَّ المصطفَى فى حمْله ... وحظيتَ من ذى العرش بالرِّضوان
ونصبتَه للمسلمين تَزُورُه ... مُهَجٌ إلَيْه شديدةُ الهَيْمان
أسْكَنْتَه فى خير مَأْوًى خطَّه ... أبَناؤُه فى سالف الأزْمان
ولَو استطعْتَ جعلْتَ قلبك لَحْده ... فى موضع التوحيد والإيمـانِ

حرَمٌ تَلُوذُ به الجُنَاة فتَنْثَنى مَحْبُوَّةً بالعفو والغفـــــرانِ
قد كان مغتربًا زمانًا قبلَ ذَا فالآن عُدْتَ به إلى الأوطان

وأما من قال : إنه بالمدينة ، فإنه يقول : إنه لما نصِب بدمشق وطِيفَ به ، أمر يزيد بن معاوية النعمان بن بشير الأنصارى أن يحمله إلى المدينة ، ليشاهده الناس ، وليرهب به عبد الله بن الزبير ، فلما وصل إلى المدينة ودخل به على عمرو بن سعيد الأشدق ، قال : وددت أن أمير المؤمنين لم يكن بعث به إلىّ ، فقال له مروان بن الحكم : أسكتْ لاسكتَّ ولكن قل كما قال :

ضربت دوسى فيهم ضربةً أثْبَتَتْ أوْتادَ مُلْك فاسْتَقَرْ

ثم أمر به عمرو بن سعيد فكُفِّن ودفن عند قبر أمه فاطمة رضى الله عنهما .

وقيل : بل أرسل إلى مَنْ بالمدينة من بنى هاشم ، أن [1] دونكم رأس صاحبكم ، فأخذوه ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه عند قبر أمه رضى الله عنهما ، والله تعالى أعلم ، وقد تكلم عمر بن أبى المعالى أسعد بن عمار [2] بن سعد بن عمار [بن على] [3] رحمه الله تعالى فى كتابه الذى ترجمه « الفاصل بين الصدق والمَيْن فى مقر رأس الحسين » على هذه الأقوال المتقدمة ووهنها وضعّفها [واستدل على ضعفها [4]] ، ورجح أنه بالمدينة ، حتّى كاد يبلغ به مبلغ القَطْع ،

(١) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « أودونكم » .
(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) : « عمران » .
(٣) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .
(٤) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .

فقال ما معناه : أمّا قولهم إنه كان فى خزائن بنى أُميّة إلى أن ظهرت الخلافة العباسية ، وأن أبا مُسْلم نقله إلى خُراسان ، فهذا بعيد جدا ، وذلك أن أبا مسلم لمّا فتح الشام كان بخراسان ، والذى فتح دِمَشق عبد الله بن على بن [عبد الله بن] [1] عباس ، فكيف يُتَصَوَّر أن ينقله أو يمكن من نقله إلَى مَوْلاه بخُراسان ؟ ولو ظفِر به فى خزائن بنى أُميَّة لأظهره للناس ليزدادوا لبنى أُمية بغضا ، وأيضا فقد ولى العبد الصالح عمر بن عبد العزيز الخلافة ، وبعيد أن كان يترك رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خزائن السلاح ولم يُوَارِه .

وأمّا قولهم إنه كان بعَسْقَلان فلم يوجد ذلك فى تاريخ من التواريخ أنه نقل إلى عسْقلان ولا إلى مصر ، ويقوّى ذلك أن الشام ومصر لم يكن بهما شيعة عَلَوية فينقل إليهم ليَرَوْه وتنقطع آمالهم من الحسين وتضعف نفوسهم عن الوثوب مع غيره والانضمام [2] إليه .

وأما قولهم إنه بالمدينة عند قبر أمه فقد قاله محمد بن سعد فى طبقاته ، وابن أبى الدنيا وأبو المؤيد الخُوارِزْمى خطيب خُوارزْم فى إحدى رواياتهما ، وصححه أبو الفرج ابن الجَوزى ، والله تعالى أعلم.

وقد أخذ هذا الفصل حقه ، فلنذكر خلاف ذلك من الأخبار التى اتفقت فى أيام يزيد بن معاوية على حكم اليقين :

---

(١) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .
(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) « أو الإنضمام » .

ذكر مقتل أبي بلال مرداس

بن حُدَير الحَنْظَلي[١] الخارجي

قد ذكرنا في أيام معاوية خروجه وأن ابن زياد بعث[٢] إليه أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين ، فهزمهم بآسك .

فلما كان في هذه السنة أرسل إليه ابن زياد ثلاثة آلاف ، عليهم عباد بن الأخضر التميمي (والأخضر زوج أمه ، نسب إليه وإنما هو عباد بن علقمة بن عباد) فسار إليه ، واتبعه حتّى لحقه بتَوَّج[٣] ، فاقتتلوا حتّى دخل وقت العصر ، فقال أبو بلال : هذا يوم جمعة ، وهو يوم عظيم ، دعونا حتّى نصلّي ، فتوادعوا ، فعجّل عباد الصلاة وقيل : بل قطعها ، والخوارج يصلّون ، فشدّ عليهم هو وأصحابه ، فقتلوهم وهم ما بين قائم وراكع وساجد ، لم يتغير منهم أحد عن حاله ، فقتلوا عن آخرهم .

ورجع عباد إلى البصرة برأس أبي بلال ، فرصده عبيدة بن هلال ومعه ثلاثة نفر ، فأقبل عباد يريد قصر الإمارة ، فقالوا له : قف حتّى نستفتيك . فوقف ، فقالوا : نحن إخوة أربعة قُتل أخونا فما ترى ؟ قال : استَعْدُوا الأمير : قالوا : استعْدَيْناه فلم يُعْدِنا . قال : فاقتلوه قَتَله الله . فَوَثبوا عليه وقتلوه ، واجتمع الناس على الخوارج فقُتلوا[٤] .

---

(١) حدير : أبو مرداس ، وأم مرداس : أُدَيَّة ، وقد اشتهر بـ « مرداس بن أدية » كما سبق .

(٢) سنة ثمان وخمسين .

(٣) توج : مدينة بفارس ، ويقال فيها : توز .

(٤) في الكامل « فقتلوا غير عبيدة » .

وفيها استعمل يزيد بن معاوية سَلْم بن زياد على خُراسان وسِجِسْتان ، وعَزَل عنهما أخويه : عبد الرحمن وعبَّادا ابنَىْ زياد ، فكتب عبيد الله[1] بن زياد إلى أخيه عباد[2] يخبره بولاية سَلم ، فقسم عباد ما فى بيت المال على عبيدة ، وفضَل فضْلٌ فنادَى : من أراد سَلفًا فلْياخذ ، فأسْلف كلَّ من أتاه ، وخرج عن سِجِسْتان ، فلما كان بِجِيرفَتْ[3] بلغه مكان أخيه سَلْم ، وكان بينهما جبل ، فعدل عنه ، فذهب لعباد تلك الليلة ألف مملوك ، أقلُّ ما مع أحدهم عشرة آلاف ، وسار عباد حتى قدم على يزيد ، فسأله عن المال ، فقال : كنت صاحب ثَغْر فقسمتُ ما أصبْتُ بين الناس .

قال : ولما سار سَلْم إلى خراسان كتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد معه[4] بنُخْبة ستة آلاف فارس ، وقيل ألفين ، فكان سلم ينتخب الوجوه [والفرسان[5]] ، فخرج معه عِمْران بن الفضيل البرجمى والمهلَّب بن أبى صُفْرة وطَلحة بن عبد الله بن خَلَف الخزاعى وغيرهم ، وسار حتَّى قدِم خراسان ، وعبر النهر غازيا ، وكان عُمال خُراسان قبله يغزُون ، فإذا دخل الشتاء رجعوا إلى مَرْو الشاهجان[6] ، فإذا

---

(١) كذا جاء « عبيد الله » فى النسخة (ن) مثل الكامل ج ٣ ص ٢٠٣ وتاريخ الطبرى ٤ ص ٣٦١ ، وجاء فى النسخة (ك) « عبد الرحمن » .

(٢) وكان له صديقا .

(٣) جيرفت : مدينة بكرمان .

(٤) عبارة ابن الأثير « كتب معه يزيد إلى أخيه عبيد الله بن زياد » ، وعبارة الطبرى « قدم سلم بن زياد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله » .

(٥) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٦٢ .

(٦) مرو الشاهجان هى مرو العظمى ، و « الشاهجان » كلمة فارسية معناها : نفس السلطان ، لأن « جان » هى نفس أو روح ، والشاه هو السلطان ، سميت بذلك لجلالتها عندهم .

انصرف المسلمون اجتمع ملوك خُراسان بمدينة ممَّا يلى خُوارزْم ، فيتعاقدون ألَّا يغزوَ بعضهم بعضا ويتشاورون فى أمورهم ، وكان المسْلمون يطلبون إلى أمرائهم غزو تلك المدينة ، فيأْبَوْن عليهم ، فلمَّا قدم سلم غزا فشتَّى فى بعض مغازيه ، فسأله المهلب أن يوجهه إلى تلك المدينه ، فوجهه فى ستة آلاف ، وقيل : فى أربعة آلاف ، فحاصرهم ، فطلبوا الصلح على نَيِّف وعشرين ألف ألف ، فصالحهم ، وكان فى صلحهم أن يأْخذ منهم عُروضا ، فكان يأْخذ العُروض من الرقيق والدوابّ والمتاع بنصف قيمتها ، فبلغ ما أخذ منهم خمسين ألف ألف ، فحظى بها المُهَلَّب عند سَلْم ، وأخذ سلم من ذلك ما أعجبه وبعث به إلى يزيد .

وغزا سلم سَمَرْقَند ، وعبر معه النهر امرأته أم محمد بنت عبد الله ابن عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وهى أول امرأة من العرب قُطِع بها النهر ، فولدتْ له ابنًا سماه « صُغْدى » واستعارت امرأته من امرأة صاحب الصُّغْد حُليًّا فلم تُعِدْه إليها وذهبت به[1] .

ووجَّه جيشا إلى خُجَنْدَة[2] فيهم أعشَى هَمْدان ، فهُزِموا ، فقال الأعشى فى ذلك :

لَيت[3] خَيلى يوم الخُجَنْدَة لم تُهـ زمْ وغُودرْتُ فى المكَرِّ سَليبا[4]
تَحْضرُ الطير مَصْرَعى وتَرَوَّحْـ ت إلى الله فى الدِّماء خَضيبا

(١) عبارة الطبرى : « وأرسلت إلى امرأة صاحب الصغد تستعير منها حليا ، فبعثت إليها بتاجها ، وتفلو فذهبت بالتاج » .
(٢) خجندة : مدينة على شاطىء سيحون .
(٣) سقط البيتان من النسخة (ن) .
(٤) كذا جاء فى الكامل ومعجم البلدان ، وجاء فى المخطوطة « المكان » .

وفيها عَزل يزيد عمرو بن سعيد ، واستعمل الوليدَ بن عتبة ابن أبي سفيان ، وسبب ذلك أن الوليد وناسًا من بنى أميَّة قالوا ليزيد : لو شاء عمرو لأخذ بن الزبير وسرَّح[1] به إليك . فعزله ، ولم يكن كذلك ، بل كان ابن الزبير كاده .

وحج الوليد فى هذه السنة بالناس .

سنة اثنين وستين

ذكر وفد أهل المدينة إلى يزيد بن مُعاوية وخلعهم له عند عودهم

وفى هذه السنة وفد جماعة من أهل المدينة إلى يزيد بن معاوية بالشام ، فيهم عبد الله بن حَنْظلة غَسيل الملائكة[2] وعبد الله بن أبي عمرو بن حَفْص بن المُغيرة المخزومى ، والمنذر بن الزبير ، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة .

وكان ابن الزبير قد كتب[3] إلى يزيد لمّا استعمل الوليدَ ابن عتبة على الحجاز يقول : « إنك بعثتَ إلينا رجلا أخرق ، لا يتَّجه لرشد ، ولا يَرْعَوى لعِظة الحكيم ، فلو بعثتَ رجلا سهل الخُلُق

(١) فى الكامل ج ٣ ص ٣٠٦ « وسرحه » ، وفى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٦٦ « وبعث به » .

(٢) لقب حنظلة بن أبى عامر الأنصارى الأوسى ب « غسيل الملائكة » لأنه لما استشهد فى غزوة أحد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه « تغسله الملائكة » . . . . وابنه « عبد الله » مولود على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) فى تاريخ الطبرى والكامل : « أن ابن الزبير عمل بالمكر فى أمر الوليد بن عتبة فكتب . . . . » .

رجَوْت أن يسهل من الأُمور ما اسْتَوْعَر منها ، وأن يجتمع ما تفرَّق »[1] فعزل يزيد الوليد ، واستعمل عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وهو فتًى غِرٌّ حَدَث لم تُحَنِّكْه التجارب ، ولا يكاد ينظر فى شىء من سلطانه ولا عمله .

فوفد هذا الوفد إلى يزيد ، فقدموا عليه ، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ، فأعطى عبد الله بن حنظلة مِائة ألف درهم ، وكان معه ثمانية بَنين فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف ، وأجاز المنذر بن الزبير بِمائة ألف كتب له بها على عُبيدالله بْن زياد فتوجه إلى العراق فقبضها .

ورجع الوفد إلى المدينة إلَّا المنذر ، فلمَّا قدموا المدينة قاموا فى الناس فأظهروا شَتْم يزيد وعيبه ، وقالوا : « قدِمْنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزِف بالطَّنابير ، وتعزِف عنده القِيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسْمُر عنده الحُزَّاب (وهم اللصوص) وإنا نُشْهِدكم أنَّا قد خلعناه » .

وقام عبد الله بن حَنْظَلة فقال : « جئتكم من عند رجل لَوْ لم أجد إلَّا بَنِيَّ هؤلاء لجاهدتُه ، وقد أعطانى وأكرمنى ، وماقبلتُ منه عطاءه إلَّا لأتقوَّى به » .

فخلعه الناس ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة على خلْعه ، وولَّوْه عليهم .

ثم قدِم المنذر من العراق إلى المدينة ، فحرَّض الناس على يزيد ،

(١) زاد الطبرى « فانظر فى ذلك ، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله ، والسلام » .

وقال : « إنه أجازنى بمائة ألف [١] ، ولا يمنعنى ما صنع بى أن أخبركم خبره ، والله إنه ليشرب الخمر ، وإنه ليَسْكَر حتّى يدعَ الصلاة ! » وعابه بمثل ما عابه به أصحابُه وأشَدّ .

فبعث يزيد النعمانَ بن بشير الأنصارى وقال له : « إن عدد الناس بالمدينة قومك ، فأْتهم فالْفِتْهم عمّا يريدون ، فإنهم إن لم ينهضوا فى هذا الأمر لم يجترىء الناس على خلافى » . فأتى النعمانُ قومَه ، وأمرهم بلزوم الطاعة ، وخوّفَهم الفتنة ، فعصَوه ولم يرجعوا إلى قوله ، فرجع . وبسبب هذه الواقعة كانت وقعة الحرّة .

وفى هذه السنة كان من الحوادث فى بلاد المغرب ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار أفريقية .

وحج بالناس فى هذه السنة الوليد بن عتبة .

وفيها ولد محمد بن عبد الله بن عباس والد السفاح والمنصور .

سنة ثلاث وستين

ذكر وقعة الحَرّة

كان سبب هذه الوقعة ما قدمناه من خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية ، فلمّا كان فى هذه السنة أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد ابن أبى سفيان عامل يزيد ، وحصروا بنى أُميّة ، فاجتمع بنو أُميّة ومَواليهم ومن يَرَى رأيهم فى ألف رجل ، ونزلوا دار مَرْوَان ابن الحكم ، وكتبوا [٢] إلى يزيد يستغيثون به ، فلمّا قرأ الكتاب

(١) فى تاريخ الطبرى : « أجازنى بمائة ألف درهم » .

(٢) كان الذى بعث إليه منهم مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان ، وكان مروان هو الذى يدبر أمرهم ، فأما عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، فإنما كان غلاما غراً ليس له رأى ، كما سبق قريبا .

بعث إلى عمرو بن سعيد الأشدق ، فأقرأه الكتاب وأمره بالمسير فى الناس ، فقال قد كنت ضبطتُ لك الأمور والبلاد ، فأما الآن إذ صارت دماء قريش تُهراق بالصعيد فلا أُحبُّ أن أتولَّى ذلك.

فبعث إلى عُبيد الله بن زياد ، فأمره بالمسير إلى المدينة ومحاصرة عبد الله بن الزبير بمكة ، فقال : « والله لا أجمعهما [1] للفاسق : قتْل ابن بنت رسول الله وغزْو الكعبة ! » ثم أرسل إليه يعتذر.

فبعث إلى مسلم بن عقبة المُرِّى [2] وهو شيخ كبير مريض فأخبره الخبر ، فقال : أمَا يكون بنو أميَّة [ومَوَاليهم وأنصارهم بالمدينة] [3] ألف رجل ؟ قال : بَلَى ؛ قال : « أمَا استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ؟ ليس هؤلاء بأهل أن يُنْصَروا فإنهم أذِلَّاء ! دعْهم يا أمير المؤمنين حتَّى يُجْهِدوا أنفسَهم فى جهاد عدوِّهم ، ويتبيَّن لكَ مَن يقاتلُ علَى طَاعتك ومَن يستسلم » ؛ قال : « وَيْحَك ! إنه لاخير فى العيش بعدهم ! فاخرجْ بالناس » .

وقيل : إن معاوية قال ليزيد : إن لك من أهل المدينة يوما ، فإنْ فعلوا فارْمِهِم بمسلم بن عُقبة ، فإنه رجل قد عرفتُ نصيحته ، فأمره بالمسير إليهم.

فنادَى فى الناس بالتجهيز إلى الحجاز وأن يأخذوا عطاءهم ومعونة مائة دينار لكل رجل ؛ فانتدب لذلك اثنا عشر ألفا ، وساروا مع

---

(١) جاء فى النسخة (ن) : « لاجمعتهما » .

(٢) هو مسلم بن عقبة بن رباح بن أسعد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن يربوع بن غيظ بن مرة ، فهو منسوب إلى « مرة » ، وقد قال عند موته « لبنى مرة زراعتى التى بحوران صدقة على مرة » ووقع فى النسخة (ن) : « المزنى » .

(٣) الزيادة من تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٧١ .

مسلم ، فقال له يزيد : إنْ حَدَثَ بك حَدَثٌ فاستخلف الْحُصَين ابن نُمير السَّكُونى [١] ؛ وقال له : « ادْعُ القومَ ثلاثا فإن أجابوا وإلَّا فقاتلهم ، فإذا ظهَرْتَ عليهم فأَبِحْها ثلاثا بما فيها من مال أو رِقَة [٢] أو سلاح أو طعام ، فهو للجند ، فإن انقضت الثلاث فاكفُفْ عن الناس ، واكفُفْ عن علىّ بن حسين ، واسْتَوْصِ به خيرا [٣] فإنه لم يدخل مع الناس ، وقد أتانى كتابه » .

قال : ولمّا بلغ أهلَ المدينة خبر الجيش اشتدَّ حصارهم لبنى أُمية بدار مَرْوان ، وقالوا : « والله لا نكف عنكم حتّى نضرِب أعناقكم [٤] أو تعُطونا عهد الله وميثاقَه أنكم لا تَبْغُونا غائلة ، ولا تدلوا لنا على عَورة ، ولا تُظاهروا علينا عدوّنا ، فنكفَّ عنكم ونخرجكم » ، فعاهدوهم على ذلك ، وأخرجوهم من المدينة ، فساروا بأثْقالهم حتّى لَقُوا مُسلم بن عُقْبة بوادى القُرَى ، فدعا عمْرو بنَ عثمان بن عفّان أوّلَ الناس ، فقال : أخبِرنى ما وراءك وأَشِرْ علَىَّ ، قال : لا أستطيع ، قد أخِذَ علينا العهود والمواثيق ألا ندُلَّ على عَورة ولا نُظاهِرَ عدوًّا ؛ فانتهره وقال : « واللهِ لَولا أنك ابن عثمان لضربتُ عنقك ، وايم الله لا أُقيلها قُرَشيًّا بعدك ! »

---

(١) هو الحصين بن نمير بن نائل بن لبيد بن جعثنة بن حارث بن سلمة بن شكامة ابن السكون ، كما فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٣ .

(٢) الرقة : الدراهم ، وجاء فى الكامل ج ٣ ص ٣١١ « دابة » .

(٣) يروى أن أهل المدينة لما ثاروا على بنى أمية كلم مروان بن الحكم على بن الحسين فى أن يجعل أهله عنده ، فقبل ابن الحسين ، وخرج بحرمه وحرم مروان حتى وضعهم فى ينبع .

(٤) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجا فى النسخة (ن) « رقابكم » ، وجاء فى الكامل ج ٣ ص ٣١٢ : « حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم » .

فخرج إلى أصحابه ، فأخبرهم خبره ، فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك : ادخُل عليه قبلى لعله يجتزىء بك عنى ، فدخل عبد الملك علَى مُسْلم ، فقال « نَعَمْ : [هاتِ ماعندك ؛ فقال[1]] نعم ، أرَى أن تسير بمن معك ، فإذا انتهيت إلى أدْنى نخلها نزلتَ ، فاستظلّ الناس فى ظله وأكلوا من صَقِره[2] ، فإذا أصبحت من الغدِ مضَيتَ ، وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم دُرْتَ بها حتّى تأتيهم من قِبَل الحَرَّة مشرقا[3] ثم تستقبل القوم ، فإذا استقبلتَهم وقد أشرقَتْ علَيهم [الشمس] [4] طلعت من أكناف أصحابك فلا تؤذيهم ، ويصيبهم أذاها [5] ويَرَوْن من انْتِلاقَ بَيْضكم وأسِنَّة رماحكم وسيوفكم ودُروعكم مالا تَرَوْنه أنتم منهم ، ثم قاتِلْهم ، واستعِنْ عليهم بالله تعالى » . فقال له مُسلم : « لله أبوك . ! أىّ أمويّ ! » ثم دخل عليه مَرْوان فقال له [إيه . قال] [6] أليس قددخل عليك عبد الملك ؟ قال : « بَلَى ، وأىُّ رجل عبد الملك ! قلما كلمتُ من رجال قريش رجلا به شبيها ! » فقال له مَرْوان : إذا لِقيتَ عبد الملك فقد لِقيتنى .

ثم ارتحل مسلم من مكانه ، وفعل ماأمره به عبد الملك ، ثم دعاهم فقال : « إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل ، وإنى أكره إراقة

---

(١) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ؛ ولم تثبت فى النسخة (ك) .

(٢) يقال لعسل الرطب عند أهل المدينة « صقر » بسكون القاف ؛ ويقال لهذا الرطب « صقر » بكسر القاف .

(٣) الحرة — بفتح الحاء وتشديد الراء — أرض بظاهر المدينة فيها حجارة سود كبيرة .

(٤) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ولم تثبت فى النسخة (ك) .

(٥) لأن أشعة الشمس تقع فى وجوههم ، بخلاف جيش مسلم بن عقبة .

(٦) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ؛ ولم تثبت فى النسخة (ك) .

دمائكم ، وإنى أؤجّلكم ثلاثا ، فمن ارْعَوَى وراجع الحَقّ قبِلْنا منه وانصرفتُ عنكم إلى هذا المُلْحِد الذى بمكة ، وإنْ أبيْتم كُنَّا قد أعْذَرْنا إليكم » .

فلما مضت الثلاث قال مسلم : ياأهل المدينة ماتصنعون ؟ أتسالمون أم تحاربون ؟ فقالوا : بل نحارب ، فقال لهم : «لا تفعلوا ، بل ادخلوا فى الطاعة ، ونجعل حَدَّنا وشَوكتنا على هذا الملحد الذى قد جمع إليه المُرَّاق[1] والفُسَّاق من كل أوْب[2] » يعنى عبد الله بن الزبير ، فقالوا له : « يا عدوَّ الله ، لو أردتم أن تجوزوا إليه ماتركناكم : أنحن نَدَعُكم أن تأْتوا بيت الله الحرامَ فتُخيفوا أهل مكة وتُلْحِدوا فيه وتستحلُّوا حرمته ؟ لا والله لا نفعل ! » .

قال : وكان أهل المدينة قد اتَّخذوا خَنْدَقا ، وعليه جمع منهم ، عليهم عبد الرحمن بن أزهر بن عَوْف [وهو ابن عم عبد الرحمن بن عوف][3] وكان عبد الله بن مطيع مع ربع قريش فى جانب المدينة ، وكان مَعْقِل بن سِنان الأشجعى ، أحد الصحابة على ربع المهاجرين ، وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى فى أعظم تلك الأرباع ، وهم الأنصار .

وصمد مسلم بن عقبة فيمن معه ، فأقبل من ناحية الحَرَّة ، حتّى

---

(١) المارق الخارج من الدين بضلالة ، وجمعه : المراق .

(٢) أوب ، جهة .

(٣) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) ، وقد ذكرها كذلك بعض العلماء ، منهم ابن جرير الطبرى فى تاريخه ح ٤ ص ٣٧٤ وابن الأثير فى الكامل ح ٣ ص ٣١٢ ، والراجح عند الزبير بن بكار وأبى نعيم وابن عبد البر وابن حجر أنه ابن أخى عبد الرحمن بن عوف .

ضَرَب فُسْطاطَه على طريق الكوفة ، وكان مريضا ، فأمر فوُضِع له كرسىّ بين الصفيَّن ، فجلس ، ثم حرَّض أهل الشام على القتال ، فجعلوا لايقصدون رُبْعا من تلك الأَرْباع إلاَّ هزموه ، ثم وجَّه الخَيْل نحوابن الغسيل ، فكشَفَهم (١) ، حتَّى انتَهوا إلىمسلم ، فنهض فى وجوههم بالرجال ، وصاح بهم ، فقاتلوا قتالا شديدا .

ثم إن الفضْل بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى ابن الغَسِيل ، فقاتل معه فى نحو عشرين فارسا قِتالا حسنا ، ثم قال ابن بن الغسِيل : « مُرْ مَن معك فارِسًا فَلْيَأْتنى ، فليقفْ معى ، فإذا حملتُ فلْيحملوا (٢) ، فواللهِ لاأنتهى حتى أبلغ مسلما فأقتله أو أُقتل دونه ! » ففعل ، وجمع الجند ، فحمل بهم الفضل على أهل الشام ، فانكشفوا ، ثم حمل وحمل أصحابه حملةً أخرى ، فانفرجت خيل الشام عن مُسلم ومعه خمسُمائة راجل جُثاة على الرُّكَب مُشْرعى الأَسِنَّة نحو القوم ، ومضَى الفضل نحو راية مسلم فضرب رأس صاحبها فقَطَّ المغْفَرَ وفَلَق هامتَه ، فخرَّ ميتا ، وقال : خُذْها وأنا ابن عبد المطلب ! وظن أنه قتل مسلما ، فقال : قتلتُ طاغية القوم وربِّ الكعبة ! فأخذ مسلم رايته ، وكان المقتول غلاما روميا (٣) شجاعا ، وحرَّض مسلم أهل الشام ، وقال : شدُّوا مع هذه الراية ، فمشى برايته ، وشدَّت الرجال أمام الراية ، فصُرع الفضل وما بينه وبين [أطناب] (٤)

(١) فى الكامل وتاريخ الطبرى ، « فحمل عليهم ابن الغسيل فى من معه فكشفهم » .
(٢) كذا جاء فى (ك) وجاء فى النسخة : (ن) : « فليحمل معى » .
(٣) كـذا جاء فى المخطوطه مثل الكـامل ح ٣ ص ٣١٣ ، وجاء فى تاريخ الطبرى ح ٤ ص ٣٧٥ : « يقال له رومى » .
(٤) كذا جاء فى النسخة (ن) ، وجاء فى النسخة (ك) : « وبين فسطاط » ، وجاء فى الكامل وتاريخ الطبرى وبين « أطناب » .

فسطاط مسلم إلاّ نحوُ عشرة أذرع ، وقُتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف ، وأقبلت خيل مسلم ورجالته نحو ابن الغَسيل ، فحرض ابن الغَسيل أصحابه ، فنهضوا واقتتلوا أشدَّ قتال ، وأخذ ابنُ الغَسيل يُقدِّم بَنيه واحدًا واحداً ، حتّى قُتلوا بن يديه ، ثم قُتل وقتل معه أخوه لأُمه محمد ابن ثابت بن قيس بن شماس ، وعبد الله بن زيد بن عاصم ، ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصارى . وانهزم الناس .

وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثا ، يقتلون الناس ، ويأخذون المتاع والأموال ، فسُمّى مسلم بعد وقعة الحرة [1] مسرفا » .

وقيل إن مسلمًا لمّا نزل بأهل المدينة خرج إليه أهلها بجموع كثيرة وهيْئة حسنة ، فهابهم أهل الشام ، وكرهوا قتالهم ، [فلما رآهم مسلم سبَّهم وذمهم وحرَّضهم ، وكان شديد الوجع ، فقاتلوا ، فبينما أهل المدينة فى قتالهم] [2] إذ سمعوا التكبير من خلفهم من جوف المدينة ، وكان سببه أن بنى حارثة أدخلوا أهل الشام المدينة ، فانهزم الناس ، فكان من أصيب فى الخَنْدَق أكثرَ مِمَّن قُتل .

ودعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خَوَل [3] له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ماشاء ، فمن امتنع من ذلك قتله .

وأتى يومئذ بعمرو بن عثمان بن عفان ، وكان ممَّن لم يخرج مع

---

(١) انظر قول على بن عبد الله بن عباس :

همموا منعوا ذمارى يوم جاءت كتائب مسرف وبنوا الكيمة

(٢) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) مثل تاريخ الطبرى فى ج ٤ ص ٣٨١ وسقطت من النسخة (ك) .

(٣) الخول : العبيد ونحوهم .

بنى أُمَيَّة ، فقال مسلم : يا أهل الشام تعرفون هذا ؟ قالوا : لا ؛ قال: هذا الخبيث ابن الطيب ، هذا عمرو بن عثمان ، هى ياعمرو إذا ظَهَر (١) أهل المدينة قلتَ أنا رجل منكم ، وإن ظَهر أهل الشام قلتَ أنا ابن أمير المؤمنين عثمان » ، وأمَر به فنُتفَتْ لحيته ، ثم خلَّى سبيله .

وكانت وقعة الحَرَّة لليلتين بَقِيَتا من ذى الحِجة سنة ثلاث وستين.

وقَتل مسلم جماعة من أهل المدينة صَبْرًا ، فكان منهم على ماذكر ابن إسحاق والواقدى وويثمة وغيرهم : الفضل بن العباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأبو بكر بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، ويعْقوب ابن طلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن زيد بن عاصم ، ومعقل ابن سنان الأشجعى ، ومحمد بن أبى الجهم بن حذيفة العَدوى ، وقُتل أيضا صبرا ابنا زَينب بنت أم سَلَمة رَبِيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهما (٢) ابنا عبد الله (٣) بن زَمعة بن الأسْوَد بن المطلب بن أَسَد ابن عبد العُزَّى بن قُصَىّ ، ولما قُتلا حُمِلاَ إلى أمهما فوُضعا بين يديها ، فاسْترجعتْ (٤) وقالت : واللهِ إنَّ المصيبة عَلَىَّ فيهما لكبيرة ، وهى علَىَّ فى هذا أكبر منها فى هذا ، أما هذا فجلس فى بيته وكفَّ

---

(١) ظهر : غلب .

(٢) ولدت زينب بنت أبى سلمة بأرض الحبشة ، وتزوج النبى صلى الله عليه وسلم أمها – أم سلمة – وهى ترضعها ، فكانت ربيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى سماها « زينب » ، وكانت من أنقه نساء زمانها .

(٣) كان عبد الله ابن أخت « أم سلمة » .

(٤) استرجعت : قالت إنا لله وإنا إليه راجعون .

يده فدخل عليه فقتل مظلوما ، فأنا أرجوله الجنة ، وأمّا هذا فبسط يده فقاتل حتى قتل ، فلا أدري علامَ هو فى ذلك؟ فالمصيبة به أعظم منها علىّ فى هذا ! وقتل أيضا يزيد بن عبد الله بن زَمعة .

وانتهى القتل يومئذ فيما ذكروا إلى ثلاثمائة ، كلّهم من أبناء المهاجرين والأنصار . ومنهم جماعة ممّن صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغت قتلى قريش يومئذ نحو مائة ، وقتلى الأنصار والحلفاء والموالى نحو مائتين .

وقيل : إن يزيد بن معاوية لمّا بلغه ماكان من خبر هذه الوقعة قال :

ليتَ أشياخى ببدر شهدوا جزعَ الخزرجِ من وقع الأسلْ
لأهلّوا واستهلّوا فرحًا ثم قالوا يا يزيد لا تشلْ
لستُ من عُتْبة إن لم أثأرْ[1] من بنى أحمدَ ما كان فعلْ

هكذا حُكِى[2] عن بعض المؤرخين . والذى أعتقده أن هذه الأبيات مفتعلة عنه ومنسوبة[3] إليه ، فإنها لاتصدر إلاّ ممن نزع ربقة[4] الإسلام من عنقه . والله أعلم .

(١) أثأر : أدرك الثأر .

(٢) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخه (ن) : « نقل » .

(٣) لأنه أوصى بعلى بن الحسين خيرا ، ولأنه حارب قريشا فى من حارب بالمدينة ، ولأن البيت الأول من هذه الأبيات من قصيدة معروفة لعبد الله بن الزبعرى بن عدى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم القرشى قالها فى وقعة أحد قبل أن يسلم ، وقد عارضه حسان بن ثابت بقصيدة قال فيها :

ذهبت يابن الزبعرى وقعة كان منا الفضل فيها لوعدل

ثم أسلم ابن الزبعرى فى فتح مكة واعتذر فى شعر منه قوله :

يا رسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور

(٤) الربقة : العروة فى الحبل .

وحج بالناس فى هذه السنة عبد الله بن الزُّبير ، وكان يسمى يومئذ « العائذ بالبيت » .

سنة اربع وستين

ذكر مسير مسلم بن عقبـــة إلى مكة لحصار عبد الله بن الزبير ، ووفاة مسلم والحصار الأول وإحراق الكعبة

قال ولما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها شَخَص نحو مكة بمن معه لقتال ابن الزبير ، واستخلف على المدينة رَوْحَ بن زِنْباع الجُذَامى . وقيل : عمرو بن محرز الأشجعى . وكان خبر وقعة الحرَّة قد أتى عبدَ الله بن الزُّبَير مع المِسْوَر بن مَخْرَمَة هلال المحرم ، فاستعد هو وأصحابه للحرب .

وسار مسلم حتى انتهى إلى المشلَّل [1] فمات هناك ، ولما حضرته الوفاة أحضر الحُصين بن نُمَير السَّكُونىّ وقال له يابرْذَعة الحمار ، لو كان الأمر لى ماوَلَّيتك هذا الجند . ولكن أمير المؤمنين وَلَّاك [2] ؛ ثم مات .

وسار الحصين فقدم مكة لأربع بقين من المحرَّم ، وقد بايع أهلُها وأهلُ الحجاز عبد الله بن الزبير [ولحق به من انهزم من أهل المدينة] [3]

---

(١) المشلل : جبل .

(٢) زاد ابن جرير فى تاريخه ج ٤ ص ٣٨٢ قول مسلم بن عقبة : فاحفظ ما أوصيك به : عم الأخبار ؛ ولا ترع سمعك قريشا أبدا ؛ ولا تردن أهل الشام عن عدوهم ؛ ولاتقيمن الا ثلاثا حتى تناجز ابن الزبير » .

(٣) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ؛ وسقطت من النسخة (ك) .

وقدم عليه نَجْدةُ بن عامر الحنفيّ من اليمامة فى أُناس من الخوارج يمنعون البيت .

فخرج ابن الزُّبير للقاء أهل الشام ومعه أخوه المنذر ، فبارز المُنْذِرَ[1] رجل من أهل الشام ، فضرب كُلٌّ واحد منهما صاحبَه ضَرْبة فماتا جميعا. وقاتل المِسْوَر بن مَخرمة ، ومُصْعَب بن عبد الرحمن بن عَوف قتالا شديدا حتّى قُتلا ، وصابرَهم ابن الزُّبَير إلى الليل ، ثم انصرفوا عنه[2] ، ثم أقاموا عليه فقاتلوه بقية المحرم وصفر كله ، حتّى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة أربع وستين قذفوا البيت بالمجانيق ، وحرقوه بالنار ، وهم يرتجزون :

خَطارةٌ[3] مثلُ الفَنيق[4] المُزْبِدِ نَرْمى بها أعْوادَ هذا المسجدِ

واستمروا على القتال والحصار إلى آخر هذا الشهر ، فأتاهم نَعْى يزيد بن معاوية لهلالِ شهر ربيع الآخر .

ذكر وفاة يزيد بن معاوية

وشىء من أخباره

كانت وفاته بحُوَّارِين من قُرى حِمص لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين ، وقيل : فى هذا الشهر من

(١) كذا جاء فى المخطوطة : وجاء فى تاريخ الطبرى : « ثم إن رجلا من الشام دعا المنذر الى المبارزة. وجاء فى الكامل : « فبارز المنذر رجلا » .

(٢) وهذا فى الحصار الأول .

(٣) وكذلك جاء فى حديث الحجاج لما حاصر ابن الزبير بمكة ونصب المنجنيق «خطارة كالجمل الفنيق » انظر لسان العرب فى خ ط ر ، ف ن ق ، شبه رميها بخطران الفحل من الإبل تشبيها مأخوذا من بيئتهم .

(٤) الفنيق : الفحل المكرم من الإبل .

سنة ثلاث وستين ، وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة ، وقيل : تسع وثلاثين ؛ وقيل : أقلّ من ذلك إلى خمس وثلاثين .

وكانت ولايته ثلاث سِنين وتسعة[1] أشهر وأيّاما ، على القول الأول فى وفاته . وحُمل إلى دِمَشق فدُفن بها فى مَقبرة الباب الصغير ، وصلّى عليه ابنه معاوية .

وكان له من الأولاد مُعاوية وخالد[2] وأبو سُفْيان عبد الله الأكبر أُمّهم أمّ هاشم بنت أبى هاشم بن عُتبة بن ربيعة ، وله أيضا عبد الله الأصغر[3] ، وأُمّه أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر ، وهو الإسوار[4] وله أيضا عبد الله أصغر الأصاغر ، وعمير[5] وأبو بكر وعتبة وحرب ومحمد لأمّهات شتى ؛ قيل : وله يزيد والربيع .

وكاتبه عتبة[6] بن أوس ثم زَمْل بن عمرو العُذْرىّ .

وكان نقش خاتمه : « ربُّنا الله » .

حاجبه خالد مولاه ، وقيل : صَفوان .

قاضيه أبو إدريس الخَوْلانى .

---

(١) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى الكامل ج ٣ ص ٣١٧ وتاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٨٤ : « وستة أشهر وقيل : ثمانية أشهر » والظاهر أنها ثمانية اشهر ، لأن مبايعة يزيد كانت فى رجب ، وجاء فى التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٦٤ : « وكانت أيامه ثلاث سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوما » .

(٢) كان خالد يكنى « أبا هاشم » وقيل إنه أصاب علم الكيمياء » .

(٣) كان من أرمى العرب .

(٤) الإسوار : الجيد الرمى .

(٥) كذا جاء فى المخطوطة وجاء فى الكامل وتاريخ الطبرى : « عمرو » .

(٦) كذا جاء فى المخطوطة ، وجاء فى التنبيه والإشراف ص ٢٦٥ « وكتب له عبيد بن أوس الغسانى وزمل بن عمرو العذرى وسرجون بن منصور » .

عُمّاله على الأمصار [من] [١] تقدم ذكرهم . . الأمير بمصر مَسلَمة بن مُخَلَّد [٢] ، ثم تُوُفِّى [٣] ، فولاّها يزيدُ سعيدَ [٤] بن يزيد الأزْدى من أهل فِلسطين . القاضى بها من قِبَلِ مَسْلمةَ ويزيدَ عابسُ [٥] بن سعيد ، وجمع له بين القضاء والشرطة ، وكان أمِّيًّا لايكتب ولايقرأ .

ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية

وكنيته « أبو عبد الرحمن » و « أبو لَيْلَى [٦] » ، وأمه أم هاشم بنت أبى هاشم بن عُتْبة بن ربيعة ، وهو الثالث من ملوك بنى أُمَيَّة ، بُويع له بالشام فى النصف من ربيع الأول سنة أربع وستين .

---

(١) ثبت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .

(٢) مسلمة بن مخلد الخزرجى الأنصارى ، ولاه معاوية مصر بعد عزل عقبة بن عامر الجهنى عنها فى سنة سبع وأربعين ، وهو أول من أحدث المنار بالمساجد والجوامع .

(٣) توفى مسلمة لخمس بقين من شهر رجب سنة اثنين وستين ، وكانت ولايته على مصر خمس عشرة سنة وأربعة أشهر .

(٤) سعيد بن يزيد بن علقمة بن يزيد بن عوف الأزدى ، لما ولاه يزيد إمرة مصر دخلها فى مستهل شهر رمضان ؛ فتلقاه أهل مصر ووجوه الناس وفيهم عمرو الخولانى ، فلما رآه قال ، « يغفر الله لأمير المؤمنين ! أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولى علينا أحدهم ؟ » ولم يزل أهل مصر على البغض له حتى توفى يزيد ، فاستجابوا لدعوة بن الزبير ، فاعتزل سعيد بعد ولايته بسنتين .

(٥) كان مسلمة بن مخلد قد خرج إلى الإسكندريه فى سنة ستين ، واستخلف على مصر عابس بن سعيد ، ثم قدم مسلمة من الإسكندرية فجمع لعابس مع الشرطة القضاء فى أول سنة ٦١ ثم توفى عابس فى سنة ثمان وستين .

(٦) قال المسعودى فى التنبيه والإشراف : « معاوية بن يزيد بن معاويه يكنى أبا عبد الرحمن ، وإنما كنى أبا ليل تقريعا له لعجزه عن القيام بالأمر ، وكانت العرب تفعل ذلك بالعاجز من الرجال ، وفيه قال الشاعر :

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

وقيل : بل هذا الشعر قديم تمثل به الشاعر فى أيامه » .

قال[١] : ولمّا كان فى آخر إمارته أمَرفنُودِى : « الصلاةُ جامعة » فاجتمع الناس ، فحمد اللهَ وأثنَى عليه ، ثم قال « أمّا بَعْدُ ، فإنى ضعُفتُ عن أمركم ، فابتغَيْتُ لكم مثلَ عُمر بن الخطّاب حين استخلفه أبو بكر رضى الله عنهما فلم أجدْه ، فابتغَيْتُ ستة من أهل الشورَى فلم أجِد ، فأنتم أوْلَى بأمركم ، فاختاروا له مَن أحببتم » . ثم دخل منزله وتغيّب حتّى مات ، فقيل : مات مسموما ، وصلّى عليه الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان ، ثم طُعِنَ[٢] الوليد فمات من يومه .

وقيل : إنه لمّا كبّر تكبيرتين مات قبل انقضاء الصلاة ، فتقدم مَرْوان بن الحَكَم فصلّى عليه .

وقيل : إنه أوْصَى أن يصلّى بالناس الضحّاك بن قيس حتى يقوم لهم خليفة .

وقيل له عند الموت : ! اعْهَدْ إلَى خالد بن يزيد ، فقال : واللهِ ما ذُقتُ حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقلّد وزرها من بعدى[٣] !

ولم يكن لمعاوية هذا ولد .

وكان نقش خاتمه : « الدنيا غرور »[٤] .

وكانت وفاته لخمس بَقِين من شهر ربيع الآخَر سنة أربع وستين .

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ٣ ص ٣١٩ .

(٢) طعن : أصابه الطاعون .

(٣) جاء فى الكامل أن معاوية بن يزيد قال : « لا أتزود مرارتها واترك لبنى أمية حلاوتها »

(٤) كذا جاء فى الأصل وجاء فى التنبيه والإشراف : « وكان نقش خاتمه : « باقة ثقة معاوية » . . وكتب له زمل بن عمرو العذرى وسليمان بن سعيد الخشنى وسرجون النصرانى ، وقاضيه : أبو إدريس الخولانى ، وحاجبه : صفوان مولاه . .

وكانت مدة ولايته إلى حين وفاته أربعين يوما ، وقال المدائنى : ثلاثة أشهر ، وقال ابن إسحاق : عشرين يوما .

ومات وله ثلاث وعشرون سنة ، وقال العتبى : سبع عشرة سنة . والله تعالى أعلم .

فلنذكر أخبار من بُويع بالعراق وخُراسان فى زمن هذه الفِتَن ، بعد وفاة يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد إلى أن خلص الأمر بالحجاز والعراق وخُراسان لعبد الله بن الزُّبَير .

ذكر أخبار من بويع بالعراق

أو لم يتم أمره إلى أن بويع

لعبد الله بن الزبير وما كان بالعراق من الوقائع فى خلال ذلك

كان أوّل من بويع بالعراق بعد وفاة يزيدَ بن معاوية عُبيد الله بن زياد بن أبيه ، وذلك أنه لمّا أتاه الخبر بوفاة يزيد ، وبلغه ما الناس فيه بالشام من الاختلاف ، أمر فنُودى : « الصلاة جامعة » ، فاجتمع الناس ، فصعِد المنبر ، فنعَى يزيدَ وعرَّض بثَلْبِه (١) ، لأن يزيد كان قد كرِهه قبل موته ، وصرَّح بلعنه بسبب قتل الحسين بن علىّ ، حتى خافه عُبيد الله على نفسه ، ثم قال عُبيد الله : « ياأهل البصرة إن مُهاجَرَنا إليكم ، ودارنا فيكم ، [ومَولدى فيكم] (٢) ، ولقد وُلِّيتكم وما أحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ، ولقد أحصى اليوم ثمانين ألف مقاتل ، وما أحصى ديوان عمالكم [إلا تسعين ألفا ، ولقد أحصى اليوم مِائة ألف وأربعين ألفا ، وما تركْت لكم ذا

(١) الثلب : اللوم والعيب . (٢) الزيادة من الكامل ج ٣ ص ٣٢٠ .

ظِنَّة أخافه عليكم [1]] إلاَّ وهو فى سجنكم ، وإنَّ يزيد قد تُوُفِّى ، وقد اختلف الناس بالشام ، وأنتم اليوم أكثر الناس عددا ، وأعرضُه فِناء ، وأغناه عن الناس ، وأوسعهم بلادا ، فاختاروا لأنفسكم رجلا ترضَوْنه لدينكم وجماعتكم ، فأنا أوّل راض بما رضيتموه [لدينكم وجماعتكم] [2] ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضَونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنْتم علَى جَدِيلتكم [3] حتى تُعْطَوْا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البُلدان جاحة ، وما يستغنى الناس عنكم » .

فقام خطباؤهم ، وقالوا : قد سمعنا مقالتك ، وما نعلم أحدً أقوَى عليها منك ، فَهَلُمَّ [4] نبايعك ، فقال : لاحاجة لى فى ذلك . فكرروا عليه وهو يأبى عليهم ثلاثا ، ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفو ومسحوا أيديَهم بالحيطان ، وقالوا : أيظن ابن مَرْجانه إنَّا ننقاد له فى الجماعة والفرقة .

قال : ولمّا بايعوه أرسل إلى أهل الكوفة مع عمرو بن مِسْمع وسعد بن قرحا التيمى [5] يدعوهم إلى البيعة له ، ويُعلمهم ماصنع أهل البصرة ، فلمَّا وصلا إلى الكوفة وكان خليفة عبيد الله عليها عمرو بن حُرَيْث ، فجمع الناس ، وقام الرسولان فخطبا وذكرا ذلك للناس ،فقام يزيد بن الحارث بن يزيد الشَّيبانى وهو ابن رُويم ، فقال

(١) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، وسقطت من النسخة (ك) .
(٢) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ك) وسقطت من النسخة (ن) .
(٣) الجديلة : الحالة الأولى .
(٤) « هلم » كلمة بمعنى الدعاء إلى الشىء مثل « تعالى » .
(٥) كذا فى الأصل وفى تاريخ الطبرى « التميمى » ..

الحمد لله الذى أراحنا من ابن سُمَّية ، أنحن نبايعه ؟ لا ولا كرامة . وحصَبهما الناسُ بعده ، فشرَّفتْ هذه المقالة يزيد بن رُويم بالكوفة ورفعتْه ، ورجع الرسولان إلى عُبَيد الله ، فقال أهل البصرة : أيخلعه أهل الكوفة ونُوَلِّيه نحن ؟ ! فضعف سلطانه عندهم ، فكان يأمر بالأمر فلا يُقْضى ويرى الرأى فيرَدُّ عليه ، ويأمر بحبس المخطئ فيحال بين أعْوانه وبينه .

ثم جاء البصرة سلمة بن ذؤيب الحنظلى التميمى ، فوقف فى السوق وبيده لواء ، وقال : أيها الناس ، هَلُمُّوا إلىّ ، إنى أدعوكم إلَى مالم يَدْعُكم إليه أحد ، أدعوكم إلى العائذ بالحرم ، يعنى عبد الله بن الزُّبَير . فاجتمع إليه ناس ، وجعلوا يبايعونه ، فبلغ الخبر ابنَ زياد ، فجمع الناس فخطبهم وذكَّرهم بما كان من بَيعته وقال : إنى بلغنى أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب المسجد ، وقلتم ماقلتم ، وإنى آمر بالأمر فلا ينفذ ، ويُرَدُّ علىّ رأيى ، ويحال بين أعوانى وبين طِلْبتى ، ثم هذا سَلَمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف عليكم ، ليفرق جماعتكم ، ويضْرب بعضُكم رقابَ بعض[1] ! » .

فقال الأحنف والناس : نحن نأتيك بسَلَمة ، فأتَوْه ، فإذا جَمْعه قد كَثُفَ والفَتْقُ قد اتسع ، فقعدوا عن ابن زياد فلم يأتُوه فلما رأى ذلك أرسل إلى الحارث بن قيس بن صُهْبان الجهضمى الأزدى ، فأحضره وسأله الهرب به ، فقال : ياحارث [إن أبى أوصانى إن احتجت إلى الهرب يوما ما أن أختاركم ، فقال الحارث][1]

(١) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) .

قد اختبرنا أباك فلم نجد عنده ولا عندك مكافأة ، وما أدري كيف أتأتّى لك إن أخرجتك نهارا أخاف أن تُقتل وأُقتل ، ولكنى أقيم معك إلى الليل ، ثم أُردفك خلفى لئلاَّ نُعرف ، فقال عُبيد الله : نِعْم مارأيت ، فأقام عنده ، فلمّا كان الليل حَمَله خلفه ، وكان فى بيت المال تسعة عشر ألف ففرقَّ ابن زياد بعضَها فى مَوَاليه ، وادّخر الباقى لآل زياد ،

قال : وسار الحارث بعُبيد الله ، فكان يمرّ به على الناس وهم يتحارسون مخافة الحَرُوريّة ، حتّى انتهوا إلى بنى ناجية ، فقال بنوا ناجية : من أنت ؟ قال : الحارث بن قيس . وعرف رجل منهم عُبيد الله ، فقال : ابن مَرْجانَة ! وأرسل سهما فوقع فى عمامته

ومضى به الحارث حتّى أنزله فى داره بالجهاضم ؛ فقال له ابن زياد : « ياحارث ، إنك قد أحسنت ، فاصنع ما أُشير به عليك . قد علمت منزلة مسعود بن عمرو ، وشرفه وسنّه ، وطاعة قومه له . فهل لك أن تذهب بى إليه فأكون فى داره ، فهى وسط الأزد ؟ فإنك إن لم تفعل فُرِّق عليك أمر قومك ، فأخذه الحارث فدخلا على مسعود فلم يشعر حتّى رآهما ، فقال الحارث : أعوذ بالله من شر ما طَرْقتنى به ، قال : ما طرقتُك إلاّ بخير ؛ ولم يزل الحارث يلطف بمسعود فى أمره حتّى قال له : أتخرجه من بيتك بعد مادخله عليك ؟ فأمره مسعود فدخل بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو ، ثم ركب مسعود من ليلته ومعه الحارث وجماعة من قومه ؛ فطافوا بالأزد فقالوا : إن ابن زياد قد فُقد . وإنا لانأمن أن تَلطخوا به . فأصبحوا فى السلاح ، وفقد الناس بن زياد فقالوا : ماهو إلا فى الأزد . [وقيل : إن الحارث لم يكلم

مسعودا ، بلْ أمر عبيد الله[١]] فحمل معه مائة ألف درهم وأتى بها أمَّ بسطام امرأةَ مسعود وهى بنت عمّ الحارث ومعه عُبيد الله ، فاستأذن عليها ، فأذنت له . [فقال : قد أتيتك بأمر تسودين به نساء العرب ، وتتعجلين به الغنى ، فأخبرها الخبر][٢] وأمرها أن تُدخل ابنَ زيادالبيت ، وتلبسه ثوبا من ثياب مسعود ، ففعلت ، فلما جاء مسعود أخذ برأسها يضربها ، فخرج عُبيد الله والحارث عليه ، وقال ، لقد أجارتْنى وهذا ثوبك على ، وطعامك فى بطنى ، وشهد الحارث ، وتلطفوا به حتى رضى . فلم يزل ابن زياد فى بيته حتّى قتل مسعود ، فسار إلى الشام على مانذكره إن شاء الله .

قال : ولما فُقِد ابن زياد بقى أهل البصرة بغير أمير . فاختلفوا فيمن يؤمّرونه عليهم ، ثم تراضَوْا بقيس بن الهيثم السُّلَمى ، وبنعمان بن سفيان ليختارا من يرتضيان لهم ، وكان رأى قيس فى بنى أُمية ، ورأى النعمان فى بنى هاشم ، فقال النعمان : ماأرى أحدا [أحق بهذا الأمر][٢] من فلان ، (لرجل من بنى أُمّية) . وقيل بل ذكر عبدالله بن الأَسود الزهرىّ ، وكان هَوَى قيس فيه ، وإنما قال النعمان ذلك خديعة ومكرًا بقيس ، فقال قَيس : قد قلّدتك أمرى ورضيت من رضيتَ ، ثم جاء[٣] إلى الناس ، فقال قيس بن الهيثم : قد رضيتُ من رضى النعمان .

---

(١) الزيادة من ابن الأثير ج ٣ ص ٣٢١ .
(٢) ثبتت هذه الزيادة فى النسخة (ك) ، ولم تثبت فى النسخة (ن) .
(٣) كذا جاء فى النسخة (ك) ، وجاء فى النسخة (ن) « خرجا » .

ذكر ولاية عبد الله بن الحارث البصرة

قال : ولما اتفق قيس والنُّعمان ، ورضى قيس بمن يؤمِّره النعمان ، أشهد عليه النعمان بذلك ، وأخذ على قيس وعلى الناس العهود بالرضا .

ثم أتى عبدَ الله بن الأسود ، وأخذ بيده واشترط عليه ، حتَّى ظَنَّ الناس أنه يبايعه ، ثم تركه .

وأخذ بيد عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو الملقب : « ببّه »[1] واشترط عليه مثل ذلك ، ثم حمد الله وذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم وحقَّ أهل بيته وقرابته ، ثم قال : « أيها الناس ، ماتنقمون من رجل من بنى عم نبيكم وأمّه هند بنت أبى سفيان ، فإن كان الأمر فيهم فهو ابن أختهم » . ثم أخذ بيده وقال ، قد رضِيتُ لكم هذا . فنادَوْا : قد رضينا ، وبايعوه . وأقبلوا به إلى دار الإمارة حتَّى نزلها . وذلك أول جمادى الآخرة سنة أربع وستين .

ذكر مقتل مسعود بن عمرو الأزدى

وهَرب عُبيد الله بن زياد إلى الشام

قال : ثم إن الأزْد ورَبيعة جددوا الحِلف الذى كان بينهم ، وأنفق ابن زياد مالا كثيرًا فيهم حتَّى تمَّ الحِلْف ، وكتبوا بينهم بذلك كتابين . فلَّما تحالفوا اتفقوا علَى أن يردّوا ابن زياد إلَى دار الإمارة ، فساروا ورئيسهم مسعود بن عمرو ، فقال لابن زياد : سر معنا ، فلم

(١) انظر تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٩٨ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٢ وشرح ابن يعيش للمفصل ج ١ ص ٣٢ وشواهد العينى ج ١ ص ٤٠٣ ومادتى (ببب) و (جذب) فى لسان العرب وتاج العروس ، و « ببه » فى الأصل : حكاية صوت صبى .

يفعل ، وأرسل معه مَوَاليه على الخيل ، وقال لهم لا يَحْدُثَنَّ خيرٌ ولا شر إلا أنبأتمونى به .

فجعل مسعود لا يأتى سكة ولا يتجاوز قبيلة إلاَّ أتى بعضُ أولئك الموالى إلى ابن زياد بالخبر ، وسارت ربيعة وعليهم مالك بن مِسْمعَ فأخذوا سكة المِرْبد ، وجاء مسعود فدخل المسجد وصعد المنبر ، وعبدالله ابن الحارث فى دار الإمارة ، فقيل له ، إن مسعود وأهل اليمن وربيعة قد ساروا وسَيهيج بين الناس شر ، فلوأ صلحت بينهم وركبت فى بنى تميم ، فقال : أبعدهم الله ، والله لا أفسدت نفسى فى صلاحهم ، وسار مالك بن مِسْمع نحو دور بنى تميم حتى دخل سكة بنى العدويّة ، فحرق دورهم لما فى نفسه منهم.

وجاء بنو تميم إلى الأحنف بن قيس فقالوا : ياأبا بحر ، إن ربيعة والأزد قد تحالفوا وقد ساروا إلى الرحبة فدخلوها ، فقال ، لستم بأحقّ بالمسجد منهم ، فقالوا : قد دخلوا الدار ، فقال : لستم بأحقّ بالدار منهم ؛ فأتته امرأة تجمر وقالت له : مالك وللرياسة ؟ ! إنما أنت امرأة تتجمر .

ثم أتوه فقالوا : إن امرأة منا قد نُزِعت خلاخيلها ، وقد قتلوا الصباغ الذى على طريقك ، وقتلوا المُقعد الذى كان على باب المسجد . وقد دخل مالك بن مِسْمَع سكَّة بنى العَدَوِيّة فحرق ، فقال الأحنف : أقيموا البينة علَى هذا ، ففى بعض هذا مايحل به قتالهم ! فشهدوا عنده على ذلك ؛ فقال الأحنف : أجاء عبّاد بن حُصَين ؟ قالوا لا : ثم قال : أجاء عبّاد ؟ قالوا لا . قال : أهاهنا عبس بن طَلْق قالوا : نعم ؛ [فدعاه] (١)

(١) ثبتت الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .

فانتزع مِعجرا [١] من رأسه فعقده فى رمح ثم دفعه إليه ، فقال : سر ، فسار وصاح الناس : « هاجت زبراء » (وزيراء أمة للأحنف كَنَوْا بها عنه)[٢] .

فسار عبس إلى المسجد ، فقاتل الأَزْدَ على أبوابه ، ومسعود يخطب على [المنبر][٣] . ثم أتوه فاستنزلوه وقتلوه ، وذلك أول شوال سنة أربع وستين ، وانهزم أصحابه .

وكان ابن زياد قدتهيأ لماصعد مسعود المنبر ليجىء دار الإمارة ، فقيل له إن مسعود قد قُتل ، فركب ولحق بالشام .

وأما مالك بن مِسْمع فأتاه ناس من مصر فحصروه فى داره وحرقوه . ولما هرب ابن زياد تبعوه فأعجزهم ، فنهبوا ما وجدوا له ؛ ففى ذلك يقول واقد بن خليفة التميمىّ .

يا رب جبَّار شديدٍ كَلَبُهْ قد صار فينا تاجُه وسلَبُه
منهم عبيد الله حين تسلُبُه جيادهُ وبزهُ ونهبُه
يوم التقى مِقْنَبُنا [٤] ومقنبُه لولم يُنَجِّ ابن زياد هربُه

وقد قيل فى قتل مسعود ومسير ابن زياد غير ما قدمناه . وهو أنه لمّا استجار ابْن زياد بمسعود بن عمرو وأجاره ، ثم سار ابن زياد إلى

(١) المعجر هنا : العمامة .
(٢) « زبراء » جارية سليطة كانت للأحنف ، وكانت إذا غضبت قال الأحنف « هاجت زبراء » . ثم صارت مثلا لكل من هاج غضبه .
(٣) الزيادة من ابن الأثير والطبرى .
(٤) المقنب جماعة الخيل والفرسان .

الشام وأرسل معه مسعود مائة من الأزد حتّى قدموا به إلى الشام ، ولما سار من البصرة استخلف مسعودا عليها ، فقال بنو تميم وقيس : لانرضى إلّا رجلا ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفنى ولا أدع ذلك أبدا ، وخرج حتّى انتهى إلى القصر فدخله ، واجتمعت تميم إلى الأحنف ، فقالوا له : إن الأزد قد دخلوا المسجد قال : إنّما هو لهم ولكم ، قالوا : قد دخلوا القصر وصعِد مسعود المنبر .

وكانت خوارج قد خرجوا فنزلوا بنهر الأساورة حين خرج عبيد الله إلى الشام ، فزَعم الناس أن الأحنف بعث إليهم : إن هذا الرجل الذى قد دخل القصر هو لنا ولكم عدوٌّ ، فما يمنعكم منه ؟ ! فجاءت عصابة منهم حتّى دخلوا المسجد ومسعود علَى المنبر يبايع من أتاه ، فرماهُ عِلْج يقال له مسلم من أهل فارس ، كان قد دخل البصرة وأسلم ثم صار من الخوارج ، فأصاب قلبه فقتله ؛ فقال الناس : قتله الخوارج . فخرج الأزد إلى تلك الخوارج ، فقتلوا منهم وجَرحوا ، وطردوهم عن البصرة ، ثم قيل للأزد : إن تميما قتلوا مسعودا ، فأرسلوا يسألون ، فإذا ناس من تميم تقوله ، فاجتمعت الأزد عند ذلك ، فرأسوا عليهم زياد بن عمرو أخا مسعود ، ومعهم مالك بن مسمع فى ربيعة ، وجاءت تميم إلى الأحنف يقولون : قد خرج القوم ؛ وهو لايتحرك ، فأتته امرأةٌ بمِجْمر فقالت : اجلس علَى هذا ، (أى إنما أنت امرأة) ، فخرج الأحنف فى بنى تَميم ومعهم من بالبصرة من قَيس ، فالتَقَوْا ، فقُتِل منهم قَتْلَى كثيرة ، فقال لهم بنو تميم : « يا معشر الأزْد ، الله اللهَ فى دمائنا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومَنْ شئتم مِن أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علَينا بيِّنة فاختاروا

أفضلَ رجل فينا فاقتلوه ، وإن لم تكن لكم بيِّنة فإنا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمَرْنا ولا نعلم له قاتل ، وإن لم تريدوا ذلك فنحن نَدِي صاحبكم بمائة ألف درهم ». وسَفَر بينهم عبيد الله بن مَعْمر وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، فطلبوا عشر دِيات ، فأجابهم الأحنف إلى ذلك ، واصطلحوا عليه .

قال : وأما عبد الله بن الحارث « بَبّه » فإنه أقام يصلى بالناس حتّى قدم عليهم عمر بن عبيد الله أميرا من قبل ابن الزُّبير .

وقيل : كتب ابن الزبير إلى عمر بعهده على البصرة ، فأتاه الكتاب وهو متوجه إلى العُمرة ، فكتب عمر إلى أخيه عبيد الله يأمره أن يصلِّى بالناس ، فصلى بهم حتّى قدم عمر ، فبقى عمر أميرا شهراً ، ثم قدم الحارث بن عبيد الله بن أبى ربيعة المخزومى فعزله ووليها الحارث .

وقيل : بل اعتزل عبد الله بن الحارث « بَبَّه » أهل البصرة بعد قتل مسعود ، فكتب أهل البصرة بعد قتل مسعود إلى ابن الزُّبير ، وكتب ابن الزُّبير إلى أنَس بن مالك يأمره أن يصلى بالناس ، فصلى بهم أربعين يوما .

هذا ما كان من أمر البصرة ، فلنذكر خبر أهل الكوفة .

ذكر خبر أهل الكوفة

وما كان من أمرهم [بعد ابن زياد][1]

إلى أن بويع ابن الزبير

كان من خبرهم أنهم لما حَصَبوا رسُلُ ابن زياد على ما ذكرناه عزلوا خليفته عليهم وهو عمرو بن حريث، واجتمع الناس وقالوا : نُؤَمِّر علينا رجلا إلى أن يجتمع الناس على خليفة ، فاجتمعوا على عمر بن سعد بن أبي وَقَّاص ، فجاءت نساء هَمْدان يبكِين الحسين ابن عليّ رضى الله عنهما ورجالهُم متقلدو السيوف ، فأطافوا بالمنبر ؛ فقال محمد بن الأشعث : جاءِ أمر غير ما كنَّا فيه . وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد ، لأنهم أخواله ، فأجمعوا على عامر بن مسعود ابن أمية بن خلف بن وهب الجمحى ، فخطب أهْل الكوفة فقال : إن لكل قوم أشرِبةً ولذَّات فاطلبوها فى مَظانِّها ، وعليكم بما يَحِلُ ويُحمد ، واكسروا شرابَكم بالماء ، وتوارَوْا عنى بهذه الجُدْران .

فقال ابن همام[2] :

اشربْ شرابك وانعم غير محسود
واكسره بالماء لاتعص ابن مسعود
إن الأمير له فى الخمر مأربة
فاشرب هنيئاً مريئا غير تصريد[3]

(١) تبتت هذه الزيادة فى النسخة (ن) ، ولم تثبت فى النسخة (ك) .
(٢) هو عبد الله بن همام السلولى .
(٣) التصريد : شرب دون الرى .

من ذا يحرِّم ماء المزن خالطه
من قعر خابية ماءُ العناقيد
إنى لأكره تشديد الرُّواة لنا
فيها ويعجبنى قول ابن مسعود

وكثير من الناس يظن أن ابن مسعود المذكور فى هذا الشعر هو عبد الله بن أم عبد ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس كذلك .

قال : ولمّا بايعه أهل الكوفة كتبوا بذلك إلى ابن الزُّبير فأقرَّه عليها ، فمكث ثلاثة أشهر من مهلك يزيد بن معاوية ، ثم استعمل عبدُ الله بن الزُّبير عبدَ الله بن يزيد الخَطْمى الأنصاريّ على الصلاة ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج ، واستعمل محمد بن الأشعث بن قيْس علَى الموْصِل .

ذكر خبر خراسان

وما كان من أمر سلم بن زياد وبيعته
وخبر عبد الله بن خازم

كان من خبر خراسان أنه لما بلغ سلمَ بن زياد وهو العامل عليها موتُ يزيد بن معاوية كَتَم ذلك ، فقال له ابن عَرَادة :

يأيها الملكُ المغلِّقُ بابَهُ حَدثتْ أمورٌ شأنُهن عظيمُ
قَتْلَى بحَرَّةَ والذين بكابُلٍ وَزيدُ أُعْلِنَ شأنُه المكتومُ
أبَنى أميةَ إن آخرَ مُلْككُم جَسَدٌ بجُوَّازين ثَمَّ مُقيمُ

طَرَقَتْ مَنيَّتُهُ وعندَ وسَاده كُوبٌ وزِقٌ راعِفٌ مَرْثُومُ(١)
ومُرِنَّة تبكى على نشواتهِ بالصنجِ تقعد مَرةً وتقومُ

فلما ظهر شعره أظهر سَلْم موت يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، ودعا الناسَ إلى البَيْعة على الرضا حتّى تستقيم أُمور الناس على خليفة ، فبايعوه ، ثم نكثوا به بعد شهرين ، فلمّا خلعوه خرج عنهم واستخلف المهلَّب بن أبى صُفْرة ، فلما كان بَسَرخْس لقيه سليمان بن مَرْثَد أحد بنى قيس بن ثعلبة بن ربيعة ، فقال له : أضاقت عليك نزار حتى خلَّفت على خُراسان رجلا من اليمن ، يعنى المهلب . فولاه مَرْو الرُّوز ، والفارياب ، والطالقان ، والجزجان . وولَّى أَوْس بن ثعلبة ابن زُفر (وهو صاحب قصر أوس بالبصرة) هَراة ، فلما وصل سَلْم إلى نَيْسابور لقيه عبد الله بن حازم ، فقال له : من وليت خراسان ؟ فأخبره فقال : « أما وجدت من مُضَر من تستعلمه ، حتى فرّقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن ! اكتب لى عهدا على خراسان » ؛ فكتب له وأعطاه مِائة ألف درهم .

وسار ابن خازم إلى مرْو ، وبلغ خبره المهلَّب ، فأقبل فاستخلف رجلا من بنى جُشَم بن سعد بن زيد مناه بن تميم ، فلمّا وصلها ابن خازم منعه الجُشَمىّ ، وجرت بينهما مناوشة ، فأصابت الجُشَمىّ رِمْيَةٌ فى جَبهته ، وتحاجزا ، ودخلهما ابن خازم ، ومات الجُشَمىّ بعد ذلك بيومين .

---

(١) زق راعف : يسيل من الامتلاء .

ثم سار ابن خازم إلى مَرْو فقاتله سليمان بن مرثد أياما ، فقُتل سليمان ، ثم سار بن خازِم إلى عمرو بن مرثدِ وهو بالطَّالقَان فاقتتلوا فقُتل عمرو بنَ مَرْثد ، وانهزم أصحابه ، فلحقوا بهرَاة بأوس بن ثعلبة ، ورجع ابن خازم إلى مَرْو .

وهرب من كان بمَرْو الرُّوذ من بكر بن وائل إلى هَرَاة ، وانضمّ إليها من كان بكور خُراسان من بكر ، فكثر جمعهم ، وقالوا لأوس ابن ثعلبة : نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتُخرج مُضَر من خُراسان ، فأبى عليهم (١) فَهمُّوا (٢) بمبايعة غيره ، فأجابهم ، فبايعوه ، فسار إليهم ابن خازم فنزل على واد بينه (٣) وبين هَرَاة ، فأشار البَكْريّون بالخروج من هَراة وعمل خَنْدق ، فقال أوْس : بل نلزم المدينة فإنها حصينة ، وأطاول ابن خازم ليَضْجَر ويُعطينا ما نريد ، فأبَوْا عليه ، وخرجوا فَخنْدقوا خندقا (٤) . وقاتلهم ابن خازم نحو سنة .

فنادى هلالٌ الضَّبيّ وهو من أصحابه فقال : « إنما تقاتل إخوتك وبنى أبيك ، فإن نلت منهم الذى تريد فما فى العيش خير ، فلو أعطيتَهم شيئا يرضَوْن به ، وأصلحتَ هذا الأمر ! » فقال : واللهِ لو خرجنا إليهم عن خُراسان ما رضُوا (٥) » ! فقال هلال : لا والله

(١) فقال لهم : هذا بغى ، وأهل البغى مخذولين ، أقيموا مكانكم هذا ، فإن تركتكم ابن خازم ، و ما أراه يفعل ، فارضوا بهذه الناحية ، وخلوه وماهو فيه .

(٢) قال له بنو صهيب : لا والله لانرضى أن نكون نحن ومضر فى بلد ، وقد قتلوا بنى مرثد ، فإذ أجبتنا إلى هذا وإلا أمرنا علينا غيرك .

(٣) عبارة الطبرى : « بين عسكره وبين هراة » .

(٤) عبارة الطبرى « وخرجوا من المدينة فخندقوا خندقا » .

(٥) زاد الطبرى « ولو استطاعوا أن يخرجوكم من الدنيا لأخرجوكم » .

لا أُقاتل معك أنا ولا رجل يطيعنى حتى تُعذر إليهم ! قال · فأنت رسولى إليهم فأرضِهم .

فأتى هلال إلى أوس بن ثعلبة ، فناشَدَه الله والقرابَة فى نزار ، وأن يحفظ دماءها ، فقال : هل لقيت بنى صُهيب : قال : لا ، قال : فألقهمْ . وبنو صهيب هم موالى بنى جحْدر ، وهم الذين ألزموا أوس ابن ثعلبة بالقتال ، فخرج هلال من عند أوس فلقى جماعة من رؤساء أصحابه ، فأخبرهم ما أتى له ، فقالوا له : هل لقِيت بنى صُهيب ؟ فقال : لقد عظُم أمر بنى صُهيب عندكم ! فأتاهم يكلّمهم ، فقالوا : والله لولا أنك رسول لقتلناك . قال : فما يرضيكم شىء ؟

قالوا : « واحد من اثنين [1] ؛ إما أن تخرجوا من حراسان [2] ، وإما أن تقيموا وتخرجوا لنا كل سلاح وكراع وذهب وفضة » . فرجع هلال إلى ابن خازم ، فقال : ما عندك ؟ فأخبره [3] الخبر فقال : إن ربيعة لم تزل غِضَابًا على ربِّها منذ بعث نبيه من مضر ! .

وأقام ابن خازم يقاتلهم ، فلما طال مقامه ناداهم يوما ؛ يامعشر ربيعة ، أرضيتم بنى من خُراسان بخندقكم ؟ ! فأحفظهم ذلك ، فتنادَوا للقتال ، فنهاهم أوس عن الخروج بجماعتهم ، فعصوه ، وخرجوا ، فقاتَلوا ساعةً ، ثم انهزموا ، حتّى انتهوا إلى خَنْدقهم ، وتَفرّقوا يمينا وشمالا ، وسقطوا فى الخَنْدق ، وقُتلوا قَتْلاً ذريعا ، وهرب أوس بن ثعلبة وبه جراحات ، وحَلَف ابن خازم لايؤتى بأسير

(١) فى تاريخ الطبرى : « واحدة من اثنين » .
(٢) زاد الطبرى قولهم : « ولا يدعوفيها لمضر داع » .
(٣) وقال له : « وجدت إخوانا قطعا الرحم » .

يومه ذلك إلا قتله وسار أوس بن ثعلبة إلى سجستان فمات بها أو قريبا منها ، وقتل من بكر يومئذ ثمانية آلاف ، وغلب ابن حازم على هَراة واستعمل عليها ابنه محمدا وضم إليه شماس بن دِثار العُطاردىّ ، وجعل بُكَير بن وِشاح الثَّقفىّ علَى شُرطته ، ورجع ابن خازم إلى مرو .

وفى هذه السنة بعد موت يزيد خالف أهل الرَّى ، وكان عليهم الفَرُّخان الرازى ، فوجه إليهم عامر بن مسعود وهو أمير الكوفة محمدَ بن عُمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمى الدَّارمى فهزمه أهل الرىّ ، فبعث إليهم عامرٌ عَتَّابَ بن ورقاء التميمىّ ، فالتقَوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل الفَرُّخان وانهزم المشركون .

هذا ما كان من أخبار العراق وخراسان بعد وفاة يزيد ، فلنذكر أخبار عبد الله بن الزبير ، وما تخلل أيامه من أخبار غيره التى حدثت فى أعماله .

ذكر بيعة عبد الله بن الزبير

وما حدثت فى أيامه من الوقائع والحوادث المتعلقة به والكائن (١) فى أعمال ولايته

هو أبو خُبَيْب (٢) ، وقيل : أبو بكر (٣) عبد الله بن الزُبَيْر ابن العَوَّام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ ، يجتمع نسبه ونسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قُصى ، وأمه أسماء

(١) كذا جاء فى (ك) وجاء فى النسخة (ن) « والمكاتبة » .

(٢) « أبو خبيب » كنية عبد الله بن الزبير بأكبر أولاده « خبيب » ، ومن ذلك قول الشاعر :

أرى الحاجات عند أبى خبيب نكدن ولا أمية فى البلاد

(٣) كناه النبى صلى الله عليه وسلم بكنية جده أبى أمه . . أبى بكر الصديق .

بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه ، وهى ذات النِّطاقين [١] ، وهو أول مولود ولد بالمدينة من المسلمين [٢] بعد الهجرة .

وكان ابتداء أمره فى البَيْعة له ما قدمناه ؛ من خروجه من المدينة لما تُوُفِّى معاوية بن أبى سفيان ، ووصوله إلى مكة ، وأنه أقام بالبيت وقال : أنا العائذ بهذا البيت .

فلما قُتِل الحسينُ بن على رضى الله عنهما فى سنة إحدى وستين كما ذكرنا ، قام عبد الله فى الناس فعَظَّم قتلَه ، وعاب أَهْلَ العراق عامّة ، وأَهْلَ الكوفة خاصّة ، فحمِد الله تعالى وأثنَى عليه ، وصلَّى علَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : إن أهل العراق غُدْر فُجْرٌ إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شِرارُ أهل العراق ، وإنهم دَعَوْا حُسينًا لينصروه ويُولُّوه عليهم ، فلمّا قدم علَيهم ثاروا عليه ، فقالوا له : إمّا أن تضع يَدَك فى أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سُمية فيُمْضى فيك حكمه ، وإما أن تُحارب ، فرأى واللهِ أنه هو وأصحابه قليل فى كثير ، وإن كان اللهُ لم يُطْلِع على الغيب أحدا أنه مقتول ، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حُسَينا ، وأخْزَى قاتله . لعَمَرى لقد كان من خلافهم إيّاه ، وعصيانهم ، ما كان فى مثله واعظٌ وناهٍ عنهم ، ولكنه قَدَرٌ نازل ، وإذا أراد الله أمرًا لم يُدْفَع ، أَفَبَعْدَ الحسين يُطْمَأَنُّ إلَى هؤلاء القوم ، ويُصدَّق قولُهم ، ويُقْبَل لهم عهد ؟ لا واللهِ لانراهم لذلك أهلا ، أَمَ واللهِ لقد

(١) ذكر المؤلف حديث الهجرة فى الجزء ١٦ من نهاية الأرب فقال ص ٣٣٣ : قطعت أسماء قطعة من نطاقها فأوكأت بها الجراب ، وقطعة أخرى صيرتها عصاما لفم القربة ، فلذلك سميت أسماء « ذات النطاقين » .

(٢) الذى قال ابن عبد البر فى الاستيعاب ج ٢ ص ٣٠١ : « من المهاجرين » .

قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا فى النهار صيامه ، أحقَّ بما هم فيه منهم وأَوْلَى به فى الدين والفضل ! أَمَ الله ما كان يبدِّل بالقرآن الغِناء ، ولا بالبُكاء من خشية الله الحُداء ، ولا بالصيام شُرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حَلَق الذكر الركضَ فى تَطلاب الصَّيد - يعرض بيزيد - ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (١) .

فثار إليه أصحابه ، وقالوا : أظهِرْ بَيْعتك ، فإنه لم يبق أحدُ إذْ هلك الحسينُ ينازعك هذا الأمر . وقد كان عبد الله قبل ذلك يبايع سِرًا ، فقال لهم : لاتعجلوا . هذا وعمرو بن سعيد عامل مكة ، وهو أشدُّ شىء على عبد الله بن الزُّبير ، وهو مع ذلك يُدارِى ويَرْفُق .

فلما استقرّ عند يزيد ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة أعطَى اللهَ عهدًا ليُوثِقَنَّه فى سلسلة ، فبعث إليه سِلسلةً من فضَّة مع ابن عضادة(٢) الأشعرى ومسعدة وأصحابهما ليأتوه به فيها ، وبعث معهم بُرْنس خَزٍّ ليلبسه عليها لئلا تظهر للناس .

فاجتاز أبو عضادة بالمدينة وبها مَرْوان بن الحكم ، فأخبره بما قَدِم له ، فأرسلَ مَرْوان معه وَلَدين له ، أحدهُما عبد العزيز ، وقال : إذا بلَّغته رسل يزيد الرسالة فتعرَّضا له ، وليتمثل أحدكما بهذا الشعر :

فخذها فليست للعزيز بخطَّة ... وفيها مقال لا مرىء متذلِّلِ

أعامر إن القوم ساموك خطة ... وذلك فى الجيران عزلا بمعزل (٣)

أراك إذا ماكنت للقوم ناصحا ... يقال له بالدلو أدبر وأقبل

---

(١) من الآية ٥٩ من سورة مريم .

(٢) فى تاريخ الطبرى « عضاه » وفى الكامل « عطاء » .

(٣) فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٦٥ : « وذلك فى الجيران غزل بمغزل » .

فلمّا بلّغه الرسلُ الرّسالة أنشدعبد العزيز الأبيات ، فقال ابن الزبير : يابنى مَرْوان قد سمعتُ ما قلتما فأخبرا أباكما :

إنى لمن نبعة صُمٌّ مكاسرها إذا تناوحتِ القصباءُ والعُشُرُ
فلا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجرُ

وامتنع من رسل يزيد .

فقال الوليد بنُ عُتْبة وناس من بنى أُميّة ليزيد : لو شاء عمرو ابن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث إليك به ، فعزل يزيد عمرا واستعمل الوليد بن عُتبة على الحجاز ، فأقام الوليد يريد غِرَّة عبد الله فلم يجده إلا مُتَحَذِّرًا ممتنعا .

وثار نَجْدةُ بن عامر الحنفىّ باليمامة حين قُتل الحسين ، وكان الوليد يفيض بالناس من المعرَّف ، ويقف ابن الزبير وأصحابه ونَجْدة وأصحابه ، ثم يفيض ابن الزبير وأصحابه ، ونجدة بأصحابه ، لا يُفيض واحد منهم بإفاضة أحد . وكان نَجْدة يلقى عبد الله بن الزُّبَير ويكثر حتى ظنَّ الناس أنه سيبايعه .

ثم [كتب] (١) عبد الله بن الزبير إلى يزيد فى شأن الوليد فعزله يزيد كما تقدم ، واستعمل عثمان بن محمد بن أبى سفيان .

وكان من خبر أهل المدينة فى خلافهم يزيد ، ووقعة الحرّة ، والحصار الأول ما قدمناه .

فلما مات يزيد بن معاوية بلغ الخبرُ عبدَ الله بنَ الزبير والحُصَين ابن نُمَير ومن معه من عسكر الشام يحاصرونه ، وقد اشتد حصارهم ،

(١) الزيادة من ابن الأثير والطبرى .

فقال لهم عبد الله وأهل مكة : عَلَامَ تقاتلون وقد هلك طاغِيتكم ؟ فلم يُصدِّقوهم ، فلما بلغ الحُصينَ خبر موت يزيد بعث إلى ابن الزبير فقال : موعد ما بيننا الليلة الأبطح ، فالتقيا وتحادثا فراث فرس الحُصَين ، فجاء حَمام الحرم يلتقط رَوْث فرس الحصين ، فكَفَّ الحُصينُ فرسه عن الحمام ، وقال : أخاف أن يقتل فرسى حَمام الحرم . فقال له ابن الزبير : تتحرجون من هذا وأنتم تقاتلون المسلمينِ فى الحرم ، فكان فيما قال له الحصين : « أنت أحقُّ بهذا الأمر ، هَلُمَّ فلنبايعك ، ثم اخرج معى إلى الشام ، فإن هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فواللهِ لا يختلفَ عليك اثنان ، وتؤمَّن الناس ، وتهدر الدماء التى كانت بيننا وبينك ، وبين أهل الحرة » ، فقال له أنا لا أهدر الدماء ، والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة . وأخذ الحُصين يُكلِّمه سرا وهو يجهر ويقول : والله لا أفعل ، فقال له الحُصين : قبح الله منْ يعُدُّك بعد هذا داهيًا أو أريبا ، قد كنت أظنُّ لك رأيا ، وأنا أكلمك سرًّا ، وتكلِّمنى جهرا ، وأدعوك إلى الخلافة ، وتَعِدُنى القتل والهلكة . ثم فارقه ورحل هو وأصحابه نحو المدينة .

وندم ابن الزُّبير علَى ما صنع ، فأرسل إلى الحصين يقول : أما المسير إلى الشام فلا أفعله ، ولكن بايعوا لى هناك ، فإنى مؤمّنكم وعادل فيكم ، فقال الحصين : إن لم تقدم بنفسك لا يمشى الأمر ، فإن هنالك ناسا من بنى أمية يطلبون هذا الأمر . وسار الحصين إلى المدينة فخرج معه بنو أمية إلى الشام .

وبويع عبد الله بن الزبير بمكة لسبع بقين من رجب سنة أربع وستين ، وأجتمع لعبد الله بن الزُّبير الحجاز والكوفة والبصرة والجزيرة وأهل الشام ، إلَّا أهل أُرْدُن ومصر .

ثم بويع مرْوان بن الحكم بالشام ، فكان من أمره فى وقعة مَرْج راهط. ومسيره إلى مصر واستيلائه عليها ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره .

ذكر فراق الخوارج عبد الله

وما كان من أمرهم

وفى سنة أربع وستين فارق الخوارج الذين كانوا قدموا مكة عبد الله بن الزُّبير ، وكانوا قد قاتلوا معه أهل الشام .

وكان سبب قدومهم عليه أنه لما اشتد عليهم عُبيد الله بن زياد بعد قتل أبي بلال ، اجتمعوا وتذاكروا فأشار عليهم نافع بن الأزرق أن يلحقوا بابن الزبير ، وقال : إن كان على رأينا جاهدنا معه ، وإن كان على غير رأينا دافعنا عن البيت ، فلما قدموا عليه سُرَّ بمقدمهم وأخبرهم أنه على مثل رأيهم من غير استفسار ، فقاتلوا معه أهل الشام ، ثم اجتمعوا بعد وفاة يزيد وقالوا : إن الذى صنعتم بالأمس لغير رأى ، تقاتلون مع رجل لا تدرون ، لعله ليس على مثل رأيكم ، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ، وينادِى « يا ثاراتِ عثمان » فاجتمعوا إليه فسألوه عن عثمان ، فنظر فإذا أصحابُه حوله قليل فقال : إنكم أتيتمونى حين أردْت القيام ، ولكن ائتونى عشية النهار حتى أعلمكم ؛ فانصرفوا .

وبعث ابن الزبير إلى أصحابه ، فاجتمعوا عنده بأيديهم العُهُد .

فقال ابن الأزرق : إن الرجل قد أزمع خلافكم ، فتقدم إليه نافع بن الأزرق وعبيدة بن هلال ، فقال عُبيدة : بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه عمل بكتاب الله حتّى قبضه الله ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلاهماعمل بكتاب الله وسنة رسوله، ثم إن الناس استخلفوا عثمان. ونقصه ، وقبح أفعاله ، وتبرأ منه ، ووالى قتلته ، ثم قال : فما تقول أنت يا ابن الزبير : ؟! فحمد بن الزبير الله وأثنى عليه ، ثم قال : قد فهمت الذى ذكرتَ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم فهو فوق ماذكرت ، وفوق ما وصفت ، وفهمتُ الذى ذكرتَ به أبا بكر وعمر وقد وُفِّقتَ وأصبت ، وفهمت الذى ذكرت به عثمان ، وإنى لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره منى ، كنت معه حيث نقم [القوم] (١) عليه واستعتبوه فلم يدع شيئا إلا أعتبهم منه ،ثم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه يأمر فيه بقتلهم ، فقال لهم : ما كتبته ، فإن شئتم فهاتوا بينتكم ، فإن لم تكن حلفت لكم . فوالله ماجاءوه ببينة ، ولا استحلفوه ، ووثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عبته به ، فليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضرنى أنى ولىٌّ لابْن عفَّان ، وعدوّ أعدائه . قالوا : فبرىء الله منك ، قال : بل برئ الله منكم .

وتَفرَّق القوم ، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلى ، وعبد الله بن صفَّار السَّعدىّ ، وعبدالله بن إباض ، وحنظلة بن بَيْهَس ، وبنو الماحوز ؛ عبد الله وعبيد الله والزَّبير من بنى سليط. بن يربوع ، وكلهم

(١) الزيادة من الطبرى

من تميم، حتّى أتَوا البصرة ، وانطلق أبو طالوت من بنى بكر بن وائل ، وأبو قُدَيْك عبد الله بن ثور من قيس بن ثعلبة ، وعطية ابن الأسود اليشكرى ، إلى اليمامة ، فوثبوا بها مع أبى طالوت ، ثم اجتمعوا بعد ذلك على نَجْدة بن عامر الحنفىّ وتركوا أبا طالوت .

فأما نافع بن الأزرق ومن معه فإنهم قدموا البصرة فتذاكروا الجهاد وفضيلته ، وخرج فى ثلثمائة ، وذلك عند وثوب الناس بابن زياد ، وكسر الخوارج باب السجن وخرجوا ، واشتغل الناس عنهم بحرب الأزد وربيعة وتميم، فلما استقر أمر عبد الله بن الحارث بالبصرة تجرد الناس للخوارج وأخافوهم ، فلحق نافع بالأهواز فى شوال سنة أربع وستين واشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، وأقام بالأهواز .

وحيث ذكرنا الخوارج ، فلنذكر ماكان من أمرهم فى أيام عبدالله ابن الزُبير إلى نهايته ، ثم نذكر ماسوى ذلك .

ذكر مقتل نافع بن الأزرق

أمير الخوارج وغيره منهم

وفى سنة خمس وستين اشتدت شوكة نافع بن الأزرق ، وهو الذى تنسب إليه الأزارقة من الخوارج ، وكثرت جموعه ، وأقبل بهم نحو الجسر ، فبعث إليه عبدُ الله بن الحارث أمير البصرة مُسلَم ابن عُبَيْس بن كُرَيْز بن ربيعة ، فخرج إليه فدفعه عن أرض البصرة حتى بلغ دَوْلاَب من أرض الأهواز ، فاقتتلوا هناك فقتل مسلم أمير أهل البصرة ونافع بن الأزرق رئيس الخوارج ، وكان مقتلهما فى جُمادَى الآخرة .

فأمّر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميرىّ ، وأمرت

الخوارج عبد الله بن الماحوز التميمى ، فاقتتلوا فقتل الحجاج وعبدُ الله ؛ فأمَّر أهْل البصرة ربيعةُ بن الأجذم التميمى ، وأمّرت الخوارج عبيد الله ابن الماحوز ، واقتتلوا حتى أمْسَوُا وقد ملُّوا القتال ، وكره بعضهم بعضا ، فبينما هم كذلك إذ جاءت مدرية للخوارج لم تشهد القتال فهزمت جيش البصرة ، وقتل أميرهم ربيعة ، فأخذ الراية حارثة بن بدر فقاتل ساعة بعد أن ذهب الناس عنه ، ثم مار ونزل الأهواز ، وبعث ابن الزبير الحارث بن أبى ربيعة على البصرة كما ذكرناه ، فأقبلت الخوارج نحو البصرة حتى قربوا منها ، فأتى أهلها الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولى حربهم ، فأشار عليهم بالمهلَّب بن أبى صُفْرة .

ذكر محاربة المهلب الخوارج

وقتل أميرهم عبيد الله بن الماحوز

كان المهلَّب قد قدِم مِن قبَلِ عبد الله بن الزُّبير لولاية خُراسان فخرج إليه أشراف أهل البصرة وكلَّموه فى حرب الخوارج ، فأبى عليهم ، فكلمه الحارث بن ربيعة ، فاعتذر بولاية خراسان ، فوضع الحارث وأهْل البصرة كتابا عن ابن الزُّبير إلى المهلَّب يأمره بقتال الخوارج ، وأتوه به ، فلما قرأه قال : والله ماأسير إليهم إلا أن يجعلوا إلىَّ ما غلبتُ عليه ، ويُعطونى من بيت المال ما أقوىّ به من معى ، فأجابوه إلى ذلك .

واختار المهلب من أهل البصرة اثنى عشر ألفا ؛ منهم محمد بن واسع ، وعبد الله بن رباح الأنصارى ، ومعاوية بن قُرّة المزنىّ ، وأبوعمران الجوْنى وغيرهم . وخرج إلى الخوارج وهم عند الجسر الأصغر فحاربهم ودفعهم عنه ، وتبعهم حتّى بلغوا الأهْواز ، واقتتلوا هناك.

ودامت الحرب ، وقُتِل المُعَارك بن أبى صُفْرة أخو المهلب . ثم هُزم جيش المهلَّب وثبت هو ، فاجتمع عليه جماعة ممن انهزم ، ثم عادوا للقتال ، وأبْلَى بلاء حسنا فهزموه . فبلغ بعض من معه البصرة وجاءت أهلها وأسرع المهلَّب حتَّى سبق المنهزمين إلَى تَلٍّ عالٍ ، ثم نادَى : إلَىَّ عباد الله ؛ فاجتمع إليه ثلاثة آلاف أكثرهم من قومه فعاد إلى الخوارج وقد أمنوا ، وسار بعضهم خلف الجيش الذى انهزم ، فأوقع بهم المهلَّب وقتل رئيسُهم عبيدالله بن الماحوز ، فاستخلفوا الزبير بن الماحوز ، وعاد الذين تبعوا المنهزمين ، فوجدوا المهلَّب قد وضع لهم خيلا فرجعوا منهزمين ، وأقام المهلَّب موضعه حتَّى قدم مُصْعَب بن الزُّبير أميرًا على البصرة من قبل أخيه عبد الله .

وقيل : كانت هذه الواقعة فى سنة ستٍّ وستِّين ، وذلك أن المهلَّب لمَّا دفع الخوارج عن البصرة إلى ناحية الأهواز أقام بقية سنته يَجبى كُورَ دجلة ورَزَقَ أصحابه ، وأتاه المَدَد من البصرة حتَّى بلغ ثلاثين ألفا .

قال : ثم استعمل مُصْعَب بن الزُّبَير لما ولى العراق نائبه عمر ابن عبيد الله بن معمر على فارس ، وولاَّه حرب الأزارقة بعد أن تَوجَّه المهلَّب إلى الموصل والجزيرة وأرمينية على ما نذكره إن شاء الله .

فلما بلغ الخوارج ولايته تقدموا إلى إصْطَخر ، وأميرهم يوم ذاك الزُّبير بن الماحوز ، فندب إليهم عمُر ابنهَ عبيد الله فى خيل ، فاقتتلوا فقُتِل عُبيد الله بن عمر ، وقاتل عمر بن عبيد الله الخوارج فقُتل من فرسانهم سبعون (١) رجلا ، وانهزم الخوارج وقصدوا نحو

(١) ابن الأثير : « تسعون » .

أصبهان ، فأقاموا حتّى قَوُوا واستعدوا وأقبلوا حتّى مروا بفارس وبها عمر ، فقطعوها من غير الموضع الذى هو به حتى أتوا الأهواز .

فكتب إليه مُصْعب يلومه فى تمكينهم من قطع جهته ، فسار عمر من فارس فى أثرهم ، وخرج مُصعب فعسكر عند الجسر الأكبر .

وبلغ الخوارج وهم بالأهواز إقبال عمر عليهم ، فقطعوا أرض جُوخَى والنهر وأتوا المدائن ، وبها كردَم بن مَرْثد الفزاري ، فشنّوا الغارة على أهل المدائن ، يقتلون الرجال والنساء والولدان ، ويشقّون أجواف الحوامل ، فهرب كَرْدَم ، وأقبلوا إلى ساباط ، ووضعوا السيف ، وأفسدوا إفسادا عظيما .

وأتوا أرض الكوفة فخرج إليهم الحارث بن أبى ربيعة أميرها ، فتوجهوا حتى أتوا المدائن فأتبعهم الحارثُ عبدَ الرحمن بن مخْنَف فى ستة آلاف ليخرجهم من أرض الكوفة ، فتبعهم حتّى وقعوا فى أرض أصبهان ، فرجع ولم يقاتلهم .

وقصدوا الرَّى وعليها يزيد بن الحارث بن رُوَيم الشَّيبانى فقاتلهم ، فأعان أهل الرَّى الخوارج ، فقُتل يزيد وهرب ابنه حَوْشب .

ولمّا فرغ الخوارجُ من الرى شخصوا إلى أصبهان فحاصروها وبها عتّاب بن ورْقاء ، فصبر لهم وقاتلهم ، فكمن له رجل من الخوارج وضربه بالسيف على حبل عاتقه فصرعه ، فاحتمله أصحابه وداووه حتّى برئ ، وداوم الخوارج حصارهم حتى نفدت أطعمتهم وأصابهم الجهد ، فقام عتّاب فى أصحابه ، وحرّضهم على أن يصدقوهم القتال ، فأجابوه إلى ذلك ، وخرج بهم إلى الخوارج وهم آمنون ،

فقاتلوهم حتّى أخرجوهم من معسكرهم ، وقتلوا أميرهم الزُّبير بن الماحوز .

ففرغت الخوارج إلى أبى نَعامة قَطَرىّ بن الفُجاءة المازنىّ فبايعوه ، وأصاب عتّاب ومن معه من عسكره ما شاءوا ، وسارت الخوارج عن أصبهان إلى كرمان ، فأقاموا بها حتّى اجتمع إلى أميرهم قَطَرى جموع كثيرة ، وجَبَى الأموال وقوى ، ثم أقبل إلى أصبهان ، ثم أتى أرض الأهواز فأقام بها ، فبعث مُصْعب إلى المهلّب فأمره بقتال الخوارج ؛ وبعث إلى عامله بالموصل والجزيرة إبراهيم بن الأشتر ؛ فقدم المهلّب البصرة ، وانتخب الناس وسار نحو الخوارج ، وأقبلوا إليه حتى التقوا بسولاف ، فاقتتلوا ثمانية أشهر أشدَّ قتال رآه الناس ، وذلك فى سنة ثمان وستين .

هذا ما أمكن إيراده من أخبار الخوارج فى أيام ابن الزُّبير فلنذكر خلاف ذلك .

ذكر خبر التوابين وماكان من أمرهم

وأخبارها إلى أن قتلوا

وإنما ذكرنا خبر التوابين فى هذا الموضع فى أخبار عبدالله بن الزبير ؛ لأن ظهورهم ومقتلهم كان فى أيامه ، ومن بلد داخل تحت حكمه ، ونحن نذكر مبدأ أمرهم ، وقد ذكرهم ابن الأثير الجزرى رحمه الله فى تاريخه الكامل فى حوادث سنة أربع وستين ، وسنة خمس وستين .

قال : ولما قُتل الحسين بن على رضى الله عنهما كما ذكرنا تَلاَقت الشِّيعةُ بالتَّلاوُم والندم علَى ماصدَر منهم ، من استدعائهم الحسين

وخذلانه حتى قُتل ، ورأوا أنهم لا يغسل عنهم العارَ والإثم الذى ارتكبوه إلاّ قتل من قتله أو القتل فيه .

فاجتمعوا بالكوفة إلى خمس نفر من رءوس الشّيعة ، وهم : سليمان بن صُرَد الخزاعى ، وكانت له صحبة ، والمسيّب ابن نَجبَة الفَزارى وكان من أصحاب على وخيارهم ، وعبد الله ابن مسعود بن نُفيل الأزدى ، وعبد الله بن وال التيمى ، تيم بكر بن وائل ، ورفاعة بن شداد البَجَلى ، فاجتمعوا فى منزل سليمان بْن صُرَد فبدأهم المسيب بن نَجبَة فقال بعد حمد الله : « أما بعد ، فإنا ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربّنا أن لا يجعلنا ممن يقول له غدا : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ (١) وإن أمير المؤمنين قال : العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة ، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا (٢) ، فوجدنا اللهُ كاذبين فى كل موطن من مواطن ابن ابنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله ، وأعذر إلينا فسألنا نصره عَودا وبَدءا ، وعلانية وسرا ، فبخلنا عنه بأنفسنا حتّى قُتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جدلنا عنه بألسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النُّصرة إلى عشائرنا ، فما عُذْرنا عند ربنا وعند لقاء نبينا ، وقد قُتل فينا ولده وحبيبه ، وذرّيته ونَسْلُه ! لا والله لا عذر دُونَ أن تَقتلوا قاتله والمُوَالين عليه أو تقتلوا فى طلب ذلك ، فعسَى ربُّنا أن يرضَى عنا عند ذلك ،

(١) من الآية ٣٧ من سورة فاطر .

(٢) هنا ينتهى ما سقط من النسخة (ن) مع توالى الترقيم بها ، ولعل هناك صفحتين سقطتا فلم يتنبه عليها المرقم ، وقد أثبتنا هذا من النسخة (ك) .

وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن : أيها القوم ، ولُّوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بُدَّ لكم من أمير تفزعون إليه ، ورلية تَحفُّون بها » .

فقام رفاعة بن شداد فقال : « أمَّا بعْدُ فإن الله قد هداك لأصْوب القول ، وبدأت بأرشد الأمور بدعائك إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فمسموع منك مستجاب إلى قولك ، وقلتَ : ولُّوا أمركم رجلا تفزَعون إليه وتحفُّون برايته ، وقد رأيْنا مثلَ الذى رأيتَ ، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرْضيا وفينا مستنصحا وفى جماعتنا محبا ، وإن رأيت ورأى ذلك أصحابنا وليَّنا هذا الأمر شيخَ الشيعة صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وذا السابقة والقَدَم سُليمانَ بن صُرَد المحمودَ فى بأْسه ودينه الموثوقَ بحزمه »..

وتكلم عبد الله بن وأل وعبد الله بن سعد بنحو ذلك ، وأثنيا على سليمان والمُسَيَّب ، فقال المسيب : قد أصبتم فولُّوا أمركم سليمان بن صرد .

فتكلم سُليمان بن صُرَد بكلام كثير حضهم فيه على القيام وطلب ثأر الحسين وقتل قَتَلته أو القتل دون ذلك .

وكتب إلى سعد بن حُذَيفة بن اليَمان يُعلمه بما عزموا عليه ويدعوه إلى مساعدتهم هو ومن معه من الشيعة بالمدائن ، فقرأ سعد الكتاب على من بالمدائن من الشيعة فأجابوا إلى ذلك .

وكتب سليمان أيضا إلى المثنَّى فأجابه : إننا مَعْشَرَ الشيعة حمدْنا الله علَى ما عزمتم عليه ، ونحن موافوك إن شاء الله للأجل الذى ضربتَ .

قال وكان أول ما ابتدعوا به أمرهم بعد قتل الحسين فى سنة إحدى وستين ، فمازالوا فى جمع آلة الحرب ودعاء الناس ، فى السر إلى أن هلك يزيد بن معاوية فى سنة أربع وستين ، فجاء إلى سليمانَ أصحابهُ فقالوا : قد مات هذا الطاغية ، والأمر ضعيف ، فإن شئتَ وثبنا على عمرو بن حريث ، وكان خليفة ابن زياد على الكوفة — ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين وتتبعنا قَتَلَته ثم ندعو الناس إلى أهل هذا البيت (١) . فقال لهم سليمان : «لاتَعجَلوا ، إنى قد نظرت فيما ذكرتم ، فرأيت قَتَلَةَ الحسين هم أشراف الكوفة وفرسان العرب ، ومتَى علموا ذلك كانوا أشدَّ عليكم ، ونظرتُ فيمن تبعنى منكم فعلمتُ أنهم لوخرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا نفوسهم وكانوا جَزَرًا لعدوِّهم ولكن بثُّوا دُعاتكم وادعوا إلى أمركم » ؛ ففعلوا فاستجاب لهم ناس كثير .

ثم إن أهل الكوفة أخرجوا عمرو بن حريث وبايعوا لابن الزبير ، فلما مضت ستة أشهر من وفاة يزيد قدم المختار بن أبى عُبيد إلى الكوفة فى النصف من شهر رمضان ، وقدم عبد الله بن زيد الخطمى الأنصارى أميرا على الكوفة من قِبَل عبد الله بن الزُّبير لثمان خلَون (٢) من شهر رمضان ، وقدم إبراهيم بن محمد بن طلحة معه على الخراج .

فأخذ المختار بن أبى عبيد يدعو الناس إلى قتال قَتَلة حسين ويقول :

---

(١) زاد ابن الأثير فى الكامل ج ٣ ص ٣٣٤ قولهم : « المستأثر عليهم المدفوعين عن حقهم » .

(٢) فى الكامل « بقين » .

جئتكم من عند المهدى محمد بن الحنفية وزيرًا أمينا ، فرجع إليه طائفة من الشيعة ، وكان يقول : إنما يريد سليمان أن يخرج فيقتل نفسه ومن معه ، وليس له خبرة بالحرب .

وبلغ الخبر عبد الله بن يزيد أن سليمان يريد الخروج بالكوفة عليه ، وأشير عليه بحبسه ، وخُوِّف عاقبةَ أمره إن تركه ، فقال عبدالله إنْ هم قاتلونا قاتلناهم ، وإنْ تركونا لم نطلبهم ، إنَّ هؤلاء القوم يطلبون قَتَلَة الحسين ، ولستُ ممن قتله ، لعن الله قاتله ، ثم صعد إلى المنبر فقال بلغنى أن طائفة منكم أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عنهم فقيل إنهم يطلبون بدم الحسين ، فرحم الله هؤلاء القوم ، لقد والله دُللْتُ على مكانهم ، وأمرت بأخذهم ، فأبَيْتُ ، وقلت إن قاتلونى قاتلتهم ، وعَلاَم يقاتلونى ؟ فوالله ماأنا قتلت حسينا ، ولقد والله أصبت بمقتله رحمة الله عليه ، وإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ظاهرين ، وليسيروا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم - يعنى عبيد الله بن زياد - فأنا لهم ظَهِير ، هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأماثلكم ، فقد توجه إليكم وقد فارقوه على ليلة من جسر مَنْبج ، فقتاله والاستعداد له أولَى من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضا ، فيلقاكم عدوكم وقد رققتم فنهلك ، وتلك أمنيته ، وقد قدِم عليكم أعْدَى خلق الله لكم ، مَن ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لايُقلعان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلكم ومن قبلِه أتيتم ، والذى قتل من تنادُون بدمه ،

قد جاءكم فاستقبلوه بحدّكم وشوكتكم واجعلوها [به ولا تجعلوها] (١) بأنفسكم إنى لكم ناصح .

وكان مروان بن الحكم قد بويع بالشام على ماذكره ، وبعث عُبيدَ الله بن زياد إلى الجزيرة ، وأمره إذا فرغ منها أن يسير إلى العراق .

قال : فلما فرغ عبد الله بن يزيد من كلامه قال إبراهيم بن محمد ابن طلحة : « أيها الناس ، لايغرنكم من السيف والغشم مقالة هذا المداهن ، والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه ، ولئن استيقنّا أن قوما يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده والحميم بالحميم والعريف بما فى عرافته ، حتّى يدينوا للحق والطاعة » .

فوثب إليه المسيب بن نَجَبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال : يا ابن الناكثين ، أنت تهددنا بسيفك وحشمك ! أنت والله أذلُّ من ذلك ، إنّا لانلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجَدك ، وأما أنت أيها الأمير فقد قلتَ قولا سديداً . فقال له إبراهيم والله لتُقتلن ، وقد داهن هذا ، يعنى عبد الله بن يزيد ، فقال له عبد الله بن وأل : ما اعتراضك فيما بيننا وبين أميرنا ؟ ما أنت علينا بأمير إنما أنت أمير هذه الجزية ، فأقبل على خراجك ، ولئن أفسدتَ أمر هذه الأمة فقد أفسده والداك ، وكانت عليهما دائرة السوء . فشتمهم جماعة ممّن مع إبراهيم ، ونزل الأمير عن المنبر ، وتهدده إبراهيم بأنه يكتب إلى ابن الزبير يشكوه ، فجاءه عبد الله فى منزله فاعتذر إليه ، فقبل عذره .

---

(١) الزيادة من الكامل ج ٤ ص ٣٣٥ .

ثم خرج أصحاب سليمان بن صرد ينشرون السلاح ظاهرين إلى سنة خمس وستين ، فعزم سليمان على الشخوص ، وبعث إلى رءوس أصحابه وتواعدوا للخروج فى مستهل شهر ربيع الآخر ، وخرجوا فى ليلة الوعد إلى النُّخَيلة ، فدار سليمان فى الناس ، فلم يعجبه عددهم ، فأرسل إلى حكيم بن منقذ الكندى والوليد بن عضين الكنانى فناديا فى الكوفة يالثارات الحسين ! فكانا أول من دعايا لثارات الحسين .

فأصبح من الغد وقد أتاه نحو ما فى عسكره ، ثم نظر فى ديوانه فوجدهم ستة عشر ألفا بايعه ،فقال ! سبحان الله ! ما وافانا من ستة عشر ألفا إلا أربعة آلاف ! فقيل له إن المختار يثبط الناس عنك وقد تبعه ألفان. فقال ، بقى عشرة آلاف ! ماهؤلاء بمؤمنين !

فأقام بالنُّخيلة ثلاثا ، يبعث إلى من تخلف عنه ، فخرج إليه نحو من ألف رجل ، فقام إليه المسيّب بن نَجَبة ، فقال : رحمك الله ، إنه لاينفعك الكلام ،ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية ، فلا تنتظرن أحدًا ، وخُذ فى أمرك . قال : نعم مارأيت .

ثم قام سليمان فى أصحابه فقال : « أيها الناس ، من كان إنما خرج إرادة وجْه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه . فرحمة الله عليه حيا وميتا ، ومن كان يريد الدنيا فَوَاللهِ ما يأتى فى نأخذه ولاغنيمة نغنمها ، ماخلا رضوانَ الله ، وما معنا من ذهب ولافضة ولا متاع ، ما هو إلا سيوفنا علَى عَواتقنا ، وزادُ قَدْر البُلْغة . فمن كان ينوى غير هذا فلا يصحَبنا » .

فتنادَى أصحابه من كل جانب : إنّا لا نطلب الدنيا ، وليس لها

خرجْنا ، إنما خرجنا لنطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت نبينا صلى الله عليه وسلم .

فلمّا عزم على المسير قال له عبد الله بن سعد بن نفيل : إنى قد رأيت رأيا ، إن يكن صوابا فالله الموفق ، وإن يكن ليس بصواب فالرأى ما تراه ، إنّا خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقتَلَتُه كلُّهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد ورءوس الأرباع والقبائل ، فأين تذهب من ههنا وتدع الأوتار (١) . فقال أصحابه : هذا هو الرأى .

فقال سيمان : أنا لا أرى ذلك ، إن الذى قتله وعبّأ الجنود إليه وقال : « لاأمانَ له عندى دُون أن يستسلم فأمضى فيه حكمى » هذا الفاسق ابن الفاسق ، عُبيد الله بن زياد ، فسيروا على بركة الله إليه ، فإنْ يُظهركم الله عليه رجَوْنا أن يكون مَن بعده أهْوَنَ منه ، ورجوْنا أن يدين لكم أهل مصركم فى عافيته ، فينظرون إلى كل من شَرِكَ فى دمِ الحسين فيقتلونه ولايغشون ، وإنْ تُسْتشْهدُوا فإنما قاتلتم المحلِّين ، وما عند الله خير للأبرار ، فاستخيروا الله وسيروا .

وبلغ عبَد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروجُ ابن صُرَد ، فأتَياه فى أشراف أهل الكوفة ، ولم يصَحبهم مَن له شَرْكٌ فى دم الحسين خوفًا منهم ، فلمّا أتياه قال له عبد الله بن يزيد : إن المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ولا يغشّه ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحب أهل مصرٍ خلقه الله إلينا ، فلا تفجعونا فى أنفسكم ،

(١) الأوتار : جمع وتر ، بمعنى ثأر .

ولاتنقُصوا عددَنا بخروجكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتّى نتهيأ فإذا سار عدوُّنا إلينا خرجنا إليه بجماعتنا فقاتلناه . وجعل لسليمان وأصحابه خراج جوخى إن أقاموا ، وقال إبراهيم مثل ذلك ، فقال سليمان قد مَحَضْتما النصيحة واجتَهدتما فى المشورة فنحن بالله وله ، ونسأله العَزيمة علَى الرشد ، ولانرانا إلاّ سائرين ، فقال عبد الله : فأقيموا حتّى نعبّئ معكم جيشا كثيرا ، فتلْقَوْا عدوّكم بجمع كثيف ، وكان قد بلغهم إقبال عُبيد الله بن زياد من الشام فى الجنود .

فلم يُقم سليمان ، وسار عشيّة الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين ، فتخلّف عنه ناس كثير ، فقال ماأحبّ من تخلف منكم معكم ولوخرجوا فيكم مازادوكم إلاّ خبالا إن الله كَرِه انبعاثهم فثبطهم وخصكم بفضل ذلك .

ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين ، فصاحوا صَيْحة واحدة ، وبكَوا بكاء شديداً ، وترحموا عليه ، وتابوا عنده من خِذْلانه وتَرْكِ القتالِ معه ، وأقاموا عنده يوما وليلة يبكون ويتضرعون .

ثم ساروا وقد ازدادوا حنَقا ، وأخذوا صَوْبَ الأنبار ، وساروا حتّى أتوا قَرْقسيا على تعبئة ، وبها زُفَر بن الحارث الكلابى قد تحصن بها عند فراره من وقعة مرج راهط ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار مروان بن الحكم .

فبعث إليه سليمان ، وعرّفه ماهو وأصحابه عليه من قصد بن زياد ، فبعث إليهم بجزور ودقيق وعلف ، وخرج إليهم وشيعهم وعرض عليهم أن يقيموا عنده بقرقيسيا ، وقال : ابن زياد فى

عدد كثير ، فأبَوْا المقام ، وساروا مجدِّين ، وقال لهم زفر إن ابن زياد قد بعث خمسة أمراء من الرقة فيهم الحصين بن نمير وشرحبيل بن ذى الكلاع وأدهم بن محرز وجبلة بنْ عبيد الله[1] الخثعمى ، فأبَوْا إلاَّ المسير .

فانتهوا إلى عَين الوردة ، فنزلوا غربيَّها ، وأقاموا خمسا ، واستراحوا وأراحوا .

وأقبل أهل الشام فى عساكرهم ، حتَّى كانوا من عين الوردة علَى مَسيرة يوم وليلة ، فقام سُليمان فى أصحابه فخطبهم وحرّضهم على القتال وذكرهم الآخرة ثم قال : إنْ أنا قُتلتُ فأمير الناس المسيب ابن نَجَبة ، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن سعد بن نفيل ، فإن قتل فالأمير عبد الله بن وأل ، فإن قُتل فالأمير رفاعة بن شداد ، رحم الله امرأ صَدَق ما عاهد الله عليه .

وبعث المسيّب بن نَجَبة فى أربعمائة فارس ، وقال : سرْ حتَّى تَلْقَى أوّل عساكرهم ، فشنَّ عليهم الغارة ، فإن رأيت ما تحب وإلاَّ فارجع . فسار يَوْمَه وليلتَه ، ثم نزل ، فأُتى بأعرابى ، فسأله عن أدنى العسكر منه ، فقال : أدناها منك عسكر شُرَحْبيل بن ذى الكُلاع ، وهو علَى ميلٍ ، وقد اختلف هو والحُصَين ، ادَّعَى كُلّ واحد منهما أنه على الجماعة ، وهما ينتظران أمر عُبيد الله .

فسار المسيّب ومَن معه مسرعين ، حتَّى أشرفوا على القوم ، وهم على غير أهْبة ، فحملوا فى جانب عسكرهم ، فانهزم العسكر ،

(١) فى الكامل ج ٣ ص ٣٤٢ : « عبدالله » .

فأصاب المسيّب منهم رجالا وأكثروا فيهم الجراح ، وأخذوا دواب ، وترك الشاميون مُعسكرهم وانهزموا ، فغنم أصحاب المسيَّب ما أرادوا ، ثم انصرفوا إلى سليمان .

وبلغ الخبر ابن زياد ، فسرّح الحصين فى اثْنَى عشر ألفا ، فخرج أصحاب سليمان إليه ، لأربع بقين من جُمادَى الأُوَلَى ، وعَلَى مَيْمنتهم عبدالله بن سعد ، وعَلَى مَيْسرتهم المسيّب ، وسليمان فى القلب . وجعل الحصُين علَى مَيْمنته جبلة بن عبد الله ؛ وعلَى مَيْسرته ربيعة بن المخارق الغنوى .

فلما دنا بعضهم من بعض دعاهم أهل الشام إلى الجماعة علَى مَرْوان بن الحكم ، ودعاهم أصحاب سليمان إلى خلع مَرْوان وتسليم عُبيد الله بن زياد إليهم وأنهم يُخرجون من بالعراق من أصحاب عبدالله ابن الزَّبير ثم يُرَدّ الأمر إلى أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبى كل منهم ، وحمل بعْضُهم على بعض ، فانهزم أهل الشام وكان الظفر لأصحاب سليمان إلى الليل .

فلما كان الغد صبَّح الحُصَين ثمانية آلاف أمده بهم عبيد الله ، فقاتلهم أصحاب سليمان عامَّة النهار قتالا شديدا لم يحجز بينهم إلا الصلاة حتَّى حجز بينهم الليل ، وقد كثر الجراح فى الفريقين .

فلما أصبح أهل الشام أتاهم أدهم بن محرز الباهلى فى نحو من عشرة آلاف من قبَل ابن زياد ، فاقتتلوا يوم الجمعة إلى ارتفاع الضحى ، ثم كثر أهل الشام عليهم ، وعطفوا من كل جانب ،

فنزل سليمان ونادَى : « عبادَ الله ، مَن أراد البُكور إلى ربِّه والتوبَة من ذنبه فإلىَّ » ثم كسر جَفْنَ سيفه ، فنزل معه ناس كثير وفعلوا كفعله ، وقاتلوا قتالا شديدًا ، فقتلوا من أهل الشام مَقْتلة عظيمة وأكثروا فيهم الجراح ، فبعث الحصين الرجّالة ترميهم بالنَّبْل ، واكتنفتهم الخيل ، فقُتل سليمان ابن صُرَد ، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقع ثم وثبَ ثم وقع ، ومات وهو ابن ثلاث وتسعين سنة ، وكانوا قد سموه « أمير التوابين » .

فأخذ الراية المسيب بن نَجبَة ، وترحّم على سليمان ، فتقدم فقاتل حتَّى قُتل بعد أن قَتل رجالا كثيرا .

فأخذ الراية عبدالله بن سعد بن نفيل ، وترحم عليهما ، وقرأ ﴿ فمنهم من قَضَى نَحْبَه ومنهم مَنْ ينتظر وما بَدَّلوا تبديلا ﴾ (١) وحَفَّ به من كان منهم معه من الأَزد ، فبينماهم فى القتال إذ أتاهم فرسان ثلاثة من سعد بن حذيفة ، يخبرون بمسيره فى سبعين ومِائة من أهلْ المدائن ، ويخبرون بمسير أهل البصرة مع المثنَّى بن مخرمة العبدى فى ثلاثمائة ، فقال عبد الله بن سعد : لو جاءونا ونحن أحيْاء ! وقاتَل حتَّى قُتل ، قتله ابن أخى ربيعة بن مخارق ، وحمل خالد بن سعد بن نفيل على قاتل أخيه يطعنه بالسيف ، فخلصه أصحابه ، وقُتل خالد بن سعد .

فجيء بالراية إلى عبد الله بن وأل ، وقد اصْطَلَى الحرب فى عصابة معه ، فأخذها ، وقاتل مَليًّا ، وذلك وقت العصر ، وما زال يقاتل حتَّى

(١) من الآية ٢٢ فى سورة الأحزاب .

قَتَلَ هو وأصحابه رجالاً ، ثم إن أهل الشام تعطفوا عليهم من كل جانب ، فلمَّا كان عند المساء تولَّى قتالهم أدهم بن محرز الباهلى ، فحمل فى خيله ورجله حتَّى وصل إلى ابن وأل وهو يتلو ﴿ ولا تحسبنَّ الَّذينَ قُتلُوا فى سَبيل اللهِ أمْوَاتًا ، بل أحْياءٌ عِنْد رَبِّهِمْ يُرْزَقُون ﴾ الآيات [1] ، فغاظ ذلك أدهم ، فحمل عليه وضربه فأبان يده ثم تنحى عنه ، وقال : إنى أظُنُّك وددْتَ أنك عند أهلك ، قال ابن وأل بئس ماظَنَنْتَ ، واللهِ ما أُحِبُّ أن يَدَك مَكانها إلاَّ أن يكون لى من الأجر مثل مافى يدى ، ليعظمَ وِزْرُك وأجْرى ، فغاظه ذلك فحمل عليه فطعنه فقتله وهو مقبل مازال عن مكانه ، وكان بن وأل من الفقهاء العباد .

فلما قتل أتَوْا رفَاعة بن شداد البجلى وقالوا خذ الراية ، فقال ارجعوا بنا لعلَّ الله يجمعنا ليوم شر لهم ، فقال عبد الله بن عوف ابن الأحمر : « هلكنا والله لئن انصرفت ليركبن أكتافنا فلا نبلغ فرسخا حتى نهلك عن آخرنا ، وإن نجا منَّا ناج أخذته الأعراب فتقرَّبوا به إليهم فيقتَل صَبْرًا ! هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلهم على خيلنا ، فإذا غَسق الليل ركبنا خيولنا أوّل الليل ، وسرنا حتَّى نُصبح ونسير على مهل ، يحمل الرجل صاحبه وحريمه [2] ونعرف الوجه الذى نأخذه » .

فقال رفاعة نعم مارأيت وأخذ الراية ، وقاتلهم قتالا شديدا وتقدم عبد الله بن عزيز الكنانى [3] فقاتل أهل الشام قتالا

(١) الآيات ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .
(٢) فى الكامل ج ٣ ص ٣٤٤ : « وجريحه » .
(٣) كذا جاء فى الأصل مثل الكامل ، وجاء فى تاريخ الطبرى : « الكندى » .

شديدًا ، ومعه ولده محمد وهو صغير ، فسلمه لبنى كنانة من أهل الشام ليوصلوه إلى الكوفة ، فعرضوا عليه الأمان ، فأبى ، ثم قاتلهم حتى قُتل .

وتقدم كريب[1] بن زيد الحمير عند المساء فى مائة من أصحابه فقاتل قتالا شديدا ، فعرض ابن ذى الكُلاع عليه وعلى أصحابه الأمان ، فقال قد كنا آمنين فى الدنيا وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة ، وقاتلوهم حتى قُتلوا .

وتقدم صخير بن هلال المزنى فى ثلاثين من مُزَينة ، فقاتلوا حتى قتلوا .

فلما أمسوا رجع أهل الشام إلى معسكرهم ، وسار رفاعة بالناس ليلته ، وأصبح الحصين فلم يَرَهم ، فما بعث فى أثرهم ، وساروا حتى أتَوْا قَرْقيسيا فأقاموا عند زفَر بن الحارث ثلاثا ، ثم زوَّدهم وساروا إلى الكوفة .

وأما سعد بن حذيفة بن اليمان فإنه سار من المدائن بمن معه حتى بلغ هيت ، فأتاه الخبر ، فرجع فلقى المثنَّى بن مخرمة العبدى فى أهل البصرة ، فأخبره ، فأقاموا بصندوداء حتى أتاهم رفاعة ، فاستقبلوه ، وبكَّى بعضهم إلى بعض ، وأقاموا يوما وليلة ، ثم تفرقوا ، فسارت كل طائفة منهم إلى جهتهم .

قال : ولما بلغ رفاعة الكوفة كان المختار بن أبى عبيد محبوسا ، فأرسل إليه المختار : « أما بَعْدُ فإنكم خرجتم بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ورضى فعلهم حتى قُتلوا[2]

(١) فى الكامل « كرب بن يزيد » .

(٢) كذا جاء فى الأصل مثل الكامل ، وفى تاريخ الطبرى « حين قفلوا » .

أما وربِّ البيت ماخطا خاط منكم خُطوة ولا رَبا ربوة [١] إلا كان ثواب الله له أعظم من الدنيا ، إن سليمان قد قضى ماعليه ، وتوفّاه الله فجعل روحه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذى به تنصرون إنى أنا الأمير المأمور والأمين المأمون ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين ، والمقيد من الأوتار ، فأعدوا واستعدوا وأبشروا ، وأدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدم أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، وجهاد المُحلِّين ، والسلام » . .

وكان من أمر المختار ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) كذا جاء فى الأصل مثل الكامل ، وفى تاريخ الطبرى « ولا رتبا رتوه » .

تم الجزء العشرون بتقسيم هذه النسخة المطبوعة ، وفى التقسيم المخطوطى اختلاف :

جاء فى آخر النسخة (ك) وهى الجزء ١٨ برقم ٥٤٩ معارف عامة – فى دار الكتب المصرية المصورة :

آخر الجزء الثامن عشر من نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى .

رحمه الله تعالى .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول الجزء التاسع عشر ذكر أخبار المختار بن أبى عبيد الثقفى والحمد لله رب العالمين

وأما النسخة (ن) – وهى الجزء ٢٧ ، ولعله صحته ١٧ برقم ٥٥٣ معارف عامة – المصورة بدار الكتب المصرية فقد جاء فى الجانب الأخير من آخر ورقة ما يأتى : .

« طالعه الفقير إلى الله تعالى ناصر بن سليمان بن غازى الأيوبى غفر الله له ولجميع المسلمين يارب العالمين » .

المحقق

محمد رفعت محمود فتح الله

رئيس قسم اللغويات بكلية اللغة العربية

فهرس

الجزء العشرين

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

الصفحة

ذكر خلافة على بن أبى طالب ١
ذكر صفته ١
ذكر نبذة من فضائله ٣
ذكر بيعة على ١٠
ذكر تفريق على عماله وخلاف معاوية ٢١
ذكر ابتداء وقعة الجمل ٢٦
ذكر مسير على الى البصرة ٣٩
ذكر ارسال على الى أهل الكوفة ٤٣
ذكر مراسلة على طلحة والزبير وأهل البصرة ٥٤
ذكر اجتماع قتلة عثمان بذى قار وتشاورهم ٥٧
ذكر مسير على رضى الله عنه ٥٩
ذكر مقتل طلحة ٨٥
ذكر مقتل الزبير بن العوام ٨٩
ذكر وقعة صفين وابتداء أمرها ١٠٠
ذكر ارسال على الى معاوية وجوابه ١٠٨
ذكر الموادعة بين على ومعاوية فى شهر المحرم ١١١
ذكر الحروب التى كانت بصفين بعد الأيام الستة ١٢١
ذكر رفع أهل الشام المطابع ١٤٤
ذكر اجتماع الحكمين ١٥٦
ذكر أخبار الخوارج ١٦٠
ذكر خبرهم بعد صفين ١٦١
ذكر خبرهم عند توجيه الحكمين ١٦٤
ذكر اجتماع الخوارج بعد الحكمين ١٦٦
ذكر قتال الخوارج ١٧٤
ذكر أخبار من خرج بعد أصحاب النهروان ١٨٠

الصفحة

ذكر خلاف الحريت بن راشد التميمى ١٨٢
ذكر ما اتفق فى مدة خلافته ١٩١
ذكر خبر عبد الله بن الحضرمى ١٩٨
ذكر مقتل على بن أبى طالب ٢٠٥
ذكر أزواج علي ٢٢١
ذكر خلافة الحسن بن على بن أبى طالب ٢٢٤
ذكر أخبار سعد بن أبى وقاص ووفاته ٢٣٣
ذكر أخبار سعيد بن زيد ٢٣٥

الباب الثالث
من القسم الخامس من الفن الخامس

ذكر قدوم عمرو بن العاص على معاوية وصلحه معه ٢٣٩
ذكر مقتل محمد بن أبى حذيفة ٢٤١
ذكر ملك عمرو بن العاص مصر ٢٤٦
ذكر سرايا معاوية الى بلاد على بن أبى طالب ٢٥٣
ذكر مسير بسر بن أرطاة ٢٥٨
ذكر الغزوات والفتوحات ٢٦٥
ذكر غزو السند ٢٦٦
ذكر غزو القسطنطينية ٢٦٨
ذكر غزو جزيرة أروار ٢٧١
ذكر أخبار الخوارج ٢٧٢
ذكر خبر المستورد الخارجى ٢٧٨
ذكر عروة بن أدية وأخيه مرداس بن أدية ٢٨٥
ذكر الحوادث فى أيام معاوية بن أبى سفيان ٢٨٨
ذكر صلح معاوية وقيس بن سعدة بن عبادة ٢٨٩
ذكر استعمال معاوية المغيرة بن شعبة على الكوفة ٢٩٠
ذكر استعمال بسر بن أرطاة ٢٩٠
ذكر قدوم زياد بن أبيه ٢٩٤
ذكر وفاة عمرو بن العاص ٢٩٧
ذكر عزل عبد الله بن عامر عن البصرة ٣٠٠
ذكر استلحاق معاوية بن أبي سفيان ٣٠٢

الصفحة

ذكر عمال زياد بن أبيه ٣١٦
ذكر وفاة الحسن بن على بن أبى طالب ٣٢٠
ذكر ولاية زياد الكوفة ٣٢٥
ذكر ما قصده معاوية ٣٢٦
ذكر وفاة الحكم بن عمرو الغفارى ٣٢٨
ذكر مقتل حجر بن عدى ٣٣٠
ذكر وفاة زياد بن أبيه ٣٤٢
ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على خراسان ٣٤٦
ذكر مراسلة معاوية زيادا فى شأن البيعة ٣٥٠
ذكر ارسال معاوية الى مروان بن الحكم ٣٥١
ذكر من وفد الى معاوية من أهل الأمصار ٣٥٣
ذكر مسير معاوية الى الحجاز ٣٥٥
ذكر استعمال سعيد بن عثمان بن عفان ٣٦٠
ذكر عزل الضحاك عن الكوفة ٣٦٢
ذكر عزل عبيد الله بن زياد ٣٦٣
ذكر شيء من سيرته وأخباره ٣٧٢
ذكر صفة معاوية وأولاده وأزواجه ٣٧٤
ذكر بيعة يزيد بن معاوية ٣٧٦
ذكر ارسال الوليد بن عتبة ٣٧٨
ذكر استعمال عمرو بن سعيد على المدينة ٣٨٢
ذكر مقدم الحسين الى مكة ٣٨٤
ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على الكوفة ٣٨٨
ذكر ظهور مسلم بن عقيل ٣٩٧
ذكر ما تكلم به الحسين رضى الله عنه ٤٣٩
ذكر تسمية من قتل مع الحسين بن على ٤٦١
ذكر ما كان بعد مقتل الحسين ٤٦٣
ذكر ورود الخبر بمقتل الحسين ٤٧٢
ذكر ما ورد من الاختلاف ٤٧٦
ذكر مقتل أبى بلال مرداس ٤٨٢
ذكر وفاة يزيد بن معاوية ٤٩٧
ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية ٤٩٩

الصفحة

ذكر أخبار من بويع بالعراق ٥٠١
ذكر ولاية عبد الله بن الحارث البصرة ٥٠٦
ذكر مقتل مسعود بن عمرو الأزدى ٥٠٦
ذكر خبر أهل الكوفة ٥١١
ذكر خبر خراسان ٥١٢
ذكر بيعة عبد الله بن الزبير ٥١٦
ذكر فراق الخوارج عبد الله ٥٢١
ذكر مقتل نافع بن الأزرق ٥٢٣
ذكر محاربة المهلب الخوارج ٥٢٤
ذكر خبر التوابين وما كان من أمرهم ٥٢٧

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/١٧١٠

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٠٠٩ ٧

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء العشرون

تحقيق

محمد رفعت فتح الله

مراجعة

ابراهيم مصطفى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

جمهورية مصر العربية
وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالاشتراك مع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة
١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء الحادي والعشرون

تحقيق

علي محمد البجاوي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

جمهورية مصر العربية
وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالاشتراك مع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة
١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وكلت إلىّ الإدارة العامة للثقافة تحقيق الجزء التاسع عشر من كتاب نهاية الأرب للنويرى (وهو الجزء الحادى والعشرون من تقسيم المؤلف) ، فرجعت إلى نسختيه المصورتين بدار الكتب ، وهما برقم ٥٤٩ ، ورقم ٥٥٤ معارف عامة ، ورمزت إلى الأولى بالحرف ك وإلى الثانية بالحرف د ، وقد اعتمدت على النسخة الثانية لأنها أكثر تحقيقا ، وجعلت الثانية مساعدة فى التحقيق .

وكان لابد فى تحقيق نصوص هذا الكتاب مما يأتى :

١ - الإشارة فى الهوامش إلى العبارات التى اختلفت فيها النسختان مما يجعل المتن فى صورة كاملة واضحة للقارئ .

٢ - الرجوع إلى المصدر الأول للكتاب ، وهو الكامل لابن الأثير .

٣ - الرجوع إلى المصادر الأولى للتاريخ الإسلامى ، ومن أهمها تاريخ الطبرى ، وفتوح البلدان للبلاذرى .

٤ - الرجوع إلى المعجمات اللغوية ، وكتب البلدان ؛ ومن أهم مارجعنا إليه فيها : معجم ما استعجم للبكرى ، مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع لابن عبد الحق البغدادى ، معجم البلدان لياقوت .

٥ - الرجوع - فى تحقيق الأعلام - إلى كتب الأعلام الموثوق بها ، وقد رجعت فى ذلك إلى : المشتبه للذهبى . وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ، وتاج العروس ، والإكمال لابن ماكولا ، وغيرها .

وأرجو أن يكون الكتاب بذلك قد نال حظه من العناية ، فصار أقرب ما يكون إلى أصل المؤلف .

على محمد البجاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

[وبه توفيقى][1]

ذكر أخبار المختار
ابن أبى عبيد بن مسعود الثقفى

كان المختارُ بنُ أبى عُبَيْد ممن بايع مُسلم بْنَ عَقيل لما بعثه الحُسَين بن علىّ رضى الله عنهما إلى الكوفة وأنزله فى داره ، ودعا إليه . فلما ظهر ابْنُ عقيل كان المختارُ فى قريةٍ تدعى لقفا[2] ، فأتاه الخَبَرُ بظُهُورِه ، فأقبل فى مَوَالِيه إلى باب الفِيل بعد المغرب ، وقد أجلس عُبَيدُ الله بن زياد عَمْرَو بن حُريث بالمسجد ومعه رَايَةٌ ، فبعث إلى المُخْتَار وأَمَّنَه ، فجاء إليه .

فلما كان من الغد ذكر عمارة بن عُقْبة[3] أمْره لعُبَيْد الله ، فأحضره ، وقال له: أنت المُقْبِلُ فى الجموع لِتَنْصُر ابْنَ عقيل ! قال: لم أفعل ، ولكنى أقبلْتُ ونزلْتُ تحت رايةِ عَمْرو ، فشهد له عَمْرو بذلك ، فضرب ابنُ زياد وَجْهَ المختار بقَضِيبٍ فشَتَر[4] عَيْنَه وقال: لولا شهادتهُ[5] قتلْتُك. وحَبَسه إلى أن قُتِل الحُسَيْن .

---

(١) فى د وحدها .

(٢) فى ك : لغفا . والمثبت فى د ، والطبرى ، وفى معجم البلدان لياقوت : لقف — ضبطه الحازمى بفتح أوله وسكون ثانيه . وقال عرام : لقف ماء آبار كثيرة عذبة ، ليس عليها مزارع ولا نخل بأعلى قوران : واد من السوارقية على فرسخ . وعبارة الطبرى : فى قرية له بخطر نية . وخطر نية : ناحية من نواحى بابل العراق .

(٣) فى د : عمارة بن الوليد بن عقبة ، والمثبت فى ك ، والطبرى ، والاستيعاب : صفحة ١١٤٤

(٤) شتره : غته وجرحه (القاموس) . (٥) فى ك : لولا شهادة عمرو.

فبعث المختارُ إلى عَبْد الله بن عمر بن الخطَّاب يسأَلُه أن يَشْفَع [له] (١) فيه، وكان زوج أُخته صفيةَ بنتِ أَبى عبيد ، فكتب ابْنُ عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع فيه ، فأَمر يزيدُ ابْنَ زيادٍ بإطلاقه ، فأَطلقه وأمره ألاَّ يُقيم غيرَ ثلاث .

فخرج المختارُ إلى الحجاز ، واجتمع بعَبْد الله بن الزبير وأَخبره خبرَ العراق ، وقال له : ابسُط يدَك أُبايعْك ، وأَعْطِنا ما يُرضينا ، وثِبْ على الحجاز ، فإنَّ أَهلَه معك ؛ وكان ابنُ الزبير يَدْعُو لنفسه سرًّا ، فكتم أَمرَه عن المختار ففارقه إلى الطائف ، وغاب عنه سنَةً ثم سأَل عنه ابن الزبير ، فقيل له : إنه بالطائف ، وإنه يَزْعم أنه صاحب الغَضَب ومُبيدُ (٢) الجبّارين ، فقال ابْنُ الزبير : قاتله الله ، لقد اتبعت(٣) كذابا متكهِّنا ؛ إن يُهلِك الله الجبَّارين يكن المختار أوّلَهم .

فبينا هو فى حديثه إذ دخل المختار ، فطاف وصلَّى ركعتيْن ، وجلس وأَتاه معارِفُه يحدّ ثونه ، ولم يأْت ابنَ الزبير ، فوضع ابن الزبير عليه عباس بن سَهْل بن (٤) سَعْد ، فأَتاه ، وسأَله عن حاله ، ثم قال له : مثلكُ يغيبُ عن الَّذى قد اجتمع عليه الأَشرافُ من قُريش والأَنصار وثَقِيف ؟ ولم (٥) تبق قبيلة إلا وقد أَتاه زعيمُها ، فبايعْ هذا الرجل .

---

(١) من د ، والطبرى .

(٢) فى الطبرى : ومبير . وفى ك : ومسير .

(٣) فى د ، والطبرى : انبعث .

(٤) فى ك : عباس بن سهل بن مسعر . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٥) فى الطبرى : لم يبق .

فقال : إنى أتيتُه فى العام الماضى فكتم عنى خَبَره ، فلما استغنى عنّى أحببْتُ أن أُرِيَه أنّى مستَغْنٍ عنه ، فقال له العباس : الْقَه [الليلة] (١) وأنا معك ، فأجابه إلى ذلك ، وحضرعند ابْنِ الزُّبير بعد العَتَمة ، فقال له المختار : أُبايعك على ألاَّ تُقْضَى الأُمورُدونى ، وعلى أن أكونَ أوّلَ داخلٍ عليك ، وإذا ظهرتَ استعنت بى علَى أفضل عَمَلِك .

فقال ابنُ الزبير : أُبايعك على كتابِ الله وسنَّة رِسوله . فقال : وشرّ(٢) غلمانى تبايعه على ذلك ،والله لا أُبايعك أبدًا إلّاعلَى ذلك ، فبايعه وأقام عنده ، وشهد معه قتالَ الحصُين(٣) ، وكان أشدّ الناسِ على أهل الشام ، فلمَّا مات يزيد وأطاع (٤) أهلُ العراق عبْدَ الله ابن الزبير ، أقام المختار عنده خمسةَ أشهر ، فلما رآه لايستعمله جعل يسأَلُ مَنْ يقدم من الكوفة عَنْ حالِ الناس ، فأخبره هانىء بن أبى حيّة الودَاعى (٥) باتفاق(٦) أهل الكوفة على طاعةِ ابن الزبير إلاَّطائفة من الناس ، لوكان لهم من يَجْمَعُهم على رَأْيهم أكل بهم الأَرض إلى يوم ما .

فقال المختار ،أنا أبوإسحاق [أنا والله لهم] (٧) ،أنا أجمَعُهم على

---

(١) من د ، والطبرى .

(٢) فى الطبرى : وشر غلمانى أنت مبايعه على كتاب الله وسنة رسوله .

(٣) هو الحصين بن نمير السكونى .

(٤) فى ك : واطلع . والمثبت فى د .

(٥) فى اللباب : الوداعى — بفتح الواو والدال ، وفى آخره العين المهملة .

(٦) فى د : باتساق .

(٧) من د ،والطبرى .

الحق ، وأتّقى [١] بهم ركبان الباطل ، وأقتل بهم كلَّ جبار عَنِيد .

ثم ركب دابته [٢] وسار نحو الكوفة فوصل إليها .

واختلفت الشيعةُ إليه ، وبلغهُ خبر سليمان بن صُرَد وأنه على عَزْم المسيرِ ، فقام فى الشيعةِ فحمد الله ، ثم قال : إن المهدى وابن الرضَا ، يعنى محمد ابن الحنفية ، بعثنى إليكم أميناً ووزيرا [٣] ومنتخبا وأميرا ، وأمرنى بقِتَال المُلْحِدِين ، والطلب بدَمِ أهل بَيْتِه .

فبايعَه إسماعيلُ بن كثير وأخوه ، وعُبَيْدة بن عَمْرو ، وكانوا أوّل من أجابه ، وبعث إلى الشِّيعة وقد اجتمعوا عند ابن صُرَد ، وقال لهم نحو ذلك ، وقال : إن سليمانَ ليس له تجربة بالحَرْب ولابالأُمور ، إنَّما يريدُ أن يخرجَكم فيقتلَكم ويقتَل نفسه ، وأنا أعمل على مِثالٍ مُثِّل لى ، وأمْرٍ بُيِّن لى ، فيه عزُّ وليّكم ، وقَتْلُ عدّوكم ، وشفاء صدوركم ، فاسمعوا قولى ، وأطيعوا أمرى ، ثم أبشِروا .

فمازال بهذا ونحوه حتى استمال طائفةً من الشيعة ، فكانوا يختلفون إليه ويعظّمونه ، وأكثرُ الشيعةِ مع ابن صُرَد ، وهو أثقَلُ خَلْقِ الله على المُختار .

فلما خرج سليمان بن صُرَد على ما قدمناه قال عمَر بن [٤] سعد ، وشَبث [٥] بنُ رِبْعى ، ويزيد بن الحارث بنُ رُوَيم لعبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طَلْحة : إن المختارَ أشدُّ عليكم من سليمان ،

---

(١) فى د : وألقى . (٢) فى د : راحلته .

(٣) فى ك : أمينا وزيرا .

(٤) فى ك : عمرو بن سعيد .

(٥) بالتحريك (المشتبه ، والقاموس) .

إن سليمان إنّماخرج يريدُ قتالَ عَدُوِّكم ،والمختارُ يريد أنَ يَثِب عليكم فى مِصْركم ، فأتوه ، وأخذُوه بَغْتة ، وحملوه إلى السجن ،فكان يقول فى السجن :أماورَب البحار ،والنخيل والأشجار ،والمَهامِه ،والقِفَار ،والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلنَّ كل جبَّار ، بكل لَدْنٍ خَطَّار ، ومُهَنَّدٍ بَتَّار ، وجُموع[1] الأنصار ، وليسوا بميل أغمار ، ولا بِعُزَّلٍ[2] أشرار ، حتى إذا أقمتُ عَمُودَ الدِّين ، ورأبْتُ شَعْب صَدْع المسلمين ، وشفَيْتُ غليل صدور المؤمنين ، وأدْرَكتُ بثأْر النبيِّين ،لم يكبر علىّ زوالُ الدنيا ، ولم أحْفل بالموت إذا أتى .

وقيل فى خروج المختار إلى الكوفة غير ماتقدّم ، وهو أنه قال لعَبْد الله بن الزُّبير وهو عنده : إنى لأعلم قومًا لوأنَّ لهم رَجُلا له عِلمٌ بما يأتى ويذَر لاستخرج لك منهم جُنْدا يُقاتل بهم أهَل الشام . قال : من هؤلاء ؟ قال : شيعة علىّ [رضى الله عنه][3] بالكوفة ، قال: فكن أنْت ذلك الرجل ؛ فبعثه إلى الكوفة ، فنزل ناحيةً منها يَبْكِى على الحُسَيْن ويذكر مصابه حتى ألفه الناسُ وأحبّوه ، فنقلوه إلى وسط الكوفة ، وأتاه منهم بَشَر كثير. [والله أعلم[3]] .

---

(١) فى ك : بجموع ، وفى الطبرى : فى جموع .

(٢) فى ك : بغرل . والأغرل : الرجل المسترخى الخلق (القاموس) . والمثبت فى د ، والطبرى . والميل : جمع أميل : الكسل الذى لايحسن الفروسية والركوب (اللسان) .

(٣) ساقط فى د .

ذكر وثوب المختار بالكوفة

كان وُثوب المُختارِ بالكوفة فى رابع عشر شهر ربيع الأوّل سنة [٦٦هـ] ست وستين ، وكان سبَبُ ذلك أنّه لما قُتل سليمان بنُ صُرَد قَدِم مَنْ بقى مِنْ أصحابه إلى الكوفَةِ ، وكان المختارُ محبوسا كما ذكَرْنَا ، فكتب إليهم من السجن يُثْنِى عليهم ، ويُمَنِّيهم الظَّفَر ، ويعرِّفُهم أن محمد بن على بن أبى طالب المعروفَ بابْنِ الحنفية أمَرَه بطَلَبِ الثأْر ، فقرأ كتابَه رفاعةُ بنُ شدّاد والمثنَّى بن مُخَرِّبة العبدى ، وسعْد بن حُذَيْفَة بن اليمان ، ويزيد بن أنس ، وأحمر بن شُميْط (١) ، وعبد الله بن شدّاد البَجلى ، وعبد الله بن كامل .

فلمَّا قَرءُوا كتابَه بعثوا إليه ابْنَ كامل يقولون : إنَّنا بحيث يسرّك ، فإن شئت أن نأْتيَك ونخرجَك (٢) من الحَبْس فَعلْنا . فقال : إنى أخرج فى أيَّامى هذه . وكان المختار قد أرسل إلى عبد الله ابن عُمَر يقول : إنى حُبِسْتُ مظلوما ، وطلب [منه] (٣) أن يشفع فيه إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة .

فكتب ابْنُ عمرَ إليهما فى أمره ، فشفَّعاه فيه ، وأخرجاه من السجن ، وحلفاه أنّه لايبغيهما غائلة ، ولا يَخرج عليهما مادام لهما سلطان ، فإنْ فعلَ فعَلَيْه ألْف بدنة ينحرْها عند الكعبة ، ومماليكُه أحرار .

---

(١) فى د : سميط . والمثبت فى ك ، والطبرى .
(٢) فى الطبرى : حتى نخرجك .
(٣) ساقط فى ك .

فلمّا خرج نزل بدَارِه ، وقال لمَنْ يَثق به : قاتلهم الله ، ما أحمَقَهم حين يرَوْن أنى أفِى لهم ، أمّا حَلِفى بالله فإننى إذا حلَفْتُ على يمين فرأيتُ خيرًا منها أُكفِّر عَنْ يمينى ،وخُروجى عليهم خير من كَفِّى عنهم ، وأمّا هَدْىُ البُدْنِ ، وعِتْقُ المماليك ، فهو أهَون علىَّ من بَصْقةٍ ، ودِدْت أنّى تَمَّ لى أمرى ولا أملك بعده مملوكا أبدا .

ثم اختلفتْ إليه الشِّيعةُ ، واتفقوا على الرّضا به ، ولم يَزَلْ أصحابُهُ يَكثُرون وأمرُه يَقْوَى ، حتّى عَزَل عبدُ الله بنُ الزبير عبدَ الله ابن يزيد وإبراهيمَ بن محمد ، واستعمل عبدَ الله بنَ مُطيع على عَملهما بالكوفة .

وقدم ابنُ مُطيع الكوفةَ لخمسٍ بَقِين من شهر رمضان سنة [٦٥ هـ] خمس وستّين . ولمّا قَدِمَ صعد المنبر ، فخطب الناسَ وقال : أمّا بعد ، فإن أميرَ المؤمنين بعثنى على مِصْركم وثُغورِكم ، وأمَرَنى بِجباية فيئكم وألاّ أحملَ فضْلةً عنكم (١) إلا برضًا منكم ، وأن أتْبع فيكم وصيّة عمَر بن الخطّاب التى أوصى بها عند وفاته ، وسيرةَ عثمان بن عفّان رضى الله عنهما ، فاتقوا الله واستقيموا ، ولا تختلفوا على ، وخُذُوا على أيدى سُفَهَائكم ، فإن لم تفعلوا فلُوموا أنفسَكم . فقام إليه السائب بن مالك الأشعرى(٢) ، فقال : أمّا حَمْل فيئنا برِضانا فإنّا نشهد ألاّ(٣) نرضى أن تَحملَ عنّا فَضْلَةً وألاّ تقسم إلّا فينا ، وألّا يُسارَ فينا إلا بسيرة علىّ بن أبى طالب الّتى سار بها فى بلادِنا

(١) فى ك ، والطبرى : فضل فيئكم عنكم .
(٢) فى د : الأشعر . والمثبت فى ك ، والطبرى .
(٣) فى الكامل : أنا لا نرضى .

حتى هلك ، ولا حاجة لنا فى سيرَةِ عُثْمان بن عفان فى فيئنا وَلا فى أنفسنا ،ولا فى سيرة عمرَ فى فيئنا ،وإن كانت أَهْوَنَ السّيرتَيْنِ علينا ، وقد كان يفعلُ بالناس خَيْرًا .

فقال يزيد بن أَنَس : صدق السائب وبَرّ ، فقال ٱبْنُ مُطيع : نَسِير فيكم بكلّ سيرة أَحبَبْتُم ، ثمّ نزل .

وجاء إياس بن مُضَارب إلى ابْنِ مُطِيع فقال له : إن السائبَ ابن مالك من رءُوس أَصحاب المختار ، فابعث إلى المختار ، فإذا جاءكَ فٱحبسه حتّى يستقيم أمرُ الناس ، فإنّ أمرَه قد ٱستجمع له ، وكأنّه قد وثب بالمِصر .

فبعث ٱبنُ مُطيع إلى المختار زائدةَ بنَ قُدَامة وحُسَين بن علىّ البُرْسُمىّ (١) ، فقالا له : أَجِبِ الأَميرَ ، فعزم على الذهاب ، فقرأ زائدة(٢) : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ...﴾ الآية. فألقَى المختارُ ثيابَه وقال : أَلقُوا علىَّ قطيفةً فإنى(٣) وَعِكْت ، إنّى لأَجِد بَرْدًا شديدا ، ارجعا إلى الأَمير فأَعلِماه حالى ، فعادا إليه فأَعلَماه فتركه .

ووجَّهَ المختارُ إلى أَصْحابه ، فجمعهم حولَه فى الدُّور ، وأراد أن يثب فى المحرّم ؛ فجاء رجلٌ من أَصحابه من شِبَام(٤) ، وشِبَام : حىٌّ

(١) البرسمى : بضم الباء وسكون الراء ، وضم السين المهملة (اللباب) .
(٢) سورة الأنفال ، آية ٣٠
(٣) فى ك : فقد .
(٤) شبام — ككتاب ، وفى الكامل (٣—٣٧٢) : بكسر الشين المعجمة والباء الموحدة .

من همْدان ، وكان شريفا ، وآسمه عبْد الرحمن بن شُرَيح ، فلَقِى سعِيد بن مُنْقِذ الثَّوْرى ، وسِعْر [١] بن أبى سِعْر الحنفى ، والأسود ابن جَرَاد الكِنْدى ، وقُدامة بن مالك الجُشمىّ [٢] ، فقال لهم : إنّ المختار يريد أن يخرج بنا ، ولا نَدْرِى أرسله [٣] ابنُ الحنفيّة أم لا؟ فانهضوا بنا إلى محمد ابْنِ الحنفيَّة نُخْبره بما قدم به علينا المختار ، فإن رخَّص لنا فى اتِّباعه آتَّبعناه ، وإن نَهَانَا عنه آجتنبناه ، فوالله ما ينبغى أن يكونَ شىء من الدنيا آثَرَ [٤] عندنا مِنْ سَلَامَةِ ديننا ، فآستصوبوا رأيَه ، وخرجوا إلى ابن الحنفِيّة ، فلَّما قدموا عليه سألهم عن حالِ الناس ، فأخبرُوه وأعلموه [٥] حالَ المختار ، فقال : والله لوددتُ أن اللهَ انتصر لنا مِنْ عدوّنا بمَنْ شاء من خَلْقِه ، فعادوا.

وكان مسيرُهم قد شقَّ على المختار ، وخاف أن يعودوا بما يَخذُل الشِّيعة عنه ، فلمَّا قدموا الكوفة دخلوا عليه ، فقال : ما وراءكم ؟ فقد فُتنتم وآرتبْتُم ، فقالوا : قد أُمِرْنا بنَصْرِك ، فقال : اللهُ أكبر ، اللهُ أكبر ، اجمَعوا الشِّيعة ، فجُمِع مَنْ كان قريبا مِنه ، فقال لهم : إنَّ نفرًا أحبُّوا أن يَعلموا مِصْداقَ ماجئتُ به ، فرحلوا إلى إمام الهدى [٦] ، فسألوه عما قدمتُ به عليكم ، فنبّأهم أنِّى وزيرُه وظَهيرُه ورسولُه ،

---

(١) سعر — بكسر السين المهملة (الكامل : ٣—٣٧٢) .

(٢) فى ك : الخثعمى . والمثبت فى د ، والكامل ، والطبرى .

(٣) فى الطبرى : أرسله إلينا ...

(٤) فى ك : أسر . والمثبت فى د .

(٥) فى ك : فاعلموه .

(٦) فى الكامل : إلى الإمام المهدى . والمثبت فى ك ، د ، والطبرى .

وأمرَكم بطاعتى وٱتّباعى فيما دعوتُكم إليه مِنْ قتال المحِلِّين (١) ، والطلب بدماء أهل بَيْتِ نبيِّكم .

فقام عبد الرحمن بن شُريح وأخبرهم بحالهم ومسيرهم ، وأنّ ٱبْنَ الحنفيّة أمرهم بمظاهرته (٢) ومؤازرته ، وقال لهم : ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب ، وٱستعدّوا وتأهّبُوا ، وقام جماعة من أصحابه فقالوا نحوًا من كلامه .

فٱجتمعت له الشيعَةُ ، وكان من جملتهم [الشَّعبى] (٣) وأبوه شَراحيل ، فلمّا تهيّأ أبُوه (٤) للخروج قال له بعضُ أصحابه : إن أشرافَ الكوفة مُجمِعون على قِتالك مع ٱبنِ مطيع ، فإن أجابنا إبراهيمُ بنُ الأَشْتَر رجَوْنَا القوّة على عدُوِّنا ؛ فإنّه فتًى رئيس (٥) وابن رجل شريف ، وله عشيرةٌ ذاتُ عِزٍّ وعَدَد . فقال ٱلمختار : فٱلقوه وادعوه ، فخرجوا إليه ومعهم الشَّعبى ، فأعلموه حالَهم ، وسألوه مساعدَتَهم ، فقال : عَلى أنْ تولّونى الأمر ، فقالوا : أنتَ لذلك (٦) أهل ، ولكن ليس إلى ذلك سَبِيل ، هذا المختار قد جاءنا من قِبَل المَهْدِى ، وهو المأمورُ بالقتال ، وقد أُمِرنا بطاعته ، فلم يُجبهم إبراهيم ، فٱنصرَفوا عنه .

وأتوا المختَار ، فسكت ثلاثا ، ثم سار إلى إبراهيم فى بضْعَةَ

---

(١) فى د : المخلين . والمثبت فى ك ، والطبرى .

(٢) فى ك : بمصاهرته — تحريف .

(٣) ساقط فى ك .

(٤) فى د : أمره .

(٥) فى الطبرى : بئيس .

(٦) فى ك : أنت لذاك .

عشر من أصحابه ، والشعبيُّ وأبوه فيهم ، فدخلوا عليه ، فألقَى إليهم الوَسائد ، فجلسوا عليها ، وجلس المختارُ معه على فِرَاشه ، فقال المختار له : هذا كتابُ المهدىّ إليك ، يسألُك أن تنصرَنا وتؤازِرَنا ، فقرأه ، فإذا هو : « من محمد المهدّى إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلامٌ عليك ، فإنى أحمد الله إليك الّذى لا إله إلّا هو ، أمّا بعد ، فإنى [قد] (١) بعثتُ إليكم وَزِيرى وأمِينى الذى ارتضَيْتُه لنفسى ، وأمرْتُه بقتالِ عَدُوّى ، والطلبِ بدماء أهْلِ بيتى ، فانهض بنفسك وعشيرتك ومَنْ أطاعك ، فإنك إنْ نَصَرْتَنى وأجبْتَ دعوتى كانت لك بذلك عندى فَضِيلة ، ولك أعِنَّةُ الخيل ، وكلُّ جيش غازٍ ، وكلُّ مِصْر ومِنْبَر وثغر ظَهَرْتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلادِ الشام » .

فلمّا فرغ من قراءته تأخّر عن صَدْرِ الفراش ، وأجلس المختار عليه ، وبايَعَه . وصار يختلِفُ إلى المختار كلَّ عشيّة يدبِّرون أمورهم ؛ وأجتمع رأيُهم على الخروج ليلةَ الخميس لأربع عشرةَ ليلةً من شهر ربيع الأوّل ، فلمّا كان تلك اللّيلة ، صلّى إبراهيمُ بن الأشتر بأصحابه المغرِب ، ثم خرج يُرِيدُ المختارَ ، وعليه وعلى أصحابه السلاح ، وكان إياسُ بنُ مُضَارِب قد جاء إلى عَبْد الله بن مُطِيع وهو على شُرْطته ، فقال : إن المختار خارجٌ عليك إحْدَى هاتَيْنِ اللّيلتين ، وقد بعثتُ بابْنِى إلى الكُنَاسَة (٢) ، فلو بعثتَ فى كلّ جَبَّانة (٣) عظيمةٍ

(١) فى د .

(٢) الكناسة : محلة بالكوفة عندها أوقع يوسف بن عمر الثقفى بزيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب (ياقوت) .

(٣) الجبانة : المقبرة والصحراء ، وجمعه الجبابين . (القاموس) .

بالكوفة رجلا من أصحابك فى جماعةٍ من أهل الطاعة لَهَاب المختارُ وأصحابُه الخروجَ عليك ، فبعث ابْنُ مُطيع إلى كلِّ جبّانة مَنْ يحفَظُها من أهل الطاعة ، وأمّر على كل طائفة أميرًا ، وأوصى كلاً منهم ألّا يؤْتَى مِنْ قِبَلِه ، وقال : إذا سمعتَ صوتَ القومِ فوجِّهْ نحوَهم ، وكان خروجُهم إلى الجَبّابين يوم الاثنين .

وخرج إبراهيم بن الأَشْتَر ليلَة الثلاثاء يريد المختار ، وقد بلغه أنَّ الجَبّابين قد مُلِئَتْ رجالا ، وأن إياس بن مُضَارب فى الشُّرْطة قد أحاط بالسُّوق والقَصْر ، فأخذ معه من أصحابِه نَحْوَ مائةِ دارع ، وقد لَبِسُوا عليهم الأَقْبِيَة ، فقال له [أصحابه] (١) : تجنب الطريقَ ، فقال : والله لَأَمُرّنَّ وسَط السُّوق بجَنْب القَصْر ، ولأُرْعِبَنَّ عدوّنا ، ولأُرِيَنَّهم هَوَانَهم علينا ، فسار على باب الفِيل ، فلقيهم إيَاسٌ فى الشُّرَط مُظْهِرِين السّلاح ، فقال : من أنتم ؟ فقال (٢) : أنا إبراهيمُ بنُ الأشتر . فقال إياس : ما هذا الجَمْعُ الّذى معك ؟ وإلى أين تُرِيد ؟ ولستُ بتارِكِكَ حتى آتى بكَ الأمير ، فقال إبراهيم : خلِّ سبيلنَا ؛ قال : لا أفعل ؛ وكان مع إياس رجُلٌ من هَمْدان يقال له أبو قَطَن ، وكان يُكْرِمُه ، وكان صَدِيقا لابن الأشتر ، فقال له ابن الأشتر : ادْنُ منى يا أبا قَطَن ، فدنا منه وهو يَظُنّ أن إبراهيمَ يستشفِعُ به عند إياس ، فلمَّا دَنَا منه أخذ رُمْحًا كان معه فطعنَ به إياسا فى ثغره (٣) ، فصرَعه ، وأمر رجلا مِنْ أصحابه فقطع رَأْسَه ،

---

(١) من د .

(٢) فى د : قال .

(٣) فى الكامل : فى ثغرة نحره .

وتفرّق أصحابُ إياس ، ورجعوا إلى ابْنِ مطيع ، فبعث مكانَه ابنَه راشد بن إياس على الشُّرط ، وأقبل إبراهيم إلى المختار وقال له : إنّا أتّعدْنا للخروج القابلة ، وقدوقع أمْرٌ ، لابد من الخروج الليلة ، وأخبرَه الخبر ، ففرح المختار بقَتْل إياس وقال : هذا أوّل الفتح إن شاء الله .

ثم قال لسعيد بن مُنْقذ : قم فأشْعِل النِّيران وارفعْها ، وسِرْ أنتَ يا عبْد الله بنَ شدّاد فَنَادِ : يا منصور ، أمِتْ ، وأنت يا سفيان بن ليلى ، وأنت يا قُدَامة بنَ مالك : نادِ يالثَارات الحسين ، ثم لَبِس سلاحه .

وكانت الحربُ بين أصحابِه وبين الذين نَدَبَهم ابنُ مُطيع لحِفْظِ الجَبَابِين فى تلك الليلة ، فكان الظفَر لأصْحاب المُخْتَار ، وخرج المختار فى جماعةٍ من أصحابه حتى نزل فى ظهر دَيْر هِنْد فى السبَخة (١) ، وانضمّ إليه ممّن تابَعه ثلاثة آلاف وثمانمائة من اثنى عشر ألفا ، واجتمعوا له قبل الفجر ، فأصبح وقد فرغ من تعبئته ، وصلّى بأصحابه بغَلس .

وقد جَمَعَ ابنُ مُطِيع أهلَ الطاعة إليه ، فبعث شَبَث بن ربْعىّ فى ثلاثة آلاف ، وراشد بنَ إياس فى أربعة آلاف من الشُّرَط ، لقتال المختار ومَنْ معه ، وأردفَهم بالعساكر ، واقتتلوا ؛ فكان الظفَرُ لأصحاب المختار ، وكان الذى صَلِيَ الحربَ ودبر الأمرَ إبراهيمُ بنُ الأشتر . فلمّا رأى ابن مُطيع أمرَ المختار وأصحابَه قد قَوِىَ خرج بنفسه إليهم ، فوقف بالكُنَاسةِ واستخلفَ شَبثَ بنَ ربْعى على القَصْر ، فبرز إبراهيمُ ابنُ الأشتر إلى ابن مُطيع فى أصحابه وحَمَلَ عليه ، فلم يلبث ابن مُطيع

(١) دير هند : بالحيرة . والسبخة : أرض ذات نز وملح (البكرى) .

أن انهزم أصحابُه ، يَركَبُ بعضُهم بعضا على أفواه السِّكَك ، وابنُ الأشتر فى آثارهم ، حتى بلغ المسجدَ ، وحصَر ابنَ مُطيع ومَنْ معه من أشراف الكوفة فى القصر ثلاثا ، فقال شَبَث لابن مطيع : انظُر لنفسك ولِمَنْ معك ؛ فقال : أشِيرُوا علىّ ؛ فقال شَبَث : الرأىُ أنْ تأخذَ لنفسك ولنا أمَانًا ، وتخرج ولا تهلك نَفْسَك ومَنْ معك ؛ فقال ابنُ مطيع : إنى لأكرهُ أنْ آخذ منه أمانا ، والأمورُ لأمير المؤمنين مستقيمةٌ بالحجاز والبَصرة ؛ قال : فتخرج ولا تُشعِر بكَ أحدًا ، فتنزل بالكوفَةِ عند مَنْ تَثِق إليه حتى تلحق بصاحبك. فأقام حتى أمسى ، وخرج وأتى دار أبى موسى ، وترك[1] القَصْر ، ففتح أصحابُه الباب ، وقالوا : يا ابن الأشتر ، آمِنون نحن ؟ فقال : أنتم آمنون ؛ فخرجوا ، فبايعَوا المختار . ودخل [المختار][2] القصر فبات به ، وأصبح أشرافُ الناسِ فى المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختارُ فصعِد المنبَر وخطب الناسَ ، ثم نزل .

ودخل أشرافُ الكوفةِ فبايعوه على كتابِ اللهِ وسنَّة رسولهِ صلى الله عليه وسلَّم ، والطلبِ بدماء[3] أهلِ البيت وجهادِ المُحلِّين[4] والدَّفْعِ عن الضُّعفاء ، وقتالِ مَن قاتَلَنا ، وسلمِ من سالَمنا .

وكان ممن بايعه المنذرُ بن حسانَ الضَّبى وابنه حسان ، فلما خرجا من عنده استقبلهما سعِيد بن مُنقذ الثورى فى جماعة

(١) فى د : ونزل .
(٢) من الكامل .
(٣) فى ا : بدم .
(٤) فى د : المخلين — بالخاء المعجمة .

من الشِّيعة ، فقالوا : هذان والله رءوس الجبارين ، فقتلوهما ، ونهاهم سعيد عن قَتْلِهما إلَّا بأَمْرِ المختار ، فلم ينتهوا .

فلما سمع المختارُ ذلك كرهه ، وأقبل يُمنِّى الناس ويود [(١)] الأشراف ، ويُحسن السِّيرة ، فبلغه أنَ ابن مُطِيع فى دارِ أبى موسى ، فسكت ، فلما أمسى بعث إليه بمائة ألفِ درهم ، وقال : تجهزْ بهذه ، فقد علمتُ مكانَك ، وأنَّك لم يمنعْك من الخروج إلا عدمُ النَّفقة .

* * *

ووجد المختار فى بيت المال [بالكوفة] [(٢)] تسعة آلاف ألف وخمسمائة ألف ، فأعطى لكل رجل خمسمائة درهم ، وأعطى لستة آلاف من أصحابه أتَوه بعد ماأحاط بالقصر [(٣)] ، لكل منهم مائتى درهم ، واستقبل الناس بخير . واستعمل على شرطته عبد الله بنَ كامل الشَّاكِرِى ، وعلى حرسِه كَيْسانَ .

[والله أعلم بالصواب] [(٤)] .

---

(١) فى ك: ويرد . وفى الطبرى (٧ – ٢٩٠) : ويستجر مودتهم ومودة الأشراف ، وفى الكامل (٣–٣٦٣) : ويستجر مودة الأشراف .

(٢) من الطبرى.

(٣) فى ا : أتوه بعد إحاطة . والمثبت فى د .

(٤) من ك .

ذكر عمال المختار بن أبى عبيد

كانت أوّل راية عقَدها المختارُ لعبْدِ الله بن الحارث أخى الأشتر على إرْمينية ، وبعث محمد بنَ عُمير بن عُطارد على أذْرَبِيجان ، وبعث عبد الرحمن بن سعِيد بن قيس على المَوْصِل ، وبعث إسحاق ابن مسعود على المدائن ، وأرض جُوخَى[1] ، وبعث قدامةَ بنَ أبى عيسى ابن ربيعة النَّصْرى حليف ثقيف على بِهْقُباذ[2] الأعلى ، وبعث محمد بن كعب بن قَرَظة على بِهْقُباذ[2] الأوسط ، وبعث سعد ابنَ حُذَيفة بن اليمان على حُلْوان ، وأمره بقتال الأكراد ، وإقامة الطُّرُق . وكان ابن الزبير قد استعمل على الموْصل محمد بنَ الأشعث بن قيس ، فلما بعث المختار عبدَ الرحمن إليها ، سار محمد عنها إلى تكْريت[3] ، ينتظر ما يكون من الناس ، ثم سار إلى المختار فبايعه ، فلما فرغ من ذلك أقبل يجلس للناس ويقضِى بينهم ، ثم قال : إن لى فيما أحاول شغْلا عن القَضاء ، ثم أقام شريْحا يَقْضِى بين الناس ، فتمارض ، فجعل المختار مكانه عبد الله بن عُتْبة بنِ مسعود ، ثم مرِض ، فجعل مكانَه عبد الله بنَ مالك الطائى .

---

(١) جوخى : نهر عليه كورة واسعة فى سواد بغداد (ياقوت) .

(٢) بالكسر ثم السكون وضم القاف وباء موحدة وألف وذال معجمة : اسم لثلاث كور من أعمال سقى الفرات (المراصد) .

(٣) تكريب — بفتح التاء ، وللعامة تكسرها : بلد مشهور بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب . (المراصد ، وياقوت) .

ذكر قتل المختار قتلة الحسين

وخروج أهل الكوفة على المختار وقتالهم إياه ووقعة السبيع[١]

كان سبَب ذلك أن مرْوان بنَ الحكم لما ٱستتب له الأمر بعث عُبيد ٱلله بنَ زياد إلى العراق ، وقد ذكرْنا ما كان من أمره مع التَّوابين [٢] . ثم توفى مرْوان بن الحكَم وولَّى ٱبنه عبد الملك ، فأقرَّ ٱبْنَ زياد على ولايته ، وأمره بالجدّ ، فأقبل إلى الموْصل ، فكتب عبد الرحمن بن سعِيد عاملُ المختار إليه يخبره بدخول ابن زياد أرضَ المَوْصِل ، وأنَّه قد تنحّى له عنها إلى تَكْرِيت ، فندبَ المختارُ يزيد بن أنَس الأسدى ، فٱنتَخب ثلاثةَ آلاف ، وسار بهم نحوَ الموصل ، وكتب المختار إلى عبد الرحمن : أنْ خَلِّ بين يزيد وبين البلاد ، فسار يزيد حتى بلغ أرضَ الموصل ، فنزل بنَات تَلَّى[٣] ، وبلغ خبرُه ٱبنَ زياد ، فقال : لأبعثنَّ إلى كلّ ألفٍ ألفين ،فأرسل ربيعةَ بنَ المخارق الغنوىَّ فى ثلاثة آلاف ، وعبْدَ الله بن جُمْلة [٤] الخَثْعمى فى ثلاثة آلاف ، فسار ربيعة قَبْل عبد ٱلله بيوم ، فنزلَ بيزيد بن أنس بنات تلَّى [٣] فخرج ، وقد ٱشتدّ به المرَض ، وعَبَّأ أصحابه ،

---

(١) السبيع : بفتح أوله وكسر ثانية ثم ياء وعين مهملة : بالكوفة (المراصد) .

(٢) فى الطبرى (٦—٣٨) : ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردة .

(٣) فى ك : فنزل ببابل . وفى د : ببابلى . وفى الكامل : بباقلى، والمثبت فى الطبرى ، ومعجم ما استعجم .

(٤) هذا فى د ، والكامل ، وفى الطبرى بالحاء المهملة .

وقال : إن هلكت فأميرُكم ورْقاء بن عازب الأسدى ، فإنْ هلك فأميرُكم عبْدُ الله بن ضَمْرة العُذرى ، فإن هلك فأميرُكم سِعْر الْحَنَفى. ثم نزل فوُضع على سرير ، وقال : قاتِلوا عن أميركم إن شئتم أو فِرّوا عنه .

وٱقتتل الْقوْم ، فٱنهزم أصحابُ ٱبن زياد ، وقُتل ربيعة بن المخارق ، قتله عبْدُ ٱلله بن ورقَاء ، فسار المنهزمون ساعةً ، ولقيهم عبدُ ٱلله ٱبن جُمْلة فردهم معه ، فباتوا ليلتَهم ببنَات تلَّى يتحارسون ، فلمّا أصبحوا خرجوا إلى القتال فٱقتتلوا قتالًا شديدا ، وذلك فى يوم الأضحى سنة ست وستِّين ، فانهزم أهلُ الشام ، ونزل ٱبن جملة فى جماعةٍ ، فقاتل حتى قتِل ، وحوَى أهْلُ الكوفة عسكرهم ، وقتلوا فيهم قَتْلا ذَريعا ، وأسرُوا ثلاثمائة ، فأمر يزيدُ بقتلهم ، وهوبآخر رمق ، فقُتلوا ، ثم مات آخِر النهار ، فقال ورْقَاء بن عازب لأصحابه : إنه بلغنى أنَّ عُبيد الله بنَ زياد قد أقبل إليكم فى ثمانين ألفا ، وأشار عليهم بالرجوع إلى المختار ، فصوَّبوا رأيَه ، ورجعوا ، فبلغ ذلك أهل الكوفة ، فأرجفوا بالمختار ، وقالوا : إن يزيد قتِل ولم يَمُتْ ، فنَدب إبراهيم بنَ الأشتر فى سبعة آلاف ، وقال له : سِرْ فإذا لقيت جيْشَ يزيد فأنت الأميرُ عليهم ، فٱرددهم معك حتى تَلقَى ابن زياد فناجزْه .

فسار إبراهيم لذلك ، فٱجتمع أشرافُ الكوفة على شَبَث بنِ رِبْعى وقالوا : والله ، إن ٱلمختار تأمّر بغير رضًا منّا ، وقد أذْنى موالينا (١) ، فحملَهم على الدوابّ ، وأعطاهُم فَيْئَنا .

---

(١) فى الكامل : وقد أزرى بمواليه ، والمثبت فى ك ، د ، والطبرى .

فقال : دعُونى حتّى ألقاه ، فذهب إليه فكلمه ، فلم يدعْ شيئًا أنكَره إلّا ذكره له ، والمختارُ يقول فى كلّ خَصْلة : أنا أُرضيهم فى هذه وآتى كل ما أحبوه ، فلما ذكر له [١] المَوالى ومشاركَتَهم فى الفىء قال : إنْ أنا تَركْتُ لكم مواليكم وجعلتُ فيئكم لكم ، أتقاتلون معى بنى أُمية وآبنَ الزبير وتعطونى على الوفاء عهد الله وميثاقَه وما أطمئن إليه من الأيمان . فقال شَبث : حتى أخرج إلى أصحابى فأذكر ذلك لهم .

فخرج إليهم ولم يعدْ إلى المختار ، وآجتمع رأيهُم على قتاله ، فآجتمع شَبث ،ومحمد بن الأشعث ،وعبدالرحمن بن سعيد [٢] بنِ قيس ، وشمر بن ذى الجوْشَن ، ودخلوا على كَعْب بن أَبِى [٣] كعب الخَثْعمى ، فكلّموه فى ذلك ، فأجابهم إليه ، فخرجوا مِنْ عنده ، ودخلوا على على عبد الرحمن بن مِخنَف الأزْدى ، فدعوْه إلى ذلك ، فقال : إن أطعْتُمونِى لم تخرجوا ، فقالوا : لم ؟ قال : إنى أخاف [٤] أن تتفرقوا وتختلفوا ومع الرجل شُجْعانُكم وفُرْسانُكم مثل فلان وفلان ، ثم معه عَبيدكم ومواليكم ، وكلمةُ هؤلاء واحدةٌ ، ومواليكم أشدُّ حنَقًا عليكم من عدوكم ، فهم يقاتلونكم بشجاعة العربِ وعداوة العجَم ، وإن آنتظرتموه قليلا كُفِيتموه بغيركم ، ولا تجعلوا بأسكم بينكم ؛

(١) فى ك : لهم .
(٢) فى ك : سعد . والمثبت فى الطبرى ، والكامل .
(٣) فى ك : كعب بن أبى بن كعب . والمثبت فى د ، والكامل ، والطبرى .
(٤) فى د : لأخاف .

فقالوا : ننشدك الله ألاَّ تخالفنا وتفسد علينا رأينا ، وما أجمعنا عليه . فقال : إنَّما أنا رجُلٌ منكم ، فإذا شئتُم فاخرجوا ؛ فوثَبوا بالمختار بعد مسِير ابنِ الأشتر ، وخرج كلّ رئيس بجبَّانة ، فأرسل المختارُ إلى ابْنِ الأشتر يأمره بُسرْعةِ العوْد إليه ، وبعث إليهم وهو يلاطفهم ويقول : إنى صانعٌ ما أحببْتُم ، وهو يريد بذلك مداهنَتَهم حتى يقدم إبراهيم ابن الأشتر ، فوصل الرسولُ إليه وهو بسَاباط [1] ، فرجع لوقته ، وسار حتى أتى الكوفة ومعه أهل القوَّة من أصحابه ؛ واجتمع أهل اليمن بجبانة السَّبِيع ،فلما حضرت الصلاةُ كَرِه كلُّ رأس من أهل اليمن أن يتقدمه صاحبُه ، فقال ابنُ مِخْنف : هذا أوّل الاختلاف ، قدموا الرضىَّ منكم سيّد القُراء رفاعةَ بن شداد البجلى ؛ فلم يزل يصلِّى بهم حتى كانت الوقعة .

ثم نزل المختار فعبَّأ أصحابه وأمر ابْنَ الأشتر فسار إلى مُضَر وعليهم شَبثُ بن ربعى ، ومحمد بن عُمير ، وهُمْ بالكُنَاسة ،وسار المختار نحو أهل اليمن بجبَّانة السَّبِيع ، فاقتتلوا أشدَّ قتال ، ثم كانت الغَلَبة للمختار وأصحابه ، وانهزم أهلُ اليمن وأخذ من دُور الوادعِيين [2] خمسمائة أسير ، فأتى بهم إلى المختار ، فعرضهم ، فقتل منهم منْ شهد مقْتَل الحسين ، فكانوا مائتين وثمانية وأربعين .

ونادى منادِى المختار : مَنْ أغلق بابه فهو آمِن إلَّا مَنْ شَرك فى دِمَاء آل محمد صلَّى الله عليه وسلَّم ، وكان عُمر [3] بن الحجاج الزَّبِيدى

(١) ساباط : بليدة بما وراء النهر (المراصد) .

(٢) وادعة : بطن من همدان .

(٣) فى الطبرى : عمرو ، والمثبت فى ك ، د .

ممن شهد قَتْل الحسين ، فركب راحلتَه وأخذ طَريقَ الْوَاقِصَة (١) ، فعدم (٢) فقيل : أدرَكه أصحابُ المختار ، وقد سقط من شدّة العطش ، فذبحوه .

وبعثَ المختار غلاما له يُدعى زِرْبيا (٣) فى طلب شَمِر ابن ذى الجوْشن ، فأدركه فقتله شَمِر ، وسار حتى نزل قريةً يقال لهاالكَلْتانِيَّة (٤) ، فأخذ منها عِلْجا ، فضربه ، وقال : امْضِ بكتابى هذا إلى مُصْعب بن الزبير ؛ فمضى العِلْجُ حتى دخل قريةً فيها أبو عمْرة صاحبُ المختار ، فلقى ذلك العِلجُ عِلجًا آخر من تلك القرية ، فشكا إليه مالقى من شمر ، فبينما هو يكلِّمه إذمر رجلٌ من من أصحاب أبى عمْرة اسمه عبد الرحمن بن أبى الكنود (٥) ، فرأى الكتاب ، وعُنْوانُه لمصعب من شمر ، فسألوا العِلْج عنه ، فأخبرهم بمكانه ، فإذا هو منهم على مسيرة ثلاثةِ فراسخَ ، فساروا إليه وأدركوه ، فهرب أصحابه ، وأعجلَه القوم عن لُبْسِ سِلَاحه ، فقام وقد اتزر ببرد ، وكان أبرص ، فظهر بياضُ برصِه ، فطاعنهم بالرُّمْح ثم ألقاه ، وأخذ السيف فقاتَل به حتى قُتل ، والَّذِى قتله عبدُ الرحمن (٥) ابنُ أبى الكَنود ، وألقَى جيْفَته للكلاب .

(١) فى الطبرى : فأخذ من طريق شراف وواقصة ، وشراف وواقصة : من أعمال المدينة (البكرى) .

(٢) فى الطبرى : فلم ير حتى الساعة ، وفى الكامل : فلم ير له خبر حتى الساعة .

(٣) فى الكامل : زربى . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٤) الكلتانية — بالفتح ثم السكون ، والتاء مثناة من فوقها و بعد الألف نون مكسورة وياء مشددة : قرية بين السوس والصيمرة ، وبها قتل شمربن ذى الجوشن (ياقوت) . وفى ك، د : الكلبانية — بالباء — تصحيف .

(٥) فى الطبرى : عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود .

قال : وأقبل المختار إلى القصر من جبّانة السَّبِيع ومعه سُراقة ابنُ مرداس البارق أسيرًا ، فناداه سُراقة[١] :

امننْ على اليوم ياخير معـ ـدْ وخير من حلّ[٢] بِشحْرٍ والجنَدْ
وخير من لَبَّى وحيَّى وسجدْ

فأمر به إلى السجن ، ثم أحضره من الغد ، فأقبل وهو يقول[١] :

ألا أبلغْ أبا إسْحاق أنَّـا نَزَونا نزوةً كانَتْ علينا
خرجْنَا نَرى الضُّعفَاء شيئا وكان خروجُنا بطَرًا وحيْنا[٣]
لَقِينا منهمُ ضَرْبًا طِلحْفًا[٤] وطعْنًا صائبا حتى انثنَيْنا
نُصِرْت على عدوِّك كلَّ يـوم بكلِّ كتيبةٍ تَنْعى[٥] حُسينا
كنَصْر محمّدٍ فى يومِ بَـدْرٍ ويومِ الشِّعْب إذ وافى[٦] حُنَينا
فأَسجِحْ إذ ملَكْت فلو ملَكْنَا لجُرْنا فى الحكومة واعتدينا
تَقَبَّلْ[٧] توبةً منِّى فإنى سأَشكُرُ إذ جعلْتَ النقدديْنا

فلمّا انتهى إلى المختار قال : أصلح الله الأمير ، أحْلفُ بالله الّذى لا إلٰه إلاَّ هو لقد رأيتُ الملائكةَ تقاتِلُ معك على الخيولِ البُلْق بين السماء والأرض ؛ فقال له المختار : اصعد على المنبر فأَعْلِم الناس ، فصعِد ، فأخبرهم بذلك ، ثم نزل فخلا به فقال له : إنى قد علمْتُ

(١) والطبرى : ٦–٥٤ .
(٢) فى الكامل : بتجر – تحريف .
(٣) الحين : الهلاك .
(٤) طلحفا : شد يدا وجيعا .
(٥) فى ك : تبغى .
(٦) فى الطبرى ، والكامل : لاقى .
(٧) فى د : فأقبل .

أنك لم ترشيئا ، وإنما أردت ما قد عرفتُ[١] ، فاذهب [عنى][٢] حيثُ شئتَ ، لا تفسدْ علىّ أصحابى .

فخرج إلى البصْرَة ، فنزل عند مُصعب وقال[٣] :

ألا أبلغْ أبا إسحاق أنى رأيتُ الخيلَ[٤] بُلقاً مُصْمتاتِ
كفَرتُ بوحْيِكم وجعلْتُ نَذْرًا علىَّ قتالَكمْ حتَّى المماتِ
أرى عينىَّ مالمْ تُبصِراه كِلاَنَا عالِمٌ بالتُّرَّهاتِ[٥]

وقُتل يومئذ عبد الرحمن بنُ سعيد بنِ قيس الهمْدانى ، وادعى قتلَه سِعْر بن أبى سِعْر ، وأبو الزُّبير الشَّبامىّ ، وشِبام مِنْ همْدان ، وانجلت الوقعةُ عن سبعمائة وثمانين قتيلا من قومه ، وكانت الوقعة لستٍّ ليال بقِين من ذى الحجة سنةَ ست وستِّين .

وخرج أشرافُ الناسِ فلحِقوا بالبصْرة ، وتجرد المختارُ لقَتْل قتَلَةِ الحسين ، وقال : مامِنْ دِينِنا أن نَتْرُكَ قتلةَ الحسين أحياء ، بئس ناصرُ آل محمد أنَا إذًا [فى الدنيا ، أنا إذًا][٦] الكذَّاب كما سمَّوْنى ، وإنى أستعين بالله تعالى عليهم ، فسمُّوهم لى ثم تتبَّعوهم حتى تقتلوهم ، فإنِّى لا يسوغ لى الطَّعام والشرابُ حتى أُطهِّرَ الأرض منهم ، فدل على عبْد الله بن أُسيد الجُهنىّ ، ومالك بن النُّسير[٧]

(١) فى الطبرى ، والكامل : ماقد عرفت ألا أقتلك .
(٢) من الطبرى ، والكامل .
(٣) الطبرى : ٦–٥٤ .
(٤) فى الطبرى ، والكامل : رأيت البلق دهما .
(٥) الترهات : الأباطيل .
(٦) ساقط فى ك .
(٧) فى الكامل : بشير .

البدىّ ، وحمل بن مالك المحاربى ، فبعث المختار إليهم ، فأحضرهم من القادسيّة ، فلمّا رآهم قال : يا أعداء الله ورسوله ، أين الحسينُ ابنُ علىّ ؟ أدُّوا إلىّ الحسينَ . قتلتم ابنَ من أمِرتم بالصّلاة عليهم . فقالوا : رحمك الله ، بُعثنا كارِهين ، فامْنُنْ علينا واستَبْقِنا ، فقال : هلاّ مننتم على ابْنِ بنتِ نبيكم واستبقَيْتموه وسقَيْتُموه ؟ فأمر بمالك ابنِ النُّسيْر البدىّ فقطع يديه ورجليه وتركه يضْطرِب حتى مات ، وقتل الآخرين ، وأحضر زياد بن مالك الضُّبعىّ ، وعمران بن خالد العنزِى[1] ، وعبد الرحمن بن أبى خُشْكارة البجلىّ ، وعبد الله بن قَيْس الخَوْلانى ، فلما رآهم قال : يا قَتَلَةَ الصالحين ، وقتلَة سيّدِ شبابِ أهْل الجنّة ، قد أقاد الله منكم اليوم ، لقد جاءكم الورْس ، بيومٍ نَحْس ، وكانوا نَهَبُوا من الورْس الّذِى كان مع الحُسيْن رضى الله عنه ، ثم أمر بهم فقُتِلوا .

وقَتل عبد الله وعبد الرحمن ابنى صلحْت[2] ، وعبدالله بن وُهيب[3] الهمْدانى ، وأحضر عثمانَ بنَ خالد بن أَسِيد[4] الدُّهْمانى الجُهَنى ، وأبا أسماء بشر بن سوْط[5] القابضى ، وكانا قد اشتركا فى قتل عبد الرحمن بن عقِيل وفى سلَبِه ، فضرب أعناقَهما وأحرقا بالنار .

وأرسل إلى خَولىّ بن يزيد الأَصْبحىّ وهو صاحب رأسِ الحسين

---

(١) فى الكامل : القشيرى ، وفى ك : العنبرى . والمثبت فى د .

(٢) فى الطبرى : صلخب ، والمثبت فى ك ، د ، وفى الكامل : صلحب .

(٣) فى الطبرى : وهب . والمثبت فى ك ، د .

(٤) فى الطبرى : أسير ، والمثبت فى ك ، د ، والكامل .

(٥) فى د : سميط — بالسين ، وفى الكامل : بشر بن شميط — بالشين — القابضى . والمثبت فى الطبرى أيضا (٦—٢٩) .

فاختبأ فى مخرجه ، فدخل أصحابُ المختار يطلبونه ، فخرجت امرأتُه ، وهى العيُوف بنت مالك ، وكانت تُعادِيه منذ جاءها[١] برأسِ الحسين ، فقالت : ماتريدون ؟ فقالوا لها : أين زَوْجُكِ ؟ قالت : لا أدرى ، وأشارت بيدها إلى المخرَج ، فدخلوا ، فوجدوه وعلى رأسه قَوْصرَّة[٢] ، فأخرجوه وقتلوه إلى جانب أهلِهِ ، وحرقُوه بالنار .

وقُتل عمرُ[٣] بنُ سعد بن أبى وقَّاص ، وكان الَّذى تولَّى قتلَه أبو عمْرة ، وأحضر رأسه عند المختار ، وعنده ابنُه حفْصُ ابنُ عمر ، فقال له المختار : أتعرف هذا ؟ قال : نعم ، ولا خَيْرَ فى العيش بعده ، فأمربه فقُتل ، وقال : هذا بحُسين ، وهذا بعلىّ ابن حسين ، ولا سواءَ[٤] ، والله لو قتلْتُ به ثلاثةَ أرباع قريش ما وفَوا أنمَلة من أنامله .

وأرسل المختارُ إلى حكيم بنِ طُفَيل الطائى ـ وكان أصاب سلَب العباس بنِ على ؛ ورمَى الحسينَ بسهم ، وكان يقول : تعلَّق سهْمِى بسِرْبالِهِ وماضَرّه ، فأتاه أصحابُ المختار فأخذوه ، وذهب أهلُه فتشفَّعوا بعدِىّ بن حاتم ، فكلمهم عدىٌّ فيه ، فقالوا : ذلك إلى المختار ، فمضى عدىّ إلى المختار يشفَعُ فيه ، وكان قد شفَّعه فى نَفَر من قومه أصابهم يوم جبَّانَة السَّبِيع ، فقالت الشِّيعة : إنا نخاف أن يشفِّعه فيه ، فقتلوه رمْيًا بالسِّهام كما رمى الحُسيْن حتى صار كالقُنْفُذ ،

(١) فى ك : جاء .

(٢) القوصرة : وعاء للتمر (القاموس) .

(٣) والعقد : ٤ـ٤٠٥ .

(٤) يريد : لايستويان .

ودخل عَدىٌّ بن حاتم على المختار ، فأجلسه معه ، فشفَع فيه ، وقال : إنه مكذوب عليه ، قال : إذًا ندَعه لك ، فدخل ٱبْنُ كامل فأخبر المختار بقَتْله .

وبعث المختارُ إلى مُرّةَ بن مُنْقِذ ، وهو قاتِلُ على بن الحسين ، وكان شجاعًا ، فأحاطوا بداره ، فخرج إليهم على فرسه وبيده رمحُه ، فطاعنَهم ، فضُرب على يده ، فهرب فنجا ، ولحق بمُصْعب بن الزبير ، وشلّت يدُه بعد ذلك .

وبعث المختار إلى زيد بنِ رُقَاد الجَنْبِى (١) ، وهو قاتِلُ عبْد الله ابن مُسْلم بن عقيل ، فخرج إليهم بالسيف ، فقال ٱبْنُ كامل : لا تطعنوه [برمح] (٢) ، ولا تضربوه بسيف ، ولكن ٱرموه بالنَّبل والحجارة ، ففعلوا ذلك به ، فسقط ، فأحرقوه حيا .

وطلب المختارُ سِنانَ بنَ أَنَس الَّذى كان يدَّعى قَتْل الحُسَيْن ، فهرب إلى البصْرة ، فهدم داره .

وطلب عبْد الله بنَ عُقْبة الغَنَوىّ فوجده قد هرب إلى الجزيرة ، فهدم داره .

وطلب رجلا من خَثْعم ٱسمه عبْد الله بن عُرْوَة (٣) فهرب ولحق بمصعب ، فهدم داره .

وطلب عمْرو بن صُبيْح الصُّدائى ، وكان يقول : لقد طعنْت

(١) فى ك : الحسينى ، والمثبت فى د ، والطبرى ، والكامل .
(٢) من الطبرى .
(٣) فى ك : عزرة ، والمثبت فى د ، والكامل ، والطبرى .

فيهم وجرحت وما قتلتُ ، فأُحضر إلى المختار ، فأمر به فطُعن بالرماح حتى مات .

وأرسل إلى محمد بن الأشعث وهو فى قريةٍ له إلى جنبِ القادسيّة ، فهرب إلى مُصْعب فهدم المختار داره ، وبنى بِلَبنها وطِينها دار حُجْر ابن عدى الكندى ، وكان زياد قد هدمها .

وكان الذى هيّج المختار على قَتْل قَتَلة الحسين أنّ يزيد بن شراحيل الأنصارى أتى محمد ابن الحنفية فسلّم عليه ، وجرى الحديثُ إلى أن تَذاكَروا أمْرَ المختار ، فقال ابن الحنفية : إنه يزعم أنه لنا شِيْعة ، وقَتَلَةُ الحسين عنده على الكراسى يخدثونه[1] ، فلما عاد يزيد أخبر المختار بذلك ، فقتل عُمر بن سَعْد ، وبعث برأسه ورأس ابْنِه إلى ابن الحنفية ، وكتب إليه يُعلِمه أنه قتل من قَدَر عليه ، وأنه فى طَلَبِ الباقين ممّن حضر قَتْل الحسين ، [رضى الله عنه][2] .

(١) فى ك : يخدمونه .
(٢) ساقط فى د .

ذكر بيعة المثنى العبدى للمختار بالبصرة

وإخراجه منها ولحاقه بالمختار بالكوفة

وفى سنة ستّ وستين دعا المثنّى بن مُخرِّبَة[١] العبْدِىّ بالبصْرَة إلى بَيْعة المختار ، وكان قد بايع المختار بعد مقتل سليمان بن صُرَد ، فسيّره المختارُ إلى البَصْرَة يَدْعُو بها إليه ، ففعل ، فأجابه رجالٌ من قومه وغيرهم .

ثم أتى مدينة الرِّزْق[٢] فعَسكر عندها ، فوجَّه إليهم[٣] الحارثُ ابنُ أبى ربيعة المعروف بالقُبَاع[٤] ، وهو أميرُ البَصْرة ، عبَّادَ بن حُصين ، وهو على شرْطته ، وقيس بنَ الهيْثَم فى الشرط والمقاتلة ، فخرجوا إلى السَّبَخة ، ولزم الناسُ بيوتَهم ، فلم يخرج أحد ، وأقبل عبّاد فيمن معه فتواقف هو والمثنّى وأنشبوا[٥] القِتَال ، فانهزم المثنّى ، وأتى قومَه عبد القيس ، وكف عنه عبّاد ، فأرسل القُبَاع عسكرًا إلى عبْد القَيْس ليأتوه بالمثنى ومن معه ، فلما رأى زيادُ بن عمرو العتَكى ذلك أقبل إلى القُبَاع فقال : لتردّنَّ خيلَك عن إخواننا أو لنقاتلنَّهم ، فأرسل القباعُ الأحنفَ بن قيس ، وعمر بن عبد الرحمن المخزومى ليُصلحا بين الناس ، فأصلح الأحنف الأمر على أن يخرج المثنى وأصحابُه عنهم ، فأجابوه إلى ذلك وأخرجوهم عنهم ، فسار المثنىّ إلى الكوفة فى نَفَرٍ يسيرٍ من أصحابه .

---

(١) بضم الميم وفتح الخاء وتشديد الراء وكسرها ، ثم باء مفتوحة (الكامل : ٣-٣٧٢) .

(٢) الرزق - بكسر الراء وسكون الزاى . كانت إحدى مسالح العجم بالبصرة قبل أن يختطها المسلمون (المراصد) .

(٣) فى ك : إليه .

(٤) فى القاموس : كغراب : لقب الحارث بن عبدالله والى البصرة .

(٥) فى ك : و نشب .

ذكر مخادعة المختار ومكره بعبد الله بن الزبير

وظهور ذلك له

قال : لمَّا أخرج المختارُ ابنَ مُطيع عامل ابن الزبير من الكوفة سار إلى البصْرةِ وكرِه أن يأتى ابن الزبير مهزوما ، فلما استجمع للمختار أمرُ الكوفة ، أخذ يخادِعُ ابْنَ الزبير ، فكتب إليه : « قد عرفتَ مُنَاصَحِتِى إياك ، وجَهدى على أهْلِ عداوتك ، وما كنتَ أعطيتَنى إنْ أنا فعلتُ ذلك ، فلما وفيتُ لك [وقضيتُ الذى كان لك علىَّ خِسْتَ بى و] (١) لم تَفِ بما عاهدْتَنى عليه ، فإن ترِد مُراجعتى ومناصحتى ، فعلْتُ ، والسلام » .

وإنما قصد المختار بذلك أن يكفَّ ابْن الزبير عنه ليتمّ أمره ، ولم تعلم الشيعة بذلك ، فأراد ابن الزبير أنْ يَعْلَمَ حقيقةَ ذلك ، فدعا عمر بنَ عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومىّ فولَّاه الكوفة ، وقال : إنَّ المختارَ سامِعٌ مطيع ، فتجهَّز عمرُ وسار نحو الكوفة ، وأتى الخبر المُختار ، فدعا زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين ألف درهم وقال له : هذه ضِعْفُ ما أنفق عُمر فى طريقه إلينا ، وأمره أنْ يأخذَ معه خمسمائة فارس ، ويسير حتَّى يَلْقَاه بالطريق فيعطيَه النفقةَ ويأمره بالعوْد ، فإنْ فعل وإلَّا فيرِيه الخيْلَ ، فأخذ زائدةُ المال والخيل وسار حتى لَقِى عُمر ، فأعطاه المال ، وأمره بالانصراف ، فقال : إن أمير المؤمنين قد ولا نى الكوفة ، ولابد من إتيانها ، فدعا

---

(١) زيادة من الطبرى (٦-٧١) .

زائدة الخيل ، وكان قد أكْمنَها[١] ؛ فلما رآها عمَر قد أقبلتْ أخذ المال وسار نحو البصْرة .

ثم إن عبْدالملك بن مروان بعث عبدَ الملك بن الحارث بن الحكم ابن أبى العاص إلى وادى القرى ، وكان المختار قد وادع ابنَ الزبير ليكف عنه ويتفرّغ لأهل الشام ، فكتب المختار لابن الزبير : بلغنى أن ابن مروان قد بعث إليك جيشا ، فإن أحببت أمددتك بمدد .

فكتب إليه ابن الزبير : « إن كنتَ على طاعتى فبايع لى الناس قِبلك ، وعجِّل بإنفاذ الجيش ومُرْهم فليسيروا إلى منْ بوادِى القرى من جُنْد ابن مروان فليقاتِلوهم ، والسلام » .

فدعا المختار شرَحْبيل بن ورْس الهَمْدانى . فسيّره فى ثلاثة آلاف أكْثَرُهم من الموالى ، وليس فيهم إلاّ سبعمائة من العرب ، وقال له : سرْ حتى تدخل المدينة ،فإذا دخلْتَها فاكتب إلىّ بذلك حتى يأْتيَك أمرى ، وهو يريد إذا دخل الجيشُ المدينة أنْ يبْعَثَ عليهم أميرًا لمحاصرة ابن الزبير بمكة ، وخَشِى ابن الزبير أنَّ المختار إنما يكيده . فبعث من مكّة [إلى المدينة][٢] عباسَ بن سهل بن سَعْد فى ألفين ، وأمره أن يستَنْفِر العرب ، وقال له : إن رأيت القومَ فى طاعتى وإلّا فكايِدْهُم حتى تهلِكهم . فأقبل عباس حتى لقى ابن ورْس بالرقيم[٣] وقد عبّأ أصحابَه ، وأتى عباس وقد تقطع أصحابُه ، فرأى ابْن ورْس على الماء فى تَعْبِئته فدنَا وسلّم عليهم ، ثم قال لابن ورْس سِرًّا : ألستم فى طاعة ابن الزبير؟ قال : بلى . قال : فسِرْ بنا إلى عدوه

(١) فى ك : كمنها .
(٢) زيادة من الطبرى .
(٣) فى ك : بالرضم ، والمثبت فى د ، والطبرى ، والكامل .

الّذى بوادِى[١] القرى ، فقال : إنما أُمِرْتُ أنْ آتِىَ المدينة وأكتب إلى صاحبى ، فيأْمرنى بأَمره ، فقال عباس : رأْيُك أفضل ، وفَطِن لما يريد ، وقال : أما أنا فسائر إلى وادِى القرى ، ونزل عباس أيضا ، وبعث إلى ٱبن ورْس بجزائِر[٢] وغَنَم ، وكانوا قدماتوا جوعا ، فذبحوا وٱشتغلوا بها ، واختلطوا على الماء ، وجمع عبّاس مِنْ شجعان أصحابِه نحوَ ألف رجل ، وأقبل إلى فسْطاط ابن وَرْس ، فلما رآهم نادَى فى أصحابه ، فلم يجتمع إليه مائة رجل ، حتى انتهى إليهم عباس ، فٱقتتلوا يَسِيرًا ، فقتل ابْن وَرْس فى سبعين من أهل الحفاظ ،

ورفعَ عباس رايَةَ أمان ،فأَتَوها إلا نحو ثلاثمائة مع سليمان بنِ حِمْير الهمدانى ، وعبّاس[٣] بن جعْدة الجَدَلى ، فظفِر عباس بن سهل منهم بنحو من مائتين فقتلهم ،وأفلت الباقون فرجعوا ومات أكثرهم فى الطريق.

وكتب المختار إلى ٱبن الحنفية : « إنى أرسلْتُ إليك جيشا ليُذلُّوا لكَ الأعداء ، ويُحرزوا لك البلاد ، فلمّا قاربوا طَيْبة[٤] فعل بهم كذا وكذا ، فإن رأيتَ أن أبعث إلى المدينة جيْشا كثيفا وتبعث إليهم منْ قِبلك رجُلا[٥] فٱفعل » .

فكتب إليه ٱبن الحنفية : « أمّا بعد ، فقد قرأْت كتابَك ، وعرفْت تعظيمك لحقى ، وما تؤْثره من سرورى ؛ وإن أحبَّ الأُمور كلِّها إلىَّ ما أُطيعُ الله فيه ، فٱطع الله ما استطعت ، وإنى لو أردت القتال لوجدتُ الناس إلىّ سراعا ، والأعوان لى كثيرة ، ولكنِّى أعتز لهم وأصبر حتّى يحكم الله [لى][٦] وهو خير الحاكمين » .

(١) وادى القرى : واد من أعمال المدينة كثير القرى (المراصد) .
(٢) جمع جزور . (٣) فى الطبرى : عياش . والمثبت فى الكامل أيضا .
(٤) مدينة الرسول. يقال لها طيبة وطابة .
(٥) فى الطبرى : رسلا . (٦) من الطبرى .

ذكر امتناع محمد ابن الحنفية

من مبايعة عبد الله بن الزبير وما كان من أمره وإرسال المختار الجيش إلى مكة وخبر ابن الحنفية

قال : ثم إن عبد الله بن الزبير دعا محمد ابنَ الحنفيّة ومَنْ معه مِنْ أهل بيته ، وسبعة عشر رجلا من وجوه أهل الكوفة منهم أبو الطفَيْل عامر[١] بن واثلة له صُحْبة ، ليبايعوه فامتنعوا وقالوا : لا نبايعُ حتى تجتَمِعَ الأُمَّة ، فأكثرَ الوقيعةَ فى ابن الحنفية وذمَّه ، فأغلظَ له عَبْدُ الله بن هانىء الكِنْدِى ، وقال[٢] : لئن لم يضرك إلا تركنا بيعتك لا يضرك شىء ، فلم يراجعه ابْن الزبير ، فلما استولى[٣] المختار على الكوفة وصارت الشِّيعة تدعو لابن الحنفية ، ألح ابن الزبير عليه وعلى أصحابه فى البَيعة حتَّى حبسهم بزمزم ، وتوّعدهم ، بالقتل والإحراق إن لم يُبايعوا ، وضرب لهم فى ذلك أجَلا .

فكتب ابن الحنفيَّة إلى المختار يعرفه الحال ، ويطلب منه النجدة .

فقرأ المختار كتابه على أهل الكوفه ، وقال : هذا مهْدِيكم وصريخ أهل بيت نبيكم قد تُركوا[٤] محظورا عليهم كما يُحْظر على الغنم ينتظرون القتلَ والتحريقَ فى اللَّيل والنهار ، لستُ أبا إسحاق إنْ لم

---

(١) فى د : عمرو — تحريف .

(٢) فى ك : قال .

(٣) فى ك : استوى .

(٤) فى ك : تولوا محصورا . وفى الكامل : قد تركوه ومن معه محصورا .

أَنْصُرْهم نَصْرًا مُؤَزَّرا ، وإن لم أُسرِّب الخيلَ فى إثْر الخيل ، كالسَّيْل يتْلوهُ السَّيْل ، حتى يحُلّ بـأَبْنِ الكاهليّة الويْل ، يريد عبد الله بنَ الزُّبير .

فبكى الناسُ وقالوا : سرِّحْنا إليه وعجِّل ، فوجه أبا عبْد الله الجدَلىَّ فى سبعين من أهل القوة ، ووجّه ظَبْيان بنَ عُمارة أخا بنى تميم فى أربعمائة ، وبعث معه أربعمائة ألف درهم لأبن الحنَفيّة ، ووجّه أبا المعتمر فى مائة ،وهانىء بنَ قيس فى مائة ، وعُميْرَ بن طارق فى أربعين ، ويونسَ بنَ عمران فى أربعين ، فوصل أبو عبد الله الجَدلى إلى ذات[1] عِرْق ، فأقام بها حتى أتاه عُمَير ويونس فى ثمانين ، فبلغوا مائةً وخمسين راكبا ، فسارُوا حتّى دخلوا المسجدَ الحرامَ وهم ينادُون : يالثَارات الحسين ، حتى أنتهَوا إلى زَمْزَم ، وقد أعد أبن الزبير الحَطَب ليحرّقهم ، وكان قد بقى من الأَجَلِ يومان ، فكسَرُوا الباب ودخلوا على أبن الحنفية ، فقالوا : خلِّ بيننا وبين عدو الله أبن الزبير ، فقال : إنى لا أستحلّ القتال فى الحرَم . فقال أبن الزبير : واعجبًا لهذه الخَشَبِيَّة ينعون حُسينا كأنى أنا قَتَلْته ، والله لو قدرتُ على قَتَلَتِه لقتلْتهم ، وإنما سمّاهم أبن الزبير الخشبيَّة لأنَّهم دخلوا مكَّة وبـأَيديهم الخَشَب كراهةَ إشهار[2] السيوف فى الحَرم ، وقال : أتحسبون أنِّى أُخَلِّى سبيلَهم[3] ، دون أن نبايعَ ويبايعوا[4] .

فقال الجَدَلى : وربِّ الرُّكْن والمقام لتخلِّينّ سبيلنا أو لنجالدنَّك بـأَسيافنا جِلَادًا يرتابُ منه المُبْطلون ، فكفَّهم أبْن الحنفية وحذَّرهم الفتنة .

---

(١) ذات عرق : مهل أهل العراق ، وهو الحد بين تهامة ونجد (المراصد) .
(٢) فى ك : اشتهار . (٣) فى الطبرى : سبيله .
(٤) فى ك : ويتبايعون .

ثم قَدِم باقى الجُنْد ومعهم المال ، فدخلوا المسجدَ الحرام فكبّروا ، وقالوا ، بالثاراتِ الحسين ، فخافهم ٱبن الزبير ، وخرج ٱبن الحنفيّة ومعهُ أربعة آلاف رجل إلى شِعْب عَلى، فعزُّوا وٱمتنعوا ، فقسم فيهم المال ، فلما قتِل المختار ضَعفوا واحتاجوا ، ثم ٱستوسقت[1] البِلَادُ لابْن الزبير بعد قَتْل المختار ، فبعث إلى ٱبن الحنفيّة أن ٱدخل فى بيْعتى ، وإلّا نابَذْتك.

وبلغ الخبَرُ عبدَ الملك بن مروان ، فكتب إلى ٱبن الحنفيّة : إنه إن قَدم عليه أحسنَ إليه ، وإنه ينزل أىَّ الشام أحبَّ حتَّى يسْتَقِيمَ أمرُ الناس .

فخرج ٱبْن الحنفية ومن معه إلى الشام ، فلما وصل إلى مَدْين بلَغَهُ غدْرُ عبدِ الملكِ بعَمْرو بن سعيد ، فندم على إتيانه إلى الشام ونزل أيْلة[2] ، وتحدث الناسُ بفضل ٱبن الحنفيَّة ، وكَثْرةِ عِبادتِه وزهْدِه ، فندم عبد الملك على إذْنِهِ له فى القدوم إلى بلده ، فكتب إليه : « إنه لا يكون فى سلطانى مَنْ لا يبايعنى » .

فارْتَحَل إلى مكَّةَ ، ونزل شِعْبَ أبى طالب ، فأرسل إليه ابْن الزبير يأمره بالرحيل عنه ، فسار إلى الطائف وٱلتحق به عَبْدُ ٱلله بن عباس ، ومات ٱبن عباس بالطائف ، فصلى عليه ٱبن الحنفية ، وكبّر عليه أربعا ، وأقام بالطائف حتى قدم الحَجّاج لِحِصَارِ ٱبن الزبير ، فعاد إلى الشِّعب ، فطلبه الحجاج ليبايعَ عبدَ الملك ، فٱمتنع حتى يجتمع الناس ، ثم بايع بعد قَتْل ٱبن الزُّبير . هذا ما كان من أمره ، فلنعد إلى أخبار المختار ، [وٱلله أعلم][3] .

---

(١) استوسقت : اجتمعت (اللسان) .

(٢) أيلة : مدينة على ساحل البحر مما يلى الشام . قيل : هى آخر الحجاز وأول الشام (المراصد) . وفى البكرى : مدينة على شاطىء البحر فى منتصف ما بين مصر ومكة .

(٣) ساقط من د .

ذكر مسير ابراهيم بن الأشتر

لحرب عبيد الله بن زياد وقتل ابن زياد

وفى سنة [٦٦هـ] ست وستّين لثمانٍ بقين من ذى الحجة ، سار إبراهيم بن الأشتر لقتَالِ عُبيد الله بنِ زياد ، وذلك بعد فَراغه من وقعة السَّبِيع بيَوْمَين ، وأخْرج المختارُ معه فرْسانَ أصحابِه ووجوههم وأهل البصائر منهم ، وشيّعه ووصاه ، وخرج معه لتَشْيِيعه أصحاب الكرسى بكرسيهم ، وهم يدْعُون الله له بالنصر ، وسنذكر خبر الكرسىّ إن شاء الله تعالى .

قال : ولما انتهى إبراهيم إلى أصحاب الكرسىّ وهم عُكوف عليه ، [وقد] (١) رفَعُوا أيدَيهم إلى السماء يدْعُونَ الله ، فقال إبراهيم : اللهم لا تؤاخذِنْا بما فَعل السفهاء منَّا ، هذه سنَّة بنى إسرائيل ، وسار إبراهيم مُجدًّا لَيلْقَى ٱبن زياد قبل أن يدخل أرضَ العراق ، وكان ٱبنُ زياد قد سار فى عسكر عظيم وملَك الموصل كما ذكرنا ، فلما انتهى إبراهيم إلى نهر ٱلخَازِر (٢) من أرض الموْصِل نزل بقرية باربيثا(٣) ، وأقبل عُبيْدُ ٱلله بن زياد حتى نزل قريبا منهم على شاطئ خازِر (٢) ، وأرسل عُميْر بن الحُبَاب (٤) السُّلمىَّ إلى ٱبن الأشتر أن الْقَنِى ؛

---

(١) ليس فى د .

(٢) الخازر — بعد الألف زاى مكسورة ثم راء . وقيل : بفتح الزاى : نهر بين إربل والموصل (المراصد) .

(٣) فى الكامل : بارشيا .

(٤) فى ك : حباب .

وكانت قَيْس كلُّها مضطغنة على بنى مرْوانَ بسبب وقعة مرْج[١] راهِط ، وجند عبد الملك يومئذ كَلْب ، وٱجتمع عُمير وٱبْنُ الأَشتر فأخبره عُمَيْرٌ أنَّه على ميْسرة ابن زياد ، وواعده أنه ينهزِمُ بالناس ، وأشار عليه بمُنَاجزَة القوم ، وعاد عُميرٌ إلى أصحابه ، وعبّأ ٱبن الأَشتر أصحابه ، وصلَّى بهم صلاةَ الفجر بغَلَس ، ثم صفَّهم وسار بهم رُويْدًا حتى أشرف على تلّ عظيم مُشْرِف على القوم ، فإذا هم لم يتحرك منهم أحد ، فتقدم ابْن الأَشْتَر وهو يحرض أصحابَه على القتال ، ويذكِّرهم بمقتل[٢] الحسين وسبْيِ أهل بيته ، فلما تَدانى الصَّفَّانِ حمل الحُصين بن نمير بميمنة أهل الشام على ميسرة ٱبْنِ الأَشتر ، وعليها عليٌّ بن مالك الجُشمى ، فقتل ٱبن مالك ، فأخذ الرايةَ ابنه قرة بن علىّ وقاتَل بها فقتل فى رجال من أهل البأْس ، وانهزمت ميسرة إبراهيم ، فأخذ الرايةَ عبدُ الله بن ورقاء بن جُنَادة السَّلولىّ ، وردَّ المنهزمين ، وقاتلوا ، وحملتْ ميْمنَة إبراهيم وعليها سفيان بن يزيد الأَزدى على ميسرة ٱبن زياد ، وهم يظنُّون أن عُمَيْر بن الحُبَاب ينْهزِم لهم كما زعم ، فقاتلهم أشدَّ قتال ، وأنفِتْ نفسُه الهزيمةَ ، فلمّا رأى إبراهيم ذلك قال لأصحابه : اقصدوا أهل[٣] السواد الأعظم ، فوالله لئن هزَمْنَاه لنجعلن من تَرَوْن يمنةً ويَسْرة ، فتقدم أصحابُه وقاتَلوا أشد قتال ، وصدقَهم إبراهيمُ القِتَال ، فٱنهزم أصحابُ ابن زياد ، وبعد أن قُتل من الفريقين قتلَى كثيرةً .

---

(١) مرج راهط : بنواحى دمشق ، قد أوقع فيه مروان بن الحكم بالضحاك ابن قيس الفهرى (البكرى) .

(٢) فى ك : بقتل .

(٣) فى الكامل : هذا .

وقيل : إن عُمَير بن الحُباب أول من انهزم ، وإنما كان قتاله أولا تعذيرا .

فلما انهزموا قال إبراهيم بن الأشتر[١] : إنى قتلتُ رجُلاً تحت رايةٍ منفردةٍ على شط نهر خَازِر، فالتمِسوه فإنى شَمِمتُ منه رائحةَ المسك، شرّقتْ يداه وغرّبتْ رِجْلَاه ، فالتَمسوه ، فاذا هو عُبيْدُ الله بن زياد ، فأخذ رأسَه وحرّق جثّته .

وأقام إبراهيم بالموصل ، وأنفذ رأسَ عُبيد الله إلى المختار ، ورءوس القوّاد ، وكانت هذه الوقعة فى سنة [٦٧هـ] سبع وستين .

وروى الترمذى رحمه الله[٢] قال : لما جاءت الرءوس إلى المختار أُلقِيتْ فى القصر فجاءت حيّة دقيقة فتخللت الرءوس حتى دخلَتْ فم عبيد الله وخرجتْ من مَنْخَره ودخلتْ فى مَنْخَره وخرجتْ من فمه ، فعلتْ ذلك مرارا[٣] .

---

(١) العقد : ٤-٤٠٤ .

(٢) فى ك : رضى الله عنه .

(٣) فى ك : مرات :

ذكر ولاية مصعب بن الزبير البصرة

ومسيره إلى الكوفة وقتاله المختار وقتل المختار بن أبى عبيد

كانت ولايته البصرة وعزل الحارث بن أبى ربيعة الملقّب بالقُباع عنها فى أول سنة (٦٧هـ) سبع وستّين ، قال : فقَدِمها مُصْعب ، وصَعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال[١] : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. ﴿ طسٓمٓ . تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. نَتْلو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وفِرْعَوْنَ بالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ. إنَّ فِرْعَوْنَ علَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِساءَهُمْ إنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، وأشارَ بيده نحو الشام ، ﴿ وَنرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفوا فِى الْأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ ، وأشار نحو الحجاز ، ﴿ ونُرِى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وجُنودَهُما مِنْهُمْ ما كَانوا يحْذَرُونَ ﴾ ، وأشار نحو الشام ، وقال : يأهل البصرة ، بلغنى أنّكم تلقِّبون أميرَكم ، وقد لقَّبْت[٢] نفسى الجزّار .

قال : ولما هرب أشرافُ الكوفةِ من المختار يوم وقْعَة السَّبِيع ، أتى جماعةٌ منهم إلى مصعب ، فكان منهم شَبَث بن رِبْعىّ ، أتاه على بغْلَةٍ قد قطِع ذنبُها وَطَرفُ أذنِها ، وَشقّ قَباءه وهو ينادِى :

---

(١) سورة القصص ، الآيات من ١ــ٤ .

(٢) فى الطبرى : وقد سميت نفس الجزار .

واغَوْثاه ! وأتاه أشرافُ الكوفة فدخلوا عليه وسألوه المسير إلى المختار ونصرتهم ، وقدم محمد بن الأشعث ، واستحثّه على المسير فأدناه وأكرمه ، وكتب إلى المهلّب بن أبي صُفْرة ، وهو عامله على فارس يستدْعِيه ليشهدَ معهم قتالَ المختار ، فقدِم في جموع كثيرة وأموالٍ عظيمة ، فبرز مُصْعَبٌ بالجيوش ، وأرسل عبد الرحمن بنَ مِخْنَف إلى الكوفة ، وأمَره أن يُخرِج إليه مَنْ قَدَر عليه ، ويثبّط الناسَ عن المختار ، ويدعوَهم إلى بيعة ابن الزبير سرًّا ، فسار ودخل الكوفة مُسْتَتِرًا ، وفعل ما أمره ، وسار مصعب وقدم أمامه عبّاد بن الحُصَين الحبَطيّ[1] التميميّ ، وجعل عمر بن عُبَيد الله بن معمر على ميمنته ، والمهلّب على مَيْسَرته ، ومالكَ بن مِسْمَع على بَكر ، ومالك بن المنذر على عَبْد القيس ، والأحنفَ بنَ قيس على تميم ، وزيادَ بن عمرو العَتَكيّ على الأزْدِ ، وقيس بن الهيثم على أهل العالية ، وبلغ الخبرُ المختار فقام في أصحابه فندبهم إلى الخروج مع أحمر بن شُمَيط ، ودعا رءُوسَ الأرباع الّذين كانوا مع ابن الأشتر فبعثهم مع ابْنِ شميط ، فسار وعلى مقدّمته ابن كامل الشاكريّ ، فوصلوا إلى المذَار[2] ، وأقبل مصعبٌ فعسْكَرَ بالقرْبِ منه ، وعبّأ كلٌّ واحد منهما جُنْدَه ، فتقدّم عباد بن الحُصَيْن إلى أحْمَر وأصحابه ، وقال : إنّا ندعوكم إلى كتابِ الله وسنّة رسوله ، وإلى بيْعَة أمير المؤمنين عبدِ الله بنِ الزبير ، فقال الآخرون : إنّا ندعوكم إلى كتابِ الله وسنّة رسوله وإلى بَيْعَة المختار ، وأن نَجعلَ هذا الأمر شُورى في آل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ،

(١) في الكامل : الحطمي . والمثبت في الطبري ، واللباب .

(٢) المذار — بالفتح وآخره راء : بلدة بين واسط والبصرة (المراصد .

فرجع عبّاد وأخبر مصعبا ، فقال : ارجع فأحمل عليهم ، فرجع وحمل على ابن شمَيط وأصحابِه ، وحمل المهلّب على ابن كامل حملةً بعد أخرى ، فهزمهم ، وثبت ابْن كامل ساعةً فى رجالٍ من هَمْدان ، ثم انصرف ، وحمل الناسُ جميعا على ابن شُمَيْط ، فقاتل حتى قتل ، وانهزم أصحابُه ، وبعث مصعبٌ عبّادًا على الخيل ، وقال له : أيما أسير أخذتَه فاضرب عنقَه ، وسرّح محمد بنَ الأشعث فى خيل عظيمة من أهل الكوفة ، وقال : دونكم ثأركم فكانوا [حيث انهزموا][1] أشدَّ على المنهزمين من أهل البصرة ، فلم يدركوا منهزما إلّا قتلوه ، فلم يَنْجُ من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل .

ثم أقبل مصعب حتى قطع من تِلْقاء واسط ، [القصب][1] ، ولم تكن [واسط][1] بُنيتْ بعدُ ، فأخذ فى كَسْكر ، ثم حمل الرجال أثقالَهم والضعفاء فى السفن ، فأخذوا فى نهر خُرْشاذ[2] ، ثم خرجوا إلى نَهْر قوسَان ، ثم خرجوا إلى نَهْرِ الفرات ، وأتى المختار خبرُ الهزيمة والقَتْلى[3] ، فقال : ما مِنْ الموت بدٌّ ، وما مِنْ مِيتة أموتها أحبّ إلىّ مِنْ أن أمُوت مِثلَ موتة ابن شُميْط .

ولما بلغه أنّ مُصْعبا قد أقبل إليه فى البَر والبَحْر سار حتى نزل السَّيْلحِين[4] ، ونظر إلى مُجْتَمع الأنهار ، نهر الخريرة[5] ، ونهر

(١) من الطبرى .

(٢) فى الكامل : جر شاد . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٣) فى ك : والقتل .

(٤) بفتح أوله وإسكان ثانيه وفتح اللام ، وكسر الحاء المهملة : موضع بالحيرة .

(٥) فى الطبرى : نهر الحيرة .

السَّيْلَحِيْن ، ونهر القادسِيّة ، ونهر يُوسف ، فسَكَر الفرات[١] ، فذهب ماؤُها فى هذه الأَنهار ، وبقيت سُفن أهل البصرة فى الطين ، فخرجوا من السفن إلى ذلك السِّكْر[٢] فأَصلَحوه ، وقصدوا الكوفَة ، وسار المختارُ فنزل حَرَوْراء[٣] ، وحال بينهم وبين الكوفة بعد أن حصّن القَصْرَ والمسجد ، وأقبل مصعبٌ وجعل على ميمنته المهلَّب ، وعلى ميسرته عمرَبن عبيد الله ، وعلى الخيل عبّاد بن الحُصَيْن ، وجعل المختار على ميمنته سُليم بن يزيد الكندىّ ، وعلى ميسرته سعيد بن مُنْقذ الهمْدانى ، وعلى الخيل عمر[٤] بن عبْدالله النَّهْدىّ ، وعلى الرجال مالك بن عبْد الله[٥] النَّهْدى ، وأقبل محمدبن الأَشعث فيمن كان قد هَرَب من أهل الكوفة ، فنزل بين مصعب والمختار ، فلمّا رأى المختار ذلك بعث إلى كلّ خَمْسٍ من أهل البصرة رَجُلا من أصحابه ، وتَدانَى الناسُ ، فحملَ سعيد بن منقذ على بَكْر وعَبْد القيس وهم فى مَيْمَنةِ مصعب ، فاقتتلوا قتالا شديدًا ، وبعث المختار إلى عَبْدِ الله بنِ جَعْدَة بن هُبيرة المخزومى ، فحمل على منْ بإزائه وهم أَهْلُ العالية ، فكشَفَهم [فانتهوا إلى مصعب فجثا مصعب على ركبتيه ونزل الناس عنده فقاتلوا ساعة وتحاجزوا ثم حمل المهلب على من بإزائه فكشفهم][٦] واشتدَّ القتال ، فقتل ابْن الأَشعث وذلك عند

(١) سكر الفرات : سده .
(٢) السكر — بالفتح : سد النهر . وبالكسر : اسم منه ، وما سد به النهر (القاموس) .
(٣) حروراء — بفتحتين وسكون الواو ، وراء أخرى ، وألف ممدودة : قرية بظاهر الكوفة . وقيل : موضع على ميلين منها (ياقوت ، والمراصد) .
(٤) فى الكامل : عمرو . والمثبت فى الطبرى أيضا .
(٥) فى الطبرى : مالك بن عمرو النهدى . والمثبت فى الكامل أيضا .
(٦) ساقط فى ك .

المساء ، وقاتل المختارُ على فم سكَّة شَبثٍ عامّة ليلته ، وقاتل معه رجالٌ من أهل البأس ، وقاتلتْ معه هَمْدان أشدَّ قتال ، ثم تفرق الناس عن المختار ،فقال له منْ معه : أيُّها الأمير ، اذهب إلى القَصْر ، فجاء حتَّى دخله ، فقال له بعض أصحابه : ألم تكن وعَدْتَنا الظفَر ، وأنَّا سنَهزمهم ؛ فقال : أما قرأتَ فى كتاب الله[1] : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يَشَاءُ وَيُثْبِت وَعِنْدَهُ أمُّ الْكِتَاب ﴾ .

قال : فلما أصبح مصعب أقبل يَسير فيمن معه نحو السَّبَخة ، فمرّ بالمهلَّب ، فقال المهلَّب ، ياله فتحًا ماأهنَاه لولم يُقتل محمدُ بن الأشعث ، فقال : صدقتَ ،ثم قال [مصعب] [2] للمهلب : إن عُبَيْد الله بن علىّ بن أبى طالب قدقتل ، فاسترجع المهلَّب.فقال مُصْعب :إنَّما قَتَله مَنْ يزعم أنه شيعةٌ لأبيه ، ثم نزل مُصْعَب السَّبَخَة فقطع عن المختار ومَنْ معه الماء والميرة ، وقاتل المختار ومنْ مَعه قتالا ضعيفًا ، واجترأ الناسُ عليهم ، فكانوا إذا خرجوا رماهم الناسُ من فوق البيوت ، وصَبُّوا عليهم الماءَ القَذِر ، وكان أكثر معاشهم من النساء تأتى المرأة متخفِّية ومعها القليلُ من الطعام والشراب ، ففطِن مصعب لذلك ، فمنَع النساء ، فاشتد على المختارِ وأصحابِه العطش ، فكانوا يشربون ماء البئر بالعسل ، ثم أمر مصعب أصحابه فاقتربوا من القصر ، واشتدّ الحصار ، فقال المختار لأصحابه : ويلكم ، إنَّ الحصار لا يزيدكم إلاَّ ضَعفا ، فانزلوا بنا نقاتلْ حتّى نقتل كِرَامًا إن نحن قتِلنَا ، والله ما أنا بائس إن صدقتموهم أن ينصرَكم الله ، فضَعُفوا ولم يفعلوا ، فقال لهم :

(١) سورة الرعد ، آية ٣٩ .

(٢) زيادة من الطبرى .

أما أنا فوالله لا أُعْطِى بيدى ولا أحكِّمهم فى نفسى ، ثم تطيّب وتحنّط وخرج من القصر فى تسعة عشر رجُلاً منهم السائب بن مالك الأشعرىّ ، فتقدّم المختارُ فقاتل حتى قُتل ، قتلَهُ رجلان أخَوان من بنى حنيفة ، وهما طَرَفة وطَرّاف ابنا عبد الله بن دَجاجة ، فلما كان الغد من مقْتَله ، دعا بجير بن عبد الله المُسْلىّ (١) منْ مَعَهُ بالقصر إلى مادعاهم المختار ، فأبوا عليه ، وأمكَنوا أصحابَ مصعب من أنفسهم ، ونزلوا على حُكْمه ، فأُخرجوا مكتَّفين ، فاستعطفوه ، فأراد أن يُطْلقهم ، فقام عَبْدُ الرحمن ابن محمد بنِ الأشعث فقال : أتخلِّى سبيلهم ؟ اخْتَرْنا أو اخْتَرْهم . وقال محمد بن عبد الرحمن بن سعيد الهَمْدَانى مِثلَه ، وقال أشرافُ الكوفَة مِثلهما ، فأمر بقَتْلِهِمْ ، فقالوا : يا ابْنَ الزُّبَيْر ، لا تقتلْنا واجعلنا على مقدِّمتك إلى أهل الشام غَدًا ، فما بكم عَنَّا غدًا غِنى (٢) ؛ فإن قُتلنا لم نقتلْ حتى نضعفهم لكم ، وإن ظفرْنا بهم كان ذلك لكم ، فأبى عليهم وقتلَهم برأْى أهل الكوفة ، وأمَر مصعب بكفّ المختار فقطِعتْ وسُمِّرت إلى جانب المسجد فبقيْت حتى قدم الحجاج فأمَر بِنَزْعها .

وكتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعتِه ، ويقول : إن أطعتَنى فلكَ الشام وأعِنَّة الخَيْلِ وما غلبت عليه من أرض المغرب (٣) ما دام لآلِ الزُّبَيْر سلطان .

وكتب عبدُ الملك بن مروان إلى ابن الأشتر أيضا يَدْعُوه إلى طاعته ويقول : إنْ أنْتَ أجبتَنى فلك العِرَاق .

---

(١) فى الكامل : المسكى . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٢) فى د : غناء . (٣) والطبرى : ٦–١١١ .

فاستشار إبراهيمُ أصحابَه فى ذلك ، فاختلفوا ، فقال : لو لم أكن أصبت ابنَ زياد وغيره من أشراف الشام لأجبْت عَبْدَ الملك ، مع أنى لا أختار على [أهل] [1] مِصْرى وعشيرتى غيرهم ، فدخل فى طاعة مُصْعب ، وبلغ مصعبا إقباله [إليه] [1] ، فبعث المهلَّب على عمله بالموصل والجزيرة وإرمينية وأذرَبِيجان .

قال : ثم دعا مُصْعب بن الزبير أمَّ ثابت بنت سَمُرة بن جُنْدب امرأة المختار ، وعَمْرة بنت النعمان بن بشير الأنصارى امرأته الأُخرى ، وسألهما عنه ، فقالت أم ثابت : أقول فيه بقولكَ أنْتَ فيه ، فأطلَقها ؛ وقالت عمرة : رحمة الله عليه ، كان عبْدًا صالحا .

فكتب إلى أخيه عبد الله : إنها تزعم أنه نبى ، فأمره بقَتْلِهَا ، فقتِلَتْ ليلا بين الحِيرة والكوفة ، فقال عمر بن أبى ربيعة المخزومىّ [2] :

إنَّ من أعجبِ العجائب [3] عندى قَتْلَ بيضَاء حرّةٍ عُطْبولِ [4]
قتلِتْ هكذا على غَيْر جُـــرم [5] إن لِلّه درَّها من قَتيـــلِ
كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ علينـــا وعلى المحصَنات [6] جرُّ الذُّيول

وقيل : إن المختار إنما أظهر الخلاف على ابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة ، وإن مُصْعَبا لمّا سار إليه فبلغه مسيرُه أرسل إليه

(١) ساقط فى ك .
(٢) الطبرى : ٦–١١٢ ، والكامل : ٣–٣٨٦ ، والعقد الفريد : ٤–٤٠٧) .
(٣) فى العقد : من أعظم المصائب .
(٤) فى العقد : عيطبول . والبيت فى اللسان أيضا .
(٥) فى العقد : قتلت هكذا على غير ذنب .
(٦) فى العقد : وعلى الغانيات ...

أحمر بن شُميط ، وأمره أن يُواقِعه بالمذَار ، وقال : إن الفتح بالمذَار[1] ، لأنه بلغه أن رجُلاً من ثَقيف يُفتَح عليه بالمَذار فتحٌ عظيم ، فظن أنه هو ، وإنَّما كان الحجّاج [2] فى قتال عبد الرحمن ابن الأشعث ، وأمر مصعبٌ عبادا الحَبَطِىّ بالمسير إلى جَمْع المختار ، فتقدّم وتقدّم معه عبيد الله بن علىّ بن أبى طالب ، وبقى مصعبٌ على نهر البصْريّين ، [على شط الفرات][3] ، وخرج المختار فى عشرين ألفا ، وزحف مصعب ومَنْ معه فوافَوه مع اللَّيل ، فقال المختار لأصحابه : لايبرحَنَّ أحدٌ منكم حتّى يسمَع مناديا ينادى : يا محمّد ، فاذا سمعْتموه فاحملوا ، فلما طلع القمر أمر منادِيًا فنادى : يامحمد ، فحملوا على أصحابِ مُصْعبٍ فهزموهم وأدخلوهم عَسكرهَم ، فلم يَزَالوُا يقاتلونهم حتى أصبحوا ، وأصبح المختارُ وليس عنده أحَد ، وقد أوغَل أصحابُه فى أصحابِ مُصْعبٍ ، فانصرف المختارُ منهَزِمًا حتى دخل قَصْرَ الكوفة ، وجاء أصحابُه حين أصبحوا ، فوقفوا مَلِيًا ، فلم يَرَوا المختارَ ، فقالوا : قد قتِل ، فهرب منهم مَنْ أطاق الهرَبَ ، فاختفَوا بدُور الكوفَةِ ، وتوجّه منهم نحو القَصْرِ ثمانية آلاف ، فوجدوا المختار فى القصر ، فدخلوا معه وكانوا قد قَتلوا تلك الليلةَ من أصْحاب مصعب خَلْقًا كثيرًا ، منهم محمد بنُ الأشعث .

وأقبل مصعب فأحاط بالقَصْر ، وحاصرهم أربعة أشهر يخرجُ المختار كلَّ يوم فيقاتلهم فى سوقِ الكوفة ، فلمّا قتِل المختار بَعَث

---

(١) المذار : أرض بقرب الكوفة (البكرى) .

(٢) فى الطبرى : إنما كان ذلك للحجاج بن يوسف .

(٣) زيادة من الطبرى .

منْ فى القصر يطلبون الأمان ، فأبَى مصعب ، فنزلوا على حكمه ، فقَتَل من العَرب سبعَمائة أو نحو ذلك ، وسائِرُهم من العَجَم ، فكان عدة القَتْلى ستَّة آلاف رجل ، وقيل : سبعة آلاف ، وذلك فى سنة [٦٧هـ] سبع وستِّين ، وكان عُمْرُ المختارِ يوم قتِل سبعا وستّين سنة ، وكان تارةً يدعو لمحمد ابن الحنفيّة ، وتارةً لعبْدِ الله بن الزبير.

وحَكى عبدُ الملك بن عبدون فى كتابه المترجم (كمامة الزَّهَر وصدفة الدُّرَر) ، أن المختار ادّعى النبّوة وقال : إنه يأْتيه الوَحْىُ من السماء ، وأظهر ذلك فى آخر أمره ، وكان له كرسى يَستنصر به .

ذكر خبر كرسى المختار الذى كان يستنصر به

ويزعم أنه فى كتاب بنى إسرائيل

قال الطُّفَيْل بن جَعْدة بن هُبَيرة : أضقتُ[1] إضاقةً شديدة ، فخرجت يومًا فإذا جارٌ لى زَيّات وعنده كرسىّ قد ركِبهُ الوسخ ،فقلتُ فى نفسى : لو قلتُ للمختار فى هذا شيئا ، فأخذته من الزيّات وغسلته ، فخرج عُود نُضار قد شرب الدُّهن وهو أبيض[2] ، فقلت للمختار : إنِّى كنْتُ أكْتمُك شيئا ، وقد بَدا لى أن أذكره لك ، إن أبى جعْدَة[3] كان يجلس عندنا على كرسى ، ويرى أنّ فيه أثَرًا مِن[4] عِلْم . قال : سبحان الله ، أخَّرْتَه إلى هذا الوقت ! ابعثْ به إلىَّ ، فأحضرتُه وقد غشَّيْته ، فأمر لى بأثنى عشر ألفا ، ثم أمر فنودِى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناسُ ، فقال : إنه لم يكن فى الأُمم الخالية أمرٌ إلّا وهو

(١) فى الطبرى (٧-٨٢) : أعدمت مرة من الورق .

(٢) فى الطبرى : بيص ، وفى الكامل : بيض .

(٣) فى الطبرى : كان جعدة بن هبيرة . (٤) فى الكامل : أثرا من علم .

كائن فى هذه الأُمَّةِ مثله ، وإنه كان لبنى إسرائيل التابوت ، وإن هذا فينا مِثله ، فكشفوا عنه وقامت السَّبَائيّة[١] فكبّروا ، ثم لم يلبث أنْ أرسل المختارُ الجيشَ لقتال ابنِ زياد ، وخرج بالكرسىّ على بغْلٍ وقد غُشِّىَ ، فكان من هزيمة أهل الشام وقَتْلِ أشرافهم ماذكرناه ، فزادهم ذلك فتنةً حتى تعاطَوا الكفر .

قال الطفيل : فندمتُ على ما صنعْتُ ، فتكلَّم الناسُ فى ذلك ، فغيّبه المختار .

وقيل : إن المختار قال لآل جعْدَة بن هُبيرة – وكانت أمّ جعدة هى أم هانئ بنت أبى طالب أخت علىّ رضى الله عنه لأبويه – ائتونى بكرسى علىّ ، فقالوا : واللهِ ما هو عندنا ، فقال : لا تكونوا حَمْقَى ، اذهبوا فائتونى به ، فظنُّوا أنَّهم لا يأتونه بكرسى إلا قال : هذا هو ، فأتوْه بكرسىّ ، فأخَذَه وخرجتْ شِبَام وشاكر وفودا ، يعنى أصحاب المختار ، وقد جعلوا عليه الحرير[٢] ، وكان أوّل من سَدنَه موسى ابن أبى موسى الأشعرىّ ، فعتب الناسُ عليه ، فتركه فسدنَه حَوْشَب البُرْسُمِىّ حتى هلك المختار .

وقال أعشى همدان فيه[٣] :

شهدت عليكم أنكم سبَئيّةٌ ... وإنى بكم ياشرْطةَ الشِّرْك عارفُ
فأُقسِم ماكُرْسِيُّكمْ بسكينةٍ ... وإن كان قد لفَّت عليه اللَّفائفُ
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعَتْ ... شِبامٌ حوالَيْه ونَهْد وخَارفُ

(١) السبائية : ينسبون إلى عبد الله بن سبأ ، وهم من غلاة الشيعة .
(٢) فى الطبرى : وقد عصبوه بالحرير . وفى الكامل : وقد جعلوا عليه الحرس.
(٣) والطبرى : ٦–٨٣ ، والكامل : ٣ – ٣٧٨ .

وإنّى امرؤٌ أحببتُ آلَ محمّـدٍ وتابعْتُ وحْيًا ضُمِّنته المصاحفُ
وبايعتُ[١] عبْدَ الله لما تتابعتْ عليه قريشٌ شُمْطها والغَطارفُ

وقال المتوكل اللَّيثى[٢] :

أبلغْ أبَا إسحاق إن جئْتَه أنّى بكرْسيّكم كافـــرٌ
تَنْزو شِبامٌ حوْل أعـــوادِه ويحْمِل[٣] الوحىَ له شاكرُ
محمرّةً أعينُهمْ حـــولَه كأنّهن الحامض[٤] الحازرُ

انتهت أخبار المختار بن أبى عُبيدة ، فلنذكر أخبار نَجْدَةَ الحَنَفى ، [والله ولىّ التوفيق][٥] .

ذكر أخبار نجدة بن عامر الحنفي

حين وثب باليماية وما كان من أمره

كان نَجْدة بنُ عامر بن عبد الله بن سيار بن مفرّج الحنفى مع نافع بن الأزرق ، ففارقه وسار إلى اليمامة ، وكان أبو طالوتَ[٦] وهو من بنى بكْر بن وائل ، وأبو فُدَيْك عبدُ الله بن ثور بن قيس ابن ثعلبة ، وعطيّة بن الأسود اليشكرىّ قد وثَبُوا بها مع أبى طالوت ، فلمّا قدمها نَجْدة دعا أبا طالوتَ إلى نفسه ، فأجابه بعد امتناع ، ومضى أبو طالوت إلى الخضَارم[٧] ، فنهبها ، وكانت لبنى حنيفة ،

(١) فى الطبرى : وتابعت عبد الله .
(٢) والطبرى : ٦–٨٤ .
(٣) فى الطبرى ، و الكامل : وتحمل .
(٤) فى الطبرى : الحمص الحادر .
(٥) ليس فى د .
(٦) فى الكامل : ودعا أبو طالوت إلى نفسه . وفى د : أبو طالب – تحريف .
(٧) فى ياقوت : والخضارم : واد باليمامة .

فأخذها منهم معاوية بن أبي سفيان ، فجعل فيها من الرَّقيق ماعِدَّتهم وعدّة أبنائهم ونسائهم أربعة آلاف ، فغنم ذلك وقسّمه بين أصحابه ، وذلك فى سنة (٦٥هـ) خمس وستّين ، ثم إن عيْرًا خرجتْ من البحْرين - وقيل من البصرة - تحمل مالاً وغيرَه يُراد بها عَبْدُ الله بن الزُّبير ، فاعترضها نَجْدَة ، فأخذها وساقها حتى أتى بها أبا طالوت بالخضَارم ، فقسمها بين أصحابه ، وقال : اقتسموا هذا المالَ - وردّوا هذه العبيد ، واجعلوهم يعملون بالأرض[1] لكم ، فإن ذلك أنفع ، فاقتسَموا المال ،وقالوا : نجدة خيرٌ لنا من أبي طالوت ؛ فخلعوا أبا طالوت ؛ وبايعوا نَجْدَة ، ثم بايعه أبو طالوت ، وذلك فى سنة [٦٦هـ] ست وستّين.

ولمّا تمت بيعته بينهم سار فى جمع إلى بنى كَعْب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة ، فلقيهم بذى المَجَاز[2] فهزمهم وقَتَل فيهم قَتْلاً ذريعًا ، ثم كثُرتْ جموعُه حتى بلغت ثلاثةَ آلاف ؛ فسار إلى البَحْرَيْن فى سنة [٦٧ هـ] سبع وستّين ، فقالت الأَزْد : نَجْدة أحبُّ إلينا مِنْ وُلاتنا لأنه ينكر الجَوْر ، ووُلاتنا تجور ؛ فعزموا على مسالمته ، واجتمعت عبْد القيس ومَنْ بالبحرين[3] غير الأَزد على محاربته ، فالتقَوا بالقَطِيف[4] ، فانهزمتْ عَبْدُ القيس ، وقُتل منهم جمْعٌ كثير ، وسَبى نجْدة منْ قدر عليه من أهل القَطيف ، وأقام بالبحرين[5] .

(١) فى ك : الأرض .
(٢) ذو المجاز : موضع سوق عرفة ، كانت به تقوم فى الجاهلية ثمانية أيام .
(٣) فى ك : ومن البحرين .
(٤) القطيف - بالفتح ثم الكسر : مدينة بالبحرين ، وهى لعبدالقيس (المراصد) .
(٥) فى الكامل (٣-٣٥٢) : وأقام نجدة بالقطيف ووجه ابنه فى جمع إلى المنهزمين من عبد القيس فقاتلوه ، وأرسل نجدة سرية إلى الخط ، وأقام نجدة بالبحرين .

فلمّا قدم مصعب إلى البصْرةِ فى سنة [٦٩هـ] تسع وستّين بعث إليه عبْد الله بن عمير اللَّيثى الأعور فى أربعة عشر ألفًا ، وقيل : فى عشرين ألفًا ، فجعل يقول : اثْبت نَجْدَة فإنَّا لا نَفرّ ، فقدم ونجْدَةُ بالقَطِيف ، فأتى نجدة إلى ابن عُمير وهو غافل فقاتل طويلا ، ثم افترقوا ، وأصبح ابْن عُمير فهالَه ما رأى فى عسكره من القَتْلى والْجَرْحى ، فحمل عليهم نَجدة ، فلم يثبتوا ، وانهزموا ، وغنم نَجْدَة ما فى عسكرهم .

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير جيشًا إلى عُمَان ، واستعمل عليهم عطيّة بن الأسود الحنفىّ ، وقد غلب عليها عبّاد بن عبد الله وابناه سعيد وسليمان ، فقاتلوه ، فقتل عبّاد واستولى عطيّة عليها ، فأقام بها أشهرًا ، ثم خرج عنها ، واستخلف رَجُلاً يُكَنى أبا القاسم ، فقتله سعيد وسليمان ابنا عبّاد ، فعاد إلى عُمَان فلم يقدر عليها ، فركب فى البحر وأتى كِرْمَان[1] ، وضرب بها دراهمَ سمّاها العَطَويّة ، فأرسل إليه المهلّب جيشا ، فهرب إلى سِجِسْتان ، ثم أتى السِّنْد ، فقتلته خيلُ المهلبّ بقَنْدَابِيل[2] .

وبعث نجدة إلى البَوادى مَن يأخذ صَدَقة أهلها ، ثم سار نَجْدَةُ إلى صنعاء فى خفّ[3] من الجيش ، فبايعه[4] أهلُها ، وبعث أبافدَيْك إلى حَضْرَمَوْت فجَبى صدقاتِ أهلها ، وحج نجْدَة سنة (٦٨هـ)

(١) بفتح الكاف و كسرها كما فى ياقوت .
(٢) قندابيل — بالفتح ثم السكون والدال المهملة وبعد الألف باء موحدة مكسورة ثم ياء بنقطتين من تحت ولام : مدينة بالسند قصبة لولاية (المراصد) .
(٣) الخف — بالكسرة : الجماعة القليلة (القاموس) .
(٤) فى ك : فصالحه .

ثمان وستّين ، وقيل فى سنة تسع ، وهو فى ثمانمائة وستّين رجلا ، وقيل فى ألفين وستمائة رجل ،فصالح ابنَ الزبير على أن يُصَلِّى كلٌّ واحد بأصحابه ، ويقف بهم ، ويكفّ بعضهم عن بعض ، فلما صَدَر نَجْدة عن الحج سار إلى المدينة ، فتأهب أهلها لقتاله ، وتقلّد عبد الله ابن عمرَ سيفًا ، فلما أُخبر نجدة أن ابن عمر لبس السلاحَ رجع إلى الطائف ، فلمّا قرُب منها أتاه عاصم بن عُرْوَة بن مسعود الثَّقَفى ، فبايَعه على قومه ، فرجع نجدة إلى البَحْرَيْن ، فقطع المِيرة عن أهل الحَرَمين ، فكتب إليه ابن عبّاس : إنَّ ثمَامة بن أُثَال لمّا أسلم قَطع المِيرة عن أهل مكة وهم كفّار ،فكتب إليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : إن أهل مكّة أهلُ الله ، فلا تمنعْهم المِيرةَ ، فخلاها[1] لهم ، وإنّك قطعتَ الميرة عنا ونحن مسلمون ، فخلاّها[1] لهم نَجْدَة ، لم تزل عمّال نجدَة على النَّواحى حتى اختَلف عليه أصحابُه ، على ما نذكره . [واللهُ أعلم][2] .

(١) فى الكامل : فجعلها لهم .

(٢) ساقط من د .

ذكر الخلاف على نجدة وقتله وتولية أبى فديك

قال : ثم إن أصحابَ نَجْدة اختلفوا عليه لأسبابٍ نَقِمُوها منه ، فخالف عليه عطيَّة بن الأسود ، وسببُ ذلك أنَّ نجدَة بعث سرِّية برًّا وبحرا ، فأعطى سرية البر أكثَر من سريَّة البحر ، فنازعه عطيَّة حتى أغضبه ، فشتمه نَجْدة ، فغضب عطيَّة وفارقه ، وألَّب الناس عليه ، فخالفوه وانحازوا عنه ، ووَلَّوا أمرهم أبا فدَيْك عبد الله بن ثَوْر ، من بنى قيس بن ثعلبة ، فاستخفى نَجْدَة ، وقيل لأبى فُديك : إن لم تَقْتله تفرَّقَ الناسُ عنك ، فألحَّ فى طلبه حتَّى ظفِر به أصحابُه ، فقتلوه ، فلمّا قتل نجدة سَخِط قَتْلَه جماعةٌ من أصحاب أبى فُديك ، ففارقوه وثار بِه مسلم بن جبير فضربه اثنتى[1] عشرة ضربةً بسكين ، فقتل مُسلم ، وحُمِل أبو فدَيك إلى منزله .

هذا ماكان من أمْرِ الخوارج الَّذين خرجوا على عبْد الله بن الزُّبيْر فى أيَّام خلافته ، فلنذكر خلاف ذلك ممّا وقع فى أيامه بالأعمال الداخلة فى ولايته .

(١) فى الأصول : اثنى عشر .

ذكر الحوادث التى وقعت فى أيام عبد الله بن الزبير

خلاف ما ذكرناه فى الأعمال المداخلة فى ولايته على حكم السنين

سنة اربع وستين

قد ذكرنا بعْضَ حوادث هذه السنة فى أخبار يزيد ، فلنذكر من حوادثِها خلاف ذلك :

فيها حج عبْدُ الله بنِ الزبير بالناس ،وكان عاملَه على المدينة أخوه عبيدة بن الزبير ، وعلى الكوفة عَبْد الله بن يزيد الخطْمى[1]، وعلى قضائها سعيد بن نِمْران، وأبى شُريح أن يَقْضِى فى الفتنة وعلى البصْرة عمر بن عبيد الله بن معمر التَّيمى ، وعلى قضائها هشام بن هُبيرة ، وعلى خراسان عبد الله بن خازم .

سنة خمس وستين

فى هذه السنة عزل عبْدُ الله بن الزبير أخاه عُبيْدة عن المدينة ، وآستعمل أخاه مُصعبًا ؛ وسببُ ذلك أن عُبيدة خطب الناس فقال : قد تَروْنَ ما صنع اللهُ بقومٍ فى ناقة قيمتها خمسمائة[2] درهم ، فسمى : مقوّم الناقة ، فبلغ ذلك أخاه ، فعزله ، وآستعمل مصعبا ،

---

(١) الخطمى : بفتح الخاء وسكون الطاء المهملة ، وفى آخره ميم (اللباب).

(٢) فى الكامل : قيمتها خمسة دراهم .

ذكر بناء ابن الزبير الكعبة

كان عَبْدُ الله بن الزبير لمّا احترقت الكعبة ـ حين غَزَاهُ أَهْلُ الشام فى أيام يزيد بن معاوية ، قد تركها ليشنع بذلك على أَهْل الشام . وقد اختلفَ فى سبب حَرْق الكعبة ، فقيل : إن ابن الزبير لما حاصره أهلُ الشام سمع أصواتًا فى اللّيل فوق الجبل[1] ، فخاف أن يكون أهلُ الشامِ قد وصلوا إليه ، وكانت الليلة ظَلْماءَ ذاتَ ريح صعبة ورعدٍ وبَرق ، فرفع نارًا على رأْس رُمْحٍ لينظرَ إلى الناس ، فأطارتْها الرِّيح ، فوقعتْ على أستار الكعبة فأحرقتْها ، وجَهد الناسُ فى إطفائها فلم يَقْدِرُوا ، فأصبحت الكعبة تتهافَت[2] ، وماتت امْرأَةٌ من قريش ، فخرج الناسُ كلُّهم مع جنَازتها خوفًا من أن يَنزل عليهم العذاب ؛ وأصبح ابن الزبير ساجدا يدْعو ويقول : اللهم إنِّى لم أعتمِد ما جرى ، فلا تهلك عبادَك بذنبى ، وهذه ناصيتى بين يديك . فلمَّا تعالى النهارُ أَمِن وتراجعَ الناسُ . حكاه أبو الفرج الأَصفهانىّ بسنَدٍ[3] رفعَه إلى أبى بكر الهُذَلىّ ، وقيل فى حرقِها غيرُ ذلك .

فلمّا مات يزيد واستقرّ الأَمر لابن الزبير ، شرع فى بنائها ، فأَمر بهدمها حتى أُلحقت بالأَرض ، وكانت حيطانها قد مالت من حجارة المنْجَنيق ، وجعل الحجرَ الأَسوَدَ عنده ، وكان الناسُ يطوفون مِنْ وراء

(١) فى ك : الخيل .
(٢) تتساقط .
(٣) الأغانى : ٣–٢٧٧ .

الأساس ، وضرب عليها السُّتور[١] ، وأدخل فيهَا الحِجْر ، واحتج بأن رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لعائشة رضى الله عنها : لو لا حِدْثانُ[٢] [عَهْدِ][٣] قومِك بالكفْر لرددتُ الكعبَة على أساس إبراهيم عليه [الصلاة والسلام][٣] ، وأزيد فيها من الحجْر ، فحفرَ ابن الزبير [رضى الله عنهما][٤] ، فوجد أساسا أمثال الجِمَال[٥] فحرّكوا منها صَخْرةً فبرقتْ بارقَة ، فقال : أقِرُّوها على أساسها ، وبَنَاها ، وجعل لها بابَيْنِ يُدخَل من أحدهما ويُخْرَج من الآخر . وقيل : كانت عمارتها فى سنة [٦٤ هـ] أربع وستِّين . [والله أعلم بالصواب ،وإليه المرجع والمآب][٦] .

ذكر الحرب بين عبد الله بن خازم

وبين بنى تميم بخراسان

فى هذه السنة كانت الحربُ والفتنة بين عبد الله بن خَازِم السُّلَمى وبين بنى تميم بخراسان ؛ وسببُ ذلك أن مَنْ كان من بنى تميم بخرَاسَان أعانوا ابْنَ خازم على من بها من ربيعة كما تقدّم ، فلمّا صفَتْ له خُراسان جَفَا بنى تميم ، وكان قد جعل ابنه محمدًا على هَراة ، وجعل على شرْطته بُكير بن وَشّاج[٧] ، وضَم إليه شمّاس بنَ دِثَار العُطَاردى

(١) فى الكامل : السور .
(٢) حدثان الشىء — بالكسر : أوله .
(٣) من د . (٤) من ك .
(٥) فى ك : الجبال . والمثبت فى الكامل أيضا ، وفى الطبرى : فوجدوا قلاعا مثال الإبل .
(٦) ساقط من د .
(٧) الضبط فى د ، والقاموس . وفى الطبرى ، والكامل : وشاح .

وكانت أمُّ محمد تميميّة ، فلمّا جفاهم ابْنُ خازم[١] أتوا ابنَه محمّدا بهَرَاة ، فكتب إلى أبيه وإلى بُكير وشمّاس ، يأمرهم بمَنْعِهم عن هَراة ، فأمّا شَمّاس فصار مع بنى تميم ، وأما بُكير فإنه منعهم ، فأقاموا ببلاد هراةَ ، فأرسل بُكير إلى شمّاس : إنى أعطيك ثلاثين ألفًا ، وأُعْطِى كلَّ رجل من تميم ألفا ، على أن ينصرفوا ، فأبوا وأقاموا يترصّدون محمدَ بن عَبْد الله حتى خرج إلى الصيد ، فأخذوه وشدّوه وثاقًا ، ثم قتلوه ، وولّوا عليهم الحَرِيش[٢] بنَ هلال ، فكانت الحَرْبُ بينه وبين ابن خازم ، وطالت بينهما ، فخرج الحَرِيش ، فنادى ابن خازم ، وقال : لقد طالت الحَرْبُ بيننا ، فعلامَ يُقْتَل قومى وقومك ، ابرزْ إلى فأيُّنا قَتَل صاحبَه صارت الأرض له ، فقال ابْن خازم : لقد أنصفت ، فبرز إليه ، فالتقيا وتصاوَلَا طويلا ، فغفل ابن خازم ، فضربَهُ الحريش على رأسه فألْقَى فَرْوَة رأسه على وجهه ، وانقطع رِكابَا الحَرِيش ، ولزم ابن خازم عُنقَ فرسِه ، ورجع إلى أصحابه ، ثم غاداهم القتال ، فمكثوا أياما بعد الضَّرْبة ، ثم ملَّ الفريقان ، فتفرقوا ، فافترقتْ تميم ثلاث فِرق : فرقة إلى نيسابور مع بَحِير[٣] ابن وَرْقَاء ، وفرقة إلى ناحية أخرى ، وفرقة فيها الحرِيش[٤] إلَى مرْو الرُّوذ ، فاتَّبعه ابن خازم إلى قرية تسمى الملحمة[٥] ، والحَرِيشُ

---

(١) فى الكامل : فلما جفا ابن خازم بنى تميم .

(٢) الحريش – بالحاء والراء المهملتين والشين المعجمة (الكامل ٣–٣٥٦) .

(٣) فى الكامل (٣–٣٦٥) : بحير – بفتح الباء الموحدة والحاء المهملة المكسورة . وفى ك : بجير .

(٤) فى ك : الجريش – بالجيم – تحريف .

(٥) فى ك : الملجمة . والمثبت فى د .

فى اثنى عشر رَجُلا ، وقد تفرَّق عنه أصحابُه وهم فى خربة ، فلمّا انتهى إليه قال له الحَرِيش : ما تريدُ منّى وقد خلَّيْتك والبلاد ، قال : إنَّك تعودُ إليها ، قال : لا أعود ؛ فصالحه على أنْ يخرج عن خُرَاسان ولا يعود إلى قِتَاله ، فأعطاه ابن خازم أربعين ألفا ، وفتح له الحرِيشُ بابَ القصر ، فدخله ابن خازم وضمن له وفاءَ دَيْنه .

وفى هذه السنة [سنة ٦٥] وقع طاعون الجارف[1] بالبَصْرة ، وعليها عبيد الله بن عبد الله بن معمَر ، فهلَك خلقٌ كثير ، وماتت أمُّ عبيد الله فلم يجدوا لها مَنْ يَحمِلها ، حتَّى استأجروا مَن تولَّى حمْلَها .

وحج بالناس عبْدُ اللهبن الزبير ، وكان على المدينة مُصْعب ابن الزبير ، وعلى الكوفة عبد الله بن مطيع ، وعلى البصرة الحارث ابن أبى ربيعة المخزومىّ ، وعلى خراسانَ عبد الله بن خازم .

وفيها توفّى عبد الله بن عَمْرُو بن العاص بمصر ، وكان قد عَمِىَ . وقيل : كانت وفاته فى سنة [٦٨هـ] ثمانٍ وستِّين ، وقيل سنَة تسع ، [والله أعلم] [2] .

---

(١) فى ك : الجازف .

(٢) من د .

سنة ست وستين

ذكر الفتنة بخراسان

فى هذه السنة حاصر عبدُالله بن خازم من كان بخراسان من بنى تميم بسبَبِ قَتْلهم ابنَه محمّدا ، وذلك أنّه لما تفرّقتْ بنو تميم بخرُاسان على ما تقدّم ، أتى قصر قَرَنْبا[1] عدة منهم ما بين السبعين إلى الثمانين ، فولّوا أمرهم عثمان بن بشر [ابن][2] المُحْتَفز المازنى[3] ، ومعه شعبة بن ظُهير النَّهْشَلى ، ووَرْد بن الفَلَق العنْبرى ، وزهيْر بن ذؤَيب العَدَوى ، وجَيْهان بن مَشْجَعة الضبى ، والحجاج بن ناشب العدوىّ ، ورقَبة ابن الحُر فى فرْسان بنى تميم وشجعانهم ، فحاصرهم ابْنُ خازم ، فكانوا يخرجون إليه فيقاتلونه ، ثم يرجعون إلى القصر ، فخرج ابن خازم يوما فى ستّةِ آلاف ، وخرج أَهْلُ القَصْر إليه ، فقال لهم بشر : ارجعوا فلن تطيقوه ، فحلف زهير بن ذؤَيب بالطَّلاق إنه لا يرجع حتى ينقضَ[4] صفوفَهم ، فاستبطن نَهْرًا قد يَبِس ، فلم يَشعر به أصحاب ابن خازم حتى حمل عليهم ، فحطَّم[5] أوّلهم على آخرهم ، واستدار وكرّ راجعا ، واتبعوه يصيحون به ، ولم يَجسُر أحد ينزل إليه حتى رجع إلى موضعه ، فحمل عليهم ، فأفرجُوا له حتى رجع ،

---

(١) قصر قرنبا — بفتح القاف والراء وسكون النون وباء موحدة : موضع بخراسان . وقيل : بمرو ، وفى الطبرى (٦—٧٧) : فرتنا . وفى المراصد : فرتنا — بفتح أوله وسكون ثانيه ، وتاء مثناة من فوق ونون مفتوحة — مقصور : قصر بمرو الروذ .

(٢) من الطبرى .

(٣) فى الطبرى : المزنى .

(٤) فى الكامل : يتعرض .

(٥) فى الكامل : فحط .

فقال ابْنُ خازم لأصحابه : إذا طاعنتم زهَيرًا فاجعلوا فى رِمَاحكم كَلاَلِيب ، ثم علقوها فى سِلَاحه ، فخرج إليهم يومًا فطاعنهم ، فأعلقوا فيه أربعةَ رماح بالكَلاليب ، فالتفت إليهم ليحَمل عليهم ، فاضطربتْ أيديهم ، وخلَّوا رماحَهم ، فعاد يجرّ أربعة أرماح حتى دخل القَصْر ، فأرسل ابن خازم إلى زهير ، فضَمِن[1] له مائة ألف وميْسان[2] طعمةً ليُنَاصحه ، فلم يُجبْه ، فلما طال الحِصار عليهم أرسلوا إلى ابْنِ خازم أن يمكِّنهم من الخروج ليتفرّقوا ، فأبى إلّا على حُكْمِه ، فأجابوه إلى ذلك ، فقال زهير : ثكلتكم أمهاتكم ، والله ليقتلنَّكم عن آخركم ، فإن طِبتْم بالموت نَفْسًا فموتوا كِرَامًا ، اخرجُوا بنا جميعا ، فإما أن تموتوا كرامًا ، وإما أن ينجو بعضكم ويهلك بعضكم ، وأيم الله لئن شددْتم عليهم شَدَّة صادقةً ليفرجن لكم ، فإن شئتم كنتُ أمامكم ، وإن شئتم كنتُ خلفَكم ، فأبَوْا عليه ، فقال سأُريكم ؛ ثم خرج هو ورَقَبة بنُ الحُر وغلام تركىّ وابن ظهير ، فحملوا على القوم حملَةً منكرة فأفرجوا لهم ، فمضوا . فأمّا زهيْر فرجع إلى مَنْ بالقصر ونجا أصحابُه ، فقال زهَير لمَنْ بالقصر : قد رأيْتم ، أطيعونى ، فقالوا : إنَّا نَضعُف عن هذا ونطمع فى الحياة ، فقال : والله لا أكون أعجزَكم عند الموت ، فنزلوا على حكم ابن خازم ، فأرسل إليهم فقيَّدهم ، وحُمِلوا إليه رجُلا رجُلا ، فأراد أن يَمُنَّ عليهم ، فأبى عليه ابنهُ موسى ، وقال له : إن عفوْتَ عنهم قتلتُ نفسى ، فقتَلَهُمْ إلا ثلاثة ، أحدهم الحجاج

(١) فى الكامل : يضمن .

(٢) ميسان — بالفتح ثم السكون وسين مهملة ، وبعد الألف نون : كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان (المراصد) .

ابن ناشب ، شفع فيه بعض مَنْ معه فأَطْلَقه ، والآخر جيْهان ابن مَشْجعَة الضبّى ، وكان قد منع القوم مِن قَتْلِ محمد عبد الله ، ورمى نفسَه عليه ، فأَبَوْا ، فترَكَه لذلك ، والآخر رجل من بنى سعْد من تميم ، وهو الَّذى ردّ الناس عن ٱبن خازم يوم لحقوه ، وقال : انْصرِفوا عن فارسِ مُضَر .

قال : ولمّا أرادوا حملَ زهير بن ذؤَيب وهو مقيَّد أَبَى ، واعتمد على رُمْحِه ، فوثب الخندق ، ثم أَقبل إلى ٱبن خازم يحجِل فى قيودِه ؛ فقال له ابْنُ خازم : كيف شكرُك إنْ أطلقْتك وأطعمتك مَيْسان ؟ قال : لو لم تصنع بى إلاَّ حقْن دَمِى لشكرتك ، فلم يمكنه ٱبنه موسى من إطْلَاقِه ، فقال له أبوه : ويْحك ، تقتل مِثْل زهير ، مَنْ لقتال عدو المسلمين ، مَن[1] لنساء العرب؟ فقال : والله لو شركت فى دمِ أخى لقتلتك ، فأمر بقتله ، فقال زهير : [إن][2] لى حاجةً ، لا تقتلنى وتخلط دمى بدماء هؤلاء اللِّئام ، فقد نهيتُهم عما صنعوا ، وأَمَرْتهم أن يموتوا كِرَامًا ويخرجوا عليكم مُصْلِتين ، وأيم الله لو فعلوا لذَعَروا[3] بنَيِّك هذا . وشغلوه بنفسه عن طلب ثأْر أخيه ، فأمر به ٱبن خازم فقتل ناحية .

وحجّ بالناس فى هذه السنة عبْدُ الله بن الزبير .

---

(١) فى الكامل : من لحمى نساء العرب .

(٢) ساقطة فى ك .

(٣) فى الكامل : لأذعروا بنيك .

سنة سبع وستين

فى هذه السنة استعمل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبًا على البصرة ، فقتل المختارَ كما تقدَّم ، ثم عزَلَه عن العراق ، وٱستعمل ٱبنه حمزة بن عبد الله. وكان حمزة جوادًا مخلِّطا ، يجود أحيانًا حتى لايدع شيئا يَملِكه ، ويمنَعُ أحيانًا ما لا يمنع مثلُه ، وظهر منه بالبَصْرَة خِفَّة وضَعْف ، فكتب الأَحنف إلى أبيه ، وسأله أن يعْزلَه عنهم ، ويعيد مصعبًا ، فعزَلَه ، فاحتمل مالاً كثيرًا من مال البَصْرة ، فعرض له مالك ٱبن مِسْمَع ، فقال : لانَدعُك تخرج بأَعطياتنا ؛ فضمن له عبيد الله ابن عَبْدِ الله العطاء ، فكفّ عنه ، وشخَصَ حمزة بالمال إلى المدينة ، فأَودعَه رجالا ، فجحدوه ، إلا رجلا واحدا ، فوَفى له ، فبلغ ذلك أباه ، فقال : أَبْعدهُ الله ، أردتُ أن أباهِى به بنى مرْوان فنكَص .

وقيل : إن مصعبا أقام بالكوفة سنةً بعد قتل المختار معزولا عن البصْرَةِ ، ثم وفد إلى أخيه فردّه إلى البصرة ، وقيل : بل ٱنصرف مصعبٌ إلى البصْرة بعد قَتْل المختار ، وٱستعمل على الكوفة الحارث بن أبى ربيعة ، وكانتا فى عَمَلِهِ ، فعزله أخوه ، واستعمل ٱبنَه حمزة ، ثم عزلَ حمزة بكتاب الأَحنف وأهل البصرة ، وردّ مصعبًا ، وذلك فى سنة [٦٨هـ] ثمانٍ وستين .

وحج بالناسِ فى هذه السنة عبدُ الله بنُ الزبير ، وكان العمّال مَن تقدم ذكرهم ، وكان على قضاء الكوفة عبدُ الله بنُ عتبة بنِ مسعود ، وعلى قضاء البصرة هشامُ بن هُبيرة .

سنة (٦٨ هـ) ثمان وستين

ذكر حصار الرى وفتحها

وفى هذه السنة أمر مُصْعَب بنُ الزبير عتَّابَ بن وَرْقَاء الرِّياحىّ عاملَه على أَصْفَهَان بالمسير إلى الرَّى وقتالِ أهلها ، لمساعدتهم الخوارج على يزيد بن الحارث ، كما تقدم ، وامتناعهم فى مدينتهم ، فسار إليهم عتّاب ، وقاتَلَهم ، وعليهم الفرُّخان ففتحها عَنْوة ، وغَنِم مافيها وافتتح سائرَ قلاعها ونواحيها . [والله أعلم][1] .

ذكر أخبار عبيد الله بن الحر ومقتله

وفى هذه السنة قتل عُبَيْدُ الله بنُ الحُرّ الجُعْفىّ ، وكان مِنْ خِيَار قومه صَلَاحًا وفَضْلاً واجتهادًا ، ولما قتل عثمان حضر إلى معاوية وشهد معه صِفِّين وأقام عند معاوية ، وكانت زوجته بالكوفة ، فلمّا طالت غيبته عنها زوّجها أخوها رجلا ، يقال له عِكْرِمة بن الخَنْبَص[2] ، فبلغ ذلك عُبيد الله ، فَأَقْبَلَ مِنَ الشام فخاصمه عِكْرِمَة إلى على رضى الله عنه . فقال له علىٌّ رضى الله عنه : ظاهرْتَ علينا عدوّنا وفعلْت وفعلتَ. فقال له : أتمنعنى ذلك مِنْ عَدْلك ؟ قال : لا . فقصَّ عليه قصتَه فردَّ عليه امرأتَه وكانت حُبْلى ، فوضعها عند منْ يثِق إليه حتى وضعت فألحق الولَدَ بعكرمة ، ودفع المرأة إلى عُبَيْدَ الله ، وعاد إلى الشام فأقام به حتى قتل على رضى الله عنه ، فرجع إلى الكوفة ، فلما كان

---

(١) ساقط فى د .

(٢) هذا فى ك ، د . وفى الكامل : الحبيص . والضبط فى ك .

فى وقتِ قَتْل الحسين تغيب عُبيد الله عَمْدًا ، فجعل ابْن زياد يتفقَّد أشراف أهل الكوفة ، فلم ير ابنَ الحُرّ ثم جاء بعد[١] ذلك فقال : أين كنت يا ابْنَ الحُر ؟ قال : كنْتُ مريضا . قال : كذَبْتَ ، ولكنك كنْت مع عدونا . قال : لو كنْتُ معه لَرُئى مكانى . وغفل عنه ابْنُ زياد ، فخرج وركب فرسه ، ثم طلبه فقيل له : ركب الساعة ، فبعث الشرط خَلْفه فأدركوه فقالوا : أجب الأمير ، فقال : بلغوه عَنِّى أنى لا آتِيه طائعا أبدًا ، وركض فرسه ، وأتى منزل أحمد بن زياد الطائى ، فاجتمع إليه أصحابُه ، ثم خرج حتى أتى كَرْبَلاء ، فنظر إلى مصارع الحسين رضى الله عنه ، ومَنْ قتل معه ، فاستغفر لهم ثم مضى إلى المدائن . وقال فى ذلك[٢] :

يقول أميرٌ غادرٌ حقٌّ[٣] غادِرٍ ... أَلَا كنتَ قاتلتَ الشهيد[٤] ابن فاطمهْ
ونَفْسى على خِذْلانه واعتزالِه ... وبيعةِ هذا الناكثِ العهد لائمَهْ
فياندمى ألا أكونَ نَصَرْتــه ... ألا كلُّ نفسٍ لا تسدّد نادِمُه
وإنِّى لأنى لم أكن مِن حُماتِه ... لذو حسْرة ما إنْ تفارِق[٥] لازِمهْ
سقَى الله أرواح الَّذينَ تآزَرُوا ... على نَصْره سُقْيا[٦] من الغَيْث دائمهْ
وقفتُ على أجدائهم ومجالِهِمْ ... فكاد الحَشَى ينقَضُّ والعَيْنُ ساجِمَهُ

(١) فى الكامل : ثم جاءه بعد أيام .
(٢) الأبيات فى الكامل : ٣-٣٩٣ .
(٣) فى الكامل : وابن غادر .
(٤) فى الكامل : الحسين .
(٥) فى الكامل : ألا تفارق .
(٦) فى الكامل : تبادروا ... إلى نصره سحا ...

لَعُمْرِى لقد كانوا مَصاليتَ فى الوَغَى ... سِراعًا إلى الْهَيْجا حُمَاةً خَضارِمهْ
تأسَّوا على نَصْرِ ابنِ بِنْتِ نبيِّهِمْ ... بأسيافهمْ آسادُ غِيْلٍ ضَراغِمهْ
فان يُقتَلوا فكلٌّ[1] نفس تقيةٍ ... على الأرض قد أضحت لذلك واجِمهْ
وما إن رأى الراءون أفضل منهمُو ... لدى الموتِ ساداتٍ وزهْرًا[2] قَماقِمهْ
أتقتلهم ظلْمًـا وترجو وِدادنا ... فَدعْ خطَّةً لَيست لنا بمُلائمهْ
لَعَمْرِى لقد راغَمْتمونا بقَتْلهمْ ... فكم ناقمٍ منَّا عليكم وناقِمَهْ
أَهُمُّ مِرارًا أن أسير بجحْفَلٍ ... إلى فئةٍ زاغَتْ عن الحقّ ظالمهْ
فكفُّوا وإلا زرْتكمْ فى[3] كتائبٍ ... أَشَدّ عليكم من زحُوفِ الدَّيالِمهْ

قال : وأقام ابن الحُرّ بمنزلهِ على شاطىء الفرَات إلى أن مات يزيد ، ووقعت الفتنة ، فقال : ما أرَى قرشيا يُنْصِف ، أين أبْنَاءُ الحرائر ؟ فأتاه كلُّ خليع ، ثم خرج إلى المدائن فلم يَدَعْ مالاً قدم به للسلطان[4] إلا أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابِه ، ويكتب لصاحبِ المال بما أخذ منه ، ثم جعل يتقصَّى الكور على مثل ذلك ، إلا أنه لم يعترض لمالِ أحد ولا دمِه ، فلم يزلْ كذلك حتى ظهر المختارُ وسمع ما يعمله ابْنُ الحرِّ فى السَّواد ، فأخذ امرأتَه[5] فحبسها ، فأقبل عُبَيد الله فى أصحابه إلى الكوفة ، فكسر بابَ السجْنِ ، وأخرجها ، وأخرج كلَّ امرأةٍ كانت فيه ، ومضى ، وجعل يعبث بعمال المختار وأصحابه ، فأُحرقت داره فى همْدان ، ونهبت ضَيْعَته ، فسار إلى ضِيَاع همذان

(١) فى الكامل : فى كل .
(٢) د : وزهر – بكسر الراء . وفى الكامل : وزهر .
(٣) فى الكامل : زدتكم بكتائب .
(٤) فى ك : السلطان .
(٥) امرأته أم سلمة الجعفية كما فى الطبرى .

فنهبها[١] جميعا ، وكان يأتى المَدَائنَ فيمرّ بعمّال جُوخَى[٢] فيأخذ ما معهم من المال ، ثم يميل على الجَبَل ، فلم يزل على ذلك حتى قتِل المختار .

وقيل : إنه بايع المختار بعد امتناعٍ ، وسار مع إبراهيم بن الأشتر إلى الموصِل ، ولم يشهَدْ معه قتال ابن زياد ، وتمارض ، ثم فارق ابْن الأشتر ، وأقبل إلى الأنبار فى ثلاثمائة ، فأغار عليها ، وأخذ ما فى بيْتِ مالها ، فلما فعل ذلك أمرَ المختارُ بهدْمِ داره وأخذ امرأتَه ، ففعل ما تقدّم ذِكْرُه ، وحضر مع مُصْعب قتالَ المختار ، فلما قتِل المختارُ قال الناس لمصعب : إنَّا لا نأْمَن أنْ يَثِب عُبيد الله بن الحرّ بالسّواد كما فعل بابْنِ زياد والمختار ، فحبسه ، فكلّم قوما من وجوه مذْحِج ليشفعوا له إلى مصعب ، وأرسل إلى فِتْيَان مذْحج ، فقال : البسوا السلاحَ واستروه ، فإن شفّعهم مصعب وإلاّ فاقصدوا السجنَ فإننى سأُعينكم مِنْ داخل .

فلما شفَع أولئك النَّفَر شفّعهم مُصْعب فيه ، وأطلقه ، فأتى منزله ، وأتاه الناس يهنئونه ، فكلّمهم فى الخروج على مصعب ، وقال لهم : قاتِلوا عَنْ حرِيمكم ، فإنى قد قلبْتُ ظهر المِجن[٣] واظهرْتُ العداوَة ولا قوةَ إلا بالله .

وخرج عن الكوفة ، وحارَبَ وأغار ، فأرسل إليه مُصعب سيْفَ بن هانئ

---

(١) فى الطبرى : إلى ضياع عبد الرحمن بن سعيد بن قيس فأنهبها .

(٢) فى ياقوت بضم الجيم ، وفى البكرى بفتحها . وهى بلد بالعراق .

(٣) فى ك : السجن — تحريف .

المرادى ، فعرضَ عليه خراجَ بادُرويا[١] وغيرها ، ويدخل فى الطاعة ،فلم يُجب إلى ذلك ، فندب لقتاله الأَبْرد بنَ قرّة الرِّيَاحى ،فقاتَله فهزمه عُبيد الله وضربه على وجهه ، فبعث إليه حُرَيْث بن زَيْد فقتله ، فبعث إليه الحجاجَ ابن حارثة[٢] الخَثْعَمى ، ومسلم بن عَمْرو ، فلقياه بنَهْرِ صَرْصَر[٣] ، فقاتلهما وهزمهما ، فأرسل إليه يَدْعُوه إلى الأَمَانِ والصِّلَة ، وأن يولِّيه أىَّ بلدٍ شاء؛ فلم يقبل ذلك وأتى نَرْسا[٤] ، ففر دهْقَانها بمالٍ إلى عين التَّمْر[٥] وعليها بِسْطام بن مصقلة بن هبيرة الشيبانى ، فالتجأ الدهقان إليه ، فتبعه عبيد اللهفقاتله بِسْطام ، ووافاه الحجاجُ ابن حارثة[٢] ، فأسرهما عُبيد الله ، وأسر جماعةً كثيرة ممَّنْ معهما ، وأخذ المال الذى مع الدهقان ، وأطلَقَ الأُسارى وأتى تَكْرِيت ، فأقام بها يجْبى الخَراج ،فبعث إليه مُصْعب الأَبرد بن قرّة الرياحِى ، والجَوْن ابن كَعْب الهَمْدَانى فى ألفٍ ، وأمدَّهم المهلَّبُ بيزيد بن المغفَّل فى خمسمائة ، فقاتلهم يوْمَيْن وهو فى ثلاثمائة . فلما كان عند المساء من اليوم الثانى تحاجَزوا ، وخرج عُبيد الله من تَكْرِيت ، وسار نحو كَسْكَر ، فأخذ بيْتَ مالها ، ثم أتى الكوفةَ فنزل إلى ديْر الأَعْوَر[٦] ، فبعث إليه

(١) بادورا : بالواو والراء وياء وألف : بالجانب الغربى من بغداد . وفى د : باذوريا .

(٢) فى الكامل ، والطبرى (٦–١٣٢) : جارية .

(٣) صرصر : بالفتح والسكون وتكرير الصاد والراء : موضعان من نواحى بغداد (المراصد) .

(٤) نرس : بالفتح ثم السكون ، وآخره سين مهملة : نهر حفره نرس ابن بهرام بنواحى الكوفة ، وأخذه من الفرات .
وفى الطبرى : نرسى .

(٥) عين التمر : بلدة فى طرف البادية على غربى الفرات (المراصد) .

(٦) دير الأعور : بظاهر الكوفة ، بناه رجل من إياد .

مصعب حَجّار بن أَبْجر فانهزم حجّار ، فشتمه مُصْعب ، وضم إليه الجَوْنَ بن كَعْب الهَمْدَانى وعُمر بن عُبيد الله بن مَعْمر ،فقاتلوه بأجمعهم ، وكثرت الجراحات فى أصحاب ابن الحُر ، وعُقرت خيولهم ، فانهزم حجّار ، ثم رجع فاقْتَتَلوا قِتَالا شَديدا ، حتى أمْسوا[1] ، وخرج ابن الحُر من الكوفة ،فكتب مُصْعب إلى يزيد ابن الحارث بن رُويم الشيبانى وهو بالمدائن [يأْمره][2] بقتاله ، فقدَّم ابْنه حَوْشبًا ، فقاتله فهزَمَه عُبيد الله ، وأقبل إلى المدائن فتحصَّنوا منه ، فندب إليه الجَوْن بن كَعْب الهمدانى وبِشْر بن عبْد الله الأَسدى ، فنزل الجَوْن بحَوْلَايَا [3] ، فخرج إليه عبد الرحمن بن عَبْد الله فقتله ابْنُ الحرّ وهزم أصحابه ، وخرج إليه بشير بن عبد الرحمن ابن بشير العِجْلِي ، فقاتله بسُورَا[4] قتالا شديدا ، فرجع عنه بشير ، وأقام ابن الحُرّ بالسواد يُغير ويَجْبِى الخراج .

ثم لحق بعَبْد الملك بن مروان ، فلما صار إليه أكرمه وأجلسه معه على السرير ، وأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطى لمَنْ معه مالاً ، فقال له ابن الحرّ : وجِّهْنِى بجُنْد أُقاتل بهم مصعبا ، فقال له : سِرْ بأصحابك ، وادْعُ مَنْ قدرت عليه ، وأنا ممدُّك بالرجال ، فسار فى أصحابه نحو الكوفة إلى أن انتهى إلى الأنبار ، فنزل بقَرْيَةٍ بجوارها ، واستأْذنه أصحابه فى إتيان الكوفة ، فأذن لهم ، وأمرهم أن يُعْلموا أصحابه بمقدمه ليَخْرُجوا إليه ، فبلغ ذلك القَيْسية

(١) فى ك : أيسوا .
(٢) من الطبرى ، والكامل .
(٣) حولايا — بفتح أوله وسكون ثانيه : قرية كانت بالنهروان .
(٤) موضع بالعراق من أرض بابل (ياقوت) .

فأتوا الحارث بن [عبد الله بن][1] أبى ربيعة عامل ابن الزُّبير بالكوفة ، فسألوهُ أن يُرْسِلَ معهم جَيْشًا يقاتلون به عُبيد الله ويغتنمون الفرْصَة فيه بتَفْريق أصحابه ، فبعث معهم جيشا كثيفًا ، فساروا إليه ، فقال له مَنْ بَقى معه من أصحابه : نحن فى نَفَرٍ يَسيرٍ ، ولا طاقةَ لنا بهذا الجيش ، فقال : ما كنتُ لأدعهم ، وحمل عليهم وهو يقول :

يالك يوما فَات فيه نَهْبى وغاب عنِّى ثِقَتِى وصَحْبى

فعطفوا عليه فكشفوا أصحابه ، وحاولوا أن يَأْسِرُوه ، فلم يقدروا على ذلك ، وأذِنَ لأصحابه فى الذّهاب ، فذهبوا فلم يعْرِضْ لهم أحد ، وجعل يقاتِلُ وَحْده وهم يَرْمُونَه ولايَدْنون منه ، وهو يقول : أهذه نبل أم مغَازل ! فلما أثخنَتْهُ الجِراح خاض[2] إلى مَعْبر فدخله ولم يدْخل فَرسُه ، فركب السفينة ، ومضى به الملاَّح حتى توسط الفرات ، فأشرفَت الخيلُ عليهم ، وكان فى السفينة نَبط ، فقالوا لهم : إن فى السفينة طَلبةَ أمير المؤمنين ، فإن فاتكم قَتَلْنَاكم ، فوثب ابن الحُرّ ليرمىَ نفسه فى الماء ، فوثب إليه رجُلٌ عظيم الخلْق ، فقبض على يَديْه ، وجِرَاحَاته تَجْرى دمًا ، وضربهُ الباقون بالمجاديف ، فقبض على الذى أمسكه ، وألقى نَفْسَه فى الماء ، فغرِقَا معا .

وقيل فى قتله : إنه كان يغْنَى مُصعب بن الزبير بالكوفة فرآه يُقدِّم عليه غَيْره ، فكتب إلى عَبْد الله بن الزبير قصيدةً يعاتب فيها مُصْعبا ويخوِّفه مسيره إلى عبد الملك بن مرْوَان يقول فيها[3] :

---

(١) من الطبرى . (٢) فى الكامل : حاص .

(٣) والكامل ، والطبرى : ٦–١٣٦ .

أبلغْ أميـر المؤمنين رسالةً
فلستُ على رأْيٍ قبيح أُوارِبُهْ
أفى الحق أنْ أُجفى[١] ويَجعَلُ مُصْعَـبٌ
وزِيرَيْه[٢] منْ قد كنْتُ فيه أُحاربُه
فكيف ، وقد أبليْتكم[٣] حقَّ بَيْعَتِى
وحَقِّى يُلَوَّى عندكمْ وأُطالِبُـه
وأبليتكم مالاً يُضيِّـع مِثْـلُه
وآسيْتكم والأمـرُ صعْبٌ مراتِبُـه
فلما استنار المُلْك وانقـادتِ العِـدَا
وأُدرِك مِنْ مال[٤] العراق رَغائِبُـه
جَفَا مُصْعَبٌ عنِّى ولو كان غيْـره
لأصبح فيما بيننا لا أُعاتِبُـه
لقد رابنى مِنْ مُصْعب أنَّ مُصْعبـا
أرى كلَّ ذى غِشٍّ[٥] لنا هو صاحِبُه
إذا قمتُ عند الباب أُدخِلَ مُسْلِمٌ[٦]
ويمنعنى أن أدْخُل البـاب حَاجِبُـه

(١) فى ك : أخفى .
(٢) فى الكامل : وزيرا له ...
(٣) فى الكامل : آتيتكم ...
(٤) فى الكامل : ملك العراق .
(٥) فى الكامل : ذى عيش . وفى د : عش .
(٦) فى الكامل : أدخل مسلما .

أشار بقوله: وزِيريْه ؛ إلى مُسْلم بن عَمْرو والد قتَيْبة ، والمهلَّب ابن أبى صُفْرة ، ويدلُّ على ذلك قوله أيضا فى غيرها[1] :

بأىّ بلاءٍ أم بأيَّةِ نعمة تَقَدَّم قَبْلى مسلمٌ والمهلَّبُ

قال : فحبسه مصعب ، وله معه معاتَبَاتٌ من الحَبْس ، وقال فى قصيدة يهجو فيها قيس عَيْلَان منها[2] :

ألم تَرَ قَيْسًا قَيْس عَيْـلَان بَرْقَعَـــتْ
لِحَاها وباعت نَبْلَها بالمغـــازل

فأرسل زفَر بن الحارِث الكِلاَبى إلى مُصْعب يقول: قد كفَيْتك قتالَ ابْن الزَّرْقَاء - يعنى عبد الملك . وابن الحُرِّ يَهْجُو قَيْسا ؛ ثم إنَّ نفرًا من بنى سُليم أَسَرُوا عُبيد الله بن الحرّ ، فقال : إنما قلت[2] :

ألم تر قَيْسًا قَيْس عيْلان أقبلت إلينا وسارت فى القنَا[3] والقَنَابل

فقتله رجل منهم يقال له عيَّاش ، والله أعلم .

وفى هذه السنة [سنة ٦٨هـ] وافَى عرفات أربعة ألوية : لواء ابن الزبير وأصحابه ، ولواء ابن الحنفية وأصحابه ، ولواء لبنى أمية ، ولواء لنَجْدَة الحَرُورِى ، ولم يَجْرِ بينهم حَرْب ولا فِتْنَة .

وكان العاملُ على المدينة جابر بن الأسود بن عَوْف الزُّهْرِى ،

(١) والطبرى : ٦-١٣٦ .
(٢) والطبرى : ٦-١٣٧ .
(٣) فى الطبرى : بالقنا .

وعلى البصْرة والكوفة مُصْعب بن الزبير ، وعلى قضاهما منْ ذكرنا قَبْلُ ، وعلى خراسان عبْد الله بن خازم .

وفيها توفّى عَبْدُ الله بن عبّاس بن عبد المطلب ،وعدىّ بن حاتم الطائى. وقيل فى سنة [٦٦هـ]ست وستين ، وله مائة وعشرون سنة .

سنة (٦٩ هـ) تسع وستين

فى هذه السنة شخَص مُصْعب بن الزبير إلى مكّة ومعه أموالٌ عظيمة ودوابّ كثيرة ، فقسم فى قومه وغيرهم ، ونحر بُدْنا كثيرة . وقيل : كان ذلك فى سنة [٧٠هـ] سبعين .

وحجّ بالناس عَبْدُ الله بن الزُّبَيْر ؛ وفيها حَكَّم رجُلٌ من الخوارج بمنى ، وسلَّ سيْفَه ، وكانوا جماعة ، فأمسك اللهُ أيديهم ، فقتل ذلك الرجل عند الجمْرَة[١] . وكان عُمّال الأمصار منْ ذكَرْنا .

سنة (٧٠ هـ) سبعين

ذكر يوم الجفرة [٢]

فى هذه السنةِ سارَ عَبْدُ الملك بن مَرْوان يُريد مُصْعب بْنَ الزبير ، فقال له خالد بن عَبْدَ الله بن أسيد : إن وجّهْتَنى إلى البَصْرَة وأتبعتنى خَيْلا رجوت أن أغلِب لك عليها ، فوجّهه عَبْدُ الملك ، فقدمها مستخفيا فى خاصّتِه حتى نزل على عَمْرو بن أَصْمَع . وقيل : على علىّ بن أَصْمع الباهلى ، فأرسل عَمْرٌو[٣] إلى عَبّاد بن الحصين وهو على شرطة

(١) الجمرة : بمكة ، وهى موضع رمى الجمار (البكرى) .
(٢) بالضم وآخره هاء : موضع بالبصرة .
(٣) فى ك : عمرا — تحريف .

ابن معمر، وابن معمر خليفة مصعب على البَصْرَة ، ورَجَا ابْن أَصْمَع أنَّ عبَّاد بن الحُصَين يُتَابعه ، وقال له : إنى قد أجرْتُ خالدا وأحببْتُ أنْ تَعلم ذلك لتكون ظَهيراً لى ؛ فوافَاهُ الرسولُ حين نزل عَنْ فَرسه ؛ فقال عَبَّاد : قلْ له: والله لا أَضَعُ لبد فَرَسِى حتى آتيك فى الخَيْل ، فقال ابن أَصْمَع لخالد : إنَّ عبَّادًا يأْتينا الساعةَ ، ولا أقدِرُ أمنَعُك منه ؛ فعليك بمالك بن مِسْمع ، فخرج خالد يركض فَرَسَه حتى أتى مالكًا فقال : أَجِرْنى فأَجاره ، وأرسل إلى بكْر بن وائل والأَزْد ، فأَقبلَت إليه ، وأقبل عباد فى الخيل ، فتواقَفوا ولم يكنْ بينهم قِتَال ، فلما كان الغد غَدوْا إلى جُفْرة[1] نافع بن الحارث ، ومع خالد رجالٌ مِنْ تميم ، منهم صعْصَعة بن معاوية وعبْد الله بن بشر ومُرّة بن مَحْكَان وغيرهم ، وكان من أصحاب خالد ، عُبيْد الله بن أبى بَكْرة ، وحُمْران بن أبان ، والمغيرة بن المهلَّب. ومن أصحاب ابن معْمر ؛ قيْس بن الهيْثَم السلمى ، وأمدّه مُصْعب بِزَحْر بن قَيْس الجُعفى فى ألْف ، وأمدَّه عبْدُ الملك خالدًا[2] بعُبيد الله بن زياد بن ظبيان ، فبلغه تفرُّق الناسِ ، فرجع إلى عبْد الملك . والتقى القَوْم ، واقتتلوا أربعةً وعشرين يوما ، ومشَتْ بينهم السُّفَراء ، فاصطلحوا على أنْ يُخْرِج خالدًا من البصرة ، فأَخرجه مالك ، ولحق مالك بشأج[3] ، وجاء مُصْعب إلى البصْرة ، وطمع أنْ يُدْرِك خالدًا فوجده قد خرج ، فسخط على ابْنِ معْمر ، وقال لعُبيد الله بن أبى بَكْرة : يا ابْنَ مسروح ، إنما أنت ابن كَلْبة تعاورها

(١) فى الطبرى (٦-١٥٢) : حفرة .

(٢) ك : خالد . وفى الطبرى ، والكامل : ووجه إليه عبد الملك عبيد الله ابن زياد بن ظبيان مددا لخالد .

(٣) فى ك : بالتباج . والمثبت فى الطبرى ، وياقوت (الجفرة) .

الكلاّب ، فجاءت بأحمر وأصفر وأسود من كلّ كَلْب بما يُشبِهه ، وإنما كان أبوك عبْدًا نزل إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من حِصْنِ[١] الطائف ، ثم ادعيْتم أنَّ أبا سفيان زَنَى بأُمكم ، ووالله لئن بَقِيتُ لألحقنكم بنسبكم .

ثم دعا حُمْران فقال له : إنما أنْتَ ابْن يهودية عِلْج نبطى سُبِيت من عيْن التَّمْر . وقال للحكم بن المنذر بن الجارُود ، ولعبْدِ الله ابن فضالة الزهرانى ، ولعلى بن أَصْمَع ، ولعبد العزيز بن بِشر وغيرهم نحو هذا من التوبيخ والتقريع ، وضربهم مائةً مائة ، وحلق رءوسهم ولحاهم وهدَم دُورَهم ، وصَهَرَهم فى الشمس ثلاثا ، وحملهم على طلاقِ نسائهم ، وجهز[٢] أولادهم فى البعوث ، وطاف بهم فى فى أقطار البصرة ، وأحلفهم ألاَّ ينكحوا الحَرائر ، وهدمَ دَارَ مالك ابن مسمع ، وأخذ ما فيها ؛ فكان فيما أخذ منها جارية ولَدتْ له عمرو[٣] بن مصعب .

وأقام مصعب بالبصرة ، ثم شخص إلى الكوفة فلم يزَلْ بها حتى خرج لِحرْبِ عَبْد الملك .

وحجّ بالناس فى هذه السنة عَبْدُ الله بن الزُّبير .

---

(١) فى ك : حضر .
(٢) فى الطبرى : وجمر .
(٣) فى الطبرى : عمر .

سنة (٧١ هـ) احدى وسبعين

فى هذه السنة كان مقتل مُصْعب بن الزُّبيْر واستيلاء عبد الملك ابن مرْوان على العِراقِ على ما نذكر ذلك إن شاء الله مبيَّنا فى أخبار عبد الملك .

وفيها عَزَلَ عبْدُ الله بن الزبير جابرَ بن الأَسود عن المدينة ، واستعمل عليها طَلْحة بن عَبْد الله بن عوف ، وهو آخر والٍ كان له على المدينة حتى أتاه طارق بن عمْرو ولى عثمان فهرب .

سنة (٧٢ هـ) اثنتين وسبعين

فى هذه السنة قتل عَبْدُ الله بن خازم أمير خراسان ، واستولى عبد الملك على خراسان على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى أخباره

وفيها انتزع عبْدُ الملك المدينةَ من عَبْدِ الله بن الزُّبير ، واستعمل عليها طارق بن عمرو ؛ فلم يبق مع ابْنِ الزُّبير إلا مكَّة .

سنة (٧٣ هـ) ثلاث وسبعين

فى هذه السنة كان مَقْتَل عبْدِ الله بن الزبير واستقلالُ عبد الملك ابن مرْوَان بالأمر ، جرْيًا على القاعدة التى قدمناها أنْ نذكرالواقعة بجملتها ونُحِيل عليها فى أخبار المغلوب ، وعند ذِكْرنا لمَقْتَل عبْد الله ابن الزبير نذكر نبذةً من سيرته وأولاده ، فلنرجع إلى أخبار الدولة الأُموية .

ذكر بيعة مروان بن الحكم

هو أبو الحكم ، وقيل أبو عَبْد الملك ، مَرْوان بن الحكم بن أبى العاص ابن أُميّة بن عَبْد شمس بن عَبْد مناف بن قُصَىّ ، يجتمعُ نسبَهُ ونَسبُ معاوية فى أُمية ، وهو الرابع من ملوكِ بنى أُمية ، وكان النبىُّ صلى الله عليه وسلم طَرَد أباه إلى بَطْن وَجّ [1] ، فنزل الطائف ، وخرج معه ابْنُه مروان . وقيل : إن مرْوان وُلد بالطف .

واختلف فى السبب الموجبِ لنَفْيِ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكَمَ ، فقيل : كان يتحيّل ويستخفى ويسمع ما يُسِرُّه رسولُ الله عليه الصلاة والسلام إلى كِبار أصحابه فى مشركى قريش وسائر الكفار والمنافقين ، وكان يُفْشِى ذلك عنه ، حتى ظهر ذلك عليه ؛ وكان يحْكِى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مِشْيته وبعْضِ حركاته ، وكان النبىُّ عليه [2] الصلاة والسلام إذا مشى تكفَّأ ، فكان الحَكَم يحْكِيه ، فالتفت النبىُّ صلى الله عليه وسلم يوما فرآهُ يفْعلُ كذلك ، فقال : فكذلك فلتكُنْ . فكان الحكم مُخَلّجا يرتعش من يومئذ ، فعيَّره عبد الرحمن بن حسان ، فقال فى عَبْد الرحمن بن الحكم يهجوه :

إنَّ اللَّعِينَ أبوك فارْمِ عِظَامَــــه ... إن تَرْمِ تَرْمِ مخلَّجا مجنونا
يمشى خَمِيص البطن من عَمل التُّقَى ... ويظلُّ مِنْ عملِ الخبيثِ بَطِينـا

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لمرْوان بن الحكم حين قال

(١) وج — بالفتح ، ثم التشديد : واد بالطائف (المراصد) .
(٢) د : صلى الله عليه وسلم

فى أخيها عبد الرحمن ما قال : أما أنْتَ يا مرْوَان فأشهد أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت فى صُلْبه .

وعن عَبْد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : يدخلُ عليكم رَجُلٌ لعِين. قال عبْد الله : وكنت قد تركْتُ عمْرًا يلبسُ ليُقْبِلَ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فلم أزَلْ مُشْفِقًا أنْ يكونَ أوّل مَنْ يدخل ، فدخل الحَكَم بن أبى العاص ، فلهذا قال عبد الرحمن بن حسان فى شعره : إنَّ اللعينَ أبوك. ولم يزل الحَكَمُ طريدا إلى خلافة عثمان بن عَفَّان فردّه إلى المدينة ، وقال : إن النبىَّ عليه الصلاة والسلام كان أذِن فى رَدّه .

وكان إسلام الحكم يوم فَتْح مَكَّةَ ، ومات فى خلافة عثمان قبل القيام عليه بأشْهر .

ووُلِدَ مرْوَان على عهْدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قبل سنة [٢ هـ] اثنتين من الهجرة ، وقيل عام الخَنْدَق ، وقيل يَوْمَ أُحُد ، وقيل ولِد بمكة ، وقيل بالطائف ، ولم يَرَ مرْوَان رسول الله عليه (١) الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طِفْلاً لا يَعْقِل ، وقدم المدينةَ مع أبيه فى خلافة عثمان ، ثم تُوفى أبوه فاستكْتَبهُ عثمان ابن عفان ، وضمَّه إليه ، فاستولى مَرْوَان عليه ، وغلب على رأْيه حتى كان سبب قيام الناس على عُثمان وقتلِه .

حكى أبو عمر بن عبد البر فى كتابه المترجم بالاستيعاب (٢) أنَّ علىّ بن أبى طلب رضى الله عنه أتى مرْوان يوما ، فقال : ويْلك

---

(١) د : صلى الله عليه وسلم .
(٢) صفحة ١٣٨٨ .

وويْل أُمّةٍ محمدمنك ومن بنِيك إذا شابتْ ذِرَاعاك[١] . وكان مَرْوان يقال له خيط باطِل ، وضُرِب يوم الدّارِ على قَفاه فخرّ لِفيه . وفيه يقول أخوه عبد الرحمن بن الحكم وكان ماجِنًا شاعرًا ، وكان لايرى رَأْى مروان :

فوالله ما أدْرِى وإنى لسائـــــل
حليلة مضروب القَفَا كَيْف يصنـع
لحا اللهُ قوْمًا أمَّرُوا خَيْطَ باطـــل
على الناس يُعطى منْ يشاء ويمنـع

وقيل: إنه قال ذلك حين ولاّه معاوية المدينة ، [وكان كثيرا مايهجوه][٢] .

وأم مَرْوَان آمِنة بنت عَلْقمة بن صفوان ، وكان مَرْوَان قصيرًا رقيقًا أوْ قَص[٣] ، بُويَع له بالجَابِيَة[٤] يوم الخميس لسَبْع بَقِين من شهر رجب سنة [٦٤هـ] أربع وستين ، وقيل فى ذى القعدة منها.

ذكر السبب فى بيعة مروان

كان سبَب بَيْعَته أن عبدَ الله بن الزُّبيْر لما بُويع له بالحجاز والعراق استعمل أخاه عُبَيْدَة بن الزُّبَيْر على المدينة ، فأخرج مَرْوَان بن الحكم وابْنَه منها إلى الشام ؛ فلما قدم الحُصَيْن بن نُمَيْر ومَنْ معه إلى الشام أخبر مرْوان بما كان بينه وبين ابن الزبير ، وقال له ولِبَنِى أمية :

---

(١) فى الاستيعاب : إذا ساءت درعك .
(٢) ساقط فى ك .
(٣) أو قص : قصير العنق .
(٤) الجابية : قرية من أعمال دمشق .

أَقِيموا أَمْرَكم قبل أَنْ يدخل عليكم شامكم[١] ، فتكون فتنة عمْياء صماء. وكان مِنْ رَأْى مرْوان أَنْ يسير إلى عبْد الله بن الزُّبيْر فيبايعه ،فلما قدم عُبيد الله بن زياد من العراق قال لمروان : لقد استحييت لك من ذلك ، وأنت كبيرُ قريش وسيِّدُها ؛ وقَبَّح ذلك عليه ، فقال : ما فات شيء بعْدُ ، وقام إليه بنو أُميَّة ومواليهم فتجمع[٢] إليه أَهْلُ اليمن ، فسار إلى دمشق فقدمها والضحَّاك بن قَيْسٍ الفِهْرِى يصلِّى بالناس قد بايَعُوه على ذلك إلى أن يتَّفِقَ رأْىُ الناس على إمام ، وهو يَدْعُو إلى ابْنِ الزبير سرًّا ،والنعمان بنُ بشِير الأَنصارى بِحِمْص يُبَايع له أَيضًا . وكان حسانُ بن مالك بن بَحْدَل الكلبى غلامًا لمعاوية[٣] وابنه يزيد بفلسطين وهو يريد[٤] بَنِى أُمية .

فكتب حسان إلى الضحاك كتابًا يعظِّم فيه حَقَّ بنى أُمية وحُسْنَ بلائهم ، ويذمّ ابْنَ الزُّبيْر ، وأنه خلع خليفتين ، وأمره أن يقرأ كتابَه على الناس . وكتب كتابًا آخر ، وسلَّمه إلى رسوله واسمه ناغِضَة ، وقال له : إن قرأ [الضحاك][٥] كتابى على الناس وإلَّا فاقْرَأْ هذا الكتاب عليهم .

وكتب [حسان][٥] إلى بنى أُمية أن يحضروا ذلك ، فقدم نَاغِضَة ، فدفع كتابَ الضحَّاكِ إليه وكتابَ بنى أُمية إليهم .

فلما كان يوم الجمعة صعد الضحَّاك المنبر ، فقال له ناغضة :

---

(١) فى الكامل : شأنكم .
(٢) فى الطبرى : وتجمع .
(٣) فى الكامل : بفلسطين عاملا لمعاوية .
(٤) فى الطبرى : يهوى .
(٥) من الطبرى .

اقرأ كتابَ حسّان على الناس. فقال له : اجلس ، فجلس ، ثم قام الثانية والثالثة وهو يأمره بالجلوس ، فأخرج ناغِضَة الكتابَ الذى معه ، وقرأه على الناس ، فقام يزيد بن أبى النمس[1] الغسّانى ، وسُفيَان ابن الأبرد الكلبى ، فصدّقا حسانا ، وشتمَا ابْنَ الزبير ، وقام عمرو ابن يزيد الحكمى فشتمَ حسانا ، وأثنى على ابن الزُّبَيْر ، واضطرب الناس ، فامر الضحاك[2] بيزيد وسفيان فحُبِسا ، ووثبَتْ كلْب على عمرو بن يزيد فضربوه وخَرَقُوا ثيابهُ ، وقام خالد بن يزيد[3] ، فسكنَ الناس ، ونزل الضحّاك فصلّى الجمعةَ بالناس ، ودخل القَصْرَ فجاءت كَلْب فأخرجوا سفيان ، وجاءت غَسّان فأخرجوا يزيد ، وكان أهلُ الشام يُسَمُّون ذلك اليوم يوم جَيْرُون[4] الأول .

ثم خرج الضحاك بن قَيْس إلى المسجد ، وذكر يزيد بن معاوية فسبّه ، فقام إليه شابٌ من كَلْب فضربه بعصًا ، فقام الناسُ بعضهم إلى بعض فاقتتلوا ؛ فقَيْس تَدْعو إلى ابن الزبيْر ونُصْرَة الضحاك ، وكَلْب تَدْعُو إلى بنى أمية .

ودخل الضحاك دَار الإمارة ، ولم يخرج من الغَدِ لصلاةِ الفَجْرِ ، وبعث إلى بنى أميَّة فاعتذر إليهم ، وأنه لا يريدُ ما يكرهون ، وأمرهم أن يكتبوا إلى حسان ، ويكتب معهم ليسير من الأُرْدنّ إلى الجابية ، ويسيرون[5] هم من دمشق إليها فيجتمعون بها ويبايعون لرجلٍ من

(١) فى الكامل : الغمس . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٢) فى الطبرى : فأمر الضحاك بالوليد بن عتبة ويزيد بن أبى النمس .

(٣) فى ك : سويد .

(٤) جيرون — بالفتح : عند باب دمشق ، وقال قوم : جيرون هى دمشق نفسها (ياقوت) .

(٥) فى الكامل : ويسيروا .. فيجتمعوا ... ويبايعوا .

بنى أمية ، فرضُوا ، وكَتَبُوا إلى حسّان ، وسار الضحّاك وبنو أمية نحو الجابِيَة ، فأتاه ثور بن معْن السُّلَمى ، فقال : دعوتنا إلى ابنْ الزُّبيْر فبايعْنَا (١) على ذلك ، وأنت تسير إلى هذا الأعرابى مِنْ كَلْب يستخلف ابْنَ أخته (٢) خالد بن يزيد .

قال الضحاك : فما الرأْىُ؟ قال : الرأْىُ أن نُظْهِر ما كنَّا نكتم ونَدعو إلى ابْنِ الزُّبير ،فرجع الضحاك بمنْ معه من الناس ، فنزل مرْجَ راهط ودمشقُ بيده ، واجتمع بنو أمية وحسّان وغيرهم بالجابِيَة ، فكان حسّان يُصلِّى بهم أربعين يومًا والناسُ يتشاوَرُونَ ، وكان مالك بن هُبيْرة السَّكونِى يهْوى خالد بن يزيد والحُصيْن بن نمير يميل إلى مَرْوان ، فقال مالك للحُصيْن : هلمّ نبايع هذا الغلام الذى نحن ولدنا أباه [وهو ابْنُ أختنا] (٣) ، وقد عرفْت منزلتَنا من أبيه ، فإنه يحْمِلنَا على رِقَاب العرب. يعنى خالد بن يزيد . فقال الحُصَيْن : لا والله لا تأْتينا العَرَبُ بشَيْخٍ ونأْتيها بصبىّ . فقال مالك : والله لئن استخلفْتَ مرْوان ليحسدنَّك على سَوْطِك وشِراكِ نَعْلِك وظلِّ شجرة تستظلُّ بها ، إنّ مرْوَان أبو عشرة(٤) وأخو عشرة(٤) وعَمُّ عشرة(٤) ، فإن بايعْتموه كنْتم عبيدًا لهم ، ولكن عليكم بابْنِ أختكم [خالد] ، فقال الحُصيْن :إنى رأيْت فى المنام قِنْدِيلا معلَّقا من السماء وأن مَنْ يلى الخلافةَ يتناوله ، فلم ينله إلاَّ مروان ؛ واللهِ لنستخلفنَّه .

---

(١) فى الطبرى : فبايعناك .

(٢) فى الطبرى : ابن أخيه . والمثبت فى ك ، د ، والكامل .

(٣) زيادة من الطبرى .

(٤) فى الطبرى ، والكامل :أبو عشيرة .

وقام روْح بن زِنْباع الجُذامى فقال : أيُّها الناس ، إنكم تذكرون عبْدَ الله بن عُمر وصُحْبته وقَدَمه فى الإسلام ، وهو كما تذكرُونَ ، ولكنه ضعيف ، وليس بصاحِب أُمَّة محمد الضعيفُ ، وتذكرون ابْنَ الزبير وهو كما تذكرون ، إنه ابْن حوَارِىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأُمُّه ذات النِّطَاقَيْن ، ولكنه منافِق قد خَلَع خَلِيفتَيْن : يزيد ، وابنه معاوية ، وسفَكَ الدماء ، وشقَّ عصا المسلمين ، وليس المنافق بصاحبِ أُمَّةٍ بمحمد

وأما مرْوان بن الحكم فوالله ما كان فى الإسلام صدْعٌ إلا كان ممن يشْعبُه ، وهو الذى قاتل [عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذى قاتل] (١) علىّ بن أبى طالب يوْم الجَمَل ، وإنّا نَرى للنَّاس أنْ يُبايعوا الكبير ، ويستشبُّوا (٢) الصغيرَ - يعنى بالكبير مرْوان ، وبالصغير خالد بن يزيد . فأجمع رَأْيُهُم على البيْعةِ لمَرْوَان ، ثم لخالد ابن يزيد ، ثم لعَمْرو بن سَعِيد بن العاص من بعْدِ خالد ، على أنَّ إمرة دمشق لعمْرو ، وإمْرَة حِمْص لخالد .

فدعا حَسَّان خالدًا ، فقال : يا بْنَ أُختى ؛ إنَّ الناس قد أَبَوْكَ لحداثةِ سنِّك ، وإنى واللهِ ما أُرِيدُ الأَمْرَ إلَّا لكَ ولأهل بيتك ، وما أُبايِعُ مرْوَانَ إلا نظَرًا لكم . فقال خالد : بل عُجِّزْت عنا . فقال : والله ما أنا عجزت (٣) ، ولكن الرأْى لك ما رأيتُ .

---

(١) من الطبرى .

(٢) فى الكامل : ويستشيروا .

(٣) فى الطبرى : لا ، والله ما عجزت عنك .

ثم بايعُوا مَرْوان لثلاثٍ خَلَوْن من ذى القعدة سنة [٦٤هـ] أربع وستين ، وقال مرْوَان حين بويع له (١) :

لما رأيتُ الأَمْرَ أَمْرًا نَهْبـــا يسَّرْتُ(٢) غَسَّانَ لَهُمْ وكَلْبا
والسَّكْسكِيِّين رجَالاً غلْبـــا وطيِّئا تأْباهُ إلَّا ضرْبـــا
والقَيْن تمشى فى الحديد نُكْبا ومن تَنوخَ مُشمخِرا صعْبـــا
لا يأْخذونَ المُلْكَ إلا غصْبـــا فإن دنَتْ قَيْسٌ فَقلْ لاقرْبا

ذكر موقعة مرج (٣) راهط

وقتل الضحاك بن قيس بن خالد الفِهْرى والنعمان ابن بشير بن سَعِيد بن تغْلب الأنصارى الخَزْرجى

قال : ولمَّا بُويع مرْوَان بن الحكم سار من الجابِية إلى مرْج رَاهِط ، وبه الضحاك بن قيْس ومَنْ معه ؛ وكان الضحاك قد استمدّ النعمان ابن بشير وهو على حِمْص ؛ فأَمدَّه بشرحبيل بن ذِى الكَلَاع ، واستمدّ أيضًا زُفَر بن الحارث فأَمدّه بأَهل قنَّسْرِين ، وأَمده نَاتِل بأَهلِ فلسطين ، وكان ناتِل بن قَيْس قد وثب بفلسطين لَمَّا خرج منها حسّان بْنُ مالك إلى الأُرْدُنّ ، وأَخرج خليفته روْح بن زِنْبَاع ، وبايع نَاتِل لابْنِ الزبير ، فاجتمعت هذه الأَمْدادُ مع الضحاك .

واجتمع إلى مرْوَان كَلب ، وغَسّان ، والسَّكَاسِك ، والسَّكُون ؛

(١) والطبرى : ٥ــ٥٣٨ .
(٢) فى ك : بشرت .
(٣) مرج راهط : بنواحى دمشق .

وجعل على مَيْمَنتِه عمْرو بن سعِيد ، وعلى ميسرته عُبَيد الله بن زياد ، وكان يزيد بن أبى النِّمس[١] الغسانى مُخْتَفِيا بدمشق لم يحضر الجابِيَة ،فغلب على دِمَشْق ، وأخرج عنها عامِلَ الضَّحاك بن قَيْس ، واستولى على الخزائن وبَيْتِ المال ، وبايع لمَرْوَان ، وأمدّه بالأموال والرجال والسلاح ، فكان ذلك أول فَتْحٍ على بنى أمية .

وتحارب مَرْوَان والضحاك بمَرْجِ رَاهِط عشرين ليلة ؛ واقتتلوا قتالا شديدًا ؛ فقُتِل الضحاك ، قتلَه زُحْنَة[٢] بن عَبْد الله الكلبى ، وقُتِل معه ثمانون رجلا من أشراف الشام ، وقُتلت قيس مقْتلةً عظيمة لم تقتل مثلها فى مَوْطنٍ قطّ ،وكان ممن قتل هانىء بن قبيصة النميرى سيِّد قومه ، قتله وازع بن ذُؤَالَة الكلبى ،فلما سقط جريحا قال[٣] :

تعست ابن ذات النوْفِ أجْهِزْ على فتى[٤]
يرى المَوْتَ خَيْرا من فِرَارٍ وأكْـــرَمَا[٥]
ولا تترُكَنِّى بالحشاشة إننى
صبُور إذا ما النِّكْسُ مِثْلُكَ أحجمـا

فعاد إليه وازِع فقتله ، وكانت هذه الوقعة فى المحرم سنة [٦٥هـ] خمس وستين.

وقيل : كانت فى آخر سنة أربع وستين .

---

(١) فى الكامل : يزيد بن أبى الغمس ،وقال بالسين المهملة . وقيل بالشين المعجمة . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٢) فى الكامل : دحية . والمثبت فى د ، والطبرى .

(٣) والكامل : ٣ ــ ٣٢٨ .

(٤) فى الكامل : على امرىء . (٥) فى الكامل : وألزما .

ولما أتى (١) مرْوَان برَأْسِ الضحاك ساءه ذلك ، وقال : الآن حين كبِرَتْ سِنِّى ودقَّ عظْمى أقبلْتُ بالكتائِب أضْرِبُ بعْضَها ببعض .

وقيل : إنَّ الضحّاك كان فى ستين ألف فارس ومَرْوَان فى ثلاثة عشر ألفا .

حكى المدائنى فى كتاب المكايدله ، قال : لما التقى مَرْوَان والضحاك بمرْج راهِط قال عُبيْد الله بن زياد لمَرْوان : إن فرْسان قيْسٍ مع الضحاك فلا ننال منه ما نريد إلَّا بكيْدٍ ، فأَرْسِلْ إليه فاسأَله المُوَادَعةَ حتى ننظرَ فى أمرك ، على أنك إنْ رأيْت البيعة لابْنِ الزبير بايعْتَ ، ففعل فأجابه الضحاك إلى الموادعَة ، وأصبح أصحابُه قدوضعوا سِلاحهم ، وكفُّوا عن القِتَال ، فقال ابن زياد لمروان : دونك . فشَدَّ مَرْوَان ومَنْ معه على عسْكَرِ الضحاك على غَفْلَةٍ منهم وانتشارٍ ،فقتلوا مِنْ قيس مقتَلةً عظيمة ، وقُتل الضحاك يومئذ فلم يضحك رجالٌ من قيس بعدَيَوْم المَرْج حتى ماتوا .

وقيل المكيدة كانت من عُبيْد الله بن زياد ، كاد بها الضحاك . وقال له : مالكَ والدعاء إلى ابن الزبير ! وأنت رجل قرشى ومعك الخَيْل ، وأكْثَرُ قيس ؟ فادْعُ لنفسك ، فأنت أسنُّ منه وأولى .

ففعل الضحاكُ ذلك ، فاختلف عليه الجنْدُ ، فقاتله مَرْوان عند ذلك فقتل . والله أعلم .

قال: ولما انهزم الناس من المَرْج لحقوا بأَجْنَادهم ، فانتهى أَهْلُ

(١) فى الكامل : ولما رأى . وفى الطبرى : وجاء برأس الضحاك رجل من كلب .

حِمْص إليها وعليها النعمانُ بن بشِير ، فلما بلغه الخَبَرُ خرج هاربا ومعه امرأتُه نائلةبنت عُمَارة الكَلْبِيّة وثَقَلُه وأولاده ، فتحيّر ليلَتَه كلها ، فأصبح أهل حِمْص فطلبوه ، وكان الذى طلبه عَمْرو بن الخَلِىّ[١] الكَلَاعى فقتله .

وقيل : اتبعه خالد بن عدىّ الكَلَاعى فيمن خفّ معه من أهل حِمْص فلحقه فقتله وبعث برأسه إلى مَرْوان .

وقال على بن المدينى : قُتِل النعمان بن بَشير بحمص غِيلةً قتلَهَ أهلُها .

وقيل : قُتِل بقرية من قُرَى حمص يقال لها تِيزِين[٢] . والنعمان من الصحابة ، وُلِدِ قبل وفاة رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بثمانى سنين.

قال : ولما بلغت الهزيمةُ زُفَرَ بن الحارث الكلابى بِقِنّسْرِين[٣] هرَب منها ، فلحق بقرْقِيسيا[٤] وعليها عِياض الجُرَشى[٥] ، وكان يزيد [بن معاوية][٦] ولّاهُ إياها ، فطلب منه أن يدخل الحمّام ويَحْلِف له بالطلاق والعِتاق أنه إذا خرج من الحمّام لا يُقيم بها ، فأَذِن له ، فدخلها ، فغلب عليها وتحصَّنَ بها ، ولم يدخل حمّامها ، واجتمعت إليه قيس . وهرب ناتل بن قَيْس الجُذَامى من فلسطين ، فلحق بابْنِ الزبير بمكّة ؛ واستعمل مرْوَانُ بعْده على فلسطين روح بن زِنْبَاع ، واستوثق الشام لمَرْوَان .

(١) فى الكامل : ابن الحلى – بالحيم . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٢) فى : ك تيرين – بالراء . وفى ياقوت : بعد الزاى ياء ساكنة ونون : قرية كبيرة من نواحى حلب .

(٣) بتشديد النون بفتحها أو كسرها .

(٤) قرقيسياء : بلد على نهر الخابور (المراصد) .

(٥) فى الكامل : الحرسى . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٦) من الطبرى .

وقيل : إن عُبيد الله بن زياد إنما جاء إلى بنى أمية وهُمْ بتَدْمر ، ومَرْوَان يريد أن يسيرَ إلى ابْنِ الزُّبير فيُبَايعه[١] ويأخذ منه الأمانَ لبنى أمية ، فردّه عن ذلك ، وأمره أنْ يسير بأَهْلِ تَدْمُر إلى الضحاك فيقاتله ،وواقفه[٢] عَمْرو بن سعيد ،وأشار على مَرْوان أن يتزوَّج أم خالد ابن يزيد ليسقُط من أعْيُنِ الناس،فتزوجها ، وهى فاخِتَة ابنة أبى هاشم ابن عُتْبة ، ثم جمع بنى أمية فبايعوه ، وبايعه أهل تَدْمُر .

وسار إلى الضحاك فى جَمْعٍ عظيم ، وخرج الضحاكُ إليه ، فاقتتلا ، فقُتل الضحاكُ ، وسار زُفَر بن الحارث إلى قَرْقِيسياء ، وصحِبهُ فى هزيمته شابان من بنى سُلَيم ؛ فجاءت خَيْلُ مرْوان فى طلبه ، فقال الشابان له : انْجُ بنفسك ، فإنَّانحن نقتل. فمضى زفر وتركهما فقتلا ، وقال زُفَرَ فى ذلك[٣] :

أَرِينى سِلَاحِى لا أَبالكِ إنَّنى ... أَرَى الحرْب لاتَزْدَادُ إلاَّ تَمادِيـا
أَتانِىَ عنْ مرْوَانَ بالغَيْبِ أنـه ... مُقِيدٌ دمِى أو قاطِعٌ مِنْ لِسَانِيَا
ففى العيش[٤] مَنْجاةٌ وفى الأَرضِ مَهْرَبٌ ... إذا نحن رَفَّعْنَالهنَّ المَثَانِيا
فلا تحْسِبُونى إن تغيَّبتُ غَافِلاً ... ولا تَفْرَحُوا إنْ جئْتُكُم بلِقَائِيـا
فقد ينبُت المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى ... وتبقى حَزَّاراتُ النفوسِ كماهِيَا[٥]

(١) فى الكامل : ليبايعه .
(٢) فى ك : وواقعه . والمثبت فى الكامل أيضا .
(٣) الشعر فى الكامل : ٣ ــ ٣٢٩ ، والطبرى : ٥ ــ ٥٤١ ، والأغانى : ١٧ ــ ١١٢ ، وشرح ديوان الحماسة للتبريزى : ١ ــ ١٥٣ .
(٤) فى الطبرى : فى العيس .
(٥) فى الكامل : له ورق من تحته الشر باديا .

لعمْرِى لقد أبقَتْ وَقيعةُ راهِطٍ لحسَّان صَدْعًا بيننا مُتَنَائيا
فلم تُرمِنِّى نَبْوَةٌ قَبْل هَـــذه فِرَارِى وتَركى صاحِبَىَّ وَرائيا(١)
عشيَّةَ أدْعُو(٢) بالقِرَانِ فلا أرَى مِنَ الناس إلَّا مَن علَىَّ ولالِيا
أيذهَبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتُـــه بصالِح أيامى وحُسْنِ بَلَائِيـا
فلاصُلْح حتى تَنْحِطَ(٣) الخَيْلُ بالقَنَا ويَثْأَر مِنْ نِسْوَان كَلْبٍ نِسَائيا

فأجابه جوَّاس بن القَعْطَل (٤) :

لعَمْرِى لقد أبقت وَقِيعةُ راهِطٍ على زُفَرداءَ (٥) من الداءِ باقِيا
مُقِيما ثَوَى بين الضُّلوع مَحَلُّه وبين الحشا أعْيا الطبِيب المُداويا
تُبَكِّى على قَتْلَى سُلَيمٍ وعامِـر وذُبْيَانَ معْذُورًا وتُبكى البوَاكِيا
دعا بسلاحٍ (٦) ثم أحجم إذْرَأى سيوفَ جنَابٍ والطِّوَالَ المَذَا رِيَا
عليها كأُسْد الغاب فتْيانُ نجدة إذا أشْرَعُوا نَحْو الطِّعَان العواليا

(١) صاحباه : ابنه كعب ؛ ومولاه مسكان (شرح الحماسة) .
(٢) فى الكامل : عشية أدعو فى القران . . . .
(٣) فى الكامل: تشحط . والنحط : صوت الخيل من الثقل والإعياء (اللسان).
(٤) الشعر فى الطبرى : ٥ ـ ٥٤٢ ، والكامل : ٣ ـ ٣٢٩ .
(٥) فى الكامل : مرا من الداء .
(٦) فى الكامل : دعا بالسلاح .

ذكر مسير مروان الى مصر

واستيلائه عليها

قال : ولما قُتل الضحاكُ واستقرَّ الشامُ لمَرْوَان سار إلى مِصْر فقدمها ، وعليها عَبْدالرحمن بن حجدر (١) الفِهْرِى يَدْعُو لابن الزُّبيْر ، فخرج إلى مَرْوان فيمن معه ، وبعث مَرْوان عمْرو بن سعِيد مِنْ ورائه ، حتى دخل مصر ، فقيل ذلك لابن حجدر ، فرجع فبايَع الناس مرْوان ، وجاء مرْوان إلى مصر ، ودخل الدار البيْضَاء ، ثم سار عنها واستعمل عليها ابْنَه عبد العزيز ابن مرْوان ، واستقرّ مرْوان بدمشق .

ذكر البيعة لعبد الملك وعبد العزيز ابنى مروان

ابن الحكم بولاية العهد

وفى سنة [٦٥هـ] خمس وستين أمر مَرْوان بالبيْعة لابنيه : عبد الملك ، وعبد العزيز ، وكان سبب ذلك أن عمْرو بن سعِيد كان قد توجّه إلى فلسطين ، وقاتل مُصْعَب بن الزبير حين وجّهه أخوه عبد الله إليها (٢) فهزم مُصْعبا ، ورجع إلى مرْوان وهو بدمشق ، وقد غلب على الشام ومِصْر ، فبلغ مرْوان أنَّ عَمْرو بن سعيد يقول : إن الأَمْرَ لى مِنْ بعْد مرْوان ، فدعا حسانَ بن مالك بن بَحْدَل ، فأخبره بما بلغه عن عمْرو ، فقال : أنا أكفيك عَمْرًا . فلما اجتمع الناسُ عند مَرْوان قام حسان فقال : إنَّه بلغنى أنَّ رجالاً يتمنَّوْن أمانىّ ، قومُوا فبايِعُوا لعبْدِ الملك

(١) فى الكامل : حجدم القرشى .

(٢) فى الطبرى : إلى فلسطين .

وعبد العزيز من بَعْدِه ، فبايعوا من عند آخرهم .

وفى هذه السنة بعث مرْوان بن الحكم بعثَيْن : أحدهما مع عُبيد الله بن زِياد إلى الجزيرة ومحاربة زُفَر بن الحارث بقرْقِيسيَا ، واستعمله على كل ما يفْتَتِحُه ، فإذا فرغ من الجزيرة توجَّه لقَصْدِ العراق. فلما كان بالجزيرة بلغه موتُ مرْوان ، وأتاه عهْد عبد الملك بن مروان [يستعمله] (١) على ما استعمله عليه أبوه ويحثُّه على المسير إلى العراق .

والبعث الثانى (٢) مع حُبَيْش بن دَلْجةَ (٢) القَيْنِى ، فسار حتى انتهى إلى المدينة وعليها جابر بن الأسود بن عَوْف ابن أخى عَبْد الرحمن بن عَوْف من قِبَل ابْنِ الزبير ، فهرب منه جابر .

ثم إن الحارث بن أبى ربيعة وجَّه جَيْشًا من البَصْرة وجعل عليهم الحَنْتفَ (٤) بن السِّجْف التميمى لحَرْب حُبَيْش . فلما سمع بهم حُبَيْش سار إليهم من المدينة ، وأرسل عَبْدُ الله بن الزبير عَبّاس (٥) ابن سهل الساعدى إلى المدينة أميرا ، وأمره أن يسير فى طلب حُبَيْش حتى يُوافى جيْشَ البصرة ، فأقبل عبّاس (٥) فى آثارهم حتى لحقهم بالرَّبذَة فقاتلهم حُبيش ، فرماه يزيد بن سِياه (٦) بسَهْمٍ فقتله ،

---

(١) من الكامل . (٢) فى الكامل : الآخر .

(٣) ضبطه ابن الأثير بفتح الدال واللام . وضبطه الطبرى بضم الدال وسكون اللام . وفى تاج العروس: هو مسكن ومحرك. والضبط فى الإكمال (٢ — ٧١) أيضا .

(٤) الضبط فى الإكمال ، والمشتبه : ٢٥٧ . وفى الكامل : الحنيف .

(٥) فى الطبرى : عياش . (٦) فى الكامل : بن سنان .

وكان معه يومئذ يوسف بن الحَكَم ، وابنُه الحجّاج بن يوسف ، وهما على جَمَلٍ واحدٍ ، وانهزم أصحابُه فتحرّز منهم خمسمائة بالمدينة ، فقال لهم عباس : انزِلُوا على حُكْمِى ، فنزلوا فقتلهم ، ورجع فَلّ حُبَيْش إلى الشام .

ذكر وفاة مروان بن الحكم

كانت وفاتُه فى شهر رَمَضان سنة [٦٥هـ] خمس وستين . قيل : مات بالطاعون . وقيل : بل كان سببُ موتِه أنه لما بُويع بالخلافةِ أراد حسّان بن بحْدَل أنْ يجعلَ الأمْر من بعده لخالد بن يزيد بن معاوية ، فبايعه على ذلك ، فقيل لمرْوان : الرأىُ أن تتزوّج أمَّ خالد تكفل ابنها حتى يصغر شأنه فلا يطلب الخلافةَ . فتزوّجها .

وقد ذكرنا ذلك ، فدخل خالدٌ يومًا على مَرْوان ، وعنده جماعةٌ نظر إليه وهو يمشى بين الصفّين فقال : إنّه (١) والله لأحمق ، تعال : يا بْنَ الرطْبةِ الاسْتِ ، يريد بذلك إسقاطَه مِنْ أعينُ أهْل الشام ، فقال له خالد : مؤتمن خائن . فندم مَرْوان ، ثم دخل خالد على أمّه ، فقال : هكذا أردت ، يقول لى مرْوَان على رءوس الناس كذا وكذا . فقالت له : لا يُعْلَمنَّ ذلك منك ، فأنا أكفيك ، فواللهِ لا ترى بعْدُ منه شيئًا تكرهه ، وسأُقرِّب عليك ما بَعُد .

ثم دخل مَرْوَان عليها ، فقال لها : قال لك خالد فىّ شيئًا ؟ قالت : إنه أشدُّ تعظيما لك مِنْ أنْ يقولَ فيك شيئًا . فصدّقها ،

(١) الكامل : إنك .

ومكثَتْ أياما بعد ذلك ، فنام مَرْوانعندها فى بعض الأيام، فوضعَتْ علىوَجْهِه وِسَادَةً ، وجلستْ عليها حتى مات . وهو معدودٌ ممَّنْ قتلَه النساء .

ومولده سنة [٢هـ] اثنتين من الهجرة ، وكان عمره ثلاثا وستين سنة .واختلف فيه إلى نَيِّف[1] وثمانين سنة. وصلَّى عليه ابْنُه عبدُالملك ، وكانتولايته منذ جُدِّدتْ له البيْعةُعشرةَ أشهر تقريبا ، وكان سلطانه بالشام ومصر .

أولاده : عبد الملك ، ومعاوية ، وعمرو ، وعُبيد الله ، وعَبْد الله ، وأبَان ،وداود ، وعبد العزيز ، وعبد الرحمن ، وبِشر ، ومحمد ، وأم عمار .

كاتبه : سفيان الأحول . وقيل : عُبيْد الله بن أوس .

قاضيه : أبو إدريس الخولانى .

حاجبه : أبو سهْل مولاه .

نقش خاتمه : الله ثِقَتِى ورَجائِى .

***

ومَرْوَان أوّل مَنْ قَدَّم الخطبةَ قبل صلاةِ العيد ، وكان يقال له ولولده بنو الزَّرْقَاء ، يقول ذلك منْ يريد ذَمَّهم وعَيْبهم ، وهى الزرقاء بنت موهب جدّة مرْوَان لأبيه ، كانت من ذوات الرايات التى يُستدلّ بها على بيوتِ البغايا ؛ فلهذا كانوا يُذمّون بها ،ولعل هذا منهاكان قبل أن يتزوَّجَها أبو العاص بن أمية[2] والد الحكم ، فإنه كان مِنْ أشرافِ قُريش ، ولا يكون هذا من امرأةٍ وهى عنده . والله أعلم .

---

(١) مازاد علىالعقد فهو نيف إلى أن يبلغ العقد الثانى (القاموس—نوف).
(٢) فى الكامل : ابن أبيه ..

ذكر بيعة عبد الملك بن مروان

هو أبو الوليد عبْد الملك بن مَرْوَان بن الحكم ، وهو الخامس من ملوكِ بنى أمية .

وأمه عائشة بنْتُ المغيرة بن أبى العاص ، وهو أوّل مَنْ سُمِّى عبد الملك فى الإسلام ، ولُقِّب رشح الحَجر[1] لبُخْله ، ولُقِّب أيضًا بأبى الذِّبَّان[2] لبخره . وقيل : إن السبب فى بخره أنه كان يَتْلُو القرآنَ فى المصحف ، فأفضت الخلافةُ إليه وهو يَتْلُو ، فَردّ المصحفَ بَعْضَه على بَعْض ، وقال : هذا فِرَاقُ بَيْنى وبينك ، يُشير بهذا الكلام إلى المصحف فبَخِر لوقْته ، وعجزت الأطباءُ عن مداواته ، فكان لا يمرُّ ذُباب على فِيه إلا مات لوقته[2] ،وكان أفْوَه مفتوحَ الفَم مُشَبَّك الأسنان بالذَّهب .

بويع له فى شهر رَمضان سنة [٦٥هـ] خمس وستين بعد وفاةِ أبيه ، وكان ولىَّ عَهْدِه كما تقدّم ، وأرادعَبْدُ الملك أن يقتلَ أُمَّ خالد ، فقيل له : يظهر عند الناس أنّ امرأةً قَتَلَتْ أباك ، فتركها ، وكان عبدُ الملك وُلدِ لسبعة أشهر ، فكان الناس يذمُّونه بذلك .

قيل : إنه اجتمع عنده قومٌ من الأشراف ، فقال لعُبَيد الله ابن زياد بن ظبيان البَكْرِى : بلغنى أنكَ لا تُشْبِه أبَاك ! فقال : والله إنى لأَشْبَهُ به من الماء بالماء والغرابِ بالغراب ، ولكن إن شئْتَ !

---

(١) رشح – كمنع : عرق . ولم يرشح له بشىء : لم يعطه (القاموس – رشح).

(٢) الذبان : جمع ذباب . وفى ك : الذيجان – تحريف. وفى العقد الفريد (٤–٣٩٩) : وكانت تدمى لثته فيقع عليها الذباب ، فكان يلقب أبا الذباب .

أخبرتُك بمن لم تُنْضِجْه الأرحام ، ولم يولد لتمام ، ولم يُشْبه الأخوال ولا الأعْمَام. قال : مَنْ ذاك ؟ قال : سُوَيد بن مَنْجُوف .

فلما خرج عُبيد الله وسُويد قال له سُويد : والله ما يسرُّنِى بمقالتك له حُمْر النعم . فقال عُبيْد الله : وما يسرُّنى والله باحتمالك إياى وسكوتك عنى سودُها .

قال : وكان أول ما بَدأ به عَبْدُ الملك أنْ كتب إلى عُبيد الله بن زياد واستعملَه على ما كان مَرْوَان قد استعمله عليه ، فكان من أخبار ابن زِياد فى مسِيره وحُروبه ومَقْتَله ما قدَّمْنَاه فى أخبار عبْدِ اللهِ ابن الزبير ، فلا حاجة لنا إلى إعادته ههنا ، فلنذكر من أخبار عَبْدِالملك غير ما قدمناذكره :

فى سنة ست وستين أرسل عَبْدُ الله بن عباس ابْنَهُ[1] علىّ ابن عَبْد الله إلى عَبْد الملك ،وقال : لأن يربُّنى بنو عَمّى أحبُّ إلىّ من أن يربَّنى[2] رجُلٌ من بنى أسد- يعنى ببنى عمِّه بنى أُمية ، لأنهم كلهم أولاد عبد مناف ، ويعنى بالرجل من بنى أسد عبْدَ الله بن الزُّبير .

فلما وصل إلى عبدالملك سأله عن اسْمِه وكنْيَتِه ، فقال :الاسم علىّ ، والكنية أبو الحسن . فقال عبد الملك : لا يجتمع هذا الاسم وهذه الكنية فى عَسْكرى أنْتَ أبو محمد .

---

(١) فى الكامل : ابن .

(٢) ربه يربه ، أى كان له ربا (النهاية) .

ذكر مقتل عمرو بن سعيد الأشدق

وشىء من أخباره [ونسبه] (١)

هو عَمْرو بن سَعِيد بن العاص بن أمية(٢) بن عَبْد شمس ابن عبد مناف ،ويسمى عَمْرو اللطيم لميل كان فى فَمِه(٣) ، فمن أجل ذلك قيل له لطيم الشيطان ، ويُسَمَّى الأشدق لتشادُقِه فى الكلام ، وكان من فُصحاء قُريش وأهل الخطابة منهم . وقيلَ فى تسميته الأشدق : إنه لما مات سعِيد والده دخل عَمْرو على معاوية فاستنطقه ، فقال :إن أوّل مركب صَعْب. فقال له معاوية : إلى مَنْ أوْصَى بكَ أبوك؟ فقال : إن أبى أوصانى ولم يُوص بى . قال : فبأى شىء أوصاك ؟ قال : ألّا يفقد منه أصحابُه غَيْرَ شَخْصه . فقال معاوية : إن عَمْرًا هذا لأشدَق .

ولنذكر سبب مقتله ثم نذكر نَبذة من أخبار آبائه :

كان سبب مَقْتَله أنّ عَبْد الملك بن مَرْوَان سار فى سنة تسع وستين من دِمَشق يريد قَرقِيسياء ، يريد زُفَرَ بن الحارث الكلابى ، وصَحِبه عَمْرو بن سَعِيد فى سيره ، فلما بلغ بُطْنَان (٤) حَبِيب رجع عَمْرو ليلا ومعه حُميد بن حُريث وزهير بن الأبْرَد الكَلْبيَّان ، فأتى دمشق وعليها عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفى خليفة عبد الملك بها ،فهرب

(١) من ك وحدها . وانظر العقد (٤-٤٠٧) .

(٢) فى الكامل : أبيه . (٣) فى الكامل: لميل كان فى وجهه .

(٤) بطنان – بالضم ، ثم السكون ، ونونان بينهما ألف : اسم واد بين منبج وحلب (المراصد) .

عنها ودخلها عمرو ، فغلب عليها وعلى خزائنها ، وهدم دار ابن أم الحكم ؛ واجتمع الناسُ إليه ، فخطبهم ومنّاهم ووعَدهم ، وأصبح عَبْدُ الملك وقد فقد عَمْرًا ، فسأل عنه فأُخبِر برجوعه ، فرجع إلى دمشق ، فقاتله أياما ، ثم اصطلحا ، وكتبا بينهما كتابا ، وأمّنه عَبْدُ الملك ، فجاءه عَمْرو واجتمعا ، ودخل عَبْدُ الملك دِمَشق .

فلما كان بعد دخوله بأربعة أيام أرسل إلى عَمْرو يَسْتَدْعيه ، فأتاه الرسولُ وعنده عَبد الله بن يزيد بن معاوية ، فنهاه أنْ يأْتِيَه ، فقال عمرو : ولم ؟ قال : لأنّ تُبيْعَ[1] ابن امرأة كَعْب الأحبار قال : إن عظيماً من وَلد إسماعيل يرجع فيُغْلِقُ أبوابَ دمشق ، ثم يخرج منها ، فلا يلبَثُ أن يُقتل . فقال عمرو : والله لو كنتُ نائماً ما أنبَهَنِي ابنُ الزرقاء ولا اجْتَرأ عليّ ، مع أنى رأيت البارحة عُثْمَان فى المنام ، فألبسنى قميصَه .

ثم قام فلبس دِرعًا وغطّاها بالقَباء[2] ، وتقلّد سيفًا ، وذلك بعد أن صرف رسولَ عبد الملك ، فلما نهض عثر بالبِساط ، فقال له حُميد ابن حُريث : والله لو أطعتَنِى لم تَأْتِهِ ، وقالت له امرأته الكَلْبية كذلك ، فلم يلتفت ، ومضى فى مائة من مواليه .

فلما بلغ بابَ عبد الملك أُذِن له فدخل فلم يَزَلْ أصحابُه يُحْبَسون عند كل بابٍ حتى بلغ قاعةَ الدارِ ، وليس معه إلا وصِيف واحد ، فنظر عَمْرو إلى عبْدِ الملك وإذا حولَه بنو مَرْوَان ، وحسّان بن بَحْدَل الكلبي ، وقبيصة بن ذُؤَيْب الخُزاعى ، فلما رأى جماعتَهم أحسّ

(١) الضبط من الطبرى ، والقاموس .
(٢) القباء : من الثياب .

بالشر ، فالتفت إلى وصيفه ، وقال له : انطلق إلى أخي يحيى ، وقل له يأتيني ، فلم يفهم الوصيف عنه ، فقال : لبيك ! فقال عمرو : اغرُب فى حرق الله وناره[١] ، وأذِن عَبْدُ الملك لحسّان وقبيصة فقاما ، فلقيا عمْرًا ، فقال عمْرو لقَبِيصة : انطلق إلى يحيى فمُرْه أنْ يأتيني ، فقال : لبيك ! فقال : اغرب [عنى][٢] .

فلما خرج حسّان وقبيصة أُغلِقت الأبواب ، ودخل عمْرو فرحّب به عبْدُ الملك ، وقال : ههنا يا أبا أميَّة ! فأجلسه معه على السرير ، وحدّثه طويلا ، ثم قال : يا غلام ، خُذِ السيفَ عنه . فقال عمْرٌو : إنّا لله ياأميرَ المؤمنين ! فقال عَبْدُ الملك : أتطمع أن تَجْلِسَ معي متقلِّدا سيْفك ؟ فأُخذَ السيفُ عنه ، ثم تحدّثا ، ثم قال له عبد الملك : يا أبا أمية ، إنك حيْثُ خلعتني آليتُ بيمين إنْ أنا ملأْتُ عيني منك وأنا مالكٌ لك أنْ أجعلك فى جامعة[٣] ، فقال له بنو مروان : ثم تُطْلقه يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : نعم ، وما عسيت أن أصنع بأبِي أمية ! فقال بنو مرْوان : أبرّ قَسَم أمير المؤمنين . فقال [عمرو][٤] : قد أبرّ اللهُ قسمك يا أمير المؤمنين . فأخرج مِنْ تحت فراشه جامعةً ، ثم قال : ياغلام ، قم فاجمعه فيها . فجمعه الغلام فيها ، فقال عَمْرٌو : أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تُخْرجني فيها على رءوس الناس ؛ فقال عبد الملك : أمكرًا وأنتَ فى الحديد ! لا ، واللهِ ما كُنّا لنُخْرجَك فى جامعةٍ على رءُوس الناس ،

(١) فى الكامل : اغرب عنى فى حرق الله وناره .
(٢) ساقط فى الكامل .
(٣) فى الطبرى : أجمعك . والجامعة : الغل يوضع فى العنق أو اليد .
(٤) من الكامل .

ثم جذبه جَذْبةً أصاب فمه السريرُ فكسر ثنيَّتيه ، فقال : أُذكرك الله يا أمير المؤمنين ؛ كُسِرَ عظْم سنى[١] ، فلا تركَبْ ما هو أعظم من ذلك . فقال : والله لو أعلم أنك تُبْقِى [علىّ] [٢] إن أبقيتُ عليك لأطلقتُكَ ، ولكن ما اجتمع رجُلَان قطّ فى بلدة على ما نَحْنُ عليه إلا أخرج أحَدُهما صاحبَه ، وأذَن المؤذِّنُ ، وأُقيمت صلاةُ العصر ، فخرج عَبْدُ الملك يُصَلِّى بالناس ، وأمر أخاه عَبْدَ العزيز أنْ يقتُلَه ، فقام إليه بالسيف ، فقال له عمرو : أُذكرك الله والرَّحِمَ أنْ تَلِيَ قَتْلى ، لِيَقْتُلْنى مَنْ هو أبْعَدُ رَحِمًا منك ؛ فألقى عبد العزيز السيْفَ ، وجلس. وصَلَّى عَبْدُ الملك صلاةً خفيفة ، ودخل وغُلِّقت الأبواب ، ورأى الناسُ عَبْد الملك خرج وتأخَّرَ عَمْرو ، فذكروا ذلك لأخيه يحيى بن سَعِيد ، فأقبل فى الناس ومعه ألف عَبْدٍ لعَمْرو ، وخَلْق كثير ، فجعلوا يصيحون بباب عبدالملك :أسْمِعْنَا صوتك ياأبا أُميَّة ! وأقبل مع يحيى حُميد بن حُريث وزهير بن الأبرد ، فكسروا باب المقصورة ، وضربوا الناسَ بالسيوف وضُرِبَ الوليد بن عبد الملك على رأْسِه ، واحتمله إبراهيم بن عربى صاحبُ الديوان ، فأدخله بيت القراطيس ، ودخل عبد الملك حين صلَّى فرأى عمْرًا بالحياة[٣] ، فسبَّ أخاه عبد العزيز ، ثم أخذ عبْدُ الملك الحرْبة فطعن بها عَمْرًا ، فلم تُغْنِ شيئًا ، ثم ثنى فلم تجز ، فضرب بيده إلى عَضُده فرأى الدِّرْع ، قال : ودارعٌ أيضًا ! إن كنت لمُعِدًّا ، وأخذ الصمصامة[٤]

(١) فى الكامل ، والطبرى ، د : منى : وفى العقد (٤-٤٨٠) : لا عليك يا أمير المؤمنين عظم انكسر .
(٢) من الطبرى ، والكامل .
(٣) فى الطبرى : حيا . (٤) الصمصامة : السيف .

وأمر بعْمرو فصُرع ، وجلس على صدْرِه فذبحه ، وهو يقول[١]:

يا عمرو إلا تَدعْ شَتْمى ومنْقَصتِى
أضربك حيثُ تقول الهامَةُ اسْقُـونى

وانتفض عبد الملك برِعْدةٍ[٢] ، فحُمِل عن صدْرِه ، ووُضع على سريره .

ودخل يحيى بن سعيد ومنْ معه على بنى مرْوان ومواليهم ، فقاتلوهم ، وجاء عبْدُ الرحمن ابن أمّ الحكم الثقفى ، فَدُفع إليه الرَّأْس فألقاه إلى الناس ، وقام عبْدُ العزيز بن مَرْوَان ، فأخذ المالَ فى البِدَر ، فجعل يلقيها إلى الناس ، فلما رأى الناسُ الرأْس والأموال انتهبوا وتفرَّقُوا .

ثم أمر عبْدُ الملك بعْد ذلك بتلك الأموال فجُبِيت حتى عادت إلى بيْتِ المال .

قال : وأخرج عبْدُ الملك سريره إلى المسجد ، وخرج ، فجلس عليه ، وفقد الوليد ابنه ، فقال : والله ، لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثأْرهم ، فأتاه إبراهيم بن عربى الكنانى ،فقال : الوليد عندى وقد جُرح ، وليس عليه بأْس .

وأتى عبْدُ الملك بيحيى بن سعيد فأمر أن يُقْتَل ؛ فقام إليه عبد العزيز ابن مَرْوان فقال : يا أمير المؤمنين ، أتراك قاتل بنى أميه فى يوم واحد ، فأمر بيحيى فحُبِس ، وأراد قَتْلَ عَنْبَسه بن سعيد ، فشفع فيه عبدُ العزيز أيضا ، وشفع فى عامر بن الأسود الكلبى ، وأمر ببنى عَمْرو بن سعيد فحُبِسوا ؛ ثم خرجوا مع عَمّهم يحيى ، فألحقهم بمصعب . ثم بعث عبْدُ الملك إلى امرأةِ عمْرٍو الكلبية :

(١) البيت لذى الأصبع ، وهو فى اللسان — هوم .
(٢) فى الطبرى ، والكامل : رعدة .

ابعثى إلىّ [١] الصُّلْح الذى كتَبْتُ لعمرو . فقالت لرسوله : ارجعْ إليه فأَعْلمه أنَّ ذلك الصُّلْحَ معه فى أكفانه ليُخَاصِمك به عند ربِّه .

قال : ولما قَتَل عبْدُ الملك مُصْعب بن الزبير دخل أولادُ عمرٍو عليه وهم أربعة : أُمية ، وسعيد ، وإسماعيل ، ومحمد ؛ فلما نظر إليهم [عبد الملك] [٢] قال : إنكم أهل بيت لم تزالوا تَرَوْن لكم علَى جميع قومكم فَضْلاً لم يجعلْه اللهُ لكم ، وإن الذى كان بينى وبين أبيكم لم يكن حديثًا ، بل كان قديمًا فى أنفس أوَّلِيكم [٣] علَى أوَّلِينَا فى الجاهلية .

فلم يقدر أُمية أن يتكلَّم . وكان الأكبر من أولاد عمْرو ، فقام سعِيد بن عمرو [وكان الأوسط] [٤] فقال : : ياأمير المؤمنين ، ما تَنعى [٥] علينا أمرًا فى الجاهلية ، وقد جاء اللهُ بالإسلام فهدم ذلك ، ووعد جنَّةً ، وحذَّر نارًا ، وأما الذى كان بينك وبين عمرو فإنه كان ابْنَ عمك وأنت أعلم وما [٦] صنعْتَ . وقد وصل عَمْرٌو إلى الله ، وكفى بالله حسِيبًا ؛ ولعمرى لئن أخذْتَنَا بما كان بينك وبينه لبَطْنُ الأرض خَيْرٌ لنا من ظَهْرها ، فرقَّ لهم عبْدُ الملك وقال : إنَّ أباكم خَيَّرَنى بين أنْ يقتلنى أو أقتله ، فاخترْتُ قَتْلَه على قَتْلى ، وأمّا أنتم فما أرْغَبَنى فيكم وأوْصلنى لقَرابتكم ، وأحْسنَ جائزتَهم ووصلَهم وقرَّبهم .

---

(١) فى الطبرى : ابعثى إلى بالصلح الذى كنت كتبته . وفى الكامل : ابعثى إلى كتاب الصلح ...

(٢) من الطبرى .

(٣) فى الكامل : أنفس أوليائكم على أوليائنا .

(٤) من الطبرى .

(٥) فى الكامل ، د : ما تبغى .

(٦) فى الكامل : بما صنعت .

وقد قيل فى سبب قَتْله : إنه قال لعبْد الملك حين سار إلى العراق لقتال مُصْعب : إنك تخرجُ إلى العراق ، وقد كان أبوك جعل لى الأَمْر بعده ، وعلى ذلك قاتلْتُ معه ، فاجعل هذا الأَمْرَ لى بعدك ، فلم يُجِبْه عَبْدُ الملك إلى ذلك ، فرجع إلى دمشق ، وكان من أمره ما تَقدّم .

وقيل : بل كان عبْدُ الملك قد استخلفه على دِمَشق ، فوثب بها .

وقيل : إنَّ عبْدَ الملك لم يقتلَ عمْرَو بن سعيد بيدِهِ ، وإنما أمر غلامه ابن الزُّعيْزِعَة ، فقتله وأَلْقَى رَأْسَهُ إلى الناس ورمى يحيى بصخْرَة فى رأْسه ، وكان مقتله فى سنة [٦٩هـ] تسع وستين.وقيل: فى سنة سبعين . والله أعلم .

ذكر نبذة من أخبار عمرو بن سعيد الأشدق

فى الإسلام والجاهلية

كان مولد سعِيد بن العاص والدعَمْرو عام الهجرة . وقيل : سنة إحدى . وقُتِلَ جَدُّه العاصُ بنُ سعيد يوم بَدْرٍ كافرًا ، قَتَلَه علىُّ ابْنُ أَبى طالب رضى الله عنه ، وكان لجدِّ أبيه سَعِيد بن العاص ابن أميَّة ثمانيةُ بنين ، منهم ثلاثة ماتوا على الكُفْر ، وهم : أُحَيْحَة ، وبه كان يُكْنَى سَعِيد بن العاص ، وقتل أُحيحة يوم الفِجَارِ . والعاص ، وعُبيدة قُتِلا يوم بدْرٍ كافِرَين ، قَتَل العاص علىٌّ ، وقَتَل عُبيدةَ الزُّبيرُ ، وخمسة أدركوا الإسلام ، وصحبوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم ؛ وهم : خالد ، وعمرو ، وسعِيد ، وأبان ، والحكم بنو سعِيد ابن العاص بن أُمية ،وغيَّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم اسْم [1] الحكَم ، فسمَّاه عَبْد الله . وَجُّد هؤلاء العاص بن أُمية ذو العصابة ؛ قيل له ذلك ،

(١) والاستيعاب : ٣٥٥ .

لأنه كان من شَرفِه إذا اعتَمَّ بعمامة بمكّة لا يعْتَمُّ [١] أحدٌ بلَوْنها إجلالا له ، وكان يكنى بأبى أُحيْحة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أبو أُحيْحة من يعْتَمَّ عمَّتَـــــه يضرب ولو كان ذا مالٍ وذا حسبِ

وكان سعيد بن العاص والد عمْرو مِنْ أشراف قريش ممن جُمع له السخاء والفصاحة ، وهو أحدُ الذين كتبوا المُصْحف لعثمان بن عفان رضى الله عنه ، واستعمله عثمان على الكوفة ، وغزَا بالناس طَبَرِسْ ستَان[٢] فافتتحها . ويقال : إنه افتتح أيضًا جُرجان فى سنة [٢٩ هـ] تسع وعشرين أو سنة ثلاثين ، وغزا أذْرَبِيجان[٣] لما انتقضت فافتتحها ، ثم عزله عثمانُ ، واستعمل الوليد ، فمكث مدة ، ثم شكاه أهلُ الكوفة ، فعزله ، وردَّ سعِيدًا ، فردَّه أهْلُ الكوفة ، وكتبوا إلى عثمان : لاحاجةَ لنا فى سعِيدك ولا وليدك ، وكان فى سعيد تجبُّرٌ وغلظ وشِدَّةُ سُلْطان .

ولما قُتِل عثمانُ بن عَفَّان كان سعِيد والد عمرو ممن لزم بيْتَه ، واعتزل حرْب الجمَل وصِفِّين ، فلما اجتمع الناسُ على معاوية ولَّاه المدينة ، ثم عزله وولَّاها مَرْوان بن الحكم ، وكان يعاقِبُ بينه وبين مَرْوَان فى ولاية المدينة ، وفيه يقول الفرزدق [٤] :

---

(١) فى ك : لايقيم — تحريف .

(٢) بفتح أوله وثانيه ، وكسر الراء وسكون السين المهملة (المراصد) . وفى معجم ما استعجم : وإسكان الراء المهملة وفتح السين المهملة : وهى بلاد واسعة ومدن كثيرة من الرى .

(٣) بالفتح ثم السكون ، وفتح الراء وكسر الباء الموحدة ، وياء ساكنة وألف ونون ، وفتح قوم الذال وكسروا الراء . ومد آخرون مع ذلك الهمزة (المراصد) ، وهى كورة تلى الجبل من بلاد العراق (البكرى) .

(٤) ديوانه : ١٠٠ .

تَرَى الغُرَّ (١) الجَحَاجِحَ مِنْ قُرَيْشٍ
إذا ما المَرْءُ فى الحدَثان غَـالَا
قِيَامًا يَنْظُـرُون إلى سَعِيـد
كأنهمو يَـرَوْنَ بـه هِـلَالا

وحكى الزبير بن بكّار قال(٢) : لما عُزل سَعِيد عن المدينة انصرف عن المسجد وَحْدَه ، فتبعَه رجلٌ ، فنظر إليه سَعِيد رضى الله عنه ، وقال : ألكَ حاجةٌ ! قال : لا ، ولكنى رأيْتُكَ وَحْدَك ، فوصلْتُ جَنَاحك .فقال له : وصلَك الله يا ابْنَ أخى ، اطلُب لى دواةً وجِلْدًا ، وادْعُ لى مولاى فُلَانا ، فأتاه بذلك ، فكتب له بعشرين ألف درهم ، وقال : إذا جاءت غَلَّتُنا دَفَعْنَا ذلك إليك ، فمات فى تلك السنة ، فأتى بالكتابِ إلى ابْنِه عَمْرو ، فأعطاه المالَ .

وكان لسعيد بن العاص سبْعَةُ بنين ، وهم : عَمْرو هذا ، ومحمد ، وعبد الله ، ويحيى ، وعثمان ، وعَنْبَسة ، وأبان .

وكانت وفاة سَعِيد فى سنة [٥٩ هـ] تسع وخمسين . ولنرجع إلى أخبار عبد الملك :

ذكر عصيان الجراجمة بالشام

وما كان مِنْ أمْرهم

هذه الحادثة ذكرها ابن الأثير(٣) فى سنة [٦٩هـ] تسع وستين ، فقال : لما امتنع عمرو بن سعِيد على عَبْد الملك خرج قائدٌ مِن قُوَّادِ

(١) فى الديوان : الشم .
(٢) الأغانى : ١–٣٢ ، وقصص العرب : ١–١٩٩ .
(٣) صفحة ٤٠٠ ، جزء ثالث .

الضواحِي فى جبل اللُّكَام [١] واتَّبعَه خَلْقٌ كثير من الجَرَاجِمة [٢] والأَنْبَاط ، وأَبَاقِ عَبِيد المسلمين ، وغيرهم ، وسار إلى لُبْنَان، فلمّا فرغ عَبْدُ الملك من عَمْرو أرسل إلى هذا الخارج عليه ، فبذل له فى جُمْعة أَلف دينار ، فركَنَ إلى ذلك ، ولم يُفْسِدْ فى البلاد ، ثم وضع عليه عَبْدُ الملك سُحيم بن المُهاجر ، فتلطَّف حتى وصل إليه متنكِّرًا ، وأظهر الميْلَ إليه ، ووعده أن يَدُلَّه على عَوْرَاتِ عبْد الملك ، وماهو خيْرٌ لهمن الصلح ، فوثق به ؛ ثم أتاه سُحيم فى جيْشٍ من مَوَالى عبدالملكوبنى أمية وجند من ثقات جُنْدِه والخارج ومنْ معه على غير أُهْبةٍ ، فدهَمَهم [٣] ، وأمر فنودى : مَنْ أتانا من العبيد [يعنى الذين كانوا معه] [٤] فَهو حُرٌّ ، وثبت فى الديوان ؛ فالتحق به خَلْق كثيرٌ منهم ، وقاتلوا معه ،فقُتِلَ الخارجُ ومَنْ أعانه مِنَ الروم ، وقُتل نَفَرٌ من الجرَاجمة والأَنباط ، ونادى بالأَمان فيمن بقى منهم فتفرَّقُوا ، وعاد إلى عبْد الملك ووفَّى للعبيد .

وفى سنة تسع اجتمعت الرومُ واستجاشوا [٥] علَى منْ بالشام ،فصالح عبْدُ الملك ملكهم على أن يؤدِّى إليه فى كل جمعة أَلف دينار .

وفيها كان يوم الجُفْرة وقد تقدم ذكره [٦] فى أخبار ابن الزبير رضى الله عنه .

---

(١) اللكام : بالضم والتشديد . ويروى بالتخفيف ، وهو الجبل المشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس (المراصد) .

(٢) الجراجمة : قوم من عجم الجزيرة ، أو نبط الشام (القاموس) .

(٣) الفعل مثل سمع ومنع (القاموس) .

(٤) من الكامل .

(٥) استجاش عليهم : طلب لهم الجيش ، وجمعه عليهم (اللسان — جيش) .

(٦) تقدم صفحة ٧٧

ذكر خبر عمير بن الحباب بن جعدة السلمى

وما كان بين قَيْس وتغلب من الحروب إلى أن قُتِلَ عُمير ابن الحُبَاب وماكان بعد ذلك .

كان مَقْتَلُ عُمير بن الحبُاب فى سنة [٧٠هـ] سبعين ، وكان سبب ذلك أن عُمير بن الحُبَاب لما انقضى مرْجُ راهِط التحق بزُفرَ بن الحارث الكِلاَبى بقَرْقِيسيا ، ثم بايع مَرْوَان وفى نفسه ما فيها بسبَب قَتْل قَيْس بالمَرْج (١) ، فلما سار عُبيد الله بن زياد إلى الموْصلِ كان معه ، وقدذكرنا اتفاقَه مع إبراهيم بن الأشتر وانهزامَه ، حتى قُتل عبيد الله [بن زياد] (٢) ، وانهزمت جيوشُ الشَّام ،فلما كان ذلك أتى عُمَيْر ابن الحُباب قَرْقِيسِيا ،وصار مع زُفر بن الحارث ، فجعلا يَطْلُبَان كَلْبًا واليمانيّة بمَنْ قُتلوا مِنْ قَيْس ،وكان معهما قومٌ من تَغْلِبَ يقاتلون معهما ، ويدلُّونهما ، وشُغِل عبد الملك عنهما بمُصْعَب ، وتغلَّب عُمير على نَصِيبين (٣) ، ثم ملّ المقام بقَرْقيسيا ، فاستأْمن إلى عَبْد الملك ، فأَمَّنه ، ثم غدَرَ به فحبسه عند مَوْلاه الريان ، فسقاه عُمَير ومَن معه من الحرَسِ خمرًا حتى أسكرهم ، وتسلَّق فى سُلَّمٍ من الحِبَال ، وخرج من الحبس ، وعاد إلى الجزيرة ، ونزل على نَهْرِ البَلِيخ (٤) بين حَرّان والرَّقة ، فاجتمعت إليه قَيْس ، فكان يُغير بهم (٥) على كَلْب واليمانية ، وكان مَنْ معه يُسِيئونَ (٦) جِوَارَ تَغْلب ، ويسخِّرون

(١) مرج راهط ، كما تقدم . (٢) من الكامل .
(٣) بالفتح ، ثم الكسر ، ثم ياء (المراصد) .
(٤) اسم نهر بالرقة (ياقوت) . (٥) فى د : يغزيهم .
(٦) فى د : بسيوف — تحريف .

مشايخَهم من النصارى ، فهاج ذلك بينهم شرًّا ، إلاَّ أنه لم يبلغ الحَرْبَ . ثم إن عُمَيْرًا أغار على كَلْب ، ورجع فنزل على الخَابُور ، وكانت منازلُ تغلب بين الخابور والفُرَات ودِجْلَة ، وكانت بحيث نزل عمير - امرأةٌ من تميم ناكحٌ فى تَغْلب ، يقال لها أُم ذُويل [1] ، فأخذ غلامٌ من بنى الحَرِيش أصحابِ عُمير عنزًا من غَنَمها ، فشكت ذلك إلى عُمير ، فلم يمْنَعْ عنها ، فأخذوا الباقى ، فمانعهم قَوْمٌ من تَغْلب ، فقُتِل منهم رجلٌ يقال له مجاشع التَّغْلبى ، وجاء ذُويل فشكت أُمُّه إليه ، وكان من فُرْسانِ تغلب ، فسار فى قَوْمه وجعل يذكِّرهم مايصنع بهم قيس ، فاجتمع منهم جماعةٌ وأَمَّرُوا عليهم شُعَيْث [2] ابن مُلَيْل التغلبى ، فأغاروا على بنى الحَرِيش ومعهم قومٌ من نُمَير ، فقتَل فيهم التغلبيّون واستاقوا ذَوْدًا لامرأة منهم يقال لها أُمّ الهيْثَم ، فمَانَعُهم القَيْسِيّون ، فلم يقدِرُوا على منْعهم ، فكان بينهم أيامٌ [3] مذكورة نحن نذكرها على سبيل الاختصار ؛ منها :

يوم مَاكِسِين [4] :

قال : ولما استحكم الشرُّ بين قَيْس وتَغْلب ؛ وعلى قَيْس عُمَير ، وعلى تغلب شُعَيث [2] بن مُلَيل غزا عُمَيْر بنى تغلب وجماعتهم بِمَاكِسين من الخَابُور فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، وهى أول وقعةٍ كانت بينهم ، فقُتِل من بنى تغلب خمسمائة وقتل شُعَيْث ، وكانت رِجْلُه قد قُطعت ، فجعل يقاتل حتى قُتل ، وهو يقول :

(١) بالدال المهملة فى الكامل .
(٢) فى الكامل : شعيب بن مليك . والمثبت فى معجم ما استعجم .
(٣) فى الكامل : أياما .
(٤) ماكسين — بكسر الكاف : بلد بالخابور (المراصد) ، وفى البكرى : بفتح الكاف وكسر السين المهملة بعدها ياء ونون : قرية لبنى تغلب على شاطئ الفرات .

قد علمتْ قيس ونحن نعـــلم أنَّ الفتى يَقْتُل وهو أجـذم

ويوم الثَّرْثار الأول :

والثَّرْثار[١] نهر أصل مَنْبعه شرقى مدينة سِنْجَار يفرغ فى دجلة .

قال : لما قُتل من تغْلب بماكَسِينَ منْ قُتِل استمدّت تَغْلب وحَشَدَتْ واجتمعت إليها النَّمر بن قاسط ، وأتاها المُجَشِّر[٢] ابن الحارث الشيبانى .وكان من ساداتهم بالجزيرة ، وأتاها عُبيْد الله ابن زِيَاد بن ظبيان مُنْجِدًا لهم ، واستنجد عُمَير تميما وأسدًا فلم يُنْجِدْه منهم أحد ، فالتقوا على الثَّرْثَارِ ، وقد جعلت تَغْلبُ عليها بعد شُعيْث زياد بن هوْبر[٣] ، ويقال يزيد بن هوْبَر التغلبى ، فاقتتلوا ، فانهزمت قيس ، وقَتَلَتْ تَغْلِبُ منها مقتلةً عظيمة ، وبقَرُوا بطونَ ثلاثين امرأة من بنى سُلَيم .

ويوم الثَّرْثَار الثانى :

قال : ثم إنَّ قيسًا تجمَّعتْ واستمدّت ، وأتاهم زفَر بن الحارث من قَرْقِيسيا ، فالتقوا بالثَّرْثَار ، واقتتلوا قتالاً شديدا . فانهزمت تغلب ومنْ معها .

ويوم الفُدَيْن :

قال : وأغار عُمير على الفُدين[٤] ، وهى قَرْيةٌ على الخابور فَقَتل منْ بها من بنى تَغْلب .

---

(١) الثرثار – بفتح أوله ، وبثاء مثلثة ثانية قبل الراء ، ثم راء ثانية : ماء معروف قبل تكريت (المراصد) .

(٢) الضبط من المشتبه .

(٣) والقاموس .

(٤) بالتصغير (البكرى) .

ويوم السُّكَيْر :

وهو على الخابور ؛ يسمى سُكَيْر[١] العباس ؛ قال : ثم اجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانهزمت تَغْلب والنَّمر ، وهرب عُمَير ابن جنْدل ، وهو من فرْسان تغلب ؛ فقال عُمَيْر بن الحباب :

وأفلتنا يوم السُّكَيْر ابن جنْـدل على سابح عُوج اللبانِ مثابـر
ونحن كرَرْنَا الخَيْلَ قُبًّا[٢] ثَمَوَازِبا دِقَاقَ الهَوَادِى دَاميات الدَّوابِرِ

ويوم المعَارك :

والمعارك بين الحَضْر[٣] والعَقِيق من أرْضِ الموصل ، اجتمعت تَغْلب بهذا المكان فالتَقَوْا هم وقَيْس ، واقتَتلُوا به ، فاشتدّ قتالُهُمْ ، فانهزمت تغلب ، فيقال : إن يوم المعارك والحضْر واحدٌ هزموهم إلى الحَضْر ، وقَتَلُوا منهم بشرًا كثيرًا . وقيل : هما يومان ، كانا لِقَيْس على تغلب . والتقوا أيضًا بِلِبِىّ[٤] فوق تَكْرِيت فتناصفُوا ، فقَيْس تقولُ : كان الفضْل إلىّ[٥] ، وتغلب تقول : كان لنا .

ويوم الشَّرعَبِيّة :

ثم التقوا بالشرعبِيَّة فكانَ بيْنَهم قِتالٌ شديد كان لتَغْلب على قيس ، قُتِل يومئذٍ عمار بن المِهْزَم[٦] السلمى . والشَّرْعبِيَّة هذه من بلاد تَغْلب ليست الشرعبيّة التى ببلاد منْبِج .

---

(١) الضبط فى المراصد .
(٢) فى الكامل : قدما . والقبب : دقة الخصر وضمور البطن، والشازب : الضامر اليابس (القاموس) .
(٣) والمراصد ، والبكرى .
(٤) فى المراصد : بكسر أوله . وفى ياقوت ضبط بكسر اللام وتشديد الباء وقال : صوابه أن يكتب بالياء، وإنما كتبناه هنا بالألف على اللفظ : من أرض، الموصل.
(٥) فى الكامل : لنا .
(٦) والمشتبه .

ويوم البليخ :

والبليخ : نهر بين حرّان والرّقّة اجتمعت تَغلب ، وسارت إليه ، وهناك عُمير فى قيْس ، فالتقوْا واقتتلُوا فانهزمت تغلب ، وكَثُر القتل فيها وبقرت بطون النساء كما فعلوا يوم الثَّرْثَار . [والله علم (١)] .

ذكر يوم الحشاك (٢)

ومقتل عُمَير بن الحُبَاب السلمى وابن هوْبر التغلبى

قال : ولما رأت تغلب [إلحاح] (٣) عُمير بن الحُبَاب عليها جمعت حاضِرها وباديها ، وساروا إلى الحشَّاك – وهو نهر قريبٌ من الشرْعَبيَّة ، فأتاهم عُمَير فى قيس ، ومعه زُفَر بن الحارث الكِلَابى ، وابنه الهُذَيْل بن زُفَر ، وعلى تغلب ابن هوْبر (٤) ، فاقتتلوا عند تَل الحشَّاك أشدَّ قتال حتى جنَّ عليهم الليل ، ثم تفرقوا واقتتلوا من الغَد إلى الليل ، ثم تحاجزُوا وأصبحت تَغْلِب فى اليوم الثالث ، فتعاقدوا ألا يَفِرُّوا ، فلما رأى عُمير جدَّهم وأنّ نساءهم معهم قال لقَيْس : يا قوم ؛ أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنهم مستَقْتلون . فإذا اطمأنُّوا وسارُوا وجَّهنا إلى كل قَوْمٍ منهم منْ يُغير عليهم . فقال له عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلى : قتلْت فُرْسانَ قَيْس أمس وأول أمس ، ثم مُلِىء سحْرك وجبُنْت . ويقال : إن الذى قال هذه المقالة عيينة بن أسماء بن خارجة الفزَارى ، وكان أتاه منجدًا ، فغضب عليه عُمير ونزل وجعل يقاتل راجلا وهو يقول :

---

(١) من د .

(٢) الحشاك – بالفتح والتشديد ، وآخره كاف : واد ونهر بأرض الجزيرة كانت فيه وقعة لتغلب (المراصد) .

(٣) من الكامل . (٤) ك : هويز .

أنا عُمير وأبـــــو المغلس قد أحبس القَوْم بضَنْك فاحبس

وانهزم زُفَر بن الحارث فى اليوم الثالث ، فلحق بقَرْقِيسا ، وذلك أنه بلغه أن عَبْد الملك عزم على الحركة إليه بقَرْقِيسِيا ، فبادَر إليها ، وانهزمت قَيْس ، وشدَّ على عُمَير جميل بن قيس من بنى كعب بن زُهيْر فقتله .

ويقال : بل اجتمع على عُمير غِلمان (١) من بنى تغلب فرَمَوْهُ (١) بالحجارة وقد أعيا حتى أثخنوه ، وكَرَّ عليه ابن هَوْبَر فقتله ، وأصابت ابْن هوْبر جراحةٌ ، فلما انقضت الحَرْبُ أوصى بنى تَغْلب أن يولُّوا أمرهم مرار (٢) بن علْقَمَة الزهيرى . وقيل : إنّ ابن هَوْبر جُرِح فى اليوم الثانى من أيامهم هذه ، فأوصى أن يولُّوا مرارًا أمْرَهم ، ومات من ليلته ، وكان مرار رئيسَهم فى اليوم الثالث ، فعَبأَهم على رايَاتِهم ، وأمر كلَّ بنى أبٍ أنْ يجعلُوا نساءهم خَلْفَهم ، وكان ما تقدّم .

وكَثُرَ القتل يومئذ فى بنى سُلَيم وغَنِىّ خاصةً ، وقُتل مِنْ قَيس أيضًا بَشَرٌ كثير ، وبعث بنو تغلب رَأْسَ عُمير إلى عَبْدِ الملك بن مَرْوَان ؛ فأعطى الوَفْد ، وكساهم . فلما صالح عبد الملك زُفَر بن الحارث اجتمع الناس عليه ، فقال الأخطل (٣) :

بنى أمية قـــد ناضلتُ دونكمـــــو
أبناء قـــوم هم آووْا وهُمْ نَصَـــرُوا

(١) فى الكامل : غلامان ... فرمياه .
(٢) فى الكامل : مرادا .
(٣) والكامل : ٤ — ٧ .

وقيس عيلان حتّى أقبلوا[١] رقصـــــا
فبايعُوا لَكَ قَسْرًا بعدما قُهِـــروا
ضجّوا من الحرب إذ عضّت غَـــواربَهم
وقيس عيلان من أخلاقها الضَّجَرُ[٢]

وكان مقتل عُمير بن الحُبَاب فى سنة [٧٠هـ] سبعين [كما تقدم] [٣].

ذكر الحرب بعد مقتل عمير بن الحباب السلمى

قال : ولما قُتِل عُمير أتى ابْنُه تميمٌ زُفَر بن الحارث ، فسأله الطلب بثَأْره ، فامتنع فقال له ابنه الهُذَيْل بن زُفَر : والله لئن ظفِرتْ بهم تَغْلب إنَّ ذلك لعارٌ عليك ، ولئن ظَفِرُوا بتَغْلب وقد خَذَلْتَهم إنَّ ذلك لأشدُّ ، فاستخلف زُفَر على قَرْقِيْسياء أخاه أَوْس بن الحارث ووجّه زُفَر خَيْلاً إلى بنى فَدَوْكَس [٤] : وهم بطنٌ من تَغْلب ، فقتل رجالَهم ، واستُبِيحت الأموال [والنساء] [٣] حتى لم يبْقَ منهم غَيْرُ امرأة واحدةٍ استجارت ، فأجارها يزيد بن حُمْران ، ووجّه ابْنه الهذيل فى جيش إلى بنى كَعْب بن زُهير ، فقتل فيهم قَتْلا ذَريعًا ، وبعث أيضًا مسلم بن ربيعة العُقَيْلى إلى قَوْمٍ من تَغْلِب وقد اجتمعوا [٥] بالعقِيق من أرض الموصل ، فلما أَحَسُّوا به ارتحلوا يريدون عُبورَ دِجْلة ، فلما صاروا بالكُحيْل وهو من أرض الموصل فى جانب دجلة

(١) فى ا : أقبلا .
(٢) فى الكامل : من أخلاقها ضجروا .
(٣) فى د وحدها .
(٤) والقاموس .
(٥) فى الكامل : أجمعوا .

الغربى ، فلحقهم زُفَربن الحارث [به] (١) فى القيسية ، فاقتتلوا قِتالاً شديدًا ؛ وترجّل أصحابُ زُفَر كلُّهم ، وبقى زُفَر على بغْلة له فقتلوهم ليلتَهم وبقَرُوا بطون نساءٍ منهم ، وغرق فى دِجْلَة أكثر ممن قُتِل بالسيف ، وأتى (٢) فلُّهم لبَّى فوجَّه زُفَر ابْنَه الهذيل فأوقع بهم إلَّا منْ عبر فَنَجا ، وأسر منهم زُفَر مائتين فقتلهم صبْرًا ،فقال فى ذلك زُفَر (٣) :

أَلَا يا عين بكِّى بانسكـاب ... وبَكِّى عاصما وابْنَ الحُباب
فإنْ تَكُ تَغْلب قتلَتْ عُمَـيْرًا ... ورهطا من غَنِىّ فى الحراب
فقد أفْنَى بنى جُشَم بن بَكْـر ... ونمرَهم (٤) فوارسُ من كلاب
قتلْنَا منهمو مائتين صَبْـرًا ... وماعدَلُوا عُمَيْر بن الحُباب

وأُسِر القُطَامِىّ التغلبى فى يومٍ من أيامهم ، وأُخذ ماله ، فقام زُفَر بأمره حتى ردّ عليه ماله ووصلَه ، فقال فيه (٣) :

إنى وإنْ كان قَوْمِى ليس بينهمو ... وبين قَوْمِك إلا ضربة الهادى
مُثْنٍ عليك بماأولَيْتَ مِنْ حسَـن ... وقد تعرَّض منى مقْتَلٌ بادِى

ذكر خبر يوم البشر (٥)

كان سبب هذا اليوم أن عبْد الملك لمااستقرّ له الأَمْرُ قدم عليه الأَخْطَل الشاعر التغلبى وعنده الجَحَّاف بن حَكيم السلمى ، فقال له عبد الملك : أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال : نعم ، هذا الذى أقولُ فيه (٦) :

---

(١) زيادة من الكامل . (٢) فى الكامل : فرأى .
(٣) والكامل : ٤ — ٨ .
(٤) يريد النمر بن قاسط ، وهى قبيلة ، وسكن لضرورة الشعر .
(٥) البشر — بكسر أوله ثم السكون : اسم جبل . قال البكرى : وسمى البشر برجل من النمر بن قاسط كان يحفر السابلة يسمى بشرا .
(٦) والشعر والشعراء : ٤٥٧ .

أَلَا سائِلِ الجَحَّافَ هل هُوَ ثائـر بقَتْلَى أُصِيبتْ من سُلَيْم وعامِرِ

وأنشد القصيدة حتى فرغ منها ، وكان الجَحَّاف يأكل رطبا فجعل النَّوى يتساقط من يدِه غيظًا ، ثم أجابه فقال :

بلَى سوْف نَبْكيهم بكل مُهنَّـدٍ ونَنْعَى عُمَيْرًا بالرِّمَاحِ الشَّواجِرِ

ثم قال يا ابْنَ النصرانية ، ماكنت أظنُّ أنْ تجترىء علىّ بمثل هذا . فأُرعد من خَوْفه ، ثم قام إلى عَبْدِ الملك فأمسك ذَيْله ، وقال : هذا مقام العائذ بك . فقال : أنا لكَ ، ثم قام الجحَّاف فمشى وهو يجُرُّ ثوْبه ، ولا يعقل ، فتلطَّف لبعض كُتَّاب الديوان حتى اختلق له عهْدًا على صدقات تغلب وبكْر بالجزيرة ، وقال لأصحابه : إنَّ أمير المؤمنين ولاَّنى هذه الصدقات ، فمن أراد اللحاق بى فليفعل .

ثم سار حتى أتى رُصافة هشام ، فأعلم أصحابه ما كان من الأخطل إليه ، وأنه افتعل كتابًا وأنه ليس له بِوَالٍ ، فمن كان يحبُّ أن يغْسِل عنى العار وعنْ نفسه فليصْحبْنِى ، فإنى أقسمْتُ ألَّا أغسل رأسى حتى أوقع ببنى تغلب . فرجعوا عنه غير ثلاثمائة قالوا : نموتُ لموْتك ونَحْيا لحياتك ، فسار ليلته حتى أصبح بالرَّحُوب[1] ، وهو ماء لبنى جُشَم[2] بن بكر بن تَغْلب ، فصادف عليه جماعةً عظيمةً منهم ، فقتل منهم مقتلةً عظيمة ، وأُسِر الأخطل وعليه عباءةٌ وسخة ، وظنَّ الذى أسره أنه عبْدٌ ، فسأله عن نفسه ، فقال : عَبْد . فأطلقه فرمى بنفسه فى جُب ، مخافةَ أنْ يراه منْ يعرفه فيقتله ،

(١) الرحوب – بفتح أوله ، على بناء فعول: موضع قريب من البشر من عمل الجزيرة (ياقوت) .

(٢) والمراصد .

وأسرف الجحاف فى القَتْل ، وبقَر البطونَ عن الأَجِنَّة ؛ وفعل أمرًا عظيماً ، فلما عاد عنهم قدم الأَخطل على عبد الملك فأنشده (١) :

لقد أوقع الجحَّاف بالبشْر وقْعَـةً إلى اللهِ منها المُشْتَكَى والمُعوَّلُ

فطلب عبد الملك الجحَّاف فهرب إلى الرُّوم ، فكان يتردَّدُ فيها ، ثم بعث إلى بطانة عبْد الملك من قَيْس ، فطلبوا له الأَمانَ ، فأَمَّنه عبد الملك ، فلما جاء أَلْزَمه دِيات من قُتل ، وأخذ منه الكُفَلاء ، فسعى فيها حتى جمعها وأعطاها ، ثم تَنَسَّك الجَحَّاف بعْد ، وصلُح ، ومضى حاجًّا فتعلَّقَ بأَستار الكعبة ، وجعل يقول : اللهم اغْفِرْلى ، وما أَظنُّكَ تَفْعَلُ ! فسمعه محمد ابْنُ الحنفية ، فقال : ياشيخ ، قُنُوطُك شَرٌّ من ذنبك .

وقيل : كان سبَب عوْد الجَحَّاف أنَّ مَلك الروم أكرمه وقرَّبه وعرض عليه النصرانية ، ويعطيه ما شاء ، فامتنع ، وقال : ما أتيتُك غبةً عن الإسلام .

ثم هزم الجَحَّاف صائفة المسلمين ، فأَخبروا عَبْدَ الملك أن الذى هزمهم الجحَّاف ، فأَرسل إليه عبد الملك ، فأَمَّنَهُ ، فسار فى بلادِ الروم ، وقصد البِشْر وبه حَىٌّ من تغلب وقد لبس أكفانَه ، وقال : قد جئتُ إليكم أُعطى القَوَد من نفسى ، فأَراد شبابُهم قَتْلَه ، فنهاهم شيوخُهم ، وعفوْا عنه ، فحج ، فسمعه عبْدُ الله بن عمر وهو يطوف ويقول : اللهم اغفرلى وما أظنك تفعل ! فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لو كنت الجحاف مازدتَ على هذا . قال : فأَنا الجَحَّاف .

(١) والشعر والشعراء : ٤٥٧ .

ذكر مسير عبد الملك بن مروان الى العراق

وقتل مُصْعب بن الزبير واستيلاء عبد الملك على العراق

[وفى جمادى الآخرة سنة [٧١هـ] إحدى وسبعين كان مقتل مصعب بن الزبير بن العوام واستيلاء عبد الملك على العراق] (١)؛ وسببُ ذلك أنَّ عبْد الملك بن مروان لما قتل عمْرو بن سعيد كما تقدم وضَع السيف على مَنْ خالفه ، فصفَا له الشامُ ، فلما لم يبْقَ له بالشام مُخَالف أجْمَع المسِيرَ إلى مُصْعَب بن الزبير بالعراق ، فاستشار أصحابَه فى ذلك ، فأشار عليه عمُّه يَحْيَى بن الحكم أنْ يَقْنَع بالشام ويترك ابْنَ الزبير والعراقَ ، فكان عَبْدُ الملك يقول : منْ أراد صواب الرأْى فليخالف يحيى . وأشار بعضُهم أن يؤخِّر السَّيْرَ هذا العام ، وأشار محمد بن مَرْوان أنْ يُقيم ويبْعث بعْضَ أهله ، ويمدّه بالجنود . فأبى إلاَّ المسير. فلما عزم على المسير ودَّع زَوْجتَه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فبكت فبَكَى جوَاريها لبكائها ، فقال : قاتل الله كُثَيِّر عزَّة ، لكأنَّه يشاهدنا حين يقول (٢) :

إذا ما أراد الغَزْوَ لم يثْنِ همَّـــهُ حصَانٌ عليها عِقْدُ دُرٍّ يزِينهـا
نَهَتْهُ فَلَمَّا لم تَرَ النَّهْىَ عاقَـــه بكَتْ فبكى مما عَنَاها قَطِينُها(٣)

وسارَ عَبْدُ الملك نَحْوَ العراق ، فلما بلغ مُصْعب بن الزبير مسِيرُه وهو بالبصرة أرسل إلى المهلَّب بن أبى صُفْرة وهو يُقاتل الخوارج

(١) ساقط من ك .
(٢) الأغانى : ٩–٢١ .
(٣) القطين : الخدم والأتباع .

يستشيره . وقيل : بل أحضره إليه ، فقال لمصعب : اعلم أنَّ أهْل العراق قد كاتَبُوا عبْد الملك وكاتبهم فلا تبعدنى [عنك] (١) .

فقال له مصعب : إنَّ أهل البصرة قد أبَوْا أنْ يسيروا حتَّى أجعلَك على قتالِ الخوارج ، وهم قد بلغوا سُوقَ الأهْواز ، وأنا أكره إذ سار عبْدُ الملك [إلىّ] (١) ألَّا أسير إليه ، فاكْفِنِى هذا الثغر (٢) .

فعاد إليهم ، وسار مُصْعب إلى الكوفة ومعه الأحنف فتُوفِّى الأحْنَفُ بالكوفة ، وأحضر مُصْعب إبراهيم بن الأشْتَر ، وكان على الموصل والجزيرة ، فجعله على مقدّمته ، وسار حتى نزلَ باجُمَيْرَا (٣) قريب أوَانا فعسْكَرَ هناك ، وسارَ عَبْدُ الملك حتى نزل بمسْكِن (٤) على فرسخين أو ثلاثة من عسكر مُصْعب .

وكتب عبد الملك إلى أهْلِ العراق مَنْ كاتبه ومَنْ لم يكاتبه ، فجميعهُم طلب أصفهان طعْمَةً ، وأخفوا جميعهم كُتبَهَم عن مُصْعب إلا ابْن الأشتر فإنه أحضر كتابَه مختومًا إلى مُصْعب ، فقرأه فإذا هو يَدْعُوه إلى نفسه ، ويجعل له ولايةَ العراق . فقال له مصعب : أتَدْرى مافيه ؟ قال : لا . قال : إنه يعرض عليك كذا وكذا ، وإن هذا لما (٥) يُرغب فِيه . فقال إبراهيم : ما كُنْتُ لأتقلَّد الغَدْرَ والخيانة ، والله

(١) زيادة من الكامل .

(٢) فى الكامل : النفر .

(٣) باجميرا : بضم الجيم، وفتح الميم، وياء ساكنة ، وراء — مقصور : موضع دون تكريت .

وأوانا : بليدة من نواحى دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ (ياقوت).

(٤) مسكن — بفتح ثم سكون ، وكسر الكاف ، ونون، وقد يقال بفتح الكاف أيضا .

(٥) فى د : لما .

ما [عند] (١) عَبْد الملك من أحَدٍ من الناس بـايْأس منه منى ، ولقد كتب إلى جميع أصحابِك مِثْل الذى كَتَب إلىّ ، فأَطِعْنِى واضْرِبْ أعناقهم . فقال : إذًا لا تناصحنى عشائرهُم .

قال : فأَوقرهم حَديدًا ، وابْعَثْ بهم إلى أبْيض كِسْرى ، واحْبِسهم هنالك ، ووَكِّلْ بهم منْ إن غُلِبْتَ وتفرقَتْ عشائرُهم عنك ضَرَب رقابهم ، وإن ظهرْتَ منَنْتَ على عشائرهم بإطلاقهم . فقال : إنى لفى شغل عن ذلك .

ولما قرب العَسْكَرَان بعث عَبْدُ الملك إلى مُصْعَب يقول : دَع الدُّعَاء لأخيك ، وأَدَعُ الدعاء إلى نفسى ، ونجعل الأَمْرَ شُورَى . فأَبى مُصْعب إلَّا السيفَ .

فقدّم عبد الملك أخاه محمدًا . وقدّم المُصْعَب إبراهيم بن الأشتر ، فالتقيَا ، فتناوَشَ الفريقان ، فقُتل صاحِبُ لواءِ محمد ، وجعل مُصعب يمدُّ إبراهيم ، فأزال محمدَ بن مَرْوان عن مَوْقِفه ، فوجَّه عَبْدُ الملك عَبْدَ الله بن يزيد إلى أخيه محمد ، فاشتدّ القتال ، فقتل مسلم بن عَمْرو الباهلى والدقُتَيْبة ، وهو فى أصحابِ مُصْعب ، وأَمَدّ مصعب إبراهيم بعتَّاب بن وَرْقَاء ؛ فساء ذلك إبراهيم ، واسترجع ، وقال : قد قلْت له : لا يمدّنى بعتَّاب وضُرَبَائِه . وكان عَتَّاب قد كاتب عبْدَ الملك وبايعه ، فانهزم عَتَّاب بالناس وصبر ابْنُ الأَشتر ، وقاتل حتى قُتِلَ ، قتله عُبَيْد بن مَيْسَرة مولى بنى عُذْرَة (٢) ، وحمل رَأْسَه إلى عَبْد الملك .

وتقدَّم أَهْلُ الشامِ فقاتلهم مُصْعب ، وقال لقَطَن بن عبْد الله الحارثى : قدّم خَيْلَك أبا عثمان . فقال : أكره أن تقتل مذحج فى غَيرِ

(١) ساقط فى ك . (٢) والاشتقاق .

شيء .فقال لحَجَّار[١] بن أَبْجَر : أبا أَسِيد : قَدِّم خَيْلَك . فقال : إلى هؤلاء الأَنْتَان ! قال : ما نتأخر إليه أنتن .

وقال لمحمد بن عَبْد الرحمن بن سَعِيد : قدم خَيْلَك . فقال : مافعل أحد هذا فأَفْعَلَه . فقال مُصْعَب : يا إبراهيم ، ولا إبراهيم لى اليوم ! ثم التفت فرأى عُروة بن المغيرة بن شعبة فاستدناه ، فقال له : أَخْبِرْنى عن الحُسَين بن على كيف صَنَع بامتناعه عن النُّزول على حُكم ابن زِيَاد وعَزْمه على الحرب ؟فأخبره ، فقال[٢] :

إن الأُلى بالطَّفِّ مِنْ آلِ هـــاشم تأَسَّوا فسَنُّوا لِلْكِرَام التأَسِّيا

ثم دنا محمد بن مَرْوان من مُصْعَب ، وناداه : أنا ابْنُ عمك محمد ابن مروان ، فاقْبَلْ أمانَ أمير المؤمنين . قال : أمير المؤمنين بمكة ، يعنى أخاه عَبْد الله . قال : فإنَّ القومَ خاذِلُوكَ ، فأبى ماعَرَض عليه .

فنادى محمدعيسى بن مُصْعب إليه ،فقال له مصعب: انظر مايُريد ، فدنا منه ، فقال له : إنى لكَ ولِأَبيكَ ناصح ، ولَكُمَا الأمان . فرجع إلى أبيه فأخبره . فقال : إنى أظنُّ القَوْمَ يَفُونَ لك ، فإن أحببْتَ أنْ تأْتيهم ، فافعل . قال : لا تَتَحدَّث نِساءُ قريش أنِّى خذلْتُك ، ورغِبْتُ بنفسى عنك . قال : فاذهب أنْتَ ومَنْ معك إلى عَمِّك بمكة ، فأَخْبِرْه بما[٣] صنع أَهْلُ العراق ودَعْنِى فإنِّى مقتول . فقال : لا أُخبِرُ قريشا عنكَ أبدًا ، ولكن يا أبتِ الْحَقْ بالبصرة فإنهم على الطاعة ،

---

(١) والقاموس .

(٢) والطبرى : ٦—١٥٦ ، واللسان (أسى) ، غير معزو .

(٣) فى د : ما .

أو الحَق بأمير المؤمنين . فقال مُصْعب : لا تتحدث قريش أنى فَرَرْتُ .

وقال لابنه عيسى : تقدّم إذًا أحتسبك . فتقدَّم ومعه ناس ، فقُتِل ، وقُتلوا ، وجاء رجل من أهل الشام ليحتزَّ رَأْس عيسى ، فحمل عليه مُصْعَب فقتله ، وشدَّ على الناس فانفرجُوا له ، وعاد ، ثم حمل ثانية فانفَرَجُوا له ، وبذل له عَبْدُ الملك الأمانَ ، وقال : إنه يعزُّ علىّ أن تُقْتَل ، فاقْبَلْ أمَانِى . ولك حُكْمُك فى المال والعمل ، فأَبَى ، فقال عبد الملك : هذا والله كما قال القائل[1] :

ومُدَجّج كَرِهَ الكماةُ نِـــزَالَه لامُمْعِنٌ هَرَبًا ولامُسْتَسْلِمُ[2]

ودخل مُصعب سُرَادِقَه فتحَنَّطَ ورَمَى السرادق ، وخرج فقاتل ، فأتاه عبيد الله بن زياد بن ظَبْيَان فدعَاهُ إلى المبارَزَةِ فقال : يا كلب ، اغرب ، مِثْلى يُبَارِزُ مِثْلَك ! وحمل عليه مُصْعَب فضربه على البَيْضة فهشمها وجَرحه ، فذهب[3] يعصب رَأْسَه ، وترك الناسُ مُصْعبًا وخذَلُوه حتى بَقِىَ فى سبعة أنفس ، وأُثخن بالرمى ، وكثُرَتْ فيه الجِرَاحَات ، فعاد إليه عُبَيْد الله بن زياد بن ظبيان فضربه مصعب ، فلم يصنع شيئًا لضَعْفِه ، وضربه ابن ظَبْيان فقتله . وقيل : بل نظر إليه زائدة بن قُدَامة الثقفى فحمل عليه ، فطعنه فقال : يالثاراتِ المختار ! فصرعه وأخذ عُبيد الله بن زياد رَأْسَه وحمله إلى عَبْد الملك ، فألقاه بين يديه وأنشد[4] :

نُعاطى[4] الملوكَ الحقّ ما قَسَطُوا لنا وليس علينا قَتْلُهم بمحـــرَّمِ

(١) فى الكامل : ٤–١٢ .
(٢) فى الكامل : لامنعا..... ولا مستسلما .
(٣) فى د : فرجع .
(٤) فى العقد الفريد (٤–٤١١) : نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا .

فلما رأى عَبْدُ الملك الرأسَ سجد ، فقال ابن ظبيان : لقد هممتُ أن أقتُلَ عبد الملك وهو ساجدٌ فأكون قد قتلْتُ ملكَى العرب ، وأرحْت الناس منهما ، وفى ذلك يقول[1] :

هممتُ ولم أفعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَنى فعلْت فأدمنت البُكَا لأقاربه
فأوْردتها فى النار بَكْر بن وائـــل وألحقتُ مَنْ قَدْ خرَّ شكرًا بصاحبه

وقال عبد الملك : لقد هممت أن أقتل ابن ظبيان فأكون قد قتلت أفْتَكَ الناس بأشجع الناس .

وأمر عبد الملك لابن ظبيان بألفِ دينار ، فقال : لم أقتُلْه على طاعتك ، وإنما قتلته بأخى النابى بن زياد ، ولم يأخذ منها شيئًا . وكان النابى قد قطع الطريقَ فقتله مُطَرِّف الباهلى صاحب شُرْطَة مُصْعب .

وكان قتلُ مصعب بدَيرِ الجاثليق عند نهر دُجَيْل ، وأمر عَبْدُ الملك به وبابْنه عيسى فدُفِنَا ، وقال : كانت الحرمةُ بيننا [وبينه][2] قديمة ، ولكن [هذا][2] الملك عقيم .

قال : ثم دعا عَبْدُ الملك جُنْدَ العراق إلى البَيْعَة فبايعوه ، وسار حتى دخل الكوفة ، فأقام بالنُّخَيْلة[3] أربعين يومًا ، وخطب الناس بالكوفة ، فوعد المُحْسِن وتوعَّدَ المسىء ، وقال : إن الجامعةَ التى وضعت فى عُنق عَمْرو بن سَعِيد عِنْدِى ، ووالله لا أضَعُها فى عُنق رجل فأنتزعها إلَّا صُعَدًا لا أفكُّها عنه فكًّا ، فلايُبْقِينّ امرؤٌ إلَّا على نفسه ، ولا يوبقنى دَمُه . والسلام .

---

(١) والعقد الفريد : ٤–٤١١ .
(٢) زيادة من الطبرى .
(٣) النخيلة : تصغير نخلة : موضع قرب الكوفة (المراصد) .

قال عبد الملك بن عُمير : كُنْتُ مع عبد الملك بِقَصْرِ الكوفة حين جيء بِرَأْسِ مصعب فوُضِعت بين يديه ، فرآنى قد ارتعدت ، فقال لى : مالك ؟ فقلت : أُعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين ! كنْتُ بهذا القَصْرِ بهذا الموضع مع عُبيد الله بن زياد فرأيت رَأْسَ الحُسين رضى الله عنه بين يديه ، ثم كنت فيه مع المختار بن أبى عُبيد فرأيت رَأْسَ عُبَيْد الله بن زياد بين يديه ، ثم كنْتُ مع مُصْعَب فيه فرأيْتُ رأس المختار بين يديه ، ثم رأيت رأْسَ مُصْعب فيه بين يديك . فقام عبد الملك مِنْ مقامه ذلك ، وأمر بهَدْم ذلك الطاق الذى كُنَّا فيه ، وقال عبد الملك ابن مَرْوَان : متى تخلف قريش مِثْلَ المصعب ! ثم قال : هذا سَيِّدُ شباب قريش . فقيل له : أكان يشرُبَ الطِّلاَ(١) ؟ فقال : لو علم المصعب أنَّ الماءَ يُفْسدُ مروءته ما شربه حتى يموت عَطَشا .

قال : وبعث عَبْدُ الملك برَأْس مُصْعب إلى أخيه عبدالعزيز بن مروان بمصر ، فلما رآه وقد قطع السيفُ أَنْفَهُ قال : رحمك الله ، أَمَا واللهِ لقد كنْتَ مِنْ أحسنهم خلقا ، وأشدهم بأْسًا ، وأسخاهم نفسًا .

ثم سيَّره إلى الشام فنُصِب بدمشق ، وأرادوا أن يَطُوفُوا به فى نواحى الشام ، فأَخذَتْهُ عاتكةُ بنْتُ يزيد بن معاوية زَوْجَة عبد الملك بن مَرْوان ، فغسلته وطيبته ودفَنَتْهُ ، وقالت : أما رضِيتُم بما صنعتم حتى تطوفُوا به المُدُنَ ! هذا بَغْىٌ .

وكان عُمْرُ مصعب حين قُتل ستا وثلاثين سنة .

ولما بلغ عَبْدَ الله بن خازم مَسِيرُ مُصْعب لقتال عَبْدَ الملك قال : أَمَعهُ عمر بن عبيد الله بن معمر ؟

---

(١) الطلاء : الخمر .

قيل : لا ، استعمله على فارس . قال : أمَعَه المهلَّب؟ قيل : لا ، استَعْمَله على الخوارج . قال : أمعه عباد بن الحُصين؟ قيل : لا ، استَخْلَفَه على البصْرة . قال : وأنا بخراسان . وأنشد[1] :

خُذيني فجرِّيني جَعَارِ وأبْشِرى بلَحْمِ امرىء لم يَشْهد اليومَ نَاصِره

قال : ولما قُتل مصعب كان المهلَّبُ يُحارب الأزارقةَ بسُولاف[2] ثمانية أشهر ، فبلغ الأزارقةَ قَتْلُه قبل أنْ يبلغ المهلَّب ، فصاحُوا بأصحابِ المهلَّب : ما قولكم فى مُصْعب ؟ قالوا : أمير[3] هُدًى ؛ وهو وَلِيُّنا فى الدنيا والآخرة ، ونحن أولياؤُه . قالوا : فما قولُكم فى عَبْد الملك بن مَرْوان ! قالوا : ذلك ابْنُ اللَّعِين ، نحن نبرأُ إلى الله منه ، وهو [عندنا][4] أحلّ دَمًا منكم . قالوا : فإن عبدالملك قتل مُصْعبًا ، وسيجعلون غَدًا عَبْدَ الملك إمامَكم .

فلما كان الغَدُ سَمِع المهلَّبُ وأصحابه قَتْلَ مُصْعب ، فبايع المهلَّب الناسُ لعَبْدِ الملك ، فصاح بهم الخوارج : يا أعداء الله ، ما تقولون فى مصعب ؟ قالوا : يا أعداء اللهِ لا نخبركم . وكرهوا أن يكذِّبوا أنفسهم . قالوا : فما قَوْلُكم فى عَبْدالملك؟ قالوا : خَلِيفَتُنَا . ولم يجِدُوا بُدًّا إذ بَايَعُوه أن يقولوا ذلك . قالوا : يا أعداء الله ؛ أنْتُم بالأمس تَتَبَرَّءون منه فى الدنيا والآخرة ، وهو اليوم إمَامُكم ، وقد قَتَلَ أميرَكم[5]

---

(١) البيت فى اللسان — جعر ، والطبرى : ٦—١٥٨ .
وروايته فى اللسان : فقلت لها غيِّى جعار وجرِّرى ...

(٢) سولاف : بالضم ثم السكون ، وآخره فاء : قرية على غربى دجيل من أرض خوزستان (المراصد) .

(٣) فى الطبرى : إمام هدى .

(٤) زيادة من الطبرى .

(٥) فى الطبرى : إمامكم .

الذى كنتم تتولّونه[١] ، فأيُّهما المهتدى ؟ وأيُّهما المبطل ؟ قالوا : يا أعداءَ اللهِ ، رَضِينا بذاك إذْ كان يتولّى أمْرَنا ونَرْضَى بهذا . قالوا : لا ، والله ، ولكنكم إخْوَانُ الشياطين وعَبيد الدنيا .

قال : ولم يَفِ عَبْدُ الملك لأحَدٍ بأصبهان ، واستعمل قَطَن بن عَبْد الله الحارثى على الكوفة ، ثم عَزَلَه ، واستعمل أخاه بِشْر بن مَرْوَان . واستعمل محمد بن عُمير[٢] على هَمَذَان ، ويزيد بن ورقاء بن روَيم على الرىّ ، واستعمل خالد بن عَبْد الله بن [خالد بن][٣] أَسِيد على البصرة . وعاد إلى الشام .

ذكر خبر عبد الملك بن مروان وزفر بن الحارث

وما كان بينهما من القتال وانتظام الصُّلْحِ بينهما

قد ذكرنا أن زُفَر بن الحارث لما فَرّ من مرْج رَاهِط إلى قَرْقِيسياء ، واستولى عليها ، وتحصَّنَ بها ، واجتمعت قَيْس عليه ، وكان فى بَيْعة عَبْدِ الله بن الزبير وفى طاعته . فلما مات مَرْوَان بن الحكم وولى عَبْدُ الملك كتب إلى أبَان بن عُقْبة بن أبى مُعَيط ، وهو على حِمْص ، يأْمُره أن يَسير إلى زُفَر ، فسار إليه ، وعلى مقدّمته عَبْد الله بن زَمِيت الطائى ، فواقع عبد الله زُفَر قَبْل وصولِ أبَان فَقُتِل من أصحابه ثلاثمائة ، فلامَهُ أبَان على عَجَلته ، وأقبل أبان فواقع زُفَر فقتل ابنه وكيع ابن زُفَر . فلما سار عَبْدُ الملك إلى العراق لقتال مُصْعب بدأ بقَرْقيسياء ، فحضر زُفَر فيها ، ونصب عليها المَجَانِيق ، فأمر زُفر أن يُنَادى فى

---

(١) فى الطبرى ، والكامل : تولونه .

(٢) فى الكامل : ابن نمير .

(٣) من الكامل .

عسكر عبد الملك : لم نَصَبْتُم المجانيق علينا ؟ فقالوا : لنثلم ثُلْمَةً نقاتلكم[1] عليها . فقال زفر : قولوا لهم : فإنا لانقاتلكم مِن وراء الحيطان ، ولكنا نخرج إليكم . وقاتَلهم زُفَر .

وكان خالد بن يزيد بن معاوية مُجدًّا فى قتال زُفر ، فقال رجُلٌ من أصحابه من بنى كِلاَب : لأَقولن لخالد كلاما لا يعودُ إلى مايصنع. فلما كان الغد خرج خالد للمحاربة فقال له الكلابى :

ماذا ابتغاء خالد وهمُّـــــه إذْ سُلِب الملك و ... أُمـه

فاستحيا وعادَ ، ولم يَعُد لقتالهم .

وقالت كَلْب لعبدالملك : إنا إذا لقينا زُفر انهزمت القَيْسيّةُ الذين معك ، فلا تَخْلِطْهم مَعَنا . ففعل . فكتبت القيسية على نبْلها : إنه ليس يقاتلكم غدًا مُضَرى ، ورَمَواالنَّبْل إلى زُفَر. فلما أصبح دَعَا ابْنَه الهُذَيْل فقال : اخرج إليهم :فشُدَّ عليهم ، ولا ترجع حتى تضربَ فُسْطَاط عَبْدِ الملك ، وأقسم لئن رجع دونَ أنْ يفعَل ذلك ليقتُلنَّه .

فجمع الهُذَيل خَيْلَه ، وحمل ، فصَبَرُوا قليلا ثم انكشفوا ، وتبعهم الهُذَيل بخَيْله حتى وطئوا أطنابَ الفُسْطَاط ، وقطعوا بعضَها ، ثم رجعوا . فَقبَّل زُفَر رأْسَ ابْنِه الهذيل . فقال : والله لو شئت أن أدْخُلَ الفسطاط لفعلت .

قال : وكان رجل من كَلْب يقال له الذيّال يخرجُ فيسبّ زُفَر فيكثر ، فقال زفر للهُذَيل ابنه أو لبعض أصحابه : أما تكفينى هذا ؟ قال : أنا آتيكَ به ، فدخل عَسْكَر عبْدِ الملك ليلا ، فجعل يُنَادى

(١) فى د : نقابلكم .

مَنْ يعرف بَغْلا مِنْ صِفَته كذا وكذا ؟ حتى انتهى إلى خِبَاء الرجل . فقال الرجل : رَدّ الله عليك ضالَّتَك . فقال : يا عَبْدَ الله ، إنى قد أعْيَيتُ ، فلو أذِنْتَ لى فاسترحْتُ قليلا. قال : ادْخُلْ ، فدخل ، والرجلُ وحْدَه فى خِبَائه ، فرمى بنفسه ، ونام صاحِبُ الخباء ، فقام إليه فأيْقَظَه ، وقال : والله ، لئن تكلمت لا قتلنَّك ، قُتِلْتُ أو سَلمت ، فماذا ينفعك قتلى إذا قُتلتَ أنتَ ؛ ولئن سكتَّ وجئْتَ معى إلى زُفَر فلك عهْدُ الله وميثاقُه أنْ أردَّك إلى عَسْكَرك بعد أن يَصِلك زُفر ويُحْسِن إليك ، فخرجا وهو يُنَادِى : مَنْ دلَّ على بغْلٍ مِنْ صِفَتِهِ كذا وكذا حتى أتى زُفَر . والرجلُ معه ، فأعلمه أنَّه قد أمَّنَه ، فوهبه[1] زُفَر دَنَانير وحمله على رِحَالِ النساء وألبسه ثيابَهُنَّ ، وبعث معه رجالاً حتى دَنَوْا من عسْكَرِ عبد الملك ، فنادَوا : هذه جاريةٌ قد بعث بها زُفَر إلى عَبْد الملك ، وانصرفُوا !

فلما رآه أهْلُ العسكر عرفوه ، وأخبروا عبْدَ الملك الخبر فضحك ، وقال : لا يُبعد اللهُ رجالَ مَضُر ، والله إنَّ قَتْلَهُم لذلّ ، وإن تَرْكَهُمْ لحسرة. وكفّ الرجل فلم يَعُد يسبُّ زُفَر .

وقيل : إنه هرب من العسكر ، ثم أمر عبدُ الملك أخاه محمدا أن يَعْرِض على زُفَر وابْنِه الهُذَيْلِ الأَمَانَ على أنفسهما ومَنْ معهما وأن يُعْطَيا ما أحبَّا . ففعل ذلك ، فأجابا على أنَّ لزفر الخِيَارَ فى بَيْعَته سنةً ، وأن يُتْرَك حيث شاء ، وألا يُعين عبد الملك على قتالِ ابن الزبير .

فبينما الرسل تختلف بينهم إذ جاء رجُلٌ من كَلْب ، فقال : قد هدم من المدينة أربعة أبراج ، فقال عَبْدُ الملك : لا أُصالِحُهُمْ ،

(١) فى الكامل : فوهب له .

وزحف إليهم ، فهزَمُوا أصحابَه حتى أدخلوهم عَسْكَرهم ، فقال : أعْطُوهم ما أرادوا . قال زُفر : لو كانَ قَبْلَ هذا لكان أحسن ، واستقرّ الصلحُ على أمَانِ الجميع ، ووَضْعِ الدماء والأموال ، وألّا يبايع عبْدالملك حتى يموت ابن الزُّبَيْر للبَيْعَة التى له فى عُنُقه ، وأن يُعطى مالاً يقسّمه فى أصحابه ، وخاف زُفَر أن يَغْدر به عبْدُ الملك كما غَدَر بِعَمْرِو بن سَعِيد ، فلم ينزل إليه ، فأرسل إليه بقَضِيب النبى صلى الله عليه وسلم أمانًا له ، فنزل إليه ، فلما دخل عليه أجلسه معه على سريرِه ، فلما رأى عبد الملك قِلَّةَ مَنْ مَعَ زُفَرَ قال : لو علمْتُ بأنه فى هذه القلَّةِ لحاصرْتُه أبدًا حتى نزل على حُكْمِى ، فبلغ قَوْلُه زُفَر فقال : إن شئْتَ رجَعْنَا ورجعت . قال : بل نَفِى لك يا أبا الهُذَيْل .

وأمر زُفَر ابْنَه الهذيل أنْ يسير مع عبد الملك إلى قتالِ مُصْعب ، وقال : أنت لاعَهْدَ عليك ، فسار معه ، فلما قارب مصعبًا هرب إليه ، وقاتل مع ابن الأشْتَر . فلما قُتل ابْنُ الأشتر اختفى الهذيل فى الكوفة حتى استؤمن له من عبد الملك فأمّنه .

قال : وتزوّج مسلمة بن عبد الملك الرّباب بنت زفر فكان يُؤْذَن لإخوتها : الهذيل والكوثر فى أول الناس .

وفى هذه السنة ، أعنى سنة [٧١هـ] إحدى وسبعين ،افتتح عَبْد الملك قَيْسارِيَّةَ(١) فى قول الواقدى رحمه الله .

---

(١) بالفتح ثم السكون ، وسين مهملة ، وبعد الألف راء وياء مشددة : بلدة على ساحل بحر الشام ، تعد فى فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام (المراصد) .

ذكر مقتل عبد الله بن خازم

واستيلاء عبْد الملك على خراسان

ولما قُتل مُصْعَب كان عَبْدُ الله بن خازم يقاتل بَحِير[١] بن وَرْقَاء لصُّريمى التميمى بنيسابور ، فكتب عَبْدُ الملك إلى ابْنِ خازم يدعوه إلى البَيْعَةِ ويُطْعِمُه خراسان سَبْع سنين ،وأرسل الكتاب مع سَوْرة[٢] ابن أشيم النميرى ، فقال له ابن خازم : لولا أنْ أضَرِّب بين بنى سُليم وبنى عامر لقتَلْتُك ، ولكن كلْ كتابَه ، فأكله . وقيل : بل كان الكتاب مع سَوَادَة بن عُبَيد الله النميرى . وقيل : مع[٣] مكمل الغنوى . فقال له ابن خازم : إنما بعثك أبو الذِّبَّان لأنكَ مِنْ غَنِىّ ، وقد علم أنى لا أقْتُل رَجُلا من قيس ، ولكن كُلْ كتابَه

وكتب عبد الملك إلى بُكير[٤] بن وسّاج ، وكان خليفة ابن خازم على مَرْو ، بعَهْده على خراسان ، ووعدَه ومنّاه ، فخلع بُكير عَبْدَ الله ابن الزبير ودعا إلى عبْدِ الملك ،فأجابه أهل مَرْو ،وبلغ ابْن خازم ،فخاف أن يأتيه بُكير فيجتمع عليه أهْلُ مَرْو وأهل نَيْسابور ، فترك بَحِيرًا وأقبل إلى مرْو ، فاتبعه بَحير فلحقه بقرية على ثمانية فراسخ من مَرْو ، فقاتله ، فقُتل ابنُ خازِم . وكان الذى قتله وكيع بن عمرو[٥] القُرَيْعى ، اعْتَوَره وَكيع وبَحير بن وَرْقَاء وعَمَّار بن عبد العزيز ،

---

(١) بحير — بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة (هامش د) .

(٢) فى الكامل : سوادة ، والمثبت فى الطبرى أيضا (٦—١٧٦) .

(٣) فى ك ، والطبرى : سنان بن مكمل الغنوى .

(٤) فى الطبرى (٦—١٧٦) : بكير بن وشاح .والمثبت فى القاموس ، والتاج.

(٥) فى الطبرى (٦—١٧٧) : وكيع بن عميرة . والمثبت فى الكامل أيضا .

فطعنوه ، فصرعوه ؛ وقعد وكيع على صَدْره فقتله ، وبعث[١] بَشِيرًا بقَتْلِهِ إلى عَبْد الملك ، ولم يبعث برأسه .

وأقبل بُكير فى أَهْل مَرْو ، فوافاهم حين قتل ابن خازم ، فأراد أخْذَ الرأس وإنفاذه إلى عبد الملك ، فمنعه بَحِير [فضربه بعمود وحبسه [٢]] ، وسيَّر الرأسَ إلى عبْد الملك ، وذلك فى سنة اثنتين وسبعين .

وقيل : بل كان مقْتَله بعد قَتْل عَبْدِ الله بن الزبير ، وأنّ عبْدَ الملك أنْفَذَ إليه رَأْسَ ابن الزُّبير ،ودعاه إلى نفسه فغسله وكفَّنه ،وبعثه إلى أهله بالمدينة ،وأطعم الرسول الكتابَ ،وقال :لولا أنك رَسُولٌ لقتلتك.

وقيل : بل قطع يديه ورجليه وقَتَله ، وحلف ألا يطيع عبْد الملك أبدًا . [والله أعلم [٢]] .

ذكر مقتل عبد الله بن الزبير

رضى الله عنه وشىء من أخباره

قال :لما قتل مصعب بن الزبير تقدم الحجاجُ بن يوسف الثقفى إلى عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت فى المنام أنى أخذتُ ابْنَ الزبير وسلختُه ، فابعثنى إليه ، وَوَلِّنى حَرْبه ، فبَعَثَهُ فى أَلْفَيْن ، وقيل فى ثلاثة آلاف ، فسار فى جمادى الأُولى سنة [٧٢هـ] اثنتين وسبعين ، ونزل الطائف ، وكان يَبْعَثُ الخيلَ إلى عَرَفة [فى الحل] [٣]

---

(١) فى الكامل : وبعث بجير ساعة قتله بشيرا .

(٢) من د وحدها .

(٣) زيادة من الطبرى .

بعد الطائف، ويبعث ابنُ الزبير الخَيْل فيقتلون فتنهزم خَيْلُ ابنِ الزبير، وتعودُ خَيْلُ الحجاج بالظَّفَر .

ثم كتب الحجاج إلى عبدالملك يستأْذِنُه فى دخول الحرم وحَصْرِ[1] ابن الزبير ، ويُخْبِرُه بضَعْفِه وتفرُّقِ أصحابِه ، ويستمدّه ، فأمدَّه بطَارق بن عَمْرو مَوْلَى عثمان ، وكان عَبْدُ الملك قدبعثه فى جَيْشٍ إلى وَادِى القُرى ليمنع عمَّالَ ابن الزُّبَيْر من الانتشار ، فقدم المدينة فى ذى القعدة[2] سنة [٧٢هـ] اثنتين وسبعين ، وأخرج عامِلَ ابْنَ الزبير منها ، وجعل عليها رجلاً من أهلِ الشام اسْمُه ثَعْلَبَة ، وقدم طارق [2] مكة فى ذى الحجة منها فى خمسة آلاف ، وتقدم الحجَّاجُ إلى مكة ، فنزل عند بئر مَيْمون[3] ، وحَجَّ بالناس فى تلك السنة . إلَّا أنه لم يَطُفْ بالبَيْتِ ، ولا سَعَى بين الصَّفَا والمرْوَة ؛ مَنعه عَبْدُ الله ابنُ الزبير من ذلك ؛ ولم يحجّ ابْنُ الزبير ولا أصحابهُ فى تلك السنة. ونصب الحجاج المِنْجَنِيق على أبى قُبَيْس [4] ، ورمَى به الكَعْبَة ، فقال عَبْدُ الله بنُ عمر بن الخطاب رضى الله عنهما للحجاج ، اتَّق الله واكفُفْ هذه الحجارة عن الناس ، فإنك فى شَهْرٍ حرام فى بلدٍ حرام ؛ وقد قدمَتْ وفودُ اللهِ مِنْ أقطار الأرض ليؤدُّوا فريضةَ الله ، وقد منعهم المِنجَنِيقُ عن الطَّواف . فكَفَّ حتى انقضى الحج ، ثم نادى فى الناس : انصرفوا إلى بِلَادكم ، فإنا نعودُ بالحجارة على ابْنِ الزبير المُلْحِد .

---

(١) فى الطبرى : وحصار .

(٢) فى الطبرى : وكان قدوم طارق مكة لهلال ذى الحجة .

(٣) بئر ميمون : فى مكة بأعلاها (المراصد) .

(٤) أبو قبيس : جبل مشرف على مكة .

قال : وأول ما رمَى الكعبة بالمَنْجَنِيق رعدت السماءُ وبرقَتْ ، وعَلَا صَوْتُ الرَّعْدِ على الحجارة ، فأعظم ذلك أهْل الشام وأمسكوا أيديهم ، فأخذ الحجاج حجَر المِنْجَنِيق (١) ووضعه بيدِه ورمى به ، فجاءت الصواعِقُ فقتلتْ منْ أصحابه اثنى عشر رجلا ، فانكسر أهْلُ الشام ، فقال الحجاج : يأهل الشام ، لا تُنْكِرُوا هذا ، فإنى ابْنُ نِهَامة ، وهذه صَوَاعِقُها ، وهذا الفَتْحُ قد حضر ، فأبْشِرُوا .

فلما كان الغَدُ جاءت الصاعِقَةُ فأصابت من أصحاب ابْنِ الزبير عدّة . فقال الحجاج : ألا تَرَوْنَ أنهم يُصَابُونَ كما تُصَابُون ، وأنتم على الطاعةِ وهم على خِلَافها ، وكان الحَجَرُ يقع بين يدى عَبْدِ الله ابن الزُّبير وهو يُصَلِّى ، فلا ينصرف عن مكانه .

وغَلَت الأسعارُ عند ابن الزبير حتى ذبح فَرَسَه ، وقَسَّم لحْمَه فى أصحابه ، وبِيْعَت الدجاجةُ بعشرة دراهم والمُدّ الذرة بعشرين درهمًا ، وكانت بيوتُ ابن الزبير مملوءةً قمحًا وشعيرًا وذُرة وتمرًا ، وكان أهلُ الشام ينتظرون فَنَاءَ ما عنده ، فكان لا ينفق منه إلَّا ما يُمْسِك الرَّمَق ويقول : نفوسُ أصحابى قويّة مالم تَفْنَ .

فلما كان قُبَيْل مقْتَله تفرَّق الناسُ عنه ، وخرجوا إلى الحجَّاج بالأمان ، فخرج مِنْ عنده نحو عشرة آلاف . وكان ممن فارقه ابْنَاه حَمْزَة وخبيبٌ ، أخَذَا لأنْفُسهما أمانًا ، فقال عَبْدُ الله لابنه الزُّبير : خُذْ لنفسك أمَانًا كما فعل أخَواك ، فوالله إنى لأُحِبُّ بقاءكم . فقال : ما كنْتُ لِأرْغَبَ بنفسى عنك ، فقُتِل معه .

---

(١) فى الكامل : حجارة المنجنيق بيده ، فوضعها فيه ، ورمى بها معهم .

قال : ولما كان فى الليلة التى قُتِل فيها عَبْدُ الله فى صبيحتها جمع قُرَيشًا فقام لهم : ما تَرْوَنَ ؟ فقال رجل من بنى مخزوم : والله ، إنَّا قاتلْنَا معكَ حتى ما نجِدُ مَقْتَلا ، والله لئن سِرْنَا معك ما نَزِيد على أنْ نموت ، وإنما هى إحْدَى خصلتين : إما أن تأْذَنَ لنا فنأْخُذَ الأَمَانَ لأنفسنا ولك ، وإما أن تأْذنَ لنا فنخرج .

فقال له رجل : اكتُبْ إلى عَبْدِ الملك . فقال : كيف أكتب من عَبْدِ الله أميرالمؤمنين إلى عَبْدِ الملك بن مروان؟ فوالله لا يَقْبَلُ هذا أبدًا ، أوأكتب لعَبْدِ الملك بن مروان أمير المؤمنين . من عبدالله بن الزبير ؟ فوالله لأَنْ تقعَ الخَضْراء على الغَبْرَاء أهونُعلىّ من ذلك.فقال له عُرْوَة وهوجالس معه على السرير : قد جعل اللهُ لكَ أُسوةً فى الحَسَنِ بن على رضى الله عنهما ، خَلَع نَفْسَه وبايعَ معاوية ، فركضه برِجْلِه ورماه عن السرير ، وقال : قَلْبِى إذًا مثل قلبك ، والله لو قلتُها ما عشتُ إلَّا قليلا وإنْ أُضْرَب بسيفٍ فى عزٍّ خيرٌ منْ أن أُلْطَم فى ذُلٍّ .

فلما أصبح دخل على امرأته أم هاشم (١) فقال : اصنعى لى طعامًا . فلما صنعَتْه وأتَتْ به لَاكَ منه لُقْمة ثم لفَظَها ، وقال : اسقُونى لبنًا فسقَوه ، ثم اغتسل وتطيّب وتحنَّط ، ودخل على أمه ، فقال : يا أماه ، قد خذلنى الناسُ حتى وَلَدِى وأهلى ولم يبْقَ معى إلَّا اليسير ، والقَوْمُ يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك؟ قالت له : أنْتَ أعلَمُ بنفسك ، إن كنْتَ [تعلم أنك] (٢) على حق وأنت تَدْعُو إليه فامْضِ له ، فقد قتِل عليه أصحابُك ، ولا تمكِّنْ(٣)

(١) فى العقد : بنت منصور بن زياد الفزارية .
(٢) من الطبرى ، والكامل .
(٣) فى الكامل : ولا تمكن من رقبتك .

من نفسك يتلعَّبُ بك غِلْمَانُ بنى أمية ،وإن كنْتَ إنما أردْتَ الدنيا فبئس العَبْدُ أنت ، أهلكْتَ نفسك ومَنْ قُتِل معك ، وإن قلْتَ : كنْتُ على حَقٍّ فلما وهَن أصحابى ضعُفْتُ ،فهذا ليس فِعْلَ الأحرار ولا أهْل الدين ، كم خلودُك فى الدنيا ؟ القَتْلُ أحسن ! فقال : ياأُماه ، أخاف إنْ قتلنى أهْلُ الشام أن يُمَثِّلُوا بى ويصلبُونى . فقالت : يابنى ، إن الشاةَلا تـألم السلْخَ بعد الذَّبْح ، فامْضِ على بصِيرتك ، واستَعِنْ بالله.

فقبَّل رأسها وقال : هذا رأيى ، والذى خرجْتُ به دَاعيًا(١) إلى يومى هذا . ما ركَنْتُ إلى الدنيا ، ولاأحببْتُ الحياةَ فيها ، ومادَعانى إلى الخروج إلَّا الغَضَبُ لله ، وأن تُستَحَلَّ حُرُماته ؛ ولكنى أحببت أن أعْلَمَ رَأْيك ، فقد زدتنى بصيرةً ، فانظرى فإنى مقتولٌ فى يومى هذا ؛ فلايشتدّ حُزْنك ، وسَلِّمى لأمْرِ الله ، فإنَّ ابْنَك لم يتعمَّد إتْيَانَ مُنْكَرٍ ولا عمَلاً بفاحشة ، ولم يَجُرْ فى حُكْمِ الله ، ولم يَغْدِرْ فى أمان ، ولم يتعمَّدْ ظُلْمَ مُسلمٍ أو مُعَاهَدٍ ، ولم يبلغنى ظُلْمٌ عن عمّالى ، فرضيْتُ به ؛ بل أنكرْتُه ، ولم يكن ىء آثَر عندى من رِضاء ربى . اللهم إنى لا أقولُ هذا تزكيةً لنفسى ،ولكن أقُولُه تعزيةً لأُمى حتى تَسْلُو عنى.

فقالت : إنى لأرجو أنْ يكون عَزَائى فيك جَميلاً ، إن تقدَّمْتَنى احتَسَبْتُك ، وإن ظفِرْت سُرِرْت بظَفَرك . اخرج [عنى(٢)] حتى أنظُر إلى ما يَصِير أمْرُك ، فقال : جزاكِ اللهُ خيرًا ؛ فلا تَدعِى الدعَاءَ لى. قالت : لَا أدَعُه لك أبدًا ، فمن قُتِلَ علَى باطلٍ فقد قتلت على حقّ .

---

(١) فى الكامل : دائبا .

(٢) فى د وحدها .

ثمْ قالت : اللهم ارْحَمْ طُولَ ذلك القِيَام فى الليل الطويل ، وذلك النَّحيب والظمَأ فى هَوَاجِر مكَّة والمدينة ، وبِرَّه بأبيه وبى. اللهم قد سلَّمْتُهُ لأَمْرِكَ فيه ، ورضيتُ بما قضَيْتَ ، فأَثِبْنِى فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

فتناول يَدَها ليقبِّلها ، فقالت : هذا وَدَاعٌ فلا تبعَدْ . فقال لها : جِئْتُ مودِّعًا ، لأنى أرَى هذا آخرَ أيامى من الدنيا . قالت : امْضِ على بصِيرتك ، وادْنُ منى حتى أُودِّعك ، فدَنَا منها فعانَقَها ، وقبَّلَ بيْنَ عينيها ، فوقَعَتْ يدُها على الدِّرع ، فقالت : ما هذا صَنِيع مَنْ يُريد ما تُرِيد ! فقال : ما لبِسْتُه إلَّا لأَشدّ مَتْنَك . قالت : فإنه لايشدُّ متْنى ، فنزعها ، ثم درج[1] كميْه ، وشدّ أسفَلَ قميصِه وجُبّة خَزٍّ تحت السراويل ، وأدخل أسفلها تَحْتَ المنطقة ، وأمه تقول : البس ثيابَك مشمَّرةً .

فخرج مِنْ عندها وحمل على أَهْلِ الشام حَمْلَةً منكرة ، فقتَل منهم ، ثم انكشف هو وأصحابُه ، فقال له بعضُ أصحابه : لو لحقْت بموضع كذا . فقال : بئس الشيخ أنا إذًا فى الإسلام أنْ أوقعْتُ قوما فقُتِلوا ثم فرَرْتُ عن مِثْل مصارعهم .

ودنا أَهْلُ الشام حتى امتلأَتْ منهم الأَبواب ،وكانوا يصيحون : يابْن ذاتِ النِّطَاقِين ، فيقول : وتِلك شكَاة ظاهرٌ عنك لُؤمها[2] .

---

(١) فى الطبرى : أدرع .

(٢) فى الكامل : عارها .

وجعل أَهْلُ الشام على أبوابِ المسجد رجالا[١] ، فكان لأهل حِمْص البابُ الذى يواجِهُ باب الكعبة ، ولأهل دمشق بابُ بنى شَيْبَة ، ولأهل الأُرْدُن بابُ الصَّفَا ، ولأهل فلسطين باب بنى جُمَح ، ولأهل قِنَّسْرِين باب بنى سَهْم . وكان الحجاج وطارق بناحية الأَبْطَح إلى المَرْوَة ، وابنُ الزبير يحمل على هذه الناحية مرةً وفى هذه أُخرى ، وكأنه أَسَدٌ فى أَجَمَةٍ ما تُقْدم عليه الرجال وهو يَعْدُو فى إثر القوم حتى يحرجهم ، ثم يصيح [يا] [٢] أباصفْوان ،ويلُ أمِّه فَتْحًا ، لو كان له رجالٌ . * لو[٣] كان قِرْنِى واحدًا كفَيْتُه *

فيقول أبو صفْوان عبد الله بن صَفوان بن أُمية بن خلف : أى والله وألف .

فقال رجل من أهل الشام اسمه جُلْبوب[٤] : إنما يمكنكم أَخْذُه إذا ولَّى . قيل : فخُذْه أَنْتَ إذا ولَّى . قال : نعم ، وتقدّم ليحْضِنَه مِنْ خَلْفه ،فعطف عليه فَقَطَّ ذِرَاعَيْه فصاح ، فقال : اصبر جُلْبُوب[٤] .

قال : فلما رأى الحجاج أنَّ الناس لايُقْدِمون على ابْنِ الزبير غضب وترجَّل يسوقُ الناس ويصدم[٥] بهم ، فصدم صاحب عَلَمِ ابن الزبير وهو بين يَديه ، فتقدَّم ابْنُ الزُّبَيْر على صاحبِ عَلَمه وقاتلهم حتى انكشفوا ، ورجع فصلَّى ركعتين عند المقام ، فحملوا

(١) فى الكامل : رجلا من أهل كل بلد .

(٢) من الطبرى .

(٣) والعقد : ٤–٤١٦ ، والطبرى : ٦–١٩١ ، وطبقات القراء : ٢٨ ، وهو لدويد بن زيد .

(٤) فى العقد (٤١٦) : خلبوب . والمثبت فى الكامل، د . والضبط فى د .

(٥) فى الكامل : ويصمد بهم ، فصمد .

على صاحِب عَلَمه ، فقتلوه عند بابِ بنى شَيْبَة ، وأخذوا العَلَم . فلما فرغ من صلاته تقدم فقاتل بغير عَلَم ، وقتل رجلا من أهل الشام وآخر ، وقاتل معه عَبْدُ الله بن مُطيع ، وهو يقول :

أنا الذى فررْتُ يوم الحرَّهْ والحُرُّ لا يَفِرُّ إلَّا مَرَّهْ
واليوم أجزى فَرّة بكَرَّهْ

وقاتل حتى قُتل ، ويقال : أصابته جراحة فمات منها بعد أيام.

قال : وقال عَبْدُ الله بن الزُّبير لأصحابه وأهله يوم قُتِل بعد صلاة الصبح : اكشفوا وُجُوهكم حتى أنظر إليكم وعليكم المَغَافِرُ ، ففعلوا ، فقال : يا آل الزبير ، لو طِبْتُم لى نفسا عن أنفسكم كنَّا أهْل بيت من العرب اصطُلمْنَا فى اللهِ فلا يَرُعْكم وَقْعُ السيوف ، فإنَّ أَلَم الدواء للجراح أشدّ من ألم وَقْعِها ، صونُوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، غُضُّوا أبصاركم عن البارِقة ، وليشغل كلّ امرىء قِرْنه ، ولا تسألوا عنى ، فمن كان سائلا عنى فإنى فى الرَّعيل الأوّل ، احملوا على بَركة الله.

ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجُون[1] فَرُمِىَ بآجُرّة ، رماه بها رجُلٌ من السَّكون ، فأصابتْ وجْهَهُ فأرعش لها وسال الدَّمُ على وجهه ، فقال رضى الله عنه وأرضاه[2] :

فلَسْنَا على الأعقابِ تَدْمَى كلومُنا ولكن على أعقابنا تَقْطُر الدِّما

وقاتلهم قتالاً شديدًا ، فتعاونوا[3] عليه ، فقتلوه ، قَتَلَهُ رجُلٌ

(١) الحجون : بأعلى مكة ، عند مقبرة أهلها (المراصد) .

(٢) والطبرى : (٦–١٩٢)، والبيت للحصين بن الحمام المرى ، وانظر ديوان الحماسة بشرح المرزوقى : ١ – ١٩٢ .

(٣) فى الكامل : فتعاوروا .

من مُراد، وحمل رَأْسَه إلى الحجاج ، فسجد .ووفَد السَّكُونى والمُرَادى إلى عَبْدِ الملك بالخبر ؛ فأعطى كل واحدٍ منهما خمسمائة دينار .

وقيل فى قَتْله : إنه جاءه حَجَر المِنْجَنِيق وهو يقاتِلُ فصرعه فاقتحم عليه أَهْلُ الشام ، وذهبوا به إلى الحجّاج فحزَّ رأسه بيده .

وكان مقتله – رضى الله عنه – فى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جُمَادى الأُولى سنة [٧٣هـ] ثلاث وسبعين وقيل فى جمادى الآخرة منها ، وله ثلاث وسبعون سنة .

ولما قُتِل رضى الله عنه كبَّرَ أَهْلُ الشام فَرَحًا بقتله ؛ فقال عَبْدُ الله ابن عمر : انظروا إلى هؤلاء . انظرُوا إلى هؤلاء . لقد كبَّرَ المسلمون فرحًا بولادته ، وهؤلاء يكبِّرون فَرَحًا بقَتْله .

وبعث الحجاج برأسه ورَأس عبد الله بن صفوان ورأس عُمارة ابن عَمْرو بن حَزْم إلى المدينة ،ثم إلى عبد الملك وصلب جثَّته [منكَّسة] (١) على الثنيَّة اليمنى بالحَجُون ، فأرسلت إليه أسماء تقول : قاتلكَ اللهُ ! على ماذا صلبتَه ؟ قال : استبقْتُ أنا وهو إلى هذه الخشبَة ،فكانت له . فاستأذَنَتْه فى تكفينه ودَفْنِه . فأَبى .

وكتب إلى عَبْد الملك يُخْبِرُه بصَلْبِه ، فكتب إليه يَلُومُه ، ويقول : ألا خلَّيْت بينه وبين أُمِّه . فأَذِنَ لها الحجاج فدفَنَتْهُ بالحَجُون .

وكان قبل مقْتَله بقى أيامًا يستعمل الصَّبر والمِسْكَ لئلا ينْتن

(١) ساقط فى الكامل .

إنْ هُو صلب ، فلما صُلِب ظهر منه ريحُ المسك ، فقيل : إن الحجاج صلَب معه كَلْبًا ميتًا . وقيل ، سِنَّورًا ، فغلب على ريح المسك .

ولما قتل عبْدُ الله ركب أخوهُ عُرْوَةُ بن الزبير ناقَةً لم يُرَ مِثْلُها وسار إلى عَبْد الملك فسبق رُسلَ الحجاج ، فاستأْذن على عَبْدِ الملك فأَذِن له ، فلما دخل عليه سلَّم عليه بالخلافة ، فرحَّب به وأجلسه معه على السرير ، فقال عروة :

نَمتُّ (١) بأَرحامٍ إليك قريبـة ولا خير فى الأَرْحامِ مالم تُقرب

وتَحَدَّثَ (٢) حتى جرى ذِكْرُ عَبْدِ الله ، فقال عُرْوَة :إنه كان . فقال عبد الملك : وما فعل ؟ قال : قُتِلَ ؛ فخرَّ سَاجِدًا . فقال عُرْوَةُ : إن الحجاج صلَبه . فهَبْ جُثَّتَه لأُمه . قال :نعم .

وكتب إلى الحجاج فَعَظَّم(٣) صَلْبه .

وكان الحجاج لما فقد عُرْوة كتب إلى عبد الملك : إنَّ عُرْوة كان مع أخيه . فلماقُتل عَبْدُ الله أخذ مالاً من مالِ اللهِ وهرب .

فكتب إليه عَبْدُ الملك يقول : إنه لم يهرب ، ولكنه أتانى مُبَايِعًا ، وقد أمّنته وحللته مما كان منه ، وهو قادِمٌ عليك ، فإياك وعُرْوة .

فعاد عُرْوَة إلى مكة فكانت غَيْبتُه عنها ثلاثين يوما . فأَنزل الحجاجُ جُثَّةَ عبْد الله عن الخشبة وبعث بها إلى أُمِّه فغسلته. فلما أصابه الماءُ تقطَّع فغسلته عُضْوًا عضوًا . وصلى عليه عُرْوة وقيل غيره .

---

(١) فى الكامل : متت .

(٢) فى الكامل : ثم تحدثا .

(٣) فى الكامل : يعظم .

وقيل : لم يُصلِّ عليه أحدٌ ؛ منع الحجاجُ من الصلاة عليه .

وكانت أيام ولايته منذ مات معاوية بن يزيد إلى أنْ قُتِل سبع سنين وأيّامًا .

وكان له من الأولاد : عَبْد الله ، وحمزة ، وخُبَيْب ، وثابت ، وعبّاد ، وقيس ، وعامر ، وموسى .

وكاتبه زيد بن عَمْرو .

وحاجبه سالم مولاه [والله الموفق بمنه وكرمه] (١) .

ذكر نبذة من سيرته

[رضى الله عنه] (١) وأخباره

كان كثيرَ العبادة إذا سجد وقعت العصافيرُ على ظَهْرِه تظنُّه حائطًا لسكُونِه وطُولِ سجوده . وقال بعض السلف : قَسَّم عَبْدُ الله الدّهْر على ثلاث حالات فَلَيْلَةٌ قائم حتى الصباح ، وليلة راكع حتى الصباح ، وليلة ساجد حتى الصباح .

وقيل : أول ماعُلم مِنْ همّتِه أنه كان يَلْعَبُ ذات يومٍ مع الصِّبْيان وهو صَبِى ، فمرَّ رجلٌ فصاح عليهم ففرُّوا ، ومشى عَبْدُ الله القَهْقَرَى ، وقال للصبيان : اجعلونى أميرَكم ، وشُدُّوا بِنَا عليه .

ومرّ به عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يلعَبُ مع الصبيان ففرُّوا ووقف هو ، فقال له عُمَر : ما منعك أن لاتفرَّ معهم (٢) ؟ فقال : لم أُجْرِمْ فأخافَك ، ولم تكن الطريقُ ضيقةً فأُوسِّعَ لك .

---

(١) ساقط فى د .

(٢) فى الكامل : مالك لم تفر معهم .

وقال: هشام بن عروة : كان أول ما أفصح به عَمِّى عَبْدُ الله ابن الزبير وهو صغير السيف[١] ، فكان لا يضَعُه مِنْ فيه[٢] . فكان الزبير رضى الله عنه يقول : واللهِ ليكونَنَّ لك منه يوم وأيام .

وقال ابن سيرين : قال ابْنُ الزبير :ماكان شيء يحدثنا به كَعْب إلا وقد جاء على ماقال إلَّا قوله : فَتَى ثقيفٍ يقتُلنى وهذَا رَأْسه بين يدىَّ – يعنى المختار .

قال : لم يشعر ابْنُ الزبير أنَّ الحجاج قدخُبِّىء له. ومر [به[٣]] عبد الله بن عُمَر رضى الله عنهم وهو مصلوبٌ ، فقال : يَرْحَمُك الله إن كُنْتَ لصوَّامًا قوّامًا ، ولقد أفلحت قريش إن كنْتَ شرها .

وكان الحجاج قدصلبه ثم ألقاه فى مقابر اليهود ،وأرسل إلى أُمِّه يستحضرها ، فلم تحضر ، فأرسل إليها لتأْتينى أولأَبعثنَّ إليك مَنْ يسحبُك بقُرُونك ، فلم تأْتِه فجاء إليها . فقال : كيف رأيتنى صنَعْتُ بعَدُوّ الله[٤] ؟ قالت :رأيتك أفسدْتَ عَلَى ابْنِى دُنْيَاه ، وأفسد عليك آخِرتَك ؛ وإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أنَّ فى ثقيف كذّابا ومُبِيرًا ، فأما الكذاب فقد رأيناه [تعنى المختار[٥]] ، وأما المُبير فأنت[٦] .

---

(١) فى د : السن .
(٢) فى الكامل : من يده .
(٣) من الكامل .
(٤) فى الكامل : بعبد الله .
(٥) من الكامل .
(٦) فى الكامل : فأنت هو .

وقال قَطَن بْنُ عَبْد الله : كان الزُّبير يُفْطِر من الشهر ثلاثة أيام ، ومكث أربعين سنة لم ينزع ثَوْبَه عن ظَهْره . وقال مجاهد : لم يكن بابٌ من أبوابِ العبادة يعجز عنه الناسُ إلا تكلَّفه ابن الزبير ، ولقد جاء سيْلٌ طبَّق البيْت ، فجعل ابْنُ الزبير رضى الله عنه يطوفُ سباحة . [وماتت أسماءُ رضى اللهُ عنها بعده بقليل(١)] .

انتهت أخبار عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ،فلنذكرغَيْرَ ذلك مِنْ أخبارِ أيام عبد الملك ونبدأ بتتمَّةِ أخبار الحجاج وما فعل بمكة والمدينة [والله أعلم(٢)] .

ذكر مبايعة أهل مكة عبد الملك بن مروان

ومافعله الحجاج من هَدْم الكعبة وبنائها ومسيره إلى المدينة وما فعله فيها بالصحابة رضى الله عنهم

قال : ولما فرغ الحجاجُ من أمْرِ عَبْدِ الله بن الزبير دخل مَكَّةَ فبايَعَهُ أهْلُها لعَبْدِ الملك بن مَرْوان ، وأمربكَنْسِ المسجد الحرام من الحجارةوالدم ،وهَدم الكعبة فى المحرم سنة [٧٤هـ] أربع وسبعين ، وأعادها إلى البناءِ الأول وأخرج الحجر منها ،وكان عبد الملك [يقول(٢)] : كذب ابْنُ الزبير فيما رواه عن عائشة رضى الله عنها عَنْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فى أمْرِ الحجر ،وأنه من البيت . فلما(٣) قال له

(١) ساقط من ك .
(٢) ليس فى د .
(٣) فى الكامل : فلما قيل له .

غَيْرُ ابنِ الزبير : إنَّ عائشةَ رضى الله عنها روَتْ ذلك عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال : ودِدْتُ أنى تركْته وما تَحَمَّل .

والكعبةُ فى وقتنا هذا على بنائها الذى أعادَهُ الحجاجُ بن يوسف .

قال : ثم سار الحجاج إلى المدينة فى سنة [٧٤هـ] أربع وسبعين ، وكان عَبْدُ الملك قد عزل طارِقًا (١) عنها ، واستعمل عليها الحجاج ، فصار معه مكة والمدينة واليمن واليَمامة ، فلما قدم المدينة أقام بها شهرًا أو شهرين ، فأساء إلى أهلها ، واستخف بهم ،وقال : أنْتُمْ قَتَلَةُ أميرِ المؤمنين عثمان ، وخَتَم أيْدِى جماعةٍ من الصحابة بالرصاص استخفافًا بهم ، كما يُفْعَل بأهلِ الذمَّة ، منهم جابر بن عَبْد الله . وأنَس بن مالك ، وسَهْل بن سَعْد ، ثم عاد إلى مكة مُعْتَمرًا ، وقال حين خرج من المدينة : الحمد لله الذى أخرجنى من أمِّ نَتْن ، أهْلها أخبث أهل بلد ، وأغَشُّه لأمير المؤمنين ، وأحسدهم له على نعمة الله ، والله لولا ما كانت تأتينى كُتُب أمير المؤمنين فيها لجعَلْتُها مثل جَوْفِ الحِمَارِ ، أعواد يعوذُونَ بها ، ورِمَّة قد بليت ، يقولون : منبر رسول الله ، وقَبْرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبلغ جابرَ بن عَبْدِ الله قولُه ، فقال : إن وراءه ما يسوءه . قد قال فرعون ما قال ، فأخذه اللهُ بعد أن أنْظَره .

وأقام الحجاج بالحجازِ إلى أنْ نقله عَبْدُ الملك إلى ولاية العراق . وذلك فى سنة [٧٥هـ] خمس وسبعين على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) هو طارق بن عمرو .

ذكر أخبار الخوارج

فى أيام عبد الملك بن مَرْوان منذ استقلّ بالأمر

قد ذكرنا أنه لما قُتِل مصعب بن الزبير كان المهلّب بن أبى صُفْرة يقاتل الخوارج منذ ثمانية أشهر ، وذكرنا مقالَتهم لأصحابه حين بلغهم قَتْل مُصْعب ، وتبعه عبد الملك ، فلما كان فى سنة [٧٢هـ] اثنتين وسبعين استعمل عبْدُ الملك خالدَ بن عَبْد الله بن أَسِيد [١] على البَصْرَة ، فلما قدمها استعمل المهلّب على خراج الأهواز ومعونتها ، وبعث أخاه عَبْد العزيز بن عَبْد الله إلى قِتَالِ الخوارج ، وسيّر معه مقاتل بن مسمع ، فخرجا يَطْلُبَان الأَزَارقة ، فأتت الخوارجُ من ناحية كِرْمان إلى دَرَابجْرد [٢] وأرسل قَطَرِىّ بن الفُجَاءة المازِنى أمير الحج سبعمائة فارس مع صالح ابن مخراق [٣] ، فأقبل بهم حتى استقبل عَبْد العزيز وهو يَسيرُ ليلا على غير تَعْبئة ، فانهزم بالناس ، ونزل مقاتل بن مسمع ، فقاتل حتى قُتِل .

ولما انهزم عبْدُ العزيز أُخِذت امرأتُه ابنةُ المنذر بن الجارُود ، فأُقيمت فيمن يزيد ، فبلغت قيمتها مائة ألف ، فجاء رجل من قومها [٤] كان من رءُوسِ الخوارج ، فقال : تنحّوا هكذا ، ماأرى هذه المشركة إلّا قد فتَنَتْكم ، فضرب عُنُقَها ، ولحق بالبصرة ، فرآه آلُ المنذر ،

---

(١) الضبط فى معجم البكرى.

(٢) درا بجرد : بفتح أوله . وقال أبو حاتم : بكسر أوله . والباء المعجمة بواحدة ، بعدها جيم مكسورة ، وراء مهملة ساكنة ، ودال مهملة (البكرى) . وفى ك : دار الجرة — تحريف .

(٣) فى الكامل : مخارق ، والمثبت فى الطبرى أيضا . وفى الكامل : تسعمائة فارس.

(٤) فى الكامل : يقال له أبو الحديد الشنّى .

فقالوا : والله ماندرى أنحمدك أم نذمّك ؟ فكان يقول : مافعلتُه إلّا غيرةً وحميّة .

وانتهى عبد العزيز إلى رَامَهرمز ، وأتى المهلبَ خَبَرُه ، فأرسل[1] إلى أخيه خالد بن عبد الله بخَبَرِ هزيمته ، فقال للرسول : كذبت. فقال : إن كنْتُ كاذبًا فاضْرِبْ عُنُقى ، وإن كنْتُ صادقًا فأعطنى جُبّتَك ومُطْرَفك. قال : ويحك! قد رضيْت من الخَطَر العظيم بالخَطَر اليسير ، ثم حبسه وأحسن إليه لما صَحّ عنده خبر الهزيمة . وفى هذه الهزيمة وفرار عبد العزيز يقول ابن قَيْس الرقيّات[2] :

عبد العزيز فَضَحْتَ[3] جَيْشَك كُلَّهم
وتركْتَهم صَرْعَى بكلِّ سَبِيـــــلِ
من بين ذى عَطَشٍ يَجُـودُ بنَفْسِـــه
ومُلَحَّب[4] بين الرجالِ قَتِيـــلِ
هلاَّ صبَرْت مـع الشهيـــدِ مُقَاتِـــلا
إذْ رُحْت مُنْتَكِثَ القُـــوَى بأَصِيـــلِ
وتركتَ جَيْشَـك لا أَمِيرَ عليهمُـــو
فارْجِعْ بعَـــارٍ فى الحيـاةِ طويـــلِ
ونسيت عِرْسَك إذ تُقـــاد سَبِيَّـــةً
تبكى العيونَ بِرَنَّـــةٍ وعَوِيـــلِ

(١) فى الطبرى : فأرسل إليه شيخا من الأزد .
(٢) والطبرى :٦–١٧٣ : وديوانه : ١٩٠ . والكامل : ٤–١٩
(٣) فى ك : قضمت ، والمثبت فى د ، والكامل ، والطبرى .
(٤) ملحب : قطعه السيف .

قال : وكتب خالد إلى عَبْد الملك بالخبر ، فكتب إليه يقول : قبّح اللهُ رَأْيَك حين تبعثُ أخاك أعرابيا مِنْ أهل مكة على القتال ، وتدَعُ المهلب يَجْبِى الخراج ،وهو الميمون النَّقِيبة ، المُقَاسِى للحَرْبِ ، ابنها وابن أبنائها . أرسل إلى المهلب يستقبلهم ، وقد بعثْتُ إلى بِشْر بالكوفة أن يمدَّك بجيش ، فسِرْ معهم ، ولا تعمل فى عدوّك برأْى حتى يحضره المهلَّب . والسلام .

وكتب عَبْدُ الملك إلى أخيهِ بِشْر ، وهو أميرُ الكوفة ، يأْمره بإنفاذِ خمسة آلاف مع رجلٍ يرْضَاه لقتالِ الخوارج ، فإذا قضوا غَزَوْتهم سارُوا إلى الرَّىّ ، فقاتلوا عدوَّهم ، وكانوا مَسْلَحة ، فبعث بِشْر عبْدَ الرحمن بن محمد بن الأشعث فى خمسة آلاف ، وكتب عَهْدَه على الرّىّ ، وخرج خالد بأَهْلِ البَصْرة حتى قدم الأهواز ؛ وقدمها عبدالرحمن فى أهل الكوفة ،وجاءت الأزارقة حتى دنوا من الأهواز ؛ فعبَّأَ خالد أصحابَهُ ، وجعل المهلب على ميمنته ، وداود بن قَحْذَم من بنى قيس بن ثعلبة على مَيْسَرته ،ثم زحف خالدٌ إليهم بالناس بعد عشرين ليلة ، فرأَوْا من كَثْرَةِ الناس ما هالهم ، فانصرفوا على حامية [1] ، ولم يقاتلوا ؛ فأرسل خالد داودَ بْنَ قَحْذَم فى آثارهم ، وانصرف عَبْدُ الرحمن إلى الرَّىّ ،وأقام المهلَّبُ بالأهواز ، وانصرف خالد إلى البصْرَة ، وكتب إلى عَبْدِ الملك بذلك ، فكتب إلى أخيه بِشْر يأْمُرُهُ أن يبعثَ أربعةَ آلاف فارس من أهل الكوفةِ مع رجل بصيرٍ

(١) فى الكامل : كأنهم على حامية .

بالحَرْبِ إلى فارس فى طلب الأَزَارقة ،ويأمر صاحبَه بموافقة داود ابن قَحْذَم إن اجتمعا .

فبعث بِشْر عتَّاب بنَ وَرْقَاء فى أربعة آلاف ، فساروا حتى لحقوا داود ، فاجتمعوا ، ثم اتَّبَعُوا الخوارج حتى هلكت خيولُ عامتهم ، وأصابهم الجوعُ والجهد ، ورجع عامة الجيش[1] مُشاةً إلى الأهواز ؛ وذلك فى سنة [٧٢هـ] اثنتين وسبعين .

ذكر مقتل أبى فديك الخارجى

قد ذكرنا فى أخبارِ عَبْدِ الله بن الزبير قَتْل نَجْدَة بن عامر وطاعة أصحابه أبا فُدَيك ، فلما كان فى سنة [٧٢هـ] اثنتين وسبعين غَلَب أبو فُدَيك على البَحْرَيْن ؛فبعث خالدُ بْنُ عَبْدالله أميرُ البصرة أخاه أمية بن عبْدالله فى جُنْد كثيف ،فهزمه أبو فُديك ،وأخذ جاريةً له ، فاتخذها لنفسه ، فكتب إلى عبْدِ الملك بذلك ، فأمر عَبْدُ الملك عُمَرَ ابن عُبيد الله بن معمر أن يَنْدب الناسَ من[2] أهل الكوفة والبصرة ويَسِير إلى قِتاله ، فانتدب معه عشرة آلاف ، وسار بهم ، وجعل أهلَ الكوفةِ على الميمنة ، وعليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عُبيد الله ، وأهلَ البَصْرة على الميسرة وعليهم عُمَرُ بن موسى بن عبيد الله بن معمر ، وهو ابن أخى عُمر ، وجعل خَيْلَه فى القَلْبِ ، وساروا حتى انتهوا إلى البَحْرَيْن ، فالتقوا ، واصطفّوا للقتال ، فحمل أبو فُدَيْك وأصحابُه حمْلَةَ رجلٍ واحدٍ ، فكشفوا ميسرة عُمر حتى أبْعَدُوا إلّا المغيرة

(١) فى د ، والكامل : الجيشين .
(٢) فى ك : مع .

ابن المهلَّب ، ومَجَّاعَة بن عبد الرحمن ، وفُرْسَان الناس ؛ فإنهم مالوا إلى صَفِّ أهلِ الكوفةِ بالميمنة ، ثم رجع أهلُ الميسرة وقاتلوا واشتد قتالُهم حتى دخلوا عَسْكَرَ الخوارج ، وحمل أهلُ الميمنة حتى استباحُوا عسْكَر الخوارج ، وقتلوا أبا فُدَيْك ، وحَصَرُوا أصحابَه حتى نزلوا على الحكم ، فقُتل منهم نحو ستة آلاف ، وأُسر ثمانمائة ؛ ووجدوا جارية أمية بن عبد الله حُبْلَى من أبي فُدَيك ، وعادوا إلى البصرة ، وذلك فى سنة [٧٣هـ] ثلاث وسبعين .

ذكر ولاية المهلب بن أبى صفرة حرب الأزارقة

فى سنة [٧٤هـ] أربع وسبعين أمر عَبْدُ الملك أخاه بِشْرا ، وكان قد أضاف إليه ولايةَ البَصْرة مع الكوفةِ ، أنْ يبعَثَ المهلَّب بْن أبى صُفْرَة لحرْبِ الأَزَارقة فى أهل البصرة ، وأن ينتخب مَنْ أراد منهم ، وأنْ يتركه فى الحرب ورَأْيه ، وأمره أن يَبْعَثَ من أهْلِ الكوفة رجُلاً شريفًا معروفًا بالبَأْسِ والنَّجْدة فى جيش كثيف إلى المهلَّب ، وأن يتتبَّعُوا الخوارجَ حيث كانوا حتى يستأْصلوهم .

فأرسل المهلَّب خَدِيج بن سَعِيد[1] بن قَيبصة ، وأمره أن ينتخب الناس من الديوان ، وشقَّ على بشر أن إمرةَ المهلَّبِ جاءت من قِبَل عَبْد الملك ، وبعث بشر عبد الرحمن بن مخْنَف على أهل الكوفة ، وأغْرَاه بالمهلَّب ، وأمره أن يستبدَّ بالأمر ، وسار المهلَّب حتى نزل رَامَهُرْمز ، فلقى بها الخوارج ، فَخَنْدَق عليه ، وأقبل أهلُ الكوفةِ حتى نزلوا على ميل من المهلَّب ، فلم يلبث العسكر إلَّا عشرًا[2] حتى

(١) والإكمال : ٢ — ١٣٣ .

(٢) فى ك : شهرا ، والمثبت فى د ، والطبرى .

أتاهم نَعْى بِشر بن مرْوان فتفرقوا ، وعاد أكْثَرُ أهل الكوفة والبصرة إلى أن قدم الحجاج إلى الكوفة فى سنة [٧٥هـ] خمس وسبعين ، فأخرج الناس إلى المهلَّب وابن مِخْنَف على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى أخبار الحجاج حين قدم الكوفَةَ .

ذكر اجلاء الخوارج عن رامهرمز

وقتل عبد الرحمن بن مِخْنَف

قال : ولما أعاد الحجاج البعوثَ إلى المهلَّب كتب إليه وإلى عَبْد الرحمن بن مِخْنَف يأمُرهما بمناهَضَةِ الخوارج رجعوا [١] إليهم وقاتلوهم شيئًا مِنْ قتال ، فانزاحت الخوارجُ كأنهم على حامية ، وساروا حتى نزلوا بكازَرُون [٢] ، وسار المهلَّب وابن مِخْنَف حتى نزلوا بهم ، وخَنْدَق المهلَّب على نفسه ، وأشار على ابن مِخْنَف أن يخندق ، فقال أصحابه :نحن خندَقُنَا سيوفُنَا ، فأتى الخوارجُ المهلَّبَ ليبيِّتُوه ، فوجدوه قد خَنْدَق ، فمالوا نحو ابْنِ مخنف ، فقاتلوه ، فانهزم عنه أصحابُه ، فنزل فقاتل فى ناسٍ من أصحابه ، فقُتِل وقَتَلُوا رجاله ، فقال شاعرهم [٣] :

لمن العسْكَرُ المكلَّلُ بالصَّرْ ... عى فهُمْ بَيْنَ ميّتٍ وقَتِيـلِ
فتراهُمو تَسْفِى الريـاحُ عليهمو ... حاصِبَ الرَّمْلِ بعْدَ جرّ الذُّيُولِ

هذا قول أهل البصرة فى قَتْلِ ابْن مِخْنف .

---

(١) فى الكامل : زحفوا .

(٢) كازرون – بتقديم الزاى ، وآخره نون : مدينة بفارس بين البحر وشيراز ، يقال : هى دمياط الأعاجم (البكرى) .

(٣) والطبرى : ٦ – ٢١٢ .

وأما أهْلُ الكوفة فقالوا : إنه لَمَّا وصل كتابُ الحجاج لمناهضة[١] الخوارج ناهضهم المهلَّب وابن مِخْنَف ، واقتتلوا قتالاً شديدًا ؛ فمالت الخوارج إلى المهلَّب فاضطرّوه إلى عسكره ،فاستنجد عَبْدَ الرحمن فأمدَّه بالخيل والرجال ، وكان ذلك بعد الظهر لعَشْرٍ بقين من شهر رمضان سنة [٧٥هـ] خمس وسبعين .

فلما كان بعد العَصْرِ ورأت الخوارج مَنْ يأْتى مِنْ عسكرعبدالرحمن [من الرجال] [٢] علموا أنه قد خفَّ أصحابُه ، فجعلوا بإزاء المهلَّب مَنْ يَشْغله ، وانصرفوا بحَدِّهم [٣] إلى ابن مِخْنَف ، فنزل ونزل معه القُرّاء ، منهم أبو الأحوص[٤] صاحب ابن مسعود ،وخزيمة بن نصر أبو نصر بن خزيمة ، ونزل معه من قومه واحدٌ وسبعون رجلا ، وحملت عليهم الخوارجُ فقاتلوا قتالاًشديدًا ،وانكشف الناسُ عنه ، وبقى فى عصابةٍ من أهل الصَّبْر ،فقاتلوا حتى ذهب نَحْوُ ثلثى الليل ، ثم قُتِلَ فى تلك العِصَابَةِ .

فلما أصبحوا جاء المهلَّب فصلَّى عليه ودفَنَه ، وكتب بذلك إلى الحجاج ، فبعث إلى عَسْكَر عبد الرحمن عَتَّاب ابن ورقاء ، وأمرَه أن يسمع إلى المهلَّب ، فساءه ذلك ، ولم يجد بُدًّا من طاعته ، فجاء وقاتل الخوارج ؛ ثم وقع بينه وبين المهلَّب كلامٌ أغلظَ كلٌّ منهما لصاحبه ، فرفع المهلَّب القضيب على عتَّاب ،

---

(١) فى ك : بمناهضة .
(٢) من الكامل .
(٣) فى ك : بجدهم . وفى الكامل : بجندهم . والمثبت فى د ، والطبرى .
(٤) فى الطبرى : عليهم أبو الأحوص .

فوثب المغيرةُ بن المهلب فقبض[١] القضيبَ من يَدِ أبيه وسكته ، وأثنى على عتّاب ، وافترَقَا .

فأرسل عَتّاب إلى الحجّاج يَشْكُو المهلّب ، ويسأله أنْ يأمر بالعود ، فوافق ذلك حاجَةً من الحجاج إليه ، فاستقدمه ، وأمره أنْ يترك ذلك الجيش مع المهلّب ، فجعل المهلّب عليهم ابنه حَبيبًا ، وقاتلَ المهلّبُ الخوارجَ على سابور[٢] نحو سنَةٍ بَعْدَ مسير عَتّاب عنه ، وكانت كَرْمَان فى يَدِ الخوارج ، وفارس فى يَدِ المهلب ؛ فضاق على الخوارج مكانُهم ، فخرجوا حتى أتوا كِرمَان ، وتبعهم المهلب حتى نزل بِجيرْفَت[٣] ، وهى مدينة كِرْمَان ، فقاتلهم قتالاً شديدًا . ثم أرسل إليه الحجاج البَرَاء بْنَ قَبِيصة يحثُّه على قتالِ الخوارج ، ويأمُرُه بالجِدّ ، وأنه لا عُذْرَ له عنده .

فخرج المهلّبُ بالعسكر ، فقاتل الخوارج مِنَ الغدَاة إلى الظهر ، ثم انصرفوا والبراء على تَلّ مُشرِف[٤] يَراهم ، فأثنى على المهلّب وعلى أصحابه ، وانصرف إلى الحجّاج ، وعرّفه عُذْرَ المهلب ، ثم قاتلهم المهلّب ثمانية عشر شهرًا لا يَقْدِرُ منهم على شىء إلى أن وقع بينهم الاختلاف .

---

(١) فى الطبرى : فقبض على القضيب .

(٢) كورة مشهورة بأرض فارس (ياقوت) .

(٣) بالكسر ثم السكون وفتح الراء وسكون الفاء ، وتاء فوقها نقطتان : مدينة بكرمان (المراصد) .

(٤) فى الكامل : على مكان عال .

ذكر الاختلاف بين الأزارقة

ومفارقة قَطَرِىّ بن الفُجاءة

إيّاهم ومبايعتهم عبد ربّ الكبير والحَرْب بينه وبين المهلَّب ومقتَله

وفى سنة [٧٧هـ] سبْع وسبعين وقع الاختلافُ بين الخوارج ، فخلعوا قَطَرِىّ بن الفُجَاءة ، وبايعوا عبد ربّ الكبير ، واختلف فى سبب ذلك ، فقيل : إنّ عاملاً[1] لقَطَرِىّ على ناحية كِرْمَان ، يدعى المُقَعْطَر الضَّبى ، قتل رجُلاً منهم ، فوثبت الخوارجُ إلى قَطَرى ، وطلبوا منه أنْ يقيدهم مِنْ عامله ، فلم يَفْعَل ، وقال : إنه تأوَّلَ فأخْطَأ التأْويل ، وهو من ذَوِى السابقة فيكم ، ما أرى أنْ تقتلوه ، فاختلفوا .

وقيل : كان السبب فى اختلافهم أنَّ رجلاً كان فى عسْكَرهم يَعْملُ النصولَ المسمومةَ ، فيرمى بها أصحابَ المهلَّب ، فشكا أصحابُه منها ، فقال : أنا أكفيكموه ، فوجَّه رجلاً من أصحابه ومعه كتابٌ ، فأمره أن يُلْقِيَه فى عسكر قَطَرِىّ ولا يراه أحَد ، ففعل ، ووقع الكتابُ ؛ إلى قَطرىّ ، فإذا فيه : أما بعد فإنّ نِصَالَك وصلَتْ ، وقد أنفَذْتُ إليك ألْفَ درهم ، فأحضر قَطَرِىٌّ الصانَع فسأله . فجحد ، فقتله ، فأنكر عليه عبد ربّ الكبير قَتْلَه ، واختلفوا .

ثم وضع المهلَّب رجلاً نصرانيًّا ، وأمره أنْ يسجد لقَطَرِىّ . ففعل . فقال الخوارج : إن هذا قد اتَّخَذَكَ إلَهًا . ووثب بعْضُهم على النَّصْرانى فقتَله ، فزاد اختلافُهم ، ففارق بعْضُهُم قَطَرِيًّا وخلعوه ، ووَلَّوْا

(١) فى ك : غلاما .

عبد رب الكبير ، وبقى مع قَطَرىّ منهم نحو رُبعهم أو خُمسهم ، واقتتلوا فيما بينهم نَحْوًا من شهر (١) .

وكتب المهلَّب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاجُ يأمره بقِتَالِهم على حالِ اختلافهم قبل أن يجتمعوا .

فكتب إليه المهلَّب : إنى لستُ أرَى أن أقاتِلَهم مادام يَقْتُلُ بعضُهم بعضًا ، فإن تَمّوا على ذلك فهو الذى نُرِيد (٢) ، وفيه هلاكهم . وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلَّا وقد رقَّق بَعْضُهم بعضًا فأُناهضهم حينئذ ، وهم أهونُ ما كانوا وأضعفهم شَوْكَة إن شاء الله تعالى . والسلام .

فسكت عنه .

ثم إن قَطَرِيًّا خرج بمَنْ معه نحو طَبرستان ، وأقام (٣) عند عبد ربّ الكبير بِكَرْمَان ، فنهض إليهم المهلَّبُ ، فقاتلوه قتالاً شديدًا وحصرهم بِجِيْرَفْت ، وكرّر قتالَهم وهو لا يبلغُ منهم ما يريد .

فلما طال عليهم الحِصار خرجوا من جِيْرفْت بأموالهم وحُرمهم ، فقاتلهم المهلَّبُ قتالاً شديدًا حتى عُقِرت الخَيْلُ وتكسّر السلاحُ ، وقُتل الفرسان ، فتركهم ، فساروا ؛ ودخل المهلَّب جِيْرَفْت ، ثم سار حتى لحقهم على أربعة فراسخ منها ، فقاتلهم مِنْ بُكْرَة النهار إلى الظُّهْرِ ، ثم كفّ عنهم ، فجمع عبدُ رب الكبير أصحابه ، وقال :

---

(١) فى الكامل : أشهر .

(٢) فى د : نريده .

(٣) فى الطبرى : وبايع عامتهم عبد رب الكبير ، وفى الكامل : وبايع الباقون عبد رب الكبير .

يا معشر المهاجرين ؛ إن قَطَرِيًّا ومن معه هربوا ، طلب[١] البقاء ، ولا سبيل إليه ، فالْقَوْا عدوّكم ، وهبُوا أنفسكم لله ، ثم عاودَ القتال ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا أنْساهُم ما قَبْله ، فتبايع[٢] جماعةٌ من أصحاب المهلَّبِ على الموت ، وترجّلت الخوارجُ ، وعَقَرُوا دوابَّهم ، واشتدّ القتالُ ، وعَظُم الخَطْبُ حتى قال المهلب : ما مرّ بى يومٌ مثل هذا .

ثم هزم اللهُ الخوارِج ، وكَثُر القَتْلُ فيهم ، فكان عَدَد القتلى أربعة آلاف ، منهم ابن عبد ربّ الكبير ، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل ، وأُخِذَ عسكرهم وما فيه ، وبعث المهلَّب إلى الحجاج مُبَشِّرًا . فلما دخل البَشِير إليه أخبره عن الجيْشِ وعن الخوارج وذكر حروبهم ، وأخبره عن بنى المهلب ، فقال : المغيرة فارسُهم وسيِّدهم ، وكفى بيزيد فارسًا شجاعًا ، وجوادُهم وشجاعهم[٣] قَبِيصةُ ، ولا يستحى الشجاع أنْ يفرَّ من مُدْرِكِهِ . وعبد الملك سمٌّ ناقع ، وحَبيب موتٌ ذُعَاف[٤] ، ومحمد لَيْثُ غَابٍ ، وكفاك بالمفضل نَجْدَة . قال : فأيهم كان أنْجَد ؟ قال : كانوا كالحلْقَةِ المُفْرَغَة لا يُعْرَف طَرفها .

ستحسن قوله : وكتب إلى المهلب يشكره ، ويأمُره أن يولِّى كِرْمَان مَنْ يَثِقُ إليه ، ويجعل فيها مَنْ يحمِيها ، ويَقْدُم عليه ، فاستعمل عليها ابْنَه يزيد . وسار إلى الحجاج .

فلما قدم عليه أكْرَمه وأجْلَسه إلى جَانِبه ، وقال : يأهل العِراقِ .

---

(١) فى ك : طلبوا .

(٢) فى الكامل : فبايع .

(٣) فى د ، والكامل : وسخيهم .

(٤) بالذال ، والزاى ، كما فى القاموس .

أنتم عَبِيدُ المهلَّب . ثم قال له : أنت كما قال لَقِيط بن يعْمُر الإيادى فى صِفَةِ أميرِ الجيوش (١) :

فقلِّدُوا (٢) أمْرَكم لله درُّكمُـــــو
رَحْبَ الذراع بأمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعَـــا
لامُتْرفًا إنْ رَخَاءُ العيشِ ساعَـــــدَه
ولا إذا عَضّ مكـــروهٌ به خَشعا (٣)
مُسَهَّدُ النَّوْمِ تَعْنِيـــه ثُغورُكمـــو
يَرُوم منها إلى الأعْدَاء مُطَّلَعـــا
ما انْفَكَّ يَحْلبُ هذا الدَّهْرَ أشْطُـــرَه
يكون متَّبِعًا طَـــوْرًا ومتَّبَعـــا
وليس يشغَلُـــه مالٌ يُثَمِّـــرُه
عنكم ولا ولـــد يبْغِى له الرِّفَعـــا
حتى استمرت على شَزْرٍ مَـــريرتُـــه
مستحكم السنِّ لاقَحْمًـــا ولا ضرَعـــا (٤)

وأحسن الحجاجُ إلى أهْلِ البَلَاء من أصحاب المهلَّب وزادَهم [والله أعلم (٥)] .

---

(١) والشعر والشعراء : ١٥٢ ، والأبيات من قصيدة له طويلة فى مختارات ابن الشجرى : ٣ .

(٢) فى الكامل : وقلدوا .

(٣) فى د ، ك : جشعا .

(٤) القحم : الكبير السن جدا . والضرع : الضعيف . وفى ك : فرعا .

(٥) ساقط من د .

ذكر مقتل قطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال

ومَنْ معهما من الأزارقة

كان مقْتلهم فى سنة [٧٧هـ] سبع وسبعين ، وذلك أنه لما تشتَّت أمْرُهم بسبب الاختلاف الذى ذكَرْنَاه، وسار قَطَرِىّ نحو طَبَرِسْتَان ندب الحجاجُ سُفْيَان بن الأَبْرد فى جيشٍ كثيف ، فسار ، واجتمع معه إسحاق بن محمد بن الأَشْعَثِ فى جَيْشٍ لأَهْل الكوفة بطبرستان ، فأَقبلا فى طَلَبِ قَطَرِى ، فأَدركوه فى شِعْبٍ من شِعَاب طَبَرْسْتَان ، فقاتلوه ، فتفرَّق عنه أصحابُه ،وسقط عن دابته فَتَدَهْدَه[1] إلى أسفل الشِّعب ، وأتاه عِلْجٌ من أهل البلد وهولا يعرِفُه فقال [له] [2] قَطَرِىّ: اسْقِنِى [3]الماء . فقال العِلجُ : أَعْطِنِى شيئًا . فقال : ما معى إلا سِلَاحى ، وإن أَتَيْتَنِى بالماء فهو لَكَ ، فانطلق العِلْجُ حتى أشرفَ على قَطَرِى ثم حَدَّر عليه حَجَرًا عظيما من فوقه ، فأَصاب وَرِكَه [4] فأَوْهَنه ، وصاح بالناس فأَقبلوا نحوه .

وجاء نَفَرٌ من أهل الكوفة فقتلوه ، منهم سَوْرَة بن أَبْجر [5]التميمى ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف ، والصباح بن محمد بن الأَشعث ، وعُمر بن أبى الصلت ، وكلٌّ هؤلاء ادّعى قَتْلَه ، فجاءهم أبو الجَهْم

---

(١) فى الطبرى : فتدهدى ، وهما بمعنى : تدحرج .

(٢) من الكامل .

(٣) فى الطبرى : من الماء .

(٤) فى الطبرى : وركيه .

(٥) فى الكامل : سورة بن الحر ، والمثبت فى الطبرى أيضا .

ابن[١] كنانة ، فقال : ادفعوا رَأْسه إلىّ حتى تصطلحوا ، فدفعوه إليه ، فأقبل به إلى إسحاق بن محمد ، وهو على أهْل الكُوفة ، فأرسله معه إلى سُفْيَان بن الأَبْرد ، فبعثه معه إلى الحجاج ، فسيَّره معه إلى عبْد الملك ، فجعل عطاءه فى ألفين ؛ ثم سار سُفْيَان إليهم ، وأحاط بهم وأميرُهم عُبَيدة بن هلال ، فأمر منادِيًا فنادى : مَنْ قتل صاحبه وجاء إلينا فهو آمِن ، وحصرهم سُفْيَان حتى أكلوا دوابَّهم ، ثم خرجوا إليه ، وقاتلوه ، فقتلهم ، وبعث برءوسهم إلى الحجاج ، وانقرضت الأَزارقةُ بعد مَقْتَل قَطَرِىّ وعُبَيدة ، [فكان أولهم نافع ابن الأَزرق ، وآخرهم قَطِرى وعُبيدة][٢] ، واتصل أمرهم بِضْعًا وعشرين سنة ، ثم دخل سفيان دُنْبَاوَند[٣] وطَبَرِستان ، فكان هناك حتى عَزَلَه الحجاجُ قبل الجَماجِم .

هذا ما كان من أمر الأَزارقة ، فلنذكر منْ سِواهم من الخوارج أيام عبْد الملك .

---

(١) ك : فى . والمثبت فى الكامل ، والطبرى أيضا (٦–٣١٠) .

(٢) ساقط فى ك .

(٣) دنباوند : جبل فى نواحى الرى (ياقوت) .

ذكر خروج صالح بن مسرح التميمى

وشَبِيب بن يزيد بن نُعيم الشيبانى

قال : كان صالح بن مُسَرِّح [١] التميمى رجلاً نَاسِكًا مُصْفَرّ الوجْهِ صاحبَ عِبادة ، وكان بدارًا وأرض الموصل والجزيرة ، وله أصحابٌ يُقرئهم القُرْآن والفِقْهَ ، ويقصُّ عليهم ، فدعاهم إلى الخروج وإنكارِ المظالم وجهادِ المخالفين لهم ، فأجابوه إلى ذلك ، فبينما هم فى ذلك إذْ ورد عليهم [٢] كتاب شَبِيب يقول [له] [٣] : إنك كنْت تريدُ الخروج ، فإن كان ذلك من شأنك اليوم فأنت شيخُ المسلمين ، ولن نَعْدِل بكَ أحدًا ، وإن أرَدْتَ تأخيرَ ذلك فأعلمنى ؛ فإنَّ الآجالَ غادِيَةٌ ورائحة ، ولا آمنُ أن تَخْتَرِمَ منى المنيَّةُ ، ولم أجاهد الظَّالمين .

فكتب إليه صالح : إنه لم يمنعنى من الخروج إلا انتظارُك ، فاخْرُجْ إلينا ، فإنك ممن لايُسْتَغْنَى عن رأيهِ ،ولا تُقْضى دونه الأُمور.

فلما قرأ شَبِيب كتابَه دعا نَفَرًا من أصحابه ،منهم أخوه مُصَاد [٤] ابن يزيد ، والمُحلَّل [٥] بن وائل اليشكرى وغيرهم [٦] ، وخرج بهم

---

(١) بضم الميم وفتح السين وتشديد الراء المكسورة وبالحاء المهملة (الكامل).
(٢) فى الكامل : عليه .
(٣) ساقط فى ك .
(٤) بضم الميم ، وتفتح .
(٥) الضبط فى د .
(٦) فى الكامل : وغيرهما .

حتى قَدِم على صالح بدارا ، فلما لقِيه قال : اخرج بنا رَحِمَكَ الله ، فوالله ما تَزْدَادُ السُّنةُ إلاَّ دُرُوسًا ، ولا يزدادُ المجرمون إلَّا طغيانًا .

فبثَّ صالحٌ رُسُلَه ، وواعدَ أصحابَه للخروج هلال صفر سنة [٧٦هـ] ست وسبعين ، فاجتمعوا عنده ليلةَ الموعد ، فسأله بَعْضُ أصحابه عن القتال ؛ أيكون قبل الدعاء أو بَعْدَهُ ؟ فقال : بل ندعوهم ، فإنه أقطع لحُجَّتهم . فقال : كيف ترى فيمن قاتلنا فظفِرنا بهم ، ما تقولُ فى دمائهم وأموالهم ؟ فقال : إنْ قاتلنا فغنمنا فلَنَا ، وإن عَفَوْنا فموسَّعٌ علينا .

ثم وعظ أصحابَه وأمرهم بأمره ، وقال لهم : إن أكثركم رجَّالة ، وهذه دوابٌّ لمحمد بن مرْوان فابدءُوابها ، فاحملوا عليها رَاجِلكم وتقوَّوا بها على عَدُوِّكم .

فخرجوا تلك الليلة فأخذوا الدوابَّ ، وأقاموا بأرض دَارًا ثلاث عشرة ليلة ، وتحصَّنَ أهْلُها منهم وأهل نَصِيبين وسِنْجَار (١) ، وكان خروجُه فى مائة وعشرين ، وقيل : وعشرة .

وبلغ ذلك محمد بن مَرْوَان وهو أمِيرُ الجزيرة يومئذ ، فأرسل إليهم عدىَّ بن عدىّ الكندى فى ألفٍ ، فسار من حرّان ، وكأنه يُساقُ إلى الموت ، وأرسل عدىٌّ إلى صالح يسألُهُ أن يخرجَ من هذه البلد ، ويعلمه أنه يَكْرَهُ قِتَالَهُ . وكان عدىٌّ ناسكًا . فأعاد صالح إليه : إن كُنْتَ ترى رأيَنَا خرجْنَا عنك . فأرسل إليه : إنى لا أرَى رأيَكَ ، ولكنى أكرَهُ قتالَك وقتالَ غَيْرِك . فقال صالح لأصحابه : اركبوا ،

(١) بالكسر ثم السكون ، ثم جيم ، وآخره راء : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام (المراصد) .

فركبوا ، وحبس الرسول [١] عنده ومضى . فأتى عَدِيًّا وهو يصلّى الضُّحَى ، فلم يشعرُوا إلا والخيلُ قد طلعَتْ عليهم ، وهو على غَيْر تعبئة ، فحمل عليهم شَبِيب وهو على مَيْمَنة صالح ، وسُوَيد بن سُلَيم وهو على ميسرته ؛ فانهزموا ، وأتى عدِىّ بدابّته فركبها ، وانهزم . وجاء صالح فنزل فى معسكره ، وأخذَ مَا فِيهِ ، ودخل أصحابُ عدىّ على محمد ابن مَرْوان فغضب على عدىّ . ثم دعا خالد بن جَزْء السلمى ، فبعثه فى ألف وخمسمائة ، وبعث الحارث بن جَعْوَنَة [٢] فى ألف وخَمْسِمائة ، وقال : اخرُجا إلى هذه المارِقَة [٣] ، وأغِذّا السير ، فأيُّكما سبق فهو الأَمِيرُ على صاحبه ، فخرجا متسانِدَيْن يسألان عن صالح ؛ فقيل : إنه نحو آمِد [٤] ، فقصداه ، فوجّه صالح شَبِيبًا فى شطر [من] [٥] أصحابه إلى الحارث ، وتوجّه هو نحو خالد ، فالتَقَيَا ، واقتتلوا وقْتَ العصر أشدّ قتال حتى أمسوا ، وقد كثر الجراح فى الفريقين ، فلما حال بينهما الليلُ خرج صالح وأصحابُه ، فساروا حتى قطعوا أرْضَ الجزيرة والموصل ، وانتهوا إلى الدَّسْكرة [٦] .

فلما بلغ خبرهم الحجاج سَرّح إليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثةِ آلاف من أهل الكوفة ، فلقيهم صالح فى تسعين رجلا ، وذلك لثلاث

---

(١) فى الطبرى : الرجل .

(٢) بفتح الجيم وسكون العين المهملة ، وفتح الواو ، وآخره نون (الكامل : ٤ — ٤٤) .

(٣) فى الطبرى : الخارجة .

(٤) آمد — بكسر الميم : بلد قديم على نشز ، ودجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال (المراصد) .

(٥) من ك .

(٦) قرية كبيرة بنواحي نهر ملك .

عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة ، فاقتتلوا . فانهزم سُويد بن سُلَيم بميْسَرة صالح ، وثبت صالح ، فقاتل حتى قُتل ، وقاتل شَبِيب حتى صُرع عن فرسِه ، فحمل عليهم راجِلاً فانكشفوا عنه ، فنادى : إلىّ يامعشر المسلمين ، فلاذُوا به . فقال لأصحابه : ليجعل كلُّ واحد منكم ظَهْره إلى ظَهْرِ صاحبه ، وليطاعِنْ عدوَّه حتى ندخل هذا الحِصْن ونرى رَأْيَنا . ففعلوا ذلك ، ودخلوا الحِصن ، وهم سبعون رجلا ، وأحاط بهم الحارِثُ ، وأحرق عليهم الباب ، وقال : إنهم لا يقدِرونَ على الخروج منه . وكانت هذه الوقعة بقرية يقال لها المدَبّج (١) .

ذكر بيعة شبيب بن يزيد الشيبانى

ومحاربته الحارث بن عميرة وهزيمة الحارث

قال : ولما أحرق الحارثُ البابَ على شَبيب انصرف إلى عَسْكَرِه وقال : إنهم لا يَقْدِرُونَ على الخروج منه ؛ فنصبّحهم غَدًا فنقتلهم . فقال شبيب لأصحابه : ما تنتظرون ؟ فوالله لئن صبّحكم هؤلاء إنّه لهلَاكُكُمْ . فقالوا : مُرْنَا بأَمْرِكَ . فقال : بايعُونِى أو مَنْ شئتم مِنْ أصحابكم ، واخرجوا بنا إليهم ، فإنهم آمنون ، فبايَعُوه ، وأتوا باللبود فبلُّوها وجعلوها (٢) على جَمْر الباب وخرجوا . فلم يشعر الحارثُ إلّا وهم بينهم بالسيوف . فصُرِعَ الحارث ، فاحتمله أصحابُه وانهزموا نَحْوَ المدائن . وحَوَى شَبيب عَسْكَرهُمْ . فكان ذلك أول جيش هزمه .

---

(١) فى د: المربج . والصواب فى ك ، وياقوت ، والطبرى (٦—٢٢٤) ؛ وهي على تخوم ما بين الموصل والعراق .

(٢) فى الطبرى : ثم ألقوها على الجمر .

ذكر الحروب بين أصحاب شبيب وعنزة

قال : ثم لقى شبيب سلامة بن سيَّار[١] التَّيمى ، تيْم شيبَان ، بأرض الموصل ، فدعاه إلى الخروج معه فشرط عليه سلامة أن ينتخب ثلاثين فارسًا ينطلقُ بهم نحو عَنَزَة[٢] ليُوقع بهم ، فإنهم كانوا قتلوا أخاه فَضَالة ، وكان فَضَالة قد خرج فى ثمانيه عشر رجلا حتى نزل ماءً يقال له الشجرة وبه [٣] عَنَزَة نازلون ، فنهضت عَنَزَةُ فقتلوه ومَنْ معه وأتوا برءُوسهم إلى عبد الملك فأنزلهم بَانِقْيا [٤] ، وفَرَض لهم ، وكان خروج فضالة قبل خروج صالح ، فأجابه شَبِيب فخرج حتى انتهى إلى عَنَزَة ،فجعل يَقْتُل المحلة بعد المحلة حتى انتهى إلى فريق منهم فيه خالَتُه قد أكبت على ابنٍ لها وهو غلامٌ حين احتلم ، فأخرجت ثَدْيَها [إليه] [٥] وقالت : أنشدك ترحم [٦] هذا يا سلامة . فقال : [لا] [٥] والله ما رأيتُ فضالة مذ أناخ بأرضِ الشجرة [٧] . لتقومِنّ عنه أو لأجمعنَّكما بالرمح ، فقامَتْ عنه . فقتَلَهُ .

---

(١) فى الكامل : بن سنانٍ . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٢) عنزة بن أسد : حى (القاموس) .

(٣) فى الطبرى : وعليه .

(٤) من نواحى الكوفة .

(٥) من الطبرى .

(٦) فى الطبرى والكامل : برحم هذا ياسلامة .

(٧) فى الكامل : بأصل . وفى الطبرى ، والكامل – يعنى أخاه .

ذكر مسيرة شبيب الى بنى شيبان

وإيقاعه بهم ودخولهم معه

قال : ثم أقبل شَبِيب بخَيْله نحو راذان فهرب منه طائفةٌ من بنى شَيْبَان ، ومعهم ناسٌ قليلٌ مِنْ غيرهم ، فأقبلوا حتى نزلوا دَيْرًا خَرابًا[١] إلى جَنْب حَوْلاَيا[٢] ، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وشَبِيبٌ فى سبعين رجلا أو يزيدون قليلا ، فنزل بهم فتحصَّنُوا منه فجعل أخاه مُصاد بن يزيد يحاصِرُهم ،وتوجَّه إلى أُمِّه ليأْخذَها وهو فى اثنى عشر رجلا ؛ فمرّ فى طريقه بجماعة من بنى [تيم بن] [٣]شيبان فى أموالهم مُقيمين ؛ لا يرَون أنَّ شبيبا يمرُّ بهم . ولا يشعر بمكانهم ، فحمل عليهم فقتل ثلاثين شيخا فيهم حَوْثَرة بن أَسَد ، ومضَى إلى أُمِّه ؛ وأشرف رجُلٌ من الدَّير على أصحاب شَبِيب ، فقال : يا قوم ؛ بيننا وبينكم القرآن ، قال الله تعالى [٤] : « وإن أَحَدٌ مِنَ المشرِكين اسْتَجَارَكَ فأَجِرْهُ حتى يَسْمَع كلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مأْمَنَهُ ».فكُفُّوا عنَّا حتى نخرجَ إليكم بأَمانٍ وتَعْرِضُوا علينا أمركم ، فإنْ قبلناه حرُمَتْ عليكم دِمَاؤُنا وأموالُنا ، وإن نحن لم نَقْبَلْه ردَدْتمونا إلى مَأْمننا ، ثم رأيتم رَأْيكم . فأَجابوهم فخرجوا إليهم ، فعرض عليهم أصحابُ شبيب قولَهم ، فقبلوه كلَّه ، فنزلوا إليهم ، وجاء شَبيب فأُخبر بذلك ، فقال : أصبتُم ووُفِّقْتُم .

---

(١) فى ك : خربا . وفى الطبرى : دير خرزاد .

(٢) حولايا — بفتح الحاء، وسكون الواو، وآخره ياء وألف : قرية كانت بالنهروان ، خربت بخرابه (المراصد) .

(٣) من الطبرى . (٤) سورة التوبة ، آية ٦ .

ذكر الوقعة بين شبيب وسفيان الخثعمى

قال : ثم ارتحل شَبِيب ، وخرج معه طائفة ، وأقامت طائفة ؛ فسار فى أرض الموصل نحو أَذْرَبِيجان . وكتب الحجاجُ إلى سفيان ابن أبى العالية الخَثْعَمى يأمره بالقُفُول ، وكان معه ألفُ فارس يريدُ أن يدخل بها طَبَرِسْتَان . فلما أتاه كتابُ الحجاج صالح صاحِب طَبَرِسْتَان ورجع ، فأمره الحجاج أنْ ينزل الدَّسْكَرَة[1] حتى يأتيه جيْش الحارث بن عميرَة الهَمْدَانى وتأتيه خَيْل المناظِر ، ثم يسير إلى شَبِيب . فأقام بالدَّسْكرَة ونُودِى فى جيشِ الحارث : الحرب بالكوفة والمدائن ، فخرجوا حتى أتوا سُفْيان ، وأتته خَيْل المَنَاظر عليهم سَوْرَة[2] ابن أَبْجَر التميمى ، وكتب إليه سَوْرة بالتوقُّف حتى يلحقَه ، فعجل سفيان فى طلب شبيب ، فلحقه بِخَانِقِين[3] وارتفع شبيب عنهم ، وأكمن له أخاه مُصَادًا فى خمسين رجلا ، ومضى فى سَفْح الجبَل ، فقالوا : هرب عدُوُّ الله ، فاتَّبعوه ، فقال لهم عدىّ بن عميرة الشيبانى : لا تعجلوا حتى تُبْصِرُوا الأَرض لئلا يكون قد أَكْمَنَ بها كَمِينًا ، فلم يلتفِتُوا واتَّبعوه ، فلما جازُوا الكَمِينَ عطف عليهم شَبِيب ، وخرج أخوه فى الكَمِين ، فانهزم الناسُ بغير قتال ، وثبت سفيان فى نحو

(١) فى المراصد : بالفتح ثم السكون ، وكسر كافه : قرية كبيرة بنواحى نهر ملك كمدينة صغيرة على ضفة نهر الملك . وسميت دسكرة الملك لأن هرمزبن أرد شير كان يكثر المقام بها . والدسكرة أيضا : قرية بخوزستان . وفى ياقوت . بفتح الكاف .

(٢) فى الكامل : سورة بن الحر . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٣) بلدة من نواحى السواد (المراصد ، والكامل) .

مائتين ؛ فقاتلهم قِتَالاً شديدًا ، ثم نجا حتى انتهى إلى بابل مهْروذ [١] وكتب إلى الحجاج بالخبر ، ويعرفه وصولَ الجند إلاَّ سَوْرة بن أبجر فإنه لم يَشْهَد معى القتال .

ذكر الوقعة بين شبيب وسورة

قال : ولما وصل كتابُ سفيان إلى الحجّاج كتب إلى سَوْرة ابن أبجر يلومُه ويتهدَّده ، ويأمره أنْ ينتخبَ من المدائن خَمْسمائة فارس ويسِير بهم وبمَنْ معه إلى شبيب ،فسار سَوْرَة بهم نحو شبيب ، وشبيب فى جُوخى [٢] ، وسَوْرة فى طلبه حتى انتهى إلى المدائن ، فتحصن [٣] منه وأخذ منها [دوابّ] [٤] وقتل مَنْ ظَهَرَ له ، وخرج حتى انتهى إلى النَّهْرَوَان [٥] فصلُّوا وترحّموا على أصحابهم الذين قتلهم على رضى الله عنه وتبرءُوا مِنْ علىّ وأصحابه . وبلغ سَوْرَة خَبَرُه ، فجمع أصحابه وقال : إن شبيبا لايزيد على مائة رجل ، وقد رأيت أن أنتخبكم فأسير فى ثلاثمائة من شجعانكم وآتيه ، فأجابوه إلى ذلك ،فسار فى ثلاثمائة نحو النَّهْرَوان ، وأذكى شَبِيبٌ الحرس ، فلما دنا أصحابُ سَوْرَة علموا بهم ، فاستَوَوْا على خُيُولهم ، وتعبَّئُوا تعْبِئَتهم للحرب ؛ فلما انتهى إليهم سَوْرة رآهم قد حذروا ،

---

(١) مهروذ : آخره ذال معجمة ، والواو ساكنة : من طساسيج سواد العراق : نهر عليه قرى فى طريق خراسان (المراصد) .

(٢) نهر عليه كورة واسعة فى سواد العراق (المراصد) .

(٣) فى الكامل : فتحصنوا .

(٤) بياض بالأصل ، والمثبت من الطبرى والكامل .

(٥) كورة واسعة أسفل بغداد من شرقى تامرا (المراصد) .

فحمل عليهم فثبتوا له ، وصاح شبيب بأصحابه فحملوا عليهم وشبيب يقول [١] :

من ينك العيْرَ يَنِكْ نيَّـــاكا جَنْدَلتان اصْطكَّتَا اصْطِكَاكا

فرجع سَوْرَة إلى عَسْكَره وقدهُزِم الفُرْسَان وأَهْلُ القوة ،فتحمّل بهم ، وأقبل نحو المدائن ، فتَبِعه شَبيب يرجو أنْ يُدْرِكه ، فوصل إليهم ، وقد دخل الناسُ المدائن ، فمرّ على كَلْوَاذَا[٢] ، فأَصاب بها دوابَّ كثيرة للحجاج ، فأَخذها ومضى إلى تكرِيت ، وأرجف الناسُ بالمدائن بوصولِ شَبِيب إليهم ، فهرب مَنْ بها من الجند نحو الكوفة ، وحبس الحجاجُ سَوْرَة ثم أطلقه .

ذكر الحرب بين شبيب والجزل بن سعيد

وقَتل سعيد بن مجالد

قال : ولما قدم الفَلّ [٣] الكوفة سيَّر الحجاجُ الجزْلَ بن سعِيد ابن شُرَحْبيل الكندى ، واسمه عثمان ،نحو شَبيب ، وأوصاه بالاحتياط وتَرْك العجلة ، وأخرج معه أربعة آلاف ليس فيهم أَحَدٌ ممن هُزِم ، فقدَّم الجَزْل بين يديه عِيَاض بن أبى لِيْنَة [٤] الكِنْدى ،فساروا فى طَلَب شَبِيب وهو يخرجُ من رُسْتَاقٍ إلى رُستاق ، يقصِدُ بذلك أنْ يفرِّقَ الجَزْلُ أَصحابَهُ فيلقاه وهو على غير تعبئة ، فجعل الجَزْل لا يسير إلا على تعبئة ، ولا ينزل إلَّا خنْدَق على نفسه .

فلما طال ذلك على شبِيب دعا أَصحابَه وكانوا مائةً وستين رجلاً ،

(١) الشطر الأول فى اللسان . وهو مثل يضرب فى مغالبة الغلاب .

(٢) كلواذى : قرب بغداد (المراصد) .

(٣) الفل : المنهزمون . (٤) الكامل : ابن أبى لبنة .

ففرّقهم أربَعَ فرق كل فرقة أربعين ، فجعل أخاه مُصَادا فى أربعين ، وسويد بن سُليم فى أربعين ، والمحلَّل [١] بن وَائِل فى أربعين ، وبَقِى هو فى أربعين . وأتته عيونُه ، فأخبروه أن الجَزْل يريد [٢] يَزْدَجرْد ، فسار شَبِيب ، وأمر كلَّ رأس من أصحابه أنْ يأتِيَ الجزْل من جهة ذكرَها له ، وقال : إنى أريد أن أُبَيِّتَهُ [٣] ، فسار أخوه فانتهى إلى دَيْر الخرّارة ، فرأى للجَزْل مَسْلَحة مع ابن أبى لِيْنَة ، فحمل عليهم مُصاد فيمن معه ، فقاتلوه ساعةً ، ثم اندفعوا بين يديه ، وقد أدركهم شَبِيب ، فقال : اركبوا أكتافَهم لتَدْخُلوا عليهم عسكَرَهم إن استطعتُمْ .

فاتبعوهم فانتَهوا إلى عسكرهم ، فمنعهم أصحابُهم من دخول خَنْدقِهِمْ ، وكان للجَزْلِ مسالح أخرى فرجعَتْ ، فمنعهم من دخولِ الخَنْدق ، وجعل شَبِيب يَحْمِلُ على المسالح حتى اضطرهم إلى الخَنْدَق ، ورشقهم أهْلُ العسكر بالنَّبْلِ . فلما رأى شَبِيب أنه لا يصل إليهم [٤] سار عنهُم وتركهم ، ثم نزل هو وأصحابه فاستراحوا . ثم أقبَل بهم راجعًا إلى الجَزْل ، فأقبلوا وقد أدخل أهْلُ العسكر مسالِحَهم إليهم وأمِنُوا ، فما شعروا إلَّا بوَقْعِ حَوَافِرِ الخَيْل ، فانتهوا إليهم قَبْلَ الصبح ، وأحاطوا بعسكرهم من جهاته الأربع ، ثم انصرف شَبِيب وتركهم ، ولم يظفَرْ بهم ، فنزل على ميل ونصف ، ثم صلَّى الغَدَاة وسار نحو جَرْجَرَايا [٥] ، وأقبل الجَزْل فى طلبهم على تعبئتهِ ، وسار شَبِيب

(١) فى د : المخلك — تحريف .
(٢) فى الطبرى : نزل دير يزدجرد .
(٣) فى الطبرى : أن أبيت هذا العسكر .
(٤) فى الكامل : إليه .
(٥) جرجرايا : بفتح الجيم وسكون الراء الأولى وفتح الثانية : بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى (المراصد) .

فى أرض الجُوخى [١] وغيرها ، فطال ذلك على الحجّاج ، فكتب إلى الجَزْل يُنْكِر عليه إبطاءه ويأْمُرُه بمناهضتهم ، فجدَّ فى طلبهم وبعث الحجاجُ سعيدَ بن المجالد على جَيْش الجَزْل ، وأمره بالجِدِّ فى قتال شَبِيب وتَرْكِ المطاولة ، فوصل سَعِيد إلى الجَزْل وهو بالنَّهْرَوَان وقد خَنْدَق عليه ، فقام فى العسكر ووبَّخَهُم وعجزهم .

ثم خرج ، وأخرج معه الناس ، وضمّ إليه خيولَ أهل العسكر ليسير بهم جريدة [٢] إلى شبيب ويترك الناس [٣] مكانَهم ، فنهاه الجزْل عن ذلك ، فلم يَنْتَه ولم يرجع إليه ،وتقدّم ومعه الناس ، وأخذ شبيب إلى قَطِيطيا [٤] ، فدخلها وأغلق الباب ، وأمر دُهْقَانَها [٥] أن يُصْلح لهم غداء ، فلم يتهيّأْ الغداء حتى أتاه سعيد فى ذلك الجيش ، فأعلم الدّهْقَان شَبِيبًا ، فقال : لا بأْس ، قَرِّب الغداء ، فقرَّبه فأكل وتوضَّأ وصلَّى ركعتين ، وركب بَغْلاً ، وخرج إلى سَعيد وهو على باب المدينة فحمل عليهم ، وقال : لا حُكْم إلا للحكم ، فهزمهم وثبت سعِيد ، ونادى أصحابه ، فحمل عليه شَبِيب ، فضربه بالسيف فقتله ، فانهزم ذلك الجيش ،وقَفَلوا حتى انتهوا إلى الجَزْل ، وكان قد وقف فى بقيَّة العَسْكَرِ ، فناداهم : أيها الناس ، إلىّ إلىّ ، وقاتل قِتَالاً شديدًا حتى حُمِل جريحًا ، وقَدم المنهزمون الكوفة .

---

(١) جوخى : فى الكامل ، والطبرى ، وياقوت .

(٢) الجريدة : خيل لا رجالة فيها (القاموس) .

(٣) فى د : الباقين .

(٤) الضبط من الطبرى .

(٥) بكسر الدال وضمها (القاموس) .

وكتب الجَزْل إلى الحجاج بالخبر ، وأقام بالمدائن ؛ فكتب إليه الحجاجُ يشكره ويُثْنى عليه ، وأرسل إليه نفقةً ومَنْ يُدَاوى جِرَاحه . وسار شبيب نحو المدائن فعلم أنه لا سبيلَ إلى أهلها ؛ فأقبل حتى أتى الكَرْخ ، فعبر دجْلَة إليه ، وأرسل إلى أهل سُوق بغداد فأمّنهم ، وكان يَوْم سوقهم ، واشترى أصحابُه دوابَّ وغيرها .

ذكر مسير شبيب الى الكوفة

قال : ثم سار شَبِيب إلى الكوفة فنزل عند حَمّام [1] عُمر ابن سعد [2] ، فلما بلغ الحجاج مكانه بعث سُويْد بن عبد الرحمن السَّعْدِى فى أَلْفَى رجل ، وقال له : الْقَ شَبِيبًا فإن استطرد لكَ فلاتَتْبعْه. فخرج وعسْكَرَ بالسبَخَةِ [3] ، فبلغه أنّ شبيبًا قد أقبل ، فسار نحوه وأمر الحجاج عثمان بن قَطَن فعَسْكَرَ بالناس فى السَّبَخَة ، فبينا سُوَيْد يُعبىء أصحابَه إذ قيل له : أتاك شَبِيب ؛ فنزل ونزل معه جُلُّ أصحابه ، ثم أُخبر أنه قد عَبَر الفراتَ وهو يُرِيد الكوفةَ من وجْهٍ آخر ، فركب هو ومنْ معه ، وسارُوا فى آثارهم ، وبلغ منْ بالسبَخَة إقبالُ شَبِيب فهمُّوا بدُخولِ الكوفة ، ثم قيل لهم : إن سُوَيْدًا فى آثارهم قد لحقهم وهو يقاتِلُهم ، فثبتوا ، وحَمل شَبِيب على سُوَيد ومَنْ معه حملةً منكرة ، ثم أخذ على بُيوتِ الكوفة نحو الحيرة ، وذلك عند المساء ، وتَبِعه سُوَيد إلى الحيرة ، فرآه قد ترك وذهب ، فتركه سُوَيد وأقام حتى أصبح. وأرسل إلى الحجاج يُعْلمه الخبر .

---

(١) موضع فى طريق الحاج بالكوفة (المراصد) .

(٢) فى ك : عمر بن سعيد ؛ والمثبت فى الطبرى ، والمراصد . وفى الكامل . عمير بن سعد .

(٣) موضع بالبصرة .

ذكر محاربة شبيب أهل البادية

قال :وكتب الحجاجُ إلى سُويد يأْمُرُه باتباعه ، فاتَّبعه ، ومضى شبيب حتى أغار أسفل الفرات على مَنْ وجد مِنْ قومه ، وارتفع إلى البر فأصاب رجالاً من بنى الوِرْثَة (١) ، فقتل منهم ثلاثة عشر رجلا ، منهم : حنْظَلة بن مالك ، ومالك بن حَنْظَلة ، ومضى حتى أتى بنى أمية على اللَّصَف (٢) ، وعلى ذلك الماء الفَزْر بن الأسود ، وهو أحَدُ بنى الصلت ، وكان ينهى شَبِيبا عن رأيه ، وكان شبيب يقول : لئن ملكت سبْعَةَ أعِنَّة لأغْزَوَنَّ الفَزْر ، فلما بلغهم خَبَر شبيب ركب الفَزْر فرسًا ، وخرج مِن البيوت وانهزم . فرجع شَبِيب ، وقد أخاف أهل البادية ، فأخذ على القُطْقُطَانة (٣) ثم على قَصْر بنى مقَاتل ، ثم على الأنبار ، ومضى حتى دخل دَقُوقَاء (٤) ، ثم ارتفع إلى أذَانى أذْرَبِيجان ، فلما أبْعَد سار الحجاجُ إلى البصرة ، واستَخْلَف على الكوفة عُرْوة (٥) بن شعبة ، فأتاه الخبر بإقبالِ شبيب نحو الكوفة ، فكتب إلى الحجاج بذلك ، فأقبل من البَصْرة مجدًّا نحو الكوفة فسابق (٦) شبيبًا إليها .

---

(١) فى هامش الكامل: الورثة — بكسر الواو. وفى القاموس: وبنو الورثة — بالكسر : بطن نسبوا إلى أمهم .

(٢) فى المراصد : اللصف — بالتحريك : بركة فى غربى طريق مكة .

(٣) بالضم، ثم السكون ، ثم قاف أخرى مضمومة ، وطاء أخرى ، وبعد الألف نون وهاء : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف (المراصد) .

(٤) دقوقاء : بالفتح ثم الضم ، وبعد الواو قاف أخرى ، وألف ممدودة : بلدة بين إربل وبغداد (المراصد) .

(٥) فى الطبرى ، والكامل : عروة بن المغيرة بن شعبة .

(٦) فى د : يسابق .

ذكر دخول شبيب الكوفة

قال : وأقبل شَبِيب إلى الكوفة فسابقَ [١] الحجاج إليها ، فَطَوى الحجاجُ المنازل ، فوصل الكوفة صلاةَ العصر ، ونزل شبيب السَّبَخَة صلاةَ المغرب ، فأكلوا شيئا ثم ركبوا خيولَهم فدخلوا الكوفة وبلغوا السُّوقَ ، وضرب شبِيب بابَ القصر بعَمُوده ، فأثَّر فيه أثرا عظيماً ، ووقف عند المصطبة ، ثم قال [٢] :

عبْد دَعِيٌّ من ثمودٍ أَصْلُه لابل يُقال أبو أبيهم يقْدُمُ

يعنى الحجاج ، فإنّ بعضَ الناسِ يقول : إن ثقيفًا بقايا ثمود ، ومنهم من يقول : هم من نَسْل يقْدُم الإيادى .

ثم اقتحموا المسجد الأعظم ، وكان لا يفارِقه قوم يصلُّون فيه ، فقتلوا عقيلبن مُصْعب الوادعىّ ، وعدىّ بن عمْرو الثقفى ، وأبا ليث ابن أبى سُليم ؛ ومرُّوا بدار حَوْشب وهو على الشُّرط — فقالوا : إن الأمير يطلُبُه ، فأراد الركوبَ ، ثم أنكرهم فلم يخرج إليهم ، فقتلوا غلامَه . ثم مرُّوا بمسجد بنى ذُهْل ، فرأوا ذُهْل بن الحارث فقتلوه ، ثم خرجوا من الكوفَة ، فاستقبلهم النَّضْر بن القَعْقَاع بن شَوْر [٣] الذُّهْلى ، وكان قد أقبل مع الحجاج من البَصْرة ، فتخلَّف عنه فقتلوه ، ثم خرجوا نحو المَرْدَمَة [٤] ، وأمر الحجاج مُنَاديًا فنادى : يا خيل الله

(١) فى د : يسابق .

(٢) والطبرى : ٦—٢٤١ ، والكامل : ٤—٤٩ .

(٣) فى ك : سور . والصواب فى د ، والطبرى ، والكامل ، والقاموس .

(٤) جبل لبنى مالك بن ربيعة (المراصد) .

اركبي ؛ فأتاه الناس مِنْ كل جانب ، فبعث بِشْر بن غالب الأسدى فى أَلْفَى رجل ، وزائدة بن قُدامة الثقفى فى ألفى رجل ، وأبا الضُّرَيْس مَوْلى بنى تميم فى أَلْفَى رجل ، وعبد الأَعلى بن عبْد الله بن عامر ،وزياد ابن عمْرو العَتَكِى ، وسَيَّرَ معهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله ، وكان عبد الملك قد استعمله على سجستان ، وكتب إلى الحجاج أن يُجَهِّزَه ،فقال له الحجاج : تَلْقَى شبيبًا فتجاهده ،فيكون الظَّفَرُ لك ، ويظهر[1] اسمك ثم تمضى إلى عملك .

وقال الحجاج لهؤلاء الأمراء : إن كان حَرْبٌ فأميرُكم زائدة ابن قُدَامة . فساروا فنزلوا أسفل الفرات ، فترك شبيب الوَجْهَ الذى هم فيه وأخذ نحو القادِسِيَّة .

ذكر محاربة شبيب زحر بن قيس

وهزيمة جيش زَحْر[2]

قال : ووَجَّه الحجاجُ جريدةَ خَيْلٍ اختارهُمْ ألف وثمانمائة فارس مع زَحْر بن قيس ، وقال له : اتبع شبيبًا حتى تواقِعه أين أدْرَكْتَه إلا أن يكون ذاهبًا فاترُكْه مالم يعطِفْ عليك؛ فخرج زَحْر حتى انتهى إلى السَّيْلَحِين[3] ، وأقبل شَبِيب نحوه فالْتَقَيَا ، فجمع شبيب خَيْلَهُ ، ثم اعترض بهم الصفَّ حتى انتهى إلى زَحْر ، فقاتل زَحْر حتى صُرِع ، وانهزم أصحابهُ وظنُّوا أنهم قتلوه ، فلما كان السَّحَر قام يمشِى حتى دخل قريةً فبات بها ، وحُمِل منها إلى الكوفة وبوَجْهِه ورأْسِه بِضع عشرةَ جراحة ، فمكث أيامًا . ثم أتى الحجاج فأجلسه معه على السرير ،

(١) فى الكامل : ويطير .
(٢) فى ك: بضم الزاى والحاء ، والصواب فى القاموس ، والتاج .
(٣) بفتح أوله وإسكان ثانيه وفتح اللام وكسر الحاء المهملة : موضع بالحيرة (المراصد) .

وقال : مَنْ أراد أن يَنْظُر إلى رجل من أهل الجنة يمشى فى الناس فلينظر إلى هذا .

ذكر محاربته الأمراء

الذين ندبهم الحجّاج لقتالِه وقتال[1] محمد بن موسى بن طلحة وزائدة بن قُدامة

قال : لما هزم شَبيب أصحاب زَحْر قال له أصحابه : نصرفْ بنا الآن وافِرين ، فقد هزَمْنَا لهم جُنْدًا . فقال : إن هذه الهزيمة قد أرعبت قلوبَ الأُمراء والجنود الذين فى طَلَبكم ؛ فاقصدوهم ، فوالله لئن قاتلناهم مادون الحجاج مانِع[2] ، ونأْخذ الكوفة إن شاء الله .

فقالوا : نحن لِرَأْيِك تَبَع ، وسأَل عن الأُمراء فقيل : إنهم برُوذْبار[3] على أربعة وعشرين فرسخا من الكوفة ؛ فقصدهم فانتهى إليهم وقد تعبَّئُوا للحرب ، وأميرُ الجماعة زائدة بن قُدَامة ، وعلى ميمنته زِياد بن عَمْرو العتَكى ، وعلى الميسرة بِشر بن غالب الأَسدى ، وكلُّ أمير واقفٌ فى أصحابه .

وأقبل شَبِيب فى ثلاث كتائب : كتيبة فيها سُويد بن سُلَيم وقَف بإزاء الميمنة ، وكتيبة فيها مُصاد أخو شبيب وقف بإزاء الميسرة ، ووقف شبيب مقابل القَلْب . فحمل سُوَيد على زِياد فانكشف أهلُ الميمنة ، وثبت زياد فى نَحْوٍ من نصف أصحابه . ثم ارتفع عنهم سُويد قليلاً ، ثم حمل ثانية فتطاعنوا ساعةً ، واقتتلوا أشدَّ قتال ،

(١) فى ك : وقتل .
(٢) فى الطبرى : ما دون الحجاج من شىء .
(٣) فى المراصد : بضم أوله وسكون ثانيه وذال معجمة وباء موحدة وآخره راء . وفى البكرى باسكان الذال المعجمة .

ثم ارتفع سُويد عنهم ، فتفرّق أصحابُ زياد بن عَمْرو مِنْ كل جانب ، فحمل عليهم الثالثة فانهزموا وأخذت السيوف زياد بن عمرو مِن كل جانب [فلم تضره للباسه (١)] ، فانهزم (٢) وقد جُرح جراحةً يسيرة ، وذلك عند المساء ، ثم حملوا على عبْد الأعلى بن عبْد الله ابن عامر ، فهزموه ، ولم يقاتل كثيرًا ، ولحق بزياد ؛ فمضَيا منهزمين .

وحملت الخوارجُ على محمد بن موسى بن طَلْحة عند المغرب ، فقاتلوه قتالاً شديدًا ، وحمل مُصَاد على بشر بن غالب ، وهو فى ميْسَرةِ أهل الكوفة ، فصبر بشر ، ونزل ونزل معه نحو خمسين رجُلاً ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وانهزم أصحابُه ، وحملت الخوارج على أبى الضُّرَيس مولى بنى تميم ، وهو يَلى بِشْرَ بن غالب ، فهزموه حتى انتهى إلى موقف أعْيَنَ ، ثم حملوا عليه وعلى أعْين ، فهزمُوهما حتى انْتهَوْا بهما إلى زائدة بن قُدَامة ، فنادى زائدة : ياأهل الإسلام ؛ الأرض ، الأرض ، لا يكونوا على كُفْرِهم أصْبر منكم على إيمانكم ، فقاتلهم عامّةَ الليل حتى كان السَّحَر ، ثم إن شبيبًا حمل عليه فى جماعة من أصحابه ، فقتله وقتل أصحابه ، فلما قتل دخل أبو الضُّريس وأعين جَوْسقًا عظيما ، وقال شبيب لأصحابه : ارفَعُوا السيفَ عنهم ، وادْعُوهم إلى البيعة ، فدعوهم (٣) إلى البَيْعَةِ عند الْفَجر ، فبايَعُوه وسَلَّمُوا عليه بإمْرَةِ المؤمنين ، وكان فيمن بايعه أبو بُردَةَ بن أبى موسى

(١) من د .
(٢) فى د : ثم انهزم .
(٣) فى ك : فدعاهم .

الأشعرى ، فلما طلع الفجر أمَرَ محمد بن موسى بن طلحة مؤذِّنه فأذَّن ، وكان لم ينهزم . فقال شبيب : ما هذا ؟ قالوا : محمد بن موسى لم يبرح ،فقال : قد ظَنَنْتُ أن حُمْقَه وخيلاءه يَحْمِلُه على هذا . ثم نزل شَبِيب فأذَّن هو وصَلَّى بأصحابه الصبح ، ثم ركبوا فحملوا على محمد وأصحابه ، فانهزمت طائفةٌ منهم ، وثبتَتْ معه طائفةٌ ، فقاتل حتى قُتل ، وأخذت الخوارجُ ما فى العسكر ، وانهزم الذين كانوا بايَعُوا شبيبًا بجملتهم ، ثم أتى شَبِيب الجَوْسقَ الذى فيه أعْين وأبو الضُّرَيْس فتحصَّنُوا منه ، فأقام عليهم يَوْمَه ذلك ، وسار عنهم فأتى خَانيجار (١) فأقام بها ، وبلغ الحجَاجَ مَسيرُه ، فظنَّ أنه يريد المدائِن ، فهالَه ذلك ، فبعث عثمان بن قَطَن أميرًا على المدائن وعزَل عنها عبيد الله بن أبى عُصَيْفِير (٢) .

وقيل فى مقتل محمد بن موسى : أنه قتله مُبارزةً ، وذلك أنه كان شهد مع عمر بن عُبيد الله بن مَعمر قتالَ أبى فُدَيْك ، وكان شجاعًا ذا بَأْس ، فزوّجه عُمر ابْنَته ، وكانت أُخته تحت عبد الملك ابن مَرْوَان ، فولاَّه سجستان ، فمرّ بالكوفة وفيها الحجاج ، فقيل له : صار هذا بسجستان مع صِهْره لعبد الملك ، فلو لجأ إليه أحَدٌ ممن يُطْلَب (٣) مَنَعَك منه. قال : فما الحِيْلَةُ ؟ قال : تأْتى إليه ، وتسلِّم

---

(١) خانيجار : بعد الألف نون ، ثم ياء مثناة من تحت وجيم وآخره راء : بليدة قرب دقوقاء (المراصد) .

(٢) والطبرى : ٦—٢٢٨ ، وفى الكامل : عبد الله بن عصيفر .

(٣) فى ك : تطلب .

عليه ، وتذكر نَجْدَتَه وبأْسَه، وأنَّ شبيبًا فى طريقه ، وأنه قد أعياك ، وتَرْجُو أن يريح الله منه على يَدِهِ ، فيكون له ذِكْره وفَخْره .

ففعل الحجاج ذلك ،فأجابه محمد ، وعَدَل إلى شَبِيب ، فأرسل إليه شَبِيب إنَّك مخدوع ، وإن الحجاج قد اتَّقَى بك ، وأنت جار لك حقّ ،فانطلِقْ لما أمرت به ولك الله أنى لا أضُرك[1] .فأبى إلَّا محاربته ، فواقفه شَبِيب ، وأعاد عليه الرسول ، فأبى وطلب البِرازَ فبرزَ إليه شَبِيب ، وقال له : أنشدك الله فى دَمِك ؛ فإنَّ لك جوارًا ، فأبى . فحمل عليه شبيب فضربه بعَمُود حديد زِنَتُه اثنا عشر رطلا بالشامى ، فهشم البَيْضَة ورَأْسَه ، فسقط فكفَّنه شبيب ودفَنَه ، وابتاع ماغنمه من عَسْكَره فبعثه إلى أهْلِه واعتذر شَبِيب إلى أصحابه ، وقال : هو جارِى ، ولى أن أهب ماغنمت .

ذكر محاربته[2] عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

وعثمان بن قَطَن وقتل ابن قَطَن

قال : ثم إن الحجَّاج أمر عَبْدَ الرحْمَن بن محمد بن الأشعث أنْ ينتخبَ ستة آلاف فارس ويسير بهم فى طَلَبِ شَبِيب أين كان ، ففعل ذلك ، وسار نحوه ، فسار شَبِيب إلى دَقُوقاء وشَهْرَزُور[3] ، وعَبْدُ الرحمن فى طلبه حتى انتهى إلى التُّخُوم ، فوقف وقال : هذه أرض الموصل ، فليُقَاتلوا عنها .

---

(١) فى الكامل : لا أوذيك .

(٢) فى الكامل : محاربة .

(٣) بالفتح ثم السكون وراء مفتوحة بعدها زاى وواو ساكنة وراء : كورة واسعة بين إربل وهمذان (المراصد) .

فكتب إليه الحجاج : أما بعد فاطلُبْ شَبِيبًا واسْلُك فى أثَره أين سلَكَ حتى تُدْرِكَه فتَقْتُله أو تَنْفيه ، فإنما السلطانُ سلطان أمير المؤمنين والجندُ جُنْده .

فخرج عَبْدُ الرحمن فى طلبه ، فكان شَبِيب يَدَعُه حتى يَدْنو منه فيبيِّته فيَجِده قد خَنْدَق على نفسه وحذر ، فيتركه [ويسير] (١) فيتبعه عبد الرحمن ، فإذا بلغ شَبِيبًا مَسِيرهُم أتاهم وهم سائرون فيجدهم على تَعْبِئَةٍ فلا يصيب لهم غِرَّةً ، ثم جعل إذا دنَا منه عَبْدُ الرحمن يسير عشرين فرسخا ، ونحوها ، وينزل فى أرض خَشِنة غليظة ، ويتبعه عَبْدُ الرحمن ، فإذا دنَا منه فَعل مِثْلَ ذلك حتى أتْعَبَ ذلك الجيش ، وشَقَّ عليهم (٢) ، وأحْفَى دوابَّهم .

ولم يزل عبد الرحمن يَتْبَعُه حتى مرّ به على خَانِقين (٣) وجَلُولاء وتَامَرًّا (٤) ، ثم أقبل إلى البَثّ ، وهى من قُرَى الموصل ليس بينها وبين سواد الكوفة إلّا نهر حَوْلَايا ، وذلك فى عشر ذى الحجة سنة [٧٦هـ] ست وسبعين ، فأرسل شبيب إلى عبد لرحمن : إن هذه أيام عِيْدٍ لنا ولكم [يعنى عيد النَّحر] (٥) ، فهل لك فى الموادعة حتى تَمْضِى هذه الأيام ؟ فأجابه إلى ذلك ، وكان يحبُّ المُطَاوَلة .

وكتب عثمان بن قَطَن أمير المدائن إلى الحجاج يقول : أما بعد

(١) من الكامل . وفى الطبرى : فيمضى ويدعه فيتبعه .
(٢) الكامل : وشق عليه .
(٣) خانقين : بلدة من نواحى السواد فى طريق همذان من بغداد . وخانقين أيضا : بلدة بالكوفة (المراصد) .
(٤) تامرا : نهر كبير تحت بغداد شرقيها . وفى الكامل : سامرا . وسامرا : مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقى دجلة .
(٥) من الكامل .

فإنّ عَبْدَ الرحمن قدحفر جُوخى كلّها خندقًا واحدًا ، وكسر خَراجها ، وخلّى شبيبًا يأكلُ أهلها . والسلام .

فكتب إليه الحجاج يأمره بالمسير إلى الجيش ، وأمّره عليهم ، وعزَل عنهم عبْدَ الرحمن ، وبعث إلى المدائن مُطَرِّف بن المغيرة ابن شُعْبة ، فسار عثمان حتى قدم على العسكر عشيّةَ الثلاثاء يوم التَّرْوية ؛ فنادى الناسَ – وهو على بَغْلةٍ : أيها الناس ، اخرجوا إلى عدوّكم ، فقالوا : هذا المساء قد غَشِينا والناسُ لم يوطِّنوا أنفسهم على الحرب ، فبتِ الليلة ثم اخرج على تعبئة ، فأبى ذلك ، ثم نزل وبات لَيْلَتَه يحرِّضُ أصحابه ، فلما أصبح يوم الأربعاء خرج بالناس كلِّهم ، فاستقبلتهم ريحٌ شديدة وغبرة ، فقال له أصحابه : ننشدك الله أن تخرج بنا والريحُ علينا . فأقام بهم ذلك اليوم ، ثم خرج يوم الخميس ، ثم[1] عبّأهم ، فجعل فى الميمنة خالد بن نَهيك بن قَيْس ، وعلى الميسرة عقيل بن شدّاد ، ونزل هو فى الرجّالة ، وعبر شبيب إليهم النهر ، وهو يومئذ فى مائةٍ وأحد وثمانين رجلا ، فوقف هو فى الميمنة ، وجعل أخاه مُصادًا فى القَلْبِ ، وجعل سُويد بن سُلَيم فى الميْسرة ، وزحف بعضُهم إلى بعضٍ ، فحمل شَبِيب على ميْسَرَة عثمان فانهزموا ، ونزل عقيل بن شداد فقاتل حتى قُتل ، وقتل مالك ابن عَبْد الله الهَمْدَانى ، ودخل شبيب عسْكرهم ، وحمل سُويْد على ميْمنَة عثمان فهزمها ، فقاتل خالد بن نَهِيك قتالاً شديدًا ، وحمل شبيب مِنْ ورائه فقتله ، وتقدم عُثْمَانُ بن قَطَن وقد نزل معه العُرفاء

(١) فى د : وقد .

وأشرافُ الناس والفُرْسان نحو القَلْب وفيه مُصاد أخو شبيب فى نِحْوٍ من ستِّين رجلا، فشدَّ عليهم عثمان فيمنْ معه فثَبتُوا له .

وحمل شبيب بالخَيْل مِن ورائهم فما شعرُوا إلاَّ والرِّمَاحُ فى أكتافهم تكبُّهم لِوُجوههم، وعطف عليهم سُوَيد بن سُلَيم فى خَيْلِه ، وقاتل عثمان بن قَطَن أحْسن قِتال ، ثم أحاطوا به ، وضَرَبه مُصاد بن يزيد ضَرْبةً بالسيف استدار لها وقال (١) : «وكان أمْرُ اللهِ مَفْعولا» .

ثم قُتل ، وسقط عبد الرحمن عن فَرَسِه ، فأتاه ابن أبى سبْرَةَ الجعفى وهو على بغْلَة فأركبه معه ، ونادى فى الناس : الحقوا بَدَيْر (٢) أبى مريم، ثم انطلقا (٣) ذاهبَيْن ، ثم أتاه واصل [بن الحارث] (٤) السكونى ببِرْذَوْن فركبه وسار حتى نزل ديْرَ البقار (٥) ، وأمر شَبِيب أصحابه فرفعوا السيفَ عن الناس ، ودعاهم إلى البيعة فبايعوه ، وقُتِل يومئذ مِنْ كِنْدَة مائة وعشرون ، وبات عبد الرحمن بَدْير البَقَّار (٥) ، فأتاه فارِسان ، فصعدا إليه فخلاَ به أحَدُهما طَوِيلاً ثم نزلَا ؛ فقيل : إن ذلك الرجل كان شبيبًا ، وكان بينه وبين عبد الرحمن مكاتبةٌ ، وسار عبْدُ الرحمن حتى أتى دَيْرَ أبى مريم ، فاجتمع الناسُ إليه وقالوا له : إنْ سَمِع شَبِيبٌ بمكانِك أتاك فكنْتَ له غنيمة .

فخرج إلى الكوفةِ واختفى من الحجَّاج حتى أخذ له الأَمَان منه ، وكانت هذه الوقائعُ التى ذكرناها كلَّها من أخبار شَبِيب فى سنة ست وسبعين.

---

(١) سورة النساء ، آية ٤٧ ، وغيرها .

(٢) فى ك : بدير ابن أبى مريم . والمثبت فى الكامل ، د ، والطبرى .

(٣) فى الكامل : ثم انطلقوا ذاهبين ، والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٤) زيادة من الطبرى .

(٥) فى الطبرى (٦–٢٥٥) : دير اليعار . والمثبت فى الكامل أيضا .

ذكر محاربة (١) عتاب بن ورقاء

وزَهْرة بن حَوِيّة (٢) وقتلهما

وفى سنة [٧٧هـ] سبع وسبعين أتى شَبيب ماه بَهْراذَان (٣) فصيّف بها ثلاثة أشهر ، وكان حين هزم ذلك الجيش حَرٌّ شديد ، فلما صيّف هناك أتاه ناسٌ كثير ممن يطْلُبُ الدنيا وممَّنْ كان الحجاج يطلبُهم بمالٍ أو تَبِعاتٍ .

فلما ذهب الحَرُّ خرج فى نحو ثمانمائة رجل ، فأقبل نحو المدائن ، وعليها مُطرِّف بن المغيرة بن شعبة ، فجاء حتى نزل قناطر حُذَيفة ابن اليمان ، فكتب مَهروذ عظيم بابل إلى الحجّاج بذلك ، فقام الحجّاج فى الناس فقال : أيها الناس ، لتُقَاتِلُن عن بِلَادكم وعَنْ بنيكم (٤) أولأَبعثَنَّ إلى قومٍ هم أطوع وأصبر على اللَّأْوَاء والقَيْظِ منكم ، فيقاتلون عدُوَّكم ويأكلون فَيئكم .

فقام إليه الناس من كل جانب فقالوا : نحن نقاتِلُهم فَلْينْدبنا الأَمِيرُ إليهم ، وقام زَهْرَة بن حوِيّة - وهو شيخ كبير ، فقال : أصلح اللهُ الأمير ، إنما تبعَثُ إليهم الناسَ متقطِّعين ، فاستَنْفِرِ الناسَ إليهم كافَّةً ، وابعث إليهم رجلاً شجاعًا مجرِّبا ممن يرى الفرار [هضما] و (٥) عارًا ، والصَّبْرَ مَجْدًا وكرمًا .

---

(١) فى د : محاربته .

(٢) فى المشتبه : ابن جويرية . وقيل : ابن حوية . والمثبت فى الطبرى أيضا (٦-٢٥٧) .

(٣) ماه بهراذان : قال ياقوت : وما أظنها إلا ناحية الراذانين .

(٤) فى الكامل ، والطبرى : فيئكم .

(٥) من الطبرى .

فقال الحجاج : فأَنْتَ ذاك الرجل ، فاخْرُجْ .

فقال : أصلح اللهُ الأَمير ، إنما يصلحُ رجلٌ يحْمِلُ الدِّرْع والرمح ، ويهزُّ السيف ، ويثْبُتُ على الفرس ، وأنا لا أُطِيقُ شيئًا مِنْ هذا ، وقد ضَعُفَ بصرى ، ولكن أخرجنى فى الناس مع الأَمير فأُشير عليه برأْيى .

فقال له الحجاجُ : جزَاكَ اللهُ خيرًا عن الإسلام وأهله فى أوّل أمرك وآخره .

ثم قال : أيها الناسُ ، سِيْرُوا بأَجمعكم كافَّةً ؛ فخرج الناس يتجهَّزُون ولا يدرون مَنْ أَمِيرُهم .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُخبره أنَّ شَبِيبًا قد نازف المدائن ؛ وأنه يُريد الكوفةَ ، وقد عجز أَهْلُها عن قِتَاله فى مواطن كثيرة ، يقتل أُمراءهم ويهزم جُندهم ؛وسأَله أن يبعث جُنْدًا من الشام يقاتلون الخوارج ، ويأْكلون البلادَ . فبعث عبدُ الملك سُفْيان بن الأَبْرد الكَلْبى فى أربعة آلاف ، وحبيب بن عبْد الرحمن الحكمى فى ألفين ، وبعث الحجاج إلى عَتَّاب بن وَرْقَاء يستدعيه ، وكان يقاتل الازارقة مع المُهَلَّب كما تقدم .

واستشار الحجاجُ أَهلَ الكوفة فيمَنْ يُوليه أَمْرَ الجيش ، فقالوا : رأْيُكَ أفضل. فقال : قد بعثْتُ إلى عَتَّاب بن وَرْقاء وهو قادمٌ عليكم الليلة أو القابلة ؛ فقال زَهْرَة : رمَيْتَهم بحَجَرِهم ، والله لايرجع إليك حتى يَظْفَرَ أو يقتل . وقال له قَبِيصة بن وَالق : إنَّ الناس قد تحدثوا أنَّ جيشا قد وصل إليك من الشام ،وأن أَهْل الكوفة قد هُزِمُوا وهانَ عليهم الفرار ، فقلوبُهم كأَنها ليست فيهم ؛ فإنْ رأَيْتَ أَنْ تَبْعثَ

إلى أهل الشام ليأخذوا حِذْرَهُم ، فإنك تحارِب حُوّلاً قُلَّبًا ظَعَانًا[١] رَحَّالاً ، وقد جهَّزْتَ إليهم أهْلَ الكوفة ولَسْت واثقًا بهم كلَّ الثقة ، فإن شبيبًا بينا هو فى أرضٍ إذا هو فى أخرى ، ولا آمَنُ أنْ يأتى أهْلَ الشام وهم آمِنُونَ ؛ فإن يهلكوا تهلك[٢] ويَهلك أهْلُ العراق .

فقال : لله أبوك ، ما أحْسن ما أشرْتَ به ! وأرسل إلى أهْل الشام يحذِّرُهم ويأمرهم أن يأتوا على عَيْن التمر[٣] ، ففعلوا ، وقدم عتَّاب بن ورقاء تلك الليلة ، فبعثه الحجاجُ على ذلك الجيش ، فعَسْكَرَ بحمَّام أعْين[٤] ، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كَلْوَاذا[٥] فقطع منها دِجْلة ، ثم سار حتى نزل مدينة بَهُرَسِير[٦] الدنيا ، وهى المدائن الغربية ، فصار بينه وبين مُطَرِّفٍ دِجْلَةُ ، فقطع مطرف الجسر ، وبعث إلى شبيب أن ابْعَثْ إلىّ رجالا من وُجوه أصحابك أُدَارِسهم القرآن وأنظر فيما يدعون[٧] إليه ، فبعث إليه بمعَتِّب[٨] بن سُوَيد والمحلّل وغيرهما ، وأخذ منه رهائِنَ على عوْدِ أصحابه ، فأقاموا عنده أربعةَ أيام ، ثم أعادهم ، ولم يتفقوا ، فلما لم يتبعه مُطَرِّف تهيَّأ

(١) فى ك : طعانا .
(٢) فى الطبرى : نهلك .
(٣) عين التمر : بلدة فى طرف البادية على غربى الفرات (المراصد) .
(٤) حمام أعين : موضع بالكوفة منسوب إلى « أعين » مولى سعد بن أبى وقاص .
(٥) قرب بغداد .
(٦) بالفتح ، ثم الضم وفتح الراء وكسر السين المهملة وياء ساكنة وراء : من نواحى بغداد قرب المدائن . وقال حمزة : هى إحدى المدائن السبعة التى سميت بها المدائن ، وهى فى غربى دجلة (المراصد) .
(٧) فى الكامل : فيما تدعو إليه .
(٨) فى الكامل : قعنب ، والمثبت فى الطبرى أيضا .

للمَسِير إلى عَتَّاب . وأقبل عَتَّاب حتى نزل بسُوقِ حَكَمَةَ (١) وقد خرج معه مِنَ المقاتلة أربعون ألفًا ، ومِنَ الشباب والأَتْبَاع عشرةُ آلافٍ ، فكانوا خمسين ألفًا . وكان الحجاج قد قال لهم حين سارُوا : ألا إن للسائر المجدّ الكرامة والأثرة ، وللهارب الهَوَان والجفوة ، والذى لا إلَه غيره لئن فعلتُمْ فى هذ الموطن كفِعْلكم فى غيره من المواطن لأُولينَّكم كَنَفًا (٢) خَشِنًا ، ولأَعْرِكَنَّكُم بكَلْكَل ثقيل .

وسار شبيب مِنَ المدائن وأصحابُه ألفُ رجل ، فتخلَّفَ عنه بعضُهم ، فصلَّى الظهر بِسَابَاط ، وصلَّى العصر ، وسار حتى أشرَف على عتَّاب وعسْكَرِه ، فلما رآهم نزل فصلَّى المغرب ؛ وكان عَتَّاب قد عبَّأ أصحابه ؛ فجعل فى الميمنة محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، وفى الميسرة نُعيم بن عُليم ، وبعث حنظلة بن الحارث اليربوعى - وهو ابنُ عمه - على الرجَّالة ، وصَفَّهم ثلاثة (٣) صفوف : صَفٌّ فيهم أصحابُ السيوف ، وصفٌّ فيهم أصحابُ الرماح ، وصفٌّ فيهم الرُّماة ، ثم سار فى الناس يُحرِّضُهم على القتال ، ورجع فجلس فى القَلْب ، ومعه زَهْرة بن حَوِيَّة جَالِسٌ ، وعبْدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وأبو بكر ابن محمد بن أبى جهْم العَدَوِى .

وأقبل شَبِيب وهو فى ستمائة ، وقد تخلَّفَ عنه من أصحابه أربعمائة ؛ فجعل مُوَيد بن سُليم فى الميسرة فى مائتين ، والمحلّل بن وائل فى القلب فى مائتين ، ووقف هو فى الميمنة فى مائتين ، وذلك بين المغرب والعشاء

(١) سوق حكمة : موضع بنواحى الكوفة .
(٢) الكنف : الجانب .
(٣) بالأصول : ثلاث .

الآخرة حين أضاء القَمر ، فناداهم : لمَنْ هذه الرايات ؟ قالوا: لربيعة. قال : طالما نصرت الحقَّ ، وطالما نصرتِ الباطلَ ؛ والله لأُجاهِدَنَّكم محتسِبًا ، أنا شَبِيب ، لا حُكْم إلا للحكم ، اثبتوا إنْ شئْتُم .

ثم حمل عليهم ففَضَّهم ، فثبت أصحابُ رايات قَبِيصةبن والق ، وعُبيد بن الحليس ، ونُعيم بن عليم ، فقتلوا ، وانهزمت الميسرة كلها ، ثم حمل شبيب على عَتَّاب بن ورقاء ، وحمل سُويد بن سُليم على الميمنة وعليها محمد بن عبد الرحمن ، فقاتلهم فى رجال من تميم وهَمْدَان ؛ فما زالوا كذلك حتى قيل لهم : قُتِل عَتَّاب ، فانْفَضُّوا[1] . ولم يزل عَتَّاب جالسا على طِنْفِسَتِه[2] فى القَلْبِ ومعه زَهْرَة بن حَوِيَّة حتى غَشِيَهم شبيب ، فقال عتَّاب : يا زَهْرَة ، هذا يوم كَثُرَ فيه العدد وقَلَّ فيه الغَنَاء ، والهفى على خمسمائة فارس من تميم مِنْ جميع الناس ، ألا صابِر لعدوه ! ألَا مُوَاسٍ بنفسه ! فانفَضُّوا عنه وتركوه ،فلما دنا منه شَبِيب وثب فى عصَابةٍ قليلة صبَرَتْ معه ، وقاتل ساعةً ، فرآه رجُلٌ من أصحابِ شَبِيب يُقَال له عامر بن عَمْرو التغلبى ، فحمل عليه فطعَنَهُ ، وجاء الفَضْلُ بن عامرالشيبانى إلى زَهْرَة فقتله ، وتمكَّن[3] شبيب من أهْل العسكر والناس ، فقال : ارفعوا السيفَ . ودعاهم إلى البيْعَةِ ، فبايعه الناسُ وهربوا من ليلتهم ، وحوى مافى العسكر . وأقام شَبِيب بعد الوقعة ببيت قُرة يَوْمين ، ثم سار نحو الكوفة

(١) فى ك : فانقرضوا .
(٢) فى الكامل ، والطبرى : طنفسة .
(٣) فى الكامل : فاستمسك . وفى الطبرى : واستمكن .

فنزل بسُورَا [١] . وقتل عامِلَها ، وكان سفيانُ بن الأبرد وعَسْكَرُ الشام قد دخلوا الكوفة فشدُّوا ظهر الحجاج ، واستغنى بهم عَنْ أهل الكوفة ، وقام على المنبر فقال : يأهل الكوفة ، لا أعزَّ الله مَنْ أراد بكم العِزَّ ، ولا نَصَر مَنْ أراد بكم النَّصْرَ ،اخرجوا عَنَّا فلا تشاهِدُوا معنا قِتَال عدونا ، انزلوا الحِيْرَةَ مع اليهود والنصارى ، ولا يقاتل معنا إلاَّ من لم يشهد قِتَالَ عَتَّاب .

ذكر قدوم شبيب الكوفة وانهزامه عنها

قال : ثم سار شبيب من سُورَا فنزل حمّام أعْين ، فدعا الحجاجُ الحارث بن معاوية الثقفى ، فوجَّهه فى ناسٍ من الشُّرَط وغيرهم لم يشْهدُوا يوم عتَّاب ، فخرجوا فى ألفٍ فنزلوا زُرَارَة [٢] ، فبلغ ذلك شَبِيبًا ،فَعَجِل إلى الحارث ، فلما انتهى إليه حمل عليه فقتله ، وانهزم أصحابُه ، فدخلوا الكوفة ، وجاء شَبِيب فعَسْكَر بنا حية الكوفة فأقام ثلاثا ، فنزل السَّبخَة ، وابْتَنَى بها مَسجدًا ،وذلك فى اليوم الثانى من الأيام الثلاثة .

فلما كان اليوم الثالث أخرج الحجاجُ أبا الوَرْدِ مَوْلَاه عليه تِجْفَاف [٣] ومعه غلمان [٤] له ، فقالوا : هذا الحجاج ! فحمل عليه شَبِيب فقتله ، فأخرج إليه غلامه طَهْمَان فى مثل تلك العُدَّة والحالة ،فقتله شَبِيب ، وقال : إن كان هذا الحجاج فقد أرحْتُكم منه .

---

(١) سورا : موضع من أرض بابل . وسوراء : موضع قيل إلى جنب بغداد . وقيل بغداد نفسها ، ويروى بالقصر (المراصد) .

(٢) محلة بالكوفة .

(٣) التجفاف ـ بالكسر : آلة يلبسها الفرس والإنسان لتقيه فى الحرب (القاموس)

(٤) فى الأصول : ومعه غلمان له .

ثم خرج الحجاج عند ارتفاع النهار من القَصْر، فركب بَغْلاً ومعه أهل الشام ،فلما رأى الحجاج شبيبا وأصحابه نزل وجلس على كرسىّ ،وتقدّم إليه شَبِيب وأصحابه فلقوهم بأطراف الأَسِنَّة ؛فكان بينهم قِتَالٌ شديد عامَّةَ النهار ،حتى انتهى الحجاج إلى مسجد شَبِيب ،فقال: هذا أَوَّلُ الفَتْح.

ثم قال خالد بن عَتَّاب للحجاج : ائذن لى فى قتالهم ، فإنى موتور . فأَذِنَ له ، فخرج ومعه جماعةٌ من أهل الكوفة ، فقصد عَسْكَرَهم مِنْ ورائهم ، فقتل مُصَادًا أخا شبيب ، وقتل امرأته [غزالة] (١) ، هذا وشبيب يُقَاتِلُ الحجاج ، وأتى الخبر الحجاج فكبَّرَ فعِنْدها ركب شبيب وكان قد نزل فقاتل على الأَرْض ، وقال الحجاجُ لأصحابِه : احملوا عليهم ، فإنه قد أتاهم ما أَرْعبهم ؛ فشدُّوا على أصحابِ شَبِيب فهزموهم ،وثبت شبيب فى حامِيَة الناسِ ، فبعث الحجاجُ إلى خَيْله أَنْ دَعُوه ، فتركوه ورجَعُوا ، ودخل الحجاج الكوفة ، وبعث حَبيب بن عَبْدِ الرحمن الحكمى فى ثلاثة آلاف فارس من أهل الشام ، فخرج فى أثره حتى نزل إلى الأَنْبَار .

وكان الحجاجُ قد نادى عند انهزامِ شبيب : منْ جاءنَا منكم فهو آمِنٌ ؛ فتفرَّقَ عن شَبِيب ناسٌ كثير من أصحابه . فلما نزل حبيب الأنبار أتاهم شبيب ، فلما دنا منهم نزل فصَلَّى المغرب ، وكان حبيب قد جعل أصحابَه أرباعا ، وقال : ليمنع كلُّ ربع منكم جانِبَه فإنْ قاتل هذا الربع فلا يُغِنْهُم (٢) الربع الاخر . وأتاهم شبيب وهو على تعبئته فحمل [على] (٣) ربع ،فقاتلهم طَوِيلا ،فمازالت قَدَمُ إنسانٍ عن موضعها

(١) ساقط فى ك .

(٢) فى الطبرى : فلا يغنهم .

(٤) من د بين السطور .

فتركهم ، وأقبل إلى رُبع آخر ، فكانوا كذلك ، وقاتل الربع الثالث والرابع وهم كذلك ، فما برح يقاتلهم حتى ذَهَب ثلاثةُ أرباع الليل ، ثم نازلهم رَاجِلاً ، فسقطت بينهم[1] الأيدى وكثرت القَتْلَى ، وفُقئت الأعين ،وقُتل مِنْ أصحاب شبيب نحو ثلاثين رجلاً ، ومن أهل الشام نحو مائة . واستولى التَّعبُ والإعياء على الطائفتين حتى إن الرجلَ ليَضْرِبُ بسيفه فلا يصنع شيئًا ، فلما يئس شبيبٌ منهم تركهم وانصرف عنهم ،ثم قطع دجْلَة وأخذ فى أرض جُوخَى ثم قطع دجلة مرة أخرى عند واسط ، وأخذ نحو الأهواز إلى فارس ثم إلى كَرْمَان ليستريح هو وَمَنْ معه .

ذكر مهلك شبيب

كان مَهْلك شَبيب فى سنة [٧٧هـ] سبع وسبعين ، وسبَبُ ذلك أن الحجاجُ أنفق فى أصحاب سُفْيَان بن الأَبْرد مالاً عظيماً ،وأمرهم بقَصْد شَبِيب ، فساروا نحوه مع سفيان بن الأبرد ، وكتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب زَوْج ابنته -وهو عامِلُه على البصرة- أن يُرْسِل أربعة آلاف فارس مِنْ أهل البصرة ، ففعل وسَيَّرَهم مع زياد بن عمرو العَتَكى ، فلم يَصِلْ إلى سفيان حتى التقى سفْيَان مع شَبِيب. وكا ن شبيب قد أقام بِكَرْمان حتى استراح وَأرَاح ، ثم أقبل راجعًا فالتقى مع سفيان بِجَسْر[2] دُجيل الأهواز ، فعبر شبيب الجِسْر إلى سفيان فوجده قد نزل فى الرجال ، وجعل مُهَاصر بن سيف[3] على الخيل ، وأقبل

(١) فى الكامل : منهم .
(٢) بالفتح ثم السكون ، وآخره راء . وربما كسرت الجيم ، والفتح أشهر (المراصد) .
(٣) فى الطبرى (٦-٢٧٩) : بن صيفى . والمثبت فى الكامل أيضا .

شبيب فى ثلاثة كَرَاديس (١) ، فاقتتَلُوا أَشَدَّ قتال ، ورجع شَبِيب إلى المكان الذى كان فيه ، ثم حمل عليه هو وأصحابه أكثر من ثلاثين حَمْلة ، وأهلُ الشام على حالِهم فى ثباتِ القَدَم ، ومازلوا يقاتلون الخوارج حتى اضْطَرُّوهم إلى الجِسْر . فلما انتهى شَبِيب إلى الجِسْر نزل ونزل معه نحو مائة رجل ، فقاتلوا حتى المساء ، وأَوْقَعُوا بأهلِ الشام من الضَّرْبِ والطعن مالم يَرَوْا مثله ، فأمر سفيان الرُّماة أن يرموهم فتقدَّمُوا ، ورَمُوهم ساعة ، فحمل شبيب وأصحابه على الرُّمَاة ، فقتلوا منهم أكْثَر من ثلاثين رجلا ، ثم عطف على سُفْيان ومن معه فقاتلهم حتى اختلط الظَّلَامُ ، ثم انْصَرَف ، فقال سفيان لأصحابه : لاتتبعوهم .

فلما انتهى شبيب إلى الجِسْرِ قال لأصحابه : اعبروا فإذا أَصْبَحْنَا باكَرْنَاهم إن شاء الله . فعَبرُوا أَمَامَه ، وتخلَّفَ فى آخرِهم ، وجاء ليَعْبُر وهو على حصانٍ وبين يديه حِجْر (٢) ، فَنزا فَرَسُه عليها وهو على الجِسْر فاضطربت تحْتَه ، ونزل حافر رِجْل حصانِه على حَرْفِ السفينة ، فسقط فى الماء ، فلما سقط قال : ليَقْضِى اللهُ أَمْرًا كان مفعولاً . وانغمس (٣) فى الماء ، ثم ارتفع ، وقال : ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العليم . وغَرِق .

• قال : وكان أَهْلُ الشام قد عَزَمُوا على الانصراف ، فأتاهم صاحِبُ

(١) الكردوسة ، بالضم : قطعة عظيمة من الخيل .
(٢) الحجر : الأنثى من الخيل .
(٣) فى الطبرى : فارتمس . والارتماس : الاغتماس .

الجِسر ، فقال لسفيان : إنَّ رجلا منهم وقع فى الماء ، فتنادوْا بينهم : غَرِق أمِير المؤمنين. ثم انصرفوا راجعين ،وتركوا عسكرهم ليس فيه أحَد ، فكبَّر سفيان وكَبَّر أصحابُهُ ، وأقبل حتى انتهى إلى الجِسْرِ ، وبعث إلى المعسكر ، وإذا (١) ليس فيه أحَد ، وإذا هو أكثر العساكر خيرًا ، ثم استخرجوا شبيبًا فشقُّوا جوْفه ، وأخرجوا قَلْبَهُ ، فكان صلبًا كأنه صخرة ، فكان يضرب به الصَّخْرة فينْبُو (٢) عنها قامَةَ إنسان .

قال : وكان شبيب يُنْعَى لأُمه فيقال لها: قُتل ، فلا تَقْبل ذلك. فلما قيل لها غرق صدَّقت ذلك ،وقالت : إنى رأيت حين وَلَدْتُه أنه خرج منِّى شهابُ نارٍ ، فعلمْتُ أنه لا يُطفِئه إلَّا الماء ، وكانت أُمّه جارية رومية اشتراها أبوه فأولدها شبيبًا سنة [٢٥هـ] خمس عشرين يوم النَّحْر ، وقالت : إنى رأيْتُ فيما يرى النائم أنه خرج مِنْ قُبُلى شِهابُ نار ، فذهب ساطعًا إلى السماء ، وبلغ الآفاقَ كلَّها ، فبينا هو كذلك إذْ وقع فى ماءٍ كثير فخبَا ، وقد ولَدْتُه فى يومكم الذى تهريقون فيه الدِّمَاء ، وقد أوَّلْتُ ذلك أنَّ ولَدى يكون صاحِب دماء وأنَّ أمْره سيَعْلُو ويعظم سريعًا .

(١) فى الكامل : وإذ .

(٢) فى الطبرى : فيثب عنها .

ذكر خروج مطرف بن المغيرة
ابن شُعْبَة ومَقْتله

كان خروجه وقَتْلُه فى سنة [٧٧هـ] سبع وسبعين ، وذلك أنه لما قدم الحجَّاجُ العِرَاقَ استعمل أولادَ المغيرةِ على أعماله لشَرفِهم ومنزلتهم مِنْ قومهم ، واستعمل عُروَة [بن المغيرة] (١) على الكوفة ، ومُطَرِّفًا على المدائن ، وحَمْزة على همَذان ، فكانوا على أعمالهم أحسَنَ الناسِ سيرةً ، وأشدَّهم على المريب ، وكان المُطَرِّف على المدائن لما خرج شَبِيب ، وقد ذكرنا أن المطرِّف أرسلَ يسْتَدْعى منه أنْ يُسيِّر إليه مِنْ أصحابِه منْ يُدَارسه ويسْمَعُ منه ، وأنه سيَّر إليه جماعةً ، ولم يحصل بينهم اتِّفَاق ، وكان مِمّا تكلَّمُوا فيه أنَّ المطرِّف سألهم عما يَدعُونَ إليه ، فقالوا : ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وأنَّ الذى نقمنا على (٢) قومنا الاستئثارُ بالفَىْء وتعطيلُ الحدود والتسلُّطُ بالجبرية ، فقال لهم مُطَرِّف :ما دعوتُم إلا إلى حق ،وما نقمتم إلَّا جوْرا ظاهرا ، أنا لكم مُتَابع (٣) ، فبايِعُونى (٤) على ما أدْعُوكم إليه : أنْ نُقَاتِل هؤلاء الظَّلَمة على أحداثهم ،ونَدْعوهم إلى كتابِ الله وسنَّةِ نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، وأن يكونَ هذا الأمْرُ شُورَى بين المسلمين ،يُؤمِّرون منْ يرضون (٥) على مِثْلِ الحال التى تركهم عليها عمرُ بن الخطاب ،

(١) زيادة من الطبرى .
(٢) فى الكامل : من قومنا .
(٣) فى ك : سامع .
(٤) فى الطبرى : فتابعونى .
(٥) فى الطبرى والكامل: يرتضون .

فإنَّ العَرب إذا علمت أنها إنما يُراد بالشورى الرضا من قُريش رضُوا وكَثُر تبعكم وأعوانُكم .

فقالوا : هذا مالا نُجيبُك إليه ، وفارقُوه ، وأحضر مُطَرِّف نصحاءه[1] وثِقَاتِه ، فذكر لهم ظُلْمَ الحجاج وعَبْد الملك ، وأنه مازال يُؤْثِر مخالفَتَهم ومناهضتَهم ، وأنه يرى ذلك دينًا لو وجد عليه أعوانا ، وذكر لهم ما جرى بينه وبين أصحاب شبيب ، وأنهم لوتابعوه على رَأْيِه لخلعَ عبد الملك والحجاج ، واستشارهم فيما يفعل .

فقالوا له : أَخْفِ هذا الكلامَ ولا تُظْهِرْه لأحد . فقال له يزيد ابن أبى زياد مولى أبيه : واللهِ لا يَخْفَى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمةٌ واحدةٌ وليُزَادَنَّ على كل كلمةٍ عَشر أمثالها ، ولو كنتَ فى السحاب[2] لالْتَمَسَكَ الحجاجُ حتى يُهْلِكَكَ ، فالنَّجاء النَّجاء .

فوافقه أصحابُه على ذلك ، فسار عن المدائن نحو الجبال ، ثم دعا أصحابَه الذين لم يعْلَمُوا بحالِه إلى ما عزمَ عليه ، فبايعه بعْضُهم ، ورجع عنه بعضُهم ،وسار نحوحُلوان وبها سُوَيْد بن عبدالرحمن السعدى من قِبَل الحجاج، [فأراد هو والأكراد مَنْعَه ليعذر عند الحجاج][3] ، فأوقع مُطَرِّف بالأكراد فقتل منهم ، وسار .

فلما دنا من هَمَذان وبها أخوه حمزة بن المغيرة تركها ذاتَ اليسار ، وأرسل إلى أخيه حَمْزَة يستمدُّه بالمال والسلاح ، فأرسل إليه ما طَلَب

(١) فى الكامل : صلحاءه .
(٢) فى ك: السحابة .
(٣) ساقط فى ك .

سِرًّا ، وسار مُطَرِّف حتى بلغ قُمّ[١] وقَاشَان ، وبعث عمالَهُ على تلك النواحى ، وأتاه الناسُ .

وكان مِمَّنْ أتاه سُويد بن سرحان الثقفى ، وبكير بن هارون النَّخعى[٢] من الرىّ فى نحو مائةِ رجلٍ ، وكتب البَراء بن قَبِيصة — وهو عامل الحجاج على أصفهان — إليه يعرِّفُه حالَ المُطَرِّف ويستمدُّه ، فأمدَّه بالرجال بَعْدَ الرجال على دوابّ البريد .

وكتب الحجَّاجُ إلى عَدِىّ بن زياد[٣] عامل الرىّ يأْمره بقَصْد مُطَرِّف ، وأن يجتمع هو والبَرَاءُ على محارَبَتِه ، فسار عدِىّ من الرَّىّ واجتمع هو والبراء وعدى الأَمِيرُ ، واجتمعوا فى نحو ستة آلاف مُقَاتل . وكان حمزة بن المغيرة قد أرسل إلى الحجاج يعتذر ،فأظهر قبولَ عُذْره ، وأراد عَزْله وخاف أن يمتنع عليه ، فكتب إلى قيس بن سَعْد العِجْلى ، وهو على شُرْطَة حمزة بعَهْده على هَمَذَان ، ويأْمُرُهُ أن يقبضَ على حَمْزَة ابن المغيرة ؛ فسار قَيْس بن سَعْد إلى حَمْزَة فى جماعةٍ من عشيرته فأقرأه العَهْد بولايته ، وكِتَابَ الحجَّاج بالقَبْضِ عليه ، فقال : سَمْعًا وطاعة . فقبض قَيْس عليه وسجَنَه ،وسار عدىّ والبراء نحو مُطَرِّف فالتَقَوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانهزم أصحابُ مُطَرِّف وقُتِل هو وجماعة كثيرة مِنْ أصحابه ، قَتَلَهُ عمَر[٤] بن هبيرة الفَزَارى ، وكان الحجاج يقول : إن مُطَرِّفًا ليس بوَلد المغيرة بن شعبة ، إنما هو

(١) قم — بالضم وتشديد الميم: بين أصفهان وساوة . وقاشان : مدينة قرب أصفهان (المراصد) .

(٢) فى الطبرى : البجلى . والمثبت فى الكامل أيضا .

(٣) فى الطبرى : عدى بن وتاد . والمثبت فى الكامل أيضا .

(٤) فى ك : عمرو ، وفى الكامل: عمير . والمثبت فى الطبرى أيضا .

ولد مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة الشيبانى ، وكان مصْقَلَة والمغيرة يدَّعِيانه ، فأُلحق بالمغيرة ، وجُلِد مصْقَلة الحَدَّ ، فلما أظهر رأْىَ الخوارج قال الحجاج ذلك ، لأَنَّ كثيرًا من ربيعة كانوا خوارج[١] ولم يكن منهم أحدٌ من قيس عَيْلان .

انتهت أخبار الخوارج فلنذكر الغزوات فى خلافة عبد الملك

ذكر الغزوات والفتوحات

فى أيام عبدالملك بن مَرْوَان على حكم السنين

فى سنة [٧١هـ] إحدى وسبعين افتتح عبد الملك قَيْسَارِيَّة فى قَوْلِ الواقدى .

وفى سنة [٧٣هـ] ثلاث وسبعين غزا محمد بن مرْوَان الروم صائفةً ، فهزمهم ،وفيها كانت وَقْعَةُ عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أَرْمِينية ، وهو فى أربعة آلاف ، والروم فى ستين ألفًا ، فهزمهم وأكثر فيهم القَتْل .

وفى سنة [٧٤هـ] أربع وسبعين غزا عبد الله بن أمية رُتْبِيل[٢] من سِجِسْتَان ،وكان رُتْبِيل هائبًا للمسلمين ،فلما وصل عبْدُ الله إلى بُسْت[٣] راسَله رُتْبيل فى طَلَبِ الصلح ، وبذلَ أَلْفَ أَلف ، وبعث إليه بهدايَا ورقيق ، فأَبى عَبْدُ الله قبولَ ذلك ، وقال : إن مَلأَ لى هذا الرّواقَ ذَهَبًا وإلاَّ فَلَا صلح ، وكان غِرًّا ، فخلَّى لهُ رُتْبِيل البلادَ حتى أَوْغَل فيها ، وأخذ عليه الشِّعَابَ والمضايق [وطلب أن يخلِّى عنه

(١) فى ك : من خوارج .

(٢) الضبط فى القاموس والمشتبه .

(٣) بست– بالضم : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة (المراصد).

وعن المسلمين] (١) ، ولا يأخذ منه شيئًا ،فأبى رُتْبيل وقال : يَأْخُذُ(٢) ثلاثمائة ألف درهم صلحًا ،ويكتبُ لنا بها كِتَابًا ، ولا يَغْزُو بلادنا مادمْتُ أميرًا ، ولا يحرق ولا يخرّب .

ففعل ، وبلغ ذلك عبد الملك فعزَلَه .

وفيها غزا محمد بن مروان الروم صائفةً ،وبلغ أندوليَة ، وغزا أيضًا فى سنة [٧٥هـ] خمس وسبعين صائفةً حتى خرجت الروم من قبل مَرْعَش ،وغزا أيضًا فى سنة [٧٦هـ] ست وسبعين من ناحيةِ مَلَطْية .

وفى سنة [٧٧هـ] سبع وسبعين غزا أُميّة بن عبد الله ماوراء النهر فبلغ بُخَارى ، وخالف عليه بكير بن وَسَّاج ، فصالح أَهْلَ بُخَارى على فِدْيَةٍ قليلة ، ورجع لقتال بكر .

وفيها غزا أُميّة أيضًا ،وَعَبَر نهر بَلْخ ،فحُوصر حتى جهد هو وأصحابُه ، ثم نَجَوْا بعد ما أَشْرفُوا على الهلاك ، ورجعوا إلى مَرْو .

وغزا الوليد بن عبد الملك الصائفة .

ذكر غزو عبيد الله بن أبى بكرة رتبيل

وفى سنة [٧٩هـ] تسع وسبعين غزا عبيد الله بن أبى بكرة بلاد رُتْبِيل ، وكان الحجاج قد استعمله على سجستان ، وكان رُتْبيل يُؤَدِّى الخراجَ ،وربما امتنع منه ، فبعث الحجاج إلى عُبَيْد الله [ابن أبى بكرة] (٣) يأْمُره بمُنَاجَزَتِه ، وألّا يرجع حتى يسْتَبيحَ بلادَه ، ويهدم قلَاعهُ ، ويقتل (٤) رجاله .

(١) ساقط فى ك.
(٢) فى ك : نأخذ منه .
(٣) زيادة من الطبرى .
(٤) فى الكامل : ويقيد . وفى الطبرى : ويقتل مقاتلته .

فسار عُبَيْد الله فى أهْلِ البصرة والكوفة ، وعلى أهل الكوفة شُريح ابن هانىء ؛ فمضى عُبيد الله حتى دخل بلادَ رُتْبِيل ، فأصاب من الغنائِم ما شاء ، وهدم حُصُونا ، وغلب على أرض مِنْ أراضيهم ، وأصحابُ رُتْبِيل من الترك يُخْلُونَ للمسلمين أرضًا بَعْدَ أرْضٍ ، حتى أمْعنُوا فى بلادِهم ، ودَنَوا من مدينتهم ، وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخًا ، فأخذ الترك عليهم الشِّعَابَ والعقاب[١] ، فصالحهم عُبيْد الله على سبعمائة ألف يوصلها إلى رُتْبِيل ليمكِّن المسلمين من الخروج ؛ فلقيه شريح فقال : إنكم لا تصالحون[٢] على شىء إلَّا حسبه السلطانُ مِنْ أعطياتكم ، ثم قال : يأهل الإسلام ، تَعَاوَنُوا على عدُوِّكم ، فقال له ابن أبى[٣] بكرة : إنك شيخ قد خَرِفْتَ . فقال شريح : يأهل الإسلام ، مَنْ أراد منكم الشهادة فإلىّ ، فاتَّبعه نَاسٌ من المطَّوِّعَة[٤] غير كثير ، وفُرسان الناس ، وأهل الحفاظ ، فقاتلُوا حتى أُصيبوا إلا قليلا ، وجعل شريح يرتجز ويقول[٥] :

أَصْبَحْتُ ذَابَتْ أُقَاسِى الكِبَرا قد عِشتُ بيْنَ المشركين أعْصُرا
ثُمَّتَ أدركْتُ النبىَّ المُنْذِرا وبعده صِدِّيقَه وعمَـــرا
ويوْمَ مِهْرَان ويوم تُسْتَـــرا والجَمْعَ فى صِفِّينِهم والنَّهَـرا
هيهاتَ ما أطول هذا العُمرا[٦]

---

(١) فى الكامل ، والطبرى : فأخذوا على المسلمين الشعاب والعقاب .
(٢) فى ك : لا تحاسبون .
(٣) فى ك : أبو بكرة — وأراه تحريفا .
(٤) فى الطبرى : المتطوعة .
(٥) والطبرى : ٦—٣٢٣ .
(٦) فى الطبرى ، والكامل :
وباجميرات مع المشقرا هيهات ، ماأطول هذا عمرا

وقاتَل حتى قُتِل فى ناس مِن أصحابه ، ونجا مَنْ نجا منهم ، وخرجوا مِنْ بِلَادِ رُتْبِيل ، فاستقبلهم الناسُ بالأطعمة ، فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات ، فحذر الناس وجعلوا يطعمونهم [السمن] (١) قليلا قليلا حتى استمرءوا .

وفيها أصاب الروم أهل أنطاكية وظفروا بهم ، وكان قد أصاب أهل الشام طاعونٌ شديد فلم يَغْزُ تلك السنة أحَدٌ منهم .

ذكر مسير عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

إلى رُتْبِيل وما مَلَكَه مِنْ بِلاده

كان مسيره فى سنة [٨٠] هـ ثمانين ؛ وذلك أنه لما رجع عُبيد الله ابن أبى بَكْرة ومَنْ معه من بلاد رُتْبِيل على الحال التى ذكرنا كتَب الحجاجُ إلى عَبْدِ الملك بخبَرِهم ، ويُخْبِرُه أنه قد جَهَّز من أهل الكوفة والبَصْرةِ جيشًا كثيفًا ويستأْذنُه فى إرسالهِ إلى بلادِ رُتْبِيل ، فأَذِنَ له فى ذلك ، فجَهَّزَ من أهل الكوفة عشرين ألف فارس ومن أهل البصْرَة مثلها ، وأنفق فيهم ألْفَىْ ألْفٍ سِوَى أعطياتهم ،وأعطى كلَّ رجل يوصف بشجاعة وغَنَاء ، وبعث عليهم عَبْد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

ولما أراد أن يبعثَه على الجيش أتاه(٢) إسماعيلُ بن الأشعث ، فقال : لاتَبْعَثْه ، والله ما جاز جِسْرَ الفُرات فرأى لوالٍ عليه طاعة ، وإنى أخاف خِلَافَه .

---

(١) من الكامل، والطبرى .

(٢) فى الطبرى : أتى الحجاج عمه إسماعيل بن الأشعث .

فقال الحجاج : هو أَهْيبُ لى من أن يخالِفَ أمرى . وسيَّره على الجيش ، فسار حتى قدم سجستان ،فجمع أَهْلَها فخطبهم ثم قال : إن الحجاج وَلَّانى ثَغْركم ، وأمرنى بجهادِ عدُوِّكم الذى استباح بِلَادَكم ، فإياكم أن يتخلَّف منكم أحد فتَسِمه[1] العقوبة . فعسكروا مع الناس ، وساروا بأجمعهم ، وبلغ الخبرُ رُتْبِيل ، فأرسل يعتذر ويَبْذُلُ الخراج ، فلم يقبَلْ منه ، وسار إليه ، ودخل بلاده ، فترك له رُتْبِيل أرضًا أرضًا ورُستاقًا رُستاقًا وحِصْنا حصنًا ، وعبْدُ الرحمن يحْوى ذلك ؛ وكلما حَوى بلدًا بعث إليه عَامِلاً[2] ، وجعل معه أعْوَانًا ، وجعل الأَرْصَاد على العِقَاب والشِّعاب ، ووضع المَسَالحَ بكل مكان مخُوف ، حتى حاز[3] من أرضه أرضًا عظيمة ، وملأ الناسُ أيديهم من الغنائم العظيمة ، ومنع الناسَ من التوغُّل ، وقال : نكتفى بما قد أصبناه العام من بلادهم حتى نجيئها[4] ونَعْرِفَها ، ويجترئُ المسلمون على طرقها ، وفى العام المقبل نأْخذُ ما رواءها إنْ شاء اللهُ تعالى حتى نقاتلهم فى آخر ذلك على كنوزِهم وذَرَاريهم فى أقصى بلادهم حتى يهلكهم اللهُ تعالى .

وكتب إلى الحجاج بما فتح اللهُ عليه وبما يُريد . فكتب الحجاج إليه يُنْكِر فِعْلَه ، ويأْمره بالمناجَزَةِ ، فأدّى ذلك إلى خروج عبد الرحمن على الحجاج على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الكامل : فتمسه . وفى الطبرى : فيحل بنفسه العقوبة .
(٢) فى ك : غلاما .
(٣) فى ك : جاز .
(٤) فى الطبرى : حتى نجيبها .

ذكر غزو المهلب بن أبى صفرة ما وراء النهر

وفى سنة [٨٠هـ] ثمانين قطع المهلّب نهر بَلْخ ونزل على كَشّ[١]، وكان الحجاجُ قد استعمله على خُرَاسان حين ضَمّها عبدُالملك إلى عَمَلِه، فسار وعلى مقدمته أبو الأدهم[٢] الزمانى فى ثلاثة آلاف، وهم فى خمسة آلاف، ولما نزل المهلّب على كَشّ أتاه ابن عم ملك الخُتّل[٣] دعاه إلى غَزْو الخُتّل، فوجّهَ معه ابنَه يزيد، وكان اسم ملك الخُتّل السَّبل[٤]، فسار يزيد وابن عمّ الملك حتى نازَلُوه، ونزل كلُّ واحدٍ منهما ناحية، فبيّت الملك ابْنَ عَمّه، وأخذه فقتله، فحصر يزيد القَلْعة، فصالحوه على فِدْيةٍ حُملت إليه، ورجع يزيد عنهم. ووجّه المهلّبُ ابْنَه حبيبًا، فوافَى صاحِب بُخارى فى أربعين ألفًا، فنزل جماعة من العدوّ قريةً، فسار إليهم حَبِيب فى أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسمّيت المُحْتَرِقَة. ورجع حبيب إلى أبيه، وأقام المهلّب بكَشّ[١] سنتين، فقيل له: لو تقدّمْتَ إلى ما وراء ذلك! فقال: ليت حَظّى من هذه الغَزْوة سلامةُ هذا الجند، وعَوْدهم سالمين، ثم صالح أهْل كَشّ على فِدْيةٍ يأخذها منهم.

---

(١) كش — بالفتح ثم التشديد: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على الجبل، وقرية من قرى أصبهان (المراصد)، وقال ابن ماكولا: كسره العراقيون. وغيرهم جعله بفتح الكاف، وربما صحفه بعضهم فقاله بالشين المعجمة، وهو خطأ.

(٢) فى الطبرى: أبو الأدهم زياد بن عمر.

(٣) ختل — كسكر: كورة بما وراء النهر (القاموس).

(٤) فى الكامل: الشبل. والضبط فى الطبرى.

وفى سنة [٨١هـ] إحدى وثمانين سيَّر عبد الملك ابنه عُبيد الله ففتح قَالِيقَلا[١] .

ذكر دخول الديلم قزوين وقتلهم

كانت قَزْوِين ثَغْرًا للمسلمين من ناحيةِ الدَّيْلَم ، فكانت العساكِرُ لا تَبْرَحُ مرابطةً بها ، يتحارَسُونَ ليلاً ونهارًا ، فلما كان فى سنة [٨١ هـ] إحدى وثمانين كان فى جملة[٢] من رابطَ بها محمد ابن أبى سبْرة الجعفى ، وكان فارِسًا شجاعًا ، فرأى الناسَ يتحارسون فلا ينامُونَ الليل ، فقال : أتخافونَ أنْ يدخُل عليكم العدُو مدينتكم ؟ قالوا : نعم . قال : لقد أنْصفُوكم إنْ فَعلوا ، افتَحُوا الأبواب ، ولا بأْس عليكم . ففتحوها ، وبلغ ذلك الديْلَم ،فسارُوا إليهم وبيَّتُوهم ،وهجموا إلى البلد ؛ فقال ابن أبى سبْرة : أغْلِقوا أبواب المدينَةِ علينا وعليهم ، فقد أنصفونا ، وقاتِلُوهم .

فغلَّقُوا الأبواب وقاتَلُوهم ، وأبْلَى ابْنُ أبى سبْرَة بلاءً عظيماً ،وظَفِر بهم المسلمون ، فلم يفْلِتْ من الدَّيْلَم أحدٌ ،واشتهر اسْمُه بذلك ،ولم يُقْدِم الدَّيْلَمُ بعدها على مفارقة أرضهم ، فصار محمد فارس ذلك الثغر المشار إليه . [والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب][٣] .

---

(١) فاليقلا : بإرمينية العظمى من نواحى خلاط (المراصد) .

(٢) فى الكامل : جماعة .

(٣) ساقط من د .

ذكر فتح قلعة نيزك بباذغيس[١]

وفى سنة [٨٤هـ] أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نَيْزَك، فلما بلغه خروجه عن القَلْعَةِ سار إليها وحاصَرَها. فملكها وما فيها من الأموال والذخائر ، وكانت مِنْ أحْصَنِ القِلَاع وأمْنَعها ، وكان نيْزك إذا رآها سجدَلها تعظيماً ، وفيها يقول كعب بن معْدان الأشقرى[٢] :

وباذَغِيسُ التى مَنْ حَلَّ ذرْوَتَهـا ... عَزَّ الملوكَ فإنْ شَا جَارَ أوْ ظَلَما
منِيعةٌ لم يَكِدْها قَبْلَه مَـلِكٌ ... إلَّا إذا واجَهتْ جَيْشًا له وجَما
تُخَال نِيرانُها من بُعْدِ منظرها ... بعضَ النجوم إذا مالَيْلُها عَتَما

وهى أبيات عديدة .

وقال أيضا يذكر يزيد [رحمه الله][٣] وفتحها[٤] :

نَفَى نَيْزكًا عن باذَغِيس ونَيْزَكٌ ... بمنزلةٍ أعيَا الملوكَ اغْتِصابُهـا
مُحلِّقَة دون السماءِ كأنهـا ... غَمَامَةُ صيْفٍ زَلَّ[٥] عنها سَحَابُها
ولا يبْلُغُ الأرْوى شمارِيخَها العُلَا ... ولا الطَّير إلَّا نَسرُها وعُقَابُهـا
و ا خُوِّفَتْ بالذِّئب وِلْدانُ أهْلِها ... ولانَبحَت إلَّا النجومَ كِلَابُها

(١) نيزك : ضبطت فى الطبرى بكسر النون وفتح الزاى . وفى د : بفتحها وضم الزاى . وباذغيس : ناحية من أعمال هراة ومرو الروذ (المراصد) .

(٢) فى ك : الأشعرى . والمثبت فى الطبرى ، والكامل ، ومعجم الشعراء ، والأغانى ، والشعر والشعراء . والشعر فى الطبرى : ٦–٣٨٦، والكامل : ٤ – ٩٤ .

(٣) ساقط فى د .

(٤) والطبرى : ٦–٣٨٧ .

(٥) فى الكامل : زال.

ذكر فتح المصيصة

وفى سنة [٨٤هـ] أربع وثمانين أيضًا غزا عبْدُ الله بن عبد الملك الرُّومَ ، ففتح المصِّيصة[١] وبنَى حِصْنها ، وجعل فيها ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأْس ، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك ، وبنى مسْجدها .

وغزا محمد بن مَرْوَان أرمينية .

وفى سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين غَزَا المفضل بن المهلب باذَغِيس ففتَحها وأصاب مغْنَمًا فقسمه ، فأصاب كلَّ رجل ثمانمائة[٢] ، ثم غزا أَخْرُون[٣] وشُومان ، فغنم وقَسَّم ما أصاب .

وفيها غزا محمد بن مَرْوان أرمينية ، فصاف فيها وشتَا . انتهى ذكر الغزوات والفتوحات .

ذكر الحوادث الكائنة

فى أيام عَبْد الملك بن مروان منذ استقلَّ بالأمر

خلاف ما ذكرناه ، وذلك على حُكم السنين

قد ذكرنا حوادث السنين فى أخبار عبْد الله بن الزبير رضى الله عنهما إلى أنْ قُتِل فى سنة [٧٣ هـ] ثلاث وسبعين ، وذكرنا ما هو متعلِّقٌ بهذه الدولة الأُموية فى أثناء أخبار عبد الملك ، فلنذْكُرْ خلاف ذلك .

---

(١) المصيصة — بالفتح ، ثم الكسر والتشديد ، وياء ساكنة ، وصاد أخرى ، وقيل بتخفيف الصاد ين ، وهى مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام (المراصد) . وفى البكرى : بكسر أوله .

(٢) فى الطبرى : ثمانمائة درهم .

(٣) فى ك : أجرون ، والمثبت فى الكامل ، والطبرى .

سنة (٧٣ هـ) ثلاث وسبعين :

ذكر ولاية محمد بن مروان

الجزيرة وأرْمِينِيَة

فى هذه السنة استعمل عَبْدُالملك أخاه محمدًا على الجزيرة ،وكانت بُحيْرةُ أرْمِينِيَة مُباحةً لم يعْرِضْ لها أحَد، بل يَأْخُذُ منها منْ شاء، فمنع من صَيْدها وجعل عليه منْ يأْخذه ويبيعه ويأْخذ ثمنَه ،ثم صارت بعْده لابنه مرْوَان ، واستمرّ ذلك بعده .

وفيها عزل عبْدُ الملك خالد بن عبْد الله عن البصرة، واستعمل عليها أخاه بِشْر بن مروان، فاجتمع له المِصْران: الكوفة، والبصرة، فسار بِشْر إلى البصرة ، واستعمل على الكوفة عَمْرو بن حُريث .

وحجّ بالناس فى هذه السنة الحجاج وهو على مَكّة واليمن واليمامة ، وكان على قضاء الكوفة شُريح بن الحارث ، وعلى قضاء البصرة هشام ابن هُبيرة ، وكان على خراسان بُكير بن وشاح[1] .

وفيها مات عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بمكة وكان سبب وفاته أنَّ الحجاج أمر بعْضَ أصحابه ، فضرب ظَهْر قَدمِه بزُجّ رُمْحٍ مسموم ، فمات منها، وعاده الحجاجُ فى مرضِه، فقال : منْ فعل بك هذا ؟ فقال : أنت ، لأنك أمرْت بحمْلِ السلاح فى بَلَدٍ لا يحلُّ حمْلُهُ فيه . وكانت وفاتُه بعد قَتْل ابن الزبير بثلاثة أشهر، وكان عمره سبعًا وثمانين سنة ،ومات غيره من الصحابة رضى اللهعنهم .

---

١) فى الطبرى ، والكامل : وشاح . وقد تقدم الخلاف فيه .

سنة (٧٤ هـ) اربع وسبعون :

فى هذه السنة عزل عَبدُ الملك طارقًا[١] عن المدينة ، واستعمل عليها الحجاج ، ففعل ما قدَّمْنَا ذكره .

وفيها استقضى عبد الملك أبا إدريس الخَوْلانى .

وفيها استعمل عبد الملك أُميّة بن عَبْد الله بن خالد بن أَسِيد[٢] على خُرَاسان ، وعزل عنها بُكير بن وشّاج ، فسار أُميّة إليها ، فلقيه بَحِير[٣] بن وَرْقاء بنيسابور ، وأخبره عن خراسان وما يحسن به طاعةُ أهلها ، ورفع على بُكير أموالاً أخذها وحذره غَدْرَه[٤] ، وسار معه حتى قدم مرو ، وكان أُميَّةُ كريماً فلم يعرض لبُكير ولا لعُمَّاله ، وعرض عليه شُرطته ، فأبى فولَّاها بَحِير بن وَرْقاء ، ثم خَيَّرَ بُكيرًا أن يولِّيه ما شاء مِنْ خُراسان ، فاختار طخارستان .

قال : فتجهَّزَ لها ، فأنفق مالاً كثيرًا ؛ فقال بحِير لأمية : إنْ أتَى طخارستان خَلَعك ، وحَذَّره فلم يُولِّه .

وفيها استعمل عبْدُ الملك حَسَّانَ بن النعمان الغَسَّانى على إفريقية ، وسيذكر ذلك إن شاء الله فى أَخْبَار إفريقية .

وحجَّ بالناس فى هذه السنةِ الحجاج بن يوسف .

وفيها توفى بشر بن مروان بالبصرة ، واستخلف قبل وفاته خالد ابن عبْد الله بن خالد على البصْرة ، وكان خليفته على الكوفة عَمْرو

---

(١) هو طارق بن عمرو .

(٢) أسيد – بفتح الهمزة وكسر السين – الكامل .

(٣) بحير – بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء – الكامل .

(٤) فى ك : عدوه .

ابن حُريث ؛ فكانوا على ذلك إلى أن قدم الحجاجُ بن يوسف الثقفى أميرًا سنة [٧٥هـ] خمس وسبعين .

ذكر ولاية الحجاج بن يوسف العراق

وما فعله عند مقدمه

وفى هذه السنة استعمل عَبْدُ الملك بن مَرْوان الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق دون خراسان وسجستان ، وأرسل[١] إليه بعهده وهو بالمدينة ، فسار فى اثنى عشر راكبًا على النَّجَائبِ حتى دخل الكوفة حين انتشر النهارُ ، فبدأ بالمسجد ، فصعد المنبر وهو متلثم بعمامةٍ خَزٍّ حمراء ، فقال : علىّ بالناس ، فحسبوه خارجيًّا ، فهمُّوا به وهو جالس على المنبر ينتظِرُ اجتماعَهم ، فاجتمع الناسُ وهو ساكت قد أطال السكوت ، فتناول عُمَير بن ضابِىء البرجمى حَصًى[٢] وقال : ألا أحْصِبُه لكم ! فقالوا : أمْهِل حتى ننظر . وقيل : إن الذى همّ بحَصْبه محمد بن عُمير وقال : قاتله الله ما أعياه وأدمّه[٣] ، والله إنى لأحْسب خبْرهُ كرؤياه[٤] .

فلما تكلم الحجاجُ جعل الحصى ينتثر من يَدهِ وهو لا يَعْقِل ، فلما رأى عيونَ الناسِ إليه حسر اللثامَ عن وجْهه ونهض فقال :

أنا ابن جَلا[٥] وطلاعُ الثنايـــا متى أضع العمامة تعْرِفـــونى

أما والله إنى لأحمل الشر محْمله ، فآخذهُ[٦] بفِعْله ، وأجزيه بمثله ،

---

(١) فى د : فأرسل.

(٢) فى الكامل : فتناول محمد بن عمير حصباء ، وسيأتى .

(٣) فى الكامل : ما أغباه و ذمه .

(٤) فى الطبرى : كرؤاه .

(٥) ابن جلا : هو الصبح ، لأنه يجلو الظلمة . والثنايا : ما صغر من الجبال . والبيت من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحى (الأصمعيات : ١٧) .

(٦) فى الطبرى : وأحذوه بنعله . والمثبت فى الكامل أيضا .

وإنى لأرى رءوسا قد أينعَتْ وحان قِطافها ،وإنى لصاحبها ،وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى . قد شمرَتْ عن ساقها تشميراه.

هذا أوَانُ الشدِّ فاشتدى زِيَمْ قد لفَّها الليلُ بسوَّاقٍ حُطَم(١)

ليس براعى إبلٍ ولا غَنَم ولا بجزَّارٍ على ظهرِ وَضَم(٢)

قد لفَّها اللَّيْلُ بعَصْلَبِىْ(٣) أرْوع خَرَّاج مِن الدوِىْ(٤)

مهاجـرٍ ليس بأعْـــرابى

قد شمّرت عن ساقها فشُدُّوا وجدّت الحرْبُ بِكم فجِدُّوا

والقَوْسُ فيها وَتَرٌ عُرُدُّ(٥) مثل ذراع البَكْـرِ أو أشدُّ

ليس أوان يكـره الخلاطُ جاءت به والقُلُصُ الأعلاط.(٦)

يهوى هُوِىَّ سابِق الغُطَّاط(٧)

إنى والله يـأهلَ العراق ما يُقَعْقَع لى بالشَّنان(٨) ، ولا يُغمزجانبى تَغْماز التين ، ولقد فُرِزْتُ عن ذَكَاء ، وفُتِّشت عن تَجْرِبَة ، وجريْتُ إلى الغايةِ القُصْوَى . ثم قرأ(٩) : «وضرب اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنة يـأتيها رِزْقُها رَغَدًا من كلِّ مكان فكفَرَتْ بـأنْعُمِ الله

(١) الرجز لرويشد بن رميض العنبرى—اللسان—حام. وفى الأغانى (١٥ — ٢٥٥) : الشعر لرشيد بن رميض العنزى.

(٢) الوضم : ما وقى به اللحم عن الأرض .

(٣) الرجز فى اللسان — عصلب . والعصلبى : الشديد .

(٤) الدوية : الفلاة . (٥) عرد : شديد .

(٦) الأعلاط من الإبل : التى لا أرسان عليها .

(٧) فى الكامل : سائق . والغطاط — بالضم والفتح : ضرب من الطير .

(٨) الشنان : جمع شنة ، وهى القربة البالية اليابسة .

(٩) سورة النحل ، آية ١١٢

فأذاقها اللهُ لباسَ الجُوع والخوفِ بما كانوا يصنعون » . فأنتم أولئك وأشباه أولئك . إنَّ أمير المؤمنين عبد الملك نَثَر[١] كِنَانَتَهُ فعَجَم[٢] عِيدَانَها عُودا عودًا ، فوجدنى أمرَّها عُودًا[٣] ، وأصلبها مكسرا ، فوجَّهنى إليكم ، ورَمى بى فى نُحوركم ، فإنكم أهْلُ بغْى وخِلَاف وشقاق ونِفَاق ، طالما أوضعتم فى الشرِّ ، واضطجعْتُم فى الضلالة ، وسَنَنْتُم سُنَن الغىِّ ، فاستوثقوا[٤] واستقيموا ، فوالله لأُذِيقَنَّكم الهَوَان ولأَمْرِينَّكم[٥] حتى تَدِرّوا ، ولألحونَّكم لَحْو العُودِ ، ولأعصبنَّكم عصْبَ السَّلَم[٦] ، حتى تذِلُّوا ،ولأضربنَّكم ضَرْبَ غَرائِب الإبلِ حتى تَذَرُوا العِصْيان وتنقادُوا ، ولأقرعنَّكم قَرعَ المَرْوة حتى تلينوا . إنى والله ما أعِدُ إلَّا وفَيْت ، ولا أهمُّ إلا أمضيت ، ولا أخْلُقُ[٧] إلَّا فَرَيْت ، فإياى وهذه الجماعات ، فلا يركبنَّ رجلٌ إلَّا وحده ، أُقسم بالله لتُقْبِلُنَّ على الإنصاف ، ولتَدعُنَّ الإرجاف ، وقيلاً وقالاً ، وما يقول فلان ، وأخبرنى فلان ، أو لأدعنَّ لكلِّ رجُلٍ منكم شُغلا فى جسدِهِ ، فيم أنتم وذاك ، والله لتستقيمُنَّ على الحقِّ أو لأضربنَّكم بالسيف ضَرْبًا يدعُ النساء أيامى والوِلْدَان يتَامى ، وحتى تذَرُوا السُّمَّهَى[٨] وتُقْلِعُوا

(١) فى د : نثل .

(٢) عجم عيدانها : أى عضها واختبرها .

(٣) أمرها عودا : أصلبها وأقواها .

(٤) فى د: فاستوسقوا .

(٥) مرى الناقة مريا : مسح ضرعها لتدر (اللسان) .

(٦) العصب : القطع . والسلم : شجر من العضاه . والعضاه : كل شجر يعظم وله شوك (اللسان) .

(٧) الخلق : التقدير ، ويقال : فريت الأديم إذا أصلحته (هامش د) .

(٨) السمهى : الباطل والكذب .

عن هاوها [١] ، ألا إنه لو ساغ لأهْلِ المعصية معصيتهم ماجُبِى فَىءٌ ولا قُوتِل عَدُوّ ، ولعطِّلت الثغورُ ، ولولا أنهم يغزون كرهًا ما غزوا طَوْعًا ، ولقد بلغنى رَفْضُكم المهلَّب وإقبالكم على مِصْركم عاصِين مخالفين وإنى أُقسم باللهِ لا أجدُ أحدًا من عسكره بعد ثالثةٍ [٢] إلَّا ضربْتُ عُنقه ، وأنهبتُ داره .

ثم أمر بكتاب عَبْدِ الملك فقُرىء ، فلما قال القارئُ : بسم الله الرحمن الرحيم . مِن عبد الملك بن مرْوان أمير المؤمنين إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين : سلامٌ عليكم ، فإنى أحمد الله إليكم - فلم يقُلْ أحدٌ شيئًا ، فقال : اكفف ، ثم قال : يا عبيد العصا ، يُسلِّم عليكم أمِيرُ المؤمنين فلا يردّ رادّ منكم السلام . هذا أدَبُ ابْن نُهيَّة [٣] ، أدَّبكم به ، والله لأُؤدِّبنكم غير هذا الأدَب ، أو لتستقيمُنَّ . ثم قال ، للقارىء : اقرأ . فلما بلغ سلام عليكم قالوا بأجمعهم : وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله . ثم نزل ودخل منزله ، ودَعا العُرفاء وقال : ألْحِقُوا الناسَ بالمهلَّب ، وائتونى بالبراءات بمُوافَاتهم ، ولا تُغْلقنّ أبواب الجسر ليلاً ولا نهارًا حتى تَنْقَضِى هذه المدة .

قال : فلما كان فى اليوم الثالث سمع تكبيرًا فى السوقِ ، فخرج وجلس على المنبر ، فقال : يأهل العراق ، يأهل الشقاق والنِّفَاقِ

(١) فى ك : هؤلاء . وفى الكامل : هواها . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٢) فى الكامل : بعد ثلاثة .

(٣) فى ك : ابن أدية . والمثبت فى الطبرى أيضا ولكنه رواه بكسر النون وسكون الهاء ، وقد زعم أبو العباس أن ا بن نهية رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج . . ونهية : أم ولد عمر بن الخطاب، كما فى القاموس ، والتاج . وفى اللسان ، والاشتقاق : أدية : أبومرداس الحرورى.

ومساوىء الأخلاق ، إنى سمعتُ تكبيراً ليس بالتكبيرِ الذى يُرَاد به وجْهُ اللهِ ، ولكنه التكبيرُ الذى يُرَادُ به الترهيب ، وقد عرفْتُ أنها عجاجةٌ تحتها قَصْفٌ[١] ، يابنى اللَّكِيعة[٢] ، وعبيد العصا ، وأبناء الأيامى ، ألا يَرْبع رجل منكم على ظَلْعِهِ [٣] ويُحسن حَقْن دمِه ، ويعرف [٤] موضع قَدَمه ، فأُقسم بالله لَأُوشِكُ أن أُوقِع بكم وقعةً تكون نَكَالاً لما قَبْلها وأدبًا لما بعْدها .

فقام إليه عُمير بن ضابىء الحنظلى [٥] التميمى ، فقال : أصلح اللهُ الأمير ، أنا فى هذا البعْثِ وأنا شيخٌ كبِير علِيل ، وابْنِى هذا هو أقْوى منى على الأسفار أفَتَقْبلُه مِنِّى بدِيلا؟ فقال: نَفْعَل . ثم قال : ومن أنْت ؟ قال : أنا عُميْر بن ضَابىء . قال : أسمعْتَ كلامَنا بالأمْس ! قال: نعمْ. قال : ألسْت الذى غَزَا عُثْمانَ بْنَ عفَّان؟ قال: بلى . قال : يا عدوَّ الله ، أفلا بعثت بدِيلا إلى أمير المؤمنين ، وما حمَلَكَ على ذلك؟قال :إنه حبس أبى ،وكان شيخا كبيراً.قال: أولست القائل[٦] :

هممْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتنى تركتُ على عُثْمانَ تَبْكِى حلائلُه

إنى لأحسب أنَّ فى قتلك صلاحَ المِصْرين ، وأمر به فضُربت رقَبتُه ، وأنهب ماله ، وأمر مناديًا فنادى : ألا إنّ عُمَير بن ضابىء أتى

(١) القصف : شدة الريح .
(٢) اللكعاء : الحمقاء من الإماء .
(٣) اربع على ظلعك : ارفق على نفسك فيما تحاوله (اللسان) .
(٤) فى الطبرى : ويبصر ....
(٥) فى الطبرى : التميمى ثم الحنظلى .
(٦) والكامل : ٤–٣٥ ، والطبرى : ٦–٢٠٧ .

بعد ثالثة[١] ، وكان قد سمع النداء ، فأَمَرْنَا بقَتْله ، أَلَا وإن ذِمَّةَ اللهِ بريئةٌ ممَّنْ بات الليلة من جُنْدِ المهلب .

فخرج الناس فازدحموا على الجِسْرِ ، وخرج العُرَفاء إلى المهلَّب وهو برامَهُرْمُز ، فأَخذوا كتُبه بالموافَاةِ ، فقال المهلَّب : قدم العراق اليوم رجل ذكر ، اليَوْم فويلٌ[٢] العدو .

وقال : ولما قَتَل الحجاج عُميْرًا لقى إبراهيمُ بن عامر الأَسدى عبْد الله بن الزُّبير [٣] [رضى الله عنهما] [٤] فى السوق ، فسأَله عن الخبر ، فقال [٥] :

أَقولُ لإبراهيم لَمَّا لقِيتُـــه ... أَرَى الأَمْرَ أَضْحى مُنْصِبا مُتَشَعبا
تَجهَّزْ فأَسْرِعْ والحقِ الجيْشَ لاأرى ... سِوى الجيش إلا فى المهالك مذْهَبا
تخيرْ فإمَّا أن تزورَ ابْنَ ضَابىءٍ ... عُميْرًا وإما أن تَزُورَ المُهلَّبـا
هما خُطَّتَا خَسْف[٦] نَجَاوُكَ مِنْهُمَا ... ركوبُكَ حَوْليًّا من الثلج[٧] أَشْهَبَا
فحال ولو كانت خُراسَان دُونَه ... رآها مَكانَ السُّوقِ أَوْ هى أَقْربا

---

(١) فى الكامل : بعد ثلاثة .
(٢) فى د : قوتل العدد . والمثبت فى ك .
(٣) الضبط فى الكامل ، ومعجم الشعراء : ٧٣ .
(٤) ساقط فى د.
(٥) الأبيات فى الطبرى (٦–٢٠٩) ، وفى الكامل (٤–٣٥) ، والبيتان الأخيران فى معجم المرزبانى (٧٣) .
(٦) فى الطبرى : خطتا كره .
(٧) الحولى : المهر أتى عليه الحول . وقوله : من الثلج – يريد أن لونه أشد شهبة من الثلج . وفى الكامل : من البلج .

قال : وكان الحجاجُ أولَ منْ عاقب بالقَتْلِ على التخلُّف عن الوجْهِ الذى يُكتب إليه .

قال الشعبي : كان الرجل إذا أَخَلَّ بوَجْهِه الذى يكتب إليه زَمن عمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم نُزِعت عِمامتُه ويُقام للناس ، ويُشهر أمره ، فلما ولى مصعب قال : ما هذا بشىء ، وأضاف إليه حلْق الرءوس واللِّحَى، فلما ولى بِشْر بن مروان زاد فيه ، فصار يُرْفَع الرجلُ عن الأرض ويسمَّر فى يديه مسماران فى حائط ، فربما مات ،وربما خَرق المسمار يدَه ، فسلم .

فلما ولى الحجاج قال : كلُّ هذا لعِب ، أضْرِبُ عُنُقَ من يُخِلّ[1] بمكانه من الثغر .

قال: وكان قدوم الحجاج فى شهر رمضان ، فوجَّه الحكم بن أيوب الثقفى على البصْرة أميرًا ، وأمرَه أنْ يشتدَّ على خالد بن عبْد الله ، فبلغ الخبر خالدًا فخرج عن البَصْرَةِ فَنَزَلَ الجَلْحاء[2] وشيّعه أهْل البصْرة فقسم فيهم ألف ألف .

---

(١) فى الكامل : يخل مكانه .

(٢) الجلحاء — بفتح ثم سكون ، ثم حاء مهملة وألف ممدودة : موضع على ستة أميال من الغوير المعروف بالزبيدية بين العقبة والقاع (ياقوت) .

ذكر وثوب أهل البصرة بالحجاج

قال : ثم خرج الحجاج من الكوفة إلى البصْرة ، واستخلف على الكوفة عرْوةَ بن المغيرة بن شُعْبة . فلما قدم البصرة خطبهم بمِثْلِ خطبته بالكوفة ، وتوعَّد منْ رآه منهم بعد ثالثة [١] ، ولم يلحق بالمهلَّب ، فأتاه شَرِيك بن عَمْرو اليَشْكرى وكان به فَتْق ، فقال : أصلح اللهُ الأمير ،إن بى فَتْقًا ، وقد رآه بِشْر بن مروان فعذرنى ، وهذا عطائى مرْدُودٌ فى بيْتِ المال ، فأمر به فضُرِبت عُنقه ، فلم يَبْقَ بالبصرة أحَدٌ من عسْكر المهلب إلَّا لحق به .

ثم سار الحجاج إلى رُسْتَقُباذ[٢] وبينها وبين المهلب ثمانية عشر فرسخا ، وقال حين نزل بها : يأهل المِصْرَيْن ، هذا المكان والله مكانكم شهرًا بعْد شهر ، وسنةً بعد سنةٍ ، حتى يُهْلِكَ اللهُ عدوَّكم ، هؤلاء الخوارج المُطِلين عليكم .

ثم خطب يومًا فقال : إن الزيادة التى زادكم إياها ابْنُ الزبير إنما هى زيادةُ مُلْحِد فاسقٍ منافقٍ ، ولِسنا نُجيزها - وكان مصعب قد زاد الناسَ فى العطاء مائة مائة - فقال عَبْدُ الله بن الجارود : إنها ليست زيادة ابن الزبير ، إنما هى زيادة أمير المؤمنين عبْد الملك قد أنفذها وأجازها على يَدِ أخيهِ بِشر .

---

(١) فى الكامل : بعد ثلاثة .

(٢) رستقباذ : موضع من أرض دستوا (المراصد) .

فقال له الحجاج : ما أنت والكلام ! لتُحْسِنَنَّ حَمْلَ رَأْسِك أولأَسْلُبَنَّك إيّاه . فقال : ولِم ؟ إنى لك لَنَاصِحٌ ، وإن هذا لقول مَنْ وَرائى .

فنزل الحجاج ومكث أشهرًا لايذكر الزيادةَ ، ثم أعاد القول فيها ، فردَّ عليه ابن الجارُود مِثْل رده الأول ، فقام مصْقَلة بن كرب العَبْدِى ، فقال : إنه ليس للرعيَّةِ أن تردَّ على راعِيها ، وقد سمِعْنا ما قال الأمير ، فسمْعًا وطاعةً فيما أحبَّ [1] وكرِهْنَا .فسبَّه ابن الجارود وقام فأتاه وجوهُ الناسِ فصوّبوا رأيه وقولَه ، وقال الهذيل بن عمران البُرْجُمِى وعبد الله بن حكيم بن زِياد المجاشعى وغيرهما : نحن معك وأعوانك ؛ إن هذا الرجل غير كافٍّ حتى ينقصنا هذه الزيادة فهلمّ نبايعْكَ على إخراجه من العراق ، ثم نكتب إلى عبْد الملك أن يُولِّى علينَا غَيْره ، فإنْ أبى خلعناه ، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج .

فبايعه الناسُ سِرًّا ، وأعطَوْه المواثيقَ على الوفاء ، وبلغ الحجاج ماهم فيه ، فأحرز بيْتَ المال .

فلما تَمَّ لهم أمْرُهم أظهروه ، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة [٧٦هـ] ست وسبعين ، واجتمع الناسُ على ابْن الجارود حتى لم يبْقَ مع الحجاج إلَّا خاصَّتُه وأهل بيته ، وأرسل الحجاج أعينَ صاحب حَمَّام أعْيَن [2] إلى ابن الجَارُود يَسْتَدِعيه ، فقال : لا كرامةَ لابْنِ أبى رِغَال [3] ، ولكن ليخرج عَنَّا مذمومًا مَدْحُورًا ،وإلا قاتلناه . قال أعْين :

(١) فى الكامل : أحببنا .
(٢) حمام أعين — بتشديد الميم : بالكوفة (ياقوت) .
(٣) رغال — ككتاب (القاموس) .

فإنه يقولُ لك : أتَطِيب نفسًا بقَتْلك وقَتْلِ بيتك وعشيرتك ! والذى نفسى بيده لئن لم تَأْتِ لأدعنَّ قَوْمَك وأهلك خاصة حديثًا للغابرين .

وكان الحجاجُ قد حمَّل أعْين هذه الرسالةَ ؛ فقال ابْنُ الجارود : لولا أنك رسولٌ لقتلْتُك يا ابْنَ الخبيثة ،وأمَرفَوُجىء فى عُنُقِه ،وأُخْرِج. وأقبل ابْنُ الجارود بالناس زَحْفًا نحو الحجَّاج ، وكان رأيهم أن يُخْرِجُوه عنهم ولا يقاتلوه . فلماصاروا إليه نَهبُوا مَا فى فُسْطَاطه . وأخذوا ما قَدرُوا عليه مِنْ مَتَاعِه ودَوابّه ، وجاء أَهْلُ اليمن فأخذوا امرأتَه ابنة النعمان بن بشير ، وجاءت مُضَر فأخذوا امرأتَه الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن بن عمرو أخى سُهيل بن عمرو .

ثم إن القوم انصرفوا عن الحجاج وتركوه . فأتاه قَوْمٌ من أهلِ البصْرَةِ فصاروا معه خوفًا من مُحَاربةِ الخليفة ، فجعل الغَضْبان ابن القَبَعْثَرى الشيبانى يقول لابْنِ الجارود : تَعَشَّ بالجدْى قبل أن يتغدَّى بك . أما ترى مَن قد أتاه منكم ؟ ولئن أصبح ليكثرنَ ناصره ، ولتضعُفَنَّ مُنَّتكم[1] .

فقال : قد قَرُب المساء . ولكنا نُعَاجِله بالغَدَاة ، وكان مع الحجاج عثمان بن قَطَن ، وزياد بن عمرو العَتَكى ، وكان زياد على شرطته بالبصرة ، فقال لهما : ماترِيان ؟ فقال زياد : أرى أنْ آخُذَ لك من القوم أمَانًا وتخرج حتى تلحقَ بأمير المؤمنين ، فقد ارفضَّ أكْثَرُ الناس عنك ، ولا أرى لك أن تُقَاتِل بمن معك .

فقال عثمان بن قَطَن الحارثى :لكنى لا أرَى ذلك ، إنْ أمير المؤمنين

(١) المنة : القوة .

قد شركك فى أمْرِه ، وخلطك بنفسه ، واستنصحك وسلَّطك ، فسرتَ إلى ابْنِ الزبير وهوأعظَمُ الناسِ خَطَرًا فقتلته ، فولَّاك اللهُ شرفَ ذلك وسَنَاءه ، وولَّاك أمير المؤمنين العِراقَيْن ، فحيث جريت إلى المَدَى وأصبْتَ الغرضَ الأقصى تخرج على قَعُودٍ إلى الشام ، والله لئن فعلْت لا نِلْت من عبد الملك مثل الذى أنْتَ فيه من السلطان أبدًا ، ولكنى أرى أن نمشى بسيوفنا معك فنقاتل حتى نَلْقَى ظفَرًا أو نموت كرامًا .

فقال له الحجاج : الرَّأىُ ما رأيتَ ، وحفظ[1] هذه لعثمان ، وحقدها على زياد ، وجاء عامر بن مِسمع إلى الحجاج فقال : إنى قد أخَذْتُ لك أمانًا من الناس ، فجعل الحجاج يرفَعُ صوْتَه ليسمع الناس ويقول : والله لا أُؤَمِّنهم أبدًا حتى يأْتوا بالهُذَيْل وعبد الله بن حكيم . ومرَّ عباد بن الحصين الحَبطِىّ[2] بابن الجارُود وابن الهُذَيل وابن حكيم وهم يتناجَون ، فقال : أشركونا فى نَجْوَاكم . فقالوا : هيهات أن يدخل فى نَجْوَانا أحد من الحَبَط ، فغضب وسار إلى الحجاج فى مائةِ رجل ، فقال له الحجاج : ما أبالى منْ تخلَّفَ بَعْدك . وأتاه قُتيبة بن مسلم فى قومه من بنى أعصُر ، وكان الحجاج قد يئس من الحياة ، فلما جاءه هؤلاء اطمأنَّ ، ثم جاءه سَبْرة بن على الكلابى ، وسعيد بن أسلم بن زُرْعة ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مِخْنَف الأزدى ، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع يقول : إن شئتَ أتيْتُكَ ، وإن شئتَ أقمْتُ وثبطت الناس عنك . فقال : أقم وثبِّط الناس عنى .

فلما اجتمع للحجاج عددٌ[3] يُمْنَع بمثلهم خرج ، وعَبَّأ أصحابه ،

(١) فى الكامل : هذا . (٢) فى ك : الخبطى — تحريف .

(٣) فى الكامل : جمع للحجاج عدد .

وتلاحق الناسُ به ، فلما أصبح إذا حَوْله ستة آلاف ، فقال ابن الجارود لعُبَيْد الله بن زياد بن ظبيان : ما الرأىُ ؟ قال : تركْتُ الرأىَ أمس حين قال لك الغضبان : تَعَشَّ بالجدى قبل أن يتغدّى بك. وقد ذهب الرَّأىُ وبَقِى الصبر .

فحرَّض ابْنُ الجارود الناس ، وزحف بهم وعلى ميمنته الهُذَيل ابن عمران ، وعلى ميْسرته عُبيْد الله بن زياد بن ظبيان ، وتقدم الحجاج وعلى ميمنته قُتَيبة بن مسلم ، ويقال عَبَّاد بن الحصين ، وعلى ميسرته سعيد بن أَسْلَم ، فحمل ابْنُ الجارود فى أصحابِه حتى جاوز أصحاب الحجاج ، فعطف الحجاج عليه ، ثم اقتتلوا ساعةً وعاد ابْنُ الجارُود بظَفَرٍ ، فأتاه سَهْمٌ غَرْبٌ[1] فقتَلَه ، ونادى منادِى الحجاج بأمانِ الناسِ إلا الهذيل وعبد الله بن حكيم ، وأمر ألّا يُتبع المنهزمون . فانهزم عُبَيد الله بن زياد بن ظبيان ، فأتى سعيد [ابن عباد الجُلَنْدَى الأزدى بعمان ، فقيل لسعيد : إنه رجل فاتك فاحذره ، فلما جاء البطيخ بعث إليه] [2] بنصف بطيخة مسمومة ، وقال : هذا أوّل شىء جاءنا منه ، وقد أكلْتُ نِصْف هذه ، وبعثْتُ إليك بنصفها ؛ فأكلها عُبَيْد الله فأحَسَّ بالشر ، فقال : أردْتُ أنْ أقتُلَه فقتلنى .

قال : وحُمل رأس ابن الجارود وثمانية عشر من وجوه أصحابه إلى المهلب ، فنُصبت ليراها الخوارجُ وييأسوا من الاختلاف .

وحبَس الحجاج عُبيد بن كَعْب النميرى ومحمد بن [عميربن] [2]

(١) يقال : أصابه سهم غرب — بالإضافة والتنوين ، أى لايدرى راميه (القاموس) .

(٢) ساقط فى ك .

عطارد ، فإنه كان قد بعث إلى كلٍّ منهما يقول : هلُمَّ إلىّ فامْنَعْنِى ، فقال : إن أتيْتنِى منعْتُك . وحبس الغضبان وقال : أنْت القائل : تعَشَّ بالجَدْى قبل أن يتغدَّى بك ! فقال : مانفعَتْ مَنْ قيلتْ له ولاضرَّتْ مَنْ قيلتْ فيه ! فكتب عبد الملك إلى الحجاج بإطلاقه .

ذكر ما كلم به الحجاج أنس بن مالك

رضى الله عنه وشكواه إياه وما كتب به عبد الملك من الإنكار على الحجاج وسبِّه بسببه

قال : كان عَبْدُ الله بن أنس بن مالك الأنصارى رضى الله عنه ممن قُتِل مع ابْنِ الجارود ، فلما دخل الحجاجُ البَصْرَة أخذ ماله ، فدخل عليه أنس بن مالك رضى الله عنه ،فحين رآه الحجاج قال له : لا مَرْحَبًا ولا أهلاً ، إيه يا خِبْثة[1] ؛ شيخُ ضلالةٍ ، جوّال فى الفِتن ، مرَّةً مع أبى تُرَاب ، ومرَّةً مع ابْنِ الزُّبَيْرِ ، ومرَّةً مع ابن الجارُودِ ؛ أما واللهِ لأجْردنَّك جَرْدَ القضِيب ، ولأعْصِبَنَّك عَصب السَّلمة ، ولأفلعنَّك قلْع الصّمغة .

فقال أنس : مَنْ يَعْنِى الأمير ؟ فقال : إياك أعْنِى ، أصمَّ اللهُ صدَاك.

فرجع أنس ، فكتب إلى عبد الملك كتابًا يشكو فيه الحجاج وما صنع به .

فكتب عَبْدُ الملك إلى الحجّاج : أما بَعْدُ يابْن أمّ الحجاج فإنك عبْدٌ طمَتْ بك الأُمُور فغلوْت فيها حتى عدَوْت طوْرَك ، وتجاوَزْتَ قدْرَك ، يابن المستفرِمَة بعَجم الزبيب[2] لأغمزنَّك غمْزةً كبعض

---

(١) واللسان . يا خبثة : ياخبيث .

(٢) المستفرمة : التى تضع دواء تتضيق به . والعجم — بالتحريك : نوى كل شىء (القاموس) .

غمزات الليوث[١] الثعالب ، ولأخبطنَّك خبْطةً تودُّ لها لو أنك رجعْتَ فى مخرجك مِنْ بطن أمك . أما تذكر حَالَ آبائِك بالطائف حيث كانوا يَنْقُلون الحجارة على ظهورهم ، ويحفرون الآبار بأيديهم فى أوديتهم ومِيَاههم ؛ أم نسيت حالَ آبائك فى اللؤم والدناءة فى المروءة والخلق .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين الذى كان منك إلى أنس بن مالك جُرأة وإقدامًا ، وأظنُّك أردْتَ أن تسْبُرَ ما عِنْدَ أمير المؤمنين فى أمْرِهِ فتعلم إنكاره ذلك وإغضاءه عنك ، فإن سَوَّغك ما كان منك مضيْت عليه قُدُمًا ، فعليك لعنة الله من عَبْد أخْفش العَيْنين [٢] ، أصَكّ [٣] الرجلين ، ممسوح الجاعِرَتيْن [٤] ، ولولا أنَّ أمير المؤمنين ظنَّ أن الكاتب كثَّر [فى الكتابة] [٥] عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأتاك مَنْ يسحبك ظهْرًا لبَطْنٍ حتى يأتى بك أنَسًا فيحكم فيك ، فأكْرِمْ أنَسًا وأهْلَ بيته ، واعْرِفْ له حَقَّه وخِدْمَتَه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تقصّرنَّ فى شىء من حوائجه ، ولا يبلغَنَّ أمير المؤمنين عنك خِلَافُ ما تقدّم فيه إليك من أمْرِ أنَس وبِرِّه وإكرامه ، فيبعث إليك مَنْ يضرب ظَهْرَك ، ويهتكُ سترك ، ويُشمت بك عَدُوَّكَ ، والْقهُ فى منزله متنصِّلاً إليه ، وليكتُبْ إلى أميرِ المؤمنين برِضَاه عنك ، إن شاء الله . والسلام .

---

(١) الليث : الأسد . وفى د : اللبوث ، والمثبت فى الكامل ، والعقد . وفيه : الليوث للثعالب .

(٢) الخفش — محركة : صغر العين وضعف البصر خلقة (القاموس) .

(٣) رجل أصك : مضطرب الركبتين والعرقوبين (القاموس) .

(٤) الجاعرتان : حرفا الوركين المشرفين على الفخذين .

(٥) من الكامل .

وبعث بالكتاب مع إسماعيل بن عَبْد الله مولى بنى مخزوم ، فأتى إسماعيلُ أنسًا بكتابِ عبد الملك فقرَأَهُ ، وأتى الحجاج بالكتاب فجعل يقرؤه ووَجْهُه يتغيَّر ويتمعَّر[1] ، وجبينه يَرْشَحُ عَرَقًا ، ثم قال[2] : يغفر اللهُ لأمير المؤمنين .

ثم اجتمع بأَنَس فرحَّبَ به الحجاج ، وأدْنَاهُ ، واعتذر إليه ، وقال : أردْتُ أن يعلَمَ أهلُ العراق إذ كان من ابنك ما كان وإذ بلغتُ منك ما بلغتُ أنى إليهم بالعقوبةِ أسرع .

فقال أَنَس : ما شكوت حتى بلغَ منى الجهد ، وقد زعمتَ أنَّا الأشرار ، وقد سمَّانا اللهُ الأنصار ، وزعمْتَ أنَّا أهلُ النفاق ، ونحن الذين تبوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ ، وسيحْكُمُ اللهُ بيننا وبينك ، فهو أقْدَرُ على التغيير ، لا يشبه الحق عنده الباطل ، ولا الصدق الكذب ، وزعمْتَ أنكَ اتخذْتنى ذريعةً وسلمًا إلى مساءة أهل العراق باسْتِحْلاَل ما حرَّمَ الله عليك منى ، ولم يكن لى عليك قوة ، فوكلْتُك إلى الله ثم إلى أمير المؤمنين ، فحفظ من حَقِّى مالم تحفظ ، فوالله لو أنَّ النصارى على كُفْرِهم رَأَوْا رجلا خَدم عيسى ابن مريم يومًا واحدًا لعَرَفُوا مِنْ حقِّه مالم تَعْرفْ أنْت من حقى ، وقد خدمْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عَشْر سنين . وبعد فإنْ رأيْنَا خيرًا حمدنا الله عليه ، وأثنينا ، وإن رأينا غير ذلك صبرنا . والله المستعان .

وردّ عليه الحجاج ما كان أخذ منه .

---

(١) معر وجهه : غيره غيظا فتمعر (القاموس) . وفى الكامل : ويتغير .

(٢) فى د : ويقول .

ذكر ولاية سعيد بن أسلم السند وقتله

وولايةُ مُجّاعَة بن سِعْرٍ[١] التميمى ووفاته

وفى هذه السنة استعمل الحجاج على السنْدِ سعيدبن أسلم ابن زُرعة ، فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلاقيان . فقتلاه وغلَبا على البلاد ، فأرسل الحجاجُ مُجَّاعَة بن سِعْر التميمى إلى السند ، فغلب على ذلك الثَّغْرِ ، وغَزَا وفتح أماكن من قَنْدَابيل[٢] ، ومات مُجّاعة بعد سنة بمُكْرَان[٣] . [والله أعلم] .[٤]

ذكر خبر الزنج بالبصرة

قال : كان الزنج قداجتمعوا بفُرات البَصْرَة فى آخر أيام مُصْعب ، ولم يكونوا بالكثير ، فأفسدوا . فلما ولى خالدبن عَبْد الله البَصْرة كَثُروا ، فشكا الناسُ إليه ما يَنَالُهم منهم ، فجمع لهم جَيْشًا ، فلما بلغهم ذلك تفرَّقُوا ، وأخذ بَعْضَهم فقتلهم وصلَبهم ، فلما كان من أمرِ ابن الجارُود ما ذكَرْنَاه اجتمع من الزنج خَلْقٌ كثير بالفُرَات ، وجعلوا عليهم رجلاً منهم اسمه رباح ويلقّب شيرزنجى[٥] يعنى أسد الزنج ، [فأفسدوا][٦] ، فأمر الحجاج زياد بن عَمْرو وهو على شرطة البَصْرَة

---

(١) الضبط فى القاموس .

(٢) قندابيل : مدينة با لسند . قضبة لولاية (المراصد) .

(٣) مكران– با لضم ، ثم السكون ، ونون ، وهى ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى (المراصد) .

(٤) ساقط فى د .

(٥) فى د : شيززنجى . والمثبت فى الكامل أيضا .

(٦) من الكامل .

أنْ يُرسِلَ إليهم جيشًا ، فندَب ابْنَه حَفْص بن زياد فقتلوه ، وهزموا أصحابه ، فسيَّر إليهم جيشًا آخر فهزم الزنج وقتلهم ، واستقامت البصرة .

وفى هذه السنة حَجَّ عبدالملك بالناس فخطبَ الناسَ بالمدينة ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

أما بعد فإنى لسْتُ بالخليفة المستضعف ـ يعنى عثمان ، ولا بالخليفة المداهن – يعنى معاوية ، ولا بالخليفة المَأْفون [1] ـ يعنى يزيد ، ألَا وإنى لا أُداوى هذه الأُمة إلَّا بالسيف حتى تستقيم لى قَنَاتُكم ، وإنكم تكلِّفُونا أعمالَ المهاجرين الأَولين ولا تعملونَ مِثْلَ أعمالهم : وإنكم تأْمروننا بتَقْوَى الله وتَنْسَوْنَ ذلك من أنفسكم ، واللهِ لا يَأْمرُنى أَحَدٌ بتقوى الله بعد مقامى هذا إلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَه . ثم نزل .

سنة (٧٦ هـ) ست وسبعين :

ذكر ضرب الدنانير والدراهم الاسلامية

وفى هذه السنة ضَرَبَ عَبْدُ الملك بن مَرْوَان الدنانير والدراهم الإسلامية ، وهو أوَّل مَنْ أَحْدث ضَرْبَها فى الإسلام ؛ وكان سبب ذلك أنه كتبَ فى صُدُور الكتبِ إلى الروم : قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد . وذكر النبىَّ صلى الله عليه وسلم مع التاريخ . فكتب إليه ملِكُ الروم : إنكم قد أحدثْتُم هذا فاتركوه ، وإلا أتاكم فى دنانيرنا من ذِكْرِ نبيكم ماتكرهون .

فعَظُمَ ذلك على عَبْدِ الملك ، واستشار خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال : حَرِّمْ دَنانيرهم ، واضرِبْ للناس سِكة فيها ذِكرُ الله تعالى .

(١) فى ك : المأبون .

فضرب الدنانيرَ والدراهمَ ونقش عليها : قلْ هو الله أحد . فكرِهَ الناس ذلك لمكانِ القرآن ؛ لأن الجُنُبَ والحائضَ تمسّها[1] ، ثم ضربها الحجاج.

وقد قيل : إن مصعب بن الزبير ضربَ دَرَاهِمَ قليلة أيامَ أخيه عبد الله ، ثم كُسرت بعدذلك فى أيام عبد الملك . والصحيحُ أنَّ عَبْد الملك أول مَنْ ضرب الدنانير والدراهم فى الإسلام .

* * *

وفيها استعمل عبد الملك أبان بن عثمان على المدينة .

وفيها وُلد مرْوان بن محمد بن مَرْوان.

وحجّ بالناس فى هذه السنة أبَان بن عثمان وهو أميرُ[2] المدينة ، وكان على العراق الحجاج ، وعلى خراسان أُمَيَّة بن عبْد الله ، وعلى قضاء الكوفة شُريح ، وعلى قضاء البصرة زُرارة بن أوفى .

سنة سبع وسبعين :

ذكر مقتل بكير بن وساج

وفى هذه السنة قَتَلَ أُمَيَّة بْنُ عَبْد الله أمير خراسان بُكَيْربن وسَّاج[3] ، وسبب ذلك أن أمية أمَر بُكيرًا أن يتجهَّزَ لغَزْوِ ماوراءَ النَّهْرِ ، فتجهَّزَ وأنفق نفقةً كَبِيرةً ، فقال بَحِير بن ورْقَاء لأُمية : إن صار بينك وبينه النَّهْرُ خلع الخليفة . فأرسل إليه أميَّة يقول : أَقِمْ لعلِّى أغزُو فتكون معى ،فغَضِب بُكَير ،وكان قبل ذلك قدولَّاه طَخَارستان ، وأنفق

(١) فى ك : تلمسها .

(٢) فى الطبرى : أمير على المدينة .

(٣) الضبط فى القاموس ، وفى الطبرى : وشاح . وقد تقدم الخلاف فيه .

نفقةً عظيمة ، فحذَّره بَحِير منه فمنعه منها ، ثم إن أُمية تجهَّزَ للغَزْو إلى بُخَارى وتجهَّزَ معه الناس ، وفيهم بُكَيْر بن وَسَّاج ، فلما بلغوا النَّهْر وأرادوا قَطْعَه قال أُمية لبُكَير : إنى قد استخلفتُ ابنى على خراسان وأخاف أنه لا يضبطها ، لأنه غلام حَدث ، فارجع إلى مرْو فاكفنيها ، فقد ولَّيتكها ، فقُمْ بأَمْر ابنى .

فانتخب بُكير فُرْسانًا كان قد عرفهم ووثق بهم ، ورجع . ومضى أُميَّة إلى بُخَارى فقال عُقَاب[1] الغُدانى لبُكَير : إنَّا طلبْنَا أميرًا مِن قريش ، فجاءنا أَمِيرٌيلعب بنا ، يحوِّلُنا من سجن إلى سجن ،وإنى أرى أنْ نَحرِق هذه السفن ، ونَمْضى إلى مَرْو ، ونخلع أُمية ونُقِيم بمَرْو ، نأْكلها إلى يومٍ مَّا ،ووافقه الأَحنف بن عبد الله العَنْبَرِى على هذا ، فقال بُكير : أخاف أنْ يهلك هؤلاء الفرسان الذين معى . قال : إن هلك هؤلاء أنا آتيك مِنْ أهل مرْو بما شئت . قال : يهلك المسلمون. قال: إنما يكفيك أنْ يُنَادِى منادٍ : منْ أسلم رَفَعْنَا عنه الخراج ، فيأْتيك خمسون ألفًا أَسْمَعُ من هؤلاء وأطوع . قال : فيهلك أُميَّة ومنْ معه . قال : ولِمَ يهلكون ولهم عَددٌ وعُدَّة وَنَجدة وسلاح ظاهر ، ليقاتِلُوا عن أنفسهم حتى يبلغوا الصين .

فأَحرَق بُكَيْر السفُنَ ، ورجع إلى مَرْو ، فحبس ابن أُميَّة وخلع أُمية ، وبلغ أُمية الخبر ، فصالح أَهل بخَارى على فِدْيةٍ قليلة ، ورجع وأمر[2] باتخَاذ السفن، وعبر ، وذكر للناس إحسانَه إلى بُكَيْر مرةً بعد أُخرى ، وأنه كافأه بالعِصْيان .

---

(١) الضبط من القاموس والإكمال . وفى د ، والطبرى : عتاب . ويقال له : ذو اللقوة .

(٢) فى الطبرى : فأمر .

وسار إلى مَرْو ، وأرسل شَمَّاس بن دِثَار فى ثمانمائة ، فسار بُكير إليهم ، فانهزم شَمَّاس ، وأمر أصحابه ألَّا يَقْتُلوا منهم أحدًا ، فكانوا يأخذون سِلَاحَهم ويطلقونهم . وقدم أميَّةُ فتلقَّاه شماس ، فقدم ثابت ابن قُطبة فلَقِيَه بُكَيْر فأَسَرَه ، وفرَّقَ جَمْعه ، ثم أطلقه ليَدٍ كانت لثابت عنده . وأقبل أميَّةُ وقاتله بُكَيْر فكان بينهم وقعات فى أيامٍ ، فانكشف أصحابُ بُكير فى بعضها ، فاتبعه حُرَيث بن قُطبة حتى بلغ القَنْطَرة وناداه إلى أين يا بُكَيْر ! فرجع فضربه حُرَيث على رأسه فقطع المِغْفَر ، وعَضَّ السيفُ برأسه فقطع فصُرع ، واحتمله أصحابُه فأدخلوه البلد .

وكان أصحاب بُكير يغدون [1] فى الثياب المصبَّغة فيجلسون يتحدثون . وينادى مُنَادِيهم منْ رمى بسهْمٍ رمَيْنا إليه برأسِ رجل مِنْ ولده و أهله ، فلا يرميهم أحَد .

وخاف بكَيْر إن طَال الحصار أن يَخْذُلَه الناس ، فطلب الصلح ؛ وأحبَّ ذلك أيضًا أصحابُ أميَّة ، فاصطلحوا على أنْ يقضِىَ عنه أمية أربعمائة ألف ، ويصل أصحابَه ويوليه أىَّ كُورِ خراسان شاء ، ولا يسمع قَوْلَ بَحِير فيه ، وإن رَابَه رَيْبٌ فهو آمن أربعين يومًا .

ودخل أمية مدينةَ مَرْو ، ووفَّى لبُكَير ، وعاد إلى ما كان مِن الكرامة [2] ، وأعطى أمية عُقَابًا [3] عشرين ألفًا ، وكان أمية سهلا

(١) فى الكامل ، والطبرى : يغدون .
(٢) فى الكامل : إكرامه . وفى الطبرى : إلى ما كان عليه من الإكرام .
(٣) فى ك : عتابا . وانظر هامش رقم ١ صفحة ٢٢٥ .

ليِّنًا سخِيًا ،وكان مع ذلك ثقيلا على أهل خُرَاسان ، وكان فيه زهد[١].

وعزل أمية بَحِيرًا عن شرطته وولّاها عطاء بن أبى السائب ، وطالب أميَّةُ الناس بالخراج واشتدّ عليهم ، فجلس بُكير فى المسجد وعنده الناس ، فذكروا شِدَّةَ أمية فذَمُّوه وبَحير ، وضرار بن حصن [٢] ، وعبد [٣] العزيز بن جارية بن قُدَامة فى المسجد ، فنقل بحِير ذلك إلى أميّة فكذَّبه ، فادَّعى شهادة هؤلاء ، فشهد مُزَاحم بن أبى المُجشِّر السلمى أنه كان يَمْزَح ، فتركه أميّة ، ثم إن بحِيرًا أتى أميَّة وقال : والله إن بُكَيْرًا قد دعَانى إلى خَلْعِك ، وقال : لولا مكانُك لقتلْتُ هذا القُرشى ، وأكلْتُ خراسان . فلم يصدّقه أمية ، فاستشهد جماعةً ذَكر بُكَيْرٌ أنهم أعداؤُه . فقبض أمية على بُكَيْر وعلى ابنَى أخيه : بدلٍ ، وشَمَرْدل ، ثم أمر بعْضَ الرؤساء بقتل بُكَيْر ، فامتنعوا فأمر بَحِيرًا بقَتْلِهِ فقتَلَه ، وقتل أمية ابنى أخى بُكير .

وحجّ بالناس فى هذه السنة أبان بن عثمان .

وفيها مات جابر بن عبد الله بن عمْرو الأنصارى .

سنة (٧٨ هـ) ثمان وسبعين)

فى هذه السنة عزل عَبْدُ الملك بن مَرْوان أميَّةَ بن عبد الله عن خراسان وسجِسْتَان ؛ وضمهما إلى أعمال الحجاج ، فاستعمل

---

(١) فى الكامل ، والطبرى : زهو شديد .

(٢) فى الكامل : حصين . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٣) فى الكامل : وعبد الله بن جارية ، والمثبت فى الطبرى أيضا .

الحجاجُ المهلَّبَ بن أبى صُفْرَة على خراسان وعُبيد[١] الله بن أبى بكرة على سجستان ، فبعث المهلب ابنه حَبيبًا إلى خُرَاسان ، فلما ودَّع الحجاج أعطاه بغْلَةً خَضْرَاء ، فسار عليها وأصحابه على البريد ، فوصل خُراسان فى عشرين يوما ، فلما دخل باب مَرو لقيه حِمْلُ حَطَب ،فنفرت البَغْلَةُ فعجبوا مِنْ نِفَارِها بعد ذلك التعب وشدَّة السير ، ولم يعرض لأُمية ولا لعماله ، وأقام عشرة أشهر حتى قدم عليه المهلَّب فى سنة [٧٩هـ] تسع وسبعين .

وحجَّ بالناس [فى هذه السنة][٢] أبان بن عثمان [٣] ، وكان العمال مَنْ ذَكَرْنَا ، وعلى قضاء الكوفة شُرَيْح ، وعلى قضاء البَصْرَة موسى بن أنس .

سنة (٧٩ هـ) تسع وسبعين :

فى هذه السنة استعفى شُرَيح بن الحارث من القضاء فأعفاه الحجَّاج ،واستعمل على القضاء أبَا بُرْدَة بن أبى موسى .

وحجّ بالناس أبان بن عثمان وهو أمير المدينة .

سنة (٨٠ هـ) ثمانين :

فى هذه السنة حَجّ بالناس أبان بن عثمان ،وفيها توفى أبو إدريس الخولانى ، وعبْد الله بن جعفر بن أبى طالب . وقيل سنة [٨٤هـ] أربع وثمانين ، وقيل سنة خمس .وقيل سنة ستّ . وقيل سنة تسعين. والله أعلم .

---

(١) فى ك : وعبد الله . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٢) ساقط فى د .

(٣) فى الطبرى : وحج بالناس فى هذه السنة الوليد بن عبد الملك وكان أمير المدينة فى هذه السنة أبان بن عثمان .

وفيها توفى محمد بن على بن أبى طالب [رضى الله عنهما] (١) ، وهو ابْنُ الحنفيَّة ، ومات جماعةٌ من الصحابة رضى الله [تعالى] (١) عنهم [أجمعين] (١) .

سنة (٨١ هـ) احدى وثمانين :

ذكر مقتل بحير بن ورقاء

[بشر القاتل بالقتل لأنه كان سببًا وباعثًا لقتل بكير بن وساج] (١)

فى هذه السنة قتل بحِير بن وَرْقَاء الصُّرَيْحِى . وكان سبب قتله أنه لما قتل بُكَيْر بن وسّاج وكلاهما كان تميميا ـ قال عثمان بن رجاء ابن جابر أحد بنى(٢) عَوْف بن سعد من الأَبناء ، والأَبناء عدة بطون من تميم ، يُحَرِّض(٣) بعض آل بُكَيْر من الأَبناء على الطلب بثأْره(٤) :

لَعَمْرى لقد أَغْضَيْتَ عَيْنًا على القَذَى
وبِتَّ بَطِينًا مِنْ رَحِيق مُرَوَّق(٥)
وخَلَّيْتَ (٦) ثأْرًا طُلَّ واخترت نومةً
ومَنْ شرِبَ(٧) الصَّهْبَاء بالوتْرِ يُسْبَق
فلو كنْتَ مِنْ عَوْف بن سَعد ذوأَبةً
تركت بَحِيرًا فى دَمٍ مُتَرَقْرِقِ

---

(١) ساقط فى د .
(٢) فى ك . حدثنى . والمثبت فى الكامل ، والطبرى .
(٣) فى الطبرى : يحض .
(٤) معجم الشعراء : ٩١ ، والكامل : ٤ـ٧٥ ، والطبرى : ٦ـ٣٣١ .
(٥) فى المرزبانى : معتق .
(٦) فى المرزبانى : وخيلت .
(٧) فى الكامل ، والمرزبانى : ومن يشرب .

فقل لبَحِير نَمْ ولا تَخْشَ ثائـــــرًا
ببَكْرٍ(١) فعـوف أهْلُ شاءٍ حَبَلَّـقِ(٢)
دَعِ(٣) الضَّأْنَ يوما قد سُبِقْتُم بوِتْركم
وصرتُم حديثًا بين غَـرْبٍ ومشرِق
وهُبُّوا فلو أمْسَى (٤) بُكَيْر كعَهْـــــدِه
لغَاداهُمـــو زَحْفًا بجأْواء فَيْلَق (٥)

وقال أيضًا (٦) :

فلو كان بكرٌ بارِزا فى أدَاتِـــــه
وذى العَرْش لم يُقْدِم عليه بحِيـــــرُ
ففى الدهر إن أبْقَانى الدَّهْـرُ مَطْلَب
وفى اللهِ طَلَّاب بـــذاك جدِيـــــرُ

فبلغ بحيرًا أن رهْط بُكَير من الأبناء يتوعَّدونه ، فقال (٦) :

تَوعَّدَنى الأبْنَـــاءُ جَهْلاً كأنَّمـــــا
يَرَوْنَ فِنَائى مُقْفِرًا من بنى كعـــبِ

(١) فى ك : بكر . وفى الطبرى ، والمرزبانى : بعوف .
والمثبت فى الكامل أيضا .
(٢) فى الطبرى : أهل شاة ، والحبلق : صغار الغنم .
(٣) فى الكامل : دعوا ...
(٤) فى ك : آسى .
(٥) فى المرزبانى : كعهدكم صحيحا لغاداهم .... وفى الطبرى : كعهده صحيحا لغاداهم ...
(٦) والطبرى : ٦–٣٣١ ، والكامل : ٤–٧٦ .

رفعْتُ له كَفِّى بعَضْبٍ (١) مُهَنَّـــــد
حُسامٍ كلون الملْحِ (٢) ذى رَوْنَقٍ عَضْبِ

فتعاقد سبعة (٣) عشر من بنى عَوْف على الطلب بدَمِ بُكَيْر ، فخرج فَتًى منهم يقال له شَمرْدَل (٤) من البادِية حتى قدم خُراسان ، فرأى بَحِيراً واقفًا ، فحمل عليه فطعَنَه فصَرَعه ،وظنَّ أنه قتَله ، وركض ، فعثر به فرسُه فسقط عنه فقُتل . وخرج صَعْصَعة بن حرب العوفى من البادية ، ومضى إلى سجستان ، فجاور قرابةً لبَحيْر مدةً ، وادّعى أنه من بنى حنيفة من اليمامة ، وأطال مُجالستَهم حتى أنِسُوا به ، ثم قال لهم : إن لى بخراسان مِيراثًا فاكتُبوا لى إلى بَحِير كتابًا ليُعيننى عَلَى حَقِّى . فكتبوا له ، وسار فقدم على بَحِير فأخبره أنَّه من من بنى حَنِيفة وأنَّ له مالاً بسجستان وميراثا بمَرْو ، وقدم ليبيعه (٥) ويعود إلى اليَمَامة . فأنزله بَحِير ، وأمر له بنفَقَةٍ ، ووعده المساعدة .

وكان بَحِير قد حَذِر ، فلما قال له : إنه من بنى حنيفة أَمِنَه ، وكان إذ ذاك فى الغَزْو مع المهلب . فقال له : أقِم معك حتى ترجَعَ إلى مَرْو ، فأقام شهرًا يحضر معه باب المهلَّب ، فجاء صعصعة يومًا وبَحير عند بابِ المهلب وعليه قميص ورِدَاء ، فقعد خلفه ، ودنا منه كأنه يكلِّمه ، فوَجَأه بخَنْجر معه فى خاصِرَته ، فغيَّبه فى جَوْفه : ونادى يالثارات بكير ! فأُخِذَ وأُتى به المهلب ، فقال له : بؤسًا لك !

(١) فى الطبرى : بحد مهند .... وفى الكامل : بسيف ...
(٢) فى الكامل : كلون الثلج .
(٣) فى ك : سبع .
(٤) فى الطبرى : الشمردل .
(٥) فى د : لبيعه .

ما أدرَكْتَ بثأْرك ، وقتلت نَفْسك ، وما على بَحِير بأْس ! فقال : لقد طعنْتُه طعنةً لو قُسِّمَت بين الناس لماتوا . ولقد وجدت رِيح بطْنِهِ فى يَدِى .

فحبسه المهلَّب ، ومات بَحِير من الغدِ ، فقال صعصعة : اصنعوا الآن ما شئتم ، أليس قد خلَتْ خدور [١] نساء بنى عوف ، وأدركت بثَأْرِى . والله لقد أمكننى منه [ما صنعت] [٢] خاليًا غير مرة ، فكرهت أنْ أقتله سِرًّا .

فقال المهلب : ما رأيْتُ رجلا أسْخَى نفسًا بالموت مِنْ هذا ، وأمَر بقَتْله ، فقُتِل .

وقيل : إنه بعثه إلى بَحِير قبل أن يموتَ فقتله ، وغضبت عوْف والأَبناء وقالوا : علَام قُتِل صاحِبُنا ، وإنما أخَذ بثأْره ، فنازعتهم مُقَاعِس والبطون ،وكلُّهم بطون من تميم ، حتى خاف الناسُ أن يعظم الأَمر ، فقال أَهْلُ الحِجَا : احملوا دَمَ صعصعة ،واجعلوا دَمَ بحِير [بواءً] [٢] ببُكير ، فودَوْا صعصعة ، فقال رجل من الأَبناء يمدح صعصعة [٣] :

للهِ دَرُّ فَتًى تجاوز هَمُّـــه دون العِرَاق [٤] مَفَاوزًا وبُحُورا
ما زالَ يُدْئِبُ [٥] نفسه ورِكابَه حتى تناول فى الحُزُون [٦] بَحِيرا

(١) فى الطبرى والكامل : حلت نذور نساء بنى عوف .
(٢) زيادة من الطبرى .
(٣) والطبرى : ٦–٣٣٤ ، والكامل : ٤–٧٧ .
(٤) فى ك : دون الفرات .
(٥) فى الطبرى : يدأب ... ويكدها .
(٦) فى الكامل : فى الحروب . وفى الطبرى : فى خرون !

ذكر خلاف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

على الحجاج وما كان بينهما من الحروب

كان ابتداء خلافِهِ على الحجاج فى هذه السنة ، واستمرت الوقائع التى نذكرها بينهما إلى سنة [٨٣هـ] ثلاث وثمانين ، وقد رأينا أنْ نجمَع أخباره بجملتها فى هذا الموضع ، ولا نَقْطَعها بغيرها ، ونميّز كل وَقْعَةٍ منها بتاريخها .

وكان سبب خلافِهِ أنَّ الحجاج لما بعثه فى الجنود إلى بلاد رُتْبِيل فى سنة [٨٠هـ] ثمانين كما ذكرنا فى الغزوات ، وملك ماملَك من من حصون رُتْبِيل ، واستولى على ما اسْتَوْلَى عليه من بلادِهِ ، وأقام ، وكتب إلى الحجاج يُعرِّفُه أنه رأى تَرْكَ التوغُّلِ فى بلاد رُتْبِيل حتى يعرفوا طُرُقَها ويَجْبُوا خراجها .

فلما وردَ كتابه على الحجّاج كتب إليه : إنّ كتابُك كتابُ امرىء يحبُّ الهُدْنة ، ويستريح إلى الموادعة ، فامض إلى[1] ما أمرتك من الوُغول فى أرضهم ، والهَدْم لحصونهم ، وقَتْل مقاتلتهم ، وسَبْى ذراريّهم ، ثم أردفه كتابًا آخر [بِنَحْو ذلك][2] ، وفيه :

أما بعد فمُرْ مَنْ قِبَلك من المسلمين فلْيَحْرثوا ويقيموا بها ، فإنها دَارُهم حتى يَفْتَحَها اللهُ عليهم .

ثم كتب إليه كتابًا ثالثًا كذلك ، ويقول : إن مضيت إلى ما أمرتك

(١) فى ك : لما .

(٢) من د .

وإلّا فأخوك إسحاق بن محمد أميرُ الناسِ . فدعا عبْدُ الرحمن الناسَ وقال لهم : أيها الناس ، إنّى لكم ناصح ولِصَلاحكم مُحِبٌّ ، ولكم فى كل ما يُحيط به نفعكم[1] ناظر ، وقد كان رأيى فيما بينى وبين عدوى[2] مارَضِيَه ذوو أحلامكم وأولو التجربةِ منكم ، وكتبْت بذلك إلى أميرِكم الحجاج ، فأتانى كتابه يعجّزنى ويضعّفنى ويأمُرُنى بتعجيل الوغُول بكم فى أرْضِ العدوّ ، وهى البلادُ التى هلك فيها إخوانكم بالأمس ، وإنما أنا رجُلٌ منكم أمْضِى إذا مضيْتُم ، وآبى إذا أبيتم .

فثار إليه الناسُ وقالوا : بل ، نَأْبَى على عدوّ الله ، ولا نسمعُ له ولا نطيع .

فكان أول من تكلم أبو الطُّفَيْل عامر بن واثلة الكنانى ، وله صُحْبة ، فقال ـ بعد حمد الله : أما بعْدُ فإنَّ الحجاج يرى بكم ما رأى القائل الأول [إذ قال لأخيه][3] : احمل عَبْدك على الفرَس ، إن هلَك هلك ، وإن نَجَا فلك . إنَّ الحجاج لا يُبَالى أن يخاطِرَ بكم فيُقحمكم بلَايا[4] كثيرة ، ويغْشَى بكم اللهوب واللُّصُوب[5] ، فإن ظفرتم وغنِمتم أكَلَ البلاد وحازَ المال ، وكان ذلك زيادة فى سُلْطَانه ؛

(١) فى الطبرى : ولكم فى كل ما يحيط بكم نفعه . والمثبت فى الكامل أيضا .
(٢) فى الطبرى : عدوكم .
(٣) زيادة فى الطبرى .
(٤) فى ك : بلادا .
(٥) اللهوب : جمع لهب ، وهو وجه من الجبل لايمكن ارتقاؤه . واللصب : مضيق الوادى ، وجمعه لصوب (القاموس) .

وإن ظفر عدوُّكم كُنْتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالى عنتَهم ، ولا يُبْقى عليهم ، اخلعوا عَدُوَّ اللهِ الحجاج ، وبَايعُوا الأمير عبْد الرحمن ، فإنى أشهدكم أنِّى أوَّلُ خالع .

فنادى الناس من كل جانب : فَعَلْنَا فعَلْنَا ، قد خلعنا عَدُوَّ اللهِ.

وقام عبد المؤمن بن شَبث بن رِبْعى ثانيًا فتكلَّم ، وندَب النا َس إلى مُبَايعة عبد الرحمن ، فبايعوه على خَلْع الحجاج ونَفْيه من العراق ، ولم يذكر عَبْد الملك ، فوثب الناسُ إلى عبد الرحمن فبايعوه على خَلْعِ الحجاج ونَفْيِه وعلى النُّصْرة له ، فصالح عبد الرحمن رُتْبِيل على أنه إن ظهر فلا خراج على رُتْبِيل أبدًا ، وإن هُزِم فأراده منعه [١] .

ثم جعل عَبْدُ الرحمن على بُسْت عياضَ بن هميان الشَّيبَانى وعلى زَرَنْج[٢] عبد الله بن عامر التميمى ، وعلى كِرْمَان خَرَشَة بن عمرو التميمى ، ورجع إلى العراق ، وجعل على مقدّمته عطية بن عَمْرو العنْبرى .

فلما بلغ فارس اجتمع الناسُ بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إذا خلَعْنَا الحجاجَ عامل عبد الملك فقد خلعنا عبْدَ الملك ، فاجتمعوا إلى عبْدِ الرحمن ، فكان أول الناس خلع عبد الملك تيجان [٣] ابن أبجر بنْ تَيْم الله بن ثعلبة[٤] ، قام فقال : أيها الناس ، إنى خلعت

(١) فى الطبرى : ألجأه عنده .

(٢) زرنج — بفتح أوله وثانيه ، ونون ساكنة ، وجيم : مدينة هى قصبة سجستان (ياقوت) .

(٣) فى الطبرى : تيحان — بالحاء المهملة .

(٤) فى الطبرى : من بنى تيم الله .

أبا ذِبَّان [١] كخلعى خاتمى [٢] ، فخلعه الناسُ إلَّا قليلا منهم ، وبايعوا عبْدَ الرحمن . وكانت بيعته يبايعون على كتاب الله وسنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى جهادِ أهل الضَّلَالة ، وخَلْعهم ، وجهاد المحلِّين .

فلما بلغ الحجاج خَلْعُه كتبَ إلى عَبْدِ الملك بالخبر ، ويسأله أن يعجِّل بعثة الجنود إليه . وسار الحجاج حتى بلغ البصرة .

ولما وصل كتابُ الحجاج إلى عبد الملك هالَه ، ودعا خالد بن يزيد فأقرأه الكتاب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كان هذا الحدث من سجستان فلا تخَفْه ، وإن كان من خراسان فإنى أتخوَّف .

فجهَّز عبد الملك الجُنْدَ على الْبَرِيد ، فكانوا يَصلون من مائة ومن خمسين وأقل من ذلك وأكثر ، وسار الحجاج من البصْرة إلى تُسْتَرَ [٣] ، وقدم مقدمته إلى دُجَيْل ، فلقوا خَيْلاً لعبد الرحمن ، فانهزم أصحابُ الحجاج بعد قتالٍ ، وذلك يوم الأضحى سنة [٨١هـ] إحدى وثمانين ، وقتِل منهم جمع كثير .

فلما أتى خَبَرُ الهزيمة إلى الحجاج رجع إلى البَصْرَة وتبعَه أصحابُ عبد الرحمن ، فقتلوا من أصحابِه وأصابوا بَعْض أثقالِهم . وأقبل الحجاج حتى نزل الزَّاوية [٤] ، وجمع عنده الطعام ، وفرَّق فى الناس

(١) أبو ذبان : كنية عبد الملك بن مروان .

(٢) فى الطبرى والكامل : قميصى .

(٣) مدينة بخوزستان (المراصد) .

(٤) الزاوية : عدة مواضع ، منها قرية بالموصل ، وموضع قرب البصرة . كانت به الوقعة المشهورة بين الحجاج وابن الأشعث (المراصد) .

مائةً وخمسين ألف درهم ، وأقبل عبْدُ الرحمن حتى دخل البصْرَة فبايعَه جميعُ أهلها .

وكان السبب فى سرعة إجابتهم إلى بَيْعَتِه أنَّ عُمّال الحجاج كتبوا إليه إنّ الخراجَ قد انكسر ، وإن أهل الذمَّة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار .

فكتب إلى البَصْرَة وغيرها : إنّ مَنْ كان له أصل فى قَرْيَةٍ فايخرُج إليها ، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجِزية ، فجعلوا يبْكُون وينادُون : يا محمداه ! يامحمداه ! وجعل قُرّاء البصرة يبكون .

فلما قدم ابْنُ الأشعث إثر ذلك بايَعُوه على حرْبِ الحجاج ، وخَلْع عبد الملك؛ وخَنْدَق الحجاجُ على نفسه ، وخَنْدَق عبد الرحمن على البصْرَة ، وكان دخوله البصرة فى آخر ذى الحجة .

ذكر الحرب بين الحجاج وابن الأشعث

وانهزام ابن الأشعث من البَصْرَة إلى الكوفة

وفى المحرم سنة [٨٢هـ] اثنتين وثمانين اقتتل عَسْكَرُ الحجاج وعسكر ابن الأشعث قتالاً شديدًا ، وكان بينهم عِدَّةُ وقعات ، فلما كان آخر يَوْمٍ من المحرم اشتدَّ القتال ، فانهزم أصحابُ الحجاج حتى انتهوا إليه ، وقاتلوا على خَنَادِقهم ، ثم تزاحفوا فتقوَّض أصحابُ الحجاج ، فجثا على رُكْبتَيْه ، وقال : للهِ دَرُّ مصعب ! ماكان أكرمه حين نزل به مانزَل ، وعزم على أنه لا يفِر .

فحمل سفيان بن الأبرد على ميْمَنَة ابن الأشعث فهزمها ، وانهزم

أَهْلُ العراق ، وأقبلوا نحو الكوفة مع عَبْدِ الرحمن ، وقُتل منهم خَلْقٌ كثير ، منهم : عقبة بن عبد الغافر الأَزْدِى وجماعة من القرَّاء .

ولما بلغ ابْنُ الأَشعث الكوفة تبَعه أَهْلُ القوَّة وأصحابُ الخيل من البصرة ، واجتمع منْ بَقى بالبصرة مع عبْد الرحمن بن عباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فبايعوه ، فقاتل بهم الحجَّاج خَمْسَ ليال أَشدَّ قتال رآه الناسُ ، ثم انصرف فلحق بابن الأَشعث ومعه[1] طائفة من أهل البصرة ، وهذه الوقعةُ تُسَمَّى وقْعةَ الزَّاوِية .

وقَتَل الحجاجُ فى هذا اليوم بعد الهزيمة أَحدَ عشر أَلفًا خدعهم بالأَمان ، أمر مُنَادِيًا فنَادى : الأَمان لفلان وفلان ، سمَّى رجالاً ، فقال العامَّة : قد أَمن الناس ، فحضروا عنده ، فأَمر بهم فقُتِلوا .

قال : وكان الحجَّاجُ عند مسيره من الكوفة إلى البَصْرة استعمل عليها عبْد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر الحضرمى حليف بنى أُمية ،فقصده مَطَر بن نَاجية اليَرْبُوعى ، فتحصَّن منه ابن الحضرمىّ فى القَصْر ، فوثب أَهْلُ الكوفة مع مطَر ، فأَخرج ابن الحَضْرمى ومنْ معه مِنْ أهل الشام ،وكانوا أربعةَ آلافٍ ، واستولى مَطَر على القَصْر ، واجتمع إليه الناس ، ففرّق فيهم لكلِّ إنسان مائتى درهم .

فلما وصل ابنُ الأَشعث إلى الكوفة كان مَطَر بالقَصْر ، فخرج أَهْلُ الكوفة يستقبلونه ، فدخل الكوفة ، وقد سبق إليه هَمْدان فكانوا حوْله ، فأَتى القصر فمنعه مطَربن ناجية ومَنْ معه من بنى تميم ، فأَصعد

(١) فى الطبرى ، والكامل : وتبعه .

عبد الرحمن الناس فى السلاليم إلى القَصْر فأخذوه ، وأتى عبد الرحمن بمطر فحبسه ثم أطلقه .

ذكر وقعة دير الجماجم

[وانهزام أصحاب ابْن الأشعث وعَوْد الحجاج إلى الكوفة] (١)

كانت وَقْعةُ دَيْر الجماجم (٢) فى شعبان سنة [٨٢هـ] اثنتين وثمانين، وقيل : كانت فى سنة ثلاث وثمانين . والذى يقول : إنها فى سنة ثلاث يقول : كان نزولهم بدَيْر الجَمَاجم لليلةٍ مضَتْ من شهر ربيع الأول سنة [٨٣هـ] ثلاث وثمانين، والهزيمة لأربع عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة منها ، فكانت مائة يوم وثلاثة أيام . والله أعلم .

وكان سبب هذه الوقْعة أنَّ الحجاجَ سار من البصْرةِ إلى الكوفةِ لقتال عبْد الرحمن بن الأشعث ، ونزل دَيْر (٣) قُرَّة ، وخرج عَبْدُ الرحمن من الكوفة فنزل دَيْر الجمَاجِم ، واجتمع لعَبْدِ الرحمن أهْلُ الكوفة وأهلُ البَصْرة وأهلُ الثغورِ والمَسَالح والقراء ، وكانوا مائة ألْفٍ ممن يأْخذ العطاء ومعهم مِثلهم (٤) ، وجاءت الحجاجَ أمْدَادُ الشام قبل نزوله بدَيْرِ قُرَّة ، وخَنْدَق كلٌّ منهما على نفسه ، وكان الناس يقتتلون كل يوم ، ولا يزال أحَدُهما يُدْنِى خَنْدَقَه من الآخر .

فبعث عبْدُ الملك ابْنَه عَبْدَ الله وأخاه محمدبن مَرْوان – وكان محمد بأرْض الموصل – فى جُنْدٍ كَثِيف إلى الحجاج ، وأمرهما أن يَعْرِضا

(١) من د .
(٢) على سبعة فراسخ من الكوفة على طرف البر للسالك إلى البصرة (المراصد) .
(٣) دير قرة : بازاء دير الجماجم مما يلى الكوفة (المراصد) .
(٤) فى ك : نسلهم .

على أهْلِ العراق عَزْل الحجاج ، وأن يُجْرِى عليهم أعطياتهم ، كما يُجْرِى على أهل الشام ، وأنْ ينزِل عبد الرحمن بن الأشعث أى بلد شاء من العراق ، فإذا نزل كان واليًا عليها مادام حيًا ، وعبد الملك خليفة . فإنْ أجاب أهْلُ العراق إلى ذلك عَزَلاَ الحجاج عنهم (١) ، وصار محمدُ بْنُ مروان أمِير العراق ، وإنْ أبى أهْلُ العراق ذلك فالحجاجُ أميرُ الجماعة ووالى (٢) القتال ، ومحمد وعبد الله فى طاعته ، فلم يأْتِ الحجاج أمْرٌ قطّ كان أشدَّ عليه ولا أوْجَع لقَلْبِه منه ، وخشى أنْ يقْبَلَ أهْلُ العراق عَزْله فيعزل عنهم ، فكتب إلى عبْدِ الملك : واللهِ لو(٣) أعطيْت أهْل العراق عزْلى (٤) لم يلبثوا إلَّا قليلا حتى يخالِفُوكَ ويَسِيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلَّا جراءةً عليك ، ألم تر ويبلغك وثوبُ أهل العراق مع الأشتر على عُثْمان ابن عَفَّان وسؤالهم نَزْع سعِيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتمّ لهم السنة حتى سارُوا إلى عثمان فقتلوه ؛ وإن الحديد بالحديدِ يُفْلَح .

فأبى عَبْدُ الملك إلَّا عرْض عَزْلِهِ على أهلِ العراق ، وقال : عزْلُه أيْسَر من حَرْب أهلِ العراق ، ويَحْقِن الدماء .

فخرج عبْد الله بن عبد الملك وقال : يأهل العراق ، أنا ابْن أميرِ المؤمنين ، وهو يُعطيكم كذا وكذا .

(١) فى الكامل : عنها .
(٢) فى الطبرى : وولى .
(٣) فى الطبرى : لئن .
(٤) فى الطبرى ، والكامل : نزعى .

وخرج محمد بن مرْوان ، وقال : أنا رسول أمير المؤمنين ، وهو يَعْرض عليكم كذا وكذا .

فقالوا : نَرْجع للعشيَّةِ . ورجعوا ، واجتمعوا عند ابْن الأشعث ، فقال لهم : قد أُعطيتم أمْرًا انْتِهَازُكم إياه اليوم فُرصة ، وإنكم اليوم على النِّصف ؛ فإن كانوا اعتدُّوا عليكم بيوم الزَّاوِية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تُسْتَر ، فاقْبَلُوا ما عرَض عليكم ، وأنتم أعزَّاء أقوياء .

فوثبوا وقالوا : لا واللهِ لا نَقْبلُ . وأعادوا خلْع عبد الملك ثانيًا ؛ وكان أول مَنْ قام بخَلْعه بديْرِ الجماجم عبدالله بن ذوَّاب السلمى وعمير بن تيحان ، وكان اجتماعهم على خَلْعِه بالجماجم أجْمع من الخَلْع بفارس .

فقال عبْدُ الله ومحمدٌ للحجاج : شَأْنَك بعسْكرك وجُنْدك ، واعْملْ برأيك ، فإنا قد أُمِرْنَا أنْ نَسمع لك ونُطِيع ، وكانا يسلمان عليه بالإمرة ويسلِّم عليهما بالإمرة .

قال : ولما اجتمع أهْلُ العراق على خَلْع عبد الملك قال ابنُ الأشعث : أَلَا إنَّ بنى مروان يعيَّرُون بالزَّرْقاء ، والله مالهم نَسب أصحّ منه ، إلَّا أنَّ بنى العاص (١) أعْلاج من أهْلِ صَفُّورِيَة (٢) ، فإن يكن هذا الأمْرُ فى قريش فَمنِّى تقوَّبت (٣) بيْضةُ قريش ، وإنْ يك فى العرب فأنا ابْنُ الأشعث ، ومدّ بها صوْته حتى سمعه الناس .

---

(١) فى الطبرى : ألا أن بنى أبى العاص .

(٢) صفورية : كورة وبلد من نواحى الأردن بالشام قرب طبرية (المراصد).

(٣) فى الكامل : فمنّى ، وفى الطبرى : فعنى فقشت . وتقوبت البيضة : انفلقت عن فرخها (النهاية) .

وبرزُوا للقتال ، فجعل الحجاجُ على ميْمنته عبد الرحمن بن سنبم الكَلْبى ، وعلى ميسرته عُمارة بن تميم اللخمى ، وعلى خَيْلِهِ سُفيان ابن الأَبْرَد الكلبى ، وعلى رجاله عبد الله[١] بن حبيب الحكمى . وجعل ابْنُ الأَشعث على ميمنته الحجاج بن جارية [٢] الخثعمى . وعلى ميسرته الأَبرد بن قرَّة التميمى ، وعلى خيله عبد الرحمن ابن العباس [٣] بن ربيعة الهاشمى ، وعلى رجاله محمد بن سَعْد ابن أَبى وقاص ، وعلى مُجنَّبته [٤] عبد الله بن رِزَام الحارثى ، وجعل على القرَّاء زَحْر[٥] بن قيس الجعفى ، وفيهم سعِيد بن جُبير بن هشام الشعبى ، واسمُه عامر بن شراحيل ، وأَبو البَخْتَرى الطائى ، وعبْد الرحمن ابن أَبى لَيْلَى .

وأَخذوا فى القتال [فى كل يوم] [٦] ، وأَهل العراق تأْتيهم موادُّهم من الكوفةِ وسَوَادِها ، وهم فى خصْبٍ . وأَهل الشام فى ضيق[٧] شديد ، قد غَلَتْ عندهم الأَسعار ، وفُقِد اللحم ، حتى كأَنهم فى حصارٍ . وهم على ذلك يُغَادُون القتال ويراوحون [٨] .

فعبّأَ الحجاج فى بعض الأَيام لكتيبة القُرَّاء ثلاث كتائب . وبعث عليها الجرّاح بن عبد الله الحكمى ؛ فقام[٩] جبَلة بن زَحْر

---

(١) فى الطبرى : عبد الرحمن بن حبيب .

(٢) فى الكامل : حارثة . (٣) فى الطبرى : ابن عباس

(٤) فى ك ، والطبرى : مجففته . والمثبت فى الكامل أيضا .

(٥) فى الكامل : جبلة بن زحر . والمثبت فى ك ، د ، والطبرى .

(٦) زيادة فى ك .

(٧) فى الكامل : فى ضنك . (٨) فى الطبرى : ويراوحونهم .

(٩) فى الكامل : فعبأ ابن جبلة — تحريف ، صوابه فى د ، والطبرى .

فى القراء ، وحرضهم على القتال ، وذَمّ أهل الشام ،وسمّاهم المحلّين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحقّ فلا يعرفونه ، وعملوا بالعُدْوَان فلا ينكرونه فى كلام كثير قاله . وقال أبو البَخْتَرى : أيها الناسُ ، قاتِلوهم على دِينكم ودُنْيَاكم .

وقال الشعبى : أيُّها الناس قاتلوهم قاتلوهم ولا يأْخذكم حَرَج من قتالِهِم : فوالله ما أعلم على بسيط الأَرض أَعْمل بظُلْم ولا أَجوَر فى حُكم منهم .

وقال سعِيد بن جُبير نحو ذلك .

وقال جَبَلة : احملوا حَمْلَةً صادقةً ولا تردّوا وجوهكم عنهم .

فحملوا عليهم فأَزالوا الكتائب عن مواقفها وفرّقوها وتقدّمُوا حتى واقعوا صفّهم ، فأَزالوه عن مكانه ؛ ثم رجعوا فوجدوا جبَلَةَ بن زَحْر قتيلا .

وكان سبب قَتْلِه أنّ أصحابه لَمّا حملوا على أَهْلِ الشام وفرّقوهم وقف لأَصحابِه ليرْجِعُوا إليه ، فافترقت فِرْقَة من أهل الشام ، فنظروا إليه ، فقال بعضُهم لبعض : احملوا عليه مادام أصحابه مشاغيل بالقِتَال ، فحملوا عليه فلم يَزُل [1] ، وحمل عليهم فقُتل ؛ قتله الوليد ابن نُحيْت [2] الكلبى ، وجِىء برأْسِه إلى الحجاج ، فبشّر أصحابه بقَتْله ، فلما رجع أصحاب جبلَة ورأَوْه قتيلا سُقط فى أيديهم ، وظهر الفشل فى القراء [وناداهم أهل الشام : يا أعداء الله ، قد هلكتم وقتل طاغيتكم] [3] — وقدم عليهم بِسْطام بن مصْقَلة بن هُبيْرة

(١) فى الكامل : فلم يول .

(٢) الضبط فى الطبرى ، والقاموس (نحت) .

(٣) زيادة فى د ، والكامل .

الشيبانى ، ففر حوا به ، وقالوا : تقوم مقام جبلة ، وكان قدومه مِن الرىّ ، فجعله عبْد الرحمن على ربيعة ، فدخل عسْكَر الحجاج ، فأخذ مِنْ نساءِ أصحابِه ثلاثين امرأةً فأطلقهن ، فقال الحجاج : منعوا نساءهم لو لم يردّوهنّ لسبيْتُ نساءهم إذا ظهرْتُ عليهم .

قال : وخرج عبد الله بن رِزَام الحارثى يطلب[1] المُبارزةَ ، فخرج إليه رجل مِنْ عَسْكر الحجاج فقتله عبْد الله ، فعل ذلك ثلاثة أيام . فلما كان فى اليوم الرابع خرج فقالوا : جاء لا جاء الله به ! فقال الحجاج للجرّاح : اخرُجْ إليه . فخرج ، فقال له عبْد الله : ما جاء بك ؟ ويْحك يا جرّاح ! وكان له صديقًا . فقال : ابتُليتُ بك . قال : فهل لك فى خير ؟ قال الجرّاح : ما هو ؟ قال : أنْهزِم لكَ فترجع إلى الحجّاج وقد أحسنت عنده وحمِدك ، وأحْتَمِلُ أنا مقالةَ الناس فى انهزامى حُبًّا لسلامتك ، فإنى لا أحب قَتْل مثلك من قومى . قال : افعل .

فحمل الجرّاحُ عليه فاستطرد له ، وحمل عليه الجرّاح بجدّ[2] يرُيد قَتْلَه ، فَصاح بعَبْد الله غلامُه وقال : إنّ الرجل يُرِيد قَتْلَك . فعطف عبْدُ الله على الجرّاح فضربه بعمودٍ على رأسه فصرعه ، وقال له : يا جراح ، بئسما جزَيْتَنى ! أرَدْتُ بك العافية ، وأرَدْت قَتْلى . انطلق فقد تركتُك للقرابة والعشيرة .

قال : ودام القتالُ بينهم بدَيْرِ الجماجم إلى آخر المدة التى ذكرناها ،

---

(١) فى الكامل : فطلب .

(٢) فى ك : فجره . والمثبت فى ك ، والكامل. وفى الطبرى: حملة بجد لايريد إلا قتله .

فلما كان يوم الهزيمة اقتتلوا أشدَّ قتالٍ ، واستظهر أصحابُ عبْد الرحمن على أصحابِ الحجاج ، واستعلَوْا عليهم ، وهم آمِنون أنْ ينهزموا ، فبينما هم كذلك إذ حمل سُفْيان بن الأَبْرد وهو على ميْمنَةِ الحجاج على الأَبرد بن قُرّة التميمى ، وهو على مَيْسرة ابن الأشعث ، فانهزم الأَبْردُ بالناس من غَيْر قتالٍ ، فظنَّ الناس أنَّ الأَبردَ قد صُولِح على أن ينهزِمَ بالناس ، فلما انهزم تقوّضَت الصفوف ، وركب الناس بعضهم بعضا ، وصعد عبد الرحمن [بن محمد] (١) المنبر ينادِى الناس : إلىّ عبادَ الله ؛ فاجتمع إليه جماعة ، فثبت حتى دَنا أهلُ الشام ، فقاتل مَنْ معه ، ودخل أَهْلُ الشامِ العَسْكر ، فأتاه عبْدُ الله بن يزيد بن المغفل الأَزدى ، فقال له : انزل ، فإنى أخاف عليك أن تؤسر ، ولعلك إذا انصرفت أن يجتمع (٢) لك جَمْعٌ يُهلكهم اللهُ به .

فنزل وانهزم هو ومَنْ معه لا يَلوُون على شىء . ودخل الحجاجُ الكوفة ، وعاد محمد بن مرْوان إلى الموصل ، وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام ، وأخذ الحجاج يُبَايع الناس ، وكان لا يبايع أحدا إلا قال له : أتشهد أنك كفرْتَ ؛ فإن قال نعم بايعه ، وإلا قتله. فأتاه رجل من خثعم كان قد اعتزل الناسَ جميعًا ؛ فسأله عن حالِه فأخبره باعتزاله ، فقال له : أنت متربّص ،أتشهد أنك كافر ! فقال : بئس الرجل أنا إذًا ؛ أَعْبُدُ الله (٣) ثمانين سنة ثم أشهد على نَفْسِى بالكُفْر .

(١) زيادة فى الطبرى .
(٢) فى الطبرى : أن نجمع لهم جمعا . وفى ك : أن نجمع لك جمعا .
(٣) فى الطبرى : إن كنت عبدت الله ...

قال : إذًا أقتلك ، قال : وإن قتلتنى ، فقتله. فما بقى أحدٌ من أهل الشام والعراق إلَّا رحمه .

وقتل كُميْل بن زياد وكان خصيصًا بعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وأُتِى بآخر بعده ،فقال الحجاج : أرى رجلا ما أظنُّه يَشْهَدُ على نَفْسِه بالكفر ، فقال له الرجل : أتخادعنى[1] عن نفسى ، أنا أكْفَرُ أهْلِ الأرض وأكْفَرُ من فِرْعون . فضحك الحجاج وخَلَّى سبيله .

قال : وأقام الحجاجُ بالكوفةِ شَهْرًا ، وأنزل أهْل الشام بيوتَ أهلِ الكوفة مع أهلِها ، وهو أوّل مَنْ أنزل الجُند فى بيوتِ غيرهم ، واستمرت هذه القاعدة بعده .

قال : وكان الحجاج لما انهزم الناسُ أمر مناديًا فنادى : مَنْ لحق بقُتَيْبَة بن مسلم فهو أمَانُهُ[2] . وكان قد ولَّاه الرَّىَّ ، فلحق به ناسٌ كثير منهم الشعبى ، فذكره الحجاج يومًا بعد الفراغ من أمرِ ابن الأشعث ، فقيل له : إنه لحق بقُتَيْبة بالرَّىّ ؛ فكتب إلى قُتَيْبَة يأمرُه بإرساله .

قال الشعبى :فلما قدمْتُ على الحجاج لقيت يَزِيدَ بن أبى مسلم وكان صديقًا لى ، فقال : اعتذر مهما[3] استطعت . وأشار بمِثْل ذلك إخوانى ونُصَحَائى .

فلما دخلْتُ على الحجّاج رأيتُ غير ما ذكروا[4] ، فسلمت عليه بالإمْرة ، وقلت : أيها الأمِير ، إن الناسَ قد أمَرُونى أن أعتذرَ

(١) فى الطبرى : أخادعى . (٢) فى الكامل : آمن .
(٣) فى الطبرى : مااستطعت من عذر .
(٤) فى الطبرى : غير مارأوانى .

بما يعلمُ اللهُ أنه غَيْرُ الحق ، وايْمُ اللهِ لا أقولُ فى هذا المقام إلَّا الحق : قد والله تَمَرْدْنا [١] عليك وحَرَّضنا عليك ، وجهدنا ، فما كُنَّا بالأقوياء الفَجَرَة ولا بالأتقياء البَرَرة ، ولقد نصرك اللهُ علينا ، وأظفركَ بنا ، فإنْ سَطَوْتَ فبذُنُوبِنَا ،وما جرت إليه أيدينا ،وإن عَفَوْتَ عنَّا فبِحلمك . وبعد فالحجةُ لك علينا .

فقال الحجاج : أنت واللهُ أحبُّ إلىّ قولًا ممن يدخلُ علينا يقْطُر سَيْفُه مِن دمائنا ثم يقول : ما قلْتُ ولا شَهدْتُ ، قد أمنْتَ ياشَعْبِى . كيف وجَدْتَ الناس بَعْدَنا ، فقلت : أصلح الله الأمير ، اكتحلْتُ بَعْدَك السهر ، واستوعرْتُ الجَنَابَ ، وفقدْتُ صالح الإخْوان ، ولم أجِدْ من الأمير خَلَفًا . قال : انصرف ياشعبىّ . فانصرفت .

نعود إلى بقية أخبار عبد الرحمن بن الأشعث :

ذكر الوقعة بمسكن [٢]

قال : ولما انهزم عَبْدُ الرحمن من دَيْر الجماجم أتى البصْرَة ، فاجتمع إليه مِن المنهزمين جَمْعٌ كثير ، فاجتمعوا بمسْكن ، وبايَعُوه على الموت ، وخَنْدَق عبْدُ الرحمن على أصحابه ، وجعل القتال من وجْه واحد ، وقدم إليه خالد بن جرير بن عَبْد الله من خُرَاسان ، وأتاه الحجاجُ ، فاقتتلوا خمسة عشر يومًا من شعبان أشدَّ قِتَال ، وبات الحجاجُ يحرِّضُ أصحابَه ، فلما أصبحوا باكَرُوا القِتَال ، واشتدَّت

(١) فى الكامل : مردنا عليك . وفى الطبرى : سودنا .

(٢) مسكن — بالفتح ثم السكون وكسر الكاف ونون . ويقال له مسكن بفتح الكاف ، وهو موضع من أو انا على نهر دجيل عند دير الجاثليق(المراصد) .

الحرْبُ ، فانهزم ابن الأَشْعث ومَنْ معه ، وقُتل عبد الرحمن بن أبى ليلى الفقيه ، وأبو البَخْتَرِى الطائى ، ومشى بِسْطام بن مَصْقلة بن هُبَيرة فى أربعةِ آلاف فارس من شُجْعَانِ أهلِ الكوفةِ والبَصْرة ، وكَسَرُوا جُفُونَ سيوفِهِم ، وحملوا على أهلِ الشام ، فكشفوهم مِرَارًا ،فدعا الحجاجُ الرُّمَاةَ فَرموهم ، وأحاط بهم الناسُ ،فقتلوهم إلا قليلاً . ومضى ابْنُ الأَشعث إلى سجستان .

وقد قيل فى هزيمة ابن الأَشعث بمَسْكِن أنه اجتمع هو والحجاج ، وكان العَسْكَران بين دِجْلَةَ والسِّيب (١) والكرخ (٢) ، فاقتتلوا شهرًا أو دونه ، فأتى شيخ فدلَّ (٣) الحجاجَ على طريقٍ من وراء الكَرْخ (٢) فى أَجَمة وضحضاح من الماء ، فأرسل معهم أربعةَ آلاف ، فسار بهم ، ثم قاتل الحجاجُ أصحابَ عبد الرحمن ، فانهزم الحجاجُ فعبر السِّيبَ ، ورجع ابْنُ الأَشعث إلى عَسْكَرِه آمنًا بعد أن نَهَبَ عسْكَرَ الحجاج ، فأَمِنَ أصحابُهُ ، وألقوا السلاحَ . فلما كان نصف الليل لم يشعروا إلَّا وقد أخذهم السيفُ مِن تلك السريّة ، فغَرِق من أصحاب عبْدِ الرحمن أكْثر مِمَّنْ قُتِل ، ورجع الحجاجُ على الصوت يقتل مَنْ وَجد ، فكان عِدّة من قُتل أربعة آلاف ، منهم عبد الله بن شداد ابن الهاد ، وبِسْطَام بن مصْقَلة ، وعمر بن ضُبَيْعَة الرقاشى ، وبِشْر ابن المنذر بن الجَارُود ، وغيرهم .

(١) السيب – بالكسر ثم السكون : نهر بالبصرة .
(٢) فى ك : الكرج – تحريف .
(٣) فى ك : يدل .

ذكر مسير عبد الرحمن الى رتبيل

وما كان من أمره وأمْرِ أصحابه

قال : ولما انهزم عَبْدُ الرحمن من مَسْكن سار إلى سجستان فأتْبعه الحجاج ابْنَه محمدًا وعُمارة بن تميم اللخمى ، وعُمَارةُ على الجيش ،فأدركه عُمارة بالسُّوس [١] ، فقاتله ساعةً ، ثم انهزم عبد الرحمن ومَنْ معه ، وساروا حتى بَلَغُوا نيسابور [٢] ، واجتمع إليه الأكراد ، فقاتلهم عُمارة قتالًا شديدًا على العَقَبة ، فجُرِح عمارة وكثيرٌ من أصحابه ، فانهزم عُمارة وتَرَك لهم [٣] العَقَبة ، وسار عَبْدُ الرحمن حتى أتى كِرْمان وعُمَارة يتْبعُه ، فلما وصل عَبْد الرحمن إليها لقيه عاملُه وقد هَيَّأ لَه منزلاً [٤] ، فنزل . ثم رحل إلى سِجستان فأتى زَرَنْج [٥] وفيها عامِلُه فأغلق بابها . ومَنَع عبْد الرحمن من دخولها ، فأقام عليها أيامًا ليفْتَحَها فلم يَصلْ إلى ذلك ، فسار إلى بُسْت [٦] ، وكان قد استعمل عليها عياض بن هِمْيان بن [٧] هشام السدوسى الشيبانى . فاستقبله فأنزله . فلما غفل عنه أصحابُه قبض عليه عياض ، وأوثقه ، وأراد أن يأْمنَ به [٨] عند الحجاج .

وكان رُتْبِيل مَلِكُ الترك قد سمع بمقدم عَبْدِ الرحمن ، فسار إليه

(١) السوس : بلدة بما وراء النهر (المراصد) .
(٢) فى الكامل : سابور . (٣) فى ك : ونزل بهم العقبة .
(٤) فى د : نزلا .
(٥) زرنج — بفتح أوله وثانيه ونون ساكنة وجيم: مدينة هى قصبة سجستان (المراصد) .
(٦) بست — بالضم: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة من البلاد الحارة كثيرة الأنهار والبساتين (المراصد) .
(٧) هذا بالأصل د، وفى الكامل. وفى الطبرى : أبو هشام بن عياض السدوسى
(٨) فى الطبرى : بها .

ليستقبلَه لما كان قد تقرَّر بينهما من العُهود والمواثيق كما تقدم .

فلما بلغه أنَّ عِيَاضا قد قُبِض عليه نزل على بُسْت ؛ وبعث إلى عِياض يتهدَّدُه بالقتل إن هو لم يُطْلِقْه ، فاستَأْمنه عِيَاض ، وأطلق عبد الرحمن ، ثم سار عبد الرحمن ع رُتْبِيل إلى بلادِه ، فأنزله وأكرمه وعظَّمه ، وكان ناسٌ كثير من أصحاب عبد الرحمن ممّن انهزم من الرءُوس وقادة الجيوش الذين لم يقبلوا أمان الحجاج ، ونصبُوا له العداوة فى كل مَوْطِنٍ قد بعثوا يستَدْعُونَه ويُخْبرونه أنهم على قَصْد خراسان ليَقْوَوْا بمَنْ بها مِنْ عشائرهم ، فأتاهم ابْنُ الأشعث . وكان عبْدُ الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبْدِ المطلب يُصَلِّى بهم إلى أنْ قدم ابْنُ الأشعث . فلما قدم عليهم سارُوا كلُّهم ففتحوا زَرَنْج ، وسار نحوهم عُمارة بن تميم فى أهل الشام ؛ فقال أصحابُ عبد الرحمن له : اخرُجْ بنا عن سجستان إلى خُرَاسان . فقال : إن بها يزيد بن المهلب ، وهو رَجُلٌ شُجَاع ، ولا يترُك لكم سلطانَه ، ولو دخلناها لقاتلنا وتتبعنا [1] أهْلُ الشام ، فيجتمع علينا أهْلُ خراسان وأهلُ الشام . فقالوا : لو دخلنا خراسان لكان من يتَّبعُنا أكثر مِمّنْ يقاتِلُنا . فسار معهم حتى بلغوا هَرَاة ، فهرب من أصحابه عُبيد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرة القُرَشى فى ألْفَيْن . فقال لهم عبد الرحمن : إنى كنْتُ فى مأْمن ومَلْجأ ، فجاءتْنِى كتبُكم أنْ أقبل ، فإنَّ أمْرنا واحد ، فاعلنا نُقَاتِل عدوّنا . فأتيتكم فرأيتم أنْ أمضى إلى خراسان، و [زعمتم] [2] أنكم مجتمعون لى [3] ولا تتفرّقون ، وهذا عبيد الله قد صنع

(١) فى الكامل : وتبعنا . (٢) من الكامل .
(٣) فى الكامل : إلى .

ما رأيتُمْ ،فاصْنَعُوا ما بَدا لكم ،أما أنا فمُنْصرِفٌ إلى صاحبى الذى أتيت ن عنده .

فتفرَّق منهم طائفةٌ وبقى معه طائفة ،وبقى عظم العسكر مع عبد الرحمن[١] بن العبّاس [فبايعوه[٢]] ، فأتوا هَرَاة ، فلقوا بها الرُّقَاد[٣] الأزدى فقتلوه ، فسار إليهم يزيد بن المهلب .

وقيل :لما انهزم ابْنُ الأشعث من مَسْكِن أتى عُبيْدُ الله بن عبْد الرحمن ابن سَمُرة هراة ، وأتى عبد الرحمن بن عباس سجستان ، فاجتمع معه فَل ابن الأشعث . فساروا إلى[٤] خُرَاسان فى عشرين ألفًا ، فنزل هرَاة ، ولقى الرُّقَاد [بن عبيد العَتَكى][٥] بها فقتلوه ، فأرسل إليه يزيد بن المهلب وهو عامِلُ خراسان يقول : قد كان لك فى البلاد مُتَّسع ، مَنْ[٦] هو أهون منى شَوْكَة ؛ فارتحل إلى بلد ليس [لى][٧] فيه سلطان ، فإنى أكره قِتَالَك ، وإن أردْتَ مالًا أرسلْتُ إليك . فأعاد الجوابَ : إنا ما نَزَلْنَا لمحاربةٍ ولا لمقام ، ولكن أردْنَا أن نُريح ، ثم نَرْحَل عنك ، وليسَتْ بِنَا إلى المالِ حاجة .

ثم أقبل عبد الرحمن بن العباس على الجِبَاية ، وبلغ ذلك يزيد ابن المهلب ، فقال : مَنْ أراد أن يُريح ثم يرحل لم يَجْبِ الخراجَ ،

(١) فى الطبرى : فوثبوا إلى عبد الرحمن .
(٢) زيادة فى الكامل .
(٣) فى ك : الرقاد بن عبيد العتكى . ورقاد — كغراب ، كما فى القاموس.
(٤) فى د : فسارا . وفى الكامل:سار .
(٥) زيادة فى الطبرى .
(٦) فى الطبرى : ومن ... وفى الكامل : وقد كان لك فى البلاد ممتنع .
(٧) ساقط فى ك .

وسار نحوه ، وأعاد مُرَاسلَتَه يقول : إنك قد أرَحْت وسمنْتَ وجبيْت الخراج ، فلك ما جبَيْتَ وزيادة ، فاخرُجْ عنى ، فإنى أكْرهُ قِتَالَك ؛ فأبى إلّا القتال .

وكاتَبَ جُنْدَ يزيد يَسْتَمِيلهم ويدعوهم إلى نَفْسه ، فعلم يزيد بذلك ؛ فقال : جلّ الأمْرُ عن العِتَاب ، ثم تقدَّم إليه فقاتله ، فلم يكن بينهما[1] كَثِيرُ قِتَال ، حتى تفرَّق أصحاب عَبْدِ الرحمن عنه ، وصبر وصبَرَتْ معه طائفةٌ ، ثم انهزموا .

وأمر يزيدُ أصحابَه بالكفِّ عن اتباعهم ، وأخْذِ ما كان فى عسكرهم ؛ وأسَرُوا منهم أسْرى ، منهم محمد بن سَعْد بن أبى وقَّاص ؛ وعمر ابن موسى بن عُبيد الله بن معمر ، وعيّاش[2] بن الأسود بن عوْف الزُّهرى ، والهِلْقَام بن نُعَيْم بن القعقاع بن معبد بن زُرارة ؛ وفَيروز ابن حصين ، وأبو العِلْج[3] مولى عُبَيد الله بن معمر ؛ وسوَّار ابن مرْوان ، وعبد الرحمن بن طلحة بن عبْد الله بن خلف الخُزاعى ، وعبد الله بن فَضالة الزَّهْرَانى الأزدى ، ولحق عبد الرحمن بن العباس بالسِّنْدِ ، وأتى ابْن سَمُرة مَرْو ، وانصرف يزيد بن المهلب إلى مَرْو ؛ وبعث الأسْرَى إلى الحجاج مع سَبْرَة بن نجدة[4] إلّا عَبد الرحمن ابن طلحة فإنه أطْلَقه .

وكان سبب إطلاقه أن حبيب بن المهلب قال لأخيه يزيد لما أراد

---

(١) فى الكامل : بينهم .

(٢) فى الكامل : وعباس .

(٣) فى الكامل : وأبو الفلج .

(٤) فى الطبرى : مع سبرة بن نجف . وفى الكامل : مع سبرة ونجدة .

أنْ يُسير الأسرى : بأى وَجْهٍ تنظر إلى اليمانية ، وقد بعثت عبد الرحمن ابن طلحة ؟ فقال يزيد : إنه الحجاج ، فلا تتعرض [١] إليه . قال : وطِّنْ نَفْسَك على العَزْلِ ، ولا ترسِلْ به ، فإنَّ له عندنا يَدًا . قال : وما هى ؟ قال : ألزِم المهلَّب فى مسجدِ الجماعة بمائة ألف ، فأدَّاها طَلْحَةُ عنه ، فأطلقه يزيد ، ولم يرسل أيضًا عَبْد الله بن فَضالة لأنه من الأزد ، وأرسل الباقين .

فلما قدموا على الحجاج أحضر فَيْروز ، فقال له الحجاج : أبا عثمان ، ما أخْرَجَك مع هؤلاء ؟ فوالله ما لَحْمُك من لحومهم ، ولا دمُك من دِمَائهم . قال : فِتْنَةٌ عَمَّت الناسَ . قال : اكتب لى أموالَك . قال : اكتب ياغلام ألف ألف وألفى ألف ، فذكر مالًا كثيرًا . فقال الحجاج : أين هذه الأموال ؟ فقال : عندى . قال : فَأَدِّها . قال : وأنا آمِنٌ على دَمِى ؟ قال : والله لتؤدِّيَنَّها ثم لأقتلنَّك . قال : والله لا يجتمعُ دَمِى ومالى . فأمر به فنحى ، ثم أحضر محمد ابن سعد بن أبى وقاص ، فقال : ياظلَّ الشيطان ، أعظم الناس تِيها وكبرًا ، تَأْبَى بَيْعَةَ يزيد بن معاوية وتتشبه بالحُسين وابن عمر ، ثم صِرْت مؤذنًا [٢] . وجعل يضربُ رأسَه بعمود [٣] فى يده حتى أدْمَاه ، ثم أمر به فقُتل .

ثم دعا بعمر بن موسى ، فقال : ياعَبْد المرأة ، تقوم بالعمود على

(١) فى د : ولا . وفى الطبرى . والكامل : ولا يتعرض له .
(٢) فى الطبرى : مؤذنا لابن كناز عبد بنى نصر — يعنى عمر بن أبى الصلت .
(٣) فى الطبرى والكامل : بعود .

رأس [١] ابن الحائك - يعنى ابن الأشعث وتشربُ معه فى الحمام[٢].
فقال : أصلح اللهُ الأمير ، كانت فتنة شمِلَت البَرَّ والفاجر ، فدخلنا فيها ، وقد أمكنك اللهُ منَّا ، فإن عفَوْتَ فبِفَضْلك وحلْمِك ، وإن عاقَبْتَ عاقَبْتَ ظلمَةً مُذْنِبين .

فقال الحجاج : إنها شَمِلَت الفجّار ، وعُوفِى منها الأبرار ، أمَّا اعترافُك فعسى أن ينفعك ، فرجا[٣] الناس السلامة . ثم أمر به فقُتل .

ثم دعا بالهِلْقَام بن نُعيم ،فقال له : احْسبْ [٤] أن ابْنَ الأشعث طلب ماطلب ، ما الذى أمَّلْت أنْت معه ! قال : أمَّلْتُ أنْ يملك فيولِّينى العراقَ كما ولَّاكَ عبْدُ الملك إياه ، فأمر به فقُتل . ودعا عبْدالله بن عامر . فلما أتاه قال له : يا حجاج ، لا رأت عينك الجنة إنْ أفلت [٥] ابْنُ المهلب بما صنع ، قال : وما صنع ؟ قال :

لأُنه كاس [٦] فى إطلاقِ أسرتِـه وقاد نَحْوكَ فى أغْلالها مُضَرا
وقَى بِقَومِكَ وِرْد الموتِ أُسْرتَـه وكان قومُكَ أدْنَى عنده خَطَرا

فأطرق الحجاجُ ، ووقرتْ فى قلبه ، وقال : ما أنْت وذاك ؟ ثم أمر به فقُتِل .

---

(١) فى الكامل : على رأسك ابن الحائك . والمثبت فى الطبرى أيضا.
(٢) فى الطبرى : وتشرب معه الشراب فى حمام .
(٣) فى ك : ورجا .
(٤) فى الكامل : أحببت - تحريف .
(٥) فى الطبرى : أفلت . وفى الكامل : إن أفلست ، فقال : جزى الله ابن المهب خيرا بما صنع .
(٦) كاس : انقلب (اللسان) . والبيتان فى الطبرى ، والكامل .

ثم أمر بفَيْرُوز فعُذِّب ، فلما أَحَسَّ بالموت قال للموكَّلِ بعذَابه : إنَّ الناس لا يشكُّون أنى قد قُتِلت ، ولودائعُ وأموالٌ عند الناس لا تؤدَّى إليكم أبدا ؛ فأَظهرنى[1] للناس ليعلموا أنى حى ، فيؤدّوا المال.

فأَعلم الحجاج بقوله ، فقال : أَظهروه[2] . فأُخرج إلى بابِ المدينة ، فصاح فى الناس : منْ عرفنى فقد عرفنى ، ومنْ أَنكرنى فأَنا فيروز بن حُصين ، إن لى عند أَقوامٍ مالا ، فمنْ كان لى عنده شىء فهُوله ، وهو منه فى حِلّ ، فلا يؤد أَحَد دِرْهما ، ليبلغ الشاهِدُ الغائب ، فأَمر به الحجاج فقُتِل .

وأَمر بقتل عمر بن[3] قرّة الكندى ، وكان شريفًا ، وقتل أَعشى همدان ، وأُتى بأَسيرين فأَمر بقتلهما ، فقال أَحدهما ، إن لى عندك يدًا . قال : وما هى ؟ قال : ذكر عَبْدُ الرحمن يومًا أُمكَ بسوء فنهيته . قال : منْ يعلم ذلك ؟ قال : هذا الأَسير الآخر . فسأَله الحجاج فصدقه. فقال له الحجاج : فلم لم تفعل كما فعل ؟ قال : وينفعنى الصِّدْقُ عندك ؟ قال : نعم . قال : منعنى البُغْضُ لك ولقومك . قال : خلُّوا عن هذا لفِعْله . وعن هذا لصِدْقِه .

---

(١) فى الطبرى : فأظهرونى .
(٢) فى ك : أظهره .
(٣) فى الكامل : ابن أبى قرة .

وأما ابن الأشعث فإنه سار إلى رُتبيل، فأقام عنده ، فكتب إليه الحجاج : أن ابْعَثْه إلىّ وإلّا فوالذى لا إلٰه غيره لأُوطِئَنَّ أرْضَك ألْفَ ألفِ مقاتل، وكان مع عبد الرحمن رجل من تميم اسمه عُبيد ابن سبيع (١) التميمى، وكان رسولَه إلى رُتْبِيل . فقال القاسم بن محمد ابن الأشعث لأخيه عَبْد الرحمن : إنى لا آمَن غدْرَ هذا التميمى فاقتله . فخافه عُبيد على نفسه ، فوشَى به إلى رُتْبيل، وخوّفه الحجاج، ودعاه إلى الغدْرِ بابْنِ الأشعث ، وقال له : أنا آخُذُ لك من الحجاج عهْدًا ليكفَّنَّ (٢) عن أرضك سبْع سنين ، على أن تدْفَع إليه عبْد الرحمن ، فأجابه إلى ذلك .

فخرج عُبيد إلى عُمارة سِرًّا فذكر ذلك له ، فكتب عُمارة إلى الحجاج بذلك . فأجابه إليه ، وبعث رُتبِيل برأسِ عبد الرحمن ، وذلك فى سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين .

وقيل : إن عبْد الرحمن كان قد أصابه السل فمات فقطَع رُتْبِيل رأسه .

وقيل : إن رُتبِيل لما صالح عُمارة بن تميم اللخمى عن (٣) ابن الأشعث كتب عُمارة إلى الحجاج بذلك ، فأطلق له خَراج بلادِهِ عشْر سنين ،

(١) فى الطبرى : عبيد بن أبى سبيع .
(٢) فى ك : ليكفف . وفى الطبرى : ليكفن الخراج ...
(٣) فى الكامل : على .

فأرسل رُتْبِيل إلى عبْدِالرحمن وثلاثين من أهْلِ بيته ، فحضروا عنده ، فقيّدهم وأرسلهم إلى عُمارة ، فألقى عبْدُ الرحمن نَفْسَه من سَطْح قصرٍ فمات ، فاحتزَّ رأسه ، وسيّره إلى الحجاج ، وسيّره الحجاجُ إلى عبد الملك مع عرار بن عمْرو بن شأس ، وكتب معه كتابًا ، فجعل عبْدُ الملك يقرأ كتاب الحجاج ، فإذا شكّ فى شىء سأل عرارا عنه فيخبره به ، وكان عرار أسْودَ اللون ، فعجِبَ عَبْدُ الملك من بيَانه وفصاحته مع سواده ، وهو لا يعْرِفُه فتمثّل[1] :

وإن[2] عِرارًا إن يكن غَيْر واضح فإنى أحبُّ الجوْنَ ذا المَنْطِقِ العمم

فضحك عرار ، فقال له عبْدُ الملك : مالك تَضْحك ؟ فقال : أتعرف عِرارًا يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : فأنا هو . فضَحِك عبْدُ الملك ثم قال : حظّ وافق حكمة . وأحسن جائزته ، وسرّحه .

وروى أبو عمر بن عبد البر بسندٍ رفعه إلى العُتْبِى عن أبيه ، قال[3] : كتب الحجاجُ إلى عَبْدِ الملك كتابًا يصِفُ له فيه أهْل العراق وما ألْفَاهم عليه من الاختلافِ وما يكرهه[4] منهم ، وعَرَّفَه ما يحتاجون إليه مِنَ التقويم والتأديب ، ويستأْذِنُه أن يُودِعَ قلوبهم من الرهبة ما يخِفُّون به إلى الطاعة ، ودعا رجُلاً مِنْ أصحابه كان يأْنَس به ، فقال له : انطلِقْ بهذا الكتاب ،ولا يَصِلَنَّ مِنْ يدكِ إلّا إلى يدِ أمير المؤمنين ، فإذا قبضَه فتكلّم عليه .

(١) واللسان — عمم .
(٢) فى اللسان : فإن ... ذا المنكب العمم . ومنكب عمم : طويل .
(٣) الاستيعاب : ١١٨٠
(٤) فى الاستيعاب: وما يكره .

ففعل الرجل ذلك ، فجعل[١] عبد الملك كلّما شكّ فى شىء يستفهمه[٢] ، فوجده أبلغ من الكاتب[٣] ، فقال [عبد الملك][٤] :

وإن عرارًا إن يكن غير واضِح ... البيت.

فقال [له][٥] الرجل : يا أمير المؤمنين ، أتدرى مَنْ يخاطبك ؟ قال : لا. قال : أنا عرار ، وهذا الشّعر لأبِى ، وذلك أنّ أمى ماتت وأنا مُرْضع ، فتزوّج أبِى امرَأةً فكانت تُسىء[٦] ولايتى ، فقال أبِى :

فإن كُنْتِ منى أوْ[٧] تُرِيدَيْنَ صُحْبتى
فكُونِى له كالشَّمْسِ رُبَّت بـــه الأدمْ
وإلّا فسِيرى سيْرَ راكبِ ناقَـــــةٍ
تيمَّـــــم خَبْتًا ليس فى سيره أَمَم
أرادتْ عـــرارًا بالهَـــوان ومنْ يُرد
عرارًا لعمْرِى بالهَوان لقـــد[٨] ظَلَم
وإنَّ عرارًا إنْ يكُنْ غَيْر واضـــــح
فإنِّى أُحِبُّ الجوْنَ ذَا المنْطَق العمم

ولما جىء بالرأس إلى عبْدِ الملك أرسله إلى أخيه عبد العزيز بمصر ، فقال بعض الشعراء :

---

(١) فى الاستيعاب : و جعل :
(٢) فى الاستيعاب : استفهمه .
(٣) فى الاستيعاب : الكتاب .
(٤) زيادة فى الاستيعاب .
(٥) ساقط فى ك .
(٦) فى ك : تنسى — تحريف .
(٧) فى ك : إذ .
(٨) فى د : فقد. والمثبت فى الاستيعاب أيضا .

هيهات موضِعُ جُثَّـــةٍ مِنْ رأسهـــا
رأسٌ بمصر وجُثَّـــةٌ بالرُّخَّجِ (١)

وقيل : إن هلاك عبد الرحمن كان فى سنة [٨٤هـ] أربع وثمانين.

ولنرجع إلى تتمة حوادث السنين :

وفى سنة (٨١ هـ) احدى وثمانين :

حج بالناس سليمان [بن عبد الملك] (٢) .

سنة (٨٢ هـ) اثنتين وثمانين :

فى هذه السنة كانت وفاة المغيرة بن المهلَّب بخُراسان فى شهر رجَب منها ، وكان أبوه قد استخلفه على عَمَلِه .

ذكر وفاة المهلب بن أبى صفرة

ووصيّته لبَنِيه وولاية ابنه يزيد خُراسان

وفى هذه السنة تُوفى المهلَّب بن أبى صُفْرَة بمَرْو الروذ بالشَّوْصَة وقيل بالشَّوْكه (٣) ، وأوصى إلى حبيب ابنه فصلَّى عليه ، وقال لبنيه : إنى قد استخلفْتُ عليكم يزيد فلا تخالفُوه . فقال ابنه المفضّل : لو لم تقدمه لقدمناه ، وأحضر ولده فأوصاهم ، وأحضر سِهاما مخزُومة فقال : أتكسِرُونها مجتمعةً ؟ قالوا : لا . قال : أفتكسرونها متفرِّقةً ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة . ثم قال : أوصيكم بتقْوى اللهِ ، وصلة الرحم ، فإنها تنسىء فى الأَجل وتثرى المال ، وتكثر العدد ؛

(١) رخج — بتشديد ثانيه ، وقيل بإسكانه ، وآخره جيم : كورة من أعمال سجستان ، ومدينة من نواحى كابل (المراصد) .

(٢) ساقط من ك .

(٣) فى الطبرى: أصابته الشوصة : وقوم يقولون الشوكة . والشوصة : وجع فى البطنِ أو ريح تعتقب فى الأضلاعِ ، أو ورم فى حجابها من داخل (القاموس) .

وأنهاكُم عن القَطِيعةِ ؛ فإنها تُعقِبُ النار والذلَّة والقلَّة ، وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكُنْ فعالكم أفْضَل مِنْ مقالكم [١] ، واتَّقُوا الجواب وزلَّةَ اللسان ، فإن الرجل يزلُّ قَدَمُه فينتعش [٢] ، ويزل لسانُه فيهلك ، واعْرفُوا لمنْ يغْشاكم حقَّه ، فكفى بِغُدوِّ الرجل ورَوَاحه إليكم تذكرةً له ، وآثِرُوا الجُودَ على البخل ، وأحبُّوا العرب [٣] ، واصنعوا المعروف [٤] ؛ فإن الرجل من العرب تَعِدُه العِدةَ فيموت دونك ، فكيف بالصنيعة عنده ! وعليكم فى الحرب بالتؤدة [٥] والمكيدة ، فإنهما [٦] أنْفَعُ من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فإن أخَذَ الرجلُ [٧] بالحَزْم فظفِرَ قيل : أتى الأَمْرَ من وجهه فظفر فحمد ، فإن لم يظفر [بعد الأناة] [٨] قيل : ما فرَّط ولاضيَّع ، ولكن القضاء غالب . وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنن وآداب [٩] الصالحين ، وإياكم وكَثْرَةَ الكلام فى مجالسكم .

ومات رحمه الله .فكتب ابنه يزيد إلى الحجاج يعلمه بوفاته ، فأقره على خراسان .

* * *

وفيها عزل عَبْدُ الملك أبان بن عثمان عن المدينة فى جمادى الاخرة ، واستعمل عليها هشام بن إسماعيل المخزومى .

---

(١) فى الطبرى : من قولكم .
(٢) فى ك : فينتجش . والمثبت فى الكامل والطبرى .
(٣) فى الكامل : العرف . والمثبت فى الطبرى.
(٤) فى الطبرى : العرف .
(٥) فى الطبرى : بالأناة .
(٦) فى الطبرى والكامل : فإنها .
(٧) فى الطبرى : رجل .
(٨) زيادة من الطبرى.
(٩) فى الطبرى والكامل : وأدب .

وحجّ بالناس أبَان بن عثمان .

سنة (٨٣ هـ) ثلاث وثمانين :

ذكر خبر عمر بن أبى الصلت

وخَلْعه الحجاج بالرىّ وما كان من أمْره

قال : لما ظفر الحجاجُ بابْنِ الأشعث لحق خَلْقٌ كثير من المنهزمين بعُمَر بن أبى الصّلت ، وكان قد غلب على الرىّ فى تلك الفتنة ، فلما اجتمعوا بالرَّىِّ أرادوا أن يحظوا عند الحجاج بأمْرٍ يَمْحُون به عن أنفسهم عَثْرَة [١] الجماجم ، فأشاروا على عُمَر بخَلْع الحجاج وقُتَيْبة ، فامتنع ، فوضعوا عليه أباه ؛ أبا الصَّلت ، وكان به بارًّا ، فأشار بذلك عليه وألْزَمَهُ به ، وقال : يابنى ، إذا سار هؤلاء تحت لوائك لا أبالى أنْ تُقْتل غدًا . ففعل . فلما قارب قُتَيْبَة الرَّىَّ استعدّ لقتالِه ، فالتقوا ، واقتتلوا ، فغَدَر أصحاب عُمر به وأكثرُهُمْ من تميم ، فانهزم ولحق بطبرستان ، فآواه الأصْبَهْذ [٢] وأكْرَمه وأحسن نزله ، فقال عُمر لأبيه : إنك أمَرْتَنى بخَلْع الحجاج وقُتَيْبَة فأطَعْتُك وكان خلاف رَأْيى ، ولم أحمد رَأْيَك ، وقد نزلنا بهذا الأصْبَهذ فدَعْنِى حتى أثب إليه [٣] فأقتله . وأجلس على مَمْلَكته ، فقد علمت الأعَاجم أنِّى أشْرفُ منه . فقال أبوه : ما كنت لأفعل هذا برجُلٍ [٤] آوَانَا وأكْرَمَنا وأنْزَلنا . فقال عمر : أنْتَ أعلم ، وسترى .

ودخل قُتَيْبَة الرى ، وكتب إلى الحجاج بانهزام عُمَر إلى طبرستان . فكتب الحجاج إلى الأصْبَهْذ [٢] أنِ ابعث بهم أو برءوسهم [٥] ، وإلا فقد

---

(١) فى ك : عيرة . والمثبت فى د ، والكامل .

(٢) وتاج العروس . (٣) فى د ، والكامل : عليه .

(٤) فى الكامل : بالرجل . (٥) فى الكامل : بهما أو برءوسهما .

بَرِئَتْ منك الذمَّةُ ، فصنع لهم الأَصْبَهْذ طعامًا وأحضرهم ،فقتل عمر ، وبعث أَبَاه أَسِيرًا . وقيل : قتلهم وبعث برءوسهم . والله أعلم .

ذكر بناء مدينة واسط

وفيها بَنَى الحجاج مدينة واسط ، وسبَبُ ذلك أنَّه ضربَ البَعْثَ على أهل الكوفة إلى خُرَاسان وعَسْكر بحمَّام عُمر ، وكان فتًى من أهل الكوفة حديثَ عهد بعُرْس [بابنة عمٍّ له] [١] ، فانصرف مِنَ العسكر إلى ابنة عمه ، فطُرق [٢] عليه الباب طَرْقًا شديدًا ، فإذا سكرانُ من أهل الشام ، فقالت المرأة لبَعْلِها : لقد لقينا من هذا الشامى شرًّا يفعَلُ بنا كلَّ ليلة ما ترى - يُريد المكروه ، وقد شكَوْتُه إلى مشيخة أصحابِه. فقال : ائذنى له ، فأَذِنَتْ له . فلما دخل قَتله زَوْجُها .

فلما أَذَّن الفَجْرُ خرج إلى العسكر وقال لابنة عمه : إذا صلَّيْت الفَجْر فابعثى إلى الشاميين ليأْخذوا صاحِبَهُم ، فإذا أحضروك إلى [٣] الحجاج فاصْدُقِيه الخَبَرَ على وجْهه ، ففعلَتْ ،وأُحضرت إلى الحجاج ، فأَخبرته فصدَّقها ، وقال للشاميين : خُذُوا صاحِبَكم لا قَوَد له ولا عَقْل ، فإنه قَبِيل [٤] الله إلى النار . ثم نادى منادٍ : لا ينزلنَّ أَحَدٌ على أَحَدٍ ، وبعث روَّادًا يرتادُونَ له مَنْزِلا ،وأقبل حتى نزل بموضع [٥] واسط ، وإذا راهبٌ قد أَقْبَل على حمارٍ ، فلما كان بموضع واسط بَال الحِمارُ ، فنزل الراهبُ فاحتفر [٦] ذلك البَوْلَ ورماه فى دجْلة

(١) زيادة فى الطبرى .
(٢) فى الطبرى والكامل : فطرق الباب طارق .
(٣) فى الكامل : عند . (٤) فى الكامل : قتيل.
(٥) فى د : والكامل : موضع . (٦) فى ك : فاحتقن .

والحجاجُ ينظرُ إليه، فاستحضره وقال له : ما حَمَلَك على ما صنَعْت؟ قال : نَجِد فى كتبنا أنه يُبْنَى فى هذا الموضع مسجد يُعْبَدُالله فيه ما دام فى الأَرض أَحَد يوحِّد الله .

فاختطّ الحجاج مدينة واسط وبنى المسجد فى ذلك الموضع .

وحجّ بالناس فى هذه السنة هشام بن إسماعيل .

سنة (٨٤ هـ) أربع وثمانين :

فى هذه السنة قتل الحجاج أيوب بن القِرِّيَّة [١] ، وكان مع ابْن الأشعث ، فلما هُزِم التحق أيّوب بحوشب بن يزيد عامل الحجاج على الكوفةِ ، فاستحضره الحجاج وقتله .

وحجّ بالناس هشام بن إسماعيل.

سنة (٨٥ هـ) خمس وثمانين :

ذكر عزل يزيد بن المهلب عن خراسان

وولاية أخيه المفضل

وفى هذه السنة عزَل الحجاجُ يزيد بن المهلَّب عن خُرَاسان ، وكان سبب عزْلِه أنَّ الحجاج وفد إلى عبد الملك فمرَّ فى طريقه براهبٍ ، فقيل له : إنَّ عنده عِلْمًا ، فأَحضره الحجاجُ ، وسأَله : هل تَجِدُون فى كتُبكم ما أنتم فيه ونحن ؟ قال : نعم . قال : فَمُسمًّى أو موصوفًا ؟ قال : كلُّ ذلك نجده موصوفًا [٢] بغير اسم ومُسمًّى بغير صفةٍ [٢] . قال : فما تَجِدُون صفةَ أمير المؤمنين؟ قال : نجده فى زمانِنا ملك أفرع منْ يقم لسبيله يُصْرَعْ . قال : ثم

(١) الضبط فى المشتبه :

(٢) فى الطبرى : كل ذلك موصوف ، واسم بغير صفة .

منْ [١] ؟ قال : اسم رجل يقال له الوليد ، ثم رجل اسمه اسم نَبِىّ يُفْتَحُ به على الناس . قال : [أتعرفنى ؟ قال : قد أُخبِرت بك . قال: أفتعلم ما أَلِى ؟ قال : نعم] [٢] . قال :أفتعلم منْ يَلِى بَعْدى ؟ قال : نعم ، رجل يقال له يزيد ، قال : أفتعرف صِفَته ؟ قال : يَغْدر غَدْرَة ، لا أعرِف غير هذا .

فوقع فى نفسه أنه يزيد بن المهلب ، ثم سار وهو وَجِل من قول الراهب . فلما عاد كتب إلى عَبْد الملك يذمُّ يزيد وآل المهلب ، ويخبره أنهم زُبَيْرِية .

فكتب إليه عبْدُ الملك : إنى أرى طاعَتَهم لآل الزبير نَقْصًا لال المهلب ؛ بل وفاؤُهم لهم يدْعُوهم إلى الوَفَاء لى .

فكتب إليه الحجاج يخوِّفُه غَدْره .

فكتب إليه : إنك قد أكثَرْتَ فى يزيد وآل المهلب فسمِّ رجُلاً يصلُح لخراسان. فسمَّى له قُتَيْبَة بن مسلم ، فكتب إليه أنْ وَلِّه . فكرِهَ الحجاجُ أن يكتب إليه بعزْله ، فكتب إليه يأْمره أن يستخلف أخاه المفضّل ويُقْبِلَ إليه .

فاستشار يزيدُ حُضَين [٣] بن المنذر الرَّقَاشى : فقال له : أَقِمْ واعْتَلّ ، واكتب إلى أمير المؤمنين ليقرّك ، فإنه حسَنُ الرَّأْيِ فيك .

فقال له يزيد : نحن أهلٌ قد بُورِكَ لنا فى الطاعة ، وأنا أكرَهُ الخِلَافَ . وأخذ يتجهزُ فأبطأ .

---

(١) فى الطبرى : ثم من يليه . (٢) من الطبرى .

(٣) فى الكامل : حضين بالحاء المهملة المضمومة والضاد المعجمة المفتوحة وآخره نون. وفى ك :حصين بالصاد المهملة ـ تحريف .

فكتب الحجاج إلى المفضّل : إنى قد ولّيتُك خُرَاسَان ، فجعل المفضل يستحثُّ يزيد ، فقال له [يزيد] (١) : إنَّ الحجاج لا يقرُّك بعْدِى ، وإنما دعاه إلى ما صنع مخافةُ أنْ أمتنِعَ عليه ، وستعلم .

وخرج يزيد فى شهر ربيع الآخر سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين ، وأقَرَّ الحجاجُ أخاه المفضّل تسعة أشهر ، ثم عزله ، واستعمل قُتَيْبة على ما نذكره ، وسار يزيد بن المهلب فكان (٢) لا يمرُّ ببلد إلّا فرش أهلُها الرياحين .

ذكر أخبار موسى بن عبد الله بن خازم

واستيلائه على تِرْمِذ(٣)

وما كان من حروبه مع العَرَب والترك وخَبَر مَقْتَله

كان موسى بنُ عَبْد الله قد استولى على تِرمذ ،وأخرج تِرْمِذ شاه عنها ، وسببُ ذلك أن أباه عبد الله لما قَتل مَنْ قَتَل مِنْ بنى تميم بخراسان (٤) كما تقدَّم ذِكْرُ ذلك فى أثناء أخبار عَبْدِ الله ابن الزُّبير تَفَرَّق عنه أكثرُ مَنْ كان مَعه مِنْهم ،فخرج إلى نيسابور ، وخاف بنى تميم على ثَقَلِهِ بمَرْو ،فقال لابنه موسى :خُذْ ثَقَلى واقطع

(١) زيادة فى الطبرى .

(٢) العبارة فى الكامل: فكتب إليه الحجاج أن أقدم ، فسار إليه ، فكان لا يمر...

(٣) فى المراصد: الناس يختلفون فى هذا الاسم والمعروف أنه بكسر التاء والميم. وأهل المدينة متداول على لسانهم بفتح التاء وكسر الميم ،وبعضهم يقول بضمها ، وهى مدينة من أمهات المدن المشهورة راكبة على جيحون شرقيه .

(٤) فى الطبرى : بفرتنى . وفى ياقوت : فرتنى : قصر بمرو الروز .

نَهْرَ بَلْخ حتى تَلْتَجىء[١] إلى بَعْض الملوك أو إلى حِصْنٍ تكون[٢] فيه .

فرحل موسى عن مَرْو فى عشرين ومائتى فارس ،واجتمع إليه تتمةُ أربعمائة ، وانضوى[٣] إليه قوم من بنى سُليم[٤] ، فأتى زُمّ[٥] ، فقاتله أهلُها ، فظفر بهم ، وأصاب مالًا ، وقطع النهر . فأتى بُخَارى فسأل صاحبَها أنْ يَلْجَأَ إليه ، فأبى وخافه . [وقال : رجل فاتك][٦] فلا آمنه ، ووصلَه ، وسار فلم يَأْت ملكا يَلْجَأُ إليه إلّا كره مقامه عنده .

فأتى سمر قند ، فأكرمه ملكها طَرْخُون وأذن له فى المقام بها ، فأقام بها ما شاء الله . وكان لأهل الصُّغْد مائدة تُوضع فى كل عام مرةً ، عليها خبز ولحم وخَلّ وإبريق شَرَاب ، يجعلون ذلك لفارِس الصُّغد فلا يَقْرَبُه غيره ، فإن أكلَ منه بارزَهُ الفارس ، فأيّهما قَتَلَ صاحبه كانت المائدةُ له ، وكان الفارس المشار إليه ، فرآها رجَلٌ من أصحاب موسى ، فقال : ما هذه ؟ فأُخبر ،فأكَلَ ما عليها. وجاء الفارسُ مُغْضَبًا ، فقال : يا أعرابى ، بارِزْنى ، فبارزَه فقتلَه صاحبُ موسى ، فقال ملك الصُّغد : أنْزَلْتُكم وأكرمْتُكم فقتلْتُم

(١) فى الطبرى : تلجأ .
(٢) فى الطبرى والكامل : تقيم فيه .
(٣) فى الكامل : وانضم .
(٤) فى الطبرى : قوم من الصعاليك .
(٥) زم – بضم أوله وتشديد ثانيه : قيل : هى بئر لبنى سعد .وقيل: ماء لبنى عجل فيما بين أدانى طريق الكوفة إلى مكة والبصرة (المراصد) .
(٦) ساقط فى ك .

فارسى ، فلولا أنى أمنتك وأصحابك لقتلتك [١] ، اخرجوا عَنْ بَلَدى .

فخرجوا ، فأتى موسى كشّ ، فضَعُف صاحبُها عنه ، فاستنصر طَرْخُون فأتاه ، فقاتله موسى وقداجتمع معه سبعمائة فارس يومًا حتى أمْسوا وتحاجَزُوا ، ثم اتفقوا أن يرْتَحِل موسى عن كشّ ؛ فسار فأتى تِرْمِذ وبهاحصْنٌ يُشْرِفُ على جانب النهر ، فنزل موسى خارج الحصن وسأل ترمذ شاه [٢] أن يُدْخله الحِصْنَ فأبى ، فأهدى له موسى ولَاطَفه حتى أنس به ، وصارت بينهما مودّة ، وتصيّدمعه ، وصنَع صاحبُ تِرْمِذ [٣] طعامًا ،وأحضر موسى ليأكل معه ، وشرط ألّا يحضر إلّا فى مائة من أصحابه ، فاختار موسى مائة منهم ، فدخلوا الحِصْنَ وأكلوا ، فلما فرغوا قال له ترمذشاه : اخرج. قال : لا أخْرُج حتى يكونَ الحِصْنُ بيْتِى أوْ قَبْرِى ، وقاتلهم فقَتَلَ منهم عدّةً وهرب الباقون ، واستولى موسى عليها ، وأخْرَج ترمذشاه منها ، ولم يعْرِضْ له ، ولا لأصحابه .

فأتوا التُّرْكَ يستنصرونَهُمْ على موسى ، فلم يَنْصروهم ، وقالوا : لا نقاتل هؤلاء .

وأقام موسى بتِرْمِذ ، وأتاه جمْعٌ من أصحاب أبيه فقَوِى بهم ، فكان يُغير على ما حَوْله .

---

(١) فى د ، والطبرى : لقتلتكم .

(٢) فى الطبرى : فنزل موسى على بعض دهاقين الترمذ .

(٣) فى الطبرى : صاحب الترمذ .

وولى بُكَيْر بن وسَّاج[١] خراسان فلم يعرض له ، ثم قدم أُمَيَّة[٢] . فسار يُرِيدُه ؛ فخالفه بُكير ، فرجع على ما تقدم[٣] ، ثم وجَّه أُميَّة رجلاً من خُزَاعة فى جَمْع كثير لقِتَالِ موسى ، فجاء إلى تِرْمِذ وحصره ، فعاد أَهْلُ تِرْمِذ إلى الترك ، واستنصروهم وأعلموهم أنه قد غَزَاه قَوْمٌ من العَرَب وحصَرُوه ، فسارت التُّرْك فى جمْعٍ كثير[٤] إلى الخزاعى فأطاف بموسى العرَبُ[٥] والترك : فكان يقاتِلُ الخزاعى أول النهار والتُّرك آخر النهار ، فقاتلهم شَهْرَين أو ثلاثة .

ثم أراد أن يُبيِّت الخزاعى ؛ فقال له عمرو بن خالد بن حُصَيْن الكِلاَبِى : بَيِّت العجم ، فإنَّ العرب أشد حَذَرًا وأجْرَأ[٦] على الليل : فوافقه .

وأقام حتى ذهب ثلث الليل، وخرج فى أربعمائة ، وقال لعمْرو ابن خالد : اخرج بَعْدَنا أنت ومن معك [منا] [٧] قريبًا ، فإذا سمعْتُم تَكْبِيرنا فكبِّرُوا .

ثم سار حتى ارتفع فَوْقَ عسكر الترك ورجع إليهم ، وجعل أصحابه أرباعًا ، وأقبل إليهم ، فلما رآهم أصحابُ الأَرْصَاد قالوا : مَنْ أنتم ؟ قالوا : عابِرُو سبيل . فلما جاوزُوا الرصد حملوا على التُّرْك وكبَّرو

(١) فى الطبرى : وشاح .
(٢) فى الكامل : ثم قدم أمية فسار بنفسه يريد مخالفة بكير .
(٣) فى الطبرى : فرجع إلى مرو .
(٤) فى د : كبير .
(٥) فى الطبرى : الترك والخزاعى .
(٦) فى د : وأجراء . (٧) من الطبرى .

فلم يشْعُر الترك إلّا بوَقْع السيوف فيهم ، فثاروا [١] يَقْتلُ بعضهم بعضًا وولّوا . فحوى موسى ومنْ معه عَسْكَرهم ، وأصابوا سِلَاحًا كثيرًا ومالًا ، وأُصيب من أصحابِ موسى ستة عشر رجلا ، وأصبح الخُزَاعى وأصحابُه وقد كسرهم ذلك ، وخافُوا مِثْلَها ، فقال عَمْرو بن خالد لموسى : إنَّا لا [٢] نظْفَرُ إلَّا بمكيدة ، ولهؤلاء أمْدَادٌ تأْتيهم ، فدَعْنِى آتِه لَعلِّى أُصِيبُ فُرْصَة فأَقتل الخزاعى ، فاضربنى . فقال موسى : تتعجَّل الضَّرْب ، وتتعرَّض للقتل؟ قال : أما التعرضُ للقَتْل فأنا كل يوم متعرِّض له ، وأما الضَّرْب فما أيْسره فى حُبٍّ [٣] ما أُرِيد . فضربه موسى خمسين سَوْطًا ، فخرج حتى أتى عَسْكر الخزاعى مستَأْمِنًا ، وقال : أنا رَجلٌ من أهل اليمن كنْتُ مع عَبْد الله بن خازم ، فلما قُتِل أتيْتُ ابْنَه فكنْتُ معه ، وإنه اتهمنى وقال : قد تعصَّبْت لعَدُوِّنَا ، وأنْتَ عيْنٌ له ، ولم آمن القَتْلَ ، فهربْتُ منه .

فأَمَّنَهُ الخُزَاعِىّ ، وأقام معه ، فدخل يومًا فلم يرَ عنده أحدًا ولا معه سلاحًا ، فقال له كالناصح : أصلح اللهُ الأَمير ، إنَّ مثلك فى مِثْل هذا الحال لا ينبغى أن يكونَ بغير سِلَاح . قال : إن معى سلاحًا ، ورفع طَرف فراشِه ، فإذا سيف مُنْتَضى ، فأخذه عَمرو فضرب به الخُزاعى حتى قتله ، وخرج فركب فَرَسَه وأتى موسى .

وتَفَرَّق ذلك الجَيْش ، وأتى بَعْضُهم موسى مستأْمِنًا فأَمّنه ، ولم يوجّه إليه أُمية أحدًا .

---

(١) فى الكامل : فساروا .

(٢) فى الطبرى : إنك لا تظفر .

(٣) فى الطبرى والكامل : فى جنب .

وعزل أمية ، وقدم المهلّب [أميرا] (١) ، فلم يعْرِضْ لموسى ، وقال لبنيه : إياكم وموسى ، فإنكم لاتزالون وُلَاةَ خراسان مادام هذا الثَّطُّ (٢) بمكانه ، فإن قُتل فأول طالع عليكم أمير خراسان مِنْ قَيْس .

فلما مات المهلّب وولى يزيد لم يعرض (٣) إليه أيضًا ، وكان المهلب قد ضرب حُرَيْث بن قُطْبة الخزاعى ، فخرج هو وأخوه ثابت إلى موسى ، فلما ولى يزيد بن المهلّب أخذ أموالهما ، وقتل أخاهما لأمهما الحارث بن مُنْقذ ، فخرج ثابت إلى طرخون ، فشكا إليه ماصنع به يزيد ، وكان ثابت محبوبًا إلى الترك بَعيد الصوت فيهم (٤) ؛ فغضب له طَرْخون ، وجمع له نَيْزَك والسَّبَل وأهْل بخارى والصّغانيان ، فقدمُوا مع ثابت إلى موسى ، واجتمع لموسى أيضًا فَلُّ عبد الرحمن ابن العباس من هَرَاة وفلُّ عبد الرحمن بن الأشعث مِنَ العراق ، ومِنْ ناحية كابل ، [وقوم من بنى تميم ممن كان يقاتل ابن خازم فى الفتنة من أهل خراسان] (٥) ، فاجتمع معه (٦) ثمانية آلاف .

فقال له ثابت وحُريث : سِرْ بِنَا حتى نقطَعَ النهر ونُخْرِج يزيد عن خراسان ونولّيك .

فهمَّ أن يفعل ، فقال له أصحابه : إنْ أخرجت يزيد عن

---

(١) زيادة من الطبرى والكامل .

(٢) الثط : الثقيل البطن والقليل شعر اللحية والحاجبين . وفى الكامل : الثبط . وفى القاموس : الثبط — ككتف : الأحمق فى عمله ، والضعيف والثقيل .

(٣) فى الكامل : لم يتعرض أيضا لموسى . وفى الطبرى : لم يتعرض له .

(٤) فى ك : منهم .

(٥) زيادة من الطبرى .

(٦) فى الطبرى : واجتمع إلى موسى .

خُراسان تولّى ثابت وأخوه خراسان وغَلَبا عليها ، فامتنع من المسير ، وقال لثابت وحُريث : إنْ أخرجنا يزيد قدِم عاملٌ لعبد الملك ، ولكنا نُخرج عُمّال يزيد من وراء النهر ، وتكون [هذه الناحية] [1] لنا ؛ فأخْرَجُوا عمالَه ، وجَبَوا الأَمْوال ، وقَوِى أَمْرُهم ، وانصرف طَرْخون ومنْ معه ،واستبدّ ثابت وحُرَيْث بتدبير الأَمر ، وليس لموسى إلا اسم الإمرة . فقيل لموسى : اقتل ثابتًا وحُرَيْثًا ، واستَقِلّ بالأَمر ، فإنه ليس لك من الأَمر شيء . وألحّ أصحابه عليه فى ذلك حتى هَمّ بِقَتْلهما .

فبينما هم فى ذلك إذ خرج عليهم الهيَاطلة والتبّت والترك فى سبعين ألف مقاتل غَيْر الأَتباع ومَنْ ليس هو كامِل السلاح .

فخرج موسى وقاتلَهم فيمنْ معه ، ووقف مَلِك الترك على تَلّ فى عشْرةِ آلاف فى أَكْمَلِ عُدّةٍ ،وقد اشتدّ القِتَالُ ، فقال موسى لأَصحابه : إن أَزَلْتُم هؤلاء فليس الباقون بشىء ، فقصدهم [2] حُرَيْث بن قُطْبَة وقاتلهم حتى أزالهم عن التلّ ، ورُمى حُريث بنُشّابة فى جَبْهته ، وتحاجزُوا وَبَيَّتَهم موسى ، فحمل أخوه خازم بن عبْد الله بن خازم حتى وصل إلى شمعةِ [3] مَلِكهم ، فوجأَ رجُلاً منهم بقَبِيعةِ [4] سيْفه ، فطعن فرسَه فاحتمله الفرس فألقاه فى نهر بَلْخ فغرق وقُتِل من التُّرْك خَلْقٌ كثير ، ونجامَنْ نجا منهم بِشَرٍّ ، ومات حُرَيْث بيومين [5] .

(١) من الطبرى .
(٢) فى الطبرى : فقصد لهم .
(٣) فى ك : سمعة . والمثبت فى الطبرى والكامل أيضا .
(٤) قبيعة السيف — كسفينة : ماعلى طرف مقبضه من فضة أو حديد .
(٥) فى الطبري والكامل : بعد يومين .

ورجع موسى وحمل معه الرءوس ، فبنى منها جَوْسَقَيْن ، وقال أصحاب موسى : قد كُفينا أمر حُريث فاكْفِنَا أمْر [١] ثابت ، فأبى ، وبلغ ثابتًا بعْضُ ذلك فدسَّ [٢] محمد بن عبْد الله الخُزَاعى على موسى ، وقال : إياك أن تتكلم بالعربية ، فإن [٣] سألوك فقل : أنا من سبْى [٤] البامِيان ، ففعل ذلك ، وتلطَّف حتى اتصل بموسى وصار يخدمه [٥] وينقل إلى ثابت خَبرهُم ، فحذِر ثابت . وألَحَّ القوم على موسى ، فقال لهم ليلةً : قد أكثرتُم علىّ ؛ وفيما تريدون هلاككم ، فعلى أىِّ وَجْهٍ تقتلونه ولا أغدر به [٦] . فقال له أخوه نوح : إذا أتاك غَدًا عدَلْنَا به إلى بعْضِ الدُّور فضربنا عُنُقَه قبل أنْ يَصِل إليك . فقال : والله إنه لهلاككم ، وأنتم أعلم .

فخرج الغلام فأخبر ثابتًا فخرج مِنْ ليْلته فى عشرين فارسًا ومضى ، وأصبحوا فلم يجدوه ولا الغلام ، فعلموا أنه كان عينًا له ، ونزل ثابت بحشورا [٧] ، واجتمع إليه خَلْقٌ كثير من العرب والعجم ، فأتاه موسى وقاتلَه فتحصن ثابتٌ بالمدينة ، وأتى طَرْخون مُعينًا له ، فرجع موسى إلى تِرْمِذ ، وأقبل ثابت وطَرْخون ومعهما أهْلُ بخارى ، ونَسَف وكشّ [٨] ، فاجتمعوا فى ثمانين ألفًا ، فحصروا

---

(١) فى الطبرى : فأرحنا من ثابت. (٢) فى ك : فدمر — تحريف .

(٣) فى د : وإن ..

(٤) فى ك: بنى . والباميان: بكسر الميم وياء وألف ونون: بلدة وكورة فى الجبال بين بلخ وغزنة (المراصد) .

(٥) فى ك : يحدثه .

(٦) فى الكامل : ولا غدر به .

(٧) فى ك : وترك ثابت محسورا . وفى الطبرى : حشورا . وفى الكامل: بحوشرا .

(٨) فى الطبرى : كس — بالسين المهملة . وقد تقدم تعليقنا فيها .

موسى حتى جهد هو وأصحابه ، فقال يزيد بن[١] هذيل :والله لأقتلنْ ثابتًا أو لأموتنَّ ، فخرج إلى ثابت فاستأمنه ، فقال له ظهير : أنا أعرَفُ بهذا منك ، ما أتاك[٢] إلَّا بغَدْرة ، فاحذره . فأخذ ابنيه : قدَامة ، والضحاك رَهْنا ، فكانَا فى يَدِ ظُهير ، وأقام يزيد يلتمس غِرَّة ثَابت ، فلم يَقْدر على ما يريد حتى مات ابنٌ لزياد القصير الخُزَاعى ، فخرج ثابت إليه ليعزيه [ومعه ظهيرورهط من أصحابه ، وفيهم يزيدبن‌هذيل][٣] وهو بغير سلاح ، وقد غابت الشمسُ ، فدنا يزيد من ثابت فضربه على رَأسه [فعضَّ السيف برأسه][٣] ، فوصل إلى الدماغ وهرب ، فسلِم . فأخذ طرخون قُدامة والضحاك ابنى يزيد فقتلهما ، وعاش ثابتٌ سبعة أيام ، ومات .

وقام بأمْرِ العجم بعد موت ثابت طرخون ، وقام ظهير بأمْرِ أصحاب ثابت [فقاما قياما ضعيفا][٣] ، فانتشر أمْرُهم ، وأجمع موسى على بَياتهم ، فأُخبر طرخون بذلك فضَحك ، وقال : موسى يعجز أن يدخلَ متوضَّأه فكيف يُبَيِّتُنَا ، لا يَحْرُس الليلة أحَدٌ .

فخرج موسى فى ثمانمائة ، وجعلهم أرباعًا ،وبيّتهم فكانوا لا يمرُّون بشىء إلَّا صرعوه[٤] من الرجال والدوابّ وغيرها ، فأرسل طَرْخون إلى موسى : أنْ كُفَّ أصْحَابَك ، فإنا نرحَلُ إذا أصبحنا ، فرجع موسى وارْتَحَلَ[٥] طَرْخون والعَجَم جميعًا .

---

(١) فى الطبرى : هزيل .
(٢) فى الطبرى : إن هذا لم يأتك إلا بغدره .
(٣) زيادة فى الطبرى .
(٤) فى د : إلا ضربوه .
(٥) فى ك : ورحل .

فلما عزل يزيد بن المهلب وولى المفضّل أراد أن يَحْظَى عند الحجّاج بقِتَال موسى ، فسيّر إليه عثمان بن مسعود فى جيش ، وكتب إلى أخيه مدرك بن المهلب وهو ببَلْخ يأمره بالمسير معه ، فعَبَر النَّهْرَ فى خمسة عشر ألفًا ، وكتب إلى السَّبَل وإلى طَرْخون فقدموا عليه ، فحصروا موسى وضيَّقُوا عليه ، فمكث شَهرَيْن فى ضيق ، وقد خَنْدَق عثمان عليه ، وحذر البَيَات ، فقال موسى لأصحابه : اخرُجُوا بنا ، حتى متى نَصْبِر[1] ؟ فاجعلوا يومكم معهم إمّا ظفرتم وإما قُتلتم ، واقْصِدُوا الترك .

فخرجوا وخَلَّف النضر بن سليمان بن عَبْد الله بن خازم فى المدينة ، وقال له : إن قتلت فلا تدْفَعَنَّ المدينةَ إلى عثمان ، وادفعها إلى مدرك ابن المهلب ، وخرج وجعل ثلث أصحابه بإزاء عثمان ، وقال : لاتقاتلوه[2] إلا إن قاتلكم ، وقصد طَرْخون وأصحابه فصدقوهم القتال ، فانهزم طَرْخون ، واستولى موسى على عسكره ، وزَحَفت[3] التُّركُ والصُّغْد ، فحالوا بين موسى والحصن ، فقاتلهم ، فعقروا[4] فرسه فسقط ، فقال لمولى له : احملنى . فقال : الموت كَرِيه ، ولكن ارتدف ، فإنْ نَجَوْنا نجونا جميعًا ، وإن هلكنا هلَكْنَا جميعًا .

فارتدف ، فلما نظر إليه عثمان حين وثب قال : وَثْبَةُ موسى وربِّ الكعبة ، وقصده وعُقِرَتْ فرَسُه ، فسقَطَ هو ومَوْلاه فقتلوه ، ونادى منادِى عُثمان : مَنْ لقيتموه فخذُوه أسيرًا ، ولا تقتلوا أحَدًا ، فقَتَلَ ذلك

(١) فى ك : تصبروا .
(٢) فى الطبرى : لاتهاجموه إلا أن يقاتلكم .
(٣) فى ك : ورجعت . وفى الطبرى : وكسرت .
(٤) فى الطبرى : فعقربه فرسه .

اليوم من الأسرى خَلْقًا كثيرًا من العرب خاصةً ، فكان يقتل العَرِبى ويضرب المولى ويُطْلِقُهُ ، وكان الذى أجهز على موسى واصل ابن طَيْسَلة (١) العَنْبرى ، وسلَّم النضرُ المدينة إلى مُدْرك فسلمها مُدْرِك إلى عثمان ، وكتب المفضل إلى الحجاج بقَتْل موسى فلم يَسُرّه ذلك ، لأنه مِنْ قَيْس .

وكان مقتل موسى فى سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين ، وكان مقام موسى بالحصن أربع عشرة سنة . وقيل خمس عشرة سنة .

ذكر وفاة عبد العزيز بن مروان

وولاية عبد الله بن عبد الملك مصر والبيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك بولَايَةِ العَهْد

كانت وفاته بمصر فى جمادى الأُولى سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين ، وكان عبْدُ الملك أراد أنْ يَخْلَعُه مِنْ ولاية العهد ، ويُبايع لابنه الوليد ، فنهاه قَبِيصة بن ذُؤَيب عَنْ ذلك ، وقال : لا تفعَلْ ، ولعل الموت يأْتيه ، فكَفّ عنه عبد الملك ونَفْسُه تُنَازِعه إلى خَلْعه ؛ فدخل عليه رَوْح بن زِنْبَاع ، وكان أجلَّ الناس عند عَبْد الملك ، وقال : يا أَمِيرَ المؤمنين ،لو خلعْتَه ما انتطح فيها عَنْزَان ؛وأنا أول مَنْ يُجيبك إلى ذلك . قال : نُصبح إنْ شاء الله ونفعل .

ونام رَوْح عنده ، فدخل عليهما قَبِيصة بن ذؤَيب وهما نائمان ، وكان عَبْدُ الملك قد تقدّم إلى حجّابه ألّا يحجبُوا قَبِيصة عنه ، وكان

---

(١) الضبط من الطبرى ، والقاموس .

إليه الخاتم والسكّة، والأخبارُ تأتيه قَبْلَ عبد الملك ، فلما دخل سَلَّم عليه ،وقال : آجرك الله فى عبد العزيز أخيك ! قال : هل توفى ؟ قال : نعم . فاسترجع ، ثم أقبل على رَوْح ، وقال : كفانا الله[1] ما نريد . وكان هذا مخالفا لكَ يا قَبِيصة . وضَمّ عبد الملك عَمَل عبد العزيز إلى ابنه عَبْد الله بن عبد الملك ، وأمر بالبيعةِ لابنَيْه : الوليد ، وسليمان ، فبايعهما الناسُ ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وكان على المدينةِ هشام بن إسماعيل المخزومى ، فدعا الناس إلى البيعة ،فأجابوا إلا سَعيد بن المسيَّب ، فإنه أبى ، وقال : لا أبَايع وعَبْدُ الملك حىّ ، فضربه هشام ضربًا مبرِّحًا ، وطاف به وهو فى تُبَّانٍ[2] شعرٍ حتى بلغ رأس الثنية [التى يقتلون ويصلبون عندها] [3] ، ثم ردّه وحبسه .

فبلغ ذلك عبد الملك ، فقال : قَبَّح اللهُ هِشامًا ،إنما كان ينبغى له أنْ يدعوه إلى البيعة ، فإنْ أبى أنْ يبايع يضرب عنقه أو يكفّ عنه .

وكتب إليه يَلُومُه ويقول :إن سعيدًا ليس عنده شِقَاق ولا خِلاف ؛ وقد كان سعيد امتنع أيضًا من بَيْعَة ابْنِ الزبير ، وقال : لا أُبايعُ حتى يجتمع الناس ، فضربه جابر بن الأسود عاملُ ابن الزبير ستِّين سَوْطًا .

فكتب ابن الزبير إلى جابرٍ يَلومُهُ ، وقال : مالنا ولسعيد ! دَعْه ، لا تَعْرض له .

وحجّ بالناس فى هذه السنة هشام بن إسماعيل .

(١) فى الكامل والطبرى : ما كنا نريد .
(٢) التبان — كرمان : سراويل صغير يستر العورة المغلظة .
(٣) من الكامل .

سنة (٨٦ هـ) ست وثمانين :

ذكر وفاة عبد الملك بن مروان

كانت وفاته بدِمَشْق فى منتصف شوال سنة [٨٦هـ] ستّ وثمانين ، وكان يقول : أخافُ الموتَ فى شهر رمضان ، فيه وُلدت ،وفيه فُطِمت ، وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع لى الناسُ ، فمات فى شوّال حين أَمِن المَوْتَ فى نفسه ، واختلف فى عمره من ثلاث وستين سنة إلى سبع وخمسين .

وصلى عليه ابنُه ولىُّ عهْده الوليد .

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يومًا ، خلص له الأَمْرُ منها بعد مَقْتَل عَبْدِ الله بن الزُّبَيْر ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلّا سبع ليال ، ودُفِنَ بدمشق خارج باب الجَابِية .

قيل : ولما اشتدّ مَرَضُه نهاه بَعْضُ الأَطباء أن يشرب الماء ، وقال : إن شَرِبَ الماء مات ، فاشتدَّ عطَشُه ، فقال : يا وليد ، اسقنى ماء . قال : لا أُعِين عليك . فقال لا بنته فاطمة : اسْقِينى ، فمنعها الوليد . فقال : لتدعنَّها أو لأخلعنَّك . فقال : لم يَبْقَ بعد هذا شىء ، فسقَتْه فمات .

ودخل عليه الوليد وابنتُه فاطمة عند رَأْسه تبكى ، فقال : كيف أمير المؤمنين ؟قال :هو أصلح مِمَّا كان.فلما خرج قال عبد الملك [1] :

ومستخبر عنا يريدبنا [2] الردَّى ومُسْتخبَراتٍ والدمـوعُ سواجم

---

(١) والكامل : ٤ — ١٠٣

(٢) فى الكامل : يريد لنا .

ذكر وصيته بنيه عند موته

قال[١] : وأوصى بَنيهِ عند موته ، فقال : أوصيكم بتقوى الله ، فإنه أزْيَنُ حِلْية وأحصن كَهْف ، ليَعْطِف الكبيرُ منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حَقَّ الكبير . وانظروا مسْلَمَة فاصْدُروا عن رَأيهِ ، فإنه نَابُكم الذى تَفِرّون[٢] ، ومجِنُّكم الذى عنه تَرْمُون ، وأكرِمُوا الحجاج فإنَّه الذى وَطَّأَلكم المنابر[٣] ودَوَّخ لكم البلاد ، وأذلّ لكم الأعداء ، وكونوا بنى أم برَرَة . لا تدبّ بينكم العقارِبُ ، وكونوا فى الحرْبِ أحرارًا ، فإن القتالَ لا يقرِّبُ ميتة ، وكونوا للمعروف منارًا ؛ فإن المعروف يبقى أجره وذُخْره وذِكْره ، وضَعُوا معروفكم عند ذوى الأحساب ، فإنهم أصْونُ له وأشكر لما يُؤْتى إليهم منه ، وتغمّدوا[٤] ذنوبَ أهلِ الذنوب ، فإن استقالوا فأقيلوا ، وإن عادُوا فانتقموا .

ذكر أولاده وأزواجه

كان له : الوليد ، وسليمان ، ومَرْوان الأكبر ـ دَرَجَ ، وعائشة ؛ أم هؤلاء ولادَةُ بنت العباس بن جَزء بن الحارث بن زُهَيْر بن جذيمة[٥] ، ويزيد ومَرْوان[٦] ومعاوية [دَرَجَ ، وأم كلثوم ، أمهم عاتكة ابنة

---

(١) الكامل : ٤ ـ ١٠٣ ، ومروج الذهب : ٢ ـ ١٥٤

(٢) فى الطبرى : تفرون عنه . وفى : الكامل : تفقرون . وفرالدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها .

(٣) فى مروج الذهب : وطأ لكم هذا الأمر .

(٤) فى الكامل : وتعهدوا . وتغمد الشىء : ستره .

(٥) فى ك : خزيمة . والمثبت فى الطبرى والكامل .

(٦) لعله الأصغر كما فى العقد الفريد : ٤ ـ ٤٢٠

يزيد بن معاوية] (١) ، وهشام أمه (٢) أم هشام بنت هشام ابن إسماعيل بن هشام بن الوليد (٣) بن المغيرة المخزومية ، واسمها عائشة ، وأبو بكر ، وهو بكار ، أمّه عائشة بنت موسى بن طَلْحة ابن عُبَيْد الله ، والحكم ـ درج ، أمه أم أيوب بنت عَمْرو بن عثمان بن عفّان ، وفاطمة ، أمُّها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام ابن المغيرة ، وعبد الله (٤) ومسْلَمة والمنذر وعَنْبَسة ومحمد وسعيد الخير [وقبيصة (٥)] لأُمهات أولاد ، وكان له من النساء [سوى من ذكرناه] (٥) شَقْراء بنت حلْبس الطائى ، وأم أبيها ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

ذكر شيء من أخباره وعماله

قالوا : كان عبْدُ الملك بن مرْوَان عاقلا حازِمًا أديبًا لبيبًا عالمًا . قال أبو الزِّنَاد : كان فقهاءُ المدينة أربعة : سعيد بن المُسَيِّب ، وعُرْوَة ابْن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مرْوَان . وقال الشعبى رحمه الله : ما ذاكرْتُ أحدًا إلّا وجدْتُ لى الفَضْل عليه ، إلّا عبد الملك ، فإنى ما ذاكرته حديثًا إلّا زادنى فيه ، ولا شعرًا إلّا زادنى فيه ، قالوا : وكان محبا للفخر والبذخ ، وكثرت الشعراء على أيامه ، وكان من فحول شعرائه جرير والفرزدق والأخطل وكُثَيِّر .

وكان عبْدُ الملك مُقْدِمًا على سَفْك الدماء ، وكذلك كانت عمّاله : فكان الحجاج بالعراق ، والمهلب بن أبى صُفْرة بخراسان ، وهشام

---

(١) ساقط فى ك

(٢) فى الطبرى والكامل : وأمه .

(٣) فى د : والمغيرة .

(٤) فى الكامل : عبد الملك . والمثبت فى الطبرى أيضا .

(٥) ساقط فى الطبرى و الكامل .

ابن إسماعيل المخزومى بالمدينة ، وعبْد الله ولده بمصر ، وموسى ابن نُصَير اللَّخْمى بالمغرب ، ومحمد بن يوسف أخو الحجاج باليمن ، ومحمد بن مَرْوَان بالجزيرة ؛ وما منهم إلَّا منْ هو ظالم غَشُوم جائر .

وكان نَقْش خاتمة : آمنت بالله مخلصًا .

وكُتَّابه : رَوْح بن زِنْبَاع ، ثم قبيصة بن ذؤَيب ، وغيرهما .

قاضيه : أبو بِشْر الخَوْلَانى ، وعبد اللهبن قيس .

حاجبه : يوسف مولاه .

الأمراء بمصر وقضاتها

أقَرّ عبْدُ الملك أخاه عبد العزيز على إمارة مصر إلى أن مات ، فولَّى ابنه عبد الله . وكان القاضى بمصر عابس إلى أن مات ، فولى عبدُ العزيز بشير بن النَّضْر بن بشير المزنى ، ثم مات فولَّاها عبد الرحمن بن حجر الخولانى . ثم صرفه وولى يونس الحضرمى ، ثم صرفه وولى عَبْدَ الرحمن بن معاوية بن خديج القضاء والشرطة ، فلما ولى عبْدالله بن عبدالملك أقَرّ عبد الرحمن على القضاء ثم صرفه وولى عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل ابن حَسَنة ثم عزله ، وولى عبد الواحد بن عبد الرحمن بن خَدِيج .

قال : وعبدالملك أول من غدر فى الإسلام :حين قتل عَمْرو بن سعِيد الأشدق .

وهو أول منْ نَقَل الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية .

وأول مَنْ نهى عن الكَلَام بحضرة الخلفاء ، وكان الناس مِنْ قبله يُرَاجِعُونهم .

وهو أوّل مَنْ نهى عن الأمر بالمعروف ، فإنه قال فى خطبته بعد

قتل ابن الزبير : ولا يأمرنى أحَدٌ بتَقْوَى اللهِ تعالى بعد مقامى هذا إلّا ضربت عُنُقَه .

ذكر بيعة الوليد بن عبد الملك

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه ولادة بنت العباس بن جزء ، وقد تقدم ذِكْرُ نسبها ، وهو السادس من ملوك بنى أمية . بويع له بالخلافة بعد وفَاةِ أبيه ، وذلك فى يوم الخميس النصف من شوال سنة ست وثمانين . قال : ولما دُفِنَ أبوه عبد الملك انصرف عن قَبْرِه فدخل المسجد ورقى المنبر فخطب الناس ، وقال : إنا لله ، وإنا إليه راجعو ن ، والله المستعان على مُصيبتنا بِمَوْتِ أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنْعَم علينا من الخلافة . قُومُوا فبايعُوا ، فكان أول مَنْ عزَّى نفسه وهنَّأها ، وكان أول من قام لبيعته عبد الله بن همام السلولى وهو يقول[1] :

اللهُ أعطاك التى لا فَوْقَهـــــا وقد أرادَ المُلْحِدُون عَوْقَهـا
عنْكَ ، ويأْبَى اللهُ إلّا سَوْقَهـــا إليكَ حتى قَلَّدُوكَ طَوْقَهـــا

وبايعه ، وقام[2] الناسُ للبيعة[3] .

وقد قيل : إنَّ الوليد لَمَّا صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، لا مُقَدِّم لما أخَّر اللهُ ، ولا مؤخِّر لما قدّم ، و [قد][4] كان من قضاء الله وسابقِ عِلْمه ، وما كتب على أنبيائه وحَمَلة عرْشه

(١) والطبرى : ٦ — ٤٢٣ ، والكامل : ٤ — ١٠٥
(٢) فى الطبرى : ثم تتابع الناس على البيعة .
(٣) فى ك ، والكامل : لبيعته . .
(٤) ساقط فى ك .

الموت ، وقد صار إلى منازلِ الأبرار ولىُّ هذه الأُمة بالذى يحقُّ للهِ عليه فى الشدةِ على المذنب [١] واللين لأهْلِ الحقّ والفَضْل ، وإقامة ما أقام الله مِنْ مَنَار الإسلام وأعلامه [٢] ؛ مِنْ حجّ البيت ، وغَزْو الثُّغور ، وشنّ الغارةِ على أعداء الله ، فلم يكن عاجِزًا ولا مُفَرّطا .

أيها الناس ،عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، فإنّ الشيطان مع الفرد .

أيها الناس ، منْ أبْدى لنا ذَات نَفْسِه ضَربْنَا الذى فيه عيْنَاه ؛ ومن سكت مات بدائه ، ثم نزل .

ولنبدأ من أخبار الوليد بالغزوات والفتوحات ، ثم نذكر الحوادث على حكم السنين :

ذكر الغزوات والفتوحات

التى اتفقت فى خلافة الوليد بن عبد الملك

ولْنَبْدأ من ذلك بأخبار قُتَيْبة بن مسلم وما فتحه من البلاد :

ذكر ولاية قتيبة بن مسلم خراسان

وغزواته وفتوحاته

فتح قُتيبة بن مُسلم فى مدّةِ ولايته خُراسان من بلادِ ما وراء النَّهْر : الصَّغَانِيان [٣] ، وأخرون ، وكَاسان [٤] ، وأورشت ، وهى من فَرْغَانة

---

(١) فى الطبرى والكامل : المريب. وفى العقد الفريد : للذى كان عليه من الشدة على المريب ، واللين على أهل الفضل والدين .

(٢) فى ك : وإعلائه .

(٣) بالفتح وبعد الالف نون ثم ياء مثناة ، وآخره نون ، والعجم يقولون : جغانيان : ولاية عظيمة بما وراء النهر (المراصد) .

(٤) كاسان — بالسين المهملة : مدينة كبيرة فى أول بلاد تركستان وراء نهر سيحون وراء الشاش (ياقوت) .

وأخْسِيكت[١]، وهى مدينة فَرْغَانة القديمة، وبِيْكَنْد[٢]، وبُخارى، والطالقَان[٣] والفَارِياب[٤] والجوزْجَان، وشُومان[٥] وكش[٦]، ونَسف، ورام جِرْد، وسمرْقَنْد، والشاش[٧] وفَرْغَانة، ومدينة كَاشْغر.

وكان أول ما بدأ به قُتيبة أنه لما قدم خُرَاسان أميرًا للحجاج، وذلك فى سنة [٨٦هـ] ست وثمانين قدمها والمفضّل بن المهلب يحَرض الجند للغَزَاة، فخطب قُتَيْبةُ الناس، وحَثَّهم على الجهاد، ثم عرضهم، وسار بهم.

فلما كان بالطالَقَان تلقَّاهُ دهاقين بلْخ وسارُوا معه، وقَطع النهر فتلقَّاه ملك الصَّغَانِيان بهدايا ومفتاح[٨] من ذهب، ودعاهُ إلى بلادِه، فمضى معه فسلَّمها إليه، لأن ملك أخرون وشُومان كان يُسىء جِواره، ثم سار قُتَيبة منها إلى أخرون وشومان وهما من

(١) بالفتح ثم السكون وكسر السين المهملة وياء ساكنة وكاف وثاء مثلثة. وبعضهم يقول: بالتاء المثناة وهو أولى من المثلثة: مدينة بما وراء النهر، قصبة فرغانة (المراصد).

(٢) بيكند — بالكسر، وفتح الكاف وسكون النون: بلد بين بخارى وجيحون (المراصد).

(٣) الطالقان — بلام مفتوحة: بلدتان إحداهما بخراسان، والأخرى كورة وبلدة بين قزوين وأبهر (المراصد).

(٤) الفارياب — بكسر الراء ثم ياء مثناة من تحت وآخره باء: مدينة مشهورة بخراسان قرب بلخ (ياقوت).

(٥) شومان — بالضم والسكون وآخره نون: بلدة بالصغانيان. مما وراء جيحون (المراصد).

(٦) كش — بكسر أوله وتشديد ثانيه، قال ابن ماكولا: يقوله العراقيون وغيرهم — كس — بفتح الكاف، وربما صحفه بعضهم وقاله بالشين المعجمة، وهو خطأ، وهى مدينة كبيرة تقارب سمرقند (المراصد).

(٧) شاش: آخره شين معجمة: قرية بالرى وبلدة بما وراء النهر، ثم وراء سيحون (المراصد).

(٨) فى الكامل: ومفاتيح.

طخَارِسْتَان ، فصالحه ملكها على فِدْيةٍ أدَّاها إليه ،فقَبِلها قتَيبة . ثم انصرف إلى مرْو ، واستخلف على الجُنْد أخاه صالح بن مسلم ففتح صالح بعد رجوع قُتَيْبة كاشان وأورَشت ، وهى من فرْغانة ، وفَتَح أخْسِيكت وهى مدينة فَرْغانة القديمة .

وقيل : إن قُتيبة قَدم خُراسان فى سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين فعرض الجُنْد فغزَا أخرون وشُومان ، ثم رجع إلى مرْو .

وقيل : إنه لم يغْزُ فى هذه السنة ، ولم يقطع النهر بسبب بلْخ ؛ فإنَّ بعضها كان منتقضًا عليه ، فحاربهم وسبى منهم ، ثم صالحوه فأمر بردّ السَّبْىِ .

ذكر قتيبة ونيزك

قال :لمَّا صالح قُتَيْبة ملك شُومَان كتب إلى[1] نَيْزَك طرخان صاحب باذَغِيس فى إطلاق مَنْ عنده مِن أسْرَى المسْلمين ، وكتب إليه يتهدَّدُه ، فخافه نَيْزَك ، فأطلقهم ، وبعث بهم إليه ، ثم كتب إليه قُتَيبة مع سليم الناصح مولى عبيد الله بن أبى بكْرَة يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه ، فصالحه[2] نَيْزَك لأهل باذغِيس على ألايدخلها قُتَيبة .

ذكر غزوة بيكند وفتحها

وغزا قُتيبة بِيْكَنْد فى سنة [٨٧هـ] سبع وثمانين ؛ وهى أدْنى مدائن بُخارى إلى النَّهر ؛ فلما نزل بهم استنصروا الصُّغد واستمدُّوا منْ حولهم . فأتوهم فى جَمْعٍ كثير ، وأخذوا الطرقَ على قُتَيْبةَ فقاتلهم[3]

(١) بفتح النون فى د، وكسرها فى الطبرى .
(٢) فى الطبرى والكامل : فصالحه أهل باذغيس .
(٣) فى الطبرى: فلم ينفذ لقتيبة رسول، ولم يصل إليه رسول، ولم يجر له خبر شهرين.

شهرين فى كل يوم ، ثم انهزم الكفّار إلى المدينة ، فتبعهُم المسلمون يقتلُونَ ويأْسِرُون ، وتحصَّنَ من دخل المدينة منهم بها ، فأمر قُتَيْبةُ بهدْمِ سُورِها ، فسألوه الصلح ، فصالحهم ، واستعمل عليهم عاملا[1] وارتحل عنهم . فلما سار خمس فراسخ نقضوا [الصلح[2]] وقتلوا العامل ومَنْ معه . فرجع قُتيبة فنقب السُّور فسقط ، فسألوه الصلح فأبى ، ودخلها عنوةً ، وقتل مَنْ كان بها من المقاتِلة ، وكان فيمن أخذ من المدينة رجلٌ أعور ، وهو الذى استجاش التُّركَ على المسلمين ، فقال لقُتَيبة : أنا أفْدِى نفسى بخمسة آلاف حريرة قيمتُها ألف ألف ، فاستشار قُتيبة الناس ، فقالوا : هذا[3] زيادة فى الغنائم ؛ وما عسى أن يبلغَ من كَيْد هذا؟ قال : والله لا يروَّعُ بك مُسلم[4] أبدًا ، وأمر به فقُتِل ؛ وأصابوا فيها من الغنائم والسلاحِ وآنِيةِ الذهب والفضَّة مالا يُحْصى ، ولا أصابوا بخراسان مثله.

ولما فرغ قتيبة من فَتْح بِيكَنْد رجع إلى مرْو .

ذكر غزو نومشكث وراميثنة وصلح أهلها

وقتال التُّرْك والصُّغْد وأهل فَرْغَانة

وفى سنة [٨٨هـ] ثمان وثمانين غزا قتيبة نومُشَكَث[5] ، فتلقَّاه أهلُوها ، فصالحهم ، ثم سار إلى راميثَنَة[6] ، فصالحه أهلُها ، وانصرف

---

(١) فى الطبرى : رجلا من بنى قتيبة . (٢) زيادة فى الكامل .

(٣) فى الكامل : هذه . (٤) فى الطبرى : لاتروع بك مسلحة .

(٥) الضبط فى الطبرى : د .

(٦) فى الطبرى : راميثنة . وفى المراصد وياقوت : راميثن : قرية ببخارى .

عنهم وزحف إليه التُّرْكُ ومعهم الصُّغد وأهل فَرْغانة فى مائتى ألف . وملكهم كوربغانو [١] ابن أخت ملك الصِّين ، فاعترضوا المسلمين ؛ فلحقوا عبْد الرحمن بن مسلم أخا قُتَيْبَة وهو على الساقَةِ وبينه وبين قُتيبة وأوائل العَسْكَرِ ميل ، فقاتلهم عبْدُ الرحمن ومَنْ معه ، وأرسل إلى أخيه ، فرجع بالمسلمين ، وقد أشرفَ التركُ على الظهور على عَبْدِ الرحمن ومَنْ معه ، فلما رأى المسلمون قُتيبة طابت نفوسُهم ، وقَوِيت ، وقاتلوا إلى الظُّهْرِ ، فانهزم الترك ومنْ معهم وكان نَيْزَك يومئذ مع قُتَيْبَة ، فأبلى بلاءً حسناً ، ورجع قتيبةُ بعد الهزيمة إلى مَرْو .

ذكر غزو بخارى وفتحها

كانت غَزْوَةَ بخارى فى سنة [٨٩هـ] تسع وثمانين ، والفتح فى سنة [٩٠هـ] تسعين ؛ وذلك أن الحجاجَ بن يوسف كتب إلى قُتَيْبَة يأمره بقَصْدِ وَرْدان خُذَاه [٢] ، فعبَر النَّهْر من زُمّ [٣] ، فلقى الصُّغد وأهل كِسّ ونَسَف فى طريق المفَازة ، فقاتلوه ، فظفِر بهم . ومضى إلى بُخارى ، فنزل خَرْقانة السُّفْلى عن يمين وَرْدَان ، فلقوه فى جمع كثير ، فقاتلهم يَوْميْن وليلتين ، فظفر بهم ، وغزا وَرْدَان [٢] خُذَاه ملك بُخَارى فلم يظْفَرْ منه بشىء ، فرجع إلى مَرْو . وكتب إلى الحجاج يُخْبِرُهُ ؛ فكتب إليه الحجاجُ أن صَوِّرها . فبعث إليه

---

(١) فى ك : كوربغابون . وفى الكامل : كور نعابون . وفى الطبرى : كورمغانون والمثبت فى د .

(٢) الضبط فى د ، والطبرى .

(٣) زم : موضع ببلاد بنى ربيعة . وقيل ببلاد قيس بن ثعلبة .

بصُورتِها ، فكتب إليه أن تُبْ إلى اللهِ جَلَّ ثناؤه مما كان مِنْك وأتِها مِنْ مكانِ كذا وكذا .

[قيل[١]] : وكتب إليه أن كِسْ بكِس ، وانسِف نَسفًا ، ورِدْ وَرْدَان ، وإياك والتحويط ، ودعْنى من بُنَيَّات[٢] الطريق .

فخرج قتيبة إلى بُخَارى فى سنة [٩٠هـ] تسعين ، فاستجاش وَرْدان خُذَاه الصُّغْد والترك ومَنْ حوله ، فأتوه[٣] وقد سبق إليها قُتَيْبة وحصرها[٣] . فلما جاءتهم أمْدادُهم خرجوا إلى المسلمين يقاتلونَهم ، فقالت الأَزْد : اجعلُونَا ناحِيَةً ، وخَلُّوا بيننا وبين قِتَالهم ، فقال قُتيبة : تقدَّمُوا ، فتقدّموا ، وقاتلوا قتالاً شديدًا ، ثم انهزم الأَزْدُ ، حتى دخلوا العسكر ، وركبهم المشركون حتى حطموهم ، وقاتلت مُجَنِّبتا المسلمين الترك حتى ردُّوهم إلى مواقفهم ، فوقفت الترك على نَشَزٍ ، فقال قُتيبة : مَنْ يُزيلهم عن هذا الموقف ! فلم يقم[٤] لهم أَحَدٌ من العرب ، فأتى بنى تميم ، فقال لهم : يوم[٥] كأيَّامكم . فأخذ وَكِيع اللواء ، وقال : يا بنى تميم ، أتسلمونني اليوم ؟ قالوا : لا ، يا أبا المُطَرِّف[٦] ، وكان هُزيم[٧] بن أبى طَحْمَةَ[٨] على خَيْلِ تميم ، ووَكيع رأسهم . فقال : يا هُزَيم[٧] قَدِّم خَيْلَكَ ، ورفع إليه

---

(١) من الطبرى . (٢) فى ك : ثنيات الطريق .

(٣) فى الطبرى : فأتوهم ... فحصرهم .

(٤) فى الطبرى : عليهم . (٥) فى الكامل : يوما .

(٦) فى الكامل والطبرى : مطرف .

(٧) بالزاى فى ك ، د ، وفى الطبرى : هريم — بالراء — والمثبت فى تاج العروس .

(٨) فى د ، ك : طلحة . والمثبت فى الطبرى والكامل . وتاج العروس — طحم .

الرايةَ ، وتقدم هُزَيْم ، وتقدّم وكيع فى الرَّجّالة [١] ، وكان بينهم وبين الترك نَهْر ، فأمر وكيع هُزَيما بقَطْعه إليهم ، فعبره فى الخيل ، وانتهى وَكِيع إلى النهر ، فعمل عليه جسرًا من خَشَب ، وقال لأصحابه : مَنْ وطَّن نفسه على الموت فليعبر وإلّا فليثبتْ مكانَه . فلم يعْبُر معه إلا ثمانمائة رجل [٢] . فلما عبر بهم قال لهُزَيم : إنى مُطَاعنهم فاشغلهم عَنّا بالخَيْل ، وحمل عليهم حتى خالطهم ، وحمل هُزَيم فى الخيل فطاعنهم [٣] ، وقاتلهم المسلمون حتى حَدَرُوهم عن التلّ ؛ ثم عبر الناسُ إليهم بعد انهزام التُّرْكِ ، ونادى قُتَيْبَة : منْ أتى برأس فله مائة ، فأُتى برءُوس كثيرة ، وجُرِح خاقان وابنه ، وفتح اللهُ على المسلمين .

قال : ولما أوقع قُتَيْبة بأهل بخارى هابه الصُّغْد ، فرجع طَرْخون ملكهم ومعه فارسان ، فدنا من عسكر قُتيبة ، فطلب رجلا يكلِّمُه ؛ فأرسل إليه قتيبة حَيَّان [٤] النبطى ، فطلب الصلح على فِدْيَةٍ يؤدّيها إليهم . فأجابه قُتَيْبة إلى ما طلب ، وصالحه ، ورجع طرخون إلى بلاده . ورجع قتيبة ومعه نَيْزَك .

---

(١) فى الطبرى : الرجال .

(٢) فى الطبرى : راجل .

(٣) فى د ، والكامل : فطاعنوهم .

(٤) فى الكامل : حيان — بالحاء المهملة والياء المشددة تحتها نقطتان ، وآخره نون .

ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان

وماكان من خَبَر نَيْزَك إلى أن قُتل

قال : ولما رجع قُتَيْبَة عن بُخارى ومعه نَيْزَك وقد خاف [١] لما رأى من الفتوح ، فقال لأصحابه : أنا مع هذا ولست آمنُه ، فلو استأْذَنْته ورجعْت كان الرأى . قالوا : افعل . فاستأْذن قُتيبة ، فأَذِنَ له وهو بآمُل ، فرجع يريد طَخَارِسْتان ، وأسرع السَّيْرَ حتى أتى النُّوبهار [٢] ، وقال لأصحابه : لا شَكَّ أن قتيبة قد ندم على إذنه لى ، وسيبْعثُ إلى المغيرة بن عَبْد الله يأْمره بحَبْسِى ، فكان كما قال : ندم قُتيبة ، وبعث إلى المغيرة يأْمره بحبْس نَيْزَك ، فتَبِعَهُ المغيرةُ ، فوجده قد دخل شِعْب خُلْم [٣] ، فرجع المغيرةُ ، وأظهر نَيْزَك الخلع ، وكتب إلى أَصْبَهْذ بَلْخ وإلى باذَان [٤] ملك مرْو الرُّوذ وإلى ملك الطالَقَان وإلى ملك الفَارِيَاب [٥] وإلى ملك الجوزجان يدْعوهم إلى خَلْع قُتَيبة ، فأجابوه ، وواعدهُم الربيع أنْ يجتمعوا ويغْزوا قتيبة .

وكتب إلى كابُل شاه يستظهر به ، وبعث إليه بثقله وماله ، وسأَله أن يأْذن له إن اضطُرّ أنْ يأْتيه ، فأجابه إلى ذلك ، وكان خَبْعُويه [٦] ملك طخارستان ضعيفًا ، فأخذه نَيْزَك ، فقيَّدَهُ بقَيْدٍ من ذَهب لئلا يخالف عليه ، وكان خَبْعويه [٦] هو الملك ونَيْزَك عنده ، فاستوثق منه ،

---

(١) فى د ، والكامل : وقد حاف لما يرى . وفى الطبرى : وقد ذعره ما قد رأى .

(٢) بالضم ثم السكون ، وباء موحدة مفتوحة ، وهاء وألف وراء : فى موضعين أحدهما قرب الرى . ونوبهار أيضا ببلخ (المراصد) .

(٣) خلم : بلدة بنواحى بلخ (المراصد) . (٤) فى الطبرى : باذام .

(٥) فى ك : القاريات . وقد تقدم ضبطها .

(٦) كتب فى د مرة خبعويه ، ومرة : خيغونه . وفى ك : جنغويه ، وفى الطبرى جبغويه .

وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبْعويه ، وبلغ قُتَيْبَة خلْعه ، وقد تفرَّقَ الجنْدُ ،فبعث أخاه عبد الرحمن فى اثنى عشر ألفًا إلى البرُوقَان[١] ، وقال : أَقِمْ بها ولا تُحدِث شيئًا ، فإذا انقضى الشتاء [فعسكرْ ، و] [٢] سر نحو طَخَارستان ،فسار ؛فلما كان آخر الشتاء كتب قُتَيْبَة إلى نَيْسابور وغيرها من البِلَاد لتقدم عليه الجنود ، فقدموا . فسار نَحْوَ الطالَقَان . وكان ملِكُها قد خَلع وطابق نَيْزَك على الخَلْع ، فأتاه قُتَيبة ، فأَوقع بأهل الطالَقَان ، فقَتَل مِنْ أهلها مقْتَلَةً عظيمة ، وصلب منهم سِمَاطَيْن أربعة فراسخ فى نظامٍ واحد ، واستعمل أخاه عمرو[٣] بن مُسلم .

وقيل : إن ملك الطالَقَان لم يحارب قُتيبة ، فكفَّ عنه ، وكان بها لصوص ، فقتلهم قُتَيبة وصلَبهم ،ثم سار قتيبة إلى الفَارِياب فى سنة [٩١هـ] إحدى وتسعين ، فخرج إليه مَلِكُها مُقِرًّا مُذْعِنًا ، فَقبل منه ولم يقتل بها أحدا ، واستعمل عليها رجلا من باهِلة [٤] ، وبلغ ملك الجوزْجَان خَبرُهم ، فهرب إلى الجبال ، وسار قُتيبة إلى الجوزْجَان ، فلقيه أهلها [٥] سامِعينَ مُطيعين ، فَقبِل منهم ولم يقتل بها أحدًا ، واستعمل عليها عامر بن مالك الحمّانى ، ثم أتى بَلْخ فلقيه أهلها ، فلم يُقم إلَّا يومًا واحدًا ، وسار يتْبع أخاه عَبْدَ الرحمن إلى شِعْبِ

(١) قرية من نواحى بلخ (المراصد) .
(٢) زيادة فى الطبرى .
(٣) فى الكامل : عمر . والمثبت فى الطبرى أيضا .
(٤) فى الكامل : من أهله .
(٥) فى الكامل : أهله .

خُلْم ، ومضى نَيْزَك إلى بغْلَان[١] ، وخلَّف مقاتاته على فَم الشعْب ومضَايِقِه يَمْنَعُونَه ، ووضع مقاتلته فى قَلْعةٍ حصينةٍ مِنْ وراءِ الشِّعْب ، فأقام قُتَيبة أيامًا لا يَقْدِرُ على دخوله ، ولا يعرف طريقًا يَسْلكُه إلى نَيْزَك إلا الشِّعب أو مَفَازةً لا تقدِرُ العساكر على قَطْعِها ، فأتاه إنسانٌ فاستأمنه على أنْ يدُلَّه على مدْخَل القلعة التى مِنْ وراء الشِّعْب ، فأمّنه قُتَيْبة ، وبعث معه رجالاً ، فانتهى بهم إلى القلعةِ ، فطرقُوهم وهم آمِنُون ، فقتلوا منهم ، وهرب منْ بقى ومَنْ كان فى الشِّعْب ، فدخل قُتَيْبة الشِّعْب ، فأتى القلعةَ ومضى إلى سمِنْجان[٢] ، فأقام بها أيامًا ثم سار إلى نَيْزَك ، وقدم أخاه عبد الرحمن فارتحل نَيْزَك من مَنْزِله فقطع وادى فَرْغانة ، ووجَّه ثَقَله وأموالَه إلى كابل شاه ، ومضى حتى نزل الكُرز[٣] ، وعَبْدُ الرحمن يتبَعُهُ ، ونزل عبْدُ الرحمن وأخذ بمضايق الكُرْز ، ونزل قُتَيْبة على فرسخين من أخيه ، وتحصَّن نيزك بالكُرز ، وليس له[٤] إلَّا مسلك من وجْهٍ واحد ، وهو صَعْبٌ لا تُطِيقه الدواب ، فحصره قُتيبة شهرين حتى قلَّ ما فى يَدِ نَيْزَك من الطعام ، وأصابهم الجُدْرِى . وخاف قُتَيبة الشتاء ، فدعا سُليماً الناصح ، فقال : انطلق إلى نَيْزَك ، واحتَلْ لتأتينى به بغَيْر أمان ، فإن أعياك[٥] وأبى فأمِّنْه .

---

(١) بغلان ـ آخره نون : بلدة بنواحى بلخ . (المراصد) .

(٢) بكسرتين ونون ساكنة ثم جيم وآخره نون : بلدة من طخارستان وراء بلخ (المراصد) .

(٣) الذى فى ياقوت : كرزبان : بلدة فى الجبل قرب الطالقان . والمثبت فى كل الأصول.

(٤) فى د ، والطبرى : وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد .

(٥) فى الكامل : احتال .

فخرج إليه ، وأخذ معه أطعمةً وأخبِصة كثيرة ، وأتى نَيْزَك ، فقال له : إنك أسأْتَ إلى نفسك[1] وغدَرْت. قال نَيْزَك : فما الرأى؟ قال : أرى أنْ تأْتِيَه ، فإنه ليس ببَارحٍ ، وقد عزم على أن يشْتُو مكانَه ، هلك أو سلم . قال نَيْزَك : فكيف آتيه على غَيْرِ أمَانٍ . قال : ما أظنُّه يُؤَمِّنك لما فى نَفْسِه عليك ، لأنك قد ملأْتَه غَيْظًا ، ولكنى أرى ألَّا يعلم حتى تضع يدك فى يدِه ، فإنى أرجو أن يستحى ويعْفُو . قال : إنَّ نفسى تَأْبى هذا . فقال سُليم : ما أتيتُك إلا لأُشِير عليك بهذا ، ولو فعلتَ لرَجوْتُ أنْ تَسْلَم ويعودَ حالُك عنده ، فإذا أبيت فإنى منصرف . وقدم الطعام الذى معه ، ولا عَهْد لهم بمثله ، فانتهبه أصحابُ نَيْزَك ، فساءه ذلك ، فقال له سُليم : أنا لك من الناصحين ، أرى أصحابَك قد جُهدوا ، وإن طال بهم الحصار لم آمَنْهم أنْ يستأْمنوا بك . فأْت قتيبة . فقال : لا آمنه على نَفْسى ، ولا آتيه إلا بأمان . وإنَّ ظَنِّى أنه يقتلنى ، وإن أمننى ؛ ولكن الأمان أعْذَر لى . فقال سليم : قد أمنك ؛ أفتتهمنى ؟ قال : لا . وقال له أصحابه : اقبل قَوْل سليم. فخرج معه ومعه خَبْعويه [2] وصُول طرخان خليفة جَبْعُويه ، وخنس[3] طرخان صاحب شرطته وشُقْران [4] ابن أخى نَيْزَك ، فلما خرجوا من الشِّعْب حالت خَيْلُ قُتَيبة بين أصحاب نَيْزَك وبين الخروج ، فقال نَيْزَك : هذا أوّل الغَدْر . فقال سليم : تخلُّفُ هؤلاء عنك خَيْرٌ لك. وأقبل سُليم ونيزك ومَنْ معه حتى دخلوا على قُتَيْبة ، فحبسهم .

---

(١) فى الكامل : إلى قتيبة .
(٢) انظر الهامش السابق رقم ٦ صفحة ٢٨٩
(٣) فى الكامل : وحبس . والمثبت فى الطبرى أيضا .
(٤) الضبط فى الطبرى .

وكتب إلى الحجاج يستأذنه فى قَتْلِ نَيْزَك ، واستخرج قُتيبة مافِى الكُرْزِ من مَتَاعٍ ، وأتاه كتابُ الحجاج بَعْد أربعين يأمره بقَتْلِ نَيْزَك ، فدعا قُتَيْبَةُ الناس ، واستشارهم ، فاختلفوا ، فقال ضِرار ابن حُصين : إنى سمِعْتُك تقول : أعطيْتُ اللهَ عَهْدًا إن أمكنك منه أن تقتله ، فإن لم تَفْعَلْ فلا ينصرك الله عليه أبدًا . فدعا نَيْزَك ، فضرب رقَبته بيده ، وأمر بقتل صُول وابن أخى نَيْزَك ، وقَتَل مِنْ أصحابه سبعمائة . وقيل اثنى عشر ألفًا ، وصَلَب نَيْزَك وابْنَ أخيه ، وبعث برأسِه إلى الحجاج ، وأخذ الزُّبيْرُ مولى عبّاس الباهلى خُفًّا لنيزك فيه جوْهر ، فكان أكثر مَن فى بلاده مالاً وعقارًا مِن ذلك الجوهر ، وأطلق قتيبة جبعويه [1] ومنّ عليه ، وبعث به إلى الوليد ، فلم يزل بالشام حتى مات .

ولما قُتِلَ نَيزَك رجع قُتيْبة إلى مرْو ، وأرسل ملكُ الجوزْجَان يطلب الأمانَ ، فأمنه على أنْ يأْتِيَه ، فطلب رهنًا [يكونون فى يده] [2] ويعطى رهائن ، فأعطاه قُتَيْبَة حَبِيب بن عَبْد الله بن حبيب الباهلى ، وأعطى ملك الجوزجان رهائنَ من أهل بَيْتِه ، وقدم على قُتَيبة ، ثم رجع فمات بالطالَقَان ، فقال أهل الجوزجان : إنهم أسمُّوه فقتلوا حَبيبا . وقتل قُتيبة الرهائن الذين كانوا عنده .

---

(١) انظر الهامش السابق ، صفحة ٢٨٩

(٢) من الطبرى .

ذكر غزوة شومان

وكشّ ونَسَف وفتح ذلك

وفى سنة [٩١هـ] إحدى وتسعين سار قُتَيْبَة إلى شُومان فحصرها ، وكان سبب ذلك أنَّ مَلِكِها طردَ عامِلَ قُتَيْبَة من عنده ، فأرسل إليه قُتَيبة رسولَيْن : أحدهما من العرب اسمه عَيّاش ، والآخر من أهل خراسان يدْعُوانه[1] إلى أن يؤدِّى ما كان صالَح عليه ، فقدما شُومان ، فخرج أَهْلُها إليهما ، فرموهما . فانصرف الخُراسانىُّ وقاتلهم عيّاش فقتلوه ، ووجَدُوا به ستِّين جراحةً ، وبلغ قُتَيْبة قَتْلُه ، فسار إليهم بنفسه ، فلما أتاها أرسل صالحُ بن مسلم أخو قُتَيبة إلى ملكها ، وكان صديقا له ، يأْمره بالطاعة ، ويضْمَنُ له رِضَا قُتَيْبة إن رجع إلى الصلح ، فأَبى وقال لرسول صالح : أتخوِّفُنى من قُتَيْبة وأنا أَمْنَعُ الملوك حِصْنًا ؟ فأتاه قُتَيبة وقد تحصَّن ببلده فنصب[2] عليه المجانيقَ ، ورمى الحِصْنَ فهشمه ، فلما خاف الملك أن يَظْهر قُتَيْبَةُ عليه جمع ما كان بالحِصْن مِنْ مالٍ وجوهر ، ورمى به فى بئر فى القلعة لا يُدْرك قَعْرُها ، ثم فتح القلعةَ ، وخرج ، فقاتل حتى قُتِل ، وأخذ قُتيبة القلعةَ عنوةً ، فقتل المقاتلة وسبى الذريّة ، ثم سار إلى كِشّ ونسف ، ثم سار إلى بُخَارى .

وقيل : إنه سار إلى الصُّغد ، فلما رجع عنهم قالت الصُّغد لطرخون : إنك قد رَضِيْتَ بالذُّل واستطبْتَ الجِزْية ، وأنت شيخٌ كبير ، فلا حاجةَ لنا فيك . فحبسوه وولوا غَوْرَك[3] فقتل طرخون نَفْسه .

---

(١) فى الكامل : يدعوان ملك شومان .

(٢) فى الكامل والطبرى : فوضع .

(٣) الضبط فى العبرى .

ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد

وفى سنة [٩٣هـ] ثلاث وتسعين صالح قُتَيْبة خوارَزم شاه ، وسبب ذلك أن [ملك] [١] خوارزم كان ضعيفًا ، فغلبه أخوه خُرّزاذ على أمْرِه ، وكان أصغر منه ، فكان إذا بلغه أنَّ عند أحد مِمَّنْ هو منقطع إلى الملك جاريةً أو مالاً أو دابّةً أو بيتًا أو أختًا أو امرأة جميلة أرسل إليه ، وأخذه منه ، فلا يمتنع عليه أحد ، ولا الملك [٢] ، فإذا قيل للملك قال : لا أقْوى عليه .

فلما طال عليه ذلك كتب إلى قُتيبة يَدْعُوه إلى أرْضِه ليسلِّمها إليه ، واشترط عليه أنْ يَدْفَع إليه أخاه وكلَّ من يُضَادّه ليحكم فيه [٣] بما يرى ، ولم يطلع أحدًا من مَرازِبته على ذلك . فأجابه قُتيبة إلى ماطلب ، وتجهَّز للغَزْوِ ، وأظهر أنه يريد الصُّغد ، وسار مِنْ مَرْو وجمع خُوارزم شاه أجنادَه ودَهاقِنَتَه [٤] . فقال : إن قُتَيبة يريد الصغد ، وليس بغَازيكم ، فهلمُّوا نتنعَّم فى رَبيعنا هذا ، فأقبلوا على الشرب والتنعُّم فلم يشْعُروا حتى نزل قتيبة فى هَزَارَسْب [٥] ، فقال خُوارزم شاه لأصحابه : ما تَرَوْن ؟ قالوا : نرى أنْ نُقَاتِله . قال : لكنى لا أرى

(١) ساقط فى الكامل .

(٢) فى الطبرى : ولا يمنعه الملك .

(٣) فى الكامل : فيهم .

(٤) فى الطبرى : ودهاقينه . وكلاهما جمع دهقان (القاموس) .

(٥) قلعة حصينة ومدينة جيدة الماء محيط بها كالجزيرة ، وهى من نواحى خوارزم (المراصد) .

ذلك ، لأنه قد عجز عنه منْ هو أقوى منا وأشدُّ شَوْكَةً ، ولكن أصرفه بشىء أخرجه [١] إليه .

فأجابوه إلى ذلك ، فسار خُوارَزم شاه إلى مدينة الفِيْل مِنْ وراء النهر ، وهى أحْصَنُ بِلاده ، وقُتَيْبَة لم يَعْبُر النهرَ ، فأرسل إليه خُوارزم شاه ، فصالحه على عشرة آلاف رأْس ، وعيْنٍ ومتاع و[على] [٢] أن يعينه على خام جرد ، فَقبِل قُتَيبة ذلك .

وقيل : صالحه على مائة ألف رأْس ، وبعث قُتيبة أخاه عبد الرحمن إلى [ملك] [٣] خام جرْد ، وكان يغازِى [٤] خوارزم شاه ، فقاتله فقَتَلَه عبد الرحمن وغَلب على أرْضِه ، وقدم بأربعة آلاف أسير ، فقتلهم ، وسلَّم قُتَيْبَةُ إلى خُوارزم شاه أخَاه ومنْ كان يخالفهم ، فقتلهم ، ودفع أموالَهم إلى قُتَيبة . والله أعلم .

ذكر فتح سمرقند

قال : فلما قبض قُتَيبة صُلح خُوارزم قام إليه المُجَشِّر بن مُزاحم السلمى فقال له : سر [٥] الآن إن أردت الصُّغد يومًا من الدَّهْر ، فإنهم آمِنُون مِنْ أن تأْتيهم عامَك هذا ، وإنما بيْنَك وبينهم عشرة أيام . قال : أشار عليك بهذا أحَد ؟ قال : لا . قال : فسمعه مِنْكَ أحد ؟ قال : لا . قال : والله لئن تكلم به أحدٌ لأضرِبَنَّ عنقك .

---

(١) فى د ، والكامل : أؤديه إليه . وفى الطبرى : نؤديه .

(٢) من الطبرى والكامل .

(٣) من الطبرى .

(٤) فى الطبرى : وكان يعادى .

(٥) فى الكامل : سرا .

فلما كان الغَدُ من يومِ كلامه له أَمَر قُتَيْبةُ أخاه عَبْدَ الرحمن فسار فى الفُرسان والرُّمَاة ، وقَدَّم الأَثقالَ إلى مَرْو ، فسار يوْمه ، فلما أمسى كتب إليه قُتَيْبة : إذا أصبحْتَ فوجِّه الأَثْقَال إلى مَرْو ، وسِر فى الفُرْسَان والرُّماة نحو الصُّغد ، واكتُم الأَخبار ، فإنى بالأَثر .

ففعل عبْدُ الرحمن ما أمره ، وخطب قُتَيْبة الناس ، وقال لهم : إن الصُّغد شاغرة [1] بِرجْلها ، وقد نقَضُوا العَهْد الذى بيننا ، وصنَعُوا ما بَلَغَكُم ؛ وإنى أرجو أن تكون خُوارزم والصُّغد كقُريظة والنَّضير .

ثم سار فأَتى الصُّغد ، فبلغها بعْد عبد الرحمن بثلاثٍ أو أربع ، وقدم معه أهل خُوارزم وبُخارى ، فقاتلوا شهرًا من وَجْهٍ واحد وهم محصورون .

وخاف أَهْلُ الصُّغد طول الحصارِ ، فكتبوا إلى ملك الشاش وأخشاد [2] وخَاقَان وفَرْغَانة : إنَّ العربَ إنْ ظَفِرُوا بنا أتوكم بمثل ما أتونا [به] [3] ، فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابْذُلوها . فنظروا وقالوا : إنما نُؤْتَى من سِفْلتِنا وإنهم [4] لا يَجِدُون كوُجْدنِا ، فانْتَخَبوا مِنْ أبناءِ الملوكِ وأَهْلِ النَّجْدةِ من أبناء المَرازِبة والأَساوِرة والأَبطال ، وأَمَرُوهم أَنْ يأْتوا عَسْكَر قُتيبة ؛ فَيُبيِّتوه ، وولَّوا عليهم ابنًا لخاقان ، فساروا .

---

(١) لم تمتنع من غارة أحد لخلوها (القاموس) .

(٢) بالذال المعجمة فى الطبرى ، والمثبت فى الكامل أيضا .

(٣) ساقط من ك .

(٤) فى الكامل : فإنهم .

وبلغ قُتَيْبَةَ الخَبرُ فانتخب من عَسْكَره مائةً ، وقيل ستّمائة من أهل النَّجْدةِ والشجاعة ، وأعلمهم الخبر ، وأمرهم بالمسير إليهم ، فساروا ، وعليهم صالح بن مسلم ، فنزلوا على فَرْسخَيْنِ من العسكر على طريق القَوْمِ ، فجعل صالح له كَمِينين [١] . فلما مضى نِصْفُ الليل جاءهم عدوُّهم ، فلما رأوا صالحا حملوا عليه ، واقتتلوا فشدّ الكمينان عن يمينٍ وشمال ، فقتلهم المسلمون ، وأسرُوا منهم ، ولم يُفْلِتْ منهم إلا الشريد ، واحتَوَوْا على سِلَاحِهم وأسلابهم . وسُئِل بعْضُ الأسرى عن القَتْلَى فقالوا : ما قتلتم إلا ابْن مَلك أو عظيماً أو بَطَلا ، إن كان الرجل ليُعدّ [٢] بمائة رجل .

ونصب قُتَيْبة المَجَانِيق على سَمرْقَنْد ، ورماهم فثلمه ثُلمة [٣] ، ثم أمر قُتيبةُ الناس بالجدّ فى القتال ، وأن يبلغوا ثُلْمَة المدينة ، ففعلوا ، وحملوا وقد تترّسُوا حتى بلغوا الثُّلمةَ ، ووقفوا عليها ، فرماهم الصُّغد بالنشَّابِ ، فلم يبرحوا ، فأرسلوا إلى قُتيبة أن انْصَرفْ عنّا اليوم حتى نصالحكَ غدًا . فقال : لا نُصالِحُهم إلا ورِجالُنا على الثُّلْمة .

وقيل : بل قال : جزعَ العبيدُ ! انصرفوا على ظَفَركم . فانصرفوا ، فصالحهم من الغَدِ على ألفى ألفٍ ومائتى ألف مثقال فى كل عام ، وأن يُعْطُوه تلكَ السنة ثلاثين ألف رأس [٤] ، وأن يُخْلُوا المدينةَ

---

(١) فى الطبرى : كمينا فى موضعين .

(٢) فى الطبرى : ليعدل بمائة .

(٣) فى د : فثلمت . وفى الطبرى : فثلم فيها ثلمة .

(٤) فى الكامل : فارس .

لقُتَيبة ، فلا يكون لهم فيها مقاتل ، فيبنى فيها مسجدًا فيصلِّى فيه ويخطب ويتغدَّى ويخرج .

فلما تمَّ الصُّلْحُ بَنَى المسجد ودخلها قُتَيْبةُ فى أربعةِ آلاف انتخبهم . فدخل المسجد ، فصلَّى فيه ، وخطب وأكل طعامًا ، ثم أرسل إلى الصُّغد يقول : منْ أراد منكم أن يأْخُذَ متاعه فليأْخذ ، فإنى لسْتُ خارجًا منها ، ولَسْتُ آخُذُ منكم إلَّا ما صالحْتُكم عليه ، غير أنَّ الجُنْد يقيمون فيها .

وقيل : إنه شَرَط عليهم فى الصُّلْح مائة ألف رأس [1] وبيوت النيران وحليةَ الأصنام . فقبض ذلك ، وأتى بالأصنام ، فأَخَذَ ما عليها . وأمر بها فأُحرقت ، فوجد من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مِثْقَال ، وأصاب بالصُّغد جاريةً من ولد يزْدجرد ، فأَرسلها إلى الحجاج . فأَرسلها الحجاج إلى الوليد ، فولدت له ابْنَه يزيد بن الوليد . ثم رجع قُتَيْبة إلى مرْو ، واستعمَل على سمرْقند إياس بن عبْد الله على الحرب . وجعل على الخراج عبيد الله بن أبى عُبيد الله مولى مسلم [2] .

ذكر غزو الشاش وفرغانة

وفى سنة [٩٤هـ] أربع وتسعين قطع قُتَيْبَة النَّهْر وفَرض على أهل بُخارى وكشّ ونَسف عشرين ألف مقاتل ، فسارُوا معه .

---

(١) فى ك : فارس .

(٢) فى الطبرى : مولى بنى مسلم .

فوجَّهم إلى الشاش ، وتوجَّه إلى فَرْغَانة فأتى خُجَنْدَة[١] فجمع له أهْلُها ، ولَقُوه ، واقتتلوا مِرارًا ، كلُّ ذلك يكون الظَّفَرُ للمسلمين . ثم إن قُتيبة أتى كاسان[٢] مدينة فَرْغَانة ، وأتاه الجنودُ الذين وجَّههم إلى الشاش وقد فتحوها وأحرقوا أكْثَرَها ، وانصرف إلى مرْو .

وقال سَحْبَان[٣] يذكر قِتَالَهم بخُجَنْدَة[٤] :

وسل[٥] الفوارس فى خُجنْـ ... ـدةَ تحت مُرْهفَةِ العوالى
هل كنتُ أجمعهم إذا ... هُزوا وأقْدِمُ فى قتالى
أم كنت أضْرِبُ هامةَ الْـ ... ـعانى[٦] وأصْبِرُ للعوَالى
هذا وأنْت قريعُ قَيْـ ... ـس كُلِّها ضَخْمُ النَّوالِ
وفَضَلْتَ قَيْسًا فى النَّدَى ... وأبوك فى الحِجَج الخَوالى
ولقد تَبيَّن عَدْلُ حُكْـ ... ـمِكِ فيهمُو فى كلِّ مالِ[٧]
تَمَّتْ مروءتكم ونا ... غَى[٨] عِزُّكم غُلْبَ الجِبالِ

---

(١) با الضم ثم الفتح ونون ثم دال مهملة : بلدة مشهورة بما وراء النهر على نهر سيحون (المراصد) .

(٢) بالسين المهملة ، والشين المعجمة .

(٣) فى الطبرى : وقال سحبان وائل .

(٤) والطبرى : ٦ - ٤٨٤

(٥) فى الكامل : فسل .

(٦) فى الكامل : العانى .

(٧) فى الكامل : حال .

(٨) فى ك : وباغى . والمثبت فى الطبرى أيضا .

ذكر فتح مدينة كاشغر (١)

وفى سنة [٩٦هـ] ست وتسعين سار قُتَيبةُ من مَرْو وحمل مع الناسِ عيالاتهم ليضَعهُمْ بسَمرْقَنْد ، ومضى إلى فَرْغَانة وبعث جيشًا مع كثير ابن فلان إلى كاشْغَر (١) ، فغنم وسبى سَبْيًا ، فختم أعناقَهم ، وأوْغَل حتى بلغ قُرْب الصِّين ، فكتب إليه ملكُ الصين أن ابعَثْ إلىّ رجلا شريفًا يُخْبِرُنى عنكم وعنْ دينكم ، فانتخب قُتيبة عشرةً لهم جَمالٌ وألسنة وبَأْسٍ وعَقْلٌ وصلَاح (٢) ، فأمر لهم بعُدَّةٍ حَسنة ومتَاعٍ حسَن من الخزِّ والوشْيِ وغير ذلك ، وخيول حسَنة ، وكان عليهم (٣) هُبَيرة بن مُشَمْرج (٤) الكِلاَبى ، وقال لهم قُتيبة : إذا دخلْتُم عليه فأعلموه أنِّى قد حَلَفْتُ أنِّى لا أنصرف حتى أطَأَ بلادَهم ، وأختم ملوكهم ، وأجْبِى خراجَهم .

فساروا [وعليهم هبيرة] (٥) ، فلما قدموا دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابًا بياضًا تحتها الغَلَائل ، وتطيّبوا ، ولبسوا النِّعالَ والأَرْدِية ، ودخلوا عليه وعنده عُظَماء قومِه ، فجلسوا فلم يكلِّمْهم المَلِكُ ولا أحد ممن عنده ، فنهضوا .

فقال الملك لمن حضره : كيف رأيْتُم هؤلاء ؟ قالوا : رأيْنَا قوما ماهُم إلا نساء . ما بقى منا أحَدٌ إلَّا انتشر ما عنده .

---

(١) كاشغر : بانتقاء الساكنين والشين المعجمة والغين المعجمة أيضا، وراء : مدينة وقرى ورساتيق ، وهى فى وسط بلاد الترك .

(٢) فى ك : وسلاح .

(٣) فى ك : منهم .

(٤) فى الطبرى : المشمرج .

(٥) من الكامل .

فلما كان الغَدُ دعاهم فلبسوا الوشْى وعمائم الخزّ والمطارف ، وغَدوْا عليه . فلما دخلوا قيل لهم : ارجعوا . وقال لأصحابه : كيف رأيْتُمْ هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه أشبه بهيئة الرجال مِنْ تلك .

فلما كان اليوم الثالث دعاهم فلبسوا [١] سلاحهم ، ولبسوا البَيض والمغافر ، وأخذوا السيوف والرماح والقسِىّ ، وركبوا . فنظر إليهم مَلكُ الصين ، فرأى مثل الخيل [٢] ؛ فلما دنوا ركزوا رماحهم ، وأقبلوا مشمِّرين . فقيل لهم : ارجعوا ، فركبوا خيولهم [وأخذوا رماحهم] [٣] ، ودفعوا خيلهم ، كأنهم يتطاردون . فقال الملك لأصحابه : كيف تَرَوْنَهم ؟ قالوا : ما رأيْنَا مِثْلَ هؤلاء .

فلما أمسى بعث إليهم أن ابْعَثُوا إلىّ زعيمكم ، فبعثوا إليه هُبيْرَةَ ابنَ مُشمْرج ، فقال له : قد رأيتمُ عظم مُلْكِى ، وأنه ليس أحَدٌ يمنَعُكم مِنِّى ، وأنتم فى يدِى بمنزلة البيضة فى كفِّى . وإنى سائلكم عن أمْرٍ ، فإنْ لم تصدقونى قَتَلْتُكُم . قال : سَلْ . قال : لِمَ صنَعْتم بزيِّكُمْ الأول والثانى والثالث [ما صنعتم] [٣] ؟ قال : أما زِيُّنا الأول فلِبَاسُنا فى أهلنا . وأما الثانى فزِيُّنَا إذا أتينا أمَرَاءنا ، وأما الثالث فزِيُّنَا لعدُوِّنا . قال : ما أحسن مادَبَّرْتُم دَهْرَكم ، فقولوا لصاحبكم ينصرف ، فإنى قد عرفْتُ قلّةَ أصحابِه ، وإلا بعثْتُ إليكم مَنْ يُهلككم . قال [٤] :

---

(١) فى الطبرى والكامل : فشدوا .

(٢) فى الطبرى ، والكامل : أمثال الجبال مقبلة .

(٣) ساقط من ك .

(٤) فى الكامل : قالوا .

وكيف يكون قَلِيل الأَصحابِ مَنْ أولُ خَيْلِه فى بلادِك وآخرها فى منابت الزيتون . وأما تخويفُك إيّانا بالقَتْل فإنْ لَنا آجالاً إذا حضَرتْ فأكْرَمُها القَتْلُ ، ولسنا نكرَهُه ولا نخافه ، وقد حلف صاحبُنَا ألّا ينصرف حتى يَطَأَ أرضكم ، ويختم ملوككم ، وتُعْطِى [1] الجزية . قال : فإنَّا نُخْرِجه من يمينه ، ونبعث له بتُرَابٍ من أرضنا ، فيطَؤه ، ونبعث إليه ببَعْض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزْيةٍ يرضاها . فبعث إليه بهديَّة وأربعة غِلْمان من أبناء ملوكهم ، وبتُرَابٍ من أرْضِه : وأعادهم [2] وَأحْسنَ جوائزهم . فقدموا على قُتَيبة ، فقَبِل ذلك ، ووطىء التراب ، وختم الغلمان ، وردهم ، فقال سَوَادة بن عبد الملك السَّلُولى [3] :

لَا عيْبَ فى الوَفْدِ الذين بعَثْتَهم ... للصِّين أنْ سلكوا طريقَ المنْهجِ
كسروا الجفونَ على القَذَى خَوْفَ الرَّدى ... حاشا الكريم هُبَيْرَة بن مُشَمْرَج
أدّى رسالتَك التى استَرْعيْتَه [4] ... فأتَاكَ مِنْ حنثِ اليمين بمخْرَج

هذه غزوات قتيبة وفتوحاته .

وكان قُتَيبة إذا رجع من غَزَاته كلَّ سنة اشترى اثنى عشر فرسًا [من جياد الخيل] [5] واثنى عشر هجينًا ، فَتُخْدَمُ إلى وقت الغزْو ، فإذا تأهَّب للغَزْوِ ضَمَّرها ، وكان يَحْمِلُ عليها الطلائع ، وكان لا يجعل الطلائع إلا فُرْسان الناس وأشرافَهم ، ويجعل معه مِنَ

(١) فى الكامل : وتعطوا .
(٢) فى الطبرى : ثم أجازهم فأحسن جوائزهم .
(٣) والطبرى : ٦ — ٥٠٣
(٤) فى الكامل : استدعيته .
(٥) من الطبرى .

العجم مَنْ يستنصحه . وإذا بعث طَلِيعةً أمر بلَوح فنُقِش ثم شقَّه نِصْفَيْن ، وجعل شِقَّة عنده ، وأعطى نِصْفَهُ للطليعة ، ويأمرهم أن يَدْفِنُوه فى موضع يصفُه لهم مِنْ شجرة أو مخَاضَةٍ أو غيرها ، ثم يبعث بعد الطَّلِيعةِ مَنْ يستخرجه ليَعْلَمَ أصدقَتِ الطليعةُ أم لا .

ولنذكر من الغَزَوات والفتوحات فى أيام الوليد خلاف ما ذكرنا :

ذكر فتح السند وقتل ملكها

وما يتَّصِلُ بذلك من أخبار العمال عليها

وفى سنة [٨٩هـ] تسع وثمانين قَتل محمد بن القاسم بن محمد ابن الحكم بن أبى عقيل الثقفى داهر[١] بن صَصَّة ملِك السند ، ومَلَك بلاده ، وكان الحجاجُ قد استعمله على ذلك الثَّغْرِ وسيَّر معه ستةَ آلاف مقاتل ، وجهَّزه بجميع ما يَحْتَاجُ إليه حتى المسالّ والإبرِ والخيوط ، فسار [محمد][٢] إلى مُكْران ، وأقام بها أياما . ثم أتى قَنَّزْبُور ففتحها ثم سار إلى أرمائيل[٣] فقدمها يوم جُمعة ، ووافته سفُنٌ كان حَمل فيها السلاحَ والرجالَ والأداة ، فأنزل الناسَ منازِلَهم وخَنْدَقَ ونصب عليها مِنْجَنِيقًا يقال له العروس كان يمدّ به خمسمائة رجل ، وكان بالدَّيْبُل بُدٌّ[٤] عظيم عليه

---

(١) داهر — كهاجر : ملك للديبل قتله محمد بن القاسم الثقفى (القاموس) . وفى ك : ذاهر — تحريف .

(٢) من الكامل .

(٣) فى ك : ديبل . وأرمائيل — بفتح أوله ثم السكون وهمزة مكسورة وياء خالصة ساكنة ولام : مدينة كبيرة بين مكران والديبل من أرض السند .

(٤) البد — بالضم . وفى فتوح البلدان (٥٣٥) : كل شىء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد .

دقَل عَظِيم ،وعلى الدَّقَل رَايَةٌ حمراءُ إذا هبَّت الريحُ أطافَتْ بالمدينة ، والبُدُّ: صنم فى بناء عظيم بأعلاه منارةٌ عظيمة مرتفعة ،والدَّقَل فى رأسِ المَنَارة . فرمى الدَّقَل بحَجر [١] العروس فكسره فتطيَّر الكفَّارُ بذلك وأعظموه ، ثم فتحها محمدٌ عنوةً بعد قِتَال ، وقَتَلَ فيها ثلاثة أيام ، وهرب عاملُ داهَر عنها ، وأنزلها محمد أربعَةَ آلاف من المسلمين ، وبنى جامعها ، وسار إلى البيرون [٢] ، وكان أهلها قد بعَثُوا إلى الحجّاج وصالحوه ، فلقوا محمدًا بالمِيْرة ، وأدخلوه مدينَتهم ، ثم سار عنها ، وجعل لا يَمُر بمدينةٍ إلا فتحها حتى عَبَر نهرا دون مِهْرَان فصالحه أهل سربيدس [٣] ، ووظَّف عليهم الخراج ، وسار إلى سهبان [٤] ففتحها ، ثم أتى نهر مِهْرَان فنزل به ، وبلغ خبره دَاهرًا فاستعدَّ لمُحَاربَتِهِ . وبعث محمدٌ جيشا إلى سدوسان [٥] ، فطلب أهلُها الأمانَ والصلح فأمَّنهم ، ووظَّف عليهم الخراجَ ، ثم عبر نهر مِهْران مما يلى بلاد راسل [٦] الملك على جسْر عقَده ، هذا ودَاهر مستخِفٌّ به ، فلقيه محمد ومَنْ معه وهو على فيل ، والفِيَلة حوله ومعه الذكاكرة [٧] ،

(١) فى فتوح البلدان : ونصب منجنيقا تعرف بالعروس (٥٣٥).
(٢) فى ك : النيروذ . والمثبت فى الكامل ، وفتوح البلدان .
(٣) فى د : سريندس . والمثبت فى الكامل وفتوح البلدان (٥٣٦)
(٤) فى ك : سهبار . والمثبت فى الكامل وفتوح البلدان (٥٣٦) .
(٥) فى الكامل: سدوستان : والمثبت فى الفتوح أيضا .
(٦) فى الفتوح : مما يلى بلاد راسل ملك قصة من الهند .
(٧) فى الكامل وفتوح البلدان : التكاترة .

فاقتتلوا قِتالاً شديدًا ، وترجّل دَاهر ، وقاتل فقُتِل عند المساء ، وانهزم الكفار وقاتلهم المسلمون كيف شاءوا ، وقال قائلهم[1] :

الخَيْلُ تشهدُ يوم داهَر والْقَنَا ومحمدُ بْنُ القاسم بن مُحمَّدِ
أنِّى فرَجْتُ الجَمْع غير مُعرَّدٍ[2] حتىٰ علوتُ عظيمَهم بمهنَّدِ
فتَركْتُهُ تحت العجاج مُجَنْدلا[3] متعفِّـرَ الخَدَّيْن غير مُوسَّد

قال : ولما قُتلَ داهر تغلَّب محمدٌ على بلاد السند وفتح راوَر[4] عنوةً ، وكان بها امرأة لداهَر ، فخافت أن تؤخذ فأحرقت نَفْسها وجواريها وجميعَ مالها . ثم سار إلى برهمنا باذ[5] العتيقة ، وكان المنهزمون من الكفَّار قد لجئوا إلـيها ، ففتحها عنوة بعد قتال ، وقَتَل بها بشَرًا كثيرًا ، وسار يريد الرُّور[6] وبغرور ، فلقيه أهل ساونْدَرى[7] ، فطَلَبُوا الأمان فأمَّنهم واشترط عليهم ضِيَافة[8] المسلمين ، ثم أسلم أهلُها بعد ذلك ، ثم تقدم إلى بسمد[9] فصالحه أهْلُها ، وسار إلى الرُّور[6] ، وهى من مدائن

(١) الأبيات فى فتوح البلدان : ٥٣٧ ، والكامل : ٤ — ١١١
(٢) فى ك : معدد .
(٣) فى فتوح البلدان : مجدلا .
(٤) بتكرير الراء وفتح الواو : مدينة كبيرة بالسند (ياقوت) . وفى ك : زاور تحريف
(٥) فى ك : ترهمنا باد . والمثبت فى الفتوح أيضاً .
(٦) فى ك : الدور . والصواب فى الكامل وياقوت . والرور — براءين مهملتين : ناحية من نواحى الأهواز ، وناحية بالسند تقرب من الملتان وهى على شاطىء نهر مهران (ياقوت) .
(٧) هذا الضبط فى الفتوح أيضاً .
(٨) فى الفتوح : ضيافة المسلمين ودلالتهم .
(٩) وفتوح البلدان . وفى ك : تمد .

السند على جَبَلٍ ، فحاصرهم شهورًا فصالحوه ، وسار إلى السكة[١] [ففتحها ، ثم قطع نهر بَيَاس [٢] إلى المُلْتان ، فقاتله أَهْلُها وانهزموا ، فحصرهم ، وجاء إنسان فدلَّه على قَطْعِ الماء الذى يدخل المدينة ، فقطعه فعطشوا وأَلْقَوْا بأَيديهم ، ونزلوا على حُكْمه ، فقتل المقاتلة وسبى الذُّرِّيَّة وسدَنَةَ البُدِّ ، وهم ستةُ آلاف ، وأصابُوا ذَهَبًا كثيرًا ،فجُمع فى بيتٍ طولُه عشرة أذرع وعرْضُه ثمانية أذرع يُلْقَى إليه من كُوَّة فى وسطه ، فسمِّيت المُلْتان فَرْج بيت الذهب ، والفَرْجُ : الثغر ، وكان بُدُّ المُلْتان تُهْدَى إليه الأموالُ من كل مكان ويُحَجُّ [٣] إليه من البلاد ، ويَحْلِقُون عنده رءوسَهم ولِحَاهم ، ويزعمون أنَّ صنمه هو أيوب النبى عليه الصلاة والسلام .

وعظُمَتْ فتوحاتُه ، فنظر الحجاج فى النفقة على ذلك الثغر ، فكانت ستين ألف ألف درهم ، ونظر إلى[٤] الذى حُمِل إليه منه فكان مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف ، فقال : ربحْنَا ستين ألف ألف ، وأدركنا ثَأْرَنَا ورَأْسَ دَاهَر .

قال : واستمر محمد بن القاسم بالهند إلى أن مات الحجاج فى سنة [٩٥هـ] خمس وتسعين ، فأتاه الخبر وهو بالمُلْتَان فرجع إلى الرُّور والبغرور [٥] ، فأعطى الناس ، ووجَّه إلى البَيْلَمَان[٦]

---

(١) فى الفتوح : وهى مدينة دون بياس .

(٢) نهر عظيم بالهند مفضاه إلى المولتان (ياقوت) .

(٣) فى الفتوح : ويحج إليه السند فيطوفون به (٥٣٨) .

(٤) فى الكامل : : فى . (٥) فى فتوح البلدان : وبغرورة

(٦) البيلمان : من بلاد السند والهند تنسب إليها السيوف البيلمانية (ياقوت) . وفى ك : السلمان .

جيشًا ، فأعطوا الطاعة من غير قتال ، وساله أهل شرشت[١] ، ثم أتى محمد الكيرج ، فخرج إليه دَوْهر فقاتله فانهزم دوْهر . وقيل : بل قُتل ، فنزل أَهْلُ المدينة على حكم محمد ،فقتَل المُقَاتلة ، وسبَى الذريّة ؛ فقال شاعرهم :

نحن قتلنا داهرا ودَوهـــــرًا والخيل تردى منسرًا فمنسرا[٢]

قال : ولما مات الوليدُ بن عَبْد الملك ووُلِّى سليمان عزَل مُحَمَّد بْنَ القاسم عن السند ،واستعمل يزيد بن أبى كَبْشَة السكسى على السند ، فأخذ محمدا وقيَّدَهُ وحملَه إلى العراق ، فقال متمثلا [٣] :

أَضَاعُونى وأىّ فَتًى أضاعُـــوا ليَوْمِ كَرِيهةٍ وسِدادِ ثَغْـــر

فبكى أَهْلُ السند .

ولما وصل إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط فقال [٤] :

فلئِن ثَوْيتُ بواسط وبأَرضها رَهْن الحديد مُكبّلاً مغلولا

فلرب قَيْنَة[٥] فارسٍ قد رُعْتُها ولرب قِرْنٍ قد تركتُ قَتِيـــلا

قال : فعذَّبَهُ صالح فى رجالٍ من آل أبى عقيل حتى قتلهم ، فقال حمزة بن بيْض يرثى محمدًا [٦] :

---

(١) فى الفتوح : سرست . وفى الكامل : سرشت .

(٢) فى ك : ميسرا فميسرا . والمثبت أيضاً فى الكامل وفتوح البلدان.

(٣) فى اللسان : وأنشد العرجى .

(٤) الشعر فى فتوح البلدان : ٥٣٩

(٥) فى الفتوح : فتية .

(٦) والفتوح : ٥٤٠ ، والكامل : ٤ ــ ١٣٤

إن المروءةَ والسماحةَ والنـــــدَى لمحمد بن القاسم بن محمـــدِ
ساسَ الجيوشَ لسبْع عشرة حجةً ياقُرْب ذلك سُؤددًا من مولدِ

قال : وأما يزيد بن أبي كَبْشَة فإنه مات بعد مقدمه إلى السند بثمانية عشر يومًا ، فاستعمل سليمانُ على السنْدِ حبيبَ بن المهلب ، فقدم السند وقد رجع الملوكُ إلى ممالكهم ، ورجع حيْسَبة [1] بن داهر إلى برهمنا باذ ، فنزل حبيب على شاطىء مِهْران ، وحارب قومًا فظفر بهم .

ثم مات سليمان ، وولى عمر بن عبد العزيز ،فكتب إلى الملوك يدْعُوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ، ولَهُمْ ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فأسلم حَيسبَةُ[1] والملوك ، وتسمَّوْا بأسماء العرب ، وكان عمْرو بن مسلم الباهلى عامِل عُمر على ذلك الثغر ، فغزا بَعْضَ الهند فظفر بهم ، ثم ولِّى الجُنَيْد بن عَبْدالرحمن السند أيام هشام بن عبد الملك ، فأتى شطَّ مِهْران فمنعه حَيْسَة بن داهر من العُبور ، وأرسل إليه : إنى قد أسلمْتُ وولَّانِى الرجلُ الصالح بلادِى ، ولست أمكنك . فأعطاه رهنًا ، وأخذ منه رهنًا على خراج بلادِه ، ثم ترادَّ الرهون وكفر حيسبة ، وحارب .

وقيل : لم يحارب ، وإنما الجُنَيْد تجنَّى عليه ، فأتى الهنْدَ ، فجمع جموعًا وأعدَّ السفن ، واستعدَّ للحرب ، فسار إليه الجُنَيْد فى السفُن ، فالتقوا ، فأُسر حيْسبة فقتله الجُنَيْد ، وهرب صصَّة بن دَاهر ، وهو

---

(١) المثبت فى د،ك. وفى الكامل: جيشبة .وفى الفتوح (صفحة ٥٤٠) : حيشبة.

يريدُ أن يمضىَ إلى العراق فيشكو غَدْر الجُنَيْد ، فلم يزل الجُنَيْد يُؤْنِسه حتى وضع يده فى يده فقتله .

وغزا الجنيد الكيرج ؛ وكانوا قد نقضوا ، فظَفر ودخل المدينة فغنم وسبى ، ووجّه العمالَ إلى المرمَد[١] والمنْدل ودهْنَج[٢] ، ووَجّه جيشًا إلى أزين[٣] فأغاروا عليها ، وحَرَقوا ربضها ، وفَتَح الجُنَيْد البيْلَمان ، وحصل[٤] عنده سوى ما حِمْله [٥] أربعون ألف ألف ؛ وحمل مِثْلَها .

وفى أيامه خرج المسلمون عن بلادِ الهند . ثم ولى الحكم بن عوام[٦] الكَلْبى ، وقد كفر أهل الهِنْد إلّا أهل قَصَّمة [٧] ، فبنى مدينة سماها المحفوظة ، وجعلها مأْوى للمسلمين ، وكان معه عَمْرو بن محمد بن القاسم فأَغْزَاه من المحفوظة ، فقدم عليه وقد ظهر أَمْرُه ، فبنى مدينةً وسمّاها المنصورة ، واسترجع [٨] ما كان غلب عليه العدوّ ؛ ثم قتل الحكم ، فكان العمال يقاتلون العَدُوّ ، ويفتتحون ما تيسر لهم لضَعْفِ الدولةِ الأُموية ، ثم جاءت الدولةُ العباسية فكان من أَمْرِ السند ما نذكره إن شاء الله تعالى ، وإنما ذكَرْنَا أخبار السند ههنا لتكون متَّسِقَةً ، فلنرجع إلى تَتِمَّةِ الغَزَوات فى أيام الوليد بن عبد الملك :

---

(١) فى فتوح البلدان : مرمد .
(٢) مندل — بالفتح : بلد بالهند (ياقوت) . والدهنج — بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده نون مفتوحة وجيم : من بلاد الهند (ياقوت) .
(٣) فى ك : أرين . والمثبت فى الكامل ، وفتوح البلدان (٥٤١) .
(٤) فى ك : و جعل .
(٥) فى الفتوح : سوى ما أعطى زواره .
(٦) فى فتوح البلدان : عوانة . و المثبت فى ك . والكامل .
(٧) فى ك : فضة . والمثبت فى د ، والكامل ، وياقوت .
(٨) فى الكامل : واستخلص .

ذكر الغزوات الى بلاد الروم وما فتح منها

وغزوات الصوائف على حُكم السنين

فى سنة [٨٦هـ] ست وثمانين غزا مسلمة بن عبْدالملك [أرضَ] (١) الروم . وغزا أيضًا فى سنة [٨٧هـ] سبع وثمانين ، فقَتَل منهم عَدَدًا كثيرًا بِسُوسَنة من ناحية المصِّيْصة (٢) وفتح حصونًا .

وقيل: إن الذى غَزَا فى هذه السنة هشام بن عبْد الملك ، ففتح حِصْن بولق ، وحصن الأخرم ، وحصن بولس وقَمقَم ، وقَتَل من المستعربة نحوًا من ألْف مقاتل ، وسبى ذرِّيَّتَهُم ونساءهُم . والله أعلم .

ذكر فتح طوانة (٣) وغيرها من بلد الروم

وفى سنة [٨٨هـ] ثمانٍ وثمانين غزا مسلمة بن عَبْدالملك والعباس ابن الوليد بلد الروم ، وكان الوليد قد كتب إلى صاحب أرمينية يأْمرُه أن يكتبَ إلى ملك الروم يعرِّفُه أنّ الخَزَر وغيرهم من ملوك جبال أرمينية قد أجمعوا على قَصْد بلاده ففعلوا ذلك ، وقطع الوليدُ البعْثَ على أهل الشام إلى أرمينية ، فتجهَّزُوا ، وساروا نحو الجزيرة ، ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم فاقتتلوا هم والروم ، فانهزم الرومُ ، ثم رجعوا فانهزم المسلمون ، وبقى العباس فى نفرٍ ، فنادى : يأهل القرآن ؛ فأقبلوا جميعًا ، فهزم الله الرُّومَ حتى دخلوا طُوَانَة (٣) ، وحصرهم المسلمون وفتحوها فى جمادى الأُولى منها .

---

(١) زيادة فى د .

(٢) المصيصة — بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وصاد أخرى . كذا ضبطه الأزهرى ، وغيره من اللغويين بتشديد الصاد الأولى . وتفرد الجوهرى وخالد الفارابى بأن قالا : المصيصة بتخفيف الصادين . والأول أصح .

(٣) طوانة — بضم الطاء وبعد الألف نون : بلد بثغور المصيصة .

ثم غزا مسلمة [والعباس] [١] الروم فى سنة [٨٩هـ] تسع وثمانين ، فافتح مسلمة حِصْن [٢] سوريَة ، وافتتح العباس أذروليَة [٣] ، ولقى من الروم جمْعًا فهزمهم [٤] .

وقيل: إن مسلمة قصد عمُورية ، فلقى بها جمعًا كثيرًا من الروم فهزمهم [٤] ، وافتتح هرقْلية [٥] وقمولية [٦] . وغزا العباس الصائفة من ناحية البُدَنْدُون [٧] ، وغزا مسلمة الترك من ناحية أذرَبيجان ، ففتح حصونا ومدائن هناك ، وذلك فى سنة [٨٩هـ] تسع وثمانين أيضًا.

وغزا مسلمة الروم فى سنة [٩٠هـ] تسعين ، ففتح الحصون الخمسة التى بسورية .

وغزا العباس حتى بلغ أرْزَن [٨] وبلغ سورية .

وفى سنة [٩١هـ] إحدى وتسعين غزا عبد العزيز بن الوليد الصَّائفة ، وكان على ذلك الجيش مسلمة بن عبد الملك .

وغزا مسلمة الترك فى هذه السنة من ناحية أذْرَبيجان حتى بلغ الباب ، وفتح مدائنَ وحصونا ، ونصب عليها المجانيق . وغزا مسلمة أرض الروم فى سنة [٩٢هـ] اثنتين وتسعين ، ففتح حصونًا ثلاثة ، وجَلَا أهْلُ سُوسَنَة إلى بلاد الروم .

---

(١) ساقط من د .
(٢) فى الكامل : عمورية . وفى البداية والنهاية : سورية وعمورية .
(٣) والكامل ، والطبرى . وفى ياقوت ، والبكرى ، وفتوح البلدان : درولية .
(٤) فى ك : فهزموهم . (٥) فى الطبرى : هرقلة .
(٦) فى الطبرى : قمودية . وفى الكامل : قمونية .
(٧) الضبط فى الطبرى . وفى الكامل : البذندون . وفى ك : التد ندون .
(٨) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، ولها قلعة حصينة . وكانت من أعمر نواحى أرمينية . وأرزن الروم : بلدة أخرى من بلاد أرمينية (ياقوت) .

وفيها كان فتح الأندلس على يَدِ طارق بن زياد مولى موسى بن نُصير على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى أخبار المغرب ، وغُزِيت جزيرة سرْدَانية وسنذكر ذلك [أيضًا] (١) إن شاء الله .

وغزا العباس الرومَ فى سنة [٩٣] ثلاث وتسعين ، ففتح سَبَسْطِيَة (٢) المرزبانيين .

وغزا مَرْوان بن الوليد الروم فبلغ خَنْجرة (٣) ، وغزا مسلمة ففتح مَاسِيَة (٤) وحِصْنَ الحديد . وغزالة مِنْ ناحية مَلَطْيَة .

وغزا العباسُ بْنُ الوليد الروم ففتح أنطاكية فى سنة [٩٤هـ] أربع وتسعين . وغزا العباس فى سنة [٩٥هـ] خمس وتسعين ، ففتح هِرَقْلَة وغيرها ، وفيها قُتل الوَضَّاحى بأرضِ الروم ونحو ألف رَجُل معه .

انتهت الغزوات فى أيام الوليد بن عبد الملك . فلنذكر خلاف ذلك من الحوادث على حُكْم السنين :

ذكر الحوادث الكائنة فى أيام الوليد بن عبد الملك

خلاف ماقدمناه

سنة (٨٦ هـ) ست وثمانين :

فى هذه السنة حبس الحجاج بن يوسف يزيد بنَ المهلب بن أبى صُفرة ، وعزَل حبيب بن المهلب عن كِرْمَان وعبد الملك عن شرطته .

---

(١) زيادة فى د .

(٢) هذا مع الضبط فى ك . وفى ياقوت : هى مدينة قرب سميساط . وفى الطبرى : سمسطية .

(٣) خنجرة : ناحية من بلاد الروم (ياقوت) .

(٤) فى الطبرى : ماسة . وفى الكامل : ماسيسة .

وحَجّ بالناسِ هشام بن إسماعيل المخزومى .

سنة (٨٧ هـ) سبع وثمانين :

فى هذه السنة عزل الوليدُ بْنُ عبد الملك هشام بنَ إسماعيل عن المدينة لسبع ليالٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول ، واستعمل عُمَرَ بن عَبْدِ العزيز ، فقدمها فى الشهر ،وثَقَلُه على ثلاثين بعيرًا ، فنزل دَار مَرْوَان ،وأَحْسَنَ السيرة فى الناس ، واستعان بفقَهاء المدينة ، وحَرَّضهم على أنْ يبلِّغوه ما يَبْلُغهم من أخبار عُمّاله ، وأن يُعِيْنُوه على الحقِّ ، وقال : إنى أُريد ألَّا أقطع أمْرًا دُونَكم .

وحج عُمر بالناس فى هذه السنة ، وكان على قضاء المدينة أبو بكر ابنُ عَمْرو بن حَزْم ، وعلى قضاء البصرة عبد الله بن أُذينة ، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهم .

سنة (٨٨ هـ) ثمان وثمانين :

ذكر عمارة مسجد النبى

صلى الله عليه وسلم والزيادة فيه

فى هذه السنة كتب الوليدُ إلى عُمرَ بن عبد العزيز فى شهر ربيع الأول يأْمره بإدخال حُجَر أزواج النبىِّ صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وأن يشترى ما فى نواحيه حتى يكونَ مائتَى[1] ذراع ، ويقول له : قَدِّمِ القِبْلَةَ إن قدَرْتَ ، وأنت تقدرُ لمكان أخوالك ؛ فإنهم لا يخالفونك ، فمَنْ أبَى منهم فقوِّموا مِلكَه قيمةَ عدْلٍ ، واهْدِمْ عليهم ، وادفع الأثمانَ إليهم ، فإنَّ لكَ فى عُمر وعثمان رضى الله عنهما أُسوة .

فأحضرهم عمر وأقْرَأهم الكتاب ، فأجابوا إلى أخْذِ الثمن ؛

(١) فى الكامل : فى مائتى ذراع .

فأعطاهم إياه ، وهَدَم الحُجر ، وأرسل الوليد الفَعَلة من الشام ، وبعث إلى ملكِ الروم يُعْلمه أنه قد هدم مَسْجِد النبي صلى الله عليه وسلم ليعمُرَهُ ، فبعث إليه الروم مائةَ ألفِ مثقال من ذَهَبٍ ومائة عامل ، وبعث إليه من الفُسيفساء بأربعين جَمَلا. فبعث الوليدُ بذلك إلى عُمر بن عبد العزيز ، وحضر عُمَرُ ومعه الناس ، فوضعوا أساسه .

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز فى تسهيل البناء وحَفْر الآبار ، وأمره أن يعمل الفوّارة بالمدينة ، فعملها وأجرى ماءها ، وكتب إلى البُلْدَانِ جميعِها بإصلاح الطُّرق وعَمل الآبار .

وفيها منع الوليد المُجذَّمِين من الخروج على الناس ، وأجرى لهم الأرزاقَ .

وحجّ بالناس عمر بن عبد العزيز ، ووصل جماعةً من قريش ، وساق معه بُدْنًا ، وأحرم من ذى الحُلَيْفَة ، فلما كان بالتَّنْعيم أُخْبِرَ أنَّ مكَّةَ قليلةُ الماء ، وأنهم يخافون على الحاجّ العَطَش . فقال عُمَرُ : تعالوا ندْعُوا الله تعالى ؛ فدعا ودعا معه الناس ، فما وصلوا إلى البيت إلَّا مع المطر ، وسالَ الوادِى ، فخاف أهْلُ مكَّةَ مِنْ شِدَّته ، ومُطِرت عرفة ومكة ، وكثر الخصْبُ . وقيل : إنما حَجّ هذه السنة عمر بن الوليد [والله أعلم (١)] .

(١) زيادة فى د .

سنة (٨٩ هـ) تسع وثمانين :

ذكر ولاية خالد بن عبد الله القسرى مكة

وما خطب الناس [به] (١) وقاله

وفى هذه السنة ولى خالدُ بن عبْد الله القَسْرى ، فخطب أهلها فقال : أيها الناس ، أيهما أعظَمُ ، أخليفة الرجل على أهله أو رسوله إليهم؟والله لو لم تعلموا مِنْ فَضْلِ الخليفة إلَّا أنَّ إبراهيمَ خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام استسقاه فسقاه مِلْحًا أُجَاجًا ، واستسقاه الخليفة فسقاه عَذْبًا فُراتا ، يعنى بالملح زَمْزَم ، وبالماء الفُرات بئرًا حفرها الوليد بثنية طُوى فى ثنية الحجُون ، فكان ماؤها عَذْبًا ، وكان ينقل ماءها ويضعه فى حوْضٍ إلى جنب زمزم ليُعْرَف فَضْلُه على زمزم ، فغارت البئر وذهب ماؤها .

وقيل : كانت ولايةُ خالد فى سنة [٩١هـ] إحدى وتسعين . وقيل سنة أربع .

وحج بالناس فى هذه السنة عُمر بن عبد العزيز .

سنة (٩٠ هـ) تسعين :

ذكر هرب يزيد بن المهلب واخوته

من سِجْن الحجاج

فى هذه السنة هرب يزيدُ بن المهلب وإخوته ، وكان الحجاجُ قد خرج إلى رُسْتَقُبَاذ (٢) للبعث ، لأنَّ الأكْرَاد كانوا قد غَلَبُوا على فارس ،وأخرج معه يزيد بن المهلب وإخوته ، وجعل عليهم مِثْلَ الخَنْدَق ، وجعلهم فى فُسْطَاطٍ قريبٍ منه ، وجعل عليهم الحَرَس مِنْ أهل

(١) زيادة فى د .

(٢) الضبط فى ياقوت . وهى موضع من أرض دستوا : بلدة فى فارس. وقيل : بالأهواز .

الشام ، وطلب منهم ستةَ آلافِ ألفٍ ،وعَذَّبهم ؛ فكان يزيد يَصْبِرُ صَبْرًا حسنًا ، فكان ذلك مما يَغيظُ الحجاج . فقيل له : إنه رُمِيَ فى ساقه بنُشَّابة فثبَتَ نَصْلُها فيه فهو لا يمسّها شىء إلّا صاح ،فأمر أن يُعَذَّب فى ساقِه ، فعذب ، فصاح ، فسمَعَتْه أُخْتُه هِنْد ، وكانت عند الحجاج فصاحت ، فطلقها الحجاج ، ثم كفّ عنهم وجعل يَسْتَأْدِى[1] منهم المال ، فصنع يزيد للحرس طعامًا كثيرًا وأمر لهم بشَرَابٍ ، فسُقوا ، واشتغلوا[2] ، فلبِسَ يزيد ثيابَ طبّاخِه وخرج ، وقد جعل له لحيةً بيضاء ، فرآه بعْضُ الحرس ، فقال : كأنَّ هذه مشية يزيد ، فلحقه فرأى لِحْيَته بيضاء ، فتركه ، وعاد وخرج المفضَّلُ ولم يُفطَن له ، وكذلك عبد الملك ، فجاءوا إلى سفن مُعَدَّة فركبوها ، وساروا ليلتَهم.

ولما أصبح الحجاجُ وعَلِم بهم الحرس رفعوا أمْرَهم إليه ففزع ، وظن أنهم قصدوا[3] خراسان لفتْنَةٍ ، فبعث إلى قُتيبة يأْمُرُه بالجدِّ والاحتياط .

ولما دنا يزيدُ وإخوته من البطائح استقبلَتْهم خَيْلٌ قد ضُمِّرت وأُعِدَّت لهم ، فركبوها ومعهم دَلِيلٌ من كلْب ، فأخذوا على السَّمَاوة إلى الشام ، فأتى الحجاجَ الخبرُ ، فكتب إلى الوليد يُعْلِمه . وسار يزيد حتى قدم فلسطين ، فنزل على وُهيب بن عبد الرحمن الأَزْدِى ، وكان كريما على سليمان بن عبد الملك ، فجاء وُهيب إلى سليمان فأعلمه بحال يزِيد وإخوته ، وأنهم قد استعاذُوا به من الحجاج . قال : فأتى

(١) فى الطبرى : يستأديهم .
(٢) فى الطبرى : فكانوا متشاغلين .
(٣) فى د : يقصدون . وفى الكامل : يفسدون .

بهم ، فإنهم آمنون لا يوصل [١] إليهم وأنا حىّ . فجاء بهم إليه فكانوا عنده فى مكانٍ آمنٍ .

وكتب الحجاج إلى الوليد : إنَّ آلَ المهلب خانُوا مال [٢] الله وهربُوا مِنِّى ، ولحقوا بسليمان .

فلما علم أنهم عند أخيه سكنَ بَعْضُ مابِه ، وكتب إليه سليمان : إنَّ يزيدَ عِنْدى وقد أَمَّنْتُه ، وإنما عليه ثلاثةُ آلافِ ألفٍ ، لأن الحجاج أغْرَمه ثلاثة آلاف ألف ، والذى بَقِى عليه أنا أُؤَدِّيه .

فكتب الوليدُ : واللهِ لا أُؤَمِّنُه حتى تبعثَ به إلىّ . ...

فكتب سليمان : لئن بعثتُ به إليك لأجيئنَّ معه .

فكتب إليه : والله لئن جئتَنى لا أُؤَمِّنه . فقال يزِيدُ بن المهلَّب : أَرْسِلْنى إليه ، فوالله ما أُحِبُّ أن أوقعَ بينك وبينه عَداوة ، واكتُبْ معى بألطف ما قدرْتَ عليه. فأرسله ، وأرسل معه ابْنَه أيوب .

وكان الوليدُ قد أَمَره أن يَبْعَثَ به مُقَيَّدًا . فقال سليمانُ لابْنِه : إذا دخلْت على أمير المؤمنين فادخُلْ أنتَ ويزيدُ فى سلسلةٍ . ففعل ذلك ، فلما رأى الوليدُ ابْنَ أخيهِ فى سلسلةٍ قال : لقد بلَغْنَا من سليمان .

ودفع أيوبُ كتابَ أبيه إلى عَمِّه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تُخْفِر ذِمَّةَ أبى ، وأنت أحقُّ مَنْ منعها ، ولا تَقْطَعْ مِنَّا رجاء مَنْ رجا السلامَةَ فى جِوارِنا لمكاننا منك ، ولا تُذل منْ رَجَا العِزَّ فى الانقطاع إلينا لعِزِّنا بك .

---

(١) فى الكامل : لايتوصل .

(٢) فى الكامل : أمان الله .

فقرأ الوليدُ كتابَ سليمان فإذا هو يستَعْطِفُه ويشفَع فيه، ويضمَنُ إيصالَ المال .

فقال : لقد شقَقْنَا على سليمان .

وتكلم يزيد واعتذر ، فأَمَّنهُ الوليدُ ، وردّه إلى سليمان ، وكتب إلى الحجاج : إنى لَم أَصِلْ إلى يزيد وأهله لمكانهم مِنْ سليمان ، فاكفُفْ عنهم ، وكان أبو عُيَيْنَة بن المهلَّب عند الحجاج عليه ألف ألف ، فتركها له ، وكَفَّ عن حبيب بن المهلب ، وكان يُعذَّبُ بالبصرة ، وأقام يزيد عند سليمان فى أَرْغَدِ عيش ، وكان لا تَصِلُ إليه هديَّةٌ إلَّا بعث بنصفها إلى يزيد ، ولا تعجبه جارية إلا بعث بها إليه ، وكان يزيدُ إذا أتته هدية بعث بها إلى سليمان .

وفى هذه السنة استعمل الوليد قُرَّةَ بْنَ شَريك على مِصْر ، وعزل أخاه عَبْدَ الله عنها .

وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحْرِ ، فأهداه ملكهم إلى الوليد .

وحج بالناس عمر بن عبد العزيز .

وفيها مات أَنَسُ بن مالك رضى الله عنه الأنصارى . وقيل : سنة [٩٢هـ] اثنتين وتسعين ، وكان عمره سِتًّا وتسعين سنة ، وقيل مائة وست سنين .

سنة (٩١ هـ) احدى وتسعين :

فى هذه السنة حَجّ الوليدُ بن عبد الملك بالناس ، فلما قدم المدينة دخل المسجد ينظر إلى بنائه ، فأخرج الناسَ منه ، ولم يبْقَ

غَيْر سعيد بن المسيَّب ، لم يجسر[1] أحد من الحَرس أنْ يخرِجَه ، فقيل له [رضى الله عنه] [2] : لو قُمْتَ . فقال : لا أقومُ حتى يأتى الوقتُ الذى كنتُ أقوم فيه . قيل له : فلو سلَّمْتَ على أمير المؤمنين . قال : لا ، والله لا أقوم إليه . قال عمر بن عبد العزيز : فجعلت أعْدِلُ بالوليدِ فى ناحيةِ المسجد لئلاَّ يَراهُ ، فالتفت الوليدُ إلى القِبْلَةِ . فقال : منْ ذَلِكَ الشيخ : أهو سعيد ؟ قلت : نعم . ومِنْ حاله كذا وكذا ، ولو علم بمكانك لقام فسلَّم عليك .

فقال الوليدُ : قد علمت حاله ، نحن[3] نأْتيه ، فأتاه فقال: كيف أنْتَ أيها الشيخ ؟ فواللهِ ما تحرَّك سَعيد . فقال : بخير والحمد لله ، فكيف أمير المؤمنين ؟ وكيف حالُهُ ؟ فانصرف وهو يقولُ : هذا بقِيَّةُ الناس . وقسم الوليدُ بالمدينة رقيقًا[4] كثيرًا وآنية مِنْ ذهبٍ وفضة وأموالاً ، وصَلَّى بالمدينة الجمعة ، وخطب الخطبة الأُولى جالسا والثانية قائماً .

وفيها عزل الوليد عامله محمد بن مرْوَان عن الجزيرة وأرمينية . واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك ، فغزَا الترك كما تقدم .

سنة (٩٢ هـ) اثنتين وتسعين :

فى هذه السنة حَجَّ بالناس عمر بن عبد العزيز وهو على المدينة وكان من الغزوات والفتوحات ما تقدم ذكره .

---

(١) فى الطبرى : ما يجترىء .
(٢) ليس فى د .
(٣) فى د : ونحن .
(٤) فى الكامل : دقيقا . والمثبت فى الطبرى أيضا .

سنة (٩٣ هـ) ثلاث وتسعين :

ذكر عزل عمر بن عبد العزيز

فى هذه السنة عزل الوليدُ عُمَر بن عبد العزيز عن الحجاز والمدينة ، وكان سببُ ذلك أنَّ عُمر كتب إلى الوليد يُخْبره بعسْفِ الحجَّاج وظُلْمِه ، فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى الوليدِ : إن مَنْ عندى مِنَ المُرَّاق [1] وأهل الشقاق قد جَلَوْا عن العِرَاقِ ولحقُوا بالمدينة ومكة ، وإن ذلك وَهن .

فكتب إليه الوليدُ يستشيره فيمَنْ يُوَلِّيه المدينةَ ومكة ، فأشار بخالِدِ بن عَبْد الله القَسْرى وعثمان بن حَيَّان ، فولى خالدًا مكة وعثمانَ المدينة ، فلما قدم خالدٌ مكة أخرج مَنْ بها من أهْلِ العراق كرهًا ، وتهدَّدَ مَنْ أنزل عِرَاقيًّا أو أجره دارًا . وقيل : كان ذلك قبل هذا التاريخ . والله أعلم .

وفيها كتب الوليد إلى عمر قبل عزله يأمره أن يضرب خُبَيْب [2] ابن عبْد الله بن الزُّبير ، ويَصُبَّ على رأسه ماءً باردًا ، فضربه خمسين سَوْطًا . وصبَّ على رأسه ماءً باردًا فى يوم شاتٍ ، ووقفه على باب المسجد ، فمات من يومه .

وحج بالناس عبد العزيز بن الوليد .

---

(١) فى الطبرى : من مراق أهل المدينة .

(٢) بضم الخاء المعجمة وباءين موحدتين بينهما ياء تحتها نقطتان (الكامل : ٤ — ٢٩) .

سنة (٩٤ هـ) اربع وتسعين :

ذكر مقتل سعيد بن جبير

[رضى الله عنه] (١)

فى هذه السنة قَتَلَ الحجاجُ بن يوسف سَعِيدَ بن جُبير ، وهو أبو عبْد الله سعيد بن جُبَيْر بن هشام الأَسَدى مولى بنى والبة : بَطْنٌ من بنى أسد بن خزيمة .

وكان سببَ قَتْله خروجُه مع عبْد الرحمن بن [محمد بن] (٢) الأَشعث ، وكان الحجاجُ قد جعله على عطاء الجُنْدِ حين وجّه عبْدَ الرحمن لقتال رُتْبِيل ، فلما خلع عبد الرحمن الحجاج وعبد الملك كان سعِيدٌ ممن خلع ؛ فلما هُزِم عَبد الرحمن هرب سَعِيد إلى أصبهان . فكتب الحجاجُ إلى عامِلها يأْمره بإرساله ، فتحرّج العاملُ من ذلك ، وأرسل إلى سَعِيد يُعَرِّفُه أن يفارِقَ البلد ، فخرج إلى أذْرَبِيجان ثم خرج إلى مكة ، فكان بها حتى قدم خالدُ بن عَبْدِ الله مكة ، وأخرج أَهْلَ العراق إلى الحَجّاج ، فأُخذ سَعِيد فيمن أخذ ، وسيره إلى الحجاج مع حَرَسيَّيْن ، فانطلق أَحَدُهما لحاجته فى بعض الطريق وبقى الآخر فنام واستيقظ . فقال لسعيد : إنى أبرأُ إلى الله مِنْ دَمِك ، إنى رأَيْتُ فى منامِى قائلا يقول لى : ويلك ! تَبرأْ إلى الله مِنْ دَم سَعيد بن جُبَيْر ، فاذْهبْ حيث شئتَ ، فإنى لا أَطْلُبك ، فأَبى سَعيد ذلك ، ورأى الحَرَسِىُّ ذلك ثلاث مرات وهو يكرِّر القولَ على سَعيد فى الذهاب فلا يفعل . ثم قدم الكوفةَ فأُدخل على الحجاج ، فلما رآه قال : لعنَ اللهُ ابْنَ النصرانية - يعنى خَالد بن عبْد الله ،

(١) ساقط فى د . (٢) من الكامل والطبرى .

أما كنت أعرف مكانه ،بلى والله والبيت الذى كان فيه بمكة . ثم أقبل عليه وقال : يا سعيد ، ألم أشركك فى أمانتى [١] ؟ ألم أستعملك ؟ قال : بلى . قال : فما أخرجك علىّ ؟ قال : إنما أنا امرؤ من المسلمين يُخطىء مرّةً ويُصيب مرة . فطابت نَفْسُ الحجاج ، ثم عاوده فى شىء ، فقال : إنما كانت بَيْعتُه[٢] فى عُنقى . فغضب الحجاجُ وانتفخ . وقال : ياسعيد ، ألم أقدم مكة فقتلْتُ ابْنَ الزبير وأخَذْتُ بيعَةَ أهلها ، وأخذْتُ بيعتَك لأمير المؤمنين [عبد الملك] [٣]؟ قال : بلى . قال: ثم قدمتُ الكوفة واليًا فجدّدْتُ البيعة فأخذت بيْعَتَك ثانيًا ؟ قال : بلى . قال : فنكثْتَ بيعَتَيْن لأميرِ المؤمنين ، وتُوفى بواحدةٍ للحائك ابن الحائك ، والله لأقتلنّك . قال : إنى إذًا لسعيد كما سمّتْنى أمى ، فأمَر به فضُرِبَتْ رقَبَتُهُ . فلما سقط رأسه هلل ثلاثًا ؛ أفصح بِمَرّة[٤] ولم يُفْصح بمرّتَيْن ، والتبس عَقْل الحجاج فجعل يقول : قيودُنا قيودُنا ، فظنوا أنه يُريد القيودَ ، فعطفوا[٥] رِجْلَىْ سعيدمن أنصاف ساقيه وأخذوا القيودَ .

وكان الحجاج إذا نَامَ يراه فى منَامه يأخذ بمجامع ثوبه ،فيقول : ياعدوَّ اللهِ ، فيمَ قتلْتَنى ، فيقول : مالى ولسعيد بن جُبير ! مالى ولسعيد بن جُبَير ! يكررها .

---

(١) فى الكامل : إمامتى .
(٢) فى د ، والكامل : بيعة .
(٣) زيادة فى د .
(٤) فى ك : مرة .
(٥) فى د : فقطعوا .

[وفيها كانت الزلازلُ بالشام فدَامَتْ أربعين يوما ، فخربت البلاد ، و كان معظم (١) ذلك بأنطاكية .

ذكر وفاة زين العابدين على بن الحسين

ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ونبذة من أخباره

كانت وفَاتُه بالمدينة فى أول سنة [٩٤هـ] أربع وتسعين. وقيل فى سنة اثنتين. وقيل سنة ثلاث. وقيل سنة تسع وتسعين. وقيل سنة مائة . حكى هذا الاختلاف أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دِمشق ،واقتصر ابْنُ الأثير الجزرى على سنة أربع وتسعين دونَ غيرها.

وكان رَحِمه الله يُكْنَى أبا عبد الله ، ويقال أبو محمد ، ويقال أبو الْحَسَن ، ويقال أبو الحُسَين زَيْن العابدين. ومولده سنة [٣٣هـ] ثلاث وثلاثين ، وأمه أمّ ولد اسمها غَزَالة [خلف عليها بعْدَ الحُسَين زُبَيْد مولى الحسين ، فولدت له عبد الله بن زُبَيْد .

وقال إسماعيل بن موسى السُّدِّى: عَبْد الرحمن بن حبيب أخو علىّ ابن الحسين لأبيه] (٢) ، وكان رحمه الله ثقة وَرِعًا مأمونًا كَثِيرَ الحديث مِنْ أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعةً .

حكى أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه عن الزهرى ، قال : شهدْتُ علىَّ بنَ الحسين يوم حَمَلَهُ عَبْدُ الملك بن مروان من المدينة إلى الشام ، فأوثقه حَدِيدًا ، ووكل به حُفَّاظًا فاستأذنتهم (٣) فى التسليم عليه والتوديع له فأذنوا لى فدخلْتُ عليه ، وهو فى قُبَّةٍ

(١) فى الكامل : عظم . (٢) من د .
(٣) فى ك : فاستأذنهم .

والقُيودُ فى رجليه والغُلُّ فى يديه ، فسكنت[1] وقلت : وَدِدْتُ أنى مكانك وأنْتَ سليم . فقال : يا زُهْرِىّ ، أو تظنُّ هذا مما تَرَى علىَّ وفى عنقى . أما إنى لو شئْتُ ما كان . ثم أخْرَجَ يدَيْه من الغُلِّ ورِجلَيْهِ من القَيْد .

ثم قال : يا زهرىّ ، جُزْتُ معهم على هذا منزلتين من المدينة . فما لبثنا إلا أرْبع ليالٍ حتى قدم الموكَّلُون به يطلبونَه بالمدينة ، فما وَجَدُوه ، فكنْتُ فيمن سألهم عنه ، فقال لى بَعْضُهم : إنا نَراه متبوعًا ، إنه لنازِلٌ — ونحن حَوْلَه لا ننامُ نَرْصُده — إذ أصبحنا ، فما وَجَدْنَا إلا حديدَه .

قال الزهرى : فقدمْتُ بعد ذلك على عَبْد الملك ، فسألنى عن علىّ ابن الحسين ، فأخْبَرْتُه ، فقال لى : إنه قد جاء نى فى يوم فَقَدَهُ الأعوان ، فدخل علىّ ، فقال : أنا وأنت ! فقلْتُ : أقِمْ عندى . فقال : لا أحبُّ ، فخرج ، فواللهِ لقد امتلأ ثَوْبِى منه خِيفَةً .

قال الزهرى : فقلت : يا أمِير المؤمنين ، ليس علىّ بْنُ الحسين حيث تظنُّ ، إنه لمشغولٌ بنفسه . فقال : نعم .

وقيل : وقع حريقٌ بالمدينة فى بيتٍ فيه علىّ بن الحسين ، فجعلوا يقولون : يا ابْنَ رسولِ اللهِ ، النار ! فما رفع رَأْسَه حتى أطفئت ، فقيل له : ما الذى ألهاكَ عنها ؟ قال : ألهانى عَنْها النارُ الأُخرى . .

وقيل : كان إذا مشى لا تجاوِزُ يَدُه فخذيه ، ولا يَخْطر بيده . وكان إذا قام إلى الصلاة أخذَتْه رعدة ، فقيل له : مالك ؟ فقال : ما تَدْرُون بين يَدَىْ مَنْ أقوم ومَنْ أناجى .

(١) فى د : فبكيت .

قيل : وكان إذا توضّأ اصفرّ فيقول له أهله : ما هذا الذى يَعْتَادُك عند الوضوء ؟ فيقول : تَدْرُونَ بين يَدَى مَنْ أريد أقوم ؟

وعن سُفْيَان بن عُيَيْنة قال : حَجّ على بن الحسين ، فلما أحْرَم واستوَتْ به راحِلَته اصفرّ لَوْنُه وانتفض ، ووقع عليه الرعْدَةُ ، ولم يستطع أن يُلَبّى . فقيل له : مالك لاتُلَبّى ؟ فقال : أخْشَى أنْ أقول لَبَّيْكَ ، فيقول لى : لا لَبَّيْك . فقيل له : لابُدَّ مِنْ هذا . فلما لَبّى غُشِى عليه ، وسقَط مِنْ راحلته ، فلم يَزَلْ يَعْتَريه ذلك حتى قَضَى حَجَّه .

وقيل : كان رضى الله عنه يُصَلِّى فى كلّ يوم وليلةٍ ألْفَ ركعة إلى أن مات رضى الله عنه .

وكان يُسَمَّى بالمدينة زَيْن العابدين لعبادته . وقيل : إنه قاسم اللهَ مالَه مَرَّتَيْن ، وكان يحمل الخُبْزَ بالليل على ظَهْرِه يتبع به المساكين فى ظُلْمَة الليل ، ويقول : إن الصَّدَقَةَ فى ظلمة الليل تطفئ غَضَب الرّبّ .

وأعْتَقَ غلامًا أعطاه به عَبْدُ الله بن جعفر عشرةَ آلاف درهم وألف دينار . قيل : وسكبت جاريةٌ عليه الماء ليتهيّأ للصلاة ، فسقط الإبريق مِنْ يَدِها على وجهه ، فشجّه ، فرفَع رَأْسَه إليها ، فقالت : إن الله عزّ وجل يقول (١) : « والكاظِمِينَ الغَيْظَ » . قال : قد كظَمْت غَيْظِى . قالت (١) : « والْعَافِين عن الناس » . قال : قد عفا الله عنك . قالت (١) : والله يُحِبُّ المُحْسِنِين » . قال : اذهبى فأنْتِ حُرَّة .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٣٤

قيل[١] :وأذنب له غلام ذنبًا استحقّ منه العقوبةَ ،فأخذ السَّوْطَ . فقال الغلام : « قُلْ للذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا للذين لا يَرْجُونَ أيامَ الله» ، وما أنا كذلك ، إنى لَأَرْجُو رحْمَةَ الله ، وأخاف عَذَابَه ، فألقى السَّوْطَ ، وقال : أنْتَ عَتِيق .

وقيل : حَجَّ هشام بن عَبْد الملك فى زَمَنِ عَبْد الملك أوفى زَمن الوليد ، فلما طاف جهد أنْ يَسْتَلِم الحجرَ فلم يُطِق لزحامِ الناسِ عليه ، فنُصِب له مِنْبَرٌ ، وجلس ينظُرُ إلى الناس ، إذْ أقبل علىُّ بن الحسين رضى الله عنه من أحسن الناس وجْهًا وأطيبهم ريحًا ، فطاف بالبيت ، فكان كلما بلغ الحجَر تَنَحَّى الناسُ له حتى يستلمه . فقال رجلٌ من أهل الشام :مَنْ هذا الذى قد هَابَه الناسُ هذه المهابة ؟ فقال هشام : لا أعرِفُه – مخافَةَ أنْ يَرْغَبَ الناس فيه ، وكان حوله وجوهُ أهل الشام ، والفرزدقُ الشاعر ، فقال الفرزدق : لكننى أنا أعرفه ، فقال أهل الشام : مَنْ هذا يا أبا فِرَاس ؟ فزَبَره هشام ، وقال : لا أعرفه . فقال الفرزدق : بل تعرِفُه ، ثم أنشد مشيرًا إليه[١] :

[هذا سليل حُسين وابْنُ فاطمـــة
بنت الرسول الذى انجابت به الظُّلم][٢]
هذا الذى تعرِفُ البَطْحَاءُ وطْأَتَـــه
والبيتُ يَعْرِفُه والحِلُّ والحَـــرمُ
هذا ابْنُ خَيْرِ عبادِ الله كلِّهِمُـــو
هـــذا النَّقِى التَّقِىُّ الطاهر العَلَمُ

(١) و الأغانى : ١٤ – ٧٥ ، والمحاسن والمساوىء : ٢٣١
(٢) زيادة فى د .

إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُهـــــا
إلى مكارمِ هَذَا يَنْتَهى الكـــــرَمُ
يَرْقَى[١] إلى ذِرْوةِ العِزِّ الذى قَصُرَتْ
عن نَيْلها عَرَبُ الإسلام[٢] والعَجمُ
يكاد يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِـــــه
رُكْنُ الحَطِيم إذا ما جاء يَسْتَـــلِمُ
يُغْضِى حَيَاءً ويُغْضَى من مَهَابَتِـــــه
فـــلا يُكَـــلَّم إلا حيـن يَبْتَسِمُ
بكَفِّـــه خَيْزُران ريحهـــا عَبِقٌ
من كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنِيْنِـــه شَمَمُ
مَنْ جَدُّه دَانَ فضل الأنبياء لـــه
وفضـــل أُمته دانت لـه[٣] الأُمم
ينشقُّ نورُ الهُدَى عن نُور غُرَّتِـــه
كالشمس تَنْجَابُ عن إشراقها الظُّلَمُ[٤]
مشتقة من رسول الله نَبْعَتُـــه
طابت عنـــاصِرُها والخِيْمُ والشِّيَمُ
هذا ابْنُ فاطمةٍ إن كنْتَ جاهِلَـــه
بجـــدِّه أنبياءُ الله قد خُتِمـــوا

(١) فى د : بنمى .
(٢) فى د : الأقوام .
(٣) فى ك : لها .
(٤) فى هامش د : نسخة : القمم .

اللهُ شرَّفــــه قِدْمًا وفَضَّلـــــه
جرى بذاك له فى لَوْحِـــــهِ القَلَمُ
[فليس قولك مَنْ هذا بضَائِـــــره
العرب تعرف من أنكرْتَ والعجم] (١)
كلتا يديـــه غِيَاثٌ عَمَّ نفعهمـــــا
يستَوْ كِفان ولا يَعْرُوهما عـــدم (٢)
حَمّال أثقـــال أقوام إذا فُـــــدِحوا
حلْوُ الشمائل تَحْلُـــو عِنْدَه نَعَم
لا يخلف الوَعْـدَ ميمونٌ نَقيبَتُـــــه
رَحْبُ الفِنَاء أَرِيب حين يَعْتَـــــزِمُ
مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهم دين وبَغْضُهمـــــو
كُفْرٌ وقربهمو مَنْجًى ومُعْتَصَم
إن عُدّ أَهْـــلُ التُّقَى كانـــوا أئمتهم
أو قيل مَنْ خير أهل الأَرض قيل همُو
لا يستطيـــع جَوَادٌ بُعْدَ غايتهم
ولا يدانيهم قَـــوْمٌ وإن كرمُـــوا
هم الغيوثُ إذا ما أَزْمَـــــةٌ أَزَمَـــت
والأُســـد أُســد الشَّرى والبأْس محتدِم

(١) زيادة فى د .
(٢) فى هامش د : حاشية :
هم البرية بالإحسان فانقشعت عنه الغيانة والإملاق والعـــدم
سهل الخليقة لا تخشى بـــوادره يزينه اثنان : حسن الخلق والكرم

لا ينقص العُسْرُ بَسْطًا مـــن أكُفِّهِمُ
سيَّان ذلك إن أثْرَوا وإن عَدِمُـــوا
يُستَدْفَع السوءُ والبَلْـوَى بحبِّهُمـــو
ويُسْتَرَدُّ به الإحســـانُ والنعم
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ الله ذِكْرهُمـــــو
فى كل أمرٍ ومختـــومٌ بـــه الكلم
يأبى لهم أن يحُلَّ الذُّلّ (١) ســـاحتَهم
خِيمٌ كريـم وأيْـــدٍ بالنـــدى هُضُم
أىّ الخلائق ليست فى رِقابهمـــو
لأوَّلِيَّـــةِ هـــذا أو لَه نِعَم
مَنْ يشكـر الله يشكـــر أوليَّة ذَا
فالدِّيْن مـــن بيت هـــذا بابُـــه الأمم

قال : فغضب هشام لذلك وتنغَّص عليه يَوْمُه ، وأمر بحَبْس الفرزدق بعُسْفَان بين مكة والمدينة ، وبلغ ذلك علىّ بن الحُسَين رضى الله عنه ، فبعث إليه باثنى عشر ألف درهم ، وقال : اعذر أبا فِرَاس ، لو كان عندنا أكثر من هذا لو صَلْنَاك بها ، فردَّها الفرَزْدَق ، وقال : ما قلْتُ الذى قلْتُ إلاَّ غضبًا لله ولرسوله ، وما كُنْتُ لأُرْزَأ عليها شيئًا ، فردّها عليه ، وقال : بحَقِّى عليك إلا قَبِلْتَها ، فقد علِمْتَ أنَّا أهل بيت إذا أنْفَذْنا أمرًا لا نرجع فيه ،

(١) فى د : الذم .

وقد رأى الله مكانك ، وعلم نِيَّتَك ، والجزاءُ عليه تعالى. فقبلها .

وجعل الفرزدق يَهْجُو هشامًا ، فكان مما هجاه به [١] :

أَتَحْبِسنى[٢] بين المدينـةِ والتى إليها قلوبُ الناس يَهْوَى مُنيبها
يُقَلِّبُ رأسًا لم يكن رَأْسَ سيِّدٍ وعينين حَوْلاوَيْنِ بادٍ عُيُوبُهـا

وكان على بن الحسين يقول : لقد استرقَّكَ بالودّ مَنْ سبقك بالشكر .

ولما حضرته الوفاة أوصى ألّا يُؤْذِنُوا به أحدًا ، وأن يكفَّن فى قُطن ، ولا يجعلوا فى حَنُوطهِ مِسْكًا ، ودُفِنَ بالبَقيع رحمه الله ورضى عنه .

ومات أيضًا فى هذه السنة عُرْوة بن الزبير رضى الله عنهما ، وسَعِيد بن المُسَيَّب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام .

وحجّ بالناس مسلمة بن عَبْد الملك. وقيل عبد العزيز بن الوليد .

وفيها استقضى الوليدُ على الشام سليمان بن حبيب .

سنة (٩٥ هـ) خمس وتسعين :

ذكر وفاة الحجاج بن يوسف الثقفى

وشىء من أخباره

هو أبو محمد الحجّاج بن يوسف بن الحَكم بن أبى عَقيل ابن عامر بن مسعود بن مالك بن كعب بن عَمْرو بن سعد بن عوف ابن ثَقِيف ، كانت وفاتُه فى شوال سنة [٩٥هـ] خمس وتسعين ،

(١) ديوانه : ١٦ (٢) فى الديوان : ترددنى .

وقيل لخَمْسٍ بقين من شهر رمضان من السنة ، وله من العمر أربعٌ وخمسون ، وقيل ثلاث وخمسون .

روى أن عُمَر بن عبد العزيز ذُكر عنده ظُلْمُ الحجاج وغيره من وُلاةِ الأمصار فى أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال عُمَر بن العزيز : الحجاجُ بالعراق ، والوليدُ بالشام ، وقُرَّة بن شريك بمِصْر ، وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكة ؛ اللهم قد امتلأَتْ ظُلمًا وجَوْرًا ، فأَرِح الناسَ . فلم يَمْضِ غَيْرُ قليل حتى توفى الحجاج وقُرَّة فى شهر واحد ، ثم تبعهم الوليد ، وعُزِل عثمان بن حَيَّان ، وخالد بن عَبْد الله القَسْرى . واستجاب الله لعمر .

وما أشبه هذه القصة بقصة عَبْدِ الله بن عُمر رضى الله عنهما لما بلغه أنَّ زيادَ ابْنَ أبيه كتب إلى معاوية يقول : إنِّى قد ضبطْتُ العراقَ بشِمَالِى ويَمِينِى فارِغَةٌ . فقال ابْنُ عمر : اللهم أَرِحْنا من يمين زياد ، وأَرِحْ أهل العراقِ من شِمَاله . فاستجاب اللهُ له .

وكان من خَبَر وفاةِ زياد ما ذكرناه .

وكانت ولاية الحجاج العراق عشرين سنة ، ولما حضرته الوفاة استخلف على الصلاة ابْنَه عَبْدَ الله ، وعلى حَرْبِ الكوفة والبَصْرَة يزيد بن أبى كَبْشَة ، وعلى الخراج يزيد بن أبى مسلم ، فأقرَّهما الوليد بَعْدَه .

وكان الحجاجُ مِنْ أفْصَح الناس . قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفْصَح مِن الحجاج ومن الحَسَن ، وقد ذَكَرْنَا من كلامه عند مَقْدَمه الكوفة ما يدلُّ على فصاحته .

ومن أخباره أنَّ عَبْد الملك كتب إليه يأمره بقَتْل أسلم بن عَبْدِ الله البكرى لشىء بلغه عنه ، فأحضره الحجاجُ ، فقال : أمير المؤمنين غائب وأنتَ حاضر ، والله تعالى يقول[1] : « يا أيُّها الذين آمَنُوا إنْ جاءكم فاسِقٌ بنبإٍ فتبيَّنُوا ... » الآية . والذى بلغه عنى فباطل[2] . فاكتُب إلى أمير المؤمنين أنى أعُول أربعا وعشرين امرأة ، وهُنَّ بالباب ؛ فأحضرهن ، وكان فى آخرهن جاريةٌ قاربَتْ عشر سنين . فقال لها : مَنْ أنتِ منه ؟ قالت : ابنتُه ، أصلح الله الأمير ، ثم أنشأت[3] :

أحجاجُ لو[4] تشهد مقام بناته ... وعماته يَنْدُبْنَهُ الليلَ أجمعا
أحجاج لا[4] تقتل به إن قتَلْتَه ... ثمانًا وعَشْرًا واثنتين وأربعا
أحجاج مَنْ هذا يقوم مقامَه ... علينا فمهلا أنْ تَزِدْنَا تَضَعْضُعا
أحجاج إما أنْ تَجُودَ بنِعْمَةٍ ... علينا وإما أنْ تُقَتِّلَنَا مَعا

فبكى الحجاج ، وقال : والله لا أعَنْتُ الدهر عليكنَّ ولا زِدْتُكُنَّ تَضَعْضُعًا .

وكتب إلى عبد الملك بخَبرِه وخَبَر الجارية ، فكتب إليه : إذا كان الأمْرُ كما ذكرْتَ فأحْسِنْ صِلَتَه وتَفَقَّد[5] الجارية ؛ ففعل .

(١) سورة الحجرات ، آية ٦
(٢) فى الكامل : باطل
(٣) الشعر فى الكامل : ٤ — ٣٣
(٤) فى الكامل : لم .
(٥) فى ك : ونفذ .

قال عاصم بن بَهْدَلة : سمعْتُ الحجاج يقول : اتَّقُوا الله ما استطَعْتُم ، هذا والله مثنوية ، واسمعوا وأطيعوا وأنْفِقُوا خيرًا لأنفسكم ليس فيه مَثْنَوية ، والله لو أمرتكم أن تَخْرجُوا من هذا الباب فخرجتم من هذا لحلَّتْ لى دِماؤُكم ، ولا أجد أحدًا يقرأ على قراءة ابن أُمِّ عبد - يعنى ابن مسعود - إلَّا ضَربْتُ عنقه ، ولأُحُكَّنَّها من المصحف ولو بضلع خنزير .

قال الأوزاعى : قال عُمر بن عبد العزيز : لو جاءت كلُّ أُمَّة بخبيثها وجِئْنَا بالحجاج لغَلَبْنَاهم .

قال الحسن : سمعْتُ عليا يقول على المنبر : اللهم ائتمنتهم فخانوا ، ونصحتهم فغَشُّونى ، اللهْم فَسلِّط عليهم غلَامَ ثقيف يَحْكم فى دمائهم وأموالهم بحُكم الجاهلية ، فوصفه . قال الحسن . هذه والله صِفَة الحجاج .

قال حبيب بن أبى ثابت : قال علىّ رضى الله عنه لرجل : لاتَموت حتى تُدْرِك فَتَى ثقيف . قيل : يا أميرَ المؤمنين ؛ ما فَتَى ثقيف ؟ قال : ليُقَالَنَّ لَهُ يوم القيامة : اكْفِنَا زاويةً من زَوايا جهنم ، رجل يمْلك عشرين سنة أو بِضْعًا وعشرين ، فلا يدَعُ للهِ مَعْصِيَةً إلا ارتكبها ، حتى لو لم يبْق إلا معصية واحدة وبينها وبينه بابٌ مُغْلَقٌ لكسره حتى يرتكبها ، يقتل [1] من أطاعه بمن عصاه .

وقيل : أُحصى مَنْ قتله الحجاج صَبْرًا فكانوا مائة ألف وعشرين ألفًا .

---

(١) فى الكامل : يقتل بمن أطاعه من عصاه .

وقيل : إن الحجاج مرَّ بخالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر فى مِشْيَتِه ، فقال رجل لخالد : مَنْ هذا ؟ فقال خالد : بخ بخ ! هذا عمْرو ابن العاص. فسمِعَها الحجاجُ فرجع ، وقال : والله ما يسرُّنى أن العاص والدى [1] ، ولكنى ابْن الأشياخ من ثقيف ، والعقائل من قريش ، وأنا الذى ضربت [2] بسيفى هذا مائةَ ألف كلُّهم يشهدُ أنَّ أباك كان يشربُ الخمر ويُضْمِر الكفر . ثم ولَّى ، وهو يقول : بَخ بخ عمرو بن العاص ! فقد أقرَّ على نَفْسه بمائةِ ألف قتيل على ذَنْبٍ واحد.

وحجَّ بالناس فى هذه السنة بشر بن الوَليد بن عَبْد الملك .

سنة (٩٦ هـ) ست وتسعين) :

ذكر وفاة الوليد بن عبد الملك

وشىء من أخباره وسيرته وأولاده وعماله

كانت وفاته بدَيْر [3] مُرَّان فى النصف من جمادى الآخرة من هذه السنة . ودَيْر مُرَّان كان بجَبَل قاسِيُون بظاهر دمشق ، وهو الآن مدرسةٌ وتربَةٌ منسوبة إلى الملك المعظَّم شرف الدين عيسى ابن العادل ابن أيوب . كانت مدة خلافته تسعَ سنين وثمانية أشهر . ودُفن خارج البابِ الصغير بدمشق . وقيل فى مقابر الفَرَادِيس [4] . وصلَّى عليه عُمَرُ بن عبد العزيز . ولما دُلِّىَ فى حُفْرته جُمِعتْ ركبتاه إلى عنقه ، فقال ابنه : عَاشَ أبى ؟ فقال له عمر بن عبد العزيز - وكان فيمن

(١) فى الكامل : ولدنى .

(٢) فى ك : يضرب .

(٣) دير مران - بضم الميم . تثنية المر : بالقرب من دمشق (ياقوت) .

(٤) الفراديس : موضع بقرب دمشق (ياقوت)

دفنه : عُوجِل والله أبوك . وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وستة أشهر . وقيل سبعًا وأربعين . وقيل ثمانيًا وأربعين . والله أعلم .

وكان أسمَرَ اللَّوْنِ ، جميل الوجه ، أفطس الأنف . وقيل . كان سائل الأنف جِدًّا وبوجهه آثار جُدْرى .

وكان نَقْش خاتمه : ياوليد ، إنك ميت .

وكان له من الأولاد تسعة عشر ذكرًا ، وعَدّهم بعْض المؤرخين عشرين ، وهم : يزيد ، وإبراهيم ـ وَليا الخلافة ، والعباس فارس بنى مَرْوان ، وعمر فَحْل بنى مَرْوان ، وعبْد العزيز ، وبشر ، وصدقة ، ومحمد ، وتمام ، وخالد ، وعبد الرحمن ، ومبشر ، ومسرور ، وأبو عبيدة ، ومنصور ، ومروان ، وعَنْبَسة ، وعمرو ، وروح ، ويحيى ، هؤلاء الذكور ، سوى البنات .

كتّابُه : قرّة بن شريك ، ثم قَبِيصة بن ذؤيب ، ثم الضحاك ابن يزيد ، ثم يزيد بن أبى كَبْشَة ، ثم عَبْد الله بن بلال .

قُضَاته : عبد الله بن بلال ، وسليمان بن حبيب .

حُجّابه : خالد ، وسعيد مولياه .

الأُمراءُ بمصر : أخوه عَبْدُ الله ، ثم قرّة بن شريك .

قاضيها : عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة[1] ، ثم صرفه قرّة وولّى عياضَ بن عبد الله ، ثم وليها عبد الملك بن رِفَاعة بعد وفاة قرّة .

وكان عُمّاله على الأمصار منْ ذَكَرْنَاهم .

قال : وكان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام مِنْ أفضل

(١) هذا بالأصول .

خلفائهم [١] ، وله آثارٌ حسنة ومبان عظيمة ، وفتح فى أيامه بلاد الأندلس وما وراء النهر وبلاد الهند .

[قال] [٢] : وكان الوليد يمرُّ بالبَقَّال فيقف عليه ، ويأْخذ منه حُزمةَ بَقْلٍ ،فيقول : بكَمْ هذه؟ فيقول : بفَلْس . فيقول الوليد : زِدْ فيها .

وبنى جامع دمشق فى سنة [٨٦هـ] ست وثمانين ، وهدم كنيسةَ النصارى التى كانت إلى جانبِه ، وتُعْرف بماريو حنا ، وزادَها فيه .

وقيل : كان فى الجامع وهو يُبْنى اثنا عشر ألف مرخم . وتوفّى الوليدُ ولم يتمّ بناؤُه ، وكان الفراغ منه فى أيام سليمان أخيه .

وقيل : إن جُمْلَةَ ما أُنْفقَ عليه أربعمائة صندوق ، فى كل صندوق أربعة عشر ألف دينار ، وكان فيه ستمائة سلسلةٍ من الذهب للقناديل ، ولم تطِق الناس الصلاة فيه لكَثْرة شعاعه ، فدخنت حتى اسودَّتْ ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز جعلها فى بيْتِ المال ، وعَوَّضَها بالحديد .

وأمر الوليد ببناءِ جامع البيت المقدس فى سنة [٨٨هـ] ثمان ثمانين .

قيل : وحجَّ الوليدُ بالناس ثلاث [٣] حجج : سنة ثمان وثمانين ، وسنة إحدى وتسعين ، وسنة أربع وتسعين .

قال : وكان الوليد أراد أنْ يَخْلَعَ أخاه سليمان ، ويبايع لوَلَدِهِ عَبْد العزيز ، فأَبى سليمان ، فكتب إلى عُمَّاله ، ودعَا الناسَ إلى خَلْعِه ، فلم يُجبْه إلى ذلك إلا الحجاج وقتَيْبة وخَوَاصّ من الناس .

---

(١) فى الطبرى : خلائقهم .

(٢) من ك .

(٣) فى ك : ثمانى .

فكتب الوليدُ إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه ، فأبطأ ، فعزَمَ على المسير إليه ليَخْلَعَهُ ، وأخرج خيمةً فمات قبل أن يَسِيرَ إليه .

قال : وكان الوليدُ لحّانًا لا يُحْسِن العربية ، فعاتبه أبوه ، وقال : إنه لا يلى العَرَب إلّا مَنْ يُحْسن كلامَهم ؛ فجمع النُّحاةَ ، ودخل بيتًا فلم يخرج منه ستةَ أشهر ، ثم خرج وهو أجْهَلُ منه يَوْمَ دخَل ، فقال عبد الملك : قد أعذر . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر بيعة سليمان بن عبد الملك

هو أبو أيوب سليمان بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكم ، وأمُّه ولادة أم أخيه الوليد ، وهو السابع مِنْ ملوك بنى أمية . بُويع له يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة ، وهو يوم وفاةِ أخيه الوليد ، وكان إذ ذاك بالرَّمْلة ، وكان الوليد قد أراد خَلْعه مِنْ ولايةِ العهد ، فمات قبل أن يُتِمّ له ما أراد من ذلك .

ولنذكر الحوادث الكائنة فى أيامه على حكم السنين :

ذكر قتل [1] قتيبة بن مسلم

وفى هذه السنة قُتِلَ قتَيْبَة بن مسلم الباهلى بخرَاسَان ، وكان سبب ذلك أنه أجابَ الوليدَ إلى خَلْع سليمان كما ذكرنا ، فلما أفْضَت الخلافة إلى سليمان خَشِى قتَيْبَةُ أنَّ سليمانَ يستعملُ يزيد بن المهلب على خراسان ، فكتب قتَيْبَة إلى سليمان كتابًا يهنِّئه بالخلافةِ ويذكر

(١) فى د : مقتل .

بلاءه وطاعتَه لعبد الملك والوليد ، وأنه له على مِثْل ذلك إنْ لم يَعْزِلْه عن خُرَاسان .

وكتب إليه كتابًا آخر يُعْلِمُه فيه بفتوحه ومكانَتِه ، وعِظَم قَدْره عند ملوك العجم ، وهَيْبَتِهِ فى صدورهم ، ويذمّ آل المُهَلَّب ، وَيَحْلِفُ بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنَّه .

وكتب كتابًا ثالثًا فيه خَلْعُه ، وبعث الكتبَ مع رجل من أهله ، وقال له : ادفع الكتابَ الأول إليه ، فإن كان يَزِيدُ حاضرًا فقَرَأَهُ ثم ألقاه إليه فادْفَع إليه هذا الثانى . فإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادْفَع إليه الثالث ، وإن قرأ الأول ولم يَدْفَعْه إلى يزيد فاحبس الكتابيْن عنه.

فقدم رسولُ قتَيْبَةَ ، فدخل على سليمان وعنده يَزِيد بن المهلَّب ، فدفع إليه الكتابَ الأوّل ، فقرأه وألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الثانى ، فقرأه وألقاه إليه ، فأعطاه الثالث ، فقرأه وتغيَّر[1] لونه وختمه وأمسكه بيده . فقيل[2] : كان فيه : لو لم[3] تقرّنى على ما كنت عليه وتؤمننى لأخلعنَّك ، ولأَمْلَأَنَّها عليك خَيْلا ورَجْلا[4] .

ثم أمر سليمان بإنزال رسولِ قتَيْبَة ، ثم أحضره ليلا وأعطاه دنانير وعَهْدَ قتَيْبَةَ على خرَاسان وسيَّر معه رسولا ، فلما كانا[5] بحُلْوان بلغهما خلع قتَيْبَة ، فرجع رسولُ سلَيْمان ، وكان قتَيْبةُ لما هَمّ بخلع سليمان استشار إخوته فقال عبد الرحمن : اقطع بعْثًا [فوجّه][6]

(١) فى د : وتمعر . وفى الطبرى : فتمعر . وتمعر وجهه : تغير .
(٢) فى د : قيل . وفى ك : وقيل .
(٣) فى الكامل ، والطبرى : لئن لم .
(٤) فى الكامل : رجالا وخيلا .
(٥) فى ك : كان .
(٦) من الطبرى .

فيه كلَّ منْ تَخافه ، ووجِّه قومًا إلى مَرْو ، وَسِرْ حتى تَنْزِلَ سمَرْقند ، وقلْ لمنْ معك : مَنْ أحبَّ المقام فله المواساة ، ومنْ أراد الانصراف فغَيْرُ مستكْره ، فإنه لايُقيم عندك إلاَّ مُناصح . وقال له أخوه عبد الله : اخلعه مكانَك فلا يختلف عليك رَجُلان . فوافقه وخلع سليمانَ ، ودعا الناس إلى خَلْعه فلم يُجِبْه أحد ، فغضب ، وقال : لا أعزَّ الله منْ نصرْتُم ، والله لو اجتمعْتم على عنز ما كَسرتم قَرْنها ، وسبَّهم طائفةً طائفةً وقبيلةً قبيلة ، وذكر مساويهم ومعايبهم ، ونزل ؛ فغضب الناسُ واجتمعوا على خَلع قتيبة وخِلَافه ، وكان أوّل منْ تكلم فى ذلك الأزد ، فأتوا حُضَين [1] بن المنذر ، فقالوا : إنَّ هذا قد خلع الخليفة ، وفيه فسادُ الدِّيْنِ والدنيا ، وقد شتَمَنَا فما ترى ؟ فأشار عليهم أن يأتوا وَكيع بن أبى سُود التميمى ، ويقدِّمُوه لريا سته فى قَوْمه ؛ فأتوه وسألوه أنْ يَلِي أمْرَهم ، ففعل .

وكان بخرَاسَان يومئذ من أهل البصرة والْعالِيَة من المقاتلة تسعة آلاف ، ومن بكْر سبعة [2] آلاف ، ورئيسُهم حُضَيْن ابن المنذر ، ومِنْ تميم عشرة آلاف وعليهم ضِرَار بن حُصَيْن ، ومن عَبْد القيس أربعة آلاف وعليهم عبد الله بن حوذان [3] . ومن أهل الكوفة سبعة آلاف وعليهم جَهْم بن زَحْر . ومن الموالى سبعة آلاف وعليهم حَيَّان النبطى مولى بنى شَيْبَان ، وهو من الدَّيْلَم وقيل من خراسان ، وإنما قيل له النبطى للكْنته .

---

(١) بضاد معجمة (الكامل : ٤ — ١٤٠) ،

(٢) فى ك : ستة آلاف . والمثبت فى د ، والكامل ، والطبرى .

(٣) فى الكامل ، والطبرى : علو ان .

فأرسل حَيّان إلى وَكيع يقول: إنْ أنا كفَفْت عنك وأعنْتك تجعل لى الجانبَ الشرقى من نهر بَلْخ آخذ خَرَاجَه مادمْت حيا ، وما دمْتَ أميرًا ! قال : نعم . فقال حيان للعجم : هؤلاء يقاتِلون على غيرِ دِين ، فدعُوهم يقْتل بعْضهم بعضا . ففعلوا .

وقيل لقتيبة : إن وَكِيعًا يبايعُ الناس ، فدسّ عليه ضِرار بنَ سنان الضبى ، فبايعه سِرًّا ، فظهر أمْرُه لقتَيْبَة ، فأرسل إليه يَدْعُوه ، فوجده قد طلى رجليه بمَغْرَة [1] ، وعلّق على ساقِه [2] خَرَزًا ، وعنده رجلَان يَرْقِيان رِجْلَه . فقال للرسول : قد ترى ما بِرجْلى . فرجع إليه فأخبر قُتيبة ، فأعاده إليه يقول : لَتأْتينِّى به محمولا ، فأتاه فقال : لا أسْتَطيع . فقال قتَيْبَة لِصاحِب شرطته : انطلق إلى وكيع فأْتِنى به ؛ فإنْ أبى فاضْرِبْ عُنقه ، ووجّه معه خيلا .

وقيل : أرسل إليه شعبة [3] بن ظهير التميمى . فقال له وكيع : ياابْنَ ظهير ، لبِّث قليلا تلحق الكتائب . ولَبِس سلاحَه ، ونادى فى الناس ، فأتوه ، ورَكبَ فرسه ، وخرج ، فأتاه الناسُ أرسالاً ، واجتمع إلى قتَيْبة أهْلُ بيته وخواصّ أصحابه وثقاته ، منهم إياس ابن بيْهس بن عَمْرو ، وهو ابن عَمّ قتَيبة ، ودعا قتيبة بِبِرذَوْن له مدرَّب ليركبه ، فاستعصعب عليه حتى أعْياه ، فجلس على سريره وقال : دعُوه ، فإن هذا أمرٌ يراد .

وجاء حيان فى العجم وقتَيبة واجِدٌ عليه ، فقال عبد الله أخو

(١) المغرة — و تحر ك : طين أحمر .
(٢) فى الكامل : على رأسه . والمثبت فى ك ، والطبرى .
(٣) ك : سعيد . والمثبت فى د ، والكامل ، والطبرى .

قتيبة : احمِلْ عليهم . فقال حيَّان : لم يأْتِ بَعْدُ . وقال حَيّان لابنه : إذا رأيْتَنى قد حوَّلْت قلنسوتى ومِلْت نحو عسكر وكيع فمِلْ بمنْ معك من العجم إلىّ . فلما حوّل حيان قلنسوته مالت الأعاجِمُ إلى عسكر وكِيع فكبَّرُوا وهاجُوا ، فقتل عبْد الرحمن أخو قتيبة ، وجاء الناس حتى بلغوا فسْطَاط قتَيْبة ، فقطعوا أطنابَه ، وجُرِح قتَيْبةُ جراحات كثيرة ، فقال جَهْم بن[1] زَحْر بن قيس لسعد : انزِلْ فحزّ رأسه ؛ فنزل وشقّ الفسْطَاطَ ، واحتزّ رأسه ؛ وقتِل معه مِنْ أهْله وإخوته : عبْدُ الرحمن ، وعبد الله ، وصالح ، وحُضَيْن ، وعبد الكريم : بنو مسلم[2] . وقُتل كثير ابنه ، وكان عِدّة مَنْ قتل مع قتيبة من أهله أحد عشر رجلا ؛ فأرسل وَكيع إلى سليمان برأسِه ورءُوس أهله .

ولما قتل قال رجل من خراسان : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان منّا فمات لجعلناه فى تابوت ، فكنا نستفتح به إذا غزونا .

وقال عبد الرحمن بن جُمانة الباهلى يَرْثى قتيبة[3] :

كأن أبا حفْصٍ قتيبةَ لم يَسِرْ ... بجيْشٍ إلى جَيْش ولم يعْلُ مِنْبرا
ولم تخْفق الرايات والجيشُ حوله ... وقوفٌ ولم تشهد له الناس عَسْكرا
دعتْه المنَايَا فاستجاب لِربِّـــه ... وراح إلى الجَنَّات عَفًّا[4] مُطَهَّرا
فما رُزِئَ الإسلَامُ بعْدَ محمَّد ... بمثل أبى حَفْصٍ فبكِّيْه[5] عبْهَرا

وعبْهر : أمُّ ولَد له .

(١) فى د : زحر بن قيس . والمثبت فى الكامل ، والطبرى . وقد ضبطت الزاى فى د بالضمة .
(٢) فى ك : ومسلم . والمثبت فى الكامل، والطبرى .
(٣) والطبرى : ٦ ـ ٥٢١ ، والكامل : ٤ ـ ١٤٢
(٤) فى الكامل : عفوا .
(٥) فى ك : فتبكيه . والمثبت فى الكامل والطبرى .

ووصل خَبرُ مَقْتَله إلى الشام فى اليوم الثانى من مقْتَلِهِ .

قال شيوخٌ من غَسان : كنا بثَنِّية العُقَاب[1] إذا نحن برجُلٍ معه عصا وجراب ، فقلنا : منْ أين أقبلْتَ؟ قال : مِنْ خراسان. قلْنَا؟ هل كان بها من خَبر؟ قال : نعم ، قُتل بها قتَيْبة بن مسلم أمْسِ ، فعجبْنَا مِنْ قولِه . فلما رأى إنكارنا قال : أين ترونى الليلة من إفريقية[2] ؟ وتركَنا ومضى ، فاتبعناه على خيولنا فإذا به يسبق الطَّرف . وثنيَّة[1] العُقَاب فى مرْج دمشق على نصف مرحلة منها .

* * *

وفى هذه السنة عزَل سليمان بن عبد الملك عثمان بن حيَّان عن المدينة لسبْع بَقين من شهر رمضان ، واستعمل عليها أبا بكر بن محمد ابن عمْرو بن حَزْم ، وكان عثمان قد عزم على أن يجْلدَ أبا بَكْر هذا ويحْلِقَ لحيته من الغد ، فلما كان الليل جاء البريدُ إلى أبى بكر بتأْميره وعزْل عثمان وَحْده وتقييده .

وعزل سليمان أيضا يزيد بن أبى مسلم عن العراق ، واستعمل يزيد بن المهلَّب ، وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخَرَاج ، وأمره ببسْطِ العذاب على آل أبى عقيل ؛ وهم أهْلُ الحجاج ، فكان يعذِّبهم ، ويلِى عذابَهم عبد الملك بن المهلَّب .

وحجَّ بالناس أبو بكر بن محمد وهو أمير المدينة ، وكان على مكة عبْد العزيز بن عَبْد الله بن خالد بن أَسِيد[3] وعلى حَرْب العراق

(١) ثنية العقاب — بالضم : هى ثنية مشرفة على غوطة دمشق . وثنية العقاب : بالثغور الشامية قرب المصيصة (المراصد) .

(٢) هذا فى ك : د .

(٣) بفتح الهمزة وكسر السين (الكامل : ٤ — ١٤٣) .

وصلاتها يزيد بن المهلَّب ، وعلى خَراجها صالح بن عبد الرحمن . وعلى البصْرَةِ سفيان بن عبْد الله الكِنْدِى من قبل يزيد ، وعلى قضائها عبد الرحمن بن أُذَيْنَة ، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبى موسى ، وعلى حرْب خراسان وكيع بن أبى سُود(١) .

وفيها مات شُريح القاضى ، وقيل سنة [٩٧هـ] سبع وتسعين . وله مائة وعشرون سنة ، ومحمود بن لبيد الأنصارى وله صُحْبة .

سنة (٩٧ هـ) سبع وتسعين :

ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان

فى هذه السنة استعمل سليمان بن عبْد الملك يزيد بن المهلب على خراسان مضافةً إلى العراق ، وكان سبب ذلك أنَّ سليمان لما ولَّى يزيد بن المهلَّب العراقَ فوَّض إليه الحَرْبَ والخراج والصلاةَ بها ، فنظر يزيد لنفسه ، فرأى أنَّ الحجاجَ قد أخرب العراقَ ، وأنه إنْ أخذ الناس بالخراج وعذَّبهم عليه صار عندهم مِثْلَ الحجاج ، وأنه متى لم يفعل ذلك ويأْت سليمان بمثْل ما كان الحجاجُ يأْتى به لم يَقْبَلْ منه ، فأشار على سليمان أن يُوَلِّى صالح بن عبد الرحمن مولى تميم الخراج ، فولاه الخراج وسيَّرَه قَبْلَ يزيد ، فنزل واسطا . ولما قدم يزيد خرج الناسُ يتلقَّوْنه ، ولم يخرج صالح حتى قَرُب يزيد ، فخرج وبين يديه أربعمائة من أهل الشام ، فلقى يزيد وسايرَهُ ، ولم يمكنه من شىء ، وضَيَّق عليه ، فضجر يزيد من ذلك ، فدعا عبْدَ الله بن الأَهْتَم ، وقال له : إنى أُرِيدُك لأَمْرٍ أهمَّنى ، وأُحبُّ أن تكفِينيه . قال : أفعل .

---

(١) فى ك : أسود — تحريف .

قال : أنا فيما ترى من الضِّيْقِ ، وقد ضجرت منه ، وخراسان شاغرةٌ فهل مِنْ حيلة ؟ قال : نعم ، سرِّحْنى إلى أمير المؤمنين .

فكتب يزيد إلى سليمان وأَعْلَمهُ بحالِ العراق ، وأثنى على ابْنِ الأَهْتم وذكر عِلْمه بها ، وسيَّره على البريد ؛ فأتى ابن الأَهتم سليمان فقال له : إن يزيد كتب إلىّ يذكر عِلْمَك بالعراق ، فكيف[1] عِلْمُك بخراسان ؟ قال : أنا أعلمُ الناسُ بها ، وُلِدْت بها ونشأْت ، ولى بها وبأهلها خبْر . قال : فأَشِرْ على برجُلٍ أُولِّيه خراسان . قال : أَمِيرُ المؤمنين أعلم بمنْ يريد ، فإنْ ذَكَر منهم أحدًا أخبرته برأيى فيه ، فسمَّى رجُلاً من قريش ، فقال : ليس مِنْ رجالِ خراسان . قال : فعبْد الملك بن المهلب. فقال : لا يصح ، فإنه يضيق عن هذا ، وليس له مَكْر أبيه ولا شجاعته [2] ، حتى ذَكَر رجالا ، وكان آخر مَنْ ذكر وَكِيع ابن أبى سُود ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وكيع رجُلٌ شجاع صارم رئيس مِقْدام ، وما أحد أَوْجب شكرا ولا أعظمَ عندى يَدًا مِنْ وكيع ، لقد أدرك بثأْرى وشَفَانى من عَدُوِّى ، ولكنَّ أمير المؤمنين أعظم حقا ، والنصيحةُ له تلزمنى ، إنَّ وكيعًا لمْ يجْتَمِعْ له مائة عِنان قطّ إلا حدَّث نفسه بغَدْرة ، خامل فى الجماعة ، نابِه [3] فى الفتنة .

قال :فَمَن لها ويْحك ! قال : رجُلٌ أَعْلَمه لم يُسَمِّه أَمِيرُ المؤمنين . قال : فَمَنْ هو ؟ قال : لا أذكره حتى يَضْمَنَ لى أمير المؤمنين ستْر ذلك ، وأن يُجِيرنى منه إنْ علم . قال : نعم ، قال : يزيد بن المهلب .

(١) فى د : وكيف .
(٢) فى الكامل : ولا شجاعة أخيه .
(٣) فى الكامل : ثابت .

قال : العراقُ أحبُّ إليه من خراسان ؟ قال : قد علمْت يا أمير المؤمنين ، ولكن تُكْرِهُه فيستَخْلِفُ على العراق [رجلا] (١) ويسير هو إلى خرَاسان . قال : أصبْتَ الرأى .

فكتب عهْدَ يزيد على خراسان ، وسيَّره مع ابن الأهتم ، فأتى يزيد ، فأمر بالجهاز للمسير مِنْ ساعته ، وقدم ابْنه مخلدًا إلى خراسان مِنْ يومه ؛ ثم سار يزيد بَعْدَه ، واستخلف على واسط الجرّاح بن عَبْد الله الحكمى ، وعلى البصرة عبْد الله بن هلال الكلابى ، وجعل أخاه مَرْوان بن المهلب على حوائِجه وأُمورِه بالبصرة ، واستخلف على الكوفة حَرْمَلة بن عمير اللخمى أشهرًا ، ثم عزله ، وولى بشير بن حيان النَّهْدى ، وكانت قيس تَزْعُم أن قتَيْبة لم يُخْلَع ، فأمر سليمان يزيدًا أنْ يسأل عن ذلك . فإن أقامت قَيْس البيِّنةَ أنَّ قتيبة لم يُخْلَع فنقيد وَكيعا به ، فلما وصل مخلد بن يزيد مَرْو أخذَهُ وكِيع (٢) فحبسه وعذَّبه ، وعذَّب أصحابه قَبْلَ قدومِ أبيه ، فكانت ولاية وكيع خرَاسان تسعة أشهر أو عشرة أشهر ، ثم قدم يزيد خِرَاسان فآذى (٣) أهْلَ الشام وقوما من أهل خراسان ، فقال نَهَار ابن تَوسِعة رحمه الله (٤) :

وما كنَّا نؤَمِّل مِنْ أميرٍ ... كما كنَّا نؤَمِّل مِنْ يزيدِ
فأخْطَأَ ظنُّنَا فيهِ وقِدْمًا ... زَهِدْنا فى مُعَاشَرةِ الزَّهِيدِ
إذا لم يُعْطِنَا نَصَفًا أَمِيرٌ ... مشَيْنَا نحوه مشْى الأُسُودِ

(١) من الطبرى .
(٢) ك : أخذ وكيعا . والمثبت فى الكامل .
(٣) فى الطبرى : فأدنى .
(٤) والطبرى : ٦ — ٥٢٨ ، والكامل : ٤ — ١٤٦

فمهلاً يايزيد أنِبْ إلينا ودَعْنَا مِنْ مُعَاشَرَةِ العَبِيدِ
نجيءُ[1] ولا[2] نَرى إلّاصُدُودًا على أنّا نسلِّمُ مِنْ بَعِيدِ
ونَرجع خائِبِيْنَ بلا نَوَالٍ فما بال التجَهُّم والصُّدُود

* * *

وفى هذه السنة جَهَّزَ سليمان الجيوشَ إلى القسطنطينية ، واستعمل ابْنَه داود على الصائِفَة ، فافتتح حصن المرأة .

وفيها غَزَا مسلمة أرض الوَضّاحية ، وفتح الحِصْنَ الذى فتحه الوضّاح .

وغزا عُمر بن هُبيرة الروم فى البحر فشَتَّابها. وحجّ سليمان بن عبْد الملك بالناس .

وفيها عُزِل داود بن طلحة[3] الحَضْرمي عن مكة ، فكان عمله عليها ستة أشهر ، وولِي عبْد العزيز بن عبْد الله بن خالد .

سنة (٩٨ هـ) ثمان وتسعين :

ذكر محاصرة القسطنطينية

فى هذه السنة بعث سُليمان الجيوشَ إلى القسطنطينية مع أخيه مَسْلَمة بعد أنْ سَار سليمان إلى دَابِقَ[4] ، وكان ملك الروم قد مات ، فجاء أَلْيُون من أذربيجان إلى سليمان ، وأخبره بوفاته ، وضمن له فَتْحَ الروم ،فبعث معه مسلمة ، فسار هو وأليون ، فلما دنَا من أرْضِ الروم أمر كلَّ فارس أن يحمل معه مُدَّينِ من طَعامٍ ، فلما أتاها أمر

(١) فى الكامل : نجيب .
(٢) فى الطبرى : فلا ترى .
(٣) فى الطبرى : عزل سليمان طلحة بن داود .
(٤) دابق : مدينة فى أقاصى فارس (البكرى) .

بإلقاء ذلك ، فصار مِثْل الجبال ، وقال مسلمة لمنْ معه : لا تأْكلوا منه شيئًا وأغيرُوا [١] فى أرضهم وازرعوا ، وعمل بيوتا من خشَب فشتا فيها وصاف وزَرَع الناسُ ، فلما [٢] كَثر عندهم الطعام أقام مسلمة قاهرا للروم معه أعيان الناس ، فأرسل الرومُ إلى مسْلَمة يُعْطونه عن كل رأْسٍ دينارًا فلم يقبل ؛ فقالت الروم لأليون : إن صرفْتَ عنا المسلمين مَلَّكْنَاك ، فاستوْثَقَ منهم ، وأتى مسلمة فقال له : إنَّ الروم قد علموا أنك لا تَصْدُقهم القتالَ ، وأنك تطاوِلهم ما دام الطعام عندك ، فلو أحرقْتَهُ أعطوا ما بأيديهم ، فأمر مسلمة بالطعام فحرق ، فقوى الروم وضاق المسلمون حتى كادُوا يهلكون ، ودامُوا على ذلك حتى مات سليمان .

وقيل : إن أليون إنما خَدَع مسلمة بأَنْ سأله أنْ يُدخل من الطعام إلى الروم ما يعيشون به ليلة [واحدة] [٣] ، ليُصَدِّقوا أنَّ أمْره وأمْر مسلمة واحد ، وأنهم فى أمان من السَّبْىِ والخروج من بلادهم ، فأذن له فى ذلك. وكان أليون قد أعدّ السُّفنَ والرجال فنقَلوا تلك الليلة الطعام كلَّه ، وأصبح أليون محاربًا ، ولقى الجند مالم يلقه أحد [٤] ، حتى أن كان الرجل ليَخَافُ أن يخرج من العسْكَر وحْده ، وأكلوا الدواب والجلود وأُصول الشجر والورَق ، وسُلَيمانُ مقيم بدابِقَ ووقع [٥] الشتاء فلم يقدر أنْ يمدَّهم حتى مات .

(١) فى د : واعبروا .
(٢) فى د : ولما .
(٣) زيادة فى د .
(٤) فى الكامل : مالم يلقه جيش آخر .
(٥) فى الكامل : ودخل .

وفى هذه السنة بايع سُلَيْمان لابْنِه أيوب بولاية العهد .

وفيها فتحت مدينة الصقالبة .

وفيها غزا الوليد بن هشام وعَمْرو بن قيس ، فأُصيب ناسٌ من أهل أنطاكية ، وأصاب الوليدُ ناسا من ضواحى الرُّوم ، وأسر بشرًا كثيرًا.

ذكر فتح قهستان [1] وجرجان وطبرستان

فى هذه السنة غزا يزيدُ بن المهلَّب جُرجان وطبرِسْتان .

وكان سبب اهتمامِهِ بها أنَّ يَزيد لما كان عند سليمان بالشام فى حياة الوليد ، فكان كلما فتح قتَيْبة فَتْحًا يقول سُليمان ليزيد : ألا ترى إلى ما يفْتَحُ الله على قتَيْبة ! فيقول يزيد : ما فعلَتْ جُرْجان التى قطعتِ الطريقَ ، وأفسدت قومِس ونَيْسابور ، ويقول : هذه الفتوح ليست بشىءٍ ، الشأْن فى [2] جرجان .

وكان سعيد بن العاص قد صالح أَهْلَ جُرْجَان ، فكانوا يَجبُون أحيانًا مائة ألف ، وأحيانًا مائتى ألف ، وأحيانًا ثلاثمائة ألف ، وربما منعوا ذلك ، ثم أظهروا الامتناع وكفروا فلم يُعْطوا خراجًا ، ولم يأْت جُرْجان بعْد سعيد أحد ، و [قد] [3] منعوا ذلك الطريق فلم يكنْ يسلك أحدٌ طريقَ

(١) هذا بالأصول . وفى الطبرى : دهستان . وفى ياقوت : قوهستان — بضم أوله ثم السكون ثم كسر الهاء وسين مهملة وتاء مثناة من فوق وآخره نون . والمشهور بهذا الاسم أحد أطراف بلاد العجم متصل بنو احى هراة ثم يمتد من الجبال طويلا حتى يتصل بقرب نهاوند وهمذان وبروجرد ، وهذه الجبال كلها تسمى بهذا الاسم .

(٢) فى الكامل : هى. والمثبت فى الطبرى أيضاً .

(٣) ليس فى د .

خراسان إلا على فارس وكِرْمان .

فلما ولى سليمان يزيد خراسان لم يكن له هِمَّةٌ غير جُرْجان ، فسار إليها فى مائةِ ألفٍ سوى الموالى والمتطوعة ، ولم تكن جرجان يومئذ مدينة ، إنما هى جِبال ومخارم وأبواب يقومُ الرجلُ على بابٍ منها فلا يقْدر عليه أحدٌ ، فابتدأ بقهِسْتان[1] فحاصرها ، وكان أهلها طائفة من الترك ، فقاتلهم قتالا شديدًا ، واشتدت الحَرْبُ ، وقطع عنهم الميرة ، فبعث دهْقَانها ، واسمه صَوْل[2] يطلبُ مِنْ يزِيد الأمانَ لنفسه وأهله وماله ، ويُسلِّمُ إليه المدينةَ بما فيها ، فأَمَّنَهُ ووفى له ، ودخل المدينةَ فقَتَلَ بها أربعة عشر ألف تركى صَبْرًا ، وأخذ ما فيها من الكنوز والسَّبى وغير ذلك ، ثم خرج حتى أتى جُرْجَان فهابه أهْلها ، وأتوه وصالحوه ، فأجابهم إلى ذلك ، وصالحهم ، فطمع فى طَبَرِسْتَان ، فسار إليها فصالحه اصبهذها[3] على سبعمائة ألف[4] ، وقيل خمسمائة ألف وأربعمائة وقرزَعْفَران ، أو قيمته من العَيْن ، وأربعمائة رجل على كل رجل منهم ترس وطَيْلَسان ، ومع كل رجل جَامٌ من فضّة وسَرْقة حرير وكسوة ، فأرسل من يَقْبضُ ذلك وانصرف إلى جُرْجَان. [والله أعلم[5]] .

(١) فى الطبرى : دهستان ، وانظر الهامش السابق رقم ١ صفحة ٣٤٩

(٢) الضبط فى د .

(٣) اصبهنذها فى الطبرى ، وقد تقدم كما أثبتناه .

(٤) فى الطبرى : حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقدا ومائتى ألف وأربعمائة حمار موقرة زعفرانا وأربعمائة رجل على رأس كل رجل برنس ، على البرنس طيلسان وجام من فضة وسرقة حرير (٦-٥٣٦) .

(٥) ساقط فى د .

ذكر فتح جرجان الفتح الثانى وانشاء مدينتها

قال[١] : ولما سار يزيدُ إلى طَبرِسْتان غَدر أَهْلُ جُرْجَان ، فعاد إليهم وعاهد الله إنْ ظَفر بهم لايرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين ، فحصرهم سبعةَ أشهر وهم يخرجون إليه يقاتِلونه[٢] ويرجعون ، فبينما هم على ذلك إذ خرج رجلٌ من عَجَمِ خراسان يتصيَّدُ ، وقيل من طيِّئ ، فأبصر وعْلاً فى الجبَل فتَبِعه فلم يشعرُ حتى هجم على عسْكرِهم ، فرجع يُرِيدُ أصحابه ، وجعل يُخَرِّقُ قَبَاءه ويعْقِدُ على الشجر علاماتٍ ، فأتى يزيد فأخبره فضمن له يزيدُ دِيةً إنْ دَلَّهُمْ على الحِصْنِ ؛ فانتخب معه ثلاثمائة رجل ، واستعمل عليهم ابْنَهُ خالدًا ، وقال له : إن غلِبت على الحياة فلا تغلَبنَّ على الموت ، وإياك أنْ أراكَ عندى مهزومًا ، وضمّ إليه جَهْم بن زَحْر ، وقال للرجل : متى تصل[٣] ؟ قال : غَدًا العصر . قال يزيد : سأجهد على مناصحتهم[٤] عند الظهر .

فساروا ،فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كلَّ حَطَبٍ كان عندهم ، فصار مثل الجبال مِنَ النيران ، فنظر العدوّ إلى النار ، فها لهُمْ ذلك ، فخرجوا إليهم ؛ وتقدّم يزيدُ إليهم ، ودهمهم ابْنه بمن معه قُبَيْل العصر وهم آمِنون من ذلك الوجْه ، ويزِيدُ يقاتلهم مِنْ هذا الوجْهِ ، فما شعروا إلا والتكبير[٥] مِنْ ورائهم ، فانقطعوا جميعا إلى حِصْنِهم ، وركبهم المسلمون ؛ فأَعْطَوْا بأيديهم ، ونَزَلوا على حُكْمِ يزيد ، فسبى

---

(١) والكامل : ٤ — ١٤٩

(٢) فى الكامل : فيقاتلونه .

(٣) فى الكامل : تصلون .

(٤) فى الطبرى : مناهضتهم .

(٥) فى الكامل : بالتكبير .

ذراريهم ، وقَتَل مقاتلتهم ، وصلبهم فرسخَيْن عن يمين الطريق ويسارِهِ ، وقاد منهم اثنى عشر ألفا إلى وادِى جُرْجان فقتلهم ، وأجْرى الماءَ على الدم ، وعليه أرحاء ، ليطحن بدمائهم ليبَرَّ يمينه ، فطَحن وخَبز وأكلَ .

وقيل : قتل منهم أربعين ألفًا ، وبنى مدينةَ جُرْجان ، ولم تكن بُنِيتْ قَبْل ذلك مدينة ، ورجع إلى خراسان ، واستعمل على جرجان جهْم بن زَحْر الجعفى ، وكتب إلى سليمان بالفَتْح وعَظَّمه [1] عنده ، وأخبره أنه قد حصل عنده من الخُمْس ستمائة ألف ألف ، فقال له كاتِبُهُ - المغيرة بن أبى قرَّة مولى بنى تميم [2] : لا تكتبْ بتسميةِ المالِ ، فإنك من ذلك بين أمرين : إما اسْتَكْثَرَهُ فأمرَك بحَمْلِه ، وإما سَخَت به نَفْسُه فأعطاكَه فتكلفْتَ الهديةَ ؛ فلا يأتيه من قِبَلك شىء إلَّا استقلَّه ، فكأنى بك قد استَغْرقْتَ ما سمَّيْت ولم يقع منه موقعا ، ويبقى المالُ الذى سميتَ مُخَلَّدًا فى دَوَاوينهم ، فإن ولى وال بعده أخذك به ، وإن ولى مَنْ يتحاملُ عليك لم يرْضَ بأضْعافه ، ولكن اكتب سلْه [3] القدوم وشَافِهْهُ بما أصْبتَ فهو أسْلَم .

فلم يقبلْ منه ، وكتب [4] ، فكان من أمره فى ذلك ما نذكره فى أخبَار عمر بن عبد العزيز .

---

(١) فى الكامل : يعظمه ... ويخبره .
(٢) فى الكامل : مولى بنى سدوس .
(٣) فى الكامل : فسله القدوم . وفى الطبرى : وسله .
(٤) فى الكامل والطبرى : وأمضى الكتاب .

وقيل : كان المبلغ أربعةَ آلاف ألف ، والله تعالى أعلم .

* * *

وفيها توفى أيّوب بن سُلَيْمان بن عبد الملك ، وهو ولىّ العهد .

وفيها غَزَا داوُد بن سُليمان أرْضَ الروم ؛ ففتح حِصْنَ المرأة مما يلى ملَطْية .

وفيها كانت الزلازل فى الدنيا كثيرةً ، ودامت ستة أشهر .

وحجّ بالناس عبد العزيز بن عبد الله أمير مكة .

سنة (٩٩ هـ) تسع وتسعين :

ذكر وفاة سليمان بن عبد الملك

وشىء من أخباره وعمالِه

كانت وفاتُه يوم الجمعة لعَشْرٍ مضين من صفر من السنة بدَابِقَ[1] من أرض قِنَّسْرِين بذات الجنْب ، وله خمس وأربعون سنة . وكانت مدةُ خلافته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام ، وصلَّى عليه عُمَر بن عبد العزيز ؛ وكان طويلا أبيضَ ، جَمِيلَ الوَجْه ، فصِيحَ اللسان ، مُعْجبًا بنفسه ، يتوقَّى سَفْكَ الدماء . وكان أكُولاً نكاحا ، وكان حَسَن السيرة ، وكان الناسُ يقولون : سليمانُ مفتاحُ الخير ؛ ذهب عنهم الحجاج ، وولى سليمان ، فأطلق الأسارى ، وأخلى السجون ، وأحسن إلى الناس ، واستخلف عُمَر بن عبد العزيز . ويقال : إنه فعل فى يومٍ واحد أكثر مما فعل عُمَرُ بن عبد العزيز جميع عُمْرِه ، وذلك أنه أعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة ، وكساهم .

ومن أعظم بركاته أنه جعل عُمر بن عبد العزيزَ ولىَّ عهده . وحكى

---

(١) بكسر الباء ، وقد روى بفتحها ، وآخره قاف : قرية قرب حلب ، (ياقوت) .

أنه لبس يوما حُلَّةً خضراء وعمامةً خضراء ، ونظر فى المرآة ، فقال : أنا الملك الفتى ، فما عاش جمعة .

وقيل : كانت له جاريةٌ معها مِرْآة ، فدعاها يوما فجاءته بها ، فنظر وجهه ، ونظرت الجارية إليه ، فقال لها : ما تَنْظُرِين ؟ قالت[1] :

أَنْتَ نِعْم[2] المتَاعُ لو كنْتَ تَبْقَى غير أنْ لابَقَاءَ للإنسـان
ليس فيما بدا لنا منك عيْبٌ عابَه النَّاسُ غيْر أنك فَانِى[3]

وانصرفت ، فاستدعاها فجاءت بالمرآة[4] فسألها عن البيتين ، فقالت : والله ما جئتك اليوم ؛ فعلم أنه نُعى .

وقيل : إنه شهد جنازةً بدَابِقَ فدُفنت فى حَفْلٍ ، فجعل سليمان يأْخذ من تلك التُّرْبة ، ويقول : ما أحسن هذه وأطيبها ! فما أتى عليه جمعة حتى دُفِنَ إلى جَنْب ذلك القَبْر .

وقيل : إنه كان له من الأَولاد الذكور أربعة عشر .

وكان نقشُ خاتمه : آمنْت بالله مُخْلصًا .

وكتَّابه : يزيد بن المهلب ، ثم المفضل[5] بن المهلب عم عبد العزيز ابن الحارث بن الحكم .

قاضيه : محمد بن حزم .

حاجبه : أبو عبيدة[6] مولاه .

الأَمير بمصر : عبد الله بن رفاعة .

---

(١) والطبرى : ٦ –٥٤٧ . والكامل : ٤–١٥١

(٢) فى الطبرى : خيرالمتاع .

(٣) فى الطبرى ، والكامل :
ليس فيما علمته فيك عيب كان فى الناس ... ...

(٤) فى ك : المرأة .

(٥) فى ك : الفضل .

(٦) فى ك : أبو عبيد .

قاضيها من قِبله :عبْد الله بن عبد الرحمن ،وهو متولٍّ بيت المال ، ثم رد القضاء إلى عِياض بن عبد الله من قبل سليمان بن عبد الملك .

ذكر بيعة عمر بن عبد العزيز

هو أبو حَفْص عُمر بن عبد العزيز بن مرْوان بن الحكم ؛ وأُمه أم عاصم بنت عاصم بن عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو الثامنُ من ملوك بنى أُمية ، بويع له بدابِقَ يوم الجمعة بَعْدَ وفاةِ سليمان لعَشْرٍ خَلَوْنَ من صفر سنة [٩٩هـ] تسع وتسعين .

قال : وكان سليمان لما مرض بِدَابِقَ عهد فى كتابٍ كتبه لبعض بنيه وهو غلامٌ لم يبلغ الحُلم ، فدخل عليه رَجاء بن حيوَة ، فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ إنه [١] مما يحفظ الخليفة فى قَبْره أن يستخلفَ على الناس [٢] الرجلَ الصالح . فقال سليمان : أنا أَسْتَخِير الله ، وأنظر . ومكث يومًا أو يومين ثم حرق [٣] الكتاب ، ودعا رَجاء ، فقال : ما ترى فى ولَدِى داود ؟ فقال رجاء : هو غائب بالقسطنطينية ، ولم يُدْر [٤] أحيّ هو أم لا ؟ قال : فما ترى فى عُمر بن عبد العزيز ؟ قال رجاء : أَعْلَمُهُ واللهِ خَيْرًا فاضِلاً مسلمًا . قال سليمان : هو على ذلك ، ولئن ولَّيْتُه ولم أولِّ أحدًا سواه لتكوننَّ فِتْنَةٌ ولا يتركونه أبدًا عليهم إلا أن أجعل أحدَهم بعده .

---

(١) فى الكامل : إن ...

(٢) فى الطبرى : على المسلمين .

(٣) فى الكامل والطبرى : وخرق .

(٤) فى د : ندر . وفى الكامل : ولا تدرى. وفى الطبرى : وأنت لاتدرى أحي هو أوميت .

فأمر سليمان أن يُجْعَلَ يزيد بن عبد الملك بَعْد عُمَر . وكان يزيد غائبًا فى الموسم .

فكتب سليمان : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتابٌ من عبْد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ؛ إنى قد ولَّيْتك الخلافةَ من بعدى ، ومِنْ بعدك يزيد بن عبد الملك ؛ فاسمعوا له وأطيعوا ، واتَّقوا الله ، ولا تختلفوا ، فيطمع فيكم .

وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن جابر[1] صاحب شرطته ؛ فقال : ادْعُ أهْل بيتى ، فجمعهم كعب ، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم : اذهبْ بكتابى هذا إليهم ، ومُرْهم أن يُبايعوا مَنْ ولَّيْت فيه ، ففعل ، وبايعوا رجلا رجلا ، ولم يعلموا مَنْ فى الكتاب .

قال رجاء : فأتانى عُمَرُ بن عبد العزيز فقال : أخشى أن يكونَ هذا أسْنَد إلىّ مِنْ هذا الأمر شيئًا ؛ فأنشدك الله إلَّا أعلَمْتَنى إنْ كان قد وقع حتى أستعفى قَبْلَ أنْ يأْتى حالٌ لا أقدِرُ على ذلك فيها . قال رَجَاء : فقلت : ما أنا مخبرك[2] . فذهب عَنِّى غَضْبان .

ولقينى هشامُ بن عبد الملك فقال : إن لى حرمةً ومودَّةً قديمة فأعلمنى بهذا الأمر ؛ فإن كان إلى غيرى تكلَّمْت ، ولله علىّ ألَّا أذكرك . قال : فأبيت أن أخبره . قال[3] : ودخلْت على سليمان عند موته فغمضته وسجَّيْته ، وأغلقْت الباب ، وأرسلت إلى كَعْب بن جابر[4] ؛ فجمع أهلَ بيتِ سليمان فى مسجد دابِقَ ، فقلت : بايِعُوا ! فقالوا :

(١) فى الطبرى : حامد . والمثبت فى الكامل ، د ، ك .
(٢) فى د : بمخبر ك . (٣) قال : أى رجاء .
(٤) فى الطبرى : حامد .

قد بايعنا مرةً . قلت : وأخرى ، هذا عهدٌ من أمير المؤمنين ، فبايعوا الثانية . قال رجاء : فلما بايعوا بعدَ موتِه رأيت أنى قد أحكمت الأمر فقلت : قوموا إلى صاحبكم فقد مات ، فاسترجعوا ، وقرأت الكتابَ ، فلما انتهيت إلى ذِكْرَ عمر بن عبد العزيز قال هشام : لا نبايعه واللهِ أبدًا . قلت : أضرب والله عُنقك . قم وبايع . فقام يجرُّ رجليه .

قال رجاء : وأجلست عمر على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه ، وهشام يسترجع لما أخطأه ، فبايعوه .

قال : ولما دُفِن سليمان أتى عُمر بمراكب الخلافة ، فقال : دابّتى أرفق [1] لى ، وركب دابّته ؛ ثم أقبل سائرًا ، فقيل له : منازل [2] الخلافة ؟ فقال : فيها عِيَالُ سليمان ، وفى فسطاطى كفاية حتى يتحوّلوا .

قال : وبلغ عبْدَ العزيز بن الوليد ـ وكان غائبا ـ وفاةُ سليمان ولم يشعر بعُمَر [3] ، فدعا لنفسه ، فبلغه بيْعَة عُمر ، فأقبل حتى دخل عليه ، فقال له عمر : بلغنى أنك بايَعْتَ مَنْ قِبَلَك ، وأردْتَ دخول دمشق. قال : نعم ، وذلك أنه بلغنى أنَّ سليمان ما عقد لأحدٍ فخفْتُ على الأموال أن تنتَهب . فقال [له] [4] عمر : لو بايعْتَ وقمتَ بالأمر لم أنازِعكَ فيه . فبايعه عَبْدُ العزيز .

قال : ولما استقرت البيعة لعُمر قال لامرأته فاطمة بنتِ عبد الملك : إن أردتنى [5] فرُدِّى ما معك من مالٍ وحلىٍّ وجَوْهَر إلى بيتِ المالِ ،

---

(١) فى الطبرى والكامل : أوفق لى .
(٢) فى الكامل : أمنزل الخلافة . وفى الطبرى : منزل الخلافة .
(٣) فى الكامل : ولم يعلم ببيعة عمر .
(٤) ليس فى د .
(٥) فى الكامل : إن أردت صحبتى .

فإنه للمسلمين ، وإنى لا أجتمع أنا وأنت وهو فى بيتٍ واحد ، فردّته جميعه . فلما توفى عمر ووُلّى أخوها يزيد ردّه عليها فلم تأخذه ، وقالت : ما كنْت لأُطِيعه حَيًّا وأعصيه ميتًا ، ففرّقه يزيد على أهله .

قال : وكان [من][1] أول ما ابتدأ به عُمر بن عبد العزيز أنْ ترك سبَّ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه على المنابر ، وكان يُسَبُّ فى أيام بنى أمية إلى أنْ ولى عُمر فترك ذلك ، وأبْدله بقول الله عز وجل[2] : « إنَّ الله يـأْمُرُ بالعَدْلِ والإحسان وإيتاء ذى القرْبَى ويَنْهَى عن الفحشاء والْمُنْكَرِ والبغْى يعِظكم لعلكم تذكرون » . فحلّ ذلك عند الناس مَحَلاً حسنا ، وأكثروا مدْح عُمر بسببه ، فكان ممن مدحه كثَيِّر عَزَّةَ بقوله[3] :

وليت فلم تَشْتم عليًا ولم تخِفْ بَرِيًّـا ولم تتبع مقالةَ مُجْرِم
تكلّمت بالحقّ المبين وإنمـا تَبَيَّن آيات الهُدَى بالتكلم
فصدقت[4] معروف الذى قلْت بالذى فَعَلْتَ فأضحى راضيًا كلُّ مُسْلم
ألا إنما يكفى الفَتَى بعد زَيْغِه من الأَوَد البادِى[5] ثِقَافُ المقوّم

وفيها وجّه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرْضِ الروم يأْمُرُهُ بالقفول منها بمَنْ معه من المسلمين ، ووجّه لهم خَيْلًا عِتَاقا وطعامًا كثيرًا.

وفيها أغارت الترك على أذْرَبِيجان . فقتلوا من المسلمين جماعة ،

---

(١) زيادة من د .

(٢) سورة النحل ، آية ٩٠

(٣) الشعر والشعراء : ٤٨٣ ، والكامل : ٤ - ١٥٤

(٤) فى الكامل : وصدقت . وفى الشعر والشعراء : وصدقت بالفعل المقال مع الذى أتيت ...

(٥) فى ك : النادى .

فوجّه عمر حاتم بن النعمان الباهلى فقَتَلَ أولئك الترك ، ولم يُفْلِتْ منهم إلا اليسير ، وقدم على عمر منهم بخمسين أسيرًا .

وفيها عزَل عمر يزيدَ بن المهلَّب عن أعماله ، ووجَّه إلى البصرة عدى بن أرْطَاة الفَزَارى ، وجعل على الكوفة عَبْد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب العدَوِى ، وضمَّ إليه أبا الزِّنَاد ، واستعمل على خُراسان الجراح بن عَبْدِ الله الحكَمِى .

وحجّ بالناس أبو بكر بن محمد بن عمْرو بن حزْم ، وكان عاملَ المدينة ، وكان العامل على مكة عبد العزيز بن [عبد الله بن خالد ، وعلى الكوفة عبد الحميد] (١) ، وعلى القضاء بها [عامر الشعبى ، وكان على البصرة عدىّ من أرطاة ، وعلى القضاء (٢)] الحسن بن أبى الحَسَن البصْرى ، ثم استعفى عدِيًّا فأعفاه ، واستقضى إياس بن معاوية .

سنة مائة للهجرة :

ذكر خروج شوذب الخارجى

فى هذه السنة خرج شَوْذَب واسمه بِسْطَام من بنى يشْكر فى جُوْخَى وكان فى ثمانين رجلا ، فكتب عُمَرُ بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة ألّا يحرِّكهم حتى يسفِكوا الدِّمَاء أو يُفْسِدُوا فى الأرض ، فإنْ فعلوا وجّه إليهم رجُلاً صليبا حازمًا فى جُنْد .

فبعث عبد الحميد محمد بن جرير بن عَبْد الله البجلى فى ألفين ، وأمره أن يفعل ما كتب (٣) به عمر ، وكتب عمر إلى بسطام

(١) فى ك : عبد العزيز بن أرطاة . والزيادة فى الكامل ، والطبرى .
(٢) الزياة من الكامل والطبرى .
(٣) فى الكامل : وأمره بما كتب به عمر . وفى الطبرى : وأمره بما أمره به عمر .

يسأل [١] عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر عليه ، وقد قدم [عليه] [٢] محمد ، فكان فى كتابِ عمر : بلغنى أنك خرجْتَ غَضَبًا للهِ ولرسولِه ، ولستَ بذلك أوْلَى منى ، فهلم إلىَّ أناظرك ، فإن كان الحقُّ بأيدينا دخلْتَ فيما دخل فيه الناسُ ، وإن كان فى يدك نظرْنَا فى أمرك .

فكتب إليه [٣] بِسْطام : قد أنصفت ، وقد بعثْتُ إليك برجُلَيْن يُدارسانك ويناظرَانك . وأرسل إليه مولًى حبشيًّا لبنى شيبان اسْمُهُ عاصم ، ورجُلاً من بنى يشْكر ، فَقَدِما على عمر بخنَاصرة [٤] ، فقال لهما : ما أخْرجكما هذا المخرج ؟ وما الذى نقمتم ؟ قال عاصم : ما نقمنا سِيرتَك ، إنك لتتحرَّى العدْل والإحْسانَ ، فَأَخْبِرْنَا عن قيامك بهذا الأمر ؛ عن رضًا من الناس ومشورة ، أم ابتززتم [٥] أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألْتهم الولايةَ عليهم ، ولا غلبْتهم عليها ، وعهد إلىَّ رَجُلٌ كان قبلى ، فقمْت ، ولم يُنْكِر علىَّ أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم تَرَوْنَ [٦] الرِّضَا بكل منْ عَدل وأنصف مَنْ كان مِنَ الناس ، فأنْزلونى [٧] ذلك الرجل ، فإن خالفْت الحقَّ وزِغْت [٨] عنه فلا طاعةَ لى عليكم. قالَا : بيننا وبينك أمْرٌ واحِدٌ . قال : ما هو؟ قالا : رأيناك خالَفْتَ أعمال أهلِ بيتِك وسمَّيْتَها مَظَالم ، فإن كنْتَ على هدى وهم على

(١) فى د ، والطبرى : يسأله .
(٢) زيادة فى الكامل والطبرى .
(٣) فى ك : فقال له . والمثبت فى د ، والكامل . وفى الطبرى : وكتب .
(٤) خناصرة : بليدة من أعمال حلب تحاذى قنسرين (ياقوت) .
(٥) فى ك : ابتدرتم .
(٦) فى ك : ترجون .
(٧) فى الكامل : فاتركونى .
(٨) فى الكامل : ورغبت .

ضلالة فاعْنَهم وابرأ منهم . فقال عمر : قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبًا للدنيا ، ولكنكم أردْتم الآخرةَ فأخطأْتُم طريقَها ، إنَّ الله عزَّ وجل لم يبعث رسولَه لَعّانًا .وقال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه[1] : «فَمَنْ تَبِعنى فإنه مِنِّى ومنْ عصانى فإنَّك غفورٌ رحيم» .وقال الله عزو جل[2] : «أولئكَ الذين هدى اللهُ فبِهداهُم اقْتَدِهْ» .وقد سميْت أعمالَهم ظلْمًا ، وكفى بذلك ذمًا ونَقْصا ، وليس لَعْن أهل الذنوبِ فريضةً لابدّ منها ، فإن قلْتم إنها فريضةٌ فأَخْبِرْنى متى لعنْتَ فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنْته . قال : أفَيَسعُك ألّا تلعن فرعون وهو أخْبَث الخلق وشَرُّهُمْ ، ولا يسعنى ألّا ألْعنَ أهْلَ بيتى وهم مُصلّون صائمون ؟

قال عاصم : أمَا هُمْ كفّار بظلْمهم ؟ قالَ : لا ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقرّبه وبشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد . فقال عاصم : إن رسول الله دعا الناس إلى توحيد الله تعالى والإقرار بِما أنزل مِنْ عِنده .

قال عمر : فليس أحدٌ منهم يقول : لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ولكن القَوْم أسرفوا على أنفسهم على عِلمهم[3] أنه محرّمٌ عليهم ، ولكن غلب عليهم الشّقَاءُ .

قال عاصم : فابرأ مما خالف عملَكَ ورُدَّ أحكامهم .

قال عمر : أخبرانى[4] عن أبى بكْرٍ وعمر رضى الله عنهما ، أليسا على الحق ؟ قالا : بلى . قال : أتعلمان أنَّ أبا بكْر حين قاتل أهْل

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٦ . (٢) سورة الأنعام ، آية ٩٠
(٣) فى الكامل : على علم منهم .
(٤) فى ك : أخبرنى .

الرِّدَّةِ سفك دماءهم ، وسبى الذَّرارِى ، وأخذ الأَمْوالَ ؟ قالا : نعم .
قال : أفتعلمان أن عُمر رضى الله عنه ردّ السبايا بعْده إلى عشائرهم بفِدْية ؟ قالا : نعم . قال : فهل برئ عمر من أبِى بكر ؟ قالا : لا .
قال : أفتبرءُون أنتم منْ واحدٍ منهما ؟ قالا : لا . قال : فأَخْبِرانى عن أهل النَّهْروان وهم أسلافكم ، هل تعلمان (١) أنَّ أهْل الكوفة خرجوا فلم يسفِكوا دمًا ، ولم يأْخذوا مالاً ، وأن منْ خرج إليهم من أهل البصْرةِ قتلوا عبْد الله بن خَبَّاب وجاريتَه وهى حامل ؟ قالا: نعم .
قال : فهل برئ مَنْ لم يقتل ممَّنْ قَتَل ؟ قالا : لا . قال : أفتبرءُون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالا : لا . قال : أفَيسعُكم أن تتولَّوا أبا بكْر وعمر وأهل الكوفة وأهل البصرة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ، ولا يسعنى إلا البراءة من أهل بيتى ، والدِّين واحد؟ فاتقوا الله ، فإنكم جُهَّال تقبلون من الناس ماردَّ عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وتردّون عليهم ما قَبل ، ويأْمن عندكم من خاف عنده ، ويخافُ عندكم مَنْ أمِنَ عنده ، فإنكم يخَافُ عندكم مَنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدا عبْدُه ورسوله ، وكان منْ فَعْل ذلك عند رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أمِن وحقَن دَمه وماله ، وأنتم تقتلونه ويأْمن عندكم سائر أهلِ الأديانِ ، فتحرِّمون دماءهم وأموالَهم .

قال اليشكرى : أرأيْتَ رجلا وَلى قومًا وأموالَهم فعدل فيها ثم صيّرها بَعْده إلى رجلٍ غير مأْمون ، أتراه أدَّى الحقَّ الذى يلزمُه لله عزَّ وجل ، وتراه قد سلم ؟ قال عُمر : لا . قال : أفَتُسْلم هذا الأمرَ إلى يزيد مِنْ بعدك وأنت تعْلَم أنه لا يقوم فيه بالحقِّ . قال : إنما ولَّاه

(١) فى ك : تعلمون .

غيرى ، والمسلمون أَوْلَى بما يكون منهم فيه بَعْدِى . قال : أفترى ذلك من صُنْع منْ ولَّاهُ حقًّا ؟ فبكى عمر ، وقال : أَنْظِرانى ثلاثًا[1] .

فخرجا مِنْ عِنْده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنكَ على حق . فقال عمر لليشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسنَ ما وصَفت ، ولكنى لا أفْتَات على المسلمين بأمرٍ ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم احجَّتهم . فأما عاصم فأقام عند عُمَر ، فأمر له بالعطاء فتوفى بعد خمسة عشر يومًا ، فكان عمر يقول : أهلكنى أمْرُ يزيد ، وخُصمت فيه ، فأستغفر الله . فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم وأنْ يُخلع يزيد مِن ولاية العهد ؛ فوضعوا على عمر منْ سقاه سُمًّا . فلم يلبثْ بعد ذلك إلَّا ثلاثاً حتى مرض ومات ، رحمه الله تعالى .

هذا ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لايتعرض إليهم ولا يتعرَّضون إليه ، فلما مات عمر وَوُلِّى يزيد كان ما نذكره فى أخبار يزيد .

* * *

وفى هذه السنة عزل عُمَرُ يزيد بن المهلب عن خرَاسان وأحضره وطالبه بالمال الذى كان كتب به إلى سليمان واعتقله بحِصْن حلَب ، واستعمل على خراسان الجرّاح بن عَبْد الله الحَكَمِى ، ثم عزله ؛ واستعمل عَبْد الرحمن بن نعيم القشَيْرى .

وفيها كان ابتداءُ خروج شيعة بنى العباس على ما نذكره فى أخبار الدولة العباسية إن شاء الله تعالى .

وفيها أمر عُمرُ بن عبد العزيز أهل طُرَنْدة [2] بالقفول عنها إلى مَلَطْيَة ، وطرنْدَة [2] أوغَلُ [3] فى البلاد الرُّومية بثلاث

(١) أى طلب تأخير الأمر فى المناظرة لضيقه بالأمر (بين السطور فى نسخة د).
(٢) طرندة : من ملطية على ثلاث مراحل داخلة فى بلاد الروم (ياقوت) .
وفى ك : طريدة — تحريف . (٣) فى الكامل : واغلة .

مراحل ، وكان عَبْدُ الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة [٨٣هـ] ثلاث وثمانين ومَلَطْيَة يومئذ خراب ، وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أنْ ينزل الثَّلْج ويعودون إلى بلادِهم، فلم يزالوا كذلك إلى أنْ ولى عمر ، فأمرهم بالعوْد إلى ملَطْيَة وأخلى طُرَنْدَة خوفًا على المسلمين من العدوّ ، وأخرب طُرنْدَة ، واستعمل على ملَطْية جعْوَنة بن الحارث أحدَ بنى عامر بن صعْصعة .

وفيها كتب عُمر إلى ملوك السند يدْعُوهم إلى الإسلام ، فأسلم منْ ذكرنا منهم على ما سبق ذكر ذلك .

وفيها استعمل عُمر بن عبد العزيز عُمَر بن هُبيرة الفَزَارى على الجزيرة .

وفيها مات أبُو الطُّفَيَل عامر بنَ واثِلة الليثى بمكة ، وهو آخرُ من مات من الصحابة ، ومولده عام أُحُد .

وحجّ بالناس أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم .

* * *

سنة (١٠١ هـ) احدى ومائة :

فى هذه السنة هرب يزيدُ بن المهلب من حبْس عمر بن عبد العزيز ، وذلك أنه لما اشتدَّ مَرَض عمر بن عبد العزيز عمل يزيد فى الهرب مخافةَ يزيد بن عبد الملك لإساءةٍ [كانت] (١) صدرتْ منه فى حَقِّه أيام سليمان ، فأرسل ابْن المهلب إلى مواليه فأعدّوا له خَيْلاً وإبلا ، وواعدهم مكانًا يأتيهم فيه ، وأرسل إلى عامل حلَب وإلى الحُرَّاس مالاً ، وقال : إنَّ أمِير المؤمنين قد ثَقل فى مرضه ، وليس يُرْجَى ،

(١) زيادة فى د .

وإنْ ولى يزيد سفَكَ دمى ، فأَخْرجوه ، فهرب وقصد البَصْرة ، وكتب إلى عُمر كتابًا يقول : إنى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكنى خفْت أنْ يَلِىَ يزيد فيقتلنى شَرَّ قتله .

فورد الكتابِ وبه رَمَقٌ ، فقال رضى الله عنه :اللهم إنْ كانَ يَزِيد يريدُ [1] بالمسلمين سوءًا فأَلْحِقْه به وهِضْهُ فقد هاضنى ، ثم كان من أمْرِ ابْنِ المهلَّب ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة عمر بن عبد العزيز

رضى الله عنه وشىء من أخباره وسيرته رحمه الله تعالى

كانت وفاته رحمه الله بخنَاصِرة لستٍّ بقين من شهر رجب سنة [١٠١هـ] إحدى و مائة ، وكانت شَكْواه عشرين يومًا ، وقيل له [فى مرضه] [2] : لو تداويْتَ ! فقال[3] : لو كان دوائى فى مسْحِ أُذنِى مامسحْتها ، نِعْمَ المذهوبُ إليه رَبِّى . ودفن[4] بدَيْرِ سمْعان من أرْضِ حِمْص .

وقيل : به توفى ، وكان عمره تسعا وثلاثين سنة وأشهرًا [وقيل أربعين سنة وأشهرًا] [2] .

وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا .

وكان أبيض نحيفًا حسن الوجه ، وهو أشجّ بنى أمية ،رمحتْه

(١) فى الطبرى : إن كان يزيد يريد بهذه الأمة شراً ...
(٢) من د .
(٣) فى د : قال .
(٤) بفتح الدال وكسرها (ياقوت) .

دابّة فشجّته ، وهو غلام ، فدخل على أمه فضمّته إليها ولامَتْ أباه حيث لم يجعل معه حاضنا [١] . فقال لها عَبْدُ العزيز : اسكتى يا أُمّ عاصم ، فطوبى له إنْ كان أشجّ بنى أميّة .

وكان عَبْدُ الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يقول : ياليت شِعْرى ، منْ هذا الذى مِنْ ولَد عُمر فى وَجْهِهِ علامة يملأُ الدنيا عَدْلاً ؛ فكان عُمرَ بْنَ عبد العزيز ؛ لأَنّ أُمّه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ذكر نبذة من سيرته رضى الله عنه

كان رَحِمهُ الله ورضى عنه قد بَثّ العَدْلَ ونَشَرَهُ فى الدنيا واقتصر من دُنْيَاهُ على سدّ الخَلّة [٢] حتى إنّ مسلمةَ بْنَ الملك عادَه فى مرضِ مَوْتِهِ ، فرأى عليه قميصًا دَنِسًا [٣] ، فقال لأُخته فاطمة ، وهى زَوْجَة عمر : اغسلوا ثيابَ أميرالمؤمنين . فقالت : نَفْعَلُ . ثم عاده فرأى الثّوْبَ بحاله ، فقال : ألم آمركم أنْ تغسلوا قميصَه . فقالت : والله الَهُ غَيْرُهُ ، وكانت نفقَتُهُ فى كل يوم دِرْهَمين .

قال : ولما ولى الخلافة أتاهُ أصحابُ مَرَاكبِ الخلافة يطلبون عَلَفَهَا ، فأمر بها فبِيْعَتْ ، وجعل ثمنَها فى بيْتِ المال ، وقال : بغْلَتِى هذه تكفينى .

قال : ولما ولى صعدالمنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيُّها الناسُ ،

---

(١) فى الطبرى : خادما و لا خاضنا .

(٢) الخلة : الحاجة .

(٣) فى الكامل : وسخا .

منْ صحبنا فليصحبْنَا لخَمس [١] ، وإلَّا فلا يقربنا : يَرْفَعُ إلينا حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ رَفْعَها، وَيُعِيننا على الخير بجهْدِهِ ، ويدلُّنَا على مالا نَهْتَدِى إليه مِنَ الْخَيْرِ ، ولا يغتابَنَّ أحدًا ، ولا يعترض فيما لا يَعْنيه .

فانقشع الشعراءُ والْخُطَبَاءُ ، وثبت عنده الفقهاء والزُّهَّادُ ، وقالوا : ما يَسعُنَا أن نفارقَ هذا الرجلَ حتى يخالفَ قولَه فِعْلُه .

ولما وَلى أحضر قريشًا ووجوهَ الناس فقال : إنَّ فَدَك [٢] كانت بيَدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم [فكان] [٣] يضَعُهَا حيث أراه الله ، ثم وَليها أبو بكر كذلك، وعُمر كذلك ، ثم أقطعها مرْوان . ثم إنها صارت لى ، ولم يكن مِنْ مَالى أعْوَدُ علىّ منها ،وإنى أشهدكم أنى قد رددْتها على ماكانت عليه فى عهْدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فَيَئِسَ الناسُ من الظُّلْمِ .

وأخَـذَ مِنْ أهله ما بأيديهم ، وسمَّى ذلك مَظَالم ، ففَزِعَ بنو أمية إلى عمَّتِهِ فاطمة بنت مروان فأتته ، فقالت [له] [٤] : تكلَّمْ أنْتَ يا أمير المؤمنين . قال : إن الله بعثَ محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة [٥] ،ثم اختار له ما عنده ، وترك للناس نَهْرًا شرْبُهم سواء، ثم ولى أبو بكر فترك النهْر على حاله ، ثم ولى عمر فعمل عَمَلَهُمَا ، ثم لم يَزَل النهر يستقى منه يزيد

(١) فى الكامل : بخمس .
(٢) فدك : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة ، أفاءها الله على رسوله فى سنة سبع صلحا (ياقوت) .
(٣) من الكامل .
(٤) من د .
(٥) فى الكامل : إلى الناس رحمة ولم يبعثه عذابا .

ومَرْوان ، وعبد الملك ابنه ، والوليد وسليمان ابْنَا عَبْدالملك ، حتى أفضى الأَمْرُ إلىّ ، وقد يَبِسَ النهرُ الأعظم ، فلن يروى[1] أصحابه حتى يعودَ إلى ماكان عليه .

فقالت : حسبك [قد أردت كلامك[2]] ، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكرُ شيئًا أبَدًا ، ورجعتْ إليهم فأخبرتهم بكلامه .

وقد قيل : إنها قالت له : إن بنى أميَّة كذا وكذا - ذكرَتْ إنكارهم لفِعْلِه بهم - فلما تكلم بهذا قالت له : إنهم يُحَذِّرونك يوما من أيامهم ، فغضب وقال : كل يوم أخافُه غير يوم القيامة ؛ فلا أمّنى[3] الله شرَّه .

فرجعت إليهم فأخبرتهم وقالت : أنتم فعلْتُم هذا بأنفسكم ، تزوجتم بأولادِ عُمر بن الخطاب ، فجاء يُشْبِهُ جَدَّه ، فسكَتُوا .

قالت فاطمة امرأة عمر : دخلْتُ عليه فى مُصَلَّاهُ ودموعُه تجرى على لحيته ، فقلت : أحَدَث شىء ؟ قال : إنى تقلَّدت أمْرَ أمَّةِ محمد صلى الله عليه وسلم ، فتفكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع والعارى[4] والمظلوم والمقهور[5] ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير وذى العِيَال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض ، فعلمْتُ أنَّ ربى سيسألُنى عنهم يَوْمَ القيامة ، وأنَّ خَصْمِى دونهم محمد صلى الله

(١) فى الكامل : فلم يرو .
(٢) من الكامل .
(٣) فى الكامل : فلا أمنت شره .
(٤) فى الكامل : والغازى .
(٥) فى الكامل : والمظلوم المقهور .

عليه وسلم ، فخشيتُ ألّا تثبت حُجّتى عندالخصومة ، فرحمت نَفْسى فبكيتُ .

وكتب إلى عمّاله نسخةً واحدة : أما بعد فإنّ الله عزّ وجل أكرَمَ بالإسلام أهلَه ، وشرّفهم وأعزّهم ، وضرب الذِّلّةَ والصَّغار على مَنْ خالفهم ، وجعلهم خَيْرَ أُمّةٍ أُخرِجَتْ للناس ، فلا تُوَلِّيَنّ أمْر[1] المسلمين أحدًامِنْ أهل ذمتهم وخَرَاجهم ، فَتَنْبَسِطَ عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلّهم بعد أنْ أعَزّهم الله ، وتُهينهم بعد أنْ أكرمهم الله ، وتُعرِّضهم لكَيْدِهم والاستطالة عليهم ، ومع هذا فلا يُؤمن غِشُّهم إياهم ، فإنّ الله عزوجل يقول[2] : « يأيها الذين آمنوا لا تَتّخِذُوا بِطَانَةً من دُونِكُمْ لايَأْلُونَكُم خَبَالاً وَدُّوا ماعَنِتُّم » . وقال تعالى[3] : « يأيها الذين آمنوا لاتَتّخِذُوا اليهودَ والنصارَى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بَعْض » . والسلام .

وكتب لما ولى الخلافة إلى يزيد بن المهلب بن أبى صُفْرَة ، وهو إذ ذاك يلى العراقَ وخراسان :

أما بَعْدُ فإنّ سليمان كان عبْدًا من عَبِيد الله ، أنعم اللهُ عليه ثم قَبَضَهُ ، واستخلفنى ويَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الملك مِنْ بَعْدِى إن كان ، وإن الذى ولّانى اللهُ من ذلك وقدرّ لى ليس علىّ بهيِّن ، ولو كانت رَغْبَتى فى اتخاذ أزواج واعتقاد[4] أموال لكان فى الذى أعطانى اللهُ من ذلك ما قد بلغ بى أفضلَ ما بلغ بأحدٍ من خَلْقِهِ ، وأنا أخافُ فيما ابتُلِيتُ به حسابًا شديدًا

(١) فى الكامل : أمور .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١١٨
(٣) سورة المائدة ، آية ٥١
(٤) فى الكامل : أو اعتقال . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

ومسألة غليظة إلّا ما عافى[١] الله ورحم ، وقد بايع من قِبَلنا فبايع مَنْ قِبَلك .

فلما قرأ الكتاب قيل له : لسْتَ من عُمّاله ، لأن كلامه ليس ككلام من مَضَى مِنْ أهله .

وكتب إلى عبد الرحمن بن نُعيم :

أمابعد فاعمل عَمَلَ مَنْ يعلم أنَّ الله لايُصْلح عملَ المفسدين .

وكتب إلى سليمان بن أبى السرى : أن اعْمَل خانات ، فمَنْ مَرّ بك من المسلمين فاقْرُوه يومًا وليلة ، وتعهَّدُوا دوابَّهم . ومن كانت به علةٌ فاقْرُوه يومين وليلتين ، وإن كان منقطعا [به][٢] فأَبْلِغْهُ بلدَه .

فلما أتاه كتاب عمر قال له أهل سَمرْقَنْد : إنَّ قُتيبة ظلمنا وغَدَر بنَا ، وأخذ بلادنا ، وقد أَظْهَرَ اللهُ العدْل والإنصاف فأْذَنْ لَنا فلْيقْدم منا وَفْدٌ على أمير المؤمنين ، فأَذِن لهم ، فوجَّهُوا وفْدًا إلى عمر ، فكتب إلى سليمان : إنَّ أهل سَمَرْقَند شَكَوْا ظُلْمًا وتَحاوُلًا من قُتَيْبَة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كِتابِى فأَجْلس لهم القاضى فليَنْظُر فى أمرهم ،فإنقضى لهم فأَخرج العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قُتَيْبَة .

فأَجلس لهم سليمان جُميع بن حاضر القاضى ، فقضى أنْ تخرجَ العرَبُ إلى معسكرهم ويُنَابِذُوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدًا

(١) فى الكامل : ما عفا .

(٢) زيادة فى د .

أو ظَفَرًا عنْوَةً . فقال أهل الصُّغْد : نَرْضَى بما كان ولا نحدث شَيْئًا[١] وتواصوا بذلك .

وكتب إلى عبد الحميد : أما بعد فإنَّ أهل الكوفة أصابهم بلاءٌ وشدةٌ وجَوْرٌ فى أحكام الله ؛ وسُنَّةٌ خَبيثة سنَّها عليهم عُمَّالُ السوء ، وإن قوامَ الدِّيْن العَدْلُ والإحسان ، فلا يكونَنَّ [شىء] [٢] أهَمَّ إليكَ مِنْ نفسك ؛ فإنه لا قليلَ من الإثم[٣] ، ولاتَحْمِلْ خَرابًا على عامر ، وخُذْ منه ما أطاق ؛ وأَصْلِحه حتى يَعْمر ، ولا يؤخذن من العَامر إلا وظيفة الخراج فى رِفْقٍ وتسكين لأهل الأرض ، ولاتأْخذنَّ أجورَ الضرابين ولاهديَّة النوروز والمهرجان ؛ ولا ثمن الصحف ولا أجور الفُيُوج [٤] ولا أجورَ البيوت ؛ولا دَراهم النكاح ؛ ولا خراجَ على مَن أسلم مِنْ أهل الأرض ، فاتَّبعْ فى ذلك أمْرِى ، فإنى قد ولَّيتك من ذلك ماولَّانى الله ، ولاتعجل دُونى بقَطْعٍ ولاصَلْب حتى تراجعنى فيه ، وانْظُرْ مَنْ أراد من الذريَّة أن يحج فعجِّل له مائة ليحجَّ بها . والسلام .

قال محمد بن [على] [٥] الباقر : إن لكل قومٍ نَجيبةً ، وإن نجيبةَ بنى أمية عمرَ بن عبد العزيز رحَمه الله ، فإنه يُبْعَث يَوْمَ القيامة أمةً وحْدَه .

وقال مجاهد : أتَيْنَا عمر نعلِّمه ؛ فلم نبرح حتى تعلَّمْنَا منه [٦] .

---

(١) فى د : حدثا وتراضوا . وفى الطبرى . ولانجدد حرباً وتراضوا بذلك . وفى الكامل : ولا نحدث حربا وتراضوا ...

(٢) من د ، والكامل .

(٣) فى الكا مل : فلا تحملهاقليلا من الإثم .

(٤) الفيوج : الفيج : المطمئن من الأرض (القاموس) .

(٥) زيادة فى د .

(٦) فى ك : به .

وقيل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : ما كان بدْءُ إنَابتك ؟ قال : أردْتُ ضَرْب غلام لى ، فقال لى : اذكر ليلةً صبيحتها يوم القيامة.

وقال عمر : ما كذبْتُ منذ علمت أنَّ الكذب يضرُّ أهله .

وأخباره رضى الله عنه فى الخير والعَدْلِ كثيرة لو استقصيناها أو أوْردْنا ما طالعْنَاه منها لطال ولخرج عن قاعدة هذا التأليف ، وناهِيكَ بها سيرةً ضُرِب بها المَثَلُ فى العَدْلِ والإحسان منذ كانت إلى يومنا هذا .

وكان له من الأولاد الذكور أربعة عشر وخمس بنات .

كُتَّابه : رجاء بن حَيْوة الكندى ؛ وابن أبى رقَبة[1]

قاضيه : عبد الله بن سعد الأُبُلِّى .

حجابه : جيش ، ومزاحم ، مولَيَاه .

الأمير بمصر : أيوب بن شُرحبيل .

وأقر على القضاء عِيَاض بن عبْدِ اللهِ ، ثم صرفه بأبى مسعود عبْد الله بن حُذافة .

وكان نقش خاتمه رضى الله عنه : « عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله ».

ذكر بيعة يزيد بن عبد الملك

هو أبو خالد يزيد بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكم ، وأُمُّه عاتِكَةُ بنت يَزيد بن معاوية ، وهو التاسع من ملوك بنى أمية ، بويع له يوم الجمعة لخَمْس بقين من شهر رجب سنة [١٠١هـ] إحدى ومائة بعد وفاة

(١) الضبط فى د .

عُمرَ بن عبد العزيز ؛ وذلك بعَهْدٍ من أخيه سليمان بن عبد الملك على ماتقدَّم ذكْرُ ذلك .

قيل : ولما احتضر عُمَر رضى الله عنه قيل له : اكتُبْ إلى يزيد فأَوْصِه بالأُمَّةِ . قال : بماذا أُوصيه ؟ إنه مِنْ بنى عبد الملك .

ثم كتب إليه : أما بعد فاتَّق يايزيد الصَّرْعةَ بعد الغَفْلَة ، حين لاتُقَالُ العثْرة ، ولاتَقْدِرُ على الرجْعَةِ ، إنك تترك ما تترك لمن لايحمدك ، وتصير إلى منْ لا يعذرك . والسلام .

فلما ولى يزيد نَزَع أبا بكر محمد بن عمروبن حزْم [عن المدينة ، واستعمل عبْدَ الرحمن بن الضحاك بن قيس الفِهْرِى عليها ؛ فأراد معارضة ابن حزم] (١) فلم يجد عليه سبيلا حتى شكا عثمانُ بن حَيّان إلى يزيد ابن عبد الملك من ابن حَزم ، وأنه ضربه حَدَّيْنِ ، وطلب منه أن يُقيده منه .

فكتب يزيد إلى عَبْد الرحمن كتابا : أما بعد فانْظُرْ فيم ضَرَب ابنُ حزْم ابْنَ حيان ، فإن كان ضربه فى أمرٍ بيِّن أو أمرٍ مختلَف فيه فلا تلتفت إليه .

فأرسل ابْنُ الضحاك إلى ابن حَزْم فأحضره ؛ وضربَهُ حدَّيْنِ فى مقامٍ واحد ، ولم يسأله عن شىء ، وعمد يزيد إلى كلّ ما فعله عُمرُ بن عبدالعزيز رضى الله عنه مما لم يوافق هَوَاهُ ، فرده ، ولم يخَفْ شناعةً عاجلة ولا إثْمًا آجلا .

---

(١) ساقط فى ك .

ذكر مقتل شوذب الخارجى

وهزيمته بجيوش يزيد قبل ذلك

واسم شَوْذَب بِسطام .

قد ذكرنا خروجَه فى أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ووصول رُسُلِه إلى عمر ، وما كان بينهما من المناظرة ، وخروج محمد بن جرير ابن عبد الله البَجلى إليهم فى ألفين ومُوَادَعتهم إلى أن يعُود رسولاً شَوْذَب من عند عمر ؛ فلما مات عُمَرُ بْنُ عبد العزيز أحبَّ عَبْدُ الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطَّاب ، وهو الأَمِيرُ على الكوفة ، أن يَحْظَى عند يزيد بن عبد الملك ؛ فكتب إلى محمد بن جَرير يأْمره بمناجزة[1] شَوْذَب ، فلما رآه يستعدُّ للحرب أرسل إليه يقول : ما أعجلكم قبل انقضاء المدَّة .

فأرسل إليه محمد : إنه لا يسَعُنَا تركُكم على هذه الحال .

فقال الخوارج : ما فَعَلَ هؤلاء هذا إلَّا وقد مات الرجلُ الصالح ، فاقتتلوا ، فأُصيب مِنَ الخوارج نَفَرٌ ، وقُتِل أكثر[2] أهلِ الكوفة ، وانهزم مَنْ بقِى منهم نحو الكوفة ، وتبعهم الخوارِجُ حتى بلغوا الكوفة ، ثم رجعوا إلى مكانهم .

ثم وجَّه يزيد بن عبد الملك تميم بن الحباب فى ألفَيْن فقاتلوه ، فقتل[3] ، وقُتِلَ أكثر أصحابه ، ولَجأَ مَنْ بَقِى منهم إلى الكوفةِ ، والتحق بَعْضُهم بيزيد ، فأرسل إليهم يزيد نَجْدة بنَ الحَكَمِ الأَزْدِى فى جَمْع ، فَقَتَلُوه وهزموا أصحابه .

---

(١) فى الطبرى : بمحاربة . (٢) فى الكامل : الكثير .

(٣) فى الكامل : فقتلوه وقتلوا أصحابه .

وأقام شَوْذبَ بمكانه [١] حتى دخل مسلمة بن عَبْد الملك الكوفة ، فشكا إليه أَهْلُ الكوفة مكان شَوْذب وحذَّرُوه أَمْرَه ، فأرسل إليه مسلمة سعيد بن عمرو الْحرَشِيّ . فى عشرة آلاف ، فقال شَوْذَب لأصحابه : منْ كان منكم يريد الشهادة فقد جاءتْهُ ، ومنْ كان يريد الدنيا فقد ذهبت. فكسروا أغمادَ سيوفِهم وحملوا فكشفوا سعِيدًا وأصحابه مِرارًا حتى خاف سعِيد رحمه الله الفضيحة ، وكان فارسًا شجاعًا ، فوبخ[٢] أصحابَه ، وقَبَّح عليهم الفِرَار ، فحملوا فقتلوا بِسْطَاما ومَنْ معه مِنَ الخوارج.

ذكر الغزوات والفتوحات

فى خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان

ذكر غزوة الترك

وفى سنة [١٠٢ هـ] اثنتين ومائة كانت الحرْبُ بين المسلمين والترك عند قَصْر الباهلى .

وقيل : كان سبب ذلك أنَّ عظيما من عظماء الدَّهَاقين أراد أن يتزوَّجَ امرأةً من باهلة كانت فى ذلك القَصْر ، فأَبَتْ فاستجاش التُّرْك ، فجمعهم خَاقَان ووجَّهَهُم إلى الصُّغْد ، فساروا وعليهم كورصول حتى نزلوا بِقَصْر الباهلى ، ورجوا أن يَسْبُوا مَنْ فيه ، وكان فيه مائةُ أهلِ بيتٍ بِذَرَارِيهم ، وكان على سَمرْقَنْد يومذاك عثمان بن عبْد الله بن مُطَرِّف بن الشِّخِّير من قِبَل سَعِيدِ بن عبد العزيز عامل خُرَاسان ، فكتب أَهْلُ القصر إليه ، وخافوا أن يُبْطىء عنهم المَدَدُ ، فصالحوا الترك على أربعين ألفا وأعطَوْهم سبعة عشر رجلا رهينة ؛ وانتدب[٣] عثمان الناس ؛ فانتدب المسيب

(١) فى الكامل : وأقام الخوارج مكانهم .
(٢) فى الطبرى : فنمر . (٣) فى الكامل : وندب .

ابن بشر الرِّياحى ، وانتدب معه أربعةَ آلاف من جميع القبائل ، وعليهم شُعْبَةُ بن ظُهير ، وكان على سمرقند قَبْلَ عثمان ، فلما عَسْكَرُوا قال لهم المسيَّب : إنكم تُقْدِمون على حَلْبَةِ التُّرْك عليهم خاقان ، والعِوَض إنْ صبَرْتُم الجنةُ ، والعِقَابُ إن فَرَرْتُم النارُ ؛ فمن أراد الغَزْو والصبر فليُقْدِم .

فرجع عنه ألفٌ وثلاثمائة ، فلما سار فرسخًا [آخر] (١) ، فقال مثل ذلك ؛ فاعتزلَه ألفٌ ، ثم سار فرسخا آخر فقال مثل ذلك ، فاعتزله ألفٌ ، وبقى فى سبعمائة ؛ فسار حتى بَقِى على فَرْسَخَيْنِ من التُّرْكِ . فأتاه الخَبَرُ أن أهْل القَصْرِ قد صالحوا التُّرْكَ على أربعين ألفا ، وأعْطَوْهم سبعة عشر رجلا رهينة ، وأنه لما بلغهم مَسِيرُ المسلمين قتلوا الرهائنَ وأنهم اتَّعدُوا القتالَ غدا .

فبعث المَسَيَّبُ رجلَيْنِ إلى أهل القصر يُعْلمهم بقُرْبِه ، ويستمهلهم يوما وليلة ، فأتيَا القَصرَ فى ليلة مظلمة وقد أجرتِ (٢) التركُ الماءَ فى نواحى القصر ، فليس يَصلُ إليه أحَدٌ . فلما دنَوْا من القصر صاح بهم الرَّبيئة فاستنصتاه ، وقالا له : ادْعُ لنا عَبْدَ الملك بن دِثَار ، فَدَعَاه ، فأعلماه قُرْب المسيَّب ، [وأمراه بالصَّبْر غدا ، ورجعا إلى المُسَيَّب ،] (٣) فبايع أصحابَه على الموت ، فبايعوه ، وسار حتى بقى (٤) بينه وبين القَصْرِ نِصْفُ فرسخ ، فلما أمسى أمرَ أصحابَه بالصَّبْرِ ، وقال : ليكُنْ

(١) ليس فى د .
(٢) فى الكامل : أخذت .
(٣) ليس فى ك .
(٤) فى د . صار .

شِعَارُكم : يا محمد ، ولاتتبعوا مُوَلِّيًا ، وعليكم بالدوابّ فاعقروها فإنها إذا عُقرت كانت أشدَّ عليهم منكم ، وسار بهم ليلا فَوافَى عَسْكَرَ الترك وقْتَ السَّحر ، فخالطهم المسلمون ، وعَقَرُوا الدواب ، فانهزمت التركُ ، ونادى منادِى المسيّب : لا تتبعوهم ، فإنهم لا يَدْرون من الرُّعْب أتبعتوهم أم لا .

وأمر أصحابه أن يَقْصِدُوا القَصْرَ ويحْمِلُوا ما فيه من المالِ ومَنْ بالقصر ، ممن يَعْجِز عن المشى ، ففعلوا ، ورجع إلى سَمَرْقَنْد ، ورجع التُّرْكُ من الغَد ، فلم يروا بالقَصْر أحدًا ، ورأوا قَتْلَاهم ، فقالوا : لم يكن الذين أَتَوْنَا من الإنس . والله أعلم .

ذكر غزو الصغد

وفى سنة [١٠٢هـ] اثنتين ومائة أيضًا عبر سَعِيد النهر ، وغزا الصُّغْد ، وكانوا نقضوا العهْد ، وأعانوا التُّرْكَ على المسلمين ، فلَقِيه الترك وطائفة من الصُّغْد ، فهزمهم المسلمون وساروا حتى انتهوا إلى واد بينهم وبين المرْج ، فقطعه بعضُهم وقد أكمن[1] لهم التُّرْكُ ، فلما جازهم المسلمون خرجوا عليهم ، فانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى الوَادِى ، ثم جاء الأمير وبقيَّةُ الجيش فانهزم العدوّ .

وفيها غَزَا عُمر بن هُبيْرة الروم من ناحية أرمينية ، وهو على الجزيرة قَبْل أن يَلِي العراق ، فهزمهم ، وأسر منهم خَلْقًا كثيرًا . وقيل[2] سبعمائة أسير .

---

(١) فى ك : كمن .

(٢) فى الكامل : وقتل . وفى الطبرى : قيل .

وغزا عباس بن الوليد بن عبد الملك الروم ، فافتتح دلسة [١] ، وغزا أيضًا فى سنة ثلاث ومائة ، ففتح مدينة يقال لها رسلة [٢] .

ذكر الوقعة بين سعيد الحرشى [٣] أمير خراسان وبين الصُّغْد

وفى سنة [١٠٤هـ] أربع ومائة غزا سعيد الحرشِى ، فقطع النَّهْر وسار فنزل قصر الرِّيح على فَرْسخَيْنِ من الدَّبُوسِيَة [٤] ، وكان الصُّغْد لما بلغهم عَزْل سعِيد بن عبد العزيز عن خُراسَان واستعمال الحرَشى خافُوه على أنفسهم ، فأجمع عظماؤُهم على الخُروج من بلادهم ، فقال لهم ملِكُهم : أقيموا واحمِلُوا له خَراج ما مضى ، واضْمَنُوا له خراج ما يأْتى ، وعمارة الأَرض ، والغَزْو معه إنْ أراد ذلك ، واعتذرُوا مما كان منكم ، وأعطوه رهائن . قالوا : نخاف ألَّا يقبَل ذلك منا ، ولكنا نأْتى خُجنْدة [٥] فنَسْتَجير بملِكِهَا ، ونرسل إلى الأَمِير فنسأَله الصَّفْح عما كان منَّا. فوافقهم .

فخرجوا إلى خُجَنْدَة ، وأرسلوا إلى ملك فَرْغانة يسأَلونه أنْ يمْنَعهم ، ويُنزلهم مدينَتَه ، فأَراد أنْ يفعلَ فنهَتْه أُمه ، وقالت له : فَرِّغ لهم رُسْتاقًا يكونون فيه ؛ فأَرسل إليهم: سمُّوا رُسْتَاقًا تكونونَ فيه حتى نُفرغه لكم ، وأَجِّلُونى أربعين يومًا .

---

(١) هذا فى ك ، د .

(٢) والطبرى : ٦ — ٦١٩

(٣) بالحاء المهملة المفتوحة والشين المعجمة (اللباب) .

(٤) بليدة من أعمال الصغد مما وراء النهر (ياقوت) .

(٥) بضم أوله وفتح ثانيه ونون ثم دال مهملة : بلدة مشهورة مما وراء النهر على شاطىء سيحون (ياقوت) .

فاختاروا شِعْبَ عصام بن عبْد الله الباهلى ، فقال : نعم ، وليس علىّ عقد ولا جِوار حتى تدخلوه ، وإن أتتكم العربُ قبل دخُولِه لم أمنعكم . فرضوا ، وفرغ لهم الشِّعْب .

فلما انتهى الحَرَشى إلى قَصْر الرِّيح أتاه ابْنُ عم ملك فَرْغَانة فقال له : إنَّ أهل الصُّغْد بخُجَنْدَةَ ، وأخبره خَبرهم ، وقال : عاجِلْهُمْ قبل أن يصِلُوا إلى الشِّعْبِ ، فليس لهم علينا جِوَار حتى يمضِىَ الأَجَل .

فوجّه معه عبد الرحمن القُشَيْرِى أو زياد[1] بن عبدالرحمن فى جماعة ، ثم ندم[2] بعدما فصلوا ، وقال : جاءنى عِلْج لا أَعْلَمُ صَدَق أم كذب ؛ فغَرَّرْتُ بجُند من المسلمين .

فارتحل فى أثرهم حتى نزل أُشْرُو سنَة[3] ، فصالحهم بشىء يسير ، ثم سار مُسْرِعًا حتى لحق القُشَيْرى ، وسارُوا حتى انْتَهوا إلى خُجَنْدَة ، فنزل عليهم وأخذ فى التأَهُّبِ . وكان الذين بخُجَنْدة قد حَفَرُوا خَنْدَقًا فى ربضِهِم وراء الباب ، وغَطَّوه بقصَب وتُراب ، وأرادوا إذا التقوا إن انهزموا دخَلُوا مِنَ الطريق[4] ، ويُشكل على المسلمين فيسقطون فى الخَنْدَق . فلما خرجوا قاتلوهم فانهزموا وأخطئوا[5] هم الطريقَ فسقطوا فى الخَنْدَقِ ، فأُخرج منهم المسلمون أربعين رجلا ، وحصرهم الحَرَشِىّ ، ونصب عليهم المجانيق .

فأرسلوا إلى ملك فَرْغَانة : إنك قد غدرْتَ [بنا][6] ، وسألوه

(١) فى الكامل : وزياد . (٢) فى الطبرى : ثم ندم على ما فعل .

(٣) بالضم ثم السكون وضم الراء وواو ساكنة وسين مهملة مفتوحة ونون وهاء : بلدة كبيرة بما وراء النهر بين سيحون وسمرقند (ياقوت) .

(٤) فى الطبرى : إن انهزموا أن يكونوا عرفوا الطريق ....

(٥) فى الكامل : وأخطأهم . وفى الطبرى : وأخطئوهم .

(٦) من الكامل والطبرى .

أن ينصرهم ، فقال : قد أتَوْكم قبل انقضاء الأَجَل ، ولسْتُم فى جِوَارى ؛ فطلبوا الصُّلْح ، وسألوا الحَرشِىَّ أنْ يؤمنهم ويردَّهم إلى الصُّغْد ، فاشترط عليهم أن يردُّوا ما فى أيديهم من نساء العرب وذَرَاريهم ، وأن يؤدوا ما كَسَرُوا من الخَرَاج ، ولا يغتالوا أحدًا ، ولا يتخلَّف منهم بخُجَنْدة أحد ، فإن أحدثوا حَدَثًا حلَّت دماؤُهم .

فخرج إليهم الملوكُ والتجارُ من الصُّغْد ، ونزل عظماءُ الصُّغْد على الجُنْدِ الذين يعرفونهم ، ونزل كارَزَنْج على أيوب بن حسَّان [١] ، وبلغ الحَرشى أنهم قتلوا امرأةً ممن كان فى أيديهم ، فقال [لهم] [٢] : بلغنى أنَّ ثابتًاالإشْتِيخَنِى قَتَل امرأةً ؛ فجحدوا .فسأل حتى استصحَّ الخبر ، فأحضر ثابتًا وقتلَه ، فلما بلغ [٣] كارَزَنج ذلك خاف أن يُقْتل فأرسل إلى ابن أخيه ليأْتيه بسَرَاوِيل ، وكان قد قال لابْنِ أخيه : إذا طلبْتُ سراويل فاعلم أنه القَتْل .فبعث به إليه ، وخرج واعترض الناس فقتَل ناسًا ، وانتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت ، وقتل الصُّغْدُ مائةً وخمسين رجلا كانوا عندهم مِنْ أسرى المسلمين ، فأمر الحرَشىُّ بقَتْلِ الصُّغْد بعد عَزْل التجارِ عنهم ، فقاتلهم الصُّغْد بالخشَب ، ولم يكن لهم سلاحٌ ، فقُتِلوا عن آخرهم ، وكانوا ثلاثةَ آلاف ، وقيل سبعة آلاف ، واصطفى الحَرشِى أموالَ الصُّغْدِ وذَرارِيهم ، وأخذ من ذلك ما أعجبه ، وقَسَّم ما بقى ، وفتح المسلمون حِصْنا يُطِيف به وادِى الصُّغْدِ من ثلاث جهات صلحًا على ألَّا يتعرض لنسائهم وذراريهم ، ففعلوا .

---

(١) فى الطبرى والكامل : أيوب بن أبى حسان . والمثبت فى ك ، د .

(٢) من الطبرى .

(٣) فى الكامل : سمع .

وسار الحَرَشى إلى كَسّ[١] ، فصالحوه على عشرة آلاف رأس. وقيل : ستة آلاف رأس ، ووَلىَّ الحَرَشِى نَصر بن سيّار قبض صُلْح كَسّ[١] ، واستعمل سليمان بن أبى السرى على كس ، ونَسف - حَرْبَها وخَراجها . وكانت خُزَارُ[٢] منيعة ، فأرسل الحَرَشِىُّ إليها المُسرْبَلَ بنَ الخرِّيت النَّاجى ، وكان صديقا لملكها ، واسم ملكها سُبُغْرِى[٣] ، فأخبر الناجى الملكَ بما صنع الحَرَشِى بأهل خُجنْدَة ، وخَوّفه . قال : فما ترى؟ قال : أرى أنْ تنزل بأمَانٍ ، فصالحهم فأمنوه وبلاده ، ورجع الحَرشِى إلى مرْو ومعه سُبُغْرِى[٣] فقتله وصلبه ومعه أمَانه .

ذكر ظفر الخزر بالمسلمين

وفى سنة [١٠٤هـ] أربع ومائة دخل جَيْشُ المسلمين إلى بلادِ الخَزَر من أرمينية ، وعليهم ثُبَيت النَّهْرَانى[٤] ،فاجتمعت الخَزَر فى جَمْعٍ كثيف، وأعانهم قفجلق وغيرهم من التُّرْك، فلقوا المسلمين بمكانٍ يُعْرَفُ بمَرْج الحِجارة ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، فقُتِل من المسلمين خَلْقٌ كثير ، واحتوت الخَزَر على عسكرهم، وغنموا مافيه، وأقبل المنهزمون [إلى الشام][٥] ، فقدموا على يزيد ، فوبَّخَهُمْ على الهزيمة ، فقال ثَبيتٌ :يا أميرَ المؤمنين، ماجَبُنْتُ ولا نَكَّبْتُ عن لقاء العدو ، ولقد لصقت الخَيْل بالخيل والرجل بالرجل ، ولقد طاعنْتُ حتى انقصف رُمْحى ، وضاربْتُ حتى انقطع سَيْفِى ، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء .

(١) سبق أنها بالشين أيضاً .

(٢) موضع بقرب نسف ذكره ياقوت بضم أوله وآخره راء مهملة . وفى ك: خزائن .

(٣) فى الطبرى : سبقرى ، والضبط فى د .

(٤) والكامل : ٤ - ١٨٦

(٥) زيادة فى الكامل .

ذكر فتح بلنجر وغيرها (١)

قال : لما تمّت الهزيمةُ المذكورةُ على المسلمين طَمِع الخَزَر فى البلادِ . فجمعوا وحشدوا ، فاستعمل يَزيدُ بن عَبْد الملك الجرّاح بن عبْد الله الحَكَمِيّ على أرمينية ، وأمده بجيْش كثيفٍ ، وأمره بغَزْو الخَزَر وغيرهم من الأعداء وقَصْدِ بلادهم ، فسار الجرّاحُ وتسامعَتْ به الخزَرُ فعادوا حتى نزلوا بالبابِ والأبواب ، ووصل الجرّاحُ إلى بَرْدَعَة (٢) ، فأقام بها حتى استراح هو ومنْ مَعه ، وسار نحو الخَزَر فعبر (٣) نهرْ الكُرّ ، فبلغه أنّ بَعْضَ مَنْ معه كتب إلى ملك الخَزَر يُخبِره بمسير الجرّاح إليه ، فأمر الجرّاحُ منادِيًا فنادى فى الناس : إنّ الأمير مقيم ها هنا عدةَ أيام ، فاستكثرُوا من المِيْرَة .

فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخَزَر يُخبِره أن الجرّاح مقيم ، ويُشير عليه بتَرْك الحَركةِ لئلا يطمَعَ المسلمون فيه ، ثم أمر الجرّاح بالرحيل ليلا ، وسار مُجِدًّا حتى انتهى إلى مدينةِ الباب [والأبواب(٤)] ، فلم ير الخَزَر ، فدخل البلد ، وبثّ سراياهُ للنّهْب والغارة ، فغنموا وعادوا ، وسار الخزَرُ إليه ، وعليهم ابنُ ملكهم فالتقوا عند نهر الرّان(٥) ، واقتتلوا قتالا شديدًا ، فهزمهم المسلمون وتَبِعوهم يقتلون ويأسرون ، فقُتِلَ منهم خَلْق كثير ،

(١) بفتحتين وسكون وجيم مفتوحة ، وراء ، مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب (ياقوت) .

(٢) فى الكامل : برذعة . وفى ياقوت . بردعة ، وقد رواه أبو سعد بالدال المهملة والعين مهملة عند الجميع : بلد فى أقصى أذربيجان .

(٣) فى الكامل : فعبر بهم نهر الكر . (٤) من الكامل .

(٥) الران : مدينة بين مراغة وزنجان ، قال ياقوت . وفى المدينة نهر من شرب منه أمن الحصاة أبداً . ثم قال : وعندى أن الران وأران واحدة ، وهي ولاية واسعة من نواحي أرمينية .

وغنم المسلمون جميع ما معهم ، وساروا حتى نزلوا على حصْن يعرف بالحُصَين ، فنزل أهلُه بالأمان على مالٍ يحملونه ، فأجابهم ونقلهم عنه ، ثم سار إلى مدينة بُرْغَر[1] فأقام عليها ستةَ أيام ، وجَدّ فى قتالِ أهلها ، فسألوا الأمانَ فأمّنهم وتسلّم حِصْنَهُم ونَقَلَهم منه .

ثم سار إلى بَلَنْجر وهو حصْنٌ مشهور مِنْ حُصونهم ، فنازَله ، وقاتل عليه قتالاً شديدًا ،وملك الحِصْن عنوة ، وغنم المسلمون مافيه ، فأصاب الفارسَ ثلاثمائة دينار ، وكانوا بضعة وثلاثين ألفًا ، وأخذ الجراح أولاد صاحب بَلَنْجَر وأهله ، وأرسل إليه فأحضره وردّ إليه أموالَه وأهله وحصنه ، وجعله عَيْنًا للمسلمين ،ثم سار عن بلَنْجر فنزل على حصن الوبندر[2] ، وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك ، فصالحوا الجرّاح على مالٍ يؤدُّونه ، ثم تجمّع أهلُ تلك البلاد ، وأخذوا الطرق على المسلمين ، فكتب صاحب بَلَنْجَر إلى الجرّاح يُخْبِرُه بذلك ،فعاد مُجِدًّا حتى وصل إلى رُسْتَاق سِلَّى[3] ، وأدركهم الشتاء ، فا قام المسلمون به ، وكتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه وبجموع الكفارِ ، ويسألُهُ المدَد ، فوعده بانفاذِ العساكر ، فمات قبل ذلك ، فأقر هشام الجرّاح على عمله ، ووعده المدد .

هذا ما كان من الغزوات والفتوحات فى أيام يزيد بن عبد الملك ،

فلنذكر حوادث السنين فى أيامه .

---

(١) بالغين المعجمة المفتوحة والراء : على ساحل بحر متصل بخليج القسطنطينية (ياقوت) ، وفى د : برغو . وفى : الكامل : يرغو .

(٢) هذا فى د ، والكامل .

(٣) سلى — بكسر أوله وفتح اللام وتشديدها وقصر الألف . وعن محمد بن موسى : سلي — بالضم وفتح اللام : جبل بمناذر من أعمال الأهواز . (ياقوت) . وفى الكامل : ملي .

تتمة سنة (١٠١ هـ) احدى ومائة :

ذكر استيلاء يزيد بن المهلب بن أبى صفرة

على البصْرَةِ وخلعه يَزِيد بن عبد الملك

قد ذكرنا هرب يَزيد بن المهلب مِنْ حَبْس عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وأنه إنما هرب خَوْفًا من يزيدَ بنِ عبد الملك لمنافرةٍ كانت بينهما .

وقيل : كان السبب الذى أوْجب كراهة يزيد بن عبد الملك فى يزيد بن المهلب أن ابْنَ المهلب خرج يومًا من الحمّام فى أيام سليمان وقد تضمَّخَ بالغَالِية ، فاجتاز بيزيدَ بنِ عبدالملك وهو إلى جانب عُمَر ابن عبد العزيز ، فقال يزيدُ بْنُ عبْد الملك : قَبَّحَ الله الدنيا ! لودِدْتُ أنَّ مثقالَ الغاليةِ بألفِ دينار ، فلا ينالُه إلا كلّ شريف ، فقال ابْنُ المهلَّب : بل ودِدْت أنَّ الغالية فى جبهةِ الأسد فلا ينالها إلا لى . فقال له يزيدُ بن عبد الملك : والله لئن وليتُ يومًا لأقتلنَّك . فقال ابْنُ المهلب : والله لئن وليتَ هذا الأمر وأنا حىٌّ لاضربنَّ وَجْهَك بمائة ألْفِ سيف .

وقيل : كان السبب أنَّ يزيد بن المهلب كان قد عذَّب أصهار يَزيد بن عبد الملك ، وكان سليمانُ بن عبد الملك لما ولى الخلافة طلب آل عقيل فأخذهم وسلَّمهم إلى ابن المهلب ليخلِّص الأموالَ منهم ، فبعث ابن المهلب إلى البلْقَاء من أعمال دمشق وبها خزائِنُ الحجاج ابن يوسف وعياله ، فنقلهم وما معهم إليه ، وكان فيمن أتى به أمُّ الحجاج زوجةُ يزيد بن عبد الملك .

وقيل : بل أختٌ لها ـ فعذَّبها ، فأتى يزيدُ بن عبد الملك إلى ابْنِ المهلب فى منزله ، فشفع فيها ، فلم يشفّعه ، فقال : الذى قرَّرْتُم عليها أنا أحمله ،

فلم يقبل منه ، فقال لابْنِ المهلب : أما واللهِ لئن ولِّيْتُ من الأمر شيئًا لأقطعنَّ منك عُضوًا. فقال ابْنُ المهلَّب : وأنا واللهِ لئن كان ذلك لأرمينَّك بمائة ألف سيف .

فحمل يزيد بن عبد الملك المال [1] عنها ، وكان مائة ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك . والله أعلم .

قال : فلما ولى يزيد بن عبد الملك كتب إلى عَبْد الحميد بن عبد الرحمن ، وإلى عدى بن أرْطَاة ، يُعَرِّفهُما هرب يزيد ، ويأمرهما بالتحرز منه ، وأمر عديا أنْ يأخذ مَنْ بالبصرة مِنْ آل المهلَّب ويحبسهم ، فقبض عليهم وفيهم المفضَّل وحبيب ومرْوان بنو المهلب ، وأقبل يزيدُ بن المهلب نَحوَ البصرة ، وقد جمع عدىُّ بن أرطاة الجموعَ ، وخَنْدَقَ على البصرة ، وندب الناس ، وجاء يزيد فى أصحابه [2] والذين معه ، فالتقاه [3] أخوه محمد بن المهلب فيمن اجتمع إليه مِنْ أهله وقومه ومواليه ، فمرّ بجموع عدِىّ ، فجعل لايمرُّ بخَيلٍ من خَيْل عدِىّ إلاتنَحَّوْا عن طريقه ، وأقبل حتى نزل دارَه ، واختلف الناسُ إليه ، فبعث إلى عَدِىّ أن ابعث إلىَّ إخوتى وأنا أصالِحُكَ على البصرة وأخلِّيك وإياها حتى آخذَ لنفسى مِنْ يزيد ما أحب. فلم يقبل منه ، وأخذ يزيد بن المهلب يُعْطِى من أتاه قِطَع الذهب والفضَّةِ ، فمال الناسُ إليه ؛ وكان عدىّ لايُعْطِى إلَّا درهمين درهمين ، ويقول : لا يحلُّ أنْ أعطيكم مِن بَيْتِ المال درهما إلا بأمْرِ يزيد بن عبد الملك ، ولكن تَبلَّغوا بهذه حتى يأتى الأمر ، فقال الفرزدق [4] :

---

(١) فى الكامل : ما كان عليها .

(٢) فى د ، والكامل : فى أصحابه الذين معه .

(٣) هذا فى د ، ك .

(٤) والطبرى : ٦ — ٥٨١ ، وديوانه : ١٥٦

أَظُنُّ رِجالَ الدِّرهَمين تقودُهم[١] إلى الموت آجالٌ لهم ومصارِعُ
وأكيسهم مَنْ قَرَّ فى قَعْر بيته[٢] وأيقَنَ أنَّ الموتَ لابُدَّ واقِـعُ

وخرج يزيد حين اجتمع الناسُ له حتى نزل جَبّانةَ بنى يشكُر وهو المَنْصف[٣] فيما بينه وبين القصر ، فلقيه قَيْس وتميم وأهْلُ الشام ، فاقتتلوا هُنَيْهَة وانهزموا ، فتبعهم يزيدُ وأصحابُه حتى دنا ن القصر ، وخرج إليهم عدىٌّ بنفسه فقُتل من أصحابه وانهزم هو[٤] ، وقصد قَتْل آل المهلب الذين فى حَبْسه ، فأغلقوا البابَ ومنعوا عن أنفسهم حتى أدركهم يزيد ، ونزل فى دار سالم[٥] ابن زياد بن أبيه ، وهى إلى جنب القصر ، ونصب السلالم ، وفتح القَصْر ، وأتى بِعَدِى بن أرْطَاة فحبسه ، وقال : لولا حَبْسك إخوتى لما حبسْتُك ، وأخرج إخوته وهرب بوجوهِ أهل البصرة ، فلحقوا بالكوفة ، وكان يزيد قد بعث حُميد بن عبد الملك بن المهلب إلى يزيد ابن عبْد الملك فى طلب الأمانِ ، فعاد بما طلب ومعه خالد القَسْرى وعمرو ابن يزيد الحَكَمِى ، فوجد المغيرةَ بْنَ زياد وقد فَرّ من يزيد ابن المهلب ، فأخبرهم الخبر ، فعادوا إلى يزيد بن عَبْد الملك ومعهم حُميد ، وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى أهْلِ الكوفة يُثْنِى عليهم ويعِدُهم

(١) فى الطبرى : يسوقهم .
(٢) فى الطبرى : فأحزمهم من كان .
(٣) فى الكامل : النصف .
(٤) فى الكامل : وانهزم أصحاب عدى .
(٥) فى الكامل : سليمان . والمثبت فى الطبرى أيضاً

الزيادَة ، وأرسل[١] أخاه مسلمة وابن أخيه العباسَ بن الوليد ، فى سبْعين ألف مقاتل مِنْ أهل الشام والجزيرة .

وقيل : كانوا ثمانين ألفا ، فساروا إلى العِراق حتى بلغوا الكوفةَ فنزلوا بالنُّخَيْلة [٢] ، واستوثق أمْرُ البصْرَةِ لابْن المهلَّب ، وبعث عُمَّاله على الأهواز وفارس وكَرْمَان ، ثم سار يزيدُ من البصْرَة ، واستعمل عليها أخاه مَرْوان ، وأتى واسِطا ، وأقام عليها أياما يسيرةً إلى أن دخلت سنة [١٠٢هـ] اثنتين ومائة ، فسار عنها .

واستخلف عليها ابْنَه معاوية ، ونزَلَ [٣] عنده بَيْتَ المال ، وقدم أخاه عبد الملك نحو الكوفة ، فاستقبله العباسُ بن الوليد واقتتلوا ، فظفر عبْدُ الملك أوّلا ، ثم كانت الهزيمة عليه ، فعاد بمن معه إلى أخيه ، وأقبل مسلمة يَسِيرُ على شاطىء الفُرَات إلى الأنبار ، وعقد عليها جِسْرًا فعبر وسار حتى نزل على ابنْ المهلَّب ، والتحق بابن المهلَّب [٤] ناسٌ كثيرٌ مِنَ الكوفة والثغور ، وأحصى ديوانه مائة ألف وعشرين ألفًا ، فقال : لَوَدِدْت أنَّ لى بهم منْ بخراسان من قومى .

ثم قام فى أصحابِه وحَرَّضهم على القِتَالِ ، وكان اجتماع ابْنِ المهلب ومسلمة ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة لأرْبع عشرة ليلة مضَتْ من صفر سنة [١٠٢هـ] اثنتين ومائة خرج مسلمةُ فى جُنُودِهِ حتى قَرُب من ابْنِ المهلَّب ، والْتَقَوْا واقتتَلُوا ؛ فانهزَم أصحابُ ابْنِ المهلبِ ،

(١) فى د . وجهز .
(٢) موضع قرب الكوفة على سمت الشام (ياقوت) .
(٣) فى الكامل : وجعل .
(٤) فى الكامل : وأتى إلى ابن المهلب .

فترجَّل وبقى فى جماعةٍ من أصحابه وقد استَقْتَل وهو يتقدَّمُ ؛ فكلَّما مَرَّ بخَيْل كشفها أو جماعةٍ من أهل الشام عَدَلُوا عنه ؛ وأقبل نحومسلمة لايُريدُ غيره ، فلما دَنَا منه أَدْنَى فَرَسه ليرْكَب ، فعطف عليه أَهْلُ الشام ، فقتل يزيد والسَّميْدع[1] ومحمّد بن المهلَّب ، وكانرجُلٌ من كَلْب يقال له القَحْل[2] بن عَيَّاش لما نَظَر إلى يزيد قال : هذاوالله يزيدُ ، والله لأَقتلنَّه أو ليقتلنى ، فمَنْ يحمل معى يكفينى أصحابَه حتى أَصِلَ إليه ، فحمل معه ناسٌ ، فاقتتلوا ساعةً ،وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلا وعن القَحْل[2] بآخرِ رَمَقٍ ، فأَومأَ إلى أصحابه يُريهم مكانَ يزيد وأنه هوالذى قَتَلَه ، وأنَّ يزيد قتله،وأتى مَوْلى لبنى مرّة بَرَأْس يزيد إلى مسلمة ، فقيل له :أَنْتَ قتلْتَه ؟ قال : لا ، فبعث مسلمة بالرأس إلى يَزِيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد ابن عُقْبة بن أبى مُعَيط .

وقيل : بل قتله الهذيل بن زُفر بن الحارث الكلابى ، ولم ينزل لأَخْذِ رأسه أَنَفَةً .

قال : ولما قُتِل يزيد كان المفضّل بن المهلَّب يقاتِلُ أَهْلَ الشام وهو لا يَدْرِى بقَتْلِ أخيه ولا بهزيمة الناس ،فأتاه آتٍ وقال له : ما تصنع وقد قُتل يزيد وحبيب ومحمد ، وانهزم الناسُ منذ طويل ؟ فتفرَّق الناسُ عنه ، ومضى المفضَّل إلى واسط .

وقيل : بل أتاه أخوه عَبْدُ الملك ، وكرِهَ أن يُخْبِرَه بقَتْلِ يَزِيد

---

(١) السميدع الكندى : من بنى مالكٍ من ربيعة (الطبرى) . وفى القاموس بالذال المعجمة ، وقد ضبطه بالحروف .

(٢) بالفاء فى القاموس وفتوح البلدان . وفى الأصول ، والإكمال بالقاف :

فيستقتل ، فقال له : إنَّ الأَمِيرَ قد انحدر إلى واسط ، فانْحدَرَ المفضَّلُ بمَنْ بقى مِنْ وَلَدِ المهلب إليها ، فلما علم بقَتْل يزيد حَلف أنَّه لايُكَلِّم عبْدَ الملك أبدًا ، فما كلَّمَه حتى قتل بقَنْدَابِيل[1] .

قال : ولما أتت هزيمةُ ابْنُ المهلَّب إلى واسط أخرج ابْنُه معاوية اثنين وثلاثين إنسانا[2] كانوا عنده ، فضرب أعناقَهم ، منهم عدىّ ابن أَرْطَاة ، وابنُه محمد ، ومالك ، وعبد الملك ابنا مِسْمَع وغيرهمْ ، ثم أقبل حتى أتى البَصْرَةَ بالمال والخزائن ، وجاء المفضّل بن المهلب واجتمع إلى المهلَّب بالبصرة ، وأعدّوا السفن وتجهَّزُوا للركوب . فى البحر إلى جبال كِرْمَان ، وحملوا عِيالهم[3] وأموالَهم فى السفن البَحرِيَّةِ ، ولجَّجوا حتى أتوا جِبالِ كَرْمان ، فخرجو مِنْ سفُنِهِمْ ، وحملوا ما معهم على الدوابّ .

وكان المقدّم عليهم المفضّل ، وكان بكَرْمَانِ فلولٌ كثيرة ، فاجتمعوا إلى المفضل ، وبعث مسلمة مُدْرك بن ضَب الكَلْبِى فى طلبهم وفى أثر الفلّ ، فأَدْرَكَ المفضَّل ومن اجتمع إليه ، فقاتلوه قتالاً شديدًا ، فقُتل من أصحاب المفضل جماعةٌ ، وطلب بعْضُ مَنْ معه الأَمَانَ ، ومضى آلُ المهلب إلى قَنْدابِيل ، وبعث مسلمة إلى مدرك بن ضَب ، فردَّهُ ؛ وسيَّر فى أثرهم هلال بن أَحْوَز التميمى فلحقهم بقَنْدَابِيل ، فأَراد آلُ المهلب دخولَها فمنعهم أَمِيرُها وادعُ بنُ حُميد ، وكان يزيد بن المهلب قد استعمله عليها ، وأخذ عليه العُهودَ والمواثيق أنه إنْ قتل فى حرْبه يلجأُ أَهْله إليها ويتحصَّنُوا بها حتى يأْخذوا أمانَ يزيد بن عبد الملك .

(١) بالفتح ثم السكون والدال مهملة وبعد الالف موحدة مكسورة ثم ياء بنقطتين من تحتها ولام : مدينة بالسند (ياقوت) .

(٢) فى الكامل : أسيرا ، (٣) فى الكامل : عيالاتهم .

وقال له : قد اخترْتُك لهم من بَيْن قومى فكُنْ عند حُسْن ظَنِّى ؛ وعاهده ليُنَاصِحَنَّ أَهْل بيته إنْ هم لجَئُوا إليه .

فلما أتوه [١] منعهم من الدخول ، وكتب إلى هلال بن أَحْوز ، فلما التقوا نَصب هلالٌ رايةَ أمان ، فتفرَّقَ الناسُ عن آل المهلب ، وتقدموا هم بأَسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم ، وهم المفضل ، وعبد الملك ، وزياد ، ومرْوَان بنو المهلب ، ومعاوية بن يزيد بن المهلب . والمِنْهال بن أَبى عُيَيْنَة بن المهلب ، وعمرو والمغيرة ابنا قَبِيصة ابن المهلَّب ، وحملت رءُوسهم ؛ وفى أُذُنِ كلِّ واحد رُقْعَةٌ فيها اسمه ؛ ولحق منهم بِرُ تبيل أبو عُيَيْنة بن المهلب ، وعمرو [٢] بن يزيد ، وعثمان بن المفضل ؛ وبعث هلال بالرءوس والنساء الأَسرى من آل المهلَّب إلى مسلمة بن عَبْد الملك وهو بالحيرة ، فبعثهم إلى يزيد ابن عبد الملك ، فبعثهم [٣] يزيدُ إلى العباس بن الوليد وهو على حَلَب ، فنصب الرءوس ، وأراد مسلمةُ أن يبيع الذريةَ ، فاشتراهم منه الجرّاح بن عبْد الله الحكَمى بمائة ألف ، وخلى سبيلَهم ؛ ولم يأْخذ مسلمة بن الجرّاح شيئًا ، وكانت الأَسرى من آل المهلَّب ثلاثة عشر رجلا ، فلما جىء بهم إلى يزيد بن عبد الملك كان [٤] عنده كثير عزّة فقال [٥] :

---

(١) فى ك : أتوا .
(٢) فى الكامل : وعمر .
(٣) فى الكامل ، فسيرهم .
(٤) فى الكامل : وكان .
(٥) الكامل : ٤ — ١٧٥

حليم إذا ما نال عاقب مُجْمِلا أشدّ العقاب أو عَفَا لم يُثَرّب
فعفوًا أميرَ المؤمنين وحسْبةً فما تأْتِه مِنْ صالِحٍ لك يُكتب
أساءوا فإنْ تصفَحْ فإنكَ قادر وأفْضَلُ حلْمٍ حِسْبَةً حِلْمُ مُغْضَب

فقال يزيد : هيهات يا أبا صخر ؛ أطَّتْ[1] بك الرَّحِم ، لا سَبيل إلى ذلك ، إن الله أقاد منهم بأعمالهم الخبيثة ، ثم أمر بهم فقُتِلُوا ، وبقِى غلام صغير . فقال : اقتلونى ، فما أنا بصغير . فقال : انظروا ، أنَبت ؟ فقال : أنا أعلمُ بنفسى ، قد احتلمت ووطئت النساء ، فأمر به فقُتِل .

والذين قُتلوا من آلِ المهلَّب بين يدى يزيد بن عبد الملك المُعارِك وعبد الله ، والمُغيرة ، والمفضل ، ومِنْجاب أولاد يزيد بن المهلب ودُوَيّة[2] والحجاج ، وغَسّان ، وشبيب ، والفَضْل أولاد المفضل بن المهلَّب ، والمفضل ابن قَبيصة بن المهلب .

قال : وأما أبو عُيينة بن المهلَّب فأرسلت هِنْد بنت المهلب إلى يزيد ابن عبد الملك فى أمانِه فأمَّنَه ، وبقى عمرو[3] وعثمان حتى ولى أسد ابن عَبْد الله القَسْرِى خُرَاسَان ، فكتب إليهما بأمانهما فَقَدِما خُراسان .

* * *

وحجَّ بالناس فى هذه السنة عبد الرحمن بن الضحاك بن قَيْس ، وهو عاملُ المدينة ، وكان على مكةَ عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ابن أَسِيد ، وعلى الكوفة عبد الحميد ، وعلى قضائها الشَّعْبِى ، وعلى خراسان عبد الرحمن بن نعيم .

(١) فى الكامل : طف . وأطت به رحمى : رقت .
(٢) هذا فى ك . والضبط فى د . وفى الكامل : ودريد .
(٣) فى الكامل : عمر .

سنة اثنتين ومائة :

ذكر ولاية مسلمة بن عبد الملك العراق وخراسان

وعَزله وولاية عُمر بن هُبَيْرَة

قال : ولما فرغ مسلمةُ بن عبد الملك من حَرْبِ ابن المهلَّب جمع له أخوه يزيدُ ولايةَ الكوفةِ والبصْرَة وخراسان ، فأقر محمد بن عمرو ابن الوليد على الكوفة ، وبعث إلى البصْرةِ عبد الرحمن بن سليم[1] الكلبي ، وعلى شرطتها عمْرو بن يزيد التميمى ، فأراد عبْدُ الرحمن أن يستعرضَ أهْل البصرة ويقتلهم ، فنهاه عمْرو واستمهله عشرة أيام ، وكتب إلى مسلمة بالخبر فعزَلَه ، واستعمل على البَصْرةِ عبْد الملك بن بِشْر بن مَرْوَان ، واستعمل على خُرَاسان سَعِيد بن عَبْدالعزيز ابن الحارث بن الحكَم بن أبي العاص بن أُمية ، وهو الذى يُقال له سعيد خُدَيْنَة[2] ، وإنما لُقِّبَ بذلك لأنه كان رجلا ليِّنًا متنعِّما ، فدخل عليه بعْضُ ملوكِ العجم وسعِيد فى ثياب مصبغَة وحوله مَرافق مُصبغة ، فلما خرج مِنْ عنده قالوا له : كيف رأيْتَ الأمير . قال : خُدَيْنَة[2] . فلقِّب خُدَيْنَة[2] ، وهى الدِّهْقَانَة رَبَّة البيت .

وكان سعيد زوُج[3] ابنة مسلمة ، فلذلك استعمله ، فغزَا سعيد الصُّغْد كما تقدم .

قال : ولما ولى مسلمة العراق وخُراسانَ لم يرفع من الخَرَاج شيئا ، فأراد يَزِيدُ عَزْلَه فاستحيي من ذلك ، فكتب إليه أن استَخلِفْ على عمَلِكِ ، وأقْبِلْ . فلما قدم لقيه عُمر بن هُبَيْرة الفَزَارى بالطريق

(١) فى الكامل : سليمان . والمثبت فى الطبرى أيضاً .
(٢) هذا فى ك ، د . وفى الطبرى والكامل : خذينة - بالذال المعجمة .
(٣) فى الكامل : تزوج .

على دَوابّ البريد ، فسأله عن مَقْدمه ، فقال : وَجَّهنى أميرُ المؤمنين فى جِبازة أموالِ بنى المهلَّب . ولم يكن الأمْرُ كذلك ، وإنما كان يزيد قد استعمله ، فلم يلبث حتى أتاه عزْلُ ابْنِ هُبَيْرة عُمَّالَه والغِلْظة عليهم ، وكان ابْنُ هبيرة قبل ذلك يلِى الجزيرة .

ذكر البيعة لهشام بن عبد الملك

والوليد بن يزيد بولاية العهد

وفى هذه السنةِ أراد يزيدُ أن يأخذ البَيْعةَ لابْنِهِ الوليد ، فقال [له] (١) مسلمة بن عبْدِ الملك : إنَّ ابْنَكَ لم يبلغ الحُلم ، وأشار عليه بالبيْعَة لهشام ، ففعل ، وبايع لهشامٍ بولايةِ العَهْدِ ، ثم مِنْ بعده لابنه الوليد بن يزيد ، وعُمْرُه يومئذ إحدى عشرة سنة . ثم عاش يزيدُ حتى بلغ ابْنُه الوليدُ الحُلُمَ ، فكان يزيد إذا رآه يقول : الله بينى وبين منْ جعل هشامًا بينى وبينك .

ذكر مقتل يزيد بن أبى مسلم

كان يزِيدُ بنُ عبْدِ الملك قد استعمل يزيدَ بن أبى مُسلم على إفريقية فى سنة [١٠١هـ] إحدى ومائة ، فقُتِل فى هذه السنة .

وكان سبب قتله أنه أراد أنْ يسير فى أهل إفريقية بِسيرة الحجاج فى أهلِ الإسلام الذين سَكَنُوا الأمصار ممن [كان] (٢) أصله من السَّواد مِنْ أهل الذِّمة ، فإنه ردهم إلى قُرَاهم ، ووضع عليهم الجِزْيَة على ما كانوا (٣) عليه قبل الإسلام . فلما عزم يَزِيدُ بن مُسلم على ذلك

---

(١) ليس فى ك . (٢) زيادة من الطبرى والكامل .

(٣) فى الطبرى : ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم .

اجتمع رأىُ أهل إفريقية على قَتْلِهِ ، فقتلوه وولَّوا عليهم الوالى الذى كان قَبْله ، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار ، وكتبوا إلى يزيد ابن عبد الملك : إنا لم نخلع أيدينا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبى مسلم سامَنَا مالَا يرْضَاه اللهُ والمسلمون ، فقتلناه ، وأعَدْنَا عاملَك .

فكتب إليهم : إنه لم يرْضَ بما صنع. وأقرَّ محمد بن يزيد على عملِهِ .

وحجَّ بالناس فى هذه السنة عبْد الرحمن بن الضحاك ، وهو عاملُ المدينة .

سنة (١٠٣ هـ) ثلاث ومائة :

ذكر استعمال سعيد الحرشى على خراسان

وعزْل سعيد خُدَيْنَة[1] عنها

فى هذه السنة عزل عُمَر بن هُبَيْرة سَعِيد خُدَيْنَةَ[1] عن خراسان بشكوى المُجشِّر بْنِ مُزَاحم السلمى ، وعبد الله بن عُمير الليثى ، واستعمل سَعِيد بن عمرو الحَرشى ، من بنى الحَرِيش بن كَعْب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة ، وكان خُدَيْنَة[1] بباب سَمرْقَند ، فبلغه عزْله فرجع وقدم الحَرَشِى خُراسان فلم يعرض لعمال خُدَيْنَةَ[1] . وقرأ رجُلٌ عهْدَه فلحن فيه ، فقال : صَه ؛ مهما سمعتم فهو من الكاتب ، والأَمِيرُ منه بَرىء .

وخطب النَّاس وحثَّهم على الجهاد ، وقال : إنكم لا تقاتلون بكثرة [ولابعُدَّة][2] ، ولكن بنَصْرِ اللهِ وعِزِّ الإسلام ، فقولوا : لا حوْلَ ولا قوَّةَ إلا بالله .

---

(١) فى الكا مل والطبرى : خذينة .

(٢) من الطبرى والكا مل .

وقال[١] :

فلست لعامرٍ إن لم تَـــروْنى أمام الخيل أطْعنُ[٢] بالعوَالى
وأضرب[٣] هامَةَ الجبَّار منهُمْ بِعضْب الحدِّ حُودِثَ بالصَّقَالِ[٤]
فما أنا فى الحروبِ بمسْتَكِينٍ ولا أخْشَى مُصاولَة الرِّجـــالِ
أبى لى والدِى مِن كُلِّ ذَمّ وخَالِى فى الحوادث غيْرُ خالى

فهابه الصُّغد ، وكان من قتاله إياهم وقَتْلهم ما ذكرناه .

ولما ظفر بهم كتب إلى يزيد بن عبدالملك ولم يكتب إلى ابْن هُبيْرة فوجد عليه .

وفيها جُمِعت مكة والمدينة لعبْد الرحمن بن الضحاك ، وولى عبْدالواحد ابن عبد الله النَّضْرى الطائف .

سنة (١٠٤ هـ) اربع ومائة :

ذكر عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن مكة والمدينة

وولاية عَبدالواحد

وفى هذه السنة عزَل يزيدُ بْنُ عبد الملك عَبْدَ الرحمن بن الضحَّاك عن مَكَّة والمدينةَ .

وسبب ذلك أن عبْدَ الرحمن خطب فاطمة بنت الحُسَيْن بن علىّ رضى الله عنهما ، فقالت : ما أُرِيدُ النكاح ، ولقد قعدْتُ على بنِىّ هؤلاء ، فألَحّ عليها ، وقال : لئن لم تَفْعَلِى لأَجْلِدَن أكْبَر بنيك فى

(١) الكامل : ٤ — ١٨٣ ، والطبرى : ٦ — ٦٢١
(٢) فى ك : يطعن . وفى الكا مل : نطعن . والمثبت فى الطبرى أيضاً .
(٣) فى الطبرى : فأضرب .
(٤) فى ك : بانصقال . والمثبت فى الكامل والطبرى .

الخمر ، يعنى عَبْد الله بن الحسن بن الحسَن بن على ، وكان على الديوان بالمدينة ابْنُ هرمز رجل من [أهل] (١) الشام ، وقد رفع حسابه ، وهو يريد أنْ يسير إلى يزيد ، فدخل على فاطمة يودّعها ، فقالت : تُخْبِرُ أميرَ المؤمنين بما ألْقَى من الضحاك .

وبعثَتْ رسولابكتابٍ إلى يزيد يُخْبره بذلك. فقدم ابن هُرمز [على يزيد] (١) ، فاستخبره عن المدينة ، وقال : هل من مُغَرِّبَةٍ خَبر؟ فلم يذكر شَأْنَ فاطمة ، فقال الحاجب ليزيد : بالباب رسول من فاطمة بنت الحُسَين . فقال ابن هُرْمُز :إنها حملَتْنى رسالةً ؛ وأخبره الخبر ، فنزل عن فِراشِه ، وقال : لا أُمَّ لك ! عندك هذا وما تخبر نيه ! فاعتذر بالنِّسيانِ ، فأَذِنَ(٢) لرسولها ، فأُدخل ، وقرأ كتابَها ، وجعل يضرب بخَيْزُرَان فى يده ، ويقول : لقد اجترأ ابْنُ الضحّاك، هل مِنْ رجل يُسْمِعُنى صَوْته فى العذاب ؟ قيل له : عبد الواحد بن عبْد الله النَّضْرِى . فكتب إليه بِيدِهِ :

قد ولَّيتُك المدينةَ، فاهبط إليها، واعزل عنها ابْنَ الضحاك،وأغرمه أربعين ألف دينار ، وعَذِّبْه حتى أَسْمعَ صوْتَه ، وأنا على فِراشى .

وسار البرِيدُ بالكتابِ ، ولم يدخل على ابْن الضحاك ، فأَحسَّ وأحضر البريد ، وأعطاه ألف دينار ليُخْبِره الخبر ،فأخبره ،فسار ابْنُ الضحاك مُجِدًّا فنزل على مسلمة بن عبْد الملك ، فاسْتَجَاربه ، فحضر مسلمة عند يزيد ، فطلب إليه حاجةً جاء لها ، فقال : كلُّ

(١) من الكامل والطبرى .
(٢) فى د : وأذن .

حاجة هى لك إلا ابْنَ الضحاك . فقال : هى والله ابنُ الضحَّاك . فقال : والله لا أُعْفِيه أبدًا .

ورده إلى عبد الواحد بالمدينة فعذَّبهُ ، ولبس جُبَّةَ صوف ، فسأل الناس .

وكان قدوم النضْرى فى شوال سنة [١٠٤هـ] أربع ومائة ، فأَحْسن السيرةَ فى الناس ، وكان ابْنُ الضحاك قد آذى [١] الأَنصار طُرًّا ، فأَعفاهم اللهُ منه .

وفيها عزل عُمر بنُ هُبَيرة سعِيدا الحرشى عن خُراسان وولاَّها مسلم بن سعِيد بن أَسلم بن زُرْعة الكِلاَبى ، وسببُ ذلك أن الحَرشى كان يستخفُّ بابْنِ هُبَيْرةَ فعزَله وعذَّبه حتى أدَّى الأَموال .

وحج بالناس فى هذه السنة عبْدُ الواحد النَّضْرى .

سنة (١٠٥ هـ) خمس ومائة :

ذكر أخبار الخوارج فى أيام يزيد بن عبد الملك

وهؤلاء الخوارج الذين نذكرهم ذكرهم ابْنُ الأَثير [٢] فى حوادث هذه السنة ، ولم يذكر أنهم خرجوا فيها ، فقال [٢] :

وفى أيام يزيد خَرج حرُورِى اسمه عُقْفَان فى ثلاثين رجُلاً ، فأَراد يَزيد أن يرسل إليه جُنْدًا يقاتلُونه ، فقيل له : إن قُتِل بهذه البلاد اتخذها الخوارجُ دار هِجْرةٍ ، والرأىُ أنْ تبعثَ إلى كلِّ رجل من أَصحابه رَجُلاً من قومِه يكلِّمه ويردُّه . ففعل ذلك ، فرجعوا وبقى

(١) فى الطبرى : قد عادى الأنصار .

(٢) صفحة ١٨٩ جزء رابع .

عُقْفان وحْده ، فبعث إليه يزيد أخاه فاستعطفه وردّه[١] .

فلما ولى هشام بن عَبْد الملك ولّاه أَمْر العُصَاة ، فقدم ابْنُه من خراسان عاصِيًا ، فشدّه وثاقًا ، وبعث به إلى هشام ، فأطلقه لأبيه ، وقال : لو خانَنَا عُقْفان لكتم أَمْر ابنه ، واستعمل عُقْفَان على الصدقَة فبقى إلى أن تُوفِّى هشام .

وخرج مسعود بن أبى زينب[٢] العبْدى بالبَحْرَيْن على الأَشعث ابن عَبْد الله بن الجَارُود ، ففارق الأَشعث البَحْرَيْن ، وسار مسعود إلى اليمامة وعليها سُفيان بن عمْرو العُقَيلى من قِبَل ابْنِ هُبَيرة ، فخرج إليه سفيان فاقتَتَلُوا بالخِضْرِمَةِ[٣] قِتَالاً شديدًا ، فقتل مسعود ، وقام بأَمْرِ الخوارج بعده هلال بن مُدْلج ، فقاتلهم يومه كلّه ، فلما أمسى تفرّقَ عنه أصحابُه ، وبقى فى نَفَرٍ يسير ، فدخل قَصْرًا فتحصَّنَ به ، فنصبوا عليه السلاليم ، وصعدوا إليه فقتلوه .

وقيل : إن[٤] مسعودًا غلب على البَحْرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سُفْيان بن عمرو . [والله أعلم][٤] .

وخرج مصعب بن محمد الوالبى ، وكان من رؤساء الخوارج ، فطلبه عُمر بن هُبيرة ، وطلب معه مالك بن الصَّعْب وجابر بن سَعْد ، فخرجوا واجتمعوا بالخَوَرْنَق ، وأَمَّرُوا عليهم مصعبًا ، فاستمر

(١) فى الطبرى : فرده .

(٢) فى ك : بن أبى زيد . والمثبت فى د ، والكامل .

(٣) الخضرمة — بكسر الخاء، وسكون الضاد المعجمة وكسر الراء (الكامل: ٤ — ٦٩٠) . وفى ك : بالحضرمية .

(٤) فى ك : إن ابن مسعود — تحريف .

(٥) زيادة فى د .

إلى أن ولى خالد القَسْرِى العراقَ فى أيام هشام ، فبعث إليهم جيشًا ، وكانوا قد صاروا بحَزَّة[١] من أعمال الموصل ، فالتقوا واقْتتلوا ، فقُتل الخوارج .

وقيل : كان قَتْلهم فى أيام يزيد. والله أعلم .

ذكر وفاة يزيد بن عبد الملك

وشىء من أخباره

كانت وفاته بحَوران[٢] لخمسٍ بقين من شعبان سنة [١٠٥] خمس ومائة ، وله أربعون سنة .

وقيل خمس وثلاثون . وقيل : غير ذلك . .

وكانت خلافته أرْبع سنين وشهرًا . وكان جميلاً أبْيض جسيما مدوَّر الوجْه شديد الكِبرِ عاجزَ الرأى ، وكان صاحِب لهو ، وهو أول من اتخذ القِيَان من بنى أمية ، وكان يهْوى جاريتَيْن ، وهما حبابة وسلاَّمة ، وهى سلاَّمة القَس، وقال يومًا وقد طرب : دعونى أطير . فقالت حبابة : على[٣] مَنْ تَدع الأُمّة ؟ فقال : عليك . وغَنَّتْ يوما[٤] :

بين التَّراقِى واللَّهاةِ حـــرارة ماتطمئنُّ وما تَسُـوغُ فَتَبْرُدُ

فأَهْوَى ليطير ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنَّ لنا فيك حاجة .

---

(١) حزة : موضع بين نصيبين ورأس عين على الخابور وبليدة قرب إربل من أرض الموصل (ياقوت) .

(٢) حوران – بالفتح : كورة واسعة من أعمال دمشق ؛ وفى الطبرى. كانت وفاته ببلقاء من أرض دمشق .

(٣) فى الطبرى : إلى من تدع . . . (٤) الطبرى : ٧ – ٢٣

فقال : والله لأطيرنَّ . فقالت : فَعَلَى منْ تخلِّف الأُمَّة والمُلْك ؟ فقال[١] : عليكِ والله . وقَبَّل يدها .

وخرجت معه إلى ناحيةِ الأُرْدُنِّ للتنزه فرماها بحبَّةِ عِنَب فدخلت حلْقَها فشرقت ومرضت وماتت ، فتركها ثلاثةَ أيام لايدْفِنُها حتى أنْتَنَت ، وهو يقبِّلُها ويشمُّها وينظر إليها ويبكى ، فكُلِّم فى أمْرها فدفنها .

وقيل : إنه نبشها بَعْدَ دفْنِهَا ، وبقى سبعة أيامٍ لا يظهر للناس ، وأشار[٢] عليه مسلمة بذلك لئلا يَظْهَرَ منه مايسفِّهه عندهم .

قال : وكان يزيد قد حجّ أيام أخيه سليمان ، فاشترى حبابة بأربعة آلاف دِينار ، وكان اسمها الغالية[٣] ،فقال سليمان : لقد هممْتُ أنْ أحْجر على يزيد . فردّها يزيدُ فاشتراها رجلٌ من أهل مِصر، فلما أفْضَت الخلافةُ إلى يزيد قالت له امرأتُه سُعْدَة يوما : هل بَقى من الدنيا شىء تتمنَّاه ؟ قال : نعم ، حَبَابة ، فأرسلت فاشتَرَتْها ، وأتت بها فأجلستها مِنْوراء الستر ، وأعادت عليه القَوْل الأول . فقال : قد أعلمْتُك ، فرفعت الستْرَ ، وقالت : هذه حَبَابة ، وقامت وتركتها ، فحظيتْ سُعْدة عنده ، وأكرمها .

وهى سُعْدَة بنت عبْد الله بن عمرو بن عثمان بن عفَّان .

قال : وإنما قيل لسلَّامة القَسّ، لأن عبْد الرحمن بن عبد الله [ابن][٤]

---

(١) فى د : قال .

(٢) فى د : أشار .

(٣) فى الطبرى والكامل : العالية . وفى ك : الغالبة . والمثبت فى د أيضاً .

(٤) ليس فى ك .

أبي عمار أحد بنى جُشَم بن معاوية بن بَكْر كان فقيها عابدًا مجتهدا فى العِبَادةِ ، وكان يسمى القَسّ لعبادَتِهِ . مرّ يوما بمَنزل مولَاها ، فسمع غِنَاءها ، فوقف يسْمَعُهُ فرآه مولاها ، فقال له :هل لك أن تَنْظُرَ وتسمع ! فأبى ، فقال : أنا أقْعِدُها بمكانٍ لا تراها وتسمع غناءها . فدخل معه فغنّت[1] ، فأعجبه غناؤها . ثم أخرجها مولاها إليه فشُغِفَ بها وأحبها وأحبته . فقالت له يوما على خَلْوة : أنا والله أحِبُّك . قال : وأنا واللهِ . قالت : وأحِبّ أن أقبِّلك . قال : وأنا والله . قالت : وأحب أنْ أضَع بطْنى على بطنك . قال : وأنا والله . قالت : فما يمنعك ؟ قال : قوله تعالى[2] : « الإخلاّءُ يومئذ بعْضُهم لبَعْضٍ عدوٌّ إلّا المتّقِين » . وأنا أكْرَهُ أن تئولَ[3] خُلّتُنا[4] إلى عداوة ، ثم قام وانصرف عنها وعاد إلى عبَادِتِه .وله فيها أشعار كثيرة منها قوله :

أَلم تَرهَا لايُبْعِدُ اللهُ دَارَهـا إذا طَرِّبتْ فى صوتها كيف تَصْنَع
تمدّ نظام القَوْل ثم تـرده إلى صَلْصَلٍ من صوتها يترجع

وله فيها غير ذلك .

وأما يزيد فأخباره مع سلّامة وحبَابَة كثيرة مشهورة أضربنا عن ذكْر كثير منها .

---

(١) فى د ، والكامل : فغنته .
(٢) سورة الزخرف ، آية ٦٧ .
(٣) فى ك : أن تكون .
(٤) الخلة — بالضم : الصداقة المختصة لا خلل فيها .

فلنذكر خلافَ ذلكَ من أخباره :

وكان له من الأولادِ الذكور ثمانية ، [منهم] (١) عَبْد الله ، والوليد .

كُتَّابُه : عُمر بن هُبَيْرة ، ثم إبراهيم بن جبَلة ، ثم أسامة بن زيد السَّلِيحى .

قاضيه : عبْد الرحمن بن الحسْحاس وغيره .

حُجَّا به : سعِيد وخالد مولْياه .

نقش خاتمه : قِنِى السيئاتِ ياعَزِيز .

الأمير بمصر : بِشْر بن صَفْوان .

وأقَرَّ أبا مسعود على القضاء ، ثم ولَّى إمارةَ مصر حَنْظَلَةَ بن صفوان أخا بشر ، وسار بشر إلى إفريقية . وولى مصر أيضًا فى خلافته أسامَة ابن زَيْد ، والله أعلم .

ذكر بيعة هشام بن عبد الملك

هو أبو الوليد هشام بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكَم ، وأُمُّه أم هشام فاطمة ، وقيل : عائشة بنت هشام المخزومى ، وهو العاشر من ملوك بنى أميّة .

بويع له لخَمْس بقين من شعبان سنة [١٠٥هـ] خمس ومائة بعد وفاة أخيه . أتَتْهُ الخلافةُ وهو بالرُّصَافة (٢) ، [فجاءه البريد بالخاتم

(١) ليس فى ك .

(٢) فى الطبرى : ذكر محمد بن عمر عمن حدثه أن الخلافة أتت هشاما وهو بالزيتونة فى منزله فى دويرة هناك .

والقَضِيب وسلم عليه بالخلافة] (١) ، فركب منها ، حتى أتى دِمشْق ، وكان من أول ما ابتدأ به أنْ عَزَل عُمَر بن هُبَيْرة عن العِرَاق ، واستعمل خالد بن عَبْد الله القَسْرى ، وذلك فى شوال من السنة . ولنبدأ بذِكْر الغزواتِ والفتوحات فى أيامه :

ذكر الغزوات والفتوحات

فى أيام هشام بن عبد الملك على حكم السنين

فى سنة [١٠٥هـ] خمس ومائة غزا الجرّاح الحَكَمِىّ اللاّن (٢) حتى جازَ ذلك إلى مدائن وحصون وراء بَلَنْجَر ، ففتح بَعْضَ ذلك وأصاب غنائم كثيرة .

وغزا سعِيدُ بن عَبْد الملك أرْضَ الرُّوم ، فبعث سَرِيّة فى نحو ألف مقاتل فأُصيبوا جميعًا .

وغَزَا مُسلم بن سَعِيدُ الكِلَابى أميرُ خُراسان الترك بما وراء النهر فلم يفتح شيئًا ، وقفل فاتبعه الترك فلحقوه ، والناس يَعْبُرُونَ جيْحُون ، وعلى الساقة عُبَيد الله بن زهير بن حيّان على خيل (٣) تميم ، فحامُوا حتى عَبر الناس .

وغَزَا مسلم أَفْشين (٤) ، فصالح أهلها على ستة آلاف رأس ، ودفع إليه القَلْعَة .

وغَزَا مَرْوَان بن محمد الصائفة اليُمْنَى ، فافتتح قُونِيَة من أرض الروم ، وكمْخ (٥) . واللهُ سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) ليس فى ك .
(٢) اللان : بلاد واسعة فى طرف إفريقية بقرب باب الأبواب (فتوح البلدان) .
(٣) فى ك : جبل .
(٤) هذا فى الكامل . وفى الطبرى : أفشينة ، وقال : هى مدينة من مدائن السغد .
(٥) فى د ، ك : الروكمخ . والمثبت فى الكامل ، وياقوت .

ذكر غزوة مسلم الترك

وفى سنة [١٠٦هـ] ست ومائة غَزَا مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرْعَة الترك ، فقطع النهر ، فلما بلغ بُخَارى أتاه كتاب خالد القَسْرى بولَايتِه العراق ،ويأمره بإتمام غَزاته ، فسار إلى فَرْغَانة[١] ، فلما وصلها بلغه أنَّ خاقان قد أقبل إليه ، فارتحل ، فسار ثلاثَ مراحل فى يومٍ ، وأقبل إليهم خاقان ،فلقى طائفةً من المسلمين ،فقتل جماعةً منهم ،وأصاب دوابَّ لمسلم ،ورحل مُسْلم بالناس ، فسار ثمانيةَ أيام والترك يُطِيفون[٢] بهم ، وأحْرَقَ الناسُ ما ثَقُل عليهم من أثقالهم ، فحرقوا ما قيمتهُ ألف ألف ، ونزل مسلم فى الليلة التاسعة ، وأصبح فسار فوردَ النَّهْرَ وأقام[٣] يوما ثم قطعه من الغَدِ ، واتبعهم ابنٌ لخَاقَان ، فعطف حُميد ابن عبْد الله وهو على السَّاقَةِ على طائفةٍ من الترك نحو المائتين فقاتلهم ، فأسر أهلَ الصُّغد وقائدهم وقائد الترك فى سبعة ، ومضى البقيَّةُ . ورجع حُميد فرُمِىَ بنُشَّابة فى ركبته فمات .

وعطش الناس فى هذه الغَزْوَةِ عطَشا شديدًا وأتوا خُجَنْدَة وقد أصابتهم مَجَاعةٌ وجهد ، فانتشر الناسُ . وجاء عَبْدَ الرحمن بن نُعيم عهْدُهُ على خراسان من قبل أسد بْن عَبْد الله أخى خالد القَسْرى ، فأقرأه عبْدُ الرحمن مسلما ، فقال : سَمْعًا وطاعة .

قال بعض منْ شهد هذه الغزوة ، قاتلنا الترك فأحاطوا بنا حتى

---

(١) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان (ياقوت).

(٢) فى د : مطيفون .

(٣) فى د : فأقام .

أيقنًا بالهلاك ، فحمل حوثَرة بن يزيد بن الحُرّ بْنِ الحُنَيْف على الترك فى أربعة آلاف ، فقاتلهم ساعةً . ثم رجع ، وأقبل نَصر بن سيّار فى ثلاثين فارسا فقاتلهم حتى أزالهم عن مواقِفِهم ، وحمل عليهم الناسُ ؛ فانهزم التركُ ، وقَفَلَ عَبْدُ الرحمن بالناس ومعه مُسلم .

وغزا سعيد بن عبد الملك الصائفةَ فى هذه السنة .

وغزا الجرّاح بن عَبْد الله اللّانَ (١) ، فصالح أهلها وأدّوا الجزية .

ذكر غزاة عنبسة الفرنج بالأندلس

وفى سنة [١٠٧هـ] سبع ومائة غزا عَنْبَسة بنُ سُحَيم الكَلْبى عاملُ الأندلس بلدَ الفرنج فى جمْعٍ كثير ، فنازل (٢) مدينةَ برشلونة ، وحصر أهلَها ، فصالحوه على نِصف أعمالها ،وعلى جميع مافى المدينة من أسْرَى المسلمين وأسْلَابهم ، وأن يعطوا الجِزْيةَ ويلتزموا بأحكام الذمّة .

وفيها غزا أسدُ بْنُ عَبْد الله أمير خراسان الغُور ؛ وهى جِبال هَراة ، فعمد أهْلُهَا إلى أثقالهم فصيّرُوها فى كَهْفٍ ليس إليه طريق ، فأمر أسد باتخاذِ تَوابيت ، ووضع فيها الرجال ، ودَلاّها بالسلاسل فاستخرجوا ما قدروا عليه .

وفيها غزا الحارث بن عمْرو الطائى التُّرْكَ من جهة أرمينية فافتتح رُسْتاقا من بَلَدِ التُّرْك وقُرًى كثيرة وأثّر أثرا حسَنا .

وفى سنة [١٠٨ هـ] ثمان ومائة قطع أسدَ بن عَبْد الله النَّهْر ،

(١) اللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينية (ياقوت ، والفتوح) .
(٢) فى الكامل : ونازل .

وأتاه خاقان ،فلم يكن بينهما قِتَال ، ثم مضى أَسَد إلى غُورِيَان[١] ، فقاتلهم يوما ، ثم اقتتلوا من الغَدِ فانهزم المشركون ، وحوَى المسلمون عسْكرهم ، وظهَرُوا على البلاد ، وأسرُوا وسبوْا وغَنِمُوا .

وفيها غَزَا مسلمةُ[٢] بنُ عبد الملك الرومَ مما يَلِى الجزيرةَ ففتح قَيْسارية ، وهى مدينة مشهورة .

وغزا إبراهيم بن هشام ففتح حِصْنًا من حصونِ الروم .

وفيها سار ابن خاقان ملك الترك إلى أَذْربِيجان ، فحصر بعضَ مُدُنها ، فسار إليه الحارث بن عمرو الطائى ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نَهْر رُوس[٣] ، فعاد إليه ابْنُ خاقان فعاودُوا[٤] الحَرْب أيضا ، فانهزم ابْنُ خاقان ، وقُتل من الترك خَلْق كثير .

وغزا معاويةُ بن هشام بن عبد الملك ومعه مَيْمُونُ بن مِهْرَان على أهل الشام فقطعوا البَحْر إلى قُبرس .

وغزا البرَّ مسلمة بن عَبْد الملك بن مروان .

وفى سنة تسع ومائة غزا عَبْد الله بن عقبة الفهرى فى البحر ، وغزا معاوية بن هشام أرض الروم ، ففتح حصنا يقال له[٥] طيبة ،

---

(١) فى ك ، د ، غورين . وفى الكامل : الغوريين . وفى ياقوت : غوريان — بالضم ثم السكون، ثم راء مكسورة وياء مثناة من تحت وآخره نون: من قرى مرو .

(٢) فى ك : معاوية . والمثبت فى الكامل والطبرى .

(٣) هذا فى ك ، د .

(٤) فى الكامل : فعاود .

(٥) فى النجوم الزاهرة : الطينة . والمثبت فى الكامل أيضاً .

وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية أذربيجان فغنم وسبى وعاد.

وغزا بشر بن صفوان عامل إفريقية جزيرة صقلية ، فغنم شيئاً كثيرا ، ثم رجع إلى القيروان فتوفى من سنته . واستعمل هشام عُبيْدة[1] بن عبد الرحمن بن أبى الأغرّ السلمى.

ذكر خبر أشرس بن عبد الله السلمى أمير خراسان

وأهل سمرْقَنْد وغيرها بما وراء النهر وما يتصلُ بذلك من الحروب

فى سنة [١١٠] عشرة ومائة أرسل أشرس إلى أهل سَمَرْقَند وغيرها مما وراء النَّهْر يدْعُوهم إلى الإسلام ، على أن توضع عنهم الجِزْية ، وأرسل فى ذلك أبا الصَّيْداء[2] صالح بن طَريف[3] مولى بنى ضَبَّة والرَّبيع بن عِمْران التميمى ، فقال أبو الصَّيْداء : إنما أخْرُج على شريطة أنه[4] منْ أسلم لا يُؤْخَذ منه الجِزْيَة ، وإنما خَراجُ خراسان على رُءوس الرجالِ . فقال أشرس : نَعم . فشخص إلى سمرْقَنْد وعليها الحسن بن أبى العَمَرَّطَة[5] الكِنْدِى ، فدعا أبو الصيْداء أهْلَ سمرقند ومنْ حولها إلى الإسلام ، على أنْ تُوضَع عنهم الجزْيةُ ، فسارع الناسُ إلى الإسلام ، فكتب إلى أشرس : إنَّ الخراج قد انكسر . فكتب أشرسُ إلى ابْنِ أبى العمرَّطَة[5] : إنَّ فى الخراج قوةً للمسلمين ، وقد بلغنى أنَّ أهلَ الصُّغْد وأشباهَهم

(١) فى ك : عبدة . والمثبت فى الكامل أيضاً .

(٢) فى ك : أبا الصيداء وصالح . والمثبت فى الكامل والطبرى .

(٣) فى ك : ظريف .

(٤) فى د ، والطبرى : أن .

(٥) فى ك ، د : الحسن بن العمرطة . والمثبت فى الكامل والطبرى وفتوح البلدان.

إنما أسلموا تعوُّذًا من الجزْيةِ ، فانظر من اختتَن وأقام الفرائض ، وقرأ سورةً من القرآن فارْفَعْ خَراجه ، ثم عزل أشرس ابن أبي العمرَّطَة عن الخراج ، وصَيَّره إلى هانىء بن هانىء ، فمنعهم أبو الصيداء من أخْذ الجزْية ممن تلفَّظَ بالإسلام ، وكتب هانىء إلى أشرس : إنَّ الناس قد أَسْلَمُوا وبنَوا المساجد .

فكتب أشرس إليه وإلى العمال : خُذوا الخراج ممَّنْ كُنْتُم تأخذونه عنه ، فأعادُوا الجزيةَ على منْ أسلم ، فامتنعوا ، واعتزلوا فى سبعة آلاف على عِدّة فراسخ مِنْ سَمرْقَنْد ، وخرج إليهم أبو الصَّيْداءِ وربيع بن عِمْران ، والهيْثَم[1] الشَّيْبَانى ، وأبو فاطمة الأزدى ، وعامر بن قُشَير ، وبشير الخُجَنْدِى[2] ، وبَيان العَنْبرى ، وإسماعيل بن عُقْبة ليَنْصُروهم ، فعزل أشْرَس ابن أبي العَمَرَّطة عن الحرْب ، واستعمل مكانَه المُجشِّر بن مُزَاحم السلمى ؛ فكتب المُجَشِّر إلى أبي الصَّيْداء فى القُدُوم عليه هو وأصحابه ، فقدم أبو الصَّيْداء وثابت قُطْنَة فحبسهما ، واجتمع أصحابُ أبي الصَّيداء وولَّوْا أمْرَهم أبا فاطمة ليقاتلوا هانئا ، فقال لهم : كفُّوا حتى نكتب إلى أشرس .

فكتبوا إليه ، فكتب أشرس : ضَعُوا عنهم الخراج . فرجع أصحابُ أبي الصَّيْداء وضَعُفَ أمْرُهم ، فتُتُبِّع الرؤساءُ فأُخذوا وحُمِلوا إلى مرْو . وألحَّ هانىء فى الخراج ، واستخفُّوا بعظماء العَجَم والدَّهَاقين ، وأخذوا الجزيةَ ممَّنْ أسلم ، فكفَرَت الصُّغْدُ وبُخَارى ، واستجاشوا

(١) فى الطبرى : والقاسم . والمثبت فى الكامل أيضاً .
(٢) فى ك : الحجدرى ، والمثبت فى الكامل والطبرى .

التُّرْك، وخرج أشرس غازيًا ، فنزل آمُل ، فأقام ثلاثة أشهر .

وقَدِم قَطَن بنُ قُتَيْبة بنِ مسلم ، فعبرَ النهرَ فى عشرة آلاف ، وأقبل أهْلُ الصُّغد وبُخَارى معهم خاقَان والتُّرْكُ ، فحصروا قَطَناً فى خَنْدَقه ، وأرسل خاقان مَنْ أغار على سرْحِ الناس ، فأخرج أشرس ثابت قُطْنة بكفالة عَبْدِ الله بن بِسْطَام بن مسعود ، فوجهه مع عبْد الله بن بسطام فى خَيْل[1] ، فقاتلوا التركَ بِآمُل حتى استَنْقَذُوا ما كان بأيديهم ، ورجع التركُ .

ثم عبر أشْرس بالناس إلى قَطَن ، وبعث سَرِيةً مع مسعود أحد بنى حيّان ، فلقيهم العدوُّ فقاتلوهم ، فقُتِل رجالٌ من المسلمين ، وهُزِم مسعود . فرجع إلى أشرس .

وأقبل العدوُّ ،فلقيهم المسلمون ، فجالوا جوْلَةً ، فقُتِل رجالٌ من المسلمين .

ثم رجع[2] المسلمون فصبروا ، فهزم اللهُ المشركين ، وسار أشرس بالناسِ حتى نزل بيكَنْد[3] ، فقطع عنهم العدوُّ الماء ، وأقام المسلمون يوما وليلة ، وعطِشُوا ؛ فرحلوا إلى المدينة التى قطع العدوُّ بها الماء ،وعلى المقدمة قَطَن بن قُتَيْبَة ، فلقيهم العدوّ ، فقاتلوهم ، فَجهِدُوا من العَطَش، فمات منهم سبعمائة ، وعجز الناسُ عن القتال ؛ فقال الحارث بن سُريج[4] للناس : القَتْل بالسيف أكرمُ

(١) فى الطبرى : فى الخيل . (٢) فى الطبرى : كر .

(٣) بيكند — بالكسر وفتح الكاف وسكون النون . بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى (ياقوت) .

(٤) فى ك : شريح . والمثبت فى الطبرى والكامل . وضبطه ابن الأثير : بالسين المهملة ، والجيم (٤ — ٢٠٣) .

فى الدنيا وأعظمُ أجْرًا عند الله من الموت عطشا ، وتقدم هو وقَطَن فى فوارس من تميم فقاتلوا حتى أزَالُوا التُّرْكَ عن الماء ، فشرب الناسُ واستقَوا ، ثم قاتلوا الترك قتالا شديدا ، فقُتِل ثابت قُطْنَة فى جماعةٍ من المسلمين بعد أن أبْلَوا أعْظَم بلاءٍ وأحسنه .

ثم اجتمع رجالٌ من المسلمين تَبايعُوا على الموتِ مع قَطَن بن قُتَيْبة ، وحملوا على العدوِّ فقاتلوهم فكشفُوهم ، وركبهم المسلمون يقتُلونهم حتى حجزَ بينهم اللَّيلُ ، وتَفَرَّق العدوُّ ، وأتى أشْرس بُخَارى ، فحصر أهْلَها فعُزِل وهو يحاصِرُها بالجُنَيْدِ بن عبد الرحمن على ما نذكره إنْ شاء الله تعالى .

ذكر وقعة كمرجة

قال : ثم إنَّ خاقانَ حصر كَمْرجة[1] ، وهى من أعظم بُلْدان خراسان ، وبها جمْعٌ من المسلمين ، ومع خاقان أهلُ فَرْغَانه وأفْشِينة[2] ، ونَسف ، وطوائفُ من أهْل بُخارى ، فأغلق المسلمون البابَ ، وقطعُوا القَنْطَرةَ التى على الخَنْدق ، فأتاهم ابن خسرو بن يزْدجرد ، فقال : يا معشر العَرب ، لِمَ تَقتلُون أنْفُسكم ؟ أنا الذى جئتُ بخاقان ليردَّ علىَّ مملكتى ، وأنا آخُذُ لكم الأمانَ ، فشتموه ، وأتاهم بازغرى ، فقال : إنَّ خاقانَ يقولُ لكم : إنى أجْعلُ منْ عطاوُه منكم ستمائة ألفا ، ومنْ عطاوُه ثلاثمائة ستمائة ، ويُحسن[3]

(١) كمرجة — بفتح أوله وثانيه وسكون الراء والجيم : قرية من قرى الصغد . (ياقوت) . وفى ك ، د : شددت الراء المفتوحة .

(٢) والطبرى . وفى فتوح البلدان : أفشين .

(٣) فى الكامل : وهو يحسن .

إليكم وتكونون معه ، فأبوا ذلك ، فأمر خاقانُ بجمْع الحطَب[١] الرطْب ، وأنْ يُلْقَى فى الخَنْدَقِ ليعْبُروا عليه . فجُمع فى سبعةِ أيام ، فكانوا يُلْقُون الحطَب الرَّطْب ، ويُلْقى المسلمون الحطَبَ اليابس حتى سُوِّىَ الخَنْدَقُ بالأرض ؛ فأشْعَل المسلمون فيه النيران ، وهاجت ريحٌ شديدةٌ ، فاحترق الحطَبُ الذى جُمِع فى سبعةِ أيام فى ساعةٍ واحدة ، ثم فَرَّق خاقانُ على الترك أغناما ، وأمرهم أنْ يأْكُلُوها ويَحْشوا جلودها تُرَابًا ، ويُلْقُوها فى الخَنْدَقِ ، ففعلوا ذلك ، فأرسل اللهُ تعالى مطَرًا شديدًا ، فاحتمل السيلُ ما فى الخَنْدقِ ، وألقاه فى النَّهْرِ الأعظم .

ورَماهُم المسلمون بالسهامِ فقُتِل بازغرى وكان داهيةً ، وكان خاقان لا يخالِفهُ ؛ ففرح المسلمون بقَتْله ، وكان عند المشركين مائةٌ من أسْرى المسلمين فيهم أبو الحَوْجَاء[٢] العَتَكىّ والحجاجُ ابن حُميد النضرى ، وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم ، واستماتوا واشتدَّ القتالُ .

ثم وقع الاتفاقُ بينهم وبين الترك على أنَّ خاقان يَرْحل عن كَمَرْجة ، ويرحلوا هم عنها أيضا إلى سمرقند والدَّبُوسِية[٣] ، فأجاب أهْلُ كَمَرْجة إلى ذلك ، وأخذ كلٌّ منهم من الطائفتين رهائنَ من الأُخْرى على الوَفَاء ، وارتحل خاقانُ ، ثم رحلوا بعده ، وسيَّر معه كور صول التُّركى ليمنَعهم ممن يتعرَّضُ إليهم من الترك ، فلما

(١) فى الطبرى : بقطع الشجر ؛ فجعلوا يلقون الحطب الرطب .

(٢) فى ك : العرجاء . والمثبت فى الكامل والطبرى .

(٣) الدبوسية : بليدة من أعمال الصغد مما وراء النهر (ياقوت) .

انتهوْا إلى الدَّبُوسِية ، وكان بها عشرةُ آلاف مقاتل من المسلمين ، أمنوا وأَطْلَقَ كلٌّ من الطائفتين ما بِيدِهم من الرهائن ، وكانت مدةُ حصارِ كَمرْجَة ثمانية وخمسين يومًا ، فيقال : إنهم لم يسقُوا إبلهم خمسةً وثلاثين يوما .

وفى هذه السنة ارتد أهلُ كَرْدَر[1] ، فأرسل إليهم أَشْرسُ جُنْدًا فظفِرُوا بهم .

وغزا مسلمة التُّرْكَ من نحو بابِ اللَّانِ ، فلقى خاقان فى جُموعِه ، فاقتتلوا قريبًا من شَهْرٍ ، وأصابهم مطَرٌ شديد ، فانهزم خاقان ورجع مسلمة .

وغزا مُعاوية الروم ففتح صَلم[2] .

وغَزَا الصائفةَ عبْدُ الله بن عُقْبة الفِهْرى .

ذكر عزل اشرس عن خراسان

واستعمال الجُنَيْد بن عبد الرحمن ، وقتاله الترك

وفى سنة [١١١ هـ] إحدى عشرة ومائة عزل هشامُ بْنُ عبد الملك أَشرسَ بن عبد الله عن خُراسان ، واستعمل الجُنَيْد بن عبْد الرحمن ابن عمْرو بن الحارث بن خارجة بن سِنَان بن أَبى حارِثَة المرّى ، وحمله على ثمانية من البريد ، فقدم خراسان فى خمسمائة ، وسار

(١) بفتح أوله وسكون ثانيه ودال مفتوحة وآخره راء : ناحية من نواحى خوارزم وما يتاخمها من نواحى الترك (ياقوت) .

(٢) هذا فى د . وفى الكامل : صملة . وفى الطبرى : صمالة . ولم أقف على ضبطها .

إلى ما وراء النَّهْرِ ، وسار معه الخطاب بن مُحْرز السلمى خليفةُ أشرس بخراسان ، فقطَعَا النَّهْرَ ، وأرسل الجُنَيدُ إلى أشرسَ ، وهو يقاتل أهل بُخَارى والصُّغْد : أن أمِدّنى بخَيْلٍ .

وخاف أن يُقْطَع[1] دونه ، فوجَّه إليه أشرَسُ عامرَ بن مالك الحمّانى ، فلما كان عامرٌ ببَعْضِ الطريق عرض له التُّرْكُ والصغد ، فدخل حائطا حصينا ، وقاتلهم على الثلْمَة ، وكان معه ورْد بن زياد بن أدْهم بن كُلْثوم وواصل بن عمْرو القَيْسِى[2] ، فخرج واصل وعاصم بن عُميْر السمرقندى وغيرهما ، فاستَدَارُوا خَلْف الترك فلم يشْعُر خاقان إلّا والتكبير مِنْ وَرائه ، وحمل المسلمون على التُّرْك ، فقاتلوهم ، وقتلُوا عظيما مِنْ عظماء الترك ، فانهزم التُّرْك ، وسار عامر حتى لقى الجُنَيْد ، وأقبل معه وعلى مقدمة الجُنَيْد عمارة ابن خُرَيم[3] ، فلما صار علَى فَرْسخَيْنِ من بِيْكَنْد تلقَّتْهُ خَيْلُ التُّرْكِ ، فقاتلوهم ، فكاد الجُنَيْد يهْلِك هو ومنْ معه ، ثم أظهره الله ، وسار حتى قدم العسكر ، وظَفِر الجُنَيْد ، وقَتل من الترك ، ثم زحف إليه خاقان ، فالتقوا دُونَ زَرْمان[4] من بلاد سمرْقَنْد ، وقَطَن بن قُتَيْبة على ساقَةِ الجُنيد ، فأسر الْجُنيد ابنَ أخى خاقان ، فبعث به إلى هشام ، ورجع الْجُنَيْد بالظَّفَر إلى مرْو .

---

(١) فى د : يقتطع .

(٢) فى د : الليثى . والمثبت فى الكامل والطبرى .

(٣) فى د : خزيم . والمثبت فى الكامل والطبرى .

(٤) زرمان — بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره نون : من قرى صغد سمرقند (ياقوت) . وفى ك : زرميان . وفى الكامل : رزمان .

وفيها غزا معاويةُ بن هشام الصائفة اليسرى ، وغَزَا سعيد بن هشام الصائفةَ اليمنى ، حتى أتى قَيْسارية .

وغزا عبْدُ الله بن أبى مرْيم البَحْرَ .

وفيها سارت التُّرْكُ إلى أذْرَبِيجان ، فلقيهم الحارثُ بن عمْرو ، فهزمهم .

وفيها استعمل هشام الجرّاح بن عبْد الله الحَكَمِىّ على أرْمينية ، وعزل أخاه مسلمة ، فدخل بلاد الخزَر من ناحية تَفْلِيس[1] ، ففتح مدينتهم البيضاء ، وانصرف سالما .

ذكر مقتل الجراح بن عبد الله الحكمى

وولاية سَعيد الحَرشى وحروبه مع الخَزَر والتُّرْك ، وما افتتحه من البلاد

وفى سنة [١١٢ هـ] ثنتى عشرة ومائة قُتِل الجرّاحُ بن عبْد الله الحكَمِى . وسبَبُ ذلك أنه لما هزم الخَزَر اجتمعُوا هم والتُّرْك من ناحيةِ الّلان ، فلقيهم الجرّاحُ فيمَنْ معه من أهل الشام ، فاقتتلوا أشَدَّ قتالٍ رآهُ الناسُ ، وتكاثر الخَزَر والتُّركُ على المسلمين ، فاستشهد الجرّاح ومنْ معه بمَرْج أرْدَبِيل[2] ، فلما قتل طمع الخَزَر وأوْغَلُوا فى البلادِ حتى قاربُوا الموصل ، وعظم الخَطْبُ على المسلمين .

فبلغ الخبرُ هشامَ بن عبد الملك ، فاستشار سعيدا الحَرشى ،

(١) تفليس — بفتح أوله ويكسر : بلد بأرمينية الأولى (ياقوت) .

(٢) أردبيل — بالفتح ثم السكون ، وفتح الدال وكسر الباء وياء ساكنة ولام : من أشهر مدن أذربيجان (ياقوت) .

فقال : أرى أن تبعثنى على أربعين دابّة من دَوَابّ البريد ، ثم تبعث إلىّ كل يوم بأربعين [رجلا] (١) ، واكتب إلى أُمَراء الأجناد أن يُوَافُونى (٢) . ففعل ذلك ،وسار الحَرَشىّ وهولايمرُّ بمدينة إلّا استَنْهَضَ (٣) أهْلَها ، فيجيبه مَنْ يُريد الجهاد .

ولم يزل كذلك حتى وصل إلى مدينة أَرْزَن (٤) ، فلقِيه جماعة من أصحاب الجرّاح ، فردّهم معه ، وسار فبلغ خِلَاط (٥) ، فحاصرها أياما وفتحها ، وقَسَّمَ غنائِمهَا فى أصحابه ، ثم سار عنها وفتح الحصونَ والقِلَاع شيئا بعد شىء حتى أتى بَرْدَعَة ، وكان ابْنُ خاقان يومئذ بأَذْرَبِيجان يُغير ويَنْهَب ويَسْبِى ويَقْتُل ، وهو يُحاصر مدينةَ وَرْثَان (٦) ، فأرسل الحَرَشىُّ رجلا من أصحابه إلى أهلها يُعَرِّفُهم وصولَه ، ويأْمُرُهم بالصبر ،فسار ولقِيَه بعْضُ الخَزَر ، فأخذوه وسألوه عن الخبر ، فأخبرهم وصدقهم ،فقالوا له :إنْ فعلْتَ ما نأْمُرُك به أحْسَنَّا إليكَ ، وأطلقناك ، وإلا قتَلْنَاك . قال : فما الذى تريدون ؟ قالوا (٧) : تقول لأهل وَرْثَان : إنكم ليس لكم مدَد ، ولا منْ يكشف ما بكُم ، وتأْمُرُهم بتسليم البلَد إلينا . فأجابهم إلى ذلك .

فلما قارب المدينةَ وقف بحيث يَسْمعُ أَهْلُها كلامَه ، فقال لهم :

---

(١) من الكامل ، والطبرى . (٢) فى ك : يواسون .

(٣) فى ك : أشخص . وفى الكامل : إلا ويستنهض .

(٤) أرزن — بفتح الهمزة ثم السكون ، وفتح الراى ، والنون : مدينة مشهورة قبل خلاط . وأرزن الروم : بلدة أخرى من بلاد أرمينية أيضاً (ياقوت) .

(٥) خلاط — بكسر أوله، وآخره طاء مهملة : قصبة أرمينية الوسطى (المراصد) .

(٦) ورثان — بالفتح ثم السكون ، وآخره نون ، والسفلى يحرك الراء : بلد هو آخر حدود أذربيجان بينه وبين الرس فرسخان (ياقوت) .

(٧) فى ك : قال — تحريف —

أتعرفونى؟ قالوا : نعم، أنتَ فلانٌ. قال :فإنَّ الحرشى قَدْ وصل إلى مكان كذا فى عساكرَ كثيرة ، وهو يأمركم بحفْظِ البلد ، والصَّبْر ، ففى هذين اليومين يَصِلُ إليكم .

فرفَعُوا أصواتهَم بالتهليل والتكْبير ، وقتلت الخَزَر ذلك الرجلَ ، ورحلوا عن مدينة ورْثَان ،ووَصَلَها الحَرَشِى ، وقد ارتحل الخَزَر إلى أرْدَبِيل ، فسبقهم[1] إليها ، فساروا عنها ، ونزل سعيد بَاجَرْوَان[2] ، فأتاه فارسٌ على فَرس أبيضَ ، فقال له : أيها الأميرُ ، هل لك فى الجهادِ والغنيمة؟ قال : وكيف لى بذلك ؟ قال : هذا عسكَرُ الخَزَر فى عشرة آلاف ، ومعهم خمسةُ آلاف بنت من المسلمين أسارى وسبَايا ، وهم على أربعة فراسخ .

فسار الحَرشىُّ إليهم ليلاً ، فوافاهم آخر الليل ، وهم نِيَامٌ ، فكبسهم مع الفَجْر ، ووضع المسلمون فيهم السيفَ ،فما بزغت الشمسُ حتى قُتِلوا عن آخرهم غَيْرَ[3] رجل واحد .

ثم أتاه ذلك الفارس الذى أتاه أولا وقال له : هذا جَيْشُ الخَزَر ومعهم أموال المسلمين وأولادُهم ،وحَرَمُ الجرّاح وأولاده ، وهم بمكان كذا ؛ فسار الحَرشى إليهم ، فما شعروا إلَّا والمسلمون معهم ،فوضعوا فيهم السيفَ فقتلوهم كيف شاءُوا ، ولم يُفْلت من الخَزَر إلا الشريد ، واستنقذوا مَنْ معهم ، وغنموا أمْوالَ الخزَر ، وحمل الأسارى إلى بَاجرْوان .

---

(١) فى د : فتبعهم .

(٢) فى ك : باحروان . والمثبت فى الكامل أيضاً . وفى ياقوت : باجروان — آخره نون : قرية من ديار مصر بالجزيرة من أعمال البليخ . وباجروان أيضا مدينة من نواحى باب الأبواب قرب شروان (ياقوت) .

(٣) فى ك : عن .

وبلغ الخبر ابْنَ ملك الخزر ، فجمع أصحابَه من نواحى أذْربيجان ، فاجتمع له عساكر كثيرة ، فحرَّضَهم ، وسار نحو الحرشىّ ، وسار الْحرَشِىُّ إليه ، فالتقيا بِزَرَنْد[1] ، واقتتَلُوا أشدَّ قتال ، فانحاز المسلمون يَسِيرًا ثم عادُوا إلى القتال ، فاشتدّت نكايتُهم فى العدوّ ، فهزموهم ، وتبعهم المسلمون حتى بلَغُوا بهم نهر أوس[2] ، وعادوا عنهم وحَوَوْا ما فى عسكرهم من الأَمْوال والغنائم ، وأطلقوا الأَسارى والسَّبايَا ، وحملوا الجميع إلى بَاجَرْوَان ، ثم جمع ابْنُ ملك الخزر مَنْ لحق به مِنْ عساكره ، وعاد بهم نحو الحَرَشى ، فنزل على نَهْر الْبَيْلَقَان[3] ، فسار الحَرَشى نحوه ؛ فوافاهم هناك ، والتقوا ، فكانت الهزيمةُ على الخَزَرِ ، فكان مَنْ غَرِق مِنْهم أكثر ممن قتل ، وجمع الحَرَشى الغنائم ، وعاد إلى باجَرْوَان وكتب إلى هشام بالفتح ، وأرسل إليه الخُمْس . فكتب إليه هشام يشكره ، ويُثْنى عليه ، ويأْمره بالمسير إليه ، واستعمل هشام أخاه مسلمة على أرمينية وأذْرَبيجان ، فوصل إلى البلاد ، وسار إلى الترك حتى جاز البلاد [فى آثارهم][4] .

ذكر وقعة الجنيد بالشعب

وفى سنة [١١٢ هـ] ثنتى عشرة ومائة أيضا خرج الجُنَيْدُ أَمِيرُ خراسان غازِيًا يريد طخارستان ؛ فوجه عمارة بن خُرَيم

(١) زرند — بفتح أوله وثانيه ونون ساكنة ودال مهملة : بليدة بين أصبهان وساوة (ياقوت) .

(٢) فى د: أرس . والمثبت فى ك أيضاً . وفى ياقوت : أوس : اسم موضع ، أو رجل.

(٣) بيلقان — بالفتح ثم السكون وفتح القاف وألف ونون : مدينة قرب الدربند الذى يقال له باب الأبواب تعد فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان .

(٤) من الكامل .

إلى طَخارستان فى ثمانية عشر ألفا ، ووجّه إبراهيم بن بسام الليثى فى عشرة آلاف إلى وَجْهٍ آخر ، وجاشت التُّرْكُ فأتوا سمَرْقَنْد ، وعليها سَوْرة بن الحُر ؛ فكتب إلى الْجُنَيْد أنَّ خاقان جاشَ بالترك ، فخرجتُ إليهم ، فلم أطِقْ أن أمنَع حائطَ سمرقند ، فالغَوْثَ الغَوْثَ .

فعبرالجُنَيْدُ النهر ، وقد فَرّق عساكره ، فسار بمَنْ معه حتى نزل كَشّ (١) ، وتأهّب للمسير ، وبلغ ذلك الترك ؛ فغوّروا الآبارَ التى فى طريق كَش (١) ، وسار الجُنَيْد يُريد سَمَرْقَنْد ، فأخذ طريقَ العَقَبة ، وارتقى فى الجبل ، ثم سار حتى صار بَيْنَه وبين سَمَرْقَنْد أربعة فراسخ ،ودخل الشِّعْب فصبّحَه خاقَان فى جَمْعٍ عظيم ؛فكانت بينهم وقْعَةٌ عظيمة صَبر الناسُ فيها وقاتلوا حتى كانت السيوفُ لاتقطَعُ شيئًا ،فقَطع عَبِيدُهم الخشَبَ يقاتلون به ، ثم كانت المعانَقَةُ ؛ ثم تحاجَزُوا ، فاستشهد من المسلمين جماعةٌ .

فبينما الناس كذلك إذ أقبل رَهَج (٢) ، وطلعت الفرسان (٣) ، فنادى مُنَادِى الجُنَيْد : الأرض الأرض ! وترجّل ، وترجّل الناسُ ، ثم أمر أن يخندق كلُّ قائد على حِياله ، فَخَنْدقُوا وتحاجزُوا وقد أُصيب من الأَزْد يومئذ مائة وتسعون رجلا ، وكان قتالهم يوم الجمعة ، فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقْتَ الظهر ، فلم يَرَ موضعا للقتال أسْهَل مِنْ موضع بَكْر بن وائل ، وعليهم زياد

(١) سبق أنها بالسين والشين .

(٢) الرهج : الغبار .

(٣) فى د : فرسان .

ابن الحارث ، فقصدهم ، فلما قَرَبُوا حملت بَكْرٌ عليهم فأفرجوا لهم ، واشتد القتالُ بينهم .

فلما رأى الجُنَيْد شِدَّةَ الأَمْر استشار أصحابه ، فقال له عُبَيْد الله بن حبيب : اختر إمَّا أنْ تَهْلك أنْتَ أو سَورة بن الحرّ . فقال : هلَاكُ سَوْرة أهْوَنُ علىَ . قال : فاكتب إليه فليأْتك فى أهل سمرْقَنْد ؛ فإنه إذا بلغ التركَ إقبالُه توجَّهُوا إليه فقاتلوه .

فكتب إليه الجُنَيْد يأْمره بالقُدوم ، فسار فى اثنى عشر ألفا ، فأصبح على رأس جبلٍ ، فتلقَّاهُ خاقان ، وقد بقى بَيْنَه وبين الجُنَيْد نحو فَرْسَخ فقاتلهم فاشتدّ[1] القتال ، وسقط سَوْرة بن الحُرّ ، فاندقَّتْ فخذه ، وقُتِل وتَفَرَّقَ الناس ، وقتلهم الترْكُ ، ولم يَنْج منهم غَيْرُ ألْفَيْنِ . ويقال : ألف .

ولما استقَلَّ خاقان بقِتَالِ سَوْرةَ خرج الجُنَيْد مبادِرًا يُريد سمرْقَند ، فلقيه الترك قَبْلَ وصولهِ إليها ، فقاتلهم قتالاً شديدا . وقال الجُنَيْد : أىُّ عبدقاتَلَ فهو حُر . فقاتل العَبِيدُ قتالا عجِبَتْ منه الناسُ ، وهزم الله التركَ .

ومضى الجُنيد إلى سمرقند ، وكتب إلى هشام بن عبد الملك بالخبر. فكتب إليه هشام : قد وجَّهْتُ إليك عشرة آلاف من أهل البصرة ، وعَشرةَ آلاف من أهْل الكوفة ، ومن السلاح ثلاثين ألف رُمْح ، ومثلها تِرسَة[2] ، فافرض فلا غايةَ لك فى الفريضة لخمسة[3] عشر ألفا .

---

(١) فى الكامل : واشتد . (٢) جمع ترس . وفى ك : أترسة .

(٣) فى الكامل : بخمسة عشر ألفا .

قال[١] : وأقام الجُنَيْد بسمرقند ، وتوجّه خاقان إلى بُخارى ، وعليها قَطَن بن قُتَيبة ، فسار الجُنيد إليه ، وخلّف بسمرقند عثمان بن عبْد الله ابن الشِّخِّير فى أربعمائة [فارس وأربعمائة][٢] راجل .

ولما انتهى الجُنيد إلى كَرْمِينِية [٣] أتاه خاقَانُ وذلك فى مستهلّ رمضان من السنة ، فاقتتلوا يومهم ؛ ثم ارتحل الجُنَيد وقد قَوِى الساقة بالرجال ، فجاءت التركُ فمَالُوا على الساقة فاقتتلوا فاشتدَّ القتالُ بينهم ، فقَتَل مسلمُ بن أَحْوَزَ عظيما من عظماءِ الترك ، فتطيَّرُوا من ذلك ، وانصرفوا . وسار المسلمون فدخلوا بُخَارى ، ثم قدمت الجنودُ من الكوفة والبصرة فسرَّح الجُنَيد معهم حَوْثرة ابن زيد العَنْبَرِى فيمن انتدب معه .

وقيل : إنَّ وقعة الشِّعْب كانت فى سنة [١١٣ هـ] ثلاث عشرة ومائة . [والله أعلم][٤] .

وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة ، فافتتح خَرْشَنَة [٥] . [والله أعلم][٤] .

---

(١) فى الطبرى : ٨ — ٢١٢ .

(٢) ليس فى ك .

(٣) كرمينية : بالفتح ثم السكون وكسر الميم وياء مثناة من تحت ساكنة ونون مكسورة وياء أخرى مفتوحة خفيفة : بلدة من نواحى الصغد (المراصد) .

(٤) ساقط فى د .

(٥) خرشنة — بفتح أوله وتسكين ثانيه وشين معجمة ونون : بلد قرب ملطية من بلاد الروم .

ذكر غزو مسلمة وعوده

فى هذه السنة فَرّق مسلمة الجيوش ببلاد خَاقَان فَفُتحت مدائن وحصونٌ على يَديْه ، وقتل منهم وسبى وأَسَر وأحرق ، ودانَ له مَنْ وراءَ جبال بلَنْجر ، وأقبل ابْنُ خاقان وقد اجتمعت عليه الخَزَرُ وغيرهم من تلك الأُمم ، وصار فى جموع عظيمة . فلما بلغ مسلمة الخبَر أمر أصحابَه فأَوقدوا النيران ، ثم ترك خيامَهم وأثقالَهم ، وعاد بعسكره جريدة ، وقدم الضعفَة [1] وأخَّر الشجعان ، وطَوَى المراحل كلّ مرحلتين فى مرْحلة حتى وصل الباب والأَبواب [فى آخر رَمَق] [2] .

وفيها غَزَا معاوية بن هشام أَرْضَ الروم فرابطَ من ناحية مرْعش [3] ثم رجع . والله أعلم .

ذكر غزو مروان بن محمد بلاد الترك

ودخوله إلى بلاد ملك السَّرير وغيرها من بلادهم

وما افتتحه وقرره وصالح عليه الملوك

وفى سنة [١١٤] أربع عشْرة استعمل هشام بن عبْد الملك مرْوان بن محمدبن مرْوان على الجزيرة وأَذْرَبيجان وأَرْمِينية . وسببُ ذلك أنه كان فى عسْكَر مسلمة بن عبد الملك حين غَزَا الخَزَر ، فلما عاد مَسْلمة – كما تقدّم – سار مرْوان إلى هشام فلم يشعر به

(١) ك : الضعفاء .

(٢) ساقط فى د ، وهو فى ك أيضاً .

(٣) مرعش : من ثغور أرمينية (البكرى) .

حتى دخل عليه ، فسأله عن سببِ قدومه ، فقال : ضِقْتُ ذَرْعًا بما أذكره ، ولم أرَ مَنْ يحْمِلُه غيرى . قال : وماهو ؟ قال : ياأمير المؤمنين ؛ إنه كان مِنْ دُخول الخَزَر إلى بلادِ الإسلام وقَتْلِ الجراح وغيرِه مادخل به الوهَنُ على المسلمين. ثم رأى أميرُ المؤمنين أنْ يوجِّه أخاه مسلمة إليهم ، فوالله ما وطىء مِنْ بلادهم إلَّا أدناها ، ثم إنه لما رأى كثرة جمْعِه أعجبَه ذلك ، فكتب إلى الخَزَر يُؤْذِنُهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثةَ أشهر ، فاستعدَّ القَوْمُ وحشَدوا ، فلما دخل بلادَهم لم يكن له فيهم نِكَايةٌ ، فكان قُصاراهُ السَّلَامَةَ ، وقد أردْتُ أن تَأْذَن لى فى غزوة أُذْهِبُ بها عَنَّا العَار ، وأنْتَقِم من العدو . قال : قد أذنْتُ لك . قال : وتُمِدنى بمائة ألف وعشرين ألف مقاتل ؟

قال : قد فعلْتُ . قال : وتكتُم هذا الأَمْرَ عن كل أحدٍ ؟ قال : قد فعلْتُ . وقد استعملْتُكَ على إرْمِينية .

فودَّعه وسار إلى إرْمِينية واليًا عليها وسيَّر إليه هشام الجنود [من الشام والعراق والجزيرة ، فاجتمع عنده من الجنود] (١) والمتطوِّعة مائةُ ألف وعشرون ألفا ، فأظْهَر أنه يُريد غَزْو اللَّان ، وأرسل إلى ملك الخَزَر يطلُبُ منه المُهَادنَة ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل (٢) إليه مَنْ يقرر الصلح ، فأمسك الرسولَ عنده إلى أن فرغ من جهَازه ، وأحضره ، ثم أغْلظ لهم فى القول وآذَنَهُمْ بالحرب ، وسيَّر الرسولَ إلى صاحبِه بذلك ، ووكل به منْ يسيرُ به

(١) ساقط من ك .

(٢) ك : فأرسل .

على طَريق فيه بُعْد ، وسار هو فى أقرب الطُّرُق ، فما وصل الرسولُ إلى صاحبِه إلّا ومرْوَان قد وافاهم بالجنود ، فاستشار ملكُ الخَزَر أصحابه ، فقالوا : إنَّ هذا قد جمع ودخل بلادك ، فإن أقَمْتَ إلى أنْ تجمع لم يجتمع جُنْدُك إلى مدَّةٍ ، فيبلغ منك مايريد ، وإن أنْت لقيتَه على حالك هذه هزمك وظفِر بك ، والرأى أن تتأخَّر إلى أقصى بلادِك ، وتَدَعه وما يُرِيد .

فقبل رأيهم وسار ودخل مرْوان البلاد ، وأوغَل فيها ، وأخربها ، وغَنِمَ وسبى ، وانتهى إلى آخرها ، وأقام فيها عِدَّة أيام أذَلَّهمُ ، ودخل بلادَ ملك السَّرِير ، فأوقع بأهْلها ، وفتح قِلاعًا ، ودان لَهُ الملك ، وصالحه على ألف رأس : خمسمائة غلام ، وخمسمائة جارية سود الشعور [١] ، ومائة ألف مُدى تُحْمَل إلى الباب ، وصالح أهل تُومان [٢] على مائة رأس نصفين وعشرين ألف مدى [٣] ، ثم دخل أرض زَدِيكران [٤] ، فصالحه ملكها ، ثم أتى أرض حمزين ، فأبى حمزين أنْ يصالحهُ ، فحصرهم ، وافتتَح حصنهم ، ثم أتى سُغْدان [٥] ، فافتتحها صُلْحًا ، ووظف على طَبَرْ سرانْشاه [٦] عشرة آلاف مُدى كلَّ سنة تحمل إلى الباب ؛ ثم

---

(١) فى ك : الشعر .

(٢) فى ك : ثومان ، وهى بالتاء أيضاً فى فتوح البلدان : ٣٤٥

(٣) فى الكامل : مدبر .

(٤) فى ك : زنكران . وفى الكامل : زريكران . والمثبت فى فتوح البلدان أيضاً .

(٥) سغدان — بضم أوله : قرية من نواحى بخارى (ياقوت) . وفى فتوح البلدان : سندان : والمثبت فى الكامل أيضاً .

(٦) فى الكامل : طبرشانشاه . والمثبت فى فتوح البلدان أيضاً .

نزل على قَلْعة صاحب الَّلكْز[١] وقد امتنع مِنْ أداء الوظيفة ، فخرج مَلِك الَّلكْز يُريد ملكَ الخزَر ، فقتله راعٍ بِسهم وهو لايَعْرفُه ، فصالح أهلُ الَّلكْزِ مَرْوان ، واستعمل عليهم عامِلاً وسار إلى قَلْعة شَرْوان[٢] وهى على البحْر ، فأَذْعنَ له بالطاعة ، وسار إلى الدُّوادَانِيَّة ، فأَوقع بهم ، ثم عاد .

وغزا معاوية بن هشام الصائفةَ اليسرى ، فأَصاب ربَضَ أَقْرُن .

وفيها التقى عَبْدُ الله البطَّال هو وقسطنطين فى جموعٍ ، فهزمهم البطَّال وأسر قسطنطين .

وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى ، فبلغ قَيْسارية .

وفى سنة [١١٥ هـ] خمس عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام أَرْضَ الروم .

وغزا أيضا الصائفةَ فى سنة [١١٦ هـ] ست عشرة . وفى سنة [١١٧ هـ] سبع عشرة غزا معاوية[٣] بن هشام الصائفة اليسرى ، وسليمانُ بن هشام الصائفةَ اليمنى من نَحْو الجزيرة ، وفَرَّقَ سرايَاه فى أَرْض الروم .

وبعث مَرْوان بن محمد ، وهو على إرْمينية بَعْثَيْن ؛ فافتتح أَحدُهما

---

(١) اللكز – بالفتح ثم السكون وزاى : بليدة خلف الدربند تتاخم خزران (ياقوت) .

(٢) شروان : مدينة من نواحى باب الأبواب (ياقوت) . وفى الأصول : سروان – بالسين المهملة . وفى ياقوت : سروان : مدينة صغيرة من أعمال سجستان .

(٣) فى د : سليمان . والمثبت فى الطبرى والكامل .

حصونا ثلاثةً من اللّان ، ونزل الآخر على تُومان شَاه ، فنزل أهلُها على الصُّلْح .

وفى سنة [١١٨ هـ] ثمان عشرة [ومائة] [١] غَزَا معاويةُ وسليمان ابنا هشام بن عبْد الملك أرْض الروم .

وغزا مَرْوَان بن محمد من إرمينية، ودخل أرْضَ ورتيس [٢] من ثلاثة أبواب ، فهرب ورتيس [٢] إلى الخَزَر ، وترك حِصْنَه ، فحصره مرْوَان ، ونصب عليه المجانيق ، واتفق قَتْل ورتيس [٢] ، قَتَلَه بعْضُ من اجْتَازَ به ، وأرسل رأسَه إلى مرْوَان ، فنصبه لأَهْلِ حِصْنِه ، فنزلوا على حُكْمه ، فقَتَلَ المُقَاتِلَةَ وسبَى الذرِّيَّةَ ...

ذكر ظفر المسلمين بالترك

وقتل خاقان ملك الترك

وفى سنة [١١٩ هـ] تسع عشرة ومائة كانت الحَرْب بين أسد ابن عبْدِ الله القَسْرِى أمير خُراسان وبين خَاقَان ملك التُّرْك .

وسبب ذلك أنَّ الحارثَ بن مُريج كان قد خُلع بخراسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى حوادث السنين ، وولى أَسَدخراسان على ما نَذْكُره إن شاء الله ، فكتب الحارث إلى خَاقَان يُعْلِمُه بضَعْف أسد وقِلَّةِ أصحابِه ، ويستَدْعيه لحَرْبِهِ .

فأقبل خاقَان، وقطع النَّهْرَ إلى بلْخ ، فلقيه أسد، فاقتتلوا قتالا شديدًا ، فظفر المسلمون بالتُّرْكِ ، وهزموهم أقْبَح هزيمة ، وغنموا

(١) زيادة فى د بين السطور .

(٢) فى الكامل : ورتيس : والمثبت فى ك ، د .

أَمْوالَهم وخُيُولَهم وأَثْقالَهم ، وقَتَلُوا منهم مقْتَلةً عظيمة ، وأَرَاد خصىّ لخاقان حَمْلَ امرأَةِ خاقان فأَعجلُوه فقتَلها ، ومضى خاقانُ إلى طَخَارِسْتَان ثم إلى بلادِهِ . وحمل الحارث وأَصحابه على خمسة آلاف برْذَوْن ، واستعدَّ لِغَزْو المسلمين ، فلاعَب خاقانُ يوما كور صُولَ بالنَّرْدِ على خَطَر ، فتنازعا ، فضرب كور صول يدَ خاقان فكسرها وتنحَّى عنه ، وجمع جمْعًا ، وبلغه أَنَّ خاقان قد حلف ليكسرنَّ يَده ؛ فبيّت خاقانَ فقتله ، وتفرَّقَت التركُ واشتغلوا بأَنفسهم ، وأَرسل أَسَد إلى هشام بن عبد الملك يُخْبرهُ بالفتح وبقَتْل خاقان ، فلم يصدق ذلك . وأَرسل[1] مُبَشّرًا آخر فوقف على باب هشام وكبَّر ، فأَجابه هشام بالتكبير . فلما انتهى إليه أَخبره بالفتح ، فسجد شكرًا لله تعالى .

وفيها غزا أَسد بن عَبْد الله أَمير خراسان الخُتَّل[2] ، فقتل بدرُ طرخان [ملك الخُتَّل][3] ، وغلب على القَلْعَة العظمى ؛ وفرّق عساكره فى أَوْدية الخُتَّل ، فملَئُوا أَيديهم من الغنائم والسبى ؛ وهرب أَهلُها إلى الصين .

وغزا الوليد بن القَعْقَاع أَرْضَ الروم .

وغَزَا مَرْوَان بن محمد من إرمينية فدخل بلادَ الَّلان ، وسار فيها

---

(١) فى د : ثم أرسل .

(٢) الختل — بضم أوله وتشد يد ثانيه وفتحه : كورة واسعة كثيرة المدن ؛ وهى على تخوم السند (ياقوت) .

(٣) من الطبرى .

حتى خرج منها إلى بلاد الخَزَر ، فمرّ ببَلَنْجر وسَمَنْدَر [١] ، وانتهى إلى البَيْضَاء التى يكون فيها خاقان ، فهرب خاقان منه .

وفى سنة [١٢٠ هـ] عشرين ومائة غزا سليمانُ بن هشام بن عبْد الملك الصائفة وافتتح سندرة .

وغزا إسحاق بن مسلم العقيلى تُومان شاه وافتتح قِلَاعَه وخرَّب أرْضَه .

ذكر غزوات نصر بن سيار ما وراء النهر

وفى سنة [١٢١ هـ] إحدى وعشرين ومائة غزا نصر بن سيّار ما وراء النهر مرّتين : إحداهما من نحو الباب الجديد ، فسار [٢] من بَلْخ ، ثم رجع إلى مَرْو ، فخطب الناس ، وأخبرهم أنه قد أقام منصور بن عمر بن أبى الخَرْقاء على كَشْفِ المظالم ، وأنه قد وضع الجِزْيَة عمَّنْ أسلم ، وجعلها على منْ كان يخفِّف عنه من المشركين ، فلم تمض جُمْعة [٣] حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدُّون الجِزْية عن رءُوسهم ، وثمانون [٤] ألفا من المشركين كانت الجِزْيَةُ قد وُضِعَت عنهم ، فحوَّل ما كان على المسلمين عليهم ، ثم صنَّف الخراج ووضعه مواضِعَه .

ثم غزا الثانية إلى وَرَغْسَر [٥] وسَمَرْقَنْد .

(١) فى د : سمند . والمثبت فى فتوح البلدان . وفى ياقوت : سمندر — بفتح أوله وثانيه ثم سكون ودال مفتوحة وآخره راء : مدينة خلف باب الأبواب من أرض الخزر .

(٢) فى ك : سار .

(٣) فى الطبرى : فما كانت الجمعة الثانية .

(٤) فى ك : وثلاثون . والمثبت فى الطبرى والكامل .

(٥) فى د : ارزغشر ، والمثبت فى الطبرى والكامل . وهى من قرى سمرقند عندها مقاسم مياه الصغد وغيره (ياقوت) .

ثم غزا الثالثة إلى شاش مِنْ مَرْو ، فحال بينه وبين عُبُور نهر الشاش كورصول فى خمسة عشر ألفا ، وكان معهم الحارث بن سُرَيْج[1] ، وعبر كور صول فى أربعين رجلا فبيَّت العَسْكَر فى ليلةٍ مظلمة ، ومع نصر بخارى خذاه فى أهْلِ بخارى ، ومعه أهل سمرقند وكشّ ونسف ، وهم عشرون ألفا ، فنادى نَصْر : ألَا لايخرجنَّ أحدٌ ، واثْبتُوا على مواضعكم .

فخرج عاصم بن عمير - وهو على جُنْدِ سمرقند - فمرَّت به خَيْلُ الترك ، فحمل على رجُل فى آخرهم فأسره ، فإذا هو ملكٌ من ملوكهم صاحبُ أربعة آلاف قُبَّة ، فأتى به إلى نَصْر ، فقال له نصر : منْ أنْت؟ قال : كور صول . قال : الحمد لله الذى أمْكَنَ منك ياعدُوَّ الله. قال : ما ترجو مِنْ قَتْلِ شيخ ، وأنا أعطيك أربعة آلاف بَعِير من إبل الترك وألف بِرْذَوْن تُقَوِّى به جُنْدك ، وتطلق سبيلى .

فاستشار نَصْر الناس ، فأشاروا بإطلاقه ، فسأله عن عُمره قال : لا أدْرى . قال : كم غَزَوْت ؟ قال : ثنتين وسبعين غَزَاة . قال : أشَهِدْتَ يَوْمَ العطَش ؟ قال : نعم. قال : لو أعطَيْتَنى ما طلعَتْ عليه الشمسُ ما أفلَتَّ من يَدِى بعْد ما ذكرت من مشاهِدِك .

وقال لعاصم بن عُمير السغدى[2] : قُمْ إلى سلَبه فخُذْه . فقال : مَنْ أسرنى ؟ قال : نصر - وهو يضحك - أسرك يزيد بن قِرَّان[3] الحنْظَلى ، وأشار إليه . قال : هذا لا يستطيعُ أن يغْسل اسْتَه ، أو لايستطيع أن يتم بَوْله ، فكيف يأْسِرنى؟ أخْبِرنى مَنْ أسرَنى ؟ قال :

(١) فى ك : شريح . والمثبت فى الطبرى والكامل .
(٢) فى الكامل : السعدى .
(٣) الضبط فى د . وفى الطبرى بضم القاف .

أسرك عاصم بن عمير. قال : لستُ أجِد ألَم[1] القَتْلِ إذا أسَرنى فَارِسٌ من فُرْسانِ العرب .

فقتله وصَلَبه على شاطىء النهر ، فلما قُتل أحرقت الترك أبْنِيتَه ، وقطعوا آذانَهم وشعورَهم وأذناب خيولهم .

فلما أراد نَصْر الرجوعَ أحرقه لئلا يحملوا عِظَامه ، فكان ذلك أشدَّ عليهم من قَتْلِه .

وارتفع إلى فَرْغانة فسبى منها ألْف رأس . وكتب يوسف ابن عمر الثقفى عاهلُ العراقَيْن إلى نَصْر بن سيَّار يأمره بالمسير إلى الشاش [2] لقتالِ الحارث بن سُريج ، فاستعمل نصْر يحيى بن حُصين على مقدمته ، فسار إلى الشاش ، فأتاهم الحارث ، وأغار الأخرم ، وهو فارسُ الترك ، على المسلمين فقتلوه ، وألقَوا رأسه إلى الترك ، فصاحُوا وانهزموا ، وسار نَصْر إلى الشاش فتلقَّاه ملكها بالصلح والهديّة والرُّهن ، فاشترط عليه إخراج الحارث بن سُريج من بلده ، فأخرجه إلى فَاراب[3] ، واستعمل على الشاش نَيْزَك بن صالح مَوْلَى عمْرو بن العاص ، ثم سار حتى نزل قُباء من أرض فَرْغَانة ، وكانوا قد علموا بمجيئه ، فأحرقوا الحشيش ، وقطعوا المِيْرة ، فوجَّه نَصر إلى ولى عهد صاحب فَرْغانة فحاصره فى حِصْنٍ ، فخرج وقد غَفَل المسلمون فَغنمَ دوابَّهم ، فوجَّه إليهم نَصْرٌ رجالا من تميم ، ومعهم محمد بن المثنى ، فكايدهم

(١) فى الطبرى : لست أجد مس القتل .

(٢) الشاس : من بلاد الترك (البكرى) .

(٣) فاراب : ولاية وراء نهر سيحون فى تخوم بلاد الترك (ياقوت) .

المسلمون وأهملوا دوابهم وكمنوا لهم ، فخرجوا فاستَاقوا بعْضَها ، وخرج عليهم المسلمون فهزموهم ، وقتلوا الدِّهْقَان وأسروا منهم ، فكان فيمن أسر ابن الدّهقَان ، فقتله نَصْرٌ .

وأرسل نَصرٌ سليمان بن صول بكتاب الصُّلْح إلى صاحب فَرْغَانة ، فأمر به فأُدْخل الخزائنَ ليراها ، ثم رجع إليه ، فقال : كيف رأيتَ الطريق فيما بيننا وبينكم ؟ قال : سَهْلاً كثير الماء والمَرْعَى ، فكره ذلك ، وقال : ما أعلمك ؟ فقال سليمان : قد غَزوت غَرْشِتان[1] وغُور والخُتَّل وطَبِرستان ، فكيف لا أعلم ؟ قال : فكيف رأيْت ما أعدَدْنَا ؟ قال : عُدَّة حَسنة ، ولكن أما علمْت أنَّ المحصور لا يسلم من خِصَال ؟ [قال : وما هن ؟ قال :][2] لا يأْمَنُ أقرب الناسِ إليه ، وأوثقهم فى نفسه ، أو يَفنى ما جمع ، فيسلم برمته ، أويصيبه داءٌ فيموت .

فكره ما قاله له ، وأمره فأحضر كتاب الصلح ، فأجاب إليه ، وسير أُمَّه معه ، وكانت صاحبةَ أمْرِهِ ، فقدمت على نَصْر فكلَّمها فكلمَتْه ، وكان فيما قالت [له][3] : كلُّ مَلِكٍ لاتكون عنده ستة أشياء فليس بملك : وزير يُبثُّ إليه ما فى نفسه ، ويُشاوِره ويثِقُ بنصيحته . وطبّاخ إذا لم يشْتَهِ الطعام اتَّخذ له ما يشتهى ، وزوجة إذا دخل عليها مُغْتَمًّا فنظر إلى وجهها زال غمّه ،

(١) غرشتان — بالفتح ثم السكون وشين معجمة مكسورة وسين مهملة وتاء مثناة من فوق ، وآخره نون. ويقال غرستان : ناحية واسعة كثيرة القرى (ياقوت) . وفى الطبرى : غرشستان .

(٢) زيادة فى الطبرى .

(٣) ليس فى ك .

وحصْنٌ إذا فزِع أتاه فأنجاه - تعْنى البِرْذَون - وسيف إذا قاتل لم يَخْشَ خيانته . وذخيرة إذا حملها عاش بها أيْنَ كان من الأرض .

ودخل تميم بن نَصْر فى جماعة ، فقالت : مَنْ هَذَا ؟ قالوا : هذا فتى خُرَاسان تميم بن نصر . قالت : ماله نُبْل الكبير ، ولا حلاوة الصغير .

ثم دخل الحجاج بن قُتيبة ، فقالت : مَنْ هذا ؟ قالوا : الحجاج بن قُتيبة ، فحيَّتْه ، وسألت عنه ، وقالت : يامعشر العرب ، ما لكم وفاءٌ ، ولا يصلح بعضكُم لبعض ، قُتيبة الذى ذلَّل لكم ما أرى ، وهذا ابنُه تُقْعده دونك ، فَحَقُّه [1] أن تُجلسه أنت هذا المجلس وتجلس أنْتَ مَجْلسه .

ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان

وفى سنة [١٢١ هـ] إحدى وعشرين أيضا غزا مرْوان بن محمد من إرْمِينية وهو وَاليها ، فأتى قلعةَ بيت السَّرِير فقَتَل وسَبَى ، ثم أتى قلعة ثانية [2] فقتل وسَبى ، ودخل غر مسك [3] ، وهو حصْنٌ فيه بيتُ الملك وسريره ، فهرب الملكُ منه إلى حصْن خَيْزَج [4] ، وهو الذى فيه السرير الذهب ، فسار إليه مَرْوَان ونازله صيْفَةً وشتوةً [5] ، فصالحه الملكُ على ألْفِ رأس فى كل سنة ، ومائة ألف

(١) فى ك : بحقه ..
(٢) فى ك : بانيه . والمثبت فى الكامل أيضا .
(٣) فى الطبرى : غوميك . وفى الفتوح : غوميل . والمثبت فى الكامل، د
(٤) خيزج : من رساتيق الجبل (البكرى) .
(٥) فى الكامل : صيفيته وشتويته .

مُدى ، وسار مرْوان فدخل أرض أرْزو بطران[١] ، فصالحه ملكها . ثم سار فى أرض تُومان فصالحه وسار حتى أتى حمزين ، فأخْرَب بلادَه ،وحصَر حِصْنًا له شهرا فصالحه .

ثم أتى مرْوان أرض مسدار[٢] ، فافتتحها على صُلْح ، ثم نزل كِيْران[٣] فصالحه طبرسران[٤] وفِيْلان ، وكلُّ هذه الولايات على شاطىء البحر من أرمينية إلى طبرستان .

وفيها غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير .

وفى سنة [١٢٤ هـ] أربع وعشرين غزا سليمان بن هشام الصائفةَ فلقى أليُون ملك الروم فغنم .

هذا ما أمْكَن إيراده من الغزوات والفتوحات فى أيام هشام فلنذكر حوادث السنين فى أيامه .

سنة (١٠٦ هـ) ست ومائة :

ذكر ولاية أسد خراسان

فى هذه السنة استعمل خالدُ بن عبْد الله القَسْرى أخاه أَسَدًا على خُرَاسان ، فقدمها ومُسلم بن سعِيد بفَرْغانَة ، فلما أتى أسدٌ النهْرَ ليقْطَعه منَعهُ الأشهب بن عُبيدٍ التميمى ؛ وكان على السفُن

---

(١) أرز — بالفتح ثم السكون وراء : بليدة من أول طبرستان من ناحية الديلم وبها قلعة حصينة (ياقوت) .

(٢) فى الكامل : مسدارة . وفى النجوم الزاهرة : مسدار .

(٣) كيران : مدينة بأذربيجان ، بين تبريز وبيلقان (المراصد) .

(٤) فى فتوح البلدان : طبر سراف . والمثبت فى ك ، د ، والكامل .

بامُل ، وقال : قد نُهيت عن ذلك ، فأعطاه ولاطَفه ، فأبى . قال : فإنى أمير ، فأذن له ، فقال أَسَد : اعرفُوا هذا حتى نشركه فى أمانتنا .

وأتى الصُّغْد فنزل بالمَرْج ، وعلى سمَرْقند هانىء بن هانىء ، فخرج فى الناس للِقَاء أَسَدٍ ، فرآه على حجر ، فقال[1] الناس : ما عند هذا خير ، أسد على حجر ، ودخل سَمَرْقند وعزَلَ هانئًا عنها ، واستعمل عليها الحسن بن أبى العَمَرَّطَة[2] الكندى ، ثم كان مِنْ عزْل أسد ما نذكره إن شاء الله .

وفيها استعمل هشام الحر بن يوسف بن يحيى بن الحَكَم ابن أبى العاص بن أُمية على الموصل ، وهو الذى عمل النَّهر الذى كان بالموصل .

وسببُ ذلك أنه رأى امرأةً تحمل جَرَّةً فيها ماء ، وهى تحملُها ساعةً ثم تستريح قليلا لبُعْد الماء ، فكتب بذلك إلى هشام ، فأمره أن يحفر نَهْرًا إلى البلد ، فحفره ، وبقى العمل فيه عِدَّة[3] سنين ومات الحرّ سنة (١١٣ هـ] ثلاث عشرة ومائة .

وفى سنة ست أيضا عزل هشام عَبْد الواحد النَّضْرى عن مَكَّة والمدينة والطائف ، وولَّى ذلك كله[4] إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، فقدم المدينة فى جمادى الآخرة .

وكانت ولاية النَّضْرى سنة وثمانية أشهر .

---

(١) فى الكامل : فتفاءل الناس وقالوا ...

(٢) انظر هامش رقم ٥ صفحة ٤٠٧

(٣) فى ك : مدة .

(٤) فى الكامل ، والطبرى : خاله .

[وفيها] (١) استقضى إبراهيمُ بنُ هشامٍ على المدينة محمد بن صَفْوَان الجُمحى (٢) ، ثم عزله ، واستقضى الصَّلْت الكِنْدىّ ، وكان العاملُ على العِرَاق وخُرَاسان خالد بن عَبْد الله القَسْرى البَجَلى ، وكان عاملَ خالد على البَصْرة عُقْبةُ بن عبد الأعلى على الصلاة . وعلى الشرطة مالك بن المنذر بن الجارُود ، وعلى القضاء ثُمَامة بن عَبْد الله بن أنس .

وحجّ بالناس فى هذه السنة هشام بن عبد الملك .

سنة (١٠٧ هـ) سبع ومائة :

فى هذه السنة كان مِنْ خبَرِ دُعَاة بنى العباس ما نذكره إن شاء الله فى أخبار الدولة العبّاسية .

وفيها عزل هشام الجرّاح بن عَبْدِ الله الحكَمى عن إرمينية وأذْرَبيجان ، واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عَبْد الملك ، فاستعمل عليها الحارث بن عمْرو الطائى ، فافتتح من بلادِ الترك رُستاقاً وقُرًى كثيرة ، وأثَّر أثرًا حسنًا .

وفيها نقل أسد منْ كان بالبرُوقَان (٣) إلى بلَخْ من الجند ، وأقطع من كان بالبَرُوقان بقَدْر مسكنه ، ومنْ لم يكن له مسكن أقطعه مسكنا ، وأراد أن يُنْزِلهم على الأخماس ، فقيل له :

---

(١) زيادة فى الكامل .

(٢) فى ك : الحميمى . والمثبت فى الكامل والطبرى أيضا .

(٣) بروقان – بقاف ونون : قرية من نواحى بلخ (ياقوت) .

إنهم يتعصَّبُون ؛ فخلَّى بينهم ، وتولَّى بناء مدينة بَلخ برمك ، وهو أبو خالد بن برْمك ، وبينها وبين البرُوقان فرسخان .

وحجَّ بالناس فى هذه السنة إبراهيم بن هشام .

سنة (١٠٨ هـ) ثمان ومائة :

فى هذه السنة كان مِنْ خَبر شيعة بنى العباس ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها وقع الحرِيق بدَابِقَ ، فاحترق المرْعَى والدوابّ والرجال .

وفيها خرج عبّاد الرُّعَينى [1] باليمَن مُحكِّما فقَتَلَه أَمِيرُها يوسف بن عمرو [2] ، وقتل أصحابَه وكانوا ثلاثمائة .

وحج بالناس فى هذه السنة إبراهيم بن هشام .

وفيها مات محمد بن كعب القُرظى ، وقيل سنة سبع عشرة . وقيل : إنه وُلد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سنة (١٠٩ هـ) تسع ومائة :

فى هذه السنة عُزِل أَسَدُ بن عبْد الله القسرى عن خراسان ، وسبب ذلك أنه ضرب نَصْر بن سَيار ونَفَرًا بالسياط ، منهم عبد الرحمن بن نُعيم وسَورة بن الحُرّ والبخْتَرِى بن أبى دِرْهم ، وعامر بن مالك الحِمَّانى ، وحَلقهم وسيّرهم هو إلى أخيه ،وكتب إليه : إنهم أرادُوا الوُثوب بى .

فلما قدموا على خالد لَام أَسَدا وعنَّفَه ، وقال : ألا بَعثَ إلىَّ برُؤُسهم .

وخطب أسدٌ يوما ، فقال : قَبَّح اللهُ هذه الوجوه وجوه

(١) الضبط فى اللباب . (٢) فى الكامل : عمر

أهل الشقاق والنِّفَاق والشَّغب والفَساد ،اللهم فَرِّقْ بينى وبينهم ، وأَخْرِجْنى إلى مُهَاجرى ووطَنِى .

فبلغ فِعْلُه هشام بن عبْد الملك ، فكتب إلى خالد : اعْزِل أخاك ، فعزله ، فرجع إلى العِرَاقِ فى رمضان من السنة ، واستخلف على على خرَاسان الحَكَم بن عَوانة الكلبى ، فأقام الحكَمُ صيفيته فلم يغزُ ، ثم استعمل هشام أشرسَ بْنَ عَبْد الله السلمى على خراسان ، وأمره أنْ يُكَاتِب خالدا ، وكان أشرسُ فاضلا خَيِّرا ، وكانوا يسمونه الكامل لفَضْلِه .

فلما قدم خراسان فَرِح الناس به ، واستقضى أبا المنازل الكندى ، ثم عزله واستقضى محمد بن يزيد .

وحجَّ بالناس فى هذه السنة إبراهيم بن هشام ، فخطب الناس ، فقال : سَلُونى ، فإنكم لا تسألونَ أحدًا أعْلَم منى ، فسألَهُ رجلٌ من أهل العِراق عن الأُضحية أوَاجبةٌ هى ؟ فما دَرى ما يقول : فنزل .

سنة (١١٠ هـ) عشرة ومائة :

فيها جمع خالد القَسْرِى الصلاةَ والأحداث والشرط. والقضاء بالبصْرَة لبِلال بن أبى بُرْدة : وعزل ثُمامة عن القضاء .

وحجّ بالناس إبراهيم بن إسماعيل .

وفيها مات الفرزدق الشاعر ، وله إحدى وتسعون سنة .

ومات جرير بن الخطَفَى الشاعر .

سنة (١١١ هـ) احدى عشرة ومائة :

فى هذه السنة كان عَزْل أشرس عن خُرَاسان واستعمال الجُنَيْد ابن عبد الرحمن ؛ وقد تقدم ذكر ذلك فى الغَزَوَات .

وفيها استعمل هشام الجرَّاح بن عبْد الله الحَكَمى على إرمينية ، وعزل أخاه مسلمة كما تقدم .

وحج بالناس إبراهيم بن هشام المخزومى .

سنة (١١٢ هـ) ثنتى عشرة ومائة :

حج بالناس فى هذه السنة إبراهيم بن هشام المخزومى . وقيل. سليمان بن هشام بن عبد الملك . والله أعلم .

سنة (١١٣ هـ) ثلاث عشرة ومائة :

فى هذه السنة قُتِل عَبْد الوهاب ابن بُخْت [1] ، وكان قد غزا مع البطَّال أرضَ الرُّوم ، فانهزم الناسُ عن البطَّال ، فحمل عبدْ الوهاب ، وهو يقول : ما رأيت فَرَسًا أجبَن منك ، وسفك الله دمى إنْ لم أسفك دَمَك ، ثم ألْقَى بيْضَتَه عن رأسه ، وصاح : أنا عبد الوهاب ! مِنَ الجنَّةِ تَفرُّون !

ثم تقدم فى نحو العدو ، فجاء برجل وهو يقول : واعطشاه ! فقال : تقدم ، الرِّىّ أمامك ، وخالط القوم فقُتل وقُتِل فرسه .

وحجّ بالناس فى هذه السنة سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقيل إبراهيم بن هشام المخزومى ، والله أعلم .

سنة (١١٤ هـ) اربع عشرة ومائة :

فى هذه السنة كانت ولاية مَرْوَان بن محمّد بن مروان إرْمِينية وأذْرَبيجان ، وقد تقدم ذكر ذلك فى الغزوات .

(١) بضم أوله وسكون الخاء المعجمة بعدها مثناة (القاموس) .

وفيها عزل هشامٌ إبراهيم بنَ هشام المخزومى عن المدينة ، واستعمل عليها خالدَ بْنَ عبد الملك بن الحارث بن الحكم فى رَبيع الأول ، فكانت إمْرة إبراهيم على المدينة ثمانى سنين ، وعزَلَه أيضا عن مكَّةَ والطائف ، واستعمل على ذلك محمد بن هشام المخزومى .

وحجَّ بالناس خالدُ بْنُ عَبْد الملك بن الحارث وقيل : محمد ابن هشام .

وفيها توفى محمد بن على بن الحُسين البَاقِر . وقيل سنة خمس عشرة .

سنة (١١٥ هـ) خمس عشرة ومائة :

حجَّ بالناس فى هذه السنة محمد بن هشام المخزومى ، وكان الأمير بخُراسان الجُنَيْد . وقيل : بل كان قد مات ، واستخلف عمارة بن خُريم المُرّى . [والله أعلم] (١) .

سنة (١١٦ هـ) ست عشرة ومائة :

فى هذه السنة عُزل الجنيد عَنْ خُراسان .

وسببُ ذلك أنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب ، فغضب هشام ؛ واستعمل عاصم بن عبْد الله بن يزيد الهلالى على خُرَاسان ، وكان الجُنَيْد قد سُقِى بطْنُه ، فقال هشام لعاصم : إنْ أدْركْتَه وبه رَمق فأزْهقْ نفسه .

فقدم عاصم وقد مات الجُنَيْد ، واستخلف عمارة بن خُريم وهو ابْنُ عمه ، فعذَّبه عاصم ، وعذَّب عمال الجُنَيْد لعَداوةٍ كانت بينه وبين الجُنَيْد ...

---

(١) من د .

ذكر خلع الحارث بن سريج [١] بخراسان

وما كان من أمره

وفى هذه السنة خلع الحارثُ بن سُريج وأقبل إلى الفارِياب[٢] فأرسل إليه عاصم رسُلا . منهم مقاتل بن حيّان النَّبطى ، والخطاب ابن مُحْرز السلمى ، فقالا لمن معهما : لا نَلْقَى الحارث إلاَّ بأمانٍ ، فأبى القومُ عليهما وأتوه ، فأخذهم الحارث وحَبسهم ، ووكل بهم رجُلاً فأَوْثَقُوه ، وخرجُوا من السجن ، فركبوا وعادُوا إلى عاصم ، فأمرهم فخطبوا وذَمُّوا الحارثَ ، وذكروا خُبْثَ سِيْرتِهِ وغَدْرَه ، وكان الحارث قد لبس السَّواد ، ودعا إلى كتابِ الله وسُنَّةِ نبيه والبيْعةِ للرضا ، فسار من الفَارِياب[٢] ، وأتى بلْخ ، وعليها[٣] نصر بن سيار والتُّجيبى ، فلقِياهُ فى عشرة آلاف وهو فى أربعة آلاف ، فقاتلهما ، فانهزم أهل بلخ .

وتبعهم الحارث ، فدخل مدينة بَلْخ ، وخرج نَصْر بن سيّار منها ، وأمر الحارث بالكف عنهم ، واستعمل عليها رجلاً من ولد عبْد الله ابن خازم ، وسار إلى الجُوزْجَان فغلب عليها وعلى الطالِقَان ومرْو الرُّوذ . فلما كان بالجُوزْجان استشار أصحابه فى أى بلدٍ يقْصِد . فقيل له : مرْوُ بيْضَة خُراسان وفُرْسانهم كثير ، ولو لم يلقوك إلا بعَبِيدهم لانْتَصفُوا منك ، فأقم ، فإن أتَوْك فقاتِلْهُمْ ، وإن أقاموا قطعْت المادَّة عنهم .

---

(١) فى ك : شريح .

(٢) فى د : القاريات . والمثبت فى الكامل، والطبرى .

(٣) فى الطبرى : وكان عليها التجيبى بن ضبيعة المرى ونصر بن سيار

قال: لا أرى ذلك ؛ وسار إلى مرْو ، فأقبل إليها يُقَالُ فى ستين ألفا ، ومعه فُرسان الأَزْدِ وتميم ، منهم محمد بن المثنَّى ، وحمّاد ابن عامر الحِمَّانى ، وداود الأعسر ، وبشر بن أُنيف الرياحىّ ، وعطاء الدبوسى .

ومن الدهاقين دِهْقَان الجُوزْجان ، ودِهْقَان الفَارِياب[1] ، وملك الطالِقَان ودِهقَان مَرْو الرُّوذ فى أشباههم ، وخرج عاصمٌ فى أهل مَرْو وغيرهم ، فعسْكَر وقطع القناطر ، وأقبل أصحابُ الحارث فأصلحوها ؛ فمال محمد بن المثنَّى الفَرَاهِيدى الأَزدى إلى عاصم فى ألفين ، فأتى الأَزد ؛ ومال حمّاد بن عامر الحِمَّانى إليه ، فأتى بنى تميم، وأتى الحارثُ وعاصم فاقتتلوا قتالا شديدًا ، فانهزم أصحابُ الحارث ، فغرق منهم بشَرٌ كثير ، فى أنهار مرْو وفى النَّهْر الأعظم ؛ ومضت الدهاقِينُ إلى بلادِهم ، وغرق خازم[2] بن عَبْد الله بن خازم ، وكان مع الحارثِ . وقُتِل أَصْحاب الحارِث قَتْلاً ذَرِيعًا ، وقطع الحارث وادِى مَرْو ، فضرب رواقًا عند منازل الدَّهَاقين ، وكَفَّ عنه عاصم[3] ؛ واجتمع إلى الحارث زُهَاء ثلاثة آلاف ، ثم كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها عزل هشامٌ عَبْد الله بن الحبْحاب عنْ ولاية مِصْر ، واستعمله على إفريقية .

وقيل : كان ذلك فى سنة [١١٧هـ] سبع عشرة ومائة .

وحجّ بالناس فى هذه السنة الوليد بن يزيد بن عبد الملك . والله أعلم.

---

(١) فى د : القاريات ، وهو تصحيف كما تقدم .

(٢) فى الطبرى : وغرق خازم بن موسى بن عبد الله بن خازم .

(٣) فى الطبرى : ولو ألح عليه لأهلكه .

سنة (١١٧ هـ) سبع عشرة ومائة :

ذكر عزل عاصم عن خراسان

وولاية أسد وخبر الحارث بن سُرَيج

فى هذه السنة عزل هشامُ بن عبد الملك عاصم بْنَ عَبْد الله عن خُراسان ، وضَمَّها إلى خالد بن عبْد الله القَسْرى أمير العراقين ، فاستعمل عليها خالدٌ أخاه أَسَد بن عبْد الله .

وكان سبب ذلك أنَّ عاصمًا كتب إلى هشام : أما بعد فإن الرائد لايَكْذِبُ أَهْلَه ، وإن خُراسان لاتَصْلُح إلَّا أنْ تُضَمّ إلى العراق[1] وتكون معُونَتها ومَوَادها[2] من قريبٍ ، لتباعد أمير المؤمنين [عنها] [3] وتباطىء غِياثه [عنها] [3] ، فضمّ هشام خراسان إلى خالد بن عَبْد الله ، وكتب إليه : ابعَثْ أخاك يُصلح ما أفسد ؛ فإنْ كانت رجية كانَتْ به .

فسيَّر خالد [إليها] [4] أخاه أسدًا ، فلما بلغ عاصمٌ إقبال أسد ، وأنه قدبعث على مقدمته محمدبن مالك الهمْدانى صالح الحارثَ ابن سُريج ، وكتبَا بينهما كتابًا ، على أن ينزل الحارثُ أىّ كُوَر خُراسان شاء ،وأن يكتبا جميعا إلى هِشَام يسْأَلانه كتابَ الله وسنَّةَ نَبِيه ، فإنْ أَبَى اجتمعا عليه .

فختم على الكتاب بعْضُ الرؤساء ، وأبى يَحْيَى بن حُضَيْن بن المنذر أن يختم ، وقال : هذا خَلْعٌ لأمير المؤمنين فانفسح ذلك .

(١) فى الطبرى : إلى صاحب العراق .
(٢) فى د : فتكون موادها ومعونتها .
(٣) من الطبرى .
(٤) ساقط فى ك .

وكان عاصم بقَرْيَة بأعلى مَرْو ؛ فأتاه الحارث بن سُريج فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم الحارث ، وأُسِر جماعةٌ من أصحابه ، منهم : عبد الله بن عمْرو المازنى رأْس أهلِ مرْو الرُّوذ ، فقتل عاصمٌ الأسرى ، وعَظَّم أهْلُ الشام يحيى بن حُضَين لِما صنَع فى نَقْضِ الكتاب ، وكتبوا كتابا بما كان وبهزيمةِ الحارث وبعثوه إلى أَسَد ، فلقيه بالرَّى وقيل ببيْهَق(١) .

فكتب أسد إلى أخيه خالد ينتحلُ أنه هزم الحارثَ ، ويُخبره بأمْر يحيى ، فأجاز خالد يحْيَى بعشرة آلاف دينار ومائة حُلَّة ، وحَبَس أسدٌ عاصما وحاسَبهُ وطلَب منه مائةَ ألف درهم ، وقال : إنكَ لم تَغْزُ ، وأطلق عُمَّال الجُنَيْد ، وقدم أسد ولم يكن لعاصمٍ إلا مَرْو ونَيْسابور ، والحارث بمَرْو الرُّوذ ، وخالد بن عُبَيْدَ الله الهجرىّ بِآمُل موافق للحارثِ ، فخاف أسد إنْ قصد الحارَث بمرْو الرُّوذ أنْ يأْتىَ الهجرى مَرْو من قِبل آمُل ، وإنْ قَصَد الهجَرى قصد الحارث مَرْو من قبل مرْو الروذ ، فأجمع رأيه على تَوْجيه عبد الرحمن بن نُعيم فى أهل الكوفة والشام إلى الحارث بمَرْو الروذ ، وسار أَسَد بالناس إلى آمُل ، فلقيه خَيْل آمُل ؛ عليهم زِيَاد القُرشى مولى حَيّان النبطى وغيره ، فهُزِموا حتى رجعوا إلى المدينة ، فحصرهم أَسَد ، ونصب عليهم المجَانِيق ؛ فطلبوا الأمان ، وطلبوا كتابَ اللهِ وسنَّةَ نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، وألَّا يُؤخذ أهْلُ المدن بجِنَايتهم ، فأجابهم أَسَد إلى ذلك ، واستعمل عليهم يحيى ابن نُعيم بن هُبَيْرة الشيبانى ؛ وسار يريد بلْخ ، فأُخبر أنَّ أهلَها قد

(١) بيهق : ناحية كبيرة وكورة واسعة من نواحى نيسابور تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية (ياقوت) .

بايعُوا سليمان بن عبْد الله بن خازم ، فسار حتى قدمها ، واتَّخَذَ سُفُنا ، وسارمنها إلى ترْمذ ،فوجد الحارثمُحاصِرًا لها ، وبها سِنَان الأعرابى ، فنزل أَسَد دُونَ النهر ، ولم يُطق العُبُورَ إليهم ، ولا أَنْ يُمِدَّهُم ، وخرج أهل تِرْمِذ من المدينة ، وقاتلوا الحارث قِتَالاً شديدًا ، فاستطرد الحارثُ لهم ، وكان قد وضع كَمِينًا ، فلما جاوزُوه خرج عليهم ، فانهزموا .

ثم ارتحل أسدٌ إلى بَلْخ ، ثمخرج أَهْلُ تِرْمِذ إلى الحارث ،فهز موه . ثم سار أسد إلى سمَرْقَنْد فى طريق زُمّ[1] ، فلما قدم زُم بعث إلى الهيْثم الشيبانى وهو فى حِصْنٍ من حصونها – وهو ن أصحابِ الحارث – فأَمّنه ، ووعده المُواساةَ والكَرَامةَ والأَمَانَ لمَنْ مَعه ، وأقسم إنه إن ردَّ ذلك ورمى بسهْم ألَّا يؤمِّنَه[2] أبدًا ، وإنه إن جعل له ألْف ألْف أمان لايَفِى له .

فخرج إليه وسار معه إلى سمرْقَند ، ثم ارتفع إلى وَرَغْسرَ[3] – وماء سمرقند منها – فسكَرَ[4] الوادى ، وصرفه عن سمرْقَند . ثم رجع إلى بلْخ ، فلما استقرّ بها سرَّحَ جُدَيعًا الكرمَانى إلى القَلْعة التى فيها ثَقَلُ الحارث وأصحابه ، واسمها التبوشكان من

---

(١) زم – بضم أوله وتشديد الميم :قيل هى بئر لبنى سعد بن مالك . وقيل : ماء لبنى عجل فيما بين أدانى طريق الكوفة إلى مكة والبصرة (ياقوت) .

(٢) فى ك : لا يأمنه .

(٣) فى ك : وردغيس . والمثبت فى الكامل والطبرى . وفى ياقوت : ورغسر – بفتح أوله وثانيه وغين ساكنه وسين مهملة مفتوحة وراء : من قرى سمرقند .

(٤) فى ك : سكن . وسكر النهر : سده .

طَخَارستان العليا وفيها بنو بَرْزَى[1] التغلبيُّون أصهار الحارث ، فحصرهم الكَرْمانى حتى فتحها ، وذلك فى سنة [١١٨هـ] ثمان عشرة ، فقتل مقاتِلَتَهم ، وسبى عامَّةَ أهْلها من العرب والموالى والذَّرارى ، وباعهم فيمن يزِيد فى سوق بَلْخ .

قال : ونَقَم على الحارث أربعمائة وخمسون رجلا من أصحابه : وكان رئيسهم جرِير بن ميْمون القاضى ، فقال لهم الحارث : إن كنْتُم لابدَّ مُفَارقى فاطلبوا الأَمَان ، وأنا شاهِدٌ ، فإنهم يجيبونكم . وإن ارتحلْتُ قَبْل ذلك لم يعطوا الأمانَ . فقالوا : ارتحل أنْتَ عنا : وخَلِّنَا .

فأرسلوا يطلُبُون الأمانَ ، فأُخبر أَسَدٌ أنَّ القوم ليس لهم طعام ولا ماء ، فسرَّح إليهم أسدٌ جُديعًا الكَرْمَانى وستةَ آلاف ، فحصرهم فى القَلْعةِ وقد عطش أهْلُها ، وجاعوا ، فسألوا أنْ يَنْزِلُوا على الحكم : ويتركَ لهم نساءهم وأولادهم ، فأجابهم ، فنزلوا على حُكْم أَسَد .

فأرسل أَسَد إلى الكَرْمانى يَأْمرُه أن يُحْمل إليه خمسون رجلا من وجوههم ، فيهم المُهَاجر بن ميمون ، فحُمِلوا إليه فقتلهم ، وكتب إلى الكَرْمَانى أنْ يجعلَ الذين بَقُوا عنده أثلاثًا ، فثُلث يَقْتُلهم ، وثلث يقطع أيديهم وأرجلَهم ، وثلث يقْطَع أيديهم . ففعل ذلك بهم ، وأخرج أثْقَالَهم فباعهَا ، واتخذ أَسَد مدينة بَلْخ دَارًا ، ونقل إليها الدواوين ، ثم غزا طخارستان .

وحجّ بالناس فى سنة [١١٧هـ] سبع عشرة ومائة خالد بن عبد الملك.

---

(١) الضبط فى الطبرى .

سنة (١١٨ هـ) ثمان عشرة ومائة :

فى هذه السنة عزل هشام خالد بن عبْد الملك بن الحارث بن الحكم عن المدينة ، واستعمل عليها خالد بن محمد بن هشام بن إسماعيل ؛ وحجَّ بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل . وكان أمير المدينة .

سنة (١١٩ هـ) تسع عشرة ومائة :

ذكر قتل المغيرة وبيان

فى هذه السنة خرج المُغِيرة بن سعِيد وبَيَان فى ستَّةِ نَفَر ، وكانوا يسمون الوُصفاء ، وكان المغيرةُ ساحرًا ، وكان يقول : لو أردتُ أنْ أحيِى عادًا وثمود وقُرُونًا بين ذلك كثيرًا لفعلتُ . وبلغ خالدَ بنَ عبْد الله القَسْرِى خروجُهم بظَهْر الكوفة ، وهو يخطب ، فقال : أطعمونى ماء ، فقال يحى بن نوفل فى ذلك من أبيات[1] :

وقلتَ لِما أصابكَ أطْعِمُونى شرابًا ثم بُلْتَ على السرير
لأَعْلَاج ثمانيةٍ وشَيْخ كبيرِ السنِّ لَيْس بذِى نَصِير

فأرسل خالد فأخذهم وأمر بسريره فأُخرج إلى المسجد الجامع ، وأحرقهم بالقَصب والنِّفْط .

وكان مذْهب المُغيرة التجسيم ؛ يقول : إن ربَّه على صورةِ رجل على رأسه تاج ، وإنَّ أعضاءه على عدد حُرُوفِ الهجاء ؛ تعالى الله عن ذلك .

وكان يقول : إنَّ الله تعالى لما أراد أنْ يخلَقَ الْخَلْق تكلَّم باسْمه

(١) الشعر فى الطبرى : ٧ — ١٢٩ ، والكامل : ٤ — ٢٣٠

الأعْظَم ، فطار فوقع على تاجه ، ثم كتب بإصْبعه على كَفِّه أعمال عبادِه من المعاصى والطاعات ، فلما رأى المعاصى ارْفَضَّ عرقًا ، فاجتمع مِنْ عرقه بحْرانِ : أحدُهما مِلْحٌ مظلم ، والآخر عذْب نيِّر ، ثم اطَّلع فى الْبَحْر فرأى ظِلَّهُ فذهب ليأْخذه ، فطار فأدْركه فقلع عيْنى ذلك الظلّ ومحقَه ، فخلق من عيْنَيْه الشمس وشمسا أُخرى . وخَلَقَ مِنَ البحر المِلْحِ الكفَّار ، وخلق من البحْرِ العذْب المؤمنين .

وكان [لَعنَه الله[1]] يقول بإلَهية علىّ وتكْفِيرِ أبى بكْر وعُمر وسائر الصحابة رضى الله عنهم إلَّا من ثبت مع علىّ رضى الله عنه .

وكان يقول : إنَّ الأنبياء لم يختلفوا فى شىء من الشرائع .

وكان يقول بتحريم ماءِ الفُراتِ وكلِّ نَهْرٍ أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسةٌ .

وكان يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى أمثالُ الجراد على القبور .

وأما مذهب بَيَان فإنه كان يقول بآلهيَّةِ علىّ رضى الله عنه ، وإنَّ الحسنَ والحُسيْن إلَهان ، ومحمد ابن الحنفية بعْده ، ثم بعده ابْنُه أبو هاشم بن محمد بنوْع من التناسخ .

وكان يقول : إن الله تعالى يفْنَى جميعه إلا وجْهه ، ويحتج بقوله تعالى[2] : ﴿ويبْقى وجْهُ ربِّك﴾ . تعالى الله عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا .

وادَّعى النبوة ،وزعم أنه المراد بقوله عزَّ وجلَّ :﴿هذا بيانٌ للناس﴾[3] .

---

(١) ليس فى د .

(٢) سورة الرحمن ، آية ٢٧

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٣٨

ذكر خبر الخوارج فى هذه السنة

وفى هذه السنة خرج بُهْلُول بن بِشْر الملقَّبُ كُثَارة ، وهو من الموصل من شيبان ، وكان سبب مخْرجه أنه خرج يُريدُ الحجَّ ، فأمر غلامه أن يبتاعَ له خَلاًّ بدِرْهم ، فأتاهُ بخَمْرٍ فأمرهُ (١) بردِّه فلم يُجِبْه صاحبُ الخمر إلى ذلك ، فجاء بُهْلُول إلى صاحبِ القَرْيةِ وهى من السَّوادِ ، فكلَّمه ، فقال العامل : الْخَمْرُ خَيْرٌ منك ومِنْ قومك .

فمضى إلى الحج وقد عزم على الخروج ،فلقى بمكَّةَ مَنْ كان على مِثْل رأيه ، فاتَّعدُوا قريةً من قُرى الموصل ، فاجتمعوا بها – وهم أربعون رجُلا – وأمَّرُوا عليهم البُهْلول ، وكَتمُوا أمْرهم ، وجعلوا لايمُرُّون بعامل إلا أخبروه أنَّهم قدموا من عند هشام على بعْضِ الأعمال(٢) ، وأخذوا دوابَّ البريد .

فلما أتوا إلى القرية التى ابْتاع الغلامُ منها الخَمْر قال بُهْلول : نَبْدأُ بهذا العامل ، فقال أصحابُهُ : نحن نريد قَتْل خالد ، وإنْ بدأْنَا بهذا شُهرِ أمْرُنا ، وحذِرنا خالدٌ وغَيْرهُ ، فنَشَدْناك الله أن تَقْتُل هذا فيُفْلت منا خالدٌ الذى يهْدِمُ المساجدَ ، ويبْنِى البِيع والكنائس ، ويولى المجوسَ على المسلمين ، ويُنْكح أهْل الذمة المسلماتِ ، لعلَّنا نَقْتُله .

قال :والله لا أدعُ ما يلزمنى لما بعْده ، وأرجو أنْ أقْتُلَ هذا وخالدًا ، فأتاه فقتله .

فعلم الناسُ أنهم خوارج ، وهَربُوا ، وخرجت البُرُدُ إلى خالد فأعلموه بهم ، فخرج خالد من وَاسِط ، فأتى الحِيرة ، وبها جُنْدٌ قد قدموا

(١) فى ك : فأمر .

(٢) ك : العمال .

من الشام مَدداً لعامل الهِنْد ، فأمرهم خالدٌ بقتالهم ، وقال : منْ قَتَل منهم رجُلاً أعطيْتُه عطاءً سِوَى ما أخذ فى الشام ، وأعفَيتُهُ من الدخول إلى الهند .

فسارَعُوا إلى ذلك ، فتوجَّه مقدّمهم ، وهو من بنى القَيْن ، ومعه ستمائة منهم ، وضمَّ إليه خالد مائتين من الشرط ، فالتقوا على الفُرات ؛ فقال القَيْنى لمَنْ معه من الشّرط : لا تكونوا مَعَنا[1] ليكونَ الظَّفر له ولأَصْحابه .

وخرج إليهم بُهلول ، فحمل على القَيْنى فطعنَه فأنفذه ، وانهزم أَهْلُ الشام والشرط ، وتبعهم بُهْلول وأصحابُه يقْتُلونهم ، حتى بلغوا الكوفَةَ ، ووجد بُهلول مع القَيْنى بَدْرةً فأخذها .

وكان بالكوفة ستة يرون رأى[2] بُهلول ، فخرجوا فقتلوا بِصَرِيْفين[3] ، فخرج بُهْلول فقال : منْ قَتَل هؤلاء ، حتى أُعْطِيَهُ هذه البَدْرة ؟ فجاء نَفَرٌ فقالوا : نحن قَتَلْنَاهم ، وهم يظنُّونه من عند خالد ، وصدّقَهم أَهْلُ القرية ، فقتلهم ، وترك أَهْلَ القرية .

وبلغ خالدًا الخبر ، فوجَّه إليه قائدًا من شَيْبَان أحد بنى حَوْشب ابن يزيد بن رُوَيم ، فلقيه فيما بين الموصل والكوفة ، فانهزم أَهْلُ الكوفة ، فأَتَوْا خالدا ، وارتحل بُهْلول مِنْ يوْمِهِ يُريد الموصل ، فكتب عَاملُ الموصل

(١) عبارة الطبرى أوضح ، وهى : فعبأ القينى أصحابه وعزل الشرط ، فقال : لاتكونوا معنا ، وإنما يريد فى نفسه أن يخلو هو وأصحابه بالقوم ، فيكون الظفر لهم دون غيرهم لما وعدهم خالد .

(٢) فى د . برأى .

(٣) صريفون — بفتح أوله وكسر ثانيه وبعد الياء فاء مضمومة ثم واو ، وآخره : نون فى سواد العراق (المراصد) .

إلى هشام يُخْبِرُهُ بهم ، ويسألُهُ جُنْدًا ، فكتب إليه هشام : وجِّه إليهم كُثَارة بنَ بشْر .

فكتب إليه : إنَّ الخارج هو كُثَارة .

ثم قال بُهلول لأصْحابه : إنَّا واللهِ ما نصنعُ بابْنِ النصرانيَّةِ شيئًا - يعنى خالدًا - فلم لا نَطْلُبُ الرأس الذى سلَّط خالدًا .

فسار يريد هشاما بالشام ، فخاف عُمَّالُ هشام من هشام إنْ تَرَكُوه يجوزُ إلى بلادهم ، فسيَّر خالدٌ جُنْدًا من العراق ، وسَيَّر عاملُ الجزيرة جُنْدًا من الجزيرة ، ووجَّه هشام جُنْدًا من الشام ، فاجتمعوا بديْر بين الجزيرة والموصل ، وأقبل بُهلول إليهم .

وقيل : التقوا بكُحيْل[1] دون الموصل ، ونزل بُهلول على بابِ الدَّيْرِ ، وهو فى سبعين ، فحمل عليهم فقتل منهم نَفَرًا ستة ، وقاتلهم عامَّةَ نهاره ، وكانوا عشرين ألفا ، فأكْثَر فيهم القَتْلَ والجِراح .

ثم إنَّ بُهلولاً وأصحابه عقَرُوا دَوابَّهم وترجَّلوا ، فقاتلوا قتالا شديدًا ، فقُتل كثير من أصحاب بُهْلُول وطعن فصُرع ،فقال أصحابه : ولِّ أمْرنا ، فقال : إنْ هلَكْتُ فأمير المؤمنين دِعامة الشيبانى ، فإن هلك فعمرو اليشكرى ، ومات بُهلول من ليلته ، فلما أصبحوا هرب دِعَامة وتركهم ، وخرج عمْرو اليشكرى فلم يلبث أن قتل .

وخرج العنزى صاحب الأشهب[2] على خالد فى ستين فوجه إليه خالد السِّمْط بن مُسلم البجلى فى أربعة آلاف ، فالتقوا بناحية

(١) كحيل : موضع بالجزيرة . قال السرخسى : الكحيل : مدينة عظيمة على دجلة بين الزابين فوق تكريت من الجانب الغربى. والكحيل : فى بلاد هذيل (ياقوت) .

(٢) فى الطبرى : وبهذا كان يعرف .

الفُرات ، فانهزم الخوارجُ ، فتلقَّاهم عبِيد أَهْلِ الكوفة وسفْلَتُهم فرموهم بالحجارةِ حتى قَتَلُوهم .

ثم خرج وزير السَّختيانى على خالد بالحيرة فى نَفَر ، فجعل لا يمرُّ بقرْية إلا أحْرقها ، ولا يلْقَى أحدًا إلَّا قتله ، وغلب على ما هنالك وعلى بيْتِ المال ؛ فوجَّه إليه خالدٌ جُنْدًا ، فقتلوا عامَّةَ أصحابه ، وأُثْخن بالجِراحِ وأُتى به خالد ، فأَقبل على خالد فوعظَه ، فأَعْجب خالدٌ ما سمِع منه ، فلم يقتله وحبسه عنده . وكان يُؤْتى به فى الليل فيحادثه ، فسُعِىَ بخالد إلى هشام .

وقيل : أخذَ حرُورِيا قد قَتَل وحرَقَ وأباح الأَموال فجعله سمِيرا ، فغضب هشام ، وكتب إليه يأْمُرُهُ بقَتْلِهِ ، فأَخَّر قَتْله ، فكتب إليه ثانيًا يذمُّه ويأْمُره بقَتْلِهِ وإحراقه ، فقتله وأحرقه ونَفَرًا معه ، ولم يزل يتْلُو القُرْآنَ حتى مات وهو يقْرأُ[1] : « قُلْ نَارُ جهنَّم أَشَدُّ حرًّا لو كانوا يفقهون » .

وخرج الصُّحارِىُّ بن[2] شَبيب بن يزيد بناحية جَبُّل[3] ، وكان قد أتى خالدا يسْأَله[4] الفَرِيضة ، فقال له : وما يصنَعُ ابْن شبيب بالفَريضة ؟ فمضى ونَدِم خالد ، وخاف أن يفْتق عليه فَتْقًا ، فطلبه فلم يرجع إليه ، وسار حتى أتى جَبُّل ، وبها نَفَرٌ من بنى تَيْم اللات ابن ثعلبة ، فأَخبرهم خَبره ، فقالوا : وما كنْتَ ترْجُو من ابْن النصرانِيَّة ؟ كنْتَ أَوْلَى أَنْ تسير إليه بالسيف فتضربه به . فقال : والله ما أَردْتُ

(١) سورة التوبة ، آية ٨١ . (٢) الضبط فى د .

(٣) جبل – بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها و لام : بليدة بين النعمانية وواسط فى الجانب الشرقى (ياقوت) .

(٤) فى ك : فسأله .

الفَريضَةَ ، وما أردْتُ إلا التوصُّل إليه لئلا يُنْكِرنى ، ثم أقتله بفُلَان - يعنى رجلا من الصُّفْرِيّة ، كان خالد قَتَلَهُ صبْرًا .

ثم دعاهم إلى الخروج معه فتَبِعه منهم ثلاثون رجُلاً ، فخرج بهم ، فبلغ خَبرُهُ خالدا ، فقال : قد كنْتُ خِفْتُها منه ، ثم وجَّه إليه جُنْدًا فلقوه بناحية المَنَاذر (١) ، فقاتلهم قتالا شديدًا ، فقتلوه وجميع أصحابه .

وحجَّ بالناس فى هذه السنة أبو شَاكِر مسلمة بن هشام .

سنة (١٢٠ هـ) عشرين ومائة :

فى هذه السنة توفى أسد بن عبْد الله القَسْرى أمير خراسان فى شهر ربيع الأول بمدينة بلْخ ، واستخلف جعفر بن حنْظَلَة البهْرانى فعمل أربعة أشهر ، ثم جاء عهد نَصْر بن سيار فى شهر رجب من السنة .

ذكر عزل خالد بن عبد الله القسرى

وولاية يوسف بن عمر الثقفى

وفى هذه السنة عزَل هشام بْنُ عبد الملك خالدًا عن جميع أعمالِهِ . وقد اختُلِف فى سبب ذلك ، فقيل : إن أبا المثنى فَرُّوخ كان على ضِياع هشام بنهر الرُّمَّان (٢) بالعِراقِ فثَقُل على خالد أمْرُه ، فقال خالد لحسّان النَّبطِى : اخرُجْ إلى هشام وزِد على فَرُّوخ . ففعل حسّان ذلك وتولاَّها ، فصار حسَّان أثقل على خالد من فَروخ ، فجعل يُؤْذيه ، فيقول له حسان : لاتُفسدْنى ، وأنا صنِيعتُك ، فأبى إلا أذَاه ، فلما قدم

(١) مناذر - بالفتح والذال معجمة مكسورة : وهما بلدتان بنواحى خوزستانِ : مناذر الصغرى ، ومناذر الكبرى . (ياقوت) .

(٢) فى الطبرى : بموضع يقال له رستاق الرمان ، أو نهر الرمان .

عليه بثّق البُثُوق على الضياع ، ثم خرج حسّان إلى هشام ، فقال له : إنَّ خالدا بثّق البُثوق على ضِياعك ، فوجّه هشام من ينظُر إليها . وقال حسان[1] لخادم منْ خَدم هشام: إنْ تكلّمت بكلمةٍ أقولُها لك حيث يسمع هشام فلك عندى ألفُ دينارٍ . قال : فعجلها فأعطاه ، وقال له : تُبكّى صبيا من صِبْيان هشام ، فإذا بكَى فقُلْ له : اسكُتْ ، فكأنك ابْنَ خالد الذى غَلّتُه عشرة آلاف[2] ألف .

ففعل الخادم ، فسمعها هشام ، فسأل حسان[1] عن غَلّةِ خالد فقال : ثلاثة عشر ألف ألف ، فوقَرتْ فى نفسِ هشام .

وقيل : بل كانت غلّته عشرين ألف ألف ، وإنه حفر بالعِراق الأنهار ، ومنها نهر[3] خالد وناجُوى[4] وبارمانا ، والمُبارك[5] والجامع ، وكُورة سابور ، والصلح ، وكان كثيرًا ما يقول : إنّى مظلوم مانحْتَ قدمى شىء إلاّ وهولى-يعْنى أنْ عمر جعل لبجيلةربع [خمس][6] السواد ، وأشار عليه العُريان بن الهيْثَم وبِلَال بن أبى بُرْدة بِعرض أملاكِه على هشام ليأْخذَ منها ما أراد ، ويضْمنَانِ له الرِّضَا ، فإنهما بلغهما تغيُّرُ هشام عليه ، فلم يفعل ولم يُجِبْهُم إلى شىء .

وقيل لهشام : إنَّ خالدا قال لولده : ما أنْتَ بدون مسلمة بن هشام ، وقد كان يذكر هشاما ، فيقول : ابن الحمْقَاء .

---

(١) فى الكامل : حيان .
(٢) فى الطبرى والكامل : ثلاثة عشر ألف ألف .
(٣) نهر لآل خالد بن أسيد وآل أبى بكرة بالبصرة (فتوح البلدان) .
(٤) فى د : باجوى . والمثبت فى ك أيضاً .
(٥) المبارك : نهر حفره خالد بن عبد الله القسرى (فتوح البلدان) .
(٦) ليس فى الكامل .

وكان خالد يخطب فيقول : زعمتُم أنى أُغْلِى أسعاركم فعلى مَنْ يُغْليها لعنةُ الله .

وكان هشام كتب إليه لا تبيعنَّ من الغَلَّات شيئًا حتى تُباع غلَّات أمير المؤمنين .

وكان يقول لابْنِهِ : كيف أنْتَ إذا احتاج إليك ابْنُ أمير المؤمنين ؟ فبلغ ذلك كلُّه هشاما ، فتنكَّر له ، وبلغه أنه يستقلُّ ولايةَ العراق ، فكتب إليه هشام : يابْنَ أُمِّ خالد ، بلغنى أنكَ تقول : ما ولايةُ العراق لى بشرف . يابْنَ[1] اللخناء ، كيف لا تكونُ ولايةُ العراق لك شرفا ، وأنت مِنْ بجيلة القليلة الذليلة ! أما والله إنى لأظنُّ أنَّ أوّل منْ يأْتيك صغير[2] من قريش يشدُّ يديْك إلى عُنُقك .

ولم يزَل يَبْلُغه عنه ما يكْرهُ ، فعزم على عزْله وكتم ذلك ، وكتب إلى يوسف بن عمر – وهو باليمن يأْمُره أنْ يقْدُم فى ثلاثين من أصحابه إلى العراقِ ، فقد ولاَّهُ ذلك .

فسار يوسف إلى الكوفةِ فعرَّس[3] قريبًا منها ، وقد ختن طارقٌ خليفةُ خالد بالكوفة ولده ، فأَهْدى إليه ألْف وصيف ووصيفة سِوى الأَموال والثياب ، فمرّ بيوسف بعْضُ أهلِ العراق فسألوه ما أنتم ؟ وأين تريدون ؟ قالوا : بعْضَ المواضع ؛ فأتوا طارقًا فأخبروه خَبرهم ، وأمروه بقَتْلِهم ، وقالوا : إنهم خوارج .

وسار يوسف إلى دُور ثَقِيف . فقيل لهم : ما أنتم ؟ فكتَمُوا

(١) فى الطبرى : فيابن اللخناء .
(٢) فى د : صقر : والمثبت فى الطبرى والكامل .
(٣) عرس : أقام .

حالَهم . وأمر يوسف فَجُمِع إليه منْ هناك مِن مُضر ، فلما اجتمعوا دخل المسجد مع الفَجْر ، وأمر المؤذِّنَ فأقام الصلاة . فصلَّى ، وأرسل إلى خالد وطارق فأخذهما وإنَّ القدُور لتَغْلِي .

وقيل : لما أراد هشام أن يُولِّى يوسف العراقَ كَتَم ذلك ، فقدم جُنْدب مولى يوسف بكتابِ يوسف إلى هشام ، فقرأه ثم قال لسالم مولى عَنْبسة - وهو على الدِّيوان : أجِبْه عنْ لِسانِك ، وأتنى بالكتاب .

وكتب هشام بخطِّه كتابا صغِيرا إلى يوسف يأْمُرُه بالمسيرِ إلى العِراق .

فكتب سالم الكتاب وأتاه[1] به ، فجعل كتابه فى وسطه وختمه ، ثم دعا رسولَ يوسف فأمر به فضُرب ومُزِّقَتْ ثيابُه ، ودفع إليه الكتاب ، فسار وارْتاب بشير بن أبى ثَلَجة [2] وكان خليفةَ سالم ، وقال : هذه حيلةٌ ، وقد ولى يوسف العراق. فكتب إلى عِياض - وهو نائبُ سالم بالعراق : إنَّ أهْلك قدبعثُوا إليك بالثَّوب اليمانى : فإذا أتاك فالْبسْه ، واحمد الله تعالى . وأعْلِم ذلك طارقا . فأعلم عِياضَ طارقَ بْنَ أبى زياد بالكتاب ، ثم ندم بشير على كتابِهِ ، فكتب إلى عِياض : إنَّ أهْلَك قد بدا لهم فى إمساك الثوب .

فأتَى عياض بالكتاب الثانى إلى طارق ، فقال طارق :الخبر فى الكتاب الأول ، ولكن بشيرا ندم وخاف أنْ يظهر الخبر .

وركب طارقٌ من الكوفةِ إلى خالد وهو بواسط ، فرآه داود ،

---

(١) فى الكامل : وأتى به هشاما . (٢) فى الكامل :طلحة . والمثبت فى د، ك .

وكان على حجابة خالد وديوانه ، فأعلم خالدًا فأذِنَ له ، فلما رآه قال : ما أقدمكَ بغير إذْنٍ ؟ قال : أمْرٌ كنْتُ أخطأْت فيه ، كنتُ قد كتبْتُ إلى الأميرِ أعزِّيه بأخيه أسد ، وإنما كان يجب أنْ آتيه ماشيًا ، فرقَّ خالد ودمعتْ عيناه ، فقال : ارجع إلى عملك . فأخبره الخبر لمّا غاب داود[1] ، قال : فما الرَّأْيُ ؟ قال : تركبُ إلى أمير المؤمنير فتعتَذِرُ إليه مما بلغه عنك . قال : لا أفعلُ ذلك بغير إذْن . قال : فترسلنى إليه حتى آتيك بإذْنِهِ . قال : ولا هذا . قال : فاضمن لأمير المؤمنين جَمْع ما انكسر فى هذه السنين وآتيك بعهْدِه . قال : وكم مبْلَغُه ؟ قال : مائة ألف ألف . قال : ومن أين أجِدُها ؟ والله ما أجِدُ عشرة آلاف ألف درهم . قال : أتَحمَّل أنا وفلا ن وفلان . قال : إنى إذًا للئيم ، أن كنْتُ أعطيتكم شيئًا وأعودُ فيه . قال طارق : إنما نَقِيك ونَقِى أنفُسنا بأموالنا ، ونستأْنف الدُّنْيا وتَبْقَى النعمةُ عليك وعلينا خَيْرٌ من أن يجىء منْ يطالِبُنَا بالأموال . وهى عند أهل الكوفة فيتربصون فنُقتل ويأْكلون تلك الأموال . فأبى خالد ، فودَّعه طارق وبكَى ، وقال :هذا آخِرُ مانلتقى فى الدنيا ، ومضى إلى الكوفة ،وخرج خالد إلى الحَمّة[2] ، وقدم رسول يوسف عليه اليمن ،فقال : أميرُ المؤمنين: ساخط عليك ،وقد ضربنى ،ولم يكتب جواب كتابك ، وهذا كتاب سالم صاحب الديوان ، فقرأه ، فلما انتهى إلى آخره قرأ كتاب هشام بخطِّه بولاية العِراقِ ، ويأْمره أن يأْخُذَ ابْنَ النَّصْرانية-

(١) فى الطبرى : قال : أردت أن أذكر للأمير أمرًا أسره . قال : مادون داود سر . قال : أمر من أمرى . فغضب داود وخرج . والمثبت فى الكامل .

(٢) فى بلاد العرب حمات كثيرة (ياقوت) .

يعنى خالدا وعُمّاله - فيعذِّبهم ، فأخذه ليلا ، وسار مِنْ يومه ، واستخلف على اليمنِ ابْنَه الصَّلْت ، فقدم الكوفةَ فى جمادى الاخرة سنة [١٢٠هـ] عشرين ومائة ، فنزل النَّجف ، وأرسل مولاه كَيْسان ، وقال : انطلق فأْتنى بطارِق ، فإنْ قَبل فاحْمِلْه على إكَاف[1] ، وإن لم يقبلْ فأْت به سحْبًا ، فأتى كَيْسان الحِيْرة فأخذ معه عبد المسيح سيِّد أهلها إلى طارق ، فقال له : إنَّ يوسف قد قدم على العِراق وهو يستَدْعيك . فقال له طارق : إنْ أراد الأَمِير المال أعطَيْتُه ما شاء .

وأقْبلُوا به إلى يوسف بالحيرة ، فضربه ضَرْبًا مُبرِّحًا يقال خمسمائة سوْط. ودخل الكوفةَ ، وأرسل إلى خالدبالحمَّة. فأخذه وحبسه وصالحه عنه أبان بن الوليد على سبعة آلاف ألف ، فقيل ليوسف : لو لم تفعلْ لأَخَذْتَ منه مائة ألف ألف ، فندم ، وقال : قد رهنْتُ لسانى معه ، ولا أرجعُ .

وأخبر أصحابُ خالد خالدًا ، فقال : قد أخطأْتم ولا آمن أن يأْخذها ثم يعود . ارجعوا ، فرجعوا ، فأَخْبرُوه أن خالدا لم يرْضَ . فقال : قد رجعتم ؟ قالوا : نعم . قال : والله لا أرْضَى بمثلها ولامِثْلَيْها ، فأخذ أكثَر من ذلك .

وقيل : أخذ مائة ألف ألف ، وحبس خالد بْنَ عبد الله بالحيرة ثمانيةَ عشر شهرًا مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد .

---

(١) إكاف الحمار - ككتاب وغراب ، ووكافه : برذعته (القاموس) .

وكتب يوسف إلى هشام يستأْذِنُه فى تَعْذِيبه ، فأَذِنَ له مرَّة واحدة ، فعذَّبه ثم رده إلى حبْسه .

وقيل : بل عذَّبه عذابًا كثيرًا ، وأمر هشامٌ بإطلاقه فى شوال سنة [١٢١هـ] إحدى وعشرين ومائة ، فأَطلقه فأَتى القَرْيةَ التى بإزاء الرُّصافَة ، فأَقام بها إلى صفر سنة اثنتين وعشرين .

وخرج زيد بن على بن الحُسيْن [رضى الله عنهم] [1] على ما نذكره إن شاء الله .

فكتب يوسف إلى هشام : إنَّ بنى هاشم كانوا قد هلَكُوا جُوعًا ، فكانت هِمَّةُ أحدِهم قوتَ عياله ، فلما ولى خالدٌ العراقَ أعطاهم الأَموال ، فطمحت أَنفُسهُم إلى الخلافه ، وما خرج زَيْدٌ إلَّا عنْ رأْيِ خالد .

فقال هشام : كذب يوسف ، وضرب رسولَه ، وقال : لَسْنَا نَتَّهِم خالدًا فى طاعةٍ . وسمع خالد ، فسار حتى نزل دِمشْق ، ثم كان من أمره ومقْتَله ما نذكره إن شاء الله فى سنة [١٢٦هـ] ست وعشرين ومائة فى أيام الوليد ، وكانت ولايةُ خالدالعراقَ فى شوال سنة [١٠٥هـ] خمس ومائة ، وعُزِل فى جمادى الآخرة سنة عشرين .

قال : ولما ولى يوسف العراقَ كان الإسلام ذليلا والحكْمُ إلى أَهْلِ الذمَّةِ ، فقال يحيى بن نَوْفل فيه [2] :

أَتانا وأَهْلُ الشِّرْكِ أَهلُ زَكاتِنَا ... وحكامُنَا فيما نُسِرُّ ونَجْهر
فلما أَتانا يوسف الخَيْر أَشْرقَتْ ... له الأَرْضُ حتَّى كل وادٍ مُنَوَّرُ
وحتى رأَينا العدْل فى الناسِ ظاهرًا ... وما كان مِنْ قبل العُقَيْلىّ يظْهرُ

(١) ساقط فى د .

(٢) والشعر والشعراء : ٧١٧

وحجّ بالناس فى هذه السنةِ محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومى .

وقيل : حج بهم سُلَيْمان بن هشام بن عبْد الملك ، وقيل : أخوه يزيد بن هشام ، والله أعلم .

سنة (١٢١ هـ) احدى وعشرين ومائة :

فى هذه السنة كان ظهور زَيْد بن على بن الحُسين بن على [رضى الله عنهم [١]] على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى أخبار مَنْ نهض فى طلَبِ الخلافة من آل أبى طالب ، فقُتل دُونَها وهو فى السِّفْر الثالث والعشرين من كتابنا هذا .

وفيها فرغ الوليد بن بكير عامل الموصل مِنْ حفْر النهْرِ الذى أدخله البلد ، وكان مبلغ النفقة عليه ثمانية آلاف ألف درهم ، وجعل عليه ثمانين حجرًا تطحن . ووقف هشام هذه الأَرْحاء على عملِ النهر .

وحجّ بالناس فى هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومى

سنة (١٢٢ هـ) اثنتين وعشرين ومائة :

فى هذه السنة كان مقتل زَيْد بن على [رضى الله عنه [١]] على ما نذكره إنْ شاء الله تعالى .

ذكر قتل البطال

فى هذه السنة قُتِل البطَّال ، وهو أبو الحسين عبْد الله الأَنطاكى ، فى جماعة من المسلمين . وقيل : كان مقْتَلُه فى سنة [١٢٣هـ] ثلاث

(١) ساقط فى د .

وعشرين ومائة ، وكان كثير الغَزَاة إلى الروم والإغارة على بلادهم ، وله عندهم ذِكْرٌ عظيم ، وله حكاياتٌ فى غزواته يطولُ الشَّرْح بسرْدِها.

حُكى أنه دخل بلادَ الروم فى بعض غاراته هو وأصحابُه ، فدخل قريةً لهم ليلا وامرأةٌ تقول لصغِير يبْكى : تَسْكُت وإلّا سلمتك للبطَّال ، ثم رفعتْه بيدها ، وقالت : يا بطَّالُ خُذْه ، فتناوله مِنْ يدِها . وقد وضع الناس له سيرة .

وحجّ بالناس محمد بن هشام المخزومى .

سنة (١٢٣ هـ) ثلاث وعشرين ومائة :

ذكر صلح نصر بن سيار مع الصغد

فى هذه السنة صالح نَصْر بن سيّار الصُّغْد ، وكان خاقان لما قُتِل تفرَّقت التُّرْك فى غارةٍ بعْضِها على بعض ، فطمع أَهْلُ الصُّغْد فى الرجعة إليها ، وانحاز قَوْمٌ منهم إلى الشاش ، فراسلهم نَصْر بن سيَّار ، ودعاهم إلى الرجوع إلى بلادهم ، وأعطاهم ما أرادُوا ، فاشترطوا شروطا منها ألّا يعاقب من كان مسلما وارتدّ عن الإسلام ، ولا يعدى عليهم فى دَيْن لأحد من الناس ، ولا يُؤخذ أَسْرى المسلمين مِنْ أيديهم إلّابقضيَّةِ قاضٍ وشهادةِ عدول .

فعاب الناسُ ذلك على نَصْر ، فقال : لو عاينْتُم شَوْكَتَهم فى المسلمين مثل ما عاينْتُ ما أنكرتم ذلك .

وأرسل رسولاً إلى هشام فى ذلك ، فأجابه إليه .

وحجّ بالناس فى هذه السنة يزيد بن هشام بن عبد الملك .

سنة (١٢٤ هـ) اربع وعشرين ومائة :

فى هذه السنة وما قبلها كان من خَبَر شِيْعة بنى العباس ما نذكُرُه إن شاء الله فى أخبارهم .

وحجّ بالناس فى هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل .

سنة (١٢٥ هـ) خمس وعشرين ومائة :

ذكر وفاة هشام بن عبد الملك

ونبذة من أخباره

كانت وفاته بالرُّصافة لستٍّ خَلَوْنَ مِنْ شهر ربيع الآخر منها ، وصلَّى عليه ابْنُه مسلم وكان عُمْرُهُ ستا وخمسين سنة. وقيل أقلّ من ذلك إلى اثنتين وخمسين. ومدةُ خلافتِهِ تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأحد عشر يوما ، وكان أحْول أبْيض سمِينًا مُنْقَلِب العينين ربْعة يخضب بالسَّواد ، وكان حسنَ السياسة يقِظًا يُباشِرُ الأُمور بنفسه ، وكان له من الستور والكُسْوة ما لم يكن لمن قبله .

وذكر صاحب العقد [١] : أنه لما حجّ حُمِلت ثياب لباسه [٢] على ستمائة جمل ، وكان جمّاعا للأموال شديد البخل كأبيه .

قال عَقّال بن شَبّة [٣] : دخلْتُ على هشام وعليه قَباءٌ أخضر ، فجعلْتُ أنْظُر إليه ، فقال : مالك ؟ فقلت : رأيتُ عليك قبل أنْ تَلِى الخلافة قَباء مثل هذا . فتأمّلْتُه هل هو هو أم غيره ؟ فقال : هو والله هو . وأما ما ترون مِنْ جمع المالِ فهو لكم .

---

(١) صفحة ٤٤٦ جزء رابع . (٢) فى العقد: خرج فحمل ثياب طهره.

(٣) والطبرى . وفى ك : عفان بن شيبة . ونراه تحريفا .

قيل : وكتب له بعْض عُمَّاله : قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بسلة دُراقِن [١] . فكتب إليه : قد وصل وأعجب أمير المؤمنين فزِدْ منه واستوثق من الوعاء .

وكتب إليه عامل : قد بعثت بكَمْأَة. فأجابه : قد وصلت الكَمْأَةُ وهى أربعون ، وقد تَغَيَّر بعْضُها من حَشْوِها ، فإذا بعثْتَ شيئًا فأَجِد الحشْو فى الظَّرف [التى تجعلها فيه] [٢] بالرَّمْل حتى لايضطرب ولايصيب بعْضُه بعضًا .

وقيل [له] [٢] : أتطمعُ فى الخِلافَة وأنْتَ بَخِيل جَبَان ؟ قال : ولم لا أطمعُ ، وأناعفيف حليم ؟

قالوا : وخلَّف من العَيْن أربعةً وأربعين ألف ألف دينار ، وما لايُحْصى من الورِق .

ولما مات طلبوا له قُمْقُما من بعْض الخُزَّان يسخَّنُ له الماء فيه ،فمنعه عياض كاتب الوليد ، فاستعاروا له قُمْقُمًا من بعض الخزان يسخن له فيه .

وفى أيامه بنى سعِيدٌ أخوه قُبَّةَ بيت المقْدِس .

أولاده : كان له عشرة أولاد من الذكور والإناث ، منهم : معاوية ، وسليمان .

نقش خَاتَمِه : الحكم للحكَم الحكيم .

---

(١) الدرافن ـ وقد تشدد الراء : المشمش والخوخ (القاموس) .
(٢) من الطبرى .

كُتَّابه : سعِيد بن الوليد ، والأَبرش الكَلْبِي ، ومحمد بن عبْد الله ابن حارثة .

قاضيه : محمد بن صفْوان الجُمحى .

حاجبه : غالب مولاه

الأُمراء بمصر : محمد بن عبد الملك أخوه ، ثم استعفاه فولاَّها [بعْده أنس بن يوسف بن يحيي بن الحكم بن العاص ، ثم استعفى فولاها] (١) حفْص بن الوليد الحضرمى ، ثم صرفه وولَّاها عبْد الملك ابن رفاعة ، ثم مات فولاَّها أخاه الوليد بن رفاعة ، ثم مات فولَّاها عبد الرحمن بن خالد التميمى (٢) ،ثم صرفه وولَّاها حنظلة بن صفوان ، ثم سيَّرهُ إلى إفريقية ، وولى حَفْصا .

وكان على قَضَائها من قِبَل هشام يحيي بن ميمون الحَضْرمىّ إلى أن وليها الوليد بن رفاعة فصرفه ، وولَّاها أبا نَضْلَة الخيار ابن خالد ، ثم مات فولى سعيد بن ربيعة الصّدفى ، واستعفى ، فولى تَوْبة بن يمين (٣) الحضْرمى ، ثم مات فولَّاها جَبْر (٤) بن نُعيم الحضرمى .

ذكر بيعة الوليد بن يزيد

هو أبو العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وأمه أمّ الحجاج بنت محمد بن يوسف [أخى الحجاج بن يوسف] (١) الثقفى ، وهو الحادى عشر من ملوك بنى أمية .

---

(١) ساقط فى ك . (٢) فى د : الفهمى .

(٣) فى حسن المحاضرة (١ــ٢٩٧) : بن نمر .

(٤) فى حسن المحاضرة : خير .

بويع له لستٍّ مضين من شهر ربيع الآخر سنة [١٢٥هـ] خمس وعشرين ومائة .

قال : وكان يزيد قد جعل ولايةَ العهْدِ لأخيه هشام مِنْ بعده ، ثم مِنْ بعده للوليد ، وكان عُمْر الوليد إحْدى عشْرة سنة ، ثم عاش يزيدُ حتى بلغ الوليدُ خمس عشرة سنة ، فكان [يزيد] [١] يقول : الله بينى وبين منْ جعل هشاما بيْنى وبينك[٢] .

فلما ولى هشام أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون واشتهر بشُرْب الشراب ، وكان يؤدِّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى يحْمِلُه على ذلك ، واتَّخَذَ له نُدماء ، فأراد هشام أن يقْطَعهُمْ عنه ، فولَّاه الحج سنة [١١٦هـ] ست عشرة ومائة ، فحمل معه كِلاَبًا فى صناديق ، وعمل قُبَّةً على قَدْرِ الكعبة ليضَعها على الكَعْبةِ ، وحمل معه الخمر ، وأراد أن ينصب القُبَّةَ على الكعبة ويشرب فيها الخمر ، فخوَّفَه أصحابهُ ، وقالوا : لا نأْمنُ الناس عليك وعلينا معك ، فلم يفعل. وظهر للناس منه تهاونٌ بالدِّيْن واستخفافٌ ، فطمع هشام فى البيعة لابنه مسلمة [٣] ، وخَلع الوليد ، وأراد الوليد على ذلك فأبى ، فقال له : اجعلْه بعْدك ، فأبى ؛ فتنكَّر له هشام ، وعمل سِرًّا فى البيْعةِ لابنِهِ مسلمة ، فأجابه قوم ، فكان ممن أجابه خالاه :محمد ، وإبراهيم ابنا هشام ابن إسماعيل ، وبنو القَعْقاع بن خُليد العبْسى وغيرهم من خاصَّتِهِ . وأفرط الوليدُ فى الشراب ، وطلبِ اللذات ؛ فقال له هشام : يا وليدُ ،

(١) ساقط فى ك .

(٢) فى هامش ك : يعنى به الدعاء على أخيه مسلمة بن عبد الملك .

(٣) فى ك : مسلم . والمثبت فى الطبرى والكامل أيضاً .

والله ما أدْرِى أعلى الإسْلام أنْتَ أم لا ؟ ما تدع شيئًا من المُنْكَر إلاَّ أتَيْتَه غير متحاش ؛ فكتب إليه الوليد [1] :

يـأيُّها السائِـــلُ عن دِيننا نحن على دِيْن أبِى شـاكر
نَشْربُها صِرْفا وممْزُوجـــةً بالسُّخْنِ أحيانا وبالْفَاتِـــر

فغضب هشامٌ على ابنه مسلمة ، وكان يُكْنَى أبا شاكر ، وقال له : يُعيرُنى الوليد بك ،وأنا أرشِّحك للخلافةِ . فألزَمه الأدب ، وأحضره الجماعةَ ، وولَّاه الموسم سنة تسع عشرة ومائة ، فأظْهر النُّسك واللِّين ، وقَسم بمكة والمدينة أموالا ، فقال مولى لأهل المدينة :

يـأيُّها السائلُ عن دِيننـــا نحن على دِيْن أبى شَاكرِ
الواهب الجُرْدَ[2] بأرْسانِها ليس بزِنْدِيقٍ ولاكافـرِ

يُعرض بالوليد .

وكان هشام ينْتَقص الوليد ويَعِيبه ، فخرج الوليد ومعه ناسٌ مِنْ خاصَّته ومواليه ، فنزل بالأزْرق على ماءٍ يقال له الأغْدف ، وخلف كاتبه عِياض بن مسلم عند هشام ليُكاتِبه بما عندهم .

وقطع هشام عن الوليد ما كان يجْرِى عليه ، وكاتَبه فيه الوليدُ فلم يُجِبْه إلى ردِّهِ ، وأمره بإخراج عبد الصمد مِنْ عنده ، فأخرجه وسأله أنْ يأْذَنَ لابْن سهيل فى الخروج إليه ، فضرب هشامٌ ابنَ سهيل وسيَّره إليه ، وأخذ عياضَ بن مسلم كاتب الوليد فضربه وحبسه . فقال الوليد : منْ يثقُ بالناس ، ومن يصنع المعروف ؟ هذا الأحول

(١) والطبرى : ٧ ــ ٢١٠ ؛ والكامل : ٤ : ٢٥٧
(٢) فى الأغانى (٧ ــ ٣) : الواهب البزل .

المشئوم أبى ، قدّمه على أهْل بيته فصيّره ولىّ عهْده ، ثم يصنع [بى] (١) ما ترون ، لا يعْلَمُ أنَّ لى فى أحدٍ هوًى إلا عبث به .

وكتب إلى هشام فى ذلك يُعاتبه ، ويسأله أن يردَّ عليه كاتبه . فلم يردّه ، فكتب إليه الوليد(٢) :

رأيْتُك تَبْنِى دائما(٣) فى قَطِيعتى ... ولو كنْتَ ذا حزْمٍ(٤) لهدَّمْتَ ماتَبْنِى
تُثِير علَى الباقين مجْنَى ضَغِينــةٍ ... فويلٌ لهم إن متّ مِنْ شَرِّماتَجْنِى
كأنى بهم والليتُ أفْضَلُ قولهمْ ... ألاليْتَنَا والليت إذ ذاك لايُغْنِى
كفَرْت يدًا مِنْ مُنْعِمٍ لو شكَرْتَها ... جزاكَ بها الرحمن ذُو الفَضْل والمنِّ

قال ، ولم يزل الوليدُ مُقيماً بتلك البريَّةِ حتى مات هشام ، فلما كان صبيحة اليوم الذى جاءتْهُ فيه الخلافَةُ قال لأبى الزُّبيْر المنذر بن أبى عمْرو : ما أتَتْ علىّ ليلة منذ عقَلْت عقْلى أطول من هذه الليلة ، عرضَتْ لى أُمورٌ ، وحدَّثْتُ نفسى فيها بأُمورٍ من أمْرِ هذا الرجل ـ يعْنى هشاما ـ قد(٥) أولع بى ، فاركب بنا نتنفَّس ، فركبا فسارا مِيْلَين ، ووقف على كَثِيبٍ ، فنظر إلى رَهْج(٦) ، فقال : هؤلاء رُسل هشام ، نَسْأَلُ الله من خيرهم ؛ إذْ بدا رجُلان على البرِيد : أحدهما مولًى لأبى محمد السُّفيانى ، فلما قَرُبا نَزلَا يَعْدُوان حتى دنَوا منه ، فسلَّما عليه بالخلافة ،

(١) ساقط فى ك .
(٢) الشعر فى الطبرى : ٧ ـ ٢١٥ ؛ والكامل : ٤ ـ ٢٥٧
(٣) فى الطبرى : جاهدا .
(٤) فى الطبرى : ذا إرب .
(٥) فى الطبرى : الذى قد أولع بى .
(٦) الرهج ـ ويحرك : الغبار .

فوجم ، ثم قال : أمات هشام ؟ قالا : نعم والكتاب معنًا من سالم ابن عبْد الرحمن صاحب ديوان الرسائل . فقرأه ، وسأل مولى أبى محمد السُّفيانى عن كاتبه عِياض ، فقال[1] : لم يزل محبوسا حتى نزل بهشام الموت ، فأرسل إلى الخُزَّان فقال : احتفظوا بما فى أيديكم ، فأفاق هشام فطلب شيئًا فمنعوه ، فقال : إنا لله ، كنا خُزَّانًا للوليد ، ومات من ساعته .

وخرج عِياض من السجن ، فختم أبوابَ الخزائن ، وأنزل هشامًا عن فُرشِه وما وجدُوا له قُمْقُما يسخَّنُ فيه الماء حتى استعارُوه ، ولاوجدوا له كَفَنًا من الخزائن ، فكفَّنه غالب مولاه ، فقال الوليد[2] :

هلك الأَحْولُ المشُـــو م فقد أرسل المطـــر
وملكْنَا من بعْدِ ذا ك ، فقد أَوْرق الشجر
فاشكر الله إنَّـــه زائد كلَّ منْ شَكـــر

وقيل : إنَّ هذا الشعر لغير الوليد .

قال : ولما سمع الوليد بموْتِهِ كتب إلى العباس بن عبْد الملك ابن مرْوان أنْ يأْتى الرُّصافة فيُحْصى ما فيها من أموال هشام وولده وعماله وحشَمه إلَّا مسلمة بن هشام فإنه كان يكلم أباه فى الرفْقِ بالوليد ، فقدم العباس الرُّصافة ففعل ذلك وكتب به إلى الوليد، فقال الوليد[3] :

ليتَ هشاما كان حيًّا يـرى مِحْلَبهُ الأَوْفَرَ قَدْ أُتْرِعـا

(١) فى ك : قال .
(٢) الشعر فى الكامل : ٤ — ٢٥٨ .
(٢) والطبرى : ٧ — ٢١٦ ، والكامل : ٤ — ٢٥٨ ، والأغانى : ٧ — ١٨

ليتَ[١] هِشَامًا عاش حتى يرى مِكْيالَه الأَوفرَ قَدْ طُبِّعا [٢]
كلْناهُ بالصَّاعِ الذى كالَهُ[٣] وما ظلَمْنَاه به إصْبعا [٤]
وما أَتَيْنَا ذاك عنْ بِدْعــةٍ أحلَّه الفُرقانُ لى أَجْمعــا

وضيّق الوليدُ على أَهْلِ هشام وأصحابه ، واستعمل العُمّال ، وكتب إلى الآفاق بأَخْذِ البيْعةِ ، فجاءته بيْعتُهم .

قال : ولما ولى الوليد أَجْرى على زَمْنَى أهل الشام وعُمْيانهم وكَساهم ، وأمر لكل إنسان منهم بخادمٍ ، وأخرج لِعيالاتِ الناس الكُسْوة والطِّيب ، وزادهم ؛ وزاد الناس فى العطاء عشرات ؛ ثم زاد أَهْل الشام بعد العشرات عشرةً عشرةً ، وزاد الوفود ، ولم يقُلْ فى شىء يُسأَله : لا .

وفى هذه السنة ، عقدالوليد البيعةَ لابنيه : الحكَم، وعثمان مِنْ بعده ، وكتب بذلك إلى الأَمصار ، وجعل الحكَم مقدما و الآخر من بعده .

وفيها استعمل الوليدُ خالد بْنَ يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى على المدينة ومكةَ والطائف ،ودفع إليه محمدًا وإبراهيم ابنى هشام ابن إسماعيل المخزومى مُوثَقَيْن فى عباءتَيْنِ؛ فقدم بهما المدينة فى شعبان ، فأَقامهما للناس ، ثم حُمِلا إلى الشام ، فأُحضرا عند الوليد ، فأَمر ، بجلْدهما ، فقال محمد : نسأَلُكَ القرابةَ . قال : وأَىُّ قَرابة بيننا !

---

(١) قبل هذا البيت فى الطبرى: ويروى ، فكأن هذا البيت رواية أخرى للبيت السابق .
(٢) فى ك ، د : ضيعا . وطبع الإناء تطبيعا : ملأه (اللسان) .
(٣) فى الأغانى : كلنا له الصاغ التى كالها .
(٤) فى الأغانى : أصوعا .

قال : فقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُضْرب بسوط إلَّا فى حد . قال : ففى حدّ أضربك وقَوَد ، أنت أوَّل منْ فَعل بالعرْجى وهو ابْنُ عمى ؛ وابن أمير المؤمنين عثمان ـ وكان محمد قد أخذه وقَيَّده وأقامه للناس وجلَده ، وسجنه إلى أنْ مات بعد تسع سنين لهجاء العَرْجى[1] إياه ، ثم أمر به الوليد فجُلد هو وأخوه إبراهيم ثم أوْثقهما ؛ وبعث بهما إلى يوسف بن عمر ، وهو على العراق فعذَّبهُما حتى ماتا .

وفيها عزل الوليد سعْد بن إبراهيم عن قضاء المدينة ؛ وولَّى القضاء يَحْيى بن سعيد الأنصارى .

وفيها خرجت الرومُ إلى زِبَطْرة [2] وهو حِصْنٌ قديم كان افتتحه حبيب بن مسلمة الفِهْرِى ؛ فأخربه الروم الآن فبُنى بناءً غيْر محكم ؛ فعاد الروم وأخربوه أيام مرْوان بن محمد ثم بناه الرشيد وشحنه بالرجال .

فلما كانت خلافةُ المأمون طَرَقه الروم فشعَّثُوه ، فأمر المأمون بمرمَّته وتحصينه ، ثم قصده الرومُ بعد ذلك أيام المعتصم .

وفيها أغزى الوليد أخاه الغَمْر بن يزيد ؛ وأمّر على جيْش البحْرِ الأسود بن بِلَال المحاربى ؛ وسيَّرهُ إلى قُبْرس ليخيّر أهْلَها بين المسير إلى الشام أو إلى الروم ؛ فاختارت طائفةٌ جوار المسلمين، فسيَّرهم إلى الشام ؛ واختار آخرون الروم فسيَّرهُم إليهم .

---

(١) هو عبد الله بن عمر، شاعر غزل ، كان مشغوفاً باللهو والصيد؛ صحب مسلمة بن عبد الملك فى وقائعه بأرض الروم .

(٢) مدينة بين ملطية وسميساط والحدث فى طرف بلاد الروم (ياقوت).

وحجّ بالناس فى هذه السنة يوسف بن محمد بن يوسف. وغزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفةَ .

سنة (١٢٦ هـ) ست وعشرين ومائة :

ذكر مقتل خالد بن عبد الله القسرى

وشىء من أخباره

قد ذكرنا من أخباره فى سنة [١٢٠هـ] عشرين ومائة ما تقدم ، وذكرنا أنه لما أفرج عنه سار من الحِيرة إلى دِمشْق .

قال : ولما قدمها كان العاملُ عليها يومئذ كلثوم بْنَ عِياض القُشَيْرى ، وكان يُبْغِضُ خالدا ، واتفق أنه ظهر فى دُور [دمشق[1]] حريق فى كل ليلة ، يُلقيه[2] رجُلٌ من أهل العراق يُقَال له : أبو العمرّس[3] فإذا وقع الحريق يسرقون .

وكان أولاد خالد وإخوته بالساحل لحدثٍ كان من الروم ، فكتب كلثوم إلى هشام : إنَّ موالى خالد يريدونَ الوُثُوب على بيْتِ المال ، وإنهم يحرقون البلد كلَّ ليلة .

فكتب هشام إليه يأْمرُه بحبْس آل خالد : الصغير منهم والكبير ومواليهم ، فأنفذ منْ أحضر أولاده وإخوتَه من الساحل فى الجوامع[4] ، ومعهم مواليهم ، وحبس بنات خالدٍ والنساء والصبيان ، ثم ظهر على أبى العمرّس[3] ومنْ كان معه .

---

(١) من الكامل .

(٢) فى الكامل : يفعله رجل .

(٣) فى الكامل : ابن العمرس . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

(٤) الجوامع : الأغلال ، مفرده : جامعة .

فكتب الوليدُ بن عبد الرحمن عاملُ الخراج إلى هشام بأَخْذِ أبى العمرَّس وأصحابِه بأَسمائهم وقبائلهم ، ولم يذكر فيهم أحدًا من موالى خالد .

فكتب هشام إلى كلثوم يسبُّه ويأْمُرُه بإطلاق آل خالد ، فأَطلقهم وترك الموالى رجاء أن يشفع فيهم خالد إذا قدم من الصائفة .

ثم قدم خالد فنزل منْزِله بدمشق ، وجاءه الناسُ للسلام عليه ، فقال : خَرجْت مُغَازِيا سميعا مطيعا ، فخلفت فى عقِبِى ، وأُخِذَ حُرمى وأهل بيتى فحبُسوا مع أهل الجرائم كما يُفْعل بالمشركين ، فما منع عصابةً منكم أن تقول : علام حُبِس حرم هذا السامع المطيع ؟ أَخِفْتُم أن تُقتلوا جميعًا ؟ أخافكم الله .

ثم قال : مالى ولهشام ليكُفَّنَّ عنى أو لأَدْعُونَّ إلى عِراقِى الهوى ، شامى الدَّار ، حجازى الأَصل - يعنى محمد بن على بن عبْد الله بن عباس. ولقد أَذِنْتُ لكم أَنْ تُبلِّغوا هِشَامًا .

فلما بلغه قال : قد خَرِف أبو الهيثم ، واستمرَّ خالدٌ مدةَ أيام وهو بدِمشْق ويوسف بن عُمر يطلُبُ ابْنَه يزيد بْنَ خالد ، فلم يظفر به ، وبذل فيه لهشام خمسين ألف ألف .

فلما هلك هشام وقام الوليدُ بعده كتب إلى خالِدٍ : ما حال الخمسين ألف ألف التى تعلم ؟ واستقدمه ، فقدم عليه حتى وقف بباب سُرادق الوليد ، فأَرسل إليه الوليدُ يقول : أين ابْنُك يزيد ؟ فقال : كان [قد] (١) هرب من هشام ، وكنا نراه عند أمير المؤمنين ، فلما لم نَره

(١) ليس فى ك .

ظنناه ببلاد قومه من الشُّراة . فرجع الرسولُ ، فقال : لا ، ولكنك خلَّفْتَه طلبا للفتْنَة . فقال : قد علم أميرُ المؤمنين أنَّا أهل بيت طاعة . فرجع الرسولُ فقال : يقول أميرُ المؤمنين : لتأْتينَّ به أو لأُزْهِقَنَّ نَفْسك . فرفع خالدٌ صوْتَه ، وقال : قل له : هذا والله أردْت ، لو كان تحت قدمى ما رفَعْتُها عنه .

فأمر الوليد بضَرْبِهِ فضُرب ، فلم يتكلم ، فحبسه حتى قدم يوسف ابن عُمر مِنَ العراق بالأموال ، فاشتراه من الوليد بخمسين ألف ألف ، فأرسل إليه الوليدُ : إنَّ يوسف قد اشتراك بخمسين ألف ألف ، فإنْ كنْتَ تضمنُها وإلَّا دفَعْتُك إليه .

فقال خالد : ما عهدْتُ العرب تُباع ، والله لو سألنى أنْ أضْمنَ عُودًا ما ضمنتُه ، فدفعه إلى يوسف ، فنزع ثيابه ، وحمله على بعيرٍ بغير وِطَاء ، وعذَّبه عذَابًا شديدًا ، وهو لا يكلِّمه كلمةً واحدة ، ثم حمله إلى الكوفة فعذَّبه ، ووضع المُضَرّسةَ على صدْره فقتله ، ودفنه من الليل [بالحيرة [1]] فى العباءة التى كان فيها ، وذلك فى المحرم سنة [١٢٦هـ] ست وعشرين ومائة .

وقيل : بل أمر يوسف فوُضع على رجْلَيْه عُود ، وقام عليه الرِّجالُ حتى تكسَّرت قدماه ، وما تكلَّم ولا عبس ، ثم على ساقيه وفخذيه . ثم على صدره حتى مات .

وكانت أمُّ خالد نَصْرانيةً رُوميةً اسْتَلَبها أبوه ، فأولدها خالِدًا

(١) ساقط من ك .

وأسدًا ، ولم تُسْلِم ، وبَنَى لها خالد بِيعة فذمَّه الناسُ على ذلك ، فقال الفرزدق [١] :

ألا قطع الرحمن ظَهْر مَطِيَّـــةٍ أتتنا تَهَادى من دِمشْقَ بخَالدِ
فكيف يؤمُّ الناس منْ كانت أمُّه تَدِين بأنَّ الله ليس بواحِـــدِ
بنى بِيْعةً فيها النصارَى لأُمِّه ويهدم منْ كُفْرٍ منار المساجِد

وكان خالد قد أمر بهدْمِ منَارِ المساجد ؛ لأنه بلغه أنَّ شاعرًا قال [١] :

ليتنى فى المؤذِّنِين حيـــاتى إنهم يُبْصِرُون منْ فى السطوح
ويُشيرون أو تُشير إليهم بالهوى كلُّ ذات دلٍّ مليح

فلما بلغ خالدًا هذا الشِّعر أمر بهدْمِها .

ولما بلغه أنَّ الناس يذمُّونَه لبنائه البِعية لأُمِّه قام يعْتَذِرُ إليهم ، فقال : لعن اللهُ دِينَهم إن كان شرًّا من دِينكم .

وحُكى عنه أنه كان يقول : إنَّ خليفةَ الرجلِ فى أهله أفضلُ مِنْ رسولِهِ إليهم - يعنى أنَّ هشاما أفْضَلُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نَبْرأُ إلى الله من ذلك .

وكان خالدٌ يصِلُ الهاشميين فى أيام إمارته ، ويبرُّهم ، إلا أنه كان يبالغ فى سبٍّ على رضى الله عنه ، ويلْعنُه ، فقيل : إنه كان يفْعل ذلك نَفْيًا للتهمة ، وتَقَرُّبًا إلى بنى أمية ، فأتاه مرةً محمد ابن عبْد الله بن عمْرو بن عثمان بن عفَّان يستَمِيحُه [٢] ، فلم ير مِنْه

(١) والكامل : ٤ - ٢٦٣
(٢) فى د : يستمنحه .

ما يُحِب ، فقال : أمَّا الصِّلَة فللها شميين ، وليس لنا منه إلا أنْ يلعن[١] عليًا ، فبلغ خالدا كلامه ، فقال : إنْ أحبَّ نِلْنَا عثمان بشيء ؛ [يريد بشيء[٢]] من اللَّعْنِ أو السب ، والله تعالى أعلم .

ذكر مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان

وشيء من أخباره

كان مقْتَلُه يوم الخميس الثامن والعشرين من جُمادى الاخرة سنة [١٢٦هـ] ست وعشرين ومائة .

وكان سبب ذلك ما قدَّمْنَاه من اشتهاره باللَّهْو واللَّعِب والخَلَاعة ، فلما ولى الخلافةَ مازاد إلَّاتَماديًاوإصرارًا ،واشتهر بمُنَادمةِ القِيان وشُرْب النبيذ ، فثَقُل ذلك على رعيَّتِهِ وجُنْدِهِ ، وكرهوه ؛ فكان من أعظم ماجنَى على نفسه إفسادُ بنى عمَّيْه : هشام ، والوليد ؛ فإنه أخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط ، وحلق رأسه ولحيته وغَرَّبه إلى عمَّان من أرض الشام ، فحبسه بها ، فلم يزَل محبوسا حتى قُتل الوليد .

وأخَذَ جاريةً كانت لآلِ الوليد ، فكلَّمه عثمانُ بن الوليد فى ردِّها ، فقال : لا أردُّها . فقال : إذَنْ تكثر الصَّواهِلُ حوْل عسكرك ، وحبس الأفقم يزيد بن هشام ، وفرَّق بين روح بن الوليد وبين امرأته ، وحبس عِدَّةً من ولد الوليد ، فرماه بنوها شم وبنو الوليد بالكفر وغِشْيان أُمهات أولادِ أبيه ، وقالوا : قد اتخذَ مائة جامِعةٍ لبنى أُمية ؛ وكان أشد الناس عليه يزيدُ بن الوليد ، وكان الناس إلى قوله أمْيل ؛ لأنه كان يُظْهِرُ النُّسْك ويتواضع .

---

(١) فى ك : نلعن . وفى د : أنه يلعن . (٢) ساقط فى ك .

وكان سعيد بن بيْهس بن صُهيب قد نهاه عن البيْعةِ لابْنَيْه الحكم وعثمان لصِغَرهما ، فحبسه حتى مات ، وفعل بخالد القَسْرِى ما ذكرناه ففسدت عليه اليمانيةُ وقُضَاعة ، وهم أكْثَر جُنْدِ الشام ؛ وكان حُرَيْث وشَبِيب بن أبى مالك الغَسَّانى، ومنصور بن جُمهور الكَلْبى ؛ وابن عمه حِبال ابن عمْرو، ويعقوب بن عبد الرحمن، وحُميد بن نَصْر اللَّخْمِى ، والأَصبغ ابن ذُؤَالة والطُّفَيْل [1] بن حارثة ، والسرى بن زياد ، أتوا خالد بن ابن عبْد الله القَسْرى ، فدعوْه إلى أمْرِهم ، فلم يُجِبْهُم ، وأراد الوليدُ الحجَّ ، فخاف خالد أنْ يقتلُوه ، فنهاه عن الحج ، فقال : ولِم؟ فلم يخبره ، فحبسه ، وطالبه بأموالِ العراقِ ثم سلَّمه إلى يوسف ابن عمر كما تقدم ، فقال بعضُ أهل اليمن شِعْرًا على لسان الوليد يحرِّضُ عليه اليمانية .

وقيل : بل قاله الوليد يوبخ اليمن على تَرْك نَصْر خالد [2] :

أَلم تَهْتَج فتَذكرَ [3] الوِصالاَ وحبْلاً كان مُتَّصِلاً فزَالاَ
بلَى فالدَّمْعُ [4] منك إلى انسجام كماء المُزْنِ ينْسجِلُ انْسِجالاَ
فدعْ عنْكَ ادِّكَارك آل سُعْدى فنحن الأكثرون حصى [5] ومالاً
ونحن المالِكُونَ الناسَ قَسْرًا نسومُهُمُ المَذَلَّةَ والنَّكَالاَ

(١) فى الطبرى : وطفيل .
(٢) الشعر فى الطبرى : ٧ – ٢٣٤ ، وفى الكامل : ٤ – ٢٦٤
(٣) فى الطبرى : فتذكر .
(٤) فى ك : ما الدمع . وفى الطبرى : فالدمع منك له سجام .
(٥) حاشية : قوله : حصى : يريد المناقب ، لأن العرب كانت تجتمع فى نواديها ، فتعد مفاخرها . ومناقبها ، فكلما ذكر الرجل منقبة طرح حصاة، فمن كان كان أكثر حصى علم أنه أكثر مناقب . وفى معنى ذلك يقول الشاعر :
ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر (هامش د .)

وطِئْنَا الأَشْعرِى[١] بعزِّ قَيْس فيالك وطأةً لن تُسْتَقَالَا
وهذا خالِدٌ فينا أسيرًا[٢] ألَا منَعُوهُ إنْ كانوا رِجالا
عظيمُهمُ وسيِّدُهُمْ قديمًا جعلنا المُخْزِياتِ له ظِلَالا
فلو كانت قبائلَ ذاتَ عزٍّ لماذهبتْ صنائِعُه ضَلَالا
ولا تركوه مسلوبا أسِيرًا يُعالج[٣] مِنْ سلَاسِلنا الثِّقَالا
وكِنْدةُ والسَّكُونُ فما استقاموا ولا برحتْ خُيولُهم الرِّحالَا
بها سُمْنَا[٤] البريَّةَ كلَّ خَسْف وهدَّمْنَا السهولةَ والجِبالا
ولكنَّ الوقائع ضَعْضَعَتْهُم وجذَّتْهُمْ[٥] وردَّتْهُم شِلالا
فما زالوا لنا أبدًا عبِيدا نسومُهُمُ المذَلَّة والسفَالَا
فأصبحتُ الغداةَ علىَّ تاجٌ لملك الناسِ لا يبغى[٦] انتقالا

فعظم ذلك عليهم ، وسعَوْا فى قَتْلِه ، وازدادُوا حنَقًا ، وقال حمْزَةُ ابن بِيض[٧] فى الوليد :

وصلْتَ سماءَ الضُّرِّ بالضُّرِّ بعْدما زَعمْتَ سماءُ الذلِّ[٨] عنا ستُقْلعُ
فليت هشاما كان حيًّا يسُوسُنا وكنا كما كُنَّا نرجِّى ونَطْمعُ

(١) فى الطبرى : الأشعرين . والمثبت فى الكامل أيضاً .
(٢) فى الكامل : أسير .
(٣) فى الطبرى : يسامر . والمثبت فى الكامل أيضا .
(٤) فى د : سمت .
(٥) فى ك : وأجدتهم . وفى الكامل : وجدتهم .
(٦) فى الكامل والطبرى : ما يبغى .
(٧) فى تاج العروس : هو بكسر الباء لاغير . قاله ابن برى . و ضبطه الحافظ بالفتح . والشعر فى الطبرى : ٧ — ٢٣٦ . والكامل : ٤ — ٢٦٥
(٨) فى الطبرى ، والكامل : سماء الضر .

وقال أيضًا[١] :

يا وليد الخَنَا[٢] تركْتَ الطَّرِيقَا واضحا وارتكبت فَجًّا عميقـا
وتماديْتَ واعتديتَ وأسرفـ ـتَ وأغْويْتَ وانبعثْتَ فُسوقًا
أبدا هات ثم هات وهـاتى ثم هاتى حتى تخرَّ صعِيقـا
أنْت سـكرانُ لاتُفِيقُ فماتر تَقُ فَتْقًا إلَّا فتقت[٣] فُتُـوقا

فأتت اليمانيةُ يزيد بن الوليد بن عبدالملك فأرادُوه على البيْعةِ ، فاستشار عمر بن زيد الحكَمِى ، فقال له : لايُبايِعُكَ الناسُ على هذا ، وشاوِرْ أخاك العباس ؛ فإنْ بايعك لم يخالِفْكَ أحدٌ ، وإن أبى كان الناسُ له أطوع ؛ فإن أبيتَ إلا المضىَّ على رأيِك فأظْهِر أنَّ أخاك العباس قد بايعك .

وكان الشام وبيئًا فخرجوا إلى البوادى ، وكان العباس بالقَسْطَل[٤] ويزيدُ بالبادية أيضًا ، فأتى يزيدُ العباس فاستشاره فنهاه عن ذلك ، فرجع وبايع الناس سِرًّا ، وبثَّ دُعاتَه ، فدعوا الناس ، ثم عاود أخاه العباس أيضا فاستشاره ودعاه إلى نَفْسه ، فزَبره[٥] ، وقال : إن عُدْتَ لمثل هذا لأشدَّنَّك وثَاقًا ، ولأحملنَّك إلى أميرِ المؤمنين .

فخرج منْ عنده ، فقال العباس : إنِّى لأظُنُّه أشأم مولودٍ فى بنى مرْوان .

---

(١) الشعر فى الكامل : ٤ — ٢٦٥
(٢) فى ك : الحيا .
(٣) فى الكامل : وقد فتقت .
(٤) القسطل بالفتح ثم السكون وطاء مهملة مفتوحة ولام : موضع بين حمص ودمشق (ياقوت) .
(٥) زبره : نهره ونهاه (القاموس).

وبلغ الخبرُ مرْوان بن محمد بإرمينية . فكتب إلى سعيد بن عبْد الملك بن مرْوان يأْمرُه أن ينْهَى الناس ويكفّهم ويحذرهم الفتنةَ ويخوِّفهم خروج الأَمْرِ عنهم . فأَعْظَم سعيد ذلك ، وبعث الكتاب إلى العباس بن الوليد ،فاستدعى العباسُ يزيد وتهدَّده ؛ فكتمه يزيدُ أمْره فصدّقه ، وقال العباس لأخيه بِشْر بن الوليد : إنى أظنُّ الله قد أذِن فى هلاككم يابنى أُمية ، ثم تمثل (١) :

إنى أعيذكم بالله منْ فِتَنٍ ... مثلِ الجِبال تَسامى ثم تَنْدفِعُ
إنَّ البريَّةَ قد ملَّتْ سِياستَكُمْ ... فاستمسكوا بعمُود الدِّين وارتَدِعُوا
لاتُلْحِمُنَّ ذِئاب الناس أنفسكُمْ ... إن الذئاب إذا ما أُلحِمتْ رتَعُوا(٢)
لاتَبْقَرُنَّ بأَيديكم بطـونكمُو ... فثمَّ لاحسرةٌ تُغْنِى ولا جزَعُ

قال : فلما اجتمع ليزيد أمْرُه وهو بالبادية أقبل إلى دِمشْق ، وكان بينه وبينها أربعُ ليال ، وجاء متنكرًا فى سبعةِ نَفَر على حَمِير ، فنزلوا بجَرُود – وهى على مرحلة من دِمشْق ، ثم سار فدخل دِمشْق ليلاً ، وقدْ بايع له أكْثَر أهلِها سِرًّا ، وبايع أهل المِزَّة(٣) ؛ وكان على دِمشْق عبْد الملك بن محمد بن الحجاج ، فخرج منها للوباء ، فنزل قَطَنًا (٤) ، واستخلف على دِمشق ابْنَه ، وعلى شُرطته أبو العاج كثير بن عبْد الله السلمى ؛ فأَجْمع يزيد على الظُّهُور ، فقيل للعامل : إنَّ يزِيد (٥) خارجٌ فلم يصدِّقْ ، وراسل يزيد أصحابه بعْد المغرب

(١) الشعر فى الطبرى : ٧ – ٢٣٩ ، والكامل : ٤ – ٢٦٦
(٢) ألحمت القوم : أطعمتهم اللحم .
(٣) المزة – بالكسر ثم التشديد : قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق (ياقوت).
(٤) قطن : من قرى دمشق (ياقوت) . (٥) فى ك : يزيدا – تحريف .

ليلة الجمعة ، فكمنُوا عندباب الفراديس حتى أُذِّنَ بالعشاء ؛ فدخلوا المسجد فصلُّوا ، وللمسجد حرس قد وكلوا بإخراج الناس منه بالليل ، فلما صلَّى الناس أخرجهم الحرس وتَباطأ أصحابُ يزيد حتى لم يبْقَ فى المسجد غيرهم ، فأخَذُوا الحرس ، ومضى يزيد ابن عَنْبسة إلى يزيد بن الوليد ، فأعلمه ، وأخذ بيده ، فقال : قُمْ يا أمير المؤمنين ، وأبْشِرْ بنَصْرِاللهِ وعوْنه. فقام ، وأقبل فى اثنى عشر رجلا .

فلما كان عند سُوق الحُمُر لقوا أربعين رجُلاً من أصحابهم ، ولقيهم زُهاء مائتى رجل ، فمضوا إلى المسجد فدخلوه وأتَوْا باب المقصورة فضربوه ، وقالوا : رُسُل الوليد ؛ ففتح لهم الباب خادمٌ فدخلوا فأخذوا أبا العاج وهو سكْران ، وأخذوا خُزَّانَ بيت المال ، وأرسل إلى كل منْ كان يحْذره فأُخذ وقُبض محمد [1] بن عُبيدة وهو على بعْلَبك ، وأرْسل إلى محمد بن عبد الملك بن الحجاج فأخذه ، وكان بالمسجد سِلَاحٌ كثير ، فأخذوه .

فلما أصبحُوا جاء أهْلُ المِزَّة وتبايع الناس ، وجاءت السكاسِكُ ، وأقبل أهلُ داريًا ويعقوب بن عُمير بن هانىء العبْسى [2] .

وأقبل عيسى بن شَبيب التغلبى وأهل دُومة وحَرَستا ، وأقبل

---

(١) فى الطبرى : وأرسل يزيد من ليلته إلى محمد بن عبيدة مولى سعيد بن العاص : وهو على بعلبك فأخذه .

(٢) فى ك : العبسي . وفى الكامل : يعقوب بن محمد ... والمثبت فى الطبرى أيضاً .

حُميد بن حبيب اللخمى [١] فى أهْلِ ديْر مُرَّان [٢] والأَرْزَة وسطْرا [٣] وأقبل أهْلُ جَرَش [٤] وأهْلُ الحديثة [٥] ودَيْرزَكى [٦] .

وأقبل رِبْعِىّ بن هاشم [٧] الحارثى فى الجماعة من بنى عُذْرة وسلَامان ، وأقبلت جُهينة ومَنْ والاهم .

ثم وجّه يزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مُصاد فى مائتى فارس ليأْخذوا عبْد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف من قَصره ، فأَخَذوه بأمانٍ ، وأصاب عبد الرحمن خُرْجيْن فى كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار ، فقيل له : خُذْ أحد هذين الخُرْجيْن ، فقال : لاتتحدث العربُ عنى أنى أوّلُ منْ خان فى هذا الأَمْر.

ثم جهّز يزيد جيْشا عليهم عبْد العزيز بن الحجاج بن عبْد الملك ، وسيّرهم إلى الوليد . وكان يزيدُ لما ظهر بدِمشْق سار مولًى للوليد إليه ، وأعلمه الخبر وهو بالأَغْدف من عمان ، فضربه الوليد وحبسه ، وسيّر أبا محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دِمشْق ، فسار بعْضَ الطريق ، وأقام فأرسل إليه يزيدُ بن الوليد عبْد الرحمن بن مُصاد ، فبايع يزيد .

---

(١) فى الكامل : النخعى .

(٢) فى ك : مروان — تحريف .

(٣) سطرا : من قرى دمشق (ياقوت) .

(٤) جرش : شرقى جبل السواد من أرض البلقاء (ياقوت) .

(٥) الحديثة : من قرى غوطة دمشق .

(٦) دير زكى — بفتح أوله وتشديد الكاف — مقصور : هو دير بالرها بإزائه تل . وقال الخالدى : هو بالرقة قريب من الفرات (ياقوت) .

(٧) فى ك : هشام . والمثبت فى الطبرى والكامل أيضاً .

ولما أتى الخَبرُ الوليد قال له يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية : سِرْ حتى تنزلَ حِمْص ، فإنها حصِينة ، ووجِّه الخيولَ إلى يزيد فيقتل أو يُؤْسر .

فقال عبد الله بن عَنْبسة بن سعيد بن العاص : ما ينبغى للخليفة أنْ يدع عسْكره ونساءه قَبْلَ أن يقاتل ، والله[1] يُؤيِّد أمِير المؤمنين بنَصْرِه[2] .

فأخذ بِقَوْل ابن عنبسة ، وسار حتى أتى البخْراء[3] ـ قَصْر النعمان بن بشِير ، وسار معه من ولَدِ الضحاك بن قيس أربعون رجلا ، فقالوا له : ليس لنا سِلَاح ، فلو أمرْتَ لنا بسلاح ! فلم يُعْطهم شيئًا ، ونازله عبْد العزيز .

وكتب العباس بن الوليد بن عبْد الملك إلى الوليد : إنى آتيك ، فأخْرج الوليدُ سرِيرا وجلس عليه ينتظر العبَّاس ، فقاتلهم عبْدُ العزيز ، ومعه منصور بن جُمهور ، فبعث إليهم عبد العزيز زياد بن حُصَيْن الكَلْبى ، يدْعُوهم إلى كتابِ الله ومُسنَّةِ نبيه ، فقتله أصحابُ الوليد واقتتلوا قتالا شديدا .

وكان الوليدُ قد أخرج لواء مرْوان بن الحكم الذى كان قد عقده بالجابية .

وبلغ عبد العزيز مسيرُ العباسِ إلى الوليد ، فأرسل منصور بن

(١) فى ك : فالله . (٢) فى د : وينصره .
(٣) فى ك : الفجر . والمثبت فى الكامل ، والطبرى .

جُمهور إلى طريقه ، فأخذه قَهرًا ، وأتى به عبْد العزيز ، فقال له : بايعْ لأخيك يزيد ، فبايع ، ووقف ونَصبُوا رايةً ، فقالوا : هذه رايةُ العباس [قد بايع لأميرِ المؤمنين يزيد ، فقال العباس][1] :

إنالله ! خدْعة من خدع الشيطان ، هلك والله بنومروان .

فتفرَّقَ الناسُ عن الوليد ،وأتَوا العباس وعبد العزيز ، وأرسل الوليدُ إلى عبْد العزيز يبْذل لهُ خمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقى ، ويُؤمِّنه مِنْ كل حدث ، على أنْ ينْصرف عن قتاله ، فأبى ولم يُجِبْه ، فظاهر الوليد من دِرْعين ، وأتوه بفَرَسَيْه[2] : السندى، والزائد[3] ، فقاتلهم قِتالاً شديدا ، فناداهم رجلٌ : اقْتلوا عدُوَّ الله قِتْلَة قوم لوط. ، ارجمُوه بالحِجارة ، فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق عليه الباب ، وقال[4] :

دعُوا لى سُلَيمى[5] والطِّلاء وقَيْنَة ... وكأْسًا ، ألَا حسْبى بذلك مالا
إذا ما صفا عيْشى[6] برمْلَةِ عالج ... وعانَقْت سلْمى لا أُريدُ بدالَا
خذوا مُلككم لا ثبَّت الله ملككم ... ثَباتا يساوى[7] ماحييت عِقَالا
وخلُّوا عِنَانى قبل عَيْرٍ[8] وما جرى ... ولا تَحسُدونى أن أموت هُزالا

(١) ليس فى ك .
(٢) فى ك : بفرسه .
(٣) فى ك :والراية. والمثبت فى الطبرى أيضاً .
(٤) الشعر فى العقد الفريد: ٤–٤٦٠ ، والأغانى: ٧ – ٢٧٩،والكامل: ٤–٢٦٧
(٥) فى الكامل:سلمى. وفى العقد الفريد : مع طلاء ... وكأس. والطلاء :الخمر.
(٦) فى الأغانى : عيش .
(٧) فى ك : لايساوى
(٨) فى ك ، د : غير . والمثبت فى الأغانى والكامل أيضا .

قال : وأحاط عبدُ العزيز بالقَصْر ، فدنا الوليدُ من الباب ، فقال : أما فيكم رجُلٌ شريفٌ له حسبٌ وحياء أكلِّمُه ! قال يزيد ابن عنْبسة السكسكى : كلِّمْنى . قال : يا أخا السَّكَاسك ، ألم أزِدْ فى أعطياتكم ! ألم أرْفَع المُؤَن عنكم ! ألم أعطِ فقَراءكم ؛ ألم أخدم زَمْنَاكم ؟ فقال : إنا ما نَنْقم عليك فى أنفسنا ، إنما نَنْقم عليك فيما حرَّم اللهُ ، وشرْب الخمر ، ونِكاح أمهات أولادِ أبيك ، واستخفافك بأمرِ الله .

قال : حسْبك ياأخا السكاسك ، فلعمْرِى لقد أكثَرْتَ ، وإن فيما أحلَّ الله سعة عما ذكرت .

ورجع وجلس ، وأخذ مُصْحفا ، ونشَره يقرأ فيه ، وقال : يوْم كيوم عثمان . فصعدوا على الحائط ، وكان أول منْ علَاه يزيد ابن عنْبسة ، فنزل إليه ، وأخذ بيده ، وهو يُريد أنْ يحبِسه ، ويؤامر فيه ، فنزل من الحائط عشرة ؛ فيهم : منصور بن جُمهور ، وعبد السلام اللخمى ، فضربه عبْدُ السلام على رأسه ، وضربه السرىّ (١) بن زياد بن أبى كَبْشة على وجْهه ، واحتزُّوا رأسه ، وبعثوا به إلى يزيد ، فأتاه الرأْسُ وهو يتغدى ، فسجد وأمر بنَصْب الرأس . فقال له يزيد بن فَرْوة مولى بنى مُرَّة : إنما تنصب رءُوس الخوارج ؛ وهذا رأْسُ ابن عمك وخليفة ، ولا آمن إنْ نصبْتَه أنْ ترِقَّ له قلوبُ الناس ، ويغْضَب له أهل بيته .

فلم يسمع منه ، ونصبه على رُمْح ، وطاف به دِمشْق ؛ ثم أمر به أنْ يُدْفَع إلى أخيه سليمان بن يزيد ، فلما نظر إليه سليمان قال :

(١) فى الكامل : السندى . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

بُعْدًا له !أَشْهَدُ أنه كان شَرُوبا للخمر ماجِنا فاسقا ، ولقد أرادنى على نَفْسى الفاسق ـ وكان سليمان مِمَّنْ سعى فى أمره .

وحكى يزيد بن عنْبسة ليزيد بن الوليد أنَّ الوليد قال فى آخر كلامه : والله لايرتق فَتْقكم ،ولا يلم شَعثكم ،ولا تجتمع كلمتكم .

وكانت مدة خلافة الوليد سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما . وكان عمره اثنتين وأربعين سنة . وقيل : قتِل وهو ابْن ثمان وثلاثين سنة .

وقيل : إحدى وأربعين .

وقيل : ست وأربعين سنة . والله أعلم .

وكان الوليدمن فِتْيان بنى أُمية وظرفَائهم وشُجعانهم ، وأجوادهم ، جيِّد الشِّعْر ، له أشعارٌ حسنة فى الغَزل والعتَاب ووصف الخمر وغير ذلك ، إلا أنه كان كثير الانهماك فى اللهو والشُّرْب وسماع الغناء .

ومن كلامه : المحبة للغناء تزيد الشهْوة ، وتهْدِم المروءة ، وتنوب عن الخمر ، وتفعل مايفعل السكر ، فإنْ كنْتم لابدَّ فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء رُقية الزنى ،وإنى لأقول ذلك على أنه أحب إلىّ من كل لذة ، وأشْهى إلى نفسى من الماء إلى ذى الغلَّة ، ولكن الحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبع .

ومما اشتهر عنه أنه استفتح المصحف الكريم ، فخرج له قوله

تعالى[١] : «واستَفْتَحُوا وخاب كلُّ جبار عنيد». فألقاه ونَصبه غَرَضًا، ورماه بالسهام ، وقال [٢] :

تهدِّدُنى بجبَّار عنِيـد فهأنا ذاك جبَّار عنِيد
إذا ما جئْت ربَّك يوْم حشرٍ فقلْ ياربّ مزَّقَنى الْوليد

فلم يلبث بعد ذلك إلَّا يسيرا حتى قُتل . هذا هو المشهور عنه.

وروى أبو الفرج الأصفهانى بسنده إلى العلاء البندار ، قال : كان الوليد زِنْدِيقا ، وكان رجُلٌ من كلب من أهل الشام يقول مقالةَ الثَّنَوِية ، فدخلْتُ على الوليد يوما وذلك الكَلْبِىُّ عنده ، وإذا بينهما سفَط. قد رفع رأسه عنه ، وإذا ما يبْدُو لى منه حرِير أخْضَر ؛ فقال : ادْنُ يا علاء ، فدنَوْتُ ، فرفع الحرِيرة فإذا فى السفط. صورةُ إنسان ، وإذا الزئبق والنوشادر[٣] قد جُعلا فى جفْنِه . فجفْنُه يَطْرِفُ كأنه يتحرَّكُ ، فقال : ياعلاء ، هذا مانى ، لم يبعث الله نبيا قَبْلَه ، ولا يبعثُ نبيا بعده ؛ فقلت : يا أمِير المؤمنين ، اتق الله ولا يغرنَّك هذا الذى تَرى مِنْ دينك . فقال الكَلْبِى : يا أمير المؤمنين ،قد قلْت لكَ : إن العلاء لا يحتملُ هذا الحديث.

قال العلاء : ومكثتُ[٤] أياما ،ثم جلسْت مع الوليد على بناء كان

(١) سورة إبراهيم ، آية ١٥
(٢) الشعر فى الكامل : ٤ — ٢٦٩
(٣) فى د : النوشادر .
(٤) فى ك : ومكث .

[قد[1]] بناه فى عسكره يُشْرِفُ منه والكَلْبِىُّ عنده إذْ نَزَل من عنده ، وقد كان الوليد حملَه على بِرْذَون هِمْلَاج[2] أشقر من أفْخر ما سُخِّر ، فخرج على بِرْذَونه ، فمضى فى الصحراء حتى غاب عن العسْكَر ، فما شعر إلا وأعراب قد جاءُوا به يحملونه منفسحة عُنُقه ، وبرذَوْنه يُقاد ، حتى أسلموه .

فبلغنى ذلك ، فخرجْتُ حتى أتيْتُ أولئك الأعراب ، وكانت لهم أبياتٌ بالقُرْبِ من أرض البحر لا حجر فيها ولا مدر ،فقلت لهم : كيف كانت قِصَّةُ هذا الرجل ؟ فقالوا : أقْبلَ علينا على بِرْذَوْن ، فوالله لكأنه دُهْنٌ يسيل على صفَاةٍ من فَراهِيته ، فعجبنا لذلك إذ انقضّ رجُلٌ من السماء عليه ثيابٌ بِيض ، فأخذ بضَبُعيه ، فاحتمله ، ثم نكسه ، وضرب برأسه الأرْضَ ، فدقَّ عُنُقه ، ثم غاب عن عيُونِنا فاحتملناه فجئْنَا به .

وقد نَزَّه قوم الوليد عما قيل ، وأنكروه ونَفوْه عنه ، وقالوا : إنه اختُلق عليه وأُلصق به ، وليس بصحيح .

حكى عن شبيب بن شيْبة أنه قال : كُنَّا جُلُوسًا عند المهدى ، فذكروا الوليد ، فقال المهدى : كان زِنْدِيقا ، فقام ابن عُلَاثةَ الفقيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنَّ الله عزَّ وجلَّ أعْدلُ من أنْ يُولِّى خلافَة النبوة وأمْر الأُمَّةِ زنديقا ، لقد أخبرنى من كان يشهده فى ملَاعبه وشربه عنه بمروءةٍ فى طهارتهِ وصلاتِه ؛ فكان إذا حضرت الصلاةُ

(١) ليس فى د.

(٢) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة (اللسان) .

يطْرحُ الثيابَ التى عليه المطيَّبة المصبَّغة ، ثم يتوضَّأُ فيُحْسِنُ الوضوء ، ويُؤْتَى بثيابٍ نِظَاف بِيض فيلبسها ، ويصلى فيها ، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب فلبسها ،واشتغل بشُرْبِه ولَهْوِه ، فهذا فعال منْ لايؤمن بالله !

فقال المهدى : بارك الله عليك يابْنَ عُلَاثَة .

وللوليد كلامٌ حسن ؛ فمن أحسن كلامه ما قاله لهشام بن عبْد الملك لما مات مسلمة بن عبد الملك وقَعد هشامٌ للعزَاء ، فأتاه الوليد وهو نَشْوان يجرُّ مُطْرف خَزٍّ عليه ،فوقف على هشام فقال : ياأمير المؤمنين ، إنعُقْبى منْ بقى لُحوقُ منْ مضى ، وقد أقْفر بعد مسلمة الصَّيْدُ لمنْ رمى ، واختلَّ الثَّغْرُ فَهَوى ، وعلى أثر منْ سلف يمضى منْ خَلَف ؛ فتزوَّدُوا فإنَّ خَيْر الزَّادِ التَّقْوى .

فأعرض هشام ولم يُحِرْ جوابا ، وسكت القومُ فلم ينْطِقُوا .

والوليد أوّل خليفة عدَّ الشِّعر وأجاز عن كلِّ بيْتٍ ألف درهم ، فإن يزيد بن ضبَّة مولى ثقيف مدحه وهنَّأه (١) بالخلافة فأمر أن تُعدَّ الأبيات ويُعْطَى لكل بيت ألف درهم ؛ فعُدَّتْ فكانت خمسين بيتا فأعطى خمسين ألف درهم .

قال : ودُفن الوليد بباب الفَرادِيس بدِمشْق . وقيل : إنه قُتل بأرض حِمْص .

وحكى الدُّولابى أن رأس الوليد نُصِب فى مسجد دمشق ولم يزل

(١) فى د :وهشام :

أثَرُ دمِه على الجِدار إلى أن قدم المأمون دمشق فى سنة [٢١٥هـ] خمس عشرة ومائتين ، فأمر بحكّه .

وكان الوليد أبيض ربْعة قد وخَطهُ الشَّيْبُ .

وكان نَقْشُ خاتمه : ياوليدُ ، احْذَر الموتَ .

وكان له من الأولاد الذكور والإناث ثلاثة عشر .

كاتبه : العباس بن مسلم .

قاضيه : محمد بن صفوان الجُمحى .

حاجبه : قطرى مولاه .

الأمير بمصر : حفْص بن الوليد الحضرمى ، ثم صرفه عن الخراج .

قاضيها : حسين بن نُعيم [والله أعلمُ[1]] .

ذكر بيعة يزيد بن الوليد الناقص

هو أبو خالد يزيد بن الوليد[2] بن عبد الملك بن مرْوان ؛ ولقِّب بالناقص ؛ لأنه نقص الزياداتِ التى كان الوليد زادها فى أعطيات الناس ، وهى عشرة عشرة ، وردَّ العطَاء إلى أيام هشام. وقيل : أول منْ لَقَّبهُ بهذا اللقب مرْوان بن محمد .

وأم يزيد شاه آفريد[3] بنت فيروز بن يزدجر بن شهريار .

بُويع له لليلتين بقِيتَا من جُمادى الاخرة سنة [١٢٦ هـ] ست وعشرين ومائة .

---

(١) ليس فى د .

(٢) فى ك : يزيد بن الوليد بن يزيد بن عبدالملك .

(٣) فى العقد الفريد : وأمه ابنة يزد جزد بن كسرى . وفى الطبرى : وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يزجر د بن شهريار بن كسرى . وفى مروج الذهب : أمه سارية بنت فيروز . وفى ك : شاه فهند . ونراه تحريفاً .

قال : ولما قُتِل الوليدُ خطب يزيدُ الناس فذَمَّ الوليد ، وذكر إلحاده ، وأنه قتله لفِعْلِه الخبيث ، وقال : أيها الناس ، إنَّ لكم علىّ ألّا أضَع حجرًا على حجر ، ولا لبِنَةً على لبنةٍ ،ولا أكْرُو[1] نَهْرا ، ولا أكْنِز مالاً ، ولا أعطيه زوجةً وولَدا ، ولا أنْقُل مالا من بلد حتى أسدَّ ثغره وخَصاصةَ أهلِه بما يُغْنيهم ، فما فضل نَقَلْتُه إلى البلد الذى يليه ، ولا أجمِّرُكم فى ثغوركم فأفتنكم . ولا أغلق بابى دونكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ، ولكم أعطياتُكم كل سنةٍ وأرزاقُكم فى كل شهر ، حتى يكون أقصاكم كأدناكم ؛ فإن وفَّيت بما قُلْت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازَرة ، وإن لم أوف[2] فلكم أنْ تخلعونى ، إلّا أنْ أتُوب ، وإن علمْتُم أحدًا ممن يُعرفُ بالصلاح يعطيكم مِثْلَ ما أعطيكم وأردْتُم أن تبايعوه فأنا أوّلُ منْ يبايِعُه .

أيها الناس ، إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. [والله الموفِّق بمنِّه وكرمه[3]] .

ذكر اضطراب أمر بنى أمية

وفى سنة ست وعشرين ومائة فى أيام يزيد هذا اضْطَرب أمْرُ بنى أمية ،وهاجت الفتنةُ ،فكان من ذلك وثوبُ سليمان بن هشام ابن عبْد الملك بعمان ، وكان الوليدُ قد حبسه بها ، فلما قتل خرج

(١) فى ك: أكرى . وفى الكامل . : أكترى . وفى القاموس : كرا الأرض يكروها : حفرها . والبئر طواها بالشجر .

(٢) فى الكامل : أف .

(٣) ليس فى د .

من الحبس ، وأخذ ما كان بها من الأموال ، وأقبل إلى دمشق ، وجعل يلْعنُ الوليد ويعيبه بالكفر .

ومن ذلك خلاف أهل حمص وفلسطين :

ذكر خلاف أهل حمص

قال : ولما قُتِل الوليد أغْلَقَ أهلُ حِمْص أبوابها ، وأقاموا النوائح والبواكِي عليه . وقيل لهم: إنَّ العباس بن الوليد بن عبْد الملك أعانَ عبْد العزيز على قَتْله ، فهدمُوا داره ، وانتهبوها ، وسلبوا حريمه ، وطلبوه ؛ فسار إلى أخِيه يزيد ، وكاتَب أهْلُ حِمْص الأجناد ، ودعَوْهم إلى الطَّلَبِ بدمِ الوليد ، فأجابوهم واتفقوا على ألَّا يُطِيعوا يزيد ، وأمَّرُوا عليهم معاويةَ بن يزيد بن حُصين بن نمير ، ووافَقَهُمْ مرْوان بن عبْد الله بن عبْد الملك على ذلك ، فراسلهم يزيد ، فأخرجوا رُسُلَه ، فسيَّر إليهم أخَاهُ مسرورا فى جمْع كثير ، فنزلوا حُوَّارِين[1] ، ثم قدم على يزيد سليمان بن هشام ، فردَّ عليه ما كان الوليدُ أخذَه من أموالهم ، وسيَّره إلى أخيه مسرور ، وأمرهم بالسَّمْع والطاعة له ؛ وكان أهْلُ حمص يُريدونَ السير إلى دمشق ، فقال لهم مرْوان بن عبْد الله : أرى أنتَسيروا إلى هذا الجيش فتُقاتلوهم ، فإنْ ظَفِرْتُم بهم كان ما بعْدهم أهْون عليكم ، ولسْتُ أرى المسير إلى دمشق وتَرْك هؤلاء خلفكم .

فقال السِّمْطُ بن ابت : إنما يريد خلافكم ، وهو مائل[2] .

(١) حوارين – بالضم وتشديد الواو ، ويختلف فى الراء ، فمنهم من يفتحها ومنهم من يكسرها ، وياء ساكنة ونون : وهى من قرى حلب (ياقوت) .

(٢) فى ك : نائل .

ليزيد ، فقتلوه وقتلوا ابنَه ، وولَّوْا عليهم أبا محمد السفيانى ، وتركوا عسْكَر سليمان ذات اليسار ، وساروا إلى دمشق ، فخرج سليمان مُجِدًّا فى طلبهم ،فلحقهم بالسُّليْمانية-مزرعة كانت لسليمان ابن عبد الملك خَلْف عذْراء[1].

وأرسل يزيدُ عبدَ العزيز بن الحجاج فى ثلاثة آلاف إلى ثنيَّة العُقَاب ، وأرسل هشام بن مُصاد فى ألف وخمسمائة إلى عقَبةِ السلامية . وأمرهم أنْ يُمدَّ بعْضهُم بعضا ، ولحقهم سليمان على تَعبِ مقاتلتهم[2] ، فانهزمت ميْمنتُه وميْسرتُه ، وثبت هو فى القَلْب ، ثم حمل أصحابُه على أهلِ حِمْص حتى ردُّوهم إلى موضعهم ، وحمل بعْضُهم على بعض مِرارًا .

فبينما هم كذلك إذْ أقبل عبْدالعزيز مِنْ ثَنِيَّةِ العُقَاب ، فحمل على أهل حِمْص حتى دخل عسْكَرهم ، وقَتَل فيه منْ عرضله ، فانهزموا ونادوْا : يايزيد بن خالد بن عبْد الله القَسْرى ! الله الله فى قَوْمك ! فكفَّ الناسُ ، وأُخذ أبو محمد السُّفْيانى أسيرًا ، ويزيد بن خالد بن معاوية ، فأُتى بهما سليمان فسيَّرهما إلى يزيد فحبسهما .

واجتمع أمرُ أهلِ دمشق ليزيد ، وبايعه أهْلُ حمص ، فأعطاهم العطاء ، وأجاز الأشراف ؛ واستعمل عليهم يزيد بن الوليد ابن معاوية بن يزيد بن الحُصين .

---

(١) عذراء — بالفتح ثم السكون والمد : قرية بغوطة دمشق (المراصد) . وفى الطبرى خلف عذراء من دمشق على أربعة عشر ميلا .

(٢) فى الكامل : فاقتتلوا قتالا شديداً .

ذكر خلاف أهل فلسطين

وفى هذه السنة وثب أهلُ فلسطينِ على عامِلِهم سعِيد بن عبْد الملك فطردُوه ، وكان الوليدُ قد استعمله عليهم ، فأحضروا يزيد بن سليمان بن عبدِ الملك فجعلوه عليهم ، فدعا الناس إلى قِتَال يزيد ، فأجابوه إلى ذلك ؛ وبلغ أهلُ الأُرْدُن أمر أهلِ فلسطين ، فولَّوْا عليهم محمد بن عبد الملك ، واجتمعوا[1] معهم على قِتَالِ يزيد ابن الوليد ، فبعث يزيدُ إليهم سليمانَ بْنَ هشام بن عبدالملك فى أهل دمشق وأهْلِ حمص الذين كانوا مع السفيانى ، وعِدَّتُهم أربعة آلاف ونَيِّف ، فبايع الناسُ ليزيد ، واستعمل ضِبْعان[2] بن روح على فلسطين وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك على الأُرْدُن .

ذكر عزل يوسف بن عمر عن العراق

وما كان من أمره ، واستعمال منصور بن جُمْهور

وفى هذه السنة عزل يزيدُ بن الوليد يوسف بن عُمر عن العراق ، واستعمل منصور بن جُمهور ، وقال له لَمَّا ولَّاه العراق : اتَّقِ الله واعْلَم أنى إنما قتلْتُ الوليد لفِسْقِه ، ولما أَظْهَر من الجوْرِ ، فلا تركب مِثْلَما قتلْنَاهُ عليه . فسار حتى إذا بلغ عيْنَ[3] التَّمْر كتب إلى منْ بالحيرة مِنْ قُوّادِ أهْل الشام يُخْبرهم بقَتْلِ الوليد وتَأْمِيره على العِراق ويأمرهم بأَخْذِ يوسف وعماله ، وبعث بالكُتب

(١) فى ك : وأجمعوا . والمثبت فى الكامل أيضاً .

(٢) فى ك ، د : صنعان . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

(٣) عين التمر : بلدة فى طرف بادية الشام (المراصد) .

كلِّها إلى سليمان بن سليم بن كَيْسان ليُفرقها على القُوَّاد، فحبس الكُتُب؛ وحمل كِتَابه فأقرأه يوسف بن عمر ، فتحيَّر فى أمْره ؛ وقال :ما الرَّأْىُ ياسليمان ؟ قال : ليس لكَ إمامٌ تُقَاتِلُ معه ؛ ولا يقاتِلُ أهْلُ الشام معك ، ولا آمنُ عليك منصوراً . وما الرأىُ إلَّا أنْ تلحق بشَامِك .

قال : فكيف الحِيْلَةُ ؟ قال :تُظْهِرُ الطاعةَ ليزيد وتَدْعُو له فى خُطْبَتك ؛ فإذا قرُب منصور تستَخْفِى عندى وتدعه والعمل .

ثم مضى سليمان إلى عمْرو بن محمد بن سعِيد بن العاص ؛ فأخبره بالأمْر ، وسأله أن يؤوى[1] يوسف بن عُمر عنده . ففعل ؛ فانتقل يوسفُ إليه ، فلم[2] يُر رجُلٌ كان مِثْل عُتُوِّه خاف مثل خَوْفِه.

وقدم منصور الكوفةَ فحضَّهم وذمَّ الوليد ويوسف ،وقامت الخطباء فذمُّوهُما معه ، فأتى عَمْروبن محمد إلى يوسف ، فأخبره؛ فجعل لايذْكرُ له رجلا ممن ذكره بسوء إلا قال : لله علىَّ أنْ أضربه كذا وكذا سوْطًا ؛ فجعل عمرو يتعجَّبُ من طَمعِه فى الولاية . ويهدُّده الناس .

وسار يوسف مِنَ الكوفة سِرًّا إلى الشام ، فنزل البلْقَاء[3] . فلما بلغ خَبرهُ يزيد بن الوليد وجَّه إليه خمسين فارِسًا ، فعرضَ رجُلٌ من بنى نمير ليوسف، وقال :يابنَ عمر، أنْتَ والله مقتولٌ ؛ فأطِعْنى وامْتَنِع .

---

(١) فى الكامل : يوارى . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

(٢) فى الطبرى : قال عمرو : فلم أر رجلا مثل عتوه رعب رعبه ...

(٣) البلقاء : أرض بالشام (البكرى) .

قال : لا ، فدعْنى أقتلك أنا ولا تقتلك هذه اليمانية فتَغيظنا بقَتْلك .

قال : مالى فيما عرضْتَ خِيار ، فطلبه المسيِّرُون إليه ، فلم يروْه ، فتهدَّدوا ابنًا له ، فقال لهم : انْطَلَقَ إلى مزْرعة له ، فساروُا فى طلَبه ، فلما أحسَّ بهم هرب وترك نَعْلَيْه ، ففتَّشُوا عليه فوجدوه بين نِسْوةٍ قد ألْقَيْن عليه قطيفةَ خَز وجلَسْنَ على حواشيها حاسِرات ، فجرُّوا برِجلِهِ ، وأخذوه ، وأقبلوا به إلى يزيد ، فوثب عليه بعْضُ الحرسِ ، فأخذ بلحيته ونتَفَ بعْضَها ، وكان من أعظم الناس لحيةً ، وأصغرهم قامةً .

فلما أُدخل على يزيد قبض على لحيةِ نفسه ، وهى إلى سُرَّتِهِ ، وجعل يقول : يا أمير المؤمنين ؛ نتفت والله لِحْيتى ، حتى لم يبْقَ فيها شعرة ؛ فأمر به فحبس فى الخَضْراء فأتاه إنسان فقال له : أما تخافُ أنْ يطْلُع عليك بعْضُ من وتَرْتَ فيُلْقى عليك حجرًا فيقتلك؟

قال [1] : ما فطنْتُ لهذا ، فأرسل إلى يزيد يطلُب منه أن يحوِّل إلى حبْس [2] غير الخَضْراء ، وإنْ كَانَ أضْيق منه ، فعجبوا من حُمْقِهِ ، فنقله وحبسه مع ابنى الوليد ، فبقى فى الحبْسِ ولاية يزيد وشهرين وعشرة أيام من ولَاية إبراهيم .

فلما قرب مرْوان من دِمشْقَ ولى يزيد بن خالد [القسرى] [3]

(١) فى د : فقال .
(٢) فى الطبرى : مجلس .
(٣) ليس فى د .

مولًى لأبيه يقال له أبو الأسد[1] قَتْلَهم[2] ، فقتل الحكم وعثمان ويوسف على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله تعالى .

وكان يوسفُ بْنُ عُمر يُحمَّقُ ، وفيه أشياء متباينَة متناقضة ؛ كان طويل الصلاة ، مُلَازِمًا للمسجد ، ضابطًا لحشَمه وأهْله عن الناس ، لَيِّنَ الكلام ، متواضِعًا ، حسنَ الملكة كثير التضرُّع والدعاء ، فكان يصلِّى الصُّبْح ، ولايكلم أحدًا حتى يصلى الضُّحى ، وهو فيما بين ذلك يقْرأ القرآن ويتضرَّعُ ، وكان بصيرًا بالشعر والأدب ، وكان شديد العُقوبةِ ، مُسْرفًا فى ضَرْبِ الأبْشار ، وكان يأْخذ الثوب الجيِّد فيُمِر ظفره عليه فإن تعلَّقَ به طاقُه ضرب صاحِبه ، وربما قطع يده .

حكى أنه أتى يوما بثَوْبٍ فقال لكاتبه : ما تقولُ فى هذا الثوب؟ قال : كان ينبغى أنْ تكونَ بيوتُه أصغر مما هى . فقال للحائك : صدق يابْنَ اللخناء . فقال الحائك : نحن أعلم بهذا . فقال لكاتبه : صدق يابْنَ اللخناء . فقال الكاتب : هذا يعْملُ فى السنةِ ثوبًا أو ثوبين وأنا يمرُّ على يدِى فى السنة مائة ثوب مِثْل هذا . فقال للحائك : صدقَ يابْنَ اللَّخْنَاء ، فلم يزل يكذِّبُ هذا مرةً ، وهذا مرةً حتى عدّ أبيات الثوب ، فوجدها تنقص بيْتًا من أحدِ جانبي الثوب ، فضرب الحائكَ مائةَ سوط .

وقيل : إنه أراد السفر فدعا جواريه ، فقال لإحْداهُنَّ : تَخْرُجين معى ؟ قالت : نعم . قال : ياخبيثة . كلُّ هذا من حبِّ النكاح ،

(١) فى ك : يقال له الأسد . والمثبت فى الطبرى ؛ والكامل .

(٢) فى الكامل (٤–٢٧٢) : فلما قرب مروان من دمشق ولى قتلهم يزيد بن خالد القسرى مولى لأبيه خالد ، يقال له أبو الأسد . وهى أوضح .

ياخادم ، اضربْ رأسها . وقال لأُخرى : ما تقولين ؟ فقالت : أُقِيم على ولَدِى . فقال : ياخبيثةُ ، كلُّ هذا زهادة فىّ ، اضْربْ رأسها . وقال لثالثةٍ : ما تقولين ؟ قالت : لا أدْرِى ما أقول ، إن قلْتُ ما قالت إحداهما لم آمنْ عقوبتك . فقال : يالخناء وتُنَاقِضين وتحتجِّين ، اضْرِبْ رأسها .

وكان قصيرًا ، فكان يحضر الثوب الطويل ليفصِّله ليلبسه ، فإن قال له الخياط : إنه يفْضُل منه ضرب رأسه ، وإن قال : لايكفى إلّا بعدالتصرُّف فى التفصيل سرَّه ذلك ، فكانوا يفصِّلُونَ له ويأْخذون ما بقِى . وكان له فى ذلك أشياء كثيرة .

فلنرجع إلى أخبار منصور بن جُمهور .

قال : وكان دخول منصور الكوفة لأيامٍ خَلَتْ من شهر رجب سنة [١٢٦هـ] ست وعشرين [ومائة[1]] ، فأخذ بيوتَ الأمْوال ، وأخْرج العطاء والأرزاق ، وأطلق منْ كان فى السجون مِنَ العمَّال وأهْل الخراج ، وبايع ليزيد بالعراق ، وأقام بقيَّةَ رجب وشعبان ورمضان ، وانصرف لأيَّامٍ بقين منه .

وامتنع نَصْر بن سيَّار بخراسان مِنْ تسليم عمله لعامل منصور ، فإنَّ يزيد كان قد ضَمَّ خراسان لمنصور مع العراق .

ذكر عزل منصور بن جمهور عن العراق

وولاية عبد الله بن عُمر بن عبد العزيز

وفى هذه السنة عزَل يزيدُ بن الوليد منصور بن جُمهور عن العراق ،

(١) زيادة مما بين السطور فى د .

واستعمل عبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز : وقال له : سِرْ إلى العراق ؛ فإنَّ أَهْلَه يميلون إلى أبيك . وخاف ألَّا يسلم إليه المنصورُ العمل ، فانْقَاد له أَهْلُ الشام ، وسلَّم إليه منصورٌ الولايةَ ، وانصرف إلى الشام ، ففرَّقَ عبْدُ الله العمال ، وأَعْطَى الناس أرزاقهم وأعطياتهم ، فنازعه قُوَّادُ أهلِ الشام ، وقالوا : تَقْسِم على هؤلاء فَيْئنا ، وهم عدُوُّنا ! فقال لأهلِ العراق : إنِى أُريدُ أن أَرُدَّ عليكم فَيْئَكم ، وعلمْتُ أنكم أحقُّ به ، فنازعنى هؤلاء .

فاجتمع أَهْلُ الكوفة بالجبَّانة ، فأرسل إليهم أهلُ الشام يعتذرون ، وثار غَوْغَاءُ الناس فى الفريقين ، فأُصيب منهم رهْطٌ لم يُعْرفوا ؛ واستعمل عبْدُ الله بن عُمر على شرطتِهِ عُمر بن الغَضْبان ابن القَبعْثَرى ، وعلى خَراج السواد والمحاسبات أيضًا .

ذكر الاختلاف بين أهل خراسان

وفى سنة [١٢٦هـ] ست وعشرين ومائة وقع الاختلافُ بخراسان بين النِّزاريَّة واليمانية ، وأظهر الكِرمانى الخلاف لنَصْر بن سيَّار .

وكان سبب ذلك أن نَصْرًا رأى الفتنةَ قد ثارت ، فرفع حاصِلَ بيْت المال ، وأعطى الناس بعْضَ أعطياتهم ورِقًا وذَهبًا ، من أوانٍ[1] كان اتَّخَذَها للوليد بن يزيد ، فَطَلب الناسُ منه العطَاء ، وهو يخطبُ ؛ فقال نصر : إيَّاى والمعصية ، عليكم بالطاعة والجماعة . فوثب أهلُ السوقِ إلى أسواقهم ، فغضب نَصْر ، وقال : مالكم عندى عطَاء[2]

(١) فى الطبرى والكامل : من الآنية التى كان ...

(٢) فى الطبرى : عطاء بعد يومكم هذا .

ثم قال : كأنى بكم وقد نَبع مِنْ تحت أرجلكم شَرٌّ لايُطاق ، وكأنى بكم مُطَرَّحِين فى الأسواق كالجُزُرِ المنحورة ، إنه لم تَطُلْ ولايةُ رجل إلّا ملُّوها ، وأنتم يأهْل خراسان مسْلَحةٌ فى نحور العدو ، فإياكم أن يختلف فيكم سيفان ؛إنكم تريشون أمرا وتريدون[1] به الفِتْنَةَ ، ولا أبْقَى اللهُ عليكم ، لقد نشرْتُكم وطَويْتُكم ، فما عندى منكم عشرة . فاتقوا الله ، فوالله لئن اختلف فيكم سيْفَان ليتمنَّيَنَّ أحدُكم أنه ينخلعُ من ماله وولده . يأهل خُراسان ، إنكم قد غمطتم الجماعة ، وركنْتُم إلى الفرقة .

ثم تمثل بقول النابغة[2] :

فإنْ يغْلِبْ شَقَاؤكمو عليـــكم فإنّى فى صلاحكمُو سعيْتُ

وقدم على نصر عهْدُهُ[3] على خُراسان من قِبل عَبْد الله بن عُمر ابن عبد العزيز ؛ فقال الكَرْمانى لأصحابه : الناسُ فى فتنة فانظُرُوا لِأُموركم رجلا .

والكِرْمانى اسْمُه جُديع بن علىّ الأزدى ، وإنما سمى الكَرْمانى لأنه وُلِد بِكَرْمان ، فقالوا له : أنت لنا . وقالت المُضَرِيّة لنَصْر : إن الكَرمانى يُفْسِدُ عليك الأُمور ، فأَرْسِلْ إليه فاقْتُلْه أو احبسه .

قال : لا ، ولكن لى أولاد ذكور وإناث ، فأُزَوِّج بنىّ من بنَاته ، وبناتى من بنيه .

قالوا : لا . قال : فأَبْعثُ إليه بمائة ألف درهم ، وهو بخيل ،

(١) فى الطبرى : تريدون .
(٢) فى ديوانه : ٢٢
(٣) ك : عهد .

فلا يُعْطِى أصحابه شيئًا منها ، فيتفرَّقُون عنه . قالوا : لا ، هذه قوَّةٌ له ، ولم يزالُوا به حتى قالوا له : إنَّ الكَرْمانى لو لم يقْدِر على السلطنة والملك إلا بالنصرانية واليهودية لتنصَّر وتَهَوَّد .

وكان نَصْرٌ والكِرمانى متصافِيَيْن ، وكان الكَرْمانىّ قد أحسنَ إلى نَصْر فى ولاية أسد [بن عبد الله [1]] القَسْرِى . فلما ولى نَصْر عزَل الكَرْمانى عن الرياسة وولاَّها غيره ، فتباعد ما بينهما ، فلما أكْثَرُوا على نَصْر فى أمْرِه عزم على حبْسِه ، فأرسل صاحب حرسِه ليأْتيه [به[2]] ، فأرادت الأَزْدُ أنْ تُخَلِّصه من يدِهِ ، فمنعهم من ذلك ، وسار مع صاحب الحرس وهو يضْحك :

فلما دخل على نَصْر قال له : يا كَرْمانى ، ألم يأْتنى كتابُ يوسف ابن عُمر بقَتْلك فراجعت[3] وقلتُ : شيخُ خراسان وفارِسُها ، فحقَنْتُ دمكَ ؟ قال : بلى . قال : ألم أغرم عنك ما كان لِزَمك من الغُرْم ، وقسمْته فى أعطيات الناس ؟ قال : بلى . قال : ألم أرؤّس ابْنَك عليًّا على كُرْهٍ من قومك ؟ قال : بلى . قال : فبدَّلْتَ ذلك إجماعا على الفِتْنَة .

قال الكَرْمانى : لم يقُل الأميرُ شيئًا إلَّا وقد كان أكثر منه ، وأنا لِذَلك شاكر ، وقد كان منِّى أيام أَسَد ما قد علمْتَ ، ولسْتُ أحِبُّ الفتنةَ .

---

(١) من الكامل .

(٢) ليس فى ك .

(٣) فى د : فراجعته .

قال سلْم[١] بن أحْوز : اضْرِبْ عُنُقه أيها الأمير ، وأشار غَيْرُه بذلك ، فقال المقدام وقد امة ابنا عبْد الرحمن بن نُعيم العامرى[٢] : لَجُلَساءُ فرعون خَيْرٌ منكم ؛ إذ قالوا[٣] : « أَرْجِهْ وأخاه » والله لا يقتل الكرمانى بقولكم ، فأمر نصر بحبسه فى القهَنْدَز[٤] . فحبس وذلك لثلاث بقين من شهر رمضان ، فتكلمت الأزد فقال نصر : إنى حلفت أن أحبسه ، ولا يناله منى سوءٌ ، فإن خشيتم عليه فاختاروا رجلا يكون معه ، فاختاروا يزيد النحوى ، فكان معه ؛ فجاء رجل من أهل نسف ، فقال لآل الكرمانى : ماتجعلون لى إن أخرجته ؟ قالوا : كل ماسألْتَ ، فأتى مجرى الماء فى القهندز فوسعه ، وقال لولد الكرمانى : اكتبوا لأبيكم[٥] يستعد الليلة للخروج .

فكتبوا إليه ، وأدخلوا الكتاب فى الطعام ، فتعشَّى الكرْمانى ، ويزيد النحوى ، وحُصين بن حكيم ؛ وخرجا من عنده .

ودخل الكَرْمانى السَّرب ، فانطوت على بطْنِهِ حيَّةٌ فلم تضرّه ؛ وخرج من السَّرب ، وركب فرسه البشير ، والقَيْدُ فى رِجْله ، فأتَوا به عبْد الملك بن حرْملة فأطلق عنه القَيْد .

وقيل : إنَّ الذى خلَّص الكَرْمانى مولى له رأى خَرْقًا فوسَّعه وأخرجه

---

(١) فى ك : مسلم . وفى د : سالم . والمثبت فى الطبرى ، والمشتبه .

(٢) فى الطبرى : الغامدى . والمثبت فى الكامل أيضاً .

(٣) سورة الأعراف ، آية ١١١

(٤) فى ياقوت : القهندز – بفتح أوله وثانيه وسكون النون وفتح الدال وزاى : فى الأصل اسم الحصن أو القلعة فى وسط المدينة ، وأكثر الرواة يسمونه قهندز – بضم القاف والدال ، وهو تعريب كهندر – ومعناه القلعة الحصينة .

(٥) فى د : إلى أبيكم .

منه ، فلم يُصلِّ الصُّبْحَ حتى اجتمع معه زُهاء ألف ، ولم يرتفع النهار حتى بلغُوا ثلاثة آلاف .

وكانت الأَزْدُ قد بايعوا عبْد الملك بن حرْملَةَ . فلما خرج الكَرْمانى قدمه عبد الملك .

قال : ولما خرج الكَرْمانى عسكر نَصْرٌ بباب مرْو الرُّوذ ، وخطب الناس ، فنال مِنَ الكَرْمانى ، ثم ذكر الأَزْد ، فقال : إنْ يَسْتَوْسقُوا[1] فهم أَذَلُّ قَوْمٍ ، وإن يأْبوا فهم كما قال الأَخطل [2] :

ضفادِع فى ظَلْماءِ لَيْلٍ تجاوبـتْ فدلّ عليها صوْتُها حيَّةَ البحر

ثم ندم على ما فَرط منه ، فقال : اذكرُوا الله ؛ فإنه خَيْرٌ لاشرّ فيه .

واجتمع إلى نَصْر بشَرٌ كثير ، فسفَر الناسُ بينه وبين الكَرْمانىّ ؛ وسأَلوا نَصْرًا أن يؤمِّنَهُ ، ولايحبسه ؛ وجاء الكَرْمانىُّ ، فوضع يدَهُ فى يدِ نَصْر ، فأَمره بلزوم بيْتِهِ ، ثم بلغ الكَرْمانى عن نَصْر شىء ، فخرج إلى قريةٍ له ، وخرج نَصْرٌ فَعسْكَر بباب مَرْو ، فكلَّمُود فيه ، فأَمّنه .

فلما عُزل ابن جُمْهُور عن العراق ووُلِّى عبْدُ الله بن عمر فى شوَّال من السنة خطب نَصر ، وذكره ،وقال : قد علمْتُ أنه لم يكن مِنْ عُمّال العراق ، وقد عزله اللهُ ، واستعمل الطيِّب ابْنَ الطيِّب .

فغضب الكَرْمانى لابن جُمْهور ، وعاد فى جمْعٍ [3] الرجال واتخاذِ السلاح ؛ فكان يحضر الجمعة فى أَلْف وخمسمائة فيصلِّى خارج

(١) فى د : يستوثقوا .

(٢) البيت فى الطبرى ، والكامل .

(٣) فى ك : جميع .

المقصورة ، ثم يدخل فيسلِّم على نَصْر ، ولا يجلس ، ثم ترك إتْيان نَصْر وأظْهر الخِلَاف ؛ فأرسل إليه مع سَلْم [١] بن أحوز ، يقول : إنى والله ما أردْتُ بحبسك سُوءًا ، ولكن خفْتُ فساد أمْرِ الناس فأتِنى. فقال : لولا أنَّك فى منزلى لقتلْتك ، ارجع إلى ابْنِ الأقطع ، فأبلغه ما شئتَ من خَيْرٍ أو شر .

فرجع إلى نَصْر فأخبره ، فلم يزَلْ يُرْسِلُ إليه مرةً بعد أخرى ، فكان آخر ما قال له الكرْمانى : إنى لا آمنُ أنْ يحملك قوم على [٢] غير ما تريد ، فتركب مِنا مالاً بقيَّةً بعده ، فإن شئْتَ خرجْتُ عنك لامِنْ هيْبةٍ لك ، ولكن أكْرهُ سفْكَ الدماء ، فتهيَّأ للخروج إلى جُرْجان ؛ ثم كان من أمْرِ الكرْمانى ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم

قال : لما قُتل الوليد بن يزيد كان على اليمامةِ علىُّ بن المهاجر ، استعمله عليها يوسف بن عُمر ، فقال له المُهَيْر بن سلمى بن هلال أحدُ بنى الدوُّل بن حنيفة : اترك لنا بلادنا ، فأبى ؛ فجمع له المُهَيْر ، وسار إليه ، وهو بقَصْرِهِ فى قاعِ [٣] هَجَر ، فالتقوا بالقاع ، فانهزم علىٌّ حتى دخل قَصْرهُ ، ثم هرب إلى المدينة ، وقتل المُهَيْر ناسًا من أصحابه ، وتأمّر المُهَيْر على اليمامة ، ثم إنه مات ، واستخلف على اليمامة عبْدَ الله بن النعمان أحدبنى قيس بن ثعلبة بن الدوَّل ، فاستعمل

(١) فى ك : مسلم . وفى الكامل : سالم . وقد سبق .
(٢) فى ك : إلى .
(٣) فى د : بقاع .

عبْد الله بن النعمان المندَلث [١] بن إدريس الحنفى على الفَلَج - وهى قرية من قُرى بنى عامر بن صعصعة ، فجمع له بنو كَعْب ابن ربيعة بن عامر ومعهم بنو عقيل ، فأتوا [٢] الفلَج ؛ فلقيهم المُنْدَلِث ، وقاتلهم ، فقُتِل المندلِث وأكْثَرُ أصحابه ، ولم يقتل مِنْ بنى عامر كثير ، وقُتل يومئذ يزيد ابن الطَّثَرِيَّةِ [٣] وهى أُمُّه ، تُنْسب إلى طَثْر بن عَنْز [٤] بن وائل ، وهو يزيد بن المنتشر [٥] .

فلما بلغ عبْد الله بن النعمان قَتْلُ المُنْدَلِث جمع ألفًا من حنِيفة وغيرها ، وغَزا الْفَلَج .

فلما تصافَّ الناسُ انْهزم أبو لطيفة بن مسلم العقيلى ،وطارق ابن عبْد الله القُشَيرى ، والجعُونيان[٦] ، وتجلَّلت بنوجعْدة البراذِع ، وولَّوْا ، فقتل أكثرهم ، وقُطعت يدُ زِيادِ بن حيان الجَعْدى ؛ ثم قُتل[٧] .

ثم إن بنى عقيل وقُشَيرا وجَعْدة ونميرا تجمَّعُوا وعليهم أبو سهْلَة النُّميرى ؛ فقتلوا مَنْ لقوا من بنى حنِيفة بمعْدِن الصحراء ، وسبَوْا نساءهم ، وكفَّتْ بنو نمير عن النساء .

---

(١) هذا فى ك : د. (٢) فى د : وأتوا .

(٣) الطثرية - بالتحريك : أم يزيد بن الطثرية الشاعر القشيرى . وفى الشعر والشعراء (١ - ٣٩٢) : هو يزيد بن الطثرية - بسكون الثاء ، وهى من طثر ابن عنز بن وائل .

(٤) فى ك : بن عمير. والصواب فى د ، والشعر والشعراء .

(٥) وهذا يوم الفلج الأول (الكامل : ٤ - ٢٧٣) .

(٦) الضبط فى د .

(٧) وهذا يوم الفلج الثانى (الكامل : ٤ - ٢٧٣) .

ثم إنَّ عمر بن الوازع الحنفى لَمّا رأى ما فعل عبْدُ الله بن النعمان قال : لَسْتُ بدون عبْد الله وغيره ممن يغير ، وهذه فَتْرةٌ يُؤْمن فيها عقوبة السلطان ، فجمع خَيْلَه وبثَّها فأغارت وأغار فملأ يده من الغنائم ، وأقبل بمن معه حتى أتى النَّشَّاش[1] ، وأقبلت بنو عامر ، وقد حشدت ، فلم يشعر عُمر بن الوازع إلا بِرُغَاء الإبل ، فجمع النساء فى فُسْطَاط ، وجعل عليهنَّ حرسا ، ولقى القومَ فقاتلهم ، فانهزم هو ومنْ معه ، وهرب ابْنُ الوازع ، فلحق باليمامةِ ، وكفَّت قَيْسٌ يوم النشَّاش عن السَّلَب ، فجاءت عُكْل فسلبتهم[2] .

وجمع عُبيد الله بن مسلم الحنَفَى جمْعًا ، وأغار على ماءٍ لقُشَير يقال له حَلَبَان[3] ، وأغار على عُكْل فقَتَل منهم عشرينَ رجلا .

ثم قدم المثنَّى بن يزيد بن عمر بن هُبَيْرة الفزارى واليًا على اليمامة من قِبل أبيه يزيد بنِ عُمر حين ولى العراق لمرْوانِ بن محمد ، فوردها وهم سلْم .

وسكنت البِلَاد ؛ ولم يزل عُبيد الله بن مسلم الحنفى مستَخْفيًا حتى قدم السرىّ بن عبْد الله الهاشمى واليًا على اليمامة لبنى العباس ، فدلَّ عليه فقتله .

وفى هذه السنة أمر يزِيدُ بن الوليد بالبيعة [بولاية[4]] العهْد لأخيه إبراهيم ، ومِنْ بعده لعبْد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مرْوان .

---

(١) النشاش — ككتان : واد لبنى نمير كانت به وقعة بين بنى عامر وأهل اليمامة (القاموس) . وفى د : النشناش .

(٢) وهو يوم النشاش (الكامل : ٤ — ٢٧٤) .

(٣) الضبط فى ياقوت .

(٤) ليس فى ك .

وفيها خالف مرْوان بن محمد يزيد بن الوليد وأظهر الخِلَاف ، وتجهَّز للمسِير إلى الشام ، وعرض جُنْد الجزيرة فى نَيِّفٍ وعشرين ألفًا ، فكاتبه يزيدُ ليُبايع له ويُوليه ماكان عبْد الملك ولَّى أباه محمدا من الجزيرة وإرمينية والموصل وأذْرَبيجان ، فبايع له مرْوان ، وأعطاه يزيد ولاية ما شرطه[1] له .

ذكر وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

كانت وفاتُه بدمشق لعشر بقين من ذى الحجة سنة [١٢٦هـ] ستّ وعشرين ومائة ؛ فكانت مدة ولايته خمسة أشهر واثنين[2] وعشرين يوما ، وقيل ستة أشهر وليلتين ، وقيل ستة أشهر ؛ وكان عمره ستا وأربعين سنة .

واختلف فيه إلى ثلاثين سنة .

وكان أسْمر نحيف البدنِ ، رَبْع القامة ، خفيف العارِضيْن ، فصيحا شديد العُجْب .

وقيل فى صفته : أسمر طويلا صغير الرأس جميلا .

وكان نقش خاتمه : يايزيد ، قم بالحق. وقيل : كان نقش خاتمه : العظمةُ لله .

وكان آخر ما تكلَّم به : واحسْرتَاه ! وا أسفاه ! وكان له عقِب كثير.

كاتِبُه : ثابت بن سليمان .

قاضيه : عثمان بن عُمر بن موسى بن معمر التميمى .

---

(١) فى د : ما شرط له :

(٢) فى الكامل : واثنى عشر يوما .

حاجبه : قطرىّ مولاه . وقيل سلام .

الأمير بمصر : حفْص بن الوليد ، ولم يزل عليها إلى أن ولى مرْوان فاستعفى .

قاضيها : حسين بن نعيم .

ويزيد أوّلُ منْ خرج بالسلاح يوم العيد ، خرج بين صفَّيْن عليهم السلاح . وقيل : إنه كان قَدَرِيًا . والله أعلم .

ذكر بيعة ابراهيم بن الوليد

هو أبو إسحاق إبراهيم بن الوليد بن عبْد الملك بن مرْوان وأمُّه أم[1] ولد اسمها نعمة ، وقيل خشَف ؛ وهو الثالث عشر من ملوك بنى أمية ، قام بالأمْرِ بعد وفاةِ أخيه يزيد فى ذى الحجة سنة [١٢٦ هـ] ست وعشرين ومائة ، وكان يسلَّم عليه تارةً بالخلافة ، وتارة بالإمارة ، وتارة لا يسلم عليه بواحدةٍ منهما ؛ فمكث أربعة أشهر ، وقيل سبعين يوما ، ثم سار إليه مَرْوان بن محمد ، فخلعه على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله ، ثم لم يزل حيًّا حتى أُصيب فى سنة [١٣٢ هـ] اثنتين وثلاثين ومائة .

تتمة حوادث سنة (١٢٦ هـ) ست وعشرين ومائة :

فيها عزَلَ يزيدُ بن الوليد يوسف بن محمد بن يوسف عن المدينة ، واستعمل عبْد العزيز بن عمرو بن عثمان ، فقدمها فى ذى القعدة من السنة .

وحجّ بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وقيل عُمر ابن عبْد الله بن عبد الملك .

---

(١) فى العقد الفريد : وأمه بربرية .

(١٢٧ هـ) سبع وعشرين ومائة :

ذكر مسير مروان بن محمد الى الشام

وخَلْع إبراهيم بن الوليد

فى هذه السنة سار مرْوان بن محمد بن مرْوان إلى الشام لمحاربة إبراهيم بن الوليد ، فانتهى إلى قنسْرِين ، وبها بِشر[1] ومسرورٌ ، ابْنَا الوليد [أرسلهما[2]] أخوه إبراهيم ، فتصافَوْا ، ودعاهم مرْوان إلى بيْعته فمال إليه يزيد بن عمر بن هُبيرة فى القَيْسيّة ، وأسلموا بشرًا وأخاه مسرورًا ، فحبسهما مرْوان ، وسار معه أهْلُ قِنّسرين إلى حِمْص ، وكان أهلُ حِمْص قد امتنعوا من بيْعة إبراهيم وعبد العزيز ، فوجّه إليهم إبراهيمُ عبْد العزيز فى جُنْدِ أهْلِ دمشق ، فحاصرهم فِي مدينتهم ، وأسرع مرْوان السير ، فلما دنا من حِمْص رحل عبْدُ العزيز عنها ، وخرج أهلُها إلى مرْوان فبايعوه ، وسارُوا معه ، ووجّه إبراهيم الجنود مِنْ دمشْقَ مع سليمان بن هشام فى مائة وعشرين ألفا ومرْوانُ فى ثمانين ألفا ، فدعاهم مرْوان إلى الكفِّ عن قِتَاله وإطلاق الحكم وعثمان ابنى الوليد مِنَ السجن ، وضَمِن لهم أنّه لايطْلُبُ أحدًا من قتَلَةِ الوليد ، فلم يجيبوه وجدُّوا فى قتاله فاقتتلوا[3] ما بين ارتفاع النهار إلى العصْر ، وكَثُر القَتْلُ بينهم ، وكان مرْوان ذَا رأىٍ ومَكِيدةٍ ، فأرسل ثلاثةَ آلاف فارس ، وأمرهم أن يأْتُوا عسْكَر سليمان مِنْ خَلْفِه ، ففعلوا ذلك ، فلم يشعر سليمانُ إلّا والقَتْلُ فى أصحابه مِنْ ورائهم ،

---

(١) فى ك : بشير .

(٢) من العقد الفريد : ٤ — ٤٤٦ (٣) فى د : واقتتلوا .

فانهزموا ، ووضع أَهْلُ حِمْص السلاح فيهم لحنَقِهم عليهم ، فقتلوا منهم سبعة عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا ، وكفَّ أَهْلُ الجزيرة وقِنَّسْرين عن قِتَالهم ، وأتوْا مرْوان مِنْ أسراهم بمثل القَتْلى ، فأخذ مرْوانُ عليهم البيعة لولدى الوليد ، وخَلَّى عنهم ، وهرب يزيد ابن عبْد الله بن خالد القَسْرى فيمن هرب إلى دمشق ، فاجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز ، واتفقُوا على قَتْل الحكَم وعثمان ولَدِى الوليد ، فقُتلا ؛ وقتل معهما يوسف بن عمر ، وأرادوا قَتل محمد السفيانى ، فدخل بيتًا من بيوت السجن وأغلقه ، فلم يقدروا على فتحه ، [وأرادوا[1]] إحراقَه ، فقيل لهم : قد دخلَتْ خَيْلُ مرْوان المدينة ، فهربوا ، وهرب إبراهيم ، واختفى ، وانتهب سليمانُ بن هشام ما فى بيتِ المال ، فقسَّمه فى أصحابه ، وخرج من المدينةِ ، وعاش إلى سنة [١٣٢ هـ] اثنتين وثلاثين ومائة ، ثم قتله ابن عوف يوم الزَّاب .

وقيل : إنه غرق فى ذلك اليوم .

وقيل : قتله مرْوان بن محمد وصلَبه . وكان إبراهيم عاجزًا ضعيف الرَّأى ، وكان خفيف العارِضَيْن له ضَفِيرتان .

وكان نقش خاتمه : توكَّلْتُ على الحىِّ القيوم .

كاتبه : بكير بن السراج اللخمى .

قاضيه : عثمان بن عُمر التميمى .

حاجبه : قطرىّ مولى الوليد ، ثم ورْدان مولاه . [والله أعلم[2]] .

---

(١) ساقط فى ك

(٢) ليس فى د .

ذكر بيعة مروان بن محمد

هو أبو عبْد الله مرْوان بن محمد بن الحكم بن أبى العاص، وأمُّه لُبابة جارِية إبراهيم بن الأَشْتَر، وكانت كُرْدِية ، أخذها محمد من عسْكر إبراهيم ، فولدت له مرْوان وعبد العزيز ، ولقب بالجعْدىّ لأن خاله الجعْد بن دِرهم ، فنُسب إليه . ولقب أيضا حمار الجزيرة .

بُويع له فى صفر فى سنة [١٢٧ هـ] سبع وعشرين ومائة ، وكان سبب بيْعته أنه لما دخل دِمشْق وهرب إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام ثار منْ بدمشق مِنْ موالى الوليد بن يزيد بن عبْد الملك إلى دارِ عبد العزيز بن الحجاج بن عبْد الملك ،فقتلوه ونَبشُوا قَبْر يزيد بن الوليد ، وأخرجوه فصلبوه على باب الجابِيةِ ، وأتى مرْوان بالغُلَامين ، الحكم وعثمان مقْتُولَيْن ، وبيوسف بن عمر ، فدفَنَهم ، وأتى بأبى محمد السُّفْيانى فى قُيوده ، فسلم على مرْوان بالخلافة ، ومرْوان يومئذ يسلِّمُ عليه بالإمرة ، فقال له مرْوان : مهْ . فقال : إنهما جعلاها لك بعْدهما ، وأنشد شِعْرًا قاله الحكم فى السجن ، وكانا قد بلغا ووُلِد لأحدهما ، وهو الحكم ، فقال[١] :

ألا منْ مُبْلِغٌ مرْوان عنِّى وعمِّى الغَمْر[٢] طال به[٣] حنِينَا

(١) الشعر فى الطبرى : ٧ — ٣١١ ، والكامل : ٤ — ٢٨٣

(٢) الغمر : الذى ذكر : هو عمه الغمر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان أخو الوليد بن يزيد (هامش د) .

(٣) فى الطبرى : طال بذا حنينا .

بأنِّى قد ظُلِمْتُ وصار قَوْمى على قَتْلِ الوليدِ مُشَايِعِينَا (١)
أيذْهبُ كلُّهم (٢) بِدمى ومالِى فلا غَثًّا أَصَبْتُ ولا سَمِينا
ومرْوان بأَرْضِ بنى نِـــزارٍ كلَيْثِ الْغَابِ مُفْتَرِش عرِينا (٣)
أتنكُثُ بيْعَتى من أجْل أُمِّى فقد بايعْتُمو قَبْلى هجِيْنَـا
فإنْ أَهْلكْ أنَا وولىُّ عهْـدِى فمرْوانٌ أَمِيرُ المُؤْمنِينَـــا

ثم قال : ابْسُطْ يدك أُبايعك ، وسمعه منْمع مرْوان (٤) .

وكان أول منْ بايعه معاوية بن يزيد بن حُصيْن بن نميرورُءُوس أهل حِمْص ، والناس بعد . فلما استقرَّ له الأَمرُ رجع إلى منْزِله بحرَّان ، وطُلب منه الأمان لإبراهيم (٥) بن الوليد وسليمان بن هشام فأَمَّنهما فقدما عليه ، وبايعاهُ .

وفى هذه السنة ظهر عبْدُ الله بن معاوية بن عبْد الله بن جعْفر بن أبى طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه ؛ وكان من أمره ما نَذْكُره إن شاءَ الله فى أخبارهم .

ذكر رجوع الحارث بن سريج

وفى هذه السنة كان رُجوعُ الحارِثِ بن سُريج إلى مَرْو ؛ وكان قدومه فى جمادى الآخرة سنة [١٢٧ هـ] سبع وعشرين ومائة ، وكان ببلاد التُّرْكِ ، وكان مقامه عندهم اثْنتى عشرة سنة ،

(١) فى الطبرى : متابعينا . (٢) فى الطبرى : كلبهم .
(٣) فى الطبرى والكامل : مفترس عرينا .
(٤) فى الطبرى . وسمعه من مع مروان من أهل الشام، فكان أول من نهض معاوية بن يزيد ...
(٥) فى الطبرى : طلب الأمان منه إبراهيم بن الوليد .

وقد قدَّمْنَا من أخباره طَرفًا .

وكان سبب عوْدِه أنَّ الفِتْنَةَ لما وقعت بخُراسان بين نَصْرِ بن سيار والكَرْمانى فى سنة [١٢٦هـ] ست وعشرين فى خلافةِ يزيد ابن الوليد كما ذكرنا ـ خاف نَصرٌ قدومَ الحارثِ عليه فى أصحابه ، فأرسل مقاتل بن حيّان النَّبطى وغيره ليردُّوه من بلادِ التُّرْكِ ، وسار خالد بن زياد البدِّى التِّرْمِذِى وخالد بن عمرو مولى بنى عامر إلى يزيد ، فأخذوا للحارث منه أمانًا فأمَّنَه ، وأمر نَصْر بن سيار أن يُردَّ عليه ما أخذ له ، وأمر عبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز بذلك ، فلما قدم تلقَّاهُ الناسُ بِكُشْمَيْهَن[1] ، ولَقِيه نَصْرٌ وأنزله ، وأجْرى عليه كلَّ يوم خمسين درهما ،فكان يقتصِرُ على لَوْن واحد ، وأطلق نَصْر أهْلَه وأولاده ،وعرض عليه نَصْرأنْ يوليه ويُعْطيه مائة ألف دينار ، فلم يقبل .

وأرسل إلى نَصْر : إنى لسْتُ من الدنيا واللذاتِ فى شىء ، إنما أسألُ كتاب الله والعملَ بالسنَّة واستعمالَ أهْلِ الخير ،فإنْ فعلْتَ ساعدْتُك على عدُوِّك .

وأرسل الحارثُ إلى الكرْمانى إذا أعطانى نَصْرٌ العملَ بالكتاب وما سألْتُه عضَدْتُه وقُمْتُ بأمْرِالله ،وإنْ لم يفعل أعنْتُك إن ضَمِنْتَ لى القيام بالعدْل والسُّنة .

ودعا [بنى[2]] تميم إلى نَفْسه ، فأجابه منهم ومِنْ غيرهم

(١) بالضم ثم السكون وفتح الميم وياء ساكنة ، وهاء مفتوحة ونون : قرية كانت عظيمة من قرى مرو على طرف البرية (ياقوت) . وفى الطبرى : بكشماهن والمثبت فى الكامل أيضاً .

(٢) من الكامل ، والطبرى .

جمْعٌ كثير ، واجتمع إليه ثلاثةُ آلاف ، وقال لنصر : إنما خرجْتُ من هذه البلدة منذ ثلاث عشرة سنة إنكارًا للجور وأنت تُرِيدُنى عليه .

ذكر انتقاض أهل حمص

وفى هذه السنة انتقض أهْلُ حِمْص بعدعوْدِ مرْوان إلى حرّان بثلاثة أشهر ، وكان الذى دعاهم إلى ذلك ثابت بن نُعيم ، وراسل أهْل حمص منْ بتَدْمُر من كَلْب ، فأتاهم الأصبغ بن ذُؤَالة الكَلْبى وأولاده ، ومعاوية السَّكْسكى ، وكان فارس أهل الشام وغيرهما فى نحو ألْفٍ مِنْ فُرْسانهم ، فدخلوا حِمْص ليلة الفِطْر ، فجدَّ مرْوان فى السير إليهم ومعه إبراهيم [بن الوليد](١) المخلوع ، وسليمان ابن هشام ، فبلغها بعْد الفِطْر بيوْمَيْن ، وقد سدَّ أهْلُها أبوابها ، فأحْدق بالمدينة ووقف بإزاء بابٍ من أبوابِها ، فنادى مُنَادِيه : ما دعاكُمْ إلى النَّكْث؟ قالوا : إنَّا على طاعتِك لم ننكث . قال : فافتحوا. ففتحوا الباب ، فدخله عمْرو بن الوضَّاح فى الوضَّاحية فى نحو ثلاثة آلاف ، فقاتلهم منْ بالبلد فكسرتْهُمْ خَيْلُ مرْوان ، فخرج منْ بها مِنْ باب تَدْمُر ، فقاتلهم منْ عليه من أصحابِ مرْوان فقُتِل عامَّةُ منْ خرج منه ، وأفلت الأصبغ وابْنُه ، وقَتَل مرْوان جماعةً من أشرافهم ، وصلَب خَمْسمائة من القَتْلى حوْلَ المدينة ، وهدم مِنْ سُورِها نحو غَلْوة . وقيل : كان ذلك سنة [١٢٨هـ] ثمان وعشرين ومائة . [والله أعلم(٢)] .

---

(١) من الطبرى .

(٢) ساقط فى د .

ذكر خلاف أهل الغوطة

وفى هذه السنةِ خالف أَهْلُ الغُوطَة وولَّوْا عليهم يزيد بن خالد القَسْرِى وحصرُوا دِمشْق وأميرها زَامل بن عمْرو ، فوجَّه إليهم مرْوان من حِمْص أبا الورْد بن الكوثر بن زُفَر بن الحارث، وعمْرو بن الوضَّاح فى عشْرةِ آلاف ، فلما دنَوْا من المدينة حملُوا عليهم ، وخرج عليهم منْ بالمدينة ؛ فانهزموا ، واستباح أصحابُ مرْوان عسْكَرهم ، وأحرقوا المِزّة[1] وقُرًى من قُرى اليمانية ، وأُخِذَ يزيد بن خالد فقتل ، وبعث زَامِل برأسه إلى مرْوان بحِمْص .

ذكر خلاف أهل فلسطين

وفيها خَرج ثابت بن نُعيم بعد هؤلاء فى أَهْلِ فلسطين ، وأتى طَبَرية فحاصرها ، وعليها الوليد بن مُعاوية بن مرْوان بن الحكم ، فقاتله أَهْلُها أيامًا ، فكتب مرْوان بن محمد إلى أبى الورْد يأْمُره بالمسير إليهم ، فسار فلما قَرُب منهم خرج أَهْلُ طَبرِيَّة على ثابت فهزموه واستباحُوا عسْكَره ، فانصرف إلى فِلَسْطين مُنْهَزِمًا ، فتَبِعه[2] أبو الورْد والتقوا واقتتلوا ، فانهزم ثانية وتفرّق عنه أصحابُه وأسر[3] ثلاثةً من أولاده . وبعثَ بهم إلى مرْوان ، وتغيَّب ثابت وولدُهُ رِفاعة .

---

(١) المزة – بالكسر ثم التشديد : قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق (ياقوت).

(٢) فى د : وتبعه .

(٣) فى ك : فأسر .

واستعمل مرْوان على فلسطين الرُّماحِس بن عبْد العزيز[١] الكنانى ، فظفر بثابت ، فبعثه إلى مرْوان مُوثَقًا بعد شهرين ، فأمر به وبأولاده الثلاثة ، فقُطعتْ أيديهم وأرجلُهم ، وحُمِلوا إلى دِمشْق ،فأُلقوا على باب المسجد ثم صُلبُوا على أبوابِ دمشق ؛ واستقام أمْرُ الشام لمرْوان إلا تَدْمُر ؛فسار مرْوان إليها ، فنزل القَسْطَل[٢] ،وبعث إليهم فأجابوه إلى الطاعة فبايعهُم ، وهدم سُور البلَدِ .

وفيها بايع مرْوان لابنيه عُبيد الله وعبْد الله وزَوَّجهُما ابنتى هشام ابن عبد الملك ، وجمع لذلك بنى أُميّة .

وسار مرْوان إلى الرُّصافَةِ ، ونَدب يزيد بن عُمر بن هُبيْرة إلى العراق لقتالِ الضحاك الخارجى ، وأمر أهْل الشام باللّحاق به .

ولما سار مرْوان استأْذَنَه سُليمان بن هشام ليُقِيم أيّامًا ليقوِّى منْ معه وتستريح دوابُّهم ، فأذِن له .

وتَقَدَّم مرْوان إلى قَرْقِيْسِياء[٣] وبها ابْنُ هبيرة ليُقَدِّمه إلى الضحّاك، فرجع عشرةُ آلاف ممَّنْ كان مرْوانُ أخذ مِنْ أهل الشام لقتالِ الضحاك ، فأقاموا بالرُّصافة ، ودعوا سليمان إلى خَلْع مرْوان فأجابهم .

---

(١) هذا فى ك،والكامل، والطبرى ، وفى القاموس، وتاج العروس : الرماحس ابن عبد العزى .

(٢) القسطل — بالفتح ثم السكون وطاء مهملة مفتوحة ولام : موضع بين حمص ودمشق ، وموضع قرب البلقاء من أرض دمشق فى طريق المدينة (ياقوت) .

(٣) قرقيسياء — بالفتح ،والسكون،وقاف أخرى ، وياء ساكنة وسين مكسورة، وياء أخرى وألف ممدودة . ويقال بياء واحدة : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق ، وعندها مصب الخابور فى الفرات (ياقوت) .

ذكر خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك

مرْوان بن محمد

وفى هذه السنة خَلَع سليمان بن هشام مرْوان ، وذلك أنه لما استَأْذَنَه فى المقام بعده ، وأقام ، وقدم عليه الجنودُ الذين ذكرناهم حسَّنُوا له خَلْع مروان وقالوا : أنْتَ أرْضَى عند الناس ، وأوْلَى من مرْوان بالخلافة ؛ فأجابهم إلى ذلك ، وسار بإخْوتِهِ ومواليه ، فعسكر بقِنَّسْرِين ، وأتاه أهْلُ الشام مِنْ كلِّ مكان .

وبلغ الخبرُ مرْوانَ ، فرجع إليه من قَرْقِيسياء ، وكتب إلى ابْنِ هبيرة يأْمُره بالمقام ؛ وكان أولادُ هشام وجماعةٌ مِنْ موالى سليمان بحِصْن الكَامِلِ ، فمرَّ عليهم مرْوانُ فتحصَّنُوا منه ، فأرسل إليهم يحذِّرُهم أن يتعرَّضُوا لأحدٍ ممَّنْ يتْبعُهُ مِنْ جُنْدِه ، فإن تعرَّضُوا لأحدٍ فلا أمانَ لهم ، فأرسلوا إليه إنهم يكفُّون عنهم .

ومضى مرْوانُ فجعلوا يُغِيرون على منْ يتْبعُهُ ، فاشتدَّ غَيْظُه عليهم .

قال : واجتمع إلى سليمان نَحْوٌ من سبعين ألفا من أهل الشام والذَّكْوانيَّة وغيرهم ، وعسْكَر بقَرْيةِ خُساف [1] من أرض قِنَّسرين .

وأتاه مرْوان والتَقَوْا ؛ واشتدَّ القتالُ بينهم ، فانهزم سليمان ومنْ معه ، واتبعهم مرْوان ، فاستباح عسْكَرهُ ، وأمر مرْوان بقَتْل منْ يُؤْتَى به من الأسرى إلا عبْدًا مملوكا ، فأُحصى مِنْ قتلاهم يومئذ [ما[2]] نيِّف

(١) خساف — بضم أوله وتخفيف ثانيه وآخره فاء : مفازة بين الحجاز والشام . قال ياقوت : والصواب أنها برية بين بالس وحلب ، وكان بها قرى وأثر عمارة . وفى الطبرى : وعسكر فى قرية لبنى زفر يقال لها خساف من قنسرين من أرضها .

(٢) من الكامل .

على ثلاثين ألف قتيل . وقُتل إبراهيم بن سُليمان أكبرُ ولده ، وخالد ابن هشام المخزومى خال هشام بن عبدالملك ،وادعى كثيرٌ من الجُنْد الأسرى أنهم عبيد ؛ فكفَّ عن قَتْلِهم ، وأمر ببيْعهم فيمنْ يزيد .

ومضى سليمان إلى حِمْص ، وانضمَّ إليه منْ أفلت ممَّنْ كان معه ، فعسكر بها ، وبنى ما كان مرْوان هدمه من سُورِها ؛ وسار مرْوانُ إلى حِصْن الكامل ، فحصر من فيه ، وأنزلهم على حُكْمِه ، فمثَّل بهم ، وأخذهم أهْلُ الرَّقَّةِ فداووْا جراحاتهم ، فهلك بعْضُهم وكانت عِدَّتُهم نحو ثلاثمائة(١).

ثم سار إلى سليمان ، فقال بعضهم لبعض : متى متى نَنْهزِمُ من مرْوان ، فتبايع تسعمائة من فُرْسانِهم على الموت ، وساروا بأجمعهم مُجْمعين على أن يبيِّتُوه إنْ أصابوُا منه غِرَّةً ،وبلغه خَبرُهم فتحرزمنهم ، فلم يمكِّنْهم أن يبيِّتُوه ، وزحف على احترازٍ وتعبئة ، فكمنوا فى زَيْتُون فى طريقهِ ، فخرجوا عليه وهو يسيرُ على تَعْبِئَتِهِ ، فوضعوا السلاح فيمنْ معه ، فنادى مرْوان خيولَه ، فرجعتْ إليه ، فقاتلوا مِنْ لَدُن ارتفاع النهارِ إلى بعْدِ العصر ، فانهزم أصحابُ سليمان وقُتِل منهم نحو ستةِ آلاف .

فلما بلغ سليمانَ هزيمتُهُمْ خَلَّف أخاه سعِيدًا بحِمْص ، ومضى هو إلى تَدْمُر ، فأقام بها ، ونزل مرْوان على حِمْص ، فحاصر أهْلَها عشرةَ أشهر ، ونصب عليهم نَيِّفًا وثمانين مِنْجنِيقًا يرْمِى بها الليل والنهار ، وهم يخرجون إليه فى كل يوم فيقاتلونه .

(١) فى الكامل : سبعمائة . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

فلما تتابع عليهم البلاءُ طلبوا الأمانَ على أن يُمكِّنُوه من سعِيد ابن هشام وابنيه : عثمان ومرْوان ، ومِنْ رجُل كان يسمى السكسكى ، كان يُغِير على عسْكَره ، ومِنْ رجُلٍ حبشىّ كان يشتم مرْوان ، فأجابهم إلى ذلك ، واستوثق من سعِيد وابنيه ، وقَتَل السكسكى ، وسلَّم الحبشى إلى بنى سليم ، لأنه كان يخُصُّهم بالسّبِّ ، فقطعوا ذَكَره وأنْفَه ومثَّلُوا به .

ولما فرغ مرْوان من حِمْص سار نحو الضحّاك الخارجى .

وقيل : إن سليمان لما انهزم بخُساف أقبل هاربا حتى التحق بعبْد الله ابن عُمر بن عبد العزيز بالعراق ، فخرج معه [إلى[1]] الضحاك ، فقال بعض شعرائهم[2] :

أَلم تر أنَّ الله أظْهر دِينَه وصلَّتْ[3] قريش خَلْف بكْر بن وائل

ذكر خروج الضحاك محكما

وما كان من أمره إلى أن قُتِل

وفى سنة [١٢٧هـ] سبع وعشرين ومائة خرج الضحَّاك بن قَيْس الشيبانى مُحكِّما ودخل الكوفة .

وكان سببُ ذلك أنَّ الوليد لما قُتِل خرج بالجزيرة حَرُورِىّ يقال له سعيد بن بَهْدل الشيبانى فى مائتين من أهل الجزيرة ، فاغتنم سعيد قَتْل الوليد واشتغال مرْوان بالشام فخرج بأرض كَفَر تُوثَا[4] ،

(١) ليس فى ك . وفى الكامل : إلى الضحاك وبايعه .

(٢) البيت فى الطبرى : ٧ — ٣٢٧ . والكامل : ٤ — ٢٨٨ .

(٣) فى الطبرى : فصلت .

(٤) بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو ، وثاء مثلثة : قرية كبيرة من أعمال الجزيرة . . وكفر توثا : من قرى فلسطين (ياقوت) .

وخرج بِسْطام البيْهسىّ ، وهو مخالِفٌ لرأيِه فى مثل عُدَّتهم من ربيعة ، فسار كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبِه .

فلما تقاربا أرسل سعِيدٌ أحد قوّاده فى مائة وخمسين ، فقتلوا بسطاما ومنْ معه إلا أربعة عشر رجلا . ثم مضى سعِيد نَحْو العراق فمات فى الطريق ، واستخلف الضحّاك بن قَيْس . فأتى أرْضَ الموصل ثم شَهْرزُور ، فاجتمعت عليه الصُّفْرِيَّة حتى صار فى أربعة آلاف ، وهلك يزِيدُ بْنُ الوليد وعامله على العراق عبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز ومرْوان بالجزيرة . فكتب مرْوان إلى النَّضْر بن سعيد الحَرَشىّ [1] — وهو أحد قوّاد ابْن عمر بولاية العراق — فلم يسلِّم ابْنُ عُمر إليه العمل ، فشخص النَّضْرُ إلى الكوفةِ و [بقى] [2] عبْدُ الله بالحيرة ، وتحاربا أربعةَ أشهر .

فلماسمع الضحَّاكُ باختلافهم أقْبل نحْوهم . وقَصد العِراق سنة [١٢٧هـ] سبع وعشرين، فأرسل ابْنُ عُمر إلى النَّضْر فى الاجتماع عليه ، فتعاقدا واجتمعا بالكوفة ؛ وكان كلٌّ منهما يُصلِّى بأصحابه .

وأقبل الضحاكُ فنزل بالنُّخَيْلَة [3] فى شهر رجب سنة [١٢٧هـ] سبع وعشرين ومائة ، والتقوا ، واقْتَتَلُوا قِتَالاً شديدا ، فكشفوا ابْنَ عُمر ، وقتلوا أخاهُ عاصما وجعْفَر بن العباس الكِنْدِىّ ، ودخل ابْنُ عمر خَنْدقَه ، وبقى الخوارج عليهم إلى الليل ثم انصرفوا ؛ وذلك

(١) فى ك : الجرمى . والمثبت فى د ، والكامل . والطبرى .
(٢) من الكامل .
(٣) تصغير نخلة : موضع قرب الكوفة .

فى يوم الخميس ثم اقتتلوا يوْم الجمعة ، فانهزم أصحابُ ابْن عمر .

فلما كان يوم السبت تَسلَّلُوا[1] إلى واسِط ، فلحق بها وجوهُ الناسِ ، فرحل عند ذلك ابْنُ عمر إليها ، فلم يأْمنْه عُبيْدِ الله بن العبَّاس الكندى على نَفْسه ، فسار مع الضحاك وبايعهُ .

ولما نزل ابْنُ عُمر إلى واسِط نزل بدارِ الحجَّاج بن يوسف ، وعادت الحرْبُ بينه وبين النَّضْر إلى ما كانت عليه ، وسار الضحَّاكُ من الكوفَةِ إلى واسط ، ونزل باب المضمار ، فترك ابْنُ عمر والنَّضْرُ الحرْبَ بينهما ، واتَّفَقَا على قِتَال الضحاك ، فلم يزَالُوا على ذلك شعبان ورمضَان وشَوَّال ، والقِتَالُ بينهم مُتَواصِلٌ . ثم صالحه عبْدُ الله بْنُ عُمر بن عبْد العزيز وسليمان بن هشام ، وبايعاهُ ، ودفَعاهُ إلى مرْوان .

قال : وكاتب أَهْلُ الموصل الضحَّاكَ فى القدُومِ ليمكِّنُوه من البلَد ، فسار إلى الموصل ففتح أَهْلُها لَهُ أَبْوابها ، فدخلها ، واسْتَوْلَى عليها وعلى كُورها ، وذلك فى سنة [١٢٨هـ] ثمان وعشرين ، فبلغ مرْوان خَبرُه وهو يُحاصِر حِمْص ، فكتب إلى ابنِهِ عبْدِ الله ـ وهو خليفتُه بالجزيرة ـ أنْ يسير إلى نَصِيبين ، ويمْنَع الضحاك من تَوسُّط الجزيرة ؛ فسار إليها فى سبْعةِ آلاف أو ثمانية آلاف ، وسار إليه الضحاكُ ، فحصر عبْد الله بن مرْوان بِنَصيبِين ، وكان مع الضحَّاك ما يزيد على مائة ألف .

ثم سار مرْوان إليه ، والتَقَوْا بنواحى كَفَرْ تُوثَا من أعمال

(١) فى الكامل : تسلل أصحابه .

ماردين ، فقاتله يومَه أجمع ، فقُتِل الضحاك ولم يَعْلمْ به مرْوان ولا أصحابُه ؛ ثم بلغ مرْوان قَتْلُه ، فاستخرجه من بين القتلى وفى وجْهِهِ ورأسِه أكثرُ من عشرين ضَرْبة .

وبعث مرْوانُ رأسه إلى مدائن الجزيرة .

وقيل : إنَّ قَتْلَه كان فى سنة [١٢٩هـ] تسع وعشرين ومائة [والله أعلم[١]] .

وحيث ذكرنا أخبار الضحاك فلنذكر أخبار من خرج بعْدهُ فى أيام مروان :

ذكر خبر الخيبرى (الخارجى)[١]

وقَتْله وقيام شيبان

قال : ولما قُتل الضحّاكُ أصبح أهْلُ عسكرِه فبايعُوا الخَيْبرِىّ ؛ وكان سليمان بن هشام معه ، وأصبحوا واقتتلوا ؛ فحمل الخَيبرِىُّ على مرْوان فى نحو أربعمائة فارس من [أهل[١]] الشّراة ، فهُزِم مرْوان وهو فى القَلْب ، وخرج من العسكر مُنْهزِمًا ، ودخل الخَيْبرِى ومنْ معه عسْكَر مرْوان يُنَادُون بشعارهم ويقتلون منْ أدْركُوه ، حتى انتهوا إلى خيم مرْوان ، فدخلها الخَيْبرِى وجلس على فرش مرْوان ، هذا وميْمنَةُ مرْوانَ ثابتة ، وعليها ابْنُه عبد الله ؛ وميسرته [ثابتة[٢]] وعليها إسحاق بنُ مُسْلِم العقيلى .

فلما رأى أهْلُ العسْكَرِ قِلَّةَ منْ مع الخَيْبرِى ثار إليه[٣] عبيدُهم بعمد الخيم ، فقتلوا الخَيْبرِىّ وأصحابه جميعًا فى خيم مروان

(١) ساقط من ك .
(٢) من الكامل .
(٣) فى ك : إليهم .

وحوْلَها ، وبلغ مرْوان الخَبرُ ، وقد صار بينه وبين العسكر خَمْسةُ أميال أو ستة منهزما ، فانصرف إلى عسْكَرِه ، وبات ليلته تلك ، وانصرف الخوارج فولَّوْا عليهم شيبان .

ذكر أخبار شيبان الحرورى

وما كان من أمرِه إلى أنْ قُتل

هو شَيْبان بن عبد العزيز أبو الدَّلْفَاء[1] اليشْكُرى .

قال : ولما بايعوه بعد قَتْلِ الخَيْبرِىّ أقام يُقَاتِلُ مرْوان ، وتَفَرَّقَ عنه كثير مِنْ أصحابِهِ ، فبقى فى نحو أربعين ألفا ، فأشار عليهم سليمانُ بن هشام أنْ ينْصِرفُوا إلى الموصل فيجعلوها ظَهْرهم .

فارتحلوا وتَبِعهُم مرْوان حتى انتهوا إلى الموصل فعسْكَرُوا شَرْقَ دِجْلَة ، وعقَدُوا عليها جسرًا ، وخَنْدق مرْوان بإزائهم ، وأهلُ الموصل يقاتلون مع الخوارج ، فأقام مرْوان ستةَ أشْهرٍ يقاتلهم ، وقيل تسعة أشهر .

وكتب مروان إلى يزيد بن عُمر بن هُبيْرة يأْمُرُه بالمسِير من قَرقِيْسِيا ، بجميع منْ معه إلى العراق وعلى الكوفة المُثَنَّى ابن عمران العائذى ، وهو خليفةُ الخوارج بالعراق ، فلقى ابْنَ هُبيرة بعيْن التَّمْر ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت الخوارِجُ ، ثم تجمَّعُوا بالكوفةِ بالنُّخَيْلة فهزمهم ابن هُبيْرة ، ثم اجتمعوا بالصَّراة ، فأرسل إليهم شيبان عُبيد بن سوَّارفى خَيْلٍ عظيمةٍ ، فالتقوا بالصَّراة[2] ، فانهزمت الخوارجُ ، وقُتل عُبيدة ، ولم يبْق لهم

(١) فى الكامل : أبو الدلف . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

(٢) فى الكامل : بالبصرة . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

بقيةٌ بالعراق ، واستولى ابْنُ هُبيْرة على العراق ، وسار إلى واسط . وأخذ عبْد الله بن عُمر بن عبْد العزيز وحبسه ، ووجّه نُباتَة بن حنْظلة إلى سليمان بن حبيب وهو على كُور الأهواز ، فأرسل سليمان إلى نُباتة داود بن حاتم ، فالتقوا على شاطىء دُجيل ؛ فانهزم الناس ، وقُتِل داودُ بن حاتم .

وكتب مرْوان إلى ابْنِ هُبيْرة لما استولى على العراق يأْمُره بإرسالِ عامر بن ضُبارة المُرِّى إليه ، فسيَّرهُ فى سبعة آلاف أو ثمانية ، فبلغ شَيْبان خَبرُه ، فأرسل الجوْنَ بن كِلَاب الخارجى فى جمْع ، فالتقوا فهُزم عامِرٌ ؛ فأمدَّه مرْوان بالجنود ، فقاتل الخوارجَ فهزمهم ؛ وقتل الجوْنَ ، وسار إلى الموصل ، فلما بلغ [شيبان قَتْلُ] [1] الجوْن ومسيرُ عامر نحوه كرِه أنْ يُقِيم بين العسكرين . فارتحل بمنْ معه ، وقدم عامر على مرْوان بالموصل فسيَّره في جمعٍ كثير فى أثر شيبان ، وأمره ألَّا يبْدأه بقِتَالٍ . فإنْ قَاتَله شَيْبانُ قاتَلَهُ ، وإنْ أمسكَ عنه أمسك . فكان كذلك ، حتى مرَّ على الجبل ، وخرج على بيضاء فارس [2] . وبها عبْدُ الله بن معاوية بن جعفر . وسار إلى نَحْو كَرمان ، فأدركه عامِرٌ ، فالتقوا واقتتلوا ، وانهزم شَيْبان إلى سجستان فهلك بها ، وذلك فى سنة [١٣٠ هـ] ثلاثين ومائة .

وقيل : بل كان قِتَال شيبان ومرْوان على الموصل نحو شهر ، ثم انهزم شَيْبان حتى لحق بفارس ، وعامرٌ يتْبعه ، وسار إلى جزيرةِ

(١) من د .

(٢) فى الطبرى : بيضاء اصطخر . والمثبت فى الكامل أيضا .

ابن كاوَان ، ثم إلى عمان فقتله جُلَنْدى بن مسعود بن جَيْفَر ابن جُلَنْدى[1] الأَزْدِى سنة [١٣٤هـ] أربع وثلاثين ومائة ، وسنذكره إنْ شاء اللهُ فى أخبار الدولة العباسية .

فلنرجع إلى تتمة حوادث سنة [١٢٧ هـ] سبع وعشرين مائة وما بعدها .

فيها كان من أخبار الأندلس وشيعة بنى العباس ما نذكرُه إن شاء الله فى مواضعه .

وحجّ بالناس عبد العزيز بن عُمر بن عبد العزيز وهو عاملُ مرْوان على مكة والمدينة والطائف ، وكان العامِلُ على العراق النَّضْر ابن سعِيد الحَرَشى ، وكان من أمره وأَمْرِ ابْنِ عمر والضحاك ما قدَّمْنا ذكره . وكان بخراسان نَصْر بن سيّار [و] [2] الكرمانى ، والحارث ابن سُرَيْج يُنَازِعانه .

وفيها مات سُويد بن غَفَلَة . وقيل سنة إحدى وثلاثين . وقيل سنة اثنتين وثلاثين ، وعُمْرُه مائة وعشرون سنة . والله تعالى أعلم .

---

(١) الضبط فى القاموس . وفى ك . جمفر – تحريف .

(٢) ليس فى ك .

سنة (١٢٨ هـ) ثمان وعشرين ومائة :

ذكر مقتل الحارث بن سريج
وغَلَبة الكِرْمانى على مرْو

وفى هذه السنة كان مقْتَل الحارث بن سُرَيْج وغَلَبة الكرمانى على مرْو .

وكان سبب ذلك أنّ ابْن هُبَيْرة لما ولى العراقَ كتب إلى نَصْر ابن سيَّار بعهْدِ خراسان ، فبايع لمرْوان بن محمد ، فقال الحارث : إنما أمَّنِنى يزيد ولم يؤمّنى مرْوان ، ولا يُجِيز مرْوانُ أمان يزيد ، فلا آمنه. فخالف نصرًا فأرسل إليه [نصر [1]] يدْعُوه إلى الجماعة وينْهاه عن الفُرْقَة ، فلم يُجِبْهُ إلى ذلك ، وخرج فعسْكَر وأرسل إلى نَصْر : أن اجعل الأمْر شُورى ، فأبى نصر ، وأمر الحارث جَهْم ابن صفْوان رأس الجهْمِيّة ، وهو مولى راسِب ، أن يقرأ سيرته وما يدْعُو إليه على الناس، [ففعل [2]] ،فلما سمعوا ذلك [كثروا و [1]] كَثُرَ جمْعه .

وكان الحارث يُظْهِرُ أنه صاحبُ الرايات السود ، فأرسل إليه نَصْر إنْ كنْت كما تزعم وإنكم تهدمون سُور دمشق ،وتزيلون مُلك بنى أُمية فخذ منى خمسمائة رأس [3] ومائتى بَعِير ، واحتمِلْ من الأموال ماشِئْتَ وآلة الحرب ، وسِر ، فلعمرى إنْ كنْتَ

(١) من الكامل .
(٢) ليس فى ك .
(٣) فى د : فرس . والمثبت فى الكامل أيضاً .

صاحب ماذكرت إنى لفى يدِك ، وإنْ كنتَ لَسْتَ ذاكَ فقد أهلكْتَ عشيرتك ؛ ثم عرض عليه نصر أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف ، فلم يقبل .فقال له نصر : فابدأ بالكَرْمانى فإنْ قتَلْتَه فأنا فى طاعتِكَ ، فلم يقبل .

وأمر الحارث أن تُقْرأ سيرتُه فى الأسواق والمسجد وعلى بابِ نَصْر ، فقُرئت ، فأتاه خَلْق كثير ، وقرأها رجلٌ على باب نَصر . فضربه غِلْمان نَصْر ، فنابذهم الحارثُ وتجهَّزَ للحرْب ، ودلَّه رجلٌ من أهل مرْو على نَقْب فى سورها ، فمضى إليه الحارث فنقبه . ودخل المدينة من ناحية بابِ بالِين . فقاتله جَهْم بْنُ مسعود الناجى . فقُتِل جهْم ، وانتهبوا منزلَ سلم بن أحْوز ، وقُتل من كان بحرس باب بالِين وذلك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة يوم الاثنين.

وركب الحارث فى سكة السغد[1] ، فرأى أعْين مولى حيَّان فقاتله ، فقُتِل أعْين ، وركب سلْم حين أصبح ، وأمر مناديا فنادى : منْ جاء برأسٍ فله ثلاثمائة . فلم تطلع الشمس حتى انهزم الحارث بعد أنْ قاتلهم الليل كلَّه .

وأتى سلْم عسْكَر الحارثِ فقُتل كاتِبُهُ يزيد بن داود ، وقُتِل الرجلُ الذى دلَّ الحارثَ على النقب ، وأرسل نَصْر إلى الكَرْمانى فأتاه على عهد ، وعنده جماعةٌ .فوقع بين سلْم بن أحْوز والمِقْدام بن نُعيم كلامٌ ، فأغلظ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه ، وأعان كلُّ واحدٍ منهما نَفَرٌ من الحاضرين ؛ فخاف الكَرمانى أن يكونَ مكْرًا مِنْ نَصْر ، فقام

(١) فى الطبرى : الصغد .

وتعلّقُوا به ، فلم يجلس ، وركب فرسه ، ورجع ، وقال : أراد نَصْرٌ الغَدْر بى .

وأسر يومئذ جَهْم بن صفْوان وكان مع الكَرْمانى فقُتِل ، وأرسل الحارثُ ابْنَه حاتما إلى الكَرْمانىّ ، فقال له محمد بن المثنى : هما عدُوّاك ، دعْهُما يضْطربان .

فلما كان الغَد ركِب الكَرمانىّ فقاتل أصحابَ نَصْرٍ ، ووجّه أصحابه يوم الأربعاء إلى نَصْر ، فتراموا ثم تحاجزُوا ولم يكن بينهم يوم الخميس قتالٌ . والتَقَوا يوْم الجمعة فانهزمت الأَزْد حتى وصلُوا إلى الكَرْمانىّ ، فأخذ اللواء بِيدِهِ ، فقاتل به فانهزم أصحابُ نَصْر ، وأخذوا لهم ثمانين فرسا ، وصُرع تميم بن نَصْر ، وسقط سلْم ابن أحوز فحُمِل إلى عسكر نَصْر .

فلما كان الليل خرج نَصْرٌ من مرْو ، وقَتَل عِصْمة بن عبْد الله الأسدى ، وكان يحمى أصحاب نَصْر ، واقتتلوا ثلاثةَ أيام ، فانهزم أصحابُ الكَرْمانىّ فى آخر يوم ، وهم الأَزْد وربيعة ، فنادى الخَليل بن غَزْوان : يا معشر ربيعة واليمن ! فدخل الحارث السوقَ ففتّ فى أعضاد المُضَريّة ، وهم أصحابُ نَصْر ، فانهزموا وترجّل تميم بن نصر فقاتل . فلما هزَمت اليمانيّة مُضَر أرسل الحارث إلى نَصْر : إن اليمانية يُعيِّرُونى بانهزامكم ، وأنا كافٌّ . فاجعل حُماة أصحابِك بإزاء الكَرْمانىّ . فأخذ عليه نَصْرٌ العهود بذلك ، وقدم على نَصْر عبد الحكم[1]

(١) فى الكامل : عبدالملك بن سعيد . وفى الطبرى : عبد الحكيم بن سعيد . والمثبت فى ك . د .

ابن سعيد العَوْذى [١] وأبو جعفر عيسى بن جرز مِن مكة : والعَوْذ[١] : بطْنٌ من الأَزْد ، فقال أبو جعفر لنَصْرٍ : أيها الأمير ، حسْبك من الولاية وهذه الأُمور [٢] ، فقد أظلَّك أمْرٌ عظيم ، سيقوم رجلٌ مجهول النَّسب يُظْهِرُ السَّواد ، ويدْعُو إلى دولة تكون فيغلب[٣] علَى الأَمْرِ ، وأنتم تنظرون .

فقال نصر : ما أَشْبهَ أن يكونَ كما تقول لقلَّةِ الوفَاء وسوء ذات البيْن [٤] .

فقال : إنَّ الحارثَ مقتولٌ مصلوب ، وما الكَرْمانى من ذلك ببعيد .

قال : ولما خرج نَصْرمِنْ مرْو وغلب عليها الكَرْمانى خطب الناس فأَمّنهم ثم هدم الدُّور ونهب الأَموال ، فأنكر الحارث عليه ذلك . فهمَّ الكَرْمانىّ به ، ثم تركه ، واعتزل بشر بن جُرْمُوز الضبىّ فى خمسة آلاف ، وقال الحارث : إنما قاتلْتُ معكَ طلبًا للعدْلِ . فأَما إذْ تَتْبع [٥] الكرمانى فما تقاتِلُ إلا ليُقَال غَلَب الحارث . وهؤلاء يقاتِلُونَ عصبيّة ؛ فلستُ مقاتلا معك ، فنحن الفئةُ العادِلةُ . لا نقاتل إلَّا منْ قاتلَنَا ، وأتَى الحارثُ مسجد عِياض ، وأرسل إلى

(١) فى د : العوذى — بضم العين . والمثبت فى المشتبه .

(٢) فى الطبرى : حسبك من هذه الأمور والولاية ، فإنه قد أظل أمر عظيم .

(٣) فى ك : ويغلب .

(٤) فى الطبرى : وسوء ذات البين ، وجهت إلى الحارث وهو بأرض الترك فعرضت عليه الولاية والأموال ، فأبى وظاهر على . فقال أبوجعفرعيسى : إن الحارث ...

(٥) فى الكامل : إذا أنت مع الكرمانى .

الكَرْمانى يدْعُوه إلى أنْ يكونَ الأَمْرُ شُورى ، فأَبى الكَرْمانى . فانتقل الحارثُ عنه ، وأقاموا أياما .

ثم إنَّ الحارث أتى السُّور فثلَم فيه ثُلْمة ، ودخل البلد ، وأتى الكرمانى ، فاقتتلوا ، فانهزم أصحابُ الحارث وقُتِلوا ما بين الثلمة وعسكرهم ، والحارث على بغل ، فنزل عنه وركب فرسا ، وبقى فى مائة ، فقُتِل عند شجرة زيتون أو غُبيْراء[1] . وقتل أخوه سوادة وغيرهما .

وقيل : كان سبب قَتْله أنَّ الكَرْمانىّ خرج إلى بِشْر بن جُرْمُوز عند اعتزاله ، ومعه الحارِثُ ، فأَقام أياما بينه وبين عسكر بِشْر فرسخان ، ثم قرب منه ليُقَاتِلَهُ ، فندم الحارث على اتِّباع الكَرْمانىّ وقال : لاتَعْجلْ إلى قتالهم فأنا أَرُدُّهم عليك .

فخرج فى عشرة فوارِس فأَتى عسْكَر بِشْر ، فأَقام معهم . وخرج المُضَريَّةُ أَصحابُ الحارث إليه ، فلم يبْقَ مع الكَرْمانىّ مُضَرىّ غير سلمة بن أَبى عبْد الله ، فإنه قال : لم أَر الحارثَ إلَّا غادرًا ، و [غير] [2] المهلَّب بن إياس ، فقاتلهم الكَرمانى مرارا يقتتلون ثم يرجعون إلى خَنَادِقهم مرّةً لهؤلاء ومرةً لهؤلاء .

ثم ارتحل الحارثُ بعد أيام ، فنقب سُور مرْو ودخلها ، وتَبعهُ الكَرْمانى ، فدخلها أيضا ، فقالت المضريَّة للحارث : قد فَرَرْتَ غير مرَّةٍ ، فترجّل ، فقال : أنا لكم فارسًا خَيْرٌ منى لكم راجِلاً . فقالوا :

(١) الغبيراء : نبات كالغبراء . أو الغبراء ثمرته . والغبيراء شجرته ، أو بالعكس (القاموس) .

(٢) من الكامل .

لا نَرْضَى إلا أنْ تَتَرجَّل ، فترجَّل ، فاقتتلوا هم والكِرْمانى ، فقُتل الحارث وأخواه وبِشْر بن جُرْموز ،وعِدَّةٌ من فُرْسان تميم ، وانهزم الباقون ، وصفَتْ مرْو للْكَرْمانى واليمن ، فهدموا دُور المضريّة ، فقال نصر ابن سيَّار للحارث حين قُتِل (١) :

يا مُدْخِلِ الذُّلِّ على قَوْمِـــه بُعْدًا وسُحْقًا لك مِنْ هالِكِ
شُؤْمُكَ أرْدى مُضَرًا كُلَّهـــا وعضَّ (٢) مِنْ قَوْمكَ بالْحارِكِ
ما كانت الأَزْدُ وأَشْياعُهـــا تَطْمعُ فى عمْرٍو ولا مالك (٣)
ولابنِى سعْدٍ إذا أَلْجمُـــوا كلُّ طمِرٍّ لَوْنُهُ حـــالِك

وفى هذه السنة كان اجتماع أبى حمْزَة الخارجى وعبْد الله بن يحيى المعروف بطالب الحقّ ، واتَّفَقَا على الخروج على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وحجَّ بالناس عبْدالعزيز بن عُمر بن عبْد العزيز وهو عامل مَكَّةَ والمدينة ، وكان بالعراق عمال الضحاك الخارجى وعبْد الله بن عمر ابن عبد العزيز ، وبخراسان نصر بن سيار والفتنةُقائمةٌ .

---

(١) الشعر فى الطبرى : ٧ – ٣٤٢ ، والكامل : ٤ – ٢٩٤
(٢) فى الكامل : وحز . والمثبت فى الطبرى أيضاً .
(٣) عمرو ومالك وسعد : من تميم (هامش د) .

سنة (١٢٩ هـ) تسع وعشرين ومائة :

ذكر مقتل الكرمانى

وهو جُديع بن على الأَزْدى

قال : ولما خلصت مرْو للكَرْمانى وتنحّى نَصْرٌ عنها أرسل نَصْرٌ أصحابه لقتالِهِ مرارًا ، كلُّ ذلك والظَفَرُ لأصحابِ الكَرْمانى ، ثم خرجوا جميعًا واقتتلوا قِتَالاً شديدًا ، وذلك بعد ظُهور أمْرِ أبى مسلم الخُراسانى ودعوته لبنى العباس ، فكتب أبو مسلم إلى نَصْر والكرمانى : إن الإمام أوصانى بكما . ثم أقبل بمنْ معه حتى نزل خَنْدقَيْهما ، فهابه الفريقان . وبعث إلى الكَرْمانى : إنى معك . فقَبِل ذلك ، وانضمّ أبو مسلم إليه ، فاشتدّ ذلك على نَصْر ، وأرسل إلى الكَرْمانى يخوِّفُه مِنْ أبى مُسْلم ، ويقول له : ادْخُل إلى مَرْو ، واكتب بيننا كتابًا بالصُّلْح ، وهو يريدُ أنْ يفرِّقَ بينهما ، فدخل الكَرْمانى منزِلَه ، وأقام أبو مسلم فى العسْكَر ، وخرج الكَرْمانى حتى وقف فى الرَّحْبةِ فى مائة فارس ، وأرسل إلى نَصْر أن اخرج لنكتب الكتاب .

فلما نظر نَصْرٌ إلى غِرَّة الكَرْمانى أرسل إليه ثلاثمائة فارس ، فاقتتلوا قتالا شديدًا فطُعِنَ الكَرْمانى فى خاصرته ، فخرّ عن دابّتِهِ ، وحماه أصحابه حتى جاءهم مالاً قِبل لهم به . فقتل نَصْر الكرمانى وصلَبه ، وصلَب معه سمكة .

فأقبل ابْنُه علىٌّ وقدجمع جمْعًا كثيرا ، وانضمّ إلى أبى مسلم ، وقاتلوا نَصْر بن سيّارحتى أخرجوه من دارِالإمارة . ودخل أبو مسلم مرْو على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى أخبار الدولة العباسية .

قال : ولما رأى نَصْرٌ قوةَ أبى مُسْلم كتب إلى مرْوان بن محمد

يُعْلِمُه حال أبى مسلم وخُروجه وكثرةَ منْ معه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم ابن محمد ، وكتب إليه بأبياتِ شِعْرٍ ، وهى[1] :

أرى بيْنَ الرَّمادِ وميضَ نار[2] فأوشك أنْ يكونَ له[3] ضِرامُ
فإنَّ النار بالعُودينِ تُـذْكَى وإنَّ الحرْب مبدؤُها كَلَامُ[4]
فقلْتُ من التَعجُّب ليْتَ شِعْرِى أيقاظٌ أميَّةُ أم نِيـامُ

فكتب إليه مرْوان : إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فاحسم الثُّؤْلُول[5] قِبلَك .

فقال نصر : أمّا صاحِبُكم فقد أعْلَمكُم أنَّهُ لانَصْر عِنده .

وكتب نصر إلى يزيد بن هبيرة بالعراق يستمدُّه. فلما قرأ كتابه قال : لاتكثر ، فليس له عندى رجل . ثم قبض مرْوان على إبراهيم الإمام وحبسه ، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله فى أخبارهم .

ذكر خبر أبى حمزة المختار

ابن عوف الأزدى البصرى مع طالب الحقّ عبْد الله بن محمد ابن يحيى الحضرمى

كان المختار من الخوارج الأباضِيّة ، وكان يُوافِى مكة فى كل سنة يدْعُو الناس إلى خِلافِ مرْوان بن محمد ، فلم يزل كذلك حتى وافَى عبْد الله بن محمد بن يحيى الحضرمى المعروف بطالب الحقّ فى آخر سنة [١٢٨هـ] ثمان وعشرين ومائة ، فقال له : يا رجُل ،

(١) الشعر فى الطبرى : ٧ – ٣٦٩ ، والكامل : ٤ – ٣٠٣
(٢) فى الطبرى : وميض جمر .
(٣) فى ك : لها . وفى الطبرى : فأحج أن يكون .... وفى الكامل : وأخشى أن يكون .....
(٤) فى الطبرى : الكلام .
(٥) أصل الثؤلول : البثر الصغير (القاموس) .

أَسْمعُ كلاما حسنا، وأراك تدعو إلى حقّ ، فانْطَلقْ معى ، فإنى رجُلٌ مُطَاعٌ فى قومى، فخرج حتى ورد حضْرموت ، فبايعه أبو حمزة على الخِلافَةِ ، ودعا إلى خِلاف[1] مرْوانَ ، وقد كان أبو حمزة اجتاز مرّة بمعْدِن بنى سُلَيم [2] ، والعامِلُ عليه كثير بن عبْد الله ، فسمع كلام أبى حمزة فجلده أرْبعين سوطًا ، فلما ملك أبو حمْزَةَ المدينةَ على ما نذكره تغيّب كثير .

وفى هذه السنة قدم أبو حمزة إلى الحجّ من قِبل عبْد الله بن محمد طالب الحقّ ، فبينما الناس بعرفة ما شعروا إلاّ وقد طلعتْ عليه أعلامٌ وعمائمُ سُود على رءوس الرِّماح ، وهم سبْعمائة ، ففزِع الناس ، وسألوهم عن حالهم ، فأخبروهم بخلافِهم مرْوان وآله ، فراسلَهُمْ عبْدُ الواحد بنُ سليمان بن عبْد الملك ، وهو يومئذ على مكّةَ والمدينة ، وطلب منهم الهُدْنَةَ أيام الحج ، فقالوا : نحن بِحجِّنَا أضَنُّ وعليه أشحّ ، فصالحهم على أنهم جميعًا آمِنُون بعضهم من بعض حتى تَنْفر الناسُ النفر الأخير ، فوقفوا بعرفة على حِدة ، ودفع [بالناس][3] عبْدُ الواحد ، ونزل بمنزل السلطان بِمنى ، ونزل أبو حمزة بقُرين الثّعالب . فلما كان النفر الأول نَفر عبْد الواحد وأخلى مكّة فدخلها أبو حمزة بغير قتالٍ ، فقال بعضهم فى عبد الواحد[4] :

---

(١) ك : خلافة .

(٢) فى ك : معدن ابن سليم . والصواب فى ياقوت ، قال : معدن بنى سليم من أعمال المدينة على طريق نجد .

(٣) من الطبرى .

(٤) الشعر فى الطبرى : ٧ — ٣٧٦ ، والكامل : ٤ — ٣٠٨ ، قال الطبرى : وهى لبعض الشعراء لم أحفظ اسمه .

زار الحجيجَ عِصابةٌ قد خالفوا دِيْنَ الإلٰه ففرَّ عبْدُ الواحد
تركَ الحلائِلَ والإمارةَ هارِبًا ومضى يُخَبِّطُ كالبعِير الشارِدِ

ومضى عبْد الواحد حتى دخل المدينة ، وزاد أهلَها فى العطاء عشرة عشرة ، واستعمل عبْد العزيز بن عبْد الله بن عمرو بن عثمان ، فخرجوا حتى وصلُوا العقِيق ، وأتَتْهم رسلُ أبي حمزة يقولون : إنَّنا واللهِ مالنا بقِتَالِكم مِنْ حاجة ، دعُونا نمضى إلى عدُوِّنا .

فأتى أهْلُ المدينة وساروا حتى نزلوا قُدَيْدًا[1] ، وكانوا مُتْرفين[2] ليسوا بأصحابِ حرْبٍ ، فلم يشعروا إلاَّ وقد خرج عليهم أصحاب أبى حمْزَة من الغِياض فقتلوهم . وكانت المقْتَلَةُ فى قريش، فأُصِيب منهم عددٌ كثير ، وقدم المنهزمون[3] المدينة ، فكانت المرأةُ تُقيم النوائح على حمِيمها ، ومعها النساءُ فتأتيهم الأخبارُ عن رِجالهم ، فيخرجن امرأةً امرأةً كلُّ واحدة تذهب لقَتْل[4] رجُلِها فلا يبقى عندها امرأة ، [وذلك][5] لكثرةِ منْ قتل .

قيل : كان عدد القتلى سبعمائة ، وكانت هذه الوقعة لسبع مضَين من صفر سنة ثلاثين ومائة . [والله أعلم][6] .

---

(١) قديد : موضع قرب مكة (ياقوت) .
(٢) فى الطبرى : مغترين . والمثبت فى الكامل أيضاً .
(٣) فى ك : المنهزمون من المدينة .
(٤) فى الطبرى : كل امرأة تذهب لحميمها حتى ما تبقى عنها امرأة .
(٥) ساقط من ك .
(٦) ساقط من د .

ذكر دخول أبي حمزة المدينة

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

قال : ودخل أبو حمزَة المدينة فى ثالث [عشر] [١] صفر ، ومضى عبْد الواحد إلى الشام .

ولما دخل أبو حمزَة رقى المنبر فخطب ، وقال : يـأهْل المدينة ، مررت زمانَ الأحول - يعنى هشام بن عبد الملك - وقد أصاب ثِمارَكم عاهةٌ ، فكتبْتُم إليه تسألونه أنْ يضَع عنكم خَرْصكم [٢] . ففعل فزاد الغَنِىُّ غِنًى والفَقِيرُ فقرًا ، فقلتم له : جزَاكَ اللهُ خَيْرًا ، فلاجزاكم اللهُ خيرًا ، ولاجزَاه . واعلموا يـأهْل المدينة أنَّالم نَخْرُجْ من ديارنا أَشَرًا ولابطَرًا ، ولا عبثًا ولالدولة [ملك] [٣] نُرِيد أن نخوضَ فيه [٤] ولالثَأْر قديم نِيلْ منا ، ولكنا لمَّا رأيْنَا مصابيح الحقِّ قد عُطِّلَت ، وعُنِّف القائل بالحق ، وقُتِل القائمُ بالقِسْط - ضاقَتْ علينا الأَرْضُ بما رحُبتْ ، وسمعْنَا داعِيًا يدْعُو إلى طاعةِ الرحمن وحُكْمِ القرآنِ ، فأَجبْنَا داعِى الله ، ومنْ لايُجِبْ داعِى الله فليس بمُعْجِزٍ فى الأَرضِ ، فأقبلنا من قبائل شتّى ، ونحن قليلون مستَضْعفُون فى الأَرض . فآوانَا وأيَّدنَا بِنَصْرِه ، فأَصبحنا بنعمته إخوانا .

ثم لَقينا رجالكمُ فدعوْناهم إلى طَاعةِ الرحمن ، وحُكْم القرآن ، فدعوْنَا إلى طاعة الشيطان وحُكْم بنى مرْوان ، فشتَّانَ - لعمْرُ اللهِ - ما بيْنَ الغىِّ والرُّشْدِ . ثم أقبلوا يُهْرعُون قد ضَرب الشيطانُ فيهم بجِرانِه ،

(١) من الكامل .

(٢) فى الكامل : خراجكم . وفى الطبرى : أخراصكم . والخرص : الحزر والتقدير .

(٣) من الكامل.

(٤) الأولى أن يقول : فيها إلابتأويل الأمر (من ذيل ك) . وفى د : فيها .

وغلَتْ بدمِائهم مراجِلُه ، وصدق عليهم ظَنُّه ، وأقبل أنصار الله تعالى [كتائب] (١) بكلّ مُهَنَّدٍ ذى رونَق ، فدارت رحانَا ، واستدارت رحاهُمْ بضَرْب يرتابُ منه المُبْطِلُونَ .

وأنتم يأهْل المدينة إنْ تَنْصُروا مرْوان وآل مرْوانَ يُسْحِتكم اللهُ بعذاب من عنده أو بأيدي نا ، ويشْفِ صدور قَوْمٍ مؤمنين .

يأهل المدينة ؛ أوَّلُكم خَيْرُ أول ، وآخركم شرٌّ آخر ، يأهل المدينة ؛ أخبرونى عن ثمانية أسهم فَرضَها اللهُ تعالى فى كتابه على القوىِّ والضعيف. فجاءتاسعٌ ليس له فيها سهْمٌ ، فأخذها لنفسه مُكَابِرًا محاربا ربَّه .

يأهل المدينة ،بلغنى أنكُم تنتقصون أصْحابى ، قلتم :شبابٌ أحداث ، وأعرابٌ جُفاة ، ويْحكُم وهل كان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابًا أحْداثًا ، شباب والله(٢) إنهم مُكْتَهِلُون فى شبابهم ، غَضَّةٌ عن الشرِّ أعْيُنُهم ، ثقيلة عن الحقّ أقدامُهم .

قال : وأحسنَ السيرةَ مع أهل المدينة ، واستمال الناس حتى سمعوه يقولُ : من زَنَى فهو كافر ، منْ سرق فهو كافر ، ومن شَكَّ فى كُفْرِهما فهو كافر .

وأقام أبو حمْزَة بالمدينة ثلاثة أشهر ، ثم ودَّعهم ، وقال : يأهل المدينة ؛ إنَّا خارجون إلى مرْوان، فإنْ نظفَرْ نعدِلْ فى أحكامكم ونحملكم على سنَّةِ نبيكم ، وإن يكن ماتتمنَّوْن فسيعْلَمُ الذين ظلموا أىَّ مُنْقَلَب ينقَلِبُون .

---

(١) من د .

(٢) فى الكامل : هم والله مكتهلون .

ذكر مقتل أبى حمزة

قال : ثم سار أبو حمْزَةَ نحو الشام ، وكان مرْوان قد انتخب من عسكره أربعةَ آلافِ فارس ، واستعمل عليهم عبْد الملك بن محمد ابن عطية السعدى- سعْد هوازنَ-وأمره أن يجِدَّ السير ويُقَاتِل الخوارج ، فإن ظفر فيسير حتى يبلغَ اليمن ويقاتل عبْد الله بن[1] يحيى طالب الحقّ ، فسارابْنُ عطية ، فلقى أبا حمْزَة بوادِى القُرى ، فقال أبو حمزة لأصحابه : لا تقاتلوهم حتى تختبروهم . فصاحوا بهم : ما تقولون فى القرآن والعمل به ؟ فقال ابْنُ عطية : نَضَعُه فى جوف الجُوالق . قال : فما تقولون فى مالِ اليتيم ؟ قال ابن عطية : نأْكل مالَه ونَفْجُر بأُمِّه - فى أشياء سألوه عنها .

فلما سمعوا كلامه قاتلوه حتى أمْسَوْا فصاحوا :ويْحك يابْنَ عطية ! إنَّ الله قد جعل الليل سكَنًا ، فاسْكُنْ .

فأبى وقاتلهم ، فانهزم الخوارجُ ،وأتوا المدينةَ فقتلهم أهلُها ، وسار ابْنُ عطية إلى المدينة ، فأقام بها شهرا وسار إلى اليمن ، واستخلف على المدينة الوليد بن عُروة بن محمد بن عطية ، وعلى مكة رجل من أهل الشام .

ذكر مقتل عبد الله بن يحيى

المنعوت بطالب الحقّ وقَتْل ابن عطية

قال : وأقبل ابْنُ عطية إلى اليمن ، فبلغ عبْد الله خَبرُهُ وهو بصنْعاء ، فأقبل إليه بمنْ معه ، والتَقَوْا واقتَتَلُوا ، فَقُتِل طالبُ الحق ، وحُمل

(١) فى ك : عبد الله بن محمد يحيى . والمثبت فى الطبرى ، والكامل . وقد تقدم ، وسيأتى كذلك فى الصفحة التالية .

رأسه إلى مرْوان بالشام ، ومضى ابْنُ عطية إلى صنْعاء . فدخلها وأقام بها ، فكتب إليه مرْوانُ يأْمُرُه أنْ يُسْرِع السيْرَ ليحجَّ بالناس؛ فسار في اثنى عشر رجلا ومعه أربعونَ ألف دينار ، وخلَّف عسكَرَهُ وخَيْلَه بصنْعاء ؛ فبينا هو يسير أتاهُ ابنا جُمانة[1] المراديّان فى جمْعٍ كثير ، فقالوا له ولأصحابه : أنتم لصوص ، فأخرج ابْنُ عطيّة عهْده على الحج ، وقال : هذا عهْدُ أمير المؤمنين ، وأنا ابْنُ عطية . فقالوا : هذا باطل ، وأنتم لصوص ، فقاتلهم ابْنُ عطية حتى قُتِلِ في سنة [١٣٠هـ] ثلاثين ومائة .

نعود الى تتمة حوادث سنة (١٢٩ هـ) تسع وعشرين ومائة :

فى هذه السنة كان ظهورُ الدولةِ العباسية بخُراسان على ما تذكره فى أخبارِ الدولةِ العباسية .

وفيها غلب عبْد الله بن معاوية على فارس على ما نذكر ذلك فى فى أخبار آلِ أبي طالب .

وحجّ بالناس فى هذه السنة عبد الواحد ، وكان هو العامل على مكّةَ والمدينة والطائف وعلى العراق ابن هُبيْرة ، وعلى خراسان نَصْرُ بن سيَّار ، والفتنة قائمة .

سنة (١٣٠ هـ) ثلاثين ومائة :

فى هذه السنة دخل أبو مسلم الخُراسانى مَرْو ، وبايع الناس لبنى العباس على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله تعالى .

وفيها هرب نَصْر بن سيَّار عن خراسان .

---

(١) فى الكامل : ابنا جهانة . والمثبت فى الطبرى أيضاً .

وفيها كان من أخبارِ الدولة العباسية مانذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها غَزَا الوليد بن هشام الصائفة ، فنزل العَمْق [١] وبنى حِصْنَ مرْعش .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمدُ بن عبْد الملك بن مروان، وهو أَمِيرُ مكَّةَ والمدينة والطائف .

سنة (١٣١ هـ) احدى وثلاثين ومائة :

فى هذه السنة مات نَصْر بن سيّار ، ودخل قَحْطَبة الرَّىّ من قِبل أبى مسلم الخراسانى ، ثم دخل أصفهان ، وفتحت شَهْرزور لبنى العباس ، وسار قَحْطَبةُ إلى العراق لقتال ابْنِ هُبيْرة .

وحجّ بالناس فى هذه السنة الوليدُ بن عُرْوة بن محمد بن عطية السعدى ، وهو ابْنُ أخِى عبْد الملك بن محمد ، وكان على الحجاز ؛ ولما بلغه قتلُ عمه عبد الملك توجّهَ إلى الذين قتلوه ، فقتل منهم مقْتَلةً عظيمة ؛ وبقَر بطونَ نسائهم ، وقتل الصِّبْيان ، وحرق بالنار منْ قَدر عليه منهم ؛ وكان على العراق يزيد بن هبيْرة .

سنة (١٣٢ هـ) اثنتين وثلاثين ومائة :

فى هذه السنة كانت هزيمة يزيد بن هُبيرة عامل العراق .

وفيها خرج محمد بن خالد بن عبْد الله القَسْرِى مُسوّدًا بالكوفة ، وأخرج عامل ابْن هُبيرة منها على ما نذكر ذلك [إن شاء الله تعالى] [٢] .

---

(١) العمق : بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره قاف : واد من أودية الطائف . والعمق أيضاً : موضع قرب المدينة . وواد يسيل فى وادى الفرع لقوم من ولد الحسين (ياقوت) .

(٢) من د .

وفيها كان انقضاءُ الدّوْلَةِ الأُموية ، وابتداء الدولة العباسية ، وبيْعةُ أبى العباس السفّاح بالخلافة .

وسار عبْدُ الله بن علىّ بن عبْد الله بن عباس إلى مرْوان بن محمد بأمْر السفاح ، فلقيه بِزَابِ الموْصِل ، واقتتلوا ، فانهزم مرْوانُ إلى مِصْر ، فلحقه صالحُ بن على أخو عبْد الله بِبُوصِير[1] ، فقتله ليلةَ الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة على ما نذكر ذلك إن شاء الله مبيّنًا فى أخبار الدولة العباسية : جزْيًا فى ذلك على القاعدةِ التى قدّمْناها .

ولما قُتل مروانُ بن محمد كان له من العُمْر تسعٌ وخمسون سنة . وقيل : أقلّ من ذلك .

وكانت ولايته إلى أن بُويع للسفاح خمس سنين وشَهْرًا ، وإلى أنْ قُتل خمس سنين وعشرة أشهر .

وكان نقش خاتمه : اذكر الموتَ يا غافلُ .

وكان له من الأولاد : عبْدُ الله ، وعُبيدالله ؛ هربا بعد قَتْله . فأما عبْد الله فقتله الحبشةُ ؛ وعُبيد الله أعقب .

وقيل : إنه أُخذ وحُبس إلى أيام الرشيد ، فمات ببغداد ، بعد أنْ أضر .

كاتبه : عبد الحميد بن يحيى مولَى بنى عامر .

قاضيه : عثمان التيمى .

حاجبه : مقلار[2] مولاه .

---

(١) بوصير : قرية بمصر من كورة الأشمونين قتل بها مروان بن محمد (ياقوت) .

(٢) هذا بالأصول .

الأُمراء بمصر : منهم حسّان بن عتاهية ، أقام ستة عشر يوما ثم وليها حفْص بن الوليد ، ثم عزله مرْوان وولى جوهر[١] بن سهل العجلانى، ثم بعثه مددًا إلى ابن هُبيرة ، وولّاها المغيرة بن عُبيد الله ، ثم توفى فولاّها عبْدُ الملك بن مروان ابن موسى بن نصير .

القاضى بها : عبْدُ الرحمن بن سالم بعد أنْ صرف حسين بن نُعيم ، ولم يزل بها قاضيا إلى إمارة عبْد الملك بن يزيد .

جامع أخبار بنى أمية

كانت مدةُ ولايتهم منذ خلص الأَمْرُ لمعاوية بن أبى سفيان وإلى أنْ قُتل مروان بن محمد إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام ، منها مدةُ عبْدِ الله بن الزُّبير تسع سنين واثنان وعشرون يوما .

وعدة من ولى منهم أربعة عشر رجلا ، وهم : معاوية بن أبى سفيان ، يزيد بن معاوية ، الوليد بن يزيد بن عبد الملك . معاوية ابن يزيد بن معاوية . مرْوان بن الحكم . عبد الملك بن مروان . هشام ابن عبد الملك. سليمان بن عبد الملك . عمر بن عبدالعزيز . رحمه الله تعالى . يزيد بن عبدالملك . مروان بن محمد بن مروان . الوليد بن يزيد . يزيد ابن الوليد بن عبد الملك . إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك . يزيد ابن[٢] معاوية بن عبْد الملك ، هذا وعليه انقرضت دولتهم بالمشرق ،

(١) فى د : جوهرة .

(٢) فوقها فى د : مقدم . وهو زائد عن العدد . وفى د اختلاف فى ترتيب هؤلاء إذ عدهم : معاوية بن أبى سفيان . يزيد بن معاوية . معاوية بن يزيد بن معاوية . مروان بن الحكم . عبد الملك بن مروان . الوليد بن عبد الملك . سليمان بن عبد الملك . عمر بن عبد العزيز . يزيد بن عبد الملك . هشام بن عبد الملك — الوليد بن يزيد ابن عبد الملك . يزيد بن الوليد بن عبد الملك . إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك . مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ....

ثم قامت لهم دولة بالأندلس ، سنذكرها إن شاء الله تعالى بعد ذِكْرِنا الدولة العباسية ، وإنما فصلنا ما بين دولتهم بالمشرق ودولتهم بالمغرب وجعلنا الدولة العباسية بينهما لتكونَ أخبارُ الدولتين سياقةً ، ولأن بعض أخبار الدولة العباسيّة متعلّقٌ بأخبار الدولة الأُموية ، فإذا ذكرناها بعد لا ينقطع سِياق الأخبار ، لأن دولتهم بالأندلس لم تكن تِلْو دولتهم هذه ، بل كانت بعد سنين من قيام الدولةِ العباسية.

فصاروا إذًا كالخوارج عليهم ، والله تعالى الموفق للصواب والهادى له بمنه وكرمه . يتلوه إن شاء الله بعد فى أول الجزء الموفى عشرين من الكتاب : الباب الرابع من القسم الخامس من الفن الخامس فى أخبار الدولة العباسية وغيرها .

وكتبه الحقير محمد ابن أبى النصر المنوفى الحنفى غفر الله له آمين.(١)

والله تعالى الموفق للصواب والهادى له

---

(١) هذا ما جاء فى آخر نسخة ك . وفى آخر نسخة (د) ما يأتى :

كمل الجزء التاسع عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وهو الجزء التاسع من التاريخ على يد كاتبه وجامعه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب ابن محمد بن عبد الدايم البكرى التيمى ، عرف بالنويرى ، عفا الله عنه وسامحه. ووافق الفراغ من تأليفه وكتابته فى يوم الاثنين المبارك لتسع خلون من جمادى الآخرة عام (٧١٨ هـ) ثمان عشرة وسبعمائة أحسن الله تعالى تقضيها .

ويتلوه إن شاء الله تعالى فى أول الجزء الموفى عشرين من الكتاب :

الباب الرابع من القسم الخامس من الفن الخامس فى أخبار الدولة العباسية ، بالعراق ، وما معه ، والديار المصرية وابتداء أمر الشيعة .

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه ، وسلم تسليما كثيراً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تم الجزء الحادى والعشرون

ويليه الجزء الثانى والعشرون

واوله : اخبار الدولة العباسية

فهرس

الجزء الحادى والعشرين
من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

أولا — الموضوعات

مقدمة ٥
أخبار المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى ٧
وثوب المختار بالكوفة ١٢
عمال المختار بن أبى عبيد ٢٢
قتل المختار قتلة الحسين ٢٣
بيعة المثنى العبدى للمختار بالبصرة ٣٤
مخادعة المختار ومكره بعبد الله بن الزبير وظهور ذلك له... ... ... ٣٥
امتناع محمد ابن الحنفية من مبايعة عبد الله بن الزبير وما كان من أمره
وإرسال المختار الجيش إلى مكة وخبر ابن الحنفية ٣٨
مسير إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله بن زياد وقتل ابن زياد ... ٤١
ولاية مصعب بن الزبير البصرة ومسيره إلى الكوفة وقتاله المختار
وقتل المختار بن أبى عبيد ٤٤
خبر كرسى المختار الذى كان يستنصر به ، ويزعم أنه فى كتاب
بنى إسرائيل ٥٢
أخبار نجدة بن عامر الحنفي حين وثب باليمامة وما كان من أمره ... ٥٤

الخلاف على نجدة وقتله وتولية أبي فديك ٥٨
الحوادث التي وقعت في أيام عبد الله بن الزبير خلاف ماذكر في الأعمال
الداخلة في ولايته على حكم السنين ٥٩
سنة أربع وستين ٥٩
سنة خمس وستين ٥٩
بناء ابن الزبير الكعبة ٦٠
ذكر الحرب بين عبد الله بن خازم وبين بني تميم بخراسان ٦١
سنة ست وستين ٦٤
ذكر الفتنة بخراسان ٦٤
سنة سبع وستين ٦٧
سنة ثمان وستين ٦٨
ذكر حصار الري وفتحها ٦٨
أخبار عبيد الله بن الحر ومقتله ٦٨
سنة تسع وستين ٧٧
سنة سبعين ٧٧
يوم الجفرة ٧٧
سنة إحدى وسبعين ٨٠
سنة اثنتين وسبعين ٨٠
سنة ثلاث وسبعين ٨٠
بيعة مروان بن الحكم ٨١
السبب في بيعة مروان ٨٣
موقعة مرج راهط ٨٨
مسير مروان إلى مصر واستيلائه عليها ٩٤
ذكر البيعة لعبد الملك وعبد العزيز ابني مروان بن الحكم بولاية العهد ٩٤

وفاة مروان بن الحكم... ... ... ٩٦
بيعة عبد الملك بن مروان ٩٨
مقتل عمرو بن سعيد الأشدق ، وشيء من أخباره ونسبه ١٠٠
نبذة من أخبار عمرو بن سعيد الأشدق فى الإسلام والجاهلية... ... ١٠٦
عصيان الجراجمة بالشام وماكان من أمرهم ١٠٨
خبر عمير بن الحباب بن جعدة السلمى وما كان بين قيس وتغلب
من الحروب ١١٠
يوم ماكسين... ... ... ١١١
يوم الثرثار الأول ١١٢
يوم الثرثار الثانى ١١٢
يوم الفدين... ... ... ١١٢
يوم السكير... ... ... ١١٣
يوم المعارك... ... ... ١١٣
يوم الشرعبية ١١٣
يوم البليخ ١١٤
يوم الحشاك ومقتل عمير بن الحباب السلمى وابن هوبر التغلبى ... ١١٤
الحرب بعد مقتل عمير بن الحباب السلمى ١١٦
خبر يوم البشر... ... ... ١١٧
مسير عبد الملك بن مروان إلى العراق وقتل مصعب بن الزبير واستيلاء
عبد الملك على العراق ١٢٠
خبر عبد الملك بن مروان وزفر بن الحارث وماكان بينهما من القتال
وانتظام الصلح بينهما ١٢٨
مقتل عبد الله بن خازم واستيلاء عبد الملك على خراسان... ... ... ١٣٢
مقتل عبد الله بن الزبير وشيء من أخباره ١٣٣
نبذة من سيرته وأخباره ١٤٣

مبايعة أهل مكة عبد الملك بن مروان ومافعله الحجاج من هدم الكعبة وبنائها ومسيره إلى المدينة وما فعله فيها بالصحابة رضى الله عنهم ١٤٥
أخبار الخوارج فى أيام عبد الملك بن مروان منذ استقل بالأمر ... ١٤٧
مقتل أبى فديك الخارجى ١٥٠
ولاية المهلب بن أبى صفرة حرب الأزارقة ١٥١
إجلاء الخوارج عن رامهرز وقتل عبد الرحمن بن مخنف ١٥٢
الاختلاف بين الأزارقة ومفارقة قطرى بن الفجاءة إياهم ومبايعتهم عبد رب الكبير والحرب بينه وبين المهلب ومقتله ١٥٥
مقتل قطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال ومن معهما من الأزارقة ١٥٩
خروج صالح بن مسرح التميمى وشبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى ... ١٦١
بيعة شبيب بن يزيد الشيبانى ومحاربته الحارث بن عميرة وهزيمة الحارث ١٦٤
الحروب بين أصحاب شبيب وعنزة ١٦٥
مسيرة شبيب إلى بنى شيبان وإيقاعه بهم ودخولهم معه... ... ... ١٦٦
الوقعة بين شبيب وسفيان الخثعمى ١٦٧
الوقعة بين شبيب وسورة ١٦٨
الحرب بين شبيب والحزل بن سعيد وقتل سعيد بن مجالد ١٦٩
مسير شبيب إلى الكوفة ١٧٢
محاربة شبيب أهل البادية ١٧٣
دخول شبيب الكوفة... ... ... ١٧٤
محاربة شبيب زحر بن قيس وهزيمة جيش زحر ١٧٥
محاربة الأمراء الذين ندبهم الحجاج لقتاله وقتال محمد بن موسى بن طلحة وزائدة بن قدامة ١٧٦
محاربته عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وعثمان بن قطن وقتل ابن قطن ١٧٩

محاربة عتاب بن ورقاء وزهرة بن حوية وقتلهما ١٨٣
قدوم شبيب الكوفة وانهزامه عنها ١٨٨
مهلك شبيب ١٩٠
خروج مطرف بن المغيرة ومقتله ١٩٣
الغزوات والفتوحات فى أيام عبد الملك بن مروان على حكم السنين ١٩٦
غزو عبيد الله بن أبى بكرة رتبيل ١٩٧
مسير عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى رتبيل وماملكه من بلاده ١٩٩
غزو المهلب بن أبى صفرة ماوراء النهر ٢٠١
دخول الديلم قزوين وقتلهم ٢٠٢
فتح قلعة نيزك بباذغيس ٢٠٣
فتح المصيصة ٢٠٤
الحوادث الكائنة فى أيام عبد الملك بن مروان... ... ... ٢٠٤
ولاية محمد بن مروان الجزيرة وأرمينية ٢٠٥
ولاية الحجاج بن يوسف العراق ، ومافعله عند مقدمه ٢٠٧
وثوب أهل البصرة بالحجاج ٢١٤
ماكلم به الحجاج أنس بن مالك وشكواه إياه... ... ... ٢١٩
ولاية سعيد بن أسلم السند وقتله ٢٢٢
ولاية مجاعة بن سعر التميمى على السند ووفاته ٢٢٢
خبر الزنج بالبصرة ٢٢٢
ضرب الدنانير والدراهم الإسلامية ٢٢٣
مقتل بكير بن وساج... ... ... ٢٢٤
حوادث سنة ٧٨ هـ ٢٢٧
حوادث سنة ٧٩ هـ ٢٢٨
حوادث سنة ٨٠ هـ ٢٢٨
حوادث سنة ٨١ هـ ٢٢٩

مقتل بحير بن ورقاء ٢٢٩
خلاف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجاج ، وما كان بينهما
من الحروب ٢٣٣
الحرب بين الحجاج وابن الأشعث وانهزام ابن الأشعث ٢٣٧
وقعة دير الجماجم ٢٣٩
الوقعة بمسكن ٢٤٧
مسير عبد الرحمن بن الأشعث إلى رتبيل ، وما كان من أمره وأمر
أصحابه ٢٤٩
بقية حوادث سنة ٨١ هـ ٢٥٩
حوادث سنة ٨٢ هـ ٢٥٩
وفاة المهلب بن أبي صفرة ووصيته لبنيه وولاية ابنه يزيد خراسان... ٢٥٩
خبر عمر بن أبي الصلت وخلعه الحجاج بالرى وما كان من أمره ... ٢٦١
بناء واسط ٢٦٢
حوادث سنة ٨٤ هـ ٢٦٣
حوادث سنة ٨٥ هـ ٢٦٣
عزل يزيد بن المهلب عن خراسان وولاية أخيه المفضل ٢٦٣
أخبار موسى بن عبد الله بن خازم واستيلائه على ترمذ ٢٦٥
وفاة عبد العزيز بن مروان ، وولاية عبد الملك بن عبد الله مصر
والبيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك بولاية العهد... ... ... ٢٧٥
وفاة عبد الملك بن مروان ٢٧٧
وصيته بنيه عند موته ٢٧٨
أولاده وأزواجه ٢٧٨
شيء من أخباره وعماله ٢٧٩
الأمراء بمصر وقضاتها ٢٨٠
بيعة الوليد بن عبد الملك ٢٨١
الغزوات والفتوح التى اتفقت فى خلافة الوليد بن عبد الملك ... ٢٨٢

ولاية قتيبة بن مسلم خراسان ، وغزواته وفتوحه ٢٨٢
قتيبة ونيزك ٢٨٤
غزوة بيكند وفتحها... ... ... ٢٨٤
غزو نومشكت ، وراميثنة ، وصلح أهلها ، وقتال الترك والصغد
وأهل فرغانة ٢٨٥
غزو بخارى وفتحها ٢٨٦
غدر نيزك وفتح الطالقان وما كان من خبر نيزك إلى أن قتل ٢٨٩
غزوة شومان وكش ونسف وفتح ذلك ٢٩٤
ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد... ... ... ٢٩٥
فتح سمرقند ٢٩٦
غزو الشاش وفرغانة... ... ... ٢٩٩
فتح مدينة كاشغر ٣٠١
غزوات قتيبة وفتوحاته ٣٠٣
فتح السند وقتل ملكها ، ومايتصل بذلك من أخبار العمال عليها ... ٣٠٤
ذكر الغزوات إلى بلاد الروم ومافتح منها . وغزوات الصوائف على
حكم السنين ٣١١
فتح طوانة وغيرها من بلاد الروم ٣١١
الحوادث الكائنة فى أيام الوليد بن عبد الملك خلاف ماتقدم ٣١٣
فى سنة ٨٦ هـ ٣١٣
فى سنة ٨٧ هـ ٣١٤
فى سنة ٨٨ هـ ٣١٤
عمارة مسجد النبى والزيادة فيه... ... ... ٣١٤
فى سنة ٨٩ هـ ٣١٦
ولاية خالد بن عبد الله القسرى مكة ، وما خطب الناس به وقاله ٣١٦
فى سنة ٩٠ هـ ٣١٦
هرب يزيد بن المهلب وإخوته من سجن الحجاج ٣١٦
فى سنة ٩١ هـ ٣١٩

في سنة ٩٢ هـ ٣٢٠
في سنة ٩٣ هـ ٣٢١
عزل عمر بن عبدالعزيز عن الحجاز ٣٢١
في سنة ٩٤ هـ ٣٢٢
مقتل سعيد بن جبير ٣٢٢
وفاة زين العابدين على بن الحسين ٣٢٤
شيء من سيرته ٣٢٤
في سنة ٩٥ هـ : ٣٣١
وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي وشيء من أخباره ٣٣١
في سنة ٩٦ هـ : ٣٣٥
وفاة الوليد بن عبد الملك وشيء من أخباره ٣٣٥
بيعة سليمان بن عبد الملك ٣٣٨
قتل قتيبة بن مسلم ٣٣٨
في سنة ٩٧ هـ ٣٤٤
ولاية يزيد بن المهلب خراسان ٣٤٤
في سنة ٩٨ هـ ٣٤٧
محاصرة القسطنطينية ٣٤٧
فتح قهستان وجرجان وطبرستان ٣٤٩
فتح جرجان الفتح الثاني وإنشاء مدينتها ٣٥١
في سنة ٩٩ هـ ٣٥٣
وفاة سليمان بن عبد الملك وشيء من أخباره ٣٥٣
بيعة عمر بن عبد العزيز ٣٥٥
في سنة مائة للهجرة ٣٥٩
خروج شوذب الخارجي ٣٥٩
حوادث سنة ١٠١ هـ ٣٦٤
وفاة عمر بن عبد العزيز ٣٦٥

نبذة من سيرته ٣٦٦
بيعة يزيد بن عبد الملك ٣٧٢
مقتل شوذب الخارجي وهزيمته بجيوش يزيد قبل ذلك ٣٧٤
الغزوات والفتوح فى خلافة يزيد بن عبد الملك : ٣٧٥
غزوة الترك ٣٧٥
غزوة الصغد ٣٧٧
الوقعة بين سعيد الحرشي أمير خراسان وبين الصغد ٣٧٨
ظفر الخزر بالمسلمين ٣٨١
فتح بلنجر وغيرها ٣٨٢
استيلاء يزيد بن المهلب على البصرة وخلعه يزيد بن عبد الملك ... ٣٨٤
بقية أخبار سنة (١٠١ هـ) إحدى ومائة ٣٩١
حوادث سنة اثنتين ومائة (١٠٢ هـ) ٣٩٢
ولاية مسلمة بن عبد الملك العراق وخراسان وعزله ، وولاية
عمر بن هبيرة ٣٩٢
البيعة لهشام بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ، بولاية العهد ... ٣٩٢
مقتل يزيد بن أبي مسلم ٣٩٢
حوادث سنة ثلاث ومائة (١٠٣ هـ) ٣٩٤
ذكر استعمال سعيد الحرشي على خراسان ، وعزل سعيد خديبة عنها ٣٩٤
حوادث سنة أربع ومائة (١٠٤ هـ) : ٣٩٥
عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن مكة والمدينة وولاية عبد الواحد ٣٩٥
حوادث سنة خمس ومائة (١٠٥ هـ) ٣٩٧
ذكر أخبار الخوارج فى أيام يزيد بن عبد الملك ٣٩٧
وفاة يزيد بن عبد الملك وشيء من أخباره ٣٩٩
بيعة هشام بن عبد الملك ٤٠٢

الغزوات والفتوح فى أيام هشام بن عبد الملك على حكم السنين ٤٠٣
غزوة مسلم الترك ٤٠٤
غزاة عنبسة الفرنج بالأندلس ٤٠٥
خبر أشرس بن عبد الله السلمى أمير خراسان ٤٠٧
ذكر وقعة كمرجة ٤١٠
عزل أشرس عن خراسان ، واستعمال الجنيد بن عبد الرحمن وقتاله الترك ٤١٢
مقتل الجراح بن عبد الله الحكمى وولاية سعيد الحرشى ٤١٤
وقعة الجنيد بالشعب ٤١٧
غزو مسلمة وعوده ٤٢١
غزو مروان بن محمد بلاد الترك ، ودخوله إلى بلاد ملك السرير وغيرها ٤٢١
ظفر المسلمين بالترك وقتل خاقان ملك الترك ٤٢٥
غزوات نصر بن سيار ما وراء النهر ٤٢٧
غزو مروان بن محمد بن مروان ٤٣١
حوادث سنة ست ومائة (١٠٦ هـ) : ٤٣٢
ذكر ولاية أسد خراسان ٤٣٢
حوادث سنة سبع ومائة (١٠٧ هـ) : ٤٣٤
« سنة ثمان ومائة (١٠٨ هـ) : ٤٣٥
« سنة تسع ومائة (١٠٩ هـ) : ٤٣٥
« سنة عشرة ومائة (١١٠ هـ) ٤٣٦
« سنة إحدى عشرة ومائة (١١١ هـ) ٤٣٧
« سنة اثنتى عشرة ومائة (١١٢ هـ) ٤٣٧
« سنة ثلاث عشرة ومائة (١١٣ هـ) ٤٣٧

حوادث سنة أربع عشرة ومائة (١١٤ هـ) ٤٣٧
« سنة خمس عشرة ومائة (١١٥ هـ) ٤٣٨
« سنة ست عشرة ومائة (١١٦ هـ) ٤٣٨
خلع الحارث بن سريج بخراسان ، وماكان من أمره ٤٣٩
سنة سبع عشرة ومائة (١١٧ هـ) ٤٤١
عزل عاصم عن خراسان ، وولاية أسد وخبر الحارث بن سريج ٤٤١
سنة تسع عشرة ومائة (١١٩ هـ) : ٤٤٥
قتل المغيرة وبيان ٤٤٥
خبر الخوارج فى هذه السنة ٤٤٧
سنة عشرين ومائة : ٤٥١
عزل خالد بن عبد الله القسرى ، وولاية يوسف بن عمر الثقفى ... ٤٥١
حوادث سنة إحدى وعشرين ومائة (١٢١ هـ) : ٤٥٨
حوادث سنة اثنتين وعشرين ومائة (١٢٢ هـ) : ٤٥٨
ذكر مقتل البطال ٤٥٨
حوادث سنة ثلاث وعشرين ومائة ٤٥٩
صلح نصر بن سيار مع الصغد ٤٥٩
حوادث سنة خمس وعشرين ومائة (١٢٥ هـ) : ٤٦٠
ذكر وفاة هشام بن عبد الملك ، ونبذة من أخباره ٤٦٠
ذكر بيعة الوليد بن يزيد ٤٦٢
حوادث سنة ست وعشرين ومائة : ٤٦٩
مقتل خالد بن عبد الله القسرى ، وشىء من أخباره ٤٦٩
ذكر مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وشىء
من أخباره ٤٧٣
ذكر بيعة يزيد بن الوليد الناقص ٤٨٧
ذكر اضطراب أمر بنى أمية ٤٨٨

خلاف أهل حمص وفلسطين : ٤٨٩
خلاف أهل حمص ٤٨٩
خلاف أهل فلسطين ٤٩١
عزل يوسف بن عمر عن العراق ، واستعمال منصور بن جمهور ... ٤٩١
عزل منصور بن جمهور عن العراق ، وولاية عبد الله بن عمر
ابن عبد العزيز ٤٩٥
ذكر الاختلاف بين أهل خراسان ٤٩٦
ذكر الحرب بين اليمامة وعاملهم ٥٠١
وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ٥٠٤
بيعة إبراهيم بن الوليد ٥٠٥
تتمة حوادث سنة ست وعشرين ومائة (١٢٦ هـ) ٥٠٥
سنة سبع وعشرين ومائة (١٢٧هـ) ٥٠٦
ذكر مسيرة مروان بن محمد إلى الشام ، وخلع إبراهيم بن الوليد ٥٠٦
ذكر بيعة مروان بن محمد ٥٠٨
رجوع الحارث بن سريج ٥٠٩
انتقاض أهل حمص ٥١١
ذكر خلاف أهل الغوطة ٥١٢
« خلاف أهل فلسطين ٥١٢
خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد ٥١٤
ذكر خروج الضحاك محكما ، وما كان من أمره إلى أن قتل ... ٥١٦
ذكر خبر الخيبرى الخارجى وقتله وقيام شيبان ٥١٩
أخبار شبيب الحرورى وما كان من أمره إلى أن قتل ٥٢٠
سنة ثمان وعشرين ومائة (١٢٨ هـ) : ٥٢٣
مقتل الحارث بن سريج وعتبة الكرمانى على مرو ٥٢٣
سنة تسع وعشرين ومائة (١٢٩ هـ) ٥٢٩
مقتل الكرمانى ٥٢٩

خبر أبي حمزة المختار بن عوف الأزدى البصرى مع طالب
الحق عبد الله بن محمد بن يحيى الحضرمى ٥٣٠
دخول أبي حمزة المدينة ٥٣٣
مقتل أبي حمزة ٥٣٥
مقتل عبد الله بن يحيى المنعوت بصاحب الحق ، وقتل ابن عطية ... ٥٣٥
تتمة حوادث سنة (١٢٩ هـ) ٥٣٦
حوادث سنة ثلاثين ومائة (١٣٠ هـ) ٥٣٦
« سنة إحدى وثلاثين ومائة (١٣١ هـ) ٥٣٧
حوادث سنة اثنتين وثلاثين ومائة (١٣٢هـ) : ٥٣٧
جامع أخبار بنى أمية ٥٣٩

ثانياً — مراجع التحقيق

الاستيعاب لابن عبد البر	مطبعة نهضة مصر
الاشتقاق لابن دريد	مطبعة السنة المحمدية
الأصمعيات	طبعة دار المعارف
الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى	« دار الكتب
الإكمال لابن ماكولا	نسختى المخطوطة المحققة
تاج العروس للزبيدى	دار ليبيا للنشر والتوزيع
تاريخ الطبرى	طبعة دار المعارف
ديوان الفرزدق	المكتبة الأهلية
ديوان النابغة الذبيانى	دار الفكر
شرح ديوان الحماسة للتبريزى	طبعة التجارية
شرح ديوان الحماسة للمرزوقى	لجنة التأليف
الشعر والشعراء لابن قتيبة	طبعة عيسى الحلبى
العقد الفريد لابن عبد ربه	لجنة التأليف
فتوح البلدان للبلاذرى	شركة طبع الكتب العربية ١٩٠١م
القاموس المحيط	المطبعة المصرية
قصص العرب	طبعة عيسى الحلبى
الكامل لابن الأثير	إدارة الطباعة المنيرية
لب اللباب لابن الأثير	مكتبة القدسى
لسان العرب لابن منظور	الطبعة الأميرية
مختارات ابن الشجرى	طبعة نهضة مصر
مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع	مكتبة عيسى الحلبى

مروج الذهب للمسعودى	طبعة التجارية
المشتبه للذهبى	طبعة مكتبة عيسى الحلبى
معجم البلدان لياقوت	مطبعة السعادة
معجم الشعراء للمرزبانى	طبعة مكتبة عيسى الحلبى
معجم مااستعجم للبكرى	مطبعة التأليف
النجوم الزاهرة	طبعة دار الكتب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٧/١٨١١

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٢٣١ ٦

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
٦٧٧ - ٧٣٣هـ

الجزء الثاني والعشرون

تحقيق
د. محمد جابر عبد العال الحيني

مراجعة
إبراهيم مصطفى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى للثقافة

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مركز تحقيق التراث

القاهرة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا هو الجزء الثانى والعشرون من نهاية الأرب ، قد اعتمدت فى تحقيقه على ثلاث مخطوطات محفوظة بدار الكتب بأرقام ٥٩٢ ، ٥٥١ ، ٥٤٩ معارف عامة ، رمزت للأولى ٥٩٢ بحرف ف ، والثانية ٥٥١ بحرف ص ، والثالثة ٥٤٩ بحرف ك ، وهى مخطوطات تستحق الدراسة والتنويه عنها إلا أن هذا الجزء ليس موضعاً لهذه الدراسة ، ذلك لأن هذا الجزء سبقه واحد وعشرون ، وكلها جميعاً تعتمد على هذه المخطوطات .

ولكن على الرغم من هذا فأرى من واجبى – أداءً للأمانة العلمية – أن أورد ملحوظة ، ربما كان هذا الجزء وحده يستقل بها أو لعلها شائعة فى الأجزاء كلها ، وهى على أية حال تستحق التسجيل ، فقد لاحظت :

أن المخطوطة رقم ٥٤٩ المرموز لها بحرف ك كثيرة الأخطاء ، ولا يتحرى ناسخها الدقة فى النقل عن المصدر الذى ينقل منه ، ويتفرد بخصيصة غريبة هى عدم العناية والإهمال ، إهمالاً جعله يضطرب فيخلط بين الأحداث ، وهو – بعد هذا – لا يستقل بذلك بل يفرض نفسه على المنسوخ ، يحكم

ذوقه البيانى على ما ينقل فيقدم من حروف الجر ويؤخر وفق هواه ، ويغير من الألفاظ فيأتينا بألفاظه لا بألفاظ المصدر ، ولكن هذا قليل قلة يمكن التجاوز عنه ، ولكن الذى لا نستطيع التجاوز عنه ولا الصبر عليه هو وضعه ألفاظا لما لم يستطع قراءته ، والحق أن كل هذه العيوب تسقط من قيمة هذه المخطوطة ، وفى نظرى إن عيبا واحدا منها كاف ليجعلنى أنفر أو بتعبير أدق وأصح يجعلنى أربأ بالعمل العلمى أن يجعل هذه المخطوطة إحدى عمد نشر كتاب نهاية الأرب ، وأرى أن تكون عونا يسعف إذا كان فيها ما يسعف .

أما المخطوطة رقم ٥٩٢ وهى المرموز لها بحرف ف فهى بلاشك يجب أن تكون إحدى عمد النشر ، ذلك لأن ناسخها معاصر أو يمكن اعتباره معاصرا للمؤلف ، وهذا يجعل قيمتها التاريخية فى درجة عالية ، ولكن على الرغم من هذه القيمة العلمية لهذه المخطوطة فإنها لا تسلم من العيوب ، وهى عيوب خطيرة ، نتجت فى رأيى من ضعف ناسخها فى قراءة نسخة المؤلف ، ويجب علينا ألا ندع الحديث عن هذه المخطوطة دون أن نشير إلى أن ناسخ ك ينقل من هذه المخطوطة ف ودليل ذلك أن كل سقط فى ف نجده فى ك والعكس غير صحيح ، ذلك لأننا نجد فى ك سقطا ليس فى ف .

والمخطوطة التى تستحق كل تقدير علمى هى المخطوطة رقم ٥٥١ وهى المرموز لها بحرف ص ، ذلك لأن الناسخ أمين فى نقله ، دقيق فى نقل الألفاظ دقة تجعله يرسم الكلمة التى لم يستطع قراءتها ، وحسبك هذا لتقييم هذه المخطوطة ، ولكن على الرغم من هذه القيمة العلمية فإنها لا تسلم من عيب ، ذلك لأن الناسخ كثيرا ما يهمل النقط ، والنقط أساس فى قراءة الكلمات العربية ، ولكن الذى ييسر ويهون من خطر هذا العيب أن النويرى ينقل عن غيره بالنص رغم التزامه الإيجاز ، ينقل العبارة بنص صاحبها إلا فى أندر الأحوال ، ومن ثمّ كان هذا العيب لا يعوق المحقق من أداء عمله

وبعد فهذه إشارة تغنى عن التصريح والاسهاب عن هذه المخطوطات المشار إليها فى هوامش الكتاب ، وهذا هو الجزء الثانى والعشرون أرجو أن أكون قد أديت واجبى نحوه ، فإن جاء مطابقا لما يطلب من المحقق شكرت ربى على التوفيق وإن كان هناك تقصير فجهدى قد بذلته والكمال لله وحده ، والله ولى التوفيق .

مايو سنة ١٩٦١ محمد جابر الحينى

الباب الرابع

من القسم الخامس من الفن الخامس فى أخبار الدولة العباسية بالعراق وغيره والديار المصرية ومامعها خاصةوابتداء أمر الشيعة وظهورهم وما كان منهم إلى أن أفضى إلى أبى العباس عبد الله السفاح ومن قام بالأمر بعده إلى وقتنا هذا .

ذكر ابتداء ظهور دعوة بنى العباس وأمر الشيعة

قال ابن الأثير الجزرى رحمه الله تعالى فى تاريخه الكامل ، كان ابتداء ظهور دعوة بنى العباس فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، وذلك أن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ـ وهو والد أبى العباس السفاح ـ بث دعاته فى الآفاق فى سنة مائة من الهجرة ، وكان ينزل بأرض الشَّراة من أعمال البلقاء بالشام ، وكان أمر الشيعة بعد قتل الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما صار إلى أخيه محمد بن الحنفية ، وقال بعض المؤرخين[1] إنه صار إلى على بن الحسين ، ثم إلى محمد بن على الباقر ، ثم إلى جعفر بن محمد ، والذى عليه الأكثر[2] أن محمد بن الحنفية أوصى به إلى ابنه أبى هاشم ، فلم يزل قائما بأمر الشيعة ، فلما كان فى أيام سليمان بن عبد الملك وفد عليه فأكرمه سليمان ، وقال ما ظننت قرشيا قط يشبه هذا وقضى حوائجه ، ثم شخص من عنده

(١) الإشارة هنا إلى مؤرخى الشيعة ومن يميلون إلى مذهبهم وخاصة الإمامية

(٢) الطبرى وابن الأثير ومن يتبعها

يريد فلسطين ، فلما كان ببلد لَخْم وجُذَام ضربت له أبنية فى الطريق ومعهم اللبن المسموم ، فكلما مرّ بقوم قالوا[١] : هل لك فى الشراب ، فيقول جزيتم خيراً ، حتى مرّ بآخرين فعرضوا عليه ، وهو يظنهم[٢] أنهم من لَخْم وجُذام ، فقال هاتوا وشرب ، فلما استقر فى جوفه أحسّ بالسم ، فقال لأصحابه إنى ميت ، فانظروا مَنْ القوم ؟ فنظروا مَنْ القوم فإذا هم قوّضوا[٣] أبنيتهم ورحلوا ، فقال ميلوا بى إلى ابن عمى وأسرعوا ، فإنى أحسب أنى لا ألحقه ، وكان محمد بن على والد أبى العباس السفاح بالحُمَيْمة من أرض الشراة بالشام .

ذكر تفويض أمر الشيعة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس وبثه الدعاة

قال : فلما وصل أبو هاشم إلى محمد بن على قال : يا ابن عم ، إنى ميت وأنت صاحب هذا الأمر ، وولدك ابن الحارثيّة هو القائم به ، ثم أخوه من بعده ، والله لا يتم هذا الأمر حتى تخرج الرايات السود من خراسان ، ثم ليغلبنّ على ما بين حضرموت وأقصى أفريقية وما بين الهند وأقصى فرغانة ، فعليك بهؤلاء الشيعة فهم دعاتك وأنصارك ولتكن دعوتك خراسان ، واستبطن هذا الأمر الحىّ من اليمن ، فإنّ كل مُلْك لا يقوم بهم ، فأمره[٤] إلى انتقاض وأمرهم فليجعلوا اثنى عشر نقيباً وبعدهم سبعين نقيباً ، فإنّ الله تعالى لم يصلح بنى إسرائيل إلا بهم ، وقد فعل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا مضت سنة الحمار فوجّه رسلك نحو خراسان . فمنهم من يقتل

(١) فى ك قال
(٢) فى ك يظن
(٣) فى ك قرضوا
(٤) فى ص فصيره ، والمعنى أن كل ملك لا يقوم الا بهم فأمره الى انتقاض . وأمرهم إلى إنتقاض اذا لم يقم الملك بهم .

ومنهم من ينجو ، حتى يظهر الله دعوتكم ، فقال محمد بن على : أبا هاشم وما سنة الحمار ، قال إنه لم تمض مائة سنة من نبوّة إلا انتقض أمرها ، لقوله تعالى ﴿أو كالذى مرّ على قرية﴾ إلى قوله ﴿فأماته الله مائة عام﴾ [١] .

واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية ، ثم مات أبو هاشم وكان قد[٢] أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم إليه ، أن الأمر صائر إلى ولده محمد بن على ، وأمرهم بقصده بعده ، فلما مات أبو هاشم قصدوا محمداً وبايعوه ، وعادوا فدعوا الناس إليه فأجابوهم ، وكان الذين سيّرهم إلى الآفاق جماعة . فوجّه مَيْسَرة إلى العراق ، ومحمد بن خُنَيْس وأبا عِكْرِمة السرّاج – وهو أبو محمد الصادق – وحيّان العطّار – خال إبراهيم بن سَلَمَة[٣] – إلى خراسان ، وعليها يوم ذاك الجرّاح الحكمى ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب إلى محمد بن على فدفعوها إلى مَيْسرة ، فبعث بها إلى محمد ، واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على اثنى عشر نقيباً ، منهم سليمان بن كَثِير الخُزَاعى ، ولاَهِز بن قُرَيْظ التميمى ، وقَحْطَبَة بن شبيب الطائى ، وموسى ابن كَعْب التميمى ، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بنى شيبان بن ذهل ، والقاسم بن مُجَاشع التميمى ، وعِمْران بن إسماعيل أبو النجم مولى أبى مُعَيْط ، ومالك بن الهَيْثَم الخزاعى ، وطلحة بن زُرَيق الخزاعى ، وعمرو ابن أعْيَن أبو حمزة مولى خُزاعة ، وشِبْل بن طَهْمَان أبو على الهَرَوِى مولى لبنى حنيفة ، وعيسى بن أعْيَن مولى خزاعة ، واختار سبعين رجلاً فكتب إليهم

---

(١) يشير الى الآية ٢٥٩ من سورة البقرة وهى (أَوْ كالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَة وهى خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَة عام ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَام فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ).

(٢) هنا بدأ المؤلف ينقل عن ابن الاثير بشىء من التصرف ، وكان قبل ذلك يلخص .

(٣) مسلمة فى المخطوطات والتصويب عن الطبرى جـ٥ ص ٣١٦ القاهرة ١٩٣٩ م وابن الاثير فى الكامل جـ ٤ ص ١٥٩ القاهرة ١٣٥٧هـ .

محمد بن على كتاباً ، ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها ، وذلك فى سنة مائة من الهجرة .

ذكر مولد أبى العباس السفاح

قال : كان عبد الملك بن مروان قد منع محمد بن على أباه من زواج أمه ، وهى ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان[1] الحارثى ، ثم منعه الوليد وسليمان بعده لأنهم كانوا يرون أن ملكهم يزول على يد رجل من بنى العباس يقال له ابن الحارثية ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز شكى محمد بن على ذلك ، وسأله ألا يمنعه من زواجها وكانت بنت خاله ، فقال له عمر : تَزَوَّجْ مَنْ شئت فتزوّجها ، فولدت له أبا العباس السفاح فى شهر ربيع الآخر سنة أربع ومائة ، ووصل إلى أبيه محمد بن على أبو محمد الصادق من خراسان فى عدة من أصحابه ، فأخرج إليهم أبا العباس فى خرقة وله خمسة عشر يوما ، وقال لهم هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يديه ، فقبلوا أطرافه ، وقال لهم : والله ليتمنّ هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوكم .

وفى سنة خمس ومائة . قدم بُكَيْر بن ماهَان من السند وكان بها مع الجُنَيْد بن عبد الرحمن ، فلما عزل الجُنَيْد قدم بُكَير إلى الكوفة ، ومعه أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب ، فلقى أبا عكرمة الصادق ، وميسرة ، ومحمد بن خُنَيْس ، وسالم الأَعْيَن ، وأبا يحيى مولى بنى مسلمة ، فذكروا له أمر دعوة بنى هاشم فقبل ذلك ، وأنفق ما معه عليهم ودخل إلى محمد بن على ، فأقامه مقامه .

وفى سنة سبع ومائة . وجّه بُكَيْر بن ماهان أبا عكرمة ومحمد بن خُنَيْس

---

(١) ذكرت المخطوطتان ف ، ص هذا الاسم صحيحا هنا ، بينما ذكرتاه مغلوطا فى فصل قادم هو : بيعة ابى العباس السفاح أما ك فقد أخطأت فى الموضعين . وجميع المخطوطات هنا تخطىء فى سلسلة آبائها تقول ريطة بنت عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثى وبالمقابلة بما جاء فى تاريخ الطبرى جـ٦ ص ١٢١ وما ورد فى الكامل لابن الاثير جـ٤ ص ٣٤٦ نجد أن «عبد الله» الأولى مضافة خطأ . فالخطأ لم يلحق اسمها فحسب بل ولحق اسماء آبائها كما سنرى فيما بعد

وعَمَّار العِبَادِى وزيادا – خال الوليد الأزرق – فى عدة من شيعتهم دعاةً إلى خراسان ، فجاء رجل من كِنْدة إلى أسَد بن عبد الله القَسْرِى وهو أمير خراسان ، فوشى بهم فأتى بأبى عِكْرِمَة ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه ، ونجا عمَّار ، فقطع أسد أيدى من ظفر به منهم وصلبه ، وأقبل عَمار إلى بُكَيْر ابن ماهان فأخرجه ، فكتب إلى محمد بن على بذلك ، فأجابه : الحمد لله الذى صدق دعوتكم ومقالتكم ، وقد بقيت منكم قتلى ستقتل . وقيل إن أول من قدم خراسان من دعاة بنى العباس زياد[1] أبو محمد مولى هَمدان .

وفى سنة تسع ومائة . بعثه محمد بن على وقال له : انزل اليمن[2] والطف مُضَر ، ونهاه عن رجل من نيسابور يقال له غالب ، فلما قدم دعا إلى بنى العباس وذكر سيرة بنى أمية وظلمهم ، وأطعم الناس الطعام ، وقدم عليه غالب وتناظرا فى تفضيل آل علىّ وآل العباس ، وافترقا وأقام زياد بمرو شَتْوَة يختلف إليه من أهلها يحيى بن عقيل الخزاعى وغيره ، فأخبر به[3] أسد فدعاه وقال له : ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ قال : الباطل ، إنما قدمت فى تجارة وقد فرّقت مالى على الناس ، فإذا اجتمع خرجت ، فقال له أسد : اخرج عن بلادى ، فانصرف وعاد إلى أمره ، فرفع أمره إلى أسد وخوّف جانبه ، فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة ، ولم ينج منهم إلا غلامان استصغرهما وقيل – أمر بزياد أن يوسط بالسيف ، فضربوه فلم يعمل السيف فيه فكبّر الناس ، فقال أسد : ماهذا ؟ فقالوا نبا السيف عنه ، ثم ضرب مرة أخرى فنبا عنه ، ثم ضرب الثالثة فقطعه باثنتين ، وعرض البراءة منه على أصحابه ، فمن تبرّأ خلى سبيله ، فتبرّأ اثنان فتركا ، وأبى البراءة ثمانية فقتلوا ، فلما كان الغد أقبل أحدهما إلى أسد ، فقال أسألك أن تلحقنى

(١) فى جميع المخطوطات زياد بن محمد وهو خطأ والتصحيح عن ابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ٢٠٠ والطبرى جـ٥ ص ٣٩٤

(٢) أى اقم بين القبائل اليمنية القاطنة خراسان

(٣) فى ك فأخبره أسد وهو خطأ واضح

بأصحابى فقتله ، وذلك قبل الأضحى بأربعة أيام من سنة تسع ومائة ، ثم قدم بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيرا ، فنزل على أبى النجم وكان يأتيه الذين لقوا زيادا ، فكان على ذلك سنة أو سنتين وكان أميا ، فقدم عليه خِداَش واسمه عمارة ، فغلب كَثِيراً على أمره . ويقال إن أول من أتى خراسان بكتاب محمد بن علىّ حربُ بن عثمان مولى بنى قيس بن ثعلبة ، من أهل بلخ – والله تعالى أعلم .

وفى سنة ثمانى عشرة ومائة : وجّه بكير بن ماهان عَمَّار بن يزيد[1] الخُزَاعى إلى خراسان والياً على شيعة بنى العباس ، فنزل مرو وغيّر اسمه وتسمى بخِدَاش ، ودعا إلى محمد بن على فسارع إليه الناس وأطاعوه ، ثم غيّر ما دعاهم إليه وأظهر دين الخُرَمِيَّة ، ورخّص لبعضهم فى نساء بعض ، وقال لهم إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج ، وأن تأويل الصوم أن يصام عن ذكر الإمام فلا يباح باسمه،والصلاة الدعاء له،والحج القصد إليه وكان يتأول من القرآن قوله تعالى ﴿ **لَيْسَ على الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا وآمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ**[2] ﴾ ، قال وكان خِدَاش نصرانيا بالكوفة فأسلم ولحق بخراسان ، وكان ممن اتبعه على مقالته : مالك ابن الهَيْثَم ، والحُرَيش بن سُلَيْم الأعجمى وغيرهما ، وأخبرهم أن محمد بن علىّ أمره بذلك ، فبلغ خبره أسد بن عبد الله فظفر به ، فأغلظ القول لأسد فقطع لسانه وسمل عينيه ، وأمر يحيى بن نُعَيم الشيبانى فقتله وصلبه بآمل .

وفيها مات على بن عبد الله بن عباس بالحُمَيْمَة من أرض الشَّرَاة بالشام ، وهو ابن ثمان أو سبع وسبعين[3] ، وهو والد محمد الإمام ، وقيل

---

(١) فى ص : زيد

(٢) المائدة آية ٩٣ . تلك كانت وسيلة غلاة الشيعة للتأثير على أتباعهم ولتحقيق اغراض كانوا يهدفون اليها راجع كتابى : حركات الشيعة المتطرفين

(٣) فى ص : وتسعين وهو تحريف لأن الطبرى وابن الأثير فى الكامل والمخطوطتين الأخريين يجمعون على سبعين .

إنه ولد فى الليلة التى قتل فيها على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فسمّاه عليًا ، وقال سميته باسم أحب الناس إلىّ ، وكناه بأبى الحسن ، فلما قدم على عبد الملك بن مروان أكرمه وأجلسه معه على سريره ، وسأله عن اسمه وكنيته فأخبره ، فقال : لا يجتمع هذا الاسم والكنية لأحد فى عسكرى ، وسأله : هل لك ولد ؟ قال : نعم وقد سميته محمدا ، قال : فأنت أبو محمد . وقيل إنه خلف اثنين وعشرين ولدا .

وفى سنة عشرين ومائة : وجّهت الشيعة بخراسان إلى محمد الإمام سليمان بن كَثِير ، ليعلمه أمرهم وما هم عليه ، وكان محمد قد ترك مكاتبتهم ومراسلتهم ، لطاعتهم لخِداش وقبولهم منه ما رواه عنه من الكذب ، فقدم سليمان على محمد فعنّفه محمد فى ذلك ، ثم صرفه إلى خراسان ومعه كتاب مختوم ، فلم يجدوا فيه إلا البسملة ، فعلموا مخالفة خداش لأمره ، ثم وجّه محمد إليهم[1] بُكير بن ماهان بعد عود سليمان من عنده ، وكتب إليهم يعلمهم كذب خِداش فلم يصدقوه واستخفوا به ، فانصرف بُكَيْر إلى محمد ، فبعث معه بعصى مضبّبة بعضها بحديد وبعضها بنحاس ، فجمع بكير النقباء والشيعة ودفع إلى كل واحد منهم عصى ، فتابوا ورجعوا .

ذكر خبر أبى مسلم الخراسانى وابتداء أمره

قال ابن الأثِير الجَزَرى فى تاريخه الكامل ، قد اختلف الناس فى أمر أبى مسلم ، فقيل كان حرا ، وكان اسمه إبراهيم بن عثمان بن بشار[2] بن سدوس بن جود زده [3] من ولد بزرجمهر [4] ويكنى أبا إسحاق ، ولد

(١) فى ف ، ك إليه
(٢) فى ك : يسار
(٣) فى جميع المخطوطات جودرز والتصويب عن ابن الأثير فى الكامل جـ٤ ص ٢٥٢ ط . القاهرة ١٣٥٧ هـ
(٤) فى ك : إبراهيم بزرجمهر

بأصفهان ونشأ بالكوفة ، وكان أبوه أوصى إلى عيسى بن موسى السرّاج ، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين ؛ فلما اتصل بإبراهيم بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس الإمام قال له : غيّر اسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك ، على ما وجدته فى الكتب ، فسمى نفسه[1] عبد الرحمن بن مسلم وكان يكنى أبا مسلم ، ومضى لشأنه ، وله ذؤابة وهو على حمار بإكاف[2] وله تسع عشرة سنة ، وزوّجه إبراهيم الإمام ابنة عمران بن إسماعيل الطالى المعروف بأبى النجم ؛ هذا نسبه على زعم من يقول إنه حر ، ولما تمكّن وقوى أمره ادّعى أنه من ولد سَلِيط بن عبد الله بن عباس ، وكان من حديث سَلِيط هذا أن عبد الله بن عباس كان له جارية مولدة صفراء تخدمه ، فواقعها مرة ثم تركها دهراً ، فاستنكحت عبدا من أهل المدينة فولدت له غلاما ، فاستعبده عبدالله بن عباس وسماه سَلِيطا ، فنشأ جلدا ظريفا وخدم ابن عباس ، ثم صار له من الوليد بن عبد الملك منزلة[3] ، فادعى أنه من ولد عبد الله بن عباس ، وأعانه الوليد على ذلك لما كان فى نفسه من على بن عبد الله بن عباس ، وأمره بمخاصمته فخاصمه ، واحتال فى شهود على إقرار عبد الله أنه ولده ، فشهدوا بذلك عند قاضى دمشق ، واتبع القاضى رأى الوليد فى ذلك ، فأثبت نسبه وخاصم عليًّا فى الميراث .

وأما من زعم أنه كان عبداً فإنه حكى ، أن بُكير بن ماهان كان كاتباً لبعض عمال السند ، فقدم الكوفة فاجتمع بشيعة بنى العباس . فغُمِز بهم فحُبس وخُلِّى عن الباقين ؛ وكان فى الحبس أبو عاصم يونس . وعيسى بن مَعْقل العجلى ومعه أبو مسلم يخدمه ، فدعاهم بكير إلى رأيه فأجابوه . ثم قال لعيسى بن معقل : ما هذا منك ؟ قال : هو مملوك . قال : أتبيعه ؟ قال : هو

(١) فى ك : اسمه
(٢) برذعة
(٣) فى ك : ثم صار له منزلة عند عبد الملك وهو خطأ

لك ، قال : أحب أن تأخذ ثمنه ، قال هو لك بما شئت ، فأعطاه أربعمائة درهم ، ثم خرجوا من السجن ، فبعث به بكير إلى إبراهيم الإمام ، فدفعه إبراهيم إلى موسى السرّاج فسمع منه وحفظ ، ثم صار يتردد إلى خراسان .

وقيل إنه كان لبعض أهل هراة بوُشَنْج شيخ ، فقدم مولاه على إبراهيم الإمام وأبو مسلم معه ، فأعجبه فابتاعه منه وأعتقه ، ومكث عنده عدة سنين ، وكان يتردد بكتب إلى خراسان على حمار له بإكاف ، ثم ولاه إبراهيم أمر الشيعة بخراسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفى سنة أربع وعشرين ومائة : مات محمد بن على بن عبد الله بن عباس فى قول بعضهم ، وأوصى إلى ابنه إبراهيم بالقيام بأمر الدعوة ، وقيل بل مات فى سنة خمس وعشرين ومائة فى ذى القعدة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وفى سنة ست وعشرين ومائة : وجّه إبراهيم بن محمد[1] الإمام أبا هاشم بُكير بن ماهان إلى خراسان ، فقدم مرو وجمع النقباء والدعاة ونعى لهم محمد بن على ، ودعاهم إلى ابنه إبراهيم ودفع إليهم كتابه فقبلوه ، ودفعوا له ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة ، فقدم بها بكير على إبراهيم .

وفى سبع وعشرين ومائة : توجّه سليمان بن كَثير ، ولاَهِز بن قُرَيظ ، وقَحْطَبَة إلى مكة فلقوا إبراهيم الإمام بها ، وأوصلوا إلى مولى له عشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم ومسكاً ومتاعاً ، وكان معهم أبو مسلم .

وفيها كتب بكير بن ماهان إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره أنه فى الموت ، وأنه قد استخلف أبا سَلَمة حَفْص بن ماهان وهو رِضًى للأمر ،

(١) غير مذكور فى ف ، ك ويبدو أنه سهو لأنهما يذكرانه كما هو واضح فى السنة القادمة .

فكتب إبراهيم إلى أبى سَلَمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه[١] ، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند أمرهم إليه ، ومضى أبو سلمة إليهم فقبلوا أمره ، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم .

ذكر ولاية أبى مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى أمر الشيعة

قال[٢] وفى سنة ثمان وعشرين ومائة : وجّه إبراهيم بن محمد الإمام أبا مسلم[٣] الخراسانى إلى خراسان وعمره تسع عشرة سنة ، وكتب إلى أصحابه : إنى قد أمرته بأمرى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنى قد أمّرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك ، فأتاهم فلم يقبلوا قوله ، وخرجوا فالتقوا بمكة عند إبراهيم الإمام ، فأعلمه أبو مسلم أنهم لم ينفذوا كتابه وأمره ، فقال إبراهيم : هل عرضتَ هذا الأمر على غير واحد فأبوه علىّ ؟ وكان قد عرضه على سليمان بن كثير ، فقال : لا ألى على اثنين أبدا[٤] ، ثم عرضه على إبراهيم بن سَلَمة فأبى ، فأعلمهم أنه قد أجمع رأيه على أبى مسلم ، وأمرهم بالسمع والطاعة له ، ثم قال : إنك رجل منّا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى : انظر هذا الحىّ من اليمن فالزمهم[٥] ، واسكن بين أظهرهم فإن الله تعالى لا يُتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فإنهم

---

(١) فى ك : الشيعة

(٢) هذا التعبير من المؤلف يشير دائماً إلى أنه يأخذ عن الكامل لابن الأثير وهو المَعْنِىّ بقال

(٣) يخطىء ناسخ ك فى هذا الباب فى نقله فيذكره أبا مسلمة وفى هذا التنبيه ما يغنى عن التتبع

(٤) جاء فى تاريخ الطبرى جـ١٠ ص ١٩٣٧ ط أوروبا : (....فقال إبراهيم : إنى قد عَرضت هذا الأمر على غير واحد فأبوه علىّ ، وذلك أنه كان عرض ذلك قبل أن يوجه أبا مسلم على سليمان بن كثير فقال : لا ألى اثنين أبداً) وتعبير النويرى منقول عن ابن الأثير فى الكامل جـ٤ ص ٢٩٥ بالنص

(٥) فى ص ، ك : فاكرمهم والتصويب عن ف وابن الأثير فى الكامل جـ٤ ص ٢٩٥ لأن المؤلف ينقل عنه

العدو القريب الدار ، واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم العربية [فافعل[١]] ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ يعنى سليمان بن كثير ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منّى .

ذكر إظهار الدعوة بخراسان

وفى سنة تسع وعشرين ومائة : كتب إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم يستدعيه ، فسار فى النصف من جمادى الآخرة مع سبعين من النقباء ، فلما وصل إلى قُومِس أتاه كتاب إبراهيم ، يقول : إنى قد بعثت إليك براية النصر[٢] ، فارجع من حيث لقيك كتابى ، ووجِّه إلىّ قحطبة بما معك يوافينى به فى الموسم ، وكتابا إلى سليمان بن كثير ، فانصرف أبو مسلم إلى خراسان ، ووجّه قحطبة إلى إبراهيم بما معه من الأموال والعروض ، وقدم أبو مسلم إلى مرو ودفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير ، يأمره بإظهار الدعوة ، فنصبوا[٣] أبا مسلم وقالوا رجل من أهل البيت ، ودعوا إلى طاعة بنى العباس ، وأرسلوا إلى مَنْ قرب منهم وبعد ممن أجابهم بإظهار الدعوة ، ونزل أبو مسلم قرية من قرى مَرْو يقال لها فنين ، على أبى الحكم عيسى بن أعْيَن النقيب ، ووجّه منها أباداود النقيب ومعه عمرو بن أعْيَن إلى طُخَار سْتان فما دون بَلْخ ، وأمرهما بإظهار الدعوة فى شهر رمضان ، وكان نزوله القرية فى شعبان ، وبث الدعاة إلى مرو الرُّوذ والطَّالِقَان وخُوَارِزْم ، وأمرهم بإظهار الدعوة فى شهر رمضان لخمس بقين منه ، وقال لهم فإن أعجلكم عدوكم دون الوقت بالأذى والمكروه فقد حلّ لكم أن تدفعوا عن أنفسكم ،

(١) ما بين القوسين غير موجود بجميع المخطوطات : وأثبتناه عن ابن الأثير فى الكامل جـ ٤ ص ٢٩٥ لأنه ينقل عنه

(٢) فى المخطوطات : التصرف وهو خطأ والتصويب عن ابن الاثير فى الكامل جـ ٤ ص ٢٩٩ والطبرى جـ٦ ص ٢٣

(٣) فى ص ، ك : فنعتوا

وتجردوا السيوف وتجاهدوا أعداء الله ، ومن شغله منكم عدوه عن الوقت فلاحرج عليه أن يظهر بعده : ثم تحرك أبو مسلم فنزل فى قرية سَفِيذَنْج على كَثِير بن سليمان الخُزاعى لليلتين خلتا من شهر رمضان ، والكِرْمانى وشَيْبان يقاتلان نصر بن سيَّار ، فبث أبو مسلم دعاته فى الناس وأظهر أمره ، فأتاه فى ليلة واحدة نحو ستين قرية ، فلما كان ليلة الخميس لخمس بقين من شهر رمضان عقد اللواء ، الذى بعث به الإمام إليه ويدعى الظل[١] ، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، وهو يتلو ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ[٢] ﴾ ، ولبسوا السواد هو وأخوه سليمان بن كثير ومواليه ، ومن كان أجاب الدعوة من أهل سَفِيذَنْج ، وأوقدوا النيران ليلتهم لشيعتهم[٣] فكانت علامتهم ، فتجمعوا إليه حين أصبحوا معدين ، وقدم عليه الدعاة الذين بثهم فى الدعوة بمن أجابهم ، وذلك بعد ظهوره بيومين ، فلما وافى عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ، ونصب له منبراً فى العسكر ، وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ، وكان بنو أمية يبدءون بالخطبة قبل الصلاة بأذان وإقامة ، وأمره أيضاً أن يكبّر ست تكبيرات تباعاً ، ثم يقرأ ويركع بالسابعة ، ويكبر فى الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسادسة ، ويفتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن ، وكان[٤] بنو أمية يكبّرون فى الأولى أربع تكبيرات وفى الثانية ثلاثا ، فلما قضى سليمان الصلاة انصرف أبو مسلم والشيعة ، إلى طعام قد أعدّه لهم فأكلوا مستبشرين . وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار وبدأ

---

(١) لاحظ هذا الاصطلاح ولاحظ ما ظهر بعد ذلك من قول بامام صامت وآخر ناطق ولاحظ ما كان يجرى من تطور هذه الفكرة فى بيئة المتطرفين فى القرن الثانى الهجرى حتى استخدمها الفاطميون وغيرهم فى مآربهم السياسية واعتبرت جزءا من العقيدة

(٢) الحج آية ٣٩

(٣) فى ف ، ك : لبيعتهم ، والتصويب عن ص وابن الاثير فى الكامل جـ٤ ص ٣٠٠ والطبرى جـ٦ ص ٢٥

(٤) فى ف ، ك : كانوا وهما يستخدمان هذه الصيغة فى هذا الفصل

بنفسه ، وكتب إلى نصر ولم يقل إلى الأمير : أما بعد فإن الله تباركت أسماؤه عيّر[١] أقواما فى القرآن فقال : ﴿وأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ، اسْتِكْبَاراً فِى الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِه فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً[٢]﴾ ، فتعاظم نصر الكتاب وكسر له إحدى عينيه ، وقال : هذا كتاب له أخوات[٣] ثم كان من خبر الكرمانى ومقتله ما قدمناه فى أيام مروان ، فلما قتل انضم ابنه علىّ إلى أبى مسلم فى جموع كثيرة ، فاستصحبه معه وقاتلوا نصر بن سيّار حتى أخرجوه من دار الإمارة ، وأقبل أبو مسلم إلى مرو وأتاه على بن الكرمانى وسلّم عليه بالإمارة .

ذكر دخول أبى مسلم مرو والبيعة بها

وفى سنة ثلاثين ومائة : دخل أبو مسلم الخراسانى مرو ونزل قصر الإمارة فى شهر ربيع الآخر وقيل فى جمادى الأولى ، وكان سبب ذلك وسبب اتفاق ابن الكِرْمانى أن ابن الكرمانى ومن معه وسائر القبائل بخراسان كانوا قد تعاقدوا على قتال أبى مسلم ، فجمع أصحابه لحربهم ، فكان سليمان بن كثير بإزاء ابن الكرمانى ، فقال له سليمان إن أبا مسلم : يقول لك أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل بالأمس أباك وصلبه ! وما كنت أحسبك تجامع نصراً فى مسجد تصليان فيه ! فرجع ابن الكرمانى عن رأيه وانتقض صلح العرب ، فبعث نصر بن سيار إلى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع

---

(١) فى المخطوطات : غر والتصويب عن الكامل جـ٤ ص ٣٠١ والطبرى جـ٦ ص ٢٦

(٢) فاطر : ٤٢ ، ٤٣

(٣) فى ك : اخوة ، وفى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٠١ : هذا كتاب ماله جواب ، وفى الطبرى جـ٦ ص ٢٦ : هذا كتاب له جواب

مضر[١] ، وبعث أصحاب الكرمانى وهم ربيعة واليمن إلى أبى مسلم بمثل ذلك ، وراسلوه أياماً فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين . حتى يختار أحدهما ففعلوا ، فأمر أبو مسلم الشيعة أن يختاروا أصحاب الكرمانى . فتقدم الوفدان فأجلسهم أبو مسلم ، وجمع عنده من الشيعة سبعين رجلا . فقال لهم : لتختاروا أحد الفريقين ، فقام سليمان بن كثير فتكلم وكان خطيبا مفوّها ، فاختار ابن الكرمانى وأصحابه واختارهم السبعون . فقام وفد نصر وعليهم الكآبة والذلة ، وأرسل إليه ابن الكرمانى أن يدخل إلى مدينة مرّو من ناحية ، ليدخل هو وعشيرته من الناحية الأخرى ، فأرسل إليه أبو مسلم أنى لست آمن أن تجمع يدك ويد نصر على محاربتى ، ولكن ادخل أنت وانشب الحرب ، ففعل ابن الكرمانى ودخل أبو مسلم مرو ، والفريقان يقتتلان فأمرهما بالكف وتلى قوله تعالى : ﴿ **وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِه وهَذَا مِنْ عَدُوِه ... الآية**[٢] ﴾ ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة ، وأرسل إلى الفريقين أن ينصرف كل منهما إلى عسكره ففعلوا ، وصفت مرو لأبى مسلم وأمر بأخذ البيعة من الجند ، وكان الذى يأخذها أبو منصور طلحة بن رُزَيق وهو أحد النقباء ، وكان عالماً بحجج الهاشمية ومعايب الأموية ، وكانت البيعة : أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، عليك بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله الحرام ، وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طمعا[٣] حتى يبدأكم به ولاتكم .

---

(١) فى المخطوطات : نصر وهو خطأ تصويبه عن ابن الأثير فى الكامل جـ٤ ص ٣٠٩ والطبرى جـ٦ ص ٤٣

(٢) القصص اية ١٥ والآية هى (ودَخَلَ المدينة على حين غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجدَ فيها رَجُلَيْن يَقْتَتِلانِ هَذا من شيعَته وهَذَا مِنْ عَدُوّه فَاسْتغاثَهُ الذى من شِيَعتِهِ على الذى مِنْ عَدُوّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قال هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إنَّ عَدُوٌ مُضَلٌ مُبِينٌ) .

(٣) هكذا فى جميع المخطوطات وكذلك فى الطبرى جـ٦ ص ٤٦ أما فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٠ : طعما

ذكر هرب نصر بن سيّار أمير خراسان من مرو

وكان سبب هربه أن أبا مسلم لما دخل مرو أرسل لاَهِز بن قُرَيْظ فى جماعة إلى نصر ، يدعوه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والرضا من آل محمد ، فلما نظر ما جاءه من اليمانية والربيعية والعجم وأنه لا قبل له بهم أظهر قبول ما أتاه به ، وأنه يأتيه ويبايعه واستمهلهم ، وأمر أصحابه بالتهيؤ والخروج إلى مكان يأمنون فيه ، فأشار عليه سَلْم بن أَحْوَز بالبيات ليلته تلك والخروج من القابلة ؛ فلما أصبح عبأ أصحابه وكتائبه إلى بعد الظهر ، فأعاد أبو مسلم إليه لاهز بن قريظ فى جماعة ، فقال : ما أسرع ما عدتم ، فقال له لاهز : لابدّ لك من ذلك ، فاستمهله نصر بقدر ما يتوضأ ويصلى ، ويرسل إلى أبى مسلم يستأذنه فى المضى إليه ، فأجابه لاهز ؛ فلما قدم نصر للوضوء تلا لاهز : ﴿ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [1] ، فدخل نصر منزله وأعلمهم أنه ينتظر عود رسوله من عند أبى مسلم ، وأقام حتى جنّه الليل [2] فخرج من خلف حجرته ، ومعه تميم ابنه ، والحكم بن نُمَيْلَة النُّمَيْرى ، وامرأته المَرْزُبَانة [3] وانطلقوا هربا ، فلما استبطأه لاَهِز وأصحابه دخلوا منزله فوجدوه قد هرب ، فلما بلغ أبا مسلم هربه سار إلى عسكر نصر ، وأخذ ثقات أصحابه وصناديدهم فكتفهم ، وفيهم سَلْم بن أَحْوَز صاحب شرطة نصر ، والبُخْتُرى كاتبه ، وابنان له ، ويُونُس بن عبد ربه [4] ، ومحمد بن قَطَن ، ومجاهد بن يحيى بن

---

(١) القصص اية ٢٠ والآية هى :
(وجَاءَ رَجُلٌ من أقْصَى المَدِينَة يَسْعَى قَالَ يا مُوسَى إنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلوكَ فَاخْرُجْ إنِّى لَكَ من النَّاصِحِينَ .)

(٢) من بعد الآية إلى كلمة الليل ساقط فى ك

(٣) فى ف ، ك : المرزبانية والتصويب عن ص والكامل حـ٤ ص ٣١٤ والطبرى حـ١٠ ص ١٩٩٥ ط أوروبا

(٤) هكذا فى جميع المخطوطات وفى الطبرى حـ٦ ص ٤٩ ، أما فى الكامل لابن الأثير حـ٤ ص ٣١١ فيذكره يونس بن عبدويه على أن بالهامش ذكر أن إحدى المخطوطات تنقله عبد ربه

حُضَيْن وغيرهم ، فاستوثق منهم بالحديد وحبسهم ، وسار أبو مسلم وابن الكرمانى فى طلب نصر ليلتهما ، فأدركا امرأته قد حلفها ، وسار نصر إلى سَرَخْس واجتمع معه ثلاثة آلاف رجل ، ورجع أبو مسلم وسأل من كان أرسلهم إلى نصر : ما الذى ارتاب به نصر حتى هرب ؟ وهل تكلم أحد منكم بشىء ؟ فذكروا له ماتلاه لاهز بن قريظ ، فقال هذا الذى دعاه للهرب ، ثم قال : يالاهز تدغل فى الدين ، وقتله ، واستشار أبو مسلم أبا طلحة فى أصحاب نصر ، فقال : اجعل سوطك السيف ، وسجنك القبر ، فقتلهم وكانوا أربعة وعشرين رجلا ، وأما نصر فإنه سار من سَرَخْس إلى طُوس فأقام بها ، ودخل ابن الكرمانى مرو مع أبى مسلم وتابعه على رأيه .

ذكر مقتل ابنى الكرمانى

وفى سنة ثلاثين ومائة أيضاً : قتل أبو مسلم عليا وعثمان ابنى الكرمانى . وكان سبب ذلك أن أبا مسلم كان وجّه موسى بن كَعْب إلى أَبِيوَرْد فافتتحها . ووجه أبا داود إلى بَلْخ وفيها زياد بن عبد الرحمن . فلما بلغه قصدُ أبى داود بلخ خرج فى أهلها وأهل التِّرْمِذ وغيرهما من كور طُخَارِسْتَان إلى الجُوزَجَان . فلما دنا أبو داود منهم انصرفوا منهزمين إلى ترمذ . ودخل أبو داود مدينة بلخ . فكتب إليه أبو مسلم بالقدوم عليه . ووجّه مكانه أبا الميلاء[1] يحيى بن نُعَيْم على بلخ . فلما قدم كاتَبه زياد بن عبد الرحمن أن يصيّر أن أيديهم واحدة فأجابه . فرجع زياد ومسلم بن عبد الرحمن بن مُسْلم[2] الباهلى وعيسى بن

(١) تختلف المخطوطات فى نقله وتذكره أقدمها وهى ف أبا ليلى والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٢ والطبرى جـ٦ ص٥١

(٢) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٢ ، الطبرى جـ٦ ص ٥٢ مسلم بن عبد الرحمن الباهلى

زَرْعة السُّلَمى وأهل بلخ وترْمِذ وملوك طُخارِسْتَان وما وراء النهر ودونه فنزلوا على فرسخ من بلخ ، وخرج إليهم يحيى بن نعيم بمن معه . فصارت كلمتهم واحدة ـ مضر وربيعة واليمن ومن معهم ـ على قتال المسوّدة . وجعلوا الولاية عليهم لمقَاتل بن حيّان النَّبطى ، فأمر أبو مسلم أبا داود بالعود ، فأقبل بمن معه حتى اجتمعوا على نهر السرجنان[1] . وكان زياد وأصحابه قد وجهوا أبا سعيد القرشى مسلحة ، لئلا يأتيهم أصحاب أبى داود من خلفهم ، وكانت أعلام أبى سعيد[2] سودا ، فلما أقبل أبو سعيد ورأى زياد ومن معه أعلام أبى سعيد وراياته سودا ظنوهم كمينا لأبى داود فانهزموا وتبعهم أبو داود فوقع عامة أصحاب زياد فى النهر ، وقتل منهم خلق كثير ممَّن تخلف . ونزل أبو داود معسكرهم وحوى ما فيه ، ومضى زياد ويحيى ومن معهما إلى ترمذ . واستقامت بلخ له فكتب إليه أبو مسلم بالقدوم عليه . ووجّه النَّضْر بن صُبَيْح المُرّى على بلخ ، وقدم أبو داود على أبى مسلم واتفقا على أن يفرّقا بين ابنى الكرمانى ، فبعث أبو مسلم عثمان بن الكرمانى عاملا على بلخ ، فلما قدمها أقبلت المضرية من ترمذ وعليهم مُسْلم بن عبد الرحمن الباهِلى ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم أصحاب عثمان وغلب مسلم على بلخ ، وكان عثمان بن الكرمانى بمَرْو الرُّوذ لم يشهد هذه الوقعة ، فلما بلغه الخبر أقبل هو والنَّضْر بن صُبَيح المُرّى[3] فهرب أصحاب مسلم من ليلتهم ، فلم يمعن النظر فى طلبهم ، ولقيهم أصحاب عثمان فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم أصحاب عثمان وقتل منهم خلق كثير ، ورجع أبو داود من مرو إلى بلخ ، وسار أبو مسلم إلى نيسابور ومعه على بن الكرمانى ، واتفق رأى أبى مسلم ورأى أبى داود على أن يقتلا ابنى

---

(١) غير واضح بالمخطوطات فى ف مرسوم لسرحبان ، وفى ص لسرحبستان والقراءة عن الكامل جـ٤ ص ٣١٢ والطبرى جـ٦ ص ٥١

(٢) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٢ : أبى داود وهو خطأ ، ويؤيد المخطوطات السياق والطبرى جـ٦ ص ٥١

(٣) فى ك صبيح الوجه وهو تحريف المرى

الكرمانى[١] ، فلما قدم أبو داود بلخ بعث عثمان[٢] عاملا على الخُتَّل[٣] فلما خرج عثمان من بلخ تبعه أبو داود وأخذه هو وأصحابه فحبسهم جميعا ، ثم ضرب أعناقهم صبرا ، وقتل أبو مسلم فى ذلك اليوم على بن الكرمانى ، وكان أبو مسلم أمره قبل ذلك أن يسمى له خاصته ، ليوليهم ويأمر لهم بجوائز وكساوى ، فسماهم له فقتلهم جميعا .

ذكر قدوم قَحْطَبَة بن شَبِيب من قبل إبراهيم الإمام على أبى مسلِم

وكان قدومه سنة ثلاثين ومائة فقدم ومعه لواء عقده له إبراهيم ، فوجّهه أبو مسلم فى مقدمته ، وضمّ إليه الجيوش وجعل إليه العزل والاستعمال ، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له .

ذكر مسير قحطبة إلى نَيْسَابُور واستيلائه عليها ومن استعمله أبو مسلم على الجهات

قال: ولما استولى أبو مسلم على خراسان وقتل ابنا الكرمانى على ما تقدم بعث العمال على البلاد ، فاستعمل سَبّاعِ بن النُّعْمان الأَزْدِى على سَمَرْقَنْد ، وأبا داود خالد بن إبراهيم على طخارستان ، ومحمد بن الأشعث على الطَّبَسيْن[٤] ، ووجعل مالك بن الهَيْثَم على شرطته ، ووجّه قحطبة إلى طُوس

---

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٢ : واتفق رأى أبى مسلم ورأى أبى داود على أن يقتل أبو مسلم عليا ويقتل أبو داود عثمان . ونفس التعبير فى الطبرى جـ٦ ص ٥٢ بزيادة : فى يوم واحد .

(٢) فى ك عمار وهو خطأ

(٣) فى ف : بدون نقط ، وفى ص : الجبل وكذلك ابن الأثير فى الكامل جـ ٤ ص ٣١٢ وهو خطأ ، والتصويب عن الطبرى جـ٦ ص ٥٢

(٤) من غير أل فى المخطوطات

ومعه عدة من القواد ، منهم أبو عَوْن عبد الملك بن يزيد ، وخالد بن برمك ، وعثمان بن نَهِيك ، وخَازِم بن خُزَيمة وغيرهم ، فلقى قحطبة من بطوس فهزمهم ، وبلغ عدة القتلى بضعة عشر ألفًا ، ووجّه أبو مسلم القاسم ابن مُجاشِع إلى نيسابور على طريق المَحَجّة . وكتب إلى قحطبة يأمره[1] بقتال تميم بن نصر بن سيّار والنّابِى بن سُوَيد ومن لجأ إليهما من أهل خراسان ، ووجه أبو مسلم على بن مَعْقِل فى عشرة آلاف إلى تميم بن نصر ، وأمره أن يكون مع قحطبة ، وسار قحطبة إلى السُّوذَقَان — وهو[2] معسكر تميم بن نصر والنابى بن سُوَيد ، وقد عبّأ أصحابه فدعاهم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى الرضا من آل محمد فلم يجيبوه ، فقاتلهم قتالاً شديدًا ، فقتل تميم فى المعركة ، وقتل من أصحابه خلق كثير ، وهرب النابى ابن سويد فتحصن بالمدينة ، فحصره قحطبة ونقبوا سورها ودخلوا المدينة فقتلوا النابى ومن كان معه ، وبلغ الخبر نصر بن سيّار فهرب إلى قومس وتفرّق عنه أصحابه ، فسار إلى نُبَاتَة بن حَنْظَلَة بجُرْجَان ، وقدم قحطبة نيسابور فأقام بها هو ومن معه رمضان وشوال .

ذكر مقتل نُبَاتَة بن حَنْظَلَة عامل يزيد بن هُبَيْرَة على جرجان

قد ذكرنا هرب نصر بن سيّار ولحاقه بنباتة بن حنظلة ، فلما كان فى ذى القعدة أقبل قحطبة إلى جرجان ، وقد نزل نباتة ونصر بن سيار بالجُورجان[3] ، وخندقوا عليهم وهم فى عَدَد وعُدَد ، فهابهم أهل خراسان حتى تكلّموا بذلك وظهر عليهم ، فبلغ قَحْطَبَة فقام فيهم وقوّى عزائمهم

(١) ساقطة فى ك

(٢) فى الطبرى جـ٦ ص ٢٤ : ومعه وهو خطأ .

(٣) هكذا كتبها المؤلف فيما يبدو — وهى جرجان — فظنها النساخ الجوزجان بالزاى لا بالراء . والجوزجان اسم للمنطقة الغربية من مقاطعة بلخ (راجع كتاب بلاد الخلافة الشرقية ص ٤٢٣ — لوسترينج ط/كمبردج ١٩٣٠) .

وشجّعهم ، وقال:[١] إنّ الإمام وعدكم النصر عليهم ، وقد عهد إلىّ أنكم تلقونهم فينصركم الله عليهم ، فالتقوا فى مستهل ذى الحجة سنة ثلاثين ومائة فى يوم الجمعة ، وعلى ميمنة قحطبة ابنه الحسن ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل نُباتة وعشرة آلاف من أهل الشام ، وانهزم من بقى منهم ، وسار نصر ابن سيّار وكان بقُومِس فنزل خُوَار[٢] الرىّ ، وكاتب ابن هبيرة يستمده وهو بوَاسِط مع ناس من وجوه أهل خراسان ، وقال له : أمدنى بعشرة آلاف قبل أن تمدنى بمائة ألف ثم لاتغنى شيئا ، فحبس ابن هُبَيرة رسله ، فأرسل إلى مَرْوان بن محمد يعلمه ما فعل ابن هبيرة برسله ، وأنه استمده فلم يمده ، فكتب مروان إلى ابن هبيرة يأمره أن يمده ، فجهز ابن هبيرة جيشا كثيفا عليهم ابن عُطَيف إلى نصر بن سيّار ، قال: أما قحطبة فإنه بلغه أن أهل جُرجان يريدون الخروج عليه ، فاستعرضهم وقتل منهم ما يزيد على ثلاثين ألفا .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة

ذكر وفاة نصر بن سيار ودخول قحطبة الرىّ

قال : ثم وجه قحطبة ابنه الحسن لقتال نصر فى المحرم من هذه السنة ، ووجّه أبا كامل وأبا القاسم[٣] مُحْرز بن إبراهيم ، وأبا العباس المَرْوَزى إلى الحسن ابنه ، فلما كانوا قريبا منه انحاز أبو كامل وترك عسكره وأتى نصر بن

---

(١) قال ابن الأثير ـ جـ٤ ص٣١٣ ، ص ٣١٤ : فبلغ قحطبة قولهم فقام فيهم فقال : يا أهل خراسان هذه البلاد كانت لآبائكم ، وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم حتى بدلوا وظلموا فسخط الله عز وجل عليهم فانتزع سلطانهم وسلّط عليهم أذل أمة كانت فى الأرض عندهم فغلبوهم على بلادهم وكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم ، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا فى الحكم وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلط عليهم لينتقم منهم بكم لتكونوا أشد عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر . وقد عهد إلىّ الامام أنكم تلقونهم فى مثل هذه العدة فينصركم الله عز وجّل عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم .

(٢) فى المخطوطات : جوار الرى والتصحيح عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٧ والطبرى جـ٦ ص ٦٢ .

(٣) فى ك:أبا القاسم بن محرز بن إبراهيم وهو خطأ .

سيّار فأعلمه ، فصار معه وأعلمه مكان الجند ، فوجه إليهم جندا فهرب جند قحطبه ، وخلفوا شيئا من متاعهم فأخذه أصحاب نصر ، فبعث به نصر إلى ابن هبيرة ، فعرض له ابن عُطَيف[١] بالرىّ فأخذ الكتاب والمتاع من رسول نصر ، وبعثه إلى ابن هبيرة فغضب نصر ، وقال : أما والله لأدعنّ ابن هُبَيرة فليعرفنّ أنه ليس بشئ ، وكان ابن عُطَيف فى ثلاثة آلاف ، قد بعثه ابن هبيرة مددا لنصر ، فأقام بالرى ولم يأت نصرا ، فسار نصر حتى نزل الرى وعليها حبيب بن بدْيل[٢] النهشلى ، فلما قدمها سار ابن عطيف منها إلى هَمَذَان ، ثم عدل إلى أصفهان إلى عامر بن ضُبَارة ، ولما قدم نصر الرىّ أقام بها يومين ثم مرض ، فحمل إلى سَاوة فمات بها لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول منها ، وعمره خمس وثمانون سنة ، ودخل أصحابه همذان ؛ ولما مات نصر بعث الحسن بن قحطبة خَازِم بن خُزَيمة[٣] إلى سِمْنَان ، وأقبل قحطبة من جرجان وقدم أمامه زياد بن زُرَارَة القُشَيْرى ، وكان قد ندم على اتباع أبى مسلم ، فأخذ طريق أصْفهان يريد عامر بن ضُبارة ، فوجّه قحطبة ، المسيّب بن زُهَير الضّبِى فلحقه ، وقاتله فانهزم زياد وقتل عامّة من معه ، ورجع المُسَيِّبُ إلى قحطبة ، ثم سار قحطبة إلى قُومِس وبها ابنه الحسن ، فقدّمه إلى الرىّ ، وبلغ حبيب بن بُدَيل النَّهْشَلى ومن معه من أهل الشام مسير الحسن ، فخرجوا عن الرىّ ودخلها الحسن فى

---

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٧ : ابن غطيف بالغين ويؤيد المخطوطات أنه بالعين الطبرى جـ٦ ص٦٤ .

(٢) فى المخطوطات والكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٧ يزيد وهو خطأ تصححه المخطوطات فيما بعد ويذكره الطبرى صحيحا جـ٦ ص٦٤ كما يذكره ابن الأثير مصححا بعد ذلك .

(٣) كما أخطأت المخطوطات فى ذكر اسم حبيب بن بديل النهشلى نقلا عن خطأ فى الكامل لأبن الأثير ، كذلك تخطىء فى اسم خازم بن خزيمة فتذكره نقلا عن ابن الأثير فى الكامل جـ٤ ص ٣١٧ : خزيمة بن خازم ويذكر انه صحيحا بعد ذلك ويظهر أن الالتباس نشأ عن شهرة ابنه خزيمة الذى كان من أكابر قواد الرشيد والأمين والمأمون ، وانضم إلى المأمون فى الصراع بين المأمون والأمين واشترك فى حصار بغداد وتوفى بها سنة ٢٠٣هـ ، أما خازم فهو الذى اشترك فى أحداث قيام الدولة العباسية .

صفر ، وأقام حتى قدم أبوه ، فبعثه بعد مقدمه بثلاث ليال إلى هَمَذان ، فسار عنها مالك بن أدهم ومن كان معه من أهل الشام وأهل خراسان إلى نهاوند ، فأقام بها وفارقه ناس كثير ، ودخل الحسن همذان وسار منها إلى نهاوند ، فنزل على أربعة فراسخ منها ، وأمده أبوه بأبى الجهْم بن عطية مولى باهِلة فى سبعمائة فحصر المدينة .

ذكر مقتل عامر بن ضُبارة ودخول قحطبة أصفهان

كان عامر بن ضُبارة قد بعثه يزيد بن هُبيرة لقتال عبد الله بن معاوية ، لما خرج ودعا إلى نفسه على ماذكره فى أخبار آل أبى طالب إن شاء الله ، وبعث معه ابنه داود بن يزيد فهزمه[1] ابن ضُبارة ، وسار فى أثره ، فلما بلغ ابن هبيرة مقتل نباتة بن حنظلة بجرجان كتب إلى عامر وإلى ابنه داود ، أن يسيرا إلى قحطبة وكانا بكرْمان ، فسارا فى خمسين ألفا ونزلوا بأصفهان ، وكان يقال لعسكر ابن ضبارة عسكر العساكر ، فبعث قحطبة إليهم جماعة من القواد عليهم جميعا مقاتل بن حكيم العَكّى ، فساروا حتى نزلوا قُمّ ، وبلغ ابن ضبارة نزول الحسن بن قحطبة نهاوند ، فسار ليفتن من بها من أهلها ، فأرسل مقاتل إلى قحطبة يعلمه بمسيره ، فأقبل قحطبة من الرىّ حتى لحق بمقاتل ، ثم ساروا والتقوا بعامر بن ضبارة وداود بن يزيد ، وكان عسكر قحطبة عشرين ألفا فيهم خالد بن برمك ، وعسكر ابن ضبارة مائة ألف وقيل خمسون ومائة ألف ، فأمر قحطبة بمصحف فوضع على رمح ، ونادى يا أهل الشام إنما ندعوكم إلى مافى هذا المصحف ، فشتموه وفحشوا فى القول ، فأمر قحطبة أصحابه بالحملة عليهم ، فحمل عليهم العَكّى وتهايج الناس ، ولم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أهل الشام ، وقتلوا قتلا ذريعا ، فقتل ابن ضبارة وهرب داود ، وأخذ أصحاب قحطبة من

(١) أى هزم عبد الله بن معاوية ، ولهذا الرجل حركة معروفة بين الغلاة مفصلة فى كتابى حركات الشيعة المتطرفين .

عسكرهم ما لا يعلم قدره ، من السلاح والمتاع والرقيق والخيل ، ومارئى عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء مافى هذا العسكر ، كان كأنه مدينة ، فكان فيه من البرابط والطنابير والمزامير والخمر ما لا يحصى ، وحقيق لعسكر فيه مثل ذلك أن ينهزم ، وكانت هذه الوقعة بنواحى أصفهان فى شهر رجب .

ذكر دخول قحطبة نهاوند

قال : ولما قتل ابن ضبارة كان الحسن بن قحطبة يحاصر نِهاوَنْد ، فكتب إليه أبوه بالخبر ، فلما قرأ كتابه كبّر هو وجنوده ونادوا بقتله ، فقال عاصم بن عُمَيْر[1] السُّعْدِى : ما نادوا بقتله إلا وهو حق ، فاخرجوا إلى الحسن قبل أن يأتى أبوه أو يمده بمدد ، فقالت الرجّالة : تخرجون وأنتم فرسان وتتركونا ! فقال مالك بن أدهم : لا أبرح حتى يقدم قحطبة ، وأقام قحطبة بأصفهان عشرين يوما ثم سار ، فقدم على ابنه بنهاوند فحصرهم ثلاثة أشهر آخرها شوّال ، ونصب عليهم المجانيق ، وأرسل إلى من بنهاوند من أهل خراسان يدعوهم إليه ، وبذل لهم الأمان فأبوا ذلك ، فأرسل إلى من بها من أهل الشام بمثل ذلك فأجابوه ، وقبلوا أمانه وبعثوا إليه أن يشغل عنهم أهل البلد بالقتال ، ليفتحوا له الباب ففعل ذلك ، ففتح أهل الشام الباب الذى يليهم[2] وخرجوا ، فلما رأى أهل البلد ذلك سألوهم عن سبب خروجهم ، فقالوا : أخذنا لنا ولكم الأمان ، فخرج رؤساء خراسان ، فدفع قحطبة كل رجل منهم إلى قائد من قواده ، ثم أمر فنودى : من كان بيده أسير فليضرب عنقه وليأت برأسه ، ففعلوا ذلك ، فلم يبق أحد ممن كان قد هرب من أبى مسلم إلا قتل ، إلا أهل الشام فإنه وفّى لهم وخلّى

(١) فى المخطوطات:عمر ، والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣١٩ والطبرى جـ٦ ص ٦٧ ، هذا والاختلاف أيضا فى نسبته فالمخطوط ف والطبرى يذكرانه السعدى وهو الصحيح وابن الأثير فى الكامل ، ص ، ك:السعدى .

(٢) فى ك:بينهم .

سبيلهم ، وأخذ عليهم الأيمان والعهود . قال : ولما حاصر قحطبة نِهَاوَنْد أرسل ابنه إلى مَرْج القلعة ، فقدّم الحسن خازم بن خزيمة إلى حلوان ، وعليها عبد الله بن العَلاَء الكِنْدِى ، فهرب من حُلْوان .

ذكر فتح شهْر زُور

قال : ثم وجّه قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الخراسانى ومالك بن طَوَاف[1] فى أربعة آلاف إلى شَهْر زُور ، وبها عثمان بن سُفْيان على مقدمة عبد الله بن مروان بن محمد ، فنزلوا على فرسخين من شهر زور فى العشرين من ذى الحجة ، وقاتلوا عثمان بعد يوم وليلة من نزولهم ، فانهزم أصحاب عثمان وقتل ، وأقام أبو عون فى بلاد الموصل ، وقيل إن عثمان لم يقتل ولكنه هرب إلى عبد الله بن مروان ، وغنم أبو عون عسكره ، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة ، وسيّر قحطبة العساكر إلى أبى عون ، فاجتمع معه ثلاثون ألفا ، ولما بلغ مروان خبر أبى عون ـ وكان بحرّان ـ سار منها بجنود الشام والجزيرة والموصل وبنى أمية ، وأقبل نحو أبى عَوْن حتى نزل الزاّب الأكبر ، وأقام أبو عون بشهر زور بقية ذى الحجة والمحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وفرض بها لخمسة[2] آلاف .

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة

(١) تضطرب المخطوطات والمصادر فى ذكر هذا الاسم هنا ، فى ف ، ص يبدو الحرف الثانى بين الواو والراء ، لا هو براء واضحة ولا بواو صريحة أما ك فهو طوان تجعل الحرف الأخير نونا ، وفى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣١٩ وفى إحدى المخطوطات لطبعة أوروبا جـ١١ ص ٩ للطبرى المرموز لها (I A) تذكر طرافة كما أن إحدى المخطوطات جـ ١١ ص ٥ المرموز لها بحرف (B) تذكره طراف وفى المطبوع من الطبرى جـ٦ ص ٦٩ : مالك بن طريف ويذكره دائما هكذا . ولكن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٢٦ ومخطوطات النويرى تذكره واضحًا باسم الطواف بإضافة أل فى فصل بيعة أبى العباس السفاح ، ولم أجد من المصادر القديمة ما يرجح مخطوطات الطبرى على مخطوطات ابن الأثير ، ولما كان النويرى ينقل عن ابن الأثير فقد اثرنا اتباعه احتفاظا بنقل المؤلف .

(٢) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٢٠ (وفرض بها بخمسة آلاف) وهو تعبير يخالف الطبرى جـ٦ ص ٦٩ وما فى المخطوطتين ف ، ص .

ذكر مسير قحطبة لقتال ابن هبيرة بالعراق وهلاك قحطبة وهزيمة ابن هبيرة

قال : ولما قدم داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة على أبيه منهزما ، خرج يزيد نحو قحطبة فى عدد كثير لايحصى ، ومعه حَوْثَرَة بن سُهَيْل الباَهِلى ، وكان مروان قد أمدّه به ، فسار ابن هبيرة حتى نزل جَلُولاء ، واحتفر الخندق الذى كانت العجم احتفرته أيام وقعة جَلُولاَء وأقام به ، وأقبل قحطبة حتى نزل عُكْبَرَاء ، ودخل دجلة ومضى حتى نزل مادون الأنبار ، وأرسل طائفة من أصحابه إلى الأنبار وغيرها ، وأمرهم بإحدار مافيها من السفن إلى دِمِمًّا ليعبر الفرات[1] ، فحملوا إليه كل سفينة هناك ، فقطع الفرات إلى غربيّه ، وذلك لثمان مضين من المحرم ، وارتحل ابن هبيرة منصرفا مبادرا إلى الكوفة ، فعبر دجلة من المدائن ، واستعمل على مقدمته حَوْثَرَة وأمره بالمسير إلى الكوفة ، والفريقان يسيرون على جانبى الفرات ، فقال قحطبة : إن الإمام أخبرنى أن لى بهذا المكان وقعة ، يكون النصر لنا ، واستدلّ على مخاضة فعبر منها ، وقاتل حوثرة ومحمد بن نُباتة فانهزم أهل الشام ، وفقد قحطبة فقال أصحابه : من كان عنده علم من قحطبة فليخبرنا به ، فقال مُقاتل بن مالك العَكِى[2] : سمعت قحطبة يقول : إن حدث بى حدث فالحسن ابنى أمير الناس ، فبايع الناس حميد بن قحطبة لأخيه الحسن ، وكان أبوه قد سيّره فى سريّة ، فأرسلوا إليه فأحضروه وسلموا الأمر إليه ، وكشفوا عن قحطبة فوجدوه فى جدول وحرب بن سَلْم[3] فتيلين ، فظنوا أن كل واحد منهما قتل

(١) فى ص : وأمرهم بأخذ مافيه من السفن إلى دمما لتعبر الفرات
وفى ك : وأمرهم يأخذوا مافيها من السفن إلى دجلة ليعبروا الفرات
وكلاهما يخطئان فى قراءة بإحدار التى وردت فى نص ابن الاثير فى الكامل جـ٤ ص٣٢٠ والتى ينقلها ناسخ ف صحيحة

(٢) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٢١ : العتكى وهو خطأ نلقاه فى مواضع أخرى يترتب عليه فى هذه المواضع خطأ النويرى هذا وقد ذكره ابن الأثير من قبل صحيحا متفقا مع الطبرى جـ٦ ص٧٢ .

(٣) هو حرب بن سلم بن أحوز القائد الأموى المشهور وذكره الكامل فى جـ٤ ص٣٢١ باسم حرب بن سالم بن أحوز وهو خطأ .

الآخر ، وقيل إن معن بن زائدة ضرب قحطبة ، لما عبر الفرات على حبل عاتقه فسقط فى الماء ، فقال : شدوا يدى إذا أنا مت وألقونى فى الماء ، لئلا يعلم الناس بقتلى ، وقاتل أهل خراسان فانهزم محمد بن نباتة وأهل الشام ، ومات قحطبة وقال قبل موته : إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سَلَمَة الخَلاّل ، فسَلِمّوا هذا الأمر إليه ، وقيل بل غرق قحطبة . ولما انهزم ابن نباتة وحوثرة لحقا بابن هبيرة فانهزم لهزيمتهم ، ولحقوا بواسط وتركوا عسكرهم ومافيه من الأموال والسلاح وغير ذلك ، فأمر الحسن بن قحطبة بجمع ذلك فجمع وغنموه .

ذكر خروج محمد بن خالد بالكوفة مُسَوّدا

فى هذه السنة خرج محمد بن خالد بن عبد الله القَسْرِى بالكوفة وسوّد قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة ، وأخرج عامل ابن هُبيرة ، وكان خروجه ليلة عاشوراء سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وكان على الكوفة يوم ذاك زياد بن صالح الحَارثى ، فسار محمد إلى القصر ودخله ، وارتحل زياد ومن معه من أهل الشام ، وسمع حَوْثَرة الخبر فسار نحو الكوفة ، فتفرق عن محمد عامة من معه ، فأرسل أبو سَلَمة الخلال إليه يأمره بالخروج من القصر ، خوفا عليه من حوثرة ، هذا ولم يبلغ أحدا من الفريقين بهلاك قحطبة ، فأبى محمد أن يخرج وبلغ حوثرة تفرق أصحاب محمد عنه فتهيّأ لقصده ، فبينما محمد فى القصر إذ أتاه بعض طلائعه ، فقال له : قد جاءت خيل من أهل الشام ، فوجّه إليهم عدة من مواليه ، فناداهم الشاميون : نحن جئنا لندخل فى طاعة الأمير ، ودخلوا وفيهم مَلِيح بن خالد البَجَلى ، ثم جاءه جَهْم بن الأَصْبَح[1] الكِنَانى فى خيل أعظم من تلك ، ثم جاءت خيل

(١) هكذا فى المخطوطات وهو الأشبه بالصواب ، وفى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢١ : جهم بن الأصفح ، ولم أجده فى المراجع التى يعتمد عليها حتى أرجح أحدهما على الآخر ، لافى الطبرى ولافى النجوم الزاهرة ولافى الأعلام ولافى البداية والنهاية لأبى الفدا ولافى تاريخ ابن عساكر المخطوط أو المطبوع .

أعظم منها مع رجل من آل بَحْدَل[١] ، فلما رأى حوثرة ذلك من صنع أصحابه ارتحل نحو واسط ، وكتب محمد بن خالد إلى قحطبة يعلمه أنه قد ظفر بالكوفة ، فقدم القاصد على الحسن بن قحطبة ، فقرأ الكتاب على لناس وارتحل نحو الكوفة ، فوصلها يوم الإثنين ، وقد قيل إن الحسن بن قحطبة أقبل نحو الكوفة ، بعد هزيمة ابن هبيرة وعليها عبد الرحمن بن بَشِير العِجْلى فهرب منها ، فسوّد محمد بن خالد ، وخرج فى أحد عشر رجلا وبايع الناس ، ودخلها الحسن من الغد ولما دخل الحسن وأصحابه الكوفة أتوا أبا سلمة الخلال وهو فى بنى سَلَمة ، فاستخرجوه وكان مختفيا ، فعسكر بالنخيلة يومين ثم ارتحل إلى حمام أَعْيَن ، ووجّه الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هبيرة ، وبايع أبا سلمة الناس وكان يقال وزير آل محمد ، وهو أبو سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع ، واستعمل محمد بن خالد على الكوفة ، ووجّه حميد بن قحطبة إلى المدائن فى جماعة من القواد ، وبعث المُسَيَّب بن زهير وخالد بن برمك إلى ديرقُنَّى ، وبعث المُهَلَّبِى وشُرَحْبِيل إلى عَيْن التمر ، وبعث بَسّام بن إبراهيم بن بَسّام إلى الأهْواز وبها عبد الواحد بن عمر بن هبيرة ، فقاتله وأخرجه منها فالتحق عبد الواحد بالبصرة ، وبعث إلى البصرة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب عاملا عليها وعليها سَلْم[٢] ، وقد لحق به عبد الواحد فأرسل سفيان إليه ، يأمره بالتحول من دار الإمارة فأبى ، وقاتل ونادى من جاء برأس فله خمسمائة ومن جاء بأسير فله ألف درهم ، فقتل معاوية وأتى برأسه إلى سَلْم فأعطى قاتله عشرة آلاف ، وانكسر سفيان لقتل ابنه فانهزم وذلك فى صفر .

ذكر مقتل إبراهيم بن محمد الإمام

وكان مقتله فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وسبب ذلك أن مروان بن

(١) فى ك : بجد
(٢) هو سلم بن قتيبة الباهلى، قائد عربى معروف .

محمد أرسل للقبض عليه بالحُمَيْمَة ، ووصف للرسول صفة أبى العباس السفاح ، لأنه كان يجد فى الكتب : أن مَنْ هذه صفته يقتلهم ويسلبهم ملكهم ، وسمّى لرسوله إبراهيم بن محمد ، فقدم الرسول فأخذ أبا العباس بالصفة ، فلما ظهر إبراهيم وأمن قيل للرسول إنما أمرت بإبراهيم وهذا عبد الله ، فترك أبا العباس وأخذ إبراهيم ، وانطلق به إلى مَرْوان ، فلما أتاه به قال : ليس هذه الصفة التى وصفت لك ، فقال رسله قد رأينا الصفة وإنما سميت إبراهيم ، وهذا إبراهيم فحبسه بَحرَّان ، وأعاد الرسل فى طلب أبى العباس فلم يظفروا به ، وكان قد توجّه إلى الكوفة على مانذكره إن شاء الله تعالى . وقد اختلف فى قتل إبراهيم ، فقيل إن مروان لما حبسه حبس سعيد ابن هِشَام بن عبد الملك وابنيه عثمان ومروان ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، وأبا محمد السفيانى ، فهلك إبراهيم فى السجن فى وباء وقع بحرّان ، وهلك العباس بن الوليد ، وعبد الله ابن عمر ، فلما كان قبل هزيمة مروان من الزاب بجمعة خرج سعيد بن هشام ومن معه ، وقتلوا صاحب السجن فقتلهم أهل حرَّان[1] ، وتخلّف أبو محمد بالسجن فلم يخرج فيمن خرج هو وغيره ، فلما قدم مروان من الزاب خلّى عنهم . وقيل إن مروان هدم[2] على إبراهيم بيتا فقتله . وقيل بل جعل رأسه فى جراب مملوء نُورَة فمات ، وقيل إن شَرَاحِيل[3] بن مَسْلَمة بن عبد الملك كان محبوسًا مع إبراهيم ، فكانا يتزاوران وصار بينهما مودة ، فأتى رسول من عند شراحيل إلى إبراهيم يوما بلبن ، فقال : يقول لك أخوك إنى شربت من هذا اللبن فاستطبته ، فأحببت أن تشرب منه ، فشرب منه فشكى من ساعته ، وكان يوما يزور فيه شراحيل فأبطأ عليه ، فأرسل إليه شراحيل : إنك قد أبطأت فما حبسك عنى ؟ فأعاد عليه إنى لما شربت اللبن الذى بعثت

(١) فى ك : خراسان، وهو خطأ واضح .
(٢) فى ك : قدم .
(٣) فى ك : شرحبيل ، ويؤيد ف ـ ص الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٢٩ فى أنه شراحيل .

به إلىّ فاشتكيت ، فأتاه شراحيل ـ وحلف بالله أنه ماشرب لبنا فى يومه ، ولابعث به إليك واسترجع ، وقال : احتيل والله عليك ، فبات إبراهيم ليلته وأصبح ميتا . وكان إبراهيم خيّرا فاضلا كريما ، قدم المدينة مرّة ففرّق فى أهلها مالا جليلا ، فنال بعضهم منه ألف دينار ـ وخمسمائة دينار ـ وأربعمائة دينار ، وكانت هذه عطاياه وهباته . وكان مولده فى سنة اثنتين وثمانين ؛ وأمه أم ولد بربرية إسمها سَلْمى .

قال : ولما قبض على إبراهيم بالحميمة نعى نفسه إلى أهل بيته ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد ـــ وهو السفاح ، وأوصاهم بالسمع والطاعة له ، وأوصاه وجعله الخليفة من بعده وودّعهم ، وسار فهلك على ماذكرنا ، وكان من أمر أبى العباس مانذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ابتداء الدولة العباسية وانقضاء الدولة الأموية

ذكر بيعة أبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهو ابن الحارثية الذى نصّ عليه أبو هاشم محمد بن الحَنَفِيّة ، لما فوّض أمر الشيعة إلى والده ، ووعدهم أنه صاحب الأمر ، وكان ذلك قبل مولد أبى العباس على ماقدّمنا ، وأمه رَيْطَة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المَدّان[1] الحارثى ، بويع له بالخلافة يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وذلك أنه لما قبض على أخيه إبراهيم بن محمد الإمام عهد إليه كما ذكرناه ، وأمره بالمسير إلى الكوفة ؛ سار من الحميمة ومعه أهل بيته وأخوه أبو جعفر المنصور ، وعبد الوهاب ومحمد

(١) تضطرب المخطوطات أيضا فى كتابة الاسم صحيحا ، فالمخطوطات جميعا تكتب عبد المدان « عبد الملك » رغما من أنها فى فصل (ذكر مولد أبى العباس السفاح) ذكرته صحيحا ، ولا يقتصر هذا الخطأ على المخطوطات فقد ذكره أبو الفدا فى تاريخه خطأ وكتبه عبد الدار (جـ١٠ ص٥٨) أو لعله خطأ من الناسخ أو الناشر .

ابنا أخيه إبراهيم ، وعمومته داود ، وعيسى ، وصالح ، وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد – بنو على بن عبد الله بن عباس ، وموسى ابن عمه داود ، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على ، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس ، فقدموا الكوفة فى صفر من هذه السنة ، وشيعتهم من أهل خراسان بظاهر الكوفة بحمام أعْيَن ، فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد[1] مولى بنى هاشم فى بنى أَوْد[2] ، وكتم أمرهم من جميع القواد نحو أربعين ليلة ، وأراد فيما ذكر أن يحوّل الأمر إلى آل طالب ، لما بلغه موت إبراهيم الإمام ، فكان أبو الجهم يقول له : مافعل الإمام ، فيقول لم يقدم بعد ، فلما ألحّ عليه قال : ليس هذا وقت خروجه ، لأن واسط لم تفتح بعد ، وكان أبو سلمة إذا سئل عن الإمام يقول : لاتعجلوا ، فلم يزل هذا دأبه حتى دخل أبو حميد محمد بن إبراهيم الحِمْيَرِى من حمام أعين يريد الكُنَاسة ، فلقى خادما لإبراهيم الإمام يقال له سابق الخُوارِزْمى فعرفه ، فقال له مافعل إبراهيم ؟ فأخبره أن مروان قتله ، وأنه أوصى إلى أخيه أبى العباس من بعده ، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته ، فسأله أبو حميد أن ينطلق به إليهم فقال له سابق : الوعد بينى وبينك غدا فى هذا الموضع ، وكره سابق أن يأتيهم به إلا بإذنهم ، فرجع أبو حميد إلى أبى الجهم وأخبره ، وهو فى عسكر أبى سلمة ، فأمره أن يتلطف للقائهم ، فرجع أبو حميد إلى موضع ميعاد سابق ، فلقيه وانطلق به إليهم ، فلما دخل سأل من[3] الخليفة منهم ؟ فقال له داود بن على : هذا إمامكم وخليفتكم ، وأشار إلى أبى العباس ، فسلّم عليه بالخلافة وقبّل يديه ورجليه وعزّاه بإبراهيم ، وقال : مرنا بأمرك ، ثم رجع وصحبه[4] إبراهيم بن سَلَمة – رجل كان يخدم بنى

(١) فى ك : سعيد وهذه المخطوطة تخطىء كثيرا فى ذكر الاسماء وتشير إلى اهمها .
(٢) فى المخطوطات والطبرى جـ٦ ص٨٠ ذكر صحيحا ، والخطأ فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٢٣ فقد كتب : داود .
(٣) فى المخطوطات : عن،واتبعنا ابن الأثير فى الكامل جـ٤ ص٣٢٤ لأن المؤلف ينقل منه .
(٤) فى ك : ومعه .

العباس ـ إلى أبى الجهم ، فأخبره عن منزلتهم وأن الإمام بعثه إلى أبى سلمة[١] ، يسأله مائة دينار يعطيها أجرة الجمال التى حملتهم ، فلم يبعث بها إليهم ، فمشى أبو الجهم وأبو حميد وإبراهيم بن سلمة إلى موسى بن كعب ، وقصّوا عليه القصّة ، وبعثوا إلى الإمام بمائتى دينار مع إبراهيم بن سلمة ، واتفق رأى القواد أن يلقوا الإمام ، فمضى موسى بن كعب وأبو الجهم وغيرهم[٢] من القواد إلى أبى العباس ، وبلغ ذلك أبا سلمة فسأل عنهم ، فقيل له إنهم دخلوا الكوفة لحاجة لهم ، وأتى القوم إليهم فقالوا : أيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية ؟ فقالوا : هذا ـ فسلموا عليه بالخلافة وعزّوه بإبراهيم ، ورجع موسى بن كعب وأبو الجهم ، وأمر أبو الجهم بقية القواد فتخلفوا عند الإمام ، فأرسل أبو سلمة إلى أبى الجهم : أين كنت ؟ قال : ركبت إلى إمامى ، فركب أبو سلمة إلى الإمام . فأرسل أبو الجهم إلى أبى حميد : أن أبا سلمة قد أتاكم . فلا يدخلنّ على الإمام إلا وحده . فلما انتهى إليهم أدخلوه وحده ومنعوا حفدته من الدخول ، فسلّم بالخلافة . فقال له رجل منهم : على رغم أنفك ياماصّ بَظْر أمّه ، فنهاه أبو العباس وأمر أبا سلمة بالعود إلى معسكره فعاد . وأصبح الناس يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فلبسوا السلاح . واصطفوا لخروج أبى العباس . وأتوه بالدواب[٣] فركب بِرْذَوْنا أبلق . وركب معه أهل بيته فدخلوا دار الإمارة ، ثم خرج إلى المسجد فخطب وصلّى بالناس ، ثم صعد المنبر ثانية فقام فى أعلاه ، وصعد عمه داود فقام دونه ، فتكلم أبو العباس فقال :

الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه . فكرّمه[٤] وشرّفه وعظّمه

(١) فى ك : سلمى .
(٢) ذكر ابن الأثير فى الكامل جـ٤ ص ٣٢٤ أكثر من اثنين فقال وغيرهم ولم يتنبه المؤلف الى انه اكتفى بذكر اثنين أو لعله سهو منه .
(٣) فى المخطوطات : الدراب والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٢٤ .
(٤) فى الطبرى جـ٦ ص٨٢ : تكرمة .

واختاره لنا ، وأيّده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوّام به والذابّين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها وأهلها ، وخصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته ، وأنشأنا من آبائه[1] ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته ، جعله من أنفسنا عزيزا عليه ماعنتنا ، حريصا علينا بالمؤمنين رءوفا رحيما ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك كتابا على أهل الإيمان[2] يتلى عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل فى محكم كتابه : ﴿ إِنَمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً[3] ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فى الْقُرْبَى[4] ﴾ وقال : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ[5] ﴾ وقال : ﴿ ما أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى[6] ﴾ وقالَ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى[7] ﴾ فأعلمهم جلّ ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفئ والغنيمة نصيبنا ، تكرمة لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم ؛ وزعمت السبأيّة[8] الضُلاّل أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منّا فشاهت وجوههم ، ثم ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصّرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، ورفع بنا الخسيسة ، وتمّم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٢٤ : آبائنا .

(٢) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٢٤ . والطبرى جـ٦ ص٨٢ : وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يتلى عليهم .

(٣) الأحزاب من الآية : ٣٣ .

(٤) الشورى من الآية : ٢٣ .

(٥) الشعراء آية : ٢١٤ .

(٦) الحشر من الآية : ٧ .

(٧) الأنفال من الآية : ٤١ .

(٨) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٤ : الشآمية ويظهر أنه تحريف . لأن النزاع فى الأحقية لم يكن بين الشآمين وبين الأمويين الذين لا تزال خلافتهم آنئذ قائمة ويعتبرون العباسيين ثوارا ، وإنما كان بين العباسيين وشيعة علّى رضى الله عنه . الذى قامت الحركة مستغلة الدعاية التى اتخذت أحقية أهل البيت شعارا . ويؤيد الطبرى جـ٦ ص٨٢ المخطوطات .

وبرّ ومواساة فى دينهم ، وإخوانا على سرر متقابلين فى آخرتهم ، فتح الله ذلك منّة ومنحة[١] لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه قام بالأمر من بعده أصحابه شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم فعدّلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماصا منها ، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، وردّ علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولى نصرنا والقيام بأمرنا ، ليمنّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا . وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وماتوفيقنا أهل البيت إلا بالله . ياأهل الكوفة ، أنتم أهل محبّتنا ، ومنزل[٢] مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدرككم[٣] زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح[٤] ، والثائر المنيح[٥] .

وكان موعكا فاشتد عليه الوعك ، فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقى المنبر ، فقال :

الحمد لله شكرا الذى أهلك عدوّنا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس : الآن قد قشعت حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ : بهجة ، ويؤيد الطبرى جـ٦ ص٨٢ المخطوطات .

(٢) تقرأ فى المخطوطات : منزلة ، والتصويب عن الطبرى جـ٦ ص٨٣ ، والكامل لأبن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ .

(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ : أدركتم .

(٤) المبيح : اسم لأحد قداح الميسر يرجى منه حظ عظيم .

(٥) فى ف : المبير ، وفى ص : المثير ، وفى ك : المبين ، والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ والطبرى جـ٦ ص٨٣ .

مطالعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه ، فى أهل بيت نبيّكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم .

أيها الناس : والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر[1] لجينا ، ولاعقيانا ، ولانحفر نهرا ، ولانبنى قصرا ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابترازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وماكرهنا[2] من أموركم ، فلقد كانت أموركم ترمضنا ، ونحن على فراشنا ، وتشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم واستذلالهم[3] لكم . واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم . تبًا تبًا لبنى حرب وبنى أمية[4] ، آثروا مدتهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم[5] ، وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنّتهم[6] فى البلاد[7] ، ومرحوا فى أعنة المعاصى ، وركضوا فى ميدان[8] الغى ، جهلا باستدراج الله . وأمناً لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون . فأصبحوا أحاديث ومزّقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم الظالمين ، وأدالنا الله من مروان وقد غرّه بالله الغرور ، وأرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل

---

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ والطبرى جـ٦ ص٨٣: لنكثر.

(٢) فى المخطوطات : ذكر بنا ، وفى الطبرى جـ٦ ص٨٣ : كرثنا والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ .

(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ : واستنزالهم أما الطبرى جـ٦ ص٨٣ فمثل المخطوطات .

(٤) ورد التعبير فى الكامل جـ٤ ص ٣٢٥ والطبرى جـ٦ ص٨٣ : وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله . ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة [منكم] والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،تبًا تبا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان ، آثروا ... (مابين القوسين زيادة فى الطبرى) .

(٥) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ : بالجرائم .

(٦) فى المخطوطات : وسبهم والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٥ .

(٧) يزيد الطبرى جـ٦ ص٨٣ : التى بها استلذوا تسربل الأوزار وتجليب الآصار .

(٨) وفى المرجع السابق : ميادين .

خطامه . أَظَنّ عدو الله أن لن يقدر عليه . فنادى حزبه . وجمع مكايده . ورمى بكتائبه[١] . فوجد أمامه ووراءه . وعن يمينه وشماله . من مكر الله وبأسه ونقمته . ما أمات باطله . ومحق ضلاله . وجعل دائرة السوء به . وأحيا شرفنا وعزّنا . وردّ إلينا حقّنا وإرثنا .

أيها الناس : إن أمير المؤمنين ـ نصره الله نصرا عزيزا ـ إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، لأنه كره[٢] أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك ، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم[٣] الله بمروان . عدو الرحمن وخليفة الشيطان ، المتبع السفلة الذين أفسدوا فى الأرض بعد صلاحها[٤] الشاب[٥] المكتهل المتمهل[٦] ، المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد إفسادها[٧] بمعالم الهدى ومناهج التقوى . فعجّ الناس بالدعاء له ثم قال :

يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله (لنا)[٨] شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج[٩] بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، فأراكم الله بهم ما كنتم تنتظرون[١٠] ، وأظهر فيكم الخليفة من هاشم . وبيّض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ،

---

(١) فى ف : بكنانته وهى بدون نقط فى ص .
(٢) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ : كاره .
(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ : بدلكم .
(٤) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ : إصلاحها .
(٥) قبل هذه الكلمة ورد فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ وكذلك فى الطبرى جـ٦ ص٨٤ ـ ولعله سقط من المؤلف ـ مايأتى :
بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين .
(٦) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ : المكتمل المتمهل : وفى الطبرى جـ٦ ص٨٤ : المتكهل المتمهل .
(٧) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ . والطبرى جـ٦ ص٨٤ فسادها .
(٨) زيادة عن الطبرى جـ٦ ص٨٤ .
(٩) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ أبلج .
(١٠) يزيد الطبرى جـ٦ ص٨٤ بعدها : وإليه تتشوفون .

ونقل إليكم السلطان وعزّ الإسلام ، ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة ، فخذوا ما أتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تخدعوا عن أنفسكم ، فإنّ الأمر أمركم ، وإنّ لكل أهل بيتٍ مصرا ، وإنكم مصرنا ، ألا وإنّه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده إلى أبى العباس) . واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منّا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله على ما أبلانا وأولانا .

ثم نزلا ، وداود أمامه حتى دخل القصر ، وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور يأخذ البيعة على الناس فى المسجد ، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلّى بهم العصر ثم المغرب وجنّهم الليل . وخرج أبو العباس فعسكر بحمام أعين فى عسكر أبى سلمة ، ونزل معه فى حُجْرته[1] بينهما ستر ، وحاجب السفاح يومئذ عبد الله بن بَسَّام ، واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن على ، وبعث عمه عبد الله بن على إلى أبى عَوْن[2] بن يزيد بشهر زور . وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة ، وهو يومئذ يحاصر ابن هبيرة بواسط[3] ، وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن . وبعث أبا اليَقْظَان عثمان بن عُرْوة[4] بن محمد بن عمّار بن ياسر إلى بسّام بن إبراهيم بن بسّام بالأهواز ، وبعث سَلَمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف . وأقام السفاح بالعسكر أشهرا ، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية بقصر الإمارة ، وكان قد تنكّر لأبى سلمة قبل تحوّله حتى عرف ذلك منه .

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ : عمرته ويتفق الطبرى جـ٦ ص٨٧ مع المخطوطات .
(٢) فى المخطوطات : أبى عون يزيد وقد سبق أن ذكر صحيحا فى فتح شهرزور .
(٣) هذه العبارة ساقطة فى ك .
(٤) فى المخطوطات : عمرو (بدلا من عروة) والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢٦ والطبرى جـ٦ ص٨٧ والبداية والنهاية جـ١٠ ص٤٣ .

ذكر هزيمة مروان بالزاب

قد ذكرنا أن قحطبة أرسل أباعون عبد[1] الملك بن يزيد الأزدى إلى شهر زور ، وأنه سار إلى ناحية الموصل ، وأن مروان سار من حرّان حتى بلغ الزاب وحفر خندقا ، وكان فى عشرين ومائة ألف ، وسار أبو عون إلى الزاب ، فوجّه أبو سلمة إلى أبى عون عُيَيْنَة بن موسى ، والمِنْهَال بن فتّان ، وإسحاق بن طلحة ، كل واحد فى ثلاثة آلاف ، فلما ظهر أبو العباس بعث سلمة بن محمد فى ألفين ، وعبد الله الطائى فى ألف وخمسمائة ، وعبد الحميد رِبْعِى الطائى فى ألفين ، ووَدَاس بن نَضْلة فى خمسمائة ـ إلى أبى عون ، ثم قال : من يسير إلى مروان من أهل بيتى ؟ قال عبد الله بن على : أنا ، فسيّره إلى أبى عون فقدم عليه ، فتحوّل أبو عون عن سرادقه له ، فلما كان لليلتين خلتا من شهر جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة سأل عبد الله ابن على عن مخاضة بالزاب فدُلّ عليها ، فأمر عُيَيْنَة بن موسى فعبر فى خمسة آلاف ، فانتهى إلى عسكر مروان فقاتلهم حتى أمسوا ، ورجع إلى عبد الله ، وأصبح مروان فعقد جسرا وعبر النهر ، وسيّر ابنه عبد الله فنزل أسفل من عسكر عبد الله ، فبعث عبد الله بن على المُخَارق بن غفار فى أربعة آلاف نحو عبد الله بن مروان ، فبعث ابن مروان إليه الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم فالتقيا ، فانهزم أصحاب المخارق وثبت هو ، فأسر فى جماعة وسيّروهم إلى مروان ، فأمر أن يؤتى برجل من الأسرى ، فأتى بالمخارق ، فقال له : أنت المخارق ، قال : لا بل أنا من عبيد أهل العسكر ، قال : أفتعرف المخارق ؟ قال : نعم ، قال : فانظر هل تراه فى هذه الرءوس ؟ فنظر إلى رأس منها فقال : هذا هو المخارق ، فخلّى سبيله ، ولما بلغت الهزيمة عبد الله بن على أرسل إلى طريق المنهزمين من يمنعهم من دخول العسكر ، وأشار عليه أبو عون أن يبادر مروان بالقتال ، قبل أن يظهر أمر المخارق ،

(١) فى المخطوطات : أبا عون بن عبد الملك بن يزيد الازدى وهو خطأ سبق الإشارة إليه .

فنادى فى الناس بلبس السلاح والخروج إلى الحرب فركبوا ، وسار نحو مروان ، وكان عسكره عشرين ألفا وقيل اثنا عشر ألفا ، فلما التقى العسكران قال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : إن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنّا الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم . فإن قاتلونا قبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فأرسل مروان إلى عبد الله يسأله الموادعة ، فقال عبد الله : كذب ، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله ، ثم التقوا واقتتلوا فجعل عبد الله بن على يقول : يارب حتى متى نقتل فيك ! ! ونادى : ياأهل خراسان ، يالثارات إبراهيم واشتد القتال ، فأمر مروان بالأموال فأخرجت ، وقال للناس : اصبروا وقاتلوا فهذه الأموال لكم ، فجعل ناس يصيبون منها . فقيل له : إن الناس قد مالوا على المال ، ولا نأمنهم أن يذهبوا به ، فأرسل إلى ابنه عبد الله أن يسير فيقتل من أخذ من المال شيئا ، فمال عبد الله برايته وأصحابه . فقال الناس : الهزيمة ، الهزيمة ، فانهزموا وانهزم مروان وقطع الجسر . وكان من غرق يومئذ أكثر ممَّن قتل ، وكان ممن غرق يومئذ إبراهيم بن الوليد المخلوع ، فاستخرجوه فى الغرق[1] ، فقرأ عبد الله : ﴿وإذْ فَرَقْنَا بِكُم البَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُم وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنْتُم تَنْظُرُونَ﴾[2] . وقيل بل قتله عبد الله بالشام ، وحوى عبد الله عسكر مروان بما فيه ، فوجد سلاحا كثيرا وأموالا وكتب إلى السفاح بالفتح ، فلما أتاه الكتاب أمر لكل من شهد الوقعة بخمسمائة خمسمائة ، ورفع أرزاقهم ، وكانت هزيمة مروان بالزاب يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة .

ذكر مقتل مروان بن محمد ودخول أهل الشام وغيرهم فى الطاعة

قال : ولما انهزم مروان أتى مدينة الموصل ، وعليها هشام بن عمرو[3]

(١) ساقطة فى ف ، ك .
(٢) البقرة آية : ٥٠ .
(٣) فى المخطوطات عمر ، والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٠ والطبرى جـ٦ ص٩٤

التغلبي وبِشر بن خُزَيْمَة الأسدى فقطعا الجسر ، فناداهم أهل الشام : هذا أمير المؤمنين مروان ، فقالوا : كذبتم ، لا يفر ، وسبّه أهل الموصل ، وقالوا له : يا جعدى ، يا معطل[1] ، الحمد لله الذى أزال سلطانكم ، وذهب بدولتكم ، الحمد لله الذى أتانا بأهل بيت نبيّنا ، فسار إلى حرّان فأقام بها نيّفا وعشرين يوما ، وسار عبد الله حتى دخل الموصل فعزل هشاما ، واستعمل عليها محمد بن صُول ، ثم سار فى أثر مروان ، فلما دنا منه حمل مروان أهله وعياله ومضى منهزما ، وخلّف بحرّان ابن أخيه إبان بن يزيد ، فقدم عبد الله حرّان فلقيه إبان مسوّدا مبايعا ، فبايعه وأمّنه هو ومن كان معه بحرّان والجزيرة ، ومضى مروان إلى حمص فلقيه أهلها بالطاعة ، فأقام يومين أو ثلاثا وسار ، فلما رأوا قلة من معه طمعوا فيه ، وقالوا : مرعوب منهزم فاتبعوه ، والتقوا فقاتلهم وهزمهم . وأتى مروان دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان ، فخلّفه بها ومضى إلى فلسطين . قال : وكان السفاح قد كتب إلى عبد الله بن على باتباع مروان ، فسار من حرّان بعد أن هدم الدار التى كان إبراهيم قد حبس بها ، ووصل إلى مَنْبج وقد سوّدوا فأقام بها ، وأتته بيعة أهل قِنّسْرِين ، وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن على مددا من قبل السفاح فى أربعة آلاف ، فسار عبد الله الى قنسرين ثم إلى حِمْص فبايع أهلها ، وأقام بها أياما ثم سار إلى بعلبك فأقام بها يومين ، ثم سار فنزل قرية مِزَّة ، ونزل أخوه صالح بن على مَرْج عذراء فى ثمانية آلاف ، وكان السفاح قد بعثه مددا لعبد الله . ثم تقدم عبد الله فنزل على الباب الشرقى ، ونزل صالح على باب الجابية ، وأبو عون على باب كيسان ، وبسّام بن إبراهيم على الباب الصغير ، وحميد بن قحطبة على باب توما ، وعبد الصمد ويحيى بن صَفْوان والعباس بن يزيد على باب الفَرَادِيس ، وبدمشق يومئذ الوليد بن معاوية فحصروه بها ودخلوها عنوة فى يوم الأربعاء لخمس مضين من شهر

(١) كان الجعد بن درهم ستاذا لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . وكان الجعد من المنكرين للصفات أى من المعطلة واستغل العباسيون هذه الصلة وسموا مروان معطلا .

رمضان منها ، فقاتلوا[١] فيها ثلاث ساعات ، وقتل الوليد بن معاوية فيمن قتل ، وأقام عبد الله بدمشق خمسة عشر يوما ، ثم سار يريد فِلَسْطين فلقيه أهل الأردن وقد سوّدوا ، فأقام بفلسطين ، وأتاه كتاب السفاح يأمره بإرسال صالح بن على فى طلب مروان ، فسار صالح فى ذى القعدة ، ومعه ابن فَتّان ، وعامر بن إسماعيل الحارثى ، وأبو عون ـ فبلغوا العريش ، وأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام وهرب إلى جهة مصر ، وسار صالح فنزل النيل ، ثم نزل الفسطاط ، ثم سار ونزل موضعا يقال له ذات الساحل[٢] ، وهرب مروان الى الصّعيد ، وقدّم صالح أبا عون ، وعامر بن إسماعيل الحارثى وشُعْبَة بن كَثِير المازنى ـ فساروا ، فلقوا خيلا لمروان فهزموهم وأسروا منهم رجالا ، فسألوهم عن مروان فأخبروهم بمكانه على أن يؤمنوهم فأمنوهم ، وساروا فوجدوه نازلا فى كنيسة ببوصير فقاتلوه ليلا ، وكان أصحاب أبى عون قليلا ، فقال لهم عامر بن إسماعيل : إن أصبحنا ورأوا قلّتنا أهلكونا ، فكسر جفن سيفه وفعل أصحابه مثله ، وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا ، وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه فصرعه ، وصاح صالح جرح أمير المؤمنين فابتدروه ، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة ـ كان يبيع الرمّان ـ فاحتز رأسه ، فأخذه عامر بن إسماعيل فبعث به إلى أبى عون ، وبعثه أبو عون إلى صالح ، فلما وصل إليه أمر أن يقص[٣] ويقطع لسانه فأخذته هرّة ، فقال صالح : لو لم ترنا الأيام من عجائبها إلا لسان مروان فى فم هرة لكفانا ، وقيل : إن عبد الله بن على هو الذى قال هذا ، قال : وسيّره صالح إلى عبد الله فبعثه إلى السفاح . وكان قتله لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، ورجع صالح إلى الشام ، وخلف أبا عون

(١) فى جميع المخطوطات : قتلوا وهو خطا واضح .

(٢) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣١ : ذات السلاسل وهو تحريف أما الطبرى جـ٦ ص٩٦ فتتفق مع المخطوطات .

(٣) فى أ ، ص : ينقض . ويتفق الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣١ مع المخطوطة ك .

بمصر . ولما وصل الرأس الى السفاح كان بالكوفة ، فلما رآه سجد ثم رفع رأسه ، فقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك ، وأظفرنى بك ، ولم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك أعداء الدين ، ثم تمثل :

لويشربون دمى لم يروشاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

قال : ولما قتل مروان قصد عامر الكنيسة التى فيها حرم مروان ، وكان قدوكل بهنّ خادما له ، وأمره أن يقتلهن بعده ، فأخذه عامر وأخذهن ، وهنّ نساء مروان وبناته ، فسيّرهن إلى صالح بن على ، فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، حفظ الله لك من أمرك ماتحب حفظه ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا ، قال : إذنْ لا أستبقى منكنّ واحدة ، ألم يقتل أبوك ابن أخى إبراهيم ؟ ! ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين وصلبه فى الكوفة ؟ ! ألم يقتل الوليد بن يزيد ـ يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ؟ ! ألم يقتل ابن زياد الدعىّ مُسْلم بن عُقَيل ؟ ! ألم يقتل يزيد بن معاوية ـ الحسين بن على وأهل بيته ؟ ! ألم يخرج إليه بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا فوقفهن موقف السبى ؟ ! ألم يحمل إليه رأس الحسين وقد فرغ دماغه ؟ ! فما الذى يحملنى على الإبقاء عليكن ؟ ! قالت : فليسعنا عفوكم ، أما هذا فنعم ، وإن أحببت زوّجتك ابنى الفضل ، فقالت : بل تحملنا إلى حرّان ، فحملهن إليها .

ذكر من قتل من بنى أمية بعد مقتل مروان بن محمد

قال : دخل سديف مولى للسفاح عليه وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه السفاح ، فقال سَدِيف :

لا يغرنك ماترى من رجال إن تحت الضلوع داءً دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لاترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان قتلتنى يا شيخ ودخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل ، قال : ودخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن على وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام ، فأقبل عليه شبل فقال :

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس
لاتقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلةٍ وغراس
ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحر المواسى
فلقد غاظنى وغاظ سوائى ... قربهم من نمارقٍ وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها اللـ ... ـه بذات[1] الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيدا ... وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذى بحرّان أضحى ... ثاويا بين غربة وتناسى

فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الانطاع فأكل الطعام عليها ، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا ، وأمر عبد الله بن على بنبش قبور بنى أمية بدمشق ، فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الهباء ، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كالرماد ، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة ، وكان يوجد فى القبر العضو بعد العضو ، غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحا ، لم يبل منه إلا أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط ثم صلبه ثم حرقه وذراه فى الريح ، وتتبع بنى أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ، فلم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس ، واستصفى مالهم من أموال وغيرها ، فلما فرغ منهم قال :

بنى أمية قد أفنيت جمعكم ... فكيف لى منكم بالأول الماضى

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٣ : بدار .

يُطيِّب النفس إن النار تجمعكم عُوضتم من لظاها شر معتاض
إن كان غيظى لفوت منكم فلقد رضيت[١] منكم بما ربى به راض[٢]

وقيل إن سَدِيفا أفسد الشعر ، الذى ذكرناه عنه للسفاح ومعه كانت الحادثة ، وقتل سليمان بن على بن عبد الله بن العباس بالبصرة منهم جماعة . وألقاهم على الطريق فأكلتهم الكلاب ، فاختفى من قدر من بنى أمية . وتشتت شملهم ، وكان ممن اختفى منهم عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان ابن عُتْبة بن أبى سفيان . قال : فكنت لآتى مكانا إلا عرفت فيه ، فضاقت علىّ الأرض فقصدت سليمان بن على ، وهو لا يعرفنى ، فقلت له : لفظتنى البلاد إليك ، ودلّنى فضلك عليك ، فإما قتلتنى فاسترحت ، وإما رددتنى سالما فأمنت ، فقال من أنت ؟ فعرّفته بنفسى فعرفنى ، فقال : مرحبا بك . حاجتك ؟ فقلت : إن الحرم التى أنت أولى الناس بهنّ ، وأقربهم إليهن قد خفن لخوفنا ، ومن خاف خيف عليه ، فبكى كثيرا ثم قال : بل يحقن الله دمك ، ويوفّر مالك . ويحفظ حرمك ، ثم كتب إلى السفاح : يا أمير المؤمنين ، إنّه قد وفد وافد[٣] بنى أمية علينا . وإنّا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم . فإنّا يجمعنا وإياهم عبد مناف ، فالرحم تبل ولاتفل[٤] ، وترفع ولا توضع ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل . وإن فعل فليجعل[٥] كتابا عاما إلى البلدان ، شكراً[٦] لله تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا . فأجابه إلى ذلك . وكتب لهم أمانا ، وكان هذا أول أمان بنى أمية .

---

(١) نفس المصدر السابق ص٣٣٤ . منيت .
(٢) فى نفس المصدر السابق بيت يسبق هذا :
مسيتم لا أقال الله عثرتكم بليث غاب إلى الأعداء نهاض
(٣) فى المخطوطات : دفّت دفّة وتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٤ .
(٤) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٤ : تبل ولا تقتل . والمتأمل فى النص يرى صواب المخطوطات لأنه يشتمل على الكلمة ونقيضها وعلى ذلك فهى أصوب والمعنى : توصل ولاتقطع .
(٥) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٤ : فيجعل .
(٦) فى نفس المصدر السابق شكر .

ذكر الخلاف على أبى العباس السفاح وأخبار من خالف وخلع

فى هذه السنة : خلع حبيب بن مُرَّة المرّى ، ومعه أهل البَثَنِيَّة وحُورَان ، وكان من قواد مروان ، فحمله الخوف على نفسه على الخلاف . فخرج إليه عبد الله بن على وقاتله دفعات ، ثم صالحه عبد الله لما خلع أبو الورد .

ذكر خلع أبى الورد وأهل قنّسرين ودمشق

وفيها خلع أبو الورد مِجْزَأة[1] بن الكَوْثر بن زُفَر بن الحارث الكلابى ، وكان من أصحاب مروان وقواده ، وكان قد بايع عبد الله بن على وأقام بقِنَّسْرِين ، وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالِس والناعورة ، فقدم قائد من قواد عبد الله إلى بالِس ، فبعث بولد مسلمة ونسائهم ، فشكى بعضهم ذلك إلى أبى الورد ، فقتل ذلك القائد ومن معه وأظهر الخلع لعبد الله ، ودعا أهل قنّسرين إلى ذلك فبيّضوا بأجمعهم ، والسفاح يومئذ بالحيرة وعبد الله بن على يقاتل حبيب بن مرّة ، فلما بلغ عبد الله ذلك صالح حبيب بن مُرَّة وأمنّه ، وسار إلى قِنَّسرين للقاء أبى الوَرْد ، فمرَّ بدمشق فخلّف بها أبا غانم[2] عبد الحميد بن رِبْعِى الطائى فى أربعة آلاف ، وكان بدمشق أهل عبد الله وأمهات أولاده وثقله ، فلما قدم حمص انتقض أهل دمشق وبيّضوا ، وقاموا مع عثمان بن عبد الأعلى بن سُرَاقة الأزدى فلقوا أبا غانم ومن معه فهزموه ، وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة ، وانتهبوا ثقل عبد الله ولم يتعرضوا لأهله ، وأجمعوا على الخلاف ، وسار عبد الله وكان قد اجتمع مع أبى الورد جماعة أهل قِنَّسرين ، وكاتبوا من يليهم من

---

(١) فى نفس المصدر : مجزة ، ويؤيد المخطوطات الطبرى جـ٦ ص٩٧ .

(٢) فى المخطوطات : أبا غانم بن عبد الحميد بن ربعى الطائى : والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٤ والطبرى جـ٦ ص٩٨ ومخطوطة تاريخ ابن عساكر فى الجزء الثانى والعشرين (المكتبة التيمورية) . هذا وقد ذكره الناسخ صحيحا فى فصل هزيمة مروان بالزاب .

أهل حِمْص وتَدْمُر (١) ، فقدم منهم ألوف ، وقدّموا عليهم أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا إليه ، وقالوا هو السفيانى ، واجتمعوا فى نحو أربعين ألفا فعسكروا بمَرْج الأَخْرم ، ودنا عبد الله منهم ووجّه إليهم عبد الصمد بن على فى عشرة آلاف ، وكان أبو الورد هو المدبّر لعسكر قنّسرين وصاحب القتال ، فناهضهم واقتتلوا وكثر القتل بينهم فانكشف عبد الصمد ، ولحق بأخيه عبد الله فأقبل عبد الله والتقوا بمرج الأخرم ، واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم أصحاب أبى الورد ، وثبت هو فى خمسمائة من قومه فقتلوا جميعا ، وهرب أبو محمد ومن معه حتى لحقوا بتدمر ، وأمّن عبد الله أهل قنّسرين وسوّدوا ، وبايعوه ودخلوا فى طاعته ، ثم انصرف راجعا إلى دمشق ، فلما دنا منها هرب الناس بغير قتال ، فأمّن عبد الله أهلها ولم يؤاخذهم وبايعوه ؛ وأما أبو محمد السفيانى فتغيّب إلى أيام المنصور ، ولحق بالحجاز ، فكان كذلك إلى أن بلغ زياد بن عبد الله الحارثى عامل المنصور مكانه ، فبعث إليه خيلا فقاتلوه فقتلوه . وقيل إن حرب أبى الورد كانت فى سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين .

ذكر تبييض أهل الجزيرة وخلعهم

قال : وفى هذه السنة بيّض أهل الجزيرة وخلعوا السفاح ، وساروا إلى حرّان وبها موسى بن كعب فى ثلاثة آلاف من جند السفاح فحاصروه بها ، وليس على أهل الجزيرة رأس تجمعهم ، فقدم عليهم إسحاق بن مسلم العقيلى من أرمينية فاجتمع عليه أهل الجزيرة ، وحاصر موسى بن كعب نحوا من شهر ، فوّجه أبو العباس السفاح أخاه أبا جعفر فيمن كان معه من الجنود بواسط محاصرين ابن هبيرة فساروا ، واجتاز بقَرْقِيسِيَا والرَّقة وقد بيّض أهلها ، فلما انتهى إلى حرّان رحل إسحاق بن مسلم إلى الرُّها ، وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ، وخرج موسى بن كعب إليه ، ووجّه إسحاق بن مسلم أخاه

(١) فى ك : ترمذ وهو خطا واضح .

بكّار بن مسلم إلى جماعة ربيعة بدَارَا ومَارْدِين ، ورئيس ربيعة يومئذ رجل من الحروريّة يقال له بُرَيكة[١] ، فعمد[٢] إليهم أبو جعفر فقاتلهم قتالا شديدا ، فقتل بريكة فى المعركة ، وانصرف بكّار بن مسلم إلى أخيه بالرها فخلّفه إسحاق بها ، وسار إلى سُمَيْسَاط فسار حتى نزل بإزاء إسحاق بها ، وإسحاق يومئذ فى ستين ألفا وبينهم الفرات ، وأقبل أبو جعفر من الرها وحاصر إسحاق بسميساط سبعة أشهر ، وكان إسحاق يقول : فى عنقى بيعة ، فأنا لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات أو قتل ، فلما تيقّن قتله طلب الصلح والأمان ، فكتبوا إلى السفاح فى ذلك فأمرهم أن يؤمنوه هو ومن معه ، فكتبوا بينهم كتابا بذلك ، وخرج إسحاق إلى أبى جعفر وكان عنده من آثر أصحابه[٣] ، فاستقام أهل الجزيرة والشام ، واستعمل أبو العباس السفاح أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، فلم يزل عليها حتى استخلف .

ذكر قتل أبى سَلَمة الخَلَّال وسليمان بن كَثِير

قد ذكرنا ما كان من أمر أبى سلمة مع أبى العباس السفاح فى مبتدأ الأمر ، وما عامله به عند مقدمه وتنكّر السفاح له ، فلما فارق العسكر ونزل المدينة الهاشمية كتب إلى أبى مسلم الخراسانى ، يعلمه بخبره وما كان من أمره ، فكتب إليه : إن كان أمير المؤمنين قد اطلع على ذلك فليقتله ، فلما قدم عليه كتابه قال داود بن على : لا تفعل يا أمير المؤمنين فيحتّج بها أبو مسلم عليك ، وأهل خراسان الذين معك أصحابه ، ولكن اكتب إلى أبى مسلم أن يبعث إليه من يقتله ، فكتب إليه فبعث أبو مسلم مِرار بن أَنَس الضَبّىِ ليقتله ، فقدم على السفاح وأعلمه ، فأمر السفاح مناديا فنادى : إن أمير

(١) فى المخطوطات بركه والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٥ والطبرى جـ٦ ص١٠١ .
(٢) فى المخطوطات : فصمد والتصويب عن المصدرين السابقين .
(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٣٦ صحابته .

المؤمنين قد رضى على أبى سلمة ، ودعاه فكساه ، ثم دخل بعد ذلك عليه فى ليلة فلم يزل عنده حتى ذهب عامة الليل ، وانصرف إلى منزله وحده فقتله مرار بن أنس ، وقالوا قتله الخوارج ، ثم أخرج من الغد فصلّى عليه يحيى ابن محمد أخو السفاح ، ودفن بالمدينة الهاشمية فقال سليمان بن المُهَاجر البجلى فيه :

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك صار[1] وزيرا

وكان يقال لأبى سلمة وزير آل محمد ، ولأبى مسلم أمين آل محمد ، قال : فلما قتل وجه السفاح أخاه أبا جعفر إلى أبى مسلم ، فلما قدم سايره عبيد الله بن الحسن[2] الأعرج وسليمان بن كثير ، فقال سليمان لأبى جعفر : يا هذا إنّا كنّا نرجو أن يتمّ أمركم ، فإذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون ، فظنّ عبيد الله أنه دسيس من أبى مسلم ، فأتى إلى أبى مسلم وأخبره بمقالة سليمان ، فأحضر أبو مسلم سليمان بن كثير وقال له : أتحفظ قول الإمام ـ من اتهمته فاقتله ـ قال : نعم ، قال فإنى قد اتهمتك ، قال : أنشدك الله ! ! قال لا تناشدنى فأنت منطو على غش الإمام ، وأمر به فضربت عنقه ، ورجع أبو جعفر إلى السفاح فقال له : لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله ، قال : وكيف ؟ قال : والله ما يصنع إلا ما أراد،قال السفاح : فاكتمها . ووجّه أبو مسلم الخراسانى محمد بن الأشعث على فارس ، وأمره أن يقتل عمّال أبى سلمة ففعل ذلك ، فوجّه السفاح عمه عيسى بن على على فارس وعليها محمد بن الأشعث ، فأراد محمد قتل عيسى فقيل له : إن هذا لا يسوغ لك ، فقال:بلى ، أمرنى أبو مسلم أن لا يقدم علىّ أحد يدّعى الولاية من غيره إلا قتلته ، ثم ترك عيسى خوفا من عاقبة قتله ، واستحلف عيسى

(١) فى الطبرى جـ٦ ص١٠٣ : كان .

(٢) فى المخطوطات الآخر ، وفى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٦ الحسن وهو ما أثبتناه لأن المؤلف ينقل عنه ، وهو فى الطبرى جـ٦ ص١٠٤ الحسين ، وعلى أية حال فالاسم غير واضح فى المصادر الأولى فاضطرب فى نقله النساخ .

الأيمان المغلظة : أن لا يعلو منبرا ، ولا يتقلد سيفا إلا فى جهاد ، فلم يل عيسى بعدها ولاية ، ولا تقلّد سيفا إلا فى غزوة ، ثمّ وجّه السفاح بعد ذلك إسماعيل بن على واليا على فارس .

ذكر أخبار ابن هُبَيْرة وما كان من أمره

قد ذكرنا أنه كان قد تحصّن بواسط ، وأرسل أبو سلمة الحسن بن قحطبة لحصاره فحصره بواسط ، وكانت بينهم وقعات أكثرها على ابن هبيرة ، فلما ظهر السفّاح بعث أخاه أبا جعفر ، لقتال ابن هبيرة بعد رجوعه من خراسان ، وكتب إلى الحسن : إن العسكر عسكرك ، والقوّاد قوّادك ، ولكن أحببت أن يكون أخى حاضرا فاسمع له وأطع ، وأحسن مؤازرته ؛ وكتب إلى مالك بن الهَيْثَم بمثل ذلك ، فلماً قدم تحوّل الحسن عن خيمته وأنزله فيها ، ودام حصاره لابن هبيرة بواسط أحد عشر شهرا ، اقتتلوا فيها عدة وقعات ، فلما بلغهم مقتل مروان طلبوا الصلح ، وكان ابن هبيرة أراد أن يدعو إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن[1] علّى ، فكتب إليه فأبطأ جوابه ، وكاتب السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة وأطمعهم ، فخرج إليه زياد بن صالح وزياد بن عبيد الله الحارثيّان ، ووعدا ابن هبيرة أن يصلحا له ناحية السفاح فلم يفعلا ، وخرجت السفراء بين أبى جعفر وابن هبيرة ، حتى جعل له أمانا وكتب له كتابا ، مكث ابن هبيرة يشاور العلماء فيه أربعين يوما حتى رضيه ، وأمر السفاح بإمضائه ، وكان رأى أبى جعفر الوفاء له بما أعطاه ، وكان السفاح لا يقطع أمرا دون أبى مسلم ، فكتب السفاح إليه بخبر ابن هبيرة ، فكتب أبو مسلم إليه : إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة .

قال : ولما تمّ الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبى جعفر فى ألف

(١) ورد فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٨ : محمد بن عبد الله بن الحسن بن على ، وتتفق المخطوطات مع الطبرى جـ٦ ص١٠٧ فقد ذكره : محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن .

وثلاثمائة ، وأراد أن يدخل على دابته ، فقام إليه الحاجب سَلاّم بن سليم فقال : مرحبا يا أبا خالد ، انزل راشدا فنزل ، وقد أطاف بحجرة المنصور عشرة آلاف من أهل خراسان ، فأدخل ابن هبيرة وحده فحادثه ساعة ، ثم مكث يأتيه يوما ويتركه يوما ، وكان يأتيه فى خمسمائة فارس وثلاثمائة ، فقيل لأبى جعفر : إن ابن هبيرة ليأتى فيتضعضع له العسكر ، فأنقص من سلطانه شيئا ، فأمره أبو جعفر ألا يأتى إلا فى حاشيته ، فكان يأتى فى ثلاثين ثم صار يأتى فى ثلاثة أو أربعة ، وألحّ السفاح على أبى جعفر بقتل ابن هبيرة وهو يراجعه ، حتى كتب إليه : والله لتقتلنّه أو لأرسلنّ إليه من يخرجه من حجرتك ويتولى قتله ، فبعث أبو جعفر من ختم بيوت الأموال ، ثم بعث إلى وجوه من مع ابن هبيرة فأحضرهم ، فأقبل محمد بن نُباتة ، وحَوْثَرة بن سُهَيْل فى اثنين وعشرين رجلا ، فأدخل الحاجب حوثرة وابن نُباتة فنزعت سيوفهما وكتّفا ، واستدعى أبو جعفر رجلين رجلين ففعل بهما كذلك ، فقال بعضهم : أعطيتمونا عهد الله وغدرتم ، إنا لنرجو أن يدرككم الله ، وبعث خازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة فى مائة إلى ابن هبيرة ، فقالوا : نريد حمل المال ، فقال لحاجبه دلّهم على الخزائن ففعل ، فأقاموا عند كل بيت نفرا ، وأقبلوا نحوه وعنده ابنه داود وعدة من مواليه وبُنَىّ له صغير فى حجره ، فقام حاجبه فى وجوههم فضربه الهيثم على حبل عاتقه فصرعه ، وقاتل ابنه داود فقتل ، وقتل مواليه ، ونحّى ابنه من حجره[1] وقال : دونكم وهذا الصبى وخرّ ساجدا فقتل ، وحملت رءوسهم إلى أبى جعفر ، فأمر فنودى بالأمان للناس إلا الحكم بن عبد الملك وخالد بن سَلَمة المخزومى ، فهرب الحكم وأمّن أبو جعفر خالدا فقتله السفاح ، ولم يجز أمان أبى جعفر .

(١) يستقيم التعبير فى النص متفقا مع الطبرى جـ٦ ص١٠٩ بينما يضطرب فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٣٨ ، ص٣٣٩ إذ هو : .... وقاتل ابنه داود وأقبل هو إليه ونحى ابنه من حجره . والاضطراب ناتج عن سقط .

ذكر ولاية يحيى بن محمد المَوْصِل ومن قتله بها

وفى هذه السنة استعمل السفاح أخاه يحيى على المَوْصِل ، وسبب ذلك أن أهل المَوْصِل امتنعوا من طاعة عاملهم محمد بن صُول ، وقالوا : لا يلى علينا مَولًى لخَثْعَم ، وأخرجوه عنهم ، فكتب بذلك إلى السفاح ، فاستعمل عليهم أخاه يحيى وسيّره إليها فى اثنى عشر ألفا ، فنزل قصر الإمارة ولم يظهر لهم ما يكرهونه ولا عارضهم فى أمر ، ثم دعاهم فقتل منهم اثنى عشر رجلا ، فنفر أهل البلد وحملو السلاح فأعطاهم الأمان ، وأمر فنودى من دخل الجامع فهو آمن ، فأتاه الناس يهرعون ، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع فقتلوا الناس قتلا ذريعا ، أسرفوا فيه فقيل إنه قتل عشرين ألفا ممّن له خاتم[1] ، ومن ليس له خاتم ما شاء الله ، فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء يبكين رجالهن ، فقال : إذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان ، فقتلوا منهم ثلاثة أيام ، وكان فى عسكره قائد معه أربعة آلاف زنجى ، فأخذوا النساء قهرا ، فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل ركب فى اليوم الرابع ، وبين يديه الحراب والسيوف مصلته ، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته ، فأراد أصحابه قتلها فنهاهم ، فقالت له : ألست من بنى هاشم ؟! ألست[2] من بنى عم رسول الله ؟! أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهنّ[3] الزنج ؟!! فأمسك عن جوابها وبعث معها من أبعدها مأمنها ، فلما كان الغد جمع الزنج للعطاء فاجتمعوا ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم . وقيل : كان السبب فى قتل أهل الموصل ما ظهر منهم من كراهية بنى العباس[4] ، وأن امرأة غسلت رأسها وألقت الخِطْمىّ من السطح .

---

(١) من الذين يوقعون بخاتمهم أى من كبار الناس .

(٢) فى ك : ثم .

(٣) فى ف . ك : ينكحن والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٤٠ وكذلك ص .

(٤) التعبير فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٤٠ : ماظهر منهم من محبة بنى أمية وكراهة بنى العباس .

فوقع على رأس بعض الخراسانية فظنّها فعلت ذلك تعمدا ، فاقتحم [١] الدار وقتل أهلها ، فثار أهل البلد وقتلوه وثارت الفتنة ، وممن قتل معروف بن أبى معروف ، وكان من الزهاد العبّاد قد أدرك كثيرا من الصحابة رضى الله عنهم وروى عنهم .

ذكر عمال السفاح

فى هذه السنة كان العامل على مكة والمدينة واليمن واليمامة داود بن على عم السفّاح ، وكان قبل ذلك على الكوفة وسوادها فنقله واستعمل على الكوفة وسوادها ابن أخيه عيسى بن موسى ، واستقضى على الكوفة ابن أبى ليلى ، وكان العامل على البصرة سفيان بن معاوية المهلّبى ، وعلى قضائها الحجّاج بن أَرْطاة ، وعلى السند منصور بن جُمْهور ، وعلى فارس محمد بن الأشعث ، وعلى الجزيرة وأرمينية وأذربيجان أبا جعفر عبد الله بن محمد بن على . وعلى الشام عبد الله بن على ، وعلى مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد . وعلى الموصل يحيى بن محمد ، وعلى خراسان والجبال أبا مسلم ، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك . وحج بالناس فى هذه السنة داود بن على .

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة .

ذكر دخول ملك الروم مَلَطِيَّة وقَالِيقَلا

فى هذه السنة أقبل قسطنطين ملك الروم إلى مَلَطِيَّة وكَمْخ [٢] ، فنزل كمخ فاستنجد أهلها بأهل ملطية فسار إليهم منها ثمانمائة مقاتل ، فقاتلهم الروم فانهزم المسلمون ، ونازل الروم ملطية وحصروها ، والجزيرة يومئذ مفتونة بما ذكرناه ، وعاملها موسى بن كعب بحرّان ، فأرسل قسطنطين إلى

(١) فى ص : فهجم .

(٢) فى ف ، ك كمج وفى ص دون نقط والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٤١ وكذلك فتوح البلدان للبلاذرى ط . أوروبا .

أهل ملطية : إنى لم أحصركم إلا على علم من اختلاف المسلمين ، فلكم الأمان وتعودون إلى بلاد المسلمين حتى أخرب[١] ملطية ، فلم يجيبوه ، فنصب المجانيق فأذعنوا وسلّموا البلد بالأمان ، وانتقلوا إلى بلاد الإسلام ، فخرّبها الروم ورحلوا عنها ، وسار ملك الروم إلى قَالِيقَلا فنزل مَرْج الخَصِىّ ، وأرسل كُوشَان الأرمنى فحصرها ، فنقب أخوان من الأرمن من أهل المدينة[٢] سورها ، فدخل كوشان ومن معه البلد فغلبوا عليها ، وقاتلوا الرجال وسبوا النساء والذريّة ، وساق الغنائم إلى ملك الروم .

وفيها وجّه السفاح عمه سليمان واليا على البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين[٣] ومِهْرِجَا نَقْذَق واستعمل عمه إسماعيل بن على على الأهواز . وفيها مات[٤] داود بن على فى شهر ربيع الأول واستخلف ابنه موسى ، فاستعمل السفاح على مكة والمدينة والطائف واليمامة خاله زياد بن عبيد الله[٥] بن عبد المدان الحارثى . ووجّه محمد بن يزيد بن عبد المدان الحارثى[٦] على اليمن . وفيها توجّه محمد بن الأشعث إلى أفريقية فقاتل أهلها حتى فتحها .

وفيها خرج شَرِيك بن شَيْخ المهرى ببُخَارَى على أبى مسلم ، ونقم عليه وقال : ما على هذا اتبعنا آل محمد ، نسفك الدماء ونعمل بغير الحق ، وتبعه أكثر من ثلاثين ألفا ، ووجّه إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعى فقتله زياد .

---

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٤١ : احترث .
(٢) فى ف ، ك : البلد ، واثبتنا نص ص لموافقته للكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٤١ .
(٣) يزيد الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٤١ والطبرى جـ٦ ص١١١ وعمان .
(٤) فى المصدرين السابقين : قتل .
(٥) سبق أن ذكرنا خطأ المخطوطات فى هذا الاسم فى بعض المواضع ويخطىء الكامل لابن الأثير هنا جـ٤ ص٣٤١ فيذكره يزيد بدلا من زياد وهو خطأ نبه عنه الناشر فى الهامش وعدّه تحريفا وأظنه سهوا .
(٦) هذه العبارة ساقطة من ف ، ك .

وفيها عزل يحيى بن محمد عن الموصل واستعمل مكانه إسماعيل بن على . وفيها توجّه أبو داود خالد بن إبراهيم إلى الخُتَّل فتحصّن ملكها منه هو وأناس ، فألحّ عليه أبو داود فخرج هو ومن معه من دَهَاقِينه ، فسار حتى انتهى إلى أرض فَرْغَانَة ، ودخل بلد الترك وانتهى إلى ملك الصين ، وأخذ أبو داود من ظفر به منهم ، فبعث بهم إلى أبى مسلم .

وحج بالناس فى هذه السنة زياد بن عبيد الله [١] .

ودخلت سنة أربع وثلاثين ومائة .

ذكر خلع بَسَّام بن إبراهيم
وما كان من أمره وقتل أخوال السفاح

فى هذه السنة خَلَع بسّام بن إبراهيم ، وكان من فرسان أهل خراسان ، وسار من عسكر السفاح هو وجماعة على رأيه سرًّا إلى المدائن ، فوجّه إليهم السفاح خازم بن خزيمة فاقتتلوا ، فانهزم بسّام وقتل أكثر من معه واستبيح عسكرهم ، وتبعهم خازم إلى أن بلغ مَاه [٢] ، ثم انصرف فمرّ بذات المطامير ، وبها أخوال السفاح من بنى عبد المدان وهم خمسة وثلاثون رجلا ، ومن غيرهم ثمانية عشر ومن مواليهم سبعة عشر ، فلم يسلّم عليهم فلما جاوزهم شتموه ، وكان فى قلبه منهم ، لأنه بلغه أن المغيرة بن الفَزَع من أصحاب بَسَّام لجأ إليهم ، فرجع إليهم فسألهم عن المغيرة ، فقالوا : مرّ بنا رجل مجتاز لا نعرفه ، فأقام فى قريتنا ليلة ثم خرج منها ، فقال لهم : أنتم أخوال أمير المومنين يأتيكم عدوه فيأمن فى قريتكم !! فهلا اجتمعتم فأخذتموه !! فأغلظوا له فى الجواب فأمر بهم فضربت أعناقهم جميعا ،

(١) فى المخطوطات : عبد الله والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٩٤ والطبرى جـ٦ ص١١٢ .

(٢) غير واردة فى الكامل لابن الاثير المطبوع ولكن الطبرى أوردها جـ٦ ص ١١٢ كما فى المخطوطات مما يدل على أنها ساقطة فى طبعة الكامل .

وهدم دورهم ونهب أموالهم ثم انصرف . فبلغ ذلك اليمانية فاجتمعوا . ودخل زياد بن عبيد الله الحارثى معهم على السفاح ، فقالوا : إن خازما[1] اجترأ عليك واستخف بحقك ، وقتل أخوالك الذين قطعوا البلاد وأتوك ، معتزين بك طالبين معروفك ، حتى إذا صاروا فى جوارك قتلهم خازم ، ونهب أموالهم وهدم دورهم بلا حدث أحدثوه ، فهمّ بقتل خازم ، فبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطيّة ، فدخلا على السفاح وصرفوه عن ذلك ، وقالا إن له سابقة وإن كنت لابد قاتله فابعثه لأمر ، إن قتل فيه فقد بلغت الذى تريد ، وإن ظفر كان ظفره لك . وأشاروا عليه بتوجيهه إلى من بعمان من الخوارج ، وإلى الخوارج الذين بجزيرة ابركاوان[2] مع شيبان بن عبد العزيز اليَشْكرى ، وأمر السفاح بتوجيهه مع سبعمائة رجل ، وكتب إلى سليمان بن على وهو بالبصرة بحملهم فى السفن إلى جزيرة ابركاوان وعمان ، فسار خازم .

ذكر خبر الخوارج وقتل شيبان بن عبد العزيز

قال : وسار خازم إلى البصرة وقد انتخب من أهله وعشيرته ومواليه ومن أهل مَرْو الرُّوذ من يثق به ، ثم سار فلما وصل إلى البصرة انضم إليه عدة من بنى تميم . فساروا فى البحر إلى جزيرة ابركاوان . فوجّه خازم نَضَلة[3] بن نُعيم النَّهْشَلى فى خمسمائة إلى شيبان ، فالتقوا وقتتلوا قتالا شديدا ، فركب

(١) فى الطبرى جـ٦ ص ١١٤ : خادم وهو خطأ .

(٢) هذه الجزيرة ربما هى التى تعرف الآن باسم كشم والتى تسمى أيضا الجزيرة الطويلة . ومهما يكن من أمر فالمصادر القديمة تختلف فى اسمها فهى تذكر فى الطبرى جـ٦ ص ١١٤ ابن كاوان . ويشير إلى نفس هذا الاسم ناشر فتوح البلدان فى هامش طبعة سنة ١٨٦٦ أوروبا وكذلك المخطوطتان ف . ص . أما الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٤٣ ويقوت فى معجم البلدان فيذكرانها بركاوان وهو الاسم الذى تذكره مخطوطة ك ولم يستطع لوسترنج فى كتابه (بلاد الخلافة الشرقية ص ٢٦١ طبعة كمبردج) أن يبين الاسم الصحيح . على أن أقرب إلى الصواب هو ماذكره فى فتوح البلدان للبلاذرى وهو ما أثبتناه .

(٣) هكذا فى ف . ص ويتفق معهما الطبرى جـ٦ ص ١١٤ . ك والكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٤٣ : فضلة وهو تحريف .

شيبان وأصحابه فى السفن إلى عمان وهم صُفْرِيَّة ، فقاتلهم الجُلَنْدَى وأصحابه وهم أَبَاضِيَّة ، واشتد القتال بينهم فقتل شيبان ومن معه ، وقد ذكرنا فى سنة تسع وعشرين ومائة فى أخبار مروان بن محمد قتل شيبان هذا ، وليس هو شيبان الذى قتل بخراسان ، ذاك شيبان بن سلمة ، ثم سار خازم فى البحر بمن معه حتى أرسوا بساحل عمان ، فخرجوا فلقيهم الجُلَنْدَى وأصحابه ، فاقتتلوا قتالا شديدا وكثر القتل بينهم ، ثم اقتتلوا من الغد فقتل من الخوارج نحو تسعمائة ، وأحرقوا منهم نحو تسعين رجلا ، ثم التقوا بعد سبعة أيام من مقدم خازم ، وجعلوا النفط على أسنة رماحهم ، وأضرموا بيوت أصحاب الجلندى وكانت من خشب فاحترقت ، واشتغلوا بها وبمن فيها من أولادهم وأموالهم ، فحمل عليهم أصحاب خازم فقتل الجلندى ، وبلغ عدة القتلى عشرة آلاف ، فبعث برءوسهم إلى البصرة ثم إلى السفاح ، واستقدم خازما بعد ذلك بشهر فقدم عليه .

وفيها وجّه السفاح موسى بن كعب إلى السند[1] لقتال منصور بن جُمْهُور ، فسار إليه والتقوا فانهزم منصور ومن معه ، فمات عطشا فى الرمال ، وقيل أصابته بطنة فمات ، وسمع خليفته على السند بهزيمته فرحل بعيال منصور ، فدخل بهم بلاد الخَزَر .

وفيها توفى محمد بن يزيد وهو على اليمن ، فاستعمل السفاح مكانه على ابن الربيع بن عبيد الله[2] . وفيها تحوّل السفاح من الحيرة إلى الأنبار فى ذى الحجة . وفيها ضرب المنار[3] والأميال من الكوفة إلى مكة المشرفة . وحج بالناس عيسى بن موسى وهو على الكوفة .

ودخلت سنة خمس وثلاثين ومائة .

---

(١) فى الطبرى جـ٦ ص ١١٦ : الهند .

(٢) هكذا فى الطبرى جـ٦ ص ١١٦ والكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٤٤ . أما ف ، ك : عبد الله ولعله تحريف .

(٣) التعبير فى الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٤٤ والطبرى جـ ٦ ص ١١٦ : وفيها ضرب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال .

ذكر خروج زياد بن صالح

فى هذه السنة خرج زياد بن صالح وراء النهر ، فسار إليه أبو مسلم من مرو ، وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم ـ نصر بن راشد إلى ترمذ ، مخافة أن يبعث زياد بن صالح إلى الحصن والسفن فيأخذها ، ففعل ذلك نصر وأقام بها ، فخرج عليه ناس من الطَّالِقَان مع رجل يكنى أبا إسحاق فقتلوا نصرا ، فبعث أبو دواد[1] عيسى بن ماهان فقتل قتلة نصر ، ومضى أبو مسلم مسرعا حتى انتهى إلى آمُل ومعه سبَّاع بن النعمان الأزدى ، وكان السفاح قد أرسله لقتال زياد بن صالح ، وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبى مسلم ويقتله ، فأخبر أبا مسلم بذلك فحبس سبَّاعا بآمُل ، وغزا أبو مسلم حتى نزل بخارى ، فأتاه عدّة من قواد زياد قد خلعوا زياذا ، وأخبروا أبا مسلم أن سبَّاع بن النعمان أفسد[2] زيادا ، فكتب إلى عامله بآمل أن يقتله فقتله ، ولجأ زياد إلى دهقان هناك فقتله ، وحمل رأسه إلى أبى مسلم ، فرجع إلى مرو . وفيها غزا عبد الرحمن[3] بن حبيب جزيرة صقلية فغنم ونهب وسبى بعد أن غزا تِلمْسَان . وحج بالناس فى هذه السنة سليمان بن على .

ودخلت سنة ست وثلاثين ومائة .

---

(١) فى المخطوطات : أبا داود على أن ناسخ (ص) استدرك فجعل رأس الواو فى (أبو) ملصقا بالألف . أما تعبير الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٤٤ فهو : ... فلما بلغ ذلك أبا داود بعث عيسى بن ماهان . وهو ما يفهم من الطبرى جـ ٦ ص ١١٧ .

(٢) يظهر أن النساخ لم يستطيعوا قراءة هذه الكلمة فكتبوها : ابن بدر والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٤٤ ومما يؤكد الخطأ أن المؤلف ينقل عن الكامل بالنص .

(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٤٥ : عبد الله بن حبيب وهو خطأ أو سهو ، لأن المعنى هنا هو عبد الرحمن الذى جد أبيه عقبة بن نافع الفهرى ، وقد كان أميرا شجاعا بايعه أهل شمال أفريقية حتى تونس ، وهو الذى غزا تلمسان وصقلية وسردينية وغنم غنائم هائلة ودوخ المغرب واستقل بإمارته أو حكم مستقلا عشرين وسبعة أشهر ولم ينهزم له عسكر قط فيما يقال وقتله أخواه غيلة (راجع البيان المغرب ٦٧/١ والاستقصا ٥٢/١ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٣٢ ط أوروبا) وقد كتب الزركلى فى الأعلام ج ٤ ص ٧٣ ترجمة مختصرة عن هذا الفارس البطل ولكنها قيمة . واسمه الكامل هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى .

ذكر وفاة أبي العباس السفاح

فى هذه السنة : توفى أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح ، وكانت وفاته بالأنبار بالمدينة التى بناها وسماها الهاشمية ، لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ـ وقيل لاثنتى عشرة ليلة مضت منه ـ بمرض الجدرى ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، وقيل ست وثلاثون ، وقيل ثمان وعشرون ، وكانت ولايته من لدن قتل مروان إلى أن توفى أربع سنين ، ومن لدن بويع بالخلافة أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان جعدا أبيض طويلا ، أقنى الأنف حسن الوجه واللحية ، وقيل إنه سُمّ .

وحكى : أنه وصل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بألفى ألف درهم ، ولم يعط خليفة هذه الجملة . وكان نقش خاتمه : الله ثقة عبد الله وبه يؤمن . أولاده : محمد مات صغيرا ورَابِطة تزوجها المهدى . وزراؤه : أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وهو أول من لقب بالوزارة . ولم يكن خلّالا وإنما كان منزله بالكوفة بقرب الخلّالين ، فكان يجلس عندهم فسمى الخلّال ، ثم قتله على ما قدمناه واستوزر خالد بن بَرْمَك وقد قدّمنا أنه كان على الخراج . وكانت الدفاتر فى الدواوين صحفا مدرجة ، فأول من جعلها دفاتر من جلود خالد بن برمك . قضاته : ابن أبى لَيْلَى الأنصارى ثم يحيى بن سعيد الأنصارى . حاجبه:أبو غسّان صالح بن الهيثم مولاه .

الأمير بمصر : صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، ثم سار عنها واستخلف أبا عون عبد الملك بن يزيد ، ثم عاد صالح بن على وقد جمع له مصر وفلسطين وأفريقية ، فسيّر أبا عون إلى أفريقية . قاضيه بها عبد الرحمن بن سالم إلى أن صرفه أبو عون وأعاد حسين بن نعيم ، ثم اعتزل وولى أبو عون ـ عون بن سليمان .

قال : ولما مات السفّاح صلى عليه عمه عيسى بن على ، ودفنه بالأنبار العتيقة . وخلف تسع جباب وأربعة أقمصة وخمس سراويلات وأربعة طيالسة وثلاث مطارف خز .

قيل : نظر السفاح يوما فى المرآة فقال : اللهم إنى لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك : أنا الملك الشاب ، ولكنى أقول : اللهم عمّرنى طويلا فى طاعتك ، متمتعا بالعافية ، فما استتم كلامه حتى سمع غلاما يقول لغلام : الأجل بينى وبينك شهران وخمسة أيام ، فتطيّر من كلامه ، وقال : حسبى الله ولا قوة إلا بالله عليه توكلت وبه أستعين . فما مضت الأيام حتى أخذته الحمى ، ومات بعد شهرين وخمسة أيام .

ذكر خلافة المنصور

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وأمّه سَلّامة بنت بشر بن يزيد ، وهو الثانى من خلفاء بنى العباس . وكان أخوه السفاح قبل وفاته قد عقد البيعة له فى هذه السنة ، وجعله ولىّ عهد المسلمين من بعده ، وجعل من بعده ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على ، وجعلْ العهد فى ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى[1] ، فلما توفى السفاح كان أبو جعفر بمكة ، فأخذ البيعة له عيسى بن موسى ، وكتب إلى أبى جعفر يعلمه بوفاة السفاح والبيعة له ، فلقيه الرسول بمنزل صُفَيَّة[2] ، فقال : صفت لنا إن شاء الله ، وكتب إلى أبى مسلم يستدعيه ، وكان قد حجّ أيضا وقد تقدّم المنصور فأقبل إليه ، فلما جلس ألقى إليه الكتاب فقرأه وبكى واسترجع ، ونظر إلى أبى جعفر وقد جزع جزعا شديدا ، فقال : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ فقال أتخوّف شرّ عمى

(١) هذه العبارة التى بين الفصلتين ساقطة فى ص .

(٢) فى الطبرى جـ ٦ ص ١٢١ روايتان إحداهما تسمى المنزل زكية والأخرى تسميه صفية .

عبد الله وشيعة عليّ ، فقال : لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله تعالى ، إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان ، وهم لا يعصوننى فسرّى عنه ، وبايع له أبو مسلم ، وأقبلا حتى قدما الكوفة ، قال : ولما بايع عيسى بن موسى الناس لأبى جعفر أرسل إلى عبد الله بن عليّ بالشام ، يخبره بوفاة السفاح وبيعة المنصور ، وأمره أن يأخذ البيعة للمنصور فبايع لنفسه .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة .

فى هذه السنة قدم أبو جعفر المنصور من مكة إلى الكوفة ، فصلّى بأهلها الجمعة وخطبهم ، وسار إلى الأنبار فأقام بها وجمع أطرافه ، وكان عيسى بن موسى قد أحرز بيوت الأموال والخزائن والدواوين حتى قدم فسلّم الأمر إليه .

ذكر خروج عبد الله بن على وقتاله وهزيمته

كان عبد الله بن عليّ قدم على السفاح ، فجعله على الصائفة وسيّر معه أهل الشام وخراسان ، فسار حتى بلغ دُلوك ولم يُدْرِب ، فأتاه الخبر بوفاة السفاح وبيعة المنصور ، فرجع وبايع لنفسه وأعلم الناس أن السفاح لما وجّه الجنود إلى مروان بن محمد دعا أهل بيته ، وقال : من انتدب منكم لقتال مروان وسار إليه فهو ولى عهدى ، فلم ينتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده ، وقتلت من قتلت ، وشهد له أبو غانم الطائى وخُفاف المَرْوَرُوزِى وغيرهما من القواد فبايعوه ، ومنهم حميد بن قحطبة وغيره ، ثم سار عبد الله حتى أتى حرّان ، وبها مُقاتل العكى[1] قد استخلفه أبو جعفر لما سار إلى مكة ، فتحصّن منه مقاتل فحصره أربعين يوما ، وكان أبو مسلم قد عاد من

(١) هو مقاتل بن حكيم العكى وهو أحد القواد الذين حاربوا عامر بن ضبارة ، وفى هذا الفصل ـ فصل قتل عامر بن ضبارة ـ ذكرته المخطوطات صحيحا ، ولكنها هنا أخطأت فقالت العتكى بدلا من العكى ، ولكن الطبرى جـ ٦ ص ١٢٣ يذكره صحيحا ، ومن الغريب أن الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٤٨ يذكره هنا صحيحا ويخطئ بعد قليل فيسميه العتكى ، هذا الخطأ هو الذى تسبب فى الخطأ فى هذا الفصل .

الحج مع المنصور كما ذكرناه ، فقال للمنصور : إن شئت جمعت ثيابى فى منطقتى وخدمتك ، وإن شئت أتيت خراسان وأمددتك بالجنود ، وإن شئت سرت إلى حرب عبد الله بن على ، فأمره بالمسير لحرب عبد الله ، فسار نحوه فى الجنود ولم يتخلف عنه أحد ، فلما بلغ عبد الله إقبال أبى مسلم الخراسانى أعطى العكّى[1] أمانا ، فنزل إليه فيمن معه فوجّهه إلى عثمان بن عبد الأعلى الأزدى بالرقة ، ومعه ابناه ، وكتب معه كتابا ، فلما قدموا على عثمان دفع العكّى الكتاب إليه فقتله واحتبس أولاده ، قال : وخشى عبد الله ألا يناصحه أهل خراسان فقتل منهم نحوا من سبعة عشر ألفا ، واستعمل حميد بن قحطبة على حلب ، وكتب معه كتابا إلى زُفَر بن عاصم يأمره بقتل حميد إذا قدم عليه ، فلما كان ببعض الطريق قرأه ، فإذا فيه قتله ، فأعلم خاصته بما فيه وانقلب إلى العراق على الرصافة ، فتبعه ناس كثير ، وأمر المنصور محمد بن صُول بالمسير إلى عبد الله بن علىّ ليمكر به ، فلما أتاه قال له : سمعت أبا العباس يقول : الخليفة بعدى عمى عبد الله ، فقال له : كذبت إنما وضعك أبو جعفر وضرب عنقه . ثم أقبل عبد الله حتى نزل نَصِيبين وخندق عليه ، وقدم أبو مسلم ناحية نصيبين وأخذ طريق الشام ولم يعرض لعبد الله ، وكتب إليه: لم أومر بقتالك ، وإنما أمير المؤمنين ولّانى الشام ، فأنا أريدها ، فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام له : كيف نقيم معك ؟ وهذا يأتى بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ، ويسبى ذرارينا ، ولكنّا نخرج إلى بلادنا فنمنعه ونقاتله ، فقال لهم عبد الله : والله ما يريد الشام وما توجّه إلا لقتالكم ، ولئن أقمتم ليأتينّكم ، فأبوا إلا المسير إلى الشام ، فارتحل عبد الله نحو الشام ، فنزل أبو مسلم فى معسكر عبد الله ،

---

(١) سبق أن ذكرنا أن المخطوطات تخطئ فتكتب العتكى ويشترك هنا معها الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٤٨ ، هذا الخطأ نراه فى مخطوط تاريخ ابن عساكر (التيمورية رقم ١٠٤١ تاريخ) فى الجزء الثالث والأربعين ص ٢١٦ فيسهو على الناسخ فيكتبه العلى ناسيا الخط المكمل ليكون الحرف كافا لا لاما .

وغوّر ما حوله من المياه ، فقال لأصحابه : ألم أقل لكم ، ورجع فنزل فى مكان عسكر أبى مسلم الذى كان به أولا ، ثم التقوا واقتتلوا خمسة أشهر عدة وقعات ، حتى كادت الهزيمة تكون على أصحاب أبى مسلم ، وانهزم بعضهم ، فكان أبو مسلم يرتجز فى ذلك فيقول :

من كان ينوى أهله فلا رجع فرّ من الموت وفى الموت وقع

فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سبع وثلاثين التقوا واقتتلوا ، فانهزم أصحاب عبد الله وتركوا معسكرهم فحواه أبو مسلم ، وكتب بذلك إلى المنصور ، فأرسل أبا الخصيب مولاه يحصى ما أصابوا من العسكر ، فغضب أبو مسلم . قال : ومضى عبد الله وعبد الصمد ابنا علىّ ، فقدم عبد الصمد الكوفة فاستأمن له عيسى بن موسى المنصور ، وأما عبد الله فإنه أتى أخاه سليمان بن علىّ بالبصرة ، فأقام عنده زمانا متواريا .

ذكر مقتل أبى مسلم الخراسانى

وكان مقتله لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة ، قال : وسبب ذلك أ ن المنصور كان قد حقد عليه أشياء كثيرة ، منها أن أبا مسلم كان قد كتب إلى السفاح يستأذنه فأذن له ، وكتب السفاح إلى المنصور – وهو على الجزيرة وأرمينية وأَذَرْبَيْجَان – أن أبا مسلم استأذننى فى الحج وأذنت له ، وهو يريد أن أوليه الموسم فاستأذنى أنت فى الحج ، فإنك إذا كنت بمكة لا يطمع أن يتقدمك ، فكتب المنصور إلى السفاح يستأذنه فى الحج فأذن له ، فقال أبو مسلم : ما[1] وجد أبو[2] جعفر عاما يحج فيه غير هذا ! ! وحجّا معاً ، فكان أبو مسلم يكسو الأعراب ، ويصلح الآبار

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٥٠ والطبرى جـ٦ ص ١٢٨ : أما .
(٢) فى المخطوطات : أبا جعفر ويظهر أن التعبير : ما وجدتَ أبا جعفر عاما تحج فيه غير هذا .

والطرق ، فصار الذكر له ، فلما صدر الناس عن الموسم تقدم أبو مسلم فى الطريق على المنصور ، وأتاه خبر السفاح كما قدّمناه ، فكتب إلى أبى جعفر يعزيه بالسفاح ولم يهنئه بالولاية ، ولم يُقم حتى يَلحقه ولم يرجع ، فغضب المنصور لذلك وكتب إليه كتابا غليظا ، فلما أتاه الكتاب كتب إليه يهنئه بالخلافة ، وتقدم أبو مسلم فأتى الأنبار ، فدعا عيسى بن موسى إلى أن يبايع له ، فأبى عيسى وقد قيل فى أمره ما قدمناه ، ثم جهّزه لمحاربة عبد الله بن على ومعه الحسن بن قحطبة ، فأرسل الحسن إلى أبى أيوب وزير المنصور يقول : إنى قد ارتبت [1] من أبى مسلم ، فإنه يأتيه كتاب أمير المؤمنين فيقرأه ثم يلقيه إلى أبى الهيثم ويضحكان استهزاء ، فقال أبو أيوب: نحن لأبى مسلم أشد تهمة (منّا) [2] لعبد الله .

فلما انهزم عبد الله وبعث المنصور أبا الخصيب يجمع الأموال ، فأراد أبو مسلم قتله فكُلِّم فيه فخلى سبيله ، وقال : أنا أمين على الدماء خائن فى الأموال ، وشتم المنصور فرجع أبو الخصيب وأخبر المنصور ، فخاف أن يمضى أبو مسلم إلى خراسان ، فكتب إليه : إنى قد ولّيتك مصر والشام ، فهى خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام ، فتكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحبّ لقاءك أتيته من قرب ، فلما أتاه الكتاب غضب وقال : يولينى مصر والشام وخراسان لى !! فكتب الرسول إلى المنصور بذلك .

وأقبل أبو مسلم من الجزيرة وقد أجمع على الخلاف ، وخرج يريد خراسان ، وسار المنصور من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبى مسلم فى المسير إليه ، فكتب إليه أبو مسلم وهو بالزاب : إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنّا نروى عن ملوك بنى ساسان : إن أخوف ما

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٥٠ : رأيت ولعله تحريف .
(٢) هذه غير موجودة بالأصل وهى إضافة لا يفهم النص بدونها .

يكون الوزراء إذا سكنت (١) الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك ما وفيت ، حريّون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى ، فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إليه : قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشيشة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر ما أنت به ، وليس من الشريطة التى أوجبت منك سمع ولا طاعة ، وحمّل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة ، لتسكن إليها إن أصغيت ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد بابا يفسد به ذات (٢) بينك أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك .

وقيل إن مكاتبة أبى مسلم إلى المنصور كانت على خلاف ما قدمناه . وأن المنصور لما سار إلى المدائن أخذ أبو مسلم طريق حلوان . فقال المنصور لعمه عيسى بن على ولمن حضره من بنى هاشم : اكتبوا إلى أبى مسلم ، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ، ويسألونه أن يتمّ ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذّرونه عاقبة البغى ، ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور ، وبعث المنصور الكتب مع أبى حميد المروروذى وقال له : كلّم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحدا ، ومنّه وأعلمه أنى رافعه وصانع به مالم أصنع بأحد ـ إن هو صلح وراجع فله ما أحب (٣) ، فإن أبَى فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لستُ للعباس وأنا برئ من محمد إن مضيت مشاقا ولم تأتنى ، إن (٤) وكلت أمرك

(١) هكذا فى ف ، ص والطبرى جـ٦ ص ١٣٠ . وفى الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٥١ ، ك : أمكنت،وهو تحريف كما يدل على ذلك ما يأتى بعدها .

(٢) هكذا فى جميع المخطوطات . وفى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٥١ . والطبرى جـ٦ ص ١٣١ : يفسد نيّتك .

(٣) فى الكامل حـ ٤ ص ٣٥٢ والطبرى حـ ٦ ص ١٣٢ :...وراجع ما أحب .

(٤) ساقطة فى ف . ك .

إلى أحد سواى ، وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسى ، ولو خضت البحر لخضته ، ولو[1] اقتحمت النار لاقتحمتها ، حتى أقتلك أو أموت قِبَل ذلك ، وأوصاه ألا يقول له هذا القول إلا بعد الإياس منه ، فسار أبو حميد وقدم على أبى مسلم بُحلْوان ، فدفع إليه الكتب وقال : إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله ، وخلاف ما عليه رأيه فيك ـ حسدا وبغيا ، يريدون إزالة النعمة وتغييرها ، فلا تفسد ما كان منك ، وقال له : يا أبا مسلم إنك لم تزل أمين آل محمد ، يعرفك بذلك الناس وماذخره الله لك فى ذلك من الأجر عنده أعظم مما أنت فيه من دنياك ، فلا تحبط أجرك ولا يستهوينّك الشيطان ، فقال له : متى كنت تكلمنى بهذا الكلام !! فقال أبو حميد : إنك دعوتنا إلى هذا الأمر وإلى طاعة أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فى بنى العباس ، وأمرتنا بقتال من خالف ، فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجمعنا الله على طاعتهم ، وألف بين قلوبنا حتى أتيناهم فى بلادهم ببصائر نافذة ، وطاعة خالصة ، أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن يفسد أمرنا وتفرّق كلمتنا ؟ وقد قلت لنا : من خالفكم فاقتلوه ، وإن خالفتكم فاقتلونى ، فأقبل أبو مسلم على أبى نصر مالك بن الهيثم ، وقال : أما تسمع كلامه لى !! ما هذا بكلامه ، فقال مالك : لا تسمع كلامه ولا يهولنّك هذا منه ، فلعمرى ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منه ، فامض لأمرك ولا ترجع ، فوالله لئن أتيته ليقتلنّك ، ولقد وقع فى نفسه منك مالا يأمنك معه أبدا ، فأمرهم بالقيام فنهضوا .

وأرسل أبو مسلم الكتب إلى نَيْزَك فقال : لا أرى أن تأتيه ، وأرى أن تأتى الرى فتقيم بها ، فتصيّر ما بين خراسان والرى لك ، وهم جندك لا يخالفونك ، فإن استقام لك استقمت له ، وإن أبى كنت فى جندك ، وكانت خراسان من ورائك ، وأنت ورأيك .

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٥٢ : أو وهو تحريف ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ ٦ ص ١٣٢ .

فدعا أبا حميد وقال له : ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن آتيه ، قال : قد عزمتَ على خلافه ، قال: نعم ، قال : لا تفعل ، قال لا أعود أبدا ، فلما أيس منه أبلغه الرسالة ، فوجم طويلا ثم قال : قم كررها وارتاع لقوله . وكان المنصور قد كتب لأبي داود ـ خليفة أبي مسلم بخراسان ـ حين اتهم أبا مسلم : أن لك إمرة خراسان ، فكتب أبو داود إلى أبي مسلم :

إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيّه صلى الله عليه وسلم . فلا تخالفنّ إمامك ولا ترجع إلا بأمره ، فوافاه كتابه وهو على تلك الحال فزاده رعبا ، فأرسل إلى أبي حميد فقال له : إني كنت عازما على المضي إلى خراسان ، ثم رأيت أن أوجّه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه ، فإنه ممن أثق به فوجّهه ، فلما قدم تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب ، وقال له المنصور : اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان وأجازه ، فرجع أبو إسحاق إلى أبي مسلم وقال : ما أنكرت شيئا ، ورأيتهم معظمين لحقك ، يرون لك ما يرون لأنفسهم ، وأشار عليه أن يرجع إلى المنصور فيعتذر إليه ، فقال له نيزك : قد أجمعت على الرجوع ؟ قال : نعم ، وتمثل :

ما للرجال مع القضاء محالة غلب[1] القضاء بحيلة الأقوام

قال : فإذا عزمت على هذا فخار الله لك . احفظ عني واحدة : إذا دخلت عليه فاقتله ، ثم بايع لمن شئت ، فإن الناس لا يخالفونك .

وكتب أبو مسلم إلى المنصور إنه منصرف إليه ، وسار نحوه واستخلف أبا نصر مالك بن الهيثم على عسكره ، وقال له : أقم حتى يأتيك كتابي ، فإن أتاك مختوما بنصف خاتم فأنا كتبته ، وإن أتاك بخاتمي كله فلم أختمه ، وقدم المدائن في ثلاثة آلاف رجل وخلف الناس بحلوان . قال : ولما دنا أبو مسلم من المنصور أمر الناس بتلقيه ، فتلقاه بنو هاشم والناس ، ثم قدم فدخل

(١) في الكامل جـ٤ ص٣٥٣ والطبري جـ٦ ص ١٣٣ : ذهب .

على المنصور فقبّل يده ، فأمره أن ينصرف ويستريح ليلته ويدخل الحمام فانصرف .

فلما كان من الغد دعا المنصور عثمان بن نَهِيك وأربعة من الحراس ، فأمرهم أنه إذا صفّق بيده أن يقتلوا أبا مسلم وتركهم خلف الرواق ، واستدعى أبا مسلم فدخل عليه ، فقال له المنصور : أخبرنى عن نصلين أصبتهما مع عبد الله بن على ، قال : هذا أحدهما ، قال : أرنيه فانتضاه وناوله إياه ، فوضعه المنصور تحت فراشه ، وأقبل يعاتبه وقال له : أخبرنى عن كتابك إلى السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين !؟ قال : ظننت أن أخذه لا يحلّ ، فلما أتانى كتابه علمت أنه وأهل بيته معدن العلم ؛ قال : أخبرنى عن تقدمك إياى بطريق مكة ، قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمت للرفق ؛ وذكره بذنوبه وما أنكره عليه ، وكان من جملة ما ذكر له ـ ألست الكاتب إلىّ تبدأ بنفسك ، وتخطب عمتى آمنة[1] بنت على ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، لقد ارتقيت ـ لا أمّ لك ـ مرتقًى صعبا ، ثم قال : وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير ؟ مع أثره فى دعوتنا وهو أحد نقبائنا[2] قبل أن يدخلك فى هذا الأمر ! قال : أراد الخلاف علىّ وعصانى فقتلته ، فلما طال عتاب المنصور له قال : لا يقال لى هذا بعد بلائى وما كان منّى ! قال : يا ابن الخبيثة ، والله لو كانت أَمَة مكانك لَأَجْزَأت ، إنما عملت فى دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا ، فأخذ أبو مسلم يد المنصور يقبّلها ويعتذر إليه ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ، والله مازدتنى إلا غضبا ، فقال أبو مسلم : دع هذا ، فوالله قد أصبحت ما أخاف إلا الله ، فشتمه المنصور وصفّق بيده على الأخرى ، فخرج إليه الحرس فضربه عثمان

(١) فى الطبرى جـ٦ ص ١٣٧ : أمينة،أما فى الكامل جـ٤ ص ٣٥٤ : آمنة والمؤلف ينقل عنه .
(٢) فى الكامل لابن الأثير جـ٦ ص ٣٥٤ : فتياننا،وهو تحريف،هذا والطبرى جـ٦ ص ١٣٧ يؤيد المخطوطات .

ابن نَهِيك فقطع حبائل سيفه ، فقال : استبقنى لعدوك يا أمير المؤمنين ، فقال : لا أبقانى الله إذنْ ، وأىّ عدو أعدى لى منك ؟ ! وأخذته سيوف الحرس حتى قتلوه ، وهو ينادى العفو العفو ، فقال المنصور يا ابن اللخناء والسيوف قدْ اعتورتك ! ! وأنشد المنصور[1] :

اشرب بكأس كنت تسقى بها أمرّ فى فيك من العلقم
زعمت أن الدين لا يقتضى كـذبت والله أبـا مجرم

قال : وكان أبو مسلم قد قتل ستمائة ألف صبرا ، قال : ولما قُتل قال لأصحابه اجتمعوا ، فاجتمعوا فنثرت عليهم بَدْرة ، فلما أكبوا ليلتقطوها طرح عليهم رأس أبى مسلم ، فلما رأوه تخاذلوا وتفرقوا ، قال : ثم خطب المنصور بعد مقتل أبى مسلم فقال :

أيها الناس لاتخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تمشوا فى ظلمة الباطل بعد سعيكم فى ضياء الحق ، إن أبا مسلم أحَسَنَ مبتدأً وأساء معقبا ، وأخذ من الناس[2] أكثر مما أعطانا ، ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيّته مالو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا فى قتله ، وعنّفنا فى إمهاله[3] ، ومازال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحلّ لنا عقوبته ، وأباحنا دمه فحكمنا فيه حكمه لنا فى غيره ، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه ، وما أحسن ما قال النابغة الذبيانى :

---

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٥٤ والطبرى جـ٦ ص ١٣٧ :

زعمت أن الدين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
سُقيت كأسا كنت تسقى بها أمرّ فى الحلق من العلقم

وهذان البيتان فى النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٣٥ ط ١٩٢٩م :

زعمت أن الدين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
اشرب بكأس كنت تسقى بها أمرّ فى الحلق من العلقم

(٢) بعد هذه الكلمة فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٥٦ : بنا .

(٣) فى نفس المصدر : إمهالنا .

فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على الصمد (١)

ثم نزل .

قال : وكان أبو مسلم قد سمع الحديث من عِكْرِمة وأبى (٤) الزبير المكى وثابت البنانى ومحمد بن على بن عبد الله بن عباس والسُّدِّى وروى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ وعبد الله بن المبارك وغيرهما ، وقيل لعبد الله بن المبارك : أبو مسلم كان خيراً أو الحجاج ؟ قال : لا أقول إن أبا مسلم خير من أحد ، ولكنّ الحجاج كان شرا منه ، وكان أبو مسلم فاتكاً شجاعاً ذا رأى وتدبير وحزم وعقل ومروءة .

قال : ولما قتل كتب المنصور إلى أبى نصر مالك بن الهيثم عن لسان أبى مسلم يأمره بحمل ثقله ، وما خلّف عنده ، وأن يقدم ، وختم الكتاب بخاتم أبى مسلم ، فلما رأى الخاتم تاما علم أن أبا مسلم لم يكتبه ، فقال : أفعلتموها ، وانحدر إلى همذان وهو يريد خراسان . فكتب المنصور له عهدا على شهرزور ، وكتب إلى زهير بن التركى وهو على همذان ، إن مرّ بك أبو نصر فاحبسه ، فأتاه الكتاب وهو بهمذان ، فقال له زهير : قد صنعت لك طعاما ، فلو أكرمتنى بدخول منزلى ، فحضر عنده فأخذه زهير وحبسه ، وقدم صاحب العهد على أبى نصر فخلّى زهير سبيله لهواه فيه فخرج ، ثم كتب المنصور إلى زهير بقتله ، فقال جاءنى كتاب بعهده فخليت سبيله ، ثم قدم أبو نصر على المنصور فقال : أشرت على أبى مسلم بالمضى إلى خراسان ، قال : نعم ، كانت له عندى أياد فنصحته ، وإن اصطنعنى أمير المؤمنين نصحت له وشكرت ، فعفا عنه ، فلما كان يوم الراوَنْدِيَّة قام أبو نصر

(١) هكذا فى جميع المخطوطات وفى الكامل جـ٤ ص ٣٥٦ : ضمد .

(٢) فى المخطوطات : عكرمة بن الزبير المكى وهو خطأ واضح ، والخطيب فى تاريخ بغداد جـ١٠ ص ٢٠٧ يوضح الاسم عن أبى الزبير محمد بن مسلم المكى هذا وأبو الفدا فى تاريخه البداية والنهاية جـ١٠ ص ٦٧ يقول إنه سمع الحديث عن إبراهيم وعبد الله ابنى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وربما تبين هذه الرواية اتجاه أبى مسلم .

على باب القصر ، وقال : أنا البواب اليوم ، لا يدخل أحد وأنا حيّ ، فعلم المنصور أنه نصح له . وقيل إن زهيرا سيّر أبا نصر إلى المنصور مقيّدا ، فمنّ عليه واستعمله على الموصل والله أعلم .

ذكر خروج سُنْبَاذ بخراسان

وفى هذه السنة خرج سُنباذ بخراسان يطلب بدم أبى مسلم ، وكان مجوسيا من قرية من قرى نيسابور يقال اهروانه[١] ؛ وكان من صنائع أبى مسلم فخرج غضبا لقتله ، وكثر أتباعه وكان عامتهم من أهل الجبال ، فغلب على نيسابور وقُومِس والرىّ وتسمى فيروز إِصْبَهْبَذ ، فلما صار بالرى أخذ خزائن أبى مسلم التى كان خلّفها هناك لما حجّ ، وسبى الحرم ونهب الأموال ولم يتعرض للتجار ، وأظهر أنه يريد قصد الكعبة ليهدمها ، فوجّه إليه المنصور جُمْهور بن مَرَّار العجلى فى عشرة آلاف فارس ، فالتقوا بين همذان والرى على طرف المفازة ، فعزم جمهور على مطاولته فلما التقوا قدّم سنباذ النساء من سبايا[٢] المسلمات على الجمال فى المحامل ، فلما رأين عسكر المسلمين قمن فى المحامل ونادين : وامحمداه ! ! ذهب الإسلام ، وقعقعت الريح فى أثوابهن فنفرت الإبل . وعادت على عسكر المجوس فتفرقوا ، وكانت الهزيمة عليهم وتبع المسلمون الإبل ، فوضعوا السيوف فى المجوس ومن معهم فقتلوهم كيف شاءوا ، وكان عدد القتلى نحواً من ستين ألفا وسَبَى ذراريهم ونساءهم ، ثم قتل سُنْبَاذ بين طبرستان وقومس ، وكان بين مخرجه وقتله سبعون ليلة ؛ وكان سبب قتله أنه قصد طَبَرِسْتَان ملتجئا إلى صاحبها ، فأرسل إلى طريقه غلاما[٣] له اسم طوس[٤] ، فضرب عنق سنباذ وأخذ ما

(١) هكذا فى المخطوطات وفى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٥٧ ، وفى الطبرى جـ٦ ص١٤٠ . اهن وانه .

(٢) هكذا التعبير فى المخطوطات وفى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٥٧ : السبايا من النساء المسلمات .

(٣) هكذا فى المخطوطات وفى الكامل لابن الأثيرجـ٤ ص٣٥٧ : عاملا .

(٤) فى الطبرى جـ٦ ص١٤١ : قتله لونان الطبرى .

معه من الأموال ، وكتب إلى المنصور بقتله ، فطلب المنصور الأموال التى كانت معه من صاحب طبرستان فأنكرها ، فسيّر الجنود لحربه فهرب إلى بلاد الديلم .

ذكر خروج مُلَبَّد[1] الشيبانى وقتله

وفى هذه السنة خرج مُلَبَّد بن حرملة الشيبانى فحكم بناحية الجزيرة ، فسار إليه روابط الجزيرة وهم نحو ألف فارس ، فقاتلهم فهزمهم ، ثم سار إليه يزيد بن حاتم المهلبى فهزمه ملبّد ، فوجّه إليه المنصور مولاه مهلهل بن صفوان فى ألفين نخبة الجند فهزمهم ، واستباح عسكرهم ، ثم وجّه إليه نزارا قائدا من قواد خراسان ، فقتله ملبّد وهزم أصحابه ، ثم وجه إليه زياد بن مشكان فى جمع كثير فهزمهم ، فوجّه إليه صالح بن صبيح فى جيش كثيف وخيل كثيرة وعدة فهزمهم ، ثم سار إليه حميد بن قحطبة ـ وهو يومئذ على الجزيرة ـ فهزمه ملبّد ، وتحصّن منه حميد وأعطاه مائة ألف درهم ، على أن يكفّ عنه ، فلما بلغ ذلك المنصور وجّه إليه عبد العزيز بن عبد الرحمن ، وضمّ إليه زياد بن مشكان ، فأكمن له ملبّد مائة فارس ، فلما التقوا خرج الكمين عليهم ، فانهزم عبد العزيز وقتل عامة أصحابه ، فوجّه إليه خازم بن خزيمة فى نحو ثمانية آلاف من المروروذية ، والتقوا واقتتلوا مرة بعد أخرى ، فانهزمت ميمنة خازم وميسرته وثبت هو فى القلب ، فنادى فى أصحابه : الأرض ، الأرض ، فنزلوا وعقروا عامة دوابهم وضربوا بالسيوف حتى تقطعت ، وتراجع أصحاب خازم ورشقوا أصحاب ملبّد بالسهام ، فقتل ملبّد فى ثمانمائة رجل بالنشاب ـ وكانوا قد ترجلوا ، وقتل منهم قبل ذلك ثلاثمائة ، وهرب الباقون فاتبعهم أصحاب خازم ، فقتل منهم مائة وخمسون

---

(١) ترسم المخطوطات الاسم وتخطىء فى النقط بشكل يدل بوضوح على عدم فقه اللفظ ، والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٥٧ والطبرى جـ٦ ص ١٤١ والنجوم الزاهرة جـ١ ص٣٣٧ والبداية والنهاية لأبى الفدا جـ١٠ ص ٧٣ .

رجلا ، وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ومائة . وقيل إن خروجه كان فيها .

وحجّ بالناس فى هذه السنة إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس وهو على الموصل .

ودخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة .

ذكر خلع جُمْهُور بن مَرَّار وقتله

فى هذه السنة خلع جمهور[1] بن مَرَّار العجلى ، وسبب ذلك أنه لما هزم سنباذ حوى ما فى عسكره ، وكان فيه خزائن أبى مسلم فلم يوجهها إلى المنصور ، فخاف فخلع ، فوجّه المنصور لحربه محمد بن الأشعث فى جيش عظيم ، فسار نحو الرىّ ففارقها جمهور نحو أصفهان فملكها ، فأرسل محمد عسكرا وأقام هو بالرى ، فأشار على جمهور بعض أصحابه أن يسير فى نخبة عسكره نحو محمد ، فسار إليه فبلغ محمدا الخبر فاحتاط وحذر ، وأتاه عسكر من خراسان فقوى بهم ، والتقوا بقصر الفيروزان بين الرى وأصفهان ، واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم أصحاب جمهور ، ولحق بأَذَرْبيجان ، وقتل من أصحابه خلق كثير ، ثم قتله أصحابه باسباذروا[2] وحملوا رأسه إلى المنصور .

وفى هذه السنة خرج قسطنطين ـ ملك الروم ـ إلى بلاد الإسلام ، فدخل مَلَطْية عنوة وقهر أهلها وهدم سورها ، وعفا عمن فيها من المقاتلة والذريّة ، ثم بنى صالح بن على ما هدمه الروم من سورها .

---

(١) فى تاريخ الطبرى جـ٦ ص ١٤٢ وكذلك طبعة أوروبا : جهور ، وهو خطأ كان ينبغى أن يحترز لأن الاسم سبق أن ذكره فى حربه مع سنْباذ كما ذكر من قبل فى مواضع متفرقة .

(٢) فى الطبرى جـ٦ ص ١٤٢ : اسباذرو ، وفى معجم البلدان لياقوت : اسبيذروذ : معناه النهر الأبيض وهو اسم لنهر مشهور من نواحى أذربيجان ، مخرجه من عند بارسيس ويصب فى بحر جرجان ، ولعلها المنطقة المقصودة .

وفيها بايع عبد الله بن على للمنصور فى المسجد الحرام . وحجّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن صالح بن على .

ودخلت سنة تسع وثلاثين ومائة .

فى هذه السنة : كان الفداء بين المنصور وملك الروم ، فاستنقذ المنصور أسرى قَالِيقَلاَ وغيرهم من الروم ، وعمّرها وردّ أهلها إليها ، وندب إليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم .

وفيها استولى عبد الرحمن بن معاوية على بلاد الأندلس ، على ما نذكره فى أخبار الدولة الأموية بالمغرب . وفيها عزل المنصور سليمان بن على عن البصرة ، فاختفى أخوه عبد الله بن على ومن معه من أصحابه ، خوفا من المنصور ، فأرسل المنصور إلى سليمان وعيسى ابنى علىّ فى إحضار عبد الله ، وأمّنه فأحضراه إليه وقواده ومواليه فى ذى الحجة ، فحبسه المنصور ومن معه من أصحابه ، ثم قتل بعضهم بحضرته ، وبعث بقيتهم إلى خالد بن إبراهيم ـ عامل خراسان ـ فقتلهم بها ، واستعمل على البصرة سفيان بن معاوية . وحج بالناس العباس بن محمد بن على .

ودخلت سنة أربعين ومائة .

فى هذه السنة : هلك أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلى عامل خراسان ، وكان سبب هلاكه أنّ ناسا من الجند ثاروا به ـ وهو بكشمَاهَن ـ ووصلوا إلى المنزل الذى هو فيه ، فأشرف عليهم من الحائط ووطىء حرف آجرة ، وجعل ينادى أصحابه ليعرفوا صوته ، فانكسرت الآجرة به عند الصباح ، فسقط على الأرض فانكسر ظهره فمات عند صلاة العصر ، فاستعمل المنصور عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى ، فقدم وأخذ جماعة من القواد الذين أتهمهم بالدعاء لولد على بن أبى طالب فقتلهم ، وحبس جماعة .

وفيها سيّر المنصور عبد الوهاب ابن أخيه إبراهيم الإمام ، والحسن بن قحطبة ، فى سبعين ألف مقاتل إلى مَلَطْية ، فعمروا ما كان خربه الروم منها فى ستة أشهر ، وأسكنها أربعة آلاف من الجند ، وأكثر فيها السلاح والذخائر . وبنى حصن قَلَوْذية[1] . فعاد إلى مَلَطْية من كان جلا منها .

وفيها حج المنصور فأحرم من الحيرة ، فلما قضى حجة توجّه إلى البيت المقدس ، ثم سار منه إلى الرَّقَة فقتل بها منصور بن جعونة العامرى ، وعاد إلى هاشمية الكوفة .

وفيهاأمر المنصور بعمارة مدينة المصّيصَة على يد جبريل بن يحيى ، وكان سورها قد تشعث من الزلازل وأهلها قليل ، فبنى السور وسماها المعمورة ، وبنى بها مسجداً جامعاً ، وفرض فيه لألف رجل ، وأسكنها كثيرا من أهلها .

ودخلت سنة إحدى وأربعين ومائة .

ذكر خروج الراوندية على المنصور وقتلهم

والراوندية قوم من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح[2] ، ويزعمون أن روح آدم حلت فى عثمان بن نهيك ، وأن ربّهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو المنصور ، وأن جبريل هو الهيثم بن معاوية ، فلما ظهروا وأتوا قصر المنصور فقالوا : هذا قصر المنصور ، فقالوا هذا قصر ربنا ، فأخذ المنصور رؤساءهم فحبس منهم ثمانين[3] رجلا ، فغضب أصحابهم ،

(١) بدون نقط فى المخطوطات والتصويب عن الكامل جـ٤ ص ٣٦٥ ومعجم البلدان لياقوت الحموى مادة قلوذية .

(٢) انتقال روح الميت إلى جسم آخر حى وهى غير الرجعة عقيدة الروافض التى تعنى عودة الشخص نفسه .

(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٦٥ والطبرى جـ٦ ص ١٤٧ : مائتين . ومن الواضح أن المؤلف ينقل من نسخة لابن الأثير غير هذه المنشورة ، كما نرى ذلك فى مواضع يختلف فيها المؤلف مع كامل ابن الأثير المطبوع .

وأخذوا نعشا فحملوه وليس فيه أحد ، فمرّوا على باب السجن ورموا النعش ، وحملوا على الناس ودخلوا السجن وأخرجوا أصحابهم ، وقصدوا المنصور وهم ستمائة رجل ، فغلقت أبواب المدينة ، وخرج المنصور من القصر ماشيا ، ولم يكن فى القصر دابة ، ثم أتى بدابة فركبها ، وأمر بعد ذلك اليوم أن تربط دابة معه فى القصر ، وخرج المنصور لهم فتكاثروا عليه حتى كادوا يقتلونه ، وجاء معن بن زائدة الشيبانى ـ وكان مستخفيا من المنصور لقتاله مع ابن هبيرة ، وكان المنصور شديد الطلب له ، وقد بذل فيه مالا كثيرا ، فتلثّم وترجّل وقاتل قتالا شديدا ، وكان المنصور على بغلة ولجامها بيد الربيع حاجبه ، فأتاه معن بن زائدة وقال : ياشيخ أنا أحق بهذا اللجام منك فى هذا الوقت وأعظم غَناء ، فقال المنصور : صدق ، فدفعه إليه ، فلم يزل يقاتل حتى حصل الظفر بالراوندية ، فقال له المنصور : من أنت ؟ قال : طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، فقال : قد آمنك الله على نفسك ومالك وأهلك ، مثلك يصطنع ؛ وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم فوقف على باب المنصور ، وقال : أنا البواب كما ذكرنا ذلك ، ونودى فى أهل السوق فقاتلوهم ، وفتح باب المدينة فدخل الناس ، فحمل عليهم خازم بن خزيمة حتى ألجأهم إلى حائط ، ثم حملوا عليه فكشفوه مرتين ، فقال الهيثم بن شُعْبَة : إذا كرّوا علينا فاسبقهم إلى الحائط ، فإذا رجعوا فقاتلهم ، ففعل ذلك فقتلوا جميعا ، وكان ذلك بالمدينة الهاشمية ، وأصيب يومئذ عثمان بن نهيك بسهم ، فمرض أياما ومات فصلى عليه المنصور ، وجعل على الحرس أبا العباس الطُّوسى ثم ولّى المنصور معن بن زائدة اليمن .

ذكر خلع عبد الجبار بخراسان ومسير المهدى إليه

وفى هذه السنة خلع عبد الجبار ابن عبد الرحمن ـ عامل خراسان ـ المنصور . وكان سبب ذلك أنه لمّا استعمله المنصور على خراسان عمد إلى

القواد ، فقتل بعضهم وحبس بعضهم ، فبلغ ذلك المنصور ، وأتاه كتاب بعضهم يقول : قد نغل[١] الأديم ، فقال المنصور لأبي أيوب : إن عبد الجبار قد أفنى شيعتنا ، وما فعل ذلك إلا وهو يريد أن يخلع ، فقال اكتب إليه : إنك تريد غزو الروم فليوجه إليك الجنود من خراسان ، وعليهم فرسانهم ووجوهم ، فإذا خرجوا منها فابعث إليه من شئت فلا يمتنع ، فكتب إليه المنصور فأجابه أن الترك قد جاشت[٢] ، وإن فرّقت الجند ذهبت خراسان ، فألقى الكتاب إلى أبي أيوب وقال : ما ترى ، فقال : قد أمكنك من قياده ، اكتب إليه : إن خراسان أهم إلى من غيرها ، وأنا موجه إليك الجنود ، ثم وجّه الجنود ليكونوا بخراسان ، فإن همّ بخلع أخذوا بعنقه ، فلما ورد الكتاب على عبد الجبار أجابه : إن خراسان لم تكن أسوأ حالا منها العام ، وإن دخلها الجنود هلكوا لضيق ما هم فيه من الغلاء ، فلما أتاه الكتاب ألقاه إلى أبي أيوب ، فقال له أبو أيوب : قد أبدى صفحته ، وقد خلع فلا تناظره ، فوجّه المنصور إليه المهدى ، وأمره بنزول الرى ، فسار المهدي ووجه خازم بن خزيمة بين يديه لحرب عبد الجبار ، ونزل المهدى نيسابور ، فلما بلغ ذلك أهل مرو الروذ ساروا إلى عبد الجبار ، وقاتلوه قتالا شديدا فانهزم منهم ، والتجأ إلى مقطنة[٣] فتوارى فيها ، فعبر إليه[٤] المجَشِّر بن مزاحم من أهل مرو الروذ فأخذه أسيرا ، فلما قدم خازم أتاه به وألبسه جبة صوف ، وحمله على بعير وجعل وجهه مما يلى عجز البعير ، وحمله إلى المنصور ومعه ولده وأصحابه ، فبسط عليهم العذاب واستخرج منهم الأموال ، ثم أمر فقطعت يد عبد الجبار ورجلاه وضربت عنقه ، وأمر بتسيير ولده إلى دهلك ـ جزيرة باليمن ، فلم يزالوا بها حتى أغار عليهم الهند

(١) فسد والمقصود فساد الأمر وتحكم .
(٢) تجمعت جموعها .
(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٦٧ معطنة وهو تحريف ويتفق مع المخطوطات الطبرى جـ٦ ص ١٥٠ .
(٤) ساقطة من ف ، ك .

فسبوهم فيمن سبوا ، ثم فودوا بعد ذلك . وقيل كان أمر عبد الجبار فى سنة اثنتين وأربعين فى شهر ربيع الأول .

ذكر فتح طبرستان

قال : ولما ظفر المهدى بعبد الجبار بغير تعب كره المنصور أن تبطل تلك النفقات التى أنفقت على المهدى ، فكتب إليه أن يغزو طبرستان وينزل الرىّ ، ويوجّه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة والجنود إلى الإصبهبذ ، وكان الإصبهبذ يومئذ محاربا المصمغان[1] ملك دُنْبَاوَنْد ، فبلغه دخول الجند بلاده ، ثم قال المصمغان للإصبهبذ متى قهروك صاروا إلىّ ، فاجتمعوا على حرب المسلمين وطالت تلك الحروب ، فوجه المنصور عمر بن العلاء إلى طبرستان ، وهو الذى يقول فيه بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عُمَراً ثم نمْ

وكان عالما ببلاد طبرستان ، فأخذ الجنود وقصد الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها ، وطالت الحرب وألحّ خازم بالقتال ففتح طبرستان وقتل منهم وأكثر ، وصار الإصبهبذ إلى قلعته وطلب الأمان ، على أن يسلّم القلعة وما فيها من الذخائر ، فكتب المهدى بذلك إلى المنصور ، فوجّه المنصور صالحا صاحب المصلى فأحصى ما فى الحصن وانصرفوا ، ودخل الإصبهبذ بلاد جيلان[2] من الديلم ، وأخذت ابنته وهى أم إبراهيم بن العباس بن محمد ، وقصدت الجنود المصمغان فظفروا به .

وفيها عزل زياد بن عبيد الله الحارثى عن مكة والمدينة والطائف ، واستعمل على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسرى فى شهر رجب ،

---

(١) هذه يذكرها الطبرى جـ٦ ص ١٥١ : مصمغان وهو خطأ مطبعى لأنه يذكر الاسم صحيحا بعد ذلك .

(٢) تخطىء المخطوطات فى النقط فى ف . ك . م ص فتترك النقط والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٦٨ والطبرى جـ٦ ص ١٥٢ .

وعلى مكة والطائف الهيثم بن معاوية العتكى من أهل خراسان . وحجّ بالناس فى هذه السنة صالح بن على بن عبد الله بن عباس وهو يومئذ على الشام .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين ومائة .

ذكر خلع عيينة بن موسى

فى هذه السنة خلع عيينة بن موسى بن كعب بالسند وكان عاملا عليها ، وسبب خلعه أن أباه كان يستخلف المسيّب بن زهير على الشرط ، فلما مات موسى أقام المسيّب على ما كان يلى من الشرط ، وخاف أن المنصور يحضر عيينة فيوليه ما كان إلى أبيه ، فكتب إليه بيت شعر ولم ينسب الكتاب إلى نفسه :

فأرضك أرضك إن تأتنا تنم نومة ليس فيها حُلُم

فخلع الطاعة ، فلما بلغ المنصور الخبر سار بعسكره حتى نزل جسر البصرة ، ووجه عمر بن حفص بن أبى صفرة العتكى عاملا على السند ، وأمره بمحاربة عيينة فسار وغلب على السند .

ذكر نكث الإصْبَهْبَذ

فى هذه السنة : نقض الإصبهبذ بطبرستان العهد بينه وبين المسلمين ، وقتل من كان ببلاده منهم ، فلما انتهى الخبر إلى المنصور سيّر مولاه أبا الخصيب ، وخازم بن خزيمة ، وروح بن حاتم ، وأقاموا يحاصرون الحصن وهو فيه ، ولما طال عليهم المقام احتال أبو الخصيب فى ذلك ، فقال لأصحابه : اضربونى واحلقوا رأسى ولحيتى ففعلوا ذلك به ، ولحق بالإصبهبذ فقال له : إنهم فعلوا بى هذا لأنهم تهمونى أنّ هواى معك ، وقال له : إنما أدلك على عورة عسكرهم ، فقبل الإصبهبذ ذلك وجعله فى خاصته ، وكان باب حصنه من حجر ، وكان يوكل بفتحه وغلقه ثقات

أصحابه نوبا بينهم ، فلما وثق الإصبهبذ بأبى الخصيب وكله بالباب فتولى فتحه وغلقه ، فكتب أبو الخصيب إلى روح وخازم وأعلمهم أنه قد ظفر ، وأوعدهم ليلة بفتح الباب ، فلما كان فى تلك الليلة فتح لهم ، فدخلوا الحصن فقتلوا من فيه من المقاتله وسبوا الذريّة ، وأخذوا شكْلَة[1] أم ابراهيم ابن المهدى ، وكان مع الإصبهبذ سم فشربه فمات ، وقيل إن ذلك كان فى سنة ثلاث وأربعين .

وفى هذه السنة مات سليمان بن على بن عبد الله بن عباس فى جمادى الآخرة وعمره تسع وخمسون سنة ، وفيها عزل نوفل بن الفرات عن مصر[2] ، ووليها حميد بن قحطبة ، وولّى المنصور أخاه العباس بن محمد على الجزيرة والثغور والعواصم ، وعزل عمه إسماعيل عن الموصل واستعمل عليها مالك بن الهيثم الخزاعى . وحج بالناس إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس .

ودخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة .

فى هذه السنة : ثار الديلم بالمسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فندب الناس المنصور إلى قتال الديلم وجهادهم ؛ وفيها عزل الهيثم بن معاوية عن مكة والطائف ، واستعمل السَّرِى بن عبد الله بن الحارث بن العباس ؛ وفيها عزل حميد بن قحطبة عن مصر واستعمل عليها يزيد بن حاتم[3] ، وحج بالناس فى هذه السنة عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله .

ودخلت سنة أربع وأربعين ومائة .

---

(١) قال الطبرى جـ٦ ص ١٥٣ ، ص ١٥٤ : وظفر بالبحترية وهى أم منصور بن المهدى . وأمها باكند بنت الإصبهبذ الأصم . وليس بالإصبهبذ الملك . ذاك اخو باكند وظفر بشكلة أم إبراهيم ابن المهدى . وهى بنت خرنابان قهرمان المصمغان .

(٢) هنا مطابق لما فى الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٦٩ ، أما الطبرى جـ٦ ص ١٥٤ فقد قال : ووليها محمد بن الأشعث ثم عزل عنها محمد ووليها نوفل بن الفرات . ثم عزل نوفل ووليها حميد ابن قحطبه .

(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٦٩ : وفيها عزل حميد بن قحطبه عن مصر . واستعمل عليها نوفل بن الفرات ثم عزل نوفل واستعمل عليها يزيد بن حاتم .

فى هذه السنة : سير المنصور الناس من أهل الكوفة والبصرة والجزيرة والموصل إلى غزو الديلم . واستعمل عليهم محمد بن أبى العباس السفاح . وفيها عزل المنصور عن المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسرى ، واستعمل عليها رياح بن عثمان المرى ، وكان سبب ذلك أن المنصور كان يتطلب محمد ابن عبد الله بن الحسن وأخاه إبراهيم بن عبد الله ، فلما استعمل محمد بن خالد على المدينة أمره بطلبهما ، فقدم المدينة وأنفق أموالاً عظيمة فى طلبهما ، فلم يظفر بهما فعزله واستعمل رياحا ، وأمره بمطالبة القسرى بالأموال وطلب محمد وإبراهيم ، فقدم المدينة وطالب محمد بن خالد بالمال وضربه وسجنه ، وأخذ كاتبه رِزَاما[1] وعاقبه ، وألزمه أن يذكر له ما أخذ محمد من الأموال ، فلم يجبه إلى ذلك ، فلما طال عليه الأمر وشدّد عليه العذاب أجابه ، فقال له رياح : أحْضر الرقيعة[2] وقت اجتماع الناس ، فلما اجتمع الناس أحضره ، فقال : أيها الناس إن الأمير أمرنى أن أرفع على محمد بن خالد ، وقد كتبت كتابا وأنا أشهدكم أن كل ما فيه باطل ، فأمر به رياح فضرب مائة سوط ورده إلى السجن .

وفيها حج المنصور فلما عاد من حجه إلى المدينة لم يدخلها ، ونزل الرَّبَذَة ، وكان قد أمر رياحا بحبس أولاد الحسن فحبسهم ، فلما رجع أمر بحملهم إلى العراق . فأخرجهم من السجن إلى الربذة والأغلال فى أعناقهم وأرجلهم ، وحملوا بغير وطاء ، وحبسهم بقصر ابن هبيرة ، وضرب محمد ابن عبد الله بن عمرو بن عثمان[3] ـ وكان قد حبسه معهم ـ خمسين ومائة سوط ، فسالت إحدى عينيه بضربة أصابتها ، ومحمد هذا هو الذى يسمى

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٧٣ : زراعا وهو تحريف .
(٢) نفس المصدر السابق : الرفيعة وهو تحريف .
(٣) هكذا فى جميع المخطوطات وفى البداية والنهاية لأبى الفدا جـ١٠ ص ٨٢ ، فى الكامل لابن الأثير جـ٤ ص ٣٧٥ كذلك الطبرى جـ٦ ص ١٧٩ : محمد بن عبد الله بن عمرو ، وينفرد الكامل بزيادة العثمانى ويذكره قبل ذلك كالمخطوطات جـ٤ ص ٣٧٤ .

الديباج ، كل ذلك لخوفه من ظهور محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن حسن على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ودخلت سنة خمس وأربعين ومائة .

ظهور محمد بن عبد الله

فى هذه السنة : ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب [1] بالمدينة ودعا إلى نفسه ، وحبس رياح بن عثمان عامل المدينة ، وأخرج محمد بن خالد القسرى من الحبس ، واستعمل العمال على المدينة ومكة والطائف واليمن ، وكان خروجه لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة منها ، وكان بينه وبين المنصور مكاتبات سنذكرها فى أخبار محمد بن عبد الله ، ولم تغن شيئا ، فندب المنصور لقتاله عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس ، فالتقوا فقتل محمد فى يوم الإثنين بعد العصر لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان منها ، وقتل معه جماعة سنذكر ذلك مستوفى فى أخباره إن شاء الله

وفيها ظهر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ـ وهو أخو محمد ـ بالبصرة ، وبايع الناس ، وكان ظهوره فى أول شهر رمضان ، وقتل يوم الإثنين لخمس بقين من ذى القعدة منها . وسنذكر ذلك مستوفى فى موضعه إن شاء الله تعالى

ذكر وثوب السودان بالمدينة

وفى هذه السنة : ثار السودان بالمدينة على عاملها عبد الله بن الربيع الحارثى فهرب منهم ، وسبب ذلك أن المنصور لما استعمله قدم المدينة لخمس بقين من شوال ، فنازع جنده التجار فى بعض ما يشترونه منهم ، فشكوا ذلك

(١) فى المخطوطات : محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو خطأ أو تحريف .

إليه فانتهر التجار وشتمهم ، فتزايد طمع الجند فعدوا على صيرفى فنازعوه كيسه ، فاستعان بالناس فخلصوه منه[١] ، وشكا أهل المدينة إلى ابن الربيع فلم ينكره ، ثم جاء رجل من الجند إلى جزار ، فاشترى منه لحما فى يوم جمعة فلم يعطه الثمن ، وشهر عليه السيف فضربه الجزار بشفرة فى خاصرته فقتله ، واجتمع الجزارون وتنادى السودان فقاتلوهم ، ونفخوا فى بوق لهم فسمع السودان من العالية والسافلة فاجتمعوا ، وكان رؤساؤهم ثلاثة ، وهم:وثيق ويعقل وزمعة ، فقتلوا فى الجند حتى أمسوا ، وقصدوا ابن الربيع فهرب منهم ، وأتى بطن نخل على ليلتين من المدينة فنزل به ، وانتهب السودان طعاما للمنصور وزيتا وغيره ، فباعوا الحمل الدقيق بدرهمين ، والراوية الزيت بأربعة دراهم ، ولم يصل الناس فى ذلك اليوم جمعة ، فذهب محمد بن عمران ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما إلى العبيد فكلموهم ، فقالوا : مرحبا بموالينا ، والله ما قمنا إلا أنفة بما عمل بكم ، فأمرنا إليكم ، فأقبلوا بهم إلى المسجد فخطبهم ابن أبى سبرة ، وحثهم على الطاعة فتراجعوا ، ثم قال لهم — من الغد إنكم كان منكم ما كان بالأمس[٢] — نهبتهم طعام أمير المؤمنين . فلا يبقيّن عند أحد منه شىء إلا ردّه فردّوه ، ورجع ابن الربيع إلى المدينة فقطع يد وثيق ويعقل وغيرهما .

ذكر بناء مدينة بغداد وانتقال أبى جعفر المنصور إليها

وفى هذه السنة ابتدأ المنصور فى بناء مدينة بغداد ، وسبب ذلك أنه كان قد ابتنى المدينة الهاشمية بنواحى الكوفة ، فلما ثارت الراوندية فيها كره سكناها لذلك ، ولجوار أهل الكوفة فإنه كان لا يأمنهم على نفسه ، فخرج يرتاد موضعاً لبنائها ، وكان بعض جنده قد تخلف عنه بالمدائن لرمد أصابه ،

(١) هكذا فى المخطوطات ويظهر أن الضمير يشير إلى فرد من الجند .
(٢) التعبير فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ١٤ : فلما كان الغد قال لهم ابن أبى سبرة . إنكم قد كان منكم بالأمس ما قد علمتم ...

فسأله الطبيب الذى يعالجه عن سبب حركة المنصور فأخبره ، فقال الطبيب : إنّا نجد فى كتاب عندنا أن رجلا يدعى مقلاصا يبنى مدينة ، بين دجلة والصراة تدعى الزوراء ، فإذا أسسها وبنى بعضها أتاه فتق من الحجاز ، فقطع بناءها وأصلح ذلك الفتق ، ثم أتاه فتق من البصرة أعظم منه ، فلم يلبث الفتقان أن يلتئما ، ثم يعود إلى بنائها فيتمه ، ثم يعمر زمنا طويلا ويبقى الملك فى عقبه ، فقدم ذلك الجندى على المنصور وأخبره الخبر ، فقال : أنا والله كنت أدعى مقلاصا ثم زال عنّى ، وسار حتى نزل الدير ـ هو جوار قصره المعروف بالخلد ، ودعا صاحب الدير والبطريق وغيرهما ، فاتفق رأيهم على عمارتها فى موضعها[1] ، وابتدأ بعمارتها فى سنة خمس وأربعين ومائة ، وكتب إلى سائر البلاد فى إنفاذ الصناع والفعلة ، وأمر أن يختار له من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة ، فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة ، وأمر فخطت المدينة بالرماد ، فشقها ورآها ، ثم أمر أن يجعل على الرماد حب القطن ويشعل بالنار ، ونظر إليها وهى تشتعل ففهمها ، وأمر بحفر أساسها على ذلك الرسم ، ووكل بها أربعة من القواد ، كل قائد على ربع ، ووكل أبا حنيفة بعدّ[2] الآجر واللبن ، وكان قبل ذلك أراده المنصور على ولاية القضاء والمظالم فلم يجب ، فحلف المنصور أنه لا بد أن يعمل له ، فأجابه أن ينظر فى عمارة بغداد ، ويعدّ الآجر واللبن بالقصب ـ وهو أول من فعل ذلك ، وجعل المنصور عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا ، وجعل فى البناء القصب والخشب ، ووضع بيده أول لبنة وقال : بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله ، فلما بلغ السور قدر قامة جاء الخبر

(١) ساقطة من (ف) .

(٢) فى المخطوطات : بعمل الآجر واللبن : والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ١٥ على ذلك كان الخطأ فى العبارة المماثلة بعد .

بظهور محمد بن عبد الله فقطع البناء وأقام بالكوفة حتى فرغ من حرب محمد وأخيه إبراهيم ، ثم عاد إلى بغداد فأتم بناءها ، وكان المنصور قد أعد جميع ما تحتاج إليه المدينة ، من آلات البناء والخشب والساج وغيره ، واستخلف حين شخص إلى الكوفة على إصلاح ما أعدّ سَلْم (٣) مولاه ، فبلغه أن إبراهيم قد هزم عسكر المنصور فأحرق جميع ذلك .

قال : ولما انقضى أمر إبراهيم عاد المنصور إلى بغداد فى صفر سنة ست وأربعين ومائة ، واستشار خالد بن برمك فى نقض المدائن وإيوان كسرى ، ونقل النقاضة إلى بغداد ، فقال : لا أرى ذلك لأنه علم من أعلام الإسلام ، فقال له : أبيت إلا الميل إلى أصحابك العجم ! ! وأمر بنقض القصر الأبيض فنقضت ناحية منه ، فلم يوف ماتحصل من النقاضة بما غرم عليه من الكلفة ، فاستشار خالد بن برمك فقال : كنت لا أرى ذلك قبل ، أما إذ فعلت فأرى أن يهدم لئلا يقال عجزت عن هدم ما بناه غيرك ، فأعرض عنه وترك هدمه ، ونقل أبواب مدينة واسط فجعلها على بغداد ، وباباً جيء به من الشام ، وبابا من الكوفة كان عمله خالد القسرى ، وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض ، وجعل لها سورين ، فالسور الداخل أعلى من الخارج ، وبنى قصره فى وسطها ، والمسجد الجامع بجانب القصر ، وكان اللبن الذى يبنى به ذراع فى ذراع ، ووزن بعض اللبن لما نقص فكان مائة رطل وسبعة عشر رطلا ، وكانت الأسواق فى المدينة فجاء رسول لملك الروم ، فأمر أن يطاف به المدينة ، ثم قال له : كيف رأيت ؟ فقال : رأيت بناء حسنا إلا أنّ أعداءك معك ، وهم السوقة ، فأمر المنصور بإخراجهم إلى الكرخ .

قال ابن الأثير : وكان مقدار النفقة على بنائها وبناء المسجد والقصر والأسواق والفصلان والخنادق والأبواب أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ١٥ : لسلم وهو تحريف وانظر الطبرى جـ ٦ ص ٢٣٩ .

وثلاثين درهما ، وكان الأستاذ من البنائين يعمل يومه بقيراط فضة ، والروز كارى[١] بحبتين ، وحاسب القواد عند الفراغ وأخذ منهم ما بقى عندهم ، فبقى عند خالد بن الصلت خمسة عشر درهما فحبسه عليها وأخذها منه .

وفى سنة خمس وأربعين خرجت الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة وحج بالناس السرى بن عبد الله بن الحارث بن العباس .

ودخلت سنة ست وأربعين ومائة .

فى هذه السنة كملت عمارة بغداد ، وقد تقدم ذكر ذلك . وفيها عزل سلم بن قُتَيْبَة عن البصرة واستعمل عليها محمد بن سليمان ؛ وعزل عن المدينة عبد الله بن الربيع ، واستعمل عليها جعفر بن سليمان ؛ وعزل عن مكة السرى بن عبد الله ، ووليها عبد الصمد بن على . وحج بالناس فى هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام .

ودخلت سنة سبع وأربعين ومائة .

فى هذه السنة أغار استرخان الخوارزمى فى جمع من الترك بناحية أرمينية ، فسبى من المسلمين وأهل الذمّة خلقا كثيرا ، ودخلوا تفليس ، وكان حرب بن عبد الله مقيما بالموصل فى ألفين من الجند لمكان الخوارج الذين بالجزيرة ، فسيّر المنصور لمحاربة الترك جبريل بن يحيى وحرب بن عبد الله ، فقاتلهم فقتل حرب وهزم جبريل بن يحيى ، وقتل خلق من أصحابه .

ذكر البيعة للمهدى[٢]
وخلع عيسى بن موسى

فى هذه السنة : كلم المنصور عيسى بن موسى فى أن يخلع نفسه من

(١) أى العامل اليومى .
(٢) هنا خطأ فى ك : أخطأ الناسخ فوضع هذا العنوان للموضوع التالى ووضع عنوان الموضوع التالى هنا فهو خطأ فى النقل .

ولاية العهد ، وتقدّم للمهدى فامتنع من ذلك ، فاطرحه المنصور وحطّ من رتبته ، وقدّم المهدى عليه فى الجلوس ، وأذاه بأنواع الأذى وأهانه بأنواع الإهانة ، وآخر الأمر إن المنصور أمر الربيع أن يخنق عيسى بحمائل سيفه ، فخنقه وهو يستغيث :الله الله فى دمى يا أمير المؤمنين ، والمنصور يقول : ازهق نفسه ، هذا بحضور أبيه موسى ، فقام أبوه عند ذلك وبايع للمهدى ، ثم جعل عيسى بن موسى بعده ، فقال الناس : هذا الذى كان غدا فأصبح بعد غد هذا أحد الأقوال فى خلعه ، وقيل بل شهد عليه ثلاثون نفرا من شيعة المنصور ، أنه خلع نفسه وبايع للمهدى فأنكر ذلك ، فلم يسمع منه ، وقيل بل اشترى المنصور ولاية العهد منه بأحد عشر ألف ألف درهم ، وكانت مدة ولاية عيسى الكوفة ثلاث عشرة سنة ، وعزله المنصور واستعمل محمد بن سليمان .

ذكر وفاة عبد الله بن على وخبر عيسى بن موسى

قال : كان المنصور قد أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه ، وسلّم إليه عمه عبد الله بن على وأمره بقتله ، وقال : إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدى ، فاضرب عنقه وإياك أن تضعف ، فينتقض علىّ أمرى الذى دبرته ، ثم مضى المنصور إلى مكة وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه : ما فعل فى الذى أمره ، فكتب إليه عيسى : قد أنفذت ما أمرت به ، فلم يشك أنه قتله ، وكان عيسى حين أخذ عبد الله من المنصور دعا كاتبه يونس ابن [أبى][1] فَرْوة ، واستشاره فى أمره ، فقال : إنما أراد المنصور أن يقتله ثم يقتلك به ، لأنه أمرك بقتله سرا ثم يدعيه عليك علانية ، فلا تقتله ولا

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٢٤ والطبرى جـ٦ ص ٢٧٠ وفى المخطوطات : فروة — من غير (أبى) وفى الوزراء والكتاب للجهشيارى وضع (ابى) بين قوسين وقال فى الهامش إنها ساقطة فى هذا الموضع وجاء بها بعد ذلك على أنه فى هذا الزمن كانت هناك أسرة تعرف بأبى فروة فى قرية دخلت فى بغداد (راجع الطبرى جـ٦ ص ٢٣٩) وعلى هذا يرجح أن يكون كما أثبتناه .

تدفعه إليه سراً أبدا ، واكتم أمره ، ففعل عيسى ذلك ، فلما قدم المنصور وضع على أعمامه من حرّكهم على الشفاعة فى أخيهم عبد الله ، ففعلوا فشفعهم فيه ، وقال لعيسى : إنى دفعت إليك عمى وعمك عبد الله ليكون فى منزلك ، وقد كلمنى عمومتك فيه وقد صفحت عنه فإيتنا به ، فقال : ياأمير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله ! ! قال : ما أمرتك إلا بحبسه ، قال : بلى ، قد أمرتنى ، فكذّبه ، ثم قال لعمومته : إن هذا قد أقر بقتل أخيكم ، قالوا : فادفعه لنا نقيده به ، فسلمه إليهم فخرجوا به إلى الرحبة واجتمع الناس ، وقام أحدهم ليقتله فقال عيسى : أفاعل أنت ! ! قال : إى والله ، فقال : ردّونى إلى أمير المؤمنين فردّوه إليه ، فقال : إنما أردت بقتله أن تقتلنى ، هذا عمك حىّ سوىّ ، قال : إيتنا به فأتاه به ، فقال المنصور : يدخل حتى أرى فيه رأيى ثم صرفهم ، وجعله فى بيت أساسه ملح ، ثم أجرى الماء على أساسه فسقط عليه البيت فمات ، ودفن بمقابر المسلمين بباب الشام وهو أول من دفن فيها ، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة .

وحج المنصور فى هذه السنة بالناس

ودخلت سنة ثمان وأربعين ومائة .

ذكر خروج حسّان بن مجالد بن يحيى بن مالك بن الأَجْدَع الهمدانى

قال : وكان خروجه بنواحى الموصل بقرية بافخّارى [1] ـ وهى قرب الموصل على دجلة ، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم وعليهم الصقر بن نجدة ، ثم سار حسّان إلى الرقة ومنها إلى البحر ، ودخل بلد السند ثم عاد إلى الموصل ، فخرج إليه الصقر أيضا والحسن بن صالح بن حسّان [2] الهمدانى

(١) مرسومة فى المخطوطات: الحارى والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ٢٥ وجاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى بافخّارى بالفاء والخاء المعجمة المشددة قرية من اعمال نينوى فى شرق الموصل .

(٢) فى المخطوطات : ابن جنادة والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ٢٥

وبلال القيسى والتقوا ، فانهزم الصقر وأسر الحسن بن صالح وبلال ، فقتل حسان بلالا واستبقى الحسن لأنه من همدان ، ففارقه بعض أصحابه لهذا.

وفى هذه السنة استعمل الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى على أفريقية ، وبعث بعهده إليه بها ؛ وحج المنصور بالناس فى هذه السنة .

ودخلت سنة تسع وأربعين ومائة .

فى هذه السنة غزا العباس بن محمد الصائفة أرض الروم ، ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث فمات محمد فى الطريق وفيها استتمّ المنصور بناء سور بغداد وخندقها ، وفرغ من جميع أمورها وسار إلى حديثة الموصل وعاد . وحجّ بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد (بن على)[1] بن عبد الله بن عباس .

ودخلت سنة خمسين ومائة .

ذكر خروج استاذ سيس[2]

فى هذه السنة خرج استاذ سيس فى أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من خراسان ، فكان – مما قيل – فى ثلاثمائة ألف مقاتل فغلبوا على عامة خراسان ، وسار حتى التقى هو وأهل مرو الروذ وعليهم الأجثم[4] المروروزى ، فاقتتلوا فقتل الأجثم ، وهزم استاذ سيس عدة من القواد ، فوجّه المنصور خازم بن خزيمة لحربه وضمّ إليه القواد ، فسار خازم والتقوا واقتتلوا ، وكانت بينهم حروب آخرها أن استاذ سيس انهزم ، وأكثر المسلمون القتل فى أصحابه ، فكان عدة من قتل سبعين ألفا ، وأسروا أربعة عشر ألفا ، ونجا استاذ سيس إلى جبل فى نفريسير ، فحصرهم خازم وقتل

(١) ساقط فى المخطوطات والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ٢٨ والطبرى جـ٦ ص ٢٨٥

(٢) هكذا فى الكامل جـ٥ ص ٢٨ والطبرى جـ٦ ص ٢٨٥ والبداية والنهاية لأبى الفدا جـ١٠ ص١٠٦ أما المخطوطات والنجوم الزاهرة جـ٢ ص ١٢ اسباد سيس

(٣) فى الكامل جـ٥ ص ٢٨ : الأجشم ويؤيد المخطوطات الطبرى جـ٦ ص ٢٨٥

الأسرى ، ووافى أبو عون وابن سلم[١] ، فنزل استاذ سيس على حكم أبى عون ، فحكم أن يوثق هو وبنوه وأهل بيته بالحديد ، وأن يعتق الباقون وهم ثلاثون ألفا ، فأمضى خازم حكمه وكسى كل رجل ثوبين ؛ وقيل إن استاذ سيس ادعى النبوّة وأظهر أصحابه الفسق وقطع السبيل ؛ وقيل إنه جد المأمون – أبو أمه مراجل .

وحج بالناس فى هذه السنة عبد الصمد بن على وهو عامل مكة .

ودخلت سنة إحدى وخمسين ومائة .

فى هذه السنة عزل المنصور عمر[٢] بن حفص بن عثمان بن قَبِيصَة بن أبى صُفْرَة عن السند ، واستعمل عليها هشام بن عمرو[٣] التغلبى ، واستعمل عمر بن حفص على أفريقية ثم عزله عنها ، واستعمل يزيد بن حاتم ابن قبيصة بن أبى صفرة .

ذكر بناء الرُّصَافَة للمهدى

فى هذه السنة قدم المهدى من خراسان فى شوال . فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة وغيرها . فهنأوه بقدومه فأجازهم وحملهم وكساهم ، وفعل بهم المنصور مثل ذلك . وبنى الرصافة . وكان سبب بنائها أن بعض الجند شغبوا على المنصور وحاربوه على باب الذهب ، فدخل عليه قُثَم بن العباس بن عبيد الله[٤] بن العباس ، وهو شيخهم وله الحرمة فيهم والتقدم

---

(١) التعبير فى الكامل جـ٥ ص ٢٩ : ... فحصرهم خازم وفتح الأسرى ووافاه أبو عون وعمرو بن سلم ومن معهما وفى الطبرى جـ٦ ص ٢٨٧ : ... ووافى خازم بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم ابن قتيبة فى أصحابهما وفى المخطوطات : ووافى أبو عون بن سلم وهو سهو نتج عن نسيان واو العطف بين الأسمين

(٢) فى المخطوطات : عمرو وهو خطأ : لأن عمر هذا هو المعروف بهزار مرد (الف رجل)

(٣) فى المخطوطات : عمر والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٣٠ والطبرى جـ٦ ص ٢٨٨

(٤) فى المخطوطات : عبد الله والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٣٣ والطبرى جـ٦ ص ٢٩٢

عندهم ، فقال له المنصور : أما ترى ما نحن فيه من وثوب الجند علينا ، وقد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فما ترى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين عندى رأى ، إن أظهرته لك فسد وإن تركتنى أمضيته وصلحت خلافتك ، وهابك الجند ، قال : أفتمضى فى خلافتى شيئا لا أعلمه[1] ؟ فقال له : إن كنت عندك متهما فلا تشاورنى ، وإن كنت مأمونا فدعنى أفعل رأيى ، فقال له : امضه ، فانصرف قثم إلى منزله فدعا غلاماً له فقال له : إذا كان غداً فتقدّمنى فاجلس فى دار أمير المؤمنين ، فإذا دخلت وتوسطت أصحاب المراتب فخذ بعنان بغلتى ، واستحلفنى بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق العباس وحق أمير المؤمنين لما وقفت لك ، وسمعت مسألتك وأجبتك عنها ، وسأنهرك وأغلظ لك فلا تجب ، وعاود المسألة فسأضربك فعاود ، وقل لى أى الحيين أشرف : اليمن أو مضر ؟ فإذا أجبتك فاترك البغلة وأنت حرّ ، ففعل الغلام ما أمره به ؛ فقال له قثم : مضر أشرف لأن منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كتاب الله ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله ، فامتعضت اليمن إذ لم يذكر لها شيئا ، فقال بعض قوادهم : ليس الأمر كذلك مطلقا بغير فضيلة ! ! ثم قال لغلامٍ له : قم إلى بغلة الشيخ فاكبحها ، ففعل حتى كاد يقعيها ، فامتعضت مضر وقالوا : يفعل هذا بشيخنا ! ! وأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها ، فتفرّق الحيّان ، ودخل قثم على المنصور ، وافترقت الجند ، فصارت مضر واليمن فرقة والخراسانية فرقة ، فقال قثم للمنصور : قد فرّقت بين جندك وجعلتهم أحزابا ، كل حزب منهم يخاف أن تضربه بالآخر ، وقد بقى فى التدبير بقية ، وهى أن تترك ابنك فى ذلك الجانب ، وتحوّل معه قطعة من جيشك ، فيصير ذلك بلدا وهذا بلدا ، فإن فسد عليك أولئك ضربتهم

(١) تصويب هذه العبارة عن الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٣٣ ، ص ٣٤ ، والعبارة فى المخطوطات : أفتمضى فى خلافتى شيئا ، قال لا أعلم ولكن إن كنت عندك متهما .... والواضح أنه ينقل عن الكامل بالنص ولكن الخطأ فى النقل .

بهؤلاء ، وإن فسد هؤلاء ضربتهم بأولئك ، فقبل رأيه واستقام ملكه . وبنى الرصافة وتولى ذلك صاحب المصلّى .

وحجّ بالناس محمد بن إبراهيم الإمام ، وهو عامل مكة والطائف . وفيها قتل معن بن زائدة الشيبانى أمير سجستان ، بعد منصرفه من غزاة رُتبيل وانصرافه إلى بُسْت ، فاختفى بعض الخوارج فى منزله ، ثم دخلوا عليه وهو يحتجم فقتلوه ، وشقّ أحدهم بطنه بخنجر ، وقال بعض من ضربه : أنا الغلام الطاق ، والطاق رستاق بقرب زَرَنْج ، فقتلهم يزيد بن مزيد فلم ينج منهم أحد ، وقام يزيد بأمر سجستان .

ودخلت سنة اثنتين وخمسين ومائة .

فى هذه السنة غزا حميد بن قحطبة كابل ، وكان المنصور استعمله على خراسان سنة إحدى وخمسين ومائة . وغزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم ، وقيل أخوه محمد .

وحجّ بالناس فى هذه السنة المنصور

ودخلت سنة ثلاثة وخمسين ومائة .

ذكر القبض على أبى أيوب الموريانى الوزير وقتله

فى هذه السنة قبض المنصور على أبى أيوب الموريانى وعلى أخيه وبنى أخيه ، وكان قد سعى بهم كاتبه إبان بن صدقة ، وقيل[1] : كان سبب قبضه أن المنصور فى دولة بنى أمية ورد الموصل ، وأقام بها[2] مستترا ، وتزوج امرأة من الأزد فحملت منه ، ثم فارق الموصل وأعطاها تذكرة ،

(١) القصة منقولة من الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٣٦ ص ٣٧

(٢) بعد هذه الكلمة فى المخطوطة ك كلام يتصل بالحديث عن المقنع الخراسانى وبعض أحداث سنة ١٦٠ هـ مما يدل على أن الأوراق لم تكن مرتبة فنقل الناسخ من غير فقه بما ينسخ .

وقال لها : إذا سمعت بدولة بنى هاشم فأرسلى هذه التذكرة إلى صاحب الأمر فهو يعرفها ، فوضعت المرأة ولداً سمته جعفرا ، فنشأ وتعلّم الكتابة وما يحتاج إليه الكاتب . وولى المنصور الخلافة فقدم جعفر إلى بغداد واتصل بأبى أيوب ، فجعله كاتبا [بالديوان فطلب المنصور يوما من أبى أيوب كاتبا] (١) يكتب له شيئا ، فأرسل إليه جعفرا ، فلما رآه المنصور مال إليه وأحبّه ، فأمره بالكتابة فرآه ماهرا حاذقا ، فسأله : من أين هو ؟ ومن أبوه ؟ فذكر له الحال وأراه التذكرة فعرفها ، فصار يطلبه فى كل وقت بحجة الكتابة ، فخافه أبو أيوب ، ثم إن المنصور أحضره يوما وأعطاه مالا ، وأمره أن يصعد إلى الموصل ويحضر والدته ، وأنه إذا رجع وقارب بغداد لقيه المنصور بالعساكر وغيرها ، وأمره أن يكتم حاله ويفارق الديوان مغضبا ، فخرج إلى الديوان فقال له أبو أيوب : ما أبطأك ؟ قال : كنت فى حاجة لأمير المؤمنين ، فسأله عما كتب فقال : ما كنت لأذيع سر أمير المؤمنين ، فسبّه أبو أيوب فأغلق جعفر دواته ، وقال : والله لا عدت لهذا الديوان أبدا ، وفارقه مغضبا فتوهم منه أبو أيوب ، وتعرف أحواله ووضع عليه العيون ، فقيل له : إن حاله حسنت ، وأنه جدّد له مراكيب وسافر . فبعث فى أثره من اغتاله ، فقتل وأحضر إليه ما كان معه ، فرأى فى متاعه ما دلّه على أنه ولد أمير المؤمنين ، فسقط فى يده وتوقع السوء ، ولما أبطأ خبره على المنصور بعث إلى الموصل من يسأل عنه ، فقالت أمه : لا علم لى به إلا أنه ببغداد ، يكتب فى ديوان أمير المؤمنين ، فأرسل المنصور من قصّ أثره . ولم يزل يدقّق البحث حتى علم أنّ قتله من قبل أبى أيوب ، فنكبه هو وأهله .

وفيها غزا الصائفة معيوف (٢) بن يحيى ، ووصل إلى حصن من حصون

---

(١) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطات والأسلوب لا يستقيم إلا بها ، وهى مأخوذة من مصدر المؤلف الكامل جـ ٥ ص ٣٦

(٢) فى المخطوطات : معروف وهو تحريف تصويبه من الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٣٧ والطبرى جـ٦ ص ٢٩٦

الروم ليلا وأهله نيام ، فسبى وأسر من كان فيه ، وقصد اللاذقية الخراب فسبى منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين

وحجّ فى هذه السنة المهدى بن المنصور بالناس

ودخلت سنة أربع وخمسين ومائة .(١)

فى هذه السنة سار المنصور إلى الشام وبيت المقدس ، وبعث يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة إلى أفريقية فى خمسين ألفا ، لحرب الخوارج الذين قتلوا عمر بن حفص .

وحجّ بالناس محمد بن إبراهيم .

ودخلت سنة خمس وخمسين ومائة .

فى هذه السنة سيّر المنصور المهدى لبناء الرَّافقة . فسار إليها فبناها على بناء مدينة بغداد ، وعمل للكوفة والبصرة سورا وخندقا ، وجعل ما أنفق فيه من أموال أهلها(٢) .

قال : وأراد المنصور معرفة عددهم ، فأمر أن يقسّم فيهم خمسة دراهم خمسة دراهم ، فلما انحصرت له عدتهم أمر بجبايتهم أربعين درهما من كل واحد ، فقال شاعرهم :

يالقوم مالقينا من أمير المؤمنينا
قسم الخمسة فينا وجبانا الأربعينا

ودخلت سنة ست وخمسين ومائة .

لم يكن فى هذه السنة من الحوادث ما نذكره فى هذا الموضع . وحجّ بالناس العباس بن محمد بن على .

---

(١) أحداث هذه السنة ساقطة من ف ، ك ، وأضيف إليها خطأ أحداث سنة ١٥٥ هـ
(٢) التعبير فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٣٨ ، وجعل ما أنفق فيه من الأموال على أهلها

ودخلت سنة سبع وخمسين ومائة .

فى هذه السنة بنى المنصور قصره الذى يدعى الخلد . وفيها حوّل الأسواق إلى الكرخ وتقدم السبب فى ذلك وحج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . وفيها مات عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام .

ودخلت سنة ثمان وخمسين ومائة .

ذكر وفاة أبى جعفر المنصور

كانت وفاته يوم السبت لست خلون من ذى الحجة من هذه السنة ببئر[١] ميمون على أميال من مكة ، قال المؤرخ[٢] : ورأى المنصور قبل وفاته بيسير أعاجيب كثيرة ، ومواعظ مؤذنة بوفاته ، منها أنه هتف به هاتف فى قصره فسمعه يقول :

أما ورب السكون والحرك ... إن المنايا كثيرة الشرك
عليك يا نفس إن أسأت وإن ... أحسنت فى اليوم[٣] كان ذاك لك
ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء فى فلك[٤]
إلا لنقل[٥] السلطان عن ملك ... قد انقضى[٦] ملكه إلى ملك
حتى يصيّرانه إلى ملك ... ما عزّ سلطانه بمشترك
ذاك بديع السماء والأرض والـ ... ـمرسى الجبال المسخر الفلك

(١) فى المخطوطات : بدير وهو تحريف واضح تصححه بعد
(٢) يعنى بالمؤرخ الطبرى الذى ينقل عنه ابن الأثير فى الكامل جـ٥ ص ٤٢
(٣) فى الكامل جـ٥ص ٤٢ والطبرى جـ٦ ص ٣٤٦ : بالقصد.
(٤) فى المصدرين السابقين : الفلك
(٥) فى المصدرين السابقين : بنقل
(٦) فى الكامل جـ٥ ص ٤٢ : انتهى

فلما سمع المنصور ذلك قال : هذا أوان أَجَلى ، قال الطبرى[١] – وقد حكى عبد العزيز بن مسلم قال : دخلت على المنصور يوما عليه ، فإذا هو باهت لا يحير جوابا ، فوثبت لأنصرف لما أراه منه ، فقال بعد ساعة : إنى رأيت فى المنام كأن رجلا ينشدنى :

أأخَىَّ أخفض من مناكا فكأنَّ يومك قد أتاكا
ولقد أراك الدهر من تصريفه ما قد أراكا[٢]
فإذا أردت الناقص الـ ـعبد الذليل فأنت ذاكا
مُلِّكْتَ ما مُلِّكتهُ والأمر فيه إلى سواكا

فهذا ما ترى من قلقى وغمى ، فقلت:خيرا رأيت يا أمير المؤمنين ، ولم يلبث أن خرج إلى مكة ، ومن ذلك أنّه لما نزل آخر منزل نزله من طريق مكة نظر فى صدر البيت الذى نزل فيه فإذا فيه مكتوب :

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لابد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من حرّ المنية مانع

فدعا المتولى لإصلاح المواضع فقال : ألم آمرك ألا يدخل أحد من الدعاة هذا البيت ؟ ! فحلف أنه لم يدخله أحد ، فقال : اقرأ ما فى صدر هذا البيت ، قال : ما أرى شيئاً ، فالتفت إلى حاجبه وقال : اقرأ آية من كتاب الله تعالى تشوقنى إلى لقائه ، فقرأ ﴿وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[٣] ، فقال له : ما وجدت آية غير هذه الآية ، قال : والله لقد محى القرآن من قلبى غيرها .

---

(١) لا ينقل المؤلف عن الطبرى وانما ينقل عن ابن الأثير بلفظه فى الكامل جـ٥ ص ٤٣
(٢) فى المخطوطة ف كتب أراكا فوق كفاكا وهى اللفظة الموجودة فى ص ، ك واتبعنا الكامل جـ٥ ص ٤٣ والطبرى جـ٦ ص ٣٤٦ وتصحيح ف.
(٣) الشعراء : من الآية ٢٢٧

ذكر وصية المنصور لابنه المهدى

قال : ولما سار المنصور من بغداد ليحج نزل قصر عَبْدَوِيه[١] ، وأحضر المهدى وكان قد صحبه فوصّاه بالمال والسلطان ، يفعل ذلك كل يوم من أيام مقامه بكرة وعشية ، فلما كان فى اليوم الذى ارتحل فيه قال له :

إنى لم أدع شيئاً إلا وقد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك بخصال وما أظنك تفعل منها واحدة – وكان له سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يفتحه غيره . فقال للمهدى : انظر إلى هذا السفط فاحتفظ به . فإنّ فيه علم آبائك ـ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ـ فإن أهمّك أمر فانظر إلى الدفتر الكبير ، فإن أصبت فيه ماتريد وإلا فى الثانى والثالث حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ! واقطن[٢] هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها ، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين لكفاك لأرزاق الجند والنفقات ومصلحة الثغور والذريّة ومصلحة البعوث ، فاحتفظ به ، فإنك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل ! وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم ، وأن تحسن إليهم وتقدمهم ، وتوطىء الناس أعقابهم وتوليهم المنابر ، فإنّ عزّك فى عزّهم وذكرهم لك ، وما أظنك تفعل ! وانظر إلى مواليك وأحسن إليهم وقرّبهم واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل ! وأوصيك بأهل خراسان فإنهم أنصارك ، وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده ، وما أظنك تفعل !

---

(١) فى المخطوطات : عبد ربه والتصويب عن الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٤٣ والطبرى جـ٦ ص ٣٠٦

(٢) هكذا فى ف وفى الكامل جـ٥ ص ٤٣ والطبرى جـ٦ص ٣٤٢ والمخطوطة ص : وانظر . واخترنا ما فى ف لاتفاقه مع الأسلوب .

وإياك أن تبنى المدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها ، وأظنك ستفعل ! وإياك أن تستعين برجل من بنى سُلَيْم ، وأظنك ستفعل ! وإياك أن تدخل النساء فى أمرك ، واظنك ستفعل !

وقيل : إنه قال له إنى ولدت فى ذى الحجة ، ووليت فى ذى الحجة ، وقد هجس فى نفسى أن أموت فى ذى الحجة من هذه السنة ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ، يجعل الله لك فيما كربك وحزبك[1] فرجاً ومخرجاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب .

يا بنى احفظ محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظ الله عليك أمورك . وإياك والدم الحرام فإنه حُوب عند الله عظيم . وعار فى الدنيا لازم مقيم . والزم الحدود فإن فيها صلاحك فى العاجل . ولا تعتد فيها فتبور . فإن الله تعالى لو علم شيئاً أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به فى كتابه . واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب . على من سعى فى الأرض فساداً . مع ما ذخره له عنده من العذاب العظيم . فقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** ﴾[2] الآية . فالسلطان ـ يا بنى ـ حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم . فاحفظه وحصّنه وذبّ عنه . وأوقع بالملحدين فيه واقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب . ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن . فاحكم بالعدل ولا تشطط . فإن ذلك اقطع للشغب . وأحسم للعدو . وأنجع فى الدواء . وعفّ عن الفىء فليس بك

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٤٣ : حزنك

(٢) سورة المائدة آية ٣٣ (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

حاجة إليه مع ما أخلفه[١] لك ، وافتتح بصلة الرحم وبرّ القرابة ، وإياك[٢] والتبذير لأموال الرعية ، واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمّن السبل ، وسكن العامّة وأدخل المرافق عليهم ، وادفع المكاره عنهم ، وأعدّ الأموال واخزنها ، وإياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة ـ وهى من شيم الزمان ، وأعدّ الكراع والرجال والجند ما استطعت ، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد فتتدارك عليك الأمور وتضيع ؛ خذ[٣] فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا أولا وشمّر فيها ، واعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون فى الليل ، وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن وأسىء بعمالك وكتابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من أقمته على بابك ، وستهل إذنك للناس وانظر فى أمر النزاع إليك ، ووكّل بهم عيناً غير نائمة ونفساً غير لا هية ، ولا تنم فإن أباك لم ينم مذ ولى الخلافة ، ولا دخل عليه الغمض إلا وقلبه مستيقظ هذه وصيتى إليك ، والله خليفتى عليك ، ثم ودّعه وبكيا .

ثم سار المنصور إلى الكوفة وجمع بين الحج والعمرة ، وساق الهدى وأشعره[٤] وقلّده لأيام خلت من ذى القعدة ، فلما سار منازل من الكوفة عرض له وجعه الذى مات به – وهو القيام ، ولما اشتد به جعل يقول للربيع : بادِرْ بى حرم ربى هاربا من ذنوبى ، وكان الربيع عديله ، ووصّاه بما أراد ، ولما وصل بئر ميمون مات بها فى التاريخ الذى قدّمناه ، ولم يحضر عند موته أحد إلا خدمه والربيع مولاه ، فكتم الربيع موته ومنع من البكاء عليه ؛ ثم أصبح فحضر أهل بيته على عادتهم ، فأذن الربيع لعمه عيسى

(١) فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٤٤ : خلفه .

(٢) بعد هذه الكلمة كلمة والأثرة فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٤٤ وهى غير موجودة فى المخطوطات وليس فى الأسلوب ما يبررها .

(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٤٤ : حدّ وأظن أن المخطوطات أصح لأنها تكررت مثل وأعدّ .

(٤) أشعر الهدى : إذا طعن سنامه حتى يسيل منه دم ليعلم أنه هدى . وتقليد البدنة : أن يعلق فى عنقها شىء ليعلم أنها هدى .

فمكث ساعة ، ثم أذن لابنه موسى ، ثم أذن للأكابر وذوى الأسنان منهم ثم لعامتهم ، فبايعهم الربيع للمهدى ولعيسى بن موسى من بعده ، ثم بايع القواد وعامة الناس ، وسار العباس بن محمد ، ومحمد بن سليمان إلى مكة ليبايعا الناس ، فبايعوا بين الركن والمقام .

وجهزوا المنصور ففرغوا منه العصر ، وكفن وغطى وجهه وبدنه وجعل رأسه مكشوفاً لأجل إحرامه ، وصلّى عليه عيسى بن موسى ، وقيل إبراهيم ابن يحيى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، ودفن فى مقبرة المَعْلاة ، وحفر له مائة قبر ليغمّوه على الناس ، ودفن فى غيرها ، ونزل فى قبره عيسى ابن على ، وعيسى بن محمد ، والعباس بن محمد والربيع والريان مولياه وَيقْطِين ، وكان عمره ثلاثا وستين سنة ، وقيل أربعا وستين سنة ، وقيل ثمانيا وستين . وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا سبعة أيام . وكان أسمر نحيفا خفيف العارضين . أولاده: محمد المهدى وجعفر الأكبر أمهما أَرْوَى بنت منصور أخت يزيد بن منصور الحميرى ، وكانت تكنى أم موسى ، ومات جعفر قبل المنصور ، ومنهم سليمان وعيسى ويعقوب أمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله ، وجعفر الأصغر أمه أم ولد كرديّه ، وصالح المسكين وأمه أم ولد روميّة ، والقاسم مات قبل المنصور وله عشر سنين أمه أم ولد تعرف بأم القاسم ، والعالية أمها امرأة من بنى أمية — هذا ما نقله ابن الأثير ، قال غيره وعبد العزيز والعباس . وزراؤه : أبو عطية الباهلى ثم أبو أيوب الموريانى ثم الربيع مولاه ، ووزر له : خالد بن برمك مدة يسيرة . قضاته : عبد الله بن محمد بن صَفْوان ، وشريك بن عبد الله ، والحسن بن عمار ، والحجاج بن أرطاة ؛ وقيل إن يحيى بن سعيد وأبا عثمان التيمى قضيا فى أيامه . حجابه : الربيع مولاه قبل أن يستوزره ، ثم عيسى مولاه ، ثم أبو الخصيب مولاه .

الأمراء بمصر : صالح بن على واستخلف أباعون عبد الملك بن يزيد ،

ثم نقل المنصور صالحا إلى الجزيرة ، وأمرَ على مصر موسى بن كعب ثم صرفه ، وولى محمد بن الأشعث الخزاعى ثم عزله ، وولى حميد بن قحطبة ، ثم يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، وولّى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حُدَيْج فتوفى ، فأمّر عليها أخاه محمد بن عبدالرحمن فتوفى فوليها موسى بن على بن رباح . القضاة بها : فى أيام المنصور غَوْث بن سليمان ، ثم سار مع صالح بن على فولى أبو خالد يزيد بن عبدالله[1] بن عبد الرحمن بن بلال ، ثم عاد غوث إليها ، ثم صرفه يزيد ابن حاتم وولى أبا خُزَيْمة إبراهيم بن يزيد الرعينى ، ثم وليها أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فُرْعان الحضرمى من قبل المنصور ، وهو أول قاض خرج لنظر هلال شهر رمضان .

ذكر شىء من سيرة أبى جعفر المنصور

قال سلّام الأَبْرش : كنت أخدم المنصور وكان من أحسن الناس خلقا مالم يخرج إلى الناس ، وأشد احتمالا لما يكون من عبث الصبيان ، فإذا لبس ثوبه اربد لونه واحمرت عيناه . قال : وقال لى يوما : إذا رأيتنى لبست ثيابى أو رجعت من مجلسى فلا يدنون منى أحد ، قال : ولم ير فى داره لهو ولا شىء يشبه اللهو والعبث إلا مرة واحدة ، رأى بعض أولاده قد ركب راحلة – وهو صبى ، وتنكب قوسا فى هيئة غلام أعرابى ، بين جوالقين فيهما مقل[2] وأراك ومايهديه الأعراب ، فعجب الناس من ذلك وأنكروه ، وعلموا أنه ضرب من عبث الملوك ، قال حماد التركى : كنت واقفا على رأس المنصور فسمع جلبة ، فقال : انظر[3] ما هذا ؟ فذهبت فإذا خادم له قد

(١) فى المخطوطات : عبد الملك والتصويب عن الولاة والقضاة للكندى ص ٣٥٩ ط بيروت ١٩٠٨.

(٢) فى المخطوطات : نقل وهو ما يتنقل به على الشراب والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٤٥ والطبرى جـ٦ ص ٤٣٠٩ والمقل: ثمر الدوم .

(٣) فى ف ، ك : انظروا .

جلس وحوله الجوارى ، وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فأخبرته ، فقال وأى شىء الطنبور ! ! فوصفته له ، فقال : ما يدريك أنت ما الطنبور ! ! فقلت رأيته بخراسان ، فقام المنصور إليهن فلما رأينه تفرقن ، فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسّر الطنبور ، وباع الخادم .

قال بعض المؤرخين كان المنصور يخضب بالسواد ، وقيل : كان يغير لون شيبه فى كل شهر بألف مثقال مسك.قال : وأمر بتوسعة المسجد الحرام من ناحية باب الندوة سنة تسع وثلاثين ومائة ، وبنى مسجد الخيف . وفى أيامه فتحت المُولْتَان والقَنْدَهَار من أرض السند ، وهُدم البدّ وبُنى مكانه مسجد .

وفى أيامه مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت فى سنة خمس وأربعين ومائة ومات جعفر بن محمد الصادق فى سنة ثمان وأربعين ومائة . وقد قدمنا من أخبار أبى جعفر المنصور ، ومن الوقائع التى اتفقت فى أيامه وما أنشأه من المدن والعمائر ما فيه الكفاية ، ولا يورد فى التواريخ المختصرة أكثر من هذا فلنذكر أخبار من قام بالأمر بعده والله الموفق .

ذكر خلافة المهدى

هو أبو عبد الله محمد بن أبى جعفر عبد الله المنصور ، وأمه أروى أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن يزيد بن شمر الحميرى [1] ، وهو الثالث من الخلفاء العباسيين ، بويع له يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة على ما قدمناه ، وقيل إنه لما مات المنصور خرج الربيع وبيده قرطاس ، ففتحه وقرأه فإذا فيه :

(١) فى المخطوطات : أروى أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن سهل بن يزيد الحميرى والتصويب عن الطبرى جـ ٦ ص٣٤٧ والمصادر الأخرى تصل إلى اسم الجد فقط .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين ثم بكى وبكى الناس . ثم قال قد أمكنكم البكاء فانصتوا رحمكم الله ثم قرأ :

أما بعد فإنى كتبت كتابى وأنا حىّ ، فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، وأقرىء عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم من بعدى ولا يلبسكم شيعا ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض ، ثم أخذ فى وصيتهم وإذكارهم البيعة له ، وحثهم على الوفاء بعهده . ثم تناول يد الحسن ابن زيد العلوى فقال له : قم فبايع الناس ، فقام إلى موسى بن المهدى فبايعه لأبيه ، ثم بايع الناس الأول فالأول .

ودخلت سنة تسع وخمسين ومائة .

ذكر ظهور المُقَنَّع بخراسان وهلاكه

فى هذه السنة ظهر المقنع بخراسان ، وكان رجلا أعور قصيرا من أهل مرو ، وكان يسمى حكيما[1] ، وكان اتخذ وجها من ذهب ، وجعله على وجهه لئلا يُرى فسمى المقنع ، وادعى الإلهية ولم يظهر ذلك لجميع أصحابه ، وكان يقول : إن الله خلق آدم فتحوّل فى صورته ، ثم فى صورة نوح وهكذا إلى أبى مسلم الخراسانى ، ثم تحوّل إلى هاشم ، وهاشم فى دعواه هو المقنع ، ويقول بالتناسخ ، فبايعه خلق من ضُلال الناس ، وكانوا يسجدون له من أى النواحى كانوا ، وكانوا يقولون فى الحرب : يا هاشم

(١) فى المخطوطات : حليما وهو تحريف تصويبه عن الكامل جـ٥ ص ٥٢ والطبرى جـ٦ ص ٣٦٧ ولوسترينج فى بلاد الخلافة الشرقية ص ٤١٤ ط كمبردج .

أعنّا ، واجتمع إليه خلق كثير ، وتحصّنوا فى قلعة سام[١] بزده ، وظهرت المبيضة ببخارى والصغد معاونين له ، وأعانه كفار الأتراك وأغاروا على أموال المسلمين ، واجتمعوا بكش وغلبوا على بعض قصورها فحاربهم أبو النعمان والجنيد وليث بن نصر مرة بعد مرة ، ثم اشتغلوا بقتال المبيضة فقاتلوهم أربعة أشهر ، وهزموهم فلحق منهزموهم بالمقنع ، ثم سيّر المهدى أبا عون لمحاربة المقنّع ، فلم يبالغ فى قتاله فعزله واستعمل معاذ بن مسلم ، فسار معاذ فى سنة إحدى وستين ومائة فى جماعة من القواد والعساكر ، فالتقوا واقتتلوا فهزموا أصحاب المقنع ، فقصد المنهزمون المقنع وهو بسام ، فاصلح خندقها وحصّنها ، وأقبل معاذ فحاربهم وكان سعيد الحرشى مع معاذ فنافره ، فكتب الحرشى إلى المهدى فى معاذ وضمن له أنه إن أفرده بحرب المقنع كفاه ، فأجابه إلى ذلك وانفرد الحرشى بحربه ، وأمده معاذ بابنه رجاء فى جيش وبجميع ما التمسه منه ، وطال الحصار على المقنع فطلب أصحابه الأمان سراً منه ، فأجابهم الحرشى فخرج إليه منهم نحو من ثلاثين ألفا ، وبقى المقنع فى ألفين وضايقه العسكر ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله فسقاهم السم فأتى عليهم وأمر أن يحرق هو بالنار لئلا يقدر على جثته ؛ وقيل بل حرق كل ما فى قلعته من حيوان وغيره ، ثم قال : من أحب أن يرتفع معى فى السماء فليلق نفسه معى فى هذه النار . وألقى نفسه مع نسائه وأهله وخواصّه فاحترقوا ، ودخل العسكر القلعة فوجدوها خاوية[٢] خالية ، وكان ذلك مما زاد فى افتتان من بقى من أصحابه ؛ وقيل بل شرب هو من السم فمات وأنفذ

(١) تضطرب المصادر فى ذكرها فمرة تذكر فى الكامل بسيام ومرة بسنام أما نخشب فتذكر فى الكامل وعند المؤلف سنجردة أما الطبرى فلم يذكرها واكتفى بالقول قلعة بكش ، وتاريخ ثورة المقنع تدل على أنها قامت فى نخشب التى عرفت فى الحياة الإسلامية باسم نسف راجع لوسترينج ص ٤٧٠ بلاد الخلافة الشرقية نسف ومما يرجح صحة ما أوردناه :

١ ـ ان الموقع بجوار مجمع ماء يسمى (سام) ، ٢ ـ بزده بين نخشب التى عرفت باسم نسف وبين بخارى ، فهى سام بزده على نمط تسمية سام نخشب وعلى أية حال فهذا أرجح مما نشر فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص ٥٢ ، ص ٥٨ .

(٢) ساقطة فى ف ، ك وموجودة بالكامل جـ٥ ص ٥٨ .

الحرشى رأسه إلى المهدى ، فوصل إليه وهو بحلب فى سنة ثلاث وستين ومائة .

نعود إلى بقية حوادث سنة تسع وخمسين . وفيها توفى حميد بن قحطبة عامل خراسان واستعمل المهدى أبا عون عبد الملك . وحج بالناس يزيد بن منصور خال المهدى عند قدومه من اليمن .

ودخلت سنة ستين ومائة .

فى هذه السنة : خرج يوسف بن ابراهيم المعروف بالبرم بخراسان منكراً سيرة المهدى ، واجتمع معه بشر كثير ، وتوجّه إليه يزيد بن مزيد الشيبانى وهو ابن أخى معن بن زائدة ، فاقتتلا حتى صارا إلى المعانقة فأسره يزيد ، وبعث به إلى المهدى وبعث معه بوجوه أصحابه ، فقطعت يدا يوسف ورجلاه ، وقتل هو وأصحابه وصلبوا على الجسر ؛ وقيل إنه كان حروريا وأنه تغلب على بوشنج – وعليها مصعب بن زريق[1] فهرب منه ، وتغلّب أيضاً على مرو الروذ والطالقان والجوزجان .

ذكر خلع عيسى بن موسى وبيعة موسى الهادى

قال : كان جماعة من بنى هاشم وشيعة المهدى خاضوا فى خلع عيسى من ولاية العهد ، والبيعة لموسى الهادى بن المهدى فسّر المهدى بذلك ، وكتب إلى عيسى فى القدوم عليه وهو بقريته الرحبة من أعمال الكوفة ، فأحسّ بما يراد منه فامتنع من القدوم عليه ، فألحّ المهدى عليه حتى بعث إليه يقول : إنك إن لم تجبنى إلى أن تنخلع من ولاية العهد لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحلّ من أهل المعاصى ، وإن أجبتنى عوضتك منها بما هو أجدى عليك وأعجل نفعا ، فلم يقدم عليه وخيف

(١) هو جد طاهر بن الحسين .

انتقاضه ، فوجّه إليه المهدى عمه العباس يستدعيه فلم يجب فلما عاد العباس وجّه المهدى أبا هريرة محمد بن فروخ[1] القائد ، فى ألف من شيعة المهدى فأشخصوه إليه ، فلما قدم عيسى نزل دار محمد بن سليمان ، وأقام أياما يختلف إلى المهدى ، وهو لا يكلّمه بشىء ولا يرى مكروها ، فحضر الدار يوما قبل جلوس المهدى فجلس فى مقصورة الربيع ، وقد اجتمع رؤساء شيعة المهدى على خلعه ، فثاروا به وضربوا باب المقصورة بالعمد حتى هشموه ، وشتموا عيسى أقبح شتم ، وأظهر المهدى إنكاراً لما فعلوه فلم يرجعوا ، فبقوا فى ذلك أياماً وكان أشدهم عليه محمد بن سليمان ؛ وكاشفه المهدى وألحّ عليه ، فذكر أن عليه أيمانا فى أهله وماله ، فأفتاه الفقهاء بما رأوا أنه لا يحنث فأجاب إلى خلع نفسه ، فأعطاه المهدى عشرة آلاف ألف درهم وضياعا بالزاب وكَسْكَر ، وخلع نفسه لأربع بقين من المحرم وبايع للمهدى ولابنه موسى الهادى ، ثم جلس المهدى من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ، ثم خرج المهدى إلى الجامع وعيسى معه فخطب الناس ، وأعلمهم بخلع عيسى وبيعة الهادى ، وبايعهم فسارعوا إلى بيعته ، فقال بعض الشعراء :

كره الموت أبو موسى وقد كان فى الموت نجاء وكرم
خلع الملك وأضحى ملبسا ثوب لوم ما ترى منه القدم

وحجّ المهدى فى هذه السنة بالناس ، واستخلف على بغداد ابنه موسى وخاله يزيد بن منصور ؛ وفيها نزع المهدى كسوة الكعبة وكساها كسوة جديدة ، وكان سبب نزعها أنّ حجبة الكعبة ذكروا له أنهم يخافون على الكعبة أن تتهدم ، لكثرة ما عليها من الكسوة فنزعها ، وكانت كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين ، وما قبلها من عمل اليمن ؛ قال : وطلى جدرانها بالمسك والعنبر ، وكانت الكعبة فى جانب المسجد لم تكن متوسطة ، فهدم حيطان المسجد وزاد فيه زيادات ، واشترى الدور

(١) فى المخطوطات : روح وهو تحريف تصويبه عن الكامل ج٥ ص ٥٥ والطبرى جـ٦ ص ٣٥٧ .

والمنازل حتى صارت الكعبة فى الوسط على ماهى عليه الآن ، وحمل من مصر إلى المسجد الحرام أربعمائة وثمانين اسطوانة ، وصيّرفيه أربعمائة طاق وثمانية وتسعين طاقا ، وجعل له ثلاثة وعشرين بابا ، وجعل سلاسل قناديله ذهبا ، وجعل ذرعه مكسرا[1] مائة ألف وعشرين ألف ذراع ، وقسم مالا عظيما كان معه من العراق ، مبلغه ثلاثون ألف ألف درهم ، ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليمن مائتا ألف درهم ، ففرق ذلك كله وفرّق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب ، ووسع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألبس خارج القبر المقدس الرخام ، وأخذ خمسمائة من الأنصار يكونون حرساً له بالعراق ، وأقطعهم بالعراق وأجرى عليهم الأرزاق . وحمل إليه محمد بن سليمان الثلج إلى مكة ، وهو أول خليفة حمل إليه الثلج إلى مكة .

ودخلت سنة إحدى وستين ومائة .

فى هذه السنة : أمر المهدى ببناء القصور بطريق مكة ، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل ، وبتجديد الأموال والبرك[2] وحفر الركايا ، وولّى ذلك يقطين بن موسى ، وأمر بالزيادة فى مسجد البصرة ، وأمر بتقصير المنابر فى البلاد ، وجعلها بمقدار منبر النبى صلى الله عليه وسلم . وحج بالناس فى هذه السنة موسى الهادى ولى العهد .

ودخلت سنة اثنتين وستين ومائة .

ذكر قتل عبد السلام الخارجى

فى هذه السنة : قتل عبد السلام بن هاشم اليشكرى بقنسرين ، وكان قد خرج بالجزيرة فاشتدت شوكته وكثر أتباعه ، فلقيه عدة من قواد المهدى

(١) فى ف ، ك : تكسيرا .

(٢) فى المخطوطات : والبرد وهو تحريف تصويبه عن الكامل جـ٥ ص ٦٠ والطبرى جـ٦ ص ٣٦٨

فيهم عيسى بن موسى القائد ، فقتله فى عدة ممّن معه وهزم جماعة من القواد – فيهم شبيب بن واج المَرْوَرُوذِى ، فندب المهدى إلى شبيب ألف فارس ، وأعطى كل رجل منهم ألف درهم معونة ، فوافوا شبيبا فخرج بهم فى طلب عبد السلام ، فهرب عبد السلام منه فأدركه بقنسرين فقاتله بها فقتله .

وفيها وضع المهدى ديوان الأزمّة[١] ، وولّى عليها عمر بن بَزِيع[٢] مولاه . وأجرى المهدى على المجذمين وأهل السجون فى جميع الآفاق الأرزاق .

ودخلت سنة ثلاث وستين ومائة .

فى هذه السنة : تجهّز المهدى لغزو الروم فجمع الأجناد من خراسان وغيرها ، وسار على الموصل والجزيرة وعبر الفرات إلى حلب ، وأرسل وهو بحلب فجمع الزنادقة بتلك البلاد فقتلهم وقطع كتبهم . وسار عنها مشيعا لابنه هارون حتى جاز الدرب وبلغ جيحان ، وسار هارون بالعساكر فنازل حصن سمالو[٣] فحصره ثمانية وثلاثين يوما ، ونصب عليه المجانيق ففتحه بالأمان وفتح فتوحا كثيرة .

وفيها ولّى المهدى ابنه هارون المغرب كله وأذربيجان وأرمينية ، وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى ، وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك . وحج بالناس فى هذه السنة على بن المهدى .

ودخلت سنة أربع وستين ومائة .

فى هذه السنة سار المهدى ليحج فلما بلغ العقبة رأى قلة الماء وحمّ

---

(١) أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه .

(٢) فى المخطوطات : عمرو بن زريع ، وفى الكامل جـ٥ ص ٦٢ : عمرو بن مريع ، وكل منهما أخطأ فى الاسم والتصويب عن الطبرى جـ٦ ص ٣٧٣ . وقد ذكرته المخطوطات صحيحا آخر هذا الفصل .

(٣) كان من عادة النساخ القدماء أن يضعوا علامة على الحرف الذى لا ينقط فدعا ذلك النساخ أن يجعلوا للسين هنا رأسا . وتصويب الاسم عن الكامل جـ٥ ص ٦٣ والطبرى جـ٦ ص ٣٧٧ .

فرجع ، وسيّر أخاه صالحا ليحج بالناس ، ولحق الناس عطش شديد حتى كادوا يهلكون .

ودخلت سنة خمس وستين ومائة .

فى هذه السنة : سير المهدى ابنه الرشيد لغزو الروم فى خمسة وتسعين ألفا وتسعمائة وثلاثة وتسعين رجلا ومعه الربيع ، فوعك الرشيد فى بلاد الروم ، ولقيه عسكر نقيطا[1] قومس القوامسة ، فبارزه يزيد بن مزيد الشيبانى[2] فأثخنه يزيد ، وانهزمت الروم وغلب المسلمون على معسكرهم ، وساروا إلى الدمستق وهو صاحب المسالح ، فحمل لهم مائة ألف دينار وثلاثة وتسعين ألفا وأربعمائة وخمسين ديناراً ، ومن الورق أحدا وعشرين ألف ألف درهم وأربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم ، وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية ، والروم يومئذ بيد أغسطه[3] — امرأة إليون — لصغر ابنها ، فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية ، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى الطرق ، وذلك لأنه دخل مدخلا ضيقا مخوفا ، فأجابته إلى ذلك ، ومقدار الفدية سبعون ألف دينار فى كل سنه ، ورجع عنها ، وكانت الفدية ثلاث سنين ، وكان مقدار ما غنم المسلمون إلى أن اصطلحوا خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا ، ومن الدواب الذلل بأدواتها عشرين ألف رأس ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس ، وقتل من الروم فى الوقائع كلها أربعة وخمسون ألفا ، وقتل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيرا .

وحج بالناس فى هذه السنة صالح بن المنصور .

ودخلت سنة ست وستين ومائة .

---

(١) فى المخطوطات : نقوطا ، وفى الكامل جـ٥ ص ٦٥ : نقيطا وأظنه خطأ مطبعيا والتصويب عن الطبرى جـ٦ ص ٣٧٩ .

(٢) تخطىء ص فتسميه مزيد بن يزيد الشيبانى أما فى ك فالاسم محرف أيضا تحريفا خطيرا .

(٣) فى ص : عطيه وبنفس الرسم دون نقط فى ف وبنفس الرسم بنون بعد الطاء فى ك ، وفى الكامل جـ٥ ص ٦٥ اغطه والتصويب عن الطبرى جـ٦ ص ٣٨٠ .

فى هذه السنة : أخذ المهدى البيعة لولده هارون بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادى ، ولقب الرشيد ، وفيها سخط المهدى على وزيره يعقوب بن داود وقبض عليه .

قال : وكان أول أمرهم أن داود بن طهمان وهو أبو يعقوب ، كان يكتب لنصر بن سيار – هو وإخوته ، فلما كان أيام يحيى بن زيد كان داود يعلمه ما يسمع من نصر ، فلما طالب أبو مسلم الخراسانى بدم يحيى بن زيد أتاه داود فأمنه أبو مسلم فى نفسه ، وأخذ ماله الذى كان قد استفاده أيام نصر ، فلما مات داود خرج أولاده أهل أدب وعلم ، ولم تكن لهم عند بنى العباس منزلة ، ولم يطمعوا فى خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر ، وأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل الحسين وطمعوا أن تكون لهم دولة ، وكان داود يصحب إبراهيم بن عبد الله ، وخرج معه فى عدة من أصحابه ، فلما قتل إبراهيم طلبهم المنصور ، فأخذ يعقوب وعليا فحبسهما ، فلما ولى المهدى أطلقهما فيمن أطلق ، فاتصل يعقوب بالمهدى بالسعاية بآل على ، ولم يزل يرتفع حتى استوزره ، وكان المهدى يقول : وصف لى يعقوب فى منامى فقيل لى استورزه فلما رأيته رأيت الخلقة التى وصفت لى فاتخذته وزيرا .

فلما ولى الوزارة أرسل إلى الزيدية فجمعهم وولاهم أمور الخلافة فى الشرق والغرب ، ولذلك قال بشار :

بنو أمية هبّوا طال نومكم ... إنّ الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم باقوم فالتمسوا[1] ... خليفة الله بين الناى[2] والعود

فحسده موالى المهدى وسعوا به ، وقالوا : إن الشرق والغرب فى يد يعقوب وأصحابه ، ولو كتب إليهم لوثبوا فى يوم واحد وأخذوا الدنيا ، فملأ

(١) فى الطبرى جـ٦ ص ٣٨٣ : فاطلبوا .
(٢) نفس المصدر السابق : الدف

ذلك قلب المهدى فقبض عليه ، بعد القرب منه والاختصاص به والتمكّن من دولته .

وفيها أمر المهدى بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ، ولم يكن قبل ذلك . وحجّ بالناس فى هذه السنة إبراهيم بن يحيى .

ودخلت سنة سبع وستين ومائة .

فى هذه السنة : توفى موسى بن عيسى بالكوفة ، وفيها أمر المهدى بالزيادة فى المسجد الحرام ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فدخلت فيهما دور كثيرة ، وكان المتولى للبناء يقطين بن موسى ، فبقى البناء إلى أن توفى المهدى .

وحجّ بالناس فى هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس — وهو على المدينة ، ثم توفى بعد فراغه من الحج بأيام وتولى مكانه إسحاق بن عيسى بن على

وفيها أفسد العرب فى بادية البصرة بين اليمامة والبحرين . وقطعوا الطريق وتركوا[1] الصلاة وانتهكوا المحارم ، فأرسل المهدى إليهم جيشا فقاتلوهم ، فكان الظفر للعرب وقتلوا عامة العسكر ، فقويت وزاد شرهم .

ودخلت سنة ثمان وستين ومائة .

فى هذه السنة : خرج بأرض الموصل خارجى اسمه ياسين من بنى تميم ، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم ، وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة ، فوجّه إليه المهدى أبا هريرة محمد بن فروخ[2] وهرثمة بن أعين

---

(١) من وصفهم أنهم تركوا الصلاة وانتهكوا المحارم ما ينبىء أنهم ينتمون إلى الغلاة الذين ظهروا فى الكوفة أيام خالد القسرى ايام الدولة الأموية ، والمظنون أنهم طائفة أو جماعات من فرق الخطابية الذين حاربتهم الدولة وطلبتهم أشد طلب وقضت على ثورتهم فى الكوفة فتفرقوا فى البلاد كما يقول المؤرخون .

(٢) فى المخطوطات : ابن روح والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٧٠ .

مولى بنى ضبّة فحارباه ، فصبر لهما حتى قتل عدة من أصحابه وانهزم الباقون .

وفيها فى شهر رمضان نقض الروم الصلح ، الذى كان بينهم وبين المسلمين قبل انقضاء مدة الهدنة بأربعة أشهر ، فوجّه على بن سليمان وهو على الجزيرة وقنّسرين يزيد بن[1] البَطّال فى خيل فغنموا وظفروا .

وحجّ بالناس فى هذه السنة على بن المهدى .

ودخلت سنة تسع وستين ومائة .

ذكر وفاة أبى عبد الله المهدى

كانت وفاته فى يوم الخميس لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة بماَسَبْذَان ، وسبب خروجه إليها أنّه كان عزم على خلع ابنه موسى الهادى من ولاية العهد ، والبيعة للرشيد وتقديمه على الهادى ، فبعث إليه فى ذلك وهو بجرجان فلم يفعل ، فاستقدمه فضرب الرسول وامتنع . فسار المهدى إليه ، فلما بلغ مَاسَبْذَان قال لأصحابه : إنى أريد النوم فلا توقظونى حتى أكون أنا لذى أنتبه ، ونام ونام أصحابه فاستيقظوا ببكائه فأتوه مسرعين ، وسألوه عن سبب بكائه فقال : وقف على الباب رجل فقال :

كأنّى بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه ربعُه ومنازلُهْ
وصار عميد القوم من بعد بهجة ... ومُلْكٍ إلى قبر عليه جنادله
فلم يبق إلا ذكره وحديثه ... تنادى عليه معولاتٍ حلائله

فمات بعد ذلك بعشرة أيام . وقد اختلف فى سبب موته ، فقيل إنّه كان يتصيّد فطردت الكلاب ظبيا وتبعته ، فدخل باب خربة ودخلت

(١) الاسم الكامل كما ورد فى المصادر : يزيد بن بدر بن البطال – راجع الكامل جـ٥ ص ٧٠ والطبرى جـ٦ ص ٣٩١ على أن هذين المصدرين يختلفان فى اسم الأب فابن الأثير يورده باضافة أل وهو من غير أل فى الطبرى

الكلاب خلفه ، وتبعها فرس المهدى فدخلها ، فدقّ الباب ظهره فمات من ساعته . وقيل : بل بعثت جارية من جواريه إلى ضرّة لها بلبن فيه سمّ ، فشرب منه فمات . وقيل : بل عمدت جاريته حَسَنَة إلى كمثرى ، فأهدته إلى طلة[1] جاريته الأخرى ، وجعلت السمّ فى أبهى كمثراة فيه ، فاجتاز بالمهدى فأخذ تلك الكمثراة المسمومة فأكلها ، فلما وصلت إلى جوفه صاح ومات منها ، فكانت الجارية تقول فى بكائها عليه : أردت أن أنفرد بك فأوحشت نفسى منك ؛ ومات فى يومه وصلّى عليه ابنه الرشيد ، ومات وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقيل ثلاث وأربعون ، وكانت مدة خلافته عشر سنين وتسعة وأربعين يوما ، ودفن تحت جوزة كان يجلس تحتها .

وكان أبيض طويلا وقيل أسمر ، حسن الوجه بعينه اليمنى نكتة بياض .

ذكر شىء من سيرته وأخباره

كان جوادا حازما وصولا يباشر الأمور بنفسه ، وكان كثير الولاية والعزل لغير سبب ، وردّ على الناس الأموال التى أخذها أبوه . وكان إذا جلس للمظالم قال : أدخلوا علىّ القضاة ، فلو لم يكن ردّى للمظالم إلا للحياء منهم . وقال الحسن الوصيف : أصابتنا ريح شديدة أيام المهدى حتى ظننّا أنها تسوقنا إلى المحشر ، فخرجت أطلب المهدى فوجدته قد وضع خدّه بالأرض ، وهو يقول : اللهم احفظ محمدا فى أمّته ، اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم ، اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين يديك ؛ قال فما لبثنا إلا يسيرا حتى انكشفت الريح وانجلى ما كنّا فيه .

قال الربيع : رأيت المهدى يصلى فى ليلة مقمرة ، فقرأ قوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[2] ،

(١) لم يذكر اسمها ابن الأثير فى الكامل ولا الطبرى فى تاريخه .
(٢) سورة محمد آية ٢٢

قال : فأتم صلاته والتفت إلىّ وقال : ياربيع ، موسى ، فقلت فى نفسى ما هو إلا موسى بن جعفر وكان محبوساً عندى فأحضرته ، فقطع صلاته ثم قال : ياموسى إنى قرأت هذه الآية ، فخفت أن أكون قد قطعت رحمك ، فوثّق لى أنك لا تخرج فوثق له ، وخلّى المهدى سبيله .

قال : وبنى المهدى العلمين فى المسعى .

أولاده : موسى الهادى وهارون الرشيد وعلى وعبد الله ومنصور ويعقوب وإسحاق وإبراهيم والبانوقة[١] وعُلَيّة وعباسة وسُلَيمة . ووزراؤه : أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله[٢] الأشعرى ثم يعقوب بن داود بن طهمان ثم نكبه على ما ذكرناه ، واستوزر الفَيْض بن أبى صالح . قضاته : محمد ابن عبد الله بن عُلاَثة ، وعَافِية بن يزيد وكانا يقضيان فى مسجد الرصافة . حجابه : سلام الأبرش ، وقيل إن الفضل بن الربيع حجبه . الأمراء بمصر : عيسى بن لقمان بن محمد بن حاطب الجمحى ثم صرفه وولى واضحا[٣] مولى أبى جعفر المنصور ثم صرفه وولّى أبا صالح يحيى بن داود الحرشى[٤] من أهل نيسابور ثم سالم بن سوادة التميمى[٥] ثم إبراهيم بن صالح ابن على بن عبد الله عباس ثم موسى بن مصعب[٦] من أهل الموصل ثم الفضل بن صالح

(١) هكذا فى المخطوطات وفى الطبرى جـ٦ ص ٤٠٥ . وفى الكامل جـ٥ ص ٧٣ : الياقوته وهو تحريف .

(٢) فى الكامل جـ ٥ ص ٧٧ : أبو عبيد الله بن عبد الله بن بشار الأشعرى والتصويب عن الطبرى جـ٦ ص ٢٨٥ ، ص ٣٦٩ .

(٣) فى ف و ص : ناصحا وفى ك : ناصرا والتصويب عن الطبرى جـ٦ ص ٣٧٣ والولاة والقضاء للكندى ص ١٢١ ط . بيروت .

(٤) هكذا فى المخطوطات يؤيدها الطبرى ويسميه يحيى الحرشى جـ٦ ص ٣٧٣ والكامل جـ٥ ص ٦٢ وهو الذى تولى أصبهان وعزله المهدى سنة ١٦٣ (الطبرى جـ٦ ص ٣٩١) وورد الاسم محرفا فى الولاة والقضاء للكندى ص ١٢٢ فى قوله : الحزمى

(٥) لم يذكر هذا الاسم لا فى تاريخ الطبرى ولا فى الكامل لابن الأثير وتصويبه عن الولاة والقضاة للكندى ص ١٢٣ والنجوم الزاهرة جـ٢ ص ٤٦ . وذكرته المخطوطات سالم بن سواد التيمى . ومن الواضح أن هناك خطأ وقع فيه الطبرى وابن الأثير فى بيان حاكم مصر سنة ١٦٤ هـ تنبه له المؤلف

(٦) تخطئ المخطوطات فتسميه موسى بن معيقيب . وتصويبه عن الطبرى جـ٦ ص ٣٩٠

الهاشمى . القضاة بها : عبد الله بن لهيعة ثم إسماعيل بن اليسع الكندى الكوفى وهو أول حنفى ولى القضاء بها ثم غوث بن سليمان ثم توفى فولى القضاء المفضل بن فضالة . وكان نقش خاتم المهدى حسبى الله .

قال بعض المؤرخين : والمهدى أول من مشى بين يديه بالسيوف المصلتة والقسى والنشاب والعمد ، وأول من لعب بالصوالجة فى الإسلام ، وله من الآثار الحسنة فى عمارة المسجد الحرام ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاهتمام بذلك ما قدمنا ذكره .

ذكر خلافة الهادى

هو أبو محمد موسى بن أبى عبد الله محمد المهدى بن أبى جعفر عبد الله المنصور[1] ، وأمه الخَيْزُران مولدة وهى بنت عطاء مولى أبيه وهى أم الخلفاء ، وهو الرابع من الخلفاء العباسيين ، بويع له فى يوم وفاة أبيه — وهو يوم الخميس لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة ، وهو إذ ذاك مقيم بجرجان يحارب أهل طبرستان ، فبايع الرشيد للهادى وكتب إلى الآفاق بذلك وردّ العسكر إلى بغداد ، وسار نصير[2] الوصيف إلى الهادى بجرجان بالخبر ، فنادى بالرحيل وركب على البريد مجدا فبلغ بغداد فى عشرين يوما ، ولما قدم استوزر الربيع فهلك الربيع فى هذه السنة ، واشتد طلب الهادى للزنادقة فى هذه السنة فقتل منهم جماعة ، منهم على بن يقطين وقتل أيضاً يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان سبب قتله أنه أتى به إلى المهدى فأقر بالزندقة ، فقال : أم والله ، لولا أنى جعلت على نفسى ألا أقتل هاشميا لقتلتك ، ثم قال للهادى : أقسمت عليك إن وليت هذا الأمر لتقتلنّه ، ثم حبسه ، فلما مات المهدى قتله

(١) هكذا فى ص أما فى ف . ك فهو : أبو عبد الله موسى ..... ويؤيد ص ذكره فى وفاته أنه أبو محمد — بعد قليل

(٢) فى المخطوطات : نصر . والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٧٤ والطبرى جـ٦ ص ٤٠٦ .

الهادى . وكان أيضاً قد عهد إليه بقتل ولد لداود[١] بن على بن عبد الله بن عباس وكان زنديقا ، فمات فى حبس المهدى ، قال ابن الأثير : ولما قتل يعقوب أدخل أولاده على الهادى ، فأقرت ابنته فاطمة أنها حبلى من أبيها فخوّفت فماتت من الفزع .

ذكر ظهور الحسين بن على بن الحسن بن الحسن [بن الحسن][٢] بن على بن أبى طالب

قال : وظهر فى هذه السنة فى جماعة من الطالبيين ، وانتهبوا بيت المال ، ثم قصد الحسين مكة فبعث إليه الهادى محمد بن سليمان بن على ، فأدركه بفَخّ على فرسخ من مكة ، فالتقوا واقتتلوا فقتل الحسين ، وحمل رأسه إلى الهادى على ما نذكره فى أخبارهم إن شاء الله[٣] . وحجّ بالناس فى هذه السنة سليمان بن منصور .

ودخلت سنة سبعين ومائة .

فى هذه السنه عزم الهادى على خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر . فأجابه إلى ذلك يزيد بن مزيد الشيبانى وعبد الله بن مالك وعلى بن عيسى وغيرهم ، فخلعوا هارون وبايعوا لجعفر ، ووضعوا الشيعة فتكلموا فى ذلك وتنقصوا الرشيد فى مجلس الجماعة ، وقالوا : لا نرضى به ؛ وكان يحيى بن خالد يتولى أمر الرشيد ، فقيل للهادى : ليس عليك من أخيك خلاف إنما يحيى يفسده ، وكان الرشيد قد اطمأن للخلع فمنعه يحيى منه ، فطلب الهادى يحيى وتهدّده بالقتل ورماه بالكفر ، فلم يزل يلطف به حتى سكن غضبه ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين – إنّك إن حملت الناس على نكث الايمان هانت

(١) ساقطة من المخطوطات والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٧٤ والطبرى جـ٦ ص ٤٠٩ .
(٢) سقط من الكامل فترتب على ذلك سقوطه أيضا هنا .
(٣) منهج المؤلف أن يكتب هذه الجملة وأمثالها فى خاتمة النص وعلى ذلك فوجودها فى ص قبل الخاتمة تصرف من الناسخ .

عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة ، قال : صدقت وسكت عنه ، فعاد الذين كانوا بايعوه من القواد والشيعة[١] فحملوه على معاودة الرشيد بالخلع ، فأحضر يحيى فكتب إليه : إنّ عندى نصيحة ، فأحضره فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان الأمر الذى لا تبلغه – ونسأل الله أن يقدمنا[٢] قبله – يعنى موت الهادى – أتظن[٣] أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ؟ أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ قال : ما أظن ذلك ، قال : ياأمير المؤمنين أفتأ من أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ؟ فتكون قد أخرجت الأمر عن ولد أبيك، والله – لو أنّ هذا الأمر لم يعقده المهدى له كان ينبغى أن تعقده أنت له ، فكيف بأن تحلّه عنه وقد عقده المهدى ! ! ولكنّى أرى أن تقرّ الأمر على أخيك ، فإذا بلغ جعفر خلع الرشيد نفسه وبايعه ، فقبل قوله وأطلقه ، ثم عاد أولئك القوّاد إلى الهادى وأعادوا القول ، فضيّق على الرشيد فى ذلك ، فقال له يحيى : استأذنه فى الصيد ، فإذا خرجت فأبعد ودافع الأيام ، ففعل ذلك فأذن له فمضى إلى قصر مُقاتل[٤] وأقام أربعين يوما ، فأنكر الهادى أمره وكتب إليه بالعود ، فتعلّل ثم اعتل الهادى ومات .

ذكر وفاة أبى محمد الهادى

كانت وفاته ليلة[٥] الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول ، وقيل

---

(١) المعنى هنا شيعة بنى العباس ولا يعنى الاصطلاح المعروف وورد بهذا المعنى عند غيره من المؤلفين كما فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .

(٢) هكذا فى المخطوطات وفى الطبرى جـ٦ ص ٤٢٥ أما فى الكامل جـ٥ ص ٧٨ فهو يعدمنا وهو تحريف .

(٣) فى ف ، ك : أتظنون .

(٤) هكذا فى المخطوطات وفى الطبرى جـ٦ ص ٤٢٥ وفى الكامل جـ٥ ص ٧٨ : قصر بنى مقاتل .

(٥) فى المخطوطات يوم وهو خطأ فى النسخ تصويبه عن الكامل جـ٥ ص ٧٩ والطبرى جـ٦ ص ٤٢٩ .

لأربع عشرة ليلة خلت منه ، وقيل بقيت منه سنة سبعين ومائة بعيساباد ، واختلف فى سبب وفاته ، فقيل كانت بقرحة فى جوفه ، وقيل مرض بحديثة الموصل وعاد مريضا فمات ، وقيل إن أمّه أمرت جواريها بقتله فقتلنه، قال : وكان سبب ذلك أنه لما ولى الخلافة كانت تستبد بالأمور دونه ، وتسلك به مسلك المهدى ، حتى مضى من خلافته أربعة أشهر ، والمواكب تغدو إلى بابها ، فكلّمته يوما فى أمر لم يجد إلى إجابتها سبيلاً ، فقالت : لابد منه فقد ضمنته لعبد الله بن مالك بن جعفر ، فغضب الهادى وقال : والله لا قضيتها ، فقالت : إذنْ والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال : لا أبالى والله وغضب [1] ، وقامت مغضبة ، فقال : مكانك ، والله لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوّادى وخاصّتى لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك ؟ ! أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكّرك أو بيت يصونك ! ! إياك إياك ، لا تفتحى بابك لمسلم ولاذمىّ ، فانصرفت وهى لا تعقل فلم تنطق عنده بعدها ؛ ثم قال لأصحابه : أيما خير ، أنا أم أنتم ؟ وأمى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك خير ، قال : فأيّكم يحبّ أن يتحدث الرجال بخبر أمّه ، فيقولوا فعلت أم فلان وصنعت ؟ قالوا : لا نحبّ ذلك ، قال : فما بالكم تأتون أمى فتتحدثون بحديثها ! ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ، ثم بعث إلى أمّه بأرز ، وقال : قد استطبتها فكلى منها ، فقيل لها : أمسكى حتى تنظرى ، فجاءوا بكلب وأطعموه منها فتساقط لحمه لوقته ، فأرسل إليها كيف رأيت الأرز ؟ قالت طيبا ، قال : ما أكلت منها ولو أكلت منها لاسترحت منك ، متى أفلح خليفة له أم ؟ ! وقيل كان سبب أمرها بقتله أنه لما جدّ فى خلع الرشيد خافت عليه ، فوضعت جواريها عليه فقتلنه بالغم والجلوس على وجهه ، حتى مات والله أعلم .

(١) هكذا فى المخطوطات وفى الطبرى جـ٦ ص ٤٢٢ أما فى الكامل جـ٥ ص ٧٩ : وغضبت وهو تحريف .

ولما مات كان له من العمر ست وعشرون سنة ، واختلف فيه إلى ثلاث وعشرين سنة . وكانت مدة خلافته سنة[١] وشهرا وأربعة وعشرين يوما ، وصلّى عليه أخوه الرشيد ؛ ودفن بعيساباذ الكبرى فى بستانه ، وفى ليلة وفاته مات خليفه ، وهو الهادى ، وولى خليفة ، وهو الرشيد ، وولد خليفة ، وهو المأمون ، وكان طويلا جسيماً أبيض مشربا بحمرة أفوه مقلص الشفة العليا ، وكان المهدى قد وكل به خادما يقول له : موسى اطبق ، فيضم شفته ، وكان شجاعاً بطلاً جواداً سخياً أديباً صعب المرام .

وكان له من الأولاد : عيسى وإسحاق وجعفر وعبد الله وموسى وإسحاق الأصغر . وذكر ابن الأثير فى أولاده العباس وإسماعيل وسليمان ولم يذكر إسحاق الأصغر ، وكان ابنه موسى ضريراً ، وأم عيسى كانت عند المأمون ، وأم العباس وكانت تلقب نونه[٢] ، وكلهم أولاد أمهات .

وكان نقش خاتمه : الله ربى . وزراؤه : الربيع بن يونس ثم عمر بن بزيع[٣] . حاجبه : الفضل بن الربيع قضاته : أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بالجانب الغربى ، وسعيد بن عبد الرحمن الجمحى بالجانب الشرقى . الأمير بمصر على بن سليمان بن عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس . قاضيها أبو الطاهر[٤] عبد الملك بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمر بن حزم والله تعالى أعلم .

ذكر خلافة هارون الرشيد

هو أبو محمد هارون وقيل أبو جعفر بن أبى عبد الله محمد المهدى بن أبى جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، وأمه

(١) وفى ص ستة أشهر وهو خطأ من الناسخ يمكن ادراكه بيسر من سنة وفاته ١٧٠هـ .
(٢) فى المخطوطات : قونه والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٨٠ والطبرى جـ٦ ص ٤٢٨ .
(٣) هنا ترسم المخطوطات الاسم صحيحا ولكن دون نقط ويخطىء ابن الأثير فى الكامل جـ٥ ص ٧٢ فيه فيسميه عمر بن ربيع .
(٤) فى المخطوطات : أبو ظاهر والتصويب عن الولاة والقضاة للكندى ص ٣٨٣ (ط بيروت) .

الخيزران أم أخيه الهادى ، وهو الخامس من الخلفاء العباسيين ، بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه الهادى .

قال : ولما مات الهادى كان يحيى بن خالد بن برمك محبوساً ، وقد عزم الهادى على قتله ، فجاء هرثمة بن أعين إلى الرشيد وأخرجه وأجلسه للخلافة ، فأرسل الرشيد إلى يحيى وأخرجه من الحبس واستوزره ؛ وقيل لما مات الهادى جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد وهو نائم فى فراشه ، فقال له : قم ياأمير المؤمنين ، فقال : كم تروعنى إعجاباً منك بخلافتى ! فكيف يكون حالى مع الهادى إن بلغه هذا ؟ ! فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه . وأنشئت الكتب بوفاة الهادى وخلافة الرشيد . قال : ولما مات الهادى هجم خزيمة بن خازم على جعفر بن الهادى ، وأخذه من فراشه وقال له : لتخلعنها أو لأضربن عنقك ، فأجاب إلى الخلع ، وركب خزيمة من الغد وأظهر جعفرا للناس ، فأشهدهم بالخلع وأحّل الناس من بيعته ، فحظى بها خزيمة عند الرشيد .

وفيها أفرد الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين ، وجعلها حيّزا واحدا وسميّت العواصم ، وأمر بعمارة طرسوس على يد فرج الخادم التركى ونزلها الناس . وحجّ بالناس الرشيد وقسم بالحرمين عطاء[1] كثيراً .

ودخلت سنة إحدى وسبعين ومائة .

فى هذه السنة خرج الصحصح الخارجى بالجزيرة وهزم عسكرها ، وسار إلى الموصل فقاتله عسكرها ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ورجع إلى الجزيرة ، فغلب على ديار ربيعة ، وعزل الرشيد أبا هريرة[2] عن الجزيرة وأحضره إلى بغداد وقتله .

---

(١) فى ص : مالا كثيرا ولكن الكامل جـ٥ ص ٨٣ يتفق مع ف . ك وهو المصدر .
(٢) هو أبو هريرة محمد بن فروخ .

وحج بالناس فى هذه السنة عبد الصمد بن على بن عبد الله بن عباس .

ودخلت سنة اثنين وسبعين ومائة .

كان فى هذه السنة من الحوادث ببلاد الأندلس ما نذكره فى أخبار بنى أمية — ملوك الأندلس ، وحجّ بالناس يعقوب بن المنصور .

ودخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة .

فى هذه السنة توفى محمد بن سليمان بن على بالبصرة ، فأرسل الرشيد من قبض تركته ، فحمل منها[1] ما يصلح للخلافة فكان جملة ما أخذ منها ستين ألف ألف . وفيها ماتت الخيزران أم الرشيد ، فحمل الرشيد جنازتها ودفنها فى مقابر قريش ، ولما فرغ من جنازتها أخذ الخاتم من جعفر بن يحيى ابن خالد وأعطاه للفضل بن الربيع . وحجّ الرشيد فى هذه السنة بالناس وأحرم من بغداد .

ودخلت سنة أربع وسبعين ومائة .

فى هذه السنة حج الرشيد فقسم أموالاً كثيرة فى الناس . وفيها استقضى الرشيد يوسف بن أبى يوسف فى حياة أبيه .

ودخلت سنة خمس وسبعين ومائة .

فى هذه السنة عقد الرشيد لابنه محمد بن زبيدة بولاية العهد . ولقّبه الأمين وعمره خمس سنين . وحجّ الرشيد فى هذه السنة بالناس

ودخلت سنة ست وسبعين ومائة .

ذكر ظهور يحيى بن عبد الله

فى هذه السنة ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن

(١) فى ص : منه .

أبى طالب بالديلم ، واشتدت شوكته وكثرت جموعه وأتاه الناس من الأمصار، فأهمّ الرشيد أمره فندب الفضل بن يحيى فى خمسين ألفا ، وولاه جرجان وطبرستان والرى وغيرها وحمل معه الأموال . فكتب إلى يحيى بن عبد الله ولاطفه وبسط أمله وحذّره . ونزل الفضل بالطالقان ووالى كتبه إلى يحيى ، وكاتب صاحب الديلم وبذل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى ، فأجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب الرشيد أمانه بخطه ، ويشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلّة بنى هاشم ومشايخهم . فأجاب الرشيد إلى ذلك وبعث له بالأمان وبعث بهدايا وتحف ، فقدم يحيى مع الفضل إلى بغداد ، فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير . ثم حبسه الرشيد فمات فى الحبس .

ذكر الفتنة بدمشق

فى هذه السنة هاجت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية ، وكان رأس المضرية أبو الهَيْذَام عامر بن عمارة[1] بن خريم الناعم ، وكان سبب الفتنة أن غلاما للرشيد بسجستان قتل أخا لأبى الهيذام ، فخرج أخوه بالشام غضبا له ، وجمع جمعا عظيما ورثاه فقال :

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا ... فإنّ بها ما يدرك الطالب الوترا
ولسنا كمن ينعى[1] أخاه بعبرة ... يعصّرها من ماء مقلته عصرا
وإنّا أناس ما تفيض دموعنا ... على هالكٍ منّا وإن قصم الظهرا
ولكنّنى[3] أشفى الفؤاد بغارة ... ألهّب فى قطرى كتائبها جمرا

(١) فى المخطوطات : عامر بن عميرة ... والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٩١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر جـ٧ ص ١٧٦ ط . دمشق سنة ١٣٥١ هـ .
(٢) فى تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ٧ ص ٧٦ يبكى .
(٣) هذا البيت فى المصدر السابق موضعه قبل الأخير .

ثم إن الرشيد احتال عليه بأخ له . كتب إليه وأرغبه فشد عليه وكتفه . وأتى به الرشيد فمنّ عليه وأطلقه . وقيل فى هياج هذه الفتنة غير هذا والله أعلم .

وفيها خرج الفضل الخارجى بنواحى نصيبين . وأخذ من أهلها مالا . وسار إلى دارا وآمد وأرزن فأخذ منهم مالا . وفعل كذلك بخلاط [1] ثم عاد إلى نصيبين . وأتى الموصل فخرج إليه عسكرها فهزمهم على الزاب . ثم عادوا لقتاله فقتل الفضل وأصحابه .

ودخلت سنه سبع وسبعين ومائة

ذكر الفتنة بالموصل

فى هذه السنة خالف العطاف بن سفيان الأزدى على الرشيد . وكان من فرسان أهل الموصل . واجتمع عليه أربعة آلاف رجل وجبى الخراج . وكان عامل الرشيد على الموصل محمد بن العباس الهاشمى . وقيل عبد الملك ابن صالح . والعطاف غالب على الأمر كله وهو يجبى الخراج . وأقام على ذلك سنتين . حتى خرج الرشيد إلى الموصل فهدم سورها بسببه .

وفيها عزل الرشيد حمزة بن مالك عن خراسان . واستعمل عليها الفضل بن يحيى بن خالد ـ مضافا إلى ما كان بيده من الأعمال وهى الرى وسجستان وغيرهما . وحج بالناس فى هذه السنة الرشيد .

ودخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

ذكر الفتنة بمصر

فى هذه السنة وثبت الحوفية بمصر بعاملهم إسحاق بن سليمان ، وقاتلوه

---

(١) فى المخطوطات : خلاطة وفى الكامل جـ ٥ ص ٩٤ بالخلاط ، ولكن المخطوطات وكذلك الكامل يذكر انها صحيحا فى فصل الوليد بن طريف وهو الفصل التالى .

فأمده الرشيد بَهْرثَمة بن أَعْين ـ وكان عامل فلسطين . فقاتلوا الحوفية ـ وهم قيس وقضاعة ـ فأذعنوا بالطاعة وأدّوا ما عليهم للسلطان . فعزل الرشيد إسحاق واستعمل عليها هرثمة . ثم عزله واستعمل عليها عبد الملك بن صالح .

ذكر خروج الوليد بن طريف

فى هذه السنة خرج الوليد بن طريف التغلبى الخارجى بالجزيرة . ففتك بإبراهيم بن خازم بن خزيمة بنصيبين . ثم قويت شوكة الوليد . فرحل إلى أرمينية وحصر خِلَاط عشرين يوماً . ففدوا أنفسهم منه بثلاثين ألفا . ثم سار إلى أذربيجان ثم إلى حلوان وأرض السواد . ثم عبر إلى غربى دجلة وقصد مدينة بَلَد ـ فافتدوا منه بمائة ألف . وعاث فى أرض الجزيرة . فسيّر إليه الرشيد يزيد بن مزيد بن زائدة ـ وهو ابن أخى معن بن زائدة الشيبانى . فقال الوليد :

ستعلم يا يزيد إذا التقينا بشطّ[1] الزاب أى فتىً يكون

ثم التقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الوليد . فقال بعض الشعراء :

وائل بعضهم يقتّل بعضا لا يفل الحديدَ إلا الحديد

قال : ولما قتل الوليد صحبتهم أخته ليلى[2] بنت طريف مستعدة عليها الدرع . فجعلت تحمل على الناس فعرفت . فقال يزيد دعوها . وخرج إليها فضرب قطاة فرسها بالرمح . ثم قال : اغربى[3] غرب الله عليك ! ! فقد فضحت العشيرة . فاستحيت وانصرفت . ورثته أخته ليلى بقصيدتها المشهورة التى تقول فيها :

(١) هكذا فى ف . ك والكامل جـ٥ ص ٩٧ . وفى ص . بأرض .

(٢) ذكر ابن خلّكان فى وفيات الأعيان جـ٥ ص ٨٥ (ط ١٩٤٩م القاهرة) قيل إن اسمها الفارعة وقيل فاطمة .

(٣) فى الكامل جـ٥ ص ٩٨ . اعزبى عزب الله عليك . وما ذكرته المخطوطات هو التعبير المألوف .

فيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع[1] على ابن طريف
فتى لايريد[2] الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

وفيها فوّض الرشيد أمر دولته كلها إلى خالد بن يحيى البرمكى . وحج بالناس فى هذه السنة محمد بن إبراهيم بن محمد بن على .

ودخلت سنة تسع وسبعين ومائة

فى هذه السنة اعتمر الرشيد فى شهر رمضان شكراً لله تعالى على قتل الوليد بن طَرِيف ، وعاد إلى المدينة فأقام بها إلى وقت الحج . وحجّ بالناس ومشى من مكة إلى عرفات . وشهد المشاعر كلها ماشيا . ورجع على طريق البصرة . وفيها مات الإمام مالك بن أنس الأصبحى رضى الله عنه ورحمه ، وكانت وفاته بالمدينة وله تسعون سنة .

ودخلت سنة ثمانين ومائة .

ذكر ولاية على بن عيسى خراسان ـ وخبر حمزة الخارجى

فى هذه السنة عزل الرشيد منصور بن يزيد عن خراسان . واستعمل عليها جعفر بن يحيى ثم عزله بعد عشرين يوما . واستعمل عليها على بن عيسى ابن ماهان فولّيها عشر سنين . وفى ولايته خرج حمزة بن أترك الخارجى ، فجاء إلى بُوشَنْج فخرج إليه عمرويه بن يزيد الأزدى . وكان على هراة فى ستة آلاف ، فقاتله فهزمه حمزة وقتل من أصحابه جماعة ، ومات عَمْرَويه فى الزحام ، فوجّه إليه على بن عيسى ابنه الحسين فى عشرة آلاف ، فلم يحارب حمزة فعزله وسيّر ابنه عيسى بن على . فقاتل حمزة مرة بعد أخرى ، وكان حمزة بنيسابور فانهزم حمزة وقتل أصحابه وبقى فى أربعين رجلا ، فقصد

(١) فى ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ٥ ص ٨٥ : تحرن .
(٢) فى المصدر السابق والكامل جـ٥ ص ٩٨ والطبرى جـ٦ ص ٤٦٥ : يحب .

قهستان فأرسل عيسى إلى القرى التى كان أهلها يعينون الخوارج ، فأحرقها وقتل الخوارج حتى انتهى إلى زَرَنْجَ ، فقتل ثلاثين ألفا ورجع ، وخلف بزرنج عبد الله بن العباس . فجبى الأموال وسار بها فلقيه حمزة وقاتله ، فصبر عبد الله وانهزم حمزة ، وقتل كثير من أصحابه واختفى هو ومن سلم من أصحابه فى الكروم . ثم سار فى القرى يقتل ولا يبقى على أحد . وكان على ابن عيسى قد استعمل طاهر بن الحسين على بوشنج . فسار إليه حمزة وانتهى إلى مكتب فيه ثلاثون غلاما فقتلهم وقتل معلمهم . وبلغ طاهر الخبر فأتى قرية فيها قعد الخوارج . وهم الذين لا يقاتلون ولا ديوان لهم . فقتلهم طاهر وأخذ أموالهم . فكتب العقد إلى حمزة بالكفّ فكفّ . وودعهم وأمن الناس مدة . وكانت بينه وبين أصحاب على بن عيسى حروب كثيرة .

وحج بالناس فى هذه السنة موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على

ودخلت سنة إحدى وثمانين ومائة .

فى هذه السنة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حصن الصَّفْصَاف . وغزا عبد الملك بن صالح الروم فبلغ أنقرة . وافتتح مَطْمُورة . وفيها أحدث الرشيد فى صدور الكتب الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . وحج بالناس الرشيد .

ودخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة .

فى هذه السنة بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين ، وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ولقبه المأمون ، وسلّمه إلى جعفر بن يحيى . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ

دفسوس[١] مدينة أصحاب الكهف . وحج بالناس هذه السنة موسى بن عيسى بن موسى .

ودخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة .

فى هذه السنة خرج الخزر من باب الأبواب ، فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف . وانتهكوا[٢] أمرا عظيما لم يسمع بمثله ؛ وكان سبب ذلك أن ابنة خاقان ملك الخزر . كانت حملت فى سنة اثنتين وثمانين ومائة إلى الفضل بن يحيى . فلما بلغت برْذَعَة ماتت . فرجع من معها إلى أبيها وأخبروه أنها قتلت غيلة فجهز العساكر إلى بلاد الإسلام ففعلوا ذلك ؛ وقيل فى سبب خروجهم أن سعيد بن سلم قتل المنجم السلمى . فدخل ابنه الخزر واستجاشهم على سعيد . فخرجوا ودخلوا أرمينية من الثلمة فانهزم سعيد . وأقاموا نحو سبعين يوماً فوجّه الرشيد خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد . فأصلحوا ما أفسد سعيد . وأخرجوا الخزر وسدّوا الثلمة .

وفيها خرج بنسا من خراسان أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائى . فاستقدم الرشيد على بن عيسى ثم ردّه من قبل المأمون . وأمره بحرب أبى الخصيب .

وفيها توفى موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ببغداد فى حبس الرشيد . وكان سبب حبسه أن الرشيداعتمر فى شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومائة . فلما عاد إلى المدينة دخل قبر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه الناس . فلما انتهى إلى القبر الشريف وقف . فقال : السلام

---

(١) هكذا فى المخطوطات وفى الطبرى جـ٦ ص ٤٧١ . أما فى الكامل جـ٥ ص ١٠٧ : افسوس وكذلك فى معجم البلدان لياقوت الحموى : بضم الهمزة وسكون الفاء والسينان مهملتان والواو ساكنة بلد بثغور طرسوس يقال إنه بلد أصحاب الكهف . وبالهامش للطبرى جـ٢ ص ٧٣٨ افسوس فى أحدى النسخ .

(٢) هكذا فى المخطوطات وأيضا فى الكامل جـ٥ ص ١٠٨ والطبرى جـ٦ ص ٤٧١ .

عليك يا رسول الله يا ابن عم ، قال ذلك افتخارا على من حوله ، فدنا موسى بن جعفر فقال : السلام عليك يا أبت . فتغيّر وجه الرشيد وقال : هذا الفخر يا أبا الحسن جدا . ثم أخذه معه إلى العراق فحبسه عند السَّنْدى بن شَاهِك حتى مات . وكان رجلا صالحا خيّرا ديّنا يقوم الليل كله ، وهو الملقب بالكاظم ـ لقّب بذلك لإحسانه لمن أساء إليه .

وحجّ بالناس فى هذه السنة العباس بن الهادى .

ودخلت سنة أربع وثمانين ومائة .

فى هذه السنة طلب أبو الخصيب النسائى الأمان ، فأمّنه على بن عيسى ابن ماهان . وحجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن عبد الله .

ودخلت سنة خمس وثمانين ومائة .

فى هذه السنة قتل أهل طبرستان واليها مهرويه الرازى ، فولّى الرشيد عبد الله بن سعيد الحرشى .

وفيها عاث حمزة الخارجى بباذغيس فقتل عيسى بن على من أصحابه عشرة آلاف . وفيها غدر أبو الخصيب النسائى ثانيا . وغلب على أَبِيوَرْد وطُوس ونيسَابُور وحصر مرو . ثم انهزم عنها وعاد إلى سَرَخْس وقوى أمره . وحج بالناس فى هذه السنة منصور بن محمد بن عبد الله بن على .

ودخلت سنة ست وثمانين ومائة .

ذكر حج هارون الرشيد وأمر كتاب العهد

فى هذه السنة حج الرشيد من الأنبار . فبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية . أعطى هو عطاءً ومحمد الأمين عطاءً وعبد الله المأمون عطاءً . وسار إلى مكة فأعطى أهلها فبلغ ألف دينار وخمسين دينارا . وكان الرشيد قد ولّى

الأمين العراق والشام وإلى آخر المغرب . وضمّ إلى المأمون من همذان إلى آخر المشرق ، ثم بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقّبه المؤتمن ، وضمّ إليه الجزيرة والثغور والعواصم ، وكان فى حجر عبد الله بن صالح ، وجعل خلعه وإثباته إلى المأمون ، فلما وصل الرشيد إلى مكة ومعه أولاده والقضاة والفقهاء والقوّاد كتب كتابا ، أشهد فيه على محمد الأمين ، وأشهد من حضر بالوفاء للمأمون ، وكتب كتاباً للمأمون أشهد فيه عليه بالوفاء للأمين ، وعلّق الكتابين فى الكعبة ، وجدّد العهود عليهما فى الكعبة ، فقال الناس : قد ألقى بينهم شرا وحربا ، وخافوا عاقبة ذلك وكان ما خافوه .

وفيها سار عيسى بن ماهان من مرو إلى نسا لحرب أبى الخصيب ، فحاربه وقتله وسبى نساءه وذراريه واستقامت خراسان .

ودخلت سنة سبع وثمانين ومائة .

ذكر إيقاع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى بن خالد

فى هذه السنة أوقع الرشيد بالبرامكة ونكبهم النكبة المشهورة ، وقد اختلف فى سبب ذلك ، فقيل إن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عبّاسة بنتْ المهدى ، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب ، فقال لجعفر أزوّجكها ليحلّ لك النظر إليها ولا تقربها ، فأجابه إلى ذلك[1] ، فبقيا على ذلك ما شاء الله ، فمالت العبّاسة إلى جعفر ، وراودته فأبى وخاف على نفسه ، فلما أعيتها الحيلة فى أمره علمت أن النساء أقرب إلى الخديعة ، فبعثت إلى عتّابة ـ وهى أم جعفر ، وكانت عتابة ترسل إلى ابنها جعفر فى كل ليلة جمعة جارية بكراً ، فقالت العبّاسة لها : أرسلينى إلى ابنك كأنى جارية من

(١) ابتداء من هنا نرى المؤلف يأخذ من مصادر غير ابن الأثير وسيذكر المؤلف مصادره غالبا . وهذه القصة مشهورة وموجودة فى مصادر متعددة ، والمؤلف ينقل عن ابن خلكان جـ١ ص ٢٩٦ ، ص ٢٩٧ (ط . القاهرة ١٩٤٨ م) .

جواريك . اللواتى ترسلين إليه فأبت أم جعفر . فقالت لها العبّاسة : إن لم تفعلى قلت للرشيد كلمتنى فى كيت وكيت . وإن فعلت ذلك واشتملتْ منه على ولد زاد فى شرف ابنك . وما عسى أن يفعل أخى لو علم . فمالت أم جعفر إلى ذلك . ووعدت ابنها أنها ترسل اليه جارية من صفتها وحسنها . فطالبها بها مرة بعد أخرى وهى تمطله . حتى اشتاق اليها فأرسلتها إليه . فأدخلت عليه ـ وكان لا يثبت صورتها . لأنه كان إذا جلس عند الرشيد لا يرفع طرفه إليها . فلما دخلت عليه كان قد شرب نبيذا . فاجتمع بها وقضى وطره . فقالت له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ وأية ابنة ملك أنت ! ! قالت : أنا مولاتك العبّاسة . فتألم لذلك وقال لأمه : بعتنى والله رخيصا . فاشتملت العبّاسة من ليلتها على حمل . فلما ولدته وكلت به غلاما يقال له رياش وحاضنة اسمها برّة . وبعثت بهم إلى مكة . وكان يحيى بن خالد ينظر على قصر الرشيد وحرمه وخدمه . ويغلق باب القصر بالليل وينصرف بالمفاتيح معه . فضيّق على حرم الرشيد . فشكت زُبيدة أم الأمين مره إلى الرشيد . فقال له : يا أبت ـ وكان يدعوه بذلك ـ ما بال أم جعفر تشكوك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ـ أمتّهم أنا فى حرمك وخدمك ؟ قال : لا . قال : فلا تقبل قولها . وزاد يحيى فى الحجر والتضييق . فدخلت زبيدة على الرشيد وقالت : ما يحمل يحيى على ما يفعل من منعه خدمى ووضعى فى غير موضعه ؟ فقال : إنّه عندى غير متهم فى حرمى . فقالت : لو كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه ! ! قال : وما ذلك ؟ فأخبرته بخبر العبّاسة ، فقال : وهل على هذا من دليل ؟ ! قالت : وأى شىء أدل من الولد ، قال : وأين هو ؟ قالت : كان ها هنا فلما خافت ظهوره وجهت به إلى مكة . قال : ويعلم بهذا سواك ! ! قالت ما فى قصرك جارية إلا وقد عرفت ما أخبرتك به . فسكت عنها وأظهر أنه يريد الحج . وأخذ معه جعفرا . فكتبت العبّاسة إلى الخادم والداية أن يخرجا بالصبى إلى نحو اليمن . فلما وصل الرشيد إلى مكة

وكل من يثق به بالبحث عن ذلك . فلم يزل حتى تحقق الأمر . فأضمر السوء للبرامكة[١] .

وقيل إن سبب نكبة البرامكة أن يَقْطين بن موسى كان من أكابر الشيعة ، وممَّن كان مع إبراهيم الإمام . فقال يوما للرشيد : حدّثنى مولاى إبراهيم الإمام أن الخامس من خلفاء بنى العباس يغدر به كتّابه . فإن لم يقتلهم قتلوه ، فقال له الرشيد : الله ـ يحدثك الإمام بهذا ! ! قال : نعم .

وقيل كان سبب ذلك أن الرشيد دفع يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى جعفر بن يحيى فحبسه[٢] . ثم استدعاه وسأله عن بعض أمره . فقال له : اتق الله فى أمرى . ولا تتعرض غَداً أن يكون خصمك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت مُحدثا ، فرقّ له وقال : اذهب حيث شئت من بلاد الله . فقال : كيف أذهب ولا آمن أن أوخذ ؟ فوجّه معه من أوصله إلى مأمنه . وبلغ الخبر الفضل بن الربيع فرفعه إلى الرشيد . فقال : ما أنت وهذا ـ فلعلّه[٣] عن أمرى ! ! ثم أحضر جعفراً وسأله عن يحيى . فقال : هو بحاله فى الحبس ، فقال بحياتى ! ! ففطن جعفر وقال : لا وحياتك . وقصّ عليه أمره ، وقال : علمت أنّه لا مكروه عنده . فقال : نِعْم ما فعلت . ما عدوت ما فى نفسى ، فلما قام عنه قال : قتلنى الله إن لم أقتلك . وقيل إن الرشيد لما دفعه لجعفر بقى عنده ما شاء الله . وكان جعفر يرى سرور الرشيد بموت من يموت فى حبسه من هؤلاء . فشرب جعفر عنده يوما فقال : يا أمير

---

(١) هذه القصة مطابقة لما فى كمامة الزهر وصدفة الدر (أو شرح البسامة بأطواق الحمامة) ص ٢٢٥ . ص ٢٢٦ ، ص ٢٢٧ (مطبعة السعادة ١٣٤٠ هـ القاهرة) وابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٩٨ (ط . القاهرة ١٩٤٨ م) .

(٢) ساقطة فى ص .

(٣) فى الكامل جـ٥ ص ١١٤ : فعلهَ وهو تحريف .

المومنين إنّ يحيى قد مات . فسرّ بذلك وقال : الحمد لله الذى كفانى أمره ولم يؤثمنى فيه . وانصرف جعفر فأخبر أباه يحيى بن خالد بما كان . فقال : إنّا لله وإنا إليه راجعون . إن تركناه تلفنا . وإن قتلناه فالنار لنا . ثم كتب يحيى إلى على بن عيسى بن ماهان والى خراسان يعرّفه ماجرى . وفزع إليه أن يكون عنده موسعا عليه . إلى أن يقضى الله فيه قضاءه . ولم يكن يحيى يعلم ما كان بين على بن عيسى وبين الفضل وجعفر من العداوة . فلما وصل الكتاب إلى علىّ ووصل إليه يحيى قال : هذا من حيل الفضل وجعفر علىّ . فأجاب يحيى بأنه فعل ما أراد . وأنفذ كتاب يحيى إلى الرشيد . فكتب إليه الرشيد يعرفه بحسن موقع ذلك عنده . وأمره بانفاذ يحيى بن عبد الله إليه سراً . فلما وصل إليه أوقع بالبرامكة[1] .

هذا مما قيل فى سبب نكبة البرامكة أما كيفيّة الايقاع بهم وقتل جعفر فقيل ، إن الرشيد لما قضى حجّه أرسل السندى بن شاهك : وهو أحد قوّاده ، وأمره أن يمضى إلى مدينة السلام والتوكل بالبرامكة وبدور كتّابهم وأقاربهم ، وأن يجعل ذلك سرًا بحيث لا يعلم به أحد حتى يصل إلى بغداد ، ففعل السندى ذلك ، وكان الرشيد قد نزل بالأنبار بموضع يقال له العُمرْ[2] ومعه جعفر ، فمضى جعفر إلى موضعه فى سلخ المحرم ، ودعا بأبى زكار الأعمى الطنبورى ، ومدّت الستارة وجلس جواريه خلفها يضربن ويغنّين ، وأبو زَكّار يغنّيه :

ما يريد الناس منّا ما ينام الناس عنّا
إنّما همهمُ أن يكشفوا ماقد دفنّا

(١) هذه القصة مطابقة لما فى كهنة زهر ص ٢٤٣

(٢) فى المخطوطات العمر وهو تصحيف والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١١٥ والطبرى جـ ٦ ص ٤٨٨ وابن خلكان جـ ١ ص ٣٠١

قال : واستدعى الرشيد من ساعته بيَاسِر ، غلام من غلمانه ، وقيل بمَسْرُور الخادم ، فأرسله فى جماعة من الجند إلى جعفر ، ليضرب عنقه وليأتيه برأسه ، فمضى حتى دخل على جعفر وعنده بَخْتَيْشُوع الطبيب ، وأبو زَكَّار يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى
وكل ذخيرة لابدّ يوما وأن بقيت[1] تصير إلى نفاد

فقال له جعفر : قد سررتنى بإقبالك إلىّ ، وسؤتنى بدخولك علىّ بغير إذن ، فقال : الأمر أكبر من ذلك ، إن أمير المؤمنين أمرنى بكذا وكذا ، فأقبل جعفر يقبّل يديه ورجليه ، ويقول : دعنى أدخل وأوصى ، فقال : لا سبيل إلى ذلك ، ولكن أوص بما شئت ، فأوصى بما أراد وأعتق مماليكه ، ثم قال : إن لى عندك حقا ولن تجد مكافأتى إلا فى هذه الساعة ، فارجع إلى أمير المؤمنين فأعلمه أنك قد نفّذت كما أمرك به ، فإن أصبح نادماً كانت حياتى على يديك ، وكانت لك عندى نعمة ، وإن أصبح على مثل مذهبه نفّذ ما أمرك به ، قال : ولا هذا ، قال : فأسير معك إلى مضرب أمير المؤمنين بحيث أسمع كلامه ومراجعتك إياه ، فإذا أبليت عذرا ولم يرض إلا بمصيرك إليه برأسى فعلت . قال : أما هذا فنعم ، فسارا جميعا إلى مضرب الرشيد ، فلما أتاه الخادم وجده فى فراشه ، فلما أحس به قال : إيتنى برأسه ، فعاد إلى جعفر وأخبره ، فقال : الله الله ، والله ما أمرك إلا وهو سكران ، فدافع حتى أُصبح أو راجعه ثانية ، فعاد ليراجعه فقال له : يا ماص بظرأمه ، إيتنى برأسه ، فرجع إلى جعفر وأخبره ، فقال ومرّة أخرى ، فلما رجع إليه حذفه بعمود كان فى يده ، وقال : نفيت عن المهدى لئن لم

(١) فى الكامل جـ٥ ص ١١٥ : كرمت . ويأتى بعد هذا البيت فى ابن خلكان جـ١ ص ٣٠٢ وكمامة الزهر ص ٢٢٨ البيت الآتى :

ولو فوديت من حدث الليالى ..... فديتك بالطريف وبالتلاد

تأتنى برأسه لأقتلنّك ، فخرج إلى جعفر وضرب عنقه وأتاه برأسه ؛ قال : من نقل أن الرسول إلى جعفر ياسر ، إنه لما وضع الرأس بين يدى الرشيد أقبل عليه مليا ، ثم قالْ : يا ياسر جئنى بفلان وفلان ، فلما أتاه بهما قال لهما الرشيد : اضربا عنق ياسر ، فإنى لا أقدر أن أرى قاتل جعفر[١] .

وقيل : إنه وجد على قصر على بن عيسى بن ماهان بخراسان فى صبيحة الليلة التى قتل فيها جعفر كتابة بقلم جليل :

إنّ المساكين بنى برمكٍ صبّت عليهم غير الدهر
إنّ لنا فى أمرهم عبرة فليعتبر ساكن ذا القصر[٢]

قال : وكان جعفر من أهل الفصاحة البارعة والفطنة التى لا تحد ، إلا أنه كان فيه بخل بالنسبة إلى أبيه وأخيه ، قال : ولما قتل جعفر أمر الرشيد بتوجيه من احتاط بيحيى وولده الفضل وجميع أسبابهم ، وحبس الفضل فى بعض منازل الرشيد ، وحبس يحيى فى منزله ، وأخذ مالهم وما وجد لهم من ضياع ومتاع وغير ذلك ، وأرسل من ليلته إلى سائر البلاد بالقبض[٣] على وكلائهم وأسبابهم وجميع أموالهم ، وأصبح فأرسل جثة جعفر إلى بغداد وأمر بنصب رأسه وأن يقطع بدنه[٤] قطعتين ، ينصب كل قطعة على جسر ، ولم يعرض الرشيد لمحمد بن خالد بن برمك وولده ، لأنه علم براءته مما دخل فيه أهله ؛ وقيل كان يسعى بهم ، ثم حبس الرشيد يحيى بن خالد وبنيه الفضل ومحمد ، ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ، ولا ما يحتاجون إليه من جارية وغيرها ، ولم تزل حالهم سهلة حتى قبض الرشيد على عبد الملك بن صالح ، فعمّهم سخطه فضيّق عليهم .

(١) راجع كمامة الزهر (ط. السعادة ١٣٤٠ هـ) ص ٢٢٧ . ص ٢٢٨ . ص ٢٢٩ وابن خلكان جـ١ ص ٣٠١ . ص٣٠٢ .
(٢) هذان البيتان مأخوذان من المصدرين السابقين .
(٣) فى ف،ك : فى القبض .
(٤) فى ف .ك : بدنه والتصويب عن ص والكامل جـ٥ ص ١١٥ .

وكان مقتل جعفر فى ليلة السبت مستهل صفر سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان عمره سبعا وثلاثين سنة ، وكانت الوزارة إليهم سبع عشرة سنة ، ولما تكبوا قال الرَّقَاشى : وقيل إن الشعر لأبى نُوَاس :

أَلاَن استرحنا واستراحت مطينا[1] وأمسكَ من يحدى ومن كان يحتدى
فقل للمطايا قد أمنت من السرى وطىّ الفيافى فدفدا بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ولم[2] تظفرى من بعده بمسوّد
وقل للعطايا بعد فضلٍ تعطّلى وقل للرزايا كل يوم تجدّدى
ودونك سيفا برمكياً مهنّدا أصيب بسيف هاشمى مهنّد

وروى أبو الفرج الأصفهانى أن الرَّقَاشى اجتاز بجعفر وهو مصلوب ، فوقف يبكى أحرّ بكاء ، ثم أنشأ يقول :

أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر[3] استلام
فما أبصرت قبلك يا ابن يحيى حساما فلّه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعا ودولة آل برمك السلام[4]

(١) فى الكامل جـ٥ ص ١١٦ : ركابنا .
(٢) فى المصدر السابق : ولن .
(٣) فى المخطوطات : بالحج وهو تحريف تصويبه عن الطبرى جـ٦ ص ٤٩٦ وابن خلكان حـ١ ص ٣٠٤ والبداية والنهاية جـ١٠ ص ١٩١ .
(٤) هذا الشعر موجود فى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ص٣٠٤ والذى أورد معظم القصيدة كالطبرى حـ٦ ص ٤٩٦ ولكنه يختلف مع غيره فى ترتيب الأبيات وفى بعض الألفاظ . هذا ولا يورد الطبرى البيتين الأخيرين ويأتى بدلهما ببيت أو على الأصح لا يأتى بالبيت الثالث ويورد الرابع كما يأتى :
على الدنيا وساكنها جميعا ودولة آل برمك السلام
وقصة الرقاشى (الفضل بن عبد الصمد) موجودة فى اخباره فى الاغانى جـ ص ٣٦ بولاق والأبيات بنفس الترتيب ، وهى فى الطبرى وفى الكامل لابن الأثير وفى وفيات الأعيان لابن خلكان فى ترجمة جعفر بن يحيى .

فكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الرشيد ، فأمر بإحضاره فأحضر ، وقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، كان إلىّ محسنا ، فلما رأيته على الحال التى هو عليها حرّكنى إحسانه ، فما ملكت نفسى حتى قلت الذى قلت . قال : فكم كان يجرى عليك ؟ قال : ألف دينار ، قال : فإنّا قد أضعفناها لك .

وقال يحيى بن خالد لما نكبوا : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، وفينا لمن بعدنا عبرة .

ذكر شئ من أخبار جعفر وتمكّنه من الرشيد وما آل أمرهم إليه

قيل : كان جعفر قد بلغ من الرشيد ما لم يبلغه وزير من خليفة قبله ، كان يجلسه معه فى حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان ، وبلغ عنده أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده ، فمن ذلك ما حكاه إبراهيم بن المهدى أخو الرشيد قال : قال لى جعفر ياإبراهيم ، إذا كان غدًا فبكّر لى ، فلما كان من الغد مشيت إليه باكرا ، فجلسنا نتحدث ، فلما ارتفع النهار أحضر حجاما فحجمنا ، ثم قُدّم لنا الطعام فطعمنا ، ثم خلع علينا ثياب المنادمة ، وقال جعفر لحاجبه[1] : لا يدخل علينا إلا عبد الملك القهرمان ، فنسى الحاجب فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وكان رجل بنى هاشم فصاحة وملاحة وعلماً وحلماً وجلالة قدر وفخامة ذكر وصيانة وديانة ، فظّن الحاجب أنّه الذى أمره بدخوله فأدخله ، فلما رآه جعفر تغّير لونه ، فعلم عبد الملك أنهم قد احتشموا ، فأراد أن يرفع خجله وخجلهم بمشاركته لهم ، فقال : اصنعوا

(١) ينقل المؤلف عن ابن خلكان فى وفيات الأعيان جـ١ ص٢٩٤ . ص ٢٩٥ وكمامة الزهر ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦ .

بنا ما صنعتموه بأنفسكم ، فجاء الخادم وطرح عليه ثياب المنادمة ، وجلس، يشرب فلما بلغ ثلاثا قال : ليخفّف عنّا ، فإنّه شئ ما شربته قط ، فتهلل وجه جعفر ثم قال له : هل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك ، مكافأة لما صنعت ؟ قال : إن أمير المؤمنين علىّ غاضب فتسأله الرضى عنّى ، قال : قد رضى عنك أمير المؤمنين ، قال : وعلىّ أربعة آلاف دينار ، قال : هى حاضرة من مال أمير المؤمنين ، قال : وابنى إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين ، قال : قد زوّجه أمير المؤمنين ابنته عائشة ، قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسه ، قال : قد ولّاه أمير المؤمنين مصر ؛ قال إبراهيم بن المهدى : فانصرف عبد الملك ، وأنا أعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان أمير المؤمنين ، فلما كان من الغد وقفنا على باب أمير المؤمنين ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ومحمد بن واسع وإبراهيم بن عبد الملك ، فعقد له النكاح وحملت البدر إلى منزل عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر ، فأشار إلىّ فصرت إلى منزله ، فقال لى : قلبك معلّق بأمر عبد الملك ، قلت : بلى ، قال : دخلت على أمير المؤمنين فمثلت بين يديه ، وابتدأت القصة من أوّلها إلى آخرها كما كانت ، فجعل يقول أحسن والله ، ثم قال : ما صنعت ؟ فأخبرته بما سأل وبما أجبته ، فجعل يقول فى ذلك كله أحسنت أحسنت[1]،وفى هذه الحكاية كفاية عما سواها .

ويقال إن عُلَيَّة بنت المهدى قالت للرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة : ما رأيت لك ياسيدى يوم سرور تام ، منذ قتلت جعفرا ، فلأى شئ قتلته !! فقال لها : ياأختاه لو علمت أن قميصى يعلم السبب لحرقته .

وأمّا ماآل أمرهم إليه من الضرورة والفاقة والاحتياج والذلة ، فمن ذلك ما حكاه عبد الملك بن عبد الله بن عبدون الحضرمى الإشبيلى فى كتابه

(١) ينقل المؤلف عن ابن خلكان فى وفيات الأعيان جـ ١ص ٢٩٤، ص٢٩٥ وكمامة الزهر ص٢٢٣-٢٢٦ .

المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرّ[١] قال :

حدث محمد بن غسان أن صاحب صلاة الكوفة وقاضيها قال : دخلت على أمى فى يوم أضحى فرأيت عندها عجوزا فى أطمار رثة ، وإذا لها بيان ولسان ، فقلت لأمى من هذه ؟ قالت : خالتك عتّابة أم جعفر بن يحيى ، فسلّمت عليها فسلّمتْ علىّ ، فقلت : أضارك الدهر إلى ما أرى[٢] ! ! قالت : نعم ـ يا بنى إنما كنّا فى عوار ارتجعها الدهر منّا ، فقلت : حدثينى ببعض شأنك ، قالت : خذه جملة ، لقد مضى علىّ أضحى مثل هذا مذ ثلاث سنين وعلى رأسى أربعمائة وصيفة ، وأنا أزعم أنّ ابنى عاق لى ، وقد جئتكم اليوم أطلب جلدى شاة ، أجعل أحدهما شعارًا والآخر دثارًا ، قال:فغمّنى ذلك وأبكانى فوهبت لها دنانير كانت عندى[٣] . وهذه نهاية الاحتياج والضرورة والفاقة ، فنسأل الله تعالى ألا يسلبنا نعمة أنعم بها علينا ، ويجعل الموت قبل بلائه ومحنه .

وكتب يحيى بن خالد إلى الرشيد[٤] : لأمير المؤمنين وإمام المسلمين وخلف المهديين وخليفة رب العالمين ، من عبدٍ أسلمته ذنوبه وأوثقته[٥] عيوبه ، وخذله شقيقه ورفضه صديقه ، وزلّ به الزمان وأناخ عليه الحدثان ، فصار إلى الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهر وافتقد الهجوع ، فساعته شهر وليلته دهر ، قد عاين الموت وشارف الفوت ، جزعا[٦] . يا أمير المؤمنين ، حجب

(١) وتسمى أيضا كمامة الزهر وفريدة الدهر وتسمى أيضا شرح البسامة وهذه القصة بهذا الكتاب ص ٢٣٢ (مطبعة السعادة القاهرة ١٣٤٠ هـ) .

(٢) فى كمامة الزهر : أصنع بك الدهر ماأرى .

(٣) تضيف كمامة الزهر بعد عندى : فكادت تموت من الفرح . فسبحان من لا يزول ملكه . ولا يبقى إلا وجهه .

(٤) راجع كمامة الزهر من ص ٢٣٤ الى ص ٢٣٨ .

(٥) المصدر السابق : وأوبقته .

(٦) ساقطة من ص . والعبارة فى كمامة الزهر : وشارف على الفوت جزعا .

الله عنّى فقدك لما أصبت به من بعدك ، لا لمصيبتى[١] بالحال والمال فإنّ ذلك كان بك ولك ، وكانتا عارية فى يدى منك ، ولا بأس أن تُسترد العوارى ، فأما المحنة فى جعفر فبجرمه أخذته وبجريرته عاقبته ، وما أخاف عليك زلة فى أمره ، ولا مجاوزة به فوق ما يستحقه ؛ فاذكر يا أمير المومنين خدمتى وارحمْ ضعفى وشيبتى ووهن قوّتى ، وهَبْ لى رضى عنّى ، فمن مثلى الزلل ومن مثلك الإقالة ، ولست أعتذر ولكنى أقرّ ، وقد رجوت أن يظهر عند[٢] الرضى وضوح[٣] عذرى ، وصدق نيّتى ، وظاهر طاعتى ، وفلج حجّتى ـ ما يكفينى به أمير المؤمنين ، ويرى الجلّية[٤] فيه ، ويبلغ المراد منه إن شاء الله ، وكتب :

قل للخليفة ذى الصنا ... يع والعطايا الفاشية
وابن الخلائف من قريـ ... ـش والملوك[٥] الهادية
ملك الملوك وخير من ... ساس الأمور الماضية[٦]
إنّ البرامكة الذيـ ... ـن رموا لديلك بداهيه
عبّمتهُم لك سخطة ... لم تبق منهم باقيه
فكأنهم ممّا بهم ... أعجاز نخل خاوية
صفر الوجوه عليهُم ... خلع المذلّة باديه
مستضعفون مطّردو ... ن بكل أرض قاصيه

(١) فى ص لا كمصيبتى وهو تحريف والتصويب عن ف،ك وكمامة الزهر (شرح البسامة) ص ٢٣٤ .
(٢) فى كمامة الزهر : علىّ .
(٣) ساقطة فى ف . ك .
(٤) فى كمامة الزهر : الحيلة وهو تحريف .
(٥) فى المصدر السابق : والقرون .
(٦) فى كمامة الزهر (المخطوط رقم ٧٩١٧ أدب دار الكتب) : ساس الملوك ، (وفى المطبوع) رأس الأمور وخير ...

مَن دون مايلقون من عتب[١] يشيب الناصية
أضحوا[٢] وجلّ مناهُم منك الرضا والعافية
بعد الوزارة والإما رة والأمور العالية
انظر إلى الشيخ الكبيـ ـر فنفسهُ لك راجيه
أو ما سمعت مقالتى يا ابن[٣] الفروع الزاكيه
مازلت أرجو راحة فاليوم خاب رجائيه
واليوم قد سلب الزما ن كرامتى وبهائيه
ألقى الزمان جرانه[٤] متشفيا بعنائيه[٥]
ورمى سواد مقاتلى فأصاب حين رمانيه
يامن يود[٦] لَى الردى يكفيك ويحك مابيه
يكفيك أنّى مستبا ح عشيرتى[٧] ونسائيه
يكفيك ما أبصرت من ذلّى وضيق[٨] مكانيه
وذهاب[٩] مالى[١٠] كلّهُ وفدى الخليفة ماليه
إن كان لايكفيك إلْ لا أن أذوق حماميه
فلقد رأيت الموت من قبل الممات علانيه
وفجعت أعظم فجعة وفنيت قبل فنائيه
وهويت فى قعر السجو ن على رفيع بنائيه

(١) فى المصدر السابق : عيب
(٢) فى المصدر السابق : أضحى
(٣) المصدر السابق : ذا
(٤) فى المصدر السابق : حرابه .
(٥) فى المصدر السابق : بضنائيه والمطبوع ص ٢٣٦ : بعناية .
(٦) فى المخطوطات : يامن يريد الردى وهو تحريف .
(٧) فى كمامة الزهر ص ٢٣٦ : وزمانيه .
(٨) فى المصدر السابق : وذلّ .
(٩) فى المخطوطات : وذهب وهو تحريف .
(١٠) فى كمامة الزهر المخطوط : حق .

انظر بعينك هل ترى إلا قصورا خاليه
وذخائرا موروثةً قُسّمن قبل مماتيه
ومصارعاً وفجائعًا ومصائباً متواليه
ونوادباً يندبننى تحت الدجى بكنائية[1]
أأبا على البرمكـ ـى فما أجيب الداعيه
ونداؤهنّ وقد سمعـ ـت مقلقل[2] أحشائيه
أخليفة الله الرضا لا تشمتنْ أعدائيه
واذكر مقاساتى الأمو ر وخدمتى وغَنائيه
ارحم جعلت لك الفدا كربى وشدة حاليه
وارحم أخاك الفضل والـ ـباقين من أولاديه
أخليفة الرحمن إنْـ ـنَك لو رأيت بنائيه
وبكاء فاطمة الصغيـ ـرة[3] والمدامع جاريه
ومقالها بتوجع يا شقوتى وشقائيه
من لى وقد غضب الإما م على جميع رجاليه[4]
وعدمت طيب معيشتى وتغيّرت حالاتيه
يا نعمة الملك الرضا عودى علينا ثانيه

ويروى أن الرشيد لما قرأ الأبيات وقّع تحت الشعر يقول :

أجرى القضاء عليكُم ما جئتموه علانيه
من ترْك نصح إمامكم عند الأمور الباديه

(١) فى المخطوطات : يدعوننى : والتصويب عن كمامة الزهر ص ٢٣٦ .
(٢) فى كمامة الزهر ص ٢٣٦ : بداوهن ؛ فى ف،ك: معاقل .
(٣) فى المصدر السابق ص ٢٣٧ : الكبيرة .
(٤) بعد هذا البيت فى كمامة الزهر ص ٢٣٧ . بيت ليس موجودا بالمخطوطات هو :
من لى وقد قصم الزما ن كما تراه قناتيه

يـــا آل بـــرمك إنما كـــنتم مـــلوكـــا عـــاديـــه
فـكـفـرتـمُ وعصـيـتـمُ وجـحـدتـمُ نـعمائـيـه
فـسـلـبـتـمـوهـا هـكـذا وكـذا تـرد الـعـاريـه[٣]
هـذه عـقـوبـة من عصـا مـعـبـوده وعصـانـيـه

وكتب تحت الشعر ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانت آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَها اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[٢] ﴾ .

قال : ولم يزل يحيى فى الحبس حتى مات سنة تسعين ومائة فى المحرم منها ، وهو ابن سبعين سنة ، وتوفى الفضل بن يحيى فى المحرم سنة ثلاث وتسعين ومائة .

نعود إلى بقية حوادث سنة سبع وثمانين ومائة من الهجرة .

ذكر القبض على عبد الملك بن صالح

فى هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بن على[٣] بن عبد الله ، وكان سبب ذلك أنه كان له ولد اسمه عبد الرحمن وبه كان يكنى ، فسعى به إلى الرشيد هو وقامه كاتب أبيه ، وقالا : إنه يطلب الخلافة ويطمع فيها ، فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع ، ولم يزل عبد الملك فى الحبس إلى أن مات الرشيد ، فأخرجه الأمين واستعمله على الشام .

ذكر غزو الروم

فى هذه السنة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فى شعبان ، فصالحه

(١) هذا البيت غير موجود بكمامة الزهر ص ٢٣٧ .
(٢) سورة النحل : آية ١١٢ . وإلى هنا ينتهى نقل المؤلف من كتاب كمامة الزهر وصدقة الدر .
(٣) هذا الاسم ساقط فى ف ، ك .

الروم على ثلاثمائة وعشرين أسيرا من المسلمين[١] ، على أن يرحل عنهم فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم ، وكان يملك الروم يومئذ امرأة اسمها ريني[٢] ، فخلعها الروم وملّكوا عليهم نِقْفُور ، ويزعم الروم أنّه[٣] من أولاد جفنة من غسّان ، وكان قبل أن يملك يلى الخَراج ، فلما استوثق[٤] الروم لنقفور كتب إلى الرشيد من نقفور ـ ملك الروم ـ إلى هارون ـ ملك العرب ـ أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافها إليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهنّ ، فإذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع من المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك . فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب ، حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، وتفرّق جلساؤه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب : من هارون ـ أمير المؤمنين ـ إلى نقفور[٥] كلب الروم ، قد قرأ كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام . ثم سار من يومه حتى نزل على هِرَقْلَة ، ففتح وغنم وأحرق وخرّب ، فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله إليه فى كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، فلما رجع الرشيد نقض نقفور العهد ، وكان البرد قد اشتد فأمن رجعة الرشيد ، فجاء الخبر بنقضه وقد بلغ الرشيد الرقة ، فأشفق الناس من إعلام الرشيد ، وخافوا عوده لشدة البرد ، فاحتيل عليه بشاعر قيل هو أبو محمد عبد الله بن

---

(١) فى ف ، ك : الروم وهو خطأ والتصويب عن ص والكامل جـ ٥ ص ١١٨ والطبرى جـ ٦ ص ٥٠٠

(٢) فى المخطوطات : رتبى ، وهو خطأ فى النقط والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١١٨ والطبرى جـ ٦ ص ٥٠٠ .

(٣) فى ف ، ك : أنهم .

(٤) فى المخطوطات : استوثق .

(٥) ساقط فى ف وتبعه سقوطه من ك .

يوسف[١] ، وقيل هو الحجاج بن يوسف التيمى[٢] فقال أبياتًا منها :

نقض الذى أعطيته نقفور فعليه[٣] دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنّه فتح[٤] أتاك به الإله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا بالنصر فيه لواؤك المنصور[٥]

فلما سمع الرشيد ذلك قال : أو فعل ذلك نقفور ! ورجع إلى بلاد الروم فى أشد زمان ، حتى بلغ بلادهم فبلغ ما أراد ، وقيل كان ذلك فى سنة تسعين ومائة وفتح هرقلة ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها زلزلت المصِّيصَة فانهدم سورها ، ونضب ماؤها ساعة من الليل .

وحجّ بالناس عبد الله[٦] بن العباس بن محمد بن على .

ودخلت سنة ثمان وثمانين ومائة .

فى هذه السنة غزا إبراهيم بن جبريل[٧] الصائفة ، فدخل أرض الروم من درب الصَّفْصَاف فخرج إليه نقفور ملك الروم ، فأتاه من ورائه أمر صرفه عنه ، فلقى جمعا من المسلمين فجرح ثلاث جراحات وانهزم ، وقتل من الروم أربعون ألفا وسبعمائة . وحج الرشيد بالناس فى هذه السنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين ومائة .

ذكر مسير الرشيد إلى الرى

فى هذه السنة سار الرشيد إلى الرى ، وسبب ذلك أن أهل خراسان

(١) فى المخطوطات : محمد بن عبد الله بن يوسف والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١١٨ والطبرى جـ ٦ ص ٥٠١

(٢) فى المخطوطات : التيمى والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١١٨ والطبرى جـ ٦ ص ٥٠١ .

(٣) فى الطبرى جـ ٦ ص ٥٠١ : وعليه .

(٤) فى المصدر السابق : غنم .

(٥) لم يورد الطبرى، هذا البيت الثالث .

(٦) فى الطبرى جـ ٦ ص ٥٠٤ عبيد الله .

(٧) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ ٦ ص ٥٠٤ ، أما فى الكامل جـ ٥ ص

تظلموا من على بن عيسى بن ماهان ، وشكوا سوء سيرته فيهم ، وقيل للرشيد إنه قد أجمع على الخلاف ، فسار إلى الرى فى جمادى الأولى ومعه ابناه المأمون والقاسم المؤتمنَ ، وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم أن جميع ما فى عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون ، وليس له فيه شئ ، وأقام الرشيد بالرى أربعة أشهر ، حتى أتاه على بن عيسى من خراسان فأهدى إليه الهدايا الكثيرة والأموال العظيمة ، وأهدى لجميع من معه من أهل بيته وولده وكتّابه وقواده من الطرف والجواهر وغير ذلك ، فرأى الرشيد خلاف ما كان يظن فردّه إلى خراسان ، ورجع الرشيد إلى العراق فى آخر هذه السنة .

وفيها كان الفداء بين الروم والمسلمين ، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودى به . وحج بالناس فى هذه السنة العباس بن موسى بن محمد بن على[1] ابن عبد الله .

ودخلت سنة تسعين ومائة .

ذكر فتح هِرَقْلَة

فى هذه السنة فتح الرشيد هرقلة وخرّبها ، وكان سبب مسيره إليها ما قدمناه فى سنة سبع وثمانين من غدر نقفور ، فكان فتحها فى شوال وحصرها ثلاثين يوما . قال: ودخل البلاد فى مائة ألف وخمس وثلاثين ألفا من المرتزقة ، سوى الأتباع والمتطوعة ومن لا ديوان لهم ، ووجّه داود بن عيسى ابن موسى فى سبعين ألفا ، فسار فى أرض الروم يخرب وينهب ، وفتح شَرَاحِيل بن مَعْن بن زائدة حصن وديسه[2] ، وافتتح يزيد بن مَخْلَد

(١) سقط من كل المخطوطات .

(٢) هكذا فى ف وكذلك فى ك تبعا وفى ص من غير نقط وفى الكامل جـ ٥ ص ١٢٣ : دنسة وفى الطبرى جـ ٦ ص ٥١٠ : دبسه ، وهذه الأسماء البيزنطية تختلف فيها المصادر العربية لغربتها عنهم وهو تعتمد على الرواية وهى غير مأمونة التحريف .

الصفصاف وملوقية[١] ، واستعمل حميد بن مَعْيَوف على ساحل الشام ومصر ، فبلغ قُبْرُس فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفا ، فلما قدم بهم الرافِقَة[٢] بيعوا بها ، وبلغ فداء أسقف قبرس ألفى دينار ، ثم سار الرشيد إلى طُوَانَة فنزل بها ، ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر ، وبعث نقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ولده دينارين وعن بطارقته كذلك ؛ وكتب نقفور إلى الرشيد فى جارية من سبى هرقلة ، كان خطبها لولده فبعثها إليه .

وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى عند ذكره ترجمة أَشْجَع بن عمرو السُّلَمى ، وما امتدح به الرشيد لما فتح هرقلة ، وسياقه أتم من هذا السياق وأكثر تبياناً ، فأحببنا أن نشرحه ها هنا ليكون خبرها على توال واتساق[٣] ، فقال : أخبرنى على بن سليمان الأخفش قال حدثنا محمد بن يزيد قال : كان من خبر غزاة الرشيد هرقلة أن الروم كانت ملكت امرأة ، لأنه لم يكن فى زمانها من أهل المملكة غيرها ، وكانت تكتب إلى المهدى والهادى والرشيد ـ فى أول خلافته ـ بالتعظيم والتبجيل ، وتدرّ عليه الهدايا حتى بلغ ابنها . فحاز الملك دونها وعاث وأفسد وفاسد الرشيد ، فخافت على ملك الروم أن يذهب وعلى بلادهم أن تعطب ، لعلمها بالرشيد وخوفها من سطوته ، فاحتالت على ابنها فسملت عينيه . فبطل من الملك وعاد الملك إليها ، فاستكبر ذلك أهل المملكة وأبغضوها من أجله ، فخرج عليها نقفور وكان كاتبها ، فأعانوه وعضدوه وقام بأمر المملكة وضبط أمر الروم ، فلما قوى أمره وتمكّن من ملكه كتب إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلى الرشيد ملك

(١) فى الطبرى جـ٦ ص ٥١٠ : ملقوبية .

(٢) ف ، ك : الرقة ويؤيد ص الكامل جـ٥ ص ١٢٣ والطبرى جـ٦ ص ٥١٠ .

(٣) ينقل المؤلف من الأغانى جـ١٧ ص ٤٤ ، ص ٤٥ (بولاق) نصا كعادته وهدف المؤلف من تعبيره جمع ما يمكن جمعه وتفصيل خبر أبى الفرج تفصيلا لايأتى عند غيره .

العرب ، أما بعد ، فإن هذه المرأة كانت وضعتك وأباك وأخاك موضع الملوك ، ووضعت نفسها موضع السوقة ، وإنى واضعك بغير ذلك الموضع ، وعامل على تطرّق بلادك والهجوم على أمصارك ، أو تؤدّى إلىّ ما كانت المرأة تؤديه إليك والسلام .

فلما ورد الكتاب على الرشيد كتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هارون ـ أمير المؤمنين ـ إلى نقفور ـ كلب الروم ـ أما بعد فقد فهمت كتابك ، وجوابك عندى ما تراه عياناً لا ما تسمعه . ثم شخص من شهره ذلك يؤم بلاد الروم ، فى جمع لم يسمع بمثله ، فلما بلغ نقفور ذلك ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وشاور فى أمره ، وجدّ الرشيد فجعل يوغل فى بلاد الروم ، فيقتل ويسبى ويغنم ويعفى الآثار ويخرّب الحصون ، حتى صار إلى طرق متضايقة دون قسطنطينيّة ، فلما بلغها وجدها وقد أمر نقفور بالشجر فقطع ورمى به فى تلك الطرق وأشعلت فيه النيران ، فكان الرشيد أول من لبس ثياب النفاطين فخاضها ، ثم اتبعه الناس فبعث إليه نقفور بالهدايا ، وخضع له أشد الخضوع وأدّى له الجزية ، عن رأسه فضلا عن أصحابه ، فرجع هارون ـ لما أطاعه ما أعطاه ـ إلى الرقة .

فلما رجع وأمن نقفور أن يغزى اغتر بالمهلة ، ونقض ما كان بينه وبين الرشيد ورجع إلى حالته الأولى ، فلم يجترئ يحيى بن خالد[1] فضلا عن غيره على إخبار الرشيد بغدر نقفور ، وبذل هو وبنوه أموالاً للشعراء على أن يقولوا أشعاراً فى إعلام الرشيد بذلك ، فكلهم أشفق إلا شاعر من أهل جدّة يكنى أبا محمد ، وكان مجيدًا قوىّ الشعر ، فإنه أخذ من يحيى وبنيه مائة ألف درهم ، ودخل إلى الرشيد فأنشده :

(١) هذا الحدث التاريخى كان بعد وقعة البرامكة فلم يحضره يحيى وبنوه وينتبه ناسخ ص لذلك فيضيف عبارة تشير الى ذلك فى آخر القصة .

نقض الذى أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنّه فتح [١] أتاك به الإله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمّنا بالنصر فيه لواؤك المنصور [٢]
فلقد تباشرت الرعيّة أن أتى بالنقض منه [٣] وافد وبشير
درجت يمينك أن تعجّل غزوة تشفى النفوس نكالها [٤] مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خدّه حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنّها بأكفنا [٥] شعل الظلام [٦] تطير
وصرفت من طول [٧] العساكر قافلا عنه وجارك آمنٌ مسرور
نقفور إنّك حين تغدر إن نأى عنك الإمام لجاهل مغرور [٨]
ألقاك حينك فى [٩] زواخر بحره فَطَمَتْ عليك من الإمام بحور
إنّ الإمام على اقتسارك قادر قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلا عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرّد للجهاد بنفسه فعدوّه أبدا به مقهور
يا من يريد رضى الإله بسعيه والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغشّ إمامه والنصح من نصحائه مشكور

(١) فى الطبرى جـ٦ ص ٥١٠ : غنم .
(٢) إلى هنا ينقل عن ابن الأثير فى الكامل جـ٥ ص ١١٨ الشعر ، وهذا البيت غير موجود فى الطبرى وفى الأغانى طبعة بولاق مع أنهما ينقلان القصيدة كلها .
(٣) فى الطبرى جـ٦ ص ٥٠١ والأغانى جـ١٧ ص ٤٥ (بولاق) : عنه .
(٤) فى الطبرى جـ٦ ص ٥٠١ : مكانها .
(٥) فى ف ، ك : بالقنا وهو تحريف .
(٦) فى الطبرى جـ٦ ص ٥٠١ : الضرام .
(٧) فى الطبرى جـ٦ ص ٥٠١ : بالطول .
(٨) يأتى بعد هذا البيت بيت ورد فى الطبرى جـ٦ ص ٥٠٢ والأغانى جـ١٧ ص ٤٥ (بولاق) هو الآتى :

أظننت حين غدرت أنك مفلت هبلتك أمك ما ظننت غرور

نصح الإمام على الأنام فريضة ولأهله[1] كفارة وظهور

قال : فلما أنشده قال الرشيد : أو قد فعل ! ! وعلم أن الوزراء قد احتالوا فى ذلك ، قال : فسار الرشيد قاصدا إليه ، وجعل قبل وصوله إلى هرقلة يفتتح الحصون والمدن ويحرقها ، حتى أناخ على هرقلة وهى أوثق حصن وأعزه جانبا وأمنعه ركنا ، فتحصّن أهلها . وكان بابها على واد ولها خندق يطيف بها ؛ قال : فحدثنى شيخ من مشايخ المطوّعة وملازمى الثغور ، يقال له على بن عبد الله قال حدّثنى جماعة من أهل الثغر :

أنّ الرشيد لما حصر أهل هرقلة وألحّ عليهم بالمجانيق والسهام والعرّادات فتح الباب ذات يوم ، فاستشرف المسلمون لذلك ، فإذا رجل من أهلها كأكمل الرجال ، قد خرج فى أكمل السلاح فنادى : قد طال مواقفتكم إيانا فليبرز إلىّ منكم رجلان ، ثم لم يزل يزيد حتى بلغ عشرين ، فلم يجبه أحد ، فدخل وأغلق الباب ، وكان الرشيد نائما فلم يعلم بخبره إلا بعد انصرافه ، فغضب ولام خدمه وغلمانه على تركهم إنباهه ، وتأسّف لفوته ، فقيل له إن الامتناع منه سيغريه[2] ويطغيه ، وأحرى به أن يخرج فى غد فيطلب مثل ما طلب ، فطالت على الرشيد ليلته وأصبح كالمنتظر له ، فإذا بالباب قد فتح وخرج الرجل طالبا للبراز ، وذلك فى يوم شديد الحر ، فجعل يدعو أنه يثبت لعشرين منهم ، فقال الرشيد : من له ؟ فابتدره جلّة القواد كهرثمة ويزيد بن مزيد وعبد الله بن مالك وخزيمة بن خازم وأخيه عبد الله وداود بن يزيد وأخيه ، فعزم على إخراج بعضهم ، فضّج المطوعة حتى سمع ضجيجهم ، فأذن لعشرين منهم فقال قائلهم : يا أمير المؤمنين ، قوّادك

(١) فى الأغانى جـ١٧ ص٤٦ والطبرى جـ٦ ص٥٠٣ : ولأهلها .

(٢) فى الأغانى جـ١٧ ص٤٦ (بولاق) : سيغويه .

مشهورون بالنجدة والبأس وعلوّ الصوت ومدارسة الحرب ، ومتى خرج واحد منهم فقتل هذا العلج لم يكبر ذاك ، وإن قتله العلج كان وصمة على العسكر قبيحة وثلمة لا تسدّ ، ونحن عامّة لم يرتفع لأحد منّا صوت إلا كما يصلح للعامّة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخلينا نختار رجلاً فنخرجه إليه ، فإن ظفر علم أهل الحصن أن أمير المؤمنين ظفر بأعرفهم[١] ، على يد رجل من العامة[٢] من أفناء الناس، وإن قتل الرجل فإنما استشهد، ولم يؤثر ذهابه فى العسكر ولم يثلمه رجل، وخرج إليه بعده مثله حتى يقضى الله ماشاء، فقال الرشيد: قد استصوبت رأيكم هذا، فاختاروا رجلا يعرف بابن الجزرى[٣] ، وكان معروفاً فى الثغر بالبأس والنجدة ، فقال له الرشيد :

أتخرج ؟ قال نعم وأستعين بالله تعالى ، فقال[٤] : أعطوه فرسا ورمحا وسيفا وترسا ، فقال : يا أمير المؤمنين . أنا بفرسى أوثق ، ورمحى بيدى أشد ، ولكنى قد قبلت السيف والترس ، فلبس سلاحه واستدناه الرشيد فودّعه وأتبعه الدعاء ، وخرج معه عشرون من المطوّعة ، فلما انقضّ فى الوادى قال لهم العلج ـ وهو يعدّهم واحداً واحداً ـ إنما كان الشرط عشرين ، وقد زدتم رجلا ولكن لا بأس ، فنادوه ليس يخرج إليك إلا رجل واحد ، فلما فصل منهم ابن الجزرى تأمّله الرومى ، وقد أشرف أكثر الناس من الحصن يتأملون صاحبهم والقِرْن[٥] ، فقال له الرومى : أتصدقنى عما استخبرك ؟ قال :

نعم ، قال : أنت بالله ابن الجزرى ؟ قال : اللهم نعم ، فكفر له ثم أخذا فى شأنهما ، فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما وكاد الفرسان يقومان ، وليس

(١) فى المصدر السابق : بأعزهم .

(٢) ساقطة من ف ، ك .

(٣) هكذا فى ف ، ك والأغانى جـ١٧ ص ٤٧ وغير منقوط الكلمة فى ص .

(٤) فى ف ، ك : قال ،

(٥) القرن : بالكسر كفؤك فى الشجاعة .

يخدش واحد منهما صاحبه ، ثم تحاجزا[١] بشئ فزجّ كل واحد منهما رمحه ، وانتضى سيفه فتجالدا مليًا ، واشتد عليهما الحرّ وتبلّد الفرسان ، وجعل ابن الجزرى يضرب الضربة التى يرى أنّه قد بلغ بها ، فيتّقيها الرومى وكان ترسه من حديد ، ويضربه الرومى ضربة معذر ، فلما يئس كل واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابن الجزرى ، فدخلت المسلمين[٢] كآبة لم يكتئبوا مثلها قط ، وعطعط المشركون اختيالاً وتطاولاً ، وإنما كانت هزيمته حيلة منه فاتبعه العلج ، وتمكّن ابن الجزرى منه فرماه بوهق فوقع فى عنقه فما أخطأه ، وركض فاستلبه عن فرسه ثم عطف عليه ، فما وصل إلى الأرض حتى فارقه رأسه ، فكبر المسلمون أعلى تكبير ، وانخزل المشركون وبادروا الباب يغلقونه ، واتصل الخبر بالرشيد فصاح بالقواد : اجعلوا النار فى المجانيق ، ففعلوا وجعلوا الكتان والنفط على الحجارة ، وأضرموا ناراً ورموا بها السور ، فكانت النار تلصق به وتأخذه الحجارة ، وقد تصدّع فتهافت ، فلما أحاطت بهم النيران فتحوا الباب مستأمنين ، فقال الشاعر المكى الذى ينزل جدّة[٣] :

هوت هرقلة لمّا أن رأت عجباً حوائما[٤] ترتمى بالنفط والنار
كأنّ نيراننا فى جيب[٥] قلعتهم مصبغات[٦] على أرسان قصّار

قال محمد بن يزيد : وأعظم الرشيد الجائزة للجُدِّى الشاعر ، وصبّ الأموال على ابن الجزرى وقوّد ، فلم يقبل التقويد وسأل أن يعفى ، ويترك

(١) فى المخطوطات تحاورا والتصويب عن الأغانى جـ١٧ ص ٤٧ (بولاق) .
(٢) فى المخطوطات : المسلمون .
(٣) فى ص : بجدة .
(٤) فى المخطوطات : جوائما والتصويب عن الأغانى جـ١٧ ص ٤٧ (بولاق) .
(٥) فى ف . ك والأغانى جـ١٧ ص ٤٧ (٤٧) (بولاق) : جنب .
(٦) فى ف ، ك : مصنعات .

مكانه من الثغر فلم يزل به طول عمره[1] . وحجّ بالناس عيسى بن موسى الهادى .

ودخلت سنة إحدى وتسعين ومائة .

فى هذه السنة عزل الرشيد عن خراسان على بن عيسى بن ماهان ، واستعمل عليها هرثمة بن أعين . وحجّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن العباس بن محمد بن على .

ودخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة .

فى هذه السنة تحرّكت الخُرَّمِيَّة بناحية أذَرْبِيجَان ، فوجّه إليهم الرشيد عبد الله بن مالك فى عشرة آلاف ، فقتل وسبى وأسر . وحج بالناس العباس بن عبد الله بن جعفر .

ودخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة .

ذكر وفاة الرشيد

كانت وفاته ليلة السبت ـ الثالث من جمادى الآخرة ـ من هذه السنة ، وكان قد توجّه إلى خراسان فى سنة اثنتين وتسعين ومائة ، فمرض فى الطريق بجرجان فسار إلى طوس ، فمات بها وصلى عليه ابنه صالح ودفن

(١) تزيد نسخة ف والمظنون أنه ليس بنص المؤلف ، ونلاحظ زيادة مثل هذه فى موضع آخر فى أولاد الرشيد والزيادة هى : هكذا أورد أبو الفرج هذا الخبر . ذكر فيه يحيى بن خالد وأولاده ، وساق ما قدمناه من التاريخ أن غزوة الروم وفتح هرقلة كان بعد نكبة البرامكة والله أعلم . والمرجح أنه ليس من نص المؤلف لأن المألوف أن المؤلف فى مثل هذه الحالة ينبه على أنه يورد قصة تتصل بالموضوع بشكل تدل على شكه ولكن المؤلف أورد القصة على طولها مطمئنا إلى أنها تاريخ ودليل ذلك قوله فى مطلع القصة (... ليكون خبرها على توال واتساق) .

بطوس. روى أبو الفرج الأصفهانى عن جحظة عن ميمون بن هارون قال[١] :

رأى الرشيد فيما يرى النائم كأن امرأة وقفت عليه ، وأخذت كف تراب ثم قالت : هذه تربتك عن قليل ، فأصبح فزعا فقصّ رؤياه ، فقال له أصحابه : وما فى هذا ! ! قد يرى النائم أكثر من هذا وأغلظ ثم لا يضره فركب وقال : إنى لأرى الأمر قريباً ، فبينا هو يسير إذ نظر إلى امرأة واقفة من وراء شباك حديد تنظر إليه ، فقال : هذه والله التربة التى رأيتها ، وهذه المرأة بعينها ، ثم مات بعد مدة ودفن فى ذلك الموضع بعينه ، أشترى له ودفن فيه ، وأتى نعيه بغداد فقال أشجع يرثيه :

غـربت بـالمشرق الشمـ ـس فقـل للعين تدمعْ
مـا رأيـنا قـط شمسا غربت من حيث تطلعْ

وكان عمره سبعا وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام ، وخلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوما ، وكان جميلاً وسيما أبيض جعدا قد وخطه الشيب .

وكان له من الأولاد : محمد الأمين ، وعبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وأبو إسحاق المعتصم ، وصالح ، وأبوعيسى محمد ، وأبو يعقوب محمد ، وأبو العباس محمد ، وأبو سليمان محمد ، وأبو على محمد ، وأبو محمد ـ وهو اسمه ، وأبو أحمد محمد ، وكلهم لأمهات أولاد إلا الأمين[٢] . وله من البنات سُكَينة ، وأم حبيب ، وأروى ، وأم

(١) القصة منقولة عن الأغانى جـ١٧ ص ٤٩ ، ص ٥٠ (بولاق) .

(٢) تزيد النسخة ص بعد ذلك قصة على قياس قصة المنصور التى زعمت أنه تزوج زواجا أخفاه وأثمر ولدا ، كذلك هذه القصة التى توردها النسخة ص تنسب إلى الرشيد زواجا خفيا أثمر ولدا ، نقلت النسخة ص قالت :

هؤلاء الذين عرفوا من أولاده الذكور وذكرهم أهل التاريخ ، وقد حكى الإمام أبو الليث=

= السمرقندى رحمه الله فى كتابه المترجم تنبيه الغافلين (مطبوع طبعة بولاق) قال : حدثنا أبى قال : حدثنا أبو الحسن الفرا عن عبد الله بن الفرج قال : خرجت يوما فى طلب أجير يعمل لى شيئا فى الدار ، فأتيت فى طلبه فإذا أنا برجل حسن الوجه وبين يديه مر وزنبيل ، فقلت له : أتعمل لى اليوم إلى آخر الليل ؟ قال : نعم ، قلت : بكم ؟ قال : بدرهم ودانق ، قلت له : قم ، فقام وأتى معى إلى منزلى ، فعمل معى عملا كان يعمله غيره فى ثلاثة أيام ، ثم أتيته فى اليوم الثانى أطلبه فلم أره ، فسألت عنه فقيل هو رجل لا يرى فى الأسبوع إلا يوما واحدا ، وقالوا لى يوم السبت ، فتربصت حتى أتى ذلك اليوم ، فجئت وهو جالس ، فقلت له : أتعمل اليوم معى ؟ قال : نعم بدرهم ودانق ، قلت : تعمل بدرهم ، قال : لا ، إلا بدرهم ودانق ، قلت قم فقام وعمل معى عملا كان يعمله غيره فى ثلاثة أيام ، فلما كان وقت المساء وزنت له درهما واحدا ، فقال لى : ألم أقل لك بدرهم ودانق ؟ وكنت أردت أن اختبره ، فقال : قد أفسدت علىّ أجرتى ، ولا آخذ منك شيئا ، قال : فوزنت له درهما ودانقا ، فأبى أن يأخذه ، فألححت عليه فقال : سبحان الله أقول لك ما آخذ وتلح علىّ !! ومضى وأقبلت إلى أهلى وأخبرتهم بقصته فقالت لى زوجتى : فعل الله بك وصنع ، ما الذى أردت من رجل عمل لك عمل ثلاثة أيام فى يوم واحد !! قال فجئت يوما أسأل عنه فقيل لى إنه مريض ، فاستدللت على بيته فأرشدت إليه ، فأتيته وإذا هو مبطون فى خربة ، ليس فيها شىء غير ذلك المر والزنبيل ، فسلمت عليه فرد على ، فقلت له : لى إليك حاجة ، وأنت تعرف ما جاء فى إدخال السرور على العبد ، فقلت : إنى أحب أن تأتى إلى بيتى حتى أمرضك فيه ، قال : أتحب ذلك ؟ قلت نعم ، قال : آتيك على ثلاثة شرائط تقبلها منى ولا تخالفنى فيها ، قلت : نعم ، قال : أحدها أنك لا تعرض على طعاماً حتى أسألك وآذن لك فيه ، قلت : نعم ، قال : والثانى : اذا أنامت فكفنى فى كسائى هذا وجبتى هذه ، فقلت : نعم ، وأما الثالث : فهو أشد منهما ، وسأخبرك عنه غدا إن شاء الله ، قال : فحملته إلى منزلى عند الظهر ، فلما أصبحت من الغد نادانى فأتيته ، فقلت ما شأنك ؟ قال : ألا أخبرك عن حاجتى الثالثة ، أعلم أنه قد حضرت وفاتى ، ثم قال : افتح هذه الصرة التى فى كم جبتى ، ففتحتها فاذا فيه خاتم عليه فص أخضر ، فقال لى : يا عبد الله إذا أنامت فكفنى كما أمرتك وورانى ، وخذ هذا الخاتم فأدفعه إلى هارون الرشيد ، وقل له : يقول لك صاحب هذا الخاتم : ويحك لا تموتن على سكرتك هذه فإنك إن مت عليها ندمت ، ثم مات ، فلما دفنته سألت عن يوم خروج الرشيد فأخبرت ، فكتبت قصة وتعرضت له ، فدفعت إليه القصة بعد أن ضربت ضربا موجعا ، قال : فلما دخل القصر وقرأ القصة استدعانى ، فدخلت عليه فقال : ما شأنك ؟ فأخرجت الخاتم ودفعته إليه ، فلما نظر إليه قال لى : من أين لك هذا الخاتم ؟ قلت يا أمير المؤمنين دفعة إلىّ رجل طيان وأخبرته بقصته ، فنظرت إلى دموعه تنحدر على لحيته ، وهو يقول : رجل طيان !!! وقربنى منه وأدنانى فدنوت منه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين إنه أوصانى بوصيته ألقيها إليك ، قال : ألق ما معك من الوصية ، قلت له : يقول لك صاحب هذا الخاتم : لا تموتن على سكرتك هذه ، فإنك إن مت عليها ندمت ، فقام قائما وضرب بنفسه على البساط وجعل ينتف رأسه ولحيته ، ويقول : يا بنى نصحت أباك حياً وميتاً ، وبكى بكاء طويلا ثم جلس ، وجاءوا فغسل وجهه ، واستعاد القصة

الحسن[١] ، وأم محمد ـ وهى حمدونة ، وفاطمة ، وأم أبيها ، وأم سلمة ، وخديجة ، وأم القاسم ، ورملة ، وأم جعفر ، والغالية ، وريطة ، كلهن لأمهات أولاد ، والواحدة من بناته تعد عشرة من الخلفاء كلهم لها محرم هارون أبوها ، والهادى عمها ، والمهدى جدها ، والمنصور جد أبيها ، والسفاح عم جدها ، والأمين والمأمون والمعتصم إخوتها ، والواثق والمتوكل ابنا أخيها .

وكان نقش خاتمه : العظمة والقدرة لله ، وقيل كن من الله على حذر . وزراؤه : يحيى بن خالد بن برمك ثم ابناه جعفر والفضل ، ثم استوزر بعد البرامكة الفضل بن الربيع . قضاته : نوح بن دراج[٢] بالجانب الغربى ، وحفص بن غياث بالشرقى . حاجبه : بشرمولاه ، ثم محمد بن

= فقصصتها عليه . فبكى بكاء كثيرا ثم قال : هذا أول مولود ولد لى ، وكان أبى المهدى قد ذكر لى زبيدة أن يزوجنى بها . فنظرت إلى امرأة فتعلق قلبى بها فتزوجتها سراً من أبى . فأولدتها هذا المولود وأنفذت بهما إلى البصرة . ودفعت إليها هذا الخاتم وأشياء كثيرة ، وقلت لها : اكتمى نفسك . فإذا بلغك أنى قد استخلفت فأتنى . فلما أفضت الخلافة إلى سألت عنها ، فقيل لى إنهما ماتا . وما علمت أنه باق ، فأين دفنته؟ فقلت فى مقبرة عبد الله بن مبارك . فقال إليك حاجة ـ وهى إذا كان بعد المغرب فقف بالباب . حتى أخرج إليك متنكرا وأمضى معك إلى قبره ففعلت فخرج والخدم حوله فدنا منى حتى وضع يده فى يدى ، فجئت به إلى قبره فمازال يبكى ليلته حتى أصبح . وهو يقول مع بكائه : يا بنى نصحت أباك حيا وميتا ، فجعلت أبكى لبكائه رحمة له ، ثم قال لى : قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار ، وأمرت أن تجرى عليك دائما ، فإذا أنا مت أوصيت لك بها من يلى الأمر بعدى . وأن تجرى عليك وعلى وعقبك مهما كان لك عقب ، فإن لك حقا بدفنك ولدى ، فلما أراد أن يدخل الباب قال : انظر إلى ما أوصيك به إذا طلعت الشمس ففارقته ولم أعد إليه . (راجع تنبيه الغافلين لمؤلفه نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى ص٣٢٥ ، ص٣٢٦ ، ٣٢٧ ـ طبعة بولاق) .

(١) فى المخطوطات : أم الحسين والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ١٣١ والطبرى جـ٦ ص ٥٤٠ .

(٢) فى ف ، ك: برح بن دراج وبهذا الرسم دون نقط ص ، والتصويب عن تاريخ بغداد جـ١٣ ص ٣١٥ وربما أخطأ المؤلف فى قوله بالجانب الغربى لأن تاريخ بغداد جـ١٣ ص ٣١٨ والاعلام جـ٩ ص ٢٨ يذكرانه قاضيا بالجانب الشرقى .

خالد بن برمك ، ثم الفضل بن الربيع . الأمراء بمصر : على بن سليمان الهاشمى ، ثم موسى بن عيسى ، ثم[١] إبراهيم بن صالح ثم مات فوليها أحمد بن خالد[٢] الأعرج ، ثم إسحاق بن سليمان بن على الهاشمى ، ثم هرثمة بن أعين ثم ولاه المغرب ، وولى عبد الملك بن صالح بن على الهاشمى ، ثم عبيد الله[٣] بن المهدى ، ثم إسماعيل بن صالح بن على الهاشمى ، ثم الليث بن الفضل ، ثم[٤] أحمد بن إسماعيل بن على الهاشمى ، ثم عبد الله بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن على الهاشمى ويعرف بابن زينب ، ثم الحسين بن جميل الأزدى ، ثم مالك بن دلهم ، ثم الحسن ابن البحباح[٥] القضاة بها : أبو طاهر عبد الملك ، ثم المفضل[٦] بن فضالة ، ثم محمد بن مسروق الكندى[٧] ، ثم إسحاق بن الفرات ، ثم عبد

---

(١) فى المخطوطات هذه الفقرة الخاصة بولاية مصر مضطربة ومختلطة وكثيرة الأخطاء ، فيها موسى بن عيسى بن إبراهيم بن صالح أخطأ النساخ أو المؤلف فى قراءة (ثم إبراهيم) فجعلوها ابن إبراهيم ، وتحرير العبارة على نحو ما أثبتنا بالنص .

(٢) قال الكندى فى الولاة والقضاة (ص ١٣٥ ط . بيروت) : «وتوفى إبراهم بن صالح بها وهو واليها يوم الخميس لثلاث خلون من شعبان سنة ست وسبعين ومائة .... وأقام بالأمر بعد أبيه ـ صالح بن إبراهيم صاحب شرطة خالد بن يزيد ، ثم وليها عبد الله بن المسيب من قبل الرشيد . وقال صاحب النجوم الزاهرة (جـ٢ ص ٨٣ ط . دار الكتب ١٩٣٠) : «وقام بأمر مصر بعد موته ابنه صالح إبراهيم من صالح مع صاحب شرطته خالد بن يزيد إلى أن ولى مصر عبد الله بن المسيب» فأحمد بن خالد الذى تذكره المخطوطات هو خالد بن يزيد الذى كان يتولى الشرطة أيام الوالى المتوفى إبراهيم بن صالح .

(٣) فى المخطوطات : عبد الله والتصويب عن الولاة والقضاة للكندى (ط . بيروت) ص ١٣٧ والنجوم الزاهرة جـ٢ ص ٩٣ (ط . دار الكتب) .

(٤) تخطىء هنا المخطوطات فتجعل ثم (ابن) والخطأ فى قراءة الكلمة لتشابه رسم الكلمتين فى الكتابة القديمة

(٥) فى الولاة والقضاة للكندى ص ١٤٦ : التختاخ وفى النجوم الزاهرة جـ٢ ص ١٣٨ ، ص ١٤١ ، ١٤٤ : البحباح وهو ما اخترناه لأن المؤلف يذكر هذا الاسم مرة أخرى فى آخر الحديث عن الأمين برسم النجوم الزاهرة . أما رسم الاسم هنا فى المخطوطات فيقرأ المحتاج .

فى المخطوطات : الفضل وهو تحريف .

فى المخطوطات : الهندى وهو تحريف ايضا .

الرحمن بن عبد الله ـ من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو أول من دوّن الشهود .

ذكر شيء من سيرة الرشيد وأخباره

قيل : كان الرشيد يصلى فى كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا ، لا يقطعها إلا فى مرض ، وكان يتصدق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم ، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة التامة والكسوة ، وكان يحب الشعر والشعراء ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويكره المراء فى الدين ، وكان يحب المديح لاسيما من شاعر فصيح ، ويجزل العطاء عليه ، ولما مدحه مروان بن أبى حفصة بقصيدته التى منها :

وسدّت بهارون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر

أعطاه خمسة آلاف دينار وعشرة من الرقيق الرومى وبرذونا من خاص مراكبه .

وقيل : اجتمع للرشيد مالم يجتمع لغيره من جدّ وهزل ، ووزراؤه البرامكة لم ير مثلهم فى السخاء ، وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن أبى حفصة ، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد ، وحاجبه الفضل بن الربيع . إربة الناس ، ومغنيه إبراهيم الموصلى ، واحد عصره فى صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برصوما ، وزوجته أم جعفر بنت جعفر ، أرغب الناس فى خير ، وأسرعهم إلى كل برّ ، وأمه الخيزران أم الخلفاء .

قال : وبذل الرشيد الأمان للطالبيين ، وأخرج الخمس لبنى هاشم ، وقسم للذكر والأنثى خمسمائة ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ، وعمر طرسوس وجعل فيها جماعة من الموالى رحمه الله تعالى .

ذكر خلافة الأمين

هو أبو عبد الله وقيل أبو موسى وقيل أبو العباس ـ محمد بن هارون الرشيد ، وأمه أمة الواحد وقيل أمة العزيز[١] بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور ، ولقبت زبيدة ، ولم يل الخلافة بعد على والحسن مَن أمه هاشمية غيره ، وهو السادس من الخلفاء العباسيين ؛ بويع له بالخلافة بطوس فى عسكر الرشيد ، صبيحة الليلة التى توفى فيها الرشيد ، لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وكان المأمون يومئذ بمرو ، فكتب حمويه ـ مولى المهدى وهو صاحب البريد ـ إلى نائبه ببغداد ، وهو أبو مسلم[٢] سلام ، يعلمه بوفاة الرشيد ، فدخل أبو مسلم على الأمين فعزاه بأبيه وهنّأه بالخلافة ، وكتب صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين بذلك مع رجاء الخادم ، وأرسل معه الخاتم والقضيب والبردة ، فلما وصل رجاء انتقل الأمين من قصره الخلد إلى قصر الخلافة ، وصلّى بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر فنعي الرشيد وعزّى نفسه والناس ، ووعدهم الخير وأمّن الأبيض والأسود ، وفرّق فى الجند الذين ببغداد رزق أربعة وعشرين شهرا ، ودعا إلى البيعة فبايعه جلة أهل بيته ، ووكل عم أبيه وأمه سليمان بن المنصور بأخذ البيعة على القواد وغيرهم ، وأمر السُّدى بمبايعة من عداهم ، وقدمت العساكر التى كانت مع الرشيد ، وقدمت زبيدة امرأة الرشيد أم الأمين من الرقة إلى بغداد ، فتلقاها ابنها الأمين بالأنبار ، ومعه جميع من ببغداد من الوجوه ، وكان معها خزائن الرشيد .

---

(١) هكذا بالمخطوطات وفى الطبرى جـ٦ ص ٥٤٠ : قيل إنه تزوج زبيدة .... فولدت محمد الأمين وماتت ببغداد فى جمادى الآخرة سنة ٢١٦ هـ ، وتزوج أمة العزيز أم ولد موسى فولدت له على بن الرشيد .

(٢) فى الكامل جـ٥ ص ١٣٤ : سلام أبو مسلم إلا أن الطبرى جـ٦ ص ٥٤٤ يتفق مع المخطوطات ويؤيده أيضا مايرد بالنص .

وفيها ابتدأت الوحشة بين الأمين والمأمون ، وظهر الخلاف فيما بعدها وتفاقم الأمر ، وسنذكر ذلك كله وأسبابه فى آخر أيام الأمين ، ليكون خبر ذلك متواليا لا ينقطع بخروج سنة ودخول أخرى ، فلنذكر من أخبار الأمين خلاف ذلك وفيها عزل الأمين أخاه القاسم المؤتمن عن الجزيرة ، وأقرّه على العواصم ، وأستعمل على الجزيرة خزيمة بن خازم .

وحجّ بالناس فى هذه السنة داود بن عيسى بن موسى[1] بن محمد وهو أمير مكة .

ودخلت سنة أربع وتسعين ومائة .

ذكر خلاف أهل حمص على الأمين

فى هذه السنة خالف أهل حمص على الأمين ، فتحوّل عاملهم إسحاق بن سليمان إلى سَلَمْية ، فعزله الأمين واستعمل مكانه عبد الله بن سعيد الحرشى ، فقتل عدة من وجوههم وحبس عدة ، وألقى النار فى نواحيها ، فسألوه الأمان فأجابهم ، ثم هاجوا بعد ذلك فقتل عدة منهم .

ودخلت سنة خمس وتسعين ومائة .

فى هذه السنة قطع الأمين خطبة المأمون ، وأمر بإسقاط ما ضرب باسمه من الدنانير والدراهم بخراسان ، وأمر فدعى لابنه موسى ولقّبه الناطق بالحق ، ولابنه الآخر عبد الله ولقّبه القائم بالحق .

ذكر خروج السُّفْيَانِىّ وما كان من أمره

فى هذه السنة خرج السفيانى ـ وهو على بن عبد الله بن خالد بن يزيد

(١) ساقط من المخطوطات والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١٣٧ والطبرى جـ ٦ ص ٥٥١ .

ابن معاوية ، وأمّه نَفِيسة بنت عبيد الله[١] بن العباس بن على بن أبى طالب ، وكان يقول : أنا ابن شيخى صفين ـ يشير إلى على ومعاوية ، وكان يلقب بأبى العُمَيْطر ، لأنه قال لأصحابه : أى شىء كنية الحرذون ؟ قالوا : لا ندرى ، قال : هو أبو العميطر ، فلقبوه به ، ولما خرج دعا لنفسه بالخلافة فى ذى الحجة ، وقوى على سليمان بن المنصور عامل دمشق ، وأخرجه عنها وأعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بنى أمية ، وكان قد تغلب على صيدا ، فبعث الأمين إليه الحسن بن على بن عيسى بن ماهان ، فبلغ الرقة ولم يصل إلى دمشق ؛ قال: وكان عمر السفيانى لما خرج تسعين سنة ، وكان الناس قد أخذوا عنه علماً كثيرا ، وكان حسن السيرة ، فلما خرج ظلم وأساء السيرة ، فتركوا ما كانوا نقلوه عنه ، وكان أكثر أصحابه من كلب ، وكتب إلى محمد بن بَيْهَس الكِلاَبِى[٢] يدعوه إلى طاعته ، ويتهدده إن لم يفعل فلم يجبه إلى ذلك ، فأقبل السفيانى لقصد القيسية فكتبوا إلى محمد بن صالح ، فأقبل إليهم فى ثلاثمائة فارس ومواليه ، فبعث إليه السفيانى يزيد بن هشام فى اثنى عشر ألفا ، فالتقوا فانهزم يزيد ومن معه ، وقتل منهم زيادة على ألفين ، وأسر ثلاثة آلاف فأطلقهم ابن بيهس ، وحلق رءوسهم ولحاهم ، فضعف السفيانى ، ثم جمع جمعاً وجعل عليهم ابنه القاسم ، وخرجوا إلى بيهس فالتقوا فقتل القاسم وانهزم أصحابه السفيانى ، وبعث رأسه إلى الأمين ، ثم جمع جمعاً آخر وبعثهم مع مولاه المعتمر ، فلقيهم ابن بيهس فقتل المعتمر وانهزم أصحابه ، فوهن أمر السفيانى وطمعت فيه قيس ، ثم مرض ابن بيهس ، فاستخلف مسلمة بن يعقوب بن على[٣] بن محمد بن سعيد بن مسلمة بن عبد الملك ، وأمر بنى نمير بمبايعته بالخلافة ، وعاد ابن بيهس إلى

(١) فى المخطوطات : عبد الله والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص١٤٧ .
(٢) هو محمد بن صالح بن بيهس الكلابى (راجع الكامل جـ ٥ ص١٤٧) .
(٣) ساقط من المخطوطات والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص١٤٧ .

حوران ، واجتمعت نمير على مسلمة وبايعوه ، فدخل على السفيانى وقبض عليه وقيده ، وقبض على رؤساء بنى أميّة فبايعوه ، وأدنى القيسية وجعلهم خاصته ، فلما عوفى محمد بن بيهس عاد إلى دمشق فحصرها ، فسلمها إليه القيسية ، وهرب مسلمة والسفيانى فى زى النساء إلى المِزة ، وذلك فى المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، وغلب ابن بيهس على دمشق ، إلى أن قدم عبد الله ابن طاهر دمشق ودخل إلى مصر وعاد إلى دمشق فأخذ ابن بيهس معه إلى العراق فمات بها .

وحج بالناس عامل مكة داود بن عيسى .

ودخلت سنة ست وتسعين ومائة .

فى هذه السنة استعمل الأمين على الشام عبد الملك بن صالح بن على : فسار إليها فتوفى بالرقة قبل وصوله إلى الشام . وفيها خلع الأمين وبويع للمأمون ، ثم عاد الأمين إلى الخلافة ، على ما نذكره إلى شاء الله تعالى .

ودخلت سنة سبع وتسعين ومائة .

فى هذه السنة حجّ بالناس العباس بن موسى بن عيسى . وجّهه طاهر بأمر المأمون . وفيها سار المؤتمن بن الرشيد ومنصور بن المهدى إلى المأمون بخراسان . فوجّه المأمون أخاه المؤتمن إلى جرجان .

ودخلت سنة ثمان وتسعين ومائة .

ذكر أخبار الأمين والمأمون

وما كان بينهما من الفتن والاختلاف وما أفضى إليه الأمر من قتل الأمين

كان ابتداء الخلف بينهما فى سنة ثلاث وتسعين ومائة عند وفاة الرشيد . وكان سبب ذلك أن الرشيد كان قد أشهد عليه فى سفرته التى مات فيها : أن

جميع ما فى عسكره من مال ومتاع ورقيق وكراع وغير ذلك للمأمون ، وأخذ له البيعة على جميع من فى عسكره ، فعظم ذلك على الأمين ، ثم بلغه شدة[١] مرض الرشيد ، فأرسل بكر بن المعتمر وكتب معه كتبًا وجعلها فى قوائم صناديق المطبخ ، وألبسها جلود البقر ، وقال : لا تظهرنّ أمير المؤمنين ولا غيره عليها ، فإذا مات فادفع الكتب إلى أربابها ، فقدم بكر إلى طوس فبلغ الرشيد قدومه ، فأحضره وسأله عن موجب قدومه ، قال : بعثنى الأمين لآتيه بخبرك ، قال : فهل معك كتاب ؟ قال : لا ، فأمر بتفتيش ما معه فلم يصيبوا شيئا ، فأمر به فضرب فما أقرّ ، ثم أمر الفضل بن الربيع بتقريره ، فإن أقرّ وإلا ضرب عنقه ، ثم مات الرشيد فأخرج بكر[٢] الكتب التى معه ، وهى كتاب إلى المأمون يأمره بترك الجزَع . وأخذ البيعة على الناس[٣] لأخيهما المؤتمن ، فلم يكن المأمون حاضراً وكان بمرو ، وكتاب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه . وأن يتصرف هو ومن معه برأى الفضل بن الربيع ، وكتاب إلى الفضل بالحفظ والاحتياط على الحرم والأموال وغير ذلك ، وأقرّ كل من كان على عمل من الأعمال على عمله . من صاحب شرط[٤] وحجابة وحرس ، فلما قرءوا الكتب تشاور القواد فى اللحاق بالمأمون أو الأمين . فقال الفضل بن الربيع : لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدرى ما يكون من أمره . ثم أمر الناس بالرحيل فرحلوا . محبة منهم لأهليهم ووطنهم وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون . فلما بلغ المأمون ذلك جمع من كان عنده من القوّاد . وفيهم ذو الرئا ستين الفضل بن سهل ، وهو أعظمهم قدراً عنده وأخصّهم به . واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم جريدة فى ألفى فارس ويردهم ، فخلى به ذو

(١) ساقطة من ف ، ك

(٢) على الرغم من أن المخطوطتين ف . ص سبق أن ذكرتاه صحيحا فقد أخطأ هـ مشتركة مع ك فى خطئه والتصويب عن الكامل جـ٥ ص١٣٤ والطبرى جـ٦ ص٥٤٥ . ٥٤٦

(٣) ساقطة من ف ، ك

(٤) فى ص شرطة وحجابه

الرئاستين وقال : إن فعلت ما أشار به هؤلاء جعلوك هديّة إلى أخيك ولكن الرأى أن تكتب إليهم كتاباً مع رسول من عندك ، تذكّرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث ، ففعل ووجّه سهل بن صَاعِد[1] ونَوْفلا الخادم ، فلحقا الجند والفضل بنيسَابور ، فأوصلا الفضل كتابه فقال : إنما أنا واحد من الجند ، وشدّ عبد الرحمن بن جبلة على سهل بالرمح ليطعنه ، فأمرّه على جنبه وقال : قل لصاحبك لو كنت حاضراً لوضعته فيك ، وسبّ المأمون فرجعا إليه بالخبر فقال ذوالرئاستين : أعداء استرحت منهم ، وقال له : اصبر وأنا أضمن لك الخلافة ، فقال المأمون : قد فعلت وجعلت الأمر إليك فقم به ، قال ذو الرئاستين : والله لأصدقنّك ، إن عبد الله بن مالك ومن معه من القواد قاموا لك بالأمر كانوا أنفع لك منّى ، برياستهم المشهورة وبما عندهم من القوّة ، فمن قام بالأمر كنت خادمًا له حتى تبلغ أملك وترى رأيك ، وقام ذو الرئاستين فأتاهم فى منازلهم ، وذكر لهم البيعة وما يجب عليهم من الوفاء ، قال : فكأنى جئتهم بجيفة على طبق ، فقال بعضهم : هذا لا يحل وأخرجه[2] ، وقال بعضهم : ومن الذى يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه ؟ قال : فجئت وأخبرته فقال : قم بالأمر ، فأشار عليه أن يبعث إلى الفقهاء ، ويدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وردّ المظالم ، وأن تجلس على الصوف وتكرم القوّاد . ففعل ذلك ووضع عن خراسان ربع الخراج ، فحسن ذلك عند أهلها وقالوا : ابن اختنا وابن عم نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، ثم كتب المأمون إلى الأمين وعظّمه .

ولما قدم الفضل بن الربيع العراق – وقد نكث عهد المأمون – علم أنّ المأمون ، إن أفضت إليه الخلافة وهو حىّ ، لم يبق عليه ، فسعى فى إغراء الأمين وحثّه على خلع المأمون . والبيعة لابنه موسى بولاية العهد – ولم يكن

(١) فى المخطوطات ساعد والتصويب عن كامل جـ٥ ص١٣٦ والطبرى جـ٦ ص٥٥٠

(٢) فى الكامل جـ٥ ص١٣٧ اخرج

ذلك فى عزم الأمين ، فلم يزل الفضل يصغّر أمر المأمون عنده ويزيّن له خلعه ، ووافقه على ذلك على بن عيسى[١] بن ماهان والسندى وغيرهما ، فرجع الأمين إلى قولهم وجمع القوّاد لذلك ، فنهاه عبد الله بن خازم وأبى القواد ذلك ، وربما ساعده قوم ، فلما بلغ إلى خزيمة بن خازم قال له : يا أمير المؤمنين ، لم ينصحك من كذبك ، ولم يغشك من صدقك ، لا تجرّئ القواد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك ، فإنّ الغادر مخذول ، والناكث مفلول ، فأقبل الأمين على علىّ ابن ماهان فتبسّم وقال : لكنّ شيخ هذه الدعوة وناب[٢] هذه الدولة لا يخالف على إمامه ، ولا يوهن طاعته ثم رفعه إلى موضع لم يرفعه إليه قبلها . وألحّ الأمين فى خلع المأمون ، فأوّل ما فعل أن كتب إلى جميع العمال بالدعاء بالإمرة لابنه موسى بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن ، فلما بلغ ذلك المأمون ، وأن الأمين عزل المؤتمن عما كان بيده ، أسقط الأمين من الطُّرز وقطع البريد عنه ، وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيّار – لمّا بلغه حسن سيرة المأمون – طلب الأمان منه فأمّنه ، فحضر عنده .

قال : ثم كتب الأمين إلى المأمون يستقدمه ويسأله أن يقدّم ابنه موسى على نفسه ، وأرسل إليه أربعة[٣] فى الرسالة – منهم العباس بن موسى بن عيسى ، فلما أتوه امتنع من ذلك . فقال له العباس بن موسى : ما عليك أيها الأمير من ذلك ؟ وقد فعله جدى عيسى بن موسى وخلع فما ضرّه ذلك ، فصاح به ذو الرئاستين : فقال اسكت فإنّ جدّك كان أسيرًا بين أيديهم ، وهذا بين أخواله وشيعته . ثم قاموا[٤] فخلى ذو الرئاستين بالعباس بن

(١) فى ف ،ك : عيسى بن على بن ماهان وهو خطأ تصويبه عن ص والكامل جـ٥ ص١٣٨ والطبرى جـ٦ ص٥٥٢

(٢) فى الكامل جـ٥ ص١٣٨ : نائب وهو تحريف

(٣) يتفق الكامل جـ٥ ص١٣٨ مع المخطوطات أما الطبرى جـ٦ ص٥٥٣ فهم : ثلاثة

(٤) فى ف ،ك : قام ويتفق الكامل جـ٥ ص١٣٩ مع ص

موسى ، واستماله ووعده إمرة الموسم ومواضع ، فأجاب إلى بيعة المأمون وسماه بالإمام ، وكان يكتب إليهم بالأخبار من بغداد ، ورجع الرسل إلى الأمين وأخبروه بامتناع المأمون ، وبعث المأمون ثقة من عنده إلى الحدّ ، يمنع من الدخول إلى بلاده إلا مع ثقة من ناحيته ، وضبط الطرق بثقاة أصحابه .

قال : وألحّ الفضل بن الربيع فى قطع خطبة المأمون ، وأغرى الأمين بحربه ، فأجابه إلى ذلك وبايع لولده موسى ، وجعله فى حجر على بن عيسى بن ماهان ، وجعل على شرطه محمد بن عيسى بن نَهِيك ، وعلى حرسه عثمان بن عيسى بن نَهِيك ، وعلى رسائله على بن صالح صاحب المصلى ، وأسقط خطبة المأمون فى سنة خمس وتسعين ومائة ، وبايع لوَلَده موسى فى صفر وقيل فى ربيع الأول ، وأرسل إلى الكعبة فأتى بالكتابين اللذين وضعهما الرشيد ببيعة الأمين والمأمون ، فمزّقهما الفضل بن الربيع .

ذكر محاربة على بن عيسى بن ماهان وطاهر

قال : ثم أمر الأمين على بن عيسى بن ماهان بالمسير لحرب المأمون . وكان سبب مسيره دون غيره أنّ ذا الرئاستين كان له عين عند الفضل بن الربيع ، يرجع الفضل إلى قوله ورأيه ، فكتب ذو الرئاستين إلى ذلك الرجل أن يشير بانفاذ ابن ماهان لحربهم ، وكان مقصده أن ابن ماهان – لمّا ولى خراسان أيام الرشيد أساء السيرة فى أهلها فظلمهم[1] – فبغضه أهل خراسان ، فأراد ذو الرئاستين أن يزداد أهل خراسان جدا فى قتال الأمين وأصحابه بسببه ، فأشار ذلك الرجل بابن ماهان فأمره الأمين بالمسير ؛ وقيل كان سببه أنّ عليًا قال للأمين : إنّ أهل خراسان كتبوا إليه يذكرون أنه[2] إن

(١) هكذا فى ص والكامل جـ٥ ص١٤٣ ، وفى ف ، ك وظلم أهلها
(٢) هكذا فى ص والكامل جـ٥ ص١٤٣ وفى ف ، ك أنهم

قصدهم أطاعوه وانقادوا له ، وإن كان غيره فلا ، فأمره بالمسير وأقطعه كور الجبل كلها نِهَاوَنْد وهَمَذَان وقُمّ وأصْفهان وغير ذلك – حربها وخراجها ، وأعطاه الأموال وحكّمه فى الخزائن ، وجهّز معه خمسين ألف فارس ، وكتب إلى أبى دُلَف القاسم بن عيسى بن إدريس العِجْلى [1] وهلال بن عبد الله الحضرمى بالانضمام إليه ، وأمدّه بالأموال والرجال شيئا بعد شئ ، وخرج فى شعبان سنة خمس وتسعين ومائة ، وركب الأمين يشيّعه ومعه القوّاد والجنود ، وأوصاه إن قاتله المأمون بحرص على أسره .

قال : وكان المأمون – لمّا بلغه ما فعله الأمين من خلعه وتمزيق كتب البيعة – أرسل طاهر بن الحسين بن مُصْعَب بن رزيق بن أسعد [2] الخزاعى أميرا ، وضمّ إليه جماعة من قوّاده وأجناده ، فسار مجدًا نحو الرى فنزلها ووضع المسالح والمراصد . قال : وسار ابن ماهان فلقيته القوافل عند جلولاء ، فسألهم فقالوا إن طاهرا مقيم بالرى ، يعرض أصحابه والأمداد تأتيه من خراسان ، فجعل يسير وهو لا يعبأ بطاهر ويستقله ولا يستعد له ، فقيل له فى ذلك فقال : مثل طاهر لا يستعدّ له ، وإنّ حاله تؤول إلى أمرين : إما أن يتحصّن بالرى فيسلمه أهلها ، وإما أن يرجع ويتركها إذا قربت خيلنا منه ؛ قال : فلما دنا من الرى خرج طاهر منها ، فى أقل من أربعة آلاف فارس وعسكر على خمسة فراسخ ، فأتاه أحمد بن هشام وكان على شرطته فقال له : إن أتانا على بن عيسى ؟ فقال : أنا عامل أمير المؤمنين فأقررنا له بذلك ، فليس لنا أن نحاربه . فقال طاهر : لم يأتنى فى ذلك

(١) أخطأت نسخ الكامل لابن الأثير طبعة أوروبا وطبعة القاهرة فذكرته هنا باسم أبى دلف القاسم بن أدريس بن عيسى العجلى (ط. أوربا جـ٦ ص١٦٥ والقاهرة جـ٥ ص١٤٣) على أنه يلاحظ أن إحدى نسخ أوروبا المرموز لها R ذكرته صحيحا فى الهامش ، ويؤيد المؤلف الطبرى جـ٧ ص٣ وتاريخ بغداد جـ١٢ ص٤١٦ والأعلام الطبعة الثانية جـ٦ ص١٣ .

(٢) فى المخطوطات:... مصعب بن زريق ... وهو تحريف (راجع تاريخ بغداد فى صوابه جـ٩ ص ٣٥٣ هذا و يذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان جـ٢ص٢٠١ (ط . القاهرة ١٩٤٨م) اختلافا فى تسمية جده بأسعد فيذكر اسمين غيره

شئ ، فقال : دعنى وما أريد ، فقال : افعل ، فصعد المنبر فخلع الأمين ودعا للمأمون بالخلافة ، وساروا وأقبل ابن ماهان وقد عبّأ أصحابه ، وعبّأ عشر رايات مع كل راية ألف رجل ، وقدّمها راية راية وجعل بين كل رايتين غلْوة سهم ، وعبّأ طاهر أصحابه كراديس ، وسار بهم يحرّضهم ويوصيهم ، وهرب من أصحاب طاهر نفر إلى علىّ ، فجلد بعضهم وأهان الباقين ، فكان ذلك مما ألب من بقى على قتاله ، وزحف الناس بعضهم لبعض ، فقال أحمد بن هشام لطاهر : ألا تذكّر على بن عيسى البيعة التى أخذها علينا هو للمأمون ؟ قال : أفعل - فأخذ البيعة وعلّقها على رمح ، وقام بين الصفين وطلب الأمان ، فأمّنه علىّ بن عيسى ، فقال له : ألا تتق الله ! ! أليس هذه نسخة البيعة التى أخذتها أنت خاصة علينا ؟؟ اتق الله فقد بلغت باب قبرك ! فقال علىّ : من أتانى به فله ألف درهم ، فستمه أصحاب أحمد ثم وثب أهل الرى وأغلقوا باب المدينة ، فقال طاهر لأصحابه :

اشتغلوا بمن أمامكم عمّن خلفكم ، فإنّه لا ينجيكم إلا الجد والصدق ، ثم التقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت ميسرة طاهر هزيمة منكرة ، وزالت ميمنته عن موضعها ، فقال طاهر : اجعلوا جدّكم وبأسكم على القلب ، واحملوا حملة خارجية ، فحملوا على أول رايات القلب فهزموها ، فرجعت الرايات بعضها على بعض وانتهت الهزيمة إلى علىّ ، فجعل ينادى أصحابه :

الكرّة بعد الفرّة ، فرماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ، وحمل رأسه إلى طاهر ، وحملت جثته إليه فألقى فى بئر ، وأعتق طاهر من كان عنده من غلمانه شكراً لله تعالى ، وتمت الهزيمة ووضع أصحاب طاهر فيهم السيوف ، وتبعوهم فرسخين وواقفوهم فيها اثنتى عشرة مرّة ، كل مرّة يكسر عسكر الأمين ، وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل ، وغنموا غنيمة عظيمة ، ونادى أصحاب طاهر : من ألقى سلاحه فهو آمن ،

فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم ، ورجع طاهر إلى الرى ، وكتب إلى المأمون .

بسم الله الرحمن الرحيم كتابى إلى أمير المؤمنين ورأس على بن عيسى بين يدى ، وخاتمه فى أصبعى ، وجنده ينصرفون تحت أمرى . والسلام .

وكتب إلى ذى الرئاستين فورد الكتاب مع البريد فى ثلاثة أيام ، وبينهما نحو من خمسين ومائتى فرسخ ، فدخل ذو الرئاستين على المأمون وهنّأه بالفتح وأمر الناس فدخلوا عليه وسلّموا بالخلافة ، ثم وصل رأس علىّ بعد الكتاب بيومين ، فطيف به فى خراسان . ولما وصل الكتاب كان المأمون قد جهّز هرثمة فى جيش كبير نجدة لطاهر ، فأتاه الخبر بالفتح .

قال : وأما الأمين فإنّه أتاه نعى على بن عيسى – وهو يصطاد السمك ، فقال الذى أتاه بالخبر : دعنى[1] فإنّ كَوْثرا قد اصطاد سمكتين وأنا ما صدت شيئاً ، ثم بعث الفضل إلى نوفل الخادم – وهو وكيل المأمون على ملكه بالسواد – وكان للمأمون معه ألف ألف درهم – فأخذها منه وقبض ضياعه وغلاته ، وندم الأمين على ما كان منه ومشى القوّاد بعضهم إلى بعض فى النصف من شوال سنة خمس وتسعين واتفقوا على طلب الأرزاق ففرّق فيهم مالاً كثيرا .

ذكر توجيه عبد الرحمن بن جبلة إلى طاهر وقتله واستيلاء طاهر على أعمال الجبل

قال : ولما اتصل بالأمين قتل على بن عيسى وهزيمة عسكره وجّه عبد

(١) ساقطة من ص

الرحمن بن جَبَلة الأنبارى فى عشرين ألف رجل ، نحو همذان واستعمله عليها وعلى كل ما يفتحه من ارض خراسان . فسار حتى نزل همذان فحصّنها ورمّ سورها ، وأتاه طاهر إليها فخرج إليه عبد الرحمن ، واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم عبد الرحمن ، ودخل همذان فأقام بها أياما حتى قوى أصحابه واندملت جراحاتهم ، ثم خرج إلى طاهر واقتتلوا وصبر الفريقان ، وكثر القتل فى أصحاب ابن جبلة وقتل صاحب علمه ، فانهزم أصحابه وقتلهم أصحاب طاهر إلى المدينة ، وأقام طاهر على بابها محاصرا لها ، فأرسل عبد الرحمن إلى طاهر يطلب الأمان لنفسه ولمن معه فأمّنه ، فخرج عن همذان واستولى طاهر على قزوين وعلى سائر أعمال الجبل . قال : ولما خرج عبد الرحمن بأمان طاهر أقام مسالما لطاهر ، ثم ركب فى أصحابه وهجم على طاهر وأصحابه وهم[1] آمنون ، فثبت له رجّالة[2] طاهر ، وقاتلوه حتى أخذت الخيّالة أهبتها ، واقتتلوا أشد قتال رآه الناس ، حتى تكسرت الرماح وتقطّعت السيوف ، فانهزم أصحاب عبد الرحمن وبقى فى نفر من أصحابه فقاتل ، وأصحابه يقولون له : قد أمكنك الهرب فاهرب ، فقال : لا يرى أمير المؤمنين وجهى منهزما أبدًا ، ولم يزل يقاتل حتى قتل ، وانتهى من انهزم من أصحابه إلى عبد الله واحمد ابنى الحرشى ، وكانا فى جيش عظيم بقصر اللصوص قد سيّرهما الأمين معونة لعبد الرحمن فانهزما فى جندهما من غير قتال حتى دخلوا بغداد[3] ، وخلت البلاد لطاهر وأقبل يحوزها بلدة بلدة وكورة كورة ، حتى انتهى إلى شَلاشان من كور حلوان فخندق بها ، وحصّن عسكره وجمع أصحابه .

(١) ساقطة من أ ف ، ص
(٢) فى ص : رجال
(٣) تزيد ص بعد ذلك : ليلا وهذه الكلمة غير موجودة فى الكامل جـ٥ ص ١٤٧

ذكر توجيه الأمين الجيوش إلى طاهر وعودهم من غير قتال

قال : وفى سنة ست وتسعين ومائة بعث الأمين أحمد بن مزيد وأمر الفضل أن يمكّنه من العسكر يأخذ منهم من أراد . وأمره بالجدّ فى السير ودفع طاهر وحربه ، فاختار من العسكر عشرين ألف فارس . وسار معه عبد الله ابن حُمَيْد بن قحطبة فى عشرين ألفا وسار بهم إلى حلوان . فلم يزل طاهر يحتال فى وقوع الاختلاف بينهم حتى اختلفوا ، وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضا ، ورجعوا من غير قتال . وتقدم طاهر فنزل حُلوان . فلما نزلها لم يلبث إلا يسيرا حتى اتاه هرثمة . فى جيش من قبل المأمون ومعه كتاب إلى طاهر . يأمره بتسليم ماحوى من المدن والكور إلى هرثمة . ويتوجّه إلى الأهواز ففعل ذلك . وأقام هرثمة بحلوان وحصّنها وسار طاهر إلى الأهواز .

وفى هذه السنة خطب للمأمون بإمرة المؤمنين . ورفع منزلة الفضل بن سهل . وعقد له على المشرق من جبل همذان إلى التُّبَت[1] طولا ، ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضا . وجعل له عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعقد له لواءً على سنان ذى شعبتين ، ولقّبه ذا الرئاستين – رئاسة الحرب والقلم – وحمل اللواء على بن هشام وحمل القلم نُعَيم بن حازم . وولّى الحسن بن سهل ديوان الخراج . وذلك بعد قتل على بن ماهان وعبد الرحمن بن جَبَلة .

قال : وأما طاهر فإنّه استولى على الأهواز ، ثم سار منها إلى واسط وبها السِّندى بن يحيى والهَيْثم بن شُعْبة . فهربا عنها واستولى طاهر عليها . ووجّه قائدا من قوّاده إلى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهادى ، فلما بلغه

(١) هكذا فى ص والكامل جـ٥ ص١٥٠ . وفى ف،ك البيت وهو تحريف

الخبر خلع الأمين وبايع للمأمون ، وكتب بذلك إلى المأمون ، وغلب طاهر على ما بين واسط والكوفة ، وكتب المنصور بن المهدى - وكان عاملا للأمين على البصرة - إلى طاهر ببيعته وطاعته ، وأتته بيعة المطلب بن عبد الله بن مالك بالموصل . وكان ذلك كله فى شهر رجب سنة ست وتسعين ومائة . فأقرّهم طاهر على أعمالهم . قال : ثم سار طاهر إلى المدائن وبها جيش كبير للأمين . عليهم البرمكى وقد تحصّن بها والمدد يأتيه كل يوم والخلع والصلات . فلما سمع البرمكى بمقدم طاهر وجّه قُرَيْش بن شِبْل والحسن[1] ابن على المأمونى . فلما سمع أصحاب البرمكى طبول طاهر سرجوا الخيل ورجعوا . وأخذ البرمكى فى التعبئة فكان كلّما سوّى صفا اضطرب صف[2] وانتقض . فانضم أوّلهم إلى آخرهم . فقال : اللهم إنّا نعوذ بك من الخذلان . ثم قال لصاحب ساقته : خلّ سبيل الناس فلا خير عندهم . فركب بعضهم بعضا نحو بغداد . فنزل طاهر المدائن واستولى على تلك النواحى . ثم سار[3] إلى صرصر فعقد بها جسرا .

ذكر خلع الأمين ببغداد والبيعة للمأمون وعودة الأمين

قد قدّمنا إرسال الأمين عبد الملك بن صالح إلى الشام . واستعماله عليها ووفاته بالرقة ، وكان معه الحسين بن على بن عيسى بن ماهان . فلما مات عبد الملك أقبل الحسين بالجند إلى بغداد . فلما قدم لقيه القوّاد وأهل بغداد وعملت له القباب ودخل منزله . فلما كان فى جوف الليل استدعاه الأمين . فقال للرسول : ما أنا بمغنٍ ولا مسامر ولا مضاحك . ولا وليت له

(١) التصويب عن الطبرى جـ ٧ ص٤٢ ويتفق الكامل جـ٥ ص١٥٤ وطبعة أوروبا مع المخطوطات فى الخطأ هنا وصححه كلاهما فيما بعد فى فصل هرب أبى السرايا والكامل ص ١٧٧

(٢) فى ف،ك :صفا و ص تصحح الخطأ

(٣) فى المخطوطات : صار والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ١٥٤

عملاً ولا مالاً ولأى شئ يريدنى فى هذه الساعة ؟! انصرف ، وإذا أصبحت غدوت عليه إن شاء الله تعالى ، فلما أصبح وافى الحسين باب الجسر واجتمع إليه الناس ، فحرّضهم على الأمين وتنقّصه ودعاهم إلى خلعه ، ثم أمرهم بعبور الجسر فعبروا وصاروا إلى سكة باب خراسان ، وأسرعت خيول الأمين إلى الحسين[1] فقاتلوه قتالا شديدا ، فانهزم أصحاب الأمين ، فخلع الحسين الأمين فى يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب ، وأخذ البيعة للمأمون من الغد يوم الإثنين ، فلما كان يوم الثلاثاء وثب العباس ابن موسى بن عيسى بالأمين ، وأخرجه من قصر الخلد وحبسه بقصر المنصور ، وأخرج أمّه أيضاً معه فجعلها مع ابنها . فلما كان يوم الأربعاء طالب الناس الحسين بالأرزاق ، وماجوا بعضهم فى بعض . وقام محمد بن أبى خالد[2] وأسدالحربى وغيرهما فقاتلوا الحسين وأسروه . ودخل أسد على الأمين فكسر قيوده وأعاده الى الخلافة . وحمل اليه الحسين أسيرًا فلامه فاعتذر اليه . فأطلقه وأمره بجمع الجند ومحاربة أصحاب المأمون . وخلع عليه وولاّه ما وراء بابه وأمره بالمسير الى حلوان . فوقف الحسين بباب الجسر والناس يهنئونه . فلما خفوا عنه قطع الجسر وهرب . فنادى الأمين فى الجند بطلبه فأدركوه بمسجد كوثر على فرسخ من بغداد فقاتلهم فعثر به فرسه فسقط عنه . فقتل وحمل رأسه إلى الأمين . وقيل إن الأمين كان استوزره وسلم إليه خاتمه فلما قتل جدّد الجند البيعة للأمين . واختفى الفضل بن الربيع .

ذكر البيعة للمأمون بمكة والمدينة

وفى هذه السنة خلع داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على الأمين – وهو عامله على مكة والمدينة وبايع للمأمون . وسبب ذلك أنه لما

(١) ساقط من ص

(٢) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص٣٦ وفى الكامل جـ٥ ص ١٥٢ : محمد بن خالد وهو خطأ

بلغه ما فعل طاهر ، وكان الأمين قد بعث إلى داود وأخذ الكتابين من الكعبة كما تقدّم فجمع داود وجوه الناس ومن كان شهد فى الكتابين ، وقال : قد علمتم ما أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهد عند البيت[١] الحرام لابنيه ، لنكوننّ مع المظلوم منهما على الظالم ، ومع المغدور منهما على الغادر ، وقد رأينا ورأيتم[٢] أن محمدًا قد بدأ بالظلم والبغى والنكث على أخويه المأمون والمؤتمن ، وخلعهما عاصيا لله وبايع لابنه طفل صغير رضيع ، وأخذ الكتابين من الكعبة فحرقهما ، وقد رأيت خلعه والبيعة للمأمون ، إذ كان مظلوماً مبغياً عليه . فأجابوه إلى ذلك . فنادى فى شعاب مكة فاجتمع الناس فخطبهم بين الركن والمقام ، وخلع الأمين وبايع للمأمون ، وكتب إلى ابنه سليمان — وهو عامله على المدينة — أن يفعل مثل ما فعل ، فخلع وبايع للمأمون وكانت هذه البيعة فى شهر رجب سنة ست وتسعين ومائة ، وسار داود من مكة على طريق البصرة ، ثم إلى فارس وإلى كرمان حتى صار الى المأمون بمرو فأخبره . فسرّ المأمون وتيمّن ببركة مكة والمدينة ، واستعمل داود عليهما وأعطاه خمسمائة ألف درهم ، وبعث معه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى وجعله على الموسم . فسارا حتى أتيا طاهرًا ببغداد فأكرمهما[٣] ، ووجّه معهما يزيد بن جرير بن يزيد[٤] بن خالد بن عبد الله القسرى واستعمله على اليمن . وبعث معه خيلاً كثيفة فقدمها ، ودعا أهلها إلى خلع الأمين والبيعة للمأمون ، فأجابوه وخلعوا وبايعوا للمأمون[٥] ، فكتب بذلك إلى طاهر والمأمون .

---

(١) فى ف،ك : بيته
(٢) فى ص : وأنتم وهو خطأ
(٣) ساقطة من ص
(٤) سقط هذا الاسم من المخطوطات والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ١٥٥ والطبرى جـ٧ ص ٤٧
(٥) ساقط من ف . ك

ذكر تجهيز الأمين الجيوش وما كان من أمرهم

وفى سنة ست وتسعين ومائة عقد محمد الأمين ـ فى رجب وشعبان أربعمائة لواء لقوّاد شتى ، وأمرّ عليهم على بن محمد بن عيسى بن نهيك ، وأمرهم بالمسير إلى هرثمة بن أعين فساروا إليه فالتقوا بنواحى النَّهْرَوان فى شهر رمضان ، فأسر على بن محمد فسيّره هرثمة إلى المأمون ، ورحل هرثمة فنزل النَّهْروان .

ذكر وثوب الجند بطاهر والأمين

قد قدّمنا نزول طاهر بصرصر عند استيلائه على المدائن ، فأقام بها مشمراً فى محاربة الأمين ، لايأتيه جيش إلا هزمه ، فبذل الأمين الأموال فسار إليه من أصحاب طاهر خمسة آلاف ، فسرّبهم ووعدهم ومنّاهم وفرّق فيهم مالاً عظيماً ، وغلّف لحاهم بالغالية فسمّوا قواد الغالية ، وفرّق الأمين الجواسيس فى أصحاب طاهر ، ودسّ إلى رؤساء الجند وأطمعهم ورغبهم ، فشغبوا على طاهر واستأمن كثير منهم إلى الأمين ، وانضموا إلى عسكره وساروا حتى أتوا صَرْصَر ، فعبّأ طاهر أصحابه كراديس ، وحرّضهم ووعدهم ومناهم وتقدّم بهم ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم أصحاب الأمين وغنم عسكر طاهر ما كان لهم من سلاح ودواب وغير ذلك ، فبلغ ذلك الأمين فأخرج الأموال وفرّقها ، وجمع أهل الأرْباض وقوّد منهم جماعة وفرق فيهم الأموال ، وقواهم بالسلاح وأعطى كل قائد قارورة غالية ، ولم يعط الأجناد الذين معهم شيئاً ، فراسلهم طاهر ووعدهم واستمالهم ، وأغرى أصاغرهم بأكابرهم فشغبوا على الأمين فى ذى الحجة ، فأشار أصحابه عليه باستمالتهم والإحسان إليهم فلم يفعل ، وأمر بقتالهم فقاتلهم جماعة من الأجناد ، وراسلهم طاهر وراسلوه وأخذ رهائنهم على بذل الطاعة وأعطاهم الأموال ، ثم تقدم إلى باب الأنبار فى ذى الحجة ، ونقب أهل السجون وخرجوا منها .

ذكر حصار بغداد واستيلاء طاهر عليها

فى سنة سبع وتسعين ومائة حاصر طاهر وهَرْثمة وزُهَير بن المُسَيّب الأمين ببغداد ، وتفرّقوا عليها ونصبوا عليها المجانيق والعَرّادات ، وحفروا حول عساكرهم الخنادق ، وسوّر هرثمة حول خندقه سورًا ، وكان الأمين قد أنفذ ما فى خزائنه من الأموال ، فأمر ببيع ما فى الخزائن من الأمتعة ، وضرب آنية الذهب والفضة دنانير[1] ودراهم ليفرّقها فى أصحابه . قال : واستأمن إلى طاهر – سعيد بن مالك بن قادم ، فولّاه الأسواق وشاطئ دجلة وما اتصل به ، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان وأمدّه بالأموال والرجال ، وقبض طاهر ضياع من لم يخرج إليه من بنى هاشم والقوّاد وغيرهم ، وأخذ أموالهم فذلّوا وانكسروا ، وضعف أجناد الأمين عن القتال وطاهر لا يفترّ عن قتالهم ، فاستأمن محمد بن عيسى صاحب شرط الأمين وعلى فَرَاهْمَرْد ، ثم كاتب طاهر جماعة القواد والهاشميين وغيرهم بعد أن قبض ضياعهم ، فأجابوه إلى البيعة للمأمون ، فكان ممن أجابه عبد الله بن حميد بن قحطبة وإخوته ، وولد الحسن بن قحطبة ، ويحيى بن على بن ماهان ، ومحمد بن أبى العباس[2] الطائى وغيرهم ، هذا والأمين مقبل على الأكل والشرب ، ووكل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الهِرْش ، ثم منع طاهر الأقوات أن تصل إلى بغداد فغلت الأسعار ، ودام الحصار والقتال على بغداد إلى سنة ثمان وتسعين ومائة ، حتى ضجر الناس وملّوا القتال . فلحق خزيمة بن خازم بطاهر وفارق الأمين ، ودخل هرثمة إلى الجانب الشرقى لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين فى ليلة الأربعاء . فلما كان الغد تقدّم طاهر إلى المدينة والكَرْخ ، فقاتل هناك قتالاً شديداً ، فهزم الناس ومرّوا لا يلوون

(١) هكذا فى ص وهو ما يتفق وضرب آنية الذهب ويؤيده الطبرى جـ٧ ص٥٠ وفى فـ٤ك : وضرب آنية الذهب والفضة دراهم هذا ومصدر المؤلف الكامل جـ٥ ص١٥٧ قال : وضرب آنية الذهب والفضة ليفرقها .

(٢) فى الطبرى جـ٧ ص٥٩ : محمد بن أبى العاص والمؤلف يتبع ابن الأثير فى نقله .

على شئ ، فدخلها طاهر بالسيف ، وأمر مناديه فنادى : من لزم بيته فهو آمن ، وقصد مدينة المنصور وأحاط بها ، وبقصر زبيدة وقصر الخلد – من باب الجسر الى باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب الفرات ، وشاطئ الفرات إلى مصبّها فى دجلة ، وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش ، فنصب طاهر المجانيق بإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد ، وأخذ الأمين أمّه وأولاده إلى مدينة المنصور ، وتفرّق عنه عامة جنده وخصيانه وجواريه فى الطريق ، لا يلوى بعضهم على بعض ، وحصره طاهر وأخذ عليه الأبواب .

ذكر مقتل الأمين

قال : لما دخل الأمين مدينة المنصور ، واستولى طاهر على أسواق الكرخ وغيرها ، جاء محمد بن حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الأفريقى وغيرهما ، فقالوا للأمين : قد آلت حالنا إلى ما ترى ، وقد تفرّق عنك الناس ، وقد بقى معك من خيلك سبعة[1] آلاف فرس من خيارها . ونرى أن تختار ممن عرفناه بمحبّتك من الأبناء سبعة[2] آلاف . فتحملهم على هذه الخيل وتخرج ليلا . على باب من هذه الأبواب فلا يثبت لنا أحد إن شاء الله تعالى ، فنلحق بالجزيرة والشام فنفرض الفروض ونجبى الخراج . ونصير فى مملكة واسعة وملك جديد ، فتسارع إليك الناس ويحدث الله أمورًا ، فصوّب رأيهم ووافقهم عليه ، فنما الخبر إلى طاهر فكتب إلى سليمان ابن المنصور ومحمد بن عيسى بن نَهِيك والسِّنْدى بن شَاهِك . وأقسم لئن لم تردوه عن هذا الرأى لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها ، ولا تكون لى همة إلا أنفسكم ، فدخلوا على الأمين فقالوا : قد بلغنا الذى عزمت عليه . ونحن نذكّرك الله فى نفسك . إن هؤلاء صعاليك وقد بلغ بهم الحصار إلى ما

(١) فى الطبرى جـ٧ ص ٧٦ ألف
(٢) فى الطبرى جـ٧ ص٧٦ سبعمائة رجل

ترى ، وهم يرون أن لا أمان لهم عند أخيك وعند طاهر لجدهم فى الحرب . ولسنا نأمن إذا خرجت معهم أن تؤخذ أسيرا . أو يأخذوا رأسك فيتقرّبوا بك ويجعلوك سبب أمانهم . وصرفوه عن ذلك فرجع إليهم . وأجاب الى طلب الأمان والخروج ، وقالوا له : إنّه لا بأس عليك من أخيك . وأنّه يجعلك حيث أحببت فركن إلى ذلك . وأجاب إلى الخروج إلى هرثمة بن أعيَن ، فدخل عليه الذين أشاروا عليه بقصد الشام وقالوا له : إذا لم تقبل ما أشرنا به عليك – وهو الصواب – وقبلت من هؤلاء المداهنين . فالخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة ، فقال : أنا أكره طاهرًا ، وهرثمة مولانا وهو بمنزلة الوالد ، وأرسل إلى هرثمة فى طلب الأمان ، فأجابه إليه وحلف له أنّه يقاتل دونه – إن همّ المأمون بقتله ، فلما علم طاهر ذلك اشتد عليه . وأبى أن يدعه يخرج إلى هرثمة وقال : هو فى حربى[1] والجانب الذى أنا فيه . وأنا ألجأته بالحصار إلى طلب الأمان ، فلا أرضى أن يخرج إلى هرثمة فيكون الفتح له دونى ، فاجتمع القوّاد أصحاب الأمين بطاهر وقالوا : إنّه لا يخرج إليك أبدا ، وإنّه يخرج إلى هرثمة ببدنه ويدفع إليك الخاتم والقضيب والبردة وهو الخلافة ، فاغتنم هذا الأمر ولا تفسده ، فرضى بذلك ، فأتى الهرش إلى طاهر وأراد التقرب إليه ، فأخبره أنّ الذى جرى بينهم مكر ، وأنّ الخاتم والبردة والقضيب تحمل مع الأمين إلى هرثمة ، فاغتاظ منه وجعل حول قصر الأمين قومًا فلما تهيأ الأمين للخروج إلى هرثمة أرسل إليه هرثمة . يقول : وافيت للميعاد لاحملك ، ولكنّى أرى ألا تخرج هذه الليلة ، فإنّى قد رأيت على الشط ما قد رابنى ، وأخاف أن أغلب وتؤخذ من يدى ، وتذهب نفسك ونفسى ، فأقم الليلة حتى أستعد وآتيك الليلة القابلة . فإن حوربت حاربت دونك ؛ فقال للرسول : ارجع إليه فقل له لا تبرح ، فإنّى خارج إليك الساعة لا محالة ، ولست أقيم إلى غد ، وقلق ، وقال[2] : قد تفرّق

(١) فى الكامل جـ٥ ص١٦٣ : جندى وفى الطبرى جـ٧ ص٧٩ : حيزى

(٢) ساقطة من ص

عنّى الناس من الموالى والحرس وغيرهم ، ولا آمن إن انتهى الخبر إلى طاهر أن يدخل علىّ ويأخذنى ، وخرج بعد العشاء الآخرة ليلة الأحد ، لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، إلى صحن الدار وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود ، فدعا بابنيه فضمّهما إليه وقبّلهما وبكى ، وقال : استودعكما الله ، ثم جاء راكبًا إلى الشط فإذا حرّاقة هرثمة فصعد إليها ، فذكر أحمد بن سلام صاحب المظالم قال : كنت مع هرثمة فى الحرّاقة ، فلما دخلها الأمين قمت له ، وجثى هرثمة على ركبتيه واعتذر له من نقرس به ، ثم احتضنه هرثمة وضمّه وجعله فى حجره وجعل يقبّل يديه ورجليه وعينيه ، وأمر هرثمة الحراقة أن تدفع . فشدّ علينا أصحاب طاهر فى الزوارق ونقبوا الحرّاقة ، ورموا بالآجر والنشاب فغرقت الحرّاقة ، وسقط هرثمة إلى الماء وسقطنا ، فتعلّق الملاح بشعر هرثمة فأخرجه ، وأما الأمين فإنّه شق ثيابه لما سقط فى الماء ، قال أحمد بن سلام : وخرجت أنا إلى الشط فأخذنى رجل من أصحاب طاهر ، فأتى بى إلى رجل آخر من أصحابة ، وأعلمه أنّى من الذين خرجوا من الحرّاقة ، فسألنى : من أنا ؟ فقلت : أنا أحمد بن سلام صاحب المظالم مولى أمير المؤمنين ، قال : كذبت ، فاصدقنى ، قلت : قد صدقتك ، قال ما فعل المخلوع ، قلت : رأيته قد شق ثيابه فركب ، وأخذنى معه أعدو وفى عنق حيل فعجزت عن العدو ، فأمر بضرب عنق فاشتريت نفسى منه بعشرة آلاف درهم ، فتركنى فى بيت حتى يقبض المال ، وفى البيت بوارى وحصر مدرجة ووسادتان ، فلما ذهب من الليل ساعة وإذا الباب قد فتح ، وأدخل الأمين وهو عريان وعليه سراويل وعمامة ، وعلى كتفه خرقة خلقة ، فلما رأيته استرجعت وبكيت فى نفسى ، فسألنى عن اسمى فعرّفته . فقال . ضمّنى إليك فإنى أجد وحشة شديدة . قال : فضممته وإذا قلبه يخفق . فقال : ياأحمد ـ ما فعل أخى . قلت . حىّ ، قال : قبحّ الله بريدهم ! ! كان يقول قد مات ـ شبه المعتذر من محاربته ، فقلت . بل قبّح الله

وزراءك ، فقال : ماتراهم يصنعون بى ؟ أيقتلوبى أم يفون بأيمانهم ؟ فقلت : يفون لك ، وجعل يضم الخرقة على كتفه ، فنزعت مبطّنة[١] كانت علىّ وقلت : ألق هذه عليك ، فقال : دعنى فهذا من الله عز وجلّ،فى هذا الموضع خير كثير ، فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا رجل ، فنظر فى وجوهنا فاستثبته[٢] ، فلما عرفه انصرف ـ وإذا هو محمد بن حميد الطاهرى ، فلما رأيته علمت أن الأمين مقتول ، فلما انتصف الليل فتح الباب ودخل قوم عجم معهم السيوف مسلولة ، فلما رآهم قام قائماً وجعل يسترجع ويقول : ذهبت ـ والله ـ نفسى فى سبيل الله ، أما من مغيث ! ! أما من من أحد من الأبناء ! ! وجاءوا حتى وقفوا على باب البيت الذى نحن فيه ، وجعل بعضهم يقدّم بعضا ويدفعه ، وأخذ الأمين بيده وسادة ويقول : ويحكم ! ! أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أنا ابن هارون ـ أنا أخو المأمون ـ الله الله فى دمى ! ! فضربه رجل منهم بسيف وقعت فى مقدّم رأسه ،فضربه الأمين على وجهة بالوسادة ، وأراد أن يأخذ السيف فصاح : قتلنى ، قتلنى فدخل جماعة منهم فنخسه واحد بالسيف فى خاصرته . ورموا نفوسهم عليه فذبحوه من قفاه ، وأخذوا رأسه ومضوا به إلى طاهر . فلما كان السحر أخذوا جثّته فأدرجوها فى جُلّ وحملوها ، فنصب طاهر الرأس على برج ، وخرج أهل بغداد ـ وطاهر يقول : هذا رأس المخلوع محمد ، ولما قتل ندم جند طاهر وجند بغداد على قتله ، لما كانوا يأخذون من الأموال ، وبعث طاهر رأسه إلى أخيه المأمون مع ابن عمه محمد بن الحسن[٣] بن مصعب ، وكتب معه بالفتح ، فلما وصل أخذ ذو الرئاستين الرأس وأدخله إلى المأمون على ترس . فلما رآه المأمون سجد ، وبعث طاهر معه بالبردة والقضيب والخاتم ولما قتل

---

(١) فى ف ، ك منطقة والتصويب عن ص والكامل جـ٥ ص١٦٤ ، الطبرى جـ٧ ص ١٣

(٢) فى الكامل جـ٥ ص١٦٤ فاستثبته والطبرى جـ٧ ص٨٣ فى سنه

(٣) فى الكامل جـ٥ ص١٦٥ الحسين والطبرى جـ٧ ص٨٥ تفو مع تخصص ـ

الأمين نودى فى الناس كلهم بالأمان ، ودخل طاهر المدينة يوم الجمعة وصلى بالناس .

وحكى عن ابراهيم بن المهدى قال [١] : كنت مع الأمين لما حصره طاهر ، فخرج ليلة يريد الفرجة لما هو فيه من الضيق ، فصار إلى قصر بناحية الخلد ، ثم أرسل إلىّ فحضرت عنده ، فقال : ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر فى السماء وضوءه فى الماء – وكان على شاطئ دجلة – فهل لك فى الشرب ؟ فقلت : شأنك ، فشرب رطلا وسقانى آخر ، ثم غنّيته ما كنت أعلم أنه يحبّه ، ثم دعا بجارية اسمها ضعف فتطيّرت من اسمها ، فقال لها غنّى فغنّت شعر الجَعْدِى :

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأيسر حزما منك ضرّح بالدم

فتطيّر من ذلك وقال : غنى غير هذا ، فغنّت :

أبكى فراقهمُ عينى فأرّقها إن التفرّق للأحباب بكّاء
مازال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عدّاء

فسبّها ، وقال : أما تعرفين من الغناء غير هذا ، ثم غنّته :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك

الأبيات الأربعة ، فغضب ولعنها فقامت ، وكان له قدح من بلّور حسن الصنعة ، فعثرت به فكسرته ، فقال لى : ويحك ياإبراهيم ! ماترى إلى ما جاءت به هذه الجارية !! والله ما أظن أمرى إلا قد قرب . فقلت : يديم الله ملكك ويعز سلطانك ويكبت عدوّك ، فما استتمّ الكلام حتى سمعنا صوتا ﴿قُضِىَ الأَمْرُ الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ [٢]﴾ ، فقال ياإبراهيم : أما سمعت ما سمعت !! قلت ما سمعت شيئا . فقتل بعد ليلة أو ليلتين .

(١) راجع كمامة الزهر ص٢٤٦ . ص ٢٤٧ . وهذه القصة فى الأغانى جـ٤ ص١٨٦ مع اختلاف فى التعبير وفى الشعر . ورواية المؤلف فى الشعر لا تتفق مع رواية الاغانى إلا فى البيت الأول وإن كان مضمونها واحدا

(٢) راجع سورة يوسف من آية ٤١

ذكر صفة الأمين وعمره ومدة خلافته وشئ من أخباره

كان الأمين طويلا أبيض سميناً جميلاً صغير العينين أقنى عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين ؛ وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وشهورا ؛ ومدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام وقيل سبعة أشهر وثمانية عشر يوما ؛ وكان له من الأولاد موسى ، وعبد الله ، وإبراهيم .

ونقش خاتمه : محمد واثق بالله ؛ وزراؤه : الفضل بن الرَّبيع إلى أن هرب بعد فساد حال الأمين ، فوزر له إبراهيم بن صُبَيْح وغيره ؛ حاجبه : العباس بن الفضل بن الربيع ؛ قضاته : وَهْب بن وهب ، ومحمد بن سَمَاعة ؛ الأمراء بمصر الحسن بن البحباح[1] ثم حاتم بن هرثمة بن أَعْيَن ثم جابر بن الأَشْعث ؛ قاضيها[2] هاشم بن أبي بكر بن عبد الرحمن من ولد أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

قال : وكان الأمين ضعيف الرأى شديد القوى ، حكى[3] عنه أنه أحضر إليه أسد فى قفص حديد ، فأمر بفتح القفص فوثب الأسد ، فتفرق الغلمان ، وانفرد بالأمين فوثب الأسد عليه ، فعمد إلى مِرْفَقَة[4] تلقّاه[5] بها لحمايته ، ثم قبض على أصل أذنيه وهزّه فسقط الأسد ميتا ، وزاغت أكتاف[6] الأمين فأحضر الأطباء ، فأعادوها إلى مكانها ، وانفقأت مرارة الأسد فى جوفه[7] ، وقيل بل حاد عن الأسد حتى تجاوزه ، ثم قبض على

(١) بدون نقط فى المخطوطات واتبعنا كما قلنا من قبل النجوم الزاهرة جـ٢ ص ١٤٤

(٢) هذه العبارة كلها ساقطة من ك فترتب على ذلك اضطراب فيها فى هذا الموضع

(٣) هذه القصة وردت فى كمامة الزهر ص ٢٤٨ مع اختلاف فى التعبير

(٤) متكأ و مخدة .

(٥) فى مخطوطات مرسومة : تعامه دون نقط يقابلها فى كمامة الزهر تمتنع بها منه

(٦) فى كمامة الزهر وإذا مفصل يده قد زلت عن موضعها . فأتى بمجبر فجبر ورده كما كانت وجبس الأمين كأن ماصنع شيئ فشقوا جوف الأسد فوجدوا مرارته قد انفقأت فى جوفه

(٧) إلى هنا تنتهى القصة فى كمامة الزهر ولاتذكر أقوالا أخرى . والمؤلف لاينقل القصة من

ذنبه وجذبه جذبة أقعى لها الأسد ، وانقطع ظهره فمات ، وزاغت أنامل الأمين عن منابتها .

قال : ولما استقرت للأمين استكثر من الخصيان وغالى فى ثمنهم ، وصيّرهم لخلوته فى ليله ونهاره . وسمّى البيض منهم الجَرَادِيَّة والحِيْشَان والغُرابية حتى رمى بهم ، وقيل فيه الأشعار ، وأخضر الملهين[1] من جميع البلدان وأجرى عليهم الأرزاق واحتجب عن الناس .

ذكر خلافة المأمون

هو أبو العباس ـ وقيل أبو جعفر ـ عبد الله بن هارون الرشيد ، وأمه مراجل أم ولد ، بويع له البيعة العامة صبيحة الليلة التى قتل فيها الأمين ، وهو يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ،وكان هو بمرو . وهو السابع من خلفاء بنى العباس وقد تقدم من أخباره وأخبار عساكره ، والبيعة له بمكة والمدينة وخراسان وغيرها من الأمصار ، مالا يحتاج إلى إعادته ، إلا أنّ تلك المدة لاتعد خلافة مع بقاء الأمين .

قال : ولما وصل رأسة إلى المأمون ـ كما ذكرنا ـ أذن للقوّاد ، وقرأ ذو الرئاستين الفضل بن سهل الكتاب عليهم فهنّأوه بالظفر ، وكتب إلى طاهر وهرثمة بخلع القاسم المؤتمن من ولاية العهد فخلعاه فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين ومائة ، وعامل المأمون أمّ جعفر زبيدة بنت جعفر ـ أم الأمين ـ بالإكرام والبر والتلطف ، ورتب لها فى كل سنة مائة[2] ألف درهم جددا ، يحملها إليها ويتعاهد زيارتها .

حكى[3] أبو الفرج الأصفهانى أن المأمون أغفل حمل المال إليها فى

---

(١) فى ص : المتكهنين .

(٢) فى الأغانى جـ ٢١ ص ١١ (الساسى) مائة ألف ألف درهم .

(٣) القصة فى الأغانى جـ ٢١ ص ١١ . ص ١٢ .

بعض السنين ، فتقدمت إلى أبى العتاهية أن يعمل أبياتاً تذكره بها فقال :

زعموا[١] لى أنّ فى ضرب السنه جددا بيضا وصفرا حسنه
سككاً قد أحدثت لم أرها مثلما كنت أرى كل سنه

فلما قرأ المأمون الشعر قال : إنا لله ـ أغفلناها وتقدم بحمل ذلك إليها ؛ قال : قال مخارق : ظهر لأم جعفر من المأمون جفاء ، فبُعث إلى بأبيات أمرتنى أن أغنيه بها إذا رأيته نشيطاً وأسنت لى الجائزة وكان كاتبها جعفر بن الفضل ، قال الأبيات هى :

ألا إنّ صرف[٢] الدهر يدنى ويبعد ويؤنس بالألاّف طوراً ويفقد
أصابت لريب الدهر منّى يدى يدى فسّلمتُ للأقدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إن ذهبت يد فقد بقيت والحمد الله لى يد
إذا بقى المأمون لى فالرشيد لى ولى جعفر لم يفقدا ومحمد

قال مخارق : فقعلت ، فسألنى المأمون عن الخبر فعرفته فبكى ، ورق لها وقام لوقته فدخل عليها ، فقبل رأسها وقبلت يده ، وقال لها : يا أمّه ، ماجفوتك تعمدا ولكنى شغلت عنك بما لا يمكن إغفاله ، فقالت : يأمير المؤمنين ، إذا حسن رأيك لم يوحشنى[٣] ، وأتم عندها بقية يومه . نعود إلى سياق أخبار المأمون على حكم التوالى .

ذكر وثوب الجند بطاهر

قال : ووثب الجند بطاهر بعد مقتل الأمين بخمسة أيام . وكان سبب ذلك أنهم طلبوا منه مالا . فلم يكن معه شىء فثاروا به . فظن أن ذلك

(١) فى الأغانى جـ ٢١ ص ١٢ : خبّرونى أن .....
(٢) فى الأغانى جـ ٢١ ص ١٢ (الساسى) : ريب .
(٣) هكذا فى ص والأغانى جـ ٢١ ص ١٢ .

بمواطأة الجند وأهل الأرباض ، وأنهم معهم عليه فخشى على نفسه وهرب إلى عقرقوف[١] ، ونهبوا بعض متاعه ، وخرج معهم جماعة من القواد ، ثم خرج إليه القواد الذين تخلّفوا وأعيان أهل المدينة ، واعتذروا إليه وسألوه الصفح عنهم وقبول عذرهم ، فقال طاهر : ماخرجت عنكم إلا لوضع السيف فيكم ، وأقسم بالله عز وجل لئن عدتم لمثلها لأعودنّ إلى رأيى فيكم ، ثم شكرهم وأمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ووضعت الحرب أوزارها واستوثق الأمر للمأمون .

ذكر خلاف نصر بن شَبَثِ العُقَيْلى على المأمون

فى هذه السنة أظهر نصر الخلاف على المأمون ، وكان يسكن كَيْسُوم ناحية شمالى حلب ، وكان فى عنقه بيعة للأمين وله فيه هوى . فلما قتل الأمين أظهر الغضب وتغلّب على ماجاوره من البلاد وملك سُمَيْسَاط ، واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب ، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقى وحدثته نفسه بالتغلب عليه ، وكثرت جموعه وحصر حَرّان فى سنة تسع وتسعين ومائة . فأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا : قد وترت بنى العباس وقتلت رجالهم وأغلقت عنهم المغرب[٢] ، فلو تابعت لخليفة كان أقوى . فقال : من أى الناس؟ فقالوا : نبايع لبعض آل على بن أبى طالب ، فقال : أبايع أولاد السوداوات !! فقالوا : بايع لبعض بنى أمية ، فقال : أولئك قد أدبر أمرهم ، والمدبر لايقبل أبداً ، وإنما هواى فى بنى العباس . وإنما حاربتهم محاماة للعرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .

قال : ودام أمره إلى سنة تسع ومائتين . حاصره عبد الله بن طاهر

(١) فى المخطوطات : عقرقوب والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ١٧١ . وفى الطبرى جـ٧ ص ٩١ : عاقرقوف

(٢) هكذا فى المخطوطات وهو الأصح كما تدل على ذلك الأحداث التاريخية وفى الكامل جـ ٥ ص ١٧٦ وأعلقت عنهم العرب وهو تحريف

بحصن كَيْسُوم مدة ، ثم خرج إليه بالأمان فبعثه إلى المأمون ، فوصل إليه فى صفر سنة عشر ومائتين ، وهدم عبد الله حصن كيسوم .

ذكر ولاية الحسن بن سهل العراق وغيره من البلاد

وفى هذه السنة استعمل المأمون الحسن بن سهل أخا الفضل على ما كان فتحه طاهر ، من كور الجبل والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن ، وكتب إلى طاهر بتسليم ذلك إليه ، فقدم الحسن بين يديه على بن أبى[1] سعيد فدافعه طاهر بتسليم الخراج إليه حتى وفَّى الجند أرزاقهم ، وسلّم إليه العمل ، وقدم الحسن سنة تسع وتسعين ففرق العمال ، وأمر طاهرا أن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث ، وولاّه الموصل والجزيرة والشام والمغرب ، فسار طاهر إلى نصر والتقوا بنواحى كَيْسُوم ، واقتتلوا قتالاً شديداً كان الظفر فيه لشبث ، وعاد طاهر شبه المهزوم إلى الرقة ، وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحى من نصر .

وحجَ بالناس فى هذه السنه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى .

ودخلت سنة تسع وتسعين ومائة

ذكر ظهور ابن طَبَاطَبَا العلوى ووفاته وخبر أبى السرايا

فى هذه السنة ظهر محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ـ وهو المعروف بابن طباطبا ـ بالكوفة ، لعشر خلون من جمادى الآخرة يدعو إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم والعمل بالكتاب والسنة ، وكان القيّم بأمره فى الحرب أبو السَّرَايَا السَّرى بن منصور الشيبانى ، وكان سبب خروجه أن المأمون لما صرف طاهراً ووجّه

(١) فى الكامل جـ ٥ ص ١٧٢ : على بن أبى طاهر سعيد .

الحسن بن سهل إلى الأعمال التى ذكرناها تحدث الناس بالعراق . أن الفضل ابن سهل قد غلب على المأمون . وأنه أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته وأولاده وقوّاده ، وأنه يستبد بالأمور دونه ، فغضب لذلك بنو هاشم ووجوه الناس ، واجترءا على الحسن بن سهل وهاجت الفتن فى الأمصار ، فكان أوّل من ظهر ابن طَبَاطَبا بالكوفة ، وكان سبب اجتماع ابن طباطبا بأبى السرايا أن أبا السرايا كان يكرى الحمير ثم قوى أمره فجمع نفراً فقتل رجلا من بنى تميم بالجزيرة وأخذ مامعه ، فطلب فاختفى وعبر الفرات إلى الجانب الشرقى ، فكان يقطع الطريق بتلك الناحية ، ثم لحق بأسد[1] بن زيد بن مَزْيَد الشيبانى بأرمينية ومعه ثلاثون فارسا ، فقوّده فجعل يقاتل معه الخُرَّمِيَّة فأثر فيهم ، وقَتَل وأخذ منهم غلامه أبا الشوك ، فلما عزل أسد عن أرمينية صار أبو السرايا إلى أحمد بن مزيد ، فوجّهه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة فى فتنة الأمين ، واشتهرت شجاعته فراسله هرثمة واستماله فمال إليه ، وانتقل إلى عسكره وقصد العرب بالجزيرة . واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة ، فصار معه نحو ألفى فارس وراجل ، فصار يخاطب بالأمير ، فلما قتل الأمين قصّر[2] هرثمة فى أرزاقه وأرزاق من معه . فاستأذنه فى الحج فأذن له وأعطاه عشرين الف درهم ، ففرّقها فى أصحابه ومضى وقال لهم : اتبعونى متفرقين ، ففعلوا واجتمع معه منهم نحو مائتى فارس . فسار بهم إلى عين التمر وحصر عاملها ، وأخذ ماعنده من المال فقسمه فى أصحابه . وسار فلقى عاملا آخر ومعه مال على ثلاثة بغال فأخذها ، وسار فلحقه عسكر بعثه هرثمة خلفه فقاتلهم وهزمهم ، ودخل البّرية وقسم المال فى أصحابه وانتشر خبره فلحق به من تخلف عنه من أصحابه وغيرهم وكثر جمعه فسار نحو دقوقا وعليها أبو ضِرْغامة

(١) فى الكامل جـ ٥ ص ١٧٤ : يزيد بن مزيد الشيبانى وهو خطأ بدليل إنه يقول بعد ذلك : فلما عزل أسد ...

(٢) فى المصدر السابق ص ١٧٤ : نقصه.

العِجلى فى سبعمائة فارس ، فخرج إليه واقتتلوا فهزمه أبو السرايا وحصره بقصر دقوقا وأخرجه بأمان ، وأخذ ما عنده من الأموال وسار إلى الأنبار ، وعليها إبراهيم السّروى[1] مولى المنصور فقتله وأخذ مافيها وسار ، ثم عاد إليها عند إدراك الغلال فاحتوى عليها ، ثم ضجر من طول السرى فى البلاد فقصد الرقة ، فمرّ بطوق بن مالك التَّغْلِبى وهو يقاتل القَيْسِيَّة ، فأعانه وقاتل معه أربعة أشهر حتى ظفر طَوْق ، ثم سار عنه إلى الرقة ، فلما وصلها لقيه ابن طباطبا فبايعه .

وقال له : انحدر أنت فى الماء وأسير أنا على البَر حتى نوافى الكوفة فدخلاها . وأبتدأ أبوالسرايا بقصر العباس بن موسى بن عيسى . وأخذ ما فيه من الأموال والجواهر ـ وكان عظيماً لايحصى كثرة . فبايعهم أهل الكوفة واستوثق أمرهما بها ، وأتاه الناس من نواحى الكوفة والأعراب فبايعوه ـ أعنى ابن طباطبا .

وكان العامل عليها للحسن بن سهل ـ سليمان بن المنصور . فلامه الحسن ووجّه زهير بن المسّيب الضبى إلى الكوفة فى عشرة الآف فارس وراجل . فخرج إليه ابن طباطبا وأبو السرايا فهزموه ، واستباحوا عسكره وكانت الوقعة فى سلخ جمادى الآخرة ، فلما كان الغد مستهل رجب مات محمد بن إبراهيم ابن طباطبا فجأة سمّه أبوالسرايا ، وكان سبب ذلك أنه لما غنم مافى عسكر زهير منع عنه أبا السرايا ، وكان الناس له سامعين مطيعين . فعلم أبوالسرايا أنّه لاحكم له معه ، فسّمه ونصب مكانه غلاما أمرد . يقال له محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وصار الحكم لأبى السرايا .

ورجع زهير إلى قصر ابن هبيرة ووجّه الحسن بن سهل ـ عبدوس بن محمد بن

---

(١) فى الكامل جـ ٥ ص ١٧٤ : الشروى بالشين ولكن المخطوطات تضع العلامة المصطلح عليها فوق الحرف لتوضيح أنه سين ويظهر أن هذه العلاقة هى التى أدت إلى هذا التحريف فى الكامل .

أبى خالد المَزَوَرُوذِى فى أربعة الآف فارس ، فلقيه أبو السرايا لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رجب ، فقتل عبدوسا ولم يفلت من أصحابه أحد ـ كانوا بين قتيل وأسير ، وأنتشر الطالبيون فى البلاد ، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ، وسيّر جيوشه إلى البصرة وواسط ونواحيها ، فولى البصرة العباس بن محمد بن عيسى بن محمد الجعفرى ، وولّى مكة الحسين[1] بن الحسن بن على ابن الحسين بن على ـ الذى يقال له الأَفْطَس ـ وجعل إليه الموسم ، وولّى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر ، وولّى فارس إسماعيل بن موسى بن جعفر ، وولّى الأهواز زيد[2] بن موسى بن جعفر فسار إليه البصرة ، وغلب عليها وأخرج عنها العباس بن محمد الجعفرى ووليها مع الأهواز ، ووجّه أبو السرايا ـ محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن[3] بن على بن أبى طالب إلى المدائن وأمره أن يأتى بغداد من الجانب الشرقى ، فأتى المدائن وأقام بها وهزم أصحاب الحسن إلى بغداد ، فلما رأى الحسن بن سهل أن عسكره لايثبت لعسكر أبى السرايا أرسل إلى هرثمة يستدعيه ، وكان قد سار إلى خراسان مغاضبا للحسن ، فحضر إليه بعد امتناع وسار إلى الكوفة فى شعبان ، وسيّر الحسن إلى المدائن وواسط على بن أبى سعيد الحَرَشى ، فوجّه أبو السرايا إليها جيشا فدخل جيشه المدائن فى شهر رمضان ، وتقدّم هو حتى نزل بنهر صرصر ، وجاء هرثمة فعسكر بإزائه بينهما النهر ، وسار على بن أبى سعيد فى شوال إلى المدائن ، فقاتل أصحاب أبى السرايا وهزمهم واستولى عليها ، فبلغ الخبر أبا السرايا فرجع من نهر صَرْصَر إلى قصر ابن هُبَيْرَه ،

(١) فى المخطوطات الحسن والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ١٧٥ .

(٢) فى المخطوطات : يزيد وهو خطأ تصححه فيما بعد فى فصل هرب أبى السرايا ، ويزيد هذا هو المعروف بزيد النار .

(٣) فى المخطوطات : الحسين والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ١٧٥ والطبرى جـ٧ ص ١٢٠

وسار هرثمة فى طلبه ، فوجد جماعة من أصحابة فقتلهم ، ووجّه برءوسهم إلى الحسن ، ونازل هرثمة أبا السريا وكانت بينهم وقعة . قتل فيها جماعة من أصحاب أبى السرايا . وانحاز إلى الكوفة ووثب من معه من الطالبيين على دور بنى العباس ومواليهم وأتباعهم فانتهبوها وهدموها وخرّبوا ضياعهم ، وأخرجوهم من الكوفة وعملوا أعمالا قبيحة ، واستخرجوا الودائع التى كانت لهم عند الناس .

ذكر هرب أبى السرايا وقتله

قال : ولما انحاز أبو السرايا إلى الكوفة حاصره بها هرثمة ، وقاتله ولازم قتاله فخرج أبو السرايا من الكوفة فى ثمانمائة فارس . ومعه محمد بن محمد بن زيد ، ودخلها هرثمة فأمّن أهلها ولم يعرض إليهم . وكان هرثمة فى سادس عشر المحرم سنة مائتين فأتى القَادِسِيَّة . وسار منها إلى السُّوس بخوزستان . فلقى مالا قد حمل من الأَهْوَاز فأخذه وقسمه بين أصحابه . فأتاه الحسن بن على المأمونى . فأمره بالخروج من عمله وكره قتاله . فأبى أبو السرايا إلا قتاله فقاتله . فهزمه المأمونى وخرج وتفرّق أصحابه . وسار هو ومحمد بن محمد وأبو الشوك نحو منزل أبى السرايا برأس عين . فلما انتهوا إلى جلولاء ظفر بهم حماد الكَنْدَغُوش فأخذهم . وأنتهى بهم إلى الحسن بن سهل وهو بالنهروان . فقتل أبا السرايا وبعث رأسه إلى المأمون . ونصب جثته على جسر بغداد . وسيّر محمد بن محمد إلى المأمون . وأما هرثمة فأقام بالكوفة يوما واحداً وعاد منها . واستخلف بها غَسَّان بن أبى الفَرَج . وسار على بن أبى سعيد إلى البصرة فأخذها من العلويين ، وكان بها زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن

على بن الحسين بن على[١] وهو الذى يسمى زيد النار ، وإنما سمى بذلك لما أحرق بالبصرة من دور العباسيين وأتباعهم، وكان إذا أتى برجل من المُسَوِّدة أحرقه ، وأخذ أموالاً كثيرة من التجار ، فلما وصل علىّ إلى البصرة استأمنه زيد فأمّنه ، وبعث إلى مكة والمدينة جيشا وأمرهم بمحاربة من بها من العلويين . وكان بين خروج أبى السرايا وقتله عشرة أشهر . نعود لمساق السنين .

ودخلت سنة مائتين

فى هذه السنة كان ظهور إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد وكان بمكة ، فلما بلغه خبر أبى السرايا وما كان منه سار إلى اليمن ، وبها إسحاق بن موسى بن عيسى عاملا للمأمون ، فلما بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار نحو مكة ، واستولى إبراهيم على اليمن ، وكان يسمى الجزّار لكثرة من قتل باليمن وسبى وأخذ الأموال ، ثم وجّه رجلا من ولد عُقَيل بن أبى طالب فى جند[٢] ليحج بالناس ، فسار العقيلى حتى أتى بستان ابن عامر . فلبغه أن أبا إسحاق المعتصم قد حجّ فى جماعة من القواد ، وفيهم حَمْدَويه بن على بن عيسى بن ماهان ـ وكان الحسن بن سهل قد استعمله على اليمن . فعلم العقيلى أنه لايقوى[٣] لهم فأقام ببستان ابن عامر ، فاجتازت قافلة من الحاج ومعهم كسوة الكعبة وطيبها . فأخذوا أموال التجار والكسوة والطيب . وقدم الحجاج مكة عراة منهوبين ، فاستشار المعتصم أصحابه فقال الجُلُودى : أنا أكفيك ذلك ، فانتخب مائة رجل وسار بهم إلى العقيلى . وقاتلهم فانهزم

(١) الأسم فى المخطوطات سقط منه : جد الجد وهو على،هذا والأسم فى الكامل جـ ٥ ص ١٧٧ خاطىء . إذ أورده كالآتى : زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على عليه السلام وأورده الطبرى صحيحا جـ ٧ ص ١٢٣ .

(٢) ساقطة من ف ، ك

(٣) فى المخطوطات : بهم والتصويب عن نص الكامل جـ ٥ ص ١٧٨ الذى ينقل منه المؤلف .

أصحاب العقيلى وأسر أكثرهم ، وأخذوا كسوة الكعبة وأموال التجار إلا ما كان مع من هرب ، وضرب الأسرى كل واحد عشرة أسواط وأطلقهم . فرجعوا إلى اليمن يستطعمون الناس . فهلك أكثرهم فى الطريق .

ذكر مافعله الحسين بن الحسن الأفطس بمكة ومبايعة محمد بن جعفر وماكان من أمره وخلعه لنفسه

قد ذكرنا أن أبا السرايا كان قد بعث الحسين بن الحسن الأفطس إلى مكة فى سنة تسع تسعين ومائة لما ظهر أمره ، فدخل مكة فلما كان فى المحرم من هذه السنة نزع الحسين كسوة الكعبة . وكساها كسوة أخرى كان قد أنفذها أبو السرايا من الكوفة من القز . قال : وتتبع الحسين ودائع بنى العباس وأخذ أموال الناس بحجة الودائع . فهرب الناس منه وتطرق أصحابه إلى قلع شبابيك الحرم ، وأخذ ماعلى الأساطين من الذهب ـ وهو نزر حقير . وأخذ مافى خزانة الكعبة فقسمه مع كسوتها فى أصحابه . فلما بلغه قتل أبى السرايا . ورأى تغيّر الناس عليه لسوء سيرته وسيرة أصحابه . فأتى هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على ، وكان شيخا محبّبا فى الناس مفارقا لما عليه كثير من أهل بيته من قبح السيرة . وكان يروى و العلم عن أبيه ويكتبه الناس عنه ويظهر الزهد . فلما أتوه قالوا : تعلم منزلتك من الناس فهلم نبايعك بالخلافة . فإن فعلت لم يختلف عليك رجلان ، فامتنع من ذلك فلم يزل به ابنه علىّ وحسين بن الحسن الأفطس حتى غلباه على رأيه . فأجابهم فأقاموه فى شهر ربيع الأول وبايعوه بالخلافة . وجمعوا له الناس فبايعوه طوعا وكرها ونعتوه بأمير المؤمنين . فبقى شهورا وليس له من الأمر شىء . وابنه علىّ وحسين بن حسن وجماعتهما أسوأ ماكانوا سيرة وأقبح

فعلا . فوثب حسين بن حسن على امرأة من بنى فهر كانت جميلة ، وأرادها على نفسها فامتنعت ، وأخاف زوجها وهو من بنى مخزوم حتى توارى عنه ، ثم كسر باب دارها وأخذها مدة ثم هربت منه ، ووثب على بن محمد بن جعفر على غلام أمرد ـ وهو ابن قاضى مكة اسمه إسحاق بن محمد ، وكان جميلاً فأخذه قهراً ، فاجتمع أهل مكة ومن بها من المجاورين فصاروا فى جمع كبير ، فأتوا محمد بن جعفر وقالوا : لتخلعنّك ولنقتلنّك أو لتردن علينا هذا الغلام ، فأغلق بابه وكلّمهم من شباك ، وطلب منهم الأمان ليركب إلى ابنه ويأخذ منه الغلام ، وحلف أنّه لم يعلم به ، فأمّنوه فركب إلى ابنه وأخذه منه وردّه إلى أبيه ،ولم يلبثوا إلا يسيرا حتى قدم إسحاق بن موسى العباسى من اليمن ، فنزل المُشَاش فاجتمع الطالبيون إلى محمد بن جعفر وأعلموه ذلك ، وحفرو خندقا وجمعوا الناس من الأعراب وغيرهم ، فقاتلهم إسحاق ثم كره القتال فسار نحو العراق ، فلقيهم الجند الذين بعثهم هرثمة إلى مكة ، ومعهم الجلودى ورجاء بن جميل فردّوه معهم ، فقاتلوا الطالبيين فهزموهم . فطلب محمد بن جعفر الأمان فأمّنوه . ودخل العباسيون مكة فى جمادى الآخرة وتفرّق الطالبيون من مكة . وأما محمد بن جعفر فسار نحو الجُحْفَة . فأدركه بعض موالى بنى العباس فأخذ جميع مامعه . وأعطاه دريهمات يتوصل بها ، فسار نحو بلاد جُهَيْنة فجمع بها وقاتل هارون بن المسيّب والى المدينة عند الشجرة وغيرها ، عدة وقعات فانهزم محمد وفقئت عينه بسهم . وقتل من أصحابه بشر كثير ورجع إلى موضعه ، فلما انقضى الموسم طلب الأمان من الجلودى ومن رجاء بن جميل ـ وهو ابن عم الفضل ابن سهل فأمّناه . وضمن له رجاء عن المأمون وعن الفضل الوفاء بالأمان . فقبل ذلك وأتى مكة لعشر بقين من ذى الحجة . فخطب الناس وقال إننى

كان بلغنى أن المأمون مات ، وكانت له فى عنقى بيعة ، وكانت فتنة عمت الأرض ، فبايعنى الناس ، ثم إنه صحّ عندى أن المأمون حىّ صحيح وانا أستغفر الله من البيعة وقد خلعت نفسى من بيعتى التى بايعتمونى عليها ـ كما خلعت خاتمى هذا من أصبعى ، فلا بيعة لى فى رقابكم .

ثم سار فى سنة إحدى ومائتين إلى العراق . فسيّره الحسن بن سهل إلى المأمون بمرو . فلما سار المأمون إلى العراق صحبه فمات بجرجان .

ذكر مسير هرثمة إلى المأمون وقتله

قال : فلما فرغ هرثمة من أمر أبى السرايا رجع ولم يأت الحسن بن سهل ، وسار إلى خراسان فأتته كتب المامون فى غير موضع ، أن يأتى إلى الشام والحجاز ، فقال : لاأرجع حتى ألقى أمير المؤمنين ، إدلالاً منه عليه ولما يعرف من نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرّف المأمون مايدبّر عليه الفضل بن سهل ، ومايكتم عنه من الأخبار ، وأنه لايدع المأمون حتى ينتقل إلى بغداد ليتوسط سلطانه ، فعلم الفضل بذلك فعاجله بالتدبير عليه ، وقال للمأمون: إن هرثمة قد أنغل[1] عليك البلاد والعباد ، ودسّ أبا السرايا ـ وهو من جنده ـ ولو أراد لم يفعل ذلك ، وقد كتب إليه عدة كتب ليرجع إلى الشام والحجاز فلم يفعل ، وقد جاء مشاقا وإن أطلق كان هذا مفسدة لغيره ، فتغير قلب المأمون وأبطأ هرثمة إلى ذى القعدة ، فلما بلغ مروخشى أن يكتم قدومه عن المأمون ، فأمر بالطبول فضربت لكى يسمعها المأمون فسمعها ، فقال : ماهذا ! ! ! قال : هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق ، فأمر المأمون بإدخاله ، فلما دخل قال له المأمون : مالأت أهل الكوفة والعلويين ، ووضعت أبا السرايا ولو شئت أن تأخذهم جميعا لفعلت ، فذهب هرثمة يتكلم ويعتذر ،

(١) فى الكامل جـ٥ ص ١٧٩ : اثقل وهو تحريف ، وأنغل : افسد

فلم يقبل قوله وأمر به فديس بطنه ، وضرب أنفه وسحب من يديه وحمل إلى الحبس ، فمكث أياماً ثم دسّوا عليه من قتله وقالوا مات .

ذكر وثوب الحربيّة ببغداد

وفى هذه السنة كان الشغب ببغداد بين الحربيّة والحسن بن سهل ، وسبب ذلك أن الحسن بن سهل كان بالمدائن لما شخص هرثمة إلى المأمون . فلما بلغ أهل بغداد ماصنعه المأمون بهرثمة بعث الحسن بن سهل إلى على بن هشام ـ وهو والى بغداد من قبله ـ أن امطل الجند من الحربيّة أرزاقهم . وكانت الحربيّة قبل ذلك قد وثبوا وقالوا : لانرضى حتى نطرد الحسن وعماله عن بغداد فطردوهم . وصيّروا إسحاق بن موسى بن المهدى[٢] خليفة للمأمون ببغداد . واجتمع أهل الجانبين على ذلك ورضوا به . فدسّ الحسن إليهم وكاتب قوّادهم . حتى شغبوا من جانب عسكر المهدى[٢] . فحوّل الحربيّة إسحاق إليهم وأنزلوه على دُجَيْل ، وجاء زهير بن المسيّب فنزل فى عسكر المهدى . وبعث الحسن بن سهل على بن هشام فى الجانب الآخر هو ومحمد بن أبى خالد . فدخلوا بغداد فى شعبان . وقاتل الحربيّه ثلاثه أيام على قنطرة الصراة . ثم وعدهم رزق ستة أشهر إذا أدركت الغلّة ، فسألوه تعجيل خمسين درهما لكل رجل منهم ينفقونها فى شهر رمضان ، فأجابهم إلى ذلك وجعل يعطيهم ، ثم هرب على بن هشام بعد جمعة من الحربية ونزل بصرصر ، لأنه لم يف بالعطاء ، وقام بأمر الحربيّة محمد بن أبى خالد لأن على ابن هشام كان يستخف به ، فغضب من ذلك وتحول إلى الحربية وهزموا على

(١) فى الكامل جـ ٥ ص ١٧٩ : اسحاق بن موسى الهادى وفى المخطوطات اسحاق بن موسى المهدى ، وعلى ذلك يتبين التحريف فيها .

(٢) فى المخطوطات : عسكر ابن المهدى وهو خطأ تصويبه عن الكامل جـ ٥ ص ١٧٩ والطبرى جـ ٧ ص ١٣١ .

بن هشام من صرصر ، وقيل : كان السبب فى شغبهم أن الحسن بن سهل جلد عبد الله بن ماهان[١] الحد ، فغضب الحربيّة وخرجوا .

وحج بالناس فى هذه السنة المعتصم .

ودخلت سنة إحدى ومائتين .

ذكر ولاية منصور بن المهدى بغداد

فى هذه السنة أراد أهل بغداد أن يبايعوا المنصور بن المهدى بالخلافة ، فامتنع من ذلك فأرادوه على الإمرة عليهم ، على أن يدعو للمأمون بالخلافة فأجابهم إلى ذلك ، وكان سبب ذلك أن أهل بغداد ـ لما أخرجوا على بن هشام من بغداد واتصل حين إخراجه بالحسن سهل سار من المدائن إلى واسط ، وذلك فى أول هذه السنة ،فاتبعه محمد بن أبى خالد مخالفاله ، وقد تولى القيام بأمر الناس ، وولى سعيد بن الحسن بن قحطبه بالجانب الغربى ونصر بن حمزة بن مالك بالجانب الشرقى ، وكان ببغداد منصور بن المهدى والفضل بن الربيع وخزيمة بن خازم ، وكان الفضل بن الربيع مختفيا كما تقدم إلى الآن ، فلما رأى محمداً قد بلغ واسط طلب منه الأمان فأمّنه ، وظهر الفضل وسار محمد بن أبى خالد إلى الحسن على تعبئة ، وقد تحوّل الحسن عن واسط ، فوجّه إليه الحسن بن سهل قواده وجنده، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم أصحاب محمد بعد العصر ، وثبت هو حتى جرح جراحات شديدة ، وانهزموا هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير ، وذلك لسبع بقين من شهر ربيع الأول ، ثم أتاه الحسن بن سهل واقتتلوا ، حتى جنّهم الليل فرحل محمد وأصحابة ثم التقوا واقتتلوا[٢] مرة ثانية إلى الليل ، فاشتدت جراحات محمد فحمله ابنه أبو

(١) فى الكامل جـ ٥ ص ١٨٠ : عبد الله على بن ماهان ، وفى الطبرى جـ ٧ ص ١٣٢ : عبد الله ابن على بن عيسى بن ماهان .

(٢) هذه العبارة من : حتى جنهم الليل ..... إلى : واقتتلوا : ساقطة من ص

زنبيل[١] إلى بغداد، وخلف عسكره لست خلون من ربيع الآخر، ومات محمد ابن أبى خالد فدفن فى داره سرا ، وأتى أبو زنبيل خزيمة بن خازم فأعلمه وفاة أبيه ، فأعلم حزيمة الناس وقرأ عليهم كتاب عيسى بن محمد إليه ، أنه قام بأمر الحرب مقام أبيه ، ثم كان بين الحسن وبين أولاد محمد بن أبى خالد وقعات ، وانتصر فيها أصحاب الحسن عليهم وهزموهم مرة بعد أخرى .

قال : ولما مات محمد قال بنو هاشم والقواد نصيّر[٢] مناخليفة ونخلع المأمون ، ثم أتاهم خبر هزيمة[٣] أولاد محمد فجدّوا فى ذلك ، وأرادوا منصور بن المهدى على الخلافة فأبى ، فجعلوه خليفة للمأمون ببغداد والعراق ، وقالوا : لانرضى بالمجوسى ابن المجوسى الحسن بن سهل ، وقال المنصور : أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم ، أو يولّى من أحب فرضى به الناس ، وعسكر بكَلواذَى .

ذكر البيعة بولاية العهد لعلى بن موسى الرضا

فى هذه السنة جعل المأمون على بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن أبى طالب رضى الله عنه ولى عهد المسلمين ، والخليفة من بعده ولقبه الرضا من آل محمد ﷺ ، وأمر جنده بطرح السَّوادَ ولبس الخُضْرة وكتب بذلك إلى سائر الآفاق ، وذلك لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، فتكلم بنو العباس فى ذلك وقال بعضهم لانرضاه ، وتكلموا فى خلع المأمون والبيعة لإبراهيم بن المهدى ، فكان مانذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى المخطوطات : ابو رتيل والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١٨٢ والطبرى جـ ٧ ص ١٣٤ .

(٢) فى المخطوطات : ننصب والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١٨٢ والطبرى جـ ٧ ص ١٣٥ .

(٣) فى ص ، ك : هزيمة وهو تحريف . والعبارة فى الكامل جـ ٥ ص ١٨٢ كما يأتى : فأتاهم خبر هارون وهزيمته فجدّوا فى ذلك ، وفى الطبرى جـ ٧ ص ١٣٥ ..... إذ بلغهم خبر هارون وأبى زنبيل وهزيمتهم فجدّوا فيما كانوا فيه .

ذكر فتح جبال طَبَرِسْتَان وأسر ملك الدَّيلَم

فى هذه السنة افتتح عبد الله بن خُرَّداذْبه ـ والى طبرستان ـ البلازر[١] والشيزر من بلاد الديلم ، وافتتح طبرستان وأنزل شَهْرِيَار بن شَرْوين عنها . وأَسر أبا ليلى ملك الديلم .

وحج بالناس فى هذه السنة إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على[٢] العباسى

ودخلت سنة اثنتين ومائتين .

ذكر بيعة إبراهيم بن المهدى ببغداد وخلع المأمون

فى هذه السنة بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدى ولقبوه المبارك ، وخلعوا المأمون وذلك فى أول المحرم ، وقيل لخمس مضين منه ، وبايعه سائر بَنِى هاشم ، وكان المتولى لأمر البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك ، وكان سبب ذلك ما ذكرناه ، من إنكار الناس ولاية الحسن بن سهل والبيعة لعلى ابن موسى ، فوضع العباسيون رجلا فى يوم جمعة يقول : إنا نريد أن ندعو للمأمون ومن بعده لإبراهيم ، ووضعوا من يجيبه : إنّا لا نرضى إلا أن تبايعوا لإبراهيم بن المهدى ومن بعده لإسحاق بن موسى الهادى وتخلعوا المأمون[٣] ، ففعلوا ذلك فلم يصّل الناس جمعة وتفرّقوا لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، ثم خلعوا المأمون وبايعوا لإبراهيم ، وكان الذى سعى فى هذا الأمر السندى وصالح صاحب المصلى ونصير[٤] الوصيف وغيرهم ، فلما فرغوا من

(١) فى المخطوطات : البلاذر غير واضحة ورسمها لايبين الاسم اما الشيرز فهى فى ص : السيرق

(٢) فى المخطوطات : إسحاق بن موسى بن عيسى بن على العباس والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١٨٩ والطبرى جـ ٧ ص ١٤١

(٣) هذا التدبير غير وارد بالكامل لابن الأثير وهو بالطبرى جـ ٧ ص ١٤٠ ولكن المؤلف لم ينقل عنه أو ربما سقط فى الكامل .

(٤) فى المخطوطات : نصر والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ١٨٩ وراجع الأغانى جـ ٣ ص ٢١٦ (ط . دار الكتب) .

البيعة وعد الجند رزق ستة أشهر ، ودافعهم بها فشغبوا فأعطاهم لكل رجل مائتى درهم ، وكتب لبعضهم على السواد بقيمة مالهم حنطة وشعيرا ، فخرجوا فى قبضها فانتهبوا الجميع ، وأخذوا نصيب السلطان وأهل السواد . واستولى[1] على الكوفة والسواد جميعه وعسكر بالمدائن . واستعمل على الجانب الغربى من بغداد العباس بن موسى الهادى وعلى الجانب الشرقى منها إسحاق بن موسى [2] الهادى .

ذكر أخبار إبراهيم بن المهدى وما استولى عليه من الأماكن وما كان من أمره إلى أن خلع واستتر – ذكر استيلائه على قصر ابن هبيرة والكوفة

قال : وكان بقصر ابن هبيرة حميد بن عبد الحميد عاملا للحسن بن سهل ، ومعه من القواد سعيد بن الساجور وأبو البط وغسّان بن أبى الفرج[3] ومحمد بن إبراهيم الإفريقى وغيرهم ، وكاتبوا إبراهيم على أن يأخذوا له قصر ابن هبيرة ، وكانوا قد انحرفوا عن حميد ، وكتبوا إلى الحسن بن سهل يخبرونه أن حميدا يكاتب إبراهيم ، وكتب حميد فيهم بمثل ذلك ، فاستقدم الحسن حميد بن عبد الحميد فامتنع ، وخاف – إن هو سار إليه – سلّم القواد ماله وعسكره إلى إبراهيم ، فألح الحسن عليه بالطلب فسار إليه فى شهر ربيع الآخر ، فكتب القواد إلى إبراهيم لينفذ إليهم عيسى بن محمد بن أبى

(١) فى ص : واستولوا وهو خطأ قال ابن الأثير فى الكامل جـ٥ ص ١٨٩ : واستولى إبراهيم على الكوفة ....

(٢) وردت هذه العبارة فى المخطوطات مضطربة : فى ف ، ك (واستعمل على الجانب الشرقى بها) ولم يرد ذكر المدينة التى يشير إليها الضمير كذلك الأمر فى ص إذ هى (واستعمل على الجانب الغربى بها) ومن هذا يتبين أن بالمخطوطات سقطا أو خطأ لا يستطيع الباحث أن يجزم إن كان الخطأ من النساخ أو هو سهو من المؤلف . ولما كان المؤلف ينقل عن ابن الاثير نصا تحتم تصويبها عنه من الكامل جـ٥ ص ١٨٩

(٣) فى المخطوطات : غسان بن الفرج وهو خطأ تصححه المخطوطات حين ذكر الاسم بعد ذلك فى الأحداث هذا وتصويبه هنا عن الكامل جـ٥ ص ١٨٩ والطبرى جـ٧ ص ١٤٢

خالد ، فوجّه إليهم عيسى فانتهبوا ما فى عسكر حميد ، فكان مما أخذوا له مائة بدرة ، وأخذ ابن حميد جوارى أبيه وسار إليه وهو بعسكر الحسن ، ودخل عيسى القصر لعشر خلون من شهر ربيع الآخر ، فعاد الحسن إلى الكوفة فأخذ أموالها ، واستعمل عليها العباس بن موسى بن جعفر العلوى ، وأمره أن يدعو لأخيه على بن موسى بعد المأمون ، وأعانه بمائة ألف درهم وقال له : قاتل عن أخيك وأنا معك ، فوجه إبراهيم إلى الكوفة سعيد بن الساجور وأبا البط لقتال العباس بن موسى ، وكان العباس قد دعا أهل الكوفة فأجابه بعضهم ، وأما الغلاة [1] من الشيعة فقالوا : إن كنت تدعو لأخيك وحده فنحن معك ، وأما المأمون فلا حاجة لنا فيه ، فقال : إنما أدعو للمأمون وبعده لأخى ، فقعدوا عنه ؛ فلما أتاه سعيد وأبو البط نزلوا قرية شاهى ، بعث إليهم العباس ابن عمه على بن محمد بن جعفر – وهو ابن الذى كان قد بويع له بمكة – وبعث معه جماعة، فاقتتلوا ساعة فانهزم العلوى وأهل الكوفة ، ونزل سعيد وأصحابه الحيرة ، وكان ذلك فى ثانى جمادى الآخرة ، ثم تقدموا فقاتلوا أهل الكوفة ، وخرج إليهم شيعة بنى العباس ومواليهم فاقتتلوا إلى الليل ، وكان شعارهم : يا إبراهيم يا منصور ، لا طاعة للمأمون ، وعليهم السواد وعلى أهل الكوفة الخضرة ، ثم اقتتلوا من الغد فسأل رؤساء الكوفة سعيد بن الساجور الأمان للعباس وأصحابه فأمّنهم ، على أن يخرجوا من الكوفة فأجابوا إلى ذلك ، وأتوا العباس فأعلموه فقبل منهم وتحول عن داره ، ثم شغب أصحابه على من بقى من أصحاب سعيد وقاتلوهم ، فانهزم أصحاب سعيد إلى الخندق ، ونهب أصحاب العباس دور عيسى بن موسى ، وأحرقوا وقتلوا من ظفروا به ، فأرسل العباسيون إلى سعيد بالحيرة يخبرونه أن العباس بن موسى قد رجع عن الأمان ، فركب سعيد وأصحابه وأتوا الكوفة عتمة فقتلوا من ظفروا به ممن انتهب ، ومكثوا عامة

(١) لا يقصد بها الاصطلاح المعروف وانما يراد بها الدلالة اللغوية اى المتمسكون بالتشيع أشد تمسك .

الليل ، فخرج إليهم رؤساءُ الكوفة فأعلموهم أن هذا فعل الغوغاء ، وأن العباس لم يرجع عن الأمان فانصرفوا عنهم ، فلما كان الغد دخلها سعيد وأبو البط ونادوا بالأمان ولم يعرضوا لأحد ، وولّوا الكوفة الفضل بن محمد بن[1] الصباح الكندى ، ثم عزلوه لميله إلى أهل بلده ، واستعملوا غسان بن أبى الفرج ثم عزلوه ، واستعملوا الهول ابن أخى سعيد ، فلم يزل عليها حتى قدمها حميد بن عبد الحميد فهرب ، ودام أمر إبراهيم بن المهدى إلى سنة ثلاث ومائتين ثم خلع .

ذكر خلع إبراهيم بن المهدى

وفى سنة ثلاث ومائتين خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدى ، وكان سبب ذلك أنه قبض على عيسى بن محمد بن أبى خالد ، لأنه كان يكاتب حميد بن عبد الحميد والحسن بن سهل ، ويظهر لإبراهيم الطاعة ، وكان إبراهيم يأمره بالخروج لقتال حميد فيعتذر ، أن الجند يطلبون أرزاقهم ومرة يقول حتى تدرك الغلة ، إلى أن توثق عيسى من الجيش وفارقهم[2] على أن يدفع إليهم إبراهيم بن المهدى فى يوم الجمعة سلخ شوال ، فجاء هارون بن محمد أخو عيسى فأعلم إبراهيم بذلك ، وجاء عيسى إلى باب الجسر فقال للناس : إنى قد سألت حميد بن عبد الحميد أن لا يدخل عملى ولا أدخل عمله ، ثم أمر بحفر خندق بباب الجسر وباب الشام ، وبلغ إبراهيم قوله وفعله ، وكان عيسى قد سأل إبراهيم أن يصلى الجمعة بالمدينة ، فأجابه إلى ذلك ثم حُذِّر إبراهيم وأرسل إلى عيسى يستدعيه ، فاعتلّ عليه فتابع رسله إليه فحضر عنده بالرصافة ، فلما دخل عليه عاتبه ساعة وعيسى يعتذر وينكر

(١) ساقطة من ص ، ك والتصويب من ف والكامل جـ٥ ص ١٩٠ والطبرى جـ٧ ص ١٤٥

(٢) هذه الجملة محرفة فى المخطوطات فى ف ، ك (قر معهم أنه) وفى ص (.... من الحسن وقرر معهم أنه) والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ١٩٣ حيث فيه : فلما توثق عيسى بما يريد فارقهم على أن يدفع إليهم إبراهيم بن المهدى يوم الجمعة سلخ شوال ...

بعض ذلك ، ثم أمر به إبراهيم فضرب وحبس ، وأخذ عدة من قوادة وأهله فحبسهم ، ونجا بعضهم ومضى بعض من نجا إلى بعض ، وحرّضوا الناس على إبراهيم ، وكان أشدهم العباس – خليفة عيسى – فاجتمعوا وطردوا عامل إبراهيم على الجسر والكرخ وغيره ، وكتب العباس إلى حميد يسأله أن يقدم عليهم ، حتى يسلّموا إليه بغداد ، فسار حميد حتى أتى نهر صرصر ، وخرج إليه العباس وقوّاد بغداد فلقوه ، وكانوا قد شرطوا عليه أن يعطى لكل جندى خمسين درهما ، فأجابهم الى ذلك ووعدهم أن يضع [1] لهم العطاء يوم السبت فى اليَاسِرِيَّة ، على أن يدعوا للمأمون بالخلافة يوم الجمعة ويخلعوا إبراهيم فأجابوه إلى ذلك ، ولما بلغ إبراهيم الخبر أخرج عيسى ومن معه من الحبس ، وسأله أن يرجع إلى منزله ويكفيه هذا الأمر فأبى ذلك ، فلما كان يوم الجمعة أحضر العباس – محمد [2] بن أبى رجاء الفقيه - فصلى بالناس الجمعة ودعا للمأمون بالخلافة ، وجاء حميد إلى الياسرية فعرض جند بغداد ، وأعطاهم الخمسين التى وعدهم بها فسألوه أن ينقصهم عشرة عشرة ، لما تشاءموا به من على بن هشام حين أعطاهم الخمسين وقطع العطاء عنهم ، فقال حميد : لا ، بل أزيدكم عشرة ، فلما بلغ ذلك ابراهيم دعا عيسى وسأله أن يقاتل حميدا ، فأجابه إلى ذلك فخلّى سبيله ، وكلّم عيسى الجند ووعدهم أن يعطيهم مثل ما أعطاهم حميد فأبوا ذلك ، فعبر إليهم عيسى وقواد الجانب الشرقى ، ووعد أولئك الجند أن يزيدهم على الستين فشتموه ، وقالوا : لا نريد إبراهيم ، فقاتلهم ساعة ثم ألقى نفسه فى وسطهم حتى أخذوه شبه الأسير ، فأخذه بعض قوّاده فأتى به منزله ورجع الباقون إلى ابراهيم ، فأخبروه بالخبر فاغتم لذلك .

---

١) فى الكامل جـ٥ ص ١٩٤ : يصنع وهو تحريف

(٢) - فى الكامل جـ٥ ص ١٩٤ : فلما كان يوم الجمعة أحضر العباس بن محمد بن أبى رجاء الفقيه : ... وهو خطأ من النساخ لأن المؤلف ينقل منه ، ويؤيد الطبرى جـ٧ ص ١٥٢ المخطوطات قال : فلما كان يوم الجمعة بعث عباس إلى محمد بن أبى رجاء الفقيه ....

ذكر اختفاء إبراهيم بن المهدى

كان سبب ذلك أن حميد بن عبد الحميد تحول فنزل عند أرحاء عبد الله بن مالك ، فلما رأى أصحاب إبراهيم وقوّاده ذلك تسللّوا فصار عامّتهم عنده ، فأخرج إبراهيم جميع من بقى عنده فالتقوا واقتتلوا ، فهزمهم حميد وتبعهم أصحابه حتى أدخلوهم بغداد ، وذلك فى سلخ ذى القعدة ، فلما كان الأضحى اختفى الفضل بن الربيع ثم تحوّل إلى حميد ، وجعل الهاشميون والقوّاد يأتون حميدا واحدا بعد واحد ، فلما رأى إبراهيم ذلك سقط فى يده ، وبلغه أن أصحابه يريدون أن يسلموه إليهم فداراهم حتى جنّه الليل ، واختفى ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة ، ولم يزل متواريا حتى ظفر به المأمون فى سنة عشرومائتين على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وكانت أيام إبراهيم سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوماً ، واستقر بعده على بن هشام على شرقى بغداد ، وحميد على غربيّها . نعود إلى بقية حوادث سنة اثنتين ومائتين خلاف أخبار إبراهيم بن المهدى .

ذكر مسير المأمون إلى العراق
وقتل ذى الرئاستين الفضل بن سهل

وفى سنة اثنتين ومائة سار المأمون من مرو إلى العراق ، واستخلف على خراسان غَسَّان بن عبَّاد[1] ، وكان مسيره أن على بن موسى الرضا أخبره ما الناس فيه من الفتنة منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من أخبار الناس وأهل بيته[2] ، وأن الناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون

(١) فى الكامل جـ٥ ص ١٩١ خطأ آخر أورده : غسان بن عبادة ، ويؤيد الطبرى جـ٧ ص ١٥٨ المخطوطات

(٢) أخبار الناس وأهل بيته ساقطة من ص

مسحور مجنون ، وأنهم قد بايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فقال له المأمون : لم يبايعوه بالخلافة وإنما صيّروه أميرا ، يقوم بأمرهم على ما أخبر به الفضل ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه ، وأنّ الحرب قائمة بين الحسن وإبراهيم ، وأن الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه الفضل ومكانى وبيعتك لى من بعدك ، فقال المأمون : ومن يعلم ذلك ؟ فقال : يحيى[1] بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وغيرهم من وجوه العسكر ، فأمر بإدخالهم فدخلوا فسألهم عما أخبر به على بن موسى ، فلم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل أن لا يعرض إليهم ، فضمن لهم ذلك وكتب لهم خطه به ، فأخبروه بما أخبره به على بن موسى ، وأخبروه أن أهل بغداد يسمون إبراهيم الخليفة السنّى ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان على بن موسى ، وأعلموه ما الناس فيه وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما جاءه لينصحه فقتله الفضل ، وأنه إذا لم يتدارك أمره وإلا خرجت الخلافة من يده ، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما يعلمه ، وأخرج من الأمر كله وضعف أمره ، وشغبت عليه جنده ، وأنه لو كان ببغداد ضبط الملك ، وأن الدنيا قد تفتّقت من أطرافها وأقطارها ، وسألوه أن يخرج إلى بغداد فإن أهلها لورأوه أطاعوه ، فلما تحقق ذلك أمر بالرحيل فعلم الفضل بالحال ، فضرب بعضهم وحبس بعضهم ونتف لحى بعضهم ، فذكر على ابن موسى ذلك للمأمون ، فقال : أنا أدارى ، ثم أرتحل ، فلما أتى سرخس وثب قوم بالفضل بن سهل فقتلوه فى الحمام ، وكان قتله لليلتين خلتا من شعبان ، وكان الذين قتلوه أربعة : أحدهم غالب المسعودى الأسود ، وقسطنطين الرومى ، وفَرَج الديلمى ، ومُوَفّق الصقلبى وكان عمره ستين سنة ، وهربوا بعد قتله فجعل المأمون لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار ، فجاء بهم العباس بن الهيثم الدينورى ، فقالوا للمأمون : أنت أمرتنا بقتله ، فأمر

(١) فى ص : على بن معاذ والتصويب عن ف ، ك والكامل جـ٥ ص ١٩١ والطبرى جـ٧ ص ١٤٧

بهم فضربت رقابهم ، ثم أحضر عبد العزيز بن عمران وغيره ، وسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشىء من ذلك ، فلم يقبل منهم وقتلهم وبعث برءوسهم إلى الحسن بن سهل ، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل ، وأنه قد صيّره مكانه ، ورحل المأمون إلى العراق .

وفيها تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، وفيها زوج المأمون ابنته أم حبيب من على بن موسى الرضا ، وحجّ بالناس فى هذه السنة إبراهيم ابن موسى بن جعفر ، ودعا لأخيه بعد المأمون بولاية العهد .

ودخلت سنة ثلاث ومائتين

ذكر وفاة على بن موسى الرضا ولى العهد .

كانت وفاته فى آخر صفر بمدينة طوس ، وكان سبب ذلك أنه أكل عنبا فأكثر منه فمات فجأة ، وصلّى عليه المأمون ودفنه عند قبر أبيه الرشيد ، وقيل إن المأمون سمّه فى عنب ، واستبعد ذلك جماعة وأنكروه . قال : ولما مات كتب المأمون إلى الحسن بن سهل يعلمه بموته ، وما دخل عليه من المصيبة بموته ، وكتب إلى أهل بغداد وبنى العباس والموالى يعلمهم بموته ، وأنهم إنما نقموا بيعته وقد مات ، وسألهم الدخول فى طاعته فأغلظوا له فى الجواب ، وكان مولد على بن موسى بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة .

وحجّ بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن على ، وفيها غلبت السوداء على الحسن بن سهل وتغيّر عقله حتى شُدّ فى الحديد وحبس ، فكتب القواد إلى المأمون بذلك فجعل فى عسكره دينار بن عبد الله .

ودخلت سنة أربع ومائتين

ذكر قدوم المأمون بغداد

فى هذه السنة قدم المأمون بغداد وانقطعت الفتن ، وخرج إليه أهل

بيته والقواد ووجوه الناس ، وكان كتب إلى طاهر وهو بالرقة ليوافيه بالنهروان فأتاه بها ، ودخل بغداد فى منتصف صفر ولباسه ولباس أصحابه الخضرة ، فنزل الرصافة ثم تحوّل فنزل قصره على شاطىء دجلة ، وأمر القواد أن يقيموا فى معسكرهم ، وكان الناس يحرقون كل ملبوس يرونه من السواد على إنسان ، فمكثوا ثمانية أيام كذلك ، فتكلم بنو العباس وقواد خراسان ، فقيل إنه أمر طاهر بن الحسين أن يسأل حوائجه ، فكان أول حاجة سألها أن يلبس السواد ، فأجابه إلى ذلك وجلس المأمون للناس وأحضر سوادا فلبسه ، ودعا بخلعة سوداء فألبسها طاهرا ، وخلع على قوّاده السواد ، وذلك لسبع بقين من صفر منها .

وفى هذه السنة أمر المأمون بمقاسمة أهل السواد على الخُمْسين ، وكانوا يقاسمون على النصف . وحجّ بالناس فى هذه السنة عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب[1] ، وأستعمله المأمون على الحرمين ، وفى هذه السنة أعنى سنة أربع ومائتين مات الإمام محمد بن إدريس الشافعى بمصر ، ومولده سنة خمسين ومائة رحمه الله ورضى عنه .

ودخلت سنة خمس ومائتين

ذكر ولاية طاهر بن الحسين خراسان

فى هذه السنة استعمل المأمون طاهر بن الحسين على المشرق — من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق ، وكان قبل ذلك يتولى الشرط بجانبى بغداد ، فشخص طاهر من يومه وذلك لليلة بقيت من ذى القعدة ، وقدم

(١) فى ف ، ك : عبد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب ، وفى الكامل جـ٥ ص ١٩٦ : عبيد الله بن الحسين ألخ ، وذكر فى ص صحيحا وموافقا للطبرى جـ٧ ص ١٥٦ وتصحح المخطوطات الاسم فى سنة ٢٠٥ هـ . ومما جدير بالذكر أن المؤلف ينقل عن الكامل لابن الأثير الذى يأخذ عن الطبرى فالخطأ اذن من النساخ .

طاهر البلد فأقام شهرا فحمل إليه عشرة آلاف ألف درهم التى تحمل لصاحب خراسان ، وجعل المأمون على الشرط عبد الله بن طاهر بعد أبيه وحجّ بالناس عبيد الله العلوى .

ودخلت سنة ست ومائتين

ذكر ولاية عبد الله بن طاهر الرَّقَّة وغيرها

فى هذه السنة ولّى المأمون عبد الله بن طاهر من الرقة إلى مصر ، وأمره بحرب نصر بن شبث ، وقال له : يا عبد الله إنى استخير الله منذ شهر وأكثر وأرجو أن يكون قد خار لى ، وقد ولّيتك هذه الأعمال ومحاربة نصر بن شَبَث ، فقال : السمع والطاعة ، وأرجو أن يجعل الله لأمير المؤمنين الخيرة وللمسلمين ، فعقد له ، وقيل كانت ولايته سنة خمس ومائتين . ولما سار استخلف على الشرط إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب – وهو ابن عمه ، وسار عبد الله إلى عمله . وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وحجّ بالناس عبيد الله العلوى .

ودخلت سنة سبع ومائتين

فى هذه السنة خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ببلاد عَكّ من اليمن ، يدعو إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان سبب خروجه أن عمّال اليمن أساءوا السيرة فى الناس ، فبايعوا عبد الرحمن فوجّه المأمون إليه دينار بن عبد الله فى جيش كثيف ، وكتب معه بأمانه . فحضر دينار الموسم وحجّ بالناس . ثم سار إلى اليمن فبعث إلى عبد الرحمن بأمانه فقبله . ودخل فى طاعة المأمون ووضع يده فى يد دينار . فخرج به إلى المأمون . فمنع المأمون[1] عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه ، وأمرهم بلبس السواد .

(١) سقط من ص

ذكر وفاة طاهر بن الحسين أمير خراسان واستعمال ابنه طلحة

كانت وفاته فى جمادى الأولى من هذه السنة ، قال كُلثوم بن ثابت بن أبى سعيد[١] : كنت على بريد خراسان ، فلما كان فى سنة سبع ومائتين حضرت الجمعة ، فصعد طاهر المنبر فلما بلغ ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له ، وقال : اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أولياءك ، واكفها مؤونة من بغى عليها وحشد فيها[٢] ، بلمّ الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين ، قال : فقلت فى نفسى أنا أول مقتول لأنى لا أكتم الخبر ، فانصرفت فاغتسلت غسل الموتى وتكفّنت ، وكتبت إلى المأمون . فلما كان العصر دعانى طاهر ، وحدث به حادث فى جفن عينيه فسقط ميتا ، فخرج إلىّ ابنه طلحة فقال : هل كتبت بما كان ؟ قلت : نعم ، قال : فاكتب بوفاته وبقيام طلحة بأمر الجيش[٣] ، فوردت الخريطة على المأمون بخلعه ، فدعا أحمد بن أبى خالد فقال : سر فإيت بطاهر - كما زعمت وضمنت ، وكان هو قد أشار على المأمون بولاية طاهر خراسان وضمنه ، فقال : يا أمير المؤمنين أبيت الليلة ، قال : لا ، فلم يزل به حتى أذن له فى المبيت . ووافت الخريطة الأخرى ليلا بموته ، فدعاه فقال : قد مات طاهر فمن ترى ؟ قال : ابنه طلحة ، قال : اكتب بتوليته فكتب بذلك ؛ ولما ورد الخبر بموت طاهر قال المأمون : لليدين والفم . الحمد لله الذى قَدّمه وأخّرنا . وكان طاهر أعور وفيه يقول بعضهم :

ياذا اليمينين وعين واحده نقصان عين ويمين زائده

وكان لقبه ذا اليمينين وكنيته أبا الطيب . وقيل إن المأمون استعمل على

(١) يقول هذا نقلا عن الكامل لابن الأثير جـ٥ ص٢٠٤

(٢) فى الكامل جـ٥ ص٢٠٤ : من بغى علينا وحشد فيها : والطبرى جـ٧ ص١٦٩ من بغى فيها وحشد عليها

(٣) هكذا فى ص والكامل جـ٥ ص٢٠٤ . وفى ف . ك : الجيوش

أعمال طاهر ابنه عبد الله ، فسيّر إلى خراسان أخاه طلحة ، وكان عبد الله بالرقة يحارب ابن شبث ، فلما وجّه طلحة إلى خراسان سيّر المأمون إليه أحمد ابن أبى خالد ليقوم بأمره ، فعبر أحمد إلى ما وراء النهر وافتتح أُشْرُوسَنَة ، وأسر كَاوُس بن خَارْخَرَه[1] وابنه الفضل وبعث بهما الى المأمون ، ووهب طلحة لأحمد بن أبى خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعروضا بألفى ألف درهم ، ووهب لإبراهيم بن العباس كاتبه خمسمائة ألف .

وحج بالناس فى السنة أبو عيسى بن الرشيد .

ودخلت سنة ثمان ومائتين

فى هذه السنة سار الحسن بن الحسين بن مصعب من خراسان إلى كرمان فعصى بها ، فسار إليه أحمد بن أبى خالد فأخذه ، وأتى به المأمون فعفا عنه ، وحجّ بالناس فى هذه السنة صالح بن الرشيد .

ودخلت سنة تسع ومائتين .

فى هذه السنة حصل الظفر بنصر بن شبث ، وقد قدمناه فى أخباره . وحجّ بالناس صالح بن العباس بن محمد بن على

ودخلت سنة عشر ومائتين .

فى هذه السنة ظفر المأمون إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة ومحمد بن إبراهيم الأفريقى ومالك بن شاهى ومن كان معهم ممن سعى فى بيعة إبراهيم بن المهدى . فأقيم ابن عائشة على باب دار المأمون ثلاثة أيام فى الشمس . ثم ضربه بالسياط وحبسه . وضرب مالك بن شاهى وأصحابهما . ثم قتل ابن عائشة وابن شاهى ورجلين

(١) فى المخطوطات حان خره . وفى الكامل جـ٥ ص٢٠٥ : صار خره . ويظهر أنها تحريف كما يدل على ذلك رسم الكلمة فى المخطوطات والتصويب عن الطبرى جـ٧ ص١٧٠

من أصحابها صبرا ، وصلب ابن عائشة – وهو أول عباسى صلب فى الإسلام ، ثم أنزل وكفّن وصلى عليه ودفن بمقابر قريش .

ذكر ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدى

فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر أخذ إبراهيم بن المهدى ، وهو متنقّب فى زى امرأة بين امرأتين ، أخذه حارس أسود ليلا وقال له ولهنّ : أين تردن فى هذا الوقت ؟! فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت كان فى يده ، فاستراب منه الحارس ورفعهن إلى صاحب المسلحة[1] ، فأمرهنّ أن يسفرن عن وجوههنّ ، فامتنع إبراهيم فجذبه فبدت لحيته ، فدفعه إلى صاحب الجسر فعرفه ، فذهب به إلى باب المأمون وأعلمه به ، فأمره بالاحتفاظ به إلى باكر النهار ، فلما كان الغد أقعد إبراهيم فى دار المأمون . والمقنعة فى عنقه والملحفة على صدره ليراه بنو هاشم والناس ، ويعلموا كيف أخذ ، ثم حوّله إلى أحمد بن أبى خالد فحبسه عنده ، ثم شفع فيه الحسن بن سهل – وقيل ابنته بوران لما بنى بها المأمون . وقيل إن إبراهيم لما أخذ حمل إلى دار أبى إسحاق المعتصم ، وكان المعتصم عند المأمون فحمل رديفا لفرج[2] التركى ، فلما دخل على المأمون قال له : هيه يا إبراهيم ، فقال : يا أمير المؤمنين ولىّ الثأر محكّم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الأغترار – بما مدّ له من أسباب الشقاء – أمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك ، فقال : بل أعفو يا إبراهيم ، فكبّر وسجد . وقيل بل كتب إبراهيم هذا الكلام إلى المأمون وهو مختف ، فوقّع المأمون فى رقعته : القدرة تذهب الحفيظة والندم توبة وبينهما عفو الله عزّ وجلّ ، وهو أكبر ما نسأله[3] ، فامتدحه إبراهيم بن المهدى بقصيدته التى هى :

(١) فى المخطوطات : المصلحة والتصويب عن الكامل جـ٥ ص٢٠٩
(٢) بالحاء فى المخطوطات والكامل جـ٥ ص٢٠٩ والتصويب عن الطبرى جـ٧ ص١٧٦
(٣) فى الكامل جـ٥ ص٢٠٩ : يسأله وهو تحريف

يا خير من رفلت[1] يمانيه به ... بعد النبي[2] لآيس أو طامع[3]
وأبرّ من عبد الإله على التقى[4] ... غيا[5] وأقوله[6] بحق صادع
عسل الفوارع ما أُطِعت فإن نُهِجْ ... فالصاب يمزج بالسمام الناقع
متيقظا حذرا وما تخشى العدى ... نيهان من وسنان[7] ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة ... وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبي وأمّي فدية وبنيهما[8] ... من كل معضلة وريب[9] واقع

منها :

نفسي فداؤك إذ تضل معاذري ... وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملا لفضلك والفواضل شيمة[10] ... دفعت بناءك للمحل اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله ... وسعُ النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعدما ... ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا ... وعويل عانسة[11] كقوس النازع[12]
الله يعلم ما أقول فإنّها[13] ... جهد الألية من حنيف راكع

---

(١) دعلت في الطبري جـ٧ ص١٧٦ والأغاني جـ١٠ ص١١٧ (ط . دار الكتب)
(٢) الرسول : الطبري جـ٧ ص ١٧٦ والأغاني جـ١٠ ص١١٦ (ط . دار الكتب)
(٣) طامع : الكامل جـ٥ ص٢٠٩ . ولطامع : الطبري جـ٧ ص١٧٦
(٤) الهوى : الأغاني جـ١٠ ص١١٧
(٥) عيا : الطبري جـ٧ ص١٧٦ . نفسا : الأغاني جـ١٠ ص١١٧
(٦) وأحكمه : الأغاني جـ١٠ ص ١١٧
(٧) وسنات : الطبري جـ٧ ص ١٧٦ والأغاني جـ١٠ ص١١٧
(٨) وأبيها : الكامل جـ٥ ص٢١٠
(٩) ذنب : الكامل جـ٥ ص٢١٠
(١٠) في المخطوطات : شبة وهو تحريف
(١١) في المخطوطات : عائشة
(١٢) بعد هذا البيت في الكامل جـ٥ ص٢١٠ :
وعطفت آمرة عليّ كما وهي ... بعد انبياض الوفي عظم الفالج
وهذا البيت موجود في الطبري جـ٧ ص١٧٧ باختلاف في لفظين ولم تورده المخطوطات رغم اتباعها ترتيب الكامل
(١٣) في الكامل جـ٥ ص٢١٠ : كأنها

ما إن عصيتك والغواة تقودنى[١] أسبابها إلا بنيّة طائع
حتى إذا علقت[٢] حبائل شقوتى بردّى إلى حفر المهالك هائع
لم أدر أن لمثل جرمى غافرا فوقفت أنظر[٣] أى حتف مصارعى[٤]
ردّ الحياة علىّ بعد ذهابها ورع الإمام القادر[٥] المتواضع

ومنها :

كم من يد لك لم[٦] تحدثنى بها نفسى إذا آلت إلىّ مطامعى
أسديتها عفوًا إلىّ هنيئة وشكرت مصطنعا لأكرم صانع
إنّ الذى قسم الخلافة حازها من صلب آدم فى الإمام[٧] السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها وحوى رداؤك كل خير جامع

قال: فلما أنشدها قال المأمون : أقول كما قال يوسف لإخوته ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[٨] ﴾

وروى أبو الفرج الأصفهانى بسنده عن محمد بن عمرو الأنبارى قال[٩] : لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدى أحب أن يوبّخه على رءوس الناس ، فجئ بإبراهيم يحجل فى قيوده ، فوقف على طرف الإيوان وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لا سلّم الله عليك ولا حفظك ولا كلأك ولا رعاك يا إبراهيم ، فقال له : على رسلك يا أمير المؤمنين ، فلقد أصبحت ولىّ ثأرى ، والقدرة تذهب الحفيظة ، ومن مدّ له الأغترار فى الأمل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبى فوق

(١) فى الأغانى جـ١٠ ص١١٧ تمدّنى
(٢) فى المخطوطات : عطفت
(٣) الأغانى جـ١٠ ص١١٧ : أرقب
(٤) فى الكامل جـ٥ ص٢١٠ والطبرى جـ٧ ص ١٧٧ : صارعى
(٥) الأغانى جـ١٠ص١١٧ (دار الكتب) القاهر
(٦) الأغانى جـ١٠ ص١١٧ (ط . دار الكتب) لا
(٧) فى الكامل جـ٥ ص٢١٠ والطبرى جـ٧ ص ١٧٧ والأغانى جـ١٠ ص ١١٧ : للأمام
(٨) سورة يوسف آية ٩٢
(٩) وردت هذه القصة بنصها فى الأغانى جـ١٠ ص١١٦ - ص١١٩ (ط. دار الكتب)

كل ذى ذنب ، كما أن عفوك فوق كل ذى[١] عفو . ومن رواية أخرى أنه قال : وقد أصبحت فوق كل ذى ذنب ، كما أصبح كل ذى عفو دونك ، فإن عاقبت[٢] فبحقك وإن تعف فبفضلك ، قال : فأطرق مليا ثم رفع رأسه فقال : إن هذين أشارا علىّ بقتلك ، فالتفت فإذا العباس بن المأمون والمعتصم ، فقال : يا أمير المؤمنين أما حقيقة الرأى فى معظم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به ، وما غشّاك إذ كان منّى ما كان ، ولكنّ الله عوّدك من العفو عادة جريت عليها ، دافعا ما تخاف بما ترجو ، فكفاك الله يا أمير المؤمنين ، فتبسّم المأمون ثم أقبل على ثُمامَة فقال : إن من الكلام ما يفوق الدر ويغلب السحر ، وإنّ كلام عمى منه ، أطلقوا[٣] حديده وردّوه إلىّ مكرّما ، فلما ردّ إليه قال : يا عم ، صر إلى المنادمة وارجع إلى الأنس ، فلن ترى منى أبدا إلا ما تحب ، فلما كان من الغد بعث إليه بدرج فيه هذه القصيدة التى تقدّم ذكرها ، لكن اختصرها أبو الفرج فذكر بعضها ، فلما قرأها المأمون بكى وقال علىّ به[٤] فخلع عليه[٥] ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، ودعا بالفرّاش فقال له : إذا رأيت عمى مقبلا فاطرح له متكأً ، وكان ينادمه لا ينكر منه شيئا . قال أبو الفرج : ورُوى بعض هذا الخبر عن محمد بن الفضل الهاشمى ، فقال فيه : لما فرغ المأمون من خطابه دفعه إلى ابن أبى خالد الأحوَل ، وقال : هذا صديقك فخذه إليك ، قال : وما تغنى صداقتى عنه وأمير المؤمنين ساخط عليه ، أما إنى – وإن كنت صديقا له – لا أمتنع عن قول الحق فيه ، قال له : قل فإنك غير متّهم ، فقال – وهو يريد التسلّق على العفو عنه : إن قتلته فقد قتلت الملوك قبلك أقل جرما منه وإن عفوت عنه عفوت عمن لم يُعف قبلك عن مثله ،

(١) غير موجودة بالأغانى جـ١٠ ص ١١٦ (دار الكتب)
(٢) تعاقب : فى المصدر السابق
(٣) فى المصدر السابق : أطلقوا عن عمى
(٤) يزيد المصدر السابق ص١١٨ : فأتى به
(٥) يزيد المصدر السابق : وحمله

فسكت[١] المأمون ساعة ثم تمثل[٢]

قومى همُ قتلوا أميمَ أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفونْ جللا ولئن سطوت لأوهننْ عظمى

خذه إليك يا أحمد مكرّما . فانصرف به ثم كتب إلى المأمون قصيدته المذكورة . فلما قرأها رق له وأمر بردّه إلى منزله ، وردّ ما قبض من أملاكه وماله . وفى خبر عن أبى داود أن المأمون تقدّم إلى محمد بن يزداد[٣] – لما أطلق إبراهيم – أن يمنعه من دارىْ الخاصة والعامة ، ووكل به رجلا من قبله يثق به ليعرفه أخباره وما يتكلّم به ، فكتب إليه الموكل أن إبراهيم – لما بلغه المنع من دارى الخاصة والعامة – تمثّل :

يا سرحة الماء قد سدت مواردها[٤] أما إليك طريقٌ غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيام به مُحَلَّإٌ عن طريق الماء مِردود[٥]

فلما قرأها المأمون بكىْ وأمر باحضاره من وقته مكرّما ، وأنزله فى مرتبته . فلما دخل على المأمون قبّل البساط وقال :

البِرّ[٦] بى منك وطّا العذر عندك لى دون اعتذارى فلم تعذر[٧] ولم تلم
وقام علمك بى فاحتجّ عندك لى مقام شاهد عدلٍ غير متّهم
رددت مالى ولم تمنن علىّ به وقبل ردّك مالى قد[٨] حقنت دمى

(١) فى المخطوطات : فنكث
(٢) فى المخطوطات : بيده
(٣) الأغانى جـ١٠ ص١١٨ (دار الكتب) مزداد وفى المخطوطات : يزداد ومما يرجح صحة نقل المخطوطات أنها ذكرته مرة أخرى فى فصل صفة المأمون وأخباره بهذا الرسم وذكره أيضا الكامل جـ٥ ص٢٢٨ كالمخطوطات : يزداد
(٤) فى الأغانى جـ١٠ ص١١٨ : موارده
(٥) فى المصدر السابق : مطرود
(٦) ساقطة من المخطوطات والتصويب عن الأغانى جـ١٠ ص ١١٩ (دار الكتب)
(٧) فى الأغانى جـ١٠ ص١١٩ : تعذل
(٨) فى المخطوطات : ما والتصويب عن الأغانى جـ١٠ ص١١٩

فبؤتُ منك وقد كافأتها بيدٍ هى الحياتان من موت ومن عدم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به فلا عدمناك من عارف ومنتقم

فقال : اجلس ياعم آمناً مطمئنًا . فلن ترى أبدا منّى ما تكرهه ، إلا أن تحدث حدثا أو تتغير عن طاعة ، وأرجو ألا يكون ذلك إن شاء الله تعالى . وروى الفضل بن مروان قال[1] : لمّا دخل إبراهيم بن المهدى على المأمون – لما ظفر به – كلّمه بكلام ، كان سعيد بن العاص كلّم به معاوية بن أبى سفيان فى سخطة سخطها عليه واستعطفه به ، وكان المأمون يحفظ الكلام فقال المأمون : هيهات ياإبراهيم ، هذا كلام سبقك به فحل بنى أميّة وقارحهم سعيد بن العاص وخطب به معاوية بن أبى سفيان ، فقال له إبراهيم : يا أمير المؤمنين – وأنت أيضا إن عفوت فقد سبقك فحل بنى حرب وقارحهم إلى العفو ، فلا تكن حالى عندك فى ذلك أبعد من حال سعيد عند معاوية ، فإنك أشرف منه وأنا اشرف من سعيد ، وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية ، وإنّ أعظم الهجنة تسبق أميّة هشاما إلى مكرمة فقال له : صدقت ياعم قد عفوت عنك .

ذكر بناء المأمون ببُورَان ابنة الحسن بن سهل

فى هذه السنة بنى المأمون بها فى شهر رمضان ، وكان المأمون قد سار من بغداد إلى فَمِ الصُّلح إلى معسكرِ الحسن ، فنزله وزفت إليه بوران ، فلما دخل إليها المأمون كان عندها حَمْدُونَة بنت الرشيد وأم جعفر زُبَيْدة والدة الأمين وجدّتها – أم الفضل وام الحسن ابنى سهل ، فلما دخل نثرت عليه جدّتها ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون . فأمر المأمون بجمعه وأعطاه لبوران ، وقال : سلى حاجتكِ فأمْسَكَتْ . فقالت جدّتها : سلى سيدك فقد أمرك ، سألته الرضا عن إبراهيم بن المهدى ، فقال : قد فعلت . وسألته الإذن لأم

(١) هذه القصة وردت فى الأغانى حـ١٠ ص١٢٤ (دار الكتب)

جعفر فى الحج فأذن لها ، وألبستها أم جعفر البدنة[١] اللؤلؤ الأموية . وأوقد المأمون فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منا . وأقام المأمون عند الحسن سبعة عشر يوما ، يعدّ له كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه . وخلع الحسن على القوّاد على مراتبهم وحملهم ووصلهم ، وكتب الحسن أسماء ضياعه ونثرها . وحكى عبد الملك بن عبد الله بن عبدون[٢] الحضرمى الشبلى ، فى كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرر ، قال حكى إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلى قال[٣] : قال لى المأمون يوماً : هذا يوم سرور . ثم قال للغلمان : خذوا علينا الباب واحضروا بالشراب ، فبقينا بقية يومنا فى أنس وشرب ، فلما كان الليل قال لى : ياإسحاق إنى أريد الصَّبُوح . فكن بمكانك حتى أدخل إلى الحرم وأخرج إليك . فأستبطأت خروجه فقلت : اشتغل وغلب عليه النبيذ ونسينى ، وكانت عندى جارية بكر كنت اشتريتها فتطلعت لها نفسى ، فنهضت فقال لى العبد : قد انصرف عبدك بدابتك . فمشيت فلما صرت ببعض الطريق أحسست بالبول ، فعدلت عن الطريق وقضيت حاجتى ، فلما أردت أن أستجمر عدلت إلى حائط . وإذا بزنبيل كبير معلّق ، قد ألبس بالديباج وفيه أربعة أحبل من الابريسم . فقلت : إنّ له لأمرا ، ثم تجاسرت وجلست فيه[٤] فجذب . وإذا أربع جوار يقلن بالسعة[٥] : أصديق أم جديد ؟ فقلت جديد . فسارت احداهن بين يدى حتى أدخلتنى إلى مجلس لم أر مثله ، فجلست فى أدنى مجالسه ، واذا بوصائف بأيديهن[٦] الشمع والمجامر يتبخّر فيها العود ، وبينهنّ جارية كالبدر

(١) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص١٧٨ وفى الكامل حـ٥ ص٢١١ : البدلة اللؤلؤية

(٢) ظهر هذا الاسم فى شرح البسّامة على كمامة الزهر طبع القاهرة ١٣٤٠هـ : بدرون . وهو فى مختلف المخطوطات كما أورده المؤلف النويرى عبدون ، لذلك أثبتناه كما نقله النويرى .

(٣) القصة فى كمامة الزهر (ط . القاهرة ١٣٤٠هـ) من ص ٢٦٥ الى ص٢٧٠

(٤) يزيد المصدر السابق ص٢٦٦ : فلما أُحسّ بثقله جذب

(٥) فى المصدر السابق ص٢٦٦ بالرحب والسعة

(٦) فى المخطوطات : فى أيديهنّ

الطالع ذات دلّ وشكل ، فنهضت لدخولها فقالت مرحبا بالضيف ، [وسألتنى عن دخولى[1]] ، فقلت : عن غيرما قصد ، قالت فما السبب ؟ قلت انصرفت من عند بعض أصحابى فلما رأيت الزنبيل حملنى النبيذ على الدخول فيه ، قالت : فما صناعتك ؟ قلت : بزّاز ، قالت : ومولدك ؟ قلت : بغداد ، قالت : من أى الناس ؟ قلت : من أوسطهم ، قالت : حيّاك الله ، هل رويت من الأشعار شيئا ؟ قلت : شئ ضعيف ، قالت : فذاكرنى ، قلت : إن للداخل دهشة ، ولكن ابدأينى فالشئ بالمذاكرة ، قالت : هل تحفظ قصيدة فلان التى يقول فيها كذا وكذا ، فأنشدتنى لجماعة من الشعراء القدماء والمحدثين ، وأنا مستمع أنظر من أى أحوالها أعجب : من حسنها أو من حسن إنشادها أو من حسن أدبها أو ضبطها للغريب من النحو واللغة !! ثم قالت : قد ذهب عنك بعض الحصر ، قلت : إن شاء الله لقد كان ذلك ، قالت : فأنشدنى ، فأنشدتها فجعلت تسألنى عن أشياء تمرّ فى الشعر كالمختبرة ، ثم قالت : والله ما قصّرتَ ولا توهمتُ أن فيك هذا !! ولا رأيت فى أبناء التجار مثلك ! فكيف معرفتك بالأخبار وأيام الناس ؟! قلت : نظرت فى شئ من ذلك ، فأمرت بإحضار الطعام فأكلنا ، ثم أحضرت نبيذا فشربت قدحا ، وقالت : هذا أوان المذاكرة ، فاندفعت وقلت : بلغنى كذا وكذا ، وكان رجل من قصّته كذا وكذا ، فسرّت بذلك ، وقالت : ليس هذا من أمر التجار ، وإنما هى من أحاديث الملوك ، قلت : إنه كان لى جار ينادم بعض الملوك فكنت أدعوه فى بعض الأوقات إلى منزلى ، فما تسمعين منّى فمن عنده أخذته ، قالت : يمكن هذا !! ثم قالت : لو كان عندك شئ واحد لكنت كاملا ! فحرك بعض الملاهى أو ترنّم ، قلت : لا أحسن من هذا شيئا على أنى مولع بسماعه ، فقالت : يا جارية – عودى ، فضربت فأحسنت وغنّت غناء

(١) هذه الجملة ساقطة من المخطوطات وواضح أنها سهو من المؤلف

بديعاً ، ثم قالت : هذا الغناء لإسحاق ، فلم تزل على ذلك حتى إذا كان عند الفجر قالت : المجالس بالأمانات ، ثم أُخذت وأُخرجت إلى باب صغير ، فانتهيت إلى دارى فأرسل المأمون إلىّ فمشيت إليه ، وبقيت عنده إلى وقت البارحة ودخل إلى حرمه ، فخرجت إلى ذلك الموضع ودخلت الزنبيل ، فقالت : ضيفنا !! قلت : منوا بالصفح ، قالت : فعلنا ولا تعد ، فلما كان عند الصباح فعلت فعلة البارحة ، وخرجت فأتيت المأمون ، فقال : أين كنت !! فاعتذرت إليه ، فلما كان الليل صنع صنعه وصنعت كذلك ، فلما دخلت فى الزنبيل قالت : ضيفنا !! قلت : اى ها الله !! ، قالت : أجعلتها دار مقام !! قلت : الضيافة ثلاث فإن رجعت فأنت من دمى فى حلّ ، فلما كان عند الوقت أفكرت فى المأمون ، وعلمت أنهّ لا يخلصنى منه إلا أن أخبره ، وعلمت من شغفه بالنساء أنه يطالبنى بالمشى إليها ، فقلت : جعلت فداك ـ أتأذنين فى ذكر شئ حضر ؟ قالت : قل ، قلت : أراك ممّن يحب الغناء و يشغف بالأدب ، ولى ابن عم هو من أهل الشعر[1] والأدب والغناء ، هو أعرف خلق الله بغناء إسحاق ، الذى سمعتك تثنين عليه ، فقالت : طفيلى ويقترح ، قلت : إنما ذكرت ذلك لك وأنت المحكّمة ، قالت : فإذا كان كما ذكرت فما نكره أن نعرفه ، قلت : فالليلة ، قالت : نعم ، ثم انصرفت على عادتى فلما وصلت دارى أتانى رسول المأمون ، فمشيت إليه وهو حنق علىّ ، فقال : يا إسحاق آمرك بشئ فلا تقف عنده ، وكان لا يدخل إلى حرمه حتى يأمرنى بانتظاره ، فأتذكّر مجالسة الجارية فأنسى عقوبته ، فقلت : لى قصّة أحتاج فيها إلى خلوة ، فأومأ بيده إلى من كان واقفا فتنحّوا ، فذكرت له القصة فلما فرغت من كلامى قال : كيف لى بمشاهدة ذلك الموضع ؟ قلت : قد علمت أنك تطالبنى بهذا ، وقد قلت لها لى ابن عم من صنعته ومن حديثه ، ثم جلسنا على عادتنا فى الأيام الخوالى ـ

(١) فى كمامة الزهر ص ٢٦٨ : الحسن

وهو يسألنى عن حديثها ، فلما جاء الليل صرنا[١] إلى ذلك الموضع ، فألفينا فيه زنبيلين فدخل فى واحد ودخلتُ فى الآخر ، فلما صرنا فى البيت جلست فى صدره ، وجلس المأمون دونى ، فلما أتت قالت : حيّا الله ضيفينا بالسلام ، ثم رفعت مجلسه وقالت : هذا ضيف وأنت من أهل البيت ، ولكل جديد لذّة ، فجلس المأمون فى صدر البيت وأقبلت عليه تحدثه ، وهو يأخذ معها فى كل فن فيسكتها ، فالتفتت إلىّ وقالت : وفّيت بوعدك ، ثم أحضرت النبيذ وجعلنا نشرب وهى مقبلة عليه ، ثم قالت : وابن عمك هذا من أولاد التجار ؟ ! إنّ حديثكما وأدبكما لمن أدب[٢] الملوك ، وليس للتجار هذه المنزلة فى الأحاديث والآداب ، ثم قالت لى : موعدك ؟ قلت : إنه ليجيب[٣] ولكن حتى يسمع شيئا ، فأخذت العود وغنّت فشربنا عليه رطلا ثم ثانيا وثالثا ، فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال ارتاح وطرب ، وكان الصوت الثالث ما يقترحه[٤] علىّ أبدا ، فلما سمعه نظر إلىّ نظر الأسد إلى فريسته ، وقال لى : يا إسحاق غنّ لى هذا الصوت ، فلما رأتنى وقفت بين يديه علمت أنهّ المأمون وأنّنى إسحاق ، فنهضت[٥] فقال لها : هاهنا وأومأ إلى كلّة مضروبة فدخلتها ، فلما فرغت من ذلك الصوت قال : يا إسحاق : انظر من صاحب هذه الدار ؟ فسألت عجوز فقالت الحسن بن سهل وهذه ابنته بوران ، فرجعت فأعلمته فقال : علىّ به الساعة فأحضرته فوقف بين يديه فقال : لك بنت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : زوجنيها ، قال هى أمتك وأمرها إليك ، قال : فإنى أتزوّجها على ثلاثين ألفا نحملها إليك صبيحة غد ، فإذا وصل إليك المال فاحملها إلينا ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم

(١) فى كمامة الزهر ص ٢٦٩ : سرنا
(٢) فى المصدر السابق ص ٢٦٩ : حديث
(٣) فى المصدر السابق ص ٢٦٩ : ليحب وهو تحريف
(٤) هذه العبارة فى كمامة الزهر ص ٢٦٩ : ... وكان الصوت الثالث مما يقترحه علىّ أبدا المأمون . فلما سمعه – وقد داخله السكر – نظر الى نظر الأسد ..
(٥) ساقطة من المخطوطات

نهض وفتح الباب وخرجنا ، فلما صرنا إلى الدار قال لى : يا إسحاق لا يقفنّ أحد على ما وقفت عليه فإن المجالس بالأمانات ، فقلت : يا أمير المؤمنين - ومثلى يحتاج إلى وصيّة ! قال : فلما أصبحنا أمر بحمل المال إليه ، ونقلت إليه من يومها ، قال إسحاق فما فُهت بالخبر إلا بعد موت المأمون .

قال ابن عبدون[١] : وذكر أنّه لما أراد أن يعرس بها أمر بإخراج الفساطيط والقباب[٢] ، وأن تضرب على ضفّة دجلة فى موضع منخفض ، وخرج وجوه الناس لحضور ذلك وعامّة الناس للتنزه ، وكانت النفقة من عند الحسن بن سهل على كل من حضر . قال : وكان عدد الملاحين منهم خاصة أرباب الزلاليات والزواريق وماشاكلها - الذين يحملون الناس فى مراكبهم إلى موضع العرس - عشرة آلاف[٣] ، ويقال إنّه لما بسطت القبّة التى دخل فيها المأمون على بوران خيّر الحسن الخاصة - ممّن حضر ذلك العرس - بين مائة دينار وحلّة أو قبضة من أرض تلك القبّة ، فيقال إن القابض بكفّه من أرض القبّة كان أرجح ممن أخذ مائة دينار وحلّة ، فإنه ربما كان يخرج من قبضته حجر ياقوت أو حجر زمرّد أو درّة نفيسة تساوى أضعاف ذلك القدر .

ذكر مسير عبد الله بن طاهر إلى مصر وفتحها وفتح الإسكندرية

وفى سنة عشر ومائتين سار عبد الله بن طاهر إلى مصر وافتتحها ، واستأمن له عُبيد الله[٤] بن السَّرِى ، وكان سبب مسيره أن عبيد الله بن السرى كان قد تغلّب على مصر وخلع الطاعة ، وخرج جمع من الأندلس

(١) راجع كمامة الزهر (شرح البسامة) ص ٢٧٠ (ط . القاهرة ١٣٤٠هـ)
(٢) فى المصدر السابق ص٢٧٠ : الأبنية
(٣) فى المصدر السابق ص٢٧٠ : نيّف على عشرة آلاف ملاح سوى سواد الناس
(٤) فى المخطوطات : عبد الله وكذلك فى الكامل جـ٥ ص٢١١ إلا أنها فى غزو مصر ذكراه عبيد الله والتصويب عن الطبرى حـ٧ ص ١٨٤

فغلبوا على الإسكندرية . واشتغل عبد الله بن طاهر عنهم بحرب نصر بن شَبَث ، فلما فرغ منه سار نحو مصر . فلما قرب منها قَدَّم قائدًا من قوّاده إليها لينظر موضعاً يعسكر فيه . وكان ابن السرى قد خندق على مصر . فاتصل الخبر به فخرج إلى القائد وقاتله قتالاً شديداً . والقائد فى قلة [1] فسيّر بريداً إلى عبد الله بن طاهر يخبره . فحمل عبد الله الرجال على البغال وجنّبوا الخيل ، وأسرعوا السير فلحقوا القائد وهو يقاتل . فلما رأى ابن [2] السّرى ذلك لم يثبت بين أيديهم . وانهزم وتساقط أكثر أصحابه فى الخندق . فهلك منهم بالسقوط أكثر ممّن قتل بالسيف . ودخل ابن السرى مصر وأغلق الباب . وحاصره عبد الله فأرسل اليه فى الليل ألف وصيف ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار . فردّهم ابن طاهر وكتب إليه : لو قبلت هديتك نهارًا لقبلتها ليلا . ﴿ بل أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . ارْجِعْ إِلَيْهِم فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ [3] ﴾ . فعندها طلب ابن السرى الأمان فأمّنه . ثم بعث عبد الله بن طاهر إلى الإسكندرية يؤذن الذين تغلّبوا عليها بالحرب أو الدخول فى الطاعة . وكانوا قد أقبلوا من الأندلس فى مراكب . والناس فى تلك الفتن التى ذكرناها . فأرسوا بالإسكندرية وتغلّبوا عليها . وكان رئيسهم يدعى أبا حَفْص . فلما أتتهم رسالته سألوا الأمان . على أن يرحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم التى ليست من بلاد الإسلام . فأمّنهم على ذلك فرحلوا ونزلوا بجزيرة اِقْرِيطِش . واستوطنوها وأعقبوا وتناسلوا .

قال : وبعث ابن طاهر عبيد الله بن السرى إلى بغداد . فقدمها فى سنة إحدى عشرة ومائتين . وأنزل مدينة المنصور . وأقام ابن طاهر بمصر والياً عليها وعلى الشام وعلى الجزيرة . إلى أن نقل إلى خراسان على ما نذكره

(١) هذه الجملة ساقطة من ص

(٢) ساقطة من ص

(٣) سورة النمل جزء من الآية ٣٦ والآية ٣٧

إن شاء الله تعالى . وروى أبو الفرج الأصفهانى[١] أنّ المأمون أعطى عبد الله ابن طاهر مال مصر لسنة خراجها وضياعها ، فوهبه كله وفرّقه فى الناس . ورجع صفراً من ذلك فغاظ المأمون فعله ، فدخل إليه يوم مقدمه وأنشد أبياتاً قالها فى هذا المعنى يقول منها :

إليك أقبلتُ من أرض أقمتُ بها ... حولين بعدك فى شوق وفى ألم
أقفو مساعيك اللاتى خُصصت بها ... حذو الشراك على مثلٍ من الأدم
وكان فضلى فيها أننى[٢] تبعٌ ... لما سننت من الإنعام والنعمِ
ولو وكلت إلى نفسى غنيت بها ... لكن بدأت فلم أعجز ولم أُلمِ

فضحك المأمون وقال : والله ما نفست عليك بمكرمة نلتها ، ولا أحدوثة حسن عنك ذكرها ، ولكن هذا شئ إذا عوّدته نفسك افتقرت ، ولم تقدر على لمّ شعثك وإصلاح حالك ؛ وزال ما كان فى نفسه . قال[٣] : وكان المال الذى فرّقه عبد الله بن طاهر – وهو على المنبر – ثلاثة آلاف ألف دينار ، أجاز بها قبل نزوله عن المنبر ، قال : معلّى الطائى – وقد بلغه ما صنع عبد الله بن طاهر – فقال : أصلح الله الأمير . أنا معلّى الطائى وقد بلغ منّى ما كان منك إلىّ من جفاء وغلظ ، فلا يغلظنّ على قلبك ، ولا يستخفنّك الذى بلغك ، فأنا الذى أقول :

لو يصبح[٤] النيل يجرى ماؤه ذهبا ... لما أشرت إلى خزن بمثقال
تُغْلى[٥] بما فيه رقُّ الحمد تملكه ... وليس شئٌ أعاض الحمد بالغالى

فى أبيات أخر ، قال : فضحك عبد الله وسرّ بما كان منه . وقال :

(١) راجع الأغانى جـ١٢ ص١٠١ (ط . دار الكتب)
(٢) فى ف ، ك : أن تبعث بها
(٣) راجع الأغانى جـ١٢ ص١٠٢ (ط . دار الكتب)
(٤) فى الأغانى جـ١٢ ص١٠٢ : أصبح
(٥) فى المخطوطات : تعنى

يافلان أقرضنى عشرة آلاف دينار - فما أمسيت أملكها - فأقرضه ، فدفعها إليه .

ذكر خلع أهل قُمّ المأمون
وما كان من أمرهم

فى هذه السنة خلع أهل قمّ المأمون ومنعوا الخراج ، وكان سبب ذلك أن المأمون لما سار من خراسان إلى العراق أقام بالرى عدة أيام ، وأسقط عنهم شيئا من خراجهم ، فطمع أهل قمّ أن يضع عنهم كذلك . فكتبوا إليه يسألونه الحطيطة ، وكان خراجهم ألفى ألف درهم . فلم يجبهم المأمون إلى ما سألوا فامتنعوا من أدائه . فوجّه المأمون إليهم على بن هشام وعُجَيْف بن عَنْبَسَة فحاربوهم فظفروا بهم . وقتل يحيى بن عمران وهدم سور المدينة وجباها على سبعة آلاف ألف درهم . وكانوا يتظلمون من ألفى ألف درهم .

وحج بالناس صالح بن العباس بن محمد أمير مكة .

ودخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

فى هذه السنة قتل السيد بن أَنَس الأَزْدِى أمير الموصل . وسبب قتله أن زُرَيق بن على بن صَدَقَة الأزدى الموصلى كان قد تغلّب على الجبال ما بين الموصل وأذربيجان ، وجرى بينه وبين الرشيد حروب كثيرة . فلما كان فى هذه السنة جمع زُرَيق جمعاً كثيراً ، قيل كانوا أربعين ألفاً . وبعثهم إلى الموصل لحرب السيد فخرج إليهم فى أربعة آلاف . فالتقوا واقتتلوا فحمل السيد بنفسه وكانت عادته ، وحمل عليه رجل من أصحاب زريق ، فقتل كل منهما صاحبه ، ولما بلغ المأمون قتله غضب لذلك . وولّى محمد بن حميد الطوسى حرب زُرَيق وبَابِك الخُرَّمى . واستعمله على الموصل . وفيها قدم عبد الله بن طاهر بغداد . فتلقاه العباس بن المأمون والمعتصم وسائر

الناس . وفيها أمر المأمون منادياً برئت الذمّة ممّن ذكر معاوية بخير أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحجّ بالناس صالح بن العباس وهو أمير مكة .

ودخلت سنة اثنتى عشرة ومائتين

ذكر استيلاء محمد بن حميد على الموصل

قد قدّمنا أن المأمون استعمله على حرب بابك الخُرَّمى ، وأمره أن يجعل طريقه على الموصل ليصلح أمرها ، ويحارب زريق بن على ، فسار إلى الموصل ومعه جيشه ، وجمع فيها الرجال من اليمن وربيعة وسار نحوه ، فالتقوا على الزاب فدعاه محمد إلى الطاعة فامتنع ، فناجزه واقتتلوا فانهزم زريق وأصحابه ، ثم أرسل بطلب الأمان فأمّنه محمد ، فنزل إليه وسيّره إلى المأمون ، وكتب المأمون إلى محمد يأمره بأخذ مالزريق من قرى ورستاق ومال وغيره . يأخذ ذلك لنفسه ، فجمع محمد أولاد زريق وإخوته وأهله وأخبرهم بما أمر به المأمون ، فأطاعوه لذلك ، ثم قال لهم : إن أمير المؤمنين قد أمر لى به ، وقد قبلته ورددته عليكم فشكروه ؛ ثم سار إلى أذربيجان واستخلف على الموصل محمد بن السيد ، وقصد المخالفين المتغلبين على أذربيجان ، فأخذهم وسيّرهم إلى المأمون ، وسار لمحاربة بابك .

وفيها أظهر المأمون القول بخَلْق القرآن ، وتفضيل على بن أبى طالب على جميع الصحابة رضى الله عنهم ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول .

وحجّ بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد .

ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين .

فى هذه السنة ولّى المأمون ابنه العباس الجزيرة والثُّغُور والعَوَاصِم ،

وولّى أخاه أبا إسحاق المعتصم الشام ومصر ، وأمر لكل واحد منهما ولعبد الله ابن طاهر بخمسمائة ألف درهم .

وفيها خلع عبد السلام وابن جَلِيس المأمون بمصر فى القيسية واليمانية ، وظهرا بها ووثبا بعامل المعتصم وهو عُمَيْر[1] بن الوليد البَاذَغِيسى ، فقتلاه فى شهر ربيع الأول سنة أربع عشرة ، فسار المعتصم إلى مصر وقاتلهما فقتلهما وافتتح مصر واستقامت أمورها ، واستعمل عليها عماله .

وحجّ بالنّاس فى هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس .

ودخلت سنة أربع عشرة ومائتين .

فى هذه السنة قتل محمد الطوسى فى حرب بابك ، فلما بلغ خبر قتله المأمون استعمل عبد الله بن طاهر على قتاله .

ذكر استعمال عبد الله بن طاهر على خراسان

فى هذه السنة استعمل المأمون عبد الله بن طاهر على خراسان ، فسار إليها وكان أخوه طلحة مات بخراسان فى سنة ثلاث عشرة ، فولى خراسان على ابن طاهر خليفة لأخيه عبد الله ، وكان عبد الله بالدِّينَور فجهّز العساكر إلى بابك ، فأوقع الخوارج بخراسان بأهل قرية الحمراء من نِيسَابُور ، فأكثروا فيهم القتل فاتصل ذلك بالمأمون ، فأمر عبد الله بالمسير إليها .

وحجّ بالناس فى هذه السنة إسحاق بن العباس بن محمد .

ودخلت سنة خمس عشرة ومائتين

ذكر غَزاة المأمون إلى الروم

فى هذه السنة سار المأمون من بغداد لغزو الروم فى المحرم . واستخلف

(١) أبو عميرة فى المخطوطات والتصويب عن الطبرى جـ٧ ص١٨٩ والولاة والقضاة للكندى (ط. بيروت) ص١٨٥ والنجوم الزاهرة جـ٢ ص٢٠٧ (ط. دار الكتب) ونلفت النظر إلى أن هذا الاسم محرف أيضا فى الكامل جـ٥ ص٢١٦ .

على بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب ، وولاه مع ذلك السواد وحُلْوان وكوردجلة . وسار المأمون على طريق الموصل إلى مَنْبِج ، ثم إلى دَابق ثم إلى أَنْطَاكِيَة ثم إلى المَصِّيصَة وطَرَسُوس ، ودخل منها إلى بلاد الروم فى جمادى الأولى ، ودخل ابنه العباس من مَلَطْيَة ، فأقام المأمون على حصن قُرَّة حتى افتتحه عنوة وهدمه لأربع بقين من جمادى الأولى ، وقيل إنه فتحه بالأمان ، وفتح قبله حصن ماجدة بالأمان ، ووجّه إِشْنَاس إلى حصن سُنْدُس فأتاه برئيسه ، ووجّه عُجَيْفا وجعفرا الخيّاط إلى حصن سِنَان[1] فسمع وأطاع ، وتوجّه المأمون بعد خروجه من بلاد الروم إلى دمشق .

وحجّ بالناس فى هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد

ودخلت سنة ست عشرة ومائتين

ذكر فتح هِرَقْلَة

فى هذه السنة عاد المأمون إلى بلاد الروم ، وسبب ذلك أنه بلغه أن ملك الروم قتل ألفا وستمائة من أهل طرسوس والمصّيصة ، فسار حتى دخل أرض[2] الروم فى جمادى الأولى ، إلى منتصف شعبان ، وقيل كان سبب دخوله إليها أن ملك الروم[3] كتب إليه بدأ بنفسه ، فسار إليه ولم يقرأ كتابه ، وسار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ، ووجّه أخاه أبا إسحاق المعتصم فافتتح ثلاثين حصنا ومَطْمُورة ووجه يحيى بن أكثم من طَوَانَة فأغار وقتل وسبى وحرق ورجع . ثم عاد المأمون إلى دمشق .

وفيها ظهر بمصر عَبْدُوس الفهرى . ووثب على عمال المعتصم فقتل بعضهم فى شعبان . فسار المأمون من دمشق إلى مصر فى منتصف ذى

(١) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص ١٩٠ وفى الكامل جـ٥ ص ٢٢٠ : سناذ

(٢) فى ف ، ك : بلاد والأصوب ص لاتفاقه والكامل جـ٥ ص ٢٢٠

(٣) ساقط من ف ، ك

الحجة ، فوصل إليها فى المحرم سنة سبع عشرة فأتى بعبدوس الفهرى فضرب عنقه ، وعاد إلى الشام ، وفيها قدم الأَفْشِين من برقة إلى مصر ، فأقام بها ثم كان من أمره وتمكّنه مانذكره . وفيها[1] كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بأخذ الجند بالتكبير إذا صلّوا . فبداوا بذلك فى منتصف شهر رمضان . فقاموا قيامه وكبّروا ثلاثا . ثم فعلوا ذلك فى الصلوات المكتوبة ، وفيها ماتت أم جعفر زبيدة ابنة جعفر بن المنصور أم الأمين .

وحجّ بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان وقيل عبد الله بن عبيد الله .

ودخلت سنة سبع عشرة ومائتين

وفى هذه السنة ظفر الأَفْشِين بالفَرمَا[2] من أرض مصر ، ونزل أهلها بأمان على حكم المأمون ، وفيها قتل المأمون على بن هشام ، وكان قد استعمله على أذربيجان والجبال وقمّ وأصفهان فى سنة أربع عشرة ، فبلغ المأمون أنّه ظلم وأخذ الأموال وقتل الرجال ، فوجّه إليه المأمون عُجَيف بن عَنْبَسة فى سنة ست عشرة ، فثار به على بن هشام وأراد قتله واللحاق ببابك ، فظفر به عُجَيف وقدم به على المأمون فقتله ، وقتل أخاه حسينا[3] فى جمادى الأولى ، وطيف برأس علىّ فى العراق وخراسان والشام ومصر ، ثم ألقى فى البحر .

وفيها عاد المأمون إلى بلاد الروم ، فأناخ عجيف على لُؤْلُؤة مائة يوم ، ثم رحل عنها فخدع أهلها عجيفا حتى أسروه[4] ، وبقى عندهم ثمانية أيام ثم

(١) هذه الفقرة ساقطة من ف . ك

(٢) هكذا فى الكامل جـ٥ ص ٢٢١ وهو مصدر المؤلف ، وفى الطبرى جـ٧ ص١٩٢ : البما ، وفى المخطوطات : التبما

(٣) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص١٩٢ وفى الكامل جـ٥ ص ٢٢١ : حبيبا وهو تحريف

(٤) هذه العبارة عند المؤلف موهمة ، وهى فى الكامل جـ٥ ص ٢٢١ : فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها ، وترك عليها عجيفا فخدعه أهله (خطأ صوابة أهلها) وأسروه .. وفى الطبرى جـ٧ ص١٩٣ .. دخل المأمون أرض الروم فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها ، وخلّف عليها عجيفا فاختدعه أهلها واسروه .

أخرجوه ؛ وجاء تُوفِيل - ملك الروم - فأحاط بعجيف فسيّر المأمون إليه الجنود فارتحل ملك الروم قبل موافاتهم . وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بأمان .

وحجّ بالناس فى هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن على .

ودخلت سنة ثمانى عشرة ومائتين .

ذكر المحنة بالقرآن المجيد

فى هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد فى امتحان القضاة والفقهاء[1] والمحدّثين بالقرآن ، فمن أقرّ أنه مخلوق محدث خلى سبيله ، ومن أبى أعلمه به ليأمر فيه برأيه ، وطوّل كتابه بإقامة الدليل على خلق القرآن وكان الكتاب فى شهر ربيع الأول ، وأمره بإنفاذ سبعة نفر منهم محمد بن سَعْد كاتب الواقدى[2] ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن مَعِين وأبوخَيْثَمة زهير بن حرب ، وإسماعيل بن أبى مَسْعود ، وأحمد الدَّوْرَقِى . فأشخصوا إليه فأمتحنهم وسألهم عن القرآن . فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأعادهم إلى بغداد . وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره وشهر قولهم بحضرة المشايخ من أهل الحديث . فأقروا بذلك فخلّى سبيلهم . وورد كتاب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم بامتحان القضاة والفقهاء . فأحضر أبا حَسَّان الزِيَادِى . وبشْر بن الوَليد الكِنْدى . وعلى بن أبى مُقاتِل[3] ، والفضل بن غانم ، والذيَّال بن الهَيْثَم[4] وسَجّادة . والقَوَارِيرى ، وأحمد بن حَنْبَل ، وقُتَيْبَة ، وسَعْدَوَيْه الوَاسِطى ، وعلى بن الجَعْد ، وإسحاق بن أبى اسرائيل ، وابن الهِرْشِ ، وابن عُلَيّة الأكبر ،

(١) ساقطة من ف . ك

(٢) فى المخطوطات : محمد بن سعد الواقدى الكاتب والتصويب عن الكامل جـ٢ ص ٢٢٣

(٣) ذكره المؤلف هنا على بن مقاتل ثم صححه فى آخر الفصل

(٤) فى المخطوطات : أبو الذيال والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٢٢٤ والطبرى جـ٧ ص ٢٠٠

ويحيى بن عبد الرحمن العُمَرِى ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه – كان قاضى الرقة ، وأبا نصر التَّمَّار ، وأبا مَعْمَر القَطِيعى ، ومحمد بن حاتم بن مَيْمون ، ومحمد بن نُوح المضروب ، وابن الفَرْخَان ، وجماعة منهم النَّضْر بن شُمَيْل ، وابن على بن عاصم ، وأبو العَوَّام البَزَّاز ، وابن شُجَاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، فأدخلوا جميعا على إسحاق فقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : قد عرف أمير المؤمنين مقالتى غير مرّة ، قال : قد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما ترى ، قال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شئ ، قال : والقرآن شئ ؟ قال : نعم ، قال : فمخلوق هو ؟ قال : ليس بخالق ، قال : ليس عن هذا سألتك – أمخلوق هو ؟ قال : ما أُحسن غير ما قلت لك ، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلّم فيه ، وليس عندى غير ما قلت لك ، فأخذ إسحاق رقعة فقرأها عليه ، فقال : أشهد أنّ لا إله إلا الله أحد فرد ، لم يكن قبله شئ ولا يشبهه شئ من خلقه ، فى معنى من المعانى ووجه من الوجوه ، قال للكاتب : اكتب ما قال . ثم قال لعلى بن أبى مُقاتل : ما تقول ؟ قال : قد سمعت كلامى فى هذا لأمير المؤمنين غير مرّة ، وما عندى غيره ، فامتحنه بالرقعة فأقرّ بما فيها ، ثم قال له : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : القرآن كلام الله ، فإن أمرنا أمير المؤمنين بشئ سمعناه وأطعنا ، فقال للكاتب اكتب مقالته ؛ ثم قال للذيّال نحوًا من مقالته لعلى بن أبى مقاتل ، فقال مثل ذلك ؛ ثم قال لأبى حَسَّان الزيادى : ما عندك ؟ قال : سل عمّا شئت ، فقرأ عليه الرقعة فأقرّ بما فيها ، قال : ومن لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال له : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شئ ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامّة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ،

وقلّده الله أمرنا فصار يقيم حجّتنا وصلواتنا ، ونؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته ، فإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا ، قال : والقرآن مخلوق ؟ فأعاد مقالته ، قال إسحاق فإن هذه مقالة أمير المؤمنين ، فقال : قد تكون مقالته ولا يأمر بها الناس ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ما أمرتنى به ، فإنّك الثقة فيما أبلغتنى عنه ، قال : ما أمرنى أن أبلغك شيئا ، فقال أبو حسّان : وما عندى إلا السمع والطاعة ، فأمُرْنى آتمر ، فقال : ما أمرنى أن آمركم ، وإنما أمرنى أن أمتحنكم ؛ ثم قال لأحمد بن حنبل : ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ما أزيد عليها ، فامتحنه بالرقعة ، فلما أتى إلى ﴿ ليس كمِثْله شىءٌ وهُو السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ وأمسك عن لايُشْبِهُهُ شَىءٌ مِنْ خَلْقِه فى معنىً مِن المَعَانى ولا وجه من الوجوه فاعرض عليه ابن البَكَّاء الأصغر فقال : أصلحك الله – إنه يقول سميع من أذن ، بصير من عين ، فقال إسحاق لأحمد : ما معنى قولك سميع بصير ؟ قال : كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لاأدرى – هو كما وصف نفسه ، ثم دعاهم رجلا رجلا – كلهم يقول القرآن كلام الله إلا قُتَيْبة ، وعُبيد الله[1] ابن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيَّة الأكبر ، وابن البَكَّاء ، وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن مُنَبِّه ، والمُظَفَّر بن مُرَجًّا ، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرقة ، وابن الأحمر ، فأمّا ابن البكّاء فإنّه قال : القرآن مجعول لقوله عزّ وجل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً[2] ﴾ ، والقرآن محدث لقوله عزّ وجل ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ[3] ﴾، قال إسحاق : فالمجعول مخلوق ، قال : نعم ، قال : والقرآن مخلوق[4] قال :

(١) فى ف ، ك : عبد الله والتصويب عن ص والكامل جـ ٥ ص ٢٢٥ والطبرى جـ ٧ ص ٢٠١ .
(٢) سورة الزخرف من الآية ٣ .
(٣) سورة الأنبياء من الآية ٢ .
(٤) ساقطة من ف . ك والتصويب عن ص والكامل جـ ٥ ص ٢٢٥ والطبرى جـ ٧ ص ٢٠٢ .

لا أقول مخلوق ولكنّه مجعول ، فكتب مقالته ومقالات القوم ووجّهها إلى المأمون ، فأجاب المأمون يذمّهم ويذكر كلاً منهم ويعيبه ويقع فيه بشئ ، وأمره أن يحضر بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى ويمتحنهما ، فإن أجابا وإلا ضرب أعناقهما ، وأما من سواهما فمن أجاب إلى القول بخلق القرآن ، وإلا حملهم موثقين بالحديد إلى عسكره مع نفر يحفظونهم ، فأحضرهم إسحاق وأعلمهم بما أمر المأمون فأجاب القوم كلهم إلا أربعة نفر : منهم أحمد بن حنبل ، وسَجَّادة ، والقَواريرى ، ومحمد بن نوح المضروب ، فأمر بهم إسحاق فشدّوا فى الحديد ، فلما كان الغد دعاهم فى الحديد وأعاد عليهم المحنة ، فأجاب سجَّادة والقواريرى ، وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ، فشدّوا فى الحديد ووجّهها إلى طرسوس ، وكتب إلى المأمون بتأويل القوم فيما أجابوه ، فأجابه المأمون أنّه بلغنى عن بشر بن الوليد أنه تناول الآية التى أنزلها الله عزّ وجل فى عمّار بن ياسر ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ[1] ﴾ فقد أخطأ التأويل ، إنما عنى الله تعالى بهذه الآيه من كان معتقداً للإيمان مظهراً للشرك ، وأما من كان معتقداً للشرك مظهراً للإيمان فليس هذا له ، فأشخصهم جميعهم إلى طرسوس ليقيموا بها إلى أن يخرج أمير المؤمنين من بلاد الروم ، فأحضرهم إسحاق وسيَرهم جميعاً الى المعسكر وهم : أبو حسان الزيادى ، وبشر بن الوليد ، والفضل بن غانم ، وعلى بن أبى مقاتل ، والذيّال بن الهيثم ، ويحيى بن عبد الرحمن العمرى ، وعلى بن الجعد ، وأبو العوّام ، وسجّادة ، والقواريرى ، وابن الحسن بن على بن عاصم ، وإسحاق بن أبى اسرائيل ، والنضر بن شميل ، وأبو نصر التمّار ، وسعدويه الواسطى ، ومحمد بن حاتم بن ميمون . وأبو معمر بن الهرش ، وابن الفرخان ، وأحمد بن شجاع ، وأبو هارون ابن البكّاء ، فلما صاروا إلى الرقة بلغهم موت المأمون فرجعوا إلى بغداد .

(١) سورة النحل من الآية ١٠٦ .

ذكر وفاة أبى العباس المأمون

كانت وفاته بالبَذْندون[١] من أرض الروم لثمان خلون من شهر رجب، وقيل لاثنتى عشرة بقيت منه، سنة ثمانى عشرة ومائتين، وكان ابتداء مرضه لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة منها؛ وكان سبب مرضه ما ذكره سعيد بن[٢] العَلَّاف القَارِئ، قال: دعانى المأمون يوماً فوجدته جالسًا على شاطئ البذندون، والمعتصم عن يمينه، وقد دلّيا أرجلهما فى الماء، فأمرنى أن أضع رجلىّ فى الماء، وقال: ذقه - هل رأيت أعذب منه! أو أصفى أو أشد بردًا؟ ففعلت وقلت ما رأيت قط مثله، فقال: أى شئ أن يؤكل ويشرب عليه هذا الماء؟ فقلت: أمير المؤمنين أعلم، فقال: الرطب الآزاذ، فبينا هو يقول ذلك إذ سمع وقع لجم البريد، فالتفت فإذا بغال البريد عليها الحقائب فيها الألطاف، فقال لخادم: انظر إن كان فى هذه الألطاف رطب آزاذ فأت به؟ فمضى وعاد ومعه سلّتان فيهما منه، كأنما جنى تلك الساعة، فأظهر شكر الله تعالى وتعجبنا جميعا، وأكلنا وشربنا من ذلك الماء، فما قام منّا أحد إلا وهو محموم، ودامت العلة بالمأمون حتى مات، ولمّا اشتدت عليه قال لأبى إسحاق: ياأبا إسحاق أُدن منّى واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن، واعمل فى الخلافة - إذا طوّقكها الله - عمل المريد لله، الخائف من عذابه وعقابه، ولا تغتر بالله ومهلته، ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية - العوامّ العوامّ فإنّ الملك بهم وبتعهدك لهم، الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين، ولا ينتهينّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدّمته وآثرته على غيره من هواك، وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم فى شئ، وانصف بعضهم من بعض بالحق

(١) فى الكامل جـ٥ ص٢٢٦: البذندون وفى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص٢٠٧ ة بالدال والأصح بالذال وهى بُدَنْدُس Podandos راجع تحقيق لوستيرينج بلاد الخلافة الشرقية ص١٣٣ ط كمبردج

(٢) تتفق المخطوطات مع الطبرى جـ٧ ص٢٠٧، وفى الكامل جـ٢٢٦: سعد وهو تحريف

بينهم . وعجّل الرحلة عنّى إلى دار ملكك بالعراق[١] ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت ، والخرّمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة[٢] وجلد ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود ، فإن طالت مدّتهم فتجرّد لهم فيمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل فى ذلك عملًا مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه ، ثم دعاه بعد ساعة حين اشتد وجعه وأحسّ بمجئ أمر الله ، فقال : يا أبا إسحاق عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم لتقومنّ بحق الله فى عباده ، ولتوثرنّ طاعة الله على معصيته ، إذا أنا نقلتها من غيرك إليك ، قال : اللهم نعم ، قال : هؤلاء بنوعمّك ولد أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم ، ولا تغفل صلاتهم فى كل سنة عند محلّها ، فإنّ حقوقهم تجب من وجوه شتى ، اتقوا الله ربكم حق تقاته ، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون ، واتقوا الله واعملوا له ، اتقوا الله فى أموركم كلها ، أستودعكم الله ونفسى وأستغفر الله بما سلف منّى إنّه كان غفّارًا ، فإنّه ليعلم كيف ندمى على ذنوبى فعليه توكّلت من عظيمها وإليه أنيب ، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، حسبى الله ونعم الوكيل ، وصلّى الله على محمد نبى الهدى والرحمة .

قال : ولما اشتد مرضه وحضره الموت كان عنده ابن مَاسَوَيْه ، فجاء من يلقنه فعرض عليه الشهادة ، فقال الطبيب : دعه فإنه لا يفرّق فى هذه الحال بين ربه ومانى ، ففتح المأمون عينيه وأراد أن يبطش به فعجز ، وأراد الكلام فعجز عنه ، ثم قال : يامن لا يموت ارحم من يموت ، ومات من ساعته . ولما توفى حمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس ، فدفناه بها بدار خاقان خادم الرشيد ، وصلى عليه المعتصم ووكلوا به حرسًا من أبناء

(١) ساقطة من ف . ك

(٢) تتفق المخطوطات والطبرى جـ٧ ص ٢٠٩ وفى الكامل جـ٥ ص ٢٢٧ : فاغزهم ذاخرمة وصرامة ... وهو تحريف .

طرسوس وغيرهم – مائة رجل ، وأجرى لكل منهم تسعين درهما . وكان مولده للنصف من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرون يوما ، سوى تلك المدة التى كان فيها الاختلاف بينه وبين أخيه الأمين محصور .

ذكر صفته وشئ من أخباره وسيرته

كان المأمون ربعة ابيض طويل اللحية دقيقها قد وخطه الشيب ، وقيل كان أسمر تعلوه صفرة أجنى أعين ضيّق الجبهة بخده خال أسود ، وهو أول من اتخذ الأتراك للخدمة وتغالى فى أثمانهم ، فكان يشترى الواحد منهم بمائة ألف ومائتى ألف درهم ، وكان يحب سماع أخبار الناس ، حتى جعل برسم الأخبار ببغداد ألف عجوز وسبعمائة عجوز ، وكان كريما وقّع فى يوم واحد بثلاثمائة ألف دينار ، وكان يقول : لو علم الناس ما عندى من حلاوة العفو لما تقرّبوا إلىّ إلا بالذنوب . وقال العتبى[1] صاحب إسحاق بن إبراهيم كنت مع المأمون بدمشق ، وكان المأمون قد قلّ عنده المال حتى ضاق وشكى ذلك إلى المعتصم ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، كأنّك بالمال وقد وافاك بعد جمعة ، وكان قد حمل إليه من خراج ما يتولاه ثلاثون ألف ألف ألف درهم ، فلما ورد عليه المال قال ليحيى بن أكثم : أخرج بنا ننظر إلى هذا المال ، فخرجا[2] ينظرانه وكان قد هيّئ بأحسن هيئة وحلّيت أباعره ، فنظر المأمون إليه واستكثره واستبشر به الناس ، فقال المأمون : ياأبا محمد – ننصرف بالمال ويرجع أصحابنا خائبين ! ! إنّ هذا للؤم ، ودعا محمد بن يزداد فقال له : وقّع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها ولآل فلان بمثلها ، فمازال كذلك حتى فرّق أربعة وعشرين ألف ألف ألف – ورجله فى

(١) فى الكامل جـ٥ ص٢٢٨ : العبسى وفى الطبرى جـ٧ ص٢١٢ : العيشى
(٢) فى ف ، ك فجاءا

الركاب ، ثم قال : ادفع الباقى إلى المُعَلى يعطيه جندنا ، قال : فقمت نصب عينه فلما رآنى وقّع لى بخمسين ألفا فقبضتها .

وكان أمر المأمون نافذًا من أفريقية المغرب إلى أقصى خراسان وما وراء النهر وولاية السند ، وقدم ملك التبت ومعه صنم من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر فأسلم الملك ، وأخذ المأمون الصنم وأرسله إلى الكعبة وكتب[1] إليه ملك الهند مع هدية نفيسة أهداها إليه ، من دُهمى – ملك الهند وعظيم أركان المشرق ، وصاحب بيت الذهب وأبواب الياقوت وفرش الدّر – الذى قصره مبنى من العود الذى يختم عليه ، فيقبل الصورة قبول الشمع ، والذى تؤخذ رائحة قصره من عشرة فراسخ – والذى يسجد أمام البد ، الذى وزنه ألف ألف مثقال من ذهب ، عليه مائة ألف حجر من الياقوت الأحمر والدرّ الأبيض – الذى يركب فى ألف مركب وألف راية مكللة بالدرّ ، تحت كل راية ألف فارس معلّمين بالذهب والحرير – والذى فى مربطه ألف فيل ، حزائمها أعنة الذهب – والذى يأكل فى صحاف الذهب على موائد الدرّ ، والذى فى خزانته ألف تاج وألف حلّة جوهر لألف ملك من آبائه ، والذى يستحيى من الله أن يراه خائنا فى رعيته ، إذ خصّه بالأمانة عليهم والرياسة فيهم – إلى عبد الله ذى الشرف والرياسة على أهل مملكته ، فى كلام طويل فى آخره – وقد افتتحنا إهداءك[2] بأن وجّهنا إليك كتابا ، ترجمته صفوة الأذهان ، وكانت الهديّة جام ياقوت أحمر ، فتحه شبر فى غلظ الأصبع مملوءا درا ، وزن كل درّة مثقال – والعدد مائة ، وفراشا من جلد حيّة بوادى الدهراج تبلغ الفيل ، ووشى جلدها دارات سود كالدراهم ، فى أوساطها نقط بيض ، لا يتخوف من جلس عليه مرض السلّ ، وإن كان به سلّ وجلس عليه سبعة أيام برئ ، وثلاث مصليات من

(١) لم أهتد إلى المصدر الذى نقل عنه المؤلف هذه القصة . وفى القصة بعض الأخطاء النحوية

(٢) فى المخطوطات تقرأ : استهداءك

جلد السمندل فراوزها درّ ، ومائة مثقال من العود الهندى يختم عليه فيقبل الصورة ، وثلاثة آلاف منّ من الكافور المحبّب ، كل حبّة أكبر من اللوزة ، وجارية طولها سبعة أذرع تسحب شعرها ، طول كل شفر من أشفار عينيها أصبع ، تبلغ إذا أطرقت نصف خدّها ، ناهدا لها ثمان عكن ، فى نهاية الحسن والجمال ونقاء البشرة ؛ وكان الكتاب من لحاء شجر الكادى ، لونه إلى الصفرة والخط باللازورد مفتح بالذهب . فأجابه المأمون من عبد الله الإمام أمير المؤمنين – الذى وهب الله له ولآبائه الشرف بابن عمه النبى المرسل صلى الله عليه وسلم وأعلى ذكره ، والمصدّق بالكتاب المنزل – إلى ملك الهند وعظيم من تحت يده من أركان المشرق ، سلام عليك – وأهدى له هديّة وهى فرس بفارسه ، وجميع آلاته عقيق ، ومائدة جزع فيها خطوط سود وحمر وخضر على أرض بيضاء ، فتحها ثلاثة أشبار وغلظها أصبعان ، قوائمها ذهب ، وثمانية أصناف من بياض مصر وخز السُّوس ووشى اليمن ومُلحم[1] خراسان ، والديباج الخرسوانى ، وفرش سُوسَنجْرد ، ووشى تُسْتَر[2] ، من كل صنف مائة قطعة ، ومائة طنفسه جنوية بوسائدها ، وجام زجاج فرعونى فتحه شبر ، فى وسطه صورة أسد أمامه رجل قد برك على ركبتيه . وفوّق السهم نحو الأسد فى قوس ؛ وكان الكتاب فى طومار ذى وجهين

وكان للمأمون من الأولاد : محمد الأكبر وعبد الله ومحمد الأصغر والعباس وعلى والحسن وإسماعيل والفضل وموسى وإبراهيم ويعقوب والحسين وسليمان وجعفر وإسحاق واحمد وعيسى وهارون وعشر بنات نقش خاتمه : سل الله يعطك وزراؤه: ذو الرئاستين الفضل بن سهل ثم أخوه الحسن بن سهل ثم أحمد بن أبى خالد الأحوال ثم أحمد بن يوسف وجماعة ، قيل إنه ما استوزر بعد الفضل أحداً ، وإنما كانوا كتابا . حجّابه : عبد الحميد بن

(١) ملحم كمكرم جنس من الثياب نقله الجوهرى (تاج العروس : ل ح م)

(٢) مرسومة فى المخطوطات (مرمر) والمرجح أنها تُستَر لأنها أشهر المدن بديباجها الذى كان يتخذ منه كسوة الكعبة

شَبَث ثم محمد وعلى ابنا صالح مولى المنصور ثم إسماعيل بن محمد بن صالح . قضاته : محمد بن عمر الواقدى ثم محمد بن عبد الرحمن المخزومى ثم بشر بن الوليد ثم يحيى بن أكثم . الأمراء بمصر : عَبَّاد بن محمد البلخى ثم المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم ثم العباس بن موسى بن عيسى الهاشمى ثم عاد المطلب ثم السَّرِىّ ثم الحكم مولى بنى ضَبَّة من أهل بَلْخ ـ باجتماع من الجند عليه ـ ثم سليمان بن غالب ثم السرىّ بعهد من المأمون ثم مات فوليها أبو نصر محمد بن السرىّ ثم مات فوليها أخوه عبيد الله بن السرىّ ـ بايعه الجند ـ ثم عبد الله بن طاهر بن الحسين مضافة للشام وغيره ، فلما سار إلى العراق استخلف عيسى بن يزيد الجُلُودِى ، ثم ابو أسحاق المعتصم مضافة إلى الشام فأقرّ الجلودى ، ثم صرفه بعمير بن الوليد التميمى ثم أعاد الجلودى ثم عَبْدويْه[1] بن جَبَلة ثم عيسى بن منصور ، فلما قدم المأمون مصر عزل عيسى وولّى نصر بن عبد الله الصُّغْدِى ويعرف بكَيْدَر . القضاة بها : لَهِيعَة بن عيسى الحضرمى ثم الفضل بن غانم ثم عاد لهيعة ثم إبراهيم بن إسحاق القَارِىّ ثم إبراهيم بن الجراح ثم عيسى بن المُنْكَدِر ثم عاد إلى بغداد ؛ ووصل المأمون إلى مصر وليس بها قاض . فأمر يحيى بن أكثم أن يحكم بين الناس إلى أن سار عنها ، ووَلّى هارون بن عبد الله من ولد عبد الرحمن بن عوف .

ذكر خلافة المعتصم بالله

هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد وأمه مَارِدَة أم ولد ، وهو الثامن من الخلفاء العباسيين ، وهو أول من أضاف إلى لقبه اسم الله تعالى من الخلفاء فقيل المعتصم بالله وتداوله من بعده ، بويع يوم وفاة المأمون بطرسوس لثمان خلون من شهر رجب أو لاثنتى عشرة بقيت منه سنة ثمانى عشرة ومائتين ، ولم يقل ابن الأثير فى تاريخه غيره .

(١) فى المخطوطات : عبد ربه والتصويب عن الولاة والقضاة للكندى (بيروت) ص١٨٩ والنجوم الزاهرة (دار الكتب) جـ٢ ص٢١٢

قال : ولما بويع له شغب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون فأرسل إليه المعتصم فأحضره فبايعه . ثم خرج العباس إلى الجند فقال : ما هذا الحب البارد ! قد بايعت عمى فسكتوا ، وكان المأمون قد وجّه ابنه العباس إلى طَوَانة ، وأمره ببنائها فى هذه السنة ، وجعلها ميلا فى ميل وجعل سورها على مسافة ثلاثة فراسخ[1] . وجعل لها أربعة أبواب على كل باب حصن ، فأول ما بدأ به المعتصم أن أمر بإخراب ما كان قد بنى منها . وحمل ما أطاق من السلاح والآلة التى بها . وأحرق الباقى وانصرف إلى بغداد ومعه العباس بن المأمون . فقدمها فى مستهلّ شهر رمضان من هذه السنة .

وفيها دخل كثير من أهل الجبال وهمذان وأصبهان وماسبذان وغيرها فى دين الخرميّة ، وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان ، فوجّه إليهم المعتصم العساكر ، وكان منهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وعقد له على الجبال فى شوّال ، فسار إليهم فأوقع بهم فى أعمال همذان ، فقتل منهم ستين ألفا وهرب الباقون إلى بلد الروم .

وحجّ بالناس فى هذه السنة صالح بن العباس بن محمد .

ودخلت سنة تسع عشرة ومائتين .

ذكر خلاف محمد بن القاسم العلوى

فى هذه السنة ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنه بالطالقان من خراسان ، يدعو إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم . وكان ابتداء أمره أنه كان ملازمًا لمسجد النبى صلى الله عليه وسلم حسن السيرة . فأتاه إنسان من خراسان اسمه أبو محمد كان مجاورا ، فلما رآه أحبه وأعجبته طريقته . فقال له : أنت أحق بالإمامة

(١) هذه الجملة ساقطة من ص

من كل أحد ، وحَسَّن له ذلك وبايعه ، وصار الخراسانى يأتيه بالنفر بعد النفر من حجاج خراسان يبايعونه ، فلمّا رضى بكثرة من بايعه من خراسان سارا جميعا إلى الجُوزَجَان ، واختفى هناك وجعل أبو محمد يدعو الناس إليه فعظم أصحابه ، وحمله أبو محمد على إظهار أمره فأظهره بالطَّالِقان ، وكان بينه وبين قُواد عبد الله بن طاهر وقعات ، فانهزم هو وأصحابه وخرج هاربا ، يريد بعض كور خراسان كان أهلها كاتبوه ، فلما صار بنَسَا وبها والد[1] لبعض من معه ، فمضى الرجل الذى معه يسلّم على أبيه فسلّم عليه ، فسأله أبوه عن الخبر فأخبره به ، فمضى الأب إلى عامل نَسَا وأخبره بأمر محمد بن القاسم ، فأعطاه العامل عشرة آلاف درهم ، وجاء العامل إلى محمد فأخذه وبعثه إلى عبد الله بن طاهر ، فسيّره إلى المعتصم فوصل إليه فى منتصف شهر ربيع الأول فحبس عند مسرور الكبير ، فلما كان ليلة الفطر اشتغل الناس بالعيد ، فدلّى إليه حبل من كوّة فخرج منها ، فأتوه بالطعام فى يوم الفطر فلم يجدوه ، وبذل لمن أتى به مائة ألف درهم فلم يعرف له خبر بعد ذلك .

ذكر محاربة الزُّط

فى هذه السنة وجّه المعتصم عُجَيف بن عَنْبَسة فى جمادى الأولى لحرب الزط ، وكانوا قد غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا وأخذوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة ، وأخافوا السبل ، فسار عجيف حتى نزل واسط على نهر يقال له بَرْدُودَا فسدّه وسدّ أنهارًا أخر ، كانوا يخرجون منها ويدخلون وأخذ عليهم الطرق ، ثم حاربهم فقتل فى معركة واحدة ثلاثمائة وأسر خمسمائة ، فضرب أعناقهم وبعث الرءوس إلى باب المعتصم ، وأقام عجيف بإزائهم خمسة عشر يوما ، فظفر منهم بخلق كثير ، وكان رئيس الزُّط

(٢) فى ف . ك : ولد وهو خطأ يدل عليه ما بعده (فمضى الرجل الذى معه يسلّم على أبيه ..)

يقال له محمد بن عثمان ، وصاحب أمره رجل يقال له سَمْلق [١] ، ثم استوطن عجيف وأقام بإزاء الزط ستة أشهر ، وقاتلهم فطلبوا الأمان وخرجوا إليه فى ذى الحجة ، وكان عدّتهم بالنساء والصبيان سبعة وعشرين ألفا ، المقاتلة منهم أثنا عشر ألفا ، فجعلهم عجيف فى السفن وعبّأهم على تعبئتهم فى الحرب ومعهم البوقات ، فأدخلهم بغداد يوم عاشوراء سنة عشرين ومائتين ، فخرج المعتصم إلى الشماسية فى سفينة حتى مرّت به سفن الزط وهم ينفخون فى البوقات ، وأقاموا فى سفنهم ثلاثة أيام ثم نقلوا إلى الجانب الشرقى ، فسُلّموا إلى بِشْر بن السُّمَيْدَع فذهب بهم إلى خَانِقِين ، ثم نقلوا إلى الثغر إلى عَيْن زَرْبة ، فأغارت الروم عليهم فلم يفلت منهم أحد .

وفى هذه السنة أحضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن فلم يجب إلى القول بخلقه . فأمر به فجلد جلدا شديدا حتى غاب عقله ، وتقطع جلده وحبس مقيّدا .

ودخلت سنة عشرين ومائتين .

فى هذه السنة عقد المعتصم للأَفْشِين حَيْدَر بن كَاوُوس على الجبال . ووجّهه لحرب بَابَك الخُرَّمى فسار لذلك . فكان بينهما من الحروب ما نذكره فى سنة اثنتين وعشرين . عند الظفر ببابك ونذكر أخباره هناك إن شاء الله تعالى .

ذكر بناء سَامَرَّا وهى سُرَّمَنْ رأى

فى هذه السنة خرج المعتصم إلى سَامَرَّا . وكان سبب ذلك أنه قال : إنى هاهنا أتخوّف الحربيّة أن يصيحوا صيحة فيقتلوا غلمانى . فأريد أن أكون فوقهم فإن رابنى منهم شئ قاتلتهم فى البر والماء حتى آتى عليهم . وقيل كان

(١) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص٢٢٥ . وفى الكامل جـ٥ ص ٢٣٢ : سماق وأظنه تحريفا .

سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك ، وكانوا لايزالون يرون الواحد منهم بعد الواحد قتيلا ، وذلك أنّهم كانوا جفاة يركبون الدوّاب فيركضونها فى الشوارع . فيصدمون الرجل والمرأة والصبى فيأخذهم الأبناء عن دوابّهم فيضربونهم ، وربما هلك أحدهم ؛ ثم إن المعتصم ركب يوم عيد فقام إليه شيخ ، فقال له : ياأبا إسحاق لا جزاك الله عن الجوار خيرا ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك ، فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا . وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا – والمعتصم يسمع كلامه ، ولم يُر راكبا بعدها أبدا بل صلّى العيد وسار إلى ناحية القاطول ولم يرجع إلى بغداد .

قال : ولما خرج المعتصم من بغداد استخلف بها ابنه الواثق ، وكان المعتصم قد اصطنع قوما من أهل الحوف بمصر واستخدمهم وسماهم المغاربة ، وجمع خلقا من سَمَرْقَنْد وأُشْرُو سَنَة وفَرْغَانَة وسماهم الفراغنة . وكانوا من ثقاته فتركهم بعده بها .

وكان ابتداء العمارة بسامرّا فى سنة إحدى وعشرين ومائتين ، وبنيت فى أسرع مدة وهى على شاطئ دجلة ، وقيل إنّه أنفق على جامعها خمسمائة ألف دينار ، وانتقل إليها وجعلها مقر خلافته . وقيل إنّه سماها بهذا الاسم لأنّه لما انتقل إليها بعساكره سرّ كل منهم برؤيتها . فسمّاها سرّ من رأى . ولما خرج المعتصم من بغداد نزل القَاطُول .

ذكر القبض على الفضل بن مروان بن أحمد بن عمارة الوزير

كان الفضل من البَرَدَان وكان حسن الخط . فاتصل بيحيى الجَرْمَقَانى كاتب المعتصم قبل خلافته ، فلما هلك الجرمقانى صار الفضل مكانه ، وتوجّه مع المعتصم إلى الشام ومصر فحصّل أموالاً كثيرة . فلما صار المعتصم خليفة صار له اسمها وللفضل معناها . واستولى على الدواوين كلها وكنز الأموال .

وكان المعتصم يأمره بإعطاء المغنّى والنديم فلا ينفّذ الفضل ذلك ، فثقل على المعتصم ، وكان له مضحك اسمه إبراهيم ، فأمر له المعتصم بمال فلم يعطه الفضل ، فداعب المعتصم يوما إبراهيم فقال له إبراهيم : والله لا أفلحت ، فضحك وقال : وهل بقى من الفلاح شئ لم أدركه بعد الخلافة ؟ فقال : أتظن أنك أفلحت ؟! لا والله – مالك من الخلافة إلا اسمها ، والله ما يجاوز أمرك أذنيك – إنما الخلافة الفضل ، فقال : وأى أمر لى لم ينفّذ ؟ فقال : أمرت لى من شهرين بكذا وكذا فلم أعط حبّة ، فحقدها المعتصم على الفضل ثم نكبه هو وأهل بيته فى صفر من هذه السنة . وصيّر مكانه محمد بن عبد الملك الزيات فصار وزيرا وكاتبا .

وحجّ بالناس فى هذه السنة صالح بن العباس بن محمد .

ودخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

حجّ بالناس فى هذه السنة محمد بن داود بن عيسى بن موسى ؛ وكان فيها من محاربة بغا الكبير وبَابَك ماذكره إن شاء الله تعالى .

ودخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

ذكر أخبار بَابَك الخُرَّمى وفتح البُذ وأسر بابك وقتله .

كان ابتداء أمر بابك فى سنة إحدى ومائتين فى خلافة المأمون ، وتحرك فى الجاويدانية – أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البذ[1] ، وادعى أن روح جاويدان حلّت فيه ، وتفسير جاويدان : الدائم الباقى ، ومعنى خُرّم : الفرج ، والرجل منهم ينكح أمه وأخته وابنته – ولهذا يسمونه دين الفرج ،

(١) قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان . البذ : بتشديد الذال المعجمة كورة بين أذربيجان وأرّان بها كان مخرج بابك الخرمى أيام المعتصم .

ويعتقدون التناسخ وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره ، وكان لبابك فى أيام المأمون حروب مع جيوش المأمون ، كان الظفر فيها لبابك وأصحابه ، وقتل محمد الطوسى عامل المأمون على الموصل ، فى سنة أربع عشرة ومائتين فى حرب كانت بينهم ولما حضرت المأمون الوفاة كان من جملة وصيّته للمعتصم غزو الخرّمية كما ذكرنا ذلك ، فلما أفضت الخلافة إلى المعتصم عقد للأفشين حيدر بن كاووس على الجبال ، ووجّهه لحرب بابك فى سنة عشرين ومائتين ، وكان قبل ذلك قد وجّه المعتصم - أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل ، وأمره أن يبنى الحصون التى خرّبها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ، ويجعل فيها الرجال لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى أردبيل ، فتوجّه أبو سعيد لذلك وبنى الحصون ، ووجّه بابك سريّة فى بعض غاراته فأغارت ورجعت ، فبلغ ذلك أبا سعيد فخرج فى طلب السريّة ، فاعترضها فى بعض الطريق فظفر بهم وقتل وأسر منهم ، وبعث بالرءوس والأسرى إلى المعتصم ، وكانت هذه أول هزيمة على أصحاب بابك ، ثم كانت الأخرى لمحمد بن البعيث ، وذلك أن محمدا كان فى قلعة له حصينة تسمى شاهى من أذربيجان ، وله حصن آخر فى أذربيجان يسمى تبريز[1] ، وكان مصالحاً لبابك تنزل سراياه عنده فيضيفهم حتى أنسوا به . ثم وجّه بابك قائداً من قوّاده اسمه عصمة فى سرية ، فنزل بمحمد بن البعيث فأنزل له الضيافة على عادته ، واستدعاه إليه فى خاصته ووجوه أصحابه فصعدوا إليه ، فغذاهم وسقاهم الخمر حتى سكروا ، ثم وثب على عصمة فاستوثق منه وقتل من كان معه من أصحابه ، وأمره أن يسمى له رجلاً رجلاً من أصحابه ، فكان يدعو الرجل باسمه فيصعد فيضرب عنقه حتى علموا بذلك ، وسيّر عصمة إلى المعتصم . فسأله عن بلاد بابك فأعلمه طرقها ووجوه القتال فيها . ثم حبسه فبقى إلى أيام الواثق . ثم سار الأفشين بعد ذلك إلى بلاد بابك . فنزل

(١) فى ف : [illegible] وتصحيح عن ص وتكملة جده ص ٢٣٤ والطبرى جـ٧ ص ٢٢٧

برزند[١] وعسكر بها وضبط الطرق والحصون فيما بينه وبين أردبيل ، ثم سار الأفشين والتقى ببابك واقتتلوا قتالاً شديداً ، وكانت وقعة عظيمة فى سنة عشرين ومائتين ، قتل فيها كثير من أصحاب بابك الذين كانوا معه ، وأفلت هو فى نفر يسير ، واستمرت الحرب بينه وبين بابك المرة بعد المرة إلى سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، ففتح الأفشين البُذّ – مدينة بابك – وأسر بابك ، وخرّب المسلمون المدينة واستباحوها وذلك لعشر بقين من شهر رمضان فى هذه السنة ، وكانت حروب يطول شرحها انجلت[٢] عن ظفر المسلمين .

قال : وكان الأفشين قد قصّر فى الحصار ، فرأى رجل من أصحابه فى منامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : قل للأفشين – إن أنت حاربت هذا الرجل وجددت فى أمره وإلا أمرت الجبال أن ترجمك بالحجارة ، وشاعت هذه الرؤيا فثار المتطوّعة وصمّموا عى الحصار . وحاصروا وكانت حروب عظيمة انجلت[٣] عن الفتح فى التاريخ المذكور . وهرب بابك ثم أحضر هو وأخوه عبد الله لعشر خلون من شوال . وكان وصولها إلى المعتصم بسامرّا فى صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين . ولما وصل إلى سامرّا أمر المعتصم أن يركب فيلاً والناس ينظرونه . وأدخل دار المعتصم فأمر بإحضار سيّاف بابك . وأمره أن يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط . ثم أمر به فذبح وشقّ بطنه ، وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه بسامرّا . وأمر بحملّ أخيه عبد الله إلى بغداد . وأن يفعل به كما فعل ببابك . ففعل به ذلك وصلب فى الجانب الشرقى بين الجسرين . وكان من قتله بابك فى عشرين سنة مائتى ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان ، هذا ما كان أمره على سبيل الاختصار .

---

(١) فى المخطوطات برزند والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٢٣٤ والطبرى جـ٧ ص ٢٢٧ وصححت مخطوطات الاسم فى الفصل التالى

(٢) فى المخطوطات حلت

(٣) فى المخطوطات احلت

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

ذكر قدوم الأفشين إلى سامرّا وما عامله به المعتصم

فى هذه السنة قدم الأفشين ببابك إلى سامرّا ، فكان من أمر بابك وأخيه ما ذكرناه ، وأما الأفشين فإن المعتصم كان يوجهّ إليه فى كل يوم من حين سار من بَرْزَنْد إلى أن وافى سامرّا خلعة وفرسا ، فلما صار الأفشين بقناطر حذيفة تلقاه هارون الواثق بن المعتصم وأهل بيته ، فلما وصل إليه توجّه المعتصم وألبسه وشاحين ، ووصله بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف ألف درهم ففرقها فى عسكره[1] ، وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه .

قال: وكان الذى أخرج الأفشين من المال مدة مقامه بإزاء بابك – سوى الأرزاق والأنزال والمعاون[2] فى كل يوم يركب فيه – عشرة آلاف[3] . وفى غيره خمسة آلاف . قال : وأسر مع بابك ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسعة نفر . واستنقذ ممن فى يده من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة ، وصار فى يد الأفشين من بنى بابك سبعة عشر رجلا ومن البنات والكنات[4] ثلاث وعشرون امرأة .

ذكر خروج الروم إلى زبطرة

فى هذه السنة خرج توفيل بن ميخائيل – ملك الروم – إلى بلاد الإسلام . وأوقع بأهل زَبَطْرة وغيرها . وكان سبب ذلك أن بابك لما ضيّق

---

(١) تعبير الكامل جـ ٥ ص ٢٤٦ مماثل لما هنا . وتعبير الطبرى جـ٧ ص ٢٦٣ أوضح وأدق قال : ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها فى أهل عسكره .

(٢) فى الكامل جـ٥ ص ٢٤٦ : المعارف وهو تحريف ويتفق الطبرى جـ٧ ص ٢٦٢ مع المخطوطات

(٣) درهم هنا لم تذكر لأنها مفهومة من السياق

(٤) فى الكامل جـ ٥ ص ٢٤٦ : النساء وهو تحريف ويتفق الطبرى جـ٧ ص ٢٦٢ مع المخطوطات . والكنّة : امرأة الابن أو الأخ والجمع كنائن (أقرب الموارد)

عليه الأفشين كتب إلى ملك الروم ، يعلمه أن المعتصم قد وجّه عساكره إليه ، وجمع مقاتلته حتى وجّه خيّاطه وطبّاخه يعنى جعفر بن دينار الخياط ويعنى بالطباخ إيتاخ ، ولم يبق على بابه أحد . فإن أردت الخروج إليه فليس فى وجهك أحد يمنع ، فخرج توفيل فى مائة ألف – وقيل أكثر من ذلك ، فبلغ زبطرة فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء ، وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون الإسلام ، وسبى المسلمات ومثّل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم ، فخرج أهل الثغور من الشام والجزيرة إلا من لم يكن له دابّة ولا سلاح

ذكر فتح عَمُّورِيَّة

قال : لما فعل تُوفيل ما فعل واتصل الخبر بالمعتصم كبر لديه واستعظمه ، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهى فى أيدى الروم – وامعتصماه ! ! فأجابها – وهو على سريره – لبيّك لبيّك ، ونهض من ساعته وصاح فى قصره : النفير النفير ، ثم ركب دابته وسمّط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فيها زاده ، ولم يمكنه المسير إلا بعد التعبئة وجمع العساكر . ثم جلس فى دار العامّة وأحضر قاضيى بغداد عبد الرحمن بن إسحاق وشعيب[1] بن سهل ، ومعهما ثلاثمائة وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة ، فأشهدهم على ما وقف من الضياع ، فجعل ثلثاً لولده وثلثاً لله تعالى وثلثاً لمواليه . ثم سار فعسكر بغربى دجلة لليلتين خلتا من جمادى الأولى ، ووجّه عجيف بن عنبسة وعمرو[2] الفرغانى وجماعة من القواد إلى

(١) فى الكامل جـ٥ ص ٢٤٧ : شعبة وهو خطأ نتج عن قراءة اسم الشهرة : شعبويه (راجع بغداد جـ٩ ص ٢٤٣) . وينقل البغدادى جـ٩ ص ٢٤٣ : وقال الحارث أيضا سنة ثمان وعشرين ومائتين فيها عزل عبد الرحمن بن إسحاق القاضى عن الجانب الغربى وعزل شعيب بن سهل عن الجانب الشرقى . هذا ويتفق الطبرى جـ٧ ص ٢٦٤ مع المخطوطات .

(٢) فى المخطوطات : عمر والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٢٤٧ والطبرى جـ٧ ص ٢٦٤

زبطرة معونة لأهلها ، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده بعد أن فعل ما ذكرناه ، فوقفوا حتى تراجع الناس إلى قراهم[١] واطمأنوا ، ثم سار المعتصم وسأل : أى بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام ، وهى عين النصرانية وأشرف عندهم من قسطنطينية ، فسار المعتصم من سامرّا – وقيل كان مسيره فى سنة اثنتين وعشرين ، وقيل سنة أربع وعشرين ومائتين وتجهز جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله قط من سلاح وآلات وعدد وغير ذلك ، وبث سراياه فيها وجيوشه – يغير ويقتل ويأسر ويغنم ، ثم نزل بعمورية لست خلون من شهر رمضان وحاصرها ونصب عليها المجانيق ، ووالى الزحف والقتال ودام عليها خمسة وخمسين يوماً وكان بطارقة الروم قد اقتسموا[٢] الأبراج ، وكان وندوا موكل ببعضها ومعناه بالعربية[٣] ثور ، فقاتل قتالاً شديداً وكثرت الجراحات فى أصحابه ، فمشى إلى الروم وقال : إن الحرب علىّ وعلى أصحابى ، ولم يبق معى أحد إلا جرح ، فإما أن تمدونى وإلا ذهبت المدينة فلم يمدوه ، وكان المسلمون قد هدموا ثلمة من السور مما يلى جهة وندوا ، فعزم هو وأصحابه على الخروج إلى المعتصم ، يسألونه الأمان على الذرّية ويسلّمون إليه الحصن بما فيه ، فلما أصبح أوقف أصحابه بجانبى الثلمة وأمرهم ألا يحاربوا ، فخرج إلى المعتصم فصار بين يديه ، والناس يتقدمون إلى الثلمة وقد أمسك الروم عن القتال ، ووصل المسلمون الى الثلمة ووندوا بين يدى المعتصم ، والناس يتقدمون حتى دخلوا المدينة ، فالتفت وندوا وضرب بيده على لحيته ، فقال له المعتصم : مالك ؟ ! قال : جئت أسمع كلامك فغدرت بى ، فقال له المعتصم : كل شىء تريده فهولك . قال : ولما دخل المسلمون المدينة صارت

(١) فى المخطوطات : قرارهم والتصويب عن المصدرين السابقين
(٢) فى المخطوطات : أقمموا والتصويب عن المصدرين السابقين
(٣) التعبير فى الكامل جـ٥ ص ٢٥٠ أوضح ! .... قد اقتسموا أبراج السور ، وكان البطريق الموكل بهذه الناحية وندوا وتفسيره بالعربية ثور ....

طائفة من الروم إلى كنيسة كبيرة ، فأحرقها المسلمون عليهم فهلكوا بأجمعهم ، وجاء ناطس[1] - وهو من البطارقة - فوقف بين يدى المعتصم ، فضربه المعتصم سوطاً وأخذ الرومَ السيفُ ، وأقبل الناس بالأسرى والسبى من كل وجه ، وكثرت الغنائم حتى كان ينادى على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة ، ولا ينادى على الشىء أكثر من ثلاثة أصوات طلبا للسرعة ، وأمر المعتصم بعمورية فهدمت وأحرقت ، وفرق الأسرى على القواد وسار نحو طرسوس

ذكر القبض على العباس بن المأمون وحبسه والأمر بلعنه ووفاته

وفى هذه السنة حبس المعتصم - العبّاس بن المأمون وأمر بلعنه ، وسبب ذلك أن عجيف بن عنبسة اجتمع به ووبّخه . كونه بايع المعتصم وكونه لم يطلب الأمر لنفسه . وحثّه على طلب الأمر لنفسه . فقبل العباس قوله وأخذ يدبّر فى قتل المعتصم . وشرع فى طلب البيعة ووافقه جماعة من القواد . فنمى الخبر إلى المعتصم فأحضر العباس وسقاه حتى سكر ولطف به واستعلم الخبر منه فذكر له الحال على غرة ، فقيّده وسلمه للأفشين فحبسه . فلما نزل منبج طلب العباس الطعام فقدم إليه طعام كثير . فأكل ومنع الماء وأدرج فى مسح ، فمات بمنبج وصلى عليه بعض إخوته . وتتبع المعتصم من كان قد وافقه على ذلك من القواد ، فمنهم من فعل به مثل ذلك ومنهم من دفنه حيا . وعاد المعتصم إلى سامرا وأمسك أولاد المأمون فحبسهم فى داره حتى ماتوا .

(١) هكذا فى المخطوطات والكامل جـ٥ ص ٢٥٠ . وفى الطبرى جـ٧ ص ٢٧٤ : ياطس

ودخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

ذكر مخالفة مَازْيَار بطَبَرسْتَان وأسره

فى هذه السنة أظهر مازيار بن قارن بن ونداهرمز[1] الخلاف على المعتصم ، وعصى وقاتل عساكره ، وسبب ذلك أنّه كان منافراً لعبد الله بن طاهر لا يحمل إليه خراجه ، فكاتبه المعتصم فى ذلك فقال : لا أحمله إلا إليك ، وكان المعتصم يأمر بأخذه من أصحاب مازيار بهمذان ، ويسلمه لوكيل عبد الله بن طاهر ، فلما ظفر الأفشين ببابك وعظم محله طمع فى ولاية خراسان ، فراسل الأفشين مازيار فى الخلاف والخروج ، على أنّه إذا خرج احتاج المعتصم إلى إرسال الأفشين لحربه ، فينتقل من ذلك إلى ولاية خراسان ، فخالف مازيار فكتب المعتصم لعبد الله بن طاهر بحربه ، فأرسل ابن طاهر عمّه الحسن بن الحسين فى جيش كثيف لحفظ جرجان ، فنزل مقابل سرخاستان ، وقد بنى سرخاستان سوراً على طميس وجعل له خندقا ، ومقدار السور ثلاثة أميال ليمنع من الدخول إلى طبرستان ، وكانت الأكاسرة تبنيه لتمنع الترك من الدخول إليها ، ووجّه حيّان بن جبلة فى أربعة آلاف إلى قومس ، فعسكر على حدّ جبال شروين ، ووجّه المعتصم من عنده محمد بن إبراهيم بن مصعب ومعه الحسن بن قارن الطبرى ، ووجه منصور بن الحسن صاحب دُنْبَاوَنْد إلى الرى ليدخل طبرستان من ناحية الرى ، ووجه أبا الساج إلى اللارز ودنباوند ، فلما أحدقت الخيل بالمازيار من كل جانب وكان أصحاب سرخاستان يتحدثون مع أصحاب الحسن بن الحسين على غفلة من الحسن – ونظر الناس بعضهم إلى بعض فثاروا – وبلغ الحسن الخبر فجعل يصيح بالقوم ويمنعهم خوفاً عليهم فلم يقفوا – ونصبوا علمه على معسكر

(١) المخطوطات : زنداهرمز ، وفى الكامل جـ٥ ص ٢٥٣ : ونداد هرمز بزيادة دال تحريفا والتصويب عن الطبرى جـ٧ ص ٢٨٣

سرخاستان وهو فى الحمام – فهرب فى غلالة ، ودخل أصحاب الحسن السور وهو يقول : اللهم إنهم عصونى وأطاعوك فانصرهم ، واستولوا على عسكر سرخاستان وأسر أخوه شهريار فقتله الحسن ، وسار سرخاستان حتى أجهده العطش ، فنزل عن دابته وشدها ، فضربه غلام له اسمه جعفر وجماعة من أصحابه ، فسألهم الماء فأمسكوه وقالوا : نتقرب به إلى السلطان ، فرجعوا به نحو العسكر فلقيتهم خيل الحسن بن الحسين فأخذوه منهم ، وأتوا به الحسن فقتله ووجه برأسه إلى عبد الله بن طاهر .

وأما حيان بن جبلة – مولى ابن طاهر – فإنه كاتب قارن بن شهريار – وهو ابن أخى مازيار ، ورغّبه فى الملك وضمنه له ، وكان قارن من قواد مازيار وقد أنفذه مازيار مع أخيه عبد الله بن قارن ومعه عدة من القواد فضمن له قارن عند ذلك أن تسلم إليه الجبال ومدينة سارية واتخذ قارن طعاما ودعا عمّه عبد الله والقواد فأتوه ، ووضعوا سلاحهم فأحدق بهم أصحابه وقبضوا عليهم ووجّه بهم إلى حيّان فاستوثق منهم ، وركب فى أصحابه ودخل جبال قارن ، وبلغ الخبر مازيار فاغتّم له ، قال : ولما بلغ الخبر أهل سارية أخذ سرخاستان ودخول حيان جبال شروين وثبوا على عامل مازيار بها فهرب منهم ، وأتى حيان المدينة ، وبلغ قوهيار أخومازيار الخبر ، فأرسل إلى حيان يطلب منه الأمان ، وأن يملك على جبال أبيه وجدّه ويسلم إليه مازيار ، ثم مات حيان قبل الاتفاق فوجّه عبد الله مكانه عمه محمد بن الحسين ، ثم صار الحسن بن الحسين إلى خرّماباذ ، فأتته رسل قوهيار ثم جاءه بنفسه فأكرمه وأجابه إلى جميع ما طلب ، وتواعدوا يوما فحضر مازيار عنده ، ورجع قوهيار إلى أخيه مازيار فأعلمه أنه أخذ له الأمان واستوثق له ، فركب الحسن يوم الميعاد ومعه ثلاثة غلمان أتراك – وإبراهيم بن مهران يدلّه على الطريق ، حتى أتيا هرمز أباذ فأتاه المازيار مع القوهيار ، فأخذه ووجّهه إلى سارية ، وسار الحسن إلى هرمز أباذ فأحرق قصر المازيار وانتهب ماله ، وسار

إلى خرّماباذ فأخذ إخوة المازيار وحبسهم ، وسار إلى مدينة سارية فأقام بها ، وأمره عبد الله بن طاهر بإرسال المازيار إلى المعتصم وأهله معه ، وأن يسلمه إلى محمد بن إبراهيم ليسير به ففعل ذلك ، وأمره أن يستصفى[1] أمواله ويحرزها ، فأحضره وسأله عن أمواله فذكر أنها عند خزّانه فضمن القوهيار ذلك ، وقال المازيار : اشهدوا على أن جميع ما أخذت من أموالى ستة وتسعون ألف[2] دينار وسبع عشرة قطعة زمرد ، وست عشرة قطعة ياقوت ، وثمانية أحمال من ألوان الثياب ، وتاج وسيف مجوهر[3] ، وخنجر[4] من ذهب مكلّل بالجوهر ، وحق كبير مملوء جوهرا – قيمته ثمانية عشر ألف ألف درهم ، وقد سلّمت ذلك إلى خازن عبد الله بن طاهر وصاحب خبره على عسكره ، وكان المازيار قد أخذ هذا ليوصله إلى الحسن ابن الحسين ليظهر للناس أنه أمنه على نفسه وماله وولده ، وأنه جعل له جبال أبيه فامتنع الحسن من قبوله – وكان من أعف الناس ، ثم أمر الحسن قوهيار أن يتوجه لحمل مال المازيار ، وأعطاه من البغال[5] ما يحملها عليها ، وأراد أن ينفذ معه جيشاً فقال : لا حاجة لى بهم ، وسار فى غلمانه ففتح الخزائن وأخذ الأموال ، فلما عبّأها وثب عليه مماليك المازيار – وكانوا ديالم[6] ، فقالوا : إنك غدرت بصاحبنا وأسلمته إلى العرب ، وجئت لتحمل أمواله ! ! وكانوا ألفا ومائتين فأخذوه وقيّدوه ، فلما جنّهم الليل قتلوه وانتهبوا المال ؛ وانتهى الخبر إلى الحسن فوجّه جيشا ووجّه قارن جيشا ، وبلغ محمد بن إبراهيم الخبرفأرسل فى أثرهم فأخذوا ، وبعثهم إلى مدينة سارية

(١) فى الكامل جـ٥ ص ٢٥٦ : يستقصى ويتفق الطبرى جـ٧ ص ٢٩٧ مع المخطوطات
(٢) فى المخطوطات . ستة وتسعون ألف ألف دينار والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٢٥٦ والطبرى جـ٧ ص ٢٩٧
(٣) فى الطبرى جـ٧ ص ٢٩٧ : وجوهر وهو تحريف
(٤) فى المخطوطات : وحجر والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٢٥٦
(٥) فى المخطوطات : الجمال وهو خطأ من المؤلف أو النساخ تصويبه عن الكامل جـ٥ ص ٢٥٦ والطبرى جـ٧ ص ٢٩٨
(٦) الجمع المعروف الوارد فى المصادر التاريخية وغيرها : ديالمة

قال : وقد قيل إن سبب أسر المازيار أنه كان له ابن عم اسمه قوهيار ، كان له جبال طبرستان وللمازيار السهل ، فألزمه مازيار بابه وولّى الجبال غيره ، فلما خالف مازيار دعا قوهيار ابن عمه – وقيل كان أخاه ، وقال له : أنت أعرف بجبلك من غيرك ، وأظهره على أمر الأفشين وكتبه ، وأمره بالعود إلى جبله وحفظه ، وأمر الذى ولاّه بعده على الجبل واسمه دَرِّى وأمره بالانضمام إليه بالعساكر ، ووجهه إلى محاربة الحسن بن الحسين ، وبقى المازيار فى مدينته فى نفر يسير ، فدعا قوهيار الحقد الذى فى قلبه أن كاتب الحسن وكاتبه الحسن ، وضمن له ما يريد وأن يعيد إليه جبله وما كان فى يده لا ينازع فيه ، فرضى بذلك ووعده بتسليم الجبل ، فلما جاء الميعاد تقدّم الحسن فحارب دَرِّى . وكان درى قد انفرد بالمواضع المخوفة . وأرسل عبد الله بن طاهر جيشا كثيفا فوافوا قوهيار ، فسلّم إليهم الجبل فدخلوه ، ودَرِّى يحارب الحسن ومازيار فى قصره . فلم يشعر إلا والخيل على باب قصره فأخذوه أسيراً ، وقيل أخذ وهو يتصيد . وقصدوا به نحو درى وهو يقاتل . فلم يشعر هو وأصحابه إلا والخيل من ورائهم ومعهم مازيار ، فانهزم درّى فأدركوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى عبد الله بن طاهر . وحملوا المازيار فأوعده[1] عبد الله – إن هو أظهره على كتب الأفشين – أن يسأل فيه المعتصم ليصفح عنه . فأقرّ المازيار بذلك وأحضر الكتب إليه فسيّرها إلى المعتصم . فلما توجه مازيار إلى المعتصم سأله عن الكتب فأنكرها . فضربه حتى مات وصلبه إلى جانب بابك . وقيل إنه اعترف للمعتصم بالكتب والله أعلم ، وكان قتله فى سنة خمس وعشرين.

ذكر عصيان مَنْكَجُور قرابة الأفشين والظفر به

قال : وكان الأفشين قد استعمل منكجور – وهو من أقاربه – على أذربيجان ، فوجد فى بعض قرى بابك مالاً عظيماً فأخذه . ولم يطالع به

(١) هذا التعبير غير مألوف والمستعمل لغويا : وعده

المعتصم ولا الأفشين ، فكتب صاحب البريد بذلك إلى المعتصم ، فطولب بالمال فأنكره وكذّب صاحب البريد وهّم بقتله ، فمنعه أهل أردبيل منه فقاتلهم منكجور ، فأمر المعتصم الأفشين بعزله فعزله ، ووجه قائداً من القوّاد إليه فخلع منكجور يده من الطاعة ، وجمع إليه الصعاليك وخرج من أردبيل ، والتجأ إلى حصن من حصون بابك الذى كان قد خرّبها بابك فعمره وأقام به ، فبقى شهراً ثم وثب عليه أصحابه فسلّموه للقائد ، فقدم به إلى سامرّا فى سنة خمس وعشرين . وقيل إن القائد كان بغا الكبير وأن منكجور خرج إليه بأمان ، واتهم الأفشين بمباطنته .

وحجّ بالناس فى هذه السنة محمد بن داود[1]

ودخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

ذكر القبض على الأفشين وحبسه ووفاته وصلبه

فى هذه السنة غضب المعتصم على الأفشين وحبسه ، وذلك لما ظهر عنه من مباطنة المازيار وغيره ، فأحضره وقوبل على ذلك وحُوقق على ما كان قد قصده من الخلاف . وحبس إلى أن مات فى سنة ست وعشرين ومائتين . وقيل منع عنه الطعام حتى مات ، ولما مات أمر المعتصم بإخراجه وصلبه على باب العامة . ووجد بقُلْفَته . ثم ألقى وأحرق وأخذ ماله ،ووجدفى داره أصناماً وكتابا من كتب المجوس ، ورتب المعتصم بعده على الحرس إسحاق بن يحيى بن معاذ . وفيها استعمل إيتاخ على اليمن وحج بالناس فى هذه السنة محمد بن داود[1]

ودخلت سنة ست وعشرين ومائتين

فى هذه السنة حج بالناس محمد بن داود بأمر إشناس ، وكان إشناس

(١) ذكرته المخطوطات فى هذين الموضعين : داود فقط وهو الأب ثم ذكرت الاسم كاملا وصحيحا بعد ذلك .

حاجا وقد جعل إليه ولاية كل بلد يدخله ، وخطب له على منابر مكة والمدينة وغيرها من البلاد التى اجتاز بها إلى مدينة سامرّا .

ودخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

ذكر خروج المُبَرْقَع بفلسطين

وفى هذه السنة خرج أبو حرب اليمانى المبرقع بفلسطين على المعتصم ، وكان سبب خروجه أنّ بعض الجند أراد النزول فى داره وهو غائب ، فمنعه بعض نسائه فضربها الجندى بسوط فأصاب ذراعها ، فلما رجع أبو حرب إلى داره اشتكت إليه ما فعل بها الجندى ، فقتله أبو حرب وهرب وتبرقع ، وقصد بعض جبال الأردن فأقام به ؛ وكان يظهر بالنهار متبرقعا فإذا جاءه أحد أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، ويذكر الخليفة ويعيبه فاستجاب إليه قوم من فلاحى تلك الناحية ، وكان يزعم أنّه أمويّ فقال أصحابه هذا السفيانى ، فلما كثر أتباعه من هذه الطبقة ، دعا أهل البيوتات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية ، منهم رجل يقال له ابن بَيْهَس – كان مطاعا فى أهل اليمن ، ورجلان من أهل دمشق ، فاتصل خبره بالمعتصم فى مرضه الذى مات فيه ، فسيّر لحربه رجاء بن أيوب الحضارى فى زهاء ألف رجل من الجند فرآه فى عالم كثير يبلغون مائة ألف رجل ، فكره رجاء مواقعته وعسكر فى مقابلته ، حتى كان أوان الزراعة وعمل الأرضين فانصرف من كان مع المبرقع إلى عملهم ، وبقى فى زهاء ألف أو ألفين ، وتوفى المعتصم وولى الواثق وثارت الفتنة بدمشق على ما نذكره فأمر الواثق رجاء بقتال من أثار الفتنة ، والعود إلى المبرقع ففعل ذلك ، وعاد والتقى العسكران ، فقال رجاء لأصحابه : ما أرى فى عسكره رجلاً له شجاعة غيره ، وأنه سيظهر لأصحابه بعض ما عنده ، فإذا حمل فأفرجوا له ، فما لبث أن حمل المبرقع

فأفرجوا له فجاوزهم[1] ورجع إلى أصحابه ، ثم حمل الثانية فلما أراد الرجوع أحاطوا به وأخذوه أسيراً . وقيل إنّ خروجه كان فى سنة ست وعشرين بنواحى الرملة ، وصار فى خمسين ألفا ، فوجّه المعتصم إليه رجاء الحضارى فقاتله وأخذ ابن بيهس أسيراً ، وقتل من أصحاب المبرقع نحواً من عشرين ألفا ، وأسر المبرقع فيمن أسر ، وحمل إلى سامرا والله تعالى أعلم

ذكر وفاة أبى إسحاق المعتصم وشىء من أخباره

كانت وفاته فى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ، وكان بدء علّته أنّه احتجم فى أول يوم من المحرم فاعتل ومات ، وكان أبيض أصهب اللحية طويلها ، مربوعاً مشرب اللون بحمرة حسن العينين وكان شديد القوة ، قيل إنه كان يرفع بيده ألف رطل ويمشى بها خطوات ، وكان من أشجع الناس ، وقيل إنه كان أمياً لا يكتب ، ومن العجب أن الرشيد أخرجه من الخلافة وعهد إلى الأمين والمأمون والمؤتمن ، فساق الله الخلافة إليه ، وجعل الخلافة فى ولده ولم يكن من نسل أولئك خليفة ، والمعتصم هو المثمن من اثنى عشر وجها : هو الثامن من ولد العباس ، الثامن من الخلفاء منهم ، وولى سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وكانت خلافته ثمانى سنين ، وثمانية أشهر ، ومات وهو ابن ثمان وأربعين سنة ، وولد فى شعبان وهو الشهر الثامن من الشهور ، وخلف ثمانية ذكور : منهم هارون الواثق وجعفر المتوكل ومحمد المستعين ، وثمانى بنات ، وغزا ثمانى غزوات ، وخلف ثمانية آلاف ألف دينار ومثلها من الدراهم .

قال بعض المؤرخين : كان له من المماليك سبعون ألفا سوى الأحرار . وكان نقش خاتمه : الله ثقة أبى إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن ؛ وزراؤه

(١) هذه العبارة ساقطة من ف . ك

الفضل بن مروان بن أحمد بن[١] عمارة إلى أن نكبه كما ذكرنا ، ثم محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو الذى رثاه بقوله :

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطفقت عليك أيد بالترب والطين
اذهب فنعم المعين[٢] كنت على الـ ـدنيا ونعم الظهير[٣] للدين
لن[٤] يجبر الله أمة فقدت مثلك إلا بمثل هارون

حجابه : وصيف مولاه ثم محمد بن حماد . قضاته : شعيب بن سهل ثم محمد بن سماعة ثم عبد الله بن غالب ، وقيل إنّ أحمد بن أبى دؤاد الإيادى كان قاضى القضاة ، وأن جعفر بن عيسى من ولد الحسن البصرى كان من قضاته ، الأمراء بمصر : كيدر ثم ولده المظفر ، ثم ردّت مصر إلى اشناس فاستخلف عليها موسى بن[٥] ثابت الحنفى من أهل الشاش ، ثم مالك بن كيدر ثم على بن يحيى الأرمنى . القضاة بها : هارون الزهرى ثم محمد بن أبى الليث الخوارزمى .

قال : ومن أخبار المعتصم الدالة على كرمه ومكارم أخلاقه أنه بينما هو يسير وحده – وقد انفرد عن أصحابه – إذ مرّ بشيخ معه حمار عليه شوك . وقد زلق الحمار من المطر وسقط حمله ، فسأله المعتصم عن حاله ، فأخبره أنه ينتظر من يعينه على رفع الشوك على ظهر الحمار ، فنزل المعتصم عن دابته وخلص الحمار من الوحل ، ورفع عليه الحمل – والشيخ يقول : بأبى أنت وأمى – لا تهلك ثيابك ، فيقول : لا عليك ثم غسل يديه وركب ، فقال له الشيخ : غفر الله لك ياشاب ، ثم لحقه أصحابه فأمر للشيخ بأربعة آلاف

(١) فى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٣ ص ٢١٣ : أبو العباس الفضل بن مروان بن ماسرخس
(٢) فى الكامل جـ٥ ص ٢٦٥ وتاريخ الطبرى جـ٧ ص ٢١٥ : الحفيّ
(٣) فى الكامل جـ ٥ ص ٢٦٥ : المعين
(٤) فى الكامل جـ٥ ص ٢٦٥ والطبرى جـ٧ ص ٢١٥ : لا جبر
(٥) فى الولاة والقضاة للكندى (ط . بيروت) ص ١٩٥ : موسى بن أبى العباس ، وفى النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢٣١ (ط . دار الكتب) موسى بن أبى العباس ثابت

درهم ، ووكل به من يوصله إلى بيته ، وقال ابن أبى دؤاد : تصدق المعتصم ووهب على يدى مائة ألف ألف درهم ، هذا على يد رجل واحد فما ظنّك بغيره ! ! قال بعض المؤرخين : إنه لما فتح عموريه امتدحه أبوتمام حبيب ابن أوس الطائى بقصيدته التى أولها :

السيف أصدق إنباء من الكتب

فأعطاه عن كل بيت بها ألف درهم ، وقيل إنّه أقطعه مدينة الموصل رحمه الله تعالى .

ذكر خلافة الواثق بالله

هو أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد هارون بن المهدى بن المنصور ، وأمه أم ولد اسمها قَرَاطِيس ، وهو التاسع من الخلفاء العباسيين ، بويع له فى يوم وفاة أبيه لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائتين

ذكر الفتنة بدمشق

قال : لما توفى المعتصم ثارت القيسية بدمشق وعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم ، فبعث الواثق إلى رجاء بن أيوب الحضارى ، وكان قد توجّه لحرب المبرقع بفلسطين كما قدمناه ، فرجع إليهم فنزل بدير مُرَّان ، وكانوا معسكرين بمرج راهط فدعاهم إلى الطاعة ، فلم يرجعوا وتوعدوا الحرب بدُومة يوم الإثنين ، فلما كان يوم الأحد تفرّقت القَيْسِيَّة ، وسار رجاء إلى دومة الجندل وبعضهم فى حوائجه ، فقاتلهم فهزمهم وقتل منهم ألفا وخمسمائة ، وقتل من أصحابه ثلاثمائة . وهرب مقدّمهم وهو ابن بيهس ، وصلح أمر دمشق وعاد رجاء إلى حرب المبرقع فأسره كما ذكرناه .

وحج بالناس فى هذه السنة جعفر بن المعتصم .

ودخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين .

فى هذه السنة أعطى الواثق لإشناس تاجاً ووشاحين . وحج بالناس فى هذه السنة محمد بن داود ، وغلا السعر بطريق مكة ، فبلغ رطل خبز بدرهم وراوية ماء بأربعين درهما ، وأصاب الناس فى الموقف حرّ شديد ، ثم أصابهم مطرفيه برد ، فاشتد البرد عليهم بعد ساعة من ذلك الحر الشديد ، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة فقتلت عدة من الحجاج .

ودخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

فى هذه السنة حبس الواثق الكتاب وألزمهم أموالاً عظيمة ، فأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه ، ومن سليمان بن وهب – كاتب إيتاخ – أربعمائة ألف دينار ، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار ، ومن إبراهيم بن رباح[1] وكتابه مائة ألف دينار[2] ، ومن أحمد بن الخصيب وكتابه ألف ألف دينار ، ومن نجاح ستين ألف دينار ومن أبى الوزير[3] مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار . وكان سبب ذلك أنه ذكر عنده نكبة البرامكة ، وما حصّل الرشيد من أموالهم ، فنكبهم بعد جمعة

وحج بالناس فى هذه السنة محمد بن داود

ودخلت سنة ثلاثين ومائتين

ذكر مسير بُغا إلى الأعراب بالمدينة وما كان من أمرهم

فى هذه السنة وجّه الواثق بغا الكبير إلى الأعراب ، الذين أغاروا بنواحى المدينة ، وكان سبب ذلك أن بنى سُليم كانت تفسد حول المدينة ، ثم

(١) فى الكامل جـ٥ ص ٢٦٩ : رباح ويتفق الطبرى جـ٧ ص ٣٢١ مع المخطوطات
(٢) هذه الجملة ساقطة من ا ، ص
(٣) فى ص : الوزر والتصويب عن ف ، ك والكامل جـ٥ ص ٣٦٩ والطبرى جـ٧ ص ٣٢١

قويت شوكتهم واغتصبوا أموال الناس ، وأوقعوا بقوم[1] من كِنانَة وبَاهِلة وقتلوا بعضهم فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، فوجّه إليهم محمد بن صالح – عامل المدينة – حماد بن جرير الطبرى فى جيش فقاتلوه ، واشتد القتال فقتل حمّاد وعامّة أصحابه ، وأخذ بنو سليم الكراع والسلاح والثياب . فزاد طمعهم ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة ، فوجه إليهم الواثق بغا الكبير فى جمع من الجند ، فقدم المدينة فى شعبان فلقيهم ببعض مياه الحَرّة – من وراء السُّوارِقيَّة وهى قريتهم ، التى يأوون إليها وبها حصون ، فقتل بغا منهم نحواً من خمسيَن رجلا ، وأسر مثلهم وانهزم الباقون ، وأقام بغا بالسوارقيّة ودعاهم إلى الأمان على حكم الواثق ، فأتوه متفرقين فنزل عنده من يعرف منهم بالفساد وهم زهاء ألف رجل ، وخلّى سبيل الباقين وعاد بالأسرى إلى المدينة فى ذى القعدة ، فحبسهم بها ثم سار إلى مكة ، فلما قضى حجه سار إلى ذات عرق ، وعرض على بنى هلال مثل الذى عرض على بنى سُليم فقبلوه ، فأخذ من مفسديهم نحو ثلاثمائة رجل إلى المدينة فحبسهم ، ثم سار إلى بنى مُرَّة فنقب الأعراب السجن ليخرجوا ، فرأت امرأة النقب فصاحت يا أهل المدينة ! فجاءوا فوجدوهم قد قتلوا الموكلين وأخذوا سلاحهم ، فاجتمع أهل المدينة وقاتلوهم ، فقتل سودان المدينة كل من وجدوه منهم ، وكان مقتلهم فى سنة إحدى وثلاثين ومائتين .

وفيها – أعنى سنة ثلاثين ومائتين – مات عبد الله بن طاهر بنيسابور ، وهو أمير خراسان والسواد والرى وطبرستان وكرمان وما يتصل بها ، وكان خراج هذه الأعمال يوم وفاته ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ، فاستعمل الواثق على أعماله كلها ولده طاهر بن عبد الله بن طاهر . مات أشناس التركى بعد موت ابن طاهر بسبعة أيام

(١) فى ف ، ك : بهم واتبعنا ما فى ص لاتفاقه مع الكامل جـ٥ ص ٢٧٠ المأخوذ عنه

ودخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

ذكر خبر أحمد بن نصر[١] بن مالك الخزاعى وما كان من أمره

فى هذه السنة تحرّك ببغداد قوم مع أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعى ، وجده مالك أحد نقباء بنى العباس ، وكان سبب هذه الحركة أن أحمد بن نصر كان يغشاه أصحاب الحديث كابن معين وابن الدورقى وأبى زهير ، وكان يخالف من يقول بخلق القرآن ويطلق لسانه فيه ، مع غلظة الواثق ، وكان يقول إذا ذكر الواثق : فعل هذا الخنزير ، وقال : هذا الكافر ، وفشاذلك ، وكان يغشاه رجل يعرف بأبى هارون السراج وآخر يقال له طالب وغيرهما ، فدعوا الناس إليه فبايعوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفرّق أبو هارون وطالب فى الناس مالا ، فأعطيا كل رجل ديناراً ، واتعدوا ليلة الخميس لثلاث خلون من شعبان ، ليضربوا بالطبل ويثوروا[٢] على السلطان ، وكان أحدهما فى الجانب الشرقى من بغداد والآخر بالغربى ، فاتفق أن رجلين ممّن بايعهم من بنى الأشرس شربا نبيذا ليلة الأربعاء قبل الموعد بليلة ، فلما أخذ منهم ضربوا الطبل فلم يجبهم أحد . فسمع صاحب الشرطة الطبل فسأل عن الخبر ، فدُل على رجل يكون فى الحمّام مصاب العين يعرف بعيسى الأعور ، فأخذه وقرّره فقرّ على بنى الأشرس وأحمد بن نصر وغيرهم ، فأخذ بعض من سمّى وفيهم طالب وأبو هارون ، ورأى فى منزل بنى الأشرس علمين أخضرين ، ثم أخذ خادماً لأحمد بن نصر فقرّره فأقرّ بمثل ما قال عيسى ، فأرسل إلى أحمد فأخذه وهو فى الحمام ، وفتش بيته فلم يجد فيه سلاحاً ولاشيئاً من الآلات ، فسيّرهم إلى الواثق مقيدين على بغال بأكف بغير وطاء[٣] إلى سامرّا ، فجلس الواثق

(١) كان أحد رجال الحديث المعروفين

(٢) فى ف . ك : ويثبوا واتبعنا ما فى ص لاتفاقه مع الكامل جـ٥ ص ٢٧٣ الذى ينقل منه المؤلف

(٣) نص الطبرى جـ٧ ص ٣٢٨ شبيه بالمخطوطات ويختلف ما فى الكامل جـ٥ ص ٢٧٤ : على أكف بغال ليس تحتهم وطاء وهو تحريف

مجلساً عاماً فيه أحمد بن أبى دؤاد ، فلما حضر أحمد بن نصر عند الواثق لم يذكر له شيئا من فعله والخروج عليه ، بل قال له : ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : كلام الله ، قال : فما تقول فى ربك – أتراه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين – جاءت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر – لا تضامون فى رؤيته) ، وحدثنى سفيان بحديث رفعه (أنّ قلب ابن آدم [المؤمن[1]] بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه) ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو : يا مقلّب القلوب ثبّت قلبى على دينك ، فقال الواثق لمن حوله : ما تقولون فيه ؟ ! فقال عبد الرحمن بن إسحاق : هو حلال الدم ، وقال بعض أصحاب ابن أبى دؤاد : اسقنى دمه ، وقال ابن أبى دؤاد : هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل ، وكان كارها لقتله ، فقال الواثق : إذا رأيتمونى قد قمت إليه فلا يقومنّ أحد ، فإنى احتسب خطاى إليه ، ودعا بالصَّمْصَامَة ومشى إليه وهو فى وسط الدار على نطع ، فضربه على حبل عاتقه ثم ضربه على رأسه ، ثم ضرب سيما الدمشقى عنقه وطعنه الواثق بطرف الصمصامة فى بطنه ، وصلب عند بابك وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها ، وكتب فى أذنه رقعة : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر ، وتتبع أصحابه فجعلوا فى الحبوس هذا ما حكاه ابن الأثير فى تاريخه الكامل .

وقد حكى الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت[2] خبر مقتله ، فذكر ما تقدمّ وذكر زيادات أخرى بأسانيد رفعها ، قد رأينا أن نثبت منها طرفا ، فقال بسند رفعه إلى محمد بن يحيى الصولى : إنّه لما حمل أحمد بن

(١) ليست فى المخطوطات ولا فى الطبرى جـ٧ ص ٣٢٨ واثبتناها عن الكامل جـ٥ ص ٢٧٤

(٢) هو الخطيب البغدادى أورد القصة فى (بغداد جـ٥ ص ١٧٦ وما بعدها) عن القاضى أبى عبد الله الصيمرى عن محمد بن عمران المرزبانى عن محمد بن يحيى الصولى

نصر وأصحابه إلى الواثق بسّر من رأى جلس لهم الواثق ، وقال لأحمد بن نصر : دع ما أخذت له – قال : ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : كلام الله ، قال : أفترى ربك فى يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءت الرواية ، قال : ويحك ! ! كما يرى المحدود المتجسم ويحويه مكان ويحصره الناظر ! ! أنا أكفر برب هذه صفته ، ما تقولون فيه ؟ فذكر من كلام عبد الرحمن بن إسحاق ماتقدم ، وقال جماعة من الفقهاء كما قال ، فأظهر ابن أبى دؤاد أنه كاره لقتله فقال للواثق : يا أمير المؤمنين – شيخ مختلّ لعله به عاهة أو تغير عقل ، يؤخر أمره ويستتاب . فقال الواثق : ما أراه إلامؤديا لكفره ، قائما بما يعتقد منه ، وذكر من قيام الواثق إليه نحو ما تقدّم ، إلا أنه قال إن الواثق ضرّب عنقه .

ثم قال بسند آخر رفعه إلى جعفر بن محمد الصائغ[1] أنه قال : بصر عيناى – وإلا فعميتا – وسمع أذناى – وإلا فُصُمتا – أحمد بن نصر الخزاعى حيث ضربت عنقه يقول رأسه : لا إله إلا الله .

وقال بسند آخر إلى العباس بن سعيد[2] : نسخة الرقعة المعلقة فى أذن أحمد بن نصر – بسم الله الرحمن الرحيم هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبد الله الإمام هارون – وهو الواثق بالله أمير المؤمنين – إلى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه فأبى إلا المعاندة ، فجعله الله إلى ناره .

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات[3] قال : ولما جلس المتوكل دخل عليه عبد العزيز بن يحيى المكى فقال : يا أمير المؤمنين – ما رئى أعجب من أمر الواثق قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن . قال : فوجد المتوكل من ذلك وساءه ما سمعه فى أخيه ، إذ دخل عليه محمد بن عبد

(١) راجع الخطيب البغدادى – بغداد جـ٥ ص ١٧٧
(٢) المصدر السابق : نفس الصفحة
(٣) المصدر السابق جـ٥ ص ١٧٨

الملك الزيات ، فقال له : يا ابن عبد الملك – فى قلبى من قتل أحمد بن نصر ، فقال له : يا أمير المؤمنين – أحرقنى الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً ، ودخل عليه هرثمة فقال : يا هرثمة – فى قلبى من قتل أحمد بن نصر ، فقال : يا أمير المؤمنين – قطعنى الله إرباً إرباً إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرا ، قال : ودخل عليه أحمد بن أبى دؤاد ، فقال : يا أحمد – فى قلبى من قتل أحمد بن نصر ، فقال : يا أمير المؤمنين – ضربنى الله بالفالج إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرا ، قال المتوكل : فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار ، وأما هرثمة فإنّه هرب وتبّدى ، واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل فى الحىّ فقال : يا معشر خزاعة – هذا الذى قتل ابن عمكم أحمد بن نصر ، فقطعوه إربا إربا ، وأما ابن أبى دؤاد فقد سجنه الله فى جلده .

وقال أحمد بن كامل القاضى[1] عن أبيه أنه وكل برأس أحمد بن نصر من يحفظه بعد أن نصب برأس الجسر ببغداد ، وأن الموكل به ذكر أنه يراه بالليل يستدير إلى القبلة بوجهه ، فيقرأ سورة يس بلسان طلق ، وأنّه لما أخبر بذلك طلب فخاف على نفسه فهرب . وقال بسند آخر إلى إبراهيم بن إسماعيل بن خلف[2] : كان أحمد بن نصر خلّى ، فلما قتل فى المحنة وصلب رأسه أخبرتُ أن الرأس يقرأ القرآن ، فمضيت فبت بقرب من الرأس مشرفا عليه . وكان عنده رجّالة وفرسان يحفظونه ، فلما هدأت العيون سمعت الرأس يقرأ ﴿الم ، أحَسِبَ الناسُ أنْ يُتْرَكوا أنْ يقولوا آمَنَّاوهُمْ لا يُفْتَنُون[3]﴾ فاقشعر جلدى ، ثم رأيته بعد ذلك فى المنام وعليه السندس والاستبرق وعلى

(١) المصدر السابق جـ٥ ص ١٧٨ ونص ما جاء فيه : وأخبرنى أبى أنه رآه . قال وكان شيخا أبيض الرأس واللحية . وأخبرنى أنه وكل برأسه يحفظه بعد أن نصب برأس الجسر . وأن الموكل به ذكر ....

(٢) راجع الخطيب البغدادى – بغداد جـ٥ ص ١٧٩

(٣) سورة العنكبوت آية ٢

رأسه تاج ، فقلت : ما فعل الله بك يا أخى ؟ قال : غفر لى وأدخلنى الجنّة ، إلا أنى كنت مغموما ثلاثة أيام ، قلت : ولم ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بى فلما بلغ خشبتى حوّل وجهه عنى ، فقلت له بعد ذلك : يارسول الله – قتلت على الحق أو على الباطل ؟ فقال : أنت على الحق ولكن قتلك رجل من أهل بيتى ، فإذا بلغت إليك أستحيى منك .

وقال بسند إلى أبى جعفر الأنصارى[1] : سمعت محمد بن عبيد – وكان من خيار الناس – يقول : رأيت أحمد بن نصر فى منامى فقلت يا أبا عبد الله ما صنع بك ربك ؟ قال : غضبت له فأباحنى النظر إلى وجهه تعالى .

قال : وكان مقتله يوم السبت غرة رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، وأنزل رأسه يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وجمع رأسه وبدنه ودفن بالجانب الشرقى فى المقبرة المعروفة بالمالكية

ذكر الفداء بين المسلمين والروم

فى هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم ، فاجتمع المسلمون على نهر اللاّمس على مسيرة يوم من طَرَسُوس ، واشترى الواثق من ببغداد وغيرها من الروم ، وعقد الواثق لأحمد بن سَلْم[2] بن قتيبة الباهلى على الثغور وللعواصم ، وأمره بحضور الفداء هو وخاقان الخادم ، وأمرهما أن يمتحنا أسرى المسلمين ، فمن قال : القرآن مخلوق وأنّ الله لأيرى فى الآخرة – فودى به وأعطى دينارا ، ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم ، فلما كان فى عاشوراء سنة إحدى وثلاثين اجتمع المسلمون ومن معهم من الأسرى على نهر ، وأتت الروم ومن معهم من الأسرى ، وكان النهر بين الطائفتين ، فكان

(١) راجع الخطيب البغدادى – بغداد جـ٥ ص ١٨٠
(٢) فى ص : مسلم وهو خطأ من الناسخ

المسلمون يطلقون أسيراً فيطلق الروم أسيراً ويلتقيان فى وسط النهر . ويأتى هذا لأصحابه وهذا لأصحابه حتى فرغوا ، وكان عدّة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعة وستين[١] نفسا ، والنساء والصبيان ثمانمائة ، وأهل الذمة مائة نفس .

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

ذكر وفاة أبى جعفر الواثق وشىء من أخباره.

كانت وفاته بسامرا فى يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة منها . وكانت علته[٢] الاستسقاء فعولج بالإقعاد فى تنور مسخن . فوجد لذلك خفة فأمرهم من الغد بالزيادة فى إسخانه ، ففعل ذلك وجلس فيه أكثر من اليوم الأول ، فحمى عليه فأخرج منه ووضع فى محفة فمات فيها ، ولم يشعر به حتى ضرب وجهه المحفة ؛ وقيل إن أحمد بن أبى دؤاد حضر وفاته وغمّضه ، وقيل إنه لما حضرته الوفاة جعل يردد هذين البيتين :

الموت فيه جميع الخلق مشترك ... لا سوقةٌ منهم تبقى ولا ملك
ماضرّ أهلٌ قليل فى تفاقرهم ... وليس يغنى عن الأملاك[٣] ماملكوا

وأمر بالبسط فطويت وألصق خده بالأرض ، وجعل يقول : يامن لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه . وقال أحمد بن محمد الواثق : كنت فيمن يمرّض[٤] الواثق ، فلحقته غشية وأنا وجماعة من أصحابة قيام ، فقلنا لو عرفنا خبره ! فتقدمت إليه فلما صرت عند رأسه فتح عينيه فكدت أموت خوفا ،

---

(١) هذه إحدى الروايات ، وفى الطبرى جـ٧ ص ٣٣٢ رواية أخرى تقول إن عددهم أربعة آلاف وستمائة

(٢) فى ص: عليه وهو تحريف .

(٣) فى الكامل جـ٥ ص ٢٧٧ الملاك

(٤) فى ص : مرض

فرجعت إلى خلفى وتعلقت قُنْبُعَة[١] سيفى بعتبة المجلس ، فاندقت وسلمت من جراحه ، ووقفت فى موقفى ثم مات الواثق وسحبناه ، وجاء الفراشون فأخذوا ماتحته فى المجلس ورفعوه لأنه مكتوب عليهم ، واشتغل الناس بأخذ البيعة وجلست على باب المجلس لحفظ الميت ، ورددت الباب فسمعت حسًا ففتحت الباب ، فإذا جرذ قد دخل من بستان هناك فأكل إحدى عينى الواثق ، فقلت : لا إله إلا الله ـ هذه العين التى فتحها من ساعة ، فاندق سيفى هيبة لها ، صارت طعمة لدابة ضعيفة ، فسألنى ابن أبى دؤاد عن عينه فذكرت له القصة فعجب منها ، وصلى عليه ابن أبى دؤاد وأنزله فى قبره ، وقيل صلى عليه أخوه المتوكل ، ودفن بالهارونى ، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة ، وقيل ستا وثلاثين سنة وشهوراً ، وقيل سبعا وثلاثين ، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام . وكان أبيض مشربا بحمرة جميلا ربع القامة حسن الجسم بعينه اليمنى وقيل اليسرى نكته بياض .

وقد وقفت فى أثناء مطالعتى على حكاية غريبة اتفقت للواثق ، أحببت أن أضمها إلى أخباره ، وهى مارواه أبو الفرج الأصبهانى[٢] بسنده إلى محمد ابن الحارث ، قال : كانت لى نوبة فى خدمة الواثق فى كل جمعة . إذا حضرت ركبت إلى الدار ، فإن نشط إلى الشرب أقمت عنده ، وإن لم ينشط انصرفت ، وكان رسمنا الا يحضر أحد منا إلا يوم نوبته ، فإنى لفى منزلى فى يوم غير يوم نوبتى إذا برسل قد هجموا على ، وقالوا لى : احضر ، فقلت خيرا[٣] ، قالوا : خير ، فقلت : إنّ هذا يوم لم يحضرنى فيه أمير المؤمنين قط ، ولعلكم غلطتم ، قالوا : الله المستعان ـ لا تطل[٤] وبادر ، فقد أمرنا ألا ندعك تستقر على الأرض ، فدخلنى فزع شديد وخفت أن يكون سعى بى

(١) مثل المقنعة تخاط
(٢) أورد الأغانى القصة فى جـ٤ ص ١١٥ – ص ١١٨ (ط . دار الكتب)
(٣) فى الأغانى جـ٤ ص ١١٥ : ألخير
(٤) فى المخطوطات : لا تطول

ساع[١] ، أو بليّة قد حدثت فى رأى الخليفة علىّ ، فتقدمت بما أردت وركبت حتى وافيت الدار ، فذهبت لأدخل على رسمى من حيث كنت أدخل فمنعت، وأخذ بيدى الخدم فعدلوا[٢] بى إلى ممرات لاأعرفها ، فزاد ذلك فى جزعى وغمّى ، ثم لم يزل الخدم يسلمونى من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة بالصخر[٣] ، ملبّسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ، ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة[٤] بمثل ذلك .

قال : وإذا الواثق فى صدره على سرير مرصّع بالجوهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه فريدة جاريته عليها مثل ثيابه وفى حجرها عود ، فلما رآنى قال : جوّدت[٥] والله يامحمد – إلينا إلينا ، فقبّلت الأرض ثم قلت : يا أمير المؤمنين – خيرا ! قال : خيرا[٦] – ما ترانا طلبتُ والله ثالثا يؤنسنا ! فلم أر أحق بذلك منك ، فبحياتى بادر فكُلْ شيئا وبادر إلينا ، والله[٧] – يا سيّدى – قد أكلت وشربت أيضا ، قال : اجلس فجلست . وقال : هاتوا لمحمد رطلا فى قدح فأحضرت ذلك ، واندفعت فريدة تغنى :

أهابك إجلالا وما بك قدرة علىّ ولكن ملْ عين[٨] حبيبها
وما هجرتك النفس ياليل أنّها قلتك ولا أن قلّ منك نصيبها

فجاءت والله بالسحر ، وجعل الواثق يجاذبها وفى خلال ذلك تغنى[٩] الصوت بعد الصوت ، وأغنّى فى خلال غنائها . فمرّ لنا أحسن ما مرّ لأحد ، فإنّا لكذلك إذ رفع رجله فضرب بها صدر فريدة ، ضربة

(١) فى الأغانى جـ٤ ص ١١٥ : أن يكون ساع قد سعى بى
(٢) فى الأغانى جـ٤ ص ١١٦ : فأدخلونى وعدلوا بى
(٣) فى المصدر السابق : الصحر وهو تحريف
(٤) ساقطة من المخطوطات
(٥) أى أسرعت
(٦) فى الأغانى جـ٤ ص١١٦ : أما ترانا
(٧) فى المصدر السابق : قد والله
(٨) فى ف : نفس
(٩) فى المخطوطات : ما تغنى والتصويب عن الأغانى جـ٤ ص١١٦

تدحرجت منها من أعلى السرير إلى الأرض ، وتفتّت عودها ، ومرّت تعدو وتصيح وبقيت كالمنزوع الروح ، فلم أشك فى أنّ عينه وقعت علىّ – وقد نظرت إلىّ ونظرت إليها ، فأطرق ساعة[1] إلى الأرض متحيراً ، وأطرقت أتوقع ضرب العنق ، فإنى لكذلك إذ قال لى : يامحمد – فوثبت ، فقال : ويحك أرأيت أعجب[2] ممّا تهيّأ علينا !! فقلت : يا سيّدى الساعة[3] تخرج روحى ، فعلى من أصابنا بعين لعنة الله ، فما كان السبب والذنب[4] ؟ قال : لا والله ، ولكنّى ذكرت[5] فى أنّ جعفرا يقعد غدا هذا المقعد ، وتقعد معه كما هى قاعدة معى ، فلم أطق الصبر وخامرنى ما أخرجنى إلى ما رأيت ، فسرّى عنّى وقلت : بل يقتل الله جعفرا ويحيا أمير المؤمنين أبدا ، وقبّلت الأرض وقلت : يا سيدى[6] إرحمها ومُرْ بردّها ، فقال لبعض الخدم الوقوف مرّ[7] وجئ بها ، فلم يكن بأسرع من أن خرجت وفى يدها عود ، وعليها غير الثياب التى كانت عليها ، فلما رآها جذبها إليه وعانقها ، فبكت وجعل هو يبكى واندفعت أنا فى البكاء ، فقالت : ماذنبى يامولاى[8] ؟ وبأى شئ استوجبت هذا ؟ فأعاد عليها ما قال لى وهو يبكى[9] . فقالت سألتك بالله ياأمير المؤمنين إلا ضربت عنق الساعة ، وأرحتنى من الفكر فى هذا وأرحت قلبك من الهمّ[10] ، وجعلت تبكى ويبكى ثم مسحا أعينهما ، ثم رجعت إلى الغناء . وأومأ إلى خدم وقوف بشئ

---

(١) ساقطة من المخطوطات وأثبتناها عن الأغانى جـ٤ ص١١٧
(٢) فى الأغانى جـ٤ ص١١٧ (وطبعة الساسى) جـ٣ ص١٧٨ : أغرب
(٣) يزيد الأغانى جـ٤ ص١١٧ بعدها : والله
(٤) فى الأغانى جـ٤ ص١١٧ : ألذنب لا تسبقها الواو
(٥) فى المصدر السابق : فكرت
(٦) فى المصدر السابق يزيد بعدها الله الله
(٧) فى المصدر السابق من وهو تحريف
(٨) فى المصدر السابق زيادة وياسيدى
(٩) فى المصدر السابق زيادة . وهى تبكى
(١٠) فى المصدر السابق إضافة لى

لا أعرفه ، فمضوا وأحضروا أكياساً فيها عين وورق ، ورزما فيها ثياب كثيرة ، وجاء خادم بدَرَج ففتحه وأخرج منه عقدا ما رأيت قط مثل جوهر كان فيه ، فألبسه إياها ، وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف[١] فجعلت بين يدى ، وخمسة تخوت فيها ثياب ، وعدنا إلى أمرنا وإلى أحسن ما كنّا[٢] فيه ، فلم نزل كذلك إلى الليل ثم تفرّقنا ، وضرب الدهر ضربة وتولى المتوكل ، فوالله إنى لفى منزلى بعد[٣] يوم نوبتى ، إذ هجم علىّ رسل[٤] الخليفة فلم يمهلونى حتى ركبت وصرت إلى الدار ، فأدخلت – والله – الحجرة بعينها ، وإذا المتوكل فى الموضع الذى كان فيه الواثق على السرير بعينه وإلى جانبه فريدة ، فلما رآنى قال : ويحك ما ترى ما[٥] أنا فيه من هذه – منذ غدوة ! ! أطالبها أن تغنى[٦] فتأبى ذلك ، فقلت لها : ياسبحان الله تخالفين سيّدك وسيّدنا وسيّد البشر ! ! بحياته غنّى فضربت[٧] والله ثم اندفعت تغنّى :

مقيمٌ بالمجازة من قَنَوْنا وأهلك بالأجيفر والثماد[٨]
فلا تبعد فكل فتًى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى

ثم ضربت بالعود الأرض ورمت بنفسها عن السرير ، ومرّت تعدو وهى تصيح واسيّداه ، فقال لى : ويحك ما هذا فقلت : لا أدرى والله – ياسيّدى ، قال : ما ترى ؟ قلت أرى[٩] أن تحضر هذه ومعها

(١) فى المصدر السابق : درهم
(٢) فى الأغانى جـ٤ ص١١٧ (ط .دار الكتب) : مما
(٣) ساقطة من المخطوطات والتصويب عن المصدر السابق ص١١٨
(٤) فى ف . ك : رسول
(٥) فى الأغانى جـ٤ ص١١٨ (ط . دار الكتب) : أم
(٦) فى المصدر السابق : تغنينى
(٧) فى المصدر السابق : فعرفت وهو تحريف
(٨) فى المصدر السابق : فالثماد
(٩) فى الأغانى (جـ٤ ص١١٨ ط . دار الكتب) (وطبعة الساسى جـ٣ ص١٧٨) : أرى أن أنصرف وتحضر ..

غيرها فإنّ الأمر يئول إلى ما يريد أمير المؤمنين ، قال : فانصرف فى حفظ [١] الله ، فلم أدر ما كانت القصّة .

قال : وكان الواثق قد ذهب فى أموره مذهب المأمون ، وشغل نفسه بمحنة الناس فى الدين وأفسد قلوبهم ، ولما ولى الخلافة أحسن إلى العلويين واشتمل عليهم وبالغ فى إكرامهم وتعاهدهم بالأموال ؛ وفرّق فى أهل الحرمين أموالا لا تحصى ، حتى إنه لم يوجد فى أيامه بالحرمين سائل ، حتى إنّه – لما توفى – كان أهل المدينة تخرج من نسائهم كل ليلة إلى البقيع فيبكين عليه ويندبنه ، يفعلن ذلك بينهن مناوبة حزنًا عليه لإحسانه لهم ؛ وأطلق فى خلافته أعشار سفن البحر وكانت مالاً عظيماً .

وكان نقش خاتمه : الله ثقة الواثق . أولاده : محمد المهتدى بالله ، وعبد الله ، وإبراهيم ، ومحمد وعائشة . وزيره : محمد بن عبد الملك الزيات . حجابه إيتاخ ثم وصيف مولاه ثم أحمد بن عمار . قاضيه : أحمد ابن أبى دؤاد . الأمراء بمصر : على بن يحيى الأرمنى ثم عيسى بن منصور من قبل إشناس ، فلما توفى إشناس ردّت مصر إلى إيتاخ فأقرّ عيسى بن منصور عليها . قاضيها : محمد بن أبى الليث .

ذكر خلافة المُتَوَكّل على الله

هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ، وأمه تركية اسمها شُجاع ، وهو العاشر من الخلفاء العباسيين ، بويع له يوم وفاة أخيه الواثق لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، قال : ولما توفى الواثق حضر الدار أحمد بن أبى دؤاد وإيتاخ ووصيف وعمر ابن فرج وابن الزيات وأبو الوزير أحمد بن خالد ، وعزموا على البيعة لمحمد

(١) غير موجودة بالأغانى بطبعتيه المذكورتين

ابن الواثق وهو غلام أمرد قصير ، فألبسوه درّاعة سوداء وقلنسوة فإذا هو قصير ، فقال وصيف : أما تتقون الله - تولون مثل هذا الخلافة ! ! فتناظروا فيمن يولّونه فذكروا عدة ثم أحضروا المتوكل . فألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعمّمه وقبّله بين عينيه ، وقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله ، وكان عمر المتوكل يوم ذاك ستا وعشرين سنة ، ووضع العطاء للجند لثمانية أشهر . قال : وأراد ابن الزيات أن يلقّبه ، فقال أحمد ابن أبي دؤاد : قد رأيت لقبا أرجو أن يكون موافقا ـ وهو المتوكل على الله ، فأمر بإمضائه فكتب به إلى الآفاق . وقيل بل رأى المتوكل فى منامه قبل أن يستخلف كأنّ سكّرا ينزل من السماء - مكتوب عليه المتوكل على الله ، فقصّها على أصحابه فقالوا : هى الخلافة ، فبلغ ذلك الواثق فحبسه وضيّق عليه .

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

ذكر القبض على محمد بن عبد الملك الزيات

وفى هذه السنة لسبع [1] خلون من صفر قبض المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان سبب ذلك أنّ الواثق كان قد استوزره وفوّض إليه الأمور كلها ؛ وكان قد غضب على أخيه جعفر المتوكل ، ووكل عليه من يأتيه بأخباره كلها ، فجاء المتوكل إلى ابن الزيات فسأله أن يكلّم الواثق ليرضى عنه ، فوقف بين يديه وهو لا يكلّمه ، ثم أشار إليه بالقعود فجلس ، فلما فرغ من الكتب التى بين يديه التفت إليه كالمتهدّد ، وقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لتسأل أمير المؤمنين الرضا عنّى ، فالتفت إلى من حوله وقال : انظروا يغضب أخاه ثم يسألنى أن أسترضيه له ، اذهب فإنّك - إذا

(١) اخترنا ما فى الكامل (جـ٥ ص٢٧٩) لأن المؤلف ينقل منه كما أن الطبرى جـ٧ ص٣٤٤ يؤيده وفى المخطوطات : فى ف .ك ست . وفى ص تسع وكلاهما تحريفان ، وفى وفيات الأعيان جـ٤ ص١٨٧ (ط . ١٩٤٨م) ثمان

صلحت – رضى عنك ، فقام من عنده حزينا[١] وأتى أحمد بن أبى دؤاد ، فقام إليه واستقبله على باب البيت وقبّل يده ، وقال : ماحاجتك ؟ جعلت فداك ، قال : جئت لتسترضى عنّى أمير المؤمنين ، قال : أفعل ونعمة عين وكرامة ، وكلّم أحمد الواثق فيه فوعده – ولم يرض عنه ، ثم كلّمه ثانية فرضى عنه وكساه

قال : ولما خرج المتوكل من عند ابن الزيّات ، كتب أن جعفرا أتانى فى زى المخنثين له شعرقفا ، يسألنى أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه ، فكتب إليه الواثق : ابعث إليه وأحضره ، ومر بجزّ شعر قفاه ، قال المتوكل : لما أتانى رسوله لبست سوادا جديدا ، وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضا عنّى ، فاستدعى حجاما وأخذ شعرى على السواد الجديد ، ثم ضرب به وجهى ، فلما ولى المتوكل الخلافة أمهله إلى صفر ، وأمر إيتاخ بأخذ ابن الزيات وتعذيبه ، فاستدعاه وأدخله حجرة ووكل به ، وأرسل من أصحابه من هجم منازله وأخذ كل ما فيها ، واستصفى أمواله وأملاكه فى جميع البلاد ، ثم جعله فى تنّور كان قد عمله هو وعذّب به ابن أسباط[٢] وأخذ ماله ، وكان التنّور من خشب فيه مسامير من حديد ، أطرافها إلى داخل التنور ، يمنع من يكون فيه من الحركة ، وكان ضيّقا بحيث إن الانسان إذا دخل فيه يمد يديه إلى رأسه ليقدر على دخوله لضيقه ، فبقى أياما ومات لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول منها ، وقيل:بل ضرب فمات وهو يضرب ، وقيل مات بغير ضرب ؛ وقد تقدّم أن المتوكل حرقه بالنار والله أعلم .

ولما مات ألقى على الباب بقميص فغسّل ودفن ، فقيل إن الكلاب

(١) ف ف ك فقام حزينا . وفى ص فقام عنه حزينا . والتصويب عن الكامل جـ٥ ص٢٧٩

(٢) هكذا فى الطبرى جـ٧ ص٣٤٥ بغير هذه القراءة الاستئناس بذكر إبراهيم بن أسباط بن السكن (النجوم الزاهرة جـ٢ ص٢٦٦) أما فى الكامل جـ٥ ص٢٨٠ فذكور . أسماط وهو ما يشبه أن يكون تحريفا . ونقلته المخطوطات أسلط . وامكان رد هذه الى التحريف يسير .

نبشته وأكلت لحمه . قال : وسمع قبل موته يخاطب نفسه ويقول : يا محمد لم تقنعك النعمة والدواب والدار النظيفة والكسوة وأنت فى عافية ، حتى طلبت الوزارة – ذق ما عملت بنفسك ثم سكت ، وكان لا يزيد على التشهد وذكر الله عزّ وجل .

وفيها حبس عمر بن الفرج الرُّخَّجِى ، وكان سبب ذلك أن المتوكل أتاه لما كان أخوه الواثق ساخطاً عليه ، ومعه صك ليختمه عمر له ليقبض أرزاقه من بيت المال ، فأخذ عمر صكّه فرمى به إلى صحن المسجد ، فحقدها المتوكل ثم حبسه فى شهر رمضان ، وأخذ ماله وأثاث بيته وأصحابه ، ثم صولح على أحد عشر[1] ألف ألف على أن يرد إليه ضياع الأهواز .

وفيها غضب المتوكل على إبراهيم[2] بن الجُنَيْد النصرانى ، وأخذ ماله ومال أخيه وكاتبه . وفيها عزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج ، وولّاه يحيى بن خاقان الخراسانى مولى الأزد ، وولى إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ديوان زمام النفقات .

وحجّ بالناس فى هذه السنة محمد بن داود .

ودخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين .

ذكر خبر إيتاخ وابتداء أمره وقتله

كان إيتاخ غلاما خزريا ، وكان طبّاخا لسَلَّام الأَبْرَش ، فاشتراه منه المعتصم فى سنة تسع وتسعين ومائة ، وكان فيه شجاعة فرفعه المعتصم والواثق وضمّ إليه أعمالا كثيرة ، منها المعونة بسامرّا مع إسحاق بن إبراهيم ، فلما صار

(١) هكذا فى المخطوطات والكامل جـ٥ ص٣٨٠ أما فى تاريخ الطبرى جـ٧ ص٣٤٧ فالمبلغ عشرة آلاف ألف درهم

(٢) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص٣٤٧ وفى الكامل جـ٥ ص٢٨٠ . سليمان بن ابراهيم بن الجنيد وهو خطأ

الأمر إلى المتوكل كان معه على أكثر من ذلك ، وجعل إليه الجيش والمغاربة والأتراك والأموال والبريد والحجابة ودار الخلافة ، فلما تمكّن المتوكل من الخلافة شرب ليلة ، وعربد على إيتاخ فهمّ بقتله ، فلما أصبح المتوكل قيل له فاعتذر إليه ، وقال : أنت ربّيتنى وأنت بمنزلة الوالد وما يناسب ذلك ، ثم وضع عليه من يحسّن له الحج ، فاستأذن فيه المتوكل فأذن له ، وصيّره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وسار العسكر جميعه بين يديه ، فلما فارق جعلت الحجابة إلى وصيف الخادم فى ذى القعدة[1] . قال : فلمّا عاد إيتاخ من مكة كتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد يأمره بحبسه ، فلما قرب إيتاخ من بغداد خرج إسحاق بن إبراهيم إلى لقائه ، وكان إيتاخ أراد المسير على الأنبار إلى سامرّا ، فكتب إليه إسحاق : إنّ أمير المؤمنين قد أمر أن تدخل بغداد ، وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس ، وأن تقعد لهم فى دار خزيمة بن خازم وتأمر لهم بالجوائز ، فجاء إلى بغداد فلما لقيه إسحاق أراد النزول له ، فحلف إيتاخ عليه ألا يفعل - وكان فى ثلاثمائة من غلمانه ، فلما حصل بباب دار خزيمة وقف إسحاق ، وقال له : يدخل الأمير أصلحه الله،فدخل إيتاخ ومنع إسحاق أصحاب إيتاخ من الدخول، ووكل بالأبواب وأقام عليها الحرس ، فحين رأى إيتاخ ذلك قال : قد فعلوها !! ولو لم يفعلوا ذلك ببغداد ما قدروا عليه ، وأخذوا معه ولديه منصوراً ومظفراً وكاتبه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد فحبسوا ، وقيّد إيتاخ وجعل فى عنقه ثمانون رطلاً ، فمات فى جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين ، وأشهد إسحاق جماعة من الأعيان أنه لا ضرب به ولا أثر ، قيل إنهم أطعموه ومنعوه الماء فمات عطشاً .

وحجّ بالناس محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

---

(١) فى ص : الحجة وهو خطأ واضح

ودخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين .

فى هذه السنة عقد المتوكل البيعة بولاية العهد لبنيه الثلاثة ، وهم محمد ولقبه المنتصر ، وأبو عبد الله محمد وقيل طلحة وقيل الزبير ولقبه المعتز بالله ، وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله ، وعقد لكل واحد منهم لواءين - أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل ، وأعطى كل واحد منهم ما نذكره :

فأما المنتصر بالله فأقطعه أفريقية والمغرب كله والعواصم [وقنسرين][1] والثغور جميعها الشامية والجزرية وديار مضروربيعة وهيت والموصل وعانات[2] والخابور[3] وكورباجرمى[4] وكور دجلة وطساسيج السواد جميعها والحرمين واليمن[5] وحضرموت [واليمامة][6] والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز والمستغلات بسامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماسبذان[7] ومهرجانقذق وشهرزور[8] والصامغان وأصبهان وقم وقاشان[9] والجبل جميعه وصدقات العرب بالبصرة .

وأما المعتز بالله فأقطعه كورخراسان وما ينضاف إليها ، وطبرستان ، والرى ، وأرمينية ، وأذربيجان وكور فارس ، ثم أضاف إليه فى سنة أربعين خزن الأموال فى جميع الآفاق ، ودور الضرب ، وأمر أن تختم[10] الدراهم باسمه .

(١) لم توردها المخطوطات وهى عن الكامل جـ٥ ص٢٨٤ الذى ينقل منه المؤلف
(٢) يؤيد الطبرى جـ٧ ص٣٥٨ المخطوطات وفى الكامل جـ٥ ص٢٨٤ : عانة
(٣) يذكر الطبرى جـ٧ ص٣٥٨ : وقرقيسيا
(٤) يذكر الطبرى جـ٧ ص٣٥٨ : ونكربت
(٥) يذكر المصدر السابق أيضا : وعك
(٦) لم ترد بالمخطوطات وهى بالكامل جـ٥ ص٢٨٤
(٧) ذكرها الكامل جـ٥ ص٢٨٤ : ماه سبذان ولكنها لا تكتب بالعربية كذلك وكما ذكرتها المخطوطات تذكرها المصادر العربية الأخرى
(٨) يضيف الطبرى جـ٧ ص٣٥٨ : ودراباذ
(٩) تكتبها المخطوطات : قاجان وليس هذا بخطأ ، هذا ويضيف الطبرى جـ٧ ص٣٥٨ : قاشان وقزوين
(١٠) فى الكامل جـ٥ ص٢٨٤ والطبرى جـ٧ ص٣٥٨ : بضرب

وأما المؤيّد بالله فإنّه أقطعه جند حمص ، وجند دمشق ، وجند فلسطين [١]

ذكر ظهور رجل يدعى النبوّة

وفيها ظهر رجل بسامرّا يقال له محمود بن الفَرَج [٢] النيسابورى ، وزعم أنّه نبى وأنّه ذو القرنين ، وتبعه سبعة وعشرون رجلا ، وخرج من أصحابه ببغداد رجلان بباب العامة واثنان بالجانب الغربى ، فأتى به وبأصحابه إلى المتوكل فضرب ضرباً شديداً ، وحمل إلى باب العامة فأكذب نفسه ، وأمر أصحابه أن يصفعه كل واحد عشر صفعات ففعلوا ، وأخذوا له كتابًا فيه كلام قد جمعه وذكر أنّه قرآن ، وأن جبرئيل نزل به عليه ، ثم مات من الضرب فى ذى الحجة وحبس أصحابه ، وكان فيهم شيخ يزعم أنّه نبى وأن الوحى يأتيه .

وفيها أمر المتوكل أهل الذمّة بلبس الطَّيَالِسة العسلية ، وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب ، وعمل كرتين فى مؤخر السرج ، وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفتين لون الثياب ، قدر كل رقعة منهما أربع أصابع ، ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عسليًّا ، ومنعهم من لباس المناطق ، وأمر بهدم بيعهم المستحدثة ، وبأخذ العشر من منازلهم ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ، ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان — ولا يعلمهم مسلم ، ونهى أن يظهروا فى شعانينهم صليبا ، وأن يشعلوا فى الطريق ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

وحجّ بالناس محمد بن داود

---

(١) يضيف الطبرى حـ٧ ص٣٥٨ : وجند الأردن

(٢) هكذا فى الكامل حـ٥ ص٢٨٤ والطبرى حـ٧ ص٣٥٧ وفى المخطوطات : فرج من غير أل التعريف وهى شائعة الاستعمال فى أسماء الأشخاص فى هذه البلاد إلى الآن .

ودخلت سنة ست وثلاثين ومائتين .

ذكر ما فعله المتوكل بمشهد الحسين بن على رضى الله عنهما

فى هذه السنة أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على رضى الله عنهما ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه ، فنادى فى الناس فى تلك الناحية : من وجدناه عند قبره بعد ثالثة حبسناه فى المطبق ، فهرب الناس وتركوا زيارته وحرث وزرع ، وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه - ولأهل بيته ، وكان يقصد من يتولى عليا وأهل بيته بأخذ المال والروح ؛ وكان من جملة ندمائه عبادة المخنّث ، وكان أصلع فيشد تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه ويرقص ، [والمغنون[1] يغنون] قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين ، يحكى بذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والمتوكل يشرب ويضحك ، فرآه المنتصر فتهدّده فسكت خوفا منه ، فقال له المتوكل : ماحالك ! فأخبره ، فقال المنتصر : ياأمير المؤمنين - إنّ هذا الذى يحكيه - هذا الكلب - ويضحك منه الناس هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك ، فكل أنت لحمه إذا شئت ، ولا تطمع هذا الكلب وأمثاله فيه ، فقال المتوكل للمغنين غنّوا :

غار الفتى لابن عمّه راس الفتى فى حرامه

وكان هذا من الأسباب التى استحلّ بها المنتصر قتل المتوكل .

وفيها غزا على بن يحيى الأرْمَنِى الصائفة ، فلقى صاحب الروم فى ثلاثين ألفا ، وكان علىّ فى نحو ثلاثة آلاف ، فهزم الرومىّ وقتل أكثر من عشرين ألفا ، ثم مضى إلى عمّورية فافتتحها وغنم ما فيها ، وأخرج منها أسارى من المسلمين وكانوا خلقاً كثيراً ، وخرّب كنائسها ، وفتح أيضا حصنًا

(١) سقط من المخطوطات يدل على ذلك السياق والتصويب عن الكامل جـ٥ ص٢٨٧

يقال له الفرطس ، فأخرج عشرين ألف رأس من السبى ، وغنم غنيمة بلغت مائة ألف وعشرين ألفا – حكاه أبو الفرج الجوزى فى تاريخه « المنتظم فى أخبار الملوك والأمم[1] » .

وفيها استكتب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان . وحجّ المنتصر فى هذه السنة بالناس .

ودخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين .

ذكر وثوب أهل أرمينية بعاملهم

فى هذه السنة وثب أهل أرمينية بعاملهم يوسفُ بن محمد فقتلوه ، وكان سبب ذلك أنّه لما صار إلى أرمينية خرج إليه بطريق يقال له بُقْراط بن أَشُوط[2] – ويقال له بطريق البطارقة ، فطلب الأمان فأخذه يوسف وابنه معه وسيّرهما إلى باب الخليفة ، فاجتمع بطارقة أرمينية مع ابن أخى بقراط ابن أشوط ، وتحالفوا على قتله ووافقهم على ذلك موسى بن زراره – وهو صهر بقراط ، فأتى الخبر يوسف ونهاه أصحابه عن المقام بمكانه فلم يقبل ، فلما جاء الشتاء ونزل الثلج أتوه وهو بمدينة طرون ، فحصروه بها فخرج إليهم وقاتلهم فقتلوه وقتلوا من قاتل معه ، وأما من لم يقاتل معه فقالوا له : انزع ثيابك وانج بنفسك عريانا ، فخرجوا حفاة عراة فهلك أكثرهم من البرد ، وكان ذلك فى شهر رمضان ، وكان يوسف قبل ذلك قد فرّق أصحابه فى رساتيق عمله ، فتوجّه إلى كل طائفة منهم طائفة من البطارقة فقتلوهم فى يوم واحد ، فلما بلغ المتوكل الخبر وجّه بغا الكبير إليهم ، فسار على الموصل والجزيرة فبدأ بأَرْزَن ، وبها موسى بن زراره وإخوته عيسى وإسماعيل

(١) الورقة الأولى من القسم الثانى للمنتظم مخطوط محفوظ بدار الكتب برقم ١٢٩٦ تاريخ (المطبوع من هذا الكتاب يبتدى من سنة ٢٨٥هـ

(٢) فى المخطوطات : أشواط والتصويب عن الكامل حـ٥ ص٢٨٨ والطبرى حـ٧ ص٣٦٦

وأحمد[١] ومحمد وهارون فحملهم إلى المتوكل ، وأناخ على قتلة يوسف فقتل منهم زهاء ثلاثين ألفا ، وسبى منهم خلقا كثيراً فباعهم ، وسار إلى بلاد الباق فأسر أَشُوط[٢] بن حمزة صاحب الباق من كور البُسْفُرَّجان[٣] ، ثم سار إلى مدينة دبيل من أرمينية فأقام بها شهرا ، ثم سار إلى تفليس فحصرها ، وبها إسحاق بن إسماعيل مولى بنى أميّة فخرج وقاتل أصحاب بغا ، فأمر بغا بإحراق المدينة بالنفط فأحرقت - وكانت من خشب الصنوبر ، وأسر إسحاق بن إسماعيل وأتى به إلى بغا فضرب عنقه وصلب جثته ، واحترق بالمدينة نحو خمسين ألف إنسان وأسر من سلم من النار ، وفرّق بغا جيوشه فيما يجاور تفليس من الحصون ففتحها ، وكان أمر تِفْليس فى سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

ذكر غضب المتوكل على أحمد بن أبى دؤاد وولاية يحيى بن أكثم القضاء

وفى سنة سبع وثلاثين غضب المتوكل على أحمد بن أبى دؤاد ، وقبض ضياعه وأملاكه وحبس ابنه أبا الوليد وسائر أولاده ، فحمّل أبو الوليد مائة ألف وعشرين ألف دينار وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار ، ثم صولح بعد ذلك على ستة عشر ألف ألف درهم ، وأشهد عليهم جميعاً ببيع أملاكهم ، وكان أبوهم أحمد قد فلج فأحضر المتوكل يحيى بن أكثم من بغداد إلى سامرا ، ورضى عنه وولّاه قضاء القضاة ثم ولاه المظالم ، فولّى يحيى بن أكثم قضاء الجانب الشرقى حيّان بن بشر والجانب الغربى سوّار بن عبد الله العنبرى ، وكلاهما أعور فقال الجاز :

(١) هكذا فى الكامل جـ٥ ص٢٨٩ والطبرى جـ٧ ص٣٦٧ وفى المخطوطات حميد وهو تحريف
(٢) هكذا فى الكامل جـ٥ ص٢٨٩ والطبرى جـ٧ ص٣٦٧ وفى المخطوطات شواط وهو تحريف
(٣) هكذا فى الكامل جـ٥ ص٢٨٩ والطبرى جـ٧ ص٣٦٧ وفى المخطوطات السرخان وهو تحريف

رأيت من الكبائر قاضيين هما أحدوثةٌ فى الخافقين
هما اقتسما العما نصفين قدرا[1] كما اقتسما قضاء الجانبين
وتحسب منهما من هزّ رأسا لينظر فى مواريثٍ ودين
كأنّك قد وضعت عليه دنا فَتَحْتَ بُزَالَهُ من فرد عين
هما فأل الزمان بهلك يحيى إذا افتتح القضاء بأعورين

وفيها أمر المتوكل بإنزال خشبة[2] أحمد بن نصر ودفعه إلى أوليائه ، فحمل إلى بغداد وضم رأسه إلى بدنه وغسل وكفن ودفن ، ونهى المتوكل عن الجدال فى القرآن وغيره وكتب بذلك إلى الآفاق

وحجّ بالناس فى هذه السنة على بن عيسى بن جعفر بن المنصور .

ودخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

ذكر مسير الروم إلى ديار مصر

فى هذه السنة جاء الروم فى ثلاثمائة مركب مع ثلاثة رؤساء . فأناخ أحدهم فى مائة مركب بدمياط ، وكان على معونة مصر عَنْبَسَة بن إسحاق الضبى ، وكان قد أمر جند الثغر أن يحضروا إلى مصر للعيد فحضروا . فاتفق وصول الروم وهى خالية من الجند . فخرج من له قوة منها والتحق بمصر . وطلع الروم إليها فنهبوا وأحرقوا الجامع ، وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع وغير ذلك ، وسبوا من النساء المسلمات والذميّات نحو ستمائة امرأة . وأوقروا سفنهم وسارت الروم إلى شتوم[3] تنيس . وكان عليه سور له بابان من حديد . فأخذوهما ونهبوا ما فيه من السلاح ورجعوا .

(١) فى المخطوطات قدا

(٢) فى الكامل جـ٥ ص٢٩١ جثة وهو تحريف

(٣) هكذا فى المخطوطات والكامل جـ٥ ص٢٩٢ والطبرى جـ٧ ص٣٧١ أما فى النجوم الزاهرة جـ٢ ص٢٩٥ فكما يأتى اشموم وهو تحريف من غير شك . هذا وفى الولاة والقضاة للكندى ص٢٠١ (بيروت) « ومضى الروم الى تنيس فأقاموا باشتومها . وفى معجم البلدان لياقوت الاشتوم بالضم ثم السكون وتاء مثناة مضمومة والواو ساكنة وميم موضع قرب تنيس

ودخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين .

فى هذه السنة أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس درّاعتين عسليّتين على الدراريع والأقبية ، وبالاقتصار فى مراكبهم على البغال والحمير دون الخيل والبراذين .

قال ابن الجوزى[1] وفيها غزا على بن يحيى الأرمنّى الصائفة . فوصل بلاد الروم فقتل عشرة آلاف علج . وسبى سبعة عشر[2] ألف رأس . وأخذ سبعة آلاف دابة . وحرق أكثر من ألف قرية .

وحج بالناس عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى - وهو والى مكة .

ودخلت سنة أربعين ومائتين .

ذكر وثوب أهل حمص بعاملهم

فى هذه السنة وثب أهل حمص بعاملهم أبى المغيث موسى بن إبراهيم[3] ، وكان قد قتل رجلا من رؤسائهم فقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوه ، فكتب إلى المتوكل فبعث عتاب[4] بن عتّاب ومحمد بن عبدويه الأنبارى ، وقال لعتاب : قل لهم إن أمير المؤمنين قد أبدلكم بعاملكم . فإن أطاعوا فولّ عليهم محمد بن عَبْدَوَيْه ، فإن أبوا فأقم واعلمنى لأمدّك بالجنود ، فساروا إليهم فوصلوا فى شهر ربيع الآخر فرضوا بمحمد بن عبدويه ، فشرع فى أذاهم وعمل بهم الأعاجيب ، فوثبوا به فى سنة إحدى

(١) راجع المنتظم (القسم الثانى) ورقة ١٥١ مخطوط رقم ١٢٩٦ تاريخ دار الكتب

(٢) فى ف . ك عشرة آلاف وهو خطأ

(٣) فى الكامل لابن الأثير جـ٥ ص٢٩٣ . أبو المغيث موسى بن ابراهيم الرافعى . وفى تاريخ الطبرى جـ٧ ص٣٧٣ أبو المغيث الرافعى موسى بن ابراهيم

(٤) فى المخطوطات . عياث إلا أنها تصحيح الاسم بعد ذلك وتذكره كالكامل ج٥ ص٢٩٣ والطبرى جـ٧ ص٣٧٣

وأربعين وأعانهم عليه قوم من نصارى حمص ، فكتب إلى المتوكل فأمره بمناهضتهم ، وأمدّه بجند من دمشق والرملة ، فناجزهم وظفر بهم فضرب رجلين من رؤسائهم حتى ماتا وصلبهما على باب حمص ، وبعث ثمانية من أشرافهم إلى المتوكل ، وظفر بعد ذلك بعشرة رجال فضرب أعناقهم ، وأمره المتوكل بإخراج النصارى وبهدم كنائسهم ، وبإدخال البيعة التى بجانب الجامع فيه ففعل ذلك . وفيها عزل يحيى بن أكثم عن القضاء ، وقبض منه ما مبلغه خمسة وسبعون ألف دينار ، وأربعة آلاف جريب بالبصرة ، وولّى جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن على قضاء القضاة .

وفيها أخذ أهل الذمّة بتعليم أولادهم العبرانية[1] ومنعوا من العربية ، فأسلم منهم خلق كثير ، حكاه أبو الفرج بن الجوزى[2] .

وفيها سمع أهل خلاط من السماء صيحة فمات خلق كثير - وكانت ثلاثة أيام . وخسف بثلاث عشرة قرية من قرى أفريقية[3] . فلم ينج منها إلا اثنان وأربعون رجلا سود الوجوه . فأتوا القيروان فأخرجهم أهلها . وقالوا : أنتم مسخوط عليكم فبنى لهم العامل حظيرة خارج المدينة فنزلوها .

وحجّ بالناس عبد الله بن محمد بن داود .

ودخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين .

ذكر الفداء بين المسلمين والروم

قال : وفى هذه السنة عرضت تدورة ملكة الروم على أسرى المسلمين النصرانية ، فمن تنصّر جعلته أسوة من قبله[4] من المتنصّرة . ومن أبى

(١) فى المنتظم القسم الثانى ورقة ١٥٢ : العبرانية والسريانية

(٢) راجع المنتظم القسم الثانى ورقة ١٥٢

(٣) فى المنتظم القسم الثانى ورقة ١٥٢ : القيروان وهو خطأ من الناسخ

(٤) فى الكامل حـ٥ ص٢٩٥ : قتله وهو خطأ يمكن إدراكه من قول الطبرى حـ٧ ص٣٧٦ : ... فمن تنصر منهم كان أسوة من تنصّر من قبل ذلك ومن أبى عليها قتلته .

قتلته – حتى قتلت من أسرى المسلمين أثنى عشر ألفا ، ثم أرسلت تطلب المفاداة لمن بقى منهم ، فأرسل المتوكل شنيفا الخادم على الفداء ، وطلب قاضى القضاة جعفر بن عبد الواحد أن يحضر الفداء ويستخلف على القضاء ، فأذن له المتوكل واستخلف على القضاء ابن أبى الشوارب – وهو شاب ، ووقع الفداء على نهر اللّامِس ، فكان أسرى المسلمين من الرجال سبعمائة وخمسة وثلاثين رجلا ، ومن النساء مائة وخمسا وعشرين امرأة .

ذكر غارة البُجَاة بمصر

فى هذه السنة غارت البجاة على أرض مصر ، وكانت قبل ذلك لا تغير لهدنة قديمة ، وكانوا يؤدون إلى عمال مصر الخمس مما فى بلادهم من معادن الذهب ، فامتنعوا من ذلك فكتب صاحب البريد إلى المتوكل بخبرهم ، وأنهم قتلوا عدة من المسلمين ممن يعمل فى المعادن ، وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد منهم على أنفسهم ، فولّى المتوكل محمد بن عبد الله القمّى حربهم ، واستعمله على معونة قفط والأقصر وأرمنت وإسنا وأسوان ، وأمره بمحاربة البجاة ، وكتب إلى عنبسة بن إسحاق الضبى – عامل حرب مصر – بإزاحة علّته وإعطائه من الجند ما يحتاج إليه ففعل ، وسار محمد إلى أرض البجاة وتبعه من المتطوعة وعمال المعادن خلق كثير ، فبلغت عدتهم نحوا من عشرين ألفا من فارس وراجل ، وحمل له فى بحر القلزم سبع مراكب موقورة بالدقيق والزيت والتمر والشعير والسويق . وسارت لتوافيه على ساحل البحر ببلاد البجاة . وسار هو إلى بلادهم فى البر حتى بلغ حصونهم ، فخرج إليه ملكهم – واسمه على بابا – فى جموع عظيمة أضعاف المسلمين وهم على المهارى . فلم يصدقهم القتال وأراد مطاولتهم حتى تفنى أزوادهم ، فيأخذهم باليد من غير حرب . فأقبلت المراكب التى فيها الأقوات ففرقها محمد – على من معه ، فعندها صدقهم على بابا القتال

وقاتلهم قتالاً شديدًا . وكانت إبلهم زعرة تنفر من كل شئ . فجمع القمى الأجراس وجعلها فى أعناق خيله . وحمل عليهم فنفرت إبل البجاة لأصواتها وتفرقت . وسارت على الجبال والأودية وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى الليل . ولم يقدروا على إحصاء القتلى لكثرتهم ، ثم طلب ملكهم الأمان على أن يرّد عليه مملكته وبلاده ، ويؤدى الخراج للمدة التى منعها وهى أربع سنين ، فأمّنه محمد وسار به إلى المتوكل ، فخلع عليه وعلى أصحابه وكساهم الحلل المدبّجة ، وأعاده مع [1] القمى فرجع إلى بلاده وهو على دينه . وكان معه صنم من حجر يسجد له وهو كهيئة الصبى .

وفى جمادى الآخرة منها ماجت النجوم فى السماء ، وجعلت تتطاير شرقا وغربا ويتناثر بعضها خلف بعض كالجراد من قبل غروب الشفق إلى وقت الفجر . ولم يكن مثل [2] هذا إلا لظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيها مات الإمام أحمد بن محمد [3] بن حنبل أبو عبد الله الشيبانى ببغداد . يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وله سبع وسبعون سنة وأيام . وقيل فى هذا التاريخ من شهر ربيع الآخر والله أعلم .

وحجّ بالناس عبد الله بن محمد بن داود .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين .

فى هذه السنة خرجت الروم من شِمْشَاط [4] بعد خروج على بن يحيى

---

(١) ساقطة من ف ، ك

(٢) ساقطة أيضا من ف ، ك

(٣) ساقطة من ف ، ك

(٤) فى المخطوطات نقلا عن الكامل (جـ٥ ص٢٩٧) سميساط وهو تحريف . ذلك لأن الناظر الى خريطة أعالى دجلة والفرات يجد على ضوء البيانات التاريخية أن البلد المقصود هو شمشاط طبقا لما قال الطبرى (جـ٧ ص٣٨٠) وكتب البلدان تؤيد ذلك قال الاصطخرى (ط . ليدن) ص٧٥ : .. وإلا فثغر الجزيرة على الحقيقة شمشاط . وقال فى ص ٦٢ : وأما سميساط فهى على الفرات وكذلك جسر منبج وهما مدينتان صغيرتان خصبتان . هذا بالاضافة إلى أن شمشاط قريبة من حدود الروم .

الأرمنى من الصائفة حتى قاربوا آمِد ، وخرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا وأسروا نحوًا من عشرة آلاف ، فكتب المتوكل إلى على بن يحيى الأرمنى أن يسير إلى بلادهم شاتيا .

قال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله فى المنتظم[١] وفيها فى شعبان زلزلت الدَّامِغَان ، فسقط نصفها على أهلها وعلى الوالى فقتلهم ، ويذكر أن الهالكين كانوا خمسة وأربعين ألفا ؛ وكانت بقُومِس ورساتيقها فى هذا الشهر زلازل فهدمت منها الدور ، وسقطت بَذَش [كلها][٢] على أهلها . وسقط[٣] نحو من ثلثى بَسْطَام ، وزلزلت الرى وجرجان وطبرستان ونيسابور وأصفهان وقمّ وقاشان ، وذلك كله فى وقت واحد ، وتقطعت جبال ودنا بعضها من بعض ، ورجفت أسدأباذ رجفة أصيب فيها الناس كلهم . وسمع للسماء والأرض أصوات عالية ، وانشقت الأرض بقدر ما تدخل الرجل فيها ؛ قال : ورجمت السويداء من أرض مصر بخمسة أحجار . فوقع حجر منها على خيمة[٤] أعرابى فاحترقت ، ووزن منها حجر فكان فيه عشرة أرطال ، فحمل منها أربعة إلى الفسطاط وواحد إلى تِنِّيس ؛ قال : وذكروا أنّ جبلا باليمن كان عليه مزارع لأهله سار حتى أتى مزارع قوم فصار فيها[٥] . فكتب بذلك إلى المتوكل . قال ابن حبيب : وذكر على بن الوضاح أنّ طائراً دون الرخمة وفوق الغراب أبيض وقع على ذنبه[٦] بحلب لسبع مضين من شهر رمضان ، فصاح يا معشر الناس : اتقوا الله الله الله . حتى صاح أربعين صوتا ثم طار ، وجاء من الغد فصاح أربعين صوتا ، فكتب بذلك

(١) المنتظم (القسم الثانى) ورقة ١٥٩ . ورقة ١٦٠ (مخطوط محفوظ بدار الكتب برقم ١٢٩٦ تاريخ)

(٢) عن المنتظم جـ٥ القسم الثانى ورقة ١٥٩ وغير موجودة بالمخطوطات

(٣) أورد المنتظم جـ٥ القسم الثانى عبارة لم ترد بالمخطوطات هى : وسقطت بلدان كثيرة على أهلها (ورقة ١٥٩ القسم الثانى)

(٤) فى المنتظم جـ٥ القسم الثانى ورقة ١٥٩ : جبهة

(٥) فى ف ، ك : فوقها وهو تحريف

(٦) فى ف ، ص : دلبه

صاحب البريد وأشهد خمسمائة إنسان سمعوه ؛ ومات رجل فى بعض كور الأهواز فى شوال ، فسقط طائر أبيض على جنازته فصاح بالفارسية والخوزية : إن الله قد غفر لهذا الميت ولمن شهده[1]

وحجّ بالناس عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم .

ودخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

فى هذه السنة سار المتوكل إلى دمشق وعزم على المقام بها ، فوصل إليها فى صفر سنة أربع وأربعين ومائتين ، ونقل دواوين الملك إليها وأمر بالبناء ، ثم استوبأ البلد فرجع إلى سامرّا ، وكان مقامه بدمشق شهرين وأيامًا .

وحجّ بالناس عبد الصمد .

ودخلت سنة أربع وأربعين ومائتين .

فى هذه السنة وجه المتوكل بغا الكبير لغزو الروم . وكان مسيره من دمشق لما كان المتوكل بها ، فسار وفتح صَمَلَة ؛ وفيها أتى المتوكل بحربة كانت للنبى صلى الله عليه وسلم تسمى العَنَزَة ، وكانت للنجاشى فأهداها للزبير بن العوّام فأهداها الزبير للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهى التى كانت تركز بين يديه صلى الله عليه وسلم فى صلاة العيدين ، فكان يحملها بين يدى المتوكل صاحب الشرطة.

وحج بالناس عبد الصمد بن موسى . وفيها اتفق عيد الأضحى والشعانين للنصارى وعيد الفطر[2] لليهود فى يوم واحد .

ودخلت سنة خمس وأربعين ومائتين .

فى هذه السنة أمر المتوكل ببناء الماحُوزَة وسماها الجعفرى[3] ، وأقطع

---

(١) نهاية النقل عن المنتظم لابن الجوزى

(٢) فى المخطوطات : عيد الفطير والتصويب عن الكامل جـ٥ ص٢٩٨ والطبرى حـ٧ ص ٣٨٢

(٣) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص ٣٨٢ ، وفى الكامل جـ٥ ص ٢٩٨ : الجعفرية

القوّاد وأصحابه فيها وجدّ فى بنائها ، وأنفق عليها – فيما قيل – ألف ألف دينار[١] ، وجمع فيها القرّاء فقرءوا وأحضر أصحاب الملاهى ، فوهب أكثر من ألفى ألف درهم ، وكان يسميها هو وخاصّته المتوكلية ، وبنى فيها قصرا سماه لؤلؤة لم ير مثله ، وحفر لها نهرا يسقى ما حولها ، فقتل المتوكل قبل كمال حفره فبطل الحفر وأخربت الجعفرية .

وفيها زلزلت بلاد المغرب فتهدّمت الحصون والمنازل والقناطر ، ففرّق المتوكل ثلاثة آلاف ألف درهم فيمن أصيب منزله ، وزلزلت المدائن وأنطاكية فقتل بها خلق كثير وسقط منها ألف وخمسمائة دار ، وسقط من سورها نيّف وتسعون برجا ، وسمعوا أصواتاً هائلة لا يحسنون وصفها ، وتقطّع جبلها الأقرع وسقط فى البحر ، وهاج البحر ذلك اليوم وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن ، وغار منها نهر على فرسخ ما علم أين ذهب ؛ وسمع أهل تنيس[٢] صيحة هائلة فمات منها خلق كثير ؛ وزلزلت ديار الجزيرة والثغور وطرسوس وأذنة والشام ، وهلك أهل اللاذقيّة وجبلة إلا اليسير .

وحج بالناس محمد بن سليمان .

ودخلت سنة ست وأربعين ومائتين

فى هذه السنة كانت للمسلمين غزوات فى الروم براً وبحراً ، فغزا الفضل بن قارن فى البحر فى عشرين مركبا[٣] ، فافتتح حصن أنطاكية ؛ وفيها كان الفداء على يد على بن يحيى الأرمنّى ، ففودى بألفين وثلاثمائة

---

(١) فى الكامل جـ٥ ص ٢٩٨ والطبرى جـ٧ ص ٣٨٢ أكثر من ألفى ألف دينار

(٢) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص ٣٨٣ . فى الكامل جـ٥ ص ٢٩٩ : سيس وفى النجوم الزاهرة : بلبيس وكلتاهما محرفتان

(٣) فى الكامل جـ٥ ص ٣٠٠ : وغزا الفضل بن قارن نحوا من عشرين مركبا فافتتح أنطاكية وهو خطأ واضح

وسبعة [١] وستين نفسا . وفيها ورد الخبر أن سكة بناحية بلخ تعرف بسكة الدهاقين مطرت دماً عبيطاً .

وحج بالناس فى هذه السنة محمد بن سليمان الزينبى

ودخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

ذكر مقتل أبى الفضل المتوكل على الله

كان مقتله فى ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوّال من هذه السنة ، وكان سبب مقتله أنّه أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع باصفهان والجبل ، وأقطعها للفتح بن خاقان فكتبت وصارت إلى الخاتم ، فبلغ ذلك وصيفا ، وكان المتوكل أراد أن يصلّى بالناس أول جمعة فى شهر رمضان ، وشاع ذلك وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب ، فلما أراد الركوب للصلاة قال له عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان : يا أمير المؤمنين – إن الناس قد كثروا من أهل بيتك وغيرهم ، فبعض [٢] متظلم وبعض يطلب حاجة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولاة العهد بالصلاة فليفعل – فأمر المنتصر ، فلما نهض للركوب قالا له: يا أمير المؤمنين إن رأيت [٣] أن تأمر المعتز بالصلاة لتشرفه بذلك ، فأمر المعتز فصلّى بالناس ، فلما فرغ من الصلاة قاما إليه فقبلّا يديه ورجليه ، وانصرف المعتز فى موكب الخلافة حتى دخل على أبيه ، فأثنوا عليه خيرا فسره ذلك ، ووجد المنتصر له أمرا عظيما ، فلما كان عيد الفطر قال المتوكل مروا المنتصر فليصل بالناس ، فقال له عبيد الله : قد كان الناس يتطلعون إلى رؤية أمير المؤمنين واجتمعوا لذلك ، ولا نأمن إن هو لم يركب اليوم أن يرجف الناس بعلّته ،

(١) هكذا فى الكامل جـ٥ ص ٣٠٠ والطبرى جـ٧ ص ٣٨٨ وفى المخطوطات : ثلاثمائة وتسعة وستين وهو تحريف

(٢) فى ص : فبعضهم

(٣) ساقطة من ف . ك

فإن رأى أمير المؤمنين أن يسرّ الأولياء ويكبت الأعداء بركوبه فعل – فركب ، وقد صف له الناس نحو أربعة أميال وترجّلوا بين يديه ، فصلّى ورجع وأخذ حفنة من تراب فوضعها على رأسه ، وقال : إنى رأيت كثرة هذا الجمع وأنّهم تحت يدى فأحببت أن أتواضع لله ، فلما كان اليوم الثالث افتصد واشتهى لحم جزور فأكله ، وسرّ فى ذلك اليوم ، ودعا الندماء والمغنين فحضروا ، وأخذ فى الشرب واللهو ، ولهج[1] بأن يقول : أنا – والله – مفارقكم عن قليل ، ولم يزل فى سروره ولهوه إلى الليل .

وعزم المتوكل والفتح أن يفتكا بكرة غد بالمنتصر ووصيف وبغا وغيرهم من قوّاد الأتراك ، هذا والمنتصر قد واعد الأتراك على قتل أبيه المتوكل ، وكان ذلك لأمور : منها أن المتوكل قد عبث بالمنتصر مرة يشتمه ومرة يسقيه فوق طاقته ، ومرّة يأمر بصفعه ، ومرّة يتهدّده بالقتل ؛ ثم قال للفتح : برئت من الله ومن قرابتى من رسول الله إن لم تلطمه ، فقام إليه فلطمه مرتين : يمر بيده على قفاه[2] ، ثم قال لمن حضره : اشهدوا علىّ جميعا أنىّ خلعت المستعجل يعنى المنتصر ، والتفت إليه وقال : سميتك المُنْتَصِر فسمّاك الناس – لحمقك – المنتظر[3] ، ثم صرت الآن المستعجل ، فقال المنتصر : لو أمرت بضرب عنقى لكان أسهل علىّ ممّا تفعل بى ، فقال : اسقوه . ثم بالعشاء فأحضر فى جوف الليل فخرج المنتصر من عنده ، وأخذ بيد زرافة الحاجب وقال لهْ : امض معى ، فقال : إن أمير المؤمنين لم يقم ، فقال : إنّه أخذ منه الشراب ، والساعة يخرج بغاوالندماء ، وأخذ المنتصر يشغل زرافة بالحديث حتى أنتهى به إلى حجرة ، وأكلوا طعاما ، فما لبثا أن سمعا صيحة وصراخا فقاما ، فإذا بغا قد لقى المنتصر فقال له : عظّم الله أجرك يا

(١) فى ف ، ك : لجّ . وفى ص كما فى الكامل جـ٥ ص ٣٠٢ والطبرى جـ٧ ص ٣٩٢ : هج

(٢) هكذا فى المخطوطات وتاريخ الطبرى جـ٧ ص ٣٩٢ ، وفى الكامل جـ٥ ص ٣٠٢ : ... فلطمه مرتين ثم أمرّ يده على قفاه والتحريف واضح

(٣) فى الكامل جـ٥ ص ٣٠٢ : المنتضر وهو تحريف يدل على ذلك عدم اتفاقه مع السياق

أمير المؤمنين ، قد مات أمير المؤمنين المتوكل . فجلس المنتصر وأمر بالباب الذى فيه المتوكل فأغلق وأغلقت الأبواب . وبعث إلى وصيف يأمره باحضار المعتز والمؤيد عن رسالة المتوكل .

وأما كيفية قتل المتوكل

فإنّه لما خرج المنتصر وأحضرت المائدة وأكل المتوكل والندماء ورفعت المائدة دخل بغا الصغير الشرابى إلى المجلس . وأمر الندماء بالانصراف إلى حجرهم ، فقال له الفتح : ليس هذا وقت انصرافهم . فقال : إنّ أمير المؤمنين أمرنى إذا جاوز السبعة ألا أترك أحدا – وقد شرب أربعة عشر رطلا ، وحرم أمير المؤمنين خلف الستارة . فأخرجهم ولم يبق إلا الفتح وعنعث وأربعة من خدم الخاصة وأبو أحمد بن المتوكل ، وكان بغا قد أغلق سائر الأبواب إلا باب الشط ، ومنه دخل القوم الذين قتلوه ، فلما دخلوا بصربهم أبو أحمد فقال : ما هذا يا سفّل ! ! وإذا سيوف مسلّلة ، فرفع المتوكل رأسه فرآهم فقال : يا بغا ما هذا ؟ قال : هؤلاء رجال النوبة فرجعوا إلى ورائهم ، فقال لهم بغا : يا سفّل أنتم مقتولون لا محالة فموتوا كراما فرجعوا . فابتدره بَغْلُون[1] وضربه على كتفه وأذنه فقدّه ، فقال : مهلا – قطع الله يديك ، وأراد الوثوب به ، واستقبله بيده فضربها فأبانها ، وشركه[2] باغر ، فقال الفتح : ويلكم ! ! أمير المؤمنين ، ورمى بنفسه على المتوكل فبعجوه بسيوفهم ، فصاح الموت وتنحّى فقتلوه ، وكان معهم خمسة من ولد وصيف .

قال : ولما قتلوا المتوكل والفتح خرجوا إلى المنتصر فسلّموا عليه بالخلافة ، وقاموا على رأس زرافة بالسيوف وقالوا : تبايع فبايع ، وأرسل

(١) فى المخطوطات : بغا والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٣٠٣ والطبرى جـ٧ ص ٣٩٤

(٢) فى الكامل جـ٥ ص ٣٠٣ : وشاركه أما فى تاريخ الطبرى جـ٧ ص ٣٩٤ فمثل المخطوطات

المنتصر إلى وصيف أن الفتح قتل أبى فقتلته . فأحضر فى وجوه أصحابك فحضروا وبايعوه . وكان عبيد الله بن يحيى فى حجرته وبين يديه جعفر بن حامد ، فلما علم بقتل المتوكل خرج فيمن معه وكسر ثلاثة أبواب ، وخرج إلى الشط وركب فى زورق فأتى منزل المعتز فسأل عنه فلم يصادفه ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون – قتل نفسه وقتلنى ، واجتمع إلى عبيد الله أصحابه فى غداة يوم الأربعاء ، فكانوا زهاء عشرة آلاف وقيل ثلاثة عشر ألفا ، فقالوا : إنما اصطنعتنا لمثل هذا اليوم ، فمرنا بأمرك واذَنْ لنا أن نميل على القوم فنقتل المنتصر ومن معه ، فأبى ذلك وقال : إنّ المعتز فى أيديهم .

وحكى عن على بن يحيى قال[1] : كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام[2] كتابا من كتب الملاحم . فوقفت على موضع فيه أن الخليفة العاشر من بنى العباس يقتل فى مجلسه فتوقفت عن القراءة فقال : مالك ؟ قلت خير ، قال : لا بدّ أن تقرأ فقرأت فوجم لذلك ، وقال : ياليت شعرى من هذا الشقى المقتول[3] ؟ ! فقلت : أخوك الواثق هو العاشر وما كل هذا يضح ، قال : وكيف يكون العاشر ؟ فذكرت الخلفاء وعددت منهم إبراهيم ابن المهدى فطابت نفسه .

قال : وفسّر علىّ يوما مناما فقال : رأيت دابّة تكلّمنى والله لو كانت بين ألف دابّة ميّزتها ، فجرى على خاطرى قول تعالى ﴿**وإذا وقَع القَوْلُ عليهم أخرَجْنا لهم دَابَّةً من الأرضِ تُكَلِّمهُمْ**[4]﴾، ثم قلت : الدابّة عجماء لا

(١) هذه القصة رواية عن على بن يحيى ليست بهذا الطول فى الكامل جـ٥ ص ٣٠٣ وفى تاريخ الطبرى جـ٧ ص ٣٩٦

(٢) فى المخطوطات: بثلاثة ايام ولم يورد ابن الأثير فى الكامل ولا الطبرى فى تاريخه تحديد الأيام كما أورده المؤلف

(٣) إلى هنا تنتهى القصة عند الطبرى وابن الأثير فى الكامل وحاولت أن أعثر عليها فى المنتظم لابن الجوزى وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى وكلاهما ينقل عنهما المؤلف فلم أجدها والمرجح أنه نقل القصة عن مصدر غير مشهور ولذلك لم يعن بالإشارة إليه .

(٤) سورة النمل آية ٨٢

تتكلّم ، يدل على أن الله يفتح عليك مالم يقدر غيرك على فتحه ، فلما كان بعد شهر أهديت له هدايا فرأى فيها دابّة ، فقال لى : هذه والله تلك الدابّة ، فقتل بعد أيام .

وقال أبو الوارث قاضى نصيبين[1] : رأيت فى النوم قائلا يقول :

يا نائم العين فى جثمان يقظان ما بال عينك لاتبكى بتهتان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت بالهاشمى وبالفتح بن خاقان[2]

فأتى البريد بعد ثلاثة أيام بقتلها . قال وكان عمره نحواً من أربعين سنة ، ومدة خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام[3] . ولما مات دفن بالقصر الجعفرى ، وصلى عليه ابنه المنتصر . وكان مربوعا أسمر خفيف العارضين نحيفا[4] ، ونقش خاتمه : على إلاهى اتكالى . أولاده : المنتصر وموسى الأحدب والمعز والمعتز والمؤيد وطلحة الموفق وإسماعيل والمعتمد وغيرهم . وزراؤه : محمد بن عبد الملك الزيات ثم محمد بن الفضل الجَرْجَرَائى ثم عبيد الله بن يحيى بن خاقان . حجّابه : وصيف التركى ثم محمد ابن عاصم ثم يعقوب بن قوصرة ثم المَرْزُبَان ثم إبراهيم بن الحسن بن سهل وغيره . قضاته : أحمد بن أبى دؤاد ثم يحيى بن أكثم ثم جعفر بن عبد الواحد العباسى . الأمراء بمصر : هرثمة بن النضر[5] من قبل إيتاخ ثم ابنه حاتم ثم علىّ بن يحيى الأرمَنى ثم ردّت مصر إلى محمد المنتصر . فاستخلف

(١) فى المخطوطات : مصر والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٣٠٣ والطبرى جـ٧ ص ٣٩٦

(٢) يزيد الطبرى جـ٧ ص ٣٩٦ بيتا ثالثا :
وسوف يتبعهم قوم لهم غدروا حتى يصيروا كامس الذاهب الفانى

(٣) فى الكامل جـ٥ ص ٣٠٣ والطبرى جـ٧ ص ٣٩٧ أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام

(٤) يضيف إلى هذا الوصف ابن الأثير فى الكامل جـ٥ ص ٣٠٣ والطبرى جـ٧ ص ٣٩٧ : حسن العينين

(٥) هكذا فى المخطوطات والطبرى طبعة أوروبا جـ١٢ ص ١٢٦٧ والولاة والقضاة للكندى ص ١٩٧ . وفى النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢٦٥ : النصر

إسحاق بن يحيى بن معاذ ثم عبد الواحد بن يحيى ابن عم[1] طاهر بن الحسين ثم عنبسة بن إسحاق الضبّى ثم يزيد بن عبد الله . القضاة بها : محمد بن أبى الليث ثم الحارث بن مسكين ثم القاضى بَكَّار بن قتيبة

ذكر خلافة المنتصر بالله

هو أبو جعفر محمد بن المتوكل أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد ابن المهدى بن المنصور . وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية . وهو الحادى عشر من الخلفاء العباسيين بويع له على ما ذكرناه فى ليلة قتل المتوكل . قال : ولما أصبح فى يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين حضر الناس من القوّاد والكتّاب والوجوه والشاكرية والجند وغيرهم إلى الجعفرية ، فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب كتابا عن المنتصر . أن الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتلته به فبايع الناس . وحضر عبيد الله بن يحيى بن خاقان فبايع .

وحجّ بالناس فى هذه السنة محمد بن سليمان الزينبى .

ودخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين .

ذكر خلع المعتز والمؤيّد

قال : ولما استقامت الأمور للمنتصر قال أحمد بن الخصيب لوصيف وبغا إنّا لا نأمن الحدثان ، وأن يموت أمير المؤمنين فيلى المعتز الخلافة فلا يبقى منّا باقية ، والرأى أن نعمل فى خلع المعتز والمؤيد ، فجدّ الأتراك فى ذلك وألحّوا على المنتصر ، وقالوا نخلعهما من الخلافة ونبايع لابنك عبد الوهاب

(١) فى المخطوطات : ثم أبو عمر طاهر بن الحسين وهو خطأ صوبناه عن النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢٨٨

فأجابهم ، وأحضر المعتز والمؤيّد بعد أربعين يوماً من خلافته ، وجعلا فى دار وجاءت الرسل إليهما بالخلع ، فأجاب المؤيّد وامتنع المعتز وقال : إن أردتم القتل فشأنكم ، فأخبروا المنتصر بقوله ثم عادوا بغلظة وشدة وأخذوا المعتز بعنف ، وأدخلوه بيتاً فدخل إليه المؤيّد ، وقال له : ويلك يا جاهل،إنّهم نالوا من أبيك – وهوهو – ماناوا ، ثم تمتنع عليهم ؟ اخلع ولا تراجعهم وإن كان فى سابق علم الله أن تلى لتلينّ ، فقال أفعل ، فخرج المؤيّد وقال : قد أجاب إلى الخلع ، فمضوا وأعلموا المنتصر وعادوا ومعهم كاتب ، فجلس وقال للمعتز : اكتب بخطّك خلعك ، فقال المؤيد : هات قرطاسك – إمل[1] ما شئت ، فأملى عليه كتابا إلى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر ، وأنّه لا يحلّ له أن يأثم المتوكل بسببه ، إذ لم يكن موضعاً له ، ويسأله الخلع ويعلمه أنه قد خلع نفسه وأحلّ الناس من بيعته – فكتب ذلك . وقال للمعتز : اكتب فأبى فأعاد عليه فكتب . وخرج الكاتب[2] عنهما ثم دعاهما المنتصر ، فدخلا عليه فأجلسهما . وقال : هذا كتابكما ؟ قالا : نعم يا أمير المؤمنين ، فقال لهما – والأتراك قيام – أتريانى خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له ؟ لا – والله – ما طمعت فى ذلك ساعة قط ، وإذا لم يكن لى فى ذلك طمع فوالله لئن يليها بنو أبى أحب إلىّ من أن يليها بنو عمى ، ولكنّ هؤلاء – وأومأ إلى سائر الموالى ممن هو قائم عنده وقاعد – وقد ألحّوا فى خلعكما – فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة ، فيأتى عليكما فما تريانى صانعا ؟ أقتله فوالله ما تنى دماؤهم كلهم بدم بعضكم ، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل فقبّلا يده وضمّهما . ثم أشهدا على أنفسهما القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس بالخلع . وكتب بذلك المنتصر إلى محمد بن طاهر وغيره .

(١) فى المخطوطات : املل

(٢) فى المخطوطات الكتاب والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٣٠٩ والطبرى جـ٧ ص ٤٠٩

ذكر وفاة المنتصر بالله

كانت وفاته يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وقيل يوم الأحد وهو لخمس خلون منه[١] . وكانت علّته الذبحة فى حلقه ، أخذته يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول ، وقيل كانت علّته من ورم فى معدته ثم صعد إلى فؤاده فمات ، وقيل إنّه وجد حرارة فدعا بعض أطبائه ، ففصده بمبضع مسموم فمات ، وانصرف الطبيب إلى منزله وقد وجد حرارة ، فدعا تلميذاً له ليفصده ، ووضع مباضعه بين يديه ليتخيّر[٢] أجودها ، فأخذ ذلك المبضع المسموم – وقد نسيه الطبيب – ففصده به ، فلما فرغ نظر إليه فعرفه ، فأيقن بالهلاك ووصّى من ساعته ومات ، وقيل غير ذلك .

قال : ولما أفضت الخلافة إليه كان كثير من الناس يقولون : إنما مدة خلافته ستة أشهر – مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه ، يقولها الخاصة والعامة . وقيل إنّ المنتصر رأى فى منامه رؤيا فانتبه وهو يبكى وينتحب . فسمعه عبد الله بن عمر البازيار فأتاه ، فسأله عن سبب بكائه فقال : رأيت فيما يرى النائم المتوكل قد جاءنى وهو يقول : ويحك يا محمد : قتلتنى وظلمتنى وغبنتنى خلافتى ، والله لامتّعت بها أبداً إلا أياما يسيرة ، ثم مصيرك إلى النار ، فقال له عبد الله: هذه رؤيا وهى تصدق وتكذب ، بل يعمّرك الله ويسرك ، ادع بالنبيذ وخذ فى اللهو ولا تعبأ بها ، ففعل ذلك ولم يزل منكسرا[٣] حتى مات . وروى أبو الفرج بن الجوزى بسنده عن على بن يحيى المنجم قال[٤] : جلس المنتصر بالله فى مجلس كان أمر أن يفرش له ، وكان

---

(١) ينقل النويرى هذا الخلاف عن الكامل جـ ٥ ص ٣١٠ ويعود إلى النقل عنه

(٢) فى الكامل جـ٥ ص ٣١٠ : ليستخير، وهو تحريف

(٣) فى المخطوطات : متنكدا، والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٣١٠ والطبرى جـ٧ ص ٤١٥

(٤) راجع المنتظم جـ٥ القسم الثانى ورقة ١٧٧

فى بعض البسط دائرة كبيرة ، فيها مثال فرس وعليه راكب وعلى رأسه تاج ، وحوالى الدائرة كتابة بالفارسية ، فلما جلس المنتصر وجلس الندماء ووقف على رأسه وجوه الموالى والقواد نظر إلى تلك الدائرة وإلى الكتابة التى حولها ، فقال لبغا : إيش هذا الكتاب[1] ؟ فقال : لا أعلم يا سيدى ، فسأل من حضر من الندماء ، فلم يحسن أحد أن يقرأه ، فالتفت إلى وصيف وقال : احضر لى من يقرأه ، فأحضر رجلا فقرأ الكتابة وقطب . فقال له المنتصر : ما هو ؟ فقال له[2] : يا أمير المؤمنين ليس له معنى . فألحّ عليه وغضب ، فقال : يقول – أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز قتلت أبى فلم أمتّع بالملك إلا ستة أشهر ، فتغيّر وجه المنتصر وقام عن مجلسه إلى النساء . فلم يمكث[3] إلا ستة أشهر ومات . وكانت خلافته ستة أشهر ويومين . وقيل ستة أشهر سواء ، وعمره خمس وعشرون سنة وستة أشهر . وقيل أربع وعشرون سنة ، ووفاته بسامرا . ولما حضرته الوفاة أنشد :

فما فرحت نفسى بدنيا أخذتها ولكن إلى الرب الكريم أصير

وصلّى عليه أحمد بن المعتصم . وكان مربوعا أسمر أعين حسن الوجه ذا شهامة وشدّة . وكان له أربعة أولاد ذكور . وزيره : أحمد بن الخصيب . حجابه : وصيف ثم بغا ثم ابن المرزبان ثم أوتامش . قاضيه : جعفر العباسى . أمير مصر : يزيد بن عبد الله . قاضيها : بكّار .

ذكر خلافة المُستعين بالله

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد . وأمه أم ولد اسمها مُخارق ، وهو الثانى عشر من الخلفاء العباسيين . بويع له يوم الإثنين

(١) فى المنتظم جـ٥ ورقة ١٧٧ : الكتابة، وهو تحريف

(٢) فى المنتظم جـ٥ ورقة ١٧٧ : فقال : يا أمير المؤمنين . بعض حماقات الفرس . قال أخبرنى ما هو ؟ قال : يا أمير المؤمنين ليس له معنى فألحّ عليه وغضب ....

(٣) فى المنتظم جـ ٥ ورقة ١٧٧ : يملك

لأربع وقيل لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وكان سبب بيعته أنه لما مات المنتصر اجتمع الموالى فى الهارونى[١] من الغد ، وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش وغيرهم ، واستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن رضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش ، وذلك برأى أحمد بن الخصيب فحلفوا ، وتشاوروا فأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم فبايعوه ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وكان ذلك فى ليلة الإثنين ، فلما أصبح صار إلى دار العامة فى زى الخلفاء . وحمل إبراهيم بن إسحاق بين يدية الحربة قبل طلوع الشمس ، واستوزر أوتامش ، واستكتب أحمد بن الخصيب .

وحضر أصحاب المراتب من العباسيين والطالبيين وغيرهم . فبينما هو كذلك إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق . وإذا نحو خمسين فارسا ذكروا أنهم أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر . ومعهم غيرهم من أخلاط الناس والغوغاء والسوقة . فشهروا السلاح وصاحوا : معتز[٢] يا منصور ، وتحرّك من على باب العامة من المُبَيّضة والشاكرية وكثروا . فحمل عليهم المغاربة وبعض الأشروسنية فهزموهم حتى أدخلوهم درب زرافة . ثم نشبت الحرب بينهم فقتل جماعة . وانصرف الأتراك بعد ثلاث ساعات وقد بايعوا المستعين هم ومن حضر من الهاشميين وغيرهم . قال : ولما دخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة انتهبوا الخزانة التى فيها السلاح . فأتاهم بغا الصغير فى جماعة فأجلوهم عن الخزانة . وقتلوا منهم عدة وكثر القتل من الفريقين . وتحرّك أهل السجن بسامرّا فهرب منهم جماعة . ثم وضع العطاء على البيعة وبعث بكتاب البيعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر . فبايع له هو والناس ببغداد .

---

(١) هكذا فى المخطوطات وفى تاريخ الطبرى جـ٧ ص ٤١٧ ، وفى الكامل جـ٥ ص ٣١١ : الهارونية .

(٢) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص ٤١٨ . وفى الكامل جـ٥ ص ٣١١ : نفير وهو تحريف

وفى هذه السنة ورد على المستعين الخبر بوفاة طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان فى شهر رجب . فعقد لابنه محمد بن طاهر على خراسان ولمحمد ابن عبد الله بن طاهر على العراق . وجعل إليه الحرمين والشرطة ومعاون السواد وأفرده به. وفيها مات بغا الكبير فعقد لابنه موسى بن بغا على أعمال أبيه كلها . وفيها خرج عبيد الله[1] بن يحيى بن خاقان إلى الحج . فوجّه خلفه ينفيه إلى برقة ومنعه من الحج . وفيها ابتاع المستعين من المعتز والمؤيد جميع مالهما . وأشهد عليهما القضاة والفقهاء . وترك للمعتز ما يتحصّل منه فى السنة عشرين ألف دينار وللمؤيد ما يتحصل منه فى السنة خمسة آلاف دينار . وجعلا فى حجرة فى الجوسق ووكل بهما . وكان الأتراك أرادوا قتلهما حين شغب الغوغاء . فمنعهم أحمد بن الخصيب وأشار بحبسهما فحبسوهما . وفيها غضب الموالى على أحمد بن الخصيب فى جمادى الآخرة . واستصفوا ماله ومال ولده ونفى إلى إقريطش . وفيها شغب أهل حمص على عاملهم كيدر فأخرجوه . فوجّه إليهم الفضل بن قارن فقتل منهم خلقا كثيراً . وحمل مائة من أعيانهم إلى سامرّا . وفيها عقد المستعين لأوتامش على مصر والمغرب واتخذه وزيرا . وعقد لبغا الشرابى على حلوان و مَاسَبْذَان و مِهْرَجَا نْقُذَق. وجعل المستعين شاهك الخادم على داره وكراعه وحرمه وخاصّة أموره . وقدّمه هو وأوتامش على جميع الناس .

وحج بالناس محمد بن سليمان .

ودخلت سنة تسع وأربعين ومائتين

ذكر الفتنة ببغداد

فى هذه السنة شغب الجند الشاكرية ببغداد غضبا على الأتراك . لتمكّنهم وقتلهم المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين . يقتلون من شاءوا من

(١) فى المخطوطات : عبد الله وقد سبق أن ذكرته عبيد الله فهو تحريف نسخ

الخلفاء ويستخلفون من أحبوا من غير نظر للمسلمين . فاجتمعت العامة بالصراخ ببغداد والنداء بالنفير . وانضم الأبناء والشاكرية تظهر أنها تطلب الأرزاق وذلك فى أول صفر . ففتحوا السجون وأخرجوا من فيها وأحرقوا أحد الجسرين وقطعوا الآخر . وانتهبوا دار بشر وابراهيم ابنى هارون كاتبى محمد بن عبد الله . ثم أخرج أهل اليسار من بغداد وسامرا أموالاً كثيرة وفرّقوها فيمن نهض إلى الثغور . وأقبلت العامة من نواحى الجبال وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم . فلم يأمر الخليفة فى ذلك بشىء ولا بتوجيه عسكر ، وكان قيام هؤلاء غضبا لقتل عمر بن عبيد الله[1] وعلى بن يحيى الأرمنى ، وكانا قتلا فى غزو الروم .

وفيها فى شهر ربيع الأول وثب نفر من الناس بسامرّا لا يدرى من هم ، ففتحوا السجن وأخرجوا من فيه فبعث فى طلبهم جماعة من الموالى . فوثب العامة بهم فهزموهم . فركب بغا وأوتامش ووصيف وعامة الأتراك فقتلوا من العامة جماعة . فرمى وصيف بحجر فأمر بإحراق ذلك المكان . وانتهبت المغاربة منازل جماعة من العامة ثم سكن ذلك فى آخر النهار .

ذكر قتل أوتامِش الوزير

كان مقتله فى هذه السنة . وسبب ذلك أن المستعين كان أطلق يد والدته ويد أوتامش ويد شَاهك فى بيوت الأموال . وأباحهم فعل ما أرادوا فكانوا يقتسمون ما يرد من الآفاق من الأموال ، وأخذ أوتامش أكثر ما فى بيوت الأموال ، وكان العباس بن المستعين فى حجره فكان يأخذ له ما فضل عن هؤلاء الثلاثة من الأموال يصرفه فى نفقاته ، ووصيف وبغا بمعزل عن ذلك فغضبا ، وأغريا الموالى بأوتامش وأحكما أمره ، فاجتمعت الأتراك والفراغنة عليه وعسكروا فى شهر ربيع الآخر ، وأتوا الجوسق – وهو فيه مع

(١) فى المخطوطات : عبد الله والتصويب عند الكامل جـ٥ ص ٣١٣ وتاريخ الطبرى جـ٧ ص ٤٢٢

المستعين – فأراد الهرب فلم يمكنه ، واستجار بالمستعين فلم يجره ، وأقاموا على ذلك يومين ، ثم دخلوا الجوسق فأخذوه وقتلوه . وقتلوا كاتبه ابن القاسم . ونهبت دور أوتامش فأخذوا منها أموالا جمة ومتاعا وغير ذلك .

واستوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد[1] ، وعزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج ، وولاّه عيسى بن فرّخانشاه ، وولى وصيفا الأهواز ، وبغا الصغير فلسطين ، ثم غضب بغا على أبى صالح فهرب إلى بغداد ، واستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجرائى .

وحج بالناس فى هذه السنة عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام .

ودخلت سنة خمسين ومائتين

فى هذه السنة ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالكوفة . وفتح السجون وأخرج من فيها وكثر جمعه ، وكان من أخباره وقتله ما نذكره فى أخبار آل أبى طالب . وفيها كان ابتداء الدولة العلوية بطبرستان . بظهور الحسن بن زيد العلوى على ما نذكره فى أخبارهم أيضاً إن شاء الله تعالى .

وفيها وثب أهل حمص وقوم من كلب على عاملهم – الفضل بن قارن أخى مازيار بن قارن فقتلوه ، فوجّه المستعين موسى بن بغا الكبير ، فلقيه أهلها فيما بين حمص والرّستن وحاربوه ، فهزمهم وافتتح حمص وقتل من أهلها مقتلة عظيمة ، وأحرقها وأسر جماعة من أعيانها .

وحج بالناس فى هذه السنة جعفر بن الفضل والى مكة .

---

(١) فى المخطوطات : رداد والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٣١٣ وتاريخ الطبرى جـ٧ ص ٤٢٤

ودخلت سنة إحدى وخمسين ومائتين .

ذكر قتل بَاغِر التركى

فى هذه السنة قتل باغر التركى . قتله بغا ووصيف . وسبب ذلك أنه أحد قتلة المتوكل على ما ذكرناه . فزيد فى أرزاقه فكان مما أقطع قرى بسواد الكوفة . فتضمنها[1] رجل من أهل بَارُوسَما بألفى دينار . فوثب رجل من أهل تلك الناحية يقال له ابن مارمة[2] بوكيل لباغر . فتناوله فحبس ابن مارمة وقيّد . ثم تخلّص وسار إلى سامر ا فلقى دُلَيْل بن يعقوب النصرانى وهو يومئذ صاحب أمر بغا الشرابى . وكان صديقا له وكان باغر أحد قواد بغا . فمنعه دُلَيل من ظلم أحمد بن مارمه وانتصف له منه . فغضب باغر وباين دليلا . وكان باغر شجاعا يتقيه بغا وغيره . فحضر عند بغا فى ذى الحجة سنة خمسين وهو سكران . وبغا فى الحمّام فدخل عليه وقال : ما من قَتْل دُلَيْلٍ بُدٌّ . فقال له بغا : لو أردت ولدى ما منعتك منه ولكن اصبر فإنّ أمور الخلافة بيد دليل ، فإذا أقمتُ غيره افعل ما تريد ، وأمر بغا دليلا ألا يركب وأقام فى كتابته غيره . يوهم باغرأنه قد عزله فسكن باغر . ثم أصلح بغابينهما وباغر يتهدده . قال : ولزم باغر خدمة المستعين فثقل عليه . فلما كان نوبة بغا فى منزله قال المستعين : أى شىء كان إلى إيتاخ من الخدمة . فأخبره وصيف ، فقال : ينبغى أن يجعل ذلك إلى باغر . فسمع دليل ذلك فركب إلى بغا . فقال له : أنت فى بيتك وهو فى تدبير غيرك[3] – وإذا عزلت قتلت . فركب بغا إلى دار الخليفة فى يومه ، وقال لوصيف : أردت أن تعزلنى . فحلف أنه ما علم ما أراد الخليفة . واتفقا على إخراج باغر من الدار وحلفا على ذلك ، ودبّرا فى الحيلة عليه – فأرجفوا له أنه يؤمرّ ويخلع عليه ،

(١) فى المخطوطات : فضمنها

(٢) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٧ ص ٤٣٤ وفى الكامل جـ٥ ص ٣١٨ : مارية وهو تحريف

(١) هكذا فى المخطوطات ، وفى الكامل جـ٥ ص ٣١٨ والطبرى جـ٧ ص ٤٣٥ : عزلك

ويكون فى موضع بغا ووصيف ، فأحسّ باغر بالشر فجمع إليه الجماعة الذين كانوا وافقوه على قتل المتوكل وغيرهم ، فجدّد العهد عليهم فى قتل المستعين وبغا ووصيف ، وقال : نبايع على بن المعتصم أو ابن الواثق ويكون الأمر لنا كما هو لهذين ، فأجابوه إلى ذلك وانتهى الخبر إلى المستعين ، فبعث إلى بغاووصيف وقال لهما : أنتما جعلتمانى خليفة ثم تريدان قتلى ، فحلفا أنهما ما علما بشىء فأعلمهما الخبر ، فاتفق رأيهم على أخذ باغر ورجلين من الأتراك وحبسهم ، وطلبوه فأقبل فى عدة فعُدل به إلى حمام وحبس فيه . فبلغ الأتراك الخبر فوثبوا على اسطبل الخليفة فانتهبوه ، وركبوا ما فيه وحضروا إلى باب الجوسق بالسلاح . فأمر بغا ووصيف بقتل باغر فقتل .

ذكر مسير المستعين إلى بغداد

قال : ولما قتل باغر وانتهى خبر قتله إلى الأتراك أقاموا على ماهم عليه . فانحدر المستعين وبغاووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح ودليل إلى بغداد فى حرّاقة . وركب جماعة من قواد الأتراك إلى [1] أصحاب باغر . فسألوهم الانصراف فلم يفعلوا . فلما علموا بانحدار المستعين ومن معه ندموا . ثم قصدوا دار دليل ودور أهله وجيرانه فنهبوها . حتى صاروا إلى أخذ الخشب . قال : ومنع الناس الأتراك من الانحدار إلى بغداد . فأخذوا ملاحا قد أكرى سفينته فصلبوه على دقلها . فامتنع أصحاب السفن ؛ ووصل المستعين إلى بغداد لخمس خلون من المحرم من هذه السنة . فنزل على محمد بن عبد الله بن طاهر فى داره . ثم وافى القواد بغداد سوى جعفر الخياط وسليمان بن يحيى بن معاذ . وقدمها جلّة الكتّاب والعمال وبنو هاشم وجماعة من أصحاب بغا ووصيف . وبايع أولئك للمعتز وحاصروا بغداد . وكان من خلع المستعين وقتله ما نذكره فى أخبار المعتز إن شاء الله تعالى .

(١) ساقطة من ص

ذكر البيعة للمعتز بالله

هو أبو عبد الله محمد بن جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ، وأمه أم ولد اسمها قَبيحة ، وهو الثالث عشر من الخلفاء العباسيين ، بويع له البيعة الأولى فى هذه السنة ثم بويع له البيعة العامة ببغداد لأربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، بعد خلع المستعين على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

قال : وكان سبب البيعة له أن المستعين لما استقر ببغداد أتاه جماعة من قواد الأتراك ، ودخلوا عليه وألقوا نفوسهم بين يديه ، وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم وسألوه الصفح عنهم ، فوبخهم وسبّهم ثم عادوا سألوه وتضرّعوا له . فقال : قد رضيت عنكم وعفوت ، فقال له أحدهم - واسمه بايِكْباك [1] - : إن كنت قد رضيت فقم فاركب معنا إلى سامرا ، فإن الأتراك ينتظرونك . فأمر محمد بن عبد الله بعض أصحابه فضربه ، وقال له محمد : هكذا يقال لأمير المؤمنين - قم فاركب معنا ! ! فضحك المستعين وقال : هؤلاء قوم عجم لا يعرفون حدود الكلام ، ثم قال لهم المستعين : ارجعوا إلى سامرا فإنّ أرزاقكم دارّة عليكم ، وأنظر أنا فى أمرى فرجعوا آيسين منه ، وأغضبهم ما كان من محمد بن عبد الله ، وأخبروا من وراءهم خبرهم وزادوا وحرّفوا فأجمعوا على إخراج المعتز وكان هو والمؤيد فى حبس [2] الجوسق ، وعليهم من يحفظهم ، فأخرجوا المعتز من الحبس وأخذوا من شعره - وكان قد كثر ، وبايعوا له بالخلافة ، فأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة ، فلم يوف المال فأعطوا شهرين لقلة المال عندهم ، وكان المستعين خلّف بسامرا فى بيت المال خمسمائة ألف دينار ، وفى بيت مال أم

(١) عن الطبرى جـ٧ ص ٤٣٩ أما فى الكامل جـ٥ ص ٣٢٠ وفى المخطوطات تبعا فهو : بابسك وفى مواضع اخر فى خلع المهتدى : يابكيال وهو خطأ أو تحريف

(٢) فى ف ، ك فى حبس فى الجوسق ، أما ص فتتفق مع الكامل جـ٥ ص ٣٢٠ ، والطبرى جـ٧ ص ٤٣٩

المستعين ما قيمته ألف ألف دينار ، وفى بيت مال العباس بن المستعين ستمائة ألف دينار ، قال : وكان فيمن أحضر للبيعة أبو أحمد بن الرشيد وبه النقرس ، فجيء به فى محفّة فامتنع من البيعة ، وقال للمعتز : خرجت إلينا طائعا فخلعتها ، وزعمت أنك لا تقوم بها ، فقال المعتز : أكرهتك على ذلك وخفت السيف ، فقال : ما علمنا بإكراهك ، وقد بايعنا هذا الرجل فتريد أن نطلّق[1] نساءنا ونخرج من أموالنا ؟ ! ولا ندرى ما يكون ، إن تركتنى حتى يجتمع الناس وإلا فهذا السيف ، فتركه المعتز ، وكان ممّن بايع إبراهيم بن الديرج وعَتّاب بن عتّاب ، فأما عتاب فهرب إلى بغداد ، وأما الديرج فأقر على الشرطة واستعمل على الدواوين وبيت المال وعلى الكتابة وغير ذلك .

قال : ولما وصل خبر بيعة المعتز إلى محمد بن عبد الله أمر بقطع الميرة عن أهل سامرا ، وكتب إلى مالك بن طوق فى المسير إلى بغداد هو وأهل بيته وجنده ، وكتب إلى نَجُوبَة[2] بن قيس وهو على الأنبار فى الاحتشاد والجمع ، وإلى سليمان بن عمران الموصلى فى منع السفن والميرة عن سامرا ، وأمر المستعين محمد بن عبد الله بتحصين بغداد ، فتقدم فى ذلك فأدير عليها السور ، وأمر بحفر الخنادق من الجانبين ، وجعل على كل باب قائداً . فبلغت النفقة على ذلك ثلاثمائة ألف وثلاثين ألف دينار ، ونصبت المجانيق والعرّادات على الأبواب وشحن الأسوار . وفرض فرضا للعيارين ببغداد وجعل عليهم عريفاً . وعمل لهم تراسا من البوارى المقيّرة . وأعطاهم المخالى ليجعلوا فيها الحجارة للرمى . وفرض أيضا لقوم من خراسان قدموا حجاجا . وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلد وموضع أن يحملوا الخراج

(١) فى الكامل جـ٥ ص ٣٢٠ : تطلق وتتفق المخطوطات مع الطبرى جـ٧ ص ٤٤٢

(٢) فى المخطوطات الكلمة دون نقط وفى الكامل جـ٥ ص ٣٢١ : نجويه وذكره صحيحا : نجوبة جـ٥ ص ٣٢٥ متفقا مع الطبرى جـ٧ ص ٤٤٢

إلى بغداد ، وكتب إلى الجند والأتراك الذين بسامرا بنقض بيعة المعتز - مراجعة الوفاء له ، وذكر أياديه عندهم ونهاهم عن النكث ؛ وجرت بين المعتز ومحمد بن عبد الله مكاتبات ومراسلات ، فالمعتز يدعوه إلى بيعته ويذكره بما كان المتوكل أخذ عليه من البيعة بعد المنتصر ، ومحمد يدعو المعتز إلى الرجوع إلى طاعة المستعين ، واحتج كل منهما على صاحبه . قال : وكتب كل من المعتز والمستعين إلى موسى بن بغا يدعوه إلى نفسه ، وكان بأطراف الشام فانصرف إلى المعتز وصار معه ، وقدم عبد الله بن بغا الصغير من سامرا إلى المستعين وكان قد تخلّف بعد أبيه ، فاعتذر وقال لأبيه : إنما جئت لأموت تحت ركابك ، فأقام ببغداد أياماً ثم هرب إلى سامرا ، واعتذر إلى المعتز وقال : إنما صرت إلى بغداد لأعلم أخبارهم وآتيك بها ، فقبل عذره وردّه إلى خدمته ، وورد الحسن بن الأفشين بغداد فخلع عليه المستعين ، وضمّ إليه جماعة من الأشروسنية وغيرهم .

ذكر حصار المستعين ببغداد

قال : ثم عقد المعتز لأخيه أبى أحمد بن المتوكل وهو الموفق لسبع بقين من المحرم على حرب المستعين ومحمد بن عبدالله . وضم إليه الجيش وجعل إليه الأمور كلها . وجعل التدبير إلى كلباتكين[1] التركى . فسار فى خمسين ألفا من الأتراك والفراغنة وألفين من المغاربة . ونزل بباب الشماسية لسبع خلون من صفر . فراسله المستعين فى الكف عن القتال . وبذل له[2] الأموال وأن يكون المعتز ولى عهده . فأبى أبو أحمد ذلك فأمر المستعين عساكره ألا يبدأوا بقتال . قال : وإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم بل ادفعوهم . قال : ثم تقدم الأتراك إلى باب الشماسية . فخرج إليهم الحسين[3] بن

(١) فى المخطوطات : كنتكين والتصويب عن الكامل جـ٥ ص٣٢١ والطبرى جـ٧ ص٤٤٥

(٢) فى ص : لهم وهو خطأ كما يتضح من السياق

(٣) فى المخطوطات : الحسن . والتصويب عن الكامل جـ٥ ص٣٢٢ والطبرى جـ٧ ص٤٤٦

إسماعيل فاقتتلوا . فقتل من الفريقين وجرح – وانهزم أهل بغداد . وسيّر الأتراك رءوس القتلى إلى سامرا . ووجّه المعتز عسكرًا من الجانب الغربى فساروا إلى قطربل لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول [(١)] فأخرج إليهم محمد بن عبد الله بن طاهر جيشا فاقتتلوا قتالاً شديداً كان الظفر لأصحاب المعتز . وكان بين الفريقين عدة وقائع يطول شرحها .

قال : وكان محمد بن عبد الله بن طاهر قائما فى خدمة المستعين أحسن قيام . فغيّره عبيد الله [(٢)] بن يحيى بن خاقان . وقال له : إنّ هذا الذى تنصره وتجدّ فى أمره هو أشد الناس نفاقا . وأبدى للمستعين مساوئ كثيرة . فتغيّر محمد بن عبد الله بن طاهر . فلما كان يوم الأضحى صلّى المستعين بالناس . ثم حضر محمد إليه وعنده الفقهاء والقضاة . فقال له : لقد كنت فارقتنى على أن تنفّذ أمرى فى كل ما أعزم عليه . وخطك عندى بذلك . فقال المستعين : أحضر الرقعة فأحضرها . فإذا فيها ذكر الصلح . وليس فيها ذكر الخلع فقال : نعم امض الصلح [(٣)] . فخرج محمد بن عبد الله بن طاهر إلى ظاهر باب الشماسية . فضرب له مضرب كبير فنزل فيه ومعه جماعة من أصحابه . وجاء أبو أحمد فى سمارية فصعد إليه . وتناظرا طويلا ثم خرجا . فجاء ابن طاهر إلى المستعين فأخبره أنه بذل له خمسين ألف دينار ويقطع عليه ثلاثين ألف دينار . وعلى أن يكون مقامه بالمدينة يتردد منها إلى مكة ويخلع نفسه من الخلافة . وأن يعطى بغا ولاية الحجاز جميعه . ويولى وصيف الجبل وما والاه . ويكون ثلث ما يجبى من المال لمحمد بن عبد الله

(١) التعبير فى الكامل حـ٥ ص٣٢٢ (ووجه المعتز عسكرا فى الجانب الغربى فساروا إلى بغداد وجازوا قطربل فضربوا عسكرهم هناك وذلك لاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر) وفى تاريخ الطبرى حـ٧ ص٤٤٩ (فساروا إلى مدينة السلام من الجانب الغربى فجازوا قطربل الى بغداد وضربوا عسكرهم بين قطربل وقطيعة أم جعفر وذلك عشية الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من صفر)

(٢) أخطأ الكامل حـ٥ ص٣٢٨ فذكره : عبد الله

(٣) هذه العبارة ساقطة من ص

وجند بغداد ، والثلثان للموالى والأتراك ، فامتنع المستعين من الإجابة إلى الخلع . وظن أن وصيفاً وبغا معه فكاشفاه ، فقال : النطع والسيف . فقال له ابن طاهر : لابد من خلعها طائعاً أو مكرهاً ، فأجاب إلى الخلع وكتب بما أراد لنفسه من الشروط ، وذلك لإحدى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ، وجمع محمد الفقهاء والقضاة وأدخلهم على المستعين وأشهدهم عليه ، أنه صيّر أمره إلى محمد بن عبد الله ، ثم أخذ منه جوهر الخلافة ، وبعث ابن طاهر إلى قواده ليوافوه ، ومع كل قائد عشرة نفر من أصحابه ، فأتوه فنّاهم ، وقال : ما أردت بما فعلت إلا صلاحكم وحقن الدماء ، وأمرهم بالخروج إلى المعتز بالشروط التى شرطها للمستعين ولنفسه وقوّاده ، ليوقع المعتز عليها بخطه فتوجهوا إلى المعتز فأجاب إلى ما طلبوا ، ووقع عليه بخطه وشهدوا على إقراره ، وخلع عليهم ووجّه معهم من يأخذ البيعة له على المستعين ، وحمل إلى المستعين أمه وعياله بعد أن فتشوا وأخذ ما معهم .

ودخلت سنة اثنتين وخمسين ومائتين .

ذكر خلع المستعين وخلافة المعتز بالله

قال : وخلع المستعين نفسه من الخلافة وبايع للمعتز بالله بن المتوكل وهى البيعة العامة للمعتز ، وخطب له ببغداد يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم ، وأخذ له البيعة على كل من بها . قال : ولما كتب كتاب الشروط دخل محمد [بن عبد الله][1] بن طاهر إلى المستعين ومعه سعيد بن حميد وقد كتب شروط الأمان ، فقال : ياأمير المؤمنين - قد كتب سعيد كتاب الشروط فأكده غاية التأكيد ، فقرأه عليه ليسمعه . فقال المستعين : لا حاجة لى إلى توكيدها ، فما القوم بأعلم بالله منك ، ولقد أكّدت على نفسك قبلهم فكان ما علمت ، فما ردّ محمد شيئا .

(١) ذكرته المخطوطات . محمد بن طاهر وذكر الاسم كاملا للوضوح

ذكر أخبار المستعين بعد خلعه
وما كان من أمره إلى أن قتل وذكر أولاده وعمّاله ومدة عمره وخلافته

قال : ولما أشهد المستعين على نفسه بالخلع نقل من الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل . ومعه عياله[1] وجميع أهله . وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسيّروا إلى المعتز مع عبيد الله[2] بن عبد الله بن طاهر . ومنع من الخروج إلى مكة فاختار المقام بالبصرة . فقيل له إن البصرة وبيّة . فقال : أهي أوبأ أو ترك الخلافة ؟!

وقال بعض الشعراء فى خلع المستعين :

خلع الخليفة[3] أحمد بن محمد ... وسيقتل التالىَ له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه ولا يرى[4] ... أحد بملكٍ منهمُ يستمتع[5]
إيهاً بنى العباس إنّ سبيلكمُ ... فى قتل أعبدكمْ سبيل[6] مَهْيع
رقّعتمْ دنياكمُ فتمزّقتْ ... بكمُ الحياة تمزقا لا يرقع

قال : وسُيّر المستعين إلى واسط ، ثم كتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يأمره بتسليمه إلى سيما الخادم ، فكتب محمد إلى الموكلين به بذلك ، ثم أرسل أحمد بن طولون فى تسليمه فأخذه أحمد ،وسار به إلى[7] القَاطُول فسلّمه إلى سعيد بن صالح ، فأدخله سعيد منزله وضربه حتى مات . وقيل بل جعل فى رجله حجرا وألقاه فى دجلة ، وقيل كان قد حمل معه داية له ، فلما أخذه سعيد وضربه صاح وصاحت دايته ، فقتل وقتلت

---

(١) فى ف . ك : عياله وهو تحريف ظاهر
(٢) فى الكامل حـ٥ ص٣٣١ عبد الله بن طاهر وهو خطأ ويتفق تاريخ الطبرى حـ٧ ص٤٩٣ مع المخطوطات
(٣) الطبرى جـ٧ ص٤٩٤ الخلافة
(٤) فى الكامل حـ٥ ص٣٣١ ترى ... احدا
(٥) فى الكامل حـ٥ ص٣٣١ يتمتع
(٦) الطبرى حـ٧ ص٤٩٤ طريق
(٧) فى المخطوطات فى

معه وحمل رأسه إلى المعتز وهو يلعب الشطرنج ، فقيل له : هذا راس المخلوع ، فقال : ضعوه حتى أفرغ من الدست ، فلما فرغ نظر إليه وأمر به فدفن ، وأمر لسعيد بخمسين ألف درهم وولّاه معونة البصرة .

قال : وكان مقتل المستعين فى آخر شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وعمره احدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر إلا أياما وقيل أكثر . ومدة خلافته إلى أن خلع نفسه ثلاث سنين وسبعة أشهر . ونقش خاتمه : فى الاعتبار غنى عن الاختبار . وكان سمينا صغير العينين كبير اللحية أسودها بوجنته خال أسود ، وكان فيه لين وانقياد لأتباعه ؛ قال : وسبب تلقيبه بالمستعين أنه لما بويع له بالخلافة قال : أستعين بالله وأفعل . قال : ولم يل الخلافة من لدن المنصور إلى هذا الوقت من لم يكن أبوه خليفة غيره . وذكر ابن مسكويه فى كتاب تجارب الأمم : أن المستعين أخو المتوكل لأبيه . والصحيح أنه ولد أخيه محمد بن المعتصم ، وكان له من الأولاد الذكور ستة . وقد ذكرنا وزراءه أثناء دولته . حجابه:أوتامش ثم وصيف ثم بغا . قاضيه : الحسن بن أبى الشوارب[1] الأموى وقيل جعفر بن محمد بن عمار البَرْجُمى[2] . الأمراء بمصر : يزيد بن عبد الله . قاضيها بَكَّار بن قتيبة .

---

(١) فى المخطوطات : أحمد بن ابى الشوارب وهو خلط بين هذا القاضى وبين قاضى آخر من أسرته تولى القضاء فى آخر القرن الرابع هو أحمد بن أبى الشوارب المتوفى فى سنة ٤٠٥هـ

(٢) فى المخطوطات : محمد بن رزيق الواسطى وهذا خطأ أيضا . ذلك لأننا إذا رجعنا الى الطبرى (جـ٧ ص٤٢٤) وجدناه يقول فى أحداث سنة ٢٤٩هـ (وفيها عزل جعفر بن عبد الواحد عن القضاء ووليه جعفر بن محمد بن عمار البرجمى) يؤيد هذا ما ينقله الخطيب البغدادى فى بغداد جـ٧ ص١٦٣ (ثم عزل جعفر بن محمد عن قضاء الكوفة وحمل الى سر من رأى فولى قضاء القضاة الى أن مات بسرّ من رأى) والواضح أن جعفرا لم يتق فى قضاء القضاة إلا زمنًا قصيرا وأن الحسن بن أبى الشوارب تولى فى زمن بعد زمن جعفر بن محمد بن عمار البرجمى . قال الطبرى (جـ٧ ص٥١٢) فى احداث سنة ٢٥٢ هـ (وفيها ولى الحسن بن أبى الشوارب قضاء القضاة) .

ومن هذا يتبين أن الترتيب الزمنى لهؤلاء القضاة يختم كون جعفر بن عبد الواحد القرشى سابقا لجعفر بن محمد بن عمار البرجمى ويأتى بعدهما الحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب القرشى ثم الأموى . ومن ثم فما ورد فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (جـ٧ ص ٤١٠) غير صحيح لأنه لم يتول قضاء القضاة زمن المتوكل . وإنما تولى هذا المنصب زمن المعتز كما تجمع المصادر التاريخية .

نعود إلى الحوادث فى أيام المعتز بالله فى بقية شهور سنة اثنتين وخمسين .

ذكر حال وصيف وبغا

قال : وفيها كتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فى اسقاط اسم بغا ووصيف ومن معهما من الدواوين ، فوجّه وصيف أخته سعاد[1] إلى المؤيد وكان فى حجرها ، فكلّم المؤيد المعتز فى الرضى عن وصيف فرضى عنه ، وتكلم أبو أحمد ابن المتوكل فى بغا فرضى عنه ، وعاد إلى سامرّا وأعادهما المعتز إلى منزلهما من الخدمة ، وخلع عليهما وعقد لهما على أعمالهما ، وجعل البريد إلى موسى بن بغا الكبير ، واستوزر أحمد بن أبى اسرائيل .

وفيها شغب الجند ببغداد على محمد بن عبد الله فى طلب أرزاقهم ، ففرّق فيهم ألفى دينار ، ثم شغبوا مرة ثانية وعسكروا بباب الشماسية وباب حرب . وكانت بينهم وبين أصحاب محمد وقعات ، ثم تفرّقوا ورجعوا إلى منازلهم .

ذكر خلع المؤيد وموته

وفى شهر رجب من هذه السنة خلع المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد بعده . وحبسه هو وأبا أحمد وقيّد المؤيد وقيل أنه ضربه أربعين مقرعة . وأخذ خطّه بخلع نفسه . ثم بلغه أن الأتراك يريدون إخراجه فأخرجه من الغد ميتا . وأوقف القضاة والفقهاء والوجوه عليه ، وأنّه لا أثر به ولا جراحة . وحمل إلى أمّه ومعه كفنه وأمرت بدفنه ، فقيل إنه أدرج فى لحاف سمور وأمسك طرفاه حتى مات ، وقيل إنّه أقعد فى الثلج وجعل على رأسه منه فمات من البرد . وكان ذلك فى شهر رجب .

(١) فى المخطوطات : سعادة وماأثبتناه هو ماورد فى الكامل جـ٥ ص٣٣١ والطبرى جـ٧ ص٤٩٩

ذكر الفتنة بين الأتراك والمغاربة

وفى مستهل شهر رجب كانت الفتنة بين الطائفتين ، وسببها أن الأتراك وثبوا بعيسى بن فرخانشاه فضربوه وأخذوا دابته ، فاجتمعت المغاربة مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد[1] وأخرجوا الأتراك من الجوسق ، وقالوا لهم : كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقيمون وزيراً ، وصار الجوسق وبيت المال فى أيدى المغاربة وأخذوا دواب الأتراك ، والتقوا هم والمغاربة وأعان الغوغاء والشاكرية المغاربة ، فضعف الأتراك وانقادوا ، فأصلح جعفر بن عبد الواحد بينهم على أن لا يحدثوا شيئا ، فمكثوا مدة ثم اجتمع الأتراك فقتلوا محمد بن راشد ونصر بن سعيد .

وفيها خرج مُسَاوِر بن عبد الحميد[2] البَجَلى المَوْصِلى بالموصل بالبَوَازِيج ، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى . وفيها عقد لعيسى بن الشيخ – وهو من ولد جَسَّاس بن مُرَّة – عَلى الرملة ، فأنفذ خليفته أبا المغراء[3] إليها فاستولى على فلسطين جميعها ، فلما كان من أمر الأتراك بالعراق ما كان تغلّب على دمشق وأعمالها ، وقطع ما كان يحمل من الشام إلى الخليفة واستبّد بالأموال .

وحجّ بالناس محمد بن عيسى[4]

ودخلت سنة ثلاث وخمسين ومائتين

ذكر قتل وصيف

وفيها قتل وصيف وسبب ذلك أن الأتراك والفراغنة والأشروسنية شغبوا

---

(١) فى المخطوطات والكامل جـ٥ ص٣٣٣ : سعد وذكرته المخطوطات صحيحا فى آخر الفصل متفقه مع الطبرى جـ٧ص٥١٠

(٢) فى المخطوطات : مساور بن عبد الله الحميدى الموصلى والتصويب عن الكامل جـ٥ ص٣٣٤ والطبرى جـ٧ ص٥١٤

(٣) فى المخطوطات : أبا المعز والتصويب عن الكامل جـ٥ ص٣٣٤ والطبرى جـ٧ ص٥١٣

(٤) اسمه كما أورده الطبرى جـ٧ ص٥١٣ والكامل جـ٥ ص٣٣٥ : محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور .

وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر ، فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما فكلّمهم فقال لهم : خذوا التراب ، ليس عندنا مال ، وقال لهم بغا : نعم نسأل أمير المؤمنين ، ودخلوا دار إشناس ، ومضى سيما وبغا إلى المعتز وبقى وصيف فى أيديهم ، فقتلوه ونصبوا رأسه على محراك تنوّر ، فجعل المعتز ما كان لوصيف إلى بغا الشَّرابى الصغير ، وألبسه التاج والوشاحين .

ذكر وفاة محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعى

كانت وفاته فى الليلة الرابعة عشر من ذى القعدة ، وكانت علّته قروحا أصابته فى حلقه ورأسه فذبحته ، ولما اشتد مرضه كتب إلى عمّاله وأصحابه بتفويض ما إليه من الولاية إلى أخيه عبيد الله بن عبد الله ، فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه ، فصلّى عليه ابنه ، ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد الله .

وفيها نفى أبو أحمد بن المتوكل إلى البصرة ثم ردّ إلى بغداد ، ونفى على بن المعتصم إلى واسط ثم ردّ إلى بغداد .

وحجّ بالناس فى هذه السنة عبد الله بن محمد بن سليمان

وفيها كان ابتداء دولة يعقوب بن الليث الصَفّار وملك هَرَاة وبُوشَنْج على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره .

ودخلت سنة أربع وخمسين ومائتين .

ذكر مقتل بُغَا الصغير الشَّرابى

كان سبب قتله أنّه كان يحرّض المعتز على المسير إلى بغداد ، والمعتز لا يوافقه على ذلك ويكرهه ، واتفق أن بغا اشتغل بتزويج ابنته من صالح بن وصيف ، فركب المعتز ومعه أحمد بن إسرائيل إلى كرخ سامرّا إلى بايكباك

التركى ومن معه . وهم من المنحرفين عن بغا . وبايكباك قد شرب مع بغا فعربد أحدهما على الآخر . فاختفى بايكباك . فلما أتاه المعتز اجتمع معه أهل الكرخ وأهل الدور . وأقبلوا مع المعتز إلى الجوسق بسامرا فبلغ ذلك بغا . فخرج فى ألف فارس من غلمانه وقوّاده . فصار إلى السِنّ فلما جنّه الليل ركب فى زورق . ومعه خادمان وشئ من المال الذى صحبه . وكان قد صحبه تسع عشرة بدرة من الدنانير ومائة بدرة من الدراهم . ولم يحمل معه سلاحا ولا سكينا ولم يعلم به أحد من عسكره . فصار إلى الجسر فى الثلث الأول من الليل . وخرج إلى البستان الخاقانى فلحقه عدة من الموكلين بالجسر . فوقف وعرّفهم نفسه وقال : إما أن تذهبوا معى إلى صالح بن وصيف . وإما أن تصيروا معى حتى أحسن إليكم . فتوكّل به بعضهم وأرسلوا إلى المعتز يخبره فأمر بقتله فقتل وحمل رأسه إلى المعتز . فنصب بسامرا وببغداد وأحرقت المغاربة جثّته . قال : وكان أراد أن يختفى عند صالح بن وصيف . فإذا اشتغل الناس بالعيد – وكان قد قرب – خرج هو وصالح ووثبا بالمعتز . فلم يمهله القدر .

وحج بالناس على بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد .

ودخلت سنة خمس وخمسين ومائتين .

ذكر خلع المعتز بالله وموته وشئ من أخباره

وفى يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر رجب منها خلع المعتز . وكان سبب ذلك أن الأتراك شغبوا فى طلب أرزاقهم . وصاروا إلى المعتز وقالوا : أعطنا أرزاقنا حتى نقتل صالح بن وصيف – وكان صالح قد دبّر عليه . فلم يجد ما يعطيهم فنزلوا معه إلى خمسين ألف دينار . فأرسل المعتز إلى أمّه يسألها أن تعطيه مالا يعطيه لهم . فقالت : ما عندى شئ . فلما رأى الأتراك أنهم

لا يحصّل لهم من المعتز وأمه شئ اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والفراغنة على خلع المعتز ، فصاروا إليه وصاحوا به . ودخل صالح بن وصيف ومحمد بن بغا وبايكباك فى السلاح وجلسوا على بابه . وبعثوا إليه أن اخرج إلينا . فقال : قد شربت دواءًا بالأمس وأفرط فى العمل ، وإن كان أمر لابدّ منه فليدخل بعضكم ، فدخل إليه جماعة فجروا برجله إلى باب الحجرة . وضربوه بالدبابيس وخرّقوا قميصه وأقاموه فى الشمس فى الدار ، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وبعضهم يلطمه وهو يتقى بيده . ثم أدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة فشهدوا على خلعه . وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وأخته الأمان . وكانت أمه قد اتخذت فى دارها سردابا فخرجت منه هى وأخت المعتز . قال : وسلّموا المعتز إلى من يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام . فطلب حُسْوَة من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سردابا وجصّصوه عليه فمات . فأخرجوه لليلتين خلتا من شعبان وأشهدوا على موته بنى هاشم والقوّاد . وأنّه لا أثر به ودفنوه بسامرّا مع المنتصر ، وصلّى عليه المهتدى بالله . وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة وثلاثة أشهر إلا أيامًا ، وقيل أربعا وعشرين سنة وثلاثة وعشرين يوما .

ومدة خلافته من لدن بويع له بسامرّا إلى أن خلع أربع سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرون يوما . وكان أبيض أكحل أسود الشعر كثيفه حسن العينين – وكان يوثر اللذات . وكان نقش خاتمه : الحمد لله رب كل شئ وخالقه . ولده : عبد الله صاحب التشبيهات والشعر الرائق . وزراؤه : جعفر بن محمود[1] الإسكافى ثم عيسى بن فرّخانشاه ثم أبو جعفر أحمد بن إسرائيل الأنبارى . قاضيه : الحسن بن أبى الشوارب . حاجبه : صالح بن وصيف وكان غالبا على أمره . الأمراء بمصر : يزيد بن عبد الله ثم مزاحم بن

(١) فى المخطوطات : جعفر بن محمد والتصويب عن الطبرى حـ٧ ص٤٤٣ . حـ١٥ ص١٥٥٠ طبعة اوروبا حيث يذكر أنه أول من استوزر

خاقان[١] أخو الفتح ثم ابنه أحمد ثم أرخوز[٢] التركى ثم أحمد بن طولون . قاضيها : بكّار بن قتيبة[٣].

ذكر خلافة المُهتَدِى بالله

هو أبو عبد الله محمد بن هارون الواثق بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى ابن المنصور ، وأمه رومية اسمها قُرب ، وهو الرابع عشر من الخلفاء العباسيين بويع له يوم الأربعاء لليلة بقيت من شهر رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ، ولقّب بالمهتدى ولم يقبل بيعته أحد حتى أتى بالمعتز فخلع نفسه ، وأقر بالعجز عما أسند إليه وبالرغبة فى تسليمها إلى محمد بن الواثق وبايعه . فبايعه الخاصة والعامة بسامرا ؛ قال : وكتب إلى سليمان بن عبد الله أن يأخذ له البيعة ببغداد ، فورد كتابه فى سلخ شهر رجب ، وكان أبو أحمد بن المتوكل ببغداد فأرسل سليمان إليه فأخذه إلى داره ، فثار من ببغداد[٤] من الجند والعامة لما بلغهم خبر المعتز ، وأتوا باب سليمان فقاتلهم أصحابه ، فقيل لهم ما ورد علينا من سامرا خبر فانصرفوا ورجعوا من الغد ، وهجموا دار سليمان فى اليوم الثالث ونادوا باسم أبى أحمد ودعوا إلى بيعته ، وسألوا سليمان أن يريهم أبا أحمد فأظهره لهم ووعدهم الخير ثم أُرسل إليهم من سامرا مال ففرّق فيهم ، فرضوا وبايعوا للمهتدى وذلك لسبع خلون من شعبان .

ذكر ظهور قبيحة أم المعتز بالله

كانت قد خرجت من السرداب الذى صنعته فى دارها واستترت ،

---

(١) فى المخطوطات : يزيد بن عبد الله بن مزاحم بن خاقان أخو الفتح . وهو خطأ اذ خلط اسمين معا . ورد فى النجوم الزاهرة جـ٢ ص٣٣٧ هو مزاحم بن خاقان ... أخو الفتح بن خاقان وزير المتوكل قتل معه . ولى مزاحم مصر بعد عزل يزيد بن عبد الله التركى عنها .

(٢) فى ص . ارخون

(٣) فى ص : بكار فقط دون ذكر اسم الأب

(٤) من أول فورد كتابه .. إلى ببغداد ساقط من ف . ك

وكان سبب هربها أنها كانت واطأت بعض الكتّاب على الفتك بصالح بن وصيف ، فأوقع بهم صالح وعذّبهم فعلمت أنهم لا يكتمون عنه أمرها . فخرجت وأخرجت ما فى الخزائن إلى خارج الجوسق . فلما جرت[٢] الحادثة على ابنها علمت أن حالها لا يخفى . وأن الذى تختفى عنده يطمع فى مالها وفى نفسها ويتقرّب إلى صالح . فأرسلت امرأةً عطارةً إلى صالح بن وصيف فتوسطت الحال بينهما . وظهرت فى شهر رمضان وأحضرت أموالها من بغداد وهى خمسمائة ألف دينار . وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة ، من جملتها دار وجد فيها ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار . ووجدوا فى سفط مقدار مكوك من الزمرد لم ير الناس مثله وفى سفط آخر مكوك من اللؤلؤ الكبار . وفى سفط آخر مقدار كيلجة من الياقوت الأحمر الذى لا يوجد مثله . فحمل الجميع إلى صالح . فسبّها وقال : عرّضت ابنها للقتل فى خمسين ألف دينار – وعندها هذا المال جميعه ! ! ثم سارت قبيحة إلى مكة فسُمعت تدعو على صالح بصوت عال تقول : اللهم اخز صالحا كما هتك سترى ، وقتل ولدى ، وبدّد شملى ، وأخذ مالى ، وغرّبنى عن بلدى ، وركب الفاحشة منّى ؛ وكان المتوكل سماها قبيحة لجمالها – فهو من أسماء الأضداد .

وفيها استولى مُساوِر الخارجى على الموصل . وفيها خرج صاحب الزَّنْج فى فرات البصرة . وكان منه ما نذكره إن شاء الله فى أخباره . وفيها ولى سليمان بن عبد الله بن طاهر بغداد والسواد فى شهر ربيع الأول فى أيام المعتز ، وكان قد فرّ من الحسن بن زيد العلوى فاستعمله المعتز على بغداد . فقال ابن الرومى :

من عذيرى من الخلايف ضلّوا فى سليمان عن سواء السبيل

(١) فى «الكامل» جـ٥ ص٢٤٣ : خرجت وهو خطأ أو تحريف

نـقـلـوه على الهزيمة بـغـدا د كأن قد أتى بفتح جليل
من يخوض الردى إذا كان من فـ ـرّ أثـابوه بـالجزاء الجلـيـل

وحجّ بالناس : على بن الحسين بن العباس العباسى

ودخلت سنة ست وخمسين ومائتين .

ذكر وصول موسى بن بغا إلى سامرّا واختفاء صالح بن وصيف

وفى ثانى عشر شهر المحرم دخل موسى بن بغا إلى سامرّا . وقد عبّأ أصحابه فاختفى صالح بن وصيف وجاء موسى إلى الجوسق . والمهتدى جالس للمظالم فأعلم به . فأمسك ساعة عن الأذن ثم أذن له ولمن معه فدخلوا وتناظروا وأقاموا المهتدى من مجلسه وحملوه على دابّة من دواب الشاكرية ، وانتهبوا ما كان فى الجوسق وأدخلوا المهتدى دار ياجور . وكان سبب أخذه أنّ بعضهم قال : إنما هذه المطاولة حيلة عليكم حتى يكبسكم صالح بجيشه . فخافوا من ذلك فأخذوه . فقال لموسى : ويحك !! اتق الله فإنّك ركبت أمرًا عظيماً . فقال له موسى : وتربة المتوكل ما نريد إلا خيرا – ولو أراد به خيرا لقال وتربة المعتصم أو الواثق . ثم أخذوا عليه العهود ألا يميل مع صالح . ولا يضمر إلا مثل ما يظهر . ثم جدّدوا له البيعة . وطلبوا صالح بن وصيف ليحضر ويطالبوه بدم الكتّاب الذين قتلهم – وهم أحمد بن إسرائيل وأبو نوح . ويطالبوه بأموال المعتز فوعدهم بالحضور ، فلما كان الليل رأى أصحابه قد تفرّقوا عنه فهرب واختفى .

ذكر قتل صالح بن وصيف

كان صالح قد اختفى وقام الأتراك فى طلبه . واتهموا الخليفة أنّه يعرف مكانه وراسلوه مراسلات وعزموا على خلعه . فحلف لهم أنه لا يعلم أين

هو ، وثارت الفتن بسببه ، فجاء غلام إلى دار يطلب ماء فسمع قائلا يقول : أيها الأمير تنحّ فهذا غلام يطلب ماء ، فسمع الغلام فجاء إلى عيّار فأخبره ، فأخذ معه ثلاثة نفر وجاء إلى صالح وبيده مرآة ومشط وهو يسرّح لحيته ، فأخذه فتضرّع إليه فقال : لا يمكننى تركك ، ولكنّى أمرّ بك على أبواب[1] أهلك وقوّادك وأصحابك ، فإن اعترضك منهم اثنان أطلقتك ، فأخرج حافيا وليس على رأسه شيء ، والعامة تعدو خلفه وهو على برذون بإكاف ، فأتوا به نحو الجوسق فقتلوه ، وذلك لثمان[2] بقين من صفر منها ، وأخذوا رأسه وحمل وطيف به على قناة ونادوا عليه : هذا جزاء من قتل مولاه ، ولما قتل أنزل رأس بغا الصغير ودفع الى أهله ليدفنوه .

ذكر خلع المهتدى وموته

قال : وكان خلعه فى منتصف[3] شهر رجب سنة ست وخمسين ومائتين ، وتوفى لاثنتى عشرة ليلة بقيت منه ، وسبب ذلك أن أهل الكرخ والدورمن[4] الأتراك تحركوا فى طلب أرزاقهم أول شهر رجب ، فسكّنهم المهتدى فرجعوا ، فبلغ أبا نصر محمد بن بغا أن المهتدى قال : إن المال عند محمد وموسى ابنى بغا ، فهرب إلى أخيه وهو يقاتل مساور الخارجى ، فكتب المهدى إليه أربع كتب يعطيه الأمان ، فرجع هو وأخوه حَبْشُون[5] فحبسهما ومعهما كَيْغَلَغ ، وطولب أبو نصر محمد بن بغا بالمال ،

(١) هكذا فى المخطوطات والطبرى حـ٧ ص٥٨٠ وفى الكامل حـ٥ ص٣٥٤ : ديار وهو تحريف

(٢) فى أول الرواية يقول الطبرى جـ٧ ص ٥٨٠ وثمان بقين من صفر ويسوق الحديث حتى إذا جاء إلى زمن القتل قال : لسبع بقين من صفر . اما الكامل وهو الذى ينقل عنه التويرى فيتفق مع المخطوطات .

(٣) فى الكامل حـ٥ ص٣٥٥ فى رجب الخامس عشر منه أما الطبرى حـ٧ ص٥٨٢ فيقول : وفى رجب من هذه السنة لاربع عشرة ليلة خلت منه

(٤) فى المخطوطات ... أهل الكرخ والدور والأتراك وهو خطأ صوبناه عن الكامل حـ٥ ص٣٥٥ والطبرى حـ٧ ص٥٨٢

(٥) هكذا فى تاريخ الطبرى حـ٧ ص٥٨٦ وهو أرجح أما المخطوطات فى ف . جيشون . ص بدون نقط ووضع علامة على أن الحرف الأول غير معجم أى حاء . وفى الكامل حـ٥ ص٣٥٥ : حيسون

فقبض من وكيله خمسة عشر ألف دينار ، وقتل لثلاث خلون من شهر رجب ورمى فى بئر فأنتن ، وأخرجوه إلى منزله وصلى عليه الحسن بن المأمون . وكتب المهتدى إلى موسى بن بغا لما حبس أخاه يأمره بتسليم العسكر إلى بايكباك والرجوع إليه ، وكتب إلى بايكباك أن يتسلّم العسكر ويقوم بحرب مساور ، فصار بايكباك بالكتاب إلى موسى فقرأه عليه ، وقال : لست أفرح بهذا فإنّه تدبير علينا جميعا – فما ترى ؟ قال موسى : أرى أن تصير إلى سامرّا وتخبره أنّك فى طاعته ، وناصره علىّ وعلى مُفْلح فإنّه يطمئن إليك ثم تدبّر فى قتله ، فأقبل إلى سامرا ومعه يَارْجُوخ[1] وأَسَارْتَكِين وسيما الطويل وغيرهم ، فدخلوا دار الخلافة لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر رجب ، فحبس بايكباك وصرف الباقون ، فاجتمع أصحاب بايكباك وغيرهم من الأتراك وقالوا : لم حبس قائدنا ؟ ولم قتل محمد بن بغا ؟ وكان عند المهتدى صالح ابن على بن يعقوب بن المنصور فشاوره فيه ، فقال : إنه لم يبلغ أحد من آبائك[2] ما بلغته من الشجاعة ، وقد كان أبو مسلم أعظم شأنا عند أهل خراسان من هذا عند أصحابه ، وقد كان فيهم من يعبده ، فما كان إلا أن طرح رأسه حتى سكنوا ، فلو فعلت مثل ذلك سكنوا ، فركب المهتدى وقد جمعوا له جميع المغاربة والأتراك والفراغنة ، فصيّر فى الميمنة مسرورا[3] البلخى – وفى الميسرة يارجوخ – ووقف هو فى القلب مع أسارتكين وطبايغو وغيرهما من القواد ، وأمر بقتل بايكباك فقتل وألقى رأسه إليهم عتّاب بن عتّاب فقتلوه ، وعطفت ميمنة المهتدى وميسرته بمن فيها من الأتراك فصاروا مع إخوانهم الأتراك ، فانهزم الباقون عن المهتدى وقتل جماعة من الفريقين ، فانهزم المهتدى وبيده السيف وهو ينادى : يا معشر الناس – أنا أمير

(١) فى المخطوطات : يارجوج وفى الكامل جـ٥ ص٣٥٦ : ياركوج ، فالمخطوطات أقرب إلى الطبرى مع أن المؤلف ينقل عن الكامل مما يدل دلالة واضحة على التحريف فى مخطوطات الكامل المنشورة

(٢) فى الكامل جـ٥ ص٣٥٦ : إبائك ويتفق الطبرى جـ٧ ص٥٨٣ مع المخطوطات

(٣) فى ف . ك : منصورا والتصويب عن ص والكامل جـ٥ ص٣٥٦

المؤمنين ، قاتلوا عن خليفتكم فلم يجبه أحد من العامة ، فصار إلى السجن وأطلق من فيه وهو يظن أنهم يعينونه فهربوا ، فصار إلى دار أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها وهم فى أثره ، فدخلوا عليه وأخرجوه وساروا به إلى الجوسق وهو على بغل ، فحبس عند أحمد بن خاقان وقبّل المهتدى يده — فيما قيل — مراراً كثيرة ، وأرادوه على الخلع فأبى واستسلم للقتل ، فداسوا خصيتيه فمات واشهدوا على موته أنه سليم ليس فيه أثر ، قال : وكانوا قد خلعوا أصابع يديه ورجليه من كعبيه ، وقيل إنّ ابن عم بايكباك وجأه بسكين فقتله وشرب من دمه ، قال : وطلبوا محمد بن بغا فوجدوه ميتا فكسروا على قبره ألف سيف .

وكانت خلافةُ المهتدى أحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما ، وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة . وقيل أكثر إلى أربعين سنة وقيل اقل إلى سبع وثلاثين . وكان مربوعا أسمر واسع الجبهة رقيقا أشهل طويل اللحية عظيم[1] البطن . وكان حسن الطريقة . قال: وصلّى عليه القاضى جعفر بن عبد الواحد[2] الهاشمى ، ودفن بسامرا وكان مولده بالقاطول . وكان نقش خاتمه : من تعدّى الحق ضاق مذهبه . وكان له من الأولاد خمسة عشر ذكراً . وزراؤه أبو أيوب سليمان بن وهب وجعفر بن محمود الإسكافى وأبو صالح عبدالله[3] بن محمد وغيرهم ، قاضيه : الحسن بن أبى الشوارب ثم عبد الرحمن بن نائل البصرى[4] . حجابه : صالح بن وصيف وبايكباك[5] وموسى بن بغا . الأمير بمصر : أحمد بن طولون . قاضيها بكّار .

(١) يتفق الطبرى (جـ٧ ص٥٩٤) مع المخطوطات ، أما فى الكامل جـ٥ ص٣٥٧ : عريض

(٢) فى المخطوطات : جعفر بن عبد الله وهو خطأ

(٣) فى المخطوطات : صالح بن حمد . وهو خطأ واسمه الكامل : عبد الله بن محمد بن يزداد وقد سبق ذكر اسمه كاملا فيما سبق .

(٤) فى المخطوطات : عبد الرحمن بن بايك المصرى والتصويب عن الطبرى جـ٧ ص٥٦٧ وتاريخ بغداد للخطيب جـ٦ ص٢٨٧

(٥) فى المخطوطات : وبحال وكما تخطئ المخطوطات فى ذكر اسمه يخطئ أيضا الكامل لابن الأثير

ذكر شئ من سيرة المهتدى

كان رحمه الله من أحسن الخلفاء طريقة ، وأكثرهم ورعا وعبادة ، قال عبد الله بن إبراهيم[1] الإسكافى : جلس المهتدى يوما للمظالم فاستعداه رجل على ابن له ، فأمر بإحضاره فأحضر وأقامه إلى جانب خصمه ، فقال الرجل للمهتدى : والله ما أنت - ياأمير المؤمنين - إلا كما قال القائل :

حكّمتموهُ فقضى[2] بينكم أبلج مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة فى حكمه ولا يبالى غنت[3] الخاسر

فقال المهتدى : أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك ، وأما أنا فما جلست حتى قرأت ﴿ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليَوم القيامَةِ﴾[4] الآية ، فما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم . وقال أبو العباس هاشم بن القاسم الهاشمى : كنت عند المهتدى فى بعض عشايا رمضان ، فقمت لأنصرف فأمرنى بالجلوس فجلست حتى صلّى بنا المغرب ، ثم أمر بالطعام فأحضر : طبق خلاف عليه رغيفان وفى إناء ملح وفى آخر زيت وفى آخر خلّ ، فدعانى إلى الأكل فأكل وأكلت مقصرًا ، ظنا منّى أنّه يحضر طعاما جيدا ، فلما رأى أكلى كذلك قال : أما كنت صائماً ؟! قلت : بلى ، ولست تريد الصوم غدا ؟ قلت : وكيف لا وهو شهر رمضان ! فقال : كل واستوف عشاك فليس هناك غير ما ترى ، فعجبت من قوله وقلت : لم - ياأمير المؤمنين ؟ أسبغ الله عليك النعمة ووسّع رزقه ، فقال : إن الأمر على ماذكرت والحمد لله ، ولكنى فكّرت أنّه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز فغرت على بنى هاشم ألا يكون فى خلفائهم مثله ، فأخذت نفسى بما رأيت ؛ قال إبراهيم بن

(١) هكذا فى المخطوطات والكامل حـ٥ ص٣٥٨ وفى ص :الاهتم
(٢) هكذا فى المخطوطات والمنتظم حـ٥ القسم الثانى ورقه ٢٠٢ وفى الكامل حـ٥ ص٣٥٨ : قاضيا
(٣) فى الكامل حـ٥ ص٣٥٨ : غبن
(٤) سورة الأنبياء آية ٤٧ (وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ ليومِ القِيامَةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

مخلد عن بعض الهاشميين : إنهم وجدوا للمهتدى سفطا فيه جبّة صوف وكساء وبرنس ، كان يلبس ذلك بالليل ويصلّى ، ويقول : أما يستحى بنو العباس ألا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز ، ولما قتله الأتراك تضاربوا على السفط وقدروا أن فيه ذخائره ، فلما اطلعوا على مافيه أظهروا الندم على قتله . وكان قد اطّرح الملاهى وحرّم الغناء والشراب ، ومنع أصحاب السلطان عن الظلم .[1]

قال ابن الجوزى[2] : وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين والخراج ، يحبس نفسه فى الحسابات ، وكان يجلس فى يوم الخميس والإثنين والكتّاب بين يديه رحمه الله تعالى .

ذكر خلافة المُعْتَمد على الله

هو أبو العباس أحمد – وقيل أبو جعفر – بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ، وأمه أم ولد اسمها فتيان[3] ، وهو الخامس عشر من الخلفاء العباسيين ، بويع له فى منتصف شهر رجب سنة ست وخمسين ومائتين ، وذلك أنّه لما أُخذ المهتدى وحبس حضر أبو العباس وكان محبوسا بالجوسق ، فبايعه الأتراك وكتب إلى موسى بن بغا بذلك وكان بخانِقين ، فحضر إلى سامرّا وبايعه ، واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان .

ذكر عزل عيسى بن الشيخ عن الشام وولايته أرمينية

قد ذكرنا[4] أن ابن الشيخ كان قد استولى على دمشق وقطع الحمل

(١) مصدر المؤلف فى هذا الكامل جـ٥ ص٣٥٨

(٢) راجع المنتظم حـ٥ القسم الثانى ورقة ٢٠٢ المحفوظ بدار الكتب رقم ١٢٩٦ تاريخ

(٣) فى المخطوطات : قينان والتصويب عن الكامل حـ٥ ص٣٥٨ والمنتظم حـ٥ القسم الثانى ورقة ٢٠٧

(٤) راجع آخر أحداث سنة ٢٥٢هـ

عن بغداد ، واتفق أنّ ابن المُدَبِّر حمل من مصر إلى بغداد سبعمائة ألف دينار ، فأخذها عيسى بن الشيخ ،فأرسل إليه من بغداد حسين الخادم فطالبه بالمال ، فذكر أنّه أخرجه على الجند ، فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقيم الدعوة للمعتمد ، وكان قد امتنع من ذلك فأخذ العهد ، وأقام الدعوة ، ولبس السواد ظنّا منه أن الشام يكون بيده ، فأنفذ المعتمد أماجور وقلّده دمشق وأعمالها ، فسار إليها فى ألف رجل ، فلما قرب منها أنهض عيسى إليه ولده منصورا فى عشرين ألف مقاتل ، واقتتلوا فانهزم عسكر منصور وقتل هو ، فوهن عيسى وسار إلى أرمينية على طريق الساحل .

وفيها ظهر على بن زيد العلوى بالكوفة ، واستولى عليها وأخرج عامل الخليفة منها ، وكان من أمره ما نذكره - إن شاء الله - فى أخبارهم .

ودخلت سنة سبع وخمسين ومائتين

ذكر ورود أبى أحمد الموفق من مكة وما عقد له المعتمد من الأعمال

كان سبب وروده أن أمر الزنج كان قد اشتد وعظم شرهم وفسادهم فى البلاد ، فأرسل المعتمد على الله إلى أخيه أبى أحمد الموفّق وأحضره من مكة ، فلما حضر عقد له على الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ، ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز[1] ، وكان بين الزنج وعمال المعتمد وقائع كثيرة نذكرها إن شاء الله فى أخبارهم .

وحجّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن إسحاق بن العباس العباسى[2]

(١) يزيد ابن الأثير فى الكامل جـ٥ ص ٣٦١ : وفارس .

(٢) اسمه كما فى الكامل جـ٥ ص ٣٦٣ والطبرى جـ٧ ص ٦٠٨ : أبو الفضل بن إسحاق بن الحسن ابن إسماعيل بن العباس بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس

ودخلت سنة ثمان وخمسين ومائتين

فى هذه السنة فى شهر ربيع الأول عقد المعتمد لأخيه أبى أحمد الموفق على ديار مضر[1] وقِنسْرِين والعواصم ، وخلع على مُفْلح فى شهر ربيع الآخر وسيّرهما لحرب الزنج بالبصرة ، فقتل مفلح بسهم أصابه .

وفيها مات يارجوخ التركى فى شهر رمضان وكان صاحب مصر ومقطعها ويدعى له فيها ، فلما توفى استقل أحمد بن طولون بالأمر ، وكان قبل ذلك نائبه بها .

وحجّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن إسحاق بن الحسن .

ودخلت سنة تسع وخمسين ومائتين

فى هذه السنة دخلت الزنج الأهواز ، وسار موسى بن بغا لحربهم . وفيها ملك يعقوب بن الليث نيسابور على ما نذكره . وفيها قتل كنجور ، وسبب قتله أنّه كان على الكوفة ، فسار عنها إلى سامرّا بغير إذن ، فأمر بالرجوع فأبى فحمل إليه مال ليفرقه فى أصحابه فلم يقنع به ، وسار حتى أتى عكبرا فوجّه إليه من سامرّا عدة من القوّاد فقتلوه ، وحملوا رأسه إلى سامرّا

وحجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان العباسى

ودخلت سنة ستين ومائتين .

ذكر الفتنة بالموصل وإخراج عاملهم

كان المعتمد قد استعمل على الموصل أساتكين وهو من أكابر قوّاد الأتراك فسيّر إليها ابنه اذكوتكين[2] فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين

---

(١) هكذا فى المخطوطات والطبرى جـ٨ ص ٢ وفى الكامل جـ٥ ص ٣٦٥ مصر وهو تحريف

(٢) فى المخطوطات اذكرتكين والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٣٧١ ويلاحظ ان الطبرى لم يذكر اسمه وكذلك ابن الجوزى فى المنتظم كما لم يرد اسمه فى النجوم الزاهرة

ومائتين . فلما كان يوم النوروز من هذه السنة دعا وجوه أهل الموصل إلى قبّة فى الميدان . وأحضر أنواع الملاهى وتجاهر بالشرب والفسوق وفعل المنكرات . وأساء السيرة . ثم طالب أهل الموصل بالخراج عن غلات كانت قد هلكت من البرد . فاشتد ذلك على الناس . وكان لا يسمع بفرس جيد إلا أخذه من صاحبه . وأهل الموصل صابرون على ذلك كله منه . إلى أن وثب رجل من أصحابه على امرأة فأخذها من الطريق . فامتنعت واستغاثت . فقام رجل من أهل القرآن والصلاح اسمه إدريس الحميرى فخلّصها من يده . فعاد الجندى إلى ابن اساتكين فشكا من إدريس . فأحضره وضربه ضرباً شديداً من غير أن يكشف عن الأمر . فاجتمع وجوه أهل الموصل بالجامع وقالوا : قد صبرنا على أخذ الأموال وشتم الأعراض وإبطال السنن وإظهار البدع فلا نصبر على أخذ الحريم . واتفقوا على أن يشكوه إلى الخليفة ، فبلغه الخبر فركب فى جنده ومعه النفّاطون ، فخرجوا إليه ولقوه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى أخرجوه عن الموصل ، ونهبوا داره وأصابه حجر فشجّه ، ومضى من يومه إلى سامرا ، فاجتمع أهل الموصل إلى يحيى بن سليمان وقلّدوه أمرهم ، فبقى كذلك إلى أن انقضت سنة ستين ودخلت إحدى وستين ، فكتب اساتكين إلى الهيثم[1] بن عبد الله بن المعمر التغلبى ثم العدوى[2] فى أن يتقلّد الموصل ، وأرسل إليه الخلع واللواء وكان بديار ربيعة ، فجمع جموعاً كثيرة وسار إلى الموصل ، فنزل بالجانب الشرقى وبينه وبين البلد دجلة فقاتلوه ، فعبر إلى الجانب الغربى وزحف إلى باب البلد ، فخرج إليه يحيى بن سليمان فى أهل الموصل فقاتلوه ، فقتل منهم قتلى كثيرة وكثرت الجراحات ، وعاد الهيثم عنهم فاستعمل اساتكين على الموصل إسحاق ابن أيوب التغلبى ، فخرج فى عشرين ألفاً منهم حمدان بن حمدون التغلبى

(١) فى المخطوطتين ف . ص ابى الهيثم وهو خطأ صوبناه بعد قليل
(٢) فى المخطوطات : العذرى والتصويب عن الكامل جـ ٥ ص ٣٧٢

وغيره ، فنزل عند الدير الأعلى فقاتله أهل الموصل ، ومنعوه وداموا على ذلك مدة ، ومرض يحيى بن سليمان فطمع إسحاق فى البلد وجدّ فى الحرب ، فانكشف الناس بين يديه فدخل البلد ، ووصل إلى سوقَ الأربعاء وأحرق سوق الحشيش[1] ، فخرج بعض العدول واسمه زياد بن عبد الواحد وعلّق فى عنقه مصحفاً ، واستغاث بالمسلمين فأجابوه وعادت الحرب ، فأخرجوا إسحاق وأصحابه عن المدينة ، وبلغ سليمان الخبر فأمر أن يحمل فى محفّة ويجعل أمام الصفّ ، فلما رآه أهل الموصل قويت نفوسهم واشتد قتالهم ، فلم يزل الأمر على ذلك وإسحاق يراسلهم ويبذل لهم الإحسان وحسن السيرة ، فأجابوه إلى أن يدخل البلد ويقيم بالربض الأعلى ،فدخل وأقام سبعة أيام ، ثم وقع بين بعض أصحابه وبين قوم من أهل الموصل شرور ، فرجعوا إلى الحرب وأخرجوه عنها واستولى يحيى بن سليمان على الموصل ، إلى أن استعمل المعتمد الخضر بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبى الموصلى فى سنة إحدى وستين .

وحجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل وهو أمير مكة .

ودخلت سنة إحدى وستين ومائتين

ذكر البيعة بولاية العهد

للمفوّض جعفر بن المعتمد وللموفق الناصر لدين الله أبى أحمد أخى المعتمد

قال : وفى شوال من هذه السنة جلس المعتمد على الله فى دار العامة . وولّى ابنه جعفرا العهد ولقبّه المفوِض إلى الله وضمّ إليه موسى بن بغا . فولاه أفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان

(١) فى المخطوطات : الخميس والتصويب عن الكامل جـ٥ ص ٣٧٢

ومهرجانقذق[١] ، وولّى أخاه أبا أحمد العهد بعد جعفر ولقبّه الناصر لدين الله الموفّق ، وولاّه المشرق[٢] وسواد[٣] الكوفة وطريق مكة والمدينة[٤] واليمن وكسكر وكور دجلة والأهواز وفارس واصبهان وقمّ وكرج ودينور والرىّ وزنجان[٥] والسند ، وعقد لكل واحد منهما[٦] لواءين أبيض وأسود ، وشرط إن حدث به أمر[٧] وجعفر لم يبلغ أن يكون الأمر للموفّق ثم لجعفر بعده ، وأخذت البيعة بذلك ، فعقد جعفر لموسى على المغرب وأمر الموفّق بالمسير لحرب الزنج ، فولى الموفّق الأهواز والبصرة وكور دجلة مسرورا البلخى ، وسيّره فى مقدمته فى ذى الحجة ، وعزم على المسير بعده ، ثم شغله حرب يعقوب الصفّار على ما نذكره إن شاء الله .

وفيها كان ابتداء الدولة السامانية بولاية نصر بن أحمد السامانى ما وراء النهر على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة السامانية .

وحجّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن إسحاق العباسى

ودخلت سنة اثنتين وستين ومائتين

فى هذه السنة كانت الحرب بين الموفق ويعقوب بن الليث الصفّار على ما نذكره فى أخباره . وفيها وقعت الوحشة بين الموفّق وبين أحمد بن طولون أمير مصر واستحكمت ، فطلب الموفّق من يتولى الديار المصرية فلم يجد أحداً ، لأن ابن طولون كانت هداياه وخدمه متصلة إلى القوّاد وأرباب

(١) يضيف الطبرى جـ٨ ص ٢٠ : وحلوان
(٢) لم يذكرها الطبرى جـ٨ ص٢٠ وبدأ ببغداد
(٣) فى الكامل جـ٦ ص ٣ والطبرى جـ٨ ص ٢٠ : والسواد والكوفة
(٤) لم تذكر المخطوطات : والمدينة ووردت فى الكامل جـ٦ ص ٣ والطبرى جـ٨ ص ٢٠
(٥) يضيف بعدها الطبرى جـ٨ ص ٢٠ : وقزوين وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان
(٦) ساقطة من ف . ك
(٧) فى الكامل جـ٦ ص ٣ : الموت

المناصب بالعراق ، فكتب إلى أحمد بن طولون يتهدّده بالعزل . فأجابه بجواب فيه بعض الغلظة ، فسيّر الموفّق إليه موسى بن بغا فى جيش كثيف . فسار إلى الرقّة فبلغ الخبر ابن طولون فحصّن الديار المصرية ، وأقام ابن بغا بالرقّة عشرة أشهر لم يمكنه المسير لقلّة الأموال معه ، وطالبه الأجناد بالعطاء فلم يكن معه ما يعطيهم ، فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره عبد الله بن سليمان فاستتر ، فاضطر موسى إلى العود إلى العراق فعاد ، وتصدّق ابن طولون بأموال كثيرة .

وحكى ابن الجوزى بسند رفعه إلى أبى عون الفرايضى قال[1] : خرجت إلى مجلس أحمد بن منصور الزيادى سنة اثنتين وستين ومائتين ، فلما صرت بطاق الحرّانى رأيت رجلاً قد أمر بالقبض على امرأة ، وأمر بجرّها فقالت له : اتق الله ، فأمر أن تجرّ فلم تزل تناشده الله وهو يأمر بجرها ، إلى أن بلغت إلى باب القنطرة ، فلما يئست من نفسها رفعت رأسها إلى السماء ، ثم قالت : قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، إن كان هذا الرجل يظلمنى فخذه ؛ قال أبو عون : فوقع الرجل على ظهره ميتاً وأنا أراه ، فحمل على جنازة وانصرفت المرأة .

وحج بالناس الفضل بن إسحاق العباسى

ودخلت سنة ثلاث وستين ومائتين

فى هذه السنة استولى يعقوب بن الليث على الأهواز . وفيها سُلمت قلعة الصقالبة إلى الروم . وفيها مات الشارى الخارجى فبايع أصحابه أيوب

(١) المنتظم جـ٥ القسم الثانى ورقة ٢٢٧ محفوظ بدار الكتب برقم ١٢٩٦ تاريخ

ابن حيان الوارق[١] ، فقتل فبايعوا محمد بن عبد الله بن يحيى الوارق المعروف بالغلام ، فقتل أيضاً فبايعوا هارون بن عبد الله البجلى ، وكان من أخباره ما نذكره . وفيها مات عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله ، صدمه خادم بالميدان فسقط فسال دماغه من منخريه وأذنيه فمات لوقته ، واستوزر من الغد الحسن بن مخلد ، وقدم موسى بن بغا فاختفى الحسن فاستورز سليمان بن وهب .

ودخلت سنة أربع وستين ومائتين

فى هذه السنة أسرت الروم عبد الله[٢] بن رشيد[٣] بن كاووس ، وكان سبب ذلك أنه دخل بلد الروم فى أربعين ألف مقاتل من أهل الثغور الشامية فغنم وقتل فلما رحل عن البذندون خرج عليه بطريق سلوقية وبطريق قرة وكوكب[٤] وخرشنة وأحدقوا بالمسلمين ، فنزل المسلمون وعرقبوا دوابهم وقاتلوا ، إلا خمسمائة منهم فإنهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم ، وقتل الروم من قتلوا وأسر عبد الله بن رشيد بعد ضربات أصابته وحمل إلى ملك الروم . وفيها دخلت الزنج إلى واسط .

---

(١) أوردت المخطوطات القبالة فقالت (المعروف بالغلام) وهو خطأ نشأ عن خطأ فى نسخة المؤلف فيما يظهر . وإذا رجعنا إلى نص الكامل جـ٦ ص ١٥ نجده يقول (وفى هذه السنة مات مساور .... فكتب أصحابة إلى محمد بن خرزاد وهو بشهر زور ليولّوه أمرهم فامتنع ـ وكان كثير العبادة ، فبايعوا أيوب بن خيّان الوارق البجلى ، فأرسل إليهم محمد بن خرزاد ليذكر لهم أنه نظر فى أمره فلم يسعه إهمال الأمر لأن مساورا عهد إليه ، فقالوا له : قد بايعنا هذا الرجل ولانغدر به ، فسار إليهم فيمن بايعه فقاتلهم فقتل أيوب بن حيان ، فبايعوه بعده محمد بن عبد الله بن يحيى الوارق المعروف بالغلام فقتل أيضاً فبايع أصحابة هارون بن عبد الله البجلى فكثر أتباعه ....) ومن هذا يتضح الخطأ ، ولقد صوبنا العبارة والأحداث على ضوء نص الكامل وأسلوب المؤلف ومنهجه فى التلخيص .

(٢) فى ف ، ك : عبيد الله وصوبناه عن الكامل جـ٦ ص ١٦ والطبرى جـ٨ ص ٣٥ .

(٣) فى ص : رشد والتصويب عن الكامل جـ٦ ص ١٦ والطبرى جـ٨ ص ٣٥ وباقى المخطوطات .

(٤) هكذا فى المخطوطات وتاريخ الطبرى جـ٨ ص٣٥ وفى الكامل جـ٦ ص ١٦ : قرة كوكب من غير واو العطف .

ذكر أخبار الوزراء

فى هذه السنة خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا ، وشيّعه الموفّق والقواد ، فلما صار إلى سامرّا غضب عليه المعتمد وحبسه وقيّده وانتهب داره ، واستوزر الحسن بن مخلد فى ذى القعدة ، فسار الموفق إلى سامرا ومعه عبد الله بن سليمان بن وهب ، فلمّا قرب من سامرا تحوّل المعتمد إلى الجانب الغربى مغاضباً للموفّق ، واختلفت الرسل بينهما فاتفقا ، وخلع على الموفّق ومسرور وكيغلغ وأحمد بن موسى بن بغا وأطلق سليمان بن وهب ، وعاد إلى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد ومحمد بن صالح بن شيرزاد ، فكتب فى قبض أموالهما ، وهرب القوّاد الذين كانوا بسامرا مع المعتمد خوفاً من الموفّق ، ووصلوا إلى الموصل وجبوا الخراج .

وفيها مات أماجور وملك أحمد بن طولون الشام وطرسوس على ما نذكره إن شاء الله فى أخبار الدولة الطولونية وفيها ملك المسلمون مدينة سرقوسة ، وهى من أعظم بلاد صقلية وذلك فى رابع عشر شهر رمضان .

وحجّ بالناس فى هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى الهاشمى [1]

ودخلت سنة خمس وستين ومائتين

فى هذه السنة استعمل الموفق مسرورا البلخى على أعمال الأهواز ، وكانت له وقعة مع الزنج فهزمهم ، وفيها كانت وفاة [2] يعقوب بن الليث الصفّار بجند يسابور فى تاسع عشر شوال ، وقام بالأمر بعده أخوه عمرو بن الليث . وفيها حبس الموفّق سليمان بن وهب وابنه عبد الله وعدة من

---

(١) فى المخطوطات : هارون بن إسحاق بن الهاشمى . وصوبت المخطوطات الخطأ بعد ذلك فى السنة التالية .

(٢) فى ف ، ك : وقعة ، وهو خطأ (راجع الكامل جـ٦ ص ٢١)

أصحابهما ، وقبض أموالهم وضياعهم خلا أحمد بن سليمان ، ثم صالح سليمان وابنه عبد الله[١] على تسعمائة ألف دينار ، وجعلا فى موضع يصل إليهما من أراد . وفيها[٢] عسكر موسى بن أوتامش وإسحاق بن كنداجق والفضل بن موسى بن بغا وعبروا جسر دجلة ، فأتبعهم الموفق صاعد بن مخلد فردهم من صرصر وخلع عليهم[٣] . وفيها خرج خمسة من بطارقة الروم إلى أذنه فقتلوا وأسروا أرخوز[٤] ، وكان قبل ذلك يلى الثغور فعزل عنها وأقام مرابطاً ، وأسروا نحواً من أربعمائة وقتلوا نحواً من ألف وأربعمائة وذلك فى جمادى الأولى .

وحجّ بالناس فى هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمى .

ودخلت سنة ست وستين ومائتين

فى هذه السنة غلب أساتكين على الرىّ واخرج عاملها ، ومضى إلى قزوين وعليها أخو كيغلغ فصالحه فعاد إلى الرىّ وفيها كانت وقائع بين المتغلبين على الأطراف لا فائدة من ذكرها

وحجّ بالناس هارون الهاشمى .

---

(١) فى المخطوطات ..... وقبض أموالهم وضياعهم وقبض صالح بن سليمان وابنه عبد الله ... وهو خطأ صوبناه عن الكامل جـ٦ ص ٢٢ والطبرى جـ٨ ص ٤٣

(٢) وصف الكامل جـ٦ ص ٢٢ حدث سليمان بن وهب وابنه عبد الله بالحدث التالى له وترتب على هذا الخطأ خطأ النويرى فوصل الحدث التالى له وترتب على هذا الخطأ خطأ النويرى فوصل الحدث التالى بالحدث السابق ، وبالرجوع إلى الطبرى جـ٨ ص ٤٣ نجدهما حدثين مستقلين بدأ كل منهما بقوله : وفيها ، ومن ثم كان التصويب .

(٣) عبارة الكامل جـ٦ ص ٢٢ (ومنعهم الموفق فلم يرجعوا ونزلوا صرصر ، فاستكب أبو أحمد الموفق صاعد بن مخلد فمضى إلى أولئك القواد فردّهم من صرصر فخلع عليهم ...) وتعبير الطبرى جـ٨ ص ٤٣ شبيه بهذا التعبير ويمتاز بما يورد من تفاصيل .

(٤) هكذا فى تاريخ الطبرى جـ٨ ص ٤٣ والنجوم الزاهرة جـ٢ ص ٣٣٧ ، جـ٣ ص ١ وفى الكامل جـ٦ ص ٢٢ : أرجوز ، وفى الولاة والقضاء للكندى ص ٢٠٨ (ط . بيروت) أزجوز ، وفى المخطوطات دون نقط .

ودخلت سنة سبع وستين ومائتين

فى هذه السنة كان بين الموفق والزنج حروب طويلة[1] ، ضعف بسببها أمرهم ، ولم يكن من أحوال الخلافة ما نذكره ، لتغلّب العمال على الأطراف واشتغال بعضهم ببعض ، على مانورد ذلك كله فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وحج بالناس هارون

ودخلت سنة ثمان وستين ومائتين

لم تكن فى هذه السنة إلا أخبار الزنج وحروبهم والخوارج ، ويرد ذلك فى موضعه .

وحج بالناس هارون

ودخلت سنة تسع وستين ومائتين .

فى هذه السنة حارب الموفّق أيضاً صاحب الزنج ، واستولى الموفّق على مدينتى صاحب الزنج الغربية ثم الشرقية ، وهدم قصره فى حروب طويلة لا فائدة فى ذكرها .

ذكر مسير المعتمد على الله إلى مصر وعوده قبل الوصول اليها

فى هذه السنة سار المعتمد نحو مصر ، وكان سبب ذلك أنّه لم يكن له من الخلافة إلا اسمها ، ولا ينفذ له توقيع فى قليل ولا كثير ، وكان الحكم كله للموفّق والأموال تجبى إليه ، فأنف وضجر المعتمد من ذلك ، وكتب إلى أحمد بن طولون يشكو إليه من أخيه فى السر ، فأشار عليه باللحاق به بمصر ووعده النصر ، وسيّر عسكرا إلى الرقة ينتظرون وصول المعتمد إليهم ، فاغتنم

(١) فى ف ، ك : كثيرة وآثرنا ما جاء فى ص لأنه عودنا أنه دقيق فى نقله

المعتمد غيبة الموفّق عنه ، وسار فى جمادى الأولى ومعه جماعة من القوّاد . فأقام بالكحيل يتصيّد ثم سار حتى صار إلى عمل إسحاق بن كنداجق – وهو عامل الموصل وعامة الجزيرة ، فوثب إسحاق بمن مع المعتمد من القوّاد فقبضهم ، وهم نيزك[1] وأحمد بن خاقان وخطارمش وقيّدهم وأخذ أموالهم ودوابهم ، وكان صاعد بن مخلد وزير الموفق قد كتب إليه بذلك عن الموفّق ، وكان سبب تمكّنه منهم ووصوله إلى قبضهم أنّه اظهر أنّه معهم فى طاعة المعتمد – إذ هو الخليفة ، ولقيهم لما صاروا إلى عمله وسار معهم عدة مراحل ، فلما قارب عمل أحمد بن طولون ارتحل الأتباع والغلمان الذين مع المعتمد ومع قواده ، ولم يترك إسحاق أصحابه يرتحلون ثم قال للقوّاد وهم عند المعتمد : إنّكم قد قاربتم عمل ابن طولون والأمر أمره ، وتصيرون جنده وتحت يده ، أفترضون ذلك ؟ وقد علمتم أنّه كواحد منكم ، وتناظروا فى ذلك حتى ارتفع النهار ولم يرتحل المعتمد ، ثم قال لهم : قوموا بنا حتى نتناظر فى غير حضرة أمير المؤمنين ، فأخذ بأيديهم إلى خيمة له فلما دخلوا الخيمة قبض عليهم وقيّدهم وأخذ سائر من مع المعتمد من القوّاد ، ثم مضى إلى المعتمد فعذله فى[2] مسيره عن دار ملكه وملك آبائه وفراق أخيه الموفّق وهو على الحال التى هوبها من الحرب ، ثم حمله ابن كنداجق ومن معه حتى أدخلهم سامراً . وفيها لعن المعتمد أحمد بن طولون فى دار العامة ، وأمر بلعنه على المنابر ، وولّى إسحاق بن كنداجق على أعمال ابن طولون ، وفوّض إليه من باب الشماسية إلى إفريقية ، وولاّه شرطة الخاصة ؛ وكان سبب تغيره على ابن طولون أنّه قطع خطبة الموفّق ، وأسقط اسمه عن الطرز ، فتقدّم الموفّق إلى المعتمد بلعنه فلعنه مكرهاً ، وكان المعتمد فى الباطن مع ابن طولون .

(١) سرل بهذا الرسم فى المخطوطات وفى تاريخ الطبرى جـ٨ ص ١٠٧ : تينك وما أثبتناه عن الكامل جـ٦ ص ٤٩

(٢) فى المخطوطات : فعدله عن مسيره والتصويب عن الكامل جـ٦ ص ٤٩ والطبرى جـ٨ ص ١٠٨

ودخلت سنة سبعين ومائتين

فى هذه السنة قتل صاحب الزنج . وفيها كانت وفاة الحسن بن زيد العلوى صاحب طبرستان فى شهر رجب . وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام ، وولى بعده أخوه محمد بن زيد . وفيها كانت وفاة أحمد بن طولون وولاية ابنه خمارويه ، ومسير ابن كنداجق إلى الشام على ما نذكر ذلك كله إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الطولونية .

قال أبو الفرج بن الجوزى فى حوادث سنة سبعين ومائتين[١] : إن الروم نزلت ناحية قلمية[٢] على ستة أميال من طرسوس وهم زهاء مائة ألف[٣] مع بطريق البطارقة اندرياس ، فبيّتهم يا زمان[٤] الخادم ليلا ، فقتل رئيسهم وخلقا كثيرا من أصحابه يقال إنّهم بلغوا سبعين ألفا ، وأخذ لهم سبعة صلبان من ذهب وفضة فيها صليبهم الأعظم مكلل بالجوهر ، وأخذ خمسة عشر ألف دابة وبغل ومن السروج مثلها وسيوفا محلاة بذهب وفضة ومناطق وأربع كراسى من ذهب ومائتى طوق[٥] من ذهب وآنية كثيرة . ونحواً من عشرة آلاف علم ، وذلك فى يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول .

ودخلت سنة إحدى وسبعين ومائتين

ذكر خلاف محمد وعلى العلويين بالمدينة

فى هذه السنة دخل محمد وعلى ابنا الحسين[٦] بن جعفر بن موسى بن

---

(١) المنتظم الجزء الخامس (القسم الثانى) ورقة ٢٤١

(٢) غير واضحة فى المخطوطات (باب قلمه) والتصويب عن المنتظم جـ٥ (القسم الثانى) ورقة ٢٤١ والكامل جـ٦ ص ٥٥

(٣) فى المنتظم جـ٥ القسم الثانى ورقه ٢٤١ مائة ألف برءوسهم

(٤) هكذا فى تاريخ الطبرى جـ٨ ص ١٤٦ وفى النجوم الزاهرة جـ٣ ص ٦٧ يا زمان وفى المنتظم بارمان (ورقة ٢٤١) وفى الكامل جـ٦ ص ٥٥ بازمار وفى المخطوطات بارمار

(٥) هكذا فى المخطوطات والمنتظم ورقة ٢٤١ وفى الكامل جـ٦ ص ٥٥ : كرسى

(٦) فى المخطوطات : الحسن والتصويب عن الكامل جـ٦ ص ٥٧ والطبرى جـ٨ ص ١٤٨

جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بالمدينة وقتلا جماعة من أهلها وأخذا من قوم مالا ، ولم يصلّ أهل المدينة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع جمع ، لا جمعة ولا جماعة . وفيها كانت وقعة الطواحين بين المعتضد بن الموفّق وخمارويه بن أحمد بن طولون ، كان الظفر فيها لعسكر خمارويه ، وهرب المعتضد إلى دمشق فمنع من دخولها .

ودخلت سنة اثنتين وسبعين ومائتين

فى هذه السنة قدم صاعد بن مخلد وزير الموفّق من فارس إلى واسط ، فأمر الموفّق جميع القواد أن يستقبلوه ، فاستقبلوه وترجلّوا له وقبّلوا يده وهو لا يكلّمهم كبْراً وتيها ، ثم قبض الموفّق عليه وعلى جميع أهله وأصحابه ونهب منازلهم بعد أيام ، وكان قبضه فى شهر رجب ، وقبض على ابنيه أبو عيسى وصالح وأخيه عبدون ببغداد ، واستكتب مكانه أبا الصقر إسماعيل ابن بلبل ، واقتصر على الكتابة دون الوزارة . وفيها صلح أمر مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتراجع الناس إليها .

وحج بالناس فى هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمى [1]

ودخلت سنة ثلاث وسبعين ومائتين

فى هذه السنة وقع الخلاف بين أبى الساج وإسحاق بن كنداجق ، وخطب لابن طولون بالجزيرة .

وحج بالناس فى هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق

ودخلت سنة أربع وسبعين ومائتين

فى هذه السنة كانت الحرب بين الموفّق وعسكر عمرو بن الليث الصفّار

(١) فى ف . ك : محمد بن هارون بن محمد الهاشمى. وتصحح المخطوطات الاسم فى السنة التالية وما بعدها

على ما نذكره فى أخبار الدولة الصفّارية .

وحج بالناس فى هذه السنة هارون

ودخلت سنة خمس وسبعين ومائتين

ذكر قبض الموفّق على ابنه المعتضد

فى هذه السنة قبض الموفّق على ابنه أبى العباس أحمد المعتضد ، وسبب ذلك أن الموفّق دخل إلى واسط ثم عاد إلى بغداد ، وأمر ابنه المعتضد أن يسير إلى بعض الوجوه ، فقال : لا أخرج إلا إلى الشام ، لأنها الولاية التى ولّانيها أمير المؤمنين . فغضب الموفّق وقبض عليه وجعله فى حجرة ووكل به ، فثار القوّاد من أصحابه ومن تبعهم وركبوا ، واضطربت بغداد فركب الموفّق إلى الميدان ، وقال لهم : ما شأنكم ! ! أترون أنّكم أشفق على ولدى منى ؟ وقد احتجت إلى تقويمه فانصرفوا .

ودخلت سنة ست وسبعين ومائتين

فى هذه السنة جعلت شرطة بغداد إلى عمرو بن الليث ، وكتب اسمه على الأعلام والأترسه وذلك فى شوال[1] ، ثم ترتّب فى الشرطة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر من قبل عمرو . ثم أمر بطرح اسم عمرو عن الأعلام وغيرها فى الشهر[2] . وفيها ورد الخبر بانفراج تلّ بنهر البصرة يعرف بتلّ بنى[3] شقيق عن سبعة أقبر شبه الأحواض ، من حجر فى لون المسنّ عليها

(١) خطأ صوابه المحرم (راجع تاريخ الطبرى جـ٨ ص ١٥٤) والمؤلف يتابع ابن الأثير جـ٦ ص٦٦ الذى ينقل عنه

(٢) أورد المنتظم جـ٥ القسم الثانى ورقة ٢٥٢ هذا الأمر مضبوطا قال (... ضم الشرطة ببغداد إلى عمرو بن الليث وكتب فيها على الأعلام والمطارد والطرسة التى تكون فى مجلس الشرطة اسمه وذلك فى المحرم . ثم طرح ذلك فى شوال وسقط ذكره) وراجع أيضاً الطبرى جـ٨ ص ١٥٤ . ومنشأ الخطأ الذى وقع فيه النويرى راجع فى نقل هذا الخطأ عن الكامل جـ٦ ص ٦٦

(٣) ساقطة من الكامل جـ٦ ص ٦٦ وتتفق المخطوطات مع الطبرى جـ٨ ص ١٥٤ والنجوم الزاهرة جـ٣ ص ٧٥ والمنتظم ورقة ٢٥٢

كتابه لا يدرى ما هى ، وفيها سبعة أبدان صحيحة عليها أكفان جدد يفوح منها رائحة المسك ، أحدهم شاب له جمّة وعلى شفتيه بلل كأنّه قد شرب ماء وكأنه قد كحل ، وبه ضربة فى خاصرته .

وحج بالناس فى هذه السنة هارون بن محمد .

ودخلت سنة سبع وسبعين ومائتين

فى هذه السنة دعى بطرسوس لخمارويه بن أحمد . وفيها ولى يوسف بن يعقوب المظالم ، وأمر أن ينادى من كان له مظلمة قبل الأمير الناصر لدين الله الموفّق أو أحد من الناس فليحضر

وحج بالناس هارون

ودخلت سنة ثمان وسبعين ومائتين

فى هذه السنة كانت الحرب ببغداد بين أصحاب وصيف الخادم والبربر وأصحاب موسى ابن أخت مفلح أربعة أيام من المحرم ، ثم اصطلحوا وقد قتل بينهم جماعة ، ووقع بالجانب الشرقى وقعة بين النصر بين وأصحاب يونس قتل فيها رجل ثم انصرفوا

ذكر وفاة أبى أحمد الموفّق

فى هذه السنة توفى أبو أحمد الموفّق بن المتوكل فى يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر ، ودفن ليلة الخميس بالرصافة ، وكان قد مرض فى بلاد الجبل فانصرف وقد اشتد به وجع النِّقْرِس . فلم يقدر على الركوب فحمل على سرير فيه قبة ، وكان يجلس فيه هو وخادم له يبرد رجليه بالأشياء الباردة ، ثم صار به داء الفيل ، وكان يحمل سريره أربعون رجلا بالنوبة ، فقال لهم يوما وقد ضجر : أودّ أن أكون كواحد منكم أحمل على رأسى

وآكل وأنا فى عافية ؛ وقال فى مرضه : أطبق ديوانى على مائة ألف مرتزق ، ما أصبح فيهم أسوأ حالاً منّى ، ووصل إلى داره لليلتين خلتا من صفر ، وشاع موته بعد انصراف أبى الصقر من داره ، وكان قد تقدّم بحفظ ابى العباس فأغلقت عليه الأبواب . قال : ووجّه أبو الصقر إلى المدائن فحمل منها المعتمد وأولاده وجىء بهم ، فلما رأى غلمان الموفّق ما نزل بمولاهم كسروا الأبواب المغلقة على أبى العباس ، فظن أنهم يريدون قتله فأخذ سيفه فى يده ، وقال : والله لا يصلون إلىّ وفىّ شىء من الروح ، فلما وصلوا إليه رأى غلامه وصيفا فألقى السيف من يده ، وعلم أنهم لا يريدون إلا الخير ، وأخرجوه وأقعدوه عند أبيه وكان قد اعترته غشية ، فلما أفاق ورآه قرّبه وأدناه إليه ؛ وأما أبو الصقر فإنه لما حصل الإرجاف بموت الموفّق جمع القوّاد والجند وقطع الجسرين ، وحاربه قوم من الجانب الشرقى فقتل منهم قتلى ، فلما ظهر أن الموفّق حىّ حضر عنده محمد بن أبى الساج وفارق أبا الصقر ، وتسلل القواد والناس عن ابى الصقر ، فلما راى ذلك ابو الصقر حضر هو وابنه دار الموفّق ، وذكر أن أبا الصقر أراد أن يتقرب إلى المعتمد بمال الموفّق واسبابه ، وأشاعوا ذلك عنه عند أصحاب الموفّق ، فنهبوا دار أبى الصقر وما يجاوره من الدور ، وأخرجوا نساءه حفاة بغير أزر ، وكسرت أبواب السجون وخرج من فيها . قال : وخلع الموفّق عند إفاقته على ابنه أبى العباس وعلى أبى الصقر ، وركبا جميعاً فمضى أبو العباس إلى منزله وجاء أبو الصقر إلى منزله وقد نهب ، فطلب له حصيرة يجلس عليها عارية ، ثم مات الموفق فى التاريخ الذى ذكرناه ، وجلس ابنه أبو العباس للتعزية ، وكان الموفّق عاد لأحسن السيرة يجلس للمظالم وعنده القضاة والفقهاء وغيرهم ، فينصف الناس بعضهم من بعض ، وكان عالماً بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك .

ذكر البيعة للمعتضد بالله بولاية العهد

قال : ولما مات الموفّق اجتمع القواد وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوّض إلى الله ابن المعتمد ولقب المعتضد بالله ، وخطب له فى يوم الجمعة بعد المفوّض وذلك لسبع بقين من صفر ، واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولىّ ما كان أبوه يتولاّه .

وفيها قبض المعتضد[١] على أبى الصقر وأصحابه وانتهبت منازلهم ، وطلب بنى الفرات فاختفوا ، واستوزر عبيد الله بن سليمان بن وهب . وفيها كان ابتداء أمر القرامطة على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبارهم .

قال ابن الجوزى[٢] : وفى هذه السنة غار ماء النيل ، وكان ذلك شيئاً لم يعهد مثله ولا سمع[٣] فى الأخبار السالفة[٤] .

وحج بالناس فى هذه السنة هارون بن محمد

ودخلت سنة تسع وسبعين ومائتين

ذكر خلع المفوض إلى الله جعفر بن المعتمد وولاية أبى العباس المعتضد بالله بن الموفّق

فى المحرم من هذه السنة خرج المعتمد على الله وجلس للقوّاد والقضاة ووجوه الناس ، وأعلمهم أنّه خلع ابنه المفوّض إلى الله جعفرا من ولاية العهد ، وجعلها للمعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفّق ، وشهدوا على المفوّض أنّه قد تبرأ من العهد ، وأسقط اسمه من الخطبة والسكة والطرز وغير ذلك ، وخطب للمعتضد وكان يوما مشهودا .

---

(١) فى الكامل جـ٦ ص ٦٩ : المعتمد وهو خطأ راجع الطبرى جـ٨ ص ١٥٨ . ص١٦٣ والكامل جـ٦ ص ٧٢

(٢) المنتظم الجزء الخامس من القسم الثانى ورقة ٢٥٧

(٣) فى المنتظم : بلغ

(٤) فى المصدر السابق : السابقة

وفيها نودى بمدينة السلام ألا يقعد على الطريق ولا بالمسجد الجامع قاض ولا منجم ولا زاجر ، وحلف الورّاقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل .

ذكر وفاة المعتمد على الله وشيء من أخباره

كانت وفاته ببغداد ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، وكان قد شرب على الشط بالجسر يوم الأحد شرابا كثيرا فمات ليلا ، وأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس ، فنظروا إليه وحمل إلى سامرّا فدفن بها ، وكانه عمره خمسين سنة وستة أشهر ، وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وستة أيام ، وكان فى خلافته محكوما عليه ، ضيّق عليه أخوه الموفّق حتى إنه احتاج فى بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها ، فقال :

أليس من العجائب أنّ مثلى يرى ما قلّ ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ومامن ذاك شيء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ويمنع بعض ما يجبى إليه

وهو أول من انتقل من الخلفاء من سامرّا ، ولم يعد إليها بعده خليفة . وكان طويل القدّ واللحية واسع العينين مقبلا على اللذات ، مشغولا عن الرعيّة مضطرب الأحوال . وكان نقش خاتمه : السعيد من وعظ بغيره . أولاده : عبد العزيز وجعفر ومحمد وإسحاق . وزراؤه : عبيد الله بن يحيى ابن خاقان ثم سليمان بن وهب ثم الحسن بن مخلد ثم صاعد بن مخلد أخوه ثم أبو الصقر إسماعيل بن بلبل . حجّابه : موسى بن بغا ثم جعفر بن غانم بن على الجهشيارى . قضاته : الحسن بن أبى الشوارب ثم أخوه على بن محمد . الأمراء بمصر : أحمد بن طولون ثم ابنه خمارويه . قضاتها : بكّار بن قتيبة

إلى أن توفى فى سنة سبعين ومائتين بعد وفاة أحمد بن طولون بأربعين يوما ، وكانت ولايته أربعا وعشرين سنة ونصف سنة ، وبقيت مصر بغير قاض ، ثم وليها أبو عَبْدَة[1] محمد بن عبدة واستخلف أبا جعفر الطحاوى واستكتبه وأعفاه . وقد قيل فى وفاة المعتمد على الله أنه مات مسموما والله عز وجل أعلم

خلافة المعتضد بالله

هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة الملقب الناصر لدين الله بن جعفر المتوكل بن المعتصم بالله بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ، وأمه أم ولد اسمها ضِرار وقيل اسمها خفيرة[2] ، وهو السادس عشر من الخلفاء العباسيين ، بويع له يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين بعد وفاة عمّه المعتمد على الله .

قال : ولما ولى استعمل غلامه بدرا على الشرطة ، واستوزر عبيد الله ابن سليمان بن وهب وجعل على حرسه محمد بن الشاه بن ميكال[3] ؛ ووصله فى شوال رسول عمرو بن الليث ومعه هدايا كثيرة ، وسأله أن يوليه خراسان فعقد له عليها ، وسيّر إليه الخلع واللواء والعهد ، فنصب اللواء فى داره ثلاثة أيام . وفيها كانت وفاة نصر السامانى بما وراء النهر ، فقام بعمله أخوه إسماعيل بن أحمد . وفيها قدم الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص من مصر بهدايا عظيمة من خمارويه ، فتزوج المعتضد ابنة خمارويه وهى قطر

(١) هكذا فى المخطوطات والولاة والقضاة للكندى ط بيروت ص ٢٤٨ أما النجوم الزاهرة جـ٣ ص ٩٩ ، ص ١٣٨ فتكنيه أبو عبد الله

(٢) ورد فى المنتظم جـ٥ القسم الثانى ورقه ٢٦٣ : ثم سميت خفيرة

(٣) فى الكامل جـ٦ ص ٧٣ : محمد بن الشاه بن مالك ، ويبدو أن النويرى لم يطمئن إلى صحة اسم الجد فرسم حروف اسمه بصورة تميل بين مالك وبين ميكال ، على أنه يمكن الترجيح أنه يغلب ميكال ، وهو ماجاء بالطبرى جـ٨ ص ١٦٤ والنساخ نقلوا عنه رسمه للأسم ولم يحاولوا أن يوضحوه كما فعل

الندى ، وأصدقها المعتضد ألف ألف درهم ، وفيها ملك أحمد بن عيسى ابن[١] الشيخ قلعة ماردين – وكانت بيد إسحاق بن كنداجق.

وحج بالناس فى هذه السنة هارون بن محمد العباسى ، وهى آخر حجة حجّها وأول سنة حج بالناس سنة أربع وستين ومائتين .

ودخلت سنة ثمانين ومائتين

ذكر حبس عبد الله بن المهتدى وقتل محمد بن الحسن[٢]

فى هذه السنة أخذ المعتضد عبد الله بن المهتدى ومحمد بن الحسن المعروف بشَيْلَمة وحبسهما ، وكان شيلمة هذا مع صاحب الزنج إلى آخر أيامه ، ثم لحق بالموفّق بأمان ؛ وكان سبب أخذهما أن بعض المستأمنة سعى به إلى المعتضد ، وأنّه يدعو لرجل لا يعرف اسمه ، وأنّه قد أفسد جماعة من الجند وغيرهم ، فقرّره المعتضد فلم يقرّ بشىء وقال : لو كان تحت قدمى ما رفعتها عنه ، فأمر به فشدّ فى خشبة من خشب الخيم ، ثم أوقد نارا عظيمة وأدير عليها حتى تقطّع جلده ، ثم ضربت عنقه وصلب عند الجسر . وحبس ابن المهتدى إلى أن علم براءته فأطلقه

ذكر قصد المعتضد بنى شيبان وصلحه معهم وإغارته على الأعراب

فى أول صفر سار المعتضد من بغداد يريد بنى شيبان بالمكان الذى

(١) هكذا فى المخطوطات والكامل جـ٦ ص ٧٥ أما فى تاريخ الطبرى جـ٨ ص ١٦٤ : أحمد بن عيسى الشيخ إلا أن الطبرى فى سنة ٢٨١ ذكره ابن الشيخ

(٢) فى المخطوطات والكامل جـ٦ ص ٧٥ : محمد بن الحسين ولقبه فى الكامل شميلة . ولئن اتفقت المخطوطات مع الكامل فى الاسم فقد اختلفت معه فى اللقب واتفقت مع الطبرى جـ٨ ص ١٦٥ والمنتظم جـ٥ القسم الثانى ورقة ٢٧٢ اللذين ورد اسمه فيهما : محمد بن الحسن المعروف بشيلمة

يحتمون[١] به من أرض الجزيرة ، فلما بلغهم قصده جمعوا أموالهم . وأغار المعتضد على أعراب عند السِنّ ، فنهب أموالهم وقتل منهم مقتله عظيمة ، وغرق منهم فى الزاب مثل ذلك ، وعجز الناس عن حمل ما غنموه ، فبيعت الشاة بدرهم والجمل بخمسة دراهم ، وسار إلى الموصل وبلد فلقيه بنو شيبان[٢] يسألون العفو ، وبذلوا له رهائن فأجابهم إلى ماطلبوا ، وعاد إلى بغداد ، وأرسل إلى أحمد بن عيسى بن الشيخ يطالبه بما أخذ من أموال ابن كنداجق ، فبعثها إليه ومعها هدايا كثيرة .

وفيها غارت المياه بالرى وطبرستان حتى بلغ الماء ثلاثة أرطال بدرهم ، وفى شوال منها انخسف القمر وأصبح أهل دبيل وقد أظلمت الدنيا عليهم ، ودامت الدنيا مظلمة عليهم ، فلما كان عند العصر هبّت ريح سوداء ودامت إلى ثلث الليل ، ثم زلزلوا فى الثلث فخربت المدينة ، ولم يبق من دورها إلا قدر مائة دار ، وزلزلوا بعد ذلك خمس مرّات ، وكان جملة من أخرج من تحت الردم مائة ألف وخمسين ألف كلهم موتى .

وحج بالناس أبو بكر محمد بن هارون[٣]

ودخلت سنة إحدى وثمانين ومائتين .

ذكر مسير المعتضد إلى مَارْدِين وملكها

فى هذه السنة توجّه المعتضد بالله – وهى الخرجة الثانية إلى الموصل – قاصدًا حمدان بن حمدون ، لأنّه بلغه أنّه مايل هارون الخارجى ودعا له ،

---

(١) فى الكامل جـ٦ ص ٧٦ : يجتمعون ويظهر أنها تحريف ويؤيد المخطوطات الطبرى جـ٨ ص ١٦٦ : ... كانت شيبان تتخذه معقلا من أرض الجزيرة ويظهر أنه يحتمون فى الكامل المخطوط لأن النويرى ينقل عنه والخطأ فى النشر أو مطبعى

(٢) ورد فى تاريخ الطبرى جـ٨ ص ١٦٦ : ... ثم إلى بلد ثم رجع إلى بغداد فلقيه بنوشيبان يسألونه الصفح

(٣) فى المخطوطات : أبو بكر بن محمد بن هارون والتصويب عن الكامل جـ٦ ص ٧٧ والطبرى جـ٨ ص ١٦٧

فلما بلغ الأعراب مسير المعتضد تحالفوا أنهم يقتلون على دم واحد ، واجتمعوا وعبئوا عساكرهم ، فسار المعتضد إليهم فى خيل جريدة ، فأوقع بهم وقتل منهم وغرّق فى الزاب ، وسار إلى الموصل يريد قلعة مَاردِين وكانت لحمدان ، فهرب حمدان منها وخلف ابنه بها فنازله المعتضد ، وقاتل من فيها يومه ذلك فلما كان الغد ركب المعتضد ، وصعد إلى باب القلعة وصاح لابن حمدان فأجابه ، فقال : افتح الباب ففتحه ، فجلس المعتضد فى باب القلعة وأمر بنقل مافيها وهدمها ، ثم وجّه خلف حمدان وطلبه أشد الطلب وأخذت أمواله ، ثم ظفر به المعتضد بعد عوده من بغداد ؛ وفى عوده قصد الحسنيّة وبها رجل كردى يقال له شدّاد ، فى جيش كثيف قيل كانوا عشرة آلاف ، فظفر به وهدم قلعته . وفيها سار المعتضد إلى ناحية الجبل وقصد الدِينَوَر وولّى ابنه عليا – وهو المكتفى – الرىّ وقزوين وزَنْجَان وأَبْهَرَ وقُمّ وهمذان والدينور ، وجعل كتابته لأحمد بن الأصبغ ، وقلّد عمر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف أصفهان ونهاوند والكرخ ، وعاد إلى بغداد .

ودخلت سنة اثنتين وثمانين ومائتين

ذكر قصد حَمْدَان وانهزامه وعوده إلى الطاعة

فى هذه السنة كتب المعتضد إلى إسحاق بن أيوب وحَمْدان بن حَمْدُون بالمصير إليه وهو بالموصل ، فبادر إسحاق وتحصّن حمدان بقلاعه وأودع أمواله وحرمه ، فبعث المعتضد الجيوش نحوه مع وصيف مُوشْكِير[1] ونصر القشورى وغيره فساروا إلى حمدان فواقعوه ، فقتل من أصحابه جماعة وانهزم ، واتبعه الجند[2] حتى ضاقت عليه الأرض ، فقصد خيمة إسحاق ابن أيوب وهو مع المعتضد فاستجار به ، فأحضره إلى المعتضد فأمر بالاحتفاظ به وتتابع رؤساء الأكراد فى طلب الأمان .

(١) فى المخطوطات : موشكين والتصويب عن الكامل جـ٦ ص٧٨ والطبرى جـ٨ ص١٧٠

(٢) هذه الفقرة ساقطة من ص

وفيها انهزم هارون الخارجى من عسكر الموصل على مانذكره فى أخباره . وفيها فى ربيع الأول قبض على بَكْتَمُر بن طَاشْتَمُر وقيّد وكان أميرًا على الموصل ، واستعمل عليها الحسن بن على الخراسانى ويعرف بكوره . وفيها قدم ابن الجصاص بابنة خمارويه زوجة المعتضد ومعها أحد عمومتها ، وكان المعتضد بالموصل وعاد إلى الجبل وبلغ الكرج ، وفيها قتل خماوريه بن أحمد بن طولون على مانذكره إن شاء الله تعالى

ودخلت سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

فى هذه السنة سار المعتضد إلى الموصل بسبب هارون الخارجى ، وأحضر الحسين بن حمدان وسيّره فى طلب هارون فى جماعة من الفرسان والرجال ، فقال له الحسين : إن أنا جئت به فلى ثلاث حوائج إلى أمير المؤمنين ، أولها إطلاق أبى وحاجتان أذكرهما إذا جئت به ، فقال : لك ذلك ، فانتخب ثلاثمائة فارس وسار بهم نحوه ، فظفر به وأحضره إلى المعتضد فانصرف إلى بغداد ، فوصلها لثمان بقين من شهر ربيع الأول وخلع على الحسين بن حمدان وطوّقه ، وخلع على إخوته وأمر بفك قيود حمدان والتوسعة عليه ووعد بإطلاقه ، وأدخل هارون على فيل وصلبه .

وفيها كان الفداء بين الروم والمسلمين ، وكان جملة من فودى به ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس[1] . وفيها أمر المعتضد بالكتب إلى جميع البلدان أن يرد الفاضل من سهام المواريث إلى ذوى الأرحام وبطل ديوان المواريث

وفيها قتل رافع بن الليث وجىء برأسه إلى المعتضد ، فوصل فى سنة أربع وثمانين فأمر بنصبه ببغداد[2] ، وكان الذى قتله أصحاب عمرو بن الليث .

---

(١) هذه الفقرة ساقطة فى ص

(٢) من: فوصل فى سنة .... إلى ببغداد : ساقطة من ص

ودخلت سنة أربع وثمانين ومائتين .

فى هذه السنة فى شهر ربيع الأول ظهر بمصر ظلمة شديدة وحمرة فى السماء ، حتى كان الرجل ينظر إلى وجه الآخر فيراه أحمر ، ومكثوا كذلك من العصر إلى العشاء الآخره ، وخرج الناس من منازلهم يدعون ويتضرعون إلى الله .

وفيها عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبى سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على المنابر ، وذكر فى الكتاب يزيد وغيره من بنى أمية ، وعملت بالكتاب نسخ قرئت فى جانبى بغداد ، ومنع القصاص والعامة من القعود فى الجامِعَيْن ، ونهى عن الاجتماع على قاض أو مناظرة وجدل فى أمر الدين ، ونهى الذين يسقون فى الجامعَيْن ألا يترحّموا على معاوية ولا يذكروه ، فقال له عبيد الله بن سليمان : إنّا نخاف إضطراب العامة وإثارة فتنة ، فلم يرجع إليه ، فقال عبيد الله للقاضى يوسف بن يعقوب ليحتال فى منعه ، وكلّم يوسف المعتضد وحذّره اضطراب العامة فلم يلتفت ، فقال : يا أمير المؤمنين فما تصنع بالطالبيين الذين يخرجون من كل ناحية ، ويميل إليهم خلق كثير من الناس ؟ فإذا سمع الناس ما فى هذا الكتاب مالوا إليهم ، وصاروا هم أبسط ألسنة وأثبت حجة منهم اليوم ، فأمسك المعتضد ولم يأمر فى الكتاب بشىء بعد ذلك .

وفيها ظهر بدار المعتضد إنسان بيده سيف ، فمضى إليه بعض الخدم لينظر ماهو ، فضربه بالسيف فجرحه فهرب الخادم ، ودخل الشخص فى زرع البستان فتوارى فيه ، وطلب فلم يعرف له خبر واستوحش المعتضد ، وكثر الناس القول حتى قالوا إنّه من الجن ، وظهر مرارًا كثيرة فوكل المعتضد بسور داره وأحكمه ، ثم أحضر المجانين والمعزّمين بسبب الشخص ، فقال المعزّمون : نحن نعزّم على بعض المجانين فإذا صرع سئل الجنّى فيخبر بخبره ،

فعزّموا على امرأة مجنونة فصرعت والمعتضد ينظر إليهم ، فلما صرعت أمرهم بالانصراف .

وحجّ بالناس فى هذه السنة محمد بن عبد الله بن داود الهاشمى المعروف بأُتْرُجَّة

ودخلت سنة خمس وثمانين ومائتين

فى هذه السنة كان بالكوفة ريح صفراء فبقيت إلى المغرب ثم اسودّت ، ثم وقع مطر شديد برعود هائلة وبروق متصلة ، ثم سقط بعد ساعة بقرية تعرف بأحمد أباذ[1] أحجار بيض وسود مختلفة الألوان ، فى أوساطها ضيق[2] . وفيها كان بالبصرة ريح صفراء ثم عادت خضراء ثم سوداء ، ثم تتابعت الأمطار بمالم ير مثله ، ثم برد كبار الوزن البردة مائة وخمسون درهما . وفيها غزا راغب مولى الموفّق فى البحر ، فغنم مراكب كثيرة من الروم فضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم كانوا فيها ، وأحرق المراكب وفتح حصونا كثيرة وعاد سالما . وفيها توفى أحمد بن عيسى بن الشيخ ، وقام بعده ابنه محمد بآمِد وما يليها على سبيل التغلب ، فسار المعتضد إلى آمد فوصلها فى ذى الحجة ، وحصرها إلى شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين ونصب عليها المجانيق ، فطلب محمد الأمان لنفسه ولمن معه فأمّنهم المعتضد ، فخرج إليه وسلّم البلد فخلع عليه المعتضد وأكرمه وهدم سور البلد ، ثم بلغه أن محمدا يريد الهرب فقبض عليه وعلى أهله .

وحكى أبو الفرج بن الجَوْزِي فى المنتظم عن أبى بكر الصولى أنه قال[3] : كان مع المعتضد رجل أعرابى فصيح يقال له شعلة بن شهاب

(١) فى المخطوطات : باحمدار والتصويب عن الكامل جـ٦ ص٩١ والطبرى جـ٨ ص١٩٣
(٢) فى الكامل جـ٦ ص٩١ : طبق ، وفى تاريخ الطبرى جـ٨ ص١٩٣ : ضغطة
(٣) المنتظم الجزء السادس ورقة ١١ ، ١٢ ، ١٣ والمطبوع (حيدر أباد سنة ١٣٥٧هـ) ١٥ ، ١٦ ، ١٧

اليشكرى وكان يأنس به ، فأرسله إلى محمد بن عيسى بن شيخ ليرغّبه فى الطاعة ويحذّره العصيان ، قال : فصرت إليه فخاطبته فلم يجبنى ، فتوجهت إلى عمتّه فصرت إليها ، فقالت : يا أبا شهاب كيف خلّفت أمير المؤمنين ؟ فقلت : خلّفته أمارا بالمعروف فعّالا للخير ، فقالت ، أهل لذلك ومستحقه ، وكيف لا ! وهو ظل الله الممدود على بلاده ، وخليفته المؤتمن على عباده ، فكيف رأيت صاحبنا ؟ قلت : رأيت غلاما حدثا معجبا قد استحوذ عليه السفهاء ، واستبدّ بآرائهم ، يزخرفون له الكذب ، فقالت : هل لك أن ترجع إليه بكتابى قبل لقاء أمير المؤمنين ؟ قلت : أفعل ، فكتبت إليه كتابا لطيفا أجزلت فيه الموعظة ، وكتبت فى آخره :

اقبل نصيحة أمّ قلبها وجع ... خوفا عليك واشفاقا وقل سددا
واستعمل الفكر فى قولى فإنّك ان ... فكّرت ألفيت فى قولى لك الرشدا
ولا تثق برجال فى قلوبهمُ ... ضغائن تبعث الشنآن والحسدا
مثل النعاج خمولا فى بيوتهم ... حتى إذا أمنوا ألفيتهم أُسُدا
وداو داءك والأدواء ممكنة ... وإذ طبيبك قد ألقى عليك يدا
أعط الخليفة ما يرضيه منك ولا ... تمنعه مالا ولا أهلا ولا ولدا
واردد أخا يشكرٍ ردًا يكونُ له ... ردا من السوء لا تشمت به أحدا

قال: فأخذت الكتاب وصرت إليه فلما نظر إليه رمى به إلّى ثم قال : يا أخا يشكر ما بآراء النساء تتم الدول ، ولا بعقولهّن يستأمن[1] الملك ، ارجع إلى صاحبك ، ورجعت إلى المعتضد بالله فأخبرته الخبر ، فأخذ الكتاب فقرأه فأعجبه شعرها وعقلها ، ثم قال : إنى لأرجو أن أشفّعها فى كثير من القوم ، فلما كان من فتح ما كان أرسل إلىّ المعتضد ، فقال : هل عندك علم من تلك المرأة ، قلت : لا ، قال : فامض مع الخادم فإنّك

(١) فى المنتظم ورقة ١٢ : يساس

ستجدها فى جملة نسائها ، فمضيت فلما بصرت بى من بعيد كشفت[١] عن وجهها ، وجعلت تقول :

ريب الزمان وصرفه وعشاره[٢] كشف القناعا
وأذلّ بعد العزّ منّا الصعب والبطل الشجاعا
ولكم نصحت فما أطعـ ـتُ وكم صرخت بأن أطاعا
فأبى بنا المقدور[٣] إلـ ـلا أن نقسّم أو نباعا
ياليت شعرى هل نرى أبدا لفرّقتنا اجتماعا

ثم بكت حتى علا صوتها وضربت بيدها على الأخرى ، وقالت : إنّا لله وإنا إليه راجعون ، كأنى والله كنت أرى ما أرى[٤] ، فقلت لها : إن أمير المؤمنين وجّه بى إليك ، وما ذاك إلا لجميل رأيه فيك ، قالت : فهل لك أن توصل لى رقعة إليه ؟ قلت : أفعل[٥] ، فدفعت إلىّ رقعة فيها :

قل للخليفة والإمام المرتضى وابن الخلايف من قريش الأبطح
علم الهدى ومناره وسراجه مفتاح كل عظيمة لم تفتح
بك أصلح الله البلاد وأهلها بعد الفساد وطال مالم تصلح
وتزحزحت بك هضبة العرب التى لولاك بعد الله لم تتزحزح
أعطاك ربّك ما تحب فأعطه ماقد يحب وجد بعفو واصفح
يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها هب ظالمىّ ومفسدىّ لمصلح

قال : فصرت بها إلى المعتضد بالله ، فلما قرأها ضحك وقال : لقد نصحت لو قبل منها ، وأمر أن يحمل إليها خمسون ألف درهم وخمسون تختا

(١) فى المصدر السابق : أسفرت
(٢) فى المصدر السابق : وعناده
(٣) فى المخطوطات : المقدار
(٤) فى المنتظم ورقة ١٢ : ما أنا فيه
(٥) فى المخطوطات : نعم

من الثياب ، وأمر أن يحمل إلى ابن عيسى[١] .

وفيها[٢] وصل رسول هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون إلى المعتضد على أن يقاطع على مافى يده وبيد نوّابه[٣] من مصر والشام ، ويسلّم أعمال قنّسرين إلى المعتضد ، ويحمل فى كل سنة أربعمائة ألف دينار وخمسين[٤] ألف دينار ، فأجابه المعتضد إلى ذلك ، وسار من آمد واستخلف ابنه المكتفى ، فوصل إلى قنّسرين والعواصم فتسلّمها من أصحاب هارون بن خمارويه ، وذلك فى سنة ست وثمانين – حكاه ابن الأثير فى تاريخه الكامل

وقال ابن الجوزى فى المنتظم[٥] : إن هارون بذل هذا المال على أن يسلّم له أعمال قنّسرين والعواصم ، وأن تجدّد له ولاية مصر والشام فأجيب إلى ذلك ، والصواب ماحكاه ابن الأثير

وحجّ بالناس : محمد بن عبد الله بن داود الهاشمى

ودخلت سنة ست وثمانين ومائتين

فى هذه السنة وجّه محمد بن أبى الساج – المعروف بأبى المسافر – رهينة بما ضمن من الطاعة والمناصحة ، ومعه هدايا جليلة ، وكان المعتضد قد ولاّه فى سنة خمس وثمانين أعمال أذربيجان وأرمينية وبعث إليه الخلع فقبلها بعد أن كان تغلّب على ذلك . وفيها أرسل عمرو بن الليث هدّية من نيسابور إلى المعتضد ، قيمتها أربعة آلاف ألف درهم – قال ابن الجوزى[٦] : كان مبلغ المال الذى وجّهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب

---

(١) انتهى النقل عن المنتظم .
(٢) ينقل عن الكامل جـ ص٩١
(٣) خطأ فى الكامل جـ٦ ص٩١ : وهو يدنو به
(٤) ساقطة من ف ، ك
(٥) المنتظم جـ٦ ورقة ١١
(٦) المنتظم جـ٦ ورقة ١٣ . ص١٧ (طبعة حيدر أباد)

بسروج[١] ولجم محلاة ، ومائة وعشرين[٢] دابة بجلال مشهّرة ، وكسوة وطيب وبزاة وطرف[٣] .

وفيها كان ابتداء أمر القرامطة بالبحرين على مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخبارهم . وفيها ولّى المعتضد بالله ابنه عليا المكتفى قنّسرين والعواصم والجزيرة ، وكان كاتبه الحسين بن عمرو النصرانى ينظر فى الأمور .

قال أبو الفرج بن الجوزى[٤] فى حوادث هذه السنة بسند رفعه إلى محمد بن نعيم الضبّى قال : سمعت أبا عبد الله محمد بن أحمد بن موسى القاضى بالرىّ سنة ست وثمانين ومائتين يقول : تقدّمت امرأة فادعى وليّها على زوجها خمسمائة دينار مهرا فأنكر ، فقال القاضى : شهودك ، قال : قد أحضرتهم ، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليها فى شهادته ، فقام الشاهد وقال للمرأة : قومى ، فقال الزوج : تفعلون ماذا ؟ قال الوكيل ينظرون إلى امرأتك وهى مسفرة ، لتصحّ عندهم معرفتها ، فقال الزوج : فإنى أشهد القاضى أنّ لها علّى هذا المهر الذى تدعيه ولا تسفر عن وجهها[٥] ، فقالت المرأة : فإنى أشهد القاضى أنّى قد وهبت له هذا المهر ، وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة ، فقال القاضى : يكتب هذا فى مكارم الأخلاق .

ودخلت سنة سبع وثمانين ومائتين

فى هذه السنة فى شهر ربيع الأول أسر عمرو بن الليث الصفّار ، وملك إسماعيل بن أحمد السامانى خراسان على مانذكر ذلك إن شاء الله

---

(١) فى المخطوطات : وسروج

(٢) فى المخطوطات : مائة وخمسين دابة

(٣) هذه عن المنتظم ورقة ١٣ جـ ٦ وص١٧ من المطبوع

(٤) فى المنتظم جـ٦ ورقة ١٤ : يقول : حضرت مجلس موسى بن إسحاق القاضى بالرى سنة ست وثمانين ومائتين فتقدمت امرأة ....

(٥) فى المنتظم جـ٦ ورقة ١٤ : فأخبرت المرأة بما كان من زوجها فقالت فإنى أشهد القاضى ....

تعالى فى أخبارهم وفيها قتل محمد[١] بن زيد العلوى صاحب طبرستان والديلم على مانذكر ذلك إن شاء الله فى أخبار الدولة العلوية .

وحج بالناس فى هذه السنة : محمد بن عبد الله بن داود . وفيها توفيت قطر الندى بنت خمارويه زوجة المعتضد لسبع خلون من شهر رجب ، ودفنت داخل قصر الرصافة .

ودخلت سنة ثمان وثمانين ومائتين

فى هذه السنة توفى عبيد الله بن سليمان الوزير ، فعظم موته على المعتضد وفوّض الوزارة إلى ابنه القاسم بن عبيد الله . وكان من أخبار المتغلبين على الأطراف على مانذكره إن شاء الله فى أخبارهم .

وحج بالناس فى هذه السنة هارون بن محمد .

ودخلت سنة تسع وثمانين ومائتين .

فى هذه السنة لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول أخرج من كان له دار أو حانوت بباب الشماسية عن داره وحانوته ، وقيل لهم : خذوا أنقاضكم[٢] واخرجوا ، وسبب ذلك أن المعتضد بالله كان قد عزم أن يبتنى لنفسه دارا يسكنها هنالك ، فخط موضع السور وحفر بعضه . وابتدأ فى دكة على دجلة لينتقل إليها فيقيم بها . إلى أن يفرغ من بناء الدار والقصر ، فمرض المعتضد ومات قبل ذلك .

ذكر وفاة المعتضد بالله
وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاته ليلة الإثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين

---

(١) فى المخطوطات : حسين بن زيد العلوى والتصويب عن الكامل جـ٦ ص٩٦ والطبرى جـ٨ ص٢٠٤

(٢) هكذا فى المخطوطات والمنتظم جـ٦ ورقة ٢٢ (ص٣٠ طبعة حيدر أباد) أما فى تاريخ الطبرى جـ٨ ص٢٠٧ : أقفاصكم وهو خطأ

ومائتين ، قال : ولما اشتد مرضه اجتمع يونس [١] الخادم وغيره من القواد إلى الوزير القاسم ليجدّد البيعة للمكتفى ، وقالوا : إنّا لا نأمن الفتنة ، فقال : أخاف أن أطلق المال فيبرأ أمير المؤمنين من علّته فينكر ذلك ، فقالوا : إن برئ فنحن المحتجون والمناظرون ، وإن صار الأمر إلى ولده فلا يلومنا ونحن نطلب الأمر له ، فأطلق المال وجدّد البعية للمكتفى بالله ، وأحضر أولاد المعتمد ووكل بهم ، ثم توفى المعتضد وكانت علّته فساد الجوف والمزاج والجفاف من [٢] كثرة الجماع ، وكان يؤمر بأن يقلّ الغذاء ويرطب معدته ولا يتعب نفسه ، فيستعمل ضد ذلك ويريهم أنّه يحتمى ، فإذا خرجوا من عنده دعا بالجبن والزيتون والسّمك فأكل ، فسقطت لذلك قوّته واشتدت علّته ، ومات رحمه الله وتولّى غسله محمد بن يوسف القاضى ، وصلّى عليه الوزير – حكاه ابن الأثير [٣] . وقال أبو الفرج بن الجوزى [٤] : غسّله أحمد بن شيبة عند زوال الشمس ، وصلّى عليه يوسف بن يعقوب القاضى [٥] . ودفن ليلاً فى دار محمد بن عبد الله بن طاهر بوصيّة منه ، وجلس الوزير فى دار الخلافة للعزاء وجدّد البيعة للمكتفى ، ومات المعتضد وله من العمر ست وأربعون [٦] سنةً وقيل إلا شهرين ، وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام [٧] ، وقيل وثلاثة وعشرين يوما . وكان نحيفا خفيف العارضين يخضب بالسواد ، ولما حضرته الوفاة أنشد :

---

(١) فى المخطوطات : مؤنس وتصويبه عن الكامل جـ٦ ص١٠٠

(٢) فى ف ، ك : مع والتصويب عن ص والمنتظم جـ٦ ورقة ٢٥ (ص٣٤ طبعة حيدر أباد)

(٣) راجع الكامل جـ٦ ص١٠٠

(٤) راجع المنتظم جـ٦ ورقة ٢٥ مخطوط ، ص٣٤ طبع حيدر أباد

(٥) فى المنتظم ورقة ٢٥ جـ٦ بعد ذلك : وحضر الوزير القاسم بن عبيد الله وأبو حازم وأبو عمر وخواص الخدم – وكان أوصى أن يدفن فى دار محمد بن عبد الله بن طاهر فحفر له فيها وحمل من قصره المعروف بالحسنى ليلا ليدفن . (وهذا مايقوله الطبرى أيضا جـ٨ ص٢٠٧)

(٦) فى المنتظم ورقة ٢٥ : وبلغ من السن خمسا وأربعين سنة وعشرة أشهر وأياما

(٧) فى الكامل جـ٦ ص١٠٠ : وكانت خلافته سبع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوما وفى المنتظم ورقة ٢٥ : وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام

تمتّع من الدنيا فإنّك لاتبقى ... وخذ صفوها ماإن صفت ودع الرنقا
ولا تأمننّ الدهر إنى أمنته ... فلم يبق لى حالا[1] ولم يرع لى حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع ... عدوا ولم أمهل على ظنة[2] خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع ... فشرّدتهم غربا وشرّدتهم[3] شرقا
فلما بلغت النجم عزا ورفعة ... وصارت رقاب الخلق أجمع لى رقا
رمانى الردى سهما فأخمد جمرتى ... فهأنذا فى حفرتى عاجلا ألقى
فياليت شعرى بعد موتى ما ألقى ... إلى نعم الرحمن[4] أم ناره ألقى

قال : وكان المعتضد ذا عزم وشهامة ونهضة ، بصيرا بالأمور حسن السياسة والسيرة ، ولما ولى وضع عن الناس البوّاق وأسقط المكوس بالحرمين ، وبث العدل فى الآفاق وبذل الأموال ، وغزا رجالس المحدّثين وأهل الفضل والدين . قال ثابت بن قرة الحرّانى : ولى المعتضد الخلافة وليس فى بيت المال إلا قراريط لا تبلغ الدينار ، والحضرة مطلوبة والأعمال منهوبة والأعراب والأكراد عائثون والأعداء متسلطون ، فأصلح الأمور وأحسن التدبير وقمع الخوارج وبالغ فى العمارة وأنصف فى المعاملة ورفق بالرعيّة ، حتى استفضل من ارتفاعه فى سنى خلافته تسعة عشر ألف ألف دينار ، وتقدّم إلى اجناده وأتباعه بلزوم الطريقة الحميدة ، وعرّفهم أنّه متى أفسد غلام أحد منهم كان المأخوذ به مولاه ، فسمع يوما صوتا من بعض الكروم ممايلى دجلة فأمر باستعلام الحال ، فأخبر أنّ غلام بعض الأمراء أخذ حصرما من الكرم فأمر بإحضار الأمير ، وتقدّم بضرب عنقه ، فلم يجسر أحد من الجند بعد ذلك على الفساد ؛ ثم قال المعتضد بعد ذلك لوزيره عبيد الله ابن سليمان : لعلّك أنكرت ماجرى من قتلى هذا الأمير بجرم جناه غيره ،

(١) فى الكامل جـ٦ ص١٠٠ : خلا
(٢) فى المصدر السابق : طغيه
(٣) فى المصدر السابق : ومزّقتهم
(٤) فى المخطوطات : نعمة الله والتصويب عن الكامل جـ٦ ص١٠١

فقال : هو ذاك يا أميرَالمؤمنين ، قال : كنت فى خلافة المعتمد فرأيت هذا الأمير قتل رجلا عمدا بغير ذنب ، ولم يكن له وارث فنذرت لله تعالى إن ولاّنى الله أن أقتله به ، فلما وليت كنت أتطلّب له العورات حتى جرى ما جرى من غلامه ، فقتلته بذلك الرجل وأقمت السياسة بقتله . قال : وكان المعتضد يسمى السفّاح الثانى لأنّه جدّد ملك بنى العباس ، ووطّده بعد أن كانت الأتراك قد أخلقته ، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

هنيئا بنى العبّاس إنّ إمامكم إمام الهدى والجود والباس أحمد
كما بأبى العبّاس أسّس ملككم كذا بأبى العباس أيضا مجدّد

وحكى أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم بسند رفعه إلى أبى محمد عبد الله بن حمدون[1] :

قال : كان المعتضد بالله فى بعض متصيّداته مجتازا[2] بعسكره وأنا معه ، فصاح[3] ناظور فى قراح قثاء فاستدعاه ، وسأله عن سبب صياحه فقال : أخذ بعض الجيش من القثاء شيئا ، فقال : اطلبوهم ، فجاءوا بثلاثة نفر[4] ، فقال : هؤلاء الذين أخذوا القثاء ؟ فقال الناظور : نعم ، فقيّدهم فى الحال وأمر بحبسهم ، فلما كان من الغد أنفذهم إلى القراح وضرب أعناقهم فيه ، وسار فأنكر الناس ذلك وتحدّثوا به ، ومضت على ذلك مدة طويلة ، فجلست أحادثه ليلة فقال لى : يا أبا عبد الله – هل يعيب الناس علىّ شيئا ؟ عرّفنى حتى أزيله ، فقلت : كلا يا أمير المؤمنين ، فقال : أقسمت عليك بحياتى إلا صدقتنى ،قلت : يا أمير المؤمنين – وأنا آمن ؟

(١) القصة فى المنتظم القسم الثانى من الجزء الخامس ورقة ٢٦٣ . هذا واسم الراوى هو أبو محمد عبد الله كما سيذكره فى الورقة ٢٦٤ وفى المطبوع ص١٢٥ ، وذكرته المخطوطات : عبد الله بن حمدون

(٢) فى المصدر السابق : فجاز

(٣) فى المصدر السابق : فصاح به

(٤) فى المصدر السابق : أنفس

قال : نعم ، قلت : سفك[١] الدماء ، قال : والله ما هرقت دما منذ وليت إلا بحقه ، قال : فأمسكت إمساك من ينكر عليه ، فقال : بحياتى ما تقول ؟ فقلت : يقولون إنك قتلت أحمد بن الطيّب – وكان خاذمك ، ولم تكن له جناية ظاهرة ، قال : دعانى إلى الإلحاد – قلت له يا هذا أنا ابن عم صاحب الشريعة صلوات الله عليه وسلم ، وأنا الآن منتصب منصبه فألحد – حتى أكون من ؟! فسكتَ سكوت من يريد الكلام ، فقال : فى وجهك كلام ؟ فقلت : الناس ينقمون عليك أمر الثلاثة الذين قتلتهم فى قَرَاح القثّاء ، فقال : والله ما كان أولئك الذين أخذوا القثاء ، وإنما كانوا لصوصا حملوا من موضع كذا وكذا ، ووافق ذلك أمر القثّاء ، وأردت أن أهول على الجيش بأنّ من [عاث[٢]] فى عسكرى وأفسد فى هذا القدر كانت عقوبتى له هكذا ليكفّوا عمّا فوقه ، ولو أردت قتلهم لقتلتهم فى الحال ، وإنما حبستهم وأمرت بإخراج اللصوص من غد مغطين الوجوه ليقال إنّهم أصحاب القثّاء ، فقلت : فكيف تعلم العامّة هذا ؟ قال : بإخراج القوم الذين أخذوا القثّاء وإطلاقهم فى هذه الساعة ، ثم قال : هاتوا القوم ، فجاءوا بهم وقد تغيّرت حالهم من الحبس والضرب ، فقال : ما قصّتكم ؟ فقصّوا عليه قصّة القثّاء ، قال : أفتتوبون من مثل هذا الفعل حتى أطلقكم ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عليهم التوبة وخلع عليهم وأمر بإطلاقهم وردّ أرزاقهم عليهم ، فاشتهرت[٣] الحكاية وزالت عنه التهمة .

وحكى عبد الله بن عبدون فى كتابه المترجم بكِمَامَة الزهر وصَدَفة الدرر[٤] :

(١) فى المصدر السابق : إسراعك إلى سفك الدماء

(٢) ساقطة من المخطوطات

(٣) فى المنتظم جـ٥ (القسم الثانى) ورقة ٢٦٣ : فانتشرت

(٤) كمامة الزهر (شرح البسّامة) من صفحة ٢٨٦ إلى صفحة ٢٨٩ (ط القاهرة ١٣٤٠ هـ) :
الملاحظ دائما أن النويرى ينقل بالنص من المصدر المأخوذ منه ولكنا حين نطابق نص هذه القصة بنص المخطوطات نجد تصرفا فى التعبير وإن كان المعنى محافظا عليه بعناية ، ويبدو لى أنه نقل عن مخطوطة لكمامة الزهر غير المنشورة والمحفوظة بدار الكتب لعلها أقدم أو لعلها الأصل ، ونحن نعرف تصرف النساخ وابدالهم الألفاظ وتقديمهم لبعضها أو تأخيرها وفق رغبتهم فى إبراز المنسوخ فى الصورة التى يروج بها ، خاصة ولكمامة الزهر نسخ متعددة مختلفة .

أنّ أحد كبراء دولته ووزرائه كان قد بنى بناء عاليا مشرفا على جيرانه ، فلم يعارضه أحد منهم لمكانه من الخليفة ، وكان يجلس فيه فنظر يوما إلى دار من دور جيرانه ، فرأى جارية بارعة الجمال فأولع بها ، وسأل عنها وإذا هى ابنة أحد التجار ، فخطبها[1] من أبيها فامتنع من زواجه – وكان من أهل اليسار ، وقال : لا أزوّج ابنتى إلا من تاجر مثلى ، فإنّه إن ظلمها قدرت على الانتصاف[2] منه ، وأنت إن ظلمتها لم أقدر لها على حيلة ، فأرغبه بالأموال وهو يأبى ، فلما أيس منه شكى ذلك إلى أحد خواصّه ، فقال : ألف مثقال تقوم لك بهذا الأمر ، فقال : والله لو علمت أنى أنفق عليها مائة ألف دينار وأنالها لفعلت ، قال له : لا عليك تحضر لى ألف دينار ، وأمر بألف دينار فأحضرت فأخذها الرجل ، ومشى بها إلى عشرة من العدول ، وذكر لهم الأمر وسهّله عليهم ، وقال : إنكّم تحيون نفسا قد أشرفت على الهلاك ، وقال : إنّه قد بذل لها كذا وكذا من المهر وأعلى لهم ، وأبوها إنما هو عاضل لها وإلا فما يمنعه ، وقد خطبها مثل فلان فى جلاله قدره ، وقد أعطاها صداقا لا يعطى إلا لبنت ملك ، ثم هو يتأبى – هل هذا إلا عضل بيّن ؟ ولكم ألف مثقال لكل منكم مائة ، وتشهدون أنّه زوجها منه على صداق مبلغه كذا وكذا ، ورفع قدر الصداق إلى غاية ، وقال : إن أباها إذا علم أنكّم قد شهدتم عليه رجع إلى هذا ، وليس فيه إلا الخير والعزّ ، فأجابوه إلى ذلك وأخذوا الذهب ، وشهدوا أن أباها زوّجها منه على صداق كبير ، فلما علم أبوها بذلك زاد نفاره ، فمشى الوزير إلى القاضى وقال : إنى تزوّجت ابنة فلان على هذا الصداق وهؤلاء الشهود على أبيها ، وقد أنكر ذلك ، فأمر القاضى بإحضار أبيها فحضر ، فشهد الشهود عليه ، وأحضر

(١) ورد بعد هذه الكلمة فى كمامة الزهر ص٢٨٧ : فأرسل إلى والدها خاطبا . فقال له أبوها – وكان من أهل اليسار لست أزوجها إلا لمن هو تاجر مثلى (بدلاً من : فخطبها من أبيها فامتنع من زواجه وكان من أهل اليسار) .

(٢) هكذا فى ف ، ك وفى ص : الانتصار . وفى كمامة الزهر ص٢٨٧ : النصفة

الوزير مال النقد بين يدى القاضى – والرجل متمادٍ على الإنكار ، فحكم القاضى عليه وأمر بحمل المال إليه ، وأن تؤخذ ابنته أحَبَّ أم كره ، فأخذت منه ونقلت إلى الوزير ، فأعمل أبوها الحيلة فى الوصول إلى المعتضد ، وكان المعتضد غليظ الحجاب لا يصل إليه غير الخاصة ، فقيل للرجل : إنه يحضر ساعة فى كل يوم لبنيان بنى له بقصره ، فإن استطعت أن تكون فى جملة رجال الخدمة فإنّك تصل إليه ، فغيّر الرجل شكله ودخل فى جملة رجال الخدمة للبناء ، فلما جاء المعتضد ترامى الرجل إلى الأرض ونثر التراب على رأسه ، فسأله المعتضد عن شأنه فقصّ عليه القصّة ، فأحضر الوزير وأغلظ له فى القول ، فحملته هيبة المعتضد على أن ذكر له الواقعة كما وقعت ، ثم أحضر الشهود فقالوا كما قال ، كل ذلك إجلالاً له أن يقعوا فى الكذب بين يديه ، وهم يظنّون أنه لا يؤاخذهم لتمكن ذلك الوزير منه ، فلما تبيّن له الأمر أمر أن يصلب كل شاهد منهم على باب داره ، وأن يجعل ذلك الوزير فى جلد ثور طرىّ السلخ ، ويضرب حتى يختلط عظمه ولحمه بدمه ، فصنع به ذلك ، ثم أمر أن يفرغ بين يدى نمور كانت عنده ، فلعقته تلك النمور ، وأمر بتسليم الجارية إلى أبيها ، وأن تعطى ما أقرّ الوزير لها به من الصداق من عقار وغيره .

وحكى أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى[1] :

أنّ شيخا من التجار كان له على أحد القوّاد فى أيام المعتضد بالله مال ، قال التاجر: فمطلنى[2] وكان يحجبنى إذا حضرت إلى بابه ، ويضع غلمانه على الاستخفاف بى والاستطالة علىّ إذا رمت لقاءه وخطابه ، وتظلّمت إلى عبيد الله بن سليمان الوزير منه ، فما نفعنى ذاك ، فعزمت على الظلامة إلى المعتضد بالله ، فبينما أنا متروٍ فى أمرى قال لى بعض أصدقائى :

(١) المنتظم القسم الثانى من الجزء الخامس ورقة ٢٦٧ ، ٢٦٨

(٢) فى المصدر السابق : فماطلنى وسلك معى سبيل الالطاط فيه ...

علىّ أن آخذلك مالك من غير حاجة إلى ظلامة – فاستبعدت هذا ، فقمت معه فجئنا إلى خياط شيخ فى سوق الثلاثاء ، يقرأ القرآن فى مسجد هناك ويخيط بأجرة ، فقصّ عليه قصّتى وشرح له الصورة [١] ، وسأله أن يقصد القائد ويخاطبه فى الخروج إلىّ من حقّى ، وكانت دار القائد قريبة من مسجد الخيّاط ، فنهض معنا فلما مشينا خفت بادرة القائد وسطوته ، وتصورت أنّ قول الخيّاط لا ينفع مع مثله مع محلّه وبسطته ، فتأخرت قلت لصديقى : قد عرّضنا هذا الشيخ ونفوسنا لمكروه عظيم ، وما هو إلا أن يراه غلمانه وقد أوقعوا به ، وإن كان لم يقبل أمر الوزير فأولى ألا يقبل منه ولا يفكّر فيه ، فضحك وقال : لا عليك ، وجئنا إلى باب القائد ، فحين رأى غلمانه الخيّاط تلقّوه وأعظموه ، وأهووا ليقبّلوا يده ، فمنعهم منها ، وقالوا : ما جاء بك أيها الشيخ فإنّ قائدنا راكبٌ ، فإن كان لك أمر تقدّم بذكره لنا ونحن نخبره به [٢] ، وإن أردت الجلوس وانتظاره فالدار بين يديك ، فلما سمعت ذلك قويت نفسى ودخلنا وجلسنا ، ووافى القائد فلما رآه أكرمه إكراما شديدا ، وقال له : لست أنزع ثيابى حتى تأمر بأمرك ، فخاطبه فى أمرى [٣] ، فقال : والله ما معى إلا خمسة آلاف درهم ، فتسأله أن يأخذها ويأخذ رهونا من مراكبى الذهب والفضّة بقيمة ما بقى من ماله لأعطيه إياه بعد شهر ، فبادرت أنا إلى الإجابة وأحضر الدراهم والمراكب بقيمة الباقى [٤] ، وأشهدت الخيّاط وصديقى : أن الرهن عندى إلى مدة شهر ، فإن جاز كنت وكيله فى بيعه وأخذ مالى من ثمنه ، وخرجنا فلما بلغنا مسجد الخيّاط ودخله طرحت الدراهم بين يديه ، وقلت : قد ردّ الله مالى بك وعلى يديك فخذ ما تريده منه على طيب نفس منّى [٥] ، فقال :

(١) فى المصدر السابق : صورتى
(٢) فى المصدر السابق هذه العبارة كالآتى : فإن كان لك أمر نقوم بذكره ونتنجّزه إياه فعلنا
(٣) فى المصدر السابق : شأنى
(٤) فى المخطوطا : فقبضتها
(٥) فى المنتظم جـ٥ (القسم الثانى) ورقة ٢٦٧ : قلب

ياهذا – ما أسرع ما قابلتنى بالقبيح على الجميل ، انصرف بمالك بارك الله لك فيه ، قلت : قد بقيت لى حاجة ، قال : ماهى[1]؟ قلت : أحبّ أن تخبرنى عن سبب طاعة هذا القائد لك ، مع إقلاله الفكر بأكابر الدولة ، فقال : قد بلغت غرضك فلا تقطعنى عن شغلى بحديث لا فائدة لك فيه ، فألححت عليه فقال:أنا رجل أقرأ وأؤم وأقرئ فى هذا المسجد منذ أربعين سنة ، لا أعرف كسباً إلا من الخياطة ، وكنت صلّيت المغرب منذ مدة وخرجت أريد منزلى ، فاجتزت على تركى كان فى هذه الدار ، وأومأ إلى دار بالقرب منه ، وإذا امرأة جميلة الوجه قد اجتازت عليه ، فعلق بها وهو سكران وطالبها بالدخول إلى داره ، وهى تمتنع وتستغيث وتقول فى جملة كلامها : إنّ زوجى قد حلف بالطلاق لا أبيت عنه ، وإن أخذنى هذا وغصبنى وبيّتنى عن منزلى خرب بيتى ولحقنى من العار مالا تدحضه[2] الأيام عنى ، وما أحد يغيثها ولا يمنع منها ، فجئت إلى التركى ورفقت به فى أن يخلى عنها فلم يفعل ، وضرب رأسى بدبّوس كان فى يده فشجّه ، وأدخل المرأة ، فصرت إلى منزلى وغسلت الدم عن وجهى وشددت رأسى ، وخرجت لصلاة العشاء الآخرة ، فلما فرغنا منها قلت لمن حضر:قوموا معى إلى هذا التركى عدو الله ، لننكر عليه ونخرج المرأة من عنده ، فقاموا فجئنا وصحنا على بابه ، فخرج إلينا فى عدة من غلمانه فأوقع بنا ، وقصدنى من بين الجماعة بالضرب الشديد الذى كاد يتلفنى ، وحملت إلى منزلى وأنا لا أعقل أمرى ، فنمت قليلاً للوجع ثم طار النوم عن عينى ، وسهرت متقلّبا على فراشى ومفكرا فى أمر المرأة ، فإنّها متى أصبحت طلّقت ، ثم قلت : هذا رجل شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات ، فلو أذّنت لوقع له أن الفجر قد طلع ، فربما أخرج المرأة فمضت إلى بيتها وبقيت فى حبال زوجها ، فتكون قد

(١) فى المصدر السابق : قل
(٢) فى المصدر السابق : ترحمه

تخلّصت من أحد المكروهين ، فخرجت متحاملا الى المسجد وصعدت المنارة وأذّنت ، وجلست أطّلع إلى الطريق فأرتقب خروج المرأة من الدار[١] ، فما مضت ساعة حتى امتلأ الشارع خيلا ورجلا ومشاعل ، وهم يقولون من ذا الذى أذّن ؟ ففزعت وسكتّ ثم قلت أخاطبهم وأصدقهم عن أمرى لعلّهم يعينوننى على خروج المرأة ، فصحت من المنارة : أنا أذّنت ، فقالوا : أنزل وأجب أمير المؤمنين ، فنزلت ومضيت معهم فإذا هم غلمان بدر ، فأدخلنى على المعتضد بالله فلما رأيته هبته وأخذتنى رعدة شديدة فقال لى : اسكن ـ ما حملك على الآذان فى غير وقته ؟ وأن تغرّ الناس فيخرج ذو الحاجة فى غير حينه ، ويمسك المريد للصوم وقت قد أبيح له الأكل والشرب ، قلت : يؤمّننى أمير المؤمنين لأصدقه ، قال : أنت آمن ، فقصصت عليه قصة التركى ، وأريته الآثار التى فى رأسى ووجهى ، فقال : يابدر ـ علىّ بالغلام والمرأة ، فجئ بهما فسألهما المعتضد عن أمرها فذكرت له مثل ما ذكرت له ، فأمر بإنفاذها إلى زوجها مع ثقة يدخلها دارها ، ويشرح له خبرها ، ويأمره[٢] بالتمسك بها والإحسان إليها ثم استدعانى فوقفت بين يديه وجعل يخاطب الغلام ويسمعنى ، ويقول له : كم رزقك ؟ وكم عطاؤك ؟ فيقول كذا وكذا[٣] قال : فما كان لك فى هذه النعمة وفى هذه السعة وفى هؤلاء الجوارى ما يكفيك ويكفك عن محارم الله ؟وخرق سياسة السلطان والجرأة عليه ؟ وماكان عذرك فى الوثوب بمن أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر[٤] ؟ فأسقط فى يد الغلام ولم يكن له جواب يورده ، ثم قال : يحضر جوالق ومداق الجص وقيود وغل . فأحضر جميع ذلك فقيّده وغلّه وأدخله

(١) يضيف بعدها المنتظم جـ٥ (القسم الثانى) ورقة ٢٦٨ : واعتقدت أن أقيم ، أن تراخي الأمر فى ذلك لئلا يشك فى الصباح ..

(٢) فى المصدر السابق : ويأمره عنه

(٣) فى المصدر السابق : ... وكم عطاؤك فيقول كذا وكم وظيفتك فيقول كذا وكم كسوتك فيقول كذا إلى أن عدّد له شيئا كثيرا ثم قال : كم لك جارية قال كذا ،وكذا قال أفما كان لك ....

(٤) فى المصدر السابق العبارة كالآتى : والوثوب على من أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر (دون ذكر وما كان عذرك)

الجوالق ، وأمر فدقّوه بمداق الجص وهو يصيح إلى أن خفت صوته وانقطع حسّه ،وأمر به فطرح إلى دجلة وتقدم إلى بدر بتحويل ما فى داره ، ثم قال لى : ـ وقد شاهدت ذلك كله ـ متى رأيت ياشيخ منكرا كبيرا أو صغيرا فأنكره ولو على هذا ـ وأشار[١] إلى بدر ، ومن تقاعس عن القبول منك فالعلامة بيننا أن تؤذن فى مثل هذا الوقت لأسمع صوتك وأستدعيك ، قال الشيخ : فدعوت له وانصرفت ، وشاع الخبر بين[٢] الجند والغلمان ، فما سألت أحداً منهم بعدها إنصافاً أو كفاً عن قبيح إلا أطاعتى فما رأيت خوفاً من المعتضد ، وما احتجت أن أؤذّن فى مثل ذلك الوقت إلى الآن .

وحكى أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزى أيضا بسند رفعه إلى أبى بكر بن حورى – وكان يصحب أبا عبدالله بن أبى عوف قال[٣] :

كنت ألزم ابن أبى عوف سنين[٤] بيننا جوار ومودة[٥] ، وكان رسمى كل ليلة أن أجئ بعد العتمة ، فحين يرانى يمد رجله فى حجرى فأغمزها ، وأحادثه ويسألنى عن الحوادث ببغداد وكتب استقريها له ، فإذا أراد أن ينام قبض رجله فقمت إلى بيتى ، وقد مضى ثلث الليل أو نصفه أو أقل[٦] ، فلما كان ذات يوم جاءنى رجل كان يعاملنى ، فقال : قد دفعت إلى أمر إن تمّ علىّ افتقرت ، قلت وما هو ؟ قال : رجل كنت أعامله فاجتمع لى عليه ألف دينار ، فطالبته فرهننى عقد جوهر قوّم بألف دينار إلى أن يفتكه بعد شهور أو أبيعه ، وأذن لى فى ذلك ، فلما كان أمس وجّه يونس[٧] صاحب الشرطة

(١) فى المصدر السابق : وأومأ
(٢) فى المخطوطات : فى
(٣) المنتظم القسم الثانى من الجزء الخامس ورقة ٢٦٥ ، ٢٦٦ . (برقم ١٢٩٦ تاريخ دار الكتب)
(٤) فى المصدر السابق : سبع سنين
(٥) فى المصدر السابق : ... لجوار بيننا ومودة
(٦) يضيف المصدر السابق : ... على هذا سنين
(٧) فى المخطوطات : مؤنس وكذلك فى المنتظم وهو خلط أو خطأ ، ويونس هو الذى يشار اليه فى تاريخ المعتضد أنه من كبار رجاله ، وغالبا ما يذكر أنه الخادم الخاص (راجع الكامل حـ٦ ص١٠٠)

من كبس دكانى ، وفتح صندوق وأخذ العقد ، فقلت : أنا أخاطب ابن أبى عوف فيلزمه بردّه ، قال : وأنا مدلّ بابن أبى عوف لمكانى منه ومكانته من المعتضد ، فلما كانت تلك الليلة جئته وحادثته على رسمى ، وذكرت له فى جملة حديثى حديث العقد ، فلما سمع نحّى رجله من حجرى وقال : مالى ولهذا !! أعادى خادما صاحب شرطة الخليفة ؟! فورد علىّ أمر عظيم وخرجت من بيته ألا أعود ، فلما صلّيت العتمة من الليلة المقبلة جاءنى خادم لابن أبى عوف ، وقال : يقول لك لم تأخرت الليلة ؟ إن كنت مشتكيا جئناك ، فاستحييت وقلت أمضى الليلة ، فلما رآنى مدّ رجله وأقبلت أحدّثه بحديث متكلف ، فصبر على ساعة ثم قبض رجله فقمت ، فقال : يا أبابكر انظر أى شئ تحت المصلّى فخذه ، فرفعت المصلّى فإذا برقعة فأخذتها ، وتقدمت إلى الشمعة فإذا فيها : يايونس جسرت على قصد دكّان رجل تاجر ، وفتحت صندوقه وأخذت منه عقد جوهر – وأنا فى الدنيا ، والله لولا أنّها أول غلطة غلطتها ما جرى فى ذلك مناظرة ، اركب بنفسك إلى دكّان الرجل حتى تردّ العقد فى الصندوق بيدك ظاهرا ، فقلت لأبى عبدالله : ما هذا ؟ فقال : خط المعتضد – مثلت بين وجدك وبين يونس فاخترتك عليه ، فأخذت خط أمير المؤمنين بما تراه ، وامض وأرسله إليه ، فقبّلت رأسه وجئت إلى الرجل ، فأخذت بيده ومضينا إلى يونس وسلّمت التوقيع إليه ، فلما رآه أسودّ وجهه وارتعد ، حتى سقطت الرقعة من يده ، ثم قال : ياهذا – الله بينى وبينك – هذا شئ ما علمت به ، فألا تظلّمتم فإن لم أنصفكم فإلى الوزير – بلغتم الأمر أمير المؤمنين من أول وهلة ! [قال][1] فقلت : بعملك جرى والعقد معك فأحضره ، فقال : خذ الألف دينار التى عليه ، واكتبوا على الرجل ببطلان ما ادعاه ، فقلت : لانفعل ، فقال : ألف وخمسمائة ، فقلت : والله لا نرضى حتى تركب بنفسك إلى الدكان فتردّ

(١) عن المنتظم ورقة ٢٦٦ ساقطة من المخطوطات

العقد ، فركب وردّ العقد إلى مكانه .

وحكى عبدالرحمن أبو الفرج بن الجوزى[١] أيضاً بسند رفعه إلى أبى محمد عبدالله بن حمدون[٢] قال :

قال لى المعتضد ليلة – وقد قدّم له العشاء – لقّمنى ، وكان الذى قدّم فراريج ودراريج ، فلقّمته من صدر فرّوج ، قال : لا ، لقّمنى من فخده فلقّمته لقما ، ثم قال : هات من الدراريج فلقّمته من أفخاذها ، فقال : ويلك – هوذا أتتنادر علىّ ، هات من صدورها ، فقلت : يا مولاي ركبت القياس ،فضحك ، فقلت : إلى كم أضحكك ولا تضحكنى ، فقال : شل المطرح وخذ ما تحته ، قال : فشلته فإذا دينار واحد ، فقلت آخذ هذا ؟ قال : نعم ، فقلت : بالله هوذا تتنادر أنت الساعة علىّ ، خليفة يجيز[٣] نديمه بدينار ! ! فقال : ويلك – لاأجد لك فى بيت المال حقا أكثر من هذا ، ولا تسمح نفسى أن أعطيك من مالى شيئا ، ولكن هوذا احتال لك بحيلة تأخذ فيها خمسة آلاف دينار ، فقبّلت يده فقال : إذا كان غدًا وجاء القاسم – يعنى ابن عبيد الله – فهوذا أسارّك حتى تقع عينى عليه سرارا طويلا ، ألتفت فيه إليه كالمغضب وانظر أنت إليه فى خلال ذلك كالمخالس لى نظر المترفى ، فإذا انقطع السرار فاخرج ولا تبرح من الدهاليز ، فإذا خرج خاطبك بجميل وأخذك إلى دعوته وسألك عن حالك ، فاشك الفقر والخلّة وقلّة حظّك معى وثقل ظهرك بالدين والعيال ، وخذ ما يعطيك واطلب كل ما تقع عليه عينك ، فإنّه لا يمنعك حتى تستوفى خمسة آلاف دينار ، فإذا أخذتها فسيسألك عما جرى فاصدقه وإياك أن تكذبه ، وعرّفه أن ذلك حيلة منّى عليه حتى وصل إليك هذا وحدّثه بالحديث كله على

(١) المنتظم حـ٥ (القسم الثانى) ورقة ٢٦٤ ، ٢٦٥

(٢) فى المخطوطات محمد بن عبد الله بن حمدون وسبق ان ذكرته (فى قصة القثاء) عبد الله بن حمدون والتصويب عن المنتظم ورقة ٢٦٤ (ص١٢٥ المطبوع) هذا مع أنه مذكور فى القصة بأبى محمد فلم يلتفت المؤلف والناسخ إلى الخطأ

(٣) فى المخطوطات : يحيى

شرحه ، وليكن إخبارك إياه بذلك بعد امتناع شديد ، وإحلاف لك منه بالطلاق والعتاق أن تصدقه وبعد أن تخرج من داره كل ما يعطيك إياه ويصير فى بيتك . قال : فلما كان من غد حضر القاسم فحين رآه بدأ يساررنى ، وفعل وفعلت كما تقرّر ، ثم خرجت فإذا القاسم فى الدهليز ينتظرنى ، فقال : يا أبا محمد – ماهذا الجفاء ! لا تجيئنى ولا تزورنى ولا تسألنى حاجة ! فاعتذرت إليه باتصال الخدمة علىّ ، فقال : لا يقنعنى إلا أن تزورنى اليوم ونتفرج ، فقلت : أنا خادم الوزير – فأخذنى إلى طيّارة وجعل يسألنى عن حالى وأخبارى فأشكو إليه الخلة والإضاقة والبنات وجفاء الخليفة وإمساكه يده ، فيسترجع ويقول : ياهذا مالى لك ولم تضيّق عليك ما يتسع علىّ ؟ أو تتجاوز نعمة خلصت لى ؟ أو يتخطّاك حظ نازل [فى فنائى][1] ؟ ولو عرّفتنى لعاونتك على إزالة هذا كله فشكرته ، وبلغنا داره فصعد ولم ينظر فى شئ ، وقال : هذا يوم أحتاج أن أختص فيه بالسرور بأبى محمد ، ولا يقطعنى أحد عنه ، وأمر كتابه بالتشاغل بالأعمال ، وخلّانى فى دار الخلوة وجعل يحادثنى ويبسطنى ، وقدّمت الفاكهة فجعل يلقمنى بيده ، وجاء الطعام وكانت هذه سبيله ، ووقّع لى بثلاثة آلاف دينار فأخذتها للوقت ، وأحضر لى ثيابا وطيبا ومركوبا فأخذت ذلك ، وكان بين يدىّ صينيّة فضّة فيها مغسل فضّة فأخذتها ، وخرداذى[2] بللور وكوز وقدح بللور فأمر بحمله إلى طيّارى ، وأقبلت كلما رأيت شيئا حسنا له قيمة طلبته . فحمل إلىّ فرشا[3] وقال : هذا للبنات ، فلما تقوّض المجلس خلا بى وقال لى : ياأبا محمد – أنت عالم بحقوق أبى عليك ومودّتى لك ، فقلت : أنا خادم الوزير ، فقال : أريد أن أسالك عن شئ وتحلف لى أنك تصدقنى عنه ، فقلت : السمع

(١) ساقطة فى المخطوطات والتصويب عن المنتظم ورقة ٢٦٥

(٢) لم يستطع الناسخ قراءتها فكتبت فى المخطوطات : حرد دنى بكور . والتصويب عن المنتظم ورقة ٢٦٥

(٣) فى المخطوطات فى أشياء والتصويب عن المنتظم ورقة ٢٦٥ (والمطبوع ص ١٢٦) : فرشا نفيسا

والطاعة – فأحلفنى بالله وبالطلاق وبالعتاق على الصدق ، ثم قال : بأى شئ سارّك الخليفة اليوم فى أمرى ؟ فصدقته عن كل ما جرى حرفا بحرف ، فقال : فرّجت عنّى ، ولكون هذا هكذا مع سلامة نيّته لى أسهل علىّ فشكرته وودّعته وانصرفت إلى منزلى[١] ، فلما كان من غد بكرت إلى المعتضد فقال : هات حديثك فسقته عليه ، فقال : احفظ الدنانير ولا يقع لك أنّى أعمل مثلها معك بسرعة .

وحكى عبدالرحمن أبو الفرج بن الجوزى أيضا بسند رفعه إلى إسماعيل ابن إسحاق القاضى[٢] قال :

دخلت على المعتضد بالله وعلى رأسه أحداث روم صباح الوجوه ، فنظرت إليهم فرآنى المعتضد بالله[٣] ، فلما أردت القيام أشار إلىّ فمكثت ساعة ، فلما خلا بى قال: أيها القاضى - والله ما حللت سراويلى على حرام قط.

وحكى أيضا بسند رفعه إلى أبى محمد الحسن بن محمد الطلحى قال[٤] :

حدّثنى أحد خدم المعتضد المختص[٥] بخدمته ، قال : كنّا حوالى سرير المعتضد ذات يوم نصف النهار وقد نام بعد أن أكل،وكان رسمنا أن نكون حول سريره أوقات منامه من ليل أو نهار ، فانتبه منزعجا وقال : ياخدم – فأسرعنا الجواب ، فقال : ويلكم أغيثونى والحقوا الشط ، وأول ملاح ترونه منحدرا فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه ، وجيئونى به ووكلوا بسفينته ، فأسرعنا فوجدنا ملاحا فى سميرية منحدرا – وهى فارغة – فقبضنا عليه ، ووكلنا بسميريّته وأصعدناه إليه ، فحين رآه الملاح تلف[٦] ، فصاح

(١) فى المنتظم ورقة ٢٦٥ : يبتى .
(٢) المنتظم (جـ ٥ – القسم الثانى) ورقة ٢٦٤ .
(٣) بعدها يضيف المنتظم ورقة ٢٦٤ : وأنا أتأملهم .
(٤) المنتظم (جـ ٥ – القسم الثانى) ورقة ٢٦٥ .
(٥) فى المصدر السابق : المختصين .
(٦) فى المنتظم ورقة ٢٦٥ : كاد يتلف .

عليه صيحة عظيمة كادت روحه تخرج معها ، وقال : اصدقنى يامعلون عن قصّتك مع المرأة التى قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك ، قال : فتلعثم وقال : نعم ، كنت اليوم من سحر فى مشرعتى فنزلت امرأة [١] وعليها ثياب فاخرة وحلى كثير وجوهر ، فطمعت فيها فاحتلت عليها حتى سددت فاها وغرّقتها ، وأخذت جميع ما كان عليها ، ولم أجسر على حمل سلبها إلى بيتى كيلا يفشوالخبر ، فعملت على الهرب وانحدرت الساعة لأمضى إلى واسط ، فعلقنى هؤلاء الخدم وحملونى [٢] ، فقال له : أين الحلى والسلب ؟ قال : فى [٣] السفينة تحت البوارى ، فقال المعتضد للخدم : جيئونى به ، فمضوا [٤] وأحضروه ، فقال : خذوا الملّاح فغرّقوه ففعلوا ، ثم أمر أن ينادى ببغداد على امرأة خرجت إلى المشرعة الفلانيّة سحرا وعليها الثياب والحلى فليحضر من يعرفها ، ويعطى صفة ما كان عليها ويأخذه فقد تلفت المرأة ، فحضر فى اليوم الثانى أو الثالث أهل المرأة ، وأعطوا صفة ما كان عليها فسلّم ذلك إليهم ، قال : فقلنا يامولانا أوحى إليك ، فقال : رأيت فى منامى كأنّ رجلا شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى بالأخذ لأول [٥] ملّاح ينحدر الساعة فاقبض عليه ، وقرّره عن خبر امرأة قتلها اليوم وسلبها ، وأقم عليه الحدّ — فكان ما شاهدتم .

وكان المعتضد بالله رحمه الله شجاعا مقداما ، فما حكى عن شجاعته ما حكاه أبو الفرج بسند رفعه إلى خفيف السمرقندى قال [٦] :

كنت مع مولاى المعتضد فى بعض متصيّداته ، وقد انقطع عن العسكر وليس معه غيرى ، فخرج علينا أسد فقَصَدنا ، فقال لى المعتضد :

(١) فى المنتظم ورقة ٢٦٥ أورد بعدها : لم أر مثلها .
(٢) فى المصدر السابق : وحملونى إليك .
(٣) فى المصدر السابق : فى صدر السفينة .
(٤) فى المصدر السابق : فمضى الخدم وأحضروه .
(٥) فى المصدر السابق : وهو ينادى يا أحمد خذ أوّل ...
(٦) المنتظم جـ ٥ ـ القسم الثانى ورقة ٢٦٦ (ص ١٢٩ المطبوع) .

ياخفيف[١] – أفيك خير ؟ فقلت : لا يامولاى ، قال : ولا حتى تمسك فرسى وأنزل أنا إلى الأسد ، فقلت : بلى ، فنزل وأعطانى فرسه وشدّ أطراف ثيابه فى منطقته ، واستلّ السيف ورمى بالقراب إلىّ ، فأقبل يمشى إلى الأسد ، فحين قرب منه وثب الأسد عليه فتلقّاه المعتضد فضربه ، فإذا يده طارت فتشاغل الأسد بالضربة ، فغشيه[٢] بأخرى ففلق هامته فخرّ صريعا ، فدنا منه – وقد تلف – فمسح السيف فى صوفه ، فرجع إلىّ فأغمد السيف وركب ، ثم عدنا إلى العسكر[٣] ، فإلى أن مات ما سمعته تحدّث بحديث الأسد ، ولا علمت أنّه لفظ منه[٤] بلفظة ، فلم أدر من أى شئ أعجب : من شجاعته وشدته أو من قلة احتفاله بما صنع حتى كتمه أو من عفوه عنّى ، فما عاتبنى على ضنّى بنفسى .

وكان رحمه الله حسن الفراسة صادقا ، فمن ذلك ما حكاه خفيف السمرقندى قال[٥] :

كنت واقفا بحضرة المعتضد إذ دخل بدر وهو يبكى ، وقد ارتفع الصراخ من دار عبيدالله بن سليمان الوزير عند موته ، فأعلم المعتضد بالله الخبر ، فقال : أو قد صحّ الخبر ؟ أو هى غشية ؟ قال : بل توفى وشدّ لحيته ، فرأيت المعتضد بالله وقد سجد فأطال السجود ، فلما رفع رأسه قال له بدر : والله ياأمير المؤمنين لقد كان صحيح الموالاة مجتهدا فى خدمتك عفيفا عن الأموال ، قال : يابدر – أظننت أنى سجدت سرورا بموته ؟ إنما سجدت شكراً لله عزّ وجل إذ وفّقنى فلم أصرفه ولم أوحشه ، ورفّهت على ورثته ما خلفه لهم من كسبه معى ما يجاوز قيمته ألفى ألف دينار ، وقد كنت

(١) نشر فى البداية والنهاية لأبى الفدا حـ١١ص٨٨ : جعيف ، هذا وطبعة المنتظم حـ٥ ص١٢٩ (حيدر أباد سنة ١٣٥٧هـ) تؤيد المخطوطات بأنه خفيف

(٢) فى المنتظم حـ٥ القسم الثانى ورقة ٢٦٦ : فثنّاه

(٣) فى المصدر السابق بعدها : وصحبته الى ..

(٤) فى المخطوطات : فيه

(٥) المنتظم حـ٥ القسم الثانى ورقة ٢٦٩

عزمت على أخذ ذلك منهم ، وأن استوزر أحد الرجلين : إما جرادة – وهو أقوى الرجلين فى نفسى لهيبته فى قلوب الجيش ، والآخر أحمد بن محمد بن الفرات وهو أعرف بمواقع الأموال ، فقال له بدر : يامولاى – غرست غرسا حتى إذا أثمر قلعته ، أنت ربّيت القاسم وقد ألف خدمتك عشر سنين ، وعرف ما يرضى حاشيتك ، وجرادة رجل متكبّر ويخرج من الجيش جائعا وابن الفرات لاهيبة له فى النفوس ، وإنما يصلح أن يكون بحضرة وزير ليحفظ المال ، ومال القاسم وورثته لك أى وقت أردته أخذته ، فراجعه المعتضد وبيّن له فساد هذا الرأى ، فعدل عن المناظرة إلى تقبيل الأرض مرّات ، فقال له المعتضد : قد أجبتك فامض إلى القاسم فعزّه بأبيه ، وبشّره بتقرير رأيى على استيزاره ، وليسلو عن مصابه ، ومره بالبكور إلى الجامع ، قال خفيف : فولّى بدر وخرجت معه فدعانى المعتضد [فعدت][1] ، فقال : أرأيت ما جرى ؟ قلت : نعم ، قال : والله ليقتلنّ بدرا القاسمُ[2] – وكان الأمر كذلك ، قتله فى خلافة المكتفى بالله على ما نذكره إن شاء الله ، فقال خفيف : رحم الله المعتضد كأنّه نظر إلى هذا من وراء ستر .

وكان المعتضد رحمه الله جيد الشعر ، فمن شعره ما قاله عند موت جارية كان يحبها وتحبه غاية المحبة ، فلما[3] ماتت جزع لموتها جزعا منعه عن الطعام والشراب فقال[4] :

ياحبيبًا لم يكن يعـ ـدلـه عـنـدى حـبـيـب

(١) هذه عن المنتظم ورقة ٢٦٩ ويظهر انها سقطت من نسخة المؤلف .

(٢) التعبير فى المصدر السابق : والله لا قتل بدرا إلا القاسم ، فأتمم القاسم التدبير مع المكتفى حتى قتل بدرا (ورقة ٢٦٩) .

(٣) بدءا من هنا يعود النويرى إلى النقل عن المنتظم ورقة ٢٧٠ (من الجزء الخامس القسم الثانى)

(٤) الترتيب فى المخطوطات مطابق لمخطوط المنتظم رقم ١٢٩٦ تاريخ ، ولكنه يختلف عن المطبوع فالبيت الخامس موضعه الثالث والبيت الأخير ترتيبه الرابع والبيت السادس ترتيبه السابع . هذا ويتفق هذا المخطوط مع النويرى فى الألفاظ .

أنت عن عيني بعيد ومن القلب قريب
ليس لي بعدك في شيء من اللهو نصيب
لك من قلبي على قلـ ـبي وإنْ بنت رقيب
وخيالي منك مذ غبـ ـت خيال لا يغيب
لو تراني كيف لي بعـ ـدك عول ونحيب
وفؤادي حشوه من حرق الحزن لهيب
لتيقّنت بأنّي بك محزون كئيب
ما أرى نفسي وإن طبّـ ـبتها[1] عنك تطيب
لي دمع ليس يعصيـ ـني وصبر ما يجيب

وقال أيضا :

لم أبك للدار ولكن بما قد كان فيها مرّة ساكنا
فخانني الدهر بفقدانه وكنت من قبل له آمنا
ودّعت صبري يوم[2] توديعه وبان[3] قلبي معه ظاعنا

فقال له عبيد الله بن سليمان : ياأمير المؤمنين – مثلك تهون عليه المصائب ، لأنه يجد من كل فقيد خلفا ، ويقدر على ما يريد ، والعوض منك لا يوجد ، فلا ابتلى الله الإسلام بفقدك ، وعمّره ببقائك . وقد قال الشاعر في المعنى الذي ذكرته .

يبكى علينا ولا نبكى على أحد ونحن[4] أغلظ أكبادا من الإبل

فضحك المعتضد وعاد إلى عادته .

وقال عبد الله بن المعتز يعزى المعتضد عن هذه الجارية :

---

(١) في المنتظم المطبوع (حيدر أباد) ص ١٣٧ : وطنتها
(٢) في المصدر السابق : عند
(٣) في المصدر السابق : سار
(٤) في المصدر السابق : إنا لأغلظ

يا إمام الهدى بنا لا بك الهـ ـمّ[1] وأفنيتنا وعشت سليما
أنت علّمتنا على النعم الشكـ ـر وعند المصائب التسليما
فاسْلُ عمّا مضى فإنّ التى كا نت سرورا صارت ثوابا عظيما
قد رضينا بأن تموت وتحيا إنّ عندى فى ذاك خطا جسيما
من يمت طائعا لديك فقد أُعـ ـطىَ نورا ومات موتا كريما

وأخبار المعتضد بالله كثيرة ، قد أشرنا إلى ما فيه كفاية .

وكان له من الأولاد على – وهو المكتفى بالله ، وجعفر – وهو المقتدر بالله ، وهارون ، ومحمد – وهو القاهر بالله ، ومن البنات إحدى عشرة وقيل تسع عشرة[2] .

وكان نقش خاتمه : الاضطرار يزيل الاختيار . ووزراؤه : عبيد الله ابن سليمان بن وهب ثم ابنه القاسم بن عبيد الله . قضاته : إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل[3] بن حماد بن زيد ، ثم أبو العباس أحمد بن محمد[4] البرتى ، ثم أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز السكّونى ، ثم يوسف بن يعقوب[5] بن إسماعيل بن حماد بن زيد ، ثم على بن أبى الشوارب ، ثم أبو

---

(١) فى المنتظم حـ٥ (المطبوع ص ١٣٨ والمخطوط روقة ٢٧٠) : آلمّ

(٢) ساقطة من ف . ك

(٣) ساقط من المخطوطات والتصويب عن بغداد للخطيب البغدادى جـ٦ ص٢٨٨

(٤) ورد فى ترجمة إسماعيل بن إسحاق للخطيب البغدادى (بغداد حـ٦ ص٢٨٨) ما يأتى : .. بعد يومين للعقد للمعتمد ، وعلى قضاء القضاة بسر من رأى الحسن بن محمد بن عبد الملك ابن أبى الشوارب ، فأعاد المعتمد إسماعيل بن إسحاق على الجانب الشرقى ببغداد وذلك فى رجب سنة ست وخمسين ومائتين ، فلم يزل على القضاء بالجانب الشرقى إلى سنة ثمان وخمسين ومائتين ، وغلب على الموفق ثم سأله أن ينقله الى الجانب الغربى ، وكان على قضاء الجانب الغربى بالشرقية – وهو الكرخ – البرتى ... فأجيب إسماعيل إلى ما سأل ، ونقل البرتى عن قضاء الشرقية إلى الجانب الشرقى ، ولم يزل على القضاء بالجانب الشرقى وإسماعيل بن إسحاق على الجانب الغربى بأسره إلى سنة اثنتين وستين ومائتين ، ثم جمعت بغداد بأسرها لإسماعيل بن إسحاق . وصرف البرتى وقلّد المدائن والنهروانات وقطعة من أعمال السواد .

(٥) ساقط من المخطوطات والتصويب عن بغداد للخطيب حـ٣ ص ٤٠١ . حـ١٤ ص٣١٠

عمر[١] محمد بن يوسف بن يعقوب[٢] . حاجبه : صالح الأمير .

الأمراء بمصر : خمارويه بن أحمد بن طولون ، ثم ابنه جيش بن خمارويه ، ثم هارون بن خمارويه . القضاة بها : أبو عبدة إلى أن خلع جيش ابن خمارويه فاستتر فى داره ، وولى بعده أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى من قبل هارون بن خمارويه .

(نهاية الجزء العشرين بتجزئة المؤلف)

(١) فى المخطوطات : ابو عمرو والتصويب عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادى - بغداد حـ٣ ص ٤٠١ وغيره الكامل حـ٦ ص ١٠٠ والطبرى حـ٨ ص٢١٠

(٢) هؤلاء الذين ذكرهم المؤلف - منهم من كان قاضيا وهو ولى عهد وصاحب الكلمة والسلطة الفعلية . ومنهم من كان قاضيا وهو خليفة ، فالمؤلف هنا غير دقيق . هذا وأبو عمر هو محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد .

مراجع التحقيق

١ـ الأعلام لخير الدين الزركلى
ـ طبعة القاهرة سنه ١٩٥٤ م

٢ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى
ـ طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ هـ
ـ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ
ـ طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٥ هـ

٣ـ البداية والنهاية لابن كثير
ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٢ م

٤ ـ بلدان الخلافة الشرقية للسترينج
ـ طبعة كمبردج سنة ١٩٣٠ م

٥ ـ تاريخ ابن عساكر
ـ مخطوط دار الكتب ١٠٤١ تاريخ تيمور

٦ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى
ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م

٧ ـ تاريخ الطبرى ؛ المسمى بتاريخ الأمم والملوك
ـ طبعة أوربا سنة ١٩٣٧ م
ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م

٨ ـ تنبيه الغافلين للسمرقندى
ـ طبعة بولاق سنة ١٣١٣ هـ

٩ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر
ـ طبعة دمشق سنة ١٣٥١ هـ.

١٠ـ فتوح البلدان للبلاذرى
ـ طبعة أوربا سنة ١٨٦٦ م

١١ ـ الكامل لابن الأثير
ـ طبعة أوربا سنه ١٨٧٦ م
ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ

١٢ ـ كمامة الزهر وصدفة الدر ، وتسمى أيضا شرح البسامة بأطواق الحمامة لابن بدرون
ـ مطبعة السعادة ، القاهرة ، سنة ١٣٤٠ هـ
ـ مخطوط دار الكتب ٧٩١٧ أدب

١٣ ـ مسالك الممالك لأبى اسحق الأصطخرى
ـ طبعة ليدن سنة ١٨٧٠ م

١٤ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى
طبعة ليبزج سنة ١٨٦٦ م

١٥ ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى .
ـ طبعة حيدر أباد سنة ١٣٥٧ هـ
ـ مخطوط دار الكتب ١٢٦٩ تاريخ .

١٦ ـ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .
ـ طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٩ م

١٧ ـ الوزراء والكتاب للجهشيارى
ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

١٨ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان
ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

١٩ـ الولاة والقضاة للكندى
ـ طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ م .

فهرس
الجزء الثانى والعشرين

تقديم

الباب الرابع

من القسم الخامس من الفن الخامس فى أخبار الدولة العباسية بالعراق وغيره والديار المصرية وما معها خاصة ، وابتداء أمر الشيعة وظهورهم ، وما كان منهم إلى أن أفضى إلى أبى العباس عبد الله السفاح ومن قام بالأمر بعده إلى وقتنا هذا .

ذكر ابتداء ظهور دعوة بنى العباس وأمر الشيعة ٩
ذكر تفويض أمر الشيعة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس وبثه الدعاة . ١٠
ذكر مولد أبى العباس السفاح ١٢
ذكر خبر أبى مسلم الخراسانى وابتداء أمره ١٥
ذكر ولاية أبى مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى أمر الشيعة ١٨
ذكر إظهار الدعوة بخراسان ١٩
ذكر دخول أبى مسلم مرو والبيعة بها ٢١
ذكر هرب نصر بن سيار أمير خراسان من مرو ٢٣
ذكر مقتل ابنى الكرمانى ٢٤
ذكر قدوم قحطبة بن شبيب من قبل إبراهيم الإمام على أبى مسلم ٢٦
ذكر مسير قحطبة إلى نيسابور واستيلائه عليها ومن استعمله أبو مسلم على الجهات . ٢٦
ذكر مقتل نباته بن حنظلة عامل يزيد بن هبيرة على جرجان ٢٧

سنة إحدى وثلاثين ومائة ٢٨
ذكر وفاة نصر بن سيار ودخول قحطبة الرى ٢٨
ذكر مقتل عامر بن ضبارة ودخول قحطبة أصفهان ٣٠
ذكر دخول قحطبة نهاوند ٣١
ذكر فتح شهر زور ٣٢
سنة إثنتين وثلاثين ومائة ٣٢
ذكر مسير قحطبة لقتال ابن هبيرة بالعراق وهلاك قحطبة وهزيمة ابن هبيرة . ٣٣
ذكر خروج محمد بن خالد بالكوفة مسودا ٣٤
ذكر مقتل إبراهيم بن محمد الإمام ٣٥
ذكر إبتداء الدولة العباسية وانقضاء الدولة الأموية ٣٧
ذكر بيعة أبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس عم رسول الله ﷺ ٣٧
ذكر هزيمة مروان بالزاب ٤٥
ذكر مقتل مروان بن محمد ودخول أهل الشام وغيرهم فى الطاعة ٤٦
ذكر من قتل من بنى أمية بعد مقتل مروان بن محمد ٤٩
ذكر الخلاف على أبى العباس السفاح وأخبار من خالف وخلع ٥٢
ذكر خلع أبى الورد وأهل قنسرين ودمشق ٥٢
ذكر تبييض أهل الجزيرة وخلعهم ٥٣
ذكر قتل أبى سلمة الخلال وسليمان بن كثير ٥٤
ذكر أخبار ابن هبيرة وما كان من أمره ٥٦
ذكر ولاية يحيى بن محمد الموصل ومن قتله بها ٥٨
ذكر عمال السفاح ٥٩
سنة ثلاث وثلاثين ومائة ٥٩
ذكر دخول ملك الروم ملطية وقاليقلا ٥٩
سنة أربع وثلاثين ومائة ٦١
ذكر خلع بسام بن إبراهيم وماكان من أمره وقتل أخوال السفاح ٦١
ذكر خبر الخوارج وقتل شيبان بن عبد العزيز ٦٢
سنة خمس وثلاثين ومائة ٦٣
ذكر خروج زياد بن صالح ٦٤
سنة ست وثلاثين ومائة ٦٤
ذكر وفاة أبى العباس السفاح ٦٥
ذكر خلافة المنصور ٦٦

سنة سبع وثلاثين ومائة ٦٧
ذكر خروج عبد الله بن على وقتاله وهزيمته ٦٧
ذكر مقتل أبي مسلم الخراسانى ٦٩
ذكر خروج سنباذ بخراسان ٧٧
ذكر خروج ملبد الشيبانى وقتله ٧٨
سنة ثمان وثلاثين ومائة ٧٩
ذكر خلع جمهور بن مرار وقتله ٧٩
سنة تسع وثلاثين ومائة ٨٠
سنة أربعين ومائة ٨٠
سنة إحدى وأربعين ومائة ٨١
ذكر خروج الراوندية على المنصور وقتلهم ٨١
ذكر خلع عبد الجبار بخراسان ومسير المهدى إليه ٨٢
ذكر فتح طبرستان ٨٤
سنة إثنتين وأربعين ومائة ٨٥
ذكر خلع عيينة بن موسى ٨٥
ذكر نكث الإصبهبذ ٨٥
سنة ثلاث وأربعين ومائة ٨٦
سنة أربع وأربعين ومائة ٨٦
سنة خمس وأربعين ومائة ٨٨
ظهور محمد بن عبد الله ٨٨
ذكر وثوب السودان بالمدينة ٨٨
ذكر بناء مدينة بغداد وانتقال أبي جعفر المنصور إليها ٨٩
سنة ست وأربعين ومائة ٩٢
سنة سبع وأربعين ومائة ٩٢
ذكر البيعة للمهدى وخلع عيسى بن موسى ٩٢
ذكر وفاة عبد الله بن على وخبر عيسى بن موسى ٩٣
سنة ثمان وأربعين ومائة ٩٤
ذكر خروج حسان بن مجالد بن يحيى بن مالك بن الأجدع الهمدانى ٩٤
سنة تسع وأربعين ومائة ٩٥
سنة خمسين ومائة ٩٥
ذكر خروج استاذسيس ٩٥

سنة إحدى وخمسين ومائة ٩٦
ذكر بناء الرصافة للمهدى ٩٦
سنة إثنتين وخمسين ومائة ٩٨
سنة ثلاث وخمسين ومائة ٩٨
ذكر القبض على أبى أيوب الموريانى الوزير وقتله ٩٨
سنة أربع وخمسين ومائة ١٠٠
سنة خمس وخمسين ومائة ١٠٠
سنة ست وخمسين ومائة ١٠٠
سنة سبع وخمسين ومائة ١٠١
سنة ثمان وخمسين ومائة ١٠١
ذكر وفاة أبى جعفر المنصور ١٠١
ذكر وصية المنصور لابنه المهدى ١٠٣
ذكر شىء من سيرة أبى جعفر المنصور ١٠٧
ذكر خلافة المهدى ١٠٨
سنة تسع وخمسين ومائة ١٠٩
ذكر ظهور المقنع بخراسان وهلاكه ١٠٩
سنة ستين ومائة ١١١
ذكر خلع عيسى بن موسى وبيعة موسى الهادى ١١١
سنة إحدى وستين ومائة ١١٣
سنة إثنتين وستين ومائة ١١٣
ذكر قتل عبدالسلام الخارجى ١١٣
سنة ثلاث وستين ومائة ١١٤
سنة أربع وستين ومائة ١١٤
سنة خمس وستين ومائة ١١٥
سنة ست وستين ومائة ١١٥
سنة سبع وستين ومائة ١١٧
سنة ثمان وستين ومائة ١١٧
سنة تسع وستين ومائة ١١٨
ذكر وفاة أبى عبد الله المهدى ١١٨
ذكر شىء من سيرته وأخباره ١١٩
ذكر خلافة الهادى ١٢١
ذكر ظهور الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ١٢٢

سنة سبعين ومائة ١٢٢
ذكر وفاة أبي محمد الهادى ١٢٣
ذكر خلافة هارون الرشيد ١٢٥
سنة إحدى وسبعين ومائة ١٢٦
سنة اثنتين وسبعين ومائة ١٢٧
سنة ثلاث وسبعين ومائة ١٢٧
سنة أربع وسبعين ومائة ١٢٧
سنة خمس وسبعين ومائة ١٢٧
سنة ست وسبعين ومائة ١٢٧
ذكر ظهور يحيى بن عبد الله ١٢٧
ذكر الفتنة بدمشق ١٢٨
سنة سبع وسبعين ومائة ١٢٩
ذكر الفتنة بالموصل ١٢٩
سنة ثمان وسبعين ومائة ١٢٩
ذكر الفتنة بمصر ١٢٩
ذكر خروج الوليد بن طريف ١٣٠
سنة تسع وسبعين ومائة ١٣١
سنة ثمانين ومائة ١٣١
ذكر ولاية على بن عيسى خراسان ، وخبر حمزة الخارجى ١٣١
سنة إحدى وثمانين ومائة ١٣٢
سنة اثنتين وثمانين ومائة ١٣٢
سنة ثلاث وثمانين ومائة ١٣٣
سنة أربع وثمانين ومائة ١٣٤
سنة خمس وثمانين ومائة ١٣٤
سنة ست وثمانين ومائة ١٣٤
ذكر حج هارون الرشيد وأمر كتاب العهد ١٣٤
سنة سبع وثمانين ومائة ١٣٥
ذكر إيقاع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى بن خالد ١٣٥
ذكر شيء من أخبار جعفر وتمكنه من الرشيد وماآل أمرهم إليه ١٤٢
ذكر القبض على عبد الملك بن صالح ١٤٨
ذكر غزو الروم ١٤٨
سنة ثمان وثمانين ومائة ١٥٠

سنة تسع وثمانين ومائة ١٥٠
ذكر مسير الرشيد إلى الرى ١٥٠
سنة تسعين ومائة ١٥١
ذكر فتح هرقلة ١٥١
سنة إحدى وتسعين ومائة ١٥٨
سنة إثنتين وتسعين ومائة ١٥٨
سنة ثلاث وتسعين ومائة ١٥٨
ذكر وفاة الرشيد ١٥٨
ذكر شيء من سيرة الرشيد وأخباره ١٦٣
ذكر خلافة الأمين ١٦٤
سنة أربع وتسعين ومائة ١٦٥
ذكر خلاف أهل حمص على الأمين ١٦٥
سنة خمس وتسعين ومائة ١٦٥
ذكر خروج السفياني وماكان من أمره ١٦٥
سنة ست وتسعين ومائة ١٦٧
سنة سبع وتسعين ومائة ١٦٧
سنة ثمان وتسعين ومائة ١٦٧
ذكر أخبار الأمين والمأمون وماكان بينهما من الفتن والاختلاف وما أفضى إليه الأمر من قتل الأمين ١٦٧
ذكر محاربة على بن عيسى بن ماهان وطاهر ١٧١
ذكر توجيه عبد الرحمن بن جبلة إلى طاهر وقتله واستيلاء طاهر على أعمال الجبل ١٧٤
ذكر توجيه الأمين الجيوش إلى طاهر وعودهم من غير قتال ١٧٦
ذكر خلع الأمين ببغداد والبيعة للمأمون وعودة الأمين ١٧٧
ذكر البيعة للمأمون بمكة والمدينة ١٧٨
ذكر تجهيز الأمين الجيوش وماكان من أمرهم ١٨٠
ذكر وثوب الجند بطاهر والأمين ١٨٠
ذكر حصار بغداد واستيلاء طاهر عليها ١٨١
ذكر مقتل الأمين ١٨٢
ذكر صفة الأمين وعمره ومدة خلافته وشيء من أخباره ١٨٧
ذكر خلافة المأمون ١٨٨
ذكر وثوب الجند بطاهر ١٨٩
ذكر خلاف نصر بن شبث العقيلي على المأمون ١٩٠
ذكر ولاية الحسن بن سهل العراق وغيره من البلاد. ١٩١

سنة تسع وتسعين ومائة ١٩١
ذكر ظهور ابن طباطبا العلوى ووفاته وخبر أبى السرايا ١٩١
ذكر هرب أبى السرايا وقتله ١٩٥
سنة مائتين ١٩٦
ذكر ما فعله الحسين بن الحسن الأفطس بمكة ومبايعته محمد بن جعفر وما كان من أمره وخلعه لنفسه ١٩٧
ذكر مسير هرثمة إلى المأمون وقتله ١٩٩
ذكر وثوب الحربية ببغداد ٢٠٠
سنة إحدى ومائتين ٢٠١
ذكر ولاية منصور بن المهدى بغداد ٢٠١
ذكر البيعة بولاية العهد لعلى بن موسى الرضا ٢٠٢
ذكر فتح جبال طبرستان وأسر ملك الديلم ٢٠٣
سنة إثنتين ومائتين ٢٠٣
ذكر بيعة إبراهيم بن المهدى ببغداد وخلع المأمون ٢٠٣
ذكر أخبار ابراهيم بن المهدى وما استولى عليه من الأماكن ، وما كان من أمره إلى أن خلع واستتر ، ذكر استيلائه على قصر ابن هبيرة والكوفة ٢٠٤
ذكر خلع إبراهيم بن المهدى ٢٠٦
ذكر اختفاء إبراهيم بن المهدى ٢٠٨
ذكر مسير المأمون إلى العراق وقتل ذى الرئاستين الفضل بن سهل ٢٠٨
سنة ثلاث ومائتين ٢١٠
ذكر وفاة على بن موسى الرضا ولى العهد ٢١٠
سنة أربع ومائتين ٢١٠
ذكر قدوم المأمون بغداد ٢١٠
سنة خمس ومائتين ٢١١
ذكر ولاية طاهر بن الحسين خراسان ٢١١
سنة ست ومائتين ٢١٢
ذكر ولاية عبد الله بن طاهر الرقة وغيرها ٢١٢
سنة سبع ومائتين ٢١٢
ذكر وفاة طاهر بن الحسين أمير خراسان واستعمال ابنه طلحة ٢١٣
سنة ثمان ومائتين ٢١٤
سنة تسع ومائتين ٢١٤

سنة عشر ومائتين ٢١٤
ذكر ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدى ٢١٥
ذكر بناء المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل ٢٢٠
ذكر مسير عبد الله بن طاهر إلى مصر وفتحها وفتح الإسكندرية ٢٢٥
ذكر خلع أهل قم المأمون وماكان من أمرهم ٢٢٨
سنة إحدى عشرة ومائتين ٢٢٨
سنة اثنى عشرة ومائتين ٢٢٩
ذكر استيلاء محمد بن حميد على الموصل ٢٢٩
سنة ثلاث عشرة ومائتين ٢٢٩
سنة أربع عشرة ومائتين ٢٣٠
ذكر استعمال عبد الله بن طاهر على خراسان ٢٣٠
سنة خمس عشرة ومائتين ٢٣٠
ذكر غزاة المأمون إلى الروم ٢٣٠
سنة ست عشرة ومائتين ٢٣١
ذكر فتح هرقلة ٢٣١
سنة سبع عشرة ومائتين ٢٣٢
سنة ثمانى عشرة ومائتين ٢٣٣
ذكر المحنة بالقرآن المجيد ٢٣٣
ذكر وفاة أبى العباس المأمون ٢٣٧
ذكر صفته وشىء من أخباره وسيرته ٢٣٩
ذكر خلافة المعتصم بالله ٢٤٢
سنة تسع عشرة ومائتين ٢٤٣
ذكر خلاف محمد بن القاسم العلوى ٢٤٣
ذكر محاربة الزط ٢٤٤
سنة عشرين ومائتين ٢٤٥
ذكر بناء سامرا وهى سر من رأى ٢٤٥
ذكر القبض على الفضل بن مروان بن أحمد بن عمارة الوزير ٢٤٦
سنة إحدى وعشرين ومائتين ٢٤٧
سنة اثنين وعشرين ومائتين ٢٤٧
ذكر أخبار بابك الخرمى وفتح البذ وأسر بابك وقتله ٢٤٧
سنة ثلاث وعشرين ومائتين ٢٥٠
ذكر قدوم الأفشين إلى سامرا وما عامله به المعتصم ٢٥٠
ذكر خروج الروم إلى زبطرة ٢٥٠

ذكر فتح عمورية ٢٥١
ذكر القبض على العباس بن المأمون وحبسه والأمر بلعنه ووفاته ٢٥٣
سنة أربع وعشرين ومائتين ٢٥٤
ذكر مخالفة مازيار بطبرستان وأسره ٢٥٤
ذكر عصيان متكجور قرابة الأفشين والظفر به ٢٥٧
سنة خمس وعشرين ومائتين ٢٥٨
ذكر القبض على الأفشين وحبسه ووفاته وصلبه ٢٥٨
سنة ست وعشرين ومائتين ٢٥٨
سنة سبع وعشرين ومائتين ٢٥٩
ذكر خروج المبرقع بفلسطين ٢٥٩
ذكر وفاة أبي إسحاق المعتصم وشيء من أخباره ٢٦٠
ذكر خلافة الواثق بالله ٢٦٢
ذكر الفتنة بدمشق ٢٦٢
سنة ثمان وعشرين ومائتين ٢٦٣
سنة تسع وعشرين ومائتين ٢٦٣
سنة ثلاثين ومائتين ٢٦٣
ذكر مسير بغا إلى الأعراب بالمدينة وماكان من أمرهم ٢٦٣
سنة إحدى وثلاثين ومائتين ٢٦٥
ذكر خبر أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي وماكان من أمره ٢٦٥
ذكر الفداء بين المسلمين والروم ٢٦٩
سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ٢٧٠
ذكر وفاة أبي جعفر الواثق وشيء من أخباره ٢٧٠
ذكر خلافة المتوكل على الله ٢٧٥
سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ٢٧٦
ذكر القبض على محمد بن عبدالملك الزيات ٢٧٦
سنة أربع وثلاثين ومائتين ٢٧٨
ذكر خبر إيتاخ وابتداء أمره وقتله ٢٧٨
سنة خمس وثلاثين ومائتين ٢٨٠
ذكر ظهور رجل يدعي النبوة ٢٨١
سنة ست وثلاثين ومائتين ٢٨٢
ذكر ما فعله المتوكل بمشهد الحسين بن علي رضي الله عنهما ٢٨٢

سنة سبع وثلاثين ومائتين ٢٨٣
ذكر وثوب أهل أرمينية بعاملهم ٢٨٣
ذكر غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وولاية يحيى بن أكثم القضاء .. ٢٨٤
سنة ثمان وثلاثين ومائتين ٢٨٥
ذكر مسير الروم إلى ديار مصر ٢٨٥
سنة تسع وثلاثين ومائتين ٢٨٦
سنة أربعين ومائتين ٢٨٦
ذكر وثوب أهل حمص بعاملهم ٢٨٦
سنة إحدى وأربعين ومائتين ٢٨٧
ذكر الفداء بين المسلمين والروم ٢٨٧
ذكر غارة البجاة بمصر ٢٨٨
سنة اثنتين وأربعين ومائتين ٢٨٩
سنة ثلاث وأربعين ومائتين ٢٩١
سنة أربع وأربعين ومائتين ٢٩١
سنة خمس وأربعين ومائتين ٢٩١
سنة ست وأربعين ومائتين ٢٩٢
سنة سبع وأربعين ومائتين ٢٩٣
ذكر مقتل أبي الفضل المتوكل على الله ٢٩٣
كيفية قتل المتوكل ٢٩٥
ذكر خلافة المنتصر بالله ٢٩٨
سنة ثمان وأربعين ومائتين ٢٩٨
ذكر خلع المعتز والمؤيد ٢٩٨
ذكر وفاة المنتصر بالله ٣٠٠
ذكر خلافة المستعين بالله ٣٠١
سنة تسع وأربعين ومائتين ٣٠٣
ذكر الفتنة ببغداد ٣٠٣
ذكر قتل أوتامش الوزير ٣٠٤
سنة خمسين ومائتين ٣٠٥
سنة إحدى وخمسين ومائتين ٣٠٦
ذكر قتل باغر التركي ٣٠٦
ذكر مسير المستعين إلى بغداد ٣٠٧
ذكر البيعة للمعتز بالله ٣٠٨
ذكر حصار المستعين ببغداد ٣١٠

سنة اثنتين وخمسين ومائتين ٣١٢
ذكر خلع المستعين وخلافة المعتز بالله ٣١٢
ذكر أخبار المستعين بعد خلعه ، وما كان من أمره إلى أن قتل ، وذكر أولاده وعماله ومدة عمره وخلافته ٣١٣
ذكر حال وصيف وبغا ٣١٥
ذكر خلع المؤيد وموته ٣١٥
ذكر الفتنة بين الأتراك والمغاربة ٣١٦
سنة ثلاث وخمسين ومائتين ٣١٦
ذكر قتل وصيف ٣١٦
ذكر وفاة محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعى .....
سنة أربع وخمسين ومائتين ٣١٧
ذكر مقتل بغا الصغير الشرابى ٣١٧
سنة خمس وخمسين ومائتين ٣١٨
ذكر خلع المعتز بالله وموته وشىء من أخباره ٣١٨
ذكر خلافة المهتدى بالله ٣٢٠
ذكر ظهور قبيحة أم المعتز بالله ٣٢٠
سنة ست وخمسين ومائتين ٣٢٢
ذكر وصول موسى بن بغا إلى سامرا واختفاء صالح بن وصيف ٣٢٢
ذكر قتل صالح بن وصيف ٣٢٢
ذكر خلع المهتدى وموته ٣٢٣
ذكر شىء من سيرة المهتدى ٣٢٦
ذكر خلافة المعتمد على الله ٣٢٧
ذكر عزل عيسى بن الشيخ عن الشام وولايته أرمينية ٣٢٧
سنة سبع وخمسين ومائتين ٣٢٨
ذكر ورود أبى أحمد الموفق من مكة وما عقد له المعتمد من الأعمال ٣٢٨
سنة ثمان وخمسين ومائتين ٣٢٩
سنة تسع وخمسين ومائتين ٣٢٩
سنة ستين ومائتين ٣٢٩
ذكر الفتنة بالموصل وإخراج عاملهم ٣٢٩
سنة إحدى وستين ومائتين ٣٣١
ذكر البيعة بولاية العهد للمفوض جعفر بن المعتمد وللموفق الناصر لدين الله أبى أحمد أخى المعتمد ٣٣١

سنة اثنين وستين ومائتين ٣٣٢
سنة ثلاث وستين ومائتين ٣٣٣
سنة أربع وستين ومائتين ٣٣٤
ذكر أخبار الوزراء ٣٣٥
سنة خمس وستين ومائتين ٣٣٥
سنة ست وستين مائتين ٣٣٦
سنة سبع وستين ومائتين ٣٣٧
سنة ثمان وستين ومائتين ٣٣٧
سنة تسع وستين ومائتين ٣٣٧
ذكر مسير المعتمد على الله إلى مصر وعوده قبل الوصول إليها ٣٣٧
سنة سبعين ومائتين ٣٣٩
سنة إحدى وسبعين ومائتين ٣٣٩
ذكر خلاف محمد وعلى العلويين بالمدينة ٣٣٩
سنة إثنين وسبعين ومائتين ٣٤٠
سنة ثلاث وسبعين ومائتين ٣٤٠
سنة أربع وسبعين ومائتين ٣٤٠
سنة خمس وسبعين ومائتين ٣٤١
ذكر قبض الموفق على ابنه المعتضد ٣٤١
سنة ست وسبعين ومائتين ٣٤١
سنة سبع وسبعين ومائتين ٣٤٢
سنة ثمان وسبعين ومائتين ٣٤٢
ذكر وفاة أبي أحمد الموفق ٣٤٢
ذكر البيعة للمعتضد بالله بولاية العهد ٣٤٤
سنة تسع وسبعين ومائتين ٣٤٤
ذكر خلع المفوض إلى الله جعفر بن المعتمد ، وولاية أبي العباس المعتضد بالله بن الموفق ٣٤٤
ذكر وفاة المعتمد على الله وشيء من أخباره ٣٤٥
ذكر خلافة المعتضد بالله ٣٤٦
سنة ثمانين ومائتين ٣٤٧
ذكر حبس عبد الله بن المهتدى وقتل محمد بن الحسن ٣٤٧
ذكر قصد المعتضد بني شيبان وصلحه معهم وإغارته على الأعراب ٣٤٧
سنة إحدى وثمانين ومائتين ٣٤٨
ذكر مسير المعتضد إلى ماردين وملكها ٣٤٨

سنة اثنتين وثمانين ومائتين ٣٤٩
ذكر قصد حمدان وانهزامه وعوده إلى الطاعة ٣٤٩
سنة ثلاث وثمانين ومائتين ٣٥٠
سنة أربع وثمانين ومائتين ٣٥١
سنة خمس وثمانين ومائتين ٣٥٢
سنة ست وثمانين ومائتين ٣٥٥
سنة سبع وثمانين ومائتين ٣٥٦
سنة ثمان وثمانين ومائتين ٣٥٧
سنة تسع وثمانين ومائتين ٣٥٧
ذكر وفاة المعتضد بالله وشيء من أخباره وسيرته ٣٥٧
مراجع التحقيق ٣٧٩

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
٦٧٧ - ٧٣٣هـ

الجزء الثالث والعشرون

تحقيق
د. أحمد كمال زكي

مراجعة
د. محمد مصطفى زياده

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٠

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

هذا هو الجزء الحادى والعشرون من « نهاية الأرب » بتجزئة النويرى ، والثالث والعشرون بالتجزئة التى يصدر بها اليوم . نختصر فى تقديمه مكتفين بما جاء قبلُ ، مقرين بأن الطريقة هنا هى تقريبا الطريقة هناك ، وأن الرجوع إلى المظان عندنا لا يختلف عن الرجوع عند غيرنا إلا فى ربط القديم بالجديد إيمانًا منا بأن للتاريخ فلسفة لم يبلورها الأولون !

ولقد كان العمل فى إخراج « نهاية الأرب » موكولا لأكفاء من غير شك غير أن صدور كل واحدٍ منهم بأسلوبه الخاص أتاح للجميع أن يبسطوا أدبهم ويكشفوا عن منهجهم ، ومن ثم تهيأ لنا أن نتقدم بما يبيّن دورنا فى نشر هذا الجزء ، وإذا كان علينا أن نقول شيئا بادئ ذى بدء قلنا إننا اعتمدنا فى نشر هذا الجزء على نسخة صوّرتها الجامعة العربية من نسخة محفوظة

تحت رقم ١٣٦٩ بأمانة خزينة فى استنبول ، وقد كتب فى نهايته أنه كمل « على يد مؤلفه الفقير إلى عفو ربه أحمد بن عبد الوهاب .... ووافق الفراغ منه فى يوم الثلاثاء لخمس ليالٍ بقين من صفر سنة أربع وعشرين ومائة » .

على أن احتمال كون هذا الجزء مع ذلك بخط المؤلف هو قدر احتماله ألا يكون ؛ فإن تحرّر الخط ، وجودته - برغم قلة النقط فيه - وعدم السقط ، وندرة الأخطاء التى تقع عادةً من الملخصين والنويرى واحدٌ منهم . . كل ذلك كان من غير شك حافزًا إلى أن نقابل هذه المصورة - وقد رمزنا لها بالحرف « ا » - بمصورتين أخريين إحداهما عن نسخة من كوبريللى بالآستانة ، والأخرى عن نسخة من الفاتيكان .

أما مصورة كوبريللى - ونرمز لها بالحرف « ك » وهى تحت رقم ٥٤٩ بدار الكتب - فهى فى جودة الخط الذى حررت به « ا » .. بل قد تفضلها بكثرة نقطها وإن يكن الخطأ فيها متعددًا ! وتمتاز بزيادات مفيدة لعل لناسخها فضل إضافتها - إن كان هذا فضلا - وتدل على حسن إدراك يرفع من قيمتها على نحو من الأنحاء ، ولعل هذا هو ما حدا بنا إلى أن نجعلها فى المرتبة الثانية بعد « ا » .

فإذا عرضنا لمصورة الفاتيكان ٧٣٩ - وهى محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٥٩٢ معارف عامة ورمزنا لها بالحرف « ف » - فكأننا نعرض للمصورة « ا » تماما .. فهى من الناحية التاريخية نسخت سنة

٧٣٩ للهجرة والنويرى مات سنة ٧٣٢ كما فى المنهل الصافى ، وهى من الناحية الفنية لا تخرج عن الإطار الذى حدّده المؤلف لأجزائه ، بل ربما وضّحت بعض الأعلام وضبطتها .

نقول إن المصورة «ف» هذه القيمة ، إلا أن رداءة خطها — بالنسبة إلى نسخة المؤلف — وصغر حروفها ، وعدم تحديد بدايات السنين ، وضياع العناوين فى سياق الكلام .. كل أولئك يقيم شتى صعوبات أمام القارىء العادى . ويحمّل ناسخها إبراهيم بن محمد ابن ناهض الحلبى بَعْضَ وِزْرِ ما كان يصرف أحدًا عن الانتفاع بها كما ينبغى أن يكون الانتفاع .

ومع ذلك فهى كاملة إذا قيست بغيرها من المخطوطات القديمة ، وهى فى ١٣٧ صفحة مزدوجة وقفنا إزاءها وقفتنا إزاء «ا» .. فكنا نذكر رقم الصفحة الواحدة متبوعًا بألف أو بباء ، على حسب وقوع الكلام فيها يمينا أو شمالا ؛ فذكر خلافة المتعصم بالله مثلا يقع فى صفحة ٩٤ — ا ، وذكر مقتله يقع فى ٩٤ — ب ، وذكر إمارة عبد الرحمن بن محمد فى صفحة ١١٦ — ا ، وذكر إمارة الحكم فى ١١٦ — ب وهكذا ...

والجدير بالذكر أنها ، باستثناء ما ورد فى ١٣٢ — ب ، تخلو من العناوين الجانبية إلا ما فات من السياق ؛ فكان يثبت فى الهامش على ما جاء فى ٥٧ — ب و ٦٧ — ا ، وثمة سقط واحد فى ٦١ — ب ، لم ينوه عنه إطلاقا ، ومحو بعض كلام فى ٣٨ — ب ، وبقعتا حبر فى ١٢٤

يبقى بعد ذلك شيء طريف لا مندوحةَ عن ذكره ، هو أن القارئ يجد لأحد رجال دار الكتب تعليقًا ظَهْرَ الغلاف يقول : « بداية هذا الجزء توافق بداية الجزء الواحد والعشرين من تجزئة المؤلف وينتهى بنهايته ، وما كتب على صفحة عنوانه تدليس » وأما ما كتب فهو « الجزء الثانى من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب » بخط يخالف خطَّ المتن ، ثم نرى ضَرْبًا بالحبر على كلام فى السياق يخفى شيئا أراد أحدهم ألا يصلنا . والظاهر أن هذه النسخة امتحنت مرتين ، إحداهما حين نزع غلافها الأصلى وأضيف لها غلاف جديد ، والأخرى حين طمسَ آثم جانبا أراد طمسه ، واستتبع هذا إخفاء بعض سياق الخاتمة بالريشة نفسها ، وهكذا يعبث بالتراث !

وأخيرًا ، فكم كنا نحبُّ ألا نختم هذه المقدمةَ الآن .. كنا نحب ألا نختمها حتى نستوفى الكلام على صنيع النويرى من تصنيف ورواية عمن سبقه فى حقل التاريخ كابن الأثير وابن الجوزى وابن الرفيق وابن شدّاد ، بل على صنيعه إزاء بعض الحوادث دون بعض ، ومروره على موقف مرَّ المتعجل وتلبثه على آخر تلبّث المتأنى .. ونستخرج خصائص تأليفه وسمات أسلوبه ونكشف عن شخصيته التى تركها على نقوله من غيره ، بيد أننا رأينا أن هذا — فضلا عن أنه يحتاج إلى تفصيل كبير يحيد بهذا الجزء عن الطريق الذى رسم لإخوته .

من أجل ذلك طرحنا كل شيء وفى النفس أن نعود إلى المؤلف فى مكان آخر وبدراسة أوفى . . نبين فيها ما نريد ،

ونوسع ما يضيق عنه المجال هنا ، غير أننا نأمل أن تكون إشاراتنا فى الهوامش لبعض ما وقف عنده النويرى دليلا على خطره هو بين الموسوعيين الذين تفخر بهم عربيتنا على الأجيال .

إن هذا الرجل أحد المصريين القلائل الذين جمعوا إلى فن الكتابة صناعاتٍ أُخَر ، وفى ظلّ السلطان الملك الناصر باشر نظر الجيش وتولى ديوان الدقهلية والمرتاحية ، ورصد تاريخًا يعتبر إلى الآن من أهم المراجع كما يقول فازيليف .

دكتور أحمد كمال زكى

ذكر خلافة المكتفى بالله

١٤٠ ـ ك

هو أبو محمدٍ عليُّ بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بنِ الموفَّق بالله أبي أحمد بنِ المهديّ ـ وهو الملقب بالناصر لدين الله ـ بن المتوكِّل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد أبي محمد بن المهديِّ أبي عبد الله محمدبن أبي جعفر المنصور بن محمدِ بن عليٍّ ابن عبد الله ابن عباس ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين (١) . وأمُّه خاضعُ أمُّ ولد وتُلَقَّبُ جِيجِك (٢) ، وقيل اسمها جنجورا ، وهو الخليفةُ السابع عشر من الخلفاء العباسيين . بُويع له يوم الإثنين لثمانٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنةَ تسع وثمانين وما ئتين ـ

(١) المفروض أن اعتمد فى إخراج هذا النص على «ا» وهى صورة النسخة التى بخط المؤلف ، غير أن الصفحات الأولى منها غير واضحة فكان لابد من الرجوع إلى مصورة «ك» مع مقابلتها بالمصورة «ف» .

(٢) فى ك صفحة ١٤٠ وفى ف صفحة ٢ ـ « جيجقه » قريبة لما فى التنبيه والإشراف ٣٢١ « جيجق » وما هاهنا من تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥ والكامل ٦ : ١١٩ لفظ تركى معناه زهرة . راجع Vahit فى An English and Turkish Dictionary. (Istanpul 1931) ففى صفحة ١٦٤ يقول Flower : çiçek

وكان إذ ذاك بالرقة – فبايع له الوزير القاسمُ بن عبيد الله بنِ سليمان ابن وهب ، وكتب له يعلمه بوفاة أبيه وأخْذِ البيْعةِ له.

فلما وصله الخبرُ ، أخذ البيعة على مَنْ عنده من الأجناد ، ووضع لهم العطاء ، وسار إلى بغداد ، ووجَّه إلى النواحى بديار ربيعةَ ومضر ونواحى العرب[1] منْ يضبطُها . ودخل بغداد لثمانٍ خَلَوْن من جمادى الأولى ، فلما صار إلى منزله أمر بهَدْم المطامير التى كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم

ذكر قتل بدر غلام المعتضد بالله

وكان سببُ قَتْلِهِ أنّ القاسم – الوزير – كان قد همَّ بِنقْلِ الخلافةِ إلى غير ولد المعتضد بعده ، فقال لبدرٍ ذلك فى حياة المعتضد بعد أن استحلفه أن يكتم عليه فقال بدْرٌ : ما كنت لأصرفَها عن ولد مولاى وولىِّ نعمتى ! فلم يمكنْه مخالفته لأنه صاحبُ الجيش ، وحقد ها عليه فلما مات المعتضدُ كان بَدْرٌ بفارس فعقد القاسمُ البيعةَ للمكتفى ، وعمل على هلاك بدْر خَوْفًا على نفسه أن يذكر للمكتفى ما كان منه. وكان المكتفى مباعدًا لبدر فى حياة المعتضد ، فوجَّه إلى القُوَّاد الذين مع بدر يأمرهم بمفارقته والمصير إليه ، ففارقه جماعة وأقبلوا إلى المكتفى فأحسن إليهم .

وسار بدْرٌ إلى الموصل وواسط. فوكل المكتفى بداره ، وقبض

(١) فى ك صفحة ١٤٠ وفى ف صفحة٢–ا ، « نواحى المغرب » وما هنا من الكامل ٦ : ١٠١

على أصحابه وقواده فحبسهم ، وأمر بِمحْوِ اسمه من الأعلام والتّراس [١] . وسير الحسن بن على إلى كورة [٢] واسطٍ في جيش ، وأرسل بدْرٌ يعرض عليه أيَّ النواحى شاء ، فأبى ذلك وقال : لابُدَّ من المصير إلى باب مولاى !

فوجد القاسمُ مَساغًا للقول [٣] ، وخوّف المكتفى غائلتَه . وبلغ بدرًا ما فُعِلَ بأصحابه فأرسل من يأتيه بولدِه هلالٍ سِرًّا ، فعلم الوزير بذلك فاحتاط عليه ، ودعا قاضى الجانب الشرقىّ وأمره بالمسير إلى بدر وأن يطيِّبَ قلبَه عن المكتفى ويعْطِيَه الأمان على نفسه وولده وماله ، فقال القاضى أبو حازمٍ : أحتاج إلى سماع ذلك من أمير المؤمنين ! فصرفه ودعا أبا عمر القاضى ، وأمره بمثل ذلك فأجابه ، وسار بكتاب الأمان . فسار بَدْر عن واسطٍ إلى إلى بغدادَ فأرسل إليه الوزيرُ مَنْ قتله ، فلما أيقن بالقتل سأله المهلة إلى أن يُصَلِّى رَكعتين ، فأمهل حتى صلاهما . وضُرِبَتْ عُنقه يومَ الجمعة لِستٍّ خلون من رمضان ، وأُخِذ رأسُه وتُرِكَتْ جثتُه هنالك ، فوَجَّه عِيالُه من أخذها سرا وجعلوها فى تابوتٍ ، فلما كان وقتُ الحجِّ حملوها إلى مكة فدفنوها بها — وكان أوْصَى بذلك — وأُعْتِق كلُّ مملوكٍ له . ورجع أبو عمر إلى داره كئيبًا لِما كان منه ، وقال الناسُ فيه الشعرَ ، فمن ذلك قوْل بعضِهم :

---

(١) التراس : من آلات الحرب للوقاية ، وهى جمع مفرده ترس ، ويجمع أيضا على تروس وأتراس (القاموس المحيط)

(٢) ك ، ف كما فى الطبرى ٨ : ٢١٠ . والكامل ٦ : ١٠٢ « الحسين بن على كوره »

(٣) فى ك ، ف « مشاعا للقول »

قُلْ لقاضِى مدينةِ المنصورِ كيف أحللتَ أخذ رأسِ الأميرِ (١)
عند إعطائه المواثيقَ والعَهْـ ـدَ وعقْد الأيْمان فى منشور (٢)
أين أيْمانُك التى شهِدَ اللّـ ـه على أنها يمينُ فجُور
إنَّ كفيْك لا تفارق كفَّيْـ ـهِ إلى أن تُرى مليكَ السرير (٣)
يا قليلَ الحياء يا أكذبَ الأمْـ ـة .. يا شاهدًا شهادةَ زور
ليس هذا فِعْل القُضاةِ ولا يُحْـ ـسِن أمثالَه وُلاةُ الجسور
أىَّ أمرٍ ركبتَ فى الجمعة الزَّهْـ راء منه فى خَيْر هذى الشهور (٤)
قد مضَى مَنْ قتَلْت فى رمضانٍ صائمًا بَعْد سَجْدَةِ التغفيرِ
يا بنى يوسفَ بنِ يعقوبَ أضْحَى أهل بغدادَ منكمُ فى غرورِ
بَدَّدَ اللهُ شملَكم أ وأرانـى ذُلَّكمْ فى حياة هذا الوزيرِ
فأعِدُوا الجواب للحَكم العا دِل من بَعْدِ منكر ونكير (٥)
أنتمُ كلكم فِداءُ أبى حـــا زمِ المستقيم كلَّ الأمور (٦)

وفيها (٧) لحق إسحاق الفَرْغانى – وهو من أصحاب بدْرٍ –

---

(١) فى الطبرى ٨ : ٢١٢ ، وفى الكامل ٦ : ١٠٢ « بم أحللت أخذ رأس الأمير »
(٢) فى الطبرى ٨ : ٢١٢ « بعد إعطائه » ...
(٣) فى الكامل ٦ : ١٠٢ « إلى أن ترى عليل السرير »
(٤) فى ك ، ف صفحة ٢ – ب بتصحيف صوابه ما أثبتناه ، وفى الطبرى ٨ : ٢١٢ « أى أمر ركبت فى الزهراء من خير خير الشهور » وهو خطأ واضح .
(٥) فى ك ، ف صفحة ٣ – ا ، يقول : العدل ، فيختل وزنه ، وأقامه ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٠٣ بروايته « العدل ومن بعد ...)
(٦) فى الكامل ٦ : ١٠٣ البيت هكذا
أنتمو ككلكم فدى لأبى حـــا زم المستقيم كل الأمور
(٧) أى فى سنة ٢٨٩

بالبادية وأظهر الخلاف على الخليفة المكتفى ، فحاربه أبو الأغر[١] فهزمه إسحاق وقتل جماعةً من أصحابه .

وفيها خلع المكتفى على هلال بنِ بدْرٍ وغيرِه من أصحاب أبيه فى جُمادى الأولى .

وفيها فى فصل الصيف هَبت ريحٌ باردةٌ بحِمْص وبغداد من جهة الشمال ، فَبَرُد الوقت واشتد البردُ حتى جمُدَ الماءُ ، واحتاج الناسُ إلى النار . وفيها هبت ريحٌ عاصفةٌ بالبصرة قلعت كثيرا من نخلها ، وخُسفَ بموضع هلك فيه . ستون ألف نفسٍ . وزلزلت بغداد في شهر رجب عَشْـر مراتٍ فتضرّع النـاس فى الجامع فسكنت . وحج بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمى[٢]

ودخلت سنة تسعين ومائتين : فى هذه السنة اشتد أمرُ القرامطةِ ، فجاء أهـل الشـام ومصـر إلى المكتفى يشكون ما يلقون من القرمطى[٣] من الأَسْرِ والسَّبْى والتخريب ؛ فأمر الجند بالتأهب ،وخرج من بغداد فى شهر رمضان ،وقدم بين يديه أبا الأغرّ فى

(١) هو خليفة بن المبارك أحد قواد العباسيين الكبار ، قامت بينه وبين القرامطة معارك كبار عدة .

(٢) ينتهى نسبه إلى عبد الله بن عباس ، وكان صاحب الصلاة ببغداد وأمير مكة والموسم ، حج بالناس نحو عشرين سنة ، وتوفى فى صفر من عام ٣٠٦

(٣) هو كما فى البداية والنهاية ١١ : ١٩٦ الحسين بن زكرويه بن مهدويه ، واحد من أتباع حمدان قرمط هؤلاء الذين قاموا بحركة دينية اجتماعية هددت دعائم العالم الإسلامى ، وعلاقة هذه الحركة بالإسماعيلية مضطربة ، ولكن جمهور المؤرخين يرى أنها فى العراق وسورية ومصر جزء من الإسماعيلية ، ويظن بعض المستشرقين أن القرامطة فى الأصل كيسانيون ثم اتحدوا بالإسماعيلية متحللين من الفرائض الدينية المعروفة مجمعين على ضرورة قتل أعدائهم

عشرة آلاف ، وسار إلى الشام . وجعـل طريقَه على الموْصِل .

فنزل أبو الأَغَرّ بالقرب من حلب[١] ، فكبسهم القرمطى صاحب الشامة[٢] فقتل منهم خلقا كثيرًا . ودخل أبو الأغر حلب فى ألف رجلٍ وذلك فى شهر رمضان ، وسار القرمطى إلى باب حلب فحاربه أبو الأَغَرّ بمن بقِىَ معه وأهلِ البلد ، فرجع عنهم . وسار المكتفى حتى نزل الرَّقّة ، وسيّر الجيوش إليه وجعل أمْرهم إلى محمد بن سليمان الكاتب ، وكان للقرامطة حروبٌ كثيرة ووقائعُ نذكرها — إن شاء اللهُ تعالى — فى أخبارهم[٣] .

وفيها أراد المكتفى البناء بسامرّاء ، وخرج إليها ومعه الصناع فقدّروا ما تحتاج إليه فكان ما لا جزيلا ، فَعَظَّم الوزير ذلك عليه وصرفه عنها ، ورجع إلى بغداد . . وحجّ بالناس الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله العباسى .

ودخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين : فى هذه السنة سار من طرسوس غلام زرافة[٤] نحو بلد الروم ففتح مدينةَ أنطاكية عَنْوَة بالسيف ، فقتل خمسة آلاف وأَسَر نَحْوَهم ، واستنقذ من الأسارى خمْسة آلاف ، وأخذ لهم ستين مركبا حمّلها ما غنم من الأموال ، وقُدِّر نصيبُ كلّ رجل فكان ألف دينار .

---

(١) فى وادى « بطنان » على ما تذكر الأثبات .

(٢) كان للحسين شامة فى وجهه « ذكر أنها آيته » على ما يقول المؤرخون .

(٣) استطاع الكاتب ذلك القائد اليقظ أن يقضى على قوة الحسين القرمطى قرب حماه فيفر ولكنه لا ينجو !

(٤) يقول عنه ابن الأثير إنه قائد معروف ، وقال عن أنطاكية إنها مدينة تعادل القسطنطينية وهى على أية حال مدينة عظيمة بآسيا الصغرى قريبة من بحر الروم (ياقوت فى معجم البلدان)

وفيها مات الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان[١] . وحج بالناس فى هذه السنة الفضل بن عبد الملك .

ودخلت سنة اثنتين وتسعين ومائتين : فى هذه السنة انقرضت الدولة الطولونيةُ ، واستولى المكتفى بالله على ما بأيديهم بمصر والشام . وأرسل محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر بمواطأة قوّاد هارون بنِ خُمارويه فَتَوَجَّه ، وقاتله هارون فَقُتِلَ هارون ، واستولى ابن سليمانَ على مصر ، على ما نذكر ذلك مُبَيَّنًا – إن شاء الله تعالى – فى أخبار الدولة الطولونية .

قال[٢] : وكتب ابنُ سليمانَ بالفتح إلى المكتفى بالله ، فأمر بإشخاصِ آلِ طولونَ إلى بغدادَ ففعل ذلك ، وولى معونة مصر عيسى النُّوْشَرِى . ثم ظهر بمصرَ رجل يعرف بالخليجى[٣] – وهو من قوّادِ الدولة الطولونية – فخالف على الخليفة وكثر جمعه ، وعجز النُّوشَرِىُّ عنه فتوجَّه إلى الإسكندرية ، ودخل إبراهيم الخليجى مصر . فسيرّ إليه المكتفى الجنود مع فاتك[٤] – مولى المكتفى – وبدر الحماص ، فساروا فى شوّال فوصلوا حدود مصر

(١) مات فى ذى القعدة من هذه السنة وكان عمره اثنين وسبعين عاماً وثمانية أشهر تقريباً .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١١١

(٣) تتردد الأثبات فى رسمه هكذا ورسمه « الخلبخى » وقد اختار الطبرى الأول ، واختار ابن الأثير الثانى ، وقد قال عنه ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة (٣ : ١٥٣) إنه محمد بن على الخلبخى الأمير أبو عبد الله الطولونى ملك مصر عنوة من النوشرى .

(٤) فى ف صفحة ٣ – ب « مع قابل » كما فى ك وما هنا من الكامل ٦ : ١١١

فى صفر سنة ثلاث وتسعين [١] . وتقدَّم أحمد بن كَيْغَلَغَ فى جماعة من القواد ، فلقيهم الخليجى فهزمهم بالقرب من العريش أقبح هزيمـة . فَنَدَبَ من بغدادَ جماعـةً من القُوَّاد فيهم إبراهيم بن كيغلغ ، فخرجوا فى شهر ربيع الأول . وبرز المكتفى إلى باب الشَّمَّاسِية [٢] يريد المسير لحرب الخليجى لِمَا / بلغه من قُوَّته — ٢ ـ ك
وكان ذلك فى شعبان — فورد كتابُ فاتكٍ فى شعبان أن « القوَّاد رجعوا إلى الخليجى وقاتلوه أشدَّ قتال ، وكانت بينهم حروبٌ آخرُها أنه انهزم ودخل فسطاط مصرَ واستتر بها ، ودخل عسكرُ الخليفةِ المدينةَ وظَفِروا به ، وحُبِس هو ومن استتر عنده » . فكتب المكتفى إلى فاتكٍ بَحمْلِه ومَنْ معه إلى بغداد ، فوصلوا بغداد فى شهر رمضانَ سنة ثلاث وتسعين ، ودخل المكتفى بغداد وأمر بِرَدِّ خزائنه وكانت قد بلغت تكريت [٣] .

وفيها — أعنى سنةَ اثنتين وتسعين أُخِذ بالبصرة رجل ذُكِرَ أنه أراد الخروج ، وأُخِذَ معه وَلَدُه وتسعةٌ وثلاثون رجلاً ، وحُملوا إلى بغدادَ وهم يستغيثون ويحلفون أنهم بِراءٌ [٤] ، فأمر المكتفى بِحبْسهم

(١) من عادة النويرى أن يتعقب الواقعة بحذافيرها حتى ينتهى منها ، وإن جاوز السنة التى يؤرخ لها كما نرى ها هنا .

(٢) كان فى الشماسية التى كانت تجاور دار الروم فى أعلى بغداد (معجم البلدان لياقوت)

(٣) بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، سميت على ما ذكر ياقوت بتكريت بنت وائل . وتقع غربى دجلة وبها قلعة حصينة بناها سابور بن أردشير

(٤) نقول فى جمع برىء « براء » (القاموس المحيط)

وفيها أغار أندرونقس[١] الرومى على مرعش[٢] ونواحيها ، فَنَفَرَ أهلُ المصيصة وطرسوس فأصيب أبو الرجال بن أبى بكار فى جماعةٍ من المسلمين . فعزل الخليفة أبا العشائر عن الثغور واستعمل عليهم رستم بن بدر [٣] ، وافتدى رستم فكان جملةً من فُودِىَ به المسلمون ألف نفس ومائتى نفس . وحج بالناس فى هذه السنة الفضل بن عبد الملك بن عبد الله .

وفيها كان ابتداءُ إمارةِ بنى حمدان بالمَوْصِل ، وذلك أن المكتفى بالله ولّى على الموصلِ وأعمالها أبا الهيجاء عبدَ اللهِ بنَ حَمدان بنِ حمدون التغلبىّ العدوىّ [٤] ، فقدمها فى المحرم ، وخرج فى اليوم الثانى من مَقْدَمِهِ لقتال الأكراد على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الحمدانية .

ودخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين : فى هذه السنة كان الظَّفَرُ بإبراهيم الخليجى المُغَلَّبِ على ديارمصر ، وقد ذكرنا ذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

---

(١) فى ك « أندريس » وما هنا من ف صفحة ٣ – ب كما فى صلة الطبرى صفحة ٢

(٢) مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم ، يقول ياقوت إنها حصينة ولها سوران ، وبوسطها قلعة ، ولها ربض يعرف بالهارونية .

(٣) « بن بردو » فى الكامل ٦ : ١١١

(٤) هو رأس الأسرة الحمدانية وصاحب قلعة ماردين القريبة من الموصل ، ويظهر ابن حمدون على مسرح التاريخ لأول مرة عام ٢٥٤ يوم احتل الموصل مساور بن عبد الحميد فجمع صاحبها التغلبى جيشا كان فيه حمدان .

وفيها أغارت الروم على قورس - من أعمال حلب - فقاتلهم أهلها قتالاً شديدًا، ثم انهزموا وقتل كثير منهم[١]. ودخل الرومُ قورسَ، وأحرقوا جامعها، وأخذوا مَنْ بقى من أهلها. وحج بالناس فى هذه السنة محمد بن عبد الملك الهاشمى.

ودخلت سنة أربع وتسعين ومائتين: فى هذه السنة قُتل زكرويه رئيسُ القرامطة على ما نذكره إن شاء الله تعالى - فى أخبارهم[٢] وفيها غزا ابنُ كَيْغَلَغَ من طرسوس، فأصاب من الروم أربعةَ آلاف رأس سبيًا، ودوابَّ ومتاعا، ودخل بطريقٌ من بطارقة الروم فى الأمان فأسلم. وغزا ابن كيغلغ أيضا فبلغ شلندوا[٣]

* * *

وافتتحَ اللَّيْسَ[٤] فغنم نحوًا من خمسين ألف رأس، وقتل

(١) ذكر ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١١٥ أن معظم القتلى من الرؤوس كانوا من تميم.

(٢) لن يقع ذلك فى هذا الجزء الذى بأيدينا فنقول إنه خرج يغزو الحاج فأوقع بهم مرات، فأرسل المكتفى قائده وصيفا فقضى على قوته وأسره بعد أن جرح، وعاش بعد أسره خمسة أيام ثم مات، وتفرق أصحاب زكرويه فى البرية وماتوا عطشا.

(٣) فى الكامل ٦ : ١١٧ «شكند» وفى عقد الجمان ٩، ٥ «شلندو» وفى النجوم الزاهرة ٣ : ٧٨ (سلند» وكلها لا وجه لها : إلا أن تكون «سمندو» قال عنها ياقوت إنها بلد فى وسط بلاد الروم غزاه سيف الدولة الحمدانى فقال المتنبى :

رضينا والدمستق غير راض بما حكم القواضب والوشيح
فإن يقدم فقد زرنا سمندو وإن يحجم فموعدنا الخليج

(٤) مدينة فى بلاد الروم

مقتلةً عظيمةً ، وانصرف ومن معه سالمين . وكاتب أندرونقس البطريق المكتفىَ بالله فى طلب الأمان فأعطاه ما طلب – وكان على حَرْبِ الثغورمِنْ قِبَلِ ملك الروم– فخرج ومعه نَحْوٌ من مائتى ألف أسير [1] من المسلمين فى السلاح ، فقبضوا على بطريقٍ كان ملك الروم أرسله ليقبض على أندرونقس – ليحاربوه – فسار إليه جمْعٌ من المسلمين لإغاثته ، فبلغوا قونية [2] وانصرف الروم عنه . وسار جماعةٌ من المسلمين إلى أندرونقس وهو فى حِصْنِه ، فخرج إليهم ومعه أهله ، وسار معهم إلى بغداد . وخرَّب المسلمون قونية ، فأرسل ملكُ الروم إلى الخليفة يطلب الفداء . وحج بالناس الفضلُ بن عبد الملك .

ودخلت سنةُ خمس وتسعين ومائتين : فى هذه السنة كانت وفاة إسماعيل بن أحمد السامانى أميرِ خرسان وما وراء النهر وقام بعده ابنُه أحمدُ على ما نذكره – إن شاء الله تعالى – فى أخبارهم [3] .

---

(١) فى الكامل ٦ : ١١٧ « مائتى » فقط

(٢) من أعظم مدن الإسلام بالروم وبها سكنى ملوكها ، وفى كتاب الفتوح يقول ياقوت « انتهى معاوية بن حديج فى غزوه أفريقية إلى قونية وهى موضع مدينة القيروان » .

(٣) يحق لنا هنا أن نعرف أن هذه الأسرة – وهى زردشتية الأصل – اعتنقت المذهب السنى ، وأنه لم يظهر بعد إسماعيل بن أحمد أمير فيها قدير ، إلا أن متانة الإدراة السامانية مكنها من المحافظة على ملكها مائة عام .

ذكر وفاة المكتفى بالله

كانت وفاة المكتفى ببغـداد لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلتْ من ذى القعدة سنةَ خمس وتسعين ومائتين ، وطالت مرْضَتُه عدَّة شهور ، ولما مات دُفِنَ بدار محمد بن عبد الله بن طاهر . وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنةً ، واختُلِف فيه إلى إحـدى وثلاثين سنةً وشهورٍ [١] ، وكانت مدةُ خلافته سِتَّ سنين وستَّةَ أشهر وعشرين يوما . وكان أسمر أعْيَنَ [٢] ، قصيرًا ، حسنَ اللحية والوجه . وهو الذى بنى / جامع القصر بمدينة السلام — وكان موضعه مطامير فغطاها — وبنى تاج دار الخلافة على دجلة . وأنفق الأموال العظيمة فى حرب القرامطة ، وكان نقش خاتمه « بالله يثق علىُّ بن أحمد » . ٣ — ك

أولاده : المستكفى بالله ، وثمانية ذكور .

وزراؤه : القاسم بنُ عبيد الله ، ثم أبو العباس بن الحسن بن أيوب بن سواد جَرْجرايا [٣] ، وهو أوّل وزيرٍ منع أصحاب الدواوين الوصولَ إلى الخليفة .

---

(١) الواقع أن المكتفى مات صغيراً وخلال حكمه القصير بدا للناس أن العباسية استعادت مجد الخلافة واسترجعت عز سلطانها ، وحسبها أنها تستطيع به أن تقضى على ثورات القرامطة فى الشام وعلى سلطان الطولونيين فى مصر !

(٢) أعين : عظيم سواد العينين فى سعة (المحيط)

(٣) جرجرايا : بلد من أعمال النهروان بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى (معجم البلدان ٢ : ١٣٢)

قضاته : أبو حازم ، ثم يوسف بنُ يعقوب ، ثم أبو عمر بن علي بن أبي الشوارب

حاجبه : خفيف السمر قندى .

الأُمراء بمصر : هارون بن خمارويه ، ثم سِنان بن أحمد بن طولون بمبايعة الجند له ، ثم محمد بن سليمان الكاتب دبَّرها إلى أن قَدِم - بأمر المكتفى - عليها عيسى بن محمد النوشرى .

القضاة بها : أبو زرْعة وأبو عبيدة مستتر إلى أن قَدِم محمد بن سليمان ، فظهر أبو عبيدةَ بعد استتاره عشر سنين ، وعاد إلى القضاء واللهُ أعلم !

ذكر خلافة المقتدر بالله

هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد - وقد تقدَّم ذِكْر نَسبِه - وأُمُّه أمُّ ولدٍ اسمُها شغب ! وهو الثامن عشر من الخلفاء العباسيين ، بويع له لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من ذى القعدة سنة خمسٍ وتسعين ومائتين وعمرهُ يومذاك ثلاثَ عشرةَ سنة .

قال ابن الأثير (١) : كان سبب ولاية المقتدر أنَّ المكتفى لما ثَقل مرضه فكَّر الوزيرُ أبو العباس بن الحسن فيمن يصلح للخلافة ، فاستشار محمد بن داود الجراح فى ذلك فأشار بعبد

(١) فى الكامل ٦ : ١١٩

الله بن المعتز ووصفه بالعقل والرأى والأدب ، واستشار بعده أباالحسن بن الفرات [١] فامتنع ، وقال : هذا شيءٌ ما جَرَتْ عادتى أشيربه ، وإنما أشاورُ فى العمال لا فى الخلفاء ! فغضب الوزير وقال : هذه مقاطعةٌ وليس يخْفَى عليك الصحيحُ ! وألحَّ عليه فقال : إن كان رأىُ الوزيرِ قـد استقرّ عـلى أحـدٍ فليفعل . فعلم أنه عَنى ابنَ المعتزلاشتهار خبره ، فقال الوزير : لا أقنع إلا أن تَمْحضَنى [٢] النصيحـة ! وألَحَّ عليـه فقال ابن الفرات : فَلْيتَّقِ اللهَ الوزيرُ ولا ينْصِبْ إلا منْ قد عَرفه واطّلع على جميع أحواله ، ولا ينْصِبُ بخيلا فيضيِّق على الناس ويقطعَ أرزاقَهم ، ولا طامعا فَيَشْرهَ فى أموالهم فيصادرهم ويأْخذ أملاكهم وأموالَهم ، ولا قليلَ الدِّينِ فلا يخاف العقوبةَ والآثام ويرجو الثَّواب فيما يفعله ، ولا منْ قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وضَيْعة هذا وفَرس هذا ، ومنْ قد لَقِى الناس ولقُوه وعاملهم وعاملوه وتحنَّك وحسب حساب الناس وعَرف وجُوه دخْلِهم وخَرْجِهم !

فقال الوزير : صدقت ونصحت ، فيمن تشير ؟ قال : أصلح الموجودين جعفرُ بنُ المعتضد بالله . قال : ويْحك هوصبى ! قال : إلا أنه ابنُ المعتضد ، ولِم نأْتى برجلٍ يباشر الأمور

(١) ابن الفرات والجراح من أسرتين حملتا لواء الكتابة فى هذا العصر ، ويبدو أن المنافسة بينهما وظهور كتاب كبار فى آل الفرات وآل الجراح انتهيا إلى تكوين حزبين متعارضين ، ولعل هذا يفسر موقف داود الجراح .

(٢) محضه النصيحة : أخلصها وصدقها (المحيط) .

بنفسه غير محتاجٍ إلينا ؟ فمالت نَفْسُ الوزير إلى ذلك ، وانْضاف إليه وصيَّةُ المكتفى له بالأمر . فلما مات المكتفى بالله أرسل الوزيرُ صافيا الحُرَمِيَّ (١) ليحدر المقتدر من داره الغربى . فركب فى الحراقة (٢) وانحدر . فلما صارت الحرّاقةُ مقابِلَ دارِ الوزيرِ صاح غلمانُ الوزيرِ بالملّاح ليدخل إلى دار الوزير ، فَظَنَّ صافى الحرمىُّ أنه يريد القبض على جعفر وينصب فى الخلافةِ غَيْره ، فمنع الملّاح من ذلك . وسار إلى دار الخلافة وأخذ له صافى البيْعةَ على جميع الخدم وحاشية الدّار ، ولقب نَفْسه المقتدر بالله ولَحِقَ الوزيرُ به وجماعةُ الكُتّاب فبايعوه ثم جهزوا - جماعة الكتاب - المكتفى ودفنوه .

قال (٣) : وكان فى بيت المال حين بويع خَمْسةَ عشْرَ ألف ألفِ دينارٍ ، فأطلق يدَ الوزيرِ فى بيت المال فأخرج حقَّ البيعة ! قال : ثم استصغر الوزيرُ المقتدر ، فعزم على خَلْعِهِ وتقليدِ الخلافةِ أبا عبد الله بن المعتَمِدِ على الله . فراسَله فى ذلك واستقرَّت الحال ، وانتظر الوزير قُدوم بارس (٤) حاجبِ إسماعيل صاحبِ

(١) يعرف بصافى الرومى وكان غلام أحمد بن طولون ، وعمل للخليفة فلما مات سنة ٢٩٨ قلد المقتدر مكانه مؤنساً الخادم على ماسنرى بعد (راجع النجوم الزاهرة ٣ : ١٧٤) وفى ك « صائفا » وهو تحريف صوبه بنفسه فى السطور التالية ، وفى ف صفحة ٤ - ب « الخرمى » بالخاء والراء المشددة وهو تحريف أيضا.

(٢) ضرب من مركبات الماء .

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١١٩

(٤) يقال له بارس الكبير ، وكان عامل إسماعيل بن أحمد السامانى على جرجان .

خراسان ، وكان قد أذِنَ له فى القدوم وأراد أن يستعين به على ذلك ويَتَقَوَّى به على غلمان المعتضد بالله ؛ فتأخَّر بارس .

واتَّفق أنه وَقَع بين أبى عبد الله بن المعتمد وبين ابن عمرويه — صاحب الشرطة — منازعةٌ فى ضَيْعةٍ مشتركةٍ بينهما ، فأغلظ له ابنُ عمرويه ، فغضب ابنُ المعتمد غضبًا شديدًا وأغمى عليه ، وفُلِج فى المجلس فَحُمِل إلى بيته فى محفَّةٍ فمات فى اليوم الثانى . فأراد الوزيرُ البيْعَةَ لأبى الحسن بن المتوكل فمات أيضا بعد خمسة أيام ، وتَمَّ أمر المقتدر . وحجَّ بالناس فى هذه السنة الفضلُ بن عبد الله الهاشمى

ودخلت سنةُ ستٍّ وتسعين ومائتين :

ذكر خلع المقتدر وولاية ابن المعتز

وانتقاض ذلك وعودة المقتدر ووفاة عبد الله بن المعتزّ

قال (١) : وفى هذه السنة اجتمع القوّاد والقضاة والكتاب مع الوزير (٢) على خَلع المقتدر والبيعة لابن المعتز بالله . وأرسلوا إلى عبد الله بن المعتز فأجابهم إلى ذلك على أن لا يكون فيه سفْكُ دم ولا حرب ، فأخبروه أنَّ كلمتهم اجتمعت عليه ، وأنه ليس له منازع ولا محارب . وكان القائم فى ذلك الوزير المذكور ومحمد

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٢١

(٢) هو العباس بن الحسن ، وكان موقفه ينم عن تردد بالغ ، فهو ليلة وفاة المكتفى يؤيد على بن عيسى فى ترشيح ابن المعتز للخلافة ، فهو يستحسن رأى داود الجراح ، ولكنه يميل إلى ابن الفرات ويبايع المقتدر ، وتكون النهاية قتله من آل الجراح .

ابن داود الجراح وأبو المثنىّ أحمد بن يعقوب القاضى ، ومن القُوَّاد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى ووصيف بن صَوَار تكين ثم إن الوزير رأى أمره صالحًا مع المقتدر ، وأنه على ما يحب ، فبدا له فى ذلك فوَثَب به الآخرون فقتلوه ، وكان الذى تولَّى قَتْلَه منهم الحسينُ بنُ حمدان وبدرٌ الأعجمى ووصيفٌ . لحقوه وهو سائر إلى بستانٍ له فقتلوه ، وقتلوا معه فانكا المعتضدى ، وذلك فى العشرين من شهر ربيع الأول ، وخُلع المقتدر من الغد ، وبايعَ الناسُ لابن المعتز .

وركَضَ الحسينُ بنُ حمدان إلى الحلْبة [1] ظنا منه أن المقتدر يلعب هناك بالكرة فيقتله ، فلم يصادِفْه لأنه لما بلغه قتْلُ الوزير ركض دابته [2] ودخل الدار . وغُلِّقَتِ الأبوابُ ، فندم الحسينُ حيث لم يبدأ بالمقتدر ! وأحضروا ابنَ المعتز وبايعوه بالخلافة ، وتولى أخْذَ البيْعةِ له محمدُ بنُ سعيد الأزرق ، وحضَر الناسُ والقواد وأصحابُ الدواوين سوى أبى الحسنِ بنِ الفرات وخَواصِّ المقتدرِ فإنهم لم يحضروا . ولقِّب ابن المُعْتَزّ المرتضىَ بالله [3] أبا العباس عبد الله بن المعتز .

ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار ابنِ طاهر – التى كان

---

(١) اعتاد المقتدر أن يلعب فيها بالصوالجة ، مفردها صولجانه وصولج أى العود المعوج يضرب به الكرة .

(٢) ركض دابته : ركلها برجليه يستحثها لتسرع به (المحيط)

(٣) كذا فى الطبرى وابن الأثير ، وقيل « لقبوه بالمنصف بالله ، وقيل بالغالب بالله وقيل بالراضى بالله » (النجوم الزاهرة ٣ : ١٦٥)

بها قبل الخلافة – لينتقلَ هو إلى دار الخلافة ، فأجابه بالسمْع والطاعةِ ، وسأل الإمهالَ الى الليل . وعاد الحسين بنُ حمدان بُكْرةَ غَـدٍ إلى دار الخـلافة فقاتله الخـدم والغلمان والرَّجَّالة (١) / من وراء السور عامةَ النهار ، فانصرف عنهم آخِرَ النهارِ . فلما جنَّه ا الليلُ (٢) سار عن بغدادَ بأهله وماله الى الموْصِل لا يدرى لِم فعل ذلك ؟ ولم يكن قد بقِى مع المقتدر من القُوَّاد غيرُ مؤنسٍ الخادم ومؤنسٍ وغريبٍ الخال (٣) وحاشيةِ الدار . فلما همَّ المقتدر بالانتقال عن الدار قال بعضهم لبعض : لا نسلم الخلافة من غير أن نُبْلِيَ عدوا (٤) ونجتهدَ فى دفع ما أصابنا !

١١ – ب

فاجتمع رأيهم على أن يصعدو فى الماء إلى الدار التى فيها ابنُ المعتز يقاتلونه ، فأخرج لهم المقتدر السلاح والزرديات(٥) وركبوا السميريات (٦) . فلما رآهم منْ عند ابنِ المُعْتَزِّ هالهم كثرتُهم ، واضطربوا ، وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم ، وقال بعضهم لبعض : إنَّ الحسينَ بنَ حمدانَ ما يريد يجرى ، فلهذا هرب من الليل ، وهذه مواطأة بينه وبين المقتدر . ولما رأى عبد الله بن المعتزِّ ذلك ركب ومعه وزيره محمد بن داود وهربا ،

---

(١) من هنا تبدأ نسخة «ا» التى اتخذتها أصلا للنشر ، وبذا ينتهى النقل عن «ك» إلا فى حالات المقابلة

(٢) جنه : ستره (المحيط) (٣) هو خال المقتدر وقد توفى سنة ٣٠٥ .

(٤) نبلى عدوا : نسلمه للغم ، لأن البلوى والبلية والبلاء : الغم كأنه يبلى الجسم ، والتكليف بلاء لأنه شاق على البدن (المحيط)

(٥) الزرديات : هى الزرد دارجة تعنى الدروع .

(٦) السميريات : ضرب من القوارب الخفيفة السريعة .

وغلامٌ له ينادى : يا معْشَر العامة ادعوا لخليفتكم السُّنىِّ البربهارى ! وإنما نَسبه لذلك لأنَّ الحسينَ بنَ القاسم بن عبيد الله البربهارى كان مُقَدَّمَ الحنابلةِ والسُّنَّةِ من العامة ولهم فيه اعتقادٌ عظيم ، فأراد استمالتَهم بهذا القول .

ثم إنَّ ابنَ المعتزِّ ومنْ معه ساروا نحو الصحراء ظنًّا منهم أنَّ مَنْ بايَعَه من الجُنْدِ يتبعونه ، فلم يلحقْه منهم أحد . فرجعوا ، / واختفى محمد بن داود فى داره ، ونزل ابن المعتزِّ عن دابته ومعه غلامُه يُمْنٌ ، وانحدرا إلى دار عبد الله بن الجصَّاص ، فاستجارا به . واستتر أكثر منْ بايع ابنَ المعتز ، ووقعت الفتنةُ والنَّهْبُ والقَتْل ببغداد ، وثار العيارون والسَّفِلَة (١) ينهبون الدُّورَ . وكان ابن عمرويه – صاحبُ الشرطة – ممن بايع ابنَ المعتزِّ ، فلما هرب جمع ابنُ عمرويه أصحابَه ونادى بشعار المقتدر يدلِّس بذلك فناداه العامةُ : يا مُراءِ يا كذابْ ! وقاتلوه ، فهرب واستتر وتفرّق أصحابه . ١٢ – ا

وقلَّد المقتدر فى تلك الساعة الشرطةَ مؤنسا الخازن ، وخرج بالعسكرِ وقبض على . . وصيفِ بن صَوَار تكين وغيرِه ، فقتلهم .

(١) فى ا ، ك ، ف « السفل » ولا وجه لها لأننا نقول سفلة (بكسر فتسكين) وسفلة (بفتح وكسر) بمعنى أسافل الناس وغوغائهم ، استعير من سفلة الدابة أى قوائمها . وأما العيارون فالأصل فيها الذين يروحون ويجيئون وتعنى الأذكياء أيضا ، ثم أصبحت تدل على فئة الأشرار المخادعين ، ويبدو أن الأمر قد انتهى بهم إلى أن يكون لهم تنظيم يلعب دوره الخطير فيما بعد (راجع دراسات فى العصور العباسية المتأخرة للدكتور عبد العزيز الدورى صفحة ٢٨٢ وما بعدها ، طبعة السريان سنة ١٩٤٥ .

وقبض على القاضى أبى المُثَنَّى أحمدَ بنِ يعقوبَ فقتله لأنه قيل له «بايع المقتدر» فقال : لا أبايع صبيًا ! ! فَذُبِحَ ، وأرسل المقتدرُ إلى أبى الحسن على بنِ الفرات - وكان مختفيا - فأحضره ، واستوزره ، وخَلَع عليه .

وكان فى هذه الحادثةِ عجائبُ منها أنَّ الناسَ كلَّهم أجمعوا على خَلْعِ المقتدرِ والبيْعةِ لابن المعتزّ ، فلم يتم ذلك ، بل كان بالعكس . ومنها أنّ ابنَ حمدانَ على شدَّةِ تَشَيُّعِهِ يسعى فى البيْعةِ لابن المعتزّ على غُلوِّه فى النَّصْب[1] .

ثم إنّ خادما لابنِ الجصاص - يعرف بسوسن[2] - أخبر صافيا الحرمى أن ابنَ المعتز عند مولاه ومعه جماعة ، فكُبِستْ دارُه وأُخِذَ ابنُ المعتزّ منها / وحُبِسَ إلى الليل ، ثم عُصِرَت خصيتاه حتى مات وسُلِّم إلى أهله[3] . وصودِر ابن الجصّاص على مالٍ كثيرٍ ، وأُخِذَ محمدُ بن داود وزيرُ المعتزّ فقتل ، ونُفِىَ علىُّ بن عيسى إلى واسط ، وصودِر القاضى أبو عمرو على مائة ألف دينار ، وسُيِّرَتْ العساكر من بغداد فى طَلَبِ الحسين بنِ حمدان ، فتبعوه إلى الموصل ثم إلى بلده ، فلم يظفروا به ، فعادوا إلى بغداد . وأخذَ الوزير الجرائد التى كان فيها أسماء من أعان

١٢ - ب

(١) أهل النصب : الذين ينصبون لعلى بن أبى طالب وجهه كارهين له لأن من ينصب لآخر يعاديه ويبغضه ، فأهل النصب على ذلك هم المتدينون ببغضة على ، لأنهم نصبوا له أى عادوه . (المحيط وأساس البلاغة للزمخشرى)

(٢) كذا فى ا وفى ك صفحة ٤ وفى ف صفحة ٦ - ا ، ولكن ابن الأثير يسميه «سوس» الكامل ٦ : ١٢٢

(٣) كانت خلافته يوما وليلة ، وقيل نصف نهار فقط ! والمعروف أنه كان أديبا عالما كبيراً ، قال الشعر ، وصنف فى طبقات رجاله المحدثين ووضع فى البديع كتابا .

على المقتدر فغرّقها فى دجلة ، وبسط ابن الفرات العدل والإحسان وأخرج الإدرارات للطالبيين والعباسيين . وأرضى القوّاد بالأموال ، ففرّق معظم ما كان فى بيوت الأموال

وفى هذه السنة كان ابتداء ظهور الدولة العُبَيْدية المنسوبة للعلوية بأفريقية على ما نذكره – إن شاء الله تعالى – فى أخبارهم[1] .

وفيها سيّر المقتدرُ القاسم بنَ سيما وجماعةً من القوّاد فى طلب الحسين بن حمدان ، فساروا حتى بلغوا قرقيسيا فلم يظفروا به ، فكتب المقتدر إلى أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان – وهو الأمير على الموصل – يأمره بطلب أخيه الحسين . فسار هو والقاسمُ بن سيما ، فالتقَوْا عند تكريت فانهزم الحسين ، وأرسل أخاه إبراهيم بنَ حمدان يطلب له الأمانَ فأُجيب إلى ذلك ، ودخل بغداد وخلع عليه وعُقِد له على قم وقاجان[2] فسار إليهما .

/ وفيها وصلَ بارس غلام إسماعيل السامانى ، وقُلِّد ديارَ ربيعةَ . ١٣ – ا

وفيها خُلِعَ على المظفر مؤنسٍ الخادم ، وأمر بالمسير إلى غزو

---

(١) يفوتنا ذلك فى هذا الجزء ومن ثم نقول إنها تنسب لعبيد الله المهدى أبى الخلفاء الفاطميين ، بدأت فى سجلماسة حيث كان حبيساً ، ثم راح يوطد لها بالقضاء على قوة الكتاميين والصنهاجيين والأدارسة وغيرهم ، ولما تم له كل شىء وبنى المهدية حاضرته اتجه إلى المشرق ونجح .

(٢) تكتب قاشان أيضا ، وهى مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم ، وأهلها كلهم شيعة إمامية ، وبين قاشان وقم أثنا عشر فرسخا وبين قاشان وأصبهان ثلاث مراحل (ياقوت فى معجم البلدان) .

الروم . فسار فى جمع كثيف فغزا من ناحية مَلَطْية (١) ومعه أبو الأغرّ السُّلَمى ، فظفر وغنم ، وأسر منهم جماعة ، وعاد .

وفيها قلّد يوسف بن أبى الساج (٢) أعمال أرمينية وأذربيجان ، وضمنها عمائة ألفٍ وعشرين ألف دينار .

وفيها أمر المقتدر أن لا يُسْتعانَ بأحدٍ من اليهود والنَّصارى ، فألزِموا بيو تَهم ، وأخِذوا بِلُبْسِ العسلىّ (٣) و[تعليقِ] (٤) الرِّقاع من خلف ومن قُدام ، وأن يكونَ رَكْبُهم خشنا . وحجَّ بالناسِ فى هذه السنة الفضل بن عبد الملك .

ودخلت سنة سبع وتسعين ومائتين : فى هذه السنة وجه المقتدر القاسمَ بنَ سِيما لِغَزْوِ الصائفة (٥) ، وحجَّ بالناس ، الفضل بن عبد الملك .

وفيها مات عيسى النُّوشَرِى - أميرمصر - واستعمل المقتدرُ

---

(١) بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة كما يقول ياقوت تتاخم الشام استولى عليها المسلمون وبنوا بها مسجداً وكانوا يخرجون منها فى غزو الصائفة ، وقد ذكرها الشعراء كثيرا ولا سيما المتنبى وأبو فراس الحمدانى .

(٢) الواقع أن بداية هذا الرجل كانت بداية قاطع طريق ، وإن يكن أخوه الأفشين أمير أذربيجان ، وكان يهاجم الحجاج فأوقعوا به ، وسير إليه المكتفى الحملات لإخضاعه ، ولما استمالة المقتدر أشركه فى حروب القرامطة .

(٣) عسل اليهود : علامتهم

(٤) ليست فى سياق الأصل ولا فى غيره ولكن المقام يقتضيها وذكرها ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣ : ١٦٥

(٥) الصائفة : غزو الروم فى الصيف لأن جليد الشتاء يحول دون الغزو المحيط

تكينَ [١] الخادم ، وخَلَعَ عليه فى منتصف رمضان . وقال أبو الفرج بن الجوزى [٢] فى حوادث هذه السنة « قال ثابت بن سنان رأيت فى صدر أيام المقتدر ببغداد امرأة بلا ذراعين ولا عَضُدَيْن ، وكان لها كفّان بأصابع تامة متعلقة فى رأس كتفيها لا تعمل بهما / شيئا وكانت تعمل أعمال اليدين برجليها ، ١٣ ـ ب ورأيناها تغزل برجليها وتمدّ الطاقة وتسوّيها ـ قال ـ ورأيت امرأة أخرى بعضُدَيْن وذراعين وكفّين إلا أنّ كلّ واحد من الكفين ينخرط ويدقّ إذا فارق النَّهْدَيْن حتى ينتهىَ إلى رأسٍ دقيقٍ يمتدّ ويصيرُ إصبعًا واحدةً ، وكذلك رِجْلها على هذه الصورة ، ومعها ابنٌ لها على مِثْل صورتها ! »

ودخلت سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين : فى هذه السنة جُعِلَتْ أم موسى الهاشمية قهرمانةَ دار [٣] المقتدر بالله ، فكانت تؤدِى الرسائل عن المقتدر بالله وأمّه إلى الوزراء . ثم صار لها [أن] [٤] تحكم كثيرًا فى الدولة على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وحج بالناس فى هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمى .

ودخلت سنة تسع وتسعين ومائتين :

---

(١) هو ابن عبد الله الحربى الأمير منصور المعتضد الخزرى ، وقد أضيفت إليه دمشق

(٢) فى المنتظم ٦ : ٨٩

(٣) قهرمانة : مسيطرة وحفيظة ، قال سيبويه القهرمان فارسى، وقال ابن برى القهرمان من أمناء الملك وخاصته فارسى معرب (اللسان مادة قهرم)

(٤) زيادة ليست فى الأصل ولا فى غيره ولكن السياق يقتضيها .

ذكر القبض على ابن الفرات

ووزارة الخاقانى

فى هذه السنة قَبَضَ المقتدر بالله على وزيره ابن الفرات ، ووكل بداره ، وهتك حُرَمَه ، ونهب أمواله ودُورَ أصحابه ومن يتعلّق به فافتتنت بغداد لِقَبْضه ، وكانت مدةُ وزارته – وهى الأُولى – ثلاث سنين وثمانية أشهر / ، وثلاثةَ عشر يومًا . وقُلد أبو ١٤ – ا
على محمد بن يحيى بن عبيد الله بن خاقان الوزارة ، فرتّب أصحاب الدواوين ، وتولى مناظرة ابنِ الفرات [١] . ثم انْجلتْ أمورُ الخاقانى لأنه كان ضجورًا [٢] ضَيِّقَ الصدر ، مهملا لقراءة كتب العمال ، وجباية الأموال ، وكان يتقرّب إلى الخاصة والعامة ؛ فكان إذا رأى جماعة من الملاحين والعامة يصلون – جماعةً – ينزل ويُصَلِّى معهم ، وإذا سأله أحدٌ حاجةً دقَّ صدره وقال : نعم وكرامةً ! فَسُمِّىَ « دقّ صدره » إلا أنه قَصَّر فى إطلاق الأموال للقوّاد والفرسان فنفروا عنه . وكان أولاده قد تحكّموا عليه وكلٌّ منهم يسعى لمن يرتشى منه ؛ فكان يُوَلِّى فى الأيام القليلة عدّةً من العمال حتى إنه ولّى ماه الكوفة [٣] فى مدة عشرة أيام [٤] سبعة من العمال ،

(١) فى الكامل ٦ : ١٣٩ أن الذى تولى مناظرته أحمد بن يحيى بن أبى البغل .

(٢) نقول ناقة ضجور فنعنى التى ترغو عند الحلب ، وفى س ، ف « صحور » نقول أتان صحور فنعنى أن تفوحا برجلها وقد نعنى أن فيها بياضا وحمرة (المحيط) .

(٣) الماه : لفظ فارسى معناه الزمام والحوز .

(٤) كذا فى الأصل وفى ك صفحة ٦ وفى ف صفحة ٨ – ا ، إلا أن ابن الأثير يقول فى الكامل ٦ : ١٣٩ « عشرين يوما وهو أكثر قبولا .

فاجتمعوا فى الطريق فعرضوا توقيعاتهم ، فصار الأخير وعاد الباقون يطلبون ما خدموا به أولاده ، فقيل فى ذلك :

وزيرٌ قدتكاملَ فى الرقاعـه يُولَّى ثم يعزل بعْد ساعه (١)
إذا أهل الرِّشا اجتمعوا لَديْه فَخَيْرُ القَوْمِ أَوْفَرهُم بضاعه (٢)
وليس يُلام فى هذا بحـالٍ لأَنَّ الشيخَ أفلتَ من مجاعه (٣)

قال (٤) : ثم زاد الأمر حتى تَحَكَّم أصحابُه ، فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال ، فانْحَلَّت القواعد ، وخبثت النيات / واشتغل الخليفة بِعزْلِ وزرائه والقَبْضِ عليهم والرجوع إلى قَوْلِ النساء والخدم والتصرّف على مقتضى إرادتهم ، فخرجت الممالك وطمع العمّال فى الأطراف ، فصار مآل الأمر إلى ما نذكره إن شاء الله تعالى . ١٤ ـ ب

قال (٥) : ثم أحضر المقتدرُ الوزيرَ ابنَ الفرات من محبسه ، وجعله فى حجرةٍ ـ من ضِمْن الحجر ـ مُكَرَّمًا ، فكان يعرض عليه مطالعات العمال وغَيْرَ ذلك بارًا به بعد أن أخذ أمواله .

وفي هذه السنة غزا رستُم أميرُ الثغور الصائفةَ من ناحية

(١) فى صلة الطبرى ٨ : ٢٩ « وزير ما يضيق من الرقاعه »
(٢) فى الطبرى « إذا أهل الرشا صاروا إليه .·. فأحظى القوم أوفرهم بضاعة »
(٣) فى الطبرى « وليس بمنكر ذا الفعل منه »
(٤) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٣٩
(٥) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٤٠ .

طَرَسوس (١) ومعه دمْيانة (٢) ، فحصر حِصْنَ مليح الأرمنى ، ثم دخل بلده وأحرقه .

قال ابن الجوزى (٣) : وفى هذه السنة وَرَدَ من مصر أربعةُ أحمالِ مالٍ ، وقيل إنه وُجِدَ هناك كنزٌ قديم . وكان معه ضلع إنسان طولُه أربعةَ عشرَ شبْرًا فى عرْضِ شبْرٍ ، وزعمو أنه من قوم عاد .. وكان مبلغ المال خمسمائة ألف دينار ، وكان مع ذلك هدايا عجيبة — قال — وذكر الصولى أنه كان فى الهدايا تَيْسٌ له ضرْعٌ يحلب اللبن ووردت رُسُل أحمد بنِ إسماعيل بهدايا فيها بدنةٌ (٤) مرصَّعةٌ بِفاخِرِ الجوهرِ ، وتاجٌ من ذهبٍ مُرَصَّعٌ بجوهرٍ له قيمةٌ كبيرة ، ومناطقُ ذهبٍ مرصعة ، وخِلعٌ سلطانيةٌ فاخرة ، وربعة ذهب مرصعة فيها شمَّامات مسك وعنبر كلُّه مرصع ، وعشر / أفراسٍ بِسُرُوجها ولإحداها سرج ذهب . ووردت هدايا ابنِ أبى السّاج وهى أربعمائةُ دابَّةٍ وثمانون ألف دينار وفَرْشٌ أرمنى لم يُرَ مِثْله ، فيه بساطٌ طولُه سبعون ذراعًا فى عَرْض ستين ، لا قيمةَ له ! وحَجَّ بالناس الفضلُ بن عبد الملك الهاشمىّ .

١٥ — ا

ودخلت سنة ثلاثمائة من الهجرة النبوية

(١) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم (معجم البلدن)

(٢) هو أحد القواد المشهورين يلقب بالبحرى لأن المكتفى حين طلب إليه التوجه إلى مصر أمره بركوب البحر ، وكان قبل غلام يازمان الخادم .

(٣) المنتظم ٦ : ١٠٩

(٤) البدنة من الإبل أو البقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة (المحيط)

ذكر عزل الخاقانى عن الوزارة

وزارة علىّ بن عيسى

فى هذه السنة ظهر للمقتدر بالله تخليطُ الخاقانىّ وعَجْزُه عن الوزارة ، فأراد عزْلَه وإعادة أبى الحسن بن الفرات ، فمنعه مؤنسٌ الخادمُ وقال له : متى أعدتَه ظَنَّ النَّاسُ أنَّك إنما قبضتَ عليه شَرها فى ماله ! وأشار عليه باستدعاء علىِّ بنِ عيسى من مكة وتَقليدهِ الوزارة وشكره مؤنس الخادمُ وأثنى عليه .

فأمر المقتدر باحضاره ، فوصل إلى بغدادَ فى أوَّلِ سنة إحدى وثلاثمائة ، فجلس فى الوزارة وسُلِّم إليه الخاقانىّ فأحسن إليه ووسّع عليه . ولما تولّى علىٌّ بن عيسى لازم العملَ والنظرَ فى الأمور وردّ المظالم ، وأطلق من المكوس شيئا كثيرا ، وأسقط زيادات كان الخاقانى قد زادها / للجند ؛ لأنه عمل معدّل الدَّخْل والخَرج ١٥ ب
فرأى الخرْجَ أكثر من الدَّخْل ، فأسقط الزيادات . وأمر بعمارة المساجد والجوامع وتبييضها وبَسْطِها بالحصر وإشعالِ الأضواء فيها . وأمر بإصلاح البيمارستانات وعمل ما تحتاج إليه ، وغير ذلك من وجوه البر والقُرُبات[1] .

قال[2] : ولما عزل الخاقانى أكْثَر الناسُ التزوير على خطِّ الخاقانىّ بصلاتٍ وإدرارات ، فنظر علىُّ بن عيسى فى ذلك فأنكر

(١) لخص مسكوية فى تجارب الأمم ١ : ٢٨ ، ٢٩ سياسة هذا الوزير العامة بحيث ظهر لنا بوضوح أنه نجح فى إصلاح الوضع المالى وفى إقامة لون من العدل المنشود ، وقرر بصراحة أنه ساس الدنيا أحسن سياسة فاستقام أمر السلطان وصلح أمر الرعية .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٤١

الخطوط. وأراد إسقاطها ، فخاف ذَمَّ الناس ، فأنفذها للخاقانىّ فقال : كلُّها خَطِّى وأنا أمرت بها فلما عاد الرسولُ إلى علىّ بن عيسى قال : واللهِ لقد كذب ، وقد علم المزوَّر من غيره ولكنه اعترف بها لتحمده الناس ويذمونى ! وأمر بإحراقها[1] ، وقال الخاقانىُّ لولده : يا بنى ، هذه ليست خطى ولكنه أنفذها إلىّ وقد عرف الصحيح من السقيم وأراد أن نأخذ الشَّوْك بأيدينا ويبغضنا إلى النَّاسِ ، وقد علمت مقصودَه ، وعكسته عليه !

قال ابن الجوزىّ[2] : وفيها لاثنتى عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر ورد الخبرُ بانخساف جبل بالدِّينَوَر يعرف بالتل وخرج من تحته ماء كثير أغرق عِدَّةً من القرى ، ووصل الخبرُ بانخساف قطعةٍ عظيمةٍ من جبل لبنان وسقوطها فى البحر[3] .

وفى هذه السنة خرج أهل صقليةَ عن طاعةِ المهدىِّ صاحب
١٦ ـ ا / أفريقية ، وخُطِبَ للمقتدر بالله بها . وكان الذى قام بهذه الدعوة أحمد بن قرهب ، فسيرَّ إليه الخِلَعَ السُّودَ والألوية ، ثم خرج أهل الجزيرة عليه وقبضوه وبعثوه للمهدى فقتله . وحجَّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن عبد الملك .

ودخلت سنة إحدى وثلاثمائة : وفى هذه السنة خلع المقتدر بالله على ابنه أبى العباس وقلَّده أعمال مصر والمغرب وعمره أربع

(١) فى الكامل ٦ : ١٤١ « وأمر بها فأجيزت »
(٢) المنتظم ٦ : ١١٥ وقد أورد عريب الخبر نفسه فى صلة الطبرى صفحة ٢٨ .
(٣) أورد الخبر ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣ : ١٨٠ .

سنوات ، واستخلِفَ [له] [١] على مصر مؤنس الخادم . وهذا أبو العباس الذى ولِىَ الخلافةَ بعد القاهر ولقِّبَ الراضى بالله على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وخَلَعَ أيضا على ابنه على وولاه الرىَّ [٢] ودُنباوند [٣] وقزوين وزَنجان [٤] وأبهر [٥] .

وفيها خالف أبو الهيجاء بن حمدان بالموْصل على المقتدر بالله ، فسير إليه المُظَفَّرَ مؤنسًا ، فأتاه ابن حمدانَ مستأمنا ، وورد [مؤنس] [٦] معه إلى بغداد فخلع المقتدر عليهما .

وفيها استولى الحسنُ بن علىٍّ بن عمر بن الحسين بن علىٍّ على بر سنان ، وتَلَقَّبَ بالناصر على ماذكره — إن شاء اللهُ تعالى — فى أخبار الطالبيين .

وفيها جَهَّزَ المهدىُّ — صاحبُ أفريقيةَ — العساكر مع ابنه القائد إلى الديار المصرية ، فسار إلى برقةَ واستولى عليها ، وسار إلى مصر فَمَلَكَ الإسكندريةَ والفيوم ، وصار فى يده أكثرُ البلاد فسيَّر المقتدر لحربه مؤنسًا الخادم فى جيشٍ كثيفٍ ، / فحارب عساكرَ ١٦ — ب

(١) زيادة من الكامل ٦ : ١٤٤ يقتضيها السياق .

(٢) من أمهات البلاد كما يقول ياقوت وكانت قصبة بلاد الجبال أى مابين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين وكان العجم يطلقون على هذه المناطق خطأ اسم العراق

(٣) جبل من نواحى الرى وهو من فتوح سعيد بن العاصى أيام عثمان لما ولى الكوفة ، ذلك بين ٢٩ ، ٣٠ الهجرة .

(٤) بلد كبير مشهور من نواحى الجبال بين أذربيجان وبينها وهى قريبة من قزوين وأبهر .

(٥) أبهر مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل (معجم ياقوت)

(٦) زيادة ضرورية للسياق

المهدىّ وأجلاهم عن الديار المصرية ، فعادوا إلى المغرب منهزمين . وحجّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن عبد الملك أيضا

ودخلت سنة اثنتين وثلاثمائة : فى هذه السنة أمر المقتدر بالقبْض على أبي عبد الله الحسين بن عبد الله الجوهرىّ المعروف بابن الجصاص وأُخِذَ ما فى بيته من صنوف الأموال ؛ فأُخذ منه ما قيمتهُ أربعةُ آلافِ ألفِ دينار ، وكان هو يدّعى أنْ ما أُخذ منه عشرون ألف ألفِ دينارٍ ، وأكثر من ذلك[1] .

وفيها أنفذ الملقَّبُ بالمهدى – صاحب أفريقية – جيشا إلى الديار المصرية مع قائد من قواده يقال له حَبَاسة[2] فى البحر ، فغَلَبَ على الاسكندرية ثم سار منها إلى مصر . فأرسل المقتدر لحربه مؤنسا الخادم فى عسكر فالتقوا فى جُمادى الأُولى واقتتلوا قتالا شديدا ، فقتِلَ من الفريقين وجُرِح خَلْقٌ كثيرٌ . ثم كانت بينهم وقعةٌ ثانية ، ثم وقعة ثالثة ورابعة انهزم فيها المغاربةُ وقُتل منهم وأُسِر سبعةُ آلاف وذلك فى سَلْخ جُمادى الآخرة . وعاد من بقى إلى المهدى فقتل حباسة .

---

(١) قال أبو المظفر فى مرآة الزمان : وأكثر أموال ابن الجصاص المذكور من قطر الندى بنت خمارويه صاحب مصر ، فإنه لما حملها من مصر إلى زوجها المعتضد ، كان معها أموال وجواهر عظيمة ، فقال لها ابن الجصاص : الزمان لا يدوم ولا يؤمن على حال ، دعى عندى بعض هذه الجواهر تكن ذخيرة لك ! فأودعته ، ثم ماتت فأخذ الجميع .

(٢) فى الأصل « حباشة » وكذلك فى س ، ف وأما الطبرى وابن الأثير وياقوت فقالوا « حباسه » . وقال صاحب القاموس فى مادة « حبس » وكغراب وبهاء قائد من قواد العبيديين . وقال الهورينى شارحه : وقد ضبطه الحافظ بن حجر بفتح الحاء المهملة والشين المعجمة !

وفيها غزا بشْر الخادمُ والى طرسوس بلاد الروم ، ففتح فيها وغزا وسبىَ وأسر مائةً وخمسين بطريقًا ، وكان السَّبْىُ نحوًا من ألفَىْ رأس .

وفيها قلَّد أبو الهيجاء [عبد الله] بن حمدان الموصل [والجزيرة] (١)

/ قال ابن الجوزى(٢) : وفيها فى جمادى الأُولى خَتَن المقتدر خمسةَ أولاد له ، ونَثر عليهم خمسةَ آلاف دينار ومائة ألف درهم ورقا – قال – ويقال إنه بلغت النفقةُ فى هذا الختان ستمائة ألف دينار ، وختن قبل ذلك جماعة من الأيتام وفرَّقَتْ فيهم دراهم كثيرة . وحجَّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمى . ١٧ – ا

ودخلت سنةُ ثلاث وثلاثمائة :

ذكر خروج الحسين بن حمدان

عن طاعة المقتدر

فى هذه السنة خرج الحسين بن حمدان بالجزيرة عن الطاعة ، وسبب ذلك أن الوزير علىَّ بنَ عيسى طالبه بمال عليه من ديار ربيعة – وهو يتولَّاها – فدافعه فأمر بتسليم البلاد إلى العمال ، فامتنع ، فجهَّز الوزيرُ رائقا الكبير فى جيش لمحاربته ، وكتب إلى مؤنس الخادم – وهو بمصر – يأمره بالمسير إلى الجزيرة لقتال ابنِ حمدان بعد فراغه من أصحاب المهدىّ . فسار رائقٌ إلى الحسين بن حمدان

(١) مابين حاصرتين زيادة عن النجوم الزاهرة ٣ : ١٨٥

(٢) المنتظم ٦ : ١٢٧

فالتقيا واقتتلا قتالًا شديدًا ، فانهزم رائق ، وغنم الحسين سواده ، وسار رائق إلى مؤنس فأمره بالمقام بالمَوْصِل ، وجدَّ مؤنسٌ في السَّيْر في طلب الحسين . فلما قارب منه راسله الحسين واعتذر وتكرَّرت الرسائلُ بينهما ، فلم يستقر حال . فرحل مؤنسٌ نحو الحسين ، فسار إلى أرمينية بثقله وأولاده ، وتفرق عسكرُ الحسين عنه ، وصاروا إلى مؤنس .

ثم جهز مؤنس جيشا في أثره مُقدَّمُهم يلبق[1] فتبعوه إلى تلّ فافان ، فإذا هي خاويةٌ على عروشها قد قُتلَ أهلُها ، وأحرقها فجدُّوا في اتِّباعِه ، فأدركوه فقاتلوه ، فانهزم منْ بَقِي معه من أصحابه ، وأُسر هو وابنُه عبدالوهاب وجميعُ أهْلِه وأكْثَرُ منْ صحِبَه وقبض أملاكهم . وعاد مؤنسٌ إلى بغداد على طريق الموصل والحسينُ معه ، فأُرْكِبَ على جمَلٍ هو وابنه وعليهما اللُّبُود[2] الطِّوالُ وقمصانٌ من شعر أحمر . وحُبِس الحسين وابنُه عند زيدانَ القهرمانة ، وقبَضَ المقتدر على أبي الهيجاء بن حمدان وعلى جميع إخوته وحُبِسوا . وكان بعضُ أولاد الحسين بنِ حمدانَ قد هرب فجمع جمعًا ومضى نحو آمِدَ[3] ، فأوقع بهم مُسْتَحفظُها وقَتَلَ ابنَ الحسين وأنفذ رأسَه إلى بغداد .

---

(١) كذا في التنبيه والإشراف للمسعودي ، وفي صلة الطبري وفي تجارب الأمم لابن مسكويه ، وفي «ا» وفي ك صفحة ٨ وفي ف صفحة ١٠ — ا ، والكامل (بليق » ويقال له يلبق المؤنسي لأنه كان غلام مؤنس . !

(٢) أردية من شعر الصوف للمطر ، واللبادة (كرمانة) ما يلبس من اللبود .. (المحيط)

(٣) أعظم مدن ديار بكر وأشهرها ذكرا ، تحيط دجلة بأكثرها ، وفي وسطها عيون وآبار قريبة الغور ، قال ياقوت إنها حصينة مبنية بالحجارة السود على نشز .

وفيها خرج مليح الأرمنى إلى مرعش ، فعاث فى بلدها ، وأسر جماعة ممّن حولها . وحَجّ بالناس فى هذه السنة الفضل بن عبد الملك .

ودخلت سنة أربع وثلاثمائة :

ذكر وزارة ابن الفرات الثانية

وعزل على بن عيسى

/ فى هذه السنة فى ذى الحجة عُزِل على بن عيسى عن الوزارة ١٨ ـ ا
وأعيد إليها أبو الحسن على بن الفرات . وكان سبب ذلك أن أبا الحسن بن الفرات كان محبوسا ، وكان المقتدر بالله يُشَاوِرُه فى الأمور وهو فى محبسه ، ويرجع إلى قوله . وكان على بن عيسى يُمشِّى أمر الوزارة ولم يتَّبعْ أصحابَ ابن الفرات ولا أسبابَه ولا غيره وكان جميل المحضر قليل الشر ، فبلغه أن ابنَ الفراتِ قد تَحدَّثَ له جماعة من أصحاب الخليفة فى إعادته إلى الوزارة ، فاستعفى من الوزارة ، وسأل فى ذلك فأنكر المقتدرُ عليه ومنَعهُ من ذلك .

فلما كان فى آخر ذى القعدة جاءت أمُّ مُوسى القَهْرَمانةُ لتتفِّق معه على ما يحتاج إليه حرم الدار والحاشية التى للدار من الكسوات والنفقات فوصلت إليه وهو نائم فقال لها حاجبه : إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه فاجْلِسِى فى الدار حتى يستيقظ . فغضبتْ من هذا وعادتْ ، واستيقظ الوزيرُ فى الحال فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذرُ فلم تقبل منه ، ودخلت إلى المقتدر وخاطَبتْه فى عزله وحرَّضَته على ذلك فعزَلَهُ عن الوزارة وقبض عليه فى ثامن ذى الحجة[1] .

---

(١) فى الكامل ٦ : ١٥٤ « فى ثامن ذى القعدة » والخلاف ليس كبيرا على أية حال ، ويكفى أن نعلم أن هذا الوزير مكث فى منصبه أكثر من ثلاث سنوات برغم اضطراب=

وأعيد ابنُ الفرات إلى الوزارة وضَمِنَ على نَفْسِه أن يحْمل فى كلِّ يومٍ ألفَ دينارٍ إلى بَيْتِ المال وخمسمائة دينار ، فقبض على أصحاب الوزير علىِّ بنِ عيسى وعاد فقبض على الخاقانى الوزيرِ وأصحابِه ، واعترض العُمَّالُ وغيرُهم / وعادَ عليهم بأموالٍ عظيمة . ١٨ ب
وكان أبو علىٍّ بنِ مُقْلَةَ قد اسْتَخْفَى منذ قُبِض على ابن الفرات إلى الآن ، فلما عاد ابنُ الفرات إلى الوَزارة ظَهرَ فأشخصه ابنُ الفرات الوزير وقَرَّبَه وأحْسنَ إليه

وحكى عبد الرحمن أبو الفرج بن الجوزىِّ فى تاريخه المنتظم (١) أنَّه لما قُلِّدَ الوزارة خُلِعَ عليه سَبْعُ خلَع وحَمل إليه من دار السُّلْطان ثلاثمائة ألفِ درهمٍ ، وعشرون خادمًا ، وثلاثون دابَّةً لِرَحْله ، وخمسون دابةً لغلمانه ، وخمسون بغلا لنقله ، وبغلان للعمارية بقبابها وثلاثون جَمَلًا ، وعَشْرُ تُخوتِ ثيابٍ (٢) وأنه ركب معه مؤنسُ الخادم ، وغلمانُ المقتدرِ ، وصار إلى داره بسوق العَطَش ، ورُدَّتْ إليه ضِياعُه ، وأُقطع الدارَ التى بالمخرم فسكنها . وأنه سَقَى النَّاسَ فى ذلك اليوم وتلك الليلة أربعين ألفَ رطل ثلج ، وزاد ثَمَنُ الشَّمْع والكاغد (٣) وكانت هذه عادته ! قال : (٤)

= أحوال المقتدر ، وربما كانت الفرصة أمامه مهيأة ليبقى لولا ضجره من سوء أدب الحاشية ، ويقال إنه استعفى أكثر من مرة (راجع النجوم الزاهرة ٣ : ١٩١) .

(١) راجع الجزء السادس صفحة ١٣٨

(٢) تخوت : مفردها تخت أى خزانة الملابس ، ويقال تخت الملك أى عرشه كما يقال للمقعد والسرير تخت .

(٣) الكاغد : الورق (فارسية)

(٤) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٥٤

وكانت مُدَّةُ اعتقالِهِ إلى أن رَجعَ إلى الوزارة خمْسَ سنين وأربعة أيام . قال : وسُمِعَ بعضُ العَوَام يقول يَوْمَ خُلِعَ عَلَى ابنِ الفرات : واللهِ خذلونا ، أخذوا منَّا مصحفًا وأعْطَوْنا طنبورًا ! فبلغ ذلك إلى الخليفة ، فكان ذلك سببًا للإحسان إلى على بنِ عيسى وحُسْن النيَّة فيه إلى أن خَرَج من الحبس [والله تعالى أعلم]

ذكر أمر يوسف بن أبى الساج

/ كان يوسُفُ بنُ أبى السَّاجِ على أذربيجان وأرمينة قد ولِى الحربَ والصلاةَ والأحكامَ وغيرَها منذ أول وزارةِ ابنِ الفرات الأُولى ، فلما عُزل ابن الفراتِ وتولى الخاقانىُّ طمع فأخر حمْلَ بعضِ المالِ ، فاجتمع له من المالِ ما قَوِيتْ به نَفْسُه على الامتناعِ ، وبقى كذلك إلى هذه السنة . فلما بَلَغَهُ القبضُ على على الوزير علىِّ بن عيسى أظهر أنَّ الخليفةَ أنفذَ إليه عَهْدَ الرىّ وأن الوزيرَ علىَّ بنَ عيسى سَعَى له فى ذلك ، وجمع العساكر وسار إلى الرىّ وبها محمد بن صُعْلُوكٍ يتولَّى أمْرَها لصاحب خراسانَ نصر بن أحمد السامانى . وكان ابنُ صعلوكٍ قد تغلَّب على الرىّ وما يليها أيام وزارةِ على بن عيسى ، ثم أرسل إلى ديوان الخلافةِ يقاطعُ عليها عمال يحمله ، (١) فلما بلغه مسيرُ يوسفَ نَحوَه سار إلى خراسان ، فدخل يوسُفُ الرَّىَّ واستولى عليها وعلى قَزوين وزنجان وأبهر ، فلما اتَّصل فعْلُه بالمقتدر بالله أنكره

١٩ ـ ا

(١) كذا فى ف صفحة ١١ ـ ا

وكتب يوسُف إلى الوزير ابن الفراتِ يعرفه أنَّ عليَّ بنَ عيسى أنفذ إليه بالعهدِ واللواء وأنه افتتح هذه الأماكن وطَرَد عنها المتغلِّبين عليها واعتَدَّ بذلك، وذكر كثرةً ما أُخرِجَ عليه من الأموال، فعظم ذلك على المقتدر وأمر ابنَ الفرات أن يسأل عليَّ بنَ عيسى عن الذى ذكره يوسُف فأحضره وسأله فأنكر ذلك فصدَّقه. وكتبَ ابنُ الفرات إلى ابن أبي الساج / ينكر عليه تعرُّضَه إلى هذه البلاد وكذبَه على الوزيرِ وجَهَّزَ العساكر لمحاربته. فسارت فى سنة خمسٍ وثلاثمائةٍ وعليها خاقان المفلحى ومعه جماعة من القواد (١)، فساروا ولقوا يوسفَ واقتتلوا، فهزمهم يوسُف وأسَرَ منهم جماعةً وأدخلهم الرىَّ مُشَهَّرين على الجمال. ١٩ ـ ب

فسَيَّر الخليفةَ مؤنسًا الخادمَ فى جيشٍ كثيفٍ لمحاربته، فسار وانضم إليه مَن كان مع خاقان، فصرف خاقانَ عن أعمال الجبل ووليها نحريرُ الصغيرُ وسار مؤنس وأتاه أحمدبنُ علي ـ وهو أخو محمدبن صعلوك ـ مستأمِنًا فأكرمه، ووصلت كتب ابن أبي الساج يسأل الرِّضَى عنه وأن يقاطَع على أعمال الرى وما يليها على سبعمائة ألف دينارٍ لبيت المال سوى ما تحتاج إليه الجند وغيرهم، فلم يجبه المقتدر إلى ذلك وقال: لو بذل ملكَ الأرض لما أقررته على الرَّىِّ يومًا واحدًا لإقدامه على التَّزْويرِ! فلما عَرَف ابن أبي السَّاج ذلك سَار عن الرَّىِّ بعد أن أخربها وَجَبَى خراجَها فى

(١) يقول ابن الأثير فى الكامل (٦ : ١٥٥) منهم أحمد بن مسرور البلخى وسيما الجزرى ونحرير الصغير.

عشرة أيام . وقلّد المقتدرُ الرَّيَّ وقزوين وأبهر وصيفا البُكْتُمريّ (١) ، وطلب يوسف بنُ أبي الساج أن يُقَاطَع على ما كان بيده من الولاية فأشار ابنُ الفرات بإجابته إلى ذلك ، فعارضه نصر الحاجبُ وابن الحواريّ وقالا : لا يُجاب إلى ذلك إلا بعد أن يطأ البساط . ونُسبَ الوزيرُ ابنُ الفراتِ إلى مُواطَأتِهِ والميلِ معه . فامتنع المقتدر بالله من إجابته إلا أن يحضر إلى الخِدْمَةِ بنفسه . ٢٠ – ا / فلما رأى يوسُف ذلك حاربَ مؤنِسًا فانهزم مؤنسٌ إلى زنجان ، وقُتل من قواده جماعة (٢) وأُسِر جماعةٌ منهم هلال بنُ بدرٍ ، فأدخلهم أردبيل مشهَّرين على الجمال .

وأقام مؤنسٌ بزنجانَ يجمع من العساكر ويستمد الخليفة ، وكاتبه يوسُف في الصُّلحِ وراسله فيه ؛ فكتب مؤنس إلى الخليفة فلم يُجبْه إليه . فلما كان في المحرم سنة تسع (٣) وثلاثمائة اجتمع لمؤنسٍ خلق كثيرٌ فسار نحو يوسَف ، فتواقعا على باب أردبيل ، فانهزم عسكرُ يوسَف ، وأُسِرَ هو وجماعةٌ من أصحابه فعاد بهم مؤنسٌ إلى بغدادَ فدخلها في المحرم .

وأُدْخِل يوسف مُشَهَّرًا على جَمَلٍ وعليه برنسٌ بأذنابِ الثعالب ، فأُدخل على المقتدرِ ، ثم حُبِسَ عند زيدان القهرمانة .

---

(١) هكذا ضبط عند ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ٣ : ١٣٨ وفي الطبرى « البكتمرى » بفتح الباء وإسكان الكاف وكسر التاء .

(٢) في الكامل ٦ : ١٥٥ أن الذى قتل هو سيما

(٣) في الكامل ٦ : ١٥٥ « سنة سبع »

وفى سنة أربع وثلاثمائة توفّى الناصرُ العلَوِىُّ صاحب طبرستان .

وفيها خالف أبويزيدَ خالد بنَ محمدٍ على المقتدرِ بكرمان ـ وكان يتولى الخراج ـ وسار منها إلى شيراز يريد التغلب على فارس ، فحاربه بَدْرٌ الحمامى وقتله وحمل رأسه إلى بغداد .

وفيها سار مؤنسٌ المظفَّر إلى بلادِ الروم للغزاة ، فسار إلى ملَطية وغزَا منها ، وكتب إلى أبى القاسم على بن أحمد بن بسطام . أنْ يغزُوَ من طَرسوس فى أهلها ، ففعل وفتح مؤنس حصونا كثيرةً من الروم وأثر آثارًا جميلة وعاد إلى بغداد فأكرمه الخليفةُ وخلَع عليه . ٢٠ ـ ب

قال أبو الفرج [عبد الرحمن بن الجوزى] (١) وفيها وَرَدَ الخبرُ من خراسان أنه وجُدَ بالقندهار فى أبراج سورها أزَجٌ (٢) متصل بها ، فيه ألف رأس فى سلاسل ، من هذه الرؤوس تسعة وعشرون رأسا (٣) فى أذن كلِّ رأسٍ رقعةٌ مشدودةٌ بخيطِ إبريسم (٤) مكتوب فيها اسم الرجل . قال وكان من الأسماء شريح بن حيان وخباب بن الزبير والخليل بن موسى وطلق ابن معاد ، وحاتم بن حسنة ، وهانئ بن عروة ، وفى الرقاع تاريخٌ من سنة [سبعين من] (٥) الهجرة ، ووُجدوا على حالِهم لم يتغيَّرْ شعرُهم إلا أن جلودَهم قد جفَّت .

(١) الإضافة من ك صفحة ١٠ وهى ليست فى ف ١٢ ـ ا والخبر فى المنتظم ٦ : ١٣٩
(٢) أزج : ضرب من الأبنية ، الجمع أزج وآزاج (المحيط)
(٣) يعنى رأس شهيد .
(٤) الإبريسم : بفتح السين أو ضمها الحرير (المحيط)
(٥) فى الأصل وفى ك وف « من سنة الهجرة » والزيادة من المنتظم .

ودخلت سنة خمس وثلاثمائة : قال أبو الفرج[١] : فى هذه السنة وَرَدَ على السلطان هدايا جليلةٌ من أحمد بنِ هلال صاحبِ عُمان ، وفيها أنواعٌ من الطِّيب وطرائفُ من طرائف البحرِ وطائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفْصَحَ من الببغاء وظباء سود

قال : ابنُ الأثير : [٢] وفى هذه السنة من المحرم وصلَ رسولان من ملك الرّوم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأجاب المقتدر إلى ما طَلَبَ ملكُ الروم من الفداء ، وسير مؤنسًا الخادم ليحضر الفداء ، وجعله أميرا على كل بلدٍ يدخله ، يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه ، وأرسل معه / مائةَ ألفٍ وعشرين ألفِ دينار لفداء أسارى المسلمين . ٢١ ـ ١

قال [أبو الفرج] بنُ الجوزىّ فى خبر الرسل[٣] إنهما أُدْخِلا وقد عُبِّىَ العسكرُ بالأسلحة التّامة وكانوا مائة ألفٍ وستين ألفا ، وكانوا من أعلى باب الشماسية إلى الدار ، وبعدهم الغلمان الحُجرية والخدم الخوص بالبزة الظاهرة [٤] والمناطق المحلاة ، وكانوا سبعةَ آلاف خادم منهم أربعةُ آلافٍ بيض وثلاثةُ آلاف سود ، وكان الحُجّابُ سبعمائةَ حاجبٍ ، وفى دجلة الطيّاراتُ والزّبازِبُ والسّميريّاتُ بأفضل زينةٍ . فسار الرسولان فَمَرّا على دار نصر القشورى الحاجب ، فرأيا منظرًا عجيبا فَظنّاه الخليفةَ وهاباه حتى

(١) راجع المنتظم ٦ : ١٤٥
(٢) فى الكامل ٦ : ١٥٨
(٣) راجع المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٦ : ١٤٣
(٤) فى المنتظم « بالسبة الظاهرة »

قيل إنه الحاجب ، ثم حُملا إلى دارِ الوزير فرأيا أكثر من ذلك ولم يشكا أنه الخليفة فقيل إنه الوزير .

قال : وزيّنتْ دار الخلافةِ . وطيف بهما فيها فشاهدا ما هالهما ، وكانت الستور ثمانيةً وثلاثين ألفَ سترٍ من الديباجِ ، المذهبة منها اثنا عشر ألفا وخمسمائة ، وكانت البُسُط والنّخاخ (١) اثنين وعشرين ألفًا وكان فى الدار من الوحش قطعان تأنس بالناس وتأكل من أيديهم ، وكان هناك مائة سَبُع كلٌّ سَبع بيد سبّاع. ثم أخرجا إلى دار الشجرة ، وكانت شجرة فى وسط بركةٍ فيها ماءٌ صافٍ ، والشجرةُ / ثمانيةَ عشر غصنًا لكلِّ غصن منها شاخات كثيرةٌ عليهـا الطيورُ والعصافيرُ من كلِّ نوع مذهبة ومفضضة . وأكثر قضبانِ الشجرة فضةٌ وبعضها مذهبةٌ وهى تتمايل ، وبها ورق مختلفُ الألوان ، وكل من هذه الطيور تصفر . ثم أدخلا إلى الفردوس ، وكان فيه من الفراش والآلات مالا يحصى ، وفى دهاليزه عشرة آلاف جوْشَن (٢) مذهبة معلقة

٢١ ب

قال : ويطول شَرْحُ ما شاهدا من العجائب إلى أن وصلا إلى المقتدرِ وهو جالس على سرير أبنوس قد فُرِشَ بالدِّيبقى المطرَّزِ وعن يمنة السريرِ تسعةُ عقودٍ معلقة وعن يسرته تسعةٌ أخرى من أفخرِ الجواهرِ يضىءُ ضوؤها على ضوء النهار

(١) فى ا ، ك لفظ غير منقوط ، وضحته فى صفحة ١٢ – ب ، والنخاخ : جمع نخ وهو البساط . الذى يكون طوله أكثر من عرضه ، وهو لفظ فارسى معرب (لسان العرب)

(٢) جوشن ، ودع ، وقيل أن الجوشن من السلاح زرد يوضع على الصدر .

قال : فلما وصلَ الرسولان إلى الخليفة ، وقفا على نَحْوِ مائةِ ذراعٍ وابنُ الفراتِ قائم بين يَدَيْهِ والتَّرْجُمان قائمٌ يخاطب الخليفةَ . ثم أُخرجا وَطِيفَ بهما في الدار حتى أُخرجا إلى دجلةَ وقد أُقيمت على الشطوط الفيلة والسباع والفهود !

قال : ثم خُلِعَ عليهما وحُمِلَ إليهما خمسون بدرة ورقًا في كلِّ بدرة خمسة آلاف درهم .

قال : وفيها ورد كتابٌ من رَوْ أنَّ نَفَراً عثروا على نَقْبٍ في سور المدينة فكشفوا عنه فوصلوا إلى أزج فأصابوا فيه ألفَ رأسٍ ، وفي أذنِ كلِّ رأسٍ رقعة قد أُثبِتَ فيها اسمُ صاحبها(١)

/ وفيها أُطْلِقَ أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته وأهلُ بيته من الحبْس ، وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك . ٢٢ ـ ا

ودخلت سنة ست وثلاثمائة :

ذكر عزل ابن الفرات عن الوزارة

ووزارة حامد بن العباس

في هذه السنة في جُمادى الآخرة قُبِضَ على الوزير أبي الحسَن ابن الفرات ، وكانت مدة وزارته هذه ـ وهي الثانية ـ سنةً وخمسةَ أشهرٍ وسبعةَ عشرَ يومًا وكان سبب ذلك أنّه أخَّر إطلاقَ أرزاقِ الفرسان ، واحْتَجَّ عليهم بِضيقِ الأموال وأنها خَرَجَتْ في محاربة ابن أبي الساج وأنَّ الارتفاع نقص

(١) ما أشبه هذه الواقعة بما ذكر في سنة أربع وثلاثمائة على ما مر بنا .

بِأَخْذ يوسف أموالَ الرىّ ، فَشَغَب الجُنْدُ شَغَبًا عظيما وخرجوا إلى المصلّى فالتمس الوزيرُ من المقتدر إطلاقَ مائتى ألف دينارٍ من بيتِ مالِ الخاصّة ليضيف إليها مائتى ألف دينارٍ يُحَصِّلُها ويصرفُ الجميعَ فى أرزاق الجند ، فاشتد ذلك على المقتدر وأرسل إليه : إنك ضمنت أن تُرْضِىَ جميعَ الأجناد وتقوم بجميع النفقات وتحمل بعد ذلك ما ضمنت حمْلَه يومًا بيوم وأراك الآن تطلب من بيت مال الخاصة ! فاحتج بقلة / الارتفاع وما أخـذه ! ابنُ أبى الدّماج منه وما خَرجَ على محاربته ، فلم يَسْمعِ المقتدرُ حُجَّتَه وتنكّر له . وقيل كان سبب قَبْضِهِ أن المقتدر قيل له إنّ ابنَ الفرات يريد إرسال الحسين بن حمدان لمحاربة ابن أبى الدماج فإذا صار عنده اتفقا عليك . ثم إنّ ابنَ الفراتِ قال للمقتدر أن يرسل ابنَ حمدان لحربه فقُتِلَ ابنُ حمدان فى جُمادى الأولى ، وقبض ابن الفرات فى جُمادَى الآخرة .

٢٢ ـ ب

قال : (١) وكان بعض العمال قد ذَكَر لابن الفرات ما يتحصّلُ لحامِدِ بن العبّاس من أعمال واسط زيادةً على ضمانه فاستكثره ، وكاتبه فى ذلك ، فخاف حامدٌ أن يُؤْخَذَ ويطالبَ بالمال ، فكتب إلى نصر الحاجب وإلى والدة المقتدر وضمن لهما مالًا ليَتَحدّثا له فى الوزارةِ . فذُكِرَ المقتدر حالُه وسعةُ نَفْسِه وكثرةُ أتباعه وأنّ له

(١) فى الكامل ٦ : ١٦٠ « وتسعة عشر يوما »
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٦٠

أربعمائةَ مملوك يحملون السِّلاح ، ووافق ذلك نَفرَة المقتدر عن ابن الفرات فأمره بالحضور من واسط ، فحضر وقبض على ابن الفرات وولده المحسن وأصحابهما وأتباعهما .

ولما وصل حامدٌ إلى بغداد أقام ثلاثةَ أيامٍ فى دار الخلافةِ ، فكان يتحدَّث مع النَّاس ويضاحكهم ويقوم لهم ، فبان للخَدمِ وحاشيةِ الدَّارِ قلةُ معرفته بالوزارة ، وقال له حاجِبُه / يامولانا .. الوزيرُ يحتاجُ إلى لبسة وجلسة وعبسة ! فقال له : نعنى أنه يلبس ويقوم ويقعد ولا يقوم لأحدٍ ولا يضحك فى وجه أحـد ؟ قال نعم ! قال حامد : إنَّ الله تعالى أعطانى وجهًا طَلْقًا وخلقا حسنًا وما كنت بالذى أغيِّر وجهى وأقبِّح خلقى لأجل الوزارة[1] ! فأمر المقتدر بإطلاق علىٍّ بن عيسى من محبسه ، وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد[2] فكان يراجعه فى الأُمور ويصدر عن رأيه . ٢٣ ـ ا

ثم إنه استبد بالأُمور دون حامد ، ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة ومعناها لعلى حتى قيل فيهما :

أَعْجَبُ مـن كلِّ ما تراه أنَّ وزيرين فى بـلاد
هذا سواد بلا وزير وذا وزيـرٌ بـلا سـواد[3]

---

(١) الواقع أن حامد بن العباس – وإن يكن مثريا فاضلا – كان يجهل آداب البلاط وشئون الدولة ، وقيل فى تعليل ذلك إنه كان من أصل وضيع سقاء ويبيع التمر (معجم الأدباء ٥ : ٣٢٥)

(٢) فى تحفة الأمراء لهلال الصابى ٣٤٧ ، صلة الطبرى ٧٣ مايدل على أن على بن عيسى قبل ذلك بعد تردد

(٣) فى الكامل ٦ : ١٦٠ بيت واحد على هذا النحو :

هذا وزير بلا سـواد وذا سواد بـلا وزير

قال أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى [١] : وفى هذه السنة أمرت السيدة أم المقتدر . قهرمانةً لها تعرف بثَمَل أن تجلس بالتُّرْبةِ التى بنتها بالرُّصافة للمظالم وتنظر فى رقاع الناس فى كل جمعة [٢] ، فجلست وأحضرت القاضىَ أبا الحسين الإسنانى [٣] وخرجت التوقيعات على السداد — قال — وقال أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الحافظ : فَعَدَتْ ثَمَلُ القهرمانةُ فى أيام المقتدر بالله للمظالم ، وحضَر مجلسها القضاةُ والفقهاء .

/ وفيها غزا يُسْرُ الأفشينى بلادَ الرُّوم فافتتح عِدَّةَ حصونٍ وغَنِمَ وسَلِمَ ، وغزا ثمال [٤] فى بحر الروم فغنِم وسَبىَ وعاد . وفيها أمر المقتدر ببناء بيمارستان فبُنىَ وأجْرى عليه النفقات الكثيرة ، وكان يُسمَّى المقتدرىّ ، وحج بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمى [٥] . ٢٣ — ب

ودخلت سنة سبع وثلاثمائة :

فى هذه السنة وصل القائم بن المهدى من أفريقية من قِبل أبيه بجيشٍ كثيفٍ فكان وصولُه إلى الإسكندريةِ فى شهر ربيع

(١) فى المنتظم ٦ : ١٤٨

(٢) كذا فى الأصل نقلا عن المنتظم ، وفى صلة الطبرى ٧١ « يوماً فى كل جمعة »

(٣) فى المنتظم ٦ : ١٤٨ « وأحضرت القاضى أبا الحسن بن الإشنانى » وفى الهامش قال المحقق « فى ترجمته من تاريخ بغداد كناه أبا الحسين » وهو على أية حال من الفقهاء حفاظ الحديث ، ولى القضاء للمقتدر ثلاثة أيام ثم عزل وكان قبل ذلك محتسبا ببغداد !

(٤) كان متولى الغزو فى البحر ، وقد حطم مراكب المهدى العلوى صاحب أفريقيا

(٥) فى النجوم الزاهرة ٣ : ١٩٤ « وقيل أحمد بن العباس أخو أم موسى القهرمانه »

الآخر (١) ، فخرج عنها عاملُ المقتدر (٢) ودخل القائم ، ثم رحل إلى مصر فدخل الجيزةَ وملك الأشمونين وأكثر الصعيد . وكتب إلى أهـلِ مكّةَ يدعوهم إلى الدُّخول في طاعته فلم يُجيبوه ، فبعث المقتدر بالله مؤنسًا الخادم في شعبان وَجَدَّ في السير فوصل إلى مصر وكان بينه وبين القائم عدةُ وقعاتٍ .

ووصل من أفريقية ثمانون مركبا نجدةً للقائم ، فأمر المقتدر بالله أن تسير مراكبُ طرسوسَ إليهم ، فسارت خمسةٌ وعشرون مركبًا وفيها النَّفْط والعُدَدُ ومقدَّمُها أبو اليمن ، فالتقت المراكب بالمراكب واقتتلوا على رشيد ، فظفر أصحاب مراكب المقتدر بالله وأحرقوا كثيرًا من مراكب أفريقية وأسروا منهم كثير . وكان ممن أسر سليمان الخادم ويعقوب الكتامى وهما مقدما المراكب / فمات سليمان في الحبس بمصر ، وحمل يعقوب إلى بغداد ثم هرب منها وعاد إلى أفريقية . ٢٤ – ١

وفيها ضَمِنَ حامدُ بنُ العباسِ الوزير أعمالَ الخراج والضِّياع الخاصَّةِ والعامَّةِ والمستحدثة والفراتية بسواد بغدادَ والكوفةِ والبصرةِ وواسطٍ والأهواز وأصبهان . وسبب ذلك أنه رأى أنه قد تَعَطَّلَ عن الأمر والنَّهى وتفرَّدَ بهِ عليُّ بنُ عيسى ، فشرع في هذا ليصير له حديثٌ وأمْرٌ ونَهْيٌ ، ثم استأذن المقتدرَ في الانحدار إلى واسط لِيُدَبِّرَ أمْرَ ضَمانِهِ الأوَّلَ فأذِنَ له فانْحَدَر إليها ، واسم

(١) في النجوم الزاهرة ٣ : ١٩٦ « وأما معسكر المغاربة فان مقدمة القائم بن المهدى دخلت الإسكندرية في صفر هذه السنة »

(٢) هو تكين بن عبد الله الحربي .

الوزارةِ عليه ، وعلىٌّ يدبر الأمور ! وأظْهَرَ حَامِدٌ زِيادةً عظيمةً ظاهرةً فى الأموالِ ، فَسُرَّ المقتدِرُ بذلك وبسَطَ يدَ حامِدٍ فى الأعمالِ حتى خافَه علىُّ بنُ عيسى .

ثم تَحَرَّكَ السِّعْرُ (١) ببغداد فثارت العامَّةُ والخاصَّةُ ، لذلك ، واستغاثُوا وكسروا المنابِرَ ، وكان حامد يخزن الغلال ، وكذلك غَيْرُه من القواد ، فأمر المقتدرُ بإحْضَار حامدٍ فحضر من الأهواز ، فعاد النَّاسُ إلى شَغَبِهِمْ . فأنْفَذَ حامِدٌ جماعةً لمنْعِهِم ، فقاتلهم العامَّةُ ، وأحرقوا الجِسْرَين وأخرجو المحبسين من السجن ونهبو دارَ صاحبِ الشُّرْطَة ، فأنفذ المقتدرُ جَيْشًا مع غريبِ الخال فقاتل العامَّةَ ، فانهزموا بين يَدَيْه ودخلوا الجامع بباب الطَّاق ، فأُخِذوا وحُبِسوا ، ثم ضُرِب بعضُهم وقُطِعتْ أيْدى من عُرِفَ بالفَسَادِ .

٢٤ ـ ب ثم أمر المقتدرُ مِن الغَدِ فَنودِى / فى النَّاسِ بالأمان فسكنت الفِتنة ، ثم ركِبَ حامدٌ إلى دارِ المقتدر فى الطيّار(٣) فرجمه العامَّةُ ، فأمر الخليفةُ بفتح مخازِنِ الحِنْطَةِ والشَّعيرِ التى لحامدٍ ولأُم المقتدرِ وغيرهما ، وبيع ما فيها فرَخُصتِ الأسعارُ وسكنتِ النَّاسُ ، فقال على بن عيسى للمقتدر : إنَّ سَبَب غلاء الأسْعارِ ضمانُ حامدٍ ، فإنه مَنَع بيْع الغِلال فى البيادِرِ وخَزَنَها ! فأمر المقتدِرُ بفَسْخ الضَّمان عن حامـدٍ وصـرف عُمّاله عن السواد ، وأمر علىَّ بنَ عيسى أن يتولى ذلك ، فسكن النَّاسُ واطمأنوا .

---

(١) تحرك السعر : ارتفع

(٢) باب الطاق : محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقى وتعرف بطاق أسماء

(٣) الطيار : ضرب من السفن الخفيفة السريعة

وفيها قُلِّدَ ابراهيمُ بنُ حمْدانَ دِيار ربيعة ، وحجَّ بالناس فى هذه السنة أحمد بن العباس أخو أمّ موسى القهرمانة .

ودخلت سنة ثمانٍ وثلاثمائة : فى هـذه السنة خلع المقتدر بالله على أبى الهيجاء عبدِ الله بن حمدان ، وقلّده طريق خراسانَ والدينَوَر ، وخلع على إخوته أبى العلاء وأبى السرايا

وفيها توفى ابراهيمُ بن حمدان فى المحرم ، وحجَّ بالناس فى هذه السنة أحمد بن العباس .

ودخلت سنة تسع وثلاثمائة :

ذكر قتل الحسين بن منصور الحلاج

وشىء من أخباره

وفى هذه السنة قُتل الحسينُ بنُ منصور الحلاّج الصوفى ، وأُحْرِق بالنار[1] / وكان ابتداء حاله أنه كان يظهر الزُّهدَ والتصوّف ، ويظهر الكرامات ويُخرج للناس فاكهةَ الصيف فى الشتاء وفاكهةَ الشتاء فى الصيف . ويمـدُّ يده فى الهـواء فيعيدها مملوءةً دراهم وعليها مكتوب « قل هو الله أحد » ويسميها دراهم القدرة . ويخبر الناس بما أكلوه وما صنعوه فى بيوتهم ، ويتكلم بما فى ضمائرهم . فافتتن به خَلْقٌ كثيرٌ واعتقدوا فيه الحلول ، واختلفت فيه اعتقاداتهم ؛ فمِن قائلٍ إنه حَلَّ فيه جزء إلهى ويدّعى فيه الربوبية ، ومِنْ قائل إنه وَلِىُّ اللهِ تعالى وإنَّ الذى

٢٥ ـ ا

(١) أفاض ابن كثير فى بسط سيرة الحلاج وأقواله وأساليب عيشه وضروب حيله (راجع البداية والنهاية ١١ : ١٣٢ وما بعدها)

يَظْهَر منه من جُمْلَةِ كراماتِ الصلحاء ، ومن قائل إنه مُشَعْبِذٌ ومُمَخْرِقٌ وساحِر كذابٌ ومتكَهِّنٌ وإن الجنَّ تطيعه فتأتيه بالفاكهة فى غير أوانها .

وكان قَدِم من خراسان إلى العراق وسار إلى مكة وأقام بها سنة فى الحجر لا يستظل تحت سقف صيفا ولا شتاء ، وكان يصوم الدَّهْر فإذا جاء وقت العشاء أحضر له القوْم كوزا من ماء وقرَصًا فيشرب ويعض من القرص ثلاث عضات من جوانبها فيأكلها ويترك الباقى فيأخذونه ، ولا يأكل شيئا آخر إلى وقت الفِطْر من الليلة الآتية . وكان شيخ الصوفيةِ يومئذ بمكةَ عبدَ الله المغربى فأخذ أصحابه وجاء لزيارةِ الحلاّج فلم يجِدْه فى الحجر ، وقيل قد صَعد إلى جبل أبى قُبَيْس ، فصعد إليه فوجده على صخرةٍ حافيا / مكشوف الرأس ، والعرقُ يجرى منه إلى الأرض ، فأخذ أصحابَه وعاد ولم يُكَلِّمْه وقال : هذا يتصبَّرُ على قضاء الله وسوف يبتليه الله بما يَعْجَزُ عنه صبرُه وقدرته ! وعاد الحسين إلى بغداد . ٢٥ ب

وأما سببُ قَتْلِه فإنه نقِل عنه عند عَوْدِه إلى بغداد إلى الوزيرِ حامد بنِ العباس أنه أحيا جماعةً وأنه يُحْيِى الموْتَى وأن الجنَّ يخدمونه فيحضرون عنده بما يشتهى . وإنه قدَّموه على جماعةٍ من حاشية الخليفة ، وإنَّ نَصْرا الحاجب قد مال إليه هو وغيرُه . فالتمس حامدٌ من المقتدر أن يُسلِّم إليه الحلاجَ وأصحابه فدفع عنه نصرٌ الحاجبُ وألح الوزير فى طلبه ، فأمر المقتدر بتسليمه إليه ، فأُخِذَ وأُخِذَ معه

إنسان يعرف بالشميرى وغيْرُه – قيل إنهم كانوا يعتقدون أنه إله – فَقَرَّرهم حامِدٌ فاعترفوا أنهم قد صَحَّ عندهم أنه إله وأنه يحيى الموتى ، وقابلوا الحلاَّجَ على ذلك . فأنكره وقال : أعوذ بالله أن أدَّعى الربوبيةَ والنُّبوَّةَ وإنمـا أنا رجل أعبد الله عزَّ وجل ! فأحضر الوزير القاضىَ أبا عمر والقاضىَ أبا جعفرِ بن البهلول وجماعةً من وجوه الفقهاء والشهودِ واستفتاهم فقالوا : لا نفتَى فى أمره بشىء إلا أن يصحَّ عندنا ما يوجب قتله ، ولا يجوز قبول قَوْل مَنْ يدَّعى عليه ما ادّعاه إلا ببيِّنَةٍ أو إقرار !

وكان حامدٌ يُخرج الحلاَّجَ إلى مجلِسه ويستنطقه فلا يَظْهرُ منه / ما تكرهه الشريعة ، وطال الأمر وحامدٌ مُجِدٌ له فى أمْره ، وجَرى له معه قصَصٌ يطول شَرْحُها . وفى آخرِها أن الوزيرَ رأى له كتابا حكى فيه أنَّ الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنْه أفْرد من داره بيتا لا يلحقه شىء من النجاسات ولا يدخله أحدٌ ، فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله وفعل ما يفعله الحاج بمكة ، ثم يجمع ثلاثين يتيما ويعمل أجْوَدَ طعامٍ يمكنه ويطعمهم فى ذلك البيت ويتَوَلَّى خِدْمَتَهم بنفسِـه ، فإذا فرغوا كساهم وأعطى كلَّ واحد منهم سبعةَ دراهم ، فإذا فَعَلَ ذلك كان كمن حَجَ

٢٦ – ا

فلما قُرِىءَ هذا على الوزير قال القاضى أبو عمر للحلاج : من أين لك هذا ؟ قال من كتاب الإخلاص للحسن البصرى . قال له القاضى : كذبت ياحلَالَ الدم قد سمعناه بمكةَ وليس فيه هذا . فلما قال له « ياحلال الدم » وسمعها الوزيرُ قال : له : اكتب هذا رقعةً ،

فدافعه أبو عمر فألزمه حامدٌ فكتب بإباحة دمِهِ وكتب بعْده مَنْ حضر المجلس . قال : (١) ولما سَمِعَ الحلّاجُ ذلك قال : ما يحلُّ لكم دمى وإعتقادى الإسلامُ ومذهبى السنةُ ولى فيها كتب موجودة فالله الله فى دمى !

وتفرق الناس ، وكتب الوزير إلى الخليفة يستأذنه فى قتله وأرسل إليه الفتاوى فأذِن فى قتله فَسَلَّمه الوزير إلى صاحب الشُّرطة فضربه ألْفَ سَوْط. فما تأوّه ثم قَطَع يَدَه ثم رِجْلَه ثم يَده ثم رجله ثم قتل / وأُحْرِق فى النار ، فلما صار رمادًا أُلْقِىَ فى دجلة ونُصِبَ رأسُه ببغدادَ وأرسل إلى خراسانَ لأنه كان له بها أصحاب ، وأقبل بعض أصحابهِ يقولون : إنه لم يُقْتَلْ وإنما أُلْقِى شَبهُهُ على دابَّةٍ وإنه يعود بعـد أربعين يوما ! وبعضهم يقول : لقيته عـلى حمارٍ بطريق النهروان وإنه قال لهم « لا تكونوا مِثْـلَ هؤلاء النَّفَر الذين يظنون أنى ضُرِبت وقُتِلْت » ! ٢٦ ـ ب

وفيها استعمل المقتدر على حرب الموصل ومعونَتِها محمد بنَ نصرٍ الحاجب ، فسار إليها وأوقع بمن خالفه من الأكراد فقتل وأسر ، وأرسل إلى بغدادَ نَيِّفًا وثمانين أسيراً فشُهروا ، وفيها قُلِّد داودُ بنُ حمدان ديار ربيعة .

ودخلت سنة عشر وثلاثمائة : فى هـذه السنة أُطْلِق يوسف بن أبى السَّاج من الحبس بشفاعةِ مؤنسٍ الخادم ، ودخل إلى المقتدر وخَلَعَ عليه ، ثم عَقَد له عـلى الرَّىِّ وقزوين وزنجان وأبهر . وقَرَّر

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٦٨

عليه خمسمائة ألف دينار محمولة إلى بيت المال فى كلِّ سنة سوى أرزاقِ العساكر الذين بهذه البلادِ .

وفيها وصلت هدية أبي زُنبورٍ الحسين الماذَرَائى [١] من مصر ، وفيها بغلةٌ معها فلو [٢] يتبعها ويرضع منها وغلام طويل اللسان يلحق لسانه أرنبةَ أنفِهِ !

وفيها قبض المقتدر على أمِّ موسى القهرمانة وكان سبب ذلك أنها / زَوَّجَتْ ابنة أخيها من أبي العباس أحمد بن محمد بن إسحاق بن المتوكل على الله وكان يُرَشَّحُ للخلافة ، فلما صاهرته أكثرت من النِّثارِ والدعواتِ وخَسَرتْ أموالاً جليلةً ، : فتكلم أعداؤُها وسَعَوْا بها إلى المقتدر وقالوا : إنها قد سعت لأبي العباس فى الخلافة ، وحَلَفَت له القُوَّادُ ، وكَثُر القولُ فيها ، فقبض عليها وأخذ منها أموالا جليلة وجواهر نفيسة [٣] ، . قال ابنُ الجوزى : صحَّ منها لبيت المال ألفُ ألفِ دينارٍ [٤]

٢٧ – ا

ودخلت سنةُ إحدى عشرة وثلاثمائة :

---

(١) فى : وفى ك صفحة ١٤ وفى ف صفحة ١٧ – ا : الماذرانى وما ها هنا من النجوم الزاهرة ١ : ١٠١ ، ١٤٨ وأبو زنبور الحسين هو ابن أحمد بن رستم أبو على الكاتب – على مايقول عريب والكندى وابن الأثير – وفى بعض الأثبات « الحسن بن أحمد » وفى بعضها « أبو منصور » وكلاهما تحريف ، وكان عامل الخراج على مصر يسميه ابن كثير الحسين ابن الماردانى (البداية والنهاية ١١ : ١٤٥)

(٢) فلو : جحش (المحيط)

(٣) يروى أنها سلمت إلى ثمل القهرمانة ومعها أخوها وأختها فبسطت عليهم ثمل مر العذاب فقد كانت هذه مشهورة بالشر والقسوة

(٤) المنتظم ٦ : ١٦٦

ذكر عزل حامد بن العباس

وولاية ابن الفرات

فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر عَزَل المقتدرُ حامدَ بنَ العباسِ عن الوزارة ، وعلىَّ بن عيسى عن الدواوين ، وخَلَع على أبى الحسنِ بنِ الفرات وأُعيد إلى الوزارة . وكان سبب ذلك أن المقتدر ضجر من استغاثة الأولاد والحُرم والخدم والحاشية من تأخير أرزاقهم ؛ فإن علىَّ بنَ عيسى كان يؤخِّرُها ، فإذا اجتمع لهم عِدَّةُ شهورٍ أعطاهم البعضَ ، وحطَّ من أرزاق العمال فى كل سنةٍ شهرين وكذلك من أرزاقِ مَنْ له رِزْقٌ فزادت عداوةُ النَّاسِ له . وكان حامد بن العباس قد ضجر من المقام ببغداد وليس له من الأمر شىء غير لبس السواد ، وأَنِفَ من اطِّراح علىِّ بنِ عيسى لجانبه ؛ فإنه كان يهينه فى توقيعاته بالإطلاق عليه لضمانه بعضَ الأعمال ، فكان يكتب ليطلق جُنْدَ[1] الوزير أعزّه الله ، وليبادر نائب الوزير ، وكان إذا شكا إليه بعضُ نُوَّابِ حامدٍ يكتب على القصة « إنما عُقِد الضَّمانُ على النائِب الوزيرىِّ عن الحقوق الواجبةِ السلطانية فلْيتقدم إلى عُمَّالِهِ بكف الظلم عن الرَّعِيَّةِ » .

/ ٢٧ ب

فاستأذن حامدٌ وسار إلى واسط ليتنظر فى ضمانه فأذنَ له ، وجرى بين مُفْلحِ الأسود[2] وبين حامدٍ كلامٌ فقال له حامد :

(١) فى الأصل « ليطلق جهبذ الوزير » ولا معنى له لأن الجهبذ النقاد الخبير ، وفى ك صفحة ١٤ « جند » وهو ما أثبتناه .

(٢) كان مفلح من أقرب الناس الى المقتدر وكان خصيصا به على ما يقول ابن الأثير !

لقد هممت أن أشترىَ مائة خادم أسود أسميهم مفلحا وأهبهم لغلمانى فحقدها مُفْلح – وكان خصيصا بالمقتدر – فسعى معه المحسِنُ بنُ الفراتِ لوالده بالوزارة وضمن أموالاً جليلةً ، وكتب على يده رقعة يقول إن سُلِّم إليه الوزيرُ وعلىُّ بن عيسى وابن الحوارى وشفيع اللؤلؤى ونصر الحاجب وأم موسى القهرمانة والماذَرائيون استخرج منهم سبعة آلاف ألفِ دينارٍ ! وكان المحسن مطلقا ، وكان يواصل السِّعايةَ بهؤلاء الجماعة ، وذكر ابنُ الفرات للمقتدر ما كان يأخذه ابنُ الحوارى فى كلِّ سنةٍ من المال فاستكثره .

فَقُبِضَ على علىِّ بنِ عيسى فى شهر ربيع الآخر وسُلِّم إلى زيدان القهرمانة فحبسته فى الحجرة التى كان ابن الفرات محبوسا فيها ، وأطلق ابنُ الفرات وخُلِع عليه ، وتولَّى / الوزارةَ وخُلع على ابْنِهِ المحسنِ ، وهذه الوزارة الثالثة لابن الفرات . ٢٨ – ا

قال (١) : وسيَّر ابنُ الفراتِ إلى واسط مَنْ يقبض على حامدٍ فَهَرب واختفى ببغداد ، ثم إن حامدًا لبس زِىَّ راهب وخرج من مكانه الذى كان فيه ومشى إلى نصر الحاجب ودخل عليه وسأله إيصالَ حاله إلى الخليفة إذا كان عند حرمه ، فاستدعى نصرٌ مُفْلحا الخادم فلما رآه قال : أهلا بمولانا الوزير أين مَماليكُ السودان الذين سمَّيْتَ كلَّ واحدٍ منهم مفلحا ؟

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٧٤

فسأله نصر أن لا يؤاخذه وقال له : حامد يسأل أن يكونَ محبسهُ في دارِ الخلافةِ ولا يُسَلَّم إلى ابن الفراتِ .

فدخل مُفلِحٌ وقال ضدَّ ما قيل له فأمر المقتدر بتسليمه إلى ابنِ الفرات ، فأُرْسِلَ إليه فحبسه في دارٍ حسَنَةٍ وأجرى له من الطَّعام والكُسْوَة والطِّيب وغير ذلك ما كان له وهو وزير ، ثم أحضره وأحضر الفُقَهاء والعمالَ وناظره على ما وصل إليه من المال وطالبه به ، فَأَقَرَّ بجهاتٍ تُقارِب ألف ألفِ دينارٍ ، وضَمِنَهُ المحسنُ بنُ أبي الحسن بن الفرات الوزير من المقتدر بخمسمائة ألف دينار فسلمه إليه فعذَّبه بأنواع العذاب ، وأنفذه إلى واسط مع بعض أصحابه ليبيع ماله هناك ، وأمرهم أن يسقوه سُمًّا فسقَوْه سُمًّا في بيض مشوىٍّ كان طلبه ، فأصابه إسهال فلما وصل إلى واسط أفرط القيام به . وكان قد / تسلَّمه محمدُ بنُ علي البروجري[1] فلما رأى حاله ٢٨ – ب
أحْضَرَ القاضيَ والشهودَ ليشهدوا عليه أنه ليس له في أمره صنع ! فلما حضروا عند حامد قال لهم : إن أصحاب المحسن سَقَوْني سما في بيضٍ مشوِيٍّ فإنا أموت منه وليس لمحمد في أمري صنع ، لكنه أخَذَ قطعةً من أموالي وأمتعتي وجعل يحشوها في المساور وتباع المسورة بمحضر من أمين السلطان بخمسةِ دراهم فيضع من يشتريها ويحملها إليه فيكون فيها أمتعةٌ تساوي ثلاثة آلاف درهم ، فاشهدوا على

(١) كذا في ا ، وفي ك ، ف « البروجري » وذكره ابن الأثير في الكامل ٦ ، ١٧٤ « البزدفري »

ذلك ! وكان صاحب الخبر حاضرا فكتب بذلك ، ثم مات حامد فى شهر رمضان من هذه السنة .

وصودر على بن عيسى بثلاثمائة ألف دينار وعذّبه المحسن بن الفرات وصفعه فأنكر عليه أبوه لأن عليا كان محسنا إليهم فى أيام ولايته وأعطى المحسنَ فى أيام نكبته عشرة آلاف درهم ، فلم يَرْعَ له حقَّ إحسانِهِ . قال : [1] ولما أدّى على بن عيسى مال المصادرة سيره ابنُ الفرات إلى مكة وكتب إلى أميرها أن يُسَيِّرَهُ إلى صنعاء ، ثم قبضَ ابنُ الفراتِ على أبى علىٍّ بن مُقْلة لأنه بلغه أنه سعى به أيامَ نكبته وتقلّد بعض الأعمال فى أيام حامدٍ ثم أطلقه ابنُ الفرات

وقبض أيضا على ابن الحوارى وكان خصيصا بالمقتدر وسلمه إلى ابنه المحسن فعذّبه عذابًا شديدا - / وكان ٢٩ - ا
المحسن وقحا ظالما سيء الأدب ذا قسوةٍ شديدة ، وكان الناس يسمونه الخبيث بن الطيب ، وسير ابن الحوارى إلى الأهواز ليستخرج منه الأموال فضربه الموكَّلُ به حتى مات . وقبض أيضا على الحسين بن أحمد ومحمد بن على الماذرائيين [2] فصادرهما على ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار ، ثم صادر جماعة من الكتاب ونكبهم . ثم إنّ

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٧٥

(٢) فى الأصل وفى س صفحة ١٤ « المحسن بن أحمد ومحمد بن على الماذائين » وهو صحيف صوابه ما أثبتناه عن ابن الأثير .

ابن الفرات - خوّف المقتدر من مؤنس الخادم وأشار عليه أن يسيّره إلى الشام فأخرجه عن الحضرة فى يوم شديد المطر ، ثم سعى بنصر الحاجب وأطمع المقتدرَ فى ماله وكثرته فالتجأ نصر إلى أم المقتدر فحمته من ابن الفرات

وفيها غزا مؤنس المظفر بلادَ الروم فغنم وفتح حصونا وغزا ثمال فى البحر فغنم من السبى ألف رأس ، ومن الغنم ألف رأس ، ومن الذهب والفضة شيئا كثيرا .

وفيها دخل القرمطىُّ (١) البصرة وقتل عاملها (٢) وأقام بها سبعة عشرَ يومًا يقتل وينهب ويأسر .

ودخلت سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة : فى هذه السنة ظهر فى دار الخليفة إنسان أعجمى عليه ثيابٌ فاخرة وتحته مما يلى بَدنه قميصُ صوفٍ ومعه قَدَّاحةٌ وكبريتٌ ودواةٌ وأقلامٌ وسكينٌ وكاغد ، وفى كيسٍ سويقٌ وسكر وحبل / طويل من القنّب ، فأُحضر إلى ابن الفرات الوزير فسأله عن حاله فقال : لا أُخبِر إلا صاحب الدارِ ! فأمر بضربه ليقر فقال : بسم الله بدأتم بالشر ! ولزم هذا القولَ ثم جعل يقول بالفارسية ما معناه « لا أدرى » ثم أمرَ به فأُحرق ، وأنكر ابنُ الفرات على نصرٍ الحاجبِ هذا الحالَ وعظّم الأمر بين يَدَى المقتدرِ ونسبه إلى أنه أخفاه ليقتل المقتدر ، وتفاوضا فقال الحاجب : لِمَ أسعى فى

٢٩ - ب

(١) يقول أبو الفرج عبد الرحمن فى المنتظم ٦ : ١٨٨ إنه أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى .

(٢) عن ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٧٥ ، ١٧٧ أنه سبك المفلحى .

قَتْلِ أميرِ المؤمنين وقد رفعنى من الثرى إلى الثريا ؟ إنما يسعى فى قَتْلِهِ مَنْ صادَره وأخذ أموالَه وضياعه وأطال حَبْسَه !

وفيها أخذ القرمطى الحاجَّ بعد عودتهم من الحجاز – وكان لأنى الهيجاء طريقُ مكة – فسار إلى القرمطى فأوقع به ، وأُسِر أبو الهيجاء وأحمدُ بن كشمرد ونحريرٌ وأحمد بنُ بدر عمُّ والدة المقتدر وغيرُهم ، وأخذ القرمطِى جِمال الحاجِّ جميعها وما أراد من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ، وعاد إلى هَجَر (١) وترك الحاجَّ فى مواضِعهم فمات أكثرُ هُم جوعًا وعطشًا ، فاجتمع حرم المأخوذين إلى حرم المنكوبين (٢) الذين نكبهم ابنُ الفراتِ وجعَلْنَ ينادين : القرمطى الصغير (٣) قَتَلَ المسلمين بطريقِ مكة والقرمطى (٤) الكبير قتل المسلمين ببغداد ! وشَنَّعُوا عليه وكَسَرَ العامَّةُ منابرَ الجوامِع وسَوَّدوا المحاريبَ يوم الجمعةِ لِستٍّ خَلَوْن من صفرٍ ،/ فَضَعُفَت نفسُ ابنِ الفراتِ وحَضَر عند المقتدر ليأخذَ أمْرَه فيما يصنع . ٣٠ – ١

وحضَرَ نَصْرٌ الحاجبُ المشورةَ فانبسط لسانُه على ابنِ الفرات وقال : الساعة تقول : اى شىء نصنع وما هو الرأىُ بعد أن زعزعتَ أركانَ الدولة وعرضتَها للزوالِ ؛ فى الباطِن بالميل مع

(١) هجر : مدينة تعتبر قاعدة البحرين إلا إذا ذكرت القطيف (ياقوت) ، وكلتاهما للقرمطى المذكور

(٢) فى ك صفحة ١٥ « فاجتمع حرم المأخوذين إلى حرم المسلوبين بطريق مكة الذين نكبهم .... »

(٣) كان هذا القرمطى إذ ذاك فى السابعة عشرة على مايقول ابن الأثير

(٤) العبارة عن المنتظم ٦ : ١٨٩ « بابن الفرات القرمطى الكبير » ولما قبض عليه قال العامة « قد قبض على القرمطى الكبير » .

كل عَدُوٍّ يظهر ومكاتبتِه ومُهَاداتِه ، وفى الظاهر بإبعادِك مؤنسًا ومن معه إلى الرَّقَّةِ وهم سيوف الدولة ، فمن يدفع الآنَ هذا الرجُلَ إذا قَصَدَ الحضرةَ أنت أم ولدك ؟ وقد ظهر الآن مقصودُكَ بإبعادِ مؤنسٍ وبالقبض علىَّ وعلى غيرى ، أن تستضعفَ الدولةَ وتُقَوِّى أعداءها لتشفى غيظَك مِمَّنْ صادَرَك وأخذ أموالَك ! ومن الذى سلَّم النَّاسَ إلى القرمطى غيرُك لما يجمع بينكما من التَّشَيُّع والرَّفْضِ ؟ وقد ظهر أيضا أنَّ ذلك العجمى من أصحاب القرمطى وأنت أوصلته ! فَحَلَفَ ابنُ الفراتِ أنه ما كاتب القرمطى ولا هَادَاه ولا رأى ذلك الأعجمى إلا تلك الساعةَ ، والمقتدرُ مُعْرِض عنه . وأشار نَصْرٌ على المقتدر بالله أن يحضر مؤنسا ومن معه ففَعل ذلك ، وكتب إليه بالحضورِ ففعل وسارع ، وقام ابنُ الفراتِ فركب فَرجَمَهُ العامَّةُ ، ثم وصل مؤنسٌ المظفر إلى بغدادَ ، ولما رأى المحسنُ ابنُ الفرات انحلالَ أمورهم أخذ كل من كان محبوسا فقتله ، لأنه كان قد أخذ منهم أموالا / جليلةً ولم يوصلها إلى المقتدر فخاف أن يقروا عليه بما أخذه منهم . ٣٠ ب

ذكر القبض على ابن الفرات الوزير

وولده المحسن

قال (١) : ثم كثر الإرجافُ على ابن الفراتِ فكتب إلى المقتدر يُعَرِّفه بذلك ، وأن الناس إنما عادوه لشفقتِه ونُصْحِه وأخْذِ حقوقِه منهم فأنفذ المقتدرُ إليه يُسَكِّنه ويطيِّبُ قلبه فركب هو وولدُه إلى المقتدر

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٧٧

فطيّب قلوبهما ، وخرجا من عنده فمنعهما نَصْرٌ الحاجبُ ووكل بهما ، فدخل مُفْلح على المقتدر وأشار عليه بتأخير عَزْله فأمر بإطلاقهما فخرجا ، فأما المحسن فإنه اختفى ، وأما الوزير فإنه جلس عامّة نَهاره يقضى الأشغال إلى الليل ثم بات مفكرًا ، فلما أصبح سمع بعض خدمه ينشد :

وأصْبَح لا يدرِي وإن كان حازمًا أقدَّامَه خيرٌ له أم وراءه

فلما ارتفع النهار وهو الثامنُ من شهر ربيع الأول أتاه نازوك (١) ويلبق فى عدة من الجند فدخلوا عليه وهو عند حرمه فأخرجوه حافيا مكشوف الرأس فألقى عليه يلبقُ طيلسانا غَطّى به رأسه وحُمل إلى طيّارٍ فيه مؤنس المظفر ومعه هلال/ بن بدر (٢) فاعتذر إليه ابن الفرات وألان كلامَه له فقال له : أنا الآن الأستاذُ وكنتُ بالأمس الخائنَ الساعىَ فى فساد الدّولة وأخرجتنى والمطرُ على رأسى ورؤوس أصحابي ولم تُمهلنى ! وسُلّم إلى تسفيعٍ اللؤلؤى فَحُبِسَ عنده ، وكانت مدّةُ وَزارته هذه عَشرةَ أشهُرٍ وثمانيةَ عشرَ يومًا ، وأُخِذَ أصحابُه وأولادُه ولم يَنْجُ منهم إلا المحسن ، وصودر ابنُ الفراتِ على ألفِ ألفِ دينارٍ .

٣١ – ا

(١) نازوك من أخطر الشخصيات التركية التى كانت فى بلاط المقتدر ، فقد كان خادمه ثم أصبح عامله على دمشق ، ثم صاحب شرطته ببغداد . وفى سنة ٣١٧ اشترك فى خلعه فقتل ، وكان قد قتل ابن الفرات شر قتلة (عن مسكويه وعريب وابن الأثير)

(٢) هو الأمير أبو الحسن ولى إمرة مصر كما يقول ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٠١ بعد عزل تكين عنها سنة ٣٠٩ .

ذكر وزارة أبى القاسم الخاقانى

قال (١) : ولما تَغَيَّر حالُ ابنِ الفرات سَعى عبدُ الله بن أبى على محمد بن عبد الله (٢) بن يحيى بن خاقان فى الوزارة ، وكتب خطه أنه يتكفّل ابنُ الفرات وأصحابه بمصادرةِ ألفى ألف دينارٍ . وسعى له مؤنس الخادم وهارون بن غريبٍ الخال ونصرُ الحاجب فتولى أبو القاسم الوزارة فى تاسع شهر ربيع الأول ، وكان المقتدر يكرهه فلما سمع ابن الفرات وهو محبوس بولايته قال: الخليفة هو الذى نُكب لا أنا ! يعنى أن الوزير عاجزٌ لا يعرف أمر الوزارة ، ولما ولى الخاقانىُّ شَفَع إليه مؤنسٌ الخادم فى إعادة علىّ بن عيسى من صنعاء إلى مكةَ ، فكتب بإعادته وأذن له فى الاطّلاع على أعمال مصر والشام .

ذكر مقتل ابن الفرات وولده / ٣١ ـ ب

قال كان المحسنُ بنُ الوزيرِ أبى الحسن بن الفرات (٣) مختفيا كما ذكرنا ، وكان عند حماته خنزابة ـ (٤) وهى والدة الفضل بن جعفر بن الفرات ـ وكانت تأخذه كلَّ يوم وتتوجّهُ به إلى المقبرة فى زِىِّ النِّساء وتعود به إلى المنازل التى تثق بها ، فمضت به يوما إلى مقابر قريش . وأدركها اللَّيْلُ فبعدت عليها الطريق وأشارت

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٧٨
(٢) فى ك صفحة ١٦ « عبيد الله »
(٣) فى ك صفحة ١٦ « كان المحسن بن أبى الحسن بن الفرات »
(٤) فى ك « خنزابه » وفى تجارب الأمم « حنزابة » وفى الكامل « حزانه »

عليها أمرأةٌ معها أن تَقْصِدَ امرأةً صالحةً تعرفها بالخير ، فأخذته وقصدت به تلك المرأة وقالت لها : معنا صبيةٌ [بنت] (١) بكر نريد منك بيتا تكون فيه ! فأمرتهم بالدُّخول إلى بيتها وسَلَّمتْ إليهم قُبَّةً فى الدار ، فأدخلوا المحسنَ إليها ، وجلس النساء الذين معه فى صَفِّه أمام القبة ، فجاءت جاريةٌ سوداءُ فرأت المحسنَ فأخبرت مولاتها أنَّ فى الدار رجلا ، فجاءت المرأةُ صاحبة الدار فرأته وعرفته — وكان المحسن قد أخذ زَوْجَها إصادره فلما رأى الناس يعذبون فى داره مات (٢) فجأة — فلما رأت المرأةُ المحسنَ ركبت فى سفينة وقصدت دار الخليفة وقالت عندى نصيحة .

فأحضرها نصر الحاجبُ فأخبرته الخبر فطالع به المقتدر ، فأمر صاحب الشرطة أن يسير معها فسار معها إلى منزلها وأخذ المحسن وجاء به إلى المقتدر ، فبعث به إلى دار الوزارة فعُذِّب ٣٢ — ا /
بأنواعِ العذابِ ليجيب إلى مالٍ يحمله فقال : لا أجمع بين الروح والمال ! فأمر المقتدر بحمله مع أبيه (٣) إلى دار الخلافة فقال الوزير أبو القاسم لمؤنسٍ وهارون بن غريبِ الخالِ ونصرٍ الحاجب : إنْ نُقِل ابنُ الفرات إلى دار الخلافة بَذَلَ أموالَه وأطمع المقتدرَ فى أموالنا وضَمِنَّا منه وتسلَّمنَا فأهلكنا ! فوضعوا القواد

(١) زيادة من ك صفحة ١٦
(٢) فى ك « فلما رأى الناس يعذبون فى داره فمات » والعبارة مضطربة
(٣) فى ك صفحة ١٧ « ابنه »

والجُنْدَ وقالوا : لابُدَّ من قَتْل ابنِ الفرات وولده فإننا لا نأمن على أنفسنا ما داما فى الحياة ! فأمر المقتدرُ نازوكَ بقَتْلهما فبدأ بقتل المحسنِ فذَبحه كما تُذْبَحُ الشاةُ وحَمَلَ رأسه إلى أبيه فارتاع لذلك ، ثم عُرض أبوه على السَّيْف فقال : راجعوا فى أمرى فإنَّ عندى أموالاً جَمَّةً وجواهر كثيرة ، فقيل له جَلَّ الأمر عن ذلك . ثم ذُبح فى يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الآخر منها ، وكان عمره إحدى وسبعين سنةً وعمُرُ وَلَدِه ثلاثا وثلاثين سنةً وحملَ رأساهما[1] إلى المقتدر فأمر بتغريقهما

ولما قتلا ركب هارونُ بنُ غريبٍ الخال مسرعا إلى الوزير الخاقانى وهنأه بقتلهما فأُغْمِى عليه حتى ظَنَّ هارونُ ومَنْ هناك أنه مات ، وصرخ عليه أهلُه ، ثم أفاق من غَشْيَتِه وأعطى هارونَ ألفَىْ دينار . وشفع
٣٢ ـ ب / مؤنس فى إبنَىْ ابنِ الفرات عبد الله وأبى نصر فأُطْلِقا له ، فخلع عليهما ووصلهما بعشرين ألف دينار من ماله .

قال : [2] وكان ابنُ الفرات كريما ذا رياسة وكفاية فى عمله ، حسن السؤال والجواب ، وكان مصطنعا للناس ؛ فإنَّ جميع كتَّابه الذين اصطنعَهُم صاروا وزراء . وكان يَسْتَغِلُّ من ضِياعِه فى كلِّ سنة ألفَى ألف دينارٍ وينفقها ، وكان إذا وزَرَ غلا الشَّمْعُ والكاغد والسكر والكافور لكثرة استعماله لذلك ! وكان يجرى على

(١) فى ا « رأسيهما » وهو خطأ اعتاد النويرى أن يقع فى مثله ، وفى ك صفحة ١٧ « رأسهما »

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ١٨٠

خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوتات والفقراء ، قال الصولى [١] : ومن فضائله التى لم يُسْبَقْ إليها أنه كان إذا رُفِعَتْ له قضيةٌ فيها سِعايةٌ بأحدٍ خرج [٢] من حضرته غلامٌ فينادى . ابن فلانُ بنُ فلانٍ الساعى ! فامتنع النَّاسُ من السِّعاية بأحد ، ولم يكن فيـه ما يعاب إلا أنَّ أصحابه كانوا يفعلون مايريدون ويظلمون فلا يمنعهم ؛ فمن ذلك أن بعضهم ظلم امرأةً فى مِلْكٍ لها فكتبت إليه تشكو غير مرة ولا يردّ لها جوابا فلقيته يوما فقالت : أسألك بالله أن تسمع كلامى ! فوقف لها فقالت : قد كتبت إليك فى ظُلامتى غَيْرَ مرةٍ فلم تُجِبْنى وقد تركتك وكتبتها إلى الله تعالى ! فلما رأى تَغَيُّرَ حالِه قال لمن معه : قد خرج جوابُ رقعةِ تلك المظلومةِ .

/ وفى هذه السنة دخل أبو طاهر القرمطىّ الكوفة وأقام بها ستةَ أيامٍ يقيم بالجامع نهارا فإذا أمْسَى خرج إلى عَسْكَرِه وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال وغيرها وعاد إلى هَجَر ، ولم يحج فى هذه السنة أحد . ٣٣ ـ ا

وفيها ظهر [٣] عند الكوفة رجلٌ ادعى أنه محمد بن إسماعيل ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ وهو رئيس الإسماعيلية وجمع جَمعًا عظيما من الأعرابِ

(١) فى كتابه الوزراء ، والصولى هو أبكر محمد بن يحيى الشطرنجى توفى سنة ٣٣٥
(٢) فى ك ، ف « يخرج »
(٣) فى ك ، ف « وفيها ظهر رجل عند الكوفة »

وأهلِ السَّوَاد واستفحل[1] أمْرُه فى شوال ، فَسُيِّر إليه جيش من بغداد ، فقاتلوه وظفِروا به وانهزم وقُتل كثيرٌ ممَّن معه .

ودخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة :

ذكر عزل الخاقانى عن الوزارة

ووزارة أبى العباس الخصيبى

فى هذه السنة فى شهر رمضان ،عزل أبو القاسم الخاقانى عن الوزارة . وكان سبب ذلك أنَّ أبا العباس الخصيبى عَلِمَ مكان أمرأة المحسن بن الفرات فسأل أن يتولى النَّظَرَ فى أمرها فأذِنَ له المقتدرُ فى ذلك ،فاستخلص منها سبعمائةَ ألف دينارٍ إلى المقتدر ،وصار له معه حديث.فخافه الخاقانى فوضع من وقع عليه وسَعى به فلم يُصْغِ المقتدر إلى ذلك ، فلما علم الخصيبى بالحال كتب إلى المقتدر يذكر معائب الخاقانى وابنه عبدالوهاب وعجزَهما وضياعَ الأموال وطمع العمال . ثم مرض الخاقانى مرضا شديدا وطال به ، فوقفت الأحوال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل المقتدر إليه فى ذلك فلم يقدر على شىء فعزله ، واستوزر أبا العباس وخلع عليه . وكان يكتب لأُم المقتدر قبل ذلك ، ولما ولى أقر علىَّ بن عيسى على الإشراف على أعمال مصر والشام فكان يتردد من مكة إليهما فى الأوقات .

وفيها كتب ملكُ الرُّوم إلى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج إليه فإن فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرّية ، وقال : إننى صَحَّ عندى ضعف وُلاتِكم ! فلم يفعلوا ذلك ، فسار إليهم

(١) فى الأصل وسائر المخطوطات « واستحفل » صوابه ما أثبتناه بمعنى تفاقم .

وأخرب البلاد ، ودخل مَلَطْيَةَ فى سنة أربعَ عشرةَ وثلاثمائة ، فأخربها وسبى ونهب ، وأقام بها ستةَ عشر يومًا .

ودخلت سنة أربع عشرة وثلاثمائة :

ذكر عزل أبى العباس الخصيبى

ووزارة علىّ بن عيسى

فى هذه السنة فى ذى القعدة عَزَل المقتدرُ أبا العباس / الخَصيبى ٣٤ ـ ا
عن الوزارة ، وسبب ذلك أنه أضاق (١) إضاقةً شديدة . ووقفت أمورُ السلطان ، واضطرب أمْرُ الخَصيبى ، وكان حين وَلِى الوزارة قد اشتغل بالشرب كلَّ ليلةٍ ويصبح وهو سكرانُ لا فَضْلَ فيه لعمل . وكان يترك الكتبَ الواردةَ عليه من العمال ، فلا يقرؤها إلا بعد مُدّةٍ ويُهْمِلُ الأجوبةَ عنها فضاعت [الأموال] (٢) وفاتت المصالح ، ثم وكَلَ الأمور إلى نُوّابِه وأهمل الاطّلاعَ عليهم فباعوا مصلحتَه بمصلحة نفوسهم .

فلما صار الأمر إلى هذِه الصورةِ أشار مؤنس المظَفرُ بعزله وتَوْلية علىِّ بنِ عيسى ، فقُبض عليه (٣) ، فكانت وزارتُه سنة وشهرين ، وأُخِذَ ابنُه وأصحابُه فَحُبِسوا . وأرسل المقتدر يستدعى علىَّ بن عيسى ، وأمر أبا القاسم عبيد الله بن محمد الكلوذانىّ بالنيابة عن على إلى أن يحضر وقدم علىٌّ بغداد فى أوائل سنة خمسَ عشرةَ ،

(١) أضاق : (لازم) ذهب ماله .

(٢) زياده من الكامل ٦ : ١٨٤

(٣) فى المنتظم ٦ : ٢٠٢ أن المقتدر بالله بعث نازوك فقبض عليه هو وكاتبه إسرائيل ابن عيسى وابنه .

واشتغل بأُمور الوزارة ،[١] ولازم النظر فيها . فمشت الأُمور واستقامت الأَحوال . وكان قد اجتمع عندَ الخَصيبي عِدَّةٌ من رِقاع المصادَرين وكفالات من كفل منهم وضماناتِ العمال بما ضمنوا من الأَموال بالسَّواد وفارس والأَهواز والمغرب [٢] ، فنظر فيها وأرسل فى طلب الأَموال فأَتته شيئا بعد شىء فَأَدَرَّ الأَرزاق وأَخرج العطاء ، وأسقط من الجند من لايحمل السلاح ، ومن أولاد المرتزقة مَنْ هو /فى المهد . . فانَّ آباءهم أثبتوا أسماءهم ! ومن أرزاق المغنين والمساخرة [٣] والصَّفاغنة [٤] والندماء . وتولى الأَعمال بنفسه ليلاً ونهارًا ، فاختار الكفاة [٥] من العمال واستعملهم فى الولايات . وأمره المقتدرُ بالله بمناظرة أبى العباس الخصيبى ، فأَحضره ، وأحضر الفقهاء والقضاة والكُتَّابَ وغيرَهم فسأَله عما صَحَّ من الأَموال والمصادرات والبواقى القديمة وغيرِ ذلك فقال : لا أعلم ! وما أجاب عن شىء ، فأنْكَر عليه كَوْنهُ دخَلَ فى الوزارة وهو لا يعرفها ، ووبَّخَه توبيخا كثيرا .

٣٤ - ب

وفيها فى شهر ربيع الأَول خرجت الروم إلى ملَطْية وما يليها

(١) هذه هى وزارته الثانية والأخيرة .

(٢) فى س ورقة ١٨ « و الغرب »

(٣) يقال سخروا منه فهو مسخرة من المساخر أى يضحكون منه والتاء زائدة كما فى عباقرة وجهابذة

(٤) فى شتى المخطوطات « الصفاعنة » ولا وجه لها إلا أن تكون ما اثبتناه ، لأن الصفانة (كسحابة) من الملاهى كلمة معربة فيها الصفان ويجمع على الصفاغنة .

(٥) كذا فى ا وما نقل عنها وهو جمع غريب فنحن نقول كفء وأكفاء وكفاء (كنضال) وفى ك صفحة ١٨ « فاختار من الكفاة من العمال »

مع الدُّمستق ومعه مليح الأرمنى صاحب الدروب ، فحصروا ملطية ودخلوا الرَّبَض فقاتلهم أهله وأخرجوهم منه ، فلم يظفروا من المدينة بشىء ، وخرّبوا قرى كثيرةً من قُراها ، ونبشوا الأموات ومثّلوا بهم ثم رحلوا ، وقصد أهلُ ملَطْيَة بغدادَ مستغيثين فلم يُغاثوا ، فعادو إلى بلدهم بغير مقصود !

ودخلت سنة خمس عشرةَ وثلاثمائة :

ذكر ابتداء الوحشة بين المقتدر بالله

وبين مؤنس

فى هذه السنة هاجت الرُّوم وقصدوا الثغور ودخلوا شمْشَاط (١) / وغنموا جميع ما فيها من مالٍ وسلاح وغير ذلك ، ودقُّوا الناقوسَ فى الجامع ثم خرج المسلمون فى أثَر الروم فقاتلوهم وغنموا منهم غنيمة عظيمة ، . فأمر المقتدر بالله بتجهيز العساكر مع مؤنس المُظَفَّر ، وخَلَع عليه فى شهر ربيع الآخر ولم يبق غير الوداع ، فامتنع مؤنسٌ من الدخول إلى دار الخليفة واستوحش من المقتدر بالله وظهر ذلك . وكان قد أتاه بعض خُدَّام المقتدر وقال له : ١ – ٣٥

(١) فى ا « شميشاط » وفى ك صفحة ١٨ وفى ف صفحة ٢١ – ا « شميساط » كما فى عقد الجمان ، فهى شمشاط التى يقول عنها ياقوت مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت ، ولكن ابن الأثير وابن الجوزى ومسكويه يثبتون « سميساط » المدينة التى من أعمال الشام على الفرات أيضا والأولى أولى ذكر الشاعر أبو الحسن على الشمشاطى وكان على أيام سيف الدولة – بقوله :

خضعت رقاب بنى العداوة إذ رأت آثارهـا تنقد تحت سياط
حتى إذا ركضت على أعقـابها دلف النميط إلى من شمشاط
صدق المعلم ، إنهم من أسرة نجب تسوسهم بنـو سنبـاط

إنَّ الخليفة أمر خَوَاصَّ خَدَمِه أن يحفروا جُبًّا فى دارِ الشجرة ويُغَطُّوه بِبُرَايةٍ (١) وتراب فإذا حضرتَ أُلقيتَ فيه وخُنِقت !

فامتنع وركب إليه جميعُ الأجنادِ وفيهم عبدُ اللهِ بن حمدان وإخوتُه وخلت دار المقتدر بالله ، وقالوا لمؤنس : نحن نقاتل بين يديك حتى تَنْبُتَ لك لحيةٌ ! فوجَّه المقتدرُ رقعةً بخَطِّه يحلف أنه ما أراد به سوءًا ، فصرف مؤنسٌ الجيش وكتب الجواب أنه العبد المملوك ، وأنَّ الذى أبلغه ذلك قد كان وضعه مَنْ يريد إيحاشه « من مولانا » وأنه ما استدعَى الجند وإنما هم حضروا وقد فَرَّقَهُم !

ثم قَصَد دارَ الخليفةِ فى جميع القُوَّاد ودخل إليه وقَبَّل يده وحلَف له المقتدر على صفاء نيته له وَوَدَّعه وسار إلى الثَّغْر وخرج لوداعه أبو العباس بن المقتدر والوزير علىُّ بنُ عيسى .

وفيها قَتَل أبو طاهرٍ القرمطىُّ يوسفَ بنَ أبى السَّاج فى وَقْعَةٍ كانت بينهما . وكان يوسف قد نُدِبَ لقتال القَرامطةِ فأسره القرمطى ، ثم قَتَله . / ٣٥ ـ ب

وفيها سار الدمستق فى جيش عظيم من بلاد الروم إلى مدينة دبيل (٢) وبها نصر السبكى فى عسكر يحميها وكان مع الدمستق دبَّاباتٌ ومجانيقُ ، فحاصروا المدينةَ ونَقَبُوا السُّور ودخلوها فقاتلهم

(١) فى ا وفى ك ١٨ وفى ف ٢١ ـ ا « ويغطونه ببارية » وهو خطأ شنيع لا يتعجب من النويرى ، والبراية كالبراء (بضمهما) النحاتة .

(٢) فى ا غير منقوطة وفى ك صفحة ١٩ « ربيل » ولعلها ديبل مدينة قريبة من السند (معجم البلدان لياقوت)

أهلُها ومَنْ فيها قتالا شديدًا ، فانتصر المسلمون وأخرجوا الرُّومَ منها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل .

ودخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة :

ذكر عزل على بن عيسى عن الوزارة

ووزارة أبى علىّ بن مقلة

فى هذه السنة عُزِلَ علىُّ بنُ عيسى عن وزارة الخليفة ورُتِّب فيها علىُّ بنُ مقلةَ ، وكان سبب ذلك أنَّ عليا لما رأى نَقْص الارتفاع واختلالَ الأعمال بوزارة الخاقانىِّ والخَصيبى وزيادةَ النفقات اسْتَعْفى من الوزارة واحْتَجّ بالشيخوخة وقِلَّةِ النَّهْضَةِ ، فأمره المقتدر بالصَّبر وقال له : أنت عندى بمنزِلَةِ والدى المعتضد ! فألَحَّ فى الاستعفاء ، فشاور المقتدرُ مؤنسًا فى ذلك فأشار بمداراتِه وإبقائه . ثم لقى مؤنسُ الوزير ولاطَفه وسكَّنَه فأبى / إلا العَزْل ، وبلغ الخبر ابن مقلةَ فَسَعَى وضَمِن الضمانات الكثيرةَ وواصل بالهدايا واستمال نَصْرًا الحاجبَ ، فساعده عند المقتدر ، فأمر فى نصف شهر ربيع الأول بالقَبْض عَلَى علىِّ بن عيسى وأخيه عبد الرحمن ، وخلع على أبى على بنِ مقلةَ واستوزره وأعانه عليها أبو عبد الله البريدى لمودَّةٍ كانت بينهما . ٣٦ ـ ا

ذكر الحرب بين نازوك وهارون بن غريب الخال

واستيحاش مؤنس

فى هذه السنة وقعت الفتنةُ بين نازوك ـ صاحبِ الشرطة ـ وهارون بن غريبٍ ، وأدّت إلى خَلْع المقتدر . وسبب ذلك أنَّ ساسةَ

دوّابٌ هارون وساسةَ دوّابِ نازوك تغايروا (١) على غلام أمرد (٢) وتضاربوا بالعِصيّ ، فضرب نازوكُ ساسةَ هارون وحبسهم . فسار أصحاب هارون إلى مجلس الشرطة ، ووثبوا على نائب نازوك وانتزعوا أصحابهم من الحبس ، فركب نازوك وشكا إلى المقتدر بالله فقال : كلاكما عزيزٌ ولست أدخل بينكما !

فعاد وجمع رجاله وجمع هارون رجاله ، وزحف أصحاب نازوك إلى دار هارون فأغلق بابه ، وبقى بعضُ أصحابه خارجَ الدار فقتَلَ فيهم أصحابُ نازوك وجرحوا . ففتح هارونُ الباب ، وخرج أصحابُه فوضعوا السلاح في أصحاب نازوك ، فقتلوا منهم وجرحوا ، واشتبكت الحربُ بينهم . وأرسل المقتدرُ ينكر عليهما ذلك فكفّا ، وسكنتِ الفتنةُ ، واستوحش نازوك . ثم ركب إليه هارون وصالحه ، وخرج بأصحابه ونزل بالبستان النجمى ليبعد عن نازوك ، فأكثرَ النّاسُ الأراجيف وقالوا : قد صار هارونُ أميرَ الأمراء !

فعظم ذلك على أصحاب مؤنسٍ وكتبوا له بذلك وهو بالرَّقّة ، فأسرع العَوْدَ إلى بغداد ، ونزل بالشّماسية فى أعلى بغداد. ولم يلْق المقتدرَ فصعد إليه أبو العباس بن المقتدر والوزير ابنُ مقلةَ فأبلغاه سلام المقتدرِ واستيحاشَه له ثم عادا واستشعر كلٌّ من المقتدرِ

(١) إذا كانت من الغيرة فلا وجه لها هنا ، وأقول غايرته بسلعتى أى بادلته ، وغار على امرأته غيرة وغيراً وغاراً وغياراً .

(٢) أمرد : طر شاربه ولم تنبت لحيته ، تقول مرد (كفرح) مرداً إذا بقى زمانا ثم التحى (القاموس المحيط) .

ومؤنسٍ من صاحبه [١] فأحضر المقتدر هارونَ بنَ غريبٍ الخال – وهو ابنُ خالِه – فجعله معه فى داره . فلما علم مؤنسٌ بذلك ازداد نفورًا واستيحاشا وأقبل أبو الهيجاء بن حمدان من بلاد الجبل فى عسكر كبير فنزل [عند] [٢] مؤنسٍ وترددتِ المراسلاتُ من الخليفة إلى مؤنسٍ ، وانقضتِ السَّنَةُ وهم على ذلك .

ودخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة :

١ ذكر خلع المقتدر بالله وبيعة القاهرة ١ – ٣٧

فى هذه السنة خُلِعَ المقتدرُ بالله من الخلافة وبويع أخوه القاهرُ بالله محمدُ بنُ المعتضد ، فبقى يومين ثم أُعيد المقتدرُ بالله . قال [٣] : ولما نزل مؤنس باب الشَّمَّاسية وانضم إليه ابنُ حمدانَ ونازوك صاحبُ الشرطة وغيرُهما جمع المقتدر عنده هارونُ بن غريب وأحمد بن كيْغَلَغ والغلمان الحجرية والرجّالة المصاقبة وغيرُهم . فلما كان آخر النهار مستهلَّ المحرم انفضَّ أكثر مَنْ عند المقتدرِ ، وخرجوا إلى مؤنسٍ . ثم كتب إلى المقتدر رقعةً يذكر أنَّ الجيشَ عاتبٌ منكر للسَّرَف فيما يطلق باسم الخَدَم والحُرَمِ من الأموال والضياع ، ولدخولهم فى الرَّأيِ وتدبير المملكة ، ويطالبون بخروجهم من الدار وأخْذِ ما فى أيديهم من الأموال

(١) كذا فى ا وفى الكامل ٦ : ٢٩٥ وفى ك صفحة ١٩ « واستشعر كل منهما من المقتدر ومؤنس من صاحبه » والعبارة مختلفة .

(٢) زيادة من الكامل ٦ : ٢٩٥ .

(٣) بن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٠٠

والأملاك ، وإخراج هارون بنِ غريبٍ من الدار. فأجابه المقتدرُ أنه يفعل من ذلك ما يمكنه ويقتصر على ما لابُدَّ له منه ، واستعطفه وذكره ومَنْ معه ببَيْعته التى فى أعناقهم مرةً بعد أخرى وخَوَّفَهم عاقبة النكث . وأمر هارون أن يخرجَ من بغداد وأقطعه الثغور الشامية والجزيرية فخرج فى تاسع المحرم ، فعندها دخل مؤنس وابن حمدان ونازوك إلى بغدادٍ ، وأرجف النَّاسُ أن مؤنِسًا ومَنْ معه قد عزموا على خلع المقتدر .

فلما كان فى الثانى عشر من المحرم خرج مؤنس بالجيش إلى باب الشماسية فتشاوروا ساعةً ثم زحفوا[1] / بأسرهم إلى دار الخليفة ، ٣٧ ـ ب
فلما قربوا منها هرب المُظَفَّرُ بنُ ياقوت الحاجب وسائرُ الحُجَّابِ والخدم والوزير ابنُ مُقْلةٍ ، ودخل مؤنسٌ والجيشُ إلى دار الخليفة وأخرج المقتدرَ ووالدته وخالتَه وخواصَّ جواريه وأولاده من دار الخلافة ، وحُمِلوا إلى دار مؤنسٍ واعُتقلوا بها . وبلغ الخبر هارون وهو بِقُطْرُبُّل[2] فدخل بغداد واستتر ، ومضى ابنُ حمدانَ إلى دار ابنِ طاهرٍ فأحضر محمدَ بنَ المعتضد وبايعوه بالخلافةِ ولقَّبوه القاهرَ بالله ، وأحضروا القاضى أبا عمر عند المقتدر ليشهدوا عليه بالخَلْعِ وعنده مؤنسٌ ونازوكُ وابنُ حمدان وبُنَىُّ بنُ يعيش[3] فقال مؤنسٌ للمقتدر ليخْلَعَ نَفْسَه من

(١) فى ك صفحة ٢٠ « ثم رجعوا » .

(٢) قطر بل : أسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر الجيد ، وقيل أسم لطسوج من طساسيج بغداد أى كورة كما يقول ياقوت .

(٣) فى الكامل ٦ : ٢٠١ « ابن نفيس »

الخلافةِ فأجاب وأشهَدَ عليه القاضيَ بالخلع ، فقام ابنُ حمدان وقال للمقتدر : يا سيدي يعزُّ عليَّ أن أراك على هذه الحالِ وقد كنتُ أخافُها عليكَ وأحذَرُها وأنصَحُ لك وأُحذِّرُك عاقبةَ القبول من الخدم والنساء فتؤثر أقوالَهم على قولي ، وكأنّي كنت أرى هذا ، وبعدُ فنحنُ عبيدُك وخَدَمُك ! ودمعت عيناه وعينا المقتدر وشهد الجماعةُ على المقتدر بالخلع وأودعوا الكتاب عند القاضي أبي عمر فكتمه ولم يظهر عليه غيره . فلما عاد المقتدر إلى الخلافة سلّمه إليه وأعلمه أنه ما أطْلَع عليه أحدا ، فاستحسن ذلك منه ، وولّاه قضاء القضاة

قال[1] : ولما اسْتَقَرَّ / أمْرُ القاهرِ باللهِ أخرج مؤنسٌ المظفرُ عليَّ بنَ عيسى من الحبس وأقر أبا عليٍّ بن مقلةَ على وزارته ، وأضاف نازوك مع الشرطة حَجَبَةَ الخليفة وأقطع ابنَ حمدان مُضافًا إلى ما بيده من أعمال طريق خرسانَ حُلوانَ [2] والدِّينَوَر وهمَذَان وكِنكور[3] وكرمان شاهان[4] ٣٨ – ١

(١) ابن الأثير في الكامل ٦ : ٢٠١

(٢) حلوان : مدينة في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد ، ولم يكن بأرض العراق بعد البصرة والكوفة وواسط وبغداد وسر من رأى ، كما يقول ياقوت ، مدينة أكبر منها .

(٣) كنكور : بليدة بين همذان وقرميسين التي تقع قرب الدينور ، بها قصر عجيب يقال له قصر اللصوص وكانت لصاحب الموصل قبل أن تخرب .

(٤) كرمان شاهان : يقصد بها قرميسين قرب الدينور .

والراذانات ودقوقا[١] وخانيجار[٢] ونهاوند والصيمرة[٣] والسَّيْرَوَان[٤] وما سبَذَان[٥] وغيرها . ونُهِبَتْ دار الخليفة ومضى بُنَىٌّ بن يعيش إلى بَرِيَّةٍ لوالدة المقتدر فأخرج من قبرٍ فيها ستمائة ألف دينارٍ وحملَها إلى دار الخليفة . وكان خَلْعُ المقتدر للنصف من المحرم منها ، ثم سَكَن النَّهْبُ وانقطعت الفتنةُ .

قال[٦] : ولما تَقَلَّد نازوكُ حجبةَ الخليفة أمر الرجّاله المصافية[٧] بِقَلْعِ خيامِهِم من دارِ الخليفةِ وأن لا يَعْبُرَ الدار إلا مَنْ له وَظَرٌ ، وأمَرَ رجالَه وأصحابَه أن يقيموا مقام المصافية ، فعظم ذلك عليهم وتقدم إلى خلفاء الحُجَّاب أن لا يمكِّنوا أحدًا أن يدخُلَ إلى دارِ الخليفة إلا مَنْ كانت له مرتبةٌ ، فاضطرب الحجريةُ من ذلك .

ذكر عود المقتدر بالله الى الخلافة

وقتل نازوك وابن حمدان

٣٨ ب / قال[٨] : ولما كان فى يوم الإثنين سابع عشر المحرم بكَّر

(١) دقوقا : مدينة معروفة بين إربل وبغداد وقد تمد فيقال دقوقاء .

(٢) خانيجار : فى ك صفحة ٢٠ « خانيجان » والصواب ما اثبتناه ، بليدة قرب دقوقاء بين بغداد وإربل .

(٣) الصيمرة : سقطت من ك ، وهى بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان بها نخل وزيتون وفواكه وثلج .

(٤) السيروان : بلد أو كورة بالجبل ، قال الاصطخرى « الصميرة والسيروان مدينتان صغيرتان غير أن بنيانها الغالب عليه الجص والحجارة وفيها الليمون والجوز » .

(٥) ماسبذان : قرب حلوان والصيمرة .

(٦) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٠١

(٧) فرقة من فرق الحرس خيمت فى ساحة القصر بدعوى حماية الخليفة ، وكانت تكره نازوك فأراد استبدال الحجرية بها .

(٨) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٠١

النّـاسُ إلى دار الخلافة لأنه يوم موكبٍ ودولةٍ جـديدةٍ ، فامتلأت الممراتُ والرِّحابُ وشاطىء دجلة من الناس ، وحضر الرجالة المصافيةُ فى السلاح يطالبون بحَقِّ البيعةِ ورزقِ سنةٍ وهم حَنِقون لما فعل بهم نازوك ، ولم يحضر مؤنس المظفَّر ذلكَ اليومَ. وارتفعت الأصواتُ وزعقاتُ الرِّجالِ ، فسمعها نازوكُ فأشفق أن يقعَ بينهم وبين أصحابِه فتنةٌ وقتال . فأمر أصحابه أن لا يتعرَّضُوا لهم ولا يقاتلوهم ، فزاد تَعَب الرجالة وهجموا يريدون الصَّحْنَ التسعينى ، فلم يمنعهم أصحابُ نازوك . ودخل مَنْ كان على الشَّطِّ بالسِّلاح ، وقويت زعقاتُهم من مجلس القاهر بالله وعنده الوزير ابنُ مقلةَ ونازوكُ (١) وأبو الهيجاء ابن حمدان ، فقال القاهر لنازوك : اخرج إليهم فسكِّنْهُم وطيِّبْ قلوبهم ! فخرج إليهم نازوك وهو مخمور قد شرب طول ليلته ، فلما رآه الرجالة تقدموا إليه ليشكوا إليه حالَهم بسببِ أرزاقهم فخافهم على نفسه وهرَب منهم ، فطمعوا فيه وتبعوه ، فانتهى به الهربُ إلى باب كان هو سَدَّه بالأمس فقتلوه عنده ، وقتلوا خادمه عجيبا وصاحوا : مقتدِرُ يامنصورُ ! فهَرب كلُّ مَن كان في الدَّارِ من الوزير والحجَّاب وسائرِ الطبقات وبقيت الدار فارغةً . وصلبوا نازوك وعجيبًا بحيث يراهما مَنْ على شاطىء دجلة ، ثم صار الرجَّالةُ إلى دار مؤنس يصيحون ويطالبونه بالمقتدر بالله . وبادر الخَدَمُ فأغلقوا أبوابَ دارِ الخليفةِ وكانوا جميعا خَدَمَ المقتدرِ ومماليكه وصنائعه . ٣٩-ا

(١) من هنا إلى قوله « فخرج إليهم نازوك وهو . » سقط من ك صفحة ٢١ وهو ثابت فى ف صفحة ٢٣ – ب.

وأراد ابنُ حمدانَ الخروجَ من الدار فَتَعَلَّقَ به القاهرُ وقال : أنا فى ذمامك فقال : والله لا أُسَلِّمك أبدًا ! وأخذ بيده وقال : قم بنا نخرجْ جميعا ، وأدعو أصحابى وعشيرتى فيقاتلون دونك ! فقاما ليخرجا فوجدا الأبواب مغلقةً ومعهما فائقٌ المعروفُ بِوجْهِ القَصْعَةِ ، فأشرف القاهرُ من سطحٍ فرأى كثرةَ الجمْع ، فنزل هو وابنُ حمدان وفائقٌ فقال ابن حمدان للقاهر : قِفْ حتى أعود إليك ! ونزع سوادَه وثيابه وأخذ جُبَّةَ صوفٍ لغلام هناك فلبسها ومشى نحو باب النوبىّ [1] فرآه مغلَقًا والناسُ حوله . فعاد إلى القاهر وتأخر عنهما وجه القصعة ، وأمر مَنْ معه من الخدم بقتلهما أخْذًا بِثَأْرِ المقتدرِ وما صنعا به ، فعاد إليهما عشرةٌ من الخدم بالسِّلاح [2] ، فعاد إليهم أبو الهيجاء وسَيْفُه بِيَدِه فقاتلهم فقتلوه ، وهرب القاهرُ إلى آخر البستان واختفى .

وأما الرجَّالة فإنهم لما انْتَهَوْا إلى دارِ مؤنسٍ وسمع زعقاتِهم قال : ماالذى تريدون ؟ قالوا : نريد المقتدر ! فأمر / بتسليمه إليهم ٣٩ ـ ب
فامتنع المقتدرُ من ذلك وخاف أن تكونَ حيلة ، فَحُمِلَ وأُخْرِجَ إليهم فحملوه على أعناقِهم حتى أدخلوه دار الخلافةِ . فلَما حَصَلَ فى الصَّحْنِ التسعينى اطمأنَّ وجلس وسأل عن أخيه القاهر وعن ابن حمدان فقيل إنهما حيّان فأمَّنَهُما بخَطِّه ، وأمر خادمًا بالسُّرْعة بكتاب الأمان لئلا يحدث على أبى الهيجاء حادثٌ ، فمضى بالخط إليه فلقيه خادمٌ

(١) فى ك صفحة ٢١ « باب النوبة »
(٢) فى س ، ف « عشرة من الخدم من السلاح »

ومعهُ رأسُه فرجع به إلى المقتدر، فلما رآه استرجع وقال : ما كان يدخل إلىَّ ويسليني ويُطَهِّر لى الغَمَّ غيره ! ثم أخذَ القاهر وأحضر إلى المقتدر فأجلسه إلى جانبه وقبَّل جبينه وقال : قد علمت أنَّكَ لا ذنبَ لك وأنك قُهرت ولو لقَّبوك بالمقهور كان أولى بك من القاهر ! والقاهرُ يبكى ويقول : يا أمير المؤمنين نفسي نفسي اذكرنَّ الرَّحِمَ التى بينى وبينك ! فحلف له أنه لا يناله بسوء أبدًا (١) ، فسكن .

قال (١) : ثم أخرج رأس نازوك ورأس أبى الهيجاء وشُهرا ، ونودى عليهما « هذا جزاءُ مَنْ عَصَى مولاه » وأما بُنَىٌّ بن يعيش فإنه كان من أشَدِّ القوم على المقتدر بالله ، فهرب عن بغداد وغيَّر زيَّهُ وسار حتى بلغ الموصل ومنها إلى أرمينية ، وسار حتى دخل القسطنطينة وتَنَصَّر . وهرب أبو السرايا نصر بن حمدان أخو أبى الهيجاء إلى الموصل وسكنت الفتنة . وعاد الوزير ابنُ مقلةَ إلى
٤٠ ـ ١ /وزارته ، وكتب إلى البلاد بهذه الحادثة ، وأطلق للجند أرزاقَهم وزادهم وباع ما فى الخزائن من الأمتعة والجواهر ، وأذِنَ فى بيْع الأملاك من الناس فبيع ذلك بأرخص الأثمان لتتم أعطياتُ الجند . وقيل إن مؤنسا المظفر لم يكن مؤثرا لما جرى على المقتدر من الخلع ، وإنما وافق الجماعةَ مغلوبًا على رأيه ولعلمه أنه إن خالفهم لم ينتفع به المقتدر فوافقهم ليأمنوه وسعى مع الغلمان المصافية والحجرية ووضع قوادهم على أن عملوا ما عملوا ، فلهذا أمَّنهُ المقتدر . وأما القاهر

(١) فى ك ، ف « لا يناله سوءا » كذا !

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٠٢

فإن المقتدر حبسه عند والدته فأحسنت إليه وأكرمته ووسعت عليه النَّفَقة واشترت له السراري والجواري للخدمة وبالغت فى إكرامه

نعود إلى بقية حوادث سنة ست عشرة [وثلاثمائة] فيها وصل الدمستق (١) فى جيش كبير (٢) من الروم إلى أرمينية فحصروا خِلاط (٣) فصالحه أدلُها ، وأُخرج المنبرُ من الجامع وجُعِلَ مكانَه صليبًا. ورحل إلى بَدْليس (٤) ففعل بها مثل ذلك وخافه أهلُ أرزنَ (٥) الروم وغيرهم ، ففارقوا بلادهم ، وانحدر أعيانهم إلى بغداد فلم يفاتوا .

وفيها وصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى ملَطْية ومعهم الفؤوس والمعاول وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل ، ثم ظهر أن مُلَيْحًا الأرمنى صاحب الدروب / وضعهم ليكونوا بها ، فإذا حضر سلَّموها إليه ، فعلم بهم أهل ملطية فقتلوهم [عن آخِرِهم (٦)] ٤٠ ـ ب

وفى سنة سبع عشرة جاء أبو طاهر القرمطى إلى مكة يوم التروية (٧) فنهب أموال الحجاج ، وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت ، وقلع الحجر الأسود ، وفعل ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره .

---

(١) فى «ا» وفى ك صفحة ٢١ « الدمستيق » وما هنا عن ف صفحة ٢٤ ـ ب

(٢) فى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٢٠ أن الجيش كان ثلاثمائة ألف .

(٣) خلاط : قصبة أرمينية الوسطى

(٤) بدليس : قال ياقوت « إنه اسم بطن من النخع . وأما فى العجم ففيه تفليس وتبريزة ، بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط ذات بساتين .

(٥) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط . كانت من أعمر نواحى أرمينية

(٦) ليس فى «ا» ولكنه فى ك صفحة ٢٢

(٧) يوم التروية : كان القوم يرتوون فيه من الماء لما بعد ، وقيل أسمى كذلك لأن إبراهيم الخليل كان يتروى ويتفكر فى رؤياه (المحيط)

ودخلت سنة ثماني عشرة وثلاثمائة :

ذكر هلاك الرجالة المصافية

في هذه السنة هلك الرجالة المصافية في المحرم . وسبب ذلك أنهم لما أعادوا المقتدر إلى الخلافة – كما ذكرنا – زاد إدلالُهم واستطالَتُهم ، وصاروا يقولون أشياء لا يحتملها الخلفاء ، منها أنهم يقولون : منْ أعان ظالما سُلِّط عليه ، ومن يُصْعدُ الحمار إلى السَّطْح يقدر أن يحطه وإن لم يفعل المقتدرُ معنا ما نستحقه قابلناه بما يستحق ! إلى غير ذلك ، وكثر شَغَبُهم ومطاولَتُهم وأدخلوا في الأرزاق أولادهم وأهليهم ومعارفَهم وأثبتوا أسماءهم ، فصار لهم في الشهر مائةُ ألْفٍ وثلاثون ألف دينارٍ .

واتفق أن الفرسان شغبوا في طلب أرزاقهم فقيل لهم إن بيتَ المالِ فارغٌ وقد انصرفت الأموال إلى الرَّجَّالةِ ، فثار بهم الفرسانُ واقتتلوا[1] /فقُتل من الفرسان جماعةٌ فاحتج المقتدر على الرجالة بقَتْلِهم وأمر محمد ابنَ ياقوت[2] صاحب الشرطةِ فطرد الرَّجَّالة من دارِ المقتدر ونُودِي فيهم بخروجهم عن بغداد ومن أقام حُبِس ، وهُدِّمتْ دورُ عُرَفَائهم وقُبِضَت أملاكُهم ، وظَفر بعد النِّداء بجماعةٍ منهم فضربهم وحلق لحاهم وشعورهم ٤١ – ا

(١) فيما يرويه عريب في الصلة ١٤٨ ، ومسكويه في تجارب الأمم ١ : ٢١٢ ما يوحي بأن المقتدر كان يدبر خططا للإيقاع بفرق الجيش

(٢) كان قبل أن يتولى الشرطة واليا على فارس وكانت الشرطة إذ ذاك مع ابني رائق اللذين عينهما مؤنس (تجارب الأمم ١ : ٢٠٢ ، صلة الطبري ١٤٥)

وشهرهم . وهاج السودان تعصُّبًا للرَّجَّالة فركب محمد أيضا فى الحجرية وأوقع بهم وأحرق منازلهم ، فاحترق فيها جماعةٌ منهم ومن أولادهم ونسائهم ، فخرجوا إلى واسط. واجتمع منهم جمع كبير وتغلَّبوا عليها وطردوا عامل الخليفة ، فسار إليهم مؤنس فأوقع بهم وأكثر القتل فيهم ، فلم يقم لهم بعدها قائمة .

ذكر عزل ابن مقلة ووزارة سليمان

فى هـــذه السنة عُزِلَ أبو على محمد بن مقلةَ عن وزارة الخليفة . وكان سبب عزله أن المقتدر كان يتهمه بالميل إلى مؤنسٍ المظَفَّر وكان المقتـــدر مستوحشا من مؤنس ويُظْهر له الجميل ، فاتَّفَق أنَّ مؤنسا خرج إلى أوانا وعكبرا ، فركب ابنُ مقلةَ إلى دار المقتدر آخر جمادى الأُولى فقبض عليه وكان بين ابن مقلة وبين محمد بن ياقوت عداوة فأنفذ إلى دارد من حرقها ليلا .

قال : وأراد المقتدر أن / يستوزر الحسينَ بنَ القاسم بن عبد الله وكان ٤١ ـب
[مؤنس قد عاد ، فأنفذ إلى المقتدر يسأَل أنْ يعاد ابنُ مقلةَ فلم يُجِبْه إلى
ذلك وأراد قتْلَه ، فردَّه علىُّ بن عيسى عن ذلك فسأَل مؤنس أن لا يستوزر
الحسين ، فتركه واستوزر سليمان بن الحسن فى منتصف جُمادى الآخرة ،
وأمر المقتدرُ علىَّ بنَ عيسى بالاطِّلاعِ على الدواوين وأن لا ينفرد سليمانُ عنه

بشيء . وصودر ابنُ مقلة بمائتي ألف دينار ، وكانت مدةُ وزارته سنتين وأربعةَ أشهر وثلاثة[١] أيام

وفيها أمر المقتدر بالقبض على أولاد البريدى . وكان ابنُ مقلةَ لما ولى الوزارةَ قلّدهم الأعمالَ ، فقلد أبا عبد الله الأهوازَ جميعها سوى السوس[٢] وجُنْديْسابور وقلّد أخاه الحسين الفراتية ، وقلد أخاهما يوسُف الخاصة والأسافل ، وارتشى منهم على ذلك عشرين ألف دينارٍ من أبي عبد الله . فلما قُبِضَ على ابنِ مقلة كتب المقتدر بخَطِّه إلى أحمد بن نصرٍ القشورى الحاجب يأمره بالقَبْض عليهم ، ثم استحضرهم إلى بغداد ، وصودروا على أربعمائة ألف دينار ، وكان لا يطمع منهم بهذا المبلغ وإنما طلب منهم ليجيبوا إلى بعضه فأجابوا إلى الجميع .

ذكر خروج صالح والأغر

في هذه السنة في جمادى الأولى خرج خارجي من بجيلة من أهـل / البوازيج[٣] بهـا اسمه صـالح بن محمود وعبر إلى البرّية ، واجتمع إليه جماعةٌ من بني مالك . وسار إلى سنجار[٤] فأخذ من أهلها مالا وخطب معها ، فذكّر بأمر الله وحذّر وأطال في هذا ٤٢ ـ ا

(١) راجع المنتظم ٦ : ٢٣١ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٢٧

(٢) السوس : بلدة بخوزستان ، ويقال إنها تعريب الشوش ومعناه الحسن واللطيف والنزه

(٣) البوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك وهي الآن ـ كما يقول ياقوت ـ من أعمال الموصل .

(٤) سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبل عال سميت باسم بانيها كهيت وآمد ، وقيل هي تعريب سنكار مدينة طيبة في وسطها نهر جار ويكثر بها الشجر والنخيل والموالح

ثم قال : نتولَّى الشيخَيْنِ ونبرأ من الخبيثَيْن ولا نرى المَسْحَ على الخُفَّيْنِ ! وسار منها إلى الشجاجية من أرض الموصل فطالب أهلها بالعشر ثم انحدر إلى الحديثة تحت الموصل وطالب المسلمين بزكاة أموالهم والنَّصارى بِجزْيةِ رؤوسهم فجرى بينهم حرْبٌ فَقُتِلَ من أصحابه جماعةٌ ، فعبر إلى الجانب الغربى فأسر أهلُ الحديثةِ ابنًا له اسمه محمد فأدخلوه الموصل . ثم صار صالح إلى السن (١) فصالحه أهلها على مال أخذه ، وانحدر إلى تكريت فحاربه أهلُها فَقَتَل منهم جماعةً ثم صالحوه على مال أخذه منهم ؛ وانصرف إلى البوازيج وتنقَّلَ فى بلادِ الموصل فسار إليه نَصْرُ بنُ حمدان لخمسٍ خلوْنَ من شعبان من السنة فقاتله قتالا شديدًا فقتل من رجال صالح نحو مائةِ رجلٍ ، وأُسِر صالحٌ وابنان له فأُدْخِلوا إلى الموصل ، وحُملوا إلى بغداد فأُدْخِلوا مُشَهَّرين .

وخرج فى شعبان خارجىٌّ بأرضِ الموْصل اسمه الأَغُرُّبنُ مطرٍ (٢) الثغلبى ، وسار من رأس عين إلى كفرتوثا واجتمع عليه أَلْفُ رجلٍ فدخلها ونهبها وقَتَل فيها ؛ وسار إلى نصيبين فنزل بالقرب منهـا فقاتله / أهلهـــا ومعهم جمْعٌ من الجُنْدِ فقتل منهم مائةَ رجلٍ وأسر ألفَ رجلٍ فباعهم نفوسَهم ، وصادر أهلها على أربعمائة ألف درهم . وبلغ خبره ناصر الدولة بن حمدان — وهو أمير ديار ربيعة — ٤٢ ب

(١) السن : مدينة على دجلة فوق تكريت لها سور وبها جامع ضخم للمسلمين وكنائس للنصارى وفى أهلها علماء ، وعندها مصب الزاب الأسفل ، وقد يقال لها سن بارما

(٢) يقول ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢١٠ إنه كان يذكر أنه من ولد عتاب بن كلثوم التغلبى أخى عمرو بن كلثوم الشاعر .

فسيَّر إليه جيشا فقاتلوه فظفروا به وأسروه فسيَّره ناصرُ الدولةِ إلى بغداد .

وفيها خلع المقتدرُ بالله على ابنه هارون ، وركب معه الوزير والجيش وأعطاه ولايةَ فارس وكرمان وسجستان ومكران . وفيها أيضا خلع على ابنه أبي العباس الراضي وأقطعه بلاد المغرب ومصر والشام وجعل مؤنسا المظفر يخلفه فيها ، وحج بالناس عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز الهاشمي .

ودخلت سنة تسع عشرة وثلاثمائة .

ذكر عزل سليمان عن الوزارة

وتولية أبي القاسم الكَلْوَذَاني الوزارة

في هذه السنة قَبَضَ المقتدر على وزيره سليمان . وسبب ذلك أن الأموال ضاقت عليه ، وكثرت المطالباتُ من الجند وغيرهم بأرزاقهم ، واتصلت رقاع من يُرشِّحُ للوزارة بالسِّعاية فيه والضمانِ بالقيامِ بأرزاقِ الجُنْدِ وأربابِ الوظائف ، فأمر المقتدر بالقبض عليه / وكان المقتدر يميل إلى وزارة الحسينِ بن القاسم ، فامتنع ٤٣ ـ ا
مؤنس من الموافقة عليه ، وأشار بتَوْلية أبي القاسم الكَلْوذانيّ فاستوزره المقتدر بالله لثلاث بقين من شهر رجب ، فكانت وزارة سليمان سنةً واحدة وشهرين ، ولم يستمر الكَلْوذانيّ في الوزارة غير شهرين وثلاثة أيام .

ذكر عزل الكلوذانى ووزارة الحسين

فى هذه السنة عُزِلَ أبو القاسم الكَلْوَذَانِىُّ عن وزارة الخليفة ، ووزر الحسينُ بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب . وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد إنسانٌ يعرف بالدانيالى وكان زرّافًا ذكيا محتالا ، فكان يُعتِّق الكاغدَ ويكتب فيه أشياء قد وقَعتْ فيما مضى من الزمان وأشياء تقع فى المستقبل ويُرِى ذلك للناس . واتصل هذا الدانيالى بمفلح الخادمِ وأظهره على أشياء استماله بها . فتَوصَّل الحسينُ لهذا الرجل حتى جعلَ اسمَه فى جُمْلَة كتابٍ وضَعَهُ وعتَّقَه ، وذكر فيه علامةً فى وجْهِهِ وما فيه من الآثار ويقول « إنه يزِرُ للخليفةِ الثامن عشر من الخلفاء العباسيين وتستقيم الأُمور على يديه ويقهر الأعادى » وذكر فى هذا الكتاب حوادثَ وقَعتْ وحوادثَ تقع فى المستقبل ، ونسب ذلك إلى دانيال . وقرأ الكتاب على مفلح فأخـذه / منه وأوقف المقتدر عليه فقال له : أتعرف فى الكتاب ٤٣ ـ ب
منْ هو بهذه الصفة ؟ فقال : ما أعرف إلا الحسين بن القاسم قال : صدقت ، قلبى يميل إليه ، فإن جاءتْك رقعةٌ منه فاعْرِضْها علىّ واكتُم حالَه .

فخرج مفلح إلى الدانيالى وقال : هل تعرف فى الكُتَّابِ منْ هو بهذه الصفة ؟ قال : لا ! قال : فمن أين لك هذا الكتاب ؟ قال : ورثته عن أبى ، وورثه أبى عن آبائه ، وهو من ملاحم دانيال عليه السـلام ! فأعاد ذلك إلى المقتدر بالله فقبلـه . فكتب الحسينُ

رقعةً إلى مفلح وهو يطلب الوزارة ، فكان ذلك من أعظم الأسباب لوزارته مع كثرةِ الكارهين له .

ثم اتفق أنَّ الكَاْوذَانِيّ عمل حِسبةً بما يحتاج إليه من النفقات ومالهم (١) من الأموال وعليها خطوط الدواوين فبقى يحتاج إلى سبعمائة ألف دينارٍ لاجهةَ لها ، فعرضها على المقتدر وقال : ليس لهذه جهة إلا ما يطلقه أمير المؤمنين من بيت مال الخاصة ! فعظم ذلك على المقتدر ، وكتب الحسينُ رقعةً عندما بلغه ذلك سأل فيها الوزارة وأنه يضمن جميع النفقات ويستخرج سوى ذلك ألف ألف دينارٍ تكون فى بيت المال ، فاستقال الكَاْوذَانى ، فعُزل الليلتين بقيتا من شهر رمضان ،واستوزر المقتدر بالله الحسين بن القاسم فى هذا التاريخ

ذكر تأكيد الوحشة بين مؤنس والمقتدر

/ فى هذه السنة فى ذى الحجة تجددت الوحشة بينهما . ٤٤ ـ ا
وسببُ ذلك أن مؤنسا بلَغَهُ أنَّ الوزير قد وافق جماعةً من القُوَّاد فى التدبير عليه ، فتنكَّر له مؤنس . وبلغ الوزير أن مؤنسًا يريد أن يكبِس داره ليلا ويقبضَ عليه ، فتنقل فى عِدَّةِ مواضع ثم انتقل إلى دار الخلافة . وطلب مؤنسٌ من المقتدر عزْلَ الحسينِ ومصادرتَه فأجابه إلى عزله ولم يصادره ، وأمر الحسين بلزوم دارِه فلم يقنعْ مؤنسٌ بذلك فبقى فى وزارته . فأوقع الحسين عند المقتدر أن مؤنسا

(١) أى أصحاب الدواوين كما فى الكامل ٦ : ٢١٥

يريد أخذَ ولده أبي العباس ويسيره إلى الشام ويبايع له ، فردَّه المقتدر إلى دارِ الخلافة فعلم ذلك أبو العباس ، فلما أفضَتْ إليه الخلافةُ فعل بالحسين ماسنذكره إن شاء الله تعالى . وكتب الحسين إلى هارون - وهو يريد العاقول - بعد انصرافه من حرب مرداويج وانهزامه وهو يستقدمه إلى بغداد ، وكتب إلى محمد بن ياقوت - وهو بالأهواز - يأمره بالإسراع إلى بغداد ، فصحَّ عند مؤنس أن الوزير يدبِّر عليه وزاد مؤنسا نفارا .

ودخلت سنة عشرين وثلاثمائة :

ذكر مسير مؤنس الى الموصل

في هذه السنة في المحرم سار مؤنس المظفر إلى الموصل مغاضبا ، للمقتدر لما صح عنده إرسال الوزير إلى هارون بن غريب الخالِ ومحمد بن ياقوت يستحضرهما . قال : [1] وسير مؤنس خادمه بشرى[2] برسالة إلى المقتدر ، فسأله الحسين عن الرسالة فقال : لا أذكرها إلا لأمير المؤمنين . فأنفذ إليه المقتدر يأمره بذكر رسالته للوزير فامتنع وقال : ما أمرني صاحبي بهذا ! فسبه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلاثمائةِ ألف دينارٍ وأخذ خطَّه بها وحبسه ونهب داره . فلما بلغ مؤنسا ما جرى على خادمه وكان ينتظر أنَّ المقتدر يطيِّب قلبه ويعيده ، سار ومعه جميع قوَّادِه ومماليكه ، ومعه من الساجية ثمانمائة رجل . فتقدم الوزير بقبضِ إقطاعِ

٤٤ - ب

(١) ابن الأثير في الكامل ٦ : ٢١٩

(٢) يذكر في بعض الأثبات « بشر » وفي ك صفحة ٢٨ يرسم هكذا

مؤنس وأملاكِه وأملاكِ من معه ، فحصَّلَ من ذلك أموالا عظيمة فزاد ذلك في محلِّه عند المقتدر ولقَّبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدنانير والدراهم وتمكَّن من الوزارة وولى وعزل ثم أخذ في التهوير فعزله المقتدر بالله .

ذكر عزل الحسين عن الوزارة

ووزارة ابن الفرات

كان سبب عزله أنه ضاقَتَ عليه الأموالُ وكثر الخَرْجُ ، فاستسلف جملةً مِنْ مال هذه السنة وأخرجها في سنة تسعةَ عشر . فنَهى هارون /بن غريبٍ ذلك إلى المقتدر ، فرتَّب معه الخَصِيبي . ٤٥ – ا
فلما تَولَّى معه نَظَر في أعمالِه فرآه قد عمل حِسْبةً للمقتدر ليس فيها عليه [وجه] (١) فأظهر ذلك للمقتدر ، فأمر بجمع الكُتَّاب وكَشْف الحال . فاعترفوا بصدق الخَصِيبي وقابلوا الوزير ، فقبض عليه في شهر ربيع الآخر فكانت وزارته سبعة أشهر إلا أياما . واستوزر المقتدر بالله الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات (٢) ، وسلم إليه الحسين بن القاسم فلم يؤاخِذْه بإساءته .

ذكر استيلاء مؤنس على الموصل

قال (٣) : ولما سار مؤنسٌ إلى الموصل كَتَب الحُسين الوزيرُ إلى سعيدٍ وداودٍ ابنى حمدان وإلى ابن أخيهما ناصرِ الدولة الحسنِ

(١) زيادة من الكامل ٦ : ٢٢٠ يقتضيها السياق

(٢) في « ا » و ك ٢٥ و ف ٢٧–ب « أبا الفضل بن جعفر » لكنه الفضل ، على ما يذكر مسكويه وعريب وابن تغرى بردى والحسين المذكور هو الحسين بن القاسم بن عبيد الله .

(٣) ابن الأثير في الكامل ٦ : ٢٢٠

ابنِ عبد الله بنِ حمدانَ يأمرهم بمحاربته وصدِّه عن الموصل ، فاجتمع بنو حمدانَ على محاربته إلا داود فإنه امتنع لإحسان مؤنسٍ إليه ؛ فإنه قد كان ربّاه فى حِجره بعد أبيه فما زال به إخوتُه حتى وافقهم ، ولما أجابهم قال لهم : إنكم لتحملونى على البَغْى وكُفْرانِ النِّعمةِ والإحسانِ وما آمن أن يجيئنى سهم عاثر فيقع فى نحرى فيقتلنى ! فلما التَقَوْا أتاه سهمٌ كما وصف فقتله ، ولما قَرُب مؤنسٌ من الموصل كان فى ثمانمائة فارسٍ . واجتمع بنو حمدان فى ثلاثين ألفا فالْتَقَوْا واقتتلوا فانهزم بنو حمدانَ / ودخل مؤنس الموصلَ واستولى على أموالِ بنى حمدانَ وديارِهم ، فخرج إليه كثيرٌ من العساكرِ من بغدادَ والشام ومصر ، وعاد إليه ناصرُ الدولة بن حمدان فصار معه وكان دخولُ مؤنس إلى الموصل فى ثالث صفر ، وأقام بها سبعةَ أشْهُرٍ ، وعزم على الانحدار إلى بغداد . ٤٥ ب

ذكر مقتل المقتدر بالله

قال (١) : ولما اجتمعتِ العساكر إلى مؤنس بالموصل قالوا له : اذهبْ بنا إلى الخليفة فإنْ أنصفنا وأجْرى أرزاقنا وإلا قاتلناه فانحدر مؤنس من الموصل فى شوّال ، وبلغ خبرُه جندَ بغدادَ فشغبوا وطلبوا أرزاقَهم ، ففرّق المقتدرُ فيهم أموالا كثيرة إلا أنها لم تَسَعْهُم وأنفذ المقتدرُ أبا العلاء سعيد بن حمدان وصافيا البصرى فى خَيْلٍ عظيمةٍ إلى سامراء . وأنْفَذَ أبا بكر محمد

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٢٠

ابنَ ياقوت فى ألفَىْ فارسٍ ومعه الغلمان الحجرية إلى المعشوق . فلما وصل مؤنس إلى تكريتَ جعل العسكر الذين مع ابن ياقوت يتسللون ويهربون إلى بغداد ، ونزل مؤنس بباب الشمّاسية ، فلما رأى ذلك رجع ابن ياقوت إلى عكبرا ، وسار مؤنسٌ فتأخر ابنُ ياقوت وغيره وعادوا إلى بغداد . ونزل مؤنس بباب الشماسيَّة ، ونزل ابنُ ياقوت وغيرُه مُقَابلَهُم واجتهد المقتدرُ بخاله [1] هارون بنِ غريبٍ / ليخرج فلم يفعلْ وقال : أخاف من عسكري فإنَّ بعضَهم أصحابُ مؤنسٍ وبعضهم قد انهزم أمس من مرداويج فأخافُ أن يسلمونى وينهزموا عنى ! فلم يزَلْ به حتى أخرجه ، وأشار النَّاس على المقتدرِ بإخراج المال منه ومن أمِّه ليرضى الجند وقالوا : إنه متى سمع أصحاب مؤنس بتفريق الأموال تفرقوا عنه ، فاضطُر إلى الهرب فقال : لم يبْقَ لى ولا لوالدتى شىء ! ٤٦ ـ ١

وأراد المقتدر أن ينحدر إلى واسط ويكاتب العساكر من البصرة والأهواز وفارس وكرمان وغيرها ويترك بغداد لمؤنس إلى أن يجتمع إليه العساكر ويعود إلى قتاله ، فردَّد ابن ياقوت عن ذلك ، وزيّن له اللقاء وقوَّى نفسَه أنَّ القوم متى رأَوْه عادوا بأجمعهم إليه فرجع إلى قوله وهو كارد ، ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كارِهٌ وبين يديه الفقهاءُ ومعهم المصاحف منشورةً وعليه البُردة [2]

(١) كذا فى ا ، ك ، ف ، وفى الكامل ٦ : ٢٢١ « بابن خاله » وهو الأصح

(٢) أى بردة الخلافة

والناس حوله ، فوقف على تلٍّ عالٍ بعيدٍ من المعركة فأرسل إليه قواده يسألونه التَّقدُّمَ مرة بعد أخرى ، فلما ألحُّوا عليه تَقَدَّم من موْضِعِه فانهزم أصحابُه قبل وصولِهِ إليهم . وكان قد أمر فنُودِى . « من جاء بأسيرٍ فَلَهُ عشرةُ دنانيرَ ومن جاء برأسٍ فله خمسةٌ » . فلما انهزم أصحابُه لَقِيهُ علىُّ بنُ يلبق – وهو من أصحابِ مؤنسٍ – فَتَرجَّلَ وقَبَّلَ الأرضَ وقال له : أين تمضى ؟ ارجعْ ، فَلَعنَ اللهُ منْ أشار عليك / بالحُضور ! ٤٦ – ب

فأراد الرُّجوع ، فَلَحِقَهُ قومٌ من المغاربة والبربر ، فتركه علىٌّ وسار ، فشهروا سُيوفَهم فقال : ويْحكمْ أنا الخليفة ! فقالوا : قد عرفناك ياسفلة ، أنت خليفةُ إبليس ، تبذل فى كلِّ رأسٍ خمسةَ دنانير وفى كلِّ أسيرٍ عشرة دنانير . وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فَسقَط إلى الأرض ، وذبحه بعضُهم – وقيل إنّ علىّ بن يلبق رمز إلى بعضهم فقتله – وذلك فى يوم الأربعاء لثلاثٍ بقين من شوّال سنة عشرين وثلاثمائة .

قال (١) : ولما قُتل رفعوا رأسه على خشبةٍ وهم يكبِّرون ويلعنونه ، وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله ، وتركوه مكشوفَ العوْرةِ إلى أن مرَّ به رجل أكَّار فستره بحشيش ، ثم حُفِر له فى موضعه ودُفِن ، وعفا قبره . هذا ومؤنس فى الراشدية لم يشهدِ الحرب ، فلما حُمِلَ رأسُ المقتدرِ إليه بكى ولطم وجهه ورأسه وقال : يا مفسدون ما هكذا أوصيتُكُم ، والله لَنُقْتَلنَّ كلُّنا ، وأقلُّ ما فى الأمر أن تظهروا أنكم قتلتموه خطأً ولم تعرفوه !

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٢١ وفى مرآة الجنان ٢ : ٢٧٩ عرض للموقف الأخير له !

وتقدم مؤنسٌ إلى الشمّاسية ، وأنْفَذَ إلى دارِ الخلافة من يمنعها من النَّهْبِ . ومضى عبد الواحد بن المقتدر وهارُونُ بنُ غريبٍ و محمدُ ابنُ ياقوت وابنا رائق إلى المدائن . وكان ما فعله مؤنسٌ سببًا لجرأة أصحابِ الأطرافِ على الخلفاء وطمعهم واستبدادهم ، و انحرفت حرمة الخلافة لقتل المقتدر ، وضعف أمرها حتى انتهى إلى ما نذكره إن شاء الله تعالى (١) . ١ - ٤٧

قال(٢) : وقُتل وعمره ثمانٍ وثلاثون سنةً وخمسةُ أيام ، وكان مُدَّةُ خلافته أربعا وعشرين سنةً وأحد عشر شهرًا وستةَ عشَر يومًا ، وكان رَبْعَ (٣) القامة دُرِّيَّ اللون أحور أصهب ، وكان نقش خاتمه « الحمد لله الذى ليس كمثله شىء وهو السميع خالق كل شىء » ويقال إن المقتدر بَذَّر من الأموال تضييعاً فى غير وجهها نيفًا وتسعين ألفَ ألفِ دينـارٍ (٤) سوى ما أنفقه فى الوجوه ، وكان يصرف إلى الحرمين وفى طريقهما فى كلِّ سنةٍ ثلاثمائة ألفٍ وخمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ وأربعمائة وستة وعشرين دينارًا ، وإلى الثغور أربعمائةَ ألفٍ وواحدًا وتسعين ألفًا وأربعمائةً وستةً وخمسين دينارًا وكان يُجرى على القُضاة فى كلِّ الممالك ستةً وخمسين ألفا

(١) يستحسن أن يراجع هنا عريب فى الصلة ١٧٤ وما بعدها ومسكويه فى تجارب الأمم ١ : ٢٣٤ وما بعدها

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٢٢

(٣) يقال الربع أى الرجل بين الطول والقصر ، كالربعة والمربوع .

(٤) فى المنتظم ٦ : ٢٤٣ « نيفا وسبعين ألف ألف دينار » وفى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٣٤ وشذرات الذهب ٢ : ٢٨٥ « ثمانين ألف ألف دينار » وما يأتى بعد ذلك حتى قوله « خمسة عشر ألف دينار » سقط من س ، ف .

وخمسمائة وواحدًا وأربعين دينارًا : وعلى الفقهاء بالحضرةِ ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائةً وتسعةً وستين دينارًا ، وعلى من يتولّى الحِسْبةَ والمظالم فى جميع البلاد أربعةً وثلاثين ألفًا وأربعمائةً وتسعةً وثلاثين دينارا ، وعلى أصحابِ البريد تسعة وسبعين ألفا وأربعمائة دينار ، وغير ذلك من الجرايات على أصناف الناس وطبقاتهم . وعجز ارتفاعُ ممالكه عن نفقاته ألفَىْ ألفٍ وتسعةً وثمانين ألفًا وثمانمائةً وأربعةً وسبعين دينارًا ، ولم يُنْقِصْ أحدًا شيئا فأنفق ما كان فى بيوت الأموال قبله [١] .

قال[٢] : ومات فى أيامه خمسةَ عشر ألفَ أميرٍ ومقدّم مذكور فكانت والدته تطوي عنه الرزايا والفجائع وتقول : إظهارها يؤلم قلبه ! فأدّى ذلك إلى انتشار الفساد فى ممالكه [٣] .

وكان الناسُ قد ملُّوا أيّامَه لطولها ، حتى إذا تَصرَّمتْ تَمنَّوْا ساعةً منها ، فأعوزتهم ، وشملتهم الحوادثُ والطوارق . وكان له من الأولاد الرّاضى والمتقى والمطيع وعبد الواحد وعباس وهارون وعلىّ وإسماعيل وعيسى وموسى وأبو العباس [٤] .

---

(١) فى عقد الجمان للعينى وتجارب الأمم لمسكويه وشذرات الذهب لأبى الفلاح الحنبلى أنه بدد جميع جواهر الخلافة عدا الذهب والتحف الأخرى ، وأعطى « الدرة اليتيمة » التى تزن ثلاثة مثاقيل لواحدة من حظاياه ، وأخذت زيدان القهرمانة سبحة قيمتها ثلاثمائة ألف دينار .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٢٢

(٣) المعروف أن شغب أمه – الإغريقية الأصل – كانت تشجعه على الأنهماك فى الملاذ وعلى التبذير أيضا . . كانت تدلله وكان هو ينصاع لها ويحترمها ، غير أن غفلتها وضعفها الناجم عن تدينها جعلاها تقف فى سلبية دمرت الخليفة الصغير ! راجع ما كتبه هـ . بوبن Bowen فى كتابه The life and Times of Ali b. Isa وما كتبه Le Strange فى كتابه Lands of Eastern Caliphate

(٤) قال ابن الجوزى فى المنتظم ٦ : ٢٤١ إن مؤنسا لما رأى رأس المقتدر وروع طلب=

ووزر له من ذكرنا وهم : العباسُ بن الحسن [١] ، وأبو الحسن بن الفرات ثلاثَ دفعات وقد ذكرنا أخباره ، ومحمد بن عبد الله بن خاقان . وعلى بن عيسى دفعتين ، وكان موصوفًا بالعلم والدين والعقل ، وساس الدنيا السياسةَ التى عمَّرت البلاد ، وكان يستغلُ ضياعَه فى السنة سبعمائةَ ألفِ دينارٍ يُخرج منها فى وجوه البرِّ ستمائةَ ألف دينار وينفق أربعين ألفَ دينارٍ على خاصته ، وكان يصوم نهاره ويقوم ليله ، ولما حُبِس كان يلبس ثيابه ويتوضأُ ويقوم ليخرجَ إلى صلاة الجمعة فيرده الموكلون به فيقول : اللَّهُمَّ اشهد ! وكانت له آثارٌ حسنةٌ ومآثر جميلةٌ منها أنه أشار على المقتدر / أن يوقف المستَغَلَّاتِ ببغدادَ على الحرس والثغور – وغلَّتُها فى كلِّ شهرٍ ثلاثةَ عشرَ ألفَ دينارٍ – والضياعَ الموروثةَ بالسَّواد وارتفاعها نيِّفٌ وثمانون ألف دينارٍ سوى الغلة ، ففعل ذلك وأفْرد لهذا الوقف ديوانًا سمّاه ديوان البرِّ ، وكان يُجرِى على خمسة وأربعين ألفَ إنسانٍ جراياتٍ تكفيهم ، وخدم السلطان سبعين سنةً لم يُزِلْ فيها نعمةَ أحد ولم يقْتُلْ أحداً ، ولم يسْعَ فى ذَمِّه ولم يهتك حُرْمةَ أحد ، ومات فى آخر ذى الحجة سنةَ خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة [٢] وله تسعٌ وثمانون سنةً وستة أشهر ويوم واحد ، رحمه الله !

٤٨ – ا

= أن ينصبوا ابنه أبا العباس « فإنه إذا جلس فى الخلافة سمحت نفسه ونفس جدته والدة المقتدر باخراج الأموال » ولكنهم غيروا رأيه !

(١) فى المنتظم ٦ : ٦٧ أنه بقى فى وزارته أربعة أشهر وسبعة أيام ثم قتل .

(٢) فى ك صفحة ٢٦ « سنة خمس وثلاثين وخمسمائة » وهو خطأ واضح

ووزر له حامد بن العباس ، وأبو القاسم الخاقانى ، وأحمد بن عبد الله الخَصيبي ، وأبو على بن مقلة ، وسليمان بن الحسين بن مخلد ، وعبد الله الكَلْوذانىّ ، والحسين بن القاسم بن عبيد الله ، والفضل ابن جعفر بن الفرات .

قضاته : يوسف بن يعقوب ثم ابنه محمد [1] بن يوسف ، ثم أبو عمر ، ثم عبد الله بن أبى الشوارب ، ثم ابنه محمد ، ثم أحمد بن إسحاق بن البهلول ، ثم عمر بن محمد بن يوسف ، والحسن بن عبد الله ، وعمر بن الحسن بن أبى الشوارب .

حجّابه : سوْسنُ مولى المكتفى ، ونصر القشورىّ ، وياقوت مولى المعتضد ، وغيرهم .

الأُمراء بمصر : عيسى النُّوشرى ، ثم تَكين الخزرى [2] ، ثم وصل مؤنسٌ / إلى مصر فصرف تَكينَ وولّاها ذكاءَ الأَعور ثم مات فأُعيد تكينُ ، ثم هلال بن بدر ، ثم أحمد بن كيغَلَغ [3] ، ثم تَكين مرةً ثالثةً . ٤٨ ـ ب

القضاة بها : أبو عبيد الله بن على بن الحسين البزّاز [4] إلى أن ورد كتاب ابن الفرات بصرفه وردّ القضاء إلى عبد الله بن

(١) بعد ذلك إلى « ثم أحمد بن إسحاق بن البهلول » سقط من ك صفحة ٢٦

(٢) فى الأصل وفى س ، ف « الجزرى » وهو تصحيف ، وفى بعض الأثبات « الخززى » وهو تصحيف أيضا

(٣) فى الأصل « ثم هلال بن بدر بن أحمد بن كيغلغ » والخطأ فيه واضح ، وقد تولى الأول سنة ٣٠٩ بعد عزل تكين ، وتولى الثانى من قبل المقتدر سنه ٣١١ بعد عزل هلال (راجع النجوم الزاهرة ٣ : ٢٠١ ، ٢٠٦)

(٤) فى ك ، ف « أبو عبد الله » ولعله أبو عبيد على بن الحسين بن حرب كما يقول الكندى ، وفى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٠٧ أنه يعرف بابن حربويه ، ولما صرفه ابن الفرات عن القضاء خلفه أبو يحيى عبد الله بن إبراهيم بن مكرم ، وهذا ما أثبته النويرى بعد .

مُكْرَم شابٌ من شهود أبي عمر ، فاستُخْلِف له أبو الذكر محمد بن يحيى التَمَّار ، ثم ورد إبراهيم بن محمد الطبرى خليفةً لعبد الله ، ثم صُرِف عبد الله وَوَلِيَ إبراهيم بن حمّاد فاستخلف أبا علىٍّ عبد الرحمن بن إسحاق ، ثم صرف هارون وَوَلَىَ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن رزين ، وولّى تكينُ أبا هاشم إسماعيل بن عبد الواحد الرَّبعى .

ذكر خلافة القاهر بالله

هو أبو منصور محمد بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد و [قد] (١) تقدم ذِكْرُ نَسبه ، وأمُّه أمُّ ولد اسمها قَبول . وهو التاسع عشَر من الخلفاء العباسيين ، بويع له بعد مقتل أخيه المقتدر فى يوم الخميس لِلَيْلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة . قال . (٢) ولمّا قتل المقتدر بالله عظم قتله على مؤنس كما ذكرناه فقال : / الرأى ننصب ولده أبا العباس فى الخلافة فإنه تربيتى ، وهو صبىٌّ عاقلٌ فيه دين وكرم ووفاء بما يقول ، فإذا جلس فى الخلافة سمحت نفسُ جدَّتِه والدةِ المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببذْلِ الأموال ولم ينتطح فى قتل المقتدر عنزان ! ٤٩ – ا

فعارضه أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختى (٣) وقال : بعد الكَدِّ استرحنا من خليفةٍ له أم وخالة وخدم يدبرونه فنعود إلى تلك الحالة ، لا والله لا نَرْضَى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا !

(١) زيادة من ك صفحة ٢٦

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٢٢

(٣) بضم الباء نسبة إلى الجد نوبخت .

ومازال حتى ردّ مؤنساً عن رأيه ، وذكر له أبا منصورٍ محمد فأجابه مؤنس إلى ذلك . وكان النوبختى فى ذلك كالباحثِ عن حتفِهِ بظلفه ! فإنَّ القاهر قتله كما نذكر إن شاء الله تعالى ، فأمر مؤنس بإحضاره فبايعوه بالخلافة ، ولقّبوه القاهر بالله . وكان مؤنس كارِها لخلافته والبيعة له ويقول : أنا عارفٌ بِشَرِّه وسوءِ نيته ولكن لا حيلة ! قال : [1] ولما بويع استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه علىٍّ بن يلبق ، وأخذ خَطَّه بذلك .

ولما اسْتَقَرَّتِ الخلافةُ له وبايعه النَّاسُ استوزر أبا علىٍّ بنَ مقلةَ وكان بفارس فاستقدمه ، واستحجب علىَّ بنَ يلبق . وشرع القاهرُ فى البحث عمن استتر من أولادِ أخيه المقتدر وحُرمه ، وأحضر والدتَه [2] – وكانت مريضةً بالاستسقاء – وسألها عن المال
٤٩ – ب / فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشىءٍ من المال والجوهر ، فضربها أشدَّ ما يكون من الضرب وعلَّقَها بِرِجْلها وضرب المواضع المستورةَ من بدنِها فَحَلَفَتْ أنها لا تملك غَيْر ما أطْلَعَتْه عليه وقالت : لو كان عندى مال لما سلَّمْتُ ولدى للقتل ! ولم تعترف بشىء

وصادر جميعَ حاشية المقتدر بالله وأصحابَه ، وأخرج والدتَهُ لِتُشْهد على نفسِها القضاةَ والعدولَ بأنها قد حلَّتْ أوقافَها ووكَّلتْ فى بيعها ، فامتنعت من ذلك وقالت : قد أوقفتها على أبواب البِرِّ والقُرُبات

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٢٢

(٢) والدة المقتدر ولم تكن أما للقاهر ، وقد أخطأ بعض القدماء – منهم أبو محمد عبد الله ابن أسعد اليمنى – حين قرروا أنها أم الخليفتين (راجع مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٢ : ٢٧٩)

بمكةَ والمدينة والثُّغورِ وعلى الضعفاء والمساكينِ ولا أستحل حلَّها ولا بَيْعَها ، وإنما أوكل فى بيع أملاكى ! فلما علم القاهرُ بذلك أحضر القاضى والشهود وأشْهد هم على نَفْسِه أنه قد حل وقُوفَها جميعها ووكل فى بيعها ، فبيع ذلك كله واشتراه الجُنْدُ من أرزاقِهم .

وتقدم القاهر بكبس الدار التى سُعِى إليه أنَّ أولاد المقتدرِ اختفَوْا بها ، فلم يزل كذلك إلى أن وجد منهم أبا العباس الراضىَ وعليًّا والعباسَ وهارون وإبراهيم والفضل فَحُمِلوا إلى دارِ الخلافة فصودروا على مالٍ كثير ، وسلَّمهم على بنُ يلبق لكاتبه الحسن بن هارون ، فأحسن صُحبتهم وخدمهم . قال : [1] وقبض الوزير على جماعة من العمال وعزَل بنى البريدىِّ وصادرهُم .

/ ودخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة : ٥٠ ـ ١

ذكر خبر عبد الواحد بن المقتدر ومن معه

كان عبد الواحد بن المقتدر باللهِ قد هرب عند قتل أبيه ومعه هارون بن غريبٍ ومفلحٌ ومحمد بن ياقوت وابنا رائق إلى المدائن كما قدمنا ، ثم انحدروا منها إلى واسط ، فخافهم الناس . فأما هارون بن غريبٍ فإنه كتب إلى بغداد فى طلب الأمان لنفسه ويبذل مصادرة ثلاثمائة ألف دينار على أن يطلق له أملاكه وينزل

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٢٣

(٢) فى ك صفحة ٢٧ « ومعه هارون بن غريب الخال ومحمد بن ياقوت »

عن الأملاك التى استأجرها ، ويؤدى من أملاكه حقوق بيت المال القديمة . فأجابه القاهر ومؤنس إلى ذلك ، وكُتِبَ له كتابُ أمانٍ . وقلّد أعمالَ ماه الكوفة وما سبذان ومِهْرجانْقَذَق ، وسار إلى بغداد

وأما عبد الواحد فإنه خرج من واسط. فيمن بَقِيَ معه ومضَوْا إلى السوس وسُوق الأهواز فَجنَوْا المالَ وطردوا العمالَ ، وأقاموا بالأهواز ؛ فجهز مؤنس إليهم جيشا كثيفا وجعل عليه يلبق. وكان الذى حرَّضَهُم على إيفادِ الجيش أبو عبد الله البريدى وبذل مساعدتَه معجلةً خمسين ألف دينار على أن يُولىَّ الأهوازَ وعند استقراره فى الولاية يعجّل ما بقى . فسار الجيش وفيهم أبو عبد الله ، وكان محمدُ بن ياقوت قد استَبدَّ / بالأموال والأمر ، فنفرت قلوبُ من معه من القُوَّاد لذلك . فلما قرب يلبق من واسط. أظهروا ما فى نفوسهم وفارقوه . ولما وصل إلى السوس فارق عبدُ الواحدِ ومحمدُ بنُ ياقوت الأهوازَ وسار إلى تستر ، وفارقهما من معهُما من القواد إلى يلبق بأمان . ٥٠ ـ ب

وبقى مُفْلح وسرورٌ الخادم مع عبد الواحد فقالا لمحمد بن ياقوت : أنت معتصم بهذه المدينةِ وبمالك ورجالِك ونحن لا مالَ معنا ولا رجال ومقامنا يضرُّك ولا ينفعك وقد عزمنا على أخْذِ الأمان لنا ولعبدِ الواحدِ بن المقتدر ، ! فأذن لهما فى ذلك فكتب إلى يلبق فأمّنهم ، فعبروا إليه . وبقى محمد بن ياقوت منفردا فتحير وضعفت نفسه فتراسل هو ويلبق واستقر بينهما أنْ يلبق يؤمنه ويضمن له أمان مؤنسٍ والقاهر ، ففعل . وخرج محمد بن ياقوت

معه إلى بغداد ولما وصلوا وَفَّى لهم القاهر بالله ، و أَطْلَقَ لعبد الواحد أملاكه وترك لوالدته المصادرة التى كان صادرها بها . واستولى أبو عبد الله البريدىّ على البلاد ، وعسف أهلها ، وأخذ أموال التجار وعمل بأهل البلاد ما لا تعمله الفَرَنْجُ ولم يمنعْه أحد عما يريد وأعاد إخوانه إلى أعمالهم .

ذكر استيحاش مؤنس وأصحابه من القاهر

/ فى هذه السنة استوحش مؤنس المظفر ويلبق الحاجب وولده علىّ والوزير أبو على بن مقلة من القاهر بالله وضيقّوا عليه وعلى أسبابه . وكان سبب ذلك أن محمد بن ياقوت تقدم عند القاهر وعلتْ منزلته وصار يخلو به ويشاوره ، فعظم ذلك على ابن مقلة لعداوةٍ كانت بينَه وبين ابن ياقوت ، فألقى إلى مؤنسٍ أن محمدًا يسْعى به عند القاهر وأن عيسى الطبيب يسفر بينهما فى التدبير عليه ، فَوجَّه مؤنس علىّ بن يلبق لإحضار عيسى الطبيب فوجده بين يدى القاهر ، فأخذه وأحضره عند مؤنسٍ فسيره من ساعته إلى الموصل ، واجتمعوا على الإيقاع بمحمد بنِ ياقوت وكان فى الخيام . فركب على ابن يلبق فى جند لِيَكْبِسَه ، فوجده قد اختفى فَنَهب أصحابه ، واستتر محمد بن ياقوت .

ووكل على بن يلبق على دار الخليفة أحمدَ بنَ زيزك (١) وأمره بالتضييق على القاهر بالله وتفتيش كل من يدخل الدار ويخرج منها ،

(١) فى شذرات الذهب ٢ : ٢٨٧ « ابن زبرك » وما هنا عن ف صفحة ٣٢ ب وفى «ا» غير منقوط

وأن يكشف وجوه النساء ، وإن وجد رقعةً رفعها إلى مؤنس ففعل ذلك وزاد عليه حتى إنه حُمل إلى دار القاهر لبنٌ فأدخل يدَه فيه . ونقل يلبق من كان بدار القاهرِ محبوساً إلى داره كوالدة المقتدر وغيرها ، وقطع أرزاق حاشيتِه . فعلم القاهر أن العتاب لا يفيد وأنَّ ذلك برأيِ مؤنس وابن مقلة ، فأخذ فى الحيلة والتدبير / على جماعتهم . وكان قد عرف فَساد قَلْبِ طريفٍ السبكرى وبشرى خادم مؤنس (١) وحسدهُما ليلبق وولدِه على مراتبهما ، فشرع فى إغرائهما بيلبق وابنه . وعلم أيضا أن مؤنسا ويلبقَ أكثرُ اعتمادِهما على الساجية أصحاب يوسف بنِ أبي الساجِ وغلمان المنتقلين إليهما بعده ، وكانا قد وعداهم بالموصل مواعد أخلفاها فأرسل القاهر إليهم وأغراهم بهما وحلف لهم على الوفاء بما أخلفاه ، فتغيرت قلوبُ الساجية . ثم أرسل أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله وكان صاحب مشورة ابن مقلة ، ووعده بالوزارة فكان يطالعه بالأخبار .

٥١ ـ ب

ذكر القبض على مؤنس المظفر

ويلبق الحاجب وابنه

وسبب ذلك أنه صحّ عندهم أن القاهر يُدبِّر عليهم فخافوه ، وحملَهُم الخوفُ على الجدِّ فى خَلْعِه ، واتَّفقَ رأيُهم على البيْعةِ لأبى أحمد بن المكتفى ، فاستخلفوه وعقدوا له البيعةَ سِرًّا ، وحلَفَ له يلبقُ وابنُه علىٌّ والوزير ابنُ مقلة والحسنُ بن هارون ثم كشفوا الأمر لمؤنسٍ فقال : لست أشكُّ فى شَرِّ القاهرِ وخُبْثِه ، ولقد كنت كارِها

(١) فى ك صفحة ٢٨ « بشر خادم مونس »

/ لخلافَتِه وأشرْتُ بابن المقتدر بالله فخالفتم رأيى ، وقد بالغْتُم ٥٢ ـ ا
فى الاستهانَةِ به وما صبر على الهوانِ إلا من خُبْثِ طَوِيَّته
ليدبِّر عليكم ، فلا تعجلوا حتى تؤنسوه وينبسطَ إليكم ثم تعرفوا
من وطَّأه من القواد والساجية والحجرية واعملوا بعد ذلك ! فقال
علىّ بن يلبقَ والحسنُ بن هارون : ما يحتاج إلى هذا التطويل فإن
الحَجَبَةَ لنا والدار فى أيدينا وما نحتاج [إلى] (١) أن نستعين فى
القبض عليه بأحدٍ لأنه بمنزلةِ طائرٍ فى قفصٍ ! وعملوا على معالجته .

فاتفق أنْ سقَطَ يلبقُ من الدَّابة فاعْتَلَّ ولزم بيتَه ، فاتفق علىٌّ وابنُ
مقلةَ وحسَّنَا لمؤنسٍ خَلْعِ القاهر وهوَّنا عليه أمره ، فأَذِن لهما .
فاتَّفَقَ رأيُهما على أن يُظْهِر أنَّ أبا طاهرٍ القرمطى دخلَ الكوفةَ وأن علىَّ
بنَ يليق سائر لِقِتَالِهِ ومنْعِهِ من بغداد ، فإذا دخل لوداع القاهر بالله
قَبضَ عليه ، . فأشاعا ذلك ، وكتب ابنُ مقلةَ رقعةً إلى الخليفة
يُعرِّفُه ذلك ويقول : « إننى قد جهَّزْتُ علىَّ بنَ يلبق ليسير فى هذا اليوم
وأن يحضر العَصْرَ للخدمة ليأمره مولانا بما يراه » فكتب القاهر
فى جَوَابِه يشكره ويأذن فى حضور ابن يلبق . فجاء جواب الخليفةِ
وابنُ مقلةَ نائم فتركوه ولم يوصلوه إليه . فلما استيقظ كتب رقعةً
أخرى فى المعنى ، فأنكر القاهرُ الحالَ .

فهو فى هذا إذ وصلته رقعة طريف السبكرى يذكر أن عنده
نصيحة وأنه قد حضر فى زىِّ النِّساء لينهيها إليه ، فاجتمع به القاهر ،
فذكر له جميع ما عزموا عليه [وما هم فيه] (٢) وما فعلوه من

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) زيادة من ك صفحة ٢٩ .

التدبير . فأنفذ القاهرُ إلى الساجية فأحضرهم متفرقين وكمنهم في الدهاليز والممرات والرّواقات ، وحضر على بن يلبق بعد العصر وفي رأسه نبيذٌ ومعه عددٌ يسير من أصحابه في طيارٍ له . وأمر جماعةً من أصحابه بالركوب إلى الأبواب وصعد من الطيارِ وطلب إذْنَ القاهر فلم يأذن له فغضب وأساء أدبه وقال : لابُدَّ من لقائه شاء أو أبى ! فأمر القاهرُ الساجيةَ بردِّه ، فخرجوا إليه وشتموه وشتموا أباه ، وشهروا سلاحهم وتقدموا إليه ، ففَرَّ أصحابُه عنه وألقى نفسه في الطيّارِ وعبر إلى الجانب الغربي واختفى من ساعته

وبلغ ابن مقلة الخبر فاستتر ، واستتر الحسن بن هارون ، فلما سمع طريفٌ الخبر ركب في أصحابه بالسلاح ، وحضر إلى دار الخليفة ووقف عند القاهر بالله . فعظم الأمر حينئذ على ابن يلبق وجماعتهم وأنكر يلبق ما جرى على ابنه ، وسبَّ الساجيةَ وركب إلى دار الخليفة في جميع القُوّادِ الذين بدار مؤنس ، فلم يصل إلى القاهر وقَبَضَ عليه وعلى أحمد بن زيرك صاحب الشرطة وحبسهما وحَصَلَ الجيش / كلُّهم في الدّارِ فأنْفَذَ القاهر إليهم وطيَّب قلوبهم ووعدهم الزيارة ، وأنه يوقف هؤلاء على ذنوبهم ثم يطلقهم ويحسن إليهم فعادوا ٥٣ ـ ١

وراسل القاهرُ مؤنسًا في الحضور عنده ليعرضَ عليه ما وقع عليهم ليفعل ما يراه وقال : : إنه عندي بمنزلة الوالد ، وما أُحبُّ أن أعمل إلا عن رأيه ! فاعتذر مؤنس عن الحركة ، ونهاه أصحابُه عن الحضور إليه فلما كان من الغد أحضر القاهر طريفاً السبكري وناوله خاتمه

وقال له : قد فَوَّضْتُ إلى ولدى عبد الصَّمد ما كان المقتدر فَوَّضه إلى ابنه محمد وقلدتُك خلافَتَه ورئاسةَ الجيش وإمارةَ الأُمراء وبيوتَ الأَموال كما كان ذلك إلى مؤنسٍ فامْض إليه واحمله إلى الدار فإنه مادام فى منزله يجتمع إليه من يريد الشر ولا نأمن أمره ! فمضى إلى دار مؤنس وعنده أصحابُه فى السلاح فسأله أصحاب مؤنس عن الحال فذكر سوءَ صنيع يلبقَ وابنهِ فكلُّهم سبَّهُما ، وعرَّفهم ما أخذ لهم من الأَمان والعهودِ فسكنوا . ودخل إلى مؤنس وقد استولى عليه الكِبَرُ والضَّعْفُ وأشار عليه بالحضور عند القاهر وقال : إن تأخرت طمع ولو رآك نائما ما تجاسر أن يوقظك ! / فسار إليه ، فلما دخل الدَّار قبض عليه وحبسه ، وذلك فى ممتهل شهر شعبان . ٥٣ ـ ب

وأمر القاهر بالختم على دور مَنْ قَبَضَ عليهم ونقل دوابّهم ووكل بحريمهم ، وأمر بنقل ما فى دار ابن مقلة وحرقها ، ونُهِبَتْ دورُ المعتقلين بها . وظهر محمد بن ياقوت وقام بالحجبة ، ثم رأى كراهة طريف والساجية له فاختفى وهرب إلى ابنه بفارس ، فكاتبه القاهر يلومه على عجَلَتِه بالهرَب وقلد كورالأَهواز ، . واستقدم القاهرُ عيسى الطبيب من الموصل ، وَجدَّ القاهرُ بالله فى طلب أحمد بن المكتفى ، فظفر به ، فبنى عليه حائطا وهوحَىٌّ فمات .وظفر بعلى بن يلبق ، واستعمل على الحجبة سلامةَ الطولونىَّ وعلى الشرطة أحمد بنَ خاقان .

ذكر مقتل مؤنس ويلبق

وابنه علي والنوبختي

كان مقتل هؤلاء في شعبانَ سنةَ إحدى وعشرين وثلاثمائة . وسبب ذلك أن أصحاب مؤنس شغبوا وثاروا ، وتبعهم سائر الجند ، ونادوا بشعار مؤنس ، وقالوا لا نرضى إلا بإطلاقه . وكان القاهر قد ظفر بعليّ بن يلبق ، وأفرد كلَّ واحدٍ منهم في بيت ، فلما / شغب الجند دخل القاهر إلى علي بن يلبق فأمر به فذُبح وجُعلَ رأسُه في طست . ومضى والطست بين يديه حتى دخل على يلبق ، فلما رأى رأس ابنه بكى وقبّله ، فأمر به القاهر فذُبح وجُعل رأسه في طست . وحُمِلا بين يديه ، ومضى حتى دخل على مؤنسٍ فوضعهما بين يديه . ٥٤ ـ ا

فلما رآهما تشهّدَ واسترجع ولعن قاتلهُما ، فقال القاهر : جُرُّوا بِرِجْلِ الكلب الملعون ! فجَرُّوا بِرِجْله وذبحوه ، وجعلوا رأسهُ في طست . وطيف بالرؤوس في جانبي بغداد ونُودي عليها « هذا جزاء من يخون الإمام ويَسْعَى في فساد دولته » ثم أعيدتْ فنظِّفت وجُعلت في خزانةَ الرؤوس على العادة (١) . ولما قتلهم القاهر بالله اشتد أمره ، وقَوِيتْ نفسه ، وخافه منْ حوله مِمَّنْ وافقه وباطَنَه على قتلهم . وقَتَل أبا يعقوب النوبختي ، ولقّب نفسه بعد ذلك « القاهر بالله المنتقم من أعداء الله لدين الله . » وضرب ذلك على الدنانير والدراهم .

(١) راجع مرآة الجنان ٢ : ٢٨١ وشذرات الذهب ٢ : ٢٨٧ وعبارة صاحب الشذرات « بدت من القاهر شهامة وإقدام فتحيل حتى قبض على مؤنس ... » وهي توحي بما كان لدى هؤلاء من سلطان وما أقدم عليه القاهر من خطر !

ذكر وزارة أبى جعفر محمد بن القاسم
وعزله وولاية الخَصيبي

قال (١) : ولما قَبَضَ القاهرُ باللهِ على مَنْ ذكرناه وعَرب ابنُ مقلةَ سأل : / من يصلح للوزارة ؟ فَدُلَّ على أبى جعفر ابن القاسم ٥٤ ـ ب
بن عبيد الله ، فاستَوْزَره فى شعبان فبقى وزيرا إلى يوم الثلاثاء ثالث عشر ذى القعدة من السنة ، فقبض القاهر بالله عليه وعلى أولاده وأخيه عبيد الله وحرمه ، وكان مريضا بقولنج ، فبقى محبوسا ثمانية عشر يوما ومات ، فَحُمِل إلى منزله وأُطْلِقَ أولادُه . واستوزر أبا العباس أحمدَ بنَ عبيد الله بن سليمان الخَصيبى فكانت وزارة أبى جعفر ثلاثةَ أشهر واثنى عشر يوما [والله تعالى أعلم] (٢) .

ذكر القبض على طريف السبكرى

كان طريف كما ذكرناه قد أعان القاهرَ بالله على القبض على مَنْ ذكرنا ، وثَبَّتَ قواعدَ دَوْلَتِه . فلما قَوِى القاهرُ بالله لم يقف عند أيمانِه لطريف وبقى يُسْمِعُه ما يكره ، ويستَخِفُّ به ، ويَعرِضُ له بالأذى . فلما رأى ذلك خافَه وتيقن السوء ، فلما قبض القاهرُ على الوزير أبى جعفر أحضر طريفًا وقَبَضَ عليه ، فبقى محبوسا يتوقع القتل صباحًا ومساءً إلى أن خُلع القاهر بالله .

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٢٩
(٢) زيادة من ك صفحة ٣٠

وفى هذه السنة أمر القاهر بتحريم الخمرة والغناء [١] وسائر الأنبذة ، ونَفَى بعْضَ مَنْ كان يُعْرَف بذلك إلى البصرةِ والكوفة وأمر ببيْعِ الجوارى والمغنيات على أنَّهُنَّ سواذِجُ لا يَعْرِفْنَ / الغناء ، ثم وضع منْ يشترى له كلَّ حاذقةٍ فى صنْعَةِ الغناء ، فاشترى له منهن ما أراد بأبْخَسِ الأثمان . وكان القاهر مُشْتهرًا بالغناء والسَّماع ، فجعل ذلك طريقًا إلى تحصيل غَرَضِهِ ، وهذه نهايةُ فى الخِسَّةِ والشُّحِّ ، نعوذ بالله من ذلك !

٥٥ ـ ا

وفيها كان ابتداء الدولة الدَّيلمية البويهية ، وسيأْتى ذكرها إن شاء الله تعالى [٢] . وفيها أمر علىُّ بن يلبق – قبل القَبْض عليه – بِلَعْنِ معاويةَ بنِ أبى سفيان وابنه يزيد على المنابر [٣] .

ودخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة :

ذكر خلع القاهر وسمله وشىء من أخباره

كان خلع القاهرِ وسمْلُه فى يوم الأربعاء لِسِتٍّ خلون من جُمادى الأُولى من هذه السنة ، وسبب ذلك أنَّ أبا علىٍّ بن مقلةَ والحسنَ بنَ

(١) يروى أنه أمر بكسر آلات الطرب (مرآة الجنان ٢ : ٢٨١)

(٢) فى المنتظم ٦ : ٢٠٧ أن بدء ظهور الديلم كان سنة ٣١٥ بتغلب لنكى بن النعمان على الرى ، وفيه أيضا ٦ : ٢٤١ وفى شذرات الذهب ٢ : ٧٨٣ أن مرداويج الديلمى لما قوى وخافه الخليفة عقد له سنة ٣٢٠ على أذربيجان وأرمينية وإيران وقم ونهاوند وسجستان . والمعروف أن بلاد الديلم الأصلية هى ما بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر كما يقول المقدسى ، إلا أن توسعهم فى القرن الرابع الهجرى جعل الجغرافيين يضيفون إليهم الأراضى المحيطة ببحر الخزر والتى تحدها خراسان شرقا وأذربيجان غربا .

(٣) راجع المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٦ : ٢٤٩ وفيه أن العامة اضطربت من ذلك .

هارون كانا قد استترا من القاهر ، وجدّ فى طلبهما فلم يظفر بهما فكانا يراسلان قُوّاد السّاجية والحجرية ويخوّفانهم من شَرّه ويذكران غَدْرَه ، وأنه لا يتمسّك بأيمانه ، وأنه قَبَضَ على طريف بعد نُصْحِه له ، إلى غير ذلك . وكان ابنُ مقلةَ يجتمع بالقُوّاد ليلاً — تارةً فى زِىٍّ أعمى وتارةً فى زِىٍّ مكدٍ وتارةً فى زىّ امرأةٍ — ويغريهم بالقاهر . ثم إنه أعطى منجماً كان لِسيما رئيس الساجية ومقدّمهم مائتى دينار ، / وأعطاهُ الحسنُ مائةَ دينارٍ فكان يذكر لِسيما ٥٥ ب
أن طالعه يقتضى أنّ القاهر ينكُبُه ويقتُلُه . وأعطى ابنُ مقلةَ . أيضا شيئا لمُعبِّرٍ (١) كان لسيما ، فكان يُحذِّرُه من القاهر [بالله] (٢) فازداد نُفورًا ونَقَل إلى سيما أنّ القاهر يريد القَبْضَ عليه ، فجمع الساجيةَ وأعطاهم السّلاح ، وأنفذ إلى الحجرية فاجتمعوا وتحالفوا على اجْتماعِ الكلمة وقَتْلِ منْ خَالَف منهم . فاتصل ذلك بالقاهر وبوزيره الخَصيبى فأرسل إليهم «ما الذى حملكم على هذا ؟» فقالوا : قد صحّ عندنا أنّ القاهر يريد القَبْضَ على سيما وقد عمل مطاميرليحبس قوادنا فيها !.

فلما كان فى يوم الأربعاء لستٍّ خلون من جمادى الأولى اجتمع الساجية والحجرية عند سيما وتحالفوا على القبض على القاهر ، فقال سيما : قوموا بنا الساعةَ حتى نُمْضِىَ العزْم ، فإنه إنْ تأخر عَلِم به واحترز وأهلكنا ! وبلغ ذلك الوزير فأرسل سلّامًا الحاجب

(١) المعبر : مفسر الأحلام .
(٢) زيادة من ك صفحة ٣٠

وعيسى الحاجب وعيسى الطبيب ليعلماه بذلك ، فوجداه نائما قد شرب أكثر ليلته ، فلم يقدر على إعلامه بذلك ، . وزحف الحجرية والساجيةُ إلى دار الخلافة ، ووكل سيما بأبوابها من يحفظها ، وبقى هو على باب العامّةِ وداجموا الدّارَ من سائر الأبواب . فلما سمع القاهر الأصوات والجلَبَةَ استيقظ. وهو مخمور ، وطلب بابًا يهرب منه ، فقيل له إن الأبواب جميعها مشحونةٌ بالرجال / فهرب إلى سطح حمام ٥٦ ـ ا
ودخل القومُ فلم يجدوه ، فَدلَّهُم خادمٌ صغير على مَوْضِعِه فقصدوه . فإذا بيده سيف فألانوا له واجتهدوا به ، فلم ينزلْ وقال : من صعد إلىَّ قتلتُه ! فأخذ بعضُهم سهما وقال : : إن نزلتَ وإلا وضَعْتُه فى نحرك ! فنزل حينئذٍ إليهم وساروا إلى الموضع الذى فيه طريفٌ السبكرى فأخرجوه وحبسوا القاهر مكانه [1] واستدعَوْا فى تلك الليلة أحمدَ بنَ أبى الحسين الصابئ فكَحلَ [2] القاهر بعد أن أقيم بين يَدَى الراضى بالله ، وسلَّم عليه بالإمارة .

وقيل فى سبب خَلْعِه إنه لما تمكَّنَ من الخلافة تنقَّص الساجية والحجريةَ على مَرِّ الأيام حتى كان لا يقضى لأكابرهم حاجةً ، ويلزمهم النَّوْبةَ فى دارِه ، ويؤخر أعطياتهم ويغلظ لمن يخاطبه منهم فى أمرٍ ، فأقبل بعضهم ينذر بعضا ويتشاكون . ثم كان يقول

(١) راجع واقعة القبض عليه فى مرآة الجنان ٢ : ٢٨٤ وفى شذرات الذهب ٢ : ٢٩٢ وفى المنتظم ٦ : ٢٦٥ .

(٢) كان كحل العينين وسيلة للسمل ، وقد ذكر ابن تغرى بردى أن عينى القاهر بعد الكحل سالتا على خديه فعمى ، وذكر مسكويه أن بختيشوع بن يحيى المتطبب هو الذى دل المتآمرين إلى الذى عمله !

لسلامة حاجبه : أنت بين يَدَىَّ كَنْزُ مال يمشى فأى شىء يتبيَّنُ فى مالك لو أعطيتنى ألف ألف دينارٍ ! فيحمل ذلك على الهزل ، وكان وزيره الخَصِيبى خائفا لما يرى منه

ثم إنَّه حَفَرَ فى الدار نحو خمسين مطمورةً وأحكم أبوابها ، فقيل إنها لمقدّمى الساجية والحجرية ، فازدادوا نفورا ، ثم إنَّ جماعةً من القرامطة أُخِذُوا من فارس وأُرْسلوا إلى بغداد فحبسوا فى تلك المطامير ، فتقدم القاهر سِرًّا بفتح الأبواب / عليهم والإحسان إليهم ، وعَزَم على أن يتَقَوَّى بهم بالقبض على مقدّمى الساجية والحجرية . فأنكروا حالَ القرامطةِ وكونَهم معه فى داره وهو يحسن إليهم ، وذكروا ذلك لوزيره وحاجبه فقالا له ، فأخرجهم من دارِ الخلافةِ وسلَّمهم إلى محمدِ بنِ ياقوت وهو على شُرْطَةِ بغداد فأنزلهم فى دارٍ وأحسن إليهم . ثم صار القاهر يذمُّ الساجيةَ والحجرية فى مجلسه ويظهر كراهتهم ، فلما تبينوا ذلك من وجهه وحركاته أظهروا أنَّ لبعض قوادهم عُرْسا ، فاجتمعوا بِحَجَبَتِهِ (١) وقرروا بينهم ما أرادوا وافترقوا . وأرسلوا إلى سابور خادم والدة المقتدر (٢) وكان قد اختَصَّ به فقالوا له : قد علمتَ ما فعل القاهر بمولاتِك وقد ركبتَ فى موافقته كلَّ عظيم فإن وافقتنا على ما نحن عليه وتقدمت إلى الخدم بِحِفْظِه فعفا الله عما سلف منك وإلا فنحن نبدأ بك !

٥٦ ب

(١) فى الأصل « فاجتمعوا بحجبه » وفى ك صفحة ٣١ « فاجتمعوا لحجبه » وهو تصحيف

(٢) فى ك ، ف ٣٣ – ب « خادم أم المقتدر بالله » .

فأعلمهم ما عنده من الخوفِ والكراهة للقادر ، وأنه موافقهم . هذا وابنُ مقلةَ يسعى كما ذكرنا

قال (١) : ولما قُبِضَ على القادر هرب وزيره الخَصيبي وحاجبُه سلامة ، فكانت خلافةُ القادر باللهِ سنةً واحدةً وستةَ أشْهُرٍ وثمانيةَ أيام وهو أولُ خليفةٍ سُحِلَ ، ولم يزل فى دار السلطان إلى أن أخرج المستكفى بالله فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وردَّه إلى داره فأقام / مدةً ثم خرج إلى جامع المنصور فى يوم الجمعة ، وقام فعرَّف النَّاسَ نَفْسَهُ وتصدَّقَ منهم وقال : أنا خليفتكم بالأمس وسائلكم اليوم ! فأعطاه ابنُ أبى موسى ألف درهم (٢) وردَّه إلى داره وتوفى فى خلافة المطيع فى يوم الجمعة ثالث جُمَادى الآخرة سنةَ تسع وثلاثين ، ودُفن فى دار طاهر وله اثنتان وخمسون سنةً . وكان أبيضَ يعلوه حمرة مربوعا أعين وافر اللحيـــة ألثغَ شـــديـــدَ الإقدام على سَفْكِ الدِّماء ، أدوجَ مُحبًّا لجمع المال قبيحَ السياسة . وقد تقدم من أفعاله وضَرْبِه لوالدة أخيه المقتدر ومصادرتِها ومصادرة أولاد أخيه وأمهات أولاده ما يُستدل به على قبح أفعاله وسوءِ طَوِيَّتِه وعدم تمسكه بما يبذله من الأيْمانِ المغلَّظة والعهود المؤكَّدةِ ثم لا يقف عند ذلك . وكان نقش خاتمه « محمد رسول الله » وكان له من الأولاد أبو الفضل عبد الصمد وأبو القاسم عبد العزيز وهو ولى عهده .

٥٧ ـ ا

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٣٧

(٢) فى المنتظم ٦ : ٢٦٥ « فرآه أبو عبد الله بن أبى موسى فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم »

وزراؤه : أبو على بن مقلة ، ثم محمد بن القاسم ، ثم أحمد بن عبد الله الخَصيبي .

حُجَّابُه : على بنُ يلبق ، ثم سلامة الطولونى .

قاضيه : عمر بن محمد بن يوسف .

الأُمراء بمصر : تكين ثم محمد بن طُغج الفَرْغَانى (١) المعروف بالإخشيد ، ثم أحمد بن كَيْغَلَغ ، وتغلَّب محمد بن تكين فى أيامه ثم عاد الأمر إلى ابن كَيْغَلَغ . ٥٧ ب

القضاة بها : ولَّى القاهرُ محمد بن الحسين بن أبى الشوارب فاستَخْلَف أبا جعفر أحمد بن عبد الله بن قُتَيْبَة فشغب الرعية عليه ولم يزل إلى أن صُرِف ابن أبى الشوارب ، ورد القضاء إلى أبى عثمان أحمد ابن إبراهيم بن حماد وإلى عبد الله بن موسى السرخسى .

ذكر خلافة الراضى بالله

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله ، وأمه أم ولد اسمها ظَلوم ، . وهو الخليفةُ العشرون من الخلفاء العباسيين بويع له بعد خلع عمِّهِ القاهرِ فى يوم الأربعاء لستٍّ خلون من جمادى الأُولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، وذلك أنه لما قُبض القاهر كما ذكرناه سألوا الخدم عن المكان الذى هو فيه وكان محبوسًا هو ووالدته ، فَدلُّوهم عليه فقصدوه وفتحوا عليه وسلموا عليه بالخلافةِ وأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر بالله ولقبوه الراضى

(١) فى ك صفحة ٣١ « محمد بن مفلح الفرغانى » وهو تصحيف ، وعن النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٢٥ محمد بن طغج بن جف بن يلتكين بن فوران بن فورى الأمير أبو بكر الفرغانى التركى

بالله ، وبايعه القُوَّادُ والناسُ ، وأُقيم القاهر بين يديه وسلَّم عليه بالإمارة . .

قال (١) : ولما ولى أمر بإحضار علىّ بنِ عيسى وزيرِ المقتدر بالله وأخيه عبد الرحمن وصدر / (٢) عن رأيهما فيما يفعله . وأراد علىّ بنَ عيسى على الوزارةِ فامتنع ، لِكِبرِه وضَعْفِهِ ، وأشار بابن مقلة ثم قال سيما للراضى بالله : إن الوقت لا يحتمل أخلاق علىّ وابنُ مقلةَ أليق ، فكتب له أمانًا فحضر واستوزره . ٥٨ ـ ا

فلما وزَر أحسن إلى كلٍّ من أساء إليه وقال عاهدتُ الله عند اسْتِتَارى بذلك ! وأرسل إلى الخَصيبى وعيسى الطبيب بالأمان فظهرا ، فأحسن ابنُ مقلةَ إليهما ، فاستعمل الخصيبى واستعمل [أبا] (٣) الفضل بن جعفر بن الفرات نائبا عنه على سائر الأعمال بالموصل والجزيرة وديار بكر وطريق الفرات والثغور الجزيرية والشامية ، وأجناد الشام ومصر . واستعمل الراضى بالله على الشرطة بدرًا الخرشنى واستعمل محمد بن ياقوت على الحجبة ورئاسة الجيش ، وأدخل يده فى أمر الدواوين ، وتقدم إليهم بأن لا يقبلوا توقيعا بولاية وعزلٍ وإطلاقٍ إلا إذا خَطَّه عليه ، وأمرهم بحضور مجلسه فصبر ابنُ مقلةَ على ذلك وألزم نفسه بالمصير إلى دار إبن ياقوت فى بعض الأوقات كالمتعطل .

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٣٧

(٢) سقطت هذه الصفحة ٥٨ بأكملها من الأصل ، واستعضنا عنها بما ورد فى ك ٣٢ وف صفحة ٣٥ ـ ا

(٣) زيادة من الكامل ٦ : ٢٣٨

ذكر مقتل هارون بن غريب

في هذه السنة قُتل هارون بن غريبٍ الخالِ ، وسبب ذلك أن القاهر باللهِ كان استعمله على ماه الكوفةِ وما سبذان وغير ذلك كما ذكرناه . فلما استخلف الراضي بالله رأى هارونُ أنه أحق بالدولةِ من غيره لِقَرابتِه من الراضي بالله . وكاتَب القُوَّاد ببغداد يعدهم الإحسانَ والزيادة في الأرزاق ، ثم سار من الدينور إلى خانقين (١) ، فعظم ذلك على ابن مقلة وابن ياقوت والحجرية والساجية ، وشكوا ذلك إلى الراضي بالله فأعلمهم أنه كاره له وأذن لهم في منعه . فراسلُوا له وبذلوا طريقَ خراسان زيادةً على ما بيده ، فلم يقنعْ وتَقَدَّم إلى النَّهْرَوَان وشَرع في جِبايةِ الأموال ، وظَلَم النَّاس ، سفَهم وقَويتْ شوكته . فخرج إليه محمدُ بنُ ياقوتٍ في سائرِ جيوش بغداد ونزل قريبا منه ، فهرب بعض أصحاب محمد ابن ياقوت إلى هارون . فراسله ابن ياقوت يستميله ، ويبذل له فقال : لابُدَّ من دخول بغداد !

فلما كان في يوم الثلاثاء لِستٍّ بقين من جُمادى الآخرة تزاحف العسكران واشتد القتال فاستظهر أصحاب هارون لكثرتهم ، وانهزم أكثر من مع ابن ياقوت ونهب أكثر سوادهم وكَثُر فيهم القَتْلُ والجراح ، فسار محمد حتى قطع قنطرة نهر هناك . فبلغ ذلك هارون ، فسار نحو القنطرة منفردا عن أصحابه طمعا في أسر محمد بن ياقوت وقتله ،

(١) بلدة في السواد بطريق همذان يقول ياقوت إنه كان بها عين نفط ، وقال البشاري « وخانقين أيضا بلدة بالكوفة »

فتقنطر به فرسُه فسقط عنه في ساقية فلحقه غلام له اسمه يمن
٥٩ ـ ا فضربه بالطبرزين حتى أثخنه / وكسر عظامه ثم نزل إليه فذبحه ، ثم
رفع رأسه وكبرّ فانهزم أصحابُه وتفرقوا ودخل بعضُهم بغداد
سِرًا . ونُهِب سوادُ هارون ، وقُتل جماعةُ قوادِه ، وأُسر جماعةٌ ،
وسار محمد إلى موضع جثة هارون فأمر بحملها إلى مضربه وأمر
بغَسْلِه وتكفينه وصلىَّ عليه ودفَنَه ، ودخل بغداد ورأسُ
هارونَ بين يديه ورؤوس جماعةٍ من قواد هارون فنُصبتْ ببغداد !

ذكر مقتل ابن الشلمغانى ومذهبه

فى هذه السنة قتل أبو جعفر محمد بن على الشَّلَمْغانى المعروف بابن أبى العراقيد (١) ، وشَلَمغان التى ينسب إليها قرية بنواحى واسط ، وكان سبب ذلك أنه قد أحدث مذهبا غاليا فى التشيُّع والتناسخ وحلول الإلهية فيه ، إلى غير ذلك ، وكان ظهورُه فى مبدأ وزارة حامد بنِ العباس أحدِ وزراء المقتدر بالله ، ثم اتصل الشَّلَمْغَانى بالمحسن بن الفرات فى وزارة أبيه الثالثة ، ثم طُلب فى وزارة الخاقانى فاستتر وهرب إلى الموصل . وبقى سنين عند ناصر الدولة بن حمدان ، ثم انحدر إلى بغداد واستتر ، ثم ظهر عنه أنه يَدّعى الربوبيةَ لنفسه . وقيل إنه اتَّبعه على ذلك
٥٩ ـ ب الحسينُ ابن القاسم بن عبيد الله (٢) بن سليمان بن وهب / الذى

(١) فى الكامل ٦ : ٢٤١ المعروف بابن أبى القراقر ، وفى المنتظم ٦ : ٢٨١ « ويعرف بابن العزاقير » وقد ورد ذكره فى مرآة الجنان ٢ : ٢٨٤ وشذرات الذهب ٢ : ٢٩٣ .

(٢) فى الكامل ٦ : ٢٤١ « عبد الله »

وزر للمقتدر بالله ، وأبو جعفر ، وأبو على ابنا بسطام ، وإبراهيم ابن محمد بن أبى عون ، وابن شبيب ويزيد وأحمد بن محمد بن عبدوس .. كانوا يعتقدون ذلك فيه وظهر ذلك عنهم ، وطُلبوا فى وزارة بن مقلة للمقتدر فلم يوجدوا .

فلما كان فى شوال سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ظهر ابن الشَّلَمْغانىّ فَقَبَضَ عليه الوزيرُ ابنُ مقلةَ وسجنَه وكبس داره فوجد فيها رِقاعا وكتبا ممَّن يدعى فيه الربوبيةَ يخاطبونه بما لا تخاطب به البشر بعضهم بعضا . وفيها خط الحسين بن القاسم ، فعرضت الخطوط عليه فأقَرَّ أنها خطوطُهم وأنكر مذهَبه ، وأظهر الإسلام وتَبَرَّأ مما يقال فيه . فأُخِذَ ابنُ أبى عون وابن عبدوس فأُحضرا معه عند الخليفة وأُمِرا بصفعه فامتنعا ، فلما أُكرها صفعه ابن عبدوس ، ومدَّ ابن أبى عون يده إلى لحيته ورأسه فارتعدت يده فَقَبَّل لحيتَه ورأسه وقال : إلهى وسيدى ورازقى ! فقال له الراضى : قد زعمت أنك لا تَدَّعِى الإلهيه فما هذا ؟ فقال : وماعلىّ مِنْ قَوْلِ ابن أبى عون ، والله يعلم أننى ما قلتُ له إنى إله قط ! فقال ابنُ عبدوس : إنه لم يدَّعِ الإلهيةَ وإنما ادَّعى أنه البابُ إلى الإمام المنتظر مكان الحسين بن روح !

ثم أُحْضِروا عدةَ مراتٍ ومعهم القضاةُ والفقهاءُ وغيرهم ، وفى آخر الأمر أفتى الفقهاءُ بإباحة دمِه / فَصُلِب هو وابن أبى عون ، وأُحْرِقا بالنَّار فى ذى القعدة . وكا "لحسينُ بن القاسم بالرَّقَّة فأرسل الراضى بالله إليه فقتل فى ذى القعدة ، وحُمِلَ رأسُه إلى بغداد . ٦٠ ـ ١

وكان مذهب الشلمغانى أنه إله الآلهة بحقٍّ الحق ، وأنه الأول القديم ، الظاهر الباطن ، الرازق التام ، المومأ إليه بكلٍّ معنى . وكان يقول : إن الله سبحانه وتعالى يحلُّ فى كل شىء على قدر ما يحتمل ، وإنه خَلَقَ الضِّدَّ ليدلَّ على المضدود ، فمن ذلك أنه حل فى آدم عليه السلام لما خلقه ، وفى إبليس لما خلقه وكلاهما ضِدٌّ لِصاحِبِه لمضادته إياه فى معناه ، وأنَّ الدليلَ على الحقِّ أفضلُ من الحقِّ ، وأن الضد أقرب إلى الشى من شبيهه ، وأن الله عزَّ وجلَّ إذا حلَّ فى جسدٍ ناسوتىٍ أظهر من المقدرة المعجزة مايدل على أنه هو ، وأنه لما غاب آدم ظهر اللاهوتُ فى خمسةِ ناسوتيةٍ كلما غاب منهم واحد ظهر مكانه آخر فى خمسة أبالسة أضدادٍ لتلك الخمسة ، ثم اجتمعت اللاهوتيةُ فى إدريسَ وإبليسهِ وتَفَرَّقَتْ بعدهما كما تفرقت بعد آدم ، واجتمعت فى نوح عليه السلام وإبليسهِ وتفرَّقت بعدهما ، واجتمعت فى صالح وإبليسه عاقرِ الناقة وتفرقت بعد هما ، واجتمعت فى إبراهيم عليه السلام وإبليسه نمرود وتفرقت لمَّا غابا واجتمعت فى موسى وإبليسه / فرعون وتفرقت بعدهما ، واجتمعت فى سليمان وإبليسه وتفرقت بعدهما ، واجتمعت فى عيسى وإبليسه فلما غابا تفرقت فى تلاميذ عيسى وأبالستهم ، ثم اجتمعت فى على بن أبى طالب وإبليسه . ٦٠ ب

وإنَّ الله يظهر فى كل شىء وكلِّ معنى ، وإنه فى كل أحد بالخاطر الذى يخطُر فى قلبه فيتصوَّرُ له ما يغيب عنه حتَّى كأنَّه يشاهده . وإن الله اسم لمعنًى ، وإن من احتاج الناس إليه فهو إله ،

ولهذا المعنى يستوجب كل أحد أن يسمى إلها ، وأن كل أحد من أشياعه لعنه الله يقول : إنه ربٌّ لمن هو فى دون درجته . وأن الرجل منهم يقول « أنا رب لفلان وفلان رب ربى » حتى يقع الانتهاء إلى ابن الشلمغانى فيقول : أنا رب الأرباب لاربوبية بعده ! ولا ينسبون الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما إلى علىٍّ ، لأن من اجتمعت له الربوبية لا يكون له ولد ولا والد .

وكانوا يسمون موسى ومحمدًا صلوات الله عليهما الخائنين ، لأنهم يدّعون أن هارون أرسل موسى وعليا أرسل محمدا فخاناهما . ويزعمون أن عليا أمهل محمدًا عدة سنين أصحاب الكهف فإذا انقضت المدة وهى ثلاثمائة وخمسون سنة انتقلت الشريعة .

ويقولون : إن الملائكة كل من ملك نفسه وعرف الحق ، وإن الجنةَ معرفتُهم وانتحالُ مذهبهم والنار الجهلُ بهم والعدولُ عن مذهبهم / ويعتقدون تَرْكَ الصلاةِ والصيام وغيرهما من العبادات ، ولا يتناكحون بعقد ويبيحون الفروج ، ويقولون : إن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث إلى كبراء قريش وجهابذة العرب ونفوسهم أبية فأمرهم بالسجود ، وإن من الحكمة الآن أن يُمْتَحنَ النَّاسُ بإباحة فروج نسائهم ، وإنه يجوز أن يجامع الإنسانُ منْ شاء من ذوى رحِمه وحُرم صديقه وابنه بعد أن يكون على مذهبه ، وإنه لابدَّ للفاضل منهم أن ينكح المفضول ليولج النورَ فيه ، ومن امتنع من ذلك قُلِبَ فى الدور الذى يأتى بعد هذا العالم إمرأةً ؛ إذ كان مذهبهم التناسخ . ٦١ ـ ا

وكانوا يعتقدون إهلاك الطالبيين والعباسيين ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ! وهذه المقالة شبيهة بالمقالة النصيرية ، فإنهم يعتقدون فى ابن الفرات ، ويجعلونه رأساً فى مذهبهم .

ذكر ظهور انسان ادعى النبوة

وفى هذه السنة ظهر بباسند [1] من أعمال الصغانيان رجل ادّعى النبوة فقصده فوج بعد فوج واتّبعه خلقٌ كثير وحارب من خالفه ، فقتل خلقا كثيرا ممن كذبه ، وكثر أتباعه خصوصا من أهل الشاش . وكان صاحبَ حِيَلٍ ومخاريق ، وكان يدخل يده فى حوض ماء فيخرجها مملوءةً دنانير إلى غير ذلك من المخاريق ، فكثر جمْعُه . فأنفذَ إليه ، أبو على بن المظفر ، جيشا فحاربوه وضيّقوا عليه – وهو فوق جبلٍ عالٍ – حتى قبضوا عليه ، وقتلوه وحملوا رأسه إلى أبى على ، وقتلوا خلقًا كثيرًا ممن اتبعه وآمن به . وكان يدَّعِى أنه متى مات عاد إلى الدنيا ، فبقى جماعة كبيرة بتلك الناحية مدةً طويلةً على مادعاهم إليه ثم اضمحلوا وفنوا .

٦١ – ب

وفيها سار الدمستق قرقاش فى خمسين ألفا من الروم فنازل ملَطْية وحصرها مدةً طويلة حتى هلك أهلها بالجوع ، وضرب خيمتين

(١) باسند : مدينة فيما وراء النهر ، وهى فى الصغانيان الولاية الضخمة التى تتصل بأعمال ترمذ ، ومشاربها من أنهار تمد إلى جيحون ، وهى شديدة العمارة كثيرة الخيرات (ياقوت فى معجم البلدان)

على إحداهما صليبٌ وقال : منْ أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب لِيُردَّ عليه أهله وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأُخرى وله الأمان على نَفْسِه ونبلغه مأْمنه ، فانحاز أكثر المسلمين إلى خَيْمةِ الصَّليب طمعًا فى أهلِهم ومالِهم . وسيَّر مع الباقين بطريقًا يبلغهم مأْمنهم ، وفتحها بالأَمان فِى مستهل جُمادى الآخرة ، وملكوا شِمْشَاط.(١) وخرَّبوا الأَعمال ، وأكثروا القتل ، وفعلوا الأَفاعيلَ الشنيعةَ ، وصار أكثر البلاد فى أيديهم .

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة :

ذكر القبض على ابنى ياقوت

/ فى هـذه السنة فى جُمادى الأُولى قبض الراضى بالله عـلى محمد والمظفر ابنى ياقوت ، وكان سبب ذلك أن الوزير أبا على بن مقلة كان قد قَلِقَ لتحكُّم محمدِ بنِ ياقوت فى الدولة بأَسرها ، وأنه هو ليس له حكم فِي شيء ، فَسعى به إلى الرَّاضى وأدام السِّعاية . فلما كان فِي خامس الشهر ركب جميع القواد إلى دارِ الخليفة على عادتهم ، وحضر الوزير وأظهر الرَّاضى أنه يريد يقلد جماعةً من القواد أعمالا ، وحضر محمد بن ياقوت للحجبة ومعه كاتبه أبو إسحاق القراريطى . فخرج الخدم فاستدعوا محمد بن ياقوت إلى الخليفة فدخل مبادِرًا ، فعدلوا به إلى حجرة هناك فحبسوه ؛ ثم استدعوا القراريطى فدخل فعدلوا به إلى حجرة ، ثم استدعوا ٦٢ ـ ا

(١) فى الأصل : سميساطوفى ك صفحة ٣٤ شميساط وقد آثرنا شمشاط لقربها من ملطية .

المظفر من بيته وكان مخمورا فحبسوه أيضا ، . وأنفذ الوزير ابن مقلة إلى دار محمد من يحفظها من النَّهْب ، وكان ياقوت حينئذ مقيما بواسط ، فلما بلغه القبض على ابنيه انحدر يطلب فارس ليحارب ابن بويه ، وكتب إلى الراضى باللهِ يستعطِفُه ويسأَلُ إيفادَ ولَدَيْه ليساعداه على حرْبِه .

ذكر حال أبى عبد الله محمد البريدى وتقدمه

فى هذه السنة قَوى أَمْرُ أَبى عبد الله البريدى وعظُم شأْنُه ، / وسببُ ذلك أنه كان ضـامنًا لأَعمال الأَهواز ، ثم اسـتولى عليها عسْكَرُ مرداويج الدَّيْلمى (١) ، وهزم ياقوت ، فجاء إلى البصرة وصار يتصرف فى أسافل أعمال الأَهواز مضافا إلى كتابة ياقوت . وادّعى أخواه ـ وكان إليهما ضمان السوس وجُنْد يسابور أَنَّ دَخْل البلاد لسنة اثنتين وعشرين أَخَذَه عسْكَرُ مرداويج وأَنَّ دخْلَ البلاد لسنةِ ثلاث وعشرين لا يحصل منه شىء ، لأَنَّ نُوَّاب مرداويج ظلموا الناس فلم يبْقَ لهم ما يزرعونه . وكان الأَمر بِضِدِّ ذلك فى السنتين ، فبلغ ذلك الوزير ابن مقلة فأَنفذ نائبا له ليحقِّقَ الحالَ فواطأَ ابنى البريدى وكتب بصدقهما فحصَّل لهما بذلك مالا عظيما وقويت نفوسهما وكان مبلغ ما أَخَذَاه أربعة آلاف أَلف دينار .

٦٢ ـ ب

وفيها قَتل ناصرُ الدولة بن حمدانَ عمَّه أَبا العلاء بن حمدان ،

(١) كان كبير الديالمة ، وفى ظله نمت السلالة البويهية بالأخوة الثلاثة عماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة وكان مرداويج يقول : أنا أرد دولة العجم وأبطل ملك المنتظم ٢٦٨٦)

وسبب ذلك أن أبا العلاء سعيدًا ضمن الموصل وديار ربيعة سرا ، وكان بها ناصر الدولة أميرًا . فلما وصل إلى الموصل خَرج ابنُ أخيه للقائه فخالفه فى الطريق قَصْدًا منه ، فوصل أبو العلاء ودخل دار ابن أخيه وقعد ينتظره ، فأنفذ ناصر الدولة جماعةً من غلمانه فقبضوا عليه ثم أنفذ جماعة غيرهم فقتلوه .

ذكر مسير ابن مقلة الى الموصل

وما كان بينه وبين ناصر الدولة

/ قال [١] : لما قَتَل ناصرُ الدَّوْلةِ عَمَّه أبا العلاء واتَّصَل خَبَرُه بالراضى بالله عظُم ذلك عليه وأنكره ، وأمر الوزيرَ ابنَ مقلةَ بالمسير إلى الموصل ، فسار إليها فى شعبان بالعساكر . فلما قاربها رَحلَ عنها ناصر الدولة ودخل الزوزان [٢] ، وتبعه الوزير إلى جبل التِّنين [٣] ثم عاد عنه ، وأقام بالموصل يجبى أموالَها . فلما طال مقامُه بالموصل احتال بعضُ أصحاب ابن حمدان على ولد الوزير – وكان ينوب عنه فى الوزارة ببغداد – فبذل له عشرةَ آلافِ دينارٍ ليكتب إلى أبيه يستدعيه فكتب إليه يقول : إن الأمور بالحَضْرَةِ قد اختلَّتْ وإنَّ تأخُّرَه لم يؤمن معه حدوث ما يبطل أمرهم . فانزعج الوزير لذلك ، واستعمل على الموصل علىَّ بنَ خلف بن

٦٣ – ا

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٤٩

(٢) الزوزان : مدينة أهلها أرمن فى كورة بين جبال أرمينية وبين أذربيجان وديار بكر والموصل .

(٣) جبل التنين : مشهور كما يقول ياقوت قرب جبل الجودى من أعمال الموصل

طباب [١] وماكرد الدَّيْلَمى - وهو من الداجية - وانحدر إلى بغداد فى منتصف شوال . فلما فارق الموصل عاد إليها [ناصر الدولة] [٢] بن حمدان فاقتتل هو وماكرد الديلمى ، فانهزم ابن حمدان . ثم عاد وجمع عسكرا آخر ، والتقوا على نصيبين فى ذى الحجة فانهزم ماكرد إلى الرَّقَّة ثم إلى بغداد ، وانحدر ابنُ طباب أيضا ، واستولى ابن حمدان على الموصل والبلادِ وكتب إلى الخليفة يسأله الصُّلْح وأن يضْمنَ البلاد فأُجيب إلى ذلك . وفيها فى المحرم قَلَّدَ الراضى بالله ولَدَيْه أباجعفر وأبا الفضل ناحيتى المشرق والمغرب مما /بيده ، وكتب بذلك إلى البلاد . ٦٣ - ب

وفيها فى ليلة الثانى عشر من ذى القعدة انقَضَّتِ الكواكبُ انقضاضًا دائما مستمرا من أوَّل الليل إلى آخره ، وهى الليلةُ التى أوْقَع القرمطى فيها بالحجاج .

وفيها مات محمد بن ياقوت فى الحبس ، واتهم ابن مقلة أنه سمه وأطلق أخوه المظفر من الحبس بشفاعةِ ابنِ مقلة ، وحَلَف للوزير أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه فلم يف له .

وفيها أرسل الوزير ابنُ مقلةَ رسولا إلى محمد بن رائق بواسط. وكان قَطَعَ الحِمْلَ عن الخليفة فطالبه بارتفاع أموال واسط. والبصرة

(١) فى ا ، ك صفحة ٣٥ « بن طباب » وما هنا من ف صفحة ٣١ - ب موافقا لابن الأثير .

(٢) زيادة من ك صفحة ٣٥

وما بينهما فأحسن إلى رسوله وَرَدَّه برسالةٍ ظاهرة إلى ابن مقلة يغالطه ، وأُخرى باطنة إلى الخليفةِ الراضى باللهِ مضمونُها أنه إنِ اسْتُدْعِى إلى الحضور وَفُوِّضَتْ إليه الأُمورُ وتدبير الدولة ، قام بجميع ما يحتاج إليه من نفقات الخليفة وأرزاق الجند . ولما سمع الخليفةُ ، لم يُعِدْ إليه جَوَابها .

ودخلت سنةُ أربعٍ وعشرين وثلاثمائة :

ذكر القبض على الوزير ابن مقلة

ووزارة عبد الرحمن بن عيسى وغيره

في هذه السنة عَزَم الوزيرُ على المسير إلى ابنِ رائقٍ لما عاد رسوله / بغير ٦٤ ـ ا
مال ، وحضر إلى دار الراضى فى منتصف جُمادى الأُولى . فلما حضر الدَّارَ قبض عليه المظفر بن ياقوت والحجرية وأعلموا الراضى بذلك ، فوافق رأيه فيه ، واستحسن فِعْلَهُم (١) . واختفى أبو الحسين بن أبى على بن مقلة الوزير ، وسائر أولادِه ، وحُرَمُه وأصحابُه . وطلب الحجرية والساجية من الخليفة أن يشير بوزيرٍ فَرَدَّ الاختيار إليهم ، فأشاروا بوزارة على بن عيسى ، فأحضره الراضى بالله ، فامتنع وأشار بأخيه عبد الرحمن فاستوزره . وسُلِّم إليه ابنُ مقلةَ فصادره ، ثم عجز عبد الرحمن عن تمشية الأُمور وضاق عليه المال فاستعفى من الوزارة وقبض عليه وعلى أخيه علىّ فى سابع شهر رجب ، واستُوزِر أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى ،

(١) فى ك صفحة ٣٥ « واستحسن فعله »

وخلع عليه وسُلِّم إليه على بن عيسى فصادره على مائة ألف دينار ، وصادر أخاه عبد الرحمن بسبعين[١] ألف دينار .

وفيها قتل ياقوت ، وعظم البريدى وإخوته ، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر عزل أبى جعفر ووزارة سليمان بن الحسن[٢]

قال[٣] : ولما تولى أبو جعفر الكرخى الوزارة رأى قلة الأموال وانقطاع / المواد فعجز عن تدبير الحال ، وضاق الأمر عليه ، وقطع ابنُ رائقٍ حِمْلَ واسط والبصرة ، وقطع البريدى حِمْلَ الأهواز وأعمالها . وكان ابنُ بويه قد تغلب على فارس ، فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونَقُصتْ هيْبتُه ، فاستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته ، فاستوزر الراضى أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان فى الوزارة كأبى جعفر فى وقوف الحال وقلة المال[٤] ! ٦٤ ـ ب

ذكر استيلاء ابنِ رائقٍ على العراق وتغلب الملوك على الأعمال وخروجهم عن الطاعة وتغير أحوال الوزارة وإبطال الدواوين

قال[٥] : لما رأى الراضى بالله وقوف الحال بالحضرة ألجأته

---

(١) فى ك صفحة ٣٦ « تسعين ألف دينار »

(٢) فى ا ، ك ، ف « سليمان بن الحسين » وذكرته المصادر التاريخية « ابن الحسن »

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٥٤

(٤) يعلق ابن الجوزى على ذلك بقوله « وكان هذا كله من عمل الأتراك والغلمان » المنتظم ٦ : ٢٨١ .

(٥) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٥٤

الضرورة إلى أن راسل أبا بكر محمد بن رائق وهو بواسط. يعرض عليه إجابته إلى ما كان بذله من القيام بالنفقات وأرزاق الجند ببغداد . فلما أتاه الرسول فرح بذلك وشرع يتجهز للمسير إلى بغداد ، فأنفذ إليه الراضى بالله الساجية وقلّده إمارَةَ الجيش وجعله أمير الأُمراء وولاّه الخراج والمعاون فى جميع البلاد والدواوين . وأمر أن يُخْطَب له عـلى جميع المنابر ، وأنفـذ إليه الخلع وانحدر إليه أصحابُ الدواوين / والكُتّابُ والحُجّابُ وتأخر الحجرية . فلما ٦٥ ـ ا
استقر الذين نزلوا إلى واسط. بها قَبَضَ على الساجيةِ فى ذى الحجة ونَهب أموالَهم ودوابَّهم ، وأظهر أنه إنما فعل ذلك لِتَتَوفَّر أرزاقُهم على الحجرية ، فاستوحش الحجريةُ من ذلك وقالوا : اليومَ لِهؤلاء وغدٌ لنا وخَيَّموا بدارِ الخلافة . وصعد ابنُ رائقٍ إلى بغداد ومعه بجكم ، فخلع الخليفةُ عليه فى أواخر ذى الحجة ، وأتاه الحجريةُ يُسلّمون عليه فأمرهم بقلع خيامهم فقلعوها وعادوا إلى منازلهم .

وبطُلَت الدواوينُ من ذلك الوقت ، فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأُمور ، إنما كان ابن رائقٍ وكاتبه ينظران فى الأُمور جميعها[1] ، وكذلك كل من تولّى إمرةَ الأُمراء بعده ، وصارت الأَموالُ تحمل إلى خـزائنهم فيتصرفون فيهـا كمـا يريدون ، وبطلت بيوتُ الأَموال . وتغلب أصحاب الأَطراف وخلعوا الطاعة ، ولم يبْق بِيدِ الخليفة غَيْرُ بغداد وأعمالِها ، والحكم فى جميعها لابن رائقٍ ليس

---

(١) يحسن هنا مراجعة تجارب الأمم ١ : ٣٤٠ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٥٨ والبداية و النهاية ١١ : ١٨٤ وكتاب
The Life and Times of Ali b. Isa. p. 320, 321, 322 (cambridge 1929).

للخليفة حُكْمٌ . وأما باقى الأَطرافِ فكانت البصرةُ بِيدِ ابنِ رائقٍ ، وخوزستان والأَهواز فى يد البريدى ، وفارس فى يد عِمَادِ الدَّوْلَةِ ابن بويه ، وكرمان فى يد أبى محمد على بن إلياس ، والرى وأصفهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، / والموصل وديار بكر ربيعة ومُضَر فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد إلا خشيد أبى بكر محمد بن طُغْج والمغرب وأفريقية فى يد أبى القاسم القائم بأمر الله بن المهدى ، والأَندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الدَّيْلم ، والبحرين واليمامة فى فى يد أبى طاهر القرمطى[1] . ٦٥ ب

ذكر وزارة الفضل بن جعفر

[ابن الفرات] [2]

قال[3] : ولما ولى ابن رائق كتب كتابا عن الراضى بالله إلى أبى الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات يستقدمه للوزارة . وكان يتولى الخراج بمصر والشام ، فظن ابن رائق أنه إن استوزر جبى له أموال الشام ومصر ، فنفذت إليه الخِلَع قبل وصوله فلقيته بهيت ، فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابنِ رائقٍ جميعا .

ودخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة :

(١) راجع المنتظم ٦ : ٢٨٨
(٢) زيادة من ك صفحة ٣٦
(٣) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٥٦

ذكر مسير الراضي بالله لحرب البريدى

فى هـذه السنة أشـار ابن رائق على الراضى بالله بالانحدار
/ معه إلى واسط ليقرب من الأهواز ويراسل أبا عبد الله البريدى ؛ ٦٦ –
فإن أجاب إلى ما يطلب منه وإلا قرّب قصده عليه ، فأجاب الراضى
بالله إلى ذلك . وانحدر أول المحرم فخالف الحجرية وقالوا :
هذه حيلة علينا ليعمل بنا مثل ما عمل بالساجية ! فلم يلتفت
ابن رائق إليهم ، وانحدر ومعه بعضهم ، ثم انحدروا بعده .
فلما صاروا بواسط اعترضهم ابن رائق فأسقط أكثرهم ،
فاضطربوا وثاروا فقاتلهم قتالا شديدًا ، فانهزم الحجرية وقتل
منهم جماعة . ولما وصل المنهزمون إلى بغداد ركب لؤلؤ صاحب
الشرطة ببغدادَ ، ولقيهم وأوقع بهم ، فاستتروا ، فَنُهِبَتْ دورُهم
وقبِضَتْ أملاكُهم ، وقُطِعَتْ أرزاقهم .

ولما فرغ ابنُ رائقٍ منهم قَتَلَ منْ كان قد اعتقله من الساجية
سوى صافى الخازن وهارون بن موسى ، ثم أخرج مضاربه ومضارب
الراضى بالله نحو الأهواز ، وراسل البريدىّ فى تأخير الأموال وما
قد ارتكبه من الاستبداد وإفساد الجيوش إلى غير ذلك ، ثم قال له
بعد ذلك : إنه إنْ حمل الواجب عليه وسلّم الجند الذين أفسدهم
أُقِرَّ على عملِه وإن أبَى قوبِل بما يستحق . فلما سمع الرسالة
جدّد ضمانَ الأهواز فى كل سنة بثلاثمائة ألف وستين ألف دينار
يحمـل كل شـهر بقسـطه وأجاب إلى تسـليم الجيش إلى من
/ يؤمر بتسليمه إليه ، ممن يسير بهم إلى قتال ابن بويه إذْ كانوا ٦٦ – ب

كارهين للعود إلى بغداد لضيق الأموال بها واختلاف الكلمة . فعقد عليه الضمان وعاد الراضى وابن رائق إلى بغداد فدخلاها فى ثامن صفر ، وكان هذا القول من البريدى خديعة ومكرا ؛ فإنه ما حمل من المال درهما واحدا ولا سلّم الجيش .

قال (١) : ثم سعى ابنُ مقاتل عند ابن رائقٍ فى عزْلِ وزيره الحسين بن على النُّوبختى ، وأشار عليه بالاعتضاد بالبريدى وأن يجْعلَه وزيرًا ، وبذل له ثلاثين ألفَ دينارٍ ، فأجاب ابنُ رائقٍ إلى ذلك بعد امتناعٍ شديدٍ وأمر ابنَ مقاتل أن يكتبَ إلى البريدىّ أن يرسلَ من ينوبُ عنه فى وزارته فكتب إليه بإنفاذ أحمد الكوفى لينوبَ عنه فى وزارة محمد بن رائق فأنفذه واسْتَوْلَى على الأُمور هو وابن مقاتل ، وشرعا فى تضمين البصرة من أبى يوسف أخى أبى عبد الله البريدى . فامتنع ابنُ رائقٍ فَخَدعاه حتى أجاب إليه ، وكان نائب ابن رائقٍ بالبصرة محمد بن يزداد ، وقد أساء السيرةَ وظَلَم أهلَها ، فَوعَدَهُم يو ـُف ومنَّاهم وذمَّ ابنَ رائقٍ عنده بما كان يفعله ابن يزداد ، فدعوا له . ثم أنفذ أبو عبد الله البريدىُّ غلامَه إقبالا فى ألْفَى رجلٍ وأمرهم بالمقام بحصن مهدى إلى أن يأْمرَهم بأمرِه ، فلما علم ابنُ يزداد بهم علم أن البريدىَّ يريد التغلُّبَ على البصرة ، وأمر البريدىُّ بإسقاطِ بعض ما كان ابنُ يزداد يأْخذُه من أهل البصرة ، فاطمأنوا وقاتلوا معه عسكر ابنِ

٦٧ ـ ا

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٥٨

رائقٍ ، ثم عطف عليهم بعد ذلك وعمل بهم أعمالا تَمنَّوْا أيَام ابنِ رائق وعدُّوها أعيادًا !

ذكر الوحشة بين محمد بن رائق والبريدى والحرب بينهما

فى هذه السنة ظهرت الوحشةُ بينهما ، وكان لذلك أسبابٌ منها أن ابنَ رائقٍ لما عاد إلى بغدادَ أمر بظهورِ من اختَفَى من الحجرية ، واستخدم منهم نحو ألفَىْ رجلٍ ، وأمر من بقى بِطَلَبِ أرزاقِهم ؛ فخرجوا [من بغداد] والتحقوا بأبى عبد الله البريدىِّ فأكرمهم وأحسن إليهم وذمَّ ابنَ رائقٍ وعابه ، وكتب إلى بغدادَ يقول : إنى خفتهم فلهذا قبلتهم ! وجعلهم طريقًا إلى قطْعِ ما استقر عليه من المال ، وذكر أنهم اتفقوا مع الجيش الذى عنده ومنعوه من حمل المال ؛ فأنفذ إليه ابنُ رائقٍ يلزمه بإيفادهم فاعتذر ولم يفعل . ومنها أنه بلغه ما ذمّه به عند أهل البصرة فَساءه ذلك وبلغه مقام إقبال فى جيشه بحصن مهدى فعظم عليه ، فأمر الكوفى أن يكتب / إلى البريدى يعاتبه على هذه الأشياء ويأمره بإعادةِ عَسْكَرِه من حِصْن مهدىّ ، فكتب إليه فى ذلك فأجاب « أن أهلَ البصرة يخافون القرامطة وأنَّ ابنَ يزداد عاجزٌ عن حمايتهم وقد تمسكوا لخوفهم بأصحابى » ٦٧ ـ ب

فسار ابنُ رائق إلى واسط فبلغ البريدى ، فكتب إلى عسكره بحصن مهدىٍّ يأمرهم بدخول البصرة وقتال من منعهم[1] ،

(١) فى ك صفحة ٣٨ « وقتال ابن رائق من منعهم »

وأنفذ إليهم جماعةً من الحجرية فَقَدِموا وقاتلوا ابن يزاداد مرة بعد أُخرى وهُزموا إلى الكوفة ، فكتب ابن رائقٍ إلى البريدىّ يأمره بإعادة أصحابه من البصرة وتهدَّدَه إن لم يفعل ، فاعتذر إليه وغالطه !

ذكر استيلاء بَجْكَم على الأهواز
وخروج ابن البريدى منها

قال[1] : ولمـا وصل جوابُ رسالة ابنِ البريدىِّ إلى محمدِ بنِ رائقٍ بالمغالطةِ عن إعادة جُنْدِه مِنَ البصرة استدعى بدرًا الخرشنى وخَلَع عليه وعلى بَجكم وسيَّرهما فى جيش وأمرهما أن يقيما بالجامدة ، فبادر بُجكم ولم يتوقف على بدرٍ وسار إلى السوس ، فأخرج إليه البريدىُّ جيشا مع غلامه المعروف بالحمال عدته ثلاثة آلاف مقاتل ، فالتقوا واقتتلوا بظاهر السوس . وكان مع / بُجكم مائتان وسبعون رجلًا من الأتراك فانهزم أصحابُ البريدى وعادوا إلى صاحبهم فضرب الحمال وسَبَّهُ ووَبَّخهُ على انهزامه ثم ردّد وأضاف إليه منْ لم يشهدوا الواقعةَ فبلغوا ستةَ آلافِ رجلٍ . ٦٨ ـ ا

فلما التقوا انهزموا من غير قتالٍ ، فلما رآهم البريدى ركب هو وإخوَته ومنْ يلزمه فى سفينة[2] ومعه ما بقى عنده من المال وهو ثلاثمائة ألف دينارٍ فغرقت السفينة بهم ، فأخرجهم الغواصُون وقد كادوا يهلكون ، وأخرج الغواصون باقى المـال لبُجْكَم ووصل

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٦٠
(٢) فى ك صفحة ٣٨ « فى ستة آلاف سفينة وهى إحالة ظاهرة » .

أولاد البريدى إلى البصرة وأقاموا بالأُبلة[١] وأعدُّوا المراكب للهرب إن هُزِم إقبال ، وسيَّرَ أبو عبد الله البريدي غلامه إقبالا إلى مطارا فالتقوا مع أصحاب ابن رائق فانهزمت الرائقية وأسر منهم جماعة فأطلقهم البريدي ، وكتب إلى ابن رائق يستعطفه ، وأرسل إليه جماعة من أعيان البصرة فلم يجبهم وطلبوا منه أن يحلف لأهل البصرة ليكونوا معه ، فامتنع وحلَف لئن ظفر بها ليحرقنها ويقتل كل من فيها فازدادوا بصيرة في قتاله واطمأن البريدي وأقام بالبصرة .

ثم جهز ابن رائق جيشاً آخر وسيَّره فى البَرِّ وفى الماء ، فالتقى عسكره الذي فى البَرِّ مع عسكر البريدي فانهزم الرائقية ، وأما عسكر الماء فانهم استولوا على الكلاء[٢] فلما رأى أبو عبد الله البريدى ذلك ركب فى السفن وهرب إلى جزيرة أوال ، وترك أخاه أبا الحسين بالبصرة فى عسكر يحميها . فخرج أهل البصرة مع أبى الحسين لدفع عسكر ابن رائق عن الكلاء فقاتلوهم وأجلوهم عنه فسار ابن رائق بنفسه من واسط إلى البصرة على الظهر وكتب إلى بجكم ليلحق به فأتاه فيمن عنده من الجند ، فتقدَّموا وقاتلوا أهلَ البصرة فاشتد القتال . فرجع ابن رائق وبجكم إلى معسكرهم ، وأما أبو عبد الله البريدي فإنه سار إلى عماد

٦٨ ـ ب

(١) الأبلة : فرضة البصرة وأحد أحيائها يقال بناها اليونان ولما جاء العرب وعمروا الحريبة أعادوا بناءها ويقول عنها القزوينى فى « آثار البلاد » صفحة ١٩٠ إنها طيبة جداً نضرة الأشجار متدفقة الأنهار (راجع الحياة الأدبية فى البصرة صفحة ٣٦ للدكتور أحمد كمال زكى ، وكذلك الخريطة الملحقة بالكتاب

(٢) حى مشهور من أحياء البصرة كانت تصل إليه المراكب من الأبلة عن طريق نهر معقل وفيه دار الرزق !

الدولة بن بويه واستجار به وأطمعهُ فى العراق وَهوَّنَ عليه أَمْرَ الخليفةِ وابنِ رائق ، فَنَفَّذَ معه أخاه معز الدولةِ وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

قال : [١] ولما سمع ابن رائق إقبالهم من فارس إلى الأهواز سيّر بَجْكَم إليها ، ثم قَصَد جماعة من أصحاب البريدىّ عسكر ابنِ رائقٍ ليلا فصاحوا فى جوانبه ، فانهزموا . فلما رأى ابن رائقٍ ذلك أمر بإحراق سوَادِه وآلاته لئلا يغنمه البريديون . وسار إلى الأهواز جريدةً [٢] وأقام بها أياما ، وعاد إلى واسط . وكان باقى عسكره قد سبقه إليها .

ودخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة :

ذكر استيلاء معز الدولة بن بويه على الأهواز

٦٩ ـ ا / فى هـــذه الســـنة ســـار مُعزُّ الدَّوْلةِ أبو الحسين بنِ بويه [٣] إلى الأهواز وتلك النواحى فملكها ، وسببُ ذلك ما

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٦١

(٢) فى س ورقة ٣٨ « جرنده » وفى الأصل غير منقوطة ، وبيانها « جريدة » وهى الفرقة من الخيل لا رجالة فيها .

(٣) فى عقد الجمان والكامل إشارات قوية إلى الديلمية لا سيما منذ بدء حوادث ٣٢١ وفى المنتظم ٦ : ٢٦٨ تلخيص لابتداء البويهيين ، وقد أثبت ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٤٤ ، ٢٤٥ موجزاً طيبا لكل ذلك مع اختلافات لا بأس من الإلمام بها هذا ويعتبر فى مينورسكى Minorsky, V فى كتابه « دولة الديالمة » La Domination de Dailamites خير من كتب عن هذا الموضوع موجها روايات القدماء كالمسعودى والمقدسى وابن مسكوية وحمزة الأصفهانى وجهات ذكية ، هذا ويحسن مراجعة Browne, E.G.U. فى كتابه A Literary History of Persia

ذكرناه من مسير أبى عبد الله البريدى إلى عماد الدولة بن بويه وتَرْكِ البريدى ولديه أبا الحسن محمدًا وأبا جعفر الفيّاض عند عماد الدولة رهينةً . وساروا فبلغ الخبر بجْكَم بنزولهم أرّجان (١) ، فسار لحربهم فانهزم من بين أيديهم إلى الأهواز ، ثم إلى واسط . وأرسل إلى ابن رائقٍ يعلمه الخبر ويقول له «إن العسكر يحتاج إلى المال فإن كان معك مائتا ألف درهم فأقم بواسط حتى نصل إليك وتنفق فيهم المال وإلا فالرأى أن تعود إلى بغداد» فعاد ابن رائقٍ من واسطٍ إلى بغدادَ ، ووصل بجْكَم إلى واسط .

قال (٢) : ودخل [معز الدولة] (٣) بن بويه الأهواز فأقام بها خمسة وثلاثين يومًا ، ثم هرب البريدى خوفا منه على نفسه ، وأمر جيشه الذين بالسوس فصاروا إلى البصرة ، وكاتب معز الدولة أن يُفْرِج له عن الأهواز حتى يتمكن من ضمانه ؛ فإنه كان قد ضمن الأهوازَ والبصرة من عماد الدولة فى كل سنةٍ بثمانيةَ عشرَ ألفَ ألفِ درهمٍ . فرحل عنها عسكر مكرم (٤) وأنفذ البريدى خليفته إلى الأهواز وأنفذ إلى معز الدولة يذكر خَوْفَه ويطلب منه أن ينتقل إلى السوس ليبعد عنه ويأمن بالأهواز ،

(١) أرجان : عامة العجم يسمونها أرخان كما يقول ياقوت ، ويقول الإصطخرى إنها مدينة شهيرة كثيرة الخير بها نخيل وزيتون وفواكه ، وهى برية بحرية ، سهلية جبلية ماؤها يسيح ، بينها وبين البحر مرحلة ، وبينها وبين شيراز ستون فرسخا وبينها وبين سوق الأهواز ستون فرسخا أيضا .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٦٣

(٣) زيادة من ك صفحة ٣٩

(٤) أحد قواد الديالمة وكان فى صف بجكم قال ابن كثير عنه فى البداية والنهاية ١١ : ٢٠٠ إنه أمير الأمراء ببغداد قبل بنى بويه يفهم العربية ولا يتكلم بها خشية أن يخطىء

٦٩ ـ ب فامتنع / معز الدولة من ذلك وعلم بجْكَم بذلك فأنفذَ جماعة من أصحابه واسْتَوْلَوا على السوس وجُنْدَيْسَابور وبقيت الأهواز بيد البريدى ، ولم يبق مع مُعزِّ الدَّوْلةِ من كور الأهواز إلا عسكر مكرم فاشتد الحال عليه وفارقه بعض جندِه وأراد الرجوع إلى فارس فكتب إلى أخيه عمادِ الدَّوْلة يعرِّفه الحال فأنفذ إليه جيشًا تَقَوَّى بهم ، وعاد اسْتَوْلَى على الأهواز ، وهرب البريدى إلى البصرة . واستقر ابن بويه بالأهواز ، وبَجْكَم بواسطٍ طامعا فى الاستيلاء على بغداد ومكانِ ابنِ رائقٍ ، وهو لا يُظْهِرُ ذلك .

قال(١) : ولمّا رأى أبو الفتح الوزيرُ ببغداد إدبارَ الأمور أطْمعَ ابنَ رائق فى مصر والشام ، وصاهره وعقد بينه وبين ابنِ طغْجعهدًا وصهرا وقال لابن رائق : أنا أجبى لك مال مصر والشام إن سيرتنى إليهما ! فسيره إلى الشام فى شهر ربيع الآخر .

ذكر الحرب بين بجكم والبريدى

والصلح بعد ذلك

قال : ولمـا أقام بجْكم بواسطٍ وعظم شأنه خافه ابن رائق أن يتغلَّبَ عـلى العراق ، فراسل أبا عبـد الله البريدى وطلب منه ٧٠ ـ ا / الصـلح عـلى بجْكَم ، فإذا انهزم تَسلَّم البريدىُّ واسـطا وضـمنها بستمائة ألف دينار فى السنة . فسمع بجْكَم بذلك

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٦٤

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٦٤

فاستشار أصحابَه فيما يفعله فأشاروا عليه أن يبتدئ بأبي عبد الله البريدي وأن لا يهجم إلى حضرة الخلافة ولا يكاشف ابنَ رائق إلا بعد الفراغ من البريدي . فجمع عسْكَره وسار إلى البصرة يريد البريدى ، فسير أبو عبد الله البريدىُّ جيشًا بلغت عدَّتهم عشرة آلاف رجل عليهم علامة أبو جعفر محمد الحمال ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر البريدى فلم يتبعهم بجكم وكَفَّ عنهم .ثم أرسل إلى البريدى فى ثانى يوم الهزيمة يعتذر إليه مما جرَى ويقول له : أنت بدأت وتَعرَّضْتَ لى وقد عفوت عنك وعن أصحابك ولو تبعتهم لقتلت أكثرَهُم (١) ، وأنا أصالحك على أن أقلدك واسطا إن ملكت الحضرة وأصاهرك ! فسجد البريدى شكرا لله تعالى وحلف لبجكم وتصالحا ، وعاد إلى واسط وأخذ فى التدبير على ابن رائق

ذكر قطع يد ابن مقلة ولسانه

فى هذه السنة فى منتصف شوال قطعت يد الوزير أبي على بن مقلة (٢) وكان سبب ذلك أنَّ الوزير أبا الفتح بن جعفر بن الفرات لما عجزَ عن الوزارة وسار إلى الشام اسْتَوْزَرَ الراضى بالله أبا على /بن مقلة وليس له من الأمر شىء ، وإنما الأمْرُ والنَّهْىُ لمحمد بن رائق . ٧٠ ـ ب
وكان ابن رائق قد قَبَضَ على أموالِ ابنِ مقلةَ وأملاكِه و أملاكِ ابنِه ،

(١) فى ك صفحة ٣٩ « ولو تبعتهم لقتلتهم »
(٢) رددت كتب التاريخ هذه الحادثة منها المنتظم ٦ : ٢٩٣ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٦٢ .

فخاطبه فى ردّها فلم يفعل ، فاستمال أصحابَه وسألهم مخاطبتَه فى ردّها فوعدوه ولم يفعلوا . فلما رأى ذلك سعى بابن رائق فكاتب بجكم يُطْمِعُه فى موضعِ ابنِ رائقٍ ، وكتب إلى وشمكير مِثْلَ ذلك، وكتب إلى الراضى باللهِ يشير عليه بالقَبْضِ على ابنِ رائقٍ وأصحابِه ويضمن أنه يستخرج منهم ثلاثةَ آلافِ ألفِ دينارٍ ، وأشار باستدعاء بجكم وإقامته مقام ابنِ رائق فأطمعه الراضى وهو كاره لما قاله ، فعجل ابن مقلة وكتب إلى بجْكَم يعرفه إجابةَ الراضى ويستحثه على الحركة والمجىء إلى بغداد . وطلب ابن مقلةَ من الراضى باللهِ أن ينتقلَ ويقيمَ عنده بدارِ الخلافة إلى أن يتم على ابنِ رائقٍ ما اتّفقَا عليه ، فأذِن له فى ذلك فحضر متنكرا فى آخر ليلةٍ من شهر رمضان . فلما حضر إلى دارِ الخلافةِ لم يصل إلى الراضى وأمر باعتقالِه فاعتُقِل فى حجرةٍ .

فلما كان من الغد أرسل الراضى إلى ابن رائقٍ يعرفه الحال ، وعرَض عليه خطَّ ابنِ مقلةَ ، وما زالت الراسل تتردد بينهما فى المعنى إلى منتصف شوال ، فأخرج ابنَ مقلةَ من محبسه وقُطِعتْ يدُه ، وعولج فبرأ .

ثم كاتب الراضى يخطب الوزارة ويذكر / أنّ قَطْع يده لم يَمْنَعْه من عمله ، وكان يشدُّ القَلَم على يده المقطوعةِ ويكتب ، فلما قرب بجكم من بغداد سمعَ الخدمَ يتحدثون بذلك فقال : إن وصلَ بجْكَم فهو يستخلصنى وأكافئ ابن رائقٍ ! وصار يدعو على من ظَلَمه وقَطَع يده ، فوصل خَبَرُه إلى الراضى بالله وابن رائقٍ فأمر ٧١ ـ ا

بقطع لسانِه ، ثم نقِلَ فى محبسٍ ضَيِّقٍ ولم يكن عنده من يخدمه ، فآلت به الحال إلى أن كان يستقى الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بفيه وناله شقاء شديدٌ إلى أن مات فى حادى عشر شوال سنة ثمانٍ وعشرين وثلاثمائة ودفن بدار الخلافة

ثم إن أهله سألوا فنُبش وسُلِّم إليهم فد فنوه ، ثم نبشته زوجته ودفنته فى دارها . ومن العجب أنه ولى الوزارة ثلاث دفعات ، ووَزَرَ لثلاثة خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين منفيا إلى شيراز وواحدة إلى الموصل فى وزارته ، ودفن بعد موته ثلاث مرات وخُصَّ به من خدمه ثلاثة ، وكان فى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة فى شهر ربيع الآخر ضرب ابن شَنَّبُوذ(١) سَبْع دررٍ لقراءات أُنكِرَتْ عليه ، فدعا عليه بِقَطْعِ الْيَدِ وتشتيت الشَّمْلِ ، فاستجاب الله له !

ذكر استيلاء بجكم على بغداد / ٧١-ب

وشىء من أخباره وكيف تَنَقَّلَتْ به الحال إلى أن بلغ هذه الرتبة(٢)

قال ابن الأثير الجزرىّ فى تاريخه الكامل(٣) : كان بجكم هذا

(١) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب المقرىء البغدادى ، ويعرف بابن شنبوذ بتشديد النون وضم الباء على ما ذكر فى الأصل ، س ، ف وفى شذرات الذهب ٢ : ٢٩٧ والمنتظم ٦ : ٢٧٥ وابن شنبوذ على ماذكر فى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٤٨ وقد توفى سنة ٢٧٤ ، وأثر عنه قراءات استنكرها علماء عصره كأبى بكر بن مجاهد وعمر بن أبى عمر محمد بن يوسف القاضى ، وأجبر على أيام ابن مقلة أن يقر بخطئه غصبا ويستتيب ومن ثم نفى إلى البصرة . ومن القراءات التى أخذ بها « فامضوا إلى ذكر الله فى الجمعة » و « تبت يدا أبى لهب وقد تب » و « تكون الجبال كالصوف المنفوش » .

(٢) كذا فى الأصل وفى . ف وأما فى ك صفحة ٤٠ فالعنوان « ذكر استيلاء بجكم على بغداد وشىء من أخباره ، وابتداء أمره ، وكيف تنقلت به الحال إلى أن بلغ هذه المرتبة » .

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٦٦

من غلمان أبي العارض وزير ما كان بن كالى الدَّيْلَمى فطلبه ما كانُ منه فوهبه له ، ثم فارق ما كان مع من فارقه . من أصحابه ، والتحق بمرداويج ، وكان من جملة من قتله ، وسار إلى العراق والتحق بمحمد بن رائق . وكان من أمره ما ذكرناه ، فلما استقر بواسط. تعلقت همته بالاستيلاء على حضرة الخليفة ، وهو مع ذلك يظهر التبعية لابن رائقٍ ، وكان على أعلامه وتراسه بجكم الرائقى . فلما وصلته كتب [الوزير] (١) ابن مقلة تذكر أنه اسْتَقَرَّ مع الراضى أن يقلده إمْرة الأُمراء زاد طَمعُه فى ذلك وكاشف ابنَ رائق وقلع نسبته إليه من أعلامه ، وسار من واسط. نحو بغداد فى غرة ذى القعدة . واسْتَعَدَّ ابن رائقٍ لحربه وسأل الراضىَ أن يكتب إلى بجكم يأمره بالعوْد إلى واسط. ، فكتب إليه فلما قرأ الكتاب ألقاه من يده وسار حتى نزل شرقى نهر ديالى . وكان أصحابُ ابنِ رائقٍ على غَيْرِ تَعْبِئَةٍ ، فألقى أصحاب بجكم نفوسهم فى الماء فانهزم أصحابُ ابنِ رائقٍ ، وعبر أصحاب بجكم وساروا إلى بغداد ، وخرج / ابن رائقٍ عنها إلى عكبرا . وكان دخول بجكم بغداد فى ثالث عشر ذى القعدة ، ولَقِىَ الراضىَ مِنَ الغَدِ وخلَع عليه وجعله أمير الأُمراء ، وكتب كتابا عن الراضى إلى القواد الذين كانوا مع ابنِ رائقٍ بالرجوع إلى بغداد ، ففارقوه جميعهم وعادوا . فلما رأى ابن رائقٍ ذلك عاد

٧٢ ـ ا

(١) زيادة من ك صفحة ٤٠

إلى بغداد واستتر ، فكانت مدة إمارته سنةً واحدةً وعشرة أشهرٍ وستةَ عشرَ يوماً .

ودخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة :

ذكر مسير الراضى بالله وبجكم الى الموصل

وظهور ابن رائق ومسيره إلى الشام

فى هذه السنة فى المحرم سار الراضى وبجْكَم إلى المَوْصِل وديار ربيعة لِقَصْدِ ناصرِ الدَّوْلَةِ ابن حمدان ، فإنه كان قد أخّر المال المُقَرَّر عليه من ضمان البلادِ ، فلما بلغا تكريت [1] أقام الراضى بها وسار بجكم ، فلقيه [ناصر الدولة] [2] بن حمدان على سِتَّةِ فراسخ من الموصل ، فاقتتلوا قتالا شديدًا ، فانهزم ابن حمدان إلى نصيبين وتبعه بجكم إليها ، فسار إلى آمد ثم وقع الصُّلْحُ بينهما على أن يحمل ابن حمدانَ خمسمائة ألف درهم معجلة فأجابه إلى ذلك .

قال[3] : وفى هذه الغيبة ظهر ابن رائق ببغداد واستولى عليها ولم يتعرض لدار الخليفـــة / فعاد الراضى وبجكم إليها ٧٢ ـ ب
فراسلهما ابن رائق فى طلب الصلح فأجابا إلى ذلك ، فعقد له الخليفة على طريق الفرات ، وديار مضر حَرّان والرُّها وما

(١) فى «أ» غير منقوطة وفى ك صفحة ٤٠ « تكرنت » بتصحيف وما هنا عن ف صفحة ٤٣ ـ ب

(٢) زيادة من ك صفحة ٤٠

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٦٩

جاورهما ، وجند قنسرين والعواصم ، فأجاب ابن رائق أيضا وسار عن بغداد إلى ولايته ، ودخل الراضى وبجكم بغداد فى تاسع شهر ربيع الآخر ، ثم استولى ابن رائق على الشام ومَلَكَ مدينةَ حِمْص ثم سار إلى دمشق وبها بدْرُ بن عبد الله الإخشيدى المعروف بِبُدَيْر واليا عليها من قبل الإخشيد ، فأخرجه ابن رائق وملكها . وسار إلى الرَّمْلَةِ وإلى عريشِ مصر يريد الدِّيار المصرية ، فلقيه الإخشيدُ وحاربه فانهزم الإخشيد . واشتغل أصحابُ ابن رائقٍ بالنَّهْب ونَزلوا فى خيم الإخشيدية ، فخرج عليهم كمينٌ للإخشيدِ فأوقع بهم وهزمهم ، فنجا ابن رائق فى سبعين رجلا ووصل إلى دمشق فى أقبح صورة .

فسيَّر إليه الإخشيد أخاه أبا نصر بن طغج فى جيش كثيف ، فالْتَقَوْا فى رابع ذى الحجة سنة ثمان وعشرين فانهزم الإخشيديون وقتل أبو نصر فأخذه ابن رائق وكفَّنه وحمَلَه إلى أخيه بمصر ، وأنفذ معه ابنه مزاحما ، وكتب إلى الإخشيد يعزِّيه بأخيه ويعتذر مما جرى ويحلف أنه ما أراد قَتْلَه ، وأنه قد أنفذ ابنَه لِيُقيده به إن أحبَّ ذلك ، / فَلَقِيَ الإخشيدُ مزاحمَ بنَ محمدِ بنِ رائق بالجميل وخَلَعَ عليه وَرَدَّه إلى أبيه واصطلحا ، على أن تكون الرَّمْلَة وما وراءها إلى مصر للإخشيد وباقى الشام لمحمد بنِ رائقٍ ، ويحمل إليه الإخشيدُ عن الرَّمْلة فى كلِّ سنةٍ مائةَ أَلِف دينارٍ وأربعين ألف دينارٍ . ٧٣ ـ ا

نعود إلى أخبار الراضى وبجكم .

ذكر وزارة أبي عبد الله البريدى

للخليفة الراضى بالله

وفى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة سعى أبو جعفر محمد بن يحيى بن شِيرْزاد (١) وزير بجكم فى الصلح بين بَجْكَم والبريدىّ(٢) حتّى تَمّ وضمن البريدىُّ أعمالَ واسطٍ بستمائة ألفِ دينارٍ فى كل سنة . ثم شرع ابن شيرزاد فى تقليد البريدىّ الوزاره ، فأرسل إليه الراضى فى ذلك فأجاب إليه ، وذلك فى شهر رجب واستناب بالحضرة عبد الله بن على النقرى .

قال أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى :(٣) كان الحج قد بطَلَ من سنة سبع عشرةَ وثلاثمائة . فلم يحج أحدٌ من العراق ، فلما كان فى هذه السنة كاتَب أبو على عمر بن يحيى العلوي القرامطَةَ وسألهم أن يؤمِّنوا الحاج ليسيرَبهم ويعطيهم عن كل جمل خمسةَ دنانير ومن المُحمَّلِ سبعةَ دنانير ، فأذنوا له فى الحج فحج الناسُ . وهى أوّل سنة مَكَس (٦) فيها الحاجُّ . وخرج فى تلك السنة القاضى أبو على بن أبي هريرة الشافعى فلما طولب بالخفارة لوى راحلته

---

(١) فى ك ، ف « وأبو عبد الله البريدى » والخطأ اللغوى واضح .

(٢) كذا فى ا ، ف وفى ك صفحة ٤١ « شيرازاد » وقد رسمه ابن الأثير بما أثبتناه. وقال إنه أبو جعفر محمد بن يحيى بن شير زاد .

(٣) فى المنتظم ٦ : ٢٩٦

(٤) مكس : مكس فى البيع يمكس إذا جبى مالا ، والمكس دراهم تؤخذ من بائعى السلع فى السوق أو درهم كان يأخذه المتصدق بعد دفع الصدقة ، ولكنه ها هنا ضريبة ، وقد قال ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٦٤ « وهى أول سنة أخذ فيها المكس من الحجاج »

ورجع وقال : لم أرجع شحاً على الدراهم ولكن قد سقط الحج بهذا المكْس !

ودخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة : فى هذه السنة سار ركن الدولة أبو علـى الحسن بن بويه إلى واسط. فنزل بالجانب الشرقى ، وكان البريدى بالجانب الغربىّ فاستأمن من أصحاب ابن بويه مائةٌ إلى البريدى (١) . ثم سار الراضى وبجكم من بغداد نحو واسط. يريدان حَرْب ابن بويه فعاد إلى الأهواز ثم إلى رامهرمُز (٢) .

وفيها استولى بجكم على واسط. فى ذى الحجة ، وسار إليها ففارقها ابن البريدى إلى البصرة ، وأسقط. بجكم اسم البريدى من الوزارة ، وجعل مكانه أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد .

ودخت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

ذكر وفاة الراضى بالله وشىء من أخباره

كانت وفاته فى منتصف شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وكانت مدة خِلَافَتِه سِتَّ سنين وعشرةَ أشهر وعشرةَ أيام ، وعمره / اثنتان وثلاثون سنة وأشهراً (٣) ، وكانت علّته الاستسقاء ، وكان أديبا شاعرًا ، فمن شعره : ٧٤ ـ ا

(١) فى ك صفحة ٤١ « فى هذه السنة سار ركن الدولة أبو على الحسين إلى واسط فنزل بالجانب الشرقى ، وكان البريدى بالجانب الغربى ، فاستأمن من أصحاب ركن الدولة بن بويه مائة إلى البريدى » والخطأ والزيادة واضحان !

(٢) رامهرمز : مدينة مشهورة بنواحى خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج ، والعامة يسمونها رامز ، هى بالفارسية مراد هرمز لأن رام بالفارسية المراد والمقصود .

(٣) فى البداية والنهاية والنجوم الزاهرة أن عمره يوم مات إحدى وثلاثون سنة وعشرة أشهر ، وفى المنتظم أحدى وثلاثون سنة وثمانية أشهر ، ودفن فى تربته بالرصافة .

يَصْفَرُّ وجهى إذا ما تـأمَّله طرفى ويحمَرُّ وجهـه خجلا
حتى كأنَّ الذى بوجنتـه من دم جسمى إليه قد نُقِلا(١)

وقال يرثى أباه المقتدر بالله :

ولو أنَّ حيًّا كان قبرًا لميِّـتٍ لصيَّرْتُ أحشائى لأعظُمِهِ قبرا
ولو أنَّ عمرى كان طَوْع مشيئتى وساعدنى التقديرُ قاسمتُه العمرا
بنفسى ثَرًى ضاجعتُ فى تربةِ البِلى لقد ضَمَّ منك الغَيْثَ واللَّيْثَ والبدرا

وكان سَمْحًا سخيا ، يحبُّ محادثةَ الأُدباء والفضلاء . وكان الراضى بالله أسْمَرَ أعْيَنَ ، خفيفَ العارِضَيْن . وختَم الخلفاء فى عِدَّةِ أشياءِ فمنها أنه آخرُ خليفة له شعرٌ يُدَوَّن ، وآخرُ خليفةٍ خَطَب على المنبر كثيرًا – وإن كان غيره خَطَب نادرًا – وآخرُ خليفة جالس الجلساء ووصَل النُّدماء ، وآخرُ خليفة كانت [له](٢) نفقاته وجوائزه وعطاياه وخزائنه ومطابخه وجراياته وخدّامه وحجّابه وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين (٣) . وكان له من الأولاد أبو جعفر أحمد ، وأبو الفضل عبد الله .

وزراوه : أبو على بن مقلة ، وابنه الحسن ، ثم عبد الرحمن بن عيسى ، ثم محمد بن القاسم الكرخى ، ثم سليمان بن الحسين بن

---

(١) يورد ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٨٤ البيتين باختلاف جد يسير منسوبين لابن رائق ، وفى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٦ أن الصولى ينسبهما لابن رائق أيضا مقرراً أنهما فى فتاة مشرقية ، ولكن ابن كثير يوافق ابن الأثير ويثبت له أيضا الأبيات الثلاثة التالية (البداية والنهاية ١١ : ١٩٧)

(٢) زيادة من الكامل ٦ : ٢٧٧ يقتضيها السياق

(٣) يقول ابن كثير : وآخرهم انفرد بتدبير الجيوش والأموال « البداية والنهاية ١١ : ١٩٧)

٧٤ ـ ب مخلد ، ثم الفضل بن جعفر بن الفرات ، ثم أبو عبد الله البريدى .

قضاته : عمر بن محمد بن يوسف ، ثم ابنه يوسف بن عمر

حجابه : محمد بن ياقوت ، وذكا مولاه

الأمير بمصر : الإخشيد محمد بن طغج بن جُفّ الفرغانى

القضاة بها : محمد بن الحسن بن أبى الشوارب من قبل الراضى واستخلف أبا بكر محمد بن بدر [1] ، ثم صرفه بعبد الرحمن بن أحمد بن الزين ، ثم ولّى الإخشيد الحسين بن محمد بن أبى زُرْعة القضاء ، واستخلف له أبا بكر محمد بن أحمد بن الحدّاد الشافعى ، ثم وزد العهدُ للحسين بن محمد بن أبى زرعة من قِبَلَ محمد بن أبى الشوارب ، ثم صرفه محمد بأبى نصر يوسف بن عمر بن أبى عمر القاضى ، وأقَرّ الحسين بن أحمد إلى أن توفى وأبو بكر بن الحداد خليفته ، ثم صرف يوسف بن عمر عن قضائها بمحمد بن أبى الشوارب واستخلف أحمد بن بدر ثانية ، ثم صرف ابن أبى الشوارب بالحسين بن عيسى بن هارون فأقرّ محمد بن بدر ، ثم عاد ابن أبى الشوارب فاستخلف عبيد الله بن أحمد بن رزين ، ثم استخلف عبد الله بن الوليد من قِبلِ الحسين بن على

٧٥ ـ ا / ذكر خلافة المتقى لله

هو أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله ، وأمّه أم ولدٍ اسمُها خَلوبُ . وهو الخليفة الحادى

(١) فى ك صفحة ٤٢ « ابن زيد »

والعشرون من الخلفاء العباسيين ، بويع له يوم الأربعاء لعشرٍ بقين من شهر ربيعٍ الأول سنةَ تسع وعشرين وثلاثمائة .

قال (١) : ولما مات الراضى بالله بقِيَ الأَمْرُ فى الخلافة موقوفًا انتظارًا لورود خبرٍ من بجْكَم ، فإنه كان بواسطٍ واحتيط على دار الخلافة . فَوَرد كتاب بَجْكَم مع كاتبه أبى العباس عبد الله الكوفى يأمر فيه بأَن يجتمع مع أَبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الرّاضى وكلٌّ منْ تَقَلَّدَ الوزارةَ وأَصحابُ الدواوين والعلويون والعباسيون والقضاة ووجوهُ البلد ويشاورهم الكوفى فيمن يُنْصَبُ للخلافة مِمَّنْ يَرْضَى مذْهبَه وطريقَه . فجمعهم الكوفى واستشارهم ، فذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر وتفرَّقوا على هذا ، فلما كان الغدُ اتَّفَق النَّاسُ عليه فأَحضروه إلى دارِ الخلافة وبويع له فى التاريخ الذى تقدم ، وعرضت عليه أَلقابٌ فاختار منها المتقى لله . وبايعه / الناسُ كافَّةً ٧٥ ـ ب وسيَّر الخِلَعَ واللواءَ إلى بَجْكَم بواسط. (٢) وكان بجكم بعد موت الراضى وقبل استخلاف المتقى أرسل إلى دار الخلافة أخذ منها فرُشًا وآلاتٍ كان يستحسنها ، وجعل سلامة الطولونى حاجبه ، وأَقَرَّ سليمانَ بنَ الحسين على وزارته وليس له من الوزارة إلا اسمُها والتدبير كله للكوفى كاتب بَجْكَم (٣) .

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٧٧ وفى البداية والنهاية ١١ : ١٩٨ أخبار أخرى عنه

(٢) فى ا « إلى بجكم إلى واسط » وما هنا من الكامل ٦ : ٢٧٨ .

(٣) فى س « والتدبير كله لأبى عبد الله الكوفى كاتب بجكم »

ذكر مقتل بجكم

كان سبب قتله أن أبا عبد الله البريدى أنفذ جيشًا من البصرة إلى المذار ، فأنفذ بجكم جيشا إليهم عليه توزون [١] فاقتتلوا قتالا شديدا . كانت الحرب أولا على توزون فكتب إلى بجكم أن يلحق به فسار من واسط فى منتصف شهر رجب ، فَلَقِيَهُ كِتَابُ توزون « أنه ظفر بهم وهزمهم » فأراد الرجوعَ إلى واسط ، فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيَّد فقبل منه وتصيَّد حتى بلغ نهر جور [٢] ، فسمع أن هناك أكرادًا لهم مال وثروة فَشَرِهتْ نفْسُه فى أموالهم فقصدهم فى قلة من أصحابه وهو بغير جُنَّةٍ [٣] تقيه ، فهرب الأكرادُ من بين يَدَيْه فأتاه غلامٌ من الأكراد من خلفه وطعنه فى خاصرته فقتله وهو لا يعرفه ، وذلك لأربعٍ بقين من شهر رجب / واختلف عسكره فَمَضَى الدَّيْلَمُ خاصةً نحو البريدى – وكانوا ألفا وخمسمائة – فأحسن إليهم وأضعف أرزاقهم وأوصلها إليهم دفعة واحدةً ، وعاد الأتراك إلى واسط وكان تكينك محبوسا بها – حبسه بجْكَم – فأخرجوه فسار بهم إلى بغدادَ وأظهروا طاعة المتقى . وصار أبو الحسين أحمد بن ميمون يدبِّر الأمورَ .

٧٦ – ا

قال [٤] : واستولى المتقى لله على دار بجكم وأخذ ما فيها ،

---

(١) فى تجارب الأمم « وأنفذ نوشتكين وتوزون فى جيش للقائه » وتوزون هو أبو الوفاء التركى وكان متغلبا على ما أبقاه بجكم للخليفة من سلطان .

(٢) جور : مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخا وأهل فارس تسميها كور ، أى القبر فى الفارسية ، ولكنها مدينة نزهة طيبة على قول ياقوت فى معجم البلدان

(٣) الجنة : كل ما وقى (المحيط)

(٤) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٧٩

وكان مبلغ ما أخذه من دفائنه ألف ألف ومائتى ألف دينار[١] ، وكانت مدة إمارة بجكم سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام

ذكر اصعاد أبى عبد الله البريدى الى بغداد

قال[٢] : لما قُتِلَ بجْكَم وسارت الدَّيْلَمُ إلى [أبى عبد الله][٣] البريدى تَقَوَّى بهم وعظمتْ شوكته ، فأصعدوا من البصرة إلى واسط فى شعبان ، فأرسل المتقى إليهم يأمرهم أنْ لا يصْعدوا فقالوا : نحن محتاجون إلى مال ! فأنفذ إليهم مائةَ ألفٍ وخمسين ألف دينارٍ ، فقال الأتراك للمتقى : نحن نقاتل بنى البريدىّ فأطلقْ لنا مالاً وانصبْ لنا مُقَدّما ! فأنفق فيهم وفى جند بغدادَ القدماء أربعمائةَ ألف دينار وجعل عليهم سلامةَ الطولونى ، وبرزوا مع المتقى لله إلى نهر دَيالى[٤] يوم الجمعة لثمان بقين من شعبان . وسار البريدى من واسط إلى بغداد ، فلما قرب منها اختلفت الأتراك البجكمية ، واستأمن بعضهم إلى البريدى ، وبعضهم [استتر][٥] وسار إلى الموصل ، واستتر سلامة الطولونىُّ وأبو عبد الله الكوفى ، ولم يحصل الخليفة

(١) فى المنتظم ٦ : ٣٢٢ أن المتقى لما سمع بمصرعه ركب إلى داره فنزلها ونقل مافيها وحفر بها أماكن حصل منها على مايزيد على ألفى ألف عينا وورقا وغسل التراب فخرج منه ستة وثلاثون ألف درهم ، وقيل ظهر ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار عينا ، وبيع له من أصناف الجواهر والأوانى والسلاح والكساء والرقيق أمر عظيم ، سوى مانهب وتلف ، ثم ظهر مال عظيم فى داره غير ماظهر أولا وكان عبارة عن ستة عشر قمقما من الذهب يحمل القمقم فى الدهق لثقله !

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٧٩

(٣) زيادة من ك ٤٣

(٤) نهرديالى : نهر كبير قرب بغداد وهو نهر تامرا بعينه أو نهر يعقوبا الأعظم ويعتبر الحد بين طريق خراسان والخالص .

(٥) زيادة من ك ٤٣

إلا على أخراج المال (١) . وَهَمَّ أربابُ النَّعَمِ والأموالِ بالانتقال من بغدادَ خوفًا من ظلم البريدى وَتَهَوُّرِه .

ودخل أبوعبد الله البريدى إلى بغداد فى ثانى شهر رمضان ونزل بالشفيعى ، ولَقِيَه الوزيرُ أبو الحسين والقضاة والكتّابُ وأعيان الناس . وأنفذ إليه المتقى يُهنِّئه بالسلامة ، وأنفذ له طعاما وغَيْره عدّةَ ليالٍ ، وكان يخاطَبُ بالوزير ، وكذلك أبو الحسين بن ميمون وزير الخليفة ، . ثم عُزِل أبو الحسين ، وكانت مدة وزارته ثلاثةً وثلاثين يوما ، وقَبَضَ عليه وسيَّرَه إلى البصرة فحبسه بها إلى أن مات فى صفر سنة ثلاثين .

قال (٢) : ثم أنفذ البريدىُّ إلى المتقى لله يطلب منه خمسمائةَ ألف دينارٍ ليفرِّقَها فى الجند ، فامتنع فأرسل إليه يَتَهَدَّدُه ويذكُرُه بما جرَى على المعتز والمستعين والمهتدى ، وترددت الرسائل حتى أنفذ إليه تَمَام خمسمائةِ ألفِ دينارٍ ، ولم يلْقَ أبو عبد الله البريدىُّ المتَّقى مدةَ مقامِه ببغدادَ (٣) . ٧٧ ـ ا

ذكر عود البريدى الى واسط هاربا

قال (٤) : كان البريدى يأمر الجند بطلب الأموال من الخليفة ، فلما أنفذ إليه الخليفة المالَ انصرفت أطماعُ الجند عن الخليفة

(١) أخراج المال : جمع كالأخاريج وأخرجة ، المفرد خراج وخرج وهو الإتاوة

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٨٠

(٣) فى ك ٤٣ « وترددت الرسائل حتى أرسل إليه تمام خمسمائة ألف دينار ، ولم يلق أبو عبد الله البريدى الخليفة مدة مقامه ببغداد »

(٤) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٨٠

إلى البريدى ، فشغب الجند عليه . وكان الديلم قد قدّموا على أنفسهم كورتكين الديلمى ، وقدّم الأتراك عليهم تكينك التركى غلام بجكم . وسار الدّيلمُ إلى دار البريدى فأحرقوا دار أخيه أبى الحسين التى كان ينزلها ، وانضاف تكينك التركى إليهم واتفقوا على قَصْدِ البريدىّ ونَهْبِ ماعنده . فساروا إلى النجمى ووافقهم العامة ، فقطع البريدىُّ الجِسْر ووقعت الحرب فى الماء ووثَبَ العامّة بالجانب الغربى على أصحابِ البريدىِّ ، فهرب هو وإخوته وابنه وانحدروا فى الماء إلى واسط ، ونهبت داره ودور قواده ، وكان هربُه فى سابع شهر رمضان من السنة .

ذكر امارة كورتكين الديلمى

لما هرب البريدى استولى كورتكين الديلمى على الأمور ببغداد ، ورَحل إلى المتقى لِلّهِ فقلّده إمارةَ الأمراء ، وخلع عليه . واستدعى المتقى / علىَّ بنَ عيسى وأخاه عبد الرحمن ، فأمر ٧٧ ـ ب عبدَ الرحمن فدبّر الأمر من غير تسميته بوزارة ، ثم قبض كورتكين على تكينك[1] التركى فى خامس شهر شوال وغرّقه وتفرّد بالأمر . ثم اجتمع العامّة يوم الجمعة سادس شوال وتظلموا من الدّيلم ونزولِهم فى دورِهم فلم يُنْكَرْ ذلك ، فمنعوا الخطيبَ مِن الصلاة واقتتلوا هم والديلمُ فقُتِلَ من الفريقين جماعة .

(١) كذا فى ف صفحة ٤٦ ـ ا ، وفى المصورتين ك ، ا « تكنيك » خلاف مافى المظان .

ذكر عود محمد بن رائق الى بغداد

وولايته إمرة الأُمراء

كان سبب عوْدِه أن الأَتراك البجكمية لما ساروا إلى الموصل لم يرَوْا عند ابن حمدان ما يريدون ، فساروا نحو الشام إلى ابنِ رائق ، وكان فيهم من القوّادِ توزون وجُخجُخ ونوشتكين وصيغون . فلما وصلوا إليه أطمعوه فى العَوْدِ إلى العراق ، ثم وَصَل إليه كُتُبُ المتقى تستدعيه ، فسار من دمشق فى العشرين من شهر رمضان واسْتَخْلَفَ على الشام أبا الحسن أحمد بنَ على بن مقاتل ، وسار حتّى وصل إلى الموصل فَتَنحّى عن طريقه ناصر الدولة ابن حمدان ، ثم تراسلا وتصالحا على مائة ألف دينار يحملها [ناصر الدولة] (١) ابن حمدان إليه

وسار ابن رائق إلى بغداد ، وخرج كورتكين إلى عكبرا ، ووصل / إليه ابن رائق فوقعت الحربُ بينهما عِدَّةَ أيام . فلما كان ليلة الخميس لتسع بقين من ذى الحجة سار ابن رائق ليلا من عكبرا هو وجيشه فأصبح ببغداد ، فدخلها من الجانب الغربى ، ونزل فى النجمى ، وعبر من الغد إلى الخليفة فلقبه ، وركب المتقى معه . ٧٨ ـ ا

ووصل فى هذا اليوم بعد الظهر كورتكين من الجانب الشرقى بجميع جيشه وهم يستهزئون بأصحابِ ابن رائق ويقولون : أين نزلت هذه القافلة الواصلة من الشام ؟ ولما دخل كورتكين

(١) فى ا اضطراب فى النقط وفى ك ٤٤ بلا نقط وما ها هنا عن ف صفحة ٤٦ ـ ا

بغداد أيس (١) ابن رائقٍ من ولايتها وعزَم على العود ، وأمر بحمل أثقاله فَرُفِعَت ، ثم عزم على أن ينا وشَهم شيئا من قتال قبل مسيره ، فأمر طائفةً من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الأتراك من ورائهم . ثم ركب هو فى سميرية وركب معه عِدَّةٌ من أصحابه فى عشرين سميرية ووقفوا يترامون بالنشاب ، ووصل أصحابه وصاحوا من خلفهم ، واجتمعت العامة وصاحوا على أصحاب كورتكين فانهزم هو وأصحابه واختفى هو . وَرجمتْهُم العامَّةُ بالآجُرِّ وغيره ، وَقَوِىَ أمر ابن رائق ، وقَتَل من أساء إليه من الدَّيْلم وكانوا نحو أربعمائة ، وقتل من قوادهم بضعة عشر رجلا ، وخلع عليه المتقى وجعله أميرَ الأُمراء ، ثم ظفر بكورتكين فحبسه بدار الخليفة .

وفى هـذه السنة فى شوال استوزر المتقى لله / أبا إسحاق محمد ٧٨ ـ ب
ابن أحمد الإسكافى المعروف بالقراريطى بعد عَوْدِ البريدى ، وجعل بدرًا الخرشنى (٢) حاجبه ، فبقى وزيرًا إلى الخامس والعشرين من ذى القعـدة فقبض عليه كورتكين واستوزر بعـده أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخى ، فبقى وزيرًا إلى الثامن والعشـرين من ذى الحجة منها فعزله ابن رائق ، ودبَّر الأُمورَ أبوعبد الله أحمد الكوفى كاتب ابنِ رائقٍ من غير تسمية بوزارة .

---

(١) أيس : لغة فى يئس

(٢) فى ا « الجوشنى » وفى ك ٤٤ « الجرشى » وما هنا عن البداية والنهاية ١١ : ٢٠٣ ، والكامل نسبة إلى خرشنة إحدى بلاد الروم قرب ملطية .

وفيها انقطع الغَيْث بالعراق فاستسقى الناس فى شهر ربيع الأول فسقوا مطرا قليلا لم يَجْرِ منه ميزاب ، فاشتد الغلاء والوباء وكثر الموت حتى دُفِنَ الجماعة فى القبر الواحد من غير غسْلٍ ولا صلاةٍ عليهم ، ورخص العقار والأثاث ببغداد حتى بيع ما ثمنه دينار بدرهم ، وانقضى تشرين الأول وتشرين الثانى وكانون الأول وكانون الثانى وشباط الأول ولم يمطر الناس غير المطرة التى كانت عند الاستسقاء ، ثم جاء المطر فى آذر ونيسان .

قال أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى سبب هذا المطر بِسَنَد رفَعه إلى أبى محمد الصُّلَيْحى[1] الكاتب أنه قال : لما نادى المتقى فى زمن خلافته فى الأسواق أن أمير المؤمنين يقول لكم معشرَ رعيته : إنَّ امرأةً صالحةً رأت النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى منامها فشكت / احتباسَ المطرِ فقال لهـا : « قولى للنـاس يخرجون فى يوم الثـلاثاء الأدنى ويستسقون ويدعون فإنه يسـقيهم فى يومهم » وإن أمير المؤمنين يأمركم كما أمركم رسول الله صلى الله وسـلم عليـه ، وأن تدعوا وتستسقوا بإصلاحٍ من نيَّاتكم وإقلاعٍ عن ذنوبكم — قال — فأخبَرَنى الجمُّ الغفيرُ[2] أنهم لما سمعوا النداء ضَجَّتِ الأسواق بالبكاء والدعاء ، فشق ذلك علىَّ وقلت : « منامُ امرأةٍ لا نَدْرِى ما تأويله ، هل يصحُّ أم لا ، ينادى به فى الأسواق فى مدينة السلام ، فإن لم يسقوا كيف يكون

١ — ٧٩ ب

(١) فى المنتظم ٦ : ٣١٩ وفيه « الصلحى » ؛ وما هنا عن ا ، ن ٤٦ — ب ، ك صفحة ٤٤

(٢) فى ا وغيرها « والخير فى الجما الغفر » وما هنا عن ابن الجوزى فى المنتظم .

حالنا مع الكفار ؟ فليته أمر الناس بالخروج ولم يذكر هذا ، وما زلتُ قَلِقًا حتى أتى يوم الثلاثاء فقيل لى : إن الناس قد خرجوا إلى المصلى مع أبى الحسين أحمد بن الفضل بن عبد الملك إمام الجامع ، وخرج أكثر أصحابِ السلطان والفقهاء والأشراف ، فلما كان قبل الظهر ارتفعت[1] سحابة ثم طبقت الآفاق ثم أسلت غزالتها[2] بمطر جود ، فرجع الناس حفاة من الوَحَل.

ودخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة

ذكر وزارة أبى عبد الله البريدى

/ فى هـذه السنة وَزَرَ أبـو عبـد الله البريدى للخليفة المتقى لله ، وسبب ذلك أن ابن رائق استوحش منه لأنه أخَّر حمل المال وانحدر إلى واسط عاشر المحرم ، فهرب البريدى إلى البصرة وسعى أبو عبد الله الكوفى للبريدى وإخوتِه حتى عادوا وضمنوا بقايا واسط بمائة وتسعين ألفَ دينارٍ ، وضمنوها كلَّ سنة بستمائة ألفِ دينارٍ . وعاد ابن رائق إلى بغداد فشغب الجندُ عليه ثانى شهر ربيع الآخر وفيهم توزون وغيرُهُ من القواد ، وتوجَّهُوا إلى البريدى فى العُشْر الآخر من شهر ربيع الآخر بواسط ، فقوى بهم فاحتاج ابن رائق إلى مداراته فكاتبه بالوزارة ، وأنفذ إليه

٧٩ ـ ب

(١) فى ك ٤٥ « انقضت »

(٢) كذا فى ف صفحة ٤٧ ـ ا وما فى ا ، ك مضطرب عزاليها : مصبات الماء من الراوية ، المفرد عزلاء وتطلق أيضا على فم الراوية ، أى الأعلى الذي يصب الماء فيه أولا (المحيط)

الخِلعَ واستخلف أبا عبد الله بن شيرزاد . ثم ورَدتِ الأخبارُ إلى بغدادَ فعزم البريدىُّ على الإصعاد إلى بغداد ، فأزال ابنُ رائقٍ [اسم الوزارةِ عنه ، وأعاد أبا إسحاق القراريطى ولُعِن بنو البريدى على المنابر بجانبي بغداد .

ذكر استيلاء البريدى على بغداد
وإصعاد المتقى لله إلى الموصل

قال (١) : وسير أبو عبد الله البريدى أخاه أبا الحسين إلى بغداد
٨٠ ـ ا فى / جميع الجيش من الأتراك والدَّيْلم ، فعـــزم ابنُ رائقٍ عـــلى أن يتحصن بدار الخلافة ، فأصلح سورَها ونَصَب عليها العرّاداتِ(٢) والمجانيقَ وعلى دجلة ، وأنهض العامة وجَنَّد بعضهم ؛ فثاروا فى بغداد وأحرقوا ونهبوا ، وأخذوا الناسَ ليلا ونهارا . وخرج المتقى لله وابن رائق إلى نهر دَيالى فى منتصف جُمادي الآخرة ، ووافاهم أبو الحسين فى الماء والبر ، واقتتل النَّاسُ فانهزم أهل بغداد ، واستولى أصحاب البريدىِّ على دار الخلافة ودخلوا إليها من الماء ، وذلك لتسعٍ بقين من جُمادى الآخرة . وهرب المتَّقى وابنُه الأمير أبو منصور فى نحو عشرين فارسًا ، ولحق بهما ابن رائقٍ فى جيشه ، وساروا جميعا إلى الموصل .

وقَتَلَ أصحابُ البريدىِّ مَنْ وجدوه فى دارِ الخليفة من الحاشية ، ونهبوا دور الحُرم ، وكثر النَّهْبُ فى بغدادَ ليلا ونهارا .

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٨٣
(٢) العرّادات : مفردها العرّادة وهى شيء أصغر من المنجنيق وتقوم بدوره (المحيط)

وأخرجوا كورتكين من محبسه ، فأنفذه أبو الحسين إلى أخيه بواسط ، فكان آخر العهد به . ونزل أبو الحسين بدار مؤنس التي يسكنها ابن رائق ، وأقام أبو الحسين توزونَ عَلى الشرطة بشرقي بغداد ، وجعل نو شتكين على شُرْطَةِ الجانبِ الغربيِّ فسكن الناس ، وأخذ أبو الحسين رهائن القواد فسيَّرهم إلى أخيه أبي عبد الله بواسط .

قال [1] : وعسَفَ أهل العراق وظَلَمهم ظلما لم يُسْمَعْ بِمِثْلِه قَطُّ ، ذكر / ابن الأثير رحمه الله ذلك فى تاريخه الكامل وأفرده ٨٠ – ب
بترجمةٍ وهى « ذكر ما فعله البريدىُّ ببغداد » ، ولما انتهى كلامه قال « وإنما ذكرنا هذا الفصل ليعلم الظَّلَمَةُ أن أخبارهم تُنْقَل وتبقى على وجْهِ الدهر ، فربما تركوا الظلم لهذا إذا لم يتركوه لله سبحانه وتعالى [2] » وأظنه رحمه الله تعالى قال هذا لما علمه من حال الظلمة فى عصره ، وأنهم يستقبحون الظلم . ويتركونه خشية أن ينقل عنهم . وإنما تركت أن أشرح ماقاله من ظلم البريدى خوفًا أن يسمعه ظَلَمَةُ هذا العصرِ فيقتدون بأفعاله ويحملون الناس على مثاله ؛ فإن فيهم من يتحلى بالظلم ولا يتحاشى من فِعْله ويردُّ فرع كل مظلمة إلى أصله ويقول : قد فعله فلان وفلان وجرت عليه القاعدة فى كل عصر وأوان ! ويبرز بالظُّلْمِ بروزَ الليث من غابه ، وتصدر عنه الحوادث كصدورِ الغَيْث من

(١) راجع ذلك فى ٦ : ٢٨٤

(٢) هذا ختام الفصل الصغير الذى عقده صاحب الكامل ٦ : ٢٨٤

سحابه ، ويرى أنَّ ذلك فرصةٌ يغتنمها وكعبةٌ يستلمها ، ثم لا يقنعه ذلك إلى أن يُسَمِّى المظالمَ بالحقوق الواجبة ، ويرى الملازمةَ عليها من السنن الراتبة . لا جرمَ أن الله تعالى يأخذه من مأمنه ، ويسلبه ما حَوله من نِعَمِه ومِنَنِهِ ، لأن مَلِكَ هذا العصر[1] ـ خَلَّد الله سلطانَه وثبَّت أركانَه ونَصر جيوشَه وأعوانَه ـ / ينكر المظالم إذا أُنهِيَت إليه ويزيل اسمها ، ويمحو من دواوين دولته رسمَها ، ويكف الأَكُفَّ العاديةَ إذا عدت ، ويقبض الأيدى الجارية إذا انبسطت فى العالم واعتَدَت[2] . ٨١ ـ ا

ذكر قتل ابن رائق

وولاية ابن حمدان إمرة الأُمراء

كان المتقى لله قد أنفذ إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريدىّ ، فأرسل أخاه سيف الدولة[3] نجدةً فى جيشٍ كثيفٍ ، فلقى المتقى لله وابن رائقٍ بتكريت قد انهزما ، فخدم سيفُ الدَّوْلةِ المتقى خدمةً عظيمة ، وسار معه إلى الموصل ففارقها ناصر الدولة إلى الجانب الشرقى وتوجه نحو معلثايا[4] وترددتِ الرسائل بينه وبين ابن رائقٍ . ثم تعاهدا واتفقا فحضر ناصر الدولة ونزل على دجلة بالجانب الشرقى ، فعبر إليه

---

(١) الناصر محمد

(٢) يلاحظ أن تعليق المؤلف على فصل ابن الأثير أكبر من الفصل نفسه ، ولكننا إذا عرفنا أن النويرى خاض معركة التتار ، ورجع إلى مصر بعد النصر ليكتب كتابه هذا أدركنا مدى حساسيته للظلم ورغبته فى دفعه بأى سبيل !

(٣) هو أبو الحسين على بن عبد الله بن حمدان .

(٤) فى ا ، ك ٤٦ « معلياثا » وما هنا من الكامل ٦ : ٢٨٤ قال ياقوت معلثايا بلد قرب جزيرة ابن عمر من نواحى الموصل (معجم البلدان ١٨ : ١٥٨)

الأمير أبو منصور بن المتقى وابن رائق يسلمان عليه ، فنثر الدنانير والدراهم على ولد المتقى . فلما أراد الانصراف من عنده ركب ولد المتقى وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة : أقم اليوم عندى لنتحدث فيما تفعله ! فاعتذر بابن المتقى ، فألح عليه ابن حمدان فامتراب به / وجذب كُمَّه من يده فقطعه ، وأراد الركوب فَشبَّ به فَرسُه فسقط ، فصاح ابنُ حمدان « أن اقتلوه » فقتلوه وألقوه فى دجلة . وأرسل ابنُ حمدان إلى المتقى يقول : إنه علم أن ابنَ رائقٍ أراد أن يغتاله ففعل ما فعل [1] ، فَرَدَّ عليه المتقى ردا جميلا وأمره بالمسير إليه فسار ناصر الدولة إليه فخلع المتقى عليه ولقَّبه ناصرَ الدَّوْلةِ وجعلَه أميرَ الأُمراء ، وذلك فى مستهل شعبان ، وخلع على أخيه أبى الحسين ولقَّبه سيف الدولة ، وكان قَتْل ابنِ رائقٍ يوم الإثنين لسبعٍ بقين من شهر رجب [2] ، ولما قُتل سار الإخشيد من مصر إلى الشام فتسلمها .

٨١ ـ ب

ذكر عود المتقى لله الى بغداد

وهرب البريدى عنها

قال [3] : ولما قتل ابن رائقٍ سارع الجندُ إلى الهربِ من البريدىِّ لسوء سيرته فهرب جُخجخ وتوزون إلى المتقى فى جماعةٍ من الأتراك ، فأتَوْا الموصل فى خامس شهر رمضان فقوِىَ

(١) فى ك ٤٦ « أراد أن يغتاله فقتله وفعل به ما فعل »
(٢) راجع البداية والنهاية ١١ : ٢٠٢ .
(٣) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٨٥ .

بهم ابن حمدان ، وسار هو والمتقى لله إلى بغداد . فلما قارباها هرب أبو الحسين البريدىُّ منها إلى واسط ، وكان مقامُه ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوما . ودخل المتقى إلى بغداد ومعه بنو حمدان فى / جيوش كثيرة ، واستوزر المتقى أبا إسحاق القراريطى وقلَّد توزون جانبى بغداد وذلك فى شوال . ٨٢ ـ ا

ذكر الحرب بين ابن حمدان والبريدى

قال[١] : ثم خرج بنو حمدان نحو واسط لقتال البريدى ، وسار أبو الحسين البريدى من واسـط أيضا لقتالهم . فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سَيْف الدولة وابن عمه الحسين بن سعيد فى الجيش لقتاله ، فالتقوا تحت المدائن بِفَرْسخَيْنِ واقتتلوا عِدَّةَ أيام آخرُها رابعُ ذى الحجة فانهزم سيف الدَّوْلةِ إلى أخيه ، فأضاف إليه جماعةً وَرَدَّه ، فقاتل وَهَزَم أبا الحسين البريدىَّ وأسر جماعةً من أصحابه وقتل جماعةً . وعاد ناصر الدَّوْلةِ إلى بغدادَ ، فدخلها فى ثالث عشر ذى الحجة ، وانحدر سيفُ الدولة من موضع المعركة إلى واسط . فرأى البريدىَّ قد انحدر منها إلى البصرة ، فأقام سيف الدولة بها .

ودخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة .

ذكر ما اتفق لسيف الدولة بواسط

ورجوع ناصر الدولة إلى الموصل

قال[٢] : ولمـا أقام سيف الدولة بواسط ، قصد الانحدار إلى ٨٢ ـ ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٨٥ .
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٩٠ .

البصرة ليأخذَها من البريديين ، فلم يمكنْهُ لقلةِ المال عنده . فكتب إلى أخيه ناصر الدولة مرةً بعد أخرى فأنفذ إليه مالًا مع أبي عبد الله الكوفي ليفرِّقَه في الأتراك فأسمعه توزون وجُخجخ المكروه وثارا به فَغَيَّبَهُ سيفُ الدولةِ عنهما ، وسيَّره إلى بغداد . وأمر توزون أن يسير إلى الجامدة[1] ويأخذها وينفرد بحاصلها ، وأمر جُخجخ أن يسير إلى المذار[2] ويأخذ حاصلَها .

وكان سيفُ الدولة يُزَهِّدُ الأتراكَ في العراقِ ويُحَسِّن لهم قَصْدَ الشَّام معه والاستيلاء عليه وعلى مصر ويقع في أخيه عندهم ، فكانوا يصدقونه في أخيه ولا يجيبونه إلى الشام ويتجنَّوْن عليه ، ثم ثاروا به في سَلْخ شعبان وكبسوه ليلا ، فهرب من معسكره إلى بغداد ونُهِبَ سوادُه وقتِلَ جماعةٌ من أصحابِه .

وأما ناصر الدولة فإنه لما وصل إليه الكوفيُّ وأخبره الخَبَرَ برز للمسير إلى الموصل ، فركب المتقي إليه وسأله التوقُّف عن المسير ؛ فأظهر له الإجابة إلى أن عاد ثم سار إلى الموصل ، ونُهِبَتْ دارُه ، ودبَّر الأمرَ أبو إسحاق القراريطي من غيرِ تَسْميةٍ بوزارة ، وكانت إمارة ناصر الدولة ببغدادَ ثلاثةَ عشرَ شهرًا وخمسةَ أيامٍ ، ووصل سيفُ الدولةِ إلى بغداد !

---

(١) الجامدة : قرية كبيرة جامعة بين البصرة وواسط ومن أعمال واسط (معجم البلدان ٥ : ٩٥) .

(٢) المذار : عجمية في بيسان وهي قصبتها بينها وبين البصرة أربعة أيام (معجم البلدان ١٧ : ٨٨) .

/ ذكر حال الأتراك

٨٣ ـ ا

بعد إصعادِ سيفِ الدولةِ من واسط.

قال[١] : ولما هرب سيف الدولة عاد الأتراك إلى معسكرهم ، فوقع الخلاف بين توزون وجُخجخ وتنازعا الإمارة ، ثم استقرت الحال أن يكون توزون أميرًا وجُخجخ صاحب الجيش ، وتصاهرا . وطمع البريدى فى واسط. فأصعد إليها ، وتراسل هو وتوزون ولم يتفقا ، ثم بلغ توزون أن جُخجخ يريد الانتقال إلى البريدى فكبسه فى فراشه فى ليلةِ الثانى عشر من شهر رمضان وسمله[٢] .

ذكر عود سيف الدولة الى بغداد

وهربه منها

قال[٣] : ولما هرب سيف الدولة من واسط. قصد بغداد ، وأرسل إلى المتقى لله يطلب منه ما لا ليقاتل توزونَ إن قصد بغداد ، فأنفذ إليه أربعمائة ألف درهم ففرقها فى أصحابه . وكان وصوله فى ثالث عشر شهر رمضان ، ولما بلغ توزون وصول [ابن حمدان][٤] سيف الدولة إلى بغداد ترك كيغلغ بواسط. فى ثلاثمائة رجل وأصعد إلى بغداد / ، فلما سمع سيف الدولة بإصعاده رحل من بغداد . ٨٣ ـ ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٩١ .

(٢) استطاع مطهر بن طاهر المقدسى فى كتابه « البدء والتاريخ » والمسعودى فى كتابه « مروج الذهب » ومسكويه فى « تجارب الأمم » أن يقدموا صوراً دقيقة لموقف الأتراك – ولا سيما توزون – من الخلافة ، وبدا واضحا أن على الخليفة أن يستنجد بأحد ، وفى ترجمة الإخشيد يقفنا ابن تغرى بردى على صفحات من ذلك الصراع – راجع كتاب النجوم الزاهرة ٣ : ٢٥٥ ، ٢٨٠ وسيف الدولة لماريوس كانار Canard (M) Sayfal Dawla.

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٩١ .

(٤) زيادة من ك ٤٧ .

ذكر امارة توزون

قال[١] : ولما فارق سيفُ الدولةِ بغدادَ دَخلها توزون ، وكان دخولهُ فى الخامس والعشرين من شهر رمضان ، فَخَلَعَ عليه المتقى لِلّهِ وجعلَه أميرَ الأُمراء ، وصار أبو جعفر الكَرْخى ينظر فى الأُمورِ كما كان الكوفى ينظر فيها . ولما سار توزون عن واسطٍ أصعد إليها البريدى ، فهرب منْ بها مِنْ أصحابِ توزون إلى بغداد ، فلم يمكنه المبادرة إلى واسط ، حتى استَقَرَّتِ الأُمورُ ببغداد ، ثم انحدر إلى واسط فى ذى القعدة ، فأتاه أبو جعفر بن شِيرْزاد هاربًا من البريدىّ ، ففرح[٢] توزون به وقلّده جميع أموره .

ذكر الوحشة بين المتقى وتوزون

قال[٣] : كان محمد بن ينال الترجمان أكبر قواد توزون — وهو خليفته ببغداد — فلما انحدر إلى واسطٍ سعى بمحمد إليه وقَبّح ذكره عنده[٤] فبلغ ذلك محمدا ، فنفر منه . وكان الوزير أبو الحسين ابن مقلة ضَمنَ القُرى المختصة بتوزون ببغداد فخسر فيها جملةً ، فخاف أن يطالب بها ، وانضاف إلى ذلك اتصال ابن شيرزاد بتوزون / فخافه الوزيرُ وغَيْرُه ، وظنوا أن مسيره إلى توزون ٨٤ — ١

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٩١

(٢) فى ك ٤٧ « ففرح توزون به فقلده توزون جميع أموره »

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٢٩٢

(٤) فى ا « وقبّح ذكره لله » ولا معنى له ، وما هنا عن الكامل ٦ : ٢٩٢ وفى ك ٤٨ « وقبّح ذكره عند المتقى لله »

باتّفاقٍ من البريدىّ ، فاتفق الترجمـــان وابن مقلة ، وكتبا إلى ابن حمدان لينفذ عسكرًا يسير صُحْبَةَ المتقى لله ، وقالا للمتقى : قد رأيتَ ما فعل البريدىُّ معك بالأمس ، أخذ منك خمسمائة ألف دينار وأخرجْتَ على الأجناد مثلها ، وقد ضمنك البريدي من توزون بخمسمائة ألف دينار أخرى رغم أنها فى يدك من تركة بجكم ، وابن شيرزاد واصل ليتسلمك ويخلعك ويسلمك إلى البريدىّ ! فانزعج لذلك ، وعزم على الإصعاد إلى ابن حمدان ، وورد ابن شيرزاد جريدة[1] فى ثلاثمائة رجل ، فوصل فى خامس المحرم.

وفيها تزوج الأمير أبو منصور بن المتقى لله بابنة ناصر الدولة بن حمدان ، وكان الصداق ألف ألف درهم ، والحِمْل مائة ألف دينار .

وفيها صرف ناصر الدولة أبا إسحاق القراريطى عن الوزارة وقبض عليه ، واستوزر أبا العباس ، أحمد بن عبدالله الأصفهانى فى شهر رجب ، ثم استوزر المتقى لله بعد إصعاد ناصر الدولة من بغداد إلى الموصل أبا الحسين بن مقلةَ فى ثامن شهر رمضان .

وفيها أرسل ملك الروم إلى المتقى لله يطلب منديلا زعم أن المسيح مَسَحَ به وجهه فصـــارت صـــورة وجهه فيه ، وأنه فى بيعة الرُّها[2] ، وذكر أنه إن أرســـل إليه أطلق عـــددا كبيرًا ٨٤ ـ ب

(١) جريدة : خيلا لا رجالة فيها (القاموس) وراجع أيضا R. Dozy فى Dictionnaires Arabes (I : 184)

(٣) الرها : مدينة عظيمة فى جزيرة أقور بينها وبين حران يوم .

من أسارى المسلمين ، فأحضر المتقى لله الفقهاء والقضاة واستفتاهم فاختلفوا فيه ، فقال بعضهم إنّ فى تسليمه غَضَاضَةً على الإسلام ، وبعضهم رأى تسليمه وفكاكَ الأسرَى أَوْلَى من بقائه ، فقال على ابن عيسى الوزير : إن خلاص المسلمين من الأسر والضُّرّ والضَّنْك الذى هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل ! فأمر الخليفة المتقى لله بتسليمه إليهم وإطلاق الأسرَى من بلاد الروم ، فأطلقوا[1] !

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة

ذكر مسير المتقى لله الى الموصل

فى هذه السنة أصعد المتقى لله إلى الموصل ، وسبب ذلك ماذكرناه من إغراء من أغراه بتوزون وخَوْفه منه ووصولِ ابنِ شيرزاد إلى بغداد فى خامس المحرم جريدة ، فازداد خوف المتقى لله . وأقام ابن شيرزاد ببغداد يأمر وينهى ولا يراجع المتقى فى شيء ، وكان المتقى قد أنفذ فى طلب جيشٍ من ناصر الدولة ليصحبه إلى الموصل ، فأنفذهم مع ابن عمه الحسين بن سعيد ، فوصلوا إلى بغداد ونزلوا بباب حرب . فاستتر ابن شيرزاد وخرج المتقى لله إليهم فى حرمه وأهله ووزيره وأعيان بغداد ، ولما سار المتقى لله من بغداد ظلم ابن شيرزاد الناس وعسفهم وصادرهم / ، وأرسل إلى توزون وهو بواسط يخبره بذلك . فلما بلغه الخبر عقد ضمان واسط على البريدى وزوّجه ابنته وسار إلى بغداد ، وسار

٨٥ - ا

(١) راجع الخبر بالتفصيل فى المنتظم ٦ : ٣٣١ .

ناصر الدولة للقاء المتقى إلى تكريت فوصل فى الحادى والعشرين من شهر ربيع الآخر وركب إليه الخليفة وأكرمه . وأصعد الخليفة إلى الموصل ، وأقام ناصرالدولة بتكريت ، وسار توزون نحو تكريت فالتقى هو وسيف الدولة بن حمدان تحت تكريت بِفَرْسخَيْن فاقتتلوا ثلاثةَ أيام ثم انهزم سيفُ الدولة لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر ، وغنم توزون سواده وسواد أخيه ناصر الدَّوْلة . وعادا من تكريت إلى المَوْصل ثم التقوا مرة ثانية فانهزم سيفُ الدولة وتبعه توزون ، فسار المتقى لله وبنو حمدان إلى نصيبين ودخل توزون المَوْصلَ وسار المُتَّقى إلى الرَّقَّة ، ولحقه سيف الدولة .

وأرسل المتقى لله إلى توزون يذكر أنه استوحش منه لاتصاله بالبريدىّ ، فإن آثر رضاه يصالح ناصرَ الدولة وسيف الدولة ليعود إلى بغداد ، وترددت الرسائل بين المتقى وتوزون حتى تم الصلحُ ، وعقد الضمان على ناصر الدولة عَمَّا بيده من البلاد (١) ثلاثَ سنين كلُّ سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم ، وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقى لله عند بنى حمدان .

/ ذكر قتل أبى يوسف البريدى ٨٥ ـ ب

فى هذه السنة قَتَلَ أبو عبدالله البريدىّ أخاه أبا يوسف ، وسبب ذلك أنَّ أبا عبد الله كان نفذ ما عنده من المال فى محاربة بنى حمدان ومقامهم بواسط. ومحاربة توزون ، فلما رأي جُنْدُه

(١) كذا فى ا وفى ك ٤٨ « وعقد الضمان على ناصر الدولة بن حمدان عما بيده من البلاد »

قلةَ مالِه مالوا إلى أخيه أبي يوسف لكثرة أمواله ، فاستقرض أبو عبد الله منه المال مرة بعد أخرى فكان يعطيه القليلَ من المال ويعيبه ويذكر تضييعه وهَوجَه وتهوُّرَه ، فبلغ ذلك أبا عبد الله . ثم صَحَّ عنده أنه يريد القَبْضَ عليه والاستبدادَ بالأمر وحدَه ، واستوحش كلٌّ منهما من صاحبِه ؛ فدبَّر أبو عبد الله عليه وأقام غلمانَه في طريقٍ مسقف بين داره والشط ، فدخل أبو يوسف في ذلك الطريق فثار به الغلمان فقتلوه وهو يستغيث : ياأخي قتلوني ! وهو يقول : إلى لعنة الله ! ولما قتل دفنه فثار الجند وشغبوا ظَنًّا منهم أنه حي ، فأمر به فَنُبِشَ وألقاه على الطريق ، فلما رأوه سكتوا فأمر بدفنه . وانتقل أبو عبد الله إلى دار أبي يوسف ، فأخذ ما فيها ولم يحصلْ من مال أخيه على طائلٍ فإن أكثره انكسر عند الناس !

ذكر وفاة أبي عبد الله البريدي

ومن قام بعده بالأمر

وفي هذه السنة في شوال مات أبو عبد الله البريدي بعد أن قتل أخاه بثمانية أشهر / واستقر الأمر بعدَه لأخيه أبي الحسين ؛ فأساء السيرةَ ٨٦ ـ ا
في الجند ، فثاروا به ليقتلوه فهَرَب إلى هَجَر واستجار بالقرامطة ، ونصب الجند أبا القاسم بن أبي عبد الله .

قال[1] : وسار أخوان لأبي طاهر مع أبي الحسين في جيش إلى البصرة ، فرأوا أبا القاسم قد حفظها صلحوا بينه وبين ابن

(١) ابن الأثير في الكامل ٦ : ٢٩٦ .

أخيه ، وعادوا ودخل أبو الحسين البصرة ، فتجهز منها وسار إلى توزون ببغداد ، واستقام أمر أبي القاسم بن أبي عبد الله البريدى .

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

ذكر ما كان من أمر المتقى لله

إلى أن خُلِع وسُمل

كان المتقى لله قد راسل توزون في طلب العود إلى بغداد ، وسبب ذلك أنه رأى من بنى حمدان تضجُّرًا[1] منه وإيثارًا لمفارقته ، فاضطر إلى مراسلة توزون . فأرسل إليه الحسن بن هارون وأبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمى فى الصلح ، فلقيهما توزون وابن شيرزاد بنهاية الرَّغْبَةِ فيه والحِرْصِ عليه واستوثقا من / توزون وحلّفاه للمتقى وحَضَرَ اليمينَ خلق كثير من القضاةِ والعدولِ ، والعباسيون والعلويون وغيرُهم . وحلف توزون للمتقى والوزير ، وكتبوا خطوطهم بذلك ، وكان ذلك فى سنة اثنتين وثلاثين . ٨٦ - ب

وكان أيضا قد كتب إلى الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر يشكو إليه حالَه ويستقدمه ، فقدم إليه إلى الرَّقَّة فى منتصف المحرم من هذه السنة ووقف بين يديه موقف الغلمان ، ومشى بين يديه ، وحمل إلى المتقى لله هدايا جليلة وإلى الوزير أبي الحسين بن مقلة وسائر الأصحاب ، واجتهد بالمتقى ليسير معه إلى مصر والشام ويكون بين يديه فلم يفعل ، فأشار عليه

(١) كذا في ف صفحة ٥١ - او ما في ا ، ك مضطرب .

بالمقام مكانَه ولا يرجعُ إلى بغداد وخوّفه من توزون فأبى إلا العود إلى بغداد . وَعَرَضَ على ابنِ مُقْلَةَ المسيرَ معه إلى مصر ليحكّمَه فى جميع بلاده ، فلم يُجِبْهُ إلى ذلك ، فخوّفه أيضا من توزون ، فكان ابنُ مقلةَ يقول بعد ذلك : نصحنى الإخشيد فلم أقبل نصيحته . !

ثم انحدر المتقى لله إلى بغداد لأربع بقين من المحرم ، وعاد الإخشيد إلى مصر ، فلما وصل المتقى لله إلى هيت [1] أقام بها وأنفذ من يجدّدُ اليمينَ على توزون ، فَحَلَفَ وسار عن بغدادَ لعشر بقين من صفر للقاء المتقى لله ، فلقيه بالسندية ونزل توزون وقبّل الأرض بين يدى المتقى وقال : ها أنا قد وفيت بيمينى / والطاعة لك ! ثم وكَلَ به وبالوزير وبالجماعةِ وأنزلهم فى مضربه مع حُرَم المتقى ثم كَحلَه فأذهب عينيه ، فصاح وصاح مَنْ عنده من الحرم والخَدَم فارْتَجَّتِ الأرض فأمر توزون بضرب الدبادب [2] فخفيت الأصوات ، وعمى المتقى [3] ٨٧ - ا

وانحدر توزون من الغد إلى بغداد ، وكان خلع المتقى لله وسمله فى يوم السبت لعشر بقين من صفر ، فكانت مدة خلافته ثلاثَ سنين وأحد عشر شهرا ، وعاش إلى أيام المطيع ، وتوفى فى منتصف شعبان سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وله ستون سنة وأمر المطيع أبا تمام الزينبى فصلّى عليه وكبر خمسا ، ودفن فى

(١) هيت : بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار .
(٢) الدبادب : جمع دبداب و هو الطبل (القاموس مادة دبدب) .
(٣) راجع المنتظم ٦ : ٣٣٨ .

داره ثم ابتاعها عز الدولة بختيار من ورثته بثلاثين ألف دينار فنقلوه إلى تربة بإزائها فامتحن فى الحياة وفى الممات .

قال أبو الحسين عياش اجتمع فى أيام المتقى إسحاقات كثيرة ، فانسحقت خلافة بنى العباس فى أيامه وانْهَدَمَتْ قُبَّة المنصور الخضراء التى كان فَخْرُهم بها ، قيل له ما كانت الإسحاقات ؟ قال : كان يُكنى أبا إسحاق ، وكان وزيره القراريطى يكنى بأبى إسحاق ، وكان قاضيه ابن إسحاق الخِرَقى[1] وكان محتسبَه أبو إسحاق بن بطحاء ، وكان صاحبَ شرطته أبو إسحاق بن أحمد أمير خراسان ، / وكانت دارد القديمة دار إسحاق بن إبراهيم المصعبى وهى دار إسحاق ابن كنداج[2] ٨٧ ب

وكان المتقى لله أبيضَ أشهل العينين[3] أشقر الشعر . قال بعض المؤرخين : كان فى أيامه غلاء وشدة حتى بيع كُرُّ الحنطة بمائتين وعشرة دنانير ، وخرج عدة من الخدم من قصر الخلافة بالرصافة ينادون : الجوع الجوع ![4] وكان نقش خاتمه « المتقى لله » .

ولده ولى عهده : أبو منصور ، وزراؤه : قد تقدم ذكرهم فى فى أنباء دولته ، ولم يكن لهم من الأمر شىء على ما قدمناه

(١) فى ا ، ك صفحة ٥٠ ، ف صفحة ٥١ ب « الحرمى » وما هنا عن النجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٤ والمنتظم ٦ : ٣١٩ : أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقى ، كان من وجوه البزازين بباب الطاق فعجب الناس لتقلده القضاء .

(٢) راجع الخبر فى المنتظم ٦ : ٣١٨ .

(٣) الشهل : تشرب الحدقة حمرة ، فهو أقل من الزرق (العمى) وأحسن منه كما يقول صاحب القاموس (باب اللام فصل الشين) .

(٤) ورد الخبر باختلاف يسير فى المنتظم ٦ : ٣١٨ وأورده كما هنا ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٣ .

قضاته : أبو نصر يوسف بن عمر ، ثم أخوه أبو محمد الحسين ، ثم محمد بن عيسى بن إبراهيم ، ثم أبو طاهر محمد بن أحمد بن نصر ، ثم أبو الحسن أحمد بن أبي موسى .

حجابه : سلامة الطولوني مولى خمارويه ، ثم بدر الخرشني (١) ثم أحمد بن خاقان . الأمير بمصر : الإخشيد محمد بن طغج . القضاة بها : عبد الله بن الوليد ، ثم محمد بن بدر ، ثم أبو الذكر التمار ، ثم الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق ، ثم أحمد بن عبد الله الليثي ، ثم عبد الله بن وليد .

ذكر خلافة المستكفي بالله

/ هو أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بالله أبي محمد علي ابن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بالله بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد أبي محمد بن المهدي أبي عبد الله محمد ابن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم . يجتمع هو والمتقي لله في المعتضد بالله ، وأمه أم ولد اسمها غصن ، وهو الخليفة الثاني والعشرون من الخلفاء العباسيين ، بويع له بعد خلع المتقي لأنه لعشر بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . ٨٨ ا

---

(١) في ا ، ف ١٥ - ب ، ك صفحة ٥٠ « الجوشني » مع النقط والضبط ، وهو ليس كذلك لأنه ينسب إلى خرشنة (بلد قرب ملطية في الروم) فيقال له الخرشني على ما قدمنا .

قال[١] : ولما قَبَضَ توزون على المتقى أحضر المستكفى إلى السندية وبايعه هو وعامّةُ الناس ، وكان سبب البيعة له ما حكاه أبو العباس التميمى الرازى وكان من خواصّ توزون قال : أنا كنت السبب فى البيعة للمستكفى ، وذلك أننى دعانى إبراهيم بن الزوبيندار[٢] الديلمى فمضيت إليه ، فذكر لى أنه تزوج إلى قوم وأن امرأةً منهم قالت له : « إن هذا المتقى قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفوا قلبه لكم ، وهاهنا رجل من أولاد الخلفاء/ من ولد المكتفى » وذكرت عقله ودينه « تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسَكم ، ويدلكم على أموالٍ جليلة لا يعرفها غيره ، وتستريحون من الخوف والحراسة » ـ قال ـ فعلمت أنّ هذا أمرٌ لا يتمّ إلا بك ، فدعوتك له فقلت : أريد أسمع كلامَ المرأة ، فجاءنى بها فرأيت امرأةً عاقلةً جزلة فذكرتْ لى نَحْوًا من ذلك ، فقلت : لابد أن ألقى الرجل ! فقالت : تعود [غدا][٣] إلى هاهنا حتى أجمع بينكما فعدت من الغد فوجدته قد أُخرج من دار ابنِ طاهرٍ فى زىّ امرأةٍ فعرّفنى نَفْسه وضَمنَ لى إظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون ، وذكر وجوهها وخاطبنى خطابَ رجل فَهِمٍ عاقل ، ورأيته يتشيع ـ قال ـ فأتيت توزونَ فأخبرته فوقع الكلام بقلبه وقال : أريد أبْصرُ الرجلَ ! فقلت : لك ذلك ، ولكن اكتم أمرنا من ابن شيرزاد [فقال :

٨٨ ـ ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٣٠١ .
(٢) فى الكامل « الزبيندار » وفى تجارب الأمم « الربنبذ » .
(٣) إضافة من الكامل ٦ : ٣٠٢ .

أفعل !] [١] — قال — وعدت إليهم وأخبرتهم الذى جرى ، ووعدتهم حضور توزون من الغد ، فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مُستَخْفِيَيْن واجتمعنا به ، وخاطبه توزون وبايعه تلك الليلة وكتم الأمر . فلما وصل المتقى قلت لتوزون : أنت على ذلك العزم ؟ قال : نعم ! قلت : فافعله الساعةَ فإنه إن دخل الدار بَعُدَ عليك مرامُه ، فوكل به وسمّله وجرى ما جرى ، وبويع للمستكفى بالخلافة ، /وأحضر المتقى فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب ، وصارت تلك المرأة قهرمانةَ المستكفى وسمّت نفسَها « علم » وغلبت على أمره كلّه ، واستوزر المستكفى بالله أبا الفرج محمد ابن على السامري[٢] يوم الأربعاء لست بقين من صفر منها ولم يكن [له] [٣] غير اسم الوزارة ومعناها لابن شيرزاد ، ثم قبض عليه المستكفى فى شهر ربيع الآخر وصادره على ثلاثمائة ألف درهم فكانت وزارته اثنين وأربعين يوما . ٨٩ — ا

قال [٤] : وخلع المستكفى بالله على توزون وتوّجه ، وطلب أبا الفضل بن المقتدر بالله — وهو الذى ولى الخلافة ولقب المطيع لله — لأنه كان يعرفه يطلب الخلافةَ فاستتر مُدّةَ خلافة المستكفى بالله فَهُدِمَتْ دارُه حتى لم يبْقَ منها شىء .

---

(١) الإضافة من الكامل ٦ : ٣٠٢

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٣٠٢ وفيه « محمد بن على السارى »

(٣) إضافة من الكامل ٦ : ٣٠٢

(٤) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٣٠٢

ودخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة .

فى هذه السنة فى المحرم لَقَّب المستكفى بالله نفسَه إمام الحق ، وضرب ذلك على الدنانير والدراهم ، وكان يُخطَب له بلقبين إمام الحق والمستكفى بالله .

ذكر وفاة توزون وامارة ابن شيرزاد

فى هذه السنة فى المحرم مات توزون ببغداد ، وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهرٍ وتسعةَ عشرَ يومًا . ولما مات كان ابن شيرْزَاد كاتبهُ ببغدادَ بهيت ليخلِّص أموالَها ، فلما بلغه الخبر أراد عقْـدَ / الإمارة لناصر الدولة بن حمدان فاضطرب الجند ، وعقدوا الرياسةَ عليهم لابن شيرزاد فعاد إلى بغداد ونزل بباب حرب[1] فى مستهل صفر . وخرج إليه الأجناد جميعهُمْ وحلفوا لهَ ووُجِّه إلى المستكفى بالله ليحلَف له فأجابه إلى ذلك ، وحلَف له بحضرة القضاة والعدول ودخل إليه وولاه إمرة الأمراء . فزاد الأجناد زيادة كثيرة فضاقت عليه الأموال ، فأرسل إلى ناصرِ الدَّوْلة يطالبه بِحمل المال ويعده بِرَدِّ الرياسة إليه ، فأرسل له خمسمائة ألف درهم ففرقها فى عسكره فلم تُغْنِ شيئًا ، فقسط أرزاق الجُنْد على العمال والكُتَّاب والتجار وغيرهم ، وظلم الناس ببغداد . واستعمل على واسط ينال كوشة وعلى تكريت الفتح اليشكرى ، فأما ينال فإنه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه وصار معه ، وأما الفتح فإنه الْتَحَق بناصر الدولة بن حمدان وصار معه فأقره على تكريت .

٨٩ ـ ب

(١) أحد أبواب بغداد المشهورة .

ذكر استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد

قال[١] : لما كاتب ينال كوشة معز الدولة بن بويه وهو بالأهواز ودخل فى طاعته سار نحوه ، فاضطرب الناس فلما وصل إلى باجِسْرَي[٢] اختفى المستكفى بالله وابن شيرزاد . فلما استترا سار الأتراك إلى الموصل ، فلما بعدوا ظهر المستكفى بالله وعاد إلى دار الخلافة . وقدم أبو محمد الحسن بن محمد المهلّبي صاحب معز الدولة إلى بغداد فاجتمع بابن شيرْزَاد بمكانه الذي استتر فيه ، ثم اجتمع بالمستكفى بالله فأظهر السُّرورَ بقدوم مُعزّ الدولة بن بويه وأعلمه أنه إنما استتر من الأتراك ليتفرقوا ليحصلَ الأمرُ لمعز الدولة بغير قتال . ٩٠ - ا

ثم وصل معز الدولة إلى بغدادَ لإحدى عشرة خَلَت من جُمادى الأولى فنزل بباب الشمّاسية ودخل من الغد إلى المستكفى وبايعه ، وحلف له المستكفى . وسأله معز الدولة أن يأذن لابن شيرْزادَ بالظهور وأن يأذن له أن يستكتبه فأجابه إلى ذلك ، فظهر ولقى مُعزّ الدولة فولّاه الخراجَ وجباية الأموال . وخلع الخليفةُ على معز الدولة ولقبه بهذا اللقب ، وأمر بضرب ألقابه وألقاب إخوته وكناهم على الدنانير والدراهم[٣] .ونزل معز الدولة بدار مؤنس ، ونزل أصحابه

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٣١٤ .

(٢) باجسرى : بليدة فى شرق بغداد بينها وبين حلوان على عشرة فراسخ من حلوان وهى عامرة نزهة كما يقول ياقوت .

(٣) قال ابن تغرى بردى أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٨٥ « هو أول من ملك من الديلم من بنى بويه » .

فى دور الناس فنال الناسُ من ذلك شدةٌ عظيمة وصار رسمًا عليهم وهو أول من فَعَله ببغداد ، ولم يعرف بها قبله .

وأقيم للمستكفى بالله فى كل يوم خمسةَ آلاف درهم لنفقاته ، وكانت ربما / تأخرت عنه فأُقرتْ له بعد ذلك ضياعٌ سُلِّمتْ إليه تولاها له أبو أحمد الشيرازى كاتبه !

٩٠ ـ ب

ذكر خلع المستكفى بالله وسمله

فى هذه السنة خلع المستكفى بالله لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة ، وكان سبب ذلك أن علمَ القهرمانةَ صنعت دعوةً عظيمةً حضرها جماعةٌ من قواد الدَّيْلم والأتراك ، فاتهمها معزُّ الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ البيعةَ للمستكفى بالله ويزيلوا معز الدولة ، فساء ظنه لذلك . فلما كان فى التاريخ المذكور حضر معز الدولة والناس عند الخليفة ، وحضر رسول صاحب خراسان ومعز الدولة جالس ، ثم حضر رجلان من نُقَباء الدَّيْلم فتناولا يدَ الخليفة فَظَنَّ أنهما يريدان يُقَبِّلان يَدَه ، فجذباه عن سريره وجعلا عمامته فى حلقه .

ونهض مُعزُّ الدولة ، واضطرب النَّاسُ وأخرج الديلميان المستكفى بالله إلى دار معز الدولة ماشيا واعتُقِل بها ، ونُهِبَتْ دارُ الخلافة حتى لم يبْق فيها شىء ، وقبض على أبى أحمد الشيرازى كاتب المستكفى وأُخذت علم القهرمانةُ فقطع لسانها . وكانت مدةُ خلافةِ المستكفى بالله سنةً واحدةً وأربعةَ أشهرٍ وما زال مغلوبا / على أمره .

١٩١ ـ

ولما بويع للمطيع لله سُلِّم إليه المستكفى فسمله ، وبقى محبوسا إلى أن توفى فى شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وله ست

وأربعون سنة . وكان أبيضَ حسنَ الوجه قد وَخَطه الشيب ، ولقّب نفسه فى آخر سنة ثلاثٍ وثلاثين إمامَ الحق ، ونقشه على الدنانير والدراهم وقد تقدم ذكرذلك ، وكان نقْشُ خاتمه « المستكفى بالله » .

وزراؤه: محمد بن علي السامري وهو آخر من دُعىَ بالوزارَة ، ثم استكتب أحمد بن عبد الرحمن الشيرازى . قضاته فى الجانبين : أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخِرَقى وقَلَّد محمد بن أبى الحسن بن أبى الشوارب [الجانب] (١) الشرقىَّ والمدينةَ ثم صرفه عن الشرقى بأبى الطَّاهر محمدِ بن أحمد بن نصر ، وعن المدينة بأبى السَّائبِ عُتبةَ بنِ عبد الله الهمدانى ، ثم جمع لعتبةَ الجانبين بعد وفاة ابن أبى موسى ، وجعل المدينة إلى محمد بن صالح بن شيبان الكوفى الهاشمى . حاجِبُه : أحمدُ بن خاقان . الأمير بمصر : الإخشيد بن طغْج . القضاة بها : الحسين بن عيسى بن هارون ، ثم الوليد من قبلِ المستكفى .

ذكر خلافة المطيع لله

هو أبو القاسم الفضل وقيل أبو العباس بن المقتدر بالله /أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد ، وأمُّه أم ولد اسمها مشعلة ، وهو الخليفة الثالث والعشرون من الخلفاء العباسيين بويع له يوم خلع المستكفى ، وهو يوم الخميس لثمانٍ بقين من جُمادي الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان مستترا كما قدمناه من

٩١ ـ ب

(١) زيادة يقتضيها السياق .

أول خلافة المستكفى بالله . فلما قَدِمَ مُعِزُّ الدَّوْلةِ إلى بغداد قيل إن المطيع انتقل إليه واستتر عنده وأغراه بالمستكفى بالله حتى قَبَضَ عليه وسمله ، وبويع للمطيع بالله ولقب بهذا اللقب ، وحضر المستكفى عنده فسلم عليه بالخلافة وأشهدَ على نفسه بالخلع .

وزاد أَمْرُ الخلافةِ إدبارًا ولم يَبْقَ لهم من الأمر شىء أَلْبَتَّةَ ، وقد كانوا يراجَعون قبل ذلك والحرمةُ قائمةٌ بعضَ شىء ، فلما كان فى أيام معزِّ الدولة زال ذلك جميعُه بحيث إن الخليفةَ لم يبْقَ له وزيرٌ ، إنما كان له كاتب يدير إقطاعَه وأخراجاتِه لا غَيْر . وصارت الوزارة إلى معزالدولة يستوزر لنفسه من يريد ، وكان الديلم يغالون فى التشيع[1] ويعتقدون أن بنى العباس قد غَصَبوا الخلافةَ وأخذوها من مستحِقِّيها فلم يكن باعثٌ دينى يحثهم على الطاعة حتى قيل إنَّ معز الدولة قَصد إخراجَ الأمرِ عن بنى العباس والبيعة للمعتز لدين الله العلوى أو لغيره
٩٢ ـ ا / من العلويين .

واستشار جماعةً من خواصِّ أصحابه فكلُّهم أشار عليه بذلك إلا بعضَ خواصِّه ، فإنه قال : ليس هذا برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابُك أنه ليس من أهل الخلافةِ ولو أمرتهم بقَتْلِه لقتلوه مستحلِّين دمَه ، ومتى أجلستَ بعضَ العلويين خليفةً كان معك من تَعْتَقِدُ أنتَ وأصحابُك صحةَ خلافَتِه ولو أمرتَهم بقَتْلِه لقتلوك ! فأعرض عن ذلك .

ومن حيث استقل مُعِزُّ الدَّوْلةِ بالأمر اختصرنا الأخبارَ فى أيام

(١) راجع ابن حسول فى تفضيل الأتراك على سائر الأجناد صفحة ٣٢ .

الخلفاء ، ونذكر ذلك فى أخبار الدَّوْلَةِ البويهية وغيرها من الدول ؛ فإن الأمر والنَّهْىَ صار لهم دون الخلفاء ، ولم يبق للخليفة من الأمر شىء إلا ما أقطعه له مُعِزُّ الدَّوْلة ما يقوم ببَعْضِ حاجتِه . فالذى نذكره الآن فى أيام الخلفاء بنى العباس ما يتعلق بحال الخليفة وأتباعه وأقاربه ومن خرج عليه من أهل بيته ، وننبه على ابتداء دول الملوك وانقراضها ونحيل عليها فى موضعها الذى تشرح فيه ، ونذكر أيضا فى أيام الخلفاء ماغلب عليه الروم والفرنج من البلاد الإسلامية وما وقع من الحوادث العامة كالزلازل العظيمة والسيول ، وما يناسب ذلك على مايراه المطالع فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

/ وفى هذه السنة توفى القائم بن المهدى صاحب إفريقية والمغرب ، وولى بعده ابنه المنصور . ٩٢ ـ ب

وفيها توفى الإخشيد صاحب مصر والشام وولى بعده ابنه أبو القاسم ودبر الأمر كافور الخادم بمصر[1] ، واستولى سيف الدولة بن حمدان على دمشق .

وفيها اشْتَدَّ الغلاءُ ببغدادَ حتى أكل الناسُ الميتةَ والكلاب والسنانيرَ ، وأُخِذ بعضهم ومعه صبىٌّ قد شواه ليأكله ، وأعقبه وباءٌ حتى عجز النَّاسُ عن دفْنِ موتاهم فكانت الكلابُ تأكل الناس والناسُ تأكل الكلابَ .

(١) فى النجوم الزاهرة ٣ : ٢٩١هو : أنوجور بن الإخشيد محمد بن جف الفرغانى ، وأنوجور اسم أعجمى معناه محمود ، وقد ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ١١ : ٢١٣ « أبوجور » ، وكان كافور المذكور يطلق فى كل سنة لابن أستاذه أربعمائة ألف دينار ويتصرف هو فيما يبقى من أموال .

قال أبو الفرج بن الجوزى [١] : وفى هذه السنة كَثُر القملُ برستاق اليمن الكبرى [٢] حتى يئس الناس من غلاتهم فانحط من الطير طائر يزيد على جرْمِ العصفور ، فكان الطائر يعلو على شجرة فيصفر فتطير الطير أفواجا ، فينحطُّ كلُّ فوجٍ منها على ضيعة فيلقط القمل حتى فنى !

ودخلت سنة خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة . فى هذه السنة كان الفداءُ بين المسلمين والروم على يد نَصْرٍ الشملى [٣] أميرِ الثغور لسيف الدولة ، وكان عدَّة الأسرى ألْفَيْن وأربعمائةَ أسير وثمانين أسيرًا .

وفى سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة استولى مُعزّ الدولة بن بويه على البصرة وهرب أبو القاسم بن أبى عبد الله البريدي منها إلى هجر إلى القرامطة ، ثم / استأمن بعد ذلك ، ووصل إلى بغداد فى سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة فأحْسن إليه وأقطعه . ٩٣ ـ ا

وفى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ملك الرومُ مرعش من سيف الدولة بن حمدان ، وكان قد قاتلهم فهزموه .

وفى سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ كانت وفاة عماد الدولة أبى الحسن على بن بويه بمدينة شيراز [٤] .

---

(١) فى كتابه المنتظم ٦ : ٣٤٥ .

(٢) هكذا فى سائر النسخ ، وفى المنتظم « برستاق التيمرة الكبرى »

(٣) فى ك ٥٣ « نصر الشمل » وفى ٥٤ ـ ا « الشمل » وفى البداية والنهاية ١١ : ٢١٦ « نصر المستمل » .

(٤) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١١ : ٢٢١ عنه إنه أول من تملك البويهيين وكان حاقلا حميد السيرة ، بعكس معز الدولة الذى حكى أبو الفرج أن العامة كانت تشتمه شتما مسرفا (المنتظم ٦ : ٣٤٩) .

ذكر اعادة القرامطة الحجر الأسود

وفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة شرفها الله تعالى وقالوا : أخذناه بأمرٍ وأعدناه بأمرٍ ! وكان بحكم قد بذل لهم فى رده خمسين ألف دينار فلم يجيبوا إلى رده وردوه الآن بغير شىء فى ذى القعدة ، وكانوا أخذوه فى سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة . ولما أرادوا رده حملوه إلى الكوفة وعلقوه بجامعها ، حتى رآه الناس ثم حلوه إلى مكة (١) .

وفى سنة تسعٍ وثلاثين أيضا توفى أبو نصر محمد بن الفارابى الحكيم الفيلسوف صاحب التصانيف ، وكانت وفاته بدمشق .

وفى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة توفى المنصور العلوىُّ صاحبُ المغرب / ، وملَكَ بعده ابنه المعزُّ لدين الله . ٩٣ ـ ب

وفيها ملَكَ الرُّومُ مدينةَ سروج (٢) وسَبَوْا أهلها وغنموا أموالهم وخرَّبوا المساجد .

وفى سنه ست وأربعين نقص البحر ثمانين باعا فَظهر فيه جبال وجزائرُ لم تعرف قبل ذلك . وفيها كان بالعراق وبلاد الجبل وقُمّ ونواحيها زلازل كثيرة متتابعة دامت نحو أربعين يوما ، تسكن

(١) وقف ابن تغرى بردى عند هذه الحادثة وقفة متحمسة طويلة ، وقدم دفاعا عن الحق وفند حجج القرامطة بمنطق سليم (النجوم الزاهرة ٣ : ٣٠١ ، ٣٠٢) .

(٢) بلدة قريبة من حران فى ديار مضر (معجم البلدان) .

وتعود ؛ فتهدمت الأبنية ، وغارت المياه وهلَكَ تحت الرَّدْمِ مالا يُحصى من العالَم ، وكذلك كانت أيضا بالرَّىِّ والطالقان(١) .

ذكر ظهور المستجير بالله

وفى سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ظهر بأذربيجان رجلٌ من أولاد عيسى بن المكتفى بالله وتَلَقَّبَ بالمستجير بالله وبايع للوصى من آل محمد ، ولَبس الصُّوف ، وأظهر العدلَ ، وأمر بالمعروف ، ونَهَى عن المنكر . وكثر أتباعه واستفحل أمره . فسار إليه جستان (٢) وإبراهيم ابنا المرزبان صاحب أذربيجان والتقوا فاقتتلوا ، فانهزم أصحاب المستجير وأخذوه أسيرًا فعدم فقيل إنه مات ! وفيها أَسْلَم من الأتراك نحو مائتى ألف خركاه (٣) .

ذكر ضمان الحسبة والقضاء والشرطة ببغداد

٩٤ ـ ا /وفى سنة خمسين وثلاثمائة مات القاضى أبو السائب (٤) عتبة بن عبد الله وقُبضت أملاكه وتولى قضاء القضاة أبو العباس عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب ، وضمن أن يؤدى فى كل سنة مائتى ألف درهم ولم يسمع بمثل ذلك فيما سلف ! فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول إليه ، وأمر أنْ لا يحضرَ الموكب لِما ارتكبه من ضَمان القضاء ، ثم ضُمِنت الحسبة والشرطة . ثم عزَلَ ابنَ أبى الشوارب عن

(١) الطالقان ؛ يقول ياقوت : إنهما بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل ، وقال الاصطخرى : الطالقان أكبر مدينة بطخارستان

(٢) فى ك صفحة ٥٤ « حسان » وفى ا غير منقوطة وما هنا عن ف صفحة ٥٤ ـ ب

(٣) بالفارسية خارقاه ومعناها الخيمة الكبيرة .

(٤) فى ك ٥٤ « أبو الشايب » وفى ا غير منقوطة وما ها هنا عن ف صفحة ٥٥ ـ ا .

القضاء وأمر بإبطال أحكامه وسجلاته ، وذلك فى سنة اثنتين وخمسين وتقلّد القضاء بعده أبو بشر بن أكثم بغير ضمان

ذكر استيلاء الروم على عين زربة

وما حولها من الحصون

وفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة فى المحرم نزل الدمستق بالروم على عين زَرْبَة (١) ، وهى فى سفح جبل عظيم والجبل مشرف عليها . وكان فى جمع عظيم (٢) فأنفذ بعض عسكره ، فصعدوا الجبل وملكوه . فلما رأى أهلُها ذلك وأنّ الدمستق قد ضيق عليهم ووصل إلى السور وشرع فى التقرب طلبوا الأمان ، فأمّنهم الدمستق ففتحوا أبواب المدينة فدخلها ، فرأى أصحابه الذين فى الجبل نزلوا إلى المدينة فندم على إجابتهم إلى / الأمان ونادى فى البلد أن يخرج أهلُه ٩٤ـب
إلى المسجد الجامع ومن تأخّرْ فى منزله قتل .

وكان ذلك فى أول الليل ، فخرج إلى الجامع مَن أمكنه الخروج ، فلما أصبح أنفذ رجّالتَه إلى المدينة وأمرهم بِقَتْل من يجدونه فى منزله ، فقتلوا خَلْقا كثيرا . ثم أمر منْ بالمسجد أن يخرجوا من البلد حيث شاءوا ، فخرجوا على وجوههم لا يرون أين يتوجهون فماتوا فى الطرقات . وقَتَلَ الرُّومُ من وجدوه بالمدينة إلى آخر النهار ، وهُدِم سور المدينة .

وأقام الدمستقُ فى بلاد الإسلام واحدًا وعشرين يوما ، وفتح حول عين زربة أربعةً وخمسين حِصنًا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها

(١) هكذا فى الأصل وفى أكثر المصادر ، وعين «زربى» بألف مقصورة .
(٢) كان مائة وستين ألفا على مايقول ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ٣ : ٣٣١) .

بالأمان ، فلما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد ، وخلف جيشه بقيسارية وراسله أهل بغراس [١] وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم .

وفيها استولى الدمستق على مدينة حلب وعاد عنها ، على ما نذكره فى أخبار ابن حمدان .

ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس

كان استيلاؤهم عليهما فى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وذلك أن الدمستق حصر المصيصة فى سنة ثلاث وخمسين [٢] وقاتل أهلها ونقب أسوارها واشتد القتال وأحرق الروم رستاقها/ورستاق[٣] أذنه وطرسوس لمساعدتهم أهلها ، وقُتِلَ من المسلمين خمسةَ عَشرَ ألف رجلٍ . ثم ضاقت الميرة على الروم فرحل الدمستق إلى بلاد الروم ، وأرسل إلى أهل المصيصة وأذنه وطرسوس « أنى منصرف عنكم لا لعجزٍ ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء ، وأنا عائد إليكم ، فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودى قتلته[٤] .

٩٥ ـ ا

---

(١) بغراس : مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ (الفرسخ نحو ثلاثة أميال) على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب .

(٢) راجع الخبر فى الكامل ٧ : ١١ .

(٣) ذكر ياقوت الحموى عن حمزة بن الحسن أن الرستاق فارسى مشتق من روزه فستا ، وروزه اسم للسطر والصف والسماط ، وفستا اسم للحال . فالمعنى أنه على التسطير والنظام ، ولكنه لا يوافق على ذلك ويقول بالحرف الواحد « إنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد ، وهو أخص من الكورة » راجع معجم البلدان صفحة ٣٨ (ط . دار صادر بيروت) .

(٤) راجع الكامل ٧ : ٩ .

ونزل ملك الروم أيضا على طرسوس وحصَرها وجرى بينه وبين أهلها حروبٌ كثيرة سقط في بعضها الدمستق ابن الشمشقيق[١] إلى الأرض وكاد يؤسر فقاتل عليه الروم وخلصوه . وأسر أهلُ طرسوس بطريقا كبيرًا من بطارقة الروم ، ورحل الرومُ عنهم لاشتداد الغلاء والعناء .

وكان نقفور[٢] ملك الروم قد بنى بقَيْسَارية[٣] مدينة وأقام بها بأهله ليقرُب من بلادِ الإسلام ، فلما كان في سنة أربعٍ وخمسين أرسل أهلُ طرسوس والمصيصة إليه يبذلون الطاعةَ ويطلبون منه أن يُنْفِذَ إليهم بعضَ أصحابه ليقيم عندهم ، فعزم على إجابتهم إلى ذلك فأتاه الخبرُ أنهم قد ضعفوا وعجزوا وأنهم لا ناصرَ لهم وأن الغلاء قد اشتد عندهم وعدِموا القوتَ وأكلوا الكلابَ والميتة وكثر فيهم الوباءُ فيموت منهم في اليوم ثلاثمائةُ نفسٍ ، فرجع نقفور عن إجابتهم وأحضر الرسولَ وأحرقَ الكتاب على /رأسه فاحترقت ٩٥ ب
لحيته وقال لهم : أنتم كالحية في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت ، فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ونهشته ، وأنتم إنما أطعتم لضعفكم ، وإن تُرِكْتم حتى تستقيمَ أحوالكم تأذَّيْت بكم !

(١) كذا في ف صفحة ٥٥ – ب وفي ا « الشمسقيق » .

(٢) كذا في ف صفحة ٥٦ – ا وفي ا بلا نقط وفي ك ٥٤ ، ٥٥ « نقنور » و « تقفور » والرسم الأخير هو ما اختاره ابن الأثير في الكامل في حين رسمه ابن كثير في البداية والنهاية ١١ : ٢٤٣ بالنون بزيادة ألف ولام « النقفور » .

(٣) قال العماد الحنبلي في شذرات الذهب ٣ : ١٣ « وقيل قيصرية » .

وأعاد الرسولَ وجمع جيوشَ الروم وسار إلى المصيصة بنفسه ، فحاصرها وفتحها عنْوَةً يومَ السبت ثالث عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، ووضع السيف فى أهلها فقتل منهم مقتلةً عظيمةً . ثم أمر برفع السيف عنهم ، ونقل كل من بقى منهم إلى بلد الروم ، وكانوا نحو مائتى ألف إنسان . ثم سار إلى طرسوس فحاصرها فأذعن أهلُها بالطاعة وطلبوا الأمان فأمّنهم ، وفتحوا له البلدَ فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحِهم وأموالهم ما يطيقون حمله ففعلوا ذلك بَرًّا وبحرًا ، وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية .

وجعل الملِكُ المسجدَ الجامع إسطبلا لدوابه ، وأحرق المنبر ، وعمّرَ طرسوسَ وحصّنَها ، وجلب إليها الميرة حتى رخُصتِ الأسعارُ ورجع إليها كثيرٌ من أهلها ودخلوا فى طاعة الملك وتنصّر بعضهم ، وأراد المقام بها ليقرب من بلاد الإسلام ثم عاد إلى القسطنطينية . وأراد الدمستق وهو ابن الشمشقيق أن يقصد ميافارقين وبها سيفُ الدولة بن / حمدان فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية فمضى إليه . ثم فتح نقفور أذنه . ٩٦ ـ ا

وفى سنة أربع وخمسين أيضا قتل المتنبى الشاعر واسمه أحمد بن الحسين الجُعْفِىّ[1] بالقرب من النعمانية وقُتِلَ معه ابنه ، وكان قد عاد من عند عضد الدولة بفارس فقتله الأعراب وأخذوا ما معه .

(١) راجع الكامل ٧ : ١٦ وبهامشه أنه ولد فى كندة الكوفة ، وفى النجوم الزاهرة أنه ادعى النبوة (٣ : ٣٤٠) سنة ثلاث وثلاثمائة ، وفى البداية والنهاية ١١ : ٢٥٧ أنه زعم أن قرآنا نزل عليه منه « والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار ، إن الكافر لفى خسار » .

وفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة كانت وفاة معز الدولة بن بويه وولاية ابنه عز الدولة بختيار على مانذكره فى أخباره . ومات وشمكير بن زيار ، والحسن بن الفيرزان ، وكافور الإخشيدى[١] ، ونقفور ملك الروم ، وأبو على محمد بن إلياس صاحب كرمان ، وسيف الدولة بن حمدان .

وفيها توفى أبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهانى الأموى ، وهو من ولد مروان بن الحكم وكان شيعيا وهذا من العجب ، وهو صاحب كتاب الأغانى[٢] .

ذكر البيعة لمحمد بن المستكفى

وما كان من أمره

وفى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة[٣] ظهر ببغداد بين الخاص والعام دعوةٌ إلى رجل من أهل البيت اسمه محمد بن عبد الله ، وقيل إنه الرجل الذى وعد به النبى صلىَّ الله عليه وسلم ، وإنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحدد ماعفى من أمور الدين ، فمن كان من السُّنة قال : إنه عباسى . ومن كان من الشيعة قال : إنه ٩٦ ـ ب

(١) كان صاحب مصر فى هذا العهد ، اشتراه الإخشيد وجعله أتابك ولده من بعده والمتنبى المذكور مدح فيه وهجاه .

(٢) كان يحفظ من الأغانى والأشعار والأخبار والآثار ما يدل على سعة علمه ، وقيل إنه سلب كتابة مؤلفين غيره ، وقيل كان يمتلك مكتبة أعانته على إثبات الأحاديث المسندة والنسب والروايات الصحيحة والمغازى المختلفة والخرافات العجيبة ، وقد أضاف ذلك كله إلى كتابه فى خمسين سنة !

(٣) فات النويرى أن يذكر وفاة معز الدولة الذى حطم كبرياء الخلافة وأظهر الرفض وخلع خليفة وسجن آخر (راجع تجارب الأمم ٢ : ٨٦ وما بعدها ، البداية والنهاية ١١ : ٢٦٢ ، المنتظم ٦ : ٤٣٢ ، ٣٤٩ ، ٧ : ٣٩ ، ومواضع مختلفة فى كتاب براون La Domination des Dailamites; p. 11, 12, 13 (Paris 1932) A Literary History of Persia (Cambridge 1928)

علوي . فكثرت دعاته وظهرت بيعته ، وكان الرجل بمصر وقد أكرمه كافورٌ الإخشيديّ وأحسن إليه. وكان فى جملة من بايع له سَبُكْتكين العجمى [١] من أكابر قواد معز الدولة وكان يتشيع فظنه علويا ، فكتب إليه يستدعيه من مصر . فسار حتى بلغ الأنبار ، وخرج سبكتكين إلى طريق الفرات وهو يتولى حمايتها فلقى ابن المستكفى وترجل له وخدمه وأخذه ، وعاد به إلى بغداد وهو لا يشك فى حصول الأمر له. ثم ظهر لسبكتكين أنه عباسيٌ فعاد عن رأيه فيه ، فخاف ابن المستكفى وهرب هو وأصحابه وتفرقوا ، ثم أُخِذَ ومعه أخٌ له وأُحْضِرا عند بختيار فأمنهما ثم تسلمه المطيعُ لله من بختيار فَجَدع أنفه ، ثم خَفِي خبرُه [٢] .

وفى سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة انقطعت الدعوةُ العباسيةُ من الديار المصرية والشامية ، وقامت الدعوةُ العلويةُ بها للمعز لدين الله صاحب أفريقية والمغرب ، على يد جوهرٍ القائدِ غلامِ المنصور ووالد المعز على ما نذكره — إن شاء الله تعالى — فى أخبار الدولة العُبَيْدية .

وفيها مات ناصر الدولة بن حمدان [٣] .

١ — ٩٧ / ذكر ما فعله الروم بالشام والجزيرة

فى هذه السنةِ دخل ملك الروم الشامَ فَلَمْ يَمْنَعْه أحدٌ ولا قاتله ، فسار فى البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدَها ، وملك قلعة عرقة . وكان

(١) Sabuktakin فى تاريخ البيهقى الذى ترجمه الدكتور يحيى الخشاب وصادق نشأت صور عن هذا الأمير (ص ٩٨ ، ١٠٢ ، ٢١٥ وما بعدها) .

(٢) راجع الكامل ٧ : ٢٧ ويقول ابن تغرى بردى : وفيها ملك جوهر القائد العبيدى مصر وخطب لبنى عبيد (النجوم الزاهرة ٤ : ٢٦) .

(٣) كان صاحب الموصل ونواحيها .

صاحب طرابلس قد أخرجه الرومُ لِشِدَّةِ ظُلْمه ، فقصد عرقة فأخذه الرُّومُ وجميعَ ماله ، وقصدَ ملكُ الروم حِمْص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها ، فأحرقها الرومُ ورجع إلى بلد الساحل ، فأتى عليها نَهْبًا وتخريبًا وملك ثمانيةَ عشرَ شهرًا وما لا يُحْصى من القرى ، وأقام بالشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ماشاء فلا يمنعه أحد ، وعاد إلى بلادِه ومعه من السَّبيْ نحو مائةِ ألف رأسٍ ولم يأخذْ إلا الصِّبيان والصبايا والشبابَ ، وأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه ، وسيَّر سريَّةً إلى بلد الجزيرة فبلغوا كفر توثا وتعصبوا وسَبوْا وأحرقوا وعادوا .

ذكر ملك الروم مدينة أنطاكية

وفى سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائة ملك الروم مدينة أنطاكية ، وسبب ذلك أنهم حَصروا حِصْنًا بالقرب منها يقال له حصن لوقا ، فوافقوا أهلَه وهم نصارى على أن يرتحلوا منه إلى أنطاكية ، ويظهر أنهم / انتقلوا منه خوفا من الروم فإذا صاروا بأنطاكية ٩٧ ـ ب
أعانوهم على فَتْحِها . وانصرف الرُّوم عنهم بعد هذا التقرير ، وانتقل أهل الحِصْن ونزلوا بأنطاكية بالقرب من الجبل الذى بها . فلما كان بعد انتقالهم بشهرين وافَى الرومُ مع أخى نقفور وكانوا نحو أربعين ألف رجل ، فأحاطوا بالسور وصعدوا الجبل إلى الناحية التى بها أهل الحصن فأخلَوْا لهم السور ، فملكه الرومُ وملكوا البلدَ ووضعوا السيفَ فى أهله ، ثم أخرجوا العجائزَ والأطفالَ والمشايخَ من البلد وقالوا لهم : اذهبوا حيث شئتم ! وأخذوا الشباب من الرجال والنساء

والصبيان والصبايا فحملوهم إلى بلاد الروم سبيا ، وكانوا يزيدون على عشرين ألف إنسان .

قال[١] : وأنفذ الرُّومُ جيشًا كثيفًا إلى حلب وبها قرعويه غلام سيف الدولة بن حمدان قد تغلب عليها ونزع يده من طاعة أبى المعالى بن سيف الدولة ، فملك الرّومُ المدينةَ دون القلعة وحصروا القلعةَ ، وترددتِ الوسائطِ والرسائل بينهم وبين قرعوية ، فاسْتَقَرَّ الأمرُ على هدنة مؤبدة على مالٍ يحمله قرعوية إليهم وأن يكونَ الرّومُ إذا أرادوا الغزو لا يُمكن قرعوية أهلَ القرى عن الجلاء عنها ليبتاعَ الرّومُ ما يحتاجون إليه منهم . وكان مع حلب فى الهدنة حماه وحمص وكفرطاب / والمعرة وأفامية وتميزر[٢] وما بين ذلك من الحصون والقلاع والقرى ، وسَلَّموا الرهائنَ إلى الروم ، وعادوا عن حلب . ٩٨ – ا

ذكر ملك الروم ملازكرد

وفيها أرسل الروم جيشا إلى ملازكرد من أعمال أرمينية ، فملكها عنْوةً وقهرًا من المسلمين ، وعظمت شوكتهم ، وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد .

ذكر مقتل ملك الروم نقفور

وفى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة قتل نقفور ولم يكن من أهـل بيت المملكة ، وإنما كان دمستقا والد مستق عندهم الذى يلى بلاد

(١) ابن الأثير الكامل فى ٧ : ٣٧ .

(٢) كل هذه من قرى الشام وبلاده ، وقد بسط الخبر عنها ابن كثير فى البداية والنهاية ١١ : ٢٦٨ .

الروم التى هى شرقى خليج قسطنطينية . وكان نقفور هذا شديداً على المسلمين ، وهو الذى فتح طرسوس والمصيصة وأذنه وعين زَرْبة وغيرها ، ولم يكن نصرانىَّ الأصل وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن الفقاس (١) تنصر ، وكان ابنه هذا شَهْمًا شجاعا حسنَ التدبير لما يتولاه . فلما عظم أمره وصار دمستقًا قتل الملكَ الذى كان قبلَه وملَكَ الرومَ بعده ، وتزوّج امرأة الملك المقتول على كُرْهٍ منها وكان لها ابنان من الملك/ ، فعزم على أن يخصيهما ليقطع نَسْلَهما ويبقى المُلْك فيه وفى ذُرِّيته . فلما علمت أمهما ذلك احتالت فى قتله ، فأرسلت إليه ابن الشمشقيق – وهو الدمستق حينئذ – ووافقته على أن يسيرَ إليها فى زِىِّ النساء ومعه جماعةٌ وقالت لزوجها : إن نسوة من أهلها قد زرنها ! فلما سار إليها هو ومن معه جعلتهم فى بيعة تتصل بدار الملك . فلما كان فى ليلة الميلاد نام نقفور واستثقل فى نَوْمه ، ففتحت امرأته البابَ وأدخلتهم إليه فقتلوه ، وثار بهم جماعةٌ من خاصته وأهله فقُتِل منهم نيِّف وسبعون رجلا ، وأُجْلِس فى المُلْكِ الأكبرُ من ولَدَى الملكِ المقتول ، وصار المدبر له ابن الشمشقيق ، ويقال : إن نقفور ما بات قَطُّ بغير سلاح إلا فى تلك الليلة التى قتل فيها(٢)

٩٨ – ب

(١) فى مرآة الزمان ، وفى عقد الجمان « ابن النقاش » وفى ا « القفاس وما هنا من الكامل وف صفحة ٥٦ – ا .

(٢) الكامل ٧ : ٣٨ وشذرات الذهب ٣ : ٢٧ ، ٢٨ والمنتظم ٧ : ٥١ .

ذكر الفتنة ببغداد

ومصادرة الخليفة المطيع لله

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة وقعت ببغداد فتنةٌ عظيمة، وكان سببها أن الرّوم استطالوا على أهل بلاد الجزيرة وامتدوا فى البلاد وعظم أمْرُهم وقويت شوكتهُم ، فسار جماعةٌ من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين ، وقاموا فى المساجد/ والمشاهدِ واستنفروا المسلمين ٩٩ ـ ا
وذكروا ما فعله الرّومُ من النَّهْبِ والأَسْرِ والسَّبْيِ . فاستعظمه النَّاسُ واجتمع أهلُ بغداد وقصدوا دار الخليفة ، وأرادوا أن يهجموا عليه فَمُنِعوا وأُغْلِقَتِ الأَبوابُ فأَسمعوه القبيح ، ثم تجمعوا وثاروا فى البلَدِ ، ونهبتِ الأَموال وقُتِلَتِ الرِّجال ، وأُحْرِقَتِ الدورُ ، وفى جملةِ ما أُحرق محلة الكرخ وكانت معدن التجار والشيعة .

فأَنفد عز الدولة بختيار [1] إلى المطيع لله يطلب منه مالا يخرجه على الغزاة فقال المطيع : إنَّ النفقة على الغزاة وغيرها من مصالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدُّنيا فى يَدِيَّ والأَموال تُجبى إلىَّ ، وأما إذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شىءٌ من ذلك ، وإنما يُلْزَمَ مَنِ البلادُ فى يَدِهِ وأنا ليس لى إلا الخطبةُ ، فإن شئتم أن أعتزل فعلت !

وترددتِ الرسائلُ بينهما حتى بلَغَا إلى التهديد ، فبذل المطيعُ لله أربعمائة أَلفِ درهمٍ فاحتاج إلى بيْع ثيابه وإنقاصِ داره وغير ذلك . وشاع عند النَّاسِ من أهل العراق وحجاج خرسان وغيرهم

(١) هو ابن معز الدولة المتوفى يقول عنه مسكويه فى تجارب الأمم ٢ : ٢٣٤ « اشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المساخر والمغنين والنساء » .

أن الخليفة قد صودر فلما قَبَضَ بختيارُ المال صَرَفَه فى مصالح نَفْسه وبطُلَ حديث الغزاة ، ولم يسمع بمثل هذا فيما مضى .

وفى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة / وقعت الفتنة بين بختيار وسبكتكين التركى الحاجب[1] ، فانتصر الحاجبُ عليه واستولى على بغداد ، وأخرج مَنْ فيها من أهل بختيار وأصحابِه ، وترك الأتراكَ فى دُورِ الدَّيْلَم ، وأخذوا أموالَهم على ما نذكر ذلك مبيَّنا فى أخبار الدولة البويهية إن شاء الله تعالى . ٩٩ ب

ذكر خلع المطيع لله نفسه من الخلافة

وخلافة ابنه الطائع لله

وفى منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، وقيل فى الثالث عشر منه خَلَع المطيعُ لِلَّهِ نَفْسه من الخلافة . وكان سبب ذلك أنه أصابه مرض الفالج وثقُل لسانه وتَعذَّرَتِ الحركة عليه ، وكان يسْتُر ذلك ، فانكشف حاله لسبكتكين فدعاه إلى خَلْع نَفْسِه وتسليمها لولده ففعل ذلك وأشهد عليه به . فكانت مُدَّة خلافتِه تسعا وعشرين سنة وأربعةَ أشهرٍ وعشرين يومًا ، وكان له من الأولاد أبو بكر وهو الطائع وعبد العزيز وجعفر .

وزراؤه : أبو الحسن محمد بن على بن مقلة ، وأبو الفضل أحمد الشيرازِى . قضاته : محمد بن الحسين بن أبى الشوارب ، ومحمد بن أمِّ شيبان الهاشمى[2] / ، وأبو السائب[3] ، وأبوبشر ١٠٠ ا

(١) كانت هذه الفتنة شملت الأتراك ضد الديلم بالأهواز ثم عمت العراق كله .

(٢) كذا فى المنتظم ٧ : ٦٤ ، ا ، صفحة ٥٨ — ا ، وفى ك صفحة ٥٨ — « محمد بن شيبان » .

(٣) فى ا « وأبو الشايب » مع أنه ذكره قبل بلا تحريف .

عمر بن أكثم . حجابه : بختيار بن معز الدولة ويخلفه عبد الواحد ابن أبى عمر الشرابى [١] . الأمير بمصر : الإخشيد إلى أن مات ، ثم ثم ابنه أنوجور ، ثم أخوه ، ثم كافور الإخشيدى إلى أن مات، ثم عُقد الأمرُ لأحمدَ بنِ علىٍّ بنِ الإخشيد وهو ابن إحدى عشرةَ سنةً ، ثم خرجت مصر عن الدولة العباسية باستيلاء المغاربة عليها . القضاة بمصر : أبو الوليد ، ثم عمر بن الحسن بن عبد العزيز العباسى من قِبَلِ أخيه محمد ، واستخلف ابنَ الحدَّادِ ، ثم وَلِيَها أبو بكر عبد الله بن محمد بن الخَصيب ، ثم ابنه محمد ، ثم أبو طاهر محمد بن نصر .

ذكر خلافة الطائع لله

هو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله الفضل بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر ، وأمه أم ولد اسمها عتب . وهو الخليفة الرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين ، وبويع له فى يوم الأربعاء لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلَتْ من ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، وسِنُّه يوم ذلك ثمانٍ وأربعون سنةً ، ولم يل الخلافةَ أكبرُ منه سِنًّا من بنى العباسى ، ولم يتقلَّدِ الخلافةَ من له / أبٌ حىٌّ بعد أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه غيره [٢] ! ١٠٠ ب

ذكر الحوادث فى أيام خلافته

فى هذه السنة خُطِب للمعزِّ صاحبِ مصر بمكةَ والمدينة . وفى سنة أربع وستين وثلاثمائة استولى عَضُدُ الدولة على العراق وقبض على

(١) الشرابى : كان يتولى تقديم الشراب فى القصر كالساقى .
(٢) فى المنتظم ٧ : ٦٦ تفصيل أكثر.

بختيار ، ثم عاد بختيار إلى مُلْكِهِ على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفى سنة خمس وستين وثلاثمائة توفى المعز لدين الله صاحب مصر ، وقام بعده ابنه العزيز .

وفى سنة ست وستين وثلاثمائة توفى ركن الدولة بن بويه ، وملك ابنه عضد الدولة وفيها كان ابتداء الدولة الغزنوية وأول من ملك منهم بغزنة سَبُكْتَكِين(١) ، وسنذكر أخباره فى دوْلَتِهِم إن شاء الله تعالى .

وفيها فى جُمادى الأُولى نُقِلَتْ ابنة عِزّ الدولة بختيار إلى الطائع لله ، وكان قد تَزَوَّجَها .

وفى سنة سبع وستين وثلاثمائة استولى عضد الدولة على العراق وأخرج بختيار عنها ثم قتله ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبارهم (٢) .

وفى سنة تسع وستين وثلاثمائة تزوج الطائع ابنة عضد الدولة ، وكان عضد الدولة قد زوجه بها ، وقال : لعلها / تلد منه ولدا ذكرا ١٠١ ـ ا
فنجعله ولى عهده فتكون الخلافة في ولدهم ! وكان الصداق مائة ألف دينار ، وزُفت إليه في سنة سبعين وكان معها من الجواهر والجهاز ما لا يحصى .

---

(١) فى المنتظم ٧ : ٧٦ يموت سبكتكين فى حوادث ٣٦٤ فلعل النويرى يقصد ابنه محموداً (أنظر المقريزى فى كتاب السلوك ١ ق : ٢٠ قسم أول) .

(٢) راجع هنا تاريخ البيهقى صفحة ٢٠٨ وتجارب الأمم ٢ : ٤٠٦ وما بعدها .

وفى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة تُوفِّىَ عضدُ الدولةِ بن بو يه[1] ، ووَلى صمصامُ الدولة ولدُه .

وفى سنةِ خمسٍ وسبعين وثلاثمائةٍ خرج طائر من البحر بعمان وهو أكبر من الفيل ، ووقف على تل هناك وصاح بصوت عالٍ ولسان فصيح : قد قرب قد قرب قد قرب ! ثلاثا ، ثم غاص في البحر ، فَعلَ ذلك ثلاثةَ أيامٍ ثم غاب ولم يُرَ بعد ذلك .

وفى سنة ست وسبعين وثلاثمائة ملك شرف الدولة العراق ، وقبض على أخيه صمصام الدولة وَسَملَه فى سنةِ تسعٍ وسبعين ، ومات شَرَفُ الدَّوْلةِ فى السنة ، وملك بعده أخوه بهاء الدولة وله إخوة .

ذكر القبض على الطائع وشىء من أخباره

وفى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة فى يوم السبت لثمانٍ من شعبان قبض بهاءُ الدولة بن بويه على الخليفة الطائع لله ، /وكان سبب ١٠١-ب
ذلك أن بهاء الدولة قَلَّتْ عنده الأموالُ وكثر شَغَبُ الجُنْدِ عليه ، فَقَبَضَ على وزيره سابورَ فلم يُغْنِ عنه شيئا . وكان أبو الحسن بن المعلم[2] قد غَلَب على بهاء الدولة وحكم فى مملكته فحسَّن له القبضَ على الطائع وأطعمه فى ماله ، وهوَّن ذلك عليه وسهَّله . فأقدم عليه بهاء الدولة وأرسل إلى الطائع لله وسأله الإذْنَ فى الحضور إليه ليجدِّد العهد

(١) انظر المنتظم ٧ : ١١٣ والبداية والنهاية ١١ : ٢٩٩ وشذرات الذهب ٣ : ٧٨ .
(٢) كذا فى ١ ، وفى صفحة ٥٨ – ب وفى الكامل ٧ : ١٤٧ كذلك ، ولكنه ذكر قبل بأبى الحسين المعلم (٧ : ١٤٥) وفى النجوم الزاهرة (٤ : ١٥٩) أبو الحسين المعلم.

بخدمته ، فأذن له بذلك . وجلس له كما جَرتِ العادةُ ، فدخل بهاء الدولة ومعه جمعٌ كبيرٌ فلما دخل قَبَّل الأرض. فأُجلس على كرسى ، فدخل بعض الدَّيْلم كأنه يريد تقبيلَ يدِ الخليفة ، فجذبه وأنزله عن سريره والخليفة يقول : إنَّا لله وإنا إليه راجعون ! ويستغيث ولا يُلْتَفَتُ إليه ، وأخذ ما فى دار الخلافة من الذخائر ، ونهب النَّاسُ بعضُهم بعضاً . وكان فى جملتهم الشريف الرضى فبادر بالخروج فسلم وقال أبياتا من جملتها :

من بَعْدِ ماكان ربُّ المالِ مبتسما
إلىّ أدنوه فى النجوى ويدنينى[1]
أمْسَيْتُ أرْحمُ مَنْ قد كنت أغبطه
لقد تقارب بين العِزِّ والهُونِ[2]
ومنظرٍ كان بالسراء يُضْحِكنى
ياقُرْبَ ماعاد بالضَّرَّاء يُبكينى
هيهاتَ اعْتَزَّ بالسُّلْطانِ ثانيةً
قد ضَلَّ وَلَّاجُ أبوابِ السلاطينِ

/ قال[3] : ولما حُمِلَ الطائعُ إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع ، فكانت مدة خلافته سَبْع عَشْرَةَ سنةً وتسعةَ أشهر وثمانية أيام ، وبقىَ فى حبس القادِر باللهِ إلى أن تُوفى فى يوم ١٠٢ـ١

(١) فى ذيل تجارب الأمم ، ف صفحة ٥٩ – ١ « أدنيه » .
(٢) فى ذيل تجارب الأمم « من أصبحت أغبطة » .
(٣) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ١٤٨ .

الثلاثاء سَلْخَ شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وصلّى عليه القادر بالله فى دار الخلافة وكبّر خَمْسًا ، وتحدّث النّاس فى ذلك فقال : هكذا يصلى على الخلفاء ! ودفن بالرصافة، ويقال : إن القادر بالله شيّع جنازته إليها ورثاه الشريف الرَّضِىّ بقصيدته التى أولها :

ما بَعْدَ يوْمِك مايَسْلو به السَّالِى
ومثلُ يومِكَ لم يَخْطُرْ على بالِى

وكان مولدُه فى سنةِ سبعَ عشْرَةَ وثلاثمائةٍ ، وكان أبيضَ مرْبوعًا حسنَ الجسْم ، وكان أنْفه كبيرًا جدا ، وكان شديد القوة كثير الإقدام ، ولم يكن له من الحكم فى ولايته ما يُعرف به حاله ويستدَلُّ على سيرته .

ذكر خلافة القادر بالله

هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى أحمد بن الموفق ، وأمه أم ولد اسمها دمنة وقيل تمنى (١) ، وهو الخليفة الخامس والعشرون من الخلفاء العباسيين .

١٠٢ ب وبويع له فى يوم خلع الطائع لثمان / بقين من شعبان سنةَ إحدى وثمانين وثلاثمائةٍ وكان يوم ذاك بالبطِيحةِ (٢) عند مُهذّب الدولة أميرها .

(١) كذا فى ك صفحة ٥٩ وفى ف صفحة ٥٩ — ب .

(٢) أرض ضحلة بالعراق يحدد المسعودى مساحتها بخمسة وثلاثين ألف ميل ، بينما لا تزيد مساحة العراق كله على خمسة وأربعين ألفا ، وكان سكانها خليطا من النبط والزنج والأساورة والزط والسباجة يعيشون فى فقر شديد (راجع الحياة الأدبية فى البصرة صفحة ٥٦ وما بعدها) .

وكان سبب توجهه إليها أن إسحاق بن المقتدر والد القادر لما توفى جرى بين القادر وبين أخيه منازعة فى ضَيْعة ، وطال الأمرُ بينهما . ثم إن الطائع لله مرِض مرضًا شديدا أُشْفِى[1] منه ثم أبلّ[2] فسعت إليه بأخيها القادر وقالت : إنه شَرع فى طلب الخلافةِ عند مَرَضك ! فتغيّر رأْيُه فيه ، وأنفذ أبا الحسن ابن حاجب النُّعمان وغيره لِلْقَبْض عليه وكان بالحريم الطاهرى ، فأصعدوا فى الماء إليه .

وكان القـادر قد رأى فى منامه كـأن رجُلاً يقرأ عليه . . « الَّذِين قالَ لَهُمُ النَّاسُ إن النَّاس قد جمعُوا لكُم فاخْشَوْهُم فزادهم إيمانًا وقالوا حسْبُنا اللهُ ونِعْم الوكيلُ »[3] فهو يحكى هذا المنام لأهله ويقول : أنا خائف من طَلَبٍ يطلبنى !

ووصل أصحابُ الطائع لله وقَبضُوا عليه ، فأراد لِبْس ثيابه فمنعوه ولم يمكِّنوه من مفارقتهم ، فأخذه النساءُ منهم قهْرًا وخرج من داره واستتر وذلك فى سنة تسعٍ وسبعين . ثم سار إلى البطيحة فسار فنزل على مهذب الدولة ، فأكرم نُزُلَه ووسّع عليه وبالغ فى خِدْمتِه ، ولم يزَلْ عنده حتى أُفْضِىَ إليه الأمر فجعل علامته « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

قال[4] : ولما قبض على الطائع ذكر / بهاء الدولة من يصلح ١٠٣ ـ ا

(١) شفى : برأ ، شفاه يشفيه برأه وطلب له الشفاء كأشفاه (القاموس المحيط) .
(٢) بل : نجا ، وأبل من مرضه حسنت حاله بعد الهزال (المحيط) .
(٣) سورة آل عمران (٣) آية ١٧٣
(٤) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ١٤٨

للخلافة فاتفقوا على القادر بالله ، فأرسل بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد .

وشَغَب الجُنْدُ والدَّيْلَمُ ببغدادَ ، ومَنعُوا من الخُطبة له ، فقيل على المنبر : اللَّهُمَّ أصلحْ عبدك وخليفتَك القادر بالله ! ولم يُذْكَرْ اسمُه ، ثم أرضاهم بهاء الدولة (١) .

قال (٢) : ولما وصل الرسول إلى القادر بالله كان فى تلك الساعة يحكى منَامًا رآه فى تلك الليلةِ هو ما حكاه عبد الله بن عيسى كاتبُ مهذَّب الدولة قال : كنت أحضر عند القادر بالله كلَّ أسبوع مرتين ، فكان يكرمنى ، فدخلت عليه يوما فوجدته قد تأهب لم تَجْرِ به عادتُه ، ولم أر منه ما أَلِفْتُ من كرامته (٣) فاختلفت بى الظنونُ ، فسألته عن سبب ذلك فإن كان لِزَلَّةٍ منِى اعتذرتُ عن نفسى فقال : « بل رأيتُ البارحةَ فى منامى كأن نهركم هذا نهر الصليق قد اتَّسع فصار مثل دجلةَ دفعاتٍ ، فسرتُ على جانبه متعجبا منه ، ورأيت عليه قنطرةً عظيمةً فقلت منْ قد حدَّثَ نفسه بعمل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم ؟ ثم صعدتها - وهى محكمة - فبينا أنا عليها أتعجب منها إذْ رأيتُ شخصًا يتأملنى من ذلك الجانب فقال : أتريد أن تعبر ؟ قلت : نعم ، فَمدَ يدَه حتَّى وصَلتْ إلىّ فأخذَنِى وعَبَرنى فهالنى ، وتعاظمنى فِعْلُه ، فقلت : / من أنت ؟ قال : علىُّ بنُ ١٠٣-ب

(١) يبدو أنه كان من نتيجة ذلك منح الخليفة بهاء الدولة لقباً جديداً هو « غياث الأمة » وخطب له بذلك على المنابر كما يقول ابن الجوزى فى المنتظم ٧ : ١٦٣ .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ١٤٨ .

(٣) كرامة : عزارة كما فى القاموس ، وفى الكامل ٧ : ١٤٨ « من إكرامه » .

أبى طالبٍ وهذا الأمر صائرٌ إليك ويطول عمرك فيه فأحْسِنْ إلى ولدي وشيعتى » !

قال[١] : فما انتهى القادر إلى هذا القول حتى سمعنا صياحَ الملاَّحين وغيرهم فسألنا عن ذلك فإذا هم الواردون إليه لإصعاده ليتولى الخلافةَ ، فخطابته « يا أمير المؤمنين » وقام مهذَّب الدولة بخدمته أحْسَنَ قيام ، وحمل إليه من المال وغيرِه ما يحمله كبارُ الملوك إلى الخلفاء وشَيَّعه ، فسار القادرُ إلى بغدادا ، فلما وصلَ جَبُّل[٢] انحدر بهاء الدولة وأعيانُ الناسِ إليه واستقبلوه وساروا فى خِدْمَتِه ، فدخل دار الخلافةِ فى ثانى عشر شهر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس ، وخطب له فى ثالث عشر الشهر المذكور .

وجُدِّد أمْرُ الخلافةِ وعَظُم ناموسها[٣] وحُمِل إليه ما نُهِبَ من دار الخلافة ، ولم يُخْطَبْ له فى جميع خراسان بل كانت الخطبةُ فيها للطائع لله وحلَف له بهاء الدولة على الطاعة والقيام بشروط البيعة ، وحلف القادر له بالوفاء والخلوص ، وأشهد عليه أنه قلَّده ماوراء بابه .

ذكر تسليم الطائع لله الى القادر

وما عله معه

/وفى شهر رجب سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائةٍ سَلَّمَ بهاءُ الدولة الطائعَ لله إلى الخليفة القـادر بالله ، فأنزله فى حجرةٍ من خاصِّ ١٠٤ ـ ا

(١) عبد الله بن عيسى ، انظر الكامل ٧ : ١٤٩ .

(٢) بليدة بين النعمانية وواسط فى الجانب الشرقى كما يقول ياقوت .

(٣) كانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والأتراك فلما وليها حقق رغائبهم جميعا فأطاعوه أحسن طاعة !

حُجَرِه ، وَوَكَّل به من ثقات خَـدَمِهِ من يقوم بِخِدْمَتِه وبالغ فى الإحسان إليــه ، وكان الطائع يطلب الزيادة فى الخدمة كما كان أيام الخلافة فيؤمر له بذلك . حكى عنه أن القادر أرسل إليه طِيبا فقال : من هذا يتطيب أبو العباس ؟ يعنى القادر فقالوا : نعم ! فقال : قولوا له عنى : فى الموضع الفلانى كندوج [1] فيه طيب مما كنت أستعمله ، فَلْيُرْسِلْ إلىَّ بعضَه ويأخذ الباقىَ لنفسه ! ففعل ذلك ، وأرسل إليــه القادر يوما عدسية فقال : ما هذا ؟ قالوا : عدس وسَلْق ! فقال : أوقَد أكل أبو العباس من هذا ؟ قالوا : نعم ! قال : قولوا له عنى : لَمَّا أردت أن تأكل عدسية لِمَ اختفيت فما كانت العدسية تعوزك ، ولم تقلدت هذا الأمر ؟ فأمر حينئذ القادرُ أن تفرَدَ له جاريةٌ من طباخاته تحضر له ما يلتمسه فى كل يوم ، فأقام على هذا إلى أن توفى .

وفى سنة ثلاثٍ وثمانين وثلاثمائةٍ عُقِد نكاح القادر بالله على بنت بهاء الدولة [2] على صداق مبلغه مائة ألف دينار ، وماتت قبل النَّقْلَةِ إليه .

وفيها اشْتَدَّ الغلاءُ بالعراق وبيعت الكارةُ الدقيق بمائتين وستين درهما ، والكُرُّ الحنطة بستةِ آلافٍ / وستمائة درهم غياثية [3] . ١٠٤ ب

(١) كندوج : بالفارسية صندوق أو مخزن أصله « كندو » وعرب باضافة الجيم (الحياة الأدبية فى البصرة ٣٧٠) .

(٢) اسمها سكينة وقيل ستيتة (راجع المنتظم ٧ : ١٧٢ وشذرات الذهب ٣ : ١٠٤) .

(٣) غياثية : نسبة إلى غياث الأمة لقب بهاء الدولة الذى خلع عليه عام ٣٨١ .

وفى سنةِ ستٍّ وثمانين وثلاثمائة توفى العزيز بالله صاحب مصر ، وولى بعده ابنُه الحاكم .

وفى سنةِ تسعٍ وثمانين انقرضتِ الدَّوْلةُ السامانية وملك التُّرك ما وراء النهر (١) .

وفيها عمل أهل باب البصرة ببغداد يومَ السادس والعشرين من ذى الحجة زينةً عظيمةً وفرحًا كثيرا ، وعملوا فى ثامن عشر المحرم مثلَ ما تعمل الشيعة فى يوم عاشوراء . وسبب ذلك أن الشيعة بالكرخ كانوا ينصبون القِباب ويعلِّقون الثياب للزينة فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، وهو يوم الغدير . وكانوا يعْملون – يومَ عاشوراء – المآتمَ والنَّوْح ، ويُظهرون الحزنَ لمقتل الحسين ، فعمل أهلُ باب البصرة مقابلَ ذلك بعد يوم الغدير بثمانيةِ أيام مثلهم وقالوا : يوم دخول النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله تعالى عنه الغار ! وعملوا بعد عاشوراء بثمانية أيام مثل عمل الشيعة يوم عاشوراء وقالوا : هذا يوم قتل مصعب بن الزبير رضى الله تعالى عنهما .

وفى سنة تسعين وثلاثمائة ظهر فى سجستان معدن الذهب الأحمر (٢) .

---

(١) كان الأمير أبو القاسم محمود بن سبكتكين قد استولى على أعمال خراسان بعد أن هزم الأمير عبد الملك بن نوح السامانى فأزال بذلك السامانية وأقام الدعوة بخراسان للخليفة القادر بعد أن كانت للطائع الذى خلع (راجع البداية والنهاية ١١ : ٣٢٥ وتاريخ البيهقى ٢١٤ ومابعدها) .

(٢) قال ابن الأثير : فكانوا يحفرون التراب ويخرجون منه الذهب الأحمر (٧ : ٢٠٧) .

ذكر البيعة لولى العهد

وفى شهر ربيع الأول سنةَ إحدى وتسعين وثلاثمائة أمر القادر بالله / بالبيعة لولَدِهِ أبى الفضـــل بولاية العهـــد ، ولقّبـــه الغالبَ بالله . وكان سبب ذلك أن أبا عبد الله بن عثمان الواثقى من ولد الواثق بالله كان من أهل نصيبين ، فَقَصد بغداد ثم سار إلى خراسان وعبر النَّهْرَ إلى هارون بن أيلك بغراخان [1] ، وصحبه الفقيه أبو الفضل التميمى وأظهر أنه رسولٌ من الخليفة إلى هارون يأمره بالْبيْعةِ لهذا الواثقىّ وأنه ولىُّ عهْدِه . فأجاب بغراخان إلى ذلك وبايع له وخطب له ببلاده ، فبلغ ذلك القادر فعظم عليه وأرسل إلى بغراخان فى معناه فلم يُصْغ إلى رسالته . فلما توفى هارون وولى بعده أحمد بغراخان كاتَبَه الخليفةُ فى معناه ، فأمر بإبْعادِه فحينئذ بايع القادر لولده ، وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم ذلك .

١٠٥ ـ ا

وأما الواثِقىُّ فإنه خرَج من عند أحمد بغراخان وقصد بغداد فعُرِف بها ، فطُلِبَ منها فَهرب إلى البصرة ثم إلى فارس وكرمان ، ثم إلى بلاد الترك ، فلم يتم له ماأراد ، وأرسل الخليفةُ إلى الملوك يطلبه فضاقت عليه الأرض ، فسار إلى خوارزم فأقام بهـا ثم فارقها ، فأخذه يمينُ الدولة محمود بن سَبُكْتَكِين فحبسه إلى أن مـــات .

(١) فى ك ٦١ « بغداخاقان » وفى ف صفحة ٦١ ـ ا ، كما فى ا « بغراخانقان » وما هاهنا من تاريخ البيهقى صفحة ٢١٤ .

وفي سنة إحدي وأربعمائة خطب قرواش [١] بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم العلوى صاحب مصر بالكوفة/ والموصل والأنبار والمدائن وغيرها من أعماله ثم قطعت في السنة [٢] . ١٠٥-ب

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة مات الحاكمُ صاحبُ مصر وولى بعده ابنُه الظاهر لاعزاز دين الله [٣] .

وفي سنة اثنتى عشرة وأربعمائة توفى على بن هلالٍ المعروف بابنِ البواب ، وإليه انتهى الخطُّ ، ونُقِل عنه إلى وقتنا هذا ، ودفن بجوار أحمد بن حنبل ، وكان يَقص بجامع بغداد ، وقيل إنه مات في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ورثاه المرتضى [٤] .

ذكر الفتنة بمكة

وفى سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائةٍ فى يوم النفر الأول وكان يوم الجمعة ، قام رجلٌ من أهل [مصر] [١] بإحدى يديه سيف

(١) هو أبو المنيع قرواش بن المقلد ويلقب بمعتمد الدولة للحاكم صاحب مصر بالموصل (انظر المنتظم ٧ : ٢٤٨)

(٢) يقول ابن تغرى بردى : « فلما سمع الخليفة ذلك أزعجه وأرسل عميد الجيوش فى تجهيز العساكر ، فلما بلغ قرواشا ذلك أرسل يعتذر للخليفة .وأبطل دعوة الحاكم من بلاده وأعادها للقادر على العادة » (النجوم الزاهرة ٤ : ٢٢٧) .

(٣) قيل لم يمت وقيل فقد ، وفى بعض الروايات قتل ، ونرى فى النجوم الزاهرة الشيء الكثير عن هذا الموضوع .

(٤) لأبى العلاء شعر فيه منه هذا البيت الذى رواه بن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ٤ : ٢٥٧)

ولاح هلال مثل نون أجـادها بمـاء النضار الكاتب ابن هلال

فلم يكن أكتب منه بعد ابن مقلة ! قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١٢ : ١٤ « وأما خطه وطريقته فيه فأشهر من أن ننبه عليها ، وخطه أوضح تعريبا من خط أبى على بن مقلة »

(١) فى كل النسخ بياض فيما نقل بين الحاصرتين والتكملة عن الكامل ٧ : ٢١٤ ويبدو أن النويرى =

مسلول والأخرى دبوس ، بعد فراغ الإمام من الصلاه فقصد الحجر الأسود فضربه ثلاثَ ضربات بالدبوس وقال : إلى متى يُعْبدُ الحجرُ الأسود ومحمدٌ وعلىٌّ ؟ فليمنَعْنى مانعٌ من هذا ، فإنى أريد هدْم هذا البيت ! فخاف أكثر من حضر وتراجعوا عنه وكاد يفلت ، فثار به رجل فضربه بخنجر فقتله ، وقَطَّعه النَّاسُ وأحرقوه ، وقُتل مِمَّن اتُّهِم بمصاحبته جماعةٌ وأحرقوا ، وثارت الفتنة ، وكان الظَّاهرُ من القَتْلى أكثر من عشرين رجلا غير ما أخفى منهم .

١٠٦ ـ ا وألَحَّ / النَّاسُ فى ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالنَّهْبِ والسَّلب ، فلما كان الغدماج النَّاسُ واضطربوا وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل فقالوا : نحن مائةُ رجلٍ ! فَضُرِبت أعناق الأربعة . وتَقَشَّر بعضُ وجْهِ الحجر من الضربات ، فأُخذ ذلك الفتات وعجن بِلَك وأُعيد إلى موضعه .

وفى سنة ثمانى عشرةَ وأربعمائة سقط بالعراق جميعه بردٌ كِبارٌ وَزْنُ الواحدةِ رطلٌ ورطلان ، وأصغره كالبيضة ، فأَهْلَكَ الغَلّاتِ ولم يصح منها إلى القليلُ ، هكذا حكاه ابن الأثير فى تاريخه الكامل[1] .

وفيها فى آخر تشرين الثانى هبَّتْ ريحٌ باردة بالعراق جَمَدَ منها الماءُ والخَلُّ ، وبطلَ دورانُ الدواليب التى على دجلة .

وفى سنةِ تسعَ عشرةَ وأربعمائةِ انقطع الحجُّ من العراق ، فمضى

= استثقل أن يلحق هذا العار واحداً من أهل بلده ! ويلاحظ أن هناك شبه إجماع على أن الواقعة كانت فى عام ٤١٣ (راجع شذرات الذهب ٣ : ١٩٧ والبداية والنهاية ١٢ : ١٣) .

(١) جزء ٧ صفحة ٢٣٠ .

بعض حجاج خراسان إلى كرمان وركبوا فى البحر إلى جـدة وحجوا ! .

ذكر البيعة لولى العهد

كان القادر بالله قد جَعَلَ ولاية العهد لولده أبى الفضل كما قدمناه فمات [1] فلما كان فى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة مرض القادر وأرجف بموته ، فجلس جلوسا عاما وأذن للخاصة والعامة / فدخـلوا عليـه . فلما اجتمعوا قام الصّاحب أبو الغنائم فقال : ١٠٦ ب
خَدمُ مولانا أميرِ المؤمنين داعون له بالبقاء وشاكرون لما بلغهم من نظره لهم وللمسلمين باختيار الأمير أبى جعفر لولاية العهد ! فقال القادر للناس : قد أذنّا لكم فى العهد له ! وكان أراد أن يبايع له قبل ذلك فنهاه عنه الحسن ابن حاجب النعمان ، فلما عيّنه القادرُ الآن جلس على السرير الذى كان قائما عليه . وأُلقيتِ الستارة التى على القادر ، فتقدم الحاضرون وخدموا ولىّ العهد وهنّئوه ، وتقدّم أبو الحسن ابن حاجب النعمان فَقَبَّلَ يده وهنّأه فقال له أبو جعفر : « وردَّ اللهُ الذين كفروا بِغَيْظهم لم ينَالوا خَيْرًا وكفى الله المؤمنين القتال » [2] يعرض له بإفساده رأى القادرِ فيه فأكب على تقبيل قدميه وتعفير خدّه بين يديه ، فَقَبِلَ عذره . ودُعِى لأبى جعفر على المنابر يوم الجمعة لسِتٍّ بقين من جُمادى الأُولى ، ومات أبو الحسن ابن حاجب النعمان فى نفس السنة .

(١) أنظر صفحة ٢١٢ من هذا الكتاب ، والكامل ٧ : ٣٥١ .
(٢) سورة الأحزاب (٣٣) آية ٢٥ .

ذكر ملك الروم مدينة الرها

وفى سنةِ اثنتين وعشرين وأربعمائةٍ ملَكَ الرّومُ مدينةَ الرُّها وكانت بيد نصير الدولة [١] بن مروان صاحب ديار بكر ، ملكها من صاحبها عطير فى سنة ست عشرة وأربعمائة ثم مات عطير فشَفع صـالحُ بنُ مِرداس صـاحبُ حلب إلى نصير الدولة فى إعادتها إلى ابن عطير وإلى ابن شبل بينهما ، فقبل شفاعته وسلمها إليهما . وكان فى الرُّهابُرجانِ حَصِينان أحـدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير ، وبقيت المدينة معهما إلى هذه السنة . فراسل ابنُ عطير أرمانوس ملك الروم وباعه حِصّنَه من الرُّها بعشرين ألف دينار وعِدَّةَ قرًى من جملتها القرية التى عرفت بسن ابن عطير ، وتسلموا البرج الذى له ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل . وقَتلَ الرُّومُ المسلمين ، وخرّبوا المساجد ، فسمع نصير الدولة الخبر فسيَّر جيشًا كثيفا إلى الرها فَحصرها وفتحها عَنْوةً ، واعتصم منْ بها من الروم بالبرجيْن واحتمى النَّصارى بالبيعة التى لهم ، فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد ، وبقى الروم بالبرجين . فسيّر إليهم ملِكهم عسكرًا نَحْو عشرةِ آلافِ مقاتلٍ ، فانهزم أصحابُ ابن مروان من بين أيديهم ، ودخل الروم البلد و نهبوا ما جاورهم من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثّاب [النميرى] [٢] على حَرّان وسَروج وحملَ إليهم خراجًا .

١٠٧ ـ ا

(١) فى الكامل ٧ : ٣٥٣ نصر الدولة.

(٢) إضافة من الكامل ٧ : ٣٥٣ .

/ ذكر وفاة القادر بالله ١٠٧ ب

وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه رحمه اللهُ فى اليوم الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وعمره ستٌ وثمانون سنةً وعشرةُ أشهرٍ . وكانت مدَّةُ خِلافتِه إحدى وأربعين سنةً وأربعةَ أشهرٍ إلا أياما . وكان حليما كريما خَيِّرًا يُحِبُّ الْخَيْر وأهلَه ويأمر به ، وينْهى عن الشَرِّ ويبغض أهلَه . وكان حسن الاعتقاد ، وصنَّف كتابا على مذهب السنة . وكان يخرج من داره فى زِىِّ العامَّةِ ويزور قبور الصالحين كَقَبْرِ معروفٍ الكرْخِىِّ و يره .

قال القاضى الحسينُ بنُ هارون : كان بالكرخ مِلْكٌ ليتيمٍ وكان له قيمة جيِّدةٌ ، فأرسل إلىَّ ابن حاجب النعمان ـ وهو حاجب القادر بالله ـ يأمرنى أفُكُّ الحجْر عنه ليشترىَ بعضُ أصحابه ذلك المِلْكَ فلم أفعلْ فأرسل إلى يستدعينى فقلت لغلامه : « تقدمنى حتى أَلْحَقَك » وخفْتُه وقصدتُ قَبْرَ معروف الكرخى فدعوت الله أن يكفَينى شَرَّه وهناك شيخ فقال : « على من تدعو ؟ » فذكرت له الْخَبر ووصلت إلى الحاجب فأغلظ لى فى القول ولم يقبلْ عُذري ، فأتاه خادمٌ بِرُقْعةٍ ففتحها فقرأها فتغير لونُه واعتذر إلى ثم قال : « كتبتَ إلى الخليفة رقعةً ؟ » / قلت: ١٠٨ ـ ا
« لا » وعلمت أن ذلك الشَّيْخَ كان الخليفة !

وقيل إنه كان يقسم إفطاره كلَّ ليلةٍ ثلاثةَ أقسام ؛ فقِسْمٌ يتركه بين يديْه ، وقِسم يُرْسله إلى جامع الرصافة ، وقسم يرسله إلى جامع المدينة يُفَرِّقه على المقيمين فيهما . فاتَّفق أن الفَرَّاش حمل

الطعام ليلةَ إلى جامع المدينة ففرَّقه على الجماعة ، فأخذوا إلا شاباً فإنه ردد ، فلما صلَّوْا المغرب خرج الشاب وتبعه الفرَّاش فوقف على بابٍ فاستَطْعم فأطعموه كسيرات فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش: ويْحكَ أما تستحى . يَنْفُذُ إليك خليفةُ الله بطعام حلالٍ فتردّه وترجع فتأخذه من الأبواب ؟ فقال : والله ما رددْتُه إلا لأنك عرضْتَه عليّ قبل المغرب وكنت غير محتاجٍ إليه فلما احتجت طلبتُ ! فعاد الفراش وأخبر القادر بالله فبكى وقال له : راعِ مثْلَ هذا واغتنمْ أجْره وأقم إلى وقت الإفطار .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة وكان أبيض نقىّ الجسم كثّ اللحية طويلها يخضب . ودبَّر الملك فى أيامه بهاءُ الدولة إلى أن مات ، ثم ابنُه سلطان الدولة أبو شجاع إلى أن مات ، ثم أخوه أبو على شرف الدولة إلى أن مات ، ثم أخوه أبو طاهر جلال الدولة .

وكان للقادر بالله من الأولاد أبو الفضل الغالب بالله مات فى حياته ، وأبو جعفر عبد الله القائم ، وأبو القاسم ومات فى حياته أيضا . ١٠٨ ـ ب

وزراؤه : محمد بن أحمد الشيرازى الصاحب ، وسعيد بن نصر بن على الفيروزابادى ، وسعيد بن الحسن بن برتك (١) البصرى ، وعلى بن عبد العزيز ابن حاجب النعمان ، ثم ابنه أبو الفضل محمد بن على .

(١) فى ا بلا نقط إطلاقا وفى ك صفحة ٦٣ « بريك » وفى ف صفحة ٥٩ « برتك » .

حجابه : أبو الفتح محمد بن الحسين السعيدى ، ثم أبو القاسم بكران ، ثم ولده أبو منصور وغيرهم ، نقش خاتمه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وقيل : « حسبي الله ونعم الوكيل » .

ذكر خلافة القائم بأمر الله

هو أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق ابن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر ، وقد تقدم ذكر نسبه . وأمه أم ولد اسمها بدر الدجى ، وقيل: قطر الندى وقيل : علَم ، وكانت أرمنية وقيل : رومية . وهو الخليفة السادس والعشرون من الخلفاء العباسيين ، بويع له البَيْعَةَ العامَّةَ بعد وفاة أبيه فى الحادى والعشرين من ذى الحجة في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١) . وصلَّى بالناس عشاء المغربِ فى صحْنِ السلام من دار الخلافة ، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين كما ذكرناه ، وأول من بايعه الآن الشريف أبو القاسم المرتضى ، وأنشد : ١٠٩ ب

فإمَّا مضَى جبلٌ وانْقَضَى ... فمنكَ لنا جبلٌ قد رسى
وإما فُجِعْنَا بِبَدرِ التَّمامِ ... فقد بقِيَتْ منه شَمْسُ الضُّحَى
فكم حزَنٌ فى محلِّ السرور ... وكم ضَحكٌ في خلال البُكى (٢)
فيا صارمًا أغْمَدَتْهُ يَدٌ ... لنا بعْدك الصارمُ المنتضى

(١) فى هذه السنة تجددت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة ، ونهبت دور اليهود لأنهم أعانوا أهل الكرخ من الشيعة (البداية والنهاية ١٢ : ٣١) .

(٢) فى الكامل والبداية والنهاية « لنا حزن » وفى البداية والنهاية « فكم ضحك فى محل البكا » (الكامل ٧ : ٣٥٥ ، البداية والنهاية ١٢ : ٣٢) .

وأرسل القائم بأمر الله قاضى القضاة أبا الحسن الماوردى إلى الملك أبى كاليجار ليأخذَ عليه البيعةَ ، ويخطب له فى بلاده ، فأجاب وبايع ، وخطب له فى بلاده ، وأرسل إليه هدايا جليلةً وأموالا كثيرةً .

ذكر الحوادث فى أيام القائم

فى منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة توفى الظَّاهِرُ صاحبُ مصر ، وولى بعده ابنه المستنصر[١] .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة كان ابتداء الدولة السُّلجقية على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبارهم[٢] .

وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أظهر المُعِزُّ بن باديس الدَّعْوةَ للدولة العباسية ، وخطب ببلاده للخليفة القائم بأمر الله فَسُيِّرتْ إليه الخلع والتقليد[٣] .

وفى سنة إحدى وأربعين / وأربعمائة فى ذى القعدة ارتفعت سحابةٌ سوداء مظلمةٌ ليلًا فزادت ظلمتها على ظلمةِ الليل ، وظهر فى جوانب السماء كالنار المضطرمة ، وهبَّتْ ريحٌ قلعت روْشَن[٤] دار الخليفة ، ثم انكشف ذلك فى بقية الليل . ١٠٩ سب

(١) كان الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على فى الثالثة و الثلاثين يوم مات ، مع أنه كان خليفة لخمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوما (الكامل ٨ : ١٠) .

(٢) من خير ما كتب عن السلاجقة ودولتهم وسياستهم العامة كتاب « راحة الصدور وآية السرور » ، وضعه بالفارسية محمد بن على بن سليمان الراوندى ، ونقله إلى العربية ثلاثة من أساتذة الجامعة بتكليف من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٦٠ .

(٣) راجع الكامل ٨ : ٣٩ .

(٤) روشن : شرفة ، وفى الكامل « رواشن » ٨ : ٥٣

وفى سنة ثلاثٍ وأربعين وأربعمائة فى يوم الأربعاء سابع صفر وقت العصر ظهر ببغداد كوكب غَلَب نورُه على نور الشمس له ذؤابةٌ نحو ذراعين ، وسار سيرا بطيئًا ، ثم انقض والناس يشاهدونه .

وفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة زَلْزَلَتِ الأرضَ نحورستان وأرّجان وغيرها زلازلُ كثيرةٌ كان معظمها بأرجان فَخُرِّب كثيرٌ من بلادها ، وانفرج جبل كبير بالقرب من أرجان فانصدع فظهر فى وسطه درجة بالآجُرِّ والجِصِّ وقد خفيت فى الجبل ، فعجب الناس من ذلك !

وفى سنة سبع وأربعين وأربعمائةٍ وصل طغرلبك السُّلجُقى إلى بغداد (١) وخطب له بها ، وانقرضت الدولة البويهية .

وفى سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمائة تَزوّج الخليفة القائم بأمر الله بأرسلان خاتون واسمها خديجة ابنة داود أخى السلطان طغرلبك ، وقبل الخليفةُ النِّكاح لنفسه .

وفى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة فى العشر / الثانى من جُمادي الآخرة ١١٠ ـ ا
ظهر وقْتَ السَّحر فى السماء ذؤابةٌ بيضاء طولها نحو عشرة أذرع فى رأى العين وعرْضها ذراع ، وبقيت كذلك إلى نصف شهر رجب واضْمحلَّت .

---

(١) فى راحة الصدور ١٦٩ أنه خطب له ببغداد سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، ثم قال المؤلف « وفى رمضان من تلك السنة قصد طغرلبك إلى بغداد » فتأمل ! .

وفيها أمر الخليفةُ القائمُ بأمر الله أن يُؤَذَّن بالكَرْخ والمشهد وغيرهما « الصلاة خير من النوم » وأن يتركوا « حى على خير العمل » ففعلوا ذلك .

وفى سنة تسع وأربعين وأربعمائة اشْتَدَّ الغلاءُ ببغداد والعراقِ حتّى بيعت الكارة الدقيق السميذ بثلاثة عشر دينارا والكارة الشعير والذرة بثمانية دنانير ، ومقدار الكارة [ ] (١) وأكل النَّاسُ الميْتَةَ والكلاب وغيرها وكثر الوباءُ ، حتى عجز الناسُ عن دفن الموتى فكانوا يجعلون الجماعة فى الحفيرة .

وفيها كَثر الوباء ببخارى حتى قيل: إنه مات فى يوم واحد ثمانيةَ عشر ألف إنسانٍ من أعمال بُخارى ، وهلك فى هذه الولاية فى مدة الوباء ألفُ ألفٍ وستمائة ألف وخمسون ألفا ، وكان بسمرقند مثل ذلك ، ووُجِد ميِّتٌ وقد دخل عليه تركى يأخذ لحافا عليه فمات التركى وطرُف اللِّحاف بيده ، وبقيت أموال الناس سائبةً لاتجد من يجمعها (٢) !

(١) بياض فى كل النسخ ولكن ابن تغرى بردى يقول : إن الكارة خمسون رطلا بالدمشق ، وأربعا وثلاثين كارة تساوى كرا واحداً ، والكر سبعة عشر قنطارا . (النجوم الزاهرة ٣ : ٢٨٦) .

(٢) نقل ابن كثير بى عن أبى الفرج ابن الجوزى وغيره صوراً « بشعة لهذه الكارثة التى كان الطاعون يلعب الدور الأول فيها (البداية والنهاية ١٢ : ٧٠ ، ٧١)

/ ذكر أخبار أبى الحارث أرسلان البساسيرى ١١٠ ب

وابتداء حاله وما كان منه إلى أن تغلب على بغداد وقطع خطبةَ القائم بأمر الله وخَطَب للمستنصر العـــلوى صاحب مصـــــر

كان أبو الحارث البساسيرى مملوكا تركيـا من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهى ، وهو منسوب إلى مدينة بساسير من بلاد فارس ، كان سيده الأول منها فقيل له: البساسيرى لذلك (١) . وأما ما وَلِيَهُ من المناصب التى تَرَقَّى منها إلى أن صار منه ما صار ، فإنه ولِى فى سنة خمسٍ وعشرين وأربعمائةٍ حمايةَ الجانب الغربى ببغداد ، لأن العيارين كان قد اشتد أمرهم وعظم فسادُهم وعجزَ عنهم نوابُ السلطان فاستعمل لكفاءته ونَهْضَتِه وذلك فى سلطنة جلال الدولة أبى طاهر بهاء الدولة بن بويه ، فظهرت كفاءته . وتَقَلَّبتْ به الحال وصحب جلال الدولة فى حروبه وأبلى بين يديه بلاءً حسنا ، فعظم شأنه وارتفع محلُّه وعلَت رتبته وتقدَّم على الجيوش ، وكان بينه وبين العرب الذين خالفو جلال الدولة وخرجوا عن طاعته وكاشفوه بالعداوة حروب كان [النَّصر] فى / أكثرها له ، ثم ١١١ ـ ا
صار يخلف الملكَ الرحيم ببغداد . واستولى على الأنبار فى سنةِ

(١) أبو الحارث أرسلان بن عبد الله ينسب إلى « بسا » وليس إلى بساسير لأن هذه ليست موجودة فى بلاد فارس ، والموجود « بسا » وكانت تكون النسبة صحيحة لو قلنا بسوى إلا أنها هنا نسبة شاذة فقيل « بساسيرى » (راجع شذرات الذهب ٣ : ٢٨٨) .

إحدى وأربعين وأربعمائة وملكها من قرواش بن المقلّد ، واستولى على الدَّردار ، وملكها من سعيد بن أبي الشول . ولما استولى الملك الرحيم على البصرة فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة وأخذها من أخيه أبي على بن أبي كاليجار سلَّمها إلى البساسيرى فنهض فيها وضبطها وأوقع بالأكراد والأعراب فى سنةِ خمسٍ وأربعين وأربعمائة – وكانوا قد أفسدوا فى البلاد – فقتل منهم خَلْقًا كثيرا وغنم أموالهم وأجلاهم عن البلاد . ثم أتى بغداد ووقع بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله وحشةٌ عظيمةٌ فى سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة لأسباب يطول شرحُها أدَّت إلى إسقاطه مشاهراتِ الخليفة ومشاهراتِ رئيس الرؤساء (١) الوزير وحواشى الدار ، ودام ذلك من شهر رمضان إلى ذى الحجة ! ثم سار إلى الأنبار فمنعه أبو الغنائم ابن المحلبان من دخولها فحاصرها ونصب عليها المجانيق ، وفتحها عنْوةً ونهبها وأسر من أهلها خمسمائةَ رجل ومائةَ من بنى خفاجة وأسِر أبو الغنائم . وعاد إلى بغداد وهو بين يديه على جمل وعليه قميصٌ أحمرُ وعلى رأسه برنس وهو مقيّد ، وأتى إلى مقابل التَّاج وقبّل الأرض وعاد إلى منزله وهو يجعل الذَّنْب كلَّه لرئيس الرؤساء
١١١ – ب / وزير الخليفة – ويقول لست أشكو إلا منه فإنه أخرب البلاد .

وكاتب السَّلْجوقية وأطمعهم في البلاد ، ثم توجه البساسيري إلى واسط ، فلما كان فى سنة سبع وأربعين وضع رئيس الرؤساء

(١) هو على بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر بن المسلمة ، وقد وزر للقائم قبل ابن جهير ، ومن أجله وقعت فتنة البساسيرى .

الأتراكَ البغداديين على البساسيرى وثلبه ونسب مايقع من النقص إليه ، ففعلوا ذلك وزادوا عليه حتى حضروا إلى دار الخلافة فى شهر رمضان واستأذنوا في قصد دور البساسيرى ونهبها فأذن لهم فى ذلك ، فنهبوا دُوره وأحرقوها ، ووكلوا بنسائه وأهله ونوابه ، ونهبوا دوابَّه وجميعَ ما يملكه ببغداد . وأطلق رئيسُ الرؤساء لسانَه فى البساسيرى وذمَّه ونَسبه إلى مكاتبة المستنصر صاحبِ مصر ، وأرسل الخليفةُ إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيرى فأبعده ، وكانت هذه الحالة من أعظم الأسباب فى ملك السلطان طغرلبك العراق .

ووصل السلطان طغرلبك إلى بغداد إثر هذه الحادثة وملكها ، وانقرضت الدَّوْلة البويهية ، فعند ذلك أظهر البساسيرى الخلافَ وجاهر بالعصيان ، وانضم إليه نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيَد . والْتَقَوْا هم وقريشُ بن بدران (١) صاحبُ الموصل وكان مع قريش قُتُلْمِش (٢) السَّلجوقى – / وهو ابن عم طغرلبك – واقتتلوا فكانت الهزيمة ١١٢–ا على قريش وقُتْلُمِش ، وكانت هذه الواقعه عند سنجار في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة . ثم صار قريش بن بدران مع البساسيرى ونور الدولة دبيس ، فساروا إلى الموصل وخطبوا بها للمستنصر بالله العلوى صاحب مصر – وكانوا قد كاتبوه بطاعتهم فأرسل إليهم الخِلَعَ عن مصر–فلما بلغ ذلك السلطان طغرلبك سار إلى الموْصل وديار بكر لإخلائها من البساسيرى وغيره من المفسدين ، فاستولى

(١) هو أبو المعالى العقيلى أمير بنى عقيل ، توفى سنة ٤٥٣ .
(٢) راجع راحة الصدور ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ .

على الموْصل وأعمالِها وسلَّمها إلى أخيه إبراهيم ينال[٣] وعاد إلى بغداد فى سنة تسع وأربعين وأربعمائة فأقام بها إلى سنة خمسين وأربعمائة . ثم فارقها وتوجه نحو بلاد الجبل فعاد البساسيرى إلى الموْصِل واستولى عليها وحصر قلعتها أربعة أشهر ، وملكَها فهدمها وعفى أثرها ، وكان السلطان قد فرق عساكره فكتب إلى أخيه إبراهيم واستدعاه ، فحضر إليه إلى بلاد الجبل فسار السلطان جريدةَ [٢] فى ألفى فارس إلى الموْصل فوجد البساسيرى وقريش بن بدران قد فارقاها .

فسار إلى نَصيبين ليتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد ، ففارقه أخوه إبراهيم بِنال إلى همذان فكاتبه البساسيرى وأطمعه فى السلطنة ، فأظهر إبراهيمُ العصيانَ / على السلطان طغرلبك فسار طغرلبك إلى همذان ١١٢ ب
فى منتصف شهر رمضان سنةَ خمسين وأربعمائة ،واشتغل بحرب أخيه حتى ظفر به ، ثم عرض له ما شغله عن العود إلى بغداد .

ذكر استيلاء أبى الحارث البساسيرى على العراق

وخروج الخليفة القائـــم بأمر الله من بغداد
والخطبـة للمستنصر بالله العلـوى صاحب مصـــر
وقطـع الدعوة العبـاسيـــة

قال [٣] : ولما اشتغل السلطانُ طغرلبك بِحرْب أخيه

(١) فى النسخ الثلاث يكتب هذا الاسم بأشكال مختلفة مثل نبال ونيال وبنال وإينال ، وفى راحة الصدور إينال : ١٦٨ .
(٢) فى النجوم الزاهرة ٥ : ٨ « بجريدة فى ألفين » .
(٣) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٨٣ .

قصد البساسيرى بغدادَ ، فلما وصل إلى هيت أمر الخليفة الناس بالعبور إلى الجانب الشرقى ، وكان الأتراك كلُّهم قد التحقوا بالسلطان إلى همذان . وكان الخليفةُ قد كتب إلى نور الدولة دُبَيْس يأمره بالوصول إلى بغداد فَورد إليها فى مائةِ فارسٍ ، فلما قَوِىَ الإرجافُ بوصول البساسيرى أرسل دُبَيْس بن مَزْيد إلى الخليفة وإلى رئيس الرؤساء والوزير يقول : الرأى عندى خروجُكما من البلد معى ، فإننى أجتمع أنا وهزارسب بواسط على دفْع عدوِّكما . فأتاه الجواب أن يقيم حتى يقع / الفكرُ فى ذلك ، فقال : العرب لا تطيعنى على المقام ، وأنا أتقدم إلى دَيالى فإذا انحدرتم سرت فى خدمتكم ! وسار وأقام بدَيالى ينتظرهما فلم ير لذلك أثرا ، فسار إلى بلده . ١١٣ ـ ا

ثم وصل البساسيرى إلى بغداد فى يوم الأحد ثامن ذى القعدة ومعه أربعمائة غلام فى غاية الضر والفقر ، فنزل بمشرعة الروايا وكان معه قريش بن بدران وهو فى مائتى فارس فنزل مشرعة باب البصرة . وركب عميدُ العراق ومعه العسكر والعوام وأقاموا بإزاء عسكر البساسيرى وعادوا ، وخطب البساسيرى بجامع المنصور للمستنصر العلوى صاحب مصر فأُذِّنَ « حى على خير العمل » وعقَد الجِسْر وعبر عسكره إلى الزاهر واجتمعوا فيه ، وخطب فى الجمعة الثانية للمصرى بجامع الرصافة ، وجرى بين الطائفتين حروب فى أثناء الأسبوع .

وكان عميدُ العراق يشير على رئيس الرؤساء وزير الخليفة بالتوقف عن المناجزة ، ويرى المحاجزة ومطاولةَ الأيام انتظارا لقدوم

طغرلبك ، ولِما يراه من ميْل العوامِ للبساسيرى . فاتّفق فى بعض الأيام أن القاضى الهمذانى حضر إلى رئيس الرؤساء واستأذنه فى الحرب وضِمن له قَتْلَ البساسيرى فأذن له من / غير علم عميد الدولة ، فخرج ومعه الخَدمُ والهاشميون والعجمُ والعوامُ إلى الخليفة فاستخرجهم البساسيرى حتى أُبعدوا ، ثم حملَ عليهم فعادوا منهزمين ، وقُتِلَ جماعةٌ منهم ، ومات فى الزَّحْمةِ جماعةٌ ، ونهب باب الأزج . وكان رئيس الرؤساء واقفا دون الباب فدخل الدار وهرب كل منْ فى الحريم ، ورجع البساسيرى إلى معسكره .

١١٣-ب

واستدعى الخليفةُ عميدَ العراق وأمره بالقتال على سور الحريم فلم يرُعْهُم إلا والزعقات قد علَت ونُهب الحريم ، ودخلوا الباب النوبى . فركب الخليفة لابِسًا السَّواد وعلى كتفه البردة وبيده سيفٌ على رأسِه اللواء ، وحوله زمرةٌ من العباسيين والخدم بالسيوف المسلولة ، فرأى النَّهْبَ قد وصل إلى باب الفردوس من داره ، فرجع إلى ورائه ومضَى نَحْو عميدِ العراق . ، فوجده قد استأمن إلى قريش فعاد وصعد إلى المنظرة .

وصاح رئيس الدولة « ياعلم الدين » يعنى قريشا « أمير المؤمنين يسْتَدْنيك » فدنا منه فقال له رئيس الرؤساء : .قد أنالَكَ اللهُ منزلةً لم ينَلْها أمثالُك ، وأمير المؤمنين يستذِم [1] منك على نَفْسِه وأهلِه وأصحابه بذِمام الله تعالى وذِمام رسوله صلى الله عليه

(١) نقول استذممنا به وتذممنا به فأذم لنا ، ونقول لفلان ذمة وذمام ومذمة أى عهد ، وهو فى ذمتنا وذمامنا ، ويقال تذمم منه أى استنكف واستحيا ، وإنى أتذمم من القوم أن أتحول من عندهم إلى غيرهم (راجع أساس البلاغة ١ : ٣٠٢ طبعة دار الكتب المصرية) .

وسلم وذِمام العربية . قال : أذَمَّ الله تعالى ! قال : ولى ولمن معه ؟
/ قال نعم ! وخلع قلنسوته وأعطاها الخليفةَ ، وأعطى رئيس الرؤساء ١١٤ـ١
ذِماما . فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء وسارا معه فأرسل
إليه البساسيرى : أتخالف ما استقر بيننا وتَنْقُض ما تعاهدنا
عليه ؟ (١) فقال قريش : لا ! وكانا قد تعاهدا على المشاركة فى
الذى يحصل لهما وأنْ لا يستبدَّ أحدُهما دون الآخر بشىء ،
فاتفقا على أن يُسلِّم قريشُ رئيس الرؤساء إلى البساسيرى لأنه
عدُوُّه ويترك الخليفة عنده !

ذكر مقتل رئيس الرؤساء وعميد العراق

قال (٢) ولما أرسل قريشٌ رئيس الرؤساء إلى البساسيرى
قال له : مرحبا بمُهلكِ الدول ومخرِّبِ البلاد ! فقال : العفوُ
عند المقدرة ! فقال له البساسيرى : قدرتَ فما عفوتَ وأنت
صاحب طيلسان ، وركبتَ الأفعالَ الشنيعةَ مع حُرَمى
وأطفالى ، فكيف أعفو أنا وأنا صاحب السيف ؟ وأمر به
فحُبس إلى آخر ذى الحجة ، ثم أخرجه من محبسه مقيدا وعليه
جبة صوف وطرطور من لَبَدٍ أحمر وفى رقبته ـ مُخَنَّقة / [جلد ١١٤ـب
بعير] (٣) وهو يقرأ « قل اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تؤْتِى المُلْكَ من

(١) يعاتبه البساسيرى أن أخذ منه الخليفة ذماما ليمنعه هو وأهله ووزيره القاسم بن مسلمة .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٨٤ .

(٣) فى ا ، فى ك ٦٦ ، فى ف ٦٦ ـ ا « مخنقة جلود كالتعاويذ » ومابين حاصرتين من الكامل ٨ : ٨٤ وقد ساق ابن كثير العبارة فى البداية والنهاية ١٢ : ٧٨ هكذا « وفى رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ » .

تَشَاءُ وتنزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ » الآية ..[١] وطِيف به محالٌ بغداد وهو على جمل ووراءه منْ يصفعه .

فلما اجتاز بِالْكَرْخ بصَقَ أهل الكرخ فى وجهه لأنه كان يتعصَّبُ عليهم ! وجىء به إلى البساسيري وقد نُصِبتْ له خشبة فأُنزل من على الجمل وأُلْبِس جلدَ ثورٍ قد سُلِخَ فى ذلك اليوم ، وجُعلت قرونهُ على رأسه وعُلِّق بكلوبيْن مِنْ حديدٍ ، فلم يزَل يضطربُ إلى آخرِ النهار ومات ، فقال بعض الشعراء فى هذه الواقعة :

أقبلتِ الرَّايات مُبْيضَّـــةً يقْدمهُنَّ الأَسَـــدُ الباسلُ
وولتِ السوداءُ منكوسـةً ليس لها من ذِلَّةٍ سائلُ
انظرْ إلى الباغِى على جذْعِهِ والدَّمُ من أوداجه سائـــلُ

يعنى رئيسَ الرؤساء ، قال : ودخل البساسيرىُّ داره ونَهب مافيها وشَهر حُرَمَه وأمر بِنَقْضِ دارِه وقال عند ذَلك : فواحدة بواحدة جزاءُ ! قال[٢] : وكان رئيس الرؤساء حسنَ التِّلاوة جيِّد المعرفة بالنَّحْوِ .

وقَتَل البساسيريُّ عميد العراقِ وكان فيه شجاعةٌ وله فتوة ، وهو الذى بنى رباط شَيْخ الشيوخ . وأما الخليفة فإن قريشًا نقله إلى معسكره / راكبًا وعليه السَّوادُ والبردة وبيده السيفُ وعلى رأسه اللواءُ وأنزله فى خيمةٍ ، وأخذ أرسلان خاتون ابنة أخى السلطان طغرلبك فسلَّمها إلى أبى عبد الله بن جردة ليقوم بخدمتها . ١١٥ ـ ا

(١) سورة آل عمران (٣) آية ٢٦ .
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٨٤ .

ونُهِبَت دارُ الخلافة وحريمُها أياما ، ثم سلَّم قريشٌ الخليفةَ إلى ابن عمِّه مهارش بن المُجَلِّى[١] وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله فى هوْدج وسار به إلى حديثة عانة[٢] فنزل بها ، ولما وصل إلى الأنبار شكا البرد ، فأنفذ إلى مقدمها يطلب منه شيئا يلبسه فأرسل إليه جبة فيها قطن ولحافا .

قال[٣] وركب البساسيرى يوْم عيدِ النَّحْر وعبر إلى المصلى بالجانب الشرقى وعلى رأسه الألوية المصرية ، فأحسن إلى الناس وأجْرى الجِرايات على المُتَفَقِّهةِ ولم يتعصبْ لمذهبٍ ، وأقام بالعراق إلى ذى القعدة سنةَ إحدى وخمسين وأربعمائة .

واشتغل السلطان طغرلبك فى هذا لمُدَّة بأمر أخيه إبراهيم حتى ظفر به وقتله ، ومات أخوه داود بخراسان فاحتاج طغرلبك إلى المقام حتى قَرَّر القواعدَ بعده لإلب أرسلان ابن أخيه داود[٤] ثم عاد إلى العراق

---

(١) هو أمير العرب محيى الدين أبو الحارث مهارش بن المجلى العقيلى صاحب الحديثة وعانة (شذرات الذهب ٣ : ٢٨٨

(٢) حديثة عانة . لعلها حديثة الفرات التى تعرف بحديثة النورة وتقع دون الأنبار ، . وهناك بلدة مشهورة بين الرقة وهيت تسمى عانة وتعد من أعمال الجزيرة ، بل هى مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة (راجع معجم البلدان ٢ : ٢٣٠)

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٨٥

(٤) هو داود جغرى بك بن ميكائيل بن سلجوق وقد مات سنة ٤٥٠ (انظر سلسلة النسب السلجوقية فى راحة الصدور صفحة ١٤٣ وكذلك صفحة ١٦٥)

ذكر عود الخليفة القائم بأمر الله الى بغداد

وخروج البساسيرى منها وقتـــــله

١١٥ ـ ب / قال : [١] ولما فرغ السلطان طغرلبك من أخيه إبراهيم ينال وقتله ، وقتل ابنيه معه ـ وكان قد خرج عليه مرارا فعفا عنه ، وإنما قتله فى هذه الوَقْعة لأنه علم أن الذى جرى على الخليفة كان بسببه فلهذا لم يَعْفُ عنه ـ عاد إلى العراق وليس له همٌّ إلا إعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى داره . فأرسل إلى البساسيرىّ وقريش فى إعادة الخليفة إلى داره على أن لا يدخلَ طغرلبك العراقَ ويقنع بالخطبة والسِّكة ، فلم يُجِب البساسيرىُّ إلى ذلك ، فرحل طغرلبك إلى العراق ، فلما وصلت مقدِّمَتُهُ إلى قصر شيرين خرج حُرَم البساسيرى وأولاده ، ورحل أهل الكرخ بنسائهم وأولادهم فى دجلة وعلى الظهر .

وكان دخولُ البساسيرىِّ بغدادَ فى سادس ذى القعدة سنة خمسين وأربعمائة ، وخروجه منها فى سادس ذى القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ووصل طغرلبك إلى بغدادَ وقد أرسل من الطريق الإمامَ أبا بكر أحمد المعروف بابن فورك [٢] إلى قريش ابن بدران يشكره على فِعْلِه بالخليفة وحفْظِه وصيانَتِه ابنةَ أخيه امرأة الخليفة ، ويعرفه أنه أرسل أبا بكر بن فورك لإحضارهما . ولما سمع قريش بقصد طغرلبك العراق أرسل إلى

١١٦ ـ ا مهارش يقول له : / « إنا أودعنا الخليفة عندك ثقةً بأمانتك لينكشف بلاءُ الغزِّ عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك ،

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٨٥ .
(٢) أبو بكر أحمد بن محمد بن أيوب .

فارحل بأهلك إلى البرية فإنهم إذا علموا أن الخليفةَ عندنا فى البرية لم يقصدوا العراق ونتحكم عليهم بما نريد » فقال مهارش : « إن الخليفة قد استحلفنى بعهودٍ لا أخلص منها » .

وسار مهارش ومعه الخليفة فى حادى عشر ذى القعدة سنة إحدى وخمسين إلى العراق فوافيا ابن فورك فى الطريق ، وأرسل إليه طغرلبك الخيام العظيمةَ والسرادقاتِ والخيلَ بمراكبِ الذهب وغير ذلك من التحف فلقوه .

ووصل الخليفةُ إلى النهروان فى الرابع والعشرين من ذى القعدة ، وخرج السلطان إلى خدمته وقبّل الأرض بين يديه وهنّأه بالسلامة واعتذر من تأخره . فشكر له ذلك وقلّده سيفا وقال : لم يَبْقَ مع أمير المؤمنين من دارِه سواه وقد تبرّك أمير المؤمنين به !

قال : [1] ولم يبق ببغداد من أعيانِها مَنْ يستقبل الخليفةَ غيرُ القاضى أبى عبد الله بن الدامغانىّ وثلاثةِ نفرٍ من الشُّهود . وتقدّم السلطانُ فى المسير ووصل إلى بغدادَ ، وجلس إلى الباب النوبى مكانَ الحاجب ، ووصل القائمُ بأمرِ اللهِ فقام طغرلبك وأخذ بلجام بغلته / حتى صار إلى حجرته . وكان وصوله يومَ الإثنين لخمسٍ بقين من ذى القعدة ، وكانت السنةُ مجدبةً ، ولم ير النّاسُ فيها مطرًا فجاء المطرُ فى تلك الليلة[2] . ١١٦ ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٨٦ .

(٢) راجع راحة الصدور ١٧٥ وما بعدها ثم ما كتبه براون فى Literary History of Persia. Vol. 2.

قال [١] : ولما استقرَّ الخليفة القائم بأمر الله أنفذ السلطان جيشا عليهم خمار تكين الطُّغْرائى فى ألْفَىْ فارسٍ نحو الكوفة ، وسار فى أثرهم فلم يشعر دُبَيْس والبساسيري إلا والسَّرِيَّة قد وصلت إليهم فى ثامن ذى الحجة من طريق الكوفة ، فجعل أصحاب دُبيْس ابن مزْيد يرتحلون بأهليهم فيتبعهم الأتراك فيتقدم دُبيْس ليَردَّ العربَ إلى القتال فلا يرجعون ! فمضى ، ووقف البساسيرىُّ وقاتل فسقط عن فرسه ووقع فى وجهه ضربة ، ودلَّ عليه بعضُ الجرْحَى فأخذه كمشتكين ، وأتى عميد الملك الكندرى[٢] وزير السلطان وقتله ، وحمل رأسه إلى السلطان فأمر بِحمْلِهِ إلى دار الخليفة ، فطيف به على قناةٍ فى نصف ذى الحجة ، ومضى ، ومضى نور الدولة دُبَيْس إلى البطيحة .

وفى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة رتَّب الخليفةُ أبا تراب الأثيرىّ فى الأنهار وحضور المواكب ولقَّبه حاجب الحُجَّاب ، واستوزر أبا الفتح منصور بن أحمد بن دارست ، بعد أن شَرط على نفسه أن يخدم بغير إقطاع / ويحمل مالا . ١١٧ ـ ا

وفى سنَة أربعٍ وخمسين وأربعمائة عقَد السلطان طغرلبك على ابْنَةِ الخليفةِ القائم بأمر الله وحملَ مائَة ألف دينار ، ولم يقعْ مثل هذا فيما تقدّم ، وامتنع الخليفة من ذلك ثم أجاب إليه .

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٨٦ .

(٢) فى ا ، ك ٦٨ ، ف ٦٦ ـ ب « كشتكين دوانى » وكشتكين هذا هو الأتابك كشتكين جاندار قائد جيش بركيارق (راحة الصدور ١٧ ، ٢١٨) الذى سيأتى ذكره بعد .

وفى هذه السنة عُزِل ابن دارست عن الوزارة ووليها أبو نصر ابن جهير .

وفيها عمَّ الرخصُ جميع الأصقاع ، فبيع بالبصرة ألفُ رطلٍ من الثمر بثمانية قراريط (١) .

وفى سنةِ خمسٍ وخمسين وأربعمائةٍ وصل السلطان بابْنَةِ الخليفةِ فى شهر المحرم ، وسار من بغداد فى شهر ربيع الأول إلى الرَّىِّ فمرض بها وتوفى لثمانٍ خلون من شهر رمضان . .

وفيها ملك ألب أرسلان بعد عمِّه طغرلبك (٢) .

وفى سنة سَتٍّ وخمسين وأربعمائة عادت ابنة الخليفة زوجة السلطان طغرلبك وسيّر السلطان فى خدمتها الأمير إيتكين السليمانى، وجعله شحنةً (٣) على بغداد وسأل ألب أرسلان أن يُخْطَب له ببغداد واقترح أن يخاطب بالولد المؤيد فأُجيب إلى ذلك ، ولُقِّب ضياءَ الدين عضُد الدولة وجلس الخليفةُ جلوسا عاما وشافَهَ (٤) الرسل بتقديم ألب أرسلان فى السلطنة وسيّر إليه الخلع .

---

(١) فى هذه السنة توفى المعز بن باديس بن منصور بن بلكين الحميرى الصنهاجى ، وكان سلطان افريقية وما والاها من الغرب (راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٧١) وإنما ذكرنا ذلك لوروده علينا قبل .

(٢) فى راحة الصدور ١٨٥ السلطان الأعظم عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان محمد برهان أمير المؤمنين .

(٣) بلا نقط فى ا وهى فى ك صفحة ٣٨ « سجنه » وما هنا عن ف ٦٧ ب لفظة ليست فى القواميس العربية المتداولة ، وهى عند Supp. Dict. or Dozzy. رئاسة الشرطة ونقول « الشحنكية » بمعنى وظيفة الشحنة .

(٤) كذا فى كل النسخ ، واللفظ عربى بمعنى نظره ، وساقه ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٩٨ .

١١٧ ـ ب وفيها / فى شهر ربيع الأول ظهر ببغداد والعراق وخوزستان وكثير من البلاد أن جماعة من الأكراد خرجوا يتصيدون فرأوا فى البرية خِيَمًا سُودًا ، وسمعوا فيها لَطْمًا شديدا وسمعوا فيها قائلاً يقول : قد مات سيدوك ملكُ الجن و أىُ بلدٍ لم يلطم أهله عليه ويعملون له المأتم قُلع أصله وأُهْلِك أهله ! فخرج كثيرٌ من النساء فى البلاد إلى المقابر يلطمن ويَنُحن وينشُرْنَ شعورهن ، وخرج رجالٌ من سفلة الناس يفعلون ذلك .

قال ابن الاثير (٤) : وقد جرى فى أيامنا نحن فى الموْصل وما والاها إلى العراق وغيرِه أنَّ الناس فى سنةِ ستمائةٍ أصابهم وَجَعٌ كثير فى حُلوقهم ومات منه كثيرٌ من الناس فظهر أن امرأة من الجن يقال لها أم عنقود مات ابنها عنقود وأنَّ كلَّ من لا يعْمل له مأتما أصابه هذا المرض ! فكثر فعل ذلك ، وكانوا يقولون :

يا أمَّ عنقودٍ اعذرينـــا قد مات عنقود وما درينا

وكان النساءُ يلطمن و كذلك الأوباش !

وفى سنةِ سبعٍ وخمسين وأربعمائة ابتُدِئَ بعمارة المدرسة النظامية ببغداد ، وكمُلت عمارتُها فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة .

وفى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة فى العشر الأوسط من جُمادى ١١٨ ـ ا ظهر كوكبٌ كبير له ذؤابةٌ / طويلة ممتدة إلى وسط السماء عرضها نحو ثلاثة أذرع فى رأى العيْن وهو بناحية المشرق ، وبقى إلى السابع والعشرين من الشهر وغاب .

(١) فى الكامل ٨ : ١٠٠ والمعروف أنه مات حول سنة ٦٣٠ .

وفيها فى جُمادى الآخرة كان بخراسان والجبال زلزلة عظيمة بقِيتْ تتردد أياما تَصدَّعتْ منها الجبال وأهلكت خلقًا كثيرا ، وانخسفت منها عدة قرى ، وخرج النَّاسُ إلى الصحراء .

وفيها وُلِدَتْ صَبِيَّةٌ بباب الأزج لها رأسان ورقبتان ووجهان وأربعُ أيدٍ على بدن واحد (١) .

وفى سنة تسع وخمسين وأربعمائة فى ذى القعدة قُتِل الصُّلَيْحى صاحب اليمن (٢) وخُطِب بها للدولة العباسية .

وفى سنة ستين وأربعمائة كانت زلزلةٌ عظيمة بمصر وفلسطين خربت الرملة ، وطلع الماءُ من رءوس الآبار ، وهلك من أهلها خمسةٌ وعشرون ألف نسمة ، وانشقت صخرة البيت المقدس ثم عادت بإذن الله تعالى ، وانحسر البحر عن الساحل مسيرةَ يوم فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقا كثيرا .

وفيها عزل فخر الدولة بن جهير عن الوزارة ثم أُعيد فى سنة إحدى وستين بشفاعة نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد فمدحه أبو الفضل فقال :

/ قد رَجَعَ الحقُّ إلى نصابه وأنت من دون الورى أولى به (٣) ١١٨ـب

ماكنت إلَّا السيفَ سَلَّتْه يَدٌ ثم أعادته إلى قِرابه

(١) سيق هذا الخبر وما قبله عن ابن الجوزى فى البداية والنهاية ١٢ : ٩٣ .

(٢) يعتبر الصليحى واحدا من الذين حكموا بسداد، وكان طموحا فغزا مكة عام ٤٥٥ ورفع جور من تقدمه فيها فأمن الحجاج فى عهده وكسا البيت بالحرير الصينى الأبيض وابتاع حليه التى سلبها بنو حسن وردها إليه . ويقول ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٥ : ٥٨ إنه فى سنة ٤٤٧ «استولى أبو كامل على بن محمد الصليحى على اليمن وانتمى إلى المستنصر صاحب مصر » .

(٣) فى الكامل ٨ : ١٠٧ « وأنت من كل الورى أولى به » .

وهى قصيدة طويلة .

وفيها فى شعبان احترق جامع دمشق ، وكان سبب ذلك أنه وقع بين المغاربة والمشارقة حربٌ فأحرقوا دارًا مجاورة للجامع فاتصل الحريق بالجامع ، فَدُثِرَت محاسِنهُ وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة .

وفى سنةِ اثنتين وستين وَرَدَ رسولُ صاحب مكة محمد بن أبى هاشم بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان بمكةَ وإسقاط خطبة صاحب مصر وترك الأذان بـ « حى على خير العمل » فأعطاه السلطان ثلاثين ألفَ دينار وخِلَعًا نفيسةً وأجرى له فى كلِّ سنة عشرةَ آلافِ دينار . وخطب محمود بن صالح بن مرداس صاحب حلب لهما أيضا فى سنة ثلاثٍ وستين على مانشرحه فى أخبار الدولة السُّلجقية فقال أبو عبد الله بن عطية يمدح الخليفة :

كم طائعٍ لك لم تَجْلِبْ عليه ولَمْ تَعْرِفْ لطاعَتِهِ غَيْرَ التُّقَى سَبَبا
هذا البشيرُ بإذعان الحجاز وذا داعِى دمشقَ وذا المبعوثُ من حلَبا

١١٩ ـ ا وفيها خرج أرمانوس ملك الروم فى مائتى ألف إلى / خِلاط.[1] وأُسِر على ما نذكره ـ إن شاء الله ـ فى إيام ألب أرسلان .

وفى سنة أربع وستين وأربعمائة عُزل إيتكين السليمانى من شحنكية بغداد واستعمل عليها سعد الدولة كوهرآيين[2] ، وكان سبب

(١) يقرر ابن الأثير فى الكامل ٩ : ١٠٩ أنه وصل إلى ملازكرد من أعمال خلاط وكان معه جند من الروس هزمهم ألب أرسلان وأسر مقدمهم ، ثم أسر ملك الروم نفسه (راجع أيضا راحة الصدور ١٨٨ ، ١٨٩) .

(٢) فى كل النسخ « كوهراتين » وما ها هنا من راحة الصدور ١٨٩ .

عزل السليمانى أنه كان قد سار إلى السلطان ألب أرسلان واستخلف ابنَه شحنةَ بغدادَ فقتل أحدَ مماليك الدارية فأنفذ قميصَه من الديوان إلى السلطان ووقَع الخطاب فى عَزْله ، فورد إلى بغداد فى ربيع الأول من هذه السنة وقصد دار الخلافة وسأل العَفْو عنه وأقام أيامًا فلم يُجَبْ إلى ذلك ، وكان نظام الملك يعتنى بالسليمانى فأضاف إلى إقطاعه تكريت ، فكوتب واليها من ديوان الخلافة بالتوقُّف عن تسليمها . فلما رأى السلطانُ ونظامُ الملك إصرارَ الخليفة على الغَضَبِ على السليمانى عزلاه ، وَسَيَّرا سعدَ الدولة إليها (١) ، فتلقاه الناس وجلس له الخليفة .

وفى سنةِ خمسٍ وستين وأربعمائة قُتِلَ السلطان ألب أرسلان وملك بعده ابنُه السلطان ملكشاه . وفيها أُقيمت الدعوة العباسية ببيت المقدس قدسه الله ...

ذكر غرق بغداد

وفى سنة ستٍّ وستين وأربعمائةٍ غرق الجانب الشرقى وبعضُ الغربى من بغداد ، وسببُ ذلك أن دجلة زادتْ زيادةً عظيمة وطفح الماءُ من البرية مع ريح شديدة ، وجاء الماء إلى المنازل ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقى ، وهلك خلقٌ كثير تحت الهدم (٢) ، وشدت الزواريق تحت التاج خَوْف الغَرَق . وقام ١١٩-ب /

(١) يخطىء النويرى دائما فى استعمال الضمائر ، ولكنه هنا ربما قصد بغداد .

(٢) من طريف مايحكى ما يرويه ابن الأثير من أن الناس شكوا إلى أولى الأمر كثرة المجون وزيادة المواخير ، فلم يفعلوا شيئا حتى كان الغرق فكان تلبية إلهية لشكواهم (الكامل ٨ : ١١٩) .

الخليفة يتضرّع ويصلّى وعليه البردة وبيده القضيب ، وغرق من الجانب الغربى مقبرةُ أحمد بن حنبل ومشهدُ باب التنين وتهدّم سورُه ، ودخل الماءُ من شبابيك البيمارستان العضُدِيّ .

ذكر وفاة القائم بأمر الله

وشىء من سيرته

كانت وفاته فى ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنةَ سبع وستين وأربعمائة ، وكان سببُ وفاته أنه كان قد أصابه مأشر فافتصد[1] و نام ، فانتفخ فصادُه وخرج منه دمٌ كثير ولم يشعر ، فاستيقظ وقد ضَعُفَ وسقطت قوّته . فأيقن بالموت وأحضر ولىَّ عَهْدِه ووصّاه وأحضر نقيبَ العباسيين ونقيب الطالبيين وقاضىَ القُضاة وغيرَهم مع الوزير ابن جهير وأشهدهم على نفسه / أنه جعل ١٢٠ ـ ا
ابن ابنه أبا القاسم ولىَّ عهده .

ولما تُوفِّىَ غسله الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى ، وصلّى عليه المقتدى بأمر الله . ومات وله من العمر ستٌّ وسبعون سنةً وثلاثةُ أشهر وخمسةُ أيام ، ومدةُ خلافته أربعٌ وأربعون سنةً وثمانية أشهر إلا أياما . وقيل كان مولدهُ فى ثامن عشر ذى القعدة سنةَ إحدى وتسعين وثلاثمائة فعلى هذا يكون عمره ستا وسبعين سنةً وتسعةَ أشهرٍ وخمسةَ أيام .

وكان جميلا أبيضَ مشربا بحمرةٍ ، حسنَ الوجه والجسم ، ورِعا ديِّنا زاهِدا عالما قوىِ اليقين بالله تعالى ، وله عنايةٌ بالأدب ومعرفةٌ

(١) فى البداية والنهاية ١٢ : ١١٠ أنه افتصد من بواسير كانت تعتاده .

حسنةً بالكتابة ، ولم يكن يرضى [عن] أكثر ما يكتب من الديوان ويُصلح أشياء منه . وكان مؤثرا العدل والاحسان ، مريدًا لقضاء حوائج الناس ، لايرى أن يمنع ما يطلب منه ، حُكِى عن محمد بن على ابن عامر الوكيل قال : « دخلتُ يوما إلى المخرن فلم يَبْقَ أحدٌ إلا وأعطانى قصةً فامتلأت أكمامى فقلت فى نفسى لو كان الخليفة أخى لأعرض عن هذه كلِّها فألقيتها فى البِرْكة والقائمُ ينظر ولا أشعر ، فلما دخلت عليه أمر الخدم بإخراج الرِّقاع من البِركة فأُخرجت ووقف عليها ، ووقَّع بأغراض أصحابِها ثم قال لى : يا عامى[1] ما حمَلَك على هذا ؟ فقلت : خوف الضجر منها ! فقال : لاتعود إلى مثلها فإنا ما /أعطيناهم من أموالنا شيئا . ١٢٠ - ب

ومما يُحكَى من جُمْلَةِ كَرمه أن أحدَ السلاطين فى أيَّامه سأله أن يَتَقَدَّمَ باعتقال وزرائه وذكر أنهم استَوْلَوْا على أموالِه فخرج توقيعه « ليست دارنا دارَ حَبْسٍ وسجنٍ بل هى دار طمأنينة وأمن » وكان له شعر رائق فمنه قوله :

قالوا : الرحيـل ، فأنشبتْ أظفارَها
فى خدِّهـا وقد اعتلقن خِضـابا
واخضَرَّ تحت بَنانِها فـكأنمـا
غَرَسَت بأرضٍ بَنَفْسجٍ عِنَّابا

وفى أيامه أسْلَم من كفار الأتراك ألف خركاه وضَحَّوْا بثلاثين ألفَ رأسٍ من الغنم وقيل : أكثر من ذلك .

(١) فى كل النسخ « ياعاق » أو « ياحاقى » وما هنا عن الكامل .

ولم يخلف ولدًا لأن ابنَه ذخيرةَ الدين تُوفى فى ذى القعدة سنة سبع وأربعين وعمره خمسَ عشرةَ سنةً .

وزراؤه وكتابه : كتب له عميد الرؤساء أبو طالب محمد بن أيوب ، ثم رئيس الرؤساء أبو القاسم على بن الحسن بن مسلمة – وزر له ولقَّبه بهذا اللقب وبجمال الوري – ووَزَرَ له بعده أبوالفتح منصور ابن أحمد بن دارست ، ثم فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد ابن جُهير . قضاته: قاضى القضاة أبو عبد اللهالحسن بن على بن ماكولا البصرى إلى أن مات ، فَوَلَّى أبا عبدالله محمد بن على الدامغانى شيخ أصحاب أبى حنيفة . /حُجَّابه : أبو منصور بن بكران ثم أبو عبد الله الحسن بن على المردوسى[1] . ٢٢١ ـ ا

ذكر خلافة المقتدى بأمر الله

هو أبوالقاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبى العباس أحمد بن القائم بأمر الله ، وأُمه أُمُّ ولدٍ اسمُها أرجوان وقيل شراب ، وتدْعى قرة العين . وهوالخليفة السابع والعشرون من الخلفاء العباسيين ، بويع له بعد وفاةِ جدِّه القائم بأمر الله فى يوم وفاته وهو يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة. وكان القائم جَدُّه قد عهد له كما ذكرنا ، فلما مات القائمُ حضر مؤيد

(١) يذكره البيهقى فى تاريخه ٣١٥ ، ٣٦٤ « الأستاذ أبو عبيد الله الحسين بن ميكائيل » و« الخواجة عبد الله الحسين بن على بن ميكائيل » وفى هامش راحة الصدور ١٥٩ «أبو عبد الله الحسين بن على بن ميكا ئيل » يقول عنه ابن كثير فى البداية والنهاية ١١ : ١٢٧ « أبو عبدالله المردوسى كان رئيس أهل زمانه ، وكانت الملوك تعظمه وتكاتبه .

الملك بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابنُه عميد الدولة والشيخ أبو اسحاق وأبو نصر الصباغ ونقيبُ النقباء طرّاد والنقيب المعمر بن محمد وقاضى القضاة أبو عبد الله الدامغانى وغيرُهم من الأعيان والأتابكة فبايعوه ، وكان أولَ من بايعه الشريفُ أبو جعفر محمد بن أبى موسى الهاشمى بعد فراغه من غسل القائم وأنشد :

إذا سَيِّدٌ منا مَضَى قام سَيِّدٌ

وأرْتج عليـه فقال المقتدى :

/قؤول بما قال الكرام فعول . ١٢١ ب

ولما فرغوا من البيعة صلَّى المقتدى بأمر الله بهم العصر .

ذكر الحوادث فى أيام المقتدى

فى ذى القعدة ملك الأفسيس دمشق وخطب بها للمقتدى بأمر الله ، وكان آخر مَنْ خَطَب بها للمصريين (١) .

وفيها ملَكَ نصر بن محمود بن مرداس مدينة منبج من الروم .

وفيها قدم سعد الدولة بن كوهرآيين شحنةً إلى بغداد من قِبَل السلطان ملكشاه ومعه العميد أبو نصر ناظرا على أعمال بغداد .

وفى سنةِ تسعٍ وستين وأربعمائة قدِم أبو نصر ابن الأُستاذ أبى القاسم القُشَيْرىّ حاجًّا ، وجلس فى المدرسة النظامية يَعِظ النَّاس ، وفى رباط شيخ الشيوخ ، وجَرَى له مع الحنابلة فتنٌ لأنه كلَّم على مذهب

(١) ويروى ابن الأثير أنه طمع فى مصر سنة تسع وستين وأربعمائة وحاصرها فعلا ولكنه انهزم هزيمة شنيعة بغير قتال (الكامل ٨ : ١٢٣) .

الأشعرى ونَصَرَه . وكثُر أتباعُهُ والمتعصبون له ،فثار الحنابلةُ ومن تَبِعَهُم من سوق المدرسة النظامية وقتلوا جماعةً من المتعصبين للقشيرى كالشيخ أبي إسحاق وشيخ الشيوخ وغيرِهما من الأعيان ، فَجَرَى بين الطائفتين أمورٌ عظيمة . فنسب أصحاب/ نظام الملك ١٢٢ ـ ا
ذلك إلى الوزير فخر الدولة بن جُهير وكتب أبو الحسين محمد ابن على بن أبى القصر الواسطى الفقيه الشافعى إلى نظام الملك :

يا نظامَ المُلْكِ قد حلَّ ببغداد النِّظَامُ
وابنُك القاطنُ فيهـا مستلانٌ مستضامُ(١)
وبها أوْدَى له قتلى غلامٌ فغـــلامُ
والذى منهم تَبَقَّى سالما فيه سهـامُ
ياقوامَ الدّين لم يَبْقَ ببغدادَ قـوامُ
عظُم الْخَطْبُ فَلِلْحَرْبِ اتِّصالٌ ودوامُ
فمـتى لم يُحْسَمِ الدَّاء بأيديك الحسامُ(٢)
ويكفّ القوم فى بغـداد قتلٌ وانتقامُ
فَعَلى مدرسةٍ فيها وَمَنْ فيها السـلامُ
واعتصام بحريمٍ لك من بعْـدُ حرامُ

فلما اتَّصَل ذلك بنظام الملك عَظُمَ عليه فأعاد سعد الدولة كوهر آيين شحنةً إلى العراق فى سنة إحدى وسبعين ، وحمله رسالةً إلى الخليفة

(١) فى الكامل ٨ : ١٢٨ بتصحيف « وبنى القاطن فيها مستهان مستضام » .
(٢) فى الكامل « فمتى لم تحسم الداء أياديك الحسام » وفيه تصحيف .

تتضمّن الشكْوَى من بنى جُهير ويسأل عَـزْلَ فخـر الدولة عن الوزارة ، فلما وصـل إلى بغداد وأبلغ الخليفة الرسالة أمر فخر الدولة بلزوم داره واستوزر بعده أبا شجاعٍ محمد بن الحُسين !

/قال :[1] ولما بلغ ابن جهير تغيُّرَ نظامِ الملك عليه أرسل ابنَه عميدَ الدولة إليه يستعطفه ، فسار إليه قبل وصول كوهر آيين إلى بغداد ، ولم يزل يستعطِفه حتّى عاد إلى ما ألفَه منه وزوّجه بابنته . فعاد إلى بغداد فلم يرُدّ الخليفةُ أباه إلى الوزارة وأمرهما بملازمة منازلهما فأرسل نظام الملك إلى الخليفة فى إعادة بنى جهير إلى الوزارة فأعيد عميدُ الدولة إليها وأذن لأبيه فخر الدولة بفتح بابه ،وذلك فى صفر سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة . ١٢٢-ب

وفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان دمشق على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة السُّلجقية .

وفى سنةِ أربع وسبعين وأربعمائة فى شوال توفى نور الدولة أبو الأغرّ دُبَيْس بن على بن مَزْيد الأسدى ، وولى بعده أبو كامل منصور ولقِّب بهاء الدولة .

وفيها أرسل الخليفة الوزير فخر الدولة إلى السلطان ملكشاه بأصبهان يخطب ابْنَتَه للخليفةِ فسار إليه وخطبها ، فتقررت القاعدة على أن يكون الحِمْلُ المعجل خمسين ألف دينارٍ وأن لا يبقى الخليفة سرولا زوجة غيرها فأجيب إلى ذلك .

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٢٦

١٢٣ ـ ا

ذكر الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة

وفى سنةِ خمسٍ وسبعين كانت الفتنةُ بين الطائفيين ، وسببها أنه وَرَدَ إلى بغدادَ الشريف أبو القاسم البكرى المقرىء الواعظ وكان أشعريَّ المذهب ، وكان قد قصد نظام الملك فأَحبَّه ومال إليه وسيّره إلى بغداد ، وأجرى عليه الجراية الوافرة . وكان يعِظ بالمدرسة النظامية ، ويذكر الحنابلةَ ويعيبهم ويقول « وما كفر سُليمانُ ولكنَّ الشياطين كفروا» (١) وما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا ثم قصد يوما دار قاضى القضاة أبى عبد الله الدامغانى فَجَرَى بينه وبين قومٍ من الحنابلة مشاجرة أدَّتْ إلى الفتنة . وكثر جمْعُه فكبس دور بنى الفَرّاء وأخذ كتُبَهم ومنها كتاب الصفات لأبى يعلَى فكان يقرأُه بين يديه وهو جالس على الكرسى للوعظ ، وشنَّع عليهم وجرى له معهم خصومات وفتن . واقْتُب البكريُّ من الديوان بِعَلَم السُّنَّةِ ، ومات ببغداد ودفن عند قبر أبى الحسن الأشعري رحمهما الله تعالى .

١٢٣ ـ ب

ذكر مسير الشيخ أبى اسحاق برسالة الخليفة

إلى السلطـان ملكشاه

وفى ذى الحجة سنةَ خمسٍ وسبعين وأربعمائةٍ أرسل الخليفة المقتدى الشيخَ أبا إسحاق الشيرازى برسالةٍ إلى السلطان تتضمن الشكوى من العميد أبى الفتح بن أبى الليث عميد العراق ، وأمره أن يُنْهِىَ إليه وإلى نظام الملك ما يجرى على أهل البلاد من النُّظَّارِ . فسار الشَّيْخُ ، فكان الشَّيْخُ كلما وصل إلى مدينةٍ من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادِهم يتمسحون بركابه ويأخذون

(١) سورة البقرة (٢) الاية ١٠٢

من تراب بغلته للتبرُّك . وكان فى صُحبته جماعةٌ من أعيان أصحابه فلما وصل إلى ساوة خرج إليه جميع أهلها وسأله كلٌّ من فقهائها أن يدخلَ بيتَه فلم يفعل . ولقِيَهُ أربابُ الصناعات ومعهم ما ينثرونه على محفته ، فخرج الخبازون ينثرون الخبز وهو ينهاهم فلم ينتهوا ، وكذلك أصحاب الفاكهة والحلوى وغيرهم ، وخرج إليه الأساكفة وقد عملوا مداسات لطافًا تصلح لأرجُلِ الأطفال ونثروها فكانت تسقط على رؤوس النَّاس فكان الشيخ يتعجب ويذكر ذلك لأصحابه بعد رجوعه ويقول : ماكان حظكم من ذلك النثار؟ فقال بعضهم : ما كان حظ سيدنا منه ! فقال الشيخ : أما أنا فتغطيت بالمحفة ! يقول ذلك وهو يضحك .

قال (١) : ولما وصل الشَّيخ إلى السلطان وإلى نظام الملك أكرماه ، وأجيب إلى جميع ما التمسه من الخليفة . ولما عاد أهين عميد العراق ، ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشى الخليفة .

وفيها قدم مؤيد الملك بن نظام الملك إلى بغداد من أصفهان ونزل بالمدرسة النظامية ، وضرب على بابه الطبول فى أوقات الصلوات الخمس ،فأُعْطِيَ مالا جزيلا حتى قَطَع ذلك ، فأرسل الطبول إلى تكريت والله تعالى أعلم .

ذكر عزل عميد الدولة عن الوزارة ١٢٤ـ١

وميسر والده إلى ديار بكر

وفى سَنَةِ سِتٍّ وسبعين وأربعمائة فى صفر عزل عميد الدولة فخر الدولة بن جهير عن الوزارة ،ووصل فى يوم عزله له رسول

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٣٢

من السلطان ومن نظام الملك إلى الخليفة يطلبان [معه] أن يرسل إليهما بنى جهير فأذن لهم. فساروا بجميع أهلهم ونسائهم، فصادفوا من السلطان ومن نظام الملك الإكرام والاحترام، وعقد السلطان لفخر الدولة بن جهير على دياربكر وخلع عليه وأعطاه الكوسات(١) وسيّر معه العساكر وأمره أن يأخذها من بنى مروان، وأن يخطب لنفسه ويذكر اسمه على السكّة، فسار إليها.

قال(٢): ولما فارق بنو جُهير بغدادَ رتّب الديوان أبو الفتح المظفر ابن رئيس الرؤساء، ثم عزله فى السنة وولى أبا شجاع محمد ابن الحسين وخلع عليه خلع الوزراء(٣).

وفى سنة سبع وسبعين وأربعمائة استولى عميد الدولة على الموصل.

وفيها فتح سليمان بن قُتُلمش السُّلجقى صاحب الروم أنطاكية وكانت بيد الروم من سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة.

وفى شهر صفرٍ انقَضّ كوكبٌ من الشرق إلى الغرب كان حجمه وضَوْؤه كالقمر، وسار مدّى بعيدًا على مَهَلٍ فى نحو ساعة.

وفى سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائةٍ استولى الفَرَنْجُ على مدينة طُلَيْطلَة وأخذوها من المسلمين على ما نذكره - إن شاء الله تعالى - فى أخبار الأندلس(٤).

---

(١) الكوسات: الطبول فارسية، أنظر. Lane (E.W.) : an arabic English Bock I. Party. Dozy : Supplement Dic ar. 2 : 498.

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٢٣

(٣) ولقبه ظهير الدين (البداية والنهاية ١٢ : ١٢٤).

(٤) سيرد ذلك فى هذا الجزء فى القسم الخاص بالأندلس.

وفيها فى شهر ربيع الأول هاجتْ رِيحٌ عظيمةٌ سوداء بعد العشاء ، وكثُرَ الرَّعْدُ والبرق وسقط على الأرض رملٌ أحمرُ وترابٌ كثير، وكانت النيران تضطرم فى أطراف السماء، وكان أكثر ذلك بالعراق والمَوْصل ، فألقتِ النخلَ، وسقط معها صواعق فى كثير من البلاد ثم انجلى ذلك نِصف الليل .

وفيها فى شهر ربيع الأول توفى أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف الجوينى إمام الحرمين ، ومولده سنة سبع عشرة وأربعمائة (١) .

وفى سنة تسع وسبعين وأربعمائة ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب واللاذقية وكفر طاب وأفامية (٢) .

وفيها فى شهر / ربيع الأول توفى بهاء الدولة أبو كامل منصور بن ١٢٥ ـ ا
دُبَيْس بن على بن مزيد الأسدى صاحب الحلة والنيل (٣) وولى ابنُه سيف الدولة صدقة .

وفيها أُسْقِطَ اسم العلوىّ صاحب مصر من الحرَمَيْن الشريفين وذُكر اسمُ الخليفة المقتدى بأمر الله .

وفيها أُسقطت المكوس من العراق .

وفى سنة ثمانين وأربعمائة فى المحرم زُفَّتْ ابنةُ السلطة نملكشاه إلى الخليفة ، ونُقل جهازُها على مائةٍ وثلاثين جملا مجللة بالديباج

(١) الجوينى : ينسب إلى جوين من قرى نيسابور ، وقد ترجم له ابن كثير فى البداية والنهاية ١٢ : ١٢٨ كما ترجم لأبيه إمام الشافعية ١٢ : ٥٥ .
(٢) انظر هنا راحة الصدور ٢٠٢ ومابعدها .
(٣) يقول عنه ابن كثير فى البداية والنهاية ١٢ : ١٣٠ كان أديبا ويروى له شعرا .

الرومى ، وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة ، وثلاث عماريات ، وعلى أربعةٍ وسبعين بغلا مجللّة بأنواع الديباج الملكى وأجراسُها وقلائدُها من الذهب ، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقًا من فضةٍ فيها من الجواهر والحلى مالا تُقَدَّر قيمتُه ، وأمام البغال ثلاث وثلاثون فرسا من الخيول السَّوابق عليها مراكبُ الذهب . وسار أمام الجهاز سعدُ الدولة والأمير برسق وغيرُهما ، وكانت ليلة مشهورة ، فلما كان من الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لِسماطٍ أمر بعمله حُكِيَ أنه عُمِلَ فيه أربعون ألف مَنٍّ من السكر . وخلع الخلفية على جميع أمراء السلطان ومن له ذِكْرٌ في العسكر ، وأرسل الخلع إلى جميع الخواتين . وولدت فى هذه السنة من الخليفة ولدا وهو أبو الفضل جعفر .

١٢٥ ب /وفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة فى شهر ربيع الآخر أمر الخليفةُ بإخراج الأتراك الذين مع الخاتون زوجته من حريم دار الخلافة ، وكان سبب ذلك أن تركيًّا منهم اشترى فاكهة من طواف فتكالما فشتمه الطوافُ فضربه التركى فَشَجَّه ، فاجتمعت العامَّةُ وشنَّعوا واستغاثوا ، فأمر الخليفة بإخراج الأتراك فأُجْرِخوا على أقبح صورة .

وفى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة يطلب ابنتَه طلبا لابُدَّ منه ، وسبب ذلك أنها كانت قد أرسلت إليه تشكو من اطراح الخليفةِ لها وإعراضِه عنها فأذن لها فى المسير ، فسارت فى شهر ربيع الأول ومعها ابنُها من الخليفة فوصلت إلى أصفهان فأقامت إلى ذى القعدة وتوفيت .

وفى سنة أربع وثمانين وأربعمائة فى شهر ربيع الأول عُزل الوزير أبو شجاع ، وكان عزله فى يوم الخميس فقال :

تولاها وليس له عَـدُوٌّ وفارقَهَـا وليس له صديق

فلما كان من الغد يومَ الجمعة خَرَج من دارِهِ إلى الجامع ماشيا فاجتمع عليه خلق كثير ، فأُمر أن لا يخرج من بيته ، واستنيب فى الوزارة أبو سعد بن موصلايا كاتب الإنشاء وأرسل الخليفةُ إلى السلطان يستدعى منه عميد الدولة بن جُهير يستوزره ، فَسُيِّر إليه فاستوزره / فى ذى الحجة من السنة . ١٢٦ ـ ا

وفيها ملك الفرنج جزيرةَ صِقِلية .

وفيها فى تاسع شعبان كان بالشام وكثيرٍ من البلاد زلازلُ ، ففارق النَّاسُ مساكِنَهم وانهدم بأَنطاكية كثير من المساكن والدور ، وهلك تحتها خلق كثير ، وخُرِّب من بروجها تسعون برجًا .

وفى سنة خمس وثمانين وأربعمائة قُتِل نظام الملك فى عشر شهر رمضان .

وفيها توفى السلطان ملكشاه وملك بَعْده ابنُه محمود .

وفى سنة سبع وثمانين وأربعمائة خطب للسلطان بركيارق بن ملكشاه ببغداد فى يوم الجمعة رابع المحرم (١) .

(١) فى كل النسخ « بركيازوق » وما ها هنا عن راحة الصدور ٢١٤ ، ويقول الراوندى فيه إنه تولى سنة ست وثمانين وأربعمائة .

ذكر وفاة المقتدى بأمر الله

وشيء من أخباره

كانت وفاتُه فى يوم السبت خامس عشر المحرم سنةَ سبع وثمانين وأربعمائة فجأةً ، وكان قـد أُحْضِر إليه تَقْلِيدُ السلطان بركيارق ليعلَّم عليه فقرأه ثم قُدِّم إليه الطعام فأكل منه وغسل يديه وعنده قهرمانتُه شمسُ النهار فقال لها : ما هذه الأشخاص التى قد دخلت على بغير إذن ـ قالت ـ فالتفتُّ فلم أر شيئا فرأيته قد تغيَّرت حالتُه واستَرْخَت يداه ورجلاه /وانحلَّت قُوَّتُهُ فسقط إلى الأرض ، فَظَنَنْتُها غشيةً لحِقته ، فحللت أزرار ثوبه فوجدتُهُ قد ظهرت عليه أمارات الموت ، فتماسكتُ وقلت لجارية عندي : ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء ! وأحضرت الوزيرَ وأعلمته الحالَ فشرعوا فى الْبَيْعَةِ لولى العهد ، وجَهَّزوا المقتدى وصلَّى عليه ابنه المستظهر بالله ودُفن . ١٢٦ـب

وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وثمانية أَشْهُرٍ وسبعة أيام ، وخلافَتُهُ تسعَ عشرةَ سنةً وخمسةَ أَشْهُرٍ ويومين ، وكان عظيمَ الهمة شديد العزمة ، ولم يكن له أعوان على ذلك تذبُّ عنه بل كانت له دعوة مجابة ، وكانت أيامه كثيرةَ الخير واسعةَ الرزق . وعظُمَتِ الخلافةُفيها أكثَر ممن كان قبله ، وعُمِّرَ ببغدادَ عدة محال فى خلافته منها البصلية والقطيعية والحلبية والمعيدية والأجمة ودرب القبار وخرانة الهراس والخاتونتين .

قال[1] : وأمر بِنَفْى المغنيّات والمفسدات من بغداد ، وأمر

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٧٠ .

ببيع دورهن ومنع دخول الحمّام إلا بمئزر ، وقلع الهرادى والأبراج التى للطيور ، ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس ، ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة ، وألزم أربابها بحفر آبار للمياه ، ومنع الملاحين / من حَمْلِ النساء والرجال مجتمعين . ١٢٧ ـ ا

ووزر له : من ذكرناهم. قضاته : أبو عبدالله الدامغانى إلى أن مات ، ثم أبو بكر محمد بن المظفر الشامى الشافعى . حجابه: أبو عبد الله ابن دوشتى (٢) ثم أبو منصور بن محمد محمد .

ذكر خلافة المستظهر بالله

هو أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبى العبّاس أحمد بن القائم بأمر الله ، وهو الخليفة الثامن والعشرون من الخلفاء العباسيين قال (١) : ولما مات المقتدى بأمر الله أُحْضِر ولدهُ المستظهر بالله وأُعْلِمَ بموته فبايعه الوزيرُ ، وركب إلى السلطان بركيارق فأعلمه الحال ، وأَخَذَ بَيْعَتَه للمستظهر بالله . فلما كان فى اليوم الثالث من وفاة المقتدى أظهر موته ، وحَضَر عِزُّ المُلْكِ بن نظام الملك وزير بركيارق ، وأمر السلطان جميعَ أربابِ المناصب بالجُلوس للعزاء والبيعةِ للمستظهر بالله. فبويع له البيعةَ العامةَ فى السادس عشر من المحرم سنةَ سبعٍ وثمانين وأربعمائة ، وله من العمر ستة عشر سنة وشهران .

---

(١) كذا فى ا ، ك ٧٤ ، ف ٧١ – ب فلعله هكذا ولعله « ابن دوست » كأحمد بن محمد بن دوست صاحب الرباط المشهور (انظر شذرات الذهب ٣ : ٣٦٣) وقد سبق أن وقفنا عند اسمه فى حوادث سنة ٤٦٧ .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٧٠ .

ذكر الحوادث فى أيام المستظهر بالله

١٢٧ ـ ب /فى سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة كان بين الملوك السلاجقة وبين بعضِهم حروب كثيرة نذكرها إن شاءَ الله تعالى فى أخبارهم[١] .

وفيها شَرَع الخليفة فى عمل سورٍ على الحريم ، وأمر الوزير عميد الملك بالجِدِّ فى عمارته .

وفيها فى شهر ربيع الأول خُطِب لولى العَهدِ أبى الفضل منصور بن المستظهر بالله .

وفى سنةِ تسعٍ وثمانين وأربعمائةٍ اجتمع سِتَّةُ كواكب فى برج الحوت ، وهى الشمس والقمر والمشترى والزهرة والمريخ وعطارد فحكم المنجمون بطُوفانٍ يكون فى الناس ، وأحضر الخليفة ابنَ عسون المنجم فسأله فقال : إن فى طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة فى برج الحوت والآن فقد اجتمع منها فيه ستة وليس فيها زحل ، فلو كان فيها لكان مثلَ طوفان نوح ، ولكن أقول إنَّ مدينة أوبقعة من الأرض يجتمع فيها عالَم كثير من بلادٍ كثيرة فيغرقون ، فخافوا على بغداد لكثرة من يجتمع فيها! فأُحكمت المواضعُ التى يُخْشَى منها الانفجار والغَرق . واتَّفق أنَّ الحجاج نزلوا فى المناقب[٢] فأتاهم سيل عظيم فأغرق أكثرهم ، ونجا من تعلَّق بالجبال ،

(١) فى هذه السنة يقول ابن الأثير : إن شاهملك توجه إلى مصر ثم رحل عنها إلى المغرب وفيها قتل تتش بن ألب أرسلان بعد هزيمة بركيارق (الكامل ٨ : ١٧٤ ، ١٧٥) ويسجل الراوندى هذه الواقعة ويعقبها بوقائع أخرى فى راحة الصدور ٢١٩ وما بعدها .

(٢) فى ا وفى ك ٧٥ « المثاقب » وما هنا عن ف ٧٣ موافقا لما جاء فى البداية والنهاية ١٢ : ١٥٢ .

وذهب المال والدواب والأزواد وغير ذلك ، فخلع الخليفة على المنجم !

وفى سنة تسعين وأربعمائة كان ابتداء الدولة الخوازرمية/ وفيها ١٢٨ - ا
خطب الملكُ رضوان بولايته بالشام للمستعلى صاحب مصر[١] ، ثم رجع عن ذلك وأعاد الخطبة للدولة العباسية[٢] .

وفى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة كان ابتداء استيلاء الفَرنج على بلاد السواحل الشامية ، وملكوا مدينة أنطاكية ومعرة النعمان وبيت المقدس ، وغيرَ ذلك على مانذكره فى أخبار العلويين ملوك مصر ، فإن أكثر ذلك كان فى ولايتهم .

وفى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قُتِل أبو القاسم ابن إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى بنيسابور - وكان خطيبها - فاتهم العامة أبا البركات الثعلبى أنه هو الذى سعى فى قتله ، فوثبوا به فقتلوه وأكلوا لحمه .

وفى سنة ثلاثٍ وتسعين وأربعمائة فى شهر رمضان عُزِل عميد الدولة من وزارة الخلافة وأُخِذَ من ماله خمسةُ وعشرون ألفَ دينارٍ ، وتوفى فى سادس عشر شوال .

وفى سنة أربع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة ، وقتلوا كثيرا من أهلها ، ونهبوا أموالهم وسبوْا حريمَهم ، ولم يسلمْ إلا من انهزم ، وملكوا مدينة حيفا وهى بقرب

---

(١) راجع الكامل ٨ : ١٨٤ وأما رضوان المذكور فهو ابن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقى ومنه أخذت الفرنج أنطاكية .

(٢) قيل فى سبب إعادة الخطبة للعباسيين أن سقمان بن أرتق التركمانى وباغيسيان صاحب أنطاكية زارا الملك رضوان وأنكرا عليه دعوته للمصريين فرجع .

١٢٨ ـ ب عكا ، وملكوا أرسوف بالأمان وأخرجوا منها أهلها / ، وملكوا قَيْسارية بالسَّيْفِ وقتلوا أهلها (١) .

وفيها تقدّم أمر الخليفة المستظهرِ بالله بفَتْح جامع القصر وأنْ يُصَلَّى فيه التراويح ولم تَجْرِ بذلك عادةٌ ، وأمر الخليفة بالجهْرِ بالبسملة وبالقنوات على مذهب الإمام الشافعى .

وفى سنةِ خمسٍ وتسعين وأربعمائة فى شهر رمضان استوزر الخليفة سديد الملك أبا المعالي بن عبد الرزاق ولقبه عَضُدَ الدوله .

وفيها بنى سَيْفُ الدَّوْلة صدقة بن مَزْيد الحلَّةَ بالجامعين وسكنها [وإنما كان يسكن هو وآباؤه فى البيوت العربية] (٢)

وفى سنة ستٍّ وتسعين وأربعمائة فى منتصف شهر رجب قُبض على الوزير سديد الملك وحُبس بدار الخليفة ، وأُعيد أمينُ الدولة أبو سعيد ابن موصلايا إلى الوزارة ، ثم استَوْزَرَ فى شعبان زعيمَ الرؤساء أبا القاسم ابن جُهير واستقدمه من الحلة ، وكان عند سيفِ الدولةِ صدقة ، ولما حضَرَ خلع عليه وجلس فى الديوان ولُقِّب قوام الدين .

وفى سنة سبع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج جبيل (٣) وعكا .

وفى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة توفى السلطان بَرْكِيارقُ بأصفهانَ

---

(١) كان المسلمون بقيادة سقمان بن أرتق التركمانى حينما ضاعت سروج وكان ضياعها إيذانا بضياع غيرها !

(٢) إضافة من الكامل ٨ : ٢١٤

(٣) جبيل : بلد خارج دمشق على ثمانية فراسخ من بيروت شرقيها كما يقول ياقوت

وخُطِب لابنه ملكشاه[1] بالجوامع ببغداد .

١٢٩ ـ ا وفى سنة خمسمائة فى صفر عُزِل الوزير أبو القاسم ابن جُهير فَقَصَدَ دار سيفِ الدولة صدقة ببغدادَ ملتجئا إليها فأرسل من أخذه وحمله إليه ، فأمر الخليفة بِنَقْضِ داره ، وكان فى ذلك عبرة لمن يعتبر ، فإن أباه أبا نصرٍ كان قد بناها بأنقاضِ دورِ الناس فخُرِبَتْ عن قريب ، ولما عزل استنيب فى الوزارة قاضى القضاة أبو الحسن الدامغانى ؛ ثم تقررتِ الوزارة فى المحرم سنة إحدى وخمسمائة لأبى المعالى هبةِ الله بن محمد عبد المطلب وخلع عليه .

وفى سنة إحدى وخمسمائة فى شهر رجب قُتِل الأميرُ سيفُ الدولة صدقةُ بنُ منصور بن دُبَيْس بن مَزْيَد الأسدى أمير العرب ، وهو الذى بنى الحلة السيفية بالعراق وكان قد عظُم شأنه واتَّسع جاهُه واستجار به كبارُ الناس وصغارُهم .

وفيها فى شهر رمضان ورد القاضى فخر المُلكِ أبو على بن عمار صاحب طرابلس الشام إلى بغداد مستنفِرا على الفرَنج ، فأنزله الخليفةُ وأكرمه وأجْرَى عليه الجِرايات العظيمة ، وأحضر معه من التقدمة والهدية من الأعلاق النفسية والخيل العربية ، وغير ذلك مالم يوجد مِثْلُه عند ملك ، وأقام ببغدادَ إلى أن رحل السلطانُ محمد عن بغداد فى شوال . فتقدم / إلى ١٢٩ ـ ب الأمير حسين بن أتابك قتلغتكين أن يسيِّرَ معه العساكرَ التى سيَّرها إلى المَوْصل مع أولاد مودود ، وخَلَع عليه السلطان خِلَعًا سنيةً وأعطاه شيئا كثيراً وودعه : وسار مع الأمير حسين فلم يُجْدِ ذلك نفعا .

(١) يحسن مراجعة مادة Malik shah فى Enc. of Islam علما بأن أبا بركيارق كان اسمه ملكشاه أيضا .

وفيها عَزَل الخليفةُ وزيرَه مَجْدَ الدين هبةَ الله بن المطلب برسالةٍ من السلطان، ثم أُعيد إلى الوزارة بإذن السلطان محمد، وشَرَط عليه شروطا منها العدلُ وحُسْنُ السِّيرةِ وأن لا يستعمل أحدًا من أهل الذمة.

وفى سنة اثنتين وخمسمائةٍ فى نيسان زادت دجلةُ زيادةً عظيمة انقطعت منها الطرق، وغرقتِ الغلالُ الشَّتْوية والصيفية، وحدث غلاءٌ عظيم بالعراق، وعدم الخيرُ، وأكل الناس التَّمْر والباقلاء الأخضر، وأما أهل السَّواد فإنهم لم يأكلوا فى شهر رمضان ونصف شوال إلا الحشيشَ والتُّوتَ.

وفيها فى شهر رجب عُزِلَ وزيرُ الخليفةِ أبو المعالى هبةُ الله ابن المطلب، ووَزَرَ أبو القاسم على بن نصر بن جهير.

وفيها فى شعبان تَزَوَّج الخليفة المستظهر بالله ابنةَ السلطان ملكشاه وهى أُخت السلطان محمد، وتولَّى قَبولَ العقد بوكالة الخليفة نظامُ الملك وزير السلطان، والصداق/مائة ألفِ دينارٍ، ونثرَتِ الجواهرُ والدنانير، وكان العقدُ بأصفهانَ، وخَطَب خُطْبَةَ النِّكاح القاضى أبو العلاء صاعد بن محمد النيسابورى الحنفى. ١٣٠ ـ ا

وفيها تولى مجاهدُ الدين بهروز شَحْنكيةَ بغداد.

وفى سنة ثلاثٍ وخمسمائةٍ فى حادى عشر ذى الحجة ملك الفرَنَج طرابلس وجبيل وبيروت وبانياس[1].

وفى سنة أربع وخمسمائة ملكوا صيدا فى شهر ربيع الأول، وفيها

(١) بانياس: رسمها ياقوت باناس وقال من أنهار دمشق.

فى شهر رمضان المبارك زُفَّت ابنةُ السلطان ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله فَزُيِّنتْ بغداد لذلك

وفى سنة خمسٍ وخمسمائة تُوفى الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله (١)

وفى سنة سبع وخمسمائة توفى أبو القاسم على بن جهير وزير الخليفة ، ووزر بعده الربيب أبو منصور ابن الوزير أبى شجاع محمد بن الحسين [وزير السلطان] (٢) .

وفى سنة ثمان وخمسمائة فى جُمادى الآخرة كانت زلزلةٌ شديدة بديار الجزيرة والشام وغيرها : فَخَرَّبَتْ كثيرًا من الرُّها وحران وسميساط وبالس وغيرها ، وهلك كثيرٌ من الخَلْق تحت الرَّدَم .

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة تُوفى السلطان محمد بن ملكشاه وملك ابنه محمود بن محمد .

وفيها غرقت مدينة سنجار وكان سبب / ذلك أن المطر دام فيها ليلا ونهارا واشتد ، وجاء السَّيْلُ فى واديها وأفسد الشباك الذى يجرى فيه الماء فى سورها ، فاجتمع الماء وعظم على السور حتى ألقاه ، وهَجَم على المدينة بِشِدَّةٍ وقوة فلم يطقِ الناس ينتقلون عنه ، فخرب كل ما مرَّ به من البلد ، وغرقَ جمعٌ كثير من من الناس . ومن عجيب ماحكى أن الماء حَمَل مهدًا فيه مولود فتعلَّق المهد بشجرة زيتون ، ثم نَقُص الماء والمهد معلَّق بالشجرة ، فَسلِم المولود . ١٣٠ ـ ب

وفيها تناثرت النجوم بديار الجزيرة جميعها ـ الْموْصِل وغيرِها ـ

(١) راجع ما كتبه عنه كل من ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب ٤ : ١٠ وابن كثير فى البداية والنهاية ١٢ : ١٧٣ .

(٢) زيادة من الكامل ٨ : ٢٦٧ .

وكثير من البلاد ، وكانت الكواكب تنزل حَتَّى تَقْرُبَ من الأرض ثم تضمحل فلا يوجد لها أثر .

وفيها في يوم عرفة كانت زلزلةٌ بالعراق والجزيرة وكثير من البلاد ، وخَرَّبَتْ ببغدادَ دوارًا كثيرةً بالجانب الغربى .

ذكر وفاة المستظهر بالله

وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه في سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة وكان عمره إحدى وأربعين سنةً وستةَ أشهر . خلافته خَمْسٌ وعشرون سنةً وثلاثةُ أشهر ، /وكانت دعوتُهُ قائمةً بالمغرب ، قام بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ولم تزل إلى أن ظهر محمد بن تومرت على ما نذكره فى أخبار ملوك المغرب إن شاء الله تعالى . ١٣١ - ا

وكان المستظهر بالله - رحمه الله - لَيِّنَ الجانب كريم الأخلاق مشكور المساعى ، يحب اصطناع المعروف وفِعْلَ الخير ويسارع إلى أعمال البرِّ والمثوبات ، لا يردّ مكرمةً تُطْلَبُ منه . وكان كثير الوثوق بمن يُوَلِّيه ، غير مصغ إلى سعاية ساعٍ ولا راجعٍ إلى قَوْله . وكانت أيامه أيام سرور للرعية ، وكان يسره ذلك ، وكان حَسَنَ الخط جَيِّدَ التوقيعات . ولما توفى صلى عليه ابنُه المسترشد بالله ، وكبّر أربعا ، ودُفِنَ فى حجرة له كان يألفها .

أولاده : أبو منصور الفضل المسترشد ، وأبو عبد الله محمد المقتفى ، وأبو طالب ، وأبو الحسن . وكان له من الوزراء مَنْ قَدَّمنا ذِكرهم فِي أخباره ، ومضى فى أيامه ثلاثةُ سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم : تاج

الدولة تتش بن ألب أرسلان ، وبركيارق ومحمد بن ملكشاه . ومن عجب الاتفاق أنه لما تُوفى السلطان ألب أرسلان توفي معه القائم بأمر الله ، ولما توفي السلطان ملكشاة توفى بعدَه المقتدي بأمر الله ، ولما توفى السلطان محمد توفي بعده الخليفةُ المستظهر بالله .

١ ذكر خلافة المسترشد بالله

١٣١ـ ب

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد ، وهو الخليفة التاسع والعشرون من الخلفاء العباسيين ، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه فى سادس عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة. وكان ولىّ عهْدِ أبيه الخليفةِ المستظهر وخُطِبَ له فى خلافةِ أبيه ثلاثا وعشرين سنة .

قال[١] وبايعه أخَوَاه أبو عبد الله محمد - وهو المقتفى لأمر الله - وأبو طالب العباسي ، وعمومتُه بنو المقتدى بأمر الله ، وغيرُهُم من الأُمراء والقضاة والأئمة والأعيان . وكان المتولِى لأخذْ البيعة القاضى أبو الحسن الدامغانى - وكان نائبا عن الوزارة - فأقر المسترشد عليها ، ثم عزله[٢] واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبي منصور وزير السلطان محمود .

ذكر هرب الأمير أبى الحسن

أخى المسترشد بالله وعوده

قال[٣] ولما اشتغل الناس بِبَيْعة المسترشد ركب أخوه /الأمير أبو الحسن ابن المستظهر بالله سفينةً ومعه ثلاثةُ نفرٍ وانحدروا إلى المدائن ، وسار ١٣٢ ـ ا

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٢٨١ .
(٢) أى أن المسترشد عزل قاضى القضاة عن نيابة الوزارة .
(٣) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٢٨٢ .

منها إلى دُبَيْس بن صَـدَقة بالحلة فأكرمه دُبَيْس ورتّب له الإقامات الكثيرَة . فلما علم المسترشد بالله خَبَره أهَمَّه ذلك وأقلقه ، وأرسل إلى دبيس يطلب منه إعادته فأجاب « إننى عبد الخليفة وواقفٌ عند أمره وقد استذَمَّ بى ودخل منزلى ولا أكرِهُه على أمرٍ أبدا » . وكان الرسول نقيب النقباء شرف الدين على بن طرّاد الزينبى[1] ، فقصد الأميرَ أبا الحسنِ وتحدّث معه فى العَوْد وضمن له كل ما يريد ، فأجاب إلى ذلك وقال : إننى لم أفارق خِدْمة أخى لِشَرٍّ أريده ، وإنما الخوف حَمَلَنى على ذلك ، فإذا امَّنَنى قصدتُه !

وتكفَّل له دُبَيْس إصلاحَ الحال والمسير معه إلى بغداد، فعاد النقيب وأعلم الخليفةَ فأجاب إلى ما طلب ثم تأخَّر بعد ذلك ولم يحضرْ وأقام عند دُبَيْس إلى ثانى عشر صفر سنة ثلاث عشرة . وسارعن الحلة إلى واسط وكثر جمعه وقَوِىَ الإرجافُ بأمْرِه ، وملك مدينة واسط وخيف جانبُه ، فَتَقَدَّم الخليفةُ المسترشدُ بالله بالخُطْبَة لولده أبى جعفر المنصور وجَعلَه ولىَّ عهدِه وعمرُه يومئذ اثنتا عشرة سنةً . فخطب له فى ثانى شهر ربيع الأول ببغداد وكتب إلى البلاد بذلك ، وأرسل إلى دُبَيْس فى معنى الأمير أبى الحسن وأنهْ الآن فارق جِواره ومدَّ يدَه إلى بلاد الخليفة وأمره بقصده ومُعَاجَلَتِه قبل فَوْته . فأرسل دُبَيْس العساكر إليه ففارق واسط وقد تحيّر هو وأصحابهُ فضلوا الطريق ، وصادفتْهُم عساكر دُبَيْس فنهبوا أثقالَه وهرب الأكرادُ من أصحابِه والأتراكُ ، وعاد الباقون . ١٣٢ـب

(١) ينتهى نسبه إلى عبد الله بن العباس ، وهو من الزينبيين لأن أمهم كانت زينب بنت سليمان العباسية وقد عرفوا بها .

وبقِيَ الأميرُ أبو الحسن فى عشرةٍ من أصحابه وهو عطشانُ وبينَه وبين الماءِ خمسةُ فراسخ ، وكان الزمان قيظا فأيقن بالتلف . وكان معه بدويان فأرادا الهرب منهما فلم يقدِرْ ، وأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه الماءوحملاه إلى دُبيس فسيره إلى بغداد وسلمه إلى الخليفة بعد أن بذل له عشرة آلاف دينار . وكان بين خروجه وعوده أحَدَ عَشَرَ شهرًا ،ولما دخل على المسترشد بالله قَبَّل قدمَه وقبّلهُ المسترشدُ وبكيا ، وأنزله فى دار حسنة كان يسكنها قبل أن يلى الخلافة ، وحمل إليه الخِلَعَ والتحف وأمَّنَه .

وفيها نُقِل الخليفةُ المُسْترشد بالله من دار الخلافة إلى الرصافة ، ونُقِل كلٌّ من كان مدفونا بها .

ذكر ظهور قبور الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام :

١٣٣ ـ ا / قال ابنُ الأثير وأحال على حمزة بنِ أسدِ بنِ على بن محمد التميمى (١) أنه ذكر فى تاريخه : وفى سنة ثلاث عشرةَ وخمسمائةٍ ظهر قبر إبراهيم الخليل وقبرا ولديْه إسحاق ويعقوب صلى الله عليهم وسلَّم بالقرب من المقدس ، ورآهم الناس ولم تَبْلَ أجسادُهُم ،وعندهم قناديلُ من ذهبٍ وفضة .

وفيها تُوفى قاضى القُضاة أبو الحسن على بن محمد الدامغانى، ومولده فى شهر رجب سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، وولىَ القضاء بباب الطَّاقِ من بغداد إلى الْموْصِل وعمره ست عشرة (٢) سنة ولم يكن

(١) راجع الكامل ٨ : ٢٩١

(٢) فى الكامل ٨ : ٢٩١ « ست وعشرون »

ذلك لغيره . ولما توفى ولى القضاء بعده الأكمل أبو القاسم على بن طراد بن محمد الزينبى ، وخُلِعَ عليه فى ثالث صفر .

وفى سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج الكرج[1] – وهم الخزر – إلى دار الإسلام ومعهم القفجاق و غيرهم من الأُمم ، وحاصروا مدينة تفليس ، ودام الحصار إلى سنةِ خمسَ عشرةَ فملكوها عَنْوَةً .

وفى سنة خمس عشرة كانت زلزلة تضعضع منها الركن اليمانى فى البيت الحرام – زاده الله شرفا –وانْهَدَم بعضُه وتَشَعَّثَ بعضُ حرمِ النبى صلى الله عليه وسلم .

وفيها ظهر بمكةَ إنسان علوىٌّ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وكثر جمعه ونازع / أميرمكة ابنَ أبى هاشم وقَوِيَ أمرُه ، وعزم على أن يخْطُب لنفسه ، ثم ظفر به ابن أبى هاشم ونفاه عن الحجاز إلى البحرين ، وكان هذا العَلَوِىُّ من فقهاءِ المدرسةِ النظامية ببغداد . ١٣٣–ب

وفى سنةِ ستَّ عشرة وخمسمائةٍ قبض الخليفة المسترشد بالله على وزيره جلال الدولة صدقة [2] وأُقيم نقيب النقباء على بن طراد فى نيابة الوزارة ، فأرسل السلطان إلى الخليفةِ أن يستوزر نظامَ الدين أحمد بن نصر بن نظام الملك فاستوزره وخلع عليه [3]

وفيها ظهر بديار بكر بالقرب من قلعة ذى القرنين معدن نحاس .

---

(١) فى ا بلا نقط ، وجعلتها صفحة ٧٨ « الكرخ » وما ها هنا من ف ٧٦ – ا .

(٢) فى الكامل ٨ : ٣٠٩ « جلال الدين صدقة » ويحكى ابن طباطبا أن القبض عليه كان ضرورة رآها المسترشد لأن الوزير السلطان –آنذاك– كان يتعصب عليه (الفخرى ٢٦٥)

(٣) يروى أن المسترشد لما عزم على عمارة سور بغداد قسط على الناس خمسة عشر ألف دينار فأداها نظام الدين من ماله عنهم (الفخرى ٢٦٧) .

ذكر مسير المسترشد بالله

لحرب دبيس بن صدقة

وفى سنةِ سبعَ عشرةَ وخمسمائة كانت الحرب بين دُبَيْس بنِ صدقة وبين الخليفة ، وكان سبب ذلك أنَّ دُبَيْسًا كان عنده عفيف خادم الخليفة مأسورا ، فأطلقه وحمّله رسالة فيها تهديدٌ للخليفة ، وبالغ فى وعيده ولبس السواد وجزَّ شعره ، وحلف لينهبنّ بغدادَ ويخربها فاغتاظ الخليفةُ لهذه/ الرسالة وغضب ، وتقدم إلى البرسقىّ بالتبريز إلى حرب دُبَيْس ، فبرز فى شهر رمضان سنه ست عشرة. ١٣٤ ـ ا

وتجهز الخليفة وبرز من بغداد ، واستدعى العساكر فأتاه سليمانُ ابنُ مهارش صاحبُ الحديثة ، وأتاه قِرواش بن مسلم وغيرهما . وأرسل دُبَيْسٌ إلى نهر الملك فنبهه وعمل أصحابه كلَّ عظيم من الفساد فوصل أهل نهر الملك إلى بغداد ، فأمر الخليفة فنُودى ببغداد « لا يتخلَّفْ من الجند أحَدٌ ومن أحبَّ الجنديةَ فليحضرْ » فجاء خلق كثير ففرّق فيهم الأموال والسِّلاح فلما علم دُبَيْسٌ الحال كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرِّضَى عنه ، فلم يُجِبْ إلى ذلك . وأُخْرِجتْ خيامُ الخليفة فى العشرين من ذى الحجة سنة ست عشرة فنادى أهل بغداد : النفير النفير الغراة الغراة ! وكثر الضجيج من الناس وخرج عالَم كثيرٌ لا يُحْصَوْنَ كثرةً وبرز الخليفةُ لستٍّ بقين من ذى الحجة سنة ست عشرة ، وعبر دجلة وعليه قِباءٌ أسودُ وعمامةٌ سوداء وطرحة ، وعلى كتفه البردةُ وفى يده القضيبُ وفى وسطه منطقة حديد صينىّ .

وسار فى سنة سبع عشرة إلى النيل ونزل بالمباركة ، وعبأ البرسـقىُّ / أصحابَه ووقف الخليفة وراء الْجَمْع فى خاصَّته وجعـل دُبَيْس أصحابَه صفًّا واحـدًا وجعـل الرَّجَّالةَ أمام الخيّالة بالسلاح وكان قد وَعدَ أصحابَه بنَهبِ وسَبْىِ النِّساء . فَلَمَّا تراءت الفئتان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماءُ يضربن بالدُّفوف والمخانيثُ بالملاهِى ، ولم يُرَ فى عَسْكَرِ الخليفة غيرُ تمارىٍ ومسبِّحٍ وداعٍ . فقامت الحرب على ساق ، فلما رأى الخليفة ذلك جرَّد سيفَه وكبَّر وتقدم للقتال ، فانهزم دُبَيْس وحُملت الأسرَى بين يَدَى الخليفة فأمر بِقَتْلِهم فضُرِبت أعناقُهم صَبْرًا . ١٣٤ ب

وكان عسكر دبيس عشرةَ آلاف فارسٍ واثنى عشر ألفَ راجلٍ ، وعسكر البرسقى ثمانيةَ آلاف فارسٍ وخمسةَ آلافِ راجلٍ ، ولم يُقْتَلْ من أصحاب الخليفة غيرُ عشرة (١) وجُعِلَتْ نساءُ دُبَيْس وسراريه تحت الأسر .

وعاد الخليفةُ إلى بغداد فدخلها فى يوم عاشوراء من السنة وأما دُبَيْس بنُ صدقة فإنه لما انهزم نَجا بفرسه وسلاحِه واتبعته الخيل ففاتها . وعبر الفرات فرأته عجوز فقالت له : دبير جئت ؟ فقال دبير من لم يجىء ! واختفى خبره بعد ذلك وأُرْجِف بقتله ثم ظهر أنه قصـد غُزَيَّةَ من عربِ نجد ، وطلب منهم أن يحالفوه / فامتنعوا عن ذلك وقالوا لا نُسْخِط الخليفة والسـلطان ! ثم رحـل إلى طائفة من ١٣٥ ـ ا

(١) فى الكمل ٨ : ٣١١ « غير عشرين فارسا »

الأعراب واتّفق معهم على قصد البصرة وأخذها ، فساروا إليها ودخلوها ونهبوها وقُتِل مقدّم عسكرِها فتجهز البرسقى لقتاله. فسمع دبيس ذلك ففارق البصرةَ وسار على البرّ إلى قلعة جعبر والتحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم فى أخْذها فلم يظفروا وعادوا عنها في سنة ثمانى عشرةَ ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمد ، وأقام معه وحسّن له قصد العراق[1] .

وفيها في صفرٍ أمر المسترشد ببناء سور بغداد وأن يجبى مايخرج عليه من البلد فشقّ ذلك على النّاس ، وجُمِـع منه مال كثير . فلما علِم كراهةَ النّاسِ لذلك أمر بإعادة ما أُخِذَ منهم فسروا بذلك ، وقيل إن الوزير أحمد ابن نظام الملك بذَل من مالِه خمسةَ عشر ألف دينار وقال « نقسط الباقى على أرباب الدولة » وكان أهل بغداد يعملون بأنفسهم فيه ويتناوبون العمل .

وفى سنة ثمانى عشرة وخمسمائةٍ ملك الفرنج مدينة صور من نواب العلوى المصرى [2]

ذكر الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله

وبين السلطان محمود :

/ وفى سنة عشرين وخمسمائة وقع الاختلاف بينهما وسببه أن يرنقش ١٣٥ـب
شحنةَ بغـداد جرى بينه وبين نواب الخليفة منافرةٌ فهـدّده الخليفة بسببها فخاف على نفسه ، فسار عن بغداد إلى السلطان وشكا إليه وحذره جانب الخليفةِ ، وأعلمه أنه قاد العساكر وباشَر الحرب وقويتْ

(١) قتل دبيس بعد ذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

(٢) هكذا فى ا ، ف صفحة ٧٧ – ا وفى ك ٧٩ « مدينة صور وهى من نواب العلوى » .

نفسُه و « متى لم تعالجه بِقَصْدِ العراقِ ودخولِ بغداد ازداد قوة وجمعًا ومنَعك عنها ، فتوجه السلطان نحو العراق ، فأرسل إليه الخليفة يعرّفه البلاد وما أهلهَا عليه من الضَّعْفِ والْوهَن بسبب دُبيس بن صدقةَ وأن الغلاء قد اشْتَد لعدم الغلات والأقوات ، وطلب أن تتأخر هذه الدفعة إلى أن ينصلح الحال ثم يعود إلى البلاد ولا مانع له عنها وبذل له على ذلك مالا عظيما[1] .

فلما سمع السلطان هذه الرسالةَ قَوِى عنده ما ذكر برنقش وصمَّم على العزم وجدَّ فى السَّيْر فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهلهُ وجيوشُه ومن عنده من أولادِ الخلفاء إلى الجانب الغربى فى ذي القعدة مظهِرًا الغضب والانتزاح عن بغداد إن قَصدها السلطانُ ، فَبكى النَّاس بكاءً شديدًا لخروجِهِ من دارِه فبلغ ذلك مِنَ السلطانِ كلَّ مبلغ واشْتَدَّ عليه ، وأرسل / إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الْعوْد إلى داره ١٣٦ ـ ا
فأعاد الجواب « أنه لابد من عودة هذه الدفعة فإنَّ الناس هلكى لشدة الغلاءِ وخراب البلاد » وأنه لا يرى فى دينه أن يُزاد مابهم ! فغضب السلطان ورحل نحو بغداد ، وأقام الخليفة بالجانب الغربى وأرسل عفيفا الخادم ـ وهو من خَواصِّه ـ فى عسكر إلى واسط ليمنع عنها نُوّاب السلطان ، وكان بهـا عماد الدين زنكى فقاتله فانهزم عسكر الخليفة وقُتِل منهم جماعةٌ وأُسِر مثلُهم ، وتغافل زنكى عن عفيف حتى نجا لمودةٍ كانت بينهما .

(١) ف ، ك : ف « يعرفه ما البلاد وأهلها عليه من الضعف » وهو خطأ نقل !

ثم إن الخليفة جمع السُّفُنَ جميعها وسدَّ أبواب دار الخلافة سوى باب النوبى ، وأمر صاحب الباب بالمقام فيه لحفظ الدار ولم يبْقَ من حواشى الخليفة بالجانب الغربى سواه . ووصل السلطان إلى بغداد فى العشرين من ذي الحجة ونزل بباب الشماسيّة ودخل بعضُ عسكرِه إلى بغداد ونزلوا فى دور الناس ، فشكا الناس إليه ذلك ، وأمر بإخراجهم ، وبقى بها منْ له دار . وبقى السلطان يراسل الخليفة فى العوْد ويطلب الصُّلْحَ وهو يمتنعُ ، وكان يجرى بين العسكرين مناوشةٌ والعامَّة من الجانب الشرقى يسبُّون السلطان أقبح سبٍّ وأفحشه .

ثم دخل جماعةٌ من عسكر السلطان إلى دار الخلافة/ونهبوا التَّاجَ ، ١٣٦ ب
فَضَجَّ النَّاسُ ونادوا : الغُزَاةَ الغُزَاةَ ! وأقبلوا من كلِّ ناحية ، وخرج الخليفةُ من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى بأعلى صوته : يا آل هاشم ! وأمر بتقديم السُّفُن ، ونصب الجسر وعبرَ النَّاسُ دفعةً واحدةً وكان له فى الدار ألفُ رجلٍ قد أخفاهم فى السرداب ، فظهروا وعسكر السلطان قد اشتغل بالنَّهْب فأسر منهم جماعة من الأُمراء ، ونهب العامَّةُ دار وزير السلطان ودور جماعةٍ من الأُمراء ودارَ عز الدين المستوفى ودار الحكم أوحد الزمان ، وقُتِل خلق كثيرٌ ممَّن فى الدروب .

ثم عبر الخليفةُ إلى الجانب الشرقى ومعه ثلاثون ألف مقاتلٍ من أهل بغداد والسَّواد وأمر بِحفْر الخنادق فحُفِرتْ بالليلِ وحُفظتْ

بغداد من عسكر السلطان ، ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الأمرُ عليهم وكان القتال كلَّ يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة . وعزم عسكر الخليفة أن يكبسوا عسكر السلطان فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردى صاحب إرْبل (١) وخرج كأنه يريد القتال فالتحق بالسلطان !

وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين زنكى وهو بواسطٍ يأمره بالحضور بِنَفْسِه ومعه /المقاتلة فى السفن وعلى الظهر ، فجمع كلَّ سفينة ١٣٧ ـ ا
بالبصرة وشحنها بالرجال المقاتلة . وسار إلى بغداد فلما قاربها أَمَرَ منْ معه بلبْس السلاح وإظهار ما عنـــدهم من الجلَد والنهضة وسارت السفن فى الماء والعسكر فى البر عـــلى شاطىء دجلة وقد انتشروا وملأُوا الأَرض . فرأى النَّاسُ ما ملأَ قلوبَهم هيبةً ، وعزم السلطان على الجد فى القتال ، فعندها أجاب الخليفةُ المسترشد بالله إلى الصلح ، وترددت الرسائل بينهما فاصطلحا .

وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ، وحمل الخليفة إليه من المال ما استقرت القاعدة عليه ، وأهدى إليه سلاحا وخيلا وغير ذلك . ومرض السلطان ببغداد فأشار عليه الأَطباء بمفارقتها فرحل إلى هَمَذَان فلما وصلها عوق

(١) فى Enc.Ist. anl Irbil أنها عاصمة دويلة أقامها زين الدين على كوجك وتقع إلى الجنوب الشرقى من الموصل بثمانين كم ، وسنرى أن هذا البلد يصمد للتتار بعد ذلك ، ولا يستسلم إلا بمساعدة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكى لهؤلاء الغزاة .

من مرَضِه ، ودام فى الملك إلى سنة خمس وعشرين فتوفى . وملك بعده ابنه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه على ما نذكره (١) .

وفى سنة ست وعشرين وخمسمائة قَبَضَ المسترشد بالله على وزيره شرف الدين على بن الزينبي واستوزر أنوشران بن خالد بعد الامتناع منه .

ذكر حصار الخليفة المسترشد بالله الموصل

/وفى سنة سبع وعشرين وخمسمائة حاصر الخليفةُ المسترشد بالله الموْصل فى العشرين من شهر رمضان المبارك ، وسبب ذلك أنها كانت قد صارت فى مَمْلكةِ عمادِ الدين زنكى وكان قد حضر إلى بغداد لمَّا وقعتِ الحربُ بين السلطان مسعود السُّلجقى وبين أخيه سُلجوق شاه على مانذكره فى أخبار السُّلجُقية وظهر منه مباينة للخليفة المسترشد بالله ، فلما كانت هذه السنة واشتغل الملوك السلجقية بقتَال بعضِهم بعضًا قَصدَ جماعةٌ من الأُمراء السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه . ١٣٧ـب

واتفق أنَّ الخليفة المسترشد بالله أرسل الشيخَ بهاء الدين أبا الفتوح الواعظ الإسفراينى برسالة إلى عماد الدين زنكى فيها خشونة فأداها أبو الفتوح وزاد عليها ثِقةً منه بقوةِ الخليفة وناموس الخلافة فَقَبض عليه زنكى وأهانه ولقيه بما يكره . فأرسل الخليفةُ

(١) أشار ابن سليمان الراوندى إلى هذه الواقعة فى راحة الصدور ٣٠٢ وسمَّاها « جفوة » انتهت بمحاصرة السلطان محمود بغداد والاستيلاء عليها ثم الصلح مع الخليفة .

إلى السلطان مسعود بن محمد يعرّفه ذلك وأنه على قَصْدِ الموْصل وحصْرِها ، وتمادتِ الأيام إلى شعبان فسار الخليفةُ في النصف منه في ثلاثين ألفَ مقاتل . ، فلما قارب الموصل فارقها زنكى فى بعض عساكره إلى سنجار ونزل بقية العسكر بها مع نائبه نصير الدين جقر ذِرْدلرها (١) فنازلها الخليفة وضَيَّقَ على منْ بِها .

١٣٨ ـ ا وكان عماد الدين يركب كلَّ/ ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ويأخذ من ظَهْريه من عسكر الخليفة ؛ ودام الحصار ثلاثة أشهر فتضايقتِ الأُمورُ بالعسكر الخليفى ولم يبلُغْه عَمَّن بها أنهم احتاجوا إلى ميرة ولا وهنوا ، فعاد إلى بغداد فى الماء فِي شبارة فوصل يوم عرفة من السنة .

وفى سنة سبع وعشرين أيضا اشترى الإسماعيليةُ بالشام حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون ، وصعدوا إليه ، وقاموا بِحرْب من يحاربهم من المسلمين والفَرَنْج .

وفى سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة عَزَلَ الخليفةُ أنوشروان بن خالد ، وألْزِم داره ، وأُعيد إلى الوزارة شرف الدين على ابن طرّاد الزينبي .

ذكر مسير المسترشد بالله

لحرب السلطان مسعود بن محمد وأسره

وفى سنة تسع وعشرين وخمسمائة كانت الحرب بين الخليفة والسلطانِ فى شهر رمضان . وكان سبب ذلك أن السلطان مسعود

(١) دزدلو : حاكم حصن بالفارسية ، انظر Enc. of Islam and Diz .

توفى أخوه الملك طغرل فى المحرم من هذه السنة بِهَمذَان ، وكان بينهما من العداوة والحروب ما نذكره فى أخبارهم إن شاء الله . وكان الخليفةُ يُعين السلطانَ مسعود على أخيه / ويساعده ويُقَوِّيه ، وكان السلطان مسعودٌ قد انهزم من أخيه طغرل ورحلَ إلى بغداد ، فأعانه الخليفة لجميع ما يحتاج إليه وأمره بالمسير إلى همذان ووعده أن يسير معه ويعينه على حرب أخيه. وكان البقش السِّلاحىُّ وغَيْرُه من الأُمراء قد التحقُوا بالخليفة وصاروا معه واتَّفَقَ أن إنسانًا أُخِذَ فَوُجِد معه ملطفاتٌ من طغرل إلى بعض الأمراء وخاتمه بإقطاع لهم فلما رأى الخليفةُ ذلك قبض على أمير منهم اسمه غلبك ونَهَب مالَه فاستشعر غيرهُ من الأُمراء الذين مع الخليفة ؛ فهربوا إلى عسكر السلطان مسعود ؛ فأرسل الخليفة إليه فى إعادتهم فلم يفعل ، فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما نفرةٌ ووحشةٌ أوجبت تأَخُّره عن المسير معه فأرسل إليه يأمره بالمسير معه حتما.

١٣٨ ب

فبينما هم فى ذلك إذ ورد الخبر بوفاةِ طغرل ، فسار مسعود من يوْمه واحتوى على مملْكةِ الجبل ، فلما اسْتَقَرَّ بِهَمذَان فارقه جماعةٌ من أعيان الأُمراء خَوْفًا منهم على أنفسهم . منهم يرنقش البازدار ، وقزل ، وسنقر الخمارتكين والى همذان وعبد الرحمن ابن طغايرك (١) ومعهم دبيس ، وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون أمانَة

(١) فى راحة الصدور تعريف بهؤلاء الأمراء يختزئ منه ما يأتى : يرنقش البازادر هو مظفر الدين ألب أرغون بن يرنقش الحاجب ، وقزل هو الأتابك مظفر الدين قزل أرسلان ابن إيلدكز وسنقر تغلب عليه النسبة لهمذان وهو غير سنقر الطويل شحنة أصفهان ، وعبد الرحمن هو فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك الحاجب .

ليحضروا إلى خدمته فقيل للخليفة إنها مكيدةٌ لأن دُبيْس بنَ صدقة معهم. فساروا نحو خوزستان / واتفقوا مع برسق بن برسق ، فأرسل الخليفةُ إلى الأُمراء سديدَ الدولة بن الأنبارى بتوقيعات يطيِّبُ قلوبهم ، وأمرهم بالحضور فعزموا على قَبْض دُبيْس بن صدقة ليتقربوا به إلى الخليفة ، فهرب إلى السلطان مسعود . ١٣٩ ـ ا

وسار الأُمراء إلى بغداد في شهر رجب فأكرمهم وقطع خطبةَ السلطان مسعود من بغداد . وبرز الخليفةُ فى العشرين من شهر رجب على عزم المسير لحرب مسعود ، وأقام بالشفيعى [١] ، فهرب منه بكبه [٢] صاحب البصرة إليها ، فراسلَه وبذلَ له الأمانَ فلم يعُدْ . فتوقف الخليفةُ عن المسير ، فَحسَّن له الأُمراءُ الرحيلَ ، وضَعَّفوا أمْر السلطان مسعود ، فسيَّر مقدِّمتَه إلى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا فلم يُنْكِر عليهم . ثم سار في ثامن شعبان والتحق به الأمير برسق بن برسق فبلغت عِدَّتُه سبعة آلافِ فارسٍ ، وتخلَّف بالعراق مع إقبال الخادم ثلاثةُ آلافِ فارسٍ وكان السلطان فى ألفٍ وخمسمائة فارس .

وكان أكثر أصحابِ الأطراف يكاتبون الخليفةَ ويبْذُلون له الطاعةَ فاستصلح السلطان أكثرهم ، فعادوا إليه ، فصار فى نحو خمسةَ عشر ألفَ فارسٍ . فأرسل الملك داود بن السلطان محمود

(١) فى ف صفحة ٧٩ ـ ا « وأقام بالسفيعى » وفى ك صفحة ٨١ « وأقام بالسيفعى » .

(٢) يرد أحيانا هكذا « بك ابه »

إلى الخليفة يشير عليه بالميل إلى الدينور ليحصّن نفسه ومنْ /معه فلم ١٣٩ ـ ب
يفعل المسترشدُ بالله . وسار حتى بلغ داينرج ، وعبأ أصحابه .

وسار السلطانُ مسعودٌ إليهم فوافاهم فى عشر رمضان ، فانحازت ميْسرةُ الخليفةِ إلى السلطان وقاتلت الميمنةُ قتالا ضعيفا ، ودارت عساكرُ السلطان حول عسكر الخليفة وهو ثابت لم يحترك من مكانه ، فانهزم عسكره وأُخِذَ هو أسيرا ومعه جمع كثير من أصحابه منهم : شرف الدين على بن طرّاد الزينبى وقاضى القضاة ، وصاحب المخزن ابن طلحة ، وابن الأنبارى ، والخطباء ، والفقهاء والشهود وغيرهم . وأُنْزِل الخليفةُ فى خَيْمةٍ وأُخذ ما فى عسكره ، وحُمل الأعيان إلى قلعة سرجهان ولم يقتل فى هذه المعركة أحد ألبتةَ .

وعاد السلطان إلى همذَان ، وأمر فَنُودِىَ « من تبعنا من البغداديين إلى همذان قتلناه » فرجع الناس كلُّهم على أقبح صورة وسير السلطان الأمير بكبه المحمودى شحنةً إلى بغداد فوصلها فى رمضان . فقبض جميع أملاكِ الخليفةِ وأخذ غلّاتها ، وثار جماعةٌ من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك ، ومنعوا من الخطبة ، وخرجوا إلى الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويصيحون ويبكون ، وخرج النساء حاسراتٍ فى الأسواق يلطمن ويبكين ، واقتتل أصحابُ
/ الشحنة والعامة فقُتِل من العامةِ مايزيد على مائة وخمسين رجلا . ١٤٠ ـ ا

ذكر مقتل المسترشد بالله

كان مقتله فى يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة سنة تسعٍ وعشرين وخمسمائة على باب مراغة ، وذلك أن السلطانَ سار فى شوال من هَمذَان إلى مراغة لقتال الملك داود ابن أخيه محمود ، وكان قد عصى عليه ، فنزل على فرسخين منها والمسترشد معه وقد وكل به من يحفظه . وترددت الرسائل بينهما فى تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة للسلطان وأنه لايعود يجمع العساكر ولا يخرج من داره فأجاب السلطان إلى ذلك . وركب الخليفة وحمل الغاشية ولم يبْقَ إلا عَوْدُ الخليفة إلى بغداد ، فوصل الخبرُ أن الأمير قرآن خوان (١) قد ورد رســولاً من السلطان سنجر فتأخَّر مسيرُ المسترشدِ لذلك وخرج النَّاسُ إلى لقائه مع السلطان. وفارق الخليفةُ بعض الموكلين به وكانت خيمتهُ منفردةً عن العسكر فقصده أربعةٌ وعشرون رجلا من الباطنية (٢) فدخلوا عليه فقتلوه وجرحوه مايزيد على عشرين جراحة ، ومثلوا به فَجَدعوا أنْفَه وأذنيه وتركوه عريانَ وقُتِل نَفَرٌ من أصحابه ، منهم : أبو عبد الله ابن سكينه وبقى الخليفة حتى دفنه أهل مراغة . وقُتِلَ من الباطنية عشرة وقيل بل قُتِلوا كلهم ، وقد قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لِقَتلِهِ (٣) . ١٤٠ ب

(١) فى كل النسخ المصورة بلا نقط وما أثبتناه عن راحة الصدور ٤٨٠ .

(٢) فى البداية والنهاية ١٢ : ٢٠٨ « عشرة من الباطنية » ويكتفى ابن سليمان الراوندى فى راحة الصدور ٣٣٠ بأن « يقول » قصد جمع من الملاحدة المخاذيل خيمة الخليفة فى مراغة وقتلوه، فنال درجة الشهادة على أيديهم » .

(٣) يروى ابن طباطبا فى «الفخرى» أن السلطان سنجر كان قد طلب من مسعود الإحسان =

وقُتل رحمه الله تعالى وله ثلاث وأربعون سنة وثلاثة أشهر. ومُدَّةُ خِلافتِهِ سبعَ عشرةَ سنةً وسبعةُ أشْهُرٍ ويومٌ واحد وكان رحمه الله شهما شُجاعا كبير الإقدام بعيدَ الهِمَّةِ وكان فصيحا بليغا حسن الخط .

قال(١) : ولما قُتِل حُمِل إلى باب مراغة وخرج أهلُها حُفاةً حاسرين رؤوسهم فبلغوا جنازته وكسروا المنابر . وقال : وصل الخبر إلى بغداد فى يوم الجمعة لِستٍّ بقين من ذى القعدة فاجتمع الرجالُ والنساء وناحوا عليه فى الطرقات وكسروا منابر الجوامع واكثروا الشناعات وسَبُّوا السلطان سنجر ومسعودا أقبح سَبٍّ من غير مراقبة ولاحِشْمةٍ : ولما قتل ولىَ بعده ابنُه الخليفةُ الراشد بالله .

ذكر خلافة الراشد بالله

هو أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله أبى منصور الفضل بن المستظهر بالله وهو الخليفة الثلاثون من الخلفاء العباسيين بويع له عند وصول الخبر بمقتَل أبيه فى يوم الإثنين السابع /والعشرين ١٤١ـا من ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة . وكتب السلطان مسعودُ ابن محمد السُّلجُقى إلى بكبه الشحنة ببغداد ، فبايع له ، وحضَر النَّاسُ

= إلى الخليفة فاذا صح ذلك جاز أن تقبل الرواية التى تقول إن مسعودا هو الذى واطأ الباطنية على قتله (٢٦٤ ، ٢٦٥)

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٤٣٨

البيعةَ . وحضر بيعتَه واحدٌ وعشرون رجلا من أولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ فى الموعظة .

ذكر الحرب بين عسكر الخليفة الراشد بالله

وعسكر السلطان مسعود

وفى سنة ثلاثين وخمسمائة وصل يرنقش الزكوى[1] من عند السلطان مسعود يطالب الخليفةَ بما كان استقر على أبيه المسترشد بالله من المال وهو أربعمائة ألف دينار فقال الخليفة : لا شىء عندى والمالُ جميعهُ كان مع المسترشد فَنُهب ! ثم بلغ الراشد بالله أن يرنقش يريد الهجْم على دار الخليفة وتفتيشهَا ليأخذَ المال ، فجمع العساكر وأعاد عملَ السور . فلما علم يرنقش بذلك اتَّفَق هو وشحنةُ بغداد على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد فاستعد لِمنْعِهم وركب يرنقش ومعه الأُمراء البكجية[2] والعسكر ، واجتمعوا فى نحو خمسة آلافِ فارسٍ ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا ، وأعان العامَّةُ عسْكَر الخليفة / فأخرجوا عسكر السلطانِ ونَهَبتِ العامَّةُ دار السلطنة . ١٤١ ـ ب

ثم حضر الملك داود بن محمود بعسكر أذربيجان واجتمع الأَطراف ببغداد على الخروج عن طاعةِ السلطان مسعود وفيهم عمادُ الدين زنكى وغيرُه ، وولى الملك دواد يرنقش بازدار شحنكية بغداد . واتفق أن الخليفة قَبضَ على ناصح الدَّوْلة أبي عبد الله الحسن

(١) فى ا « برتقش الزكوى » وفى ك صفحة ٨٢ « يرتقش الزكورى » وما هاهنا عن ف ٨٠ ـ ا وهو يوافق رسم راحة الصدور الذى بيناه قبل .

(٢) كذا فى الكامل وما فى النسخ المصورة جميعا « الكنجية » نسبة إلى كنجة ولا يةٍ فيها أران (راحة الصدور ٣٤١) .

ابن جهير أستاذ الدار وكان هو السبب فى ولايته ، وقبض على جمال الدولة إقبالٍ المسترشدىّ وعلى غيرِهما من أعيان الدولة ، فتفرقت نِيَّاتُ أصحابِه عليه فشفع أتابك زنكى فى إقبال . وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين أبى الرضى بن صدقة[1] إلى عماد الدين زنكى يهنئه بالقدوم ، فأقام الوزير عنده وسأله أن يمنَعه من الخليفة فأجابه إلى ذلك . وعاد الموكب بغير وزير ، وأرسل زنكى مَنْ حرس دار الوزير ثم أصلح حاله مع الخليفة وأعاده إلى وزارته . ثم جدَّ الخليفةُ فى عمارة السور فأرسل الملك داود من قلع أبوابه وخرَّب قطعةً منه ، فانزعج الناسُ ببغداد ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة ، وقُطعت خطبة السلطانُ ، وخُطِب للملك داود ، وجرت الأَيْمان بين الخليفةِ والملك داود وعماد الديكى زنكى . ووصلت الأخبار بمسير السلطان مسعودٍ إلى بغـداد لقتال ابن أخيه داود وزنكى . ثم وصلت رُسل السلطان إلى الخليفة بالبذْل من نفسِه الطاعة والموافقةَ والتهديد لمن اجتمع عنده ، فعرض الخليفةُ الرسالة عليهم وكلمهم فى قتاله ، فكُلٌّ رأى ذلك ووافقهم الخليفة !

١٤٢ ـ ا

ذكر مسير الراشد بالله

إلى الموصِل وخلعه

كان سبب ذلك أن السلطان مسعودًا لما بلغه اجتماع العساكر والملوك والأُمراء ببغداد على خِلافِه والخُطبة للملك داود ابن أخيه جمع العساكر وسار إلى بغداد ونزل بالملكية ، فسار بعضُ العسكر

(١) لما أفضت الخلافة للراشد استوزره فلم يظهر كفاءة ما ، ومات سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وطاردوا عسكره وعادوا ،ونزل السلطان على بغداد وحصرها نيِّفا وخمسين يوما ، فلم يظفرْ منها بشيء . ثم عاد إلى النهروان عازمًا على العوْدِ إلى همذان فوصل إليه طرنطاى صاحبُ واسط ومعه سفنٌ كثيرة ، فعاد إلى بغداد وعبر إلى غربى دجلة واختلفت كلمة العسكر البغدادى فعاد الملك داود إلى بلاده فى ذى القعدة وتفرق الأُمراء .

وكان زنكى بالجانب الغربى فعبر إلى الخليفةِ وسار إلى الموصل .

١٤٢ ـ ب ودخل / السلطان بغداد واستقر بها ، وذلك فى نصف ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة .

قال [١] وأمر السلطان فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعُرض عليهم اليمين التى حلف بها الراشد وفيها بخط يده « إننى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسَّيف فقد خلعتُ نفسى من الأمر » فأفْتَوْا بخروجهِ من الخلافة ؛ وقيل إن الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى وكاتب الإنشاء ابن الأنبارى وصاحب المخزن كمال الدين طلحة كانوا منذ أسْرِهم مع المسترشد ، فحضروا الآن معه ؛ واجتمعوا فى يوم الإثنين لأربع عشرة ليلة بقِيتْ من ذى القعدة سنة ثلاثين ، وكتبوا محضرا شهد فيه جماعةٌ من العُدول بما صدر من الراشد من الظُّلْم وأخْذِ الأموال بغير حقها وسفْكِ الدماء وشُرْبِ الخمور وارتكابِ المحارم ؛ واسْتَفْتَوْا الفقهاء فيمن فَعلَ ذلك هل تصِحُّ معه إمامة أم لا ؟ وهل يجوز للسلطان أن يخلعه

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٣٥٤ .

ويستبدلَ به من أهل بيته من هو خيرٌ منه طريقةً ودينًا ؟ فأفْتى الفقهاءُ بِخَلْعِه وفَسْخ عهده والاستبدالِ به غيره ،وعُرضتِ الفُتيا والمحضر على السلطان فقال : هذا أمر قلدتكم إياه وأنا برىء منه عند الله ! ثم خُلع وقُطعت خطبته من بغدادَ وسائرِ البلاد فى ذى القعدة وبويع بعده للمقتفى .

/وكانت خلافَتُه أحد عشر شهرًا وأياما ، وكتب السلطانُ إلى أتابك زنكى فى القبض عليه وإرساله إلى بغداد فمنع من ذلك فارس الإسلام زين الدين على بن بكتكين صاحب إرْبِل رحمه الله وقال : والله لا سلَّمناه حتى تُراق دماؤُنا ! واعتذر إلى السلطان وقال : أنا أُخرجهُ من ولايى ؟ فأرسلْ أنت عسكرا للقبض عليه من غير جهتنا ! ١٤٣ ـ ا

وأعد زينُ الدين جماعةً من الأكراد فساروا بين يديه على طريق لا يعرفها كثيرٌ من الناس فَوصل إلى مراغة أذربيجان ونزل بِبِرِيَّةِ أبيه وتلقَّاه أهلُها وولَّوْه أمرهم فأقام بها يسيرا ثم ارتحل إلى الرَّىِّ فلما قرب من بلاد الباطنية جرَّد عسكره لِقَتْل منْ وجد منهم فقتل منهم جماعةً ثم تنقَّلَت به الحال وكابد الغربة ووصل إلى همذان وسار منها يريد إصفهان. فلما كان فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثَب عليه نفر من الباطنية ـ وكانوا فى خدمته على زِىِّ الخراسانية ـ فقتلوه وهو يريد القَيْلولة وكان [قد بَلَّ][1] من أثر مرض قد برأ منه ودفن فى شهرستان على فَرْسخ من إصفهان ، وقتل أصحابُه الباطنيةَ الذين قتلوه . ولما ورد الخبرُ بِمقْتَلِ

(١) زيادة يقتضيها السياق

الراشد بغداد جلسوا للعزاء فى دار النوبة يوماً واحدًا .
وكان الراشد بالله أشقر اللون حسن الصورة ، مهيبا شديد
القوة / والبطش ١٤٣-ب

ذكر خلافة المقتفى لأمر الله

هو أبو عبد الله محمد وقيل الحسين بن المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله ، وأمه أم ولد تدعى ياعى . وهو الخليفة الحادى والثلاثون من الخلفاء العباسيين بويع له بعد خَلْع ابن أخيهِ الراشد بالله فى ثامن عشر ذى الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة . وذلك أنه لما خُلِع الراشد بالله استشار السلطان مسعود بن محمد السُّلجقى جماعةً من أعيان بغداد فيهم الوزير شرف الدين على بن طرّاد الزَّيْنَبى وكمالُ الدين صاحبُ المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلى الخلافةَ فقال الوزير : أحدُ عُمومة الراشد بالله وهو رجل صالح ! قال : منْ هو ؟ قال : لا أقدر أن أفصح باسْمِهِ لئلا يُقْتَل : فَتَقَدَّم إليهم بعملِ محضرٍ فعُمِلَ المحضرُ على ما ذكرناه فلما كمُلَ المحضر أحْضِر القاضى أبو طاهرٍ الكرخى وشهدوا عندَه بما تضمَّنَه المحضرُ فحكم بفِسْق الراشد وخَلْعِه وحكم بعدَه غيرُهُ . ولم يكن قاضى القضاة ببغدادَ لِيَحْكمَ فإنه كان بالمَوْصِل عند أتابك زنكى فلما كَمُل ذلك ذكره الوزير للسلطان وذكر دينَه وعِفَّتَه ولينَ جانِبه ، فحضر السلطانُ
إلى دار الخلافة ومعه الوزيرُ وصاحب المخزن وغيرُهما وأمر / بإحضار ١٤٤ - ا
الأمير أبى عبد الله بن المستظهر من المكان الذى كان يسكن فيه ، فأُحْضِرَ وأُجْلِسَ فى الميمنة ودخل السلطان وتحالفا وقررا القواعدَ

بينهما . وخرج السلطانُ من عنده وحضر الأُمراء وأربابُ المناصب والقضاة والفقهاء . ولُقِّب المقتفى بأمر الله .

وقيل فى سبب هذا اللقب أنه رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يَلِيَ الخلافةَ بستة أيام وهو يقول : إن هذا الأمر يصير إليك فاقتف بى فَلقِّبَ بذلك ولما بويع له سُيِّرتِ الكتبُ الحكيمة بخلافته إلى سائر الأمصار واستوزر شرفَ الدين على بن طراد الزينبى، وأرسل إلى الموصل فأحضر قاضى القضاة على بن حسين الزينبى – وهو بن عم الوزير – وأعاده إلى منصبه ، وأقرَّ كمالَ الدين صاحب المخزن على منصبه ، وأجرى الأُمور على أحسن نظام .

قال[1] : وأرسل السلطان مسعود إلى الخليفة فى تقرير إقطاع يكون لخاصته فكان جوابه « إن فى الدار ثمانين بغلا تنقل الماء من دجلة ، فلينظر السلطان مايحتاج إليه مَنْ يشربُ هذا الماء فتقرَّرتِ القاعدة على أن يجْعَلَ له ما كان للمستظهر فأجاب إلى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله : « لقد جَعَلنا فى الخلافة رجلا عظيما نسأل الله تعالى أن يكفينا أمره » قال[2] : وخُطِبَ له على سائر / المنابر إلا فى المَوْصل ، فإنه لم يُخْطَبْ له فيها إلا فى شهر رجب سنةَ إحدى وثلاثين وخمسمائة . ١٤٤-ب

وفى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة تزوج الخليفة المقتفى فاطمة أُخت السلطان مسعود وكان الصداق مائة ألف دينار ، والوكيل فى

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٣٥٥ .
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ٣٥٥ .

قبول النكاح وزير الخليفة على بن طراد ، ووكيل السلطان فى العقد وزيره الكمال الدَّرْكزينى .

وفيها فى الرابع والعشرين من آيار ظهر بالشام سحاب أسودُ وأظلمت له الدنيا ، وصار الجوُّ كالليل المظلم ، ثم طلع بعد ذلك سحابٌ أحمرُ كأنه نار أضاءت له الدنيا ، وهبَّ ريحٌ عاصف ألقت كثيرًا من الشَّجَر ، وكان أشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعد ذلكَ مطر كثير وبَرَدٌ كِبار .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل ملك الروم صاحب القسطنطينية إلى الشام وملك بزاغة[1] بالأمان لخمس بقين من شهر رجب ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى على مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الأتابكية فى أيام زنكى .

وفيها انقطعت كسوةُ الكعبةِ للاختلاف الواقع بين الملوك السُّلجُقية فقام بكسوتها رامشت الفارسى التاجر ، وكان من التجار المسافرين إلى الهند – وهو كثير المال – فكساها من الثياب الحَبَرَة[2] وبكل ما وجد / إليه السبيل ، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية . ١٤٥ – ا

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغير ذلك من البلاد فخُرِّبَ كثيرٌ منها ، وهلك عالم كثير تحت الرَّدْم. ثم كانت زلازلُ كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير

(١) بزاغة : مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب (ياقوت فى معجم البلدان) .
(٢) الحبرة : ضرب من برود اليمن ، وكانالنبي يلبس الحبرات (المحيط)

من البلاد فى سنة ثلاث وثلاثين ، وكانت متواليةً عِدَّة أيام كلَّ ليلة عِدَّة دفعات وكان أشدها بالشام ، فعدُّوا فى ليلة واحدة ثمانين مرةً . ففارق الناس مساكنهم ، ولم تزل تتعاهد من أربع صفر إلى تاسع عشر ، وكان معها صوت وهدة شديدة .

وفى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة جَرَى بين الخليفة المقتفى وبين الوزير على بن طراد منافرةٌ ، وسببها أن الوزير كان يعارض الخليفةَ فى جميع ما يأمر به فنفر الخليفةُ من ذلك ، فغضب الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان واحْتَمى بها ، فأرسل الخليفةُ إليه فى العَوْدِ إلى منصبه فامتنع . فاستناب قاضى القضاة الزينبى، وأرسل الخليفةُ رسلا إلى السلطان مسعود فى معنى الوزير فأرخص السلطان للخليفة فى عَزْلِه فعزله ، ثم عزل الزينبى من النيابة ، وناب سديد الدولة بن الأنبارى .

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة بكنجة وغيرها من أعمال أذربيجان وأرّان ، وكان أشدها بكنجة فَخُرِّبَ منها كثيرٌ ، وهلكَ عالَم قيل كانوا مائتى ألف وثلاثين ألفا / وتهدَّمَت قلعةٌ هناك . ١٤٥ ب

وفيها ابْتَنَى الخليفةُ بفاطمة أخت السلطان مسعود وكان يوم حمْلِها إلى دار الخلافة يوما مشهودا . وغُلِّقَت بغدادُ عدة أيام ، وتزوج السلطان مسعود بابْنِة الخليفة .

وفى سنة خمسٍ وثلاثين وخمسمائة وصل رسولُ السلطان سنجر ملكشاه إلى المقتفى ومعه بُردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب ، وكان أخذهما من المسترشد لما قُتل .

وفيها ملك الإسماعيلية حصن مصاف بالشام وكان واليه مملوكا لبنى مُنْقذٍ أصحاب شيزر ، فاحتالوا عليه ومكَّرُوا به حتى صعدوا إليه فقتلوه وملكوا الحِصْنِ .

وفيها توفى سديد الدولة بن الأنبارى فاستوزر الخليفة بعده نظامَ الدين أبا نَصْرٍ محمد بن الأنبارى وكان قبل ذلك أستاذَ الدار .

وفيها بُنِيتْ المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن على صاحب المخزن (١) .ولما فَرَغت درَّس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل .

وفى سنة أربعين وخمسمائة اتَّصَل بالخليفة عن أخيه أبى طالب ما كرهه فَضَيَّق عليه وعلى غَيْرِه من أقاربه .

وفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فى جمادى الأُولى خُطِب للمستنجد بالله يوسف بن المقتفى بِوِلاية العهد .

١٤٦ ـ ا /وفى سنة أربع وأربعين استوزر الخليفة أبا المظفر يحيى ابن هُبَيْرة وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزِّمام فظهرت منه كفاءة عظيمة ، فرغب الخليفةُ فيه واستوزره يوم الأربعاء لأربع خلون من شهر ربيع الآخر (٢) .

---

(١) كذا فى سائر المخطوطات ، وفى راحة الصدور ٣٣٣ (حاشية) كمال الدين محمد ابن على ويرد بالفارسية باسم محمد خزانه در

(٢) نشأ بالدور من أعمل دجيل خملا . ولكنه مازال ينتقل من خدمة إلى خدمة حتى تقلد الوزارة للمكتفى فكانت له فى قمع الدولة السلجوقية يد قوية ، مات سنة ستين وخمسمائة (راجع البداية والنهاية ١٢ : ٥٢٠) .

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة ، فيقال إن جبلاً بالقرب من حلوان ساخ فى الأرض .

وفى سنة سبع وأربعين مات السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بِهَمذَان فلما وصل الخبرُ إلى بغداد بِمَوْتِهِ هرب شحْنَتُها مسعود بلال إلى تكريت فاستظهر الخليفةُ المقتفى على داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ أموالهم وودائعهم واسْتَبدَّ الخليفةُ بالأمر وقطع خطبة الملوك السُّلْجُقية (١) وفوّض الأمر إلى الوزير ابنِ هبيرة !

ذكر تفويض أمور الدولة والوزارة

إلى الوزير عون الدين بن هبيرة وما أقطعه الخليفة من الإقطاعات

كان الخليفة المقتفى لأمر الله لمّا اسْتَخْلَفَ حلف أنْ ألا يُملِّكَ تركيًّا لما جرى على أخيه المسترشد ولم يمكنه المبادرة بذلك فلما تَمكَّن وقَوِىَ أمرهُ ومات السلطان مسعود فَوَّضَ الأُمور إلى الوزير عون الدين أبى المظفر يحيى بن هبيرة ، ولَقَّبه بتاج الملوك ملك الجيوش وأقطعه إقطاعا عظيمًا وهو : واسط وبطائحها والبصرة والحلّة ، والنيل ، والنعمانية ، وقرسان (٢) ونهر الملك (٣) ، ونهر ١٤٦ ب /

(١) قال ابن الأثير إنه بموت مسعود ماتت سعادة البيت السلجوق « فلم يقم له بعده راية يعد بها ولا يتلفت إليها الكامل ٩ : ٣١ .

(٢) كذا فى الأصل ولم أجد فى المعاجم الجغرافية سوى « قاسان » بلدة وراء النهر قرب حدود الأتراك .

(٣) نهر الملك : كورة واسعة ببغداد تشتمل على ثلاثمائة وستين قرية .

عيسى [١] ، ودجيل ، والراذان [٢] ، وطريق خراسان ، والقرايا ، والنجف ، والبَنْدنيجَيْنَ [٣] وبادَرايا[٤] ، وباكُسايا [٥] ، وهيت [٦] والأنبار ، وعين التمر[٧] ، وشفاثا [٨] . وأقطعه إقطاع وزير السلطان وأعانَه على الإستعداد للحرب وجهزه بالجيوش فاستَوْلى على الحلة والكوفة وواسط ثم عاد إلى بغداد وكانت غيبته خمسةً وعشرين يوما.

ذكر حصر تكريت

وعود عسكر الخليفة عنها وأسر ابن الوزير

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة سيَّر الخليفةُ المقتفى لأمر الله عسكرا إلى تكريت [٩] وأرسل عليهم مقدّما أبا المنذر بن الوزير

---

(١) نهر عيسى : كورة بقرى كثيرة غربي بغداد مأخذها من الفرات وتنسب لعيسى ابن على بن عبد الله بن العباس .

(٢) الرازان : أوردها ياقوت بلا ألف ولا لام ، وقال إنها كورتان لهما قرى كثيرة وثمة راران قرية باصبهان .

(٣) البندنيجين : بلدة مشهورة فى طرف النهروان ناحية الجبل من أعمال بغداد ويقول حمزة – على ما أورد ياقوت – بناحية العراق موضع يسمى وندنيكان وعرب على البندنيجين .

(٤) بادرايا : طسوج بالنهروان ، وهى بليدة قرب باكسايا بين البندنيجين ونواحى واسط يكثر فيها التمر اليابس .

(٥) باكسايا : بلدة قرب البندنيجين وبادارايا وواسط

(٦) هيت : بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار وذات نخل كثير وخير غزير كما يقول ياقوت

(٧، ٨) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا .

(٩) تكريت : من الأعمال الصغيرة للدولة ، وفى أواخر خلفاء بنى العباس – وكانوا قد ضعفوا – أصبح لها ولمثلها شأن ، بل كانت تجرؤ على العصيان حتى قال الشاعر :

تكريت تعجزنـــا ونحن بعقلنـــا نمضى لنأخذ ترمـــذا من سنجر

(راجع الفخرى ٢٦)

عون الدين والأمير ترشك وهو من خواصِّ الخليفة وغيرهما ، فجرى بين أبي المنذر وبين ترشك منافرة اقتضت أن كتب ابن الوزير يشكو منه ، فأمر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فأرسل إلى مسعود صاحب تكريت وصالحه وقبض على / أبي المنذر ١٤٧ ـ ا ومَنْ معه من المقدمين ، وسلَّمهم إلى مسعود بلال فانهزم العسكر وسار مسعود وترشك من تكريت إلى طريق خراسان فهنباها وأفسدا . فسار الخليفةُ لدفعهما ، فَهَرَبا من بين يديه فقصد تكريتَ وحَصَرَها أياما ،ثم عاد بعد أن جرَى بينه وبين أهلها قتالٌ من وراء السور وقُتل من عسكر الخليفة جماعة بالنِّشابِ .

ذكر حصار تكريت ووقعة بكمزا

وفى سنة تسع وأربعين وخمسمائة أرسل الخليفة رسولا إلى صاحب تكريت بسبب مَنْ عنده من المأسورين فقبض على الرسول . فسيّر المقتفى عسكرا فخرج أهل تكريت فقاتلوا عسكر الخليفة ، فسير عسكرا آخر ، فمانعوه . فسار الخليفةُ بنفسه ونَزَل على البلد فهرب أهله ، فدخل عسكر الخليفة فشغبوا ونهبوا بعضه ، ونَصَبَ على القلعة ثلاثةَ عشر منجنيقا فسقط من أسوارها برجٌ ، وبقى الجيش[1] كذلك إلى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأوّل فأمر الخليفة بالقتال والزَّحْف . فاشتد القتال ، وكثرت القتلى ، ولم يبلغ منها غَرَضًا ، فعاد إلى بغداد ودخلها فى آخر الشهر .

(١) كذا فى كل النسخ وفى الكامل ٩ : ٤٤ « وبقى الحصر » وهو أفضل .

ثم أمر الوزير عون الدين بالعَوْد إليها والاستعداد والاستكثار من آلات
١٤٧ ب / الحصار ، فسار إليها فى شهر ربيع الآخر وضيق عليها . فبلَغَه الخبر أن
مسعود بلال وصل إلى شهرابان ومعه البغوش كون خر [١] وترشك فى عسكر
كبير ونهبوا البلاد فعاد الوزيرُ إلى بغداد وكان سبب تَحَوُّل هذا العسكر
أنهم حثُّوا الملكَ محمدًا [٢] على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك ، فسير إليه
هذا العسكرَ وانضاف إليهم خلقٌ كثير من التركمان .

فخرج الخليفةُ إليهم فأرسل مسعود بلال إلى تكريت وأخرج
منها الملك أرسلان ابن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوسًا بها
وقال : هذا سلطان نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة ! والتقى العسكران
عند بكمزا بالقرب من بعقوبا ، ودامت الحربُ بينهم والمناوشة
ثمانيةَ عشرَ يوما ، ثم التقوْا فى آخر شهر رجب واقتتلوا فانهزمت ميمنةُ
عسكرِ الخليفة وبعضُ القلب حتى بلغت الهزيمة بغدادَ . ونُهبت خزائنُه
وقتل خازنُه . فحمل الخليفة بنفسه هو وولى عهده وصاح : يا آل هاشم
كذب الشيطان ! وقرأ « وَرَدَّ اللهُ الذين كَفَرُوا بغَيْظِهِم لم ينَالُوا خَيْرًا »
وحمل هو وبقيةُ العسكر فانهزم مسعودٌ ومن معه ، وظفر الخليفة ، وغنم
العسكرُ جميعَ ماهو للتركمان من دوابَّ وغنمٍ وغير ذلك . وكانوا
قد أحضروا نساءهم وأولادهم وخركاهاتهم فأُخِذ جميعُ ذلك . فبيع

(١) كذا فى راحة الصدور ٣٧٧ وما فى النسخ كلها مضطرب فو ا ، ف صفحة ٨٣ – ب « البغش كورخون » وفى ك صفحة ٨٦ « التقش كورخون » .

(٢) هو غياث الدنيا والدين أبو شجاع محمد بن محمود بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين .

كل كَبْش / بِدانِقٍ وأخذ كون خر الملكَ أرسلان وانهزم به إلى بلد النجف ١٤٨ ـ ا
وقلعة الماهكى (١)

ورجع الخليفةُ إلى بغداد فدخلها فى أوائل شعبان المبارك ، فأتاه الخبر أن مسعود بلال وترشك قصدا مدينَة واسط. فنهبا وخربا فسيّر إليهم الوزيرَ فى عسكر ، فانهزم العَجمُ ،ولحقهم عسكرُ الخليفة ونَهَب شيئا كثيرا ، وعاد إلى بغداد فَلُقِّب الوزير سلطان العراق ملكَ الجيوش ، وسيّر الخليفةُ عسكرا إلى بلد النجف فاحتوى عليه .

وفى سنةِ خمسين وخمسمائة سار الخليفة إلى دقوقا فحصرها وقاتل مَنْها ، ثم رحل عنها ولم يبلغ غرضا (٢) .

وفيها استولى شملة التركمانى على خوزستان وصاحِبُها حينئذ ملكشاه محمود . فسيرّ الخليفةُ إليه عسكرا فقاتَلَهُم شملة وهزمهم وأسر وجوهَهُم . ثم أحسن إليهم وأطلقهم . وأرسل إلى الخليفة المقتفى لأمر الله يعتذر منه فقبل عذره .

وفى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حصر السلطان محمد بن محمود السُّلْجُقى بغدادَ ، وكان قد راسل الخليفةَ فى الخطبة له ببغداد والعراق . فامتنع الخليفةُ من إجابته ، فسار من هَمَذَان وواعده قطب الدين صاحبُ المَوْصِل أن يرسل إليه العساكرَ ، فقدم

(١) فى ك ٨٦ « إلى النجف وقلعة الماهلى » وفى ا ، ف صفحة ٨٦ ـ ا « إلى بلد النجف وقلعة الماهلى » وما ها هنا من راحة الصدور ٤٠٧ وفى الحاشية أن قلعة ما هكى كانت فى « لحف » من أعمال بغداد ، إذن فالقريب من الصحة أن يستبدل بالنجف هنا لحف

(٢) يقول ابن الأثير فى سبب ذلك : إنه بلغ الخليفة أن جيش الموصل تجهز جنده (الكامل ٩ : ٤٧)

فى ذى الحجة ودام الحصارُ والقتالُ إلى شهر ربيع الأول سنة اثنتين
١٤٨ـب وخمسين ، فبلغ / السلطان محمد أن أخاه ملكشاه وإيلدكَر وأرسلان طغرل
دخلوا همذان واستولَوْا عليها ، فرجع عن بغـداد ولم يبلغ رضـا ،
وتفرقت العساكر .

وفى شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين أُطلق ابن الوزير
ابن هبيرة من حبس تكريت فتلقته المواكب وكان يوما مشهودا (١) .

وفيها فى شهر ربيع الآخر احترق أكثر بغداد ، واحترقت دارُ الخلافة .

وفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة كان بالشام زلازلُ كثيرةٌ
خربت كثيرا من البلاد والقلاع والأسوار ، وهلك من العالم مالا
يحصى كثرةً . ومما يدل على ذلك ما حكاه ابن الأثير فى تاريخه
الكامل « أن معلما كان بمدينة حماه يعلِّم الصـبيان ، ففارق
المكتب لحاجة عرضت له فجاءت الزلزلة فخرَّبتِ البلد وسقط
المكتب على الصبيان فهلكوا عن آخرهم — قال — فقال المعلم : فلم
يأت أحد يسألنى عن صَبِىٍّ كان له ! فيدل على موْتِ جميع
أهاليهم (٢) .

وفيها قلع الخليفة المقتفى لأمر الله بابَ الكعبة وعمل عِوَضَه بابًا

---

(١) ولكن ابن طباطبا يقول : وحبس بعد موت أبيه ولم يعلم خبره بعد الحبس (الفخرى ٢٧٦) .

(٢) عبارة ابن الأثير فى كتابه المطبوع « أن معلما كان بالمدينة — وهى مدينة حماه — ذكر عنه أنه فارق المكتب لهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فخربت البلد ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل عن صبى كان له بالمكتب » الكامل (٩ : ٥٣) .

مصفحا بالفضة المذهبة ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتا يدفن فيه إذا مات !

وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة فى ثامن عشر ربيع الأول كثرت الزيادة فى دجلة فغرقت بغدادُ ، وتهدّمت الدور وسور / المدينة ١٤٩ ـ ا وكثر الخرابُ ولم يعرف الناس حدودَهم على التحرير ؛ بل بالتخمين .

وفيها مات السلطان محمد الذى حاصر بغداد بِمَرَضِ السُّلِّ .

وفيها عاد ترشك إلى بغداد ولم يعرفه أحد ولا شعر به إلا وقد ألقى نَفْسَه تحت التاج ومعه سيف وكفن . فَرَضِيَ عنه الخليفةُ ، وأذِنَ له فى دخول الدار وأنعم عليه بمال !

ذكر وفاة المقتفى لأمر الله

وشىء من أخباره

كانت وفاة المقتفى لأمر الله فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وقيل لليلتين خَلَتَا من شهر رجب . ومولده فى ثانى عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسع وثمانين وأربعمائة ؛ وكان عمره ستًّا وستين سنة تقريبا ، ومدةُ خلافته أربعًا وعشرين سنةً وشهورا . وكان شيخًا أبيضَ الرأسِ واللحية طويلَها ، وكان حليما كريما عادلا حسَنَ السيرة جميل الرأى وافرَ العقل ؛ شجاعا مِقداما يباشر الحروب بنفسه . وكان يحب جَمْعَ المال . وفى أول خلافته ولّى القضاء بمدينة السلام لرجل يعرف بابن المرخم ، وجعله يتولى عقوبة عماله

١٤٩ ـب ووجوه دولتة وأخـذ أموالهم ، فقال / بعض الشعراء فى ذلك :

ضَخِّمِى ويْكِ والْطُـــمِى وَلِىَ ابنُ المرخَّمِ (١)
وَاه على الحكمِ والقَضَـا وعـــلى كلِّ مُسْـلِم
وأرى المقتفى الإمـــا م عن الحقِّ قد عَمِى

فبلغ المقتفى ذلك فأخذ الشاعر بنكاله وعذبه وما زاده ذلك إلا تماديا فى حاله . وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطانٍ يكون معه من أوَّلِ أيام الدَّيْلم وإلى هذا الوقت ، وأول خليفة تمكن من عسكره وأصحابه وحكم على الخلافة منذ تحكم المماليك على الخلفاء فى خلافةِ المستنصر بالله وإلى الآن ، إلا أن يكون المعتضد بالله . وكان المقتفى يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد حتى لا يفوتَه منها شىءٌ ، وكانت دعوتُه بالعراق والحجاز والشام وخراسان .

ذكر خلافة المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله . وأمه أم ولد تدعى طاوُس وقيل نرجس . رومية .

١٥٠ ـ ا وهو الخليفة الثانى والثلاثون من الخلفاء بويع له بعد وفاة أبيه فى شهر

(١) تقول ضخمته الشمس أى لفحته (سودته) والسخم السواد . وقد سخم وجهه (بالسين) سوده كذا يقول القاموس المحيط ، ورواية البيت هذه ليست كذا أثبتها النويرى ، ففى ا « ضخمى ومك والطمى قد »
وفى ك صفحة ٨٨ « ضخمى ويك والطمى قد » .
وفى ف صفحة ٨٥ ـ ا (ضخمى ويك والطمى قد » .

ربيع الأول فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة وقيل لليلتين خلَتا من شهر رجب منها والله تعالى أعلم .

قال[1] : وكان للمقتفى حظية وهى أم ولده أبى على . فلما اشتدّ مَرضُه وأيست منه ، أرسلت إلى جماعةٍ من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعاتِ الكثيرةَ والأموالَ الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدُها الأمير أبو على خليفةً فقالوا : كيف الحيلةُ مع ولى العهد ؟ فقررت أنها تقبض عليه إذا دخل ، وكان يدخل على أبيه فى كلِّ يوم فقالوا : لابد لنا من أحدِ أربابِ الدَّوْلة فوقع اختيارهم على أبى المعالى بن الكيال الهراس[2] فدَعَوْه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيرا . فبذلوا له ما طلب . فلما استقرت القاعدة بينهم أحضرت عِدَّةً من الجوارى وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتْل ولى العهد المستنجد بالله . وكان له خصىٌّ صغيرٌ يرسله فى كل وقت يتعرف أخبارَ والده فرأى الجوارى وبأيديهن السكاكين وبيد أبى على وأمه سيفين . فعاد إلى المستنجد وأخبره .

وأرسلت هى إلى المستنجد تقول : « إن والدك قد حَضَرَتْهُ الوفاةُ فاحضر لتشاهده » فاستدعى أستاذ الدار عضُدَ الدين . وأخذ معه جماعةً من الفراشين ، ودخل الدار وقد لبس الدِّرْعَ والسيفُ فى يَده . فلما دخل ثار به الجوارى / فضرب واحدةً منهن فجرحها وجرح أخرى وصاح فدخل أستاذ الدار والفراشون فهرب الجوارى وأخذ أخاه ١٥٠ ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٦٨ .

(٢) كذا فى ك صفحة ٨٨ وفى الكامل « ابن كيا الهراسى » .

أبا علي وأمَّه فَسَجَنَهُما ، وقتل من الجوارى وغَرَّق وجلس للمبايعة فبايعه أهلُه وأقاربُه .

وأول من بايعه عمُّه أبو طالب ثم أخوه أبوجعفر بن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ، ثم بايعه الوزير ابنُ هبيرة ، وقاضى القضاة ، وأرباب الدولة والعلماء . وخُطِب له فى يوم الجمعة ، ونُثرت الدنانيرُ والدراهم .

قال ابنُ هبيرة الوزيرُ عنه : إنه قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام منذ خمسَ عشرةَ سنةً فقال لى : يبقى أبوك فى الخلافة خَمْس عشرةَ سنة فكان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام » ثم قال « رأيته قبل مَوْتِ المقتفى بأربعة أشهر ، فدخل بى فى باب كبير ثم ارْتَقَى إلى رأس جبل وصلَّى بى ركعتَين وألْبَسنى قميصاً ثم قال لى : قل (أللهم اهدنى فيمن هديت) وذكر دعاء القنوت . »

قال :[1] ولما وَلِىَ المستنجدُ بالله أقر ابنَ هبيرةَ على وزارته ، وأصحابَ الولايات على ولاياتهم ، وأزال المكوس والضرائب ، وقبض على ابن المرخَّم وأخذ منه مالا كثيرا وأخذ كُتُبَه فأحرق منها ماكان من علوم الفلاسفة . وقدم عضد الدين ابن رئيس الرؤساء — وكان أستاذ الدار — فَمَكَّنه وتقدَّم إلى الوزير بأن يقوم له ، وعزل قاضى القضاة على بن أحمد الدامغانى ، ورتَّب مكانه أبا جعفر عبد الواحد (الثقفى) وخلع عليه . ١٥١ — ا

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٦٩ .

ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكى

وفى شهر رجب سنةَ سَبْعٍ وخمسين وخمسمائة ملك الخليفة قلعة الماهكى ، وسبب ذلك أن صاحبها مستقر الهَمذَانى سلَّمها إلى أحد مماليكه ومضى إلى همذان فضعف مملوكُه عن حفظها ومقاومة من حولها من الأكراد والتركمان فأُشير عليه ببيْعِهَا من الخلية فراسل فى ذلك ؛ فاستقرَّ بينهما خمسةَ عشر ألف دينارٍ وسلاحٌ ومتاعُ وعِدَّةٌ من القرى فسلَّمها وتسلَّم ما استقر له وأقام ببغداد ، ولم تزل هذه القلعة من أيام المقتدر بالله بيد التركمان إلى الآن .

ذكر اجلاء بنى أسد من العراق

وفى سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة أمر الخليفة باهلاك بنى أسد أهل الحلة المزْيدِيَّة لِما ظَهَر من فسادهم ولِما كان فى نفسه منهم من مساعدتهم للسلطان محمد فى حِصار بغداد ، فأمر يزدن بن قماج بقتالهم وإخراجهم من البلاد ، وكانوا منبسطين / فى البلاد فى البطائح . ١٥١ ب
فَتَوجَّه إليهم وجمع العساكر الكثيرةَ ، وأرسل إلى ابن معروف [مقدم المقتفى] (١) وهو بأرض البصرة فجاء فى خَلْقٍ كثير وحصرهُم وسكَّ عنهم الماءَ وضيّق عليهم فاستسلموا ، فقتل منهم أربعةَ آلافٍ ونادى فيمن بقى « من وُجد فى الحلة المزْيدية بعد هذا فقد حل دمه فتفرقوا فى البلاد ، ولم يبْقَ فى العراق منهم مَنْ يُعرف ، وسُلِّمت بطائحهُم وبلادُهم إلى ابن معروف .

---

(١) فى ا ، ف « ابن معروف المتفق » وفى ك صفحة ٨٩ « ابن معروف النفق » وما هنا عن الكامل ٩ : ٨٣ .

وفى سنة ستين وخمسمائة فى صفر قبض المستنجد بالله على الأمير ثوبة بن العقيلى وكان قد قَرُب منه قُرْبًا عظيما حتى كان يخلو معه ، وأحبَّهُ محبةً عظيمةً ، فحسَده الوزيرُ ابنُ هبيرة ، فوضع كُتُبًا من العجَم مع قوم وأمرهم أن يتعرضوا ليؤخَذوا ففعلوا ذلك ، وأُخِذوا وأُحْضِروا عند الخليفة .

وأظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج إلى نهر الملك يتصيَّد وكانت حلل ثوبة على الفرات ، فحضر عنده فأمر بالقبض عليه ، فقُبض عليه وأُدْخِل بغداد ليلا وحُبس فكان آخر العهد به فما تمتع الوزير بعده بالحياة ، ومات بعد ثلاثة أشهر وكان ثوبة من أكمل العرب مروءةً وسخاء وعقلا وإجادة ، واجتمع فيه من خلال الكمال ما تفرق فى غيره .

وفيها فى جمادى الأولى توفى الوزير عون الدين يحيى بن محمد ابن هبيرة ومولده سنة / تسعين وأربعمائة ودفن بمدرسته التى هو بناها للحنابلة بباب البصرة ، ولما مات قبض على أولاده وأهله ! ١٥٢ ـ ا

وفى سنة ثلاث وستين وخمسمائة استوزر الخليفةُ المستنجد بالله شَرَف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدى ، وكان ناظرا بواسط . وظَهَرَ عن كفاءة عظيمة ، فأحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين أستاذ الدار قد تحكَّم تحكُّما عظيما ، فتقدَّم أمرُ الخليفة إلى وزيره بكَفِّ يدِه وأيدى أصحابه ففعل ذلك ، ووَكَّل بأخيه تاج الدين وطالبه بحساب نهر الملك وكان يتولاه أيام

المقتفى ، وكذلك فعل بغيره ، فحصّل أموالا جَمَّةً وخافه أستاذ الدار على نفسه فحمل مالا كثيرا وأعطاه الورقة التى بخط الخليفة فقال له : تعود إليه وتقول قد أوصلت الْخَطَّ إلى الوزير ! ففعل ذلك وأحضر أستاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تنامش وعرض عليهم الخط فاتفقوا على قتل الخليفة . فدخل عليه يزدن وقايماز فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح حتى مات .

وقبض على الحسين بن محمد المعروف بابن البستى وعلى أخيه الصغير ، وكانا ابنَىْ عَمٍّ عضد الدين . وكان الصغير عامل البيمارستان فقطع يده ورجله ؛ فقيل إنه كان يستخرج المال بصنوج كبار ويحمله إلى الديوان بصنجة صحيحة وقيل غير ذلك ، وحمل إلى البيمارستان فمات[1] .

ذكر وفاة المستنجد بالله ١٥٢ب

وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاته فى تاسع شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة ومولده فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة عشرة وخمسمائة . وكان عمره ستاً وخمسين سنة وثمانية أيام ، ومدة خلافته أحد عشر سنة وشهرا واحداً وستة أيام على القول الأول . وكان أسمر ، تامَّ القامة ، طويل اللحية .

وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه ؛ وكان بجانبه أستاذ الدار عضد الدين [أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء][2] وقطب

(١) كان ذلك فى فى سنة أربع وستين وخمسمائة (الكامل ٩ : ١٠٤) .
(٢) زيادة من الكامل ٩ : ١٠٨ .

الدين قايماز المقتفوى – وهما من الأُمراء ببغداد – فوصيا الطبيب على أن يصف له ما يقتله فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه ؛ فأدخله وأغلق عليه بابه فمات[١] . وقيل إنه كتب إلى الوزير ... النصرانى ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار .

وكان رحمه الله من أحسن الخلفاء سيرةً ، عادلا فى الرعية كثير الرِّفق بهم ، وأطلق كثيرا من المكوس / حتى لم يترك بالعراق شيئا منها . وكان شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية قال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل[٢] « بلغنى أن المستنجد قبض على إنسان كان يَسْعَى بالناس فأطال حَبْسَه ، فشفع فيه بعض خواصه ، وبذل عنه عشرة آلافِ دينارٍ فقال : أنا أُعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس ! » ولم يطلقه وَرَدَّ كثيرا من الأموال على أصحابها رحمه الله . ١٥٣ – ا

ذكر خلافة المستضىء بأمر الله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ابن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وأُمُّه أم ولد أرمينية تدعى غَضَّة وهو الخليفة الثالث والثلاثون من الخلفاء العباسيين ، بويع له بالخلافة يومَ وفاة أبيه فى التاسع من شهر ربيع الآخر فى سنة ست وستين وخمسمائة .

قال[٣] : ولما مات المستنجد بالله كان بين الوزير أبى جعفر ابن البلدى

(١) يؤيد هذه الرواية ابن طباطبا فى الفخرى ٢٧٧ .

(٢) جزء ٩ صفحة ١٠٩ .

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ١٠٨

وبين أُستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوةٌ شديدةٌ لأن المستنجد كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فيظنان أنه هو الذى يسعى بهما فلما أُرْجِفَ بمَوْت المستنجد ركب الوزيرُ ومعه الأُمراءُ والأَجنادُ / وغيرهم ١٥٣ب بالعُدْوة ولم يتحققوا مَوْت الخليفةِ . فأرسل إليه أُستاذ الدار يقول : إن أَمير المؤمنين قد خفَّ مابه من المرض وأَقبلتِ العافية إليه ! فخاف الوزير أن يدخل دارَ الخلافة بالْجُنْد فربما أنكر عليه ذلك ، فعاد إلى داره وتفرّق النَّاس عنه .

وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدَّا لِلْهَرَب لما ركب الوزير خَوْفًا أن يدخلَ الدار فيأْخذهما ، فلما عاد أَغلق أُستاذ الدار أَبوابَ دارَ الخلافة وأَظهر موتَ الخليفة ، وأَحضر ولدَه أَبا الحسن محمدًا وبايعه هو وقطب الدين بالخلافة ، ولقباه بالمستضىء بأَمر الله ، وشرطوا عليه شروطًا منها : أَن يكون عضد الدين وزيرا ، وابنه جمال الدين أُستاذَ الدار ، وقطبُ الدين أَميرَ العسكر ، فأَجابهم إلى ذلك ، وبايعه أَهل بَيْتِهِ البيعةَ الخاصة فى يوم وفاة أَبيه ، وبايعه النَّاسُ من الغدِ فى التاج بيعةً عامة ، وأَظهر العدل وفرق أَموالا جليلة المقدار .

ذكر مقتل الوزير أبى جعفر بن محمد

المعروف بابن البلدى

قال (١) : ولما علم الوزير بوفاةِ الخليفة سقط فى يده وقرع سِنَّه نَدَما على عوْدِه ، وأَتاه من يستدعيه للجُلوس للعزاء والبيعة

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ١٠٩

١٥٤ـ ا للمستضيء ، فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صُرف إلى موضع وقتِل وقُطِّع وأُلْقِى فى دجلة ، وأخذا جميع ما فى داره ، فرأيا خطوطَ المستنجد بالله يأمره بالقبض عليهما . وخطُّ الوزير وقد راجَعَهُ فى ذلك وصرفه عنه . فنَدِما على قتلِهِ .

وفى سنة سبع وستين وخمسمائة أُقيمت الدعوةُ العباسية بالديار المصرية وخطب للخليفة بها ، وانقرضت الدولة العُبَيْدِيَّة المنسوبة إلى العلوية بخَلْع العاضد لدين الله ، وكان ذلك على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله على ما نذكر ذلك مُبَيَّنًا – إن شاء الله تعالى – فى أخبار الدولة العُبَيْدِيَّة (١) .

وفيها عزل الخليفة وزيرَه عضد الدين من الوزارة لأن قطب الدين قايماز ألزمه ذلك فلم يمكنه مخالفة ، ثم قصد الخليفة إعادَته فى جُمادى الأُولى سنة تسع وستين فثارت الفتنة بين الخليفة وقايماز . وأغلق قايماز باب النوبى وباب العامَّةِ وبقيت دار الخلافة محاصرةً . فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته فقال قايماز : لا أقنع إلا بخروج عضد الدين من بغداد ! فأمر بإخراجهِ منها فالتجأ إلى صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل وهو شيخ الشيوخ وصار فى رباطه فأجاره .
١٥٤ـ ب ثم عاد إلى داره فى جُمادى الآخرة .

وفى سنة تسع وستين وخمسمائة زادت دجلة فتجاوزت كلَّ زيادة كانت ببغدادَ منذ بنيت إلى الآن بذراع وكسر . وخاف الناس الغَرَق وفارقوا البلد ونبع الماء من البلاليع . وخُرِّب كثير من الدور

(١) انظر هنا النجوم الزاهرة ٦ : ٦٣ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٦٤

وغرق البيمارستان العضدى ، ودخلت المراكب من شبابكيه وكانت قد تقلعت .

وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد - وهو الذى صار خليفة ولُقِّب الناصر لدين الله - من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح ، فألقى نفسَه بعده ومَلِما جميعا فقيل لنجاح : لم ألقيتَ بنفسك ؟ فقال : ما كنت أريد البقاء بعد مَوْلاى ! فَرَعى له الأمير أبو العباس ذلك فلما صار خليفةً جعله شرابيا وحكّمه فى الدولة ولقبه الملك الرحيم عز الدين وخَدمه جميع أمراء العراق .

وفيها فى شهر رمضان وقع ببغداد بَرَدٌ كِبار ما رأى الناس مثلَه فهدم الدُّور وقَتَل جماعةً من الناس والمواشى ، فوُزِنت بردةٌ منه فكانت سبعةَ أرطال ، وكان عامتهُ كالنارنج يكسر الأغصان ، قال ابن الأثير هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى تاريخه والمهدة عليه فيه (١) .

ذكر هرب قطب الدين قايماز/من بغداد ١٥٥-ب

وعود عضد الدين إلى الوزارة

كان سبب ذلك وابتداؤه أن علاء الدين تمامش - وهو من أكابر الأمراء ببغداد - وقطب الدين قايماز زَوْج أختِهِ سيَّرا عسكرا إلى العراق فى شوال سنة سبعين وخمسمائة فَنَهَبُوا النَّاس وبالغوا فى

(١) الكامل ٩ : ١٢٨ .

أذاهم ، فجاء جماعةٌ منهم إلى بغداد واستغاثوا فلم يُغَاثوا لِضَعْفِ الخلافةِ وتحكم قايماز وتنامش على الدولة ، فقصدوا جامع القصر واستغاثوا ومنَعوا الخطيب من الخطبة فأنكر الخليفةُ ما جرى ، فلم يلتفت قايماز وتنامش إلى قَوْله .

فلما كان فى خامس ذى القعدة قصد قايماز دارَ ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن – وللخليفة به عناية تامة وبينهما صُحبَةٌ – فلم يراع قايماز الخليفة فيه ، واستدعاه فَهَرب ، فأحرق قطب الدين قايماز دارَه وحالف الأُمراءَ على المساعدة والمعاضدة له ، وجمعهم وقَصَدَ دارالخلافةِ لِعِلْمِهِ أن ابن العطار فيها .

فلما علم الخليفة ذلك صعد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح وقال للعامة : مالُ قطب الدين لكم ودمُه لى ! فقصد الْخَلْقُ كلُّهم دارَ قطب الدين للنهب ؛ فلم يمكنه الدُّقام لِضِيق الشوارع ، وغلبت العامةُ ، فهرب من دارِه من باب فتَحهُ من ظهرها لكثرة مَنْ على بابها مِنَ الخَلْق . وخرج من بغداد ، ونُهِبَتْ دارُه وسلبت نعمته فى / ساعة واحدة وتبعه تنامش وجماعة من الأُمراء ، ١٥٥–ب فنهبت دوُرهم وأُحْرِق بعضها ، وأَخِذَت أموالهم .

وسار قطب الدين إلى الحلة ومعه مِنَ الْتَحَق من الأُمراء ، فسيّر الخليفة إليه شيخ الشيوخ صدر الدين فَخَدعه حتى سار عن الحلة نَحْو المَوْصل على البرِّ فَلَحَقَه هو ومَنْ معه عَطَشٌ عظيم فهلك أكثرُهم ومات قيماز قبل وصولِه إلى المَوْصل . ودُفن بظاهر

باب العمادى وكانت وفاته فى ذى الحجة . ووصل تنامش إلى الْمَوْصل فأقام مدةً، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد فسار إليها وبقى بغير إقطاع !

قال (١) : ولما هرب قايماز أعيد عضد الدين إلى الوزارة وقال بعض الشعراء فى قطب الدين قايمار وتنامش بن قماج :

إنْ كنت معتبرًا بمُلْكٍ زائلٍ وحوادث عنقية الإدلاج(٢)
فدعِ العجائبَ والتواريخ الأُلَى وانظرْ إلى قَيْمازَ وابنِ قماج
عَطَفَ الزّمان عليهما فسقاهُما مِنْ صرْفِهِ كأسا بغير مزاج(٣)
فتبَدَّلوا بعد القُصورِ وظِلِّها ونَعيمها بِمَهَامِهٍ وفِجاجِ
فَلْيَحْذَرِ الباقون من أمثالِها نكبَاتِ دهرٍ خائنٍ وِزْعاج

• • •

قال (٤) : وكان قطب الدين كريما طَلْقَ الوجه، محبا للعدل والإحسان، كثيرَ البذل للمال ؛ وإنما كان يحمله على ما يقع منه تنامش بغير إرادته . ١٥٦ ـ ا

وفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وَلّى الخليفةُ المستضيءُ حَجَبَةَ البابِ أبا نصر على بن الناقد (٥) وكان الناس تلقبه

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ١٣٥
(٢) كذا فى ا ، ك ٩١ ، ف ٨٨ – ب ، فى الكامل ٩ : ١٣٥ « عنيفة الأودج) وبها الوزن يختل
(٣) فى الكامل « من كأسه صرفا بغير مزاج »
(٤) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ١٣٥
(٥) فى الكامل ٩ : ١٣٨ « أبا طالب نصر على بن الناقد »

فى صغره قنبرًا ، فصار الناس يصيحون به بهذا اللقب إذا ركب . فأمر أن يركبَ معه جماعةٌ من الأتراك يمنعون الناسَ من ذلك ، فامتنعوا فلما كان قبل العيد بثلاثة أيام خلع عليه ليركب فى الموكب ، فاشترى جماعةٌ من أهل بغداد شيئا كثيرا من القنابر وعزموا على إرسالها فى الموكب ، فأُنْهِيَ ذلك إلى الخليفة فعزله وولى ابن المعوج .

وفيها قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتفوى أستاذ الدار ورتَّب مكانه أبا الفضل هبة الله بن على بن هبة الله بن الصاحب[1] .

ذكر مقتل الوزير عضد الدولة[2]

وولاية ظهير الدين بن العطار

كان مقتلُه رحمه الله فى رابع ذى القعدة سنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة ، وهو أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبى القاسم [بن المسلمة] وسبب مقتله أنه عزم على الحج وعبر دجلةَ للمسير ومعه أربابُ المناصب وهو فى موكب عظيم ، وتقدم إلى أصحابه أن لايمنعوا عنه أحدًا ، فلقيه إنسان
١٥٦-ب /كهل وقال : أنا مظلوم !

وتقدَّم إليه يسمع كلامَهُ فضربه بسكين فى خاصرته ، فصاح الوزير : قتلنى ! ووقع إلى الأرض وسقطت عمامته ، فغطَّى رأسَه بكمه وضرب الباطنىَّ بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه بسكين وأقبل صاحبُ الباب ابن المعوج لينصرَ الوزير . فضربه الباطنىُّ بسكين ،

(١) فى الكامل « سنجر المقتفوى ، وهبة الله بن الصاحب »

(٢) فى المصورات الثلاث « عضد الدين » ويصور اسمه فى المظان « عضد الدولة » على ما أثبتنا (راجع مثلا البداية والنهاية ١٢ : ٢٩٨ والنجوم الزاهرة ٦ : ٨١)

وقيل بل ضربه رفيق له ، وكان له رفيق ثالث فصاح وبيدهِ سكين فقُتِل ولم يصنعْ شيئا . وأُحْرِقَ الثلاثة ، وحُمل الوزير إلى دارٍ له هناك ، وحُمِلَ الحاجبُ إلى بيته فمات هو والوزير .

وكان الوزير قد رأى فى منامِه أنه يعانق عثمان بنَ عفان ، قال ابن الأثير (١) : وحكَى عنه ولدُه أنه اغتسل قبل خروجه وقال : هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك ! وكان له معروف كثير وكانت داره مجمعا للعلماء وسمع الحديث ، وختمت أعماله بالشهادة وهو على قَصْدِ الحج رحمه الله . ولما قتل حكم فى الدولة ظهير الدين أبو بكر ابن منصور المعروف بابن العطّار ، وكان حسنَ السيرة وتمكن تَمَكُّنًا عظيما .

ذكر فتنة ببغداد

وهَدْم بيعة اليهود

١٥٧ – ا وفى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة كانت الفتنة ببغداد ، وسببها أن قوما من مسلمى المدائن حضروا إلى بغداد وشَكَوْا من يهود المدائن وقالوا : لنا مسجد نؤذِّن فيه ونصلِّى وهو مجاور لِبَيْعَة اليهود ، فقال لنا اليهود قد آذيتمونا بِكَثْرَةِ الأذان وأنهم اختصموا هم والمؤذن ، وكانت فتنة استظهر فيها اليهودُ . فلما شَكَوْا أَمَرَ ابنُ العطّارِ بِحَبْسِهِم فَحُبِسُوا ، ثم خرجوا فقصدوا جامعَ القصر واستغاثوا قبل صلاة الجمعة فخفَّف الخطيبُ الخطبةَ والصلاةَ ، فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعةٌ من الجند ومنعوهم ، فغضب عامة بغدادَ لذلك واستغاثوا ، وخلعوا طوابيق الجامع ورجموا الجُنْدَ بها ،

(١) الكامل ٩ : ١٤٣ .

ثم قصدوا دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهودٌ فنبهوها . فأراد حاجبُ الباب مَنْعَهم فرجموه فهرب منهم، وضربوا الكنيسةَ التى عند دار البساسيرى ،وأحرقوا الورقَ الذى فيها الذى يزعم اليهود أنه التوراة. واختفى اليهودُ فأمر الخليفةُ بنَقْض الكنيسة التى بالمدائن وتُبنَى مسجدا ونُصِبَ بالرحبةِ أخشاب لِيُصْلَبَ عليها أقوامٌ من المفسدين فظنَّها العامةُ تخويفًا لهم لأجْلِ ما فعلوه باليهود ، فجعلوا عليها جرذانا ميتة ، فأُخْرِج جماعةٌ من الحبس من اللصوص فصُلِبوا عليها وسكنت الفتنة !

ذكر وفاة المستضىء بأمر الله

١٥٧ ب / كانت وفاته لليلتين خلتا من ذى القعـدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، ومولده فى سنة ستٍ وثلاثين ، وكان عمره أربعين سنة تقريبًا ، ومدة خلافته تِسْعُ سنين وسبعة أشهر إلا أياما . وكان رحمه الله عادلا حسنَ السيرة فى الرعية ، كثير البذل للأموال ، حليما ، قليل المعاقبة على الذنوب ، محبا للعفو والصَّفْح عن المذنبين ، وأولاده أبو العباس أحمد وأبو منصور هاشم .

ذكر خلافة الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله وأمُّه أمُّ ولدٍ تركية اسمها زُمُرُّد وهو الخليفة الرابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين ، بويع له بالْبَيعَةِ العامَّةِ فى يوم الأحد ثانى ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وقام له بالبيعة ظهيرُ الدين بن العطار وبايع له ،

فلما تَمَّتِ البيعةُ صار الحاكم فى الدولة أُستاذ الدار مجد الدين الصاحب ، وسيَّر الرسل إلى الآفاق يأخذ البيعة له .

ذكر القبض على ابن العطار وموته

١٥٨ - ا وفى سابع ذى القعدة قبض على ظهير الدين بن العطار الوزير وَوُكِلَ به فى داره ، ثم نقل إلى التاج وقُيِّد وأُخِذَت أموالُه وطُلِبَتْ ودائعُه وأُخرج ميتا فى ليلة الأربعاء ثانى عشر الشهر على رأس حمَّال . فغمز به بعضَ الناس فثار به العامَّةُ وألْقَوْه عن رأس الحمال وكشفوا عن سَوْأته ، وشدُّوا فى ذكره حَبْلا وسحبوه فى البلد وكانوا يضعون بيدد مخرفة ويقولون : وقع لنا مولانا ! إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة ، ثم خلص منهم ودفن .

قال (١) وفعلوا به هذه الأفعال القبيحة مع حُسْن سيرته فيهم وكَفِّه عن أموالهم وأعراضهم .

وفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة كثرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمور وأخْذِ المفسدات ، فبينما امرأة منهن فى موضع عامت بمجىء الحاجب فاضطجعت وأظهرت أنها مريضةٌ وارتفع أنينها ، فرأَوْها على ذلك فانصرفوا عنها ، فهمت بالقيام فلم تستطع وعجزت وجعلت تصيح : الكرب الكرب ! إلى أن ماتت .

وفى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة قَبَضَ الخليفةُ على أُستاذ الدار مجد الدين أبى الفضل بن الصاحب وقَتَلَه ، وكان قد تحكَّم فى

(١) ابن الأثير فى الكامل : ٩ : ١٤٩ . وقد روى ابن طباطبا القصة فى الفخرى ٢٨١ .

الدولة ليس للخليفةِ معه حُكْمٌ . وكان الذى سَعَى به عند الخليفة وقَبَّح آثاره رجلٌ من صنائعه وأصحابهِ يقال له عبيد الله بن يونس فقبض /عليه الخليفة وقتله ، وأخذ أمواله وكانت عظيمة . وكان رحمه ١٥٨ـب
الله حسن السيرة ، واستوزر الخليفة بعدَه أبا المظفر عبيد الله بن يونس فى شوال ، ولقبه جلال الدين ، ومشى أكابرَ الدولة فى ركابه حتى قاضِى القضاة ، وكان ابن يونس هذا من شهوده ، فكان يمشى ويقول : لَعَنَ الله طول العمر !

ذكر انهزام عسكر الخليفة من طغرل

كان طغرل [1] السَّلجُقى قد قوِىَ أمره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكثر جَمْعُه ، وأرسل إلى بغداد يقول : أُريد أن يتقدم إلىَّ الديوان بعمارة دار السلطنة لِأَنزلَ فيها إذا قدمت ! فرد الخليفة رسولَه بغير جواب ، وأمر بنَقْض دار السلطنة فَهدِّمَتْ إلى الأرض وعفى أثرها [2] ووصل رسولُ قزل ـ وهو صاحب أران وأذربيجان وهمذان وإصفهان والرى وما بينهما ـ ببذل الطاعة والخدمة ويستنجد الخليفةَ على طغرل ، فأكرم الخليفةُ رسولَه ووعدَه بتجهيز العساكر إليه ، وجهَّزَها فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وقدم عليها الوزير جلال الدين [عبيد الله) بن يونس وسيرهم لمساعدة قزل وكف السلطان طغرل عن البـلاد ، فسار العسكر فى ثالث صـفر إلى أن ١٥٩ـ ١

(١) هو طغرل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوق

(٢) راجع الخبر إلى هنا فى الكامل ٩ : ١٨٩ ، وبقيته التى سردها النويرى فى ٩ : ١٩٧ .

قارب همذان ، فـلم يصـل قزل إليهم . وأقبـل طغرل فى عساكره ، والتقوا فى ثامن شهر ربيع الأول بمرج عند همذان ، فلم تثبت عساكر الخليفة وانهزمت (١) ، وبقى الوزيرُ قائما ومعه مصحف وسيف ، فأُسِر وأُخذ ما معه من خزانة وسلاح وغيره ، وعاد العسكر إلى بغداد متفرقين .

وفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة خُطِبَ لولى العهد أبى نصر محمد بن الخليفة الناصرلدين الله ببغداد ، ونثرت الدنانيرُ والدراهمُ ، وأُرْسِلَ إلى البلاد فى إقامة الخطبة له .

وفيها فى شوال ملك الخليفة تكريت ، وسبب ذلك أن صاحبَها الأمير عيسى قتله إخوته وملكوا القلعَة بعده ، فسير الخليفةُ إليهم عسكرا فحصروها وتسلموها ، ودخل أصحابُها إلى بغداد فأعطوا إقطاعا .

وفى سنة ست وثمانين وخمسمائة فى شهر ربيع الأول ملك الخليفةُ الناصر لدين الله حديثة عانة ، وكان قد سيَّر إليها جيشًا فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة فحاصروها وقاتلوا عليها شديدًا ، وقتل من الفريقين خلْقٌ كثير ، ودام الحصار فضاقتِ الأقواتُ على أهْلِها ، فسلموها على إقطاع عَيَّنوه ، ووصل صاحبُها وأهلُها بغدادَ وأُعطوا إقطاعا ثم تفرّقوا فى البلاد ، واشتدت بهم الحاجةُ حتى تعرَّض بعضهم للسؤال وبعضهم خدَمَ / الناسَ

١٥٩ ب

(١) يصف ابن سليمان الراوندى هذه المعركة فى راحة الصدور ٤٨١ وصفاً رائعاً وقرر أن جيش العراق لم يشهد مثلها .

وفى سنة تسع وثمانين وخمسمائة أمر الخليفةُ الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ، ونَقَل إليها من الكتب النفيسة ألوفا لا يُقْدَرُ على مِثْلِها .

وفيها فى شهر ربيع الأول كملت عمارة الرباط الذى أمر الخليفة بإنشائه بالحريم الظاهرى غربى بغداد على دجلة .

وفيها ملك الخليفةُ قلعةً من بلاد خوزستان ، وسبب ذلك أن صاحبَها سوسيان بن شملة جعل عليها ذِرَدَارًا فأساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله وأرسل إلى الخليفة ، وأرسل إليها وملكها .

وفيها انْقَضَّ كوكبان عظيمان بعد طلوع الفجر واصطدما وسمع صوت هدَّة عظيمة وغلب ضوؤهما ضوء القمر والنهار .

وفى سنة تسعين وخمسمائة قتل السلطان طغرل السلجقى فى حرب كانت بينه وبين خوارزم شاه علاء الدين ، وملك خوارزم شاه البلاد .

ذكر ملك الخليفة خوزستان

وفى سنة تسعين أيضا خَلَع الخليفة الناصر لدين الله على نائب الوزارة مؤيد الدين أبى عبد الله محمد بن على المعروف بابن/ القصاب خِلَعَ الوزارةِ ، وسار فى شهر رمضان من السنة إلى بلاد خوزستان بالعساكر . وقد كان قد خدَم بها أولا وعرفها ، فلما ولى نيابة الوزارة ببغداد أشار على الخليفة الناصر لدين الله أن يرسلَه بعسكر ليملكها . واتَّفَق وفاة صاحِبها ابن شملة التركمانى واختلاف

١٦٠ ـ ا

أولاده ، فأرسل بعضُهم إلى مؤيد الدين يستنجده ، فَقَوِىَ طمعُهُ فيها ، فسار إليها ودخلها فى سنة إحدى وتسعين ، وملكها فى المحرّم منها ، وملك غيرها من البلادِ والقلاع : منها قلعة الناظر ، وقلعة كاكرد ، وقلعة لاموج ، وغيرها من القلاع والحصون ، وأنفذ بنى شمأة التركمانى أصحاب خوزستان إلى بغداد فوصلوا فى ربيع الأول .

ذكر ملك الوزير همذان

وغيرها من بلاد العجم

قال(١) : ثم ملك الوزير مؤيد الدين المذكور همذان فى شوال سنة إحدى وتسعين وخمسمائة من عسكر خوارزم شاه وولده ، فتوجه الخوارزميون إلى الرَّىِّ فتبعهم الوزيرُ ففارقوها من غير قتال وتوجهوا إلى دامغان وبسطام(٢) وجرجان . فعاد عسكرُ الخليفة إلى الرى فأقاموا بها ، ثم رحل الوزيرُ إلى همَذَان فأقام بها نحو ثلاثة أشهر وأتته رسلُ/ خوارزم شاه بِطَلَب إعادة البلاد وتقرير قواعد الصلح فلم يُجِبِ الوزيرُ إلى ذلك . فسار خوارزم شاه محمد بن تكش إلى همذان فوجد الوزير قد توفى فى شعبان ، فوقع بينه وبيْن عسكر الخليفة الناصر لدين الله مصافٌ فى نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين ، فقُتِل من العسكرَيْن خلقٌ كثير ، وانهزم عسكرُ الخليفة ، وغنم الخوارزميون منهم شيئا كثيرا ، وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزيرَ وقطع رأسَه وسيره إلى خوارزم وأظهر أنه قتله فى المعركة ، ثم رجع خوارزم شاه إلى خراسان لموجب عَرَضَ له .

١٦٠ ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٢٣١

(٢) بسطام : مدينة كبيرة على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين وهى بقومس (معجم البلدان ١ : ٤٢١) .

ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان

وفى سنة إحدى وتسعين جَهَّز الخليفةُ جيشا وسيَّره إلى إصفهان ، ومقدم الجيش سيف الدين طغرل فقطع بلد [اللحف] (١) من العراق ، وكان بإصفهان عسكر الخوارزم شاه مع ولده، وأهل إصفهان يكرهونهم . فكاتب صدر الدين الخجندى رئيس الشافعية الديوانَ العزيزَ ببغداد يبذل من نَفْسِه تسليمَ البلد إلى مَنْ يصل إلى الديوان العزيز بالعسكر. فلما وصلت العساكر ظاهر إصفهان فارقها العسكر الخوارزمى إلى خراسان وتبعهم عسكرًا لخليفة ، فأخذوا من قدروا عليه من ساقةِ العسكر ، ودخل عسكر الخليفة إلى /إصفهان وملكوها . ١٦١-ا

قال (٢) : واجتمع مماليك ابن البهلوان وقدَّموا على أنْفُسِهم كوكجه وهو من أعيان البهلوانية ، واستولوا على الرَّىِّ وما حَوْلَها من البلاد ، وساروا إلى إصفهان لإخراج الخوارزميةِ منها ، فسمعوا بوصول عسكر الخليفة إليها . فأرسل إلى طغرل مملوك الخليفة يعرضُ نفسَه على خدمة الديوان وأظهر العبوديةَ وأنه إنما قصد إصفهان فى طلب العسكر الخوارزمى ، وأنه ساق فى طلبهم فلم يدركهم .

قال (٣) : ثم سار عسكر الخليفة من إصفهان إلى همذان ، وساق كوكجه خَلْفَ العسكر الخوارزمى إلى بلاد الإسماعيلية ، وعاد فقصد

(١) فى المصورات الثلاث « النجف » وما ها هنا عن الكامل ٩ : ٢٣٤
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٢٣٤
(٣) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٢٣٤

إصفهان وملكها . فأرسل إلى بغداد يسأل أن تكون له الرى وجواره [١] وساوة [٢] وقم وقاجان وما ينضم إليها ، وتكون إصفهان وهمذان وزنجان وفزوين لديوان الخليفة . فأجيب إلى ذلك ، وكتب منشوره بما طلب ، وأرسلت إليه الخلع ، فعظم شأنه وقوِىَ أمرُه وكثرت عساكره .

وفى سنة إحدى وستمائة يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة قُطِعَت خطبة ولىِّ العهد أبى نصر بن الخليفة الناصر لدين الله ، وذلك أنه أظهر خطَّه بدار الوزير نصير الدين الرازى إلى أبيه يتضمن العَجْز عن القيام بولاية العهد ، ويطلب الإقالة ، وشَهِدَ عَدلان أنه / خطه وأن الخليفة أقاله ، وعُمِل بذلك محضر شَهِدَ فيه ١٦١-ب القضاة والعلماء والعدول والفقهاء .

وفى سنة أربع وستمائة عُزل وزير الخليفة نصير الدين ناصر ابن مهدى العلوى ، وكان من أهل الدين . قدم إلى بغداد لما مَلَكَ الوزير ابن القصَّاب الرَّىَّ ، فَلَقِىَ نصير الدين من الخليفة قبولا فجعله نائب الوزارة ، ثم استوزره وجعل ابنَه صاحبَ المخزن . فلما كان فى الثانى والعشرين من جُمادى الآخرة ، عُزل وأُغلق بابُه . وسبب عَزْله أنه ساعات سيرته مع أكابر مماليك الخليفة حتى هرَبَ

(١) كذا فى الأصول ولعلها جرار موضع من نوحى قنسرين كما يقول ياقوت وهناك جواره موضع بافريقية وجراوه ناحية بالأندلس ولا أظن أنهما المقصودان هنا (راجع معجم البلدان ١ : ١١٧) .

(٢) ساوة : مدينة بين الرى وهمذان فى وسط وأهلها سنية شافعية (معجم البلدان ٣ : ١٧٩) .

من يده أميرُ الحج مظفر الدين سنقر المعروف برجه السبع إلى الشام فى سنة ثلاثٍ وسبعمائةٍ وكتب إلى الخليفة أن هذا الوزير لايُبقى فى خدمة الخليفة أحدًا من مماليكه ، ولا شك أنه يريد أن يدَّعى الخلافة ، وأكثرَ النَّاسُ القَوْلَ فى ذلك وقالوا فيه الشعر ، فمنه قول بعضهم :

ألا مبلغٌ عنِّى الخليفة أحْمَدًا تَوَقَّ وُقِيتَ السُّوءَ ماأنت صانع
وزيرُك هذا بَيْنَ أَمْرَيْنِ فيهمـــا فَمالُك ياخيرَ البَرِيَّةِ ضائعُ
فإن كان حقًّا من سُلالةِ أحمـدٍ فهذا وزيرٌ فى الخلافةِ طامعُ
وانْ كان فيما يَدَّعِى غَيْرَ صـــادقٍ فَأَضْيَعُ ماكانت لَدَيه الصَّنائعُ

فعزله ، وقيل فى سبب عَزْلِه غير ذلك . ولما عزل عاد أمير الحج من مصر وعاد قشتمر ، وأُقيم فى نيابة الوزارة فخر الدين أبو المنذر[1] محمد بن أمسنا الواسطى إلا أنه لم يكن متحكما . /١٦٢ ـ ا

وفيها أطلق الخليفةُ جميع حقّ البيع ، وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر المبيعات ، وكان مبلغا كبيرًا . وسبب ذلك أن ابنة عزالدين نجاح الشرابى توفيت فاشْتَرى بقرةً لتذبح ويتصدق بلحمها ، فرفعوا فى حسابها مؤونة البقرة ـ وكانت كثيرة ـ فوقف الخليفةُ على ذلك ، فأمر بإطلاق المؤونة جميعا .

وفيها فى شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور بمحال بغداد يفطر فيها الفقراء ومُسمِّيت دور الخلافة .

(١) كذا فى ا ، ك ٩٦ ، ف صفحة ٩٢ ـ ا وفى الكامل ٩ : ٢٨٩ « أبو المظفر » .

وفى سنة ستٍّ وستمائة فى شهر ربيع الأول عُزل فخر الدين بن أمسينا عن نيابة الوزارة ، وألزِم بيتَه ، ثم نُقِلَ إلى المخزن ، وولى بعده لنيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن القمى كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين ، ونقل إلى دار الوزارة .

وفى سنة اثنتى عشرة وستمائة فى العشرين من ذى القعدة توفى الملك المعظم أبو الحسن على ولد الخليفة الناصر لدين الله — وهو الولد الصغير — فحصل للخليفة عليه ألم عظيم لم يسمع بمثله ، وأمر الخليفةُ أن لا يعزُّوه به وكانت له جنازة عظيمة لم يُسْمعْ بمثلها ، ولم يبق ببغداد منزل إلا وفيه نَعْىٌ .

/ ذكر وفاة الناصر لدين الله

١٦٢—ب

وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاته فى آخر ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وكانت عِلَّته عشرين يوما إصابةَ دوسنطاريا . وكانت مدّة خلافته ستا وأربعين سنةً وعشرة أشهر وثمانيةً وعشرين يوما ، قال ابن الأثير (١) : وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما ، فَخُرِّبَ فى أيامه العراقُ وتفرَّق أهله فى البلاد ، فأخذ أموالهم وأملاكهم . وكان كثير التلوُّن بفعل الشىء وضِدِّه ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ثم قَطَعها ، ثم عمل دارًا لضيافة الحج وأبطلها ، وأطلق بعضَ المكوس التى جددها ببغداد ثم أعادها ، وجعلَ جُلَّ همه

(١) الكامل ٩ : ٣٦١ .

فى رمْيِ البندق والطيور المناسيب ومراويلات الفُتُوَّة ، وبطل الفتوة من البلاد أجمع إلا من لَبِس منه ، ومنع الطيور المناسيب لغيره إلا مايؤخذ من طيورهِ ، ومنع من الرَّمْى بالبندق إلا من ادَّعى له وانتسب إليه . فأجابه النَّاس إلى ذلك إلا رجلا واحدا يقال له ابن السفت فإنه فارق العراق والتَحق بالشام فأرسل إليه يرغبه بالمال الجريل / ليرمى عنه وينتسب إليه فأبى . فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك فقال : يكفينى افتخارا أنَّ كل رام فى الدنيا رمى الخليفة إلا أنا ! والعجم ينسبون إلى الناصر أنه هو الذى راسل التتار وجرَّأهم على البلاد ، وهذه المصيبة العظمى إن كانت !

١٦٣ ـ ا

ذكر خلافة الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله ، وهو الخليفة الخامس والثلاثون من الخلفاء العباسيين . بويع له البيْعة العامَّةَ بعد وفاة والده الناصر لدين الله فى شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وكان قد خلع من ولاية العهد وقطِعت خطبتُه كما تقدّم ، وإنما فعل ذلك أبوه لِميْلِهِ إلى ولده الصغير ، فلما مات اضطرُ إلى أعادته لولاية العهد .

قال (١) ولما ولِىَ الخلافةَ أظهر العدْل والإحسان وأمر بإبطال المظالم وكَفِّ الأيْدِى عن الناس ، وأعاد على الناس ماكان أبوه قد اغْتَصبه من أموالِهم وأملاكهم ، وأبطل المكوس والحوادث . فمن ذلك أن المخزن كان له صنجة للذهب تزيد على صنجة البلد نصْف

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٣٦١

قيراط فى الدينار ، فيقبضون بها المال ويصرفون بصنجة البلد ، فسمع بذلك فخرج / خطه للوزير أوله : « ويل للمطففين إلى قوله ١٦٣ ب
ليوم عظيم[1] قد بلغنا الأمر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصحيحة المتعامل بها . فكتب إليه بعض النواب يقول « إن هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فكان فى السنة الماضية خمسةً وثلاثين ألف دينار » فأعاد عليه الجواب بالإنكار ويقول : لو كان ثلاثمائة ألف دينار وخمسين ألفا يطلق ، ! وأطلق زيادةَ صنجة الديوان وهى فى كل دينار حبة ، وتقدم إلى القاضى أنَّ كل من عرض كتابا قديما بملك صحيح يعيده إليه من غير إذْنِهِ . وأقام رجلا صالحا لولاية الحشرى وبيت المال وكان حنبليا فقال : إن مذهبى أن أورث ذى الأرحام فإن أذن أميرُ المؤمنين أن أفعلَ ذلك وليتُ وإلا فلا ! فقال أعط كلَّ ذى حقٍّ حقَّه واتَّق اللهَ ولا تتَّقِ سواه ! وأبطل مطالعات حراس الدروب ببغداد بأخبارِ الناس وقال « لا يُكتب إلينا إلا فيما يتعلق بمصالح دولتنا » .

ومنه أنه لما وَلِىَ الخلافةَ وصل صاحبُ الديوان من واسطٍ وكان وُجِّه فى خلافةِ الناصر لتحصيل الأموال ، فأحضر ما يزيد على مائةِ ألف دينارٍ وطالع بذلك ، فأعاد الخليفة الظاهر الجواب بإعادة المال إلى أربابه ، فأُعيد إليهم . وأطلق مَنْ كان فى السجون وأمر أن يُحْمل إلى القاضى /عشرة آلاف دينار يوفى بها دَيْن مَنْ هو فى سجْنِ ١٦٤ ا
الحاكم على شىء يعجز عنه . وتصدَّق فى ليلة عيد الفطر

(١) سورة المطففين (٨٣) الآيات الخمس الأولى .

وفرّق فى العلماء وأهل الدين مائةَ ألف دينار ، ولم تطُل مدّتُه فى الخلافة .

وكانت وفاتُه فى رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، فكانت مدةُ خلافته منذ أفضى إليه الأمر تسعة أشهر وأربعة عشر يوما . قال[1] : وأخرج قبل وفاته توقيعا بخطّه إلى الوزير ليقرأه على أرباب الدولة ، قال الرسول : إنّ أميرَ المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال بَرَزَ مرسومٌ أو نَفذ مثال لا يبين له أثر ، بل أنتم إلى إمام فمّال أحوجُ منكم إلى إمام قوّال ! فقرأ المرسومَ فإذا فيه بعد البسملة ، اعلموا أنه ليس إمهالُنا إهمالا ولا إغضاؤنا إغفالا ولكن نبلوكم أيكم أحسن عَمَلا ، وقد غفرنا لكم ما سَلف من إخراب البلاد وتشريدِ الرعايا وتقبيحِ الشنعة وإظهار الباطلِ الجَلِىّ فى صـورةِ الْحَسَن الْخَفِىّ حيلة ومكيدة ، وتسمية الاستئصال والاحتياج استيفاءً واستدراكًا لأغراض انتهزتم فرصَتها مختلسةً من براثن لَيْثٍ باسل وأنياب أسد مهيب ، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحـد ، وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون / إلى هواكم ، وتمزجون باطِلَكم بِحَقّه فيطيعكم وأنتم له عاصون ، ويوافقكم وأنتم له مخالفون . والآن فقد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا ، وبفقركم غِنًى ، وبباطلكم حقا . ورزقكم سلطانا يُقيل الْعَثْرَة ولا يؤاخِذ إلا مَنْ أَصَرّ ، ولا ينتقم إلا ممن استمر ، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجَوْر وهو يكرهه لكم ، يخاف الله تعالى فيخوفكم

١٦٤ ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٣٦٨

مَكْرَه ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه وإلّا هلكتم ، والسلام » قال (١) : ووجد فى داره رقاع مختومة لم يَفْتَحها فقيل له : ما عليك لو فتحتها ! فقال : لا حاجة لنا فيها كلها سعايات !

ذكر خلافة المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور ولُقِّب فى خلافته بالمستنصر بن الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد ، وهو الخليفة السادس والثلاثون من الخلفاء العباسيين . بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله فى رابع عشر شهر رجب سنة ثلاثٍ وعشرين وستمائة ، فسلك من العدل والخير والإحسان مسلك والده ، ونادَى بإفاضة العَدْلِ وأن يطالع الناس بحوائجهم . ولما كان ١٦٥ـ١
أول جمعة أتت فى خلافته أراد أن يصلى الجمعة فى القصورة التى يصلى فيها الخلفاء فقيل له إن المطبق الذى يَسْلُك إليها فيه خراب لا يُسْلَك فركب فرسا وسار إلى الجامع ظاهرا للناس بخادم وركاب دارٍ وعليه قميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير ، ولم يترك أحدًا يمشى فى خِدْمته . وكذلك فعل فى الجمعة الثانية حتى صلح المطبق !

وفى سنة خمس وثلاثين وستمائة كانت وقعةٌ بين التتار وعساكر الخليفة ، وكان مقدم العسكر الخليفتى (٢) جمال الدين بكلك

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٣٦٩

(٢) نسبة خطأ ، ولكن جمهور المؤرخين يصطلح عليها ويأخذ بها (راجع شذرات الذهب ٥ : ١٧٠) .

الناصرى . وقتل من الطائفتين خلق كثير ، فانهزم عسكر الخليفة وهو أول مصاف كان بين التتار وعسكر الخلفاء، ودامت أيام المنتصر إلى سنة أربعين وستمائة .

وكانت وفاتُه بكرةَ يوم الجمعة لعشر خَلَوْن من جُمادى الآخرة منها ، وكان سبب وفاتِه أنه فُصِدَ بمبضعٍ مسموم فتُوفى . وكانت مُدَّة خلافته سبعَ عشرةَ سنةً إلا ثلاثةً وثلاثين يوما ؛ وكان الناسُ فى زمن خلافته فى شُغْلٍ شاغلٍ عن ضبط أيامه بالتاريخ ؛ لما دَهَمَهم من حادثة التتار (١) . فلذلك اختَصَرْنا أيامَه وسترد أخبارُ التتار وخروجُهم وما استولَوْا عليه من الممالك وما فعلوه بأهل البلاد مبيَّنا عند ذكرنا للدولة الخوارزمية والجنكزخانية – إن شاء الله تعالى . ١٦٥–ب

ذكر خلافة المستعصم بالله

هو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبى نصرٍ محمدِ بنِ الناصر لدين الله أبى العباس أحمدَ بن المستضىء بأمر الله أبى محمدٍ الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله بنِ المستظهر بالله أبى العباس أحمدَ بنِ المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله بن ذخيرةِ

(١) ولكن ابن طباطبا يقول فى الفخرى ٢٨٨ « كانت أيامه طيبة ؛ والدنيا فى زمانه ساكنة ، والخيرات دارة ، والأعمال عامرة . وفى أيامه فتحت إربل ، أرسل المستنصر إليها إقبالا الشرابى وصحبته عارض الجيوش ، وذلك عند وفاة صاحبها مظفر الدين ابن زين الدين على كوجك وهو فى مقدمة كتابه ٢٦ ، ٢٧ يسخر من هذ الفتح الهين الذى تضرب فيه البشائر وإن يكن دليلا على مهانة ما صار إليه أمر الخلافة !

الدِّين أبي العباس أحمدَ بنِ القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بنِ الموفق بالله أبي أحمد طلحة – وهو الملقَّب بالناصر – ولم يَل الخلافة – بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد أبي محمد هرون بن المهدى أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس – رضى الله عنه – بن عبد المطلب ، وهو الخليفة السابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين ، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله فى يوم الجمعةِ لِعَشْر خلون/من جُمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة . ١٦٦–ا

وكان مُتَدَيِّنًا متمسكا بمذهب السُّنَّةِ والجماعةِ ، وحَسَّنَ له أصحابه جَمْعَ الأموال والاقتصار على بعْضِ مَنْ ببغداد من الجُنْد ، وقَطْعَ الباقى ، ومسالمَةَ التتار وحَمْل القطيعةِ إليهم ليكفُّوا عنهم ، وقالوا له : هؤلاء ملكوا معظمَ بلادِ الإسلام ولم يقفْ أحدٌ من الملوك أمامهم » ! فأذعن إلى ذلك .

وفى سنة ثلاثٍ وأربعين وستمائة قصد التتار بغدادَ ، حتى انْتَهوْا إلى ظاهرها ونهبوا ما مَرُّوا عليه من البلاد ، فخرجت إليهم العساكر الخليفتية فأَجَّجوا النيران بالليل ورحلوا ، ودامت أيام المستعصم بالله إلى أن ملك التتار بغدادَ .

ذكر مقتل المستعصم بالله

وانقراض الدولة العباسية واستيلاء هولاكو على بغداد

كان مقتله فى العشرين من المحرم سنةَ ستٍّ وخمسين وستمائةٍ عندما استولى هولاكو على بغداد على ما نذكره إن شاء الله فى أخبار

التتار. ولما ملك هولاكو بغدادَ أحضر الخليفةَ المستعصم بالله وأمر أن يُجْعَل
في عِدْلٍ ويداسَ بأرجُلِ الخيل حتى يموت، ففعل به ذلك[1] / ومن عادة التتار ١٦٦ـب
أن لا يسفكوا دماء الملوك والأكابر، وسَبَى كلَّ مَنْ حواه قصر الخلافة
من الحريم، واستولى على ذخائر الخلفاء، ونُهبت بغداد، وبذلوا
السيف فيها سبعةَ أيامٍ متوالية ثم رُفع في اليوم الثامن[2]. وكانت خلافة
المستعصم بالله خمسةَ عشرَ سنةً، وسبعةَ أشهُر، وعشرةَ أيام. وكان
الذي بعث هولاكو على قَصْدِ بغداد أنَّ الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي
كان شيعيا والشيعةُ يسكنون بالكرخ وهي محلة مشهورة بالجانب الغربي
من بغداد، فأحدث أهلها حَدَثًا فأمر الخليفة بنَهْبِهِمْ فَنَهَبهِمُ العَوَامُ،
فوجِد[3] الوزير لذلك وكاتب هولاكو، وأخذ في التدبير على الخليفة وقطع
أرزاق الجند، وأضْعَفَهُم حتَّى تَمَكَّنَ التتارُ من أخْذِ البلاد.

قال[4]: ولما فتح هولاكو بغداد وأحضر الوزير المذكور فقال:
كيف كانت حالُك مع الخليفة؟ فذكر ما كان عليه من التقدُّم
ونفاذِ الكلمةِ وكثرةِ الأتباع وأنه كان يركب في جمعٍ عظيم، فقال:
إذا كان هذا فملك في حقٍّ من قَدَّمَك وأحْسَنَ إليك كيف يكون منك

(١) يقول ابن واصل «وأما الخليفة رحمه الله فإنهم قتلوه، لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان، فقيل إنه خنق، وقيل وضع في عدل ورفس حتى مات، وقيل غرق في الدجلة» راجع حاشية في كتاب السلوك للمقريزي ٢ : ٤٠٩ القسم الثاني.

(٢) ورد في دائرة المعارف الإسلامية Enc. Isl. art Baghdad. «نهبت بغداد وأحرقت إلا أنها لم تخرب كلها أسوة بغيرها من البلاد التي فتحها هولاكو لأنه كان يريد أن يجعلها عاصمة له».

(٣) وجد يجد جدة وموجدة ووجدا: حزن وغضب (القاموس المحيط)

(٤) من عادة النويري أنه إذا أحال بغير تحديد أحد، عن ابن الأثير ولكنه هنا لا يعنيه، لأن أحداث تاريخه تنتهي بنهاية عام ٦٢٨ للهجرة.

معنا ؟ وأمر بقتله . وقيل استبقاه وأنّ امرأة رأته فى يوم وهو على برذون ليس معه أحد فنظرت إليه وقالت :يابن العلقمى هكذا كنت فى أيام أمير المؤمنين (١) ؟

١٦٧ـ١ جامع أخبار خلفاء الدولة العباسية بالعراق

ومن ولى منهم ومدة خلافتهم

وَلِيَ منهم بالعراق سبعةٌ وثلاثون خليفةً وهم : أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس وهو السفاح ، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله أخوه ، ثم المهدى أبو عبد الله محمد بن أبى جعفر المنصور ، ثم ابنه الهادى أبو محمد موسى ، ثم أخوه الرشيد أبو محمد هارون ، ثم ابنه الأمين أبو عبد الله محمد ، ثم أخوه المأمون أبو العباس عبد الله ، ثم أخوه المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد وهو أول مَنْ أضاف إلى لقبه اسم الله عَزَّ وجل ، ثم ابنه الواثق بالله أبو جعفر هارون ، ثم أخوه المتوكل على الله أبو الفضل جعفر ، ثم ابنه المنتصر بالله أبو جعفر محمد، ثم المستعين بالله أبو العباس أحمد بن المعتصم بالله ، ثم المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن المتوكل ، ثم المهتدى بالله أبو عبد الله محمد بن الواثق ، ثم المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله ، ثم المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل ، ثم المكتفى بالله أبو محمد على بن المعتضد ، ثم المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن

---

(١) راجع كتاب السلوك ١ : ٤٠٠ القسم الثانى وبهامشه نص عن ابن واصل فى موقف هذا الوزير ، وراجع أيضا ما ذكره ابن طباطبا فى الفخرى ٢٩ وكذلك البداية والنهاية ١٣ : ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ثم شذرات الذهب ٥ : ٢٧٠ ، ٢٧٢

١٦٧-ب / المعتضد وخلع مرتين فالأولى بويع لابن المعتز والثانية بويع للقاهر ، ثم القاهر بالله أبو منصـــور محمـــد بن المعتضـــد ، ثم الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتـــدر ، ثم المتقى لله أبو إســـحاق إبراهيم ابن المقتدر ، ثم المستكفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفى ، ثم المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر : ثم الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن المطيع ، ثم القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق ابن المقتدر ، ثم القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر ، ثم المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبى العباس أحمد بن القائم ، ثم المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدى ، ثم المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر ، ثم الراشد بالله أبو العباس جعفر المنصور بن المسترشد ، ثم المقتفى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر ، ثم المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى ثم ابنه المستضىء بأمر الله أبو محمد الحسن ، ثم ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ، ثم ابنهُ الظاهر بأمر لله أبو نصر محمد ، ثم ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ، ثم ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله .

وكانت مدّة خلافتهم منذ بويع أبو العباس السفاح وإلى أن قتل المستعصم بالله / خمسمائةَ سنةٍ وثلاثًا وعشرين سنةً وعشرةَ أشهرٍ وستةَ أيامٍ وانقرضتِ الدّوْلَة العباسيةُ وانْقَطَعَتْ دعوتهم من سائر أقطار الدنيا ثلاث سنين وخمسةَ أشهرٍ وعشرين يوما إلى أن عادت بالدّيار المصرية المحروسة فى الدولة الظاهرية ١٦٨-ا

ذكر عود الدولة العباسية وقيامها بالديار المصرية المحروسة

ذكر خلافة المستنصر بالله

هو أبو العباس أحمد بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، بويع له بالخلافة بالديار المصرية فى التاسع من شهر رجب سنةَ تسع وخمسين وستمائة. وذلك أنه وصل إلى الديار المصرية فى هذا اليوم، فركبَ السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس للقائه فى موكب مشهودٍ، وأنزله بقَلْعَةِ الجبل وأمر بإثبات نَسَبِه. وحضر الأمراء والوزير وقاضى القُضاة ونُوَّابُ الحُكم والفقهاءُ والصلحاء وأكابرُ المشايخ وأعيانُ الصوفية واجتمعوا بقاعة / العمد بقلعة الجبل وأمر السلطانُ ١٦٨ب بإحضار العُرْبان الذين حضروا مع الخليفة فحضروا وحضر خادمٌ من البغاددة فسئلوا عنه هل هو أحمد بن الظاهر فقالوا إنه هو!

فشهد جماعة من القضاة الأكابر بالاستفاضة وهم: جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر والفقيه علم الدين ابن رشيق صدر الدين مرهوب الجزرى ونجيب الدين الحرانى، ومديد الدين التزمنتى (١) نائب الحكم بالقاهرة. أنه هو فسجل قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الأغر وحَلف على نَفْسِهِ بِثبوت

(١) كذا فى الأصل ولكن ورد فى كتاب السلوك ١: ٤٥٠ القسم الثانى أن سديد الدين هو عثمان بن عبد الكريم بن أحمد بن خليفة، ينسب إلى تزمنت (قرية بصعيد مصر) هو أبو عمرو بن أبى محمد الصنهاجى.

نَسَبِه وهو قائم على قدميه ، ولقّب المستنصر بالله على اسم أخيه . وبايعه السلطان على كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، والجهادِ فى سبيل الله ، وأخذِ الأموال بحقّها وصَرْفِها فى مستحقّها ، ثم بايعه النّاس على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم .

ولمّا تَمّتْ بيعته قَلّدَ السلطانُ البلادَ الإسلامية وما يضافُ إليها وما يفتحه اللهُ تعالى على يديه من البلاد ، وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأخذِ البيعة له ، وأن يُخْطَبَ باسمه على المنابر ، وتُنْقَشَ السكّةُ باسمه واسم السلطانِ . وخطب الخليفةُ بالناس فى يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب بجامع القلعة ، ونُثرت عليه الدنانيرُ والدراهمُ ، وخَلَعَ على السلطان / وطوقه يوم الإثنين[1] . ١٦٩ ـ ا

واستخدم السلطان للخليفة من يحتاج إليه من أرباب الوظائف فجعل الأمير سابق الدين بوزبا[2] أتابك العسكر ، وكتب له بألف فارس وجعل الخواشى بهاء الدين صندل شرابيا وكتب له بخمسمائة فارس والأمير ناصر الدين محمد بن صريم[3] خزندارا وكتب له بمائتى فارس ، والأمير نجم الدين أستاذ الدار وكتب له

(١) كان رسم الخلعة يتضمن تسليم الطوق المذهب ليوضع فى العنق ، والقيد للقدم وهو من الذهب أيضا (راجع البداية والنهاية ١٣ : ٢٣٢) .

(٢) ذهب الدكتور محمد مصطفى زيادة فى تحقيق هذا الاسم مذاهب شتى لاختلاف الرسم فى الكتب فيحسن مراجعة كتاب السلوك ١ : ٤٠٥ ، ٤٥٨ القسم الثانى

(٣) فى السلوك ١ ق ٢ : ٤٥٨ « بن صيرم »

بخمسمائة فارس ، والأمير سيف الدين بلبان الشمسى داواداراً وكتب له بخمسمائة فارس . وأمر جماعةً من العربان بالطبلخانات واشترى للخليفة مائةَ مملوكٍ جعلهم جمدارية وسلحدارية وأعطى كلاًّ منهم ثلاثة أرؤس خيلٍ وجعلا لعدته . واستخدم له صاحبَ ديوان وكُتَّابَ إنشاء وأئمةً ومؤذنين ، وحكماء وجرائحية[1] ، وغلمانا . وكَمَّلَ له البيوتاتِ وجهَّزه وجهَّزَ معه ملوك الشرق الذين كانوا قد وصلوا إلى السلطان وهم : الملك الصالح عماد الدين[2] إسماعيل بن الملك الرحيم صاحب الموصل ، وكتب له بالموصل وولاياتها ورساتقها ونصيبين وولاياتها ، ودارا وأعمالها ، والقلاع العمادية وبلادها ، وغير ذلك مما جاوره . وكتب للملك المجاهد سيف الدين إسحق أخيه بلاد الجزيرة ، وكتب للملك المظفر علاء الدين على سنجار وأعمالها التى كانت بيده . وأرسل إليهم الطبلخانات والسناجق ، وتقدم إليهم بسفرهم/صُحْبَتَهَ إلى الشام ١٦٩-ب
ليُجَهِّزَهم إلى مستقرهم صحبَةَ الخليفة

ذكر مسير الخليفة المستنصر بالله

إلى بلاد الشرق وقتله

قال[3] : وتوجه الخليفة والسلطان والملوك إلى الشام فى سادس شوال من السنة ، وكان مبلغ النفقة على الخليفة والملوك

(١) جرائحية : جراحون ، ولكنه بصيغته هاهنا عامى متداول .

(٢) فى السلوك ١ : ٤٦٠ القسم الثانى « ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل »

(٣) راجع تقى الدين أحمد بن على المقريزى فى كتاب السلوك ١ : ٤٦٢ القسم الثانى ، والنجوم الزاهرة ٧ : ١١٥ ، والبداية والنهاية ١٣ : ٢٣٢ وشذرات الذهب ٥ : ٢٩٧ وكلها تأخذ مما يأخذ منه النويرى عادة !

ألف ألفِ دينارٍ وستين ألفَ دينارٍ عينا ، ووصلوا إلى دمشق . ونزل الخليفة بجبل الصالحية فى برية الملك الناصر (١) ، وجرد السلطان عسكرا صحبه الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى وشمس الدين سنقر الرومى وودع السلطان الخليفة والملوك وسفرهم وأوصى الرشيدىَّ والرومىَّ وَمَنْ معهما أن يقيموا بجهة حلب وبر الفرات ومتى طلبهم الخليفة ساروا إليه .

وسار الخليفة من دمشق وعبر الفرات — ولم يتأنَّ فى أمره — فوصل عانة والحديثة . فخرج عليه مقدم من مقدمى التتار اسمه أورداى ومعه ثمانا (٢) ، فالتَقَوْا واقتتلوا فاستشهد الخليفة ، وقتل أكثر من كان معه .

وأما عن الملك الصالح (٣) فإنه دخل الْمَوْصِلَ وملكها واستقرّ بها ، فسار إليه أورداى المذكور وحاصره ، وملك البلد ، وصلَبه هو وابنه على باب الموصل ، وانهزم أخواد الملك المجاهد والمظفر علىّ إلى الديار المصرية ، فأقاما بهـا إلى أن ماتا فى الدولة المنصورية السيفية ، رحمهما الله . ١٧٠ — ا

وانقضت الخلافة ، وانقرضت الدَّوْلَة العباسية ثانيةً من سائر

---

(١) فى سفح قاسيون بدمشق .

(٢) كذا فى ا وفى ف صفحة ٩٥ ، وليس فى ك لأن فيها سقاطا إلى أخبار الدولة الأموية بالأندلس ، ولم تذكر المظان فى هذا الموضع سوى قرابغا المقدم ومعه بهادر على الخوارزمى .

(٣) هو ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكان قد انضم لبيبرس فولاه الموصل التى كانت لأبيه .

الأرض ، وتعطّلت المنابرُ من ذكرِ دعوتِهم إلى أن عادت بالديار المصرية أيضا ببيعة الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد .

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الفتى بن الحسن بن الخليفة الراشد بالله بن جعفر المنصور بن المسترشد بالله وقد تقدم نسبه مستوفى . بويع له بالخلافة بالديار المصرية في يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين وستمائة . وذلك أنه وصل إلى الديار المصرية في سنة ستين وستمائة ، فلما كان في هذا اليوم جلس السلطان الملك الظاهر مجلسا عاما ، وحضر الخليفة راكبا إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل . وجلس إلى جانب السلطان . وبايعه بعد ثبوت نسبِه كما بايع المستنصر ، ثم قلّد السلطان أمور البلاد والجيوش . /وبايَعه النّاسُ ١٧٠ ب
على اختلاف طبقاتِهم ، وكان ذلك بحضور الرسل ومَنْ وَفَدَ من التتار (١) .

وخَطَبَ يومَ الجمعة بجامع القلعة ، ثم خَطَبَ مرةً ثانية في ثامن عشر شعبان بحضُور رُسُل بركة ، ودعا للسلطان وللملك بركة (٢) وصلّى بالناس . وحُجِب عن الناس ببُرْجٍ في القلعة إلى سنةِ تسعين وستمائة ، فأخرجه السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين

(١) كانوا من قبل بركة صاحب دست القفجاق الذي ناصب هولاكو ابن عمه العداء لسلوكه السيء في بلاد المسلمين (شذرات الذهب ٥ : ٣٠٠) .

(٢) فقد كان قد أعلن موقفه وراح يحث على الجهاد .

المنصورى من البرج وأسكنه بالمناظِر الصالحيةِ المعروفة بالكبش ووسّع عليه فى رِزْقه ورزق أولادِه .

وحجّ فى هذه السنة ورجع ، فكان بالمناظر إلى أن مات . وكانت وفاته فى الثامن عشر من جمادى الأُولى سنة إحدى وسبعمائة فى دولة السلطان الملك الناصر الثانية وصلّى عليه الشيخ كريم الدين عبد الكريم الأَبُلّى الصوفى – شيخ الصوفية بمشهد السيدة نفيسة – ودفن بجوار المشهد . وكانت مدة خلافته أربعين سنة وأربعة أشهر ، وستة عشر يوما . وهو أول خليفة دُفِنَ بمصر من الخلفاء العباسيين ، رحمه الله .

ذكر خلافة المستكفى بالله

١٧١ – ا هو أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله / وهو الثالث من خلفاء بنى العباس بمصر ، والخليفة الأربعون من خلفائهم . بويع له يوم وفاةِ والدهِ الحاكم بأمر الله فى الثامن عشر من جُمادى الأولى سنَةَ إحدى وسبعمائة وخُطِب له على المنابر وحضَر مع السلطان الملك الناصر مصافَّ مرْجِ الصُّفْر (١) الذى انهَزم فيه التَّتَارُ فى ثانى شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائةٍ .

(١) أورد الدكتور محمد مصطفى زيادة فى نهاية الجزء الأول من السلوك ١٠٢٧ الملحق رقم ١٦ يتضمن نص الكتاب المسمى « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر » وهو منقول عن النويرى فى جزء آخر غير هذا الجزء ، ويعرض وقعة مرج الصفر بالتفصيل بين الناصر محمد وإيلخان غازان .

واستمر فى صحبة السلطان ، يركب معه إلى الصيد وإلى الميدان ، ويلعب الكرة . وسكن بمناظر الكبش وغيرها من المساكن الحسنة المُتْرفَةِ على نهر النيل ، ورتّب له من النفقات والكساوى وغير ذلك ما يحتاج إليه هو ومن عنده . وكذلك رتّب لابن أخيه إبراهيم ، ولم يحجرِ السلطان عليهما ، بل يركب كلٌّ منهما متى شاء ويزور من شاء (١) .

(١) بعد ذلك سقاط فى النسختين ، ف إلى بدء الدولة الأموية بالأندلس ، فالثلث الأخير من ١٧١ – ا ، وكل ١٧١ – ب فى ا أيضا بياض . وكذلك ثمة بياض يشمل نصف ٩٧ – ا فى ف وكل ٩٧ – ب فيها ، وأما ك فقد فرغ الكلام عنها .

١٧٢ ـ ا

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الخامس

فى أخبار الدولة الأموية ببلاد الأندلس (١)

كان ابتداءُ هذه الدولةِ فى سنة ثمانٍ وثلاثين ، وقيل تسع وثلاثينِ ومائةٍ ، فى خلافة أبى جعفر المنصور الثانى من الخلفاء العباسيين ، وأول من ملَكَ بلاد الأندلسِ من بنى أمية أبو المظفر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . وقيل كنيته أبو المطرّف ، وقيل أبو سليمان ، وقيل أبو زيد ، وأمه بربرية من سبْيِ أفريقية واسمُها راحُ ولقِّب عبدُ الرحمن بالدّاخل عند دخوله . وكان استيلاء عبد الرحمن على الأندلس فى سنةِ ثمانٍ وثلاثين ومائة . وقيل تسع وثلاثين . وكان سببُ دُخولِهِ إليها واستيلائه عليها أنه لما قتل مروان بن محمد ، وانقرضت الدولة الأموية ، وقتل من قتل من بنى أمية ، وتشتتوا فى البلاد .. ..

(١) فى ا صفحة ١٧٢ ـ ا ، فى ك صفحة ١٠١ ، فى ف صفحة ٩٨ ـ ا ، ويحسن هنا أن يراجع القارىء ـ إلى جانب ما يراه من كتب يرد اسمها فى الحواشى ـ كتاب « بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس » لابن عميرة الضبى ط . مجريط (مدريد) سنة ١٨٨٤ وكتاب « البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » لابن عذارى المراكشى وكتاب « جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس » للحميدى وقد طبع فى مصر سنة ١٩٥٢ وكتاب « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » لحيان بن خلف ، ثم كتاب « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ليوسف أشباخ ، وقد ترجمه وعلق عليه ونشره فى جزئين محمد عبد الله عنان بمصر سنة ١٩٤٠ .

/كان عبدالرحمن هذا بذات الزَّيتون[١] فَفَرَّ منها إلى فلسطين ، فأقام ١٧٢ـب
بها هو و مولاه بدرٌ يتجسَّسُ له الأخبار ، فحكى عنه أنه قال :

« لما أُعطِينا الأمان ثم نُكث بنا بنهر أبي فُطرس[٢] أتاني الخبر وكنت منتبذا عن الناس . فرجعتُ إلى منزلي آيسا ونظرت فيما يصلحني وأهلي ، وخرجت خائفا حتى صرتُ إلى قريةٍ على الفرات ذات شجر وغياض . فبينا أنا ذات يوم فيها وولدي سليمان يلعب بين يدي- وهو يومئذ ابن أربع سنين-فخرج عني ثم دخل عليَّ باكيا فزعا ، فتعلق بي وجعلت أدفعه ، وخرجت لأنظر فإذا بالخَوْفِ قد نزل بالقرية والراياتُ السُّودُ منحطَّةٌ عليها وأخٌ لي حَدَثٌ يقول لي :النجاةَ النجاةَ ! فأخذتُ دنانيرَ معي ونجوت بنفسي وأخي وأعلمت أخواتي بمقصدي وأمرتهنَّ أن يُلْحِقْنَني مولاي بدرا [-قال -] وأحاطتِ الخيلُ بالقرية فلم يجدوا لي أثرا . فأتيْتُ رجُلًا من معارفي وأمرْتُه فاشترى لي دوابَّ وما يصلحني فَدلَّ عليَّ عبدٌ له العاملَ ، فأقبل في خَيْله طلبني فخرجنا على أرْجُلِنا والخيلُ تبصرنا ، فدخلنا الفرات يفسبحنا فنجوتُ أنا والخيلُ ينادون بالأمان وأنا لا أرجع وأما أخي فإنه عجزَ عن السباحة في نصف الفرات فرجع إليهم بالأمان ، فقتلوه
وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت ثُكْلَه /ومضيتُ ١٧٣ـ١
وتواريتُ في غَيْضَة حتى انقطَع الطَّلَبُ عني . وخرجت فقصدت

(١) جبل بالشام كما يقول ياقوت (معجم البلدان ٣ : ١٦٣) .
(٢) موضع قرب الرملة من أرض فلسطين (معجم البلدان ٥ : ٣١٥) .

المغرب فبغلت أفريقية ، ثم ألحقتنى أختى أمُّ الإصبع مولاى بدرٌ بنَفقَةٍ وجوهرٍ .

قال المؤرخ (١) : ولما بلغ أفريقية كان بها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عاملا لمروانَ بنِ محمد ، فَظَنَّ عبدُ الرحمن بن معاوية أن ابن حبيب يرعاهم ويحوطهم ويحسن مجاورتَهم . فلما علم ابنُ حبيب أن مروان قد قتل وأن أهلَه وولده قد تفرقوا وأن رجالَه قد استأمنوا إلى أعمال أبى العباس السَّفاح طلب لنفسه السلامة ، وكتب بالسَّمْع والطَّاعةِ ، وأراد قَتْلَ عبد الرحمن بن معاوية ومن معه والتقرُّب بهم إلى عمال السفاح . وأرسل فى طلبه فهرب منه وأتى مكناسة وهى قبيلةٌ من البربر وعندهم شدة ، ثم هرب منهم وأتى نفراوة (٢) وهم أخواله . وقيل أتى قوما من الزناتيين فأحسنوا قبولَه فيهم وأخذوا فى التدبير والمكاتبة إلى الأمويين من أهل الأندلس يعلمونهم بقدومه ويدعونهم إلى عبد الرحمن .

وَوجه بدرًا مولاه إليهم ، وكان أمير الأندلس يومذاك يوسف ابن عبد الرحمن الفِهْرى فسار بدر إليهم وأعلمهم حالَ عبد الرحمن ودعاهم إليه فأجابوه ، ووجهوا إليه مركبا فيه تمّام بن علقمة ووهب بن الأصفر وشاكر بن أبى الأسمط ، فوصلوا إليه وأبلغوه طاعتَهم ، وأخـــذوه ورجعـــوا به إلى الأندلس/ فأرسى بالمركب ١٧٣ب

(١) هو ابن الأثير فى الكامل ٤ : ٣٦ .

(٢) كذا فى الأصل وفى كامل ابن الأثير ، ولكن المقرى التلمسانى يقول إنها نفزة أخواله من برابرة طرابلس (نفح الطيب ١ : ٣٠٧ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد بالتجارية سنة ١٩٤٩ .)

بالجزيرة فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة . فأتاه جماعة من رؤسائهم من أهل إشبيلية (١) ، ثم انتقل إلى كورة رِيّة فبايعه إبراهيم بن شجرة عاملها (٢) . ثم سار إلى إشبيلية فبايعه أبو صالح يحيى بن يحيى ، ونهض إلى قرطبة فبلغ خبره يوسف بن عبد الرحمن وكان غائبا عن قرطبة بنواحى طليطلة (٣) ، فأتاه الخبر وهو راجعٌ إلى قرطبة فتراسل هو ويوسفُ فى الصلح فخادعه ، فلم يشك أصحاب يوسف فى انتظام الصُّلْح وذلك فى يومين أحدهما يوم عرفة ، فأقبل يوسف فى إعداد الطعام ليأكله الناس فى يوم الأضحى وعبد الرحمن يرتِّب خيلَه ورجله وعبر النهر فى أصحابه .

وأنشب القتال ليلَةَ الأضحى ، وصبر الفريقان حتى ارتفع النهار ، وركب عبد الرحمن على بغلة وأسرع القتْل فى أصحاب يوسف فانهزم وظفر عبد الرحمن بن معاوية . ولما انهزم يوسف

---

(١) Seville هى أشهر من أن يعرف بها ويكفى أن قال بعضهم « إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ، ومدينة الأدب واللهو والطرب ، وهى على ضفة النهر الكبير .... ولو لم يكن من الشرف إلا موضع الشرف (اسم مكان بعينه) المقابل لها المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتد فراسخ فى فراسخ لكفى » راجع نفح الطيب ١ : ١٩٣ ، ٢٢١ .

(٢) فى الكامل ٤ : ٣٦٢ « فبايعه عاملها عيسى بن مساور » وريّة كورة أندلسية هامة .

(٣) Toleda مملكة بين قرطبة وثغر سرقسطه Saragossa وقد أطنب المؤرخون فى وصف عظم امتناعها (راجع نفح الطيب ٢ : ٧ ، ٨) وأما عن يوسف بن عبد الرحمن فالمقرى يقول « وكان غازيا بجليقية » Galicia (نفح الطيب ١ : ٣٠٨) وجليقية هى ليون شمالى البرتغال .

أتى مارِدة [١] وأتى عبد الرحمن قرطبةَ ، وأخرج حشَم يوسف وأهله من القصر على تؤدة ورفق ، ودخله بعد ذلك . ثم سار فى طلب يوسف ، فلما أحس به يوسف سار إلى قرطبة فدخلها وملك قصرها ، وأخذ جميع أهله وماله ، ولحق بمدينة إلْبيرة [٢] . ورجع عبد الرحمن إلى قرطبة فلم يجده فسار إلى إلبيرة ، وتراسلا فى الصلح فاصطلحا على أن ينزل / يوسف هو ومن معه بأمانٍ وأن يمكن مع عبد الرحمن بقرطبة ويرهنه يوسفُ ابنه أبا الأسود محمدا وسار يوسف مع عبد الرحمن إلى قرطبة فلما دخل قرطبة تمثل : ١٧٤ ـ أ

فبينا نسوس النَّاسَ والأَمْرُ أَمْرُنـا
إذا نَحْن فيهم سُوقة تَتَنَصَّفُ

قال [٣] واستقر عبد الرحمن بقرطبة وبنى القصر والمسجد الجامع ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينارٍ ، ومات قبل تمامه [٤] .

---

(١) Merida كورة واسعة بينها وبين قرطبة ستة أيام ، وقد شهرت بحصونها الكثيرة وبقراها ذات الآثار القديمة وبرخامها الفريد .

(٢) Elvira فى نفح الطيب والمغرب ومعجم البلدان وصف مسهب لها ، وقيل إنها أشبهت دمشق فنزلها الدمشقيون وسميت « دمشق » وعرفت باستخراج التوتيا من بطرنة — إحدى قراها — وتوتياها أزكى وأقوى عناصر صبغ النحاس ، هذا وكانت إلبيرة المدينة قبل غرناطة فلما بنى الصنهاجى مدينة غرناطة انتقل الناس إليها ! وفى كتاب ابن الخطيب نرى أنها هى وغرناطة اسمان لمكان واحد (كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ : ٩٩ وما بعدها (ط . القاهرة سنة ١٩٥٥) .

(٣) ابن الأثير فى الكمل ٤ : ٣٦٣

(٤) راجع هنا نفح الطيب ١ : ٣٠٨

ذكر مقتل عبد الرحمن بن يوسف الفهرى

قال [١] : وفى سنة إحدى وأربعين ومائة نكث يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وكان سبب ذلك أن عبد الرحمن كان يضع عليه مَنْ يُهينه وينازعه فى أملاكه ، فإذا أظهر حُجَّتَهُ الشرعيةَ لا يُعمل بها ،ففطن لما يراد منه . فقصد ما رِدة واجتمع عليه عشرون ألفًا فسار نحو عبد الرحمن ، وخرج عبد الرحمن من قرطبة نحوه إلى حصن المدور [٢] ثم رأى يوسف أن يسير إلى عبد الملك ابن عمر بن مروان – وكان واليا على إشبيلية و إلى ابنه عمر بن عبد الملك وكان على المُدَوَّر – فسار نحوهما فخرجا إليه واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم أصحاب يوسف ، وبقىَ متردِّدًا فى البلاد فقتله بعض أصحابِهِ فى شهر / رجب سنة اثنتين وأربعين ومائة بنواحى طلَيْطِلة وحُمل رأسه إلى عبد الرحمن بن معاوية فنصبه بقرطبة وقتل ابنه عبد الرحمن بن يوسف الذى كان عنده رهينةً ونصب رأسه مع رأس أبيه وبقى ابنُه الأسود عند عبد الرحمن . ١٧٤–ب

وفى سنة ثلاث وأربعين ومائة ثار رِزْقُ بن النعمان الغَسَّانى وكان على الجزيرة الخضراء [٣] . فاجتمع إليه خلق كثير ، فسار

(١) ابن الأثير فى الكامل ٤ . ٣٦٤

(٢) Almodavar حصن شهير بالأندلس قرب قرطبة .

(٣) Algeciras الرأس الجنوبى للأندلس يفصله عن أفريقية مضيق جبل طارق الذى يعرف بجبل الفتح ، وتطل على بحر الزقاق (شرق البحر المتوسط) شرق والمحيط الأطلنطى غربا حيث الطرف الأغر .

إلى شَنْونَةَ (١) فملكها ودخل مدينة إشبيلية . وعاجله عبد الرحمن فحَصره بها وضيَّق على مَنْ فيها ، فتقربوا إليه بتسليمه له . وأمَّنهم ورجع عنهم .

وفى سنة أربع وأربعين ومائة ثار هشام بن عذرة الفهرى وهو من بنى عَمِّ يوسف بن عبد الرحمن الفهرى بطليطلة فحاصره الأمير عبد الرحمن وشدَّد عليه الحصارَ فمال إلى الصلح وأعطاه ابنه أفلحَ رهينةً فأخذه عبد الرحمن ورجع إلى قرطبة . ثم عاد هشام وخلع عبد الرحمن ، فعاد إليه وحاصره ونصب المجانيق عليها [أى على طليطلة] فلم يؤثر فيها لحصانتها فَقَتَلَ ابْنَه أفلح ورمى برأسه إلى أبيه فى المنجنيق ورحل إلى قرطبة . ولم يظفر بهشام فى هذه السنة واستمر إلى سنة سبع وأربعين ومائة فبعث عبدُ الرحمن مولاه بدرًا وتمامَ بنَ علقمَة فحصرا طليطلة وضيَّقا على هشام ثم أسراه هو وحيوة بن الوليد اليحصُبى وعثمان بن حمزة / بن عبيد الله ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فأتى بهم إلى عبد الرحمن بن معاوية فى جباب صوف وقد حلقت رؤوسُهم ولحاهم . وركبوا الحميرَ وهم فى السلاسل . فصلبهم بقرطبة !

١٧٥ ـ ا

(١) Medina-Sidonia تتصل نواحيها بنواحى موزور من أعمال الأندلس على ما يقول ياقوت ولكن المقرى يسهب فى وصفها ويتعرض لها فى كل مناسبة ويقرر أنها تعرف بالمنبر الطيب وأجود أنواع القهرمان والقرمز ، وكثر فيها أهل فلسطين فسميت فلسطين (نفح الطيب ١ : ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٩ و ٢٢١) وقد ورد ذكرها فى المغرب ١ : ٢٣٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

ذكر خروج العلاء وقتله

وفى سنة ستٍّ وأربعين ومائةٍ سار العلاءُ بن مغيث اليحصُبى من أفريقية إلى مدينة باجة [١] من الأندلس ، ولبس السواد وقام بالدَّعْوة العباسية . وخَطَبَ لأبى جعفر المنصور ، واجتمع إليه خلْقٌ كثير . فخرج إليه الأمير عبد الرحمن فالتقيا بنواحى إشبيلية وتحاربا زمانا ، فانهزم العلاء وأصحابُهُ ، وقُتِل فى المعركة سبعة آلاف فارسٍ وقُتل العلاء ، فأمر عبدُ الرحمن بعضَ التجارِ بحَمْل رأسه ورؤوس أصحابه إلى القيروان وإلقائها فى السُّوق سرًّا ففعل ذلك . ثم حُمل منها إلى مكة ومعه لواء أسود فوصلت والمنصور بمكة ومعه كتاب كان المنصور قد كتبه إلى العلاء [٢] .

وفى سنة سبعٍ وأربعين ومائة قدم رسول عبد الرحمن الذى أرسله إلى الشام فى إحضار ولده الأكبر سليمان ، وحضر معه سليمان .

ذكر خروج سعيد اليحصبى

المعروف بالمطرى وقتله

/ قال [٣] : وكان خروجُه فى سنة ثمان وأربعين ومائة بمدينة لبلة [٤] من الأندلس وسبب ذلك أنه سكر يوما ، فتذكَّر ١٧٥ ب

(١) Beja كورة من الكور الغربية التى كانت من أعمال إشبلية متصلة بكورة ماردة ومشهورة بدباغة الجلد وصنع الكتان وبوجود معدن الفضة .

(٢) فى نفح الطيب ١ : ٣٦١ تفصيل مفيد

(٣) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٢٦

(٤) Niebla قصبة إحدى الكور الكبيرة ، وبينها وبين قرطبة – عن طريق إشبيلية – خمسة أيام ، وهى بحرية برية غزيرة الزرع والشجر .

مَنْ قتل من قومه اليمانيَة مع العلاء ، فعقد لواء فلما صحا رآه معقودا ، فسأل عنه فأخبروه فأراد حَلّه ثم قال : ما كنت لأعقد لواءً ثم أحلّه بغير شيء وشرع فى الخلاف ، فاجتمعت اليمانيةُ إليه وقصد إشبيلية وتغلّب عليها وكثُرجمعُه ، فبادره عبد الرحمن فى جموعه . فامتنع المطرى فى قلعة زعواق لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فحصره بها وضيق عليه ، ومنع أهلَ الخلاف من الوصول إليه .

وكان قد وافقه على الخلاف علقمة اللخمى وكان بمدينة شَذُونة وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل وهم يريدون إمداد المطرىّ فى جمْع كثيرٍ . فلما سمع عبد الرحمن بذلك سيّر إليهم بدْرًا مولاه فى جيشٍ فحال بينهم وبين المطرىّ ، وطال الحصار وقلّت رجالُه بالقتل ، وفارقه بعضُهم. فخرج يوما من القلعة فقاتل فُقتل وحُمِل رأسُه إلى عبد الرحمن ، فقدّم أهلُ القلعة عليهم خليفةَ بن مروان ، فدام الحصار عليها . فأرسل أهلُها يطلبون الأمان من عبد الرحمن على أن يسلموا إليه خليفة فأجابهم إلى ذلك ، وتسلّم الحِصنَ وخرّبه وقتل خليفة وخَلْقا كثيرا مِمّنْ معه ثم انتقل إلى غِياث الأزدى وكان مِمّنْ وافق المطرىّ على الخلاف / فحصره ومَنْ معه وضَيّق عليهم فطلبوا الأمان فأمّنَهم إلا نفراً فقبض عليهم ، وعاد إلى قرطبةَ فلما عاد إليها خرج عليه عبد الله بن خراشة الأسدى بكورة جيّان (١) واجتمع إليه ١٧٢ ـ ا

(١) Jean كورة واسعة بالأندلس كما يقول ياقوت تتصل بكورة إلبيرة وتجمع =

جموع فأغار على قرطبة فسيّر إليه عبد الرحمن جيشا فتفرق جمعه ، فطلب الأمان فأمّنه ووفى له .

وفى سنة تسع وأربعين ومائة أغزى عبدُ الرحمن مولاه بدرًا إلى بلاد العدو فأخذ الجزية منهم .

وفيها عزل عبد الرحمن أبا الصباح حَىّ بن يحى عن إشبيلية فدعاه إلى الخلاف ، فخدعه عبد الرحمن حتى حضر عنده فقتله .

وفيها خرج غياث بن المسيّر الأزدى ، فخرج إليه عامل عبد الرحمن وقاتله فانهزم غِياثٌ ومنْ معه ، وقُتِل وحُمِل رأسُه إلى عبد الرحمن بقرطبة .

وفيها أمر عبد الرحمن ببناء سور مدينة قرطبة .

ذكر أخبار شقنا (١) بن عبد الواحد

وخروجه بالأندلس

كان خروجه بشرق الأندلس فى سنة إحدى وخمسين ومائة وكان من بربر مكناسة يعلّم الصبيان وكانت أمّه تُدْعَى فاطمة فادّعى أنه من ولد فاطمة رضى الله تعالى عنها وأنه من ولد الحسين ، وتَسمّى بعبد الله بن / محمد وسكن شنتبرية (٢) واجتمع ١٧٦ـ ب

= قرى كثيرة وبلدانا مختلفة ، وقال ابن سعيد إنها من أعظم مدن الأندلس فى المنعة وأكثرها خصبا ، وتعرف بجيان الحرير لكثرته فيها (المغرب ٢ : ٥١) .

(١) فى ا ، ك ١٠٤ ، ف ١٠٠ ـ ا « شقيا » .

(٢) Santeberia شنتبرية Sante Maria وشنتمرية ورسمها ابن الأثير شنت برية فى الكامل ٥ : ٣٤ ويقول ياقوت ، وقد رسمها بالرسمين فى موضعين (معجم البلدان ٣ : ٣٦٦ ، ٣٦٧ إنها مدينة بجوز سالم بالأندلس وهى شرق قرطبة وبها حصن اسمه شنت مرية ، وثمة فى الأندلس شنترة من أعمال لشبونة وشنترين مدينة متصلة بأعمال باجه وقرطبة .

عليه خَلْق كثير من البربر وعظُم أمرُهُ فسار إليه عبد الرحمن فلم يقف له وزاغ فى الجبال ، فكان إذا أمن انبسط وإذا خاف صعد الجبال حيث يصعُبُ طلبهُ . فاستعمل عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن عبد الملك ، واستعمل حبيبٌ على شنتبرية سليمان بن عفان ابن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، وأمر بطلب شقنا فنزل شقنا إلى سليمان فقتله . واشتَدَّ ذِكرُ شقنا وطار اسمُهُ ، وغلب على ناحية قورية (١) . وأفسد فى الأرض ، فعاد عبد الرحمن وغزاه فى سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه ، فلم يثبت له شقنا ، فأعياه أمره فعاد عنه ، وسير إليه فى سنة ثلاث وخمسين بدرا مولاه ، فهرب شقنا وأخلى حصنه شيطران ، ثم غزاه عبد الرحمن بنفسه فى سنة أربع وخمسين فلم يثبت له ، فعاد عنه وبعث لِحَرْبه أباعثمان عبد الله بن عثمان فخدعه شقنا وأفسد عليه جُنْدَه . فهرب عبد الله وغنم شقنا عسكره ، وقتل جماعة من بنى أمية كانوا فى العسكر وذلك فى سنة خمس وخمسين ومائة .

وسار شقنا إلى حصن الهواريين وبه عامل لعبد الرحمن فمكر به شقنا حتى خرج إليه ، فقتله وأخذ خَيْلَه وسلاحه وما كان معه . ولم يزل / شقنا كذلك وعبد الرحمن يغزوه تارةً بنفسه ١٧٧ ـ ا
وتارةً بجيوشه إلى سنة ستين ومائة فاغتاله أبو معْن وأبو خريْم وهما من أصحابه ، فقتلاه وأخذا رأسه ولحقا بعبد الرحمن واستراح الناس من شره !

(١) Coria مدينة فى نواحى ماردة حملت عبء قتال المسلمين للإفرنج فى سمورة مدينتهم .

ذكر عصيان أهل اشبيلية

على الأمير عبد الرحمن

قال (١) : وفى سنة خمس وخمسين ومائة خرج أهل إشبيلية عن الطاعة مع عبد الغفار وحيوة بن مُلابِس ، وكان عبد الرحمن قـد خرج من قرطبة لحرب شقنا واستخلف عليها ابنَه سليمان فأتاه كتابُة بخروجهم عن طاعته وعصيانِهم عليـه واتِّفاق من بها من اليمانية على ذلك . فرجع عبد الرحمن إليها ولم يدخلْ قرطبة ، وهاله ماسمع من اجتماعهم وكثرتهم ، فقدّم ابن عمِّه عبد الملك ابن عمر ، فلما قارب عبد الملك إشبيلية قدّم ابنهُ أمية ليُعْلِمه حالَهم ، فرآهم متيقظين فرجع إلى أبيه فَلامه أبوه على رجوعه وإظهار الوهن ، فضرب عنقَه وجميعَ بنيه وخاصَّته وقال : طردنا من المشرق إلى أقصى هذا الصُّقْع ونُحْسد على لقمة تبقِّى الرَّمَق ، اكسروا جُفونَ سيوفكم فالموت أولى أو الظفر ! فَفَعَلوا ، وحَمَل أمامهم فَهَزَمَ اليمانيَة / وأهل إشبيلية فلم يَقُمْ بعدها لليمانية قائمةٌ . ١٧٧-ب

وجُرِح عبدُ الملك وبلغ الخبر عبد الرحمن فأتاه وجُرحه يجرى دمًا وسيفُه يقطر وقدلصقت يده بقائمة سيفه ، فقبَّل بين عينيه وجزاه خيرا وقال له : يابن عم قد أنْكَحْتُ ابنى ولىَّ عهدِى هشاما ابنتَك فلانة وأعطيتُها كذا وكذا ، وأعطيتك كذا وكذا ، وأولادُك كذا وكذا ، وأقصَعْتُك وإياهم كذا وكذا ، ووليتك الوزارة ! وعبد الملك هذا هو الذى ألزم عبد الرحمن بقَطْع خطبة

(١) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٣٩ .

المنصور وقال له : تقطعها وإلا قتلت نفسى ! وكان قد خطب له عشرةَ أشْهُرٍ وقطعها .

قال (١) : وفى سنة سبع وخمسين ومائة سار عبد الرحمن إلى إشبيلية وقتل خَلْقًا كثيرا مِمَّن كان مع عبد الغفار ، وبسبب هذه الوقعة وحِشِّ العَربِ مال عبدُ الرحمن إلى اقتناء العبيد .

وفى سنة سِتٍّ وخمسين سَخِطَ الأمير عبد الرحمن على مولاه بدرٍ لِفَرْط إدلاله عليه ، وأخَذ ماله وسلب نعمته ونفاه إلى الثغور ولم يَرْعَ له حقوقَ الخدمة .

وفى سنة ثمانٍ وخمسين ومائة زا الأمير عبد الرحمن مدينة قورية وقَصد البربرَ الذين كانوا أسلموا عاملَه إلى شقنا فقتل منهم خلقا كثيرا من أعيانهم !

١٧٨ - ا / ذكر عبور الصقلبى الى الأندلس

وما كان من أمره إلى أن قتل

وفى سنة إحدى وستين ومائة وقيل سنة ستين عبر عبدُ الرحمن ابن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى - ولم يكن صقلبيا وإنما سُمِّى بذلك لطوله ورقته وشقرته - من أفريقية إلى الأندلس ليحارب عبد الرحمن ويدعوه إلى طاعة المهدى بن أبى جعفر المنصور . وكان

(١) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٤٠ ويلاحظ أن الذويرى عاد إلى سنة ست وخمسين بعد ذلك مباشرة !

عبورُه فى ساحل تُدمير [١] ، وكاتب سليمان بن يقظان بالدُّخول معه ، وكان سليمان ببرشلونة فلم يجبه ، فاغتاظ الصقلبى وقصد بلده فيمَن معه من البربر . فقصده سليمان والتقَوْا واقتتلوا ، فهزمه سليمان ، فعاد الصقلبى إلى تُدمير ، وجاء عبد الرحمن نحوه وأحرق السفنَ ليمنَعه من الهرب ، فقصد الصقلبى جبلا منيعا بناحية بَلَنْسِية [٢] . فبذل عبدُ الرحمن ألف دينار لِمَن يأتيه برأسه فاغتاله رجل من البربر وحمل رأسه إلى عبد الرحمن ، فأعطاه ألف دينار ، وكان قتله فى سنة اثنتين وستين ومائة .

وفى سنة اثنتين وستين ومائة أرسل عبدُ الرحمن شهيدَ بنَ عيسى إلى دُحَيَّة الغسانى وكان عاصيا فى بعض حصون إلبيرة ، فقتله وسير بدرًا مولاه [٣] / إلى إبراهيم بن شجَرَة وكان قد عَصَى عليه فقتله . وسير تمَّام بن عَلْقَمة إلى العباس البربرى - وهو فى جمع البربر وأظهر العصيان - فقتله وفرق جموعه . ١٧٨-ب

وفيها سيّر جيشا مع حبيب بن عبد الملك القرشى إلى القائد المُسلمى ، وكان حسن المنزلة عند عبد الرحمن . فشرب ليلة وقصد باب

---

(١) Tudmir من كور الأندلس الشرقية ، غلب عليها سكان مصر فسميت مصر ، واسمها كان لملكها الذى اتخذ أريولة عاصمة له فيها (راجع نفح الطيب ١ : ١٥٥ ، و ٢٢٢ ، ٢٤٧) .

(٢) Valencia مدينة متمكنة لحضارة جليلة القدر كما جاء فى المغرب ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، تعتبر مطيب الأندلس وحفت بالأنهار والجنان ، وأما فى معجم ياقوت فهى كورة ومدينة مشهورة تقع شرق قرطبة وهى برية بحرية بينها وبين تدمير أربعة أيام ..

(٣) سبق أن ذكر فى حوادث سنة ست وخمسين ومائة أن الأمير عبد الرحمن سخط على بدر ونكل به ، ويبدو أنه عاد فعفا عنه .

القنطرة ليفتحه على سُكْرٍ ، فمنعه الحرس فعاد . فلما صحا من سُكره خاف فهرب إلى طليطلة واجتمع إليـه كثير ممَّن يريد الخلافَ والشَّرّ فعاجله عبد الرحمن بإنفاذ الجيوش ، فحَصَره فى مكان كان قد تحصّن به ، فطلب السُّلَمى البراز فبرز إليه عبد أسودُ فاختلفا ضربتين فوقعا صريعين وماتا جميعا .

وفى سنة ثلاثٍ وستين ومائةٍ أظهر الأمير عبد الرحمن التَّجَهُّزَ إلى الخروج لِقصد الشام لطلب الثأر من بنى العباس فعَصَى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الأنصارى بِسَرَقُسْطة (١) واشْتَدَّ أمرُهما فرجع عن ذلك وترك ماكان أظهره منه .

وفى سنة خمسٍ وستين ومائةٍ غدر الحسين بن يحيى بسرقسطة ونَكَثَ ، فسيَّر إليه عبد الرحمن غالبَ بن تمام بن علقمة فى جُنْدٍ كثيف فاقتتلوا ، فأسر جماعةً من أصحاب الحسين فيهم ابنُه عيسى ، فسيّرهم إلى عبد الرحمن / فقتلهم ، وأقام غالب بن تمام بن ١٧٩ ـ ا
علقمة يحاصر الحسين . ثم سار عبد الرحمن فى سنة ستٍّ وستين إلى سرقسطة فحَصَرها وضايقها ونصب عليها ستَّةً وثلاثين منجنيقا ، فملكها عَنْوَةً وقتل الحسين أقبح قتلة ، ونفى أهل سرقسطة منها ليمينٍ كانت تَقَدَّمَتْ منه ، ثم ردَّهم إليها .

(١) Saragossa تقع فى الأندلس الشرقى على نهر ابرة الذى يصب فى البحر المتوسط و قد افتتحها العرب عام ٧١٢ للميلاد واستردها الفرنج بعد أربعة قرون وسبع سنين ، وقد شهرت بالثياب السرقسطية .

وفى سنة ستٍّ وستين ومائةٍ قتل عبد الرحمن ابن أختِهِ المغيرةَ بن الوليد بن هشام وهذيل بن الصُّمَيْل وسمرة بن جبلة لاجتماعهم على خَلْعه مع العلاء .

ذكر مخالفة أبي الأسود

محمد بن يوسف الفهرى

وفى سنة ثمانٍ وستين ومائةٍ ثار أبو الأسود محمد بن يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى ببلاد الأندلس . وكان من خبره أنه كان فى السجن بقرطبة منذ هرب أبوه على ماتَقَدَّم ، فأظهر أنه عَمِيَ وصار لا يطرف عينه لشىء ، وبقى دهرا طويلا حتى صح عند عبد الرحمن ذلك . وكان فى أقصى السجن سردابٌ يُفْضى إلى النَّهْر الأعظم يخرج منه المسجونون يقضون حوائجهم من غسل وغيره ، وكان الموكلون يهملون أبا الأسود لعماه فإذا رجع من النهر يقول : من يدل الأعمى إلى موضعه ! وكان مولى له / بحادثه على شاطىء النهر فلا ينكر عليه . ١٧٩ـ ب

فواعده أن يأتيه بخيلٍ يحمله عليها فخرج يوما ومولاه ينتظره فعبر النهر سباحةً وركب الخيل ولحق بطليطلة فاجتمع إليه خلق كثير فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمن . فالتقيا على الوادى الأحمر بقسطلونة [1] واشتدَّ القتال فانهزم ابن الفهرى ، وقتل من أصحابه أربعة آلاف سوى من تردّى فى النهر . وأتبعه عبد الرحمن فقتل

(١) Castellon فوق بلنسية على شاطىء البحر قبالة ميورقه ومورقة وهى ليست فى معجم ياقوت ولا فى صفة الأندلس للحميرى والموجود قسطلة (راجع ياقوت ٤ : ٣٤٧ وصفة جزيرة الأندلس صفحة ١٦٠) .

منْ لحق حتى جاوز قلعة رباح ، ثم جمع أبو الأسود الرجال وعاد إلى قتال عبد الرحمن سنةَ تسع وستين ومائةٍ فهلك بقرية من أعمال طليطلة . وقام بعده أخوه قاسم وجمع جمْعًا فغزاه عبد الرحمن فجاء إليه بغير أمان فقتله

وفى سنة سبعين ومائة أمر عبد الرحمن ببناء جامع قرطبة ـ وكان موضعه كنيسة ـ وأخرج عليه مائة ألف دينار، ولم يتم بناؤه فى حياته فأتمه ابنُه بعده

ذكر وفاة عبد الرحمن

وصفته وشىء من أخباره وسيرته

١٨٠ـ١ / كانت وفاته بقرطبة فى يوم الثلاثاء لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنةَ إحدى وسبعين ومائة ، وقيل توفى فى غرة جُمادى الأُولى سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وهو الصحيح وصلَّى عليه ابنه عبد الله ، وكان قد عهد إلى ابنه هشام بمدينة مارِدة واليا عليها ، وابنه سليمان بطليطلة واليا عليها ، فلم يحضرا موت أبيهما .

وكان مولد عبد الرحمن بدير حنا من عمل دمشق ، وقيل بالعلياء من ناحية تَدْمُر فى سنة ثلاثَ عشرةَ ومائةٍ فكان عمره تسعا وخمسين سنة ، ومدةُ ولايته بالأندلس ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعةَ أشهر وأربعةَ عشر يوما . وكان أصهب (١) خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم أعور ، وكان فصيحا لَسِنا شاعرا حليما عالما حازما ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه لا يخلد إلى راحة ،

(١) أصهب : من الصهبة وهى لون حمرة فى شعر الرأس (القاموس المحيط)

ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكل أموره إلى غيره ، ولاينفرد فى إبرامها برأيه . وكان يُشَبَّه بأبى جعفر المنصور فى حزمه وشِدّته وضَبْطه لملكه (١) ، وبنى الرصافة بقرطبة تشبها بجده هشام حيث بنى الرصافة بالشام ، وقال (٢) . : وكان عبد الرحمن من ذوى الآداب ، وله شِعر حسن ، فمن شعرِه ماقاله بالأندلس يتشوق معاهده بالشام :

أيُّهـا الراكبُ المُيَمِّمُ أرضى ... أقرِ من بعضِى السَّلام لِبعْضِى
/ إنَّ جِسمى كما علِمْتَ بأرض ... وفؤادى كما عملتَ بأرضِ ١٨٠-ب
قُدِّر البيْن بيْننَا فَافترقْنَـا ... وطوى البين عن جُفونِىَ غُمْضى
قدْ قضَى الله بالفراق علينـا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ومن شعره ما قاله لما عمَّر الرصافة بقرطبة ، وقد رأى فيها نخلة منفردة ، فقال :

تَبدَّتْ لنا بينَ الرُّصافة نَخْلَةٌ
تَنَاءتْ بأرض الغَرْبِ عن بلَدِ النَّخْل
فقلت شبيهى فى التَّغرُّب مثلها ... وطولُ اكتئابى عن بَنِىَّ وعن أهلى
نشَأتِ بأرضٍ أنتِ فيه غريبةٌ ... فَمِثلكِ فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقَتْكِ غوادِى المُزْن من صوْبها الذى
يَسِحُّ ويستمرى السِّماكَيْن بالوبل (٣)

(١) راجع نفح الطيب ١ : من ٣١٠ إلى ٣١٣
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٨٤
(٣) روبت الأبيات فى الكامل ٥ : ٨٤ باختلاف يسير .

وله غير ذلك من الشعر . وسار أحسنَ سيرة وكان نقش خاتمه « بالله يثق عبد الرحمن ويعتصمُ » . وكان له من الأولاد الذكور أحد عشر ولدًا وهم أيوب الشامي ولد بالشام ، وسليمان وهشام ولى عهده وهو الوالى بعده وُلد بالأندلس ، وعبد الله ولد ببلنسية وعرف بالبلنسى ومسلمة المعروف بكليب وأمية ، ويحيى ، والمنذر ، وسعيد الخير ، ومحمد ، والمغيرة ، ومعاوية ، وتسع بنات .

حاجبه : تمام بن علقمة وغيره .

كتّابه : أبو عثمان ، وعبد الله بن خالد ، وغيرهما

١٨١ ـ ا قضاته : يحيى بن يزيد التجيبي ومعاوية بن يوسف/ الحضرمى ، وعمر بن شراحيل ، وعبد الرحمن ابن طريف اليحصبي .

ذكر امارة هشام

هو أبو الوليد هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد واسمها حوراء (١) وهو الثانى من ملوك بنى أمية بالأندلس . بويع له فى غُرَّة جُمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة عند وفاة أبيه . وقيل فى يوم الثلاثاء لِبِستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة والله أعلم . وكان بماردة متوليا عليها ـ كما ذكرنا ـ وكان أبوه قد عهد إليه قبل وفاته ، وقدّمه على سليمان وهو أكبر منه لأنه كان يَتوَسَّم فيه الشّهامة ، فلذلك عهد إليه فبايع له أخوه عبد الله وكتب إليه بنعى أبيه ويعزيه به ويعرفه أنه بايع الناسَ له فلما وصل إليه

(١) فى نفح الطيب ١ : ٣١٣ « اسمها حلل » وفى ك ١٠٦ « حوار »

الكتابُ سار من ساعته إلى قرطبة فدخلها فى ستة أيام ، واستولى على المُلْك ، وخرج عبد الله إلى داره مُظْهِرا الطاعةَ وفى نفسه خلاف ذلك !

ذكر خروج سليمان وعبد الله

ابنى عبد الرحمن على أخيهما هشام

/ وفى سنة ثلاث وسبعين ومائة خرَجَا على أخيهما ، وكان عبد الله عند ١٨١-ب أخيه هشـام وهو يؤثره ويبرُّه ويقدمه ، فلم يُرْضِه ذلك ولا قنع إلا بمشاركته فى الأمر ، ثم خاف فَهرَب إلى أخيه سليمان وهو بطليطلة . فأرسل هشام فى أثره جماعةً ليردُّوه ، فلم يدركوه ، فجمع هشام عساكره وسار إلى طليطلة فحصر أخويه بها .

وكان سليمان قد حَشد وجمع جمْعًا كبيرا فلما حصرها هشام سار سليمان من طليطلة وترك ابنه وأخاه عبد الله يحفظان البلاد ، وسار هو إلى قرطبة ليملكها ، فعلم هشام به فلم يفارق الحصار .

وسار سليمان فوصل إلى شقُنْدَة (١) فدخلها ، وخرج إليه أهل قرطبة مقاتلين له ، ودافعوه عن المدينة . وبعث هشام فى أثر سليمان عبدَ الملك فى قطعةٍ من الجيش ، فلما قاربه هرب سليمان وقصد مدينة مارِدة ، فحَاربَه واليها ، فانهزم سليمانُ . وبقىَ هشام على طليطلة شهرين وأياما محاصرًا لها ، ثم عاد منها وقد قطع أشجارها ، وسار إلى قرطبة ، وأتاه أخوه عبد الله بغير أمان فأكرمه وأحسن إليه .

ثم سيَّر هشام ابنَه معاويةَ فى جيشٍ كثيف فى سنة أربع وسبعين

---

(١) Xecunda بلدة رومانية كانت واقعة تجاه قرطبة على الشاطىء الأيسر للوادى الكبير ، ومنها إسماعيل الشقندى الأديب الأندلسى الكبير ، وفى صفة جزيرة الأندلس قرية بعلوة نهر قرطبة (صفحة ١٠٤)

إلى تُدمير وبها سليمان فحاربه ، وخرّب أعمالَ تُدمير ، فهرب سليمان منها ، فلجأ إلى البربر بناحية بَلَنسية ، فاعتصم بتلك الناحية الوعرة/ المسلك . وعاد معاويةُ إلى قرطبة ، ثم استقرّت الحال بين هشام وسليمانَ أن يأخذ سليمانُ أهله وأولاده وأمواله ويفارق الأندلس ، وأعطاه هشام ستين ألفَ دينارٍ مصالحةً عن ميراث أبيه عبد الرحمن وسار إلى بلد البربر فأقام به . ١٨٢ ـ ا

ذكر خروج جماعة أخر على الأمير هشام

وفى سنة اثنتين وسبعين خرج عليه أيضا سعيد بن الحسين ابن يحيى الأنصارى بشاغنت ـ من أقاليم طُرطُوشة [١] فى شرق الأندلس ـ وكان قد التجأ إليها حين قُتِل أبوه ، ودعا إلى اليمانية وتعصّب لهم ، فاجتمع له خَلْقٌ كثير ، فملك مدينة طُرطوشة فأخرج عاملَها يوسف القَيْسىّ . فعارضه موسى بن فرتون وقام بدعوة هشام ، ووافقته مُضَر ، فاقتتلا فانهزم سعيد وقُتل ، وسار موسى إلى سرقسطة فملكها فخرج عليه مولى الحسين بن يحيى واسمه جحدر فى جمع كثير فقاتله فقُتِل موسى .

وخرج أيضا مطروح بنُ سليمانَ بنِ يقظانَ بمدينة برشلونة ، وخرج معه جمع كثير ، فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشْقَة [٢] /وتغلب على تلك الناحية وقَوِى أمرُهُ ، وكان هشام إذ ذاك فى حربِ ١٨٢ ـ ب

(١) Tortosa فى المغرب ٢ : ٤٢٣ مملكة فى شرق بلنسية : ثم ذكر بعد مايدل على أنها ثغر .

(٢) Huesca فى ا ، ك ، ف « أشقة » وما ها هنا الرسم الدائر فى المظان وجاء فى المغرب ٢ : ٤٦٠ أنها من مشاهر مدن الثغر ، وهي فوق سرقسطة وتحت جبال البرت .

أخويْة سليمانَ وعبدِ الله ، فلما خَلَا وجهُه من أمْرِ أخوَيْه انتدب لمطروحٍ جيشا كثيفا وجعل عليهم أبا عثمانَ عبيد الله بن عثمان . فسار إليه وهو بسرقسطة فحصروه بها فلم يظفروا به ، فرجع عنه أبو عثمان ونزل بحصن طرسونة[1] بالقرب من سرقسطة ورتّب سراياه يغيرون على أهل سرقسطة ويمنعون عنهم الميرة . ثم خرج مطروح إلى الصيد فى بعض الأيام ، فلما كان آخر النهار أرسل البازى على طائر فاقتنصه فنزل مطروح ليذبحه بيده ومعه صاحبان له قد انفرد بهما عن أصحابه فقتلاه وأتيا برأسه إلى أبى عثمان ، فسار إلى سرقسطة فكاتبه أهلها فقبل منهم وأرسل الرأس إلى هشام .

قال[2] : وأخذ أبو عثمانَ الجيشَ وسار بهم إلى بلاد الفرنج فأوقع بهم وظفر وقتل منهم خلقا كثيرا ، وبعث هشام يوسف ابن بخت فى جيش إلى جليقية فَلَقِيَ ملكهم ، فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزمت الجلالقة وقتل منهم خلق كثير .

وفيها أيضا سَجَنَ هشامٌ ابنَه عبدَ الملك لشىء بلَغَه عنه ، فَبَقِيَ فى السجن مدةَ حياةِ أبيه وبعض ولاية أخيه إلى أن تُوفِّيَ سنة ثمان وتسعين ومائة

/وفى سنة ست وسبعين ومائة غزا عبد الملك بن عبد الواحد بلاد الفَرَنْجِ فغنم وظفر . ١٨٣ـ١

(١) مدينة بينها وبين تطيلة أربعة فراسخ ، وفى النجوم الزاهرة ٢ : ٧٧ « طرطوشة ».
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٨٩

وفيها استعمل هشام ابنَه الحكَم على طليطلة وسيّره إليها يضبطها ، وأقام بها ، ووُلِد له بها ابنُه عبد الرحمن .

ذكر غزو الفرنج

وفي سنة سبع وسبعين ومائةٍ أغزى هشام عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث فى جيش ، فدخلوا بلاد الفَرَنْج فبلغوا أربونة وجرندة (١) فبدأ بجرندة وبها حامية الفرنج فقتل رجالَها وهدم أسوارَها وأشرف على فتحها . ورحل عنها إلى أربونة ففعل مثل ذلك وأوْغل فى بلادهم ووطىء برطانية واستباح حريمها وقتل مُقاتِلتَها وجاس البلاد شهورا يُخرِّب الحصون ويحرق ويغنم . وجفل العدو بين يديه ، وأوغل فى بلادهم ورجع ومعه الغنائم وما لا يُحْصَى كثرة ، وهى أشهر مغازى المسلمين بالأندلس .

وفى سنة ثمان وسبعين ومائة بعث هشامٌ جيشا مع عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج فغزا ألبة والقلاع (٢) فغنم وسلم . وسيَّر جيشا آخر مع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد الجلالقة فخرَّبَ دار ملكهم وكنائسَه وغنم ، فلما قفل المسلمون ضلَّ الدليل بهم فنالهم مشقة شديدة ومات منهم خلق كثير ، ونفقت دوابُّهم وتلفت آلاتهم ، وعاد من سلم منهم . ١٨٣ ـ ب

(١) Narbonna لا تدخل فى حيز الأندلس وإن تكن قريبة (راجع نفح الطيب ١ : ١٢٥) ويقول عنها ياقوت هى بلد فى طرف الثغر من أرض الأندلس ، بينها وبين قرطبة ألف ميل . وأما جرندة فترد فى بعض الكتب جريدة بتصحيف فهى Gerona

(٢) ذكر ياقوت ألبة بالياء وضم همزة وذكر أنها ناحية من نواحى إشبيلية ولكن رسمها الصحيح ما أثبتناه Alva et castella vetua

ثم بعثه فى سنة تسع وسبعين فى جيش كثيف فساروا حتى انتهروا إلى أَسْتُرْقة [١] وكان ملك الجلالقة قد جمع وحشد واستمد جيرانه من الملوك ، وصار فى جمع عظيم . فلما قدم عبد الملك رجع ملك الجلالقة هيبةً له ، وتبعهم عبد الملك يقفو أثرَهم ويخرب ، وهتك حريم ملك الجلالقة ! وبلغه أنه احتمى بواد فسار إليه وواقعه يوم الجمعة لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة فهزمه ، وقتل من قمامصتهم ورؤسائهم كثيرا ، ورجع سالما .

وكان هشامٌ قد سيَّر جيشا آخر من ناحية أخرى ، فدخلوا البلاد أيضا على ميعاد من عبد الملك ، فأخربوا ونهبوا وغنموا فلما أرادوا الخروج من بلاد العدو عارضهم عسكر الفرَنج ، فنال منهم ، وقتل من المسلمين ، ثم تخلصوا وعادوا [٢] .

ذكر فتنة تاكرنا

وفى سنة ثمان وسبعين ومائة هاجمته فتنة تاكرنا [٣] بالأندلس ، وخلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد ، وأغاروا على البلاد وقطعوا الطريق ، فسيَّر هشامٌ إليهم جيشا كثيفا عليهم عبد القادر بن أبان بن عبد الله مولى معاوية بن أبى سفيان ، فقصدوها وتابعو

(١) Astorga وقد رسمتها ا « أسرقه » وما ها هنا عن ك صفحة ١٠٨ وهى فى الشمال الغربى بجليقية .

(٢) راجع نفح الطيب ١ : ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٣) كذا فى وفى ك ١٠٨ وفى ف ١٠٤ – ب وما فى معجم البلدان ٥ : ٦ « تاكون» فلعلها هنا محرفة ، وقال عنها ياقوت كورة كبيرة بالأندلس ذات جبال حصينة يخرج منها عدة أنهار وفيها معقل رندة ويلاحظ أن لحميرى ضبط تاكرنى « تاكرنا » (صفة جزيرة الأندلس صفحة ٧٩) .

١٨٤ـا قتال مَنْ فيها ، / إلى أن أبادوهم قتلاً وسَبْيًا ، وفرَّ من بَقِيَ منهم فدخل فى سائر القبائل ، وبقيت كورة تاكرنا خالية سَبْع سنين !

ذكر وفاة هشام بن عبد الرحمن

وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه فى ليلة الخميس لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَت من صفر سنة ثمانين ومائة بقصر قرطبة وكان عمره تسعًا وثلاثين سنةً وأربعةَ أشهر ، ومدة ولايته (على القول الأول) سبع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوما . وكان أبيضَ مشربا بحمرة أشهل ، بعينيه حول وكان عاقلا حازما ذا رأى وشجاعة وعدل ، محبا لأهل الخير والصلاح ، راغبا فى الجهاد . وكان يعود المرْضَى ويشهد الجنائز ، ومن محاسن أعماله أنه أخرج متصدقا يأخذ الصدقة على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وهو الذى تمَّمَ بناء جامع قرطبة وبنى عِدَّة مساجد ، وبلغ من عز الإسلام فى ولايته وذل الكفر أنَّ رجلا مات وأوْصَى بفَكِّ أسيرٍ من المسلمين من تركته ، فَطُلِب ذلك فلم يوجدْ فى دار الكفار أسيرٌ من المسلمين يُشْتَرى ويفَكُّ لضعف العدو ! وله مناقب كثيرة بالغ أهل
١٨٤ـب الأندلس فيها حتى قالوا / كان يُشبِّهُ بعمر بن عبدالعزيز ، وكان نقش خاتمه « بالله يثق هشام ويعتصم » .

وكان له من الأولاد الذكور عبد الملك الأكبر ، والحكم الوالى بعده ، ومعاوية ، والوليد ، وعبد العزيز ، وخمس بنات .

وزراؤه : أبو عثمان صاحب الأرض ، ويوسف بن بخت (١) وشهيد بن عيسى وغيرهم. حجابه : عبد الواحد بن مغيث إلى أن توفى ، ثم ولده عبد الملك وهو رجل الأندلس جمع الحِجابة والوزارة والكتابة والتقدُّم على الجيوش مع حسن الأدب والعفاف والدين والتواضع والكرم والمروءة. كتابه : فطيس بن سلمة ، وخطَّاب بن يزيد. قاضيه : المصعب بن عمران الهمذانى . أصحاب شرطته : الحسن ابن بسام ، ثم على بن خريم المزنى ، ثم سعيد بن عياض اليحصبى .

ذكر امارة الحكم بن هشام

الملقب بالمرتضى

هو أبو العاص الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمُّه أم ولد اسمها زخرف ، وهو الثالث من ملوك بنى أمية بالأندلس . بويع له يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة ، وتولَّى أخْذَ البيعةِ له عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، ولما ولىَ الحكم ١٨٥ كان أول ما بدأ به الغزو فى سبيل الله تعالى .

ذكر غزو الفرنج

فى هذه السنة أعنى – سنة ثمانين ومائة – بعث الحكم جيشا مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج ، فدخل البلاد وبثَّ السرايا . وسيَّر سرية ، فجازوا خليجا من البحر كان الماء قد جزر عنه وكان الكفار قد جعلوا أموالهم وأهلهم

(١) فى نفح الطيب ١ : ٣١٦ « ابن نجية »

وراء ذلك الخليج ظنا منهم أن أحدًا لايقدر أن يعبر إليهم . فجاءهم مالم يكن فى حسبانهم ، فغنم المسلمون جميعَ أموالِهم ، وأسروا الرجال وقتلوا منهم فأكثروا القتل ، وسبوا الحريم والذُّريَّة ، وعادوا سالمين .

وما أشبه هذه الواقعة بفتح طرابلس الشام ! فإنه لما فتحها السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحى - قدَّس اللهُ روحه - فى سنة ثمان وثمانين وستمائة جزَرَ البحرُ ساعة الفتح وانطرد عنها حتى دخل المسلمون بخيلهم إلى جزيرة النحله وهى بعيدة عن الميناء ، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى موضعه .

قال[1] : وعاد المسلمون إلى عبد الكريم وقد ملأُوا أيديهم من الغنائم . وسير طائفةً أخرى فخربوا كثيرا من بلاد فرنسية[2] وغنموا الأموال وأسروا الرجال فأخبرهم بعضُ الأسرى أن جماعةً من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى وادٍ وعْر المسلك على طريقهم وبلغ ذلك عبد الكريم فجمع عساكره وسار على بغيته وَجدَّ السير ، فلم يشعر الكفارُ إلا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيفَ فيهم فانهزموا ، وغنم المسلمون مامعهم وعادوا بالظفر والغنيمة والسلامة . ١٨٥-ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ١٠٢ .

(٢) فى النسخ الثلاث بلا نقط « فوسه » وتنقطها « وموسنه » و ك ١٠٩ و ف ١٠٥ « قوسنة » فلعلها مرسيه Murcia وما هناها عن الكامل ٥ : ١٠٢ .

ذكر خلاف بهلول بن مرزوق وغيره

وفى سنة إحدى وثمانين ومائة خالف بهلول بن مرزوق المعروف بأبى الحجاج فى ناحية الثغر ، ودخلل مدينة سرقسطة فملكها . وقدم على بهلولٍ بها عبدُ الله بن عبد الرحمن عمُّ الحكم - وهو المعروف بالبلنسى - وكان متوجهًا إلى الفرنج ، ثم سار إلى مدينة طلبيرة [1] فنزل بها مع عمروس [2] بن يوسف . فسار إليهم بهلول وحاصرهم فتفرق العرب عنهم ، ودخل بهلول مدينة طلبيرة وسار عبد الله إلى مدينة بلنسية فأقام بها وذلك فى سنة أربع وثمانين .

وخالف عبيدة بن حمير بطليطلة ، فأمر الحكم القائد عمروس ابن يوسف وهو بمدينة طلبيرة أن يحارب أهل طليطلة ففعل ، وضيق عليهم ، وكاتب رجالا من أهلها يُعرفون بنى مخشى وأسمالهم ، فوثبوا على عبيدةَ ، / فقتلوه وحملوا رأسه إلى عمروس فأنزلهم ١٨٦-١
عنده - وكان بينهم وبين البربر الذين بمدينة طلبيرة دخول - فتسوَّر البربر عليهم ، فقتلوهم ، وسير عمروس رؤوسهم مع رأس عبيدة إلى الحكم وأخبره الخبر

(١) فى كل النسخ « أسفه » ولا وجه لها إلا أن تكون « أسقفه » رستاق مشجر قصبة غافق كما يقول ياقوت وأما « ما هنا فمن الكامل » : Talavera من أعمال طليطلة على نهر تاجه

(٢) فى كل النسخ « عمرويس »

ذكر مسير سليمان بن عبد الرحمن

لقتال ابن أخيه الحكم وقتل سليمان

وفى سنة اثنتين وثمانين ومائة جاز سليمان بن عبد الرحمن إلى بلاد الأندلس من الشرق لحرب ابن أخيه الحكم ، فسار إليه الحكم في جيوش كثيرة من أهل الشقاق ومَن يريد الفتنة ، والتقيا واقتتلا ، واشتدتِ الحرب فانهزم سليمانُ وأتبعه عسكر الحكم . وعادتِ الحربُ بيْنهما ثانيةً في ذى الحجة ، فانهزم سليمانُ واعتصم بالأوعار والجبال ، فعاد الحكم ، ثم عاد سليمان فجمع بربرا وأقبل إلى جانب إستجة[1] . فسار إليه الحكم فالتقوا واقتتلوا فى سنة ثلاث وثمانين ، واشتد القتال فانهزم سليمان وقصد جهة ماردة [2] فتبعه طائفة من عسكر الحكم فأسروه ، وأحضروه إلى الحكم فقتله ، وبعث برأسه إلى قرطبة ، وكتب إلى أولاد سليمان وهم بشرقسطة كتابَ أمانٍ واستدعاهم فحضروا عنده بقرطبة .

ذكر استيلاء الفرنج على برشلونة

وفي سنة خمس وثمانين ومائة ملَك الفَرنْجُ – لعنهم الله تعالى – مدينة برشلونة [3] بالأندلس ، وأخذوها من المسلمين ، ونقلوا

---

(١) Ecija كورة أندلسية متصلة بأعمال رية وهى واسعة الرساتيق على نهر سنجل وكانت قاعدة إقليم إشبيلية الغربى ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، وقد فتحها طارق عام ٧١١ للميلاد .

(٢) فى ا « به مار » وفى الكامل ٥ : ١٠٨ « قرية » وما ها هنا عن ك صفحة ١١٠ .

(٣) Barcelona ويكتبها العرب أحيانا برشنونة ، ميناء على البحر المتوسط فى الشمال الشرقى وقال الحميرى إنها مدينة للروم بينها وبين طركونه خمسون ميلا (صفة الأندلس صفحة ٤٢)

حماة ثغورهم إليها ، وتأخر المسلمون إلى ورائهم وكان سبب ذلك اشتغال الحكم بمحاربة عمه [سليمان بن عبد الرحمن] (١) .

ذكر الاتفاق بين الحكم وبين عمه

عبد الله البلنسى

وفي سنة سِتٍّ وثمانين ومائة حصل الاتفاق بين الأمير الحكم بن هشام وبين عمِّه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ، وذلك أن عبد الله لما سمع بقتل أخيه سليمان عظم عليه وفُتَّ فى عضدِه ، وخاف على نفسه ، ولزم بلنسية ولم يتحرك لإثارة فتنة . وأرسل إلى الحكم يطلب المسالمةَ والدخول فى الطاعة ، وقيل بل الحكم راسله في ذلك وبذل له الأرزاق الواسعة له ولأولاده ، فأجاب إلى ذلك ، واستقر الصلح بينهما على يد يحيي بن يحيي صاحب الإمام مالك بن أنس . وزوَّج الحكم أخواته من أولاد عمه عبد الله ، وأكرم عمَّه وأجْرى له ولأولاده الأرزاق الواسعة والصلات السنية . وقيل كانت المراسلة / فى هذه السنة ، واستقر الصلح فى سنة سبع وثمانين . ١٨٧ ـ ا

ذكر استيلاء الفرنج على مدينة تطيله

وفى سنة سبع وثمانين ومائة ملك الفرنج ـ لعنهم الله ـ مدينة تُطَيْلَة (٢) . وسبب ذلك أن الحكم بن هشام استعمل على ثغور الأندلس قائدا كبيرا من قواده وهو عمروس بن يوسف . فاستعمل عمروس ابنه يوسف على تطيلة . وكان قد انهزم من الحكم

(١) زيادة من نسخة ك صفحة ١١٠ .

(٢) Tudela كورة ومدينة شرق قرطبة كثيرة الأنهار والأشجار ، وقال الحميرى إنها مدينة بالأندلس فى جوف وشقة وبين الجوف والشرق من مدينة سرقسطة (صفة الأندلس صفحة ٦٤)

أهلُ بيت من بيوت الأندلس أولُو قُوَّةٍ وبأْسٍ ، وخرجوا عن طاعته ، والتحقوا بالمشركين فَقَوىَ أمرهم ، واشتدت شوْكتُهم ، وتقدموا إلى تُطيلة فحصروها وملكوها من المسلمين ، وأسروا أميرها يوسف بن عمروس وسجنوه وتقدموا بصخرة قيس . واستقر عمروس بمدينة سَرَقُسْطة ليحفظها من الكفار ،وجمع العساكر وسيرها مع ابن عمٍّ له ، فلقى المشركين فقاتلهم وفَضَّ جمْعَهم ، وقتل أكثرهم ، وسار إلى صخرة قيس بالجيش فحصرها وافتتحها وخلَّص يوسف منها .

ذكر ايقاع الحكم بأهل قرطبة

كان ذلك فى سنة سبعٍ وثمانين ومائة . وسببه أن الحكم فى صدْرِ ولايته كان / قد تظاهر بِشُرْب الخمر والانهماك على الملذات . وكانت قرطبة دارَ علم وبها فضلاء أهل علم وورع ، منهم يحيى بن يحيى الليثى راوى موطأ مالك بن أنس وغيره . فثار أهل قرطبة وأنكروا فعل الحكم ورموه بالحجارة وأرادوا قَتْلَه ، فامتنع منهم ثم سكن الحال واجتمع بعد ذلك بأيامٍ وجوهُ أهلِ قرطبةَ وفقهاؤها وحضروا عند محمد بن القاسم القرشى المروانى — عم هشام بن حمزة — وأخذوا له البيعةَ على أهل البلد وعرَّفوه أن الناس قد ارتضوه كافَّةً . فاستظهرهم ليلةً ليرى رأْيَه ، ويستخيرَ الله تعالى فانصرفوا ، وحضر هو عند الحكم وأعلمه الحالَ وأنه على بيْعته له لم يتغير ،فطلب الحكمُ تصحيح ذلك عنده وسيَّر مع محمد ابن القاسم بعض ثقاتِه فأجلسه محمد فى قبة فى دارهِ وأخفى أمره . وحضر عنده القوم يستعلمون منه هل يتقلد أمرهم أم لا .

١٨٧ — ب

فأراهم المخافة على نفسِهِ وعظَّم عليهم الخَطْبَ وسألهم تعدادَ أسمائهم ومن معهم ، فذكروا له جميع مَنْ معهم من أعيان البلد وصاحبُ الحكم يكتب أسماءهم ، فقال لهم محمد بن القاسم : يكون هذا الأمر يومَ الجمعة إن شاء الله تعالى فى المسجد الجامع ! فانصرفوا ومشى إلى الحكم مع صاحِبِه فأعلماه جلية الحال . وكان ذلك يومَ الخميس . فما جاء الليل حتى حَبَسَ الجماعة عن آخرهم ، ثم أمر بهم بعد أيام فَصُلِبُوا عند قصرِه / وكانوا اثنين وسبعين رجلا ، وكان يوما شنيعا ثم كانت وقعة الرَّبض بعد ذلك على مانذكره إن شاء الله تعالى . ١٨٨ – ا

ذكر ايقاع الحكم بأهل طليطلة

وهى وقعة الحُفرة

قال (١) : وفى سنة إحدى وتسعين ومائة أوقع الحكم بأهل طليطلة ، فقتل منهم مايزيد على خمْسةِ آلافِ رجل من أعيان أهلِها . وكان سبب ذلك أن أهل طليطلة كانوا قد طمعوا فى الأمراء وخلعوهم مرَّة بعد أخرى ، وقويتْ نفوسُهم ؛ لِحصانة بلدِهم وكثرة أموالهم ، فلم يكونوا يطيعون أمراءهم طاعةً مُرْضِيةً . فلما أعيا الحكمَ شأنُهم أعمل الفكرةَ . فاستعان بعمروس بن يوسف المعروف بالمولد ، وكان قد ظهر فى هذا الوقت بالثَّغْر الأعلى ، وأظهر طاعةَ الحكم ودعا إليه فاطمأن إليه لهذا السبب . واستقدمه فقدِم عليه ، فبالغ الحكم فى إكرامه وأطْلَعه على عزْمه فى أهل طليطلة فوافقه عليه .

(١) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ١٢٤

وكتب إلى أهلها يقول « إنى قد اخترت لكم فلانا وهو منكم لتطمئنّ قلوبكم إليه وأعْفيْتُكم مِمَّن تكرهون من عُمَّالِنا ومواليننا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم » ومضى عمروس ودخل طليطلة فأنس أهلها به واطمأنوا إليه وأحسن / عشرتهم . ١٨٨-ب

وكان أول ما احتال به عليهم أن أظهر موافقتهم على بُغْضِ بنى أمية وخلْع طاعتِهم ، فمالوا إليه ووثقوا به ورضوا بِفِعله ثم قال لهم : إن سبَبَ الشرِّ بينكم وبين أصحاب الأُمراء اختلاطُهم بكم ، وقد رأيت أن أبنى بناءً أعتزل فيه أنا وأصحابُ السلطان رفقا بكم ! فأجابوه إلى ذلك ، فبنى فى وسط البلد ما أراد .

فلما مضى لذلك مدة كتب الحَكَمُ إلى عامل له على الثغر الأعلى سِرًّا يأمره أن يرسل إليه يستغيثُ من جيوش الكفرَة ، وطلب النجدة والعساكر ، ففعل ذلك ، فحشد الحكم الجيوشَ واستعمل عليهم ابنه عبد الرحمن ، وجهَّز معه القوادَ والوزراءَ ، فسار الجيش حتى اجتاز مدينة طليطلة فلم يتعرض عبدُ الرحمن لدخوله إليها . وأتاه وهو عندها خبرُ العامل على الثغر الأعلى يقول « إن عساكر الكفرة قد تفرَّقتِ وكفى الله شرَّها » فوقف العسكر وعزم عبد الرحمن على الْعَوْد إلى قرطبة فقال عمروس عند ذلك لأهل طليطلة : قد ترَوْن نزول ولد الحكم إلى جانبى ، وأنه يلزمنى الخروج إليه وقضاء حقِّه ، فإن نشطتم إلى ذلك وإلا سرتُ إليه وحدى ! فقالوا : بل نكون معك .

فخرج ومعه وجوه أهل طليطلة فأكرمهم عبدُالرحمن وأحسن إليهم ، وكان الحكم قد أرسل مع ولده خادما له ومعه كتاب لطيف

إلى عمروس فَلَقِيه الخادم وصافحه وسلَّم الكتابَ إليه من غير أن
/يحادِثه . فلما قرأ عمروسُ الكتاب رأى فيه كيف تكون الحيلة على ١٨٩-ا
أهل طليطلة ، فأشار إلى عيون أهلِها أن يسألوا عبد الرحمن الدُّخولَ
إليه ليرى هو وأهـلُ عسكرِهِ كثرتَهم وقوتَهم ومنعَتهم فظنوا أنه
ينصحهم ، ففعلوا ذلك . وأدخلوا عبدَ الرحمن البلد ، فنزل مع
عمروس فى دارِه ، وأتاه أهل طليطلة أرسالا يسلمون عليه ، وأشاع
عمروس أن عبد الرحمن يريد أن يَتَّخِذ لهم وليمةً عظيمةً . وشرع
فى الاستعداد لذلك وواعدهم يومًا ذكره لهم ، و قرر أنهم يدخلون من
بابٍ ويخرجون من آخر ليقلَّ الزحام ففعلوا ذلك ! وأتى الناسُ أفواجا
عند الميعاد ، فكان إذا دخل فوج أُخِذوا وحُمِلوا إلى جماعةٍ من الجنْدِ
على حُفْرة كبيرةٍ فى القصر فتضرب رقابُهم . فلما تعالى النهار أتى
بعضُهم فلم يَرَ أحدًا فقال : أين الناس ؟ فقيل له : إنهم يدخلون من
هذا الباب ويخرجون من الآخر ! فقال : لم ألْق منهم أحدًا ! وعَلِم
الحال فعاد وصاح بالناس وأعْلَمَهُم هلاك أصحابِهِ ، فكان سبب
نجاة من بَقِيَ منهم ، ودانوا وحسنت طاعتُهم بقية أيام الحكم وأيام
ولدِه عبد الرحمن ثم كان منهم بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر عصيان أهل ماردة على الحكم

وما فعله بأهل قرطبة

/وفى سنة إحدى وتسعين عَصى أصبغ بن عبد الله عَلَى الحكم ١٨٩-ب
ووافقه أهل ماردة وأخرجوا عامله عنها ، فاتَّصل الخبرُ بالحكم ،
فسار إليها وحصَرَها . فبينما هو فى ذلك أتاه الخبرُ عن أهلِ قرطبة

أنهم أعلنوا العِصْيَان له ، فرجع إلى قرطبة مبادرا ، فوصلها فى ثلاثةِ أيام وكشفَ عن الذين أثاروا الفتنة فصلبهم منكّسين ، وضرَب أعناق جماعةٍ . فارتدع الباقون بذلك واشْتدَت كراهتهم للحكم ، ولم يزل أهلُ ماردة تارةً يطيعون وتارةً يعصون إلى سنة اثنتين وتسعين ، فضعُفَ أمرُ أصبغ بن عبد الله لأن الحكم تابع إرسال الجيوش واستمال جماعةً من أهل ماردة وثقات أصحابه فمالوا إلى الحكم وفارقوا أصبغ حتى أخوه ، فضعفت نفسُه فطلب الأمان فأمّنه الحكم ، ففارق ماردة ، وحضر إلى الحكم وأقام بقرطبة .

ذكر غزو الفرنج

وفى هذه السنة تجهز لُذَريق (١) ملك الفرنج وجَمع جموعه ليسير إلى مدينة طرطوشة (٢) ليحصُرَها ، فبلغ ذلك الحكم فجمع العساكر وسيَّرها مع ولده عبد الرحمن ، فاجتمعوا فى جيشٍ عظيمٍ وتبعهم كثير من المتطوعة ، فساروا حتى لقوا الفرنج فى أطراف بلادِهِم قبل أن ينالوا من بلادِ الإسلام شيئا ، فاقتتلوا وبذلَ كلٌّ من الطائفتين جهده واستنفد وُسْعه فأنزل الله تعالى نَصْره على المسلمين ، وهزم الكفار وكثُر القتلُ فيهم والإسار ، وانتُهبتْ أموالهم ، ورجع المسلمون بالظفر . ١٩٠ ـ ١

(١) Roderic

(٢) فى الكامل وجميع النسخ ، ك ١٠٠ ، ف ١٠٧ ـ ب « طرطوشة » وفى نفح الطيب ١ : ٣١٨ طرسونة ، أما طرطوشة فهى مدينة تصل بكورة بلنسية وهى شرقيها قريبة من البحر ، وأما طرسونة فهى من أعمال تطيلة وبينها وبين هذه أربعة فراسخ .

ذكر عصيان حزم على الحكم

وفى هذه السنة خالف حزم بن وهب بناحية باجة ووافقه غيره ، وقصدوا لشبونة [١] . فلما بلغ الحكم الخبر ، سار إليه الحكم فى جمع كبير ، فنازله وقطع الأشجار وضيّق عليهم حتى أذعنوا إلى طلب الأمان ، فأمّنه وأخذ رهائنه على المصالحة والطاعة ، وعاد عنه الحكم إلى قرطبة .

ذكر عودة أهل ماردة الى العصيان

وغزو الحكم بلاد الفرنج

قال[٢] : ثم عاد أهل ماردة إلى العصيان والخلاف على الحكم فى سنة أربع وتسعين ، فسار الحكم بنفسه إليهم وقابلهم . ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد وتقاتِلُهم إلى سنة سِتٍّ وتسعين ومائة ، فطمع الفرَنج فى ثغور المسلمين وقصدوها بالغارات والقتل والنَّهْب والسَّبْى . وقد شغل الحكم بأهل ماردة عنهم حتى أتاه الخبر بشدّة الأمر على أهل الثغور وما نال العدُّو منهم ، وسمع أن امرأة مسلمة أُخِذَتْ أسيرة فقالت : واغوثاه ياحكم فعظُم عليه الأمرُ وجمع العساكرَ واستعد وحشد ، وسار إلى بلاد الفرنج فى سنة ست وتسعين ومائة فأثخن[٣] فى بلادهم ، ١٩٠ ب

(١) Lisbon وينطقها العرب أشبونة أيضا ، وقد قال ابن حوقل عنها إنها على مصب نهر شنترين إلى البحر ، ومن فم النهر إلى أشبونة إلى شنترة يومان ، وقال ياقوت إنها تتصل بشنترين قريبة من البحر وعلى ساحلها يوجد العنبر الفائق .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ١٤١

(٣) اثخن فيها : بالغ فى ضربه وأثخن فى عدوه أكثر الجرح فيه ، وأثخن خصمه أوهنه (القاموس المحيط)

وافتتح عدّة حصون وخرّب وقتل الرجال وسبى الحريم ونهب الأموال ، وقصد الناحية التى بها تلك المرأة فأسر لهم من الأسرى ما يفادون به أسراهم ، وبالغ فى الوصية فى تخليص تلك المرأة فخلصت من الأسر وقتل بقية الأسرى .

فلما فرغ من غزاته قال لأهل الثغور : أغاثكم الحكم ؟ قالوا : نعم ! وأثنوا عليه خيرًا ، وعاد إلى قرطبة مظفرا منصورا .

وفى سنة سبع وتسعين ومائة اشتد الغلاء بالأندلس وعمّ البلادَ ، ومات كثير من الخلق ، وكان أكثر الناس يطوون للعدم (١) .

ذكر وقعة الربض بقرطبة

وفى سنة ثمانٍ وتسعين ومائةٍ كانت وقعة الربض بقرطبة ، وسببها أن الحكم كان كثير التشاغل بالشُّرب واللهو والصيد وغير ذلك مما يُجانِسُه ، وقد قدّمنا ماكان قد فعله بأهل قرطبة لما أرادوا خلْعه ومَنْ صلب منهم . فزادت كراهةُ أهلِها فيه ، وصاروا يتعرّضون لِجُنْدِهِ بالأذى والسَّبِّ ، وبالغوا حتى إنهم كانوا ينادون عند انقضاء الأذان/ الصلاةَ يا مخمورُ الصلاةَ ! ١٩١ ـ ا
وشافهوهُ بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف . فشرع فى تحصين قرطبة وعمارةِ أسوارها ، وحفْرِ خنادِقِها ، وارتبط الخيل على بابه ،

(١) يروى المقرى أنه كان يكثر فيها مواساة أهل الحاجات ، وفى ذلك يقول الجزيرى الشاعر :

نكد الزمان فآمنت أيامه ... من أن يكون بعصره عسر
ظلع الزمان بأزمة فجلا له ... تلك الكريهة جوده الغمر

(نفح الطيب ١ : ٣١٩)

واستكثر من المماليك ، ورتب جمْعًا لايفارقون باب قصرِه بالسلاح . فزاد ذلك فى حِقدِ أهلِ قرطبة ، وتحققوا أنه يفعل ذلك للانتقام منهم ، ثم وضع عليهم عُشْر الأطعمة فى كلِّ سنةٍ من غير حِرْصٍ فكرهوا ذلك .

ثم عمد إلى عشرة من رؤسائهم فقتلهم وصلبهم ، فهاج لذلك أهلُ الرَّبض ، وانضاف إلى ذلك أن مملوكا له سلَّم إلى صيْقل سيفا ليصقله له فمطله الصيقل ، فأخذ ذلك المملوك السيف ولم يزل يضرب به ذلك الصيقل إلى أن مات وذلك فى شهر رمضان من هذه السنة ، فكان أول من شهر السلاح أهل الرَّبض القبلى ، واجتمع أهلُ الأرباض جميعهم بالسلاح ، واجتمع الجندُ والأمويون والعبيد بالقصر. وفرق الحكم الخيل والسلاح ، وجعل أصحابه كتائب.

ووقع القتالُ بين الطائفتين ، فغلبهم أهل الربَض وأحاطوا بالقصر ، فنزل الحَكم من أعلى القصر ولبس سلاحَه وحرَّض الناس على القتال ، فقاتلوا قتالا شديدا . ثم أمر ابن عمِّه عبيد الله فثلم من السور ثلمة وخرج منها بقطعة من الجيش وأتى أهلَ الرَّبض من وراء ظهورهم فلم يشعروا به ، وأضرم النارَ فى الرَّبضَ . فانهزم أهله /وقتلوا قتلا ذريعا وأُسِر من وجد فى المنازل والدور فانْتَقَى الحكمُ ثلاثمائة من وجوه الأسرى فَصَلَبَهم منكسين ، ودام النَّهْبُ القتل والحريقُ فى أرباض قرطبة ثلاثة أيام . ١٩١ ـ ب

ثم استشار الحكم فيهم عبدَ الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، فأشار عليه بالصَّفْح عنهم والْعفْو ، وأشار غيره

بالقتل ، فقبل قولَ عبد الكريم . وأمر فَنُودِىَ بالأمان على أنه من بَقِىَ من أهلِ الربض بعد ثلاثة أيام قُتِل وصُلِب ، فخرج من بقِىَ منهم بعد ذلك مستخفيا ، وتحمَّلُوا على الصَّعْب والذلول وخرجوا من حضرة قرطبة بنسائهم وأولادِهم وما خفَّ من أموالهم . وقعد لهم الجند والسفلة بالمرصاد ، ينهبون أموالهم ، ومَن امتنع عليهم قتلوه ! .

فلما انقضتِ الأيامُ الثلاثةُ أمر الحكم بكَفِّ الأذى عن حرم الناس ، وجمعهن إلى مكان واحدٍ ، وأمر بِهدْم الرَّبَض القبلى . وكان بزيع مولى أمية بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية محبوسًا فى حبْسِ الدم وفى رجله قيدٌ ثقيل ، فلما رأى أهلَ قرطبةَ قد غلبوا الجُنْد سأل الحرس أن يُفرِجوا عنه فأخذوا عليه العهدَ أن يعود فأطلقوه ، فخرج فقاتل قتالا شديدا لم يكن فى الجيش من قَاتَل مثله ، فلما انهزم أهلُ الربض عاد إلى السجن ، فانْتَهَى خبرُه إلى الحكم فأطلقه وأحسن إليه . وقيل إن هذه الوقعة كانت فى سنة اثنتين ومائتين والله أعلم . / قال بعض المؤرخين : اجتمع فى الرَّبض أربعة آلاف فقيه وطالب ! ١٩٢ـ١

وكان مِمَّن خرَج عليه يحيى بن يحيى الليثى ، فهرب ونزَلَ على حَىٍّ من البربر ، ثم أمَّنه الحكمُ بعد ذلك وحظى عنده . ومنهم الفقيه طالوت بن عبد الجبار ، ففرَّ واستتر عند رجل يهودىٍّ عاما كاملا . وكان بينه وبين أبى البسام صداقة ، فقصده فأخبر الحكم به ، وأحضره إليه فعنَّفه الحكمُ على خروجه عليه ،

ثم أمّنه وصرفه إلى منزله وسأله أين استتر فأخبره باليهودى وبأبى البسام ، فاغتاظ على أبى البسام وعَزلهَ عن وزارته وكتب عهدًا أن لايخدمه أبدا . ومنهم عبد الملك بن حبيب ، وغيرهم [١] .

ذكر غزو الفرنج

وفى سنة مائتين جهّزَ الحكمُ جيشًا مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج ، فسار حتى توسّط بلادهم ، فخربها ونهبها وهدم عدةً من حصونهم ، واستنفد خزائن ملوكهم . فلما رأى ملكُهم ذلك كاتب جميع ملوك تلك النواحى ، واسْتَنْصر بهم فاجتمعت إليه أهلُ النصرانية من كلِّ مكان . وأقبل فى جموع عظيمةٍ ونزل بإزاء عسكر المسلمين وبينهم نهر ، فاقتتلوا عدَّة أيام والمسلمون يريدون عبور النهر إليهم وهم يمنعونهم من ذلك . فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر / فعبر المشركون واقتتلوا أعظم قتال ، ١٩٢ـب فانهزم الكفار إلى النهر وأخذهم السَّيْفُ والأسر ، فأُسِر جماعةٌ من ملوكهم وكنودهم وقماصستهم . وعاد الفَرَنْجُ لزموا جانبَ النهر يمنعون المسلمين من عبورِه فأقاموا ثلاثةَ عشرَ يوما يقتتلون فى كلِّ يوم ، فجاءت الأمطار وزاد النهر فتعذر جوازه ، فقفل عبد الكريم عنهم فى سابع ذى الحجة من السنة .

ذكر غزو البربر بناحية مورور

وفيها خرج خارجىٌّ من البربر من ناحية مورور [٢] ومعه جماعةٌ ،

(١) راجع نفح الطيب ١ : ٣١٨

(٢) كورة متصلة بأحواز قرمونة Carmone غربى شذونة ، وفى معجم ياقوت موزور ! والوقعة فى الكامل ٥ : ١٨٠

فوصل كتابُ العامِل بها إلى الحكم بخبره ، فأخفى الحكم أمْره واسْتدْعى من ساعته قائدًا من قواده فأخبره بذلك سرا وقال له : سِرْ من ساعتك إلى هذا الخارج وائتِنى برأسِه والا فرأسك عِوضه وأنا قاعدٌ فى مكانى هذا إلى أن تعود ! فسار القائد إلى الخارج ، فلما قاربه سأل عنه فأخبر أنه فى احتياط كثير واحتراز شديد ، فعجز عنه ثم تذكر قول الحكم فأعمل الحيلة حتى دخل عليه وقتله وأتى برأسه إلى الحكم ، فرآه بمكانه ذلك لم يتغيرْ ، وكانت غيبته أربعةَ أيام ، فأحسن إلى القائد وأكرمه ووصله وأعْلى محلَّه.

ذكر وفاة الحكم

١٩٣ ـ ا /كانت وفاته يومَ الخميس بعد الظهر لأربع بقين من ذى الحجة سنة ست ومائتين ، وكان عمره اثنتين وخمسين سنةً وقيل ثلاثاً وخمسين سنة وقيل أقل من ذلك إلى تسع وأربعين سنة ، ومدةُ إمارته ستا وعشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثةَ عشرَ يوما . وكان طويلا أسمر نحيفا ، وله شِعر جيِّدٌ ، وهو أول من جَنَّد الجنود المرتزقة بالأندلس وجمع الأسلحة والعُدَد واستكثر من الحَشَم والحواشى ، وارتبط الخيول على بابه ، واتَّخذ المماليكَ وجعلهم فى المرتزقة فبلغت عدتهم خمسةَ آلاف . وكانوا يسمون الخرس لِعُجْمةِ ألْسِنتِهِم ، وكانوا نواباً على باب قصره[1] .

وكان يَطَّلع على الأمور بنفسه ماقرُب منها وما بَعُد ، وكان له نفر من ثقاة أصحابه يطالعونه بأحوال الناس ، فيردع الظالم ،

(١) انظر نفح الطيب ١ : ٣٢٠

وينصف المظلوم . وكان شجاعًا مِقْداما مُهَيْمِنًا وكان يُقرِّبُ الفقهاء وأهلِ العلم. وكانِ له من الأَولاد أبو مطرف عبد الرحمن وثمانيةَ عشر ولدًا ذكرًا . كاتبه : الوزير أبو البسام .

ذكر امارة عبد الرحمن بن الحكم

هو أبو المطرف وقيل أبو المظفر عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل ، وأمه أم ولد يقال لها حلاوة ، وهو الرابع من ملوك بنى أمية بالأندلس . بويع له بعد وفاة أبيه فى يوم الخميس لأربع بقين من ذى الحجة سَنة سِتٍّ ومائتين وذلك فى خلافة المأمون بن الرشيد العباسى . / ١٩٣-ب

قال (١) : ولما ولى خرَج عليه عمٌّ أبيه عبد الله البلنسى - من بلنسية - وطمِع فى المُلْك ، فوصل إلى تُدمير يريد قرطبة ، فتجهز له عبد الرحمن ، فلما بلغ ذلك عبد الله خاف وضَعُفَت نفسُه فرجع إلى بلنسية .

ذكر ايقاع عبد الرحمن

بأهل إلبيرة وجندها

كان ذلك فى سنة سبعٍ ومائتين وسبب ذلك أن الحكم كان قد بلغه عن عامل اسمُه ربيع أنه ظلم أبناء أهلِ الذمة فقبض عليه وصلبه ، فلما توفى الحكم وولى ولدهُ عبد الرحمن وسمع النَّاس بصلْب ربيع أقبلوا إلى قرطبة من النواحى يطلبون الأموال التى كان ظلمهم ربيعٌ فيها ظنًّا منهم أنها سَتُرَدُّ إليهم . وكان جُنْدُ إلبيرة

(١) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٢٠٣

أشدّهم وأكثرهم طلبا وأشدهم إلحاحا وتألبا ، فأرسل عبد الرحمن من يسكنهم ، فلم يقبلوا ودفعوا من أتاهم ، فخرج إليهم جمْعٌ من الجند من أصحاب عبد الرحمن فقاتلوهم فانهزم جند إلبيرة ومن معهم وقتلوا قتلا ذريعا ، ونجا من بقى منهم ، وأدْرَكَهم الطلبُ فقَتَلَ كثيرًا منهم .

وفيها ثارت بمدينة تُدمير فتنةٌ بين المضريّة واليمانية فاقتتلوا بلورْقَة(١) فكان بينهم وقعة تعرف بيوم المصابرة قتل بينهم ثلاثة آلاف رجل ، ودامت الحربُ بين الفريقين سبع سنين ، ووكّل عبدُ الرحمن بكفِّهم ومنْعِهم يحيى بنَ عبد الله ابن خالد وسيّره فى جمع من الجيش ، فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى افترقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة حتى أعياه أمرهم . ١٩٤ – ا

وفيها كان بالأندلس مجاعةٌ شديدةٌ ذهب فيها خَلْقٌ كثير وبلغ المُد فى بعض المدن ثلاثين دينارا .

وفى سنة ثمانٍ ومائتين جهز عبدُ الرحمن جيشا إلى بلاد المشركين ، واستعمل عليهم عبدَ الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، فساروا إلى بلاد ألبة والقلاع فنهبوا بلاد ألَبّة وخربوها وأحرقوها ، وفتحوا حصونًا وصالحهم أهل حصون أخر على مالٍ وإطلاق أسرى المسلمين ، وذلك فى جُمادى الآخرة .

---

(١) Lorca فى الطريق من غرناطة إلى مرسية ، مدينة حصينة ، ومنعة قلعتها تضرب بها الأمثال (المغرب ٢ : ٢٧٥)

وفيها توفى عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالبلنسى .

وفي سنة عشر ومائتين سيَّر عبدُ الرحمن سَرِيَّةً كبيرةً إلى بلاد الفرنج واستعمل عليهم عبيد الله بن عبد الله البلنسى : فسار ودخل بلادهم وتردَّد فيها بالغارات والسَّبْى والقتل والأَسْر ولقى جيوشَ الأعداء فهزمهم وأكثر القتل فيهم ، وكان فتحا عظيما .

وفيها افتتح عسكر سيَّره عبد الرحمن أيضا حِصْنَ القلعة من أرض العدو فى شهر رمضان المبارك .

وفيها أمر ببناء المسجد الجامع بجيان .

وفيها أخـذ عبد الرحمن مقدم اليمانية بتُدمير / وهو رجاء بن الشماخ لتسكن الفتنةُ بين اليمانية والمضرية فلم تسكن ودامت ، فأمر العاملَ بتُدمير أن ينتقل منهـا ويجعل مرسية [1] قاعدة تلك البلاد . ١٩٤-ب

وفي سنة اثنتى عشرة ومائتين سيَّر عبدُ الرحمن جيشا إلى برشلونة من بلاد العدو فأقام الجيش شهرين يحرقون وينهبون.

وفيها كانت سيول عظيمة وأمطار متتابعة ، فخربت أكثر أسوار مدن الأندلس وخربت قنطرة سرقسطة ، ثم جددت عمارتها

وفى سنة ثلاثَ عشرة ومائتين قتل أهلُ ماردة عامِلهم فثارت

(١) Murcia من أعمال تدمير وقاعدتها بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم وهى ذات أشجار كثيرة وحدائق ، تبعد عن قرطبة إلى الشرق منها والمسافة بينها وبين البحر المتوسط ليست بعيدة وكانت تقع فى جنوبى مملكة أراجون . (صفة الأندلس صفحة ١٨١) .

الفتنة عندهم فسيَّر إليهم عبدُ الرحمن جيشًا فحَصَرهم وأفسد زرْعَهم وأشجارَهم فعادوا لطاعةوأعطَوْا رهائنهم ، وعاد الجيشُ عنهم بعد أن خربوا سورَ المدينة ، ثم أرسل إليهم منْ ينقل أحجارَ السورِ إلى النهر لئلا يطمع أهلها فى عمارته ، فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان وأسروا العاملَ عليهم وبنَوْا السور وأتقنوه . فسار عبدُ الرحمن بجيوشه إليهم فى سنة أربع عشرة ومائتين ومعه رهائن أهلها فراسله أهلها وافتدَوْا رهائنهم بالعامل الذى أسروه وغيره وحصرهم وأفسد بلدَهم ثم رحل عنهم . ثم سَيَّر إلهم جيشًا فى سنة سبعَ عشرةَ فحصروهاوضيقوا على أهلها ، ودام الحصار ثم رحلوا عنهم . وسيَّر إليهم جيشا في سنة ثمانى عشرةَ ومائتين ففتحها وفارقها أهلُ الشر والفساد . وكان من أهلها / رجلٌ اسمُه ١٩٥ – ا
محمود بن عبد الجبار المارِدى فى جماعةٍ من الجند ، فمضى بمن سَلِم من أصحابه إلى مُنْت سالوط فسيَّر إليه عبد الرحمن جيشًا فى سنةِ عشرين ومائتين فهرب بمن معه إلى جليقية فأرسل سرية فى طلبهم ، فقاتلهم محمود وهزمهم وغنم ما معهم ، وقتل عدةً منهم ثم مضى لِوَجْهِهِ فلقيهُ جَمعٌ من أصحابِ عبد الرحمن مصادفةً فقاتلوهم ، ثم كفَّ بعضُهم عن بعض وساروا فلقيته سريةٌ أخرى فانهزمت السريةُ وغنم محمود ما معهم ووصل إلى بلاد المشركين فاسْتولى على قلعة لهم فأقام بها خمسة أعوام وثلاثةَ أشهر فحصره أذفونس ملك الفرنج فَملك الحصن وقتلَ محمودًا ومن معه وذلك فى سنة خمس وعشرين فى شهر رجب .

وفى سنة أربعَ عشرة ومائتين سار عبد الرحمن إلى مدينة باجة [١] وكانت عاصية عليه فملكها عَنْوَةً .

وفيها خالف هاشم الضراب بمدينة طليطلة ، وكان هاشمٌ مِمن خرج من طليطلة لما أوقع الحكم بأهلها ، وسار إلى قرطبة ، فلما كان الآن سار إلى طليطلة فاجتمع إليه أهل الشر والفساد فسار إلى وادى جونيه [٢] وأغار على البربر وغيرهم فطار اسمُه واشتدَّت شوكتُه وكثر جمعُه فأوقع بأهل شنتبريّه . وكان بينه وبين البربر وقعاتٌ كثيرة ، فسيّر إليه عبدُ الرحمن جيشا فقاتلوه فلم تستظهر إحدى الطائفتين على الأُخرى ، وغلب /هاشم على ١٩٥-ب
عِدَّةِ مواضعَ وجاوز بركة العجوز وأبعدت غارةُ خَيْله . فسيّر إليه عبد الرحمن جيشا فى سنة سِتَّ عشرة ومائتين فلقيهم هاشم بالقرب من حصن سمسطا المجاور لرورية [٣] فدامت الحربُ بينهم عِدَّةَ أيَّام ثم انْهَزَمَ هاشم وقُتِل هو وكثيرٌ مِمَّن معه

ذكر محاصرة طليطلة وفتحها

وفى سنة تسعَ عشرةَ ومائتين جهز عبد الرحمن جيشًا مع ابنه أميةَ إلى مدينة طليطلة فحصرها - وكانوا قد خالفوا

(١) Beja من أقدم مدائن الأندلس بينها وبين قرطبة مائة فرسخ (صفة جزيرة الأندلس ٣٦) .

(٢) كذا فى ا ، وفى ك ١١٥ وفى ف ١١٠ - ا وليس له فيما بين أيدينا من المراجع ذكر ، ولعله محرف .

(٣) فى ا ، ك صفحة ١١٦ ، ف صفحة ١١١ - ب « حصن شميطا المجاور للورقة » وما ها هنا عن الكامل ٥ : ٢١٩ .

وخرجوا عن الطاعة – فاشتد فى حصارهم وقطع أشجارهم وأهلك زرعهم ، فلم يذعنوا إلى الطاعة فرحل عنهم وترك بقلعة رباح جيشا عليهم ميسرةُ المعروف بِفَتَى أبى أيوب . فلما أبعد أُمية خرج جمع كثيرٌ من أهل مدينة طليطلة لعلّهم يجدون فرصةً وغفلةً فينالون منه ومن أصحابه غَرَضًا ، وكان قد بلغه الخبر فكمن فى عدة مواضع . فلما وصلوا إلى قلعة رباح خرج الكمين عليهم من جوانبهم ووضعوا السَّيْف فيهم فأكثروا القَتْل وعاد من سلم منهزما إلى طليطلة ، وجمعت رؤوس القتلى وحملت إلى ميسرة فلما رأى كَثْرَتَها عظم عليه وارتاع لذلك ، وَوَجَد فى نفسه غمًّا شديدا ، فمات بعد أيام يسيرة !

١٩٦–ا ثم سيَّر عبد الرحمن جيشا فى سنة / عشرين ومائتين فقاتلوا ولم يظفروا منها بشىء . فلما كان فى سنة إحدى وعشرين ومائتين خرج جماعةٌ من أهلها إلى قلعة رباح وبها عسكرٌ لعبد الرحمن فاجتمعوا كلُّهم على حصار طليطة وضيَّقوا على أهلها واشْتَدُّوا فى حصارهم إلى سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، فسير عبد الرحمن أخاه الوليدَ بن الحكم فرأى أهلها وقد بلغ بهم الْجَهْدُ كلَّ مبلغ واشْتَدَّ عليهم طول الحصار وضعفوا عن القتال والدفع ، ففتحها عَنْوَةً يومَ السبت لثمان خلون من شهر رجب منها ، وأمر بتجديد القصرِ على باب الجسر الذى كان هُدِمَ أيامَ الحكم ، وأقام بها آخر شعبان سنة ثلاثٍ وعشرين حتى استقرَّتْ قواعدُ أهلِها .

وفى سنة ثلاثٍ وعشرين ومائتين سيَّر عبد الرحمن جيْشا

إلى ألبَة والقلاع فنازلوا حِصْن الفرات ، وقتلوا أهله ، وغنموا ما فيه وسبوا النساء والذُّرِّية وعادوا .

وفى سنة أربع وعشرين سيَّر جيشًا عليهم عبيد الله بن عبد الله البلنسى إلى بلاد العدو ، فوصلوا ألَبة والقلاع فالْتَقَوْا هم والمشركون ، وكانت بينهم حروبٌ شديدة وقتالٌ عظيم انْهَزَمَ أهلُ الشرك ، وقتِل منهم مالا يُحْصَى كثرةً ، وجمعت الرؤوس حتى كان الفارس لا يرى من يقاتله !

ثم سار عبدُ الرحمن فى سنة خمسٍ وعشرين فى جيش كثيفٍ إلى بلاد المشركين فدخـل بلاد جليقية وافتتح عِـدَّةَ حصونٍ منها ، وغنم وسَبى وقتل / وخرَّب ثم عاد إلى قرطبة ولم تطلْ مَدَّةُ هذه الغزاة . ١٩٦-ب

وفى سنةِ أربعٍ وعشرين ومائتين سيَّر الأمير عبد الرحمن جيشًا إلى أرض العدو ، فلما كانوا بين أوشنة وشرطانية (١) تجمعتِ الرُّوم عليهم وأحاطوا بهم وقاتلوهم الليل كلَّه ، فلما أصبحوا أنزل الله نصْرَه على المسلمين وهزم عَدُوَّهم . وأبلى موسى بن موسى فى هذه الغزاة بلاء حسنا ، وكان على مقدمة العسكر وهو العامل على تطيلة ، وجرى بينه وبين جرير بن موفَّق - وهو من أكابر الدولة - أيضا شر فخرج موسى عن طاعته .

(١) كذا فى ا ، ف صفحة ١١٢ - ا ، وأما ما فى ك ١١٦ فهو « أوشنة وشرطات » وفى الكامل ٥ : ٢٦٨ « أربونه وشرطانية » فكأن الخلاف فى أوشنة ولعلها أشونه (انظر المغرب ١ : ٣١٧) .

ذكر الحرب بين موسى بن موسى

والحارث بن بزيع وما كان من أمره

قال [١] : ولما بلغ عبد الرحمن خروج موسى عن الطاعة سَيَّر إليه جيشا ، واستعمل عليهم الحارث بن بزيع فسار إليه والتقوْا عند بَرْجَة [٢] واقتتلوا فَقُتِل أكثر أصحاب موسى ؛ وقتل ابن عم له ، وعاد الحارث إلى سرقسطة . فسيَّر موسى ابنه إلى بَرْجَة فعاد الحارث إليها فحصرها وملكها وقَتَل ابنَ موسى وتقدم إلى مدينة تطيلة فحصرها فصالحه موسى على أن يخرج عنها فانتقل موسى إلى أرنيط [٣] وبقى الحارث بتطيلة أياما ثم سار إلى موسى ليحاصرَه . فأرسل موسى إلى غرسية وهو من ملوك الأندلس [٤]

١٩٧ ـ ا /واتَّفقا على الحرب واجتمعا وجعلا للحارث كمائن فى طريقه وأعدا له الخيل والرجل بموضع يقال له ثلمة على نهرٍ هناك ، فلما جاوز الحارث النهر خرج إليه الكمناء وأحدقوا به وكانت وقعة عظيمة وأصابه ضربةٌ فى جبهته قلعت عينيه ثم أُسِرَ ، وذلك فى سنة ثمانٍ وعشرين .

فلما بلغ خبره عبد الرحمن عظُم عليه وجهَّز جيشا عظيما وجعل

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٢٦٨

(٢) مدينة قرب النهر الأخضر الذى يصب فى البحر المتوسط وبين إلمرية وغرناطة فى وادى عذراء ، وفى المغرب ٢ : ٢٢٨ كان يتكرر عليها الولاة من إلمرية وغرناطة

(٣) فى ا « اربط » وفى ك صفحة ١١٧ « ارنط » وما أثبتناه من الكامل ، ولكنا نرى أن الصحيح « أبيط » فى جليقية .

(٤) Garcia كان صاحب بنبلونة Pamplona فى أقصى الشمال الغربى بجبال ألبرت بينها وبين سرقسطة مائة وسبعون ميلا (صفة الأندلس ٥٥)

عليه ابنه محمدًا وسيره لقتال موسى فى شهر رمضان سنة تسعٍ وعشرين ، فوصل إلى تطيلة وحصرها وضيق على أهلها ، وأهلك زرعها فصالحه موسى . وتقدم محمد إلى ينبلونة فأوقع عندها يجمع كثير من المشركين وقُتِل غرسية فيمن قُتِل ، ثم عاد موسى إلى الخلاف على عبد الرحمن فجهز جيشًا كثيرا وسيَّرهم إلى موسى فطلب المسالمة فأُجيب إليها ، وأعطى ابنَه إسماعيلَ رهينةً وولاَّه عبد الرحمن مدينة تطيلةَ فسار موسى إليها وأخرج منها منْ يخافه واستقرَّ بها .

ذكر خروج المشركين الى بلاد الاسلام بالأندلس

قال [1] : فى سنة ثلاثين ومائتين خرج المجوس فى أقاصى بلاد الأندلس إلى بلاد المسلمين ، وكان أول ظهورهم فى ذى الحجة سنة / تسعٍ وعشرين ومائتين وعند أشبونة فأقاموا بها ١٩٧-ب ثلاثةَ عشر يوما كان بينهم وبين المسلمين فيها وقائعُ ، ثم ساروا إلى قادس [2] ثم إلى شذونة وكان بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة ، ثم قصدوا إشبيلية فى ثامن المحرم فنزلوا على اثنى عشر فرسخا منها ، فخرج إليهم المسلمون فهزمهم العدوُّ فى ثانى عشر المحرَّم وقُتِل كثير منهم ، ثم نزلوا على ميلين منها فخرج أهلُها إليهم وقاتلوهم فانهزموا فى رابع عشر المحرم وكثر القتلُ والأَسْرُ

(١) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٢٧٢

(٢) Cadiz مدينة قرب شذونة ولكنها تقع مباشرة على المحيط الأطلنطى فى الجنوب الغربى من الأندلس ويقول الحميرى إنها جزيرة الأندلس عند طائفة من مدن إشبيلية (صفة الأندلس ١٤٥)

فيهم . ولم يرفع المجوسُ السَّيْف عن أحدٍ ولا عن دابَّةٍ ، ودخلوا حاضر إشبيلية وأقاموا بها يوما وليلةً وعادوا إلى مراكبهم ، فوافاهم عسكر عبد الرحمن فبادر إليهم المجوس فثبت المسلمون وقاتلوهم فقتل من المشركين سبعون رجلا وانهزموا ودخلوا مراكبهم ، واحجم المسلمون عنهم ، فسيَّر عبد الرحمن جيشا آخر فقاتلهم المجوس قتالا شديدا ورجعوا عنهم فتبعهم العسكر فى ثانى شهر ربيع الأول وقاتلوهم ، وأتاهم المدد من كل ناحية فنهضوا لقتال المجوس من كل جانب فانهزم المجوس وقتل نحو خمسمائةِ رجلٍ وأخذوا منهم أربعة مراكب فأخذوا ما فيها وأحرقوها .

ثم خرج المجوس إلى لَبْلَة[1] فأصابوا سبيا ونزلوا جزيرة بالقرب من قوويس فقسموا ما كان معهم مما غنموه ، فدخل المسلمون إليهم فى النهر فقتلوا رجلين ثم رَحَل/ المجوس فطرقوا شَذُونة فغنموا أطعِمَةً وسبيا وأقاموا يومين ، فوصلت مراكبُ عبد الرَّحمن إلى إشبيلية . فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبلة فأغاروا وسبَوْا ثم لحقوا بأشبونة ثم مضوا إلى باجة ، ثم قفلوا إلى مدينة أشبونة ، ثم ساروا فانقطع خبرهم عن البلاد فسكن الناس .

١٩٨ ـ ا

وفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين سار جيش للمسلمين بقرطبة إلى بلاد المشركين وقصدوا جلِّيقية فغنموا وقتلوا وأسروا وسبَوا

(١) Nebla مدينة بين باجه وإشبيلية (انظر ما كتب عنها فى المغرب ١ : ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، ويقول الحميرى : إنها قاعدة من قواعد قشتاله (صفة جزيرة الأندلس ١٧٤) .

وواصلوا إلى مدينة ليون[١] فحصروها ونصبوا عليها المجانيق، فخاف أهلها وخرجوا هاربين وتركوها بما فيها، فغنم المسلمون منها ما أرادوا وأحرقوا الباقىَ، ولم يقدروا على هدْمِ سورِها لأن عَرْضَه سبعةَ عشرَ ذراعا، فَمضوْا وقد ثلموا فيه ثلمة كبيرة[٢].

وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين غدر موسى بن موسى، فسَيَّر إليه عبدُ الرحمن جيشا مع ابنِهِ محمدٍ.

وفيها كان بالأندلس مجاعةٌ شديدة، فهلك خلْقٌ كثير من الناس والدوابّ، ويبست الأشجار فاستسقى الناس فسُقوا وزال القحْطُ.

وفى سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين سيَّر عبد الرحمن ابنه المنذر فى جيش كثيف إلى غزو الروم فبلغوا ألبة والقلاع.

وفيها كان سَيْلٌ عظيم بالأندلس فخرب /جسر إستجة والأرجاء ١٩٨-ب
وغرَّق نهرُ إشبيليةَ سِتَّ عشرة قريةً، وخرَّب نهرُ باجة ثمانىَ عشرة قرية، وعَرُضَ حتى صار عَرْضُه ثلاثين ميلا وكان هذا حدثًا عظيما وقع فى جميع البلاد فى شهر واحد

وفى سنة سبْعٍ وثلاثين ومائتين سارت جيوشُ المسلمين إلى بلادِ العدُوِّ وكانت بينهم وقعةٌ عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين وهى وقعة البيضاء.

---

(١) Leon مدينة من بلاد الجلالقة شمالى الأندلس.

(٢) انظر نفح الطيب ١ : ٣٢٤

ذكر وفاة عبد الرحمن

وشىء من أخباره

كانت وفاتُه فى ليلة الخميس لثلاثٍ خلون من شهر ربيع الأول سنةَ ثمانٍ وثلاثين ومائتين ، وقيل فى شهر ربيع الآخر منها . وكان مولده فى شعبان سنةَ سِتٍّ وسبعين ومائة . فكان عمره اثنتين وستين سنة ومدة ولايته إحدى وثلاثين سنةً وشهرين وستةَ أيام . وكان أسمر طويلا أغَرَّ أقنى عظيم الجبهة يخضب بالحناء . وكان له من صلبه من الأولاد الذكور والإناث سبعةٌ وثمانون ولدًا منهم خمسةٌ وأربعون ذَكَرًا . وكان عالما أديبا شاعرا ، يعرف علوم الفلاسفة . وفى أيامه دخل زِرْياب[1] المُغَنِّى إلى الأندلس فحضر /يوما عندعبدالرحمن ١٩٩ - ا
وغنَّى وعبيد الله [بن] قزمان الشاعر حاضر فقال زرياب :

قالت ظلومٌ سَمِيَّةُ الظُّلْمِ ... مالى رأيتك ناحِلَ الجِسْمِ
يامَنْ رأى قلبى فأقصده ... أنتَ العليم بموضع السَّهْمِ

فقال عبد الرحمن : البيت الثانى منقطع عن الأول غير متصل به ! فقال ابنُ قزمان بديهةً بعد البيت الأول :

فأجبتُها والدَّمْعُ منحـدِرٌ ... مثل الجُمان زها على النَّظْم

فكساه عبد الرحمن وحباه .

وهو أول من رتَّب اختلاف الفقهاء إلى قصره ، وأمرهم بالكلام بين يديْه . وكان عبدُ الرحمن بعيد الهمة ،اخترع قصورًا ومستنزهات

(١) هو على بن نافع مولى الخليفة المهدى وتلميذ إبراهيم الموصلى ويقال إنه هو الذى أورث صناعة الغناء بالأندلس .

كثيرةً ، وزاد فى الجامع بقرطبة رواقَيْن. وكانت أيامه أيام عافيه وسكونٍ ، وكثُرت الأموالُ عنده وأقام أُبَّهَة المملكة ورتَّب رسومها. وكان يُشَبَّهُ بالوليد بن عبد الملك فى أُبَّهَتِهِ . وهو أول من اجتلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله قصوره وجعل لفصل الماء مصنعًا كبيرا يَرِدُه النَّاسُ إذا خرج من قصوره رحمه الله تعالى .

ذكر امارة محمد بن عبد الرحمن

المنعوت بالأمين

/هو أبو عبد الله محمدبن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان ، وأمه أم ولد اسمها تهتز . وهو الخامس من أمراء بنى أمية بالأندلس ، قام بالأمر بعد أبيه فى يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين ، وقيل فى شهر ربيع الآخر منها ، وكانت ولايته فى خلافة المتوكل إلى بعض أيام المعتمد قال[1] : ولما ولى جَرَى فى العدل على سيرة أبيه ، وتمَّمَ زيادة بناء أبيه فى جامع قرطبة ١٩٩-ب

ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج

وفى سنة أربعين ومائتين كان بين المسلمين والفرنج حربٌ شديدةٌ ، وسببها أن أهل طليطلة كانوا على ماذكرناه من الخلاف على الملوك فلما وَلِيَ محمدٌ هذا سار بجيوشه إليها ، فراسل أهلُها ملك جليقية يستمدونه ، فأمدَّهم بالعساكر الكثيرة ، فبلغ محمد ذلك

(١) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٢٩٢

وقد قارب طليطلة فعبّأ أصحابهَ وكمن الكمناء بناحية وادى سليط ، وتقدم إليهم فى قِلّةٍ من العسكر فطمع فيه أهل طليطلة والفرنجُ ، وأسرعوا إليه فلما نشبت الحرب خرجت الكمناء من كلّ جهة فقُتِل من المشركين ومن أهلِ طليطلة مالا يُحْصَى ، وجُمع من الرؤوس ثمانية آلافِ /رأسٍ ، وذكر أهل طليطلة أن عِدّةِ القَتْلَى عشرون ألفا (١) ٢٠٠ - ا

قال (٢) : وفى سنةِ إحدى وأربعين ومائتين استكثر محمد الرجال بقلعة رباح لِيُضيِّق على أهل طليطلة ، وسيّر الجيوشَ إلى غَزْوِ الفرنج مع موسى بن موسى ، فدخلوا بلادَهم ووصلوا إلى ألَبَة والقلاع ، فافتتحوا بعض حصونها وعادوا

وفى سنة ثلاثٍ وأربعين خرج أهل طليطلة واقتتلوا هم ومسعود ابن عبد الله العرّيف فانهزم أهل طليطلة وقُتِل أكثرُهم وحُمِل إلى قرطبة سبعمائةُ رأسٍ

ذكر خروج المجوس

إلى بلاد الإسلام بالأندلس

وفى سنة خمسٍ وأربعين ومائتين خرج المجوسُ فى المراكب إلى بلاد الأندلس ، فوصلوا إلى إشبيلية وحلّوا بالحاضر وأحرقوا الجامعَ ، ثم جازوا إلى العَلوة ، ثم عادوا إلى الأندلس فانهزم أهل تُدمير ، ودخلوا حصن أريوله (٣) ثم تقدموا إلى خليط أفرنجه

(١) نفح الطيب ١ : ٣٢٨ والكامل ٥ : ٢٩٤

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٢٩٦

(٣) orihuela فى نواحى تدمير قرية من البحر المتوسط وفى موضع كما جاء فى

فأغاروا وأصابوا من النَّهْبِ والسَّبْى كثيرا ،ثم انصرفوا فلقيهم مراكبُ الأميرِ محمدٍ فقاتلوهم وأحرقوا مركبيْن من مراكب المجوس ، وأخذوا مركبين وغنموا ما فيهما ، فَجَدَّ المجوسُ عند ذلك فى القتال واستشهد جماعةٌ من المسلمين ،/ومضت مراكب المجوس حتى وصلوا إلى مدينة بنبلونة فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجى ففَدَى نَفْسه بتسعين ألف دينارٍ . ٢٠٠ـب

وفى سنة سِتٍّ وأربعين ومائتين سار محمدٌ فى جيوشٍ عظيمةٍ إلى بلد بنبلونة فوطىء بلادَها ودوَّخها وخرَّب ونَهَبَ وقَتَل ، وافتتح حصونًا وأصاب فى بعضها فرتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنةً ثم أطلقه إلى بلده ، وأقام محمد بأرض بنبلونة اثنين وثلاثين يوما .

وفى سنة سبع وأربعين سار جيشُ المسلمين إلى بلد برشلونة وهى للفرنج فأوقعوا بأهلها ، فأرسل صاحبُها إلى ملك الفرنج يستمدُّه فأرسل إليه جيشا كثيفا ، وأرسل المسلمون يستمدون فأتاهم المَدَدُ فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالا شديدا ، فملكوا أرباضَها وبرجَيْن من أبراج المدينةِ ، وقُتِل من المشركين مالا يُحْصَى كثرةً وعاد المسلمون بالظفر والغنيمة .

وفى سنة تسع وأربعين ومائتين جَهَّزَ محمدٌ جيشا مع ابْنِه إلى

=المغرب ٢ : ٢٨٦ كأنه اقتطع بين جنبه الخلود ! ويقال إن لها قلعة شديدة الامتناع ، وقد وردت فى ا ، ف كما فى الكامل ٥ : ٣٠٠ « أريواله » بتصحيف ، وأما فى ك ١١٩ فقد رسمت « أزبوالة » .

مدينة أَلَبَة والقلاع من بلد الفرنج فغنموا وافتتحوا حصونا منيعة .

وفى سنة إحدى وخمسين ومائتين سَيَّر محمدٌ جيشا إلى بلاد المشركين فى جُمادى الآخرة وقصدوا الِملاحة ، وكانت أموال لُذَريق بناحية أَلَبَة والقلاع . فلما عَمَّ المسلمون بلدهم بالخراب والنَّهْبِ
٢٠١ـ١ / جمع لذريق عسكره وسار إليهم فالْتَقَوْا بموضع يقال له فج المركون[1] ، به تعرف هذه الغزاه ، واقتتلوا فكانت الهزيمةُ على المشركين ثم اجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم واشتد القتال فانهزم الفرنج لا يلوون على شىء ، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون ، وكانت هذه الوقعة فى ثانى عشر شهر رجب ، وكان عدد ما أُخِذَ من رؤوس القتلى ألفين وأربعمائة رأس وتسعين رأسا ، وكان فتحا عظيما .

وفى سنة تسع وخمسين ومائتين سار محمد إلى طليطلة وحصرها ـ وكان أهلُها قد خالفوا عليه ـ فطلبوا الأمان فأمَّنهم وأخذ رهائنهم .

وفيها خرج أهل طليطلة إلى حصن سكيان وفيه سبعمائةٌ من البربر وأهلُ طليطلة فى عشرة آلاف ، فلما التحمت الحرب بينهم انهزم مطرّف بن عبد الرحمن بن حبيب وهو أحد مقدّمى أهل طليطلة

(١) كذا فى ا ، ف صفحة ١١٤ ـ ا ، ك صفحة ١١٩ وفى الكامل ٥ : ٣٧٠ « المركوبين »

فتبعة أهلها فى الهزيمة، وإنما انهزم لعداوة كانت بينه وبين مقدم آخر اسمه طريشة فأراد أن يوهنه بذلك فَقُتِلوا أعظمَ قتلٍ .

وفيها عاد عمروس بن عمر بن عمروس الأندلسى إلى طاعة الأمير محمد ، وكان مخالفا عليه عِدَّة سنين . فولَّاه محمد مدينة أشقة (١) .

وفى سنة سِتٍّ وستين ومائتين أمرمحمد بإنشاء مراكب /بنهر قرطبة وحملها إلى البحر وسيَّرها إلى البحر المحيط ليسيرَ منه ٢٠١ـب إلى بلاد جليقية فلما دخلته تقطعت، فلم يجتمع منها مركبان ، ولم يرجع منها إلا اليسير ! .

وفى سنة سبع وستين ومائتين خالف عمر بن حفصون عَلى الأمير محمد بن عبد الرحمن فخرج إليه جيشُ تلك الناحية وعامِلُها ، فقاتلوه فهزمهم . وقوىَ أمرُه وشاع ذكره ، وأتاه من يُريد الشَّرَّ والفساد ، فسَيَّرَ إليه محمد عاملا آخر فى جيشٍ فصالحه عمر ، وطلب العاملُ كلَّ مَنْ كان له مساعَدَةٌ لعمر ، فأهلكه ، ومنهم مَنْ أبعَدَه ، واستقامت تلك الناحية .

وفى سنة ثمان وستين سيَّر محمد جيشا إلى المخالفين مع ابنه المنذرِ فقصد مدينة شَرَقسْطة فأهلك زرْعَها وخرَّب بلدَها . وافتتح حِصْنَ رَوْطة ، وأخذ منه عبد الواحد الرَّوْطى ـ وهو من أشجع أهل زمانه ـ وتقدَّم إلى دير تروجة وهتكها بالغارة ، وقصد مدينة

(١) فى الكامل ٥ : ٣٧٠ « أشقة » ولعلها وشقة التى مرت بنا قبل

لاردة وقرطاجنة وأخذ رهائنهم ، ثم قصد مدينة ألَبة والقلاع فافتتح بهما حصونا ، وعاد بالظَّفَر والنَّصْرِ والسلامة .

ذكر وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن

كانت وفاته فى سلْخ صفر سنةَ ثلاث وسبعين ومائتين وقيل فى يوم الأحد غُرَّةَ شهر ربيع الأول منها ، وأنه خرج يوم الأحد/ إلى الرصافة متنزِّها ومعـه هشامُ بنُ عبد العزيز فقال له : يا سيدى ما أطيب الدنيا لولا الموت ! فقال له : يابن اللخناء وهل ملَّكنا هذا الذى نحن فيه إلا الموت ؟ ولو بقى مَنْ كان قبلنا فمن أين كان يصل إلينا ؟ ورجع من نزهته فحُمَّ ومات فى بقية يومه ، نقله ابن الرقيق فى تاريخ أفريقية وكان مولد محمد فى ذى القعدة سنةَ سبع ومائتين وعمره خمسًا وستين سنةً وثلاثةَ أشهر وأياما . وكانت ولايته أربعا وثلاثين سنةً وأحد عشر شهرًا . ٢٠٢ـ١

وكان أبيضَ مشربا بحمرة ، ربع القامة أوْقَص[١] ، يخضب بالحناء والكتم[٢] ووُلِد له مائةُ ولدٍ ذكورٌ ، مات عن ثلاثةٍ وثلاثين منهم . وكان ذكيا فطنا بالأُمور المستبهمة ، محبا للعلوم ، مؤثرا لأهل الحديث ، عارفًا حَسَن السيرةِ . قال ابن مخلد[٣] الفقيه :

(١) أوقص : قصير العنق ، ويقال وقص عنقه أى كسرها (القاموس المحيط)

(٢) الكتم : نبات يخلط بالحناء ويخضب به الشعر ، وإذا طبخ بالماء كان منه مداد للكتابة .

(٣) هو أبو عبد الرحمن الأندلسى بقى بن مخلد له مسند روى فيه عن ألف وستمائة صحابى (البداية والنهاية ١١ : ٥٦) .

ما كلمت أحدًا من الملوك أكمل عقلا ولا أبلغ من الأمير محمد بن عبد الرحمن ، رحمه الله تعالى . وكانت وفاة محمد فى خلافةِ المعتمد على الله العباسى .

ذكر امارة المنذر بن محمد

هو أبو الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وأمه أمّ ولد اسمها ايل (١) ، وهو السادس من أمراء بنى أمية بالأندلس . قام بالأمر فى يوم وفاة أبيه فى غُرَّة شهر ربيع/الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، وقيل بويع له بعد وفاة أبيه بثلاث ليال وخالف عليه ابن حفصون – وقد ذكرنا خلافه على أبيه – وتحصن عمر بن حفصون بطليطلة ، فسار المنذر إليها وأحدق بها ؛ فأعمل ابن حفصون الحيلة وسلك طريق المكر والخديعة ، وسأل الأمان ، وأظهر الرغبة فى سكن قرطبة بأهله وولده . فأمنه المنذر وكتب له بما أراد ، وفصّل لأولاده الثياب . ثم سأل مائة بغل يحمل عليها أثقاله وعياله إلى قرطبة ، فأمر له المنذر بها وسُلِّمت إليه وعليها عشرة من العرفاء .

٢٠٢–ب

وارتحل العسكر ، فأخذ ابن حفصون البغال وقتل العرفاء ، وعاد إلى سيرته الأولى . فعقد المنذر على نفسه أنه لا أعطاه صلحا ولا عهدًا إلا أن يُلْقِى بيده وينزل على حكمه ، وأمر بالسكنى ،

(١) كذا فى ا ، ك ١٢٠ ، ف ١٥٥ – ا

وأنْ تردَّ أسواق قرطبة إلى طليطلة . ودام الحصار ، فمات المنذر وهو يحاصره .

وكانت وفاته فى يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنةَ خمسٍ وسبعين ومائتين ، وقيل فى نصف صفر . وعمره نحوا من ستٍّ وأربعين سنة وولايته سنةٌ واحدةٌ وأحدَ عشرَ شهرًا ، وأيامٌ .

وكان أسمر طويلا ، جَعدًا كثَّ اللحية ، بوجهه أثر جدرى ، وخلف ستة أولاد ذكورا . وقيل لم يعقب فولى بعده أخوه ! (١)

ذكر امارة عبد الله بن محمد

١-٢٠٣

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وأمه أمُّ ولدٍ اسمُها عشار ، وهو السابع من أمراء بنى أمية ببلاد الأندلس . بويع له بعد وفاة أخيه المنذر فى يوم السبت لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من صفر سنةَ خمسٍ وسبعين ومائتين ، وقيل فى منتصفِ صفرٍ منها ، وذلك فى خلافة المعتمد على الله العباسى .

ولما بويع له كان بالمعسكر على طليطلة فرحل نحو قرطبة ، ودخل القصر بها لثلاثٍ بقين من صفر المؤرَّخ . قال إبراهيم بن الرقيق : ولما تولَّى ألَّب ابنُ حفصون عليه ، وحشد كور الأندلس حتى لم يبْق منها إلا قرطبة ، وأقبل فيمن أطاعه من أهل الكور .

(١) فى البداية والنهاية ١١ : ٥٤ « ثم قام بالأمر من بعده أخوه محمد فامتلأت بلاد الأندلس فى أيامه فتنا وشرا حتى هلك »

وخرج إليه الأمير عبد الله فى أربعة عشر ألفًا من أهل قرطبة خاصة ، وأربعةِ آلاف من حشمه ومواليه . فبرز إليه ابنُ حفصون فى سفح الجبل وثار له ، فلم تكن إلا صدمةٌ صادقةٌ حتى أزالوهم عن مراكزهم . ودخل ابن حفصون الحصن كأنه يخرج من بقى فيه ، فثلم فيه ثلمة أخرج منها أهله وما كان له . فلما انتهى ذلك إلى عسكره ولَّوْا مدبرين لا يلوى أحد منهم على أحد [1] فقتلوا قتلا ذريعا / ودخل منهم ٢٠٣ ـ ب جماعةٌ فى عسكره فأمر بالتقاطهم وجلس لهم فى مظلة فقتِل بين يديه ألفٌ صبْرا .

وكانت فى أيامه فِتَنٌ عظيمةٌ ، وكثُر قيام الثوّار عليه حتى لم يبْق فى يده إلا مدينةُ قرطبة وحدها . وخالف عليه أهل إشبيلية وشَذُونه ، ولم تبْق مدينةٌ إلا خالفت عليه . وعزموا على الدعاء على منابر الأندلس للمعتضد بالله العباسى ، فكتبوا إلى إبراهيم ابن أحمد الأغلب يسألونه أن يبعث إليهم رجلا من قِبلِه ، فتثاقل عنهم إبراهيمُ وشَغَلَه أيضًا اضطرابُ أهلِ أفريقية عليه ، فأمسكوا عن ذلك !

وقَلَّتْ رجالُ عبد اللهِ بن محمد ، وذهب من كان يصول به ـ هو وآباؤه ـ من مواليهم وأصحابهم ، وقلَّتْ الأموالُ فى يده لخروج أهل المدن وامتناعهم من أداء الخراج إليه . وكان خَراج الأندلس

(١) يقال «مر لا يلوى على أحد» لا يقيم عليه ولا ينتظره و «لوى عليه» قصدة ووقف عنده ، قال الشاعر :

فلوت خيله عليه وهابوا ليث غاب مقنعا الحديد

راجع القاموس وأساس البلاغة مادة «لوى»

الذى يُؤَدّى إلى آبائه ثلاثمائة ألف دينارٍ فى كلِّ سنةٍ ، فكانوا يُعطون رجالَهُم وخَدمهُم مائة ألفِ دينار ، وينفقون فى أمورهم ونُوَّابِهم وجميع ما يعرض لهم مائةَ ألفٍ ، ويدّخرون مائة ألف (١) . فلما امتنع أهل مدن الأندلس من أداء الخراج إليهم رجعوا إلى تلك الذخائر ينفقونها ، واتصلت عليهم الحروبُ خَمْس عشرةَ سنةً فنفدت ذخائرهم واحتاجو للقروض !

٢٠٤ـا وكانت أيامه على هذه الحال إلى أن توفى ، وكانت وفاتُه / فى يوم الثلاثاء غُرة شهر ربيع الأول سنةَ ثلاثمائة ، وعمره سبعون سنةً إلا شهورًا ، ومدةُ ولايته خَمْس وعشرون سنةً ونصفُ شهر وكان مستبدًا بآرائه ، مخالفا لنصحائه ، ليِّنَ الجانبِ جدًا . بلغ من لينه أنَّ ابنَه مطرّفاً قتل أخاه محمد بنَ عبدالله والد الناصِر فلم ينكر عليه ذلك ، بل قال له : قد سوّغتك قَتلَ أخيك فالله الله فى ابن أمية (يعنى وزيره) فإنك إن قتلتَه قتلتُك به ! ثم حذَّر ابنَ أميةَ من مطرّف ، وكان مطرّف قد عزم على خلعه فلم يمكنه ذلك لمكان ابن أمية ، فعمل عليه حتى قتله . ولما مات عبد الله ولِى بعده ابنُ ابنه عبد الرحمن .

ذكر امارة عبد الرحمن بن محمد

هو أبو المطَرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وأمه أمُّ ولدٍ اسمُها مُزْنة ، وهو الثامن من أمراء بنى أميةَ بالأندلس .

(١) راجع نفح الطيب ١ : ١٤٠ ، ١٤١ ، ٣٢٩ .

بويع له بعد وفاة جدّه ، فى مستهل شهر ربيع الأول سنةَ ثلاثمائة. وقال ابن الرقيق إنه أخٌ لعبد الله بن محمد ، وليس بصحيح ! وينقض ذلك عليه أنه قال فيه : ولى وهو ابنُ أربع وعشرين سنةً ووفاةُ محمد بن عبد الرحمن قبل مولد عبد الرحمن هذا بأربع سنين ، وأظنه أُشْكِل عليه أمْرُه ، والتبس عليه محمد بن/ عبد الله ٢٠٤-ب بجدّه محمد بن عبد الرحمن ، والله تعالى أعلم . .

قال[1] : ولما ولى عبد الرحمن هذا تَلَقَّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وهو أوّلُ منْ لُقِّب بأمير المؤمنين ببلاد الأندلس . وكان منْ قَبْلَه يُسمَّوْن ببنى الخلائف ، ويُسلَّمُ عليهم ويُخطبُ لهم بالإمرة فقط . وإنما تَسمَّى هذا بأمير المؤمنين لما بلغه ضَعْفُ الخلافةِ بالعراق فى أيام المقتدر بالله ، وظهورُ الشيعةِ بالقَيْروان ، ودعاؤهم للمهدى . فكان في ذلك الوقت ثلاثةُ خلائف تَلقَّبَ كل منهم بأمير المؤمنين ؛ فالمقتدر بالعراق ، والمهدى بالقيروان ، وهذا الناصر بالأندلس .

قال : وولى والأندلس نار تضطرم ، وجمرةٌ تَتِقَّدُ شقاقا ونفاقا ، فأخمد نيرانها وسكَّن زلازلها ، وغزا غَزَوات كثيرةً ، وكان يُشَبَّه بعبد الرحمن الداخل . ولم يجد من المال ما يستعين به على مصالح جيشه ، فاتفق أن صاحب الدُّوجَر[2] أغار على قرطبة فى نَحْوِ ثلاثمائة فارسٍ فهزمه عبد الرحمن وأسره . فسلَّم إليه الحصن بجميع مافيه فَتَقَوَّى به ، ثم التقى مع ابن حفصون في وادى التفاح

(١) ابن الأثير فى الكامل ٦ : ٣٦٠ وانظر نفح الطيب ١ : ٣٣٠ .

(٢) جاء فى المغرب ٢ : ٢٢٧ أن دوجر على وادى المرية بينهما أثنا عشر ميلا ، وهو فى الغرب منها .

بجيّان – وكان ابن حفصون في عشرين ألف فارس – فهزمه عبد الرحمن وأفْنَى أكثر من معه قَتْلا وأسْرا .

وبعث إلى المغرب الأوسط ، فملك سبتة وفاس وسجلماسة وعمّرها .وغزا الروم بعد ذلك اثنتى عشرةَ غزوةً/ حتى دوّخ بلادها ، ووضع عليهم [جزية] [1] يؤدونها . وكان فيما شرط عليهم اثنا عشر ألفَ صانع يصنعون له فى مدينته التى بناها وسمّاها الزهراء ، وهى على ثلاثة أميال من قرطبة ، أسندها إلى سفح الجبل وساق المياه إليها . وقسمها أثلاثا ، فالثلث الذى يلى الجبل لقصوره ومنازله ، والثلث فيه دور خدَمِهِ وكانوا اثنى عشر ألفا بمناطق الذهب والسيوف المحلاة يركبون لركوبه وينزلون لنزوله ، والثلث بساتين تحت مناظره وقصوره . وجلب إليها أنواع الفواكه ، قال [2] : ومن غريب ما بناه فيها مجلسٌ مشرفٌ على البساتين مرفوعٌ على العمد مبنىٌّ بالرخام المجزّع ، مصفّح بالذهب ، مرصّع بالياقوت والجواهر. وصنع أمام المجلس بحرًا ملأه بالزئبق فكان النور ينعكس منه إلى المجلس ، فحضر إليه القاضى بقرطبة الفقيه مُنْذِر بن سعيد البلّوطى [3] فقرأ « ولولا أن يكون النّاسُ أُمّةً واحدةً لَجَعَلْنَا لمن يكفرُ بالرحمنِ لبيُوتِهِم سُقُفًا من فِضَةٍ ومعارجَ

٢٠٥ – ا

(١) فى سائر النسخ « جاليه » بتحريف فى يبدو و لعلها « جباية » أو « جابية » بمعنى « مجبية » وما هنا يدل على السياق فأثبتناه .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٢ .

(٣) ينقل المقرى للبلوطى صورة رائعة للعدل والنزاهة والذكاء والقوة والصرامة (نفح الطيب ١ : ٣٥١ ، ٣٥٢) ويصفه ابن الأثير بأنه كان إماما فقيها خطيبا شاعرا فصيحا ذا دين متين مات سنة ٣٦٦ (الكامل ٧ : ٨٢)

عليها يظهرون » إلى قوله تعالى « والآخرةُ عند ربِّك للمتَّقين » (١) فقال له وعظت فأحسنت ! وأمر بنزع الصفائح .

قال (٢) : وكمل بناء الزهراء فى اثنتى عشرةَ سنةً ، بألف بنَّاء فى كل يوم ، مع كل بنَّاء اثنا عشر رقاصا ، وسكنها خمسًا وعشرين سنةً .

وطالت أيام الناصر ، وتمكن ، واتسعت مملكته ./ وكانت وفاته ٢٠٥ ب
فى ليلة الأربعاء لليلتين ، وقيل لثلاثٍ خلت من شهر رمضان المعظم سنةَ خمسين وثلاثمائة بالزهراء . وحُمل إلى مدينة قرطبة ، فدُفن بها مع أسلافه من بنى أمية . ومولده فى يوم الخميس لتسعٍ بقين من شهر رمضان سنة سبعٍ وسبعين ومائتين ، وكان عمره ثلاثًا وسبعين سنةً ، ومدةُ ولايته خمسين سنةً وستة أشهر وأياما .

وكان شهما صارما ، لم يزل منذ ولى يستذل المتغلبين حتى خلصت له جميع الأندلس فى خمسٍ وعشرين سنةً من ولايته . وكان له من الأولاد الحكمُ ولىُّ عهده ، وعبد الجبار ، وسليمان ، وعبد الملك ، وعبيد الله ، والمغيرة ، ولما مات ولى بعده ابنه (الحكم)

ذكر امارة الحكم المستنصر بالله

هو أبو العاص الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمدبن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن

(١) سورة الزخرف آيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٣ .

الداخل ، وأمه أم ولد اسمها مرجان ، وهو التاسع من أمراء بنى أمية ببلاد الأندلس . بويع له فى شهر رمضان سنةَ خمسين وثلاثمائة فى جميع مدن الأندلس وثغورها ، فأحسن إلى الرعية ، وعدل فيهم وضبط الثغر ، وغزا الروم فى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، ففتح مدنًا جليلة ، وسبى وغنم / وانصرف غانما . ٢٠٦ ـ ا

ثم أصابه الفالج فتغيّب عن الناس ، فلما كان فى يوم السبت لعشرٍ خلون من المحرم سنَةَ ستٍّ وستين وثلاثمائة أُظْهِر موتُه ، وقيل توفى فجأةً ليلة الأحد لأربعٍ خلون من صفر منها . ومولده فى يوم الجمعة مستهل شهر رجب سنة اثنتين وثلاثمائة ، فمات وله من العمر ثلاثٌ وسبعون سنة وستةُ أشهر وعشرةُ أيام ؛ ومدةُ ولايته خمس عشرةَ سنةً وأربعةُ أشهر وأيام .

وكان حسن السيرة ، جامعا للعلوم مكرمًا لأهلها ، وجمع من الكتب على اختلاف أنواعها مالم يجمعه غيره من الملوك قَبْلَه ، واشتراها من سائر الأقطار ، وغالى فى أثمانها ، فحملت إليه من كل جهة . وكان قد رام قَطْعَ الخمر ، من الأندلس ، وأمر بإراقتها وشدّد فى استئصال شجرة العنب من جميع أعماله . فقيل له إنها تعمل من التين وغيرِه ، فتوقف فى ذلك . وهو الذى رحل إليه أبو على القالى البغدادى صاحب الأمالى (١) ، وأبو بكر

(١) توفى القالى بقرطبة سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، وحين وضع أماليه أهداها للحكم على ما قرر فى مقدمتها وقال عنه « فرأيته أيده الله أجل الناس بعد أبيه خطرا ، وأرفعهم قدرا ، وأوسعهم كنفا ، وأفضلهم سلفا ، وأغزرهم علما ، وأعظمهم حلما » .

الزبيدى مُخْتَصِرُ كتابَ العين [١] . وكان منذر بن سعيد البلوطى قاضيَة وقاضىَ أبيه ، فلما توفى ولى القضاء ابن بشير الفقيه ، فاشترط على المستنصر نفوذ الحكم فيه فمن دونه .

فكان من أخباره أن امرأة منقطعة كان لها أريضة تجاور بعض قصور الأمير ، فاحتاج إليها ليبنى فيها شيئا مما أراد بناءه ، فساومها الوكيل فى البيع / فامتنعت ، فأخذها الوكيل قهراً وبنى فيها ٢٠٦-ب منظرة بديعة وأنفق عليها جملة وافرة . فوقفت المرأة لابن بشير القاضى وقصّت عليه قصتها ، فركب حماره وجعل عليه خرجًا كبيرًا لايطيق حَمْله إلا جماعةٌ من الرجال .وقصد الزهراء والمستنصر فى تلك المنظرة ، فدخل عليه فقال : ماجاء بالقاضى فى هذا الوقت؟ فقال : أريد ملْء هذا الخرج من تراب هذا الموضع ! فتعجّب منه الحكم وأمر فَمُلِىء الخرج ثم خلا القاضى به فقال : أدل عليك إدلال العلماء على الملوك الحلماء أن لاينقل هذا الخرج على الحمار إلا أنا وأنت ! فضحك الحكم وقال : كيف نطيق ذلك أيها القاضى ؟ فبكى ابن بشير وقال : فكيف نطيق أن نطوق هذا المكان أجمعه من سبع أرضين فى حلقى وحلقك يوم القيامة وأنا شريكك فى الإثم إن رضيت هذا الحكم ؟ وقَصّ عليه القصة .

(١) كتاب العين أحد الكشافات للخليل بن أحمد البصرى المتوفى سنة ١٧٥ رام به ضبط اللغة وحصرها فنسقه بحسب مخارج الحروف مع تقسيمه إلى أبواب ، وقد جاء الزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ فشارك فى الأعمال التى دارت حول كتاب الخليل ، وقام باختصاره مع تنظيمه وتصحيحه . وإن يكن قد سار فيه على ترتيب العين للحروف بكل دقة ، وقال فى مقدمته على ماجاء فى النسخة التى صورت عن مجمع اللغوى وحفظها تحت رقم ٢٠٩٨ « هذا كتاب أمر بجمعه وتأليفه أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله » .

فبكى الحكم وقال : وعظتَ فأبلغت أيها القاضى ! ثم خرج عن المكان وسلّمه إلى المرأة بكل ما بُنى فيه وغُرِس .

قال : وكتب إليه العزيز بن المعز صاحب مصر كتابا يشتمه فيه ويسبه ، فكتب إليه « أما بعـد فإنك عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجوناك ، والسلام » وكتب إليه قصيدة يفتخر فيها منها :

ألسنا بنى مروانَ كيف تَبَـدَّلَتْ
بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلِـدَ المـولودُ منـا تَهَلَّلَتْ
له الأرضُ واهتـزتْ إليـه المنابرُ

/ وكان للحكم من الأولاد هشام ، وسليمان ، وعبد الله . وحاجبه جعفر الصقلى ، المعروف بالفتى ! ٢٠٧ ـ ١

ذكر امارة هشام المؤيد بالله

هو أبو الوليد هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر بالله ؛ وهو العاشر من أمراء بنى أمية ببلاد الأندلس . بويع له بولاية العهد فى حياة أبيه فى غُرَّةِ جُمادى الأولى سنة خمس وستين وثلاثمائة . وجُدِّدَتْ له البيعةُ فى يوم الأحد لإحدى عشرةَ خلت من المحرم سنة ستٍّ وستين وثلاثمائة . وقيل فى يوم الإثنين لخمسٍ خلون من صفر منها ، وهو ابن اثنتى عشرةَ سنة باتفاق الوزراء . وعلموا أن عمَّه المغيرةَ بنَ عبد الرحمن ينازعه فى الأمر ويتطاول إلى بعض ما عُقِدَ له ويرى أنه أحقُّ بذلك منه لِصِغَر سِنّه ، فَهُجِم عليه فى

منزله فَذُبح . وكان الذى تولَّى قَتْلَه محمد بن أبى عامر الوزير ، فَصَعَّبَ الأُمورَ لهشام .

ولما ولى احتيج إلى مدبرٍ للمملكة ، فوقع الاختيار على جعفر ابن عثمان المصحفى ، فقلَّده هشام حجابته وتدبيرَ أمره ، وأشرك معه فى الحجابة غالب بن عبد الرحمن . وقلَّد المنصور بن أبى عامر الوزارة – وكان على الشرط والسكة – فانحط المصحفى وارتفع ابن/أبى عامر ، ثم عزل المصحفى عن الحجابة فى يوم الإثنين لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلت من شعبان سنة سبع وستين وحوقق وطولب بمائة ألف دينار ، وتوفى فى المطبق بعد خمسة أعوام ، فكانت مدة ولايته ستة أشهر وثلاثة أيام . ٢٠٧–ب

ذكر أخبار المنصور محمد بن أبى عامر

قال[١] : ولما عزل المصحفى اتفق الرأى على تقديم محمد بن أبى عامر المعافرى[٢] ، فولى الحجابَة فى يوم الإثنين المؤرّخ ، وبقى غالبٌ شريكهُ إلى أن قُتل وتفرَّد المنصور بالأمر .

قال بعض المؤرخين : كان محمد بن أبى عامر من الجزيرة الخضراء (٣) ، وله بها قَدْرٌ وأثرة وورد وهو شابٌ إلى قرطبة واشتغل بالعلم والأدب ، وسمع الحديث وتميّز . وكانت له همة يحدِّث بها نفسه بإدراك معالى الأُمور ، وكان يحدِّث من يختص به

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٣ وراجع نفح الطيب ١ : ٣٥٨ ، ٣٦٥ .
(٢) المعافرى : نسبه إلى معافر وهو حى كبير من اليمن
(٣) انظر حوادث ثلاث وأربعين ومائة بالأندلس .

بما يقع له من ذلك . وله أخبار كثيرة أورد منها أبو عبدالله الحميدى - في كتابه المترجم بالأمانى الصادقة - كثيرا قال : ثم علت حاله ، وتعلّق بوكالةِ صُبْحٍ أمِّ هشام المؤيد ، والنظر فى أموالها ؛ فزاد أمره فى التّرقّى إلى أن مات وولى ابنُها هشام ، فخافت اضطرابَ الأمرِ عليه ، فضمن لها سكونَ الحال وزوال الخوف/ واستقرار الملك لابنها . فساعدته المقادير ، وأمدّته المرأةُ بالأموال فاستمال العساكر إليه ، فصار صاحبَ التدبير والمتغلّبَ على الأمر . ٢٠٨ـ١

وحجب هشامًا وتلقّب بالمنصور [1] وأقام الهيبة ، فدانت له أقطار الأندلس كلها ، ولم يضطربْ عليه شيء منها لعظم هيبته وحُسْنِ سياسته . وكان يدخل إلى القصر ويخرج فيقول : أمر أميرُ المؤمنين بكذا ونهى عن كذا ! فلا يُعْتَرَضُ عليه فى مقال ولا يُنازَع فى أفعال .

وكان إذا غزا بلد الروم وكل بهشام من يمنعه من التصرف والظهور والإذْنِ فى دخول أحدٍ من الناس إلى أن يعود من سفره ، فإذا كان بعد سنين أركبه وجعل عليه بُرْنسا وألبس جواريه البرانس حتى لا يُعْرَفَ منهن ، ويوكل بالطرقات من يطرد الناس عنها حتى ينتهى إلى الزّهراء وغيرها من المتنزهات ، ثم يعيده على مثل ذلك . وليس له من الملك إلا الدعاءُ على المنابر ، وإثباتُ اسمِهِ

(١) فى نفح الطيب ١ : ٣١٤ « وتسمى بالحاجب المنصور ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه » .

على السكة والطرر ، والمنصور على أتمّ مايكون من الحزم وسَدّ الثغور وإقامةِ العدل وشمولِ الناس بالإحسان والفضل. فلم يُر في الضبط وحُسْنِ السياسة وأمْن السبيل وتوفية حقوق الرياسة بجزيرة الأندلس كأيامه !

ودامت له هذه الحال بضعا وعشرين سنة إلى أن توفى ، وكانت وفاته فى أقصى الثغور / بمدينة سالم[1] فى سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة فى طريق الغزو . ٢٠٨ب

قال[2] : وكان رحمه الله تعالى له مجلس فى الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم للكلام بحضرته مدةَ بقائه بقرطبة ، قال وختن أولاده فختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائه صبى ومن أولاد الضعفاء مالم تُحْص عدتهم ، وأنفق فيه خمسمائة ألف دينار .

وكان ذا همة عالية فى الجهاد ، مواصلا لغزو الروم[3] ، وربما خرج لصلاة العيد فيقع له فيه الجهاد ، فلا يرجع إلى قصده ويركب من فوره بعد انصرافه من الصلاة ، فلا يصل إلى أوائل الدروب إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر. وغزا ستا وخمسين غزاةً ذكرت فى المآثر العامرية بأوقاتها ، وفتح فتوحا كثيرةً ، ووصل إلى معاقل جمّةٍ امتنعت على منْ كان قبله . وملأ الأندلس بالغنائم والسبي .

---

(١) كان صاحب مدينة سالم فى أيامه شريكه غالب المصحفى ، وكان قد تزوج ابنته أسماء .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٤

(٣) يقال إنه غزا ستا وخمسين غزوة لم تنتكس له فيها راية (نفح الطيب ١ : ٣٧٤) .

قال (١) : وكان إذا انصرف من قتال العدو إلى سُرادقه يأمر بِنفْضِ غبار ثيابه التى شهد فيها الحرب ، ويُجمعُ ويُحتفظ به . فلما حضرته الوفاةُ أمر أن ينشر على كفنه ما جمع من ذلك إذا وضع فى قبره .

قال : وبنى مدينة الزاهرة بقرب قرطبة ، وانتقل إليها بأهله وولده وحواشيه. وكان قد يُخَوَّفُ من بنى أُمية أن يثوروا به ، فأخذ فى تقتيلهم صغارًا وكبارًا ، عملا فى الباطن لنفسه وفى الظاهر إشفاقًا على المؤيد منهم ، حتى أفْنَى من يصلح منهم/ للولاية ، وفرّق الباقين فى البلاد . فكان ممن هرب الوليد بن هشام الخارج على الحاكم بمصر ، الملقب بأبى زكوة . ٢٠٩ ـ ا

وأخبار المنصور طويلة مشهورة لو استقصيناها لطال الكتاب ، وفيما نَبَّهنَا عليه من أخباره وذكرناه من آثاره كفاية . وأخبرنى بعض أهل الأندلس أن على قبره مكتوبا :

آثاره تُنْبيك عن أخبـــارِهِ حتى كأنك بالعِيان تَرَاهُ
تالله لا يأتى الزمانُ بمثـــله أبدًا ولايحمى الثغورَ سواه

ولما مات رحمه الله ـ قام بالأمر بعده ولده .

ذكر المظفر أبو مروان عبد الملك

قال (٢) : وكان الناسُ قد تجمعوا وقصدوا الزهراء وقالوا : لا بُدَّ من ظهور المؤيد وولايته الأمْرَ بنفسه ! فلما بلغه ذلك آثر

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٧
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٩٤

الراحة والدعة ، وأحضر عبد الملك وخلع عليه وقلّده ما كان بيد أبيه من الولاية ، ونعته بالحاجب المظفر سيف الدولة . وأمر فاتن [١] الصغيرُ الخادمُ أن يخرج إلى المجتمعين فيصرفَهم ويخبرهَم برضائه بِحجْبَةِ المظفر ، فأخبرهم ، فأبوا !

وخرج المظفر فقابلته الفئة المجتمعة فهزمهم ، وأقام فى الحجبة إلى أن توفى لاثنتى عشرة ليلةً بقيت من صفر سنة / تسع وتسعين ٢٠٩-ب وثلاثمائة بموضع يقال له القبران[٢] فى غزوته ، فحمل فى تابوت ودفن بالزاهرة وعمره ستٌّ وثلاثون سنة . ومدةُ ولايته ستة أعوام وأربعة أشهر وأيام وغزا الروم ثمانى غزوات وبأيامه تضرب المثُل بالأندلس عدلا وأمنا .

ولما مات وَلِىَ الحجْبَةَ عبدُالرحمن بنُ المنصور محمد بن أبى عامر وهو أخو المظفر ونُعِتَ بالحاجب المأمون ناصر الدولة ، ويلقب بشنشول فافتتح أموره بالخلاعة والمجانة . وكان يخرج من منية إلى منية ومن متنزه إلى متنزه بالملاهى والمضحكين ؛ ويجاهر بشرب الخمر والتهتُّك . ثم طلب من المؤيد أن يدعو له ويوليه العهد بعده ، وهدّده بالفَتْكِ به إن لم يفعل ، وكثر الإرجاف بذلك .

ثم ركب شنشول من الزاهرة ومعه سائر أهل الخدمة بسلاحهم ، والوزير وقاضى الجماعة ، والفقهاء والعدول ، وأصحاب الشُّرَط ؛ ووجوه الناس على طبقاتهم . وسار إلى باب القصر بقرطبة ، وحضر

---

(١) كذا فى ا ، ف صفحة ١١٨ - ا ، أما فى ك ١٢٥ فالاسم « قائن » .
(٢) كذا فى سائر النسخ المصورة .

المؤيد هشام ، وأخرج كتابا قُرِىء بحضرته وهو بخط الوزير أبى عمر [١] ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما عهد به هشامٌ المؤيد بالله أمير المؤمنين /إلى النـاس عامة ، وعاهـد الله - عزَّ وجـلَّ - ٢١٠-ا
عليه من نفسه خاصة ، وأعطى به صفقة يمينه بيعةً تامّةً ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ماجعل الله إليه من الإمامة وعصب به من أمره ، واتقى حلول القدر بمالا يؤمن ، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرف ، وخشى إن هجم محتوم ونزل مقدور به ولم يرفعْ لهذه الأُمة علما تأْوى إليه وملجأً تنعطف عليه .. أن يكون بلقاء ربه - تبارك وتعالى - مفَرطا فيها ساهيا عن أداءِ الحقِّ إليها ونقض عند ذلك من طبقات الناس من أحياء قريش غيرها ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته ، بعد اطِّراح الهوى والتحرِّى للحق والتزلُّف إلى الله - جَلَّ جلاله - بما يرضيه . بعد أن قطع الأواصر وأسخط الأقارب فلم يجد أحدًا هو أجدر أن يقلده عهده ويفوِّض إليه الخلافةَ بعده ، بفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مركبه وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ، ومعرفته وإشرافه ، وحزمه وتقاته .. من المأمون الغَيْبِ الناصِح الجيْبِ ، أبى المطرِّف عبد الرحمن ابن محمد المنصور أبى عامر بن أبى عامر ، وفقه الله إذ كان أمير المؤمنين - أيده اللهُ - قد ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأْنه واعتبره ، فرآه مسارعا/ فى الخيرات سابقا فى الحلبات مستوليا على الغايات جامعًا ٢١٠-ب

(١) فى نفح الطيب ١ : ٤٠٠ « من إنشاء أبى حفص بن برد » صورة العهد تختلف بعض الشىء عما هو مثبت هنا .

للمأثرات ! ومن كان المنصورُ أباه ، والمظفرُ أخاه .. فلا غَرْوَ أن يبلغ من سُبُل البِرِّ مداه ، ويحوى من سبيل الخير ماحواه . مع أن أمير المؤمنين – أكرمه الله – بما طالع من مكنون العلم ، ودعاه من مخزون الأمر ، أمّل أن يكون قد ولّى عهده القحطانى الذى حدّث عنه عبد الله ابن عمرو بن العاص وأبو هريرة أنّ النبى صلى الله عليه وسلّم قال : لاتقوم الساعةُ حتى يخرجَ رجلٌ من قحطان يسوق الناسَ بعصاه . فلما استوى منه الاختيار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مهربا ، ولا إلى غيره معدلا .. خرج إليه من تدبير الأمور فى حياته ، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وفاته ، طائعا راضيا مستخيراً مجتهدًا . وأمضى أمير المؤمنين عهدَه هذا وأجازه وأنفذه ، ولم يشترط فيه مثْنويةً[1] ولا خيارا ، وأعطى على الوفاء به فى سِرّه وجَهْره وقوله وفِعله عَهْدَ الله وميثاقه ودمه وذِمّةَ نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلّم ، وذِمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذِمّة نفسه .. أن لا يبدّلَ ، ولا يغيرَ ولا يحوّل ، ولا يزول ، وأشْهَدَ اللهَ تعالى وملائكته على ذلك ، وكفى بالله شهيدا .. وأشهد من وقع اسمُه فى هذا وهو جائز الأمر ، ما ضى القول والفعل / بمحضرٍ من ولى عهده ٢١١ – ا
المأمون أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور – وفّقه الله – وقبوله ما قلّده ، وإلزامه نفسه ما ألزمه ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة » .

ثم كتب الوزراء والقضاة والفقهاء شهاداتهم بذلك ، فلما تَمّ

(١) مثنوية : استثناء .

له ما أراد من ولاية العهد ودُعِىَ له على المنابر ، أخذ فى التخليط وارتكاب المحرّمات . ثم عزم على الغزاة ، وتقدّم اليه هشام أن يتعمّم هو وسائر الجند ففعل ، وخرجوا فى العمائم (١) — وكانوا بها فى أقبح زِىٍّ لمخالفة العادة — وذلك فى يوم الجمعة لاثنتى عشرة خَلَتْ من جُمادى الأُولى .

وسار للغزاة وهى المعروفة بغزوة الطين ، وقيل إنه انتهى إلى طليطلة ، فأتاه الخبر بقيام محمد بن هشام بن عبد الجبار وخلعه للمؤيد ، وأنه أخرب الزاهرة ، فخاف الناس لنفسه ، ثم تفرقوا عنه ، والتحقوا بمحمد بن هشام وكان من أمره وأمر المؤيد ما نذكره فى أيام محمد بن هشام بن عبد الجبار !

ذكر امارة محمد المهدى

هو أبو الوليد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وهو الحادى عشر من ملوك بنى أمية بالأندلس استولى على الأمر فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، ونحن نذكر سبب ذلك وكيف كان خروجه وكيف استولى على الأمر ، لأنّ فى ذلك من الغرائب والحوادث ما يتعين إيراده بسببه ويفيد تجرُّبه ، ويعتبر به مَنْ يتأمله ، ويعلم أنّ المقادير تجرى على غير قياس ، وإذا أراد اللهُ أمرًا هيّأ أسبابه . ٢١١-ب

وكان ابتداء هذا الأمر أنّ هشام بن عبد الجبار والد محمد المهدى

(١) من ك صفحة ١٢٦ .

هذا قد ترشّح لطلب هذا الأمرِ لنفسه ، وعزم على خلع هشام المؤيد ، فبلغ ذلك المظفر عبد الملك فقتل هشام بن عبد الجبار قبل أن يستحكم أمره فى سنة تسع وتسعين . وكان محمد بن هشام جسوراً مقداما شجاعا ، ولم يتهيأ له أمرٌ لهيبة عبد الملك واجتماعِ جنده ، فلم يزل محمد يترصّد الأمر حتى مات عبد الملك وولى عبد الرحمن . وتطاول لولاية العهد ونالها ، وخرج للغزاة – على ما قدّمنا – فخلا البلد من الجند . وقوّى عزمَ محمد رجلان وهما حسن بن حىّ الفقيه ومطرف بن ثعلبة . وكان محمد يعاشر فى مدة استتاره قوماً من الصعاليك لهم إقدامٌ على كل عظيمة ، فَدَسّ بعضهم إلى بعضٍ وأعطاهم من خمسة مثاقيل إلى عشرة وأكثر من ذلك ، فاجتمع له منهم نحو أربعمائة رجلٍ . وطاوعه على ذلك جماعة من المروانيين ٢١٢ – ا لخروج الأمر عنهم وصَرْفِهِ إلى أبى عامر .

وكان عبد الرحمن قد رتّب أمورَ البلد قبل مسيره ، وجعل النظر فى الأموال وتدبير البلد إلى أحمد بن حزم وعبد الله بن سلمة المعروف بابن الشرس ، وجعل على المدينة عبد الله بن عمرو المعروف بابن عُسْفلاجة وهو أحد بنى أبى عامر . وظن شنشول أن الأمور لاتتغير وأن دولتهم قداستحكم أمرُها ، هذا ومحمد فى تقرير حاله ، فشنع الناس أنّ قائما يقوم على بنى الأغلب ، فبلغ ابن عسفلاجة الخبر فأظهر البحث وبالغ فى الكشف فلم يتبيّن له شىء وهجم دوراً كثيرة فلم يقف على أمرٍ واضحٍ .

فلما كان فى يوم الثلاثاء النصف من جمادى الآخرة مات ابنُ عبد الجبار بقرطبة ، وتقدم إلى ثلاثين رجلا من كُفَاة أصحابه

أن يشتملوا على سيوفهم ويدخلوا من باب القنطرة متفرقين حتى يقفوا على السترة التي تشرف على الرصيف والوادى ، كما يفعل من يريد التفرّج بذلك المكان . وأمرهم أن لا يحدثوا حدثًا حتى يأمرهم وأنذر سفهاءه وواعدهم ساعةً قبل زوال الشمس ، ففعل أولئك النَّفَرُ ما أمرهم به ، وكان من سواهم على انتظار الوقت الذي حدّده لهم . وركب محمد بغلته وعبر القنطرة وحده حتى انتهى إلى باب الشكال ومعـه نفرٌ من أصحابه كانوا قياما عـلى باب القنطرة

٢١٢-ب / فاقتحموا باب الشكال فأنكرهم حَرَسُ الباب وأرادوا مَنْعَهُمْ ، فبادر محمدٌ ودخل . وسلَّ أولئك النَّفرُ سيوفهم وقصدوه ، فقصدهم صاحب المدينة ابن عسفلاجة ، فيقال إنه كان يشرب مع حارسين له ، فأتاه محمد وهو على أُهْبةٍ فقتله واحتزُّوا رأسه . وتتابع أصحاب محمد من جهاتهم إليه .

واتصل الخبر بأهل الزاهرة عند العصر وقد عظم جمع محمد من أصحابه ومَنِ اجتمع إليه من العوام وأهل البادية ، فنُقب القصر من ناحية باب السباع ومن ناحية باب الجنان ،ولم يقدر حرس القصر على مقاومته .. ووصل إلى القصر من جهة باب السدة وأهل الزاهرة غير مصدقين بالأمر ،وظنوا أنه أمر يدفعه صاحب المدينة إلى أن قوى عندهم الخبر بدخول محمدٍ القصر ؛ فكان حسبهم اعتصامهم بالزاهرة في ليلتهم .

فلما صار محمد داخل القصر أرسل إليه المؤيد هشام يقول له : تؤمنني على نفسي وأنخلع لك من الأمر ! فقال « سبحان الله

أترانى إنما قمت فى هذا الأمر لأقتل أهل بيتى ، وإنما قمت غضبًا له ولنفسى وبنى عمى ، فإن خلع نفسه طائعا قبلت ذلك ، وليس له عندى إلا مايحبّ .

وأرسل محمد إلى الفقهاء ووجوه الناس فأحضرهم ، وكتب كتاب الخلع والبيعة لمحمد ، وبات تلك الليلة فى القصر وأهل بالس وهى الزهراء لم يتحرك / منهم أحد ، وكانوا جمعًا كبيرًا منهم أبو عمرو بن حزم ٢١٣ـ١
وعبد الله بن سلمة وابن أبى عبيدة وابن جهور ، وجماعة من الفقهاء والوزراء والصقالبة ـ وهم الخصيان ـ ونفر من الجند والخزان والكتاب .

وأصبح محمد فجعل حجابته إلى ابن عمه محمد بن المغيرة ، وجعل على المدينة ابنَ عمّه أُمَيَّةَ بن إسحاق . وأمرهما بإثبات كل من جاءهما فى الديوان ، فلم يبق أحد حتى أثبت نفسه حتى الزهاد والعباد وأئمة المساجد وغيرهم وقبضوا العطاء ، وكذلك التجار الأغنياء . واتّبعه سائر أهل البوادى والأطراف ، وأرسل حاجبه محمد بن المغيرة فى خَلْقٍ من العامة لمحاربة أهل بالس فردّوه أقبح ردٍّ وهزموه إلى داخل قرطبة . ثم كثر العامة فهزموهم إلى بالس ، ودخلها الحاجب ونُهبت ، فسأل الوزراء والصقالبةُ الأمانَ فأمّنهم محمد ، فساروا إليه فوبخهم ثم عفا عنهم ورد ابن الشرس مع الحاجب لِنَقْلِ ما ببالس من الأموال والأمتعه والأثاث وقد نُهِبَ منه مالا يُحصى ، ونُهِبَتْ ليْلةَ الأربعاء دورٌ كثيرةٌ للعامرية ، ونهب ما جاوز بالس من دور الوزراء ، وانْتُهِبَ مافى الزاهرة حتى قُلِعتْ الأبوابُ والأخشابُ ، والحاجب مع ذلك ينقل .

ثم أمر محمد بعْدَ أربعةِ أيام بِكَفِّ أيْدى العامةِ عن النَّهْب فمنعوا ، وتَفَرَّد بعقل ما يريد ، فيقال إن الذى وصل إليه من الزاهرة فى ثلاثة أيام ألفُ ألفٍ وخمسمائة ألفِ دينارٍ ، ومن الدراهم الأندلسية ألفا ألف ومائة ألف ، ووجد بعد ذلك خَوابىُّ فيها نَحْوٌ من مائتى ألف دينار ، وأطلقت النارُ فى الزاهرة لعشر بقين من جمادى الآخرة . ٢١٣ ب /

وخُطِب لمحمد بالخلافة وقطعت خطبةُ هشام وشنشول ، وقُرِئَ بعد صلاة الجمعه كتابٌ بِلَعْنِ شنشول وذِكْرِ مساوئة ، وقُرِئَ كتابٌ آخرُ من محمد بإسقاط رسوم جارية وقبالات محدثة . وصلَّى محمدبالناس الجمعةَ لأربع من جمادى الآخرة ودعا لنفسه وتلقَّب بالمهدىّ ، وقُرِئَ بعد نزوله كتابٌ على المنبر بالنفير لقتال شنشول . ووصل أهل الأقاليم من أقصى الأندلس مظهرين عُدَّةَ الحرب ، ووَلَّى محمدٌ جُنْدَه قوادًا من طبيب وحائك وجزار وسرّاج ، وخرج بهم ونزل يفحص السُّرادقَ ، وأمر أهلَ النواحى بالنزول حول سرادِقه .

ذكر أخبار شنشول ومقتله

قال [١] : وأما شنشول فإنه لما بلغه الخبر – وكان قد انتهى إلى طليطلة – عاد إلى قلعة رباح [٢] وقد تخاذل عنه الناس ؛ فعزم

(١) ابن الأثير فى الكامل .

(٢) Calatrava فى المغرب ٢ : ٣٩ أنها أحد معاقل الأندلس وولاتها كانت تتردد عليها من طليطله ، فلما أخذت هذه تردد الولاة عليها من قرطبة

على / استجلابِ الناسِ لنفسه فامتنعوا وقالوا : قد خَلَفنا مرةً ولا يخلف أخرى ! فعلم أنهم خاذلوه ، فدعا محمد بن يعلى الزناتى وكان عزَم على خذلانه فقال له : ماترى فيما نحن فيه ؟ فقال له : أصدقك عن نفسى وعن الجند ليس والله يقاتل معك أحدٌ منهم ! قال ما الدليل على ذلك ؟ قال : تأمر بتقديم مطبخك إلى طريق طليطلة وتظهر الرحيل إليها فتعلم مَنْ يتبعك ومن يتخلَّف عنك ! قال : صدقت . ٢١٤-ا

وكان ابن عومس القومس [1] مع شنشول يريد قرطبةَ معاقدًا له يستنصر به على مَنْ بناوئه من القمامسة . فلما رأى اضطرابَ حال شنشول أشار عليه أن يرحل معه إلى بلده ، ويكونوا يدًا واحدة ، ويلجأوا إلى مكانٍ ، فأبى ذلك وقال : لابُدَّ من الإشراف على قرطبة فإنى أرجو أننى إذا اطلعت عليها اختلفتْ كلمةُ محمدٍ ، ولى أنصارٌ يميلون إلى سلطانى ويحبون ظهورى ! فقال له القومس : خذ باليقين ودع الظن ، أمرك والله مُختَلٌ وجندك عليك لا لك ! فقال : لابُدَّ من المسير إلى قرطبة ! فقال : أنا معك على كراهية لرأيك وعِلْمٍ بخطاياك .

وسار شنشول من قلعة رباح والأخبار تتواتر بتظاهر أهل قرطبة مع ابن عبد الجبار ، فلما بلغ منزل هانئٍ فارقه عامَّةُ البربرِ ليلا ، وذلك فى سلخ جُمادى الآخرة ، ثم فارقه الناسُ بعد ذلك وبقى ٢١٤-ب
فى نَفَرٍ يسيرٍ مِنْ خَدَمِهِ ، وابن عومس فى نَفَرٍ من النصارى ،

(١) تكتب أحيانا « القومص » أى القمص برسمنا المعروف .

فقال له : سِرْ بنا مِنْ هنا قبل أن يدهمنا ما يمنعُنا من ذلك ! فأبى شنشول وقال : قد بعثتُ القاضى فى طلب الأمان لى . ثم تجبر فى أمره وسار إلى ديرٍ يعرف بدير شَوْش [1] ليلةَ الجمعة لثلاث خلون من شهر رجب .

وبلغ خبره محمد ، فأرسل إليه حاجبه فى مائتى فارس ، فأرسل الحاجبُ ابنَ ذرى مولى الحكم فسبقه إلى الدير فصبحه فى يوم الجمعة ، فقال شنشول لما عاينه ومن معه : مالكم علىّ سبيلٌ ، أنا فى طاعة المهدى ! فاستنزلوه من الدير ومعه ابن عومس ومن تبعهما ، وأخَذَ نساء شنشول – وهن سبعون جارية – فبعث بهن إلى قرطبة ، ولحق الحاجب بابن ذرى قبل العصر من يوم الجمعة . فلما أقبل عليهم نزل شنشول فقبّل الأرض بين يدى الحاجب مرارًا ، فقيل له : قَبِّلْ حافِرَ فَرسِهِ ! ففعل وقَبَّل رِجْلَه ويده ، ثم حُمِل على غير فرسه وابنُ عومس ساكت لم ينطق ، وأشار الحاجب بانتزاع قلنسوة شنشول عن رأسه فانتزِعت .

ورجع يريد قرطبة ، فسار إلى أن غربت الشمس ، فنزل وأمر أن يكتف شنشول فعطفت يده عطفا شديدًا فقال : نَفِّسُوا عنى وأطْلِقُوا يدىَ لأستريح ساعة ! فنفسوا عن يده ، فأخرج من خُفِّه سكينا كالبرق فعوجـــل قبـــل / أن يصنع شيئا ، ثم أضجعه الحاجب وذبحه . وقتل ابن عومس وأخذ رأسيهما ، وحمل جثة ٢١٥–ا

(١) فى المغرب ٢ : ١٢٣ أن شوش قرية مشهورة على نهر كبير يمر على مدينة إستجة ويصب فى نهر قرطبة .

شنشول ، وسار بها إلى القصر بقرطبة . فأمر محمد بِشَقِّ بَطْنِهِ ونَزْعِ مافيه وحُشِىَ بعقاقير تحفظه ، ثم نصب رأسه على قناة ووقف به على باب السدة ثم رُكِّبَ على جسده ، وكُسِى قميصا وسراويل ، وأُخرِج فَسُمِّرَ على خشبةٍ على باب السدة . وأمر الرَّسَّانَ صاحب شرطه شنشول أن ينادى : هذا شنشول المأمون ! ثم يلعنه ويلعن نفسَه ، وذلك فى يوم السبت لأربع خلون من شهر رجب .

وكانت مدةُ ولاية شنشول أربعةَ أشهر وأيامًا ، وكان قبيح الفعال كثير التخليط متجاهرًا بالفِسْق ، شُهِدَ عليه بأشياء لاتصدر عن مسلم ، منها أنه سمع المؤذن يقول « حىّ على الصلاة » فقال : لو قال حىّ على الكبير لكان خيرًا له ! وكثيرٍ من هذا القول وما يناسبه ، وانقرضت الدولة العامرية بمقتل شنشول .

قال إبراهيم بن الرقيق (١) : ومن أعجب ما رأيناه أنه كان من نِصْفِ نهار يوم الثلاثاء لأربعَ عشرةَ بقيت من جُمادى الآخرة إلى نصف نهار الأربعاء الذى يليه ، فُتحت مدينةُ قرطبة وهُدِمتْ مدينةُ الزاهرة ، وخُلع خليفة وهو هشام بن الحكم ، وولى خليفةٌ وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزالت دولة / بنى عامر ، وحدثت ٢١٥-ب
دولةُ بنى أُمية ، وقُتل وزيرٌ وهو ابن عُسفلاجة ، وأُقيمت جيوش من العامة ، ونُكبَ خَلْقٌ من الوزراء ، وولى الوزارة آخرون ، وكان ذلك على أيدى عشرة رجالٍ حجّامين وجزارين وحاكة وزبالين ، وهم جندُ ابنِ عبد الجبار !

(١) صاحب تاريخ أفريقية على ما مر بنا .

قال[1] : وفى يوم الخميس لسبعٍ خلون من شهر رجب وصل كتابُ واضحٍ من مدينة سالم إلى محمد بِسَمْعِهِ وطاعته وإظهارِ الاستبشارِ بمقتل شنشول ، فَسُرَّ به محمدٌ وشكر ذلك لواضح ، وحمل إليه مالا كثيرًا وكساءً وفُرُشًا وطرائف ، وولاَّه سائر الثغر .

قال : ولما استوثق الأَمرُ لمحمدٍ أسقط من جنده نَحْوًا من سبعة آلاف وعادوا إلى بنيهم فانتفع بهم الناس ، ثم نفى جماعةً من من الصقالبة العامرية ، ثم أخرج بعد ذلك صقالبة القصر وسدَّ أبوابه . وأظهر محمدٌ من الخلاعة واللَّهْوِ والشُّرْبِ ما كان يفعله شنشول ، واستعمل مائة عود ومائة بوق . وفى شعبان توفى رجل يهودىٌّ فأخذه محمد وأوقف عليه رجالا من أصحابه ، وكان يشبه بهشام فشهدوا عند العامة أنهم وقفوا على هشام ميتًا لا جُرْحَ به ولا أثرٌ وأنه مات حَتْفَ أنفه . وحضر الفقهاء والعدول وخَلْقٌ من العامة إلى القصر وصَلُّوا عليه يومَ الإثنين لأربع بقين/ من شعبان وأخفاه ٢١٦ ـ ا
عند وزيره الحسن بن حىّ .

وفي شهر رمضان سَجَنَ محمدٌ سليمانَ بن عبد الرحمن ـ وكان قد جعله ولىَّ عهده ـ وسجن جماعةً من قريش ، وأظهر بُغْضَ البربر فكان يسبُّهم فى مجلسه .

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٣ .

ذكر قيام هشام بن سليمان

عَلَى محمدٍ وما كان من أمره إلى أن قُتِل

قال[١] : ولما شرع محمد بنُ عبد الجبار فى اطِّراح البربر ودبّر فى قَتْل عشرةٍ منهم ، سعى هشام بنُ سليمان بن عبد الرحمن فى خَلْع محمدٍ ووافَقَه جماعةٌ من الجند واحتفل أمره ، وخرج إلى فحص السرادق وانضم إليه الذين أسقطهم محمد من جنده ، فراسله محمدٌ وقَبَّح عليه فِعْلَه فقال : سُجِنَ والدى على غير شىء ولا أدرى ما صُنِع به ! فأطلقه محمد فلم يرجع هشام عن رأيه ، وتحرّك بالجند وأحرق سوق السَّرَّاجين . ثم خذله جنده وأخذوه أسيرًا هو وأخوه أبو بكر وأبوه سليمان ، فسلموهم إلى محمد ؛ فقتل هشامًا وأبا بكر صَبْرًا ، وذلك لأربعٍ بقين من شوال . ونُهِبتْ دور البربر ، ونودِىَ فى البلد « من أتى برأْسِ بربرىٍّ فله كذا وكذا » فشرع أهل قرطبةَ فى قَتْلِ مَنْ قدروا عليه منهم ، وسُبِيَتْ نساؤهم ، وهرب من سلم من البربر إلى أزملاط[٢] ثم جَلَوْا إلى / الثَّغْرِ . وكان من فَرَّ بعد قَتْل هشامٍ سليمانُ بنُ الحكم ٢١٦-ب
ابنِ سليمان بنِ الناصر ، فنصبه البربرُ خليفةً .

ذكر قيام سليمان بن الحكم المستعين بالله

قال[٣] : لما نصبه البربرُ خليفةً نَعتَ نفسه المستعينَ بالله ، واستوزر أحمد بن سعيد ، ونهض بمن معه إلى وادي الحجارة

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٤ .
(٢) كذا فى الأصل ولم يذكرها ياقوت ولا غيره .
(٣) ابن الاثير فى الكامل ٧ : ٨٤ .

فدخلوه عَنْوةً ، وعرضوا أنفسهم على واضح العامرىّ غلام المنصور ابن أبى عامر صاحبِ مدينة سالم ، فلم يقبلهم ، وبعث إليه محمد ابن هشام المهدى قيصر الفتى فى جيشٍ ليُعينه على سليمان ، فالتَقَوْا واقتتلوا ، فانهزم واضحٌ وقتل قيصر . ولحق واضح بمدينة سالم فتحصن بها ، ومنع الميرة عن البربر ، فأقاموا خمسةَ عشر يومًا يأكلون الحشيش . فلما اشتد ذلك عليهم أرسلوا إلى ابن مادويه الرومى (١) واستُنْجِدَ به ، وسأله سليمان أن يدخل بينهم وبين ابن عبد الجبار وواضح فى الصلح وقال : يخرج معنا إلى واضح ويرغبُ إليه فى الإصلاح بيننا وبينه وبين صاحبه ، فإن أبى ذلك سرنا إلى قرطبةَ وناجزنا ابنَ عبدِ الجبار !

فسارت الرسل إليه فوجدوا رُسَلَ ابنِ عبد الجبار وواضح عنده يسألونه الصلح معهما على أن يعطياه ما اشترط من مدائن الثَّغْـر ، / وأتوه بِخيْلٍ وبغـالٍ ومالٍ وكسـاءٍ وجـوهرٍ وطيبٍ وتحفٍ كثيرةٍ . فأجاب البربر إلى ما أرادوه من الصلح أو الاتفاق معهم على أن يعطوه مابذل واضحٍ والمهدىُّ من مدائن الثغور إذا ظفروا . فقبلوا ذلك منه ، وَرَدَّ رُسُلَ واضحٍ وابنِ عبد الجبار ، ثم أرسل إلى البربر ألْفَ عجلةٍ تحمل الدقيق والشعير وأنواع المأكل وألف ثور وخمسةَ آلاف شاة وجميع ما يصلحهم من الملبس وغير ذلك. فقويت البربر بذلك ، وسار إليهم فى جموعه وساروا إلى مدينة سالم ، وأرسلوا واضحًا فى الصلح فأبى ، فساروا إلى قرطبة فى المحرم

١٧ـ١

(١) فى نفح الطيب ١ : ٤٠٣ « ابن أدفونش » .

سنةَ أربعمائة . واتبعهم واضح بمن معه وقابلهم ، فانهزم وقُتل خَلْقٌ كثير من أصحابه ، ووصل المنهزمون من أصحابه إلى قرطبة ، وملك البربر جميعَ ماكان فى عَسْكر واضح. هذا وابن عبد الجبار فى لَهْوِه واستهتاره ، ثم خرج إلى فحص السرادق وخندق عليه ، وأتاه واضحٌ فى أربعمائةِ فارسٍ من أهل مدينة سالم ، ووصل غلامه يلبق في مائتى فارس .

وأقبل سليمان بالبربر فنادى ابنَ عبد الجبار أن يُخْرِجَ كل من بلغ به الحُلُمُ (١) من سائر الناس ، فلم يتخلف أحدٌ فلا ترى إلا شيخا ضعيفا أو حَدَثًا غِرًّا وبقّالا ونسّاجا . فلما كان فى يوم السبت منتصف شهر ربيع الأول التقى البربرُ وأهلُ قرطبة فحمل عليهم من البربر نحو/ ثلاثين فارسا فلم يقفوا لهم وانهزموا ، ٢١٧-ب
وسقط بعضهم على بعض . ومضى واضحٌ من فَوْره إلى الثَّغْر لم يعرج على شىء .. ووضع البربر السيف فى أهل قرطبة فقتلوا خلقًا كثيرًا(٢) ، وغرق فى وادى قرطبة مالا يُحْصى .

وسار ابن عبد الجبار إلى القصر وأظهر هشاما المؤيد وأقعده حيث يراه الناس فى مكان يشرف على باب الشكال والقنطرة ، وأرسل القاضى ابن ذكوان إلى البربر يقول :إنما أنا قائم دون هشام ونائبٌ عنه كما يحجبه الحاجب والأمر له ، وهو أمير المؤمنين ! فلما أبلغهم

(١) كناية عن البلوغ .

(٢) يقول المقرى فى نفح الطيب ١ : ٤٠٤ « وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم » .

القاضى الرسالةَ قالوا : بالأمس يموت هشامٌ وتصلِّى عليه أنت وأميرُك ، واليوم يعيش وتُرجع الخلافة إليه ! فاعتذر القاضى من ذلك .

ثم خرج أهلُ قرطبةَ بأجمعهم إلى سليمانَ فأكرمهم ، وأحسن لقاءهم . ودخل سليمانُ القصرَ ، وهرب ابنُ عبد الجبار فكانت مدةُ ولايته تسعةَ أشهر . واستنجز ابن مادوية البربرَ أن يعطوه الحصونَ التى شرطوها له فقالوا : ليست الآنَ بأيدينا فإذا عهد سلطاننا أنجزنا لك ما وافقناك عليه ! ورحل يومَ الإثنين لسبع بقين من شهر ربيع الأول .

قال : ثم فَرَّق سليمانُ العمال فى الولايات ، وأنزل البربر بالزهراء ، وأعاد المؤيد إلى السجن ، وأنزل شنشول عن خشبته وأمر بغَسْلِه والصلاةِ عليه / ودفنه ، فدفن فى دار أبيه . ٢١٨-ا

وأما المهدى محمد بن هشام فإنه هرب إلى طليطلة بعد اختفائه بقرطبة ، فوصل فى أول جمادى الأُولى فقبله أهلُها أحْسَنَ قَبُولٍ ، وخالفوا هشامَ بنَ سليمان . فتأهب لقصد طليطلة . ورحل يوم الإثنين لإحدى عشرةَ خَلَتْ من جُمادى الآخرة . فلما قرب منها أرسل الفقهاء إلى أهلها ليعذر إليهم فرجعوا بخلافهم ، فسار إليهم . وكان رجلٌ يعرف بالقرشى الحرّانى قد جمع جموعًا عظيمةً ودعا لِنَفْسِه ، فسرح إليه سليمانُ علىَّ بن وداعة فى جيش كثيف فهزم جموع القرشى وأسره وأحضره إلى سليمان ، فاعتقله ثم قتله .

قال : وتجاوز سليمانُ طليطلة رجاءَ أن يرجعوا إلى الطاعة ، ورحل إلى الثغر ونزل على مدينة سالم . ثم التحق بمحمد بن عبد الجبار

فى جماعةٍ من العبيد ، وانضم إليه ابن مسلمة صاحب الشرطة . وخرج واضحٌ من مدينة سالم إلى طرطوشة وكتب إلى سليمان يرغب فى المعافاة من الخدمة ويكون فى ميورقة (١) مرابطا وينقطع عن الناس ، وإنما يفعل ذلك تطمينًا لسليمان حتى يحكم أمره . فأرسل سليمانُ إليه بالنظر فى سائر الثغر وجهادِ العدوِّ ، فأخذ واضح فى الاتفاق مع الفرنج وشرط لهم ما أرادوه ، واجتمعوا كلهم مع المهدى بطيلطلة .

/وبلغ سليمان ذلك فاستنفر النـاسَ فاستعفاه أهـل قرطبة ، ٢١٨-ب
وذكروا عجزهم عن القتال فأعفاهم بشفاعةِ البربر. وخرج لقتال القوم ، فالتَقَوْا عند عقبة الثغر فى العُشْر الأخير من شوّال ، فجعل البربرُ سليمانَ فى ساقتهم وجعلوا معه خيلا من المغاربة وقالوا له: لاتبرح موضعك ولو وطئتك الخيل !ثم تقدموا فحملت !الفرنج عليهم حملةً منكرة فأخرجوا لهم ليتمكنوا منهم ، فرأى سليمانُ خيل الفرنج وقد خرقت صفوفَ البربر فلم يشك أن البربر قد اصطلمو (٢) ، فانهزم فيمن معه . ثم عطف البربر على الفرنج فقتلوا ملكهم أرمغند ، وستين من وجوههم . ورأى البربر هزيمة سليمان فانحازوا إلى الزَّهراء ، ثر خرجوا منها ليلا . ومضى سليمان إلى مدينة شَاطِبة (٣) ، فكانت مدة ولاية سليمان سبعة أشهر .

---

(١) Majorca جزيرة فى البحر المتوسط شرق بلنسية طولها كما ورد فى المغرب ٢ : ٤٦٦ أربعون ميلا وتكثر بها الحصون .

(٢) اصطلموا : قطعوا أو استؤصلوا ، ويقال وقعة صليمة أى مستأصلة .

(٣) مدينة عظيمة مشهورة وردت فى المغرب ٢ : ٣٨٠ على أنها نشزت على بلنسيه فى مدة ملوك الطوائف ، تغلب عليها موالى العامرية ثم بنوهود ثم الملثمون .

ذكر دولة المهدى محمد الثانية

قال [١] : ولما انهزم سليمان دخل محمد بن هشام بن عبد الجبار قرطبة ومعه الفرنج فأفسدوا غايةَ الفساد ، ونهبوا الأموال ، واستطالوا على الناس ثم سألهم المهدىُّ وواضحٌ المسير معهما لقتال البربر فخرجوا كلُّهم ، والتَقَوْا بالبربر بوادى لدة [٢] لِسِتٍّ خلون من ذى القعدة ، واقتتلوا قتالا شديدًا فانهزم واضحٌ وابنُ عبد الجبارِ والفرنجُ أقبح هزيمة ، وقتل فى المعركه يلبق غلام واضح ومؤمن الصقلبى ، وتَخَلَّف ابن زُرْزور مولى الحكم وغيرهم . وقتل من الفرنج أكثرُ من ثلاثةِ آلافٍ وغرق فى البحر كثيرٌ ، واحْتَوى البربرُ على مافى معسكرِهِم ، ووصل المنهزمون إلى قرطبةَ فى اليوم الثانى من الْوَقْعَةِ فزاد حنقُ الفرنج وعاثوا بقرطبَةَ وقتلوا كلَّ من يُشَبَّهُ بالبربر بها . فسألهم محمد وواضحٌ ، ورغِبا إليهم فى الرجوع معهم لقتال البربر ، فأَبَوْا عليهما وقالوا : قد قُتل ملكُنا وخيارُنا ووجوهُنا ! وفارقوا مدينةَ قرطبة وعادوا إلى بلادهم ، وكان رحيلُهم عنها لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ من البربر ، حتى كان الرجل من أهلها يلقَى الآخر فيعزيه كما يُعَزَّى مَنْ فَقَدَ أهلَه وماله !

ثم فرض محمد بن عبد الجبار على أهل قرطبةَ مالاً فأدَّوْه ، وتهيأ للخروج وخرج بواضحٍ وأهلِ قرطبةَ والعبيد لقصْد البربر . فلما ساروا ثلاثين ميلا كرُّوا راجعين إلى قرطبة ، وأقام من ورائه سوراً

٢١٩ ـ ا /

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٥ .
(٢) كذا فى ا وفى ك ١٣٠ وفى ف ١٢٤ ـ ا .

وتحصن به . هذا والبربر يغيرون فى نواحى قرطبة ، وأخذوا الجبل المعروف/ بابن حفصون – وهو كثيرُ الماء والمرعى والثمار والزرْع – فزاد ذلك فى قُوَّتهم . وابن عبد الجبار وجندُه فى انهماك على اللّهو وارتكابِ المحارم وإظهار الفسق ، وإفساد ما قدروا عليه ، والنزول على الناس فى دورهم ، وقتْل من دافعهم ، فكره واضح ذلك منه – وكان قد حقد عليه ما أتاه إلى بنى أبى عامر – فأخذ فى التدبير عليه . ٢١٩–ب

وبلغ ذلك محمد فجمع ما فى القصر من النفائس وسلمها إلى ابن رافعٍ رأسِه – رجل من أهل طليطلة – وأمره بالخروج إليها ،وتحيّل فى الخروج فى أثره . فلما كان فى يوم الأحد الحادى عشر ن ذى الحجة سنة أربعمائة – وقيل لثمان خلون منه – ركب واضح والعبيدُ وأهل الثغر وصاحوا : لا طاعة إلا طاعة المؤيد !

ثم قصدوا القصر وأخرجوا المؤيد ، وأجلسوه على منبر الخلافة وألبسوه لباسَها . وكان محمدبن عبدالجبار فى الحمام ،فدخل عليه ابن وداعة وأخبره الخبر ، فخرج وجاء إلى هشام وأراد أن يجلس إلى جانبه ، فأخذ عنبرٌ الخادمُ بيده ورمى به من على المنبر وأجلسه بين يدى المؤيد . فسَبَّهُ المؤيدُ ووبّخه وعدَّد عليه ما أتاه وما فعله معه ، فأخذ عنبرٌ بيده وأقامه وأصعده إلى السطح وأراد ضرْب عُنُقهِ فتعلق به ، فتعاورته سيوفُ العبيدِ والخدم والصقالبة / فقتلوه ، وأخذوا رأسه ورموا بجثته ، فسقطت فى الموضع الذى كانت فيه جثة ابن عُسفلاجة لما قتله . فكانت مدةُ ولايته هذه نحو شهرٍ ، ٢٢٠–ا

ومدةُ مملكته الأُولى والثانية عشرة أشهر ، وعمره خمساً وثلاثين سنة !

ذكر دولة المؤيد هشام الثانية

قال[١] : وبايع الأَجناد هشاما المؤيد فى يوم الأَحد الحادى عشر من ذى الحجة سنة أربعمائة وأُحْضِر بين يديه رأسُ محمدٍ المهدى ، فأَمر بإرساله إلى البربر وهم يومئذ بوادى شوش فى خدمة المستعين بالله سليمان بن الحكم ، طمعاً أنَّ البربر يفعلون به كما فعل هو بالمهدى ، ويعودون إلى طاعته فيتم أمرُه وتستقيم دولتُه . فلما وصل إليهم مع جماعة من أهل قرطبةَ كادوا يقتلونهم ، فمنعهم المستعين بالله بعد أن أفرط فى توبيخهم ، فعادوا إلى قرطبة .

وتولى واضحٌ العامرىُّ حجابة المؤيد ، وأمره بِحفْر الخندق على قرطبة فحفره ، وحصنها ، قال[٢] : وكان لمحمدِ بنِ عبد الجبار ولدٌ بقرطبةَ عمرُه نحو ستَّ عشرة سنةً فاحتال له شيعةُ أبيه حتى أوصلوه إلى مدينة طليطلة ، فقبله أهلُها ، وأمّروه عليهم . فأَغار على بعض ما كان لواضح ، فلقيه محاربٌ التجيبى فقهره وأسره وأرسل به إلى واضح ، فقتله .

قال[٣] : ثم / قصد المستعينُ قرطبةَ فى جموعه من البربر ، ٢٢٠-ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٨٥ ونقل عنه الخبر فى البداية والنهاية ١١ : ٣٤٢ .
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٤٨ .
(٣) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٤٨

فلم يتمكنْ منها ، فقصد الزهراء فاستولى عليها فى يوم السبت لستٍّ بقين من شهر ربيع الأول سنةَ إحدى وأربعمائة ، وقتل منْ بها من الجند ، وأخذفى قتال أهل قرطبة ، وواضحٌ يتولىّ حرْبَه . ثم رحل البربر من الزهراء لخمسٍ بقين من شعبان ، وجعلوا يغيرون على البلاد ويخرِّبون ، فانضم أهلُ البوادى إلى قرطبةَ خوفاً منهم ،فصاروا أكثرَمن أهلها ، وغلت الأسعار فمات أكثرهم جوعا . وقطع البربر الميرة عن قرطبة ، فاشتد بها الغلاء فبيع مُدُّ القمح - وهو قفيزان ونصف بالقروى - بثلاثمائة دينار دراهم وهى مائة مثقال عينا . وجاءت رسل ابن مادويه يستنجزون تسليمَ الحصون إليه على أن لا يغزوهم ولا يتعرض لشىء من ثغورهم ، فرَضُوا بهدنة وسلَّموا إليه مدناً كثيرة وأكثرَ من مائتى حصنٍ مما افتتحه الحكم بن عبد الرحمن ومحمد بن أبى عامر . وسمع ابنُ شالوس [1] بما تسلَّم ابن مادويه من الحصون ،فكاتبَ على حصونٍ أخرى وتَوعَّد وتهدَّد ، فأُجيب إلى ما سأل وسُلِّمت إليه .

وأخرب البربرُ مدنا جليلة ، وقتلوا أكثر أهلها ، ولم تسلم منهم إلا طليطلة ومدينةُ سالم ، وبلغت خيلهم أندراوه [2] وما وراءها حتى إنَّ الراكب يسير شهوراً لا يرى أحدًا فى قريةٍ ولا طريق . قال [3] : واستخف جندُ قرطبةَ بواضحٍ حتى صاروا / يصرحون بِسَبِّه ، ٢٢١ - ا
فعزم على مراسلة البربر فى الصلح لما رأى من اضطراب الجند عليه

(١) عن ك ١٣٢ ورسم ا ، ف ١٢٥ - ب « شالس » وهو أحد ملوك الفرنج .
(٢) كذا فى سائر النسخ وفى صفة جزيرة العرب صفحة ٣١ « أندارة » مدينة عظيمة فى شرق الأندلس .
(٣) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٤٩ .

وطمعهم فيه ، وأظهر أن ذلك عن رأى هشام لما فيه من الصلاح للعامة والخاصة . فبعث واضحٌ إلى البربر رجلا يعرف بابن بكر فاجتمع بسليمان وعاد بجوابه فقتله الجند فى المجلس – ولم يقدر هشام ولا واضحٌ على مَنعهم – واحتزُّوا رأسه ، وطافوا به البلد . فعزم واضحٌ على الهرب إلى البربر ، وكان ابن أبى وداعة يعاديه فزحف إلى داره فى عِدةٍ من الجند فأخرجوه حاسراً وعاتبوه على ما أتلف من الأموال وما عزم عليه من مصالحة البربر . وضربه ابنُ أبى وداعة بسيفه وحمل عليه القوم فقتلوه ، واحتزوا رأسه وطافوا به ، وألقوا جثته في الرصيف بالموضع الذى أُلقِىَ فيه ابنُ عُسقلاجة وابنُ عبد الجبار ، ونُهبت دور أصحابه .

وولّى هشام ابنَ أبى وداعة المدينة ، فاشتدّ على أهل الريب وهاب الجند وغيرهم ، وكان مقتل واضح فى يوم الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعمائة .

ثم قدم البربر وسليمان ، ونازلوا قرطبة وظاهرها وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ، وقلّت الأقواتُ على أهل قرطبة ، وعظم عليهم الخطب ، واشتد الأمر ، وكان بين أهلها والبربر مراسلاتٌ وأمورٌ يطول شرحها . كان آخر ذلك أن سليمان ملك قرطبة فى يوم / الأحد لثلاث خلون من شوّال سنةَ ثلاثٍ وأربعمائة ، وكانت مدةُ ولاية المؤيد الثانية سنتين وتسعةَ أشهر واثنين وعشرين يومًا وفُقِد المؤيد لخمس خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة .

٢٢١ ب

ذكر دولة المستعين بالله الثانية

قال [١] : ولما فتح سليمانُ بنُ الحكم المستعينُ قرطبةَ دخل القصر لخمسٍ خلون من شوّال وتلقّب بالظافر بحول الله ، وأحضر هشاماً ووبخه وقال : قد كنتَ تبرأتَ لى من الخلافة فأعطيت صفقةَ يمينك فما حملك على نَقْضِ عهدِك ؟ فاعتذر أنه مغلوب عليه ، وتبرأ له ، وسلّم الأمر إليه . وضرب سرادق سليمان بشقنده ، ونزل البربر حوله ، وهرب كثير من موالى بنى أمية فاحتوى البربر عليها واقتسموا البلد بينهم . وطالب سليمانُ الناسَ بالأموال فغرمهم فوق طاقتهم ، واشتد أمر البربر على الناس فاستباحوا الأموالَ والحريم وسليمانُ لايمكنه دفعهم وليس فى يده مع قرطبة غيرُ إشبيليه ولبلة والشنبة وباجة .

وكان فى عسكره رجلان [٢] من ولد الحسن بن على بن أبى طالب وهما القاسم وعلى ابنا حمّود بن ميمون فقوّدهما على المغاربة ، ثم ولّى عليا الأصغر منهما سبتة [٣] وطنجة [٤] ، / وولى ١-٢٢٢
القاسم الجزيرةَ الخضراء ، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزقاق [٥] ، وسعة البحر هناك ثمانية عشرة ميلا .

(١) بن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٦٨ وانظر البداية والنهاية ١١ : ٣٤٨ .

(٢) هما من عقب إدريس ملك فاس وبانيها وكانا قد اجتازا مع البربر مضيق جبل طارق إلى الأندلس (نفح الطيب ١ : ٤٠٦) .

(٣) Ceuta سبته بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، وهى على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق (معجم البلدان ٣ : ١٨٢) .

(٤) Tangier بلد للبربر على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء (معجم البلدان ٤ : ٤٣) .

(٥) هو مضيق جبل طارق اليوم .

وكانت العبيد لما خرجوا من قرطبة عند دخول البربر إليها ملكوا مدنا عظيمة وتحصّنوا فيها ، فراسلهم على بن حمّود وذكر أنّ هشام بنَ الحكم لما كان محاصَرًا بقرطبة كتب إليه يوليه عهده فاستجاب له العبيد وبايعوه . فزحف من سبتة إلى مالقة [1] وفيها عامر بن فتوح الفائقى مولى فائق – مولى المستنصر – فأطاعه وأدخله مالقة . فملكها علىٌّ بن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة ، فأخرج له المستعين ولده – ولى عهده محمد بن سليمان – فى عساكر البربر ، ومعه أحمد بن سعيد الوزير . فانهزموا ، ورجع محمد بن عبد الله الزناتى إلى قرطبة ، وأخرج المستعين بالله وضمن له أن يقاتل بين يديه . فلما قربوا من عسكر على بن حمود قادوه بلجام بلغلته وسلموه لعلى ، فلما حصل فى يده دخل القصر فى يوم الأحد لسبع بقين من المحرم سنةَ سبع وأربعمائة ، وضَرب عنقَ سليمان بيده وقتل أباه الحكم – وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة – فكانت مدةُ ولايةِ سليمانَ ثلاثَ سنين وثلاثة أشهر وأياما . وكان مولده سنة أربع / وخمسين وثلاثمائة ، وكان أديبًا شاعرًا ، فمن شعره : ٢٢٢ – ب

عجبًا يهابُ اللّيْث حدّ سِنانى وأهابُ لَحْظَ فَوَاتِرِ الأجفانِ

وهى أبيات عارض بها العباس بن الأحنف فى أبياته التى أنشدها على لسان الرشيد التى أولها :

ملَكَ الثلاثُ الآنسات عنانى وحلَلْنَ من قلبى بكلِّ مكانِ

(١) Malaga مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية سورها على شاطى البحر بين الجزيرة الخضراء وألمريه (معجم البلدان ٥ : ٤٣) .

وقد ذكرنا ذلك فى باب الغزل والنسيب ، قال[١] : ولما قُتِل سليمانُ بنُ الحكم هذا انقطعت دعوة بنى أمية من سائر اقطار الأندلس وقامت دعوة الفاطميين بها . وولى منهم ثلاثة ملوك وهم على بن حمود ، والقاسم بن حمود أخوه ، ويحيى بن على ، ثم عادت بعد ذلك الدعوةُ الأُمويه على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر امارة الناصر على بن حمود

ابن ميمون بن أحمد بن على بن عبد الله بن عمر بن إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ملك قرطبة لسبعٍ بقين من المحرم سنةَ سبع وأربعمائة على ما ذكرناه ، وخوطب بأمير المؤمنين ، وتلقّب بالناصر[٢] . ولما دخل قرطبةَ أحضر الفقهاء والوزراء وسأل سليمانَ بحضرتهم عن المؤيد ٢٢٣ ـ ١ / فقال « مات » فألزمه أن يُرِيَه قبره فأخرجه دفينا لا أثَر فيه فأمر بتكفينه ودفنه فى الروضة . ثم استفتى الفقهاء فى قَتْلِ سليمانَ ، فقتله هو وأباه الحكم وأخاه عبد الله وولده سليمانَ فى وقت واحدٍ ، وتَمَّ لعلى ما أراد واستقامت أموره .

وفى سنة ثمانٍ وأربعمائة خالَف عليه العبيدُ الذين كانوا بايعوه ، وقَدَّموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر [أخا المهدى] وسمّوه المرتضى وزحفوا به إلى قرطبة ، ثم ندموا على إقامته لِما رأوه من صرامته ، وخافوا عواقب تَمكُّنِهِ فانهزموا عنه

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٨٥ .

(٢) بولايته تبدأ دولة العلويين ببلاد الأندلس (البداية والنهاية ١٢ : ٢٥) .

ودسّوا عليه من قتلة غيلةً . وبقى علىُّ بن حمود بقرطبةَ إلى آخر سنةِ ثمانٍ وأربعمائة فقتله صقالبتُه فى الحمام ، فكانت مدة ولا يته سنةً واحدةً و عشرةَ أشهر ، وكان له من الوالد يحيى وإدريس .

ذكر ولاية المأمون

القاسم بن حمود بن ميمون الفاطمىّ

ولى بعد مقتَلِ أخيه الناصر فى أواخر سنةِ ثمانٍ وأربعمائة ، وكان أسنَّ من الناصر بعشرة أعوام ، ونعت نسفه بالمأمون/ وكان يحبّ الموادعةَ ، فأمن الناس معه . وكان يذكر عنه أنه يتشيّع ولم يُظْهِرْ ذلك ، ولا غيَّر للناس عادةً ولا مذهبا ، وكذلك سائر من ولِى منهم بالأندلس . فبقى القاسمُ إلى شهر ربيع الأول سنةَ اثنتى عشرة وأربعمائة ، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن على بن حمّود بمالقة[1] ، فهرب القاسم عن قرطبةَ بغير قتال ، وصار إلى إشبيلية . ٢٢٣ ب

وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ، فدخل قرطبةَ دون مانع ، وتسمّى بالخلافة وتَلَقَّب ، فبقى كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر ، وزحف بهم إلى قرطبة فدخلها فى سنةِ ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة . وهرب يحيى بن على إلى مالقة ، فبقى القاسم بقرطبةَ شهورًا . ثم اضطرب أمره ، وغلب ابنُ أخيه يحيى على الجزيرة الخضراء وكانت معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره . وغلب ابنُ أخيه إدريس بن على [شقيق يحيى] صاحب سبتة على طنجة ، وكانت عدة القاسم يلجأ إليها إن رأى

(١) فى نفح الطيب ١ : ٤٠٧ أنه كان على سبتة ، ثم احتل مالقة .

ما يخاف . وقام عليه جماعة أهل قرطبة فى المدينة ، وأغلقوا أبوابه دونه ، فحاصرها نَيِّفًا وخمسين يوما ، ثم زحف أهلُ قرطبةَ فانهزموا عن القاسم . ولحقت كلُّ طائفةٍ ببلدٍ فغلبت عليه ، وذلك فى شعبان سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائة وأعاد أهلُ قرطبةَ الدولةَ الأُمويةَ / على ما نذكره إن شاء الله تعالى . ٢٢٤ ـ ١

قال (١) : وأما القاسم فقصد إشبيليةَ وبها ابناه محمدٌ والحسن فلما عرف أهل إشبيليةَ خروجَه عن قرطبة ومجيئه إليهم طردوا ابنيْهِ ومنْ كان معهما ، وضبطوا بلدهم وقدَّموا على أنفسهم ثلاثةَ رجال ؛ منهم القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعِيل بن عبَّاد اللخمى ، ومحمد بن مرثم الإهانى ، ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدى ، ومكثوا كذلك أيامًا مشتركين فى سياسة البلد وتدبيره ، ثم انفرد القاضى أبو القاسم بن عباد على ما نذكره إن شاء الله .

ولحق القاسم بشريش (٢) ، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى ، وحصروا القاسم حتى صار فى قبضة ابنِ أخيه . وانفرد بولاية البربر ، وبقى القاسم أسيرًا عنده وعند أخيه إدريس إلى أن مات إدريس ، فقُتل القاسم خَنْقًا فى سنةِ إحدى وثلاثين وأربعمائة ، وحُمِل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك .

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٨٧ .

(٢) Xeres مدينة كبيرة من كورة شذونة ، وتسمى أيضا « شرش » (معجم البلدان ٣ : ٣٤٠) .

وكانت ولايةُ القاسم تُسمَّى بالخلافة بقرطبةَ إلى أن أَسَرهَ ابنُ أخيه ستَّةَ أعوام ، ثم كان مقبوضًا عليه ستَّ عشرةَ سنةً عند ابنَىْ أخيه إلى أن مات – قيل ومات وهو ابن ثمانين سنة – وله من الولد محمد والحسن وأمهما أميرة بنت الحسن بن فنون بن إبراهيم العلوى .

٢٢٤–ب / ذكر ولاية المعتلى يحيى بن على

وكنيته أبو إسحاق ، وقيل أبو محمد تَسمَّى بالخلافة بقرطبة فى سنةِ ثلاثَ عشرةَ وأربعائة ، ثم هرب منها إلى مالقة فى سنة أربع عشرة . ثم سعى قومٌ من المفسدين فى إعادة دعوته بقرطبة فى سنةِ ستَّ عشرةَ ولم يدخلها ، واستخلف عليها عبد الرحمن بن عطاف ، ثم قطعت خطبته من قرطبة فى سنة سبع عشرة . وبقى يتردد إليها بالعساكر إلى أن اتفق جماعة البربر على طاعته ، وسلموا إليه الحصونَ والقلاع والمدن ، وعظم أمره فصار بقرمونة ليحاصر مدينة إشبيليه . فخرج يوما وهو سكران إلى خَيْلٍ ظهرت من إشبيلية بقرب قرمونة ،[1] فلقيها وقد كمن له كمناء ، فلم يكن بأسرع من أن قتل ، وذلك فى يوم الأحد لسبعٍ خلون من المحرم سنة سبع وعشرين وأربعائة ، وكان له من الولد الحسن وإدريس .

(١) Carmona مدينة بالأندلس فى الشرق من إشبيلية (صفحة جزيرة العرب ١٥٨) .

ذكر عود الدولة الأموية بمدينة قرطبة

ومن ولى منهم

(أ) ذكر امارة المستظهر بالله ١-٢٢٥

هو أبو المطرّف عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار - أخو المهدى - بويع له بالخلافة بقرطبةَ لثلاثَ عشرةَ من شهر رمضان سنةَ أربع عشرةَ وأربعمائة . وذلك أن أهل قرطبة لما هزموا البر بر وأخرجوا القاسم - كما قدمنا - اتفق رأيُهم على ردِّ الأمرِ إلى بنى أمية . فاختاروا منهم ثلاثة ، وهم عبد الرحمن هذا ، وسليمان بن المرتضى، ومحمد بن عبد الرحمن . فاتفق رأيهم على إمارة عبد الرحمن فبايعوه ، وتلقب بالمستظهر ، وكان مولده فى ذى القعدة سنةَ اثنتين وتسعين وثلاثمائة . وقام عليه محمد بن عبد الرحمن مع طائفةٍ من أرذال العوام فقتل عبد الرحمن لثلاثٍ بقين من ذى القعدة منها ، وقيل لثلاثٍ خلون منه . وكان فى غاية الأدب ، وله شعر . وزيره الفقيه أبو محمد على بن أحمد بن حزم[1] .

(ب) ذكر امارة المستكفى بالله

هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر بن هشام المستظهر ، وأمه أم ولد اسمها

(١) يذكر المقرى فى نفح الطيب ١ : ٤١٢ أن حسان بن أبى عبدة - وكان شخصية بارزة ويقول الشعر - وزيره أيضا ، ولم يكن يوافقه على تفرده بالسلطة ، وكان يعاقبه بالقريض !

٢٢٥ ـ ب حوراء[1] وبى بعد قَتْل المستظهر لثلاثٍ خلون أو بقين من ذى القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة ، وله ثمان وأربعون سنةً . وكان أبوه ممن قتله الوزير محمد بن أبى عامر فى أوّل دولة المؤيدِ هشام لِسَعْيِه فى القيام وطلبه الأمرَ ، فولِىَ محمدٌ هذا عشرةَ أشهرٍ وأياما ، وخُلع . وقيل بل خلع فى يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ستَّ عشرةَ ، وخرج من قرطبة يريد الثَّغْرَ فمات بقريةٍ من قُرى شنت مرية فى أول شهر ربيع الآخر منها ، فكانت مدةُ مملكته بقرطبةَ على هذا القول سنةً وأربعة أشهر . وكان الحاكم فى أيامه صاحب المظالم محمد بن عبد الرؤوف .

وكان محمد بن عبد الرحمن فى نهاية التخلف ، صاحب أكْلٍ وشرْبٍ ونكاح ، ولم يزل مُتَغَلَّبًا عليه طولَ ولايته لا يُنفذ له أمر ، ولا عقب له . وقيل فى وفاته إنه لما هرب من قرطبة سار حتى انتهى إلى قرية يقال لها سمّونت من أعمال مدينة سالم ، فجلس ليأكل وكان معه عبد الرحمن بن محمد بن السليم ـ من ولد سعيد بن المنذر ـ فكره التمادِى معه ، فَسمَّه فى دجاجةٍ فمات لوقته ، فَقَبْرُه هناك . ولما خلع أعيدت خطبةُ يحيى ابن علىٍّ الفاطمىّ ، ثم قطعت وأُعيدت الخطبة للدولة الأُموية .

٢٢٦ ـ ا (ج) / ذكر ولاية المعتمد على الله

هو أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وهو أخو المرتضى [2] ، بويع له فى شهر ربيع الأول

(١) رايته الأدبية المشهورة ولادة .

(٢) لقبه هنا المعتمد على الله ، على أنه يلقب فى كتب أخرى بالمعتد بالله ، وفى نفح الطيب ١ : ٤١٣ المعتد بالله .

سنةَ ثمانى عشرةَ وأربعمائة ، وقيل فى يوم الجمعة سلخ شهر ربيع الآخر منها . وذلك أنه لما قُطِعت خطبة يحيى بن على [١] فى سنةِ سبعَ عشرةَ وأربعمائةٍ اجتمع رأى أهل قرطبة على ردِّ الأمر إلى بنى أميه ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جهْور بن محمد بن جهور . فراسل أهل الثغورِ فى ذلك فاتفقوا عليه بعد مُدةٍ ،فبايعوا لأبى بكرٍ وهو بالثغر فى حصن البُونت[٢] عند أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم .

فبقى يتردّد فى الثغور سنتين وعشرةَ أشهر - وقيل سبعة أشهر وثارت هناك فتَنٌ كثيرةٌ يطول شَرْحُها ، واضطرابٌ شا يدٌ من الرؤساء بها ، إلى أن اتفق رأيهم على أن يسير إلى قرطبة الملكُ . فسار إليها ، ودخلها فى يوم منى ثامن ذى الحجة سنةَ عشرين وأربعمائة . ولم يُقم إلا يسيرًا حتى قامت عليه فرقةٌ من الجند ، فخلع !

قال بعض المؤرخين : كان سبب خلعه أنَّ وزيره ومدبِّر أمره أبا العاص الحكم بن سعيد كان فاسدَ /الطريقة ، ولم يكن له سابقة رئاسة . فكرهه ٢٢٦ ب
الناس فَدسُّوا عليه فى بعض الطرق من قال نصيحة تقربه منه - وكان أطروشا - فأصغى إليه ليقولها فى أذنه ، فَجرَّه عن دابته فقتل .

وخلع المعتمد ، وخرج إلى الثغر لينتزعه من يد المنذر بن يحيى ،

---

(١) هو يحيى بن على بن حمود ويلقب بالمعتلى ، ملك لما خلع أهل قرطبة المستكفى ، وقد خلعه القرطبيون بدوره بزعامة الوزير جهور بن محمد بن جهور .

(٢) أحد معاقل إقليم بلنسيه ، جاء فى المغرب ٢ : ٣٩٥ أنه صار شجى فى حلق صاحب بلنسية وعنده أطال المكث هشام المعتد المروانى الذى صار خليفة بقرطبة .

فمات بِلارِدَةَ [١] – وهى فى مملكة سليمان بن هود – فى يوم الجمعة لأربع بقين من صفر سنةَ ثمانٍ وعشرين وأربعمائة .

قال : وولى قرطبة بعده قريب من سِتَّةٍ ، ثم دُعِى للمؤيد هشام – وذُكر أنه حىٌّ – فى يوم الخميس لليلتين خَلَتَا من المحرم سنة سبعٍ وعشرين وأربعمائة إلى أن أُشيع موت هشامٍ هـذا . فتغلب على قرطبةَ أبو الحزم بن جهْور – على ماسنورده – وانقطعت دعوة بنى أمية من سائر البلاد إلى هلم . وكانت مدة مُلْكِ بنى أميةَ ببلاد الأندلس – من سنة ثمانٍ وثلاثين ومائة وإلى هذا التاريخ – مائتى ستةٍ وتسعين ، وعدة من ملك منهم خمسةَ عشر ملكا وهم [٢] :

عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، هشام بن عبد الرحمن ، الحكم بن هشام المرتضى ، عبد الرحمن بن الحكم ، محمد ابن عبد الرحمن الأمين ، المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ، عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، /الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن ، هشام المؤيد بالله (دفعتين) ، محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى (دفعتين) سليمان بن الحكم المستعين بالله (دفعتين) . ثم انقطعت دعوتهم بقيام العلويين سبْعَ سنين ، وعادت بقرطبة بإمارة المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، ثم المستكفى بالله ٢٢٧ – ا

(١) Lerida مدينة مشهورة من مدن الثغر قرب طرسونة ، يقول الحميرى إنها فى ثغر الأندلس الشرقى (صفة الأندلس صفحة ١٦٨) .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٩٠

محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ، ثم المعتمد على الله أبو بكر هشام ابن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم . .

ذكر أخبار الأندلس

ومن ملكها بعد انقطاع الدعوة الأُموية

قال[1] : ولما انقطعت دعوةُ بنى أُمية بعد خَلع هشام تغلَّب كلُّ رئيسٍ على بلدٍ ، واستولى عليها ، ونحن نذكر ذلك على سبيل الاختصار . فأَما قرطبة فاستولى عليها الوزير أَبو الحزم جهْور ابن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن العمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أَبى عبيدة . قال : / وكان من وزراء الدولة العامرية قديم الرئاسة موصوفًا بالدهاء والعقل ، لم يدخل فى شىء من الفِتَنِ قبل ذلك. فلما خلا له الجوُّ وأَمكنته الفرصة وثب عليها ، فتولَّى الأَمر واستقلَّ به ، ولم ينتقلْ عن رتبة الوزارة إلى الإمارة ظاهرًا ، بل دبَّر تدبيرًا حسنا لم يُسْبقْ إليه . وجعل نفسه مُمْسِكا للوضع إلى أَن يجىء مستحقٌّ يتفق عليه الناسُ فيسلمه إليه ، ورتَّب البوابين والحشم على أَبواب تلك القصور – على ما كانت عليه أَيام الدولة – ولم يتحول عن داره إليها . وجعل ما يُرْفَعُ من الأَموال السلطانية بأَيْدى رجالٍ رتَّبهُم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصيَّر أَهلَ الأَسواق جندًا وجعل أَرزاقهم رؤوس أَموالٍ تكون بأَيديهم

٢٢٧ – ب

(١) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٩٠ .

يأخذون ربحَها خاصةً ورؤوس الأموال باقية ،يؤخذون ويراعون فى الوقت بعد الوقت كيف حِفْظُهم لها . وفرق السلاح عليهم وأمرهم أن يجعلوه فى الدكاكين والبيوت ، حتى إذا دهَم أمرٌ ليلا أو نهارً كان سلاح كلٍّ واحدٍ معه ، وكان يشهد الجنائز ويعود المرضى .

وكانت قرطبةُ فى أيامه حرمًا يأمن فيه كلُّ خائف ، ولم تزل أيامه على أحسن نظام وأكمل اتّساق إلى أن توفى فى صفر سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة ، وتولى بعده ابنهُ محمدٌ .

ذكر ولاية أبى الوليد محمد بن جهور ١ — ٢٢٨

ولى بعده أبيه فجرى على سُنَّتِهِ فى تدبير الأُمور ورعايةِ قلوبِ الرعية إلى أن مات ، وغلب عليها الأمير المُلَقَّب بالمأمون صاحبُ طليطلة إلى أن مات ، ثم استولى ابن عبّاد على قرطبة على ما نذكره .

ذكر أخبار مدينة طليطلة

ومن ملكها بعد بنى أمية وكيف كان استيلاء الفرنج عليها

أول من تغلّب عليها بعد بنى أمية مع بقائهم بقرطبة رجل يقال له ابن يعيش ، وذلك أن أهلها لما خلعوا طاعةَ بنى أمية قَدَّموه على أنفسهم وولّوْه أمرهم ، فلم تَطُلْ مدته . وصارت رئاسته إلى إسماعيل ابن عبد الرحمن بن عامر بن مطرّف بن ذى النون الهوارى (١) ، فتغلب على طليطلة . ولم تزل بيده إلى أن توفى فى سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة ، فقام بعده ابنُهُ .

(١) يعتبر بنو ذى النون من أعظم ملوك طليطلة ، وقد بلغوا الغاية فى البذخ والكرم ، ولهم الإعذار المشهور الذى يقال له « الإعذار الذنونى » وبه يضرب المثل عند الأندلسيين .

ذكر ولاية المأمون يحيى بن اسماعيل

وَلِيَ طليطلة بعد أبيه ، ولما ولى أراد أن يستعين بالفرنج على ما /حوله من المدائن والحصون لينتزعها ممن هى بيده . فكتب إلى ملك ٢٢٨ ب
من ملوك الفرنج – كان قريبا منه وبينهما مودةٌ ومُرَاسلةٌ – يُقال له شنشكند[1] وقال له « اخرج إلىّ فى مائة من فرسانك وإننى فى مكان كذا لأجتمع بك فى أمرٍ لك فيه راحة » فخرج إليه شنشكند فى ستة آلاف فارس ، وخرج ابن ذى النون فى مائتى فارسٍ من عسكر طليطلة .

وكمّن الفرنجىُّ أصحابَه خلف جبل بالقرب من الموضع وقال لهم : إذا رأيتمونا قد اجتمعنا فاخرجوا إلينا بأجمكم ! فلما فعلوا ذلك ورآهم المأمونُ سُقِط فى يده ، وحيل بينه وبين عَقْله فقال له شنشكند : يايحيى وحقِّ الإنجيل ماكنتُ أظنُّك إلاَّ عاقلا وإذا بك أحمقُ خلْقِ الله ، خرجتَ إلىّ فى هذا العدد القليل وسلَّمت إلىّ مُهْجَتَك بغير عهدٍ كان بينى وبينك قبل خروجك ولا دين بجمعنا وقد أمكننى اللهُ منك ، وحقِّ الإنجيل لا نجوت منى حتى تعطينى الحِصْن الفلانى والحصن الفلانى – وسمَّى حصونا من حصون المسلمين بين طليطلة وبينه – وتجعل لى عليك مالاً فى كل سنة ! .

فأجابه يحيى إلى ما طلب ، وسلَّمَ إليه الحصون ، ورجع إلى طليطلة شر رجوع . وتواتر الخِذْلانُ عليه إلى أن مات فى سنة ستين

(١) هو بن الفونش Alphonso أو اذفنش .

وأربعمائه ، وصارت ولايتهُ إلى ابنه القادر يحيى ، فدام بطليطلة
/إلى أن ملكها الفرنج . ٢٢٩-ا

قال : ولما ملك امتدت يدُه إلى أموال الرعية ، واستعمل السفلة وأهلَ الثغور ، ولم تزل النصارى تطوى حصونَه حصنا بعد حصن حتى استَوْلَوْا على طليطلة فى سنة ثمانٍ وسبعين بعد أن حاصره ألفونش (١) سبْعَ سنين وملكها ، واتخذها دارَ مُلْكٍ ، وغَيَّرَ جامِعَها كنيسة وردَّ المسلمين إلى مسجدٍ غيره وعَوَّضَهم مالا وقال : هذه كنيسةٌ كانت لنا فردّها اللهُ علينا ! وانتقل القادر بالله إلى بلنْسِية فقبله القاضى الأحنف بنُ حجاب .

ذكر أخبار دولة بنى عباد

وابتداء أمرهم ومن ملك منهم إلى أن انقضت مُدَّتُهم وانقرضت دولتهم

أول من قام منهم القاضى محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد ابن عمرو بن عطاف بن نُعَيْم - ونعيم وابنُهُ عطاف هما دخلا إلى الأندلس من المشرق - وهم من لخم من بنى المنذر بن المنذر ، وفيهم يقول الشاعر :

مِنْ بنِى المنْذِرِ وهو انْتِسَابٌ زادَ فى فَخْـــرِهِ بنو عبّاد
فيه لمـا تَلِدْ سِواها المعـالى والمعـالى قليـــلةُ الأولادِ

/وكان محمد بن إسماعيل هذا قد تقدّم بإشبيلية إلى أن ولِى القضاء ، ٢٢٩-ب
فأحسن السياسة مع الرعية والملاطفةَ بهم ؛ فرمقته العيون ، ومالت

(١) الصحيح « ابن ألفونش » على ما فى نفح الطيب ١ : ٤١٦ .

إليه القلوب . فلما كان فى سنة ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة ولى يحيى ابن علىٍّ الفاطمى قرطبة ، وكان من أمره وأمرِ عمِّه القاسم ما ذكرناه . ثم إنَّ أهلَ قرطبةَ أخرجوا القاسم بنَ حمّود فقصد مدينةَ إشبيلية ثم فارقها ، وقصدها بعد ذلك يحيى بن علىٍّ المعتلى ونزل بقرمونة لحصار مدينة إشبيلية وكانت الرئاسةُ بها بين ثلاثة — كما ذكرنا ذلك — فاجتمع وجوه المدينة وفيهم حبيب ابن عامر القرشى ومحمد بن مرثم الإهابى ومحمد الزبيدى وغيرهم . وأتَوْا إلى أبى القاسم محمد بن إسماعيل وقالوا : ما ترى ما نحن فيه وما حلَّ بنا من هذا الكافر وما أفْسد من أموال الناس ، فَقُمْ بنا نخرجْ إليه ونملكك ونجعلْ الأمر لك وننتصر لهشام !

ففعل ، وخرجوا لقتال يحيى بن على المعتلى ، فركب إليهم وهو سكران فقتل كما قَدَّمْنا . وملك محمد بن إسماعيل إشبيلية ؛ وقالوا له : نخرج إلى قرمونة من قبل أن يسبقك إليها إسحاق ابن عبد الله البرزالى ! فَهَمَّ محمد بذلك فسبقه إسحاق وملكها ، فكتب محمد إلى يحيى بن ذى النون الهوارى صاحبِ طليطلة يقول له : اخرج بعسكرك أو ابعث إلى بعسكر مع / قائدٍ من عندك ٢٣٠ ـ ١
حتى أُخْرج إسحاقَ بنَ عبدالله من قرمونة ، وأنا أُعينك على أخْذِ قرطبة وأجعلها لك مِلْكا !

فلما وصل كتابه إلى المأمون خرج إليه بنفسه فى عسكرٍ كبير ، فاجتمعا ونزلا على قرمونة ، وحاصراها وأخرجها عنها إسحاق . وأخذها محمدُ بنُ إسماعيل وأدخل ولده إليها ، وسارا إلى قرطبة وحاصراها .

فلما رأى [أهلها] (١) ما حلَّ بهم كاتبوا محمد بنَ إسماعيل وقالوا أنتَ أَوْلى من المأمون بالبلد وأحبُّ إلينا منه ! فاستوثق منهم ودخلها ليلا ويحيى لا علم له بذلك . فلما أصبح وعلم الحال رجع بعسكره إلى طليطلة وكتب إلى ابن عكاشة – وهو رجل شجاع كان بيده بعضُ حصون الأندلس ، يقطع حوله السبيل ويقتل التجار ويأخذ الأموال ، وهو يظهر ليحيى طاعةً مشوبةً بمعصية – فأمره أن يجمع أصحابه وعضَّده بعسكر كبير ووجههم إلى قرطبة ، فتوجهوا إليها وقد فارقها محمد بنُ إسماعيل إلى إشبيلية وترك ولده بها .

فدخلها ابن عكاشة ليلا ، ودخل القصر ، وقتل كلَّ منْ وجَد من الحرس ، وذبح ولدَ محمد بنِ إسماعيل بيده . فلما بلغ ذلك محمد جمع العساكر وخرج إلى قرطبة ، فحصر ابنَ عكاشة وضيق عليه : فخرج هاربا . واستوثق من الرعية وعاد إلى إشبيلية ، فوصل إليها يحيى بن ذى النون / وتغلَّب عليها . فَدَسَّ عليه محمد بنُ إسماعيل طبيبه ، فَسَمَّه ، فمات ! فعندها خلص الأَمرُ لمحمد بن إسماعيل : وذلك فى سنةِ أربع وعشرين .. هكذا نقل عز الدين عبد العزيز ابن شدّاد بن تميم بن المعز بن باديس فى كتابه المترجم بالجمع والبيان ، وذكر أيضا فى هذا الكتاب أنَّ يحيى توفى فى سنة ستين وأربعمائة ، وهذا فيه تنافٍ والله تعالى أعلم .

٢٣٠ –ب

(١) إضافة يقتضيها السياق .

ذكر أخبار خلف الحصرى

المشبّه بالمؤيد هشام وقيام دعوتة بمملكة محمد ابن إسماعيل ، وما قيل فى ذلك

فأما قيام دعوته فإن محمد بن إسماعيل لما استولى على الأمر فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة وتعاظم أمره ، حسده أمثاله وكثُر الكلام فيه وقالوا « قتل يحيي بن على الحسنى من أهل البيت وقتل يحيي بن ذى النون ظلما » واتّسع القول فيه فبقى يفكر فيما يفعله . فبينما هو كذلك إذ جاءه رجل من أهل قرطبة فقال له : إنى رأيت - هشامًا فى قلعة رباح ! فقال له محمد : انظرْ ماتقول ! فقال ! إنى واللهِ رأيتُهُ وهو هشام بلا شك !

وكان عند محمد بن إسماعيل عَبدٌ من عبيد هشام يسمى تومرت ، - وهو الذى كان يقوم على رأس هشام - فقال له محمد : / إذا رأيتَ مولاك تعرفه ؟ فقال : نعم ولى فيه علامات ٢٣١ - ا

فأرسل محمدٌ رجلين من الذين ذكروا أنهم رأوا هشامًا وقال : تَوجَّها إلى قلعة رباح وائتيانى بهشام ! وأسرعا ، فَتَوَجَّهَا فوجداه في مسجد فى قلعة رباح ، فدخلا عليه وأعلماه أنهما رسولا القاضى محمد بن إسماعيل إليه . فسار معهما إلى إشبيلية . فلما دخل على القاضى قام إليه وسلم عليه وأنزله ووكل بخدمته تومرت مولاه . فلما رآه تومرت قَبَل يديه ورجليه وقال للقاضى : هو والله مولاى هشام ابن الحكم .

فعند ذلك قام إليه القاضى محمد بن إسماعيل وقَبَّلَ رأسه ويديه ، وأمر بنيه فدخلوا عليه وفعلوا كفعله ، وسلّموا عليه بالخلافة . وأخرجه

محمد بن إسماعيل فى يوم الجمعة إلى الجامع بمدينة إشبيلية ، ومشى هو وبنوه بين يديه رجّالةً حتى أتى المسجد ، فخطب الناس وصلى بهم الجمعة . وبايعه محمد بن إسماعيل وبنوه وجميعُ أهل البلد ورجع إلى موضعه ، وتولّى محمد بن إسماعيل الخدمةَ بين يديه وجرى فى ذلك على طريقة ابن أبى عامر ، غير أنه يخرج إلى الجمعة والأعياد ويصلى طولَ مدته ، ومحمد فى رتبة الوزارة آمرًا وناهيا عنه ، واستقام لمحمد أكثر مدن الأندلس ، فهذا كان سبب قيام دعوته .

٢٣١ ب وأما ما نقل من أخباره فقد ذكرنا فى أخبار بنى أمية أن / المستعين بالله سليمانَ بن الحكم لما فتح قرطبةَ المرةَ الثانيةَ فى شوّال سنةَ ثلاث وأربعمائة أحضره وَوبّخه ، وأن المؤيد فُقِدَ لخمسٍ خلون من شوال . وذكرنا أيضا أنَّ الناصرَ علىَّ بنَ حمّود الفاطمىّ لما ملك قرطبةَ أحضر المستعين وسأله بحضرة الفقهاء والوزراء عن المؤيد هشام فقال « مات فألزمه أن يُرِيَهُ قبره فأخرجه دفينًا لا أثر فيهِ فأمر الناصر بتكفينه ودفنه فى الروضة .

وقيل بل هرب بنفسه إلى المشرق مستخفيا حتى وصل إلى مكة — شَرَّفها الله — وكان معه كيسٌ فيه جوهر وياقوت ونفقة ، فشعر به حَرَّابة مكة ، فأخذوه منه ، فمال إلى جهةٍ من الحرم وأقام يومين لم يُطْعَمْ طعامًا . فمضى إلى المروة فأتاه رجل فقال له تُحسن عَمَلَ الطين ؟ قال : نعم ! فمضى به إلى تراب ليعجنه ووافقه على درهم وقرصة ، فقال له : عجّل القرصةَ فإنى جائع ! فأتاه بها فأكلها ، ثم عمد إلى التراب فكان مرةً يعجن ومرةً يجلس ، فلما طال عليه ذلك تركه ومضى هاربا على وجهه .

وخرج مع القافلة إلى الشام على أسوإ حالٍ، فوصل إلى بيت المقدس، فمشى في السوق فرأى رجلا يعمل الحصر الحلفاء فنظر إليه فقال له الحصرى: كأنّك تحسن هذه الصناعة! قال: لا! قال: فتقيم عندى/ تناولنى الحلفاء وأجعل لك أجرة على ذلك. قال: أفعل ٢٣٢ ـ ا

فأقام عنده يناوله ويعاونه على ما يأمره به من أمور صناعته، فتعلم هشامٌ صناعة الحصر، فصار يعملها ويتقوّت منها. وأقام ببيت المقدس أعواما كثيرةً لم يعلمْ به أحدٌ، ثم رجع إلى الأندلس فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة.. هكذا روى جماعة من مشايخ الأندلس!

وقال الإمام الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم فى كتابه المسمى «نقط العروس فى هذه الحكاية: أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها، وإنما ظهر رجل يقال له خلف الحصرى بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد وادّعى أنه هشام، وبويع له على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى، وسَفك الدماء وتصادمت الجيوش فى أمره.

وقال أبو محمد بن حزم: وفضيحة لم يقع فى الدهر مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام فى مثلها يُسَمّى كلُّ واحدٍ منهم بأمير المؤمنين، ويخطب لهم فى زمن واحد أحدهم خَلَفٌ الحصريّ المذكور بإشبيلة على أنه هشام بن الحكم المؤيد، والثانى محمد ابن القاسم بن حمّود بالجزيرة الخضراء، والثالث محمد بن إدريس بن على

ابن حمّود بمدينة مالقه ، والرابع إدريس بن يحيى بن على بشنترين[١] .

٢٣٢ ـ ب /وأقام المدّعى أنه هشام بن الحكم نيفًا وعشرين سنةً والقاضى محمد ابن إسماعيل فى رتبة الوزير بين يديه ، والأمر إليه . وقد استقام لمحمد أكثرُ بلاد الأندلس ، ودفع به كلام الحسّاد وأهل العناد ، إلى أن توفى هشامٌ المذكورُ . فاستبد القاضى بالأمر بعده وملك أكثر مدن الأندلس وحصونها . ولم ينتقل عن مدينة إشبيلية بل جعلها دار ملكه ، واستقامت له الأمور ، وأطاعته المدن والثغور ، واجتهد فى جهاد الفرنج . وكان له فى ذلك القدم المشهور ، ومات محمد فى عشر الخمسين وأربعمائة ، وولى بعده ابنُه عباد .

ذكر ولاية أبى عمرو عباد بن محمد

ولى بعد أبيه وتلقّب المعتضد بالله ، وكان فيه كرم وبأس . فطابت أيامه ، وحسنت أفعاله ، واستقامت له الأحوال ، ورُفعت له من بلاد الأندلس الأموال . قال[١] : واتفق له واقعة غريبة فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وهى أنه شرب ليلةً مع رجاله وندمائه فلما عملت فيه الخمر صَرَفهم وخرج فى الليل ومعه رجلٌ واحدٌ من عَبيدِه . وسار نحو قرمونة وهى [تبعد][٣] عن مدينة إشبيلية ثمانية عشر ميلا ، وكان صاحبُ قرمونة إسحاق بن سليمان البرزالى وقد

٢٣٣ ـ ا /جرت بينه وبينه حروب .

(١) Santarein مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجه فى غربى قرطبة وعلى نهر تاجه قرب انصبابه فى البحر المحيط (معجم البلدان ٣ : ٣٦٧) .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٩١ .

(٣) إضافة يقتضيها السياق .

فسار عبّاد حتى أتى قرمونة ، وكان إسحاق تلك الليلة فى جماعة من أهل بَيْتِهِ يشربون ، فدخل عليه بعضُ خُدّامه فقال : إن صاحبَ الحرسِ ذكر أنَّ المعتضد عبّاداً قائم على باب المدينة ليس معه إلا رجلٌ واحدٌ وهو يستأذن عليك ! فعجب القومُ من ذلك غايةَ العجب ، وخرج إسحاق ومَنْ عنده إلى باب المدينة فسلَّم على عبّاد وأدخله إلى القصر ، وأمر بتجديد الطعام والشراب . فلما شرع فى الأكل تذكر مافعل فسقط فى يده ولم يطق أن يسفه ، وندم على ماصنع لما يعلم بينه وبين برزال من الحرب وسفك الدماء ، فأظهر التجلُّد والانشراحَ ثم قال لإسحاق : أريد أن أنام !

فرفعه على الفراش ، فأراهم عبّاد أنه نائم ، فقال بعض القوم لبعض : هذا كبشٌ سمينٌ حصل لكم ، والله لو أنفقتم عليه مُلْكَ الأندلس ماقدرتم على حصوله فى أيديكم ، وهوشيطانُ الأندلس وإذا قُتل خلصت لكم البلاد !

فقام معاذ بن أبى قُرَّةَ وكان من كُبَرائهم فقال : والله لا فعلنا هذا ولا رضينا به ، رجلٌ قصدنا ونزل بنا ، ولو علم أنَّا نرضى فيه بقبيح لما أتانا مستأمنا إلينا ، كيف تتحدث القبائلُ عنَّا أننا قتلنا ضيفنا وخفرنا ذِمَّتَنَا ، فَعَلَى مَنْ يَرْضَى هذا لعنةُ الله ! وهو يسمع فنزل عن السرير فقام القوم بأجمعهم /فقبّلوا رأسه وجددوا السلام ٢٣٣ـب
عليه فقال لحاجبه : أين نحن ؟ قال : فى منزلك وبين أهلك وإخوانك ! قال : ائتونى بدواة وقرطاس .

فأتوه بهما ، فكتب أسماء القوم ، وكتب لكلِّ واحدٍ بخلعةٍ ودنانير وأفراسٍ وعبيد وجوارٍ ، وأمر أن يرسل كلُّ واحدٍ منهم رسولاً ليقبض

ذلك . ثم ركب وخرج القوم يشيّعونه إلى قرْب إشبيْلية ، فصرفهم ودخل. وأرسلوا منْ قَبضَ لهم ما كتب به ، ثم أغفلهم سِتّة أشهر وكتب إليهم يستدعيهم لوليمةٍ ، فجاءه سبعون رجلا منهم فأنزلهم عند رجاله ، وأنزل معاذًا عنده . وأمر بهم فأُدْخِلوا حمامًا ، وبنَى عليهم بابه ، فماتوا جميعا ، فَعزَّ ذلك على معاذ بن أبي قرة فقال له عبّاد : لا تُرَعْ فإنهم قد حضَرتْ آجالهم وقد أرادوا قتلى ، ولولاك ما كنتُ ناجيا منهم ، وإنما جعل اللهُ صيانَه دمى بك ، فإن أردتَ الرجوع إلى بلدِك رددتُك على أجملِ الوجوه وأحسنِها وأسرِّها ! فقال له معاذ : بأىِّ وجْه أرجع أنا دونهم ؟

فأمر له المعتضد بألف دينارة وعشرة أفراس وثلاثين جارية وعشرة أعْبُدٍ ، وأنزله فى قصرٍ من أعظم قصوره ، وأقطعه فى كلِّ عام اثنى عشر ألف دينار ، وكان ينفذ إليه فى كل يوم التُّحَفَ والطرف . ولم يكن يحضر مجلسه أحدٌ قبله /إلى أن مات عبّاد فأوصى ٢٣٤ ـ ا
ولده بمعاذ وقال : يابنى احفظنى فيه ! فجرى فيه على عاده أبيه ، ودام بإشبيلية حتى انقرضت دولة بنى عبّاد .

قال بعض أهل إشبيلية : رأيت معاذ بن أبي قرة يوم دخل يوسف بن تاشفين إشبيلية أوّل النهار وعليه ثوب ديباج مخرطم بالذهب وأمامه نحوٌ من ثلاثين عَبْدًا ، ورأيته آخِرَ النهار عليه مُليسٌ (١) مشتمل به فسبحان من لا يزول مُلْكه ، نسأل اللهَ تعالى أن لا يسلبنا ثوب نعمةٍ أنعمها علينا بمَنِّه وكرمه .

(١) المليس : شىء من قماش (القاموس المحيط) .

وفى أيام عبّاد توفى الإمام الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن سعدان بن سفيان بن يزيد الفارسى مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية . أصل آبائه من قرية مُنت ليسم من عمل الولبة (١) من كورغرب الأندلس ، وسكن هو وآباؤه قرطبة ونالوا بها جاهاً عريضًا ومالا وممدودًا . وولّى ابنُ أبى عامر جدَّه سعيدًا الوزارة ، وولى أبومحمدٍ هذا الوزارة فى أيام المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الأموى . وكان مولده يومَ الأربعاء سلخَ شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، ووفاته فى سلخ شعبان سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وكانت مدة حياته اثنتين وسبعين سنةً وأحد عشرَ شهرًا . وله كثير من لصنّفات ، ٢٣٤ ب /ذكرِ أنه اجتمع مع الإمام أبى الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجى صاحب التوالِيف - وقيل بل الفقيه إبراهيم الخفاجى - فجرت بينهما مناظرة ، فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد : تعذرنى فإن أكثر مطالعتى كانت على سُرُج الحُرَّاس ! فقال له ابنُ حزم : وتعذرنى أيضا فإن أكثر مطالعتى كانت على منابر الذهب والفضة ! (٢)

وفى سنة ستين وأربعمائة توفى المعتضد بالله عبّاد بن محمد ، وحُكِى أنه استحضر مغنيا يغنيه ليجعل أوّل ما يبدأ به فألا فكان أول شعر قاله :

نطْوِى الليالىَ عِلْما أنْ ستطوينا فشعشعينا بماءِ المُزْنِ واسقينا

(١) ولبة جنوب غربى لبلة على شاطىء المحيط الأطلنطى ، وفى ا ، ك ١٤٠ ، ف ١٣٢ ب « الوليمة » بتصحيف »

(٢) ذكر ابن كثير طرفا من أخباره فى البداية والنهاية ١٢ : ٩١ تحت اسم « ابن حزم الظاهرى »

فمات بعد خمسةِ أيام رحمه الله ، ولما مات ولى بعده ابنه محمد .

ذكر ولاية المعتمد على الله

محمد بن عباد

ابن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد ، وكنيته أبو القاسم . ولى بعد وفاة أبيه فى سنة ستين وأربعمائة ، وقيل فى سنة إحدى وستين ، وكان مولده بباجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ، فكان عمره حين وَلِىَ ثلاثين سنة . وكان فيه أدب وشعر وكرم / وتواضع ٢٣٥ ـ ا
وشجاعة ، قال أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة كاتبه يصف الدولة العبادية « كانت الدولة العبادية تشبه العباسية ، بها وسعة ملك ووثاق عهد وانتظام عقد ، وعدل أئمة واعتدال أمة ، كان أربابها يتنافسون فى المكارم ويتغايرون على الشرف المتقادم . .

من حلْبة السَّبْق لا برقٌ يخاطِفُها إلى مداها ولا ريحٌ يجاريها
تردُّهم نِسْبَةٌ نحْوَ السماء فهُمْ من مائها ، وعُلاهُم من دراريها

يشير إلى المنذر بن ماء السماء ، ثم قال « جمعوا كرم الأخلاق إلى شرف الأعراق ، وحملوا حلى الآداب على الأحساب ، وعضّدوا البأس بالكرم وأيّدوا بالسيف والقلم ..

نفرٌ إلى مـاءِ السماء نمَـاهمُ نسَبٌ على أوج النجومِ مُخيِّمُ
بالبِيضِ والبَيْضَاتِ والخُلُقِ اكْتَسَوْا
فَتَوَشَّحُوا وتَتَوَّجُوا وتَعَمَّموا

وكان بهذا البيت سريرُ الفلك الدائر وغريبُه البحر الزاخر المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد ، وذكر نَسَبَه ، ثم قال : من بنى المنذر وهو انتساب ... البيتين ، وقد ذكرناهما آنفا ، وقال تِلْوهَمًا : وكذلك يطَّرِد النَّسَبُ اطرادَ / الشآبيب ، ويتَّسقُ إتِّساق الأنابيب ، فهو كما قيل : ٢٣٥ـب

شَرَفٌ يُنَقِّلُ كابِرًا عن كابـرٍ كالرُّمْح أُنبوبٌ على أُنبوب

إلى مركز الدائرة من لخم وواسطة المنتخبين من يعرب وقحطان! ثم ذكر مولده وولايته على ماقدمنا وذكر خَلْعَهُ في سنة أربع وثمانين على ما نذكره إن شاء الله .

وكان سبب خلعه وانقراض دولته أن الفرنج ـ لعنهم الله ـ لما استَوْلَوْا على طليطلة وملكها الأذفونش ـ وهو أَلْفُنْش ـ فى سنة ثمان وسبعن وأربعمائة على ماقدمناه. وكان المعتمد . يؤدِّى إليه ضريبةً فى كلِّ سنة ، فلما سيّرها إليه بعد استيلائه على طليطلة لم يقبلْها وأعادها ، وأرسل إليه يتوعده ويقول له : أنا آخذ مدينة قرطبةَ كما أخذت طليطلة إلا أن ترفع يدَكَ عن جميع الحصونِ وتُسَلِّمَها إلينا ويكونَ لك السَّهْلُ من البلاد !

وكان الرسولُ شلبيب اليهودىَّ ومعه خمسمائةُ فارس ، وطلب منه اثنى عشر ألفَ دينار ، فأمر المعتمد بإنزال الخيالة على أهل العسكر متفرقين وأمر كلَّ من عنده فارس منهم أن يقتله . ولما جنَّ الليل أحضر اليهودىَّ وكشف رأسه ، وأمر بضربه بالنعال المسمرة ، حتى خرجت عيناه من رأسه . وهرب من الخيالة ثلاثة ، فوصلوا

٢٣٦-ا إلى الأذفونش وأعلموه بِقَتْلِ أصحابه وكان متوجها إلى قرطبة يريد حصارها - فلمـا جاءه الخبر وجـع إلى طليطلة ليستعد ويُهَيِّئ آلات الحصار .

فلما سمع المعتمد برحيله إلى طليطلة سار هو إلى إشبيلية فبَلَغَ مشايخ قرطبة ما جرى ، فاجتمعوا بالفقهاء وقالوا : هذه مدائن الأندلس قد غابَ عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل ، وإن استمرّت الأحوال على مانرى عادت نصرانيةً كما كانت ! ثم ساروا إلى القاضى عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له : ألا تَنْظُر إلى مافيه المسلمون من الصّغار والذلة وإعطائهم الجزيةَ إلى الفرنج بعد أن كانوا يأْخذونها منهم ، وابن عبّاد هو الذى حمل الفرنْجَ على المسلمين حتى جرى ماجرى وطلب منه ماطلب ، وقد دَبَّرْنا رأيا نعرضه عليك ! قال : وما هو ؟ قالوا : نكتب إلى عرب أفريقية ونعلمهم أنهم إن وصلوا إلينا قاسمناهم فى أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين فى سبيل الله تعالى ! قال : أخافُ أن يخربوا الأندلس كما فعلوا بأفريقية ويتركوا الفرنج ويبدأوا بكم والمرابطون أقْرَبُ إلينا وأصلح حالًا . قالوا : فكاتِبْ يوسف بن تاشفين ورغِّب إليه أن يدخل إلينا بنفسه أو يرسل إلينا قائدا من قُوّاده . قال : أمّا الآن فقد أشرتم برأى فيه السّداد !

وقدم المعتمد إلى قرطبةَ فى أثَرِ ذلك ، فدخل عليه القاضى وأعلمه بما دار بينه وبين أهل قرطبة وما اتفقوا عليه ، فقال المعتمد:
٢٣٦-ب نِعْمَ ما أشاروا به وأنت رسولى / إليه ! فامتنع القاضى واستعفاه

وإنما أراد أن يقوِّىَ عزمه على إرساله فقال : لا أجـد لهـا غيرك .

فسار القاضى ، وصحبه أبو بكر بن القصيرة الكاتب إلى أمير المسلمين ، فوجداه بسبتة ،فأبلغاه الرسالة . وأعلماه بحال المسلمين وما هم عليه من الخوف والجزع من الأذفونش ،وأنهم يستنصرون بالله ثم به ؛ وأن المعتمد يستنجده عليه . فأمر يوسف في الحال بإدخال العساكر إلى الجزيرة الخضراء ، وأقام بسبتة وأنفذ إلى مراكش في طلب من بقى ، ودخل فى آخر العساكر .. هذا ما نقله أهل التاريخ ، أن القاضى وابن القصيرة كانا رسولين إليه ، وقيل إن المعتمد بن عبّاد سار بنفسه بغيْرِ واسطةٍ وتلطّف فى الدخول عليه إلى أن انتهى إلى آخر بواب فقال له : قل لأمير المسلمين إن ابن عبّاد بالباب ! فلما أعلمه بذلك ارتاع وظن أنه قدم بعساكره ، وسأله عن حقيقة الحال فقال : هو ببابك وَحْدَهُ فأذن له ، فدخل عليه ، فأكرمه ووعده النصر . وعاد ابن عباد ، ولحقه أمير المسلمين .

ذكر وقعة الزلاقة

وانهزام الفرنج لعنهم الله

/قال (١) : وجمع المعتمـد العسـاكر وأقبـل أمير المسـلمين ٢٣٧ ـ ١
بعساكره ، واجتمعوا كلهم بإشبيلية ، وخرج من أهل قرطبة ـ من المتطوعين ـ أربعةُ آلاف فارس وراجل . وجاء المسلمون من بلاد الأندلس ، من كل بلد وحصن . واتصلت الأخبار بالأذفونش ،

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٤٢

فخرج من طليطلة فى أربعين ألف فارس غير من أنضاف إليها، وكتب إلى يوسف كتابا كتبه عنه رجل من أدباء المسلمين يغلظ فيه القول ويصف ماعنده من القوة والعُدَد والعَدَد ، ووسّع وأطال وبالغ . ووصل الكتاب إلى يوسف بن تاشفين فأمر الكاتب أبا بكر ابن القصيرة أن يجاوبه . وكان كاتبا مجيدا ـ فكتب وأطال وبالغ، فلما قرأه على يوسفَ استطاله وكتب على ظهر كتابه « الذى يكون ستراه »

ولا كُتْبَ إلى المشْرَفيَّةُ والقنا ولا رسْل إلا بالخميسِ العَرَمْرَمِ

وردّه إليه ، فلما قرأ الجواب ارتاع وقال : هذا رجلٌ له عزم ! قال [1] : ولما استعد الأذفونش لِلِّقاء رأى في منامه كأنه راكبٌ فيلا وبين يديه طبل صغير ينقر فيه ، فقصّ ذلك على القسيسين فلم يعرفوا تأويله ، فاستحضر رجلا مسلما عالما ديّنا فاستعفاه من القول فأمّنه وعزم عليه ، فقال : تأويل هذه الرؤيا فى آيتين من كتابِ الله عَزّ وجَلّ ! وقرأ سورة الفيل ، وقوله تعالى « فإذا نُقِر فى /النّاقُورِ فذلِك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ عَلى الكافرين غيرُ يَسيرٍ »[2] وذلك يقتضى هلاك الجيش الذى تجمعه . ٢٣٧ ـ ب

فلما اجتمع الجيشُ وعبّأه أعجبته كثرتُه ، فاستحضر المُعبِّر وقال له : هذا الجيشُ الذى ترى ألقى به محمدًا صاحبَ كتابِكم ! فانصرف المُعبِّرُ عنه وقال : هذا الملكُ هالكٌ لا محالة وكلُّ مَنْ معه

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٤٢
(٢) سورة المدثرة الإيتان ٨، ٩

فإنه قد أُعْجِبَ بِجَمْعِهِ ... وذكر قوْل النبيِّ صلى الله عليه وسلّم « ثلاث مهلكات » الحديث ...

قال [١] : وسار المعتمدُ بنُ عبّاد وأميرُ المسلمين بالعساكر حتى أتوْا موضعا يقال له الزلّاقة من بلد بطَلْيَوْس [٢] وأتى الأذفونش فنزل موضعًا بينه وبينهم - ثمانيةَ عشرَ ميلا ، فقيل ليوسف بن تاشفين إنَّ ابنَ عبّاد ربما لم يُنْصَحْ ولا يبذل نفسَه دونك ، فأرسِلْ تقول له « كُنْ فى المقدمة ونكون نحن فى أثرِك » . فتقدّم ابنُ عباد .

وضرب الأذفونش خيامه فى سفح جبل والمعتمدُ بن عبّاد فى سفح جبل آخر بحيث يتراءان ، ونزل يوسف بن تاشفين فى جبل من وراء الجبل الذى فيه المعتمد . وظَنَّ الأذفونش أن عسكر المسلمين ليس إلّا ذاك الذى يَظْهرُ له مع المعتمد والأذفونش فى زهاء خمسين ألف فارس ، فما شَكَّ أنه الغالب واستعمل الخدعة . وأرسل ابنُ عبّاد فى ميقات اللقاء يوم الخميس ، وقال : نحن قد وصلنا على حال تعَبٍ وأمامكم الجمعة وأمامنا الأحد فيكون اللقاءُ يوم / الإثنين بعد أُهْبَةٍ ! فاستقر الأمرُ بينهما على ذلك . ٢٣٨ - !

ثم ركب الأذفونش صبيحة الجمعة ليلا ، وصبَّحَ بجيشه جيش المعتمد ، فوقع القتال بينهم ، فصبر المسلمون وقتل منهم خلقٌ كثيرٌ ، وأشرفوا على الانهزام . وقد كان المعتمد أرسل إلى ابن

(١) ابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٤٢

(٢) Badajoz وكان صاحبها إذ ذاك ابن الأفطس وقال ياقوت إنها مدينة كبيرة بالإندلس من أعمال ماردة على نهر آنه غربى قرطبه (معجم البلدان ١ : ٤٤٧) .

تاشفين فقال للأَدِلَّةِ : احملونى إلى مضارب الأَذفونش ! فما شعر الفرنج إلا وقد نُهِبَتْ خيامُهم وخزائنُ الأَذفونش وعُدَدُه ، والقتْلُ يُعمل فيهم من رواء ظهورهم . فلم يتمالك الفرنج أن انهزموا وأخذهم السيف من كلِّ مكان ، فقُتلوا عن آخرهم ؛ فما سَلِم إلا آحاد ! وهرب الأَذفونش فى نَفَرٍ يسيرٍ ودخل طليطلة فى سبعةِ فوارس ، ولم يرجع من الفرنج إلى بلادهم غيرُ ثلاثمائة نفرٍ أكثرهم رجّالة .

وكانت هذه الوقعةُ فى يوم الجمعة فى العشر الأَول من شهر رمضان سنةَ تسع وسبعين وأربعمائة ؛ وأصاب المعتمد جراحاً فى وجهه ، ووُصِفَ فى ذلك اليوم بالشجاعة . وغنم المسلمون من أموال الفرنج وأسلحتهم مالا يُحْصَى كثرةً ، وجعل المسلمون رؤوسَ القَتْلَى كَوْما كبيرًا وصعدوا عليه وأذّنوا إلى أن جافت فأحرقوها ! .

وعاد المعتمدُ إلى إشبيلية ، ورجع أميرُ المسلمين إلى الجزيرة الخضراء وعدّى إلى سبته وسار إلى مراكش . وعاد فى السنة الثانية
٢٣٨-ب إلى جزيرة الأَندلس وحاصر / ليطة [١] هو وابنُ عباد وصاحبُ غَرْناطة [٢] ، فلم يتهيأْ لهم فتْحُه ، فرجع وأخذ غرْناطة من صاحبها عبد الله بن بلكمين ، وهى أول ما ملكك من بلاد الأَندلس على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) كذا فى جميع النسخ ولعلها لبطيط التى ذكرها ياقوت وقال إنها بالأندلس من أعمال الجزيرة الخضراء (٥ : ١٠) .

(٢) Granada وقد سبق الإشارة أليها ، ونذكر هنا أن صاحبها كان باديس بن حبوس قبل مجىء يوسف المرابط ، واستولى على مالقه ، وكان مزاحما خطيراً للمعتضد أبى المعتمد بن عباد .

ذكر انقراض الدولة العبادية

وشيء من أخبـار المعتمـد وشـعره

فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة أتى يوسف بن تاشفين إلى سبتة و دخل العساكر إلى الأندلس مع سيرين [بن] [1] أبى بكر ، فقصدوا مدينة إشبيلية ، فحصروا المعتمد وضيقوا عليه . فقاتل قتالا شديدًا ، وظهر من شجاعته وشِدَّةِ بأْسه وحُسْنِ دفاعِهِ عن بلدهِ مالم يُشاهَدْ من غيره فسمع الفرنج بِقصدعساكر المرابطين بلادَ الأندلس ، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم ، فجمعوا وأكثروا وساروا لمساعدة المعتمد وإغاثته على المرابطين . فلما سمع بمسيرهم [2] فارق إشبيلية وتوجّه إلى لقاء الفرنج ، وقابلهم وهزمهم ، ورجع إلى إشبيلية . وداوم الحصار والقتال إلى العشرين من شهر رجب من السنة ، فعظمُ الخطْبُ واشتد الأمر على أهل البلد . ودخله المرابطرن من واديه ونهبوا الأموال ، ولم يُبْقُوا على شيء حتى سلبوا الناسَ ثيابهم ، وخرجوا من مساكنهم يستُرون عوراتهم بأيديهم . ٢٣٩ ـ ا

وأُسِر المعتمد ومعه أولادُه الذكورُ والإناثُ ، بعد أن استأْصلوا جميع أموالهم . وقيل إن المعمتد سلَّم البلد بأمان ، وكتب نسخة الأمان والعهد ، واشتحلفهم على نفسِه وأهله وماله وعبيده وجميع مايتعلق به . فلما سلَّم إليهم إشبيلية لم يفوا له ، وسيِّر المعتمد

(١) زيادة من ك صفحة ١٤٣ .

(٢) فى ا « فلما سمع سير خبرهم » يعنى سيرين بن أب بكر .

إلى مدينة أغمات [١] ، فحُبِسوا بها ، وفعَل بهم أميرُ المسلمين أفعالا قبيحةً لم يفعلها أحد قبله . وذلك أنه سجنهم ولم يُجْرِ عليهم مايقوم بهم ، حتى كان بناتُ المعتمد يغزلن للناس بأُجرة ينفقونها على أنفسهم ، فأبان أمير المسلمين فى ذلك عن لؤم طباع وضيق نفس .

قال[٢] : وبقى المعتمد فى حَبْسه بأغمات إلى سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة ، [فتوفى فيها ، وقبره بأغمات . فكان من بنى عبّاد ثلاثة ؛ القاضى محمد ابن إسماعيل ، وابنه عباد ، ومحمد بن عبّاد هذا ، ومدة مُلْكِهم ستون سنةً ، وكان له من الأولاد الذكور والإناث[ ][٣]

وكان رحمـه الله من محاسـن الزمان كرما وعلما ورئاسـةً وأخباره مشهورة وآثاره مدوَّنة . وقد ذكره ابنُ خاقان فى « قلائد العقيان » ، وذكر شيئا من نظمه ونثره . وكان شاعرُه أبا بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبّانة [٤] يأتيه فى سجنه فيمدحه لإحسانِه القديم إليه وبِرِّهِ الذى بقيت آثارُه مع طول الزمن عليه ، قال ابن اللبّانة : فأمضيت عزيمتى بعد انقضاء ٢٣٩ب

(١) مدينة قرب مراكش .
(٢) ابن الأثير فى الكامل ٧ : ٢٩١
(٣) بياض فى الأصل ، وفى ك ، ف أيضا .
(٤) لم يكن هذا الشاعر منقطعا لابن عباد ، وإنما كان يتنقل بين ملوك الأندلس وقصته هنا دليل على وفائه ، ومما قاله فى صاحب ميورقة :

وغمرت بالإحسان أرض ميورقة وبنيت مالم يبنه الإسكندر

الدولة فى زيارته ، فوصلت إليه بأغمات ، فقلت فى ذلك أبياتا عند دخولى عليه .

لم أقُلْ فى النِّقافِ كان نِقافًا كنتُ قلبا له وكان شغافا
يمكث الزَّهْرُ فى الكِمام ولكن بعد مُكْثِ الكِمام يدنو قطافا
وإذا ما الهلالُ غاب بغَيْمٍ لم يكنْ ذلك المغيبُ انكسافا
إنما أنت درَّةٌ للمعـــالى ركَّب الدَّهْرُ فوْقها أصْدَافا
حَجَبَ البيتُ منك شخصًا كريما مثل ما يحجب الدُّنانُ السلافا
أنت للفضْل كعبةٌ ولـــو انِّى كنتُ أسطيع لالتزمتُ الطَّوافا

قال : وجرت بينى وبينه مخاطباتٌ ألذُّ من غفلات الرقيب ، وأشهى من رشَفَات الحبيب ، وأدلُّ على السماح ، من فجرٍ على صباح – قال – فلما قاربت الصدَر وأزمعت السفر ، صرف حبله واستنفذ ما قبله ، وبعث إلىّ شرفَ الدولة ابنَه – وكان من أحسن الناس سمتا وأكثرهم صمتا ، تخجله اللفظة وتجرحه اللحظة ، حريصا على طلب الأدب مسارعا فى اقتناء الكتب ، مثابرا على نَسْخ الدواوين ففتَّح من خطِّه فيها زَهْر البساتين – بعشرين مثقالا مرابطية[1] وثوبين / غير مخيطينْ ، وكتب مع ذلك أبياتا منها : ٢٤٠ – ا

إليكَ النَّزْرَ من كفِّ الأسيرِ وإن تَقْنَعْ نكُنْ عَينَ الشَّكور
تَقَبَّلْ ما ندوتُ به جِباءً وإن غَدَرَتْه حالات الفقـير

(١) فى ك صفحة ١٤٤ « بعشرين ديناراً »

قال ابن اللبّانة فأجبته :

حاش لله أنْ أحيجَ كريمـا يَتَشَكّى فقرًا وكم سَدَّ فَقْرا
وكفاني كلامُك الرطب نَيْلا كيف ألقى دُرًّا وأطلب تِبْرا
لم تَمُتْ إنما المكارم ماتت لا سَقَى اللهُ بعدك الأرضَ قَطْرا

مما قاله المعتمد من شعره فى مدة أسره ـ فمن ذلك ـ قوله :

سَلَّتْ علىَّ يَدُ الخُطوب سُيوفَها فَجَرَرْنَ من جسدى الخصيف الأَمْتُنا
ضَرَبَتْ بها أيْدى الضروبِ وإنما ضربت رقاب الآمنين بها المنى
يا آمِلِي العادات مِنْ نفحاتِنا كُفُّوا فإن الدهر كَفَّ أكُفَّنَا

وقال فى قصيدة يصف القيد فى رجليه :

تعَطَّفَ من ساقى تعَطُّفَ أرْقَمٍ يساورها عَضًّا بأنياب ضيْغم
وإنِّىَ مَنْ كان الرجالُ بِسَيْبِهِ منْ سَيْفِهِ فى جَنَّةٍ وجهنم

وقال فى يوم عيدٍ :

فيما مضى كنتُ بالأعياد مسرورا فَصِرْتُ كالعبد فى أغْمات مأْسورا
قد كان دهرُكَ إن يأْمُره ممتثلا فَردَّكَ الدَّهْرُ مَنْهِيًّا ومأْمورا
/مَنْ بات بَعْدَكَ فى مُلْكٍ يُسَرُّ به فإنما بات بالأحلام مغرورا ٢٤٠ـب

وتعرَّض له أهل الكُدْية وهو فى الحبس فقال :

سألوا اليسير من الأسيرِ وإنه بسؤالهم لأحقُّ منهم فاعْجبِ
لولا الحياءُ وعِزَّة لحْمِيةٌ طىُّ الحشا لحكاهمُ فى المطلب

ورثا ولديْه وقد ذُبحا بين يديْه فقال :

يقولون صبرًا .. لا سبيل إلى الصَّبرِ
سأبكى وأبكى ما تطاول من عُمْرِى

أفتح .. لقـد فتّحت لى بابَ رحمةٍ
كمـا بيزيدَ اللهُ قـد زاد فى أجْرِى
هوًى بِكُمـا المقـدارُ عنّى ولم أمُتْ
فأُدْعى وفِيًا قد نكصتُ إلى الغدْرِ
ولو عُدْتمـا لاخترتمـا العوْدَ فى الثّرىَ
إذا أنتُما أبْصَرْتُمـانِىَ فى الأَسْرِ
أبا خالدٍ أوْرثتَـنى البثَّ خـالدًا
أبا النَّصْرِ مُذْ وَدَّعتَ وَدَّعنى نصرى

قال : وكان الشيخ عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمد يس توجه من المغرب إلى الأندلس فِي سنةِ إحدى وسبعين وأربعمائة ، فقصد المعتمد ، وأقام عنده إلى أن خُلع ، فكتب إليه المعتمد بعد أن عاد إلى المهدية :

غريبٌ بأقصى المغربين أسيرُ يُبكّى عليه منبرٌ وسريرُ
أذلَّ بنى ماء السماء زمـانُهم وذلُّ بنى مـاء السماء كثير
فما ماؤهـا إلا بكاءٌ عليهم يفيض على الآفاقِ منه بحور

فأجابه محمد بن حمد يس : ٢٤١ ـ ا

جرى لك جدٌّ بالكرام عَثورُ وجار زمانٌ كنت منه تجير
لقد أصبحتْ بيض الظُّبا فى غُمودها إناثا بِترْكِ الضَّرْبِ وهى ذكور

ولما رحلتُم بالنَّدى فى أكُفِّكم وقُلْقِلَ رضوى منكمُ وثبير
رفعتُ لسانى بالقيامة قد دنتْ ألا فانظُروا كيف الجبالُ تسير؟

قال ولما توفى المعتمد وقف ابنُ اللبانة على قبره فى يوم عيدٍ - والناسُ عند قبور أهاليهم - وأنشد بصوتٍ عال :

مالك الملوكِ أسامعٌ فأُنـــادِى أم قدْ عداك عن الجواب عوادِ
لما خلَتْ منك القصورُ ولم تـكن فيها كما قد كنت فى الأعيادِ
قبَّلْتُ فى هذا الثرى لك خاضعاً وتخِذتُ قبرك مَوْضعَ الإنشادِ

وأخذ فى إتمام القصيدة ، فاجتمع الناسُ كلُّهم عليه يبكون لبكائه وإنشاده . وحكى بعض المعتنين بأخبارهم أن فخر الدولة ابن المعتمد على الله مَرَّ يومًا فى بعض شوارع مدينة إشبيلية ، فطمحت عينه إلى رَوشنٍ فرأى وجها حسنًا فتعلَّق قلبهُ به ، ولم يمكنه الوصول ، فخامره الهوى ومرض من ذلك . فاتصل خبره بأبيه ، فسأل عن المرأة فقيل إنها ابنةُ رجلٍ خبازٍ ، فأمر الوزيرُ أن ينفذ إلى أبيها ويخطبها منه . فأرسل إليه الوزير فعلم ما يُراد به ، فامتنع من الوصول إليه وقال : هو أحقُّ بالوصول إلىَّ فى هذه الحالة !

فأعلم المقتدر بذلك فقال : تطفَّل إليه وتخطبها . فلما وصل إليه وخطبها قال الخباز للوزير : ألَهُ صنعةٌ ؟ فقال الوزير : ابنُ المعتمد يُطْلَبُ منه صنعة وهو سلطان الأندلس ؟ فقال له : أمها طالق إن زوجتها إلا مَنْ له صناعةٌ يَسْتُر حالَه وحالها بها إن احتاج إليها .

فأعلم الوزيرُ المعتمدَ فقال : هذا رجل عاقل ! فأمر بإحضار الصاغة إلى القصر وعلَّم فخر الدولة الصياغة وحذق فيها فلما جرى

عليهم ماجرى دخل حوانيت الصاغة ، وصاغ بالأُجره فرآه ابنُ اللبّانة وهو ينفخ فى بعض الحوانيت فقال :

أذكى القلوبَ أسًى ، أبكى العيونَ دمًا
خَطْبٌ وُجُـــودُك فيه يشبه العـدَما
صرَّفْتَ فى آلـةِ الصيّـاغ أنْمَلَةً
لم تَدْرِ إلا النـدى والسيفَ والقلما
ياصائغًا كانت الـدنيا تُصاغُ له
حَلْيًـا وكان عـليه الحَلْىُ منتظمـا
النَّفْخُ فى الصور هَوْلٌ مـا حكاه سوى
هَوْلٌ رأيتُك فيـه تَنْفُخُ الفحمـا

قال : ولما انقرضت الدولة العبادية صار مُلْكُ بلاد المسلمين إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب مراكش والمغرب ، وسنذكر ذلك إن شاء الله فى أخباره .

[ذكر ممالك الأندلس الأخرى] (١)

وأما سرقسطة والثغر الأعلى /فكان ذلك بيد منذر بن يحيى إلى أن ٢٤٢ ـ ١
توفى وولى بعده ابنه يحيى ، ثم ولى بعده سليمان بن أحمد بن محمد ابن هود الجذامى ، وكان يُلقَّبُ بالمستعين ، وكان من قواد منذر على مدينة لاردة ، وله وقعة مشهورة مع الفرنج فى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة . ثم توفى وَوَلِى بعده ابنُه أحمد المقتدر بالله ، وولى بعده

(١) عنوان ليس موجوداً فى النسخ ولكن المقام يقتضيه (ك ١٤٦ ، ف ١٣٧ – ب)

يوسف المؤتمن ، ثم ولى بعده أحمد المستعين على لقب جدّه ، ثم ولى ابنه عماد الدولة . ثم ابنهُ أحمد المستنصر بالله ، وعليه انقرضت دولتهم على رأس الخمسمائة ، وصارت للملثمين .

وأما طُرْطوشة فوليها الفتى العامرى .

وأما بَلَنسية فكان بها المنصور أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن محمد بن المنصور بن أبى عامر ، ثم انضاف إليه إلمرية ، وما كان إليها . وبعده ابنهُ محمد ، ودام فيها إلى أن غدَرَ به صهره المأمون بن إسماعيل بن ذى النون فى ذى الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة . .

وأما السَّهْلة (١) فملكها عبُّود بن رَزين ، وأصله بربرى ، ومولده بالأندلس . فلما هلك ولى بعده ابنُه عبد الملك ، ثم ابنُه عِزُّ الدولةِ ، ثم الملثمون .

وأما دَانِيَةُ (٢) والجزائر فكانتا بيد الموفق أبى الجيش مجاهد العامرى ، وسار إليه من/قرطبة الفقيه أبو محمد عبد الله المعيطى ومعه خلْقٌ كثير . فأقامه مجاهدٌ شِبْهَ خليفةٍ يصدر عن رأيه ، وبايعه فى جُمادى الآخرة سنة خمسٍ وأربعمائة . وأقام المعيطى معه بدانية نحوَ ثلاثةِ أشهر ، ثم سار هو ومجاهد فى البحر إلى الجزائر وهى ٢٤٢ب

(١) جاء فى المغرب ٢ : ٤٢٧ « هى بين مملكة بلنسية وجهات ثغر سرقسطة ، وحضرتها مدينة شنتمرية ، ملكها فى مدة ملوك الطوائف هذيل بن خلف بن رزين البربرى » فقارن بين ما فى النصين !

(٢) بلد فى مقاطعة بلنسيه ولكنه كما ورد فى المغرب ٢ : ٤٠٠ كاد يكون « مملكة منقطعة عن بلنسيه لعظم ما احتوى عليه » وقد سمى الموفق هنا « ملك الجزر لغزوه النصارى فى البحر ولا سيما سردانية .

ميورقة ومنورقة ويابسة[١] . ثم بعث المعيطى بعد ذلك مجاهدًا إلى سردانية فى مائةٍ وعشرين فارسًا ومعه ألف فرسٍ ، ففتحها فى شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة وقتل بها خلقًا كثيرًا من النصارى ، وسبى . فسار إليه الفرنج والروم فى آخر السنة فأخرجوه منها ، فرجع إلى الأندلس فوجد المعيطى قد مات . وبقى مجاهدٌ إلى أن مات ، وولى بعده ابنُه علىٌّ بن مجاهد ثم مات ، فولى بعده ابنُه أبو عامر . ثم صارت دانية وسائرُ بلادِه إلى المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود ، فى شهر رمضان سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة .

وأما مُرْسِية فوليها بنو طاهر ، واستقامت رئاستُها لأبى عبد الرحمن المدعو بالرئيس إلى أن أخذها منه المعتمد بن عباد على يد وزيره أبى بكر بن عمّار الفهرى ، فلما ملكها عصى على المعتمد فيها ، فوجّه إليه عسكرًا مقدّمهم أبو محمد عبد الرحمن بن رشيق العشيرى فحصره . وضيقوا /عليه فهرب منها ، ودخلها العشيرى وملكها فعصى فيها على المعتمد ابن ٢٤٣ ـ ا
عبّاد إلى أن دخل فى طاعة الملثمين ، وبقى بها إلى أن مات فى سنة سبعٍ وخمسمائة .

وأما المرية فملكها خيران العامرىّ إلى أن توفى ، وملكها زهير العامرى واتسع ملكه إلى شاطبة إلى ما يجاور عمل طليطلة . ودام إلى أن قتل وصارت مملكته إلى المنصور أبى الحسن بن أبى عامر ـ

(١) يابسة جزيرة تلى منورقة Minorca ويقال لهذه الجزيرة ولمنورقة بنتا جزيرة ميورقة Majrca (صفة جزيرة الأندلس ١٩٨) .

صاحب بلنسية ، فولّى عليها محمدًا ابنَه ، فأقام بها مدةً فى حياة أبيه وبعد وفاته إلى أن أخذها منه صهره ذو الوزارتين أبو الأحوص معن بن محمد ابن صمادح التجيبي . ودانت له لورقة وبيّاسه[1] وجيّان وغيرها ، إلى أن توفى فى سنه ثلاث وأربعين وأربعمائة ، وولى بعده ابنُه أبو يحيى محمد ابن معن – وهو ابنُ أربع عشْرة سنة – فكفّله عمه أبو عتبة بن محمد إلى أن توفى فى سنةِ ستٍّ وأربعين وأربعمائة . فبقى أبو يحيى مستضألًا لصغره ، وأُخِذ ما بَعُدَ من بلاده عنه ، ولم يبق له غير إلمرية وما جاورها . فلما كبر أخذ نفسه بالاشتغال بالعلوم ومكارم الأخلاق ، فامتد صيته واشتهر ذكره وعظم سلطانه والتحق بأكابر الملوك . ودام بها إلى أن نازله جيشُ الملثمين فمرض فى أثناء ذلك ، وكان القتال/ تحت قصره فسمع يومًا صياحًا وجلبه فقال : يغصّ علينا كلُّ شىء حتى الموت ! وتوفى فى مرضه ذلك لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وملك الملثمون إلمرية . ودخل أولاده وأهله فى البحر إلى بجاية[2] ، والتحقوا ببنى حمّاد . ٢٤٣ب

وأما مالقة فملكها بنو على بن حمّود ، فلم تزل فى مملكة العلويين يُخطب لهم فيها بالخلافة إلى أن أخذها منهم باديس بن حبّوس صاحب غَرْناطة .

---

(١) بياسة على النهر الذى يفضى إلى إشبيلية ، وبينها وبين جيان عشرون ميلا (صفة الأندلس ٥٧) .

(٢) بجاية مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب ، وهى فى لحف جبل شاهق (معجم البلدان ١ : ٣٣٩)

وأما أَغَرْناطة فملكها حيوس بن ماكسنى الصنهاجى ، ثم مات في سنة تسع وعشرين وأربعمائة وولى بعده ابنه باديس إلى أن توفى وولى بعده ابنُ أخيه عبد الله بن بُلَكِّين [1]. وبقى إلى أن ملكها منه الملثمون فى شهر رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

وانقرضت جميع هذه الدول ، وصارت الأَندلس جميعها للملثمين على ما نذكره إن شاء اللهُ - عَزَّ وجل - فى أخبارهم أيام أمير المسلمين . يوسف بن تاشفين . ولما كانت جزيرة الأَندلس بيد هؤلاء الملوك الذين ذكرناهم ، كانوا يُسَمَّوْن بملوك الطوائف وبسبب انفرادِ كلِّ ملكٍ منهم بجهةٍ استولى الفرنج على طليطلة كما ذكرنا .

(١) يرد فى المظان بلقين ، بن حبوس الزيرى .

ثبت بأسماء المراجع العربية

المذكورة فى الحواشى

١ — مسكويه : تجارب الأمم وتعاقب الهمم ط القاهرة سنة ١٩٢٠

٢ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ط . الاستقامة سنة ١٩٣٩

٣ — عريب القرطبي : صلة الطبرى ط . الاستقامة سنة ١٩٣٩

٤ — على بن موسى : المغرب فى حلى المغرب ط . دار المعارف بمصر

٥ — الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ط . بيروت سنة ١٩٠٤

٦ — ابن طباطا : الفخرى فى الآداب السلطانية ط . دار المعارف (الثانية)

٧ — البيهقى : تاريخ البيهقى ط . الانجلو سنة ١٩٥٦

٨ — ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . ط . حيدر اباد الدكن (الأولى)

٩ — العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ط . القدسى سنة ١٣٥٠

١٠— ابن كثير : البداية والنهاية ط . السعادة بمصر .

١١— أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ط . دار الكتب (الأولى)

١٢ـ المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ط . دار الكتب المصرية

١٣ـ ابن حسول : تفضيل الأتراك على سائر الأجناد ط . استنبول سنة ١٩٤٠

١٤ـ ابن الأثير : الكامل ط . المنيرية سنة ١٣٤٨

١٥ـ ابن سليمان الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ط . دار القلم بالقاهرة

١٦ـ المقرى : نفح الطيب ج ١ ط . التجارية ١٩٤٩

١٧ـ ياقوت : معجم البلدان ط . دار صار بيروت سنة ١٩٥٢

١٨ ـ الحميرى : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ط . لجنه التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧

فهـــرس

الجزء الثالث والعشرين

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى

صفحة

مقدمة ... ...

ذكر خلع المقتدر بالله وبيعة القاهر ٨١
ذكر عود المقتدر بالله إلى الخلافة وقتل نازوك وابن حمدان ٨٤
ذكر هلاك الرجالة المصافية ٨٩
ذكر عزل ابن مقلة ووزارة سليمان ٩٠
ذكر خروج صالح والأغر ٩١
ذكر عزل سليمان عن الوزارة وتولية أبي القاسم الكلوذاني الوزارة ٩٣
ذكر عزل الكلوذاني ووزارة الحسين ٩٤
ذكر تأكيد الوحشة بين مؤنس والمقتدر ٩٥
ذكر مسير مؤنس إلى الموصل ٩٦
ذكر عزل الحسين عن الوزارة ووزارة ابن الفرات ٩٧
ذكر استيلاء مؤنس على الموصل ٩٧
ذكر مقتل المقتدر بالله ٩٨
ذكر خلافة القاهر بالله ١٠٥
ذكر خبر عبد الواحد بن المقتدر ومن معه ١٠٧
ذكر استيحاش مؤنس وأصحابه من القاهر ١٠٩
ذكر القبض على مؤنس المظفر ويلبق الحاجب وابنه ١١٠
ذكر مقتل مؤنس ويلبق وابنه علي والنوبختي ١١٤
ذكر وزارة أبي جعفر محمد بن القاسم وعزله وولاية الخصيبي ١١٥
ذكر القبض على طريف السبكري ١١٥
ذكر خلع القاهر وسمله وشيء من أخباره ١١٦
ذكر خلافة الراضي بالله ١٢١
ذكر مقتل هارون بن غريب ١٢٣
ذكر مقتل الشلمغاني ومذهبه ١٢٤
ذكر ظهور إنسان ادعى النبوة ١٢٨
ذكر القبض على ابني ياقوت ١٢٩
ذكر حال أبي عبد الله محمد البريدي وتقدمه ١٣٠
ذكر مسير ابن مقلة إلى الموصل ١٣١
ذكر القبض على الوزير ابن مقلة ووزارة عبد الرحمن بن عيسى وغيره ١٣٢
ذكر عزل أبي جعفر ووزارة سليمان بن الحسن ١٣٤
ذكر وزارة الفضل بن جعفر (بن الفرات) ١٣٦
ذكر مسير الراضي بالله لحرب البريدي ١٣٧
ذكر استيلاء معز الدولة بن بويه على الأهواز ١٤٢
ذكر الحرب بين بجكم والبريدي والصلح بعد ذلك ١٤٤

ذكر قطع يد ابن مقلة ولسانه ١٤٥
ذكر استيلاء بجكم على بغداد وشيء من أخباره ١٤٧
ذكر مسير الراضي بالله وبجكم إلى الموصل وظهور ابن رائق ومسيره إلى الشام ١٤٩
ذكر وزارة أبي عبد الله البريدي للخليفة الراضي بالله ١٥١
ذكر وفاة الراضي بالله وشيء من أخباره ١٥٢
ذكر خلافة المتقي لله ١٥٤
ذكر مقتل بجكم ١٥٦
ذكر إصعاد أبي عبد الله البريدي إلى بغداد ١٥٧
ذكر عود البريدي إلى واسط هاربا ١٥٨
ذكر إمارة كور تكين الديلمي ١٥٩
ذكر عود محمد بن رائق إلى بغداد وولايته إمرة الأمراء ١٦٠
ذكر وزارة أبي عبدالله البريدي ١٦٣
ذكر استيلاء البريدي على بغداد وإصعاد المتقي لله إلى الموصل ١٦٤
ذكر قتل ابن رائق وولاية ابن حمدان إمرة الأمراء ١٦٦
ذكر عود المتقي لله إلى بغداد وهرب البريدي عنها ١٦٧
ذكر الحرب بين ابن حمدان والبريدي ١٦٨
ذكر ما اتفق لسيف الدولة بواسط ورجوع ناصر الدولة إلى الموصل ١٦٨
ذكر حال الأتراك بعد إصعاد سيف الدولة من واسط ١٧٠
ذكر عود سيف الدولة إلى بغداد وهربه منها ١٧٠
ذكر إمارة توزون ١٧١
ذكر الوحشة بين المتقي وتوزون ١٧١
ذكر مسير المتقي لله إلى الموصل ١٧٣
ذكر قتل أبي يوسف البريدي ١٧٤
ذكر وفاة أبي عبدالله البريدي ومن قام بعده بالأمر ١٧٥
ذكر ما كان من أمر المتقي لله إلى أن خلع وسمل ١٧٦
ذكر خلافة المستكفي بالله ١٧٩
ذكر وفاة توزون وإمارة ابن شيرزاد ١٨٢
ذكر استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد ١٨٣
ذكر خلع المستكفي بالله وسمله ١٨٤
ذكر خلافة المطيع لله ١٨٥
ذكر إعادة القرامطة الحجر الأسود ١٨٩
ذكر ظهور المستجير بالله ١٩٠
ذكر شيان الحسبة والقضاء والشرطة ببغداد ١٩٠

ذكر استيلاء الروم على عين زربة وما حولها من الحصون ١٩١
ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس ١٩٢
ذكر البيعة لمحمد بن المستكفى وما كان من أمره ١٩٥
ذكر مافعله الروم بالشام والجزيرة ١٩٦
ذكر ملك الروم مدينة أنطاكية ١٩٧
ذكر ملك الروم ملازكرد ١٩٨
ذكر مقتل ملك الروم نقفور ١٩٨
ذكر الفتنة ببغداد ومصادرة الخليفة المطيع لله ٢٠٠
ذكر خلع المطيع لنفسه من الخلافة وخلافة ابنه الطائع لله ٢٠١
ذكر خلافة الطائع لله ٢٠٢
ذكر الحوادث فى أيام خلافته ٢٠٢
ذكر القبض على الطائع وشىء من أخباره ٣٠٤
ذكر خلافة القادر بالله ٢٠٦
ذكر تسليم الطائع لله إلى القادر وما فعله معه ٢٠٩
ذكر البيعة لولى العهد ٢١٢
ذكر الفتنة بمكة ٢١٣
ذكر البيعة لولى العهد ٢١٥
ذكر ملك الروم مدينة الرها ٢١٦
ذكر وفاة القادر بالله وشىء من أخباره وسيرته ٢١٧
ذكر خلافة القائم بأمر الله ٢١٩
ذكر الحوادث فى أيام القائم ٢٢٠
ذكر أخبار أبى الحارث أرسلان البساسيرى ٢٢٢
ذكر استيلاء أبى الحارث البساسيرى على العراق وخروج الخليفة القائم بأمر الله من بغداد والخطبة للمستنصر بالله العلوى صاحب مصر وقطع الدعوة العباسية ٢٢٦
ذكر مقتل رئيس الرؤساء وعميد العراق ٢٢٩
ذكر عود الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد وخروج البساسيرى منها وقتله ٢٣٢
ذكر غرق بغداد ٢٣٩
ذكر وفاة القائم بأمر الله وشىء من سيرته ٢٤٠
ذكر خلافة المقتدى بأمر الله ٢٤٢
ذكر الحوادث فى أيام المقتدى ٢٤٣
ذكر الفتنه ببغداد بين الشافعية والحنابلة ٢٤٦
ذكر مسير الشيخ أبى إسحاق برسالة الخليفة إلى السلطان ملكشاه ٢٤٦

ذكر عزل عميد الدولة عن الوزارة ومسير والده إلى ديار بكر ٢٤٧
ذكر وفاة المقتدى بأمر الله وشيء من أخباره ٢٥٢
ذكر خلافة المستظهر بالله... ... ... ٢٥٣
ذكر الحوادث فى أيام المستظهر بالله ٢٥٤
ذكر وفاة المستظهر بالله وشيء من أخباره وسيرته ٢٦٠
ذكر خلافة المسترشد بالله ٢٦١
ذكر ظهور قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٢٦٢
ذكر مسير المسترشد بالله لحرب دبيس بن صدقة ٢٦٥
ذكر الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان محمود ٢٦٧
ذكر حصار الخليفة المسترشد بالله الموصل ١٧١
ذكر مسير المسترشد بالله لحرب السلطان مسعود بن محمد وأسره ٢٧٢
ذكر مقتل المسترشد بالله ٢٧٦
ذكر خلافة الراشد بالله ٢٧٧
ذكر الحرب بين عسكر الخليفة الراشد بالله وعسكر السلطان مسعود ٢٧٨
ذكر مسير الراشد بالله إلى الموصل وخلعه ٢٧٩
ذكر خلافة المقتفى لأمر الله ٢٨٢
ذكر تفويض أمور الدولة والوزارة إلى الوزير عون الدين بن هبيرة وما أقطعه الخليفة
من الأقطاعات ٢٨٧
ذكر حصر تكريت وعود عسكر الخليفه عنها وأسر ابن الوزير ٢٨٨
ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا ٢٨٩
ذكر وفاة المقتفى لأمر الله وشيء من أخباره ٢٩٣
ذكر خلافة المستنجد بالله ٢٩٤
ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكى ٢٩٧
ذكر إجلاء بنى أسد من العراق ٢٩٧
ذكر وفاة المستنجد بالله وشيء من أخباره وسيرته ٢٩٩
ذكر خلافة المستضىء بأمر الله ٣٠٠
ذكر مقتل الوزير أبى جعفر بن محمد المعروف بابن البلدى ٣٠١
ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد وعود عضد الدين إلى الوزارة ٣٠٣
ذكر مقتل الوزير عضد الدولة وولاية ظهير الدين بن العطار ٣٠٦
ذكر فتنة ببغداد وهدم بيعة اليهود ٣٠٧
ذكر وفاة المستضىء بأمر الله ٣٠٨
ذكر خلافة الناصر لدين الله ٣٠٨
ذكر القبض على بن العطار وموته ٣٠٩

ذكر انهزام عسكر الخليفة من طغرل ٣١٠
ذكر ملك الخليفة خوزستان ٣١٢
ذكر ملك الوزير همذان وغيرها من بلاد العجم ٣١٣
ذكر ملك عسكر الخليفة إصفهان ٣١٤
ذكر وفاة الناصر لدين الله وشيء من أخباره وسيرته ٣١٧
ذكر خلافة الظاهر بأمر الله ٣١٨
ذكر خلافة المستنصر بالله ٣٢١
ذكر خلافة المستعصم بالله ٣٢٢
ذكر مقتل المستعصم بالله وانقراض الدولة العباسية واستيلاء هولاكو على بغداد ٣٢٣
جامع أخبار خلفاء الدولة العباسية ومن ولى منهم ومدة خلافتهم ٣٢٥
ذكر خلافة المستنصر بالله ٣٢٧
ذكر مسير الخلفية المستنصر بالله إلى بلاد الشرق وقتله ٣٢٩
ذكر خلافة الحاكم بأمر الله ٣٣١
ذكر خلافة المستكفى بالله ٣٣٢
الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الخامس فى أخبار الدولة الأموية ببلاد الأندلس .. ٣٣٤
ذكر مقتل عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ٣٣٩
ذكر خروج العلاء وقتله ٣٤١
ذكر خروج سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى وقتله ٣٤١
ذكر أخبار شقنا بن عبد الواحد وخروجه بالأندلس ٣٤٣
ذكر عصيان أهل إشبيلية على الأمير عبد الرحمن ٣٤٥
ذكر عبور الصقلبى إلى الأندلس وما كان من أمره إلى أن قتل ٣٤٦
ذكر مخالفة أبى الأسود محمد بن يوسف الفهرى ٣٤٩
ذكر وفاة عبد الرحمن وصفته وشى من أخباره وسيرته ٣٥٠
ذكر إمارة هشام ٣٥٢
ذكر خروج سليمان وعبد الله ابنى عبد الرحمن على أخيهما هشام ٣٥٣
ذكر خروج جماعة أخر على الأمير هشام ٣٥٤
ذكر غزو الفرنج ٣٥٦
ذكر فتنة تاكرنا ٣٥٧
ذكر وفاة هشام بن عبد الرحمن وشىء من أخباره وسيرته ٣٥٨
ذكر إمارة الحكم من هشام الملقب بالمرتضى ٣٥٧
ذكر غزو الفرنج ٣٥٩
ذكر خلاف بهلول بن مرزوق وغيره ٣٦١

ذكر مسير سليمان بن عبد الرحمن لقتال ابن أخيه الحكم وقتل سليمان ... ٣٦٢
ذكر استيلاء الفرنج على برشلونه ... ٣٦٢
ذكر الاتفاق بين الحكم وبين عمه عبد الله البلنسى ... ٣٦٣
ذكر استيلاء الفرنج على مدينة تطيلة ... ٣٦٣
ذكر إيقاع الحكم بأهل قرطبة ... ٣٦٤
ذكر إيقاع الحكم بأهل طليطلة وهى وقعة الحفرة ... ٣٦٥
ذكر عصيان أهل ماردة على الحكم وما فعله بأهل قرطبة ... ٣٦٧
ذكر غزو الفرنج ... ٣٦٨
ذكر عصيان حزم على الحكم ... ٣٦٩
ذكر عودة أهل ماردة إلى العصيان وغزو الحكم بلاد الفرنج ... ٣٦٩
ذكر وقعة الربض بقرطبة ... ٣٧٠
ذكر غزو الفرنج ... ٣٧٣
ذكر غزو البربر بناحية مورور ... ٣٧٣
ذكر وفاة الحكم ... ٣٧٤
ذكر إمارة عبد الرحمن بن الحكم ... ٣٧٥
ذكر إيقاع عبد الرحمن بأهل إلبيرة وجندها ... ٣٧٥
ذكر محاصرة طليطلة وفتحها ... ٣٧٩
ذكر الحرب بين موسى بن موسى والحارث بن بزيع وما كان من أمره ... ٣٨٢
ذكر خروج المشركين إلى بلاد الإسلام بالأندلس ... ٣٨٣
ذكر وفاة عبد الرحمن وشىء من أخباره ... ٣٨٦
ذكر إمارة محمد بن عبد الرحمن المنعوت بالأمين ... ٨٨٧
ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج ... ٣٨٧
ذكر خروج المجوس إلى بلاد الإسلام بالأندلس ... ٣٨٨
ذكر وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن ... ٣٩٢
ذكر إمارة المنذر بن محمد ... ٣٩٣
ذكر إمارة عبد الله بن محمد ... ٣٩٤
ذكر إمارة عبد الرحمن بن محمد ... ٣٩٦
ذكر إمارة الحكم المستنصر بالله ... ٣٩٩
ذكر إمارة هشام المؤيد بالله ... ٤٠٢
ذكر أخبار المنصور محمد بن أبى عامر ... ٤٠٣
ذكر المظفر أبى مروان عبد الملك ... ٤٠٦
ذكر إمارة محمد المهدى ... ٤١٠

ذكر أخبار شنشول ومقتله ٤١٤
ذكر قيام هشام بن سليمان على محمد وما كان من أمره إلى أن قتل ٤١٩
ذكر قيام سليمان بن الحكم المستعين بالله ٤١٩
ذكر دولة المهدى محمد الثانية ٤٢٤
ذكر دولة المؤيد هشام الثانية ٤٢٦
ذكر دولة المستعين بالله الثانية ٤٢٩
ذكر إمارة الناصر على بن حمود ٤٣١
ذكر ولاية المأمون القاسم بن حمود بن ميمون الفاطمى ٤٣٢
ذكر ولاية المعتلى يحيى بن على ٤٣٤
ذكر عود الدولة الأموية بمدينة قرطبة ومن ولى منهم ٤٣٥
(ا) ذكر إمارة المستظهر بالله ٤٣٥
(ب) ذكر إمارة المستكفى بالله ٤٣٥
(ج) ذكر ولاية المعتمد على الله ٤٣٦
ذكر أخبار الأندلس ومن ملكها بعد انقطاع الدعوة الأموية ٤٣٩
ذكر ولاية أبى الوليد محمد بن جهور ٤٤٠
ذكر أخبار مدينة طليطلة ٤٤٠
ذكر ولاية المأمون يحيى بن إسماعيل ٤٤١
ذكر أخبار دولة بنى عباد ... ...
ذكر أخبار خلف الحصرى المشبه بالمؤيد هشـام وقيام دعوته بمملكة محمد بن إسماعيل ،
وما قيل فى ذلك ٤٤٥
ذكر ولاية أبى عمرو عباد بن محمد ٤٤٨
ذكر ولاية المعتمد على الله محمد بن عباد ٤٥٢
ذكر وقعة الزلاقة وانهزام الفرنج لعنهم الله ٤٥٥
ذكر إنقراض الدولة العبادية وشىء من أخبار المعتمد وشعره ٤٥٩
ذكر ممالك الأندلس الأخرى ٤٦٥
ثبت بأسماء المراجع العربية المذكورة فى المراجع ٤٧١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨١/٣٨٥٢

ISBN ٩٧٧ ٧٣٤٠ ١٩ ٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يضم هذا الجزء من نهاية الأرب للنويرى تاريخ المغرب العربى ، وجزيرتى صقلية وكريت (أقريطش) . أما الجزيرتان فعالج تاريخهما العربى كله . وأما المغرب العربى فأراد به ما نطلق عليه الآن ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا . وأرخ له منذ الفتح العربى الإسلامى إلى عصر المؤلف . فتناول عصر الولاة الخاضعين للخلافة الإسلامية فى المشرق ثم دولة الأغالبة التى كانت أول دولة نالت استقلالا ذاتيا ثم دول بنى زيرى والمرابطين والموحدين . وأهمل تاريخ الفاطميين فى هذا الجزء ، لأنه جمع تاريخهم فى المغرب مع تاريخهم فى مصر والمشرق ، ووضعه فى القسم الخاص بتاريخ مصر . كذلك قلت معلوماته عن بنى مَرين ، فاقتصر على سرد أسمائهم .

ويتجلى فى هذا الجزء من نهاية الأرب أنَّ النويرى لم يكن يؤلف تاريخاً للدول التى تعرض لها ، وإنما كان ينسخ تاريخاً لهم . فبالرغم من أنه ذكر ابن الرقيق وابن حزم مثلا من المؤرخين ، كان اعتماده الأعظم على ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ ، وابن شداد فى كتابه الجمع والبيان فى أخبار

إفريقية والقيروان ، وهو يعلن ذلك فى صراحة خالصة . بل يبين الموضع الذي انتهى إليه الكتابان فى التاريخ . ولما كان كتاب ابن شداد ضائعاً فإننا لا نستطيع الحكم اليقينى عليه ، ولكن يخامرنى الظن بأن ابن الأثير كان يعتمد عليه فى كامله بحيث انتهت أخبار ابن الأثير عن إفريقية عند الموضع الذى انتهى إليه ابن شداد ، ولم يعد يتعرض لإفريقية . ويتبين من مقارنة عبارة النويرى بعبارة ابن الأثير أنهما تكادان تكونان عبارةً واحدة . فالنويرى يأخذ عبارة الكامل دون تحوير أو تغيير ، وما بينهما من خلافات إنما هو من فعل الزمن والنساخ . ولا يبتعد الأمر بينهما إلا فى مواضع قليلة يخالف النويرى فيها ابن الأثير .

وكان الاتفاق على اتخاذ النسخة المحفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف أصلاً للتحقيق ، غير أن المشرفين على معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية عثروا في مكتبة أمانة خزانة بتركيا على نسخة مخطوطة من الكتاب تحتوى على تاريخ المغرب العربى وبعض التواريخ الأخرى . ورجح لديهم أن هذه النسخة بخط النويرى نفسه . وقد ضاهيتُ خط النسخة على خط النويري المحفوظ فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، في كتاب ديوان المعانى للعسكرى ، فلم أستطع أنْ أجدَ فرقا . وعرضت الخطَّين على جماعة من المشتغلين بالتحقيق والدراسات العربية ، فكلهم أجمع على تشابه الخطَّين . ولذلك

اتخذت من هذه النسخة أصلا أول للتحقيق ، تحت رمز (ع) ، واتخذت من نسخة دار الكتب أصلا ثانياً تحت الرمز (ك) .

واتخذتُ من نسختين أخريين مساعدا على التحقيق . أما النسخة الأولى فمصورة ، ومحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥١ معارف ، وأعطيتها الرمز (ص) . وأما النسخة الثانية فالقسم الذي طبعه المستشرق جاسبار ريميرو من الكتاب ونشره فى مجلة Revista del Centro De Estudios Historicos De Granada Y Su Reino تحت عنوان Historia de los Musulmanes de Espana y Africa, par Ennuguairi, Texto arabe traduccion espanola par M. Gaspar Remiro وقد كان للإمكانيات الضئيلة والزمن المتقدم أثرهما القاسى فى هذه الطبعة ، التى لست أنا الذى يصلح للحكم عليها أو المقارنة بينها وبين الطبعة الراهنة . وقد رمزتُ إلى هذه النسخة بالحرف (ر) .

كذلك اعتمدت فى التحقيق على الترجمة التى قام بها البارون دى سلان De Slane للقسم الأول الخاص بعصر الولاة من الكتاب وأعطيتها الرمز (س) .

وأستطيع أنْ أعد الكامل لابن الأثير نسخة أخرى ، اعتمدتُ عليها فى تحقيق الكتاب لما ذكرت قبلا . وقد قارنت بين الكتابين كلمة فكلمة ، وأبنْتُ ما بينهما من اتفاقٍ عند اختلاف غيرهما من المؤرخين عنهما . وأثبت ما بينهما من خلاف شأن النسخ المتعددة من الكتاب الواحد .

ثم رجعتُ إلى كتب التاريخ العامة والخاص منهـا بتاريخ المغرب ، لأستطيع أن أخلص إلى نسخة تكاد تكون نسخة المؤلف إنْ لم تكن هى إياها ، مضيفاً إليها بعض التعليقات التى تشير في إيجاز إلى اختلاف النُّويرى واتفاقه مع غيره من المؤرخين أو بعضهم .

حسين نصار

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقى

الباب السادس
من
القسم الخامس
من الفن الخامس

فى أخبار أفريقية وبلاد المغرب

ومن وَليها من العمال ، ومَن استقل منهم بالمُلك
وسُميت أيامُهم بالدولة الفُلانية

قد ذكرنا [1] فتوح إفريقية فى خلافة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – فى ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح ، فى سنة ست وعشرين من الهجرة النبوية . وأوردنا ذلك هناك على سبيل الاختصار والإجمال [2] . ونحن الآن نذكره فى هذا الباب مبينا .

ولم نقدم ذكر أخبار المغرب [3] وملوكه على أخبار ملوك

---

(١) ص : ولقد ذكرنا .
(٢) انظر الجزء ١٩ من الكتاب ، الصفحة ٤١٢ وما بعدها .
(٣) ر : الغرب .

المشرق ، إلا أنا لما ذكرنا أخبار الدولة الأموية بالأندلس ومن ملك الأندلس بعد بنى أمية ، احتجنا إلى ذكر إفريقية [١] وبلاد المغرب ، لتكون الأخبار يتلو بعضها بعضاً . ولم نقدم أيضا ذكر الأندلس على إفريقية ، مع كون إفريقية فتحت قبل الأندلس إلا للضرورة التى دعت إلى ذكر أخبار الدولة الأموية بالأندلس تلو الدولة العباسية . ولا ضرر فى التقديم والتأخير ، لأنا لم نجعل التاريخ على حكم مساق السنين بل على الدول . وأول دولة قامت على الدولة العباسية الدولة الأموية بالأندلس . ولنذكر الآن فتوح إفريقية ، ومن ولنيها .

(١) ص ، ر : ذكر أخبار إفريقية .

ذكر فتوح افريقية

كان فتوحها فى سنة سبع وعشرين [١] ، وذلك أن عثمان ابن عفان — رضى الله عنه — لما ولى الخلافة عزل عمرو بن العاص عن مصر ، واستعمل عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرْح ، وهو أخو عثمان لأمه . فكان عبد الله يبعث المسلمين فى جَرائد الخيل [٢] فيُصيبون من إفريقية . ويكتب بذلك إلى عثمان .

فلما أراد عثمان أن يُغزِى إفريقية استشار الصحابة ، فكلُّهم أشار عليه بإنفاذ الجيش إليها إلا أبا الأعور سعيد بن أبى يزيد [٣] فإنه كره ذلك . فقال له عثمان : « ما كرهت يا أبا الأعور من بعثة الجيش ؟ » قال : « سمعت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يقول : لا أُغزِيها أحدا من المسلمين ما حَمَلْت عينى الماء [٤] ولا أرى لك خلاف عمر » وقام . ثم دعا عثمان زيد بن ثابت ومحمد ابن مَسْلمة واستشارهما . فأشارا بإنفاذ الجيش .

فَندَب الناس إلى الغزو . فكان هـذا الجيس يسمى جيش

---

(١) اختلف المؤرخون فى تحديد هذا التاريخ . فجعله ابن خلدون ٢ : ١٠٠٣ سنة ٢٦ . وقال البلاذرى : فتوح البلدان ٢٢٦ : « وكتب (عثمان) إلى عبد الله فى سنة ٢٧ ، ويقال فى سنة ٢٨ ، ويقال فى سنة ٢٩ ، يأمره بغزوها » . وروى كثيرون أن عبد الله غزا إفريقية أكثر من مرة ، ولعل ذلك مرد اختلاف التواريخ . (انظر حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ١٠٥ ، والزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ٥٥) .

(٢) جرائد الخيل : جمع جريدة ، وهى الجماعة من الفرسان لا مشاة معهم .

(٣) يعنى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . ولم أعثر على كنية زيد فيما بين يدى من كتب ، ولعل أبى يزيد محرفة عن زيد . (انظر المالكى : رياض النفوس ٩) .

(٤) ابن عبد الحكم ١٧٣ : ما مقلت عينى الماء .

العَبادِلة [١] . خرج فيه من بنى هاشم : عبد الله بن عباس وكان والياً على المسلمينَ وعبيد الله بن عباس [٢] ؛ ومن بنى تَيْم : عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهما ، وعبد الرحمن بن صبيحة [٣] فى عِدَّةٍ من قومه ، ومن بنى عَدِى : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب [٤] وعبيد الله بن عمر ، وعاصم بن عمر فى عدة منهم ؛ ومن بنى أسد ابن عبد العُزَّى : عبد الله بن الزُّبير فى عدة من قومه ؛ ومن بنى سَهْم : عبد الله بن عمرو بن العاص والمُطَّلب بن السَّائب بى أبى وَداعة [٥] ، فى عدة منهم . وخرج فى الجيش مَرْوان بن الحَكم ، وأخوه الحارث ، وجماعة من بنى أُميَّة ، والمِسْوَر بن مَخْرَمة ابن نَوْفَل ، وعبد الرحمن بن الأَسْود بن عبد يَغُوث ، وعدة من بنى زُهرة ؛ ومن بنى عامر بن لُؤى بن غالب : السائب بن عامر

(١) سمى بذلك لكثرة من خرج فيه ممن يسمى عبد الله . (حسين مؤنس ٨١ . والزاوى ٥١)

(٢) لم يذكره أحد ، ولعل المؤلف أراد أخاه معبد بن العباس أو عبد الرحمن بن العباس اللذين اشتركا فى حروب إفريقية . انظر التجريد ١ : ٣٧٧ ، ٢ : ٠٩١ الإصابة ٥ : ٧١ ، ٦ : ١٥٩ ، الاستيعاب ٢٨٤ ، ٤٠٦ ، أسد الغابة ٣ : ٣٠٤ ، ٤ : ٣٩٢ ، فتوح البلدان ٢٢٦ . وزاد ابن خلدون ٢ : ١٠٠٣ إلى الهاشميين : عبد الله بن جعفر والحسن والحسين .

(٣) فى الأصول : عبد الرحمن بن طلحة . والتصحيح عن كتب تراجم الصحابة . وانظر الإصابة ٦٢١٩ .

(٤) سقط من ك ، وذكره أيضا المالكى : رياض النفوس ٩ .

(٥) كذا فى الأصول ورياض النفوس للمالكى ٩ ، ٠٥٠ ولكن مؤرخى الصحابة (الإصابة ٨٠٢٨) والزبيرى : نسب قريش ٤٠٦ والسيوطى : حسن المحاضرة ١ : ١٣٤ يسمونه : المطلب بن أبى وداعة الحارث ، ويجعلون السائب أخاه .

ابن هشام [١] ، وبُسْـــر بن أرْطاة ؛ وعدة من بنى هُذَيل ، منهم أبو ذُوَيْب خُوَيْلد بن خالد الهُذَلى – وتوفى بإفريقية وواراه فى قبره عبدُ الله بن الزبير – وعبد الله بن أُنَيْس [٢] وأبو ذَر الغفاري ، والمِقْداد بن عمرو البَهْرانى [٣] ، وبلال بن الحارث المُزَنى ، وعاصم ، ومعاوية بن حُدَيج ، وفَضالة بن عُبَيد ، ورُوَيْفع بن ثابت [٤] ، وجَرْهَد بن خُوَيلد [٥] وأبو زمْعَة البلوى ، والمُسَيَّب بن حَزْن ، وجَبَلة بن عمرو الساعِدي ، وزياد بن الحارث الصُّدائِي ، وسفيان بن وَهْب ، وقيس بن يَسَار بن مَسْلمة [٦] وزُهير بن قيس ، وعبد الرحمن بن صَخْر [٧] ، وعمرو بن عوف وعُقْبة بن نافع الفِهْرى . وخرج من جُهَينة ستمائة رجل ، ومِن أسْلَم حمزة بن عمرو الأَسْلَمى [٨] ، وسَلَمة بن الأَكْوع فى

---

(١) كذا فى الأصول ورياض النفوس للمالكى ٠٩ والمعروف أنه السائب بن هشام بن عمرو بن ربيعة (الإصابة ٣٦٣٨ ونسب قريش ٤٣١ وحسن المحاضرة ١ / ١١٨)

(٢) فى الأصول : عبد الله بن أنس . خطأ . وانظر التجريد ١ ٢٢٠ ، والإصابة ٤٥٥٠ وأسد الغابة ٣ : ١١٩ ، والاستيعاب ٣٤٧ ، والتهذيب ١ : ٢٦٠ ، وحسن المحاضرة ١ : ١٢٢ ورياض النفوس ٤٥ .

(٣) ر : المقدام بن عمر والبهرانى . تحريف .

(٤) ر : ذو يضع بن ثابت . تحريف .

(٥) فى الأصول : حمزة بن خويلد . تحريف . وانظر التجريد ١ : ٨٧ والإصابة ١٣٣٠ ، وأسد الغابة ٤ : ٣٦٦ ، والاستيعاب ٢٧٨ ، وفتوح مصر لابن عبد الحكم ٣١٩ ، والتهذيب ٢ : ٩٥ ، ورياض النفوس للمالكى ٥٦ .

(٦) دى سلان : قيس بن بشار . ورياض النفوس للمالكى : قيس بن يسار بن مسلم الكنانى. ولم أعثر عليه .

(٧) لعله يريد أبا هريرة ، الذى يقال إنه دخل مصر ، وإن لم أعثر على من ذكر دخوله إفريقية.

(٨) فى الأصول : السلمى . تحريف . وانظر التجريد ١ : ١٤٩ ، والإصابة ٢ : ٣٨ ، ٨١ والطبقات ٤ / ٢ / ٤٥ وأسد الغابة ٢ : ٥٠ ، ٥١ ، والاستيعاب ١ : ١٠٥ والتهذيب ١ : ١٦٩ وفتوح مصر لابن عبد الحكم ٣١٩ ، ورياض النفوس للمالكى ٤٩ .

ثلاثمائة رجل ، ومِن مُزَيْنة ثمانمائة رجل ، ومِن بنى سُليم أربعمائة رجل [١] ، ومِن بنى الدِّيل وضَمْرة وغِفار خمسمائة رجل ، ومِن غَطَفان وأشْجع وفزارة سبعمائة [٢] رجل ، ومِن كعب ابن عمرو أربعمائة رجل [٣] ، وكانوا آخر من قدم على عثمان ، والناس مُعرِّسون بالجُرف ، والجرفُ على ثلاثة أميال من المدينة [٤]

وأعان عثمان الجيش بألف بعير من ماله ، فحمل عليها ضعفاء الناس ، وحَمَل على خيْل ، وفرق السلاح ، وأمر للناس بأعطياتهم . وذلك فى المحرم سنة سبع وعشرين .

وخطب عثمان الناس ورغَّبهم فى الجهاد . وقال لهم : « قد استعملت عليكم الحارث بن الحكم [٥] إلى أن تقدَموا على عبد الله بن سعد ، فيكون الأمر إليه . واستودعتكم الله » . وساروا حتى أتوا مصر .

فجمع عبد الله بن سعد جيشاً عَرمْرَماً ، وضمه إليه . فبلغ عسكر المسلمين [٦] عشرين ألفاً . واستخلف على مصر عُقْبة بن نافع ، وتَوجَّه .

---

(١) زاد المالكى : رياض النفوس ١٠ : وخمسون .

(٢) ك : ستمائة .

(٣) ذكر ابن عبد الحكم ١٨٤ أن جيش عبد الله كان يضم ٦٠٠ من بنى مهرة و ٧٠٠ من غنث و ٧٠٠ من ميدعان . وشك حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ٨١ فى أسماء الصحابة المذكورة ، ورأى أنها أدخلها مؤرخو المغرب للتعظيم من شأن إفريقية .

(٤) معرسون : مقيمون . واختلف اللغويون فى ضبط الجرف ، فجعلها كثيرون ساكنه الراء وبعضهم مضمومتها . وارتضى المؤلف قول ياقوت فى تحديد بعدها عن المدينة . وذكر البكرى عن الزبير أنها على ميل من المدينة ، وعن ابن إسحاق أنها على فرسخ .

(٥) ر : مروان بن الحكم .

(٦) ك : عدد المسلمين .

وحكى الزُّهْرى عن ربيعة بن عباد الدِّيلى قال : لما وصلنا قَدَّم عبد الله الطَّلائع والمقدمات أمامه . وكنت أنا أكثر ما أكون فى الطلائع . فوالله إنا لِبطَرابُلُس قد أصبنا من بها من الروم قد تحصنوا منا فحاصرناهم ، ثم كره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه ، فأمر الناس بالرحيل[١] . فنحن على ذلك إذا مراكب قد أرست إلى الساحل [٢] فشددنا عليها ، فترامى مَن بها إلى الماء . فأقاموا ساعة ثم استأسَرُوا فكتفناهم ، وكانوا مائة [٣] . حتى لحق بنا عبد الله فضرب أعناقهم ، وأخذنا ما فى السفن . فكانت هذه أول غنيمة أصبناها .

ومضى حتى نزل بمدينة قابِس فحاصرناها . فأشار عليه ، الصحابة أن لا يشتغل بها عن إفريقية ، فسار وبثَّ السرايا فى كل وجه . وكان يُؤْتَى بالبقر والشاء والعَلف . قال : وكان ملكهم يُدعَى جُرْجير [٤] ، وسلطانه من طرابلس إلى طنجة وولايته من قبَل هرقل [٥] . فلما بلغه الخبر بورود الجيوش الإسلامية ، جمع وتأهب للِّقاء ، فبلغ عسكره عشرين ومائة ألف[٦]

(١) ذهب الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ٥٢ إلى أن عبد الله فتح طرابلس .
(٢) ص : على الساحل .
(٣) دى سلان : أربعمائة .
(٤) مختصر من جريجوريوس (حسين مؤنس) . ، ورد اسمه بصورتين فى التواريخ فهو عند اليعقوبى ٢ : ١٦٥ : جرجيس ، وابن العماد : الشذرت ١ : ٣٦ : جرير ، ودى سلان : جرجيز .
(٥) كان جرجير قد أعلن استقلاله عن الدولة الرومانية (حسين مؤنس ٣٩ –٤٧).
(٦) ابن كثير ٧ : ١٥٢ ابن عذارى ١ : ٩ ، ز ١ : ٨٥ وقيل فى مائتى ألف . وفى رياض النفوس للمالكى ١١ : مائة ألف .

قال : ثم ذهبنا قاصدين عسكره على تعبئة ، فأقمنا أياما تجري بيننا وبينهم الرسل : ندعوه إلى الإسلام ، وهو يستطيل ويتجبر وقال : « لا أقبل هذا أبدا » . فقلنا له « فخراجٌ تخرجه كل عام » . فقال : « لو سألتمونى درهما واحدا لم أفعل »[١] . فتأهبنا للقتال بعد الإعْذار منا[٢] . فعبأ عبد الله بن سعد ميمنته وميسرته والقلب : وفعل ملك الروم مثل ذلك . وتلاقى الجمعان فى فَحْص[٣] متسع يسمى بعقوبة[٤] ، بينه وبين دار ملك الروم مسيرة يوم وليلة ، وهى المدينة المسماة سُبَيْطَلَة[٥] ، وكذلك مدينة قرْطاجنَّة ، وهى مدينة عظيمة ، شامخة البناء ، أسوارها من الرخام الأبيض ، وفيها العمُد والرخام الملون مالا يُحصَى .

قال : ودامت الحرب بين الفريقين وطالت ، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان . فأنفذ عبد الله بن الزبير[٦] وصحبته اثنا عشر فارساً من قومه . فسار يُجِد السير حتى قدم على المسلمين فوصل ليلاً . فسُروا به ووقع فى العسكر ضجة[٧] ، خافت الروم منها ، وظنوا أنهم يحملون عليهم ، فباتوا بشر ليلة . وأرسل ملكهم جاسوساً يستعلم الخبر . فأعلمه أن نجدةً وصلت إلى المسلمين . وكان المسلمون

(١) ك : لا أفعل .
(٢) الإعذار : الإنذار .
(٣) الفحص : المتسع من الأرض .
(٤) بعقوبة : كذا فى ع ، ك ، البلاذرى . وفى ص ، وأحد أصول دى سلان : يعقوبة .
(٥) سبيطلة Suffetula : مدينة على الطريق المؤدى من سوسة إلى جبال الأوراس على صحين ميلا من القيروان .
(٦) ابن خلدون ٢ : ١٠٠٤ : عبد الرحمن بن الزبير . خطأ .
(٧) ر : صيحة .

يقاتلون الروم فى كل يوم إلى الظهر ، ثم ترجع كل طائفة إلى معسكرها وتضع الحرب أوزارها . فلما أصبح عبد الله بن الزبير ، صلى الصبح وزحف مع المسلمين وقاتل . فلقى الروم فى يومهم أشدنكال. ولم ير ابن الزبير عبدالله بن سعد فى الحرب فسأل عنه . فقالوا : « هو فى خبائه وله أيام ما خرج منه » . ولم يكُنْ ابن الزبير اجتمع به ، فمضى إليه ، وسلم عليه ، وبلغه وصية عثمان وسأله عن سبب تأخره . فقال : « إن ملك الروم أمر منادياً فنادى باللغة الرومية والعربية [1] : معاشر الروم والمسلمين : منَ قتل عبد الله بن سعد زَوَّجتهُ ابنتى ، ووهبت له مائة ألف دينار » وكانت ابنته بارعة الجمال ، تركب معه فى الحرب ، وعليها أفخر ثياب ، وتحمل على رأسها مظلة من ريش الطاووس « وغير خافٍ عنك مَنْ معى ، وأكثرُهم حديثو عهد[2] بالإسلام ، ولا آمَن أن يرغِّبَهم ما بذل لهم جرجير فيقتلونى ، فهذا سبب تأخرى » . فقال له ابن الزبير : « أزِلْ هذا من نفسك ، وَأمُرْ من ينادى فى عسكرك ويُسمع الروم : معاشر المسلمين والروم : مَن قتل الملك فله ابنته ومائة ألف دينار[3] ، وواحدة بواحدة » . ففعل ذلك . فلما سمع ملك الروم النداء ، انتقل ما كان عبد الله يجده من الخوف إليه . وبقى القتال على ما كان عليه .

فَعَنَّ لعبد الله بن الزبير رأىٌ . فأتى عبد الله بن سعد ليلاً وقال له : « إنى فكَّرتُ فيما نحن فيه فرأيتُ أمرا يطول والقوم فى بلادهم والزيادة

(١) ر : العربية والرومية .
(٢) ر : حديث عهد .
(٣) زاد ابن خلدون ٢ : ١٠٠٤ فى نداء عبد الله : واستعملته على بلاده .

فيهم والنقصان فينا . وقد اتصل بى أنه نَفَّذ إلى جميع نواحيه بالحشد والجمع . وقد رأيت أصحابه إذا سمعوا الأذان أغمدوا سيوفهم ورجعوا إلى مضاربهم ، وكذلك المسلمون ، جريا على العادة . والرأى عندى أن تترك غدا إن شاء الله أبطال المسلمين فى خيامهم بخيلهم وعُدَدهم ، وتقاتل ببقايا الناس على العادة ، وتطوِّل فى القتال حتى تتعب القوم . فإذا انصرفوا ورجع كلٌّ[1] إلى مضربه وأزال لأمة [2] حَرْبه ، يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة . فعسى الله سبحانه أن يُظفرنا بهم وينصرنا عليهم ، وما النصر إلا من عند الله » . فلما سمع عبد الله بن سعد ذلك ، أحضر عبد الله بن عباس وإخوته والصحابة ورؤوس القبائل ، وعرض عليهم ما أشار به ابن الزبير فاستَصْوبوا رأيه واستخاروا الله . وكتموا أمرهم وباتوا على تعبئة . ولجئوا إلى الله تعالى وسمحوا بنفوسهم[3] فى إعزاز دين الله وإظهار كلمته .

وأصبح أبطال الإسلام فى خيامهم[4] ، وخيولهم قائمة معهم فى الخيام . وخرج لفيف الناس إلى القتال ، ومعهم عبدالله بن سعد وابن الزبير ، فقاتلوا أشد قتال[5] وكان يوماً حارا فلقى الفريقان فيه التعب العظيم . وركب ملك الروم ومعه الصليب ، وكان مُتوجا عندهم ، عظيم القدر فيهم . وحرض أصحابه على القتال . فاشتد

(١) ك : كل منهم .
(٢) اللأمة : الدرع الحصينة أو عدة السلاح من رمح و خوذة و مغفر وسيف و نبل .
(٣) ك : بأنفسهم .
(٤) ر : خيمهم .
(٥) ر : أشد القتال .

الأمر فى القتال حتى أذّن الظهر [١] فهم الروم بالانصراف جرياً على على العادة . فداوم ابن الزبير القتال ساعة أخرى . فاشتد الحر وعَظُم الخَطْب حتى لم يبق لأحدٍ من الفريقين طاقة بحمل السلاح فضلاً عن القتال به . فعند ذلك رجعوا [٢] إلى خيامهم ، ووضعوا أسلحتهم ، وسيَّبوا خيولهم وألقوا أنفسهم على فُرُشهم .

فاستنهض عبد الله أبطال المسلمين . فلبسوا دروعهم وركبوا خيولهم فى خيامهم . وتقدم عبد الله بن الزبير فى زى رسول ، وقد لبس ثوباً فوق درعه . وقال : « إذا رأيتمونى قد قربت من خيام الروم فاحملوا حملة رجل واحد » . فلما قَربَ من الخيام كبر المسلمون وهلّلوا ، وحملوا فأعجَلُوا الروم عن لبس دروعهم أو ركوب خيولهم . فانهزمت الروم ، وقُتل ملكهم ، وقتل منهم مالا يُحصى كثرة وهرب من سلم منهم إلى المدينة ، وغنم المسلمون ما فى معسكرهم . وأُسرت ابنة الملك وأُتى بها إلى عبد الله بن سعد . فسألها [٣] عن أبيها . قالت : « قُتل » . قال : « أتعرفين قاتله ؟ » قالت : « نعم ، إذا رأيته عرفته » . وكان كثير من المسلمين ادعوا قتله . فعرض عليها مَن ادعى قتله [٤] . فقالت : « ما من هؤلاء مَنْ قتله » . فأحضر ابن الزبير . فلما أقبل ، قالت : « هذا قاتل أبى » . فقال له ابن سعد : « ما منعك أن تُعلمنا بذلك لنفى لك بما شرطناه ؟ » فقال : « أصلحك الله ! ما قتلتُه لما شرطت ، والذى قتلته له يعلم ويُجازى

(١) ص : بالظهر . ر : لتظهر .
(٢) أسقط ص ، ك : به . وأسقط ص ، ر : فعند ذلك . وروايتها : فرجعوا .
(٣) ع ، ك : سألها .
(٤) ص ، ر : فعرضوا عليها . ر : من ادعوا .

عليه أفضل من جزائك ، ولا حاجة لى فى غير ذلك » . فنفّله ابن سعد ابنة الملك ، فيقال إن ابن الزبير اتخذها أم وَلد (١) .

ثم نزل المسلمون على المدينة ، وحاصروها حصارا شديدا حتى فتحها الله عليهم . فأصابوا فيها خلقاً كثيراً ، وأكثر أموالهم الذهب والفضة . فجمع عبد الله بن سعد الغنائم وقسمها بعد أن خَمَّسها . فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار (٢) .

وبثّ السرايا والغارات من مدينة سُبَيطلة فبلغت خيوله إلى قصور قَفْصة . فسَبَوْا وغنموا . وجازوا إلى مَرْمَجَنّة (٣) . فأذلت تلك الوقعة من بقى من الروم . وأصابهم رعب شديد فلجئوا إلى الحصون والقلاع . واجتمع أكثرهم بفحص الأجم (٤) حول الحصن ، وهو من أعظم حصون إفريقية . وراسلوا عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطارٍ ذهباً (٥) على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم . فقبل ذلك منهم بعد امتناع . وقيل : إنه صالحهم

---

(١) ذكر ابن عبد الحكم ١٨٤ أن ابنة جرجير وقعت من نصيب أنصارى فانتحرت . وشك حسين مؤنس ٨٩ — ٩٣ فى الدور الذى يقال إن عبد الله بن الزبير قام به فى هذه المعركة وفى قصة ابنة جرجير . وذكر سعيد بن عفير أن الذى قتل جرجير اثنان عبد الله بن الزبير ومروان ابن الحكم معاً (المالكى : رياض النفوس ١ : ١١) .

(٢) أوضح ابن عبد الحكم ١٨٤ التقسيم ، فقال : فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار : للفرس ألفا دينار ولفارسه ألف دينار ، وللراجل ألف دينار .

(٣) المالكى : رياض النفوس ١ : ١٣ : قرطاجنة .

(٤) كان البيزنطيون يسمونه Thysderas وعرف عند العرب أيضاً باسم الجم والعجم والأعجام .

(٥) المالكى : رياض النفوس ١ : ١١ على مائة ألف رطل ذهب .

على ألفى ألف وخمسمائة ألف [١] . وقبض المال . وكان فى شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهولهم ، وما أصابوه بعد التَّرْداد [٢] ردوه عليهم .

ودعا عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير وقال : « ما أحدٌ أحقّ بالبشارة منك ، فامض وبَشِّر عثمان والمسلمين بما أفاء الله تعالى عليهم » . فتوجه عبد الله يُجِدُّ المسير . فبعض الناس يقول : دخل المدينة من سبيطلة فى عشرين ليلة ، وبعضهم يقول : وافى المدينة يوم أربعة وعشرين [٣] ، ولا يُستغرَب ذلك من مثله . فلما وصل المدينة أمره عثمان أن يصعد المنبر فيُعلم الناس بما فتح الله عليهم . فبلغ الزبير . فجاء إلى المسجد ونال من عثمان بكلمات ، وقال : « بلغ من عبدالله بن الزبير أن يرقى موضعاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطأه بقدمه ! وددتُ والله أنّى متُّ قبل هذا » ! وقيل : إنّ عبد الله لم يَرْقَ المنبر ، وإنما وقف بإزائه وخطب ، وعثمان على المنبر جالساً .

قال : وكان فعْل عبد الله بن الزبير فى القتال بإفريقية كفعل خالد ابن الوليد بالشام ، وعمرو بن العاص بمصر ، رضى الله عنهم أجمعين.

قال : ثم انصرف عبد الله بن سعد إلى مصر إثر سفر ابن الزبير .

---

(١) زاد اليعقوبى ٢ : ١٦٥ ، و ابن تغرى بردى ١ : ٨٠ عشرين ألف دينار . وجعل ابن كثير ٧ : ١٥٢ الصلح على ألفى وعشرين ألف .

(٢) الترداد : المفاوضة . وفى ابن عذارى المراكشى ١ : ٨ : بعد الصلح . خطأ .

(٣) المالكى : رياض النفوس ١ : ١٥ ذكر عبد الله بن نافع وعبد الملك بن حبيب أنه وصل من إفريقية إلى المدينة فى شهر ، وذكر حسين بن سعيد الخراط أنه وصل من سبيطلة إلى المدينة فى ثمانية عشر يوماً .

قال : وكان مقام الجيش بإفريقية خمسة عشر شهرا [١] ، ولم يفقد من المسلمين إلا ناس قلائل [٢] . ثم كان بعد ذلك من مقتل عثمان وخلاف علىٍّ ومعاوية ما قدمنا ذكره [٣] ، إلى أن استقر أمر معاوية فاستعمل معاويةَ بن حُدَيج .

ذكر ولاية معاوية بن حديج الكندى وفتح افريقية ثانيا [٤]

كانت ولايته فى سنة خمس وأربعين من الهجرة . وسبب ذلك أن هرقل صاحب القسطنطينية كان يُؤدِّى إليه من كل ملك من ملوك البر والبحر إتاوة معلومة فى كل سنة . فلما بلغه ما صالح عليه أهل إفريقية عبدالله [٥] بن سعد بن أبى سرْح ، بعث بطريقاً إلى إفريقية يُقال له « أوليمة » وأمره أن يأْخذ من أهلها ثلاثمائة قنطار ذهباً كما أخذ منهم ابن أبى سرح . فنزل البطريق قَرْطاجَنَّة وأخبرهم بأَمر الملك . فأَبوا عليه ونابَذوه وقالوا : « الذى كان بأَيدينا من الأَموال فلينا به أنفسنا ، والملك فهو سيدنا يأخذ منا كما كنا نعطيه فى

(١) المالكى : رياض النفوس ١ : ١٧ : سنة وشهرين .

(٢) ابن الأثير ٣ : ٤٦ : ثلاثة نفر .

(٣) انظر الصفحة ٤٨٥ من الجزء ١٩ من هذا الكتاب .

(٤) اختلف المؤرخون فى حملة معاوية ، فجعلها ابن عبد الحكم ١٩٣ ثلاث غزوات ، وجعلها غيره غزوة واحدة ، واختلفوا فى تاريخها . وانظر بصدد ذلك حسين مؤنس ١١٥ — ١٩ والزاوى ٦٠ — ٦٦ .

(٥) سقط من ح ابتداء من هنا ورقة من صفحتين .

كل سنة » . وكان القائم بأمر إفريقية بعد جرجير رجل يُقال له « جُناحَة » (١) ، فطرد أوليمة البطريق .

ثم اجتمع أهل إفريقية وولوا على أنفسهم رجلاً يُقال له «الأطريون » وقيل فيه : « الأطيلون » . فسار جناحة إلى الشام إلى معاوية بن أبى سفيان . فذكر له حال إفريقية وسأله أن يبعث معه جيشاً من العرب . فوجه معه معاوية بن حُديج فى جيش كثيف . فلما انتهى إلى الإسكندرية هلك جناحة .

ومضى ابن حديج حتى انتهى إلى إفريقية ، وهى حَرْب ، وقد صارت نارا . وكان فى عسكره عبد الملك بن مروان ، ويحيى بن الحَكم ، وكُرَيب بن إبراهيم بن الصباح (٢) ، وخالد بن ثابت الفَهْمى (٣) . وقيل : كان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله ابن الزبير ، وأشراف من جند الشام ومصر . فقدم ولا يشك أهل إفريقية أن جناحة معه . فنزل معاوية غربى قَمُونيَة (٤) فى سفح جبل على عدة فراسخ (٥) منها . فأصابه فيه نَوْءٌ شديد فقال : « إن

(١) ابن عذارى المراكشى ١ : ١١ : حباحبة .

(٢) كذا فى الأصول ، والأشهر كريب بن أبرهة بن الصباح الأصبحى . انظر التجريد ٢ : ٣٢ ، والإصابة ٥ : ٣٢٠ ، وأسد الغابة ٤ : ٢٣٨ ، والاستيعاب ٢٣٤ ، وفتوح مصر لابن عبد الحكم ١١٣ ، وولاة مصر للكندى ٦٣ .

(٣) كذا فى الأصول . وفى رياض النفوس للمالكى ١٨ : الثقفى ، خطأ . وانظر التجريد ١ : ١٥٩ ، والإصابة ٢ : ٨٧ ، وفتوح مصر ١١٢ ، ٢٣١ .

(٤) قمونية : إقليم فسيح كثير العمران والزرع . وحددها ابن عبد الحكم ١٩٣ بأنها موضع مدينة القيروان . وكذا فعل النويرى حين ذكر فى وصفه لبناء القيروان أنها حصن لطيف كان للروم فى موضع القيروان .

(٥) ر : عشرة فراسخ .

جبلنا هذا لمَمْطور » فسُمِّى الجبل ممطورًا [١] إلى اليوم . ثم قال : « اذهبوا بنا إلى ذلك القرن » فسمى أيضا القرن [٢] .

وبعث ملك الروم بطريقاً يقال له نِجْفُور [٣] فى ثلاثين ألف مقاتل . فنزل على ساحل البحر بسَنْطَبَرِيَّة [٤] . فبعث ابن حديج إليه خيلاً . فقاتلوه فانهزم وأقلع فى البحر .

وقاتل معاوية أهل جَلُّولاء [٥] على باب المدينة . فكان يقاتلهم صدر النهار ، فإذا مال الفَىْء [٦] انصرف إلى معسكره بالقرن . فقاتلهم ذات يوم . فلما انصرف نسى عبد الملك بن مروان قوساً [٧] له معلقة بشجرة . فانصرف ليأخذها ، وإذا جانب المدينة قد انهدم . فصاح فى أثر الناس فرجعوا . وكانت بينهم حرب شديدة وقتال عظيم حتى دخلوا المدينة عنوة ، واحتووا على جميع ما فيها ، وقتلوا المقاتلة ، وسبوا الذرية . وقيل : بل كان معاوية بن حديج مقيماً بالقرن وبعث عبد الملك [٨] بن مروان إلى جلولاء ، فى ألف فارس [٩] . فحاصرها أياماً فلم يظفرْها . وانصرف الناس منكسرين

---

(١) ر : الممطور .

(٢) القرن : أعلى الجبل .

(٣) ر : نحفور . وجعله حسين مؤنس نقفور من Nicéphore

(٤) دى سلان : بسنطبيرته . ك : بسنطيرطة .

(٥) جلولا، Gouloulis : مدينة كبيرة كانت تبعد عن القيروان بأربعة وعشرين ميلا . ويعرف موقعها اليوم بعين جلولا .

(٦) الفىء : الظل .

(٧) ص : فرسا .

(٨) انتهى هنا الساقط من ع .

(٩) ابن عذارى والمراكشى ١ : ٤ : ألفى فارس .

فلم يسر إلا يسيرًا حتى رأى فى ساقة الناس غبارًا كثيرًا ، فظنوا أن العدو قد اتبعهم . فرجعوا فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها من جهة واحدة . فانصرف المسلمون إليها فقتلوا من فيها وغنموا وسبوا . وانصرف عبد الملك إلى معاوية وهو معسكر بالقرن ينتظره . فلما أتاه بالغنائم اختلفوا فيها . فقال عبدالملك : « هى لأصحابى خاصة » . وقال ابن حديج : « بل لجماعة المسلمين » . وكتب إلى معاوية بن أبى سفيان . فعاد جوابه : « [العسكر] (١) رِدءُ السَّرية ، فأقسم بين الناس جميعهم » فوقع سهم الفارس ثلاثمائة دينار (٢) .

قال البلاذرى (٣) . أول من غزا صقلية معاوية بن حديج ، بعث إليها عبد الله بن قيس ، وسنذكر ذلك فى أخبارها إن شاء الله تعالى (٤) .

قال : ثم انصرف معاوية بن حديج إلى مصر . فأقره معاوية بن أبى سفيان عليها ، وعزله عن إفريقية ، وأفرد ها عن مصر ، واستعمل عليها من قِبله .

ذكر ولاية عقبة بن نافع الفهرى وفتح افريقية الفتح الثالث وبناء القيروان

قال : ثم أرسل معاوية بن أبى سفيان عُقْبَة بن نافع إلى إفريقية فى سنة خمسين ، وكان مقيما ببَرْقَة وزَوِيلة من أيام عمرو بن العاص

(١) زيادة ضرورية عن ابن عبد الحكم ١٩٤ . والردء : العيون .

(٢) ابن عذارى المراكشى ١ : ١٠ : مائتى مثقال . وياقوت (جلولاء) : فكان لكل رجل من المسلمين مائتا درهم وحظ الفارس أربعمائة درهم .

(٣) فتوح البلدان ٢٣٥ بتصرف .

(٤) انظر صفحة ٣٥٣ من هذا الجزء .

فجمع من أسلم من البربر وضمه إلى الجيش الوارد عليه . وكان جملة الجيش الوارد من معاوية عشرة آلاف فارس من المسلمين . فسار عقبة إلى إفريقية فافتتحها [١] ، ووضع السيف حتى أفنى مَن بها من النصارى .

ثم قال : « إن إفريقية إذا دخلها إمام تَحَرَّموا بالإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم منهم وارتد إلى الكفر [٢] . وأرى لكم – يامعشر المسلمين – أن تتخذوا بها مدينة نجعل بها عسكرا وتكون عزَّ الإسلام إلى آخر الدهر » . فأجابه الناس إلى ذلك .

ذكر بناء مدينة القيروان

قال المؤرخون : لما أراد عُقْبة بن نافع بناء مدينة القيروان وأجابه المسلمون إلى ذلك ، أتى بهم إلى موضعها ، وهو إذ ذاك شَعَارى [٣] لاتُسلَك وقال : « شأنكم » . فقالوا له : « إنك أمرتنا بالبناء فى شعارى وغياض لاتسلك ولا تُرام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من خَشاش الأرض » [٤] . وكان عقبة مستجاب الدعوة ، فدعا الله عز وجل . وجعل أصحابه يؤمِّنون على دعائه . وكان فى عسكره [٥] ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه

(١) ك : ففتحها .
(٢) ر : الكفار .
(٣) الشعارى : جمع شعراء ، وهى الأجمة . وكذا الغيضة .
(٤) الخشاش : الحشرات والأفاعى وما لادماغ له من الدواب .
(٥) ك : أصحابه .

وسلم ، فجمعهم ونادى : « أيتها الحيات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارحلوا عنّا إنا نازلون . ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه » . فنظر الناس فى ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها ، والذئاب تحمل أجْراءها ، والحيات تحمل أولادها . فأسلم كثيرٌ من البربر . ونادى عقبة فى الناس « كُفُّوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » . فلما خرج ما فيها من ذلك ، جمع عقبة وجوه أصحابه ودار بهم حول المكان وأقبل يدعو الله ويقول : « اللهم املأها علماً وفقها ، واعْمُرْها بالمطيعين والعابدين ، وامنعها من جبابرة الأرض » . ثم نزل عقبة الوادى . وأمر الناس أن يختطوا ويقلعوا الشجر . قال : فأقام أهل إفريقية بعد ذلك أربعين سنة لايرون بها حية ولا عقربا .

قال : واختط دار الإمارة والمسجد الأعظم ، ولم يُحدث فيه بناء ، وكان يصلى فيه وهو كذلك . فاختلف الناس فى القِبْلة وقالوا : « إن أهل الغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد ، فاجهد نفسك فى أمرها » . فأقاموا مدة ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس . فلما رأى عقبة الاختلاف اهتمّ لذلك وسأل الله تعالى ، فأتاه آت فى منامه فقال له : « ياولىَّ رب العالمين ، إذا أصبحت فخُذ اللواء واجعله على عنقك ، فإنك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه غيرك . فالموضع الذى ينقطع عنك التكبير فهو قبلتك ومحرابه مسجدك [1] . وقد رضى الله عز وجل أمر هذه المدينة وهذا المسجد . وسوف يعزّ بها دينه ويُذل بها من كفره إلى آخر الدهر » . فاستيقظ من منامه وقد جزع جزعاً شديدا . فتوضأ وأخذ فى

(١) ر : ومحراب مسجدك .

الصلاة فى المسجد وهو لم يُبْنَ بعد ، ومعه أشراف الناس . فلما طلع الفجر وركع عقبة سمع التكبير بين يديه . فقال لمن حوله : « ألا تسمعون ؟ » قالوا : « لا نسمع شيئاً » . فقال : « إن الأمر من عند الله عز وجل » . وأخذ اللواء ووضعه على عاتقه . وأقبل يتتبع التكبير بين يديه حتى انتهى إلى محراب المسجد . فانقطع التكبير فركز لواءه [1] وقال : « هذا محرابكم » . ثم أخذ الناس فى بنيان الدور [2] والمساكن والمساجد فعُمرت . وكان دَوْرها ثلاثة آلاف باع [3] وستمائة باع [4] . فكملت فى سنة خمس وخمسين . وسكنها الناس وعظم قدرها . وكان فى موضع القيروان حصن لطيف للروم يسمى قَمُونيَة .

قال : ودبر عقبة أمر إفريقية أحسن تدبير إلى أنْ عزل معاوية ابن أبى سفيان معاوية بن حُديج عن مصر وولى مَسْلمة بن مُخلَّد الأنصارى مصر وإفريقية [4] .

ذكر ولاية مسلمة بن مخلد

قال : ولما وصل مسلمة إلى مصر ، استعمل على إفريقية مولًى له يُقال له دينارًا ويُكنى أبا المُهاجر ، وذلك فى سنة خمس وخمسين ،

(١) ر : اللواء .

(٢) ابن عذارى المراكشى : ثم أخذ فى بناء السور .

(٣) ابن عذارى المراكشى ١ : ١٦ : ذراع .

(٤) لم يل معاوية بن حديج مصر قط ، وإنما وليها فى ذلك الوقت عقبة بن عامر الجهنى (٤٤ – ٤٧ هـ) ثم مسلمة بن مخلد (٤٧ – ٦٢ هـ) . وإذن فعزل عقبة بن نافع لم يكن نتيجة عزل معاوية ولا أعقب تولية مسلمة فورا . وقد اضطرب المؤرخون فى تواريخ تولية عقبة وعزله وغزواته كثيراً .

وعزل عقبة . فلما وصل كره أن ينزل بالموضع الذي اختطه عقبة ، فنزل عنه بمسافة ميلين . واختط مدينة وأراد أن يكون له ذكرها ويفسد ما عمله عقبة . فسماها البربر تيكيروان (١) . فأخذ فى عمارتها . وأمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته (٢) .

وتوجه عقبة مغضَبا إلى معاوية بن أبي سفيان . فقال له : « إنى فتحت البلاد ، ودانت لى ، وَبنَيتُ المساجد ، واتخذت المنازل ، وأسكنتُ الناس . ثم أرسلتَ عبد الأنصار فأساء عزلى » فاعتذر إليه معاوية وقال : « قد رددتُك إلى عملك والياً » . وتراخى الأمر حتى توفى معاوية وولى يزيد ابنُه . فلما علم حال عقبة غضب وقال : « أدركْها قبل أن تهلك وتفسد » . ورده والياً على إفريقية .

ذكر ولاية عقبة بن نافع ثانية

قال : وكانت ولايته فى سنة اثنتين وستين ، (٣) فسار من الشام . فلما مر على مصر ، ركب إليه مَسْلَمة بن مُخَلد وسلم عليه ،

(١) اختلفت صور كتابة هذا الاسم بين تيكروان وتكروان وتاكروان وتكيروان وتكرور ودكرور . وانظر حسين مؤنس . وفى دى سلان : بيكيروان .

(٢) يرى حسين مؤنس ١٧٠ أن المؤرخين بالغوا فى وصف ما أنزله أبو المهاجر بالقيروان.

(٣) اضطرب المؤرخون فى معالجتهم لتواريخ وأحداث ولايتى عقبة بن نافع . فذكر الطبرى ٦ : ١٣٤ فى أحداث سنه ٥٠ : وفيها عزل معاوية بن حديج عن مصر ، وولى مسلمة بن مخلد مصر وإفريقية وكان معاوية بن أبي سفيان قد بعث قبل أن يولى مسلمة مصر وإفريقية عقبة بن نافع الفهرى إلى إفريقية فافتتحها واختط قيروانها . وعلق على ذلك ابن الأثير ١ : ٢٣٠ فقال : والذى ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة بن نافع إفريقية كانت هذه السنة (٥٠هـ).. ثم بقى إلى سنة خمس وخمسين ، ووليها مسلمة بن مخلد . وهم أخبر ببلادهم . وقال ابن الاثير ١ : ٢٣١ وابن خلدون ٣ : ٢٢ ، ٢٨٩ : « ذكر الواقدى أن عقبة بن نافع ولى إفريقية سنة ست وأربعين واختط القيروان . ولم يزل عقبة بن نافع على إفريقية إلى سنة اثنتين وستين فعزله يزيد ابن معاوية ، واستعمل أبا المهاجر ... »

وكذا تضاربوا واختلفوا عن النويرى فى تاريخ غزواته بين الولايتين . وانظر حسين مؤنس ١٣٠ وما بعدها .

واعتذر من فعل أبي المهاجر [١] ، وأقسم بالله لقد خالفه فيما صنع . فقبل عقبة عذره . ومضى مسرعاً حتى قدم إفريقية . فأوثق أبا المهاجر فى الحديد ، وأمر بخراب مدينته ، ورد الناس إلى القيروان

ثم عزم على الغزو وترك بالقيروان جنداً وعليهم زهير بن قيس [٢] ودعا أولاده فقال لهم : « إنى بعتُ نفسى من الله تعالى بيعاً مربحاً أن أجاهد مَن كفر حتى ألحق بالله . ولست أدرى أترونى بعدها أو أراكم ، لأن أملى الموت فى سبيل الله » . ثم قال : « عليكم سلام الله ، اللهم تقبل منى نفسى فى رضاك » .

ومضى فى عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً ، وأخذ لهم خيلاً لم ير المسلمون فى مغازيهم أصلب منها [٣] . ودخل الروم حصنهم .

فكره عقبة أن يقيم عليه . فمضى إلى لميش [٤] ، وهى من أعظم مدن الروم . فلجأ إليها من كان حولها منهم . وخرجوا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى ظن الناس أنه الفناء . فهزمهم وتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب غنائم كثيرة .

وكره المقام عليها فرحل [٥] إلى بلاد الزاب . فسأل عن أعظم

---

(١) جعل ابن عبد الحكم ١٩٧ اعتذار مسلمة لعقبة عند مروره بمصر عائداً من إفريقية بعد عزله.

(٢) ذكر ابن عبد الحكم ١٩٨ والمالكى ٢٢ أن عقبة استخلف على القيروان عمر بن على القرشى وزهيرا

(٣) ر : أصلت منها .

(٤) ص بليش : ر وابن خلدون ٤ : ٣٩٩ ليس . المالكى ٢٣ : تلمسان . ورجح حسين مؤنس ١٨٧ أنها لمبيزة Lambeisis أحد الحصون الرومانية المعروفة — البيان المغرب (نشرة كولان وبروفنسال) ص ٣٤ ذكر (المنستير) فى هذا الموضع .

(٥) ر : فرجع .

مدائنهم قَدْرًا فقالوا : مدينة يقال لها أَرْبة [١] فيها الملك ، وهى مجمع ملوك الزاب ،وحولها ثلاثمائة قرية وستون قرية كلها عامرة . فلما بلغهم أمره لجئوا إلى حصنهم ، وهرب بعضهم إلى الجبال والوعر . فنزل عليها وقت المساء . فلما أصبح أمر بالقتال فكانت بينهم حروب حتى يئس المسلمون من الحياة . فأعطاه الله الظفر . فانهزم القوم وقُتل أكثر فرسان الروم . وذهب عزهم من الزاب وذلوا آخر الدهر .

ورحل حتى نزل تاهَرْت . فلما بلغ الروم خبره ، استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم . فقام عقبة وخطب الناس وحرضهم على القتال والتقوا واقتتلوا فلم يكُن للروم والبربر طاقة بقتالهم . فقتلهم قتلاً ذريعاً وفرق جموع الروم عن المدينة .

ثم رحل حتى نزل طنْجَة . فلقيه رجل من الروم يقال له إيليان [٢] وكان شريفاً فى قومه . فأهدى إليه هدية حسنة ولاطفَه ونزل على حكمه . فسأله عن بحر الأندلس . فقال : « إنه محفوظ لايُرام » . فقال : « دُلنى على رجال البربر والروم » . فقال : « قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر . وفرسانهم فى عدد لايعلمه إلا الله تعالى

(١) ص : أزبة . البكرى : وصف إفريقية ١٤٤ والمالكى ٢٣ : أدنة . ابن خلدون ٤ : ٣٩٩ : أذنة . ورجح حسين مؤنس ١٨٩ : أزبة ،اعتماداً على تسمية الإقليم كله بالزاب .

(٢) ابن الأثير ٣ : ٣٠٨ ابن خلدون ٤ : ٣٩٩ : يليان . وهما من Julien واختلف المؤرخون فى جنسيته فذكر ابن خلدون أنه بربرى، واستبعد ذلك حسين مؤنس ١٩٢ ، بل شك فى وجوده ، وعلل ذكر العرب له بما هو معروف من طريقة العرب فى تسمية الأعلام الأجنبية : فكل من وجد على القسطنطينية هرقل ، وكل من وجد على مصر مقوقس ، وكل من وجد فى إفريقية جرجير ، وكل من أقام فى طنجة يليان . ولا يبعد أن يكون وجود يليان صاحب طارق ذا أثر رجعى على الشخص الذى وجد على طنجة إذ ذاك .

وهم أنْجاد البربر وفرسانهم » . فقال عقبة : « فأين موضعهم ؟ » قال : « فى السوس الأدنى ، وهم قومٌ ليس لهم دين ، يأكلون المَيْتة ، ويشربون الدم من أنعامهم . وهم أمثال البهائم ، يكفرون بالله ولا يعرفونه » . فقال عقبة لأصحابه : « ارحلوا [1] على بركة الله » . فرحل من طنجة إلى السُّوس الأدنى ، وهو فى جنوب مدينة طنجة التى تُسَمى تارودَانَت . فانتهى إلى أوائلهم فقتلهم قتلاً ذريعاً . وهرب من بقى منهم ، وتفرقت خيله فى طلبهم .

ومضى حتى دخل السُّوس الأقصى فاجتمع البربر فى عددٍ كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى . فقاتلهم قتالاً لم يُسمَع بمثله . فقتل خلقاً كثيرا منهم . وأصاب نساءً لم يرَ الناسُ مثلهن . فقيل : إن الجارية كانت تساوى بالمشرق ألف مثقال وأكثر وأقل .

وسار حتى بلغ البحر المحيط لايدافعه أحد ولايقوم له . فدخل فيه حتى بلغ الماء لبَان فرسه [2] . ورفع يده إلى السماء وقال : « يارب ، لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد إلى ملك ذي القَرْنين [3] مدافعاً عن دينك ، ومقاتلاً مَن كفر بك وعَبَد غيرك » [4] .

ثم قال لأصحابه : « انصرفوا على بركة الله وعونه » . فخلا الناس عن طريق عساكره هاربين . وخاف المشركون منه أشد مخافة . وانصرف إلى إفريقية . فلما انتهى إلى ماء اسمه اليوم ماء فرس ولم

(١) ك : اركبوا .
(٢) اللبان : الصدر .
(٣) ابن عذارى : مسلك ذى القرنين . (طبعة كولان) .
(٤) د : عبد لغيرك .

يكن به ماء ، فأصابهم (١) عطش أشفى منه عقبة ومَن معه على الموت . فصلى ركعتين ودعا الله عز وجل . فجعل فرسه يبحث الأرض بيديه حتى كشف عن صفاةٍ (٢) . فانفجر منها الماء . وجعل الفرس يمص ذلك الماء فنادى عقبة فى الناس أنْ احتفروا فحفروا سبعين حَسا (٣) فشربوا وأسقَوا (٤) . فسمى ماء فرس .

وسار حتى انتهى إلى مدينة طُبْنَة ، وبينها وبين القيروان ثمانية أيام . فأمر أصحابه أنْ يتقدموا فوجاً بعد فوج إلى إفريقية ثقةً منه بما دَوخ من البلاد ، وأنه لم يبقَ أحدٌ يخشاه . وسار يريد تَهُوذة لينظر إليها وإلى بادس ، ويعرف ما يسدهما من الفرسان ، فيترك (٥) فيهما بقدر الحاجة . فلما نظر الروم إلى قلة مامعه ، طمعوا فيه وأغلقوا أبواب حصونهم دونه ، وشتموه ، ورموه بالنبْل والحجارة ، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل . فلما توسط البلاد بعث الروم إلى كَسيلة ابن بهْرم الأَوْرَبى (٦) وكان فى عسكر عقبة .

---

(١) كذا فى الأصول ، وهى عادة المؤلف ، والصواب : أصابهم .

(٢) الصفاة : الحجر الصلد الضخم لا ينبت شيئا .

(٣) الحسا والحسى (بكسر الحاء وإسكان السين وفتحها) : الرمل المتراكم أسفله جبل صلد فاذا مطر الرمل تسرب الماء إلى أسفل فيمسكه الجبل ، فاذا حفرت قليلا بزغ الماء .

(٤) ك : واستقوا .

(٥) ر : فينزل .

(٦) ابن عبد الحكم ١٩٨ ، ابن عذارى المراكشى ١ : ١٩ ، ابن خلدون ٦ : ٢١٦ : كسيلة ابن لمزم . ابن الأثير ٣ : ٣٠٨ كسيلة بن لمرم البربرى . وفى أسد الغابة : لمرم . وكناه اليعقوبى ٢ : ٢٢٩ : ابن الكاهنة . والأوربى : نسبة لأوربة إحدى قبائل البربر . وضبطه ابن الأثير فى أسد الغابة ٣ : ٤٢١ : بفتح الكاف وكسر السين . ولمرم بفتح اللام والراء وبينهما ميم ساكنة وآخره ميم .

ذكر خروج كسيلة وقتل عقبة بن نافع واستيلائه على القيروان

كان كَسيلة هذا من أكابر البربر . وكان قد أسلم فى ولاية أبى المهاجر وحسن إسلامه . وقدم عقبة فعرّفه أبو المهاجر بحال كسيلة وعظمه فى البربر وانقيادهم إليه . فلم يعبأ به [١] عقبة واستخف به وأهانه . فكان من إهانته له أنه أتى بغنم فأمر بذبحها ، وأمر كَسيلة أن يسلخ منها شاة . فقال : « أصلح الله الأمير ! هؤلاء فتيانى وغلمانى يكفوننى المؤونة » . فسبه عقبة وأمره بالقيام . فقام مغضَبًا وذبح الشاة . وجعل يمسح لحيته بما على يديه من دمها . فجعلت العرب يمرون به ويقولون له : « يابربرى ، ماهذا الذى تصنع ؟ » . فيقول : « هذا جيد للشعر » . حتى مربه شيخ من العرب فقال : « كلا ، إن البربرى يتواعدكم » . فقال أبو المهاجر لعقبة : « ما صنعت ؟ أتيت إلى رجل جبار فى قومه وبدار عزه ، وهو قريب عهد بالشِّرك ، فأفسدت قلبه . أرى أنْ تُوثقَه كتافًا ، فإنى أخاف عليك من فتكه [٢] » . فتهاون به عقبة .

فلما رأى كسيلةَ الرومَ قد راسلوه ورأى فرصة ، وثب وقام فى بنى عمه وأهله ومَن اجتمع إليه من الروم . فقال أبو المهاجر لعقبة : « عاجِلْه قبل أن يجتمع أمره [٣] » . وأبو المهاجر مع ذلك كله صحبة

(١) ص ، ر : يعبأبهم .
(٢) ك : قتله .
(٣) ك : يجمع أمره .

عقبة وهو فى الحديد . فزحف عقبة إلى كَسيلة فتنحى عنه . فقال البربر له : « لمَ تنحيت من بين يديه ونحن فى خمسة آلاف[١] ؟ » فقال : « إنكم كل يوم فى زيادة وهو فى نقصان ، ومدد الرجل قد افترق عنه . فإذا طلب إفريقية زحفت إليه » . وأما أبو المهاجر فإنه تمثل بقول أبى مِحْجَن الثقفى [٢] :

كفَى حَزنا أنْ تمْـزع الخيلُ بالقنا[٣]
وأتْرَك مشدودًا علىّ وَثاقيـــــــا
إذا قمتُ غنانى الحـــديد وأغلقت[٤]
مصارعُ من دونى تصُم المُناديـــــ

فبلغ ذلك عقبة بن نافع . فأطلقه [٥] وقال له : « الحَقْ بالمسلمين فقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة » . فقال أبو المهاجر : « وأنا أغتنم ما اغتنمت » . فصلى عقبة ركعتين وكسر جفن سيفه . وفعل أبو المهاجر كفعله . وكسر المسلمون أغماد سيوفهم . وأمر عقبة أن ينزلوا عن خيلهم ، ففعلوا وقاتلوا قتالاً شديدا . وكَثر عليهم العدو فقُتلوا عن آخرهم ولم يفلتْ منهم أحد [٦] .

---

(١) المالكى : رياض النفوس ٢١ : ونحن فى خمسين ألفاً وهو فى خمسة آلاف . ولعلها سقطت من النويرى .

(٢) ديوانه ص ١٦ – طبع بريل ١٨٨٧ .

(٣) ابن تغرى بردى ١ : ١٥٩ : أن تطعن الخيل بالقنا .

(٤) ك ، المالكى ٢٧ ، ابن الأثير ٣ : ٣٠٩ : عنانى الحديد .

(٥) ذكر ابن عبد الحكم ١٩٨ والمالكى ٢٥، ٢٧ روايتين فى مقتل أبى المهاجر تحكى إحداها أنه قتل موثقاً فى الحديد .

(٦) ابن الأثير ٣ : ٣٠٩ : وأسر محمد بن أوس الأنصارى فى نفريسير .

فعزم زهير بن قيس على قتال البربر فخالفه بعض أصحابه [١] ففارق القيروان ، وسار إلى برقة وأقام بها . وتبعه أكثر الناس . وأما كَسيلة فاجتمع إليه جمع كبير [٢] فقصد القيروان وبها أصحاب الأثقال والذرارى من المسلمين . فطلبوا الأمان من كَسيلة فأمَّنهم . ودخل القيروان واستولى على إفريقية . وأقام بها إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان . فذكر عنده أمر القيروان ومَن بها من المسلمين . فأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إليها ، ليستنقذها من يدكسيلة . فاستعمل عليها زهير بن قيس [٣] .

ذكر ولاية زهير بن قيس البلوى وقتل كسيلة البربرى

قال : ولما أشير على عبد الملك بن مروان بإرسال الجيش إلى إفريقية ، قال : « لايصلح للطلب بثأر عقبة بن نافع من المشركين إلا مَن هو مثله فى دين الله عزوجل » . فاتفق رأيهم على زهير بن قيس ، وقالوا : « هو صاحب عقبة وأعرفُ الناس بسيرته وأولاهم بطلب ثأره » . وكان زهير ببرقة مرابطاً منذ قفل من إفريقية . فكتب إليه عبد الملك بالخروج على أعنَّة الخيل إلى إفريقية . فكتب إليه زهير يستمده بالرجال والأموال . فوجه إليه بالأموال ووجوه أهل الشام .

(١) ابن عذارى المراكشى ١ : ٨ ؛ ابن الأثير ٣ : ٣٠٩ ، ز ١ : ١٥٩ : حنش بن عبد الله الصنعانى .

(٢) ك : كثير .

(٣) جعل ابن عبد الحكم ٢٠٢ خروج زهير ومقتله بعد معارك حسان بن النعمان الغسانى لا قبلها .

فلما وصل ذلك إليه أقبل إلى إفريقية فى عسكرٍ عظيم ، وذلك فى سنة تسع وستين [١] . فبلغ خبره كَسيلة فجمع البربر [٢] وتحول عن القيروان إلى مَمش [٣] . وجاء زهير فأقام بظاهر القيروان [٤] ثلاثة أيام حتى استراح وأراح . ثم رحل إلى كَسيلة . والتقيا واشتد القتال وكثر القتل فى الفريقيْن . فأجلت الحرب عن قتل كَسيلة وجماعة من أصحابه . وانهزم من بقى منهم . فتبعهم الجيش فقتلوا مَن أدركوه .

وعاد زهير إلى القيروان . فرأى ملك إفريقية ملكاً عظيما ، فقال : « إنما أحببت الجهاد ، وأخاف أنْ أميل إلى الدنيا فأهلك » . وكان عابداً زاهدا . فترك بالقيروان عسكرا ورحل فى جمع كبير [٥] يريد المشرق . وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسيره من برقة إلى إفريقية وخلوها ، فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة من جزيرة صقلية [٦] . فأغاروا على برقة وقتلوا ونهبوا . ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية فقاتلهم بمنَ معه أشدَّ قتال . وترجل هو ومَن معه وقاتلوا فعَظم الخطْب . وتكاثر الروم عليهم فقُتل زهير وأصحابه ، ولم ينجُ منهم أحد [٧] . وعاد الروم بما غنموه إلى القسطنطينية .

---

(١) ابن خلدون ٤ : ٤٠٠ ، ٦ : ٢١٧ : سنة سبع وستين .

(٢) ابن الأثير ٣ : ٣٠٩ ، المالكى : ١ : ٣٠ : البربر و الروم .

(٣) ابن خلدون ٤ : ٤٠٠ : ميس . المالكى ٣٠ : ممس . ياقوت : ممسى ، وهى مدينة بيزنطية قديمة Mamma .

(٤) المالكى ٣٠ : نزل بالقيروان .

(٥) ك : كثير .

(٦) ذكر ابن خلدون ٤ : ٤٤٠ أن الجيش خرج من القسطنطينية ، ولكن ابن الأثير ٣ : ٣١ ذكر أن الجيش كان مؤلفا من قوتين آتيتين من الموضعين .

(٧) المالكى ٣١ : ولم يخلص منهم سوى رجل واحد .

ولما بلغ عبد الملك قتل زهير عَظم ذلك عليه [١] ، وكانت المصيبة به كالمصيبة بعُقْبة. وشغل عبد الملك عن القيروان [٢] ما كان بينه وبين عبد الله بن الزبير . فلما قتل ابن الزبير جهز عبد الملك حسان ابن النعمان إليها .

ذكر ولاية حسان بن النعمان الغسانى افريقية

قال : كان عبد الملك قد أمر حسان بن النعمان بالمقام بمصر في عسكر عدته أربعون ألفاً [٣] . وتركه بها عُدة لما يحدث . فكتب إليه بالنهوض إلى إفريقية ويقول : « إنى قد أطلقتُ يدك فى أموال مصر ، فاعطِ مَن معك ومن ورد عليك من الناس ، واخرج إلى جهاد إفريقية على بركة الله » . قال ابن الأثير فى تاريخه الكامل : إنه استعمله فى سنة أربع وسبعين بعد مقتل عبد الله بن الزبير . وقال ابن الرَّقيق إنه ندبه إلى إفريقية فى سنة تسع وستين [٤] . قال : فدخل إفريقية بجيشٍ عظيم ما دخلها مثله قط . فدخل القيروان وتجهز منها إلى قرْطاجَنَّة .

---

(١) ك : عظم عليه ذلك .

(٢) ص : بما .

(٣) المالكى ١ : ٣١ : فى ستة آلاف . وخطأه محققه .

(٤) ذكر ابن كثير ٨/٣١٧ أن مسير حسان إلى إفريقية كان فى سنة ٧١ هـ وجعله ابن عبد الحكم ٢٠٠ فى سنة ٧٣ هـ ، وابن عذارى ١ : ٢٢ فى سنة ٧٨ ، وابن خلدون ٦ : ٢١٨ فى سنة ٧٩ ، وتواريخ أخرى أوردها مؤرخون آخرون غير ما أتى به النويرى . وأجمل ذلك ابن عذارى فى قوله ١ : ٣١ «وغزوات حسان لم تنضبط بتاريخ». وعلل حسين مؤنس ٢٣٥ هذا التباين بأن حسانا قام بحملتين لاحملة واحدة ، فتح فى الأولى قرطاجنة ثم هزمته الكاهنة ، وفى الثانية هزم الكاهنة وفتح قرطاجنة مرة أخرى . فاختلط الأمر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل فى كلتيهما .

ذكر فتح قرطاجنة وتخريبها

قال : ولما دخل حسان إلى القيروان سأل عن أعظم ملك بقى بإفريقية . فقيل له : صاحب قرطاجنة ، وهى بلدة عظيمة ، ولم تُفتح بعد ، ولاقَدَر عليها عقبة . فسار إليها . وقاتل مَن بها من الروم والبربر أشد قتال . فانهزموا وركبوا فى البحر . وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس . ودخل حسان قرطاجنة بالسيف فقتل وسبى ونهب . وأرسل الجيوش إلى ما حولها . ثم أمر بهدمها فهدم المسلمون منها ما أمكنهم . ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا فى صَطْفورة [1] وبنزرت . فسار إليهم وقاتلهم ، فهزمهم وأكثر القتل فيهم . واستولى المسلمون على بلادهم . ولم يترك موضعاً منها حتى وطئه . فخافه أهل إفريقية خوفاً شديدا . ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة باجَة فتحصنوا بها . وتحصن البربر بمدينة بُونَة . وعاد حسان إلى القيروان فأقام بها حتى أراح واستراح .

ذكر حروب حسان والكاهنة وتخريب افريقية وقتل الكاهنة

قال : ثم قال حسّان للناس : « دلونى على أعظم مَن بقى من ملوك إفريقية » . فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة ، وقالوا : « إنها بجبل أوراس ، وهى بربرية اجتمع البربر عليها بعد قتل

(١) صطفورة : يرجح أنها شبه الجزيرة الواقع شمالى تونس وتقع فيه بنزرت . وفى الأصول : صفطقورة . ووردت صحيحة فى جاسيار ، دى سلان ، ابن عذارى المراكشى ١ : ٢٢٤ ، ابن خلدون ٤ : ٤٠١ ، والمالكى ١ : ٣١ .

قتل كسيلة » . وكانت تخبر بأشياء فتقع كما أخبرت عنها .وعظّموا محلّها عند حسان وقالوا : « إنْ قتلتَها لم تختلف البربر بعدها عليك » . فسار إليها . فلما قاربها هدمت حصن باغاية ، ظنًّا منها أنه يريد الحصون . فلم يعرج [1] حسان على ذلك وسار إليها . فالتقوا على نهرنِينِى [2] واقتتلوا أشد قتال . فانهزم المسلمون وقُتل منهم خلْق كثير وأُسرت جماعة من أصحابه [3] . فأكرمتهم الكاهنة وأطلقتهم إلا خالد بن يزيد القيسى [4] ، وكان شريفاً شجاعاً فاتخذته ولدا .

وسار حسان منهزماً وفارق إفريقية . وكتب إلى عبد الملك بما كان من أمره . فأمره بالمقام إلى أنْ يأتيه أمره . فأقام بعمل برقة خمس سنين [5] فسُمِّى ذلك المكان قصورحسان . وملكت الكاهنة إفريقية كلها وأساءت السيرة فى أهلها .

ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالأموال والجيوش . وأمره بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة . فسار إليها . فقالت الكاهنة لقومها : « إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعى ، ولاأرى إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها » . وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها ، وهدموا الحصون ، وقطعوا الأشجار

(١) يعرج : يقف ويقيم .

(٢) رجح حسين مؤنس ٢٤٧ أنه أحد النهيرات التى تصب فى جرعة الطرف ، قريبا من تبسة . وفى ابن عذارى المراكشى ١ : ٢٥ : وادى سكتانة ، وفى ابن خلدون ٦ : ٢١٨ : وادى مسكيانة . وفى الاستقصا : وادى مليانة .

(٣) ص : الصحابة . وذكر ابن عذارى ١ : ٢٥ ، ٢٧ أنها أسرت ثمانين رجلا . وذكر المالكى ١ : ٣٣ أنها أسرت ثمانية وقيل ثمانين .

(٤) اضطربت المصادر فى قبيلة خالد : أهى قيس أم عبس ، حتى نسبه المصدر الواحد إلى القبيلتين فى موضعين مختلفين .

(٥) المالكى ١ : ٣٣ : ثلاث سنين . ورجحها حسين مؤنس ٢٥٦ .

ونهبوا الأموال . قال عبد الرحمن بن زياد بن أنْعُم : « وكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً وقرى متصلة ، فأخربت ذلك » . فلما قرب حسان من البلاد ، لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة . فسره ذلك . وسار إلى قابس . فلقيه أهلها بالأموال والطاعة ، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء . فجعل فيها غلاماً [1] . وسار على قفَصْة [2] . فأطاعه من بها . واستولى عليها وعلى قَسْطيلية ونَفْزاوة .

وبلغ مقدمه الكاهنة ، فأحضرت ولدين لها وخالد بن يزيد وقالت لهم : « إننى مقتولة ، فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانا » . فساروا إليه . فوكل بولديها من يحفظهما . وقدم خالد بن يزيد على أعنة الخيل .

وسار حسان نحو الكاهنة فالتقوا واقتتلوا ، واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس أنه الفناء . ثم نصر الله المسلمين . وانهزم البربر وقُتلوا قتلاً ذريعا . وانهزمت الكاهنة ثم أدركت فقُتلت . ثم استأمن البربر إلى حسان فأمنهم . وقرر عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفا يجاهدون العدو . وقدم عليهم ابنى الكاهنة ثم فشا الإسلام فى البربر .

وعاد حسان إلى القيروان وبطل النزاع واستقامت إفريقية له . فلما مات عبد الملك وولى الوليد — وكان على مصر وإفريقية

---

(١) ابن الأثير ٤ : ٣٢ : عاملا ، وهى أدق .

(٢) كذا فى ع ، ك . وفى ص ، ر : إلى قفصة ، وهى أوضح .

عبد العزيز بن مروان [١] ـ فعزل حسان واستقدمه . وبعث إليه بأربعين رجلاً من أشراف أصحابه ، وأمرهم أن يحتفظوا بجميع مامعه. فعلم حسان مايُراد منه ، فعمد إلى الجوهر واللؤلؤ والذهب [٢] ، فجعله فى قِرَب الماء وطرحها فى المعسكر ، وأظهر ما وراء ذلك . فلما قدم على عبد العزيز بن مروان بمصر أهدي إليه مائتى جارية ووصيف من خيار ما كان معه [٣] ويقال : إن حسان كان معه من السبى خمسة وثلاثون ألف رأس . فانتخب منها عبد العزيز ما أراد وأخذ منه خيلا كثيرة . ورحل حسان بما بقى معه حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكا إليه ما صنع به عبد العزيز . فغضب الوليد وأنكره . فقال حسان لمن معه : « ائتونى بالقرب » . فأُتى بها فأفرغها بين يدى الوليد. فرأى ما أذهله من أصناف الجوهر واللؤلؤ والذهب . فقال حسان : « يا أمير المؤمنين إنما خرجتُ مجاهدا فى سبيل الله ، ولم أخُن الله تعالى ولا الخليفة » . فقال له الوليد : « أردك إلى عملك وأحسن إليك » . فحلف حسان أنه لا وَلى لبنى أمية ولاية أبدا . فغضب الوليد على عمه عبد العزيز لما عامل به حسانًا . وكان حسان يسمى الشيخ الأمين لثقته وأمانته ثم ولى بعده موسى بن نُصير .

---

(١) كان عبد العزيز واليا على مصر ووليا لعهد أخيه عبد الملك ثم توفى قبله . فليس بصحيح إذن أنه كان واليا على مصر للوليد بن عبد الملك ، وإنما كان واليه عليها عبد الله بن عبد الملك بن مروان . وكذا قال ابن الأثير : الكامل ٤ : ٣٢ إن عبد الله هو الذى فعل ما فعل مع حسان . ولكن غير ابن الأثير ذكر أن عبد العزيز هو صاحب الفعلة فى آخر عهده ، وأن الخليفة الذى قابله عبد الملك لا ابنه الوليد.

(٢) ابن عذارى المراكشى ١ : ٣٠ : الجوهر والذهب والفضة .

(٣) ابن عذارى المراكشى ١ : ٣٠ : من بنات ملوك الروم والبربر .

ذكر ولاية موسى بن نصير افريقية وما كان من حروبه وآثاره

كانت ولايته فى سنة تسع وثمانين [١] ، وذلك أن حسان بن النعمان لما امتنع من إجابة الوليد إلى رجوعه إليها ، كتب الوليد إلى عمه عبد العزيز [٢] أن يوجه موسى بن نصير إلى إفريقية وأن تكون ولايته من قبل الوليد . وأفرد إفريقية عن مصر . فسار موسى حتى قدم إفريقية وعزل عنها صالحا [٣] خليفة حسان بها .

فبلغه أن بأطراف إفريقية قوما خارجين عن الطاعة . فوجه إليهم ابنه عبد الله [٤] فقاتلهم وظفر بهم . وأتاه بمائة ألف رأس من سبيهم. ثم وجه ولده مروان [٥] إلى جهة أخرى ، فأتاه بمائة ألف رأس . ثم توجه هو بنفسه إلى جهة أخرى فأتى بمائة ألف رأس . قال الليث بن سعد : « فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس ولم يُسمَع بمثل هذا فى الإسلام » .

---

(١) كثر الاختلاف حول تاريخ ولاية موسى . فذكر اليعقوبى ٢ : ٢٢٧ أنه تولى إفريقية فى سنة ٧٧ ، وجعلها الذهبى : دول الإسلام ١ : ٣٧ ، وابن العماد : الشذرات ١ : ٨٤ ، وابن الأثير الكامل ٤ : ١١٢ فى أحد قوليه سنة ٧٨ ، وجعلها ابن كثير : البداية والنهاية ٩ : ٢١ ، ١٧١ والحميدى : جذوة المقتبس ٣١٧ وصاحب الإمامة والسياسة ٢ : ٦١ سنة ٧٩ ، وابن عبد الحكم ٢٠٣ سنة ٧٨ أو ٧٩ والمقرى : نفح الطيب ١ : ١٤١ سنة ٨٨ .

(٢) انظر ما سبق أن قلناه عن عبد العزيز والوليد ، إلى جانب أن كثيراً من المؤلفين ذكر أن عبد العزيز ولى موسى بن نصير دون استشارة الخليفة عبد الملك .

(٣) ابن عبد الحكم ٢٠٣ ، الإمامة والسياسة ٢ : ٦٢ : أبا صالح .

(٤) الإمامة والسياسة ٢ : ٦٣ : عبد الرحمن ، تحريف .

(٥) ابن الأثير ٤ : ١١٢ : هرون ، تحريف . وهو ابن أخ لموسى لا ابنه ، ولم يذكر ابن عبد الحكم ٢٠٤ ، وابن كثير ٩ : ١٧٣ عبد الله ، واستبدلا به ابن أخ لموسى .

ثم خرج غازياً إلى طنجة يريد مَن بقى من البربر . فهربوا منه فاتبعهم يقتل فيهم حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد . فاستأمن البربر إليه وأطاعوه . فقبل طاعتهم وولى عليهم والياً . ثم استعمل على طنجة وبلادها مولاه طارق بن زياد . وتركه بها فى تسعة عشر ألف فارس من البربر وطائفة يسيرة من العرب [١] لتعلُّم البربر القرآن وفرائض الإسلام .

ورجع إلى إفريقية فمر بقلعه مَجَّانة . فتحصن أهلها منه فترك عليها مَن يحاصرها مع بُسْربن فلان [٢] ففتحها ، فسُمِّيت قلعة بُسْر . ولم يَبْقَ بإفريقية مَن ينازعه من البربر ولا من الروم .

ذكر فتح جزيرة الأندلس وشىء من أخبارها

كان فتح الأندلس فى سنة اثنتين وتسعين على يد طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير . وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه الكامل [٣] أخبار الأندلس وابتداء أمرها . فاخترنا إيراد ذلك لأنها من أعظم الفتوحات الإسلامية .

---

(١) قال ابن عبد الحكم ٢٠٤ عن جيش طارق : وكانوا ألفاً وسبع مائة . ويقال : بل كان مع طارق اثنا عشر ألفاً من البربر إلا ستة عشر رجلا من العرب ، وليس ذلك بالصحيح . وجعل ابن عذارى ١ : ٣٧ عدد المعلمين العرب ١٧ . ولم يتنبه بعض المؤرخين إلى أنهم معلمون فأخطئوا فى عدهم وبالغوا . فجعلهم ابن عذارى فى موضع آخر ١ : ٣٦ : ١٧٠٠ ، وابن خلدون ٦ : ٢٢ : ٢٧ .

(٢) فى الأصول عن ابن الأثير ٤ : ١١٢ : بشر بن فلان . والصواب بسر بن أرطاة ، الذى ذكر ابن عبد الحكم ٢٠٥ ، والبلاذرى ٢٢٧ أن عقبة بن نافع أو موسى بن نصير وجه به إلى هذه القلعة ، وقد بلغ من العمر ٨٢ سنة ، فافتتحها ، وسميت باسمه . وانظر معجم البلدان لياقوت مجانة .

(٣) ٤ : ١١٩ .

قال ابن الأثير : قالوا : أول مَن سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالأَنْدَلُش – بشين معجمة [١] – ثم عُرِّب بعد ذلك بسين مهملة ، والنصارى تسميها إشْبانيَة باسم رجل صُلِب فيها يقال له إشبانش [٢] ، وقيل : باسم ملك كان لها [٣] فى الزمان الأول اسمه إشبان بن طيطش [٤] . وهذا هو اسمها عند بطليموس . وقيل : سميت بأَندلس بن يافث بن نوح [٥] ، وهو أول مَن عمرها .

وقيل : أول مَن سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالأَندلس فعمروها وتداولوا ملكها دهرا طويلاً ، وكانوا مجوساً . ثم حبس الله عنهم المطر وتوالَى عليهم القحط . فهلك أكثرهم ، وفر منها من أطَاق الفرار . فخلت مائة سنة .

ثم ابتعث الله لعمارتها الأَفَارِقَة . فدخل إليها قوم منهم أجْلاهم ملك إفريقية لقحط [٦] توالى على بلاده حتى كاد يُفنى أهلَها . فحملهم فى السفن مع أمير من عنده . فأَرسوا بجزيرة قادس . فرأوا الأَندلس وقد أخصبت بلادها وجرت أنهارها . فسكنوها وعمروها . ونصبوا لهم ملوكاً ضبطوا أمرهم [٧] . وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب من أرض إشبيلية ، بنوها وسكنوها . وأقاموا

---

(١) ر : بالشين المعجمة . وزاد ابن الأثير : فسمى البلد بهم .
(٢) ك ، ابن الأثير : إشبانس .
(٣) ص ، ابن الأثير : بها .
(٤) ابن الأثير : طيطس .
(٥) المقرى ١ : ٨١ عن ابن سعيد : إنما سميت بأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح .
(٦) زاد ابن الأثير : تخففاً منهم .
(٧) زاد ابن الأثير : وهم على دين من قبلهم .

مدة تزيد على مائة وخمسين [١] سنة ، ملك منهم فيها أحد عشر ملكاً .

ثم أرسل الله عليهم عجم رُومَة ، وملكهم إشْبان بن طيطش [٢] فغزاهم ومزقهم وقتل منهم وحاصرهم [٣] بطالقة ، وقد تحصنُوا بها ، فابتنى [٤] عليها إشبانية – وهى إشبيلية – واتخذها دار مملكته . وكثرت جموعه وعتا وتجبر . وغزا بيت المقدس وغنم ما فيه ، وقتل منه مائة ألف ، ونقل المرمر منه إلى إشبيلية وغيرها . وغنم منه مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام ، وهى التى غنمها طارق لما فتح طليطلة ، وغنم قليلة الذهب والحجر الذى لقى بماردة .

وكان هذا إشبان قد وقف عليه الخَضِر [٥] ، وهو يحرث الأرض فقال له : « ياإشبان ، سوف تحظى وتعلو وتملك . فإذا ملكت إيليا [٦] فارْفُق بذرية الأنبياء » . فقال له : « أتسخرنى وكيف ينال مثلى الملك ؟ » . فقال له : « قد جعله فيك من جعل عصاك هذه كما ترى » فنظر إليها ، فإذا هى قد أوْرَقت . فارتاع وذهب عنه الخضر وقد وثق بقوله . فداخَل الناس وارتقى

(١) ابن عذارى المراكشى ٢ : ٢ : نحو مائة وخمسين سنة . المقرى : نفح الطيب ١ : ٨٦ : ١٥٦ سنة .

(٢) ك ، ابن الأثير : طيطس .

(٣) ك : وحصرهم .

(٤) ك : فبنى .

(٥) الذى حكى القرآن أنه لقى موسى وأنبأه بالغيب ويوصف بأنه معمر محجوب عن الأبصار ، باق إلى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة .

(٦) إيليا : بيت المقدس .

حتى ملك ملكاً عظيماً . وكان ملكه عشرين سنة ودام ملك الإشبانية إلى أن ملك منهم خمسة وخمسون ملكاً .

ثم دخل عليها من عجم رومة أمةٌ يدعَوْن البشتولقات ،[١] ، وملكهم طلوبش بن بيطة [٢] ، وذلك حين بعث الله المسيح عليه السلام . فغلبوا عليها ، واستولوا على مُلْكها ، وقتلوا ملكها. وملك منهم سبعة وعشرون ملكاً . وكانت مدينة ماردة دار ملكهم.

ثم دخلت عليهم أمة القوط. مع ملك لهم . فغلبوا على الأندلس واقتطعوها[٣] من صاحب رومة . وكان ظهورهم من ناحية أنطالية[٤] شرق الأندلس ، فأغارت على بلاد مجْلُونية من تلك الناحية فى أيام قليوديوس [٥] قيصر ، ثالث القياصرة . فخرج إليهم وهزمهم وقتل فيهم [٦] . ولم يظهروا بعدها إلى أيام قسطنطين الأكبر . وأعادوا الغارة . فسير إليهم جيشاً فلم يثبتوا له . وانقطع خبرهم إلى دولة ثالث ملك بعد قسطنطين ، فقدموا على أنفسهم أميرا اسمه لذريق ، وكان يعبد الأوثان . فسار إلى رومة ليحمل النصارى على السجود لأوثانه وظهر منه سوء سيرة ، فتخاذل أصحابه عنه ومالوا إلى أخيه وحاربوه . فاستعان بصاحب

(١) كذا فى ر و المقرى ١ ٨٩ . وفى ع ، ك البشتومات، وفى ابن الأثير : البشتوليات وفى ابن عذارى المراكشى ٢ : ٣ : البشتواقات .

(٢) كذا فى ر ، المقرى ١ : ٨٩ عن سلان. وفى ع، ص : طاويش بن نيطة . وفى ك: طارش بن بيطة . وفى ابن الأثير : طويش بن نيطة .

(٣) كذا فى ، ر ، ابن الأثير . وفى ع ، ص ، ك : واقتلعوها .

(٤) ر . الملاكية . وفى ابن الأثير : ايطالية .

(٥) ابن الأثير : قلبوذيوس . ر : فليودونوس .

(٦) ر : وقتل منهم .

رومة . فبعث إليه[١] جيشا فهزم أخاه ودان بدين النصارى . وكانت ولايته ثلاث عشرة سنة . ثم ولى بعده أقريط ، وبعده أمريق[٢] وبعده وغديش[٣] . وكانوا قد عادوا إلى عبادة الأوثان . فجمع من أصحابه مائة ألف وسار إلى رومة . فسير إليه[٤] ملك الروم جيشاً فهزموه وقتلوه . ثم ملك بعده الريق .

ثم تداولها عدة ملوك ذكرهم ابن الأثير[٥] : منهم مَن عبد الأوثان ومنهم مَن دان بدين النصرانية ، إلى أنْ انتهى الملك إلى غِيْطِشة[٦] ، وكانت ولايته سنة سبع وسبعين للهجرة . ثم توفى وخلف ولديْن . فلم يرضَ بهما أهل الأندلس ورضوا برجل يقال له رُذريق[٧] ، وكان شجاعاً وليس من بيت الملك .

وكانت عادة ملوك الأندلس أنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طُلَيْطلة يكونون فى خدمة الملك لا يخدمه غيرهم ، يتأدبون بذلك . فإذا بلغوا الحُلُمُ أنكح بعضهم بعضاً

---

(١) ك : إليهم .

(٢) ك : افريق . ابن الأثير : أماريق . وهو Amalarico

(٣) ك : وغديس .

(٤) ك : إليهم .

(٥) الكامل : ٤ : ١٢٠ .

(٦) المقرى : ١ : ١٥٥ : إغطشة ، وهما من Witiza

(٧) كذا فى ابن الأثير ٤ : ١٢١ ، ابن عذارى المراكشى ٢ : ٤ ، و ، ابن تغرى بردى ١ : ٢٣٢ Roderic وفى ع ، ص : وذريق . وفى ابن الأثير : دوريق . وفى المقرى وابن عبد الحكم ٢٠٥ ، والمعجب ١٠ : لذريق . وفى ابن القوطية : لوذريق . وفى ابن خلدون ٤ : ٢٥٣ زريق . وفى اليعقوبى ٢ : ٢٨٥ : الادريق . وفى ابن كثير ٩ : ٨٣ أدريقون . وفى الطبرى ٨ : ٨٢ : أدرينوق . وذكر المقرى ١ : ١٦١ ، ١٦٨ أن أبناء غيطشة ثلاثة وهو الصواب . انظر حسين مؤنس : فجر الأندلس ١٥ .

وتولى تجهيزهم . فلما ولى رذريق ، أرسل إليه يليان [١] - وهو صاحب الجزيرة الخضراء وسَبْتة وغيرهما - ابنته فاستحسنها رذريق فافتَضها . فكتبت إلى أبيها بذلك . فأغضبه فكتب إلى موسى بن نصير عامل إفريقية بالسمع والطاعة . واستدعاه فسار إليه . فأدخله يليان مدائنه . وأخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به . ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها ، وذلك فى آخر سنة تسعين . فكتب موسى إلى الوليد بذلك ، واستأذنه فى غزوها . فأذن له إذا لم يكن الوصول إلها فى بحر متسع .

فبعث موسى مَولًى من مواليه ، يقال له طَريف [٢] ، فى أربعمائة رجل ومعهم مائة فارس [٣] . فساروا فى أربع سفن . فخرجوا فى جزيرة بالأندلس فسُميت جزيرة طريف . ثم أغار على الجزيرة الخضراء فأصاب غنائم كثيرة ورجع سالماً ، فى شهر رمضان سنة إحدي وتسعين . فلما رأي الناس ذلك ، تسرعوا إلى الغزو .

ثم إن موسى دعا مولاه طارق بن زياد ، وكان على مقدمات جيوشه ، فبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين [٤] أكثرهم البربر والموالى وأقلهم العرب . فساروا فى البحر . وقصدوا جبلاً

(١) البلاذرى ٢٣٠ : أليان . ابن الأثير ٤ : ١٢١ : يوليان . وجعل ابن القوطية يليان تاجراً يتنقل بين أسبانيا والمغرب .

(٢) يفهم من ابن خلدون ٤ : ٢٥٤ أن غزوتى طريف وطارق تمتا فى وقت واحد .

(٣) المقرى ١ : ١٥٩ : وقيل دخل طريف فى ألف رجل.

(٤) اختلف المؤرخون فى عدد جيش طارق . فهو فى ابن خلدون ٤ ، ٢٥٤ والمقر ١ : ٤٣ : ١٢ زهاء ١٠,٠٠٠ من البربر و ٣٠٠ من العرب ، وفى الإمامة والسياسة ٢ : ٧٣ : ١٧٠٠ .

مُنيفاً [١] فى البحر ، وهو متصل بالبر . فنزله فُسمِّى الجبل جبل طارق . ولما ملك عبد المؤمن البلاد أمر ببناء مدينة على هذا الجبل وسماه جبل الفتح ، فلم يثبت له هذا الاسم ، وجرت الألسن على الاسم الأول . وكان حلول طارق به فى شهر رجب سنة اثنتين وتسعين [٢] .

قال : ولما ركب طارق البحر غلبته عينه ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون والأنصار وقد تقلدوا السيوف وتنكّبوا القسى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم له : « يا طارق تقدم لشأنك » . وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد . ونظر طارق فرأى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه . فاستيقظ من نومه ، وبشر أصحابه ، وقويت نفسه ، وأيقن بالظفر .

فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل نزل إلى الصحراء ، وفتح الجزيرة الخضراء فأصاب بها عجوزاً . فقالت له : « إنّى كان لى زوج ، وكان عالماً بالحوادث ، وكان يحدثهم عن أمير يدخل بلدهم ويغلب عليه ، ووصف من صفته أنه ضخم الهامة وأن فى كتفه الأيسر شامةً عليها شعر » . فكشف طارق ثوبه فإذا الشامة كما ذكرت فاستبشر .

قال : ولما فتح الجزيرة الخضراء وفارق الحصن الذى فى

---

(١) ك : منيعاً .

(٢) ذكر ابن حيان : المقتبس ١ : ١٥٥ أن العبور كان لسبع خلون من ربيع الأول .

الجبل ، بلغ رذريق خبره . فأعظم ذلك ، وكان غائباً فى غزاة فرجع منها ، وقد دخل طارق بلاده . فجمع له جمعاً يُقال بلغ مائة ألف (١) . فكتب طارق إلى موسى يستمده ويخبره بما فتح . فأمده بخمسة آلاف ، فتكامل المسلمون اثنى عشر ألفاً ، ومعهم يليان يدلُّهم على عَوْرة البلاد ويتجسس لهم الأخبار . وأتاهم رُذريق فى جنده . فالتقوا على نهربكّة (٢) من أعمال شَذُونة لليلتيْن بقيتا من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين . واتصلت الحرب بينهم ثمانية أيام (٣) . وكان على ميمنة رذريق وميسرته ولدا الملك الذى كان قبله وغيرهمامن أبناء الملوك . فاتفقوا على الهزيمة بغضاً لرذريق وقالوا : « إنَّ المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقى الملك لنا » . فانهزموا . وهزم الله رذريق ومَن معه وغرق فى النهر (٤) .

وسار طارق إلى مدينة إسْتجَة (٥) فى اتباعهم . فلقيه أهلها ومعهم من المنهزمين خلْق كثير . فقاتلوه قتالا شديدا ثم

(١) المقرى ١ : ١٤٩ ، والإمامة والسياسة ٢ : ٧٤ : ٧٠,٠٠٠ فارس . وفى ابن خلدون ٤ : ٢٥٤ : زهاء ٤٠,٠٠٠ .

(٢) كذا فى ابن القوطية ٥ ، وصححه حسين مؤنس : فجر الأندلس ٧١ . وفى الأصول والمقرى ١ : ١٥٥ ، ١٦٢ : لكة . وفى المقرى ١ : ١٤٤ أيضا كان اللقاء بفحص شريش .

(٣) ابن عذارى المراكشى : ١٣ : اختلفوا أيضا كم أيام المزاحفة التى أعقبها الفتح وانهزم آخرها رذريق . فقيل : يوم كامل . وقيل : يومان . وقيل : ثلاثة . وقيل : ثمانية .

(٤) ابن عذارى المراكشى ٢ : ١٠ ، ١١ ، ١٣ صاحب الإمامة والسياسة ٢ : ٧٤ أن رذريق قتل واحتز رأسه . وذكر ابن عذارى المراكشى ٢ : ١١ أن رذريق لم يعرف له موضع ولا وجدت له جثة ، وانما وجدله خف مفضض فقالوا إنه غرق ، وقالوا إنه قتل . وذكر حسين مؤنس : فجر الأندلس ٧٤ أنه لم يمت .

(٥) ص ، ك ، ر : أسيجة . ابن عذارى المراكشى ٢ : ١٤ : أسجة .

انهزم أهل الأندلس . ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة إستجة أربعة أميال فسميت عين طارق .

قال : ولما سمع القُوط بهاتيْن الهزيمتين ، قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وهربوا إلى طُليْطُلة ، وأخلوا مدائن من الأندلس [١] فقال له يليان : « قد فرغت من الأندلس ، ففرِّق جيوشك ، وسرْ أنت إلى طليطلة » . ففرق جيوشه من مدينه إستجة : فبعث جيشاً إلى قُرْطبة ، وجيشاً إلى أغرناطة [٢] ، وجيشاً إلى مالقة ، وجيشاً إلى تُدْمير [٣] .

وسار هو ومعظم الجيش إلى طليطلة . فلما بلغها وجدها خالية وقد لحق مَن بها بمدينة خلف الجبل يُقال لها مَايَة . قال : وفتح سائر الجيوش الذين بعثهم ماقصدوه من البلاد . قال : ولما رأى طارق طليطلة خالية ، ضم إليها اليهود وترك معهم رجالاً من أصحابه . وسار هو إلى وادي الحجارة . وقطع الجبل من فَج فيه فسُمِّى بفج طارق . وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة [٤] ، وفيها مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام [٥] ، وهى من زبرجدة

(١) ص ، ك : ابن الأثير ٤ : ١٢٢ : وأخلوا مدائن الأندلس .
(٢) ك : غرناطة .
(٣) أنكر ذلك حسين مؤنس : فجر الأندلس ٧٧ ، وذكر أن المسلمين لم يفتحوا غرناطة ومالقة وتدمير الا فى ولاية عبد العزيز بن موسى وإن لم يستبعد أن يكون طارق قد بعث سرايا صغيرة إلى المدن الثلاثة وغيرها لمجرد الاستطلاع لا للفتح .
(٤) رجح حسين مؤنس ٧٩ أنها على مقربة من قلعة هنارس .
(٥) رجح حسين مؤنس ٧٨ أنها مذبح كنيسة طليطلة .

خضراء [١] ، حافاتها وأرجلها منها مكللة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك ، وكان لها ثلاثمائة وستون رجلاً .

ثم مضى إلى مدينة ماية [٢] فغنم منها . ورجع إلى طليطلة فى سنة ثلاث وتسعين . وقيل : إنه اقتحم أرض جِلِّيقِيَة فاخترقها حتى انتهى إلى مدينة اسْتُرْقة ، وانصرف إلى طليطلة . ووافته جيوشه التى وجهها من إستجة بعد فراغهم من فتح تلك المدائن التى سيرهم إليها .

ودخل موسى بن نصير الأندلس فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين فى جمْع كثير [٣] ، وقد بلغه ما صنع طارق فحسده [٤] . فلما نزل الجزيرة الخضراء قيل له : « تسلك طريق طارق ؟ » فأبى . فقال له الأدلاء : « نحن ندلُّك على طرق [٥] أشرف من طريقه ومدائن لم تُفتح بعد » [٦] . ووعده يليان بفتح عظيم ، فسر بذلك . فساروا به إلى مدينة ابن السليم [٧] فافتتحها عنوة . ثم سار إلى مدينة قَرْمُونة ، وهى أحصن [٨] مدن الأندلس . فتقدم إليها يليان وخاصته على حال المنهزمين فأدخلوهم مدينتهم . وأرسل موسى إليهم الخيل

---

(١) ابن الأثير ٤ : ١٢٣ : من زبرجد أخضر .

(٢) استبعد حسين مؤنس ٧٩ أن يكون طارق قد سار إلى ماية Amaya واشترجة Astorga فى ذلك الوقت ، ورجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير .

(٣) ص : جمع كبير .

(٤) ذكر صاحب الإمامة والسياسة ٢ : ٧٤ وابن عذارى المراكشى ٢ : ١٩ أن موسى دخل الأندلس إجابة لاستغاثة من طارق .

(٥) ص ، ابن الأثير ٤ : ١٢٣ : طريق .

(٦) ك : قيل .

(٧) ذكر ابن عذارى المراكشى ٧ : ١٩ أن أول فتوحات موسى مدينة شذونة Sidonia

(٨) ر ، ص : أحسن .

ففتحوها لهم ليلا . فدخلها المسلمون وملكوها . ثم سار موسى إلى إشبيلية ، وهى من أعظم مدائن الأندلس بنياناً وأغربها آثارا [١] فحصرها [٢] أشهرا وفتحها ، وهرب مَن بها . فأنزلها موسى اليهود . وسار إلى مدينة ماردة فحصرها ، وقد كان أهلها خرجوا إليه فقاتلوه [٣] قتالاً شديدا . فكمن لهم موسى ليلاً فى مقاطع الصخر ، فلم يرهُمْ الكفار . فلما أصبحوا زحف إليهم . فخرجوا إلى المسلمين على عادتهم. فخرج عليهم الكمينِ ، وأحْدَقُوا بهم ، وحالوا بينهم وبين البلد ، وقتلوهم قتلاً ذريعاً . ونجا مَن سلم منهم فدخل المدينة ، وكانت حصينة . فحصرهم بها أشهرا . وزحف إليهم بدَبابة عملها ونقبوا سورها . فخرج أهلها على المسلمين فقتلوهم عند البرج فسمِّى برج الشهداء . ثم افتتحها آخر شهر رمضان سنة أربع وتسعين صلحاً [٤] ، على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين [٥] .

ثم إن أهل إشبيلية اجتمعوا وقصدوها ، فقتلوا من بها مِن المسلمين . فسير موسى إليها ابنه عبد العزيز بجيش فحصرها وقتل مَن بها من أهلها .

---

(١) ابن الأثير ٤ : ١٢٣ : وأعزها آثاراً .

(٢) ك : فحاصرها .

(٣) ص : فقاتلهم .

(٤) زاد ابن الأثير ٤ : ١٢٣ : يوم الفطر . فأبان أن الصلح كان فى أول شوال ، كما قال ابن عذارى المراكشى ٢ : ٢٢ وغيره .

(٥) كذا فى الأصول ، وابن عذارى المراكشى ٢ : ٢٢ ، ابن الأثير ٤ : ١٢٣ . وفى المقرى ١ : ١٧١ ، والأخبار المجموعة ١٨ : جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها لها .

وسار عنها إلى لَبْلة وباجة فملكهما وعاد إلى إشبيلية .

قال : وسار موسى من مدينة ماردة فى شوال يريد طليطلة . فخرج طارق إليه فلقيه . فلما أبصره نزل إليه ، فضربه موسى بالسوط على رأسه ، ووبخه على ما كان من خلافه . ثم سار به إلى مدينة طليطلة وطلب منه ما غنم والمائدة . فأتاه بها وقد انتزع رجلاً من أرجلها . فسأله عنها فقال : « لا علم لى بها . كذلك وجدتها » . فعمل عِوَضها من ذهب (١) .

وسار موسى إلى مدينة سَرَقُسْطة ومدائنها فافتتحها .

وأوغل فى بلاد الفرنج . فانتهى إلى مفازةٍ كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً قائماً ، فيه مكتوب : « يابنى إسماعيل ، إلى ها هنا منتهاكم ، فارجعوا . وإنْ سألتم إلى ماذا ترجعون ، أخبركم أنكم ترجعون إلى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض ، وقد فعلتم » . فرجع ووافاه رسول الوليد فى أثناء ذلك يأمره بالخروج عن الأندلس والقفول إليه . فساء ذلك ومَطَل الرسول ، وهو يقصد بلاد العدو فى غير (٢) ناحية الصنم ، يقتل ويسبى ويهدم الكنائس ويكسر النواقيس ، حتى بلغ صخرة بِلاى على البحر الأخضر (٣) ، وهو فى قوة وظهور . فقدم عليه رسول آخر (٤) من الوليد يستحثه ، وأخذ بعنان بغلته وأخرجه . وكان موافاة الرسول له بمدينة لُك

(١) ذهب حسين مؤنس ٨٥ إلى أن المؤرخين بالغوا فيما كان بين الرجلين كثيرا .
(٢) ص : من فير .
(٣) Pena de Pelayo على المحيط الأطلسى .
(٤) أنكر حسين مؤنس ١٠٦ وفود الرسول الثانى .

بجليقية [١] . وخرج على الفج المعروف بفج موسى . ووافاه طارق من الثغر الأعلى فَأَقْفَلَه [٢] معه ، ومضيا جميعاً .

واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى . فلما عبر موسى البحر إلى سبتة استخلف عليها وعلى طنجة وما والاهما ابنه عبد الملك . واستخلف على إفريقية وأعمالها ابنه الكبير عبد الله [٣] . وسار إلى الشام . وحمل الأموال التى غُنمت من الأندلس والذخائر والمائدة ، ومعه ثلاثون ألف بكر من بنات ملوك القُوط وأعيانهم [٤] . ومن نفيس الجوهر والأمتعة مالايُحصى . فورد الشام ، وقد مات الوليد واستخْلف سليمان بن عبد الملك ، وكان منحرفاً عن موسى [٥] بن نصير . فعزله عن جميع أعماله وأقصاه وأغْرمَه غرماً حتى احتاج أنْ يسأل العرب فى معونته [٦] .

وقيل : إنه قدم إلى الشام والوليد حىٌّ . وكان قد كتب إليه ، وادعى أنه هو الذى فتح الأندلس وأخبره خبر المائدة . فلما حضر عنده عرض عليه ما معه وعرض المائدة ، ومعه طارق . فقال طارق : « أنا غنمتها » . فكذبه موسى . فقال طارق للوليد : « سَلْه عن رجلها المعدومة » . فسأله عنها ، فلم يكن عنده منها علم . فأظهرها

(١) هى Marya de Lugo اليوم .

(٢) أقفله : أرجعه .

(٣) لم يذكر صاحب الإمامة والسياسة ٢ : ٨١ ، ٨٢ غير أن موسى استخلف على الأندلس عبد العزيز ، وعلى إفريقية وطنجة والسوس عبد الله .

(٤) شك حسين مؤنس ١٠٧ فى أخذ موسى هذا العدد الغفير معه إلى الشام . وانظر وصف صاحب الإمامة والسياسة ٢ : ٨٢ لموكبه .

(٥) ص ، ر : على موسى .

(٦) استبعد حسين مؤنس ١٠٨ ماروا المؤرخون عن أفاعيل سليمان بموسى .

طارق وذكر أنه أخفاها لهذا السبب . فعلم الوليد صدق طارق . وإنما فعل هذا لأن موسى كان قد ضربه وحبسه حتى أرسل الوليد « أخْرِجْه »[١] وقيل : لم يحبسه .

قالوا : ولما دخلت الروم بلاد الأندلس[٢] ، كان فى مملكتهم بيت إذا ولى ملك منهم أقفل عليه قفلاً . فلما ملكت القوط فعلوا كفعلهم. فلما ملك رذريق فتح الأقفال فرأى فى البيت صور العرب ، عليهم العمائم الحمر على خيول شُهْب ، وفيه كتاب : « إذا فُتح هذا البيت دخل هؤلاء القوم هذا البلد » . ففتحت[٣] الأندلس فى تلك السنة .

ذكر غزو جزيرة سردانية

قال : ولما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره إلى هذه الجزيرة ، وهى فى بحر الروم كثيرة الفواكه . فدخلوها فى سنة اثنتين وتسعين[٤] . فعمد النصارى إلى ما يملكونه من آنية الذهب والفضة فألقوا الجميع فى الماء[٥] . وجعلوا أموالهم فى سقف البِيعة الكبرى التى تحت السقف الأول . وغنم المسلمون منها مالا يُحَد ولايوصف ، وأكثروا الغُلول[٦] . واتفق أن رجلاً من المسلمين اغتسل فى الماء

(١) كذا فى ع . وفى ابن الأثير ٤ : ١٢٤ : فأخرجه . وفى ر : إخراجه .
(٢) ص : دخلت الروم الأندلس .
(٣) ك : ففتح .
(٤) جعل ابن العماد الحنبلى ١ : ٩٧ فتح سردانية فى سنة ٨٧ هـ .
(٥) ابن الأثير ٤ : ١٢٤ : الميناء .
(٦) الغلول : الخيانة ، يريد احتجازهم المغانم لأنفسهم دون اقتسامها .

فعلق فى رجله شىء . فأخرجه ، فإذا هو صَحْفة من فضة . فأخرج المسلمون جميع ما فيه . ودخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة فنظر إلى حَمام . فرماه بسهم فأخطأه ووقع فى السقف . فانكسر لوح ونزل منه شىء من الدنانير . فأخذوا الجميع . وزادوا فى الغلول ، فكان بعضهم يذبح الهِرّ ، ويرمى ما فى جوفه ، ويملأه دنانير ، ويَخيط عليها ، ويلقيه فى الطريق . فإذا خرج أخذه . وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملأه ذهباً . فلما ركبوا فى البحر سمعوا قائلاً يقول : « اللهم غَرِّقهم » . فغرقوا عن آخرهم [1] .

ذكر ولاية محمد بن يزيد مولى قريش ومقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير

قال : ثم استعمل سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش. وقال له عند ولايته : « يامحمد ، اتقِ الله وحده لاشريك له ، وقُم فيما وليتك بالحق والعدل . اللهم اشهد » . فخرج محمد وهو يقول : « مالى عذر إنْ لم أعدل » . وكانت ولايته فى سنة تسع وتسعين [2] . فولى سنتين وشهورا . وكتب إليه سليمان يأمره أنْ يأخذ آل موسى ابن نصير وكل من انتسب إليه حتى يقوموا بما بقى عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولايرفع عنهم العذاب . فقبض على عبد الله والى القيروان

(١) روى ابن عبد الحكم ٢٠٩ هذه القصة عن غنائم الأندلس ثم أنكرها وأكد حدوثها لفاتحى سردانية .

(٢) كذا فى الأصول . وفى ابن عذارى المراكشى ١ : ٤٤ . وفى سنة ٩٧ من الهجرة استقر محمد بن يزيد بافريقية . وجعل ابن عبد الحكم ٢١٣ ولايته فى ٩٦ أو ٩٧. ويبدو أنه ولى فى ٩٦ ووصل إلى إفريقية فى ٩٧ . وانظر زامباور .

فحبسه في السجن . ثم وصل البريد من قبل سليمان يأمر بضرب عنقه.

وأما عبد العزيز فإنه لما استخلفه أبوه موسى على الأندلس سد ثغورها ، وضبط بلادها ، وافتتح مدائن كانت بقيت بعد أبيه ، وكان خيرًا فاضلاً . فتزوج امرأة الملك لذريق . فحظيت عنده ، وغلبت على رأيه . فحملته على أن يأخذ أصحابه بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كما كان يُفعَل بزوجها . فقال : « إن ذلك ليس من ديننا » . فلم تزل به حتى أمر بفتح باب قصير لمجلسه الذى كان يجلس فيه . فكان أحدهم إذا دخل عليه من الباب طأطأ رأسه فيصير كالراكع . فرضيت بذلك وقالت : « الآن لحقت بالملوك . وبقى أنْ أعمل لك تاجاً مما عندى من الذهب واللؤلؤ » . فأبى . فلم تزل به حتى فعل . فانكشف للمسلمين ، فقالوا : « تنصر » . وفطنوا للباب . فثاروا عليه ، فقتلوه فى آخر سنة تسع وتسعين[1] فى آخر خلافة سليمان بن عبد الملك . ثم مكثوا بعد ذلك سنة لا يجمعهم إمام .

وحكى الواقدي قال : لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته ، خلع الطاعة وخالف . فأرسل إليه سليمان رسولاً ، فلم يرجع . فكتب سليمان إلى حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سرًّا بقتله . فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح ، قرأ فاتحة الكتاب ثم قرأ الحاقة[2] . فقال له حبيب : « حَقّت عليك

(١) جعل ابن عبد الحكم ٢١٣ ، الطبرى ٨ : ١١٣ ، ت ٩ : ١٧٠ ، ابن عذارى المراكشى ٢ : ٣١ مقتله فى سنة ٩٧ ، وجعله عبد الواحد المراكشى ١٢ فى صدر ٩٨ . وجعل حسين مؤنس ١٢٩ مقتل عبد العزيز نتيجة مؤامرة محلية دبرها محمد بن يزيد وحبيب بن أبى عبيدة ونفر من الجند.

(٢) السورة ٦٩ . وفى ر ، ابن القوطية ، ابن عذارى المراكشى ٢ : ٣١ وغيرهم سورة الواقعة ، خطأ بدليل عبارة حبيب المقبلة .

ياابن الفاعلة » . وعلاه بالسيف فقتله [١] فحُمل رأس عبد الله ورأس عبد العزيز ابنىْ موسى حتى وُضعا بين يدي أبيهما ، وعُذِّب حتى مات .

وأضيفت ولايةُ الأندلس إلى إفريقية . فاستعمل عليها محمد الحُر بن عبد الرحمن القيسى . ولم يزل محمد بإفريقية إلى أن مات سليمان وولى عمر بن عبد العزيز ، فعزله واستعمل إسماعيل بن عبد الله .

ذكر ولاية اسماعيل بن عبد الله ابن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم

قال : ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة استعمل إسماعيل على إفريقية ، وكان خيروال . فدعا إسماعيل مَن بقى من البربر إلى دين الإسلام . فأسلموا وغلب الإسلام على المغرب جميعه . ودامت ولايته إلى سنة إحدى ومائة ، ، إلى أن توفى عمر بن عبد العزيز وولى يزيد بن عبد الملك ، فاستعمل على إفريقية يزيد بن أبى مُسلم مولى الحجاج فقدمها فى سنة اثنتين ومائة [٢] وقُتل . وقد ذكرنا سبب مقتله فى أخبار يزيد بن عبد الملك [٣] .

ثم ولى بعده بِشْر بن صَفْوان الكَلْبى ، فقدمها فى سنة ثلاث ومائة . فلما قدم استعمل على الأندلس عَنْبَسة الكلبى وعزل الحُر بن عبد الرحمن

(١) ذكر الرازى أن الذى قتله زياد بن عذرة البلوى (ابن عذارى المراكشى ٢ : ٣١) .
(٢) ابن خلدون ٤ : ٤٠٣ : قدم يزيد سنة ١٠١ هـ .
(٣) انظر الصفحة ٣٩٣ من الجزء ٢١ من هذا الكتاب .

القيسى [١] . ثم غزا بشر جزيرة صقلية بنفسه فأصاب سَبْيًا [٢] كثيرا . ثم رجع من غزوته فتوفى بالقيروان فى سنة تسع ومائة فى خلافة هشام بن عبد الملك .

[عبيدة بن عبد الرحمن السلمى]

فلما اتصلت وفاته بهشام استعمل على إفريقية : عبيدة بن عبد الرحمن السُّلَمى وهو ابن أخى أبى الأعور السُّلَمى ، صاحب خيل معاوية [٣] . فأخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم وأغرمهم وتحامل عليهم وعذب بعضهم . وكان فيهم أبو الخَطّار بن ضرار [٤] الكلبى ، وكان قائداً جليلاً ، فقال :

أفَـأتُم بنى - مـروان - قَيْسا دمـاءنـا
وفى الله إنْ لم يَعْدلـوا حَكَـمٌ عَدْل [٥]

كأنكـمُ لم تشهـدوا لىَ وقعـةً
ولم تعلموا مَن كان قَبْـلُ لـه الفَضْل [٦]

(١) هذا خطأ من النويرى . فقد عزل عمر بن عبد العزيز الحر بن عبد الرحمن وعين بدله السمح بن مالك الخولانى فى سنة ١٠٠هـ ، غير أنه استشهد فى ١٠٢ هـ . فأقام الجند عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى أميراً . وهو الذى عزله بشر وأقام مقامه عنبسة بن سحيم الكلبى . انظر ابن عذارى المراكشى ٢ : ٣٣ - ٣٦ .

(٢) ص ، ر : شيئاً .

(٣) زادت رهنا معاوية بن أبى سفيان فى حرب صفين مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

(٤) فى الأصول هنا : أبو طالب بن صفوان ، وفيها بعد : أبو الخطاب بن ضرار . والتصحيح عن ابن عذارى المراكشى ١ : ٥٠ ، ابن الأثير ٤ : ٢٦٠ ، وابن الخطيب : الإحاطة ١٠٨ - ١١٢ ، ابن الجوزى ٤ : ٢٥٩ .

(٥) الشطر الأول فى الأصول : أثارت بنو مروان فينا ومالنا ، والتصحيح عن ر ، ابن عذارى المراكشى ١ ٥٠ يريد جعلتم دماءنا فيئا ومغنما لبنى قيس . وفى ابن الأثير : أفادت بنو مروان . وفى ر ، ابن عذارى المراكشى : إن لم تنصفوا .

(٦) فى الأصول : كأنهم . والبيت فى ابن عذارى المراكشى ، ابن الأثير :
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ولم تعلموا من كان ثم له الفضل .

وقيناكمُ حَرَّ القَنا بصُدورنا
وليس لكم خيلٌ سوانا ولا رَجْل (١)

فلما بلغتم نَيْل ما قد أردتمُ
وطاب لكم فينا المشاربُ والأكل (٢)

تغافلتُم عنا كأنْ لم نكن لكم
صديقا وأنتم ما علمتم لنا وَصْل

وبعث بها إلى هشام . فلما قُرئت عليه غضب وأمر بعزل عبيدة. فقَفَل (٣) عنها ، واستخلف على إفريقية عُقْبة بن قُدامة التُّجيبي ، وترك بها عبد الله بن المغيرة بن بُرْدة القرشي قاضياً ، وذلك فى شوال سنة أربع عشرة ومائة (٤) .

[عبيد الله بن الحبحاب مولى بنى سلول]

ثم استعمل هشام عبيد الله بن الحَبْحاب مولى بنى سَلول ، وكان رئيساً كاتباً بليغاً ، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها . وهو الذى بنى الجامع ودار الصناعة بمدينة تونس . وكانت ولايته فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائة (٥) .

---

(١) البيت فى ابن الأثير : وقيناكم حر القنا بنحورنا وليس لكم خيل تعد ولا رجل
(٢) البيت ساقط من ص . وفى ر : وطاب لكم فيها .
(٣) قفل : رجع .
(٤) ابن خلدون ٣ : ٢٩٩ : سنة ١١١ هـ ، ولكن انظر ٤ : ٤٠٤ .
(٥) ابن عبد الحكم ٢١٧ ، وابن عذارى ١ : ٤١ : ربيع الآخر . وذكر ابن خلدون ٤ : ٤٠٤ أن عبيد الله ولى إفريقية فى ١١٤ هـ . وفى ابن الأثير ٤ : ٢١٩ : وقيل بل ولى عبيد الله بن الحبحاب إفريقية سنة سبع عشرة ... وهذا أصح .

فاستعمل على طنجة وما والاها عمر بن عبد الله المُرادى (١) . فأساء السيرة وتعدى فى الصدقات والقَسْم (٢) . وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فَىءٌ للمسلمين ، وذلك مالم يرتكبه عامل قبله . وإنما كانت الولاة يخمسون من لم يُجِب منهم إلى الإسلام . فانتقضت البربر بطنجة على عبيد الله وتداعت عليه بأسرها ، وذلك فى سنة اثنتين وعشرين ومائة . وهى أول فتنة كانت بإفريقية فى الإسلام .

وخرج مَيْسَرة المدْغرى (٣) وقتل عمر المرادى . وظهر بالمغرب فى ذلك الوقت قوم جَرَت منهم دعوة الخوارج ، وصار منهم عدد كبير (٤) وشوكة قوية . قال : فبعث عبيد الله الجيوش من أشراف (٥) العرب لقتال المدْغرى (٦) ، وجعل عليهم خالد بن أبى حبيب الفهرى . وأردفَه بحبيب بن أبى عبيدة . فسار خالد حتى أتى ميسرة دون طنجة . فالتقوا واقتتلوا قتالاً لم يُسمع بمثله . ثم انصرف ميسرة إلى طنجة . فأنكرت عليه البربر سوء سيرته (٧) ، وتغيروا عما كانوا

---

(١) ابن الأثير ٤ : ٢٢٢ ، ابن خلدون ٤ : ٤٠٤ استعمل على طنجة ابنه إسماعيل وجعل معه عمر بن عبدالله المرادى . وفى ابن عذارى ١ : ٥١ استعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه إسماعيل ثم عمر بن عبد الله المرادى .

(٢) ر : ابن عذارى ١ : ٥٢ : الصدقات والعشر .

(٣) من قبيلة مدغرة البربرية ، ويكتب أيضاً بالضاد بدل الدال . وجعل ابن خلدون (٦ : ١٨٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ وغيرها) اسم القبيلة بالطاء . وحرف اسمه كثيراً فى المصادر المختلفة ويدعى أيضاً ميسرة الحقير .

(٤) ك : كثير .

(٥) ك : فى أشراف .

(٦) المدغرى : كذا فى ر ، وهو الصواب . وفى بقية الأصول : المرادى . سبق قلم .

(٧) ك : سوء سريرته .

بايعوه عليه ، وكان قد بويع بالخلافة فقتلوه وولوا أمرهم خالد بن حميد الزَّناتى (١) .

ثم التقى خالد بن أبى حبيب بالبربر ، وكان بينهم قتالٌ شديد . فبينما هم كذلك إذ غشيهم خالد بن حميد الزناتى بعسكر عظيم . فانهزم أصحاب خالد بن أبى حبيب . وكره هو أن ينهزم فألقى (٢) بنفسه هو وأصحابه فقُتل هو ومن كان معه ، ولم يسلم منهم أحد . وقُتل فى هذه الوقعه حُماة العرب وفرسانها فسميت وقعة الأشراف .

وانتقضت البلاد ومرِج الناس واختلفت الأمور على عبيد الله . فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم وبلغ ذلك هشام (٣) ابن عبد الملك فقال (٣) : « أقتل أولئك الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من العرب ؟ » . قيل : « نعم » فقال : « والله ، لأغضَبن لهم غضبةً عربيةً ، ولأبعثن إليهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندى . ثم لا تركت حصن بربرى إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسى أو يمنى » (٤) . وكتب إلى عبيد الله بن الحبحاب يستقدمه . فخرج فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة .

قال : وكان عبيد الله لما قدم إفريقية استعمل على الأندلس عُقْبة ابن الحجاج وعزل عَنْبسة (٥) . فلما بلغ أهل الأندلس ثورة البربر وثبوا

---

(١) ص : الرمانى . تحريف .

(٢) فى جميع الأصول : فالتقى بنفسه .

(٣ — ٣) عن رو حدها .

(٤) يمنى : كذا فى ر . وفى بقيه الأصول : تميمى .

(٥) كذا فى الأصول ، وهو خطأ ، لأن عنبسة بن سحيم الكلبى مات فى سنة ١٠٧ هـ . أما الوالى الذى عزله ابن الحبحاب فهو عبد الملك بن قطن الفهرى ، فى ولايته الأولى .

على عقبة فعزلوه . وولوا عليهم عبد الملك بن قَطَن الفهْرى . قال : ثم استعمل هشام بن عبد الملك على إفريقية كُلْثوم بن عياض القُشَيْرى ، فقدم فى شهر رمضان [١] سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وقد عُقد له على اثنى عشر ألف فارس من أهل الشام . وكتب إلى والى كل بلد أن يخرج معه ، فسار معه عمال مصر وبرقة وطرابلس . فلما قدم إفريقية نكَّب عن القيروان وسار إلى سبتة . واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عُقبة الغفَارى ، وهو إذ ذاك قاضى إفريقية وكان حبيب بن أبى عبيدة [٢] مواقف البربر .فسار كلثوم ومَن معه حتى وافى البربر ، وهم على وادى طنجة [٣] ، وهم فى ثلاثين ألفاً . وتوجه إليهم خالد بن حميد الزناتى فصاروا فى جميع كبير [٤] . فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدا ، فقُتل كلثوم بن عياض ، وحبيب ابن أبى عبيدة ، وسليمان بن أبى المهاجر ، ووجود العرب . وانهزمت العرب ، وكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس ، وعبروا فى المراكب ، وهزيمة أهل مصر وأهل إفريقية إلى إفريقية .

قال : ولما بلغ أهل إفريقية قتل كلثوم ، كان بها هرج . فثار عكاشة بن أيوب الفَزارى مخالفاً على الناس بمدينة قابس ، وكان صُفْرياً ، وهو الذى قدم على طليعة أهل الشام مع عبيد الله بن الحبحاب

---

(١) ابن عبد الحكم ٢١٨ : ولى كلثوم فى جمادى الآخرة.

(٢) ك : حبيب بن عبيدة . تحريف .

(٣) اختلف المؤرخون فى موضع الواقعة . فجعله ابن عذارى ١ : ٧ ، وابن خلدون ٤ : ٤٠٦ ، ٦ : ٢٢٢ : وادى سبوا . وابن القوطية ١٥ : بقدورة . وصاحب الأخبار المجموعة ٣١ نقدورة أو بقدورة .

(٤) ص : كثير .

فسار إليه عبد الرحمن بن عقبة فقاتله . فانهزم عكاشة ، وقُتل كثيرٌ من أصحابه ، وتفرق مَن بقى منهم .

[حنظلة بن صفوان الكلبى]

ولما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك ، بعث إلى إفريقية حنظلة بن صَفْوان الكَلْبى ، وكان عامله على مصر [١] ولاه عليها فى سنة تسع عشرة ومائة ، فأقام بها إلى أن بعثه إلى إفريقية . فقدمها فى شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة . فلم يمكث بالقيروان إلا يسيرا حتى زحف إليه عكاشة الصُّفْرى الخارجى فى جمع عظيم من البربر ، لم يَرَ أهل إفريقية مثله ولا أكثر منه ، وكان لما انهزم جمع قبائل البربر . وزحف إلى حنظلة أيضاً عبد الواحد بن يزيد الهوارى فى عدد عظيم وكانا قد افترقا من الزاب : فأخذ عكاشة على طريق مَجانة فنزل القرن ، وأخذ عبد الواحد على طريق الجبال فنزل [٢] طَبِيناس ، وعلى مقدمته أبوقرة المغيلى [٣] . فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة قبل أن يجتمعا عليه ، فزحف إليه بجماعة أهل القيروان . والتقوا بالقرن وكان بينهم قتالٌ شديد فنى فيه خلق كثير [٤] . وهزم الله عكاشة ومَن معه . وقُتل من البربر مالا يُحصَى كثرة . وانصرف حنظلة إلى القيروان خوفاً أن يخالفه عبد الواحد إليها .

---

(١) الكندى : ولاة مصر ١٠٣ – ١٠٤ . وقال ابن عبد الحكم ٢٢١ إن هشاماً وجه حنظلة فى صفر .

(٢) فنزل : ساقطة من ك ، ع .

(٣) كذا فى ابن عذارى ١ : ٦٢ ، وهو الصواب . وفى الأصول : أبو عمرة العتكى .

(٤) ص : كبير .

وقيل : إن عبد الواحد لما وصل إلى باجة ، أخرج إليه حنظلة رجلاً من لَخْم فى أربعين ألف فارس . فقاتلوه بباجة شهرا فى الخنادق والوعر . ثم انهزم اللخمى إلى القيروان ، وفقد ممن معه عشرين ألفاً .

ونزل عبد الواحد بالأصنام من جُراوةَ ثلاثةَ أميال [١] عن القيروان ، وكان فى ثلاثمائة ألف [٢] . فأخرج حنظلة جميع مافى الخزائن من السلاح ، ونادى فى الناس . فكان يعطى لكل منهم درعاً وخمسين دينارا . فلم يزلْ يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس ، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين . ولم يقدم إلا شاباً قوياً . فعبأ الناس طول ليلته والشمع [٣] حوله وبين يديه . فعبأ فى تلك الليلة خمسة آلاف دارع [٤] وخمسة آلاف نابِل . وأصبح وقدّم للقتال . وكسرت العرب جفون سيوفها . والتقوا واقتتلوا . ولزم الرجال الأرض وجثَوا على الرُّكَب فانكسرت ميسرة العرب وميسرة البربر ثم كرت ميسرة العرب على ميمنة البربر . فكانت الهزيمة على البربر . وقُتل عبد الواحد وأُتى حنظلة برأسه فخر ساجدا لله . وقيل : إنه ماعُلم فى الأرض مقتلة أعظم منها قُتل فيها من البربر مائة ألف وثمانون ألفًا . وكانوا صُفْرية يستحلون الدماء وسبي النساء . ثم أُتى بعكاشة أسيراً فقتله حنظلة . وكتب بذلك إلى هشام . فكان الليث بن سعد [٥] يقول : « ماغزوةٌ كنتُ أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام [٦] » .

---

(١) ابن عبد الحكم ٢٢٢ : ستة أميال .

(٢) استكثر حسين مؤنس : فجر الأندلس ١٧٧ هذا العدد .

(٣) ر : والشمعة .

(٤) ك : مائة ألف دارع . والدارع : صاحب الدرع . والنابل : صاحب النبل .

(٥) إمام أهل مصر حديثاً وفقها . ولد بقلقشندة ٩٤ هـ ومات بالقاهرة ١٧٥ هـ . وقال الإمام الشافعى عنه : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به . وله مؤلفات .

(٦) ابن الأثير : ٤ : ٢٢٤ : غزوة العرب بالأصنام .

ذكر أخبار عبد الرحمن بن حبيب وتغلبه على افريقية ورجوع حنظلة الى المشرق

كان عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى قد هرب إلى الأندلس عند هزيمة كلثوم . فلم يزلْ يحاول أن يغلب [١] على الأندلس ، وهو لا يمكنه ذلك ، إلى أن وَجَّه حنظلة بن صفوان أبا الخَطار بن ضرار الكلبي إلى الأندلس وأطاعه الناس ودانت له البلاد . فخاف عبد الرحمن على نفسه . فخرج مستترا وركب فى البحر إلى تونس . فنزل بها فى جمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومائة [٢] . ودعا الناس إلى نفسه فأجابوه .

وسار حتى نزل سِمِنْجة [٣] . فأراد أصحاب حنظلة الخروج لقتاله فمنعهم حنظلة كراهةً لهراقة دماء المسلمين ، وكان رجلاً وَرِعاً زاهدا لا يرى بذل السيف إلا فى الكفرة والصُّفْرية الذين يستبيحون دماء المسلمين . فوجه حنظلة إلى عبد الرحمن جماعة من وجوه أهل إفريقية يدعوه إلى مراجعة الطاعة والرجوع عما هو عليه .فلما قدموا عليه أوْثَقهم فى الحديد . وقال : « إنْ رمانى أحد من أوليائهم بحجر قتلتهم » فبلغ ذلك من الناس كل مبلغ [٤] . فلما رأى حنظلة ذلك دعا القاضى وجماعة من أهل الدين والفضل . وفتح بيت المال بحضرتهم

---

(١) ر : يتغلب .

(٢) كذا فى ابن عذارى ١ : ٦٥ أيضاً . وفى ابن الأثير ٤ : ٢٧٨ ، وابن خلدون ٤ : ٤٠٧ سنه ست وعشرين .

(٣) كذا فى الأصول . وعند حسين مؤنس ١٧٩ : سبخة .

(٤) ذكر ابن عبد الحكم ٢٢٣ أن حبيباً استمالهم بالأموال فانقلبوا على حنظلة .

وأخذ منه ألف دينار وترك الباقى . وقال : « ما آخذ منه إلا بقدر ما يكفينى ويبلّغنى » ثم شخص عن إفريقية فى جمادى الآخرة[١] سنة سبع وعشرين ومائة[٢] .

وأقبل عبد الرحمن بن حبيب ودخل القيروان ونادى مناديه ألا يخرج أحد إلى حنظلة ولا يشيعه . وكان حنظلة مجاب الدعوة فقال : « اللهم لا تُهنْ عبد الرحمن بن حبيب هذا الملك ولا أهله ، واسفكْ دماءهم بأيديهم ، وابعث عليهم شرار خلقك » . ودعا على أهل إفريقية[٣] . فوقع الوباء والطاعون بها سبع سنين لايكاد يرتفع إلا إلا وقتاً فى الشتاء ووقتاً فى الصيف .

قال : ولما ولى عبد الرحمن ، ثار عليه جماعة من العرب والبربر ثم ثار عليه عروة بن الوليد الصَّدَفى[٤] واستولى على تونس . ثم ثار عليه عرب الساحل . وقام ابن عطّاف الأزدى[٥] حتى نزل بَطبيناس . وثارت البربر من الجبال . وثار ثابت الصنهاجى بباجة فأخذها . وخرج بناحية طرابلس رجلان يُقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث ، وهما من البربر على دين الخوارج . فقاتل كل من خرج عليه ، طائفةً بعد أخرى بنفسه وبجيوشه ، حتى دَوَّخ المغرب كله ،

---

(١) الآخرة : كذا فى ر ، دى سلان . وفى ع ، ك بياض . وفى ابن عبد الحكم ٢٢٤ ، وابن عذارى ١ : ٦٥ : الأولى .

(٢) ابن عذارى ١ : ٦٥ : سنة ١٢٩ .

(٣) ص : على إفريقية .

(٤) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٧٩ ، ابن عذارى ١ : ٦٦ . وفى ابن خلدون ٤ : ٧٠٧ الصوفى وفى اليعقوبى ٣٥٧ : عقبة بن الوليد الصدفى . وفى الأصول : عروة بن الزبير الصدفى.

(٥) ابن الأثير ٤ : ٢٧٩ : أبو عطاف عمران بن عطاف الأزدى .

وأذلَّ مَن به من القبائل . ولم ينهزم له عسكر ولارُدَّت له راية . وخافه جميع أهل المغرب .

وكتب إلى مروان بن محمد ، وأهدى له هدية ، وتقوّل على حنظلة ، ونسب إليه ما لم يقع منه . فكتب إليه مروان بولاية إفريقية والمغرب كله والأندلس .

ثم قُتل مروان وانقرضت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية . فكتب عبد الرحمن إلى أبى العباس السفاح بطاعته ، وأقام الدعوة العباسية . فلما صار الأمر إلى أبى جعفر المنصور كتب إلى عبد الرحمن يدعوه إلى الطاعة . فأجابه وكتب بطاعته ، وأرسل إليه بهدية نَزْرة كان فيها بُزاة وكلاب . وكتب إليه : « إن إفريقية اليوم إسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها . فلا تسألنى ماليس قبَلى » . فغضب أبو جعفر المنصور وكتب إليه يتوعده . فلما وصل كتابه إليه غضب غضباً شديداً . ثم نادى : « الصلاة جامعة » . فاجتمع الناس فى المسجد الجامع . ثم خرج عبد الرحمن فى مُطْرَف خَزّ ، وفى رجليه نعلان . فصعد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ فى سب أبى جعفر . ثم قال : « إنى ظننت هذا الخائر (١) يدعو إلى الحق ويقوم به ، حتى تبين لى منه خلاف ما بايعته عليه من إقامة الحق والعدل . وأنا الآن قد خلعته كما خلعت نَعْلىَّ هاتين » . وقذفهما وهو على المنبر . ثم دعا بخلعة أبى جعفر التى كان أرسلها إليه ، وفيها سواده — وكان قد لبسها قبل ذلك ودعا

(١) كذا فى ع ، أى الضعيف . وفى ر ، وابن عذارى ١ : ٧٦ : الخائن . وفى ص ، ك : الجائر .

فيها لأبي جعفر ، وهو أول سَواد لُبس بإفريقية - فأمر بتخريقها وحرقها . وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتاباً بخلعه ، ويُقرأ على المنابر فى سائر بلاد المغرب ، ففعل ذلك .

ذكر مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية أخيه الياس بن حبيب وقتله وولاية حبيب بن عبد الرحمن وقتله

كان سبب قتل عبد الرحمن أنه لما قُتل مروان بن محمد الحمار هرب جماعة من بنى أمية ومعهم حَريمهم نحو إفريقية ، فتزوج عبد الرحمن وإخوته منهم . وكان ممن قدم عليه ابنان للوليد بن يزيد ابن عبد الملك ، يقال لأحدهما العاص (١) والآخر [عبد] (٢) المؤمن . وكانت ابنة عمهما تحت إلياس بن حبيب . فأنزلهما عبد الرحمن بدار شيبة (٣) بن حسان . وتسلّك عليهما ليسمع كلامهما وكانا على نبيذ ، وغلامهما يسقيهما . فقال العاص : « ما أغفل عبد الرحمن ! أيظن أنه يتهنى معنا بولاية ونحن أولاد الخلفاء ؟ » . فنزل وانصرف ولم يعلما به (٤) ثم أمر بقتلهما . فقالت ابنة عمهما لزوجها إلياس : « إنه قتل أختانك تهاوُنًا بك ، وجعل العهد من بعده لابنه حبيب وأنت صاحب حربه وسيفه الذى يصول به » ! ولم تزل

(١) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٧٩ ، ونسب قريش للزبيرى ١٦٧ . وفى الأصول وابن خلدون ٤ : ٤٠٧ : القاضى . تحريف .

(٢) زيادة عن ابن الأثير ٤ : ٢٧٩ ، وابن خلدون ٤ : ٤٠٧ . ولم يذكره الزبيرى فى نسب قريش ١٦٧ ، وإنما ذكر من أبنائه موسى ، وربما حرف هذا إلى مؤمن فالمؤمن ثم عبد المؤمن.

(٣) دى سلان : شبة .

(٤) ذكر ابن عذارى ١ : ٦٧ أنهما علما وفرا ولكنه أدركهما .

تغريه به . وكان عبد الرحمن إذا ثار عليه ثائر أو خرج عليه خارجى يرسل [١] أخاه إلياس لقتاله . فإذا ظفر ، نسب الظفر لابنه حبيب وجعل العهد فيه . فاجتمع رأى إلياس بن حبيب وعبد الوارث أخيه على قتل عبد الرحمن أخيهما . ووالاهما على ذلك جماعة من أهل القيروان والعرب [٢] وغيرهم ، على أن يكون الأمر لإلياس ، والدعاء لأبي جعفر المنصور . فأتاه إلياس ليلاً فاستأذن عليه بعد العشاء الآخرة . فقال : « ماجاء به وقد ودعنى ؟ » وكان إلياس قد عزم على الخروج إلى تونس . وأذن له ، فدخل [٣] عليه وهو فى غلالة وردية وابن له صغير فى حجره . فقعد طويلاً وعبد الوارث يغمز . فلما قام يودعه ، أكب عليه يعانقه ، فوضع السكين بين كتفيه حتى صارت إلى صدره . فصاح عبد الرحمن وقال : « فعلتها ياابن اللخناء ؟ » . ثم ضربه إلياس بالسيف . فاتقاه [٤] بمرفقه ، فأبان يده . وضربه حتى أثخنه . ودهش إلياس وخرج هارباً . فقال له أصحابه : « مافعلت ؟ ». قال : « قتلته » . فقالوا : « ارجع وحُزّ رأسه ، وإلا قُتلنا عن آخرنا » . ففعل . وثارت الصيحة . وأخذ إلياس [٥] أبواب دار الإمارة .

وسمع حبيب بن عبد الرحمن الصيحة فهرب من القيروان . وأصبح بقرب تونس فدخلها ، واجتمع مع عمه عمران بن حبيب.

---

(١) ك: أرسل .

(٢) ك: الغرب. وفى ابن عذارى ١ : ٧٧ : أهل القيروان من العرب .

(٣) ص : فخرج .

(٤) ص : فأبقاه . ع دون نقط . ك: فالتقاه .

(٥) أى سيطر عليها . وفى ك: الناس .

ولحق بهما موالى عبد الرحمن من كل ناحية . فخرج إليهما إلياس إلى سمنجة . فوافياه بمن معهما ، وهَموا بالقتال [١] . ثم اصطلحوا على أن يعود عمران إلى ولاية تونس وصَطْفورة والجزيرة ، ويكون حبيب على قفصة وقصيطلة ونفزاوة ، ولإلياس سائر إفريقية والمغرب .

ومضى إلياس مع عمران إلى تونس ، وانصرف حبيب إلى القيروان . فوثب إلياس على أخيه عمران ، وعلى عمر بن نافع بن أبى عبيدة الفهرى ، وعلى الأسود بن موسى بن عبد الرحمن بن عقبة وعلى ابن قطن ، فشَدهم وثاقًا ، ووجههم فى سفينة إلى الأندلس إلى يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة [٢] .

وانصرف إلى القيروان فبلغه عن حبيب أخبار كرهها . فأغرى إلياس به ، وأرسل إليه مَن زَين له الخروج إلى الأندلس ، ففعل . وجهزه إلياس فى سفينة . فتعذّرت عليهم الريح . فكتب إلى إلياس أن الريح قد ردته ، وأن المسير لا يمكنه . فاتهمه إلياس وخاف ناحيته . وكتب إلى عامله [٣] سليمان بن زياد الرُّعَيْنى يحذره أمره . فاجتمع إلى حبيب موالى أبيه ، فأسروا سليمان بن زياد وشدوه وثاقا وكان معسكرا يُحارس حبيبا . وأخرجوا حبيبا إلى البر وأظهروا أمره . فتوجه إلى الأُرْبُس [٤] فأخذها .

وبلغ خبره إلياس فتوجه إليه . واجتمع لكل واحد منهما جماعة .

---

(١) ابن الأثير ٤ : ٢٨٠ : واقتتلوا قتالا يسيراً . ابن خلدون ٤ : ٤٠٨ : فاقتتلوا مليا.
(٢) ابنه والى الأندلس . وفى ابن الأثير ٤ : ٢٨٠ ، وابن خلدون ٤ : ٤٠٨ أنه قتلهم.
(٣) على طبرقة (ابن عذارى ١ : ٧٨) .
(٤) ك : الأندلس . خطأ .

فلما التقيا ، قال حبيب لعمه إلياس : « لمَ نقتل موالينا وصنائعنا بيننا وهم لنا حصن ؟ ولكن ابرز أنت وأنا ، فأينا قتل صاحبه استراح منه : إنْ قتلتَنى ألحقتنى بأبى ، وإن قتلتك أدركت ثأرى منك » . فارتاب إلياس ساعة . فنادى الناس : « قد أنصفك فلاتجبن ، فإن ذلك سُبَّة [1] عليك وعلى ولدك من بعدك » . فخرج كل منهما إلى صاحبه والتقيا ساعة . فضرب إلياس حبيبا فأعمل السيف فى ثيابه ودرعه ووصل إلى جسمه [2] . فعطف حبيب عليه وضربه بالسيف ضربة سقط بها عن فرسه إلى الأرض . فألقى حبيب نفسه عليه فحز رأسه ثم أمر برفعه على رمح . وهرب عبد الوارث بن حبيب ومن كان معه إلى بطن من البربر يقال لهم وَرْفَجُومة [3] ودخل حبيب القيروان وبين يديه رأس إلياس ، ورأس محمد بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع عم أبيه ، ورأس محمد بن المغيرة بن عبد الرحمن القرشى . وجاءه محمد بن عمرو بن مصعب الفزارى وهو زوج عمة أبيه مهنئا له ، فضرب عنقه . وكان ذلك كله فى شهر رجب سنة ثمان وثلاثين ومائة .

قال : ولما وصل عبد الوارث بن حبيب ومن معه إلى ورفجومة نزلوا على عاصم بن جميل الورفجومى . فكتب إليه حبيب يأمره أن يوجه بهم إليه ، فلم يفعل ، فنَهد [4] إليه حبيب . ولقيه عاصم واقتتلوا فانهزم حبيب . وكان قد استخلف على القيروان أبا كُرَيب جميل بن

---

(١) كذا فى ص ، ع . وفى ك : مسبة . وفى ر : سيئة .

(٢) ر : جسده .

(٣) فى الأصول : ورقجومة . والتصحيح عن ر ، دى سلان ، وابن الأثير ٤ : ٢٨٠ ، وابن عذارى ١ : ٨٠ . وفى ابن خلدون ٤ : ٤٠٩ : وربجومة .

(٤) نهد : برز .

كريب القاضى . فقوى أمر ورفجومة ، وكاتَبَهم بعض وجوه القيروان خوفا منهم على أنفسهم . فزحف عاصم بن جميل وأخوه مُكرَّم بالبربر [١] وبمن لجأ[٢] إليهم وصاروا بناحية قابِس . فلما قربوا من القيروان ، خرج إليهم أبو كريب القاضى بأهل القيروان . حتى إذا دنوا من بعضهم ، خرج من عسكر عاصم جماعة من أهل القيروان ، فخذلوا الناس ودعَوْهم إلى عاصم . فافترق أكثر الناس عن أبى كريب ورجعوا إلى القيروان . وثبت أبو كريب فى نحو ألف رجل من وجوه الناس ، وأهل البصائر والخشية والدين . وقاتلوا فقُتل أبو كريب . وقاتل من معه حتى قُتلوا . ودخلت ورفجومة القيروان . فاستحلوا المحَارم وارتكبوا العظائم . ونزل عاصم بعسكره بالموضع الذى يسمى مصلى روح .

واستخلف على القيروان عبد الملك بن أبى جَعْدة [٣] النَّفْزى . وسار إلى حبيب وهو بقابس . فقاتله فانهزم حبيب ولحق بجبل أوراس وهم أخوال أبيه . فسار عاصم فى طلبه إلى أوراس ، والتقوا واقتتلوا ، فهُزم عاصم وقُتل هو وأكثر أصحابه . وأقبل حبيب إلى القيروان . فخرج إليه عبد الملك بن أبى جعدة والتقوا . فقُتل حبيب فى المحرم سنة أربعين ومائة . فكانت ولاية عبد الرحمن بن

(١) د : البربر .
(٢) ك : نجا .
(٣) ابن الأثير ٤ : ٢٨٠ ، وابن خلدون ٤ : ٤١٠ ، ٦ : ٢٣١ : عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومى . وورفجومة إحدى القبائل المتفرعة من نفزاوة . وفى ابن عذارى ١ : ٨١ : عبد الملك بن أبى الجعدى اليفرنى .

حبيب عشر سنين وأشهرا [١] ، وولاية إلياس ستة أشهر ، وولاية حبيب بن عبد الرحمن سنة واحدة وستة أشهر. [٢]

ذكر تغلب ورفجومة على افريقية وما كان منهم ومن ولى بعدهم الى أن ولى محمد بن الأشعث

قال : ولما حكمت [٣] ورفجومة على القيروان ، قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب ، وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع . وندم الذين أعانوهم أشد ندامة .

قال : ثم دخل رجل من الإباضية القيروان فرأى ناسا من الورفجوميين قد أخذوا امرأة وأرادوها على نفسها [٤] ، والناس ينظرون . فترك حاجته التى أتى فيها ، وخرج إلى أبى الخطاب عبد الأعلى [٥] بن السَّمْح المَعافرى ، فأعلمه بالذى رأى . فخرج وهو يقول : « لبيك اللهم لبيك » . فاجتمع إليه أصحابه من كل

---

(١) ابن الأثير ٤ : ٢٨٠ ، ابن عذارى ١ : ٧٧ : وسبعة أشهر .

(٢) كذا فى الأصول ، وهو الصواب. وفى ابن الأثير ٤ : ٢٨١ ، ابن عذارى ١ : ٨٠، ٨١، ابن خلدون ٤ : ٤٠٩ : كانت إمارة عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية عشر سنين وأشهرا وإمارة أخيه الياس سنة وستة أشهر ، وإمارة ابنه حبيب ثلاث سنين . وتدل مقارنة التواريخ التى اتفقوا عليها جميعا مع النويرى على خطأ المدد التى ذكروها هم .

(٣) ك : دخلت .

(٤) كذا فى ص ، ع . وفى ك ، ر : وراودوها عن نفسها .

(٥) كذا فى ر ، ابن الأثير ٤ : ٢٨١ ، اليعقوبى ٢ : ٣٨٦ ، ابن خلدون ٤ : ٤١٠، ابن عذارى ١ : ٨١ ، والزاوى ١١٩ ، وولاة مصر ١٣١ . والسير الشماخى ١٢٣ ، والخلاصة النقية ١٧ ، ومرآة الجنان ١ : ٢٩٣ . وفى ص ، أ ، ت : عبد العلاء .

مكان . وتوجهوا نحو طرابلس فأخرجوا منها عمر بن عثمان القرشى ، واستولى عليها أبو الخطاب [١] .

ثم سار إلى القيروان فخرج إليه عبد الملك بن أبى جعدة بجماعة ورفجومة . والتقوا فقُتل عبد الملك وأصحابه ، وذلك فى صفر سنة إحدى وأربعين . فكان تغلّب ورفجومة على القيروان سنة وشهرين . وتبع أبو الخطاب من انهزم منهم فقتلهم . ثم انصرف إلى القيروان فولى عليها عبد الرحمن بن رستم القاضى ، ومضى إلى طرابلس . فصارت طرابلس وما يليها وإفريقية كلها فى يده ، إلى أن وجه أبو جعفر المنصور محمد ابن الأشعث فى سنة أربع وأربعين .

ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعى

قال : لما غلبت الصُّفْرية على إفريقية بعد أن قتلت ورفجومة من قتلت من عربها ، خرج جماعة إلى أبى جعفر المنصور ، منهم عبد الرحمن ابن زياد بن أنْعُم ، ونافع بن عبد الرحمن السُّلَمى ، وأبو البهلول بن عبيدة ، وأبو العِرْباض . فأتوا المنصور يستنصرون به على البربر ، ووصفوا عظيم مالقوه منهم [٢] . فولى المنصور أبو جعفر محمد بن الأشعث مصر [٣] . فوجه أبا الأحْوص عمرو بن الأحوص العجْلى

(١) ص : واستولى أبو الخطاب عليها .

(٢) ك : لاقوه فيهم .

(٣) ذكر البلاذرى ٢٣٢ ، والطبرى ٩ : ١٤٨ وابن كثير ١٠ : ٥٦ : أن السفاح هو الذي ولى محمد بن الأشعث على مصر ثم إفريقية فى سنة ١٣٣ أو فى آخر عهده . وذلك خطأ لأن الذى ولاه هو أبو جعفر المنصور فى سنة ١٤١ هـ . (ولاة مصر للكندى ١٣٠) .

إلى إفريقية . فهزمه أبو الخطاب فى سنة اثنتين وأربعين .

فكتب أبو جعفر المنصور إلى محمد بن الأشعث يأمره بالمسير بنفسه ، ووجه إليه الجيوش . فخرج فى أربعين ألفا [1] : ثلاثين ألف فارس من أهل خراسان ، وعشرة آلاف من أهل الشام . ووجه معه الأغلب بن سالم التّميمى والمحارب بن هلال الفارسى ، والمُخارق بن غِفار الطائى ، وأمرهم بالسمع والطاعة له . فإن حدث به حدث كان أميرهم الأغلب ، فإن حدث به حدث فالمخارق ، فإن حدث به حدث فالمحارب بن هلال . فمات المحارب قبل وصولهم إلى إفريقية . وبلغ أبا الخطاب خروج محمد بن الأشعث إليه ، فجمع أصحابه من كل ناحية . ومضى فى عدد عظيم فوصل إلى سُرْت . واستقدم عبد الرحمن بن رستم من القيروان ، فقدم بمن معه .

فضاق ابن الأشعث ذَرْعا بلقاء أبى الخطاب لما بلغه من كثرة جموعه . فاتفق تنازع زَناته وهَوارة فيما بينهم . فقتلت هوارة رجلا من زناته . فاتهمت زناتة أبا الخطاب فى ميله مع هوارة ، ففارقه جماعة منهم . فبلغ ذلك ابن الأشعث فسر به . وضبط أفواه السكك حتى انقطع خبره عن أبى الخطاب . فرجع إلى طرابلس .

ووصل ابن الأشعث إلى سُرْت . فخرج إليه أبو الخطاب حتى صار بورَدْاسَة . فلما قرب منه ذكر ابن الأشعث لأصحابه أن خبرا

(١) البلاذرى ٢٣٢ : فى سبعين ألفا ويقال فى أربعين ألفا . ويبدو أنه ضم إليهم عشرة آلاف من أهل مصر ، لأن ابن الأثير ٤ : ٢٨١ ذكر أن جيشه كان خمسين ألفا . وسيرد ذكر المصريين فى جيشه بعد ذلك ، على بعض القراءات .

أتاه من المنصور بالرجوع إلى المشرق [١] . وأظهر لهم المسرة بالرجوع . فشاع ذلك فى الناس . وسار منصرفا ميلا ثم نزل . فانتهى ذلك إلى أبى الخطاب وسمع به من معه ، فتفرق كثير منهم . ثم أصبح ابن الأشعث فسار أميالا متثاقلا فى سيره . وفعل ذلك فى اليوم الثالث . ثم اختار أهل الجَلَد والقوة من جيشه [٢] ، وسار بهم ليله كله . فصبح أبا الخطاب وقد اختل عسكره . فلما التقوا ترجّل جماعة من أصحاب ابن الأشعث وقاتلوا . فانهزم البربر وقُتل أبو الخطاب وعامة من معه ، وذلك فى شهر ربيع الأول [٣] من سنة أربع وأربعين ومائة . فكانت عدة من قُتل من البربر أربعين ألفا [٤] .

ولما انتهى الخبر إلى عبد الرحمن بن رستم هرب إلى تَيْهَرْت واختطها وبلغ أهل القيروان خبر أبى الخطاب ، فأوثقوا عامل ابن رستم وولوا عليهم عمرو بن عثمان القرشى إلى أن قدم محمد بن الأشعث .

ووصل ابن الأشعث إلى طرابلس فاستعمل عليها المخارق بن غفار الطائى .

ووجه إسماعيل بن عكرمة الخُزاعى إلى زَويلة وما والاها ، ففتح تلك النواحى وقتل من بها من الخوارج .

وتوجه محمد إلى القيروان ، وأمر ببناء سورها ، وذلك فى يوم السبت غرة جمادى الأولى . فبُنى فى ذى القعدة ، وكان تمامه فى

(١) ك : الشرق .
(٢) ك : فى جيشه .
(٣) وكذا فى ابن عذارى ١ : ٨٣ . وفى ابن الأثير : صفر .
(٤) الزاوى من كتاب السير للشماخى ١٢٣ : نحو اثنى عشر الفا .

شهر رجب سنة ست وأربعين . وضبط إفريقية وأعمالها . وأمعن فى قتل كل من خالفه من البربر فخافوه خوفا شديدا وأذعنوا له بالطاعة .

ثم فسد عليه جنده بعد ذلك ، وتحدثوا أن المنصور كتب إليه يأمره أن يَقْدَم عليه وأنه أبى ذلك . فاجتمع رأيهم على إخراجه وتولية عيسى بن موسى الخُراسانى . فلما رأى ذلك علم أنه لا طاقة له بهم . فخرج فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة . وقام بأمر الناس عيسى بن موسى من غير أمر أبى جعفر ولا رضا العامة إلا أن قواد المُضَرِية (١) تراضوا به .

ذكر ولاية الأغلب بن سالم ابن عقال بن خفاجة التميمى

قال : ولما بلغ المنصور ما كان من المُضَرية وصَرْفهم محمد بن الأشعث ، بعث إلى الأغلب عهده بولاية إفريقية ، وكان بطُبْنَة . فقدم إلى القيروان وأخرج عيسى بن موسى فى جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين . وأخرج جماعة من قواد المضرية واستقامت له الحال .

ثم خرج عليه أبو قُرَّة فى جمع كثير من البربر . فسار إليه الأغلب فى جميع قواده ، فهرب منه . وقدم الأغلب الزاب ، وعزم على الرحيل إلى تلمْسان ثم إلى طنجة . فاشتد ذلك على الجند ، وجعلوا يتسللون

(١) كذا فى ص ، ع ، ر ، ابن خلدون ٤ ٤١١ . وفى ك : المصرية . ولعلها الأصوب لما ذكرت فى تكوين جيشه ؛ وجعلها ابن الأثير ٤ ٢٨٢ مرة المصرية ومرة المضرية . وفى اليعقوبى ٣٨٦ : من بالبلد من الجند وأهل خراسان .

عنه ويخرجون ليلا إلى القيروان ، حتى بقى فى نفر يسير من وجوههم .

وكان الحسن بن حرب الكندى بتونس . فلما خرج الأغلب يريد أبا قرة ، كاتب جماعة من القواد . فلحق به بعضهم الذين فارقوا الأغلب من الزاب . فأقبل إلى القيروان ، ووازره على ذلك بسطام بن الهذيل القائد والفضل بن محمد وغيرهما ، فدخل القيروان من غير ممانعة . وحبس سالم بن سوادة التميمى ، وهو الذى استخلفه الأغلب على القيروان عند رحيله منها . وبلغ الخبر الأغلب فأقبل فى عدة يسيرة ممن صبر على طاعته . وكتب إلى الحسن بن حرب يعرّفه (١) فضل الطاعة وعقبى المعصية . فأعاد جوابه وكتب فى آخره :

ألا قُولا لأغلب غيرَ سر
مُغلغلةً من الحَسن بن حربِ
بأنَّ البَغْىَ مَرْتَعُه وَخيمٌ
عليك وقُرْبُه لك شرُّ قرب
وإنْ لم تَدْعُنى لتَنالَ سَلْمى
وإلا فأذنُ من طَعْنى و ضربى (٢)

فأقبل الأغلب نحوه يُجِد السير (٣) . فأشار عليه أصحابه الذين معه بالمصير إلى قابس ، وأن يلطُف بالناس حتى يرجعوا عن الحسن إليه . ففعل ذلك . وقدم رسول المنصور إلى الأغلب ، وإلى الحسن بن حرب يدعوه إلى الطاعة فلم يفعل . فزحف إليه الأغلب

(١) ص : فعرفه .
(٢) الشطر الثانى فى ابن عذارى ١ : ٨٧ ، ر : وعفوى فادن من طعن وضرب .
(٣) كذا فى ص ، ع . وفى ك ، ر : المسير .

واقتتلوا قتالا شديدا . فانهزم الحسن وقُتل من أصحابه خلق كثير . فرجع إلى تونس . وأقبل الأغلب إلى القيروان .

وحشد الحسن بن حرب وسار فى عدة عظيمة إلى القيروان . فجمع الأغلب أهل بيته وخاصته وأعلمهم أنه يُلاقى الحسن وحده إنْ لم يُعنْه (١) أحد . فلما قرب ، خرج إليه الأغلب فشد هو وأصحابه على الميمنة فكشفهم . ثم انصرف وهو يقول :

لم يبقَ إلا القلبُ أو أمـــوتُ
إن تَحْمَ لى الحـربُ فقـد حَميتُ
وإنْ تولَّيتُ فـلا بقيـتُ

ثم حمل على القلب فلم يثن حَدَّه حتى قُتل بسهم أصابه ، وذلك فى شعبان سنة خمسين ومائة . قال : ولما سقط الأغلب صاح الناس : « قُتل الأمير » . وارتفعت الأصوات بذلك . قال : وكان سالم بن سوادة فى الميمنة هو وأبو العنبس (٢) . فقال سالم لأبى العنبس : « لا أنظر إلى الدنيا بعد اليوم » . ودفع فى عسكر الحسن بن حرب ، فقَتل من أصحاب الحسن مَقْتلةً عظيمة . ووُجد الحسن بن حرب مقتولا .

---

(١) ك : فلم يعنه .

(٢) كذا فى ص ، ع ، ك . وفى ر : أبو العباس ، ولعله يريد المخارق بن غفار الطائى (ابن الأثير ٥ : ٢٦) .

ذكر ولاية عمر [١] بن حفص هزارمرد

وتفسيره بالفارسية ألف رجل ، ويكنى أبا جعفر . وكان شجاعا بطلا . وهو من ولد قَبيصة بن أبى صُفْرة أخى المُهَلَّب . استعمله المنصور على إفريقية لما بلغه قتل الأغلب . فقدمها فى صفر سنة إحدى وخمسين ومائة فى خمسمائة فارس . فاجتمع إليه وجوه الناس ، فوصلهم وأحسن إليهم . فاستقامت له الأمور ثلاث سنين وأشهرا من ولايته .

ثم سار إلى الزاب فنزل طُبْنَة . واستخلف على القيروان حبيب ابن حبيب بن يزيد بن المهلب ، وكان كتاب المنصور قدم عليه بالشخوص إلى الزاب لبناء طبنة . فخلت إفريقية من الجند فثار بها البربر . فخرج إليهم حبيب وقاتلهم فقُتل . واجتمع البربر بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب [٢] مولى كِنْدة ، وهو الذى يسمى أبا قادم . وكان عامل عمر على طرابلس الجُنَيْد بن سَيار الأَزْدى [٣] ، فبعث إليهم الجنيد خيلا عليهم خازم بن سليمان . فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم خازم وأصحابه ولحقوا بالجنيد بطرابلس .

فكتب الجنيد إلى عمر يستمده . فبعث إليه خالد بن يزيد المهلبى فى أربعمائة فارس . فاجتمع هو والجنيد والتقيا مع البربر . فانهزم خالد والجنيد إلى قابس .

---

(١) ابن عذارى : عمرو بن حفص .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٥ : ٣٢ ، وابن خلدون ٦ : ٢٢٦ ، ٤ : ٤١٢ . وفى اليعقوبى ٢ : ٣٨٦ يعقوب بن تميم . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٥٥ ، وابن عذارى ١ ٢٩ يعقوب بن لبيب .

(٣) كذا فى الأصول . وفى دى سلان : الجنيد بن يسار . وفى ابن الأثير ٥ : ٣٢ ، وابن خلدون ٤ : ٤١٢ ، والزاوى ١٢٧ : الجنيد بن بشار الأسدى .

فبعث عمر بن حفص سليمان بن عباد المهلبي في جماعة من الجند. فلقى أبا قادم [١] بقابس ، فقاتله . فانهزم سليمان إلى القيروان . فسار إليها وحصرها ، وعمر مقيم بطُبْنة ، وقد صارت إفريقية وأعمالها نارا تتقد .

وأتى البربر من كل مكان ، ومضوا إلى طُبْنة فأحاطوا بها وهم في اثنى عشر عسكرا : أبو قُرَّة الصُّفْرى في أربعين ألف فارس ، وعبد الرحمن بن رستم الإباضى فى خمسة عشر ألف فارس [٢] ، وأبو حاتم فى عدد كثير ، وكان إباضيا ، وعاصم السُّدْراتى الإباضى فى سبعة آلاف ، والمسْوَر [٣] الزَّناتى الإباضى فى عشرة آلاف فارس ، وعبد الملك بن سُكَرديد الصِّنْهاجى الصُّفْرى فى ألفى فارس ، وجماعة غير هؤلاء ، وليس مع عمر إلا خمسة آلاف وخمسمائة [٤] .

فلما رأى ما حل به جمع قواده فاستشارهم فى مناجزتهم . فأشاروا عليه ألا يخرج من المدينة . فأعمل الحيلة فى صَرْف الصُّفْرية ، ووجه إليهم رجلا من أهل مِكْناسَة يقال له إسماعيل بن يعقوب . ودفع إليه أربعين ألف درهم وكُسًا كثيرة ، وأمره بدفع ذلك إلى أبى قرة على أن ينصرف عنهم . فقدم عليه وعرض المال والكسا . فقال له : « أبعد أربعين سنة يُسلِّم على بالإمامة أبيع حربكم بعَرَض قليل من الدنيا ؟

(١) كذا فى ص ، ر : وفى ع ، ك : أبا خازم ، خطأ ، ولعلها محرفة عن : أبا حاتم .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٥ : ٣٢ ، وابن عذارى ١ : ٨٨ ، وابن خلدون ٤ : ٤١٣ . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٢٦ : فى ستة آلاف ، خطأ .

(٣) وكذا فى ابن خلدون ٤ : ٤١٣ ، ٦ : ٢٢٢ . وفى ابن الأثير ٥ : ٣٢ : المسود . وفى ابن عذارى ١ : ٨٨ : المصور . تحريف .

(٤) ص ، ر : ولم يبق مع عمر . وفى ك : إلا خمسمائة .

لاحاجة لى به » . فانصرف إلى ابنه وقيل إلى أخيه [١] . ودفع إليه أربعة آلاف درهم وأثوابا على أن يعمل فى صرف أبيه ورَد الصفرية إلى بلدهم فعمل ذلك من ليلته . فلم يشعر أبو قرة حتى ارتحل العسكر منصرفين إلى بلدهم . فلم يجد بُدا من اتباعهم .

فلما انصرف [٢] الصفرية وجه عمر مَعْمر بن عيسى السَّعْدى فى ألف وخمسمائة إلى ابن رستم ، وهو بتَهُوذا فى خمسة عشر ألف فارس . فالتقوا فانهزم ابن رستم ووصل إلى تَيْهَرْت .

ثم أقبل عمر بن حفص يريد القيروان . واستخلف على طُبْنة المُهَنّا بن المُخارق بن غفار الطائى . فلما بلغ أبا قرة مسيره ، أقبل بجموعه وحصر المهنا بطبنة . فخرج إليه وقاتله . فانهزم أبو قرة واستباحوا عسكره .

وكان أبو حاتم لما حاصر القيروان أقام عليها ثمانية أشهر ، وليس فى بيت مالها درهم واحد ولا فى أهْرائها [٣] شىء من الطعام . وكان الجند فى تلك المدة يقاتلون البربر طرفى النهار حتى جهَدهم الجوع ، وأكلوا دوابهم وكلابهم . فجعل الناس يخرجون فيلحقون بالبربر . فبلغ ذلك عمر فأقبل يريد القيروان فى نحو سبعمائة من الجند حتى نزل مدينة الأُرْبُس فبلغ البربر إقباله ، فرجعوا إليه بأجمعهم ورحلوا عن القيروان . فلما بلغه إقبالهم توجه إلى ناحية

---

(١) ابن الأثير ٥ : ٣٢ وابن عذارى ١ : ٨٩ : أخيه . ابن خلدون ٦ : ٢٢٢ ٧ : ١٥ : ابنه .

(٢) ص : انصرفت .

(٣) الأهراء : جمع هرى ، وهو المستودع يجمع فيه الطعام .

تونس ، وأخذ السير . ومضى البربر حتى صاروا بناحية سمنجة . وسار عمر من تونس وخرج جميل بن صخر من القيروان ، فالتقوا فى بئر السلامة . ثم أقبل حتى دخل القيروان . فبث خيوله حول القيروان وجعل يُدخل إليها ما يُصلحه من الطعام والحطب وغير ذلك . واستعد للحصار ، وخندق خندقا على باب أبى الربيع فعسكر فيه الجند .

ثم قدم أبو حاتم فى جنوده وقد بلغوا مائة ألف وثلاثين ألفا . فقاتله عمر بمن معه أشد قتال . فانكشف حتى صار إلى القسطاط . ثم اقتتلوا بالقسطاط . واشتد قتالهم وكاثَرُوه حتى انحاز [1] إلى الخندق بباب أبى الربيع . وكان عمر يخرج إليهم فى كل يوم ويقاتلهم فمازالوا على ذلك [2] حتى فنيت أقواتهم وأكلوا دوابهم والسنانير [3] . فاضطرب على عمر أمره وضجر أصحابه وساءت آراؤهم . فقال لمن معه من الجند : « قد كان أصابكم من الجهد أمر عظيم حتى قدمت عليكم ففرج الله عنكم بعض ما كنتم فيه . وقد ترون ما أنتم الآن فيه . فإن شئتم خرجت أنا على ذراريهم وبلادهم . وجعلت عليكم أى الرجلين شئتم : جميلا أو المخارق . وأخرج فى ناس من الجند فأُغير على نواحيهم وآتيكم بالميرة » . فقالوا : « قد رضينا » . وكان قد اجتمع حول القيروان من الإباضية مع أبى حاتم ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا : الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا . فلما هم بالخروج ، اختلفوا عليه وقالوا : « تحب أن تخرج ونبقى

(١) ر : انحازوا .

(٢) ك : كذلك .

(٣) ص ، ر : دوابهم والكلاب والسنانير ، وهى القطط . وفى ك : وهلكت دوابهم والسنانير .

نحن فى الحصار ، لاتخرج وأقم معنا » . قال : « نعم ، أقيم معكم وأخرج جميلا والمخارق ومن أحببتم » . قالوا : « نعم » . فلما جاءوا إلى باب المدينة قالوا : « تقيم أنت فى الراحة ونخرج نحن ! لا والله لا نفعل » . فغضب عمر وقال : « والله لأُورِدنَّكم حياض الموت » .

وجاءه وهو محصور كتاب خُليدة بنت المُعارك امرأته تخبره فيه : إن أمير المؤمنين قد استبطأك فبعث يزيد بن حاتم إلى إفريقية ، وهو قادم فى ستين ألفا ، ولا خير فى الحياة بعد هذا . قال خراش[1] ابن عَجْلان : فأرسل إلى فجئته ، وقد ثار عرق بين عينيه وكان علامة غضبه . فأقرأنى الكتاب فدمعت عيناى . فقال : « مالك ؟ » . فقلت : « وما عليك أن يقدمَ رجل من أهلك فتخرج من هذا الحصار ؟ » . فقال : « إنما هى رقدة حتى نُبعَث إلى الحساب فاحفظ وصيتى » .

قال خراش : فأوصى بما أحب . وخرج كالبعير الهائج . فلم يزل يطعن ويضرب حتى قُتل ، وذلك فى يوم السبت للنصف من ذى الحجة سنة أربع وخمسين ومائة[2] .

فلما قُتل بايع الناس جميل[3] بن صخر ، وهو أخو عمر لأمه . فلما طال عليه الحصار دعاه ذلك إلى موادعة أبى حاتم . فصالحه على أن جميلا وأصحابه لايخلعون طاعة سلطانهم ولاينزعون سوادهم ، وعلى أن كل دم أصابه الجند من البربر فهو هَدَر ، وعلى أن لايُكرهوا أحدا

(١) ك : حراش ، مرة ، وجراش ، أخرى .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٥ : ٣٢ ، ابن عذارى ١ : ٩٠ ، وابن خلدون ٤ : ٤١٣ ، ٦ : ٢٢٧ . وفى الطبرى ٩ : ٢٨٤ ، وابن تغرى بردى ٢ : ٢٠ ، وابن كثير ١٠ : ١١٠ ، واليعقوبى ٢ : ٣٨٦ ، وابن العماد ١ : ٢٣٤ : سنة ١٥٣ .

(٣) وكذا ابن عذارى ١ : ٩٠ . وفى ابن الأثير ٥ : ٣٢ وابن خلدون ٤ : ٤١٣ : حميد .

من الجند على بيع سلاحهم ودوابهم . فأجابهم إلى ذلك أبو حاتم . ففتح جميل أبواب المدينة وخرج أكثر الجند إلى طُبْنة . وأحرق أبو حاتم أبواب المدينة وأثّر فى سورها .

وبلغه قدوم يزيد بن حاتم فتوجه إلى طرابلس ، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السَّمْح (١) المَعافرى . ثم بعث إليه أبو حاتم يأمره بأخذ سلاح الجند ، وألا يجتمع منهم اثنان فى مكان واحد ، وأن يوجه إليه بهم واحدا بعد واحد . فاجتمعوا واستوثق بعضهم من بعض بالأيمان المؤكدة أن لا يرضوا بهذا . وقويت قلوبهم بيزيد بن حاتم . فلقوا عمر بن عثمان الفهرى واتفقوا معه وولوه أمرهم . فقَبِله وقام على أصحاب أبى حاتم فقتلهم . واتصل ذلك بأبى حاتم فزحف من طرابلس . فلقى عمر بن عثمان ومن معه . فاقتتلوا فقُتل من البربر خلق كثير . ومضى عمر بن عثمان وأصحابه نحو تونس . ومضى جميل بن صخر والجنيد ابن سيار هاربين نحو المشرق .

وخرج أبو حاتم فى طلب عمر بن عثمان . ووجه قائدا من قواده يقال له جرير بن مسعود المديونى على مقدمته . فأدركه بجِيجَل من ناحية كُتامة . فقاتلوه فقُتل جرير بن مسعود وأصحابه . وانصرف عمر والمخارق فدخلا تونس ، ومضى أبو حاتم إلى طرابلس حين بلغه قدوم يزيد بن حاتم . ولحق جميل بن صخر بيزيد وهو بسُرْت . فأقام إلى أن لقى أبا حاتم .

---

(١) ابن خلدون ٤ : ٤١٤ : بن السبع .

فيقال : إنه كان بين الجند والبربر من لدن قتالهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة .

ذكر ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة
ابن المهلب بن أبى صفرة

قال : ولما اتصل بأبى جعفر المنصور حال عمر بن حفص وحَصْره ثم بلغه أنه قُتل ، غَمَّه ذلك وساءه . فوجه يزيد بن حاتم فى ثلاثين ألفا من أهل خراسان ، وستين ألفا من أهل البصرة والكوفة والشام (١) . فأقبل حتى صار إلى سُرْت . فاجتمع بجميل ابن صخر وبمن معه من الجند القادمين عليه من القيروان ، وسار نحو طرابلس . فسار أبو حاتم إلى جبال نفوسة . وجعل يزيد على مقدمته سالم بن سَوادة التَّميمى . فالتقى سالم هو وأبو حاتم ، واقتتلوا قتالا شديدا . فانهزم سالم وأصحابه ، ورجعوا إلى عسكر يزيد .

وهال أبو حاتم أمر يزيد فطلب أوعر المنازل وأمنعها ، فعسكر فيها ، وخَنْدَق على عسكره . فأتاه يزيد من ناحية الخندق ، والتقوا واقتتلوا . فقُتل أبو حاتم وأهل البصائر من أصحابه ، وانهزم الباقون . وطلبهم يزيد فقتلهم قتلا ذريعا . وبعث خيله فى طلبهم بكل ناحية . فكان عدة من قُتل منهم ثلاثين ألفا . ويقال : إنه لم يُقتَل من الجند

(١) لم يتابعه أحد فى ذلك. وعند ابن الأثير ٥ : ٣٧ ، والبلاذرى ٢٣٣ والطبرى ٩ : ٢٨٥ ، وابن تغرى بردى ٢ ٢١ ، وابن كثير ١٠ : ١١١ : خمسين ألفا . وابن خلدون ٤ : ٤١٤ : ستين ألفا ، كما ذكر النويرى من قبل .

إلا ثلاثة . وذلك فى يوم الاثنين لثلاث بقين[١] من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين ومائة . وأقام يزيد بمكانه ذلك نحوا من شهر . وبث خيله فى طلب الخوارج فقتلهم فى كل سهل وجبل .

ثم رحل حتى نزل قابس فدخلها لعشر بقين من جمادى الآخرة[٢] . واستقامت له الأمور بعد أن قتل البربر بكل ناحية . وبنى يزيد المسجد الأعظم بالقيروان ، وجدده فى سنة سبع وخمسين [٣] . ورتب أسواق القيروان ، وجعل كل صناعة فى مكانها ، حتى لو قيل : إنه الذي مَصَّرها ، لم يُبْعَد من الحق .

ولم تزل البلاد مستقيمة والأمور ساكنة مدةَ حياته إلى أن توفي فى شهر رمضان سنة سبعين ومائة[٤] فى خلافة الرشيد . وكان كريما شجاعا نافذ الرأى ، بعيد الصيت ، غاية فى الجود . وهو القائل :

لا يألف الدرهمُ المَضْروبُ خِرْقَتنا
إلا لِماما قليلا ثم ينطلقُ[٥]
يَمُر مَرا عليها وهى تَلْفظه
إنى امرؤ لم يُحالف خرْقَتى الوَرِق[٦]

---

(١) ر : بقيت .

(٢) جعل ابن عذارى ١ : ٩٤ ذلك التاريخ موعد دخول يزيد القيروان لا قابس ، وتابعه الزاوى ١٣١ ، والناصرى ١ : ١٣١ وإن جعل الشهر جمادى الأولى . ويبدو أن الخطأ من النويرى لأن بقية المؤرخين يذكرون دخول يزيد القيروان وإن لم يحددوا الشهر ولم يأبهوا لدخوله قابس .

(٣) كذا فى ص ، ع و ابن عذارى ١ : ٩٥ . وفى ك : خمس وخمسين . خطأ .

(٤) وكذا فى ابن العماد ١ : ٢٧٤ ، وابن خلدون ٤ : ٤١٥ ، وابن كثير ٥ : ٣٣ . وفى الذهبى ١ : ٨٣ ، وابن عذارى ١ : ٩٦ : سنة ١٧١ هـ . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٨٨ سنة ١٦١ ، ولعلها محرفة عن ١٧١ هـ .

(٥) ابن عذارى ١ : ٩٧ : مايألف ... لماما يسيرا . دى سلان : المضروب صرتنا .

(٦) الورق : الدراهم المضروبة .

وله أخبار بإفريقية تدل على كرمه وبعْد همته . فمن مشهورها أن بعض وكلائه أتاه يوما فقال : « أعز الله الأمير ! أُعطيت فى الفول الذى زرعناه بفَحْص القيروان كذا وكذا ! » . فذكر ما لا جليلا . فسكت وأمر قَهْرمانه وطباخه أن يخرجا إلى ذلك الموضع . وأمر فراشيه أن يضربوا قُبة ، فضربوا مضارب كثيرة . وخرج مع أصحابه فتنزه فيه وأطعم . فلما أراد الانصراف دعا بالوكيل وأمر بأدبه وقال له : « يا ابن اللَّخْناء ، أردت أن أُعيَّر بالبصرة فيقال : يزيد بن حاتم باقلانى ! أمثْلى يبيع الفول ، لا أمَّ لك ؟ » . ثم أمر بإباحته . فخرج الناس إليه من بين آكل وشارب ومتنزه حتى أتوا على جميعه .

ومن أخباره المشهورة أنه خرج متنزها إلى مُنْية الخيل ، فنظر فى طريقه إلى غنم كثيرة . فقال : « لمن هذه ؟ » قالوا : « لابنك إسحاق » . فدعا به فقال له : « ألك هذه الغنم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « لمَ أردتها ؟ » . قال : « آكل من خرافها وأشرب من ألبانها وأنتفع بأصوافها » . قال : « فإذا كنت أنت تفعل هذا ، فما بينك وبين الغنامين والجزارين فرق » . وأمر أن تُذبح وتُباح للناس . فانتهبوها وذبحوها وأكلوا لحومها . وجعلوا جلودها على كُدْية ، فهى تعرف بكدية الجلود (١) .

وله مكارم يطول شرحها رحمه الله تعالى .

---

(١) الكدية : الأرض الغليظة

ذكر ولاية داود بن يزيد بن حاتم

قال : ولما مرض يزيد استخلف ابنه داود ، فاستقل بالأمر بعده [١] فانتقض عليه البربر بجبال باجة ، وخرج صالح بن نُصَير النَّفْرى [٢] فى الإباضية . فلقيه المهلَّب بن يزيد بباجة . فهزموه وقتلوا من أصحابه جماعة . فوجه إليهم داود سليمان بن الصِّمَّة بن يزيد بن حبيب ابن المهلب فى عشرة آلاف فارس . فهزم البربر وتبعهم وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف ، وسلم الجند . قال : وانضم إلى صالح ابن نصير جماعة من مَشْيَخة البربر . فزحف إليهم سليمان بن الصمة فقتل من أهل البصائر منهم وانصرف إلى القيروان .

وأقام داود على إفريقية حتى قدم عمه رَوْح بن حاتم أميرا . فكانت ولاية داوود تسعة أشهر ونصف شهر . وسار إلى المشرق [٣] فأكرمه الرشيد وولاه مصر ، ثم ولى السند فمات بها .

ذكر ولاية روح بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب بن أبى صفرة

قال : ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم استعمل روح بن حاتم على المغرب ، وكان أكبر من يزيد سنا . فوصل إلى القيروان فى شهر

---

(١) ك : وحده .

(٢) وكذا فى ابن خلدون ٤ : ٢٢٨ ، ٢٣٢ . وفى ابن عذارى ١ : ٩٩ : نصر بن صالح .

(٣) ك : الشرق .

رجب سنة إحدى وسبعين ومائة[١] فى خمسمائة فارس من الجند . ثم لحق به ابنه قَبيصَة فى ألف وخمسمائة فارس . ولم تزل البلاد معه هادئة والسبل آمنة . ومُلِىء البربر منه رعبا . ورغب فى موادعة عبد الوهاب [٢] بن رستم الإباضى صاحب تيهرت ، وهو الذى تنسب إليه الوهبية . فلم تزل الأحوال مستقيمة مدة ولايته إلى أن توفى لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وسبعين ومائة .

ذكر ولاية نصر بن حبيب المهلبى [٣]

قال المؤرخ : كان روح بن حاتم قد أَسَنّ وكبر ، وإذا جلس للناس غلبه النوم [٤] من الضعف . فكتب أبو العنبر القائد وصاحب البريد إلى الرشيد بضعفه وكبره ، وأنهما لا يأْمنان موته ، وهو ثَغْر لا يقوم بغير سلطان ، وذكرا نصر بن حبيب ، وحسن سيرته ، ومحبة الناس له . وقالا : « إنْ رأى أمير المؤمنين ولايته فى السر إنْ حدث بروح حادث حتى يرى أمير المؤمنين رأيه » . فكتب الرشيد عهده سرا .

---

(١) ابن تغرى بردى ٢ : ٣ : سنة ١٧٢ .

(٢) وكذا فى ابن خلدون ٤ : ٤١٥ ، والناصرى ١ : ١٣٤ . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٢٨ والزاوى ١٣٣ : عبد الرحمن . وقد مات عبد الرحمن فى سنة ١٧١ وخلفه ابنه عبد الوهاب .

(٣) وكذا فى اليعقوبى ٢ : ٤١١ ، وابن الأثير ٥ : ٩٥ ، وابن خلدون ٤ : ٤١٥ وابن عذارى ١ : ١٠٤ . وفى ابن الأثير ٥ : ٩٤ ، وابن خلدون ٤ : ٤١٥ والناصرى ١ : ١٣٥ حبيب بن نصر . ولكن ابن عذارى ذكر أن هذا الوالى كان على شرطة يزيد بن حاتم بمصر وإفريقية . وصرح الكندى : ولاة مصر ١٣٥ ، ١٣٨ بأن نصرا كان أحد قواد يزيد فعلا . ولم يذكر ابن عبد الحكم ٢٣٣ نصرا بين ولاة إفريقية .

(٤) ص : غلب عليه النوم .

فلما مات روح فُرش لابنه قبيصة فى الجامع فجلس واجتمع الناس للبيعة له . فركب أبو العنبر وصاحب البريد إلى نصر ومعهما عهده . فأوصلاه العهد وسلّما عليه بالإمرة [١] ، وأركباه إلى المسجد فيمن معهما . فأقاما قبيصة وأجلسا نصرا . وقُرئ كتاب الرشيد على الناس فسمعوا وأطاعوا . فَبَسط العدل وأحسن إلى الناس .وأقام واليا على المغرب سنتين وثلاثة أشهر .

وكان الفضل بن روح لما مات أبوه عاملا على الزاب ، فلما ظهر كتاب الرشيد بولاية نصر سار إلى الرشيد ، ولزم بابه حتى ولاه المغرب .

ذكر ولاية الفضل بن روح

قال : ولما ولاه الرشيد كتب إلى إفريقية بعزل نصر ، وأن يقوم بإفريقية المهلب بن يزيد إلى أن يقدم . ثم قدم فى المحرم سنة سبع وسبعين ومائة .

وولى على تونس ابن أخيه المُغِيرة بن بِشْر بن رَوْح ، وكان غِرا فاستخف بالجند ، وسار فيهم بغير سيرة من تقدمه ، ووثق أن عمه لا يعزله . فاجتمعوا وكتبوا إلى الفضل كتاباً يخبرونه بسوء صنيع المغيرة فيهم وقبيح [٢] سيرته . فتثاقل الفضل عن جوابهم . فانْضاف هذا إلى أمور كانوا قد كرهوها من الفضل منها استبداده برأيه دونَهم . فاجتمعوا وولوا أمرهم عبد الله

(١) ك ، ر : بالإمارة .
(٢) كذا فى ع . وفى ص ، ك ، ر : قبح .

ابن الجارُود وهو المعروف بعَبْدُويهْ [١] وبايعوه بعد أن استوثق منهم [٢] .

ثم انصرفوا إلى دار المغيرة فحصروه . فبعث إليهم يسألهم ما الذى يريدون . فقالوا : « ترحل عنا وتلحق بصاحبك أنت ومن معك » . وكتب عبدويه إلى الأمير الفضل :

« من عبد الله بن الجارود .

أما بعد ، فإنا لم نخرج المغيرة إخراجَ خلاف عن طاعة ، ولكن لأحداث أحدثها فيها فساد الدولة . فوَلِّ علينا من نرضاه وإلا نظرنا لأنفسنا ، ولا طاعة لك علينا والسلام » .

فكتب إليه : « من الفضل بن روح إلى عبد الله بن الجارود .

أما بعد ، فإن الله عز وجل يُجْرِى قضاياه فيما أحب الناس أو كرهوا ، وليس اختيارى واليا اخترته لكم أو اخترتموه بحائل دون شىء أراد الله عز وجل بلوغه فيكم . وقد وليتُ عليكم عاملا ، فإن دفعتموه فهو آية النُّكْث منكم . والسلام » .

وبعث عبد الله بن يزيد [٣] المهلَّبى عاملا على تونس . وضم إليه النَّضْربن [٤] حَفْص ، وأبا العنبر ، والجنيد بن سيار . فلما وصل ظاهر تونس ، أشار أصحاب عبدويه عليه بقَبْضه

(١) وكذا فى ابن الأثير ٥ : ٩٥ . وفى ابن خلدون ٤ : ٤١٦ عبد ربه . وفى ابن عذارى ١ : ١٠٥ : عبد الله بن عبد ربه بن الجارود .

(٢) كذا فى الأصول ، وأصلحتها رخطأ إلى : استوثقوا ، لأن رواية الأصول تتفق مع موقف ابن الجارود .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٥ : ٩٥ ، وابن خلدون ٤ : ٤١٦ . وفى ابن عذارى ١٦١ عبد الله بن محمد .

(٤) كذا فى ابن عذارى ١ : ١٠٩ ، وفى الأصول : النصر .

هو ومن معه وحبسهم . فخرج أصحاب عبدويه إلى عبد الله ابن يزيد ، فحملوا عليه وقتلوه وأسروا من معه . فقال عبدويه : « ما لهذا بعثتكم ، فأما إذ وقع فما رأيكم [1] ؟ » فأجمعوا على الخلاف .

وأخذوا فى المكائد . وتولى أمر عبدويه محمد بن الفارسى ، وهو الذى أثار هذه الفتنة . وشرع فى مكاتبة القواد وإفسادهم ، ووعد كل واحد منهم أنه يوليه الأمر . ففسد الحال على الفضل. وكانت أمور يطول شرحها ، وحرب آخرها أن ابن الجارود سار فيمن معه إلى القيروان ، وقاتل الفضل وهزمه ، واستولى على البلد وأخرجه منها . ثم قبض عليه وأراد أن يحبسه . فقال أصحابه : « لا نزال فى حرب مادام الفضل حيا » . فدافع عنه محمد بن الفارسى وأشار أن لا يقتلوه . فقاموا إليه وقتلوه . فعند ذلك أمر عبدويه المهلب بن يزيد ونصر بن حبيب وخالدا وعبد الله بن يزيد بالخروج من إفريقية ، فخرجوا كلهم .

ذكر أخبار عبد الله بن الجارود

قال : ولما قُتل الفضل واستولى عبد الله على القيروان ، سمع شَمْدُون القائد ما صنع بالفضل ، فقام غضباً له . واجتمع فى الأُرْبُس هو وفَلاح بن عبد الرحمن الكُلاعى القائد ، والمغيرة ، وغيرهم . وأقبل عليهم أبو عبد الله مالك بن المُنْذِر

(١) ذكر ابن عذارى ١ : ١٠٦ أن ما ارتكبوه كان بتحريض من ابن الجارود .

الكَلْبي من مِيلَة ، وكان والياً عليها فى عدد كثير ، فقدموه على أنفسهم . واجتمع إليهم الناس . والتقوا بابن الجارود واقتتلوا . فقُتل مالك بن المنذر ، وانهزم أصحابه حتى صاروا إلى الأُرْبُس .

فكتب شمدون إلى العلاء بن سعيد – وهو بالزاب – أن يقدم عليه . فأقبل إلى الأربس واجتمع بالمغيرة وشمدون وفلاح وغيرهم . وأقبل العلاء يريد القيروان فصادف ابن الجارود وقد خرج منها يريد يحيي بن موسى [1] خليفة هَرْثَمة بن أعْيَن ، وذلك أن الرشيد لما اتصل به وثوب ابن الجارود على الفضل وإفساده إفريقية ، وجّه يَقْطين بن موسى لمحله من دعوتهم ، ومكانه من دولتهم ، وكبر سنه ، وحاله عند أهل خراسان . وأمره بالتلطف بابن الجارود وإخراجه من البلد. ووجه معه المهلب بن رافع . ثم وجه منصور بن زياد ، وهرثمة بن أعين أميرا على المغرب . فأقام ببرقة .

وقدم يقطين القيروان فجرى بينه وبين ابن الجارود كلام كثير . ودفع إليه كتاب الرشيد ، فقال ليقطين : « قد قرأت كتاب أمير المؤمنين ، وأنا على السمع والطاعة . وفى كتاب أمير المؤمنين أنه ولى هرثمة بن أعين ، وهو ببرقة يصل بعد كم . ومع العلاء البربر ، فإن تركت الثغر وثب البربر فأخذوه وقتلوا العلاء ولا يدخله وال لأمير المؤمنين أبدا ، فأكون أشأم الخلق على هذا

(١) ابن خلدون ٤ : ٤١٦ يحيى بن موسى ويقال يقطين . وانظر فهارس الطبرى وابن الأثير .

الثغر . ولكن أخرج إلى العلاء ، فإنْ ظفر بى فشأنكم بالثغر ، وإن ظفرتُ به انتظرت قدوم هرثمة . ثم أخرج إلى أمير المؤمنين» فاجتمع يقطين مع محمد بن يزيد الفارسى – وهو صاحب ابن الجارود – ووعده التقدم وقيادة ألف فارس وصلة وقطيعة فى أى المواضع شاء ، على أن يفسد حال عبد الله بن الجارود . ففعل ذلك وسعى فى إفساد الخواطر على ابن الجارود ، ورغّب الناس فى الطاعة . فمالوا إليه وانضموا له . وخرج على ابن الجارود ، فخرج عبد الله لقتاله . فلما تواقفا للقتال ، ناداه ابن الجارود أن اخرج إلى حتى لا يسمع كلامى وكلامك غيرنا . فخرج إليه فحدثه وشاغَله بالكلام ، وكان قد وضع على قتله رجلا من أصحابه يقال له أبو طالب [1] فخرج إليه – وهو مشغول بحديث عبد الله – فما شعر حتى حمل عليه وضربه فدقّ صلبه ، فانهزم أصحابه .

وقدم يحيي بن موسى خليفة هرثمة إلى طرابلس . فصلى عيد الأضحى بالناس وخطبهم . وقدم عليه جماعة من القواد واستفحل أمره .

وأقبل العلاء بن سعيد يريد القيروان . فعلم ابن الجارود أنه لا طاقة له بالعلاء . فكتب إلى يحيي أن اقدم إلى القيروان فإنى مسلم إليك سلطانها . وأجاب إلى الطاعة . فخرج يحيي بن موسى بمن معه من طرابلس فى المحرم سنة تسع وسبعين ومائة [2] . فلما بلغ قابس تلقاه بها عامة الجند الذين بالقيروان . وخرج ابن

(١) ابن الأثير ٥ : ٩٦ : طالب .
(٢) كذا فى جميع الأصول والمراجع غيرك ، وفيها : سبع .

الجارود من القيروان فى مستهل صفر ، واستخلف عليها عبد الملك بن عباس[١] . وكانت أيام ابن الجارود سبعة أشهر . وأقبل العلاء بن سعيد ويحيي بن موسى متسابقين إلى القيروان ، فسبقه العلاء إليها . فقتل منها [٢] جماعة من أصحاب ابن الجارود . فبعث إليه يحيي : « إن كنت على الطاعة ففرّق جموعك » . فأمر من معه بالانصراف إلى مواضعهم . وسار فى نحو ثلاثمائة من خاصته إلى طرابلس . وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصوله وخرج مع يقطين بن موسى نحو المشرق حتى وصل إلى هارون الرشيد .

قال : وكتب العلاء إلى منصور وهرثمة أنه الذى أخرج ابن الجارود من إفريقية . فكتب إليه هرثمة بالقدوم ، وأجازه بجائزة سنية . وبلغ خبره هارون ، فكتب إليه بمائة ألف درهم صلة سوى الكُسَا ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى توفى بمصر .

ذكر ولاية هرثمة بن أعين

قال : وقدم هرثمة القيروان فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ومائة [٣] فأمّن الناس وسكنهم وأحسن إليهم . وهو الذى بنى القصر الكبير بالمُنْستِير [٤] فى سنة ثمانين

(١) كذا فى الأصول . وفى ابن عذارى ١ : ١٠٨ : المفرج بن عبد الملك .
(٢) ر : ربها .
(٣) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١١٠ . وفى ابن الأثير ٥ : ٩٦ فى ربيع الأول . وفى الزاوى : يوم الخميس الثالث من ربيع الأول . وفى ابن خلدون ٤ : ٤١٧ : سنة سبع وسبعين .
(٤) موضع فيه خمسة قصور يحيط بها سور واحد ، بين المهدية وسوسة .

ومائة . وبنى أيضاً سور مدينة طرابلس مما يلى البحر . وواتر الكتب إلى الرشيد أن يعفيه من إفريقية لما رأى الاختلاف بها وسوء طاعة أهلها . فكتب إليه بالقدوم إلى المشرق . فرجع فى شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة [١] .

ذكر ولاية محمد بن مقاتل بن حكيم [٢] العكى

قال : ولما كتب هرثمة إلى هارون يسأله الإعفاء وجه محمد بن مقاتل أميرا للمغرب [٣] ، وكان رضيع هارون [٤] . فقدم القيروان فى شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة . ولم يكن بالمحمود السيرة ، فاضطربت عليه أحواله واختلف جنده ، وكان سبب الاضطراب عليه أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفى الرعية . فقام فلاح القائد ، ومشى فى أهل الشام وخراسان حتى اجتمع رأيهم على تقديم مرة بن مخلد الأزدى [٥] .

وخرج عليه بتونس تَمام بن تَميم التَّميمى – وكان عامله عليها – فَبايعه جماعة من القواد وأهل الشام وأهل خراسان . فخرج فى النصف من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائة إلى القيروان . وخرج إليه ابن العكى فيمن معه ، فقاتله قتالا

(١) جعل الطبرى ١٠ : ٦٨ ، وابن كثير ١٠ : ١٧٥ عزل هرثمة فى سنة ١٨٠ هـ .
(٢) ر : الحكم .
(٣) ص : للغرب .
(٤) وكذا فى جميع المراجع غير ابن خلدون ٤ : ٤١٨ الذى جعله صنيعته .
(٥) كذا فى الأصول . وفى ابن الأثير ٥ : ١٠٤ ، وابن عذارى ١ : ١١١ ، وابن خلدون ٤ : ٣١٨ : مخلد بن مرة .

شديدا فى منية الخيل ، فانهزم ابن العكى ودخل القيروان ، وتحصن فى دار كان قد بناها ، وجلا عن دار الإمارة . وأقبل تمام ودخل القيروان فى يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر رمضان . فأمّنه تمام على دمه وماله ، على أنه يخرج عنه .

فخرج تلك الليلة وسار حتى وصلَ إلى طرابلس ثم مضى إلى سُرْت . وعاد إلى طرابلس بمكاتبة بعض أهل خراسان .

فنهض إبراهيم بن الأغلب من الزاب على تمام غضبا للعكى. فلما بلغ تماماً إقباله جلا عن القيروان ، ودخلها إبراهيم بن الأغلب. فخطب الناس وأعلمهم أن أميرهم محمد بن مقاتل . وكتب إليه بالرجوع ، فرجع .

ثم أخذ تمام فى مراسلة الناس وإفسادهم على العكى فمالوا إليه . فكثُر جمعه وطاب نفساً بقتال العكى . وكتب إليه : « أما بعد . فإن إبراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك فبردك من كرامتك عليه ولا للطاعة التى يُظهرها ، ولكنه كره (١) أن يبلغك أنه أخذ البلاد فترجع إليه . فإن منعك كان مخالفاً ، وإن دفعها إليك كان كارها . فبعث إليك لترجع ثم يسلمك إلى القتل . وغدا تعرف ما جربت من وقعتنا أمس » . وفى آخره :

وما كان إبراهيُم من فَضْل طاعة
يَرُد عليك الثَّغْرَ إلا لتُقتَلا(٢)

---

(١) ر ، وابن عذارى ١ : ١١٣ : ولكن كره .

(٢) ك : لتثقلا . ابن عذارى ١ : ١١٤ : يرد عليك الملك لكن لتقتلا .

فلو كنتَ ذا عقل وعلم بكيده
لَما كنتَ منه يابن عك لتَقْبلا[١]

فلما وصل كتابه ، قرأه العكى ودفعه إلى إبراهيم بن الأغلب. فقرأه وضحك وقال : « قاتله الله ! ضَعْفُ عقله زَيَّن له ما كتب به » فكتب إليه ابن العكى :

« من محمد بن مقاتل إلى الناكث تمام .

أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، ودلنى ما فيه على قلة رأيك . وفهمت قولك فى إبراهيم . فإن كنت كتبتَ نصيحة ، فليس من خان الله ورسوله وكان من المفسدين بمقبول منه ما يَتنصَّح به . وإن كانت خديعة فأقبحُ الخدائع ما فُطِن له . وأما ما ذكرت من من إسلام إبراهيم إذا التقينا ، فَلعَمْر أبيك ما يلقاك أحد غيره. وأما قولك : إنا جربنا من وقعتك أمس ما سنعرفه غدا ، فإن الحرب[٢] سِجال : فلنا يا تمام عليك العُقْبَى إن شاء الله »
وفى أسفله :

وإنى لأرجو إن لَقيت ابنَ أغْلَب
غداةَ المنايا أن تُفَل وتُقْتَلا[٣]

تُلاقى فتى يَسْتصحب الموتَ فى الوغى
ويحمى بصدر الرمح مَجْدا مؤثلا[٤]

---

(١) ر : فان كنت . ص : تكيده .
(٢) ص : فالحرب .
(٣) ك : أن تفك . ابن عذارى ١ : ١١٤ : غدا فى المنايا .
(٤) ك : فى القنا ... مؤملا .

فأقبل تمام من تونس فى جمع عظيم . وأمر ابن العكى من كان معه من أهل الطاعة بالخروج إليه وتقدمة إبراهيم بن الأغلب. والتقوا واقتتلوا فانهزم تمام إلى تونس ، وقُتل جماعة من أصحابه.

وانصرف العكى إلى القيروان ثم أمر إبراهيم بالمسير [1] إلى تمام بتونس ، وذلك فى شهر المحرم سنة أربع وثمانين ومائة . فلما بلغ تماماً إقباله كتب إليه يسأله الأمان ، فأمنه . وأقبل به إلى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من الشهر . فلما صار الأمر إلى إبراهيم بن الأغلب بعث تمام بن تميم وغيره من وجوه [2] الجند الذين شأنهم الوثوب على الأمراء إلى بغداد ، فحبسوا فى المُطْبَق .

قال : ودام محمد بن مقاتل فى القيروان إلى أن عزله الرشيد واستعمل إبراهيم بن الأغلب ، على ما نذكره فى أخبار دولة بنى الأغلب إن شاء الله تعالى .

---

(١) ك : بالسير .

(٢) ك : فى وجوه .

ذكر ابتداء دولة بنى الأغلب

هذه الدولة أول دولة قامت بإفريقية وجرى عليها اسم الدولة . وكان من قَبْلهم عمالا إذا مات أحد منهم أو صَدَر منه ما يوجب العزل ، عزله من يكون أمر المسلمين إليه من الخلفاء فى الدولة الأموية والعباسية . فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر (١) . وإنما كانت ملوكها تراعى أوامر الدولة العباسية ، وتعرف لها حق الفضل والأمر ، وتُظهر طاعة مَشوبة بمعصية . ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت لخالفوهم (٢) . وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لمن يرونه من أولادهم وإخوتهم ، فلا يخالفه قوادهم ولا يراعون أهلية من يوصَى إليه بل يقدمونه على أى صفةٍ كان مستحقاً أو غير مستحق . وسنذكر من أخبارهم ما يدل على ذلك . وكان عدة من ملك منهم أحد عشر ملكاً . ومدة أيامهم مائة سنة واثنتى عشرة وأياماً . وأول من ملك منهم إبراهيم بن الأغلب .

ذكر ولاية ابراهيم بن الأغلب بن سالم ابن عقال بن خفاجة التميمى

قال : لما كان من أمر إبراهيم بن الأغلب ما ذكرناه ، من نُصْرته لابن العكى وإخراجه تمام بن تميم وإعادة العكى ، كتب

(١) ر : فى الأمور .
(٢) ك : يخالفوهم .

يحيي بن زياد صاحب البريد بالخبر إلى هارون الرشيد . فقرأ الكتاب على أصحابه ، وقال لهرثمة بن أعين : « أنت قريب العهد » . فقال : « يا أمير المؤمنين ، قد سألتني في مقدمي منها عن طاعة أهلها ، وأخبرتك أنه ليس بها أحد أفضل طاعة ولا أبعد صيتا ولا أرضى عند الناس من إبراهيم . ثم صدق قولي قيامُه بطاعتك » . فأمر الرشيد بكتابة عهده على إفريقية [1] . فلما وصل إليه العهد ، أرسل إلى ابن العكى : « أقم ما شئت حتى تتجهز » .

فأقام أياماً ثم رحل إلى طرابلس . فوافاه حماد السعودى بكتابين قدم بهما إلى إفريقية على العادة . فافترى ابن العكى كتابا ثالثاً بعزل إبراهيم وولايته وبعث به إلى القيروان . فلما قرئ على الناس قالوا لإبراهيم : « أقم بمكانك [2] واكتب إلى أمير المؤمنين ، فإن ابن العكى اختلق هذا زورا ، ولم يكافئك على نصرتك له وحقنك دمه » . فقال : « والله لقد ظننت ظنكم وإنما اجترأ ابن العكى على الثغر لموضعه من جعفر بن يحيي » . ثم عسكر إبراهيم يريد الخروج إلى الزاب وأتى كتاب محمد بن مقاتل إلى سهل ابن حاجب يستخلفه إلى أن يقدم . فكتب صاحب البريد إلى الرشيد . فغضب وكتب إلى ابن العكى : « أما بعد ، فلم يكن آخر أمرك يشبه إلا أوله . فلأيٍّ مناقبك أوثِرك على إبراهيم بولاية الثغر : ألفرارك وإقدامه أم لجزعك وصبره أم لِخلافك

(١) صرح ابن الأثير ٥ : ١٠٤ وابن خلدون ٤ : ٤١٩ بأن أهل إفريقية هم الذين أغروا ابن الأغلب فجعلوه يكاتب الرشيد بأن يوليه البلد ، وتنازل له عن المعونة التي كانت مصر تقدمها للإفريقيين .

(٢) ر ، ص : مكانك .

وطاعته ؟ فإذا نظرت فى كتابى ، فاقْدَم غيرَ محمود الفعال » .
وكتب إلى إبراهيم بتجديد ولايته . فوصل الرسول إلى القيروان وإبراهيم بالزاب فمضى إليه . وكانت ولايته الثانية التى استقر [١] بها ملكه وملك بنيه من بعده ، لاثنتى عشرة ليلة مضت من جمادي الآخرة سنة أربع وثمانين ومائة . وقفل ابن العكى إلى المشرق .

قال : ولما ولى إبراهيم قمع أهل الشر بإفريقية ، وضبط البلاد ، وأحسن إلى من بها . وبعث بأهل الشر الذين جرت عادتهم بمخالفة الأمراء والوثوب عليهم إلى بغداد كما ذكرنا [٢].

وابتنى إبراهيم قصرا وجعله متنزها . ثم جعل ينقل إليه السلاح والأموال سرا . وهو مع ذلك يراعى أمور أجناده ويُصلح طاعتهم ويصبر على جفائهم . وأخذ فى شراء العبيد وأظهر أنه يحب أن يتخذ [٣] من كل صناعة من يُغنيه عن استعمال الرعية فى كل شىء . ثم اشترى عبيدا لحمل سلاحه وأظهر للجند أنه أراد بذلك إكرامهم عن حمله. ولما تهيأ له من ذلك ما أراده انتقل من دار الإمارة وصار إلى قصره بعبيده وحشمه وأهل بيته ؛ وكان انتقاله ليلا . وأسكن معه من يثق به من الجند . وكان يتولى الصلاة بنفسه فى المسجد الجامع بالقيروان والمسجد الذى بناه بالقصر .

وفى أيامه خرج حمديس [٤] بن عبد الرحمن الكندى فخلع

(١) ك : استيقن .
(٢) انظر صفحة ٩٩ من هذا الجزء .
(٣) ر : يتخذوا .
(٤) ك : حميدس .

السواد . وجمع جموعاً كثيرة وأتى بعرب أهل البلد وبربرها ، وكثرت جموعه بمدينة تونس . فبعث إليه إبراهيم عمران بن مجالد [١] ومعه وجوه القواد . فالتقوا بسبخة تونس واقتتلو قتالا شديدا ، وكثر بينهم القتل . وجعل أصحاب حمديس يقولون : « بغداد بغداد ، فلا والله لا اتخذت لكم طاعة بعد اليوم أبدا » . ثم قُتل حمديس وانهزم أصحابه . ودخل عمران تونس وتتبع من كان مع حمديس وقتلهم حتى أفناهم . وكان خروجه فى سنة ست وثمانين ومائة .

وفى أيامه جمع إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن [٢] بن على بن أبى طالب جموعاً كثيرة ، وأطاعه من حوله من القبائل . فكره إبراهيم قتاله وعمل فى إفساد [٣] أصحابه عليه . وكتب إلى بهلول بن عبد الواحد المدغرى [٤] ، وكان رئيساً مطاعاً فى قومه ، وهو القائم بأمر إدريس وصاحب سره ، ولم يزل به حتى فارقه وعاد إلى الطاعة . فلما فعل ذلك كتب إدريس إلى إبراهيم كتاباً يستعطفه ويسأله الكف عنه ويذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجر بينهما حرب .

وخرج عن طاعة إبراهيم أيضاً عمران بن مجالد . وكان

(١) كذا فى ص ، ع ، وابن خلدون ٤ : ٤٢٠ ، وابن الأثير ٥ : ١٤ . وفى ك ، ر : عمران بن مخالد . وفى ابن الأثير ٥ : ١٠٤ : عمران بن مخلد .

(٢) فى الأصول : الحسين . والأدارسة حسنيون (ولاة مصر للكندى ١٥٥ ، ابن عذارى ١ : ١٠٠ ، وابن تغرى بردى ٢ : ٤٠ ، ٥٩)

(٣) ر : على إفساد .

(٤) ابن خلدون ٤ : ٤٢٠ بهلول عبد الرحمن المظفر . ولعلها محرفة عن بهلول بن عبد الرحمن المطغرى .

سبب خروجه أن إبراهيم لما بنى قصره المعروف القديم ركب يوماً وهو يفكر فى الانتقال إليه ومعه عمران بن مجالد . فجعل عمران يحادثه من حيث ركبا إلى أن بلغا مصلى روح ، فلم يفقه إبراهيم من حديثه شيئاً . فقال لعمران : « ألم تعلم أنى لم أسمع من حديثك شيئاً . أعِدْه على » . فغضب عمران وقال : « أحدثك من حيث خرجت وأنت لاهٍ عنى » . وتغير من ذلك اليوم وألب على إبراهيم . فلما انتقل إبراهيم إلى قصره وأقام مدة ، ثار عمران فى جيشه . واستولى على القيروان وقوى أمره وكثرت أتباعه . ودامت الحرب بينه وبين إبراهيم سنة كاملة ، كانت خيل إبراهيم تضرب إلى القيروان فتقتل من قدرت عليه ، وخيل عمران تفعل مثل ذلك .

ثم وصل إلى إبراهيم رسول أمير المؤمنين بأرزاق الجند فوجه ابنه عبد الله إلى طرابلس ، فقبض أرزاق الجند ووصل بها إلى أبيه . فلما صار المال إليه ، تطلعت أنفس الجند إلى أرزاقهم وهموا بإسلام عمران . وتبين ذلك له . فركب إبراهيم فى خيله ورَجْله وعبيده ، وعبأ عساكره تعبئة الحرب ، وتوجه إلى القيروان . حتى إذا قرب منها أمر مناديه فنادى : « من كان له اسم فى ديوان أمير المؤمنين فليقدم لقبض عطائه » . ثم انصرف إلى قصره ولم يُحْدث شيئاً . فلما أمسى عمران أيقن أن الجند تسلمه . فركب وسار إلى الزاب ليلا ومعه عمرو بن معاوية وعامر بن المعتمر . فخلع [1] إبراهيم أبواب القيروان

(١) ر : فقلع .

وثلم فى سورها . وقوي عند ذلك أمره . وزاد فى بناء القصر القديم . وأقطع فيه الدور لأهل بيته وأنصاره ومَواليه .

وبقى عمران بالزاب إلى أن توفى إبراهيم وصار الأمر إلى ابنه أبى العباس . فكتب إليه يسأله الأمان فأمنه . وقدم إليه وأسكنه القصر . ثم سُعى به فقتله .

واستمرت أيام إبراهيم إلى سنة ست وتسعين ومائة ، فتوفى لثمان بقين من شوال منها [1] ، وهو ابن ست وخمسين سنة. وكانت مدة ولايته اثنتى عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام .

وكان فقيها ، عالماً ، خطيبا ، شاعرا ، ذا رأي وبأس [2] ، وحزم ، وعلم بالحروب ومكائدها ، جرئ الجَنان ، طويل اللسان ، حسن السيرة . قال ابن الرقيق : لم يَلِ إفريقية قبله أحد من من الأمراء أعدل منه سيرة ولا أحسن سياسة ، ولا أرفق برعية ، ولا أضبط للأمر [3] . وكان كثير الطلب للعلم ، والاختلاف إلى الليث بن سعد . وله أخبار حسنة وآثار جميلة ، رحمه الله تعالى .

ذكر ولاية أبى العباس عبد الله ابن ابراهيم بن الأغلب

قال : لما مات إبراهيم بن الأغلب ، صار الأمر بعده إلى ابنه أبى العباس عبد الله ، وكان إذ ذاك بطرابلس ، فقام له

(١) ذكر ابن الوردى ٢١١ أنه توفى سنة ١٩٧ .
(٢) ك : وسياسة .
(٣) ص ، ر : الأمر.

أخوه زيادة الله بالأمر ، وأخذ له البيعة على نفسه وأهل بيته وجميع رجاله . وقدم عبد الله من طرابلس فى صفر سنة سبع وتسعين ومائة . فتلقاه زيادة الله وسلم إليه الأمر .

قال : فحمل عبد الله فى ولايته على أخيه زيادة الله حملا شديدا وتَنَقصه ، وأمر بإطلاق من كان فى حبسه . وزيادة الله مع ذلك يُظهر له التعظيم والتبجيل .

وأراد عبد الله أن يحدث جورا عظيماً على الرعية فأهلكه الله عز وجل قبل ذلك . وكان قد أمر صاحب خراجه أن لا يأخذ من الناس العشر ، ولكن يجعل على كل زوج تحرث ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب [1] . فاشتد ذلك على الرعية وسألوه فلم يجب سؤالهم . وقَدم حفص بن حُميد الجَزَرى [2] ، ومعه قوم صالحون من أهل الجزيرة وغيرها . فاستأذنوا على أبى العباس فأذن لهم . فدخلوا عليه – وكان من أجمل الناس – فكلمه حفص ابن حميد فكان فيما قال له : « أيها الأمير ، اتق الله فى شبابك وارحم جمالك وأشفِق على بدنك من النار . ترى على كل زوج يُحرَث به ثمانية دنانير . فأزل ذلك عن رعيتك ، وخذ فيهم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . فإن الدنيا زائلة عنك كما زالت عن غيرك » . فلم يُجبه إلى شىء مما أراد . وتمادى على سوء فعله وأظهر الاستخفاف بهم . فخرج حفص بن حميد ومن

(١) ابن الأثير ٥ : ١٨٤ ؛ حدد على كل فدان فى عمله ثمانية عشر ديناراً كل سنة .
(٢) كذا فى ابن الأثير ٥ : ١٨٤ ، نسبة إلى الجزيرة . وفى الأصول : الجوزى ، تحريف .

معه فتوجهوا نحو القيروان . فلما صاروا بوادي القصارين قال لهم حفص : « قد يئسنا من المخلوقين فلا نيأس من الخالق » . فسألوا الله وتضرعوا إليه ، فدعوا الله على أبي العباس أن يمنعه مما أراده بالمسلمين ويكف جوره عنهم . ثم دخلوا [١] مدينه القيروان ، فخرجت لأبي العباس قرحة تحت أذنه فقتلته في اليوم السابع [٢] من دعائهم واسود لونه . وكانت وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة [٣] سنة إحدى ومائتين . فكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرا واحدا وأربعة عشر يوماً .

ذكر ولاية أبي محمد زيادة الله ابن ابراهيم بن الأغلب

قال : ولما توفى أخوه أبو العباس صار الأمر إليه بعده . وهو أول من سُمِّي زيادة الله . وكذلك هبة الله بن إبراهيم بن المهدي ، هو أول من سمى هبة الله .

قال : ولما ولى زيادة الله أغلظ على الجند ، وأمعن في سفك دمائهم ، واستخف بهم ، وحَمَله على ذلك سوء ظنه بهم لتوثُّبهم على الأمراء قبله وخِلافهم على أبيه مع عمران بن مجالد . وكان أبوه أغضى عن كثير من زلاتهم وصفح عن إساآتهم فسلك زيادة الله

(١) ر : ثم دخل .

(٢) ابن عذارى ١ : ١٢١ : السادس . وفي ابن الأثير ٥ : ١٨٤ : فمالبث إلا خمسة أيام حتى خرجت قرحة ...

(٣) وكذا في ابن عذارى ١ : ١٢١ ، وابن الأثير ٥ : ١٨٤ . وفي الزاوى ١٤٦ : ليلة ١٦ من ذي الحجة .

فيهم غير سبيل أبيه . وكان أكثر سفكه وسوء فعله إذا شرب وسكر . فخرجوا عليه . وكان الذى هاجهم على الخروج عليه أنه ولى عمر[١] بن معاوية القيسى ، وكان من شجعان الجند ورؤسائهم وأهل الشرف منهم ، على القصرين وما يليهما . فتغلب على تلك الناحية وأظهر الخلاف عليه . وكان له ولدان يقال لأحدهما حُباب والآخر سُكنان[٢] . فوجه إليه زيادة الله موسى مولى إبراهيم المعروف بأبى هارون ، وكان قد ولاه القيروان. فخرج إليه وحاصره أياما . فلما ضاق به الأمر ألقى بيده ونزل معه . وسار إلى زيادة الله هو وولداه . فلما قدموا عليه حبسهم عند غلبون ابن عمه . ثم نقلهم إلى حبسه من يومه وقتلهم .

فلما بلغ منصور بن نصر الطُّنْبُذى[٣] وهو من ولد دُرَيد[٤] ابن الصِّمَّة ذلك ساءه ، وكان على طرابلس . فقال : « يابنى تميم ، لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » . فكتب صاحب الخبر بكلامه إلى زيادة الله . فعزله واستقدمه ، فقدم . وكان غلبون معتنيا به فأصلح أمره عند الأمير زيادة الله ، فخلى عنه . فأقام أياماً يتردد إلى زيادة الله حتى ذهب ما بقلبه عليه . ثم استأذنه فى الوصول إلى منزله فأذن له . فخرج إلى تونس ، وكان له بإقليم المحمدية قصر يقال له طُنْبذة ، وبه لقب الطنبذى ،

(١) ر ، وابن عذارى ١ : ١٢٥ : عمرو .

(٢) ابن عذارى ١ : ١٢٥ : سجـان . ر : سكاب .

(٣) ابن الأثير مرة ١٨٥ ، ٢٠٨ : منصور بن نصير ، ومرة ٢١٤ : نصر . وابن خلدون مرة ٤ : ٤٢٣ : الترمذى ، خطأ ، ومرة ٤٢٤ : الطبندى .

(٤) ص : زيد ، تحريف .

فنزل به. وجعل يُراسل الجند ويذكر لهم ما يلقَون من زيادة الله وما فعل بعمر بن معاوية وابنيه ، ويخوفهم أن يفعل بهم وبأولادهم كفعله بعمر .

فبلغ ذلك زيادة الله فعَرَض الجند على عادته . ثم دعا محمد ابن حمزة فأخرجه فى خمسمائة [١] فارس بالسلاح كما عُرِضوا بين يديه . وقال له : « امض إلى تونس فلا يشعر منصور إلا وقد أخذته ومن معه ، واقْدَم به موثقاً » . فخرج ابن حمزة حتى أتى تونس فلقى منصورا غائباً بقصره ، فنزل فى دار الصناعة [٢] . ووجه إلى منصور شجرة بن عيسى القاضى وأربعين شيخاً من أهل تونس ، يُرَغبه فى الطاعة ويدعوه [٣] إلى إتيانه . فمضوا إليه وأبلغوه رسالة محمد بن حمزة فقال : « ما خلعتُ يدا من طاعة ، ولا أحدثتُ حَدَثا ، وأنا صائر إليه معكم . ولكن أقيموا علىّ يومى هذا حتى أعدَّ لهولاء القوم ما يُصلحهم » . فأقاموا . فوجه إلى ابن حمزة ببقر وغنم وعلف وأحمال نبيذ . وكتب إليه : « إنى قادم بالغداة مع القاضى » . فركن إلى قوله ، وأخذ هو ومن معه فى الأكل والشرب .

فلما أمسى منصور قبض على القاضى ومن معه ، وحبسهم فى قصره . وجمع خيله ورَجْله ومضى إلى تونس. فما شعر به محمد بن حمزة حتى ضرب طبوله على باب دار الصناعة . فقام

(١) ابن الأثير ٥ : ١٨٥ ، ابن عذارى ١ : ١٢٦ : ثلاثمائة .
(٢) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٢٦ . وفى ر : دار الضيافة .
(٣) ك : ويدعونه . خطأ .

ابن حمزة وأصحابه لأخذ سلاحهم وقد عمل الشراب فيهم . فأوقع بهم منصور وأصحابه فقتلهم . ولم يسلم منهم إلا من ألقى نفسه فى البحر فسبح . وأصبح منصور ، فاجتمع إليه الجند . وكان عامل زيادة الله على تونس إسماعيل بن سفيان ابن سالم (١) من أهل بيت زيادة الله ، فقتله منصور وقتل ابنه .

فلما اتصل بزيادة الله قتل ابن عمه وولده ورجاله ، جمع صَناديد الجند ، ووجّههم مع غلبون . وركب بنفسه مشيّعاً له. فلما ودع الجند قال لهم زيادة الله : « إنظروا كيف تكونون وكيف تناصحون . فبالله أقسم إن انصرف إلىّ أحد (٢) منكم منهزما لاجعلتُ عقوبته إلا السيف » . فكان ذلك مما ساءت به نفوس القوم حتى هموا بالوثوب على غلبون . فمنعهم من ذلك جعفر بن مَعْبد وقال : « لا تحملكم إساءة زيادة الله فيكم أن تغدروا بمن أحسن إليكم وفك رقابكم » . وكان غلبون يعتنى بأمر القواد عند زيادة الله . فانصرفوا عن رأيهم فيه ومضوا حتى صاروا بسبخة تونس . فكاتب القواد الذين مع غلبون منصورا وأصحابه وأعلموهم أنهم منهزمون عنه. فلما التقوا حمل منصور وأصحابه عليهم فانهزموا بأجمعهم . ثم اجتمعوا بعد الهزيمة إلى غلبون واعتذروا وحلفوا أنهم ناصحون واجتهدوا . وقالوا : « نحن لانأمن على أنفسنا . وإن أصبتَ لنا ما نأمن به قدِمنا إن شاء الله » . وتفرقوا

(١) وكذا فى ابن الأثير ٥ : ١٨٥ وابن خلدون ٤ : ٤٢٣ . وفى ابن عذارى ١ : ١٢٧ إسماعيل بن سالم بن سفيان .

(٢) ص : واحد .

عنه . وسار كل [١] منهم إلى جهة فتغلب عليها . واضطربت إفريقية فصارت نارا تتّقد .

وصار الجند كلهم إلى منصور الطنبذى ، وأعطوه أزمة أمورهم ، وولوه على أنفسهم . وقدم غلبون على زيادة الله فأعلمه الخبر . فكتب الأمانات وبعث بها إلى الجند والقواد . فلم يقبلوها وخلعوا الطاعة .

ثم جمعوا جمعاً ووجه عليهم منصور عامر بن نافع . فعقد زيادة الله لمحمد بن عبد الله بن الأغلب ، ووجه معه جيشاً كثيفاً وأوعب فيه من رجاله ومواليه . فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم محمد ابن عبد الله وقُتل جماعة من وجوه أصحابه ، منهم محمد بن غلبون ، وعبد الله بن الأغلب ، ومحمد بن حمزة الرازى ، وغيرهم ؛ وقُتلت الرّجالة عن آخرهم . وتتبع الجند أصحاب زيادة الله فقتلوهم .

فعند ذلك زحف زيادة الله بنفسه ونزل بين القيروان [٢] والقصر وخَنْدَق هناك . وكانت بينهم وقعات كثيرة تارة لهؤلاء وتارة لأولئك . ثم انهزم منصور ومن معه حتى لحقوا بتونس . وكان أهل القيروان أعانوا منصورا على قتال زيادة الله ، فقال له أصحابه « ابدأ بها واقتل من فيها » . فقال : « إنى عاهدت الله تعالى إن

---

(١) ر : وصار .

(٢) ذكر ابن كثير ٥ : ١٨٥ وابن عذارى ١ : ١٢٨ أن الخندق كان عند القيروان التى حاصرها زيادة الله ، فأصلحت العبارة على هذا الأساس . وفى ص ، ع : نزل بين القنطاط والقصر . وفى ك : نزل من القسطاط والقصر .

ظفرت أن أعفو وأصفح [١] » . فعفا عنهم إلا أنه هدم سور القيروان ونزع أبوابها .

قال : ثم اجتمع لمنصور أصحابه وقوى أمره . ولم يبق فى يد زيادة الله من إفريقية كلها إلا الساحل وقابس [٢] . فكتب الجند إلى زيادة الله : « أن ارحَلْ حيث شئت وخَلِّ عن إفريقية ، ولك الأمان فى نفسك ومالك وماضمه قصرك» . فاستشار أصحابه فى ذلك . فقال له سفيان بن سوادة : « أيها الأمير ، أمكِنّى من ديوان رجالك حتى أنتقى مائتى فارس ممن أثق به » . فدفع إليه الديوان فاختار منه [٣] مائتى فارس [٤] ، وأعطاهم وأفضَل عليهم [٥] ثم خرج حتى أتى نفزاوة وعليها من الجند عبد الصمد بن جُناح الباهلى . فدعا سفيان بربر ذلك الموضع فأجابوه . فاجتمع إليه خلق كثير من زناتة وغيرهم وسائر القبائل . ففتح البلاد بلدا بلدا حتى بلغ قسطيلية . ثم قدم على زيادة الله فى سنة ثمانى عشرة ومائتين . فكان سعيد [٦] يقول : « والله ، ما رأيت أعظم بركة من تلك المائتى فارس » .

---

(١) ذكر ابن الأثير ٥ : ١٨٥ أن زيادة الله أمر بالانتقام من أهل القيروان غير أن أهل العلم والدين كفوه عنها .

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٨٦ ، ابن عذارى ١ : ١٣٢ الساحل وقابس ونفزاوة وطرابلس. ابن خلدون ٤ : ٤٢٣ ، تونس والساحل وطرابلس ونفزاوة . ووضع تونس خطأ .

(٣) ك : منهم .

(٤) وكذا فى ابن الأثير ٥ : ١٨٦ ، وابن خلدون ٤ : ٤٢٤ . وفى ابن عذارى ١ : ١٣ مائة .

(٥) ص ، ر : واتصل بهم .

(٦) كذا فى الأصول ، ولعله سفيان السابق ذكره .

ووقع الشتات والحسد بين الجند . ووقع الخلاف بين منصور وعامر بن نافع . فحاصره عامر بقصره بطنبذة . فجرت بينهما السفراء على أن يؤمن منصورا على نفسه وماله وحشمه [١] ، يركب سفينة [٢] فيتوجه فيها إلى المشرق ، فأجابه عامر إلى ذلك . فقال له بعض أصحابه : « تفعل ذلك بنفسك ويسومك الضيم ؟ انهض إلى الأربس فإنهم سامعون مطيعون » . فوافق على ذلك وخرج من القصر ليلا وسار إلى الأربس . فلما أصبح عامر لم يره بقصره ، فسار فى إثره إلى الأربس وحاصره . وآخر الأمر أنه عاد سأل [٣] الأمان على أن يتوجه إلى المشرق ويركب فى سفينة من تونس . وخرج إلى عامر فوجه معه خيلا . وأمر صاحب الخيل أن يأخذ به على طريق قَرْنة [٤] وأن يصيِّره فى سجنها . ففعل ذلك وحبسه بها عند حمديس بن عامر [٥] . ثم كتب عامر إلى ابنه أن يضرب عنقه ففعل . وضرب عامر عنق أخى منصور .

وصار أمر الجند إلى عامر بن نافع فظن أن الأمور تستقيم له . فكتب إليه زيادة الله كتاباً يدعوه فيه إلى الطاعة ويبذل له الأمان . فكتب إليه عامر يعدد عليه مساوئ أفعاله ، ويقول فى آخره : « ما بينى وبينك موادّة حتى تضع الحرب أوزارها ويحكم الله

(١) ك : وجسمه .
(٢) ص : بنفسه .
(٣) ر : عاد يسأل .
(٤) ابن الأثير ٥ : ٢١٥ وابن عذارى ١ : ١٣١ : جربة .
(٥) ك : حميدس بن عامر .

بيننا وهو خير الحاكمين » . ثم اختلف الجند على عامر ، وانتقض عليه أمره ، ووجد عليه قواد المضرية ، لما صنع بمنصور وأخيه ، فنافروه وحاربوه . وخالفه عبد السلام بن المفرّج (١) ، وكان قد استولى على باجة وبايع له جماعة من الجند . وزحف إلى عامر فاقتتلوا ، فانهزم عامر ، ومضى إلى قرنة ، وتفرق شمل الجند وأمر زيادة الله يعلو .

ثم اعتل عامر فلما أيقن بالموت استدعى بنيه وقال لهم : « يابنى ، ما رأيت فى الخلاف خيرا . فإذا أنا مت ودفنتمونى فلا تُعرِّجوا على شى حتى تلحقوا بزيادة الله ، فهو من أهل بيت عفو . وأرجو أن يسركم (٢) ويقبلكم أحسن قبول » . فلما مات ، فعلوا ذلك وأتوا زيادة الله . وجعل الجند يتسللون(٣) إلى زيادة الله ويستأمنون ، وهو يؤمنهم ويحسن إليهم .

وأما عبد السلام فقاتلته عساكر زيادة الله وحصروه وضايقوه فوُجد ميتا فقيل مات عطشا . فبعثوا برأسه إلى زيادة الله .

واستقامت إفريقية وصفت بعد أن دامت الفتنة ثلاث عشرة سنة .

قال : ثم أمر زيادة الله ببناء المسجد الجامع بالقيروان

---

(١) كذا فى ابن الأثير ٥ : ٢١٤ ، وابن خلدون ٤ : ٤٢٤ . وفى الأصول وابن عذارى ١ : ١٣١ : عبد السلام بن الفرج .

(٢) ص : يسربكم .

(٣) ر : وجعلوا يتسللون .

وهدم ما كان بناه يزيد بن حاتم ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين ومائتين . وذكر أن زيادة الله قال يوماً لخاصته « إنى لأرجو رحمة الله ، وما أرانى إلا أفوز بها إذا قدمت عليه يوم القيامة وقد عملت أربعة أشياء : بنيت المسجد الجامع بالقيروان وأنفقت عليه ستة وثمانين ألف دينار ، وبنيت قنطرة باب أبى الربيع ، وقصر المرابطين بسوسة ، ووليت القضاء أحمد بن أبى محرز » .

وفى أيام زيادة الله فُتحت صقلية ، وذلك أنه وجه إليها أسد ابن الفرات القاضى فى عشرة آلاف . فزحف إليه ملكها فى مائة وخمسين ألفا . فهزمه وفتحها . واستعمل عليها زيادة الله محمد ابن عبد الله بن الأغلب .

وكانت وفاة زيادة الله فى يوم الثلاثاء لأربع عشرة خلت من شهر رجب سنة ثلاثة وعشرين ومائتين ، وهو ابن إحدى وخمسين سنة . وكانت ولايته على إفريقية إحدى وعشرين سنة وسبعة أشهر وثمانية أيام .

وكان من أفصح أهل بيته لسانا وأكثرهم بيانا ، وكان يُعرب كلامه ولا يلحن من غير تشَادُق ولا تَقْعير . وكان يقول الشعر الحسن الجيد .

حكى (١) أن رسولا أتاه من أبى عبد الله المأمون بغير

(١) ك ، ر : وحكى .

يحب . فكتب جواب الكتاب وهو سكران ، وفى آخره أبياتا ، وهى :

أنا النارُ فى أحجارِها مستكِنَّـــةٌ
فإن كنتَ ممن يَقْدَح الزَّنْدَ فاقْـدَح

أنا الليـــث يحمى غِيله بـزئـيره
فإن كنتَ كلبا حان يومُك فانْبَـح

أنا البحر فى أمواجـــه وعُبابِـــه
فإن كنتَ ممن يَسْبح البحر فاسْبَح

فلما صحا بعث فى طلب الرسول ففاته . فكتب كتابا آخر فيه تلطف . فوصل الكتاب الأول والثانى. فأعرض المأمون عن الأول وأجاب عن الثانى بكل ما أحب .

وله حكايات حسنة تدل على عفوه وصَفْحه وحِلْمه . فمن ذلك أنه بلغ أُمَّه جلاجل أن أخت عامر بن نافع قالت : « والله لأجعلنَّ جلاجل تطبخ لى الفول بِبصارا » . فلما ظفر ابنها زيادة الله بالقيروان ، أمرت جلاجل بفول فطُبِخ بِبصارا وبعثت منه إليها (١) مع بعض خدمها ، فوُضع بين يديها ، وقالت الجارية التى أحضرته إليها : « سيدتى تسلم عليك وتقول لك : قد طبختُ هذا لك لأَبَر قَسَمك » . فأَوْحَشها ذلك وقالت : « قولى لها : قد قدرتِ فافعلى ما شئت » . فبلغ ذلك زيادة الله فقال لأمه : « قد ساءنى ما فعلت ياأم ، إن الاستطالة

(١) ك : وبعث . ص : وبعثت به إليها . ر : وبعث به اليها .

مع القدرة لؤم ودناءة ، وقد كان أولى بك أن تفعلى غير هذا » .
قالت : « نعم ، سأفعل ما يُرضيك ويُحسن الأُحدوثة عنا » .
وبعثت إليها بكسوة وصلة وألطاف . ورَفَقت بها حتى قبلت ذلك وطابت نفسها .

ذكر ولاية أبى عقال [1] الأغلب ابن ابراهيم بن الأغلب

قال : ولما توفى زيادة الله ولى أخوه أبو عقال ، وهو الملقب بخَزَر [2] . وكان فى مبدإ ولاية أخيه زيادة الله قد خافه على نفسه لأن الأغلب كان شقيق عبد الله . فخشى أن يطالبه زيادة الله بفعل أخيه فاستأذنه على الحج ، فأذن له . فخرج وأخرج معه ابنى أخيه عبد الله ، وهما محمد وإبراهيم . فحج وأقام بمصر . ثم كتب إلى زيادة الله [3] يستعطفه ويستميله . فقدم إليه [4] ، فأكرمه وأحسن إليه . وجعل أمور دولته بيده .

فلما مات زيادة الله وصار الأمر إليه ، لم يكن فى أيامه حروب فأمن الجند وأحسن إليهم . وغير أحداثا كثيرة كانت للعمال ، وأجرى على العمال الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة . وقبض أيديهم عن أموال الناس ، وكَفَّهم عن أشياء كانوا يتطاولون إليها . وقطع النبيذ من القيروان .

---

(١) ابن الأثير ٥ : ٢٥٣ : أبوعفان ، تحريف .
(٢) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٣٩ . وفى ر : خور . وفى الزاوى ١٤٨ : جزر .
(٣) كذا فى ع ، ك . وفى ص ، ر : كتب إليه زيادة الله .
(٤) ص ، ر : ثم قدم إليه .

وتوفى فى يوم الخميس لسبع [١] بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين . فكانت ولايته سنتين وتسعة أشهر وتسعة أيام [٢] . وكان شبيها بجده الأغلب فى الخَلْق والخُلُق .

ذكر ولاية أبى العباس محمد بن الأغلب ابن ابراهيم بن الأغلب

قال : ولى بعد أبيه ، وكان من أجهل الناس ، لكنه أُعطِى فى إمارته ظفرا على من ناوأه . وقلَّد أخاه كثيرا من أعماله . وكان قد غلب عليه وتولى أموره ووزارته ابنا على بن حُمَيد ، وهما أبو عبد الله وأبو حميد . فساء ذلك أبا جعفر أخاه ، وعَظُم عليه وعلى أصحابه ، وحسدوهما على مكانهما من الأمير محمد وكان المقدم عند أبى جعفر أحمد بن الأغلب نصر بن حمزة الجَرَوى . فأخذ أبو جعفر فى التدبير على أخيه الأمير محمد . وصانع رجالا [٣] من مواليه ، ومحمد فى غفلة عن ذلك قد اشتغل باللهو واللعب وانهمك على الملاذّ . فلما اجتمع لأحمد من أصحابه ما علم أنه يقوم بهم ركب فى وقت الظهيرة – وقد خلا باب محمد من الرجال – فهجم على أبى عبد الله بن على بن حميد فقتله ، وعلا الصياح . فبلغ الخبر محمدا فقصد قبة عمه زيادة

(١) ر : لتسع .
(٢) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٣٩ وأبى الفدا ٢ : ٣٤ ، وهو الصواب . وفى ابن خلدون ٤ : ٤٢٨ : وسبعة أشهر . وفى ابن الأثير ٥ : ٢٦٣ : وسبعة أشهر وسبعة أيام .
(٣) ك : رجلا .

الله . ووقع القتال بين رجال الأمير محمد ورجال أخيه أحمد . فجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد : « مالكم تقاتلون؟ لا طاعة إلا طاعة محمد . إنما قمنا على أولاد على بن حُميد الذين قهروكم واستأثروا بمال مولاكم دونكم . وأما نحن ففى الطاعة ما خلعنا منها يدا » . فلما سمعوا ذلك فشلوا عن القتال .

ولما رأى محمد مادهمه – وهو على غير استعداد – جلس فى مجلس العامة . وأذن لأخيه أحمد والذين معه من الرجال بالدخول ، فدخلوا عليه . فعاتب أخاه أحمد فقال له : « إن أولاد على بن حميد كادوا الدولة وأرادوا زوال ملكك ، فقمت غضبا لك وحذرا على أيامك » . فلم يجدمحمد بُدا من مداراته والإغضاء عما فعل . فتحالفا أن لا يغدر أحد منهما بصاحبه [1] . واصطلحا على أن يدفع محمد لأخيه أحمد أبا حميد بن على ، وكان قد لجأ [2] إليه فى وقت قتل أخيه . فدفعه إليه على أن أحمد لايقتله ولا يصله بمكروه . فانصرف إلى منزله .

وعظم قدر أحمد ، واشتد سلطانه ، وجعل الدواوين إلى نفسه. وصار الأمر كله له ، ولم يبق لمحمد من الإمارة إلا مجرد الاسم وعزل أحمد حجاب محمد ، وجعل على بابه حجاباً من قبله . ووكل خمسمائة من عبيده ومواليه ببابه . وعذب أبا حميد ، وأخذ أمواله .ووجه به مع أبى نصر مولى إبراهيم بن الأغلب ، وأمره أن يسير به إلى طرابلس ويبعثه إلى مصر . وأسرّ إليه أنه إذا

(١) ك : صاحبه.
(٢) ك : جاء.

صار بقَلْشانة يقتله . ففعل ذلك وخنقه حتى مات . وحمله على نعش إلى قلشانة . وأحضر من شهد أنه لا أثر فيه ولا جرح وقال : « إنه سقط عن الدابة فمات » .

قال : ولما صارت الأمور إلى أحمد قدم نصر بن أحمد الجروى واستوزره . وكان داود بن حمزة الرادرى يظن أنه يكون المقدم عليه لأنه كان المدبر لهذا الأمر . ففسدت نيته وأخذ فى العمل على أحمد ومكاتبة محمد ، وكان محمد قد ترك اللهو وأخذ فى الحيلة والتدبير على أخيه أحمد . وكان محمد قد ولى سالم ابن غلبون الزاب . فلما كان من أمر أحمد ما كان ، خالف سالم على أحمد ، ولم يُطعه .وجعل محمد يبعث إلى وجوه قَرابته وجنده وعبيده ويسألهم نُصْرَته ويعدهم ويمنّيهم . فكان ممن سعى فى نصرة محمد وأتقن له الأمور وأحسن التدبير أحمد بن سفيان بن سَوادة . وكان يقال لأحمد : « إنْ أخاك يعمل عليك » . فلا يُصدق ، وعنده أنه قد أتقن التدبير . وكان من حال محمد أنه إذا جاءه رسول من أخيه أحمد يستدعى كأساً كبيرا ويمسكه بيده ، ويحضر الرسول فيتوهم أنه يشرب. فإذا انصرف رد الكأس فلا يشربه .

فلما كان فى اليوم الذى عزم محمد فيه على الوثوب على أخيه ، بعث إلى أحمد بن سفيان . فجعل يُسلِك من واعَده من العبيد والموالى وغيرهم حتى أدخلهم من أبواب المدينة فى الأكسية . وجعلهم يحملون على رؤوسهم جرار الماء حتى اجتمع منهم قبل الزّوال ثلاثمائة رجل . فصيّرهم أحمد بن سفيان فى داره وأعطاهم السلاح

وكان أحمد إذا قيل له : « إنك تُراد ويُعمَل عليك » . غضب على من يقول ذلك . واشتغل بالشراب كما كان أخوه فى أول أمره . وكان جماعة ممن نصر محمدا واعَدُوه أن ينزلوا بقصر الماء ، والأمارة بينهم أن يسمعوا الطبل ويروا الشمع فى أعلى القبة . وكان أحمد قد دخل الحمام فى ذلك اليوم وأطال اللُّبْث فيه . وأتاه عثمان بن الربيع بعد الظهر ؛ فأخبره أن أخاه يريده تلك الليلة ، وأنه أعد رجالا بقصر الماء . فلم يصدق ذلك ، ووجه خيلا إلى قصر الماء فلم يجدوا به أحدا . وكان الموعد المغرب ، فازداد أحمد تكذيباً للأخبار وقلة الاكتراث بما يراد به .

فلما قربت صلاة المغرب ، وجه محمد خادماً له إلى جماعة رجال أخيه الذين كان قد جعلهم ببابه ، فقال : « يقول لكم الأمير : إنى أحببت بِرَّكم وإكرامكم ، فاجتمعوا حتى أبعث إليكم طعاماً وشراباً . فاجتمعوا ، وبعث إليهم بطعام وشراب ، فأكلوا وشربوا حتى إذا ظنّ أن الشراب قد عمل فيهم ، أرسل الخادم إليهم فقال : يقول لكم الأمير : إنى قد أحببت أنْ أُحَلِّى لكم سيوفكم ، فمن كان عنده سيف فليَأْت به » . فجعلوا يتسابقون بسيوفهم طمعاً فى ذلك . فلما كان وقت المغرب وغُلِّقت أبواب القصر ، أتاهم عامر بن عَمْرون [1] القرشى فيمن معه . فوضعوا فيهم السيوف فقتلوهم [2] عن آخرهم .

ثم أمر بالطبل فضُرب ، والشموع فأُوقدت ، فأقبل أصحابه

(١) ص ، ر : عامر بن عون القرشى .
(٢) ك : فقتلوا .

من كل ناحية إلى نُصْرته . وخرج أحمد بن سفيان بن سوادة فجعل يقتل من علم أنه من ناحية أحمد . وأقام القتال بين أحمد بن سفيان وأصحاب أحمد بن الأغلب بقية ليلتهم كلها . وبعث أحمد ابن سفيان إلى القيروان يستنصر بأهلها . فأقبلوا إليه فى جموع عظيمة وهم ينادون بطاعة محمد . فانهزم أصحاب أحمد بن الأغلب ووُضِعت السيوف فيهم ، وهرب أحمد إلى داره .

وكان فى حبسه خَفاجة بن سفيان بن سوادة ، فأخرجه وقال له : « اللهَ اللهَ فى دمى وحُرَمى ، فإنها حرمك » . فقال له خفاجة : « حبستَنى ظلما منذ سبعة أشهر » . فقال : « ليس هذا وقت العتاب فأغثنى » فقال له خفاجة : « أعطنى فرساً وسلاحا » ففعل فركب خفاجة . وصاح به الناس : « ياخفاجة ، يا ابن شيخنا ومن نكرمه ونحفظه ، إنما أخرجك هذا الملعون من حبسه الساعة بعد سبعة أشهر ، فما هذه النصيحة له ؟ » فانصرف إلى أحمد فقال له : « أما إنه لاطاقة لك بالقوم ، فاستأمِنْ إلى أخيك من قبل أن تهلك » قال : « وكيف لى بذلك ؟ فكُنْ أنت رسولى إليه » . فسار إليه واستأمن له . فأمنه محمد وأتاه .

فأمر محمد بالخلع على أهل القيروان ومن نصره . فخُلع عليهم جميع ما كان فى خزائنه [1] ، ورجع إلى ثياب حرمه . وأمر أهل القيروان بالانصراف . ولما صار أحمد إلى أخيه

(١) كذا فى ع . وفى ص ، ك ، ر : خزائنه .

محمد عدَّد عليه ما فعل ثم أخرجه إلى مصر ، وسار إلى العراق .

قال : وبنى محمد بن الأغلب القصر الذى بسوسة فى سنة ثلاثين .

وفى أيامه توفى سَحْنون [١] بن سعيد فى سنة أربعين ومائتين ، ودفن بباب نافع . وكان يتولى المظالم بمدينة القيروان .

قال : واعتل محمد بن الأغلب فأقام بعلته أربعة أشهر. ثم توفى فى يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم [٢] سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، وله ست وثلاثون سنة وولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام .

ذكر ولاية أبى ابراهيم أحمد بن محمد ابن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب

قال : ولما مات محمد ، ولى بعده ابنه أحمد . وكانت أيامه كلها ساكنة ، لم يحدث فيها إلا ما كان بناحية طرابلس . وذلك أن قبائل البربر تجمعت ، فكان بينهم وبين عاملها عبد الله ابن محمد بن الأغلب حروب كثيرة . فكتب إلى أبى إبراهيم بذلك فأرسل إليهم العساكر ، فكانت بينهم وبين البربر حروب شديدة . ثم انهزم البربر وقُتلوا قتلا ذريعاً . ولأبى إبراهيم

(١) فقيه زاهد واسمه عبد السلام ، ولد بالقيروان سنة ١٦٠ هـ . وتولى قضاءها إلى أن مات ، وكان رفيع القدر ، رأس علماء عصره .

(٢) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٤٦ . وفى ابن الأثير ٥ : ٢٦٣ : غرة المحرم . وفيه أيضاً ٢٩٧ : عاشر المحرم .

آثار عظيمة فى المبانى بإفريقية . فمن ذلك بنيان المأجَل الكبير بباب تونس. وهو بمعنى الصهريج عندنا. وزاد فى جامع القيروان البهو والمجنّبات والقبة . وبنى المأجَل الذى بباب أبى الربيع والمأجل الكبير الذى بالقصر القديم ، وبنى المسجد الجامع بمدينة تونس . وبنى سور مدينة سوسة . وكان آخر ما عمل المأجل الذى بالقصر القديم . فلما فرغ اعتل أبو إبراهيم فكان يسأل : هل دخله الماء ، إلى أن دخله ، فعرفوه فسُر به وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه ، فشربها وقال : « الحمد لله ، الذى لم أمت حتى كمل أمره » . ثم مات إثر ذلك . ولم يَزَل أهل القيروان ومن دخلها يترحمون عليه .

وفى أيامه فُتحت قَصْريانَة ، وهى من أعظم مدن الروم بصقلية .

وكانت وفاة أبى إبراهيم يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت (١) من ذى القعدة سنة تسع وأربعين ومائتين وله تسع وعشرون سنة (٢) . ومدة ولايته سبع سنين وعشرة أشهر وخمسة عشر يوماً (٣) .

وكان رحمه الله تعالى حسن السيرة ، جميل الأثر ، كريم الأخلاق والأفعال ، من أجود الملوك وأسمحهم وأرفقهم برعيته ، مع دين وإنصاف للمظلوم ، هذا مع حداثة سنه . وكان يركب ليالى شعبان وشهر رمضان ، وبين يديه الشمع . فيخرج من

(١) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٤٦ ، وابن الأثير ٥ : ٣١٤ . وفى ابن الأثير ٥ : ٢٦٣ بقيت .

(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٦٣ ، وابن عذارى ١ : ١٤٩ : ثمان وعشرون سنة .

(٣) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٤٩ . وفى ابن الأثير ٥ : ٢٦٣ : واثنا عشر يوماً.

القصر القديم حتى يدخل من باب أبى الربيع ، ومعه دواب محملة دراهم . فيأمر بإعطاء من لقيه حتى ينتهى إلى المسجد الجامع بالقيروان . ويقصد دور العلماء والصالحين فيأمر بقرع أبوابهم. فإذا خرجوا إليه أمر بإعطائهم من ذلك المال .

ذكر ولاية أبى محمد زيادة الله بن محمد [١] ابن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب

ولى بعد أخيه . ولم تطل أيامه حتى توفى . وكانت وفاته ليلة السبت لعشر [٢] بقين من ذى القعدة سنة خمسين ومائتين فكانت ولايته سنة واحدة وسبعة أيام [٣] . وكان عالماً ، عاقلا جميلا ، حسن السيرة ، جميل الأفعال ، ذا رأى ونجدة وجُود وشجاعة ، رحمه الله تعالى .

ذكر ولاية أبى عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن الأغلب المكنى بأبى الغرانيق

ولى بعد عمه زيادة الله .

وكان مشغوفاً بالصيد ، فلقب أبا الغرانيق ، وذلك أنه بنى

(١) أخطأ ابن خلدون ٤ : ٤٣٠ فجعله ابن أحمد ، وذكر أنه ولى بعد أبيه .
(٢) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٤٩ . وفى ابن الأثير ٥ : ٢٦٣ : لإحدى عشرة .
(٣) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٤٩ . وفى ابن الأثير ٥ : ٢٦٣ : سنة واحدة وستة أيام وفى أبى الفدا ٢ : ٤٣ : سنة وستة أشهر . وهو خطأ .

قصرا فى السهلين لصيد الغرانيق[١]، أنفق فيه ثلاثين ألف دينار[٢].

ولُقِّب فى آخر أيامه بالميت ، وذلك أنه اعتل وطالت علته ،فكان يُشنَّع عليه بالموت فى كثير من الأيام .

وكان فى أيامه حروب منها اضطراب ثغر الزاب عليه . فأخرج إليه أبا خفاجة محمد بن إسماعيل فى عسكرٍ عظيم . ففتح فتوحات عظيمة فى طريقه . وخافه جميع البربر ولم يقُم أحد له إلى أن وصل تَهُودة وبَسْكِرَة . وأعطاه أهل تلك النواحى أزمة أمورهم .

ثم نهض إلى طُبنة ، وأتى حى بن مالك البلوى فى خيل بَلِزْمَة ، فصار فى عسكره .

ثم نهض إلى مدينة أبَّة بجميع عساكره فنزلها . فخافه البربر وسمعوا له وأطاعوا [٣] وبذلوا له الرهائن والخراج والعشور والصدقات فلم يقبل منهم .

ومضى يريد بنى كملان من هوارة ، وكبيرهم فى ذلك الوقت مهلب بن صولات فتحرزوا منه ، وأرسلوا إليه يطلبون الأمان ، ويبذلون له كل ما طلب ، فلم يقبل وقاتلهم . فلما نشبت الحرب بينهم ، جرّ الهزيمة عليه حى بن مالك من أهل بلزمة [٤] . فقُتل أبو خفاجة فى جماعة من القواد وكثير من الناس . ووصلت الهزيمة إلى طبنة .

---

(١) جمع غرنوق ، وهو الكركى ، أو طائر مائى طويل القوائم والعنق .

(٢) ابن عذارى ١ : ١٥٠ : ثلاثين ألف مثقال من الذهب .

(٣) ص ، ر : وأطاعوه .

(٤) ص ، ر : فى أهل بلزمة .

وفى أيامه فتحت مالطة ، وهى جزيرة فى البحر على يد أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب .

وتوفى أبو عبد الله محمد فى يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين ، وهو ابن أربع وعشرين سنة . وكانت مدة ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يومًا (١) .

وكان غاية فى الجود ، مسرفاً فى العطاء ، حسن السيرة فى الرعية رفيقاً بهم ، غير أن اللهو والطرب والاشتغال بالصيد واللذات والشراب غلب عليه ، حتى إنه مرة سكر وهو بمدينة سوسة وقد ركب فى البحر حتى صار إلى جزيرة قَوْصَرَة . فلما ذهب عنه السكر انصرف وهو خائف . ومازال على الانهماك طول عمره . ولم تكن له همة فى جمع المال ، فلما مات لم يجد إخوته فى بيت المال شيئاً .

ذكر ولاية أبى اسحاق ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب

قال ابن الرقيق : كان أبو الغرانيق قد عقد لابنه أبى العقال ولاية العهد ، وبايع له ، واستحلف إبراهيم بن أحمد أخاه خمسين يميناً بجامع مدينة القيروان أن لا ينازعه فى ملكه ، وذلك بحضرة مَشْيخة بنى الأغلب وقضاة القيروان وفقهائها . فلما مات أبو الغرانيق ، أتى أهل القيروان إلى إبراهيم وهو إذ ذاك والٍ عليهم فقالوا له : « قُم فادخل القصر فإنك الأمير » . وكان إبراهيم قد أحسن السيرة فيهم .

(١) وكذا ابن الأثير ٦ : ٥ ، وابن عذارى ١ : ١٥٣ ، وأبو الفدا ٢ : ٥٠ ، وابن الوردى ١ : ٢٣٧ . وفى ابن خلدون : إحدى عشرة سنة .

فقال : « قد علمتم أن أخى عقد [١] البيعة لابنه ، واستحلفنى خمسينَ يميناً أن لا أنازع ولده ولا أدخل قصره » . فقالوا : « نحن الدافعون له عن الأمر ، والكارهون ولايته ، والمانعون له . وليست له فى أعناقنا بيعة » . فركب من القيروان ومعه أكثر أهلها . فحاربوا أهل القصر حتى دخله إبراهيم . وبايعه شيوخ القيروان ووجوهها وجماعة من بنى الأغلب .

فلما ولى أمر بإنفاذ الكتب إلى العمال والجُباة بحسن السيرة والرفق بالرعية . وولّى حجابته محمد بن قرْهَب .

وفى صفر سنة ثلاث وستين ومائتين ابتدأ إبراهيم في بناء رَقّادة وانتقل إليها فى السنة . قال : ودَوْرُها أربعة عشر ألف ذراع [٢] . وليس بإفريقية أرق هواء ولاأعدل نسيماً ولا أطيب تربةً من موضعها. قال ابن الرقيق : وقد سمعت من منتقرى [٣] المعانى من يزعم أنه يعرض له فيها الضحك من غير عجب ، والسرور من غير سبب .

وفى أيامه فتحت سَرَقُوسة من صقلية فى شهر رمضان سنة أربع وستين ومائتين ، على يد أحمد بن الأغلب ، وقتل فيها أكثر من أربعة آلاف علج . وأصاب من الغنائم مالم يوجد فى مدينة من مدائن الشّرك . ولم ينجُ من رجالها أحد . وكان مقام المسلمين عليها إلى أن فتحت تسعة أشهر . وأقاموا بعد فتحها شهرين ثم هدموها وانصرفوا

وفى سنة أربع وستين ، وثب الموالى على إبراهيم وعقدوا الخلاف

---

(١) ك : قد عقد .

(٢) ياقوت : معجم البلدان : وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأربعين ذراعاً.

(٣) كذا فى ر . وفى ص، ع : منتقدى . وفى ك : مستقدى .

فى القصر القديم ، ومنعوا من يجوز إلى رقادة من القيروان [١] .
وسبب ذلك أن إبراهيم أمر بقتل رجل منهم يقال له مطروح بن بادر [٢] فخالفوا عليه لذلك . فأقبل إليهم أهل القيروان فى عدد لايحصى . فارتدع الموالى وسألوا الأمان فأُمِّنوا . فلما جاءوا وقت [٣] إعطاء الأرزاق ، جلس إبراهيم بقصر أبى الفتح ، وحضر جميع العبيد [٤] لقبض أرزاقهم . فكلما تقدم رجل نُزع سيفه حتى أخذوا كلهم فقُتل أكثرهم بضرب السياط وصُلبوا . وحُبس بعضهم بسجن القيروان حتى ماتوا فيه . ونُفى بعضهم إلى صقلية . وأمر بشراء العبيد فاشتُرى منهم عدد كثير . وحملهم وكساهم وأخرجهم فى الحروب ، فظهر منهم شجاعة وجلد وقوة .

وفى سنة خمس وستين ومائتين ، تجهز العباس بن أحمد بن طولون من مصر عند خروجه على أبيه يريد برقة . واجتمع إليه الناس على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الطولونية . فأخرج إليه إبراهيم حاجبه محمد بن قَرْهَب [٥] فلقيه بوادى ورداسة . فاقتتلوا فانهزم ابن قرهب . وقدم ابن طولون إلى لَبْدَة فأخذها . ثم نهض منها يريد طرابلس فحصرها أياماً . فعزم إبراهيم على الخروج بنفسه ، فلما

(١) ك : يجوز من رقادة إلى القيروان .
(٢) ك : نادر .
(٣) ر : جاء وقت .
(٤) ك : عميد العبيد .
(٥) وكذا فى ولاة مصر للكندى ٢٤٨ . وفى ابن خلدون ٤ : ٤٣٤ محمد بن قهرب . وفى ابن عذارى ١ : ١٥٧ : أحمد بن قرهب .

صار إلى قابس لقيه ابن قرهب بالفتح وهزيمة العباس . وأخذ من أمواله كثيرا .

وفى أيامه فى سنة ثمان وستين ومائتين (١) اشتد القحط. وغلت الأسعار حتى بلغ قفيز القمح ثمانية دنانير . والقفيز مقدار إردب وربع بالمصرى . فهلك الناس حتى أكل بعضهم بعضاً .

وفى أيامه عصت (٢) وَزْداجَة ومنعوا صدقاتهم . فقاتلهم العامل عليهم وهو الحسن بن سفيان فهزموه حتى وصل إلى باجة . فأرسل إبراهيم حاجبه محمد بن قرهب بالجيوش إليهم . فسار ونزل بجبل من جبال وزداجة يقال له المنار (٣) . فكانت خيله تخرج إليهم صباحاً ومساء . فلم يزل حتى أخذ رهائنهم وأطاعوا واستقاموا .

وكانت هوارة قد عاثت فى البلاد وقطعت السبل (٤) فمضى الحاجب إليهم وعرض عليهم الأمان والرجوع إلى الطاعة . فأبوا فقاتلهم وهزمهم . ونهب العسكر مافى منازلهم وأحرقها بالنار . وعاد الحاجب ثم استأمنت هوارة بعد ذلك .

ثم تجمعت لواتة بأجمعها وحاصروا مدينة قرنة أياما وانتهبوا ما كان فيها . ومضوا إلى باجة وقصر الإفريقى . فأخرج إليهم إبراهيم محمد بن قرهب . فالتقوا واقتتلوا فانهزم أصحاب ابن قرهب وكبابه فرسه فأدركوه ، وهرب من كان معه . وذلك فى ذى

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٥ ، ابن عذارى ١ : ١٥٥ : فى سنة ٢٦٦ .
(٢) كذا فى ص ، ر . وفى ع . ت : غضب . وفى نسخة : ورداجة .
(٣) كذا فى ك . وفى ص ، ع : المشار .
(٤) ك : السبل .

الحجة سنة ثمان وستين ومائتين [١] . فاشتد ذلك على إبراهيم ، وأمر بحشد الجند والأنصار والموالى . وأخرجهم مع ابنه أبى العباس عبدالله فى سنة تسع وستين . فانتهى الخبر إلى لواتة فهربوا [٢] بين يديه فلحقهم بباجة وقتلهم قتلا ذريعا . وافترق من سلم منهم فى كل ناحية.

وفى سنة ثمان وسبعين ومائتين بلغ إبراهيم أن جماعة من الخدام والصقالبة يريدون قتله وقتل أمه ، فقتلهم عن آخرهم . وقتل بناته بعد ذلك .

وفى هذه السنة [٣] قتل رجال بَلزْمَة بمدينة رقَادة . وكان قبل ذلك قد زحف إليهم وبادرهم [٤] بنفسه فلم يتمكن منهم . فأظهر العفو عنهم ورجع . ثم وَفَد عليه وفدهم ووفد أهل الزاب . فأنزلهم فى رقادة فى دار عظيمة كالفندق ، وأجرى عليهم نُزُلا واسعا ، وخلع عليهم وأكرمهم ، حتى اجتمع نحو ألف رجل . فأحاط بهم فامتنعوا وقاتلوا ، فقتلهم عن آخرهم . وكان قتلهم سبب انقطاع دولة بنى الأغلب ، لأن أهل بلزمة كانوا قد أذلوا كتامة واتخذوهم خَوَلاً وعبيدا ، وفرضوا عليهم العشور والصدقات وأنْ يحملوا ذلك على أعناقهم . فكان الذى صنع إبراهيم بأهل بلزمة مما أنقذ كتامة من تلك الذلة وأوجدهم السبيل إلى القيام مع الشيعى .

وفى هذه السنة أمر إبراهيم بشراء العبيد السودان ، فبلغت عدتهم

---

(١) جعل الزاوى ١٥٤ هذه المعركة فى سنة ٢٦٩ .

(٢) ك : فانهزموا .

(٣) جعل ابن الأثير ٦ : ٣٩ ، وابن عذارى ١ : ١٥٨ فتك إبراهيم بأهل الزاب فى هذه السنة . ولكن ابن عذارى ١ : ١٦٣ جعل إيقاعه برجال بلزمة فى سنة ٢٨٠ .

(٤) كذا فى ك . وفى ص ، ع : بارزهم .

مائة ألف . فكساهم وألزمهم بابه . وجعل عليهم ميموناً وراشدا . وقتل حاجبه ابن الصمصامة وإخوته وقرابته (١) .

وولى حجابته الحسن بن ناقد ، وأضاف إليه عدة ولايات ، منها إمارة صقلية .

وفى سنة ثمان وسبعين (٢) أيضاً اضطربت إفريقية على إبراهيم . فخالفه أهل تونس والجزيرة وصطفورة وباجة وقَمودَة والأربس ، وذلك فى شهر رجب ولم يجتمع أهل هذه الكور بمكان واحد بل أقام كل رئيس بمكانه (٣) . ولم يبق بيد إبراهيم من إفريقية وكورها إلا الساحل الشرقى . فأمر إبراهيم بحفر الخندق على رقادة .وجمع ثقاته على نفسه . وقَرب السودان من قصره . وأحضر شيخا من بنى عامر ابن نافع فشاوره فى أمره . فقال له : « إنْ عاجلوك قبل أن تختلف كلمتهم خفتُ أنْ ينالوا منك . وإنْ صبروا أمكنك منهم ماتريد » . فلما خرج من عنده ، قال إبراهيم لابنه أبي العباس : « احبسه عندك لئلا يتكلم بهذا الرأى فيصل إليهم » . فحبسه حتى ظفر بهم . وكان سبب ظفره أنه بعث عسكره إلى الجزيرة فقتل منهم خلقاً كثيرا . وأخذ رئيسها المعروف بابن أبى أحمد أسيرا . وجىء به إلى إبراهيم فقتله وصلبه . ووجه صالحا الخادم إلى قمودة فهزمهم . وبعث إلى تونس عسكراً عظيماً عليهم ميمون الخادم والحسن بن ناقد حاجبه . فانهزم أهل تونس وقُتلوا قتلاً ذريعاً بعد قتال شديد.

---

(١) كذا فى الأصول غير ك ، وفيها : وقتل ابنه .

(٢) ابن عذارى ١ : ١٦٤ ، وابن خلدون ٤ : ٤٣٥ : فى سنة ٢٨٠ .

(٣) ك : مكانه .

ودخل العسكر إلى مدينة تونس فانتهبوا الأموال واستباحوا الحرم وسبوهم . وبعثوا إلى إبراهيم بألف ومائتى أسير ، وهم أكابر القوم ورؤساؤهم . وذلك فى شهر رمضان من السنة [١] . ووصل الخبر إلى إبراهيم فى وقته على جناح طائر . فبعث إلى قائده ألا يقطع رأس قتيل . ووجه العَجَل فحُملت القتلى وشُق بها سماط القيروان .

ذكر انتقال ابراهيم الى تونس

وفى سنة إحدى وثمانين ومائتين ، أمر إبراهيم أن تُبنى له بتونس قصوره ومساكنه ، فبنيت . ثم انتقل إليها يوم الأربعاء لستٍّ بقين من جمادى الأولى [٢] . وانتقل أهل بيته وجميع قواده ومواليه .

وفى سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين ، تحرك إبراهيم يريد محاربة ابن طولون بمصر . وحشد وخرج من تونس لعشرٍ خلون من المحرم . فأقام برَقادة إلى سبع بقين من صفر . ثم خرج بعساكره ، فاعترضه أهل نفوسة بجمع عظيم فى النصف من شهر ربيع الأول . فكان بينهم قتالٌ عظيم ، فقُتل [٣] ميمون الخادم وجماعةٌ ممن معه . ثم انهزم أهل نفوسة ، وتبعهم إبراهيم فقتلهم قتلاً ذريعاً . وتطارَح منهم خلق كثير فى البحر فقتلوا حتى احمر لون الماء من دمائهم . فقال إبراهيم « لو كان هذا القتل لله لكان إسرافاً » . فقال له بعض رجاله : « ليَدْعُ الأمير بعضَ من أحب من مشايخهم ويسأله عن اعتقاده .

(١) جعل ابن عذارى ١ : ١٦٥ دخول تونس لعشر بقين من ذى الحجة .
(٢) ابن عذارى ١ : ١٧٣ : ٨ رجب .
(٣) فى الأصول : قتل .

فإذا سأله علم أن ذلك لله » . فأحضر بعضهم ، فقال : « ماتقولون فى على بن أبى طالب ؟ » فقال : « نقول : إنه كان كافرا[١] ، فى النار من لم يكفره » . فقال إبراهيم : « فجميعكم على هذا الرأى ؟ » قالوا : « نعم . » قال : « الآن طابت نفسى على قتلكم » . وجلس على كرسى وبيده حربة . فكان يُقدَّم إليه الرجل منهم فَيقد أضلاعه من تحت منكبيه ثم يطعنه فيصيب قلبه حتى قتل منهم خمسمائة رجل بيده فى وقت واحد .

ثم تمادى إبراهيم بعد فراغه من أهل نفوسة إلى طرابلس . وكان محمد بن زيادة الله عامله عليها ، وكان إبراهيم كثير الحسد له من صغره على علمه وأدبه . فقتله إبراهيم وصلبه .

ثم سار من طرابلس حتى بلغ عين تاورغا [٢] . فرجع كثير ممن معه [٣] إلى إفريقية ، ولم يبق معه إلا أقل من النصف . فلما رأى ذلك انصرف إلى رقادة ثم إلى تونس .

وفى سنة أربع وثمانين [٤] ، جهز إبراهيم ابنه أبا العباس إلى صقلية لقتال أهلها . فسار إليها فى جمادى الآخرة . فقاتله أهلها قتالا شديدا ثم انهزموا . ودخل المدينة بالسيف فقتل خلقا عظيما . ثم عفا عن الناس وأمنهم . ثم ركب حتى جاز المجاز ، وأوقع بالروم فقتل المقاتلة وسبى الذرية . ورجع إلى صقلية وقد أثخن فى الروم .

---

(١) ص : إنه كافر .

(٢) ابن خلدون ٤ : ٤٣٥ : سرت .

(٣) ص : كان معه .

(٤) ابن عذارى ١ : ١٧٦ ، ابن خلدون ٤ ٤٣٥ سبع وثمانين . وفى الزاوى ١٥٥ تسع وثمانين .

ذكر اعتزال ابراهيم الملك وزهده وغزوه ووفاته

وكان سبب ذلك أن رسول الخليفة المعتضد بالله العباسى قدم عليه فى سنة تسع وثمانين [١] ومائتين من بغداد إلى تونس . فخرج إبراهيم إليه وضُربت له فازة [٢] سوداء فى سبخة تونس . فخلا بالرسول وكان بينهما محاورة ولم يأته بكتاب . وكان المعتضد قد أرسله على غضب وسخط. لشكوى أهل تونس منه ، وصياحهم على المعتضد ، ووصفهم له ما صنع بهم إبراهيم ، وقالوا : « أهدى إليك نساءنا وبناتنا » . فغضب المعتضد ، وأمره باللحاق به وأن يعتزل عن إفريقية . وولى عليها ابنه أبا العباس .

فكره إبراهيم المسير إلى المعتضد . وأظهر التوبة ، ورفض الملك ، ولبس الخشن من الثياب . وأمر بإخراج من فى سجونه . وقطع القَبالات [٣] . وبعث إلى ابنه أبى العباس وهو بصقلية ليصير إليه الملك ، ويخرج له من الأمر. فقدم عليه فى شهر ربيع الأول فسلم إليه الأمر وخرج من تونس . وأظهر أنه يريد الحج . ووصل إلى سوسة ، ووجه رسله إلى بغداد بذلك . ثم بعث من يذكر رجوعه عن الحج وخروجه إلى الجهاد [٤] خشية من بنى طولون لئلا تسفك بينهما الدماء . واستقر الناس ، ودعاهم إلى الجهاد ، ووسع على من أتاه .

وخرج من سوسة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخرة.

---

(١) ابن خلدون ٤ : ٤٣٦ : ثمان وثمانين .

(٢) الفازة : مظلة بعمودين أو بعمود واحد .

(٣) القبالات : الكفالات .

(٤) كذا فى ص ، ر . وفى ع ، ك : عن الجهاد .

فنزل نُوبَة ففرق الخيل والسلاح على أصحابه وأمر بالعطاء . فأُعطى الفارس عشرين ديناراً والراجل عشرة .

وخرج من نوبة إلى طَرابُنُش (١) فى البحر . فأقام بها سبعة عشر يوما يعطى الأرزاق لمن معه .

ثم رحل فدخل مدينة بلرْم (٢) لليلتين بقيتا من شهر رجب . وأمر برد المظالم . وأقام بصقلية أربعة عشر يوما يعطى أهلها ومن بها من البحريين الأرزاق .

وارتحل لتسع خلون من شعبان . فنزل على طَبَرْمين (٣) وحاصرها. وكان بينه وبين أهلها قتال شديد حتى أثخنت الجراح فى الفريقين. وهمَّ المسلمون بالانحياز فقرأ قارىء : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » . الآية (٤) فحمل حُماة العسكر وأهل البصائر بنيات صادقة . فانهزم الكفرة هاربين . فقتلهم المسلمون أبرح قتل ، وقَفوا آثارهم فى بطون الأودية ورؤوس الجبال . ودخل إبراهيم ومن معه طبرمين فقتل وسبى .

وبعث زيادة الله ابن ابنه (٥) أبى العباس إلى قلعة ميقَش (٦) .

---

(١) Trapani . وفى الأصول: طرابلس . وفى ابن خلدون ٤ : ٤٣٦ : طرابنة . (المكتبة الصقلية) .

(٢) Palermo .

(٣) Taormina . وفى ابن خلدون ٤ : ٤٣٦ : طرميش .

(٤) الآية ١٩ من سورة الحج .

(٥) ك : أبيه ، تحريف .

(٦) Mikasc كذا فى ابن الأثير ٦ : ٦ والمكتبة الصقلية ٢٤٢ دون ذكر لاسم القائد وفى ع ، ص ، ر : بنقش . وفى ص ، والمكتبة الصقلية ٤٥٢ تيفش . وفى ابن خلدون ٤ : ٤٣٦ والمكتبة الصقلية ٤٧٥ : بيقش .

وبعث أبا الأغلب ولده بعسكر إلى دَمْنيش (١) . فوجد أهلها قد هربوا على وجوههم ، فأخذ جميع ما كان بها (٢) .

وبعث ابنه أبا حجر (٣) إلى رَمْطَة (٤) . فطلب القوم الأمان . وأجابوا إلى الجزية .

وبعث سعدون الجَلوى بطائفة إلى لياج (٥) فدعوا القوم جميعا . فأجابوا إلى أداء الجزية. فلم يجبهم ولم يُرضه إلا نزولهم عن الحصون ، فنزلوا . وهدم جميع القلاع ورمى حجارتها إلى البحر .

ثم تمادى بالعساكر إلى مَسِّينى (٦) فأقام بها يومين .

وأمر الناس بالتعدية إلى قِلُّوْرِيَة (٧) لأربع بقين من شهر رمضان. وتمادي فى رحيله إلى أن قرب من مدينة كُسَنْتة(٨) . فجاءته الرسل يطلبون الأمان فلم يجبهم . وسار إلى أن وصل كسنتة وقدم العساكر وبقى فى الساقة لضعف أصابه . فنزلت العساكر بالوادى . وأمر الناس بالزحف لخمس بقين من شوال . وفرق أولاده وخاصته على

---

(١) Demona . كذا فى الأصول والمكتبة الصقلية ٤٥٢ . وفى ابن الأثير ٦ : ٦ والمكتبة الصقلية ٢٤٢ ، ٤٧٥ ، ومعجم البلدان لياقوت : دمنش. وفى ابن خلدون ٤ : ٤٣٦ : دمقش.

(٢) ك : فيها

(٣) كذا فى الأصول ، والمكتبة الصقلية ٤٥٢ ، وفى ابن خلدون ٤ : ٤٣٦ والمكتبة الصقلية ٤٧٥ : أباحرز . وأظن أنهما مصحفان عن : أبا مضر ، الذى تكررت تكنية الأغالبة به .

(٤) Rametta .

(٥) جعلها أمارى Aci – Castella .

(٦) Messina .

(٧) Calabri .

(٨) وكذا فى ابن الأثير ٦ : ٦ ، وهى Cosenza من ايطاليا ، ولعل صحة نطقها بالعربية : كسنثة ، بالثاء ، وفى ابن خلدون ٤ : ٤٣٧ : كنسة .

أبوابها ، فقاتلوا [١] من كل ناحية ، ونصبوا المجانيق .

واشتدت علة إبراهيم ، وكانت علته البطن . وعَرَض له الفُواق فأيس أصحابه منه . فقلدوا الأمر إلى زيادة الله بن ابنه أبي العباس سرا . وكانت وفاة الأمير إبراهيم فى ليلة السبت لاثنتى عشرة [٢] ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين . فركب القواد إلى أبي مضر زيادة الله ، وهو أكبر أولاد أبي العباس بن إبراهيم ، فقالوا له : « تولَّ هذا الأمر حتى تصل إلى أبيك » . فقال لعمه أبي الأغلب [٣] : « أنت أحق بحق أخيك » . فلم يتقدم على زيادة الله ، وكان يحب السلامة .

ثم طلب أهل كسنتة الأمان ، وهم لايعلمون بوفاة الأمير ، فأُمِّنوا. وأقام المسلمون حتى قدم عليهم من كان توجه إلى الجهات. فلما قدموا ارتحلوا بأجمعهم وعادوا إلى مدينة بلرم . ونقلوا إبراهيم معهم فدفنوه بها [٤].وبُنى على قبره قصر.وعادوا إلى إفريقية بأجمعهم .

وكان مولد إبراهيم يوم الأضحى سنة خمس وثلاثين ومائتين . فكان عمره ثلاثا وخمسين سنة وأحد عشر شهرا وأياما [٥] . ومدة

---

(١) ك : فقتلوا.

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦ ، وابن الوردى ١ : ٢٣٧ ، وأبو الفدا ٢ : ٥٠ : لإحدى عشرة . وفى ابن عذارى ١ : ١٧٨ : لثلاث عشرة .

(٣) سيذكر النويرى (وغيره من المؤرخين) أن ابراهيم قتل ابنه أبا الأغلب فلعله ابن آخر بنفس الاسم .

(٤) وكذا ابن عذارى ١ : ١٧٨ ، وابن خلدون ٤ : ٤٣٧ . وفى ابن الأثير ٦ : ٦ ، والمؤنس ٥٠ ، وأبى الفدا ٢ : ٥٠ ، وابن الوردى ١ : ٢٣٧ : دفن بالقيروان .

(٥) اضطربت التواريخ فى هذه المسألة : أما ابن عذارى ١ : ١٧٨ ، فجعل مولده فى سنة ٢٣٠ ، وعمره عند وفاته ٤٢ سنة ، على الرغم من اتفاقه مع النويرى على سنة وفاته.

ولايته إلى حين وفاته ثمانى وعشرين سنة وستة أشهر واثنى عشر يوما [١] .

وكان لإبراهيم محاسن ومساوئ ذكرها ابن الرقيق ، ونحن نذكر لُمَعَة من محاسن أفعاله ومساوئها ، تدل على ما كان عليه . ونترك الإطالة جريا على القاعدة[٢] فى الاختصار .

قال : كان على حالة محمودة من الحزم والضبط للأمور . وأقام سبع [٣] سنين من ولايته ، وهو على ما كان عليه أسلافه من حسن السيرة وجميل الأفعال ، إلى أن خرج لمحاربة العباس بن طولون . فلما كُفى مؤنته تغيرت حاله وحرص على جمع الأموال . ثم اشتد أمره فأخذ فى قتل أصحابه وكُفاته وحُجابه . ثم قتل ابنه وبناته وأتى بأمور لم يأت غيره بمثلها .

فمن محاسن أعماله أنه كان أنصف الملوك للرعية ، لايُرَد عنه متظلم يأتيه [٤] . وكان يجلس بعد صلاة الجمعة ، وينادى مناديه : « من له مَظْلُمة » . فربما لم يأته أحد لكفِّ بعض الناس عن بعض . وكان يقصد ذوى الأقدار والأموال فيقمَعُهم ويقول : « لاينبغى أن يظلم إلا الملك ، لأن هؤلاء إذا أحسوا من أنفسهم قوة بما عندهم من الأموال لم يُؤمَن شرُّهم وبَطَرهم . فإذا كف الملك عنهم وأمنوا دعاهم ذلك إلى منازعته وإعمال الحيلة عليه . وأما الرعية فهم مادة الملك ،

(١) جعل ابن الأثير ٦ : ٦ ، و أبو الفدا ٢ : ٥٠ ، و ابن الوردى ١ : ٢٣٧ مدة ولايته ٢٥ سنة لأنهم لم يحسبوا المدة بعد اعتزاله الحكم .

(٢) ك : العادة .

(٣) ابن عذارى ١ : ١٧٨ : ست .

(٤) و : لا يرد عنه متكلم بالحق .

فإن أباح ظُلْمَهم لم يصل إليه نفعهم ، ولحقه الضرر ، وصار النفع لغيره » .

ووقف له رجلان من أهل القيروان ، وهو بالمقصورة فى جامع رقادة .فأدناهما إليه وسألهما عن حالهما فقالا له : « كنا شريكين للسيدة . « يعنيان أمه » فى جمال وغيرها . فاحتبست لنا ستمائة دينار » . فأرسل إليها خادما فقالت : « نعم هو كما ذكرا إلا أن بينى وبينهما حسابا . وإنما احتبست هذا المال حتى أحاسبهما . فإن بقى عليهما شىء وإلا دفعت مالهما إليهما » . فقال للخادم : « ارجع إليها وقل لها : والله لئن لم توجهى بالمال وإلا أوقفتك الساعة معهما بين يدى عيسى بن مسكين » . فوجهت بالمال إليه . فدفعه إليهما وقال : « أما أنا فقد أنصفتكما فيما ادعيتما ، فاذهبا واقطعا حسابها وإلا فأنتما أعلم » .

وكان إذا تبين له الظلم قِبَل أحد من أهل بيته وولده بالغَ فى عقوبته والإنصاف منه . فكان ولده ورجاله يوم الخميس يأمرون (١) عبيدهم ورجالهم أن يطوفوا فى الأزقة والفنادق ، ويسألوا : هل أتى شاكٍ أو متظلِّم من عبد أو وكيل ؟ فإذا وجدوا أحدا أتوا به إلى دار ولد الأمير أو قرابته فينصفه .

ومن مساوىء أفعاله أنه أسرف فى سفك دماء أصحابه وحجابه حتى يقال إنه افتقد منديلا كان يمسح به فمه من شرب النبيذ – وكان قد سقط من يد بعض جواريه فأصابه خادم – فقتله وقتل بسببه ثلاثمائة خادم . وهذا غاية فى الجور ونهاية فى الظلم .

---

(١) ص ، ر : يأخلون .

وقتل ابنه المكنى بأبى الأغلب (١) لظنٍّ ظنّه به ، فضرب عنقه بين يديه صبرا . وقتل ثمانية إخوة كانوا له رجالا ، ضُربت أعناقهم بين يديه صبرا . وكان أحدهم ثقيل البدن فسأله واسترْحمه . فقال : « لايجوز أن تخرج عن حكم الجماعة » . وقتله . ثم قتل بناته .

وأتى بأمور لم يأت بها أحد قبله ولم يتقدمه إلى مثلها ملك ولا أمير . فكانت أمه إذا وُلد له ابنة من أحد جواريه أخفتها عنه وربتها حتى اجتمع عندها منهن ست عشرة جارية . فقالت له ذات يوم ، وقد رأت منه طيب نفس : « ياسيدى ، قد ربيت لك وَصائف ملاحا ، وأحب أن تراهن » . فقال : « نعم ، قَرِّبيهن منى » . فأدخلتهن إليه فاستحسنهن . فقالت : « هذه ابنتك من جاريتك فلانة ، وهذه من فلانة » . حتى عدّتهن عليه . فلما خرج قال لخادم له أسود كان سيافا يقال له ميمون : « امض فجئنى برؤوسهن » . فتوقف استعظاما منه لذلك . فسَبّه وقال : « امض وإلا قدمتك قبلهن » . فمضى إليهن . فجعلن يصحن ويبكين ويسترحمن ، فلم يُغن ذلك عنهن شيئا . وأخذ رؤوسهن وجاء بهن معلقة بشعورهن ، فطرحها بين يديه .

ومن قبيح (٢) أفعاله ما كان عليه من أمر الأحداث ، وكان له نَيِّف وستون حَدَثا . وقد رتب لكل واحد منهم مرقدا ولحافا . فإذا جاء وقت النوم ، طاف عليهم الموكل بهم فسقى كل واحد منهم ثلاثة أرطال ، وينام كل واحد منهم فى مكانه . فبلغه أن بعضهم يمشى فى الليل إلى بعض . فجلس بباب القصر على كرسى وأمر بإحضارهم .

(١) انظر التعليقة رقم ٣ فى صفحة ١٣٨ .

(٢) ر : قبح .

فبعضهم أقر وبعضهم جحد ، حتى مر به صبي كان يحبه فقال : « والله يامولاى ما كان من هذا شيء » . فضربه بعمود من حديد فطار دماغه . وأمر بتنور فأُحمى . فكان يطرح فيه كل يوم خمسة أو ستة حتى أفناهم . وأدخل عددا منهم الحمام وأغلق عليهم البيت السخن ، فماتوا من ساعتهم .

وقتل بناته وجواريه بأنواع من العذاب : منهن من بنى عليها البناء حتى ماتت جوعا وعطشا ، ومنهن من أمر بخنقها ، ومنهن من ذبحها ، حتى لم يبق في قصره أحد . فدخل على أمه في بعض الأيام فقامت إليه ورحبت به . فقال لها : « إنى أحب طعامك » . فسُرت بذلك وأحضرت الطعام . فأكل وشرب وانبسط . فلما رأت سروره قالت له : « إن عندى وصيفتين ربيتهما لك وادخرتهما لمسرتك . وقد طال عهدك بالأنس بعد قتل الجواري وهما يحسنان القراءة بالألحان . فهل لك أن أحضرهما للقراءة بين يديك ؟ » . قال : « افعلى » . فأمرت بإحضارهما فأُحضرتا . وأمرتهما بالقراءة فقرأتا أحسن قراءة . ثم قالت له أمه : « هل لك أن ينشداك الشعر ؟ » قال : « نعم » . فغنتا بالعود والطنبور أبدع غناء حتى عمل فيه الشراب وأراد الانصراف . فقالت له : « هل لك أن تمشيا خلفك حتى تصل إلى مكانك ويقفا على رأسك ويؤنساك ، فقد طال عهدك بالأنس » . قال : « نعم . » فمضى وهما خلفه . فلم يكن إلا أقل من ساعة حتى أقبل خادم وعلى رأسه طبق وعليه منديل . فظنت أنه وجه إليها بهدية . فوضع الخادم الطبق بين يديها ورفع المنديل ، وإذا برأسيهما .

فصرخت أمه وغُشى عليها . وأفاقت بعد ساعة طويلة ، وهى تدعو عليه وتلعنه . وأخباره فى أمثال [١] هذا طويلة .

وفى أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعى الداعى ، وكان من أمره ماتذكره إن شاء الله عزوجل .

ذكر ولاية ابى العباس عبد الله بن ابراهيم[٢] ابن أحمد بن محمد بن الأغلب

ولى الأمر كما قدمناه فى حياة أبيه ثم استقل بالأمر بعد وفاته . وكان على خوف شديد من أبيه لسوء أخلاقه وجرأته على قتل من قرب منه أو بعد . فكان يظهر له من الطاعة والتذلل أمرا عظيما . فكان إبراهيم يكرمه ويفضله على سائر أولاده .

وكانت ولايته بعد أبيه فى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين . فجلس للناس للمظالم [٣]. ولبس الصوف ، وأظهر العدل والإحسان والإنصاف . ولم يسكن قصر أبيه . ولكنه اشترى دارا مبنية بالطوب فسكنها إلى أن اشترى داره التى عرف بها .

وخاف من قيام ابنه زيادة الله عليه فحبسه هو وخَلْقا من رجاله .

---

(١) ر : مثل .

(٢) المؤنس ٥٠ : أبى العباس أحمد بن إبراهيم . وجعل عبد الله ابنا له ، وذكر أنهما توليا السلطة . وكله خطأ .

(٣) ك : : فى المظالم .

وولى أبا العباس محمد بن الأسود الصدينى [١] قضاء القيروان والأحكام والنظر في العمال وجُباة الأموال . فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وكان قويا فى قضائه ، شديداً على رجال السلطان ، رفيقا بالضعفاء والمظلومين . ولم يكن واسع العلم ، فكان يشاور العلماء ، فلايقطع حكما إلا برأي ابن عبدون [٢] القاضى . وكان يظهر القول بخَلْق القرآن فكرهه العامة .

ولم تطل أيام أبى العباس حتى وثب به ثلاثة من خدمه كان زيادة الله قد وَضَعهم عليه ، فقتلوه وهو نائم . وأتوا بحداد إلى زيادة الله ليقطعوا قيده ويسلموا عليه بالإمارة . فخاف أن يكونوا دسيسا عليه من أبيه ، فأبى ذلك . فمضوا إلى أبيه فقطعوا رأسه وأتوا به في الليل . فلما رأى ذلك أمر بقطع قيوده وخرج . وكان مقتل أبى العباس فى ليلة الأربعاء آخر شعبان [٣] سنة تسعين ومائتين . فكانت إمارته من حين خروج أبيه وإلى أن قُتل سنة واحدة واثنين وخمسين يوما ، ومنذ استقل بالأمر بعد أبيه تسعة أشهر وثلاثة عشر يوما [٤] .

وكان رحمه الله شجاعا بطلا عالما [٥] بالحرب ، حسن النظر فى الجدل [٦] . وأستاذه فى ذلك عبد الله بن الأشج [٧] .

---

(١) كذا فى الأصول . وفى ص فى مرة أخرى : الصيد ينى . وفى طبقات علماء إفريقية لمحمد ابن الحارث بن أسد الخشنى ١٩٤ ، ٢٣٨ : الصدنى .

(٢) محمد بن عبدون بن أبى ثور . (طبقات علماء إفريقية ١٨٧)

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٦ : ٣١٠٣ . وفى ابن عذارى ١ : ١٨١ : ليوم بقى من شعبان . وفى المونس ٥٠ : سنة ثمان وثمانين ومائتين .

(٤) ابن عذارى ١ : ١٨١ : وأحد عشر يوماً .

(٥) ك : عاملا .

(٦) ص : الجدال .

(٧) عبد الله بن محمد بن سعيد الأشج (طبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى ٤٨ ، ١٩٣ ، ٢٢٠) .

ذكر ولاية أبى مضر زيادة الله بن أبى العباس

عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب قال : ولما أفضى إليه الأمر بعد مقتل [١] أبيه ، كان أول ما بدأ به أنه أمر بقتل الخصيان الذين قتلوا أباه وصلبهم ، وأظهر الكراهة لفعلهم .

وأرسل من إخوته وبنى عمه تسعة وعشرين رجلا إلى جزيرة فى البحر يقال لها جزيرة الكُراث [٢] فقُتلوا فى شهر رمضان من هذه السنة .

وبعث زيادة الله خمسين فارسا مع فتوح الرومى إلى أخيه الأحول بكتاب على لسان أبيه أبى العباس يأمره فيه بالقدوم عليه ولايتخلف — وكان أبو العباس قد أخرجه لقتال أبى عبد الله الشيعى — فرجع . فلما وصل أمر زيادة الله بقتله فقُتل . فكان ذلك أعظم فتح عند الشيعى .

قال : وأمر زيادة الله بالعطاء .

وولى الوزارة والبريد عبد الله بن الصائغ . وولى الخراج أبا مسلم [٣] . وعزل القاضى الصدينى لرأيه بخلق القرآن . وكتب كتابا إلى القيروان : « إنى قد عزلت عنكم الجافى الجلف ، المبتدع المتعسف ، ووليت القضاء حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة » .

---

(١) ك : قتل . وفى المؤنس ٤٧ : استقل بالأمر فى سنة إحدى ومائتين .

(٢) ابن عذارى ١ : ١٨٣ : على ١٢ ميلا من تونس .

(٣) ابن عذارى ١ : ١٨٣ : أبا مسلم منصور بن إسماعيل .

وفى أيامه قوى أمر أبي عبدالله الشيعى ، وكان قد ظهر فى أيام جده إبراهيم بن أحمد ، فاستفحل الآن أمره . وكثرت أتباعه ، واشتدت وطأته . ففارق زيادة الله تونس إلى رقادة ونزلها خوفا من الشيعى أن يخالفه إليها . ولما نزلها زيادة الله عمر سورها ، فلم يغن ذلك عنه شيئا لأن الشيعى لما قوى أمره بكتامة ، انضمت إليه القبائل واجتمعت له الرجال ، وهزم جيوش زيادة الله مرة بعد أخرى وقتل جموعه. واستولى على البلاد : فبدأ بميلة ثم بمدينة سطيف ثم غلب على البلاد والمدن بلدا بلدا ومدينة مدينة ، إلى أن غلب على مدينة الأربس ، وهزم إبراهيم بن أبي الأغلب(١) . وكان زيادة الله قد جهزه لقتاله فى جيوش عظيمة ، وهو آخر جيش جهزه زيادة الله . فهزمه الشيعى ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين (٢) ومائتين ، على ما نذكره إن شاء الله مبينا فى أخبار الدولة العُبَيدية المنسوبة للعلوية .

ذكر انهزام زيادة الله الى المشرق وانقراض دولة بنى الأغلب

قال : ولما بلغت هزيمة إبراهيم بن الأغلب زيادة الله ـ وكان هذا الجمع آخر جمع جمعه ـ فتّ ذلك فى عضده . وكان برقادة فأظهر أنه أتاه الفتح وأرسل إلى السجون فأتى برجال منها . فضرب أعناقهم وأمر أن يطاف برؤوسهم فى القيروان والقصر القديم .

(١) فى الأصول هنا: إبراهيم بن الأغلب ، وفيما بعد ذلك ، وفى ابن الأثير ٦ : ١٢٣ وابن عذارى ١ : ١٩٩ ، وابن خلدون ٤ : ٤٤٠ : إبراهيم بن أبي الأغلب .

(٢) كذا في ك وجميع المراجع. وفى ع: وسبعين . وفى ص: وستين . وهما خطأ.

وأخذ في حمل [١] أثقاله وأمواله . وأرسل إلى خاصة رجاله وأهل بيته يُعرِّفهم الحال وأنذرهم بالخروج معه . فأشار عليه وزيره ابن الصائغ بالمقام . وقال له : « العساكر تجتمع إليك ، فأخرج العطاء يأتيك الناس . والشيعى لا يجسر أن يقدم عليك » . وشجعه وقواه وذكّره بحروب جده زيادة الله ، فلم يرجع إلى قوله . فلما ألح عليه ابن الصائغ ، قال له زيادة الله : « هذا يصدق ماقيل عنك : إنك كاتبت الشيعى وأردت أن تمكنه منى » . فتبرأ من ذلك وأمسك عنه .

وأخذ زيادة الله فى شد الأموال والجواهر والسلاح وماخف من الأمتعة النفيسة ، وفعل رجاله كذلك واتّعدوا إلى الليل . ثم انتخب زيادة الله من عبيده الصقالبة ألف خادم وجعل على وسط كل خادم ألف دينار . وحمل من يعز عليه من جواريه وأمهات أولاده .

ولما عزم على الرحيل ، قامت إليه جارية من قيانه ، وأخذت العود واندفعت تغنى :

لم أنسَ يومَ الرحيل موقفها
وجَفْنُها فى دموعها غَرِقُ [٢]

وقولها ، والركاب سائرة
تتركنى سيدي وتنطلق [٣]

---

(١) ك : جمع .
(٢) ابن عذارى ١ : ٢٠٠ : يوم الوداع .
(٣) ابن عذارى ١ : ٢٠٠ تتركنا . والشطر الثانى غير منقوط فى ع . وفى ص : يتركنى .. وينطلق .

فدمعت عيناه وأمر بحط حمل مال عن بغل وحَملها عليه [١] .

وكانت الهزيمة بلغته بعد صلاة العصر ، فما أذّن مؤذن العشاء الآخرة إلا وقد رحل من رقادة [٢] . واتبعه الناس قوما بعد قوم يهتدون بالمشاعل . وأخذ طريق مصر .

وخرج عبدالله بن الصائغ بعده بثَقَله وحشمه وأمواله . فقصد جهة لَمْطَة ، وقد كان أعد هناك مركبا لنفسه ، ليركب فيه إلى صقلية ويفارق زيادة الله خوفا على نفسه من رجاله أن يحملوه على قتله ، لأنه كان معاديا لأكثرهم ورموه بمكاتبة الشيعى ؛ ولم يكن كذلك .

قال : ولما علم الناس بهروب زيادة الله ، أسرعوا إلى رقادة ، وانتهبوا مافيها ، واحتووا على قصور زيادة الله ، حتى صاروا إلى البحث عن المطامير وانتزاع حديد الأبواب وحمل الأسرّة ونقل الماعون. وأقاموا على ذلك ستة أيام ،حتى تراءت خيل الشيعى . وتخلف عن زيادة الله كثير من رجاله وعبيده وأصحاب الدواوين ،فافترقوا فى البلدان .

وأما إبراهيم بن أبى الأغلب ، فإنه وافى القيروان فى جماعة من انضم إليه . فلما علموا بهروب زيادة الله ، تفرقوا عنه وقصد كل قوم إلى ناحيتهم . وقصد إبراهيم دار الامارة فنزل بها . ونادي مناديه بالأمان ، وسكّن الناس . وأرسل إلى الفقهاء ووجوه أهل القيروان: فاجتمع على بابه خلق كثير وسلموا عليه بالإمارة . فذكر لهم أحوال

(١) ابن عذارى ١ : ٢٠١ : وشغله سوء الموقف وضيق الحال عن حملها معه .

(٢) يفهم من ابن عذارى ١ : ٢٠٠ أنه سافر ثانى يوم سماعه بالهزيمة .

زيادة الله ، وماكان عليه من سوء الحال ، وأن ذلك أخل بدولته وأجْلَب عدوه وسَلَبه ملكه . وذكر الشيعى وكتامة وشنّع عليهم أقبح الأشانيع . وطلب من الناس الإعانة . وقال : « إنما قصدت المجاهدة عن حريمكم ودمائكم وأموالكم ، فأعينونى على ذلك بالسمع والطاعة ، وأمدونى بأموالكم ورجالكم ، وادفعوا عن حريمكم ومهجكم » . فقالوا : « أما السمع والطاعة فهما لك ولكل من ولينا . وأما إعانتك بأموالنا فهى لاتبلغ ماتريده . والقتال فمالنا به قوة ولامعرفة . وأنت فقد ناصبت هؤلاء ومعك صناديد الحرب ووجوه الرجال ووراءك بيوت الأموال ، فلم تظفر بهم . وتروم الآن ذلك منا نحن وبأموالنا[1] » . فراجعهم فى ذلك وراجعوه ، حتى قال لهم : « فانظروا ما كان فى أيديكم من أموال الأحباس والودائع فأعطونى ذلك سَلَفا ، فأُنادى بالعطاء فيجتمع إلى الناس » . قالوا : « ومايغنى عنك ذلك ، ولو مددت يدك إليها لأنكر الناس عليك » .

فلما يئس منهم صرفهم والناس مجتمعون حول دار الإمارة لايعلمون ما كان الكلام . فلما خرجوا أخبروهم بما كانوا فيه . فصاحوا به : « اخرج عنا ، فمالنا بك من حاجة ، ولانسمع ولانطيع لك » . وجلب الغوغاء وصاحوا به وشتموه . فلما سمع ذلك ، وثب من كان[2] معه فى سلاحهم واقتحموا الباب . فهرب من كان على الباب. ومضوا يُركضون دوابهم ، والناس يركضون وراءهم ويرجمونهم

(١) كذا فى ص ، ر . وفى ع ، ك : وأموالنا .
(٢) ص : وثب بمن كان معه .

بالحجارة . وانضم إلى ابن الأغلب من كان قد بقى بعد زيادة الله من رجاله ممن خاف على نفسه ، ولحقوا زيادة الله .

ثم دخل الشيعى رقادة وانقرضت دولة بنى الأغلب .

ذكر ما كان من أخبار زيادة الله وقتله عبد الله ابن الصائغ ومسيره الى بلاد الشرق ووفاته

قال : ولما خرج زيادة الله من رقادة ، ولحق به إبراهيم بن أبى الأغلب فيمن انضم إليه ، فاجتمع (١) معه خلق كثير . فسار بهم إلى طرابلس فدخلها ونزل دار الإمارة . وافتقد ابن الصائغ فلم يره ، فتحقق ما كان يُرمَى به من مكاتبة الشيعى . وأكثَر أصحابه القول فيه . وكان قد ركب فى مركب له يريد صقلية ، فصرفته الريح إلى طرابلس . فدخل على زيادة الله فعاتبه على تخلُّفه . فاعتذر أنه كانت معه أثقال لم يُطق حملها (٢) فى البر . فلما علم أصحاب زيادة الله أنه قرب ابن الصائغ ساءهم ذلك وغمهم . فأتوه وقالوا : « إنه كذبك وإنما كان يريد صقلية » . واجتمعوا كلهم وقالوا : « هذا الذى أخرجك من ملكك ، وعمل فى ذهاب دولتك ، وكاتب الشيعى عليك » . فنقم عليه وأمر بتسليمه إلى راشد - وهو أحد المتعصبين عليه - فضرب عنقه بيده . وتلاعب الصبيان برأسه حتى وقع فى قناة حمام . وحُكى عن الشيعى أنه قال : « والله ماكاتبنى قط. » .

(١) كذا فى الأصول : فاجتمع ، والفعل جواب لما ويجب أن يكون بدون فاء .
(٢) ك : جرها .

قال : وأقام زيادة الله بطرابلس سبعة عشر [١] يوما وخرج منها يريد مصر . وكان قد نقم على إبراهيم بن أبي الأغلب لما أراده من العقد لنفسه بمدينة القيروان ، فاطرحه وأعرض عنه وعن أبي المصعب بن زُرارة . وسُعى بهما عنده أنهما يَقَعان فيه وينالان منه ، وقيل له : « هذا قولهما فيك وهما معك وفى قبضتك ، فكيف إذا وصلا إلى مصر ؟ » فعزم على قتلهما . فهربا إلى الإسكندرية واستجارا بعاملها . فأجارهما ووجه بهما إلى مصر . فدخلا قبل زيادة الله ، واجتمعا بعيسى النوشرى عاملها ، ووقعا عنده فى زيادة الله ، وذكروا سوء فعله وأنه يُطمع نفسه بمصر . فهم النوشري أن يصد زيادة الله عن مصر إلى أن يكتب إلى بغداد . فأتى زيادة الله الخبر من عيون كانت له بمصر ، فأرسل ابن القديم بكتاب إلى النوشري ، يبجّله فيه ويسأله أن ينظر له دارا [٢] ينزل فيها ، ويخبره أنه يقيم إلى أن يصل إليه الرسول . ثم سار زيادة الله فى أثر ابن القديم وجاء إلى مصر [٣] . فأنزله النوشرى فى دار ابن الجصاص ، وأنزل رجاله فى دور كثيرة .

وأقام بمصر ثمانية أيام ثم خرج يريد بغداد . فتخلف عنه بمصر جماعة ممن كان معه [٤] . فسار حتى وصل إلى الرملة ففقد وجوه رجاله ، فوجدهم هربوا عنه . وهرب له غلام بمائة ألف دينار ، وصار إلى النوشري والتحق بغلمانه . فكتب زيادة الله إلى بغداد بذلك . فورد

(١) وكذا فى ابن خلدون ٤ : ٤٤١ . وفى ابن الأثير ٦ : ١٢٣ : تسعة عشر يوماً .
(٢) ص ، ر : فى دار .
(٣) يفهم من ابن الأثير ٦ : ١٢٤ وولاة مصر للكندى ٢٨٦ أنه دخل مصر بعد مناوشات واشتباكات بينه وبين أصحاب النوشرى .
(٤) ك : كانوا معه .

الجواب إليه ، وإلى النوشري يؤمّر فيه أن يبعث إليه بكل من تخلف عنه . ففعل النوشري ورد غلمانه وأصحابه إليه .

وسار زيادة الله حتى وصل إلى الرقة . وكتب إلى ابن الفرات الوزير أن يستأذن له المقتدر بالله فى الدخول إلى الحَضْرة . فأتاه كتاب يؤمر فيه بالإقامة فى الرقة حتى يأتيه رأي المقتدر . فأقام بها سنة فتفرق عنه رجاله وتشتت أمره . وباع عليه قاضى الرقة بعض خصيانه ، وذلك أنه كان معه خصيان لهم وضاءة وجمال . فلما أقام بالرقة أدمن شرب الخمر وسماع الملاهى. فاحتسب عليه محتسب عند القاضى، وأقام بينة شهدت عليه أنه يفجر بأولئك الصقالبة . فباعهم عليه . وتلطف زيادة الله فى الدخول على المقتدر بالله فلم يؤذن له . وصرفه إلى النوشري وابن بسطام بمصر . وكتب المقتدر إليهما بتقويته بالرجال وأن يُعطَى من خراج مصر ما يقيم أود عسكره حتى يعود إلى المغرب ويطلب بثأره ويسترجع دولته .

فلما وصل إلى مصر شقها متقلدا بسيفين . فأخرجه النوشري إلى ظاهرها[1] وقال له : « تكون متبرِّزا حتى تأتيك الرجال والأموال » . وجعل يمطله ويسوِّف به ويُتحفه بالهدايا والخمور . فأقام على اتباع شهواته والانهماك على لذاته حتى أنفق ما كان معه وباع السلاح والعدة. ثم اعتل فيقال إن بعض عبيده سمه فى طعام فسقط. شعر لحيته

(١) أبو الفدا ٢ : ٦٣، وابن الوردى ١ : ٢٥٠ : الحمامات . وفى ابن الأثير ٦ : ١٢٤ : ذات الحمام. وقد مات النوشرى فى ٢٦ شعبان ٢٩٧هـ ، ومات زيادة الله ٣٠٣ . وإذن فقد عاش فى ولاية أبى منصور تكين وربما ذكا الأعور على مصر ، وأسهم هؤلاء جميعاً فى مطله .

ورأسه . فانصرف إلى البيت المقدس فمات هناك[١] . وتفرق آل الأغلب وانقرضت دولتهم بخروج زيادة الله من الملك .

وكانت مدة ولاية زيادة الله منذ أفضى إليه الأمر بعد أبيه وإلى أن هرب إلى رقادة خمس سنين وعشرة أشهر [٢] . وانقرضت دولتهم كأن لم تكن . فسبحان من لايزول ملكه ولا ينقضى دوامه . وبانقراض دولة بنى الأغلب زال ملك بنى مدرار بسجِلْماسَة ، وكان له مائة سنة وستون سنة ، وزال ملك بنى رستم من تَيْهرت ، وله مائة سنة وثلاثون سنة .

(١) جعل ابن خلدون ٤ : ٤٤١ موته ببيت المقدس، وجعله ابن الأثير ٦ : ١٢٤، ابن عذارى ١ : ٢٤١، المونس ٥١، وأبو الفدا ٢: ٦٣، وابن الوردى ١ : ٢٥٠ بالرملة .

(٢) أبو الفدا ٢ : ٦٣ : خمس سنين وتسعة أشهر وأياماً . وفى ابن عذارى ١ : ٢٠١ خمس سنين وأحد عشر شهراً وأربعة أيام .

ذكر أخبار من ملك المغرب بعد بنى الأغلب الى أن قامت دولة بنى زيرى بن مناد

نحن نذكر ذلك فى هذا الموضع على سبيل التنبيه عليه لا الاستيعاب له . وسنذكره إن شاء الله تعالى مبيَّنا مستوفى فى أخبار الدولة العُبيدية مع ملوك مصر .

فنقول هاهنا : لما قام أبو عبد الله الشيعى على دولة بنى الأغلب ، وهزم جيوشهم ، واستولى على بلاد المغرب وانتزعها من زيادة الله بن أبى العباس ، وظهر أبو محمد عبيد الله المنعوت بالمهدي – وهو الذي كان الشيعى يدعو له – فانخلع[1] له الشيعى من الأمر كله ، وسلمه إليه فى سنة ست وتسعين ومائتين . فلما استقامت الأمور للمهدي ، وتوطَّد ملكه ، واشتدت شوكته ، قتل أبا عبد الله الشيعى وأخاه ، واستقل بالأمر . وبنى مدينة المهدية وانتقل إليها . ودامت أيامه إلى أن توفى فى النصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة .

ثم قام بالأمر بعده ولده[2] أبو القاسم محمد المنعوت بالقائم بأمر الله . فملك إلى أن توفى فى يوم الأحد الثالث عشر من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة .

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو الطاهر إسماعيل المنعوت بالمنصور بنصر الله . وبنى المنصورية . ودامت أيامه إلى أن توفى فى يوم الجمعة آخر

(١) كذا فى الأصول : فانخلع . وهى جواب لما ، على عادة المؤلف .
(٢) ك : ابنه .

شوال [١] سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة .

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو تميم معَد المنعوت بالمعز لدين الله . ودامت ولايته ببلادالمغرب إلى أن جهز القائد جوهرا إلى الديار المصرية فملكها بعد انقراض الدولة الإخشيدية . وأنشأ القاهرة المعزية ، ثم كتب إلى مولاه المعزلدين الله بذلك . فتوجه المعز إلى الديار المصرية ، وكان رحيله من المنصورية ووصوله إلى سرْدانية [٢] فى يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة إحدي وستين وثلاثمائة .وسلم إفريقية وبلاد المغرب كلها ليوسف بن زِيرِي بن مَناد فى يوم الأربعاء لسبع [٣] بقين من ذي الحجة من السنة . وأمر سائر الناس بالسمع والطاعة له. ثم رحل المعز لدين الله من سردانية لخمس خلون من صفر [٤] سنة اثنتين وستين وثلاثمائة . ثم سار منها إلى طرابلس وأقام بها أياما . ورحل منها يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر منها . ووصل ثغر الإسكندرية لست خلون من شعبان منها [٥] .فكانت مدة مقامهم ببلادالمغرب خمسا وستين سنة وشهورا [٦] . وصار أمر المغرب بعده ليوسف بن زيري ثم لبنيه من بعده ،على ما نذكره إن شاء الله عز وجل . وكانوا فى مبدإ الأمر كالنواب لملوك الدولة العُبيدية بمصر . ثم استقلوا بعد ذلك بالأمر على ما يأتى من أخبارهم .

(١) وكذا فى ابن عذارى ١ : ٣١٤ . وفى ابن خلدون ٤ : ٩٥ : سلخ رمضان . وفى الزاوى ١٧٠ : ١٠ شوال . وفى اتعاظ الحنفا للمقريزى ١٢٩ : يوم الأحد الثالث وعشرين من شوال وقيل : يوم الجمعة مع الظهر سلخ رمضان .

(٢) سردانية أخرى غير الجزيرة ، فهى بلد قريب من القيروان .

(٣) كذا فى ص،ع،ك بعدذلك وابن خلكان ١ : ٩٣ . وفى ك واتعاظ الحنفا ١٤٤ لتسع .

(٤) الزاوى ١٧٣ : أول صفر .

(٥) وكذا فى اتعاظ الحنفا للمقريزى ١٨٦ ، وفى الزاوى ١٧٥ : يوم ٢٣ من شعبان . وفى ابن الأثير ٧ : ٤٦ ، وأبى الفدا ٢ : ١١٢ ، وابن الوردى ١ : ٢٩٧ : فى أواخر شعبان.

(٦) الزاوى ١٧٥ : ٥٢ سنة . خطأ .

ذكر ابتداء دولة بنى زيرى بن مناد ونسبهم ومبدأ أمرهم ومن ملك منهم الى انقضاء دولتهم

أول من ملك منهم أبو الفتوح بُلُكّين يوسف بن زِيرِي . ولنبدأ بذكر نسبه وأخبار آبائه ومبدإ أمرهم .

فأما نسبه (١) فهو أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مَناد بن منقوش (٢) بن زِناك بن زيد الأصغر بن واشفاك بن وزعفى (٣) ابن سري بن وتلكى بن سليمان بن الحارث بن عدي الأصغر- وهو المثنى بن المسور بن يحصب بن مالك بن زيد [بن الغوث] (٤) الأصغر- بن سعد - وهو عبد الله بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد ابن شداد (٥) بن زُرْعة - وهو حمْيَر [الأصغر] (٦) بن سَبَأ الأصغر بن كعب بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث (٧) بن قطن بن عوف بن عَريب بن زهير بن أيمن بن الهَمَيْسَع بن عمرو بن حمير - وهو العَرَنْجَج - ابن سَبَأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر - وهو هود.

هكذا قال عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم

---

(١) ذكر ابن خلدون ٦ : ٣٠٩ خلافاً بين المؤرخين والنسابين فى هذا النسب ، وأورد عدة أقوال لهم .

(٢) فى ر وتعليقة فى هامش أن رواية إحدى النسخ : رنقوش .

(٣) ص ، وابن خلكان ١ : ٩٨ : وزغفى .

(٤) زيادة ضرورية عن ابن خلكان ١ : ٩٨ ، لأن زيدا الأصغر مرفى النسب .

(٥) ابن خلكان : سدد .

(٦) زيادة عن ابن خلكان .

(٧) ابن خلكان : الغوث بن حيدان بن قطر .

ابن المعزبن باديس فى تاريخه المترجم « بالجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » . وهم المقول فيهم :

ذوو الملكِ والتِّيجان والغُرَر التى حَقيقٌ بها التيجانُ أنْ تتَباهَى (١)
لها مُعجِز التَّأسيسِ فى سُدَّ مَأْربٍ وإن كان قد أوْهاهُ فَيْضُ نَداها
لها ركنُ بيت الله غير مدافع وميقاتُ حجِّ الله غير مُضاهَى (٢)
لها اللغة العليا التى نزلت بها فواتح ياسين ومبدأ طَه
لها يومُ بَدْرٍ والنَّضيرِ وخَيْبَرَ وأيُّ مُنادٍ فى حُنَينَ دَعاها

قال : وأول من دخل منهم بلاد المغرب المثنى بن المسور . وكان سبب دخوله أنه لما رأي الحبشة قد غلبت على اليمن وأخرجت حمْيَر عن ملكها ، سار إلى الشِّحْر فوجد به كاهنا من حمير . فلما رأي المثنى ، سلم عليه وسأله عن خبره وما الذي أتى به . فأعلمه أن الحبشة غلبتهم على ملكهم . فقال له الكاهن : « اذهب إلى المغرب واتخذه قرارا . فوالله ، ليكونن لولدك فيه شأن ، وليملكنّ منهم جماعة ، ويتوارثونه ، ويطول ملكهم » . فهاج ذلك المثنى على دخول المغرب فدخله . وأعلم المثنى بنيه بذلك وأعلم بنوه بنيهم .

فمازالوا يتوقعون الملك إلى أن وُلد مناد بن منقوش ونشأ ، فجاء شديد القوة كثير المال والبنين . فأخذ فى الإفضال على من يمر به . فاشتهر ذكره وشاع خبره فى الناس . وكان له مسجد يطرقه كل من يأتى إليه . فإذا خرج إلى الصلاة ، سلم على من ينزل المسجد من

(١) ر : ذوى .
(٢) ر : غير معاجز .

الأضياف وحمله إلى داره ، ويضيفه ويكرمه . ويقيم عنده ماشاء الله أن يقيم [١] . فإذا أراد الانصراف ، زوده وكساه ووصله وصرفه.

فإنه على ذلك ، إذ أتاه آتٍ فقال له : « إن فى المسجد رجلا وصل فى هذه الساعة ، وهو يذكر أنه جاء من الحج » . وكان وقت صلاة الظهر . فخرج مناد إلى المسجد ، فصلى وسلم على الرجل ، وسأله عن حاله ومن يكون ومن أين أقبل فقال : « إنه من أهل المغرب ، وإنه انصرف من الحج [٢] فخرج عليه لصوص ، وأخذوا ماكان معه فانقطع عن أصحابه ، ووصل إلى إفريقية فسمع بمناد وما يفعل[٣] مع أبناء السبيل ، فقصده ليعينه على الوصول إلى أهله » . فقال له مناد : « قد وصلت فأبشر بالخير إن شاء الله » . ومضى به مناد إلى منزله ، فأكل ونام . وأمر مناد بشاة فذُبحت وعُمل طعام ثان . وأيقظ الرجل وأُتى بالطعام فأكل منه . ونظر إلى كتف الشاة فأخذه وقلبه ونظر فيه وإلى مناد ، وأقبل يتعجب . فقال له مناد : « لأي شيء تنظر فى الكتف وتنظر إلى ؟ » . قال : « لاشيء » . فعزم مناد عليه أن يخبره ممَّ تَعجُّبه . فقال : « ألك امرأة حامل؟ » . قال : « بلى » . قال : « فلك منها أولاد ؟ » قال : « لا ولكن من غيرها » . قال : « فاعرضهم على » . فعرضهم مناد عليه ، فقال : « ألك غير هؤلاء ؟ » . قال : « ليس لى ذكر إلا من رأيت » . قال : « احتفظ بالمرأة الحامل . فوالله ، لتلدَنَّ ولدا يملك المغرب جميعه ،

(١) ر : ماشاء أن يقيم .
(٢) ر : أهل الحج .
(٣) ص ، ر : كان يفعل .

ويملك بنوه من بعده . فقال له مناد : « والله ، مازلنا نَتَوكَّفُ (١) زمانَ هذا القائم منا ، روايةً عندنا عن أسلافنا . وكنا لانعلم من أي فَخذ من أفخاذنا يكون . والآن فقد أنبأتني بنبأ ما كنا ننتظر من (٢) هذا القائم » . قال : وأكرم مناد الرجل وصرفه .

ذكر أخبار زيرى بن مناد

قال : ووضعت زوجة مناد حملها ، فجاء ذكرا فسماه أبوه زيري . فخرج من أجمل مولود رآه الناس ، وكذلك كان أولاده يُضرب بجمالهم المثل في المغرب فيقال : « لو أنك من بنى مناد » .

فلما صار له من العمر عشر سنين ، كان من رآه يظنه أنه ابن عشرين سنة لبهائه . وكانت (٣) الصبيان يدورون حوله ، ويدعونه بالسلطان ، ويركبون العيدان يتشبهون بالعساكر . ويأمرهم بالقتال بين يديه ، يُغري بعضهم ببعض . ويأتي بهم إلى أمه فتصنع لهم الطعام . فيقف على رؤوسهم ويطعمهم ولايأكل .

فلما تكامل شبابه وقوى أمره ، جمع إليه جماعة من بنى عمه ومن كان له نجدة (٤) . فكان يشن بهم الغارات على القبائل من زَناتة فيقتل ويسبي ويقسم على أصحابه فلا يُؤثر نفسه بشيء . فحسده كثير

(١) كذا في ع ، أي ننتظر . وفي ص : نتولف . وفي ك : نتكوف . تحريف .
(٢) ك : في .
(٣) ص : وكان .
(٤) ر : نجبة .

من قبائل صنهاجة لأن كل قبيل كان يطمع أن يكون القائم منهم [١] . فلما تحققوا أنه القائم اجتمعت القبائل من صنهاجة على زيري وحاربوه . وطالت الحرب بينهم فظفر بهم وقتل وسبى ورجع بالغنائم إلى الجبل .

فلما سمعت بذلك زناتة ، اجتمعوا وتحالفوا وكاتبوا مَن كان خالفه من صنهاجة وحالفوهم على حرب زيري. فاتصل ذلك به فخرج إليهم وضرب على زناتة بأرض مَغيلة فى الليل وهم مطمئنون ، فقتلهم وسباهم ، وقطع منهم رؤوسا كثيرة .

وخرج إلى جبل تِيطَرِي وقد امتلأت أيدي أصحابه من الغنائم ، وأخذ من خيلهم ثلاثمائة فرس فحمل أصحابه عليها . وشاع خبره فى سائر أقطار المغرب وتسامع الناس به ، فعظموا أمره واستَهالُوه . واجتمع إليه كل من فيه منعة . فكثر أصحابه وضاق بهم المتسع . فقالوا له : « لو رأيت مكانًا أوسع من مكاننا هذا » . فأتى إلى موضع آشير ، وهو إذ ذاك خال ليس فيه ساكن وفيه عيون ، فاستحسنه.

ذكر بناء مدينة آشير

قال : ولما نظر زيرى إلى موضعها قال لأصحابه : « هذا موضعكم الذى يصلح أن تسكنوه » وعزم على بنائها ، وذلك فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة [٢]

(١) ص ، ر : فيهم .
(٢) ابن الأثير ٧ : ٤٧ : أربع وستين وثلاثمائة . خطأ .

أيام القائم بأمر الله بن المهدى . قال : وأمر زيرى بإحضار البنائين والنجارين من حَمْزَة والمسيلة وطُبْنة . وبعث إلى القائم بأمر الله فى طلب صُناع . فبعث إليه برجل لم يكن بإفريقية أعلم منه . وأعانه بعُدة كثيرة من الحديد وغيره . وشرع زيرى فى البناء إلى أن كملت المدينة .

وكانت زناتة قد استطالت على أهل تلك الناحية من أيام بنى الأغلب ثم تزايد ضررهم فى أيام المهدي والقائم. فلما سمع القائم ببناء زيرى هذه المدينة ، حمد الله لى ذلك وقال : « مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر » . وأعانه وساعده . ثم خرج زيري إلى طبنة والمسيلة وحمزة ، فنقل منها وجوه الناس إلى مدينة آشير . فعمرت وجاءت حصناً منيعاً لا يقاتل إلا من شرقيها — يحميها عشرة من الرجال ، ولو لم يكن عليها سور لاستغنت بعلوها عن السور . وفى وسطها عينان تجريان بماء عذب غزير . وامتلأت البلد بالعلماء والفقهاء والتجار. وتسامع الناس بها . ولم يكُن الناس إذ ذاك يتعاملون بالذهب والفضة وإنما بالبعير والبقرة والشاة ، فضرب زيري السكة . وبسط العطاء فى الجند ، وجعل لهم الأرزاق . فكثرت الدنانير والدراهم فى أيدي الناس .

واطمأنت نفوس أهل البادية للحرث [١] والزراعة . وصانهم زيري مما كان ينالهم من زناتة . وتمكنت العداوة بين صنهاجة وزناتة .

ثم خرج زيري إلى المغرب ، وولى أخاه ماكِسن بن مناد على آشير . فلما وصل إلى جُراوَة ، خرج إليه صاحبها موسى بن أبى العافية ، وكان واليا عليها لعبد الرحمن بن محمد الأموي صاحب قُرْطُبة ، بهدية سنية وجوارٍ وغير ذلك . وقال له : « يا مولاي ، إنما استعملت نفسى لبنى أمية لأرهب بهم على زناتة ، وإذ قد أتانى الله بك وجمع بينى وبينك فأنا عبدك ، ومنقطِع إليك ، وغَوْثك [٢] . أنت منى قريب ، وسيف قريب منى أمنع من سيف بعيد » . فقربه زيري وأدناه وقال له : « اكتب إلى بما يعن لك . فأنا أمدك بالعساكر متى أردت » . فشكا إليه من غُمارة وقال : « إنهم قوم على غير مذهب يُبيحون المَحارم . وقام فيهم رجل يدّعى النبوة ، وسَنّ سُنَنا من المنكرات » . فرحل زيري إلى غمارة وصحبه موسى ، فأوقع بهم . وأخذ الذي يدعى النبوة فوصل به إلى آشير . وجمع عليه الفقهاء فقالوا له : « إن كنت نبيا فما علامة نبوتك ؟ » . فقال : « اسمى فى القرآن » . قالوا : « وما اسمك ؟ » . قال : « اسمي

(١) ر : للحرب . والباء غير منقوطة فى ص.
(٢) ك، ر : عونك .

حم ، واسم أبى من الله ، وفى القرآن ﴿ حم تَنْزِيلُ الكِتَاب مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم ﴾[١] .فأباحوا قتله فقُتل .

قال : واتصلت المودة بين زيري والقائم بأمر الله . وسبب ذلك أن أبا يزيد[٢] لما حاصر المهدية ومنع الميرة عنها ، كتب القائم إلى زيرى يُعلمه ما الناس فيه من الجهد والغلاء . فبعث إليه زيرى بألف حمل حِنْطة . وأخرج معها مائتى فارس من صنهاجة وخمسمائة من عبيده . فلما وصل ذلك إلى المهدية ، بعث القائم له هدية لم يُسمَع بمثلها كُسًا جليلة وخيل مُسوَّمة بسروج محلاة .

ذكر الحرب بين زيرى وزناتة

قال : ثم إن كمات بن مَدِينى الزناتى سيد زناتة جَيَّش واحتفل ونزل على آشير ، فخرج إليه زيري . وكانت بينهم حروب يطول شرحها . وكان لزيري ولد صغير اسمه كباب استخلفه على البلد ، ومنعه من الخروج لصغر سنه . فلما سمع الصياح وضرب الطبول ، لبس لأمة الحرب وركب - وهو إذ ذاك لم يُراهق الحُلُم - وخرج من باب المدينة . وكان كمات قد أبلى فى ذلك اليوم بلاء حسناً ،

(١) الآية الأولى من سورتى الجاثية والأحقاف .

(٢) كذا فى ر ، وهو الصواب . انظر ابن خلدون ٧ : ٢٦ . وفى بقية الأصول : أبازيد .

وقتل جماعة من أصحاب زيري . فوقعت عين كباب عليه فقصده ، وعلا عليه من فوق ربوة ، فضربه على عاتقه . وكانت على كمات درع ، فَقدَّت الضربة الدرع والعاتق ، وسقطت ذراع كمات إلى الأرض . فخر صريعاً والناس ينظرون إليه ولا يعلمون من هو قاتله . فلما صُرع انهزم أصحابه . ورجع كباب إلى المدينة ودخل من الباب الذي خرج منه ، فسمى باب كباب . قال : ولما قتل كمات وقع التكبير والصياح . فجاء بعض الجند إلى زيري - وكان قد نظر كباب وعرفه عند ضربه لكمات - وقال له : « إن ابنك كباب قاتله » . وأتى بجماعة من أصحابه أسارى ، فأمر زيري بضرب أعناقهم وصلب جماعة من كبارهم .

قال : ثم ظهر فى جبل أوراس قائم يقال له سعيد بن يوسف ، وأظهر النفاق على المنصور بن القائم ، فأخرج إليه زيرى ولده بُلُكّين فى جيش كثيف [١] . فلقيه فى موضع بفحص أبى غزالة ، من غربى باغاية فاقتتلوا . وكان سعيد قد احتفل فى جمع من هوارة وغيرهم [٢] . فهزمهم بلكين وقتل سعيدا وجماعة من أصحابه . وأنفذ برؤوسهم إلى المنصور . فقوى الحسد لزيرى من جميع القبائل ، وجمعوا عليه الجموع ، وكان منصورا على جميع من عانَدَه .

(١) ك: كثير .
(٢) ك: وعربهم .

ذكر مقتل زيرى

كان مقتله فى شهر رمضان سنة ستين وثلاثمائة فى أيام المعز لدين الله المنصور بن القائم بن المهدى . وسبب ذلك أن جعفر بن على صاحب المسيلة كان أميرا على الزاب كله ، وأبوه هو الذى بنى المسيلة . وكبر جعفر وشمخ فكان ملكاً جليلا . وكان فى طاعة المعز بن المنصور ، وبينه وبين زيرى ضغائن فى النفوس وعداوة فى الصدور . ثم اتفق أن المعز لدين الله أمر ببناء دار ابن رَباح ، وهى المعروفة فى القيروان بدار الإمارة . فشاع عند الناس أنها بُنيت لجعفر بن على ، وأنه يُعطَى ولاية إفريقية ، وأن المغرب [1] كله يعْطَى لزيرى . فعظم ذلك على جعفر بن على وأراد أن لا يكون لأحد معه فى المغرب ولاية . فأنفذ المعز لدين الله إليه يستدعيه ، فلم يأت ولم يمتنع . فأرسل إليه ثانية فرجاً الصقلبى . فلما بقى بين فرج وجعفر مقدار مرحلة ، وكان فى المسيلة فخرج [2] منها وأظهر المسير إلى المعز . ثم مال بعسكره ومعه السلاح والأموال ومضى إلى زناتة . وخلع الطاعة ، وأظهر أن الذى حمله على ذلك عداوة زيرى بن مناد لأنه كان

(١) ك : الغرب .

(٢) كذا على عادة المؤلف فى جواب (لما) . والصواب حذف الفاء .

يؤذيه فى أعماله [١] . ووصل فرج الصقلبى إلى المسيلة ، فأخبروه بخبر جعفر .

قال : ولما وصل جعفر إلى زناتة ، قبلوه أحسن قبول ، وقدموه على أنفسهم . فبلغ الخبر زيرى ، فبادر بالخروج إلى جعفر . وزحف إليه فى عسكر عظيم من صنهاجة وغيرها ، وذلك فى شهر رمضان من السنة . وزحف جعفر فى زناتة والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدا . فكبا بزيرى فرسه فسقط إلى الأرض . وكانت جولة عظيمة ، وقطعت قُدامه خمسمائة يمين ثم قُتل . وبعث جعفر بن على أخاه يحيى إلى الحكم صاحب الأندلس يبشره بقتل زيرى . ثم أحس جعفر أن زناتة يريدون الغدر به وأنهم ندموا على قتل زيرى ، فاحتال لنفسه ودخل الأندلس .

قال : وكان زيرى حسن السيرة فى الرعية والتجار . وكان له آشير التى بناها ، وأعطاه المنصور تاهرت وأعمالها وباغاية وأعمالها . وكان شديدا على البربر . وأقام على ذلك ستا وعشرين سنة . ورُزق من الأولاد ما يزيد على المائة ،

---

(١) ذكر المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٤٢ أن المعز لما عزم على المسير إلى مصر أراد استخلاف على بن جعفر ، فقال له : «تترك معى أحد أولادك أو إخوتك جالساً فى القصر وأنا أدبر ، ولا تسألنى عن شئ من الأموال ، لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه . وإذا أردت أمرا فعلته ولم أنتظر ورود الأمر فيه لبعد ما بين مصر والمغرب . ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسى» . فأبى المعز واستخلف يوسف بن زيرى الذى قال : «يا مولانا بشريطة أن تولى القضاء والخراج لمن تراه وتختاره ، والخبر لمن تثق به ويجعلنى أنا قائماً بين أيديهم . فمن استعصى عليهم أمرونى به حتى أعمل فيه ما يجب ، ويكون الأمر لهم ، وأنا خادم بين ذلك» .

كلهم أنجاد فرسان كرماء كان يكتفى بهم [١] فى بعض حروبه [٢] .

ذكر أخبار أبى الفتوح يوسف بلكين ابن زيرى بن مناد

ولى الرئاسة على صنهاجة بعد مقتل أبيه . فكان أول ما بدأ به أنه - لما جاءه الخبر بقتل أبيه وهو بآشير - جمع وحشد . ونهض لطلب دم أبيه ، فاجتمع له خلق كثير . فقال : « لا يخرج معى أحد ممن حضر مقتل والدى » فلم يخرج معه منهم غير ثلاثة رجال . ومضى مسرعاً حتى لحق بزناتة . فجرت بينه وبينهم حروب صبرت فيها صنهاجة صبرا جميلا . ثم انهزمت زناتة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وسبى جميع نسائهم ، ونهب أموالهم . وهرب من بقى منهم . ونزل فى موضع المعركة [٣] ثلاثة أيام . فشكا صنهاجة ريح القتلى . فنادى أن لا يطبخ فى العسكر قدر إلا على ثلاثة رؤوس من رؤوس القتلى . وجعل الجثث أكواما . وصعد المؤذنون فأذنوا عليها . ثم رجع إلى آشير .

فلما اتصل بالمعز لدين الله ما فعل يوسف بزناتة ،

---

(١) ص، ر : كاد أن يكتفى .

(٢) زادت ص: رحمه الله تعالى .

(٣) المعركة : عن ص ، وساقطة من بقية الأصول .

أعجبه ذلك وسر بقتلهم . فزاده على ما كان لأبيه المسيلة وأعمالها التى كانت لجعفر بن على .

ثم كتب المعز إلى يوسف فى المحرم سنة إحدى وستين وثلاثمائة فى القدوم عليه وأن لا يتشاغل بقتال أحد . وأمره أن لا يعترض[1] زناتة ولا غيرها فى هذا الوقت ، وأن يستعمل اللين والرفق بزناتة ، ويرد عليهم ما سبى من نسائهم وأولادهم . فامتثل يوسف ما أمره المعز به . ورد على زناتة سباياهم . وتجهز للمسير إليه . واستعمل على تاهرت وآشير والمسيلة وبسكرة وطبنة وباغاية ومجانة عمالا من عبيده . وسار حتى قدم على المعز . فلما دخل عليه ، أكرمه وأثنى عليه وحمد أفعاله ، وذكر فراسته فيه واختياره له . وخلع عليه خلعته التى كانت عليه . ونزع سيفه فقلده إياه بيده . وأمر أن يُحمَل بين يديه عند خروجه من عنده أربعون تختا من فاخر الكُسَا ومعها رُزَم مما يخلَع على أصحابه . وقادوا بين يديه أربعين فرسا بالسروج المحلاة المثقلة . فشق ذلك على الكُتاميين وحسدوه وتكلموا عليه عند المعز وعابوه ، فلم يضره ذلك . ولما عزم المعز على الرحيل إلى مصر . أتاه بلكين بألفى جمل لحمل أمواله من إبل زناتة .

---

(١) ك: يعتزل . خطأ .

ذكر ولاية أبى الفتوح يوسف بلكين بلاد المغرب

وهو أول ملوك بنى زيرى . وذلك أن المعز لدين الله أبا تميم معد بن المنصور بنصر الله بن القائم بأمر الله بن المهدي لما توجه من المنصورية إلى ديار مصر فى سنة إحدى وستين وثلاثمائة بعد أن فتحها القائد جوهر له توجه بجميع من كان فى قصره وأهل بيته . ورحل معه يوسف إلى سردانية ، فسلم إليه إفريقية وأعمالها وسائر أعمال المغرب ، وذلك فى يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى الحجة سنة إحدى وستين وثلاثمائة . وأمر سائر الناس بالسمع والطاعة له . وفَوض إليه جميع الأعمال إلا جزيرة صقلية فإنها كانت بيد أبى القاسم على بن حسن بن على ابن أبى الحسين ، وكذلك طرابلس فإن المعز جعل عليها عند وصوله إليها عبد الله بن يِخْلِف الكُتامى فلم تزل بيده إلى أن توفى المعز . ثم سلمها ابنه نزار إلى يوسف هى وسُرْت وما والاهما فى سنة سبع وستين وثلاثمائة ، بسؤال يوسف لذلك .

قال : ولما ولى المعز يوسفَ ، ولى أيضا أبا مضر زيادة الله بن عبيد الله بن القديم نظر الدواوين بسائر كور إفريقية . وقال ليوسف عند وداعه : « إنى تركت زيادة الله بن القديم عوناً لك على جميع الأموال بإفريقية ، كَبِّره » . وأوصاه وصايا كثيرة كان آخرها أن قال له :

« يايوسف ، إنْ نسيتَ مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البلاد (١) ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تولِّ أحدا من إخوتك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك ، واستوص بأبى مضر خيرا(٢) » .

ثم ودعه يوسف ورجع . فكان دخوله إلى المنصورية فى يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة . فنزل بقصر السلطان وخرج إليه أهل القيروان وتلقوه ، وأظهروا الفرح بمقدمه والبشر والسرور . فأخرج العمال (٣) وجباة الأموال إلى سائر البلدان ، وعقد الولايات للعمال . فاستقامت الأمور بحسن تدبيره .

ولما رتب ذلك كله رحل إلى المغرب فى شعبان من السنة . فوصل إلى باغاية فولى عليها عاملا ، وأمره أن يلطف بأهلها . ففعل . فدخلوا فى الطاعة . ثم خالفوا فقاتلهم العامل ، فتحصنوا بمدينتهم . فهم يوسف أن يرجع إليهم ، فوافاه رسول خَلوف (٤) بن محمد عامله على تيهرت يذكر أن أهلها خالفوا . فسار إليهم وقاتلهم . ودخل البلد بالسيف فى شهر رمضان ، فقتل وسبى ونهب وأحرق البلد .

(١) ابن خلدون ٦ : ٣١٨ ، المونس ٧٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٩٣ : أهل البادية
(٢) المونس ٧٤ وأوصيك خيراً بأهل الحاضرة . وانظر الوصية فى البيان المغرب ٣ : ٢٦٣ .
(٣) ك : العسكر .
(٤) ص ، ر : الخلوف .

وأراد الرجوع إلى باغاية ، فأتاه الخبر أن زناتة قد نزلوا على تلمسان . فرحل إليهم فهربوا بين يديه . فحصر تلمسان مدة فنزلوا على حكمه . فعفا عنهم من القتل ، ونقلهم إلى آشير ، فبنوا بقربها مدينة سموها بلنسان (١) .

ذكر ولاية عبد الله بن محمد الكاتب

كان سبب ولايته أن يوسف كان قد ولى جعفر بن يموت (٢) مدينة القيروان وصَبْرة ، وجعل معه خيلا كثيرة ، عند مسيره إلى بلاد المغرب فى شهر ربيع الأول . فمات فى جمادى الآخرة . فكتب ابن القديم إلى أبى الفتوح بموته ، ويسأله أن يرسل إليه بدلا منه يعاونه على أمور البلد . فاستعمل عبد الله على ذلك . فأبى عليه وامتنع واستعفى مرة بعد أخرى . فجمع يوسف حبوس (٣) بن زيرى ، وكرامة بن إبراهيم ، وكبّاب بن زيرى ، وخلوف بن أبى محمد . وأحضر عبد الله وقال لأولئك : « ما جزاء من من عاند أمرى ، وخالف رأيى ومرادى ، ولم يعبأ بما كلفته ؟ » . قالوا : « القتل ، ونحن نتولى قتله » .

---

(١) كذا فى ص. وفى بدون نقط . فى ك: بلسان . فى ر: تليسان . وفى ابن الأثير ٧ : ٤٧ : تلمسان، ولعل هذه الرواية أقربها إلى الصواب إذ من المحتمل أن يسمى المهاجرون الموضع الجديد باسم وطنهم الذى تركوه .

(٢) ر : تمرت .

(٣) ك، ر: جيوش .

فقال : « كاتبى هذا أمرته بالرجوع إلى إفريقية إذ لا ينوب عنى أحد غيره فامتنع » . فقالوا له : « إن لم ترجع وإلا قتلناك » . فرجع كارهاً . وعبد الله هذا من بنى الأغلب ، كان أبوه محمد قد هرب [1] إلى نفزاوة فولد بها عبد الله . فرباه خاله صالح وتعلّم الخط والترسُّل . فاستكتبه زيرى وهو صبي شاب . ثم استكتبه بعده أبو الفتوح ، فحظى عنده . وكان فصيحاً بليغاً ، عالماً بلغة العرب ولسان البربر .

قال : فلما وصل عبد الله إلى القيروان ، تلقاه ابن القديم . وترجّل كل منهما لصاحبه ، وتعانقا ، واتفقا وصارت كلمتهما واحدة . ثم وقع بينهما بعد ذلك ، وكانت فتنة عظيمة بالقيروان يطول شرحها ، انتصر فيها عبد الله وقبض على ابن القديم ، وأرسله إلى الأمير أبى الفتوح ، فحبسه حتى مات .

وكانت ولاية ابن القديم سنتين وشهرا ونصفاً . ثم توفى فى الاعتقال يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وستين وثلاثمائة . واستقل عبد الله بن محمد الكاتب وحده لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وثلاثمائة .

---

(١) ك : تهرب .

ذكر اخبار خلف بن خير [١]

قال : وفى سنة أربع وستين وثلاثمائة صعد خلف بن خير من بنى هراش إلى قلعة منيعة من ناحية بلده . واجتمع إليه خَلْق عظيم [٢] من سائر قبائل البربر . وخرج إليه كل من كان قد خالف مع ابن القديم . فكتب عبد الله إلى أبى الفتوح كتاباً يذكر فيه أن إفريقية قد استوت كلها له ، وأنه لا خوف بها إلا من الذين اجتمعوا مع ابن خير فى القلعة . فرحل يوسف إلى القلعة ونازلها ، فى عساكر عظيمة . فظفر بها فى اليوم الرابع من منازلتها ، وهرب خلف ، وقتل فى القلعة ما لا يحصى . وبعث منها سبعة آلاف رأس طوفها عبد الله فى القيروان ثم بُعثت إلى مصر [٣] . ونفى [٤] أكثر ممن قتل . وغنم جميع ما فيها . وسار خلف بن خير إلى بلد كتامة . فبعث إليهم يوسف يقول : « برئت الذمة ممن دفع عنه وآواه ، ومن فعل جازيته » . فأخذه القوم الذين انتهى إليهم ومعه ابنه وأخوه وخمسة من بنى عمه ، وأتوا بهم إلى يوسف . فأحسن صلة من جاء بهم . وبعثهم إلى عبد الله الكاتب وأمره أن يشهرهم ويطوف بهم على الجمال . ففعل ذلك بهم ثم صلبهم وضرب أعناقهم ، وبعث برؤوسهم إلى مصر .

---

(١) ابن الأثير ٧ : ٤٧ : خلف بن حسين .
(٢) ر ، ابن الأثير ٧ : ٤٧ : خلق كثير .
(٣) ص : مضر . خطأ .
(٤) ك : بق . خطأ .

قال : ولما فتح أبو الفتوح هذه القلعة ، اختار من عبيدهم أربعة آلاف من الشجعان فشح بقتلهم لشجاعتهم وقربهم ، وأراد أن يجعلهم فى جملة عبيده . فاتفق أن أحدهم سأل عن أبى الفتوح وقال : « عندى نصيحة » . فأشاروا إليه إلى ابن عم لأبى الفتوح ولا يشك الذى أشار إليه أنه هو . فأتاه وقال له : « إنى أريد أن أخبرك بنصيحة » . فلما دنا منه ، ضربه بسكين كانت معه فشق بطنه وأخرج أمعاءه فسقط من ساعته ميتا . وكان ذلك الغلام لرجل ممن قتله أبو الفتوح فى تلك القلعة . فعندها أمر بقتل أولئك فقتلوا فى ساعة واحدة .

ثم بعث عشرة من أهل القيروان إلى باغاية يحذرهم المخالفة ويطلب منهم النزول على حكمه ، وإلا فعل بهم ما فعل بأهل القلعة فأجابوه إلى الطاعة ونزلوا على حكمه . فحكم أن يسلموا إليه المدينة [1] ويمضوا حيث شاؤوا . ففعلوا ذلك ووفى لهم . وأخرب المدينة القديمة التى عليها السور ، وترك [2] الربض ثم أتى إفريقية .

وأتاه الخبر بوفاة المعز لدين الله وولاية ابنه نزار بن معد فكتب إليه يوسف فى سنة سبع وستين ، يسأله [3] فى طرابلس وسُرْت وأجْدابِيَة ، فأجابه ودفع ذلك إليه .

وفى سنة تسع وستين ، رحل أبو الفتوح إلى فاس [4] ،

---

(١) ص ، ر : بأن يسلموا إليه القلعة .
(٢) ص : نزل .
(٣) ك : فسأله .
(٤) كذا فى المونس ٧٤ ، وهو الصحيح . وفى الأصول : قابس .

وسِجِلماسة وأرض الهبط . فملك ذلك كله وطرد منه عمال بنى أمية .

ثم بعث إلى سبتة فى طلب من لجأ إليها من زناتة . فلقى فيما قرب منها جبالا شامخة وشعارى غامضة فأمر بقطعها وإطلاق النيران فيها حتى وجد العسكر فيها مسلكا . وأمر عساكره بالوقوف . ومضى هو بنفسه وخواص أصحابه حتى أشرف على سبتة من جبل عال مُطل عليها . فخاف أهل سبتة منه وغلقوا أبوابهم . فنظر إليها ورأى منعتها ، فعلم أنه لا يستطيعها إلا بالمراكب ، فرجع عنها (١) .

ومضى يريد البصرة ، بصرة المغرب . فلما علمت به زناتة رحلوا بأجمعهم إلى الرمال والصحارى هاربين منه . ودخل البصرة وكانت قد عمرت عمارة عظيمة مع بنى الأغلب . فأمر بنهبها وهدمها ، فهُدِّمت وحرقت (٢) .

ورحل بعساكره إلى بلد برغَواطَة ، وكان ملكهم عيسى بن أبى الأنصار (٣) شَعْوَذياً ساحرا ، فسحر من عقولهم حتى جعلوه نبياً وأطاعوه فى كل ما أمرهم به ، وشرع لهم شريعة ، وأتاهم بغير دين الإسلام . فاتبعوه فضَلّ وأضلّهم . فغزاهم أبو الفتوح ، وكانت بينهم حرب شديدة لم ير مثلها ، كان الظفر للمسلمين . وقُتل

(١) جعل ابن كثير ١١ : ٢٨٣ هذه الحادثة فى سنة ٣٦٥ .
(٢) جعل ابن عذارى ١ : ٣٣٠ هذه الواقعة فى سنة ٣٦٨ .
(٣) وكذا فى ابن خلدون ٦ : ٣٢٠ . وفى ابن الأثير ٧ : ٧٨ ، وابن كثير ١١ : ٢٨٣ عيسى بن أم الأنصار . وفى ابن عذارى ١ : ٣٣٨ : صالح بن عيسى بن أبى الأنصار .

عيسى الكافر وتفرقت عساكره ، فقُتلوا قتلا ذريعاً . وسبى من نسائهم وذراريهم مالا يُحصَى كثرة ، وأرسل بسبيهم إلى إفريقية .

ورجع أبو الفتوح وملك فاس وسجلماسة وبلد الهبط (١) والبصرة وجميع بلدان المغرب . وأقام فى تلك النواحى من سنة تسع (٢) وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وسبعين .

ذكر وفاة أبى الفتوح يوسف

كانت وفاته رحمه الله فى يوم الأحد لسبع (٣) بقين من ذى القعدة (٤) سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة ، عند قفوله من برغواطة وقد فصل من سجلماسة ، بموضع يقال له وارِكنين (٥) ، ويقال فيه وارَكْلان ، بعلة القُولَنْج ، وقيل بحَبة خرجت فى يده فمات منها .

حكى الشيخ أبو محمد بن حزم فى كتابه المترجم « بنَقْط العَروس » (٦) « أن بُلُكِّين بن زِيرِى كان له فى موضع ألف امرأة

(١) كذا فى الصفحة السابقة . وفى الأصول هنا : الهند .

(٢) ك : فى سنة تسع . ابن عذارى ١ : ٣٣٨ : سنة ثمان .

(٣) وكذا فى وفيات الأعيان ١ : ٩٣ ، ابن الأثير ٧ : ١٢١ . وفى ابن عذارى ١ : ٣٤١ : لتسع .

(٤) كذا فى الأصول . وفى ابن الأثير ٧ : ١٢١ ، ابن عذارى ١ : ٣٤١ ، والمونس ١٧٥ ، وابن خلكان ١ : ٩٣ ، وابن الوردى ١ : ٣٠٦ : ذى الحجة .

(٥) كذا فى ص ، ع . وفى ر : وركيين . وفى ك : واركبين . وفى ابن الأثير ٧ : ١٢١ وارقلين . وفى ابن خلدون ٦ : ٣٢٠ : وراكسن . وفى ابن عذارى ١ : ٣٤١ واركنفوا .

(٦) ص ٨٢ من المجلد ١٣ ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥١ ، من مجلة كلية الآداب . وفيه زاوى بن زيرى ، فى موضع : بلكين . ويوافقه أيضاً ما فى ابن عذارى ٣ : ١٢٨ والذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ٤٠٢ .

لا يحل له نكاح واحدة منهن ، كلهن من نسل إخوته وأخواته ، ومن الرجال مثل هذا العدد .

قال : وكان له قبل أن يستخلفه المعز لدين الله على المغرب قصور تشتمل على أربعمائة جارية ، فيقال : إن البشارات تواترت عليه فى يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدا [١] .

وكانت مدة إمارته منذ تسلم المغرب من المعز لدين الله ثنتى عشرة سنة ، ومنذ قام بالأمر بعد أبيه ثلاث عشرة سنة وشهورا . ولما مات قام بالأمر بعده ابنه المنصور أبو الفتح .

ذكر ولاية أبى الفتح المنصور ابن يوسف بلكين بن زيرى

قال : ولما توفى يوسف ، أسند وصيته إلى أبى زعبل بن مسلم [٢] ، وكان من جملة عبيده وخاصة قواده . فكتب إلى المنصور يعرفه بوفاة أبيه ، وكان المنصور إذ ذاك بآشير . فاستقل بالأمر بعد أبيه . وأتاه عبد الله بن محمد الكاتب ومشايخ القيروان والقضاة وأصحاب الخراج ؛ فعزوه بأبيه وهنئوه بالولاية ، فأكرمهم وعظمهم وأحسن جوائزهم وأعطاهم عشرة آلاف دينار . فدعوا له وشكروه . فقال لهم : « إن أبى وجدى أخذا الناس بالسيف قهرا ، وأنا لا آخذ الناس إلا بالإحسان . ولستُ ممنْ يُوَلّى ولا

(١) ابن كثير ١١ : ٣٠٢ : تسعة عشر .

(٢) ع ، ابن خلدون ٦ : ٣٢٠ : أبى زغبل . و ى ابن عذارى ١ : ٣٤١ : أبى زعبل بن هشام .

يُعزَل بكتاب . ولا أحْمَدُ فى هذا الملك إلا الله ويدى . وهذا الملك مازال فى يد آبائى وأجدادى ورثناه عن حمْير » [١] . وكلام كثير فى هذا المعنى . ثم قال لهم : « انصرفوا فى حفظ الله فإن قلوب أهليكم مشغولة بكم » فانصرفوا .

وقدم المنصور إلى رقادة فى يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة أربع وسبعين وثلاثمائة . فتلقاه عبدالله الكاتب ووجوه الناس . فأظهر لهم الخير ووعدهم بكل جميل . وأتاه العمال من كل بلد بالهدايا والأموال . وأهدى إليه عبد الله ما لا يحيط به الوصف . فجهز المنصور هدية إلى نزار بلغت قيمتها ألف ألف دينار .

وأقام برقادة إلى يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة [٢] من السنة . ورجع إلى المغرب ومعه عبدالله الكاتب . واستخلف عبد الله ابنه يوسف على القيروان ، فسار أحسن سيرة .

وفى هذه السنة ، أعطى المنصور أخاه يَطُّوفت العساكر والعُدَد ووجهه إلى فاس [٣] وسجلماسة يطلب ردهما ، وكانت زناتة قد ملكت تلك البلاد بعد موت أبى الفتوح . فمضى حتى وصل إلى قرب فاس وبها زيرى بن عطية الزناتى المعروف بالقرطاس ، ومعه

---

(١) ك: من حمير .

(٢) ابن عذارى ١ : ٣٤٤ خرج من المنصورية يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة . المونس ٧٦ : فى آخر ذى الحجة .

(٣) كذا فى ر ، ابن عذارى ١ : ٣٤٤ ، ابن خلدون ٦ : ٣٢٠ ، ابن الأثير ٧ : ١٢٨ وفى ص ، ع ، ك : قابس ، تحريف .

عساكر زناتة . فعاجله [١] زيرى والتقوا واقتتلوا . فانهزم يطُّوفت وجميع مَن معه . وتبعه زيرى فقتل من عسكره خلقاً عظيماً وأسر وهرب من سلم إلى تيهرت . فلما بلغ المنصور هزيمة يطُّوفت ، أرسل أخاه عبد الله بعسكر يلقاه به ثم وصل يطوفت إلى آشير . فلم يتعرض المنصور بعدها لشئ من بلد زناتة .

وفى سنة ست وسبعين ، أخذ يوسف بن عبد الله بن محمد الكاتب فى بناء قصر المنصور . فبلغ الإنفاق عليه ثمانمائة ألف دينار [٢] ثم عمل عليه وعلى قصر بجواره كان بناه قديماً شفيع الصقلبي صاحب المظلة سورا محدقاً عليهما . وغُرست حوله الأشجار من كل جهة .

وفى سنة سبع وسبعين ، وصل المنصور من آشير إلى إفريقية فى يوم الاثنين منتصف المحرم ، ونزل فى قصره الذى بُنى له . ونزل عبد الله الكاتب وجميع القواد حوله .

ووصل كتاب السلطان نِزار إلى المنصور يُعلمه أنه جعل الدعوة لعبد الله بن محمد الكاتب ، ويأمره بذلك . ففعل المنصور ذلك وأمر أن يُفرَش له قصر السلطان فى الموضع المعروف بقصر الحجر ، وذلك فى يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة منها . وجلس فيه المنصور وأقرباؤه ووجوه بنى عمه . ثم دخل عبد الله فأخذ عليهم الدعوة ، وصار عبد الله داعياً . فذُكر أنه لما تم هذا له مسح بيده على رأسه وقال : « الآن قد خلصت من القتل وأمنت على شعرى وبَشَرى » . وما علم أن ذلك سبب هلاكه .

(١) كذا فى ص ، ر . وفى ع ، ك : فعاجله ، تحريف .
(٢) ابن عذارى ١ : ٣٤٥ : مائة ألف دينار .

ذكر مقتل عبد الله بن محمد وولده يوسف

قال : كان عبد الله قد بلغ مبلغاً عظيماً لم يبلغه أحد من قرابة المنصور وأهل دولته ، وانحصرت أمور المنصور كلها تحت قبضته. وأعطى الرياسة حقها ووثق بما قدم من نصحه . فرفع فيه حسن ابن خاله [١] إلى المنصور أمورا من القدح فى دولته ، وأنه كاتَب ابن كلّس وزير نزار ، واختلفت بينهم السفراء ، وعقد الغدر بالمنصور . فوجد المنصور لذلك . وكان عبد الله لايدارى أحدا من أولاد زيرى ووجوه بنى مناد وغيرهم من أكابر الدولة . فلما أحسوا من المنصور بعض الأمر وشوا بعبد الله وطعنوا عليه .

فاستراب المنصور به وأراد إبقاءه مع التحرز منه ، فقال له : « اعتزِلْ عمل إفريقية واقتصر على الخاتم والكتابة ، وكل من تولى فهو متصرف تحت أمرك ونهيك » . فكان جوابه أن قال : « القتلة ولاالعزلة » . فلما كان يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب سنة سبع [٢] وسبعين وثلاثمائة ، ركب المنصور فركب عبدالله وهو يقول :

ومن يأمنِ الدنيا يكن مثلَ قابضٍ
على الماء خانتْه فروجُ الأصابعِ

فلما نزل المنصور ، نزل عبد الله فقبل يده . ثم وقف ودار

---

(١) ابن عذارى ١ : ٣٤٦ : ابن خالته .

(٢) وكذا فى ابن عذارى ١ : ٣٤٦ . وفى ابن خلدون ٦ : ٩٢١ : تسع. وفى المونس ٧٦ ست .

بينهما كلام كثير لم يقف أحد على صحته . فطعنه المنصور برمحه . فجعل أكمامه على وجهه وقال : « على ملة الله وملة رسوله » . ولم يُسمع منه غير ذلك . وطعنه عبد الله أخو المنصور برمحه بين كتفيه فأخرجه من بين ثدييه . فسقط إلى الأرض . ثم أتى بابنه يوسف . فصاح واستغاث وقال : « العفو » . فضربه المنصور برمحه ، وضربه ماكسن ابن زيرى ، وضربه سائر من حضر . فماتا جميعاً .

ولما قُتلا جاء القاضى وشيوخ القيروان واجتمعوا بالمنصور. فقال لهم « ماقتلت عبد الله على مال ولاشىء اغتنمه وإنما خفته على نفسى فقتلته » . فدعوا له بطول البقاء ثم انصرفوا . ودفن عبد الله وابنه بغير غسل ولاكفن وإنمارُد عليهما التراب فى اسطبل كان للمنصور تحت الحنايا بالقرب من قصره .

قال : وولى المنصور بعده إفريقية يوسف بن أبى محمد ، وكان على قَفصَة . فأتى يوم الخميس لخمس خلون [1] من شعبان . فأعطاه المنصور الطبول والبنود ، وخلع عليه ثيابه وأنزله فى دار القائد جوهر . فولى إلى سنة اثنتين وثمانين [2] : ثم عزله يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول ، وولى أبا عبد الله محمد بن أبى العرب الكاتب .

---

(١) ابن عذارى ١ : ٣٤٨ : بقين .

(٢) وكذا فى ابن عذارى ١ : ٣٥٢ . وفى ابن الأثير ٧ : ١٥٥ : إحدى وثمانين .

ذكر أخبار أبى الفهم حسن بن نصرويه الخرسانى

كان أبو الفهم رجلاً خراسانيًّا قدم فى سنة ست وسبعين وثلاثمائة من مصر من قبَل نزار داعياً . فأنزله يوسف بن عبد الله وأجرى عليه جرايات جليلة . وأعطاه أموالا سَنية وبره وأكرمه . فطلب أبو الفهم الخروج إلى بلد كتامة يدعوهم وينتهى إلى ماأمره به نزار ووجهه إليه ، فكاتب يوسف أباه . فكتب إليه عبد الله أن أعْطه ما أراد واتركه يذهب حيث يشاء . فأعطاه يوسف ماطلب ، وحمله على أفراس بسروج محلاة ، وحمل بين يديه تُخوت ثياب وبِدَر دراهم .

وتوجه إلى بلد كتامة فوصل إليهم ودعاهم . ثم تزايدت أموره حتى صار يجمع العساكر ويركب الخيل . وعمل بنودا وضرب سكة واجتمع إليه خلق كثير من كتامة ، وكان هذا من الأسباب التى حقدها المنصور على عبد الله وابنه .

ثم ورد من مصر رسولان من نزار إلى المنصور فى سنة سبع وسبعين أحدهما رجل كتامى يعرف بأبى العزم ، ورجل من عبيدهم يقال له محمد بن ميمون الوزان ، ومعهما سجلات إلى المنصور . فقيل : إنهما أمراه عن نزار ألا يعرض لأبى الفهم ولا لكتامة . فشتمهما المنصور وأسْمعهما مكروهاً وقال : « أبو الفهم وكتامة فعلوا وفعلوا » . وأغلظ لهما فى القول ولمن أرسلهما .

فأقاما عنده شعبان وشهر رمضان . ومنعهما من الخروج إلى كتامة وأبى الفهم . وقال : « امضيا معى إليه حتى تريا ما يكون منه » . ثم تهيأ المنصور للخروج إلى كتامة وأبى الفهم ، وقد تفاقم أمره ، وظهرت

سكته ، وصار حوله جيوش عظيمة . فسار المنصور حتى وصل إلى بلاد كتامة . وتثاقل فى سيره [١] حتى دخلت سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة . فلماقرب من ميلة عزم على قتل أهلها ، فخرج إليه النساء والأطفال . فلما رآهم بكى وكف عنهم القتل . ونهبت العساكر كُلَّ ما فيها . وأمر بهدم سورها فهُدم . ونقل أهلها إلى باغاية ، فاجتمعوا ومضوا إليها وقد سلم لبعضهم ماخف من عيْن ووَرِق وغير ذلك . فلقيهم ماكسن بن زيرى بعسكره فأخذ كل ماكان معهم .

ثم رحل المنصور إلى داخل بلد كتامة ، فجعل لايمر للكتاميين بمنزل ولاقصر ولا دار إلا أمر بهدم ذلك وتحريقه بالنار ، ومعه أبو العزم وابن ميمون ينظران إلى فعله ، ويقول لهما : « هؤلاء الذين زعمتما أنهم يمضون بى بحبل فى عنقى إلى مولاكما » . وكانا قد خاطباه بذلك لما اجتمعا به .

وسار حتى بلغ مدينة سَطيف وبها جَمْعهم . فحاربهم وظفر بهم وهزمهم . وهرب أبو الفهم إلى جبل وعر . فأرسل إليه المنصور من أخذه وجاء به إليه . فأدخله إلى حُرَمه فضربنه ضرباً شديدا حتى أشرف على الموت . ثم أمر المنصور بإخراجه وقد بقيت فيه حشاشة من الروح [٢] فنحره وشق بطنه . وأُخرجت كبده فشُويت وأُكلت . وشرّح عبيد المنصور لحمه وأكلوه حتى لم يبق إلا عظامه . وذلك فى يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر سنة ثمان وسبعين . وقتل جماعة من وجوه كتامة ، وأنزل بهم الذل والهوان . وولى بلدهم أبازعبل

(١) ك : وتثاقل سيره .
(٢) ر : من روح .

ابن مسلم وأولاده . وبقيت ميلة خرابًا ثم عمرت بعد ذلك .

ودخل المنصور إلى آشير . ورد أبا العزم وابن الوزان إلى مصر ليخبرا من أرسلهما . فأخبراه بما كان منه . وقالا : « أتينا من عند شياطين يأكلون بنى آدم ، ليسوا من البشر فى شىء » .

وفى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة ، ثار ثائر آخر ببلد كتامة ، يقال له أبو الفرج . وقيل : إنه كان يهودياً . وقال لكتامة : إنه من أولاد الأمراء الذين كانوا بالمهدية ، وإن أباه كان من ولد القائم . فانضموا إليه وكثرت جموعه ، واتخذ البنود والطبول . وزحف إلى عسكر أبى زعبل وقاتَلَه فلم يقم بحربه . فكتب إلى المنصور فقدم بعساكره . والتقوا واقتتلوا ، فهزمهم المنصور وقتل من كتامة مقتلة عظيمة . وهرب أبو الفرج واختفى فى غار فى جبل . فعمل عليه غلامان كانا له . فأخذاه وأتيابه إلى أبى زعبل . فأتى به إلى المنصور فقتله شر قتلة . وشحن بلد كتامة بالعمال والعساكر ورجع إلى آشير .

ذكر وفاة المنصور أبى الفتح بن يوسف

كانت وفاته فى يوم الخميس لثلاث [١] خلون من شهر ربيع الأول سنه ست وثمانين [٢] وثلاثمائة . فكانت مدة ملكه ثنتى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام [٣] . وكان ملكاً كريماً جوادا صارماً .

(١) وكذا فى المونس ٧٨ ، وابن عذارى ١ : ٣٥٤ . وفيه أيضاً ٣٤٢ : لخمس .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٧ : ١٨٢ ابن عذارى ١ : ٣٤٢ ، ٣٥٤ المونس ٧٨ وابن الوردى ١ : ٣١٣ . وفى ابن خلدون ٦ : ٣٢١ : خمس وثمانين .

(٣) المونس ٧٨ : نحو ثلاث عشرة سنة .

وكانت أيامه أحسن أيام وأطيبها . وما زال مظفَّرا منصورا لاتُرَدُّ له راية .

ذكر ولاية أبى مناد [١] باديس بن أبى الفتح [٢] المنصور بن يوسف

قال : ولما مات المنصور قام بالأمر بعده بإفريقية ولده أبو مناد ، وكان مولده فى ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وسبعين وثلاثمائة . فلما صار الأمر إليه رحل إلى سردانية يوم الأربعاء لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثلاثمائة ، ونزل فى قصرها . وأتاه الناس من كل ناحية بإفريقية للتهنئة والتعزية . وأقام بسردانية أياما ثم رجع إلى قصره . وتوفى بعد ولايته الأمير نزار وولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله .

ذكر ولاية حماد بن يوسف مدينة آشير

قال : وفى صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، عقد أبو مناد ولاية آشير لعمه حماد بن يوسف بن زيرى ، وأعطاه خيلا كثيرة وكُسا . ثم اتسعت أعماله وعَظُم شأنه وكثرت عساكره ، واجتمعت أمواله .

وفى يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع

---

(١) كذا فى ر ، وهو الصواب . وفى ع ، ص ، ك : مياد .

(٢) كذا فى ر ، وهو الصواب . وفى ص ، ع ، ك : أبى الفتوح . وهى كناية جده لأبيه .

وثمانين وثلاثمائة ، وصل من مصر الشريف الداعى على بن عبد الله العلوى المعروف بالتَّيْهَرتى[١] . وكان أبو مناد بعث فى حشد عساكره وأجناده ، فلم يبق بإفريقية وأعمالها فارس ولاراجل إلا وصل إلى المنصورية . فنزل أبو مناد بهم إليه فى هذا اليوم ، فكانوا صفوفا من باب قصر السلطان بالمنصورية إلى باب قلشانة . فرأى الداعى من العساكر والعُدد مالم ير مثله . وأتى بسجلين قُرئا على منبر المنصورية والقيروان : أحدهما بولاية أبى مناد باديس ، وتلقيبه نصير الدولة ؛ والثانى بوفاة نزار ، وولاية ابنه الحاكم ، والجواب عن وفاة المنصور والعزاء عن نزار وعن المنصور . وكان معه سجل ثالث بأخذ البيعة على باديس وجماعة بنى مناد للحاكم . فأنزل الشريف بدار الأمير يوسف بجوار قصر السلطان . ثم جلس باديس بعد ذلك وأحضر الشريف . ودعا بنى مناد وسائر قبائل صنهاجة وأخذ عليهم البيعة . ثم كان الشريف يجلس فى الدار التى نزل فيها ، ويأخذ البيعة على كل من أتاه من الصنهاجيين وغيرهم . ثم وصله أبو مناد بمال جليل وتخوت ثياب وبراذين بسروج محلاة ، وصرفه إلى مصر . ثم جهز هدية بعده .

ذكر خروج محمد بن أبى العرب الى زناتة

قال : وفى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، وصل كتاب يَطُّوفَت بن يوسف بن زيرى إلى ابن أخيه أبى مناد يعرفه أن زيرى بن عطية الزناتى

(١) ابن عذارى ١ : ٣٥٦ : الباهرى .

قد نزل عليه بتيهرت ، وسأله أن يمده بالعساكر . فأمر باديس محمد ابن أبي العرب بالخروج فنهض بالعساكر الثقيلة حتى بلغ آشير فأقام بها أياما يسيرة . ثم رحل ورحل معه حماد بن يوسف عاملها بعساكر عظيمة حتى وصلا إلى تيهرت . فاجتمعا بيطوفت فى غرة [١] جمادى الأولى من السنة . وكان زيرى بن عطية بموضع يقال له أمسان [٢] على مرحلتين من تيهرت . فزحفوا إليه واقتتلوا قتالا شديدا . وكان معظم جيش حماد التُّلُكّاتيين [٣] ، وقد أساء عشرتهم ، وكلف بأمورهم غلامه خلفا الجيزى [٤] فسامهم الخسف . فلما حمى الوطيس واشتد البأس ولوا منهزمين ، واتبعهم الناس. فكانت الهزيمة على الجميع . ورام محمد رد الناس فلم يقدر على ذلك . ووصلوا إلى آشير ، وقد أسلموا عساكرهم وما فيها من بيوت الأموال وخزائن السلاح والمضارب وغير ذلك فاحتوى زيرى على جميع ذلك وأمر ألا يُتَّبعوا . ووقف على باب تيهرت ، فخرج إليه أهلها . فوعدهم الجميل وأطلق خلقا كثيرا ممن أسر فى المعركة أو لجأ إلى تيهرت ، فمضوا حتى وصلوا إلى آشير . وكانت هذه الهزيمة يوم السبت لأربع خلون من جمادى الأولى منها .

قال : وبلغ خبر الهزيمة الأمير باديس ، فبرز بنفسه من رقادة للقاء زيرى بن عطية ، وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة . فلما

---

(١) ك: عشرة . تحريف .

(٢) كذا فى ص، ك، ع. وفى ر : أمنان . وفى ابن عذارى ١ : ٣٥٨ آمسار . ولم أجده فيما بين يدى من مراجع .

(٣) تلكاتة : إحدى بطون صنهاجة (ابن خلدون ٦ : ٣١٠– ٣١٢) . وفى ابن عذارى ١ : ٣٥٨ : الوتلكاتيين .

(٤) ر : الحميرى . وانظر ابن الأثير ٧ : ٢٧٦ .

وصل إلى قرب طُبْنَة بعث فى طلب فلفل بن سعيد بن خزرون . فخاف وأرسل يعتذر . وسأل أن يكتب له سجل بولاية طُبنة إلى أن يقدم باديس . فكتب له سجلا بولايتها وبعث به إليه . وتمادى أبو مناد فى مسيره . فلما علم فلفل أنه أبعد عنه أتى إلى طبنة فأكل ماحولها ونهب وأفسد . ومضى إلى تيجس [١] وما والاها فنهبها . وتمادى إلى باغاية فحصرها أياما ثم رحل عنها ، وباديس فى هذا مستمر السير [٢] إلى آشير . فلما بلغ المسيلة [٣] ، رحل زيرى بن عطية عن آشير إلى تيهرت . فرحل إليها باديس . فلما بلغها توغل زيرى هاربا منه إلى داخل المغرب .

فعند ذلك ولى أبو مناد على تيهرت وآشير عمه يطوفت . فاستخلف يطوفت على تيهرت ابنه أيوبا وتركه فى أربعة آلاف فارس .

ثم رجع باديس إلى آشير وعمه يطوفت معه . فبلغه ما فعل فلفل ابن سعيد . فأرسل إليه أبا زعبل وجعفر بن حبيب ومحمد بن حسن فى عسكر .

ثم رحل بعدهم من آشير ، وبقى يطوفت ومعه أولاد زيرى وقد سألوا باديس أن يتركهم أعوانا ليطوفت . فأبى ذلك وقال : « لابد من رحيلكم معى » . فقالوا : « لنا أمور نقضيها ونلحق بك » . فتركهم على هذا ورحل ومعه أبو البهار بن زيرى حتى وصل إلى المسيلة ، فعيّد

(١) كذا فى ر ، ابن خلدون ٧ : ٨٣ ، وهو الصواب . وفى الأصول بدون نقط.
(٢) ر : المسير .
(٣) ر : إلى المسيلة .

بها عيد الفطر . فبينا هو فى صلاة العيد ، إذ وصل إلى أبى البهار رسول أخبره أن إخوته ماكسن وزاوى ومَغنِين وعَرْما (١) نافقوا بآشير ، وقبضُوا على يَطوفت ، وأنه أفلت منهم بحيلة بعد أن عزموا على قتله . فخاف أبو البهار أن يصل يطوفت إلى باديس فيتهمه بمباطنة إخوته ، فهرب لوقته . وطُلِب فلم يُدرَك . فلقى يطوفت فى طريقه فعرّفه ما كان من إخوته ، فحلف أنه لم يعاقدهم على ذلك ، وأنه إنما هرب خوفا على نفسه . وفارقه والتحق بإخوته . وسار يطوفت حتى لحق بابن أخيه الأمير باديس وهو بالمسيلة . فرحل إلى إفريقية ، فاتصل به أن فلفل بن سعيد قتل أبا زعبل ، وهزم أصحابه ، وأسر حميد بن أبى زعبل فمثّل به ثم قتله ، وأن فلفلا تمادى إلى القيروان . فرحل باديس إلى باغاية فوصل إليها لإحدى عشرة بقيت من شوال . فأقام بها بقية الشهر . ورحل فى غرة ذى القعدة حتى وصل إلى مرمجنة .

فلما صار إلى بنى سعيد ، زحف إليه فلفل فى يوم الخميس لست خلون من ذى القعدة . فلم يلقه باديس ولم يلتفت إليه . فلما كان يوم الاثنين ، زحف فلفل إليه . فالتقيا بوادى اغْلان (٢) ، فكانت بينهم من الحروب العظيمة مالم يسمع بمثلها . وقد كان اجتمع لفلفل من قبائل البربر مالا يحصى كثرة ، وكذلك من زناتة ، وكلهم أصحاب خسائف . فثبتت صنهاجة بين يدى باديس . وظهر منه فى ذلك اليوم ماقرت به أعينهم . ثم أجْلت الحرب عن هزيمة زناتة والبربر هزيمة

(١) ابن خلدون ٦ : ٣٢٢ ، ٧ : ٨٣ : عزم .
(٢) كذا فى الأصول ولم أجده فى مراجعى .

فاحشة . وهرب فلفل واتبعته صنهاجة والعبيد حتى حال بينهم الليل. ورحل باديس من الغد فنزل فى مناخ فلفل . وقتل من زناتة فى ذلك اليوم تسعة آلاف رجل سوى من قتل من البربر . ثم رحل باديس فوصل إلى المنصورية فى يوم الأربعاء لعشر بقين من ذى القعدة .

ثم وصل الخبر أن فلفل بن سعيد وأولاد زيرى بن مناد عمومة والدباديس تصالحوا وتعاقدوا على قتال باديس . فلما تحقق ذلك خرج إلى رقادة سنة تسعين وثلاثمائة . ورحل حتى انتهى إلى قصر الإفريقى . فبلغه أن أولاد زيرى رجعوا إلى المغرب خوفا منه ، وأنه ما بقى مع فلفل منهم سوى ماكسن وولده محسن فرجع باديس الى المنصورية .

وفى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة [١] ، دخل باديس إلى المغرب فى طلب فلفل بن سعيد . فهرب منه إلى الرمال وافترق جمعه . فرجع باديس إلى إفريقية ومعه أبو البهار بن زيرى عم أبيه ، وكان قبل ذلك قد أتاه معتذرا بأنه لم يدخل فى شىء مما دخل فيه إخوته . فقبل عذره وطيب قلبه . وأما فلفل بن سعيد فإنه سار إلى طرابلس ، فقبله أهلها أهلها أحسن قبول ، فاستوطن بها .

وفى سنة اثنتين وتسعين [٢] ، وصل رسول ابن يوسف [٣] إلى ابن أخيه باديس ، يذكر أنه زحف إليه عمه ماكسن وأولاده

(١) جعل ابن عذارى ١ : ٣٦٠ هذه الأحداث فى سنة ٣٩٠ هـ.

(٢) جعل ابن عذارى ١ : ٣٦١ هذه الأحداث فى سنة ٣٩١ هـ.

(٣) يريد حماداً .

ومن معهم . فكانت بينهم وقعة شديدة فقُتل فيها ماكسن وأولاده محسن وباديس وحبامَة .

ثم توفى زيرى بن عطية الزناتي بعد ذلك بتسعة أيام .

وفى سنة خمسة وتسعين ، اشتد الغلاء بإفريقية وأعقبه وباء عظيم . وكان يُدفَن فى اليوم الألف والأكثر والأقل (١) .

وفى سنة أربعمائة مات فلفل بن سعيد الزناتى من علة أصابته . وولى أخوه وُرُّو ، فأطاعته زناتة . ثم سار باديس فى عساكر عظيمة لقتال زناتة . فلقيه فى بعض الطريق عبد الله وسواشى (٢) أولاد ينال التركى وأصحابهما . فعَرفوه أنهم لما علموا بخروجه أغلقوا أبواب طرابلس ومنعوا الزناتيين منها . فسر بذلك ووصلهم وأحسن إليهم . وسار إلى طرابلس فتلقاه أهلها فدخلها . ثم جاءته رسل ورو ابن سعيد ومن معه من الزناتيين ، يرغبون فى الأمان ، ويسألون أن يُجعَلوا عمالا كسائر رجال الدولة . ووصل جماعة منهم (٣) ، فأحسن إليهم ، وأعطاهم نفزاوة على أنهم يرحلون عن أعمال طرابلس . وأعطى النُّعيم (٤) قَصْطيلية . ورجع إلى المنصورية .

ثم تغير ورو ومن معه وخلعوا الطاعة فى سنة إحدى وأربعمائة ، ورحلوا عن نفزاوة . ولم يتغير النعيم . فأضاف باديس نفزاوة إلى النعيم .

وفى سنة خمس وأربعمائة ، وصلت رسل الحاكم بأمر الله إلى

---

(١) ابن الأثير ٧ : ٢٢٧ : مابين خمسائة إلى سبعمائة .
(٢) ر : شوشى .
(٣) ك : ووصل منهم جماعة .
(٤) النعيم بن كنون (ابن عذارى ١ : ٣٧٢) .

المنصورية ، وهما عبد العزيز بن أبي كدية وأبو القاسم بن حسين ، ومعهما خلع سنية ، وسيف مكلّل ، وسجل من الحاكم إلى المنصور بن باديس بولاية ما يتولاه أبوه في حياته وبعد وفاته ، ولَقّبه عزيز الدولة . فقُرئ السجل على الناس بالمنصورية والقيروان . وسُرّ باديس به . وتقرب وجوه الدولة إلى المنصور بالهدايا الجليلة والأموال .

ذكر خلاف حماد بن يوسف وأخيه ابراهيم على ابن أخيهما الأمير باديس

قال : كان سبب ذلك أنه – لما وصل سجل الحاكم إلى المنصور ابن باديس ولُقِّب – أراد أبوه أن يقدمه ويرفع قدره ، ويضيف إليه أعمالا يستخدم له فيها أتباعه وصنائعه . وكانت قد اتصلت به عن حماد أمور أنكرها وأراد اختبار حقيقة ماهو عليه . فكتب إليه كتابا لطيفا يأمره فيه أن يسلم العمل الذى بيد أبي زعبل (١) ، وهو مدينة تيجس وقصر الإفريقى وقسنطينة إلى خليفة ولده المنصور . ودعا باديس هاشم بن جعفر فخلع عليه وأعطاه الطبول والبنود . وأمره بالخروج إلى هذا العمل . فخرج بخزائن وعُدَد .

وبعث باديس إلى عمه إبراهيم بن يوسف يشاوره (٢) : من يمضى بالكتاب إلى حماد ؟ فقال إبراهيم : « لايجد سيدنا من عبيده أنصح

(١) يريد الذى كان بيد أبي زعبل ، لأن أبا زعبل قتله فلفل بن سعيد قبل ذلك .
(٢) ص : فشاوره .

له ولا أنهض بخدمته منى » . وضمن ذلك [١] وأكد على نفسه العهود والمواثيق تبرعا منه . وذكر أنه لايقيم فى مضيه وعَوْده بإحكام هذا الأمر إلا أقل من عشرين يوما . فأشار على باديس ثقاته أن يعتقل [٢] إبراهيم حتى يرى ما يكون من طاعة أخيه . فأبت نفسه ذلك ، وقال له : « امض إلى أخيك ياعم . فإن كنت صادقا فيما عقدته على نفسك ووفيت بعهدك ، وإلا فاجعل يدك فى يده وافعلا ما تقدران عليه وتستطيعانه » .

فخرج إبراهيم بمال جملته أربعمائة ألف دينار عينا وبجميع خزائنه وذخائره ورجاله وعبيده . وكان خروجه على تلك الحال من أدل الأشياء على نفاقه . وذلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوال سنة خمس وأربعمائة . وصحبه هاشم بن جعفر ،وقد أضمر إبراهيم الغدر إذا صار إلى الموضع الذى يدخل منه إلى عمل أخيه . فلما قرب منها ترك هاشما واعتذر إليه بأشغال له بباجة ،وعدل إلى طريقها ، ووعده أن يلحق به [٣] . ومضى إبراهيم حتى وصل إلى مدينة تامديت فكاتب أخاه حمادا بالذى فى نفسه . فوصل إليه فى ثلاثين ألف فارس . فاجتمعت كلمتهما على خلع الطاعة وأظهرا النفاق .

فانتهى ذلك إلى باديس فرحل لخمس خلون من ذى الحجة [٤]

---

(١) ر ، ص : وضمن له ذلك .

(٢) ر : أن يعتقد . ك : أن لايعتق .

(٣) ذكر ابن عذارى ١ : ٣٧٧ أن هاشما هو الذى اعتذر وترك إبراهيم لما أحس أنه يريد الغدر به .

(٤) ابن عذارى : ١ : ٣٧٧ : أواخر ذى الحجة .

منها . ونزل رقادة [١] ووضع العطاء . ثم رحل بعد عيد الأضحى وكتب إلى هاشم بن جعفر أن يصعد إلى قلعة شقبنا رية [٢] فيتحصن بها ففعل . فحاصره حماد وإبراهيم بها . ووقع بينهم قتال شديد فانهزم هاشم ومن معه إلى باجة . واحتوى حماد وإبراهيم على جميع ماكان معه من الأموال والخزائن والأثقال والخدم ، ونجا هو بأولاده ووجوه أصحابه .

ورحل باديس حتى نزل بمكان يسمى قبر الشهيد . فوصل إليه جماعة كثيرة من عسكر حماد . ثم ورد عليه كتاب من حماد على يد أبي مغنين الوتلكاتي يذكر فيه أنه على الطاعة ، وأنه كان قد هيأ هدية في جملتها ألفا برذون وغير ذلك لينفذها إلى المنصور ، إلى أن وافاه إبراهيم واعتذر أعذارا كثيرة ، فخالفها ما يظهر من أفعاله . وذلك أنه أحرق الزرع ، وسبي الذراري ، وسفك الدماء . وتواترت أصحابه واصلين إلى باديس متنصلين من فعله .

ورحل باديس حتى صار بينه وبين حماد مرحلة واحدة ، وقد بلغ عسكر حماد ثلاثين ألف فارس ، غير من لحق بباديس وغير الراجل.

قال : وورد الخبر وهو بتامديت بوفاة ابنه المنصور بجُدَرى أصابه فكتم أصحابه عنه ذلك . فبعث إليه إبراهيم يقول : « إن ولدك الذى طلبت له ماطلبت قد مات » . فما تضعضع لذلك ، وتلقاه بالصبر والشكر ، وجلس للعزاء ، وذلك لخمس خلون من صفر .

---

(١) ص : برقادة .

(٢) في معجم البلدان لياقوت : شقبارية . وفي الأصول : سقبنارية .

ثم سار ونزل بمدينة دَكْمَة [١] . وجاءه جماعة من أقارب حماد وخواصه ورجال دولته ، وكتاب من قبل خلف الجيزى [٢] ، وهو الوالى على مدينة آشير ، وكان عند حماد أقرب من الولد لايوازيه فى رتبته أحد ، يذكر أنه منع حمادا من الدخول إلى مدينة آشير وأغلقها دونه . فكان ذلك أول الفتح وأعظم الظفر .

قال : فلما رأى حماد مخالفة خلف عليه مضى إلى تاهرت . ورحل باديس يوم الجمعة [٣] الثانى من شهر ربيع الأول . فنزل مدينة المحمدية [٤] وهى المسيلة . فأقام بها ستة أيام ثم زحف إلى القلعة . ورجع من غير قتال .

ثم أنفذ باديس أخاه كرامت إلى المدينة التى أحْدَثها حماد . فخرج إليها فى عسكر كثير ، فهدم قصورها ومساكنها جزاء لما فعله حماد وأخوه فى البلاد . ولم يتعرض لأخذ مال ولاسفك دم . واتصل ذلك بإبراهيم ، فأقبل يهدم كل قصر كان لأخيه خارجا عن القلعة ، مخافة أن يسبقه كرامت إليه . وهرب من القلعة جماعة إلى باديس وتركوا نساءهم وأولادهم وأموالهم [٥] . فأقبل إبراهيم يذبح الأولاد على صدور أمهاتهم ، ويشق بطونهم . وفعل أفعالا شنيعة .

قال : ورحل باديس إلى آشير ثم منها إلى وادى شَلَف . ونزل حماد فى الجبهة الأخرى من الوادى . ورتب كل منهما عساكره وعبأها

(١) كذا فى ص ، ر ، ومعجم البلدان لياقوت . و فى ع ، ك : ذكة .
(٢) ر ، ابن الأثير ٧ : ٢٧٦ : الحميرى .
(٣) ك : الخميس .
(٤) ابن عذارى ١ : ٣٧٩ : ثم رحل من تامدبت لست خلون من صفر ، و تمادى رحيله إلى أن وصل المحمدية .
(٥) ص : وأموالهم وأولادهم .

وتهيأ للحرب . والتقوا فى يوم الأحد غرة جمادى الأولى . وكان حماد قد أسند ظهره إلى جبل بنى واطيل ، وهو جبل منيع صعب المرتقى ، وبينه وبين عسكر باديس الوادى ، وهو واد عميق لايطمع فى تعديته لشدة توعره وعمق قعره وصعوبة انحداره وكثرة مائه . فلما رأى باديس ذلك حمل بفرسه واقتحم الوادى . فتبعته العساكر وعدت الرجالة سباحة . فما كان إلا كرجع الطرف حتى صاروا فى الجهة الأخرى مع عساكر حماد [١] . ثم اصطفوا واقتتلوا واشتد القتال وكثر القتل . فانكشف حماد وتفرق أصحابه عنه بعد قتال شديد. فولى منهزما لايلوى على شىء ، وقتل حرمه بيده . فوقف باديس عليهن وهن قتيلات . وخلص حماد فيمن ثبت معه من عبيده إلى قلعه مغيلة فى خمسمائة فرس . ولولا اشتغال الناس بالنهب لما فاتهم . وأصبح باديس فبعث فى طلب حماد فسبقهم إلى القلعة . وأراد التحصن [٢] بها إن أدركته العساكر . ثم سار عنها إلى قلعته فوصل إليها لسبع مضين من جمادى الأولى ، واستعد للحصار .

وسار باديس إلى المحمدية فوصل إليها لليلتين بقيتا من الشهر . فأتاه رسول عمه إبراهيم بالاعتذار ويذكر باديس بما سلف لحماد من الخدمة فى دولته ، وأنه هو الذى سد ثغور المغرب ، وقام محاميا عن هذه الدولة كقيام الحجاج بن يوسف بدولة بنى أمية ، واعترف بالخطأ . فرد عليه باديس رسله بجواب . واختلفت الرسائل إليه منهما طلبا للمدافعة . فأمر باديس بالبناء . وبذل لرجاله [٣] الأموال

(١) ر : عسكر .
(٢) ك : التحصين .
(٣) ص ، ر : وبذل الرجالة .

وأعطى الألفى دينار والخمسمائة . فاشتد ذلك على حماد ، ورأى من رجاله ما أنكره ، وضعفت نفسه . وغلت الأسعار عنده فجعل يكذب على من عنده ، ويكتب كتبا يذكر فيها أن باديس قد عزم على الرحيل إلى إفريقية ، وأن كتبه تصل إليه فى الصلح إلى غير ذلك مما يختلقه [١] . وداوم باديس الحصار حتى مات .

ذكر وفاة باديس

كانت وفاته فى ليلة الأربعاء آخر ذى القعدة سنة ست وأربعمائة وذلك أنه وصل إليه وهو فى الحصار سليمان بن خلف [٢] بعساكر عظيمة ، جمهورهم تلكاتة [٣] وصنهاجة ، فضمن لباديس فتح القلعة وسائر بلاد المغرب . فلما كان يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذى القعدة ، أمر باديس بالعرض ، فعرضهم إلى الليل . ثم مات فى نصف الليل . فخرج الخادم إلى حبيب بن أبى سعيد وباديس بن حمامة [٤] وأيوب بن يطوفت ابن عمه ، وكان حبيب من أكبر رجاله ، وبينه وبين باديس بن حمامة منافسه وعداوة . فلما أعلمه الخادم ، خرج حبيب مسرعا إلى فازة باديس ، وخرج باديس مسرعا إلى فازة حبيب . فاجتمعا فى الطريق ، فقال كل منهما لصاحبه : « بيننا عداوة

---

(١) ك : مايختلقه . ر : مما يختلف .

(٢) كذا فى ك ، ر . وفى ص ، ع : مليمان .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٧ : ٢٧٨ . وفى ابن عذارى ١ : ٣٨٥ : وتلكاتة .

(٤) وكذا فى ابن عذارى ١ : ٣٨٤ . وفى ابن الأثير ٧ : ٢٧٧ مرة كذلك ، وأخرى : باديس بن أبى حمامة .

ولاتبرح ، والأَوْلى بنا فى هذا الوقت الموافقة والاجتماع فى تدبير هذا المهم . فإذا انقضى رجعنا إلى[١] ما كنا عليه ». فحضرا ومعهما أيوب بن يطوفت وقالا : « إن صاحب هذا الأَمر بعيد منا والعدو قريب مشرف علينا . ومتى لم نقدم رأسا نرجع فى أمورنا إليه لم نأمن العدو على أنفسنا . ونحن نعلم أن ميل تلكاتة وصنهاجة المغرب إلى كرامت بن المنصور أخى باديس » . فاجتمع رأيهم على تولية كرامت ظاهرا . فإذا وصلوا موضع الأَمن قدم المعز بن باديس ، وينقطع الخلاف ، وتُصان بيوت الأَموال[٢] والعُدد . فأَحضروا كرامت وبايعوه وكتموا الأَمر .

وأصبحت العساكر للسلام على ماجرت به العادة . ولم يعلم بوفاته سوى من ذكرناه[٣] . فأَرادوا صرف الناس بأَن يقولوا : إن الأَمير قد أخذ دواء . فبينا[٤] هم فى ذلك أتى الخبر أن أهل مدينة المحمدية قد شاع عندهم موت باديس ، وأنهم أغلقوا أبواب المحمدية ، وطلعوا على سورها . وكأَنما نودى فى الناس بوفاته . فاضطرب لموته بنومناد وجميع القواد . وخافوا من الفرقة وشتات الكلمة فأَظهروا ولاية كرامت وأمر بالكتب إلى سائل الأَعمال باسمه ، ولم يذكر المعز بن باديس . فلما رأى عبيد باديس ومن كان على مثل رأيهم من الحشم والأَجناد أنكروا ذلك إنكارا شديدا . فخلا حبيب بن أبى سعيد بأكابرهم وقال : « إنما رضيناه وقدمناه على أن يحوط الرجال ، ويحرس

(١) ك : على .
(٢) كذا فى ص ، ر . وفى ع : تضاف . وفى ك : تضاف الأموال .
(٣) ر : ذكرنا .
(٤) ك : فبينا .

الخزائن والأموال ، حتى يسلم جميع ذلك إلى مستحقه وهو المعز » .
ومشى بعضهم إلى بعض وتحالفوا على ذلك سرا .

ثم اتفق رأى الجميع على تقديم [١] كرامت فى الخروج إلى آشير ليحشد قبائل تلكاتة وصنهاجة . فإذا اجتمعوا رجع بهم إلى المحمدية فيقطن بها ، وترحل العساكر بتابوت باديس حتى يسلموه إلى ولده المعز . ودفعوا إلى كرامت مائة ألف دينار وخزانة سلاح وأمتعة . وتوجه إلى مدينة آشير يوم الأحد لأربع خلون من ذى الحجة سنة ست وأربعمائة . وكان من خبره ما نذكره إن شاء الله فى أيام المعز .

وكانت مدة ولاية باديس عشرين سنة وتسعة أشهر إلا أربعة أيام . وعمره اثنان وثلاثون سنة وثمانية أشهر وأيام .

ذكر ولاية أبى تميم المعز بن أبى مناد باديس ابن المنصور بن يوسف بن زيرى

كانت ولايته بالمحمدية [٢] يوم السبت لثلاث خلون من ذى الحجة سنة ست وأربعمائة على ماقدمناه ، وله من العمر يوم ذاك ثمان سنين وسبعة أشهر [٣] . وأما ولايته بالمهدية [٤] فكانت يوم الاثنين لسبع [٥] بقين من ذى الحجة هذا . وذلك أن الخبر لما وصل

(١) ك: تقدم .
(٢) ابن عذارى ١ : ٣٨٦ : بالمهدية ، وقد خلط بين المهدية والمحمدية .
(٣) ابن الأثير ٧ : ٢٧٨ : وستة أشهر وأيام تقريبا. ابن عذارى ١ : ٣٨٦ : وأربعة أشهر .
(٤) ك: المحمدية .
(٥) كذا فى الأصول. وفى ابن عذارى ١ : ٣٨٦ لتسع . وكلاهما خطأ ، لأننا إذا ارتضينا أن الثالث من الشهر وافق يوم السبت كان يوم الاثنين يوافق السادس والعشرين منه .

بموت باديس ، كانت السيدة أم ملال [١] بالمهدية ، فخرج إليها منصور بن رشيق عامل القيروان ، بجماعة القضاة والفقهاء والمشايخ وشيوخ صنهاجة إلى المهدية فعزّوها . وأخرجت المعز وبين يديه الطبول والبنود . فنزل إليه الناس وهنئوه وعزّوه . وعاد إلى قصره . ودخل الناس على السيدة فهنئوها . فأمرت منصور بن رشيق بالانصراف بمن كان معه فرجعوا إلى القيروان .

قال : وأما العسكر الذى بالمحمدية فإنهم ارتحلوا عن مناخها يوم عيد الأضحى بعد أن أضرموا النار فيما كان هناك من الأبنية . وسارت العساكر على تعبئة الزحف مقدمة وساقة وقلبا ، يقدمها التابوت . وأمامه البنود والطبول والجنائب والقباب . وكان وصولهم إلى المنصورية يوم الاثنين لأربع خلون من المحرم سنة سبع وأربعمائة . ووصلوا إلى المحمدية لثمان خلون [٢] منه . فركب المعز وقام حبيب بن أبى سعيد عن يساره . ونزل الناس فوجا فوجا وحبيب يعرفه بهم قائدا قائدا وعرافة عرافة ، وهو يسأل الناس عن أحوالهم ألطف سؤال . فرأى الناس من عقله وإقباله وفطنته ماملأ قلوبهم وأفرعيونهم . وأقاموا يركبون إليه فى كل غدوة وعشية ثلاثة أيام . ثم خرج المعز من المهدية وسار إلى القيروان . ودخل المنصورية يوم الجمعة النصف من [٣] المحرم سنة سبع وأربعمائة فسر به الناس وابتهجوا .

---

(١) كذا فى ص، ع، ك . وفى البيان ٢٦٧ (ليدن) : ام ملال . وفى ر : ملاك .
(٢) ابن عذارى ١ : ٣٨٧ : بقين من ذى الحجة .
(٣) ك : النصف .

ذكر قتل الروافض

قال : وفى يوم السبت سادس عشر المحرم منها ، ركب المعز فى القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له فمر بجماعة فسأل عنهم فقيل : « هؤلاء رفضة والذين قبلهم سنة [١] » . فقال : « وأى شىء الرَّفَضة والسنة ؟ » قالوا : « السنة يترضَّون عن أبى بكر وعمر والرفضة يسبونهما » . فقال : « رضى الله عن أبى بكر وعمر » [٢] . فانصرفت العامة من فورها إلى الناحية المعروفة بدرب المقلى [٣] من مدينة القيروان – وهو موضع يشتمل على جماعة منهم – فقتلوا منهم جماعة ، ووقع القتل فيهم . وصادفت شهوة من العسكريين وأتباعهم طمعا فى النهب . وانبسطت أيدى العامة فيهم . فأقبل عامل القيروان يظهر أنه يسكِّن الناس ، وهو يحرضهم ويشير إليهم بزيادة الفتنة ، لأنه كان قد أصلح البلد فبلغه أنه معزول ، فأراد إفساده . فقُتل من الرافضة خلق كثير فى ديارهم وحوانيتهم ، وأحرقوهم بالنار . وانتُهبت ديارهم وأموالهم . وزاد الأمر واتصل القتل فيهم فى جميع بلاد إفريقية . وقيل : إن القتل وقع فيهم فى جميع المغرب فى يوم واحد فى المدائن [٤] والقرى ، فلم يُترَك رجل ولا امرأة ولاطفل إلا قُتل وأُحرق بالنار . ونجا من بقى منهم بالمهدية إلى الجامع الذى بالحصن ، فقُتلوا فيه عن آخرهم .

(١) ك : سنية .
(٢) وكذا فى ابن الأثير ٧ : ٢٩٤ وفى ابن خلدون ٦ : ٣٢٥ وابن عذارى ١ : ٣٩٥ أن المعز كبابه فرسه مرة فترضى عن أبى بكر وعمر فثـــارت العامة وقتلت الشيعة .
(٣) وكذا فى ابن الأثير ٧ : ٢٩٤ . وفى ابن عذارى ١ : ٣٨٧ : المعلى .
(٤) ك : من المدائن .

اختصارا .

وأما كرامت بن المنصور فإنه أقام بمدينة آشير ومعه من تلْكاتَة وغيرهم من قبائل صُنهاجَة ، فما شعر إلا وقد وافاه حماد فى ألف وخمسمائة . فبرز إليه كرامت فى سبعة آلاف . فلما نشبت الحرب بينهم عمد التلكاتيون إلى بيت ماله فانتهبوه ، ورجعوا على أدراجهم [٣] . فكانت الهزيمة على كرامت فدخل مدينة آشير

(١) كذا فى ر . وفى ص : بهاغضب . ع : بها عصم . ك : بها عصم بيت .
(٢) ص : وقالوا قصائد .
(٣) ر : إلى أدراجهم .

ولما كان فى يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة خلت من جمادى الأولى ، خرج من بقى من المشارقة - وهم الرافضة [١] - إلى قصر المنصور بظاهر المنصورية ، وهم زُهاءألف وخمسمائة ، وتحصنوا به . فحاصرهم السنة فاشتد عليهم الحصار والجوع . فأقبلوا يخرجون والناس يقتلون منهم [٢] ويحرقون إلى أن قُتلوا عن آخرهم [٣] ، وطهر الله تعالى المغرب منهم .

وعمل الشعراء فى هذه الواقعة القصائد . فممن عمل فيها

وحماد فى أثره . فأرسل إلى كرامت ليجتمع به فتوثّق منه وأتاه . فزوّده[١] حماد بثلاثة آلاف دينار وبعث معه من أصحابه من يشيعه . فوصل إلى الحضرة فى يوم الأربعاء لإحدى عشرة بقيت من المحرم سنة سبع وأربعمائة . وطلب تلكاتة وصنهاجة بما صار إليهم من أموال كرامت ومواشيه ، فتفرقوا عنه وامتنعوا عليه .

وفى يوم السبت لعشر بقين من صفر منها ، ولى محمد بن حسن أمور المعز وجيوشه ، وكان قبل ذلك على طرابلس ، وأضيف إليه قابس ونفزاوة وقصطيلية وقفصة . فبعث عماله عليها . وعقد لأيوب بن يطوفت على سائر أعمال المغرب .

وفى يوم الأحد لعشر بقين من ذى الحجة سنة سبع وأربعمائة ، خُتِن المعز وخُتِن معه من أبناء الضعفاء عدة كثيرة . وأعطوا الكساوى والنفقة .

[وفى] آخر ذى الحجة هذا ، وصلت الرسل من مصر بسجل الحاكم إلى المعز واللقب والتشريف ، وخوطب بشرف الدولة .

ذكر مسير المعز لحرب حماد

قال : وفى يوم الخميس لسبع [٢] بقين من صفر سنة ثمان وأربعمائة ، برز المعز إلى مدينة رقادة فى عساكره وفرق الأموال .

(١) ر : فراوده .
(٢) ابن الأثير : ٧ : ٢٧٨ : لثمان .

ثم رحل منها لأربع خلون من شهر ربيع الأول .ووصل [١] إليه علة من القبائل من عسكر حماد ومن كتامة [٢] . فجاءه الخبر أن إبراهيم وقف على باب مدينة باغاية فدعا بأيوب بن يطوفت فخرج إليه . فعاتبه على ما كان منه وذكر أنهم إخوة ، وأن الذى كان إنما وقع بقضاء الله وقدره . وقال : « نحن على طاعة سيدنا المعز . وقد أردنا أن يتم الصلح على يدك . وحماد يقرأ عليك السلام ويقول لك : ابعث من تثق به أن يحلّفنى [٣] ويأخذ على من العهود ما يسكن إليه قلبك ، ويكتب به » .

فانخدع أيوب ودعا بحمامة أخيه وحبوس بن القاسم بن حمامة وأنفذهما معه . ثم تبعهما تورين [٤] غلام أيوب ، وهو أعز عنده من إخوته . فلما وصل بهم إبراهيم إلى أخيه حماد ، أنزلهم [٥] فى فازة السلام . ومضى إلى أخيه فأخبره . فبعث إليهما زكنون [٦] ابن أبى حُلا فجرد ما عليهما من الثياب ، وألقى عليهما ثياباً رثة ، وقيدهما بقيدين ثقيلين وأنفذهما إلى القلعة . ودعا حماد بتورين [٧] فقال له : «هذان ابنا عمى وأنت فما جاء بك معهما ؟ أردت أن تتحدث فتقول : قال لى حماد ، وقلت لحماد ! » وأمر به فضربت عنقه .

(١) ك : ودخل .
(٢) ك: من عسكر حماد من كتامة .
(٣) ع: يخلفنى . تحريف .
(٤) كذا فى ع ، ك . وفى ص : توربن . وفى ر : يسورين .
(٥) ك : أنزله .
(٦) ر: ذكنون .
(٧) ك هنا: بتوزين .

فلما اتصل الخبر بالمعز ، سار بالعساكر حتى انتهى إلى حماد . والتقوا واقتتلوا ، فكانت الهزيمة على حماد وعساكره . وقُتل حُماة أصحابة ، وأُسر إبراهيم ، وفر حماد .

وعقد المعز لعمه كرامت بن المنضور على أعمال المغرب ، ففرق عماله .

ذكر الصلح بين المعز وحماد عم أبيه

قال : ولما تمت الهزيمة على حماد ، راسل [1] المعز فى طلب الصلح واعترف بالخطأ وسأل العفو عنه . فأنفذ المعز من يقف على صحة أمره وصدق طاعته ، فعاد بسمعه وطاعته . ورغب فى ترك العمل ، وأن يعقد له أخوه إبراهيم ما يسكن إليه من العهود والمواثيق التى يطمئن إليها ، فيبعث حينئذ بولده [2] القائد أو يصل بنفسه . فحصل الاتفاق ، وأرسل ابنه القائد إلى المعز . فوصل بعد عَوْد المعز إلى المنصورية ، وذلك فى النصف من شعبان من السنة . فأكرمه المعز وأحسن إليه . وكتب له منشورا بولاية المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وزواوة ومقّرة ودكمة وبلزمة وسوق حمزة ، وأعطى البنود والطبول . وانصرف إلى أبيه لأربع خلون من شهر رمضان سنة ثمان وأربعمائة . فلما وصل إلى أبيه أظهر الطاعة . وبقى القائد يتردد إلى المعز .

---

(١) ص ، ر : أرسل . والفصل كله ساقط من ك .
(٢) ر : فيبعث ولده .

ذكر مقتل القائد محمد بن حسن

كان مقتله لسبع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة [١] . وذلك أنه كان قد استقل بالأمور وجبى الأموال منذ فُوِّضت إليه أمور الدولة . فلم يدخر درهما واحدا فى سبع سنين مع ما ورد من الهدايا الجليلة والتقادم النفيسة . وانتهت حاله إلى أن أخذ مالا من الذخيرة فلم يرد عوضه . وضاقت الدولة واتسعت أحواله وكثرت أبنيته التى لا تصلح إلا للملوك . وهادى الأكابر بمصر حتى وصل إليه سجل من الحضرة . فضاق منه المعز ، فدس إليه بعض خواصه ، وأشار عليه أن يقتصر على الخدمة ، وله ما حَصَّله من الأموال والأبنية . فأبى إلا تماديا واستمرارا . فقتله المعز فى التاريخ الذى ذكرناه ، وكتب بالحَوْطة على أمواله ونعمه ورجاله . وقلد القاسم بن محمد بن أبى العرب سيفه . وأخرج بين يديه الطبول والبنود . وصرف إليه النظر فى سائر إفريقية .

قال : ولما قتل محمد بن حسن ثار أخوه عبد الله بن حسن عامل طرابلس وغضب لذلك . وبعث إلى زناتة فعاقدهم [٢] وأدخلهم طرابلس . فقتلوا كل من كان بها [٣] من صنهاجة والعسكريين وأخذوا المدينة . فلما انتهى ذلك إلى المعز . أمر بالقبض على جميع بنى محمد وحبسهم ثم ظفر محمد بن وليمة

---

(١) وكذا فى ابن الأثير ٧ : ٣١٢. وفى الزاوى ١٨٧ : سنة ٤١٤ .
(٢) ص، ر : فعاهدهم .
(٣) ك : من بها .

بعبد الله ، فأنفذه إلى المعز فاعتقله . ثم أمر بقتل الجميع [١] ، وذلك لما استغاثت نساء الصنهاجيين وأولادهم الذين قَتَلوا آباءهم بطرابلس .

وكان بإفريقية فى تلك السنة [٢] مجاعة شديدة لم يكن مثلها قط .

وفى ليلة الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة عشرة وأربعمائة وُلد للمعز مولود سماه نزار .

وفى صفر سنة تسع [٣] عشرة وأربعمائة ، ورد الخبر إلى المعز بوفاة حماد بن يوسف بُلُكِّين ، وهو عم أبيه . فكتب إلى ولده القائد بالتعزية بأبيه .

وفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، خرج عسكر المعز إلى الزاب . ففتح مدينة نورس [٤] وقتل من البربر خلقاً كثيرا . وفتح من بلاد زناتة قلعة تسمى كردُوم [٥] .

وفى سنة ثلاثين وأربعمائة ، دخل قائده جزيرة جربة ، ففتحها وقتل رجالها ، وأسر مقدمهم ابن كلدة وصلبه ، لقطعهم الطريق وسوء اعتقادهم .

---

(١) ذكر الزاوى ١٨٨ أن خليفة بن ورو هو الذى قبض على عبدالله بن حسن وقتله .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٧ : ٣١٢ . ولم يذكر ابن عذارى مجاعات فى تلك السنة ولكنه ذكر واحدة وقعت سنة ٤٠٩ (١ : ٣٨٨) .

(٣) وكذا فى ابن خلدون ٦ : ٣٥٢ وابن الوردى ١ : ٣١٤ . وفى ابن الأثير ٧ : ٣٢٦ سبع .

(٤) كذا فى ص ، ع . وفى ك : قورش . وفى ر ، ابن الأثير ٨ : ١٦ بورس . ولم أجدها .

(٥) كذا فى ص ، ع ، ك . وفى ر ، ابن الأثير ٨ : ١٦ : كروم . ولم أجدها .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، خرج المعز بجيوشه إلى قلعة حماد . وحاصرها مدة سنتين وضيق عليهم لرجوعهم إلى ما كانوا عليه من النفاق .

وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة [١] ، أظهر المعز الدعاء للدولة العباسية . ووردت عليه الرسل . ووصله السجل من القائم بأمر الله ، وأوله : « من عبد الله ووليه أبى جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد نور الإسلام ، وشرف الأيام [٢] ، وعمدة الأنام ، ناصر دين الله ، وقاهر أعداء الله ، ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبى تميم المعز بن باديس بن المنصور ولى أمير المؤمنين » بألفاظ طويلة ، وخلع طائلة ، وسيفه وفرسه وخاتمه وألوية كثيرة . فوصل ذلك فى يوم الجمعة والخطيب على المنبر فى الخطبة الثانية عند الاستغفار . فدخلت الألوية إلى الجامع ، فقيل للخطيب : « اذكر الساعة ما أمكن » . فقال : « هذا لواء الحمد يجمعكم ، وهذا معز الدين يسمعكم ، وأستغفر الله [٣] لى ولكم » .

ذكر خروج العرب الى المغرب والسبب الموجب لذلك .

كان سبب ذلك أن المستنصر — لما ولى خلافة مصر بعد الظاهر بن الحاكم — خطب المعز فى أيامه للقائم بأمر الله العباسى . فكتب

(١) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٣٩ ، المونس ٧٢ وأبى الفدا : ٢ : ١٦٧ وابن الوردى ١ : ٣٤٩ . وفى ابن عذارى ١ : ٣٩٧ : ثلاث وثلاثين وأربعمائة .

(٢) ابن الأثير ٨ : ٣٩ : ثقة الإسلام وشرف الإمام .

(٣) ك : الله العظيم .

إليه وهو يرغبه ويرهبه ، ويقول له : « هلاَّ اقتفيت آثار من سلف من آبائك في الطاعة والولاء » ويتوعده [١] بإرسال الجيوش . فكتب المعز إليه : « إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب [٢] قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم . ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم » .

وكان المستنصر قد ولى وزارته في اثنتين وأربعين وأربعمائة لأبي محمد الحسن بن اليازوري ، ولقبه بالوزير الأجل المكين ، سيد الوزراء [٣] ، وتاج الأمراء ، قاضي القضاة ، وداعي الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين » . ولم يكن من أهل الوزارة ولا من الكتاب ، بل كان من أهل التِّناية [٤] والفلاحة بالشام . فأجراه ملوك الأطراف في مكاتباتهم [٥] على عادة الوزراء إلا المعز فإنه امتنع من مخاطبته بما كان يخاطب به الوزراء قبله ، وذلك أنه كان يكاتب الوزراء بعبده فكاتبه بصنيعته . فعظم ذلك عليه [٦] . فأعمل الوزير الفكرة ودس إلى زُغبة ورياح دسائس ووصلهم بصلات سنية . وبعث إليهما أحد رجال الدولة حتى أصلح بين الفئتين بعد فتن توالت وحروب استمرت ودماء أريقت . ثم أحضر أمراءهم وأباحهم على لسان المستنصر أعمال القيروان . ووعدهم

(١) ر : توعده .
(٢) ص : الغرب .
(٣) ك : الأجل المكنى سيد الوزارة .
(٤) التناية : الزراعة . كذا في ص ، ع . وفي ك : البناية . وفي ر : العناية . وفي ابن الأثير ٨ : ٥٥ : التبانة . وكلها تحريف .
(٥) ر : مكاتبتهم .
(٦) ذكر المونس ٨٣ سبباً مختلفاً لخصومة بين الرجلين .

بالمدد والعُدد . وأمرهم بالعَيْث والإخراب . فدخلت العرب إلى بلاد المغرب فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة . وأنفذ اليازورى كتاباً يقول فيه [١] : « أما بعد ، فقد أرسلنا إليكم فحولا ، وأرسلنا عليها رجالا كهولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا » . ودخلت العرب فوجدوا بلادا خالية طيبة كثيرة المرعى ، كانت عمارتها زناتة فأبادهم المعز . فأقاموا بها واستوطنوها وعاثوا فى أطراف البلاد . وبلغ ذلك المعز فاستحقر أمرهم لتمام المقدور .

ذكر وفاة لقائد بن حماد وولاية ابنه وقتله وولاية بلكين بن محمد

وفى شهر رجب سنة ست وأربعين وأربعمائة توفى القائد بن حماد ابن يوسف بلكين بن زيرى وكان فى مرضه ولّى محسنا ، وأوصاه [٢] بالإحسان إلى بنى حماد عمومته . فلما ولى خالف ما أمره به أبوه [٣] وأراد عزل جميعهم . فلما سمع عمه يوسف بن حماد ما أراده من الغدر بإخوته بنى حماد خالف عليه . وجمع العساكر فاجتمع له خلق كثير . وكان يوسف قد بنى قلعة فى جبل منيع وسماها الطيارة . فلما اتصل بمحسن خلافه خرج إليه والتقى بعسكر عمه مَدِينى . فانهزمت تلكاتة عنه ، فظُفر به ، فقتل من

(١) ى نص الرسالة خلافات طفيفة . انظر ابن الأثير ٨ : ٥٥ ، وابن خلدون ٤ : ١٣١ ، ٦ : ٣١ .

(٢) د : ووصاه .

(٣) ك : أمر به أبوه .

عمومته أربعة ، وهم مدينى وإخوته مناد ونغلان [١] وتميم . وكتب إلى عمه يوسف يأمره بالقدوم إليه . فقال : « كيف أطمئن إليك وقد قتلت أربعة من عمومتك ؟ » .

وكان ابن عمه بلكين بن محمد متولى افريون [٢] فكتب إليه محسن يأمره بالقدوم ، فقدم عليه . فلما قرب منه أمر محسن قوماً من العرب أن يأتوه برأسه . فلما خرجوا ، قال لهم أميرهم خليفة بن مكن : « هذا بلكين لم يزل محسنا إلينا . فكيف نفعل به هذا ؟ » فأتوه وأعلموه بما أمروا به ، فخاف عند ذلك . فقال له خليفة : « لاخوف عليك إن كنت تريد قتل محسن فأنا أقتله لك » . فتدرع بلكين وركب وأقبل يريد لقاءه . فبلغ محسنا قصدُه إليه ، فهرب إلى القلعة . فأدركوه فى الطريق فقتله بلكين ، ودخل القلعة ، وولى الأمر . وذلك فى شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة .

[بقية أخبار المعز بن باديس]

نعود إلى أخبار المعز بن باديس ، قال : ولما تكاسلت صنهاجة عن قتال زناتة ، اشترى المعز العبيد ، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك . وكانت العرب زُغْبة قد ملكوا مدينة طرابلس فى سنة ست وأربعين . ووصل مؤنس بن يحيى المرْداسى إلى المعز بالقيروان .

(١) كذا فى ع . وفى ص ، ك : فعلان . وفى ر : نعلان .

(٢) كذا فى ك ، ر . وفى ص بقاف ونون ولم يعجم بقية الكلمة . ولم تنقط غير النون ولم أجدها .

فأكرمه المعز وأحسن إليه . فنهاه مؤنس أن يجعل للعرب سبيلا إلى دخول إفريقية وقال : « إنهم قوم لا طاقة لك بهم » . فقال له المعز : « هم دون ذلك ». فلما رأى مؤنس استهزاء المعز بالعرب ، خرج عنه ولحق بأرض طرابلس .

وتتابعت بنورياح والأثبج وبنوعدى ، فدخلوا إفريقية ، وقطعوا السبيل ، وعاثوا فى البلاد . وعزموا على الوصول إلى القيروان. فقال لهم مؤنس : « ليس هذا عندى برأى . وهذا يحتاج إلى تدبير » . فقالوا : « وكيف تحب[1] أن نصنع ؟» قال : «ائتونى ببساط.» فأتوه به . فبسطه وقال لهم : « من يدخل إلى وسط. هذا البساط. من غير أن يمشى عليه ؟ » قالوا : « كيف يقدر أحد على ذلك[2] » قال « أنا » . قالوا : « فأرنا كيف تقدر على ذلك » . فطوى البساط. ، وأتى إلى طرفه ففتح منه مقدار ذراع ووقف عليه . ثم فتح شيئاً آخر ودخل إليه . وقال : « هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب املكوها شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فأتوها ، فإنكم تملكونها » . فقال له رافع بن حماد : « صدقت يامؤنس . والله إنك لشيخ العرب وأميرها . فقد قدمناك على أنفسنا فلسنا نقطع أمرا دونك » .

وقدم أمراء العرب إلى المعز ، وهم مُطِرف بن كسلان ، وفرح ابن أبى حسان ، وزياد بن الدونية [3] ، وفارس بن كثير ، وفارس

(١) كذا فى ص، ر. وفى ك : يجب . وبدون نقط فى ع .
(٢) ك: هذا .
(٣) كذا فى ص، ع. وفى ك، ر : الدوينة .

ابن معروف ، وهم أمراء بنى رياح وساداتهم ، فأنزلهم المعز ، وأكرمهم وأحسن إليهم . فخرجوا من عنده ولم يجازوه بما فعل معهم بل شنوا الغارات على البلاد ، وقطعوا على الرفاق ، وأفسدوا الزرع [١] ، وقطعوا الأشجار ، وحاصروا المدن . فضاق الناس وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم . وحل بإفريقية من البلاء ما لم ينزل بها مثله قط .

ذكر الحرب بين المعز والعرب وانتصار العرب عليه

قال : ولما كان من أمرهم ما ذكرناه ، احتفل المعز وجمع العساكر . وخرج فى ثلاثين ألف فارس ومثلهم [٢] رجالة [٣] . وسار حتى انتهى إلى جندران [٤] ، وهو جبل على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان . وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس [٥] . فلما شاهدوا عساكر صنهاجة هالهم ذلك . فقال مؤنس بن يحيى المرداسى : « ياوجوه العرب ، ما هو يوم فرار » . فقالوا : « أين

(١) ص: الزروع .

(٢) ك : ومثلها .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٥٦ . وفى ابن خلدون ٤ : ١٣١ نحو من ثلاثين الفاً . وفى أبى الفدا ٢ : ١٧٠ مايزيد على ثلاثين ألف فارس . وفى ابن عذارى ١ : ٤٢٠ عن ابن شرف : وكان عدد العسكر المهزوم ثمانين ألف فارس ومن الرجالة مايليق بذلك .

(٤) كذا فى ر ، ابن الأثير ٨ : ٥٦ . وفى ص ، ع ، ت : جندرا . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٢٦ والبيان ص ٢٩٠ (ليدن ٢) : حيدران .

(٥) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٥٦ ، وابن خلدون ٤ : ١٣١ . وفى ابن عذارى عن ابن شرف : وكانت خيل العرب ثلاثين ألف فارس ، ومن الرجالة مايليق بذلك .

نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكازغندات [١] والمغافر ؟ » فقال أمير منهم : « فى أعينهم » . فسُمى من ذلك اليوم « أبا العينين » [٢] . والتقوا والتحم القتال وحميت الحرب ، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة . وتركوا المعز مع العبيد حتى يُرى فعلهم ويُقتَل أكثرهم ، وبعد ذلك يرجعون على العرب . فانهزمت صنهاجة ، وثبت المعز والعبيد . ووقع القتل فيهم ، فقُتل منهم خلق كثير . وحاولت صنهاجة الرِّدة على العرب فلم يمكنهم ، واستمرت الهزيمة . وقُتل من صنهاجة أمة عظيمة . وانهزم المعز ودخل القيروان مهزوماً على كثرة من كان معه وقلة العرب . واحتوت العرب على الخيل والعُدد والمُخيَّم والأثقال والأموال . وفيها يقول الشاعر [٣] :

وإنَّ ابن باديس لأفضلُ ما لك
ولكن لعمرى ما لديه رجالُ [٤]
ثلاثون ألفا منهمُ غلبتهمُ
ثلاثةُ آلاف إنَّ ذا لَمُحال [٥]

قال : ولما كان يوم عيد النحر من السنة ، جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس . وهجم على العرب وهم فى صلاة العيد .

---

(١) ابن الأثير ٨ : ٥٦ : الكذا غندات . وهى أردية محشوة من القطن أو الحرير يتدرع بها فى الحرب .

(٢) ابن الأثير ٨ : ٥٦ : فسمى ذلك اليوم يوم العين .

(٣) هو على بن رزق الرياحى أو ابن شداد (ابن عذارى ١ : ٤٢٠ ابن خلدون ٦ : ٣٣)

(٤) الزاوى ٢٠٠ : لأحزم مالك . ابن خلدون : لعمرى ولكن مالديه رجال .

(٥) ابن خلدون : وذاك ضلال . الزاوى :

ثلاثة آلاف لنا غلبت لـه ثلاثين ألفا إن ذا لنكال

ابن عذارى : ثمانون ألفا منكم هزمتهم ثلاثون ألفا إن ذا لنكال

فقطعت العرب الصلاة وركبوا خيولهم . فانهزمت صنهاجة وقتل منهم خلق كثير .

ثم جمع المعز وخرج فى صنهاجة وزناتة فى جمع عظيم . فلما أشرف على بيوت العرب ، ركبت خيولها وهم زغبة وعدى ؛ وكانوا سبعة آلاف . والتقوا واقتتلوا فانهزمت صنهاجة ، وولى كل رجل منهم إلى منزله . ثم انهزمت زناتة وكان أميرها المنصور[1] ابن خزرون . وثبت المعز فيمن كان حوله من عبيده ثباتا ما سُمع بمثله ، ثم رجع إلى المنصورية . وأُحصى من قتل من صنهاجة فى ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة[2] .

ثم أقبلت العرب حتى نزلوا بمصلى القيروان . ووقعت الحرب فقُتل من أهل رقادة والمنصورية خلق كثير . فلما رأى المعز ذلك ذهب إلى رفع الحرب بينهم ، وعلم عكس الدولة ، وظن أنهم راجعون . فأباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء . فلما دخلوا ، استطال عليهم العامة وأهانوهم . فوقع[3] بينهم حرب كانت الغلبة فيها للعرب .

قال وكانت الكسرة الأولى على المعز فى سنة ثلاث وأربعين والثانية فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

---

(١) ابن خلدون ٦ : ٣٢ : المستنصر . وفى ابن عذارى ١ : ٤٢٦ ، والزاوى ١٩٦ : المنتصر ؛ ولكن ابن خلدون ٧ : ٩٠ ذكر أن المنتصر كان يقاتل مع بنى عدى من العرب .

(٢) الذهبى ١ : ١٩١ : نحو ثلاثين ألفا .

(٣) ص : فوقعت .

ذكر انتقال المعز الى المهدية
ومحاصرة العرب القيروان واستيلائهم عليها

قال : وفى سنة ست وأربعين حاصرت العرب القيروان ، وأخذ مؤنس باجة . فأشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية . وشرع العرب فى هدم الحصون والقصور ، وقلع الثمار ، وتعمية العيون ، وخراب الأنهار ، فخرج المعز من القيروان إلى المهدية فى سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، لليلتين مضتا من شعبان[1] وكان بها ابنه الأمير تميم . فتلقى أباه ومشى فى ركابه من مَيانِش[2] إلى القصر .

وفى أول شهر رمضان منها نهبت العرب القيروان .

وفى سنة خمسين وأربعمائة ، خرج بُلُكِّين بن محمد ، ومعه من العرب الأثبج وعدى لحرب زناتة . فكسرهم وقتل منهم عددا كثيراً .

وفى سنة إحدى وخمسين ، قُتل منصور أفروم البرغواطى ، قتله حمُّو بن مُلَيل[3] البرغواطى غدرا ، وملك سفاقس مكانه .

وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، غدر الناصر بن عَلَنَّاس بلكين بن محمد وولى مكانه ، وذلك فى غرة[4] شهر رجب .

---

(١) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٥٦ . وفى أبى الفدا ٢ : ١٧١ ، المونس ٨٣ ، وابن الوردى ١ : ٣٥٢ : رمضان .

(٢) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وفى ر : ميانس . وفى بقية الأصول : مياس .

(٣) وكذا فى ابن خلدون ٦ : ٣٢٦ ، ٣٤٤ . وفى ك : حموا بن مكيل . وفى ابن الأثير ٨ : ٩١ حموبن مليك . وفى البيان ص ٢٩٤ (ليدن ٢) حموبن ومليل . ولم يرد فيه لفظ أفروم .

(٤) ك : عشرة .

ذكر وفاة المعز بن باديس

كانت وفاته فى سنة ثلاث وخمسين[١] وأربعمائة بضعف[٢] الكبد . وكانت مدة إقامته فى الملك سبعاً [٣] وأربعين سنة. وكان رقيق القلب ، كثير الرحمة ، خاشعاً لله ، متحرزا من سفك الدماء إلا فى الحدود ، حليما يتجاوز عن كبائر الجرائم ، لينا لخدامه وعبيده وجلسائه وندمائه حتى كأنه واحد منهم أو أخ لهم محبا لرعيته[٤] مشفقا عليهم ، مكرما لأهل الفضل والعلم كثير العطاء لهم ، شجاعاً كريماً ، رحمه الله . وكان له من الأولاد الذين مات عنهم تسعة ، وهم نزار ، وتميم ، وعبد الله ، وعلى ، وعمرو [٥] ، وحماد ، وبلكين ، وحمامة ، والمنصور .

ولما مات المعز ملك بعده ابنه .

---

(١) وكذا فى أبى الفدا ٢ : ١٨٠ ، وابن الوردى ١ : ٣٦٧ ، وابن الأثير ٨ : ٩١ المونس ٨٤ . وفى ابن خلدون ٦ : ٣٢٦ ، الذهبى ١ : ١٩٥ ، وابن تغرى بردى ٥ : ٧١ : أربع وخمسين . وفى ابن عذارى ١ : ٤٢٧ عن أبى الصلت : أربع وخمسين، وعن ابن شرف خمس وخمسين .

(٢) ر : لضعف .

(٣) فى الأصول سوى (ر) وفى المؤنس ٨٤ : تسعاً ، وهو خطأ .

(٤) ص : للرعية .

(٥) لم يذكره ابن عذارى ١ : ٤٢٧ .

ذكر ولاية تميم بن المعز بن باديس ابن المنصور بن يوسف بن زيرى

كانت ولايته بعد وفاة أبيه فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة . وكان أبوه قد ولاه المهدية فى صفر سنة خمس وأربعين . وأقام بها إلى أن خرج المعز إليها . فدبر الأمر بين يديه إلى أن توفى المعز فاستقل بعده بالملك . ودخل القضاة ووجوه الناس إليه فعزوه بأبيه وهنئوه بالولاية . ووصل كتاب الناصر بن علناس بذلك .

ذكر خروج حمو عن طاعة الأمير تميم وحربه وانهزامه

وفى سنة خمس وخمسين وأربعمائة [١] ، خرج حمو بن مليل صاحب مدينة سفاقس عن الطاعة . فجمع أصحابه . واستعان بالعرب ، فوافقته طائفة من الأثبج وعدى . فزحف بهم إلى المنزل المعروف ببئر قشيل [٢] فملكه . ثم توجه منه نحو المهدية . فخرج إليه تميم فى عساكره ومعه طائفة من العرب : زغبة ورياح ووصل إلى حمو والتقوا واقتتلوا . فكانت الهزيمة على حمو وأصحابه وأخذهم السيف . فقُتل أكثر أصحابه ونجا هو بنفسه . وكانت هذه الواقعة بسلقطة [٣] .

---

(١) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٩١ ، ابن خلدون ٦ : ٣٢٧ . وفى ابن عذارى ١ : ٤٢٨ سنة ٤٥٦ .

(٢) كذا ع . و ف ك : بقبر قشيل .

(٣) بينها و بين المهدية ثمانية أميال . (البكرى ٣١) . و ف ك : : بسلقط .

وفيها بعد الوقعة قصد تميم مدينة سوسة وكان أهلها قد خالفوا على أبيه ، فملكها وعفا عنهم وحقن دماءهم [١] .

ذكر الحرب بين بنى حماد والعرب وانتصار العرب عليهم

وفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، كانت الحرب بين الناصر ابن علناس بن محمد بن حماد ومن معه من رجال المغاربة من صنهاجة وزناتة ، ومن العرب عدى والأثبج ؛ وبين العرب وهم رياح وزغبة وسُليم ، ومع هؤلاء المعز بن زيرى الزناتى . وكان سبب هذه الواقعة [٢] أن حماد بن يوسف بلكين جد الناصر كان بينه وبين باديس بن المنصور الخلف الكبير [٣] والحرب التى ذكرناها . ومات باديس وهو يحاصر قلعة حماد كما ذكرنا [٤] . ثم دخل حماد فى طاعة المعز . وكان القائد بن حماد بعد أبيه يضمر الغدر وخلع طاعة المعز والعجز يمنعه ، إلى أن رأى قوة العرب وما نال المعز منهم . فعندها خلع الطاعة واستبد بالبلاد . وجاء بعده ولده محسن ، وبعده ابن عمه بلكين ، وبعده ابن عمه الناصر بن علناس ، وكل منهم متحصن [٥] بالقلعة ، وهى

(١) جعل ابن عذارى ١ : ٤٢٨ ، وابن أبى دينار ٨٤ فتح سوسة قبل الانتصار على حمو.
(٢) ص : الوقعة .
(٣) ك : الكثير . وهذا الخلاف مذكور فى صفحة ١٩٢ من هذا الجزء .
(٤) انظر ١٩٧ من هذا الجزء .
(٥) ك : يتحصن .

المعروفة بقلعة حماد وقد جعلوها دار ملكهم . فلما رحل المعز من القيروان ، وصار إلى المهدية ، وتمكنت العرب وأخربوا البلاد ونهبوا الأموال ، انتقل كثير من أهل القرى والبلاد إلى بلاد بنى حماد لحصانتها [١] . فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم ، وفى نفوسهم ما فيها من الضغائن والحقود من باديس وبنيه ، يرثه صغير عن كبير . وولى تميم بن المعز بعد أبيه ، واستبد كل منهم ببلد وقلعة ، وتميم يصبر ويدارى [٢] .

فاتصل بتميم أن الناصر بن علناس يقع فيه فى مجلسه ويذمه وأنه عزم على المسير ليحاصره بالمهدية ، وأنه حالف بعض صنهاجة وزناتة وبنى هلال ليعينوه على حصار المهدية . فلما صح ذلك عنده أرسل إلى بنى رياح فأحضرهم إليه . وقال لهم : « أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثرها فى البحر لا يُقاتَل من البر إلا من أربعة أبرجة يحميها أربعون رجلا . وإنما جمع الناصر هذه العساكر إليكم وإلى بلادكم » . فقال له أمراء العرب : « إن الذى قاله السلطان حق ونحب منك المعونة بالعُدة » . فقال : « على العدة والرِّفادة » [٣] . وأمر لهم بعشرة آلاف دينار ، لكل أمير منهم ألف دينار ، وألف درع ، وألف رمح ، وألف سيف هندى . فخرجت الأمراء من عنده ، وجمعوا رجالهم ، وتحالفوا على لقاء الناصر . وأنفذوا شيخين سرا إلى بنى هلال الذين صاروا مع الناصر

(١) ك : بحصانتها .

(٢) ك : يداوى .

(٣) الرفادة : الإعانة . وكذا هي في ص . وفي ع : الوفادة . وفي ك : الوفاة . والاثنان محرفان .

فقالا لهم : « كيف وقعتم فى هذا الأمر وأردتم تلاف [١] ملككم ؟ هذا الناصر قد سمعتم غدر جده حماد لباديس ، وغدر بنيه بعضهم بعضاً ، وقد اتفق مع زناتة ، فإذا وطىء بلدنا بصنهاجة وزناتة قاصداً تميم بن المعز – وتميم فى حصن منيع بالمهدية لا يقدر عليه – فعندها يملك بلاد إفريقية ويخرجنا وإياكم عنها » . فقال لهم مشايخ بنى هلال : « والله ، لقد صدقتم . فإذا التقينا فقاتلونا [٢] فإنا ننهزم [٣] ونرجع عليهم . فإذا ملكنا رقابهم كان لنا من الغنيمة الثلث ولكم الثلثان » . فقال الشيخان : « رضينا » .

وأرسل المعز بن زيرى الزناتى إلى من مع الناصر من زناتة بنحو ذلك ، فوعدوه أن ينهزموا .

فحينئذ رحلت رياح وزناتة جميعاً . وسار إليهم الناصر بصنهاجة وزناتة وبنى هلال . فالتقوا بموضع يسمى سبية . فلما ترائى الجمعان حملت [٤] بنو رياح على بنى هلال . فانهزم بنو هلال كما وقع الاتفاق ، وأظهروا الغدر من وراء العسكر . فانهزم عند ذلك الناصر ابن علناس ، وسلم فى عشرة أفراس .

فكان جملة من قُتل فى هذه الوقعة من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرون ألفا . وصارت الغنائم كلها للعرب ، وبهذه الوقعة تم لهم ملك البلاد . فإن أكثرهم عند دخولهم كانوا رجالة ، والفرسان

(١) كذا فى جميع الأصول ، يريد تلف ، ولم أجد «تلاف» بذلك المعنى فيما رجعت إليه من معاجم ، ولعلها محرفة عن : إتلاف .

(٢) ك : فقاتلوا .

(٣) ك : نهزم .

(٤) كذا فى ص . وفى ع ، ك : وحملت . وتلك عادة المؤلف فى جواب لما .

منهم فى أضيق حال . فتقاسموا هذه الغنائم على ما قرروه بينهم إلا الطبول والبوقات والفازات بأبغالها [١] ، فإنهم حملوها إلى تميم . فردها ولم يقبلها ، فعزّ ذلك على العرب وقالوا : « نحن خدمك بين يديك » فقال : « ما فعلت هذا انتقاصا بكم وإنما المانع منه أننى لا أرضى أخذ سلب ابن عمى » . وظهر عليه من الحزن بقوة العرب ما لم يوصف .

ذكر بناء مدينة بجاية والسبب فيه

قال : ولما كانت هذه الواقعة بين بنى حماد والعرب ، وبلغ الناصر مانال ابن عمه تميم من الألم والحزن ، وكان وزيره أبو بكر بن أبى الفتوح محبا فى دولة تميم ، فقال [٢] للناصر : « يامولاى ، ألم أشر عليك ألا تقصد ابن عمك ، وأن تتفقا على العرب .فلو اتفقتما لأخرجتما العرب » . فصدقه الناصر ورجع إلى قوله ، وقال له : « أصلح ذات بيننا » . فأرسل الوزير رسولا من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب فى الإصلاح . فقبل تميم قوله .

وأراد أن يرسل رسولا إلى الناصر ، فاستشار أصحابه . فاتفقوا على إرسال محمد بن البُعْبُع ، وقالوا : « هذا رجل غريب ، قد شمله إحسانك وبرك ، وقد اقتنى من إنعامك الأموال والأملاك ، وهو لايعرف صنهاجة . فما يصلح لهذا الأمر سواه » . فأحضر تميم محمد بن

(١) ص : بأنعالها .
(٢) كذا وفق أسلوب المؤلف ، والصحيح : قال .

البعبع وأمر له بعبيد وخيل وكسًا ودنانير . وأوصاه وأرسله وأجاز الرسول الواصل .

وخرجا معا إلى أن وصلا إلى بجاية ، وهى حينئذ منزل ينزله رعية البربر . فنظرها ابن البعبع وتأملها ، وقال فى نفسه : « هذا المكان يصلح مدينة ومرسى وصناعة للسفن » . وتمادى إلى أن وصل إلى القلعة ودخل على الناصر ، وقد علم ابن البعبع أن الوزير محب فى دولة تميم . فلما انبسط ودفع المكاتبة ، قال للناصر : « يامولاى ، معى وصية إليك فأحب أن يخلى المجلس » . فقال الناصر : « ليس هنا إلا الوزير ، وأنا لاأخفى عنه أمرا ». فقال : « بهذا أمرنى (١) سيدنا تميم » . فقال الناصر لوزيره : « انصرف » . فلما خرج ، قال محمد للناصر : « يامولاى ، إن الوزير مُخامر عليك مع تميم ، وهو لايخفى عنه من أمورك شيئا ، وتميم مشغول مع عبيده النصارى . قد (٢) استبد بهم واطرح صنهاجة وتلكاتة وجميع القبائل . فوالله ، لووصلت بعسكر إلى المهدية مابتّ إلا فيها لبغض الأجناد والرعية فى تميم ، وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها . وقد عبرت الآن ببجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة . فاجعلها لك مدينة ، يكون فيها دار ملكك وتقرب من جميع بلاد إفريقية . وأنا أنتقل إليك بأهلى وولدى ، وأترك مالى بالمهدية من الرباع ، وأخدمك حق الخدمة » . فأجابه الناصر إلى ذلك واستراب من وزيره .

---

(١) ر : أمرنا .
(٢) ك : وقد .

وخرج الناصر من ساعته ومعه ابن البعبع إلى بجاية ، وترك الوزير بالقلعة . فوصلا إليها . ورسم ابن البعبع المدينة والصناعة والميناء وموضع القصر واللؤلؤة . وأمر الناصر من ساعته [١] بالبناء والعمل . وشكره وأثنى عليه ، وعاهده على وزارته . ورجعا جميعا إلى القلعة .

وأحضر الوزير وقال : « هذا محب لدولتنا ناصح فى خدمتنا . وقد أشار علينا ببناء بجاية . وعزم على الانتقال إلينا [٢] بالأهل والولد . فاكتب له جواب كتبه إلى تميم » . وأمر له بألف دينار ، وأربع وصائف ، وأربع بغال من مراكبه .

وسار ابن البعبع فوصل إلى المهدية بكتب ناقصة وصلة تامة . فاستراب به تميم . وسأله عن بناء بجاية وسببه ، فقال : « يامولاى ، مالى بهذا علم . أنا رجل غريب » . فتحقق تميم أنه الذى أشار عليه ببنائها . وخرج ابن البعبع إلى داره خائفا وجلا .

وكان لما فارق الناصر سأله أن ينفذ معه رجلا من ثقاته ينفذ معه ما يعاين من الأخبار . فنفذ معه رجلا . فلما خرج إلى داره كتب إلى الناصر : « إننى لما وصلت إلى تميم لم يسألنى عن شىء قبل سؤاله عن أمر بجاية ، إنه قد وقع على قلبه منها أمر عظيم . وقد اتهمنى فانظر من تثق به من العرب ممن يصل [٣] إلى أولاد عكابش ، فإننى خارج إليهم مسرعا ، وقد عاهدتهم [٤] على ذلك [٥] . فتنفذ من بنى هلال

(١) ك : فى ساعة .
(٢) إلينا : عن ص ، ر ، وليست فى ع ، ك .
(٣) ص : فانظر بمن تثق ... فمن يصل . ك : فانظر من تثق ... فيمن يصل .
(٤) ك : عاهدتم . ص : عاقدتهم . ر : عقدتهم .
(٥) ك : هذا .

من تثق به . وقد أوثقت شيوخ زويلة وغيرها على طاعتك . فالله الله أسرعْ إلى بمن ذكرت » .

قال : فمضى الرسول بالكتاب فقرأه الناصر وأوقف الوزير أبا بكر عليه . فاستحسن الوزير ذلك منه وقال : « لقد خدم هذا الرجل ونصح » . فقال الناصر : « خذ الكتاب إليك ، وجاوب الرجل عنه ، وانظر فى إنفاذ العرب إليه قولا وفعلا ، ولا تؤخر ذلك عنه » . فمضى الوزير إلى داره وكتب نسخة كتاب ابن البعبع ، وحكاها حتى كأنها هى ، خشية أن يسأله الناصر عن الكتاب بعد ذلك . وأنفذ كتابه الذى بخطه إلى تميم وكتب كتابا منه يصف الحال من أوله إلى آخره .

فلما وقف تميم على ذلك ، عجب منه وبقى يتوقع له ما يأخذه به . وجعل عليه من يحرسه فى ليله [1] ونهاره من حيث لا يشعر . فأتاه بعض الحرس وأخبره أن ابن البعبع صنع طعاما وأحضر عنده الشريف الفهرى – وكان هذا الشريف من خواص تميم – فلما أصبح استدعاه تميم . فحضر وقال : « يامولاى ، ماكنت إلا واصلا إليك » . وحدثه أن محمد بن البعبع دعانى وقال لى : « أنا فى ذمامك وحسبك ، أحب أن تعرفنى من أين أخرج من المهدية [2] ، فأنت أعرف الناس بذلك » . فقلت له : « ولم تفعل ذلك ، وأنت فى هذه المنزلة الكبيرة مع مولانا تميم ؟ » فقال : « إنه اتهمنى أننى أشرت على الناصر ببناء بجاية ، وقد خفت » . فقلت له : « ياأبا عبد الله ،

(١) ر : ليلته .
(٢) ر : إلى المهدية . خطأ .

إن كنت سالما من قول قلته أو أمر أبرمته فلا تبالِ ، فسيدنا تميم رجل رؤوف لايؤاخذ بقول ولابظن » . فقال لى : « دعنى فلا قدرة لى على المقام » . فقلت له : « أنا أنظر فى هذا الأمر بالغداة إن شاء الله وأعرفك بمن تثق به من العرب » . فأخذ يدى على ذلك .

قال : فأخرج تميم كتاب ابن البعبع الذى بخطه إلى الناصر وأوقف الشريف عليه . ثم قال له : « أحضِره إلى » . فمضى الشريف إليه وقال له : « سيدنا تميم أمر بحضورك معى ولا يكون إلا خيراً » فلبس ثيابه وخرجا . فلقيهما ماضى بن عكابش فقال له : « يا أبا عبد الله ، الهلاليون قد وصلوا إلينا البارحة ، وهذه كتب قد وصلت إليك منهم » [1] . فتناولها الشريف من يده فقال له ابن البعبع : « استر على ستر الله عليك » . وسأله . فدخلا القصر وابن البعبع يسأله فيها . فقال : « خذها فو الله ما ينفعك أخذها » . فتناولها .

. وخرج تميم إليهما فجزع ابن البعبع حتى سقطت الكتب من يده وإذا عنوان أحدها : « من الناصر بن علناس إلى شيخنا وخليلنا » فقال له تميم : « من أين هذه الكتب ؟ » فسكت . فقرأها تميم فوجد فيها الحجة عليه . فقال ابن البعبع : « العفو يا مولانا » . فقال « لا عفا الله عنك ؟ » وأمر بضرب عنقه وتغريق جثته [2] .

---

(١) ر ، ص : معهم .

(٢) ك : وتفريق جيشه . تحريف .

ذكر استيلاء تميم على مدينة تونس

وفى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، سير تميم عسكرا كثيفا [١] إلى مدينة تونس . فأقام محاصرا لها مضيِّقا عليها سنة وشهرين . وكان بها أحمد بن خراسان وقد أظهر الخلاف .

وسبب ذلك أن المعز بن باديس أبا تميم – لما فارق القيروان والمنصورية ورحل إلى المهدية – استخلف على القيروان وعلى تونس [٢] قائد بن ميمون الصنهاجى . فأقام بها ثلاث سنين ثم غلبته هوارة عليها ، فسلمها إليهم وخرج إلى المهدية . فلما ولى تميم بعد أبيه رده إليها ، فأقام بها مدة ست سنين . ثم أظهر الخلاف على تميم وأطاع الناصر بن علناس . فجرد إليه تميم عسكرا من أجناده وعبيده . فعلم أنه لا طاقة له بهم ، فترك القيروان وسار إلى الناصر . ودخل عسكر تميم القيروان وخربوا قصر القائد الذى بناه بباب سلم .

وسار العسكر إلى تونس وبها ابن خراسان فحصروه ، فأطاع وصالح الأمير تميما .

وأما قائد بن ميمون فإنه مكث عند الناصر سنتين [٣] . ثم مضى إلى حَمُّو بن مليل فاشترى له مدينة القيروان من العرب وولاه عليها . فابتدأ ببناء سورها وحَصَّنها .

---

(١) ك : كثيراً .

(٢) كذا فى جميع الأصول . ولم يذكرها ابن خلدون ٦ : ٣٢٧ . وفى ابن الأثير ٨ : ١٠٤ : قابس . وهو الصحيح ، لأن تونس كان عليها أحمد بن خراسان .

(٣) ابن خلدون ٦ : ٣٢٧ : ست سنوات .

وفى سنة سبعين وأربعمائة [١] ، تم الصلح بين تميم والناصر ابن علناس . وزوجه تميم ابنته السيدة بلارة [٢] وجهزها إليه من المهدية فى البر .

ذكر استيلاء مالك بن علوى الصخرى على القيروان وأخذها منه ، وعودها الى تميم

وفى سنة ست وسبعين وأربعمائة ، جمع مالك بن علوى العرب ، وسار إلى المهدية وحصرها . فدفعه تميم عنها ولم يظفر منها بشىء . فسار إلى القيروان فحصرها وملكها . فجرد تميم العساكر إليه فحصروه بها . فلما رأى مالك أنه لا طاقة له بعساكر تميم تركها . واستولت عساكر تميم عليها وعادت إلى ملكه كما كانت .

ذكر ملك الروم مدينة زويلة وعودهم عنها

قال : وفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة [٣] ، اجتمع الروم فى أربعمائة [٤] قطعة وأعانهم الفرنج . وأتوا كلهم إلى جزيرة قوصرة

---

(١) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ١٢٤ ، ابن عذارى ١ : ٤٣٠ ، ابن خلدون ٦ : ٣٢٧ . وفى المونس ٨ : سبع وستين وأربعمائة .

(٢) ر : نالارة .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ١٤٧ . وفى ابن عذارى ١ : ٤٣١ ، ابن خلدون ٦ : ٣٢٨ : ثمانين وأربعمائة .

(٤) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ١٤٧ . وفى ابن عذارى ١ : ٤٣١ ، ابن خلدون ٦ : ٣٢٨ ، المونس ٨٥ : ثلاثمائة .

وأخربوا ونهبوا وأحرقوا . وملكوا مدينة زويلة وهى بقرب المهدية . وكانت عساكر تميم غائبة فى قتال الخارجين عليه ، فصالح تميم الروم على ثمانين ألف دينار [١] ، بشرط أن يردوا [٢] جميع ماحوَوْه من السبى ، ففعلوا ذلك ورجعوا جميعا .

وفيها مات الناصر بن علناس . وولى ابنه المنصور فقَفا آثار أبيه فى الحزم والعزم والرئاسة . وأتته كتب تميم وغيره بالتهنئة والتعزية .

ذكر خبر شاه ملك [٣] التركى ودخوله الى افريقية وغدره بيحيى بن تميم

كان شاه ملك هذا من أولاد بعض أمراء الأتراك ببلاد المشرق [٤] فناله فى بلده أمر أخرجه عنها . فخرج وسار [٥] إلى مصر فى مائة فارس . فأكرمه الأفضل أمير الجيوش ووصله وأعطاه إقطاعا ومالا . ثم بلغه عنه أشياء أوجبت حبسه هو وأصحابه . وجرى بمصر أمر فخرج شاه ملك [٦] هو وأصحابه هاربين ، واحتالوا فى خيل [٧] وعُدة .

وتوجهوا إلى المغرب فوصلوا إلى طرابلس المغرب وأهل البلد

(١) ابن الأثير ٨ : ١٤٧ : ثلاثين ألف دينار . ابن خلدون ٦ : ٣٢٨ : مائة ألف دينار .

(٢) ص : يؤدوا .

(٣) ابن عذارى ١ : ٤٣٣ : شاه مالك .

(٤) ك : الشرق .

(٥) ك : فسار وخرج .

(٦) كذا فى ر ، وفى بقية الأصول : ملك شاه .

(٧) ص : على خيل .

كارهون لواليها . فأدخلوهم البلد وأخرجوا الوالى . فصار شاه ملك أمير البلد . فبلغ تميم الخبر فأرسل العساكر فحصروها وفتحوها وأخذوا شاه ملك ومن معه إلى المهدية . فسر بهم تميم وقال : « قد ولد لى مائة ولد أنتفع بهم » . وكانوا لا يخطىء لهم سهم .

فلم تطل الأيام حتى جرى منهم أمر غير تميما عليهم .فعلم شاه ملك ذلك ، وكان صاحب دهاء وخبث . فلما كان فى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، خرج يحيى بن تميم إلى الصيد ومعه شاه ملك ومن معه . وكان أبوه قد تقدم إليه ألا يقربه فلم يقبل منه . فلما أبعدوا فى طلب الصيد [1] ، غدربه شاه ملك ، وقبض عليه ، وسار به وبمن أخذ من أصحابه إلى حمو بن مليل صاحب مدينة سفاقس . فركب حمو وخرج للقاء يحيى بن تميم . وترجل وقبل يده ومشى فى ركابه وعظّمه واعترف له بالعبودية . وأقام عنده أياما ولم يذكره أبوه بكلمة واحدة . وكان قد جعله ولى عهده ، فلما أخذ أقام أبوه مقامه ابنا آخر اسمه مثنى .

قال : ثم إن صاحب سفاقس خاف يحيى على نفسه أن يثور معه الجند وأهل البلد فيملكوه عليهم ، فكتب إلى تميم يسأله [2] إنفاذ الأتراك وأولادهم إليه ليرسل إليه ابنه يحيى . ففعل ذلك بعد امتناع كثير . وقدم يحيى فحجبه أبوه عنه مدة . ثم رضى عنه وأعاده وجهزه إلى سفاقس بجيش فحصرها برا وبحرا مدة شهرين . فخرج الأتراك عنها إلى قابس .

---

(١) ك : فلما أبعده وطلب الصيد .
(٢) ك : فسأله .

ذكر خلاف مثنى بن تميم على أبيه

قال : كان سبب ذلك أن تميم بن المعز لما رضى عن ابنه يحيى وأعاده إلى ولاية عهده ، عظم ذلك على المثنى وداخَلَه الحسد فلم يملك نفسه . فنُقل إلى أبيه [١] عنه ماغير قلبه عليه . فأمر بإخراجه من المهدية بأهله وولده وعبيده . فركب فى البحر إلى سفاقس [٢] ، فلم يمكنه عاملها من الدخول إليها .

فقصد مدينة قابس ، فلقيه الثائر بها مكن [٣] بن كامل الدهمانى فأنزله وأكرمه . فحسن له مثنى الخروج معه إلى سفاقس والمهدية وأطمعه فيها ، وضمن له الإنفاق على الجند من ماله . فجمع ما أمكنه جمعه . وسارا إلى سفاقس ومعهما شاه ملك التركى وأصحابه فنزلو [٤] على سفاقس وقاتلوا من بها فبلغ تميما الخبر فجرد إليها جندا من الرماة . فلما علم المثنى ومن معه أنهم لا طمع لهم فيها تركوها . وقصدوا المهدية فنزلوا عليها وقاتلوا . فتولى قتالهم بها يحيى بن تميم وظهر من شدته وصبره وحزمه وحسن تدبيره ما استُدل به على نجاح أمره وحسن عاقبته . ولم يبلغ أولئك منها غرضا فعادوا وقد تلف ما كان مع المثنى من مال وغيره .

---

(١) كذا فى ص ، ر . وفى ع : فنقل على أبيه . وفى ك : فقيل إلى أبيه .

(٢) ك : اسفاقس .

(٣) ابن الأثير ٨ : ١٧٤ : مكين . ابن عذارى ١ : ٤٣٤ : مجن .

(٤) ك : فنزلا .

ذكر ملك تميم مدينة قابس

وفى سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، ملك تميم مدينة قابس ، وأخرج منها أخاه عمرو [١] بن المعز . وكان أهلها ولّوه عليها بعد موت قاضى ابن إبراهيم بن بَلْمُويه [٢] . فلم يحسن عمرو السياسة ولا نهض بشرط الولاية . وكان قاضى بن إبراهيم عاصيا على تميم ، وتميم يعرض عنه . فسلك عمرو طريقته فى العصيان ، فأخرج تميم العساكر إلى أخيه ليأخذ قابس [٣] منه . فقال له أصحابه : « يامولانا ، لما كان فيها قاضى توانيت عنه وتركته ، فلما صار أمرها إلى أخيك جردت إليه العساكر ! » فقال : « لما كان فيها عبد من عبيدنا كان زواله سهلا علينا . وأما الآن فابن المعز بالمهدية وابن المعز بقابس . هذا لا يمكن السكوت عليه » .

وفى فتحها يقول ابن خطيب سوسة [٤] قصيدته المشهورة التى أولها :

ضحك الزمانُ وكان يُلْفَى عابسا
لما فتحتَ بحد سيفك قابسا [٥]

---

(١) وكذا فى ابن الأثير ٤ : ١٨٠ . وفى ابن كثير ١٢ : ١٥٢ ، ابن خلدون ٦ : ٣٢٨ ، ابن عذارى ١ : ٤٣٤ : عمر.

(٢) كذا ع ، ص ، ر . وفى ك ، ابن الأثير ٨ : ١٨٠ : بلمونه .

(٣) ك : فاس . تحريف .

(٤) ابن كثير ١٢ : ١٥٢ : فقال خطيب سوسة .

(٥) بين السطور فى ع رواية عن نسخة أخرى : وكان قدماً عابساً ... بحد عزمك . والكلمة الأولى رواية ك أيضاً .

أنكحتَها بكرا وما أمْهَرتَها
إلا قَنًا وصَوارما وفوارسا (١)

الله يعلم ما جنيتَ ثمارها
إلا وكان أبوك قَبلُ الفارسا (٢)

من كان بالسُّمْر العوالى خاطبا
جُلِيتْ له بيضُ الحُصون عَرائسا (٣)

فأبشر تميمَ بن المعز بفتكة
تركتْك فى أكناف قابس قابسا (٤)

ولَّوا فكم تركوا هناك مصانعا
ومَقاصرا ومَخالدا ومجالسا

فكأنها قلبٌ وهُنَّ وَساوسٌ
جاء اليقين فذاد عنه وساوسا

وفى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، فتح تميم جزيرة جرْبة وجزيرة قرقنة (٥) ومدينة تونس . وكان بإفريقية غلاء شديد هلك فيه كثير من الناس .

وفى سنة ثلاث وتسعين ، فتح تميم مدينة سفاقس . وخرج

---

(١) ابن كثير ١٢ : ١٥٢ وأتيتها بكراً .
(٢) ابن الأثير ٨ : ١٨٠ : حويت ثمارها . ابن كثير ١٢ : ١٥٢ : قبلا غارساً .
(٣) ابن كثير وابن الأثير :
من كان فى زرق الأسنة خاطباً كانت له قلل البلاد عرائسا
(٤) ك : بقتلة . ابن الأثير : من أكناف .
(٥) تقابل سفاقس بينهما عشرة أميال (البكرى ٢٠) .

منها حمو بن مليل هاربا فقصد مكن بن كامل الدُّهمانى ، فأحسن إليه وأقام عنده حتى مات . وكان حمو قد تغلب عليها واشتد أمره بوزير كان عنده من كتاب المعز حسن الرأى والتدبير والسياسة ، فاستقامت به دولته وعظم شأنه. فأرسل إليه تميم وبالغ فى استمالته ووعده بكل جميل فلم يقبل . فاشتد أمره على تميم فسيرِ جيشا إلى حصار سفاقس . وأمر مقدم الجيش أن يهدم ماحول المدينة ويحرقه ويقطع الأشجار سوى ما يتعلق بذلك الوزير ، فإنه لا يتعرض إليه ويبالغ فى صيانته ، ففعل ذلك . فلما رأى حمو ذلك اتهمه وقتله . فانحل نظام دولته وتسلم عسكر تميم البلد .

وفى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، مات المنصور بن الناصر بن علناس ، وولى بعده ولده باديس . ثم مات بعد يسير فولى أخوه العزيز بالله .

ذكر وفاة تميم بن المعز

كانت وفاته فى شهر رجب سنة إحدى وخمسمائة (١) ، وله من العمر تسع وسبعون سنة (٢) ، ومدة ولايته سبع وأربعون سنة وعشرة أشهر وعشرون يوما (٣) .

---

(١) ذكره ابن تغرى بردى ٥ : ١٩٧ ، ١٩٨ فى وفيات سنتى ٥٠١ ، ٥٠٢ ورجح وفاته فى ثانيتها .

(٢) ابن تغرى بردى ٥ : ١٩٨ : ثمانون سنة . المونس ٨٨ : تسع وثمانون . ابن كثير ١٢ : ١٧٠ : تسع وتسعون .

(٣) ابن كثير ١٢ : ١٧٠ ، ابن تغرى ٥ : ١٩٨ ست وأربعون سنة . ابن عذارى ١ / ٤٣٧ ست وأربعون سنة وعشرة أشهر ونصف . ابن الأثير ٨ : ٢٥٠ ، والمونس ٨٨ : ست وأربعون سنة وعشرة أشهر وعشرون يوماً .

وكان شهما شجاعا كريما حليما كثير العفو عن الجرائم العظيمة ذكيا حسن الشعر . فمن شعره ما قاله وقد وقع [١] حرب بين طائفتين من العرب ، وهما عدى ورياح فقُتل رجل من رياح ثم اصطلحوا وأهدروا دمه ، وكان صلحهم مما يضر بتميم وبلاده ، فقال أبياتا يحرض فيها على الطلب بدم المقتول ، وهى :

متى كانت دماؤكمُ تُطَلْ
أمَا فيكُم بثأرٍ مُستقلْ
أغانمُ ثم سالمُ إنْ فشلتم
فما كانت أوائلكم تَذلْ
ونمتم عن طِلاب الثأر حتى
كأنْ العز فيكم مضمحل
وما كسرتمُ فيه العوالى
ولا بيضٌ تُفَلُّ ولا تُسَلْ

فعمد إخوة المقتول فقتلوا أميرا من بنى عدى . فقامت الحرب بينهم واشتد القتال ، وكثرت القتلى بينهم حتى أخرجوا بنى عدى من إفريقة ، وبلغ تميم فيهم ما يريد . وكان يوقع بالشعر الحروب بين العرب فبلغ [٢] بلسانه مالم يبلغه [٣] بسنانه .

ومن أخباره فى رعيته وشفقته عليهم ماحُكى أنه اشترى [٤] جارية بثمن كثير . فبلغه أن مولاها الذى باعها ذهب عقله وأسف

(١) ص : وقعت .
(٢) ك : فيبلغ .
(٣) ص : يبلغ .
(٤) كذا فى ص ، ر . وفى ع : حكى عنه اشترى . وفى ك : حكى عنه أنه اشترى .

على فراقها . فأحضره تميم إلى بين يديه وأرسل الجارية إلى داره ومعها من الكسوة والأوانى والفضة [١] والطيب شيئا كثيرا . ثم أمر مولاها بالانصراف وهو لا يعلم بذلك . فلما وصل إلى داره ورآها بمنزله سقط إلى الأرض وغُشى عليه لكثرة ماناله من السرور . ثم أفاق وأصبح من الغد فحمل الثمن وجميع ما كان معها إلى دار تميم . فغضب وانتهره وأمره بإعادة ذلك إلى داره . وهذه نهاية فى الجود ، وغاية فى الكرم والشفقة والإحسان .

وكان له فى البلاد أصحاب أخبار يطالعونه بأخبار الناس لئلا يُظلَموا .

قال : وخلّف من البنين مائة [٢] ، ومن البنات ستين .

ولما مات رحمه الله ولى بعده ابنه يحيى .

ذكر ولاية يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ابن المنصور يوسف بن زيرى

كانت ولايته عند وفاة أبيه تميم فى يوم السبت النصف من شهر رجب سنة إحدى وخمسمائة ، ومولده بالمهدية فى يوم الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة . ولما ولى عم

---

(١) ر : والأوانى الفضة .

(٢) وكذا فى المونس ٨٨ . وفى ابن الأثير ٨ : ٢٥٠ ، ابن عذارى ١ : ٤٣٧ أكثر من مائة . وفى ابن تغرى بردى ٥ : ١٩٨ : وخلف مائة ولد لصلبه ، قاله صاحب مرآة الزمان .. وقيل : إنه مات وله خمسون ولداً .

أهل دولته من الخواص والجند بالخلع السنية ، ووهب الأجناد والعبيد أموالا كثيرة .

وفى هذه السنة [١] ، جرد عسكرا إلى قلعة اقليبية [٢] ، وهى من أحصن قلاع إفريقية . وقدّم عليهم الشريف « على الفهرى » . فنزل عليها وحاصرها حصارا شديدا ففتحها . وكان تميم قد رامها فلم يقدر على فتحها .

وفى سنة اثنتين وخمسمائة [٣] ، وصل إلى المهدية ثلاثة نفر غرباء . فكتبوا إلى يحيى يقولون إنهم يعملون الكيمياء . فأحضرهم عنده وأمرهم أن يعملوا شيئا من صناعتهم . وأحضر لهم ما طلبوه من صناعتهم ، وأحضر لهم ما طلبوه من آلة وغيرها . وقعد معهم هو والشريف أبو الحسن [٤] . فلما رأى الكيميائية المكان خاليا ثاروا بيحيى . فضربه أحدهم على رأسه ، فوقعت السكين فى عمامته فلم تصنع شيئا . ورفسه يحيى فألقاه على ظهره . ودخل يحيى بابا وأغلق على نفسه . وضرب الثانى الشريف فقتله . وأخذ إبراهيم القائد السيف فقاتل الكيميائية . ورفع الصوت فدخل أصحاب الأمير يحيى فقتلوا أولئك . وكان زيهم زى أهل الأندلس ، فقُتل جماعة فى البلد على مثل زيهم.

وقيل ليحيى : « إن هؤلاء رآهم بعض الناس عند المقدم بن

(١) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٢٥٠ . وفى ابن عذارى ١ : ٤٣٨ : سنة ٥٠٢ .

(٢) ر ، ابن الأثير ٨ : ٢٥٠ : قليبية .

(٣) أورد ابن عذارى ١ : ٤٣٩ ، هذا الخبر فى أحدث سنة ٥٠٩ ، وذكر أن الرجال أفلحوا فى قتل الأمير ، وجعل المنفى إلى قصر زياد ابنه أبا الفتوح .

(٤) زاد ابن خلكان ٢ : ٢٤ القائد إبراهيم قائد الأعنة . وسياق الخبر يقتضى هذه الزيادة .

الخليفة » . واتفق أن الأمير أبا الفتوح إبراهيم أخا يحيي وصل فى تلك الساعة إلى القصر ، فى أصحابه وقد لبسوا السلاح . فمُنع من الدخول . فثبت عند يحيي أن ذلك بوضع منهما . فأحضر المقدم بن خليفة وأمر أولاد أخيه فقتلوه قصاصا ، لأنه كان قد قتل أباهم . وأخرج الأمير أبا الفتوح وزوجته إلى قصر زياد بين المهدية وسفاقس ، ووكل بهما . فبقى هناك حتى مات يحيي وولى ابنه على . فسيّره إلى ديار مصر فى البحر .

وفى سنة أربع وخمسمائة ، أنفذ ابنه أبا الفتوح واليا على مدينة سفاقس . فقام أهلها عليه فنهبوا قصره وهمّوا بقتله . فلم يزل يحيي يعمل الحيلة حتى فرق كلمتهم وبدد شملهم وملك رقابهم وملأ السجون منهم . ثم عَفَّ عن دمائهم وعفا عن ذنوبهم .

وفى أيام يحيي وصل إلى المهدية من طرابلس المهدى محمد بن تومرت ، وكان من أمره مانذكره إن شاء الله تعالى[٢] .

ذكر وفاة يحيى بن تميم وشىء من أخباره

كانت وفاته فجأة يوم عيد الأضحى سنة تسع وخمسمائة . وكان منجمه قد قال له فى تسيير مولده[١] : « إن عليه قطعا فى هذا اليوم » . ومنعه من الركوب فلم يركب وخرج أولاده وأهل بيته وأرباب دولته إلى المصلى . فلما انقضت الصلاة حضروا للسلام عليه وتهنئته .

---

(١) وكذا فى وفيات الأعيان ٢ : ٢٤١ . وفى ابن الأثير ٨ : ٢٧٣ فى منستير مولده .

(٢) انظر صفحة ٢٧٧ وما بعدها .

وقرأ القراء [١] وأنشد الشعراء وانصرفوا إلى الطعام . فقام يحيى من باب آخر ليحضر معهم على الطعام [٢] . فلم يمش غير ثلاث خطوات ووقع ميتا رحمه الله .

وكان عادلا فى رعيته ، ضابطا لأمور دولته ، مدبرا لجميع أحواله ، رحيما بالضعفاء والفقراء كثير الصدقة ، يقرب أهل العلم والفضل . وكان عالما بالأخبار وأيام الناس والطب . وكان حسن الوجه ، أشهل العينين ، مائلا [٣] فى قَدِّه إلى الطول .

ومات وله من العمر اثنتان وخمسون سنة إلا سبعة عشر يوما [٤] . ومدة ولايته ثمانى سنين وخمسة أشهر إلا خمسة أيام [٥] .

وخلّف من الأولاد الذكور ثلاثين ولدا .

وقال عبد الجبار محمد بن حَمْديس الصقلى يرثيه ويهنىء ابنه عليا بالملك [٦] :

مـا أغمد الغضبُ حتى جُرِّدَ الذَّكـرُ
ولا اختفَى قـمرٌ حـتى بـدا قمـرُ

(١) ك : قرأ القرآن .
(٢) ر : إلى الطعام .
(٣) ك : كاملا .
(٤) ابن الأثير ٨ : ٢٧٣ : ثنتان وخمسون سنة وخمسة عشر يوماً . المونس ٨٨ . اثنتان وخمسون سنة .
(٥) ابن الأثير ٨ : ٢٧٣ ثمان سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً . المونس ٨٨ : ثمان سنين وستة أشهر .
(٦) انظر ديوانه . من تحقيق جلستينو سكيابا ريللى، وطبع رومية ١٨٩٧، صفحة ١٩٠ وابن الأثير ٨ : ٢٧٣ .

بموت يحيي أميت الناسُ كلهمُ
حتى إذا ما عليٌّ جاءهم نُشروا (١)
إنْ يُبْعثوا بسرور من تملُّكه
فمن منيَّة يحيي بالأسى قُبروا (٢)
أوفَى عليٌّ فسنَّ المُلْك ضاحكةً
وعينه من أبيه دمعُها هَمر (٣)
شُقَّت جُيوب المعالى بالأسى فبكت
فى كل أُفْق عليه الأنجُم الزُّهُر (٤)
وقَلّ لابن تميم حزنُ مأتمها
فكل حُزنٍ عظيم فيه مُحتقَر
قام الدليل ويحيي لا حياةَ له
أن المنية لا تبقِى ولا تَذر

ذكر ولاية على بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيرى

كانت ولايته بعد وفاة أبيه . وكان إذ ذاك بمدينة سفاقس ، فاجتمع رجال الدولة منهم عبد العزيز بن عمار والقائد زكو (٥) وغيرهما .

(١) الشطر الأول فى الديوان : قد مات يحيى فمات الناس كلهم .
(٢) ك : ميتة . تحريف .
(٣) ت ، ابن الأثير : وعينها .
(٤) فى الديوان : ... وبكت .. فى الخافقين عليه الأنجم الزهر .
(٥) كذا فى ص ، ع . وفى ك ، ر : ركو .

ووقع الاتفاق على أن يُكتب كتاب على لسان يحيى لولده يؤمر فيه بالوصول إليه مسرعاً . فكُتب وسيِّر إليه فوصل إليه ليلا . فخرج لوقته ومعه طائفة من أمراء العرب [١] . وجد السير فوصل إلى المهدية الظهر من يوم الخميس الثانى [٢] من يوم العيد ، وهو الحادى عشر من ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة . ودخل القصر . وبدأ بتجهيز أبيه ومواراته فى قبره ثم جلس للعزاء والهناء .

ولما استقامت له الأمور ، جهز أسطولا إلى جربة ، وكان أهلها يقطعون على الناس فى البحر . وجعل قائد الأسطول القائد إبراهيم قائد جيشه ، وأصحبه جماعة من رجال الدولة . فمضوا إليها وحاصروها وضيقوا على أهلها ، حتى أذعنوا للطاعة ونزلوا على الحكم والتزموا الكف عن الفساد . فأمن من يسافر فى البحر .

وفى سنة عشر وخمسمائة ، جهز جيشا إلى مدينة تونس ، وبها أحمد بن خراسان . فحاصرها وضيق على من بها . فصالح ابن خراسان السلطان على ما أراد .

وفتح أيضا فى هذه السنة جبل وسلات واستولى عليه . وهو جبل منيع لم يزل أهله طول الدهر يقطعون الطريق ويقتلون الناس . فملكه وقتل من فيه .

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، حاصر الأمير على مدينة قابس فى البحر . وسبب ذلك أن رافع بن مكن الدهمانى أنشأ مركبا

(١) ابن خلكان ٢ : ٢٤١ : أمراء الغرب .

(٢) كذا فى وفيات الأعيان ٢ : ٢٤١ . وفى ابن عذارى ١ : ٤٤١ ثالث عيد النحر .

بساحلها ، وقصد إجراءه فى البحر فى آخر أيام يحيى فلم ينكر ذلك وأعانه بالخشب والحديد . وتوفى يحيى قبل إكماله . فلما ولى على أنف من ذلك . فعمر ست حربيات وأربع شوان . فاستعان رافع بُرجار صاحب صقلية ، فأنفذ رجار لإعانته أصطولا [١] جملته أربعة وعشرون شينيا ، لتأخذ المركب معها وتشيعه إلى صقلية لئلا تقطع عليه مراكب على . فلما اجتاز أصطول رجار بالمهدية ، أخرج على الحربيات والشوانى تتبعه إلى قابس ، فتوافَوا [٢] بها . فرجع أسطول رجار إلى صقلية وبقى أصطول على يحاصر قابس . فضيق على من بها وأثر فى مأجِلها وأفسد ثم رجع إلى المهدية . وتمادى رافع فى إظهار المخالفة والتمسك بصاحب صقلية .

ذكر حصار رافع المهدية وانهزامه

قال : ثم أقبل رافع بن مكن الدمانى على جميع قبائل العرب وحالفهم . وسار بهم لحصار المهدية ونازلها . فأمر على العسكر بالخروج وقتاله . فخرجوا عشية النهار فحملوا على رافع ومن معه حتى أزالوهم عن مواقفهم . ووصل الجند إلى أخبية العرب . فصاح الحريم : « هكذا نُسْبى ، هكذا نُستَباح » . فعادت العرب ونشبت الحرب واشتد القتال إلى المغرب . ثم افترقوا ، وقد قُتل من عسكر رافع خلق كثير ، ولم يقتل من أصحاب [٣] على إلا رجل واحد . ثم

(١) ك ، ر : أسطولا .
(٢) : فتوافقوا .
(٣) ك : أحباب . تحريف .

خرج إليهم الجند مرة ثانية واقتتلوا . فكان الظهور [١] لأصحاب على .

وهرب رافع بالليل إلى القيروان فدخلها بعد قتال . فأرسل على ابن يحى إليه عسكرا فحاصروه بالقيروان . ووقع بينهم قتال شديد قُتل فيه أحمد بن إبراهيم صاحب الجيش بسهم أصابه . وكان الغلب مع ذلك لأصحاب على . ورجع رافع إلى قابس .

وتوسط ميمون بن زياد [٢] لرافع فى الصلح مع على . فأجاب إلى ذلك بعد امتناع [٣] . وتم الصلح بينهما وانتظم وزالت الوحشة .

ثم وصل رسول رجار صاحب صقلية بمكاتبة يلتمس فيها تأكيد العهود وتجديد العقود . فأجاب إلى ذلك . ثم وقعت الوحشة بينهما . فأمر [٤] على بتجديد الأصطول فعمر عشرة مراكب حربية ، وثلاثين غرابا ، وشحنها بالرجال والعُدد والنفط وجميع ماتحتاج إليه .

وكان دأبه الحزم والصرامة والشهادة والعزم إلى أن توفى .

وكانت وفاته فى يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الاخر سنة خمس عشرة وخمسمائة . وكان مولده بالمهدية صبيحة يوم الأحد للنصف من صفر سنة تسع وسبعين وأربعمائة . وكانت مدة ولايته خمس سنين وأربعة أشهر وثلاثة [٥] عشر يوما . وخلف من الأولاد

---

(١) ك : الظفور . تحريف .
(٢) ك : زيادة .
(٣) ك : مع امتناع .
(٤) ك : ثم أمر .
(٥) ابن عذارى ١ : ٤٤١ : وائنى .

أربعة ، وهم الحسن وباديس وأحمد [١] وعزيز .

ولما مات ولى بعده بعهده ولده الحسن .

ذكر ولاية الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيرى

كانت ولايته بعهد من أبيه . فاستقل بعد وفاة أبيه ، وله من العمر إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وشهورا . فدبر دولته صندل الخصى وحفظ الملك . فلم تطل أيام صندل حتى مات . ووقع الاختلاف بين أكابر الدولة والقواد ، وكل منهم يطلب التقدم على الجميع ، ويبدى أنه صاحب الحل والعقد . فلم يزالوا كذلك إلى أن فوض أمور دولته إلى القائد أبى عزيز موفق ، وهو من قواد أبيه ، فصلحت الأمور .

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة

وفى سنة تسع وعشرين وخمسمائة [٢] ، استولت الفرنج على جربة [٣] من بلاد إفريقية . وكان أهلها لا يدخلون تحت طاعة سلطان . فخرج إليها جيش من صقلية وأداروا المراكب بجهاتها . فقاتل أهلها قتالا شديدا فقُتل منهم خلق كثير وانهزموا . وملكها الفرنج ، وغنموا الأموال ، وسبوا النساء والأطفال . وهلك أكثر رجالها ، وعاد من

---

(١) ابن عذارى ١ : ٤٤١ : وواله .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٣٥٠ ، المونس ٩٠ . وفى ابن عذارى ١ : ٤٤٩ : سنة ٥٣٠ .

(٣) كذا فى ص ، ع والمراجع الأخرى . وفى ك : جزيرة .

بقى منهم فأخذوا لأنفسهم أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم [١] وسَبْيهم .

ذكر ملك الفرنج مدينة طرابلس

وفى أيامه ملك الفرنج مدينة طرابلس الغرب ، وذلك فى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . وسبب ذلك أن رجار صاحب صقلية جهز أصطولا كثيراً [٢] وسيره إليها . فأحاطوا بها برا وبحرا فى ثالث المحرم من السنة . فقاتلهم أهلها ودامت الحرب بينهم ثلاثة أيام . فلما كان فى اليوم الثالث سمع الفرنج صيحة عظيمة فى البلد وخلت الأسوار من المقاتلة . وكان سبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيام يسيرة قد اختلفوا . وأخرجت بنو مطروح طائفة . وقدموا على أنفسهم رجلا من الملثمين [٣] كان قد قدم يريد الحج ومعه جماعة ، فولوه أمرهم . فلما نازلهم الفرنج ، أغارت تلك الطائفة على بنى مطروح . فوقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار [٤] . فانتهز الفرنج الفرصة ، ونصبوا السلالم ، وصعدوا على السور ، وملكوا المدينة . فسفكوا دماء أهلها ، وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم [٥] . وهرب من قدر على الهرب والتجئوا

(١) ك : واقتلوا أمراءهم .
(٢) ك : كبيرا .
(٣) ك : المسلمين .
(٤) الذى فى ابن الأثير ٩ : ١٢ أن طائفة من أهل طرابلس أخرجت بنى مطروح منها وأعادتهم طائفة أخرى من الطرابلسيين ، ووقع القتال بين الطائفتين .
(٥) كذا فى ص . وفى بقية الأصول : وسبو نساءهم وأموالهم .

إلى البربر والعرب . ثم نودى بالأمان [١] للناس كافة . فرجع كل من فر منها . وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا أسوارها وحفروا خندقها . وعند رجوعهم أخذوا رهائن أهلها والملثم وبنى مطروح ثم أعادوا رهائنهم واستقام أمر المدينة وعمرت سريعاً .

ذكر استيلاء الفرنج على مدينة المهدية وسفاقس وسوسة

كان استيلاء [٢] الفرنج على ذلك فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وذلك أن الغلاء تتابع [٣] فى جميع بلاد المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة ، وكان أشده فى سنة اثنتين وأربعين ، فإن الناس فارقوا البلاد ، ودخل أكثرهم إلى جزيرة صقلية ، وأكل الناس بعضهم بعضاً ، وكثر الفناء [٤] . فاغتنم رجار ملك صقلية هذه الفرصة ، وعمر أصطولا نحو مائة وخمسين [٥] شينيا ، وشحنها بالرجال والعُدد . وساروا إلى جزيرة قوصرة – وهى بين المهدية وصقلية – فصادفوا بها مركباً وصل من المهدية . فأُخذ أهله وأُحضروا بين يدى جُرْجى مقدم الأصطول ، فسألهم عن حال إفريقية . ووجد فى المركب قفص حمام . فأمر الرجل الذى كان

(١) ك : للأمان .
(٢) ك : كان سبب استيلاء .
(٣) ر : تبالغ .
(٤) ك : ودخل الفناء .
(٥) ابن الأثير ٩ : ١٨ ؛ ابن خلدون ٥ : ٤٣٣ : ٢٥٠ . وفى ابن خلدون ٦ : ٣٣٢ : ٣٠٠ .

الحمام صحبته أن يكتب بخطه : « إننا لما وصلنا إلى قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية . فسألناهم عن الأسطول المخذول ، فذكروا أنه أقلع إلى القسطنطينية » . وأطلق الحمام فوصل إلى المهدية فسر الأمير والناس ، وأراد جُرجى بذلك أن يصل بغتة .

ثم سار الأسطول من قوصرة فوصل إلى المهدية فى ثانى صفر[1] فأرسل مقدم الأسطول إلى الحسن يقول : « إنا لم نأت إلا طلبا بثأر محمد بن رشيد صاحب قابس ورده إليها [2] . (وكان قد أخرج منها وبينه وبين الفرنج مودة ومصالحة) . وأما أنت فبيننا وبينك عهود ومواثيق إلى مدة ، ونريد منك عهودا ومواثيق إلى مدة . ونريد منك عسكرا يكون معنا » .

فجمع الحسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم . فقالوا : « نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين [3] » . فقال : « نخشى أن ينزلوا إلى البر ، ويحصرونا برا وبحرا ، وتنقطع الميرة عنا وليس عندنا ما يقوم بنا شهرا واحدا . وأنا أرى سلامة المسلمين من القتل والأسر خيرا من الملك . وقد طلب منى عسكرا إلى قابس ، فإن فعلت فما يحل إعانة الكفار على المسلمين ، وإن امتنعت يقول : انتقض ما بيننا من الصلح . وليس لنا بقتاله طاقة . والرأى عندى أن نخرج بالأهل والولد ، ونترك البلد . فمن أراد أن يفعل كفعلنا فليُبادر معنا » . وأمر فى الحال بالرحيل وأخذ معه ما خف حمله

(١) ابن خلدون ٥ : ٤٣٣ . ثامن صفر . وابن خلكان ٢ : ٢٤٢ : ثانى عشر .
(٢) ك : إلينا .
(٣) ر : حصينة .

وخرج ، وتبعه الناس على وجوهم بأهلهم وأولادهم وما خف من أموالهم وأثاثهم . ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس هذا والأسطول فى البحر يمنعه الريح من الوصول إلى المدينة . فما مضى ثلثا [1] النهار حتى لم يبق بالبلد ممن عزم على الخروج أحد .

ودخل الفرنج البلد بغير مانع ولا مدافع . ودخل جرجى القصر فوجده على حاله لم يأخذ منه الحسن شيئاً إلا ما خف من ذخائر الملوك . ووجد فيه عدة من حظاياه . ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة ، ومن كل شىء غريب فختم عليه . وجمع سرارى الحسن فى قصر . ولما ملك المدينة نُهبت مقدار ساعتين ثم نودى بالأمان . فخرج من كان مستخفيا . وأصبح جرجى من الغد ، فأرسل إلى من قرب من العرب فدخلوا البلد . فأحسن إليهم وأعطاهم أموالا جزيلة . وأرسل أماناً إلى من خرج من المهدية ، ودواب يحملون عليها الأطفال فرجعوا .

قال : ولما استقر جرجى بالمهدية [2] سير أسطولا بعد أسبوع إلى مدينة سفاقس ، وأسطولا إلى مدينة سوسة . فأما سوسة فإن أهلها لما سمعوا خبر المهدية — وكان على بن الحسن واليا عليها — فخرج إلى أبيه ، وخرج الناس لخروجه [3] . فدخلها الفرنج بغير قتال فى ثانى عشر صفر منها . أما سفاقس فإن أهلها أتاهم كثير من

(١) ر : ثلث النهار .
(٢) ص : بالمدينة .
(٣) ك : بخروجه .

العرب فامتنعوا بهم . فقاتلهم الفرنج فخرج إليهم أهل البلد . فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم المسلمون حتى أبعدوا عن البلد . ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم إلى البلد ، وقوم إلى البرية . وقُتل منهم[1] جماعة . ودخل الفرنج البلد بعد قتال شديد وقتلى كثيرة . وأسر من بقى من الرجال وسُبي الحريم . وذلك فى الثالث عشر[2] من صفر منها . ثم نُودى بالأمان فعاد أهلها إليها . ووصلت كتب من رجار صاحب صقلية بالأمان إلى جميع أهل إفريقية ، والمواعيد الحسنة . وصار للفرنج من طرابلس الغرب إلى قريب تونس ، ومن المغرب إلى دون القيروان .

ذكر انقراض دولة بنى زيرى من افريقية وما اتفق للحسن بن على بعد خروجه من المهدية

كان انقراض دولتهم من إفريقية بخروج الحسن بن على بن يحيى بن تميم من المهدية ، وكان خروجه منها على ما قدمناه فى ثانى صفر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ومدة ملكه سبعاً وعشرين سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام .

وعدة من ولى[3] منهم تسعة ملوك ، وهم زِيرِى بن مَناد ، ثم ابنه يوسف بُلُكِّين ، ثم ابنه المنصور بن يوسف ، ثم ابنه بادِيس

(١) ر : وقتل بينهم .
(٢) وكذا فى ابن خلدون ٤ : ٤٣٥ . وفى ابن الأثير ٩ : ٢٠ : الثالث والعشرون .
(٣) ك : ملك .

ابن المنصور ، ثم ابنه المُعِز بن باديس ، ثم ابنه تَميم بن المعز ، ثم ابنه يحيي بن تميم ، ثم ابنه على بن يحيي ، ثم ابنه الحسن ابن على هذا ، وعليه انقرضت الدولة .

ومدة قيامهم منذ عَمَّر زيرى بن مناد مدينة آشير فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وإلى هذا الوقت مائتى سنة وتسع عشرة سنة ، ومنذ تسلم يوسف بلكين بلاد المغرب من المعز لدين الله أبى تميم مَعد - عند رحيله إلى الديار المصرية على ما قدمناه - مائة سنة ، وإحدي وثمانين سنة وشهرا واحدا وتسعة أيام (١) .

ولم يبق منهم ببلاد المغرب غير بنى حماد ، وسنذكر انقراض دولتهم فى أخبار عبد المؤمن إن شاء الله تعالى (٢) .

ذكر ما اتفق للحسن بن على بعد خروجه من المهدية

قال : لما خرج من المهدية سار بأهله وأولاده ، وكانوا اثنى عشر ذكرا (٣) غير الإناث . وقصد محرز بن زياد وهو بالمعلَّقة (٤) فوصل إليه فلقيه لقاء جميلا وتوجع لما حل به . وأقام عنده شهورا والحسن كاره للمقام . وأراد المسير إلى ديار مصر إلى الحافظ العُبَيْدى ، واشترى مركبا ليسافر فيه . فاتصل ذلك بجرجى الفرنجى

(١) كذا فى الأصول بالنصب . و فى ابن الأثير ٩ : ١٩ : ١٨٠ سنة .
(٢) انظر صفحة ٢٩٦ .
(٣) ر : ولدا ذكوراً .
(٤) وكذا بالإدريسى ١١٢ . وفى ابن خلدون ٦ : ٣٣٢ ، و ابن خلكان ٢ : ٢٤٢ : القلعة.

المتغلب على ملكه ، فجهز شوانى لأخذه [١] . فرجع الحسن عن ذلك .

وقصد المسير إلى عبد المؤمن ببلاد المغرب يستنصر به على الفرنج . فأرسل ثلاثة من أولاده ، وهم يحيى وعلى وتميم ، إلى يحيى بن العزيز بالله ، وهو من بنى حماد ، وهما ابنا عم يرجعون كلهم فى النسب إلى زيرى بن مناد ، وكان يحيى هذا قد ولى بعد أبيه . واستأذنه فى الوصول إليه ، وتجديد العهد به ، والمسير من عنده إلى عبد المومن . فأذن له يحيى فى ذلك فسار الحسن إليه . فلما وصل إلى بلاده لم يجتمع به وسيره إلى جزيرة بنى مزغنان[٢] هو وأولاده ووكل بهم من يمنعهم من التصرف . فبقوا هناك إلى أن ملك عبد المؤمن مدينة بجاية فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة . ثم صار من أصحاب عبد المؤمن وشهد معه فتح المهدية على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار عبد المومن[٣] .

---

(١) ر : ليأخذه .

(٢) كذا فى ر ، ابن الأثير ٩ : ٢٠ ، وهى بدون نقط فى ع . وفى ص : مرعنان . وفى ك : مرعبان . والإدريسى : جزائر بنى مزغنا .

(٣) انظر صفحة ٣١٢ .

ذكر ابتداء دولة الملثمين وأخبارهم ومن ملك منهم

كان ابتداء أمرهم – على ما حكاه عز الدين أبو محمد عبد العزيز ابن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس فى تاريخه المترجم « بالجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » بسند يرفعه إلى القاضى أبى الحسن على بن فنون قاضى مراكش : أن رجلا من قبيلة جُدّالة من كبرائهم اسمه الجوهر أتى [١] من الصحراء إلى بلاد المغرب طالباً للحج ، وذلك فى عشر الخمسين وأربعمائة [٢] . وكان مُؤثرا للدين ، محبا فى الخير ، مكرما للصالحين . فمر بفقيه يُقرأ عليه مذهب الإمام مالك بن أنس وحوله جماعة . قال : والغالب أنه أبو عمران قاضى القيروان [٣] . فآوى إليه وأصغى إلى ما يُذكَر فى مجلسه من علم الشريعة . فأحب سماعه وأناب إليه قلبه . ثم استمر فى وجهته إلى الحج وقد أثر ذلك فى نفسه .

فلما حج وانصرف قصد المسجد الذى كان فيه الفقيه ، وسمع الكلام فيما تقتضيه ملة الإسلام من الفرائض والسنن والأحكام . فقال الجوهر : « يافقيه ، ما عندنا فى الصحراء من هذا الذى

(١) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٧٤ ، وترتيب المدارك للقاضى عياض ٤ : ٥٣٢ . وفى ابن خلدون ٦ : ٣٧٣ ، والمونس ١٠١ ، والأنيس ٨٢ ، والبكرى ١٦٤ : يحيى بن ابراهيم . وفرق الدكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ١٠٤ بين الرجلين ، ورجح أن الشخص المراد هو يحيى لأن البكرى ذكر أن الجوهر كان من الخارجين على عبد الله بن ياسين . وأحسب أنهما رجل واحد ، وأن الجوهر لقب ليحيى . وقد صرح النويرى بعد بخروج الجوهر على عبد الله وعلله . وقبيلته تكتب بالجيم والكاف .

(٢) ابن خلدون ٦ : ٣٧٣ : أربعين وأربعمائة . ابن الأثير ٨ : ٧٤ : سنة ٤٤٨ . ورجح الدكتور حسن محمود رواية ابن أبى زرع وصاحب جامع تواريخ فاس أن الرحلة تمت عام ٤٢٧ أو ٤٢٩ ، لأن أبا عمران الفاسى مات سنة ٤٣٠ هـ . (قيام دولة المرابطين ١٠٨) .

(٣) أبو عمران موسى بن أبى حجاج الفاسى .

تذكرونه شي إلا الشهادتين [١] فى العامة ، والصلاة فى بعض الخاصة ».
فقال الفقيه : « فاحمل معك [٢] من يعلمهم عقائد ملتهم وكمال دينهم » . فقال له الجوهر : « فابعث معى أحد الفقهاء ، وعلىّ حفظه وبره وإكرامه » . وكان للفقيه ابن أخ اسمه عمر ، فقال له : « اذهب مع هذا السيد إلى الصحراء فعلِّم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الإسلام ، ولك الثواب الجزيل من الله عز وجل ، والذكر الجميل من الناس » فأجابه إلى ذلك . فلما أصبح عمر من الغد جاء إلى عمه فقال له : « أعْفِنى من الدخول إلى الصحراء فإن أهلها جاهلية [٣] ، قد ألفوا سِيَرا نشئوا عليها فمتى نُقلوا عنها قتلوا من أمرهم بخلافها » . وكان من طلبة الفقية رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولى فرأى الفقيه وقد عزّ عليه مخالفة ابن أخيه ، فقال : « يافقيه ، أرسلنى معه والله المُعين » . فأرسله معه [٤] . وتوجها إلى الصحراء . وكان عبد الله بن ياسين فقيها عالما ورِعا دينا شهما قوى النفس حازما ذا رأى وصبر وتدبير حسن.

فدخل [٥] الجوهر وعبد الله بن ياسين إلى الصحراء . فانتهوا إلى قبيلة لمتونة ، وهى على ربوة عالية . فلما رأوها نزل الجوهر عن جمله ، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين تعظيما لدين الاسلام . فأقبلت أعيان لمتونة وأكابرهم للقاء الجوهر والسلام عليه . فرأوه يقود الجمل فسألوه عنه فقال : « هو حامل سنة

(١) كذا فى الأصول ، والصواب : الشهادتان .
(٢) ص : عنك .
(٣) ر : أهلها ناس جاهلية .
(٤) ذكر ابن خلدون ٦ : ٣٧٤ ، والأنيس ٨٣ والبكرى ١٦٥ أن أبا عمران لم يجد فى تلاميذه من يصلح لهذا العمل ، فأحاله على فقيه آخر بعث معه عبد الله بن ياسين .
(٥) ص : فلما دخل .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء [١] يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم فى دين الإسلام » . فرحبوا به وأنزلوه أكرم نُزل .

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة فى محفل وفيهم أبو بكر ابن عمر. فقالوا : « تذكر لنا ما أشرت إليه أنه يلزمنا ؟ » فقص عليهم عبد الله عقائد الإسلام وقواعده وبيّن لهم حتى فهم ذلك أكثرهم . ثم اقتضاهم الجواب ، فقالوا : « أما ما ذكرته من الصلاة والزكاة فذلك قريب . وأما قولك : من قَتل يُقتَل ، ومن سرق يُقطع ، ومن زنا يجلد ، فأمر لا نلتزمه [٢] ولا ندخل تحته . اذهب إلى غيرنا » .

فرحلا عنهم والجوهر الجدالى يجرزمام جمل عبد الله بن ياسين فنظر إليه شيخ كبير منهم فقال : « أرأيتم هذا الجمل ؟ لابد أن يكون له فى هذه الصحراء شأن يذكر [٣] فى العالم » .

قال : وكان بالصحراء قبائل العرب ، وهى لمتونة وجدالة ولمطة وانبيصر [٤] وايتواري [٥] ومسوفة [٦] وأفخاذ عدة ، وكل قبيلة قد حازت أرضا تسرح فيها مواشيهم ، ويحمونها بسيوفهم . وهذه القبائل ينسبون إلى حمير ، ويذكرون أن أسلافهم خرجوا من اليمن فى الجيش الذي أنفذه أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى

(١) ك : وقد جاء .
(٢) ر : لا نلزمه .
(٣) ر : شأن عظيم يذكر .
(٤) كذا فى ر ، وحسن محمود ٤٠ (عن البكرى ١٨٠) . وفى ع بدون نقط . وفى ص : واشصر . وفى ك : وانبيصر .
(٥) كذا فى ر ، ودائرة المعارف الإسلامية « لمطة » . وفى ص ، ك : اينوارى . وفى ع : اينوازى .
(٦) كذا فى ر ، وهو الصواب . وفى ص ، ع : مشوفة . وفى ك : مسوفة .

الشام . وانتقلوا إلى مصر ثم توجهوا إلى المغرب مع موسى بن نصير [١] . وتوجهوا مع طارق إلى طنجة ثم اختاروا الانفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها وأقاموا بها .

قال : وسار الجوهر حتى انتهى بعبد الله إلى قبيلة جدالة . فخاطبهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم . فمنهم من سمع وأطاع ومنهم من أعرض وعصى . ثم إن المخالفين لهم تحزبوا وانحازوا . فقال عبد الله للذين قبلوا منه الإسلام : « قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام . فاستعدوا لقتالهم ، واجعلوا لكم حزبا ، وأقيموا لكم راية ، وقدموا لكم أميرا » . فقال له الجوهر : « أنت الأمير » . فقال [٢] عبد الله : « لا يمكننى هذا ! إنما أنا حامل أمانة الشرع ، أقص عليكم نصوصه وأبين لكم طريقه ، وأعرّفكم سلوكه . ولكن أنت الأمير » . فقال الجوهر : « لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتى على الناس ولعاثوا فى الصحراء ، ويكون وزر ذلك علىّ . لا رأى لى فى هذا » . فقال عبد الله : « فهذا أبو بكر بن عمر [٣] رأس لمتونة وكبيرها ، وهو رجل جليل القدر ، مشكور الحال ، محمود السيرة ، مطاع فى قومه ، نسير إليه ونعرض تقدمة الإمرة عليه ، فلحب الرياسة يستجيب إلى ذلك بنفسه ، ولمكان الجاه ستجتمع إليه طائفة من قبيلته نقوى بها على عدونا . والله المستعان »

(١) انظر روايات أخرى فى سبب إقامتهم بافريقية وزمانها (الأنيس ٨٠) .
(٢) ك : فقال له .
(٣) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٧٥ . ولكن ابن خلدون ٣٨١/٦ ، والمونس ١٠٣ ، والأنيس ٨٦ ذكروا أن الذى تولى الأمر هو يحيى بن عمر ولما مات خلفه أخوه أبو بكر . (حسن محمود : قيام دولة المرابطين ١٤٨ ، يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ٦٩) .

ذكر ولاية أبى بكر بن عمر اللمتونى

قال : فأتوا أبا بكر بن عمر فأجاب ، وعقدوا له راية وبايعوه بيعة الإسلام ، وتبعه زمرة من قومه . وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين .

ورجعوا إلى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن إسلامهم ، ومن الأقوام الذين تألفت قلوبهم . وحرضهم عبد الله على الجهاد فى سبيل الله ، وسماهم المرابطين . وتألبت عليهم أحزاب من الصحراء معاندين من أهل الشر والفساد ، وجيشوا لمحاربتهم . فلم يناجزهم الحرب ولا بادرهم [١] بلقاء بل تلطف عبد الله وأبو بكر فى أمرهم ، واستمالوهم ، واستعانوا على أولئك الأشرار المفسدين بالمصلحين من قبائلهم يسْبُونَهم [٢] قوماً بعد قوم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهم تحت زَرْب عظيم وثيق ما ينيف على ألفى رجل من المفسدين وتركوهم فيه أياما بغير طعام وهم يحفظون الزرب من سائر جهاته ، وقد خندقوا حوله . ثم أخرجوهم قوماً بعد قوم وقتلوهم عن آخرهم .

فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء وهابهم كل من فيها [٣] ، وقويت شوكة المرابطين . هذا وعبد الله بن ياسين يعلم الشريعة ويقرئ الكتاب والسنة ، حتى صار حوله فقهاء . وكل من انقاد

---

(١) ص : بدرهم.
(٢) ر : ليسبوهم .
(٣) ص : كل من كان فيها .

إلى الحق على طريق الورع[1] والتقى والخشية لله والمراقبة ، فرتّب له أوقاتا للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد . فاستقام منهم خلق كثير ، وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم ، وصفت قلوبهم .

ذكر مقتل الجوهر الجدالى

قال : كان الجوهر أصح القوم عقيدة ، وأخلصهم لله دينا ، وأكثرهم صوماً وتهجدا . فلما استبد أبو بكر بالأمر دونه ، وعبدالله ينفّذ الأمور بالسنة ، فصارت الدولة لهما . وبقى الجوهر لا حكم له فداخله الحسد ، وأزلّه الشيطان ، فشرع فى إفساد الأمر سرا . فعُلم بذلك منه وعُقد له مجلس . فثبت عليه ما ذُكر عنه ، فحُكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة ، وشق العصا ، وهمّ بمحاربة أهل الحق . فقال الجوهر : « وأنا أيضا أحب لقاء الله عز وجل حتى أرى ما عنده » . فاغتسل وصلى ركعتين ، وتقدم طائعاً . فضُربت عنقه رحمه الله تعالى .

قال : وكثرت طائفة المرابطين ، وتتبعوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهب والسبى إلا من أسلم منهم وسالم . وبلغت الأخبار الفقيه بما جرى فى الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الحريم . فعظم ذلك عليه واشمأز منه وندم على إرساله ، وكتب له فى ذلك . فأجابه عبد الله بن

(١) ك : الشرع .

ياسين : « أما إنكارك على ما فعلت وندامتك على إرسالى ، فإنك أرسلتنى إلى أمة كانت جاهلية ، يخرج أحدهم ابنه وابنته [١] لرعى السوام فيعزبان [٢] فى المرعى . فتأتى المرأة حاملا من أخيها ولا ينكرون ذلك . وليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض وقتل بعضهم لبعض . ولا دية لهم [٣] فى الدماء ، ولا حرمة عندهم للحريم ، ولا توقى بينهم فى الأموال ، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم . فمن قبل واليته ، ومن تولى أرديته ، وما [٤] تجاوزت حكم الله ولا تعديته . والسلام » .

ذكر خروج الملثمين الى السوس أولا وثانيا ومقتل عبد الله بن ياسين

قال : وفى سنة خمسين وأربعمائة ، قحطت بلاد الملثمين وماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة . فأمر عبد الله ضعفاءهم بالخروج إلى السوس الأقصى وأخذ الزكاة . فخرجوا وقالوا : « نحن مرابطون خرجنا إليكم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم » . فجمعوا لهم شيئا له بال . فرجعوا به إلى الصحراء .

ثم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشظفها وكثرتهم . فطلبوا إظهار كلمة الحق ، فخرجوا إلى السوس الأقصى . فتسامع بهم أهل بلاد

---

(١) ص: أو ابنته.
(٢) يعزبان : يبعدان . و السوام : ما يرعى من حيوان .
(٣) ص: عندهم .
(٤) ك : ولا .

السوس ، فاجتمعوا وجيّشوا ، وخرجوا لقتالهم . وصدقوهم القتال ، فكسروهم. وقُتل ابن ياسين ، وانهزم جيش المرابطين .

فجمع أبو بكر جيشا وخرج إلى بلاد السوس ثانية في ألفى راكب . فاجتمع عليه من قبائل بلاد السوس وزناتة اثنى عشر ألف فارس . فأرسل إليهم رسلا وقال لهم : « افتحوا لنا الطريق ، فما قصدنا إلا غزو المشركين » . فأبوا ذلك واستعدوا للقتال . فنزل أبو بكر وصلى الظهر على دوقته ثم قال : « اللهم إن كنا على الحق فانصرنا عليهم ، وإن كنا على الباطل فأرِحنا بالموت مما نحن فيه » . ثم ركب ولقيهم فانهزموا . وقتل فيهم قتلا ذريعا ، واستباح أسلابهم وأموالهم وعُدَدهم . فقويت نفسه ونفوس أصحابه .

ذكر استيلائه(١) على مدينة سجلماسة

قال : ثم سار أبو بكر فى أطراف البلاد إلى مدينة سجلماسة. فنزل عليها وطلب أصحابه من أهلها الزكاة . فقالوا لهم : « إنكم لما أتيتمونا فى عدد قليل وسعكم فضْلنا . والآن فضعفاؤنا فيهم كثرة ، وقد آثرناكم سنين . وما هذه حالة من يطلب الزكاة بالسلاح والخيل . وإنما أنتم قوم محتالون ولو أعطيناكم أموالنا بأسرها ما عمتكم » . وخرج إليهم صاحبها فى عسكر كبير (٢) فحاربوه . وطالت الحرب بينهم .

(١) ك : استيلائهم .
(٢) ك : كثير .

ثم ساروا إلى قُول [١] ، وهو جبل قريب من الصحراء .فاجتمع إليهم من كزولة خلق كثير . ورجعوا إلى سجلماسة ، واستولوا عليها بعد حروب . وقتل مسعود بن وُرو [٢] . واستخلف أبو بكر عليها يوسف بن تاشفين اللمتونى من بنى عمه الأقربين ورجع إلى الصحراء . وكان فتحها فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة [٣] .

قال : ولما ولى يوسف بن تاشفين أحسن إلى الرعية واقتصر منهم على الزكاة .

قال : وأقام أبو بكر بالصحراء مدة ثم عاد إلى سجلماسة فأقام بها سنة ، والخطبة والدعاء والأمر والنهى [٤] له . ثم استخلف على سجلماسة ابن أخيه أبا بكر [٥] بن إبراهيم بن عمر . وجهز يوسف بن تاشفين وجيشا من المرابطين إلى السوس ففتح له وعلى يديه .

وتوفى أبو بكر فى سنة اثنتين وستين وأربعمائة بالصحراء [٦] .

---

(١) كذا فى الأصول ، ولم أجده ، ولعله نول .

(٢) ابن خلدون ٦ : ٣٧٥ : مسعود بن وانودين .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٧٥. وفى المونس ١٠٣ : سنة ٤٤٧هـ. وفى ابن خلدون ٦ : ٣٧٥ بين سنتى ٤٤٥ و ٤٤٧هـ. ورجح حسن محمود السنة الأخيرة .

(٤) ك : والأمور والنواهى .

(٥) أبابكر : عن ر ، ابن الأثير ٨ : ٧٥ ، وهو ساقط من ص ، ع ، ك. ولعل المقصود ابنه إبراهيم بن أبى بكر بن عمر ، الذى ولى سجلماسة ، وساك نقوداً باسمه عام ٤٦٢ و ٤٦٥هـ (حسن محمود ٢٢٦) .

(٦) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٧٦ . وفى الأنيس ٩٣ ، ابن خلدون ٦ / ٣٧٧ ، المونس ١٠٤ ، وابن تغرى بردى ٥ : ١٢٦ مات سنة ٤٨٠. وجعل أشباخ موته فى ٤٦٩ بل أشار إلى أن ابن تاشفين أعدمه .

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين

قال : ولما توفى أمير المسلمين أبو بكر بن عمر ، اجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين ؛ وولوه أمرهم ، وسموه أمير المسلمين. وكانت الدولة حينئذ فى بلاد المغرب لزناتة الذين ثاروا فى أيام الفتن . وهى دولة رديئة مختلة سيئة السيرة مذمومة الطريقة . وكان يوسف ومن معه على نهج السنة واتباع أئمة الشريعة فاستغاث به أهل بلاد المغرب ، فافتتحها شرقا وغربا بأيسر سعى . وأحبته الرعية وصلحت أحوالهم .

ذكر بناء مدينة مراكش

قال : ثم قصد أمير المسلمين موضع مدينة مراكش [١] ، وهو قاع صفصف لا عمارة فيه ، وهو سُقْع [٢] متوسط فى مملكة بلاد المغرب كالقيروان فى بلاد إفريقية ، تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة وأمنعهم معقلا . فاختط المدينة هناك ليتقوى [٣] على تدويخ أهل تلك البلاد . واتخذها دار ملكه ، ومقر سكنه . فلم يعانده أحد من أهل تلك النواحى لهيبته فى نفوسهم وعظم ذكره بالمغرب . وملك المدائن المتصلة بالبحر مثل سبتة وسَلا وطنجة وغيرها . وكثرت أمواله وجنوده [٤] .

(١) ك : موضوع مراكش .
(٢) ص : صقع . والاثنان بمعنى ناحية .
(٣) ك : ليقوى .
(٤) ر : وجنده .

وخرج إليه جماعة لمتونة وكثير من القبائل . وضيق لثامه هو وجماعته .

ذكر ما قيل فى سبب لثام المرابطين

قيل : إنهم كانوا فى الصحراء يتلثمون لشدة الحر والبرد كما يفعل العرب فى البرية ، والغالب على ألوانهم السمرة . فلما ملكوا البلاد ضيقوا ذلك اللثام .

وقيل : إن طائفة منهم من لمتونة فى الصحراء خرجوا للإغارة على عدوهم . فخالفهم العدو إلى بيوتهم ، ولم يكن بها إلا الصبيان والمشايخ والنساء . فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب رجالهن ، ويتعممن بالعمائم ، ويسترن وجوههن باللثام ، وأن يضيقنه حتى لا يعرفن . ففعلن ذلك ولبسن السلاح . وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدرن هن بالبيوت . فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما هاله وقال : « هؤلاء حول حريمهم يقاتلون عليه قتال نخوة [1] وقد ترجلوا للموت . والرأى أن نسوق النعم ونمضى . فإن تبعونا قاتلناهم خارج البيوت » . فبينما هم فى جمع النعم من مراعيها إذ أقبل رجال الحى ، فصار العدو بينهم ، فقُتلوا شر قِتلة ولم يسلم منهم إلا القليل . وقتل النساء منهم [2] أكثر مما قتل الرجال . فاستنّوا اللثام من ذلك الوقت . فلا يزيلونه ليلا ولا

(١) ر : نجدة .
(٢) ك : بينهم .

نهارا حتى إن الرجل لا يأكل ولا يشرب مع أهله إلا من تحت اللثام والمقتول منهم فى المعركة لا يعرفه أصحابه بوجهه بل بلثامه .

قال ابن شداد : ومما رأيت أنه كان لى صديق منهم بدمشق فأتيت يوماً إلى زيارته . فدخلت إليه وقد غسل عمامته ، وسراويله مشدودة [١] على رأسه ، وقد تلثم بخلخاله . هذا بعد أن انقضت دولتهم ، وتفرقت جملتهم ، وتغربوا [١] فى البلاد .

قال : ولقد حكى لى من أثق به أنه رأى شيخا من الملثمين بالمغرب بعد انقضاء الدولة ، منزويا فى ضفة نهر ، يغسل خُلْقانه [٣] وهو عريان ، وعورته بارزة ، ويده اليمنى يغسل بها والأخرى يستر بها وجهه . فقال له : « استر عورتك بيدك » . فقال : « أنا ملثم [٤] بها » .

وقال بعض الشعراء فى اللثام :

قومٌ لهم دَرَك العُلى فى حِمْيرٍ
وإذا انتموا صنهاجةً فهمُ هُمُ
لما حَوَوا إحرازَ كلِّ فضيلةٍ
غلب الحياءُ عليهمُ فتلثّموا

(١) ع : مشدود ، و لعله أراد بالخلخال هنا الثوب الخلخال ، وهو نوع من الثياب الرقيقة.
(٢) ك : وهربوا .
(٣) ثيابه البالية .
(٤) ك : متلثم .

وقال آخر [١] :

إذا التثموا بالرِّيط خِلتَ وجوههم
أزاهرَ تبدو من فُتوق الكمائم
أو التَأَموا بالسابِرية أبْرزوا
عيونَ الأَفاعى من جلود الأَراقم [٢]

نرجع الى أخبار يوسف بن تاشفين

قال : واستقامت له الأمور . وتزوج زينب بنت إبراهيم [٣] زوجة أبى بكر بن عمر ، وكانت حظية عنده ، وأميرة [٤] عليه . وكذلك جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم ، ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون : ابن فلانة ، ولا يقولون : ابن فلان .

وكانت زينب لها عزم وحزم . حُكى عنها أن زرهون ـ ويعرف بابن خلوف ـ وكان له أدب [٥] ، فبلغ زينب أنه مدح حواء امرأة سير بن أبى بكر وفضَّلها على سائر النساء بالجمال والكمال. فأَمرت بعزله عن القضاء . فوصل إلى أغمات واستأذن عليها . فدخل البواب وأعلمها به ، فقالت : « قل له : امضِ إلى التى مدحتَها تردك إلى القضاء » . فبقى بالباب أياما حتى نفدت نفقته .

(١) هذه العبارة ساقطة من ك.

(٢) التأموا : لبسوا اللأمة وهى الدرع والسلاح. والسابرية : الدرع الدقيقة النسج المحكمة. والأراقم : أخبث الحيات .

(٣) الأنيس ٦٢ ، وابن خلدون ٦ : ٣٧٦ : زينب بنت اسحاق النفزاوية .

(٤) كذا فى ك. وفضلتها لمناسبتها لحرف الجر بعدها . وفى ع ، ص : وآمرة .

(٥) كذا فى الأصول دون وجود خبر واضح لأن، والصحيح أن نقول : كان له أدب ، أو بلغ زينب ...

فأتى إلى خادمها فقال له : « إن مولاتك صرفتنى ونقمت على مدحى لامرأة سير . ولو علمتُ أن ذلك يغضبها ما قلته . وقد نفدت نفقتى ، وأردت بيع هذا المُهر ، وعزّ على أن يصير فى يد من لا يستحقه ، وأنا أحب أن تعطينى مثقالين أتزود بهما إلى أهلى . وخذ المهر فأنت أحق به » . فسر الخادم وأعطاه مثقالين وأخذ المهر . ودخل على مولاته زينب وهو فرحان . فقالت له : « ما شأنك ؟ » فأخبرها الخبر . فرقت للقاضى وندمت على ما فعلت به . وقالت : « اذهب فأتنى به الساعة » . فأحضره إليها . فقالت له : « تمدح زوجة سير وتفضلها على سائر النساء ، وخرجتَ فى وصفك لها عن الحد ، وزعمت أن ليس فى الأرض أجمل منها ، وما هذه منزلة القضاء[1] ولا يليق بك أن تُنزل[2] نفسك فى هذه المنزلة » . فقال ارتجالا :

أنتِ بالشمس لا حِقـــهْ وهى بالأرض لاصِقـــهْ
فمتى مـا مـدحتُهـا فهى من سِيرَ طالقـــه

فقالت له : «ياقاضى ، طلقتها منه ؟» قال : « نعم ، ثلاثة وثلاثة وثلاثة » . فضحكت حتى افتضحت وقالت له : « والله ، لا شم[3] لها قفاً أبدا » . وكتبت إلى يوسف برده إلى القضاء ، فرده .

---

(١) ص : القضاة .
(٢) ك : تترك .
(٣) ر : أشم.

ذكر استيلائه على مدينة أغرناطة من جزيرة الأندلس

كان سبب ذلك ماقدمناه فى أخبار الدولة العبادية أن المعتمد بن عباد لما وقع بينه وبين الأدفونش [١] ملك الفرنج صاحب طليطلة، وقتل ابن عباد رسله، وجمع الأدفونش عساكره؛ استنجد ابن عباد بأمير المسلمين [٢] يوسف بن تاشفين. فدخل بعساكره إلى جزيرة الأندلس، واجتمع بالمعتمد بن عباد، وتوجها جميعا لقتال الفرنج. وكانت وقعة الزلاقة التى انهزم فيها الأدفونش وقُتل عامة عسكره على ماقدمناه مبيَّنا فى أخبار المعتمد بن عباد. وذلك فى العشر الأول [٣] من شهر رمضان سنه تسع وسبعين وأربعمائة [٤].

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش فأقام بها إلى العام الآتى [٥]. ثم دخل إلى الأندلس. وخرج إليه محمد بن عباد من إشبيلية فى عسكره. وأتى عبد الله بن بلكين صاحب أغرناطة فى عسكره.

---

(١) الفونسو السادس. وانظر الصفحة ٤٥٣ من الجزء ٢٣.

(٢) ك: بأمير المؤمنين.

(٣) ابن خلكان ٢: ٣٦٧: الأواخر.

(٤) كذا فى ع وابن الأثير ٨: ٢٤١-٢. وفى ر. ص: سبع وسبعين. وفى ك: تسع وأربعين. وفى ابن خلدون ٦: ٣٨٣ واحد وثمانين. وفى المونس ١٠٤: ١٢ رجب ٤٧٩. وهو الذى رجحه أشباخ ٩٠، وحسن محمود ٢٨١. وفى الأنيس ١٠١، ١٠٣، ١٠٥: ١١ رجب. وفى ابن خلكان ٢: ٣٦٧: ١٥ رجب ٣٧٩.

(٥) وكذا فى ابن الأثير ٨: ١٤٢. وفى المونس ١٠٤، والانيس ١٠٥ سنة ٤٨١ وفى ابن خلدون ٣٨٣: سنة ٤٨٦. ورجح أشباخ ٩٥، وحسن محمود ٢٩١ سنة ٨١. وناقش ابن خلكان ٢: ٣٧١ هذا الخلاف.

وساروا حتى نزلوا على ليطة [١]، وهو حصن منيع كان فيه النصارى فحاربوه أياما فلم يطيقوا فتحه ، فرحلوا عنه بعد مدة .

ورجع المعتمد إلى إشبيلية . وكان طريق يوسف بن تاشفين على مدينة أغرناطة . فدخل عبدالله بن بلكين إليها ليخرج إلى يوسف الوظائف . فغدر به يوسف ودخل أغرناطة وأخرجه منها واستولى عليها [٢] . ودخل قصر عبدالله فوجد فيه من الأموال والذخائر مالم يحوه ملك من ملوك الأندلس . ومما وجد فيه سُبْحة فيها أربعمائة جوهرة ، قُوِّمت كل جوهرة بمائة مثقال [٣] ؛ ومن أنواع الجواهر واليواقيت والزمرد مالاتحصى قيمته ؛ من العيْن ألف ألف [٤] دينار ؛ ومن فاخر الثياب وأوانى الذهب والفضة مالاتعرف له قيمة . وأخرج منها تميم بن بلكين أخا عبد الله ، وسار بهما إلى مراكش . وذلك فى سنة ثمانين وأربعمائة [٥] . ورجع أمير المسلمين إلى مراكش فأطاعه من كان لم يُطعه من بلاد السوس وورْغة وقلعة مهدى .

---

(١) ابن الأثير ٨ : ١٤٣ والمعجب ١٣٢ : الليط وهو Aledo . ورسمه فى مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين : لييط .

(٢) لم يستول يوسف على غرناطة فى هذه المرة بل فى ثالث مرة دخل فيها الأندلس ، وذلك سنة ٤٨٣ (أشباخ ٩٧ ، حسن محمود ٣٠٣ ، الأنيس ١٠٧) .

(٣) ص ، ر ، ابن الأثير ٨ : ١٤٣ بمائة دينار .

(٤) ص : ومن العين ألفى ألف . ك : ومن ألفين ألف .

(٥) ص : ثمان وأربعمائة ، تحريف . وانظر التعليقة رقم ٢ .

ذكر ملك أمير المسلمين جزيرة الأندلس

وفى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، ملك من جزيرة الأندلس ماكان بقى بيد المسلمين بها ، وهى قرطبة وإشبيلية والمرية وبطليوس . وذلك أنه سار فى هذه السنة من مراكش إلى سبتة . وأدخل العساكر مع سير بن أبى بكر إلى الأندلس وحشد خلقا كثيرا ، وأمره بمحاصرة إشبيلية . فحاصرها وفتحها فى يوم الأحد لتسع بقين من شهر رجب من هذه السنة . وأسر المعتمد بن عباد ونقله إلى أغمات فحبسه بها حتى مات ، على ماقدمناه مبينا فى أخبار ابن عباد [١] .

قال : ثم خرج سير من إشبيلية إلى مدينة المرية فنزل عليها . وكان واليها محمد بن معن بن [٢] صُمادح فقال لولده : « مادام المعتمد بن عباد بإشبيلية فلسنا نُساءَل عنه » . فأتاه الخبر بفتح إشبيلية وأسر ابن عباد فمات غما . فخرج ولده بإخوته وأهله فى مركب حربى شحنه بأمواله . وأقلع إلى الجزائر والتحق ببنى حماد ، فأحسنوا إليه وأسكنوه مدينة تَدلَّس .

قال : وكان أبو محمد عمر بن محمد بن عبد الله بن مسلمة [٣] المعروف بابن الأفطس صاحب بطليوس ممن أعان المعتمد ، فلما سمع بإشبيلية رجع إلى بلده [٤] . فسار إليه سير بن أبى بكر فحاربه

(١) انظر صفحة ٤٥٩ من الجزء ٢٣ .

(٢) كذا فى ابن الأثير ٨ : ١٥٢ وزامباور ٩٠ ، ابن خلكان ٢ : ٣٥. وفى الأصول : محمد بن صمادح بن معن ، خطأ .

(٣) كذا فى ابن عذارى ٣ : ٢٣ ، وزامباور ٨٩ وهو الصواب. وفى الأصول : مسلم .

(٤) ذكر ابن الأثير ٨ : ١٥٦ أن ابن الأفطس كان ممن أعان سير على المعتمد ، وبعد فتح إشبيلية عاد إلى بلدته .

وغلبه . وأتى به وبولده [١] الفضل أسيرين ، فأمر سير بضرب أعناقهما . فقال : « قدّموا ولدى قبلى للقتل ليكون فى صحيفتى » . فقُتل قبله ثم قُتل هو بعده .

قال : ولم يترك سير من ممالك الأندلس وملوكهم سوى بنى هود . فإنه لم يقصد بلادهم وهى شرق الأندلس . وصاحبها يومئذ المستعين بالله [بن] [٢] هود ، وهو من الشجعان الذين يضرب بهم المثل . وكان قد حصّل عنده من آلات الحصار والأقوات مايكفيه عدة سنين بمدينة رُوطَة ، وكانت قلعة حصينة.. وكان يهادن أمير المسلمين قبل ملكه الأندلس ويُكثر مراسلته . فرعى له ذلك حتى أنه أوصى ابنه على ابن يوسف عند موته بترك التعرض إلى بلاد [بنى] هود . وقال « اتركهم بينك وبين العدو فإنهم شجعان » .

قال : وتتابعت الفتوح على أمير المسلمين حتى احتوى على جميع بلاد الأندلس التى كانت للمسلمين وماوالاها من البلاد فى البر الكبير ، من جميع بلاد السوس والجبال والصحراء . وفتح فى بلاد الفرنج فتوحا كثيرا .

---

(١) ك : وبابنه .

(٢) زيادة ضرورية لأن المستعين هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن أحمد بن سليمان بن هود.

ذكر حيلة لأمير المسلمين ظهرت ظهورا عجيبا

قال ، كان بالمغرب إنسان اسمه محمد بن إبراهيم الكزولى سيد قبيلة كزُولة ، ملَك جبلها ، وهوجبل شامخ منيف ، وهى قبيلة كبيرة وكان بينه وبين يوسف بن تاشفين مودة واجتماع . فلما كان فى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، أرسل يوسف إليه يطلب الاجتماع به . فركب حتى قاربه (١) ثم رجع وخافه على نفسه . فكتب إليه أمير المسلمين يحلف (٢) أنه ما أراد به سوءا ولا قصد إلا خيرا . فلم يرجع لذلك .

فدعا يوسف حجاما وأعطاه مائة دينار وضمن له مثلها إن سار إلى محمد بن إبراهيم وتحيّل فى قتله . فسار الحجام ومعه مشاريط مسمومة فصعد الجبل . وجعل ينادى بالقرب من مساكن محمد . فسمعه فقال : « هذا الحجام من بلدنا ؟ » فقيل : « إنه غريب » . فقال : « أراه يكثر الصياح ، وقد ارتبت منه » . فأحضره عنده . واستدعى حجاما غيره وأمره أن يحجمه بمشاريطه التى معه . فامتنع الحجام الغريب . فأُمسك وحُجم بها ، فمات . فلما بلغ ذلك يوسف ازداد غيظا وحنقا ، ولج فى السعى فى أذى يوصله إلى الكزولى .

فاستمال قوما من أصحابه فمالوا إليه . فأرسل إليهم جرارا من عسل مسموم . فحضروا عند محمد وقالوا : « قد وصل إلينا قوم معهم جرار من عسل ، وأردنا إتحافك به » . وأحضروها بين يديه .

---

(١) ص: فارقه .
(٢) ك: فحلف .

فلما قُدمت له أمر بإحضار خبز ، وأمر أولئك القوم الذين أحضروا العسل أن يأكلوا منه فامتنعوا واستعفوا من الأكل . فقال : « من لم يأكل منه قُتل بالسيف » . فأكلوا فماتوا عن آخرهم .

فكتب إلى أمير المسلمين : « إنك قد أردت قتلى بكل سبب فلم يُظفِّرك الله ، وكشف لى عن سريرتك (١) . وقد أعطاك الله المغرب بأسره ، ولم يعطنى إلا هذا الجبل . وهو فى بلادك كالشامة البيضاء فى الثور الأسود . فلم تقنع (١٢ بما أعطاك الله عز وجل » . فكفّ أمير المسلمين عنه .

ذكر ولاية أمير المسلمين من قبل الخليفة أمير المؤمنين المستظهر بالله

قال : كان الفقهاء بالأندلس قالوا لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين : « إنه لاتجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة » . فأرسل قوما من أهله إلى بغداد بهدية نفيسة ، وكتاب يذكر فيه مافعل بالفرنج ، وماقصده من نصرة الدين والجهاد فى سبيل الله . فجاءه رسول من أمير المؤمنين أبى العباس أحمد المستظهر بالله(٣)

(١) كذا فى الأصول ، وفى ابن الأثير ٨ : فكف عن شرك . وهى أليق .

(٢) ك : تقتنع .

(٣) كذا فى ر ، وهو الصواب . وفى بقية الأصول : أحمد بن المستظهر . وفى ابن خلدون ٦ : ٣٨٦ : المستنصر . وأبان حسن محمود ٣٣٤ أن الصلة بين الخلفاء العباسيين والمرابطين أقدم من عصر المستظهر .

بهدية وكتاب وتقليد وخلع . ودام ملك أمير المسلمين إلى سنة خمسمائة فتوفى فيها [١] . فكانت مدة ولايته ثمانى وثلاثين سنة تقريباً .

وكان ديِّنا حازما سئوسا ذا دهاء ، إلا أنه أبان عن لؤم لما اعتقل المعتمد بن عباد بأغمات ، فإنه لم يجْرِ [٢] عليه مايقوم به حتى كانت بناته يغزلن بالأجرة للناس وينفقن عليهن وعليه .

ولما مات يوسف ولى بعده ابنه .

ذكر ولاية على بن يوسف بن تاشفين

كانت ولايته بعد وفاة أبيه فى سنة خمسمائة . وكان أبوه قد عقد له الأمر بعده فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة [٣] فاستقل بالأمر بعده وتلقب بأمير المسلمين . وكان يقتدى فى القضايا والأحكام بفقهاء بلاده ، ويقربهم ويكرمهم . وإذا أتته نصيحة قبلها أو موعظة خشع لها . وسار فى رعيته أحسن سيرة ، فأحبه الناس واشتملوا عليه ومالوا اليه .

ذكر محاربة الفرنج خذلهم الله تعالى وانهزامهم

وفى سنة خمس وخمسمائة [٤] ، خرج ملك الفرنج صاحب

(١) المعجب : سنة ٤٩٣ هـ.

(٢) كذا فى ص ر. وفى ك : باغمات ولم تجر . وفى ع : بأغمات لم تجد .

(٣) كذا فى ص، ر، وهو الصواب. وفى ع ،ك: وثلاثمائة، تحريف. وصرح حسن محمود ٣٤٤ أن ذلك كان حوالى سنة ٤٩٧هـ .

(٤) ابن خلدون ٦ : ٣٨٧ ، المونس ١١٥ والأنيس ١١٢ : سنة ٥٠٣ .

طليطلة إلى بلاد الإسلام وجمع وحشد . وكان قد قوى [١] طمعه فى البلاد لما مات يوسف بن تاشفين . فخرج أمير المسلمين على لحربه ، ولقيه واقتتلوا قتالا شديدا . وكان الظفر للمسلمين ، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقُتلوا قتلا [٢] ذريعا ، وأسر منهم أسرى كثيرة ، سبى ، وغنم من أموالهم ما يخرج عن الإحصاء . فخافه الفرنج بعد ذلك . وامتنعوا من قصد بلاده [٣] وذل الأدفونش .

ذكر الفتنة بقرطبة

وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقيل : أربع عشرة ، كانت فتنة عظيمة بين عسكر أمير المسلمين على بن يوسف وبين أهل قرطبة وسببها أنه كان قد استعمل عليها أبا بكر يحيى بن داود [٤] . فلما كان يوم عيد الأضحى ، خرج الناس متفرجين . فمد عبد من عبيد أبى بكر يده إلى امرأة ومسكها . فاستغاثت بالمسلمين فأعانوها [٥] . فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة . ودامت جميع النهار إلى الليل وتفرقوا . واجتمع الفقهاء والأعيان إلى أبى بكر وقالوا له : « المصلحة أن تقتل واحدا من العبيد الذين أثاروا الفتنة » . فأنكر ذلك وغضب منه .

---

(١) ص : طوى .
(٢) ك : قتالا .
(٣) ك : البلاد .
(٤) ابن الأثير ٨ : ٢٩٠ : بابكر يحيى بن رواد
(٥) ك : فأغاثوها . وهى أليق .

وأصبح من الغد وأظهر السلاح والعدد وأراد قتال أهل البلد فركب الفقهاء والأعيان والشباب ، وقاتلوه فهزموه . وتحصن منهم بالقصر ، فحصروه ونصبوا السلاليم وصعدوا إليه . فهرب من البلد بعد مشقة وتعب . فنهبوا القصر وأحرقوا جميع دور المرابطين (١) ونهبوا أموالهم . وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة .

واتصل الخبر بأمير المسلمين فأكبر (٢) ذلك واستعظمه . وجمع العساكر من صنهاجة وزناتة والبربر وغيرهم . وجاء إلى قرطبة فى سنة خمس عشرة وخمسمائة وحصرها . فقاتلهم أهلها قتال من يذب عن نفسه وماله وحريمه . فلما رأى شدة قتالهم دخل السفراء بينهم وسعوا فى الصلح . فأجاب إلى ذلك على أن يغرم أهل قرطبة للمرابطين مانهبوه من أموالهم . فاستقرت القاعدة على ذلك ، وعاد عن قتالهم .

وفى أيام على بن يوسف ، ظهر المهدى محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن على ، فضعف أمر الملثمين . وكان بينهم من الحروب مانذكره فى أخبار (٣) الموحدين .

وكانت وفاة على بمراكش فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة (٤) . فكانت مدة ولايته خمسا وثلاثين سنة .

وولى بعده ابنه .

---

(١) ك : د ورجميع المرابطين .
(٢) ك : فأكثر .
(٣) ص : من أخبار .
(٤) ابن خلدون ٦ : ٣٨٨ ، ابن تغرى بردى ٥ : ٢٧٢ ، المونس ١٠٦ ، المعجب ٢٢ الأنيس ١١٥ ، وابن خلكان ٢ : ٣٧١ سنة سبع وثلاثين . وتكون ولايته إذن سبعا وثلاثين سنة .

ذكر ولاية تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين

كان أبوه قد ولاه العهد وأخرجه لحرب [١] عبد المؤمن . فما زال يحاربه والغلبة والظفر لعبد المؤمن إلى أن توفى والده على بن يوسف . فاستقل بالأمر بعده ولازم حرب عساكر عبد المؤمن إلى أن مات فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة [٢]

[اسحاق بن على]

وولى بعده أخوه إسحاق بن على فضعف أمر دولتهم ، واستولى عبد المؤمن على البلاد وملكها بلدا بلدا ، إلى أن حاصر عبد المؤمن مراكش وملكها فى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فقتله عبد المؤمن صبرا . وانقرضت دولة الملثمين.

وكانت مدة ولايتهم من حين خرجوا من البرية فى سنة خمسين وأربعمائة إلى أن قتل إسحاق إحدى وتسعين سنة . وعدة من ملك منهم خمسة ملوك ، وهم أبو بكر بن عمر ، ثم يوسف بن تاشفين ، ثم ابنه على بن يوسف ، ثم ابنه تاشفين بن على ،ثم إسحاق بن على [٣] . وعليه انقرضت الدولة . وسنورد فى أخبار الموحدين طرفاً من أخبارهم وحروبهم ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) ك: بحرب

(٢) وكذا فى ابن الأثير٩ : ١٠ . وفى ابن خلدون ٦ : ٣٨٩ ، ابن كثير ١٢ : ١٨٧ ، المونس١٠٦أنه مات سنة ٥٤١ وولى بعده ابنه ابراهيم فتبين ضعفه،فخلع وولى أخوه إسحاق.

(٣) ذكرت سابقا الخلاف فى بعض هؤلاء وتعاقبهم .

ذكر ابتداء دولة الموحدين وأخبارهم وسبب ظهورهم

أول من ظهر من ملوك هذه الدولة ، وأسس قواعدها ، وتام بأعبائها وأنشأها ، المهدى محمد بن تُومَرْت . وكان ابتداء أمره وظهوره فى سنة أربع عشرة وخمسمائة [١] . وسنذكر ابتداء حاله وكيف تنقلت [٢] به الحال وما كان منه ، إن شاء الله تعالى

ذكر أخبار المهدى محمد بن تومرت

هو أبو عبد الله محمد بن تومرت الحَسنى [٣] ، وقبيلته من المَصامدة تعرف بَهرْغَة فى جبل السوس ، نزلوا به لما فتحه المسلمون مع موسى بن نصير . وكان ابتداء أمر المهدى أنه رحل فى شبيبته إلى بلاد المشرق فى طلب العلم . وكان فقيها فاضلا محدِّثا ، عارفا بأصولى الدين والفقه ، محققاً لعلم العربية ، وكان ورعا ناسكا . ووصل فى سفره إلى العراق . واجتمع بالغزالى والكِيَا الهراسى ، وقيل : لم يجتمع بالغزالى . واجتمع بأبى بكر الطرطوشى [٤] بالإسكندرية . وحج ورجع إلى المغرب .

قال : ولما ركب البحر من الإسكندرية مُغرِّبا غيَّر المنكرات

---

(١) ابن تغرى بردى ٥ : ٢٥٤ : فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وقيل سنة أربع عشرة .

(٢) ك : يتقلب .

(٣) انظر الخلاف فى نسبه فى ابن خلدون ٦ : ٢٢٥ ، المونس ١٠٧ ، الأنيس ١١٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٧ .

(٤) كذا فى ر ، ابن الأثير ٨ : ٢٩٤ والمعجب ١٧٩ ، وابن خلكان ٢ : ٣٧ . وفى ص ، خ ، ت : الطوسى .

فى المركب . وألزم من فيه بإقامة الصلاة وقراءة القرآن حتى انتهوا إلى المهدية ، وسلطانها حينئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وذلك فى سنة خمس وخمسمائة . فنزل بمسجد وليس معه سوى رَكْوة (١) وعصا . فتسامع به أهل البلد فقصدوه يقرئون عليه أنواع العلوم . فكان إذا مر به المنكر أزاله وغيره . فلما كثر ذلك منه ، أحضره الأمير يحيى مع جماعة من الفقهاء . فأعجبه سَمْتُه وكلامه فاحترمه وسأله الدعاء .

ثم رحل من المهدية وأقام بالمُنَستير مع جماعة من الصالحين(٢) مدة .

وسار إلى بجاية وفعل مثل ذلك . فأُخرج منها إلى قرية بالقرب منها اسمها ملالة (٣) ، فلقيه بها عبد المؤمن . فرأى منه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم (٤) والقيام بالأمر . فسأله عن اسمه وقبيلته . فأخبره أنه من قيس عَيْلان ثم من بنى سُلَيم فقال محمد بن تومرت : « هذا الذى بشربه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : إن الله لينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس . فقيل : من أى قيس ؟ فقال : من بنى سليم ». واستبشر بعبد المؤمن وسُرَّ بلقائه . وكان مولد عبد المؤمن بمدينة

(١) الركوة : إناء صغير من جلد ليشرب فيه الماء .

(٢) ك : جماعة من المسلمين من الصالحين .

(٣) كذا فى ابن خلدون ٦ : ٤٦٧ ؛ ابن تغرى ٥ : ٢٥٤ ، ابن الأثير ٨ : ٢٩٤ ، والمعجب ١٨٠ ، وابن خلكان ٢ : ٣٨ . وفى ص ، ع ، ك : ملاية .

(٤) ك : التقديم .

تاجرة[١] من أعمال تلمسان ، وهو من بنى عائد قبيلة من كومَة[٢] نزلوا بذلك الإقليم فى ثمانين ومائة .

قال : ولم يزل المهدى يلازم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن وصل إلى مراكش ، وهى دار مملكة على بن يوسف ابن تاشفين . فرأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه فى طريقه . فزاد أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فكثر أتباعه وحسنت ظنون الناس فيه .

فبينما هو فى بعض الأيام فى طريقة ، إذ رأى أخت أمير المسلمين فى موكبها ومعها عدة من الجوارى الحسان ، وهن مُسفِرات . وكانت هذه من عادتهم[٣] . فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستروجوههن . وضرب هو وأصحابه دوابهن . فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها . فرُفع أمره إلى أمير المسلمين على بن يوسف . فأحضره الفقهاء لمناظرته ، فأخذ يعظه ويذكّره ويخوفه ، فبكى أمير المسلمين[٤] . وأمر أن يناظروه فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته . وكان عند أمير المسلمين رجل من وزرائه[٥] اسمه مالك بن وهيب[٦] فقال له :

(١) كذا فى ر ، و البكرى ٨٠ . وفى ك : باجرة ، وبدون نقط فى ص ، ع .

(٢) كذا فى ص ، ك ، ع وابن خلكان ١ : ٣١١ . وفى ر ، والبكرى ٨٠ ، وابن خلكان ٢ : ٣٧٥ : كومية . وفى ابن الأثير ٨ : ٢٩٥ : كومرة ، محرف عن كومية التى هى أرجح الروايات .

(٣) ص : هذه عادتهم .

(٤) ر : أمير المسلمين على بن يوسف .

(٥) ابن خلدون ٦ : ٤٦٩ : فقيه ، وابن خلكان ٢ : ٣٨ : كان عالماً صالحاً .

(٦) كذا فى ر ، ابن الأثير ٨/٢٩٥ ، ابن خلدون ٦ : ٤٦٩ والمعجب ١٨٥ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٨ . وفى ص ، ع ، ك : مالك بن وهب .

« يا أمير المسلمين إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إنما هو يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض النواحى ، فاقتله وقَلِّدنى دمه » . فلم يفعل ذلك فقال : « إذا لم تقتله فاحبسه وخَلِّده فى السجن وإلا أثار شرا لا يمكن تلافيه » . فأراد حبسه فمنعه من ذلك رجل من أكابر الملثمين يسمى بنيان بن عمران (١) . فأمر بإخراجه من مراكش .

فسار إلى أغمات ولحق بالجبل . وسار منه حتى التحق بالسوس الذى فيه قبيلته هرغة وغيرهم من المصامدة ، وذلك فى سنة أربع عشرة وخمسمائة . فأتوه واجتمعوا حوله . وتسامع به أهل تلك النواحى فوفدوا إليه ، وحضر أعيانهم بين يديه . فجعل يعظهم ، ويذكرهم شعائر الإسلام وماغيِّر منها وماحدث من الظلم والفساد ، وأنه لاتجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم مما هم عليه . فأقام على ذلك نحو سنة . وتابعته قبيلة هرغة .

وسمى أتباعه الموحدين . وأعلمهم أن النبى صلى الله عليه وسلم بشر بالمهدى الذى يملأ الأرض عدلا ، وأن مكانه الذى يخرج منه المغرب الأقصى . فقام إليه عشرة رجال منهم عبد المؤمن فقالوا : « لايوجد هذا إلا فيك ، وأنت المهدى » . وبايعوه على ذلك .

فانتهى خبره إلى أمير المسلمين فجهز جيشا من أصحابه لقتاله . فلما قربوا من الجبل الذى هو فيه قال لأصحابه : « إن هؤلاء يريدوننى وأخاف عليكم منهم . والرأي أن أخرج إلى غير هذه البلاد لتسلموا

(١) كذا فى ر ، وهو غير منقوط فى بقية الأصول . وفى ابن الأثير ٨ : ٢٩٥ : بيان . وفى أشباخ ١٩٨ : عثمان بن عمر . وذكر ابن خلكان ٢ : ٣٩ أن الذى منعه وزيره .

أنتم » . فقال له ابن توفيان [١] من مشايخ هرغة : « هل تخاف شيئا من السماء ؟ » فقال : « بل من السماء تنصرون » . فقال ابن توفيان : «فليأتنا كل من فى الأرض » . ووافقته جميع قبيلته . فقال المهدى عند ذلك : « أبشروا بالنصر والظفر [٢] بهذه الشرذمة . وبعد قليل تستأصلون دولتهم وترثون أرضهم » . فنزلوا من الجبل ولقوا [٣] جيش أمير المسلمين ، فهزموهم وأخذوا أسلابهم . وقوى ظنهم بصدق المهدى حيث ظفروا كما أخبرهم .

فأقبلت إليه أفواج القبائل من الجبال التى حوله شرقاًوغرباً فأقبل عليهم واطمأن إليهم ، وأتته رسل أهل تينملّ [٤] بطاعتهم وطلبوه إليهم . فتوجه إلى جبل تينمل وأقام به واستوطنه . وبايعته قبيلة هنتاتة ، وهى من أقوى القبائل . وألف كتاباً فى التوحيد ، وكتابا فى العقيدة . ونهج لمن معه طريق الأدب مع بعضهم بعضا ، والاقتصار على لباس الثياب القليلة الثمن . وهو فى خلال ذلك يحرضهم على قتال عدوهم ، وإخراج الأشرار من بين أظهرهم . وبنى له مسجدا بتينمل خارج المدينة ، فكان يصلى فيه الصلوات الخمس هو وجميع من معه ، ويدخل البلد بعد العشاء الآخرة .

---

(١) كذا فى ر،ك،ابن الأثير ٨ : ٢٩٦. وفى ع : نوفيان .

(٢) ك : بالظفر والنصر .

(٣) ك : وأتوا .

(٤) وكذا فى الأنيس ١٢٣ ، وابن خلكان ٢ : ٤١ . وفى ابن الأثير ٨ : ٢٩٦ ، وابن خلدون ٦ : ٧٤ : تينملل . وفى المؤنس ١٠٨ : تينمال . والادريسى ٦٤ : تانملت.

فلما رأى كثرة أهل البلد وحصانة المدينة ، خاف أن يرجعوا عنه ، فأمرهم أن يحضروا عنده بغير سلاح . ففعلوا ذلك عدة أيام . ثم أمر أصحابه أن يقتلوهم ، فقتلوهم فى ذلك المسجد ثم دخل المدينة فقتل فيها (١) وأكثر ، وسبى الحريم ، ونهب الأموال . فكانت عدة القتلى خمسة عشر ألفا . وقسم المساكن والأرض بين أصحابه . وبنى على المدينة سورا وقلعة على رأس جبل تينمل ، وهو جبل عال فيه أشجار وزرع (٢) وأنهار جارية ، والطريق إليه صعب .

وقيل : إنه لما خاف أهل تينمل ، نظر إلى أولادهم فرآهم شقرا زرقا ، والذى يغلب على الآباء السمرة ، فقال لهم : « مالى أراكم سمر الألوان وأولادكم شقرا زرقا؟ » فقالوا : « إن لأمير المسلمين (٣) عدة من المماليك الفرنج والروم ، وإنهم يصعدون إلى هذا الجبل فى كل عام مرة ، يأخذون مالهم فيه من الأموال المقررة من جهة السلطان ، فيسكنون البيوت ، ويُخرجون أصحابها منها » فَقبَّح الصبر على هذا وأزرى عليهم وعظّم الأمر عندهم . فقالوا له : « فكيف الحيلة فى الخلاص منهم ، وليس لنا بهم قوة ؟ » فقال : « إذا حضروا عندكم فى الوقت المعتاد وتفرقوا فى مساكنكم ، فليقم كل رجل إلى نزيله فيقتله ، واحفظوا جبلكم فإنه لا يرام » . ففعلوا ذلك عند

(١) ص : بها .
(٢) ك : وزروع .
(٣) د ، ص : لأن لأمير المسلمين .

مجيء مماليك أمير المسلمين إليهم ثم خافوا على نفوسهم فامتنعوا فى الجبل وسدوا ما فيه من طريق يسلك إليهم منه .

فقويت عند ذلك نفس المهدى ثم أرسل أمير المسلمين جيشا كثيفا . فحصرهم فى الجبل وضيق عليهم ومنع عنهم الميرة . فقلّت الأقوات عند أصحابه ، فكان يطبخ لهم الحساء فى كل يوم ، وجعل قوت الرجل منهم أن يغمس يده فى ذلك الحساء ويخرجها ، فما علق عليها فهو قوته فى ذلك اليوم . فاجتمع أهل تينمل وأرادوا إصلاح حالهم مع أمير المسلمين فبلغه ذلك فأعمل [١] من الحيلة عليهم ما نذكره .

ذكر خبر أبى عبد الله الونشريسى [٢]

قال : كان مع المهدى إنسان يقال له أبو عبد الله الونشريسى ، وهو يُظهر الوَلَه [٣] وعدم المعرفة بشىء من العلم والقرآن ، وبُصاقُه يجرى على صدره ، وهو كالمعتوه ، والمهدى يقربه ويكرمه ويقول : « إن لله سرا فى هذا الرجل سوف يظهر » . هذا والونشريسى يشتغل بالقرآن والعلم فى السر بحيث لا يعلم به أحد .

فلما كان فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، خاف [٤]

(١) ك : فعمل .
(٢) ك ١٢ : ١٨٦ : التومرتى . وفى ص : الونشريشى ، تحريف .
(٣) ابن الأثير ٨ : ٢٩٧ : البله .
(٤) ك : جاء ، تحريف .

المهدى من أهل الجبل . فخرج يوماً لصلاة الصبح ، فرأى إلى جانب محرابه إنسانا طيب الرائحة ، فأظهر أنه لا يعرفه وقال : « من هذا ؟ » قال : « أنا أبو عبد الله الونشريسى » . فقال له المهدى : « إن أمرك لعجيب » . ثم صلى . فلما فرغ من صلاته نادى فى الجبل . فاجتمع الناس وحضروا إليه . فقال لهم : « إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريسى ، فانظروه وحققوا أمره » . فلما أضاء النهار عرفوه . فقال له المهدي : « ماقصتك ؟ » قال : « إننى أتانى الليلة مَلَك من السماء ، فغسل قلبي ، وعلمنى القرآن والموطأ وغيره من العلوم والأحاديث » . فبكى المهدى بحضرة الناس ثم قال : « نمتحنك ؟ » فقال : « افعل » . وابتدأ بقراءة القرآن فقرأه قراءة حسنة من أي موضع سُئل . وكذلك الموطأ وغيره وكتب الفقه والعلوم والأصول . فعجب الناس من ذلك واستعظموه .

ثم قال : « إن الله قد أعطانى نورا أعرف به أهل الجنة من أهل النار ، وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة . قد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر الفلانية يشهدون بصدقى » . فسار المهدى والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر . ووقف عند رأسها وصلى وقال : « ياملائكة الله ، إن أبا عبد الله قد زعم كيت وكيت » . فسمع من أسفل البئر : « صَدَق ، صَدَق » وكان قد رتب بها رجالا يفعلون ذلك . فلما تكلموا قال المهدى : « إن هذه البئر بئر مطهَّرة مقدَّسة قد نزل إليها

الملائكة ، والمصلحة أن تُطَمّ[1] لئلا يقع فيها نجاسة » . فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طَمها .

ثم نادي في الجبل بالحضور للتمييز ومعناه العرض. فكان الونشريسي يعمد إلى الرجل الذي تُخاف ناحيته فيقول : «هذا من أهل النار » . فيلقى من الجبل ، وإلى الشاب الغر ومن لا يخشاه فيقول : « هذا من أهل الجنة» . فيُترَك عن يمينه. فكانت عدة القتلى سبعين ألفاً . فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه . هذا هو المشهور عنه في التمييز .

وقيل إن ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد في الجبل أحضر شيوخ القبائل وقال لهم : « إنكم لا يصلح لكم دين ولا تقوى إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإخراج المفسدين من بينكم ، فابحثوا عن كل من عندكم من أهل الشر والفساد فانهَوْهم ، فإن انتهوا وإلا فأثبتوا أسماءهم وارفعوها إليّ لأنظر في أمرهم. ففعلوا ذلك وكتبوا له[2] أسماء المفسدين من كل قبيلة. ثم أمرهم بذلك مرة ثانية[3] وثالثة . ثم جمع أوراقهم وأخذ منها ما تكرر من الأسماء[4] وأثبته عنده . ودفع ذلك إلى الونشريسي المعروف بالبشير . وأمره أن يعرض

(١) ك : يطلم .
(٢) ر : إليه.
(٣) ر : أمرهم بذلك ثانية .
(٤) ك : في الأسماء .

القبائل ، وأن يجعل أولئك من جهة الشمال ، ومن عداهم في جهة اليمين ، ففعل ذلك . وأمر المهدى أن يكتف من على شمال الونشريسى فكتّفوا . ثم قال : « إن هؤلاء أشقياؤكم قد وجب قتلهم » . وأمر كل قبيلة بقتل أشقيائها فقُتلوا عن آخرهم .

قال : ولما فرغ من التمييز رأى من بقى من أصحابه على نيات خالصة وقلوب متفقة على طاعته . فجهز جيشا وسيّرهم إلى جبال أغمات ، وبها جمع كبير (١) من المرابطين . فقاتلوهم فانهزم أصحاب ابن تومرت (٢) ، وكان أميرهم الونشريسى . وقُتل كثير منهم . وجُرح عمر أنتات (٣) وهو الهَنْتاتى ، وكان من أكبر أصحاب المهدى وسَكَن حسُّه ونَبْضه . فقالوا : « مات » . فقال الونشريسى : « لم يمت ولا يموت حتى يملك البلاد » . فبعد ساعة فتح عينيه وعادت قوته إليه . فافتتنوا به ورجعوا إلى ابن تومرت فوعظهم وشكر صبرهم .

ثم لم يزل بعد ذلك يرسل السرايا فى أطراف البلاد فإذا رأوا عسكرا تعلقوا بالجبل فأمنوا على أنفسهم . وعلا أمر المهدى فرتب أصحابه على طبقات .

---

(١) ك : كثير .

(٢) ذكر المونس ١٠٩ أن المرابطين هم الذين انهزموا .

(٣) ر : عمر بن يحيى . ابن خلدون ٦ : ٤٦٩ : عمر ينتى .

ذكر ترتيب أصحاب المهدى

قال : ورتب المهدى أصحابه مراتب . فالأولى آية عشرة ، يعنى أهل عشرة ، وأولهم عبد المؤمن ، ثم أبو حفص عمر انتات [١] وهو الهَنْتاتى وغيرهما ، وهم أشرف أصحابه ، وأهل الثقة عنده ، والسابقون إلى مبايعته [٢] .

والثانية آية خمسين ، وهم دون تلك الطبقة ، وهم جماعة من رؤساء القبائل [٣] .

والثالثة آية سبعين ، وهم دون الذين قبلهم فى الرتبة والسابقة .

[وسمى] [٤] عامة أصحابه والداخلين [٥] فى طاعته مُوَحِّدين .

ذكر حصار مراكش ووقعة البحيرة ومقتل أبى عبد الله الونشريسى

قال : وفى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، جهز المهدى جيشا كثيفا يبلغون أربعين ألفا أكثرهم رجالة [٦] . وجعل عليهم الونشريسى

(١) ر : عمر بن يحيى .
(٢) ابن الأثير ٨ : ٢٩٨ : متابعته
(٣) ك : الأكابر .
(٤) زيادة عن ابن الأثير ٨ : ٢٩٨ .
(٥) ر : أصحابه الداخلين .
(٦) ابن خلكان ٢ : ٤٠ عشرة آلاف .

وسير معه عبد المؤمن . فساروا إلى مراكش وحصروها وضيقوا على من بها ، وبها أمير المسلمين على بن يوسف . فبقى الحصار عليها عشرين (١) يوما . فأرسل أمير المسلمين (٢) إلى متولى سجلماسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش . فجمع جمعا كثيرا وسار . فلما قارب عسكر المهدى ، خرج أهل مراكش من غير الجهة التى أقبل (٣) منها . والتقوا واقتتلوا ، واشتد القتال ، وكثر القتل فى أصحاب المهدى . وقتل أميرهم الونشريسى . فولوا عبد المؤمن أمرهم ، وقدموه عليهم . ودام القتال بينهم (٤) عامة النهار . وصلى عبد المؤمن صلاة الخوف الظهر والعصر والحرب قائمة . فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير يسمونه عندهم البحيرة . وصاروا (٥) يقاتلون من وجه واحد إلى أن حجز بينهم الليل .

قال : ولما قُتل الونشريسى ، دفنه عبد المؤمن لوقته سرا . فطلبه المصامدة فلم يروه فى القتلى فقالوا : « رفعته الملائكة » .

قال : ولما جَنَّهم الليل ، سار عبد المؤمن ومن سلم من القتل (٦) إلى الجبل . وسميت هذه الوقعة بالبحيرة ، وعام البحيرة .

---

(١) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٢٩٨ . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٢٩ : أربعين . وفى الوفيات ٢ : ٤٠ : شهرا .

(٢) ر : أمير المسلمين على بن يوسف .

(٣) ك : أقبلوا .

(٤) ر : عليهم .

(٥) ك : وساروا .

(٦) ص ، ك : القتلي ، تحريف .

ذكر وفاة المهدى محمد بن تومرت

كانت وفاته فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة [١] ، وذلك أنه مرض بعد إرسال الجيش لحصار مراكش واشتد مرضه . وأتاه خبر الهزيمة وقتل الونشريسى ، فسأل عن عبد المؤمن . فقيل : « هو سالم » . فقال : « مامات أحد ، والأمر قائم ، وهو الذى يفتح كل البلاد » . ووصى أصحابه بتقديمه ، واتباعه ، وتسليم الأمر إليه ، والانقياد له . ولقبه أمير المؤمنين ثم مات . وكان عمره إحدى وخمسين سنة ، وقيل : مات وله خمس وخمسون سنة . ومدة ولايته عشر سنين [٢] .

ذكر ولاية عبد المؤمن بن على [٣]

كانت ولايته بعد وفاة المهدي محمد بن تومرت فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بوصية من المهدي كما ذكرناه [٤] .وكان فى الغزو فعاد إلى تينمل وتسلم [٥] الأمر ، وتلقّب بأمير المؤمنين على مالقّبه به المهدي قبل وفاته . وأقام يتألف القلوب ويحسن إلى الناس إلى [٦] سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

---

(١) ذكر ابن خلدون ٦ / ٤٧٢ أنه مات سنة ٥٢٢ وأخفى موته ثلاث سنوات .

(٢) ر ، ابن الأثير ٨ : ٢٩٨ : عشرين سنة .

(٣) ع ، ك : ذكر ولاية عبد المؤمن .

(٤) انظر الخلاف فى طريقة تولى عبد المؤمن فى الأنيس ١٢٩ والاستقصا ٢ : ٩١ .

(٥) ك : وتم .

(٦) إلى : ساقطة من ع ، ك . ولم يذكر ابن خلدون ٦ : ٤٧٣ . الأنيس ١٣١ فترة الهدنة هذه بل صرحا بخروجه للحرب سنة ٥٢٦ .

ذكر خروجه للغزو [١] وما فتحه من البلاد ومن [٢] أطاعه من القبائل

قال : وفى هذه السنة ابتدأ عبد المؤمن بالغزو . وسار فى جيش كثيف ، وجعل يمشى فى الجبل إلى أن وصل إلى تَادِلة [٣] . فمانعه أهلها وقاتلوه فهزمهم وفتحها . وتم منها إلى البلاد التى تليها . ومشى فى الجبال يفتح [٤] ما امتنع عليه . وأطاعه صنهاجة الجبل . قال : فعند ذلك جعل أمير المسلمين على بن يوسف ولده تاشفين بن على ولى عهده ، وأحضره من الأندلس ، وكان أميرا عليها ، وندبه لقتال عبد المؤمن ، وذلك فى سنة إحدى وثلاثين [٥] . فسار تاشفين لحربه [٦] ، فكان يمشى فى الصحراء وعبد المؤمن فى الجبال .

وفى سنة اثنتين وثلاثين ، كان عبد المؤمن بجيشه فى النواظر – وهو جبل عال مشرف – وتاشفين فى الوطاة ، ويخرج من الطائفتين قوم يتطاردون ويترامون ، ولم يكن بينهم لقاء . وسمى هذا عام النواظر ، ويؤرخونه به .

---

(١) ك : إلى الغزو .

(٢) ك : وما .

(٣) تادلة : مدينة على الطريق بين تلمسان وسجلماسة ، قريبة من أغمات ، اشتهرت بالقطن والخصب والغنى . وفى المونس ١١ ، ابن خلدون ٦ : ٤٧٣ ، الاستقصا ٣ : ٩٢ ، الأنيس ١٢١ تادلا (الادريسى ٧٤–٥ ، ٨١) .

(٤) ك : ففتح .

(٥) ابن خلدون ٦ : ٤٧٣ : سنة ٥٣٣ .

(٦) ك : بحربه .

وفى سنة ثلاث وثلاثين ، توجه عبد المؤمن مع الجبل [١] فى الشَّعْراء [٢] حتى انتهى إلى جبل كَرانطة [٣] . فأقام به فى أرض صلبة بين شجر ، وتاشفين قبالته فى الوطأة فى أرض لينة [٤] لا نبات بها . وكان الفصل شتاء ، فتوالت الأمطار أياما كثيرة . فصار الموضع الذي فيه تاشفين وعسكره كالسباخ لايستطيع الماشى أن ينقل فيها قدما . وقلّت الأقوات عندهم فهلكوا جوعا وبردا حتى وقدوا رماحهم وقَرابيس سروجهم ، وعبد المؤمن ومن معه فى تلك الأرض الصلبة والميرة تصل إليهم .

وفى ذلك الوقت سير عبد المؤمن جيشا إلى وَجْدة [٥] من أعمال تلمسان . وقدم عليهم أبا عبد الله محمد بن رفُوا [٦] من آية خمسين . فبلغ خبرهم إلى محمد بن يحيي متولى تلمسان . فخرج إليهم بجيش من الملثمين فالتقوا بموضع يعرف بمرج الحُمُر [٧] . واقتتلوا فهزمهم الموحدون . وقُتل محمد بن يحيي وكثير من أصحابه ، وغنم الموحدون ما معهم ورجعوا بأسلابهم إلى عبد المؤمن .

(١) ص، ر : الخيل ، تحريف. فقصده أنه سار دون أن يترك الجبل، إلى جانب أن قوته من الفرسان كانت ضئيلة . (أشباخ ٢٠٨) .

(٢) الشعراء : الشجر الكثير ، أو الأرض ذات الشجر الكثير .

(٣) كرانطة : مدينة ذات كروم وفواكه ومزارع ، على الطريق من فاس إلى تلمسان، أقرب إلى الأولى ، وفى ك : كرناطة (الإدريسى ٧٩) .

(٤) ر : لشية، أى موحلة .

(٥) وجدة : مدينة كبيرة البساتين والمزروعات بينها وبين تلمسان ثلاث مراحل . وفى ابن الأثير ٨ : ٢٩٩ : وجرة . وفى ت :أجرة . وفى ص، ع :أوجرة، ولعلها محرفة عن : أوجدة وهى قراءة ر . (الاستبصار ٦٦، البكرى ٨٧ الإدريسى ٥٦) .

(٦) ابن الأثير ٨ : ٢٩٩ : رقو.

(٧) كذا فى ع. وفى ك: بمرج الجمر . ر : بمرج الخمر . ابن الأثير ٨ : ٢٩٩ : خندق الخمر.

فتوجه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى جبال غمارة فأطاعوه قبيلة بعد قبيلة . وأقام عندهم مدة .

وما برح يمشى فى الجبال وتاشفين يحاذيه فى الصحارى إلى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، فتوفى على بن تاشفين بمراكش ، وملك بعده ابنه تاشفين . فقوى طمع عبد المؤمن فى البلاد إلا أنه لم ينزل [1] الصحراء .

وفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، توجه عبد المؤمن إلى تلمسان . فنازلها وضرب خيامه فى جبل عال بأعلاها يسمى بين الصخرتين . ونزل تاشفين خارج مدينة تلمسان على باب القرمادين . وكان بين أقوام من العسكرين مراماة ومطاردة مع الأيام . ودام ذلك أشهرا . ولم يكن بينهم مناجزة .

ورحل عبد المؤمن فى سنة تسع وثلاثين [2] إلى جبل تاجرة . ووجه جيشا مع عمر بن يحيى الهنتاتى إلى مدينة وهران . فهاجمها بغتة وصار هو وجيشه فيها . فسار إليه تاشفين فخرج الهنتاتى منها . ونزل تاشفين على الجانب الآخر من البلد . وذلك فى شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

فلما كان فى ليلة سبع وعشرين من الشهر . وهى ليلة معظمة سيما بالمغرب ، وبظاهر وهران ربوة مطلة على البحر ، وبأعلاها ثنية يجتمع فيها المتعبدون — وهو موضع معظم عندهم — فسار [3] إليه تاشفين فى

(١) ك: يترك ، تحريف .
(٢) زادت ك: وخمسمائة فلما كان .
(٣) كذا فى الأصول بالفاء على عادة المؤلف .

نفر قليل من خاصة أصحابه[١] . وصعد إلى ذلك المعبد سرا بالليل، ولم يعلم به إلا النفر الذين معه . وقصد التبرك بحضور ختم القرآن مع الصالحين . فانتهى خبره إلى الهنتاتى ، فسار لوقته بجميع عساكره إلى ذلك المعبد ، وأحاطوا به وملكوا الربوة . فخاف تاشفين على نفسه أن يأخذوه ، فركب فرسه وحمل به إلى جهة البحر من جرف عال فسقط على حجارة فهلك . ورفعت جثته على خشبة ، وقتل من كان معه .

وقيل : إن تاشفين قصد حصنا هناك على رابية وله فيه [٢] بستان كبير فيه من كل الفواكه . واتفق أن الهنتاتى سير سرية إلى ذلك الحصن لضعف من فيه ، ولم يعلم أن تاشفين هناك . فألقوا النار فى باب الحصن فاحترق . فركب تاشفين فرسه وأراد الهرب . فوثب به الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور فسقط فى النار . فأُخذ تاشفين فعُرف . فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن فمات لوقته . وتفرق عسكره واحتمى بعضهم بمدينة وهران .

قال : وأرسل المرحلون بالخبر إلى عبد المؤمن . فجاء من تاجرة فى يومه [٣] ، ودخل وهران بالسيف وقتل من فيها .

---

(١) ص ، ر : من خاصته .
(٢) ك : فيها .
(٣) ع : من يومه .

ذكر استيلاء عبد المؤمن على تلمسان وفاس ومكناسة وسلاوسبتة

قال : ثم سار عبد المؤمن إلى تلمسان ، وهى مدينتان بينهما شوط. فرس : تاجررت [١] وبها أصحاب السلطان ، والأخرى أجادير . وتاجررت ينطق بها بجيم محيرة [٢] بين الكاف والجيم ، وكذلك أجادير . وتاجررت محدثة البناء ، وأجادير قديمة . فامتنعت أجادير وتأهب أهلها للقتال . وأما تاجررت فكان بها يحيى بن الصحراوية [٣] واليا عليها فخرج منها بعسكره فارًا إلى مدينة فاس . ودخلها عبد المؤمن ، فلقيه أهلها بالخضوع والاستكانة . فلم يقبل ذلك منهم وقتل أكثرهم .

ثم رحل عنها فى سنة أربعين وخمسمائة إلى مدينة فاس . ورتب على أجادير جيشا يحصرها [٤] ، وجعل عليهم يوسف بن وانُودِين ابن تامصُلت الهنتاتى [٥] . فداوم الحصار وضيق على من بها ، ونصب عليها المجانيق وأبراج الخشب والدبابات . ودام الحصار نحو سنة [٦] وكان المقدم على أهلها الفقيه عثمان . فلما اشتد الحصار على أهلها ،

(١) ص : أحدها تاجررت ، ورسم ياقوت الكلمتين «تافرزت» و «أقادير» .

(٢) ر : مخيرة .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٣٠٠ . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٣١ ، الاستقصا ٢ : ٩٦ يحيى ابن أبى بكر الصحراوى .

(٤) ك : فحصرها.

(٥) ابن خلدون ٦ : ٢٣١ ، الاستقصا ٢ : ٩٦ : ابراهيم بن جامع . أما يوسف بن وانودين فقيل إنه ولى تلمسان هو أو سليمان بن محمد بن وانودين .

(٦) ذكر الأنيس ١٣٢ أنها حصرت إلى سنة ٥٤٤ .

اجتمع جماعة منهم وراسلوا الموحدين بغير علم الفقيه ، وأدخلوهم البلد . فلم يشعر أهله إلا والسيف قد أخذهم . فقتل أكثر أهل البلد ، ونهبت الأموال ، وسبيت الذرارى والحُرَم . وبيع من لم يُقتل بأبخس الأثمان . وأُخذ من الأموال والجواهر مالا يحصى . وكان عدة من قتل مائة ألف . وقيل : إن عبد المؤمن هو الذي حصر تلمسان وفتحها ، وسار منها إلى فاس (١) .

قال : ولما وصل عبد المؤمن إلى مدينة فاس ، نزل على جبل الفرض المطل عليها . وعمل حول مخيَّمه سورا وخندقا . وحصرها تسعة (٢) أشهر ، وبها يحيي بن الصحراوية بعسكره الذين فروا من تاجررت. فعمد عبد المؤمن إلى نهر يدخل البلد فسَكَره (٣) حتى صار بحيرة تسير السفن فيها . ثم هدم السِّكْر فجاء الماء دفعة واحدة ، فخرب سور البلد . فأراد الدخول فقاتله أهلها خارج السور . وكان القائد عبد الله بن خيار الجَيانى عاملا عليها وعلى جميع أعمالها ، فاتفق هو وجماعة أعيان (٤) البلد ، وكاتبوا عبد المؤمن سرا فى طلب الأمان لأهل فاس . فأجابهم عبد المؤمن إلى ذلك . ففتحوا له بابا من أبواب المدينة ، فدخلها عسكره . وهرب يحيي بن الصحراوية بمن معه إلى مدينة طنجة . وكان فتحها فى أواخر سنة أربعين وخمسمائة (٥) .

---

(١) ص: قابس .ك: فارس ، وهما محرفان .

(٢) قد يفهم من ابن خلدون ٦ : ٢٣٢ ، الاستقصا ٢ : ٩٦ أن الحصار دام سبعة أشهر .

(٣) سكره: حبس ماءه بسد .

(٤) ر: من أعيان .

(٥) ذكر الناصري ٢ : ٩٦ أن بعض المؤرخين نقل أن عبد المؤمن فتح فاس فى سنة ٥٤١ أو بعدها .

ورتب عبد المؤمن أمرها وأخذ جميع مافيها من سلاح .

وسير سرية إلى مكناسة فحصروها مدة ثم سلمها أهلها بالأمان ، فوفّوا لهم .

ثم سار عبد المؤمن إلى مدينة سلا ففتحها .

وحضر إليه جماعة من أعيان سبتة ، فدخلوا فى طاعته وسألوا أمانه فأمّنهم ، وذلك فى أول سنة إحدي وأربعين[1] .

ذكر ملك عبد المؤمن مراكش وقتله اسحاق بن على وانقراض دولة الملثمين

قال : ولما فرغ عبد المؤمن من مدينة فاس وتلك النواحى ، سار إلى مدينة مراكش ، وهى كرسى مملكة الملثمين ، وبها إسحان بن على ابن يوسف بن تاشفين ، وهو صبي . فنازلها فى سنة إحدي وأربعين وخمسمائة . وضرب خيامه فى غربيها على جبل صغير ، وبنى عليه مدينة له ولعسكره وجامعا . وجعل لنفسه بناء عاليا يشرف منه على المدينة ويري أحوال أهلها وأحوال المقاتلين . فأقام عليها أحد عشر[2] شهرا والقتال مستمر ، ومن بها من المرابطين يخرجون ويقاتلون ظاهر البلد . فاشتد الجوع على أهله وتعذرت الأقوات عندهم .

ثم زحف إليهم يوما ، وجعل لعسكره كمينا ، وقال لعسكره :

(١) زادت ص ، ر : و خمسمائة .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٨ : ٣٠٠ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣١٠ . وفى ابن خلدون ٦ / ٢٣٢ ، والناصرى ٢ : ٩٧ تسعة أشهر .

« قاتلوهم ثم انهزموا لهم » . وقال للكمين : « لاتخرجوا حتى تسمعوا الطبل » . وجلس هو على المنظرة يشاهد القتال . وتقدم أصحابه للقتال فقاتلوا وصبروا ثم انهزموا . وتبعهم أهل مراكش حتى جاوزوا الكمين ووصلوا إلى مدينة عبد المؤمن وهدموا أكثر سورها . وصاحت المصامدة ليضرب الطبل . فقال عبد المؤمن : « اصبروا حتى يخرج كل طامع من البلد » . فلما خرج أكثر أهله أمر بضرب الطبل فضُرب وخرج الكمين عليهم وعطفت المصامدة . فقتلوا الملثمين كيف شاءوا وتمت الهزيمة . فمات في زحمة الأبواب خلق كثير .

وكان شيوخ الملثمين يدبرون [1] دولة إسحاق لصغر سنه . فاتفق أن إنسانا من جملتهم يقال له عبد الله بن أبي بكر استأمن إلى عبد المؤمن ، وأطلعه على عورة البلد وضعْف من فيه ، وقَوي طمعه فيهم . فنصب عبد المؤمن عليه المجانيق والأبراج. وفنيت الأقوات فأكلوا دوابهم ، ومات من العامة بالجوع ما يزيد على مائة ألف [2] إنسان . فجاف [3] البلد من جثثهم .

وكان بمراكش جيش من الفرنج [4] كان المرابطون [5] قد استنجدوا بهم وأتوهم نجدة . فلما طال الأمر عليهم راسلوا عبد المؤمن يطلبون الأمان فأمنهم . ففتحوا له بابا من أبواب البلد يقال له باب أغمات . فدخلت عساكر عبد المؤمن بالسيف ، وملكوا المدينة عنوة ،

(١) كذا في ر ، ابن الأثير ٨ : ٣٠١ . وفي بقية الأصول : يريدون .
(٢) وكذا في ابن الأثير ٨ : ٣٠١ . وفي أنباخ ٢١٢ : مائتي ألف .
(٣) جاف : أنتن .
(٤) ك : الافرنج .
(٥) كذا في ابن الأثير ٨ : ٣٠١ . وفي الأصول : الفرنج يقال لهم المرابطون . تحريف .

وقتلوا من وجدوه . ووصلوا إلى دار أمير المسلمين ، فأخرجوا إسحاق وجميع من معه من المرابطين . وقدموهم للقتل وإسحاق يرتعد ويسأل العفو عنه رغبة فى البقاء ، ويدعو لعبد المؤمن ويبكى . فقام إليه الأمير سير بن الحاج ، وكان إلى جانبه مكتوفا ، فبصق فى وجهه وقال : « تبكى على أمك أم أبيك . اصبر صبر الرجال [1] فهذا رجل لايخاف الله تعالى ولايَدينه بدين » . فقام الموحدون إليه فضربوه بالخشب حتى مات ، وكان من الشجعان . وضُربت عنق إسحاق . وذلك فى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة أو ثلاث وأربعين [2] .

قال : وأقام عبد المؤمن بمدينة مراكش واستوطنها واستقر ملكه بها . وقتل من أهلها فأكثر ، واختفى كثير منهم . فلما كان بعد أسبوع أمر فنودي بالأمان ، فخرج من اختفى من أهلها . فأراد المصامدة قتلهم ، فمنعهم وقال : « هؤلاء صناع وأهل الأسواق ومن ينتفَع به » . فتُركوا وبنى بالقصر جامعا [3] كبيرا وزَخرفه وأتقن عمله . وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

---

(١) ك : الرجل .

(٢) ذكر ابن خلدون ٦ : ٢٣٢ ، والأنيس ١٣٣ ، والناصرى ٢ : ٩٨ أن فتح مراكش كان فى سنة ٥٤١ . وذكر ابن تغرى ٥ : ٢٨١، ٣٦٣ وابن خلكان ١ : ٣١٠، ٣٧١ : أنه كان فى ٥٤٢ .

(٣) كذا فى ص، ر ، وابن الأثير ٨ : ٣٠١. وفى ص: وبنى القصر جامعاً . وفى ك: وبنى القصر وجامعاً .

ذكر ظفره بدكالة

وفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، سار بعض المرابطين من الملثمين [١] إلى دُكّالة . فاجتمع إليه [٢] قبائلها وصاروا يغيرون على أعمال مراكش ، وعبد المؤمن لا يلتفت إليهم . فلما كثر ذلك منهم ، سار إليهم عبد المؤمن فى سنة أربع وأربعين [٣] . فلما سمعت دكالة بمسيره ، اجتمعت كلها وانحسروا [٤] إلى ساحل البحر ، وكانوا فى مائتى ألف راجل وعشرين ألف فارس ، وهم من الشجاعة بالمكان المعروف . وكانت جيوش عبد المؤمن تخرج عن الحصر . وكان الموضع الذي فيه دكالة كثير الحجر والحُزون ، فكَمَنوا فيه كمينا ليخرجوا على عبد المؤمن إذا سلكه . فكان من الاتفاق الحسن أنه قصدهم من غير الجهة التى فيها الكمناء . فانحل عليهم النظام وفارقوا ذلك الموضع وأخذهم السيف فدخلوا البحر . فقُتل أكثرهم ، وغُنمت أموالهم وأغنامهم ، وسُبيت نساؤهم . فبيعت الجارية بدراهم يسيرة . وعاد عبد المؤمن إلى مراكش بالظفر والنصر . وثبت ملكه وخافه جميع من بالمغرب ، وأذعنوا له بالطاعة .

---

(١) الملثمين : كذا فى ابن الأثير ٨ : ٣٠١ . وفى الأصول : المسلمين . تحريف .

(٢) كذا فى الأصول ولعلها : إليهم ، أى إلى بعض المرابطين .

(٣) جعل ابن كثير ١٢ : ١٨٧ المعركة فى سنة ٥٤٣ .

(٤) ابن الأثير ٨ : ٣٠١ : وانحشروا .

ذكر ملكه [١] جزيرة الأندلس

قال : كان ملكه لها فى سنة إحدى وأربعين [٢] ، وذلك أنه لما كان يحاصر مراكش ، ورد عليه جماعة من أعيان الأندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمْدين [٣] ، ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل الأندلس لعبد المؤمن ودخولهم فى زمرة أصحابه الموحدين ، والتزامهم لطاعته ، وإقامتهم لأمره فى بلادهم . وجميع أسماء القوم الذين بايعوه مثبتة فى المكتوب . فقبل عبد المؤمن طاعتهم ، وشكر هجرتهم ، وطيب قلوبهم . فطلبوا منه النصرة على الفرنج ، فإن الفرنج كانوا قد ملكوا من بلاد المسلمين [٤] مدينة شنترين وباجة وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها ، وذلك فى سنة أربعين وخمسمائة . وكان سبب ذلك ما وقع من الاختلاف بين المسلمين ، فطمع العدو فيهم وأخذ هذه المدن وقوى بها . ثم ملكوا فى سنة اثنتين وأربعين مدينة المرية ، ومدينة بياسة ، وجميع ولاية جيان .

فجهز عبد المؤمن جيشا كثيفا وجعل مقدمه أبا عمر بن صالح من آية الخمسين . وجهز أسطولا فى البحر وجعل قائده يحيى بن

---

(١) ك : ملك .

(٢) زادت ص ، ر : وخمسمائة .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ١٤ . ولعله يريد أبا جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين أمير قرطبة إذ ذاك . وبالرغم من ذلك يصرح ابن خلدون ٦ / ٢٣٣ وأشباخ ١٢٧ ، ٢٣١ أن الذى اتصل به هو أحمد بن الحسين بن قسى .

(٤) لا يوافق ماذكره النويرى من تواريخ لسقوط المدن الأندلسية هنا وفى صفحة ٣٨٨ ماأورده غيره من المؤرخين .

عيسى بن ميمون [١] . فغدوا إلى جزيرة الأندلس . ودخل الأسطول إلى مدينة إشبيلية فى النهر ، وحاصروها برا وبحرا ، وبها جيش من الملثمين [٢] . فملكتها عساكر عبد المؤمن عنوة وقتلوا فيها جماعة . ثم أمن الناس . واستولت عساكره على البلاد الإسلامية التى بها ، ودان له أهلها .

وفى سنة ثلاث وأربعين ملك الفرنج مدنا من الأندلس ، وهى طرطوشة وجميع قلاعها ، حصون لاردة ، وذلك لاختلاف المسلمين .

ذكر حصار الفرنج مدينة قرطبة ورجوعهم عنها

قال : وفى سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، حصر السلطين — وهو الأدفونش ملك طليطلة وأعمالها ، وهو من ملوك الجلالقة — مدينة قرطبة — أعادها الله — فى أربعين ألف فارس من الفرنج . فبلغ الخبر عبد المؤمن وهو بمراكش . فجهز اثنى عشر ألف فارس ومقدمهم أبو زكريا يحيى بن يومور [٣] . فساروا حتى قربوا من قرطبة . فلم يقدروا على لقاء الفرنج فى الوطأة ، فساروا فى الجبال الوعرة . وجعلوا يقطعون الأشجار حتى يجدوا مسلكا . فمشوا عشرين [٤]

(١) ذكر الناصرى ٢ : ٢٠٤ : أنه أرسل الجيش تحت قيادة بدران بن محمد المسوفى ثم أمده بموسى بن سعيد ثم بعمر بن صالح الصنهاجى . وجعل أشياخ أباعمران موسى بن سعيد قائداً للجيش.

(٢) كذا فى ابن الأثير ٩ : ١٤ ، وهو الصواب . وفى الأصول : المسلمين . ولا يتسق معها الكلام.

(٣) الأنيس ١٣٧ : يومر . ابن الأثير ٩ : ٢٨ يرموز . ابن خلدون ٦ : ٢٣٥ والناصرى ٢ : ١٠٦ يغمور . ر : تومرت .

(٤) ابن الأثير ٩ : ٢٨ : ٢٥ يوماً .

يوما فى الوعر مسافة أربعة أيام فى السهل . فأفضوا إلى جبل شامخ مطل على قرطبة . فلما رآه السليطين وتحقق أمرهم ، رحل لوقته بجميع من معه وسار حتى غاب عن فجاج قرطبة . وكان بقرطبة القائد أبو الغمر السائب ، من ولد القائد ابن غلبون من أبطال الأندلس فخرج لوقته من قرطبة وصعد إلى الجبل . واجتمع بيحيي وقال له : « انزل بمن معك إلى قرطبة وعجِّل » . ففعلوا ذلك وباتوا بها . فما أصبح اليوم الثانى إلا وعسكر السليطين قد غشى [1] الجبل الذي كان فيه يحيي . فقال لهم [2] أبو الغمر : « هذا الذى كنت خفته عليكم » . فلما علم أنهم قد فاتوه ، ورأى أنه لامطمع له فى قرطبة ، رحل إلى بلاده بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر قبل وصولهم .

ذكر ملكه مدينة بجاية وملك بنى حماد وانقراض دولتهم

وفى سنة ست وأربعين وخمسمائة ، سار عبد المؤمن من مدينة مراكش إلى سبتة . وهيأ الأساطيل والناس يعتقدون أنه يدخل الأندلس . ونفّذ أعيان أصحابه إلى جميع القبائل : أن يجمعوا العساكر ويرتبوها . وقطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا .

ثم خرج من سبتة فى صفر سنة سبع وأربعين [3] . وتوجه إلى

(١) ك: وقد أغشى .
(٢) ك: له .
(٣) المعجب ٢٠٦: سنة ٥٤٠. المونس ١١١: سنة ٥٤٤ .

المشرق مسرعا وطوى المراحل ، والعساكر المرتبة تلقاه . فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو فى أعمالها ، وكانت ليحيى بن العزيز بالله آخر ملوك بنى حماد . وكان مولعا بالصيد واللهو واللعب لاينظر فى شىء من أمور مملكته بل فوضها لميمون بن حمدون . فجمع ميمون العساكر وخرج عن بجاية . فأقام أياما وأحجم عن اللقاء ورجع ولم يقاتل عساكر عبد المؤمن . واعتصم يحيى بن العزيز بقلعة قسنطينة . وهرب أخوه الحارث فى مركب إلى جزيرة صقلية . ولحقه أخوه عبد الله [١] وجماعة من بنى عمه إلى صقلية [٢] .

ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد يحيى بن العزيز بغير قتال . ثم نزل إليه يحيى بالأمان فأمنه وأنفذه إلى المغرب ، وكان فيها [٣] مدة حياته رخى البال .

وانقرضت دولة بنى حماد . وكانت مدة ملكهم منذ ولى حماد مدينة آشير من قبل أبى مناد باديس بن المنصور بن يوسف فى صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة مائة سنة وستين سنة . وعدة من ملك منهم تسعة ملوك ، وهم حماد بن يوسف بلكين بن زيرى ، ثم القائد ابن حماد ثم محسن بن القائد بن حماد ، ثم ابن عمه بلكين بن محمد ، ثم الناصر بن عاناس بن محمد بن حماد ، ثم ابنه المنصور [٤] ، ثم

(١) كذا فى ابن الأثير ٩ : ٣١ ، الناصرى ٢ : ١٠٨ وفى الأصول : عبد العزيز . وأظنها سبق قلم من المؤلف أو الناسخ الأول بسبب اسم الأمير : العزيز ، وخاصة أنه ساقه إلى خطأ آخر فقال : يحيى بن عبد العزيز .

(٢) و : جزيرة صقلية .

(٣) ك ، فيه .

(٤) ك : المنصور بن الناصر .

ابنه باديس بن المنصور [١] ولم تطل أيامه حتى مات ، وولى بعده العزيز بالله بن المنصور بن الناصر ، ثم يحيى بن العزيز هذا . وعليه انقرضت دولتهم .

وكان يحيى قد اعتقل الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس – كما ذكرناه [٢] . وسُر بما ناله من أخذ الفرنج بلاده . فلم تطل المدة حتى فاجأه القدر واستلب ملكه . واجتمع الحسن ويحيى فى مجلس عبد المؤمن على بساط واحد . واستصحب عبد المؤمن الحسن معه ، وألحقه بخاصته ، وأعلى مرتبته . ولم يفارقه فى سفر ولا حضر إلى أن فتح المهدية ، فأقر الحسن بها وأمر واليها أن يقتدى برأيه ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ظفره بصنهاجة وملكه قلعة حماد

قال : ولما ملك عبد المؤمن بجاية ، تجمعت صنهاجة فى أمم كثيرة. وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قبيصة [٣] . واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها مالا يحصى كثرة ، وقصدوا حرب عبد المؤمن . فأرسل إليهم جيشا كثيفا ، ومقدمهم أبو سعد يخلف [٤] ، وهو من آية خمسين . فالتقوا فى عرض الجبل شرقى بجاية . فانهزم

(١) سقط باديس بن المنصور من ص .
(٢) انظر صفحة ٢٥١ من هذا الجزء .
(٣) ابن الأثير ٩ : ٣١ : أبوقصبة .
(٤) كذا فى ص ، ر ، ابن الأثير ٩ : ٣١ . وفى ك : يحلف . وهو بدون نقط فى ع .

أبو قبيصة ، وقتل أكثر من معه ، ونهبت أموالهم ، وسبيت نساؤهم وذراريهم .

ثم سار أبو سعيد إلى قلعة حماد ، وهى من أحصن القلاع وأعلاها . فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها فى رؤوس الجبال . ومُلكت القلعة وحمل جميع ما فيها من الأموال والذخائر وغير ذلك إلى عبد المؤمن .

ذكر الحرب بين عبد المؤمن والعرب وظفر عساكر عبد المؤمن بهم

قال : وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فى صفر ، كانت الحرب بين عساكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة سطيف [١] . وذلك أن عبد المؤمن لما فتح بلاد بنى حماد اجتمعت العرب ، وهم بنوهلال والأثبج وعدى ورياح وزغيف [٢] وغيرهم ممن يقول بقولهم من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب . وقالوا : « إن جاورنا عبد المؤمن أجْلانا من بلاد المغرب . وليس الرأى إلا اللقاء معه ، وأخذه بالجد ، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن » . وتحالفوا على التعاون والتعاضد ، وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال.

واتصل الخبر بصاحب صقلية الفرنجي ، فأرسل إلى أمراء العرب وهم محرز بن زياد ، وجُبارة [٣] بن كامل ، وحسن بن

(١) ر ، ابن الأثير ٩ : ٤١ : شطيف ، تحريف .
(٢) كذا فى الأصول . وفى ابن الأثير ٩ : ٤١ : زعب . ولم أجدهما .
(٣) كذا فى ر ، ك ، ابن الأثير ٩ : ٤١ . وفى ع ، ص : حبارة .

ثعلب ، وعيسى بن حسن ، وغيرهم ، يحثهم على ذلك ، ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على أن يرسلوا إليه رهائن . فشكروه وقالوا : « لاحاجة بنا إلى نجدته ، ولا نستعين على المسلمين بغيرهم » .

وساروا فى عدد لا يحصى . وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب . فلما بلغه خبرهم جهز إليهم جيشا من الموحدين زهاء ثلاثين ألف فارس ، ومقدمهم أبو سعيد يخلف ، وعبدالعزيز وعيسى أولاد أبى مَغار[1] . وكان العرب أضعافهم ، فاستخرجهم الموحدون . وتبعهم العرب إلى أن وصلوا أرض سطيف بين جبال . فصدمهم الموحدون بغتة والعرب على غير أهبة . والتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال وأعظمه . فانجلت المعركة عن هزيمة العرب . وذلك فى يوم الخميس غرة[2] صفر . وتركوا أموالهم وأهاليهم وأولادهم ونَعمهم . فأخذ الموحدون جميع ذلك وعادوا به إلى عبد المؤمن . فقسم الأموال فى عسكره وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط . ووكل بهم الخصيان يخدمونهم وأمر بصيانتهم . ونقلهم معه إلى مراكش فأنزلهم فى المساكن الفسيحة وأجرى عليهم النفقات الواسعة .

وأمر عبد المؤمن محمدا بمكاتبة العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الاحتياط والحفظ والصيانة . وأمرهم أن يحضروا

(١) كذا فى ع ، ص . وفى ر : أبى معاذ . وسقطت من ك . وفى ابن الأثير ٩ : ٤١ : عبدالله ابن عمر الهنتاتى وسعد الله بن يحيى .

(٢) ك : عشرة .

ليسلمهم إليهم . فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراكش . فأعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم ، وأحسن إليهم ، ووصلهم بالأموال الجزيلة فاسترق[1] قلوبهم بذلك وأقاموا عنده ، واستعان بهم على ولاية ابنه محمد العهد بعده .

ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية العهد بعد أبيه

قال : وفى سنة إحدى وخمسين [2] وخمسمائة : أمر عبد المؤمن بالبيعة بولاية العهد لابنه محمد . وكان الشرط بين عبد المؤمن وعمر الهنتاتى أن يلى الأمر بعده . فلما تمكن[3] عبد المؤمن من الملك وكثرت[4] أولاده أحب أن يكون الملك فيهم . فأحضر أمراء العرب من هلال وزُغبة وعدى وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم . ثم وضع عليهم من يقول لهم : « اطلبوا من عبد المؤمن أن يجعل لكم ولى عهد من ولده بعده » . ففعلوا ذلك . فلم يُجبهم إكراما لعمر الهنتاتى لعلو منزلته فى الموحدين . فلما علم الهنتاتى ذلك خاف على نفسه . فحضر عند عبد المؤمن وخلع نفسه . فحينئذ بايع عبد المؤمن لابنه بولاية العهد . وكتب إلى جميع بلاده بذلك .

---

(١) ك : فأسر .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ٥٠ وفى الأنيس ١٣٧ ، والناصرى ٢ : ١٠٩ : ستة وتسعو أربعين

(٣) ك : تملك . تحريف .

(٤) ص ، ر : وكبرت .

وخطب له فى جميع البلاد . وأخرج من الأموال شيئاً كثيرا [١] فى ذلك اليوم .

ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد وأعماله

وفي سنة إحدى وخمسين أيضا [٢] ، استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد والأعمال ، فجعل ابنه أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها ، وأبا حفص عمر على مدينة تلمسان وأعمالها ، وأباالحسن عليا على مدينة فاس وأعمالها ، وأبا سعيد [٣] على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة .

ولقد سلك عبد المؤمن فى استعمالهم من حسن السياسة وجميل التدبير طريقا عجيباً يستدل به على جودة رأيه ، وتوصّله إلى مقاصده بأحسن صورة وأجمل طريقة . وذلك أنه كان قد استعمل على الأعمال شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدى ، فكان يتعذر عليه أن يعزلهم . فأخذ أولادهم وتركهم عنده ، وأشغلهم بالعلوم . فلما مهروا فيها ، قال لآبائهم : « إنى أريد أن تكونوا عندى أستعين بكم على ما أنا بصدده وتكون أولادكم فى أعمالكم » . فأجابوا إلى ذلك وفرحوا به ، فاستعمل أولادهم . ثم وضع عليهم من يعتمد عليه منهم فقال لهم : « إنى أرى أمرا عظيما قد فعلتموه فلوقتم فيه الحزم والأدب » . فقالوا : « وما هو ؟ » قال : « أولادكم

(١) ر : كبيراً .
(٢) انظر التعليقة الثانية فى الصفحة السابقة .
(٣) الناصرى ٢ : ١١١ : وأبا سعيد عثمان .

فى الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس إليهم[1] شىء منها مع ماهم فيه من العلم وحسن السياسة . وإنى أخاف أن ينظر فى هذا فتسقط منزلتكم عنده » فعلموا صدقه . وحضروا إلى عند عبد المؤمن وسألوه أن يستعمل أولاده . فقال : « لا أفعل » . فعزموا عليه حتى فعل بسؤالهم .

ذكر ملكه مدينة المرية من الفرنج وأغرناطة من الملثمين

قال : وفي سنة اثنتين [2] وخمسين وخمسمائة ، كاتب ميمون ابن بدر صاحب أغرناطة أبا سعيد بن عبد المؤمن صاحب مالقة والجزيرة الخضراء وسبتة أن يسلم إليه أغرناطة ، فتسلمها منه. وسار إلى مالقة [3] بأهله وولده ، فسيره أبو سعيد إلى مراكش. فأقبل عليه عبد المؤمن وأكرمه .

وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم إلا جزيرة مايرقة [4] مع حمو بن غانية اللمتونى .

قال : ولما ملك أبو سعيد أغرناطة جمع الجيوش وسلم إلى مدينة المرية – وهى بيد الفرنج ، كانوا قد أخذوها فى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة – فنازلها وحصرها [5] برا وبحرا . ونزل عسكره

(١) ص ر : لهم .
(٢) المونس ١١١ : إحدى .
(٣) ك : ملقة .
(٤) ر : ميورقة .
(٥) ص ، ر : وحاصرها .

على الجبل المشرف عليها . وبنى سورا على الجبل إلى البحر ، وعمل عليه خندقا . فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج محصورين بهذا السور والجبل . لا يمكن أن يصل إليها من ينجدها . وجمع السليطين ملك الفرنج بالأندلس الجيوش وجاء إليها، فلم يتمكن منها ورجع ومات قبل وصوله إلى طليطلة . وتمادى الحصار على المهدية ثلاثة أشهر ، فقلّت الأقوات على الفرنج فطلبوا الأمان . فأمنهم أبو سعيد وتسلّم الحصن. ورحلوا فى البحر عائدين إلى بلادهم . وكانت مدة ملكهم المهدية عشر سنين .

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وجميع بلاد افريقية

كان الفرنج قد تغلبوا على مدينة المهدية وملكوها فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، كما قدمناه فى أخبار الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس [1] ، وفعلوا بمدينة زَويلة الأفعال الشنيعة من القتل والنهب والتخريب . فسار أهلها إلى عبد المؤمن وهو بمراكش يستنجدونه ويستجيرون به فأكرمهم . وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس فى ملوك الإسلام من يُقصد غيره . فأطرق ثم رفع رأسه وقال : « أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين » . وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفى دينار .

ثم أمر بعمل الروايا [2] والقرب والحياض وما يحتاج إليه

(١) انظر صفحة ٢٤٧ من هذا الجزء .

(٢) الروايا : القرب والحيوانات التى تحملها .

العساكر . وكتب إلى جميع نوابه ببلاد المغرب وكان قد ملك إلى قريب تونس ، فأمرهم بتحصيل الغلات ، وأن تترك فى سنبلها وتخزن فى مواضعها ، وأن يحفروا الآبار فى الطرق . ففعلوا ذلك فصارت كأنها تلال .

فلما كان فى صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة (١) ، وسار من مراكش يريد إفريقية ومعه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن السوقة والأتباع أمثالهم . وبالغ فى حفظ العساكر حتى كانوا يسيرون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واحدة . وإذا نزلوا صلوا جميعهم مع إمام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد . وقدم بين يديه الحسن بن على بن يحيى بن تميم الذى كان صاحب المهدية وإفريقية .

فسار حتى وصل إلى مدينة تونس فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة . وأقبل الأسطول فى البحر فى سبعين شينيا وطريدة وشلندى . فنازلها وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى الطاعة . فامتنعوا وقاتلوا أشد قتال . فلما جاء الليل خرج إليهم سبعة عشر رجلا (٢) من أعيان أهلها ، وسألوا عبد المؤمن الأمان لأهل بلدهم . فأجابهم إلى الأمان لهم فى أنفسهم وأهلهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة (٣) وأما من عداهم من أهل البلد فأمنهم فى أنفسهم وأهليهم (٤) ،

(١) الأنيس ١٤ : العشر الأول من شهر شوال عام ثلاثة وخمسين . وفى المونس ١١١ ، ابن خلدون ٦ : ٣٣٧ ، الأنيس ١٣٩ ، المعجب ٢٢٨ : سنة ٥٣ .

(٢) ابن خلدون ٥ : ٢٤٤ : عشرة رجال .

(٣) ص ر : طاعته .

(٤) ك : أهلهم وأنفسهم .

ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين ، وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله . فاستقر ذلك وتسلم [١] البلد . وأرسل أمناء ليقاسموا الناس على أموالهم . وأقام عليها ثلاثة أيام . وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى ، فمن أسلم سلم ، ومن أبى قُتل .

وسار عبد المؤمن إلى المهدية والأسطول يحاذيه فى البحر . فوصل إليها فى ثانى عشر [٢] شهر رجب من السنة . وبها أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان ، وقد أخلوا مدينة زويلة وبينها وبين المهدية غلوة سهم [٣] . فدخلها عبد المؤمن ، وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة فى ساعة واحدة . ومن لم يكن له من العسكر موضع نزل بظاهرها . وانضاف إليهم [٤] من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء . وأقبلوا على قتال من بالمهدية ، وهى لا يؤثر فيها شى لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها ، وهى كأنها كف فى البحر وزندها متصل بالبر . فكانت شجعان الفرنج تخرج إلى أطراف العسكر فينالون منه ويسرعون العوْد . فأمر عبد المؤمن ببناء سور من غربى المدينة يمنعهم من الخروج . وأحاط الأسطول بها فى البحر . وهال عبد المؤمن ما رأى من حصانة البلد ، وعلم أنها لا تفتح بقتال ، وليس لها غير المطاولة . وقال للحسن : « كيف نزلت عن هذا الحصن ؟ » فقال : « لقلة من يوثق به وعدم القوت

(١) ك : واستلم .

(٢) ابن الأثير ٩ : ٦٣ ، الناصرى ٢ : ١٢٢ : ثامن عشر . ابن خلدون ٥ : ٢٤٤ : منتصف .

(٣) غلوة السهم : أبعد رمية ممكنة للسهم .

(٤) ص ، ر : إليه .

وحكم القدر » . فقال : « صدقت » . وأمر بجمع الغلات فلم يمض غير قليل حتى صار فى العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير. وتمادى الحصار .

وفى مدته أطاع عبد المؤمن أهل سفاقس وطرابلس وجبال نفوسة وقصور إفريقية وما والاها . وفتح مدينة قابس وأتاه يحيى ابن تميم صاحب قفصة ومعه جماعة من أعيانها . ولما قدموا عليه دخل حاجبه عبد السلام الكومى[1] يستأذنه عليهم . فقال له عبد المؤمن : « أتى عليك[2] ليس هؤلاء أهل قفصة » . فقال : « لم يشتبه على وإنهم أهلها » . فقال عبد المؤمن : « كيف يكون ذلك والمهدى يقول : إن أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها؟ ومع هذا فنقبل منهم ونكف عنهم وننتظر ما يكون ، لِيقضِى الله أمْرا كانَ مفعُولا »[3] وقضى شغلهم وأرسل معهم طائفة من الموحدين ، وفيهم زكرى بن يومون[4] ، وولاه عليها . وورد فى جملة أهل قفصة شاعر[5] منهم ، فمدحه بقصيدة أولها :

ما هزَّ عطفَيْـــه بين البيض والأسـل
مثل الخليفـة عبد المؤمن بن علـى

فلما أنشده هذا البيت قال : « حسبك » ووصله بألف دينار[6] .

(١) ك: الكرمى . تحريف .

(٢) كذا فى الأصول . وفى ابن الأثير ٩ : ٦٤ : اشتبه عليك . ولعله استخدمها بنفس المعنى بدليل رده عليه .

(٣) الأنفال ٤٢، ٤٤ .

(٤) كذا فى ج . وفى ر : برمون . وفى ك : مومون .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن أبى العباس التيفاشى . (الناصرى ٢ : ١٣٠ و ابن خلكان ١ : ٣١٠) .

(٦) ذكر ابن خلدون ٥ : ٤٤٥ ، الناصرى ٢ : ١٢٣ أنه وصل أمير البلاد نفسه بالمبلغ .

قال : ولما كان فى يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان سنة أربع وخمسين ، جاء أسطول صاحب صقلية فى مائة وخمسين شينيا غير الطرائد ، فقاتلهم أسطول عبد المؤمن فانهزموا . وتبعهم المسلمون وأخذوا منهم سبعة شوان . فحينئذ أيس من بالمهدية من النجدة .

وصبروا على الحصار إلى آخر ذى الحجة من السنة حتى فنيت أقواتهم وأكلوا خيلهم . فنزل عشرة من فرسانهم إلى عبد المؤمن وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ، ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم . فعرض عليهم الإسلام ، فأبوا . ولم يزالوا يستعطفونه حتى أجابهم وأمنهم . وأعطاهم سفنا فنزلوا فيها . وساروا إلى جزيرة صقلية . وكان الفصل شتاء ، فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقلية إلا القليل . وكان صاحب صقلية قد قال : « إن قتل عبد المومن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم » . فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة استيلاء الفرنج على المهدية اثنتى عشرة سنة .

ودخل عبد المؤمن مدينة المهدية بكرة عشوراء سنة خمس (١) وخمسين وخمسمائة . وسماها عبد المؤمن سنة الأخماس . وأقام بالمهدية عشرين يوماً . ورتب أحوالها ، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والسلاح والعدد والرجال . واستعمل عليها أبا عبد الله محمد ابن فرج . وجعل معه الحسن بن على بن يحيى الذى كان صاحبها.

(١) ابن كثير ١٢ : ٢٤ : أربع .

وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله . وأقطع الحسن بها إقطاعاً وأعطاه دورا بالمهدية . ورتّب لأولاده وعبيده أرزاقا . ثم رحل عبد المؤمن من المهدية فى غرة[1] صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ذكر ايقاع عبد المؤمن بالعرب

كان سبب ذلك أنه – لما أراد العود إلى بلاد المغرب بعد فراغه من أمر المهدية – جمع أمراء العرب من بنى رياح الذين كانوا بإفريقية ، وقال لهم : « إنه قد وجب علينا نصرة الإسلام ، وإن المشركين قد استفحل أمرهم بجزيرة الأندلس . واستولوا على كثير منها مما كان بيد المسلمين ، وما يقاتلهم أحد مثلكم ، فبكم فُتحت البلاد أول الإسلام ، وبكم دُفع عنها العدو الأول[2] . ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون فى سبيل الله » . فأجابوه بالسمع والطاعة فحلّفهم على ذلك .

وساروا معه حتى انتهوا إلى مضيق جبل زغوان[3] . وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك ، وهو من أمرائهم ورؤوس القبائل فيهم . فجاء إلى عبد المؤمن بالليل وقال له سرا : « إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس وقالوا : ما غرض عبد المومن إلا

(١) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ٦٥ . وفى ك : عشرة . تحريف .

(٢) كذا فى الأصول ، والمقصود بالعدو الأول غير واضح . وفى ابن الأثير ٩ : ١٦٥ : وبكم يدفع عنها العدو الآن . وهى أوضح .

(٣) زغوان : جبل عال بين تونس والقيروان بحذاء جزيرة شريك (البكرى ٤٥ ، الإدريسى ١١٩) .

إخراجنا من بلادنا ، وإنهم لا يفون بأيمانهم » . فقال : « يأخذ الله تعالى الغادر » . فلما كانت الليلة الثانية ، هربوا إلى عشائرهم ودخلوا البر ، ولم يبق منهم إلا يوسف بن مالك ، فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق . ولم يُحدث فى أمرهم شيئا .

وسار مغربا يحث السير حتى قرب من القسنطينة ، ونزل فى موضع مخصب يقال له وادى النساء [1] . فأقام به وضبط الطرق فلا يسير أحد البتة [2] ودام هناك عشرين يوماً . وانقطع خبره عن جميع الناس لا يعرفون للعسكر خبرا مع كثرته وعظمه ، ويقولون : « ما أزعجه إلا خبر وصله من الأندلس » . فعادت العرب الذين أجفلوا منه من البرية إلى البلاد لما أمنوا جانبه .

فلما علم برجوعهم جهز إليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله فى ثلاثين ألفا من أعيان الموحدين وشجعانهم . فجدوا السير وقطعوا المفاوز . فما شعرت العرب إلا والجيش قد أقبل ، وجاء من ورائهم من جهة الصحراء من يمنعهم من الدخول إليها ، وكانوا قد نزلوا جنوبا من القيروان عند جبل القرن ، وهم زهاء ثمانين ألف بيت ، ومشاهير مقدميهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل ومسعود بن زمام وغيرهم . فلما أطلت عليهم العساكر اضطربوا وماجوا واختلفت كلمتهم . ففر [3] مسعود وجبارة ومن معهما من

---

(١) نهر النساء : بين عين الكتان وأدنة . وكذا الرواية فى ابن الأثير ٩ : ٦٥ . وفى ص ، ك وادى الستا . فجعلها ر : وادى السنات ، وهو على الطريق من مكناسة إلى فاس ، فهو بعيد عن الموضع المراد (البكرى ١٤٤ الإدريسى ٧٧) .

(٢) ك : إليه

(٣) ك : فغفر .

عشائرهما . وثبت محرز بن زياد ومعه جمهور العرب . فناجزهم الموحدون القتال . وذلك في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين [١] . واشتد القتال وكثرت القتلى . فانجلت الحرب عن قتل محرز وانهزم العرب .

ولما انهزموا أسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال [٢] . فحمل جميع ذلك إلى عبد المؤمن وهو بتلك المنزلة . فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح . وحُملن معه تحت الحفظ والبر والصيانة إلى بلاد المغرب . ثم أقبلت إليه وفود رياح ، فأجمل لهم الصنيع ورد إليهم الحريم . فلم يبق منهم إلا من صار له كالعبد الطائع ، وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الإحسان . ثم جهزهم إلى ثغور الأندلس على الشرط الأول .

قال : وجمعت عظام من قتل من العرب عند جبل القرن فبقيت دهرا طويلا كالتل يلوح للناظرين من مكان بعيد . وبقيت بلاد إفريقية بيد نواب عبد المومن آمنة ساكنة ، لم يبق من العرب خارج عن الطاعة إلا مسعود بن زمام وطائفة في أطراف البلاد .

وفي سنة ست وخمسين ، توجه عبد المؤمن إلى جبل طارق ، وهو على ساحل الخليج مما يلي الأندلس ، فعبر المجاز إليه . وبنى عليه مدينة حصينة [٣] . وأقام بها أشهرا [٤] ثم انصرف إلى مراكش .

---

(١) ابن الأثير ٩ : ٦٥ : أربع وخمسين .

(٢) ك : والأموال والأولاد .

(٣) وكذا في ابن الأثير ٩ : ٧٧ . وذكر الأنيس ١٤٠ ، والناصري ٢ : ١٢٠ أن هذه المدينة بنيت في سنة ٥٥٥ هـ ، وزار عبد المؤمن جبل طارق في ٥٥٦ هـ .

(٤) الأنيس ١٤١ ، الناصري ٢ : ١٢٦ شهرين .

ذكر وفاة عبد المؤمن بن على وشىء من أخباره

كانت وفاته فى العشر الآخر[١] من جمادى الآخر[٢] سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بمدينة سلام . وكانت مدة ولايته ثلاثا وثلاثين سنة وأشهرا. وخلف ستة عشر [٣] ولدا ذكورا .

وكان عاقلا ، حازما ، سديد الرأى ، حسن السياسة للأمور ، كثير البذل للأموال ، إلا أنه كان كثير السفك لدماء المسلمين على صغار الذنوب . وكان يعظِّم أمر الدين ويقويه ، ويُلزم الناس فى سائر بلاده بالصلاة . ومن رُئى فى وقت الصلاة غير مُصلٍّ قُتل . وجمع الناس على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله فى الفروع ، وعلى مذهب أبى الحسن الأشعرى فى الأصول . وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين ، وإليهم المرجع والكلام معهم .

قال ابن شداد : وقفت على كتاب كتبه عنه بعض كتابه ، يقول فيه بعد البسملة : « من الخليفة المعصوم الرَّضى الهاشمى[٤] الزَّكى ، الذى وردت البشارة به من النبى صلى الله عليه وسلم ، العربى [٥] القامع لكل مجسِّم غوِى ، الناصر لدين الله العلى [٦] ، أمير المؤمنين الولى ، عبد المؤمن بن على » .

---

(١) ابن الأثير ٩ : ٨١ : العشرين . الأنيس ١٤٣ ، الناصرى ٢ : ١٢٩ : الثامن .
(٢) ك : الآخرة .
(٣) عدد الأنيس ٢٤٣ أسماء ١٧ ولداً .
(٤) ك : الرضى الخالق الهاشمى . ومعناها غير واضح .
(٥) و : الغزى . تحريف .
(٦) ص : الكبير العلي .

وحكى أيضا قال : أخبر رجل من أهل المهدية اجتمعت به بمدينة صقلية سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، قال : لما فتح عبد المؤمن مدينة بجاية وجميع ملك بنى حماد ، وافق ذلك وصولى بعد أيام من المهدية إلى بجاية بأحمال متاع مع قَفَل[١] ، فبِتْنا[٢] على مرحلة من بجاية . فلما أصبح الصباح فقدت شدّة من المتاع ، فحمدت الله [٣] وسألته الخَلَف . ودخلنا البلد وبعت المتاع أحسن بيع وأفدت [٤] فيه فائدة كبيرة [٥] . فقلت لصاحب الحانوت الذى بعت على يديه : « فقدت من هذا المتاع شدة ، وأخلَف الله على فى الباقى » . فقال لى : « وما أنهَيْتَ ذلك إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن ؟ » قلت : « لا » . قال : « والله ، إن علم[٦] ذلك من غيرك لحقك الضرر بسترك على المفسدين . فاتقِ الله فى نفسك » . فرُحت[٧] إلى القصر واستأذنت عليه وأعلمته . ثم خرجت فسألنى خادم عن منزلى فوصفته له . ورجعت إلى صاحب الحانوت [٨] فأخبرته . فقال : « خرجت [٩] من العُهْدة » .

فلما كان صبيحة اليوم الثالث من وصولى إليه ، جاءنى غلام

---

(١) القفل : القافلة .
(٢) ك : فثبتنا . وفى بقية الأصول بدون نقط .
(٣) ك : الله تعالى .
(٤) ك : وافتدت .
(٥) ك : كثيرة .
(٦) ر : أعلم .
(٧) ك : خرجت . تحريف .
(٨) ك : الحنوت ، خطأ .
(٩) ص ، ر : قد خرجت .

أسود فقال : « أجب أمير المؤمنين » . فخرجت معه . فلما وصلنا باب القصر وجدت جماعة كبيرة [١] والمضاهدة دائرة عليهم بالرماح . فقال لى الأسود « تعلم[٢] من هؤلاء ؟ » قلت : « لا » . قال : « هم أهل المكان الذى أخذ متاعك فيه » . فدخلت وأنا خائف ، فأُجلست بين يديه . واستدعى مشايخهم وقال لى : « كم[٣] صح لك فى الشدة التى فقدت أختها » . فقلت : « كذا وكذا » . فأمر من وزن لى المبلغ ثم قال لى : « قم . أنت أخذت حقك وبقى حقى وحق الله عز وجل » . وأمر بإخراج المشايخ وقتل الجميع . وقال : « هذه طريق شوك أزيلها عن المسلمين » . فأقبلوا يبكون ويتضرعون ويقولون : « يؤاخذ سيدنا الصلحاء بالمفسدين ؟ » فقال : « تُخرج كل طائفة منكم من فيها من المفسدين » . فصار الرجل يخرج ولده وأخاه وابن عمه [٤] إلى أن اجتمع منهم نحو خمسمائة فأمر أهلهم أن يتولوا قتلهم ، ففعلوا ذلك . وخرجت أنا إلى صقلية خوفا على نفسى من أولياء المقتولين .

قال . وكان عبد المؤمن لا يداهن فى دولته ، ويأخذ الحق من ولده إذا وجب عليه .

قال : ولا مُشرك فى بلاده ولا كنيسة فى بقعة منها ، لأنه كان إذا ملك بلدا إسلاميا لم يترك فيه ذميا إلا عرض عليه الإسلام . فمن

---

(١) ك : كثيرة .
(٢) : فقال ابن يسار الأسود : تعلمهم .
(٣) ك : لما .
(٤) ك : وابن عمه .

أسلم سلِم ، ومن طلب المضى إلى بلاد النصارى أذن له فى ذلك ، ومن أبى قتل . فجميع أهل مملكته مسلمون لا يُخالطهم سواهم .

ولا لهو ولا هزل تحت أمره بل تلاوة كتاب الله العزيز ، ومُدارسة الأحاديث الصحيحة النبوية ، والاشتغال بالعلوم الشرعية ، وإقام الصلوات . فهذا كان دأب أصحابه .

وكان لعبد المؤمن من الأولاد الذكور ستة عشر[1] ، وهم محمد وهو ولى عهده ، وعلى ، وعمر ، ويوسف ، وعثمان ، وسليمان ، ويحيى ، وإسماعيل ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، وموسى ، وإبراهيم ، ويعقوب[2] .

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن على

كانت ولايته بعد وفاة أبيه . وذلك أن عبد المؤمن لما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال لهم : « قد جربت ابنى محمدا فلم أجد فيه نجابة تصلح للأمر ، ولا يستحق الولاية ولا يصلح لها إلا ابنى يوسف ، وهو أولى بها ، فقدِّموه لها » . ووصاهم به فبايعوه وعقدوا له الولاية . وخوطب بأمير المؤمنين .

ثم مات عبد المؤمن فكتموا موته وحُمل فى محفة من سلا بصورة أنه مريض إلى أن وصل إلى مراكش . وكان ابنه أبو حفص حاجبا

(١) انظر التعليقة الثالثة فى صفحة ٣١٨ .

(٢) لم يذكر الأنيس ١٤٣ موسى ، وأضاف داود وأحمد .

لأبيه فبقى مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج إلى الناس فيقول[١] أمر أمير المؤمنين بكذا وكذا ، ويوسف يقعد مقعد أبيه إلى أن كملت المبايعة له فى جميع البلاد . فأظهر موت أبيه بعد انقضاء أشهر[٢] من وفاته . واستقامت الأمور لأبى يعقوب وانقاد الناس لأمره[٣] .

ذكر عصيان غمارة مع مفتاح بن عمرو[٤] وقتالهم وقتل مفتاح

قال . ولما تحقق الناس موت عبد المؤمن ، ثارت قبائل غمارة فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة مع مفتاح بن عمرو ؛ وكان مقدما كبيرا فيهم ، فاتبعوه بأجمعهم ، وامتنعوا فى جبالهم ، وهى معاقل مانعة ، وهم أمم جمة . فتجهز إليهم أبو يعقوب ومعه أخواه عمر[٥] وعثمان فى جيش كثيف من الموحدين والعرب . وتقدموا إليهم والتقوا واقتتلوا فى سنة إحدى وستين . فانهزمت غمارة ،

(١) ك : فيتولى ، تحريف .

(٢) ك : شهرين .

(٣) ذكر ابن خلكان ١ : ٣١١ ، ٢ : ٣٧٤ والمعجب ٢٣٦ أن محمد بن عبد المؤمن تولى بعد أبيه ولكن اضطرب أمره فخلع بعد ٤٥ يوماً . وتولى أخوه يوسف .

(٤) ص : عمر . ويتفق ما يذكره المؤلف هنا مع ابن الأثير ٩ : ٩٠ ويتفق معهما فى السنة الأنيس ١٤٨ الناصرى ٢ : ١٣٢ ولكنهما سميا الثائر مرزدغ الصنهاجى من صنهاجة مفتاح كما ذكرا فتنة أخرى لغمارة سنة ٥٦٢ تحت قيادة سبع أو يوسف بن منغفاد . واقتصر ابن خلدون ٦ : ٢٣٩ على الثورة الأخيرة . وذكر المعجب ٢٥١ ثورة لغمارة فى عام ٥٧٣ تحت قيادة سبع بن حيان وأخيه مرزدغ . وواضح التضارب الشديد بين المؤرخين فى التواريخ والأسماء .

(٥) ك : ابن الأثير ٩ : ٩٠ عمرو ، ولكن كنيته «أبا حفص» ترشح أنه عمر لا عمرو .

وقُتل مفتاح وجماعة من أعيانهم ومقدميهم وخلْق كثير منهم . وملكوا بلادهم عنوة . وكانت قبائل كثيرة يريدون الفتنة ، وهم ينظرون ما يكون من غمارة ، فلما قُتلوا انقادت تلك القبائل إلى الطاعة ، ولم يبق متحرك لفتنة ، وسكنت الدهماء فى جميع المغرب [١] .

وفى سنة خمس وستين وخمسمائة ، وجه أبو يعقوب أخاه عمر ابن عبد المؤمن إلى الأندلس بالعساكر لقتال محمد بن [٢] سعد ابن مرْدنيش . وكان قد ملك شرق الأندلس ، واتفق مع الفرنج ، وامتنع على عبد المؤمن ثم على ابنه ، وتمادى فى عصيانه ، واستفحل أمره . فدخل العسكر [٣] إلى بلاده ، وجاس خلال دياره ، وأخذوا مدينتين من بلاده . وأقاموا مدة يتنقلون فى بلاده ويجبون أموالها . ثم توفى محمد بن سعد فى سنة سبع [٤] وستين ، وأوصى أولاده أن يقصدوا الأمير أبا يعقوب ، ويسلموا البلاد إليه ، ويدخلوا فى طاعته . فلما مات قصدوه . فسُربهم وأكرمهم وتسلم البلاد منهم ، وهى مرسية ، وبلنسية ، وجيان ، وغير ذلك ، وتزوج أختهم . وأقاموا عنده مكرمين . وكان اجتماعهم به بمدينة إشبيلية ، وقد دخل الأندلس فى مائة ألف فارس فى سنة ست وستين [٥] وخمسمائة .

---

(١) ص : الغرب .

(٢) كذا فى ر ، ابن الأثير ٩ : ١١٤ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٧٣ ، وهو الصواب . وفى ص ، ع ، ك ، ث ٩ : ١٠٨ : محمد بن سعيد .

(٣) ك : العساكر .

(٤) ك : تسع ، تحريف .

(٥) ص : وخمسين ، تحريف .

ذكر غزوة الفرنج

قال : وفى سنة ثمان وستين [١] ، جمع أبو يعقوب عساكره . وسار من إشبيلة وقصد بلاد الفرنج . ونزل على مدينة وَبذَى [٢] ، وهى بالقرب من طليطلة شرقا منها ، وحصرها . فاجتمعت الفرنج مع الأدفونش [٣] ملك طليطلة فى جمع كبير ، فلم يُقدموا [٤] على لقاء المسلمين . واتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الأقوات عندهم . فعادوا إلى إشبيلية .

وأقام أبو يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وهو يجهز العساكر فى كل وقت ، ويرسلها إلى بلاد الفرنج [٥] . وكان فى هذه المدة عدة [٦] وقائع وغزوات ، ظهر فيها [٧] من شجاعة العرب مالا يوصف ، حتى كان الفارس من العرب يسير بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج ، فلا يبرز إليه أحد .

ثم عاد أبو يعقوب إلى مراكش .

---

(١) كذا فى ص . وفى ع ، ك : وخمسين ، تحريف .

(٢) كذا فى ر . وفى الناصرى ٢ : ١٣٤ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٧٤ والمعجب ٢٥٠ وبذة . وفى ص ، ك : وبدى . وفى ع : وندى . وفى ابن الأثير ٩ : ١٢٠ ، ابن خلدون ٦ : ٢٤٠ : رندة .

(٣) ابن الأثير ٩ : ١٥ : ابن الفنش .

(٤) ك : فلم يقدروا .

(٥) ك : الإفرنج .

(٦) ك : عنده .

(٧) كذا فى ص . وفى بقية الأصول : منها .

ذكر ملك أبى يعقوب مدينة قفصة

قد ذكرنا أن صاحب قفصة قدم على عبد المؤمن وهو يحاصر المهدية ، وأطاعه ، وماقاله عبد المؤمن لحاجبه عند قدوم أهل قفصة من إخبار المهدى عن قفصة . فلما كان فى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، دخلت طائفة من الترك من ديار مصر فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مع قراقوش مملوك تقى الدين . واجتمع إليه مسعود بن زمام وجماعة من العرب ، ونزلوا على طرابلس وملكوها ، واستولى على كثير من بلاد إفريقية .

فعند ذلك طمع صاحب قفصة [1] ونزع يده من الطاعة ، واستبد بالأمر . ووافقه أهل بلده فقتلوا من عندهم من الموحدين وذلك فى شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . فكتب والى بجاية إلى أبى يعقوب بالخبر واضطراب أمور البلاد . فسد الثغور التى يخشى عليها بعد مسيره . وسار إلى إفريقية فى سنة خمس وسبعين ، ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة أشهر ، وقطع أشجارها . فلما اشتد الأمر على صاحبها خرج منها مستخفيا لم يعلم به أحد من أهل البلد . وجاء إلى خيمة أبى يعقوب فاستأذن عليه . فأذن له وقد عجب من إقدامه على الدخول عليه بغير أمان . فدخل عليه واستعطفه وقال : « قد حضرت أطلب عفو أمير المؤمنين عنى

(١) ذكر ابن خلدون ٦ : ١٦٦ ، الناصرى ٢ : ١٣٦ أن أهل قفصة هم الذين ثاروا على الوالى الموحدى ونصبوا على بن العزيز الرندى الذى كان أميرها قبل استيلاء الموحدين عليها فقادهم فى حركتهم .

وعن أهل بلدى ، وأن يفعل ما هو أهله » . فعفا عنه وعن أهل بلده . وتسلم المدينة فى أول سنة ست وسبعين وخمسمائة وسيره إلى المغرب فكان مكرما عزيزا ، وأقطعه ولاية كبيرة [١] . ورتب لقفصة واليا من الموحدين .

ووصل مسعود بن زمام [٢] أمير العرب إلى يوسف . فعفا عنه وسيره إلى مراكش . وتوجه يوسف إلى المهدية وشاهدها .

ووافاه رسول من صاحب صقلية يلتمس الصلح ، فهادنه عشر سنين ، ورجع إلى المغرب .

ذكر وفاة أبى يعقوب يوسف

كانت وفاته فى شهر ربيع الأول [٣] سنة ثمانين وخمسمائة . وكان قد سار إلى بلاد الأندلس فى جمع عظيم . فلما عبر الخليج قصد غزو الفرنج ، فحصر مدينة شَنْتَرين شهرا . فأصابه بها مرض ، فمات وحُمل فى تابوت إلى مدينة إشبيلية .

وكانت مدة ولايته اثنتين وعشرين سنة وشهورا [٤] .

ومات وله عدة من الأولاد ، رأيت فى بعض التواريخ أنهم كانوا

---

(١) ذكر الأنيس ١٥٠ الناصرى ٢ : ١٣٦ أن يوسف قتل صاحب قفصة .

(٢) الأنيس ١٥٠ : مسعود بن سلطان .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ١٦٥ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٧٣ . وفى الأنيس ١٥٢ والناصرى ٢ : ١٣٩ : الآخر .

(٤) ابن الأثير ٩ : ١٦٥ وشهراً . الأنيس ١٥٢ : وشهراً وستة أيام . المونس ١١٤ : ٢١ سنة وأشهراً ، وهى أصح الروايات إذا وافقنا على موته فى ربيع .

خمسة عشر ، وهم عمر ، ويعقوب وهو ولى عهده ، وأبو بكر ، وعبد الله ، وأحمد ، ويحيى ، وموسى ، وإبراهيم ، وإدريس ، وعبد العزيز ، وطلحة ، وإسحاق ، ومحمد ، وعبد الواحد ، وعثمان ، وعبد الحق ، وعبد الرحمن . فهذه [١] سبعة عشر عدها وجمع على خمسة عشر ، والله أعلم [٢] .

وذكر هذا المؤرخ أن وفاته كانت فى يوم السبت لسبع خلون من شهر رجب من السنة[٣]، من طعنة [٤] طعنها على مدينة شنترين من أيدى الروم ، لما عبر المسلمون وتركوه فى شرذمة يسيرة . ومات فى الليلة الثالثة . والله تعالى أعلم .

وقال أيضا : ودفن بتينمل عند أبيه وابن تومرت .

قال : وكان يحمل إليه من مال إفريقية فى كل سنة وقرمائة وخمسين بغلا ، خارجا عما يرتفع إليه من سائر البلاد .

وكان حسن السيرة ، يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم ، وهم أهل خاصته ، وكان فقيها عالما حافظا متقنا ، رحمه الله تعالى .

---

(١) ص : فهولاء .

(٢) جعلهم المعجب ٢٤٥ الأنيس ١٤٦ ثمانية عشر ولدا ، فزاد الأول على المذكورين إسماعيل ، وحذف الثانى عثمان وكرر يحيى وإسحاق .

(٣) كذا قال المعجب ٢٦١ .

(٤) ر : فى طعنة .

ذكر ولاية أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

كانت ولايته بعد وفاة أبيه فى شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة . وكان أبوه قد مات ولم يوص لأحد بالملك ؛ فاجتمع رأى أشياخ الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تقديم أبى يوسف يعقوب . فبايعوه وعقدوا له الولاية وقدموه للأمر ، ودعوه بأمير المؤمنين (١) . فقام بالملك أحسن قيام ، ورفع راية الجهاد ، وأحسن السيرة . فاستقامت له الدولة بأسرها مع سعة أقطارها . ورتب ثغور الأندلس ، وشحنها بالرجال ، ورتّب المقاتلة فى سائر بلادها ، وأصلح أحوالها ، وعاد إلى مدينة مراكش .

ذكر أخبار الملثمين وما ملكوه من افريقية واستعادة ذلك منهم

قال : ولما بلغ على بن إسحاق بن محمد بن على بن غانية اللمتونى صاحب جزيرة (٢) ميورقة ، وكان من أعيان الملثمين ، وفاة أبى يعقوب ، سار إلى بجاية فى عشرين شينيا . وملكها فى شعبان سنة ثمانين (٣) وخمسمائة ، وأخرج من كان بها من الموحدين . وكان

(١) ذكر المعجب ٢٦١ أنه بويع فى حياة أبيه وبأمر منه ، وكان عبد الواحد المراكشى يستمد أخباره من يحيى بن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ص ٢٤٥ .

(٢) ك : مدينة .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ١٦٦ ، الناصرى ٢ : ١٤٣ . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٤٣ ، الناصرى ٢ : ١٣٤ : إحدى وثمانين .

الأمير بها سليمان[١] بن عبد الله بن عبد المؤمن . وخطب اللمتونى بها للخليفة الناصر لدين الله العباسى .

فاتصل الخبر بأبى يوسف فجهز العساكر واستعادها فى صفر سنة إحدى وثمانين . وكان بها يحيى وعبد الله أخوا على بن إسحاق قد تركهما بها وتوجه لحصار القسنطينة ، فخرجا منها هاربين والتحقا بأخيهما . فأقلع إلى جهة إفريقية واجتمع بمن بها من العرب وانضاف إليه الترك الذين كانوا قد دخلوها من مصر . ودخل من مصر مملوك آخر اسمه بُوزابه ، فانضم إليه ، وكثر جمعه ، وقويت شوكته . واتبعوه جميعا لأنه من بيت الملك ولقبوه بأمير المسلمين . فقصد بلاد إفريقية فملكها شرقا وغربا إلا مدينتى تونس والمهدية ، فإن الموحدين حفظوهما على خوف وضيق وشدة . وانضاف[٢] إلى الملثم كل مفسد يريد الفتنة والفساد والنهب .

فأرسل الوالى على تونس وهو عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتى إلى أبى يوسف يُعلمه بالحال . فلما ورد عليه الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين . وقصد قلة العساكر لقلة القوت فى البلاد . وسار فى صفر سنة ثلاث وثمانين[٣] ، فوصل إلى مدينة تونس . وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه أبى حفص[٤] ، فساروا

(١) ابن خلدون ٦ : ٢٤٣ ، الناصرى ٢ : ١٤٣ : أبو ربيع .
(٢) ك : وانضم .
(٣) الأنيس ١٥٤ ، ابن خلدون ٦ : ٢٤٤ ، الناصرى ٢ : ١٤٤ ، ٣ شوال ٥٨٢ هـ .
(٤) ص : مع أخيه أبى حفص . ابن خلدون ٦ : ٢٤٣ ، الناصرى ٢ : ١٤٤ أبى زيد بن عمه أبى حفص . ولما كان لأبى يوسف عم وأخ باسم عمر (أبى حفص) فليس من اليسير القطع بالمقصود منهما .

إلى على بن إسحاق الملثم وهو بقفصة فوافوه . وكان مع الموحدين جماعة من الترك الذين كانوا مع قراقوش ، فلما التقوا خامر الترك عليهم ، وانضموا إلى أصحابهم الذين مع الملثم . فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم . وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين .

قال : فأقام أبو يوسف بمدينة تونس إلى نصف شهر رجب منها . ثم خرج فى خمسة عشر ألف فارس من الموحدين وسار يريد حرب الملثم . فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا . فانهزم الملثم ومن معه . وأكثر الموحدون القتل فيهم حتى كادوا يفنونهم .

ورجع من يومه إلى قابس ففتحها . وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وأمواله فحملهم إلى مراكش[1] .

وتوجه إلى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر [2] ، وقطع أشجارها ، وخرب ماحولها . فأرسل إليه الترك الذين كانوا بها فى السر يسألونه الأمان لأنفسهم ولأهل قفصة . فأجابهم إلى ذلك . وخرج الأتراك منها سالمين فسيرهم إلى الثغور لما رآه من شجاعتهم ونكايتهم . وتسلم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين[3] . وهدم أسواره ، وترك المدينة مثل قرية . وظهر ماقاله المهدى .

ولما فرغ من أمر قفصة واستقامت له إفريقية ، عاد إلى مراكش . فكان وصوله إليها فى سنة أربع وثمانين .

---

(١) ابن خلدون ٦ : ٢٤٤ ، الناصرى ٢ : ١٤٤ : ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه فى البحر إلى تونس .

(٢) ابن خلدون ٦ : ٢٤٤ ، الناصرى ٢ : ١٤٤ : فنازلها أياماً .

(٣) ك : المسلمين . تحريف .

وأما ابن غانية اللمتونى فإنه ثبت بعد انكشاف أصحابه وقاتل قتالا شديدا فأصابته جراحات كثيرة . ومر على وجهه فمات فى خيمة لعجوز أعرابية . وكان معه إخوته عبد الله ويحيى وأبو بكر وسير . فقدموا عليهم يحيى لشجاعته وشهامته ولحقوا بالمغرب . ولم يزل بإفريقية يثور تارة ويسكن أخرى .

ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها الى المسلمين

وفى سنة ست [١] وثمانين وخمسمائة ، ملك الفرنج بغرب الأندلس مدينة شلب ، وهى من أكبر مدن المسلمين . فوصل الخبر إلى أبى يوسف فتجهز بالعساكر الكثيرة . وعبر المجاز إلى الأندلس ، وسير طائفة كثيرة فى البحر . ونازل شلب وحصرها ، وقاتل من بها قتالا شديدا حتى ذلوا وطلبوا الأمان [٢] . فأمنهم وتسلم البلد . ورجع من به إلى بلادهم .

وسير جيشا من الموحدين ومعهم جمع من العرب إلى بلاد الفرنج. ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وقتلوا طائفة من الفرنج فخافهم ملك طليطلة ، وأرسل فى طلب الهدنة فصالحه خمس سنين . وعاد أبو يوسف بعد ذلك إلى مدينة مراكش .

---

(١) المعجب : ٢٨٠ : خمس .

(٢) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ٢١١ ابن خلدون ٦ : ٢٤٥ . وذكر الأنيس ١٥٥ ، الناصرى ٢ : ١٦٥ أن ابنه محمداً هو الذى واقعها وفتحها .

ذكر غزوة الفرنج بالأندلس والوقعة الكبرى والثانية وحصر طليطلة

كانت هذه الغزاة المباركة فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة . وكان سببها أن الفنش [١] ملك الفرنج صاحب طليطلة كتب إلى أبي يوسف كتابا ، نسخته [٢] :

« باسمك اللهم ، فاطر السموات والأرض .

أما بعد ، أيها الأمير ، فإنه لا يخفى على ذي عقل لازب ، ولا ذى لب وذكاء ثاقب ، أنك أمير الملة الحنيفية [٣] كما أنا أمير الملة النصرانية . وإنك لا يخفى عليك ماهم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتمالهم على الراحات . وأنا أسومهم سوم الخسف ، وأسبي الذرارى ، وأخلى الديار ، وأمثّل بالكهول ، وأقتل الشباب ، ولاعذر لك فى التخلف عن نصرتهم ، وقد أمكنتك منهم القدرة ، وأنتم تعتقدون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحدٍ منكم . والآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، وقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم [٤] . ونحن الآن نقاتل عددا منكم

(١) ك : الأدفنش .
(٢) الناصرى ٢ : ١٦٦ كتبه له ابن الفخار . وفى الوفيات ٢ : ٣٢٦ : ابن الفجار .
(٣) ك : الحنفية .
(٤) يشير إلى الآيتين ٦٥ ، ٦٦ من سورة الأنفال :

« يا أيُّها النَّبِيُّ حرِّضِ المُؤمِنِين على القِتال : إن يكُن مِنكُم عِشرُون صابِرُون يغلِبُوا مِائتيْنِ ، وإن يكُن مِنكُم مِائةٌ يغلِبُوا ألْفًا مِن الَّذِين كفرُوا بِأنَّهُمْ قوْمٌ لا يفقهُون . الآن خفَّف اللهُ عنكُم وعلِم أنَّ فِيكُمْ ضعْفًا ، فإن يكُن مِنكُمْ مِائةٌ صابِرةٌ يغلِبُوا مِائتيْنِ ، وإن يكُن مِنكُمْ ألْفٌ يغلِبُوا ألْفيْن ، بِإذنِ اللهِ ، واللهُ مع الصَّابرين » .

بواحد منا . ولا تقدرون دفاعا ولا تستطيعون امتناعا . ثم حُكى لى عنك أنك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ، وتُمطل نفسك عاما بعد عام ، تقدِّم رجلا وتؤخِّر أخرى . ولا أدرى : الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أُنزل عليك ؟ وحُكى لى عنك أنك لاتجد سبيلا إلى جواز (١ البحر لعلةٍ ١) ما يسوغ لك التقحُّم بها فها أنا أقول لك ما فيه الراحة وأعتذر عنك . ولك أن توفينى بالعهود والمواثيق والأَيمان : أن توجِّه بجملة من عبيدك (٢) فى الشوانى والمراكب وأجوز إليك بجملتى . وأبارزك فى أعز الأَماكن عندك . فإن كانت لك ، فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك . وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك واستحققت إمارة المسلمين والتقدم على الفئتين . والله يسهل الإرادة ويقرب السعادة بمنه ، ولا رب غيره ولا خير إلا خيره » .

قال : فلما وصل كتابه وقرأه كتب فى أعلاه (٣) : « ارْجعْ إليْهِم فلَنأْتينَّهم بِجنُود لاقبل لَهمْ بِها ولنُخرِجنَّهم منها أذلة وهمْ صاغرُون (٤) » . وأعاده إليه . وجمع عساكره وعبر المجاز إلى الأَندلس .

وقيل : كان سبب عبوره إلى الأَندلس أنه لما صالح الفرنج فى سنة ست وثمانين على ما (٥) ذكرناه ، بقيت طائفة من الفرنج لم

(١-١) فى الأصول : إلى الحرب لعلك . والتصحيح عن الأنيس .
(٢) كذا فى الأنيس ١٥٦ ، والناصرى ٢ : ١٦٦ ، والوفيات ٢ : ٣٢٦ . وفى الأصول من عندك ، تحريف . وفى الأصول : تتوجه . وفى الأنيس : وترسل إلى .
(٣) ذكر المؤنس ١١٦ ، الأنيس ١٥٧ أن ولى عهده هو الذى رد على الجواب .
(٤) سورة النمل ، الآية ٣٧ .
(٥) ص ، ر : كما .

ترض بالصلح . فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعا من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام فقتلوا وسبوا وأسروا وغنموا وعاثوا . فانتهى ذلك إلى أبي يوسف . فجمع العساكر وعبر إلى الأندلس فى جيش يضيق به الفضاء . وجمعت الفرنج قاصيها ودانيها ، وأقبلوا إليه مجدّين واثقين بالظفر لكثرتهم . والتقوا فى تاسع[1] شعبان من السنة شمالى قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف بمرج الجديد [2] . واقتتلوا قتالا عظيما . وكانت الحرب فى أولها على المسلمين ثم صارت الدائرة على الفرنج . فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم .

وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا [3] . وأسر ثلاثة عشر ألفا [4] . وحاز المسلمون من الخيل ستة وأربعين ألفا [5] ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف . وكان يعقوب نادى فى عسكره : « من غنم شيئا فهو له سوى السلاح » . فأحصى ما حمل إليه ، فكان يزيد على سبعين ألف لباس . وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفا . ولما انهزم الفرنج ، اتبعهم أبو يوسف

(١) المعجب ٢٨٢ : ثالث .

(٢) المعجب ٢٨٢ : فحص الحديد . الأنيس ١٥٥ ، المؤنس ١١٦ ، ابن خلدون ٦ : ٢٤٥ : الأرك أو الأراك .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ٢٣٣ . وفى ابن كثير ١٣ : ١٠ : مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٤٥ : ثلاثون ألفا ، فقط .

(٤) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ٢٣٣ . وفى الأنس ١٧٤ ، والمونس ١١٦ ، والناصرى ٢ : ١٧١ : أربعة وعشرون ألفا ، وابن تغرى بردى ٦ : ١٣٧ : ثلاثون ألفاً .

(٥) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ٢٣٣ . وفى ابن تغرى بردى : ثمانين ألفاً .

فرآهم قد خلّفوا [١] قلعة رباح وساروا عنها . فملكها [٢] وجعل فيها واليا وجندا . وسار إلى مدينة إشبيلية .

وأما الفنش فإنه حلق رأسه ، ونكس صلبانه ، وركب حمارا ، وأقسم ألا يركب فرسا ولا بغلا حتى ينصر النصرانية . فجمع جموعا كثيرة . فبلغ الخبر إلى أبى يوسف ، فأرسل إلى مراكش وغيرها من بلاد الغرب [٣] يستنفر الناس من غير إكراه . فاجتمع إليه جمع عظيم . فالتقوا فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة . فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة . وغنم المسلمون مامعهم من الأموال والسلاح والدواب وغير ذلك .

وتوجه أبو يوسف إلى مدينة طليطلة . فحصرها وقاتل من بها قتالا شديدا ، وقطع أشجارها .

وشنّ الغارة على ماحولها من البلاد . وفتح عدة حصون ، فقتل رجالها ، وسبى حريمها ، وهدم أسوارها ، وخرب دورها . فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام بالأندلس . وعاد إلى إشبيلية فأقام بها .

فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، سار إلى الفرنج وفعل مثل فعله الأول والثانى . فذل العدو واجتمعت ملوك الفرنج وراسلوه فى الصلح ، فأجابهم إليه بعد امتناع . وكان عزم على أن لا يجيبهم إلى

---

(١) ابن الأثير ٩ : ٢٣٣ : أخلوا . وهى أليق .

(٢) ذكر المؤنس ١١٦ ، الأنيس ١٦٣ ، الناصرى ٢ : ١٧٢ أنه افتتحها سنة ٥٩٢ هـ .

(٣) ك : المغرب .

الصلح وأن يداوم الغزو حتى يفنيهم . فأتاه خبر على[١] بن إسحاق الملثم بخروجه على إفريقية . فصالحهم[٢] سنين . وعاد إلى مراكش فى آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

ذكر ما فعله الملثم بافريقية

قال : ولما عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس ، وداوم الغزو ، وانقطعت أخباره عن إفريقية ، قوى[٣] طمع على بن إسحاق[٤] فيها . وكان بالبرية مع العرب[٥] . فعاود قصد إفريقية . وبث جنده فى البلاد وأكثر الفساد . وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب . فوصل الخبر إلى أبى يوسف فصالح الفرنج ، وعاد إلى مراكش عازما على قصده وإخراجه .

ولما عاد استعمل على مدينة تونس أبا سعيد عثمان بن عمر الهنتاتى وولى أخاه أبا على يونس بن عمر على المهدية . وجعل قائد الجيش[٦] بالمهدية محمد بن عبد الكريم ، وهو رجل مشهور بالشجاعة . فعظمت

---

(١) انظر التعليقة رقم ٤ .

(٢) المعجب ٢٨٣ : عشر .

(٣) كذا فى ص ، ر . وفى ع ، ك : فقوى ، وهى على خطئها أقرب إلى أسلوب المؤلف .

(٤) زادت ص ، رهنا : « بن محمد بن على بن غانية فيها . حكاه ابن شداد . وذكر بعض المؤرخين أن هذا الثائر الآن هو يحيى أخو على ، وأن عليا كان قد مات إثر تلك الوقعة ، على ماتقدم من قوله ، والله أعلم . قال ابن شداد » والعبارة : « وذكر بعض ... والله أعلم » موجودة فى هامش ا ، ومكتوب عليها « حاشية » . وهذه الحاشية محقة فيما تقول .

(٥) زادت ص هنا « يعنى عليا » ليتسق الكلام مع الحاشية السابقة .

(٦) ر : الجيوش .

نكايته فى العرب ، ولم يبق إلا من يخافه . وخرج إلى طائفة من عوف ، فانهزموا منه وتركوا أموالهم وعيالهم . فأخذ الجميع ورجع إلى المهدية . وأخذ من الغنيمة والأسلاب ما شاء ، وسلم البعض لأبى على ، والبعض للجند . فجاءت تلك الأعراب إلى أبى سعيد بن عمر فوحّدوا (١) وصاروا من حزب الموحدين . واستجاروا بأبى سعيد فى رد عيالهم وأموالهم . فأحضر محمد بن عبد الكريم وأمره بإعادة ما أخذ لهم . فقال : « أخذه الجند ولا أقدر على رده » . فأغلظ له فى القول وأراد أن يبطش به . فاستمهله إلى أن يرجع إلى المهدية ويسترد من الجند ما يجده ، وما عدم غرمه من ماله ؛ فأمهله . وانصرف إلى المهدية وهو لا يأمن على نفسه . فلما وصل إليها جمع أصحابه ، وأعلمهم بما كان من أبى سعيد ، وحالفهم على المخالفة عليه ، فحلفوا له على ذلك . فقبض على أبى على يونس (٢) وتغلب على المهدية وملكها ونزع يده من الطاعة . فأرسل إليه أبو سعيد فى إطلاق أخيه يونس . فأطلقه على اثنى عشر ألف دينار ، فأخذها وفرقها فى جنده . فجمع أبو سعيد الجند وأراد قصده . فأرسل محمد بن عبد الكريم إلى على بن إسحاق الملثم واعتضد به . فامتنع أبو سعيد من قصده . وفى خلال ذلك مات أبو يوسف .

---

(١) أى صاروا من حزب الموحدين . وفى ك : فوجدوا . تحريف .

(٢) ص : على بن يو نس . تحريف .

ذكر وفاة ابى يوسف يعقوب

كانت وفاته فى سابع عشر شهر ربيع الآخر [١] سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة سلا . وكان قد سار إليها من مراكش ، وبنى مدينة مجاورة [٢] لها وسماها المهدية [٣] ، وجاءت من أحسن البلاد وأنزهها . فسار ليشاهدها فتوفى بها . وقيل : بل توفى بمراكش بعد انصرافه من سلا ، في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين . وقيل : بل كانت وفاته فى صفر منها .

وكانت ولايته خمس عشرة سنة [٤] .

وكان رحمه الله دينا ، حسن السيرة ، كثير الجهاد ، إلا أنه كان يتمذهب بمذهب الظاهرية ولا يكتمه . فعظموا فى أيامه وانتشروا فى البلاد ، ومال إليهم [٥] .

وحكى بعض المؤرخين أنه كان فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة أظهر الزهد والتقشف وخشونة المأكل والملبس [٦] . وانتشرت فى أيامه الصالحون وأهل الحديث . وانقطع علم الفروع . وأمر بإحراق

---

(١) وكذا فى الناصرى ٢ : ١٨١ . وفى ابن الأثير ٩ : ٢٤٥ : ثامن عشر . وفى الأنيس ١٦٥ ، المؤنس ١١٦ ، الناصرى ٢ : ١٨٣ : ٢٢ ربيع الأول .

(٢) ابن الأثير ٩ : ٢٤٥ : محاذية .

(٣) وكذا فى ابن الأثير ٩ : ٢٤٥ . وفى الناصرى ٢ : ١٨١ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٢٧ رباط الفتح .

(٤) الأنس ١٥٣ : أربع عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة أيام . المعجب ٢٦١ : ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً .

(٥) زادت رهنا : واستقضى الشافعية على بعض البلاد ومال إليهم .

(٦) زاد المؤنس ١١٦ ، الناصرى ٢ : ١٨١ بعد هذا عن ابن خلكان ٢ : ٣٢٧ أنه سلح فى الأرض حتى انتهى إلى المشرق ومات هناك .

كتب المذهب بعد أن يجرد منها الحديث والقرآن . فحرق منها جملة فى سائر البلاد كالمدونة وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ، ومختصره ، والتهذيب للبرادعى ، والواضحة . وأمر بجمع الحديث من المصنفات كالبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، و الموطأ ، وسنن أبى داود ، والبزار ، وابن أبى شيبة ، والدارقطنى ، والبيهقى ، فجمع ذلك كله . فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه . قال : وانتشر هذا المجموع فى بلاد المغرب ، وحفظه العوام والخواص . وكان يجعل لمن حفظه الجوائز السنية . وكان قصده أن يمحو مذهب مالك من بلاد المغرب ، ويحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة . وكان له من الأولاد محمد وهو ولى عهده ، وإبراهيم ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد . فهؤلاء أربعة عشر ولدا .

ولما مات ولى بعده ابنه محمد .

ذكر ولاية أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن على الملقب الناصر لدين الله

كان أبوه قد ولاه العهد فى حياته . واستقل بالملك بعده ، واستقام أمر دولته ، وأطاعه الناس ، وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وتسعين وخمسمائة . ولما ولى اتصل به فساد إفريقية . فأنفذ عمه أبا العلاء فى سبعين شينيا مشحونة بالعدد والمقاتلة . وجهز جيشا فى

البر مع أبي الحسن على بن أبي حفص [١] عمر بن عبد المؤمن فوصل إلى قسنطينة الهواء . ووصل الأسطول إلى بجاية . فلما اتصل خبرهم بعلى بن إسحاق [٢] ومن معه من العرب هربوا وتركوا إفريقية ودخلوا إلى الصحراء . وتمادى بعض الأسطول إلى المهدية ، فقبح مقدمهم على محمد بن عبد الكريم فعله . فشكا إليه ماناله من أبي سعيد ، وقال : « أنا فى طاعة سيدنا أمير المؤمنين محمد ، وما أسلم المهدية إلا له أو لمن يأمرنى بتسليمها إليه . وأما أبو سعيد فلا أسلمها إليه أبدا » . فأرسل محمد من تسلمها منه . وعاد إلى الطاعة .

قال : وجهز محمد جماعة من العرب إلى الأندلس واحتاط. واحترز . فأتاه جماعة رسل من ملوك الفرنج يطلبون دوام الهدنة ويشاهدون أحوال الدولة . فأنزلهم على العادة ، وحضروا مجلسه فطلبوا دوام الهدنة التى كانت بينهم وبين أبيه ، واستقراض مائة ألف دينار . فقال لهم : « المال والحمد لله لدينا والرجال ، ونحن نجيب إلى ذلك بشرط. أن ترهنوا عندنا معاقل على المال تكون بأيدينا إلى حين الوفاء . وإن كان هذا منكم امتحانا فالسيوف التى تعرفون مارُدَّت فى أغمادها والرماح ما حصلت على أوتادها » . فانصرفوا وقد ملأ قلوبهم رعبا . وأبقوا الهدنة على ما كانت وأعرضوا عن ذكر السلف.

قال : وخرج أقارب يحيى بن إسحاق الميورقى من ميورقة لما علموا

---

(١) وكذا فى المعجب ٣١٤ . وفى ابن الأثير ٩ : ٢٤٦ : ابن عمه الحسن بن أبي حفص . وذكر المعجب أن عليا انهزم .

(٢) الأنيس ١٦٥ ، الناصرى ٢ : ١٩١ : يحيى بن اسحاق . وهو الصواب ، لأن المؤلف سبق أن ذكر وفاة على .

بموت يعقوب في أسطول كبير إلى جزيرة مَنُرقة ، وهي في طاعة محمد . ففتحوها واحتووا على أموالها ، وتركوا فيها جندا يحفظونها . فاتصل ذلك بالأمير محمد . فجهز أسطولا فى غير أوان ركوب البحر فى كانون ، وقدم عليهم أبا زيد . فوصل إلى منرقة ففتحها عنوة بالسيف وقتل بعض من فيها [١] . وتوجه إلى جزيرة ميورقة [٢] ففتحها وقتل بعض من بها من الجند . وأسر ثلاثة من أقارب يحيي ابن إسحاق وقُتل منهم واحد في المعركة . وذلك كله فى سنة خمس [٣] وتسعين وخمسمائة .

انتهى تاريخ ابن شداد وابن الأثير [٤] فى أخبار المغرب إلى هذه الغاية .

وقال غيرهما ممن أرخ للمغاربة : وفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، قام بالسوس رجل جَزولى يعرف بأبى قصبة ، ودعا لنفسه ، واجتمع عليه خلق كثير ثم هزمه الموحدون وأسلمه أصحابه ، وقتل .

وفى سنة إحدى وستمائة ، تجهز محمد بن يعقوب فى جيوش عظيمة لقصد إفريقية ، وكان يحيي بن غانية اللمتونى قد استولى عليها ما خلا قسنطينة وبجاية . فنزل إفريقية وملكها ، ولم يمتنع عليه منها إلا المهدية . فأقام عليها أربعة أشهر ، وكان فيها الحسن بن على بن عبد الله بن محمد بن غانية [٥] واليا لابن عمه يحيي . فلما طال عليه

(١) ص : وقتل بعض أهلها .
(٢) ك : وتجهز إلى مدينة ميورقة .
(٣) المعجب ٣١٥ : تسع .
(٤) ابن الأثير : ساقط من ك .
(٥) الأنيس ١٦٦ ، الناصرى ٢ : ١٩٢ ، ابن خلدون ٦ : ٢٤٨ : على بن الغانى المعروف بالحاج .

الحصار سلمها وخرج يقصد ابن عمه . ثم بداله فراسل الأمير محمدا فقبله أحسن قبول ووصَله بالصِّلات السنية .

ثم ترك بإفريقية من يقوم بحمايتها ، واستعمل عليها أبا محمد عبد الواحد . ورجع إلى مراكش فى سنة أربع [١] وستمائة . وأقام بها إلى أول سنة سبع [٢] وستمائة . فقصد بلاد الروم بالغزو ، ونزل على قلعة تسمى شَلْبَ تِرَّة [٣] ففتحها . فجمع له الأدفنش [٤] جموعا عظيمة من الأندلس والشام [٥] والقسطنطينية . فالتقيا بموضع يعرف بالعِقاب . فدهم الأدفنش المسلمين وهم على غير أهبة . فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير . وثبت الأمير محمد ثباتا لم ير من ملك قبله . ولولا ذلك لاستُؤصلت تلك الجموع . ثم رجع إلى مراكش . وكانت الهزيمة فى يوم الاثنين منتصف صفر [٦] سنة تسع وستمائة . وانفصل الأدفنش ، وقصد بياسة فوجدها خالية . فقصد أبَّذة فوجد فيها من المسلمين عددا كثيرا من المنهزمين وأهل بياسة . فأقام عليها ثلاثة عشر يوما ، ودخلها عنوة وسبى وغنم . فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة .

---

(١) وكذا فى الأنيس ١٦٧ . وفى الناصرى ٢ : ١٩٢ : ثلاث . وفى المؤنس ٢١٧ : خمس.

(٢) وكذا فى المونس ١١٨ ، الناصرى ٢ : ١٩٦ . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٤٩ : تسع تحريف .

(٣) ابن خلدون ٦ : ٢٤٩ : شلبطرة . الناصرى ٢ : ١٩٧ : سلبطرة . وهى Salvatierra

(٤) ك : الأدفونش .

(٥) كذا فى الأصول . وفى المعجب ٣١٩ : السام ، وقيل فى تعليقاته : إن رواية بعض نسخه : ألمان . ورجحها محققه لأن الأندلسيين استعانوا بجميع الأوربيين فى الموقعة .

(٦) وكذا فى الأنيس ١٧٢ ، الناصرى ٢ : ٢٠٠ . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٤٩ : أواخر صفر .

ذكر وفاة أبى عبد الله محمد وشىء من أخباره

كانت وفاته بمدينة مراكش لعشر خلون ، وقيل : لخمس خلون من شعبان سنة عشر[١] وستمائة . فكانت ولايته خمس عشرة سنة وشهورا .

وكان شديد الصمت ، بعيد الغور ، كثير الإطراق ، حليما ، شجاعا ، عفيفا عن الدماء ، قليل الخوض فيما لا يعنيه ، إلا أنه كان نحيلا [٢] ألثغ .

وكان له من الأولاد يوسف ، وهو ولى عهده ، ويحيى ، وإسحاق . توفى يحيى فى حياته .

ولما مات ولى بعده ابنه يوسف .

ذكر ولاية يوسف بن محمد بن يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن بن على

كانت ولايته بعد وفاة أبيه فى شعبان سنة عشر وستمائة ، وعمره يوم ذاك ست عشرة سنة . وقام ببيعته من القرابة أبو موسى عيسى ابن عبد المؤمن عم جده ، الذى دخل عليه الميورقيون بجاية ، وهو آخر من بقى من ولد عبد المؤمن لصلبه ، وأبو زكريا يحيى بن عمر بن عبد المؤمن.بويع له البيعة الخاصة فى يومى الخميس والجمعة ،

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٢٩ : ١٠ شعبان . الأنيس ١٧٣ ، الناصرى ٢ : ٢٠٠ : ١١ شعبان . وفى ابن خلدون ٦ : ٢٤٩ : سنة تسع .

(٢) ك : بخيلا . وقد صرح الأنيس ١٦٥ بأنه كان نحيل الجسم .

بايعه أشياخ الموحدين والقرابة . وفى يوم السبت أذن للناس عامة وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائم على رأسه يقول للناس : « تبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين [١] ، على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة فى المَنْشط والمَكْرَه واليُسْر والعُسر ، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين ، هذا ماله عليكم . ولكم عليه أن يحمى ثغوركم [٢] ، وأن لايدخر عنكم شيئا مما نعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطاءكم . وأن لا يحتجب دونكم. أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ماقلده من أموركم »

قال المؤرخ : ولما مضى من ولاية يوسف هذا أربعة أشهر ، قبض على رجل كان قد ثار عليهم اسمه عبد الرحمن ، ادعى أنه من أولاد العاضد من خلفاء المصريين[٣] . وكان خروجه فى زمن أبيه محمد بن يعقوب ، والتفّت عليه ببلاد صنهاجة جماعة كبيرة [٤] . وكان كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة . وقصد سجلماسة فى حياة محمد بن يعقوب فى جيش عظيم . فخرج إليه متوليها سليمان بن عمر بن عبد المؤمن . فهزمه عبد الرحمن هذا ، وأعاده إلى سجلماسة أسوأ عَوْد . ولم يزل يتنقل فى قبائل البربر ولا تثبت عليه جماعة لأنه غريب البلد ، حتى قُبض عليه بظاهر فاس. فضُربت عنقه وصُلب ، ووُجِّه برأسه إلى مراكش .

(١) ر : أمراء المؤمنين .

(٢) المعجب ٣٢٦ : ألا يجمر ثغوركم .

(٣) ذكر ابن خلدون ٦ : ٢٥١ ، الناصرى ٢ : ١٩٥ أن الثائر الذى انتسب إلى العاضد كان اسمه محمد بن عبدالله . وثار آخر قبله يسمى عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس ، من علماء الأندلس ، وهو الذى صلب وسيق رأسه إلى مراكش . ويبدو أن النويرى خلط بين الثائرين.

(٤) ك : كثيرة .

وثار فى أيام يوسف رجل ببلاد جَزولة يدعى أنه فاطمى ، فقُتل وجِيء برأسه[١] .

وثار آخر من صنهاجة ، فقُتل فى سنة ثمانى عشرة وستمائة ، بعد أن أثر آثارا قبيحة ، وهزم بعوثا كثيرة ، وأفسد خلقا من الناس .

واستمر يوسف هذا إلى سنة عشرين وستمائة .

ذكر وفاة يوسف بن محمد

كانت وفاته فى شوال أو ذى القعدة[٢] سنة عشرين وستمائة . فكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر تقريبا[٣] . ولم أقف من أخباره على غير ما وضعت ، فأُورده .

ذكر ولاية أبى محمد عبد العزيز بن يوسف ابن عبد المؤمن[٤]

كانت ولايته فى ذى القعدة سنة عشرين وستمائة بعد وفاة يوسف ابن محمد . وكان يوسف بن محمد ولاه مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء إدريس وولاه إفريقية . فلما توفى يوسف اضطرب

(١) أعتقد أن هذا الثائر هو ابن الثائر السابق المنتسب للعاضد (الناصرى ٢ : ١٩٥) .

(٢) الأنيس ١٧٤ ، ابن خلدون ٦ : ٢٥١ ، الناصرى ٢ : ٢٠٤ : العاشر من ذى الحجة .

(٣) المعجب ٣٢٤ ، ابن تغرى بردى ٦ : ٢٥٦ : عشرة أعوام وشهرين . المؤنس ١١٩ ، الأنيس ١٧٥ : عشرة أعوام وأربعة أشهر .

(٤) لم أجد ذكراً لخلافة عبد العزيز بن يوسف فيما بين يدى من مراجع ، فكلهم أجمع على أن من خلف يوسف بن محمد هو أبو محمد عبد الواحد بن يوسف ، الذى بقى فى الحكم نحو ٩ أشهر ، ثم خلع وخلفه أبو محمد عبد الله بن يوسف العادل . أما عبد العزيز بن يوسف فقد ذكر ابن خلدون ٦ ٢٥١ أنه كان باشبيلية حقاً ثم ناصر دعوة العادل وساعده فى خلع عبد الواحد . وأكثر كلام النويرى ينطبق على عبد الواحد . وقد اضطرب الأمر على المؤرخ فى هذه الحقبة .

الأمر . فاجتمع معظم الناس[١] على تقديم أبي محمد عبد العزيز . فبايعوا له وولوه أمرهم .

قالوا : وكان عبد العزيز هذا فى أيام إمارته قبل أن يصير الأمر إليه مجتهدا فى دينه ، شديد البصيرة فى أمره ، قوى العزيمة ، شديد الشكيمة ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، أرطب الناس لسانا بذكر الله وأتلاهم لكتابه ، مع دماثة خلق ولين جانب وخفض جناح لأصحابه ، مع سخاء نفس وطلاقة وجه .

هذا ما وقفت عليه من أخبار ملوك دولة الموحدين مما دُوِّن لهم ، على ما فيه من الاختصار . ثم انقطعت أخبار ملوك المغرب[٢] عن الديار المصرية . فلم يصل إلينا من خبرهم إلا مانتلقاه من أفواه الناس. ولم يتحقق[٣] من أخبارهم مانورده[٤] فتكون العمدة[٥] عليه ، لكنا علمنا مَنْ ولى الأمر من ملوك هذه الدولة بعد أبي محمد عبد العزيز هذا[٦] واحدا بعد واحد إلى أن انقرضت الدولة وقامت دولة زناتة ، من غير أن نتحقق تاريخ ولاية أحد منهم ولا وفاته . فرأينا أن نذكر ذلك مجردا عاريا من الأخبار والوقائع . ونقلت ذلك عن ثقة أخبرنى أنه نقله عن ثقات . وها أنا أورده كما أخبرنى .

قال : ولى الأمر بعد أبي محمد عبد العزيز المستنصرُ بالله

(١) ك : الأصحاب .
(٢) ص : الغرب .
(٣) ك : يتحقق . ص ، ع بدون نقط .
(٤) ك : يورده .
(٥) ك : المهدة .
(٦) كذا فى ر . وفى بقية الأصول : بعد محمد بن عبد العزيز هذا .

أبو يعقوب يوسف بن الناصر لدين الله أبي عبد الله محمد بن المنصور بالله أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[١] .

ثم ولى الأمر بعده أبو محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن .

ثم ولى الأمر بعده العادل أبو محمد عبد الله بن المنصور بالله أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

ثم ولى بعده [٢] أبو زكريا يحيى بن الناصر لدين الله أبي عبد الله محمد ، وهو أخو المستنصر[٣] بالله المقدم ذكره .

ثم ولى بعده أبو العلاء إدريس المأمون بن المنصور أبي يوسف يعقوب .

ثم ولى بعده ابنه الرشيد عبد الواحد بن المأمون إدريس .

ثم ولى بعده [٤] أخوه السعيد أبو الحسن على [٥] بن المأمون إدريس ، وهو المعروف بالبرّاك ، وإنما سمى بالبراك لثبوته فى الحرب .

ثم ولى بعده [٦] المرتضى أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم إسحاق .

---

(١) كذا فى الأصول ، وهو يوسف الذى تولى الحكم بين ٦١٠ — ٦٢٠ ، وسبق النويرى أن أرخ له .

(٢) ك : ثم ولى الأمر بعده .

(٣) ع : المنتصر . وفيها فى المرة السابقة : المستنصر . وقد اختلفت المراجع فى لقب يوسف بن محمد . فجعله ابن خلدون ٦ : ٢٥٠ ، الأنيس ١٧٣ : المستنصر . وجعله المؤنس ١١٩ ، الناصرى ٢ : ٢٠٢ : المنتصر .

(٤) ك ، ص : ثم ولى الأمر بعده .

(٥) كذا فى جميع مابين يدى من مراجع . وفى الأصول : أبو الحسين يحيى ، تحريف .

(٦) ك : ثم ولى الأمر بعده .

ثم ولى بعده[١] الواثق بالله أبو العلاء إدريس المعروف بأبى دبوس ابن أبى عبد الله محمد بن عمر بن عبد المؤمن ، وإنما سمى بأبى دبوس لثقل دبوسه .

ثم ولى بعده [١] ولده أبو مالك عبد الواحد بن أبى العلاء إدريس . وعليه انقرضت دولتهم وقامت الدولة المرينية ، وهم زنانة ، وهى الدولة القائمة فى عصرنا[٢] هذا . ولما انتزع من الملك انتقل إلى بلاد الفرنج فكان بها إلى أن ثار على بنى أبى حفص [٣] بساحل [٤] طرابلس الغرب وأعانته [٥] الأعراب على ذلك . ثم قُتل بعد أربعة أشهر أو نحوها من نهوضه ولم يتم له ما قصده .

ثم قام بعده أخوه أبو سعيد عثمان بن إدريس ، وملك مدينة قابس وبلاد نفزاوة [٦] ، وأقام بها مدة . ثم أُخرج منها فتوجه مع العرب إلى البرية . ثم ثار معهم بإفريقية حتى انتهى إلى جبل الريحان ، وهو على مرحلة من تونس . ثم خذله العرب فتوجه إلى بلاد الفرنج[٧] .

قال : وكان انقراض دولة الموحدين فى سنة ست [٨] وستين وستمائة تقريبا .

---

(١) ك : ثم ولى الأمر بعده .
(٢) ر : لعصرنا .
(٣) ر ، ك : على بن أبى حفص .
(٤) ص : ساحل .
(٥) ص : وأعانه .
(٦) ر : هوارة .
(٧) ك : الإفرنج .
(٨) الأنيس ١٨٩ ، المؤنس ١٢٣ ، الناصرى ٢ : ٢٣٤ : سبع .

جامع أخبار دولة الموحدين

كانت مدة قيام هذه الدولة من حين ظهر [١] المهدى محمد بن تومرت فى سنة أربع عشرة وخمسمائة وإلى [٢] حين انقراضها فى سنة ست وستين وستمائة ، مائة سنة وثلاثا وخمسين سنة تقريبا . وعدة من ملك منهم سبعة عشر [٣] ملكا ، وهم :

المهدي محمد بن تومرت الحسنى .

عبد المؤمن بن على .

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

أبو يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف [٤] بن عبد المؤمن .

أبو عبد الله محمد بن أبى يوسف .

ولده يوسف بن محمد .

أبو محمد عبد العزيز بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

المستنصر بالله أبو يعقوب يوسف بن أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

أبو محمد عبد الواحد بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

أبو محمد عبد الله بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن .

---

(١) ص : ظهور .

(٢) ر : إلى .

(٣) الأنيس ١٨٩ : أربعة عشر . وانظر ماعلقنا به على بعض هؤلاء الذين ذكر أسماءهم .

(٤) ص : أبو يوسف يعقوب بن يوسف .

أبو زكريا يحيى بن أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

أبو العلاء إدريس بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن .

ولده عبد الواحد بن إدريس .

أخوه أبو الحسن على بن إدريس وهو البراك .

أبو حفص عمر بن أبى إبراهيم إسحاق .

أبو العلاء إدريس بن أبى عبد الله محمد بن عمر بن عبد المؤمن .

ولده أبو مالك عبد الواحد بن أبى العلاء إدريس .

ذكر تسمية ملوك بنى مرين

أول من قام من ملوكهم[١] أبو بكر بن عبد الحق . استولى على بعض بلاد الموحدين بنى عبد المؤمن ثم مات قبل أن يخلص له الأمر ببلاد المغرب .

فملك بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق المعروف بابن تابطويت[٢] وهى أمه نسبت إلى قبيلة بَطُّويت[٣] ، وهى قبيلة كبيرة من قبائل زناتة . وفى أيامه انقرضت دولة بنى عبد المؤمن ، وعظم شأنه ، واتسع ملكه ، وطالت مدته ثم مات .

فملك بعده ولده يوسف المعروف بأبى الزردات[٤] واهتز له المغرب ، وعظم شأنه ، وهابه ملوك المغرب ومع ذلك لم يأت بطائل . وحاصر تلمسان فمكث على حصارها نحو أربع عشرة سنة ، وابتنى عليها مدينة سكنها بجيوشه . ومات قبل أن يملكها ، وذلك أن بعض خدامه وثب عليه فضربه .

فلما تحقق الموتَ عهد بالملك إلى ولده أبى سالم إبراهيم فملك بعده . وخالف عليه ابن أخيه أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف أبى الزردات وعمه أبو يحيى أبو بكر بن يعقوب بن عبد الحق . واجتمع عليهما بنو مرين وهم على تلمسان . فخافهما إبراهيم وهرب من ليلته ، فاتُّبع وقتل .

واستقر الملك لعامر وعم أبيه أبى يحيى يوما واحدا . ثم قام عبد الله ابن أبى مدين المكناسى وزير يوسف بن يعقوب — وهو المستولى على

---

(١) ترك المؤلف بعض الأمراء قبل أبى بكر ، هم أبو محمد عبد الحق بن محيو ، وأبو سعيد عثمان بن عبد الحق ، وأبو معرف محمد بن عبد الحق ، وإن كان أبو بكر هو الذى رفع من بنى مرين ووصل بهم إلى مرتبة الملك .

(٢) ع ، ك : تابطوبت . ر ، ص : تانطويت . وانظر التعليقة الآتية .

(٣) كذلك فى الاستقصا ٣ : ٦ وغيرها . وفى ع ، ك : تطويت . وفى ص ، ر : تطوبت .

(٤) ك : بأبى الزردان . وكنيته فى الأنيس ٢٧٥ : أبو يعقوب .

الدولة – وعلم أن أبا يحيى إن استمر تغلب على الملك وتحكّم عليه [١] ؛ ورأى أنه إذا انفرد عامر بالملك مع صغر سنه كان هو المتحكم فى المملكة فأغرى عامرا بأبى يحيى ، فأمر به فقتل فى اليوم الثانى . واستقل عامر بالملك مدة سنة واحدة وشهر ثم مات بطنجة .

فقام لطلب الملك بعده عمه على بن يوسف المعروف بابن رُزيجة [٢] ورزيجة أمه أم ولد . فلم يتم له أمر . فقام عبد الله بن أبى مدين الوزير وبايع لأبى الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب ، وهو ابن سبع عشرة سنة أو نحوها . واستقر فى الملك ثلاث سنين حتى مات بناحية تازا .

ثم ملك بعده عم أبيه عثمان بن يعقوب . وقتل ابن أبى مدين فى أيام سليمان بن عبد الله بأمره بمدينة فاس . وولى الوزارة بعده لأبى الربيع سليمانَ أخوه محمد بن أبى مدين . وعثمان هذا هو الملك القائم فى وقتنا هذا ، فى سنة تسع عشرة وسبعمائة .

وإنما اقتصرنا من أخبارهم على هذه النبذة لأنهم منعوا فى ابتداء دولتهم أن يُؤرّخ لهم أو تدون أخبارهم ، وقتلوا محمد بن عبد الله ابن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار ، وكان قد أرخ أخبارهم وأخبار غيرهم ، وأعدموا ما وجدوه عنده وعند غيره من أوراق التاريخ المنسوبة لهم ولغيرهم . فهذا هو الذى منع من انتشار أخبارهم .

فلنذكر أخبار جزيرة [٣] صقلية واقريطش .

---

(١) ص ، ر : وتحكم فيه .

(٢) ص ، ع : زنجة . ك : رزبجة . ر : رزيجة . الاستقصا ٣ : ٩٧ رزيقاء . ولعل رزيجة مخففة من رزيقاء مع نطق القاف جيما .

(٣) ص ، ر : جزيرتى .

ذكر أخبار جزيرة (١) صقلية

ومن غزاها من المسلمين وما افتتح منها ، وكيف استولت الفرنج - خذلهم الله تعالى - عليها

قد ذكرنا صفة جزيرة صقلية ، وما بها من الأنهار والعيون والفواكه والأشجار والنبات والكلأ ، وما بها من المدن المشهورة . وأتينا على ذلك مبينا ، وهو فى السِّفر الأول من كتابنا هذا فى أخبار الجزائر (٢) . فلنذكر الآن فى هذا الموضع خلاف ما قدمناه من أخبارها . فنقول :

أول من غزا جزيرة صقلية فى الاسلام

عبد الله بن قيس الفَزارى (٣) من قِبَل معاوية بن حُديج ، وكان قد بعثه من إفريقية ، وذلك فى خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤) . ففتح وسبى وغنم فكان مما غنم أصناما من ذهب وفضة مكللة بالجواهر . فحملها إلى معاوية بن أبى سفيان . فأنفذها معاوية إلى الهند لزيادة ثمنها . فأنكر المسلمون ذلك عليه .

ثم غزاها بعد ذلك محمد بن أبى إدريس (٥) الأنصارى ، فى أيام يزيد بن عبد الملك (٦) ، فقدم بغنائم وسبايا .

ثم غزاها بشر بن صَفْوان الكَلْبى ، فى أيام هشام بن عبد الملك فقدم بغنائم وسبايا .

---

(١) جزيرة : عن ع ، ر . وليست فى ص ، ت .

(٢) انظر صفحة ٢٣٤ من الجزء الأول .

(٣) ك : الغزاوى . تحريف .

(٤) كانت الغزوة فى سنة ٣٣ هـ .

(٥) ص ، ك : محمد بن إدريس . ابن عذارى ١ : ٤٧ : محمد بن أوس . كانت غزوته فى سنة ١٠٢ هـ .

(٦) فى سنة ١٠٩ هـ .

ثم غزاها حبيب بن أبى عبيدة ، فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ومعه ولده عبد الرحمن بن حبيب . فوجهه على الخيل [١] فلم يلقه أحد إلا هزمه عبد الرحمن حتى انتهى إلى سَرَقوسة [٢] ، وهى دار الملك فقاتلوه ، فهزمهم وضرب باب المدينة بسيفه فأثّر فيه. فهابه النصارى ورضوا بالجزية . فأخذها منهم ثم توجه [٣] إلى أبيه . فرجعا إلى إفريقية .

ثم غزاها عبد الرحمن بن حبيب ، فى سنة ثلاثين ومائة فظفر

ثم اشتغل ولاة إفريقية بالفتن التى قدمنا ذكرها فى أخبارهم فأمن [٤] أهل جزيرة صقلية ، وعمرها الروم من كل الجهات ، وبنوا بها المعامل والحصون ، ولم يتركوا جبلا إلا جعلوا عليه حصنا .

وفى سنة إحدى [٥] عشرة ومائتين ، ولّى ملك القسطنطينية على صقلية قسنطين [٦] البطريق الملقب بسودة [٧] فعمر سطولا وسيره إلى بر إفريقية . وولى عليهم فيمى الرومى ، وكان مقدما من بطارقته ، فاختطف من بعض سواحلها مجازا [٨] ، وبقى

(١) ص ، ك : الجبل .
(٢) Siracusa .
(٣) ك : وتوجه .
(٤) ك : فأمنت .
(٥) زيادة عن ابن الأثير ٥ : ١٨٦ ، وابن خلدون ٤ : ١٩٨ .
(٦) ابن الأثير ٥ : ١٨٦ : قسطنطين . ابن خلدون ٤ : ١٩٨ : قسنطيل .
(٧) ك : بسورة .
(٨) مجازاً : أى قطعة من الساحل ، وهى ما نعبر عنه الآن برأس الجسر ، ورأس الحربة .
وفى ص : نجاراً . وفى ك : بحاراً . وفى ك : بحارا . وفى ع : محازا . بدون نقط الحرف الأول . وفى ابن الأثير ٥ : ١٨٦ ، المكتبة الصقلية ٢٢١ ، ٤٢٧ : تجارا .

مدة . فوصل كتاب صاحب القسطنطينية إلى قسنطين ، يأمره بعزل فيمى وأن يعذبه لشىء بلغه عنه . فاتصل ذلك بفيمى ، فمضى إلى مدينة سرقوسة . وملكها ونزع يده من الطاعة . فخرج إليه قسنطين ، فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم قسنطين وقتل . وخوطب فيمى بالملك . وكان ممن انقطع إليه علج من الأرمنيين [١] ، يقال له بلاطة . فقدمه وولاه على ناحية من الجزيرة . فخالف على فيمى وخرج إليه وقاتله . فانهزم فيمى وقتل من أصحابه ألف رجل . ودخل بلاطة مدينة سرقوسة .

وركب فيمى ومن معه فى البحر . وتوجه إلى إفريقية إلى زيادة الله ابن إبراهيم بن الأغلب يستنصر به . فجمع زيادة الله وجوه أهل القيروان وفقهاءها واستشارهم فى إنفاذ [٢] الأسطول إلى جزيرة صقلية . فقال بعضهم : « نغزوها ولا نسكنها ولا نتخذها وطنا » . فقال سحنون بن قادم [٣] رحمه الله : «كم بينها وبين بلاد الروم ؟ » فقالوا : « يروح الإنسان مرتين وثلاثة فى النهار ويرجع » . قال : « ومن ناحية إفريقية » . قالوا : « يوم وليلة » . قال : « لو كنت طائرا ما طرت عليها » . وأشار من بقى بغزوها ، ورغبوا فى ذلك ، وسارعوا إليه [٤] . فخرج أمر زيادة الله إلى فيمى بالتوجه إلى مرسى سوسة ، والإقامة هناك إلى أن يأتيه الأسطول . وجمع الأسطول

---

(١) فى الأصول : الامنين . ورجحت المكتبة الصقلية مادونته أو : الأرمنين . وقد كان الروم يستعينون بهم فى جيوشهم فعلا (انظر صفحة ٣٧١)

(٢) ر : نفوذ .

(٣) كذا فى الأصول ، والفقيه المعروف هو سحنون بن سعيد ، وليس فى نسبه قادم .

(٤) ك : وتسارعوا إليه .

والمقاتلة . واستعمل عليهم القاضى أسد بن الفرات . وأقلع الأسطول من مدينة سوسة يوم السبت للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة ومائتين ، وهو نحو مائة مركب [١] سوى مراكب فيمى ، وذلك فى خلافة المأمون . فوصل مازَر [٢] يوم الثلاثاء . فأمر بالخيل فأُخرجت من المراكب ، وكانت سبعمائة فرس وعشرة آلاف راجل . وأقام ثلاثة أيام . فلم يخرج إليه إلا سرية واحدة . فأخذها ، فإذا هى من أصحاب فيمى ، فتركها .

ثم رحل من مازر على تعبئة [٣] قاصدا بلاطة وهو بمرج [٤] ينسب إليه . فعبأ القاضى أسد أصحابه للقتال. وأفرد فيمى ومن معه ولم يستعن بهم . والتقوا واقتتلوا ، فانهزم بلاطة ومن معه . وقُتل منهم خلق كثير . وغنم المسلمون ما معهم . ولحق بلاطة بقَصْريانة [٥] ثم غلبه الخوف فخرج منها إلى أرض قِلَّوْرِية [٦] فقُتل بها .

ثم سار القاضى أسد إلى الكنيسة التى على البحر وتعرف بأَفيمية [٧] واستعمل على مازر أبا زكى [٨] الكنانى .

---

(١) ابن عذارى ١ : ١٣٢ : سبعين مركباً .
(٢) Magaza .
(٣) ص ، ر : تعبئته .
(٤) المرج : الأرض الفضاء ذات الكلأ ترعى فيها الدواب .
(٥) Castrogiovanni.
(٦) Calabria
(٧) كذا فى ع ، ك ، المكتبة الصقلية ٤٢٨ . وفى ص ، ر : بأفيمه .
(٨) ص ، ر : أبازاكى .

ثم سار إلى كنيسة المسلقين [١] . فلقيه طائفة من بطارقة سرقوسة فسألوه الأمان خديعة ومكرا . واجتمع أهل الجزيرة إلى قلعة الكُرّاث وجمعوا فيها جميع أموال أهل الجزيرة . وذل أهل سرقوسة وألقوا بأيديهم . فلما شاهد ذلك فيمى داخلته حمية الكفر . فأرسل إليهم أن يثبتوا وأن يجلوا فى الحرب ويستعدوا . وأقام القاضى أسد فى موضعه أياما ، وتبين له [٢] أنهم مكروا به حتى أصلحوا حصنهم وأدخلوا إليه جميع ما كان فى الرَّبض [٣] وفى الكنائس من الذهب والفضة والميرة . فتقدم وناصَبهم القتال . وبث السرايا فى كل ناحية فغنموا وسبوا سَبْيا [٤] كثيرا . وأتوه بالسبى والغنائم وأتته الأساطيل من إفريقية والأندلس . وشدد القاضى الحصار على مدينة سرقوسة . فسألوه الأمان فأراد أن يفعل . فأبى عليه المسلمون وعاودوا الحرب . فمرض القاضى أسد فى خلال ذلك ، ومات فى شعبان سنة ثلاث عشرة ومائتين .

ذكر ولاية محمد بن أبى الحوارى [٥]

قال : ولما توفى القاضى أسد بن الفرات ، ولى المسلمون على أنفسهم محمد بن أبى الحُوّارَى ، فضيق على أهل سرقوسة . فوصل

(١) كذا فى المكتبة الصقلية ٤٢٨ . وفى ع ، ك : السقلين . وفى ص : السلفين .
(٢) ك : لهم .
(٣) ك : وأدخلوا إليه ماكان . والربض : الضواحى .
(٤) ص : فغنموا شيئا . ك : وسبوا شيئا .
(٥) كذا فى ص ، ع . وفى ر ، المكتبة الصقلية : أبى الجوارى . وفى ك : أبى الجواردى وفى ابن خلدون ٤ : ١٩٩ : محمد بن الحوارى ، وابن عذارى ١ : ١٣٤ : محمد بن أبى الجراوى

من القسطنطينية أسطول كبير [١] وعساكر فى البر . فعزم المسلمون على العود إلى إفريقية ، فرحلوا عن سرقوسة وأصلحوا مراكبهم [٢] وركبوها . فوقفت مراكب الروم على المرسى الكبير [٣] ومنعوهم من الخروج .

فأحرق المسلمون مراكب نفوسهم . ورحلوا إلى حصن مناو [٤] ومعهم فيمى . فملكوا الحصن وسكنوه .

وملكوا حصن جرجنت [٥] وسكنه طائفة من المسلمين .

ثم خرج فيمى إلى قصريانة ، فخرج إليه أهلها وبذلوا له الطاعة وخدعوه . وقالوا له : « نكون نحن وأنت والمسلمون على كلمة واحدة ونخلع طاعة الملك » . وسألوه أن يرجع عنهم ذلك اليوم لينظروا فيما يصالحون عليه . فرجع عنهم يومه ذلك . ثم جاءهم فى الغد فى نفر يسير . فخرجوا يقبلون الأرض بين يديه ، وكانوا قد دفنوا سلاحاً فى تلك البقعة . فلما قرب منهم ، أخرجوا السلاح وثاروا به فقتلوه .

ثم وصل تُودط البطرك [٦] من القسطنطينية فى عساكر عظيمة

---

(١) كذا فى ص ، وفى ك : كبير . وبدون نقط فى ع .

(٢) المكتبة الصقلية ٤٢٩ عن النويرى : مركبهم .

(٣) ك : الكبرى .

(٤) Mineo . وفى ر : مناء . وفى ابن الأثير ٥ : ١٨٧ ، المكتبة الصقلية : ميناو : وفى ابن خلدون ٤ : ١٩٩ : مازر ، خطأ .

(٥) Girgenti . وفى ابن خلدون ٤ : ١٩٩ ، المكتبة الصقلية ٤٦٧ : كركنت وتسمى اليوم Agrigento .

(٦) ك مرة : طودك ، وأخرى : توطة ، وثالثة كما هنا . وفى المكتبة الصقلية ٤٣٠ عن النويرى : تودط البطريق . وفيها عن كتاب تاريخ جزيرة صقلية ١٦٦ : ثودوط البطريق .

من الأرمن[١] وغيرهم ، وتوجه إلى قصريانة . وخرج بمجموعه[٢] للقاء المسلمين . فالتقوا فانهزم تودط . وقتل من عسكره خلق كثير ، وأسر من بطارقته تسعون[٣] بطريقا . ثم توفى محمد بن أبى الحوارى فى أول سنة أربع عشرة ومائتين .

فولى المسلمون عليهم زهير بن برغوث[٤] . وكان بينه وبين تودط حروب كثيرة . وحاصر المسلمين فى حصنهم وضاقت عليهم الميرة وقلّت الأقوات حتى أكلوا دوابهم . ولم يزالوا كذلك حتى قدم أصْبَغ بن وكيل الهوارى فى مراكب كثيرة من الأندلس قد خرجوا غزاة ، وقدم سليمان بن عافية الطرطوشى[٥] بمراكب . فأرسل المسلمون إليهم وسألوهم النصرة ، وأرسلوا إليهم دواب . فخرجوا وقصدوا تودط ، وهو مقيم على مناو . فانصرف إلى قصريانة وارتفع الحصار عن المسلمين ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس[٦] عشرة ومائتين .

---

(١) كذا فى ك ، ورجحه المكتبة الصقلية ٤٣٠ . وفى ص ، ع ، و ، والمكتبة الصقلية : الأمن .

(٢) كذا فى ع . وفى ك : مجموعة . والمكتبة الصقلية عن النويرى ٤٣٠ : مجموعه ، وهى أفصح .

(٣) ص : سبعون .

(٤) و ، ابن الأثير ٥ : ١٨٧ : زهير بن غوث . ابن خلدون ٤ : ١٩٩ زهير بن عوف المكتبة الصقلية ٤٦٧ عن ابن خلدون : زهير بن عون .

(٥) المكتبة الصقلية ٤٣٠ عن النويرى : الطرطوسى .

(٦) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٣٤ . وفى ابن الأثير ٥ : ١٨٨ : أربع .

ذكر فتح مدينة بلرم

كان ابتداء حصارها فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين . ودام إلى شهر رجب سنة عشرين ومائتين (١) ، وفتحت بالأمان ، وذلك فى ولاية محمد بن عبد الله بن الأغلب .

وفى سنة خمس وعشرين ومائتين ، استأمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها جَرصَة (٢) وقلعة البلوط (٣) ، وابلاطنوا (٤) وقلعة قُرُكُّون (٥) ، ومرناو (٦) ، وغير ذلك .

ذكر وفاة محمد بن عبد الله بن الأغلب وولاية العباس بن الفضل بن يعقوب

وفى سنة ست (٧) وثلاثين ومائتين ، توفى محمد بن عبد الله ابن الأغلب لعشر خلون من شهر رجب . فكانت ولايته تسع عشرة سنة . وكان فى مدة ولايته لا يخرج من مدينة بَلَرْم بل كان يخرج

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٨٨ : ست عشرة ومائتين . ابن خلدون ٤ : ١٩٩ : سبع .

(٢) كذا فى ع . وفى ص ، ر : حرصة . وفى ك : جرجية . ورجحت المكتبة الصقلية ٤٣١ أنها جرجة Geragia .

(٣) Caltabellota

(٤) Platani

(٥) كذا فى ابن الأثير ٥ : ٢٥٣ ورجحته المكتبة الصقلية وهى Corléone وفى الأصول : قاروب .

(٦) ابن الأثير ٥ : ٢٥٣ : مرو . الأصول : مريا . ورجحت المكتبة الصقلية ٤٣١ أنها مرناو Marineo

(٧) وكذا فى ابن الأثير ٥ : ٢٦٨ . وفى ابن خلدون ٤ : ٢٠٢ : ثلاث . وفى المؤنس ٤٨ ، وأبى الفدا ٢ : ٣٨ سبع . وسماه ابن عذارى ١ : ١٤٥ إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب ، خطأ .

السرايا مع ولاته . فلما مات اجتمع الناس على ولاية العباس بن الفضل فولوه . وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن الأغلب أمير القيروان فولاه الجزيرة . فكان يخرج بنفسه تارة وبسراياه أخرى . وهو يخرب فى بلاد العدو ويُنكى ، وينال منهم ومن بلادهم ، ويصالحونه على الأموال والرقيق .

ذكر فتح قصريانة وهى دار مملكة الروم بجزيرة صقلية

قال المؤرخ : كانت سرقوسة دار ملك الجزيرة إلى أن فتح المسلمون بلرم .

فانتقل الروم إلى قصريانة لحصانتها وجعلوها دار ملكهم . فلما كان فى سنة أربع وأربعين [1] ومائتين ، خرج العباس بن الفضل فوصل إلى قصريانة وسرقوسة . وأخرج أخاه عليا فى المراكب الحربية فى البحر . فلقيه الإقريطشى فى أربعين شُلُنْدِيا . فقاتلهم أشد قتال ، فهزمهم وأخذ منهم عشر شلنديات برنجالها ، ورجع .

ثم سير العباس سرية إلى قصريانة فغنموا وقدموا بعلج . فأمر العباس بقتله ، فقال له العلج : « استبقِنى ولك عندى نصيحة » . فخلا به وسأله : « ما النصيحة ؟ » فقال : « أُدخِلك قصريانة

(١) ذكر ابن خلدون ٤ : ١٩٩ أن المسلمين ساروا إلى قصريانة فى سنة ١٩ وهزموا الروم عليها فى ٢٠ .

فعند ذلك خرج العباس فى كانون فى أنجاد [١] رجاله ، والعلج معه ، وهو فى ألف فارس وسبعمائة راجل [٢] ، فجعل على كل عشرة مقدما . ثم سار بهم ليلا حتى نزل على مرحلة من جبل الغدير. وقدم عمه رباحا [٣] فى خيار أصحابه . وأقام هو بموضعه وهو مستتر [٤] . ومضى عمه رباح بمن معه يدبون دبيبا حتى صاروا إلى جبل المدينة ، والعلج معهم . فأراهم الموضع الذى ينبغى أن توضع عليه السلاليم . فتلطفوا فى الصعود إلى الجبل ، وذلك الوقت قريب الصبح وقد نام الحرس . فلما وصلوا إلى السور ، دخلوا من خوخة كانت فى السور يدخل منها الماء . ووضعوا السيف . وفتحوا الأبواب . وأقبل العباس يجد السير . وقصد باب المدينة ، ودخلها صلاة الصبح من يوم [٥] الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت [٦] من شوال . وقتل من وجد بها من المقاتلة ، وكان بها بنات البطارقة وأبناء ملوك الروم . فوجد المسلمون بها مالايحصى من الأموال . وبنى العباس فيها مسجدا فى يومه ، ونصب فيه [٧] منبرا ، وخطب عليه الخطيب يوم الجمعة .

وما زال العباس يُداوم الغزو بنفسه إلى أن توفى فى يوم الجمعة

---

(١) ك : أنجد .
(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٩٠ : ألفى فارس .
(٣) ص ، ابن خلدون ٤ : ٢٠٢ : رياحاً .
(٤) ك : يستتر .
(٥) ك : فى يوم .
(٦) و : بقين .
(٧) و : فيها .

لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة سبع [١] وأربعين ومائتين . فكانت ولايته إحدى عشرة سنة .

قال : ولما مات العباس ، ولّى الناس على أنفسهم أحمد بن يعقوب [٢] .

ثم ولوا عبد الله بن العباس ، وكتبوا إلى أمير القيروان . فولى خمسة أشهر .

ثم وصل إليهم خفاجة بن سفيان فى سنة ثمان وأربعين ومائتين . ودام الغزو إلى أن اغتاله رجل من جنده عند مُنصرَفه من غزاة فقتله . وذلك فى يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب [٣] سنة خمس وخمسين ومائتين . ويقال : إن الذى قتله خلفون بن أبى زياد الهوارى .

قال : ولما قتل خفاجة ، ولى الناس على أنفسهم ابنه محمد بن خفاجة . ثم أتته الولاية من قبل أمير القيروان . ثم قتله خدامه الخصيان لثلاث خلون من شهر رجب سنة سبع وخمسين ومائتين وهربوا . فأُخذوا وقُتلوا .

فولى الناس عليهم محمد بن أبى الحسين [٤] ، وكتبوا إلى

---

(١) المكتبة الصقلية ٤٧٠ عن ابن خلدون : تسع . ولكن الذى فى ابن خلدون ٤ : ٢٠٢ سبع .

(٢) وكذا فى ابن عذارى ١ : ١٤٨ . ولكن ابن الأثير ٥ : ٣٠٦ ، ابن خلدون ٤ : ٢٠٢ ، وزامباور ١٠٦ لم يذكروه فى هذا التاريخ .

(٣) ك : رجب الفرد .

(٤) لم أجده عند غير النويرى .

إفريقية . فبعث أمير إفريقية بولايتها إلى رباح بن يعقوب [١] . وولّى الأرض الكبيرة [٢] عبد الله بن يعقوب . فمات رباح في المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين . ومات بعده أخوه في صفر من السنة .

فولى الناس عليهم أبا العباس بن عبد الله بن يعقوب [٣] فأقام أشهرا [٤] ثم مات . فولوا أخاه [٥] .

ثم ولى الحسين بن رباح [٥] من قبل أمير إفريقية .

ثم عزله واستعمل عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب في شوال سنة تسع وخمسين ومائتين .

ثم عزله وولى أبا مالك أحمد بن عمر بن عبد الله بن [إبراهيم] [٦] ابن الأغلب المعروف بحبشي . فبقي متوليا عليها ستا وعشرين سنة .

ثم وليها أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد في سنة سبع [٧] وثمانين ومائتين . فأقام إلى أن انخلع له أبوه إبراهيم بن أحمد

---

(١) ذكر ابن الأثير ٥ : ٣٦٤ ، المونس ٤٩ ، ابن عذارى ١ : ١٥٢ ، زامباور ١٠٦ أن الذي خلف محمد بن خفاجة هو أحمد بن يعقوب مباشرة ، ولعل رباحاً لقب له .

(٢) الأرض الكبيرة : إيطاليا ، يريد الجزء الذي استولوا عليه منها .

(٣) المكتبة الصقلية ٤٣٤ عن النويري : أبا العباس بن يعقوب بن عبد الله . ولم أجده عند غير النويري من المؤرخين .

(٤) المكتبة الصقلية ٤٣٤ : شهراً .

(٥) ابن عذارى ١ : ١٥٢ الحسين بن أحمد بن يعقوب . وذكر أن الحسين بن رباح ولي بين سنتي ٢٦٤ – ٢٦٧ (١ : ١٥٥ ، وانظر زامباور ١٠٦)

(٦) زيادة عن ابن عذارى ١ : ١٥٩ ، زامباور ١٠٦ . وذكرا أن حبشيا ولي صقلية بين سنتي ٢٧٤ – ٢٧٨ فقط . ويتضح منهما أن النويري أهمل عدة ولاة .

(٧) ابن خلدون ٤ : ٢٠٤ : ثمان .

من الملك ، فرده إلى إفريقية . وسار إبراهيم إلى صقلية وغزا بنفسه ، كما ذكرناه فى أخباره آنفا [١] . ومات فى الغزو .

ثم وليها محمد بن السرقوسى مولى إبراهيم بن أحمد [٢] .

ثم ولى على بن أبى الفوارس [٣] فى سنة تسعين ومائتين . [٤]فأقام بها إلى سنة خمس وتسعين ومائتين [٤] . فعزله زيادة الله . واستعمل أحمد بن أبى الحسين بن رباح [٥] .

ثم بلغ أهل صقلية تغلب أبى عبد الله الشيعى على بلاد إفريقية . فوثب أهل صقلية على أحمد ، وانتهبوا ماله وحبسوه . وولوا عليهم على بن أبى الفوارس لعشر من شهر رجب سنة ست وتسعين ومائتين . وأرسلوا ابن أبى الحسين إلى أبى عبد الله الشيعى . وكتبوا إليه كتابا يسألونه إبقاء علىّ عليهم ، فأجابهم إلى ذلك . وكتب إليه أن يغزو برا وبحرا . وكان أحمد بن أبى الحسين آخر ولاة بنى الأغلب بصقلية .

وكان لكل واحد من الولاة الذين ذكرناهم غزوات وسرايا وجهاد فى العدو .

قال : ولما ولى المهدى بعد بنى الأغلب ، كتب إليه ابن أبى الفوارس

---

(١) انظر صفحة ١٣٤ من هذا الجزء .

(٢) أهمل المؤلف ولاية زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم الأغلبى قبل ابن السرقوسى (ابن الأثير ٦ : ١٠٣ ، ابن خلدون ٤ : ٢٠٥ ، زامباور ١٠٦) .

(٣) ك هنا : الفوارسى . ولم أجده عند غير النويرى من المؤرخين .

(٤-٤) العبارة عن ص ، ر ، و ساقطة من ع ، ك .

(٥) لم يذكره غير النويرى من المؤرخين .

يستأذنه فى القدوم إلى إفريقية ، فأذن له فخرج إليه . فلما وصل حبسه برقادة .

ذكر ولاية حسن بن احمد [١] بن ابى خنزير

كانت ولايته من قبل المهدي . فوصل إلى صقلية فى عاشر ذى الحجة سنة سبع وتسعين ومائتين . فثار به أهل المدينة فى سنة ثمان وتسعين [٢] وقبضوا عليه . وكان سبب ذلك أن عماله جاروا على الناس . واتفق أنه صنع طعاماً ودعا إليه وجوه الناس . فلما صاروا عنده زعم بعضهم أنه رأى عبيده يتعاطون السيوف المسلولة . فخافوا وفتحوا طاقات المجلس وصاحوا : « السلاح ، السلاح » . فثار إليهم الناس ، واجتمعوا حول الدار ، وأطلقوا النار فى الأبواب . فأخرج إليهم من كان عنده من وجوه الناس ، وأنكر أن يكون أراد بهم سوءا فلم يقبلوا منه وتألبوا عليه . فوثب من داره إلى دار رجل من جيرانه فسقط فانكسر ساقه . فأخذوه وحبسوه . وكتبوا بذلك إلى المهدى . فعزله واغتفر فعلهم . وضبط المدينة خليل صاحب الخُمس [٣] .

ثم استعمل المهدى على بن عمر البلوى . فوصل إلى المدينة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين . فلم يرض أهل صقلية سيرته ، وكان شيخا هينا لينا رفيقا بالرعية . فألب

(١) ابن خلدون ٤ : ٢٠٧ : حسن بن محمد .
(٢) ك : ومائتين . وفى ابن عذارى ١ : ٢٣٣ : سنة ثلاثمائة .
(٣) ر : الحسين .

عليه أحمد بن قرهب[١] ودعا الناس إلى طاعة المقتدر بالله . فأجابه إلى ذلك جماعة وولوه على أنفسهم [٢] . ووردت عليه رسل المقتدر بالله العباسى فى سنة ثلاثمائة بكتاب بالولاية [٣] والخلع والبنود وطوق ذهب وسوار . ثم عصى عليه أهل صقلية وكاتبوا المهدى . واجتمعوا إلى أبى الغفار فزحف بهم إلى ابن قرهب ، وقالوا له : « اخرج عنا واذهب حيث شئت » . فأبى ذلك وقاتلهم ثم تحصن منهم ثم قتل بعد ذلك فى آخر سنة ثلاثمائة[٤]. فكانت ولايته أحد عشر شهرا .

ذكر ولاية أبى سعيد موسى بن أحمد

قال : ولما قُتل ابن قرهب ، أرسل المهدى موسى بن أحمد واليا . وأرسل معه جماعة ليساعدوه على أهل صقلية إن أرادوا به سوءا . فلما قدم ، ورد عليه رؤساء جرجنت ، فأكرمهم وكساهم . ثم أخذ بعد ذلك أبا الغفار فقيده وحبسه . فهرب أخوه أحمد إلى جرجنت ، فألب على موسى بن أحمد . فوافقه الناس عليه . وكانت بينه وبينهم حرب شديدة . ثم طلبوا الأمان فأمنهم . وكتب

(١) ابن خلدون ٣ : ٣٦٦ : أحمد بن موهب ، و ٤ : ٢٠٧ : أحمد بن قهرب . ابن عذارى ١ : ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، زامباور ١٠٧ : أحمد بن زيادة الله بن قرهب .

(٢) ذكر ابن خلدون ٤ : ٢٠٧ أن الذى ولاه هو المهدى .

(٣) ص ، ر : الولاية .

(٤) ابن عذارى ١ : ٢٤٢ : ثلاثمائة وأربع .

بذلك إلى المهدى ، فولّى مكانه سالم بن أبى راشد الكنانى فى سنة خمس وثلاثمائة (١) .

ذكر ما فتح من بلاد قلورية

قال المؤرخ : وفى سنة ست (٢) عشرة وثلاثمائة وصل صابر الصقلبي من إفريقية فى ثلاثين حربيا . فخرج معه سالم إلى أرض قلّورية ففتحا مدينة طارنت عنوة . ووصلا إلى مدينة أذرنت ، وحاصراها وخربا منازلها . وأصاب الناس وخم فرجعوا إلى المدينة . ثم عاودوا الغزو إلى أن أذعن أهل قلورية لإعطاء الجزية وأدوها مدة بقاء المهدى .

وفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، أخرج القائم بن المهدى يعقوب بن إسحاق فى أسطول إلى ناحية إفرنجة ، ففتح مدينة جنوة ومروا بسردانية فأوقعوا بأهلها وأحرقوا مراكب كثيرة .

وفى هذه السنة ، كان الطوفان بصقلية فهدم الدور .

وفى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، خالف أهل جرجنت على سالم . وأخرجوا عامله ابن أبى حُمران فأخرج إليهم سالم عسكرا فهزموه . ورجعوا إلى سالم فقاتلهم سالم وهزمهم . ثم خرج على

(١) وكذا فى ابن عذارى ١ : ٢٤٤ . وفى ابن الأثير ٦ : ١٨٢ ، ابن خلدون ٤ : ٢٠٧ . زامباور ١٠٧ : سالم بن راشد . وفى الأخير أنه تولى حول ٣١٣ هـ .

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٨٢ : ثلاث . وذكر ابن عذارى ثلاث غزوات لصابر فى سنوات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ولم يذكر له شيئاً فى سنة ١٣ ، وإنما ذكر فيها غزوة لأبى أحمد جعفر ابن عبيد الحاجب .

سالم أهل المدينة وحاربوه مع إسحاق البسمتانى ومحمد بن حمّو وكانت بينهم حرب . فهزمهم وحصرهم بالمدينة .

واتصل الخبر بالقائم [١] ، فأنفذ خليل بن إسحاق فى عسكر وجماعة من القواد لقتال أهل صقلية. فورد كتاب أهل البلد على القائم بطاعتهم وأنهم كرهوا أفعال سالم . فاستعمل عليهم خليل ابن إسحاق . فوصل إلى المدينة فى آخر سنة خمس وعشرين وثلاثمائة . فأطاعه أهل صقلية فأكرمهم . وعزل عنهم عمال سالم . فأقام خليل بها أربع سنين ثم رجع إلى إفريقية .

فوليها محمد بن الأشعث وعطّاف فى سنة ثلاثين وثلاثمائة . فمات محمد بن الأشعث فى سنة أربع وثلاثين .

واستقل عطّاف بالأمر إلى سنة ست وثلاثين . فكتب إلى المنصور يخبره بتحامل أهل البلد وأن أمرهم يؤول إلى فساد .

فاستعمل المنصور بن القائم بن المهدى على صقلية الحسن ابن على بن أبى الحسين الكلبى [٢] ، وكان مكينا عند المنصور لمحبته ونصحه وتقدم خدمة سلفه لآبائه . فوصل إلى صقلية وأقام بها سنتين وأشهرا [٣] . ورجع إلى إفريقية فى ولاية المعز لدين الله ابن المنصور . فسأله تشريف ولده أبى الحسين [٤] بالولاية ، فولاه فى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة .

---

(١) ص : بالقائد ، تحريف .
(٢) ك : المكى ، تحريف .
(٣) كذا فى الأصول . ولاشك فى خطئه لأنه ولى حوالى ٥ سنوات قبل خلافة المعز .
(٤) ك : أبى الحسن ، تحريف .

ذكر فتح قلعة طبرمين [١]

قال المؤرخ : وفى أيام أبى الحسين فتح المسلمون طَبَرْمِين ، وكانت يومئذ أشد قلاع الروم شوكة . وكان فتحها لخمس بقين من ذى القعدة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، بعد أن حوصرت سبعة أشهر ونصفا ، ونزلوا على حكم الملك دون القتل . فأمر المعز بتسميتها المُعِزِّية . ووجه الأمير أحمد إلى المعز بسبْيها وهو ألف وخمسمائة وسبعون رأسا .

ذكر فتح رمطة [٢] وما كان بسبب ذلك من حروب

قال : لما فتح المسلمون طبرمين ، وسكنوها وعمرت بهم وتحصنت ، خرج أهل رَمْطَة عن الطاعة ، واستنصروا بالدُّمُسْتق [٣] ملك القسطنطينية . فورد كتاب المعز إلى أحمد يأمره بإخراج الحسن بن عمار إلى حصار رمطة وقتال من بها وإزالتهم منها . فنزل ابن عمار عليها فى يوم الخميس آخر شهر رجب سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، ونصب عليها المَجانيق والعَرادات . ودام القتال فى كل يوم . وبنى له قصرا وسكنه . وأخذ الناس فى بنيان البيوت .

---

(١) ابن خلدون ٤ : ٢٠٩ : طرمين . ابن كثير ١١ : ٢٤١ : طبرسين . تحريف . وهى Taormina

(٢) Rametta .

(٣) ك : بالدمشق ، تحريف .

فلما بلغ ذلك الدمستق ، أمر بالحشود ، وجهز العساكر صحبة منويل ، وأمرهم بالتعدية إلى صقلية . فابتدئوا بالتعدية يوم الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة . وأقاموا يعدون تسعة أيام فى عدد عظيم . وحفروا خندقا حول مدينة مَسِّينِى وشيدوا أسوارها . وكاتب الحسن بن عمار بذلك ، فخرج الأمير أحمد بالجيوش . ورحل الكفرة من مسينى قاصدين الحسن بن عمار بقلعة رمْطة .

ذكر وقعة الحفرة على رمطة

قال : وفى النصف من شوال سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، زحف منويل بجميع عسكره من المجوس والأرمن والروس ، فى جمع لم يدخل الجزيرة مثله قط . فلما علم الحسن بن عمار بتقدمهم استعد للقاء ، وجعل عسكرا فى مضيق ميقش[1] وعسكرا فى مضيق دمنّش . فبلغ ذلك منويل فوجه عسكرين بإزائهما ، ووجه عسكرا ثالثا إلى طريق المدينة يمنع من يصل إليهم[2] بنجدة . ورتب الحسن المقاتلة على القلعة وبرز بالعساكر للقاء الكفرة . وقد عزموا على الموت .

وزحف الكفرة فى ستة مواكب . وأحاطوا بالمسلمين من كل ناحية . ونزل أهل رمطة إلى من يليهم . والتقوا وقاتلت كل طائفة

(١) ر : مقس . ص ، ع : بنفش ، بدون نقط الحرف الأول . ك : بنقش . وانظر صفحة ١٣٦ من هذا الجزء .

(٢) ص : إليه .

من يليها . فقاتلوا [١] حتى دخل المسلمون خيام أنفسهم [٢] وأيقن العدو بالظفر . فاختار المسلمون الموت ، ورأوا أنه أسلم لهم وأوفر لحظوظهم ، فحميت الحرب . ونادى الحسن بن عمار بأعلى صوته : « اللهم ، إن بنى آدم أسْلَمُونى فلا تُسْلِمْنى » . وحمل بمن معه حملة رجل واحد . فصاح منويل بالكفرة يقول : « أين افتخاركم بين يدى الملك ؟ أين ما ضمنتم له فى هذه الشرذمة القليلة ؟ » . فحمى الوطيس عند ذلك . وحمل منويل وقتل رجلا من المسلمين . فطُعن عدة طعنات فلم تعمل فيه شيئا لحصانة ماعليه من اللباس . فحمل عليه رجل من المسلمين فطعن فرسه فعَقَره ، وقُتل . وجاءت سحابة ذات برق ورعد وظلمة ، وأيد الله المسلمين [٣] بنصره . فانهزم الكفرة وركبهم المسلمون بالقتل. فمالوا إلى موضع ظنوه سهلا ، فوقعوا فى الوعر ، وأفضى بهم إلى حرف خندق عظيم كالحفرة من بُعد قَعْره . فسقطوا فيها وقتل بعضهم فيها بعضاً . وامتلأت الحفرة منهم على طولها وعرضها وعمقها حتى مرت الخيل عليهم [٤] مسرعة . وحصل من بقى منهم فى مواضع وعرة وخنادق هائلة . وكانت الحرب من أول النهار إلى بعد صلاة الظهر ، وتمادت هزيمة من بقى إلى الليل . وبات المسلمون يقتلونهم فى كل ناحية وأسر جماعة من أكابرهم ، وغنم المسلمون من الأموال والخيل

(١) ص : فقاموا .

(٢) كذا فى ر ، والمكتبة الصقلية ٤٣٩ . وهو الصواب نظراً لما فى ابن الأثير ٧ : ١١ . وفى بقية الأصول : حيا من أنفسهم .

(٣) المكتبة الصقلية ٤٤٠ : المؤمنين .

(٤) ص : عليها .

والسلاح ما لا يُحَد . وبلغ القتلى[1] فوق العشرة آلاف . . وكان فيما غنموه سيف فيه منقوش : « هذا سيف هندى وزنه مائة وسبعون مثقالا ، طالما ضُرب به بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فبعث به الحسن إلى المعز لدين الله ، مع مائتى عِلْج من وجوههم ، ودروع وجواشن وسلاح كثير . ونجا من الكفرة نفر يسير فركبوا المراكب . وجاء الخبر إلى الأمير أحمد بالهزيمة قبل وصوله إلى ابن عمار .

وفى أثر هذه الوقعة توفى الحسن بن على بن أبى الحسين والد الأمير أحمد .

قال : وبلغ [2] الدمستق خبر هذه الوقعة وكسرة أصحابه ، وهو بالمصيصة وقد ضيَّق على أهلها ؛ فرجع مسرعاً إلى القسطنطينية . ودام الحصار على رمطة أشهرا . فنزل منها ألف نفس من شدة ما نالهم من الجوع . فوجه بهم الحسن بن عمار إلى المدينة وبقيت المقاتلة ثم فُتحت رمطة .

وكان بين المسلمين بعد ذلك وبين الكفار وقائع كثيرة ، منها وقعة الأسطول بالمجاز ، قُتل فيها من الكفار فى الماء حتى احمر المجاز .

ثم وقع الصلح بعد ذلك بين المعز والدمستق فى سنة ست وخمسين وثلاثمائة وأتته هداياه . ووصل كتاب المعز إلى الأمير

(١) فى الأصول : القتل .
(٢) ك : ولما بلغ .

أحمد يعرفه بالصلح ، ويأمره ببناء أسوار المدينة وتحصينها ويُعْلمه أن البناء اليوم خير من غد ، وأن يبنى فى كل إقليم من أقاليم الجزيرة مدينة حصينة وجامعاً ومنبرا ، وأن يأخذ أهل كل إقليم بسكنى [1] مدينتهم ولا يُتركوا متفرقين فى القرى . فسارع الأمير أحمد إلى ذلك ، وشرع فى بناء سور المدينة . وبعث إلى جميع الجزيرة مشايخ ليقفوا على العمارة .

ذكر اخلاء طبرمين ورمطة

وفى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وصلت هدية ملك القسطنطينية فأمر المعز لدين الله بإخلاء طبرمين ورمطة ، فاغتم المسلمون لذلك . فأمر الأمير أحمد أخاه أبا القاسم وعمه جعفرا ، فنزلا بينهما وهُدِمتا وأحرقتا بالنار .

وفيها أمر المعز لدين الله الأمير أحمد بمفارقة صقلية والقدوم إلى إفريقية . ففارقها بجميع أهله وماله وأولاده وإخوته . فركبوا فى ثلاثين مركبا . ولم يبق منهم بصقلية أحد . فكانت ولايته خاصة ست عشرة سنة . واستخلف على صقلية يعيش مولى أبيه [2] .

---

(١) ر : بسكن .

(٢) وكذا فى أبى الفدا ٢ : ٩٧ ، المؤنس ٨٦ . وذكر ابن الأثير ٧ : ٣٩ ، ابن خلدون ٤ : ٢٠٩ : أن المعز هو الذى ولاه على صقلية .

ذكر ولاية أبى القاسم نيابة عن أخيه أحمد واستقلاله

قال : وفى نصف شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، وصل الأمير أبو القاسم إلى صقلية نيابة عن أخيه الأمير أحمد . ثم توفى الأمير أحمد فى بقية السنة ، فوصل سجل المعز إلى أبى القاسم بالاستقلال [1] . وكانت [2] له غزوات كثيرة مع العدو . فالأولى فى سنة خمس وستين وثلاثمائة. وفيها أمر بعمارة قلعة رمطة ، فعمرت وولى بعض عبيده عليها . وداوم الغزو إلى أن استشهد فى غزاته الخامسة ، فى المحرم سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة .

وولى بعده الأمير جابر بن أبى القاسم [3] . وأتاه سجل العزيز بالله بن المعز لدين الله من مصر . فولى سنة .

ثم عزله العزيز واستعمل جعفر بن محمد بن الحسين [4] فوصل إلى صقلية فى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة . فبقى بها إلى أن توفى فى سنة خمس [5] وسبعين .

---

(١) ذكر أبو الفدا ٢ : ٩٧ مرة أن أبا القاسم تولى سنة ٥٩ نيابة عن أخيه ، وأخرى سنة ٦٠ استقلالا .

(٢) ص : وكان .

(٣) زامباور : تولى سنة ٣٧١ هـ .

(٤) وكذا فى المؤنس ٨٦ ، وفى أبى الفدا ٢ : ٩٧ : جعفر بن محمد بن الحسن بن على بن أبى الحسين . وفى ابن خلدون ٤ : ٢١٠ ، زامباور ١٠٧ : جعفر بن محمد بن على بن أبى الحسن . ولعل صواب ما فى الأصل : جعفر بن محمد بن أبى الحسين .

(٥) ص : ثلاث .

وولى بعده أخوه عبد الله بن محمد إلى أن توفى فى شهر رمضان سنة تسع [١] وسبعين وثلاثمائة .

وولى بعده ابنه يوسف .

ذكر ولاية أبى الفتح يوسف الملقب بثقة الدولة

كانت ولايته عند وفاة والده بعهدٍ منه ، ثم أتاه سجل العزيز بالله من مصر بالولاية فضبط الجزيرة وأحسن إلى الرعايا . واستمر إلى أن أصابه الفالج ، فى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، فبطل شقه الأيسر وضعف الأيمن .

فاستناب ولده جعفر ، وكان بيده سجل من الحاكم بولايته بعد أبيه . ثم بعث إليه الحاكم بعد ذلك تشريفا ، وعقد له لواء ، ولقبه بتاج [٢] الدولة سيف الملة . فضبط الأحوال إلى سلخ شهر رجب سنة خمس وأربعمائة . فأظهر عليه أخوه الأمير على بن أبي الفتح الخلاف ، وخرج إلى موضع بقرب المدينة . فاجتمع إليه البربر والعبيد الذين عاقدهم على القيام معه . فأخرج إليه جعفر عسكرا فالتقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من شعبان . فجرى بينهم قتال شديد قُتل فيه كثير من البربر والعبيد الذين مع على . وهرب من بقى منهم. وأُسر على وجِيء به إلى أخيه الأمير جعفر فقتله . فكان بين خروجه وقتله ثمانية أيام . فعزّ ذلك على أبيه . ثم أمر جعفر بنفى

(١) المؤنس ٧٧ : ست . وهو خطأ أصلحه فى صفحة ٨٦ .
(٢) ص ، د : تاج .

من بالجزيرة من البربر بعيالاتهم ، فنُفوا حتى لم يبق منهم أحد . وأمر بقتل العبيد فقُتلوا عن آخرهم . وجعل جميع جنده من أهل صقلية . فقَل العسكر عنده . وأدى ذلك إلى وثوب أهل صقلية به وإخراجه .

ذكر وثوب أهل صقلية بالأمير جعفر واخراجه

قال المؤرخ : كان سبب ذلك أنه ولى عليهم كاتبه حسن بن محمد الباغانى [1] ، فصادَر الناس وعاملهم بسوء . وأشار على جعفر أن يأخذ من صقلية الأعشار في طعامهم وثمارهم على عادة البلاد . ولم يجر لهم بذلك عادة وإنما كانت العادة أن يؤخذ على الزوج البقر شيء معلوم ولو أصاب ما أصاب . ثم أظهر جعفر الاستخفاف بأهل صقلية ، وشيوخ بلادها ، واستطال عليهم .

فزحف إليه أهل البلد صغيرهم وكبيرهم . فحاصروه في قصره وهدموا بعض أرباضه . وباتوا ليلة الاثنين لست خلون من المحرم سنة عشر وأربعمائة ، وقد أشرفوا على أخذه . فخرج إليهم أبوه يوسف في محفة ، وكانوا له مكرمين . فلطف بالناس ووعدهم أنه لايخرج عن رأيهم . فذكروا له ما أحدث ولده . فقال : « أنا أكفيكم أمره ، وأعتقله وأولى عليكم من ترضونه » . فوقع اختيارهم على ولده أحمد الأكحل .

---

(١) كذا فى ر ، نسبة إلى باغاية . وفى ابن خلدون ٤ : ٢١٠ : الباغانى . وفى ص ، ع ، و الباغاى .

ذكر ولاية الأمير تأييد الدولة [١] أحمد الأكحل

كانت ولايته فى يوم الاثنين السادس من المحرم سنة عشر وأربعمائة . وتسلم أهل صقلية حسن الباغائى الكاتب ، فقتلوه ، وطافوا برأسه ، وأحرقوه بالنار . وخاف يوسف على ابنه جعفر ، فحمله فى مركب حربى [٢] إلى مصر ، وسار يوسف أيضا ، ومعهما من الأموال ستمائة ألف وسبعون ألف دينار . وكان ليوسف ثلاثة عشر ألف حجْر [٣] سوى البغال وغيرها ، فمات بمصر وليس له إلا دابة واحدة .

قال : ولما ولى الأكحل أخذ أمره بالحزم والاجتهاد . فسكن الناس وصلحت أحوالهم .

ثم وصل كتاب الحاكم ولقب الأكحل تأييد الدولة .

وجمع الأكحل المقاتلة ، وبث سراياه فى بلاد الكفرة ، وكانوا يحرقون ويغنمون ويخربون البلاد . فأطاعه جميع القلاع .

وكان للأكحل ابن اسمه جعفر ، كان يستخلفه إذا سافر للغزاة فخالف سيرة أبيه فى العدل الإحسان . ثم جمع أهل صقلية وقال : « إنى أحب إخراج أهل إفريقية عنكم ، فإنهم قد شاركوكم فى بلادكم وأموالكم » . فقالوا : « كيف يكون ذلك ، وقد صاهرناهم

(١) ابن خلدون ٤ : ٢١٠ : أسد الدولة ، تحريف .

(٢) المكتبة الصقلية ٤٤٤ : جرى .

(٣) الحجر : الفرس الأنثى . وفى ابن الأثير ٨ : ١٥٧ ، حجرة ، وهى حظيرة الإبل .

واختلطنا بهم وصرنا شيئا واحدا ؟ » فصرفهم . ثم أرسل إلى الإفريقيين وقال لهم مثل ذلك فى حق أهل صقلية ، فأجابوه إلى ما أراد . فجمعهم حوله فكان يحمى أملاكهم ، ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية .

فسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس ، وأعلموه بما حل بهم . وقالوا : « نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلمنا الجزيرة إلى الروم » . وذلك فى سنة سبع وعشرين [١] وأربعمائة . فوجه المعز ولده عبد الله [٢] إلى صقلية بعسكر عدته ثلاثة آلاف فارس ومثلهم رَجالة [٣] . فسار إلى الجزيرة ووقعت بينه وبين الأكحل حروب ، وحصَره فى قصره بالخالصة . ثم اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الأكحل . فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز غدرا ، وأتوا برأسه إلى عبد الله .

ثم رجع بعض الصقليين عن بعض ، وندموا على إدخال عبد الله إلى الجزيرة ، واجتمعوا على حربه ، وقاتلوه فانهزم عسكر عبد الله وقُتل منهم نحو ثلاثمائة [٤] رجل . ورجعوا فى المراكب إلى إفريقية .

وولى أهل صقلية على أنفسهم الصمصام أخا الأكحل . واضطربت أحوال أهل الجزيرة ، وانفردت كل طائفة بجهتها . فرجع أمر أهل المدينة إلى المشايخ الذين بها ، وأخرجوا الصمصام . وانفرد القائد

(١) ابن خلدون ٤ : ٢١٠ وعشر ، خطأ .
(٢) ابن خلدون ٤ : ٢١٠ : ولديه عبد الله وأيوب .
(٣) ابن خلدون ٤ : ٢١٠ : ثلاثمائة فارس ، ولم يذكر المشاة ، وذلك خطأ .
(٤) وكذا فى ابن خلدون ٤ : ٢١٠ ، وفى ابن الأثير ٨ : ١٥٨ ، أبو الفدا : ثمانمائة .

عبد الله بن منكوت بمازَر وطرابنش والشاقة [١] ومرمى على [٢] وما حولها من البوادى . وانفرد القائد على بن نعمة المعروف بابن الجواش [٣] بقلعة قصر يانة ومدينة جرجنْت وقصر نوبو [٤] ومايلى ذلك . واختبطت الجزيرة . ثم ثار رجل يعرف بابن الثُّمنَة فاستولى على مدينة سرقوسة وما يليها . وخرج منها بعسكر إلى مدينة قَطانيَة [٥] فدخلها ، وقتل ابن المكلاتى [٦] وملكها .

وكان ابن المكلاتى مصاهرا للقائد على بن نعمة المعروف بابن الجواش بأخته ميمونة . فلما انقضت عِدَّتها ، خطبها ابنُ الثمنة لأخيها ، فزوجه بها ، وكانت امرأة عاقلة . فجرى بينها وبينه فى بعض الأيام خصام أدى إلى أن أغلظ لها فى القول ، فأجابته بمثله . وكان سكران ، فغضب وأمر بفَصدها فى عضديها وتركها لتموت . فسمع ولده إبراهيم فحضر وأحضر الأطباء ، وعالجها إلى أن عادت قوتها . ولما أصبح أبوه ندم واعتذر إليها بالسكر ، فأظهرت قبول عذره . ثم طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها ، فأذن لها وسير معها التحف والهدايا . فلما وصلت إليه ذكرت له مافعل بها ، فحلف

---

(١) Sciacca .

(٢) Marsala .

(٣) كذا فى ع ، ك ، ر . وفى ص : بابن الجواس . وفى ابن الأثير ٨ : ١٥٨ : بابن الحواس . وفى أبى الفدا ٢ : ٢٠١ : بابن الحواش ، وفى المكتبة الصقلية ٤٤٥ : بابن الجواش .

(٤) Castronuovo . كذا فى المكتبة الصقلية ٤٤٥ . وفى ر : قصر نوبوا . وفى ع : قصر يوبوا . وفى ك : قصر يزيز . وبلون نقط فى ص .

(٥) Catania .

(٦) كذا فى الأصول سوى ك ففيها : ابن الكلابى .

أنه لايُعيدها إليه . فأرسل ابن الثمنة يطلبها فلم يردها إليه ، فجمع عساكره ، وكان قد استولى على أكثر الجزيرة وخُطب له بالمدينة وسار لحرب ابن الجواش بقصريانة . فخرج إليه وقاتله . فانهزم ابن الثمنة ، وتَبعه وقتل من أصحابه فأكثر . فلما رأى ابن الثمنة أن عساكره قد تمزقت أراد الانتصار بالكفار .

ذكر استيلاء الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على جزيرة صقلية

كان سبب ذلك أنه لما وقعت الحرب بين ابن الثمنة وابن الجواش وانهزم ابن الثمنة ، سار إلى مدينة ملطية [1] ، وكانت بيد الفرنج ملكوها فى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة . وكان ملكها حينئذ رُجار [2] الفرنجى . فوصل إليه وقال : « أنا أملّكك الجزيرة » . فسار معه فى شهر رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة . فلم يلقوا من يدافعهم ، واستولوا على مامروا عليه فى طريقهم . وقصد بهم [3] قصريانة فقاتلهم ابن الجواش . فهزمه الفرنج [4] فرجع إلى الحصن . فرحلوا عنه واستولوا على مواضع كثيرة . ففارق الجزيرة كثير من العلماء والصالحين .

وسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس ، وذكروا له

(١) ابن الأثير ٨ : ١٥٨ ، المونس ٨٧ ، أبو الفدا ٢ : ٢٠١ : مالطة . المكتبة الصقلية ٤٤٧ : مليطو . وفى الأصول : بلطية .

(٢) المونس ٧ : روجار . وهو يريد روبرت الأول (زامباور ١٠٨) .

(٣) ص ، ر : وقصدهم .

(٤) ر : الفرنجى .

ماالناس فيه بالجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها . فعمر أسطولا كبيرا وشحنه بالرجال والعُدد . وكان الزمان شتاء ، فساروا إلى قوصرة [1] . فهاج عليهم البحر ، فغرق أكثرهم ولم ينج إلا القليل . وكان ذهاب هذا الأسطول مما أضعف المعز بن باديس وقوى العرب عليه حتى أخذوا البلاد منه . فملك حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدة لا يمنعهم أحد . واشتغل المعز بما دهمه من العرب .

ثم مات فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وولى ابنه تميم . فبعث أسطولا وعسكرا إلى الجريزة ، وقدّم عليه ولديه أيوب وعليا . فوصلوا إلى صقلية . فنزل أيوب والعسكر المدينة ، ونزل على جرجنت . ثم انتقل أيوب إلى جرجنت فأحبه أهلها . فحسده ابن الجواش فكتب إلى أهلها ليخرجوه ، فلم يفعلوا . فسار إليه فى عسكره وقاتله . فقُتل ابن الجواش بسهم غَرب [2] أصابه . وملك أيوب ابن تميم . ثم وقع بعد ذلك بين أهل المدينة [3] وبين عسكر أيوب فتنة ، أدت إلى القتال . ثم دار الشر [4] بينهم وتراقى ، فرجع أيوب وأخوه فى الأسطول إلى إفريقية ، وذلك فى سنة إحدى وستين وأربعمائة . وصحبهم جماعة من أعيان صقلية .

فلم يبق للفرنج مانع ولامانع ، فاستولوا على الجزيرة . ولم يثبت

---

(١) كذا فى ص ، و ، ابن الأثير ٨ : ١٥٨ ، وهو الصواب . وفى ع ، ك : بوصرة .
(٢) السهم الغرب : الذى لايدرى من رامية ولا من أين أتى . وفى ك : عزب ، تحريف .
(٣) ص : البلد .
(٤) كذا فى الأصول . وفى ابن الأثير ٨ : ١٥٨ : زاد الشر ، وهى أوضح .

بين أيديهم غير قصريانة وجرجنت . فحصرهما الفرنج وضيقوا على المسلمين حتى أكلوا الميتة وعدموا ما يأكلونه . فأما أهل جرجنت فسلموها إلى الفرنج فى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة . وبقيت قصريانة بعد ذلك ثلاث سنين . فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم . فتسلمها الفرنج خذلهم الله تعالى فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وملك رجار جميع الجزيرة ، وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين . ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولاطاحونا ولافرنا .

ومات رُجار بعد ذلك قبل التسعين وأربعمائة (١) ، وملك بعده ولده روجار (٢) . فسلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والسلاحية والجاندارية (٣) وغير ذلك . وخالف عادة الفرنج . وجعل له ديوانا للمظالم يُرفَع إليه شكوى المظلومين ، فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين ، ومنع عنهم الفرنج فأحبوه . وعمر أسطولا كبيرا وملك الجزائر التى بين المهدية وصقلية مثل مالطة وقوصرة وغيرهما. وتطاولوا بعد ذلك إلى سواحل إفريقية وملكوا المهدية وغيرها . ثم استُرجِعت منهم على ما ذكرناه فى أخبار عبد المؤمن بن على (٤) .

---

(١) مات روبرت الأول سنة ٤٩٤ فتولى روجر الثانى (ابن خلدون) : ٤٩٤ ، زامباور ١٠٨) .

(٢) ابن الأثير ٨ : ١٥٨ ، و ، رجار . وفى بقية الأصول ، وجال ، بإسقاط الراء.

(٣) ك : الخاندارية ، تحريف .

(٤) أنظر صفحة ٣١٠ من هذا الجزء.

ذكر أخبار جزيرة أقريطش

هذه الجزيرة دون جزيرة صقلية ، وهى كثيرة الخصب [١] مستطيلة الشكل .

وأول من غزاها فى الإسلام ابن أبى أمية الأَزْدى ، فى أيام معاوية ابن أبى سفيان .

فلما كان فى أيام الوليد فتح بعضها .

ثم غزاها حميد بن معيون [٢] الهَمدانى فى أيام الرشيد ففتح بعضها .

ثم غزاها أبو حفص عمر بن شعيب [٣] الأَندلسى المعروف بالاقريطشى فى أيام المأمون . ففتح منها [٤] حصنا واحدا . ولم يزل يفتح شيئا بعد شىء حتى لم يبق بها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم وتداولها بنوه بعده .

ولما جرى لأَهل قرطبة مع الحكم بن هشام الأَموى وقعة الربض التى ذكرناها فى سنة ثمان وسبعين ومائة [٥] ، أخرج جماعة منهم . فوصلوا إلى الإسكندرية وأقاموا بها ، فعمرت بهم وصار فيها منهم خلق كثير . فغلبوا على الإسكندرية وملكوها إلى أن جاء عبد الله بن

(١) ك : الخصيب .

(٢) البلاذرى ٢٣٦ : معيوق .

(٣) البلاذرى ٢٣٦ : عمر بن عيسى . وهو واحد ، فهو عمر بن عيسى بن شعيب البلوطى . وقد يفهم من عبارة النويرى أنه ليس من الأندلسيين أصحاب وقعة الربض ، والحق أنه أحد زعمائهم .

(٤) ك : بها .

(٥) انظر صفحة ٣٧٠ من الجزء ٢٣ من الكتاب .

طاهر إلى الإسكندرية وأخرجهم منها كما ذكرنا ذلك فى أخبار الدولة العباسية فى أيام المأمون بن الرشيد . فصالحهم على مال ونقلهم إلى جزيرة أقريطش . فعمروها وملكوا عليهم رجلا منهم[١] . وعمروا فيها أربعين قطعة . وغزوا جميع ما حولها من جزائر القسطنطينية ففتحوا أكثر الجزائر وغنموا وسبوا .

ولم يكن لملك القسطنطينية بهم قِبَل ، فأفكر فيما يفعله معهم من المكر والخديعة . فأقبل الملك أرمانوس[٢] إلى عبد العزيز بن شعيب ابن عمر[٣] صاحب جزيرة أقريطش . وتقرب إليه بالهدايا والتحف ، وأظهر له المودة والمحبة . فلما استحكمت الوُصلة بينهم وتأكدت ، أنفذ أرمانوس رجلا من المسلمين ومعه هدية جليلة . فلما حضر بين صاحب أقريطش وقدم الهدية ، قال له : « الملك يسلم عليك ويقول لك : نحن جيران وأصدقاء[٤] ، وهؤلاء المساكين سكان الجزائر[٥] قوم ضعفاء فقراء ، وقد خلا أكثرهم من خوفك ، وقلوبهم تحن إلى أوطانهم . ولى ولك بهم راحة وفائدة . فإن خَفّ عليك أن تحسب ما يحصل لك من غزوهم فى كل عام وأنا أضاعفه لك أضعافا ، وتؤمّنهم وترفع عنهم الغزو وتُفسح لهم فى السفر إلى

(١) هو عمر بن عيسى السابق ذكره .

(٢) ابن خلدون ٤ : ٢١١ : أريانوس . تحريف فهو Romanus Lecapenus الذى تولى السلطة منذ ٩١٩ إلى ٩٤٤ م .

(٣) كذا فى ابن خلدون ٤ : ٢١١ زامباور ١٠٩ ، وهو الصواب . وفى الأصول : عبد العزيز بن حبيب بن عمرو .

(٤) ر : وأصحاب .

(٥) ك : الجزيرة .

جزيرتك ، ويتوجه التجار إليك ، ويحصل لك من الحقوق أضعاف ما يحصل لك من الغزو » . فأجابه إلى سؤاله . وتحالفا وتصالحا واتفقا على مال يؤدّى فى كل عام . فوفى له أرمانوس بجميع ذلك . وألزم التجار بالسفر إلى اقريطش والقسطنطينية وجميع الجزائر . فكثرت أموال صاحبها وأخذ فى جمع الأموال واختصر العطاء للجند .

ثم وقع بالقسطنطينية قحط وغلاء . فأنفذ الملك إلى صاحب اقريطش رسولا يقول : « قد وقع بالبلاد ما اتصل بك من الجدب . ولنا خيل عِراب [١] برسم النتاج تعزّ علينا ، فإن رأيت أن أنفذها [٢] إلى الجزيرة ، وما نتجت من الذكور تكون للملك ، وما نتجت من الإناث فهولك » . فأجابه [٣] إلى ذلك . فأرسل إلى الجزيرة خمسمائة فرس فى المراكب ومعها رُعاتها .

فلما استقرت الخيل بالجزيرة ، عبأ [٤] العساكر على تلطف واستخفاء ، وقدم عليها نخفور [٥] الدمستق وأنجاد رجاله ، وذلك فى غرة المحرم سنة خمس وثلاثمائة .فدخل الأسطول إلى الجهة التى فيها الأفراس . ونزل كل فارس بسرجه ولجامه وشدوا له على فرس وفاجئوا أهل الجزيرة على غرة وغفلة . فملكوها وقتلوا صاحبها ومن معه من الجند ، وعفَوا عن قتل الرعية . ووجدوا الأموال التى كانوا

(١) العراب : العتيقة السليمة من الهجنة .
(٢) ص : تنفذها . ك : تنفذها .
(٣) ك : فأجاب .
(٤) ر : عبر .
(٥) فى الأصول : نخفور . ولعل صوابه ما أثبت ، فهو Nikephoros Phokas

بذلوها مضاعفة فأخذوها . وسبَوا نساء الأجناد وذراريهم . وشحنوها بالعُدد والأجناد .

ذكر تنصر أهل أقريطش

قال المؤرخ : ولما قرب عيد الميلاد ، أمروا أكابر الجزيرة بالمسير إلى الملك للهناء بالعيد . فتوقف الأماثل ونفّذوا مائة رجل من أوساط القوم . فلما وصلوا إلى الملك وسلموا عليه ، أمر بإكرامهم ، وخلع عليهم ، وأمر لكل رجل منهم بعشر أوان من الذهب . فرجعوا فرحين ، وندم من تأخر عن المسير .

فلما أقبل عيد الفصح ، تهيأ أكابر أهل الجزيرة للمسير ، واجتمع منهم جماعة كبيرة . فلما وصلوا إلى القسطنطينية ، أمر الملك أن يُجعَلوا فى موضع ، وجعل عليهم حرسا . ومُنعوا من الطعام والشراب إلى أن أيقنوا بالهلاك . فشكوا ذلك إلى الموكلين بهم وقالوا : « القتل خير لنا من هذا . وما الذى يريده الملك منا ؟ » قالوا [1] : « إنه يريد دخولكم فى دين النصرانية ، فإن لم تجيبوا متم [2] على هذه الحالة وسُبيت [3] ذراريكم » . فلما اشتد عليهم البلاء تنصروا فخلع عليهم ، وتوجهوا إلى أهاليهم .

---

(١) كذا فى ر . وفى بقية الأصول : قال .
(٢) ك : فأنتم .
(٣) ك : وسبى .

فلما وصلوا الجزيرة مُنعوا الدخول [١] إلى بيوتهم . وقيل لهم : « أنتم نصارى وهؤلاء مسلمون . فإن دخلوا فى دين الملك اجتمعتم ، وإن أبوا ملكناهم » . فتنصر الباقون فى يوم واحد . ثم مات الاباء وبقى الأولاد على أشد ما يكون فى دين النصرانية والبغض فى المسلمين . نسأل الله تعالى أن لا يُمكّرنا ولا بأهالينا ولا بذرا رينا [٢] ولا بعقبنا ، ولا يمتحننا فى ديننا ، وأن يجعل عواقب أمورنا خيرا من مبادئها ، بمنّه وكرمه .

ولنصل هذا الفصل بذكر ما استولى عليه الفرنج من جزيرة الأندلس .

ذكر ما استولى عليه الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ من البلاد الاسلامية بجزيرة الأندلس بعد أخذ طليطلة

هذه المدن التى نذكرها مما [٣] استولى الفرنج خذلهم الله تعالى عليه من أعمال جزيرة الأندلس . كان الاستيلاء عليها فى التواريخ التى نذكرها ، وهى فى المدة التى انقطعت فيها الأخبار وتعطلت التواريخ . فلم تصل إلينا مفصلة ، ولاعلمنا كيف أخذت ولا ممن انتُزعت من ملوك المسلمين ، فنذكر ذلك على وجهه . وإنما اطلعنا من حالها على تواريخ الاستيلاء عليها خاصة . فرأينا ذكر ذلك أولى من إهماله .

(١) ص ، ر : منعوا من الدخول .
(٢) ص ، ر : بذرياتنا .
(٣) ك : ما .

والمدن التى أخذت هى مدينة قرطبة استولى الفرنج عليها فى يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة (١) .

ومدينة بلنسية ، نازلها الروم وملكوها صلحا فى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ست وثلاثين (٢) وستمائة .

وجيان : استولوا عليها فى سنة ثلاث (٣) وأربعين وستمائة .

وطرطرشة : أخذت فى سنة ثلاث(٤) وأربعين وستمائة .

ولاردة : أخذت فى سنة خمس (٥) وأربعين وستمائة .

ومدينة إشبيلية : أخذت فى مستهل شهر رمضان سنة ست وأربعين وستمائة(٦) .

ولم يتأخر للمسلمين بجزيرة الأندلس إلى وقتنا هذا غير الجزيرة الخضراء وما يليها . وهى (٧) جزء يسير جدا بالنسبة إلى ماأخذ

---

(١) الروض المعطار ص ١٥٨ : فى أواخر شوال من سنة ٦٣٣ . الأنيس ١٩٨ الثالث من شوال . الناصرى ٢ : ٢٢٠ : سنة ست وثلاثين .

(٢) الأنيس ١٩٨ : اثنتين وأربعين . خطأ . الروض المعطار ص ٤٨ : ثم فى سنة ٦٣ ملك الروم بلنسية صلحاً – وهو خطأ أيضا . أما البيان المغرب ٤ ص ٤٠٢ فيتفق مع النويرى ولكن اليوم عنده هى الجمعة السابع عشر من صفر .. أما المقرى (النفح – ٦ ص ٢٠٤ تحقيق محيى الدين) فيتفق مع النويرى فى اليوم .

(٣) الأنيس ١٩٨ : أربع . وتتفق رواية النويرى مع البيان المغرب – ٤ ص ٤٣٥ .

(٤) عنان : نهاية الأندلس ١٣ : اثنين .

(٥) عنان ١٣ : اثنين .

(٦) انظر ابن خلدون ٤ : ١٧١ . وفى البيان المغرب – ٤ ص ١٨١ سبع وعشرين من شهر رمضان .

(٧) ص : وهو .

أعاد الله ما أخذ ، وحمى ما بقى . وقد بلغنا أن الجزيرة الخضراء حاصرها الفرنج خذلهم الله تعالى فى سنة خمس عشرة وسبعمائة ونحوها . ولم يصل إلينا ما تجدد من ذلك . فإن وصل إلينا من خبرها شيء أوردناه فى حوادث السنين فى أخبار ملوك الديار المصرية : إن شاء الله تعالى .

فهذا ما أمكن إيراده من أخبار بلاد المغرب . فلنذكر خلاف ذلك .

الباب السابع
من القسم الخامس
من الفن الخامس

فى أخبار من نهض فى طلب الخلافة من الطالبيين فى الدولة الأموية والدولة العباسية فقتل دونها

وذلك بعد مقتل الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما

كان أول من رام ذلك منهم فى الدولة الأموية :

زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم

وكان ظهوره فى سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقُتل فى سنة اثنتين وعشرين فى أيام هشام بن عبد الملك بن مروان [1] . وقد اختلف فى سبب قيامه وطلبه الخلافة ما هو. فقيل [2] : إن زيدا هذا وداود بن على بن عبد الله بن عباس ومحمد بن عمر بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم قدموا على خالد بن عبد الله القَسرى ، وهو أمير العراق . فأجازهم وأكرمهم ورجعوا إلى المدينة . فلما ولى

---

(١) ذلك قول هشام بن محمد الكلبى ، وقال الواقدى : إنه قتل فى سنة ١٢١ هـ (الطبرى ٨ : ٢٦٠ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٠) .

(٢) القائل : الهيثم بن عدى (الطبرى ٨ : ٢٦٠) .

يوسف بن عمر الثَّقَفى العراق كتب [إلى][1] هشام بذلك . وذكر له أن خالدا ابتاع من زيد أرضا بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم رد الأَرض عليه . فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسيِّرهم إليه ففعل . فسأَلهم هشام عن ذلك ، فأَقروا بالجائزة ، وأنكروا ماسوى ذلك ، وحلفوا فصدقهم . وأمرهم بالمسير إلى العراق ، ليقابلوا خالد بن عبد الله . فساروا على كره وقابلوا خالدا فصدقهم فعادوا نحو المدينة . فلما نزلوا القادسية راسل أهل الكوفة زيدا فعاد إليهم .

وقيل : بل ادعى خالد القسرى أنه أودع زيدا وداود بن على ونفرا من قريش مالا . فكتب يوسف الثقفى بذلك إلى هشام ، فأَحضرهم هشام من المدينة ، وسيرهم إلى يوسف ليجمع بينهم وبين خالد . فقدموا عليه ، فقال يوسف لزيد : « إن خالدا زعم أنه أودعك مالا » . قال : « كيف يودعنى وهو يشتم آبائى على منبره ؟ » فأَرسل إلى خالد فأَحضره فى عباءة[2] . فقال : « هذا زيد قد أنكر أنك قد أودعته شيئاً » . فنظر خالد إليه وإلى داود ، وقال ليوسف : « أتريد أن تجمع مع إثمك فى إثما فى هذا ؟ كيف أودعه وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر ؟ » فقال لخالد[3] :

(١) زيادة ضرورية عن الطبرى ٨ : ٢٦٠ ، وابن الأثير ٤ : ٢٤٠ ، ومقاتل الطالبيين ١٣٣ .

(٢) ك : يمناه .

(٣) هذا القول وما بعده من رواية أخرى مختلفة بعض الشىء للحدث نفسه تقول إن خالدا ادعى الوديعة حقاً (الطبرى ٨ : ٢٦٤) .

« ما دعاك إلى ما صنعت ؟ » فقال : « شدِّد على العذاب فادَّعيت ذلك ، وأملت أن يأتى الله بفرج قبل قدومك » . فرجعوا وأقام زيد وداود بالكوفة .

وقيل [١] : إن يزيد بن خالد القسرى هو الذى ادعى المال وديعة عند زيد . فلما أمرهم هشام بالمسير إلى العراق إلى يوسف، استقالوه خوفاً من شر يوسف وظلمه . فقال : « أنا أكتب إليه بالكف عنكم » . وألزمهم بذلك ، فساروا على كره . فجمع يوسف بينهم وبين يزيد ، فقال يزيد : « ليس لى عندهم قليل ولا كثير » . قال يوسف : « أفبى تهزأ أم بأمير المؤمنين ؟ » فعذبه يومئذ عذابا كاد يهلكه . ثم أمر بالقرشيين فضُربوا وترك زيدا . ثم استحلفهم وأطلقهم فلحقوا بالمدينة . وأقام زيد بالكوفة ، وكان زيد قد قال لهشام لما أمره بالمسير إلى يوسف : « والله ، ما آمن إن بعثتَنى إليه أن لا نجتمع أنا وأنت حيين[٢] أبدا » . قال : « لابد من المسير إليه » .

وقيل [٣] : كان السبب فى ذلك أن زيدا كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن[٤] بن على فى وقُوف[٥] على ابن أبى طالب رضى الله عنه ؛ زيد يخاصم عن بنى حسين ، وجعفر

(١) القائل : أبو مخنف (الطبرى ٨ : ٢٦٠) .
(٢) ص : حيبين .
(٣) القائل : جويرية بن أسماء . (الطبرى ٨ : ٢٦٢) .
(٤) ك : الحسين ، تحريف .
(٥) أى ولاية أوقاف على . وفى المقاتل ١٢٩ ، ١٣٣ : صدقات على أو صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطبرى ٨ : ٢٦٢) .

يخاصم عن بنى حسن . فكانا يتبالغان كل غاية [١] ويقومان فلا يُعيدان مما كان بينهما حرفا . فلما مات جعفر نازعه عبد الله بن حسن بن الحسن . فتنازعا يوما بين يدى خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة . فأغلظ عبد الله لزيد وقال : « يابن السنلية » فضحك زيد وقال : « قد كان إسماعيل لأمة ، ومع ذلك فقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم تصبر غيرها » . يعنى فاطمة ابنة الحسين أم عبد الله فإنها تزوجت بعد أبيه الحسن . ثم ندم زيد واستحيي من فاطمة وهى عمته ، فلم يدخل عليها زمانا . فأرسلت إليه : « يا ابن أخى إنى لأعلم أن أمك [٢] عندك كأم عبد الله عنده » وقالت لعبد الله : « بئس ما قلت لأم زيد ، أمَ والله لِنعمَ دخيلة القوم كانت » .

قال : فذُكر أن خالدا قال لهما : « اغدُوا علينا غدا . فلستُ لعبد الملك إن لم أفصل بينكما » . فباتت المدينة تغلى كالمراجل يقول قائل : قال زيد كذا ، ويقول قائل : قال عبد الله كذا . فلما كان من الغد ، جلس فى المسجد واجتمع الناس ، فمن بين شامت ومهموم . فدعا بهما خالد ، وهو يحب أن يتشاتما . فذهب عبد الله يتكلم . فقال زيد : « لا تعجل يا أبا محمد ، أعتقَ زيد ما يملك إنْ خاصمك إلى خالد أبدا » ثم أقبل على خالد فقال له : « أجمعتَ ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر ما كان يجمعهم عليه

(١) أى فى أثناء التخاصم بين يدى الوالى (الطبرى ٨ : ٢٦٢ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٠)
(٢) ك : أمتك .

أبو بكر أو عمر ؟ [١] فقال خالد : « أما لهذا السفيه أحد ؟ » فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حَزْم فقال : « يا ابن أبى تراب ، وابن حسين السفيه ، أما ترى لوالٍ عليك حقا ولا طاعة ؟ » فقال زيد « اسكت أيها القحطانى ، فإنا لا نجيب مثلك » . قال : « ولم ترغب عنى ؟ فو الله إنى لخير منك ، وأبى خير من أبيك ، وأمى خير من أمك » . فتضاحك زيد وقال : « يا معشر قريش ، هذا الدين قد ذهب ، أفتذهب الأحساب ؟ فو الله ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم » . فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال : « كذبت والله أيها القحطانى ، فو الله لهو خير منك نفسا وأما وأبا ومحتدا » . وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفا من حَصباء فضرب بها الأرض ثم قال : « إنه والله مالنا على هذا من صبر » . وقام .

وشخَص زيد إلى هشام بن عبد الملك فجعل هشام لا يأذن له فَيرفع إليه القصص [٢] . فكلما رفع قصة يكتب هشام فى أسفلها « ارجع إلى منزلك [٣] » . فيقول زيد : « والله ، لا أرجع إلى خالد أبدا » . ثم أذن له يوما بعد طول حبس ، ورقى عِلّية طويلة . وأمر خادما [٤] أن يتبعه بحيث لا يراه زيد ويسمع ما يقول . فصعد زيد ، وكان بادنا ، فوقف فى بعض الدرجة فسمعه يقول : « والله ،

---

(١) ك : أبو بكر وعمر .
(٢) أى مانسميه اليوم المذكرات التى تضم مايؤيد قضيته .
(٣) وكذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٤١ . وفى الطبرى ٨ : ٢٦٣ : إلى أميرك .
(٤) كذا فى الطبرى ٨ : ٢٦٣ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤١ . وفى الأصول : خالدا . تحريف

لا يحب الدنيا أحد إلا ذل » ثم صعد إلى هشام فحلف له على شئ . فقال : « لا أصدقك » فقال : « يا أمير المؤمنين إن الله لم يرفع أحدا عن أن يرضَى بالله ، ولم يضَع أحدا عن أن لا يُرضَى بذلك منه » فقال هشام : « لقد بلغني يازيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولستَ هناك وأنت ابن أمَة » . قال زيد : « إن لك جوابا » قال : « فتكلم » قال : « إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع درجة من نبي ابتعثه . وقد كان إسماعيل عليه السلام ابن أمة وأخوه من صَريحة . فاختاره الله عليه ، وأخرج منه خير البشر . وما على أحد من ذلك إذا كان جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت أمه » . قال له هشام : « اخرج » قال : « أخرج ثم لا أكون[1] إلا بحيث تكره » فقال له سالم[2] : « يا أبا الحسين ، لا يظهرن هذا منك » .

فخرج من عنده وسار إلى الكوفة . فقال له محمد بن عمر بن أبي طالب : « أذكّرك الله يازيد ، لَما لحقت بأهلك ، ولا تأت أهل الكوفة فإنهم لا يَفُون لك » . فلم يقبل وقال : « خُرِج بنا أسرى على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق إلى تيس ثقيف يلعب بنا » . وقال[3] :

بَكَرَتْ تُخوِّفُنى الحُتوفَ كأنَّنى
أصبحتُ من غَرَضِ الحياة بَمعْزِل

(١) ك : ولا أكون .
(٢) كذا فى الأصول ، ولم يسبق له ذكر .
(٣) انظر مختار الشعر الجاهلى لمصطفى السقا ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ ، صفحة ٣٨٩ . ورواية البيت الأول فيه : غرض الحتوف ، وهى أجود . والمقطوعة موجودة فى ابن الأثير ٤ : ٢٤١ .

فأجبتها إن المنية منهـــــل
لا بد أن أسقى بكأس المنهـلِ
إن المنيـــة لو تُمثَّـــل مُثِّلت
مِثْلى إذا نزلوا بضيق المـــــنزل
فاقْنَى حيـــاءك لا أبـــا لك واعلمى
أنى امـــرؤ سأموت إن لـــم أُقتَل

ثم قال زيد : « أستودعك الله ، وإنى أعطى الله عهدا أن [لا] دخلت يدى فى طاعة هؤلاء ما عشت » .

وفارقه وأقبل إلى الكوفة . فأقام بها مستخفيا يتنقل فى المنازل . وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعة [1] . فبايعه جماعة منهم سَلَمة ابن كُهَيل ، ونصر بن خزيمة العبسي ، ومعاوية بن إسحاق بن زيدبن حارثة الأنصارى ، وناس من وجوه أهل الكوفة . وكانت بيعته : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقَسْم هذا الفَىء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ، وإقفال المُجْمَر [2] ونصرة أهل البيت . أتبايعون على ذلك ؟ » فإذا قالوا : « نعم » . وضع يده على أيديهم ويقول : « عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم لَتَفِينَّ ببيعتى ، ولتقاتلن عدوى ، ولتنصحن لى فى السر والعلانية » فإذا قال : « نعم » . مسح يده على يده .

(١) ك : وتبايعه .
(٢) المجمر : الجندى الذى طالت غيبته عن أهله . وإقفاله : إرجاعه إليهم .

ثم قال : « اللهم اشهد » . فبايعه خمسة عشر ألفا ، وقيل : أربعون ألفا . وأمر أصحابه بالاستعداد ، فأقبل من يريد أن يفى له ويخرج معه يستعد ويتهيأ . فشاع أمره فى الناس . هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام واختفى بها يبايع الناس .

وأما على قول من زعم أنه أتى الكوفة إلى يوسف بن عمر لمقابلة خالد بن عبد الله القسرى أو ابنه يزيد بن خالد ، فإنه يقول : إنه أقام بالكوفة ظاهرا ومعه داود بن على بن عبد الله بن عباس . وأقبلت الشيعة تختلف إلى زيد ، وتأمره بالخروج ، ويقولون : « إنا لنرجو أن تكون أنت المنصور ، وأن هذا الزمان هو الذى يهلك فيه بنو أمية » . فأقام بالكوفة .

وجعل يوسف بن عمر الثقفى يسأل عنه ، فيقال : « هو هاهنا » . ويبعث إليه ليسير فيقول : « نعم » ويعتل بالوجع . فمكث ما شاء الله . ثم أرسل إليه يوسف ليسير ، فاحتج بأنه يبتاع أشياء يريدها . ثم أرسل إليه يوسف بالمسير عن الكوفة ، فاحتج بأنه يحاكم بعض آل طلحة بن عبيد الله فى ملك بينهما بالمدينة ، فأرسل إليه ليوكل وكيلا ويرحل عنها .

فلما رأى جد يوسف فى أمره سار حتى أتى القادسية وقيل الثعلبية . فتبعه أهل الكوفة وقالوا : « نحن أربعون ألفا لم يتخلف عنك أحد ، نضرب عنك بأسيافنا ، وليس ها هنا من أهل الشام إلا عدة يسيرة بعض قبائلنا تكفيهم بإذن الله تعالى » . وحلفوا بالأيمان المغلظة ، فجعل يقول : « إنى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى كفعلكم بأبي وجدى » فيحلفون له . فقال له داود بن علي :

« يا ابن عم ، إن هؤلاء يغرونك من نفسك ، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك : جدك علي بن أبي طالب حتى قتل ، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه وجرحوه ؟ أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له ثم خذلوه وأسلموه ، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ فلا ترجع معهم » فقالوا لزيد : « إن هذا لايريد أن تظهر أنت ، ويزعم أنه وأهل بيته أولى بهذا الأمر منكم » فقال زيد لداود : « إن عليا كان يقاتله معاوية بدهائه ومكره ، وإن الحسين قاتله يزيد والأمر مقبل عليهم » . فقال داود : « إني خائف إنْ رجعت معهم أن لا يكون أحد أشد عليك منهم ، وأنت أعلم » . ومضى داود إلى المدينة ورجع زيد إلى الكوفة .

فلما رجع زيد ، أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقه فأحسن . ثم قال له : « نَشَدْتُك الله : كم بايعك ؟ » قال : « أربعون ألفا » قال : « فكم بايع جدك ؟ » قال : « ثمانون ألفا » . قال : « فكم حصل معه ؟ » قال : « ثلاثمائة » قال : « نشدتك الله : أنت خير أم جدك ؟ » قال : « جدى » . قال : « فهذا القرن خير أم ذلك القرن ؟ » قال : « ذلك القرن » . قال : « أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك ؟ » قال : « قد بايعونى ووجبت البيعة فى عنقى وعنقهم » . قال : « أفتأذنُ لى أن أخرج من هذا البلد ، فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسى » . فأذن له فخرج إلى اليمامة .

وكتب عبد الله بن الحسن [1] بن الحسن إلى زيد : « أما

(١) ك : الحسين ، تحريف .

بعد ، فإن أهل الكوفة نُفخ العلانية ، خُور السريرة ، هرج فى الرخاء [١] ، جُزع فى اللقاء ، تقلُّمهم ألسنتهم ، ولا تُشايعهم قلوبهم . ولقد تواترت إلى كتبهم بدعوتهم ، فصممت عن ندائهم وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأسا منهم واطراحا لهم . ومالهم مثل إلا ما قال [٢] على بن أبى طالب رضى الله عنه : إنْ أهملتم خُضْتم ، وإنْ حُوربتم [٣] خُرتم ، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وإن أجبتم إلى مُشاقّة نَكَصْتم » فلم يصغ زيد إلى شىء من ذلك وأقام على حاله يبايع الناس ويتجهز للخروج .

وتزوج بالكوفة ابنة يعقوب بن عبد الله السلمى . وتزوج أيضا ابنة عبد الله بن أبى العنبس الأزدى . وكان سبب تزوجه إياها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت تتشيع ، فأتت زيدا تسلم عليه ، وكانت جميلة حسنة قد دخلت فى السن ولم يظهر عليها . فخطبها زيد إلى نفسها [٤] . فاعتذرت بالسن وقالت له : « لى بنت [٥] هى أجمل منى وأبيض وأحسن دَلا وشكلا » فضحك زيد ثم تزوجها وكان ينتقل بالكوفة تارة عندها ، وتارة عند زوجته الأخرى ، وتارة فى بنى عبْس ، وتارة فى بنى نَهْد ، وتارة فى بنى تغلب [٦] وغيرهم إلى أن ظهر .

---

(١) كذا فى الطبرى ٨ : ١٦٥ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٣ . و فى الأصول : الرداء ، تحريف .
(٢) ك : ومالهم إلا مثل ماقال .
(٣) ك : جوزيتم ، تحريف .
(٤) ك : فخطبها زيد لنفسه إلى بغيتها . ولعل صوابه : لنفسه إلى نفسها .
(٥) ك : وقالت له بنتى .
(٦) ك : بنى ثعلب .

ذكر ظهور زيد بن على بن الحسن ومقتله

كان ظهور زيد ومقتله فى سنة اثنتين وعشرين ومائة . وذلك أنه لما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج ، أخذ من كان يريد الوفاء بالبيعة يتجهز. فانطلق سليمان بن سراقة البارقى إلى يوسف بن عمر فأخبره . فبعث يوسف فى طلب زيد فلم يوجد . وخاف زيد أن يؤخذ فتعجل الخروج قبل الأجل الذى جعله بينه وبين أهل الكوفة ، وعلى الكوفة يومئذ الحكم بن الصَّلْت ، وعلى شرطته عمرو بن عبد الرحمن (١) من القارة ، ومعه عبيد الله بن العباس الكندى فى ناس من أهل الشام ، ويوسف بن عمر بالحيرة .

فلما رأى أصحاب زيد بن على أن يوسف بن عمر قد بلغه حاله وأنه يبحث عن أمره ، اجتمع إليه جماعة من رؤوسهم فقالوا « رحمك الله ، ما قولك فى أبى بكر وعمر ؟ » قال زيد : « رحمهما الله وغفر لهما . ما سمعت أحدا من أهل بيتى يقول فيهما إلا خيرا وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم : أنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين ، فدفعونا عنه . ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا . وقد وَلُوا فعدَلوا فى الناس ، وعملوا بالكتاب والسنة » قالوا : « فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم ؟ » فقال : « إن هؤلاء ليسوا كأولئك . هؤلاء ظالمون لى ولأنفسهم ولكم . وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة

(١) كذا فى الطبرى ٨ : ٢٧٢ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٦ ، والأصول فيما بعد . وفى الأصول هنا : عمر .

نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلى السنن أن تُحيا ، وإلى البدع أن تُطفأ ، فإن أجبتمونا سعدتم ، وإن أبيتم فلستُ عليكم بوكيل » ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا : « سبق الإمام » ، يعنون محمد الباقر ، وكان قد مات . وقالوا : « جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه » فسماهم زيد الرافضة . وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حيث فارقوه . وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد . فقال : « بايِعوه ، فهو والله أفضلنا وسيدنا » فعادوا وكتموا ذلك .

وكان زيد قد واعد أصحابه أول ليلة من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة . فبلغ يوسف بن عمر ، فبعث إلى الحكم يأمره أن يجمع أهل الكوفة فى المسجد الأعظم يحصرهم فيه ، فجمعهم فيه . وطلبوا زيدا فى دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة [1] الأنصارى ، فخرج منها ليلا . ورفعوا النيران ونادوا : « يامنصور[2] » حتى طلع الفجر .

فلما أصبحوا بعث زيد القاسم الحضرمى وآخر من أصحابه يناديان بشعارهم . فلما كانوا بصحراء عبد القيس لقيهم جعفر بن العباس [3] الكندى . فحملوا عليه وعلى أصحابه ، فقُتل الذى كان

---

(١) كذا سبق فى الأصول والطبرى ٨ : ٢٦٧ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٢ ، المقاتل ١٣٦ . وفى الأصول وابن الأثير هنا : .. زيد بن ثابت ، تحريف .

(٢) كذا فى الأصول ، والحق أن نداءهم كان : « يامنصور أمت » (الطبرى ٨ : ٢٧٢ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٦ ، المقاتل ١٣٦) .

(٣) كذا فى الطبرى ٨ : ٢٧٣ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٦ ، المقاتل ١٣٦ ، والأصول فيما بعد . وفى الأصول هنا : جعفر بن أبى العباس .

مع القاسم، وارتُثّ[١] القاسم وأُتى به الحكم فضرب عنقه . فكنا أول من قُتل من أصحاب زيد .

فأغلق الحكم دروب السوق وأبواب المسجد على الناس . وبعث إلى يوسف بالحيرة فأخبره الخبر. فأرسل جعفر بن العباس[٢] ليأتيه بالخبر . فسار فى خمسين فارسا حتى بلغ جبانة سالم، فسأل ثم رجع إلى يوسف فأخبره . فسار يوسف إلى تل قريب من الحيرة ، فنزل عليه ومعه أشراف الناس . فبعث الريان بن سليمة الإراشى[٣] فى ألفين ومعه ثلاثمائة من القيقانية رجّالة معهم النُّشّاب .

وأصبح زيد فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتى رجل وثمانية عشر رجلا . فقال زيد : « سبحان الله ! أين الناس ؟ » فقيل : « إنهم فى المسجد الأعظم محصورون » . فقال : « والله ، ما هذا بعذر لمن بايعنا » وسمع نصر بن خزيمة العبسى النداء فأقبل إليه . فلقى عمرو بن عبد الرحمن صاحب شرطة الحكم فى خيله من جُهينة فى الطريق فحمل عليه نصر ، فقُتل عمرو وانهزم من كان معه .

وأقبل زيد على جبانة سالم حتى انتهى إلى جبانة الصائديين[٤]

---

(١) ارتث : صرع ولم يمت بعد .

(٢) وكذا فى الطبرى ٨ : ٢٧٣ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٦ . وفى المقاتل ١٣٧ : عبد الله ابن العباس المنتوف ، ولعل ذلك أصوب لأن جعفراً كان مع الحكم لايوسف .

(٣) فى الأصول : الإراسى . وفى الطبرى ٨ : ٢٧٣ : الريان بن سلمة الإراشى . وفى ابن الأثير ٤ ، ٢٤٦ ، الريان بن سلمة الإرانى . وفى المقاتل ١٣٧ ، الريان بن سلمة البلوى .

(٤) الطبرى ٨ : ٢٧٣ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٧ : الصائدين . المقاتل ١٣٨ : الصيادين . ولعلها أقرب الروايات إلى الصحة لأن الكوفة كانت تجاور قرية الصيادين (معجم البلدان لياقوت الكوفة) .

وبها خمسمائة من أهل الشام . فحمل عليهم زيد فيمن معه فهزمهم. وانتهى زيد إلى دار أنس بن عمرو الأزدى ، وكان فيمن بايعه ، وهو فى الدار . فنودى فلم يجبهم . وناداه زيد فلم يخرج إليه . فقال زيد : « ما أخلفكم ! قد فعلتموها ! الله حسيبكم ! » ثم انتهى زيد إلى الكناسة فحمل على من بها من أهل الشام فهزمهم . ثم سار زيد ويوسف ينظر إليه فى مائتى رجل ، فلو قصده زيد لقتله ، والريان يتبع آثار زيد بالكوفة فى أهل الشام . فأخذ زيد على مصلى خالد حتى دخل الكوفة . وسار بعض أصحابه نحو جبانة مخنف بن سليم فلقوا أهل الشام فقاتلوهم . فأسر أهل الشام منهم رجلا ، فأمر به يوسف بن عمر فقتل.

فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال : « يانصر بن خزيمة ، أتخاف أن يكونوا فعلوها حسينية ؟ » قال : « أما أنا فو الله لأقاتلن معك حتى أموت ، وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم » . فلقيهم عبيد الله بن العباس الكندى عند دار عمر بن سعد ، فاقتتلوا فانهزم عبيد الله وأصحابه . وجاء زيد حتى انتهى إلى باب المسجد . فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الأبواب ويقولون : « يا أهل المسجد ، اخرجوا من الذل إلى العز ، اخرجوا إلى الدين والدنيا فإنكم لستم فى دين ولا دنيا » . فرماهم أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد .

وانصرف الريان عند المساء إلى الحيرة . وانصرف زيد فيمن معه . وخرج إليه ناس من أهل الكوفة . فنزل دار الرزق . فأتاه

الريان بن سليمة فقاتله عن دار الرزق . وخرج أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شئ ظنا .

فلما كان الغد أرسل يوسف بن عمر العباس بن سعد [١] المزنى فى أهل الشام ، فانتهى إلى زيد فى دار الرزق . فلقيه زيد وعلى مجنبتيه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة ، فقتتلوا قتالا شديدا . وحمل نائل بن فروة العبسى من أهل الشام على نصر بن خزيمة . فضربه بالسيف فقطع فخذه ، وضربه نصر فقتله . ولم يلبث نصر أن مات . واشتد قتالهم فانهزم أصحاب العباس ، وقتل منهم نحو من سبعين رجلا .

فلما كان العشى عبأهم يوسف بن عمر ثم سرحهم . فالتقوا هم وأصحاب زيد ، فحمل عليهم فى أصحابه ، فكشفهم . وتبعهم حتى أخرجهم إلى السبخة ثم حمل عليهم بالسبخة حتى أخرجهم إلى بنى سليم .

وجعلت خيلهم لاتثبت لخيله . فبعث العباس إلى يوسف يعلمه ذلك وقال له : « ابعث إلى الناشبة » . فبعثهم إليه ، فجعلوا يرمون أصحاب زيد . فقاتل معاوية بن إسحاق الأنصارى بين يدى زيد قتالا شديدا فقُتل . وثبت زيد ومن معه إلى الليل . فرُمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت فى دماغه . ورجع أصحابه ولايظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا للمساء والليل .

ونزل زيد فى دارٍ من دور أرحب . وأحضر أصحابه طبيبا ، فانتزع

(١) وكذا فى المقاتل ١٣٩ . وفى الطبرى ٨ : ٢٧٥ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٧ : سعيد .

النصل فضج زيد . فلما نزع مات زيد رحمه الله . فقال أصحابه : « أين ندفنه ؟ » فقال بعضهم : « نطرحه فى الماء » . وقال بعضهم : « بل نقطع رأسه ونلقيه فى القتلى » . فقال ابنه يحيى : « والله ، لايأكل لحم أبى الكلاب » . وقال بعضهم : « ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ونجعل عليه الماء [1] » . ففعلوا . فلما دفنوه أجروا الماء عليه . وقيل : دفن بنهر يعقوب : سَكَر [2] أصحابه الماء . ودفنوه وأجروا الماء . وكان معهم مولى لزيد سِنْدى [3] ، وقيل : رآهم قصار ، فدل عليه . وتفرق الناس عنه .

وسار ابنه يحيى نحو كَربلاء . فنزل نِينوَى [4] على سابق مولى بشربن عبد الملك بن بشر . ثم إن يوسف بن عمر تتبع الجرحى فى الدور . فدله السندي مولى زيد يوم الجمعة على زيد . فاستُخرج من قبره فقُطع رأسه وسُيِّر إلى يوسف بن عمر ، وهو بالحيرة ، سيره إليه الحكم بن الصلت . فأمر يوسف أن يُصلَب ، فصُلِب زيد بالكناسة ، هو ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق وزياد النهدي . وأمر بحراستهم . وبعث الرأس إلى هشام بن عبد الملك ، فصُلب على باب مدينة دمشق . ثم أُرسل إلى المدينة . وبقى البدن مصلوبا إلى أن مات هشام وولى الوليد ، فأمر بإنزاله وإحراقه .

وقيل : كان خِراش [5] بن حَوشَب بن يزيد الشيبانى على

(١) ك : وتجعل عليها الماء .
(٢) سكر : حبس .
(٣) وقيل : حبشى (المقاتل ١٤٢) .
(٤) ك : بنينوى .
(٥) ك : حراش .

شرطة يوسف بن عمر [١] ، وهو الذي نبش زيدا [٢] وصلبه. فقال السيد الحِميَرى :

بِتُّ ليلى مُسهَّدا ساهَر العين مُقْصَدا[٣]
ولقد قلتُ قولةً وأطلْتُ التَّبلُّدا :
لعن الله حَوشبا وخِراشا ومَزْيَدا
ويَزيـــدا فإنه كان أعتَى وأعتَدا [٤]
ألفَ ألف وألفَ ألـ ـفٍ من اللعن سَرمَدا
إنهم حاربوا الإلـ ـه وآذَوا محمـــدا
شَرِكوا فى دم الحسيـــن وزيد تَعبُّدا[٥]
ثم عالُوه فوق جِذ ـعٍ صريعا مجرَّدا
ياخراش بن حوشبٍ أنت أشقَى الوَرَى غدا

وأما يحيى بن زيد بن على فإنه قيل فيه غيرما قدمناه . وهو أنه لما قُتل زيد قال له رجل من بنى أسد من أهل خراسان : « إن بخراسان لكم شيعة ، والرأى أن تخرج إليها » . قال : « وكيف لى بذلك ؟ » قال : « تتوارى حتى يسكن الطلب ثم تخرج » . فواراه عنده .

(١) وكذا فى الطبرى ٨ : ٢٧٨ . وفى ابن الأثير ٤ : ٢٤٨ : شرطة زيد .
(٢) وكذا فى الطبرى ٨ : ٢٧٨ ، ابن الأثير ٤ : ٢٤٨ . وفى ك : نبش قبر زيد .
(٣) وكذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٤٨ . وفى الطبرى ٨ : ٢٧٨ : ساهر الطرف .
(٤) وكذا فى ابن الأثير . وفى الطبرى : وأعندا .
(٥) وكذا فى ابن الأثير . وفى الطبرى :
شركوا فى دم المط هر زيد يعندا

ثم خاف فأتى به عبد الملك بن بشر بن مروان فقال له : « قرابة زيد بك قريبة وحَقُّه عليك واجب » . فقال : « أجل ، ولقد كان العفو عنه أقرب للتقوي » . فقال : « قد قُتل وهذا ابنه غلام حدَث لاذنب له ، وإنْ علم يوسف به قتله أفَتُجيره ؟ » قال : « نعم » . فأتاه به ، فأقام عنده . فلما سكن الطلب سار فى نفر من الزيدية إلى خراسان .

ذكر مسير يحيى بن زيد بن على الى خراسان ومقتله

قال : ولما سكنت الفتنة ، سار يحيي إلى خراسان . فأتى بلخ فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود [1] . حتى هلك هشام ابن عبد الملك وولى الوليد بن يزيد . فكتب يوسف بن عمر الثقفى إلى نصر بن سيار بمسير يحيي بن زيد وبمنزله عند الحريش ، وقال له : « خذه أشد الأخذ » . فأخذ [2] نصر الحريش فطالبه بيحيي . فقال : « لاعلم لى به » . فأمر به فجُلد ستمائة سوط . فقال الحريش : « والله ، لو أنه تحت قدمى ما رفعتهما عنه » . فلما رأى ذلك قريش [3] ابن الحريش قال : « لاتقتل أبى وأنا أدلك على يحيي » . فدلّه عليه .

(١) وكذا فى الطبرى ٨ : ٣٠٠ ، ابن الأثير ٤ : ٢٥٩ . وفى المقاتل ١٥٤ : الحريش بن عبد الرحمن الشيبانى .

(٢) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٥٩ . وفى ك : فأنفذ ، تحريف .

(٣) كذا فى الطبرى ٨ : ٣٠٠ ، ابن الأثير ٤ : ٢٥٩ ، المقاتل ١٥٤ . وفى ك : فريس ابن الجريش ، تحريف .

فأخذه وحبسه . وكتب نصر إلى الوليد يخبره به . فكتب إليه الوليد يأمره أن يؤمنه ويخلى سبيله وسبيل أصحابه . فأطلقه نصر، وأمره أن يلحق بالوليد ، وأمر له بألفى درهم .

فسار إلى سرَخْس وأقام بها . فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس ابن عُبَاد يأمره أن يسيره عنها .

فسار حتى انتهى إلى بَيهَق . وخاف أن يغتاله يوسف بن عمر فعاد إلى نيسابور [١] ، وبها عمرو بن زرارة [٢] ، وكان مع يحيى سبعون رجلا . فرأى يحيى تجارا فأخذ هو وأصحابه دوابهم ، وقالوا : « علينا أثمانها » . فكتب عمرو بن زرارة إلى نصر يخبره . فكتب إليه نصر يأمره بمحاربته . فقاتله عمرو وهو فى عشرة آلاف ويحيى فى سبعين رجلا . فهزمهم يحيى وقتل عمرا ، وأصاب دواب كثيرة .

وسار حتى مر بهَراة فلم يعرض لمن بها ، وسار عنها . وسَرّح نصر ابن سيار سلم بن أحوَز [٣] فى طلب يحيى . فلحقه بالجُوزجان فقاتله قتالا شديدا . فرُمى يحيى بسهم فأصاب جبهته : رماه رجل من عَنَزة يقال له عيسى . وقُتل أصحاب يحيى من عند آخرهم . وأخذوا رأس يحيى وسلبوه قميصه .

فلما بلغ الوليد بن يزيد قتل يحيى ، كتب إلى يوسف بن عمر : « خذ عجل [٤] أهل العراق فأنزِله من جذعه – يعنى زيدا – وأحرقه

(١) وكذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٦٠ . وفى الطبرى ٨ : ٣٠٠ ، المقاتل ١٥٦ : أبرشهر .
(٢) المقاتل : عامر بن زرارة .
(٣) كذا فى الطبرى ٨ : ٣٠١ . وفى ك : سليم بن أجور . المقاتل ١٥٧ : سلم بن أحور . ابن الأثير ٤ : ٢٦٠ : سالم بن أحوز .
(٤) ابن الأثير ٤ : ٢٦٠ : عجيل.

بالنار ثم انسِفْه فى اليم نَسفا » . فأمر به يوسف فأُحرِق ثم رضَّه وحمله فى سفينة . ثم ذراه فى الفرات [١] . وأما يحيى فإنه لما قتل صُلب بالجوزجان . فلم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراسانى واستولى على خراسان ، فأنزله وصلى عليه ودفنه . وأمر بالنياحة عليه فى خراسان . وأخذ أبو مسلم ديوان بنى أمية ، وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى . فمن كان حيا قتله ، ومن كان ميتا خَلَفَه فى أهله بسوء .

وكانت أم يحيى بن زيد رَيْطة بنت عبد الله بن محمد بن الحنفية . وكان مقتل يحيى فى سنة خمس وعشرين ومائة .

هذا ما كان من خبر زيد وابنه يحيى ، ثم ظهر عبدالله بن معاوية فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ظهور عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب[٢]

كان ظهوره بالكوفة فى سنة سبع وعشرين ومائة ، فى أيام مروان بن محمد الحمار بن مروان ، ودعا إلى نفسه . وكان سبب ذلك أنه قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى الكوفة [٣]

(١) ك : بالفرات .
(٢) المقاتل ١٦١ : جعفر بن على بن أبى طالب .
(٣) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٨٤ . وفى ك : إلى الكوفة .

فأكرمه وأجازه [١] ، وأجرى عليه وعلى إخوته كل يوم ثلاثمائة درهم .

فكانوا كذلك حتى هلك يزيد بن الوليد وبايع الناس أخاه إبراهيم بن الوليد وبعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك . فلما بلغ خبر بيعتهما عبد الله بن عمر بالكوفة بايع لهما الناس ، وزاد فى العطاء ، وكتب ببيعتهما إلى الآفاق ؛ فجاءته البيعة . ثم بلغه امتناع مروان بن محمد من البيعة ومسيره من الشام إليهما ، فحبس عبد الله بن معاوية عنده ، وزاده فيما كان يُجريه عليه ، وأعده لمروان بن محمد إن هو ظفر بإبراهيم بن الوليد ، ليبايع له ويقاتل به مروان . فماج الناس وورد مروان الشام وظفر بإبراهيم. فانهزم إسماعيل بن عبد الله القسرى إلى الكوفة مسرعاً ، وافتعل كتابا على لسان إبراهيم بإمرة الكوفة ، وجمَع اليمانية وأعلمهم ذلك فأجابوه . وامتنع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عنه [٢] وقاتله . فلما رأى إسماعيل الأمر كذلك ، خاف أن يظهر أمره ويفتضح ويُقتل ،فقال لأصحابه : « إنى أكره سفك الدماء فكفوا أيديكم » . فكفوا وظهر أمر إبراهيم وهربه .

ووقعت العصبية بين الناس . وكان سببها أن عبد الله بن عمر كان قد أعطى مضر وربيعة عطايا كثيرة . ولم يعط جعفر بن نافع بن القعقاع بن شور الذهلى وعثمان بن الخيبرى [٣] من تيم اللات

(١) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٨٤ . وفى ك : وأجاره .
(٢) ابن الأثير ٤ : ٢٨٤ : عليه .
(٣) كذا فى الطبرى ، وابن الأثير ٤ : ٢٨٤ . وفى ص : الحيرى . وفى ك : الحضيرى .

ابن ثعلبة شيئا ، وهما من ربيعة ، فكانا مغضَبين .وغضب لهما ثُمامة بن حَوشب بن رُوَيم الشيبانى . وخرجوا من عند عبد الله بن عمر وهو بالحيرة إلى الكوفة ، فنادوا : «ياآل ربيعة» فاجتمعت ربيعة وتنمروا [1] . وبلغ الخبر عبد الله بن عمر فأرسل إليهم أخاه عاصما . فأتاهم وهم بدير هند . فألقى نفسه بينهم وقال : « هذه يدى لكم فاحكموا » . فاستحيوا ورجعوا وعظّموا عاصما وشكروه . فلما كان المساء ، أرسل عبد الله بن عمر إلى عمر بن الغضبان بن القَبَعثَرَى بمائة ألف ، فقسمها فى قومه بنى همام بن مُرَّة بن ذُهل الشَّيبانى [2] ، وإلى ثمامة بن حوشب بمائة ألف ، فقسمها فى قومه . وأرسل إلى جعفر بن نافع بمال ، وإلى عثمان بن الخيبرى بمال .

فلما رأى الشيعة ضعف عبد الله بن عمر ، طمعوا فيه ودعوا إلى عبد الله بن معاوية . واجتمعوا فى المسجد ، ودعوا إلى عبد الله [3] ابن معاوية ، وأخرجوه من داره ، ثم أدخلوه القصر . ومنعوا عاصم ابن عمر عن القصر فلحق بأخيه بالحيرة . وجاء ابنَ معاوية الكوفيون وبايعوه ، فيهم عمر بن الغضبان ومنصور بن جمهور وإسماعيل بن عبد الله القسرى أخو خالد . وأقام أياما يبايعه الناس وأتته البيعة من المدائن وفم النيل .

واجتمع إليه الناس ، فخرج إلى عبد الله بن عمر بالحيرة .

---

(١) ك : وانتمروا .

(٢) ك : ذهل بن شيبان .

(٣) ابن الأثير ٤ : ٢٨٤ : وأتوا عبد الله ، وهى أفصح .

فقيل لابن عمر : « قد أقبل ابن معاوية فى الخَلْق » . فأطرق رأسه مليا . وأتاه رئيس خبازيه فأعلمه بإدراك الطعام . فأمر بإحضاره ، فأكل هو ومن معه وهو غير مكترث [1] ، والناس يتوقعون أن يهجم عليهم ابن معاوية . وفرغ من طعامه وأخرج المال وفرقه فى قواده . ثم دعا مولى له كان يتبرك به ويتفاءل باسمه ، كان اسمه إما ميمونا وإما رَباحا أو فتحا أو اسما يُتبرَّك به . فأعطاه اللواء وقال : « امضِ به إلى موضع كذا فاركُزْه ، وادعُ أصحابك ، وأقم حتى آتيك » . ففعل .

وخرج عبد الله فإذا الأرض بيضاء من أصحاب ابن معاوية . فأمر عبد الله بن عمر مناديا ينادى : « من جاء برأس فله خمسمائة » . فأُتى برؤوس كثيرة وهو يعطى ما ضمن .

وبرز رجل من أهل الشام ، فبرز إليه القاسم بن عبد الغفار العجلى . فسأله الشامى فعرفه . وقال : « قد ظننت أنه لا يخرج إلىّ إلا رجل من بكر بن وائل . والله ، ما أريد قتالك ولكنى أحببت أن ألقى إليك حديثا أخبرك أنه ليس معكم رجل من أهل اليمن لا إسماعيل ولا منصور ولا غيرهما إلا وقد كاتب ابن عمر ، وكاتبته مُضَر . وما أرى لكم يا ربيعة كتابا ولا رسولا وأنا رجل من قيس ، فإن أردتم الكتاب أبلغتُه . ونحن غدا بإزائكم ، فإنهم اليوم لا يقاتلونكم » . فبلغ الخبر ابن معاوية فأخبر عمر بن الغضبان . فأشار عليه أن يستوثق من إسماعيل ومنصور وغيرهما ، فلم يفعل .

(١) ك : غير مكتوب .

وأصبح الناس [من][1] الغد غادين على القتال. فحمل عمر بن الغضبان على ميمنة ابن عمر، انكشفوا. ومضى إسماعيل ومنصور من فورهما إلى الحيرة. فانهزم أصحاب ابن معاوية إلى الكوفة وابن معاوية معهم. فدخلوا القصر. وبقى من بالميسرة من ربيعة ومضر، ومن بإزائهم من أصحاب ابن عمر. فقالوا لعمر بن الغضبان: «ما كنا نأمن عليكم ما صنع الناس بكم، فانصرفوا». وقال ابن الغضبان: «لا أبرح حتى أقتل». فأخذ أصحابه بعنان دابته فأدخلوه الكوفة.

فلما أمسوا قال لهم ابن معاوية: «يامعشر ربيعة، قد رأيتم ما صنع الناس بنا، وقد أعلقنا دماءنا فى أعناقكم. فإن قاتلتم قاتلنا معكم وإن كنتم ترون الناس يخذلوننا وإياكم، فخذوا لنا ولهم[2] أمانا». فقال له عمر بن الغضبان: «إما أن نقاتل معك وإما أن نأخذ لكم أمانا كما نأخذ لأنفسنا فطيبوا نفسا». فأقاموا فى القصر والزيدية على أفواه السكك يقاتلون أصحاب ابن عمر أياما. ثم إن ربيعة أخذت أمانا لابن معاوية ولأنفسهم وللزيدية [ليذهبوا][3] حيث شاءوا.

وسار ابن معاوية من الكوفة فنزل المدائن، فأتاه قوم من أهل الكوفة[4]. فخرج بهم فغلب على حلوان والجبال وهمذان وأصفهان والرى. وخرج إليه عبيد أهل الكوفة.

---

(١) زيادة عن ابن الأثير ٤ : ٢٨٥.
(٢) ابن الأثير ٤ : ٢٨٥ : ولكم أمانا، وهى أليق.
(٣) زيادة عن ابن الأثير ٤ : ٢٨٥.
(٤) ك : من الكوفة.

ذكر غلبته على فارس وأخذها منه وقتله

كانت غلبة عبد الله بن معاوية على فارس فى سنة تسع وعشرين[١] ومائة . وذلك أنه لما غلب على ما ذكرناه أقام بأصبهان . وكان محارب[٢] بن موسى مولى بنى يشكر عظيم القدر بفارس . فجاء إلى دار الإمارة باصْطَخْر ، فطرد عامل ابن عمر عنها . وبايع الناس لعبد الله بن معاوية . وخرج محارب إلى كرمان فأغار عليها . وانضم إلى محارب قواد[٣] من أهل الشام . فسار إلى سليم[٤] بن المسيب ، وهو عامل ابن عمر بشيراز ، فقتله فى سنة ثمان وعشرين ومائة ، ثم خرج محارب إلى أصبهان إلى عبد الله بن معاوية ، فحوله إلى اصطخر .

فاستعمل عبد الله أخاه الحسن على الجبال . وأقبل معه إلى اصطخر ، فأقام بها . وأتاه الناس : بنو هاشم وغيرهم ، وجبى المال ، وبعث العمال . وكان معه منصور بن جمهور وسليمان بن هشام بن عبد الملك . وأتاه شيبان بن عبد العزيز الحَرورى الخارجى ، وكان قد خرج فى جموع كثيرة ، كما ذكرنا فى أخباره فلم يتفق بينهما أمر[٥] . وأتاه أبو جعفر المنصور وعبد الله وعيسى

(١) ك : وتسعين ، تحريف .
(٢) ك : يحارب ، تحريف .
(٣) كذا فى الطبرى وابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى ك : قراد . وفى ص : قزاد .
(٤) الطبرى وابن الأثير ٤ : ٣٠٦ : مسلم .
(٥) انظر صفحة ٥٢٠ من الجزء ٢١ .

ابن على [١] .

فلما قدم ابن هبيرة على العراق أرسل نباتة بن حنظلة الكلابى إلى عبد الله بن معاوية . وبلغ سليمان بن حبيب أن ابن هبيرة استعمل نباتة على الأهواز ، فسرح داود بن حاتم بكربج دينار [٢] ليمنع نباتة من الأهواز . فقاتلة فقُتل داود . وهرب سليمان من الأهواز إلى نيسابور [٣] وفيها الأكراد وقد غلبوا عليها . فقاتلهم سليمان فطردهم عن نيسابور [٣] وكتب إلى ابن معاوية بالبيعة .

ثم إن محارب بن موسى اليشكرى نافر ابن معاوية وفارقه . وجمع جمعاً وأتى نيسابور [٣] . فقاتله يزيد بن معاوية ، فانهزم محارب . وأتى كرمان ، فأقام بها حتى قدم محمد بن الأشعث فصار معه . ثم نافره فقتله ابن الأشعث وأربعةً وعشرين ابناله .

ولم يزل عبد الله بن معاوية باصطخر حتى أتاه داود بن ضُبارة مع داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة . وسير ابن هبيرة أيضا مَعن ابن زائدة من وجه آخر . فقاتلهم معن عند مرو الشاذان ، ومعن يقول :

ليس أميرُ القوم بالخِبِّ الخُدَعْ

فر من الموت وفى الموت وقَع

وانهزم ابن معاوية فكف معن عنهم . وقُتل فى المعركة رجل من آل

(١) كذا فى الطبرى و ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ ، المقاتل ١٦٧ . و فى ك : و عبد الله بن عيسى ، خطأ .

(٢) كذا فى الطبرى ، ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . و فى ك : بكوح دينار ، تحريف .

(٣) كذا فى الأصول . و فى الطبرى و ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ : سابور ، و هى ألبق .

أبى لهب ، وكان يقال : يُقتَل [١] رجل من بنى هاشم بمرو الشاذان . وأسروا أسرى كثيرة ، وقتل ابن ضبارة منهم عدة كثيرة . وهرب منصور بن جمهور إلى السند ، وعبد الرحمن بن يزيد إلى عمان ، وعمرو بن سهيل [٢] بن عبد العزيز بن مروان إلى مصر. وبعث [٣] ببقية الأسرى [٤] إلى ابن هبيرة فأطلقهم .

ومضى ابن معاوية إلى خراسان [٥] . فسار معن بن زائدة يطلب منصور بن جمهور فلم يدركه ، فرجع . وكان مع ابن معاوية من الخوارج وغيرهم خلق كثير ، فأُسر منهم أربعون ألفا [٦] ، وكان ممن أُسر عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس فسبَّه [٧] ابن ضبارة وقال : « ما جاء بك إلى ابن معاوية وقد عرفت خلافَة أمير المؤمنين » فقال : « كان علىّ دين فأتيته [٨] » فشفع [٩] فيه حَرب بن قطن الهلالى [١٠] وقال : « هو ابن أختنا » فوهبه له . فعاب عبد الله بن على عبدَ الله بن معاوية ورمى أصحابه باللواط. فسيَّره ابن ضبارة إلى ابن هبيرة ليخبره أخبار ابن معاوية .

(١) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى ك : يقاتل ، ولا قيمة لها هنا .
(٢) الطبرى وابن الأثير ٤ : ٣٠٦ : عمرو بن سهل . المقاتل ١٦٧ : عمرو بن سهيل.
(٣) كذا فى الطبرى وابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى الأصل بياض مكان الكلمتين .
(٤) كذا فى الطبرى وابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى ك : الأمر ، تحريف .
(٥) وكذا فى ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى الطبرى : سجستان .
(٦) وكذا فى ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى الطبرى : ألف .
(٧) وكذا فى ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى الطبرى : فنسبه .
(٨) وكذا فى ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى الطبرى : فأديته ، وهى أوضح .
(٩) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ والطبرى . وفى ص : يشفع . وفى ك : ليشفع .
(١٠) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٣٠٦ . وفى ك : الهلال . وفى الطبرى : الكنانى .

وسار فى طلب عبد الله بن معاوية إلى شيراز فحصره بها . فخرج عبد الله منها هاربا ومعه أخواه الحسن ويزيد ابنا معاوية وجماعة من أصحابه . وسلك (١) المفازة على كرمان . وقصد خراسان طمعا فى أبى مسلم لأنه يدعو إلى الرضا من آل محمد ، وقد استولى على خراسان . فوصل إلى نواحى هَراة وعليها أبو نصر مالك بن الهيثم الخُزاعى . فأرسل إلى ابن معاوية يسأله عن قدومه ، فقال : « بلغنى أنكم تدعون إلى الرضا من آل محمد » فأرسل إليه مالك : « انتسب نعرفك » . فانتسب له فقال : « أما عبد الله وجعفر فمن أسماء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما معاوية فلا نعرفه فى أسمائهم » . فقال : « إن جدى كان عند معاوية بن أبى سفيان لما وُلد له أبى ، فطلب إليه أن يسمى ابنه باسمه ، ففعل ، فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم » . فأرسل إليه مالك : « لقد اشتريتم الاسم الخبيث بالثمن اليسير ، ولا نرى لك حقاً فيما تدعو إليه » (٢) . ثم أرسل إلى أبى مسلم يعرفه خبره . فأمره بالقبض عليه وعلى من معه ، فقبض عليهم وحُبسوا . ثم ورد عليه كتاب أبى مسلم يأمره بإطلاق الحسن ويزيد ابنى معاوية وقتل عبد الله بن معاوية . فأمر من وضع فراشا على وجهه . فمات وأُخرج فصُلى عليه ودُفن .

وكان عبد الله بن معاوية شاعرا مجيدا . فمن قوله :

ولا تَـــركَبَّن الصَّنيـــع الذى
تلـــوم أخـــاك على مثـــله (٢)

---

(١) ابن الأثير ٤ : ٣٠٧ : وملك .

(٢) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٣١١ ، وفى ك : يدعو إليه .

(٣) كذا فى ابن الأثير ٤ : ٢٨٥ ، المقاتل ١٦٣ ، وفى ك : على فعله ، خطأ لأنه قافية البيت التالى . وفى المقاتل : فلا .

ولا يُعجبنَّك قولُ امرئٍ

يخالف ما قال فى فعله

فهؤلاء الذين ظهروا من الطالبيين فى الدولة الأموية وقُتلوا . ثم ظهر فى الدولة العباسية من نذكرهم إن شاء الله تعالى ، والله أعلم بالصواب . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

مراجع التحقيق

١ - الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ١٩٥٩ م .

٢ - « « « : فتح العرب للمغرب ، ١٩٤٧م .

٣ - اليعقوبي : تاريخه ، دارا صادر وبيروت ١٩٦٠

٤ - ابن خلدون : تاريخه ، دار الكتاب اللبنانى .

٥ - الذهبي : دول الإسلام ، حيدر أباد ١٣٦٤هـ .

٦ - ابن عذاري المراكشي : البيان المُغرب فى أخبار المغرب ١٩٥٠ .

٧ - أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢٥ هـ .

٨ - الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ،دار المعارف بمصر .

٩ - أحمد بن خالد الناصري : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، دار الكتاب بالدار البيضاء .

١٠ - ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب مكتبة القدسى .

١١ - الكندى : ولاة مصر ، دار صادر وبيروت ١٩٥٩ .

١٢ ـ المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مطبعة السعادة ١٩٥٨ .

١٣ ـ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية.

١٤ ـ عبد الواحد المراكشي : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبع أوربا .

١٥ ـ عبد الله بن أبي عبد الله المالكي : رياض النفوس ، ١٩٥١ م

١٦ ـ ابن القوطية : تاريخ فتح الأندلس ، طبع لبنان.

١٧ ـ الطبري : تاريخه ، المطبعة الحسينية المصرية

١٨ ـ ابن كثير : البداية والنهاية : طبع مصر .

١٩ ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، طبع أوربا .

٢٠ ـ البلاذرى : فتوح البلدان ، طبع أوربا .

٢١ ـ المقرى : نفح الطيب ، طبع أوربا .

٢٢ ـ محمد بن عبد الحليم المعروف بابن أبي زرع : الأنيس المُطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ١٣٠٥هـ.

٢٣ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبع دمشق .

٢٤ ـ أمارى : المكتبة الصقلية ، طبع أوربا .

٢٥ ـ أبو الفرج : مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد صقر .

٢٦ ـ ابن أبي دينار : المؤنس فى تاريخ إفريقية والأندلس .

٢٧ ـ البكرى : المسالك والممالك (وصف إفريقية)

٢٨ ـ الإدريسى : نزهة المشتاق ، طبع أوربا .

فهرس موضوعات

الجزء الرابع والعشرون

مقدمة المحقق ١

الباب السادس من القسم الخامس
من الفن الخامس
فى أخبار إفريقية وبلاد المغرب
ومن وليها من العمال ومن استقل منهم بالملك
وسميت أيامهم بالدولة الفلانية

ذكر فتوح إفريقية ٧
ذكر ولاية معاوية بن حديج الكندى وفتح إفريقية ثانياً ١٨
ذكر ولاية عقبة بن نافع الفهرى وفتح إفريقية الفتح الثالث وبناء ...
القيروان ٢١
ذكر بناء مدينة القيروان ٢٢
ذكر ولاية مسلمة بن مخلد ٢٤
ذكر ولاية عقبة بن نافع ثانية ٢٥
ذكر خروج كسيلة وقتل عقبة بن نافع واستيلائه على القيروان ... ٣٠
ذكر ولاية زهير بن قيس البلوى وقتل كسيلة البربرى ٣٢
ذكر ولاية حسان بن النعمان الغسانى إفريقية ٣٤
ذكر فتح قرطاجنة وتخريبها ٣٥
ذكر حروب حسان والكاهنة وتخريب إفريقية وقتل الكاهنة ٣٥
ذكر ولاية موسى بن نصير إفريقية وماكان من حروبه وآثاره... ... ٣٩
ذكر فتح جزيرة الأندلس وشئ من أخبارها ٤٠

ذكر غزو جزيرة سردانية ٥٣
ذكر ولاية محمد بن يزيد مولى قريش ومقتل عبد العزيز بن موسى
ابن نصير ٥٤
ذكر ولاية اسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ٥٦
عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ٥٧
عبيدالله بن الحبحاب مولى بني سلول ٥٨
حنظلة بن صفوان الكلبي ٦٢
ذكر أخبار عبد الرحمن بن حبيب وتغلبه على إفريقية ورجوع
حنظلة إلى المشرق ٦٤
ذكر مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية أخيه إلياس بن حبيب وقتله
وولاية حبيب بن عبد الرحمن وقتله ٦٧
ذكر تغلب ورفجومة على إفريقية وما كان منهم ومن ولى بعدهم إلى
أن ولى محمد بن الأشعث ٧٢
ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعى ٧٣
ذكر ولاية الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى ٧٦
ذكر ولاية عمر بن حفص هزار مرد ٧٩
ذكر ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ٨٥
ذكر ولاية داود بن يزيد بن حاتم ٨٨
ذكر ولاية روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ٨٨
ذكر ولاية نصر بن حبيب المهلبي ٨٩
ذكر ولاية الفضل بن روح ٩٠
ذكر أخبار عبدالله بن الجارود ٩٢
ذكر ولاية هرثمة بن أعين ٩٥
ذكر ولاية محمد بن مقاتل بن حكيم العكى ٩٦
ذكر ابتداء دولة بني الأغلب ١٠٠
ذكر ولاية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى ... ١٠٠
ذكر ولاية أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ١٠٥

ذكر ولاية أبي محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ١٠٧
ذكر ولاية أبي عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ١١٧
ذكر ولاية أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ١١٨
ذكر ولاية أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ١٢٣
ذكر ولاية أبي محمد زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب١٢٥
ذكر ولاية أبي عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب المكنى بأبي الغرانيق ١٢٥
ذكر ولاية أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ١٢٧
ذكر انتقال إبراهيم إلى تونس ١٣٣
ذكر اعتزال إبراهيم الملك وزهده وغزوه ووفاته ١٣٥
ذكر ولاية أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ١٤٣
ذكر ولاية أبي مضر زيادة الله بن أبي العباس ١٤٥
ذكر انهزام زيادة الله إلى المشرق وانقراض دولة بني الأغلب ١٤٩
ذكر ما كان من أخبار زيادة الله وقتله عبدالله بن الصائغ ومسيره إلى بلاد المشرق ووفاته ١٥٠
ذكر أخبار من ملك المغرب بعد بني الأغلب إلى أن قامت دولة بني زيري بن مناد ١٥٤
ذكر ابتداء دولة بني زيري بن مناد ونسبهم ومبدأ أمرهم ومن ملك منهم إلى انقضاء دولتهم ١٥٦
ذكر أخبار زيري بن مناد ١٥٩
ذكر بناء مدينة أشير ١٦٠
ذكر الحرب بين زيري وزناته ١٦٣
ذكر مقتل زيري ١٦٥
ذكر أخبار أبي الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد ١٦٧
ذكر ولاية أبي الفتوح يوسف بلكين بلاد المغرب ١٦٩
ذكر ولاية عبد الله بن محمد الكاتب ١٧١

ذكر أخبار خلف بن خير ١٧٣
ذكر وفاة أبى الفتوح يوسف ١٧٦
ذكر ولاية أبى الفتح المنصور بن يوسف بلكين بن زيرى ١٧٧
ذكر مقتل عبدالله بن محمد وولده يوسف ١٨٠
ذكر أخبار أبى الفهم حسن بن نصرويه الخراسانى ١٨٢
ذكر وفاة المنصور أبى الفتح بن يوسف ١٨٤
ذكر ولاية أبى مناد باديس بن أبى الفتح المنصور بن يوسف ١٨٥
ذكر خروج محمد بن أبى العرب إلى زناته ١٨٦
ذكر خلاف حماد بن يوسف وأخيه إبراهيم على ابن أخيهما الأمير ...
باديس ١٩٢
ذكر وفاة باديس ١٩٧
ذكر ولاية أبى تميم المعز بن أبى مناد باديس بن المنصور بن يوسف ...
ابن زيرى ١٩٩
ذكر قتل الروافض ٢٠١
ذكر مسير المعز لحرب حماد ٢٠٤
ذكر الصلح بين المعز وحماد عم أبيه ٢٠٦
ذكر مقتل القائد محمد بن حسن ٢٠٧
ذكر خروج العرب إلى المغرب والسبب الموجب لذلك ٢٠٩
ذكر وفاة القائد بن حماد وولاية ابنه وقتله وولاية بلكين بن محمد ... ٢١١
بقية أخبار المعز بن باديس ٢١٢
ذكر الحرب بين المعز والعرب وانتصار العرب عليه ٢١٤
ذكر انتقال المعز إلى المهدية ومحاصرة العرب القيروان ... ...
واستيلائهم عليها ٢١٧
ذكر وفاة المعز بن باديس ٢١٨
ذكر ولاية تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن يوسف بن زيرى ...٢١٩
ذكر خروج حمو عن طاعة الأمير تميم وحربه وانهزامه ٢١٩

ذكر الحرب بين بنى حماد والعرب وانتصار العرب عليهم ٢٢٠
ذكر بناء مدينة بجاية والسبب فيه ٢٢٣
ذكر استيلاء تميم على مدينة تونس ٢٢٨
ذكر استيلاء مالك بن علوى الصخرى على القيروان وأخذها منه ،
وعودها إلى تميم ٢٢٩
ذكر ملك الروم مدينة زويلة وعودهم عنها ٢٢٩
ذكر خبر شاه ملك التركى ودخوله إلى إفريقية وغدره بيحيى بن تميم ٢٣٠
ذكر خلافة مثنى بن تميم على أبيه ٢٣٢
ذكر ملك تميم مدينة قابس ٢٣٣
ذكر وفاة تميم بن المعز ٢٣٥
ذكر ولاية يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور يوسف بن زيرى ٢٣٧
ذكر وفاة يحيى بن تميم وشىء من أخباره ٢٣٩
ذكر ولاية على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن
يوسف ابن زيرى ٢٤١
ذكر حصار رافع المهدية وانهزامه ٢٤٣
ذكر ولاية الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن
المنصور بن يوسف بن زيرى ٢٤٥
ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة... ... ... ٢٤٥
ذكر ملك الفرنج مدينة طرابلس... ... ... ٢٤٦
ذكر استيلاء الفرنج على مدينة المهدية وسفاقس وسوسة ٢٤٧
ذكر انقراض دولة بنى زيرى من إفريقية وماتفق للحسن بن على بعد
خروجه من المهدية ٢٥٠
ذكر ماتفق للحسن بن على بعد خروجه من المهدية ٢٥١
ذكر ابتداء دولة الملثمين وأخبارهم ومن ملك منهم ٢٥٣
ذكر ولاية أبى بكر بن عمر اللمتونى ٢٥٧
ذكر مقتل الجوهر الجدالى ٢٥٨

ذكر خروج الملثمين إلى السوس أولا وثانيا ومقتل عبد الله بن ياسين... ٢٥٩
ذكر استيلائه على مدينة سجلماسة ٢٦٠
ذكر ولاية يوسف بن تاشفين ٢٦٢
ذكر بناء مدينة مراكش ٢٦٢
ذكر ماقيل فى سبب لثام المرابطين ٢٦٣
نرجع إلى أخبار يوسف بن تاشفين ٢٦٥
ذكر استيلائه على مدينة اغرناطة من جزيرة الأندلس ٢٦٧
ذكر ملك أمير المسلمين جزيرة الأندلس ٢٦٩
ذكر حيلة لأمير المسلمين ظهرت ظهوراً عجيباً ٢٧١
ذكر ولاية أمير المسلمين من قبل الخليفة أمير المؤمنين المستظهر بالله ... ٢٧٢
ذكر ولاية على بن يوسف بن تاشفين ٢٧٣
ذكر محاربة الفرنج خذلهم الله تعالى وانهزامهم ٢٧٣
ذكر الفتنة بقرطبة ٢٧٤
ذكر ولاية تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ٢٧٦
اسحق بن على ٢٧٦
ذكر ابتداء دولة الموحدين وأخبارهم وسبب ظهورهم ٢٧٧
ذكر أخبار المهدى محمد بن تومرت ٢٧٧
ذكر خبر أبى عبدالله الونشريسى ٢٨٣
ذكر ترتيب أصحاب المهدى ٢٨٧
ذكر حصار مراكش ووقعة البحيرة ومقتل أبى عبد الله الونشريسى ... ٢٨٧
ذكر وفاة المهدى محمد بن تومرت ٢٨٩
ذكر ولاية عبد المؤمن بن على ٢٨٩
ذكر خروجه للغزو ومافتحه من البلاد ومن أطاعه من القبائل ٢٩٠
ذكر استيلاء عبد المؤمن على تلمسان وفاس ومكناسة وسلاوسبته ... ٢٩٤
ذكر ملك عبد المؤمن مراكش وقتله اسحق بن على وانقراض دولة الملثمين ٢٩٦

ذكر ظفره بدكالة ٢٩٩
ذكر ملكه جزيرة الأندلس ٣٠٠
ذكر حصار الفرنج مدينة قرطبة ورجوعهم عنها ٣٠١
ذكر ملكه مدينة بجاية وملك بنى حماد وانقراض دولتهم ٣٠٢
ذكر ظفره بصنهاجة وملكه قلعة حماد ٣٠٤
ذكر الحرب بين عبد المؤمن والعرب وظفر عساكر عبد المؤمن بهم ... ٣٠٥
ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية العهد بعد أبيه ٣٠٧
ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد وأعماله ٣٠٨
ذكر ملكه مدينة المرية من الفرنج وأغرناطة من الملثمين ٣٠٩
ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وجميع بلاد إفريقية ... ٣١٠
ذكر ايقاع عبد المؤمن بالعرب ٣١٥
ذكر وفاة عبد المؤمن بن على وشيء من أخباره ٣١٨
ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على ٣٢١
ذكر عصيان عمارة مع مفتاح بن عمرو وقتالهم وقتل مفتاح ٣٢٢
ذكر غزوة الفرنج ٣٢٤
ذكر ملك أبى يعقوب مدينة قفصة ٣٢٥
ذكر وفاة أبى يعقوب يوسف ٣٢٦
ذكر ولاية أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ...٣٢٨
ذكر أخبار الملثمين وما ملكوه من إفريقية واستعادة ذلك منهم ٣٢٨
ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين ٣٣١
ذكر غزوة الفرنج بالأندلس والوقعة الكبرى والثانية وحصر طليطلة ...٣٣٢
ذكر مافعله الملثم بافريقية ٣٣٦
ذكر وفاة أبى يوسف يعقوب ٣٣٨
ذكر ولاية أبى عبدالله محمد بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب
يوسف بن عبد المؤمن بن على الملقب الناصر لدين الله ٣٣٩
ذكر وفاة أبى عبدالله محمد وشئ من أخباره ٣٤٣

ذكر ولاية يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ٣٤٣
ذكر وفاة يوسف بن محمد ٣٤٥
ذكر ولاية أبى محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المؤمن ٣٤٥
جامع أخبار دولة الموحدين ٣٤٩
ذكر تسمية ملوك بنى مرين ٣٥١
ذكر أخبار جزيرة صقلية ٣٥٣
أول من غزا جزيرة صقلية فى الإسلام ٣٥٣
ذكر ولاية محمد بن أبى الحوارى ٣٥٧
ذكر فتح مدينة بلرم ٣٦٠
ذكر وفاة محمد بن عبد الله بن الأغلب ، وولاية العباس بن الفضل بن يعقوب ٣٦٠
ذكر فتح قصر يانة وهى دار مملكة الروم بجزيرة صقلية ٣٦١
ذكر ولاية حسن بن أحمد بن أبى خنزير ٣٦٦
ذكر ولاية أبى سعيد موسى بن أحمد ٣٦٧
ذكر مافتح من بلاد قلورية ٣٦٨
ذكر فتح قلعة طبرمين ٣٧٠
ذكر فتح رمطة وماكان بسبب ذلك من حروب ٣٧٠
ذكر وقعة الحفرة على رمطة ٣٧١
ذكر اخلاء طبرمين ورمطة ٣٧٤
ذكر ولاية أبى القاسم نيابة عن أخيه أحمد واستقلاله ٣٧٥
ذكر ولاية أبى الفتح يوسف الملقب بثقة الدولة ٣٧٦
ذكر وثوب أهل صقلية بالأمير جعفر واخراجه... ... ... ٣٧٧
ذكر ولاية الأمير تأييد الدولة أحمد الأكحل ٣٧٨
ذكر استيلاء الفرنج — خذلهم الله — على جزيرة صقلية ٣٨١
ذكر أخبار جزيرة اقريطش ٣٨٤
ذكر تنصر أهل اقريطش ٣٨٧
ذكر مااستولى عليه الفرنج — خذلهم الله من — البلاد الإسلامية بجزيرة الأندلس بعد أخذ طليطلة ٣٨٨

الباب السابع من القسم الخامس
من الفن الخامس
فى أخبار من نهض فى طلب الخلافة من الطالبيين
فى الدولة الأموية والدولة العباسية
فقتل دونها ، وذلك بعد مقتل الحسين بن على
ابن أبى طالب رضى الله عنهما

ذكر ظهور زيد بن على بن الحسن ومقتله ٤٠١
ذكر مسير يحيى بن زيد بن على إلى خراسان ومقتله ٤٠٨
ذكر ظهور عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ... ٤١٠
ذكر غلبته على فارس وأخذها منه وقتله ٤١٥
مراجع التحقيق ٤٢١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٣٩٩٨

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٩٧ ـ ٤

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء الرابع والعشرون

تحقيق

الدكتور حسين نصار

مراجعة

الدكتور عبد العزيز الأهواني

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى للثقافة

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مركز تحقيق التراث

القاهرة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء الخامس والعشرون

تحقيق

د. محمد جابر عبد العال الحسيني

مراجعة

الدكتور عبد العزيز الأهواني

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى للثقافة

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

« مركز تحقيق التراث »

القاهرة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

تقـــديم

هذا هو الجزء الخامس والعشرون من نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى ، يروعنا منه منهج المؤرخ النزيه ، عفّة فى اللفظ. وحيدة فى الحكم ودقة فى النقل ، تلاحظ. عفة اللفظ. بخاصة وأنت تقارن لفظه وهو يتحدث عن القرمطة بلفظ. غيره من المؤرخين الذين سبقوه دون استثناء ، هذا بالإضافة إلى أسلوب فى العرض فريد فى زمنه ، وإلى تضمّنه لنُقُول تبيّن عقائد وآراء عبثت بها الأساطير ، نقلها عن الشريف محمد بن على العلوى المعروف بأخى محسن ، وهو مؤرخ ضاعت – أو بتعبير أدق – لم يصلنا من كتبه إلا شىء يسير .

وهذا الجزء أيضا ثمرة لثلاث مخطوطات محفوظة بدار الكتب المصرية برقمى ٥٤٩ ، ٥٥١ معارف عامة ورقم ٦٩٩ تاريخ (الخزانة التيمورية) ، ولقد رمزت للأولى بحرف ك وللثانية بحرف ا وللثالثة بحرف ت . أما المخطوطة ت فلولا ما فيها من سقط. فى مواضع مختلفة لكانت فائدتها محققة ، أما المخطوطتان ك ، ا فقد سبق لى أن تحدثت عنهما وأنا أقدم الجزء الثانى والعشرين ، ويزيدنى هذا الجزء اقتناعاً بأن المخطوطة ا يتميز ناسخها بالدقة والأمانة فى النقل ، هذه الدقة

فى النقل ورسم الحروف ثمرة عناية ناسخ يعمل للسلطان ، ترى ذلك واضحاً – على غلاف النصف الأول من هذا الجزء – بالقول

قد وقف هذه النسخة الجليلة سلطاننا الأعظم والخاقان المعظم مالك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان ابن السلطان السلطان محمود ، وقفاً شرعياً لمن طالع وتبصّر واعتبر وتذكّر أجزل الله تعالى لواءه وأوفره ، حرره الفقير أحمد شيخ زادة المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين غفر لهما .

ومما هو جدير بالذكر ، أنّه رغم هذا الوقف فقد تداولتها أيدٍ بيعاً وشراء ، كما يتبين ذلك مما على غلافها ، ومهما يكن من أمر هذا التداول فإنّه لم يؤثّر على المخطوطة تأثيراً يفسدها ، وكلّ ما طرأ هو رغبة فى تجليد ترتّب عليها تأثير المادة الملصقة على الصفحة الأولى ، فذهبت أنصاف سطورها ، وهو شيء يمكن تداركه بيسر .

وأخيرا أرجو أن أكون قد أديت واجبى ، والله ولى التوفيق

القاهرة فى مايو سنة ١٩٦٢ م

د . محمد جابر الحينى

الباب السابع

فى أخبار من نهض فى طلب الخلافة من الطالبيين فى مدة الدولتين الأموية والعباسية

محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب وأخوه ابراهيم

ونحن نذكر سبب ظهورهما وما كان من أمرهما وما اتفق لأولاد الحسن رضى الله عنه بسبب ذلك ، ثم نذكر ظهور محمد وما اتفق له إلى أن قتل ، وظهور إبراهيم بعده ، وما كان من خبره وحروبه ومقتله ، وما يتصل بذلك فنقول :

كان سبب ظهورهما أنّ محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن[1] ابن على هذا ، كان يدّعى أنّ أبا جعفر المنصور كان ممّن بايعه ، لمّا تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة ، عند اضطراب[2] أمر مروان بن محمد الحمار ، فلما قامت الدولة العباسية وبويع السفاح ، واتفق حج المنصور فى سنة ست وثلاثين ومائة سأل عنهما ، فقال له زياد بن عبيد الله الحارثى : ما يهمك من أمرهما ؟ أنا آتيك بهما ،

---

(١) ق ك : الحسين وهو خطأ من الناسخ .

(٢) هذا الشطر من الجزء فى ا هو الصفحة الأولى ، ومن الملاحظ أن الجانب الأيمن من هذه الصفحة أزال الأجزاء الأولى للسطور مادة التجليد ، وعلى ذلك فان هذه الصفحة فى ا لاتصلح مرجعاً .

وكان معه بمكة ، فردّه المنصور إلى المدينة ، فلما استخلف المنصور لم يكن همّه إلا أمر محمد ، والمسألة عنه وما يريد ، فدعا بنى هاشم رجلاً رجلاً يسأل كل واحد سرًا عنه ، فكلّهم يقول قد علم أنّك عرفته بطلب هذا الأمر ، فهو يخافك على نفسه ، وهو لا يريد لك خلافاً ، وما أشبه هذا الكلام ، إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب [1] فإنّه أخبره خبره ، وقال : والله ما آمن وثوبه عليك ، فإنّه لا ينام عنك ، فأيقظ بكلامه [2] مَنْ لم ينم عنه ، وزاده ذلك حرصاً على طلبه ، وشدةً فى طلبه ، وكان موسى بن عبد الله بن حسن يقول بعد ذلك : اللهم اطلب حسن بن زيد [3] بدمائنا .

ثم ألحّ المنصور على عبد الله بن حسن فى إحضار ابنه محمد سنة حج ، فقال عبد الله لسليمان بن على بن عبد الله بن عبّاس : يا أخى بيننا من الصهر [4] والرحم ما تعلم ، فما ترى ؟ فقال سليمان : والله لكأنّى أنظر إلى أخى عبد الله بن على حين حال الستر [5] بيننا وبينه ، وهو يشير إلينا ، إن هذا الذى فعلتم بى ، فلو كان المنصور عافياً عن أحد عفا عن عمّه ، يشير إلى خبر المنصور لما حبس عمه عبد الله بن على ،

---

(١) تذكرة ك : الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو خطأ نسخ .

(٢) فى هذه الصفحة الثالثة من أ تمزيق أضاع بعض كلماتها .

(٣) فى ك : حسن بن يزيد .

(٤) فى ك : الصبر ، والتصويب عن ا ، ت والكامل حـ ٥ ص ٣٩١ (ط. أوروبا) ويلاحظ أن التلخيص مأخوذ عن ابن الأثير فى الكامل (راجع حـ ٥ ص ٣٩١) .

(٥) فى الكامل حـ ٥ ص ٣٩١ : الميتة وموضوعها ممزقة فى ا ومقاتل الطالبيين ص ٢١٠ : حين أحال أبو جعفر الستر بيننا وبينه .

فقبل عبد الله بن حسن رأى [١] سليمان ، وعلم أنه قد صدقه ولم يظهر ابنه .

ثم شرع المنصور فى إعمال الفكرة ، والتوصل إلى أن يطّلع على حقيقة خبر محمد بن عبد الله ، وجعل عليه العيون والمراصد ، وتوصل بكل طريق[٢] ، حتى إنه اشترى رقيقاً من رقيق الأعراب ، وأعطى الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، والرجل الزود[٣] ، وفرّقهم فى طلب محمد فى ظهر المدينة ، فكان الرجل منهم يرد الماء كالمارّ وكالضالّ فيسألون عنه ؛ وبعث المنصور عيناً وكتب معه كتاباً على ألسن الشيعة إلى محمد ، يذكرون طاعتهم ومسارعتهم ، وبعث معه بمال وألطاف ، فقدم الرجل المدينة فدخل على عبد الله[٤] بن حسن ، [و] سأله عن ابنه محمد فكتم خبره ، فتردّد إليه الرجل وألحّ فى المسألة فذكر له أنه فى جبل جهينة ، وقال له : أمرر بعلى بن حسن ، الرجل الصالح الذى يدعى الأغرّ ، وهو بذى الإبر ، فهو يرشدك إليه ، فأتاه فأرشده ، وكان للمنصور كاتبٌ على سرّه يتشيع ، فكتب إلى عبد الله بن حسن يخبره بخبر ذلك العين ، فلما قدم الكتاب ارتاع له ، وبعث إلى محمد ابنه وإلى على بن حسن يحذرهما الرجل ، وأرسل بذلك أبا هَبَّار ، فخرج أبو هَبَّار فنزل بعلى بن حسن وأخبره ، ثم سار إلى محمد بن عبد الله فى

---

(١) فى ك ، ت : بن والتصويب عن أ ، الكامل حـ ٥ ص ٣٩١ .

(٢) فى ك : رقيق والتصويب عن أ ، ت .

(٣) الذود : ثلاثة أبعرة إلى التسعة وقيل إلى العشرة وقيل غير ذلك ، ولا يكون إلا من الإناث ، وهو واحد وجمع كالفلك (أقرب الموارد) .

(٤) فى ك : على بن حسن وهو خطأ ويؤيد أ ، ت الكامل حـ ٥ ص ٣٩١ .

موضعه الذى هو به ، فإذا هو جالس فى كهف ومعه جماعة من أصحابه ، وذلك العين معهم أعلاهم صوتاً وأشدّهم انبساطاً ، فلما رأى أبا هَبَّار خافه ، فقال أبو هبار لمحمد : إنّ لى حاجة ، فقام معه فأخبره الخبر ، قال : فما الرأى ؟ قال : أرى إحدى ثلاث ، قال : وما هى ؟ قال : تدعنى أقتل هذا الرجل ، قال : ما أنا بمقارف دماً إلا مكرهاً ، قال : أثقِلْه حديدًا ، وتنقله معك حيث تنقّلْت ، قال : وهل بنا فراغ مع الخوف والإعجال [1] ؟ قال : تشدّه وتودعه عند بعض أهلك من جهينة قال : هذه إذنْ ، فرجعا فلم يريا الرجل ، فقال محمد : أين الرجل ؟ قالوا : قام بركوة فيها ماء وتوارى ، فطلبوه فلم يجدوه فكأنّ الأرض التأمت عليه ، وسعى على قدميه حتى اتصل بالطريق ، فمرّ به أعرابى معه حمولة إلى المدينة ، فقال له : فرّغ هذه الغرارة وأدخلنيها أكن عِدْلاً لصاحبتها ، ولك كذا وكذا ففعل ، وحمله حتى أقدمه المدينة ، ثم قدم على المنصور فأخبره الخبر كلّه ، ونسى اسم أبى هَبَّار وكنيته ، فقال : وبر [2] ، فكتب أبو جعفر فى طلب وبر المرّى ، فحُمل إليه فسأله عن قصة محمد ، فحلف أنّه لا يعرف من ذلك شيئاً ، فأمر به فضرب سبعمائة سوط ، وحبس حتى مات المنصور .

ثم أحضر المنصور عُقْبة بن سَلْم الأَزْدِى ، فقال له : إنى أريدك لأمر أنا به مَعْنِىٌّ ، لم أزل أرتاد له رجلاً عسى أن تكونه ، وإن كفيتنيه

(١) العبارة فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٢ : وهل لنا فرار مع الخوف والإعجال ، وعبارة المخطوطات أصح لاتفاقها مع السياق ، هذا والمرجح أن عبارة الكمل هذه فيها تحريف تصوبه عبارة النويرى هذه لأنه ينقل عن الكامل .

(٢) فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٢ : وبار ويؤيد المخطوطات الطبرى : حـ١١ ص١٥٨ (ط أوروبا) .

رفعتُك ؟ فقال : أرجو أن أصدق ظنّ أمير المؤمنين فيّ ، قال : فاخف شخصك واستر أمرك ، وأتِني يوم كذا وكذا فى وقت كذا ، فأتاه فى ذلك الوقت ، فقال له : إنّ بنى عمّنا قد أبوا إلا كيداً لملكنا واغتيالاً له ، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا ، يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف من ألطاف بلادهم ، فاخرج بكتبي وبمال وألطاف ، حتى تأتيهم متنكراً بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية ، ثم تعلم حالهم فإن كانوا نزعوا (١) عن رأيهم فأحْبِبْ والله بهم وأقْربْ ، وإن كانوا على رأيهم علمتُ ذلك وكنتُ على حذر ، فاشخصْ حتى تلقى عبد الله ابن حسن متخشعاً متقشفاً ، فإن جبهك – وهو فاعل – فاصبر وعَاوِدْه (٢) ، حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته ، فإذا ظهر لك ما قِبَله فعَجِلْ إليّ ؛ فشخص عقبة حتى قدم على عبد الله بن حسن ، فلقيه بالكتاب فأنكره ونهره ، وقال : ما أعرف هؤلاء القوم ، فلم يزل يتردد إليه حتى قبل كتابه وألطافه وأنس به ، فسأله عقبه الجواب فقال : أمّا الكتاب فإنّى لا أكتب إلى أحد ، ولكن أنت كتابى إليهم ، فأقرهم السلام وأعلمهم أنّ ابنىّ خارجان لوقت كذا وكذا ، فرجع عقبة إلى المنصور وأعلمه الخبر ، فأنشأ المنصور الحجّ ، وقال لعقبة : إذا لقيني بنو حسن فيهم عبد الله بن حسن ، فأنا مكرمه ورافع مجلسه وداعٍ بالغذاء ، فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتُك فامثلْ بين يديه قائما ، فإنه سيصرف بصره عنك ، فاستدِرْ حتى تغمز ظهره بإبهام رجلك ، حتى يملأ عينه منك ثم حسبك ، وإياك أن يراك ما دام يأكل ؛ وخرج

(١) ساقطة من ك .
(٢) فى ك : وغادره ، وهو خطأ كما يدل على ذلك قوله بعد ذلك : فلم يزل يتردد إليه .

المنصور إلى الحج ، فلما لقيه بنو حسن أجلس عبد الله إلى جانبه ، ثم دعا بالغداء فأصابوا منه ثم رفع ، فأقبل المنصور على عبد الله بن حسن فقال له : قد علمتَ ما أعطيتنى من العهود والمواثيق ألا تبغينى سوءًا ، ولا تكيد لى سلطاناً ، قال : فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين ، فلحظ المنصورُ عُقْبَةَ بن سَلْم ، فاستدار حتى وقف بين يدى عبد الله ، فأعرض عنه ، فاستدار حتى قام وراء ظهره فغمزه بأصبعه ، فرفع رأسه فملأ عينه منه ، فوثب حتى قعد بين يدى المنصور ، وقال : أقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله ، قال : لا أقالنى الله إن أقلتك ، ثم أمر بحبسه .

وكان محمد قد قدم قبل ذلك البصرة فنزلها فى بنى راسب ، يدعو إلى نفسه ، وقيل نزل على عبد الله بن شيبان - أحد بنى مُرَّة بن عُبَيْد ، ثم خرج منها ، فبلغ المنصور مقدمه البصرة ، فسار إليها مجدا[1] . فلقيه عمرو بن عُبَيْد[2] ، فقال له : يا أبا عثمان ، هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا ، قال : لا ، قال : فأقتصرُ على قولك وأنصرف ؟ قال : نعم ، وكان محمد قد سار عنها قبل مقدم المنصور ، فرجع المنصور واشتد الخوف على محمد وإبراهيم ابنى عبد الله ، فخرجا حتى أتيا عَدَن ، ثم صارا إلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة .

وكان المنصور حجّ سنة أربعين ومائة ، فقسم أموالاً عظيمة فى آل أبى طالب ، فلم يظهر محمد وإبراهيم ، فسأل أباهما عبد الله عنهما فقال : لا علم لى بهما ، فتغالظا فأمَصَّه المنصور ، فقال امصص كذا وكذا

(١) هذه العبارة بين الفصلتين ساقطة من ك .

(٢) فى ك : عمرو بن عبدالله ، وفى الكامل حـ٥ ص٣٩٣ : عمر بن عبيد والتصويب عن ا ، ت والطبرى حـ١١ ص ١٤٩ .

من أمك ! ! فقال عبد الله : يا أبا جعفر بأى أمهاتى غضّنى ! ! أبفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! أم بفاطمة بنت الحسين بن على ؟ ! أم بأم إسحاق بنت طلحة ؟ ! أم بخديجة بنت خُوَيلِد ؟ ! قال لا بواحدة منهن ، ولكن بالجرباء بنت قَسَامَة بن زهير ، وهى امرأة من طيء[1] ، فقال المُسَيّب بن زُهَير[2] : يا أمير المؤمنين دعنى أضرب عنق ابن الفاعلة ، فقام زياد بن عبيد الله فألقى عليه رداءه ، وقال : هَبْه لى يا أمير المؤمنين ، فأنا أستخرج لك ابنيه ، فخلّصه .

وكان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله قد تغيّبا حين حجّ المنصور سنة أربعين ومائة عن المدينة ، وحجّا أيضاً ، فاجتمعوا كلهم بمكة وأرادوا اغتيال المنصور ، فقال لهم الأشتر عبد الله بن محمد : أنا أكفيكموه ، فقال محمد : لا والله لا أقتله عيلة أبداً حتى أدعوه ، فنقض[3] ما كانوا أجمعوا عليه ، وكان قد دخل معهم قائد من قواد المنصور من أهل خراسان — اسمه خالد بن حسّان يدعى أبا العساكر — على ألف رجل ، فنمى الخبر إلى المنصور فطُلِب القائد فلم يظفر به ، وظفر بأصحابه فقتلهم ، وأما القائد فإنه لحق بمحمد بن عبد الله فسيّره إلى خراسان ، ومعه ابنه عبد الله بن محمد ، ثم إن المنصور حثّ زياد بن عبيد الله على طلب محمد وإبراهيم ، فضمن له ذلك ووعده به ، فقدم محمد بن عبد الله المدينة قدمة ، فبلغ ذلك زياداً فتلطّف له وأعطاه الأمان ، على أن يظهر وجهه للناس ، فوعده محمد ذلك ، فركب

(١) فى ك : طاى ويؤيد ا ، ت الكامل حـ ٥ ص ٣٩٤
(٢) فى ك : زهر ويؤيد ا ، ت الكامل حـ ٥ ص ٣٩٤
(٣) فى ك : فينقض .

زياد مغلساً ووعد محمداً سوق الظهر ، وركب محمد فتصايح الناس : يا أهل المدينة ، المهدىّ المهدىّ ، فوقف هو وزياد فقال زياد : يا أيها الناس هذا محمد بن عبد الله بن حسن ، ثم قال : إلحق بأى بلاد الله شئت ، فتوارى محمد ؛ وسمع المنصور الخبر فأرسل أبا الأزهر فى جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين ومائة إلى المدينة ، وأمره : أن يستعمل على المدينة عبد العزيز بن المطّلب ، وأن يقبض زياداً وأصحابه ويسير بهم إليه ، فقدم أبو الأزهر المدينة ففعل ما أمره ، وأخذ زياداً وأصحابه وسار بهم نحو المنصور ، وخلّف زياد ببيت مال المدينة ثمانين ألف دينار ، فسجنهم المنصور ثم مَنّ عليهم بعد ذلك .

واستعمل المنصور على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القَسْرى ، وأمره بطلب محمد بن عبد الله وبسط يده بالنفقة فى طلبه ، فقدم المدينة فى شهر رجب سنة إحدى وأربعين ومائة ، فأخذ المال ، ورفع فى محاسبته أموالاً كثيرة أنفقها فى طلب محمد ، فاستبطأه المنصور وأتهمه ، فكتب إليه يأمره بكشف المدينة وأعراضها ، فطاف ببيوت الناس فلم يجد محمداً ، فلما رأى المنصور ما قد أخرج من الأموال ولم يظفر بمحمد استشار أبا السِمْلاء (١) — رجلاً من قيس عيلان — فى أمر محمد وأخيه ، فقال : أرى أن تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة فإنهم يطلبونهما بِذَحْل (٢) ، ويخرجونهما إليك ، فقال : قاتلك الله ، ما

(١) فى الكامل حـ ٥ ص ٣٩ : أبا العلاء ، ويؤيد الطبرى المخطوطات راجع حـ ١١ ص ٦٢ . هذا والسملاء بكسر السين : الغول أو ساحرة الجن (راجع تاج العروس والقاموس المحيط مادة سمل) .

(٢) الذحل : الثأر أو طلب المكافأة بجناية جنيت أو عداوة أتيت أو هو العداوة والحقد

أجود ما رأيت ! ! والله ما خفى علىّ هذا ، ولكنّى أعاهد الله ألّا أنتقم من بنى عمى وأهل بيتى بعدوّى وعدوّهم ، ولكنّى أبعث عليهم صعيليكاً من العرب يفعل بهم ما قلت ، فاستشار يَزيد بن أُسَيْد (١) السُّلَمِى ، وقال له : دلّنى على فتى مقلّ من قيس أغنيه وأشرّفه ، وأمكّنه من سيد اليمن – يعنى ابن القسرى – (٢) ، قال : نعم ، رِيَاح بن عثمانِ بن حَيَّان المُرِىّ ، فسيّره المنصور أميرًا على المدينة فى شهر رمضان سنة أربع وأربعين ومائة ؛ وقيل إنّ رياحاً ضمن للمنصور أن يُخرج محمدًا وإبراهيم ابنى عبد الله ، إنْ استعمله على المدينة ، فاستعمله عليها ، فسار حتى دخلها ، فلما دخل دار مروان – وهى التى كان ينزلها الأمراء قال لحاجب كان له ، يقال له أبو البَخْترى ، هذه دار مروان ؟ قال : نعم ، قال أما إنّها مِحْلال (٣) مِظْعان ، ونحن أول من يظعن منها ، فلما تفرّق الناس عنه قال لحاجبه أبى البخترى : خذ بيدى فدخل على هذا الشيخ – يعنى عبد الله بن الحسن – فدخلا عليه ، فقال له رياح : أيها الشيخ ، إن أمير المؤمنين – والله – ما استعملنى لرحم قريبة ، ولا ليدٍ سلفت إليه منّى ، والله لا لَعِبْتَ بى كما لعبْتَ بزياد وابن القسرى ، والله لأزهقنّ نفسك أو لتأتينّى بابنيك محمد وإبراهيم ، فرفع عبد الله رأسه إليه وقال نعم ، أما والله إنّك لأُزَيْرِق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة ، قال ، أبو البَخْتَرِى :

(١) فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٥ : يزيد بن يزيد السلمى ويؤيد الطبرى (حـ١١ ص ١٦٢) المخطوطات .

(٢) فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٥ : القشيرى وهو خطأ واضح

(٣) فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٦ : فحلال ، وعند الطبرى حـ١١ ج ص ١٦٣ : والله إنها لمحلال مظعان .

فانصرف - والله - رياح آخذاً بيدى أجد برديده ، وإنّ رجليه لتخطّان الأرض ممّا كلمه ، قال : [1] فقلت له : إن هذا ما اطّلع على الغيب ، قال : إيهاً ويلك ، فوالله ما قال إلا ما سمع ، فذبح كما تذبح الشاة ، ثم إنه دعا القسرى وسأله عن الأموال ، فضربه وسجنه ، وجدّ رياح فى طلب محمد ، فأخبر أنّه فى شعب من شعاب رضوى ، جبل جهينة ، وهو فى عمل ينبع ، فأمر عامله بطلب محمد . فطلبه بالخيل والرجل ، ففزع منه محمد فهرب راجلاً فأفلت ، وله ابن صغير وُلد فى خوفه ذلك ، وهو مع جارية له . فسقط من الجبل فتقطع ، فقال محمد :

مُنْخَرِق السربال [2] يشكو الوَجَى تنكبه أطراف مَرْو حِداد
شرّده الخوف فأزرى به كذاك من يكره حرّ الجلاد
قد كان فى الموت له راحةٌ والموتُ حتمٌ فى رقاب العباد

قال[1] : وبينا رياح يسير بالحرّة إذ لقى محمداً ، فعدل محمد إلى بئر هناك فجعل يستقى ، فقال رياح : قاتله الله أعرابياً ما أحسن ذراعه[3] .

---

(١) الإشارة إلى النقل عن الكامل لابن الأثير .
(٢) فى مقاتل الطالبيين ص ٢٣١ : منخرق الخفين.
(٣) فى ك ، ت : ذراعية ويؤيد الكامل حـ٥ ص ٣٩٧ والطبرى حـ١١ ص ١٦٨

ذكر حبس أولاد الحسن

قد ذكرنا أن المنصور حبس عبد الله بن حسن ، وقيل إن رياحاً هو الذى حبسهم ، حُكى عن على بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على أنه قال : حضرنا باب رياح فى المقصورة ، فقال الآذن : مَنْ كان ههنا من بنى حسن [١] فليدخلا ، فدخلوا من باب المقصورة ، وخرجوا من باب مروان ، ثم قال : مَنْ كان ههنا من بنى حسن فليدخل ، فدخلوا من باب المقصورة ، ودخل الحدادون من باب [٢] مروان ، فدعا بالقيود فقيدهم وحبسهم ، وكانوا : عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على ، وحسن وإبراهيم ابنى حسن ، وحسن بن جعفر بن حسن ابن حسن [٣] ، وسليمان وعبد الله ابنى داود بن حسن بن حسن ، ومحمد وإسماعيل وإسحاق بنى إبراهيم بن حسن بن حسن ، وعباس ابن حسن بن حسن [٤] ، فلما حبسهم لم يكن فيهم على بن حسن بن حسن بن على العابد ، فلما كان الغد بعد الصبح وإذا برجل قد أقبل متلففاً ، فقال له رياح : مرحباً بك ما حاجتك ؟ قال : جئتك لتحبسنى مع قومى ، فإذا هو على بن حسن بن حسن ، فحبسه معهم .

وكان محمد قد أرسل ابنه علياً إلى مصر يدعو إليه ، فبلغ خبره

---

(١) فى ك : بنى خير وهو خطأ واضح ويؤيد ا ، ت الكامل حـ٥ ص ٣٩٧

(٢) فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٧ : بنى مروان وهو خطأ ويؤيد المخطوطات الطبرى : حـ١١ ص ١٧١

(٣) فى المخطوطات والكامل حـ٥ ص ٣٩٧ : جعفر بن حسن بن حسن والتصويب عن الطبرى حـ١١ ص ١٦٩ والمسعودى فى مروج الذهب (طبعة بولاق) حـ٢ ص ١٨٩

(٤) فى المخطوطات : موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن والتصويب عن الكامل حـ ٥ ص ٣٩٧ والطبرى حـ١١ ص ١٦٩

عامل مصر ، وقيل له إنّه على الوثوب بك ، والقيام عليك بمن شايعه ، فقبضه وأرسله إلى المنصور ، فاعترف له وسمّى أصحاب أبيه ، وكان فيمن سمّى عبد الرحمن بن أبي الموال[1] وأبو جبير[2] ، فضربهما المنصور وحبسهما وحبس علياً ، فبقى محبوساً إلى أن مات ؛ وكتب المنصور إلى رياح أن يحبس معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان المعروف بالديباج ، وكان أخا عبد الله بن حسن بن حسن لأمه – أمهما جميعاً فاطمة بنت الحسين بن على رضى الله عنهما ؛ فأخذه معهم ، وقيل إن المنصور حبس عبد الله بن حسن بن حسن بن على وحده وترك باقى أولاد حسن ، فترك حسن بن حسن بن حسن خضابه حتى نصّل حزناً على أخيه عبد الله ، فكان المنصور يقول : ما فعلت الحادّة ؟ ومرّ حسن بن حسن بن حسن على إبراهيم بن حسن وهو يعلف إبلاً فقال : أتعلف إبلك وعبد الله محبوس ! ! يا غلام – أطلق عُقُلَها ففعل ، ثم صاح في أدبارها فلم يوجد منها بعير ، فلما طال حبس عبد الله بن حسن قال عبد العزيز بن سعيد للمنصور : أتطمع في خروج محمد وإبراهيم وبنو حسن مخلّون ؟ ! والله للواحد منهم أهيب فى صدور الناس من الأسد ، فكان ذلك سبب حبس الباقين فى سنة أربع وأربعين[3] .

---

(١) فى الكامل حـ٥ ص٣٩٧ : عبد الرحمن بن أبي الوالى ، وفى مقاتل الطالبيين ص٢٩٥ : ابن أبي الموالى ، ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١١ ص ١٧١

(٢) هكذا فى المخطوطات والكامل ٥ ص٣٩٧ وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص١٧١ : أبو حنين ومن الواضح أن النويرى ينقل عن ابن الأثير فى الكامل ، ومن العسير الوصول إلى القطع أيهما أدق لعدم شهرة صاحب الاسم .

(٣) يعنى : ومائة

ذكر حملهم الى العراق

[قال المؤرخ[١] : ولما حجّ المنصور فى سنة أربع وأربعين ومائة أرسل محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة[٢] ومالك بن أنس إلى بنى الحسن وهم فى الحبس ، يسألهم[٣] أن يدفعوا إليه محمداً وإبراهيم ابنى عبد الله ، فدخلا عليهم وعبد الله قائم يصلى فأبلغاهم الرسالة ، فقال حسن بن حسن أخو عبد الله : هذا عمل ابنى المشئومة ! ! أما والله ما هذا عن رأينا ولا عن ملأ منّا ولا لنا فيه حيلة[٤] فقال له أخوه إبراهيم : علام تؤذى أخاك فى ابنيه ؟ ! وتؤذى ابن أخيك فى أمه ؟ ! ثم فرغ عبد الله من صلاته فأبلغاه الرسالة ، فقال : والله ، لا أرد عليكما حرفاً ، إن أحبّ أن يأذن لى فألقاه فليفعل ، فانطلق الرسولان إلى المنصور فأبلغاه قوله ، فقال : أراد أن يسحرنى لا والله لا ترى عينه عينى حتى[٥] يأتينى بابنيه ، وكان عبد الله بن حسن لا يحدّث أحداً قط إلا قتله[٦] عن رأيه .

ثم سار المنصور لوجهه ، فلما حجّ ورجع لم يدخل المدينة ومضى إلى

---

(١) يشير إلى الطبرى محمد بن جرير ، وينبغى أن تشير إلى ذكره هنا لا يغنى أن النويرى ينقل عنه ، وإنما النقل عن ابن الأثير فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٨ ، ومن المعروف أن ابن الأثير ينقل عن الطبرى ويشير إليه صراحة أحيانا .

(٢) فى المخطوطات : محمد بن عمران بن إبراهيم بن طلحة بن محمد والتصويب عن الكامل حـ٥ ص ٣٩٨ والطبرى حـ١١ ص١٧٢

(٣) فى ك ، ت : فسألهم ويؤيد الكامل حـ٥ ص ٣٩٨

(٤) فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٨ : حكم ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١١ ص ١٧٣

(٥) يؤيد الكامل حـ٥ ص ٣٩٨ ، وفى ك: متى ، وفى ت : فتى وكلاهما خطأ .

(٦) فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٨ : قبله وهو خطأ .

الربذة ، فخرج إليه رياح إلى الربذة فردّه إلى المدينة ، وأمره بإشخاص بنى حسن إليه ، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أخو بنى حسن لأمهم ، فرجع رياح وأخذهم وساربهم إلى الربذة ، وجعلت القيود فى أرجلهم وأعناقهم ، وجعلهم فى محامل بغير وطاء ، ولما خرج بهم رياح من المدينة وقف جعفر بن محمد من خلف ستر يراهم ولا يرونه ، وهو يبكى ودموعة تجرى على لحيته وهو يدعو الله ، ثم قال : والله ، ألا تحفظ لله حرمة بعد هؤلاء ، ولما ساروا كان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله يأتيان كهيئة الأعراب ، فيسايران أباهما ويستأذنانه فى الخروج ، فيقول : لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك وقال لهما إنْ منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين ، فلا يمنعكما أن تموتا كريمين ، فلما وصلوا إلى الربذة أدخل محمد بن عبد الله العثمانى على المنصور ، وعليه قميص وإزار رقيق ، فلما وقف بين يديه قال : إيها ياديوث ، قال محمد : سبحان الله ! ! والله لقد عرفتنى بغير ذلك صغيراً وكبيراً ، قال : فمِمَّنْ حملت ابنتك رقيّة ؟ وكانت تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وقد أعطيتنى الأيمان ألّا تغشنى ، ولا تمالىء علىّ عدوا ، وأنت ترى ابنتك حاملاً وزوجها غائب !! فأنت بين أن تكون حانثاً أو ديوثاً ، وأيم الله إنى لأهمّ برجمها ، قال محمد : أما أيمانى فهى علىّ ؛ إنْ كنت دخلت لك فى أمر غش علمتُه ، وأما ما رميتَ به هذه الجارية فإنّ الله قد أكرمها بولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم إيّاها ، ولكنى ظننتُ حين ظهر حملها أنّ زوجها ألمّ بها على حين

غفلة منّا ، فاغتاظ.[١] المنصور من كلامه ، وأمر بشقّ ثيابه[٢] وإزاره[٢] فبدت عورته ، ثم أمر به فضرب خمسين ومائة سوط. ، فبلغت منه كل مبلغ والمنصور يفترى عليه لا يكنّى[٣] ، فأصاب سوط. منها وجهه ، فقال : ويحك ! ! اكفف عن وجهى ، فإنّ له حرمة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأغرى المنصور فقال للجلاد : الرأس الرأس ، فضرب على رأسه نحواً من ثلاثين سوطاً ، وأصاب إحدى عينيه سوط. فسالت ، ثم أخرج وكأنه زنجى من الضرب ، وكان من أحسن الناس ، وكان يكنى الديباج لحسنه ، فلما أخرج وثب إليه مولى له فقال : ألا أطرح ردائى عليك ، قال : بلى جزيت خيراً ، والله لشقّ إزارى أشدّ علىّ من الضرب . وكان سبب أخذه أنّ رياحا قال للمنصور : يا أمير المؤمنين ، أمّا أهل خراسان فشيعتك ، وأمّا أهل العراق فشيعة آل أبى طالب ، وأما أهل الشام فو الله ما عَلِىٌّ عندهم إلا كافر ، ولكن محمد بن عبد الله العثمانى لو دعا أهل الشام ما تخلّف عنه منهم أحد ، فوقعت فى نفس المنصور فأمر به فأخذ معهم ، وكان حسن الرأى فيه قبل ذلك .

ثم إنّ أبا عون كتب إلى المنصور أنّ أهل خراسان قد تقاعسوا[٤]

---

(١) فى جميع المخطوطات فاغتاض ، وفى بعض البلاد العربية ينطقون الضاد ظاء ؛ وهذا أصل موروث

(٢) فى تاريخ الطبرى حـ١١ ص١٧٦ : ... وأمر بشق ثيابه فشق قميصه عن إزاره ومثيل لهذا ما فى الكامل حـ٥ ص ٣٩٩

(٣) هكذا فى الكامل حـ ٥ ص٣٩٩ أيضا وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص ١٧٦ ولا ينكى .

(٤) فى ك ، ت : تفاغوا ، وفى الكامل حـ٥ ص ٤٠٠ : تفاغشوا ، ويؤيدا الطبرى حـ١١ ص ١٨٣ (ط . أوروبا)

عنّى ، وطال عليهم أمر محمد بن عبد الله العثمانى ، فأمر المنصور به فقتل ، وأرسل رأسه إلى خراسان ، وأرسل معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله ، وأنّ أمّه فاطمة بنت الحسين بن على ، فلما قتل قال أخوه عبد الله بن الحسن : إنّا لله ! ! إن كنّا لنأمن به في سلطانهم ، ثم قد قتل بنا في سلطاننا . قال : ثم سار بهم المنصور من الربذة فمرّ بهم وهو على بغلة شقراء ، فناداه عبد الله بن حسن : يا أبا جعفر ، ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر ، فأخسأه [1] أبو جعفر وتغل عليه ومضى ، فلما قدموا إلى الكوفة قال عبد الله لمن معه : ألا ترون في هذه القرية من يمنعنا من هذا الطاغية !! قال : ، فلقيه الحسن وعلىّ ابنا [2] حى مشتملين على سيفين ، فقالا له : قد جئناك يا ابن رسول الله ، فمرنا بالذى تريد ، قال : قد قضيتما ما عليكما ، ولن تغنيا في هؤلاء شيئاً فانصرفا ، فانصرفا ، ثم إن المنصور أودعهم بقصر ابن هبيرة شرقىّ الكوفة ، وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن حسن ، وكان أحسن الناس صورة ، فقال له : أنت الديباج الأصغر ؟ قال : نعم ، قال : لأقتلنّك قتلة لم أقتلها أحدا ، ثم أمر به فبنى عليه أسطوانة وهو حىّ ، فمات فيها ، وهو أول من مات منهم ، ثم عبد الله بن حسن ، ثم مات على بن حسن ؛ وقيل إن المنصور أمر بهم فقتلوا ، وقيل بل أمزبهم فسقوا السمّ ، وقيل وضع المنصور على عبد الله مَنْ قال له : إنّ ابنه محمداً قد خرج وقتل ، فانصدع قلبه فمات والله أعلم ، ولم ينج

(١) فى ت : فأعشاه .

(٢) فى الكامل حـ٥ ص ٤٠٠ : ابنا أخيه ويؤيد الطبرى حـ١١ ص ١٨٢ المخطوطات .

منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود بن حسن بن حسن ، وجعفر بن حسن [١] ، وبقيّتهم ماتوا في حبس المنصور .

ذكر ظهور محمد بن عبد الله
ابن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب

كان ظهوره بالمدينة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة ، وقيل بل كان في رابع عشر رمضان منها . وكان سبب خروجه أن المنصور لما حمل أهله إلى العراق ، وسار من الربذة ، ردّ رياحاً إلى المدينة أميرًا عليها ، فألحّ فى طلب محمد ، وأرهقه الطلب يوما فتدلى في بئر في المدينة ، يناول أصحابه الماء ، وانغمس في الماء إلى حلقه ، وكان بدنه لا يخفى لعظمه ، وبلغ رياحاً خبره أنه بالمذاد ، فركب نحوه في جنده ، فتنحّى محمد عن طريقه واختفى في دار الجُهَنِيَّةَ ، فحيث لم يره رياح رجع إلى دار مروان ، فلما اشتد الطلب على محمد خرج قبل وقته ، وكان قد واعد أخاه إبراهيم أنّه يخرج لوقت عَيَّنه بالمدينة ، ويخرج إبراهيم بالبصرة ، وقيل بل خرج لميعاده مع أخيه ، وإنما أخوه تأَخَّر لجدرى لحقه .

وكان عبيد الله بن عمرو بن أبي ذؤيب [٢] وعبد الحميد بن جعفر يقولون لمحمد بن عبد الله : ما تنتظر بالخروج ؟ فو الله ما على هذه

---

(١) فى الكامل حـ٥ ص ٤٠١ «ولم ينج منهم إلا سليمان وعبدالله ابنا داود بن الحسن بن الحسن بن على ، واسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن الحسن بن الحسن وجعفر بن الحسن وانقضى أمرهم» ولا يختلف الطبرى حـ١١ ص١٨٦ عن ذلك .

(٢) فى ك : عبد الله وفى الكامل حـ٥ ص ٤٠٢ : عبيد الله بن عمرو بن أبى ذئب ، ويؤيد ا ، ت الطبرى حـ١١ ص ١٩٠

الأمة انتقام منك ، اخرج ولو لوحدك[١] ، فحرّكه ذلك للخروج أيضا ، وأتى رياحاً الخبر : أنّ محمداً خارج الليلة ، فأحضر محمد ابن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضى المدينة والعباس بن عبد الله ابن الحارث بن العباس وغيرهما عنده ، فصمت طويلا ثم قال لهم : يا أهل المدينة ، أمير المؤمنين يطلب محمداً فى شرق الأرض وغربها ، وهو بين أظهركم ، أقسم بالله : لئن خرج لأقتلنكم أجمعين ، وقال لمحمد بن عمران : أنت قاضى أمير المؤمنين فادع عشيرتك ، فجمع بنى زهرة فجاءوا في جمع كبير ، فأجلسهم بالباب ، وأرسل فأخذ نفراً من العلويين وغيرهم ، فيهم : جعفر بن محمدبن على بن الحسين[٢] ، وحسين بن على بن حسين بن على ، وحسن بن على بن حسين بن على[٣] ، ورجال من قريش فيهم : إسماعيل بن أيوب بن سَلَمَة بن عبد الله بن الوليد بن المُغِيرة وابنه خالد ، فبينا هم عنده إذ ظهر محمد فسمعوا التكبير ، فقال ابن مُسْلم بن عُقْبَة المُرّى : أطعنى فى هؤلاء واضرب أعناقهم ، فقال له الحسين بن على بن الحسين بن على : والله ، ما ذاك إليك ، إنّا لَعلى السمع والطاعة ، وأقبل محمد من المَذَاد فى مائة وخمسين رجلا فى بنى سَلَمَة تفاؤلاً بالسلامة ، وقصد السجن فكسر بابه وأخرج مَنْ فيه ، وممّن كان فيه محمد بن خالد بن عبد

---

(١) هكذا التعبير فى المخطوطات ، فى الكامل حـ٥ ص ٤٠٣ (فو الله ماعلى هذه الأمة أشأم منك ، اخرج ولو لوحدك (وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص ١٩٠ : والله مانجدفيهذه الأمة أحدا أشأم عليها منك ، ما يمنعك أن تخرج وحدك .

(٢) فى ك : الحسن .

(٣) هذا الاسم ساقط من ك ، ت ، وهو موجود فى الكامل حـ٥ ص ٤٠٣ ، والطبرى حـ١١ ص ١٩١ مما يؤيد أ .

الله القسرى وابن أخيه النَّذَيْر بن يزيد ورزام [١] فأخرجهم ، وجعل على الرجّالة خَوّات بن بُكَيْر بن خَوّات بن جُبَير [٢] ، وأتى دار الإمارة وهو يقول لأصحابه : لا تقتلوا لا تقتلوا ، فامتنع منهم رياح فدخلوا من باب المقصورة ، وأخذوا رياحاً أسيراً وأخاه عباساً وابن مسلم ابن عقبة المرّى ، فحبسهم فى دار الإمارة ، ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإنّه قد كان من أمر هذا الطاغية ـ عدوّ الله أبى جعفر ؛ ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندة لله فى ملكه ، وتصغيراً للكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال ، أنا ربكم الأعلى ، وإنّ أحقّ الناس بالقيام فى هذا الأمر [٣] أبناء المهاجرين والأنصار المواسين ، اللهم إنّهم قد أحلّوا حرامك وحرّموا حلالك ، وأمّنوا مَنْ أخفت ، وأخافوا مَنْ أمّنت ؛ اللهم فاحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحدا ؛ أيها الناس : إنّى والله ما خرجت بين أظهركم ، وأنتم عندى أهل قوّة ولا شدّة ، ولكنّى اخترتكم لنفسى ، والله ما جئتُ هذه وفى الأرض مصرٌ يُعبد الله فيه إلا أُخذ لى فيه البيعة .

وكان المنصور يكتب إلى محمد بن عبد الله على ألسن قواده ،

---

(١) وهذا الاسم ساقط أيضا من ك ، ت وهو موجود فى الكامل حـ٥ ص ٤٠٣ مما يؤيد أ والظاهر أن ك ، ت نقلا عن مصدر واحد .

(٢) فى المخطوطات : خوات بن جبير والتصويب عن الكامل حـ٥ ص ٤٠٣ والطبرى حـ١١ ص ٢٠١

(٣) فى الكامل حـ٥ ص ٤٠٤ : فى هذا الدين ، وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص ١٦٧ : بهذا الدين .

يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه ، فكان محمد يقول هذا ، ويقول : لو التقينا مال القوّاد كلهم إلىّ ، واستولى محمدٌ على المدينة . واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومى ، وعلى بيت السلاح عبد العزيز الدَّرَاوَرْدِى ، وعلى الشرط أبا القَلَمَّس عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر ابن عبد الرحمن بن المِسْوَر بن مَخْرَمَة ؛ وقيل كان على شرطته عبد الحميد بن جعفر فعزله ، وأرسل محمد إلى محمد بن عبد العزيز : إن[1] كنتُ لأظنّك ستنصرنا وتقوم معنا ، فاعتذر إليه وقال أفعل ، ثم انسلّ منه وأتى مكة ، ولم يتخلّف عن محمد أحد من وجوه الناس ، إلا نفر منهم الضَحّاك بن عثمان بن عبد الله بن حزام[2] ، وعبد الله بن المُنْذِر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد ، وأبو سَلَمة بن عبيد الله بن الله بن[3] عمر ، وخُبَيْب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير[4] .

وكان أهل المدينة[5] قد استفتوا مالك بن أنس فى الخروج مع

---

(١) فى الكامل حـ٥ ص ٤٠٤ ، والطبرى حـ١١ ص ١٩٩ : انى .

(٢) فى ا ، ت : حرام ، وفى إحدى مخطوطات تاريخ الطبرى (ط. أوروبا) حـ ١١ هامش ص ١٩٩ ، فى الكامل لابن الأثير حـ٥ ص ٤٠٤ (ط . أوروبا) وفى إحدى مخطوطات الطبرى حـ ١١ هامش ص ١٩٩ : خرام ، وفى ك : حزام يؤيده الطبرى حـ١١ ص ١٩٩ وطبقات ابن سعد حـ٥ ص ٣١٢ (ط . أوروبا) ، وهو الأصح .

(٣) فى ك : أبو سلمة عبدالله بن عبدالله بن الزبير والخطأ والخلط واضحان ، وفى ت أبو سلمة عبيد الله بن عبد الله بن عمر ويؤيد ا الكامل حـ٥ ص ٤٠٤ والطبرى حـ١١ ص ١٩٩

(٤) ورد فى ص٤١٤ حـ٥ من الكامل: خبيب بن ثابت بالخاء المعجمة المضمومة وبباءين موحدتين وبينهما ياء مثناة من تحتها

(٥) فى ك : مكة ويؤيد ا ، ت الكامل حـ٥ ص ٤٠٥

محمد ، وقالوا : إنّ فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر ، فقال : إنما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين ، فأسرع الناس إلى محمد ، ولزم مالكٌ بيته ، وأرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وكان شيخاً كبيراً ، فدعاه إلى بيعته فقال : يا ابن أخى أنت والله مقتول فكيف أبايعك! ! فارتدع الناس عنه قليلا ، وكان بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر قد أسرعوا إلى محمد ، فأتت حمّادة ابنة معاوية إلى إسماعيل بن عبد الله ، وقالت له يا عم : إن إخوتى قد أسرعوا إلى ابن خالهم ، وإنّك إنْ قلت هذه المقالة ثبّطتَ الناس عنهم ، فيُقتل ابن خالى وإخوتى ،فأبى إسماعيل إلا النهى عنه ، فيقال إن حَمّادة عَدَتْ عليه فقتلته ،فأراد محمد الصلاة عليه فمنعه عبدالله[1] ابن إسماعيل ، وقال : أتأمر بقتل أبى وتصلّى عليه ! ! فنحّاه الحرس وصلّى عليه محمد .

ولما ظهر محمد كان محمد بن خالد القَسْرى فى حبس رياح فأطلقه ، قال محمد بن خالد : لما سمعت دعوة محمد الى دعا إليها على المنبر ، قلت : هذه دعوة حق ، والله لَأُبْلِيَنَّ الله فيها بلاء حسناً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّك قد خرجت بهذا البلد ، والله لو وقف على نقب من أنقابه أحد ، مات أهله جوعاً وعطشاً ، فانهض معى فإنما هى عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف ، فأبى علىّ ، فبينما أنا عنده إذ قال : ما وجدنا من حرّ المتاع [2] شيئا أجود من شىء وجدناه عند ابن أبى

(١) فى ك ، ت : محمد بن إسماعيل ويؤيد أ الكامل حـ٥ ص ٤٠٥ والطبرى حـ١١ ص ٢٠٠

(٢) هكذا فى أ ، ك والطبرى حـ١١ ص ٢٠١ ، وفى ت والكامل حـ ٥ ص ٤٠٥ : خير المتاع ضنينا وهو خطأ واضح .

فروة ختن أبي الخصيب[١] ، وكان انتهبه ، قال ، فقلت له : ألا أراك قد أبصرت حرّ المتاع ، فكتبت إلى المنصور فأخبرته بقلة من معه ، فأخذني محمد فحبسني حتى أطلقني عيسى بن موسى بعد قتله إياه[٢] .

وكان رجل من آل أويس بن أبي سرح العامري - عامر بن لؤي - اسمه الحسين بن صخر بالمدينة لمّا ظهر محمد ، فسار من ساعته إلى المنصور فبلغه في تسعة[٣] أيام ، فقدم ليلا فقام على أبواب المدينة ، فصاح حتى علموا به فأدخلوه ، فقال له الربيع : ما حاجتك هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم ؟ قال : لا بدّ لي منه ، فدخل الربيع على المنصور فأخبره خبره ، وأنّه قد طلب مشافهته فأذن له ، فدخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين ، خرج محمد بن عبد الله بالمدينة ، قال : قتلتُه والله ؛ إنْ كنت صادقاً ، قال : أخبرني من [٤]معه ؟ فسمّى له من معه من وجوه أهل المدينة وأهل بيته ، قال : أنت رأيته ؟ قال : أنا رأيته وعاينته وكلمته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ، فأدخله أبو جعفر بيتا ، فلما أصبح جاءه رسول لسعيد بن دينار - غلام عيسى ابن موسى يلي أمواله بالمدينة ، فأخبره بأمر محمد وتواترت عليه أخباره ، فأخرج الأويسي فقال : لأوطئنّ الرجال عقبيك ولأغنينّك ، وأمر له بتسعة آلاف درهم ، لكل ليلة ألف درهم ، وأشفق من محمد ، فقال له الحارثي المنجّم : يا أمير المؤمنين ، ما يجزعك منه ؟ ! فو الله لو ملك

(١) في ك ، ت : حين أتى الخصيب ويؤيد ا الكامل حـ٥ ص ٤٠٥

(٢) هكذا في المخطوطات ويؤيدها الطبري حـ١١ ص ٢٠١ ، وفي الكامل حـ٥ ص ٤٠٥ : بأيام .

(٣) الكلمة في المخطوطات غير واضحة ولا يمكن الجزم إن كانت سبعة أو تسعة ، واعتمدنا على الكامل حـ٥ ص ٤٠٦ والطبري حـ١١ ص ٢٠٥

(٤) هكذا في ا ويؤيده الكامل حـ٥ ص ٤٠٦ ، وفي ك ، ت : بمن .

الأرض ما لبث إلا تسعين يوما ، فأرسل المنصور إلى عمّه عبد الله بن علي وهو محبوس : إن هذا الرجل قد خرج فإن كان عندك رأى فأشر به علينا ، وكان ذا رأى عندهم ، فقال : إن المحبوس محبوس الرأى ، فأرسل إليه المنصور : لو جاءنى حتى يضرب بابى ما أخرجتك ، وأنا خير لك منه ، وهو ملك أهل بيتك ، فأعاد إليه عبد الله : ارتحل الساعة حتى تأتى الكوفة ، فاجثم (١) على أكبادهم فإنّهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم ، ثم اخفُفْها بالمسالح ، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه ، أو أتاها من وجه من الوجوه ، فاضرب عنقه ، وابعث إلى سَلْم بن قتيبة ينحدر إليك وكانْ بالرىّ ، واكتب إلى أهل الشام فمرهم : أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما حمل البريد ، فأحسِنْ جوائزهم ووجّههم مع سلم ، ففعل . وقيل أرسل المنصور إلى عبد الله إخوته يستشيرونه فى أمر محمد ، وقال لهم : لا يعلم عبد الله أنّى أرسلتكم إليه ، فلمّا دخلوا عليه قال : لأمرٍ ما جئتم ، ما جاء بكم جميعا وقد هجرتمونى جميعاً ؟ ! قالوا استأذنّا أمير المؤمنين فأذن لنا ، قال : ليس هذا بشىء ، فما الخبر ؟ قالوا : خرج محمد بن عبد الله ، قال : فما ترون ابن سلامة صانعاً — يعنى المنصور ؟ قالوا : لا ندرى والله ، قال : إنّ البخل قد قتله ، فمروه فليخرج الأموال ، وليعط الأجناد ، فإن غَلَب فما أسرع ما يعود إليه ماله ، وإن غُلِب لم يقدم صاحبُه على دينار ولا درهم .

---

(١) هكذا فى ا ، ت ويؤيدها الطبرى حـ ١١ ص ٢٠٦ ، وفى ك : فاختم وفى الكامل حـ ٥ ص ٤٠٦ : فاحشم .

قال (١) : ولمّا ورد الخبر على المنصور بخروج محمد ، كان قد خطّ مدينة بغداد بالقصب ،فسار إلى الكوفة ومعه عبد الله بن الربيع ابن عبيد الله بن عبد المدان (٢) ، فقال له المنصور : إنّ محمداً قد خرج بالمدينة ، فقال عبد الله : هَلَكَ والله وأَهْلَكَ ، خرج فى غير عدد ولا رجال . حدّثنى سعيد بن عمر بن جعدة المخزومى قال : كنت مع مروان يوم الزاب واقفاً فقال لى مروان (٣) : من هذا الذى يقاتلنى ؟ قلت : عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس ، قال : وددت والله أنّ على بن أبى طالب يقاتلنى مكانه ، إنّ عليا وولده لاحظّ لهم فى هذا الأمر ، وهذا رجل من بنى هاشم وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه ريح الشام ونصر الشام ، يا ابن جعدة : تدرى ما حملنى على أن عقدتُ لعبد الله وعبيد الله (٤) بعدى ، وتركتُ عبد الملك وهو أكبر من عبيد الله ، قال ابن جعدة : لا ، قال : وجدتُ الذى يلى هذا الأمر عبد الله وعبيد الله ، وكان عبيد الله أقرب إلى عبد الله من عبد الملك فعقدتُ له ، فاستحلفه المنصور على صحة ذلك فحلف له فسُرّى عنه .

---

(١) غالباً ماتكون الإشارة إلى ابن الأثير الذى ينقل المؤلف عن كتابه الكامل ، وخاصة فى هذا الشطر من الجزء .

(٢) هكذا فى او الكامل جـ ٥ ص ٤٠٦ : باختلاف فى الاسم الأخير عبد المداد . وفى ك ، ت : عبد الله بن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان ، بخطأ فى اسم الجد عبيد الله وعند الطبرى جـ ١١ ص ٢٠٤ عبد الله بن الربيع بن عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان .

(٣) هكذا فى او ويؤيده الكامل جـ ٥ ص ٤٠٧ والطبرى جـ ١١ ص ٢٠٤ ، وهو الأصح ، أما : مافى ك : . . . يوم الزاب وأنقا إلى مروان : من . . .
وما فى ت : . . . يوم الزاب واقفا إلى مروان : من . . . فكلاهما مخطئان

(٤) فى ك ، ت : عبد الله والتصويب عن او ويؤيده الكامل جـ ٥ ص ٤٠٧ والطبرى جـ ١١ ص ٢٠٤

قال : ولما بلغ المنصور خبر ظهور محمد قال لأبي أيوب وعبد الملك : هل من رجل تعرفانه بالرأي نجمع رأيه إلى رأينا ؟ قالا بالكوفة : بُدَيْل بن يحيي ، وكان السفّاح يشاوره ، فأرسل إليه ، وقال له : إنّ محمدا قد ظهر بالمدينة ! قال : فاشْحِنْ الأهواز بالجنود ، قال : إنّه إنما ظهر بالمدينة ، قال : قد فهمت ، وإنما الأهواز الباب الذي تؤتون منه ، فلما ظهر إبراهيم بالبصرة قال له المنصور ذلك ، قال : فعاجِلْه بالجنود واشغل الأهواز عليه ، وشاور المنصور أيضا جعفر بن حَنْظَلَة البَهْرَانى عند ظهور محمد قال : وَجِّهْ الجند إلى البصرة ، قال : انصرف عنّى حتى أرسل إليك ، فلما صار إبراهيم إلى البصرة أرسل إليه ، فقال له ذلك فقال : إياها خفت ، بادِرْهُ بالجنود ، قال : وكيف خفت البصرة ؟ قال : لأن محمداً ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب ، بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم ، وأهل الكوفة تحت قدمك ، وأهل الشام أعداء آل أبي طالب ، فلم يبق إلا البصرة .

ثم إن المنصور كتب إلى محمد بن عبد الله كتاباً ابتدأه بأن قال :

بسم الله الرحمن الرحيم (إنّما جَزَاءُ الذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّع أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ) (١) ، ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أؤمّنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومَنْ اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأسوّغك ما أصبتَ من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألتَ من الحوائج

(١) سورة ٥ آية ٣٣

وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق مَنْ فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمّن كل مَنْ جاءك وبايعك واتبعك أو دخل فى شىء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشىء كان منه أبدا ، فإنْ أردتَ أن تتوثّق لنفسك فوجّهْ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تتوثّق به والسلام .

فكتب إليه محمد : بسم الله الرحمن الرحم (طسم ، تِلْكَ آياتُ الكتَاب المُبِين ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبأ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالحَق لِقَوْم يُؤْمِنُونَ ، إنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ . ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمْ الوَارِثِينَ ، ونُمَكِّنَ لَهُمْ فى الأَرْضِ ونُرِىَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (١) ، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت علىّ ، فإنَّ الحق حقنا ، وإنّما ادّعيتم هذا الأمر لنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا (٢) ، فإن أبانا عليا كان الوصى ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ، ثم قد علمتَ أنه لم يطلب الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا ؛ لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء ، وليس يمُتُّ أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمُتُّ به من القرابة والسابقة والفضل - وإنّا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم - فاطمة بنت عمرو (٣) فى الجاهلية ،

(١) سورة ٢٨ الآيات من ١ إلى ٦

(٢) فى الكامل حـ٥ ص ٤٠٩ : وحظيتم بفضله والطبرى حـ١١ ص ٢٠٩ يؤيد المخطوطات

(٣) أثبت الناسخ للمخطوطة فى هامش تعليقا وتوضيحاً (يشير إلى فاطمة بنت عمرو بن عابد ابن عمران بن مخزوم وهى أم عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبنو بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - فاطمة فى الإسلام - دونكم إنّ الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيّين محمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، ومن السّلف أوّلهم إسلاما على بن أبى طالب ، ومن الازواج أفضلهم خديجة الطاهرة ، وأوّل من صلى إلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيّدا شباب أهل الجنة ، وإن هاشماً ولد عليا مرتين ، وإنّ عبد المطلب ولد حسناً مرّتين ، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرّتين ، من قِبَل حسنٍ وحسين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أما وأبا[1] ، لم تعرّق فىّ العجمة ، ولم تنازع فىّ أمّهات الأولاد ، فمازال يختار لى الآباء والأمّهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذاباً فى النار ، فلك ذمّة الله علىّ ، إن دخلتَ فى طاعتى ، وأجبت دعوتى ، أن أؤمّنك على نفسك ومالك ، وعلى كل حدث[2] أحدثته ، إلا حداً من حدود الله أو حقا لمسلم أو مُعَاهِد ، فقد علمتَ ما يلزمنى من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من الأمان والعهد ما أعطيته رجالاً قبلى ، فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ! ! أم أمان عمّك عبد الله بن على ! ! أم أمان أبى مسلم ! !

فلما ورد كتابه على المنصور قال له أبو أيوب المُورِيَانى : دعنى

---

(١) النص فى الكامل حـ٥ ص٤٠٩ وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص٢١٠ لم يذكر «أما»

(٢) فى الكامل حـ٥ ص٤٠٩ والطبرى حـ١١ ص٢١١ : أمر

أجبه عنه ، قال : لا ، إذا تقارعنا على الأحساب دعنى وإياه ، ثم كتب إليه المنصور :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء ، لتضلّ به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعَصَبَة [1] والأولياء ، لأن الله جعل العم أباً ، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختار الله لهن على قدر قرابتهنّ ، لكانت آمنة أقربهنّ رحماً ، وأعظمهنّ حقا ، وأولى من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه فيما قضى فيهم [2] واصطفائه لهم ، وأمّا ما ذكرتَ من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام ، لا بنتاً ولا ابناً ، ولو أن رجلا رزق الإسلام بالقرابة رُزِقه عبد الله ، ولكان أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، لكنّ الأمر لله يختار لدينه من يشاء ، قال الله عز وجل (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [3] ، ولقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل (وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) [4] ، فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبى ، وأبَى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، فلَم يجعل بينه وبينهما إلاّ ولا ذمة ولا ميراثاً ؛ وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا ، وابن خير الأشرار ، وليس

(١) عصبة الرجل : بنوه وقرابته لأبيه .

(٢) هكذا فى المخطوطات وفى الكامل ج ٥ ص ٤١٠ : فيما مضى منهم ، والطبرى ج ١١ ص ٢١١ : لما مضى منهم .

(٣) سورة ٢٨ آية ٥٦

(٤) سورة ٢٦ آية ٢١٤

فى الكفر بالله صغير ، ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى لمؤمن - يؤمن بالله - أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم ، (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) [١] ؛ وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبيّ ولدك مرتين ، فخير الأوّلين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة ؛ وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أما وأبا ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعرّق [٢] فيك أمّهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً ، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا ! ! فإنّك قد تعدّيت طورك ، وفخرت على من هو خير منك - نفساً وأباً وأوّلاً وآخراً [٣] - إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما خيار بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمّهات الأولاد ، ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن حسين ، وهو لأم ولد ولهو خير من جدّك حسن بن حسن [٤] ، وما كان فيكم بعده مثل محمد بن على ، وجدّته أم وَلد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر وجدّته أم ولد ، وهو خير منك ؛ وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقول فى كتابه (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ . . . . . [٥]) ،

(١) سورة ٢٦ آية ٢٢٧

(٢) فى ك : تعرف وكذلك الكامل . حـ ٥ ص ٤١٠ التصويب عن ابن جرير الطبرى حـ ١١ ص ٢١٢ .

(٣) فى الكامل حـ ٥ ص ٤١١ : ... نفساً وأباً وأولاداً وأخا ابراهيم ابن رسول الله والخطأ واضح .

(٤) فى الكامل حـ ٥ ص ٤١١ : حسن بن حسين وهو خطأ .

(٥) سورة ٣٣ آية ٤٠

ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة ، ولكنّها لا تجوّز الميراث ولاترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة فكيف يورّث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه ، فأخرج فاطمة رضى الله عنها نهاراً ، ومرّضها سرا ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين ، ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين : أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يُورّثون ؛ وأمّا ما فخرت به من عَلِىّ وسابقته ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه [1] ، وكان فى الستّة فتركوه كلهم دفعاً له [2] ، ولم يروا له حقا فيها ؛ وأما عبد الرحمن فقدّم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له مُتّهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبَى سَعْد بيعته وأغلق بابه دونه ، ثم بايع معاوية بعده ؛ ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها ، وتَفرّق عنه أصحابه ، وشكّ فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكم حكمين رضى بهما ، وأعطاهما عهد الله وميثاقه [3] ، فاجتمعا على خلعه ، ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير حلّه [4] ، فإن كان لكم فيها شىء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ، ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه ، حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ؛

---

(١) فى ك ، ت : فلم يأخذه ويؤيده الكامل حـ ٥ ص ٤١١ والطبرى حـ ١١ ص ٢١٣

(٢) فى الكامل حـ ٥ ص ٤١١ الطبرى حـ ١١ ص ٢١٣ : دفعا له عنها.

(٣) هكذا فى المخطوطات والكامل حـ ٥ ص ٤١١ ، وفى تاريخ الطبرى حـ ١١ ص ٢١٣ ... وأعطاهما عهد وميثاقه

(٤) هكذا فى المخطوطات وفى الكامل حـ ٥ ص ٤١١ ، والطبرى حـ ١١ ص ٢١٤ : .. وأخذ مالا من غير ولاية ولا حلة

ثم خرجتم على بنى أمية ، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ،وحملوكم بلا وطاء فى المحامل ، كالسبى المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم وطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسَنَّيْنَا سلفكم وفَضَّلناه فاتخذتَ ذلك علينا حجة ، وظننت أنَّا إنما ذكرنا أباك وفضَلناه للتقدمةِ منَّا له ، على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلّما منهم مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا عليهم[1] وذكرناهم فضله ، وعنّفناهم وظلّمناهم بما نالوا منه . ولقد علمتَ أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر ، فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام ، ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربّه ولم يتقرّب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم[2] الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمتَ أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره ، فكانت وراثته من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايته ، وميراث النبى صلى الله عليه وسلم له ، والخلافة فى

(١) فى تاريخ الطبرى حـ١١ ص ٢١٤ : فاحتججنا له وهو أما فى الكامل حـ٥ ص٤١٢ فلم يذكر حرف الجر .

(٢) هكذا فى المخطوطات ويؤيدها الطبرى حـ١١ ص٢١٤ وفى الكامل حـ٥ ص٤١٢ : يغشيهم وهو خطأ .

ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام – فى دنيا ولا آخرة – إلا والعباس وارثه ومُوَرِّثه . أمّا ما ذكرت من بدر فإنّ الاسلام جاء ، والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم للأزمة التى أصابته ، ولولا أن العبّاس أخرج إلى بدرٍ كارهاً لمات طالب وعقيل جوعاً ، ولَلَحِسَا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسُّبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدا عقيلاً يوم بدر ، فكيف تفخر علينا وقد علناكم فى الكفر ، وفديناكم وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وظلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا لأنفسكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وكان محمد قد استعمل الحسن [1] بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب على مكة ، والقاسم بن إسحاق على اليمن ، وموسى ابن عبد الله على الشام ، فأما الحسن والقاسم فسارا إلى مكة ، فخرج إليها السرىّ بن عبد الله ، عامل المنصور على مكة ، فلقيهما ببطن أذاخر فهزماه ، ودخل الحسن [2] مكة وأقام بها يسيراً ، فأتاه كتاب محمد بن عبد الله يأمره بالمسير إليه فيمن معه ، ويخبره بمسير عيسى ابن موسى إليه ليحاربه ، فسار إليه من مكة هو والقاسم ، فبلغه بنواحى قُدَيْد قَتْلُ محمد ، فهرب هو وأصحابه وتفرّقوا ، فلحق الحسن بإبراهيم فأقام عنده حتى قتل إبراهيم ، واختفى القاسم بالمدينة

---

(١) فى المخطوطات والكامل حـ٥ ص٤١٣ : . . استعمل محمد بن الحسن بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهو خطأ تصويبه عن الطبرى حـ١١ ص٢٠٢

(٢) فى المخطوطات والكامل حـ٥ ص٤١٣ محمد وهو خطأ نشأ من الخطأ فى ذكر الأسم أول الأمر ، والتصويب عن الطبرى حـ١١ ص٢١٩

حتى أخذت له ابنة عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر امرأة عيسى الأمان له ولإخوته معاوية وغيره ، وأما موسى بن عبد الله فسار نحو الشام ومعه رزام مولى محمد بن خالد القسرى ، فانسلّ منه رزام بتيماء ، وسار إلى المنصور برسالة من مولاه محمد القسرى ، فظهر محمد بن عبد الله على ذلك فحبس محمد القسرى ، ووصل موسى إلى الشام فرأي منهم سوء ردّ غليه وغلظة ، فكتب إلى محمد :

أخبرك أنّى لقيت الشام وأهله ، فكان أحسنهم قولا الذى قال : والله لقد مللنا البلاء ، وضقنا حتى ما فينا لهذا الأمر موضع ، ولا لنا به حاجة ؛ ومنهم طائفة تحلف لئن أصبحنا من ليلتنا أو أمسينا من غدٍ ليرْفَعُنَّ أمرنا ؛ فكتبت إليك ، وقد غيّبت وجهى ، وخفت على نفسى .

ثم رجع إلى المدينة ، وقيل أتى البصرة ، وأرسل صاحبا له يشترى له طعاماً فاشتراه ، وجاء به على حمّال أسود ، فأدخله الدار التى سكنها وخرج ، فلم يكن بأسرع من أن كبست الدار ، وأخذ موسى وابنه عبد الله وغلامه فحملوا إلى محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ، فلما رأى موسى قال : لا قرّب الله قرابتكم ، ولا حيّا وجوهكم ، تركت البلاد كلها إلا بلدًا أنا فيه !! فإن وصلتُ أرحامكم أغضبت أمير المؤمنين ، وإن أطعته قطعت أرحامكم ، ثم أرسلهم إلى المنصور ، فأمر بضرب موسى وابنه كل واحد خمسمائة سوط. فلم يتأوّها ، فقال المنصور : عذرت أهل الباطل فى صبرهم ، فما بال هؤلاء ! ! فقال موسى : أهل الحق أولى بالصبر ، ثم أخرجهم وأمر بهم فسجنوا .

ذكر مسير عيسى بن موسى
لقتال محمد بن عبد الله بن حسن وقتل محمد

قال[١] : ثم إن المنصور أحضر ابن اخيه عيسى بن موسى بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس ، وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد ابن عبد الله بن حسن ، فقال : شاورْ عمومتك يا أمير المؤمنين ، قال : فأين قول ابن هرمة :

نزور امرأً لا يمخض القوم سرّه ولا ينتجى الأدنين فيما يحاول
إذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى وإنْ قال إنى فاعلٌ فهو فاعل

فقال المنصور : أمض أيها الرجل – فو الله ما يراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا ، فسار وسيرّ معه الجنود ، وكان عيسى ولى عهد المنصور إذ ذاك ؛ فقال المنصور حين سار عيسى : لا أبالى أيهما قتل صاحبه ؛ وبعث معه محمد بن أبى العباس السفاح ، وكثير بن حُصَين العبدى ، وحُميد بن قحبطة ، وهزار مرد وغيرهم ، وقال له المنصور حين ودّعه : يا عيسى ، إنّى أبعثك إلى ما بين هذين ، وأشار إلى ما بين جنبيه[٢] ، فإن ظفرت بالرجل فاغمد سيفك ، وابذل الأمان ، وإن تغيّب فضَمِنْهم إياه فإنهّم يعرفون مذاهبه ، ومن لقيك من آل أبى طالب ، فاكتب إلىّ باسمه ، ومن لم يلقك فاقبض ماله ، وكان جعفر الصادق تغيّب عنه ، فقبض ماله ، فلما قدم المنصور

(١) هنا ينقل النويرى عن ابن الأثير – راجع الكامل حـ٥ ص٤١٤ – فهو المعنى .
(٢) هكذا فى المخطوطات يؤيدها الطبرى حـ١١ ص٢٢٥ وفى الكامل حـ٥ ص٤١٥ : جبينه وهو خطأ كما هو واضح .

المدينة قال له جعفر فى معنى ماله ، فقال : قبضه مهديّكم ، فلما وصل عيسى إلى فَيْد كتب إلى الناس فى خرق الحرير ، منهم عبد العزيز ابن المطلب المخزومى ، وعبيد الله بن محمد بن صفوان الجُمَحِى ، وكتب إلى عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ، يأمره بالخروج من المدينة فيمن أطاعه ، فخرج هو وعمر[1] بن محمد ابن عمر ، وأبو عقيل محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل فأتوا عيسى .

قال : ولما بلغ محمداً قرب عيسى من المدينة ، استشار أصحابه فى الخروج من المدينة والمقام بها ، فأشار بعضهم بالخروج عنها ، وبعضهم بالمقام بها ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيتُنى فى درع حصينة فأوّلتُها المدينة ، فأقام ثم استشارهم فى حفر خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له جابر بن أنَس – رئيس سُلَيم – يا أمير المؤمنين : نحن أخوالك وجيرانك وفينا السلاح والكراع ، فلا تخندق الخندق ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خندقه لمّا أعلمه الله به ، وإن خندقته لم يحسن القتال رجالةً ، ولم توجّه لنا الخيل بين الأزقة ، وأن الذين نخندق دونهم هم الذين يحول الخندق دونهم ؛ فقال له أحد بنى شُجَاع : خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتد أنت به ، وتريد أن تدع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرأيك ! ! قال : إنه والله – يا ابن شُجاع – ما شىء أثقل عليك وعلى أصحابك من لقائهم ، وما شىء أحبّ إلينا من مناجزتهم ، فقال محمد : إنما اتّبعنا

(١) فى ك : عمرو يزيد ا ، ت : الكامل حـ٥ ص ٤١٥ ، والطبرى حـ١١ ص ٢٢٦

فى الخندق أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يردّنى أحد عنه فلست بتاركه ، فأمر به فحفر ، وبدأ هو فحفر بنفسه الخندق [١] ، الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم للأحزاب ، وسار عيسى حتى نزل الأعوص ، وكان محمد قد جمع الناس وأخذ عليهم الميثاق : ألّا يخرج منهم أحد ، ثم خطبهم فقال :

إنّ عدوّ الله وعدوّكم قد نزل الأعوص ، وإنّ أحق الناس بالقيام بهذا الأمر ، لأبناء المهاجرين والأنصار ، ألا وإنّا قد جمعناكم وأخذنا عليكم الميثاق ، وعدوّكم فى عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده ، وأنّه قد بدا لى أن آذن لكم ، فمن أحبّ منكم أن يقيم أقام ، ومن أحبّ أن يظعن ظعن ؛ فخرج عالم كثير ، وخرج ناس من أهل المدينة بذراريهم وأهليهم إلى الأعراض والجبال ، وبقى محمد فى شرذمة يسيرة [٢] ، فأمر أبا القَلَمَّس بردّ من قدر عليه ، فأعجزه كثير منهم فتركهم .

قال : وكان المنصور قد أرسل ابن الأصم مع عيسى بن موسى ينزله المنازل ، فلما قدموا نزلوا على ميل من المدينة ، فقال ابن الأصم : إن الخيل لا عمل لها مع الرجّالة ، وإنّى أخاف إنْ كشفوكم كشفة [٣] أن يدخلو اعسكركم ، فتأخّروا إلى سقاية سليمان بن عبد الملك بالجُرْف وهو على أربعة أميال من المدينة ، وقال : ولا يهول الراجل أكثر من

(١) هكذا فى ا ويؤيده الكامل حـ٥ ص٤١٥ وفى ك : وبدأ هو بنفسه يحفر الخندق ، وفى ت : وبدأ هو يحفر بنفسه الخندق .

(٢) فى ك : قليلة ويؤيد ا الكامل حـ٥ ص٤١٦

(٣) هذه الكلمة غير موجودة فى ك ، ت وهى عن ا ، ويؤيده الكامل حـ٥ ص٤٢٦

ميلين أو ثلاثة حتى تأخذه الخيل ، وأرسل عيسى خمسمائة رجل إلى بطحاء ابن أزهر – على ستة أميال من المدينة – فأقاموا بها ، وقال : أخاف أن ينهزم محمد فيأتى مكة ، فيردّه هؤلاء ، فكانوا بها حتى قتل محمد ، وأرسل عيسى إلى محمد يخبره أن المنصور أمّنه وأهله ، فأعاد الجواب : يا هذا ، إنّ لك برسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة قريبة ، وإنى أدعوك إلى كتاب الله وسنّة نبيّه والعمل بطاعته ، وأحذّرك نقمته وعذابه ، وإنى والله ما أنا بمنصرف عن هذا الأمر حتى أتقى الله عليه ، وإياك أن يقتلك من يدعوك إلى الله : فتكون شر قتيل ، أو تقتله [1] فيكون أعظم لوزرك . فلما بلغته الرسالة قال عيسى : ليس بيننا وبينه إلا القتال ؛ وقال محمد للرسول : علام تقتلونى ؟ وإنما أنا رجل فرّ من أن يقتل ، قال : إن القوم يدعونك إلى الأمان ، فإن أبيت إلا قتالهم قاتلوك ، على ما قاتل عليه خير آبائك طلحة والزبير ، على نكث بيعتهم وكيد ملكه .

قال ، ونزل عيسى بالجرْف لاثنتى عشرة خلت من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة وذلك يوم السبت ، فأقام السبت والأحد وغدا يوم الإثنين فوقف على سَلْع ، فنظر إلى المدينة ومن فيها ، ونادى يا أهل المدينة : إنّ الله تعالى حرّم دماء بعضنا على بعض ، فهلمّوا إلى الأمان ، فمن قام تحت رايتنا فهو آمن [2] ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن خرج من المدينة فهو آمن ،

(١) هكذا فى ك ، او يؤيدهما الكامل حـ٥ ص٤١٦ و فى ت : يقتلك .

(٢) بعد ذلك يذكر الكامل حـ٥ ص٤١٧ و الطبرى حـ١١ ص٢٣٤ : ومن دخل داره فهو آمن ، ويظهر أن هذه العبارة سقطت من النويرى .

خلّوا بيننا وبين صاحبنا فإمّا لنا وإمّاله . فشتموه فانصرف من يومه وعاد من الغد ، وقد فرّق القوّاد من سائر جهات المدينة ، وأخلى ناحية مسجد أبي الجرّاح وهو على بُطْحان ، أخلى تلك الناحية لخروج من ينهزم ، وبرز محمد فى أصحابه ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وكان شعاره : أحد أحد ، فبرز أبو القَلَمَّس وهو من أصحاب محمد ، فبرز إليه أخو أسد ، فاقتتلوا طويلا فقتله أبو القلمّس ، وبرز إليه آخر فقتله ، وقال حين ضربه : خذها وأنا ابن الفاروق ، فقال رجل من أصحاب عيسى : قتلتَ خيرًا من ألف فاروق ، وقاتل محمد يومئذ قتالاً عظيماً ، فقتل بيده سبعين رجلا ، وأمر عيسى حُمَيد بن قحبطة فتقدم فى مائة[1] كلهم راجل سواه ، فزحفوا حتى بلغوا جدارا دون الخندق ، عليه ناس من أصحاب محمد ، فهدم حُميد الحائط وانتهى إلى الخندق ، ونصب عليه أبواباً وعبر هو وأصحابه عليها ، فجازوا الخندق وقاتلوا مَنْ وراءه أشد قتال من بكرة النهار إلى العصر ، وأمر عيسى أصحابه فألقوا الحقايب وغيرها في الخندق ، وجعل الأبواب عليها وجازت الخيل ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وانصرف محمد فاغتسل وتحنّط ثم رجع ، فقال له عبد الله بن جعفر : بأبى أنت وأمّى ، والله مالك بما ترى طاقة أتيت الحسن بن معاوية بمكة فإنّ معه جلّ أصحابك ! ! فقال : لو خرجتُ لقُتل أهل المدينة ، والله لا أرجع حتى أقتل أو أقتل ، وأنت منّى فى سعة فاذهب حيث شئت ، فمشى معه قليلا ثم رجع عنه ، وتفرّق عنه جل أصحابه ، حتى بقى فى ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا ، فقال بعض أصحابه : نحن اليوم بعدة

(١) بعد هذه الكلمة إلى آخر الفصل أى إلى عنوان ظهور إبراهيم ساقط من ك

أهل بدر ؛ وصلّى محمد الظهر والعصر ، وكان معه عيسى بن خُضَير وهو يناشده : إلا ذهب إلى البصرة أو غيرها ، ومحمد يقول : لا والله لا تُبتلون بي مرّتين ، ولكن اذهب أنت حيث شئتَ ، فقال ابن خضير : وأين المذهب عنك ! ؟ ثم مضى فأحرق الديوان ، الذي فيه أسماء مَنْ بايعهم ، وقتل رياح بن عثمان وأخاه عباس بن عثمان ، وقتل ابن مُسْلِم بن عُقْبَة المُرّي ، ومضى إلى محمد بن خالد القسري وهو محبوس ليقتله فعلم به ، فردم الأبواب دونه فلم يقدر على قتله ، وكانَ محمد بن عبد الله قد حبس محمد بن خالد بعد ما أطلقه ، ورجع عيسى بن خضير إلى محمد فقاتل بين يديه حتى قتل ، وتقدّم حُميد بن قحطبة ، وتقدّم محمد بن عبد الله فلما صار ببطن مسيل سَلْع عرقب فرسه ، وعرقب بنو شجاع الجهنيون (١) دوابهم ، ولم يبق أحد منهم إلا كسر جفن سيفه ، فقال لهم محمد : قد بايعتموني ولست بارحاً حتى أُقتل ، فمَنْ أحبّ أن ينصرف فقد أذنتُ له ، واشتد القتال فهزموا أصحاب عيسى بن موسى مرّتين أو ثلاثاً ، فقال يزيد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر (٢) : ويل أمّه فتحاً ، لو كان له رجال !! وصعد نفر من أصحاب عيسى على جبل سَلْع ، وانحدروا منه إلى المدينة ، وأمرت أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس (٣)

---

(١) في الكامل حـ ٥ ص ٤١٨ : الحميسيون وهو خطأ .

(٢) في الكامل حـ ٥ ص ٤١٨ : يزيد بن معاوية بن عباس بن جعفر ويؤيد المخطوطات الطبري حـ ١١ ص ٢٤٣

(٣) في ا : أسماء بنت حسن بن عبيدالله بن العباس وفي ت : أسماء بنت حسن بن عبد الله ابن العباس والتصويب عن الكامل حـ ٥ ص ٤١٨ والطبري حـ ١١ ص ٢٤٤

بخمار أسود فرفع على منارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أصحاب محمد بن عبد الله : دُخِلت المدينة فهربوا ، فقال يزيد : لكل قوم جبل يعصمهم ، ولنا جبل لا نؤتى إلا منه ! ! – يعنى سكّعا ، وفتح بنو أبى عمرو النفاريّون طريقا فى بنى غفار لأصحاب عيسى ، فدخلوا منه أيضا وجاءوا من وراء أصحاب محمد ، ونادى محمد حُميدَ بن قَحطبة : أبرزْ إلىّ فأنا محمد بن عبد الله ، فقال حُميد : قد عرفتُك ، وأنت الشريف ابن الشريف ، الكريم ابن الكريم ، والله ، لا أبرز إليك وبين يدىّ من هؤلاء الأغمار واحد ، فإذا فرغت منهم فسأبرز إليك ، وجعل حميد يدعو ابن خُضَير إلى الأمان ، وابن خضير يحمل على الناس راجلا ، لا يصغى إلى أمانه وهو يأخذهم بين يديه ، فضربه رجل من أصحاب عيسى على إليته فحلّها ، فرجع إلى أصحابه فشدّها بثوب ، ثم عاد إلى القتال ، فضربه إنسانٌ على عينه فغاص[1] السيف ، وسقط فابتدروه فقتلوه وأخذوا رأسه ، وكأنّه باذنجانة مفلقة من كثرة الجراح فيه ، فلما قُتل تقدّم محمد فقاتل على جيفته ، فجعل يهدّ الناس هدًّا ، وكان أشبه الناسَ بقتال حمزة بن عبد المطّلب رضى الله عنه ، ولم يزل محمد يقاتل حتى ضربه رجل دون شحمة أذنه اليمنى ، فبرك لركبتيه وجعل يذبّ عن نفسه ، ويقول : ويحكم ابن نبيّكم مجرّح مظلوم ، فطعنه ابن قحطبة فى صدره فصرعه ، ثم نزل إليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى ، وهو لا يُعرف من كثرة الدماء ؛ وقيل إن عيسى بن موسى اتّهم حُميد بن قحطبة وكان على الخيل ، فقال

(١) فى ت : فخاص ويؤيد ا الكامل جـ٥ ص ٤١٩ .

له : ما أراك تُبالغ ! ! فقال له : اتتَهمنى ! ! فو الله لأضربنّ محمدا حين أراه بالسيف أو أقتل دونه ، قال : فمرّ به وهو مقتول فضربه ليبرّ يمينه ، وقيل بل رُمى بسهم وهو يقاتل ، فوقف إلى جدار فتحاماه الناس ، فلما وجد الموت تحامل على سيفه فكسره ، وهو ذو الفقار ، سيف على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقيل بل أعطاه رجلا من التجار ، كان معه وله عليه (١) أربعمائة دينار ، وقال خذه فإنّك لا تلقى أحدًا من آل أبى طالب إلا أخذه وأعطاك حقّك ، فلم يزل عنده حتى ولى جعفر بن سليمان المدينة ، فأُخبر به فأخذ السيف منه وأعطاه أربعمائة دينار ، ولم يزل معه حتى أخذه منه المهدى ، ثم صار إلى الهادى فجرّبه فى كلب فانقطع السيف ؛ وقيل بل بقى إلى أيامُ الرشيد ، وكان يتقلّده وكان به ثمانى عشرة فقارة .

قال : ولما أتى عيسى برأس محمد قال لأصحابه : ما تقولون فيه ؟ فوقعوا فيه ، فقال بعضهم : كذبتم ما لهذا قاتلناه ، ولكنّه خالف أمير المؤمنين ، وشقّ عصا المسلمين ، وإن كان لصوّاما قوّاما فسكتوا . وأرسل عيسى بن موسى الرأس إلى المنصور مع محمد بن أبى الكرام بن عبد الله بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وبالبشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وأرسل معه رؤوس بنى شجاع ، فأمر المنصور برأس محمد فطيف به فى الكوفة وسيرّه إلى الآفاق . قال : ولمّا رأى المنصور رؤوس بنى شجاع قال : هكذا فليكن الناس ! طلبتُ محمدا فاشتمل عليه

(١) فى ت : تزيد دين (العبارة فيها : وله عليه دين أربعمائة دينار) .

هؤلاء ، ثم نقلوه وانتقلوا معه ، ثم قاتلوا معه حتى قُتلوا . وكان مقتل محمد وأصحابه يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من شهر رمضان خمس وأربعين ومائة .

قال (١) : وكان المنصور قد بلغه أن عيسى بن موسى قد هزم ، فقال : كلّا ، فأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء ؟ ماأنى (٢) لذلك بعد . ثم بلغه أنّ محمدًا هرب ، فقال : كلّا ، إنّا أهل بيت لا نفرّ ، فجاءته بعد ذلك الرؤوس . قال : ولما وصل رأس محمد إلى المنصور كان الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب عنده ، فلما رأى الرأس عظم عليه وتجلّد خوفاً من المنصور ، فالتفت المنصور إليه وقال : أهو هو ؟ قال : نعم ، ولوددتُ أن الله تعالى قاده إلى طاعتك ، ولم تكن فعلت به كذا ، قال : وأنا وإلاّ فأم موسى طالق ، ولكنه أراد قتلنا فكانت نفسنا أكرم علينا من نفسه .

قال : وأرسل عيسى بن موسى ألوية فنُصبت فى مواضع بالمدينة ، ونادى مُنَاديه : من دخل تحت لواءٍ منها فهو آمن ؛ وأخذ أصحاب محمد فصلبهم ما بين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفّين ، ووكل بخشبة ابن خضير من يحفظها ، فاحتمله قوم من الليل فواروه سرا ، وبقى الآخرون ثلاثا ، ثم أمر بهم عيسى فألقوا فى مقابر اليهود ، ثم ألقوا بعد ذلك فى خندق ذباب ، فأرسلت زينب بنت عبد الله ،

(١) لا يزال المؤلف ينقل عن الكامل لابن الأثير .

(٢) فى الكامل جـ٥ ص ٤٢٠ : ما أتى كذلك بعد وهو خطأ ، وفى المخطوطات : ما أن والتصويب عن الطبرى حـ ١١ ص ٢٥٠ .

أخت محمد – وابنته [1] فاطمة إلى عيسى : إنكم قد قتلتموه وقضيتم حاجتكم منه ، فلو أذنتم لنا فى دفنه ! ! فأذن لهما فدفن بالبقيع . قال : وقطع المنصور الميرة عن المدينة فى البحر ، ثم أذن فيها المهدى .

قال : ورد الخبر بقتل محمد بن عبد الله على أخيه إبراهيم بالبصرة يوم العيد ، وكان إبراهيم قد استولى على البصرة ، فخرج فصلى بالناس ، ونعاه على المنبر وأظهر الجزع عليه .

قال : وكان محمد بن عبد الله بن حسن أسمر شديد السمرة ، سميناً شجاعاً كثير الصوم والصلاة شديد القوّة رحمه الله تعالى . قال : وسئل جعفر الصادق عن أمر محمد فقال : فتنة يقتل فيها محمد ، ويقتل أخوه لأبيه وأمّه بالعراق ، وحوافر فرسه فى ماء . قال : وقال محمد بن عبد الله لعبد الله بن عامر السُّلمى : تغشانا سحابة فإن أمطرتنا ظفرنا ، وإن تجاوزتنا إليهم فانظر إلى دمى عند أحجار الزيت ، قال : فو الله لقد أظلّتنا سحابة فلم تمطرنا ، وتجاوزتنا إلى عيسى وأصحابه فظفروا ، وقتلوا محمدا ورأيت دمه عند أحجار الزيت ، وكان محمد يلقّب المهدى رحمه الله .

(١) فى الكامل حـ٥ ص ٤٢١ : ابنة و يؤيد المخطوطات الطبرى حـ١١ ص ٢٥٢

ذكر تسمية المشهورين
ممن كان مع محمد بن عبد الله بن حسن

كان معه من بنى هاشم أخوه موسى بن عبد الله بن حسن ، وحسين[١] وعلى ابنا زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ ولمّا بلغ المنصور أن ابنى زيد أعانا محمداً عليه قال : عجبا لهما ! ! قد خرجا علىّ وقد قتلنا قاتل أبيهما كما قتله ، وصلبناه كما صلبه وأحرقناه كما أحرقه ؛ وكان معه حمزة بن عبد الله بن محمد بن على بن الحسين ، وعلى وزيد ابنا الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان أبوهما مع المنصور ، والحسن[٢] ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب ، والقاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر ، والمُرَجّى على بن جعفر بن إسحاق بن على بن عبد الله بن جعفر ، وكان أبوه مع المنصور[٢] ؛ وكان معه من غيرهم :

محمد بن عبد الله بن عمرو بن سعيد بن العاص ، ومحمد بن عجلان ، وعبد الله[٣] بن عمر بن حفص بن عاصم أخذ أسيرا ، فأتى به المنصور فقال له : أنت الخارج علىّ ؟ قال : لم أجد إلا ذلك أو الكفر بما أنزل الله على محمد، وكان معه أبو بكر بن عبدالله بن محمد بن

---

(١) فى تاريخ الطبرى حـ ١١ ص ٢٥٨ : حسين وعيسى ، وفى الهامش تذكرا احدى المخطوطات أنه على ، ويتفق الكامل مع المخطوطات لأن النقل كان منه راجع حـ ٥ ص ٤٢١

(٢) هذا الجزء ساقط من ت

(٣) فى تاريخ الطبرى حـ ١١ ص ٢٥٩ : عبيدالله ويتفق الكامل مع المخطوطات لان النقل منه راجع حـ ٥ ص ٤٢١ ، ص ٤٢٢

أبى سَبْرَة ، وعبد الواحد بن أبى عَوْن - مولى الأزد ، وعبد الله بن جعفر ابن عبد الرحمن بن المِسْوَر بن مَخْرَمة ، وعبد العزيز بن محمد الدَّراوَرْدى ، وعبد الحميد بن جعفر ، وعبد الله بن عطاء بن يعقوب ، مولى بنى سباع ، وإبراهيم وإسحاق وربيعة[1] وجعفر وعبد الله وعطاء ويعقوب وعثمان وعبد العزيز بنو عبد الله بن عطاء ، وعيسى بن خُضَير وعثمان بن خُضير ، وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير هرب بعد مقتل محمد ، فأتى البصرة فأخذ منها وأُتى به المنصور ، فقال له : هيه يا عثمان ، أنت الخارج علىّ مع محمد ! ! قال : بايعته أنا وأنت بمكة ، فوفيت ببيعتى وغدرت ببيعتك ، قال : يا ابن اللخناء ، قال : ذاك من قامت عنه الاماء يعنى المنصور ، فأمر به فقتل ، وكان مع محمد عبد العزيز بن عبد الله[2] بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأُخذ أسيرا فأطلقه المنصور ؛ وعبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع ؛ وعلى بن المطلب بن عبد الله بن حَنْطَب ؛ وإبراهيم بن جعفر بن مصعب بن الزبير ؛ وهشام بن عُمارة بن الوليد بن عدى بن الخِيار ؛ وعبد الله بن يزيد بن هرمز وغيرهم .

---

(١) فى ت : زمعة ويزيد ك ، الطبرى حـ ١١ ص ٢٦٠

(٢) فى المخطوطات متابعة الكامل حـ ٥ ص ٤٢٢ : عبيد الله وهو خطأ صححته المخطوطات فى فصل ظهور الحسين بن على قتيل فخ وذكره الطبرى صحيحا حـ ١٠ ص ٢٤٣ ، ص ٢٦٤

ذكر ظهور ابراهيم بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب أخى محمد

كان ظهوره بالبصرة فى أول شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وكان قبل ظهوره قد طلب أشد الطلب ، فحكت جارية له أنّهم لم تقرّهم أرض خمس سنين ، مرة بفارس ، ومرة بكرمان ، ومرة بالجبل ، ومرة بالحجاز ، ومرة باليمن ، ومرة بالشام ، ثم إنّه قدم الموصل وقدمها المنصور فى طلبه ، فحكى إبراهيم عن نفسه قال : اضطرّنى الطلب بالموصل حتى جلست على مائدة المنصور ، ثم خرجت وقد كفّ الطلب ، وكان قوم من أهل العسكر يتشيّعون ، فكتبوا إلى إبراهيم يسألونه القدوم عليهم ليثبوا بالمنصور فقدم عسكر أبى جعفر وهو ببغداد وقد خطّها ، وكانت له مرآة ينظر فيها ، فيرى عدوّه من صديقه ، فنظر فيهافقال : يا مُسَيَّب قد رأيت إبراهيم فى عسكرى ، وما فى الأرض أعدى لى منه ، فانظر أىّ رجل يكون ؟ ثم إنّ المنصور أمر ببناء قنطرة الصراة العتيقة ، فخرج إبراهيم ينظر إليها مع الناس ، فوقعت عليه عين المنصور ، فجلس إبراهيم وذهب فى الناس ، فأتى فاميا فلجأ إليه فأصعده غرفة له ، وجدّالمنصور فى طلبه ووضع الرصد بكل مكان ، فثبت [1] إبراهيم مكانه ، فقال له صاحبه سفيان بن حيّان العَمِىّ [2] : قد نزل بنا ما ترى ، ولابد

(١) موضع هذه الكلمة فى الكامل حـ٥ ص ٤٢٨ والطبرى حـ١١ ص ٢٨٥ : فنشب والمعنى واحد .

(٢) فى الكامل حـ٥ ص٤٢٨ : القمى ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١١ ص٢٨٥

من المخاطرة ، قال : فأنت وذاك ، فأقبل سفيان إلى الربيع ، فسأله الإذن على المنصور فأدخله إليه ، فلمّا رآه شتمه فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أهل لما تقول ، غير أنّي أتيتك تائبا ولك عندي كلّ ما تحبّ ، وأنا آتيك بإبراهيم بن عبد الله ، إنّي قد بلوتهم فلم أجد فيهم خيرًا ، فاكتب لى جوازا ولغلام معى ، واحملنى على البريد ووجّهْ معى جندا ، فكتب له جوازا ودفع إليه جندا ، وقال له : هذه ألف دينار[1] فاستعنْ بها ، قال : لا حاجة لى فيها ، فأخذ منها ثلاثمائة دينار ، وأقبل والجند معه فدخل البيت على إبراهيم ، وعلى إبراهيم جبة صوف وقباء كأقبية الغلمان ، فصاح به فوثب فجعل يأمره وينهاه ، وسار على البريد ، وقيل لم يركب البريد ، وسار حتى قدم المدائن ، فمنعه صاحب القنطرة بها ، فدفع جوازه إليه ، فلما جازها قال له الموكّل بالقنطرة : ما هذا غلام وإنّه لإبراهيم بن عبد الله ، اذهب راشدا فأطلقهما ، فركبوا سفينة حتى قدموا البصرة ، فجعل يأتى بالجند الدار لها بابان ، فيقعد البعض منهم على أحد البابَيْن ، ويقول : لا تبرحوا حتى آتيكم ، فيخرج من الباب الآخر ويتركهم ، حتى فرّق الجند عن نفسه وبقى وحده ، وبلغ الخبر سفيان بن معاوية أمير البصرة ، فأرسل إلى الجند فجمعهم ، وطلب العَمِىّ فأعجزه ، وكان إبراهيم قد قدم الأهواز قبل ذلك فاختفى عند الحسن بن حبيب[2] ،

(١) فى ك : درهم ويزيد ا ، ت الكامل حـ ٥ ص ٤٢٩ ، والطبرى حـ ١١ ص ٢٨٦ ، وما هو مذكور بعد .

(٢) فى الكامل حـ ٥ ص ٤٢٩ : الحسن بن خبيب ويزيد المخطوطات الطبرى حـ ١١ ص ٢٨٨

وكان محمد بن حُصَين يطلبه ، فقال يوما : إنَّ أمير المؤمنين كتب إلىَّ يخبرنى أنَّ المنجّمين أخبروه : أنَّ إبراهيم نازل بالأهواز ، وهو فى جزيرة بين نهرين ، وقد طلبتُه فى الجزيرة وليس هناك ، وقد عزمتُ أن أطلبه غدا بالمدينة ، لعلَّ أمير المؤمنين يعنى بقوله - بين نهرين - بين دجيل والمَسْرُقان ، فرجع الحسن بن حبيب إلى إبراهيم فأخبره ، وأخرجه إلى ظاهر البلد ، ولم يطلبه محمد ذلك اليوم ، فلما كان آخر النهار خرج الحسن إلى إبراهيم ، فأدخله البلد وهما على حمارين وقت العشاء الآخرة ، فلحقه أوائل خيل ابن الحصين ، فنزل إبراهم عن حماره كأنَّه يبول ، فسأل ابن الحُصَيْن الحسن بن حبيب عن مجيئه ، فقال : جئت من عند بعض أهلى ، فمضى وتركه ، ورجع الحسن إلى إبراهيم فأركبه وأدخله إلى منزله ، فقال له إبراهيم : والله لقد بُلْت دما ، فأتيت الموضع فرأيته وقد بال دما ، ثم إن إبراهيم قدم البصرة ، قيل قدمها فى سنة خمس وأربعين ومائة ، بعد ظهور أخيه محمد بالمدينة ، وقيل قدمها فى سنة ثلاث وأربعين ومائة ، وكان الذى أقدمه وتولى أمره - فى قول بعضهم - يحيى بن زياد بن حيان [1] النبطى ، وأنزله فى داره فى بنى ليث ، وقيل نزل فى دار أبى فروة ، ودعا الناس إلى بيعة أخيه ، وكان أوّل من بايعه نُمَيْلة بن مُرَّة العَبْشمى ، وعَفْو الله بن سفيان ،

(١) هكذا فى المخطوطات وفى الكامل حـ ٥ ص ٤٣٠ وفى تاريخ الطبرى حـ ١١ ص ٢٨٨ والبداية والنهاية لأبى الفدا (ابن كثير) حـ ١٠ ص ٩١ : يحيى بن زياد بن حسان النبطى .

وعبد الواحد بن زياد ، وعمرو [١] بن سَلمة الهُجَيْمِى ، وعبد الله [٢] ابن يحيى بن حُصَين الرَّقَاشِى ، وندبوا الناس ، فأجابهم المغيرة بن الفزع [٣] وأشباه له ، وأجابه أيضا عيسى بن يونس ، ومُعَاذ بن مُعَاذ ، وعَبَّاد بن العَوَّام ، وإسحاق بن يوسف الأزرق ، ومعاوية بن هشيم ابن [٤] بشير ، وجماعة كثيرة من الفقهاء وأهل العلم ، حتى أحصى ديوانه أربعة آلاف ، وشهر أمره فقالوا له : لو كنت تحوّلت إلى وسط البصرة ، أتاك الناس وهم مستريحون ، فتحوّل فنزل دار أبى مروان — مولى بنى سُلَيم — فى مقبرة بنى يَشْكُر .

وكان سفيان بن معاوية — أمير البصرة — قد مالأ على أمره ، ولما ظهر أخوة محمد كتب إليه يأمره بالظهور ، فوجم لذلك واغتمّ ، فجعل بعض أصحابه يسهّل عليه ذلك ، وقال له : قد اجتمع لك عالم من الناس ، فطابت نفسه ، وكان المنصور بظاهر الكوفة فى قلّة من العساكر ، وقد أرسل ثلاثة من القوّاد إلى سفيان بن معاوية بالبصرة مددا له ، ليكونوا عونا له على إبراهيم ، إن ظهر ، فلما أراد إبراهيم الظهور أرسل إلى سفيان فأعلمه ، فجمع القوّاد عنده ، وظهر إبراهيم أول شهر

(١) هكذا فى المخطوطات والكامل حـ٥ ص٤٣٠ وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص٢٩٠ : عمر بن سلمة الهجيمى .

(٢) هكذا فى المخطوطات وفى الكامل حـ٥ ص ٤٣٠ وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص٢٩٠ : عبيد الله .

(٣) فى المخطوطات : المغيرة بن الأقرع والتصويب عن الكامل حـ٥ ص٤٣٠ الطبرى حـ ١١ ص ٢٩٠

(٤) فى المخطوطات : ومعاوية وهشيم بن بشير ، وفى تاريخ الطبرى حـ ١١ ص٢٩٨ معاوية بن هشام والتصويب عن الكامل حـ٥ ص ٤٣٠ يؤيده الامام شمس الدين الذهبى فى تذكرة الحفاظ حـ١ ص٢٢٥

رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، فغنم دوابّ أولئك الجند ، وصلّى بالناس الصبح بالجامع ، وقصد دار الإمارة وبها سفيان متحصنا ، فحضره فطلب سفيان منه الأمان، فأمّنه إبراهيم ودخل إلى الدار ، ففرشوا له حصيرا فهبّت الريح فقلبته قبل أن يجلس ، فتطيّر الناس لذلك ، فقال إبراهيم : إنّا لا نتطيّر وجلس عليه مقلوبا ، وحبس القوّاد وحبس أيضا سفيان بن معاوية فى القصر وقيّده بقيد خفيف ، ليعلم المنصور أنه محبوس ، وبلغ جعفرا ومحمدا ، ابنى سليمان بن على ظهور إبراهيم ، فأتيا فى ستمائة رجل ، فأرسل إليهما إبراهيم المضاء ابن القاسم الجزرى فى خمسين رجلا فهزمهما ، ونادى منادى إبراهيم : لا يتبع منهزم ولا يذفف[1] على جريح ، ومضى إبراهيم بنفسه إلى باب زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ؛ وإليها ينسب الزينبيون من العباسيين ، فنادى بالأمان وألاّ يعرض لهم أحد ، فصفت له البصرة ووجد فى بيت ما لها ألفى ألف درهم ، فقوى بذلك وفرض لأصحابه لكل رجل خمسين درهما .

فلما استقرت له البصرة أرسل المغيرة إلى الأهواز ، فبلغها فى مائتى رجل ، وكان فيها محمد بن الحُصَين عاملا للمنصور ، فخرج إليه فى أربعة آلاف فالتقوا ، فانهزم ابن الحصين ودخل المغيرة الأهواز ؛ وقيل إنّما سيرّ إبراهيم المغيرة إلى الأهواز بعد مسيره من البصرة إلى بَاخمْرَى ، وسيرّ إبراهيم إلى فارس عمرو بن شدّاد ، فقدمها وبها إسماعيل وعبد الصمد ابنا على بن عبد الله بن العباس ، فبلغهما دنو

(١) ذف على الجريح ذفاً وذفافاً وذففاً : أجهز عليه (أقرب الموارد).

عمرو – وهما باصطخر – فقصدا داربجرد فتحصّنا بها ، فصارت فارس فى يد عمرو ، وأرسل إبراهيم ،هارون بن سعد[1] العجلىّ فى سبعة عشر ألفا إلى واسط ، وبها هارون بن حُمَيد الإيَادِي من قبل المنصور – فملكها العجلىّ ، وأرسل المنصور لحربه عامر بن إسماعيل المسلىّ[2] فى خمسة ، آلاف وقيل فى عشرين ألفاً ، وكانت بينهم وقعات ثم تهادنوا على ترك الحرب ، حتى ينظروا ما يكون من إبراهيم والمنصور ، فلما قتل إبراهيم هرب هارون بن[3] سعد عنها ، واختفى حتى مات .

قال : ولم يزل إبراهيم بالبصرة ، يفرّق العمّال والجيوش حتى أتاه نعى أخيه محمد قبل الفطر بثلاثة أيام ، فخرج بالناس يوم العيد وفيه الانكسار ، فصلىَ بهم وأخبرهم بقتل محمد ، فازدادوا فى قتال المنصور بصيرة ، وأصبح من الغد فعسكر واستخلف على البصرة نُمَيْلَة ، وخلّف ابنه حسنا معه .

ذكر مسير ابراهيم ومقتله

قال: ثم عزم إبراهيم على المسير ، فأشار عليه أصحابه البصريون أن يقيم ويرسل الجنود ، فيكون ، إذا انهزم لك جند أمددتهم بغيرهم ، فخيف مكانك واتقاك عدوك ، وجبيت الأموال وثبتت وطأتك ، فقال من عنده من أهل الكوفة : إنّ بالكوفة أقواما لو رأوك ماتوا دونك ،

(١) فى الكامل حـ ٥ ص ٤٣١ : مروان بن سعيد العجلى و يؤيد المخطوطات الطبرى حـ ١١ ص ٣٠٢

(٢) فى المخطوطات : عامر بن إسماعيل المسلمى و التصويب عن الكامل حـ ٥ ص ٤٣٢ و الطبرى حـ ١١ ص ٣٠٢ .

(٣) فى المخطوطات : إبراهيم بن سعد ، و فى الكامل حـ ٥ ص ٤٣٢ : مروان بن سعيد و التصويب عن الطبرى حـ ١١ ص ٣٠٣

وإن لم يروك قعدت[1] بهم أسباب شتى ؛ فسار عن البصرة إلى الكوفة ، وكان المنصور – لما بلغه ظهور إبراهيم – فى قلة من العسكر فقال : والله ما أدرى كيف أصنع ! ! ما فى عسكرى إلا ألفا رجل ، فرّقتُ جندى ! ! فمع المهدى بالرىّ ثلاثون ألفا ، ومع محمد بن الأشعث بإفريقية أربعون ألفا ، والباقون مع عيسى بن موسى ، والله : لئن سلمتُ من هذه لا يفارق عسكرى ثلاثون ألفا ، ثم كتب إلى عيسى بن موسى يأمره بالعود مسرعا ، فأتاه الكتاب وقد أحرم بعُمْرة فتركها ، وعاد وكتب إلى سلم بن قتيبة فقدم عليه من الرىّ ، فقال له المنصور : اعمد إلى إبراهيم ولا يروعنّك جمعه ، فو الله – إنّهما جملا بنى هاشم المقتولان ، فثِقْ بما أقول ، وضمّ إليه غيره من القوّاد . وكتب إلى المهدى يأمره بانفاذ خُزَيْمَة بن خازِم إلى الأهواز ، فسيّره فى أربعة آلاف فارس فوصلها ، وقاتل المغيرة ، فرجع المغيرة إلى البصرة ، واستباح خزيمة الأهواز ثلاثا ، وتوالت على المنصور الفتوق : من البصرة والأهواز وفارس وواسط والمداين والسواد ، وإلى جانبه أهل الكوفة فى مائة ألف مقاتل ، ينتظرون به صيحة ، فلما توالت الأخبار عليه بذلك أنشد :

وجعلتُ نفسى للرماح دريّــةً إن الرئيس بمثل ذاك فعول[2]

---

(١) فى المخطوطات : بعدت والتصويب عن الكامل حـ ٥ ص ٤٣٣ والطبرى جـ ١١ ص ٣٠٩

(٢) البيت فى المخطوطات مثل ما فى الكامل حـ ٥ ص ٤٣٣ ، وفى تاريخ الطبرى حـ ١١ ص ٣٠٧

ونصبت نفسى للرماح درية إن الرئيس لمثل ذاك فعول

ثم إن المنصور رمى كل ناحية بحجرها ، وبقى على مصلاّه خمسين يوماً ، ينام عليه ويجلس عليه ، وعليه جبة ملوّنة ، قد[1] اتسخ جيبها ، ما غيّرها ولا هجر المصلىّ ، إلّا أنّه ، إذا ظهر للناس لبس السواد ، فإذا فارقهم رجع إلى هيئته ، وأهديت إليه امرأتان من المدينة ، إحداهما فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله والأخرى أمَة[2] الكريم بنت عبد الله من ولد خالد بن أسيد ، فلم ينظر إليهما ، فقيل له : إنّهما قد ساءت ظنونهما ، فقال : ليست هذه أيام نساء ، ولا سبيل إليهما حتى أنظر : أرأس[3] إبراهيم لى أم رأسى له ؟ قال الحجّاج بن قتيبة : لما تتابعت الفتوق على المنصور ، دخلتُ مسلّما عليه وقد أتاه خبر البصرة والأهواز وفارس ، وعساكر إبراهيم قد عظمت ، وبالكوفة مائة ألف سيف بازاء عسكره ، تنتظر صيحة واحدة فيثبون به ؛ فرأيته أحوذيا[4] مشمرا قد قام إلى ما نزل به من النوائب يعركها ، فقام بها ولم تقعد به نفسه ، وإنّه لكما قال الأوّل :

نفس عصامٍ سوّدَتْ عصاما وعلّمتْه الكرّ والإقداما
وصيّرته ملكا هماما

(١) فى ك ، ت : قمل ويؤيد ب الكامل حـ٥ ص ٤٣٣

(٢) هكذا فى المخطوطات ، وفى الكامل حـ٥ ص ٤٣٣ ، والطبرى حـ١١ ص ٣٠٦ : أم الكريم .

(٣) هكذا فى ا ويؤيده الطبرى حـ١١ ص ٣٠٦ ، وفى ك والكامل حـ٥ ص ٤٣٣ : رأس (بغير الهمزة) .

(٤) هكذا فى المخطوطات والكامل حـ٥ ص ٤٣٣ وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص ٣٠٨ فوجدته صقرا أحوزيا . والحوز الذى ينزل وحده ولا يخالط القوم (وهو بالذال وبالزاى) راجع أقرب الموارد مادة حوز .

ثم وجّه المنصور إلى إبراهيم ، عيسى بن موسى فى خمسة عشر ألفا ، وعلى مقدّمته حُميد بن قحطبة فى ثلاثة آلاف ، وقال له – لمّا ودّعه – : إنّ هؤلاء الخبثاء – يعنى المنجّمين – يزعمون أنّك إذا لاقيت إبراهيم ، تجول أصحابك جولة حين تلقاه ، ثم يرجعون إليك ونكون العاقبة لك. قال : ولمّا سار إبراهيم عن البصرة مشى ليلة فى عسكره سرًا ، فسمع أصوات الطنابير ، ثم فعل ذلك ليلة أخرى فسمعها أيضا ، فقال : ما أطمع فى نصر عسكر فيه مثل هذا ، وسمع وهو ينشد فى طريقه أبيات القطامىّ :

أمورٌ لو تدبّرها حليمٌ إذًا لَنَهَى وهَيَّبَ ما استطاعا
ومعصيةُ الشفيق عليك مِمّا يَزِيدك مَرَّةً منه استماعا
وخيرُ الأمرِ ما اسْتَقْبَلْتَ منه وليس بأنْ تَتَبَّعَهُ اتباعا
ولكنَّ الأديمَ إذَا تَفَرَّى بِلىً وتَعَيُّباً غلب الصِّنَاعا

فعلموا أنّه نادم على مسيره ، وكان ديوانه قد أحصى مائة ألف ، وقيل كان معه فى طريقه عشرة آلاف ، وقيل له فى طريقه ليأخذ غير الوجه الذى فيه عيسى بن موسى ويقصد الكوفة ، فإن المنصور لا يقوم له وينضاف أهل الكوفة إليه ، ولا يبقى للمنصور مرجع دون حُلْوان ، فلم يفعل ، وقيل له ليبيّت عيسى بن موسى ، فقال : أكره البيات إلا بعد الإنذار ، وقال له بعض أهل الكوفة : إئذن لى بالمسير إلى الكوفة ، أدعو الناس سرًا ثم أجهر ، فإذا سمع المنصور الهيعة بأرجاء الكوفة ، لم يردّ وجهه شىء دون حُلْوان ، فاستشار إبراهيم بشير الرحّال ، فقال : لو وثقنا بالذى تقول لكان رأيا ، ولكنّا لا نأمن أن

تجيئك منهم طائفة ، فيرسل إليهم المنصور الخيل ، فيأخذ البرىء والصغير والمرأة ، فيكون ذلك تعرّضا للمآثم ، فقال الكوفى : كأنكم خرجتم لقتال المنصور وأنتم تتوقون قتل الضعيف، والصغير والمرأة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث سراياه ، فيقاتل ويكون نحو هذا ، فقال بشير : أولئك كفار وهؤلاء مسلمون ، فاتّبع إبراهيم رأيه وسار حتى نزل باخمرا ، وهى من الكوفة على ستة عشر فرسخا ، مقابل عيسى بن موسى ، فأرسل إليه سَلْم بن قُتَيْبَة يقول : إنك قد أصحرت[1] ، ومثلك أنفس به عن الموت ، فخندق على نفسك حتى لا تؤتى إلا من وجه واحد ، فإن أنت لم تفعل فقد أعرى أبو جعفر عسكره ، فتخفف فى طائفة حتى تأتيه فتأخذ بقفاه ، فدعا إبراهيم أصحابه وعرض عليهم ذلك ، فقالوا : نخندق على أنفسنا ونحن ظاهرون عليهم ؟ ! لا والله لا نفعل ؛ قال : فنأتى أبا جعفر ، قالوا : ولِمَ وهو فى أيدينا ، متى أردناه ؟ ! فقال إبراهيم للرسول : أتسمع، فارجع راشدا .

ثم إنهم تصافوا ، فصفّ إبراهيم أصحابه صفاً واحدًا ، فأشار عليه بعض أصحابه بأن يجعلهم كراديس ، فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، فإنّ الصفّ إذا انهزم بعضه تداعى سائره ، فقال الباقون : لا نصفّ إلا صفّ أهل الإسلام ، يعنى قول الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)[2] ، ثم التقوا

(١) أصحر : برز إلى الصحراء لا يواريه شئ (راجع أقرب الموارد — مادة صحر).

(٢) سورة : ٦١ آية : ٤

واقتتلوا قتالا شديدًا ، فانهزم حُميد بن قحطبة وانهزم الناس معه ، فعرض لهم عيسى يناشدهم الله والطاعة ، فلا يلوون عليه ، وأقبل حُميد منهزما فقال له عيسى : الله الله والطاعة ، فقال لا طاعة فى الهزيمة ، ومرّ الناس فلم يبق مع عيسى إلا نفر يسير ، فقيل له : لو تنحّيت عن مكانك حتى يثوب إليك الناس ، فتكرّ بهم ؟ فقال : لا أزول عن مكانى هذا أبدا حتى أقتل أو يفتح الله على يدى ، والله لا ينظر أهل بيتى إلى وجهى أبدا وقد انهزمت عن عدوّهم ، وجعل يقول لمن يمرّ به : اقرأوا أهل بيتى السلام ، وقولوا لهم لم أجد فداءً أفديكم به أعزّ من نفسى ، وقد بذلتها دونكم ، فبينما هم كذلك لا يلوى أحد على أحد إذ أتى جعفر ومحمد ابنا سليمان بن على من ظهور أصحاب إبراهيم ، ولا يشعر باقى أصحابه الذين يتّبعون المنهزمين ، حتى نظر بعضهم فرأى القتال من وزائهم ، فعطفوا نحوه ورجع أصحاب المنصور يتبعونهم ، فكانت الهزيمة على أصحاب إبراهيم ، فلولا جعفر ومحمد لتمّت الهزيمة ، وكان من صنع الله للمنصور أن أصحابه لقيهم نهر فى طريقهم ، فلم يقدروا على الوثوب ولم يجدوا مخاضة فعادوا بأجمعهم ؛ وكان أصحاب إبراهيم قد مخروا الماء ليكون قتالهم من وجه واحد ؛ فلما انهزموا منعهم الماء من الفرار ، وثبت إبراهيم فى نفر من أصحابه يبلغون ستمائة ، وقيل أربعمائة ، فقاتلهم حُميد وجعل يرسل بالرؤوس إلى عيسى ، وجاء إبراهيم سهم عائر[1] فوقع فى حلقه فنحره ، فتنحّى عن موقفه وقال : أنزلونى ، فأنزلوه عن مركبه وهو يقول : وكان

(١) سهم عائر : هو الذى لايدرى من رمى به (راجع أقرب الموارد — مادة عير) .

أمر الله قدراً مقدوراً ، أردنا أمرًا وأراد الله غيره ، واجتمع عليه أصحابه وخاصته يحمونه ويقاتلون دونه ، فقال حُميد بن قحطبة لأصحابه : شدّوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن موضعهم ، وتعلموا ما اجتمعوا عليه ، فشدّوا عليهم فقاتلوهم أشد القتال ، حتى أفرجوهم عن إبراهيم وخلصوا إليه وحزّوا رأسه ، فأتوا[1] به عيسى بن موسى ، فأراه ابن أبي الكرام الجعفريّ ، فقال : نعم هو رأسه[1] ، فنزل عيسى إلى الأرض فسجد ، وبعث برأسه إلى المنصور ، وكان مقتله يوم الاثنين لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة خمس وأربعين ومائة ، وكان عمره ثمانيا وأربعين سنة ، ومكث منذ خرج إلى أن قتل ثلاثة أشهر إلا خمسة أيام .

وقيل كان سبب انهزام أصحاب إبراهيم ، أنهم لما هزموا أصحاب المنصور وتبعوهم نادى منادى إبراهيم : ألا تتبعوا مدبرا فرجعوا ، فلما رآهم أصحاب المنصور راجعين ظنّوهم منهزمين ، فعطفوا فى آثارهم وكانت الهزيمة . قال : وبلغ المنصور الخبر بهزيمة أصحابه أولا ، فعزم على اتيان الريّ ، فأتاه نَوْبَخْت المنجّم فقال : يا أمير المؤمنين ، الظفر لك ، وسيُقتل إبراهيم فلم يقبل منه ، فبينما هو كذلك إذ أتاه الخبر بقتل إبراهيم ، فتمثل :

فألقتْ عصاها واستقرّ بها النَّوَى كما قرّ عيناً بالإياب المسافرُ

فأقطع المنصور نوبخت ألفى جريب بنهر جَوْبَر[2] ، وحمل رأس

(١) هذه العبارة ساقطة من ت

(٢) فى الكامل حـ ٥ ص٤٣٦ : خويزة وفى المخطوطات : جور والتصويب عن الطبرى حـ ١١ ص٣١٨ وفتوح البلدان للبلاذرى (ط . ١٨٦٦ ليدن) ص ٢٧١

إبراهيم إلى المنصور ، فوضع بين يديه فلما رآه بكى ، حتى جرت دموعه على خد إبراهيم ، ثم قال : أما والله إن كنت لهذا كارها ؛ ولكنك ابتُليت بي وابتُليتُ بك ، ثم جلس مجلسا عاما وأذن للناس ، فكان الداخل يدخل فيتناول إبراهيم ، ويسيء القول فيه ويذكر فيه القبيح ، التماسا لرضا المنصور ، والمنصور ممسك متغيّر لونه ، حتى دخل جعفر بن حَنظلة البَهَرانى ، فوقف فسلّم ثم قال : عظّم الله أجرك يا أمير المؤمنين فى ابن عمّك ، وغفر له ما فرط فيه من حقك ؛ فاستقرّ لون المنصور وأقبل عليه ، وقال : مرحبا أبا خالد ههنا ، فعلم الناس[1] أن ذلك يرضيه ، فقالوا مثل قوله . قيل ولما وضع الرأس بين يدى المنصور بصق فى وجهه رجل من الحرس ، فأمر به المنصور فضرب بالعمد ، فهشمت أنفه ووجهه ، وضرب حتى خمد وأمر به فجروا برجله فألقوه خارج الباب .

قال : وممّا رثى به محمدَ بن عبد الله وأخوه إبراهيمَ قول عبد الله ابن مصعب بن ثابت :

يا صاحبيّ دعا الملامة واعلما ... أن لستُ فى هذا بألوم منكما
وقفا بقبر ابن النبيّ فسلّما ... لا بأس أن تقفا به فتسلّما
قبر تضمّن خير أهل زمانه ... حسبا وطيب سجيةٍ وتكرّما
رجل نفى بالعدل جور بلاده ... وعفا عظيمات الأمور وأنعما

(١) فى الكامل حـ٥ ص ٤٣٧ : فأسفر وفى تاريخ الطبرى حـ١١ ص ٣١٨ : فاصفر

لم يجتنب قصد السبيل ولم يجر عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدثان شيئا قبله بعد النبيّ به لكنت المعْظما
أو كان أمتع بالسلامة قبله أحدًا لكان قُصَارُه أن يسلما
ضحّوا بإبراهيم خير ضحيّةٍ فتصرّمَتْ أيامه وتصرّما
بطلاً يخوض بنفسه غمراتها لا طائشاً رعشا ولا مستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما كانت حُتُوفُهُم السيوف وربّما
أضحى بنو حسن أبيح حريمهم فينا وأصبح نهبهم متقسّما
ونساؤهم في دورهنّ نوائح سجع الحمام إذا الحمام ترنّما
يتوسّلون بقتلهم ويرونه شرَفاً لهم عند الامام ومغنما
والله لو شهد النبيّ محمدٌ صلّى الإله على النبيّ وسلّما
إشراع أمّتِه الأسنّةَ لابنه حتى تقطّر من ظباتهم دما
حقاً لأيقن أنهم قد ضيّعوا تلك القرابة واستحلّوا المحرما

هذا ما كان من أخبار محمد بن عبد الله بن حسن وأخيه إبراهيم رحمهما الله تعالى ، ثم لم يتحرك بعدهم أحد من الطالبيين إلى أن ظهر الحسين بن علي بن الحسن .

ذكر ظهور الحسين بن على بن الحسن بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو المقتول بفخ (١)

كان ظهوره بالمدينة فى ذى القعدة سنة تسع وستين ومائة فى خلافة الهادى موسى ، وسبب ذلك أن الهادى استعمل على المدينة عمر ابن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما وليها أخذ أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ، ومسلم بن جُنْدُب الشاعر الهُذَلى ، وعمر بن سلاْم مولى آل عمر ، على شراب لهم ، فأمر بهم فضربوا جميعا ، وجُعل فى أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينة ، فجاء الحسين بن على إلى العُمَرِى ، وقال له : قد ضربتَهم ولم يكن لك أن تضربهم ! لأنّ أهل العراق لا يرون به بأسا ، فلِمَ تطوف بهم ؟ فأمر بهم فردّوا وحبسهم ؛ ثم إن الحسين ابن على هذا ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلا الحسن بن محمد فأخرجه العُمَرى من الحبس ، وكان قد ضمن بعض آل أبى طالب بعضا ، وكانوا يعرضون ، فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين ، فأحضر العُمَرِى الحسين بن على ويحيى بن عبد الله وسألهما عنه وأغلظ لهما ، فحلف له يحيى أنْه لا ينام حتى يأتيه به ، أو يدقّ عليه باب داره حتى يعلم أنْه جاءه به ، فلمّا خرجا قال له الحسين :

---

(١) هو الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى المثنى بن الحسن السبط بن على ابن أبى طالب هذا والمخطوطات والكامل حـ٦ ص٦٠ تذكرة : الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على أبى طالب وهذا خطأ وذكره الطبرى صحيحا حـ١١ ص٥٥١

سبحان الله ! ما دعاك إلى هذا ؟ ومن أين تجد حسنا ؟ حلفتَ له بشيء لا تقدر عليه ، فقال : والله لا نمتُ حتى أضرب عليه باب داره بالسيف ، فقال له الحسين : إنّ هذا ينقض ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد ، وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى أو[1] بمكة فى الموسم ، فقال يحيي : قد كان ذلك فانطلقا ، وعملا فى ذلك من ليلتهم ، وخرجوا آخر الليل ، وجاء يحيي حتى ضرب على العُمَرى باب داره فلم يجده ، وجاءوا فاقتحموا المسجد بعد الصبح ، فلما صلّى الحسين الصبح أتاه الناس فبايعوه : على كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، للمرتضى من آل محمد ، وجاء خالد البربرى[2] فى مائتين من الجند ، وجاء العمرى ووزير بن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد الشّرَوى ومعهم ناس كثير ، فدنا خالد منهم فقام إليه يحيي وإدريس ابنا عبد الله بن حسن ، فضربه يحيي على أنفه فقطعه ، ودار له إدريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه ، وانهزم أصحابه ودخل العمرى فى المسوّدة ، فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد ، وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار ، وقيل سبعون ألفا ، وتفرّق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم ، فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بنى العباس فقاتلوهم ، وفشت الجراحات فى الفريقين ، واقتتلوا إلى الظهر ثم افترقوا ، ثم إن مباركا التركى أتى شيعة بنى العباس من الغد — وكان قدم حاجا — فقاتل معهم فاقتتلوا أشد قتال إلى منتصف النهار ، ثم تفرّقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد ،

(١) فى الكامل حـ ٦ ص ٦١ : و بمكة و يؤيد المخطوطات الطبرى حـ ١١ ص ٥٥٣

(٢) فى الكامل حـ ٦ ص ٦١ : خالد البريدى و التصويب عن الطبرى حـ ١١ ص ٥٥٤

وواعد مبارك الناس الرواح إلى القتال ، فلمّا غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق ، وراح الناس فلم يجدوه ، فقاتلوا شيئا من قتال إلى المغرب ثم تفرّقوا ، وقيل إن مباركا أرسل إلى الحسين يقول له : والله لئن أسقط من السماء فيتخطفنى الطير أيسر علىّ من أن تشوكك شوكة ، أو تُقطع من رأسك شعرة ، ولكن لابدّ من الإعذار ، فبيّتنى فإنى منهزم عنك ، فوجّه إليه حسين أو خرج إليه فى نفر ، فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبّروا ، فانهزم هو وأصحابه، وأقام الحسين وأصحابه أياما يتجهّزون ، فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوما ، ثم خرجوا لست بقين من ذى القعدة ، فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد ، فوجدوا فيه الطعام الذى كانوا يأكلون وآثارهم ، فدعوا عليهم .

ولما فارق الحسين المدينة قال : يا أهل المدينة ، لا خلف الله عليكم بخير ، فقالوا : بل أنت ، لا خلف الله عليك بخير ، ولا ردّك إلينا ، وكان أصحابه يُحْدِثون فى المسجد ، فغسله أهل المدينة . قال : ولما أتى الحسين مكة فنودى : أيما عبدٍ أتانا فهو حرّ ، فأتاه العبيد ، فانتهى الخبر إلى الهادى ؛ وكان قد حجّ تلك السنة رجال من أهل بيته ، منهم سليمان بن المنصور ، ومحمد بن سليمان بن على ، والعباس ابن محمد بن على ، وموسى وإسماعيل ابنا عيسى بن موسى ، فكتب الهادى إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب ؛ وكان قد سار من البصرة بجماعة وسلاح لخوف الطريق ، فاجتمعوا بذى طوًى ، وكانوا قد أحرموا بعُمرة ، فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وحلّوا من العمرة ، وعسكروا بذى طوى وانضمّ إليهم من حجّ من شيعتهم ومواليهم وقوّادهم ، والتقوا واقتتلوا يوم التروية ، فانهزم أصحاب الحسين ،

وقُتل منهم وجرح ، وانصرف [١] محمد بن سليمان ومن معه إلى مكة ، ولا يعلمون حال الحسين [١] ، فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول : البشرى ، البشرى ؛ هذا رأس الحسين فأخرجه وبجبهته ضربة طولا ، وعلى قفاه ضربة أخرى ، وكانوا قد نادوا الأمان ، فجاء الحسن بن محمد بن عبد الله أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد ، فأخذه موسى بن عيسى وعبد الله ابن العباس فقتلاه ، فغضب محمد بن سليمان غضبا شديدا ، وأخذ رؤوس القتلى فكانت مائة رأس ونيّفا ، وفيها رأس سليمان بن عبد الله ابن حسن بن حسن بن على ، وأخذت [٢] أخت الحسين فتُركت عند زينب بنت سليمان ، واختلط المنهزمون بالحاج ، وأتى الهادى بستة أسرى ، فقتل بعضهم واستبقى بعضهم ، وغضب على موسى ابن عيسى كيف قتل الحسن بن محمد ، وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات ، وغضب على مبارك التركى ، وأخذ ماله وجعله سائس الدوابّ ،فبقى كذلك حتى مات الهادى ، وأفلت من المنهزمين إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على [٢] ، فأتى مصر وعلى بريدها واضح ، مولى صالح بن المنصور ، وكان شيعيا فحمله على البريد إلى أرض المغرب ، فوقع بأرض طَنْجَة بمدينة وَلِيلَة ، فاستجاب له من بها من البربر ، فضرب الهادى عنق واضح وصلبه ، وقيل إن

---

(١) هذا العبارة ساقطة من المصدر المرموز له بحرف ك ، وربما كانت هذه العبارة بالأصل المصور ولم تظهر بالتصوير ، ذلك لأن الناسخ وضع إشارة سقط وكتب الساقط فى الهامش ومن ثم لم تظهر .

(٢) هذه العبارات ساقطة من ك .

الرشيد هو الذى قتله ، وأن الرشيد دسّ إلى إدريس الشمّاخ اليامىّ ، مولى المهدى ، فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم وعظّمه وآثره على نفسه ، فمال إليه إدريس وأنزله عنده ، ثم إن إدريس شكا إليه مرضا فى أسنانه ، فوصف له دواء وجعل فيه سما ، وأمره أن يستنّ (١) به عند طلوع الفجر فأخذه منه ، وهرب الشمّاخ ثم استعمل إدريس الدواء فمات منه ، فولىّ الرشيد الشمّاخ بريد مصر . قال : ولما مات إدريس ابن عبد الله خلف مكانه ابنه إدريس بن إدريس ، وأعقب بها وملكوها ، ونازعوا بنى أميّة فى إمارة الأندلس ، وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار الأندلس فلا فائدة فى إعادته . قال : وحملت الرؤوس إلى الهادى ، فلمّا وُضع رأس الحسين بين يديه قال : كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت ! ! إنّ أقلّ ما أجزيكم أن أحرمكم جوائزكم ، فلم يعطهم شيئا .

قال : وكان الحسين شجاعا كريما ، قدم على المهدى فأعطاه أربعين ألف دينار ، ففرّقها فى الناس ببغداد والكوفة ، وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه ، إلا وبرا (٢) ليس تحته قميص ، وهذا غاية فى الجود ونهاية فى الكرم والإيثار ، رحمه الله تعالى وغفر له .

---

(١) فى ك : يشر به ويؤيد ا ، ت الكامل حـ٦ ص ٦٣

(٢) فى الكامل حـ٦ ص ٦٤ والطبرى حـ١١ ص ٥٦٣ : قروا .

ذكر ظهور يحيى بن عبد الله بن الحسن [١] ابن الحسن بن على بن أبى طالب

كان ظهوره فى خلافة الرشيد بن المهدى فى سنة ست وسبعين ومائة ببلاد الديلم ، واشتدت شوكته وكثرت جموعه ، وأتاه الناس من الأمصار ، فاغتمّ الرشيد لذلك ، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى فى خمسين ألفا ، وولّاه جرجان [٢] وطبرستان والرى وغيرها وحمل معه الأموال ، فكاتب يحيى بن عبد الله ولطف به وحذّره ، وأشار عليه وبسط أمله ، ونزل الفضل بالطالقان [٣] ، بمكان يقال له أَشَب ، ووالى كتبه إلى يحيى ، وكاتب صاحب الديلم وبذل له ألف ألف درهم ، على أن يسهّل له خروج يحيى بن عبد الله ، فأجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطّه ، يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بنى هاشم ومشايخهم ؛ منهم عبد الصمد بن على ، فأجابه الرشيد إلى ذلك ، وسرّ به وعظمت منزلة الفضل عنده ، وسيرّ الأمان مع هدايا وتحف ، فقدم يحيى مع الفضل بغداد ، فلقيه الرشيد بكل ما أحبّ وأمر له بمال كثير ، ثم حبسه الرشيد بعد ذلك فمات فى

---

(١) فى ك : يحيى بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب ويؤيد ا ، ت الكامل حـ٦ ص٨٥ والطبرى حـ١١ ص٦١٢ ومقاتل الطالبيين (القاهرة ١٩٤٩) ص ٦٣

(٢) فى المخطوطات : خراسان وبالرجوع إلى الطبرى حـ١١ ص ٦١٣ نجده يقول (فندب إليه الفضل بن يحيى فى خمسين ألف رجل ... وولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان) وابن الاثير فى الكامل حـ٦ ص ٨٥ يقول (... وولاه جرجان وطبرستان والرى وغيرها) وواضح أن النويرى ينقل عن الكامل هنا وفيما سبق ومن ثم فان الخطأ فى النقل .

(٣) طالقان الرى (راجع الطبرى حـ١١ ص ٦١٣)

حبسه ؛ وكان الرشيد قد عرض كتاب أمان يحيى على محمد بن الحسن الفقيه وعلى أبى البخترى القاضى ، فقال محمد : الأمان صحيح ، فحاجّه الرشيد ، فقال محمد : وما يصنع بالأمان ؟ لو كان محارباً ثم ولّى كان آمنا ، وقال أبو البخترى : هذا أمان منتقض من وجه كذا ، فمزقه الرشيد ، وقد ذكرنا خبر يحيى فى حبسه فيما تقدّم من كتابنا هذا ، عند ذكرنا لأخبار القبض على البرامكة فى أيام الرشيد ، وأن الرشيد كان قد حبسه عند جعفر ، فأطلقه جعفر بغير أمر الرشيد ، وقيل بل أخبره بوفاته ، ثم نقله إلى خراسان وأودعه عند أميرها على ابن عيسى بن ماهان ، وأوصاه به أن يكون عنده موسعا عليه واستكتمه أمره ، فكتب علىّ بذلك إلى الرشيد ، فكان ذلك سبب زوال نعمة البرامكة ، وقد تقدّم ذكر هذه القصّة هناك مبسوطة ، ولا فائدة فى تكرار ذلك واعادته ، فلنذكر خلافه من أخبار من ظهر من الطالبيين .

ذكر ظهور محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (١) رضى الله عنه وهو المعروف بابن طباطبا

كان ظهوره بالكوفة لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين ومائة ، فى خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد هارون ، وخرج يدعو إلى الرضا من آل محمد صلّى الله عليه وسلّم ، والعمل بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلم ، وكان القيّم بأمره فى الحرب أبو السرايا السرى بن منصور ، وهو من ولد هانىء بن قبيصة ابن هانىء بن مسعود الشيبانى ، فلما اشتد أمر محمد أراد أن يستقل بالأمر دون أبى السرايا ، فسقاه أبو السرايا سما فمات ، فى مسهّل شهر رجب من السنة المذكورة ، وقد ذكرنا خبره مبيّنا فى أخبار المأمون ابن الرشيد . ولما مات محمد بن إبراهيم نصب أبو السرايا مكانه غلاما أمرد يقال له :

محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين بن على (٢)

وصار الحكم لأبى السرايا ، واستعمل العمّال على البصرة والأهواز وفارس ومكة واليمن ، وانتشر الطالبيون فى البلاد وقوى أمرهم ، إلى أن قتل أبو السرايا وذلك فى المحرم سنة مائتين ، فاستعيدت البلاد من الطالبيين على ما قدّمناه فى أخبار أبى السرايا فى خلافة المأمون .

---

(١) فى ك والكامل حـ٦ ص ٢١١ ، ص٢١٢ : محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب والتصويب عن ا ، ت ويؤيدهما الطبرى حـ١٢ ص ٩٧٦

(٢) سابقه من فرع الحسن وهو من فرع الحسن .

ذكر ظهور ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين[1] بن على بن أبى طالب وماكان من أمره

كان ظهوره بمكة فى سنة مائتين فى خلافة المأمون ، وكان أبو السرايا قد ولّاه اليمن ، فأتاه الخبر بمقتل أبى السرايا وهو بمكة ، فسار إلى اليمن وبها إسحاق بن موسى بن عيسى عاملا للمأمون ، فلمّا بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار نحو مكة ، واستولى إبراهيم على اليمن ، وكان يسمى الجزّار لكثرة من قتل باليمن ، وسبى وأخذ الأموال ، ولم يتمّ أمره ولا أمر غيره ممّن كان أبو السرايا استعملهم ، وقد[2] ذكرنا خبر الحسين بن الحسن الأفطس ومحمد بن جعفر وما كان من أمرهما بمكة فى أخبار المأمون ، ولا فائدة فى اعادته[2] ، وقد ذكرنا أيضا خبر محمد بن القاسم بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وخروجه بالطالقان ، وما كان من أمره فى أخبار المعتصم بالله بن الرشيد فى سنة تسع عشرة ومائتين .

---

(١) فى ت الحسن ويؤيدها ك ، ا الطبرى حـ ١٢ ص ٩٨٧

(٢) هذه الملاحظة ساقطة من ت

ذكر ظهور يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين [(١)] ابن زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب وهو المكنى بأبى الحسين

وكان ظهوره بالكوفة فى سنة خمسين ومائتين فى خلافة المستعين بالله ، وسبب ظهوره أنه نالته ضائقة ، ولزمه دين ضاق به ذرعا ، فلقى عمر بن فرج وهو يتولى أمر الطالبيين ، فكلّمه فى صلته فأغلظ له عمر ، وحبسه فلم يزل محبوسا حتى كفله أهله ، فأطلق وسار إلى بغداد ، فأقام بها سنة ثم رجع إلى سامرّا ، فلقى وصيفا فكلّمه فى رزق يجريه له ، فأغلظ له وصيف وقال : لأى [(٢)] شىء يُجرى على مثلك ؟ فانصرف إلى الكوفة وبها أيوب بن الحسن بن موسى بن جعفر بن سليمان الهاشمى ، عامل محمد بن عبد الله بن طاهر ، فجمع أبوالحسين جمعا كثيرا كثيرا من الأعراب وأهل الكوفة ، وأتى الفَلُّوجَة فكتب صاحب البريد بخبره إلى محمد بن عبد الله ، فكتب محمد بن عبد الله إلى أيوب [(٣)] وعبد الله بن محمود السرخسى ، عامله على معاون السواد ، يأمرهما بالاجتماع على حرب يحيى . قال : ومضى يحيى بن عمر إلى بيت مال الكوفة فأخذ ما كان فيه ، وهو ألفا دينار وسبعون ألف درهم ، وأظهر أمره بالكوفة وفتح السجون وأخرج من فيها ،

---

(١) فى ا ، ت : حسن والتصويب عن ك يؤيده الكامل حـ٧ ص٨٢ و الطبرى حـ٣ص١٥١٥

(٢) فى المخطوطات : لا والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ٨٢ والطبرى حـ١٣ ص١٥١٦

(٣) فى المخطوطات : أبى أيوب والتصويب عن الكامل حـ٧ص٨٣ ويؤيده الطبرى حـ١٣ص ١٥١٧ إذ يذكره : أيوب بن الحسن .

وأخرج العمّال عن الكوفة ، فلقيه عبد الله بن محمود السرخسى فيمن معه ، فضربه يحيي على وجهه ضربة أثخنه بها ، فانهزم عبد الله ، وأخذ أصحاب يحيي ما كان معهم من الدوابّ والمال ، وخرج يحيي إلى سواد الكوفة ، وتبعه جماعة من الزيدية وغيرهم إلى ظهر واسط ، وأقام بالبستان فكثر جمعه ، فوجّه محمد بن عبد الله إلى محاربته الحسين[1] بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب فى جمع من أهل النجدة والقوّة ، فسار إليه ونزل فى مقابلته ولم يقدم عليه ، وسار يحى والحسين فى أثره حتى نزل الكوفة ، ولقيه عبد الرحمن بن الخطاب المعروف بوجه الفَلْس قبل دخولها ، فقاتله فانهزم عبد الرحمن إلى ناحية شاهى فوافاه الحسين بها ، واجتمعت الزيدية إلى يحيي بن عمر ، ودعا بالكوفة إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، واجتمع الناس إليه ، وتولّاه العامّة من أهل بغداد ، ولا يُعلم أنّهم تولوا أحدا من أهل بيته سواه ، وبايعه جماعة من أهل الكوفة ممّن له تدبير وبصيرة فى تشيعهم ، ودخل فيهم أخلاط لا ديانة لهم ، وأقام الحسين بشاهى فأراح واستراح ، واتصلت به الأمداد ، ويحيي بالكوفة يعدّ الرجال ويصلح السلاح ، فأشار عليه جماعة من الزيدية ممّن لا علم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين بن إسماعيل ، وألحّوا عليه فزحف إليه فى ليلة الإثنين لثلاث عشره ليلة خلت من شهر رجب من السنة ، ومعهم الهيضم العجلى وغيره ، ورجاله من أهل الكوفة ليس لهم علم بالحرب

(١) فى المخطوطات : الحسين بن إبراهم بن الحسين بن مصعب والتصويب عن الكامل حـ٧ ص٨٣ وذكرت المخطوطات الاسم صحيحاً بعد ذلك وذكره الطبرى حـ١٣ ص ١٥١٨ : الحسن بن إسماعيل ابن إبراهم بن مصعب .

ولا شجاعة ، وأسروا ليلتهم وصبّحوا حسينا وهومستريح، فثاروا بهم فى الغلس ، فركب أصحاب الحسين وحملوا عليهم فانهزموا ، ووضعوا فيهم السيف وأسَروا منهم ، فكان أوّل من أسر الهيضم العجلى ، وانكشف العسكر عن يحيى وعليه جوشن ، وقد تقطّر[1] به فرسه ، فوقف عليه ابن لخالد بن عمران يقال له خير[2] ، فلم يعرفه وظنّه من أهل خراسان لما رأى عليه الجوشن ، فأمر رجلا فنزل إليه وأخذ رأسه ، فعرفه رجل وسيّر الرأس إلى محمد بن عبد الله بن طاهر ، وادعى قتله غير واحد ، فبعث محمد الرأس إلى المستعين ، فنصب بسامرّا ثم حطّ. وسيّر إلى بغداد لينصب بها ، فلم يقدر محمد بن طاهر على ذلك لكثرة من اجتمع من الناس ، فلم ينصبه وخاف أن يأخذوه ، فجعله فى صندوق فى بيت السلاح ، ووجّه الحسين بن إسماعيل رؤوس من قتل ومن أسر إلى بغداد فحبسوا بها ، وكتب محمد بن عبدالله فيهم فأمر بتخليتهم ودفن الرؤوس .

قال : ولما ورد الخبر بقتل يحيى على محمد بن عبد الله جلس ليهنّأ بذلك ، فدخل عليه داود بن الهيثم الجعفري فقال : أيها الأمير ، إنّك لتهنّأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لعُزّى به ، فما ردّ محمد عليه شيئا ، وأكثر الشعراء المراثى فى يحيى ، لما كان عليه من حسن السيرة والديانة ، فمن ذلك قول بعضهم :

بكت الخيل شجوها بعد يحيى ... وبكاه المهنّد المصقول

(١) تقطر به فرسه : ألقاه على قطره أى أحد جانبيه .

(٢) فى ك : حسن ، وفى ا ، ت : حرا والتصويب عن الكامل حـ ٧ ص ٨٤ والطبرى حـ ١٣ ص ١٥٠ .

وبكته العراق شرقا وغربـــا وبكـاه الكتاب والتنزيـــل
والمصلّى والبيت والركن والحِجْـــر جميعا له عليـه عـــويل
كيف لم تسقط السماء علينـا يوم قالوا أبو الحسين قتيـل
وبنات النبيّ يندبـن شجـوا موجعـات دموعهـن همـول
قطّعت وجهه سيوف الأعـادى بأبى وجهه الوسيم الجميـــل
إنّ يحيى أبقى بقلـبى غليـلا سوف يودى بالجسم ذاك الغليل
قتله مُذكـر لقتـــل علىّ وحسين ويوم أو ذى الرسول
صلوات الإلـه (١) وقفا عليهم ما بكى موجّع وحـنّ ثكـول

ذكر ظهور الحسين بن محمد

وفى سنة إحدى وخمسين ومائتين فى زمن الخلف الذى وقع بين المستعين والمعتز، ظهر بالكوفة رجل من الطالبيين، اسمه الحسين ابن محمد (٢) بن حمزة بن عبد الله بن حسين بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب، واستخلف بها محمد بن جعفر العلوي، فوجّه إليه المستعين مُزَاحم بن خَاقَان، وكان العلوىّ بسواد الكوفة فى جماعة من بنى أسد ومن الزيدية، وأجلى عنها عامل الخليفة، وهو أحمد بن نصر (٣) بن حمزة بن مالك الخزاعى إلى قصر ابن هبيرة، فاجتمع

(١) فى المخطوطات: الرسول وهذا الشعر منقول عن الكامل حـ٧ ص ٨٤، ص ٨٥ والتصويب عنه، وهذا الشعر لم يرد فى تاريخ الطبرى الذى هو مرجع ابن الأثير فيما نقل فى كامله.

(٢) فى الكامل حـ٧ ص ١١٠: أحمد ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص ١٦١٧

(٣) فى الكامل حـ٧ ص ١١٠: نصير ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص ١٦١٧

وهشام بن أبي دُلَف العِجْلي فسارا إلى الكوفة ، فحمل أهل الكوفة العلوية على قتالهما ووعدوهم النصرة ، فقاتلهم مُزاحِم وكان قد سيّر قائدا مع جماعة ، فأتى الكوفة من الجهة الأخرى ، فأطبقوا عليهم فلم يفلت منهم أحد ، ودخل الكوفة فرماه أهلها بالحجارة فأحرقها بالنار ، وأحرق منها سبعة أسواق حتى خرجت النار إلى السبيع ، ثم هجم على الدار التي فيها العلوي ، فهرب وأقام مزاحم بالكوفة .

ذكر خبر اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على

كان ظهوره بمكة فى سنة إحدى وخمسين ومائتين ، ولما ظهر هرب عاملها ، وانتهب إسماعيل داره ومنازل أصحاب السلطان ، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة ، وأخذ ما فى الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة وغير ذلك ، وأخذ كسوة الكعبة ، وأخذ من الناس نحوا من مائتى ألف دينار ، وخرج منها بعد أن نهبها وأحرق بعضها فى شهر ربيع الأوّل ، بعد أن أقام بها خمسين يوما ، وصار إلى المدينة فتوارى عاملها ، ثم رجع إلى مكة فى شهر رجب ، فحصرهم حتى غلت الأسعار ، ولقى أهل مكة منه كل بلاء ، ثم سار إلى جُدّة بعد مقامه سبعة وخمسين يوما ، فحبس عن الناس الطعام ، وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب ، ثم وافى عرفة وبها محمد بن عيسى [1] الملقب كعب البقر ، وعيسى بن

(١) هو محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور راجع الطبرى حـ١٣ ص ١٦٤٥ والكامل حـ٧ ص ١١١ .

محمد المخزومى كان المعتز قد وجّههما إليها ، فقاتلهما إسماعيل ، وقُتل من الحاج نحو ألف ومائة انسان ، وسلب الناس فهرّبوا إلى مكة ، ولم يقفوا بعرفة ليلا ولا نهارا ، ووقف إسماعيل وأصحابه ، ثم رجع إلى جُدّة فجبى [1] أموالها .

ذكر ظهور على بن زيد العلوى بالكوفة وخروجه عنها

كان ظهوره فى سنة ست وخمسين ومائتين واستولى على الكوفة ، وأزال عنها نائب الخليفة المعتمد على الله واستقرّ بها ، فسيرّ إليه المعتمد الشاه بن ميكال فى جيش كثيف ، فالتقوا واقتتلوا فانهزمت جيوش المعتمد ، وقتل جماعة منهم ، فسيرّ لمحاربته كنجور [2] التركى ، وأمره [3] أن يدعوه إلى الطاعة ويبذل له الأمان ، ففعل ذلك فطلب علىّ أمورا لم يجبه كنجور [3] إليها ، فخرج علىّ عن الكوفة إلى القادسية فعسكر بها ، ودخل كنجور الكوفة فى ثالث شوال من السنة ، ومضى على بن زيد إلى خَفّان ، ثم دخل البرّ إلى بلاد بنى أسد وكان قد صاهرهم ، فأقام هناك ثم فارقهم وصار إلى جهة [4] : فبلغ كنجور خبره فسار إليه من الكوفة فى سلخ ذى الحجة ، فواقعة فانهزم علىّ وقتل نفر من أصحابه ، ولم يزل علىّ بن زيد إلى سنة ستين فقتله صاحب الزنج . فلنذكر أخبار دولتهم بطبرستان .

(١) هكذا فى المخطوطات وموضع هذه الكلمة فى الكامل حـ٧ ص ١١١ وفى تاريخ الطبرى حـ١٣ ص ١٦٤٥ : فأفنى

(٢) فى الكامل جـ٧ ص ١٦٥ : كيجور ويؤيد المخطوطات الطبرى جـ ١٣ أحداث سنة ٢٥٥ هـ ، سنه ٢٥٦ هـ .

(٣) هذه العبارة ساقطة من ت .

(٤) لم تذكر المخطوطات اسم الجهة، وذكرت فى الكامل حـ٧ ص ١٦٦ : جنبلاء .

ذكر اخبار الدولة العلويه بطبرستان
الداعى الى الحق الحسن بن زيد

كان ظهور هذه الدولة فى سنة خمسين ومائتين فى خلافة المستعين بالله ، وأول من ظهر منهم الداعى إلى الحق : الحسن بن زيد بن محمد ابن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب (١) رضى الله عنهما ، وكان سبب ظهوره أنّ محمد بن عبد الله بن طاهر لما ظفر بيحيي بن عمر أقطعه المستعين بالله من صوافى السلطان بطبرستان ، قطائع منها قطيعة بقرب ثغر الديلم ،وهى كَلَار وسَالُوس؛ وكان بجوارها أرض يحتطب منها أهل تلك الناحية ، وترعى فيها مواشيهم ليس لأحد عليها مِلْك ، إنما هى موتان ، وهى ذات عيون وأشجار وكلأ ، فوجّه محمد بن عبد الله نائبه لحيازة ما أقطع ، وهو جابر بن هارون النصرانى ، وكان عامل طبرستان يومئذ سليمان بن عبد الله بن طاهر ، خليفة عن محمد بن طاهر ، وكان الغالب على أمر سليمان ، محمد بن أوْس البلخى ، وقد فرّق محمد بن أوس هذا أولاده فى مدن طبرستان ، وهم أحداث سفهاء فتأذّى بهم الرعيّة ، وشكوا سوء سيرتهم وسيرة أبيهم وسيرة سليمان ، ثم دخل محمد بن أوس بلاد الديلم ، وهم مسالمون لأهل طبرستان ، فسبى منهم وقتل ، وساء ذلك أهل طبرستان ، ولما قدم جابر بن هارون لحيازة ما أقطع لمحمد

(١) فى المخطوطات : الحسن بن زيدبن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد الجواد بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب و فى الكامل حـ٧ ص٨٥ : الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب والتصويب عن الطبرى حـ ١٣ ص ١٥٢٣ وراجع اعيان الشيعة جـ٢١ ص ٣٢٤ .

ابن عبد الله عَدَا على تلك الأرض المباحة ، فحازها إلى كَلَا روسالوس ، وكان فى تلك الناحية أخوان لهما بأس ونجدة ، مذكوران ببذل الطعام وشدة الطعان ، يقال لأحدهما محمد والآخر جعفر ابنا رستم ، فأنكرا ما فعل جابر من حيازة المَوَات ، وكانا مطاعين [1] فى تلك الناحية ، فاستنهضا من أطاعهما لمنع جابر من حيازة ذلك الموات ، فخافهما جابر وهرب منهما ولحق بسليمان بن عبد الله ، وخاف محمد وجعفر ومن معهما من عامل طبرستان ، فراسلوا من جاورهم من الديلم يذكرونهم العهد الذى بينهم ويعتذرون ممّا فعله محمد بن أوس بهم من السبى والقتل ، واتفقوا على المعاونة على حرب سليمان بن عبد الله وغيره ، ثم أرسل ابنا رستم إلى رجل من الطالبيين - اسمه محمد بن إبراهيم - كان بطبرستان ، يدعونه إلى البيعة له فامتنع من ذلك ، وقال : ولكنىّ أدلكم على رجل منّا ، هو أقوم بهذا الأمر منىّ ، فدلّهم على الحسن بن زيد وهو إذ ذاك بالرىّ ، فوجّهوا إليه برسالة محمد بن إبراهيم يدعونه إلى طبرستان ، فشخص إليها وقد اجتمعت كلمة الديلم وأهل كلاروسالوس على بيعته ، فبايعوه وطردوا عمّال ابن أوس عنهم ، فلحقوا بسليمان .

وانضم إلى الحسن بن زيد أيضا أهل جبال طبرستان ، فتقدم الحسن ومن معه نحو مدينة آمُل طبرستان . وهى أقرب المدن إليهم . وأقبل ابن أوس من سارية لدفعهم عنها . والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا . فتوجه الحسن بن زيد فى جماعة إلى آمُل فدخلها ، فلما سمع ابن أوس

(١) هنا سقط من ك وما هو جدير بالذكر أن السقط فى ك كثير ويذكر منه على سبيل المثال

الخبر – وهو مشغول بحرب أصحاب الحسن–لم تكن له همّة إلا النجاة بنفسه ، فهرب ولحق بسليمان إلى سارية ، واستولى الحسن على آمل ، وكثر جمعه وأتاه كل طالب نهب وفتنة . فأقام بآمل أياما ثم سار نحو سارية لحرب سليمان بن عبد الله ، فالتقوا خارج مدينة سارية ، ونشبت الحرب بينهم ، فسار بعض قوّاد الحسن نحو سارية فدخلها ، فلما سمع سليمان الخبر انهزم هو ومن معه ، وترك أهله وعياله وأثقاله بها ، واستولى الحسن وأصحابه على جميع ذلك ، وسيّر إليه أولاده وأهله فى مركب إلى جرجان ، وقيل إنّ سليمان إنّما انهزم اختيارا ، لأن الطاهريّة كلها كانت تتشيع ، فلما أقبل الحسن نحو طبرستان تأثّم (١) سليمان من قتاله لشدة تشيعه ، وقال :

نبّئت خيل ابن زيد أقبلت حِينا ... تريدنا لِتُحَسّينَا الأمرّينـــا
يا قوم إن كانت الأنباء صادقة ... فالويل لى ولجمع الطاهريّينـــا
أما أنا فإذا اصطفّت كتائبهم ... أكون من بينهم رأس المولّينـــا
والعذر عند رسول الله منبسط ... إذا احتسبت دماء الفاطمّيينـــا

فلما التقوا انهزم سليمان ، قال (٢) : ولما اجتمعت طبرستان للحسن بن زيد وجّه إلى الريّ جندا مع رجل من أهله ، يقال له الحسن بن زيد أيضا ، فملكها وطرد عامل الطاهرية عنها ، واستخلف بها رجلا من العلويين يقال له محمد بن جعفر ، وانصرف عنها .

قال : وورد خبر الحسن على المستعين بالله ، ومُدبّر أمره يومئذ

(١) فى المخطوطات : تأفف وفى الكامل حـ٧ ص ٨٧ : يأثم .
(٢) مصدر المؤلف الكامل لابن الأثير راجع حـ٧ ص ٨٧ ومابعدها .

وصيف ، وكاتبه أحمد بن صالح ، فوجّه إسماعيل بن فراشة فى جند إلى همذان ، وأمره بالمقام بها ليمنع خيل الحسن بن زيد عنها ، وما عدا همذان فأمره إلى محمد بن طاهر .

قال : ولما استقرّ محمد بن جعفر الطالبى بالرىّ ، ظهر منه أمور كرهها أهل الرىّ ، ووجّه محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر قائدا يقال له ابن ميكال ، فى جمع من الجند إلى الرىّ ، فالتقى هو ومحمد ابن جعفر الطالبى خارج الرىّ ، فأسر محمد وانهزم جيشه ، ودخل ابن ميكال إلى الرىّ وأقام بها ، فوجّه إليه الحسن بن زيد عسكرا ، مع قائد من قوّاده يقال له واجن ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم ابن ميكال واعتصم بالرىّ ، فاتبعه واجن وأصحابه حتّى قتلوه ، وصارت الرىّ فى يد أصحاب الحسن بن زيد .

ثم ظهر بالرى فى سنة خمسين ومائتين ايضا

أحمد بن عيسى بن على بن حسين (الصغير) بن على بن حسين ابن [1] على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على [2] [بن أبى طالب] ، فصلّى أحمد بن عيسى بأهل الرىّ صلاة العيد ، ودعا إلى الرضا من آل محمد ، فحاربه محمد بن على بن طاهر ، فانهزم ابن طاهر وصار إلى قزوين .

(١) فى المخطوطات : أحمد بن عيسى بن حسين بن حسين بن على بن أبى طالب وفى الكامل حـ٧ ص ٨٨ هو : أحمد بن عيسى بن حسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب والتصويب عن الطبرى حـ١٣ ص ١٥٣٢ .

(٢) فى المخطوطات : ادريس بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ٨٨ والطبرى حـ١٣ ص ١٥٣٢ ، ص ١٥٣٣ .

ثم مسك أحمد فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وسيرّ إلى نيسابور ، وكان الذى ظفر به عبد الله بن عزيز .

وفى سنة احدى وخمسين ومائتين

رجع سليمان بن عبد الله بن طاهر إلى طبرستان بجمع كثير ، ففارقها الحسن بن زيد ولحق بالديلم ، ودخلها سليمان وقصد سارية ، وأتاه أهل آمل وغيرهم ، منيبين مظهرين الندم يسألون الصفح ، فلقيهم بما أرادوا ، ونهى أصحابه عن القتل والنهب ، ثم فارقها سليمان وعاد الحسن بن زيد إليها ، فسار مفلح إليه من قبل موسى بن بغا فى سنة خمس وخمسين ومائتين ، وحاربه فانهزم الحسن ولحق بالديلم ، ودخل مفلح آمل وأحرق منازل الحسن ، وسار إلى الديلم فى طلبه ، ثم كتب إليه موسى بن بغا بالقدوم عليه إلى الرىّ ، فسار إليه ثم سار إلى سامرّا .

ذكر ملك الحسن بن زيد جرجان

وفى سنة سبع وخمسين ومائتين قصد الحسن جُرْجان واستولى عليها ، وكان محمد بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان — لما بلغه عزم الحسن على قصد جرجان — جهّز العساكر ، وأخرج عليها الأموال الكثيرة ، وسيّرها لحفظ جرجان ، فلم يقوموا بحرب الحسن ، وظفر بهم وملك البلد وقتل كثيرا من العساكر ، وغنم هو وأصحابه ما معهم ، فضعف حينئذ محمد بن طاهر ، وانتقض عليه كثير من الأعمال التى يجبى خراجها إليه ، ولم يبق فى يده إلا بعض خراسان ، وأكثرها بيد المتغلبين كيعقوب بن الليث الصفّار وغيره .

وفيها فارق عبد العزيز بن أبي دُلَف الرىّ من غير سبب يُعلم وأخلاها، فأرسل الحسنُ بن زيد القاسمَ بن على بن القاسم العلوى ، فغلب عليها فأساء السيرة فى أهلها ، وخلع أبواب المدينة ـ وكانت من حديد ـ وسيّرها إلى الحسن ، وبقى كذلك نحو سنتين [1] .

وفى سنة تسع وخمسين ومائتين

غلب الحسن بن زيد على قومس ، ودخلها أصحابه ، وفى سنة ستين ومائتين دخل يعقوب بن الليث الصفّار طبرستان ، وانهزم الحسن إلى أرض الديلم على ما نذكره فى أخبار الدولة الصفّارية .

ذكر وفاة الحسن بن زيد وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاته يوم الاثنين لثلاث خلون من رجب سنه سبعين ومائتين ، فكانت مدة ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام ـ وقيل ـ واثنى عشر يوما ، وكان مهيبا عظيم الخلق . حكى صاحب كنوز المطالب فى بنى أبى طالب [2] عن الصولى : أن الحسن عطس يوما عطسة ، وكان رجل يؤذن فى المنارة ففزع فسقط منها إلى الأرض فمات . قال : وكان أقوى البغال لا تحمله أكثر من فرسخين ، وكان فى آخر عمره يشق بطنه ويخرج منه الشحم ثم يخاط . وكان جوادا ممدوحا ، امتدحه رجل فأعطاه عشرة آلاف درهم ،وفيه يقول محمد بن إبراهيم الجرجانى وقد افتصد :

---

(١) فى الكامل حـ٧ ص ١٧٢ : ثلاث سنين .

(٢) لم أعثر على هذا الكتاب .

إنّما غيّب الطبيب شَبا [١] المِبْضع عندي في مهجة الإسلام
سرّت الأرض حين صُبّ عليها دم خير الورى وأعلى الأنام

وكان متواضعا لله عزّ وجلّ . حكى عنه أنه مدحه شاعر فقال الله فرد وابن زيد فرد ، فردّ فقال : بفيك الكثكث يا كذّاب ! ! لِمَ لا قلتَ : الله فرد وابن زيد عبد ، ثم نزل عن مكانه وخرّ ساجد الله تعالى ، وألصق خدّه بالتراب وحرم ذلك الشاعر . وكان عالما بالشعر [٢] والعربية .

فمدحه شاعر فقال :

لا تقل بشرى ولكن [٣] بُشْريان غرّة الداعي ويوم المهرجان

فقال : كان الواجب أن تفتح الأبيات بغير لا ، لأن الشاعر المجيد يتخيّر لأول القصيدة ، ما يعجب السامع ويتبرّك به ، ولو ابتدأت بالمصراع الثانى لكان أحسن ، فقال الشاعر : ليس في الدنيا كلمة أجلّ من لا إله إلا الله وأوّلها لا ، فقال له الحسن : أصبت ، وأجازه . وأهدي إليه أبو العمر الطبرى سهمين فى بعض الأعياد عليهما مكتوب :

أهديت للداعي إلى الحق سهمى فتوح الغرب والشرق
زُجّاهما [٤] النصر وريشاهما ريشا جناحى طائر المسبق
أيّد هذا الفال بالصدق هما بشيرا دعوة الحق [٥]

(١) شبا المبضع : أعلاه (راجع مادة شبو – القاموس المحيط) .
(٢) فى الكامل حـ٧ ص ٢٨٦ : بالفقة والمخطوطات أصح .
(٣) فى الكامل حـ٧ ص ٢٨٦ : وقل لى .
(٤) الزج : بالضم نصل السهم (أقرب الموارد) .
(٥) هذا البيت ساقط من ك .

فسرّه الفأل ، وأعطاه عشرة آلاف درهم . وحكى عنه أنه غنّى عنده مُغنٍ بأبيات الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، التي أوّلها :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بيت العرب

فلما وصل إلى قوله :

برسول الله وابنى عمّه وبعبّاس بن عبد المطّلب

غيّر البيت فقال : لابعبّاس بن عبد المطّلب ، فغضب الحسن وقال : يا ابن اللخناء ، أتهجونى عمّنا بين أيدينا ، وتغيّر ما مُدحوا به ؟ ! ، إن فعلتها مرة ثانية لأجعلنّها آخر غنائك .

وكان الحسن شاعرا فمن شعره :

لم نُمْنَعِ الدنيا لفضل بها ولا لأنّا لم نكن أهلها
لكن لنعطى الفوز فى جنّة ما إن رأى ذو بصر مثلها
هاجرها خير الورى جدّنا فكيف نرجو بعده وصلها

وله أشعار مستحسنة تركناها اختصاراً ، وكان كاتبه سعيد بن محمد الطبرى . قال : ولما مات قام بالأمر بعده أخوه محمد بن زيد .

ذكر أخبار محمد بن زيد

لما مات الحسن كان أخوه هذا بجرجان ، وكان فى مرضه قد أمر صهره محمد بن إبراهيم العلوي – أن يكتب إلى أخيه محمد بن زيد ليسارع بالحضور ، فينتصب فى المملكة ، فتباطأ ، فلما توفى الحسن انتصب محمد ابن إبراهيم مكانه ، وتلقّب بالقائم بالحق ، فبلغ الخبر محمد بن

زيد فسار من جرجان ، فلمّا قرب هرب محمد بن إبراهيم إلى سالوس ، فأنفذ في أثره سرّية فأدرك وقتل ، ولبس محمد بن زيد القلنسوة وتلقّب بالداعى .

واستقامت له طبرستان وذلك فى بقية رجب سنة سبعين ومائتين ، ووصل إلى الرى فى جموع كثيرة ، فلما كان فى سنة إثنتين وسبعين ومائتين فى جمادي الأولى ، سار اذكوتكين - صاحب الرى - من قزوين إلى الرى ، ومعه أربعة آلاف فارس ، وكان مع محمد بن زيد من الديلم والطبرية والخراسانية عالم كثير ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر محمد وتفرّقوا ، وقتل منهم ستة آلاف وأسر ألفان ، وغنم اذكوتكين من أموالهم وأثقالهم ودوابّهم ما لم ير مثله .

قال [1] : وجلس اذكوتكين بالمصلّى ، ليضرب أعناق الأسرى بين يديه ، فمن عجيب ما اتفق أنّ ديلميا قدّم ليضرب عنقه ، فوثب على السيّاف واستلب السيف من يده ، وعلاه به فقتله ومرّ هاربا فلم يلحق ، واذكوتكين ينظر إليه ويضحك ، ودخل [2] اذكوتكين الرىّ وأقام بها ، وأخذ من أهلها مائة ألف دينار ، وفرّق عمّاله على أعمال الرى .

---

(١) لايعتمد النويرى على ابن الأثير وحده ، وإنما يعتمد على مصادر أخرى لم يصرح بها ، وهذه القصة لم يذكرها الكامل (راجع حـ٧ ص ٢٩٣) وهى مأخوذة من مصادر لم تظهر بعد ، ولقد ألفنا من النويرى حين يقول (قال) إنما يعنى ابن الأثير فى الكامل ولكنه هنا يعنى مصدر آخر .

(٢) عاد إلى النقل عن الكامل حـ٧ ص ٢٩٣

وفى سنة خمس وسبعين ومائتين

استولى رافع بن هرثمة – أمير خراسان – على جرجان ، وأزال عنها محمد بن زيد ، فسار محمد إلى استراباذ فحصره بها رافع نحو سنتين ، فغلت الأسعار بحيث إنه عدم المأكل ، وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة [1] ، ففارقها محمد ليلا فى نفر يسير ، فبعث رافع إليه عسكرا فتحاربا ، وسار محمد عن سارية وطبرستان فى شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين .

ثم سار إلى الديلم فدخل رافع خلفه ، فوصل إلى حدود قزوين ، وعاد إلى الرىّ وأقام إلى سنة تسع [2] وسبعين ، حتى توفى المعتمد على الله ، ودام محمد إلى أن قتل ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) هكذا فى الكامل حـ٧ ص ٣٠٣ وهو الاصح وفى المخطوطات : وابيع الملح وزن درهم بدرهمين .

(٢) فى تاريخ الطبرى حـ١٤ ص ٢٢٠٠ (أحداث سنه ٢٨٧هـ) ولخمس بقين من شوال ورد الخبر على السلطان بان محمد بن زيد انهزم قتل – فالطبرى اذن يذكر موته سنة ٢٨٧ هـ وهو مايذكره المؤلف أيضا بعد ذلك غير موثق لأنه يصدره بقوله : وقيل . وفى أحداث سنه ٢٨٧ هـ قال المسعودى فى مروج الذهب ٨ ص ١٩٤ ، ص ١٩٥ (طبعة باريس) : ... فأسفرت الحرب وقد أثخن بالكلوم ، وأسره ولده محمد بن زيد ، وبقى محمد الداعى أياما يسيره ، وتوفى لماناله فدفن بباب جرجان وقبره هنالك معظم إلى هذه الغاية) ومن هذا يتبين أن المسعودى أيضا يروى وفاته فى سنه ٢٨٧ وكذلك ابن الاثير فى الكامل حـ٧ ص ٣٤٨ وعلى ذلك يتفق الطبرى وابن الاثير والمسعودى يتفقون على تاريخ موته وكذلك حمزة بن الحسن الإصفهاني فى كتابة تاريخ ملوك الأرض ص ٢١٠ ط . كلكتا

وفى كتاب مقاتل الطالبيين ص ٤٢٧ (طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ) ... وصلى عليه محمد بن هارون ودفنه وذلك فى شهر رمضان سنة تسع وثمانين ومائتين وحمل ابنه زيد إلى جرجان وهو بها إلى هذا الوقت مقيم .

والواضح أن فى النص تحريف فتسع هى سبع والخطأ فى العشر

ذكر مقتل محمد بن زيد وشيء من أخباره

كان مقتله سنة ثمان وثمانين ومائتين [١] ، وكان سبب قتله أنه اتّصل به أنّ إسماعيل بن أحمد السامانى – صاحب ما وراء النهر – أسر عمرو بن الليث الصفّار – أمير خراسان – فخرج من طبرستان ظناً منه أن إسماعيل السامانى لا يتجاوز عمله ولا يقصد خراسان ، وأنّه [٢] لا دافع له عن ملك خراسان ، فلما انتهى إلى جرجان أرسل إليه إسماعيل – وقد استولى على خراسان – يقول له : ألّا يتجاوز عمله ، ولا يقصد خراسان [٢] وترك جرجان له ، فأبى محمد ذلك ، فندب إسماعيل محمد بن هارون ؛ فكان محمد هذا يخلف رافع بن هرثمة أيام ولايته خراسان ، فجمع محمد جمعاً كثيراً من فارس وراجل ، وسار نحو محمد بن زيد فالتقوا على باب جرجان ، واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم محمد بن هارون أولا ، ثم رجع وقد تفرّقت عساكر محمد بن زيد فى الطلب ، فلما رأوه قد رجع ولّوا هاربين ، وقُتل منهم خلق كثير ، وأصاب محمد بن زيد ضربات ، وأسر ابنه زيد وغنم ابن هارون معسكره وما فيه ، ثم مات محمد بن زيد بعد أيام من الجراحات التى أصابته ، فدفن على باب جرجان .

وقيل : كانت الوقعة التى جرح فيها يوم الجمعة لخمس ليال

---

(١) انظر هامش (٢) من الصفحة السابقة .

(٢) ساقط من ب .

خلون من شوال سنة سبع وثمانين ، ومات بعد ذلك بيوم ، وكانت مدة قيامه – بعد وفاة أخيه – نحوا من ثمانية عشر سنة .

وكان أديبا شاعرا فاضلا حسن السيرة ، قال أبو عمرو الاستراباذي : كنتُ أورد على محمد بن زيد أخبار العباسيين ، فقلت له : إنّهم قد لقّبُوا أنفسهم ، فإذا ذكرتهم عندك أسميهم أو ألقّبهم ؟ فقال : الأمر موسع عليك ، سمّهم ولقّبهم بأحسن ألقابهم واسمائهم وأحبّها إليهم . قال: وحُمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد السامانى – لمّا أسر – فأكرمه ، وكتب إليه المكتفى كتاباً فى حمله إليه فدافع عنه ، وهو القائل :

ولقد تقول عصابة ملعونة غوغاء ما خلقت لغير جهنّم
من لم يسبّ بنى النبي محمدٍ ويرى قتالهم فليس بمسلم
عجبا لأمّة جدّنا يجفوننا وتجيرنا منهم رجال الديلم

ولم يزل عند آل سامان مكرّما إلى أن مات فى سنة أربع عشرة وثلاثمائة .

ولمّا مات محمد بن زيد وأسر ابنه زيد [1] بن محمد ، قام بالأمر ابن ابنه المهدى أبو محمد الحسن بن زيد بن محمد بن زيد ، وخطب له ببلاد الديلم ، وكانت له خطوب وحروب لم نر مَنْ دوّن فيها شيئا فنورده ، ولا وقفنا على تاريخ وفاته .

---

(١) النص فى المخطوطات وهو واضح الخطأ ... ولما مات محمد بن زيد وأسر ابنه محمد قام بالأمر ...

قالوا : ثم كانت بين الحَسَنيين والحُسَينيين حروب على الإمارة بطبرستان والديلم ، إلى أن استقرت الإمارة فى بنى الحسين ، وأول من قام منهم : الحسن بن على الأُطرُوش .

ذكر أخبار الناصر للحق

هو الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر بن على بن الحسين ابن على بن أبي طالب [1] رضى الله عنه ويعرف بالأطروش ، كان استيلاؤه على طبرستان فى سنة إحدى وثلاثمائة ، وذلك أنه لما قتل محمد ابن زيد استعمل إسماعيل بن أحمد السامانى محمد بن هارون على طبرستان ، وأمره بقتل من وجد من العلوّية فهربوا فى البلاد ، وكان الحسن بن علىّ هذا شيخاً من شيوخ الزيدية ، شديد الصحبة لمحمد ابن زيد ، وكان قد دخل خراسان سراً ليدعو الناس إليه ، فجرت عليه مكاره وحبس ، ثم هرب من السجن وعاد إلى محمد بن زيد ،

(١) فى المخطوطات : الحسن بن على بن الحسن بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب والتصويب عن أعيان الشيعة حـ٢٢ ص ٢٨٨ (ط . دمشق ١٩٤٦) وفيه هو أبو محمد الحسن الناصر الكبير الأطروش بن على العسكرى بن الحسن بن على الأصغر المحدث بن عمر الأشرف بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام . (وقال أيضا) : ماذكرناه هو الصواب المستفاد من كتب الأنساب كعمدة الطالب وكتاب المجدى للشريف العلوى العمرى النسابه الشيعى الامامى المعاصر المرتضى . (ص ٢٧٧ حـ ٢٢) (وقال أيضا) : وقد وقع هنا عدة اشتباهات ، ماوقع فى تاريخ ابن الاثير ورجال النجاشى وتبعه العلامة ، فى الخلاصة وكل أصحاب كتب الرجال التى بعده كالنقد ورجال ميرزا وغيرها ونحن أيضا تبعناهم فى حـ ١٣ ص ٢٩٥ من حذف لفظ «على» «قبل» (عمر) والصواب اثباته ص ٢٩٠ حـ ٢٢ . ومن الواضح أن النويرى نقل الاسم عن ابن الاثير المؤرخ فى الكامل أو من مصدر يتفق معه بحذف لفظ على الذى هو جد أب الناصر الاطروش . ولئن كانت الامامية تعده أحد الذين اعتنقوا عقيدتهم إلا أنه فى (حـ٢٢ ص ٢٩٦ أعيان الشيعة) وصف بأنه (كان متبحراً فى فقه الزيدية جدا ، صنف فيه عدة تصانيف) .

وشهد معه الحرب الذى قتل فيها ؛ وكان سبب صممه أنّه ضرب فى حرب مع محمد بن زيد بسيف على رأسه فطرش .

فلما وقع عليه الطلب وعلى أمثاله هرب ، ودخل إلى بلاد الديلم ، وأقام عند ملكهم جستان بن وهسوزان بن المرزبان[1] فأكرمه ، وأنزله فأخذ فى دعاء الديلم إلى الإسلام ، فأسلم جمهورهم ، وجعل يتنقّل على قراهم ويدعو ، ثم دخل إلى بلاد الجيل ، ودعاهم فأسلم[2] أكثرهم ، ووقعت دعوته على حدّ النهر باسباذروذ[3] ، فاجتمع أهل دعوته عليه ، وعاد من بلاد الجيل فيمن جمع ، فلما دخل بلاد الديلم وجد جستان على خلاف ما فارقه عليه ، لأنّه فارقه على أنّه معلم ، يدعو الناس لا طالب مملكة ، فمنعه جستان من الأعشار والصدقات ، فوقع بينهما حرب كانت الهزيمة فيها على جستان ، ثم ألجأه الأمر إلى مسألة الناصر والدخول فى طاعته .

وأقام الناصر فى هرسم[4] قاعدة مملكة الديلم ، واتفق أنّ محمد

(١) فى أعيان الشيعة جـ٢٢ص٣٠٣ نقلا من تاريخ طبرستان بالتعريب : جستان بن وهسوذان الذى كان مرزبان الديلم .

(٢) قال الاصطخرى : وقد كان الديلم دار كفر يبى من رفيقهم إلى أيام الحسن بن زيد ، فتوسطهم العلوية وأسلم بعضهم ، وفيهم إلى يومنا هذا كفار بالجبال المتصلة بها . (المسالك والممالك ص١٢١ط . القاهرة ١٩٦١) .

(٣) فى هامش ت : يعنى سيذروذ .

(٤) غير واضحه فى المخطوطات وضبطها من أعيان الشيعة جـ٢٢ ط ص ٢٩٩ ، هذا وفى كتاب الاصطخرى (المسالك الممالك ص ١٢١ ط . القاهرة ١٩٦١) : والمكان الذى يقيم به الملك يسمى روذبار ، ويذكر هذا أيضا لوسترينج (Le Strange) فى كتابه بلدان الخلافة الشرقية 'The Lands of the Eastern Caliphate p. 173. 174, Canbridge 1930 ، إلا أنه فى ص ١٧٤ يقول ما تعريبه : وعلى بعد مرحلتين من سفيدروذ وأربع مراحل من بيلمان تقع مدينة خشم (Khashm) مقر الداعى العلوى الذى كان فى النصف الثانى من القرن الثالث يحكم هاتين المقاطعتين كحاكم مستقل لايعترف بسلطان الخليفة .

ومن الواضح أن الاشارة هنا إلى حكم الحسن بن زيد ومن جاء بعده إلى الناصر .

ابن هارون السرخسي – نائب إسماعيل بن أحمد على طبرستان – تخوّف منه ، فهرب واستأمن إلى الحسن ، وتسلّم طبرستان وجرجان محمد ابن [١] على المعروف بصعلوك السامانى وكان فى عسكر كثيف ، واتصل السرخسى بالناصر فى عسكر قوى فاستظهر به ، واجتمعا على لقاء صعلوك ، فاحتال عليهما صعلوك ، حتى افترقا بحيلة غريبة ، فلما افترقا مضى السرخسى إلى نواحى الرىّ ، ورجع الناصر إلى بلاد الديلم ، ولم يتمّ له أمر ، ثم أنفذ كرّة ثانية جيشاً مع كالى والحسن بن الفَيْرُزان ، فهزمهما صعلوك وقتلا فى الوقعة ، ثم خرج الناصر بنفسه إلى سالوس ، وسار إليه صعلوك ومعه اصفهبد شهريار [٢] من الخراسانية ، فالتقوا وكان مع الناصر كما ذكر المكثّر عشرة آلاف رجل من الديلم والجيل ، وأكثرهم رجّالة ليس معهم من الخيل والأسلحة إلا القليل ، وعدّة الخراسانية نيّف وثلاثون ألف رجل على غاية القوّة والمنعة ، فهزمهم الناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وألجأهم إلى بحر طبرستان ، فكان من غرق أمثال من قتل ، قال الصابى فى الكتاب التاجى : يقال إنّ المفقودين كانوا نيّفا على عشرين ألفا ، وقال حمزة بن الحسن الأصفهانى : كانوا سبعة آلاف [٣] رجل ، وكانت الوقعة فى سنة ثلاثمائة ، ودخل الناصر مدينة آمل فى جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة .

---

(١) فى الكامل جـ٨ ص ٦١ : محمد بن إبراهيم صعلوك وهو خطأ صححه فيما بعد فى ص ٧٤ ، ص ٧٥

(٢) فى المخطوطات : أبوالوفا اصفهسلار ، والتصويب عن أعيان الشيعة جـ٢٢ ص ٣٠٣ واسمه كما ورد : اصفهبد شهر يار بن بادوسيان .

(٣) راجع كتاب تاريخ ملوك الأرض ص ٢١٠ ط . كلكتا سنة ١٨٦٦ .

ولما دخل طبرستان وملكها فوّض أمر الجيش إلى الحسن بن القاسم العلوى ، فاستبدّ بالأمر واصطنع الرجال ووسّع عليهم فى العطاء ، وقبض على الناصر وحبسه ، فاستكبر الديلم هذا الفعل ، وحضروا إلى القاسم العلوى وطالبوه بإخراجه إليهم ، ووثب إليه ليلى بن النعمان وأخوه ـ وهما من أكبر القوّاد ـ وقالا له : إن أفرجت عنه الساعة وإلا قتلناك ، فأخرجه لهم وهرب إلى بلاد الجيل ، فأطاعوه فتلقّب بالداعى ، فتكلّم الناس عند الناصر فى أن يردّه ويولّيه جيشه وعهده ، وكان الناصر قد ولّى ليلى بن النعمان الجيش ، فأجاب وعاد الحسن بن القاسم فوفّى له الناصر بذلك ، وزوّجه بإبنة ولده على بن الناصر[1] ، واستمرت الحال على ذلك إلى أن توفى الناصر ، وكانت وفاته فى شعبان سنة أربع وثلاثمائة ، وله من العمر تسع وسبعون سنة ، وكانت مدة مملكته المستقيمة الدائمة إلى حين وفاته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأياما .

وكان الحسن الناصر شاعراً ظريفاً كثير المجون حسن النادرة ، وهو الذى حرّر مذهب الزيدية وألّف فيه ، وكان يقول : بزر القز ليس بمال ، والديلم ليسوا بعسكر ، أما البزر فلأنّه إذا أقبل الربيع صار بعوضاً ، وأما الديلم فلسرعة تنقّلهم من عسكر إلى عسكر . وكان يقول لأصحابه : من قتل منكم مقبلا فهو مؤمن ، ومن قتل منكم مدبرا فهو كافر ، فإذا أتى بجريح جرح مقبلا نثر عليه الكافور المسحوق ، فيجد

(١) ينقل النويرى من مصادر غير شيعية ، ذلك لأن المصادر الشيعية تجمع على أن الحسن ابن القاسم تزوج ابنة الناصر نفسه ، وقد ورد فى أعيان الشيعة جـ٢٢ ص ٣١١ : فأرجع الحسن وزوجه الناصر ابنته وولاه على كركان . والاشارة إلى هذا الصهر تذكر على هذا الوجه راجع جـ٢٣ ص ٢٦ ، ص ٣٠ من أعيان الشيعة .

راحة ويسكن ألمه ، وإذا أتى بجريح جرح مدبراً نثر عليه ملحا فيشتد ألمره ، فيقول : قد بان لكم أن المؤمن ينتفع بالدواء لإيمانه ، والكافر لا ينتفع به لكفره .

وكان له من الأولاد أبو الحسن على ، وأبو القاسم جعفر ، وأبو الحسين أحمد . ولما مات الحسن الناصر قام بالأمر بعده .

الحسن بن القاسم [١] الداعى العلوى

وهو ولى العهد ، وليس القلنسوة ، وكان أول ما بدأ به أن بعث أبا القاسم جعفر وأبا الحسين أحمد - ولدى الناصر - إلى جرجان لانتزاعها من أيدى الخراسانية ، فلقيهما دونها إلياس بن محمد ابن اليسع الصفدى - والى جيش خراسان - بموضع يقال له سيماله [٢] فلما اصطف الجيشان برزبين الصفين ودعا إلى المبارزة ، فبرز إليه من جيش ولدى الناصر بويه بن فناخسره - جد عضد الدولة - فقتله وانفض جيش الخراسانية ، فبعث إليهما بعد ذلك الأمير نصر بن أحمد الساماني جيشاً عليه سيمجور الدواتى ، فلقياه بحلاسين [٤] من سواد جرجان فهزماه ،

---

(١) هو الحسن بن القاسم بن على بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحانى بن القاسم ابن الحسن ، وقيل إنه شجرى وقيل هو : الحسن بن القاسم بن الحسن بن على بن عبد الرحمن الشجرى ابن القاسم بن الحسن بن زيد الأمير بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب (راجع أعيان الشيعة حـ٢٣ ص ٢٦) وهو الذى يسمى الداعى الصغير (حـ٢٣ ص ٢٤) ويلقب أيضا بالناصر الصغير (أعيان الشيعة حـ٢٣ ص ٢٦) .

(٢) هكذا فى المخطوطات حرفان فميم فألف فلام فالهاء أو التاء المربوطة ، والحرف الثانى فى ا منقوطة ياء ، ولم أستطع العثور على هذا الأسم فى المصادر الأخرى وربما كان نيماله .

(٣) هذا الموضع أيضا لم تذكره المصادر الأخرى التى بأيدينا ، ولم يذكر النويرى مصدره فى هذا كله ، ومن الواضح أنه ينقل عن مصادر ضائعة أو لم تظهر بعد. والكلمة ظهرت فى المخطوطات هون فقط سوى النون - الحرف الأخير .

فوقف غير بعيد وتجمّعت الخراسانية كعادتهم فى ذلك ، فكرّ راجعاً إليهم فهزمهم أقبح هزيمة ، وقتل الديلم أفظع قتل ، وانهزموا وسلكوا مضايق ليأمنوا جولان الخيل ، فوصلوا جرجان فتجمّع الديلم بها ، وأخلوها قاصدين طبرستان وقد اتفق رأيهم على خلع الداعى ، فخلعوه فى الطريق وبايعوا أبا القاسم جعفر بن الناصر ، وألبسوه القلنسوة ، وقيل إن المبايَع أبو الحسين أحمد ، وبالجملة فالأمير على الجيش أبو الحسين ، ولما وصلا فى جيوشهما إلى آمل لقيهما الداعى دونها ، وخرج هارباً إلى بلاد الجيل ، وملكا طبرستان مدَيْدَة ، ثم كرّ راجعاً ـ وقد احتشد ـ فلقياه فهزمهما ، فمضيا إلى بلاد الجيل واحتشدا ، وعادا فحاربهما الداعى حرباً شديداً ثم انهزم واستوليا على عسكره ، وهرب وحيداً متنكراً يريد بلاد الجيل ، واخترق بلاده الديلم فأسره بعضهم ثم منّ عليه وأطلقه ، فانتهى إلى بلاد الجيل وأقام عندهم .

واتفقت وفاة أبي الحسين فجأة ، وتلاه أخوه أبو القاسم بعده ، فبقى أمر الديلم بطبرستان بغير مدبّر ، فعقدوا الإمرة عليهم لليلى[1] ابن النعمان ، فقام بأمرهم وهو يدعو للداعى إلى أن قتل بنيسابور[2] ، قتله حمّويه بن على صاحب جيش نصر بن أحمد السامانى ، فعقدوا بعده لعلى بن خورشيد فعاجلته المنيّة ، فعزموا على الحسن بن كالى ، فأشار عليهم بأخيه ماكان بن كالى ، وهو أشجع أهل الديلم بالانفاق ، فلما ولى عليهم اجتمع هو وأخوه على نصب أبى علىّ محمد بن أبى الحسين

(١) كان أولاد الاطروش يكاتبونه بقولهم له : المؤيد لدين الله ، المنتصر لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلى بن النعمان (راجع الكامل لابن الاثير حـ٨ ص ٩٠ ، ص٩١) .

(٢) قتل سنة ٣٠٩هـ الكامل حـ٨ ص٩٠ .

ابن الناصر ، فنصبوه فجرى على يده قتل الحسن بن كالى بسارية ، وكان ماكان بآمل ، ثم سقط بعد ذلك أبو على فى الميدان فهلك ، ولمّا اتصل بما كان ماجرى على أخيه كاتب الداعى يستدعيه ، فوافى فى عسكر قوى واجتمع معه وملك طبرستان ، ثم سار ومعه ماكان إلى جرجان فملكها ، وأقام الداعى بجرجان ، وكانت فى نفسه حفائظ على الديلم لنصرتهم عليه أولاد الناصر ، فعمل دعوة لهم جعل يستدعيهم واحداً واحداً فيقتله ، ففطنوا لذلك وهربوا إلى خراسان ، ودخلوا فى طاعة نصر بن أحمد السامانى ، وسوّدوا أعلامهم وقدّموا على أنفسهم أسفار بن شيرويه الجيلى[1] ، وبعث معهم نصر بن أحمد جيشاً كثيفاً ، وساروا فدخلوا جرجان ، وسار الداعى منها إلى طبرستان ثم إلى الرىّ ، واجتمع فيها بماكان وأمره أن يمضى إلى طبرستان لدفع أسفار عنها ، فعلم أنّه لا طاقة له بذلك ، فقال له : الرأى أن تمضى أنت فإنك الإمام ، ولو قد رأتك الديلم لا نفضّوا إليك ، فاضطر الداعى إلى ذلك ، وسار ووقعت الحرب بينه وبين الخراسانية ، فانهزم جيشه وكان مرداويج بن زيار الجيلى يراصده ، فأمكنته فرصة منه فرماه فأشواه ، وولىّ منهزماً ودخل آمل واستتر بها ، فتتبّع الديلم أثر دمه ، وأظهره لهم أهل البلد ، فبادروا إلى الدار التى دلّوهم عليها وهجموها ، فلما رآهم بادر إلى الصلاة فقتلوه ، وكان مقتله يوم الثلاثاء لست بقين من شهر رمضان سنة ست عشرة وثلاثمائة فى أيام

(١) فى صلة تاريخ الطبرى لعريب ص ١٥٤ والكامل جـ٨ ص١٢٨ : أسفار بن شيرويه الديلمى .

المقتدر بالله ، فكانت مدة مملكته ثنتى عشرة سنة وشهراً وأياماً ، على ما فيها من الإختلاف عليه وقيام من ذكرنا .

ملك أسفار جرجان

ولما قتل الداعى ملك أسفار جرجان ، وأبو موسى هارون بن بهرام طبرستان ، والدعوة فيها لنصر بن أحمد السامانى ، فأجمع رأيهما على نصب أبى جعفر محمد بن أحمد الناصر بآمل ، فنصباه وألبساه القلنسوة ، والدعوة لنصر لم تقطع ، وبلغ نصرا الخبر فأنكر على أسفار غاية الإنكار ، وأمره بالقبض عليه والبعث به إليه ، ففعل أسفار ذلك وبلغ ماكان الخبر وهو بالرى ، فسار إلى طبرستان فهرب هارون منها إلى الديلم ، وأظهر ماكان ما هو عليه من التشيّع ، ونصب إسماعيل بن جعفر بن الناصر ، فتوفى بعد مدّة ووقعت فترة لم يل فيها أحد من العلويين ، ثم تخلّص بعد ذلك أبو الفضل جعفر بن محمد ابن الحسين[1] بن على بن الحسن بن على بن عمر بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب من حبس نصر بن أحمد ، وهو ممّن قبض عليه أسفار بن شيرويه مع أبى جعفر محمد بن الناصر ، وسار إلى بلد الجيل وابتدأ فى الدعاء لنفسه بها فى سنة عشرين وثلاثمائة ونعت نفسه بالثائر فى الله ، وكان ذا حزم وتدبير ، وساعدته الأقدار فخرج من بلد الجيل ، قاصدا طبرستان فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة

(١) فى المخطوطات : الحسن والتصويب عن أعيان الشيعة ج١٦ ص٢٢١ (ط . دمشق ١٩٤٠) ج١٨ ص ٤٦٦ (ط دمشق ١٩٤٥) وذكر كالآتى : الثائر بالله أبو الفضل جعفر بن محمد بن الحسين الشاعر المحدث بن أبى الحسن على العسكرى بن أبى محمد الحسن بن على الأصغر المحدث ابن عمر الأشرف بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام .

وبها الأستاذ أبو الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة بن بوية ، وأبو الحسن على بن كامه ، من قبل ركن الدولة ، فاستظهر عليهما وملك البلاد ، وانصرفا إلى الرىّ فأعاد ركن الدولة بن بويه أبا الحسن على بن كامة فى جيش ، وكتب إلى الحسن[1] بن الفيروزان صاحب جرجان - يأمره بمعاونته ففعل ، وسار إلى طبرستان فى بقية سنة سبع وثلاثين ، فرحل الثائر عنها وقصد الجيل ، ثم خرج كرّة ثانية ، واتفق مع وشمكير ولم يتم لهما أمر ، ثم خرج ثالثة إلى طبرستان لاجئا إلى ركن الدولة بن بويه فنصره ، وأقام مدة بها ، ثم عاد إلى بلاد الجيل وملك هرسم ، ولم يخرج منها إلا فى سنة خمسين وثلاثمائة ، فإنه صار إلى نواحى أذربيجان زائرا للمرزبان[2] بن مسافر ، وعاد فأقام بهرسم من بلاد الجيل إلى أن توفى بها ، وكانت وفاته فى سنة خمسين وثلاثمائة .

وملك بعده جماعة من العلويين بلاد الجيل ، ولم يكن لأحد منهم دولة قائمة فى بلد مشهور ، فيعتنى بأمرهم وتدوّن أخبارهم ، وإنما كانوا بتلك الناحية شبه الأعيان والأكابر ، لا كالملوك والخلفاء ، ثم ظهر بعد ذلك أبو عبد الله محمد الحسنى

---

(١) فى المخطوطات : الحسين والتصويب عن الكامل حـ٨ ص ٢٩٢ ، وأعيان الشيعة حـ٢٣ ص ١٧ (ط . دمشق ١٩٤٦) .

(٢) هكذا ورد بالمخطوطات : والاسم كاملا هو : المرزبان بن محمد بن مسافر .

ذكر ظهور أبى عبد الله محمد بن الحسين الحسنى المعروف بابن الداعى

قال ابن الأثير[١]: كان ظهوره فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وذلك أنه هرب من بغداد وسار نحو الديلم، فاجتمع عليه عشرة آلاف رجل، فهرب ابن الناصر العلوى من بين يديه ، وتلقّب ابن الداعى بالمهدى لدين الله ، وعظم شأنه وهزم قائدا من قواد وشمكير .

ثم أظهر النسك والعبادة ولبس الصوف ، وحارب ابن وشمكير فهزمه فى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، وعزم على المسير إلى طبرستان وكتب إلى العراق كتابا يدعوهم إلى الجهاد ، هذا ما أورده ابن الأثير[٢] فى خبره ، ولم يذكر خبر وفاته ، إلا انّه لم يتم له أمر ، ولا ظهر لغيره من أهل هذا البيت بعد ذلك بهذه الناحية ذكر ، ولا كانت لهم مملكة فى جهة من الجهات ، إلا ما نورده من أخبار العبيديين ، الذين ملكوا المغرب والديار المصرية وغيرها ، وانتسبوا إلى على بن أبى طالب ونفاهم أكثر الناس - بل عامّتهم - عن هذا النسب الشريف ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى من أخبارهم .

---

(١) يعود النويرى فى هذا الجزء من كتابه إلى ابن الاثير ينقل عنه ، راجع هنا الكامل حـ٨ ص ٤١١

(٢) راجع الكامل حـ٨ ص٢٤

الباب الثامن

من القسم الخامس

من الفن الخامس

فى أخبار صاحب الزنج والقرامطة والخوارج ببلاد الموصل

وإنما أفردنا هؤلاء بباب ، لأنهم ممن شاع ذكرهم وعظم محلهم وطار اسمهم ، واستولوا على كثير من البلاد وهزموا الجيوش ، وأهمّ الخلافةَ أمرهم ، وطالت مدتهم ولم يكونوا فى أيام خليفة واحد ، فنذكرهم فى حوادث دولته ، وإنما هم فى أيام جماعة من الخلفاء ، فلو ذكرناهم فى حوادث أيامهم لا نقطعت أخبارهم ، وعسر على المطالع معرفتها ، فلذلك أفردناهم لتكون أخبارهم سياقة ، لا تنقطع بغيرها من الأخبار .

ذكر أخبار صاحب الزنج
وابتداء أمره وسبب خروجه

كان خروجه فى شوّال سنة خمس وخمسين ومائتين – فى خلافة المهتدي بالله – بفُرات البصرة ، وزعم أنّه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وجمع الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ ، وعبر دجلة فنزل الدينارى .

قال أبو جعفر[1] الطبرى : وكان اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم ، ونسبه فى عبد القيس ، وأمّه ابنة[2] على بن رحيب بن محمد بن حكيم من أهل الكوفة ، وهو أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك ، مع زيد بن على بن الحسين ، فلما قتل زيد هرب والتحق بالرى ، فجاء إلى قرية وَرْزَنين فأقام بها ، وجدّه عبد الرحيم رجل من عبد القيس ، كان مولده بالطالقان وقدم العراق ، واشترى جارية فأوكدها محمدا أباه .

قال : وكان صاحب الزنج هذا فى ابتداء أمره متصلا بجماعة من حاشية المنتصر ، منهم غانم الشطرنجى وسعيد الصعير ، وكان معاشه منهم ومن أصحاب السلطان ، وكان يمدحهم ويستميحهم بشعره ، ثم إنّه شخص من سامرّا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادعى

(١) ينقل النويرى عن الكامل لابن الاثير حـ٧ ص١٣٩ ، ولاينقل عن الطبرى مباشرة كما يوهم لفظه .

(٢) قال الطبرى حـ١٣ ص١٧٤٢ : قرة

بها أنهّ على بن عبد الله[١] بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيدالله ابن عباس بن على بن أبى طالب ، ودعا الناس بهجَر إلى طاعته ، فاتبعة جماعة كثيره من أهلها ومن غيرها ، فجرى بين الطائفتين عصبيّة قتل فيها جماعة .

قال : وكان أهل البحرين قد أخلّوه محل نبى ، وجبا الخراج ونفذ فيهم حكمه ، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه ، ثم تنكّر له منهم جماعة ، فانتقل عنهم إلى الأحْسَاء ، ونزل على قوم يقال لهم بنو الشمّاس من بنى سعد بن تميم فأقام فيهم ، وفى صحبته جماعة من البحرين ، منهم يحيى بن محمد الأزرق البحرانى ، وسليمان بن جامع — وهو قائد جيشه وكان ينتقل فى البادية فذكر عنه أنه قال : أوتيت فى تلك الأيام آيات من آيات إمامتى ، ظاهرة للناس ، منها إنى لُقّنْتُ سورا من القرآن فجرى بها لسانى ، فى ساعة واحدة وحفظتها فى دفعة واحدة ، منها سبحان[٢] والكهف وص ، ومنها أنى فكرت فى الموضع الذى أقصده حيث نبت بى البلاد فأظلّتنى غمامة ، وخوطبت منها فقيل لى : اقصد البصرة ، وقيل عنه إنه قال لأهل الباديه إنّه يحيى بن عمر أبو الحسين ، المقتول بالكوفه ، فخدع أهلها فأتاه منهم جماعة كثيرة ، فزحف بهم إلى الرّدْم[٣] من البحرين ، فكانت بينهم وقعة عظيمة ، وكانت الهزيمة عليه وعلى أصحابه ، قُتلوا قتلا ذريعا فتفرّقت الأعراب عنه ، فسار ونزل البصرة

(١) لم يذكر الطبرى عبد الله فى الاسم وهو الأب عند ابن الاثير والنويرى راجع حـ١٣ ص١٧٤٣ وربما كان ساقطا من الناسخ ، ذكره الطبرى كما يأتى : على بن محمد بن الفضل بن حسن ابن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب .

(٢) فى الاتقان للسيوطى حـ١ ص٥٦ : الاسراء : تسمى أيضا سورة سبحان .

(٣) فى ك والكامل حـ٧ ص ١٤٢ : الروم والتصويب عن ا ، ت والطبرى حـ١٣ ص١٧٤٥

فى بنى ضُبَيعة ، فاتبعه منهم جماعة منهم على بن أبان المهلبى ، وكان قدومه البصرة فى سنة أربع وخمسين ومائتين ، وعاملها يوم ذاك محمد ابن رجاء الحضارىّ .

فوافق قدومه فتنة أهل البصرة ، بالبلالية والسعديّة ، فطمع فى إحدى الطائفتين أن تميل إليه ، فأرسل إليهم يدعوهم فلم يجبه [1] من أهل البلد أحد ، وطلبه ابن رجاء فهرب ، فأخذ جماعة ممن كانوا يميلون إليه وحبسهم ، وكان ممّن حبس ابنه وابنته وزوجته وجارية له حاملا منه ، وسار يريد بغداد ومعه من أصحابه محمد بن سلم ، ويحيى بن محمد ، وسليمان بن جامع ، وبُرَيش [2] القريعى ، فلما صار بالبطيحة نذربه وبأصحابه ، فدخل بغداد فأقام بها حولا ، فانتسب إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد ، فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما فى ضمائر أصحابه ، وما يفعله كل واحد منهم ، فاستمال جماعة من أهل بغداد منهم جعفر بن محمد الصُّوحانى ، ومحمد بن القاسم ، ومُشرق ورفيق غلاما يحيى بن عبد الرحمن ، فسمّى مشرقًا حمزة وكنّاه أبا أحمد ، وسمّى رفيقاً جعفرا وكنّاه أبا الفضل ، واتفق عزل محمد بن رجاء عن البصرة ، فوثب رؤساء البلالية والسعدية فأخرجوا من كان فى الحبس ، فخلص أهله فيهم ، فلما بلغه خلاص أهله رجع إلى البصرة ، وكان رجوعه فى شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين ، ومعه على بن

(١) فى المخطوطات : فلم يجد من أهل البلد أحد والتصويب عن الكامل حـ٧ ص١٤١ والطبرى حـ١٣ ص ١٧٤٥

(٢) فى المخطوطات : يونس ، وفى الكامل حـ٧ ص١٤١ : مرقس ، والتصويب عن الطبرى حـ١٣ ص ١٧٤٦

أبان ويحيى بن محمد وسليمان ومشرق ورفيق ، فوافوا البصرة فنزل بقصر القرشي على نهر يعرف بعمود ابن المنجّم ، وأظهر أنّه وكيل لولد الواثق فى بيع السباخ .

قال[1] : وذكر ريحان ، أحد غلمان الشورجيين وهو أوّل من صحبه منهم ، قال : كنت موكّلا بغلمان مولاى أنقل لهم الدقيق فأخذنى أصحابه فصاروا بى إليه ، وأمرونى أن أسلّم عليه بالإمرة ففعلت ، فسألنى عن الموضع الذى جئت منه فأخبرته ، وسألنى عن أخبار البصرة فقلت لا علم لى ، وسألنى عن غلمان الشورجيين وعن أحوالهم وما يجرى لهم فأعلمته ، فدعانى إلى ما هو عليه فأجبتُه ، فقال : إحْتَلْ فيمن قدرتَ عليه من الغلمان فأقبلْ بهم ، ووعدنى أن يقوّدنى على من آتيه به ، واستحلفنى ألّا أعلم أحدا بموضعه وأن أرجع إليه ، وخلّى سبيلى وعُدت إليه من الغد ، وقد أتاه جماعة من غلمان الدبّاسين ، فكتب فى حريرة (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ .... الآية)[2] ورفعها علما ، ومازال يدعو غلمان أهل البصرة وهم يقبلون إليه ، للخلاص من الرق والتعب ، حتى اجتمع عنده خلق كثير ، فخطبهم ووعدهم أن يقوّدهم ويملّكهم ، وحلف لهم الأيمان ألّا يغدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئا من الإحسان إلا أتى به إليهم ، فأتاه مواليهم وبذلوا له عن كل عبد خمسة دنانير ، ليسلّم إليه عبده ، فبطح أصحابهم وأمر كل عبد أن يضرب مولاه أو وكيل

(١) لايزال النويرى ينقل عن الكامل لابن الاثير راجع حـ٧ ص ١٤٢

(٢) سورة ٩ آية ١١١

مولاه خمسمائة شطب (١) ، ثم أطلقهم فمضوا نحو البصرة .

ثم ركب فى سفن هناك فعبر دُجَيْلا إلى نهر ميمون ، فأقام هناك والسودان تجتمع إليه إلى يوم الفطر ، فخطبهم وصلّى بهم وذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال ، وأنّ الله تعالى أنقذهم من ذلك ، وأنّه يريد أن يرفع أقدارهم ويملّكهم العبيد والأموال ، فلما كان بعد يومين رأى أصحابه الحميرىّ ، فقاتلوه حتى أخرجوه من دجلة ، فاستأمن إلى صاحب الزنج رجل يكنى بأبى صالح ويعرف بالقصير ، فى ثلاثمائة من الزنج ، فلما كثروا جعل القوّاد منهم ، وقال لهم : من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه ، وكان ابن أبى عون قد نقل من واسط إلى ولاية الأُبلّة وكور دجلة ، وسار قائد الزنج إلى المحمديّة ، فلما نزلها وافاه أصحاب ابن أبى عون ، فصاح الزنج : السلاح ! ! وقاموا وكان منهم فتح الحجّام ، فقام وأخذ طبقا كان بين يديه ، فلقيه رجل من الشورجيين يقال له بُلْبُل ، فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذى بيده ، فرمى سلاحه وولّى هاربًا ، وانهزم أصحابه وكانوا أربعة آلاف ، وقُتل منهم جماعة ومات بعضهم عطشاً ، وأُسر منهم فضرب أعناقهم ، ثم سار إلى القادسيّة فنهبها أصحابه بأمره ، ومازال يتردّد إلى أنهار البصرة ، فوجد بعض السودان دارا لبعض بنى هاشم فيها سلاح فانتهبوه ، فصار معهم ما يقاتلون به .

فأتاه وهو بالسَّيْب جماعة من أهل البصرة يقاتلونه ، فوجّه يحيى

(١) عصا وفى المنتظم لابن الجوزى (الجزء الخامس - القسم الثانى ورقة ٢٠٣ مخطوط بدار الكتب رقم ١٢٩٦ تاريخ) : خمسين سوطا

ابن محمد فى خمسمائة رجل فلقوا البصريين ، فانهزم [1] البصريون منهم وأخذوا سلاحهم ، ثم قاتل طائفة أخرى عند قرية تعرف بقرية اليهود [1] فهزمهم أيضا ، وأثبت أصحابه فى الصحراء ، ثم أسرى إلى الجعفريّة فوضع فى أهلها السيف ، فقتل أكثرهم وأتى منهم بأسرى فأطلقهم ، ولقى جيشاً كبيراً للبصريين مع رُمَيْس وعقيل ، فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وكان معهم سفن فهبّت ريح فألقتها إلى الشط ، فنزل الزنج وقتلوا من وجدوا فيها وغنموا ما فيها ، وكان مع رُمَيْس سفن فركبها ونجا ، فأنفذ صاحب الزنج فأخذها ونهب ما فيها ، ثم نهب القرية المعروفة بالمهلبيّة وأحرقها ،وعاث فى الأرض وأفسد ، ثم لقيه قائد من قواد الأتراك ، يقال له أبو هلال فى أربعة آلاف مقاتل ، فاقتتلوا على نهر الريّان ، فحمل السودان عليهم حملة صادقة ، فقتلوا صاحب علمه فانهزم أبو هلال وأصحابه ، وتبعهم السودان فقتلوا من أصحاب أبى هلال أكثر من ألف وخمسمائة رجل ، وأخذوا منهم أسرى فأمر صاحب الزنج بقتلهم ، ثم أتاه من أخبره أنّ الزينبى قد أعدّ له الجند والمتطوّعة والبلاليّة والسعديّة ، وهم خلق كثير ، وأنّهم قد أعدّوا الحبال لتكتيف من يأخذونه من السودان ، وأنّ المقدّم عليهم أبو منصور أحد [2] موالى الهاشميين ، فأرسل على بن أبان فى مائة أسود ليأتيه بخبرهم ، فلقى طائفة منهم فهزمهم ، وصار من معهم من العبيد إلى على بن أبان ، وأرسل طائفة أخرى من أصحابه ، إلى موضع فيه ألف

---

(١) ساقط من ت .

(٢) فى الكامل حـ٧ ص ١٤٤ : وأخذ موالى الهاشميين ، ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ ١٣ ص ١٧٦٧ .

وتسعمائة سفينة ومعها من يحفظها ، فلما رأوا الزنج هربوا عنها ، فأخذ الزنج السفن وأتوا صاحبهم بها ، فلما أتوه جلس على نشز من الأرض ، وكان فى السفن قوم حجّاج أرادوا أن يسلكوا طريق البصرة ، فناظرهم فصدقوه فى قوله ، وقالوا له : لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معك فأطلقهم ، وأرسل طليعة تأتيه بخبر ذلك العسكر فأتاه بخبرهم : أنهم قد أتوه بخلق كثير ، فأمر محمد بن سلم [1] وعلى بن أبان أن يعقدوا لهم بالنخيل ، وقعد هو على جبل مشرف ، فلم يلبث أن طلعت الأعلام والرجال ، فأمر الزنج فكبّروا وحملوا عليهم ، فحملت الخيول فتراجع الزنج حتى أتوا لجبل ، ثم حملوا فثبتوا لهم ، وقتل من الزنج فتح الحجّام ، وصدق الزنج الحملة فأخذوهم بين أيديهم ، وجرح محمد بن سلم ، وحملوا عليهم فقتلوا منهم ، وانهزم الناس وذهبوا كل مذهب ، وتبعهم السودان إلى نهر بيان فوقعوا فى الوحل ، فقتلهم السودان وغرق كثير منهم ، وأتى الخبر إلى الزنوج بأنّ لهم كمينا ، فساروا إليه فإذا الكمين فى ألف من المغاربة ، فقاتلوهم قتالا شديداً ، ثم حمل السودان عليهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا سلاحهم ، ثم وجّه أصحابه فرأوا مائتى سفينة ، فيها دقيق فأخذوه ومتاع فنهبوه ، ونهب المُعَلّى بن أيوب [2] ، ثم سار فرأى مسلحة الزينبى فقاتلوه ، فقاتلهم فقتلهم أجمعين ، وكانوا مائتين ، ثم سار فنهب قرية مُنْذَران [3] ، ورأى فيها جمعاً من الزنج

(١) فى الكامل حـ٧ ص ١٤٤ : محمد بن سالم ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص١٧٦٩

(٢) المراد قرية المعلى بن أيوب — راجع الطبرى حـ١٣ ص ١٧٧٣ .

(٣) فى الكامل حـ٧ ص ١٤٥ : ميزران ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص ١٧٧٣ .

ففرقهم على قوّاده ، ثم سار فلقيه ستمائة فارس مع سليمان ؛ ابن أخى الزينبىّ ، ولم يقاتله فأرسل من ينهب ، فأتوه بغنم وبقر فذبحوا وأكلوا ، وفرّق أصحابه فى انتهاب ما هناك .

ثم سار صاحب الزنج يريد البصرة ، حتى إذا قابل النهر المعروف بالرياحى ، أتاه قوم من السودان ، فأعلموه أنّهم رأوا فى الرياحى بارقة ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى تنادى السودان : السلاح السلاح !! فأمر على بن أبان بالعبور إليهم ، فعبر فى ثلاثمائة رجل ، وقال له : إن احتجت إلى مدد فاستمدنى ، فلما مضى على بن أبان صاح الزنج ، السلاح السلاح ! ! لحركة رأوها فى جهة أخرى ، فوجّه محمد بن سلم بجمع فحاربهم من وقت الظهيرة إلى وقت العصر ، ثم حمل الزنوج حملة صادقة فهزموهم ، وقتلوا من أهل البصرة والأعراب زهاء خمسمائة ، ورجعوا إلى صاحبهم ، ثم أقبل على بن أبان فى أصحابه — وقد هزموا مَنْ بإزائهم وقتلوا منهم ، ومعه رأس ابن أبى الليث [1] البلالى القواريرى من أعيان البلالية ، ثم سار من الغد عن ذلك المكان ، ونهى أصحابه عن دخول البصرة ، فتسرّع بعضهم فلقيهم أهل البصرة فى جمع عظيم ، وانتهى الخبر إليه فوجّه محمد بن سلم وعلى بن أبان ومشرقاً وخلقاً كثيراً ، وجاء هو يسايرهم فلقوا البصريين ، فأرسل إلى أصحابه ليتأخروا عن المكان الذى هم فيه ، فتراجعوا فأكبّ عليهم أهل البصرة فانهزموا ، وذلك عند العصر [2] ، ووقع الزنوج فى نهر كبير ، وقتل

(١) فى تاريخ الطبرى ج١٣ ص ١٧٧٨ : ... ومعه رأس البلالى المعروف بأبى الليث ، أما وابن الأثير ينقل عن الطبرى والنويرى ينقل عن ابن الأثير فالخطأ من النساخ .

(٢) فى ك ، ت : القصر ويؤيد الطبرى ج١٣ ص ١٧٨٠ .

منهم جماعة وغرق جماعة وتفرّق الباقون ، وتخلّف صاحبهم عنهم وبقى فى نفر يسير فنجا ، ثم لحقهم وهم متحيرّون لفقده ، وسأل عن أصحابه فإذا ليس معه منهم إلا خمسمائة رجل ، فأمر بالنفخ فى البوق الذى يجتمعون إليه ، فنفخ فيه فلم يأته أحد ، وكان أهل البصرة قد انتهبوا السفن التى كانت للزنوج وبها متاعهم ، فلما أصبح رأى أصحابه فى ألف رجل ، فأرسل محمد بن سلم إلى أهل البصرة يعظهم ويعلّمهم : ما الذى دعاه إلى الخروج ؟ فقتلوه ، فلما كان يوم الاثنين لأربع [1] عشرة خلت من ذى القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين جمع أهل البصرة وحشدوا ، لما رأوا من ظهورهم عليه ، وانتدب لذلك رجل يعرف بحمّاد [2] الساجىّ وكان من غزاة البحر ، وله علم فى ركوب السفن ، فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خفّ معه من البلاليّة والسعديّة وغيرهم ، وشحن ثلاثة مراكب مقاتلة ، ومضى جمهور الناس رجّالة ، منهم من معه سلاح ومنهم نظّارة ، فدخلت المراكب فى المدّ والرجّالة على شاطىء النهر ، فلما علم صاحب الزنج بذلك وجّه طائفة من أصحابه مع زريق [3] الأصفهانى كمينا فى شرقىّ النهر ، وطائفة مع شبل وحُسين الحمّامى فى غربيّه كمينا ، وأمر على بن أبان أن يلقى أهل البصرة وأن يتستر هو ومن معه — بتراسهم ، ولا يقاتل حتى يظهر أصحابه ، وتقدّم إلى

(١) فى الكامل حـ٧ ص١٤٦ : لأربع خلون ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص١٧٨٣ .

(٢) فى الكامل حـ٧ ص ١٤٦ : حماز ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص ١٧٨٣ .

(٣) فى ا : رزيق ويؤيد ك ، ت : الكامل حـ٧ ص ١٤٦ ، والطبرى حـ١٣ ص ١٧٨٣ .

الكمينَيْن – إذا جازوهم [١] أهل البصرة – أن يخرجوا ويصيحوا بالناس ، وبقى هو فى نفر يسير من أصحابه ، وقد هاله ما رأى من كثرة الجمع ، فثار أصحابه إليهم وظهر الكمينان من جانبى النهر وراء السفن والرجّالة ، فضربوا من ولّى من الرجّالة والنظّارة ، فغرقت طائفة وقُتلت طائفة وهرب الباقون إلى الشط ، فأدركهم السيف فمن أثبت قُتل ، ومن ألقى نفسه فى الماء غرق ، فهلك أكثر ذلك الجمع فلم ينج إلا الشريد ، وكثر المفقودون من أهل البصرة ، وعلا العويل من نسائهم ، وهذا اليوم يسمى يوم الشذا [٢] – وهو يوم أعظمه الناس ، وكان فيمن قتل جماعة من بنى هاشم وغيرهم فى خلق كثير لا يحصى ، وجمعت الرؤوس لصاحب الزنج ، فأتاه جماعة من أولياء المقتولين فأعطاهم ما عرفوا ، وجمع الرؤوس التى لم تطلب فى جُرَيبيّة [٣] وأطلقها ، فوافت البصرة فجاء الناس وأخذوا كلّ ما عرفوه منها ، وقوى صاحب الزنج بعد هذا اليوم ، وتمكّن الرعب فى قلوب أهل البصرة وأمسكوا عن حربه ، وكتب الناس إلى الخليفة بخبر ما كان : فوجّه إليهم جُعْلان التركى مددا ، وأمر بالأحوص [٤] الباهلى بالمصير إلى الأُبُلّة والبا ، وأمدّه بقائد من الأتراك يقال له جُرَيج ، وانصرف

---

(١) هكذا فى ا ، ت وهو الأدق وفى ك ، والكامل حـ ٧ ص ١٤٦ ، والطبرى حـ١٣ ص ١٧٨٤ : جاوزهم .

(٢) فى المخطوطات والكامل حـ٧ ص ١٤٧ : البيداء ، وفى تاريخ الطبرى حـ١٣ ص ١٧٨٥ : الشذا وهو الأرجح ، والشذا نوع من السفن : والمتأمل فى الموقعة تبين له دقة الطبرى لأن الحرب كان عمادها السفن ، هذا ولم يتعرض لذكر هذا الاسم المؤرخون القدماء أمثال ابن الجوزى فى المنتظم .

(٣) فى الكامل حـ٧ ص ١٤٧ : خزيمة ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص ١٧٨٥ .

(٤) فى المخطوطين ك ، ت : الأعوص الباهلى والتصويب عن ا ويؤيدها الكامل حـ٧ ص ١٤٧ والطبرى حـ١٣ ص ١٧٨٦ .

صاحب الزنج بأصحابه فى آخر النهار إلى سبخة – وهى سبخة أبى قُرَّة – وبثّ أصحابه يمينا وشمالا للغارة والنهب .

ووصل جُعْلان إلى البصرة فى سنة ست وخمسين ومائتين ، ونزل بمكان بينه وبين صاحب الزنج فرسخ ، وخندق عليه وعلى أصحابه وأقام ستة أشهر فى خندقه ، وجعل يوجّه الزينبىّ وبنى هاشم ومن خفّ لحرب الزنج ، ثم سار جُعْلان للقائه فلم يكن بينهم إلا الرمى بالحجارة والسهام ، ولا يجد جعلان إلى لقائه سبيلا لضيق المكان عن مجال الخيل ، وكان أكثر أصحاب جعلان خيّالة ، فلما طال مقامه فى خندقه أرسل صاحب الزنج أصحابه إلى مسالك الخندق ، فبيّتوا جعلان وقتلوا من أصحابه جماعة ، وخاف الباقون خوفاً شديدًا ، وكان الزينبىّ قد جمع البلاليّة والسعديّة ووجّه بهم من مكانين ، وقاتلوا صاحب الزنج فظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فترك جعلان خندقه وسار إلى البصرة ، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج ، وأمر سعيد الحاجب بمحاربتهم ، وتحوّل صاحب الزنج بعد ذلك من السبخة – التى كان فيها – ونزل بنهر أبى الخصيب ، وأخذ أربعة وعشرين مركبا من مراكب البحر ، وأخذ منها أموالا عظيمة لا تحصى ، وقتل من فيها وأنهبها أصحابه ثلاثة أيام ، وأخذ لنفسه بعد ذلك من النهب .

ذكر دخول الزنج الأبله

وفى سنة ست وخمسين ومائتين دخل الزنج الأُبُلَّة ، فقتلوا فيها خلقاً كثيراً وأحرقوها ، وكان سبب ذلك أنّ جُعْلان لما تنحّى عن خندقه إلى البصرة ألحّ صاحب الزنج بالغارات على الأبلَة ، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر مَعْقِل ، ولم يزل يحارب إلى يوم الأربعاء لخمس بقينَ من شهر رجب فافتتحها ، وقُتل بها الأحوص وعبد[1] الله بن حميد الطوسى وأضرمها ناراً ، وكانت مبنيّة بالساج فأسرعت النار فيها ، وقُتل من أهلها خلق كثير ، وفرّق الأموال العظيمة ، وكان ما أحرقت النار أكثر من الذى نهب .

قال : ولما اتصل خبر أهل الأبلَة بأهل عبّادان راسلوا صاحب الزنج فى طلب الأمان ، على أن يسلّموا إليه البلد ، فأمّنهم وسلّموه إليه وأخذ ما فيه من الأموال والسلاح ، ففرّقه فى أصحابه .

ذكر أخذ الزنج الأهواز

قال : ولما فرغ صاحب الزنج من الأبلّة وعبّادان طمع فى الأهواز ، واستنهض أصحابه وسار إليها ، فهرب من بها من الجند ومن أهلها ولم يبق إلا القليل ، فدخلها وأخربها ، وكان بها إبراهيم بن المدبّر يتولى الخراج فأخذوه أسيرا ، بعد أن قاتل وجرح ونهب جميع ماله . وذلك

---

(١) فى تاريخ الطبرى حـ١٣ ص١٨٣٧ : وقتل فى هذه الليلة عبد الله بن حميد الطوسى وابن له كانا فى شذاة بنهر معقل مع نصير المعروف بأبى حمزة ، وفى ب عبيد الله ، وفى الكامل حـ٧ ص ١٦٤ : عبد الله بن حميد بن الطوسى

لإثنتى عشرة ليلة مضت من رمضان من السنة ، فخافه أهل البصرة وانتقل كثير من أهلها إلى البلدان .

وأما إبراهيم بن المدبّر فإنّ صاحب الزنج وكل به وحبسه فى بيت يحيى بن محمد البَحْرانى ، فكان به إلى سنة سبع وخمسين ومائتين ، فأرغب الموكّلين به بمال فأطلقوه ، فخرج هو وابن أخ له ورجل هاشمى

ذكر انهزام الزنج من سعيد الحاجب وغلبة الزنج

وفى شهر رجب سنة سبع وخمسين ومائتين أوقع سعيد الحاجب بجماعة من الزنج ، فهزمهم واستنقذ من معهم ، وذلك فى خلافة المعتمد على الله بن المتوكل ، فكانت المرأة من نساء تلك الناحية تأخذ الزنجى فتأتى به عسكر سعيد فلا يمتنع عليها ، ثم عبر سعيد إلى غرب دجلة فأوقع بصاحب الزنج عدّة وقعات ، ثم عاد إلى معسكره بَهطْمة[1] فأقام من ثانى رجب إلى آخر شعبان .

ثم أوقع صاحب الزنج بسعيد ، وذلك أنّه سيّر إلى سعيد جيشاً ، فأوقعوا به ليلا وأصابوا مقتلة من أصحاب سعيد ، فقتلوا خلقا كثيرا وأحرقوا عسكره ، فأمر بالمسير إلى باب الخليفة ، وترك بُغْراج بالبصرة ، فسار سعيد من البصرة وأقام بها بغراج يحمى أهلها ، فردّ السلطان أمرها إلى منصور بن جعفر الخيّاط بعد سعيد ، فجمع منصور الشذا وسار نحو صاحب الزنج ، فكمّن له صاحب الزنج كمينا ، فلما أقبل خرجوا عليه فقتلوا فى أصحابه مقتلة عظيمة ، وغرق منهم خلق كثير ، فلم يقابله منصور بعد ذلك .

(١) فى الكامل حـ٧ ص ١٦٧ : هطة وبتوبيد المخطوطات الطبرى حـ ١٣ ص ١٨٤٣ .

ذكر انهزام الزنج بالأهواز

قال : وفى سنة سبع وخمسين ومائتين أرسل صاحب الزنج جيشا مع على بن أبان ليقطع قنطرة أربك (١) ، فلقيهم إبراهيم بن سيما منصرفا من فارس ، فأوقع بهم وهزمهم وقتل منهم وجرح على بن أبان ، ثم سار إبراهيم قاصدا نهر جُبَّى (٢) ، وأمر كاتبه شاهين بن بسطام بالمسير على طريق آخر ، ليوافيه بنهر جبّى بعد الوقعة ، وكان على بن أبان قد سار من الوقعة فنزل الخَيْزُرَانيّة ، فأتاه رجل فأخبره باقبال شاهين إليه ، فسار نحوه فالتقيا وقت العصر بموضع بين جبّى ونهر موسى ، فاقتتلوا قتالا شديدًا ، ثم صدمهم الزنج صدمة صادقة فهزموهم ، وقتلوا شاهين وابن عم له وخلقا كثيرا ؛ فلما فرغ الزنج منهم أتاهم الخبر بقرب إبراهيم بن سيما منهم ، فسار علىّ نحوه فوافاه وقت العشاء الآخرة ، فأوقع بإبراهيم وقعة شديدة قتل فيها جمعا كثيرا ؛ قال على بن أبان : وكان أصحابي قد تفرّقوا بعد الوقعة مع شاهين ، ولم يشهد معى حرب إبراهيم غير خمسين رجلا ، ثم انصرف على بن أبان إلى جُبَّى .

---

(١) فى المخطوطات : اربل والتصويب عن الكامل حـ٧ ص١٦٨ والطبرى حـ١٣ ص١٨٤٥

(٢) فى المخطوطات والكامل حـ٧ ص١٦٨ : جبى والتصويب عن الطبرى حـ ١٣ ص١٨٤٦ وصححت المخطوطات الاسم فى آخر الفصل .

ذكر أخذ الزنج البصرة وتخريبها

قال : وفى شوال سنة سبع وخمسين ومائتين جمع صاحب الزنج أصحابه لدخول البصرة ، وتخريبها لضعف أهلها وتفرّقهم ، وكان منصور الخيّاط قد أمسك عن حربه بعد تلك الوقعة التى ذكرناها ، واقتصر على تخفير القيروانات والسفن ، فامتنع أهل البصرة فعظم ذلك على صاحب الزنج ، فتقدّم إلى على بن أبان بالمقام بالخيزرانيّة ليشغل منصورا عن تسيير القيروانات ، وكان علىّ بنواحى جُبَّى والخيزرانيّة ، ثم أمر محمد بن يزيد الدارى – وهو أحد من صحبه بالبحرين – أن يخرج إلى الأعراب فيجمعهم ، فخرج إليهم فأتاه منهم خلق كثير فأناخوا بالقَنْدَل (١) ، ووجّه إليهم سليمان بن موسى الشَّعْرانى ، وأمرهم بطرق البصرة والايقاع بها ليتمرّن الأعراب على ذلك ، ثم انهض علىّ بن أبان وضمّ إليه طائفة من الأعراب ، وأمره باتيان البصرة من ناحية بنى سعد ، وأمر يحيى بن محمد البَحْرانى باتيانها من ناحية نهر عدى وضمّ إليه سائر الأعراب ، فكان أوّل من واقع أهل البصرة على بن أبان ، وبُغْرَاج يومئذ بالبصرة فى جماعة من الجند ، فأقام يقاتلهم يومين ومال الناس نحوه ، وأقبل يحى بن محمد فيمن معه نحو الجسر ، فدخل على بن أبان البصرة وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال ، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت ، ثم عاد يحيى إلى البصرة يوم الأحد فتلقّاه بُغْراج فى جمع ، فردّوه يومه ذلك ، ثم غاداهم يوم الإثنين

(١) في المخطوطات : بالعبيد والتصويب عن الكامل ج٧ ص ١٦٩ والطبرى ج١٣ ص١٨٤٨ .

فدخل وقد تفرق الجند ، وانحاز بغراج ومن معه . ولقيه إبراهيم بن يحيى المُهَلَّبي فاستأمنه لأهل البصرة فأمّنهم ، فنادى منادى إبراهيم : من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم ، فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملأوا الرحاب ، فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة لئلا يتفرقوا فغدر بهم ، وأمر أصحابه بقتلهم فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة ، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم منهم إلا النادر ، ثم انصرف يومه ذلك ، ودخل علىّ بن أبان إلى الجامع فأحرقه . وأحرقت البصرة من عدة مواضع ، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل ، وعظم الخطب وعمّها القتل والنهب والاحراق ، وقتلوا كل من رأوه بها ، فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته ، فبقوا كذلك عدة أيام ، ثم أمر يحيى أن ينادى بالأمان ليظهروا فلم يظهر أحد ، ثم انتهى الخبر إلى صاحب الزنج فصرف على بن أبان عنها ، وأقرّ يحيى عليها لموافقته هواه فى كثرة القتل ، وصرف عليا لابقائه على أهلها ، فهرب الناس على وجوههم ، وصرف صاحب الزنج جيشه عن البصرة .

قال : ولما أخرب البصرة انتمى إلى زيد لمصير جماعة من العلويين إليه ، وترك الانتساب إلى عيسى بن زيد . وانتسب إلى يحيى بن زيد ، قال القاسم بن الحسن النوفلى : كذب ، ابن يحيى [1] لم يُعقب غير بنت ماتت وهى ترضع .

---

(١) هكذا بالمخطوطات ولعلها إن يحيى .

ذكر مسير المولد لحرب صاحب الزنج وانتصار صاحب الزنج

وفى ذى القعدة من السنة أمر المعتمد على الله المُوَلَّد بالمسير إلى البصرة لحرب الزنج ، فسار فنزل الأُبلّة فسيّر صاحب الزنج يحيى ابن محمد لحربه ، فسار إليه فقاتله عشرة أيام ، ثم وطّن المولّد نفسه على المقام ، فكتب صاحب الزنج إلى يحيى يأمره بتبييت المولّد ، وسيّر إليه أبا الليث الأَصفهانى فبيّته ، ونهض المولّد فقاتله تلك الليلة ومن الغد إلى العصر ، ثم انهزم عنه ودخل الزنج عسكره فغنموا ما فيه ، واتبعه يحيى إلى الجَامِدَة فأَوقع بأهلها ، ونهب تلك القرى وسفك ما قدر عليه من الدماء ، ثم رجع إلى نهر معقل .

ذكر الحرب بين منصور الخياط والزنج وقتل منصور

قال : وفى سنة ثمان وخمسين ومائتين قتل منصور بن جعفر الخياط ، وسبب ذلك أن صاحب الزنج لما فرغ من أمر البصرة أمر على بن أبان بالمسير إلى جُبّى ، لحرب منصور بن جعفر وهو يومئذ يلى الأَهواز ، فأَقام بازائه شهرا وكان منصور فى قلّة من الرجال ، ثم وجّه صاحب الزنج جلّة أصحابه مع أبى الليث الأصفهانى ، وأمره بطاعة على بن أبان فلما صار إليه خالفه واستبدّ ، وجاء منصور كما كان يجىء للحرب ، فتقدّم إليه أبو الليث عن غير إذن علىّ ، فظفر به منصور وقتل من الزنج خلقا كثيرا ، وأفلت أبو الليث ورجع إلى

صاحب الزنج ، ثم إنَّ على بن أبان وجّه طلائع يأتونه بخبر منصور ، وأسري إلى وال كان لمنصور على بعض الأعمال ، فقتله وقتل أكثر أصحابه وغنم ما كان معهم ورجع ، وبلغ الخبر منصور بن جعفر فأسري إلى الخيزرانيّة ، وخرج إليه على بن أبان فتحاربوا إلى الظهر فانهزم منصور وتفرّق عنه أصحابه ، وأدركته طائفة من الزنج فحمل عليهم ، وقاتلهم حتى تكسّر رمحة وفنى نشّابه ، ثم حمل حصانه ليعبر النهر فوقع فى النهر ، وسبب وقوعه أن بعض الزنج رآه حين أراد أن يعبر النهر ، فألقى نفسه فى النهر قبل منصور وتلقّى الفرس حين وثب ، فنكص الفرس وسقط منصور فى النهر فقتله الأسود وأخذ سلبه ، وقُتل معه أخوه خلف بن جعفر وغيره من أصحابه .

ذكر مسير أبى أحمد الموفق لقتال الزنج وقتل مفلح

وفى سنة ثمان وخمسين ومائتين عقد المعتمد على الله لأخيه أبى أحمد الموفّق على ديار مضر وقنّسرين والعواصم ، وخلع عليه وعلى مُفْلِح فى شهر ربيع الآخر وسيّرهما لحرب الزنج بالبصرة ، وركب المعتمد معه وشيّعه وسار نحو البصرة ، ونازل صاحب الزنج ، وكان سبب ارساله ما فعله الزنج بالبصرة ، فأكبر الناس ذلك وتجهّزوا إليه وساروا فى عدة وعُدة كاملة ،وصحبه من سوقة بغداد خلق كثير ، وكان علىّ بن أبان بجُبّى ، وسار يحيى بن محمد البحرانى إلى نهر العباس ومعه أكثر الزنوج ، وبقى صاحبهم فى قلّة من الناس ، وأصحابه يغادون البصرة ويراوحونها لثقل ما نالوه منها ، فلما نزل عسكر الموفّق

نهر معقل أجفل من فيه من الزنوج إلى صاحبهم مرعوبين ، وأخبروه بعظم الجيش وأنّهم لم يرد عليهم مثله ، فأحضر رئيسين من أصحابه فسألهما عن قائد الجيش فلم يعرفاه ، فجزع لذلك ثم سيّر إلى على ابن أبان يأمره بالمصير إليه فيمن معه ، فلما كان يوم الأربعاء لإثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى أتاه بعض قوّاده ، فأخبره بمجىء العساكر وتقدّمهم ، وأنّهم ليس فى وجوههم من الزنوج من يردّهم ، فكذّبه وسبّه وأمر فنودى فى الزنوج بالخروج إلى الحرب فخرجوا ، فرأوا مُفلِحا قد أتاهم فى عسكر فقاتلوه ، فبينما مفلح يقاتلهم إذ أتاه سهم غرب ، لا يعرف من رمى به ، فأصابه فرجع وانهزم أصحابه ، وقتل الزنج فيهم قتلا ذريعا ، وحملوا الرؤوس إلى صاحب الزنج ، واقتسم الزنج لحوم القتلى ، وأتى بالأسرى فسألهم عن قائد الجيش فأخبروه أنّه أبو أحمد ، ومات مفلح من ذلك السهم ولم يلبث صاحب الزنج إلا يسيرا حتى وافاه على بن أبان ، ثم رحل الموفّق إلى الأبلّة ليجمع ما فرّقته الهزيمة ثم صار إلى نهر أبى الأسد (١) .

ذكر مقتل يحيى بن محمد البحرانى

وفى سنة ثمان وخمسين ومائتين أيضا أسر يحيى بن محمد البَحْرَانى قائد صاحب الزنج ، وكان سبب ذلك أنّه لما سافر نحو نهر العبّاس لقيه عسكر اصفجون (٢) ، عامل الأهواز بعد منصور ، فقاتلهم وكان

(١) فى المخطوطات : نهر الأسد والتصويب عن الكامل جـ٧ ص ١٧٥ ، والطبرى جـ١٣ ص ١٨٦٥ ، راجع أيضا معجم البلدان جـ٤ ص ٨٣٠ (ط . ليبزج سنه ١٨٦٩) .

(٢) فى المخطوطات والكامل جـ ٧ ص ١٧٥ : اصمجور والتصويب عن الطبرى جـ١٣ ص ١٨٦٦ .

أكثر منهم عددًا ، فنال ذلك العسكر من الزنج بالنشاب وجرحوهم ، فعبر يحيي النهر إليهم فانحازوا عنه ، وغنم سفنا كانت مع العسكر فيها الميرة ، وساروا بها إلى عسكر صاحب الزنج ، على غير الوجه الذى فيه على بن أبان لتحاسد كان بينه وبين يحيي ، ووجّه يحيي طلائعه إلى دجلة فلقيهم جيش أبى أحمد الموفّق ، سائرين إلى نهر أبى الأسد ، فرجعوا إلى علىّ فأخبروه بمجىء الجيش ، فرجع من الطريق الذى كان سلكه وسلك طريق نهر العبّاس ، وعلى فم النهر مراكب تحميه من عسكر الخليفة ، فلما رآهم يحيي راعه ذلك ، وخاف أصحابه فنزلوا السفن وعبروا النهر ، وبقى يحيي ومعه بضعة عشر رجلا ، فقاتلهم هو وذلك النفر اليسير فرموهم بالسهام ، فجرح ثلاث جراحات فلماجرج تفرّق أصحابه عنه ، فرجع حتى دخل بعض السفن وهو مثخن بالجراح ، وأخذ أصحاب السلطان الغنائم وأخذوا السفن ، وعبروا إلى سفن كانت للزنج فأحرقوها ، وتفرّق الزنج عن يحيي فى بقيّة نهارهم ، فلما رأى تفرّقهم ركب سميريّة وأخذ معه طبيباً لأجل الجراح ، وسار فيها فرأى الملّاحون سميريّات السلطان فخافوا فألقوا يحيي ومن معه . فمشى وهو مثقل وقام الطبيب الذى معه فأتى أصحاب السلطان ، فأخبرهم خبره فأخذوه وحملوه إلى أبى أحمد ، فحمله أبو أحمد إلى سامرّا فقطعت يداه ورجلاه ثم قُتل ، فجزع صاحب الزنج عليه جزعاً شديدًا وقال لهم لما قتل يحيي : اشتدّ جزعى عليه فخوطبت أنّ قتله كان خيرًا لك ، إنّه كان شرها .

ذكر عود أبى أحمد الموفق الى سامرا واستخلافه محمد المولد على حرب الزنج

وفى هذه السنة أيضا انحاز أبو أحمد الموفق إلى واسط ، ثم منها إلى سامرّا ، وكان سبب ذلك أنه لما صار إلى نهر أبى الأسد كثرت الأمراض فى أصحابه وكثر فيهم الموت ، فرجع إلى باذاوَرْد فأقام هناك ، وأمر باعطاء الجند أرزاقهم واصلاح الآلات والسميريّات وشحنها بالقوّاد ، وعاد إلى عسكر صاحب الزنج ، وأمر جماعة من قوّاده بقصد مواضع سمّاها من نهر أبى الخصيب وغيره[1] ، وبقى معه جماعة ، فمال أكثر ، الخلق حتى التقى الناس ونشبت الحرب إلى نهر أبى الخصيب[1] ، وبقى أبو أحمد فى قلّة من أصحابه ، فلم يزل عن موضعه خوفاً أن يطمع الزنج فيه ، ولما رأى الزنج قلّة من معه طمعوا فيه وكثروا عليه ، واشتدت الحرب عنده وكثر القتل والجراح ، وأحرق أصحاب أبى أحمد منازل الزنوج ، واستنقذوا من النساء جمعا كثيراً ، ثم ألقى الزنج جدّهم نحوه ، فلما رأى أبو أحمد ذلك علم أنّ الحزم فى المحاجزة ، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على مهل وتؤدة ، واقتطع الزنج طائفة من أصحابه فقاتلوهم ، فقتلوا من الزنج خلقا كثيراً ثم قتلوا بأجمعهم ، وحملت رؤوسهم إلى قائد الزنج ، وهى مائة رأس وعشرة أرؤس ، فزاد ذلك فى عتوّ صاحب الزنج ، فعجّل أبو أحمد أصحابه للرجوع إلى الزنج ، فوقعت نار فى أطراف

(١) ساقط من ث .

عسكره فى يوم ريح عاصف ، فاحترق كثير منه فرحل[1] إلى واسط ، فلما نزل إلى واسط تفرّق عنه عامّة أصحابه ، فسار منها إلى سامّرا ، واستخلف على واسط لحرب الزنج محمد المولّد ، ثم عاد الموفّق بعد ذلك لحرب الزنج ، على مانذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر دخول الزنج الأهواز
ومسير موسى بن بغا لحربهم

قال : وفى سنة تسع وخمسين ومائتين فى شهر رجب دخل الزنج الأهواز ، وذلك أنّ صاحبهم أنفذ على بن أبان وضمّ إليه الجيش ، الذى كان مع يحيى البحرانى وسليمان بن موسى الشعرانى ، وسيّره إلى الأهواز ، وكان المتولى عليها بعد منصور بن جعفر رجلا يقال له اصغجون ، فبلغه خبر الزنج فخرج إليهم ، والتقى العسكران بدَسْت[2] مِيسَان ، فانهزم اصغجون وغرق وقتل وأُسر خلق كثير من أصحابه ، وكان ممّن أُسر الحسن بن هرثمة والحسن بن جعفر ، وحملت الرؤوس والأعلام والأسرى إلى صاحب الزنج ، فأمر بحبس الأسرى ، ودخل الزنج الأهواز فأقاموا يفسدون فيها ويعبثون ، إلى أن قدم موسى بن بغا .

قال[3] : ولما كان فى ذى القعدة أمر المعتمد على الله موسى بن بُغا

---

(١) فى ك ، ت : فوصل .

(٢) فى تاريخ الطبرى حـ١٣ ص ١٨٧٦ : دستاران ويؤيد المخطوطات والكامل حـ٧ ص١٧٨ ياقوت فى معجم البلدان حـ٢ ص ٥٧٤ (ليبزج سنه ١٨٦٧) .

(٣) لايزال الثورى ينقل عن الكامل راجع حـ٧ من ص ١٧٨ .

بالمسير إلى حرب صاحب الزنج ، فسير إلى الأهواز عبد الرحمن بن مُفْلِح ، وإلى البصرة اسحاق بن كنداجيق ، وإلى بَاذَاوَرْد إبراهيم بن سيما ، وأمرهم بمحاربة صاحب الزنج ،فسار عبد الرحمن إلى محاربة على ابن أبان فتواقعا ، فانهزم عبد الرحمن ثم استعدّ وعاد إلى علىّ ، فأوقع به وقعة عظيمة قتل فيها من الزنج قتلا ذريعا ، وأسر خلقا كثيرا ، وانهزم على بن أبان ، ثم أراد ردّ الزنج فلم يرجعوا من الخوف الذى دخلهم من عبد الرحمن ، فلما رأى ذلك أذن لهم بالانصراف ، فانصرفوا إلى مدينة صاحبهم ، ووافى عبدالرحمن حصن مهدي ليعسكر به ، فسيرّ إليه صاحب الزنج علىّ بن أبان فواقعة فلم يقدر عليه ، ومضى يريد الموضع المعروف بادركه[1] ، وكان إبراهيم بن سيما بالبَاذَا وَرْد ، فواقعه على بن أبان فهزمه علىّ ، ثم واقعه ثانية فهزمه إبراهيم ، فمضى علىّ بالليل حتى انتهى إلى نهر يحيى ، وانتهى خبره إلى عبد الرحمن فوجّه إليه طَاشْتُمرُ فى جمع من الموالى ، فلم يصل إليه لامتناعه بالآجام والقصب والحلافى ، فأضرمه عليه نارا فخرجوا هاربين ، فأسر منهم أسرى وانصرف أصحاب عبد الرحمن بالأسرى والظفر ، ثم سار عبد الرحمن نحو علىّ بن أبان بمكان نزل فيه ، فكتب إلى صاحب الزنج يستمده فأمدّه بثلاث عشرة شذاة ، ووافاه عبد الرحمن فتواقعا يومهما ، فلما كان الليل انتخب علىّ من أصحابه جماعة ممّن يثق بهم ، وسار وترك عسكره وأتى عبد الرحمن من ورائه فبيّته ، فنال

(١) هذه الكلمة ظهرت مختلفة فى المراجع فهى فى الكامل حـ٧ ص١٧٩ : الدكه وفى الهامش (إحدى المخطوطات للكامل) بادركة وفى تاريخ الطبرى حـ١٣ ص ١٨٧٨ : الدكرو فى الهامش بادركه فى احدى المخطوطات

منه شيئا يسيرا وانحاز عبد الرحمن ، فأخذ عليّ منهم أربع شذوات وأتى عبد الرحمن دولاب فأقام به ، وسار طاشتَمر إلى عليّ فوافاه وقاتله ، فانهزم عليّ إلى نهر السّدرة ، وكتب طاشْتِمُر يستمد عبد الرحمن ويخبره بانهزام عليّ ، فأتاه عبد الرحمن وواقع عليا بنهر السّدرة وقعه عظيمة ، فانهزم عليّ إلى صاحب الزنج ، وعسكر عبد الرحمن ببيان [1] فكان هو وإبراهيم بن سيما يتناوبان المسير إلى عسكر الزنج فيوقعان به ، واسحاق بن كنداجيق بالبصرة ، وقد قطع الميرة عن الزنج ، فكان صاحبهم يجمعهم يوم محاربة عبد الرحمن وإبراهيم ، فإذا انقضت الحرب سيّر طائفة منهم إلى البصرة لقتال اسحاق ، فأقاموا كذلك بضعة عشر شهراً ، إلى أن انصرف موسى بن بُغا عن حرب الزنج ، ووليها مسرور البلخى على مانذكره إن شاء الله تعالى .

وفى سنة إحدى وستين ومائتين ولى أبو الساج الأهواز وسُيرّ عبد الرحمن إلى فارس ، وأمر أبو الساج بمحاربة الزنج فندب صهره [2] لمحاربتهم ، فلقيه عليّ بن أبان بناحية دولاب ، فقتل عبد الرحمن وانحاز أبو الساج إلى ناحية عسكر مُكْرَم ، ودخل الزنج الأهواز فقتلوا أهلها وسبوا وأحرقوا ، ثم انصرف أبو الساج عما كان وليه من الأهواز وحرب الزنج ، ووليها إبراهيم بن سيما فلم يزل بها حتى انصرف عنها مع موسى بن بغا .

---

(١) فى الكامل حـ٧ ص ١٧٩ : بلنان وفى المخطوطات : يشبان والتصويب عن الطبرى جـ١٣ ص ١٨٧٩ ، وفى معجم البلدان لياقوت بالفتح والتخفيف صقع من سواد البصرة و الجانب الشرق من دجلة .

(٢) صهر أبي الساج راجع الطبرى حـ١٣ ص ١٨٨٨ ، ص ١٨٨٩ .

ذكر انتداب أبى أحمد الموفق لحرب الزنج وماشغله عن ذلك واستعماله مسرورا البلخى على حربهم وماكان فى خلال ذلك من أخبارهم

وفى سنة إحدى وستين ومائتين ولّى المعتمد على الله أخاه أبا أحمد العهد بعد ابنه جعفر ، ولقّبه الناصر لدين الله الموفّق ، وولّاه من الأعمال ماقدّمنا ذكره فى أخباره الدولة العباسية ، وولّى موسى بن بغا إفريقية على ماقدمناه ، وأمر المعتمد على الله أخاه الموفّق بحرب الزنج ، فولّى الموفّق الأهواز والبصرة و كور دجلة – وذلك من جملة ماهو مضاف إلى ولايته – مسرورا البلخى ، وسيّره على مقدمته فى ذى الحجة من السنة وعزم على المسير بعده ، فحدث من أمر يعقوب بن الليث الصفّار مامنعه عن المسير على مانذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الصفارية ، ثم رجع مسرور البلخى لقتال يعقوب ، فخلت البلاد من العساكر السلطانية ، فبثّ صاحب الزنج سراياه فى تلك البلاد تنهب وتحرق وتخرّب ، وذلك فى سنة اثنتين وستين ومائتين ، وأتته الأخبار بخلوّ البطيحة من جند السلطان ، فأمر سليمان بن جامع وجماعة من أصحابه بالمسير إلى الحوانيت ، وأمر سليمان بن موسى بالمصير إلى القادسية ، وقدم أبّا (١) التركى فى ثلاثين شذاة يريد عسكر الزنج فنهب وأحرق ، فكتب صاحب الزنج إلى سليمان بن موسى يأمره بمنعه من العبور ، فأخذ سليمان عليه الطريق ، فقاتلهم

(١) فى المخطوطات: ابن وفي الكامل ايضا حـ٧ ص ٢٠٢ والتصويب عن الطبرى حـ ١٣ ص ١٩٠٠ وسيرد أسمة صحيحا بعد ذلك .

شهرا حتى تخلّص ، وانحاز إلى سليمان بن جامع من مذكورى البلالية وأنجادهم جمع كثير فى خمسين ومائة سميرية ، وكان مسرور البلخى قد وجّه قبل مسيره عن واسط جماعة من أصحابة فى شذاة إلى سليمان ، فأشار الباهليون على سليمان أن يتحصّن فى عقْرما وراء (١) طهيثا والأدغال التى فيها ، وكرهوا خروجه عنهم لموافقته فى فعله وخافوا السلطان ، فسار فنزل إليه بقربة مروان بالجانب الشرقى من نهر طهيثا ، وجمع إليه رؤساء الباهليين ، وكتب إلى صاحب الزنج يعلمه بما صنع ، فكتب إليه يصوّب رأيه ويأمره بانفاذ ماعند من ميرة ونِعَم ، فأنفذ ذلك إليه .

وورد الخبر على سليمان أنّ أغَرْتميش وخُشَيْشا قد أقبلا فى الخيل والرجال (٢) والسميريات والشذاة يريدون حربه ، فجزع جزعا شديدا ، فلما أشرفوا عليه ورآهم أخذ جمعا من أصحابه ، وسار راجلا واستدبر أغرتميش ، وجدّ أغرتميش فى المسير إلى عسكر سليمان ، وكان سليمان قد أمر الذي استخلفه فى جيشه ألاّ يظهر منهم أحد لأصحاب أغرتميش ، وأن يخفوا أنفسهم ما قدروا إلى أن يسمعوا أصوات طبولهم ، فإذا سمعوها خرجوا عليه ، وأقبل أغرتميش إليهم فجزع أصحاب سليمان جزعا شديدا فتفرّقوا ، ونهضت شرذمة منهم فواقعوهم وشغلوهم عن دخول العسكر ، وجاء سليمان من خلفهم وضرب طبوله ، وألقوا أنفسهم فى الماء للعبور إليهم ، فانهزم أصحاب أغرتميش وظهر من كان

(١) فى المخطوطات : فى عقر مادروا بطهثا ، وفى الكامل حـ٧ ص ٢٠٢ : عقر ماوراء بطهثا ، وفى تاريخ الطبرى حـ١٣ ص ١٩٠٢ عقر ماور والتحصن بطهيثا .

(٢) فى المخطوطات : الرجل والتصويب عن الكامل حـ٧ ص٢٠٢ والطبرى حـ ١٣ ص١٩٠٤

من السودان بطهيثا ، ووضعوا السيوف فيهم فقتل خُشَيْش وانهزم أغرتميش ، وتبعه الزنوج إلى عسكره فنالوا حاجتهم منه ، وأخذوا شذاوات فيها مال وغيره ، فعاد أغرتميش إليهم فانتزعها من أيديهم ، وعاد سليمان وقد ظفر وغنم ، وكتب إلى صاحب الزنج بالخبر وسيّر إليه رأس خُشَيْش ، فسيّره إلى عليّ بن أبان وهو بنواحي الأهواز ، وسيّر سليمان سريّة فظفروا باحدى عشرة شذاة وقتلوا أصحابها .

ثم كانت للزنج وقعة عظيمة انهزموا فيها فى سنة اثنتين وستين أيضا

وكانت هذه الوقعة مع أحمد بن لَيْثَوَيه . وكان سببها أن مسرورا البلخى وجّه أحمد بن ليثويه إلى كور الأهواز ، فنزل السوس وكان يعقوب الصفّار – المستولى على خراسان – قد قلّد محمد بن عبيد الله ابن هزار [1] مرد الكردى كور الأهواز ، فكاتب محمد قائد الزنج يطمعه فى الميل إليه ، وأوهمه أنّه يتولى له كور الأهواز ، وكان محمد يكاتبه قديماً ، وعزم على مداراة الصفّار وقائد الزنج ، حتى يستقيم له الأمر فيها ، فكاتبه صاحب الزنج يجيبه إلى ما سأل ، على أن يكون على بن أبان المتولّى للبلاد ، ومحمد بن عبيد الله يخلفه عليها ، فقبل محمد ذلك ، فوجّه إليه على بن أبان جيشا وأمدّهم محمد بن عبيد الله ، فساروا نحو السوس فمنعهم أحمد بن ليثويه ومن معه من جند الخليفة عنها ، وقاتلهم فقتل خلقاً كثيراً وأسر جماعة ، وسار أحمد حتى جُنْدَيْ [2] سَابور ، وسار على بن أبان من الأهواز منجدا محمد بن

(١) فى ك ، ت : عبد الله وفى تاريخ الطبرى جـ١٣ ص ١٩٠٧ : أزارمرد والتصويب عن ا والكامل جـ٧ ص ٢٠٣ .

(٢) فى المخطوطات : سابور ومن الواضح أنه يقصد جند يسابور ، هذا والتصويب عن الكامل جـ٧ ص ٢٠٤ والطبرى جـ١٣ ص ١٩٠٩ .

عبيد الله على أحمد بن ليثويْه ، فلقيه محمد[1] فى جيش كثير من الأكراد والصعاليك ، ودخل محمد تُسْتَر ، فانتهى إلى أحمد بن ليثويه الخبر بتضافرهما على قتاله ، فخرج عن جُنْدَىْ سَابور إلى السوس ، وكان محمد قد وعد علىّ بن أبان أن يخطب لصاحبه قائد الزنج يوم الجمعة على منبر تُستر ، فلما كان يوم الجمعة خطب للمعتمد على الله وللصفّار ، فلما علم على بن أبان ذلك انصرف إلى الأهواز ، وهدم قنطرة كانت هناك لئلا تلحقه الخيل ، وانتهى أصحاب علىّ إلى عَسْكر مُكْرَم فنهبوها ، وكانت داخلة فى سلم صاحب الزنج فغدروا بها ، وساروا إلى الأهواز ، فلما علم أحمد ذلك أقبل إلى تستر ، فأوقع بمحمد بن عبيد الله ومن معه ، فانهزم محمد ودخل أحمد تُستر ، وأتت الأخبار على بن أبان أنّ أحمد على قصده ، فسار إلى لقائه ومحاربته فالتقيا واقتتل العسكران ، فاستأمن جماعة من الأعراب ، الذين كانوا مع علىّ بن أبان — إلى أحمد بن ليثويه ، فانهزم باقى أصحاب علىّ وثبت معه جماعة يسيرة ، فاشتد القتال وترجّل على بن أبان وباشر القتال راجلا ، فعرفه بعض أصحاب أحمد فأنذر به ، فلما عرفوه انصرف هارباً ، وأتاه بعض أصحابه بسميريّة فركب فيها ونجا مجروحا ، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة ، وعاد إلى الأهواز ولم يُقم بها ، ومضى إلى عسكر صاحبه يداوى جراحه ، واستخلف على عسكره بالأهواز ، فلما برئت جراحه عاد إلى الأهواز ، ووجّه أخاه الخليل بن أبان فى سنة ثلاث وستين ومائتين فى جيش كثيف إلى

(١) فى المخطوطات : أحمد وهو خطأ تصويبه عن الكامل جـ٧ ص ٢٠٤ والطبرى جـ ١٣ ص ١٩٠٩ .

أحمد بن ليثويه ، وكان أحمد بعسكر مُكْرَم فكمّن لهم أحمد وخرج إلى قتالهم ، فالتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال ، وخرج الكمين على الزنج فانهزموا وتفرّقوا وقتلوا ، ووصل المنهزمون إلى على بن أبان ، فوجّه علىٌّ مسلحة [إلى المَسْرقان] (١) ، فوجّه إليهم أحمد بن ليثويه ثلاثين فارسا من أعيان أصحابه فقتلهم الزنج جميعهم .

ذكر دخول الزنج واسط
وماتقدم ذلك من الحروب والوقائع

كان دخول الزنج واسط في سنة أربع وستين ومائتين ، وذلك أن سليمان بن جامع لما سار إلى البطائح في سنة اثنتين وستين – وكان بينه وبين أَغَرتَمِيش ما ذكرناه – كتب إلى صاحبه يستأذنه في المسير إليه ليحدث به عهدا ، فأذن له في ذلك ، فأشار عليه الجبّائي(٢) أن يتطرق إلى عسكر تكين البخاريّ ، وهو ببَرْدُود(٣) ، فقبل قوله وسار إلى تكين ، فلما كان على فرسخ منه قال له الجبّائي : الرأي أن تقيم أنت ها هنا ، وأمضى أنا في السميريّات فأجرّ القوم إليك فيأتونك وقد تعبوا ، فتنال منهم حاجتك ، ففعل سليمان ذلك وجعل بعض أصحابه كمينا ، ومضى الجبّائي إلى تكين فقاتله ساعة ، ثم تطارد لهم فتبعوه ،

(١) سهو من المؤلف وضع بين قوسين بيانا أنه مضاف إلى النص عن الكامل جـ٧ ص ٢١٣ .

(٢) في المخطوطات : الجنابي وهو خطأ لأن الجنابي زعيم القرامطة ظهر في البحرين بعد أن بسط سلطانه عليها ، وبزعامته صار القرامطة قوة مرهوبة ، وحركة القرمطة جاءت بعد حركة الزنج هذه وفي الكامل جـ٧ ص ٢١٦ : الحياني ، والتصويب عن الطبري جـ١٣ ص ١٩١٧ .

(٣) في الكامل جـ٧ ص ٢١٦ : يزدود ويؤيد المخطوطات الطبري جـ١٣ ص ١٩١٧ .

فأرسل إلى سليمان يعلمه ذلك ، وقال لأصحابه – وهو بين يدى أصحاب تكين شبه المنهزم ليسمع أصحاب تكين قوله – غرّرتمونى وأهلكتمونى !! وكنت نهيتكم عن الدخول ها هنا فأبيتم ولا أرانا ننجو منه ! ! فطمع أصحاب تكين وجدّوا فى طلبه ، وجعلوا ينادون « بلبل فى قفص » ، فمازالوا كذلك حتى جاوزوا موضع الكمين وقاربوا عسكر سليمان ، وقد كمّن أيضا خلف جدر هناك ، فخرج سليمان إليهم فقاتلهم ، وخرج الكمين من خلفهم ، وعطف الجبّائى على من فى النهر ، فاشتد القتال ، فانهزم أصحاب تكين من الوجوه كلها ، وركبهم الزنج فقتلوهم وسلبوهم أكثر من ثلاثة فراسخ ، وعادوا عنهم ، فلما كان الليل عاد الزنج إليهم وهم فى معسكرهم فكبسوهم ، فقاتلهم تكين وأصحابه فانكشف سليمان ، ثم عبّى أصحابه وأمر طائفة أن تأتيه من جهة ذكرها بهم ، وطائفة من الماء . وأتى هو فى الباقين ، وقصدوا تكين من جهاته كلها ، فلم يقف من أصحابه أحد ، وانهزموا وتركوا عسكرهم فغنم الزنج ما فيه ، وعادوا بالغنيمة .

واستخلف سليمانُ الجبّائى على عسكره ، وسار إلى صاحبه وذلك فى سنة ثلاث وستين ، فلما سار سليمان إلى صاحب الزنج خرج الجبّائى بالعسكر إلى مَازَرْوَان[1] لطلب الميرة ، فاعترضه جعْلان فقاتله ، فانهزم الجبّائى وأخذت سفنه ، وأتته الأخبار أنّ منجور ومحمد ابن على[2] بن حبيب اليشكرى قد بلغا الحجّاجيّة ، فكتب إلى

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٢١٧ : ما زوران ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص ١٩٢٠ .

(٢) فى ك ، ت محمد بن جعب اليشكرى والتصويب عن ا والكامل حـ٧ ص ٢١٧ والطبرى حـ١٣ ص ١٩٢٠ .

صاحبه بذلك ، فسيّر إليه سليمان فوصل إلى طهيثا مجدا ، وأظهر أنّه يريد قصد جُعْلان ،وقدم الجبّائى وأمره أن يأتى جُعْلان ويقف بحيث يراه ولا يقاتله ، ثم سار سليمان نحو محمد بن على بن حبيب مجدا فأوقع به وقعة عظيمة ، وغنم غنائم كثيرة ، وقتل أخاً لمحمد بن على ورجع ، وذلك فى شهر رجب سنة ثلاث وستين أيضا .

ثم سار فى شعبان إلى قرية حسّان ، وبها قائد يقال له جيش (١) ابن خمارتكين فأوقع به ، فهزمه ونهب القرية وأحرقها وعاد ، ثم سار فى شعبان أيضا إلى مواضع فنهبها وعاد ، ثم سار فى رمضان وأظهر أنّه يريد جُعْلان بمازَرْوَان (٢) ، فبلغت الأخبار جُعلان (٢) فضبط عسكره ، فتركه سليمان وعدل إلى أبّا فأوقع به وهو غارٌّ ، وغنم منه ست شذاوات ، ثم أرسل الجبّائى فى جماعة لينهب ، فصادفهم جُعْلان فأخذ سفنهم وغنم منهم ، فتبعه سليمان فى البرّ فهزمه واستنقذ سفنهم ، وغنم شيئا آخر وعاد ، ثم سار سليمان إلى الرصافة فى (٣) ذى القعدة فأوقع بمطر بن جامع وهو بها ، وغنم غنائم كثيرة وأحرق الرصافة (٣) واستباحها ، وحمل أعلاما وانحدر إلى مدينة صاحب الزنج ، وأقام ليعيّد هناك بمنزله ، فسار مطر إلى الحجّاجيّة فأوقع بأهلها وأسر جماعة ، وكان بها قاض لسليمان فأسره مطر وحمله إلى واسط ، وصار مطر إلى قريب طهيثا ورجع ، فكتب الجبّائى إلى سليمان بذلك ، فسار نحوه فوافاه لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

---

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٢١٧ : حسن ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ١٩٢٢ .
(٢) ساقط من ك ، ت .
(٣) ساقط من ت .

ثم صرف جعلان ووافاه أحمد بن ليثويه فأقام بالشَدِيديَّة . ومضى سليمان إلى تكين فى خمس شذاوات ، وذلك فى سنة أربع وستين ، فواقعه تكين بالشديديّة ، وكان أحمد بن ليثويه حينئذ قد سار إلى الكوفة ، فظهر تكين على سليمان وأخذ الشذاوات بما فيها ، وكان فيها صناديد سليمان وقوّاده فقتلهم ، ثم إنّ أحمد عاد إلى الشديديّة وضبط تلك الأعمال . حتى وافاه محمد المولّد وقد ولّاه الموفّق مدينة واسط ، فكتب سليمان إلى صاحبه يستمده ، فأمدّه بالخليل بن أبان فى زهاء ألف وخمسمائة فارس [1] . فلما أتاه المدد قصد إلى محاربة محمد المولّد ، فأوقع به وهرب المولّد ، ودخل سليمان مدينة واسط فقتل فيها خلقا كثيرا ونهب وأحرق ، وكان بها كنجور [2] البخارى ، فقاتله يومه إلى العصر ثم قتل ، وانصرف سليمان عن واسط إلى جُنْبُلَاء ليعيث ويخرّب ، فأقام هناك تسعين ليلة .

ذكر وقائع كانت بين الزنج وبين أحمد بن ليثويه وتكين البخارى وأغرتميش فى سنة خمس وسنة ست وستين ومائتين

وفى سنة خمس وستين كانت وقعة بين أحمد بن ليثويه وبين سليمان بن جامع والزنج بناحية جُنبلاء . وسبب ذلك أن سليمان كتب إلى صاحب الزنج ، يخبره بحال نهر يسمّى الزهيرى [3] ويسأله

(١) فى المخطوطات : فرس والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ٢١٨ والطبرى حـ١٤ ص ١٩٢٥

(٢) فى المخطوطات : ابن منكجور وكذلك فى الكامل حـ ٧ ص ٢١٨ وفى هامش الكامل . كنجور فى احدى مخطوطاته والتصويب عن الطبرى حـ١٤ ص ١٩٢٥ .

(٣) فى المخطوطات والكامل حـ٧ ص٢٢٣ : الزهرى والتصويب عن الطبرى حـ١٤ ص١٩٢٨

أن يأخذ فى عمله ، ويقول إنّه متى أنفذه تهيّأ له حمل ما فى جنبلاء وسواد الكوفة ، فأنفذ إليه زكرويه [١] لذلك ، وأمره بمساعدته والنفقة على عمل النهر ، فمضى سليمان فيمن معه وأقام بالشريطيّة نحوا من شهر ، وشرعوا فى عمل النهر ، وكان أصحاب سليمان فى أثناء ذلك يتطرّقون إلى ما حولهم ، فواقعه أحمد بن ليثويه ، وهو عامل الموفّق بجنبلاء ، فقتل من الزنوج نيّفا وأربعين قائدًا ، ومن عامّتهم ما لا يحصى كثرة وأحرق سفنهم ، فمضى سليمان مهزوما إلى طهيثا .

وفيها سار جماعة من الزنوج فى ثلاثين سميريّة إلى جَبُّل [٢] ، فأخذوا أربع سفن فيها طعام وانصرفوا . وفيها دخل الزنج النُّعْمَانِيَّة فأحرقوها وسبوا ، وصاروا إلى جَرْجَرايَا ودخل أهل السودان بغداد .

وفيها استعمل الموفّق مسرورًا البلخى على كور الأهواز ، فولّى مسرور ذلك تكين البخارىّ ، فسار تكين إليها ، وكان على بن أبان والزنج قد أحاطوا بتُسْتَر ، فخاف أهلها وعزموا على تسليمها إليهم ، فوافاهم تكين وهم على تلك الحال ، فواقع على بن أبان حال وصوله ، فانهزم علىّ والزنج وقتل كثير منهم وتفرقوا ، ونزل تكين تستر . قال : وهذه الوقعة تعرف بوقعة كودَك [٣] وهى مشهورة .

---

(١) هكذا فى ا الملاحظ دقته فى النقل وكذلك فى ت ، فى ك : بكروية ، وفى الكامل جـ٧ ص ٢٢٣ : نكرويه ، وفى تاريخ الطبرى حـ ١٤ ص ١٩٢٨ : فوجة الخبيث للقيام بذلك رجلا يقال له محمد بن يزيد البصرى . ولم يذكر لقبه المذكور فى الكامل أو المخطوطات .

(٢) فى المخطوطات : دجيل والتصويب عن الكامل حـ٧ ص٢٢٣ و الطبرى جـ١٤ ص١٩٣٢

(٣) فى المخطوطات والكامل حـ٧ ص٢٢٤ : كورك بالراء والتصويب عن الطبرى حـ١٤ ص ١٩٣٣ وراجع أيضا البداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٨ (مطبعة السعاده ، القاهرة

قال : ثم إن عليا قدم عليه جماعة من قوّاد الزنج ، فأمرهم بالمقام بقنطرة فارس ، فهرب منهم غلام رومى إلى تكين وأخبره بمقامهم بالقنطرة ، وتشاغلهم بالنبيذ وتفرّقهم فى جمع الطعام ، فسار تكين إليهم ليلا فأوقع بهم ، وقتل من قوّاهم جماعة وانهزم الباقون ، وسار تكين إلى على بن أبان فلم يقف له علىّ وانهزم ، وأسر غلام له يعرف بجعفرويه ورجع علىّ إلى الأهواز ورجع تكين إلى تستر ، وكتب علىّ إلى تكين يسأله الكفّ عن قتل غلامة فحبسه ، ثم تراسل علىّ وتكين ونهاديا ، فبلغ الخبر مسرورا بميل تكين إلى الزنج ، فسار حتى وافى تكين وقبض عليه وحبسه حتى مات ، وتفرّق أصحاب تكين : ففرقة صارت إلى الزنج ، وفرقة صارت إلى محمد بن عبيد الله الكردى ، فبلغ ذلك مسرورا فأمّنهم ، فجاءه الباقون منهم . قال : وبعض ما ذكرناه كان فى ست وستين ومائتين .

وفى سنة ست وستين ولى أغرتميش ما كان يتولاه تكين البخارى من أعمال الأهواز ، فدخل تُستر ومعه أبًا ومطر بن جامع ، فقتل مطر جعفرويه — غلام علىّ بن أبان — وجماعة معه كانوا مأسورين ، وساروا إلى عسكر مكرم ، وأتاهم الزنج هناك مع على بن أبان فاقتتلوا ، فلما رأوا كثرة الزنج قطعوا الجسر وتحاجزوا ، ورجع علىّ إلى الأهواز وأقام أخوه الخليل بالمَسْرُقان فى جماعة كثيرة من الزنج ، وسار أغرتميش ومن معه نحو الخليل ، ليعبروا إليه من قنطرة أرْبُك ، فكتب إلى أخيه علىّ فوافاه فى النهر ، وخاف أصحابه الذين خلّفهم بالأهواز فارتحلوا إلى نهر السِّدْرَة ، وتحارب علىّ وأغرتميش يومه ، ثم انصرف علىّ إلى الأهواز فلم يجد أصحابه ، فرجّه من يردّهم من نهر السدرة ،

فعسر عليهم ذلك فتبعهم وأقام معهم ورجع أغرتميش ، فنزل[1] عسكر مكرم واستعد لقتالهم ، وبلغ ذلك أغرتميش[1] ومن معه من عسكر الخليفة ، فساروا إليه فكمّن لهم عليّ ، وقدّم الخليل إلى قتالهم فاقتتلوا : فكان أوّل النهار لأصحاب الخليفة ، ثم خرج عليهم الكمين فانهزمو وأسر مطر بن جامع وعدّة من القوّاد ، فقتله عليّ بغلامه جعفرويه وعاد إلى الأهواز ، وأرسل رؤوس القتلى إلى صاحب الزنج ، وكان عليّ وأغرتميش بعد ذلك في حروبهم على السواء ، وصرف صاحب الزنج أكثر جنوده إلى عليّ بن أبان ، فلما رأى ذلك أغرتميش وادعه ، وجعل عليّ يغير على النواحي ، فأغار على قرية بيروذ ونهبها ، ووجّه الغنائم إلى صاحبه .

ذكر دخول الزنج رامهرمز

وفي سنه ست وستين ومائتين دخل عليّ والزنج رَامَهُرْمُز . وسبب ذلك أن محمد بن عبيد الله كان يخاف عليّ بن أبان ، لما في نفس عليّ منه لما ذكرناه ، فكتب إلى انكلاى ابن صاحب الزنج ، وسأله أن يسأل أباه ليرفع يد عليّ عنه ويكون إلى نفسه ، فزاد ذلك غيظ عليّ منه ، وكتب إلى صاحب الزنج بالايقاع بمحمد ، ويجعل ذلك الطريق إلى مطالبته بالخراج . فأذن له فكتب إلى محمد يطلب منه حمل الخراج ، فمطله ودافعه فسار إليه عليّ وهو برامهرمز ، فهرب محمد عنها ودخلها عليّ والزنج فاستباحها ، ولحق محمد بأقصى معاقله . وانصرف عليّ غانما ، وخاف

(١) ساقط من ك ، ت .

محمد فكتب إليه يطلب المسالمة ، فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه ، فحمل إليه مائتى ألف درهم فأنفذها إلى صاحب الزنج ، وأمسك عن محمد بن عبيد الله وأعماله .

وفيها كانت وقعة للزنج انهزموا فيها ، وكان سببها أن محمد بن عبيد الله كتب إلى علىّ بن أبان بعد الصلح يسأله المعونة على طائفة من الأكراد ، على أن يجعل له ولأصحابه غنائمهم ، فكتب علىّ إلى صاحبه يستأذنه ، فكتب إليه أن : وجِّهْ إليه جيشا وأقم أنت ، ولا تنفذْ حتى تستوثق منه بالرهن ، ولا تأمنْ غدره والطلب بثأره ، فكتب علىّ إلى محمد يطلب منه اليمين والرهائن ، فبذل له اليمين ومطله بالرهائن ، فلحرص علىّ على الغنائم أنفذ إليه جيشا ، فسير محمد معهم طائفة من أصحابه إلى الأكراد ، فخرج إليهم الأكراد فقاتلوهم ونشبت الحرب ، فتخلى أصحاب محمد عن الزنج فانهزموا ، وقتلت الأكراد منهم خلقا كثيرا ، وكان محمد قد أعدّ لهم من يتعرض لهم إذا انهزموا ، فأوقعوا بهم وسلبوهم وأخذوا دوابّهم ، ورجعوا بأسوأ حال ، فكتب علىّ إلى صاحب الزنج يعرّفه فقال : ضيّعت أمرى فى ترك الرهائن ، وكتب إلى محمد يتهدّده فخاف محمد ، وكتب يخضع ويذل وردّ بعض الدواب ، وقال : إنّنى كبست من كانت عندهم ، وخلّصت هذه منهم ، فأظهر صاحب الزنج الغضب عليه ، فأرسل محمد إلى بهبوذ ومحمد بن يحيى الكرمانىّ ، وكان أقرب الناس إلى علىّ ، فضمن لهما مالا إن أصلحا له عليا وصاحبه ففعلا ذلك ، وأجابهما صاحب الزنج بالرضا عن محمد ، على أن يخطب له على منابر بلاده ، فأعلما محمدا ذلك فأجابهما إلى جميع ما طلبا ، وجعل

براوغ فى الدعاء له على المنابر ، ثم إنّ عليا استعدّ لمَتُّوث وسار إليها فلم يظفر بها ، فرجع وعمل السلالِم والآلات التى يصعد بها إلى السور ، واستعدّ لقصدها فعرف ذلك مسرور البلخى ، وهو يومئذ بكور الأهواز ، فلما سار علىّ إليها سار إليه مسرور ، فوافاه قبل المغرب وهو نازل عليها ، فلما عاين الزنج أوائل خيل مسرور انهزموا أقبح هزيمة ، وتركوا ما كانوا أعدّوه وقُتل منهم خلق كثير ، وانصرف علىّ مهزوما ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى أتته الأخبار باقبال الموفّق ، ولم يكن لعلىّ بعدها وقعة ، حتى فتحت سوق الخميس وطهيثا على الموفّق ؛ على ما نذكره إن شاء الله ، فكتب إليه صاحبه يأمره بالعود إليه ويستحثه حثا شديدا .

ذكر مسير أبى العباس بن الموفق وهو المعتضد بالله الى حرب الزنج وانتزاعه عامة ماكان بيد سليمان ابن جامع والزنج من أعمال دجلة

كان مسيره لذلك فى سنة ست وستين ومائتين ، وسبب ذلك أن الزنج لما دخلوا واسط وفعلوا بها ما فعلوا – واتصل ذلك بالموفّق – أمر ابنه أبا العباس بتعجيل المسير بين يديه ، إليهم ، فسار فى شهر ربيع الآخر وشيّعه أبوه ، وسيّر معه عشرة آلاف من الرجّالة والخيّالة فى العدّة الكاملة ، وأخذ معه الشذاوات والسميريّات والمعابر للرجّالة ، فسار حتى وافى دير العاقول ، وكان على مقدمته فى الشذاوات نُصير المعروف بأبى حمزة ، فكتب نصير إليه يخبره أنّ سليمان بن جامع قد وافى خيله ورجله وشذاوات وسميريّات – والجبّائى على مقدمته ، حتى

نزل الجزيرة فحصر بردودا[1] ، وأنّ سليمان بن موسى الشعرانىّ قد وافى الصلح ، ووجّه طلائعه ليعرف أخبارهم ، فعادوا وأعلموه موافاة الزنج وجيشهم ، وأن أوّلهم بالصلح وآخرهم ببستان موسى بن بغا أسفل واسط .

قال : وكان سبب جمع الزنج وحشدهم أنهم قالوا : إن العباس فتى حدث غرّ بالحرب ، والرأى لنا أن نرميه بحدّنا كلّه ، ونجتهد فى أول مرّة نلقاه فلعلّ ذلك يروعه فينصرف عنّا ، فجمعوا وحشدوا ، فلما علم أبو العباس قربهم عدل عن سنن الطريق واعترض فى مسيره ، ولقى أصحابه أوائل الزنج فتطاردوا لهم حتى طمعوا فيهم وتبعوهم ، وجعلوا يقولون : اطلبوا أميرا للحرب فإنّ أميركم قد اشتغل بالصيد ، فلما قربوا منه خرج عليهم فيمن معه ، وصاح بنُصير إلى أين يتأخر عن هذه الأكلب ، فرجع نصير ، وركب أبو العباس سميريّة وحفّ به أصحابه من جميع الجهات ، فانهزمت الزنج وكثر القتل فيهم ، وتبعوهم إلى أن وصلوا قرية عبد الله ، وهى على ستة فراسخ من الموضع الذى لقوهم به وأخذوا منهم خمس شذاوات وعدّة سميريّات ، وأسر جماعة واستأمن جماعة ، فكان هذا أول الفتح .

فسار سليمان بن جامع إلى نهر الأمير ، وسار سليمان الشعرانىّ إلى سوق الخميس ، وانحدر أبو العباس فأقام بالعُمْر ، وهو على فرسخ من واسط ، وأصلح شذاواته وأخذ يراوح القوم القتال ويغاديهم ، ثم إن سليمان استعدّ وحشد وجعل أصحابه فى ثلاثة أوجه ، وقالوا إنّه

(١) فى المخطوطات والكامل حـ ٧ ص ٢٣٤ : بردرويا والتصويب عن الطبرى حـ ١٤ ص ١٩٤٨ هذا ويلاحظ أن هذه الكلمة ترد بعد ذلك وتذكرها المخطوطات صحيحة .

حدث غرّ يغرّر بنفسه وكمّنوا كمينا ، فبلغ الخبر أبا العبّاس فحذر ، وأقبلوا وقد كمّنوا الكمناء ليغتر باتّباعهم فيخرج الكمين عليه ، فمنع أبو العبّاس أصحابه من اتّباعهم ، فلما علموا أنّ كيدهم لم يتمّ خرج سليمان فى الشذاوات والسميريّات ، فأمر أبو العبّاس نصيرا أن يبرز إليهم ، وركب هو فى شذاة من شذاواته سماها الغزال ، ومعه جماعة من خاصّته ، وأمر الخيّالة بالمسير بازائه على شاطىء النهر إلى أن ينقطع ، فيعبروا دوابّهم ، ونشبت الحرب بين الفريقين فوقعت الهزيمة على الزنج ، وغنم أبو العبّاس منهم أربع عشرة شذاة ، وأفلت سليمان والجبّائى بعد أن أشفيا على الهلاك ، وبلغوا طهيثا وأسلموا ما كان معهم ، ورجع أبو العباس إلى معسكره ، وأقام الزنج عشرين يوما لا يظهر منهم أحد ، وجعلوا على طريق الخيل آبارا وجعلوا فيها سقافيد حديد ، وجعلوا على رؤوسها البوارى والتراب ليسقط فيها المجتازون ، فسقط فيها رجل ففطنوا لها فتركوا ذلك الطريق . واستمد سليمان صاحب الزنج فأمده بأربعين سميريّة بآلاتها ومقاتليها ، فعادوا للتعرض للحرب فلم يثبتوا لأبى العبّاس ، ثم سيّر إليهم عدة سميريّات فأخذها الزنج ، فبلغه الخبر وهو يتغدّى فركب فى سميريّة ولم ينتظر أصحابه وتبعه منهم من خفّ فأدرك الزنج ، فانهزموا وألقوا أنفسهم فى الماء ، فاستنقذ سميريّاته ومن كان فيها ، وأخذ منهم إحدى وثلاثين سميريّة ورمى أبو العبّاس يومئذ عن قوس حتى دميت ابهامه ، فلما رجع أمر لمن معه بالخلع ، وأمر باصلاح السميريّات المأخوذة من الزنج .

ثم إنّ أبا العبّاس رأى أن يتوغّل ما زروان حتى يصير إلى الحجّاجيّة ونهر الأمير ، ويعرف ما هناك ، فقدّم نصيرا فى أوّل السميريّات

وركب أبو العبّاس فى سميريّة ومعه محمد بن شُعيب ، ودخل مازروان وهو يظنّ أنّ نصيرا أمامه ، فلم يقف له على خبر ، وكان قد سار على غير طريق أبى العباس ، وخرج من مع أبى العبّاس من الملّاحين إلى غنم رأوها ليأخذوها ، فبقى هو ومحمد بن شعيب فأتاهما جمع من الزنج من جانبى النهر ، فقاتلهم أبو العباس بالنشّاب ، ووافاه زِيرك فى باقى الشذاوات ، فسلم أبو العبّاس وعاد إلى عسكره ، ورجع نصير ، وجمع سليمان بن جامع أصحابه وتحصّن بطهيثا ، وتحصّن الشعرانىّ وأصحابه بسوق الخميس ، وجعلوا يحملون الغلات إليها ، واجتمع بالصينيّة جمع كثير ، فوجّه أبو العباس جماعة من قوّاده على الخيل إلى ناحية الصينيّة ، وأمرهم بالمسير فى البرّ وإذا عرض لهم نهر عبروه ، وركب هو فى الشذاوات والسميريّات ، فلما أبصرت الزنج الخيل خافوا ولجأوا إلى الماء والسفن ، فلم يلبثوا أن وافتهم الشذاوات مع أبى العبّاس ، فلم يجدوا ملجأ فاستسلموا ، فقُتل منهم فريق وأسر فريق ، وألقى فريق أنفسهم فى الماء ، وأخذ أصحاب أبى العبّاس سفنهم وهى مملوءة أرزاً ، وأخذ الصينيّة وأزاح الزنج عنها ، فانحازوا إلى طهيثا وسوق الخميس ، ورجع أبو العباس إلى عسكره وقد فتح الصينيّة .

وبلغه أنّ جيشا عظيما للزنج مع ثابت بن أبى دُلَف ولؤلؤ ، فسار إليهم وأوقع بهم وقعة عظيمة وقت السحر ، فقتل منهم خلقا كثيرا منهم لؤلؤ ، وأسر ثابتا فمنّ عليه وجعله مع بعض قوّاده ، واستنقذ خلقا كثيرا من النساء ، فأمر بردّهنّ إلى أهلهنّ ، وأخذ كلّ ما كان الزنج جمعوه ، وأمر أصحابه أن يتجهزوا للمسير إلى سوق الخميس ،

وأمر نصيرا بتعبئة أصحابه للمسير ، فقال له : إن نهر سوق الخميس ضيّق ، فأقمْ أنت ونسير نحن ، فأبى عليه ، فقال له محمد بن شعيب : إن كنت لا بدّ فاعلا فلا تكثر الشذاوات ولا الرجال فإنّ النهر ضيّق ، فسار نصير بين يديه إلى فم برمساور [1] ، فوقف أبو العبّاس وتقدّمه نصير فى خمس عشرة شذاة ، فى نهر يؤدى إلى مدينة الشعرانىّ ، التى سمّاها المَنِيعة فى سوق الخميس ، فلما غاب عنه نصير خرج جماعة كثيرة فى البرّ على أبى العبّاس ، فمنعوه من الوصول إلى المدينة ، وقاتلوه قتالا شديداً من أوّل النهار إلى الظهر ، وخفى عليه خبر نصير ، وجعل الزنج يقولون : قد قتلنا نصيرا ، فاغتمّ أبو العبّاس لذلك وأمر محمدًا يتعرّف خبره ، فسار فرآه عند سكر [2] الزنج ، وقد أحرقه وأضرم النار فى مدينتهم ، وهو يقاتلهم قتالا شديداً ، فعاد إلى أبى العبّاس فأخبره فسرّ بذلك ، وأسر نصير من الزنج جماعة كثيرة ، ورجع حتى وافى أبا العبّاس ، ووقف أبو العبّاس فقاتلهم فرجعوا عنه ، وكمّن بعض شذاواته وأمر أن تظهر واحدة منها ، فطمعوا فيها وأدركوها فعلقوا بسكّانها ، فخرجت عليهم السفن الكمائن وفيها أبو العبّاس ، فانهزم الزنج وغنم أبو العبّاس منهم ست سميريّات ، وانهزموا لا يلوون على شىء من الخوف ، ورجع أبو العبّاس إلى عسكره سالما ، وخلع على الملّاحين وأحسن إليهم .

---

(١) فى المخطوطات والكامل حـ٧ ص٢٢٧ : ابن مساور والتصويب الطبرى حـ١٤ ص١٩٥٨

(٢) فى الكامل حـ٧ ص ٢٣٨ : عسكر ، ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ ١٤ ص ١٩٥٩

ذكر مسير الموفق لقتال الزنج وفتح المنيعة

قال : وفى سنة سبع وستين ومائتين أيضا سار الموفّق عن بغداد إلى واسط. لحرب الزنج ، وجمع وحشد الفرسان والرجّالة واستكثر من العدّة ، وسدّ الجهات التى يخاف منها لئلا يبقى له ما يشغل قلبه وكان صاحب الزنج قد أرسل إلى علىّ بن أبان المهلبىّ ، يأمره أن يجتمع مع سليمان بن جامع على حرب أبى العبّاس بن الموفّق ، فخاف الموفّق وَهْنا يتطرق إلى ابنه أبى العبّاس ، فسار عن بغداد فى صفر سنة سبع وستين فوصل إلى واسط. فى شهر ربيع الأوّل ، فلقيه ابنه فأخبره بحال جنده وقوّاده فخلع عليه وعليهم ، ورجع أبو العبّاس إلى معسكره بالعُمْر ، ثم نزل الموفّق على نهر بسنداد[1] بازاء قرية عبد الله ، وأمر ابنه فنزل شرقىّ دجلة بازاء فوّهة بردودا ، وولاّه مقدّمته وأعطى الجيش أرزاقهم ، وأمر ابنه أن يسير بما معه من الآلات الحربية إلى فوّهة برمساور ، فرحل فى نخبة أصحابه [2] ، ورحل الموفّق بعده فنزل فوّهة برمساور ، فأقام يومين ثم وصل إلى المدينة التى سماها صاحب الزنج – المنيعة – من سوق الخميس يوم الثلاثاء لثمان خلون من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين ، وسلك بالسفن فى برمساور وسارت الخيل شرقيّه حتى [3] حاذوا براطق ، الذى يوصل إلى المنيعة ، وأمر

---

(١) فى المخطوطات والكامل حـ٧ ص ٢٣٨ : نهر شداد والتصويب عن الطبرى حـ١٤ ص ١٩٦١

(٢) العبارة فى ك ، ت : فدخل فى غير أصحابه والتصويب عن ا والكامل حـ٧ ص ٢٣٩ والطبرى حـ ١٤ ص ١٩٦٢ .

(٣) فى الكامل حـ٧ ص٢٣٩ : جاوزوا ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ١٩٦٢

أن تعبر الخيل لتصير من الجانبين ، وأمر ابنه أبا العبّاس بالتقدّم بالشذاوات بعامة الجيش ، ففعل فلقيه الزنج فحاربوه حربا شديدة ، ووافاهم أبو أحمد الموفّق والخيل من جانبي النهر ، فلما رأوا ذلك انهزموا وتفرّقوا ، وعلا أصحاب أبي العبّاس السور ووضعوا السيوف في من لقيهم ، ودخلوا المنيعة فقتلوا بها خلقا كثيرا ، وأسروا عالما عظيما ، وغنموا ما كان فيها ، وهرب الشعراني ومن معه وتبعه أصحاب الموفّق إلى البطائح ، فغرق منهم خلق كثير ولجأ الباقون إلى الآجام ، ورجع الموفّق إلى معسكره من يومه ، وقد استنقذ من المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة ، سوى من ظفر به من الزنجيّات ، وأمر بحفظ النساء وحملهنّ إلى واسط ليُدفعن إلى أهلهنّ ، ثمّ بكّر إلى المدينة وأمر الناس بأخذ ما فيها فأخذ جميعه ، وأمر بهدم سورها وطمّ خندقها واحراق ما بقي فيها من السفن ، وأخذوا من الطعام والشعير والأرز شيئاً كثيراً ، فأمر ببيع ذلك وصرفه إلى الجند .

قال : ولما انهزم سليمان لحق بالمَذَار ، وكتب إلى صاحب الزنج بذلك ، فورد الكتاب عليه — وهو يتحدّث — فانحلّ بطنه فقام إلى الخلاء دفعات ، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذي نزل بالشّعرانيّ ويأمره بالتيقّظ . قال : وأقام الموفّق ببرمسماور يومين يتعرّف أخبار الشّعرانيّ وسليمان بن جامع ، فأتاه من أخبره أن سليمان بن جامع بالحَوَانيت ، فسار حتى وافى الصِينيّة ، وأمر ابنه أبا العبّاس بالتقدّم بالشذاوات والسميريّات إلى الحوانيت ، فسار أبو العبّاس إليها فلم ير سليمان بها ، ورأى هناك جمعا من الزنج مع قائدين لهم ، خلّفهم سليمان بن جامع هناك لحفظ غلّات كثيرة لهم فيها ، فحاربهم أبو

العبّاس إلى أن حجز بينهم الليل ، واستأمن إلى أبى العبّاس رجل ، فسأله عن سليمان بن جامع فأخبره أنّه مقيم بطهيثا بمدينته التى سماها المنصورة ، فعاد أبو العبّاس إلى أبيه بالخبر ، فأمرد بالمسير إليه فسار حتى نزل بَرْدُودا ، فأقام بها لاصلاح ما يحتاج إليه ، واستكثر من الآلات التى يسدّ بها الأنهار ويصلح بها الطرق للخيل ، وخلّف ببردودا بُغْراج التركى .

ذكر استيلاء أبى أحمد الموفق على طهيثا

قال : ولما فرغ الموفّق من الذى يحتاج إليه سار عن بَرْدُودا إلى طهيثا لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين ومائتين ؛ وكان امسيره على الظهر فى خيله ، وحُدِّرت السفن والآلات فنزل بقرية الجوزيّة وعقد جسرا ، ثم غدا فعبر خيله عليه ثم عبر بعد ذلك ، فسار حتى نزل معسكرا على ميلين من طهيثا فأقام بها يومين ؛ ومطرت لسماء مطرا شديدا فشغل عن القتال ، ثم ركب لينظر موضعا للحرب ، فانتهى إلى قريب من سور مدينة سليمان بطهيثا – وهى التى سمّاها المنصورة – فتلقّاه خلق كثير وخرج عليه كمناء من مواضع شتى ، واشتدت الحرب وترجّل جماعة من الفرسان ؛ وقاتلوا حتى خرجوا عن المضيق الذى كانوا فيه ، وأسر من غلمان الموفّق جماعة ، ورمى أبو العبّاس ابن الموفّق أحمد بن مهدى[1] الجبّائى بسهم خالط دماغه فسقط ، وحُمل

(١) فى المخطوطات والكامل حـ ٧ ص ٢٤١ : أحمد بن هندى وفى الكامل الحيامى وفى المخطوطات الجنابى ، والتصويب عن الطبرى حـ ١٤ ص ١٩٦٩ ، والجبائى نسبة إلى جبى ، وهى مدينة فارسية ، وهى ينسب إليها أبو على الجبائى إمام المعتزلة المعروف

إلى صاحب الزنج فلم يلبث أن مات بحضرته ، فصلّى عليه وعظمت لديه المصيبة بموته ، وكان أعظم أصحابه غناء ، وانصرف الموفّق إلى معسكره وقت المغرب ، وأمر أصحابه بالتحارُس ليلتهم والتأهّبِ للحرب ، فلما أصبحوا – وذلك فى يوم السبت لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر – عبّى الموفّق أصحابه ، وجعلهم كتائب يتلو بعضها بعضا فرسانا ورجّالة ، وأمر بالشذاوات والسميريّات أن يُسار بها إلى النهر ، الذى يشقّ مدينة سليمان ، وهو النهر المعروف بنهر المُنْذِر ، ورتّب أصحابه فى المواضع التى يخاف منها ، ثم نزل فصلّى أربع ركعات وابتهل إلى الله عزّ وجلّ فى النصر ثم لبس سلاحه ، وأمر ابنه أبا العبّاس أن يتقدّم إلى السور ، فتقدّم إليه فرأى خندقا فأحجم الناس عنه ، فحرّضهم قوّادهم وترجّلوا معهم فاقتحموه وعبروه ، وانتهوا إلى الزنج وهم على سورهم ، فلمّا رأى الزنج تسرّعهم إليهم ولّوا منهزمين ، واتبعهم أصحاب أبى العبّاس فدخلوا المدينة ، وكان الزنج قد حصّنوها بخمسة خنادق ، وجعلوا أمام كل خندق سورا ، فجعلوا يقفون عند كل سور وخندق فيكشفهم أصحاب أبى العباس ، ودخلت الشذاوات والسميريّات المدينة من النهر . فجعلت تغرق كلّ مامرّت لهم به من سميريّة وشذاة . وقتلوا مَنْ بجانبى النهر وأسروا ، حتى أجلوهم عن المدينة وعمّا اتصل بها . وكان مقدار العمارة بها فرسخا ، وحوى الموفّق ذلك كلّه ، وأفلت سليمان بن جامع ونفر من أصحابه ، وكثر القتل فيهم والأسر ، واستنقذ أبو أحمد من نساء أهل واسط والكوفة والقرى وصبيانهم

أكثر من عشرة [١] آلاف ، فأمر بحملهم إلى واسط. ودفعهم إلى أهليهم ، وأخذ ماكان فيها من الذخائر والأموال ، وأمر بصرف ذلك إلى الأجناد ، وأسرعّدة من نساء سليمان وأولاده ،وتخلص من كان أُخذ من أصحاب الموفَق ، ولجأ جمع كثير إلى الآجام فأمر أصحابه بطلبهم ، وأقام سبعة عشر يوما ، وهدم سور المدينة وطمّ خنادقها ، وجعل لكل من أتاه برجل منهم جُعْلاً ، فكان إذا أتى بالواحد منهم عفا عنه وضمّه إلى قوّاده وغلمانه ، لما كان دبّره من استمالتهم ، وأرسل فى طلب سليمان ابن جامع حتى بلغوا دجلة العوراء فلم يظفروا به ، وأمر زِيَرك بالمقام بطهيثا ليتراجع أهل تلك الناحية إليها .

ذكر مسير الموفق الى الأهواز واجلاء الزنج عنها

قال : ولما فرغ أبو أحمد الموفَق من المنصورة رحل نحو الأهواز لاصلاحها واجلاء الزنج عنها ، فأمر ابنه أبا العبّاس أن يتقدّمه ، وأمر باصلاح الطرق للجيوش ، واستخلف على من ترك من عسكره بواسط ابنه هارون ، ولحقة زِيرك فأخبره بعود أهل طهيثا إليها وأمّن الناس ، فأمره الموفَق بالانحدار فى الشذا والسميريّات مع نصير ، ليتتبّع المنهزمين ويوقع بهم وبمن ظفروا به من الزنج ، حتى ينتهى إلى مدينة صاحب الزنج بنهر أبى الخصيب ، فسارا وارتحل الموفَق فى مستهل جمادى الآخرة من واسط حتى أتى السوس ، وأمر مسرورا بالقدوم عليه ، وهو عامله هناك فأتاه ، وكان صاحب الزنج — لما بلغه ماعمل

(١) فى الكامل حـ ٧ ص ٢٤١ : عشرين ألفا وفى الهامش عشرة آلاف فى ثلاث مخطوطات ، ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ١٩٧١

الموفَق بسليمان بن جامع ـ خاف أن يأتيه ، وهو على حال تفرّق أصحابه عنه ، فكتب إلى عليّ بن أبان بالقدوم عليه ، وكان بالأهواز فى ثلاثين ألفا ، فترك جميع ما كان عنده من طعام ودوابّ وأغنام وغير ذلك ، واستلخف عليه محمد بن يحيى الكَرْنَبَائىّ ، فلَم يُقم ولاتبع عليا ، وكتب صاحب الزنج أيضا إلى بهبوذ بن عبد الوهاب ، وهو بالفَنْدَم[1] والبَاسِيَان وما اتصل بهما ، يأمره بالقدوم عليه ، فترك ما كان عنده من الذخائر وسار نحوه ، فحوى ذلك جميعه الموفَق وقوى به على حرب صاحب الزنج .

قال : ولما سار على بن أبان عن الأهواز تخلف بها جمع من أصحابه زهاء ألف رجل ، فأرسلوا إلى الموفَق يطلبون الأمان فأمّنهم ، فقدموا عليه فأجرى عليهم الأرزاق ، ثم رحل عن السوس إلى جُنْدَيْسَابور وتُسْتَر وجبا الأموال ، ووجّه إلى محمد بن عُبيد الله الكردى ـ وكان خائفا منه ـ فأمّنه وعفا عنه وطلب منه الأموال والعساكر ، فحضر عنده فأحسن إليه ، ثم رحل إلى عسكر مُكْرَم ووافى الأهواز ، ثم رحل عنها إلى نهر المُبَارك من فرات البصرة ، وكتب إلى ابنه هارون أن يوافيه بجميع الجيش إلى نهر المبارك ، فلقيه هناك فى منتصف شهر رجب ، وكان زِيرَك ونصير ـ لما خلّفهما الموفَق ليتتبّعا الزنج ـ انحدرا حتى وافيا الأُبُلَّة ، فاستأمن إليهما رجل أخبرهما : أن صاحب الزنج قد أرسل إليهما عددا كثيرا فى الشذا والسميريّات إلى دجلة ، ليمنع عنها من يريدها ، وأنهم يريدون عسكر نصير ـ وكان عسكره بنهر المرأة ،

(١) فى الكامل حـ ٧ ص ٢٤٢ : الفيدم وفى المخطوطتين ك ، ت برسم الفاء غينا ، وأما المخطوطة ا فتركت النقط والتصويب عن الطبرى حـ ١٤ ص ١٩٧٥ .

فرجع نصير من الأبلّة إلى عسكره لما بلغه ذلك ، وسار زيرك من طريق آخر ، لأنّه قدّر أن الزنج تأتى عسكر نصير من ذلك الوجه ، فكان كذلك فلقيهم فى طريقه فظفر بهم وانهزموا منه ، وكانوا قد جعلوا كمينا فدُلّ زيرك عليه ، فتوغّل حتى أتاه ، فقتل من الكمناء جماعة وأسر جماعة ، وكان ممّن ظفر به مقدّم الزنج ، وهو أبو عيسى محمد بن إبراهيم البصرى ، وهو من أكابر قوادهم ، وأخذ منهم مايزيد على ثلاثين سميرية ، فجزع لذلك جميع الزنج ، فاستأمن إلى نصير منهم زهاء ألفى رجل ، فكتب بذلك إلى الموفّق ، فأمره بقبولهم والإقبال إليه بالنهر المبارك ، فوافاه هنالك ، وأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس بالمسير إلى محاربة صاحب الزنج بنهر أبى الخصيب ، فسار إليه فحاربه من بكرة النهار إلى الظهر ، واستأمن إليه قائد من قوّاد الزنج ومعه جماعة ، فكسر ذلك صاحب الزنج ، وعاد أبو العبّاس بالظفر ، وكتب الموفّق إلى صاحب الزنج يدعوه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وخراب البلدان واستباحه الفروج والأموال وادعاء النبوّة والرسالة ، ويبذل له الأمان ، فوصل الكتاب إليه فقرأه ولم يكتب جوابه .

ذكر محاصرة مدينة صاحب الزنج
وهى المدينة التى سماها المختارة

قال : ولما أنفذ الموفَق الكتاب إلى صاحب الزنج ولم يرد جوابه ، عرض عسكره وأصلح آلاته ورتّب قوّاده ، ثم سار هو وابنه أبوالعبّاس فى العشرين من شهر رجب سنة سبع وستين إلى مدينة صاحب الزنج ، فلما أشرف عليها وتأمّلها ورأى حصانتها بالأسوار والخنادق ووعور الطريق إليها وما أعدَ من المجانيق والعرّادات والقسى وسائر الآلات على سورها مما لم ير مثله ممّن تقدّم من منازعى السلطان ، ورأى من كثرة عدد المقاتله مااستعظمه ، فلما عاين الزنج أصحاب الموفَق ارتفعت أصواتهم حتى ارتجّت الأرض ، فأمر الموفَق ابنه بالتقدّم إلى سور المدينة ورمى مَنْ عليه بالسهام ، فتقدّم حتى ألصق شذاواته بقصر صاحب الزنج ، فكثر الزنج وأصحابهم على أبى العبّاس ، وتتابعت سهامهم وحجارة مجانيقهم ومقاليعهم ، ورمى عوامّهم بالحجارة عن أيديهم ، حتى مايقع الطرف إلا على سهم أوحجر ، وثبت أبو العبّاس ، فرأى صاحب الزنج من ثباته وثبات أصحابه مالارأى مثله من أحد ممّن حاربهم ، ثم أمرهم الموفَق بالرجوع ففعلوا ، واستأمن إلى الموفَق مقاتلة من سمارتيين فأمّنهم ، وخلع على من فيها من المقاتلة والملاحين على أقدارهم ووصلهم ، وأمر بادنائهم إلى موضع يراهم فيه نظراؤهم ، فكان ذلك من أنجع المكائد ، فلما رأوهم الباقون رغبوا فى الأمان وتنافسوا فيه وابتدروا إليه ، فصار إلى الموفَق فى ذلك اليوم عدد كثير من أصحاب السميريّات فعمّهم بالخلع والصلات ، فلما رأى صاحب

الزنج ذلك أمر بردّ أصحاب السميريّات إلى نهر أبي الخصيب ، ووكل بفوّهة النهر من يمنعهم من الخروج ، وأمر بهبوذ – وهو من أشرّ قوّاده : أن يخرج فى الشذاوات ، فخرج فبرز إليه أبو العبّاس فى شذاواته وقاتله ، واشتدت الحرب فانهزم بهبوذ إلى فناء قصر صاحب الزنج ، وأصابته طعنتان وجرح بالسهام ، فولج نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت ، وقُتل ممّن كان معه قائد ذو بأس – يقال له عُميرة ، وظفر أبو العبّاس بشذاة فقتل أهلها ، ورجع هو ومن معه سالمين ، واستأمن إلى أبي العباس أهل شذاة فأمّنهم وأحسن إليهم وخلع عليهم : ورجع الموفّق ومن معه إلى عسكره بالنهر المبارك ، واستأمن إليه عند منصرفه خلق كثير ، فأمّنهم وخلع عليهم ووصلهم وأثبت أسماءهم مع أبي العبّاس ، وأقام فى عسكره يومين ثم نقل عسكره لست ليال بقين من شهر رجب إلى نهر جَطّى فنزله ، وقام به إلى منتصف شعبان لم يقاتل .

ثم ركب فى منتصف شعبان فى الخيل والرَّجْل وأعدّ الشذاوات والسميرياَت ، وكان معه من الجند والمطّوعة زهاء خمسين ألفا ، وكان مع صاحب الزنج أكثر من ثلاثمائة ألف انسان : كلهم ممّن يقاتل بسيف أو رمح أو مقلاع أو منجنيق ، وأضعفهم رماة الحجارة من أيديهم وهم النظّارة ، والنساء تشركهم فى ذلك ، فأقام أبو أحمد ذلك اليوم ، ونودي بالأمان للناس كافّة إلا صاحب الزنج ، وكُتب الأمان فى رقاع ورميت فى السهام ، ووعد فيها الإحسان ، فمالت قلوب أصحاب صاحب الزنج فاستأمن من ذلك اليوم خلق كثير ، فخلع عليهم ووصلهم ، ولم يكن ذلك اليوم حرب .

ثم رحل من نهر جَطّى من الغد فعسكر قرب مدينة صاحب الزنج، ورتّب قوّاده وأجناده وعيّن لكل طائفة موضعا يحافظون عليه ويضبطونه، وكتب الموفّق إلى البلاد فى عمل السميريّات والشذاوات والزواريق والاكثار منها، ليضبط بها الأنهار لتنقطع الميرة عن صاحب الزنج وأسّس فى منزلته مدينة سمّاهاالموفّقيّة، وكتب إلى عمّاله فى النواحى بحمل الأموال والميرة فى البر والبحر إلى مدينته، وأمرهم بانفاذ من يصلح للاثبات فى الديوان، وأقام ينتظر ذلك شهرا، فوردت عليه الميرة متتابعة، وجهّز التجار صنوف التجارات إلى الموفّقيّة، واتخذت فيها الأسواق، ووردتها مراكب البحر. وبنى الموفّق بها المسجد الجامع وأمر الناس بالصلاة فيه، فجمعت هذه المدينة من المرافق وسيق إليها من صنوف الأشياء ما لم يكن فى مصر من الأمصار القديمة، وحُملت الأموال وأدرّت الأرزاق.

قال [1]: وعبرت طائفة من الزنج فنهبوا أطراف عسكر نصير وأوقعوا به، فأمر الموفّق نصيرا بجمع عسكره وضبطهم، وأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس بالمسير إلى طائفة من الزنج كانوا خارج المدينة، فقاتلهم فقتل منهم خلقا كثيرا وغنم ما كان معهم، فصار إليه طائفة منهم بالأمان، فخلع عليهم وأمّنهم ووصلهم، وأقام أبو أحمد يكايد صاحب الزنج، يبذل الأمان لمن صار إليه، ومحاصرة الباقين والتضييق عليهم، وكانت قافلة قد أتت من الأهواز فأسرى إليها

(١) فى هذا الفصل حينما يقول النويرى (قال) فإنما يشير إلى ابن الاثير فى الكامل، وهو هنا يشير إليه راجع حـ٧ ص ٢٤٧ ومن اليسير الرجوع إليه خاصة والإشارة إليه تذكر بين حين وآخر.

بهبوذ فى سميريات ، فأخذها فعظم ذلك على الموفّق ، وغرم لأهلها ما أخذ منهم ، وأمر بترتيب الشذاوات على مخارج الأنهار ، وقلّد ابنه أبا العبّاس الشذاوات وحفظ الأنهار بها من البحر إلى المكان الذى هم به .

قال : وفى شهر رمضان من السنة عبرت طائفة من الزنج يريدون الايقاع بنصير ، فردّهم الله خائبين ، وظفروا بصَنْدَل الزنجى ، وكان يكشف رؤوس المسلمات ويقلّبهن تقليب الإماء ، فلما أتى به أمر الموفّق أن يرمى بالسهام ثم قتله ، واستأمن إلى الموفّق من الزنج خلق كثير ، فبلغت عدة من استأمن إليه إلى آخرشهر رمضان خمسين آلفا ؛ وفى شوّال انتخب صاحب الزنج من عسكره خمسة آلاف من الشجعان والقوّاد ، وأمر على بن أبان المهلبىّ بالعبور لكبس عسكر الموفّق ، وكان فيهم أكثر من مائتىّ قائد ، فعبروا ليلا واختفوا فى آخر النخل ، وأمرهم : أنّه إذا ظهر أصحابهم وقاتلوا الموفّق من بين يديه ظهروا وحملوا على عسكره ، وهم غارون مشاغيل بحرب مَنْ أمامهم ، فاستأمن منهم انسان من الملّاحين فأخبر الموفّق ، فسيّر ابنه أبا العبّاس لقتالهم وضبط الطرق التى يسلكونها ، فقاتلوا قتالا شديدا ، وأسر أكثرهم ، وغرق منهم خلق كثير ، وقُتل بعضهم ونجا بعضهم ، فأمر أبو العبّاس أن تحمل الأسرى والرؤوس فى السميريات ، ويعبر بهم على مدينة صاحب الزنج ، ففعلوا ذلك ، وبلغ الموفّق أنّ صاحب الزنج قال لأصحابه : إن الأسرى والرؤوس من المستأمنة ، فأمر بالقاء الرؤوس إليهم فى منجنيق ، فلما رأوها عرفوها فأظهروا الجزع والبكاء ، وظهر لهم كذب صاحبهم .

وفيها أمر صاحب الزنج باتخاذ شذاوات فعملت له ، فكانت

خمسين شذاة فقسمها بين ثلاثة من قوّاده ، وأمرهم بالتعرض لعسكر الموفّق ، وكانت شذاوات الموفّق يومئذ قليلة ، لأنّه لم يصل إليه ما أمر بعمله ، والتى كانت عنده منها فرّقها على أفواه الأنهار ، ليقطع الميرة عن صاحب الزنج ، فخافهم أصحاب الموفّق فورد عليهم الشذاوات التى كان الموفّق أمر بعملها ، فسيّر ابنه أبا العباس يوردها خوفا عليها من الزنج ، فلما أقبل بها رآها الزنج فعارضوها بشذاواتهم ، فقصد غلام لأبى العبّاس منعهم وقاتلهم ، فانكشفوا بين يديه وتبعهم حتى أدخلهم نهر أبى الخصيب ، وانقطع عن أصحابه فعطفوا عليه فأخذوه ومن معه بعد حرب شديدة ، فقتلوا وسلمت الشذاوات التى مع أبى العبّاس ، وأصلحها ورتّب فيها من يقاتل ، ثم أقبلت شذاوات صاحب الزنج على عادتها ، فخرج إليهم أبو العبّاس فى أصحابه ، فقاتلهم فهزمهم وظفر منهم بعدّة شذاوات ، فقتل منهم من ظفر به فيها ، فمنع صاحب الزنج أصحابه من الخروج عن فناء قصره ، وقطع أبو العبّاس الميرة عن الزنج فاشتد جزع الزنج ، وطلب جماعة من وجوه أصحاب صاحب الزنج الأمان فأمّنوا ؛ وكان منهم محمد ابن الحارث العَمِّى (١) ، وكان إليه ضبط السور مما يلى عسكر الموفق ،فخرج ليلا فأمّنه الموفّق ووصله بصلات كثيرة له ولمن خرج معه ، وحمله على عدّة دواب بآلاتها وحليتها ، وأراد اخراج زوجته فلم يقدر ، وأخذها صاحب الزنج فباعها ؛ومنهم أحمد البرذعى (٢) ،

(١) فى الكامل حـ ٧ ص ٢٤٧ : القمى ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ١٩٩٨

(٢) فى الكامل حـ٧ ص ٢٤٨ : اليربوعى وكذلك فى المخطوطات والتصويب عن الطبرى حـ١٤ ص ١٩٩٩

وكان من أشجع رجال صاحب الزنج ، فخلع عليه وعلى غيره ممّن أتاه ووصلهم بصلات كثيرة . قال : ولما انقطعت الميرة والمواد عن صاحب الزنج أمر شِبْلا وأبا الندا وهما رؤساء قوّاده- وكان يثق بهم - بالخروج إلى البطيحة فى عشرة آلاف من ثلاثة وجوه للغارة وقطع الميرة عن الموفّق ، فسيّر الموفّق إليهم زيرك فى جمع من أصحابه ، فلقيهم بنهر ابن عمر فرأى كثرتهم فراعه ذلك ، ثم استخار الله تعالى فى قتالهم فحمل عليهم وقاتلهم ، فقذف الله تعالى الرعب فى قلوبهم فانهزموا ، فوضع فيهم السيف وقتل منهم مقتلة عظيمة ،وغرق منهم مثل ذلك وأسر خلقا كثيرا ، وأخذ من سفنهم ما أمكنه أخذه ، وغرق منها ما غرق ،وكان ما أخذه من سفنهم نحو أربعمائة سفينة ، وأقبل بالأسرى والرؤوس إلى مدينة الموفّق .

ذكر عبور الموفق الى مدينة صاحب الزنج وخروجه عنها وعوده اليها

قال : وفى ذى الحجّة سنة سبع وستين أيضا عبر الموفّق مدينة صاحب الزنج لست بقين من الشهر ، وكان سبب ذلك أنّ جماعة من قوّاد صاحب الزنج ، لما رأوا ما حلّ بهم من البلاء ، من قتل من يظهر منهم ، وشدّة الحصار على من لزم المدينة ، وحال من خرج بالأمان ، جعلوا يهربون من كل وجه ويخرجون إلى الموفّق ، فلما رأى ذلك صاحب الزنج جعل على الطريق التى يمكنهم الهرب منها من يحفظها ، فأرسل جماعة من القوّاد إلى الموفّق يطلبون الأمان . وأن يوجّه لمحاربة صاحبهم جيشا ليجدوا طريقا إلى المصير إليه . فأمر ابنه أبا العبّاس بالمصير إلى النهر

الغربى – وبه علىّ بن أبان – ففعل ، واشتدت الحرب فاستظهر أبو العباس على الزنج ، فأمدهم صاحبهم بسليمان بن جامع فى جمع ، واتصلت الحرب من أوّل النهار إلى العصر ، وكان الظفر لأبى العبّاس وصار إليه القوم الذين كانوا طلبوا الأمان منه ، واجتاز أبو العبّاس بمدينة صاحب الزنج عند نهر الأتراك ، فرأى قلّة الزنج هناك ، فطمع فيهم فقصدهم وقد انصرف أكثر أصحابه إلى الموفقيّة ، فدخل البلد بمن بقى معه ، وندب صاحب الزنج أصحابه لحربهم ، فلما رأى أبو العباس اجتماعهم وقلّة أصحابه رجع ، وأرسل إلى أبيه الموفّق يستمدّه فأتاه من خفّ من الغلمان وظهروا على الزنج وهزموهم ، وكان سليمان ابن جامع لما رأى ظهور أبى العبّاس سار فى النهر مصعدا فى جمع كثير فأتى أصحاب أبى العبّاس (١) من خلفهم وهم يحاربون من بإزائهم ، وخفقت طبوله فانكشف أصحاب أبى العبّاس (١) ، ورجع عليهم من كان انهزم عنهم من الزنج ، فأصيب جماعة من غلمان الموفّق ، وأخذ الزنج عدة أعلام وحامى أبو العبّاس عن أصحابه فسلم أكثرهم ثم انصرف وطمع الزنج بهذه الوقعة وشدّت قلوبهم ، فأجمع الموفّق على العبور إلى مدينتهم بجميع جيوشه ، وأمر الناس بالتأهّب وجمع المعابر والسفن وفرّقها عليهم ، ودخل يوم الأربعاء لست بقين من الشهر ، وفرّق أصحابه على المدينة ليضطر صاحبها إلى تفرقة أصحابه ، وقصد الموفّق إلى ركن من أركان المدينة وهو أحصن ما فيها ، وقد أنزله صاحب الزنج ابنه انكلاى وسليمان بن جامع وعلىّ بن أبان ، وعليه من المجانيق

(١) ساقط من ت .

وآلات القتال ما لا يحدّ ، فلما التقى الجمعان أمر الموفّق غلمانه بالدنوّ منه ، وبينهم وبين ذلك السور نهر الأتراك ، وهو نهر عريض كثير الماء فأحجموا عنه ، فصاح بهم الموفّق وحرّضهم على العبور ، فعبروا سباحة والزنج ترميهم بالمجانيق والمقاليع والحجارة والسهام ، فصبروا حتى جاوزوا النهر وانتهوا إلى السور ، ولم يكن معهم من الفعلة من كان أعدّ لهدم السور ، فتولّى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من السلاح ، وسهّل الله تعالى ذلك وكان معهم بعض السلاليم ، فصعدوا على ذلك إلى السور ، ونصبوا علما من أعلام الموفّق ، فانهزم الزنج عنه وسلّموه بعد قتال شديد ، وقُتل من الفريقين خلق كثير ، ولما علا أصحاب الموفّق السور أحرقوا ما كان عليه من مجانيق وآلات وغير ذلك ، وكان أبو العبّاس قصد ناحية أخرى ، فمضى على بن أبان لقتاله فهزمه أبو العبّاس وقتل جمعا كثيرا من أصحابه ، ولحق أصحاب أبى العبّاس بالسور فثلموا فيه ثلمة ، ودخلوه فلقيهم سليمان ابن جامع فقاتلهم حتى ردّهم إلى مواضعهم . ثم إن الفعلة وافوا السور فهدموه فى عدة مواضع ، وعملوا على الخندق جسر فعبر الناس عليه من ناحية الموفّق ، فانهزم الزنج عن سور ثان[1] كانوا قد اعتصموا به ، وجعل أصحاب الموفّق يقتلونهم حتى انتهوا إلى نهر ابن سمعان ، وقد صارت دار ابن سمعان فى أيدى أصحاب الموفّق فأحرقوها ، وقاتلهم الزنج هناك ثم انهزموا حتى بلغوا ميدان صاحبهم ، فرجع فى جمع من أصحابه فانهزم أصحابه عنه ، وقرب منه بعض رجّالة الموفّق ، فضرب

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٢٥٠ : باب ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ٢٠٠٥

وجه فرسه بترسه وذلك مع مغيب الشمس ، فأمر الموفّق الناس بالرجوع فرجعوا ، ومعهم من رؤوس أصحابه شيء كثير ، وقد استأمن إلى أبي العباس أوّل النهار نفر من قوّاد صاحب الزنج ، فتوقف عليهم حتى حملهم فى السفن .

وأظلم الليل وهبّت ريح عاصف وقوى الجزر ، فلصق أكثر السفن بالطين ، فخرج جماعة من الزنج فنالوا من أصحابه ، وقتلوا منهم نفرا ؛ وكان بهبوذ بازاء مسرور البلخى فأوقع بأصحاب مسرور ، وقتل منهم وأسر جماعة ، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفّق ، وكان بعض أصحاب صاحب الزنج قد انهزم على وجهه نحو نهر الأمير وعبّادان ؛ وهرب جماعة من الأعراب إلى البصرة ، فأرسلوا يطلبون الأمان فأمّنهم الموفّق ، وخلع عليهم وأجرى عليهم الأرزاق ، وكان ممّن رغب فى الأمان من قوّاده رَيْحان بن صالح المغربى – وكان من رؤساء أصحابه ، فأرسل يطلب الأمان وأن يرسل جماعة إلى مكان ذكره ليخرج إليهم ، ففعل الموفّق فصار إليه فخلع عليه وأحسن إليه ووصله ، ثم ضمّه إلى أبى العبّاس ، ثم استأمن بعده جماعة من أصحابه ، وكان خروج ريحان إليه لليلة بقيت من ذى الحجّة من هذه السنة .

وفى سنة ثمان وستين ومائتين فى المحرّم خرج إلى الموفّق من قوّاد صاحب الزنج جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجّان ، وكان من ثقات أصحابه فارتاع لذلك ، وخلع عليه الموفّق وأحسن إليه ، وحمله فى سميرية إلى ازاء قصر صاحبه ، وأخبرهم أنّهم فى غرور وأعلمهم بما وقف عليه من كذب الخبيث وفجوره ؛ فاستأمن فى ذلك اليوم خلق كثير من قوّاد الزنج وغيرهم ، فأحسن إليهم الموفّق وتتابع الناس فى

طلب الأمان ، ثم أقام الموفّق لا يحارب ليريح أصحابه إلى شهر ربيع الآخر من السنة .

فلما انتصف الشهر قصد الموفّق مدينة الزنج ، وفرّق قوّاده على جهاتها ، وجعل مع كل طائفة منهم من النقّابين جماعة لهدم السور ، وتقدّم إلى جميعهم ألا يزيدوا على هدم السور ولا يدخلوا المدينة ، وتقدّم إلى الرماة أن يحموا بالسهام من يهدم السور وينقبه ، فتقدموا إلى المدينة من سائر جهاتها ، ووصلوا إلى السور وثلموه فى مواضع كثيرة ، ودخل أصحاب الموفّق المدينة من تلك الثلم ، ، وجاء أصحاب صاحب الزنج فقاتلوهم فهزمهم أصحاب الموفّق ، وتبعوهم حتى أوغلوا فى طلبهم ، واختلفت بهم طرق المدينة ، فبلغوا أبعد من الموضع الذى وصلوا إليه فى المرّة الأولى وأحرقوا وأسروا ، وتراجع الزنج عليهم وخرج الكمناء من مواضع يعرفونها ويجهلها أصحاب الموفّق ، فتحيّروا ودافعوا عن أنفسهم وتراجعوا نحو دجلة ، بعد أن قتل منهم جماعة وأخذ الزنج أسلابهم ، ورجع الموفّق إلى مدينته وأمر بجمع أصحابه ، ولامهم على مخالفته فى دخولهم وافساد رأيه وتدبيره ، وأمر باحصاء مَنْ فُقد من أصحابه ، وأقر ما كان لهم من الرزق على أولادهم وأهليهم ، فحسن موقع ذلك عندهم ، وزاد فى صحة نيّاتهم وصدق عزائمهم .

ذكر ايقاع أبى العباس بن الموفق بالأعراب وانقطاع الميرة عن الزنج ومقتل بهبوذ بن عبد الوهاب

وفى سنة ثمان وستين ومائتين أوقع أبو العبّاس أحمد بن الموفّق ، وهو المعتضد بالله بقوم من الأعراب ، كانوا يحملون الميرة إلى الزنج فقتل منهم جماعة وأسر الباقين وغنم ما كان معهم ، وأرسل إلى البصرة من أقام بها لأجل قطع الميرة ، وسيّر الموفّق رشيقا مولى أبى العبّاس ، فأوقع بقوم من بنى تميم كانوا يجلبون الميرة إلى صاحب الزنج ، فقتل أكثرهم وأسر جماعة منهم ، فحمل الأسرى والرووس إلى الموفقيّة ، فأمر بهم الموفّق فوقفوا بازاء عسكر الزنج ، وكان فيهم رجل يسفر بين صاحب الزنج والأعراب [1] ، فقطعت يده ورجله وألقى فى عسكر الزنج ، وأمر بضرب أعناق الأسرى فانقطعت الميرة بذلك عن صاحب الزنج [1] ، فأضرّ بهم الحصار وأضعف أبدانهم ، فكان يسأل الأسير والمستأمن عن عهده بالخبز فيقول : عهدى به منذ زمان طويل ، فلما وصلوا إلى هذه الحال رأى الموفّق أن يتابع عليهم الحرب ، ليزيدهم ضرا وجهدا ، فكثر المستأمنون فى هذا الوقت ، وخرج كثير من أصحاب الخبيث فتفرّقوا فى القرى والأنهار البعيدة فى طلب القوت ، فبلغ ذلك الموفّق فأمر جماعة من قوّاد غلمانه بقصد تلك المواضع ، ويدعون من بها إليه فمن أبى قتلوه ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأتاه كثير منهم ، فلما كثر المستأمنون عند الموفّق عرضهم ، فمن كان ذا قوّة وجَلَد أحسن إليه وخلطه بغلمانه ، ومن كان منهم

(١) ساقط من ت .

ضعيفا أو شيخا أو جريحا قد أزمنته الجراحة كساه وأعطاه دراهم ، وأمر به أن يُحمل إلى عسكر صاحب الزنج ، فيذكر ما رأى من الإحسان ، فتهيّأ له بذلك ما أراد من استمالة أصحاب الخبيث ، وجعل الموفّق وابنه أبو العبّاس يلا زمان قتال صاحب الزنج – تارة هذا وتارة هذا – وجرح أبو العبّاس ثم برىء ، وكان من جملة من قتل من أعيان قوّاد صاحب الزنج بهبوذ بن عبد الوهاب ، وكان كثير الخروج فى السميريّات ، وكان ينصب عليها أعلاما تشبه أعلام الموفّق ، فإذا رأى من يستضعفه أخذه ، فأخذ من ذلك مالا جزيلا ، فواقعه فى بعض خرجاته أبو العباس ، فأفلت بعد أن أشفى على الهلاك ، ثم خرج مرّة أخرى فرأى سميريّة ، فيها بعض أصحاب أبى العباس فقصدها طامعا فى أخذها ، فحاربه أهلها فطعنه غلام من غلمان أبى العبّاس فى بطنه ، فسقط فى الماء فأخذه أصحابه فحملوه إلى عسكر صاحبه ، فمات قبل وصوله وكان قتله من أعظم الفتوح ، وعظمت الفجيعة على صاحب الزنج وأصحابه ، فاشتد جزعهم عليه ، وأحسن الموفّق إلى ذلك الغلام فوصله وكساه وطوّقه وزاد فى رزقه ، وفعل بكل من كان معه فى تلك السميريّة نحو ذلك ، ثم ظفر بالذوائبى [1] وكان ممايلا لصاحب الزنج .

وفى سنة تسع وستين ومائتين رُمى الموفّق بسهم فى صدره ، وكان سبب ذلك أنّ بهبوذ لما هلك طمع صاحب الزنج فى أخذ أمواله ، وكان قد صحّ عنده أن ملكه قد حوى مائتى ألف دينار وجواهر وفضّة ، فطلب

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٢٥٦ : الدوابى ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ٢٠٢٤

ذلك وأخذ أهله وأصحابه فضربهم ، وهدم أبنيته طمعا فى المال فلم يجد شيئا ، فكان فعله مما أفسد قلوب أصحابه عليه ، ودعاهم إلى الهرب منه ، فأمر الموفّق بالنداء بالأمان فى أصحاب بهبوذ ، فسارعوا إليه فألحقهم فى العطاء بمن تقدّم ، ورأى الموفّق ما كان يتعذّر عليه من العبور إلى الزنج ، فى الأوقات التى تهب فيها الرياح لتحرّك الأمواج ، فعزم على أن يوسّع لنفسه ولأصحابه موضعا فى الجانب الغربى ، فأمر بقطع النخل واصلاح المكان ، وأن تعمل له الخنادق والسور ليأمن البيات ، فعلم صاحب الزنج أنّ الموفّق إذا جاوره قرّب على من يريد اللحاق به المسافة ، مع ما يدخل قلوب أصحابه من الخوف وانتقاض تدبيره عليه فاهتمّ بمنع الموفّق من ذلك وبذل الجهد فيه وقاتل أشد القتال ، فاتفق أن الريح عصفت فى بعض تلك الأيام وقائد من القواد هناك ، فانتهز صاحب الزنج الفرصة فى انفراد هذا القائد وانقطاع المدد عنه فسيّر إليه جميع أصحابه فقاتلوه فهزموه ، وقتلوا كثيرا من أصحابه ولم يجد الشذاوات التى لأصحاب الموفق سبيلا إلى القرب منهم ، خوفا من الزنج أن تلقيها على الحجارة فتنكسر ، فغلب الزنج عليهم وأكثروا القتل والأسر ، ومن سلم منهم ألقى نفسه فى الشذاوات وعبروا إلى الموفقيّة فعظم ذلك على الناس ، ونظر الموفّق فرأى أنّ نزوله بالجانب الغربى لا يأمن معه حيلة الزنج وصاحبهم وانتهاز فرصة لكثرة الأدغال وصعوبة المسالك ، وأنّ الزنج أعرف بتلك المضايق وأجرأ عليها من أصحابه ، فترك ذلك وجعل قصده إلى هدم سور صاحب الزنج وتوسعة الطرق والمسالك ، فأمر بهدم السور من ناحية النهر المعروف بمنكى ، وباشر الحرب بنفسه واشتد القتال ، وكثر القتل

والجراح من الجانبين ودام ذلك أياما عدّة ، وكان أصحاب الموفّق لا يستطيعون الولوج لقنطرتين كانتا على نهر منكى ، وكان الزنج يعبرون عليها وقت القتال ، فيأتون أصحاب الموفّق من وراء ظهورهم فينالون منهم ، فأعمل الحيلة فى إزالتهما ، فأمر أصحابه بقصدهما عند اشتغال الزنج وغفلتهم عن حراستهما ، وأمرهم أن يعدّوا الفؤوس والمناشير وما يحتاجون إليه من الآلات ، فقصدوا القنطرة الأولى نصف النهار فأتاهم الزنج لمنعهم ، فاقتتلوا فانهزم الزنج ، وكان مقدّمهم أبا النداء فأصابه سهم ، فى صدره فقتله ، وقطع أصحاب الموفّق القنطرتين ورجعوا ، وألحّ الموفّق على صاحب الزنج بالحرب ، وهدم أصحابه من السور ما أمكنهم ، ودخلوا المدينة وقاتلوا فيها ، وانتهوا إلى دار ابن سمعان وسليمان بن جامع فهدموهما ، ونهبوا ما فيهما ، وانتهوا إلى سويقة لصاحب الزنج سمّاها الميمونة ، فهدمت وأخربت وهدموا دار الجنّائى وانتهبوا ما كان فيها من الخزائن ، وتقدّموا إلى الجامع ليهدموه فاشتد محاماة الزنج عنه ، فلم يصل إليه أصحاب الموفّق ، لأنّه كان قد خلص مع صاحب الزنج نخبة أصحابه وأرباب البصائر ، فكان أحدهم إذا قتل أو جرح اجتذبه الذي إلى جنبه ووقف مكانه ، فلما رأى الموفّق ذلك أمر أبا العبّاس بقصد الجامع من أحد أركانه بشجعان أصحابه ، وأضاف إليهم الفعول للهدم ونصب السلالم ففعل ذلك ، وقاتل عليه أشد قتال فوصلوا إليه فهدموه ، وأخذ منبره فأتى به الموفّق ، ثم عاد الموفّق لهدم السور فأكثر منه ، وأخذ أصحابه دواوين صاحب الزنج وبعض خزانته ، فظهر للموفّق أمارات الفتح ، فإنّهم لعلى ذلك إذ وصل سهم إلى الموفّق فأصابه فى صدره

رماه به رومى كان مع صاحب الزنج اسمه قرطاس وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى ، فستر الموفّق ذلك وعاد إلى مدينته فبات ، ثم عاود الحرب على ما به من ألم الجراح ، ليشدّ بذلك قلوب أصحابه فزاد فى علّته ، وعظم أمرها حتى خيف عليه ، واضطرب العسكر والرعيّة وخافوا وأشار عليه بعض أصحابه وثقاته بالعود إلى بغداد ، ويخلف من يقوم مقامه فأبى ذلك ، وخاف أن يستقيم من حال صاحب الزنج ما فسد ، واحتجب عن الناس مدّة ثم برىء من علّته ، وظهر لهم ونهض لحرب صاحب الزنج وكان ظهوره فى شعبان من هذه السنة .

ذكر احراق قصر صاحب الزنج
ومايتصل بذلك من الحروب والوقائع

قال (١) : ولما صحّ الموفّق من جراحه عاد إلى ما كان عليه من حرب صاحب الزنج ، وكان قد أعاد بعض الثلم فى السور ، فأمر الموفّق بهدم ذلك وهدم ما يتصل به وركب فى بعض العشايا ، وكان القتال متصلا ذلك اليوم مما يلى نهر مُنْكى ، والزنج مجتمعون فيه قد شغلوا أنفسهم بتلك الجهة ، وظنّوا أنّهم لا يؤتون إلا منها ، فأتى الموفّق ومعه الفعلة وقرب من نهر مُنْكِى وقاتلهم ، فلما اشتدت الحرب أمر الذين فى الشذاوات بالمصير إلى أسفل نهر أبى الخصيب ، وهو خال من المقاتلة والرجال ، فتقدمّ أصحاب الموفّق وأخرجوا الفعلة فهدموا السور من تلك الناحية ، وصعد المقاتلة فقتلوا فى النهر مقتلة عظيمة ،

(١) راجع الكامل حـ٧ ص ٢٦٣ لابن الأثير الجزرى .

وانتهوا إلى قصور من قصور صاحب الزنج فأحرقوها وانتهبوا ما فيها واستنقذوا عددا كثيرا من النساء اللاتى كنّ فيها ، وغنموا منها ، وانصرف الموفّق عند غروب الشمس بالظفر والسلامة ، وبكّر إلى حربهم وهدم السور ، فأسرع الهدم حتى اتصل بدار انكلاى ، وهى متصلة بدار صاحب الزنج ، فلما أعيت صاحب الزنج الحيل أشار عليه على ابن أبان باجراء الماء على السباخ ، وأن يحفر خنادق فى مواضع عدة تمنعهم من دخول المدينة ففعل ذلك ، فرأى الموفّق أن يجعل قصده طمّ الخنادق والأنهار والمواضع المُعَوَّرَة ففعل ذلك ، وحامى الزنج عنه ودامت الحرب ، ووصل إلى الفريقين من القتل والجراح أمر عظيم ، وذلك لتقارب ما بين الفريقين ، فلما رأى شدّة الأمر من هذه الناحية قصد احراق دار صاحب الزنج والهجوم عليها من دجلة ، فكان يعوقه عن ذلك كثرة ما أعدّ لها من المقاتلة والحماة عن داره ، فكانت الشذاوات إذا قربت من قصره رُميت من فوق القصر بالسهام والحجارة والمجانيق والمقاليع ، وأذيب الرصاص وأفرغ عليهم فتعذّر احراقها لذلك ، فأمر الموفق أن يسقف الشذا بالأخشاب ، ويعمل عليها الخيش وتطلى بالأدوية التى تمنع النار من احراقها ففعل ذلك ، ورتّب فيها أنجاد أصحابه وجمعا من النفّاطين .

واستأمن إلى الموفّق محمد بن سمعان كاتب صاحب الزنج ، وكان أوثق أصحابه فى نفسه ، وكان سبب استئمانه أنّ صاحب الزنج أطلعه على أنّه عازم على الخلاص وحده بغير أهل ولا مال ، فلما رأى ذلك من عزمه أرسل يطلب الأمان ، فأمّنه الموفّق وأحسن إليه ؛ وقيل كان سبب خروجه أنّه كان كارها لصحبة صاحب الزنج ، مطّلعا على كفره

وسوء باطنه ، ولم يمكنه التخلّص منه إلى الآن ، ففارقه فى عاشر شعبان .

فلمّا كان الغد بكّر الموفّق لمحاربة الزنج ، وأمر أبا العبّاس بقصد دار محمد الكَرَنْبَائِى – وهى بازاء دار صاحب الزنج – واحراقها وما يليها من منازل قوّاد الزنج ، يشغلهم بذلك عن حماية دار صاحبهم وأمر المرتّبين فى الشذاوات المطليّة بقصد دار صاحب الزنج واحراقها ففعلوا ذلك ، وألصقوا شذاواتهم بسور قصره ، وحاربوهم أشد حرب فنضحهم الزنج بالنيران فلم تعمل شيئا ، وأحرق من القصر الرواشين والأبنية الخارجة وعملت النار فيها ، وسلم الذين كانوا فى الشذا مما كان الزنج يرسلونه عليهم ، وأمر الموفّق الذين فى الشذا بالرجوع فرجعوا ، فأخرج من كان فيها ورتّب غيرهم ، وانتظر إقبال المدّ وعلوّه فلما أقبل عادت الشذا إلى قصره ، وأحرقوا بيوتا منه كانت تشرع على دجلة ، واضطرمت النار فيها وقويت واتصلت ، فأعجلت صاحب الزنج ومن كان معه عن التوقّف على ما كان فيها من الأموال والذخائر وغير ذلك ، فخرج هاربا وتركه ، وعلا غلمان الموفّق قصره مع أصحابهم فانتهبوا ما لم تأت النار عليه من الذهب والفضّة والحلىّ وغير ذلك ، واستنقذوا جماعة من النساء اللواتى كان صاحب الزنج يأنس بهنّ من اللواتى كان استرقّهنّ ، ودخلوا دوره ودور ابنه انكلاى فأحرقوها جميعا ، وفرح الناس بذلك وتحاربوا ، هم وأصحاب صاحب الزنج على باب قصره ، فكثر القتل فى أصحابه والجراح والأسر ، وفعل أبو العبّاس فى دار الكرنبانى من النهب والهدم والإحراق مثل ذلك ، وقطع أبو العبّاس يومئذ سلسلة عظيمة كان صاحب الزنج

قطع بها نهر أبى الخصيب ، لتمتنع الشذا من دخوله ، فحازها أبو العباس وأخذها معه ، وعاد الموفّق بالناس مع المغرب مظفّرا ، وأصيب صاحب الزنج فى نفسه وماله ، وجرح ابنه انكلاى فى بطنه جرحا أشفى منه على الهلاك .

ذكر غرق نصير صاحب الشذا

قال : وفى يوم الأحد لعشر بقين من شعبان غرق أبو حمزة نصير وهو صاحب الشذاوات ، وكان سبب غرقه أن الموفّق بكّر إلى القتال وأمر نصيرا بقصد قنطرة لصاحب الزنج ، كان عملها فى نهر أبى الخصيب دون الجسرين ، اللذين كان اتخذهما على النهر ، وفرّق أصحابه من الجهات ، فعجّل نصير فدخل فى أوّل المدّ فى عدة من شذاواته ، فحملها الماء فألصقها بالقنطرة ، ودخلت عدّة من شذاوات الموفّق مع غلمانه ، ولم يأمرهم بالدخول فضلّت شذاوات نصير ولم يبق للملّاحين فيها عمل ، ورأى الزنج ذلك فاجتمعوا على جانبى النهر ، وألقى الملّاحون أنفسهم فى الماء خوفا من الزنج ، ودخل الزنج الشذاوات فقتلوا بعض المقاتلة ، وغرق أكثرهم ، وصابرهم نصير حتّى خاف الأسر ، فقذف بنفسه فى الماء فغرق ، وأقام الموفّق يومه ذلك يحاربهم وينهبهم ويحرق منازلهم ، ولم يزل يومه مستعليا عليهم ، وكان سليمان بن جامع ذلك اليوم من أشد الناس قتالا لأصحاب الموفّق ، وثبت مكانه حتّى خرج عليه كمين للموفّق فانهزم أصحابه ، وجرح سليمان جراحة فى ساقه ، فسقط لوجهه فى مكان كان به حريق وفيه بعض الجمر فاحترق بعض جسده ، وحمله أصحابه بعد أن كاد يؤسر ، وانصرف

الموفّق سالما ظافرا ، وأصاب الموفّق مرض المفاصل فبقى به شعبان وشهر رمضان وأياما من شوّال ، وأمسك عن حرب الزنج ثم برىء وتماثل ، فأمر باعداد آلة الحرب .

ذكر احراق قنطرة صاحب الزنج

قال (١) : ولما اشتغل الموفّق بعلّته أعاد صاحب الزنج القنطرة التى غرق عندها نصير ، وزاد فيها وأحكمها ونصب دونها أدْقال (٢) ساج ، وألبسها الحديد وسكر أمامها سكرا من حجارة ، ليضيق المدخل على الشذا وتحتدّ جرية الماء فى النهر ، فندب الموفّق أصحابه ، وندب طائفة من شرقىّ نهر أبى الخصيب وطائفة من غربيّه ، وأرسل النجّارين والفعلة لقطع القنطرة وما جعل أمامها ، وأمر بسفن مملوءة قصبا أن يُصبّ عليها النفط ، وتدخل النهر ويلقى فيها النار لتحرق الجسر ، وفرّق جنده على أصحاب صاحب الزنج ، ليمنعوهم من معاونة من عند القنطرة ، فسار الناس إلى ما أمرهم به ، وذلك فى عاشر شوّال ، وتقدّمت الطائفتان إلى الجسر فلقيهما انكلاى ابن صاحب الزنج وعلى بن أبان وسليمان بن جامع ، واشتبكت الحرب ودامت وحامى أولئك عن القنطرة ، لعلمهم بما عليهم فى قطعها من الضرر ، ودامت الحرب على القنطرة إلى العصر ، ثم إنّ غلمان الموفّق أزالوا الزنج عن القنطرة ، وقطعها النجّارون ونقضوها وما كان عمل

(١) القائل هو ابن الأثير و هو المشار إليه . راجع الكامل حـ٧ ص ٢٦٦ .

(٢) الدقل خشبة طويلة تشد وسط السفينة عليها الشراع (تاج العروس) والمقصود هنا أنواع الساج .

من الأدقال الساج ، وكان قطعها قد تعذّر عليهم فأدخلوا تلك السفن التى فيها القصب والنفط. وأضرموها نارا ، فوافت القنطرة فأحرقتها فوصل النجّارون بذلك إلى ما أرادوا ، وأمكن أصحاب الشذا دخولهم النهر فدخلوا ، وقتلوا الزنج حتى أجلوهم عن مواقفهم إلى الجسر الأوّل الذى يتلو هذه القنطرة ، وقُتل من الزنج كثير واستأمن كثير ، ووصل أصحاب الموفّق إلى الجسر وقت المغرب ، فكره الموفّق أن يدركهم الليل فأمرهم بالرجوع ، وأثاب المحسن على قدر احسانه ليزدادوا جدا فى حرب عدوّه ، وأخرب من العد برجين حجارة كانوا عملوهما ، ليمنعوا الشذا من الخروج منه إذا دخلته، فلما أخربهما سهل له ما أراد من دخول النهر والخروج منه .

ذكر انتقال صاحب الزنج الى الجانب الشرقى واحراق سوقه

قال : لما أحرقت دور صاحب الزنج وقصوره ومنازل أصحابه ، كما قدّمنا ذكر ذلك – ونُهبت أموالهم انتقلوا إلى الجانب الشرقى من نهر أبى الخصيب ، وجمع عياله حوله ونقل أسواقه ، فضعف أمره بذلك ضعفا شديدا ، ظهر للناس وامتنعوا من جلب الميرة إليه ، فانقطعت عنه كل مادّة ، وبلغ الرطل من خبز البُرّ عشرة دراهم ، ، فأكلوا الشعير وأصناف الحبوب ، ثم لم يزل الأمر بهم إلى أن كان أحدهم يأكل صاحبه إذا انفرد به ، والقوى يأكل الضعيف ، ثم أكلوا أولادهم ، ورأى الموفّق أن يخرب الجانب الشرقى كما أخرب الغربىّ ، فأمر أصحابه بقصد دار الهمدانىّ ومعهم الفعلة ، وكان هذا الموضع محصّنا بجمع كثير ،

وعليه عرّادات ومنجنيقات وقسى ، فاشتبكت الحرب وكثرت القتلى فانتصر أصحاب الموفّق عليهم وقتلوهم وهزموهم ، وانتهوا إلى الدار فتعذر عليهم الصعود إليها لعلوّ سورها ، فلم تبلغه السلاليم الطوال فرمى بعض غلمان الموفّق كلاليب معهم ،فعلّقوها فى أعلام صاحب الزنج وجذبوها فتساقطت الأعلام منكوسة ، فلم تشك المقاتلة عن الدار فى أنّ أصحاب الموفّق قد ملكوها ، فانهزموا لايلوي أحدمنهم على صاحبه فأخذها أصحاب الموفّق وصعد النفّاطون فأحرقوها وماكان عليها من المجانيق والعرّادات ، ونهبوا ما كان فيها من المتاع والأثاث ، وأحرقوا ما كان حولها من الدور ، واستنقذوا من كان فيها من النساء ، وكنّ كثيرا ، فحملن إلى الموفقيّة وأمر الموفّق بالإحسان إليهن ، واستأمن يومئذ من أصحاب صاحب الزنج وخاصّته الذين يلون خدمته جماعة كثيرة ، فأمّنهم الموفّق وأحسن إليهم ، ودلّ جماعةً من المستأمنة الموفّق على سوق عظيمة كانت لصاحب الزنج ، متّصلة بالجسر الأوّل تسمّى المباركة ، وأعلموه أنّه إن أحرقها لم يبق لهم سوق غيرها ، وخرج عنهم تجّارهم الذين بهم قواهم ، فعزم الموفّق على احراقها وأمر أصحابه بقصد السوق من جانبيها ففعلوا ، وأقبلت الزنج إليهم فتحاربوا أشد حرب ، واتصل أصحاب الموفّق إلى طرف من أطراف السوق وألقوا فيه النار فاحترق ، واتصلت النار ، وكان الناس يقتتلون والنار محيطة بهم ، وسقطت على المقاتلة واحترق بعضهم ، فكانت هذه حالهم إلى مغيب الشمس ، ثم تحاجزوا ورجع أصحاب الموفّق إلى عسكرهم ، وانتقل تجّار السوق إلى أعلى المدينة ، وكانوا قد نقلوا معظم أمتعتهم وأموالهم .

قال : ثم فعل صاحب الزنج بالجانب الشرقى من حفر الخنادق وتعوير (١) الطرق مثل ما كان فعل بالجانب الغربىّ بعد هذه الوقعة ، واحتفر خندقا عظيما حصّن به منازل أصحابه التى على النهر الغربىّ ، فرأى الموفّق أن يخرب باقى السور إلى النهر الغربىّ ، ففعل ذلك بعد حرب طويلة فى مدة بعيدة ، وكان بالجانب الغربىّ جمع من الزنج قد تحصّنوا بسور منيع ، وهم أشجع أصحابه ، فكانوا يحامون عنه وكانوا يخرجون على أصحاب الموفّق عند محاربتهم ، فأمر الموفّق أن يقصد هذا الموضع ويخرب سوره ويخرج من فيه ، وأمر ابنه أبا العبّاس والقوّاد بالتأهّب لذلك ، وتقدّم إليهم وأمر أن تقرب الشذاوات من السور ، ونشبت الحرب ودامت إلى بعد الظهر ، وهدم فى السور مواضع وأحرق ما كان عليه من العرّادات ، وتحاجز الفريقان وهما على السواء سوى هذا السور واحراق عرّادات كانت عليه ، ونال الفريقين من الجراح أمر عظيم ، وعاد الموفّق فوصل الناس على قدر بلائهم ، هكذا كان عمله فى محاربته ، وأقام الموفّق بعد هذه الوقعة أياما ، ثم رأى معاودة هذا الموضع لما رأى من حصانته وشجاعة من فيه ، وأنّه لا يقدر على ما يريد إلا بعد إزالته ، فأعدّ الآلات ورتّب أصحابه وقصده ، وقاتل مَنْ فيه وأدخلت الشذاوات النهر ، واشتدت الحرب ودامت ، وأمدّ صاحب الزنج بالمهلبىّ وسليمان بن جامع فى جيشهما ، فحملوا على أصحاب الموفّق حتى ألحقوهم بسفنهم وقتلوا منهم جماعة ، فرجع الموفّق ولم يبلغ منهم ما أراد ، وتبيّن له أنّه إذا

(١) مجمل الطرق ومرة .

قاتلهم من وجوه عدّة خفّت وطأتهم على من يقصد هذا الموضع ، ففرّق أصحابه على جهات أصحاب الزنج ، وصار هو فى جهة النهر الغربى وقاتل من فيه وصدقهم أصحابه القتال فهزموهم ، فولّوا وتركوا حصنهم فى أيدي أصحاب الموفّق ، فهدموه وأسروا وقتلوا وخلّصوا من هذا الحصن خلقا كثيرا من النساء والصبيان ، ورجع الموفّق إلى عسكره بما أراد .

ذكر استيلاء الموفق على مدينة صاحب الزنج الغربية

قال (١) : لما هدم الموفّق سور دار صاحب الزنج أمر باصلاح المسالك ، ليتسع على المقاتلة الطريق إلى الحرب ، ثم رأى قلع الجسر الأوّل الذي على نهر أبى الخصيب ، لما فى ذلك من منع معاونة بعضهم بعضا ، وأمر بسفينة كبيرة أن تملأ قصبا ويجعل فيه النفط ، ويوضع فى وسطها دَقَل طويل يمنعها من مجاوزة الجسر إذا التصقت به ، ثم أرسلها عند غفلة الزنج وقوة المدّ ، فوافت الجسر وعلم بها الزنج فأتوها وطمّوها بالحجارة والتراب ، ونزل بعضهم فخرقها فغرقت ، وكان قد احترق من الجسر شيء يسير فأطفأه الزنج ، فاهتمّ الموفّق بالجسر فندب أصحابه وأعدّ النفّاطين والفعلة والفؤوس ، وأمرهم بقصده من غربىّ النهر وشرقيّة ، وركب الموفّق فى أصحابه وقصد فوّهة نهر أبى الخصيب ، وذلك فى منتصف شوّال سنة تسع وستين فسبق الطائفة التى فى غرب النهر ، فهزم الموكّلين على الجسر وهم سليمان بن جامع

(١) راجع الكامل حـ٧ ص ٢٧٠ .

وانكلاى ابن صاحب الزنج وأحرقوه ، وأتى بعد ذلك الطائفة الأخرى ففعلوا بالجانب الشرقى[١] مثل ذلك ، فأحرق الجسر وتجاوزه إلى جانب حظيرة كان يعمل فيها سميريّات صاحب الزنج وآلاته ، فاحترق ذلك كله إلا شيئا يسيرا من الشذاوات والسميريّات كانت فى النهر ، وقصدوا سجنا للزنج فقاتلهم الزنج ساعةً من النهار ، ثم غلبهم أصحاب الموفّق عليه فأطلقوا من فيه ، وأحرقوا ما مرّوا به إلى دار مُصْلح - وهو من قدماء أصحابه - فدخلوها فنهبوها وما فيها وسبوا نساءه وولده واستنقذوا خلقا كثيرا ، وعاد الموفّق وأصحابه بالظفر والسلامة ، وانحاز صاحب الزنج واصحابه من هذا الجانب إلى الجانب[٢] الشرقى من نهر أبى الخصيب ، واستولى الموفّق على الجانب الغربى غير طريق يسيرة على الجسر الثانى ، فأصلحوا الطرق فزاد ذلك فى رعب الزنج ، فأجمع كثير من القوّاد - الذين كان صاحب الزنج يرى أنّهم لا يفارقونه - على طلب الأمان فطلبوه ، فبُذل لهم فخرجوا أرسالا فأحسن الموفّق إليهم وألحقهم بأمثالهم ، وأحب الموفّق أن يتمرّن أصحابه على سلوك النهر ليحرق الجسر الثانى فكان يأمرهم بادخال الشذا فيه واحراق ما على جانبه من المنازل ، فهرب إليه فى بعض الأيام قائد للزنج ومعه قاض كان لهم ففتّ ذلك فى أعضادهم ، ووكّل صاحب الزنج بالجسر الثانى من يحفظه وشحنه بالرجال ، فأمر الموفّق بعض أصحابه فأحرق ما عند الجسر من سفن فزاد ذلك فى احتياط صاحب الزنج وحراسته للجسر ، لئلا يُحرق

(١) فى ك : الغربى .

(٢) فى المخطوطات : ... وأصحابه من هذا الجانب الشرقى ، إلا أن اصحح الخطأ فى الهامش

ويستولى الموفّق على الجانب الغربىّ ، وكان قد تأخّر من أصحابه جمع فى منازلهم المقاربة للجسر الثانى ، وكان أصحاب الموفّق يأتونهم ويقفون على الطريق الخفيّة ، فلما عرفوا ذلك عزموا على احراق الجسر الثانى ،فأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس والقوّاد أن يتجهّزوا لذلك ، وأن يأتوا من عدّة جهات ليوافوا الجسر ، وأعدّ معهم الفؤوس والنفط والآلات ودخل هو فى الشذا ومعه أنجاد أصحابه ، واشتبكت الحرب فى الجانبين جميعا واشتد القتال ، وكان فى الجانب الغربى بازاء أبى العباس ومن معه انكلاى ابن صاحب الزنج وسليمان بن جامع ، وفى الجانب الشرقى بازاء راشد مولى الموفق ومن معه صاحب الزنج والمهلبى فى باقى الجيش ، فدامت الحرب مقدار ثلاث ساعات ثم انهزم الزنج لايلوون على شىء ، وأخذت السوق منهم ، ووصل أصحاب الشذا النهر ودانوا من الجسر ، وقاتلوا من يحميه بالسهام وأضرموه نارا ، وانهزم انكلاى وسليمان وقد أثخنا بالجراح ، فوافيا الجسر والنار فيه فحالت بينهما وبين العبور ، فألقيا أنفسهما ومن معهما فى النهر فغرق منهم خلق كثير ، وأفلت انكلاى وسليمان بعد أن أشفيا على الهلاك ، وقطع الجسر وأحرق وتفرّق جيش الموفّق فى جانبى المدينة ، وأحرق من الدور والقصور والأسواق شيئا كثيرا واستُنقذ من النساء والصبيان مالا يُحصى ودخلوا الدار التى كان صاحب الزنج سكنها بعد إحراق قصره فنهبوا ما كان فيها وأحرقوها ، وهرب هو واستنقذ فى هذا اليوم نسوة من العلويّات ، كنّ محبوسات فى موضع قريب من داره فأحسن الموفّق إليهن ، وفتح سجنا كان له وأخرج خلقا كثيرا ففكّ عنهم الحديد ، وأخرج ذلك اليوم كلّ ما كان بنهر أبى الخصيب من شذا ومراكب بحرية وسفن كبار

بصغار وحرّاقات وغير ذلك من أصناف السفن إلى دجلة ، وأباحها أصحابه بما فيها من السلب ، وكانت قيمته عظيمة ، وأرسل انكلاى ابنه يطلب الأمان ، وسأل أشياء فأجابه الموفّق إليها ، فعلم أبوه بذلك فردّه عماً عزم عليه ، فعاد إلى الحرب ومباشرة القتال ، ووجّه سليمان ابن موسى الشعرانى – وهو أحد رؤساء صاحب الزنج – يطلب الأمان ، فلم يجبه الموفّق إلى ذلك لما تقدّم منه من سفك الدماء والفساد ، ثم اتصل به أنّ جماعة من أصحاب صاحب الزنج قد استوحشوا لذلك فأجابه وأرسل الشذا إلى موضع ذكره فخرج هو وأخوه وأهله وجماعة من قوّاده ، فأرسل صاحبهم من يمنعهم من ذلك فقاتلهم ووصل إلى الموفّق فزاد فى الإحسان إليه وخلع عليه وعلى من معه ، وأمر باظهاره لأصحابه ليزدادوا ثقة ، فلم يرجع من مكانه حتى استأمن جماعة من القوّاد ، منهم شبل بن سالم ، فأجابه الموفّق وأرسل إليه شذاوات فركب فيها وعياله وولده وجماعة من قوّاده ، فلقيهم قوم من الزنج فقاتلهم ونجا ووصل إلى الموفّق فأحسن إليه ووصله بصلة سنيّه ، وهو من قدماء أصحاب الخبيث ، فعظم ذلك عليه وعلى أوليائه لما رأوا من رغبة رؤسائهم فى الأمان قال : ولما رأى الموفّق مناصحه شبل أمره أن يكفيه بعض الأمور ، فسار ليلا فى جمع من الزنج لم يخالطهم غيرهم إلى عسكر الزنج ، فأوقع بهم وأسر منهم وقتل وعاد فأحسن إليه الموفّق وإلى أصحابه ، وصار الزنج بعد هذه الوقعة لاينامون الليل ولا يزالون يتحارسون ، وأقام الموفّق يُنفذ السرايا إليهم ويكيدهم ويحول بينهم وبين القوت ، وأصحابه يتدرّبون فى سلوك تلك المضايق التى فى أرضه ويوسّعونها .

ذكر استيلاء الموفق على مدينة صاحب الزنج الشرقية

قال : ولما علم الموفّق أن أصحابه قد تمرّنوا على سلوك تلك الأرض وعرفوها صمّم على العبور إلى محاربة صاحب الزنج من الجانب الشرقى من نهر أبى الخصيب ، فجلس مجلسا عاما وأحضر قوّاد المستأمنة وفرسانهم فوقفوا بحيث يسمعون كلامه ، ثم عرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل وانتهاك المحارم ومعصية الله عزّ وجلّ ، وأنّ ذلك قد أحلّ لهم دماءهم ، وأنّه غفر لهم زلّتهم وأمّنهم ووصلهم ، وأن ذلك يوجب عليهم حقّه وطاعته ، وأنّهم لن يرضوا ربّهم وسلطانهم بأكثر من الجدّ فى محاربة الخبيث ، وأنّهم يخبرون مسالك ذلك العسكر ومضايق مدينته وأولى أن يجتهدوا فى الولوج عليه والتوغّل فى حصونه حتّى يمكنهم الله منه ، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد ، ومن قصّر منهم فقد أسقط منزلته ، فارتفعت أصواتهم بالدعاء والاعتراف بإحسانه ، وبما هم عليه من المناصحة والطاعة وأنهم يبذلون دماءهم فى كل مايقرّبهم منه ، وسألوه أن يفردهم بناحية ليظهر من نكايتهم فى العدو مايعرف به إخلاصهم وطاعتهم ، فأجابهم إلى ذلك وأثنى عليهم ، وكتب فى جمع السفن والمعابر من دجلة والبطيحة ونواحيها ليضيفها إلى عسكره ، إذ كان ماعنده يقصر عن الجيش لكثرته ، وأحصى مافى الشذا والسميريّات وأنواع السفن ، فكانوا زهاء عشرة آلاف ملّاح ممّن يجرى عليه الرزق من بيت المال مشاهرة ، سوى سفن أهل العسكر التى تحمل فيها الميرة ويركبها الناس فى حوائجهم ، وسوى ما لكل قائد من السميريات والحربيّات والزواريق ، فلما تكاملت السفن تقدّم إلى ابنه أبى العباس

وقوّاده بقصد المدينة الشرقية من جهاتها ، فسيرّ ابنه إلى ناحية دار المهلبيّ أسفل العسكر ، وكان قد شحنها بالرجال والمقاتلة ، وأمر جميع أصحابه بقصد دار صاحب الزنج وإحراقها ، فإن عجزوا عنها اجتمعوا على دار المهلبيّ ، وسارهو فى الشذا وهى مائة وخمسون قطعة فيها أنجاد غلمانه ، وانتخب من الفرسان والرجّالة عشرة آلاف وأمرهم أن يسيروا على جانبى النهر إذا سار ، وأن يقفوا معه إذا وقف ، وبكّر يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين ، وكانوا قد تقدّموا إليهم يوم الاثنين وواقعوهم ، وتقدّمت كلّ طائفة إلى الجهة التى أمرهم بها ، فلقيهم الزنج واشتدت الحرب وكثر القتل والجراح فى الفريقين ، ثم نصر الله عزّ وجلّ أصحاب الموفّق بانهزام الزنج ، وقتل منهم خلق كثير وأسر من أنجادهم وشجعانهم خلق كثير فأمر الموفّق بضرب أعناق الأسرى فى المعركة ، وقصد بجمعه الدار التى يسكنها صاحب الزنج ، وكان قد لجأ إليها وجمع أبطال أصحابه للمدافعه عنهافلم يغنوا شيئا فانهزمواعنها وأسلموها . ودخلها أصحاب الموفّق، وفيها بقايا ما كان سلم من مال صاحب الزنج وولده وأثاثه فنهب ذلك أجمع وأخذوا حرمه وأولاده وكانوا عشرين [1] مابين صبىّ وصبيّة ، وهرب صاحب الزنج نحو دار المهلبى لايلوى على أهل ولامال ، وأحرقت داره وأتى الموفّق بأهل صاحب الزنج وولده فسيرّهم إلى بغداد ، وكان أصحاب أبى العبّاس قد قصدوا دار المهلبىّ ، وقد لجأ إليها خلق كثير من المنهزمين فغلبوهم عليها واشتغلوا بنهبها وأخذوا مافيها من حرم المسلمين وأولادهم

(١) فى تاريخ الطبرى حـ١٤ ص ٢٠٧٧ : وكانوا أكثر من مائة بين امرأة وصبى .

وجعل من ظفر منهم بشيء حمله إلى سفينته ، فلما رآهم الزنج كذلك رجعوا إليهم فقتلوا منهم مقتله عظيمة[١] ، وكان جماعة من غلمان الموفّق قد قصدوا دار صاحب الزنج ، فتشاغلوا بحمل الغنائم إلى السفن أيضا ، فأطمع ذلك الزنج فيهم فكشفوهم واتبعوا آثارهم ، وثبت جماعة من أبطال الموفّق فردّوا الزنج حتى تراجع الناس إلى مواقفهم ، ودامت الحرب إلى العصر فأمر الموفّق غلمانه بصدق الحملة عليهم ففعلوا ، فانهزم صاحب الزنج ومن معه وأخذتهم السيوف حتى انتهوا إلى داره أيضا ، فرأى الموفّق أن يصرف أصحابه فردّهم ، وقد استنقذوا جمعاً من النساء المأسورات فحملن إلى الموفقيّة ، وكان أبو العبّاس قد أرسل فى ذلك اليوم قائدا فأحرق بيادر كانت ذخيرة لصاحب الزنج وكان ذلك مما أضعفه وأضعف أصحابه . قال : ثم وصل إلى الموفّق كتاب لؤلؤ غلام أحمد بن طولون يستأذنه فى القدوم عليه ؛ فأمره بذلك وأخّر القتال إلى أن يحضر .

ذكر مقتل صاحب الزنج

قال : ولما ورد كتاب لؤلؤ على الموفّق يستأذنه فى الحضور إليه أذن له ، وأحبّ أن يؤخر القتال إلى أن يحضر فيشهده ، وكان لؤلؤ قد خالف على مولاه أحمد بن طولون ، وكان فى يده حمص وقنّسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة وصار إلى بالس فنهبها ، وكاتب الموفّق فى المصير إليه واشترط شروطا فأجابه الموفّق إليها ؛ وكان بالرقة

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٢٧٥ : مقتلة يسيرة وهذا مايتفق ومايقوله الطبرى حـ١٤ ص ص ٢٠٧٨ : ... وقتلوا من فرسانهم ورجالتهم جماعة يسيرة .

فسار إلى الموفّق فوصل إليه فى ثالث شهر المحرّم سنة سبعين ومائتين فى جيش عظيم ، فأكرمه الموفّق وأنزله وخلع عليه وعلى أصحابه ووصلهم وأحسن إليهم ، وأمر لهم بالأرزاق على قدر مراتبهم ، وأضعف ما كان لهم .

ثم تقدّم إلى لؤلؤ بالتأهب لحرب الزنج ، وكان صاحب الزنج ، لمّا غُلب على نهر أبي الخصيب وقُطعت القناطر والجسور التى عليه ، أحدث سكرا فى النهر من جانبيه ، وجعل فى وسط النهر بابا ضيّقا لتحتد جرية الماء فيه فيمتنع الشذا من دخوله فى الجزر ، ويتعذّر خروجها منه فى المدّ ، فرأى الموفّق أنّ حربة لا يتهيّأ إلا بقلع هذا السكر ، وحاول ذلك فاشتدت محاماة الزنج عليه ، وجعلوا يزيدون كل يوم ، فيه ، فشرع الموفّق فى محاربتهم بفريق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ ، ليتمرّنوا على قتالهم ويقفوا على المسالك والطرق فى مدينتهم ، وأمر لؤلؤا أن يحضر فى جماعة من أصحابه للحرب على هذا السكر ففعل ، فرأى الموفّق من شجاعتهم وإقدامهم ما سرّه ، فأمر لؤلؤا بصرفهم إشفاقا عليهم ووصلهم وأحسن إليهم ، وألحّ الموفّق على هذا السكر ، فكان يحارب والفعلة يعملون فى قلعه ، واستأمن إليه جماعة ، وكان قد بقى لصاحب الزنج وأصحابه أرضين بناحية النهر الغربى ، لهم فيها مزارع وحصون وقنطرتان وبه جماعة يحفظونه ، فسار إليهم أبو العباس وفرّق أصحابه من جهاتهم ، وجعل كمناء ، ثم أوقع بهم فانهزموا فما قصدوا جهة إلا خرج عليهم من يقاتلهم فيها ، فقُتلوا لم يسلم منهم إلا الشريد ، وأخذوا من أسلحتهم ما أثقلهم حمله ، وقطع

القنطرتين ، ولم يزل الموفّق يقاتلهم على سكرهم حتى تهيّأ له فيه ما أحب وحرقه .

فلما فرغ منه عزم على لقاء صاحب الزنج ، فأمر باصلاح السفن والآلات للماء والطين ، وتقدّم إلى ابنه أبى العبّاس أن يأتى الزنج من ناحية دار المهلبىّ ، وفرّق العساكر من جميع جهاته ، وأضاف المستأمنة إلى شِبْل ، وأمر الناس ألّا يزحفوا حتى يحرّك علما أسود كان نصبه على دار الكَرَنْبَائِى ، وحتى ينفخ فى بوق بعيد الصوت ، وكان عبوره يوم الاثنين[1] لثلاث بقين من المحرّم ، فعجّل بعض الناس وزحف نحوهم ، فلقيه الزنج فقتلوا منهم وردّوهم إلى مواقفهم ، ولم يعلم سائر العسكر بذلك لكثرتهم وبُعْد المسافة فيما بين بعضهم وبعض ، وأمر الموفّق بتحريك العلم الأسود والنفخ فى البوق ، فزحف الناس فى البر والماء يتلو بعضهم بعضا ، فلقيهم الزنج وقد حشدوا واجترأوا بما تهيّأ لهم ، فلقيهم الجيش بنيّات صادقة وبصائر نافذة ، واشتد القتال وقتل من الفريقين جمع كثير ، فانهزم أصحاب صاحب الزنج وتبعهم أصحاب الموفّق ، فقتل منهم ما لا يحصى وغرق منهم مثل ذلك ، وحوى الموفّق المدينة بأسرها ، فغنم أصحابه ما فيها واستنقذوا من كان بقى من الأسارى من الرجال والنساء والصبيان ، وظفروا بجميع عيال على بن أبان المهلبىّ وبأخويه الخليل ومحمد وأولادهما ، فسيّروا إلى الموفقيّة ، ومضى صاحب الزنج فى أصحابه ومعه ابنه انكلاى وسليمان بن جامع وقوّاد من الزنج وغيرهم

(١) فى المخطوطات : الثلاثاء والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ١٨٦ والطبرى حـ١٤ ص ٢٠٨٧

هرابا ، عامدين إلى موضع كان قد أعدّه ملجأ إذا غُلب على مدينته ، وذلك المكان على النهر المعروف بالسفيانى ، وكان أصحاب الموفّق قد اشتغلوا بالنهب والإحراق ، وتقدّم أصحاب الموفّق فى الشذا نحو نهر السفيانى ، وانتهى الموفّق ومن معه إلى عسكر صاحب الزنج وهم منهزمون ، واتبعهم لؤلؤ فى أصحابه حتى عبروا النهر فاقتحم[1] لؤلؤ النهر بفرسه واتبعه أصحابه حتى انتهى إلى النهر[1] المعروف بالقريرى[2] فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه ، فأوقعوا به وبمن معه فهزموهم حتى عبروا نهر المساوان[3] ولؤلؤ فى أثرهم ، فاعتصموا بجبل وراءه ، وانفرد لؤلؤ وأصحابه باتباعهم إلى هذا المكان إلى آخر النهار ، فأمر الموفّق بالانصراف فعاد مشكورا محمود الفعل ، فحمله الموفّق معه وجدّد له البرّ والكرامة ورفع منزلته ، ورجع الموفّق فلم ير أحدا من أصحابه بمدينة الزنج ، وكانوا قد انصرفوا إلى الموفقيّة بما حووا فى سفنهم ، فرجع الموفّق إلى مدينته واستبشر الناس بالفتح ، وغضب الموفّق على أصحابه لمخالفتهم أمره وتركهم الوقوف حيث أمرهم ،فجمعهم ووبّخهم على ذلك وأغلظ لهم ، فاعتذروا بما ظنّوه من انصرافه ، وأنّهم لم يعلموا بمسيره ولو علموا ذلك لأسرعوا نحوه ، ثم تعاقدوا وتحالفوا على ألّا ينصرف منهم أحد إذا توجّهوا نحو صاحب الزنج حتى يظفروا ، فإنْ أعياهم أقاموا حتى يحكم الله بينهم وبينه ، وسألوا الموفّق أن يردّ السفن التى يعبرون فيها إلى

(١) هذه العبارة غير موجودة فى ك، ت ،ويؤيدها الكامل حـ٧ ص٢٨١وهو مصدر المؤلف

(٢) فى المخطوطات دون نقط ، وفى الكامل حـ٧ ص٢٨١ : الفربرى والتصويب عن الطبرى حـ١٤ ص ٢٠٨٩ .

(٣) فى المخطوطات : خاقان ، وفى الكامل حـ٧ ص٢٨٢ : السفيانى والتصويب عن الطبرى حـ١٤ ص ٢٠٨٩ ومن المعروف أن الطبرى هو مصدر ابن الأثير فى الكامل .

صاحب الزنج ، لينقطع الناس عن الرجوع فشكرهم وأثنى عليهم وأمرهم بالتأهّب . وأقام الموفّق بعد ذلك إلى يوم الجمعة يصلح ما يحتاج الناس إليه ، وأمر الناس بالمسير إلى حرب الزنج بُكرة السبت ، وطاف عليهم بنفسه يعرّف كل قائد مركزه والمكان الذى يقصده .

وغدا الموفّق يوم السبت لليلتين (١) خلتا من صفر سنة سبعين وعبر الناس ، وأمر برّد السفن فردّت ، وسار يقدمهم إلى المكان الذى قدّر أن يلقاهم فيه ، وكان صاحب الزنج وأصحابه قد رجعوا إلى مدينتهم بعد انصراف الجيش عنهم ، وأمّلوا أن تتطاول بهم الأيام وتندفع عنهم المناجزة ، فوجد الموفّق المتسرّعين من غلمانه من الفرسان والرجّالة قد سبقوا الجيش ، فأوقعوا بصاحب الزنج وأصحابه وهزموهم بها ، وتفرّقوا لا يلوى بعضهم على بعض ، وتبعهم أصحاب الموفّق يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم : فانقطع صاحب الزنج فى جماعة من حماة أصحابه منهم المهلبىّ ، وفارقه ابنه انكلاى وسليمان بن جامع ، فقصد كل فريق منهم جمعا كثيفا من الجيش ، وكان أبو العبّاس قد تقدّم فلقى المنهزمين فى الموضع المعروف بعسكر رَيْحان ، فوضع أصحابه فيهم السلاح ، ولقيهم طائفة أخرى فأوقعوا بهم وقتلوا منهم جماعة ، وأسروا سليمان بن جامع فأتوا به الموفّق من غير عهد ولا عقد ، فاستبشر الناس بأسره ، وأسر بعده إبراهيم بن جعفر الهمدانى – وكان أحد أمراء جيوشه – فأمر الموفّق بالاستيثاق منهما ، ثم إنّ الزنج الذين انفردوا مع صاحبهم حملوا على الناس

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٢٨٢ للثلاثين خلتا من صفر ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ ١٤ ص ٢٠٩١ .

حملة أزالوهم عن مواقفهم ففتروا ، فجدّ الموفّق فى طلبهم وأمعن ، فتبعه أصحابه وانتهى إلى آخر نهر أبى الخصيب ، فلقيه البشير بقتل صاحب الزنج ، وأتاه بشير آخر ومعه كفّ ذكر أنّها كفّه ، ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركض ومعه رأس صاحب الزنج ، فعرض الموفّق الرأس على جماعة من المستأمنة فعرفوه ، فخرّ لله ساجدا وسجد معه الناس ، وأمر برفع الرأس على قناة فعرفه الناس .

قال : ولما أحيط بصاحب الزنج كان معه المهلبى وحده ، فولّى عنه هاربا وقصد نهر فألقى نفسه فيه ، وكان انكلاى قد سار نحو الدينارىّ ورجع الموفّق والرأس بين يديه وسليمان بن جامع ، فأتى مدينته وأتاه من الزنج عالم عظيم يطلبون الأمان فأمّنهم ، وانتهى إليه خبر انكلاى والمهلبىّ ومكانهما ومن معهما من مقدّمى الزنج ، فبث أصحابه فى طلبهم وأمرهم بالتضييق عليهم ، فلما أيقنوا ألاّ ملجأ أعطوا بأيديهم فظفر بهم وبمن معهم وكانوا زهاء خمسة آلاف ، فأمر بالاستيثاق من المهلبىّ وانكلاى ، وكان ممّن هرب قرطاس الرومىّ الذى رمى الموفّق بالسهم فى صدره ، فانتهى إلى رَامَهُرْمُز فعرفه رجل فدلّ عليه عامل البلد ، فأخذه وسيّره إلى الموفّق فقتله ابنه أبو العبّاس ، ثم استأمن دَرْمَوَيْه الزّنجى إلى أبى أحمد الموفّق ، وكان درمويه هذا من أنجاد الزنج وأبطالهم ، وكان صاحب الزنج قد وجّهه قبل هلاكه بمدّة إلى موضع كثير الأدغال والشجر والآجام متصل بالبطيحة ، وكان هو ومن معه يقطعون الطريق هناك على السابلة فى زواريق خفاف ، فإذا طلبوا دخلوا الأنهار الضيّقة واعتصموا بالأدغال ، وإذا تعذّر عليهم مسلك لضيقه حملوا سفنهم ولجأوا إلى الأمكنة الوسيعة ، ويغيرون على قرى البطيحة

ويقطعون الطريق ، فظفروا بجماعة من عسكر الموفّق معهم نساء قد عادوا إلى منازلهم ، فقتلوا الرجال وأخذوا النساء ، فسألهنّ دَرْمويه عن الخبر فأخبرنه بقتل صاحب الزنج وأسر أصحابه وقوّاده ، وأن كثيراً منهم قد صار إلى الموفّق بالأمان فأحسن إليهم ، فسقط فى يده ولم ير لنفسه ملجأ إلا طلب الأمان والصفح عن جرمه ، فأرسل إلى أبى أحمد الموفّق يطلب الأمان فأجابه إلى ذلك وأمّنه ، فخرج هو ومن معه حتى وافى عسكر الموفّق فأحسن إليهم وأمّنهم ، فلما اطمأن درمويه أظهر ما كان فى يده من الأموال والأمتعة ، وردّها إلى أربابها ردا ظاهرا فعلم بذلك حسن نيّته فزاد الموفّق فى الإحسان إليه ، وأمر أن يكتب إلى أمصار المسلمين بالنداء فى أهل النواحى التى دخلها الزنج بالرجوع إلى أوطانهم ، فسارع الناس إلى ذلك .

وأقام الموفّق بالمدينة الموفقيّة ليأمن الناس بمقامه ، وولّى البصرة والأبلّة وكور دجلة رجلا من قواده قد حمد مذهبه وعلم حسن سيرته يقال له العبّاس بن تَرْكس ، وأمره بالمقام بالبصرة ، وولى قضاء البصرة والأبلّة وكور دجلة محمد بن حمّاد ، وقدم ابنه أبا العباس إلى بغداد ومعه رأس صاحب الزنج ليراه الناس ، فبلغها لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة .

قال : وكان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين ، وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين ، فكانت أيّامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيّام .

انقضت أخبار صاحب الزنج فلنذكر أخبار القرامطة

ذكر أخبار القرامطة وابتداء أمرهم وماكان من أخبارهم وما استولوا عليه من البلاد وغير ذلك من أخبارهم

والقرامطة منسوبون إلى قِرْمِط. ، وقد اختلف فيه : فمن الناس من يقول إنّه حمدان بن الأشعث ، وأنّه إنما سمّى قرمطا لأنّه كان رجلا قصيرا قصير الرجلين متقارب الخطو فسمّى بذلك ، وقيل قُرْمُط. : ثور كان لحمدان بن الأشعث هذا ، وأنّه كان يحمل غلّات السواد على أثوار له بسواد الكوفة ، والله تعالى أعلم .

قال ابن الأثير فى تاريخه [1] الكامل فى حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين :

وفيها تحرّك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة ، وكان ابتداء أمرهم : أن رجلا يقال له حمدان يظهر الدين والزهد والتقشّف ، ويأكل من كسبه ، وأقام على ذلك مدة ، فكان إذا جالسه رجل ذاكره الدين وزهده فى الدنيا ، وأعلمه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة فى كل يوم [2] ، حتى فشا ذلك بموضعه ، ثم أعلمهم أنّه يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب له جمع كثير وكان يقعد إلى بقّال هناك ، فجاء رجل إلى البقّال يطلب منه من يحفظ له ما صرم من نخله ، فدلّه عليه وقال لعلّه يجيب ، فكلّموه فى ذلك

---

(١) من المعروف أن ابن الأثير ينقل عن الطبرى ونص الكامل حـ٧ ص٣٠٩ مماثل لنص الطبرى حـ١٤ ص ٢١٢٤ ، والملاحظ فيما سبق من نقل النويرى عن ابن الأثير أنه ينقل عنه العبارة بنصها أى بلفظها ، ولكنه هنا لايلتزم هذا النهج ، فهو ينقل باللفظ حينا ويتصرف أحيانا .

(٢) فى الكامل المنشور حـ٧ ص ٣١٠ : فى كل يوم وليله .

فاتفق معهم على أجرة معلومة ، فكان يحفظ لهم ويصلى أكثر نهاره ، ويصوم ويأخذ عند إفطاره من البقّال رطل تمر ، يفطر عليه ويجمع نواه ويعطيه للبقّال ، فلما حمل التجار تمرهم جلسوا عند البقّال وحاسبوه وأعطوه أجرته ، وحاسب هو البقّال على ما أخذ من التمر وحطّ ثمن النوى فضربوه ، وقالوا ألم يكفك أن تأكل تمرنا حتى تبيع نواه ؟ ! فأوقفهم البقّال على الخبر فاعتذروا واستحلوا منه ، وازداد بذلك عند أهل القرية ، ودعا أهل تلك الناحية إلى مذهبه فأجابوه ، وكان يأخذ من الرجل إذا أجابه دينارا واحدا ، ويزعم أنّه الإمام ، واتخذ منهم إثنى عشر نقيبا أمرهم أن يدعو الناس إلى مذهبه وقال : أنتم [1] كحوارى عيسى بن مريم ، فاشتغل أهل تلك الناحية عن أعمالهم ، وكان للهَيْصَم فى تلك الناحية ضياع ، فرأى تقصير الأكّارة فى عمارتها ، فسأل عن ذلك فقيل له خبر الرجل فحبسه ، وحلف ليقتلنّه لما اطّلع على مذهبه ، وأغلق عليه الباب ليقتله فى غد ، وجعل المفتاح تحت رأسه ، فسمع بعض جواريه خبره فرقّت له ، فسرقت المفتاح وأخرجته وأعادت المفتاح إلى موضعه ، فلما أصبح الهَيْصَم فتح الباب ليقتله فلم يجده ، فشاع ذلك فى الناس فافتتنوا به وقالوا رفع ، ثم ظهر فى ناحية أخرى ، ولقى جماعة من أصحابه فسألوه عن قصّته فقال : لا يمكن أن ينالنى أحد بسوء ، فعظم فى أعينهم ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام ، فلم يوقف له على خبر ، هذا ما حكاه عز الدين بن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل .

---

(١) فى ك ، ت : إنهم .

وحكى الشريف أبو الحسين محمد بن على بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد ابن على بن الحسين [١] بن على بن أبى طالب – وهو المعروف بأخى مُحْسِن – فى كتاب [٢] ألّفه ذكر فيه عبيد الله الملقب بالمهدى ، الذى استولى على بلاد المغرب واستولى بنوه من بعده على الديار المصرية والشام وغير ذلك ، وذكر الشريف أصل عبيد الله هذا ونفاه عن النسب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، واستدلّ على ذلك بأدلّه يطول شرحها أجاد فى تبيانها ، وقال فى أثناء ما حكاه أنّه لما صار الأمر إلى أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان بعد أبيه – وأحمد هذا هو جد عبيد الله الملقّب بالمهدى – بعث – وهو بسَلَمْيَة – الحسين الأهوازى داعية إلى العراق ، فلقى حمدان بن الأشعث قُرْمُطا بسواد الكوفة ومعه ثور ينقل عليه ، فقال له الحسين الأهوازى : كيف الطريق إلى قس بهرام ؟ فعرّفه حمدان أنّه قاصد إليه ، وسأله الأهوازى عن قرية تعرف ببَانْبورَا من قرى السواد ، فذكر أنّها قريبة من قريته وكان حمدان هذا من قرية تعرف بالدُّور على نهر هد من رستاق مَهْرَوسَا [٣] من طَسُّوج فرات بادقلى ، قال : فتماشيا ساعة ، فقال له حمدان : إنّى أراك جئت من سفر بعيد ، وأنت معى فاركب ثورى هذا ، فقال له الحسين : لم أومر بذلك ، فقال له حمدان : كأنّك تعمل بأمْر أمر لك ؟ قال نعم ، قال : ومن يأمرك وينهاك ؟ قال :

(١) فى ك ، ت : الحسن وهو خطأ تصححه المخطوطتان فيما بعد .

(٢) نقل أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى فى كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » الجزء السادس تحقيق (الدكتور صلاح المنجد) المنشور فى مطبوعات المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة سنة ١٩٦١ ، نصوصا من كتاب أخى محسن هذا عن القرامطة يتفق كثير منها مع ما نقله النويرى هنا (المراجع) .

(٣) فى كنز الدرر وجامع الغرر للدوادارى (القاهرة ١٩٦١) حـ٦ ص ٤٤ : مهرونقيا .

مالكى ومالكك ومن له الدنيا والآخرة ، قال : فبهت حمدان قرمط. مفكّرا ، وأقبل ينظر إليه ثم قال له : يا هذا ما يملك ما ذكرتَه إلا الله تعالى ! قال : صدقت ، والله يهب ملكه لمن يشاء ، قال له حمدان : فما تريد فى القرية التى سألتنى عنها ؟ قال : دفع إلىّ جراب فيه علم سِرّ من أسرار الله تعالى ، وأمرتُ ، أن أشفى هذه القرية وأغنى أهلها وأستنقذهم وأملّكهم أملاك أصحابهم .

وابتدأ يدعوه فقال له حمدان : يا هذا نشدتك الله إلا دفعت إلىّ من هذا العلم الذى معك وأنقذتنى ينقذك الله ! ! قال له : لا يجوز ذلك أو آخذ عليك عهدا وميثاقا أخذه الله تعالى على النبيّين والمرسلين وألقى عليك ما ينفعك ، قال : فمازال حمدان يضرع إليه حتى جلسا فى بعض الطريق وأخذ عليه العهد ، ثم قال له : ما اسمك ؟ قال : قرمط. ، ثم قال له قرمط. : قم معى إلى منزلى حتى تجلس فيه ، فإنّ لى إخوانا أصير بهم إليك لتأخذ عليهم العهد للمهدى ، فصار معه إلى منزله ، فأخذ على الناس العهد هناك ، وأقام فى منزل حمدان وأعجبه أمره وعظّمه وكرّمه ، وكان على غاية ما يكون من الخشوع ، صائما نهاره قائما ليله ، وكان المغبوط. [1] من أخذه إلى منزله ليلة ، وكان[1] ربما خاط. لهم الثياب وتكسّب بذلك ، وكانوا يتبرّكون به وبخياطته. قال : وأدرك التمر فاحتاج أبو عبد الله محمد بن عمر بن شهاب العَلَوى إلى عمل [2] تمره ، وكان من وجوه أهل الكوفة ومن أهل العلم والفضل والتوحيد ، فوصف له هذا الرجل فنصبه لحفظ. تمره والقيام

(١) هذا النص غير موجود أو ساقط من ك، ت .

(٢) فى كنز الدرر للدوادارى ص ٤٥ حـ ٦ : حراسه تمره وهو الأصح كما يدل على ذلك ما بعد .

فى حظيرته ، فأحسن حفظها واحتاط فى أداء الأمانة ، وظهر منه من التشديد فى ذلك ما خرج به عن أحوال الناس فى تساهلهم فى كثير من الأمور ، وذلك فى سنة أربع وستين ومائتين ، فاستحكمت ثقة الناس به ، وثقته بحمدان قرمط وسكونه إليه ، فأظهر له أمره وكشف له الغطاء .

قال : وكلّ ما كان هذا الداعية يفعله من الثقة والأمانة واظهار الخشوع والنسك إنما كان حيلة ومكرا وخديعة [1] وغشا ، قال : فلما حضرت هذا الطاغية الوفاة جعل مقامه حمدان بن الأشعث قرمطا ، فأخذ على أكثر أهل السواد وكان ذكيا خبيثا ، قال : وكان ممّن أجابه من أصحابه الذين صار لهم ذكر زَكْرُويَه بن مِهْرُويَه السلمانى وجُلَنْدَى الرازِى ، وعِكْرِمَة البَابِلى ، وإسحاق السُّورَانى ، وعُطَيْف النِّيلى وغيرهم ، وبث دعاته فى السواد يأخذون على الناس ، وكان أكبر دعاته عَبْدَان متزوجا أخت قرمط أو قرمط متزوجا أخته ، وكان عَبْدَان رجلا ذكيا خفيفا [2] فطنا خبيثا ، خارجا عن طبقة نظرائه من أهل السواد ذا فهم وخبث ، فكان يعمل عند نفسه على حدّ قد نصب له ، ولا يرى أنّه يجاوزه إلى غيره من خلع الإسلام ، ولا يظهر غير التشيّع والعلم ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وكان أحد مَنْ تبع عبدان

(١) فى الفصل السابق عن الزنج نرى النويرى يذكر رئيس الزنج فيقول : صاحب الزنج ، ولايذكر مايصفه به ابن الأثير أوالطبرى بقولهما الخبيث وغير ذلك ، ولكنه هنا ينقل الأوصاف مما يقطع أنه ينقل بالنص كما هى عادته .

(٢) فى ك ، ت : ... عبدان رجلا ذكيا خبيثا فطنا خبيثا ، وفى كنز الدرر للدوادارى حـ٦ ص ٤٦ ... فطنا خداعا ، والتصويب عن ا .

زكرويه بن مهرويه ، وكان زكرويه شابا فيه ذكاء وفطنة ، وكان من قرية بسواد الكوفة يقال لها المنسانيّة[١] تلاصق قرية الصَّوّان ، وهاتان القريتان على نهرهد ، نصبه عبدان على إقليم نهرهد وطسّوج السالحين وإقليم نهر يوسف داعية ، ومن قبله جماعة دعاة متفرقون فى عمله ، يدور كل واحد منهم فى عمله فى كل شهر مرّة ، وكلّ ذلك بسواد الكوفة ، ودخل فى دعوته من العرب من بنى ضُبَيعة بن عجل – وهم من ربيعة – رجلان ، أحدهما يعرف برباح والآخر يعرف بعلى بن يعقوب القمر ، فأنفذهما دعاة إلى العرب فى أعمال الكوفة وسُورا وبَرْيِسْما وبابل ، ودخل فى دعوته من العرب أيضا رفاعة من[٢] بنى يشكر ، ثمّ من بكر بن وائل رجل يعرف بسند[٣] وآخر يعرف بهارون ، فجعلهما دعاة نخيلة[٤] وما والاها فى العرب خاصة إلى حدود واسط ، فمال إليه هذان البطنان ودخلا فى دعوته فلم يكد يختلف رفاعى ولا ضبعى ، ولم يبق من البطون المتصلة بسواد الكوفة بطن إلا

(١) فى كنز الدرر للدوادارى حـ٦ ص ٤٦ : الميسانية .

(٢) لم تذكر المصادر التى بين أيدينا المنشورة أن من بنى يشكر قبيلة تسمى رفاعة بل الجزء الثانى من نهاية الأرب المطبوع ، والذى يذكر فيه يشكر بن بكر بن وائل لا يتضمن نسبة هذه القبيلة إلى يشكر

(٣) فى كنز الدرر للدوادارى حـ٦ ص ٤٧ : سيد .

(٤) فى المخطوطات مرسومة هكذا : نحلا ، وضع ك نقطة فوق الحرف الأول وجعل الثانى جيما والثالث ياء ، أما ا ، ت فانهما تركا النقط وجعلا نقطة تحت الحرف الثالث ، وفى كنز الدرر للدوادارى حـ٦ ص ٤٧ : بجيلا ، وبالرجوع إلى معجم البلدان لياقوت الحموى وغيره من المصادر الجغرافية والأدبية واللغوية لا نجد بلدا يتفق والنص سوى نخيلة ، قال ياقوت حـ٤ ص ٧٧١ (ط. أوروبا) النخيلة : (تصغير نخلة موضع قرب الكوفة على سمت الشام وهو الموضع الذى خرج إليه على رضى الله عنه لما بلغه مافعل بالأنبار من قتل عامله عليها) .

دخل فى الدعوة منه ناس كثير أو قليل ، من بنى عَايش وذُهل وغيره وبنى عنز وتيم الله وثُعَل وغيرهم ، وفيهم نفر يسير من بنى شيبان ، فقوى قرمط بهم وزاد طمعه فأخذ فى جمع أموالهم .

ذكر مافرضه قرمط

على من دخل فى دعوته واستجاب له وكيف نقلهم فى استئصال أموالهم من اليسير الى الكثير حتى استقام له أمرهم

كان أول ما ابتدأ به أن فرض عليهم وامتحنهم بتأدية درهم واحد ، وسمى ذلك الفِطْرَة من كل رأس من الرجال والنساء والصبيان فسارعوا إلى ذلك ، فتركهم مُدَيْدَة ثم فرض عليهم الهجْرة ، وهو دينار على كل رأس أدرك الحِنْث ، وتلا عليهم قوله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهم بِهَا وصَلِّ عليهم إنَّ صَلَاتَك سَكَنٌ لَهُمْ واللهُ سميعٌ عَليمٌ) (١) ، وقال : هذا تأويل هذا ، فدافعوا ذلك مبادَرِيَن به إليه ، وتعاونوا عليه فمن كان فقيرا أسعفوه ، فتركهم مديدة ثم فرض عليهم البُلْغَة : وهى سبعة دنانير ، وزعم أنَّ ذلك هو البرهان بقوله تعالى (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين) (٢) ، وزعم أنَّ ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول فى السابقين السابقين — « أولئك المقرّبون » ، وصنع لهم طعاما طيبا حلوا لذيذا وجعله على قدر البنادق ، يطعم كلّ من أدّى إليه سبعة دنانير واحدة منها ، وزعم أنّه طعام أهل الجنّة نزل إلى الإمام ، واتخذ ذلك كالخواتيم ينقل إلى

(١) سورة ٩ آية ١٠٣
(٢) سورة ٢ آية ١١١

الداعى منها مائة بُلغة ويطالبه بسبعمائة دينار ، فلما توطأ له هذا الأمر فرض عليهم أخماس ما يملكون وما يتكسبون ، وتلا عليهم قوله تعالى (واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ . . . . الآية)(١) فقوّموا جميع ما يملكونه من ثوب وغيره وأدّوا خمسه إليه ، حتى كانت المرأة تخرج خُمس ما تغزل ، والرجل خُمس ما يكسب ، فلما تمّ ذلك له واستقرّ فرض عليهم الأُلْفة ، وهو أن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد وأن يكونوا فى ذلك أسوة واحدة ، لا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه فى ملك يملكه ، وتلا عليهم قوله تعالى (واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عليكُمْ إذْ كُنْتُم أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَاناً)(٢) ، وتلا عليهم قوله تعالى (لو أَنْفَقْتَ ما فى الأَرض جميعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم ولكن اللهَ أَلَّف بَيْنَهُمْ إنَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(٣) ، وعرّفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ، لأنَّ الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم ، وقال لهم : هذه محنتكم التى امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون ، وطالبهم بشراء السلاح واعداده ، وذلك كلّه في سنة ست وسبعين ومائتين .

وأقام الدعاة فى كل قرية رجلا مختارا من ثقاتها ، يُجمع عنده أموال أهل قريته من بقر وغنم وحلْى ومتاع وغيره ، فكان يكسو عاريهم وينفق عليهم ما يكفيهم ، ولا يبقى فقيرا بينهم ولا محتاجا ضعيفا ، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش فى صناعته والتكسب

(١) سورة ٨ آية ٤١
(٢) سورة ٣ آية ١٠٣
(٣) سورة ٨ آية ٦٣

بجهده ، ليكون له الفضل فى رتبته ، وكانت المرأة تجمع إليه كسبها من مغزلها ، والصبي أجر نطارته الطير ، فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه ، فلما استقام له ذلك كلّه وصبوا إليه وعملوا به ، أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ويختلطن بالرجال ، وقال : إنّ ذلك من صحة الودّ والأُلفة بينهم فربما بذل الرجل لأخيه امرأته متى أحبّ فلما تمكّن من أمورهم ووثق بطاعتهم وتبيّن مقدار عقولهم أخذ في تدريجهم إلى الضلالة ، وأتاهم بحجج من مذهب الثنويّة فسلكوا معه في ذلك ، حتى خلعهم من الشريعة ونقض عليهم ما كان يأمرهم به فى مبدأ أمرهم من الخشوع والورع والتقى ، وأباح لهم الأموال والفروج والغنى عن الصوم والصلاة والفرائض ، وأنّ ذلك كلّه موضوع عنهم وأن أموال المخالفين ودماءهم حلال لهم ، وأنّ معرفة صاحب الحق الذى يدعو إليه يغنى عن كل شيء ، ولا يُخاف معه إثم ولا عذاب .

ذكر دعوة القرامطة وعهدهم الذين كانوا يأخذونه على من يغرونه ، ويستميلونه الى مذهبهم ، وكيف ينقلونه من مرتبة الى أخرى ، حتى ينسلخ من الدين ويخلع ربقة الاسلام من عنقه

قال الشريف أبو الحسين محمد بن على : أول الدعوة بعد عمل الداعى بالرزق وقوة إجابة المدعو من سائر الأُمم أن يُسلك به فى السؤال عن المشكلات ، مسلك الملحدين والشكاك ، ويكثر السؤال عن تأويل الآيات ومعانى الأمور الشرعيات ، وشيء من الطبائع ووجوه القول فى الأمور التى تكثر فيها الشُّبَه ، ولا يصل إليها إلا العالم المبّرز ومن

جرى مجراه ، فإن اتّفق له مجيب عارف ممارس جدل سلّم إليه الدّاعى وعظّمه وكرّمه وحشمه وصوّب قوله ، وداخله بما يحب من علم شريعته التى يومى إليها ، وكل ذلك ليقطع كلامه لئلا يتبيّن ما هو عليه من الحيلة والمكر ، وما يدخل به على الناس من أمر الدعوة ، وإن اتّفق مغرور مغفّل غليظ الحواسّ ألقى إليه ما يشغل به قلبه ، مثل قوله : إنّ الدين لمكتوم وإنّ الأكثر له لمنكرون وبه جاهلون ، ولو علمت هذه الأمّة ما خصّ الله به الأئمة من العلم لم تختلف ، ويوهم من سمع كلامه أنّ عنده علوما خفيّة لم تصل إليهم ، فتطلع نفس المستمع إلى معرفة بيان ما قال ، وربما وصل أمره مع من يجالسه – واحدا كان أو جماعة – بشىء من معانى القرآن ، وذكر شرائع الدين وتأويل الآيات وتنزيلها وكلام لا يشك المسلم العارف فى حقيقته ، ويوهم المستمعين منه أنّه قد ظفر بعلم ، لو صادف له مستمعا لكان ناجيا منتفعا ، وقرّر عندهم أنّ الآفة التى نزلت بالأمة وحيّرت فى الديانة وشتّتت الكلمة وأورثت الأهواء المضلّة ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم ، وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقائقها ، ويحفظون عليهم معانيها وبواطنها ، وأنّهم لما عدلوا عنهم ونظروا من تلقاء عقولهم ، واتباعهم لِمَا حَسُن فى رأيهم وسمعوه من أسلافهم وغلاتهم[1] – اتباع الملوك فى طلب الدنيا – وحاملى الغنى ومسمعى الإثم وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة الطالبين العاجلة ، والمجتهدين فى الرياسة على الضعفاء ، ومن يكايد رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى أمته وغيرّ كتابه وبدّل سنّته ، وقتل عِتْرته

(١) فى ا ، ت : علا بهم والتصويب عن ك

وخالف دعوته وأفسد شريعته وسلك بالناس غير طريقته ، وعاند الخلفاء من بعده ، وخلط بين حقّه وباطل غيره فتحيّر وحيّر من قَبِل منه ، وصار الناس إلى أنواع الضلالات به وبأتباعه ، وقالوا لهم حينئذ — كالنصحاء الحكماء — : إنّ دين محمد لم يأت بالتحلّى ولا بالتمرّى ، ولا بأمانىّ الرجال ولا شهوات الخلق ، ولا بما خفّ على الألسنة وعرفته دهماء العامّة ، وإنما الدين صعب مستصعب ، أمر مستثقل وعلم خفى غامض ، سيّره الله فى حجبه وعظّم شأنه عن ابتذال الأشرار له ، فهو سرّ الله عزّ وجلّ المكتوم وأمره المستور ، الذى لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا مَلَكٌ مقرّب أو نبىٌّ مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للايمان ، فى أمثال هذا الكلام ، ويموّه على من لا يعلم بأنّهم لو أظهروا ما عندهم من العلم لأنكره من يسمعه ، وتعجّب منه وكفّر أهله ، وهذه مقدّمة يجعلونها فى نفوس المخدوعين ، ليواطئوهم على ألّا ينكروا ما يسمعونه منهم ولا يدفعوه ، فيجعلوا ذلك تأنيسا وتأسيسا لينخلع من الشرائع وترتيب أصولها والحرص على طلبها ، وربما قالوا لهم شيئا يموّهون به أن له تفسيرا ، وإنما هو تقليد فى الديانة .

فمن مسائلهم : ما معنى رمى الجمار ؟ والعدو بين الصفا والمروة ؟ ولم قضت الحائض الصيام ولم تقض الصلاة ؟ وما بال الجنُب يغتسل من ماء دافق لشىء طاهر منه البشر ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير القذر ، وما بال الله تعالى خلق الدنيا فى ستة [1] أيام ؟ أعجز

(١) فى المخطوطات : سبعتوهو خطأ نقل أوسهو . والاشارة إلى الاية ٤ سورة ٣٢ (الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) ، وردت (ستة) فى نص الدوادارى .

عن خلقها فى ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب فى القرآن مثلا ؟ والكاتبين [١] الحافظين ؟ وما لنا لا نراهما ؟ أيخاف ربنا أن نكابره ونجاحده فأذكى [٢] العيون وأقام علينا الشهود ؟ وقيّد ذلك بالقرطاس والكتابة ؟ ! وما تبديل الأرض [٣] غير الأرض ؟ وما عذاب جهنّم ؟ وكيف يصحّ تبديل جلد [٤] مذنب بجلد لم يذنب يعذب ؟ ! وما معنى : ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية [٥] ؟ وما إبليس ؟ وما ذكرته الشياطين ؟ وما وُصفوا به ، ومقدار قدرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج ؟ وهاروت وماروت ؟ وما سبعة أبواب النار ؟ وما ثمانية أبواب الجنّة ؟ وما شجرة الزقّوم النابتة فى الجحيم ؟ وما دابّة الأرض ؟ ورؤوس الشياطين ؟ والشجرة الملعونة فى القرآن ؟ والتين والزيتون ؟ وما الخُنّس ؟ وما الكُنّس ؟ وما معنى الم ، والمص ؟ وما معنى كهيعص ؟ وما معنى حم عسق ؟ وأمثال هذا من الكلام ، ولم جعلت السماوات سبعا والأرضون سبعا ؟ وللثانى من القرآن سبع آيات ؟ ولم فجّرت العيون اثنتى عشرة عينا ؟ ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا ؟ وأمثال هذا من الكلام والأمور ، ممّا يوهمون أنّ فيه معانى غامضة وعلوما جليلة .

وقالوا للمغرورين : ما يعمل معكم الكتاب والسنّة ومعانى الفرائض

---

(١) سورة ٨٢ آية ١٠ ، ١١ : (وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين) .

(٢) أذكى عليه العيون : أرسل عليه الطلائع (أقرب الموارد) .

(٣) سورة ١٤ آية ٤٨ : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار)

(٤) سورة ٤ آية ٥٦ : (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما) .

(٥) سورة ٦٩ آية ١٧ : (والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) .

اللازمة ؟ وأين أرواحكم ؟ وكيف صورها ؟ وأين مستقرّها ؟ وما أوّل أمرها ؟ والإنسان ما هو ؟ وما حقيقته ؟ وما فرق بين حياته وحياة البهائم ؟ وفرق ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات ؟ وما بانت به حياة الحشرات من حياة النبات ؟ وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « خُلقت حوّاء من ضلع آدم » ؟ وما معنى قول الفلاسفة : الإنسان هو العالم الصغير ؟ ولم جعلت قامة الإنسان منتصبة دون الحيوان ؟ ولم جعل فى أربع أصابع من يدية ثلاثة شقوق وفى الإبهام شقّان ؟ ولم جعل فى وجهه سبعة ثقب وفى سائر بدنه ثقبان ؟ ولم جعل فى ظهره اثنتا عشرة عقدة وفى عنقه سبع ؟ ولم جعل رأسه فى صورة ميم ويداه حاءً وبطنه ميما ورجلاه دالا حتى صار لذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد ؟ ولم جُعلت أعداد عظامكم كذا وأعداد أسنانكم كذا ؟ ولم صارت الرؤساء من أعضائكم بكذا وكذا ، وسألوا عن التشريح والقول فى العروق وفى الأعضاء ووجوه منافع الأعضاء . ويقولون لهم : ألا تفكّرون فى حالكم وتعتبرون ؟ وتعلمون أنّ الذى خلقكم حكيم غير مجازف ، وأنّه فعل جميع ذلك بحكمة ، وله فى ذلك أغراض باطنة خفيّة ، حتى جمع ما جمعه وفرّق ما فرّقه ، وكيف الإعراض عن هذه الأمور ، وأنتم تسمعون قول الله عزّ وجلّ : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ [1]) وقوله : (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)[2] ويقول : (وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[3] ويقول

(١) سورة ٥١ آية ٢١
(٢) سورة ٥١ آية ٢٠
(٣) سورة ١٤ آية ٢٥

(سَنُرِيهِمْ آياتِنَا فى الآفاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ) (١) فأى شىء رآه الكفّار فى أنفسهم وفى الآفاق فعرفوا أنّه الحق ؟ وأى حق عرفه من جحد الديانة ؟ أولا يدلّكم هذا على أنّ الله عزّ وجلّ أراد أن يدلّكم على بَواطن الأُمور الخفيّة وأمور فى باطنه ، و [لو] (٢) عرفتموه لزالت عنكم كل حيرة وشبهة ، ووقعت لكم المعارف السنيّة ، أولا ترون أنّكم جهلتم أنفسكم ؟ التى من جهلها كان حريا بأن لايعلم غيرها ، أو ليس الله تعالى يقول (وَمَنْ كَانَ فِى هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وأَضَلُّ سَبِيلاً)(٣) ، وأمثال هذه الأمور مما يسألون عنه ويعرضون به من تأويل القرآن وتفسير ألفاظ كثيرة من ألفاظ السنن والأحكام ، والجواب مَعَانٍ يفسّر بها وضع الشرائع السمعيات فيما رفع منها وما (٤) نصب ، وكثير من أبواب التعديل والتجويز (٥) مما يأتى فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى ، فإن أوجب ذلك للمسئول عنه شكا وحيرة واضطرابا وتعلّقت نفسه بالجواب عنه ، وتشوّق إلى معرفته فسألهم عنه عاملوه بمثل ما يفعل به صاحب الفأل والزرّاق والقصّاص على العوامّ عند امتلاء صدورهم بما يفخرون به أولا عندهم من أحوال قد عرفوها من أحوالهم ، فهم إلى معرفتها أكثر الحاجة وعلقوا بمعرفتها أنفسهم ، وعند بلوغ القصاص إلى ما يبلغون إليه يقطعون الحديث ، لتعلّق قلوب المستمعين بما يكون

---

(١) سورة ٤١ آية ٥٣

(٢) نص الدوادارى : وأمور باطنه . ولو عرفتموه .

(٣) سورة ١٧ آية ٧٢

(٤) فى كنز الدرر للدوادارى ص ١٠٢ : والجواب عن نعت معانى تفسيرها واضع الشرائع السمعيات فيما وقع منها وما نصب .

(٥) فى المصدر السابق : التحوير

بعده ، وهذه صفة الدعاة وحالهم ، يقدمون على الكلام والمسائل ثم يقطعون فتتعلق أنفس المغرورين ، بما قد تأخر من القول الذي قدّموا له مقدّمة ، فإذا خاطبهم على علم معرفته تأويل البيان قالوا له : لا تعجل ، فإنّ دينَ الله أجلّ وأكبر من أن يبذل لغير أهله ، ويجعل عرضا للّعب وما جانسه ، ويقولون : قد جرت سنّة الله جلّ وعزّ فى عباده عند شرع من نصبه من النبيّين أخذ الميثاق ، كما قال تعالى (وإذْ أخذْنَا مِنَ النَبِيِّينَ ميثَاقَهُمْ ومِنْكَ وَمِنْ نُوح وإبْراهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى بنِ مَرْيَمَ وأخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) (١) وقال تعالى (مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمنهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومنهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) (٢) وقال جلّ ذكره (يا أيُّهَا الَذينَ آمنُوا أوْفُوا بالْعُقُود) (٣) وقال (وَلَا تَنْقُضُوا الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدَ قُوَّةٍ أنْكَاثًا) (٤) وقال تعالى (لَقَدْ أخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائيلَ . . .) (٥) فى أمثال هذا خبّر الله عز وجلّ فيه أنّه لم يملك حقّه إلا لمن أخذ عهده ، فأعطنا صفقة يمينك بالتوكيد من أيمانك وعقودك ، ألّا تفشى لنا سرا ولا تظاهر علينا أحدا ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكلّمنا إلا نصحا ولا توال علينا عدوا ، فى أمثال لهذا ، وإنّما غرضهم فى ذلك كلّه أمور : منها أن يستدلّوا بها بظاهر

(١) سورة ٣٣ آية ٧
(٢) سورة ٣٣ آية ٢٣
(٣) سورة ٥ آية ١
(٤) سورة ١٦ آية ٩١ ، ٩٢
(٥) سورة ٥ آية ٧٠

ما يعطيهم المخدوع من انقياده وطاعته ، على باطن أمره من شكّه واضطرابه ، وكيف موقع ذلك منه ، ومنها التوثّق بالأمن من كشف أحوالهم وانتشار أمورهم ، إلا بعد توطئه ما يريدونه حالا فحالا ، ومنها أن يرسموه بالذل والطاعة لهم والرضى منه بأن يكون منقادا ، تابعا لهم ومكبرا ، وإلا فإنّ نكث الأيمان وقلة الاكتراث بها والفكر فيها والاعتداد بها ، هو دينهم عند البلوغ إلى غايتهم التى يجرون إليها ؛ وإنّما يجعلون ذلك مانعا لأهل هذه الطبقات ، ما داموا مستشعرين العمل بالديانات ، فإن سمح المدعو باعطاء عهده وتصاغر لهم بقوة اضطراب قلبه وشكّه قالوا له حينئذ : أعطنا جُعْلا من مالك ، وغرما نجعله مقدّمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك إياها ، وكان ذلك مما يستظهرون به عليه بالاستدلال به أيضا على قوّة شكّه وتعلّق نفسه ، وظهريا لهم على الاستعانة على أمرهم وتمكينهم لدعوتهم ، ثم رسموا فى مبلغ ذلك رسما بحسب ما يراه الداعى فى أمره صلاحا ، وإن امتنع عليهم المخدوع فى رتبة العهد واعطائه الداعى ، أو فى رتبة العزم وعطيّته أمسكوا عنه وزادوه أبدا فى شكّه وحيرته .

فهذا حال الدعوة الأولى ووصفها وما تدرّج به الدعاةُ المخدوعين

ذكر صفة الدعوة الثانية

قال الشريف رحمه الله : فإذا قبل المخدوع الرتبة الأولى وحصل عليها اعتقد تهمة الأمّة ، فيما نقلته عمّن كان قبلها من علماء المسلمين ، وقوى شكّه فى ذلك ثم تقرّر فى نفسه أن الله تعالى لم يرض فى إقامة حقه وما شرعه لعباده إلا بأخذ ذلك عن أئمة نصبهم لهم

وأقامهم لحفظ شرائعه على مراده ، وسلكوا به فى تقرير هذه الأمور عنده والدلالة على صواب قولهم ، وجعلوا على قولهم وبرهانهم طريقا يسلكون به مسلك أصحاب الإمامة ، فى تعاطى اتيانها من جهة السمع والعقل حتى يتأثر ، ذلك عند مَنْ يأخذون عليه ، ويقرّره فى نفسه فيكون ذلك منزلة ثانية ، ودعوة مرتّبة بعد الدعوة الأولى التى قدّمنا ذكرها .

ثم ينقلوه إلى الدعوة الثالثة .

ذكر صفة الدعوة الثالثة

قال : وأما الدعوة الثالثة فهى أن يُقرّر الداعى عند المخدوع أنّ الذى ينبغى أن يعتقده فى عدد الأئمة أنّهم سبعة ، عظموا فى أنفسهم وأعدادهم ، ورُتّبوا سبعة كما رتبت جلائل الأمور ، وأصول الترتيب كالنجوم السيّارة والسماوات والأرضين ، ثم يُعدّد له ما فى ذلك جارٍ على هذا العدد ، ممّا سنذكره فى المقامة الرابعة ونبيّنه ونذكر مذهبهم فيه إن شاء الله تعالى .

قال : ثم يقرّر عند المخدوعين أمر الأئمة وعددهم ، فيقول : أوّل هؤلاء الأئمة على بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ابناه ، ثم على بن الحسين زين العابدين ، ثم محمد [1] بن على الجليل الرضى ، ثم أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق ، ثم السابع وهو عندهم القائم وصاحب الزمان الآخر . وقد كان منهم من يجعل القائم محمد بن

(١) هو الباقر .

إسماعيل بن جعفر ، ولا يبتدئ باسماعيل بن جعفر قبله ، ومنهم من يجعل إسماعيل ثم القائم محمد بن اسماعيل ، فمن فعل هذا خرج من أعداد السبعة ، فإذا قرّر الداعى عند المخدوع : أن الأئمة سبعة ، أسقط ستة لم يجعل لهم إمامة وهم :موسى بن جعفر ، وعلى بن موسى ، ومحمد بن على، وعلى بن أحمد والحسن بن على[1] ، ومحمد المنتظر ، فإذا قبل منه المغرور مايلقى إليه من هذا القول استقر عقله ، وأخذ فى صرفه عن طريق الإمامة ، ويقع فى أبى الحسن[2] موسى بن جعفر ويثلبه بماليس فيه ، ثم يقول له : إن الإماميّة الذين يقولون باثنى عشر إماما ليس لهم حقيقة بما يعتقدونه يريد بهذا أن يسهّل عليه طريق المخالفة لأهل الإمامة ، كما سهّل عليه التهمة لما عليه سائر الأمة من الاعتقاد ـ كما تقدم فى الدعوة الأولى ، يصدون عن طريق الإمامة فى أبى الحسن ، ويقال إنّ موسى بن جعفر يكنى أبا إبراهيم ، يقولون : إنّا وجدنا صاحبنا محمد بن إسماعيل بن جعفر عنده علوم المستورات وبواطن المعلومات ، وفقدنا ذلك عند كل أحد سواه ، وربما أتوا بروايات فى الطعن على أبى الحسن موسى بن جعفر ورموه بالعظائم ، ويقولون : ليس له إمامة ، وقد أجمعت الشيعة ـ التى اجماعها أولى بالاتباع والحجّة ـ أنّه لا يستحق الإمامة بعد مضى الحسين بن على إلا فى ولد الإمام ، وقد اتفقنا وهم على صحّتها وترتيبها إلى جعفر بن محمد ، ثم اختلفنا فى أى أولاده أحقّ بها ، فوجدنا عن صاحبنا علم التأويل وتفسير ظاهر الأمور ، وسرّ الله جلّ وعزّ فى وجه تدبيره المكتوم ، واتّفاق دلالته فى كلّ أمر يسأل عنه ، فى جميع

(١) فى ك ، ت : الحسين بن على .
(٢) فى ك : فى أبى الحسين .

المعلومات وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كلّه والتأويلات وتأويل التأويلات ، فنحن الوارثون لذلك من بين طبقات الشيعة المعبّرين عنه أخذناه من جهته رويناه ممّن لانجد من خالفنا ، يمكنه أن يساوينا فيه ولا يتحقّق به ويدّعيه ، فصحّ بذلك أن صاحبنا أولى بالإمامة من جميع ولد جعفر بن محمد ، وربما قالوا : وجدنا فلانا من ولد جعفر ابن محمد من شأنه كذا ، وفلانا من قصّته كذا ، فى فروق لهم كاذبة بأقاويل لاتليق بهم ، ثم يقولون : فلم يبق من سلم من الطعون المعروفة إلاصاحبنا ، فوجب أن يكون هو صاحب الأمردون كل أحد ، وليس غرض هؤلاء ـ أصحاب هذه الدعوة الخبيثة ـ أن يؤخروا موسى بن جعفر ، ولايقدّموا إسماعيل بن جعفر ولا ابنه محمد ، وإنما جعلوا هذا كأداة الصانع التى لا يتم الصنعة إلا بها ، فإذا انقادلهم للغرور وسمع قولهم تيقّنوا أنهم قد تمكنوا من عقله ، وسلكوا به أى مسلك أرادوه . فهذه الدعوة الثالثة .

ذكر صفة الدعوة الرابعة

قال الشريف : اعلم أنّ الدعوة الرابعة أن تقرّر عند المدعو بأن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع المبدلين لها أصحاب الأدوار وتقليب الأحوال الناطقين على الأمور سبعة بعدد الأئمة سواء ، كل واحد منهم له صاحب يأخذ عنه دعوته ، ويحفظها على أمّته ، ويكون معه ظهيرا فى حياته وخليفة له من بعد وفاته ، إلى أن يؤديها إلى آخر ، يكون سبيله معه سبيله هو مع نبيّه [1] الذى هو تابعه ، ثم كذلك لكل

(١) فى ك ، ت : تبيعه .

مستخلف خليفة ، إلى أن يمضي منهم على تلك الشريعة سبعة ، ويسمّون هؤلاء السبعة الصامتين ، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أوّلهم ، ويسمّون صاحب الأوّل سوسه ، وربما عبّروا عنه بغير ذلك : ثم يزعمون أنّه لابد عند انقضاء هؤلاء السبعة واستنفاد دورهم بشرعهم من استفتاح دورثان ، ينسخ به شرع من قبله ، ويكون خلفاؤه بعده يجرى أمرهم كأمر من كان قبلهم ، ثم يأتى بعدهم ناسخ ، ثم اتباع سبعة صمت أبدا إلى أن يأتى السابع ، فينسخ لجميع ما قبله ، ويكون صاحب الزمان الأخير الناطق .

ثم يرتّبون هؤلاء بالتسمية لهم والأوصاف ، فيقولون : أوّل هؤلاء النطقاء آدم ، وصاحبه وسوسه شيث ، ويقال بابه فى موضع سوسه ويسمّون بعده تمام سبعة صمتوا على شريعة آدم ، ثم نوح فإنّه ناطق ناسخ وسام سوسه ، ثم تمام السبعة ، ثم الثالث إبراهيم وسوسه إسماعيل ، ثم تمام السبعة ، ثم الرابع موسى وسوسه هارون ، ثم مات هارون فى حياته فصار سوسه يوشع بن نون ، ثم تمام السبعة بعده ، ثم الخامس المسيح عيسى بن مريم أخذها عن يحيى ، وهو أحد السبعة قبله ، وهو أقامه ونصبه ، ولهم فى هذا ما سيأتى ذكره ، وسوس المسيح شمعون الصفا ، ثم تمام السبعة بعده ، ثم السادس محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وسوسه على بن أبى طالب رضى الله عنه ثمّ ستة ثم السابع قائم الزمان محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وهو المنتهى إليه علوم من قبله ، والقائم بعلم بواطن الأمور وكشفها ، وإليه تفسيرها ، وإلى أمره أجرى ترتيب سائر من قبله ، فى أمور سيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى .

فهذه درجة أخرى قرّرها الداعى عند المدعو نبوّة نبىّ بعد محمد صلّى الله عليه وسلم ، وسهّل بها النقل عن شريعة ، وأخرج بها المدعو إليها عما هو معلوم عند كل سامع لدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلم من أنّ من دينه وما علم من مذهبه ونحلته أنّه خاتم الرسل وأنّه لا نبىّ بعده ، وأنّ دولته مبقاة وشريعته مفترضة أبدا ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالعلم بذلك من ديانته وما عرف من مذهبه ، وأنّ أمّته بلّغت عنه ذلك وفهمته ، وأنّ من مفهوم شريعته أنّه لم يكن يجوز لأحد نبوّة غيره ، فى وقته ولا فيما بعده ، فكانت هذه الدعوة أوّل ما أخرج الداعى بها المدعوّ عن شريعة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأدخله فى جملة الكفّار المرتّدين عن شريعته ، وهو مع هذا لا يعلم ما خرج منه ولا دخل فيه .

ذكر صفة الدعوة الخامسة

قال : اعلم أنّه من يحصل على ما قدّمنا ذكره يحصل عليه ، وقد مُهد له بطريق تعظيم الأعداد ، ووُكد بذكر الطبائع فى أبنية العالم ، وأمور كثيرة سيأتى ذكرها فى المقالة الثامنة ، كلها مبيّنة على مذاهب مدخولة وأمور فاسدة مرذولة ، مذاهب كثير من الملحدين المتفلسفة ، مع اطّراح ما نقلت الأمّة ، والاستخفاف بحال الشريعة ، والاعتقاد لتعظيم الشيعة ، والانتظار لفسخ ما ورث عن النبوّة ، وتوقّع أمور باطنة بخلاف ما ألف من علم الظاهر ، وقلّة احتفال بدلالة ظاهر القرآن وغيره من الكلام ، على الأمور بحقائق اللغة العربية واقتفاء أثر العرب فى أوضاع كلامهم ، مع تمقيت العرب ومع تحبيب

دناءة العجم ، ويوهم أن العرب للعجم أعداء وظالمون وأنهم لملكهم مغتصبون ، هذا يقال للمدعوّ إذا كان أعجميا ، فإن كان أعرابيا خوطب فى حال دعوته : بأنّ العجم غلبوا على دعوته وفازوا بمملكته ، وأنّ له الاسم ولهم الدنيا ، وأنّه أحقّ بذلك منهم وأولى ، فى أمور من هذا يطول وصفها بحسب ما يتخرّج للداعى فيها .

ثم يمكن عنده طرفا من الهندسة فى الأشكال ، ويعرف أنّ طبائع الأعداد فى النظام ، لأمر يستخرج منه علوم الأئمة ، والطريق إلى علم الإلّه والنبوّة ، ويقرّر عنده أنّ مع كل إمام حججا متفرقين فى الأرض وأنّ عددهم فى كل زمان اثنا عشر رجلا ، كما أن عدد الأئمة سبعة ، وأن دلالة ذلك ظاهرة وحجّته قاهرة ، بأن تعلم بأنّ الله جلّ وعزّ لا يخلق الأمور مجازفة على غير معانٍ توجبها الحكمة ، وإلا فلم خلق النجوم ، التى فيها قوام العالم سبعة ؟ وجعل السماوات والأرضين سبعة ؟ وأمثال هذا وبالغوا ، وكذلك الإثنا عشر حجّة ، عدد البروج المعظّمة ، وعدد الشهور المعروفة ، وعدد النقباء من بنى اسرائيل ، ونقباء النبى صلّى الله عليه وسلم من الأنصار ، وفى كفّ الإنسان أربعة أصابع فى كل إصبع ثلاثة شقوق تكون اثنى عشر شقا ، وفى كل يد ابهام فيها شقّان بها قوام جميع كفّه ، وسداد أصابعه ومفاصله ، فالبدن كالأرض ، والأصابع كالجزائر الأربع ، والشقوق كالحجج فيها ، والإبهام كالذى يقوم الأرض بعد ما فيها ، والشقّان فيها الإمام وسوسه لا يفترقان ، ولذلك صار فى ظهر الإنسان اثنتا عشر خرزة كالحجج ، وفى عنقه سبعة عالية كالأنبياء والأئمة ، وكذلك حال السبعة الأنقاب فى وجه الإنسان العالية على بدنه ، فى أمثال لهذا كثيرة ، يحصلون بها

المدعوّ على الأنس بتمهيد طريق للخروج عن أحوال الأنبياء وشرائعهم والعدول عن ذلك إلى أمور الفلاسفة فى ترتيب شبههم أبدا ، ما رأوا أنّ هناك بقيّة من دين .

ذكر صفة الدعوة السادسة

قال الشريف رحمه الله : اعلم أنّهم إذا مكّنوا ما وصفنا وأحكموه ووثقوا لمساكنة المدعوّ أخذوا فى تفسير معانى الشرائع بغير ما يدين به أهلها وسهّلوا عليه العدول عنها ، فرتّبوا له معانى الصلاة والزكاة والحجّ والإحرام والطهارة وسائر الفرائض ، على أمور سيأتى وصفها فى المقالة الثامنة ، على أنّ ذلك يكون تفسيره على إحكام وتمهيد بغير مجازفة ولا استعجال ، فيحصل أولا على معنى : أنّ ذلك وضع دلالة على أمور نذكرها وننبّه عليها ، فإذا قوى الانسلاخ من جملة الأمّة فى نفسه ، وسهل عليه طريق العدول عمّا هى عليه ، لم يحتشم حينئذ أن يجعل ذلك موضوعا على جهة الرموز ، إلى فلسفة من الأنبياء والأئمة ، وسياسة للعامّة للجياشة إلى منافعهم فى ذلك ، وفى شغل بعضهم عن البغى على بعض أو عن الفساد فى الأرض ، مع إظهار تعظيم الناصبين لذلك ، وأنّهم أهل الحكمة فيما رتّبوه منه ، وإذا تمكّن أيضا فى نفسه ما بدأنا بذكره — نقلوه إلى التمييز بين الأنبياء وبين أفلاطون [1] وأرسطوطاليس [2] وغيرهما ، وحسّنوا عنده أشياء من حِكَمهم ، وعادوا على ناصب هذه الشرائع بالاستخفاف والمذمّة والاستحقار

(١) فى المخطوطات افلاطن وهو غير المقصود صاحب نظرية المثل التى تتضمنها فلسفة الاسماعيلية

(٢) إلى هنا ينتهي الشطر الأول من المخطوطة ا ثم يبدأ الشطر الثانى من هذا الجزء .

والطعن واللائمة ، فيأتى ذلك على قلوب قد فرغت له ، وسهل عليها فلم تنكره ، ورأته مما بدأت به فى تأنيسها .

ذكر صفة الدعوة السابعة

قال رحمه الله : اعلم أنّه متى أنس المدعو ، بما ذكرناه كلّه أو بكثير منه ، وقوى فى نفس الداعى أنّه يصلح لما بعد هذا ، إن كان الداعى بالغا ، وبأغراض الدعوة عالما ، وإلى التبليغ بمن يدعوه إلى هذه الأمور قاصدا ـ أتى بما نذكر ؛ وأمّا إن كان الداعى مخدوعا ومتّخذا كالآلة ليتوصل به إلى التكسّب ، ويُمهدّ به الطريق ويرتّب ، وهو غير بالغ إلى أعلى الرتبة فى دعوة دون ذلك ، فإنّه غافل لا يدرى كيف قصّته ، ولا يظنّ أنّ الأمر الذي يراد به إلا ماعرفه وبلغه ، أو ما يجانسه ويقاربه ، فإذا أراد الداعى أن يسلك بالمدعو فوق ما وصفنا قال له : قد صحّ لك أنّ صاحب الدلالة الناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولابدّ له من صاحب معه يعبّر عنه ، ليكونا اثنين أحدهما هو الأصل والآخر عنه كان .

واعلم أنّ ذلك لم يحصل فى العالم السفلى إلا وقد يحصل مثله فى العالم العُلوى ، فمذ بدء العالم اثنان هما أصل الترتيب وقوام النظام ، أحدهما هو الأعلى والمفيد ، والآخر هو الآخذ عنه المستفيد ، وربما أنسوه فى ذلك بأن يقولوا له : هذا هو الذى أراده الله بقوله (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١) ، وكن هو الأكبر

(١) سورة ٣٦ آية ٨٢

فى الرتبة ، وأما الثانى فهو القدر الذى قال (الله) فيه (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [١] ، وربما قالوا : هذا معنى ما تسمعه مما جاءت به الملّة ، من أنّ أوّل ما خلق الله اللوح والقلم ، وقال للقلم اكتبِ ما هو كائن ، واللوح والقلم هما ما ذكرنا ، وربما قالوا : هذا معنى قول الله تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ) [٢] ، فسالك به فى هذا الطريق العدول عن التوحيد ، وأنّ الصانع اثنان ، وإنْ كان عندهم صنع الأجسام على جهة المِثْل والنظام ، لا على معنى الاختراع والإحداث ، وسيأتى ذلك وبيانه ، وإنّما قدّم هذا تمهيدا له .

ذكر صفة الدعوة الثامنة

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى : اعلم أنّهم إذا رتّبوا ما ذكرنا قرّروا عند المدعوّ أنّ أحد المدبِرَيْن أسبق من الآخر فى الوجود وأعلى منه فى الرتبة ، وأنّ الآخر مخلوق منه وكائن به ، ولولاه لم يكن وأنّه كوّنه من نفسه ، وأنّ السابق أنشأ الأعيان ، والثانى صوّرها وركّبها ، ثم ذكروا له منزلة السابق ، وأنّ السابق كان عمّن كان منه ، كما كان الثانى عن السابق ، إلّا أنّ الذى كان عنه السابق لا اسم له ولا صفة ولا ينبغى لأحد أن يعبرّ عنه ولا أن يعبده ، فإذا بلغ هذه الرتبة سارعوا : إلا أنّ فى الأسباب التى كان لها عندهم السابق عمّن كان منه ممّن لا اسم له ولا صفة ، ما هو ؟ وهل هو باختيار أم بغير اختيار ؟ وكذلك الحال التى كان لها الثانى عن ، السابق [اختلافا] ، فذهب

(١) سورة ٥٤ آية ٤٩
(٢) سورة ٤٣ آية ٨٤

بعضهم إلى أنّ ذلك كان لفكرة عرضت لمن كان عنه السابق، فجاء منها السابق ، ثم عرضت فكرة للسابق فجاء منها الثانى ، على نحو ما يقوله بعض للمجوس فى توليدٍ ، اتفق واهرمن[1] الذى هو الشيطان - عن القديم ، وأنّ ذلك بفكرة وقعت رديّة ولدته ؛ وربما قال بعضهم إنّ تلك الفكرة ، لأنّ الذى لا صفة له فكّر : أقدر أخلق مثلى أم لا ؟ وكان من ذلك أن تصوّر التالى ، ثم فكّر التالى فى ذلك فلم يأت بمثله ، فى أنحاء من هذه الأمور التى سيأتى وصفها ، ممّا يخرج به قائلوه عن كل ديانة دان بها أحد من أهل الشرائع ، التى ينعقد معها نبوّة وشريعة ولا يكون إلا مع دهريّة أو ثنويّة[2] .

ثم رتّب هولاء أنّ التالى يدأب فى أعمال منه ، حتى يلحق بمنزلة السابق[3] ، وأنّ[4] الناطق فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة التالى[4] ، فيقوم مقامه فيكون بمنزلته سواء ، وأنّ السُّوس يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء ، وأنّ الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السُّوس وحاله سواء ، وأن هكذا تجرى أمور العالمين فى أدواره وأكواره ، فى أمثال لهذا .

ثم قرّر عنده أنّ القول فى معنى النبىّ الصادق الناطق ليس يجرى

---

(١) فى المخطوطات : اهرم ، واهرمن هو فاعل الشر ، قال الشهر ستانى عن المجوس فى الملل والنحل (هامش الفصل حـ٢ ص ٧٣) : (وقالوا إن يزدان فكر فى نفسه أنه لو كان له منازع كيف يكون . وهذه الفكرة رديئة غير مناسبة لطبيعة النور فحدث الظلام من هذه الفكرة وسمى اهرمن ...)

(٢) فى ك ، ت : نبوة .

(٣) فى ك ، ت : التالى .

(٤) ساقط من ك ، ت

على ما يقوله أهل الشرائع ، من أنّه جاء بمعجزات ودلالات خارجة عن أحوال العادات ، وأنّ معنى ذلك إنّما هو يأتى بأمور تنتظم بها السياسة ووجوه الحكمة ، وترتّب بها الفلسفة ، ومعانٍ تنبىء [1] عن حقائق ابتداء السماوات والأرض ، وبدأتها على حقائق الأمور إمّا برموز وإمّا بإفصاح ، وتنظيم ذلك شريعة يقتفى عليها الناس ، ورتّب له أمر القرآن ، وما معنى كلام الله ، بخلاف ما يدين به أهل الكتب ، ورتّب له أمر القيامة وتقضّى أمر الدنيا وحصول الجزاء من الثواب والعقاب ، على أمور ليست ممّا يعتقده الموحّدون فى شىء ، بل ذلك على معانٍ أخر ، من تقلّب الأمور وحدوث الأدوار عند انقضاء الكواكب وعوالم جماعتها ، والقول فى الكون والفساد على ترتيب الطبائع ، على أمور كلها سيأتى شرحها إن شاء الله تعالى .

ذكر صفة الدعوة التاسعة

قال : اعلم أنّه إذا حصل المدعوّ على ما ذكرنا أحيل حينئذ على طلب الأمور وتحقيقها وحدودها والاستدلال عليها من طرق المتفلسفة وادراكها من كتبهم ، وجعلوا ما قدّموه سابقا له على طرائقهم ، واستنباط ما خفى عنهم وبنود على علم الأربع طبائع ، التى هى استقصّات وأصول الجواهر عندهم ، وعلى ترتيب القول فى الفلك والنجوم والنفس والعقل وأمثال ذلك فيما هو معروف ، فيحصل الآن البالغون إلى هذه الرتب على أحد هذه الوجوه ، التى يعتقدها بعض

(١) فى ك ، ت : تبنى ، وفى ا بدون نقط .

أهل الإلحاد ممّن يدين بقدم أعيان الجواهر ، ويصير ما قدم من ذكر الحدث والأصول رموزا إلى معانى المبادى ، وتقلّب الجواهر وحدوث الأمور التى يكون لها على أحوال وأحكام ، وعلى نحو تنزيل كثير منهم لحال العقل من حال النفس وحال الفلك من حال العقل ، وحال الطبائع والأعراض من حال النفس والعقل ، وحال المنقلب بالكون والفساد وما يكون من حال الهيولى بتقلّب الأعراض المختلفة [1] وترتيب العناصر ، والقول فى العلّة : هل تفارق المعلول أم لا ؟ وإقرار بعضهم بصانع لم تزل معه العناصر والمبادىء أوّلا ، وما هى تلك الأمور وكيف حدودها ، وما يصحّ من صفاتها والأسباب التى تعلم بها ، فربّما صار البالغ فى النظر فى هذا إلى اعتقاد مذهب مانى وابن ديصان ، وربما صار إلى مذهب المجوس ، وربما دان بما يحكى عن أرسطاطاليس ، وربما صار إلى أمور تحكى عن أفلاطون [2] ، وربما اختار من تلك معانى مركبة من هذه الأمور ، كما يجرى كثير من هؤلاء المتحيرّين .

قال : وجميع ما وصفنا من التدريج بالمقدّمات إنما يحصل الانسلاخ من شرائع أهل الكتُب والنبوّة فقط ، وجميعها يصلح أن تُجعل تمهيدا ورموزا إلى جميع هذه المذاهب التى ذكرناها ، وتجتذب بألفاظها إليها بالتأويل بحسب ما يريد المعتقد ، لما شاء منها ممّا سنبيّن ذلك إن شاء الله تعالى .

قال : وأمّا سلخه من جميع ماتقدم [3] عليه من أمر الإمامة والنبوّة

(١) إلى هنا ينتهى الشطر الأول فى ك ثم يبدأ الشطر الثانى أما ت فالجزء كله وحدة .

(٢) سبق أن أشرنا إلى أن أفلاطون هو المقصود وأن المخطوطات تكتبه أفلاطن .

(٣) فى ا : قدم ، والتعبير فى المخطوطات غير واضح نظرا لأستعمال صيغة من الفعل لاتبين فهو يريد أن يقول : جميع ما أقدم عليه .

فإنّه أوّلا يجعل عنده منازل ، جميعهم منقوصة غير منزلة محمد بن إسماعيل صاحب الدور الآخر ، ويرتّب له أنّ جميعهم لا يأتى بوحى من الله عزّ وجلّ ، ولا معجزة كما يقول الظاهرية ، وإنما يختص بالصفا فيلقى فى فهمه ما يريد الله ، فيكون ذلك كلاما ، ثم يجسّده النبى ويظهره للخلق ، وينظّم الشرائع بحسب المصالح فى سياسات الناس ثم يؤمر بالعمل بذلك مدّة ، ثم يترك إلى أن يؤمر بذلك ، يستدعى بها الناس ، لا لأنّها تجب على أهل المعرفة بأعراضها وأسبابها ثم يقال له بعد ذلك إنّما هى آصار وأثقال حملها الكفار ، وكذلك سائر المحرّمات ، ثم يلقّن أنّ إبراهيم وموسى وعيسى ، وهؤلاء أنبياء سياسات وشرائع ، فأما أنبياء الحكمة فإنّ هؤلاء أخذوا عنهم كافلاطون وأمثاله من الفلاسفة ، فبنوا شرائعهم ليوصلوا بها العامّة إلى علومهم ؛ ثم يقال له : انظر أيهما أحكم ، فلان النبى أو فلان ؟ ثم يلقّن أن فى بعض أحكامهم اختلالا وفسادا ، ثم يلقن البراءة منهم وسوء سيرتهم ، وأنّهم قتلوا النفوس ، وأمثال هذا . ويلقّن فى محمد بن إسماعيل بن جعفر أنّه سيظهر ، ثم يقال له بعد ذلك : إنما يظهر فى العالم الروحانى إذا صرنا إليه ، أما الآن فإنما يظهر أمره على ألسن أوليائه ، ثم يلقّن أنّ الله أبغض العرب لما قتلت الحسين بن على فنقل خلافة الأئمة عنهم كما نقل النبوّة عن بنى إسرائيل لما قتلوا الأنبياء ، ولا يقوم بخلافة الأئمة إلا أولاد كسرى ، فيكون ذلك غاية ما يقدّموه فى هذا الباب كلّه متى استوى لهم ، فإنْ لم يتمّ له ذلك مع الدعوة تركه فى أى منزلة نزلها ، مستعيذا[1] بهذه الوجوه .

(١) فى ك : مستعدا ، وفى ا ، ت : مسمعدا بهذا الرسم دون نقط .

قال : ثم اعلم – رحمك الله – أنّ هذا الترتيب والتخريج والتنزيل إنّما كانت الدعاة [عليه] عند اجتماعها على مبتدأ الدعوة ، والانعقاد على طلب الغوائل للمسلمين ، فيها اتفقوا على جملة منها وأصولها ، وفتحوا بالفكر طريقها ، ومهّدوه على معنى ما ذكرناه ، وتفرّقوا فى البلدان ،وتمهيدهم بحسب أفكارهم واجتهادهم فى الحيلة على المستمع ، وتميّزوا فى ذلك وتمكّنوا منه فى طول الأيّام ، سيّما مذ قويت أحوال الجنّابى على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخباره .

قال : فقد بيّنا خبر هذه الدعوة وكيف جرى أمرها ، وكيف يُسلك بالمخدوع كل مسلك ، حتى يصير إلى التعطيل والإباحة ، فهذا أصل هذه الدعوة الملعونة وما أسّست عليه قديما ، ثم تغيّرت وتفرّعت منذ انتشرت ببلاد المغرب ومصر والشام ، وجعلوا منها طرقا وأبوابا ، فمنها علم القوت [1] وعلم الكفاف وبلاغات مفصّلة ، وبطن الترتيب الأول الذى وصفنا : من أنّ الدعوة كانت إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، فصار موضعه من يكون من ولد عبيدالله بن ميمون القدّاح ، الذين ملكوا المغرب ومصر والشام ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبارهم ، ولنصل هذا الفصل بذكر العهد الذى يحلفون بـه .

(١) فى ك ، ت : القرب .

ذكر العهد الذى يؤخذ على المخدوعين فى مبدأ الدعوة الخبيثة

قال الشريف : يقول الداعى لمن يأخذ عليه العهد : جعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته ، وذمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنبيائه وملائكته ورسله ، وما أخذه على النبيّين من عهد وعقد وميثاق أنّك تستر جميع ماتسمعه وسمعته ، وعلمته ، وتعلمه ، وعرفته وتعرفه من أمرى وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق الإمام ،الذى عرفت إقرارى له : ونصحى لمن عقد ذمته ، وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين ومخالصته له ، من الذكور والإناث والصغار والكبار ، فلا يظهر من ذلك قليلا ولا كثيرا ولا بشئ يدل عليه ، إلا ما أطلقتُ لك أنّك تتكلم به ، أو أطلقه صاحب الأمر المقيم بهذا البلد ، فتعمل فى ذلك بأمرنا ولا تتعدّاه ولاتزيد عليه ، وليكن ماتعمل عليه قبل العهد بقولك وفعلك : أن تشهد أنّ لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وتشهد أنّ الجنّة حق وأنّ النار حق ، وأنّ الموت حق وأنّ البعث حق وأنّ الساعة حق آتية لاريب فيها ، وأنّ الله يبعث مَنْ فى القبور ، وتقيم الصلاة لوقتها ، وتؤتى الزكاة بحقّها ، وتصوم شهر رمضان ، وتحج البيت الحرام ، وتجاهد فى سبيل الله حق جهاده ، على ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتوالى أولياء الله وتعادِي أعداء الله وتقول بفرائض الله وسننه وسنن نبيّه صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ، ظاهرًا وباطنا وعلانية وسرا وجهرا ، فإنّ ذلك يؤكد

هذا العهد ولايهدمه ، ويثبته ولايزيله ، ويقرّبه ولايباعده ، ويشدّه ولايضعفه ، ويوجب ذلك ولا يبطله ، ويوضحه ولا يعميه ، كذلك هو فى الظاهر والباطن ، وسائر ماجاء به النبيون من رتبهم صلوات الله عليهم أجمعين ، على الشرائط المبينة فى هذا العهد .

وجعلتَ على نفسك الوفاء بذلك – قل نعم ، فيقول المغرور : نعم ، ثم يقول له : والصيانه له بذلك وأداء الأمانة له على ألا تُظهر شيئا أخذ عليك فى هذا العهد – فى حياتنا ولابعد وفاتنا ، ولا على غضب ولا على حال رضى ، ولا على حال رغبة ولا رهبة ، ولا على حال شدّة ولا على حال رخاء ولا على طمع ، ولا على حال حرمان ، تلقى الله على الستر لذلك والصيانه له – على الشرائط المبيّنة فى هذا العهد .

وجعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله أن تمنعنى وجميع من أسمّيه معى لك وأثبته عندك ، مما تمنع منه نفسك ، وتنصح لنا ولوليّك – ولىّ الله – نصحا ظاهرا وباطنا ، فلا تخن الله ووليّه ، ولا تخنّا ولاَ أحداً من إخواننا وأوليائنا ، ومن تعلم أنه منا بسبب ، فى أهل ولامال ولارأى ولا عهد ولاعقد تتأوّل عليه بما تبطله .

فإن فعلتَ شيئا من ذلك – وأنت تعلم أنّك قد خالفته ، وأنت على ذكر منه – فأنت برىء من الله خالق السموات والأرض ، الذي سوى خلقك وألّف تركيبك وأحسن إليك فى دينك ودنياك وآخرتك ، وتبرأ من رسله الأولين والآخرين وملائكته المقرّبين الكروبيين والروحانيّين ،

والكلمات التامّات والسبع المثانى والقرآن العظيم ، وتبرأ من التوراة والإنجيل والزبور والذكر الحكيم ، ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدم الدار الآخرة ، ومن كل عبد رضى الله عنه ، وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وخذلك الله خذلانا بيّنا ، فعجّل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير إلى نار جهنّم ، التى ليس فيها رحمة وأنت برىء من حول الله وقوّته ، مُلتجأ إلى حول نفسك وقوّتها ، وعليك لعنة الله التى لعن بها إبليس ، فحرم عليه بها الجنّة وخلّده النار .

إن خالفت شيئا من ذلك لقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان ، ولله عليك أن تحجّ إلى بيته الحرام ثلاثين حجة نذرا واجبا ، ماشيا حافيا ، لا يقبل الله منك إلا الوفاء بذلك ؛ وإن خالفت ذلك فكلّ ماتملكه فى الوقت الذى تخالف فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين ، الذين لا رحم بينك وبينهم ، لا يأجرك الله عليه ، ولا يدخل عليك بذلك منفعة ، وكل مملوك لك — من ذكر أو أنثى — فى ملكك وتستعبده إلى وقت وفاتك ، إن خالفت شيئا من ذلك ، فهم أحرار لوجه الله عزّ وجلّ ، وكل امرأة لك وتتزوّجها إلى وقت وفاتك — إن خالفت شيئا من ذلك — فهنّ طوالق ثلاثاً بتّة ، طلاق الحرج والسّنة لا مثنويّة لك فيها ولا اختبار ولا رجعة ولا مشيئة ، وكلّ ما كان لك من أهل ومال وغيرهما فهو عليك حرام ، وكل ظهار فهو لازم لك .

وأنا المستخلف لك لإمامك وحجّتك ، وأنت الحالف لهما وإن نويت أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحملك عليه وأحلّفك به ، فهذه اليمين من أوّلها إلى آخرها محدّدة عليك لازمة لك ، لا يقبل الله

منك إلا الوفاء بها ، والقيام على ما عاهدت بيني وبينك ، قل نعم ، فيقول المخدوع : نعم .

فهذه اليمين التي يؤنس بها المخدوع من ذكر الصلاة والصيام والزكاة والحج وشرائع الإسلام ، فما ينكر شيئا مما يسمعه ، وكل ذلك تأنيس ما [1] يتوصل به إلى هذه الأمور ، التي تقدّم ذكرها على التدريج .

قال الشريف رحمه الله تعالى : ووجدتُ في كتاب من كتبهم يعرف بكتاب السياسة ما يشرح به ذكر ما تقدم من أمر الدعوة ، فيه وصايا الدعاة ، وهذا مختصر منه يقول فيه :

من وجدته شيعيا فاجعل التشيع عنده دينك ، واجعل المدخل عليه من جهة ظلم الأمّة لعلي وولده ، وقتلهم الحسين وسَبْيهم البنات ، والتبرّي من تيم وعدى ومن بني أميّة وبني العبّاس ، وما شاكل ذلك من الأعاجيب التي تسلك عقولهم ، فمن كان بهذه الصورة أسرع إلى إجابتك بهذا الناموس ، حتى يتمكّن ممّا يحتاج إليه ؛ ومن وجدتَه صائبا فداخله بالأسابيع يقرب عليك جداً ، ومن وجدته مجوسيا فقد اتفقتَ معه في الأصل من الدرجة الرابعة ، من تعظيم النار والنور والشمس ، واتل عليه أمر السابق فإنّه لهرمُس الذي يعرفونه بالنور [2] المكنون من ظنّه الجيّد والظلمة المكنونة من وهمه الردىء ، فإنّهم مع الصابئين أقرب الأمم إلينا وأولاهم بنا ، لولا يسير صحّفوه بجهلهم

(١) في ا : أن .

(٢) في ك ، ت مرسومة باكيه وفي ا : باليه دون نقط ، وهرمس اسم آله الخير .

به ؛ وإن ظفرت بيهودى فادخل عليه من جهة المسيح ، يعنى مسيح اليهود الدجّال وأنّه المهدى ، وأنّ عند معرفته تكون الراحة من الأعمال وترك التكليفات ، كما أمر بالراحة فى يوم السبت ، وتقرّب من قلوبهم بالطعن على النصارى والمسلمين الجهّال ، وزعمهم أن عيسى[1] لم يولد ولا أب له ، وقرّر فى نفوسهم أنّ يوسف النجّار أبوه ، وأنّ مريم أمّه ، وأنّ يوسف كان ينال منها ما ينال الرجال من نسائهم وما يشاكل دلك ، فإنّهم لا يلبثون أن يتبعوك ؛ وادخل على النصارى بالطعن على اليهود والمسلمين جميعا ، وبصحة عقدهم الصليب عندهم وعرّفهم تأويله ، وأفسد عليهم ما قام لهم من جحد الفارقليط ، وقرّر عندهم أنه جاء وأنك إليه تدعوهم ، ومن وقع إليك من المنانية فإنّه يحرّك الذى منه تغترف ، فداخلهم بالممازجة من الباب السادس ، وأظهر من الدرجة السادسة من حدود البلاغ ، وامتزاج الظلمة بالنور إلى آخر ما فى الباب من ذلك ، فإنّك تملكهم به وتحيلهم ، فإن أنست من بعضهم رشدا كشفت له الغطاء . ومن وقع إليك من الفلاسفة فقد علمت أن على الفلاسفة العهدة ، وإنّا قد اجتمعنا وهم على نواميس الأنبياء وعلى القول بقدم العالم ، لولا ما يخالفنا بعضهم فيه من أنّ للعالم مدبّرا لا يعرفونه ، فإنّه وقع الإتفاق على أنّه لا مدبّر للعالم فقد زالت الشبهة فيما بيننا وبينهم ، وإن لك ثنوى فبَخٍ بَخٍ قد ظفرت ، فالمدخل عليه بإبطال التوحيد ، والقول بالسابق والتالى ووراثة أحدهما ، على ما هو مرسوم فى أوّل درجة البلاغ وثالثه ، وإنْ وقع لك سُنِّىّ فعظّم عنده

(١) فى ك : موسى .

أبا بكر وعمر واذكر فيهما فضائل ، واثلب عليا [١] وولده واذكر لهم مساوىء ، ولوّح [٢] له أنّ أبا بكر وعمر قد كان لهما في هذا الأمر – الذى تلقيه إليه – نسب ، فإذا دخلت عليه بهذا المدخل درجته إلى ما تريد وملكته ، واتخذ غليظ العهود ووكيد الأيمان وشديد المواثيق جُنّة لك وحصنا ، ولا تهجم على مستجيبيك بالأشياء التى تبهر عقولهم ، حتى ترقّيهم إلى المراتب حالا فحالا ، ودرّجهم درجة درجة ، فواحد لا تزيده على التشيّع والأيمان لمحمد بن إسماعيل شيئا ، وأنّه حى لا تجاوز به هذا الحد ، وأظهر لهم العفاف عن الدرهم والدينار وخفّف عليهم وطأتك ، ومره بالصلاة السبعين ، وحذّره الكذب والزنا واللواط وشرب الخمر ، وعليك فى أمره بالرفق والتؤدة والمداراة يكن لك عونا على دهرك وعلى من يعاديك أو يتغيّر عليك من أصحابك وينافسك ، فلا تخرجه عن عبادة إلهه ، والتدبّر بشريعته ، والقول بإمامة علىّ وبنيه إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وأقم له دلائل الأسابيع فقط ، ودقّه بالصلاة دقاً ، فإنّك إن أومأت إلى كرائمه يوماً – فضلا عن ماله – لم يمنعك ، فإن أدركته الوفاة وصّى إليك بما خلف وورّثك إياه ، ولم ير أنّ فى العالم أوثق منك ، وأخّر ترقّيه من ذلك إلى نسخ شريعة محمد ، وأنّ السابع هو الخاتم للرسل ، وأنّ ينطق كما ينطق كما نطقوا ويأتى بأمر جديد ، وأنّ محمداً صاحب الدور السادس ، وأنّ عليا لم يكن إماماً ، وحسّن القول فإنّ هذا باب

---

(١) نظرية الطعن فى على وولده لارضاء أهل السنه فى هذا العصر من تزيد الشريف (أخى محسن) فيما يظن قياسا أوتشبيها على ارضاء المتشيع بالطعن فى أبى بكر وعمر ، فان صح هذا وجب الحذر .

(٢) فى المخطوطات مرسومة طرح .

كبير وعلم عظيم ، مرجّى الارتقاء إلى ما هو أكبر منه ، ويعينك على زوال ما جاء من قبله من وجود النبوّات ، على المنهاج الذى هو عليه ، وقليل من ترقّيه من هذا الباب إلى معرفة أم القرآن ومؤلفه وسننه .

وإياك أن تغتر بكثير ممّن يبلغ[1] معك إلى هذه المنزلة فترقّيه إلى غيرها ، إلا من بعد طول المؤانسة والمداوسة واستحكام الثقة ، إنّ ذلك يكون عوناً لك عند بلاغه على تعطيل الكتب ، التى يزعمون أنّها منزّلة من عند الله ، فيكون هذا نعم المقدّمة ؛ وآخر ترقّيه من هذا إلى ما هو أعلى منه ، فإنّ القائم قد مات ، وأنّه يقوم روحانيا ، وأنّ الخلق يرجعون إليه بصور روحانيّة ، وأنّه يفصل بين العباد بأمر الله عزّ وجلّ ، يشتفى من الكافرين للمؤمنين بالصور الروحانيّة ، فإن ذلك يكون عوناً لك عند بلاغه على إبطال المعاد ، الذى يزعمونه والنشور من القبور ؛ وآخر ترقّيه من هذا إلى إبطال الملائكة فى السماء والجنّ فى الأرض ، فإنّه قبل آدم بشر كثير ، وتقيم على ذلك الدلائل المرسومة من كتب شيوخنا المتقدّمين ، فإنّ ذلك مما يعينك فى وقت بلاغه ، على تسهيل التعطيل لله ، والإرسال بالملائكة إلى الأنبياء والرجوع به إلى الحق ، والقول بقدم العالم ؛ وآخر ترقّيه إلى أوائل درج التوحيد ، وتدخل عليه بما تضمّنه كتاب الدرس الشافى للنفس من أنّ لا إله لا[2] صفة ولا موصوف ، فإنّ ذلك ممّا يعينك على القول بالإلهية ، تستحقّها عند البلاغ إلى ذلك ، ومن رقّيته إلى هذه المنزلة فعرّفه حسب ما عرّفناك حقيقة من أمر الإمام ، وأنّ

(١) فى ك ، ت .... من لم يبلغ معك .
(٢) فى ك ، ت : ... لا إله إلا صفة .

إسماعيل ومحمداً ابنه من أبوابه ، وفى ذلك عون لك على إبطال إمامة ولد على بن أبى طالب ، عند البلوغ والرجوع إلى القول بالحق لأهله ثم لا تزال شيئاً فشيئاً فى أبواب البلاغ السبعة ، حتى تبلغ الغاية القصوى على تدريج ، وكل باب يأتى يشهد للمتقدّم قبله ، والمتقدّم يشهد للمتأخر .

واستعمل فى أمرك الكتمان كما يوصى بنى القوم خاصّته ، فقال : استعينوا على أموركم بالكتمان ، ولا تظهر أحدا على شىء ممّا تُظهر عليه من هو فوقه بوجه ولا سبب ، وعليك بإظهار التقشّف للعامّة والوقار عندهم ، وتجنّبْ ما هو منكر عندهم ، ولا تنبسط كل الانبساط لإخوانك البالغين كما فعل من كان قبلك فإنه أتى بالتشديد ثم حلّ الأمور ، فإذا تدبّرت بهذا التدبير وسلكت طريقته فقد سلكت طريق الأنبياء وأخذت حدودهم ، وعليك بعد ذلك بالاجتهاد فى معالجة خفّة اليد ، والأخذ بالأعين والحذق بالشعبذة ، فلن يخلو من الحاجة إلى ذلك عند قوم ينسبونك بعمله إلى إقامة المعجزات ، كما نسبوا قوما تقدّموا ؛ وعليك بمعرفة أحاديث الأوّلين وقصصهم وطرائقهم ومذاهبهم ، لتكون بيّنة أمرك فى الأقاويل على قدر ما يصلح لأهل زمانك : ترشد وتوفّق ويقدّم على الأيام أمرك ، ويعلو ذكرك ، ويكون الداخل فى أمرك بعد وفاتك أكثر من الداخل معك فى حياتك ، فينفع لك ولمخلفيك من بعدك بك ، وعلى يديك ويدى أمثالك من أهل النجابة والعقل دعوة الحق ، وتملك لك ولعقبك وذرّيتك ملكا لا ينبغى لغيرك مثله .

فهذه وصيّتى لك مشتملة على جمل من النواميس الطارقة للأنبياء على قدر عقولهم .

قال الشريف رحمه الله تعالى : ووجدتُ فى هذا الكتاب المعروف بكتاب السياسة أيضا فصلا فيه (ولشيخنا الجليل المقدس) ، وهذا مختصر منه يوصى دعاته فى أهل الأديان ـ وذلك لأمّة محمد خاصة :ـ

فابذل الآن سيفك فيهم إذا تمكّنت منهم وصار لك حزب ، وظهرْتَ بهذه الحيل التى قد وقفتك عليها ، واستملت الناس بها فإنّهم أعداؤنا ، وصفْ أموالهم واستفرد[1] بناتهم وأولادهم ، ولا تخفر[2] لهم ذمّة ولا تحفظ لهم قربة ، ولا ترحم علويا ، فلو تمكّن علوى كتمكّن غيره من الأنبياء للقينا منه جهدًا ، وعبّر بما يدّعيه من حقوق جدّه على هؤلاء الحمير ما هو أكثر مما عبره جده ، وإياك والاغضاء عمّن تجده من ولد علىّ ، يعنى اقتله إذا تمكّنت منه ، وإيّاك والرخصة لأحد من أسنانك فى الثقة بواحد منهم ، تهتدى وتوفّق لازلت بالعلم سعيدًا ، وإلى الخير هاديا ومهديا ، وعلى جميع الأحوال الحمد لإلهنا على ما منحنا ، وصلواته على عباده المصطفين ، يعنى إلهه الذى أباحه اللذات وأعماه عن الهدى ، وفتح له طرق الضلالة ، وعباده الذين اصطفى دعاته الذين بهم يضلّون الناس .

هذا ما حكاه الشريف أبو الحسين من دعواتهم التسع ، وعهدهم الذى يأخذونه ووصاياهم .

وحكى عز الدين بن الأثير الجزرى رحمه الله تعالى فى تاريخه الكامل ـ عند ذكره لأخبار القرامطة قال[3] :

وكان فيما يحكى عن مذهبهم أنّهم جاءوا بكتاب فيه ـ يقول

(١) فى المخطوطات : استفرد ، والمعنى يجعلهم فرادى أى مشتتين .

(٢) فى ك : تجاف ، وفى ت : تجافى ، وفى ا : تحاني دون نقط .

(٣) راجع حـ٧ ص ٣١١ وما بعدها من الكامل .

الفَرَج بن عثمان – وهو من قرية يقال لها نصرانة ، وهو داعية للسيح وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو أحمد بن محمد بن الحنفيّة ، وهو جبريل ، وذكر أنّ للسيح تصوّر له فى جسم إنسان وقال : إنّك الداعية ، وإنّك الحجّة ، وإنّك الناقة ، وإنّك الدابّة ، وإنّك يحيى بن زكريا ، وإنّك روح القدس ، وعرّفه أن الصلاة[1] أربع ركعات – ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل[2] غروبها ، وأنّ الأذان فى كل صلاة أن يقول : الله أكبر ، أربع مرات أشهد أنّ لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أنّ آدم رسول الله ، أشهد أنّ نوحا رسول الله[3] ، أشهد أنّ إبراهيم رسول الله ، أشهد أنّ موسى رسول الله ، أشهد أنّ عيسى رسول الله ، أشهد أنّ محمدًا رسول الله ، أشهد أنّ أحمد بن محمد بن الحنفيّة رسول الله ، وأن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاح ، وهو من المنزّل على أحمد بن محمد بن الحنفيّة ، والقبلة إلى بيت المقدس ، والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شىء ، والسورة التى يقرأها :

الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه ، المنجد لأوليائه بأوليائه[4] ، قل إنّ الأهلّة مواقيت للناس ظاهرها ، ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام ، وباطنها ، أوليائى الذين عرفوا عبادى ، سبيلى : اتّقونى يا أولى الألباب ، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل ، وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذى أبلو عبادى وأمتحن خلقى ، فمن صبر على بلائى

---

(١) فى ا ، ت : الصلوات ، ويؤيد ك الكامل حـ٧ ص ٣١١ والطبرى حـ١٤ ص ٢١٢٨ .

(٢) فى الكامل حـ٧ ص ٣١١ : بعد ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ٢١٢٨ .

(٣) هذه العبارة ساقطة من الكامل ، ويؤيد وجودها ظهورها فى تاريخ الطبرى حـ١٤ ص ٢١٢٨

(٤) هذه الكلمة ساقطة من المخطوطات .

ومحنتى واختبارى أدخلته[1] فى جنّتى وأخلدته فى نعيمى، ومن زال عن أمرى وكذّب رسلى أخلدته مهادا فى عذابى ، وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى ، وأنا الذى لم يَعْلُ علىّ جبّار إلا وضعته ، ولا عزيز إلا أذللته ، وليس الذى أصرّ على أمره ودام على جهالته ، وقال : لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين ، أولئك هم الكافرون ، ثم يركع ويقول فى ركوعه : سبحان ربىّ ورب العزّة ، وتعالى عما يقول الظالمون يقولها مرّتين ، فإذا سجد قال : الله أعلى مرّتين ، الله أعظم مرّتين .

ومن شرائعه أن يصوم يومين فى السنة ، وهما للمهرجان والنيروز ، وأنّ النبيذ حرام ، والخمر حلال ، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة ، وأنّ من حاربه واجبٌ قتله ، ومَن لم يحاربه ممّن خالفه أخذ منه الجزية ، ولا يؤكل كلّ ذى ناب ولا ذى مخلب .

وقد أخذ هذا الفصل حقّه من الإطالة والاسهاب ، فلنذكر مبدأ هذه الدعوة .

ذكر ابتداء دعوة القرامطة

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى : كان مبدأ هذه الدعوة الخبيثة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وزعموا أنّه الإمام المهدى الذى يظهر فى آخر الزمان ويقيم الحق وأنّ البيعة له ، وأنّ الداعى إنما يأخذها على الناس له ، وأنّ ما يجمع من الأموال مخزون له إلى أن يظهر ، ولم تزل هذه الدعوة إلى محمد بن إسماعيل إلى أن هرب

(١) ألقيه فى الكامل حـ٧ ص ٣١٢ والطبرى حـ١٤ ص ٢١٢٩ .

سعيد المسمى بعبيد الله من سَلَمْيَة إلى المغرب ، وتلقّب بالمهدى فصار هو الإمام ، وانتسب إلى أنّه من ولد إسماعيل بن جعفر ، فنقلوا الدعوة إليه ، وكان القول فى المبدأ : أن محمد بن إسماعيل حىّ لم يمت ، وأنّه يظهر فى آخر الزمان وأنه مهدىّ الأمّة .

قال : ولم يكن غرض هذا المحتال أن يرفع محمد بن إسماعيل ، ولا يأخذ له بيعة ، إنّما جعله بابا يستغل به عقل من يدخل فيه (١) ويتبيّن له أنّه قد تمكّن من خديعته وبلغ المراد منه ، شيعيا كان أوسنيّا . قال : ولما أظهر اللعين ما أظهر من هذه الأقوال كلها ، بعد تعلقه بذكر الأئمة والرسل والحجّة والإمام ، وأنّه المعوّل والقصد والمراد ، وبه اتّسقت هذه الأمور ولولا هو لهلك الحق وعدم الهدى والعلم ، وظهر فى كثير منهم الفجور ، وبسط بعضُهم أيديهم بسفك الدماء ، وقتل جماعة ممّن أظهر خلافا لهم ، فخافهم الناس جدا واستوحشوا من ظهور السلاح بينهم ، فأظهر موافقتهم كثير من مجاوريهم ، مقاربةً لهم وجزعا منهم .

ثم إنّ الدعاة اجتمعوا واتّفقوا على أن يجعلوا لهم موضعا ، يكون وطنا ودار هجرة يهاجرون إليها ويجتمعون بها ، فاختاروا من سواد الكوفة فى طسّوج الفرات - من ضياع السلطان المعروفة بالقاسميّات ، قرية تعرف بمهيماباذ ، فنقلوا إليها صخرا عظيما ، وبنوا حولها سورا منيعا عرضه ثمانية أذرع ، وجعلوا من ورائه خندقا عظيما ، وفرغوا من

---

(١) فى كنز الدرر وجامع الغرر حـ٦ ص٥٢ للدوادارى : لا أن يرفع إلى محمد بن إسماعيل الدعوة إلا ليتمكن من عقول أضلها الله .

ذلك فى أسرع وقت [١] ، وبنوا فيها البنيان العظيم ، وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان ، وسمّيت دار الهجرة وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين [٢] .

فلم يبق بعد هذا أحد إلا خافهم ، ولا بقى أحد يخافونه لقوّتهم وتمكّنهم في البلاد ، وكان الذى أعانهم على ذلك تشاغل السلطان ببقيّة الخوارج وصاحب الزنج بالبصرة ، وقصر يد السلطان وخراب العراق وركوب الأعراب واللصوص وتلف [٣] الرجال وفساد البلدان وقلّة رغبة من يلى الأعمال من ذوى الاصلاح والأمانة من العمّال وأصحاب الحروب ، فتمكّن هؤلاء الدعاة ومن تبعهم بهذا السبب ، وبسطوا أيديهم في البلاد وعلت كلمتهم ، فغلبوا على ذلك سنين

ذكر انتقاض الدعوة عن حالتها الأولى ومقتل عبدان وماكان من أمر زكرويه بعده

قال الشريف : وكان قرمط يكاتب من بسَلَمْية من الطواغيت [٤] فلما توفيَ من كان في وقته وجلس ابنه من بعده كتب إلى حمدان قُرْمُط كتابا ، فلما ورد عليه الكتاب وقرأه أنكر ما فيه ، وتبيّن فيه ومنه ألفاظا قد تغيرّت ، وشيئا ليس هو على النظام الأوّل ، فاستراب به

---

(١) فى ا مدة .

(٢) فى كنز الدرر للدوادارى ص ٥٣ (القاهرة ١٩٦١) تسع وتسعين ، وفى اتعاظ الحنفا للمقريزى ص ١١٣ : سبع وتسعين .

(٣) فى المخطوطات : تلاف — وهكذا وردت فى اتعاظ الحنفا للمقريزى ص ١١٣ .

(٤) فى ك : الطوائف ، وهذا النص ساقط من ت .

وفطن أنَّ حادثة حدثت ، فأمر قرمط. ابن مليح ـ وكان داعيا من دعاته ـ أن يخرج فيتعرف الخبر ، فامتنع عليه واعتذر ، فأنفذ من أحضر عبدان الداعية من عمله ، فلما حضر أنفذه ليتعرف ما حدث من هذا الأمر ، ويكشف عن سبب تغيرّه ، فسار عبدان لذلك ، فلما وصل عُرّف بموت الطاغية الذى كانوا يكاتبونه ، فاجتمع بابنه وسأله عن الحجّة ومَنْ الإمام بعده ، الذى يدعو إليه ،فقال الابن : ومَنْ الإمام ؟ قال عبدان : محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذى كان أبوك يدعو إليه ، وكان حجّته ، فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن إسماعيل لا أصل له ، ولم يكن الإمام غير أبى وهو من ولد ميمون بن ديصان ، وأنا أقوم مقامه ، فعرف عبدان القصة واستقصى الخبر وعلم أنَّ محمد بن إسماعيل ليس له فى هذا الأمر حقيقة ، وإنما هو شىء يحتالون به على الناس ، وأنّه ليس من ولد عقيل بن أبى طالب ، فرجع عبدان إلى قرمط. فعرّفه الخبر ، فأمره قرمط. أن يجمع الدعاة ويعرّفهم صورة الأمر وماتبين منه ، ويقطع الدعوة ، ففعل عبدان ذلك وقطعت الدعوة من ديارهم ، ولم يمكنهم قطعها من غير ديارهم ، لأنها كانت قد امتدّت فى سائر الأقطار وامتدّ شرها ، وقطعت الدعاة مكاتبة أصحابهم الذين بسَلَمْيَة .

وكان رجل من أولاد القدّاح قد نفذ إلى الطالقان يبث الدعاة ، ونزل بقرمط. وهو بسواد الكوفة عند عبوره إلى الطالقان ، وكانت الدعاة يكاتبونه ، فلما انقطعت المكاتبة عن جميع أولاد القدّاح قطعت عن هذا الذى بالطالقان ، فطال انتظاره ، فشخص عن الطالقان ليقصد قرمط. ، وكان قرمط. قد سار إلى كَلْواذَى ، فلما وصل

إلى كلواذى سأل عن قرمط. ، فعرف أنّه انتقل فلايُدرى أين مضى وما عرف لقرمط. بعد ذلك خبر ، ولاعُلمت وفاته ولا ما اتفق له ، فقصد ابن القدّاح سواد الكوفة ، فنزل على عبدان ، فعتب عليه وعلى جميع الدعاة في انقطاع كتبهم عنه ، فعرّفه عبدان أنهم قطعوا الدعوة وأنهم لايعودون فيها وأن أباه كان قد غرّهم (١) وادّعى نسبه من عقيل بن أبى طالب كذبا ودعا إلى المهدى ، فكنّا نعمل على ذلك ، فلما تبينا أنّه لا أصل لذلك ،وعرفا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان وأنّه صاحب الأمر ، تُبْنا إلى الله تعالى مما تحمّلناه ، وحسبنا ما كفرنا أبوك فتريد أن تردّنا كفارًا ؟ ! انصرف عنا إلى موضعك .

قال : وكان عبدان قدتاب من هذه الدعوة حقيقة ، فلما أيِس منه صار إلى زَكْرُويه بن مهَرُويَه ، فعرّفه خبر عبدان ومارد عليه ، فلقيه زكرويه بكل ما يحب ، وقدر أنّه ينصبه داعيا مقام أبيه ، فيستقيم له أخذ الأموال وجمع الرجال ، وواطأه على ذلك ، وقال له : إن هذا الأمر لا يتم مع عبدان ، لأنه داعى البلد كلّه ، والدعاة من قبله والناس من تحت يده ، وأنه لايجيبه إلاأهل دعوته خاصة . وشرعا في إعمال الحيلة على قتل عبدان ، واتّفقا على ذلك ، ثم وجّه زَكْرُويَه إلى رجل من بنى تمم بن كليب وأخ له كانا من أهل دعوته ، وأحضر جماعة من قراباته وثقاته فأظهرهم على ابن اللعين ، وعرّفهم أنّه ابن الحجّة ، وأن الحجّة توفى وأن ابنه هذا يقوم مقامه ، فأجلّوه وأعظموه

(١) ف ت : فيرهم .

وقالوا له : مرنا بأمرك ، فأمرهم بقتل عبدان ، وعرّفهم أنه نافق وعصى وخرج عن الملّة ، فساروا إليه من ليلتهم وبيّتوه فقتلوه ، وكان زكرويه هذا من تحت يد عبدان ، وعبدان هو الذى أقامه داعية فلما شاع في الناس أنّ زكرويه قتل عبدان طلبه الدعاة والقرامطة ليقتلوه فاستتر ، وخالفه القوم بأسرهم إلا أهل دعوته ، وخاف على نفسه ، ولم يتم له أمره الذى دبّره ، فقال لابن اللعين : قد ترى ما حدث ، ولا آمن عليك وعلى نفسى ، فارجع إلى بلدك ودعنى ، فإنى أرجو أن يتغيرّ الأمر ، فأتمكّن من الناس وأدعوهم إليك ، فإذا تمكّنت من ذلك أرسلت إليك لتصير [1] إلىّ ، فانصرف إلى الطالقان واستتر زكرويه وتنقّل في القرى ، وذلك في سنة ست وثمانين ومائتين ، والقرامطة تطلبه وأصحاب عبدان يرصدونه ، وكان قد اتّخذ مطمورة تحت الأرض على بابها صخرة ، فإذا دخل قوم إلى القرية في طلبة قامت امرأة في الدار التى هو فيها إلى تنّور ينقل ، فوضعته بقرب الصخرة ثم أشعلت النار ، وأرت أنها تريد أن تخبز ، فيخفى أمره على من يطلبه ، فمكث كذلك سنة ست وسنة سبع وثمانين ومائتين فلما رأى انحراف أهل السواد عنه [2] إلا أهل دعوته وطال أمره ، أنفذ ابنه الحسن في سنة ثمان وثمانين ومائتين إلى الشام ، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا لأخبار أبى سعيد الجنّابى .

---

(١) ساقطة من ك ، ت .

(٢) هذه العبارة غير موجودة فى ك ، ت .

ذكر أخبار أبي سعيد الجنابي وظهوره بالبحرين

هو أبو سعيد بن بهرام من أهل جنّابه ، وأصله من الفرس وكان يعمل الفراء ، وسبب دخوله في هذه الدعوة وظهوره ، أنّه سافر إلى سواد الكوفة ، فذكر[1] أنه تزوّج بقرية من سواد الكوفة ، إلى قوم يقال لهم بنو القصّار ، وكانوا أصولا فى هذه الدعوة الخبيثة فأخذها عنهم ، وقيل بل أخذ الدعوة عن نفسه ، وقد قيل إنه تلقاها عن حمدان قُرْمُط ، وسار داعية من قبله فنزل القَطِيف ، وهى حينئذ مدينة عظيمة ، فجلس بها يبيع الدقيق ولزم الوفاء والصدق ، ودعا الناس ، فكان أوّل من أجابه الحسين وعلى وحمدان بنو سنبر [1] ، وقوم ضعفاء ما بين قصّاب وحمّال وأمثال هؤلاء .

قال الشريف أبو الحسين : فلما دعا بتلك الناحية وقويت يده واستجاب له الناس وجد بناحيته داعيا يقال له أبو زكريا الصمامى كان عبدان الداعى أنفذه قبل أبى سعيد إلى القطيف وما والاه ، فلما تبيّن أمره أبو سعيد الجنّابى عظم عليه أن يكون داع غيره ، فقبض عليه وحبسه فى بيت حتى مات هزلا . قال : وقد ذكر أنّ هذا الداعى أخذ على بنى سنبر قبل أبى سعيد ، وكان فى أنفسهم حقد عليه لقتله أبا زكريا .

وحكى ابن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل ابتداء أمر القرامطة بناحية البحرين [2] :

(١) فى المخطوطات : بنوسنين ، وفى كنز الدرر ص ٥٥ : سنتر والأرجح سنبر كما فى اتعاظ الحنفا للمقريزى — هذا ووردت الكلمة صحيحة فى فصل مقتل أبى سعيد الجنابى فيما بعد .

(٢) راجع الكامل حـ٧ ص ٣٤١ (طبعة أوروبا) فى أخبار سنة ٢٨٦ هـ .

أن رجلا يعرف بيحيى بن المهدى قصد القطيف ،ونزل على رجل يعرف بعلى بن المُعَلَّى بن حمدان ، وكان متغاليا فى التشيّع ، فأظهر له يحيى أنّه رسول المهدى ، وذلك فى سنة إحدى وثمانين ومائتين ، وذكر أنه خرج إلى شيعته يدعوهم لأمره ، وأنّ خروجه قد قرب ، فجمع على بن المُعَلَّى الشيعة من أهل القطيف ،وأوقفهم على الكتاب الذى أحضره يحيى بن المهدى من المهدى إليهم ، فأجابوه : إنّهم خارجون معه إذا ظهر أمره ، وأجابه سائر قرى البحرين بمثل ذلك ، فكان فيمن أجابه أبو سعيد الجَنّابِى ، ثم غاب يحيى بن المهدى مدة ، ورجع بكتاب يزعم أنّه من المهدى إلى شيعته ، فيه : قد عرّفنى رسولى يحيى بن المهدى مسارعتكم إلى أمرى ، فليدفع إليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلثى دينار ، ففعلوا ذلك ثم غاب وعاد بكتاب ، فيه ادفعوا إلى يحيى خمس أموالكم ، فدفعوا إليه الخمس .

قال : وحكى أن يحيى بن المهدى جاء إلى منزل أبى سعيد الجنّابى فأكل طعاما ، وخرج أبو سعيد من البيت وأمر امرأته أن تدخل إلى يحيى ، وأن لا تمنعه إذا أرادها ، فانتهى الخبر إلى الوالى فضرب يحيى وحلق رأسه ولحيته ، وهرب أبو سعيد إلى جنّابه ، وصار يحيى إلى بنى كلاب وعقيل والحَرِيش ، فاجتمعوا معه ومع أبى سعيد فعظم أمر أبى سعيد ، واشتدت وطأته وظهر أمره ؛ قال : وكان ظهوره بالبحرين فى سنة ست وثمانين ومائتين .

ذكر استيلاء أبي سعيد الجنابي على هجر وماكان من خلال ذلك من حروبه ووقائعه

قال الشريف أبو الحسين : كان من الاتّفاق لأبي سعيد أن البلد الذى قصده بلد واسع كثير الناس ، ولهم عادة بالحروب ، ورجال شداد جهّال غُفل القلوب ، بعيدون من علم شريعة الإسلام ومعرفة نبوّة أو حلال أو حرام ، فظفر بدعوته في تلك الناحية ، ولم يناوئه مناوىء ، فقاتل بمن أطاعه من عصاه حتى اشتدت شوكته جدا ، وكان لا يظفر بقرية إلا قتل أهلها ونهبها ، فهابه الناس وأجابه كثير منهم طلبا للسلم ، ورحل من البلد خلق كثير إلى نواحى مختلفة وبلدان شتى ، خوفا من شرّه ، ولم يمتنع عليه إلا هَجَر ، وهى مدينة البحرين ومنزل سلطانها والتجّار والوجوه ، فنازلها شهورا يقاتل أهلها ، فلما طال عليه أمرها وكل بها جلّ أصحابه من أهل النجدة ، ثم ارتفع فنزل الأحساء وبينها وبين هجر ميلان ، فابتنى بها دارا وجعلها منزلا ، وتقدّم في زراعة الأرض وعمارتها ، وكان يركب فى الأيام إلى هجر هو ومن يحاصرها ، ويعقب من أصحابه في كلّ أيام قوما ، ثم دعا العرب فأجابه أوّل الناس ، بنو الأضبط من كلاب ، لأن عشيرتهم كانوا أصابوا فيهم دما ، فساروا إليه بحرمهم وأموالهم فنزلوا الأحساء ، وأطمعوه فى بنى كلاب وسائر من يقرب منه من العرب ، وطلبوا منه أن يضمّ إليهم رجالا ففعل ذلك ، فلقوا بهم عشيرتهم فاقتتلوا فهزمتهم القرامطة فأكثروا فيهم القتل ، وأقبلوا بالحريم والأموال والأمتعة نحو الأحساء ، فاضطر المغلوبين إلى أن دخلوا فى طاعته

وصاروا تحت أمره ، ثم وجّه أبو سعيد بجيش آخر إلى بنى عقيل فظفر بهم ، فقصدوه ودخلوا فى طاعته ، فملك تلك الفلاة ، وتجنّب قتاله كلّ أحد إلا بنى ضبّة ، فإنها ناصبته الحرب ، فلما اجتمع (١) إليه من اجتمع من العرب وغيرهم خوّفهم ومنّاهم مُلك الأرض كلها ، فاستجاب بعضهم إلى دعوته فردّ إليهم ما أخذ منهم من أهل وولد ، وأجاب آخرون رغبة فى دعوته ، ولم يردّ على أحد إبلا ولا عبدا ولا أمة وأنزل الجميع معه الأحساء ، وأبى قوم دعوته فردّ عليهم حرمهم ومن لم يبلغ من أولادهم أربع سنين وشيئا من الإبل يحملون عليه ، وحبس ما سوى ذلك كله ، وجمع الصبيان في دور وأقام عليهم قوّاما ، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ، ووسم جميعهم على الخدود لئلا يختلطوا بغيرهم ، وعرّف عليهم عرفاء ، وعلّم من صلح لركوب الخيل والطعان فنشأوا لا يعرفون غيره ، وصارت دعوته طبعا لهم ، وقبض كل مال في البلد والثمار والحنطة والشعير ، وأنفذ الرعاة في الإبل والغنم ، وقوما للنزول معها لحفظها والتنقّل معها على نوب معروفة ، وأجرى على أصحابه جرايات فلم يكن يصل أحد إلى غير ما يطعمه ، وهو لا يغفل مع ذلك عن هَجَر ، فلما أضجروه وطال أمرهم وقد كان بلغ منهم الحصار كل غاية ، وأكلوا السنانير والكلاب وكان حصارهم يزيد على عشرين شهرا ، ثم جمع أصحابه وحشد لهم وعمل الدبّابات ، ومشى بها الرجال إلى السور ، فاقتتلوا أشد قتال لم يقتتلوا مثله قبل ذلك ، ودام القتال عامّة النهار ، وكلّ منتصف من الآخر ، وكثرت

(١) فى ك : فلما اجتمع إليه من العرب من اجتمع ...، وفى ت : فلما اجتمع من العرب وغيرهم .

بينهم القتلى ، ثم رجع إلى الأحساء ، ثم باكرهم فناوشوه فانصرف ، فلما قرب من الأحساء أمر الرجّالة ومن جرح أن ينصرف ، وعاود في خيل فدار حول هجر ، وفكّر فيما يكيدهم به ، وإذا لِهَجَر عين عظيمة كثيرة الماء ، يخرج من نشز من الأرض غير بعيد منها ، ثم يجتمع ماؤها فى نهر ويستقيم حتى يمرّ بجانب هجر ملاصقا ، ثم ينزل إلى النخيل فيسقيها ، فكانوا لا يفقدون الماء فى حصارهم ، فلما تبيّن له أمر العين انصرف إلى الأحساء ، ثم غدا فأوقف على باب المدينة عسكرا ، ثم رجع إلى الأحساء وجمع الناس كلّهم وسار فى آخر الليل فورد العين بُكْرَةً بالمعاول والرمل وأوقار الثياب الخلقان ووبر وصوف وأمر قوما بجمع الحجارة وآخرين ينفذون بها إلى العين ، وأعدّ الرمل والحصى والتراب ، فلما [1] اجتمع أمر أن يطرح الوبر والصوف وأوقار الثياب في العين ، وأن يطرح فوقها الرمل والحصى والتراب [1] والحجارة ففعل ذلك ،فقذفته العين ولم يغن ما فعلوه شيئا ،فانصرف إلى الأحساء هو ومن معه ، وغدا فى خيل فضرب فى البرّ ، وسأل عن منتهى العين فقيل له إنّها تتصل بساحل البحر ، وأنّها تنخفض كلّما نزلت ، فردّ جميع من [2] كان معه وانحدر على النهر نحوا من ميلين ثم أمر بحفر [3] نهر هناك ، ثم أقبل هو وجَمعه يأتون فى كل يوم ، والعمّال يعملون حتى حفره إلى السباخ ، ومضى الماء كله عنهم فصبّ في البحر ، فلما تمّ له ذلك نزل على هجر وقد انقطع الماء عمّن بها ،

(١) ساقط من ت

(٢) فى ك : ما .

(٣) فى المخطوطات : بئر والتصويب من ألفاظ الخلفا ص ٢١٧

فأيقنوا بالهلاك فهرب بعضهم نحو البحر ، فركبوه إلى جزيرة ادالى وسيراف وغيرهما ، ودخل قوم منهم في دعوته ، وخرجوا إليه فنقلهم إلى الأحساء ، وبقيت طائفة لم يقدروا على الهرب ولم يدخلوا فى دعوته ، فقتلهم وأخذ ما في المدينة ثم أخربها ، وصارت الأحساء مدينة البحرين .

ذكر الحرب بين القرامطة أصحاب أبى سعيد وأهل عمان

قال : ولما استولى على هجر وخرّبها أنفذ سريّة من أصحابه ستمائة فارس إلى عُمان ، فوردت على غفلة فقتلوا ونهبوا وأسروا في عمل عمان وأنفذ أهل عُمان سريّة إليهم فى ستمائة رجل من أهل النجدة فأدركوهم فجعلت القرامطة ما غنموه وراء ظهورهم ، وأقبلوا نحو أهل عمان فاقتتلوا ، حتى تكسّرت الرماح وتقطّعت السيوف وتعانقوا ، وتكادموا وتراضخوا بالحجارة ، فلم تغرب الشمس حتى تفانوا ، فبقى من أهل عمان خمسة نفر لا حراك بهم ، ومن القرامطة ستة نفر مجرّحين إلا أنهم أحسن حالا من العُمانيّة ، فركب القرامطة ست رواحل وعادوا إلى أبى سعيد ، فأخبروه الخبر واعتذروا إليه ، فلم يقبل عذرهم وأمر بهم فقتلوا ، وقال : هؤلاء خاسوا بعهدى ولم يواسوا أصحابهم الذين قتلوا ، فأنزلت بهم ما كانوا له أهلا ، وتطيّر بهلاك السريّة وأمسك عن أهل عمان .(١)

(١) أورد الاصطخرى ص ٩٠ (ط . ١٩٦١ القاهرة) ... ومنهم الحسن الجنابى ويكنى بأبى سعيد من أهل جنابه ، كان دقاقا أظهر مذهب القرامطة فنفى عن جنابه ، فخرج منها إلى البحرين فأقام بها تاجرا ، يستميل العرب بها ويدعوهم إلى نحلته حتى استجابوا له ، وملك البحرين وما والاها ، فكان من كسره عساكر السلطان وعيثه وعدوانه على أهل عمان وسائر ما يصانبه من بلدان العرب ما قد انتشر ذكره ، حتى قتل وكفى الله أمره .

ذكر الحرب بين القرامطة وعسكر المعتضد بالله وانتصار القرامطة

قال : ولما كان من أمر أبي سعيد الجنّابي ما كان ، اتصلت أخباره بالمعتضد بالله ، وكتب إليه أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي - وهو إذ ذاك يتولى البصرة - يعلمه خبر أبي سعيد ، وأنّه اتّصل به أنّه يريد الهجوم على البصرة ، فأمره المعتضد بالله أن يعمل على البصرة سورا فعمله ، فكان مبلغ ما صرف عليه أربعة عشر ألف دينار ، ثم كتب الواثقي إلى المعتضد يسأله المدد ، فسيّر إليه ثلاثمائة رجل في سماريّات ، وأنفذ المعتضد بالله العبّاس بن عمرو الغنوي في ألفي رجل ، وأقطعه اليمامة والبحرين وأمره بمحاربة القرامطة - وكان يتولّى بلاد فارس - فسار إلى البصرة فوردها وذلك في سنة سبع[1] وثمانين ومائتين ، وخرج منها نحو هجر وبينهما بضع عشرة ليلة في فلاة مقفرة ، وتبعه من مطوّعة البصرة نحو من ثلاثمائة رجل من بني ضبة وغيرهم ، وعرف أبو سعيد خبرهم فسار نحوهم وقدّم أمامه مقدّمة ، فلما عاينهم العبّاس بن عمرو خلف سواده وسار إليهم فيمن خفّ من أهل العسكر وأدرك أبو سعيد مقدّمته في باقي أصحابه ، فتناوشوا القتال فكانت بينهم حملات ، ثم حجز الليل بينهم فانصرفوا على السواء فلما جاء الليل انصرفت مطوّعة البصرة ومن معهم من بني ضبّة ، فكسر ذلك الجيش وفتّ في أعضادهم ، وأصبح العباس بن عمرو فعبّى أصحابه للقتال والتقوا ، فجعل بدرا غلام أحمد بن عيسى بن

(١) في كنز الدر للدواداري ص ٥٧ : تسع .

الشيخ فى نحو مائة من أصحابه على ميمنة أبى سعيد ، فأوغل فيهم فلم يرجع منهم أحد ، وحمل أبو سعيد على العبّاس وأصحابه فانهزموا ، وأسر العبّاس بن عمرو ومعه[1] نحو من سبعمائة رجل من أصحابه ، واحتوى القرامطة على عسكره ، وقتل أبو سعيد من غديومة جميع الأسرى ثم أحرقهم ، وترك العبّاس بن عمرو[1] ومضى المنهزمون فتاه كثير منهم فى البرّ وتلف كثير منهم عطشا ، وورد قوم منهم البصرة فارتاع الناس لهم ، حتى أخذوا فى الانتقال عن البصرة فمنعهم الواثقى .

قال : ولما كان بعد الوقعة بأيام أحضر أبو سعيد الجنّابى العبّاس ابن عمرو ، وقال له : أتحب أن أطلقك ؟ قال : نعم قال : على أن تبلغ عنى صاحبك ما أقول ، قال : أفعل ، قال : تقول الذى أنزل بجيشك ماأنزل بغيُك ، هذا بلد كان خارجا عن يدك غلبتُ عليه وأقمتُ به وكان فىّ من الفضل ما آخذ غيره ، فماعرضتُ لما كان فى يدك ولاهممتُ به ، ولا أخفتُ لك سبيلا ، ولا نلتُ أحدا من رعيّتك بسوء ، فتوجيهك إلىّ الجيوش لأى سبب ؟ ! اعلم إنىّ لا أبرح عن هذا البلد ولا يوصل إليه وفىّ ، وفى هذه العصابة التى معى روح ، فاكفنى نفسك ولا تتعرّضْ لما ليس لك فيه فائدة ، ولاتصل إلى مرادك منه إلابلوغ القلوب الحناجر ، وأطلقه وأرسل معه من يردّه إلى مأمنه ، فأوردوه بعض السواحل فصادف مركبا فركب فيه إلى الأُبلة ، ووصل إلى بغداد فى شهر رمضان من السنة . قال : وقد كان الناس يعظّمون

(١) ساقط من ت .

أمر العباس ويكثرون ذكره ويسمّونه قائد الشهداء ، فلما وصل إلى المعتضد بالله عاتبه على تركه الاستظهار والتحرّز وأنّبه ، فاعتذر بهرب بنى ضبّة ومن كان معهم من المطّوعه وهرب أصحابه عنه ، وأنّه لو أراد الهرب لأمكنه ، فلم يبرح حتى رضى عنه وزال همّه ، ثم سأله عن خبره فعرّفه جميعه ، ووصف له أحوال القرامطة وما قاله أبو سعيد بعد أن استأذنه في ذلك فأذن له ، فقال : صدق ما أخذ شيئا كان في أيدينا ، وأطرق مفكرا ثم رفع رأسه ، فقال : كذب عدوّ الله الكافر ، المسلمون رعيّتى حيث كانوا من بلاد الله ، والله لئن طال بى عُمْر لأشخصنّ بنفسى إلى البصرة وجميع غلمانى ، ولأوجهنّ إليه جيشا كثيفا فإن هزمه وجّهت جيشا ، فإن هزمه خرجتُ في جميع قوّادى وجيشى إليه ، حتى يحكم الله بينى وبينه ، وشغله بعد ذلك أمر وصيف غلام ابن أبى السّاج وأحفزه ، فخرج في طلبه وهو عليل ، وذلك فى شوّال من هذه السنة ، فأخذه وعاد إلى بغداد فدامت علّته واستمرّ وجعه ومات .

قال القاسم بن عبيد الله : مازال أمير المؤمنين المعتضد بالله يذكر أمر أبى سعيد فى مرضه ويتلهّف ، فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : حسرة في نفسى كنت أحب أن أبلغها قبل موتى ، والله لقد كنت وضعت فى نفسى أن أركب ،ثم أخرج إلى باب البصرة متوجّها نحو البحرين ، ثم لا ألقى أحدا أطول من سيفى إلا ضربت عنقه ، وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة .

قال : وأقبل أبو سعيد بعد اطلاق العبّاس على جمع الخيل وإعدا

السلاح واتخاذ الإبل وإصلاح الرجال ونسج الدروع والمغافر ونظم الجواشن وضرب السيوف والأَسنّة واتخاذ الروايا والمزاد والقرب وتعليم الصبيان الفروسية ، وطرد الأَعراب عن قربه وسدّ الوجوه التى يُتعرّف منها أمر بلده وأحواله بالرجال واصلاح أراضى المزارع وأصول النخل وعمارته ، واصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها ، ونصب الأمناء على ذلك ، وإقامة العرفاء على الرجال ، والاحتياط على ذلك كلّه : حتى بلغ من تفقّده واحتياطه أنّ الشاة كانت تذبح فيسلّم اللحم إلى العرفاء ، ليفرّقوه على من يُرسم لهم ، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء ، ويجزّ الصوف والشعر من الغنم ويفرّقه على من يغزله ، ثم يُدفع إلى من ينسجه عبيًا وأكسية وغرائر وجوالقات ويُفتل منه حبال ، ويسلّم الجلد إلى الدبّاغ ، فإذا خرج من الدبّاغ سُلّم إلى خرّازى القرب والروايا والمزاد ، وما كان من الجلود يصلح نعالا وخفافا عمل منه ، ثم يجمع ذلك كلّه إلى خزائن ، فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه ، ويوجّه في كلّ مديدة بخيل إلى ناحية البصرة ، فتأخذ من وجدت فتصير بهم إليه فيستعبدهم ، فزادت بلاده وعظمت هيبته فى صدور الناس .

قال الشريف أبو الحسين : وقد كان وَاقَع بنى ضبّة عند طرده لهم عن قرب بلده ، فأَصاب منهم وأَصابوا منه ، ولم يتباعدوا عنه بعيدا ، فلما شخص مع العبّاس بن عمرو منهم من شخص - فى وقت مسيره لقتاله - ازداد بذلك حنقا عليهم ، فواقعهم وقائع مشهورة بالشدّة والعظم ، ثم ظفر بهم فأَخذ منهم خلقا ، وبنى لهم حبسا عظيما وجمعهم فيه وسدّد عليهم ، ومنعهم الطعام والشراب فصاحوا وضجّوا

فلم يغشهم ، فمكثوا على ذلك شهرا ثم فتح عليهم ، فوجد الأكثر منهم موتى ، ووجد نفرا يسيرا قد بقوا على حال الموتى ، وقد تغذوا بلحوم الموتى ، فخصاهم وخلّاهم فمات أكثرهم .

ذكر مقتل أبى سعيد الجنابى

كان مقتله فى سنة إحدى وثلاثمائة بعد أن استولى على سائر بلاد البحرين ، وكان سبب مقتله أنّه لما هزم جيش العباس بن عمرو كما تقدم ، واستولى على عسكره ، أخذ من عسكره خادما له صقلبيا ، فاستخدمه وجعله على طعامه وشرابه ، فمكث كذلك مدة طويلة لا يرى أبا سعيد فيها مصليا لله عزّ وجلّ صلاة واحدة ، ولا يصوم فى شهر رمضان ولا فى غيره يوما واحدا ، فأضمر الخادم لذلك قتله ، فدخل معه الحمّام [1] يوما – وكان الحمّام فى داره ، فأخذ الخادم معه خنجرا ماضيا – ولم يكن معه فى الحمّام [1] غيره ، فلما تمكّن منه أضجعه فذبحه ، ثم خرج فقال : السيد يستدعى [2] فلانا لبعض بنى سنبر فأحضر فقال : ادخل فدخل ، فبادره فقبض عليه وذبحه ، ولم يزل يستدعى من رؤساء القرامطة واحدا واحدا حتى قتل جماعة من الرؤساء والوجوه ، إلى أن استدعى بعضهم فنظر عند دخوله إلى باب البيت الأوّل دما جاريا ، فاستراب بذلك وخرج مبادرا فلم يدركه الخادم وأعلم الناس ، وعمد الخادم إلى الباب فأغلقه وكان وثيقا ، فاجتمع

---

(١) ساقط من ت ، وهذا السقط جعل الأسلوب فى هذه المخطوطة مضطربا .

(٢) فى المخطوطات : يدعى .

الناس ونقبوا نقوبا إلى أن وصلوا إليه ، فأخذه ابنه سعيد فأمر بشدّه بالحبال ، ثم قرض لحمه بالمقاريض حتى مات رحمه الله تعالى .

وخلّف أبو سعيد من الأولاد : أبا القاسم سعيدا ، وأبا طاهر سليمان ، وأبا منصور أحمد ، وأبا العباس[1] إبراهيم ، والعبّاس محمد ، وأبا يعقوب يوسف . وكان أبو سعيد قد جمع رؤساء دولته وبنى[2] زرقان ، وكان أحدهم زوج ابنته ، وبنى سنبر ، وكان متزوجا إليهم ؛ وهم أخوال أولاده وبهم قامت دولته وقوى أمره ؛ فأوصى إليهم إن حدث به موت أن يكون القيّم بأمرهم ابنه سعيدا إلى أن يكبر أبو طاهر ؛ وكان سعيد أكبر من أبى طاهر سنا ، فإذا كبر أبو طاهر كان المدبّر لهم ، فلما قتل جرى الأمر على ما وصّاهم به ، وكان قد أخبرهم أنّ الفتوح يكون لأبى طاهر ؛ فجلس سعيد يدبّر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلاثمائة ، ثم سلم الأمر لأخيه أبى طاهر ، فدبّره وعمل أشياء موّه بها على عقول أصحابه فقبلوها وعظموا أمره ؛ وكان من أخباره ما نذكره إن شاء الله تعالى ، وكانت مدة تغلّب أبى سعيد على البحرين وما والاها نحوا من ستة عشر سنة[3] .

---

(١) فى اتعاظ الحنفا ص ٢٢١ ، وكنز الدرر ص ٦٢ : أبا إسحاق إبراهيم .

(٢) فى كنز الدرر للدوادارى ص ٦٢ : بنى زبرقان .

(٣) فى ك : شهرا وهو خطأ واضح .

ذكر أخبار أبى القاسم الصناديقى ببلاد اليمن

وفي سنة ست وثمانين ومائتين استولى أبو القاسم النجّار المعروف بالصناديقى على اليمن ، وكان ابن أبى الفوارس داعى عبدان قد أنفذه داعيا إلى اليمن ، وكان هذا الصناديقى من موضع يعرف بالنَّرْس ، وكان يعمل فيه الثياب النرسيّة ، وقيل إنه كان يعمل في الكتّان ، فلما صار إلى اليمن أجابه رجل من الجند يعرف بابن الفضل ، فقوى أمره على اقامة الدعوة الخبيثة ، فدخل فيها خلق كثير ، فخلعهم من الإسلام ، وأظهر العظائم ، وقتل الأطفال وسبى النساء ، وتسمّى برب العزّة وكان يكاتب بذلك ، وأظهر شتم النبىّ صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء ، واتّخذ دارا سمّاها دار الصفوة ،وكان يأمر الناس بجمع نسائهم من أزواجهم وبناتهم واخوانهم ، ويأمرهم بالاختلاط بهنّ ليلا ووطئهنّ ، ويحتفظ بمن تحبل منهنّ في تلك الليلة وبمن تلد من بعد ذلك ، ويتخذهم لنفسه خولا ويسمّيهم أولاد الصفوة ، وعظمت فتنته باليمن ، وأجلى أكثر أهله عنه وأجلى السلطان ، وقاتل القاسم بن أحمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الحسنى الهادى وقلعه عن عمله بصَعْدة ، وألجأه إلى أن هرّب عياله إلى الرسّ حذرا منه لقوّته عليه ، ثم إنّ الله عزّ وجل رزقه الظفر به فهزمه ، وكان ذلك بلطف من ألطاف الله تبارك وتعالى ، وهو أن ألقى على عسكره وقد بايته بردا وثلجا ، قتل به أكثر أصحابه فى ليلة واحدة ، وقلّ ما يعرف مثل هذا من البرد والثلج في ذلك البلد ، ولما طغى وبغى قتله الله بالأكلة وأنزل بالبلدان التى غلب عليها بشرا قاتلا ، كان يخرج على كتف

الرجل [١] منهم بشرة فيموت فى سرعة ، فسمىّ ذلك البثر حبّة القرمطىّ ، وأخرب الله تعالى أكثر تلك البلاد التى ملكها ، وأفنى أهلها بموت ذريع ، واعتصم ابنه بعده بالجبال والقلاع ، ولم يزل بها مقيما يكاتب أهل ملّته ، ويُعَنْوِن كتبه ، من ابن رب العزّة ، ثم أهلكه الله عز [٢] وجل وبقيت منهم بقيّة ، فاستأمنوا إلى القاسم بن أحمد الهادى ، ولم يبق للنجّار بقيّة ولا لمن كان على مذهبه .

ولنرجع إلى أخبار زَكْرُويَه بن مَهَرُويَه وخبر من أرسله إلى الشام .

ذكر ظهور القرامطة بالشام وماكان من أمرهم وحروبهم

قد قدّمنا من أخبار زكرويه بن مهرويه واختفائه وحرص أصحاب عبدان على قتله ، وأنّه لما طال عليه الأمر أرسل ابنه الحسن إلى الشام وذلك فى سنة ثمان وثمانين ومائتين .

قال الشريف أبو الحسين محمد بن على الحسينى [٣] رحمه الله : ولما أرسل زكرويه بن مهرويه ابنه إلى الشام أرسل معه رجلا من القرامطة من أهل نهر ملحانا ، يقال له الحسن بن أحمد ويكنى بأبى الحسين ، وأمره أن يقصد بنى كلب وينتسب لهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، ويدعوهم إلى الإمام من ولده ،فاستجاب له فخذ من بنى

(١) فى ك : الواحد .
(٢) تعالى .
(٣) هو مصدر النويرى فى هذا الموضوع يشير إليه بالشريف ، وهو المعروف بأخى حسن

العليص بن ضمضم بن عدى بن جناب بن كلب[١] بن وبرة ومواليهم وانضاف إليه طائفة من بنى الأصبع من[٢] كلب ، ويسمى هؤلاء بالفاطميين وبايعوه ، وكان الخبيث لما رجع إلى الطالقان يكتب إلى زَكْرُوَيه يستأذنه فى القدوم عليه ، فيجيب بالتوقّف ، فخرج نحو العراق ، فلما وصل إلى السواد وجد زكرويه مختفيا ، فلم يزل حتى توصل إلى المكان الذى هوفيه ، فلم يُظهر له لوما على قدومه وبعث إليه بخبر من استجاب له بالشام ، فقال : أنا أخرج حتى أظهر فيهم هناك ، فوجّه إليه : نِعْم ما رأيت ، فضمّ إليه ابن أخته[٣] عيسى بن مهرويه ، ويسمّى بالمدثّر لقبا وبعبد الله اسما ، وغلاما من بنى مهرويه فتلقّب بالمطوّق وكان سيّاقا ، وأنفذهم إلى الشام ، وكتب إلى ابنه الحسن يعرّفه أنّه ابن الحجّة ، ويأمره له بالسمع والطاعة ، فسار حتى نزل فى بنى كلب ، فلقيه الحسن بن زكرويه وسرّ به ، وجمع له الجمع وقال : هذا صاحب الإمام فامتثلوا أمره ، وسرّوا به وقالوا له : مرنا بأمرك وبما أحببت ، فقال لهم : استعدوا للحرب فقد أظلّكم النصر ، ففعلوا ذلك ، واتصلت أخبارهم بشبل الديلمى مولى المعتضد ، وذلك فى سنة تسع وثمانين ومائتين .فقصدهم فقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه ، وكانت الوقعة بالرصافة من غربى الفرات ، ودخلوا الرصافة وأحرقوا مسجدها ونهبوها ، وأصعدوا نحو الشام ، واعترضوا الناس بالقتل والتحريق ونهب القرى ، إلى أن وردوا أطراف

(١) فى ك : كليب وهو خطأ نسخ ، وفى الكامل حـ٧ ص ٣٥٣ : القليص بن ضمضم ، وبذيله المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ٢٢١٨ .

(٢) فى ك ، ت : بن .

(٣) فى ا ، ت : أخيه وهو خطأ تصححه هاتان المخطوطتان فيما بعد ، بذا والطبرى حـ١٤ ص ٢٢٢٠ والكامل حـ٧ ص ٣٦٢ يجعلانه ابن عمه والغالب أن المخطوطات أدق .

دمشق ، وكان هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ردّ أمر دمشق إلى طُغْج بن جُفْ الفرغانى ، فلقيتهم عساكره فانهزمت ولم تثبت ، وقتل كثير منهم وأخذوا منهم ما قدروا عليه .

قال : ولما هَزَم طغج نزل على دمشق وقاتل أهل البلد ، وكان يحضر الحرب على ناقة ويقول لأصحابه : لا تسيروا من مصافّكم حتى تنبعث بين أيديكم ، فإذا سارت فاحملوا فإنه لا تُردّ لكم دابّة إذ كانت مأمورة ، فسُمّى بذلك صاحب الناقة ، وحصر طغج بدمشق سبعة أشهر ، فكتب طغج إلى مصر بخبر من قتل من أصحابه ، وأنه محصور وقد فنى أكثر الناس وخرب البلد ، فأنفذوا إليه بدرا الكبير غلام ابن طولون – وهو المعروف بالحمّامى – فسار حتى قرب من دمشق وخرج [1] إليه طغج واجتمعوا على محاربة القرامطة ، والتقوا واقتتلوا بقرب دمشق [1] ، فأصاب رئيس القرامطة – ابن القدّاح – سهم فقتله ، ويقال أصابه الزراقون بمزراق فيه نفط. فاحترق ، وحمى أصحابه فقاتلوا عسكر بدر الحمّامى وطغج حتى انحازوا عنهم وانصرفت القرامطة وكان صاحب الناقة هذا المقتول قد ضرب دنانير ودراهم ، وكتب على السكّة على أحد الوجهين : قل جاء الحق وزهق الباطل ، وعلى الوجه الآخر : لا إله إلا الله ، قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القربى .

قال : فلما انصرفت القرامطة عن دمشق بعد قتل الطاغية بايعوا :

---

(١) ساقط من ك ، ت .

الحسن [١] بن زكرويه بن مهرويه

فسمّى نفسه أحمد وتكنى بأبى العباس وهو صاحب الشامة .

قال ابن الأثير : ولما بايعه القرامطة دعا الناس فأجابه كثير من أهل البوادى وغيرهم ، فاشتدت شوكته وأظهر شامة في وجهه ، وزعم أنها آيته[٢] .

قال الشريف أبو الحسين وسياقه أتمّ : ولما بايعوه ثار حتّى افتتح عدّة مدن من الشام ، وظهر على جند حمص ، وقتل خلقا كثيرا من جند المصريين [٣] ، وتسمّى بأمير المؤمنين على المنابر وفى كتبه ، وذلك فى سنة تسع وثمانين ومائتين وبعض سنة تسعين ومائتين ، ثم سار بمن معه إلى نحو الرقّة ، فخرج إليهم مولى الخليفة المكتفى بالله وكان عليها ، فواقعهم فهزموه ، وقتلوه واستباحوا عسكره ورجعوا يريدون دمشق ، وجعلوا ينهبون جميع ما يمرّون به من القرى ، ويقتلون ويسبون ويخربون ، فلما قربوا من دمشق أخرج إليهم طغج جيشا كثيفا أمّر عليه غلامه بشيرا ، فهزم القرامطةُ الجيش وقُتل بشير فى خلق من أصحابه ، فلما اتصل بالمكتفى قتل غلامه الذى كان على الرقّة وخبر قتل بشير ندب أبا الأعزّ السُّلَمى ، وضمّ إليه عشرة آلاف من الجند والموالى والأعراب ، وخلع عليه لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة تسعين ومائتين وأنفذه ، فسار حتّى نزل حلب ثم خرج فنزل وادى بطنان ، فتفرّق الناس ودخل قوم منهم الماء يتبرّدون فيه وذلك فى القيظ ، ووافاهم القرامطة يقدمهم المطوّق ،

(١) ورد اسمه : الحسين فى الطبرى حـ١٤ ص ٢٢١٩ والكامل حـ٧ ص ٣٦٢ ويؤيد لمخطوطات كنز الدرر للدوادارى ص ٧١ واتعاظ الحنفا للمقريزى ص ٢٢٦ .

(٢) فى ك ، ت : أمته والنقل من الكامل حـ٧ ص ٣٦٢ .

(٣) فى ت : البصريين .

فكان كل إنسان يحذر على نفسه وينجو بها ، وركب أبو الأعزّ فرسه وصاح بالناس ، فسار إليه جماعة لقى بها أوائل القوم ، فلم يلبث إلا اليسير حتى انهزم ، وركبت القرامطة أكتاف الناس يقتلون وينهبون حتى حجز الليل بينهم ، وقد أتوا على عامّة العسكر وسلم منهم قليل . ولحق أبو الأعزّ فى جُميعيّة معه بحلب ، ثم تلاحق به قوم حتى حصل فى نحو ألف رجل ، ووافت القرامطة فنازلوا أهل حلب فحاربهم أبو الأعزّ ، فلم يقدروا منه على شىء فانصرفوا ، وجمع الحسين بن زكرويه أصحابه ، وكان قد اتّصل به خلق كثير من اللصوص ومن بنى كلب ، فسار حتى نزل أطراف حمص فخطب له على منابرها . ثم نهض إليها فأعطاه أهلها الطاعة ، وفتحوا له البلد فدخلها ، ثم سار إلى حماة ومَعَرَّة النُّعمَان وغيرهما فقتل الرجال والنساء والأطفال ، ثم رجع إلى بعلبك فقتل عامّة أهلها ، ثم صار إلى سَلَمْيَة فحاربه أهلها وامتنعوا منه ، فأعطاهم الأمان ففتحوا له[1] ، فبدأ بمن كان فيها من بنى هاشم . وكان بها جماعة كثيرة ، فقتلهم أجمعين ، ثم كرّ على أهلها فأفناهم أجمعين وخرّبها ، وخرج عنها وما بها عين تطرف ، وكان مع ذلك لا يمرّ بقرية فيدع فيها أحدا ، حتى أخرب البلاد وسبى الذرارى وقتل الأنفس من المسلمين وغيرهم ، ولم يقم له أحد .

قال الشريف : ووردت كتب التجّار وسائر الناس من دمشق وغيرها بصورة الأمر وغلظه ، وأنّ طغج قد فنيت رجاله وبقى فى عدّة يسيرة ، وأنّ القرامطة تقصد دمشق فى أوقات فلا يقاتلهم إلا العامّة

(١) فى ت هنا تكرار لعبارة سبقت ، قال : وفتحوا البلد فدخلها ، ثم سار إلى حماة ومعرة النعمان وغيرها فقتل الرجال والنساء والأطفال ثم رجع إلى بعلبك فقتل عامة أهلها ثم فبدأ .....

وقد أشرف الناس على الهلكة وكثر الضجيج بمدينة السلام ، واجتمعت العامّة إلى يوسف بن يعقوب القاضى وسألوه إنهاء أخبار الناس إلى الخليفة ، فوعدهم بذلك ، ووردت كتب المصريين على المكتفى بالله يعرّفونه ما قتل من عسكرهم الذى خرج إلى الشام ، وأن القرامطة أفنتهم وأنّهم قد أخربوا الشام ، فأمر المكتفى الجيش بالاستعداد وإخراج المضارب إلى باب الشماسيّة ، وخرج إلى مضربه فى القوّاد والجند ، ورحل لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة تسعين ومائتين ، وسلك طريق الموصل ومضى نحو الرقّة بالجيوش حتّى نزلها وانبثت جيوشه من حلب وحمص ، وقلّد محمد بن سليمان حرب الحسين بن زكرويه ، واختار له جيشا كثيفا ، وكان محمد بن سليمان صاحب ديوان العطاء وعارض الجيش ، فسار نحو القرامطة بجيشه .

ذكر الحرب بين محمد بن سليمان وبين القرامطة وانهزام القرامطة والظفر بالحسن بن زكرويه صاحب الشام وأصحابه وقتلهم

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى : ولما دخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين كتب القاسم بن عبيد الله وهو وزير المكتفى بالله إلى محمد بن سليمان الكاتب يأمره بمناهضة القرامطة ، فسار إليهم والتقى الجمعان يوم الثلاثاء لست خلون من المحرم من هذه السنة ، بموضع بينه وبين حماة اثنا عشر ميلا ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى حجز الليل بينهم ، وقتل عامّة رجالهم ، وورد كتاب محمد بن سليمان الكاتب إلى القاسم بن عبيد الله الوزير ، يخبره بكيفيّة المصاف والقتال ومن

كان فى الميمنة والميسرة والقلب والجناحين من قوّاد عسكره ، وأن القرامطة اجتمعوا ستّة كراديس ، وأن ميسرتهم كان فيها ألف وخمسمائة فارس ، وكمنوا خلفها أربعمائة فارس ، وفى القلب ألف فارس وأربعمائة فارس ، وفى ميمنتهم ألف فارس وأربعمائة فارس ، وكمنوا خلفها مائتى فارس ، وذكر كيف كانت حملاتهم وقتالهم ، وكيف كانت هزيمتهم ، فى كلام مطوّل تركناه اختصارا لطوله ، إلا أنّ ملخّصه أنّ القرامطة قتلوا قتلا ذريعا ، وذكر أن الكردوس الذى كان فى ميسرة القرامطة قصده الحسين بن حمدان ، وكان فى جناح ميمنة عسكر الخليفة ، واقتتلوا أشدّ قتال حتى تكسّرت الرماح وتقطّعت السيوف فصرع من القرامطة ستمائة فى أول دفعة ، وأخذ أصحاب الحسين منهم خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضّة ، وأن القرامطة ولّوا مدبرين فاتبعهم الحسين بن حمدان ، فرجعوا عليه فلم يزل يحمل حملة بعد حملة — وهم فى خلال ذلك يصرعون منهم الجماعة بعد الجماعة — حتى أفناهم الله تعالى ، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتى رجل .

قال : وحمل الكردوس الذى كان فى ميمنتهم على القاسم بن سهل ويُمْن الخادم ، فاستقبلوهم بالرماح فكسروها فى صدورهم وعانق بعضهم بعضا ، فقتلوا من الكفرة جماعة كبيرة . قال : وأخذ بنو شيبان منهم ثلاثمائة فرس[1] ومائة طوق فضّة ، وأخذ أصحاب خليفة بن المبارك منهم مثل ذلك ، وذكر فى كتابه أنه حمل هو عليهم فى القلب ، فمازال أصحابه يقتلون القرامطة — فرسانهم ورجّالتهم — أكثر من خمسة

(١) فى ك ، ت : فارس .

أميال ، وذكر فى كتابه أن الحسن بن زكرويه لم يشهد هذا المصاف وأنّه يشخص إليه إلى سلمية . قال الشريف رحمه الله: وكان الحسن ابن زكرويه - لما أحسّ بقرب الجيوش - عرض أصحابه ، وأخرج الأقوياء منهم عن الضعفة والسواد ، وأنفذ الجيش وتخلّف هو فى السواد والضعفة ، فلما انهزم أصحابه ارتاع لذلك ورحل لوقته وسار خوفا من الطلب ، وتلاحق به من أفلت من أصحابه ، فخاطبهم بأنّهم أتوا من قبل أنفسهم وذنوبهم وأنّهم لم يصدقوا الله ، وحرّضهم على المعاودة إلى الحرب فلم يجبه منهم أحد إلى ذلك ، واعتلّوا بفناء الرجال وكثرة الجراح فيهم ، فلما أيس منهم قال لهم : قد كاتبنى خلق من أهل بغداد بالبيعة لى ، ودعانى بها ينتظرون أمرى ، وقد خلت من السلطان الآن ، وأنا شاخص نحوها لأظهر بها ، ومستخلف عليكم أبا الحسين القاسم بن أحمد صاحبى ، وكتبى ترد عليه بما يعمل به فاسمعوا له وأطيعوا أمره فضمنوا له ذلك ، وشخص معه قريبه عيسى ابن أخت مهرويه المسمّى بالمدثّر وصاحبه المطوّق وغلام له رومىّ ، وأخذ دليلا يرشدهم إلى الطريق وساروا يريدون سواد الكوفة ، وسلك البرّ وتجنّب المدن والقرى ، حتى إذا صار قريبا من الدالية نفد زاده . فأمر الدليل فمال بهم إليها ، ونزل بالقرب منها خلف رابية ، ووجّه بعض من كان معه لابتياع ما يصلحه ، فلما دخلها أنكر زيّه بعض أهلها وساءله عن أمره فورى وتلجلج ، فاستراب به وقبض عليه وأتى به واليها ، وكان يعرف بأبى خُبْزَة يخلف أحمد بن كَشْمَرْد صاحب الحرب بطريق الفرات ، قال : والدالية قرية من عمل الفرات ، قال : فسأله أبو خبزة عن خبره ورهب عليه ، فعرّفه أنّ القرمطى ، الذى

خرج أمير المؤمنين المكتفى بالله فى طلبه ، خلف رابية أشار إليها ، فسار أبو خبزة إلى ذلك الموضع ومعه جماعة بالسلاح حتى أشرف عليهم ، فأخذهم وشدّهم وثاقا وتوجه بهم إلى صاحبه ابن كُشْمرد ، فسار بهم إلى المكتفى وهو يومئذ بالرقّة ، فأمر أن يشهّروا بها ففُعل بهم ذلك ، وألبس الحسن بن زكرويه درّاعة ديباج وبرنس من حرير وهو على بختىّ ، والمدثّر والمطوّق على جملين عليهما درّاعتا ديباج وبرانس حرير ، وهم بين يديه ، وذلك فى يوم الأربعاء لأربع بقين من المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين .

قال : وقدم محمد بن سليمان الكاتب الرقّة والجيوش معه ، بعد أن تتبّعوا ما بقى من القرامطة فأسروا وقتلوا ، فخلف المكتفى بالله عساكره مع محمد بن سليمان بالرقّة ، وشخص فى خاصّته وغلمانه وتبعه وزيره القاسم بن عبيد الله إلى بغداد ، وحمل القرمطى وأصحابه معه ومن أسر فى الوقعة ، وذلك فى أول يوم من صفر سنة إحدى وتسعين ومائتين ، فلما صار إلى بغداد عمل له دميانه غلام يا زمان كرسيّا سمكه ذراعان ونصف ، وركّبه على فيل وأركبه عليه ودخل المكتفى بالله وهو بين يديه مع أصحابه الأسرى ، عليهم دراريع الديباج والبرانس والمطوّق فى وسط الأسرى على جمل ، وهو غلام حدث قد جعل فى فيه خشبة مخروطة قد شدّت إلى قفاه كاللجام ، وذلك أنّهم فى وقت دخولهم الرقّة أكثر الناس الدعاء عليهم ، فكان هو يشتم الناس الذين يدعون عليهم ويبصق عليهم ، وكان دخولهم كذلك لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول من هذه السنة .

قال : فلما وصل المكتفى إلى داره حبسهم ووكل بهم ، ووصل محمد بن سليمان بعد ذلك على طريق الفرات في الجيش ، وقد تلقّط بقايا القرامطة من كل وجه ، فنزل بباب الأنبار في ليلة الخميس لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل من السنة ، فأمر المكتفى القوّاد وأصحاب الشرط بتلقّيه والدخول معه ، فدخل محمد بن سليمان في زى حسن ومعه بين يديه نيّف وسبعون أسيرا ، وخلع الخليفة على محمد بن سليمان وطوّقه بطوق من ذهب ، وسوّره بسوار من ذهب ، وخلع على جميع القوّاد وطوّقوا وسوّروا ، وحبس الأسرى وكان المكتفى بالله وقت دخوله أمر أن تبنى له دكّة فى المصلّى العتيق من الجانب الشرقى ، مربّعة ذرعها عشرون ذراعا فى مثلها وارتفاعها عشرة أذرع يصعد إليها بدرج ، فلما كان يوم الاثنين لأربع بقين من شهر ربيع الأول أمر المكتفى القوّاد وجميع الغلمان وصاحب جيشه محمد ابن سليمان وصاحب شرطته أن يحضروا هذه الدكّة ، فحضروها وصعد الوجوه ووقف الباقون على دوابّهم ، وخرج التجّار والعامّة للنظر وحملوا الأسرى كلّهم مع خلق كثير منهم كانوا بالكوفة وحملوا إلى بغداد وغيرهم ممّن حمل ممّن كان على مذهبهم ، فأحضر جميعهم على الجمال وقتلوا جميعا وعدّتهم ثلاثمائة وستون وقيل ثلاثمائة ونيّف وعشرون ، وقدم الحسن بن زكرويه وعيسى ابن أخت مهرويه . وهما زميلان ، على بغل في عماريّة ، قد أرسل عليهما أغشية ، فأصعدا إلى الدكّة وأقعدا ، وقدم أربعة وثلاثون إنسانا من الأسرى من وجوه القرامطة ، ممّن عرف بالنكاية والعداوة للإسلام والكلب على سفك الدماء واستباحة النساء وقتل الأطفال ، وكان كل واحد منهم

يبطح على وجهه فتقطع يده اليمنى ويرمى بها إلى أسفل ليراها الناس ، ثم تقطع رجله اليسرى ،ثم يده اليسرى ،ثم رجله اليمنى ويرمى بها إلى أسفل ثم تضرب عنقه ويرمى به إلى أسفل ،فلما فرغ منهم قدّم المدثر ففعل به مثل ذلك ثم كوى ليعذب ثم ضربت عنقه ،ثم قدم الحسن بن زكرويه فضرب مائتى سوط. ثم قطعت يداه ورجلاه وكوى وضربت عنقه ، ورفع رأسه على خشبة ، وحملت الرؤوس فصلبت على الجسر ، وصلب بدن الحسن فمكث مصلوبا نحوا من سنة ، ثم سقط. عليه حائط. ودفنت أجساد الأسرى عند الدكة ، وهدمت بعد أيام .

قال الشريف : ومن كتب اللعين الحسن بن زكرويه إلى بعض عمّاله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدى المنصور الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الداعى إلى كتاب الله ، الذابّ عن حريم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين وإمام المسلمين ، ومذلّ المنافقين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد الملحدين ، وقاتل القاسطين ، ومهلك المفسدين ، وسراج المنتصرين ، ومشتت المخالفين ، والقيم بسنة المرسلين ، وولد خير الوصيّين صلى الله عليه وعلى آله الطيّبين وسلّم - كتاب إلى جعفر [1] بن حميد الكردى ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على محمد [2] جدّى رسول ، أما بعد : فقد أنهى إلينا ما حدث قبلك من

(١) فى ك ، ت : حميد بن جعفر الكردى .
(٢) فى ك، ت : ... جدى محمد ...

أخبار أعداء الله الكفرة ، وما فعلوه بناحيتك من الظلم والعبث والفساد فى الأرض فأعظمنا ذلك [١] ، ورأينا أن ننفذ إلى هناك من جيوشنا من ينتقم الله به ، من أعدائنا الظالمين الذين يسعون فى الأرض فسادا فأنفذنا جماعة من المؤمنين [٢] إلى مدينة حمص ونحن فى أثرهم ، وقد أوعزنا إليهم فى المصير إلى ناحيتك ، لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجزينا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا فى أمثالهم ، فينبغى أن يكون [٣] قلبك وقلوب من اتبعك من أوليائنا ، وتثق بالله وبنصره الذى لم يزل يعوّدنا فى كل من مرق [٤] من الطاعة وانحرف عن الإيمان ، وتبادر إلينا بأخبار الناحية وما يحدث فيها ، ولا تخف عنّا شيئا من أمرها .

سبحانك اللهم وتحيّتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على جدى رسوله وعلى أهل بيته وسلم كثيرا.

وكان عمّاله يكاتبونه بمثل هذا الصدر . قال ابن الأثير [٥] : وكان قد نجا من أعيان القرامطة رجل من بنى العليص يسمى إسماعيل ابن النعمان فى جماعة معه ، فكاتبه المكتفى بالله وبذل له الأمان ، فحضر فى نيّف [٦] وستين نفسا ، فأحسن الخليفة إليهم وسيّرهم إلى رحبة مالك بن طوق مع القاسم بن سيما ، فأقاموا معه مدّة وعزموا على

(١) فى ك، ت : لذلك .
(٢) فى ت : المسلمين .
(٣) فى كنز الدرر ص ٧٨ واتعاظ الحنفا ص ٢٣١ : بأن تشد قلبك .
(٤) فى ك، ت : مرت .
(٥) راجع الكامل حـ٧ ص ٣٦٧
(٦) فى الكامل حـ٧ ص ٣٦٧ : مائة ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ٢٢٤٧

إنشاء فتنة بالرحبة ، وكان قد انضم إليهم جماعة كثيرة ، فشعر بهم القاسم فقتلهم فارتدع من كان قد بقى من موالى بنى العليص ، وذلّوا ولزموا السماوة حتى جاءهم كتاب من زكرويه بن مهرويه ، يذكر لهم أن ممّا أوحى إليه أن صاحب الشامة وأخاه يقتلان ، وأن إمامه ، الذى هو حى ، يظهر بعدهما ويظفر .

ذكر خبر ارسال زكرويه بن مهرويه محمد بن عبد الله الى الشام وماكان من امره الى ان قتل

كان الحسن بن زكرويه قد خلف القاسم بن أحمد المكنى بأبى الحسين خليفة على من بسلمية من أصحابه كما قدّمنا ، فقدم سواد الكوفة إلى زكرويه فأخبره بخبر القوم ، الذين استخلفه عليهم ابنه الحسن أنهم اضطربوا عليه ، وأنه خافهم وتركهم وانصرف ، فلامه زكرويه على قدومه لوما كثيرا ، وقال له : ألا كاتبتنى قبل انصرافك إلىّ ، ووجده على ما به تحت خوف شديد من طلب السلطان من وجه وطلب أصحاب عبدان الذى كان قد تسبّب فى قتله من وجه آخر ثم إنّ زكرويه أعرض عن القاسم وأنفذ رجلا من أصحابه ، كان يعلم الصبيان بالزابوقة [1] يقال له محمد بن عبد الله بن سعيد [2] المكنى أبا غانم فى سنة ثلاث وتسعين ومائتين فتسمى نصرا ، وأمره أن يتوجّه إلى أحياء كلب ويدعوهم ، فدار أحياء كلب ودعاهم فلم يقبله

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٣٧٤ : الرافوقة وفى المخطوطات الطبرى حـ١٤ ص ٢٢٥٦

(٢) فى تاريخ الطبرى حـ١٤ ص ٢٢٥٦ والكامل حـ٧ ص ٣٧٤ : عبد الله بن سعيد والمخطوطات أدق لأنها تنقل من مصادر شيعية .

إلا رجل من بنى زياد يعرف بمقدام بن الكيّال ، ثم استجاب له طوائف من الأصبعيين الذين يعرفون بالفواطم ،وقوم من بنى العليص وصعاليك من بنى كلب ، فسار بهم نحو الشام ، وعامل المكتفى بالله يومئذ على دمشق والأردنّ أحمد بن كَيْغَلَغ ، وهم بنواحى مصر على حرب إبراهيم الخليجى ، وكان قد خالف كما قدّمنا ذكر ذلك ، فاغتنم محمد بن عبد الله بن سعيد غيبته فصار إلى مدينتى بُصْرَى وأذرعات فحارب أهلها ثم أمّنهم فلما استسلموا قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأخذ جميع أموالهم ،وسار نحو دمشق فخرج إليه صالح بن الفضل خليفة ابن كيغلغ فيمن معه ، فأثخنوا فيهم وظفروا عليهم ثم غرّوهم ببذل الأمان ، فقتلوا صالحا وعسكره وقصدوا دخول دمشق فدفعهم عنها أهلها فانصرفوا إلى طبريّة ، ولحق بهم جماعة من الجند ممّن سلم بدمشق ، فواقعهم يوسف بن إبراهم ، عامل ابن كيغلغ على الأردن ، فهزموه ، وبذلوا له الأمان ثم غدروا به فقتلوه ونهبوا طبريّه وقتلوا وسبوا النساء ، فأنفذ المكتفى الحسين بن حمدان فى طلبهم مع وجوه من القوّاد ، فدخل دمشق وهم بطبريّة ، فلما علموا بذلك عطفوا نحو السماوة ، وأتبعهم الحسين بن حمدان فى البريّة ، فأقبلوا ينتقلون من ماء إلى ماء يغورون ما يرتحلون عنه من الماء ، فلم يزالوا على ذلك حتى وردوا الماعين المعروفين بالدِمْعَانة والحالّة ، فانقطع عنهم لعدم الماء فمال نحو رحبة مالك بن طوق ، وأسرى عدو الله حتى وافى هيت وهم غازون وذلك لتسع بقين من شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، طلوع الشمس ، فنهب ربض هيت والسفن التى فى الفرات وقتل نحو مائتى إنسان ، وأقام هناك يومين والقوم

متحصّنون ، ثم رحل بما أخذه وبمائتى كرّحنطة إلى نحو الماعين وبقيّة أصحابه هناك ، فلما اتصل الخبر بالمكتفى أرسل إلى هيت محمد بن إسحاق بن كنداجيق ومعه جماعة من القوّاد فى جيش كثيف ، ثم أتبعه بمؤنس الخادم (١) ، فنهض محمد بن إسحاق نحوهم فوجدهم قد غوّروا المياه ، فأنفذ إليه من بغداد بالروايا والقرب والمزاد ، وكتب إلى الحسين بن حمدان بالنفوذ إليهم من الرحبة ، فلما أحسّوا بذلك ائتمروا بصاحبهم نصر ، فوثب عليه رجل من أصحابه يقال له الذيب بن القائم فقتله ، وشخص إلى بغداد متقرّبا بذلك ومستأمنا ، فأسنيت له الجائزة وكُف عن طلب قومه بقتل محمد هذا ، فمكث أياما ببغداد وهرب ، ثم إن طلائع محمد بن كنداجيق ظفرت برأس محمد المقتول هذا ، فحمل إلى بغداد .

قال : ثم إن قوما من بنى كلاب أنكروا ما فعله الذيب من قتل محمد ، ورضيه آخرون فتحزّبوا أحزابا ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى بينهم ثم افترقوا ، فصارت الفرقة التى رضيت قتله إلى ناحية عين التمر ، وتخلف من كره قتله على الماء الذى كانوا ينزلون عليه ، واتصل الخبر بزكرويه بن مهرويه فردّ القاسم إليهم .

(١) فى تاريخ الطبرى ج ١٤ ص ٢٢٥٨ : الخازن .

ذكر ارسال زكرويه بن مهرويه القاسم بن أحمد ودخوله الكوفة وماكان من أمره

قال : ولما اتّصل الخبر بزكرويه كان القاسم بن أحمد عنده ، فردّه إليهم لمعرفتهم به ، فلما ورد عليهم جمعهم ووعظهم ، وقال : أنا رسول وليّكم وهو عاتب عليكم فيما أقدم عليه الذيب بن القائم ، وأنكم قد ارتددتم عن الدين ، فاعتذروا وحلفوا ما كان ذلك بمحبّتهم ، وذكروا ما جرى بينهم وبين أهلهم من الخلف والقتل والبعد بهذا السبب ، فقال لهم : قد جئتكم الآن بما لم يأتكم به أحد تقدّمنى ، وليّكم يقول لكم : قد حضر أمركم وقرب ظهوركم ، وقد بايع له من أهل الكوفة أربعون ألفا ومن أهل سوادها أكثر ، وموعدكم اليوم الذى ذكره الله ، يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فأجمعوا أمركم وسيرو إلى الكوفة ، فإنه لا دافع لكم عنها ، ومنجز وعدى الذى جاءتكم به رسلى ، فسرّوا بذلك سرورا كثيرا وارتحلوا نحو الكوفة ، فلما وردوا إلى القُطْقُطَانَة ، وهى قرية خراب فى البرّ ، بينها وبين الكوفة ستة وثلاثون ميلا ، وذلك يوم الأربعاء قبل يوم عرفه بيوم من سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، خلّفوا بها الخدم والأموال ثم أمرهم أن يلحقوا به عين الرحبة على ستة أميال من القادسية ، ثم شاور الوجوه من أصحابه فى أى وقت يأتى الكوفة ؟ فقال قائل ليلا فلا يتحرك أحد إلا قتلناه ، ويخرج إلينا واليها فى قلة فنأخذه ونقتله ، وقال آخر : نمهل إلى أن ندخلها عشاء فى يوم العيد ، والجند سكارى والبلد خال ، فنقصد باب إسحاق وهو غافل فنأخذه ونقف على بابه ، فلا يأتينا أحد إلا

قتلناه ، فإنهم لا يأتونا إلا نفر بعد نفر ، وكانت شحنة الكوفة يومئذ سبعة آلاف رجل ، إلا أن المقيم بالكوفة يومئذ أربعة آلاف من الدميانية والمصريين وغيرهم ، والناس فيها أحياء [١] والبلد على غاية الاجتماع والحسن وكثرة الناس ، وقال آخرون : نسير ليلتنا ثم نكمن في النجف في شعابه فنريح الخيل والإبل وننام ، ونركب عمود الصبح فنشنّها غارة على أهل المصلّى ، وقد نزل الجند للصلاة وركب غلمانهم الدوابّ ، ونضع السيف وجل أهل البلد هناك ، فقال اللعين : هذا هو الرأى ، فركبوا وساروا حتى حصلوا فى بعض المواضع فناموا ، فلم يوقظهم إلا مسّ الشمس يوم العيد ، لطفا من الله تعالى بالناس ؛ قال : وقد كان أحد ما شغلهم أنهم اجتازوا بقوم من اليهود يدفنون ميتا لهم بالنُّخَيْلَة ، فشغلهم قتلهم فلم يصلوا إلى الكوفة إلا وقد صلى إسحاق بن عمران بالناس [٢] العيد ، وانصرف والناس متبدّدون فى ظاهر الكوفة ومنهم من قد انصرف ، ولاسحاق بن عمران [٢] طلائع تتفقد ، وكان ذلك لأمور قد أرجف الناس بها فى البلد ، من فتن تحدث من غير جهة القرامطة ، وقيل كانت عدّتهم ثمانمائة فارس وأربعمائة راجل : وهم يقاتلون على طمع وشبهة ، فأقبلوا يقدمهم هذا المكنى بأبي الحسين . قال : وكان أحد الألطاف أنّ إسحاق بن عمران قد أحدث مصلّى بالقرب من طرف البلد فصلى فيه ، وكان الرجوع منه إلى البلد سهلا ، فقصدت القرامطة المصلى العتيق ، على ما كانوا يقدرون من اجتماع الناس فيه ، فلم يصادفوا فيه أحدا ،

(١) فى ك ، ت : أمياء .
(٢) ساقط من ت

فأقبلت خيل منهم من تلك الجهة ، فدخلوا الكوفة من يمينها ، فوضعوا السيف حتى وصلوا إلى حبسها ففتحوه ، وقتلوا كثيرا من الناس وأخرجوا خلقا ، فارتجت الكوفة وخرج الناس بالسلاح ، وتكاثر الناس على من دخل الكوفة من القرامطة ، فقذفوهم بالحجارة فقتل منهم جماعة ، وأقبل جل القوم نحو الخندق فقتلوا ناسا ، وناوشهم طوائف من الجند تخلفوا بالصحراء وبعض ما كان أنفذ إسحاق بن عمران طليعة ، فقتلوا بعضهم وأفلت بعضهم إلى البلد ، وكان إسحاق بن عمران قد انصرف فى أحسن زى وأجمله ، فلما صار قرب داره تفرّق الجيش عنه إلا خواصا ، كان قد عمل لهم سماطا فى داره ، فلما سار فى بعض الطريق لحقه فارس من بنى أسد على فرس له بلقاء ، قد طعنت فى عنقها ودمها سائل على كتفها إلى الحافر ، فشق الجند وزاحم غلمانه وجاوز إسحاق بن عمران ، ثم قلب رأس فرسه إليه فوقف له ، فقال : جاءتنا أيها الأمير خيل من الأعراب ، فقتلت وسلبت وخرجت إلى الصحراء ، فلما رددناهم طعنت فرسى ، فقلب إسحاق بن عمران فرسه راجعا ، وأمر بإخراج الجند نحو الخندق ، وبين يدى إسحاق بن عمران نحو من ستين راجلا ، ومعه غلمانه ونفر يسير من الجند ، حتى إذا صار عند قصر عيسى بن موسى ومعه أبو عيسى صالح بن على بن يحيى الهاشمى يسايره فالتفت إليه ، وقال : خذ هؤلاء الرجّالة وامض إلى قنطرة بنى عبد الوهاب - وهى إحدى قناطر الخندق - فاكشفها ، فأخذهم ومضى ، وتقدّم إلى عبد الله الحسين بن عمر العلوى أن يدور فى البلد ويسكّن الناس ، فدار وعليه السواد فسكن الناس ، وخرج كثير

من الناس بالسلاح ، وتفرّق من دخل الكوفة من القرامطة لمّا رماهم أهلها ، وقتل بعض القصابين رجلا منهم بساطور ، وكان فيمن تفرّق منهم رجل من كلب يعرف بالمُقَلْقل ، وهو أحد رجالهم وشجعانهم فى جمع معه ، فأفضى به الطريق إلى دار عيسى بن على ، فلقيهم أحد الفرسان من الجند يعرف بالوردانى ، قد ركب لمّا سمع الصيحة ، فلم يشك أنّهم من الجند لما رأى من كثرة الجواشن عليهم والدروع ، فقال لهم : سيروا يا أصحابنا ، فأمسكوا عنه حتى توسّطهم ثم عطفوا عليه بالسيوف فقتلوه ، وأخذوا دابّته وساروا نحو الخندق للقاء أصحابهم ، فلما صاروا بالصحراء من الكوفة نظر إليهم أبو عيسى ، فلم يشك أنّهم من أصحاب السلطان ، ثم نظر إليهم وقد لقوا جماعة من العامّة ، فأقبلوا يسلبونهم ، فتبيّن أمرهم فحمل عليهم فعدلوا عن سلب أولئك ، وحمل فارسهم المقلقل - وكان رجلا عظيما جسيما - وفى يده سيف عريض ، فالتقى هو وأبو عيسى فطعنه أبو عيسى تحت ثندوته [1] فصرعه ، فحذفه المقلقل بالسيف فأصاب جحفلة [2] فرسه فعقره ، وأمر أبو عيسى بعض الرجّالة فاحتزّ رأسه ووجّه به إلى إسحاق بن عمران ، وقد رفع رأسه ، فكان ذلك أحد ما كسرهم ؛ قال : واجتمعت الخيل والرجّالة فقاتلهم إسحاق بمن معه - وليسوا بالكثيرين - قتالا شديدا ، فى يوم صائف شديد الحرّ طويل إلى الزوال ، وخرج الناس من العامّة فانصرف القرامطة مكدودين

(١) فى ك : ملوية ، وفى ا : سلوبه دون نقط ، وفى ت : سلوته ، قال ثعلب : الثندوة بفتح أوله غير مهموز مثال الترقوة والمرقوة على فعلوة وهى مغرز الثدى (لسان العرب) .
(٢) الجحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير (القاموس المحيط) .

فنزلوا الغدير على ميلين من الكوفة وارتحلوا عشيا نحو سوادهم ، واجتازوا بالقادسية ، وقد وصل إليهم رسول إسحاق بن عمران ، فحذّرهم أمرهم يعنى حذّر أهل القادسيّة ، وعرف يومئذ صبر إسحاق ابن عمران على حملاتهم وتشجيعه لأصحابه .

قال : وأخرج إسحاق بن عمران مضاربه بظاهر الكوفة ، وخرج إليه أصحابه فعسكر ، وبات الناس بالكوفة على غاية الجزع والتحارس ونصب الحجارة على الأسطحة ؛ قال : ولما وصلت القرامطة إلى عين الرحبة وكانوا قد خلّفوا سوادهم هناك ، فرحلوهم وساروا بهم فنزلوا عينا بسرّة العُذَيب تعرف بعين عبد الله ، ثم رحلوا فنزلوا قرية تعرف بالصوّان على نهر هِد من سواد الكوفة ، ثم مضى أبو الحسين إلى قرية تعرف بالدرنه[1] على نهر زياد من سواد الكوفة ، فخرج إليه بها زكرويه وكان من أمره ما نذكره .

ذكر ظهور زكرويه بن مهرويه وقتاله عساكر الخليفة وأخذه الحاج وماكان من أمره الى أن قتل

كان ظهور زكرويه بن مهرويه فى سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، وذلك أنّه لما وصل القاسم بن أحمد إلى الدرنة خرج زكرويه إليه

(١) درنا : قيل كانت بابا من أبواب فارس دون الحيرة بمراحل . قال ياقوت فى معجم البلدان حـ٢ ص ٥٧٠ طبع أوروبا : درتا بالتاء فى أرض بابل ودرنا بالنون باليمامة ، على أن صاحب مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع والذى يعتمد على ياقوت الحموى ذكر الوجه الأول ولم يذكر الوجه الثانى راجع مجلد ١ ص ٣٩٩ ، وفى تاريخ الطبرى حـ١٤ ص ٢٢٦٤ والكامل حـ٧ ص ٣٧٦ : الدرية بالياء ، والمظنون أن نقل المخطوطات أصح أى أنها بالنون هذا وقد أعادت ذكرها بالنون أيضا .

منها ، وكان بها مستترا كما ذكرنا فيما تقدّم ، فقال القاسم للعسكر : هذا صاحبكم وسيّدكم ووليّكم الذى تنتظرونه ، فترجّلوا بأجمعهم وألصقوا خدودهم بالأرض ، وضرب لزكرويه مضرب عظيم وطافوا به وسرّوا سرورا عظيما ،واجتمع إليه أهل دعوته من أهل السواد فعظم جيشه جدا ، وكان إسحاق بن عمران قد كتب إلى العباس بن الحسن[1] وزير المكتفى- يخبره خبر القرامطة ومهاجمتهم على الكوفة وما كان من خبرهم ، وأثنى على من عنده من الجند وذكر حسن بلائهم ، فلما وصل إليه الكتاب قلق له ، وشاور بعض أصحابه فى لقاء الخليفة المكتفى بالله بذلك ، فأشار عليه بتعجيله بذلك ، فقال الوزير : كيف ألقاه بهذا مع ما يحتاج إليه من الأموال ولعهدى به ، وقد ناظرنى منذ يومين فى دينار واحد ، ذكر أنّه فضل بقيّة نفقة رفعت إليه ، فقال له صاحبه : أيها الوزير إنْ أسعفك وإلا ففى أموال خدمك وأسبابك فضل فوظّفها علينا ، وتنفق فيها ، فقال : فرّجت ، والله - عنىّ ، ثم لبس ثيابه وأتى إلى المكتفى بالله فدخل عليه فى غير وقت الدخول فعرّفه الخبر ، فقال له المكتفى : كأنّك يا عباس قد قلت : كيف أخبر أمير المؤمنين بمثل هذا وقد ناظرنى فى دينار فضل نفقة ! فقال : قد كان ذاك يا أمير المؤمنين ، قال : إنّما جرى ذلك لمثل هذا ، فلا تبخل بمال فى مثل هذا ، وأباحه الأموال والإنفاق فى

(١) فى ك ، ت : الحسين ،وقد ذكرت المخطوطتان الاسم بعد ذلك صحيحا ، ويؤيده الطبرى ١٤ ص ٢٢٦٨ .

الرجال ليلا ونهارا ، فأنفذ الوزير جَنِيّ [1] الصفوانى ومباركا القمّى ونحرير العمرى ورائقا وطائفة من الغلمان الحُجرية وجماعة من القوّاد فى جيش عظيم ، فوصل أوائلهم فى اليوم السادس من يوم النحر ، فركب إليهم إسحاق بن عمران وذكر لهم قوّة من لقى من القرامطة ، وأنّه قد مارسهم ، وحذّرهم أن يغتروا بهم ، وقال لهم : سيروا إلى القادسيّة فإنّ بينكم وبينها مرحلة ، وإذا صرتم بها فأريحوا واستريحوا وتجمّعوا ، ثم سيروا إليهم وطاولوهم ونازلوهم فإنّ الظفر يرجى بذلك فيهم عندى ، ولا ترموا بأنفسكم عليهم فإنّهم صبر غير أنكال ، فقال له بشر الأفشينى : إن رأيناهم كفيناك القول يا أبا يعقوب ، إنما نخشى أن يهربوا ، فدعا لهم بالنصر ورحلوا نحو القادسيّة ، فباتوا بها ليلة ورحلوا فى آخرها إلى الصِوّان ، وبين الموضعين نحو العشرة أميال ، ورحلوا بالأثقال والفهود والبزاة وهم على غير تعبئة مستخفّين بهم ، فأسرعوا السير ووصلوا وقد تعب ظهرهم وقلّ نشاطهم وقد عمد القرامطة فضربوا بيوتهم إلى جانب جرف عظيم لنهر هناك وأثقالهم مما يلى البيوت ، والرجّالة فى أيديهم السيوف ، وقتالهم من وجه واحد صفا واحدا قدّام البيوت بقدر نصف غلوة ، والفرسان جلوس خلف الرجّالة ، فلما تراءى الفريقان ركب الفرسان وافترقوا فصاروا جناحين للرّجالة ، وحملوا على الناس فصدقوهم الحملة فانكفأوا راجعين ، وتلاقى الرجّالة من الفريقين ، فأتت رجّالة العسكر على رجّالة القرامطة وألجأوهم إلى البيوت ، وأقبلت الفرسان فنظروا إلى

(١) فى تاريخ الطبرى ج١٤ ص ٢٢٦٥ : جنا وهو خطأ نجده مصححاً فى صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد أخبار سنة ٣١٢هـ مطابقاً للمخطوطات .

الرجّالة ينهبون بيوتهم ، فترحّلوا وحمّلوا خيلهم الأمتعة ، وكانت القرامطة فى مجنبات الناس لما رأوا من صدق القتال ، فلما رأوا الناس قد حمّلوا الدواب والجمازات وتشاغلوا حملوا على الجمازات والبغال بالرماح ، فأقبلت لا يردّها شيء عن الناس تخبطهم ، فانهزم الناس ووُضع السيف فيهم ، وقتل الأكثر وتبع الأقل نحو القادسيّة وفيهم مبارك القمّى ، فأقاموا ثلاثا يجمعون السلب والأسرى ، وجمع زكرويه الآلة والمتاع والأثاث والجمازات ، فقيل إنّه أخذ ثلاثمائة جمل وخمسمائة بغل ممّا كان للسلطان سوى ما أخذ للقواد ، وقيل إنّه قتل ألفا وخمسمائة رجل ، فقوى أصحابه جدا ، ودخل الكوفة فلول الجيش عراة .

ورحل زكرويه يريد الحاج وبعث دعاته إلى السواد ، فلم يلحق به فيما قيل إلا النساء والصبيان ، قال : ولما وقف الخليفة على صورة الأمر عظم عليه وعلى الناس وخافوا على الحجّاج ، فأنفذ المكتفى بالله محمد بن إسحاق بن كنداج لحفظ الحاج وطلب زكرويه ، وضمّ إليه خلقا عظيما وجماعة من القوّاد ونحو ألفى رجل من بنى شيبان واليمن وغيرهم ، وكان زكرويه قد نزل على عين [1] الزبيديّة ، ثم نزل على أربعة أميال من واقصة ، فوافت القافلة لست أو سبع خلت من المحرم من سنة أربع وتسعين ومائتين ، فأنذرهم أهل المنزل بالقرامطة فلم يتزلوا وطووا ، فنجّاهم الله عزّ وجلّ ، وكان

(١) فى المخطوطات مرسومة هكذا الحرسيه ، وبمراجعة منازل الحجاج من العراق إلى مكة نجد الزبيدية ويقول عنها ياقوت الحموى فى معجم البلدان جـ٢ ص ٩١٧ (ط أوروبا) : اسم بركة بين المغيثة والعذيب وبها قصر ومسجد .

معهم من أصحاب السلطان الحسن بن موسى وسما الابراهيمى ، فلما وافى زكرويه واقصة تعرّف الخبر فعرف أنهم قد حذّروهم ، فقتل جماعة من أهل المنزل ونهب وأحرق الحشيش وتحصّن الباقون منه ، ورحل فلقيته الخراسانية من الحجّاج على الأرض البسيطة التى تخرج منها حجارة النار ، يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم ، وليس معهم أحد من أصحاب السلطان ، فرشقوا القرامطة بالنشّاب وقد أحاطوا بهم فانحازوا عنهم ، ثم تقدّم إلى الحاج جماعة منهم فسألوهم : هل فيكم سلطان ، فإنّا لا نريدكم ؟ فقالوا لهم : لا ، إنما نحن قوم حجّاج ، فقال لهم زكرويه : امضوا ، فرحلوا وأمهلهم حتى ساروا ثم قصدهم ، يبعج الجمال بالرماح حتى كسر بعضها بعضا واختلطت ، ووضع السيف فقتل خلقا عظيما واستولى على الأموال .

وقدم محمد بن إسحاق بن كنداج الكوفة ثم رحل إلى القادسية فلما وقف على خبر مسيرهم نحو واقصة أنفذ عَلّان بن كُشْمَرْد فى خيل جريدة ، حتى لقى فلّ الخراسانيّة فأشاروا عليه أن يلحق الحاج فإنّ القافلة الثانية تنزل العقبة الليلة أو من غد ، فحُثّ حتى تسبق إليها فتجتمع أنت ومن فيها على قتال الكفرة ، الله الله فى الناس أدركهم ، فرحل راجعا نحو القادسية وقال : لا أغرّر برجال السلطان للقتل ، فلقى بعد ذلك من المكتفى شرا ؛ وورد زكرويه العقبة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرم وفى القافلة مبارك القمّى وأحمد ابن نصر الديلمى وأحمد بن على الهمذانى ، وقد كانت كتب المكتفى اتصلت إلى أمراء القافلة الثانية والثالثة مع رسله ، يأمرهم أن يتجنّبوا الطريق ويرجعوا إلى المدينة ، ويأخذوا على طريق البصرة أو غيرها

فلم يفعلوا ذلك ، ولما التقوا اقتتلوا قتالا شديدا فكانت الغلبة لأصحاب السلطان حتى لم يشكّوا فى ذلك ، ثم خرج اللعين زكرويه إلى آخر القافلة وقد رأى خللا هناك ، فعمل فى الجمال كما عمل فى جمال الخراسانية ، وقتل سائر الناس إلا يسيرا استعبدهم أو شريدا ، ثم أنفذ خيلا فلحقت من أفلت من أوائل القوم حتى ردّوهم إليه ، فقتلهم وأخذ النساء وجميع ما فى القافلة ، وقتل مباركا القمّى ومظفّراً ابنة وأسر أبا العشائر ، فقطع يديه ورجليه وضرب عنقه ، وأطلق من النساء ما لا حاجة له فيها ، ووقع بعض الجرحى بين القتلى حتى تخلّصوا ليلا ، ومات كثير من الناس جوعا وعطشا ، وورد من قدّم من الناس يخبرون أن نساء القرامطة كنّ يطفن بين القتلى فيقلن : عزيز علينا ، من يرد ماء نسقيه ، فإن كلّمهنّ جريح مطروح أجهزن عليه ، قال : ويقال إنّ جميع القتلى كانوا نحوا من عشرين ألفا ، وأخذ من الأموال ما لا يحصى كثرة .

قال : ولما اتصل خبر القافلتين بمدينة السلام جاء الناس من ذلك ما شغلهم ، وتقدّم السلطان باخراج المال وإزاحة العلل ، وأخرج العباس بن الحسن ومحمد بن داود الجرّاح الكاتب المتولى دواوين الخراج والضياع بالمسير إلى الكوفة لانقاذ الجيش منها ، وحمل معه أموالا عظيمة ، وقال : كلّما قرب نفاد ما معك كاتبنى لأمدّك بالأموال ، وخرج إليها يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم ، وقدّم خزانة سلاح جعلها بالكوفة فمازالت بقاياها هناك إلى أن أخذها الهَجَرىّ . قال : ثم رحل زكرويه يريد القافلة الثالثة فلم يدع ماء فى طريقه إلا طرح فيه جيف الموتى ، ونزل زُبَالة فقتل من

بها من التجار ، ونهب الحصن وبث الطلائع خوفا من لحوق عسكر السلطان به ، فلما أبطأت القافلة عليه فنزل الشُّقُوق ثم نزل فى رمل يقال له الهَبِير والطليح ، وأقام ينتظر القافلة وفيها من الفوّاد نُفَيْس المُوَلَّدى ،وعلى ساقتها صالح الأسود ومعه الشَّمْسَة ، وكان المعتضد جعل فيها جوهرا نفيسا ومعه الخزانة ، وكان فى القافلة من الوجوه إبراهيم [1] بن أبى الأشعث ، ومعه كاتبه المنذر بن إبراهيم وميمون ابن إبراهيم الكاتب وكان إليه ديوان الخراج ، والفرات بن أحمد ابن محمد بن الفرات ، والحسن بن إسماعيل قرابة العبّاس بن الحسن ، وعلى بن العبّاس النَّهيكى وغيرهم من الرؤساء ، وخلق من مياسير التجّار وفيها من المتاجر والرقيق ما يخرج عن الوصف ، وفيها جماعة من الأشراف منهم أبو عبد الله أحمد بن موسى بن جعفر وجماعة من أهله ، فأصاب بعضهم جراحات وأسر بقيّتهم ، فعرفهم بعض المولّدين من وجوه عسكره فأخبره بهم ، فخلّى لأبى عبد الله أحمد بن موسى وأهله الطريق ، ومكّنهم من جمال تحمّلوا عليها ، وكان أحمد بن موسى أحد من دخل بغداد وخبّر السلطان بأمرهم وجلالة حالهم ؛ وأقاموا بفَيْد وقد اتّصل بهم أنّهم ينتظرون مددا من السلطان ففعل ابن كشمرد ما فعل من رجوعه إلى القادسيّة ولم ينجدهم ، فلمّا طال مقامهم نفذ ما فى المنزل وغلا السعر جدا ، وجلوا عن الأجفر والخزيميّة ثم الثعلبية ثم الهَبير ، فلم يستتم نزولهم حتى ناهضهم زكرويه فقاتلهم يومهم كلّه ؛ ثم باتوا على السواء ، ثم باكرهم فقاتلهم

(١) فى المخطوطات : إبراهيم بن الاشعث والتصويب عن الطبرى جـ١٤ ص ٢٢٧٤

فبينما هم كذلك إذ أقبلت قافلة العُمرة ، وكان المعتمرون يتخلّفون للعمرة بعد خروج الحاج إذا دخل المحرّم ، وينفردون قافلة واحدة وانقطع ذلك من تلك السنة ، فاجتمع الناس وقاتلوهم يومهم ، ونفذ الماء وعطشوا ولا ماء لهم هناك ، وباتوا وزكرويه مستظهر عليهم ، ثم عاودوهم القتال حتى ملك القافلة ، فقتل الناس وأخذ ما فيها من حريم ومال وغير ذلك ، وأفلت ناس قليل قتل أكثرهم العطش ، ثم سار مصعدا نحو فيد فتحصّن منه أهلها ، فطاولهم فصبروا عليه ونزل منهم ثمانية عشر رجلا بالحبال من رأس الحصن ، فقاتلوا رجّالتهم قتالا شديدا وقد أسندوا ظهورهم بسور الحصن ، ورمى أهل الحصن بالحجارة ؛ قال : سمعت داود بن عتّاب الفيدى - وكان نبيلا صدوقا - قال : نزلنا إليهم نحو أربعين رجلا متّزرين بالسراويلات ، وقد كان لحقهم - لا أدرى - عطش قال أو جوع ، قال : فطردناهم فمالوا [1] إلى حصن يقرب منّا ، قد كان بيننا وبين أهله عداوة قديمة ، فأخذوا منهم الأمان ونزلوا ليفتحوا لهم ، فقال بعضنا لبعض : إن ظفروا به أخذوا منه ما يحتاجون إليه ، وعادوا إليكم ، قال : فطرحنا أنفسنا عليهم وأحسّ بذلك أهل الحصن فقويت قلوبهم ، وخرجوا فكشفناهم ، وتبعهم جماعة منّا فسلبوا منهم جمالا ، وكان ذلك سبب صلاحنا مع أصحاب الحصن .

قال الشريف : ولم يبق دار بالكوفة وبغداد والعراق إلا وفيها مصيبة وعَبرة سايلة وضجيج وعويل ، حتى قيل إنّ المكتفى اعتزل

(١) ف ك ، ت : فما زالوا .

النساء هما وغما ، قال : وخفى أمر زكرويه ، لا يُعلم أين توجه ، وقد كان أخذ ناحية مطلع الشمس ، فتقدّم المكتفى يتتبّع أحواله وإشحان البلدانَ – التى يخاف مصيره إليها – بالرجال ، وأنفذ وصيف ابن صوارتكين ولجُيْم بن الهيصم والقاسم بن سيما فى جيش عظيم بالميرة والزاد والمال والجمال ، لاستقبال الناس وإزاحة عللهم ، وتقدّم يطلب زكرويه حيث كان ، إلى أن وردت كتب أهل فيد بخبره ، فكوتب عند ذلك إسحاق [1] بن كنداج بأن يلزم القادسيّة ونواحى الكوفة بجيشه ، وكوتب لُجَيْم بالمسير إلى خَفَّان ومعارضة زكرويه حيث كان ، وأن ينفذ الطلائع والأعراب ويُرغَّبوا فى تتبّع حاله حتى يعرف ، فجاءت الأخبار بما غلب على ظنّهم ، أنّه لم يخط ناحية البصرة وأنّه يقصد الاجتماع مع أبى سعيد الجنّابى وهو المقدّم ذكره ، فاجتمع القوّاد وتشاوروا واستقبلوا طريقا يقال له الطريق الشامى ، ويقال له طريق الطَّنْ وهو بين الكوفة والبصرة ، وعملوا على المقام هناك ليكونوا بين الكوفة وواسط والبصرة ، فساروا مستدبرى القبلة مستقبلى البصرة يرتحلون من ماء إلى آخر ، حتى نزلوا يوم السبت لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين ومائتين ركيا فيه ماء بقرية خراب يقال لها صُمَاخ ، كان يسكنها على قديم الدهر قوم من ربيعة يقال لهم بنو عنزة ، وبين هذا الموضع وبين البصرة ثلاثة أيام ، فلقيهم قوم من الأعراب فخبّروهم أن القرامطة بالثَنِىّ ، وهو موضع من ذى قار الذى كانت فيه وقعة العرب مع العجم فى أيام

(١) المعنى هو محمد بن اسحاق بن كنداجيق .

كسرى ، وهو واد كثير الماء العذب وبينه وبين صُماخ عشرة أميال ، فبات الجيش بصماخ وتراءت الطلائع فى عشى يومئذ ، ورحل زكرويه من غد وهو طامع بالظفر ، فالتقوا بقرية خراب يقال لها إرمَ ، بينها وبين الثَنِيّ ثلاثة أميال ، وذلك يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول ، فاقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان جميعا ، ثم انهزم كرويه فقتل الجيش أكثر من معه ، وأسر خلق كثير منهم وأفلت صعاليك من العرب على الخيل مجرّدين ، ووصل إلى زكرويه — وهو فى القبّة — فى أوائل السواد ، فظنّوا أنّه فى الخيل التى انهزمت ، فقذف رجل بنار فوقعت فى قُبّته فخرج من ظهرها فألقى نفسه من مؤخّرها ولحقه بعض الرجّالة — وهو لا يعرفه — فضربه على رأسه ضربة أثخنته فسقط إلى الأرض فأدركه صاحب لِلُجَيْم كان يعرفه فأخذه وصار به إليه ، فأخذه لجيم وأركب الذى جاء به نجيبا فارها ، وقال له : طِرْ — إن أمكنك — حتى تأتى بغداد ، وعرّف العبّاس بن الحسن الوزير أنّك رسولى إليه ، واشرح له ما شاهدت وسلّم إليه الخاتم ؛ فسار حتى دخل بغداد وأعلمه بالخبر .

قال : ومضى لجيم إلى وصيف والقاسم بن سيما فعرّفهما خبر زكرويه واجتمعوا جميعا وكتبوا كتاب الفتح ، ونهب الجيش عسكر القرامطة وأخذت زوج زكرويه واسمها مؤمنة وأخذ خليفته وجماعة من خاصّته وأقربائه وكاتبه ، وانصرف العسكر نحو الكوفة فمات زكرويه بخَفَّان من جراحات أصابته ، فصُبّر وكُفّن وحمل على جمل إلى بغداد ، وأدخلت جثّته وزوجته وحرم أصحابه وأولادهم والأسرى ورؤوس من قتل بين يديه وخلفه ونساؤه فى الجوالقات .

قال ابن الأثير [١] : وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام ، فأوقع بهم أصحاب الحسين بن حمدان فقتلوا عن آخرهم ، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه يعرف أحدهما بالحدّاد والآخر بالمنتقم وهو أخو امرأة زكرويه ، كانا قد توجّها إليهم يدعوانهم إلى الخروج إلى صاحبهم ، فسيّروهما إلى بغداد ، وتتبّع الخليفة القرامطة بالعراق فقتل بعضهم وحبس بعضهم ، وبادت هذه الطائفة منهم بالعراق مدّة .

ذكر أخبار من ظهر من القرامطة بعد مقتل زكرويه بن مهرويه

قال الشريف أبو الحسين : ولمّا قتل زكرويه سكن أمر القرامطة وانقطعت حركاتهم وذكر دعوتهم ، فلما دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين خرج رجل من السواد من الزُطّ يعرف بأبي حاتم ، فقصد أصحاب البُوراني خاصة ، وكان هذا البوراني داعيا وأصحابه يعرفون بالبورانيّة ، فلما ظهر أبو حاتم حرّم عليهم الثوم والكرّاث والفجل ، وحرّم عليهم إراقة الدم من جميع الحيوان ، وأمرهم بأشياء لا يقبلها إلا الأحمق السخيف من ترك الشرائع ، وهذه الطائفة من القرامطة تعرف بالبقليّة .

وأقام أبو حاتم هذا نحو سنة ثم زال ، ثم اختلفوا بعده وكانوا أهل قرى بسواد الكوفة ، فقالت طائفة منهم زكرويه بن مهرويه

---

(١) راجع الكامل ج٧ ص ٣٨١ .

حى ، وإنّما شبّه على الناس به ، وقالت فرقة منهم الحجة لله محمد ابن إسماعيل .

ثم خرج رجل من بنى عجل قرمطى يقال له :

محمد بن قطبـة

فاجتمع له نحو من مائة رجل ، فمضى بهم إلى نحو الجَامِدَة من واسط ، فنهب وأفسد فخرج إليهم أمير الناحية فقتلهم وأسرهم .

ذكر أخبار

أبى طاهر سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى

قد قدّمنا أخبار أبيه أبى سعيد وحروبه وما استولى عليه ، وذكرنا خبر مقتله وولاية ابنه سعيد ، وأنّه سلّم الأمر إلى أخيه أبى طاهر سليمان ، هذا فى سنة خمس وثلاثمائة ، وقد قيل بل عجز سعيد عن الأمر فغلبه عليه أخوه أبو طاهر سليمان . قال : وكان شهما شجاعا ، وكان الخليفة المقتدر بالله قد كتب إلى أبى سعيد كتابا ليّنا فى معنى من عنده من أسرى المسلمين ، وناظره وأقام الدليل على فساد مذهبه ، فلما وصلت الرسل إلى البصرة بلغهم موته ، فكتبوا بذلك إلى الخليفة فأمرهم بالمسير إلى ابنه ، فأتوا أبا طاهر بالكتاب فأكرم الرسل وأطلق الأسرى وأجاب عن الكتاب ، ثم تحرّك أبو طاهر بعد ذلك فى سنة عشر وثلاثمائة ، وعمل على أخذ البصرة فعمل سلالم عراضا ، يصعد على كل مرقاة اثنان بزارفين - إذا احتيج إلى نصبها وتخلع إذا أريد حملها ، ورحل بهذه السلالم المزرقنة يريد البصرة ،

فلما قرب منها أمهل إلى أن جنّ الليل ، وأمر باخراج الأسنّة وقد كانت وضعت في رمل كيلا تصدأ فركّبت على الرماح ، وفرّق الجنن [١] على أصحابه ، وحشيت الغرائر بالرمل وحمّلت على الجمال وحمّلت أشياء من حديد قد أعدّت لما يحتاج إليه ، ثم سار بأصحابه إلى السور قبل الفجر ، فوضعوا السلالم وصعد عليها قوم من جلداء أصحابه ، وتقدّم إليهم بقتل من يتكلم من الموكّلين بالأبواب ، ودفع للآخرين ما أعدّه لكسر الأقفال ، وقد كان التوانى وقع فى أرزاق الموكّلين على الأبواب ، فتفرّقوا للمعاش إلا بقيّة من المشايخ القدماء فإنّ أرزاقهم كانت جارية عليهم ، فصادفوا بعضهم هناك تلك الليلة فتسوّروا ونزلوا ووضعوا السيف عليهم ، وجاء الآخرون فكسروا الأقفال ودخل القرامطة ، فأوّل ما عملوا أن طرحوا الرمل المحمول معهم فى الأبواب نحو ذراع ، ليمنعوا غلقها إلا بتعب ، وساروا ونذر بهم قوم فبادروا سُبُكا [٢] المُفْلِحى وهو يومئذ الأمير فأعلموه ، فركب وقد طلع الفجر ومعه بعض غلمانه فتلقوه وقتلوه ، وفزع الناس وركبت الخيل فقتل من تسرّع منهم ، وكانت العامّة قد منعها السلطان أن تحمل سلاحا ، فاجتمعوا بغير سلاح ومعهم الآجر ، وحضر سُبُك واجتمعت الجند ووقعت الحرب ، فأصابت القرامطة جراحات والقتل فى العامّة كثير ، واستمرّ ذلك إلى آخر النهار واختلاط الظلام ، ثم خرج القرامطة وقد قتلوا من الناس مقتلة عظيمة إلى خارج

---

(١) الجنان والجنانة بالضم : الترس (أقرب الموارد) .

(٢) فى المخطوطات : شبلا وتصويبه عن صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ص ١١١ (ط أوروبا) والكامل جـ٨ ص ١٠٥ .

البلد فباتوا خارج الدرب ، وخرج الناس بعيالاتهم فركبوا السفن ، وباكر أبو طاهر البلد فنزل دار عبد السلام الهاشمى ، وتفرّق أصحابه فى البلد يقتلون من وجدوا وينهبون ما يجدون فى المنازل ، ويُحمل ذلك إلى موضع قد أمر بجمعه فيه .

وحكى ابن الأثير فى تاريخه الكامل (١) : أن دخولهم البصرة كان فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ، وأنه وصل إليها فى ألف وسبعمائة رجل ، وأقام بها سبعة عشر يوما يحمل منها ما يقدر عليه من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان ، وعاد إلى بلده .

قال الشريف : وتراجع الناس فاشتغلوا بدفن من قتل ، ولم يرُدّ كثير منهم حريمه خوفا من عود القرامطة ، قال : ولما اتصل خبر هذه الحادثة بالسلطان أنفذ ابن نُفَيْس (٢) فى عِدة وعُدة فسكن الناس ، وولى البلد فشحن السور بالرجّالة ، وتحرّز الناس وأعدوا السلاح ؛ قال : وكان أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان قد قلّد أعمال الكوفة وقصر ابن هبيرة والسواد وطريق مكة ، فجرى بينه وبين البورانى وقائع عظيمة حتى ردّهم عن عمله بشجاعته وإقدامه ، فعمرت البلاد وأمن الناس وصلحت الطرق واستقام عزّ السلطان ، فوقف القرمطى من ذلك على ما هاله ، وكانت جواسيس أبى طاهر لا تنقطع عن العراق فى صور مختلفة ، واتّصل به أنّ أبا الهيجاء يهوّن أمره ويتمنّى أن ينتدب لحربه ، فخاف ذلك ولم يأمنه .

---

(١) راجع جـ٨ ص ١٠٥ .

(٢) هو بنى بن نفيس .

ذكر أخذ أبى طاهر الحاج
واسره ابن حمدان وماكان من أمره فى اطلاقه

كانت هذه الحادثة فى سنة ثنتى عشرة وثلاثمائة ، وذلك أن أبا طاهر بن أبى سعيد الجنّابى القُرمطى أنفذ رجلا من جواسيسه إلى مكة فى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ، وقد خرجت قوافل الحاج مع أبى الهيجاء بن حمدان فى تلك السنة ، فكان الجاسوس يقوم على المحجّة فيقول : يا معشر الناس ادعوا على القرمطى عدوّ الله وعدوّ الاسلام ، ويسأل عن أمير الحاج وفى كم هو وكم أرزاقهم ، ويسأل عمّن خرج من التجّار وما معهم من الأموال ، فكان ذلك دأبه حتى قضى الحج ، ثم خرج فى أوّل النفر فأسرع إلى سواد باهلة ، ثم إلى اليمامة وصار إلى الأحساء فى أيام يسيرة ، فأخبر سليمان القُرمطى بصورة الأمر ، فوجّه سليمان من يثلّ (١) الآبار بينه وبين لُبْنَه (٢) وبعض آبار لُبْنه ويسوّى حياضها ، وورد بعض الأعراب إلى أبى الهيجاء — وهو بعيد ينتظر رجوع الحاج وذلك فى آخر ذى الحجة من السنة — فأخبره أنّ آبار لبنه قد ثلّت فاستراب بذلك ، وجاء بعض الأعراب بجِلّة (٣) فيها قطعة من تمر هجّر فتيقّن أمر القرامطة ، فشغل ذلك قلبه ، وجاءه ما لم يقدره ولا ظنّه فاضطرب من ذلك اضطرابا شديدا ، وورد حاتم الخراسانى بقافلة

---

(١) ثل البئر : أخرج ترابها (أقرب الموارد) .

(٢) قال أبو زياد : و لعمرو بن كلاب واد يقال له لبنى كثير النخل وليس لبنى كلاب شىء من بلادها نخل غيره (معجم البلدن لياقوت ج٤ ص ٣٤٧ ط . أوروبا) والمخطوطات تكتب الكلمة بالهاء .

(٣) الجلة بالضم قفة كبيرة للتمر (أقرب الموارد) .

الحاج من مكة ثانى ذلك اليوم ، ومعه قافلة عظيمة ، فزاد ذلك فى شغل قلب أبى الهيجاء لخوفه عليه ، ولم يظهر ذلك لحاتم ولا لغيره ثم ارتحل فلم يعترض عليه ، فلما صار حاتم بالثعلبيّة أتى إليه شىء من أخبار القرامطة وأنّهم بلُبنه ، وكان القرمطى رحل من بلده فى ستمائة فارس وألف راجل ، وسار حاتم فاجتاز بالهبير ليلا فلم ينزله ، وسار حتى نزل الشقوق ، وأغذّ السير وسلّمه الله ومن معه ، ونزلت بفيد قافلة أخرى من غد رحيل حاتم من الخراسانيّة ، ثم ساروا عنها حتى إذا كانوا بالهبير ظهر لهم أبو طاهر سليمان القرمطى ، فقتل بعضهم وأفلت البعض حتى وردوا الكوفة ، فاشتد خوف الناس بالكوفة على الحاج واضطربوا ، إلا أن نفوسهم قويّة بمقام أبى الهيجاء بفيد ، وكان أبو الهيجاء قد أنفذ رجلا طائيا يعرف له أخبار القرامطة ، يقال له مسبع بن العيدروس من بنى سِنْبِس - وكان خبيرا بالبرّ ، وتقدّم إليه أن يسرع إليه بالخبر ويعدل عن الطريق ، ومعه جماعة قد أزاح عللهم فى الرزق والمحمل ، فساروا حتى قربوا من لُبنه فنزل إليهم فارسان ، فركبوا خيولهم وتلقّوهما فتطاردوا ، وقصّرا فى الركض وهبطا واديا خلفهما وخرجا منه ، ولحقتهم الخيل فساروا على أرض جدب ، فدفع عليهم نحو من سبعين فارسا ، فلم ينته حتى طعنت فيهم وضربت ، فرجع القوم على خيل مطرودة وخيول القرامطة مستريحة ، فبالغوا فى دفعهم بكل جهد فلم تك إلا ساعة حتى قتلوا جميعا ، وأسروا مسبعا دليل القوم فحملوه إلى لبنه ، فسأله القرمطى وقال : إن صدقتنى أطلقتك ، فلما أخبره أمر بحفظه ، قال : ولم يمض لأبى الهيجاء يومان بعد إرسال الطليعة حتى وردت قوافل الحاج

وأصحاب السلطان معها ، وفيها من الوجوه أحمد بن بدر ، عم السيدة أم المقتدر بالله ، وشفيع الخادم ، وفلفل الأسود صاحب خزانة السلطان ، وإسحاق بن عبد الملك الهاشمى صاحب الموسم وغيرهم ، فأعلمهم أبو الهيجا الخبر فأجالوا الرأى ، فقال لهم : قد أنفذت رجالا أثق بهم طليعة ، وأخذت عليهم ألا يرجعوا حتى يشربوا من لبنه والصواب التوقف عن الرحيل لننظر ما يأتون به ، فعملوا على ذلك وأقاموا بفيد ستة أيام ، ونزلت القافلة الوسطى فيد وكثر الناس وغلت الأسعار ، ولم يقدروا على حشيش للعلف ولا خبز ، فضجّ الناس وأجمعوا على الرحيل فرحلوا عن فيد يوم الأحد ، وخلّف أبو الهيجاء ابن أخيه على بن الحسين بن حمدان بفيد ، فى خيل ينتظرون الحاج الذى مع قافلة الشَّمْسَة ؛ قال : وكان الحاج قبل ذلك يسيرون قافلة بعد قافلة لكثرتهم ، ومن أراد أن يسير بعد الحاج سار ، ومن أراد أن يتخلّف ليعتمر فى الحرم تخلّف ، وكان الأمر يحملهم على ذلك فيسيرون قافله بعد قافلة ؛ قال : ثم وردت قافلة الشَّمسَة فيد ، فجاءهم بعض التجار بخبر ما اتصل بأبى الهيجاء ، وكان فى القافلة أبو عيسى صالح ابن على الهاشمى ، وجماعة من العبّاسيين ، وأبو محمد بن الحسن[1] ابن الحسين العلوى وعمر بن يحيى العلوى وغيرهما من الطالبيين وتجار الكوفة ، فتجلّت حقيقة الأخبار من أمر القرامطة ، فاجتمعوا فى مضرب أبو عيسى وتشاوروا ، فاجتمع رأيهم على المقام بفيد إلى أن ترتحل القافلة ، ثم ينظروا لأنفسهم فى عرب يخرجون معهم إلى الكوفة ، فأقام

(١) فى ك ، ت : أبو محمد الحسن بن الحسين العلوى ، وبالرجوع إلى أعيان الشيعة ج ٢١ ص ٥ ، ص ٢٢٠ ١٦ يتبين صواب ا .

الناس بفيد يومهم ثم رحلوا بكرة ، فلما جاوزوا المنزل افتقد على ابن الحسين بن حمدان من تخلّف من القافلة ، فسأل عنهم فأخبر بتخلّفهم فرجع إلى فيد ومعه بعض أصحابه فاجتمع بهم ، وسألهم عن تخلّفهم فقالوا بأجمعهم لاتحبّ سلوك هذه الطرق ، ودافعوا عن الأخبار بسبب تخلّفهم ، وقالوا له : أنت وعمّك بريّان منّا ، قال : اكتبوا إلىّ خطوطكم بذلك ، ففعلوا ، وانصرف فسار بالناس فلما وصل إلى عمّه أبي الهيجاء عرّفه ذلك ، فلامه عليه وقال : وددت أنّ جميع من ترى كان معهم ، قال : ولمّا سارت القافلة مع على بن الحسين بن حمدان أحضر هؤلاء الذين تخلّفوا بفيد ابن نزار وابن توبة تاجرين من أهلها ، فعرّفوهم حاجتهم إلى من يسلك بهم إلى الكوفة على غير طريق الحاج ، فجمعوا لهم جماعة من سنبس وتوصلوا بهم إلى بنى زبيد من الطائيين ، ثم أخذوا ينزلون على العرب يقاتلون من قاتلهم ، ويصلون من استرفدهم ويبرّون ويخلعون ، فسلّمهم الله حتى وردوا الكوفة ، وذلك بعد شدائد عظيمة وقتال في مواضع ، ولم يسلم من الحاج غيرهم والقافلة الأولى التى كانت مع حاتم .

قال : ولمّا وصل على بن الحسين بن حمدان إلى عمّه أبى الهيجاء اجتمعت القوافل ، وكثر الناس ، وتجلّى لهم خبر القرامطة وصحّ ، فسار أبو الهيجاء بالناس إلى الخزيميّة ثم إلى الثعلبيّة ، ثم ساروا يريدون البِطان (١) ، واجتمع الناس من أصحاب السلطان والرؤساء

(١) فى المخطوطات مرسومة : البطانة دون نقط ، المرجح أنها البطان ، قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان (حـ ١ ص ٦٦١ ط اوروبا) بطان : بكسر أوله منزل بطريق الكوفة بعد الشقوق من جهة مكة دون الثعلبية ، هذا وخلا معجم ياقوت من بلد بهذا الرسم المثبت فى المخطوطات

فتشاوروا ، فلم يدع الأمير أبو الهيجاء الاستغاثة بالقوم يقول: ارجعوا ودعونى ألقى القرامطة فى أصحابى ، فإن أصبتُ فمعكم من تسيرون معه ، وإلا فامضوا إلى وادى القرى أو المدينة أو غير ذلك ، وإن ظفرتُ وجّهتُ إليكم فعدتم وقد زال المحذور ،ولم يزل يردّد عليهم هذا القول من الأجفر إلى الثعلبيّة ، فمنهم من أجاب ومنهم من أبى ذلك وقال : لانفترق ، وكان أحمد بن بدر عم السيّدة ممن أبى ذلك وصمّم على الملازمة ، فعمل ابن حمدان بما أرادوه دون رأية ، وبات الناس على أميال بقيت من البطان والأحمال على ظهور الجمال ، وذلك ليلة الأحد لأيام خلت من صفر ،فلما أضاء لهم الفجر ارتحلوا ، وقدّم أبو الهيجاء ستمائة راجل من الأولياء ، كان السلطان أبعدهم لكثرة شغبهم ببغداد فكانوا بين يدى القوافل ، وقارب بين القُطُر ودخل بعض الناس فى بعض ، وتقدّم نزار بن محمد الضبىّ فكان فى أوّل القافلة فى أصحابه خلف الرجّالة ، وسار أبو الهيجاء فى التغالبة والعجم فى ميمنة القافلة ، وألزم الساقة وميسرة القافلة جماعة من الأولياء مع بعض الأمراء ، واحتاط بكل ما أمكن ، وسار فلما أضحى النهار أقبلت عليهم خيل القرامطة ، والقافلة فى نهاية العظم جدا ، فكان أوّل من لقيهم رجّالة أبى الهيجاء ، فحملت القرامطة عليهم فخالطوهم فقتلوا جميعا إلا نحوا من عشرين رجلا ، وحمل نزار فى جيشه فضارب بعض خيل القرامطة بالسيوف ساعة ، فلحقته ضربة فهوى إلى الأرض واعتنق فرسه ، ومضى نحو المشرق وتبعه بقيّة أصحابه ، فاستقاموا حتى وصلوا إلى زُبالة وساروا إلى الكوفة ، فلما سمع الأمير أبو الهيجاء الصوت وعرف الخبر وكان فى آخر القافلة أسرع فى خيله نحو أوّل

القافلة ، فوجد الأمر قد فاته بقتل من كان أمامها ، وقويت القرامطة على حربه ووجد الحاج قد أخذوا يمنة ويسرة ، فحمل على القرامطة فاستقبلوه فقُتل جماعة من أهل بيته صبروا معه ، وانهزم وضرب على رأسه ضربة لم تضره إلا أنه قد نزف منها ، وأخذ أسيرا ونزل أبو طاهر القرمطى على غلوتين من القافلة ، ورجّالته[1] نحو من ستمائة على المطى فأنفذهم وفرسانا من فرسانه فأحاطوا بالقافلة[1] ، ومنعوا الناس من الهرب ، وكان قد هرب خلق منهم فى وقت القتال ، فتلف كثير منهم فى الطريق عطشا وأخذ بعضهم الأعراب فسلبوهم ، وسلم قوم منهم إلى زُبالة وساروا إلى الكوفة ، وأتى بأبى الهيجاء إلى سليمان فلما نظر إليه تضاحك ، وقال : قد جئناك عبدالله ولم نكلّفك قصدنا ، فتلطّف له أبو الهيجاء بفضل عقله ودهائه وسعة حيلته وقوّة نفسه ، وألان له القول حتى أنس به ، فاستأمنه على نفسه فأمّنه فخلّص بذلك ناسا كثيرا ، وعمل فى سلامة كثير من الحاج عملا كثيرا ، ثم أمر القرمطى بتمييز الحاج وإخراجهم من القوافل ، وعزل الجمّالين والصنّاع ناحية فظنّوا أنّه إنما أخرجهم للقتل فارتاعوا لذلك ، وكانوا قد عطشوا عطشا شديدا ، فلما جنّهم الليل ضجر الموكّلون منهم ، فأخذوا ما معهم وخلّوهم ، فورد من ورد منهم الكوفة بشرّحال متورّمى الأقدام فى صور الموتى ، ورحل أبو طاهر من الغد بعد أن أخذ من أبى الهيجاء وحده نحوا من عشرين ألف دينار من الأموال التى لا تحصى كثرة ، وقدم كثير من الناس بخبر

(١) سقط من ت ويلاحظ السقط فى هذا المخطوط بصورة تلفت النظر ويكفينا أن نشير إليه بين حين وحين.

أبى الهيجاء ، وأنّه راكب مع القرامطة يدور معهم ويسأل فى خلاص أسرى كانوا معه ، منهم أحمد بن بدر عم السيدة وفلفل الأسود وأحمد بن كشمرد ونحرير الخادم صاحب الشمسة وبدر الطائى وأخوه وغيرهم .

قال : وزادت غلبة أبي طاهر لأصحابه فتنة ، وعظّموا أمره وسلب عقولهم حتى قالوا فيه أقوالا مختلفة بحسب جهلهم ؛ قالَ : ولمّا مضى لأبى الهيجاء شهور وهو عندهم أخذ يحتال فى الخلاص ، فمرّة يعرض به ومرّة يفصح به حتى أنس القرمطىّ بذلك وأجابه إليه ، فسأله فى ابن كشمرد وقال : هو ضعيف لكبره وعلّته ، وهذا الخادم الأسود ممّن لا يضر السلطان فقده ولا ينفعه اطلاقه ، وكلّمه فى أحمد بن بدر فامتنع عليه ، فضمن له عشرين ألف دينار وبزاةً وفهودا وعبدانا وثيابا ، فاستحلفه وضمنه ، وتخلّص منه ناس كثير من الحاج ، وأطلقه ، وصار إلى بغداد فتباشر الناس بذلك وابتهجوا به .

ذكر دخول أبى طاهر القرمطى الكوفة ورجوعه

كان أبو طاهر قد كتب إلى الخليفة المقتدر بالله – بعد اطلاق أبى الهيجاء بن حمدان – يطلب منه البصرة والأهواز ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار من هجر فى سنة ثنتى عشرة وثلاثمائة يريد الحاج عند توجههم إلى الحجاز ، وكان جعفر بن ورقاء الشيبانى يتقلّد أعمال الكوفة وطريق مكة ، فسار مع الحاج خوفا عليهم من أبى طاهر ، ومعه ألف رجل من بنى شيبان ، وسار مع الحجاج من أصحاب

السلطان ثمل صاحب البحر وغيره فى ستة آلاف رجل ، فلقى أبو طاهر الجيش فانهزموا منه ، وردّت القافلة الأولى هم وعسكر الخليفة بعد أن انحدروا من العقبة ، وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة وبها يومئذ جنىّ الصفوانى ، كان الخليفة قد أنفذه فى جيش عظيم إلى الكوفة ، وبها أيضا ثمل فى جيش عظيم ، وأقبل أبو طاهر حتى نزل بظاهر الكوفة فى يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى القعدة ، وأقبل جنىّ إلى خندق الكوفة فى عشية هذا اليوم ، وأهل البلد والعامّة منتشرون على الخندق ، وجعفر بن ورقاء فى بنى شيبان نازل على القنطرة التى على الخندق مما يلى دور بنى العبّاس ، وثمل على القنطرة التى تليها ، وجنىّ مما يلى ذلك من ناحية يمنة الكوفة ، فناوشه الناس ،وخرج أبو محمد الحسن بن يحيى بن عمر العلوى فطارد بعض فرسانه ، وانكفأ أبو طاهر راجعا ، وبات الناس على تلك الحال وقد قوى الطمع فيه ، فلما كان الليل ورد كتاب السلطان يخاطب أبا محمد بن ورقاء فى تدبير الجيش ، فعمل على لقاء جنىّ الخادم ليعرّفه ذلك ، فأشير عليه ألاّ يفعل فأبى ذلك ، ثم ركب يعرّف جنيًّا ما كتب به إليه ، فأذن جنىّ أن يكون تابعا وأسرّ ذلك فى نفسه ، وباكرهم القرمطى بالقتال بعد أن أضحى النهار ، فدخلت الرجّالة وراء الفرسان بجيش خرس عن الكلام صمت وحركات خفيّة ، والبارقة فيهم ظاهرة فى ضوء الشمس ، وهم يزفون عسكرهم زفا ، حتى إذا وصلوا إلى عسكر السلطان مالوا على جيش ابن ورقاء وهو فى ميسرة الناس ، فما تمهّل بنو شيبان حتى انهزموا راجعين ، فعبروا القنطرة التى على الخندق إلى جانب الكوفة وتبعوهم ، فصاروا من وراء جنىّ وثمل فوضعوا السيف

فى الناس ، وجنىَ جالس قبل ذلك على كرسى حديد يبيّن أنّه لا يقاتل وكأنّه يريد قتاله بعد الناس فأسروه ، وقاتله ثمل وقاومه وهو منهزم على محاملة ومدافعة ، إلى أن تخلصّ وسلم جعفر بن ورقاء وكثير من أصحابه ، وقتل كثير من العامّة وغيرهم فى الطرقات ، ووصل أبو طاهر إلى البلد فرفع السيف ونهب منازل الناس ، وأقام بالكوفة ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهارا ويقيم بجامعها إلى الليل ، ثم يخرج فيبيت بعسكره ، وحمل منها ما قدر على حمله ، ودخل المنهزمون بغداد ولم يحجّوا فى هذه السنة ، وخاف أهل بغداد وانتقل الناس إلى الجانب الشرقى .

قال : ورحل أبو طاهر عن الكوفة فى يوم الاثنين لعشر بقين من ذى القعدة ، وقُتل يوم دخوله أبو موسى العبّاسى صاحب صلاة الكوفة ورحل مؤنس المظفر من بغداد بجيش السلطان عند اتّصال الأخبار ببغداد ، فسار منها حتى دخل الكوفة ، فكان وصوله إليها بعد رحيل القرامطة عنها ، فأقام بها ثلاثة أيام ثم رحل عنها ، ثم عاد القرمطى فى سنة خمس عشرة .

ذكر دخول أبى طاهر القرمطى الى العراق وقتل يوسف بن أبى الساج

قال : وفى سنة خمس عشرة وثلاثمائة سار أبو طاهر من هَجَر إلى الكوفة ، وكان المقتدر بالله قد استعمل يوسف بن أبى الساج على حرب القرامطة ، فاستصعب ابن أبى الساج المسير إلى بلد القرامطة ، وثقل مسيره فى أرض قفر لكثرة من معه من العساكر ، فاحتال على

أبى طاهر وكتب إليه واطمعه فى بغداد ، وأظهر له المواطأة والتزم بمعاضدته فغرّه بذلك ، حتى رحل بعيال وحشم واتباع وصبية ، وجيشه على أقوى عدّة تمكّنه ،وأقبل يريد الكوفة وعمّيت أخباره عن أهلها ، إنّما هى أراجيف ، ورحل يوسف بن أبى الساج بجيشه من واسط يريد الكوفة ، فسبقه أبو طاهر إليها ودخلها فى يوم الخميس لسبع خلون من شوّال من هذه السنة ، وأخذ ما يحتاج إليه ونزل عسكره خارج الكوفة ما بين الحيرة إلى ناحية الخورنق ، وأقبلت جيوش ابن أبى الساجّ تسيل من كل وجه على غير تعبئة ، وأقبل هو فى جيشه ورجاله حتى نزل فى غربىّ الفرات ، وعقد عليه جسرا محاذيا لأبى طاهر ، وعبر إليه مستهينا بأمره مستحقرا له لا يرى أنه يقوم به ، وذلك فى يوم الجمعة ،فأرسل إلى أبى طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة المقتدر بالله أو الحرب فى يوم الأحد ؛ فقال : لا طاعة إلّا لله والحرب غدا ، فلما كان فى يوم السبت لتسع خلون من شوّال سنة خمس عشرة التقوا واقتتلوا قتالا شديدا عامّة النهار ، وكثير من عسكر ابن أبى الساج لم يستتم نزوله ، وهو جيش يضيق عنه موضعه ولا يملك تدبيره ، وقد تفرّق عنه عسكره تفرّقا منتشرا فى فراسخ كثيرة ، وركبوا مِنْ نهب القرى وأذى الناس وإظهار الفجور ما تمنّى كثير من الناس هلاكهم . قال الشريف أبو الحسين: ولمّا لقيه بظهر الكوفة ما بين الحيرة والخورنق والنهرين من الفرات اتّفق له تلول وأنهار وموضع يضيق عن جيشه ولا يتمكّن معه الإشراف عليه ، فقدّم بين يديه رجّالة بالرماح والتراس

مع قائد يعرف بابن الزرنيخى [1] ، فأقبل القرمطى نحوه فى أربعة آلاف فقاومته الرجّالة طويلا ، ثم دخلتها الخيل وتعطفت عليها واضطرب الناس ، فوضع فيهم السيف ؛ قال الشريف : وأخبرنى بعض الجند قال : كنت والله قبل الهزيمة أريد أن أضرب دابّتى بالسوط. فلا يمكننى ذلك لضيق الموضع ، ووصل كثير من عسكر القرمطى إلى ابن أبى الساج فى مصافّه على أتمّ عدّة ، فلما التقوا اقتتلوا كأعظم قتال شوهد ، وكثرت القتلى والجراح فى القرامطة جدا ، وقتل رجّالة ابن أبى الساج ، وخلص إليه فانهزم الناس وقتلوا قتلا ذريعا ، حتى صاروا فى بساط واحد نحو فرسخين أو أرجح ، فلما كان عند غروب الشمس انهزم أصحاب ابن أبى الساج بعد صبر عظيم ، وأسر هو وجماعة كثيرة من أصحابه ، وذلك فى وقت المغرب من يوم السبت ، فوكل به أبو طاهر طبيبا يعالج جراحه ، واحتوى القرامطة على عسكر ابن أبى الساج ، ولم تكن فيهم قوّة على جمع ما فيه لضعفهم وقتل من قتل منهم ، فمكث أهل السواد من الأكرة وغيرهم ينهبون القتلى نحو أربعين يوما ، ووصل المنهزمون إلى بغداد بأسوأ حال ، فخاف الخاص والعام ببغداد من القرامطة ، وكان أبو طاهر القرمطى يظن أن مؤنسا المظفّر لا يتأخّر عن حربه ، وكان على وجل منه ، فلمّا لم يخرج إليه اشتد طمعه وظن أنه لا يلقاه أحد ولا يقاومه ، وأنّ ما كان قد خدع به من أنّ ببغداد من يظاهره على أمره ، وينتظر وصوله إليه من الرؤساء — حق ، فخرج يريد بغداد ،

(١) فى المخطوطات الزربخى دون نقط، هذا ولم يرد الاسم فى صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ، ولا فى تجارب الأمم لابن مسكويه ولا فى الكامل لابن الاثير .

فلما قرب من نواحى الأنبار وقصر ابن هبيرة ونزل بسواده وكل بهم جندا ليست بالكثير ، وركب فى جيشه فوافى الأنبار واحتال إلى أن عبر الفرات وصار من الجانب الغربي ، وتوجّه بين الفرات ودجلة يريد مدينة السلام ، وعرف الناس ذلك فكثر اضطرابهم وجزعهم ، فبرز مؤنس المظفّر الخادم من بغداد للمسير إلى الكوفة ، فبلغه أنّ القرامطة قد ساروا إلى عين التمر ، فأرسل من بغداد خمسمائة سمارية فيها المقاتلة لتمنع من عبور الفرات ، وسيّر جماعة من الجيش لحفظ الأنبار ، وقصد القرامطة الأنبار فقطع أهلها الجسور ، فنزلوا غرب الفرات وأنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة ، فأتوه بسفن فعبر فيها ثلاثمائة من القرامطة ، فقاتلوا عسكر الخليفة وقتلوا منهم جماعة واستولوا على الأنبار ؛ قال : ولما ورد الخبر بذلك إلى بغداد خرج نصر الحاجب فى عسكر جرّار ، ولحق بمؤنس المظفّر فاجتمعا فى نيّف وأربعين ألفا سوى الغلمان ومن يريد النهب ، وكان فى العسكر أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته وأصحابهم ، فلما أشرف القرامطة على عسكر الخليفة هرب منه خلق كثير إلى بغداد من غير قتال ؛ قال ابن الأثير (١) : كان عسكر القرامطة ألف فارس وسبعمائة فارس وثمانمائة راجل ؛ قال : وقيل كانوا ألفين وسبعمائة فارس .

قال الشريف : وسار مؤنس المظفّر حتى نازل القرامطة على قنطرة

(١) ورد النص فى الكامل حـ٨ ص ١٢٦ كما يأتى ، وكان عدة القرامطة ألف رجل وخمسمائة رجل منهم سبعمائة فارس وثمانمائة راجل وقيل كانوا ألفين وسبعمائة : فالمؤلف أخطأ فى النقل .

نهر زُبارا (١) ، على نحو ثلاثة فراسخ من بغداد ، وشحن الموضع بالجيش ، وأشار أبو الهيجاء بن حمدان بقطع القنطرة خوفا من عبور القرمطى ، وإن اتفق أدنى جولة مع امتلاء صدور الجيش من القرامطة فلا يملك البلد لشدة اضطرابه وكثرة أهله ، ففعل مؤنس ذلك وقطعها وقاتل عليها نفر من القرامطة قتالا شديدا ، لا يمنعهم كثرة النشّاب ولا غيره ، وشحن مؤنس الفرات ما بين بغداد إلى الأنبار بسماريّات ، فيها رماة ناشبة تمنع أحدا من القرامطة من شرب الماء إلا بجهد ، فضلا عن تمكنٍ من العبور ، وكان أحد من نصب لذلك إسحاق بن إبراهيم بن ورقاء ، وكان شيخا ذا دين وبصيرة ونيّة فِي الخير ، فأقام على حصاره لأبى طاهر وكان لا يقدر على مذهب لا إلى وجهه ولا إلى جوانبه ، ومتى دنا من الماء أخذته السهام ؛ قال الشريف : فحدثنى من حضر يومئذ وقد ورد كتاب المقتدر بالله ، يأمر مؤنسا بمعاجلته القتال ويذكر ما لزم من الأموال إلى وقت وصوله ، فكتب مؤنس كتابا ظاهرا ـ جواب كتاب الخليفة ـ يمليه على كاتبه والناس يسمعون ، يقول : إن فِي مقامنا ، أطال الله بقاء مولانا نفقة المال ، وفى لقائنا نفقة الرجال ، ونحن اخترنا نفقة المال على نفقة الرجال ، قال : ثم انفذ المظفر مؤنس رسولا إلى القرمطى يقول : ويلك ! تظن أننى كمن لقيك ، أبرز لك رجالى والله ما يسرّنى أن أظفر بك بقتل رجل مسلم من أصحابى ، ولكنّنى أطاولك وأمنعك مأكولا ومشروبا حتى آخذك أخذا بيدِى إن شاء الله ؛ قال :

(١) فى المخطوطات مرسومة : نطاطيا دون نقط ، والتصويب عن الكامل حـ٨ ص١٢٥ . وتجارب الأمم لابن مسكوية حـ١ ص ١٧٦

وأنفذ المظفّر حاجبه يلبق فى ستة آلاف مقاتل إلى القرامطة ، الذين بقصر ابن هبيرة مع سواده ، ليوقعوا بهم ويخلّصوا يوسف بن أبى الساج ، فعلم أبو طاهر بذلك فاضطرب واجتهد فى عبور الفرات فعجز . ثم اتّفق له طوف حطب فعبر عليه فى نفر يسير ، وصار إلى سواده الذى خلّفه ، وجاء يلبق فواقعه أبو طاهر فى نفر يسير ، فكرّ يلبق راجعا منهزما وسلّم السواد وذلك بعد قتال شديد .

ونظر أبو طاهر إلى ابن أبى الساج – وقد خرج من الخيمة ، ينظر ويرجو الخلاص ، وقد ناداه أصحابه : أبشر بالفرج ، فلما تمّت الهزيمة أحضره أبو طاهر وقتله وقتل من معه من الأسرى[1] ، وقصد القرامطة مدينة هيت وكان المقتدر قد سيّر إليها سعيد بن حمدان وهارون بن غريب ، فسبقوا القرامطة إليها وقاتلوهم عند السور ، فقتل من القرامطة جماعة فعادوا عنها ، فرجع مؤنس إلى بغداد وسار أبو طاهر إلى الدالية من طريق الفرات ، فقتل من أهلها جماعة ثم سار إلى الرّحْبة فدخلها فى ثامن عشر المحرم سنة ست عشرة وثلاثمائة ، بعد أن حاربه أهلها فظفر بهم ووضع السيف فيهم ، فراسله أهل قرقيسيا يطلبون الأمان فأمّنهم على ألا يظهر أحد منهم بالنهار ، فأجابوا إلى ذلك ، وخافه الأعراب وهربوا من بين يديه ، فقرّر عليهم أتاوة عن كل رأس دينار يحملونه إلى هجر ، ثم صعد من الرحبة إلى الرقّة فدخل أصحابه إلى نصيبين ، وقتلوا بها ثلاثين رجلا وقتل من القرامطة جماعة ، وقاتلوا ثلاثة أيام ثم انصرفوا فى آخر

(١) فى ك: الاشراف ، ويؤيد المخطوطتين ابن مسكوية فى تجارب الأمم حـ١ ص ١٧٨

ربيع الأوّل ، وساروا إلى سنجار ونهبوا فطلب أهل سنجار الأمان فأمنهم ، ثم عاد إلى الرحبة ، ووصل مؤنس إلى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها ، فاحتال مؤنس فى ارسال زواريق فيها فاكهة قد جعل فيها سموما قاتلة ، فكانت القرامطة يلقونها فيأخذونها ، فمات كثير منهم وضعفت أبدان بعضهم ، وجهدوا وكثر فيهم الذّرب فكرّوا راجعين وهم قليلو الظهر مرضى ، فلما بلغوا هيت قاتلهم أهلها من وراء السور ، فقتلوا منهم رئيسا كبيرا وانصرفوا عنهم مفلولين [1] .

ثم رحل أبو طاهر فدخل قصر ابن هبيرة فنهب وقتل ، ثم دخل الكوفة على حال ضعف وعلل وجراحات ، وأصحابه على ظهور حُمُر أهل السواد ، وكان دخوله إليها يوم الجمعة لثلاث ليال خلت من شهر رمضان سنة ست عشرة وثلاثمائة ، فأقام بها إلى مستهلّ ذى الحجة من السنة ، ولم يقتل فى البلد ولا نهب ، وساس أهل الكوفة أمرهم مع القرامطة ، ورحل أبو طاهر عن الكوفة فى ذى الحجة سنة ست عشرة وثلاثمائة .

ذكر أخبار من ظهر من القرامطة بسواد العراق فى أثناء وقائع أبى طاهر الجنابى

قال ابن الأثير [2] والشريف أبو الحسين - وقد لخّصت من روايتيهما ما أورده ، ودخل خبر بعضهم فى خبر بعض - ولمّا كان من أمر أبى طاهر فى سنة ست عشرة وثلاثمائة ما قدّمناه ، اجتمع بالسواد

(١) فى ك ، ت : مغلوبين .

(٢) راجع الكامل حـ٨ ص ١٣٦ ، ص ١٣٧ .

ممن يعتقد مذهب القرامطة وكان يكتمه خوفا فظهروا واجتمع منهم بسواد واسط. أكثر من عشرة آلاف ، وولّوا عليهم رجلا يسمّى حُريث بن مسعود ، فخرج إليه الأمير بواسط. فنام عسكره فى بعض المواضع ، فكبسه القرامطة فقتلوا منهم خلقا ، واستولوا على سائر ما حواه العسكر من السلاح وغيره فقوى أمرهم ؛ واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر فى جمع كثير ، فولوا عليهم رجلا يسمّى عيسى ابن موسى (١) ، وكانوا يدعون إلى المهدى ، فسار عيسى بن موسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها ، وجبى الخراج وصرف العمال عن السواد وكان والى الكوفة قد هرب منها قبل دخولهم ، ووجّهوا إلى جميع السواد من يطالبهم بالرحيل إليهم ، فخرج إليهم من بين راغب وراهب ، ففرّقوا العمّال فى الطساسيج ، وولّوا المعاون لقوم من وجوه عشائرهم ، وولوا ابن أبى البوادى الكوفى خراج الكوفة ، ونصبوا بعض بنى ربيعة واليا لحربها ، وأقاموا فى البلد أياما وراحوا إلى الجمعة بأجمعهم ، وأقاموا أبا الغيث بن عبدة خطيبا ، وأحدثوا فى الأذان ما لم يكن فيه ، فركب إليهم أبو على عمر بن يحيى العلوى وعيسى ابن موسى نازل على شط. الفرات فى بعض الأيّام ، فأظهروا الاستطالة على أبى على بن يحيى وانقصوا رتبته ، وأقيم وحجب أوقاتا طويلة ، فخرج أبو على إلى السلطان وذكر له صورة أمر القوم ، وقرّر فى نفسه أخذهم ، فأنفذ السلطان معه صافى النصرى (٢) فى جيش وضمن

(١) فى صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ص ١٣٧ (ط . أوروبا) أنه: ابن أخت عبد الله القرمطى .

(٢) فى ك والكامل حـ٨ ص ١٣٧ وتجارب الامم لابن مسكويه حـ١ ص ٢٣٦ : البصرى وهو خطأ صححته المخطوطة ك فى ذكره بعد ذلك .

أبو على معاونته ، وكان هؤلاء قد خرجوا من الكوفة وخلّفوا واليهم عليها وصاحب خراجهم ، وقصدوا موضعا يعرف بالجامع وما يليه فنهبوا واستباحوا ، ووثب أهل الكوفة بعد خروجهم على من خلّفوه عندهم ، فقتلوا منهم جماعة وأخرجوا من بقى ، واتصل الخبر بالقرامطة فانكفأوا راجعين يريدون الكوفة ليقاتلوا أهلها ، فاجتمع الناس وحملوا السلاح وحفظوا البلد وطافوا به ليلا ونهارا مدة أيّام ، وجاءت [1] القرامطة فنزلوا على الكوفة ولم يكن لهم فيها مطمع فساروا إلى سُورا ، وقدم أبو على العلوى وصافى النصرى من بغداد ، فواقعوهم على نهر بقرب اجهاباذ يعرف بنهر المجوس ، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى هزمهم الله تعالى ، فقتل منهم ما لا يحصى وغرق منهم قوم وهرب الباقون ، وتفرقوا وأسر عيسى بن موسى وخلق كثير معه وأعمى كان من دعاتهم كان يقول الشعر يعرف بأبى الحسن الخصيبى ، ودار أبو على فى السواد فتلقّط منهم قوما ، فسكن البلد وتفرّق ذلك الجمع ولم يبق لهم بقيّة قائمة ، وحملت الأسرى والرؤوس إلى بغداد فقتل الأسرى بباب الكناسة وصلبوا هناك ، وحبس عيسى بن موسى ثم تخلّص بغفلة السلطان وحدوث ما حدث من اضطراب الجيش وكثرة الفتن فى آخر أيام المقتدر ، وأقام ببغداد يدعو ويتوصل إلى ناس استغرّهم ، ويعمل كتبا يجمع فيها ما يأخذه من كتب يشتريها من الورّاقين ، يمخرق فيها بذكر أمور ينسخها ويوهم أنّ له بذلك علما ، ورتّب كتبا ينسبها إلى عبدان الداعى ، ليوهم أنّ عبدان كان

(١) فى ك ، ت : خاف .

أحد العلماء بكل فلسفة وغيرها ، وأنه يعلم ما يكون قبل كونه ، ومخرق بجهده على جهّال فصاروا له أتباعا ، وأفسد فسادا عظيما ، قال الشريف : وادعى خلافته من مخرق بعده إلى الآن .

وحكى ابن الأثير فى تاريخه الكامل (١) : أن الخليفة المقتدر بالله أرسل إلى حُريث بن مسعود ، هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى صافى النصرى ، فأوقعوا بهم وانهزمت القرامطة وقتل أكثرهم وأسروا وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء وعليها مكتوب (ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ على الَّذِينَ استُضْعِفُوا فى الأَرْضِ ونَجْعلَهُمْ أَئِمةً ونَجْعلَهُمُ الوارِثِينَ)(٢) فدخلت بغداد منكوسة ، واضمحلّ أمر القرامطة بالسواد .

نعود إلى أخبار أبى طاهر

ذكر مسير أبى طاهر الى مكة شرفها الله ونهبها واخذ الحجر الاسود واعادته وماكان من اخباره فى خلال ذلك

وفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة حجّ بالناس منصور الديلمى ، وسلموا فى مسيرهم حتى أتوا مكة ، فوافاهم أبو طاهر القرمطى بمكة يوم التروية ، وهو يوم الاثنين لثمان خلون من ذى الحجة ، فنهب هو وأصحابه أموال الحجّاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام والبيت ، وقلعوا الحجر الأسود وأنفذوه إلى هجر ، وأخذوا كسوة الكعبة وباب

(١) راجع حـ٨ ص ١٣٦ .
(٢) سورة ٢٨ آية ٥ .

البيت ، وطلع رجل منهم ليقلع الميزاب [١] فسقط فمات ، وخرج أمير مكة ابن مجلب فى جماعة من الأشراف إلى أبى طاهر ، وسألوه فى أموالهم فلم يشفّعهم فقاتلوه فقتلهم جميعا وطرح القتلى فى بئر زمزم ، ودفن الناس فى المسجد الحرام حيث قتلوا من غير غسل ولا كفن ولا صلاة على أحد منهم ، ونهب دور أهل مكة ، قال الشريف أبو الحسين : ولما نهب القرامطة مكة ورجع أبو طاهر إلى بلده لحقه كدّ شديد عند خروجه من مكة ، وحاصرته هذيل فأشرف على الهلكة إلى أن عدل به دليل من الطريق المعروف إلى غيره ، فوصل إلى بلده بعد ذلك فى المحرم سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة ، فأقام به ثم سار إلى الكوفة فدخلها فى شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، فاشتروا منها أمتعة وأسروا خلقا من السواد ، وعاثوا ورجعوا بعد خمسين يوما إلى بلدهم ، فأقاموا به .

وأنفذ أبو طاهر سريّة إلى جنّابه وسِينِيز ومهْرُوبان فى البحر ، فيها وجوه أصحابه فى نحو أربعين مركبا ، فوافت ساحل سِينِيز فصعدوا من المراكب ، فحملوا على أهلها حملة واحدة فانكشف الناس عنهم ، فوضعوا فيهم السيف فما لقوا أحدا إلا قتلوه من رجل وامرأة ، فما نجا إلا من لحق بالجبال وسبوا النساء ، فترك الناس الديار وخرجوا يريدون الهرب ، فنادى أبو بكر الطرازى فى الناس : لا يهرب أحد ، فإنّا نقاتل من ورد إلينا ، وضرب بالبوق ووجّه من

(١) وردت فى تجارب الأمم لابن مسكويه حـ ١ ص ٢٠١ : المرزاب ، ويزيد عريب بن سعد فى صلة تاريخ الطبرى (طبع أوروبا) ص ١٣٧ المخطوطات .

حبس الناس عن سلوك الطرقات وردّهم إلى البلد ، وجمع الناس بالمسجد الجامع ورغّبهم فى الجهاد وأسعفهم بماله ، ورغبت المتطوّعة فى الاجتماع فقويت قلوب الناس ، وأنفذ أبو بكر سريّة من وقته من خاصّة غلمانه فى نحو ثلاثمائة رجل فى البحر ، ووجّه سريّة أخرى فى البر ، وأنفذ إلى مهروبان يخبر أنّه على لقاء العدوّ ، وسألهم الإنجاد فى المراكب لمعاونة أهل جنّابه على قتال القرامطة ، فساروا والتقى الفريقان فى البرّ والبحر من أهل جنّابه وسينيز ، ووافت قوارب مهروبان فأشعلوا النيران فى القوارب ، فأحرقوا بعضها وتخلّص منهم نحو عشرين قاربا ، وانتشبت الحرب فقتل الله منهم خلقا كثيرا ، وأسر جماعة ولحق بعضهم بالجبال ، وورد على أبى بكر الطرازى من أخبره بذلك ، فجمع الناس وغدا نحو الجبال ، وأرسل فارسا إلى من بسينيز من أصحابه أن يلحقوا به ، وأنفذ إلى جنّابه ألاّ يتخلّف عنه من فيه حراك ، لتكون الوقعة بهم من كل وجه ، فوافوا المنهزمين من القرامطة فى بعض كهوف الجبال ، وذلك فى يوم الأربعاء فلمّا رأوا الناس قد أقبلوا نحوهم كسروا جفون سيوفهم ، وحملوا عليهم فثبتوا لهم ، ولم تزل الحرب قائمة بينهم يوم الأربعاء والخميس إلى نصف النهار ، ثم نادى أبو بكر الطرازى : من جاء برأس فله خمسون درهما ، فتنادى الناس بالشهادة وجدّوا ونشطوا ، وقتلوا خلقا كثيرا وأخذوا جميع من بقى أسرى ، وحملوا مشهرّين والناس يكثرون حمد الله عز وجلّ والثناء عليه ، ولم يفلت منهم أحد .

وكتب الناس محضرا أنفذوه إلى بغداد ، وحملت الأسرى والرؤوس معه ، قال الشريف : ونسخة المحضر :

بسم الله الرحمن الرحيم – حضر من وقّع بخطّه وشهادته آخر هذا الكتاب المحضر ، وقد حضر عندهم ثلاثة من القرامطة – لعنهم الله – ذكر أحدهم أنّه يقال له – سيّار بن عمر بن سيّار ، والآخر ذكر أنّه يقال له – على بن محمد بن عمر (١) ، والآخر ذكر أنه يعرف بأحمد ابن غالب بن جعفر الأحساوى ، فذكروا أنّهم متى نفذ رسولهم إلى صاحبهم سليمان بن الحسن القرمطى ردّ الحجر والشّمْسة وكسوة البيت وأطلق الأسارى الذين فى قبضته ، وهادن السلطان وارتدع عن السعى بالفساد والقطع على الحاج ، ولم يحفزهم ولم يعترض عليهم ، ويقول هؤلاء النفر من جملة الأسرى الذين فى يد محمد بن على الطرازى – وهم الذين ظفّر الله بهم – فمتى ما وفّى سليمان بن الحسن القرمطى بما بذلوه عنه أفرج السلطان عنهم وردّهم إليه ، وذلك فى يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وأسفل ذلك خطوط أهل البلد بالشهادة .

وأحضر سيّار بن عمر بن سيّار وعلى بن محمد بن عمر المعروف بأبى الهذيل بن المهلّب وأحمد العيّار ، وهم من جملة الأسرى فى الوقعتين بسينيز وجنّابه ، فعُرض عليهم رؤوس أصحابهم ممّن قتل من القرامطة ، ليُعرفوا باسمائهم وأنسابهم فذكروا نحو المائة رأس ، ومن الأسرى نحوهم ، وحملوا إلى بغداد فحبسوا وأجرى عليهم ، ويقال إنّه قد كان فيهم من إخوة سليمان بن الحسن من كُتم أمره .

وحدّثنى ابن حمدان أنّهم كانوا بعد خلاصهم ومصيرهم إلى

(١) فى المخطوطات : أبو عمرو .

أبي طاهر يتحدثون : أن كثيرا من الكبراء وغيرهم كانوا يرسلون إليهم ما يتقرّبون به إلى قلوبهم ، وذكروا أنهم كانوا يكثرون الخشوع وذكر النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وإقامة الصلاة ؛ قال : ويضحكون من فعلهم هذا وخديعتهم الناس ، قال : ويضحك أبو طاهر وإخوته مما يتحدثون به ، قال : وكان سبب تخلّص هؤلاء الأسرى أن أبا بكر بن ياقوت كتب فى المهادنة ، وجرى بينهم خطوب فى المراسلة إلى أن وافقهم أن يردّوا الحجر الأسود ويخلوا الأسرى ولا يعرضوا للحاج ، فجرى الأمر على ذلك .

قال الشريف : وفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة دخل القرمطى الكوفة ، واستقبل لؤلؤا الأمير خارجا بالحاج فى ذى القعدة ، فرجع بهم لؤلؤ إلى الكوفة وتفرّقوا فيها ، بعد أن واقعته الخراسانية فلم يقدر على مقاومتهم وامتنعوا منه ، إلا أن الناس تسرّبوا وافترقوا ، فظفر بمن ظفر منهم فلم يكثر القتل وأخذ ما وجد ، وأشار بعض أهل الكوفة على بعض أصحابه فى هذه السنة — عند نزولهم بالكوفة — أن يسار فى الحاج بغير ما يجرى فيهم ، فقال الرجل : الذى من أصحاب القرمطى : والله ما ندرى ما عند سيّدنا أبى طاهر ، من تمزيق هؤلاء الذين من شرق الأرض وغربها ، واتخاذهم ومن وراءهم أعداء ، وما يفوز بأكثر أموالهم إلا الأعراب والشرّاد من الناس ، قال الكوفى : فلو أنه حين يظفر بهم دعاهم أن يؤدى كل رجل دينارا وأطلقهم وأمّنهم لم يكره أحد منهم ذلك وخفّ عليهم وسهل ، وحجّ الناس من كل بلد لأنّهم ظماء إلى ذلك جدا ، ولم يبق ملك إلا كاتبه وهاداه واحتاج إليه فى حفظ أهل بلده وخاصّته ، فجبى فى كل سنة

ما لا يصبر إلى سلطان مثله من الخراج ، واستولى على الأرض وانقاد له الناس ، وإن منع من ذلك السلطان اكتسب المذمّة ، وصار عند الناس هو المانع من الحج ، فاستصوب رأيه وفرّج عنه ، لأن أصحاب أبي طاهر كان قد ظهر منهم اضطراب عليه وقلّت طاعتهم له ، قال : حتى لقد سمعت بعضهم وقد لحقه فارس من العرفاء يركض ويدور فى الكوفة ويقول : ارجع إلى العسكر فإنّ السيّد يأمرك بذلك ، فذكر أمّه بقبيح من الشّتيمة بعد أن كانوا يعبدونه ، قال : ولما سمع رئيس القرامطة كلام الكوفى وما أشار به من أمر الحاج وما جرى من الكلام فى ذلك دخل إلى أبى طاهر فعرّفه ماجرى ، فبادر من وقته ونادى فى الناس بالأمان ، وأحضر الخراسانيّة وقرّر معهم أنهم يحجّون ويؤدون إليه المال فى كل سنة ، ويكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم فلم يأمنوا له ، فسلّم سياسة أمرهم إلى أبى على عمر بن يحيى العلوى ، واستقرّ للقرامطة ضريبة ورسم على سفر الحاج .

قال الشريف : ولمّا كان فى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة كبس أبو طاهر الكوفة عشية ، وفيها شفيع اللؤلؤى أمير ، فهرب من مجلسه والناس عنده ، ورمى بنفسه من سطحه واستتر عند امرأة ضعيفة ، وظهر الجند من الطرقات فقاوموا من لحقهم من جيشه ، وامتنع أكثرهم منه وخرجوا سالمين إلا نفرا منهم أصيبوا ، ووجّه أبو طاهر إلى شفيع اللؤلؤى فأمّنه وأحضره ، فحضر إليه وقدّم إليه طعاما يأكله ، وطلبت مائدة يأكل عليها ، فقيل ما يحضر إلا مائدة نهبت من داره ، فقال أبو طاهر : قبيح أن يراها فافرشوها بالرقاق لكى لا يعرفها ، ففعلوا

ذلك وقدّمت إليه ، وكان يحمل إلى أبى طاهر صحفة صحفة مما يقدّم إليه ، فينظر إليها أولا وينفذها إليه وكان ذلك لدناءته ومهانته ، وتفرّق أصحابه عنه وقلّت طاعتهم له فاحتاج إلى المداراة ، فوجّه إلى شفيع من يخاطبه فى أن يمضى إلى السلطان ، ويعرّفه أنّهم صعاليك لابدّ لهم من أموال ، وأنّه إن أعطاهم مالا لم يفسدوا عليه شيئا وخلعوه فيما يلتمسه ، وإن أبى ذلك لم يجدوا بُدًّا من أن يأكلوا بأسيافهم وسيّره أبو طاهر ووصله ، وخرج شفيع إلى السلطان فقدم إلى القرمطى أبو بكر بن مقاتل من قبل السلطان يناظره ، ففتّ فى عضده وملأ صدره من السلطان وأتباعه ، فزاده ذلك انكسارا وذلة وسار عن الكوفة .

وفى سنة ست وعشرين وثلاثمائة فسدت رجال القرامطة وقتل بعضهم بعضا ، وسبب ذلك أنه كان منهم رجل يقال له ابن سَنْبَر ، وهو من خواص أبى سعيد الجنّابى المطلعين على سرّه ، وكان له عدوّ من القرامطة اسمه أبو حفص الشريك ، فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصفهان ، وقال له : إذا ملّكتك أمر القرامطة نقتل عدوّى ، فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه ، فأطلعه على أسرار أبى سعيد وعلامات كان يذكرها فى صاحبهم الذى يدعو إليه ، فحضر إليه أولاد أبى سعيد فذكر لهم العلامات ، فقال أبو طاهر : هذا هو الذى ندعو إليه ، فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل منهم بقتل أخيه فيقتله ، وكان إذا كره رجل منهم يقول إنه مريض – يعنى قد شك فى دينه ويأمر بقتله ، وبلغ أبو طاهر أنّ الأصفهانى يريد قتله لينفرد بالأمر ، فقال لإخوته :

قد أخطأنا فى هذا الرجل وسأكشف حاله ، فقال له : إنّ لنا مريضا فانظر إليه ليبرأ ، وأضجعوا والدتهم وغطّوها بإزار ، فلما رآها قال : إنّ هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه ، فقالوا : كذبت ، هذه والدتنا ثم قتلوه ، وذلك بعد أن أفنى أكثر أكابرهم بالقتل (١) .

ذكر وفاة أبى طاهر بن أبى سعيد الجنابى وأخيه وقيام أخويهما بعده

قال (٢) : وفى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة هلك أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد وأخوه أبو منصور بجدرى أصابهما ، وملك التدبير بعده أخواه أبو القاسم سعيد وهو أكبرهم ، وأبو العبّاس ، وكانا يتّفقان معه على تدبير الأمر ، وكان لهم أخ آخر لا يختلط بهم لاشتغاله بالشرب واللهو ، قال : وشركهما فى تدبير الأمر ابن سنبر

ذكر اعادة القرامطة الحجر الأسود الى الكعبة شرفها الله تعالى

قال : وفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة أراد القرامطة أن يستميلوا أهل الإسلام ، فحملوا الحجر الأسود وأتوا به الكوفة ، فنصبوه فى المسجد الجامع على الأسطوانة السابعة فى القبلة ممّا يلى صحن المسجد حتى يراه الناس ثم حملوه إلى مكة شرفها الله تعالى ، وقالوا : أخذناه بأمر ورددناه بأمر .

(١) مصدر المؤلف هو ابن الأثير فى الكامل حـ ٨ ص ٢٦٣ ، ص ٢٦٤ هذا والقصة موجودة فى كتاب تجارب الامم لابن مسكويه حـ٢ ص ٥٥ ، ص ٥٦ .

(٢) راجع الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٣١١ .

قال ابن الأثير (١) وكان بجكم الرايقى قد بذل لهم فيه خمسين ألف دينار ، فلم يردّوه وردّوه الآن بغير شىء ، وذلك فى ذى القعدة من السنة ، فكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا أياما ، وحكى ابن الأثير (٢) فى سبب ردّه : أنّ عبيد الله المنعوت بالمهدى القائم ببلاد المغرب والمستولى عليها كتب إلى القرمطى ينكر فعله ويلومه ويلعنه ، ويقول أخفقت علينا سعينا وأشهرت دولتنا بالكفر والإلحاد بما فعلت ، ومتى لم ترد على أهل مكة ما أخذته وتعيد الحجر الأسود إلى مكانه وتعيد كسوة الكعبة فإنّا برىء منك فى الدنيا والآخرة. فلما وصل هذا الكتاب أعيد الحجر إلى مكة شرّفها الله تعالى .

ذكر ملك القرامطة دمشق وسيرهم الى الديار المصرية ومحاصرة من بها ورجوعهم عنها

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى : وفى سنة ستين وثلاثمائة سار الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الجنّابى ، وهو الذى انتهى إليه أمر القرامطة ، من بلده إلى الكوفة ، وعزم على قصد الشام وسبب ذلك أنّه كان قد تقرّر للقرامطة فى الدولة الاخشيديّة من مال دمشق فى كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ، فلما ملك المعز لدين الله العُبيدى الديار المصرية ، واستولى جعفر بن فلاح على الشام ، علموا أن ذلك يفوّتهم ، فسار الحسن بن أحمد إلى الكوفة ، وراسل بختيار الديلمى

(١) الكامل حـ٨ ص ٣٦٥ .

(٢) الكامل حـ٨ ص ١٥٣ ، ١٥٤ أحداث سنة ٣١٧ هـ .

أحد ملوك الدولة البويهية ، فى طلب السلاح والمساعدة ، فأنفذ إليه خزانة سلاح من بغداد وسبب له على أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم ، فرحل الحسن من الكوفة حتى أتى الرحبة وعليها أبو تغلب بن حمدان ، فحمل إليه المال المسبّب له به عليه وحمل إليه العلوفة ، وأرسل إليه يقول : هذا شىء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسى ، وأنت تقوم مقامى فيه ، وأنا مقيم فى هذا الموضع إلى أن يرد علىّ خبرك ، فإن احتجت إلى مسيرى سرت إليك ، ونادى فى عسكره : من أراد المسير من الجند الإخشيدية وغيرهم إلى الشام مع الحسن بن أحمد فلا اعتراض عليه ، فقد أذنّا له فى المسير والعسكران واحد ، فخرج إلى عسكر القرمطى جماعة من عسكر أبى تغلب ، وكان فيه كثير من الإخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين ، صاروا إليه لما انهزموا من المغاربة عند ملكهم الديار المصريّة بعد الدولة الإخشيدية ؛ قال : وسبب مظاهرة ابن حمدان للقرمطى أنه كان قد وقع بينه وبين جعفر بن فلاح مراسلات ، أغلظ جعفر فيها على أبى تغلب وتهدّده بالمسير إليه ، فلما أرسل ابن جعفر إلى الحسن ابن أحمد هذه الرسالة ومكّن الجند من المسير معه سرّه ذلك وزاد قوّة ، وسار عن الرّحبة وقرب من أرض دمشق ووصل إلى ضياع المرْج فظفرت خيله برجل مغربى يقال له على بن مولاه ، فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المغاربة فوقعت الذلّه على المغاربه ، وكان ظالم بن موهوب العُقَيلى على مقدّمة القرامطة فى جمع من بنى عقيل وبنى كلاب ، فلقى المغاربة فى صحراء المِزّة وأقبل شبل بن معروف العقيلى معينا لظالم ، ولم يزل القتال بينهم إلى أن أقبل الحسن بن أحمد القرمطى فقوى العقيليون ،

وتشمّرت المغاربة ولم يزل القتال إلى العصر ، ثم حمل ظالم ومن معه فانهزمت المغاربة وأخذهم السيف وتفرّقوا ، وقتل جعفر بن فلاح ولم يعرف ، واشتغلت العرب بنهب العسكر ، وكانت هذه الوقعة فى يوم الخميس لست خلون من ذى القعدة سنة ستين وثلاثمائة ، فلما كان بعد الوقعة عثر بجعفر بن فلاح من عرفه وهو مقتول مطروح على الطريق ، فاشتهر خبره فى الناس ، ثم نزل الحسن بن أحمد بعد الوقعة على ظاهر المزّة فجبى مالا من البلد وسار يريد الرملة ، وكان جوهر القائد قد أنفذ من مصر رجلا من المغاربة يقال له سعادة بن حيّان ذكر أنّه فى أحد عشر ألفا ، فلما بلغ ابن حيّان أنّ ابن فلاح قد قتل وجاءه بعد ذلك قوم من المنهزمين فأخبروه بخبر الواقعة ، تحيّر وتقطّعت به الأسباب ، فلم تكن له جهة غير الدخول إلى يافا ، ولم يكن له بها عُدّة ولا دار ، فلما دخل إليها جاءه الحسن بن أحمد فنزل عليها ، واجتمعت إليه عرب الشام فنازلها وناصبها بالقتال ، حتى اشتدّ الحصار وقلّ مابها جدا ، وكان يدخل إليها شىء سرا فجعل عليها حرسا ، فمن وجد معه شىء من الطعام يريد الدخول به إلى يافا ضربت عنقه ، فلما طال بهم الأمر أكلوا دوابهم وجميع ماعندهم من الحيوان ، ثم هلك أكثرهم من الجوع ، وكان الحسن بن أحمد قد سار عن يافا نحو مصر ، وخلّف على حصارها أبا المُنجّى وظالما العقيلى ونزل على مصر يوم الجمعة مستهلّ شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، فقاتل المغاربة على الخندق الذى لمدينتهم ، وقتل كثيرا منهم خارج الخندق وحاصرهم شهورا ، ثم رحل عنها إلى الأحساء ولم يعلم الناس ماكان السبب فى ذلك ، فلما تيقّنت المغاربة أنه قد رحل

إلى بلده أنفذ جوهر القائد ابن أخته نحو يافا ، وبلغ من عليها يحاصرها أن الحسن بن أحمد رحل عن مصر ، وأنّ إبراهيم ابن أخت جوهر خارج يريد يافا ، فسار القوم عنها وتوجّهوا نحو دمشق ، فنزلوا بعسكرهم على ظاهرها ، فجرى بين ظالم وأبي المنجّى كلام وخلاف ذكر أنّه بسبب أخذ الخراج ، وكان كل واحد منهما يريد أخذه للنفقة فى رجاله ، وكان أبو المنجّى كبيرا عند القرمطى يستخلفه على تدبير أحواله .

قال : ولما رحل القوم عن يافا إلى دمشق جاءها إبراهيم ابن أخت جوهر القائد ، فأخرج من كان بها وساربهم إلى مصر ، ورجع الحسن ابن أحمد فنزل الرمله ، ولقيه أبو المنجّى وظالم فذكر أبو المنجّى للحسن ابن أحمد ما جرى من ظالم وما تكلّم به ، فقبض عليه ولم يزل محبوسا حتى ضمنه شبل بن معروف فخلّى سبيله ، فهرب إلى شط الفرات إلى حصن كان له فى منزل بنى زياد ، ثم إنّ الحسن بن أحمد طرح مراكب فى البحر وجعل فيها رجالا مقاتلة ، وجمع كل من قدر عليه من العرب وغيرهم وتأهّب للمسير إلى مصر ، وكان جوهر يكتب إلى المعز لدين الله إلى القيروان بما جرى على عسكره ، من القتل والحصار والقتل ، أنّ الحسن بن أحمد يقاتلهم على خندق عسكرهم ، وقد أشرف على أخذ مصر فقلق من ذلك قلقا شديدا ، وجمع من يقدر عليه وسار إلى مصر ، وهو يظن أنها تؤخذ قبل أن يصل إليها ، فدخلها فى يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وكان شديد الخوف من الحسن بن أحمد ، فلما نزل مصر عزم على أن يكتب إلى الحسن بن أحمد كتابا يعرّفه فيه أنّ المذهب واحد ،

وأنهم منهم استمدوا ، وأنهم ساداتهم فى هذا الأمر ، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة وترهّب عليه ، وكان غرض المعز لدين الله العبيدى فى ذلك أن يعلم من جواب القرمطى ما فى نفسه ، وهل خافه لما وافى مصر أم لا ؟ قال : والحسن بن أحمد يعرف أنّ المذهب واحد ، لأنّه يعلم الظاهر من مذهبهم والباطن ، لأن الجميع اتّفقوا على تعطيل الخالق وإباحة الأنفس والأموال وبطلان النبوّة ، فهم متّفقون على المذهب ، وإذا تمكّن بعضهم من بعض يرى قتله ولا يبقى عليه .

قال الشريف : وكان عنوان الكتاب :

من عبد الله ووليّه وخيرته وصفيّه معدّ أبى تميم بن إسماعيل المعزّلدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيّين ونجل علىّ أفضل الوصيّين إلى الحسن بن أحمد ، ونسخة الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم – رسوم النطقاء ومذاهب الأئمة والأنبياء ومسالك الرسل والأوصياء ، السالف والآنف منّا صلوات الله علينا وعلى آبائنا ، أولى الأيدى والابصار فى متقدّم الدهور والأكوار وسالف الأزمان والأعصار عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصابهم لأمر الله ، بالابتداء بالإعذاروالانتهاء بالإنذار ، قبل إنفاذ الأقدار فى أهل الشقاق والإصرار ، لتكون الحجّة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من بان وغوى ، حسبما قال الله جلّ وعزّ (وما كُنَّا مُعذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رسُولاً) (١) (وإنْ منْ أمّةٍ إلاّ خَلاَ فِيهاَ نذِيرٌ) (٢) وقوله سبحانه

(١) سورة ١٧ : آية ١٥ .
(٢) سورة ٣٥ : آية ٢٤ .

(قُلْ هَذِهِ سبيلى أَدْعُو إِلَى الله علَى بصِيرةٍ أَنَا ومنِ اتَّبعَنِي وسُبْحانَ الله وما أَنَا منَ المُشْرِكينَ) (١) (فإِنْ آمنُو بمثْل ماآمنْتمْ بهِ فَقَد اهْتَدَوْا وإِنْ تَولَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) (٢) ، أما بعد أيها الناس : فإنَا نحمد الله بجميع محامده ونمجّده بأحسن مماجدة ، حمداً دائما أبدا ومجدا عاليا سرمدا ، على سبوغ نعمائه وحسن بلائه ، ونبتغى إليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة ، على طاعته والتسديد فى نصرته ، ونستكفيه ممايلة الهوى والزيغ عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضة البركات وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين وخلفائه التالين ، منَا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين ، الذين قضوا بالحقّ وكانوا به يعدلون .

أيها الناس (قَدْ جاءكُمْ بصائِرُ مِنْ ربّكُمْ فَمنْ أَبْصر فَلِنَفْسهِ ومنْ عَمِيَ فَعلَيْهَا) (٣) ليتذكّر من تذكر وينذر من أبصر واعتبر . أيها الناس :إن الله جلّ وعزّ إذا أراد أمرا قضاه ، وإذا قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحا ، وأبرز أرواحنا بالقدرة مالكين ، وبالقوّة قادرين ، حين لاسماء مبنيّة ، ولا أرض مدحيّة ، ولا شمس تضىء ، ولاقمر يسرى ، ولا كوكب يجرى ، ولاليل يجنّ ، ولاأفق يكنّ ، ولالسان ينطق ولاجناح يخفق ، ولاليل ، ولانهار ، ولافلك دوّار ، ولاكوكب سيّار ، فنحن أوّل الفكرة ، وآخر العمل بقدر ومقدور ، وأمر فى القدم مبرور ، فعندما تكامل الأمر وصحّ العزم

(١) سورة ١٢ : آية ١٠٨ .
(٢) سورة ٢ : ١٣٧ .
(٣) سورة ٦ : آية ١٠٤ .

أنشأ الله جلّ وعز المنشآت فأبدأ الأمّهات من هيولانا ، فطبعنا أنوارا وظلمة وحركة ، وسكونا ، فكان من حكمه السابق فى عمله ماترون من فلك دوّار ، وكوكب سيّار ، وليل ونهار ، وما فى الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار باهرات ، وما فى الأقطار[1] من الآثار ، وما فى النفوس من الأجناس والصور والأنواع ، من كثيف ولطيف ، وموجود ومعلوم وظاهر وباطن ، ومحسوس وملموس ، ودانٍ وشاسع ، وهابط. وطالع كل ذلك لنا ومن أجلنا ، دلالة علينا وإشارة إلينا ، يهدى الله ما كان له لب سجيح ، ورأى صحيح ، قد سبقت له منّا الحسنى ، فدان بالمعنى ، ثم إنه جلّ وعلا أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم آدم وحوّاء أبوين ذكرا وأنثى ، سببا لإنشاء البشرية[2] ، ودلالة لاظهار القدرة القويّة الكونيّة[3] ، وزوّج بينهما فتوالدا الأولاد ، وتكاثرت الأعداد ، ونحن ننقل فى الأصلاب الزكيّة والأرحام الطاهرة المرضية ، كلّما ضمّنا من صلب ورحم أظهر منّا قدرة وعلما وحلم جرا إلى آخر الجد الأول والأب الأفضل سيد المرسلين وإمام النبيين أحمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى آله فى كل نادٍ ومشهد ، فحسن آلاؤه وبان غناؤه ، وأباد المشركين وقصم الظالمين ، وأظهر الحق واستعمل الصدق ، وبان بالأحديّة ودان بالصمديّة ، فعندها سقطت الأصنام وانعقد الإسلام ، وظهر الإيمان وبطل السحر والقربان ، وارتفع الكفر والطغيان ، وخمدت بيوت

(١) فى المخطوطات : الآثار والتصويب عن المقريزى والدواوارى (المراجع) .
(٢) فى ك ، ت : البرية .
(٣) فى المخطوطات : المعدنية ، وأحسبها من « كن فيكون » اى مشتقة منها وهذه العبارة لها دلالة خاصة عندهم .

النيران وهربت عبدة الأوثان ، وأتى بالقرآن شاهدا بالحق والبرهان فيه خبر ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم ، مبينا عن كتب تقدّمت فى صحف قد نزلت ، تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة ونورا وسراجا منيرا ، وكل ذلك دلالات لنا ومقدّمات بين أيدينا ، وأسباب لإظهار أمرنا ، هدايات وآيات وشهادات ، وسعادات قدسيات إلاهيات أوّليات كائنات ، منشآت مبديات معيدات وما من ناطقٍ نطق ولانبىّ بعث ولا وصىّ ظهر إلاقد أشار إلينا ، ولوّح بنا ودلّ علينا فى كتابه وخطابه ، ومنار أعلامة ومرموز كلامه ، ماهو موجود غير معلوم وظاهر وباطن ، يعلمه من سمع الندا أو شاهدورأى ،من الملأ الأعلى ، فمن أغفل منكم أو نسى أو ضلّ أو غوى فلينظر فى الكتب الأولى[1] والصحف المنزّلة ، ولينأمل آى القرآن وما فيه من البيان ، وليسأل أهل الذكر إن كان لايعلم ، فقد أمر الله عز وجلّ (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)[2] .

قال : وهذا الكتاب طويل جدا لا طائل فيه ، قطعناه ههنا وسنذكر جملة من هذا الكتاب فى أخبار المعز لدين الله غير ما فى هذا الموضع ، على ما نقف عليه إن شاء الله تعالى فى موضعه[3].

قال[4] : والجواب من الحسن بن أحمد القرمطى الأعصم :

وصل إلينا كتابك الذى كثر تفصيله وقلّ تحصيله ، ونحن سائرون على أثره والسلام .

(١) فى المخطوطات : الأولة .

(٢) سورة ١٦ : آية : ٤٣ .

(٣) يمضى المقريزى فى إبراز النص . أما الدوادارى فيتجاوز عن بعض النصوص وينقل بعضها (المراجع) .

(٤) فى المخطوطات قال إلا أن ا وضع بعدها الشريف خط صغير منعا اللبس .

وسار الحسن بن أحمد بعد ذلك إلى مصر ، فنزل بعسكره عين شمس ، وناشب المغاربة القتال ، وانبثت سراياه فى أرض مصر وبعث عمّالا إلى الصعيد تجبى الأموال ، وضيّق على المغاربة وداومهم القتال على خندق مدينتهم ، يعنى الشريف بمدينتهم القاهرة المعزيّة ، قال: فذكر أنه هزمهم حتى عبر الخندق فامتنعوا منه بالسور ، وعظم ذلك على المعز لدين الله وتحيرّ فى أمره ، ولم يجسر أن يخرج بعسكره خارج الخندق ، قال : وكان ابن الجرّاح الطائى فى جمع عظيم مع الحسن بن أحمد القرمطى ، وكان قوة لعسكره ومنعة ومقدّمة ، فنظر القوم فإذا ليس لهم بالحسن بن أحمد طاقة ، ففكّروا فى أمره فلم يجدوا لهم حيلة غير فلّ عسكره ، وعلموا أنّه لايقدر على فلّه إلابابن الجراح ،وأنّ ذلك لا يتمّ إلا ببذل ما يطلبه من المال ،فراسلوا ابن الجرّاح وبذلوا له مائة ألف دينار ،على أن يفلّ لهم عسكر القرمطى فأجابهم إلى ذلك ، ثم إنهم فكروا فى أمر المال فاستعظموه ، فعملوا دنانير من النحاس وطلوها بالذهب وجعلوها فى أكياس ، وجعلوا على رأس كل كيس منها دنانير يسيرة من الذهب تغطى ما تحتها وشدّوها وحملت لابن الجراح بعد أن استوثقوا منه ، وعاهدوه ألايغدربهم إذا وصل إليه المال ، فلما وصل إليه المال عمل على فلّ عسكره ، وتقدم إلى كبراء أصحابه بأن يتبعوه إذا تواقف العسكران ، وقامت الحرب فلما اشتدّ القتال ولّى ابن الجرّاح منهزما ، واتّبعه أصحابه فى جمع كثير ، فلما نظر إليه القرمطى قد انهزم بعد الاستظهار تحيّر ولزمه أن يقاتل هو ومن معه فاجتهد فى القتال حتى تخلص ، ولم تكن له بهم طاقة وكانوا قد بادروه من كل جانب ، فخشى على نفسه وانهزم

واتّبعوه [قومه] ودخل [المغاربة] معسكره ، فظفروا باتباع وباعة[1] نحو من ألف وخمسمائة رجل ، فأخذوهم أسرى وانتهبوا العسكر وضربوا أعناقهم ، وذلك فى شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، ثم جرّدوا خلف الحسن بن أحمد ، أبا محمود إبراهيم بن جعفر فى عشرة آلاف رجل من المغاربة ، فسار خلفه وتباطأ فى السير خوفا من أن يعطف عليه ، وسار الحسن فنزل أذرعات وأنفذ أبا المنجّى فى طائفة كثيرة من الجند إلى دمشق ، وكان ابنه قبل ذلك واليا عليها ، ثم سار القرمطى فى البريّة إلى بلده وفى نيّته العود ، وكانت المغاربة ، لمّا سمعوا بقصّة ظالم ، وقبض القرمطىّ عليه لما جرى بينه وبين أبى المنجّى ما ذكرناه ، وهربه إلى حصنه ، راسلوه ليأتى القرمطىّ من خلفه ، فسار يريد بعلبك فلقيه الخبر بهزيمة القرمطى ونزول أبى المنجّى على دمشق ، فسار ظالم نحو دمشق ونزل أبو محمود أذرعات ، وذُكر أنّه كان بينه وبين ظالم مراسلة واتّفقا على أبى المنجّى ، وبلغ أبو المنجّى مسير ظالم إليه وكان فى شرذمة يسيرة ، وأبو المنجّى بدمشق فى نحو ألفى رجل ، وكان قد ورد إليه الخبر فى أنّ ظالما يصبح من غد فى عقبة دُمّر ، وكان الجند قبل ذلك قد طلبوا منه الرزق ، فقال : ما معى مال ، فلما ورد إليه خبر ظالم أعطى الجند على السُّرُج دينارين لكل رجل ، ثم إنّ ظالما أصبح من غد ذلك اليوم فى عقبة دُمّر ، فخرج أبو المنجّى وابنه بمن معهما إلى الميدان للقتال ، فذكر أنّ ظالما أنفذ إلى أبى المنجّى رسولا يقول له : إنما جئت مستأمنا إليكم ، وقد كان

(١) فى كنز الدرر للوادارى ص ١٦٠ : وانهزم وتبعوه قومه ، ودخل المغاربة عسكره فظفروا بتبع وباعة ... (والمفهوم من النص أنهم لم يظفروا بجنود وإنما ظفروا بخدم وباعة .

الجند حقدوا على أبى المنجّى من جهة الرزق ، فلما صار ظالم فى عقبة دُمّر مشرفا على دمشق ذهب قوم من الجند نحو العقبة ، فاستأمنوا إلى ظالم وتبعهم قوم بعد قوم ، فقوى طمع ظالم بهم فانحدر من العقبة ، ثم سار بمن معه حتى قرب من أبى المنجّى فأحاط به فلم يقدر على الهرب فأخذ هو وابنه من بعد أن وقعت فيه ضربة ، وانقلب عسكره إلى ظالم ، وملك ظالم البلد ، وذلك فى يوم السبت لعشر خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .

فلما تمكّن ظالم ونزل البلد أوثق أبا المنجّى وابنه ثم حبسهما ، وقبض على جماعة من أصحابه فأخذ أموالهم ، ثم قدم أبو محمود بعد ذلك دمشق فى يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان ، فلقيه ظالم وتقرّب إليه بأبى المنجّى وابنه ، فعمل لكل واحد منهما قفصا من خشب وحملهما إلى مصر فحبسا ، وكان بعد ذلك بين ظالم وأبى محمود وأخبار دمشق ما ليس ذكره فى هذا الموضع من غرضنا ، فلنرجع إلى أخبار القرامطة .

ذكر عود القرامطة الى الشام ووفاة الحسن بن احمد

قال : وفى سنة خمس وستين وثلاثمائة كاتب هفتكين التركى وهو بالشام القرامطة ، وقد جرى بينه وبين المغاربة حروب ووقائع واستنصر بهم ، فكاتبوه بأنّهم سائرون إلى الشام ، فوافوا دمشق فى هذه السنة ، وكان الذى وافى منهم إسحاق وكسرى وجعفر ، فنزلوا ظاهر دمشق نحو الشماسيّة ، ووافى معهم كثير من العجم ممّن كان من أصحاب هفتكين ، فلقى هفتكين القرامطة وحمل إليهم

الأموال وأكرمهم وفرح بهم وأمن ، فأقاموا على دمشق أياما ثم رحلوا متوجّهين إلى الرملة ، وكان بها أبو محمود إبراهيم بن جعفر فتحصّن منهم بيافا ، ونزلت القرامطة الرملة ونصبوا القتال على يافا ، حتى كلّ الفريقان من القتال وصار بعضهم يحدّث بعضا ، وأقامت القرامطة بالرملة يجبون المال ، فندب العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله – وكان قد ولى الأمر بعد وفاة أبيه – جوهر القائد إلى الخروج إلى الشام فى سنة خمس وستين ، وحمل إليه خزائن السلاح والأموال ، فسار يريد الشام فى عساكر لم تخرج المغاربة من مصر بمثلها ، وتواترت الأخبار إلى هفتكين بمسيره ، وهو على عكّا وكان قد ملك صيدا ، فنزل عكّا وسار فنزل طبريّة ، وفارق القرامطة الرملة ونزلها جوهر ، وسار إسحاق وكسرى القرمطيّان إلى الأحساء ، وبقى جعفر لم يسر معهم وانضمّ إلى هفتكين بطبريّة ، وسار جوهر فى طلبهما فسارا إلى دمشق وتبعهم جوهر حتى نزل بالشماسيّة بظاهر دمشق ، والمناوشة تقع بينهم تارة والموادعة أخرى ، فلم يزل الأمر كذلك إلى جمادى الأولى سنة ست وستين وثلاثمائة ، فوردت الأخبار وقويت بقرب الحسن بن أحمد القرمطى من دمشق ، وجاء من بشّر ابن عمّه جعفر بذلك ، فسار إليه وصحّ ذلك عند جوهر ، فنزل دمشق وسار نحو طبريّة وجدّ فى السير ، وكان قد هلك من عسكره خلق كثير ، فخاف أن يدركه الحسن بن أحمد القرمطى فأسرع المسير من طبريّة ، وخرج الحسن ابن أحمد من البريّة يريد طبريّة فوجده قد سار عنها ، فأنفذ خلفه سريّة فلحقته فرجع عليها أصحاب جوهر ، فقتلوا جماعة من العرب وسار جوهر حتى نزل ظاهر الرملة ، وأتاه الخبر عن الحسن فدخل جوهر

زيتون الرمل وتحصّن به ، وسار هفتكين من دمشق فى أثر الحسن ابن أحمد فلحقه ، وتوفى الحسن بن أحمد بالرملة ، وتولى أمر القرامطة بعده ابن عمّه جعفر ، واجتمع هو وهفتكين على قتال جوهر ، فقاتلوه بقيّة سنة ست وستين وثلاثمائة ، ثم رجع جعفر إلى بلده ، وكان بين هفتكين وجوهر من الحصار ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار ملوك مصر .

ذكر استيلاء القرامطة على الكوفة وخروجهم عنها

قال ابن الأثير (١) رحمه الله تعالى : وفى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ورد إسحاق وجعفر الهَجريّان - وهما من القرامطة الذين تلقّبوا بالسادة - فملكا الكوفة ، قال : وكان للقرامطة من الهيبة ما إن عضد الدولة وبختيار أقطعاهم الكثير من الاقطاعات ، وكان نائبهم ببغداد وهو أبو بكر بن شاهويه يحكُم حكم الوزراء ، فقبض عليه صمصام الدولة بن بويه ، فلما جاء القرامطة إلى الكوفة كتب صمصام الدولة إلى إسحاق وجعفر بالملاطفة ويسألهما عن سبب حركتهما ، فذكرا أن السبب فى ذلك ما وقع منه من القبض على صاحبهما ، وبثّا أصحابهما فى جباية الأموال ، ووصل الحسن بن المنذر - وهو من أكابر القرامطة - إلى الجامِعيْن ، فأرسل صمصام الدولة العساكر والعرب فقاتلوه وأسروه وجماعة من القوّاد وانهزم من معه ، ثم جهّز القرامطة جيشا آخر فى عدد كثير فهزمته عساكر صمصام الدولة ،

(١) راجع الكامل حـ٩ ص ٢٩ ، ص ٣٠ ، ومن هنا عاد المؤلف النويرى إلى نقله من الكامل لابن الأثير واتخاذه مصدراً له فى تلخيصه للأحداث .

وقتل مقدّم القرامطة ، وكانت هذه الوقعة بالجامعين ، فلما بلغ المنهزمون الكوفة رحل القرامطة عنها ، وتبعتهم العساكر إلى القادسية وأخذ أمر القرامطة فى الانتقاض ، ولم يكن لهم بعد ذلك بالعراق والشام وقعة بلغنا خبرها .

ذكر ظفر الأصغر بالقرامطة

قال [1] ابن الأثير : وفى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة جمع إنسان يعرف بالأصفر من بنى المنتفق جمعا كثيرا ، وكان بينه وبين جمع من القرامطة وقعة ، قتل فيها مقدّم القرامطة وانهزم أصحابه وقتل منهم وأسر خلق كثير ، وسار الأصفر إلى الأحساء فتحصّن القرامطة منه ، فعدل إلى القطيف فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأثقالهم ومواشيهم ، وسار بذلك إلى البصرة وانتقض أمر القرامطة وضعفوا ، وكان مدة ظهور مذهبهم إلى هذا التاريخ مائة سنة ، ومنذ ظهر أمرهم واستولوا على البلاد وتجهّزت العساكر لقتالهم خمسا وتسعين سنة ، وكانت فتنتهم قد عمّت أكثر البلاد والعباد ؛ ولم أقف لهم بعد واقعة الأصفر على واقعة أخرى فأذكرها .

وقد ذكرنا من أخبارهم ما فيه كفاية ، فلنذكر أخبار الخوارج ببلاد الموصل .

---

(١) راجع الكامل حـ٩ ص ٤٠ .

ذكر اخبار الخوارج ببلاد الموصل
مساور ومن بعده

كان خروج مساور بن عبد الحميد بن مُساوِر البجلى بالبوازيج من بلاد الموصل فى شهر رجب من شهور سنة اثنتين وخمسين ومائتين فى خلافة المعتز بالله ، وكان سبب [1] خروجه أنّ شرطة الموصل كان يتولّاها رجل اسمه حسين بن بكير لبنى عمران أمراء الموصل ، فأخذ ابنا لمساور هذا اسمه حوثرة فحبسه بالحديثة ، وكان حوثرة جميلا فكان متولّى الشرطة يخرجه من الحبس ليلا ويحضره عنده ، ويردّه إلى الحبس نهارا ، فكتب حوثرة إلى أبيه - وهو بالبوازيج - يقول : أنا بالنهار محبوس وبالليل عروس ، فغضب لذلك وقلق وخرج وتابعه جماعة ، وقصد الحديثة فاختفى حسين بن بكير ، فأخرج ابنه من الحبس وكثر جمعه من الأعراب والأكراد ، فسار إلى الموصل ونزل بالجانب الشرقى ، وكان الوالى عليها عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث بن اهبان الخزاعى ، واهبان يقال إنه مكلّم الذئب وله صحبة ، فوافقه من الجانب الغربي وعبر دجلة رجلان من أهل الموصل إلى مساور ، فقاتلا مساورا فقتلا وعاد مساور وكره القتال ؛ وكان حوثرة ابنه معه فكان يقول :

أنا الغلام البجلى الشـــارى أخرجنى جوركمُ من دارى

(١) المصدر هنا الكامل لابن الأثير ج٧ ص ١١٧ .

ذكر قتل مساور بندارا الطبرى متولى طريق خراسان

قال (١) : ولمّا فارق مساور الموصل (٢) بلغ بُنْدارا الطبرىّ وهو بالدسكرة أنّه يريد كرخ جُدان ، وكان بُندار الطبرى يلى طريق خراسان هو ومظفّر بن سيسل ، فقال بندار ذلك لمظفّر فقال مظفّر : قد أمسينا وغداً عيد ، فإذا قضينا العيد سرنا إليه ، فسار بندار ليلا طمعا فى أن يكون الظفر له ، حتى أشرف على عسكر مساور ، فأشار عليه بعض أصحابه أن يبيّتهم فأبى ، وقال : حتى أراهم ويرونى ، فأحسّ به الخوارج فركبوا واقتتلوا ، وكان مع بندار ثلاثمائة فارس ومع مساور سبعمائة ، فاشتدّ القتال بينهم وحمل الخوارج حملة ، اقتطعوا من أصحاب بندار أكثر من مائة فصبروا لهم وقاتلوهم حتى قتلوا جميعا ، فانهزم بُنُدار وأصحابه وجعل أصحاب مساور يقتطعونهم قطعة بعد قطعة فقتلوهم ، وأمعن بندار فى الهرب فطلبوه حتى أدركوه فقتلوه ونصبوا رأسه ، ونجا من أصحابه نحو خمسين رجلا ، وقيل مائة ، وأتى الخبر إلى المظفّر فرحل نحو بغداد ، وسار مساور نحو حُلوان فقاتله أهلها ، فقتل منهم أربعمائة إنسان ، وقتلوا من أصحابه جماعة وقتل مساور عدّة من أصحاب خراسان كانوا بحلوان ، تأعانوا أهلها على مساور ، ثم انصرف عن حلوان ، فقال مساور فى ذلك :

فجعتُ العراق ببُنْدارها ... وحزت البلاد بأقطارها

(١) الكامل لابن الأثير حـ٧ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) فى ك ، ت : الوضع ويؤيد ا الكامل حـ٧ ص ١٢٠ .

وحُلوان صبّحتهـا غارة فقتّلتُ أغرار غـرّارهـا
وعقبة بالموصل اجحرتُه وطوّقه الذل بى كارهـا

قال : وكان قتل بُندار فى سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، ثم لقى مساور عسكرا للخليفة ، ومقدّمهم خَطَرمش بناحية جلولاء فى ذى الحجة من السنة ، فهزمهم مساور واستولى على أكثر بلاد الموصل فقوى أمره وكثرت اتباعه (١) .

فجمع له الحسن (٢) بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبى - وكان خليفة أبيه على الموصل - عسكرا كثيرا منهم حمدان بن حمدون جدّ الأمراء الحمدانيّة وغيره ، وسار إليه وعبر إليه نهر الزاب ، فتأخر مساور عن موضعه ونزل بموضع يقال له وادى الذئاب ، وهو واد عميق ، فسار الحسن في طلبه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم عسكر الموصل وكثر القتل فيهم ، وسقط كثير منهم فى الوادى فهلك فيه أكثر من القتلى ، وذلك فى جمادى الأولى سنة أربع وخمسين ومائتين ، ونجا الحسن فوصل إلى حرّة من أعمال إربل ، وهرب محمد بن على بن السيّد ، فظنّ الخوارج أنّه الحسن فتبعوه فقتلوه ، وكان فارسا شجاعا ، واشتدّ أمر مساور وعظم شأنه وخافه الناس .

---

(١) راجع الكامل حـ٧ ص ١٢٤ .

(٢) فى المخطوطات : الحسن بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبى وهو خطأ صححته المخطوطات عند ذكر اسمه مرة أخرى والتصويب عن الكامل - وهو مصدر المؤلف - حـ٧ ص ١٢٧

ذكر استيلاء مساور على الموصل وخروجه منها

قال (١) : ولما انهزم عسكر الموصل من مساور قوى أمره وكثرت أتباعه ، فسار من موضعه وقصد الموصل فنزل بظاهرها عند الدير الأعلى ، فاستتر أمير البلد عبدالله بن سليمان لضعفه عن مقاتلته ولم يدافعه أهل الموصل ، فوجه مساور جمعا إلى دار عبد الله أمير البلد فأحرقها ، ودخل الموصل بغير حرب فلم يتعرّض لأحد ، وحضرت الجمعة فدخل المسجد الجامع ، وحضر الناس فصعد مساور المنبر ، وجعل على درج المنبر من أصحابه من يحرسه بالسيوف وكذلك فى الصلاة ، ولما خطب قال فى خطبته : (اللهم أصلحنا وأصلح ولاتنا) ولما دخل فى الصلاة جعل إبهاميْه فى أذنيه وكبّر ست تكبيرات ثم قرأ بعد ذلك .

ثم فارق البلد ولم يقدر على المقام به لكثرة أهله ، وسار إلى الحديثة وكان قد اتّخذها دار هجرته ، وكان دخوله الموصل فى سنة خمس وخمسين ومائتين ، ثم كان بينه وبين عسكر للخليفة فى هذه السنة وقعة فانهزم عسكر الخليفة .

---

(١) راجع الكامل ج٧ ص ١٣٩ .

ذكر اختلاف الخوارج على مساور وانتصاره على من خالفه وقتاله عساكر الخليفة

وفى سنة ست [١] وخمسين ومائتين خالف إنسان من الخوارج اسمه عُبيدة من بنى زهير ، على مساور ، وسبب ذلك أنّه خالفه فى توبة المخطىء ، فقال مساور : تُقبل توبته ، وقال عُبيدة : لا تقبل ، فجمع عبيدة جمعا كثيرا وسار إلى مساور ، وتقدّم إليه مساور من الحديثة ، فالتقوا بنواحى جُهينة فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ، واقتتلوا أشد قتال فترجّل عبيدة ومعه جماعة من أصحابة وعرقبوا دوابّهم فقتل عُبيده وانهزم جمعه ، فقتل أكثرهم واستولى مساور على كثير من العراق ، ومنع الأموال عن الخليفة فضاقت على الجند أرزاقهم فاضطرهم ذلك إلى أن سار إليه موسى بن بغا وبايكباك وغيرهما فى عسكر عظيم ، وذلك فى سنة ست وخمسين ، فوصلوا إلى السنّ وأقاموا به ، ثم عادوا بسبب خلع المهتدى ، فلما ولى المعتمد على الله الخلافة سيّر مُفلحا فى عسكر كبير لقتال مساور ، فسار فلما قارب الحديثة فارقها مساور ، وقصد جبلَيْن يقال لأحدهما زينى والآخر عامر وهما بالقرب من الحديثة ، فتبعه مفلح فعطف عليه مساور وهو فى أربعة آلاف فارس ، وكان مساور قد انصرف من حرب عُبيدة وقد جرح كثير من أصحابه ، فلحقوا مفلحا بجبل زينى فلم يصل إلى ما يريد ، فصعد مساور رأس الجبل فاحتمى به ، ونزل مفلح فى أصل الجبل ، وجرى بينهما وقعات كثيرة ، ثم أصبحوا يوما

(١) فى ك ، ت : خمس وخمسين والتصويب من ا يؤيدها الكامل حـ٧ ص ١٥٥ وهو مصدر المؤلف راجع حـ٧ ص ١٥٥ ، ص ١٥٦ .

فطلبوا مساورا فلم يجدوه ، وكان قد نزل من غير الوجه الذى نزل به مفلح ، لمّا أيس من الظفر لضعف أصحابه من الجراح ، فلمّا لم يره مفلح سار إلى الموصل وسار منها إلى ديار ربيعة ، سنجار ونصيبين والخابور ، فنظر فى أمرها ثم سار فأتى الموصل ، فأحسن السيرة فى أهلها ورجع عنها وقد تأهّب للقاء مساور ، فلمّا قارب الحديثة فارقها مساور وتبعه مفلح ، فكان مساور يرتحل عن المنزل فينزله مفلح ، فلمّا طال الأمر على مفلح وتوغّل فى الجبال والشعاب والمضايق عاد عنه فتبعه مساور يقفو أثره ويأخذ من ينقطع عن ساقة العسكر ، فرجع إليه طائفة من العسكر فقاتلوه ، ثم عادوا ولحقوا مفلحا ، ووصل مفلح الحديثة فأقام بها أياما ، وانحدر فى أول رمضان إلى سامرّا ، فاستولى حينئذ مساور على البلاد ، وقوى أمره واشتدت شوكته .

وفى سنة (١) سبع وخمسين ومائتين خرج على مساور خارجىّ آخر اسمه طَوْق من بنى زُهير ، فاجتمع إليه أربعة آلاف فصار بهم إلى أذْرَمَة(٢) ، فحاربه أهلها فدخلها بالسيف ، وأخذ جارية بكرا فافتضّها فى المسجد ، فجمع الحسن بن أيوب بن أحمد العدوى جمعا كثيرا فحاربه وقتله ، وأنفذ رأسه إلى سامرّا (٣) ، واستمر مساور بتلك النواحى إلى أن مات فى سنة ثلاث وستين .

---

(١) راجع الكامل حـ٧ ص ١٧٢ .

(٢) فى المخطوطات : دومة والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ١٧٢ هذا وقد ورد فى معجم البلدان لياقوت الحموى جـ١ ص٧٧ ص ١٧٨ ما يأتي :
أذرمة : من ديار ربيعة قريةقديمة أعلها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبى من صاحبها .... إلى أن يقول : وأذرمة اليوم من أعمال الموصل من كورة تعرف ببين النهرين .

(٣) فى ك ، ت : مساور .

ذكر وفاة مساور وخبر من قام بعده الى أن قام هارون البجلى

وفى سنة [١] ثلاث وستين ومائتين توفىّ مساور الشارى ، وكان قد رحل من البوازيج يريد لقاء عسكر قد سار إليه من قبل الخليفة ، فكتب أصحابه إلى محمد بن خرّزاد وهو بشهرزور ليولّوه أمرهم ، فامتنع وكان كثير العبادة فبايعوا أيوب بن حيّان الوارقى البجلى ، فأرسل إليهم محمد بن خرّزاد يذكر أنّه نظر فى أمره فلم يسعه اهمال الأمر ، لأنّ مساورا عهد إليه به ، فقالوا له : قد بايعنا هذا الرجل ولا نغدر به ، فسار إليهم فيمن بايعه فقاتلهم ، فقتل أيوب بن حيّان فبايعوا بعده محمد بن عبد الله بن يحيى الوارقى المعروف بالغلام فقتل أيضا فبايع أصحابه هارون بن عبد الله البجلى ، فكثر اتباعه وعاد عنه ابن خرّزاد ، واستولى هارون على بلد الموصل وجبى خراجه .

(١) راجع الكامل حـ٧ ص ٢١٤ .

ذكر محاربة محمد بن خرزاد هارون بن عبد الله وماكان من خبر خرزاد ومقتله واستقلال هارون بالأمر بمفرده

وفى سنة [1] سبع وستين ومائتين كانت الحرب بين محمد بن خرّزاد وهارون بن عبد الله ، وذلك أن محمدا جمع أصحابه وسار لحرب هارون ، فنزل واسط. وهى قرية من قرى الموصل ، وكان يركب البقر لئلا يفرّ من القتال ، ويلبس الصوف الغليظ. ويرقع ثيابه ، وكان كثير العبادة والنسك ويجلس على الأرض ليس بينه وبينها حائل ، فلما نزل واسط. خرج إليه وجوه أهل الموصل ، وكان هارون بمُعْلَثَايا يجمع لحرب محمد ، فلما سمع بنزول محمد عند الموصل سار إليه ، ورحل ابن خرّزاد نحوه ،فالتقوا بالقرب من قرية شمرخ واقتتلوا قتالا شديدا ، كان فيه مبارزة وحملات كثيرة ، فانهزم هارون وقتل من أصحابه نحو مائتى رجل ، منهم جماعة من الفرسان المشهورين ، ومضى هارون منهزما فعبر دجلة إلى العرب قاصدا بنى تغلب فنصروه واجتمعوا إليه ، ورجع محمد بن خرّزاد من حيث أقبل وعاد هارون إلى الحديثة فاجتمع إليه خلق كثير ، فكاتب أصحاب ابن خرّزاد واستمالهم ، فأتاه منهم خلق كثير ، ولم يبق مع ابن خرّزاد إلا عشيرته من النسردليّة ، وهم أهل شهرزور ، وإنما فارقه أصحابه لأنّه كان خشن العيش ، وهو ببلد شهرزور كثير الأعداء من الأكراد

(١) راجع الكامل حـ٧ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

وغيرهم ، وكان هارون ببلد الموصل قد صلح حاله وحال أصحابه ، فمال إليه أصحاب ابن خرّزاد وقصدوه لهذا السبب ، وأوقع ابن خرّزاد بالأكراد الجلاليّة بنواحى شهرزور وغيرهم ، فقتل وتفرّد هارون بالأمر وقوى ، وكثر أتباعه وغلبوا على القرى والرساتيق ، وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة ، وبثّوا نوّابهم فى الرساتيق يأخذون الأعشار من الغلّات

وفى سنة اثنتين [1] وسبعين ومائتين دخل هارون الموصل ، وصلى الجمعة بالناس وكان معه حمدان بن حمدون .

ذكر خروج محمد بن عبادة على هارون وكلاهما خارجى

وفى سنة [2] ثمان وسبعين ومائتين خرج محمد بن عُبادة ويعرف بأبى جورة [3] – وهو من بنى زهير على هارون ، وكان محمد هذا فى أوّل أمره من الفقراء الصعاليك ، وكان هو وابناؤه يلتقطون الكمأة ويبيعونها إلى غير ذلك من الأعمال ، ثم إنه جمع جماعة وحكم ، فاجتمع إليه أهل تلك النواحى والأعراب وقوى أمره ، وأخذ عشر الغلات وقبض الزكاة ، وسار إلى مُعْلَثَايا فقاطعه أهلها على خمسمائة دينار ، وجبى تلك الأعمال وبنى عند سنجار حصنا ، وحمل إليه الميرة والأمتعة ، وجعل فيه ابنه أبا هلال ومعه مائة وخمسون رجلا

(١) راجع الكامل لابن الأثير حـ٧ ص ٢٩٣ .

(٢) فى أحداث سنة ٢٨٠هـ ونجد الحديث فى هذا الموضوع راجع الكامل حـ٧ ص ٣٢١

(٣) فى المخطوطات : بأبى حوثرة والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ٣٢١ ومعجم البلدان لياقوت الحموى (طبع أوروبا) حـ٤ ص ٢٧ .

من وجوه بنى زهير وغيرهم ، ووصل الخبر إلى هارون فاجتمع رأيه ورأى وجوه أصحابه على قصد الحصن أولا ، فإذا فرغوا منه ساروا إلى محمد بن عُبادة ، فجمع أصحابه به فبلغوا ألف فارس ومائتى فارس ومائة راجل ، فأحدق بالحصن وحصره ، ومحمد بن عُبادة فى قَبْراثا[1] لم يعلم بذلك ، وجدّ هارون فى قتال أهل الحصن ، ونصب عليهم السلاليم وملكه ، فلما رأى من معه من بنى تغلب تغلّبه على الحصن أعطوا من فيه من بنى زهير الأمان ، بغير أمر هارون فشقّ ذلك عليه ؛ إلا أنه قتل أبا هلال بن محمد ونفرا معه قبل الأمان ، ثم ساروا إلى محمد فوافوه وهو فى أربعة آلاف رجل ، فاقتتلوا فانهزم هارون ومن معه ، ووقف بعض أصحابه ونادى رجالا بأسمائهم فاجتمعوا نحو أربعين رجلا ، وحملوا على ميمنة محمد فانهزمت ، وعادت الحرب فانهزم محمد وأصحابه ، ووضعوا فيهم السيف فقتل منهم ألفان وأربعمائة رجل وحجز بينهم الليل وجمع هارون مالهم فقسّمه بين أصحابه ، وانهزم محمد إلى آمد فأخذه صاحبها أحمد بن عيسى بن الشيخ بعد حرب وأسره ، وحمله إلى المعتضد بالله فسلخ جلده كالشاة .

---

(١) فى المخطوطات : قرايا والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ٣٢١ ، قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان (طبع أوروبا) حـ٤ ص ٢٧ : قبراثا : قرية من نواحى بقعاء الموصل ومن قبراثا كان أبو جورة محمد بن عباد الخارجى الذى خرج على هارون الشارى الخارجى أيضا .

ذكر انهزام هارون من عسكر الموصل

كان المعتضد بالله قد سار إلى ماردين فى سنة إحدى وسبعين ، وخلّف بالموصل نصر القشورى يجبى الأموال ويعين العمّال على جبايتها فخرج عامل مُعْلَثَايا إليها ومعه جماعة من أصحاب نصر ، فوقع عليهم طائفة من الخوارج فاقتتلوا إلى أن أدركهم الليل ففرّق بينهم ، وقتل من الخوارج إنسان اسمه جعفر ، وهو من أعيان أصحاب هارون ، فعظم عليه ذلك وأمر أصحابه أن يفسدوا فى البلاد ، فكتب نصر القشورى إلى هارون يتهدّده بقرب الخليفة ، وأنّه إن همّ به أهلكه وأصحابه ، فلا يغتر بمن سار إلى حربه فعاد عنه بمكره وخديعته ، فأجابه هارون بجواب غليظ ، من جملته وإنّا وإياك كما قيل :

فلا توعدونا باللقاء وأبرزوا إلينا سوادا نلقــهُ بسواد

فبعث نصر جواب هارون إلى المعتضد بالله فجدّ فى قصده ، وولّى الحسن بن علىّ كورة الموصل وأمره بقصد الخوارج ، وأمر كافّة مقدّمى الولايات والأعمال بطاعته ، فجمعهم وسار إلى أعمال الموصل وخندق على نفسه ، وأقام إلى أن رفع الناس غلّاتهم ، ثم سار إلى الخوارج وعبر نهر الزاب إليهم ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانكشف الخوارج عنه ، ليفرّقوا جمعيته [1] ثم يعطفوا عليه ، فأمر الحسن أصحابه بلزوم مواقفهم ففعلوا ، ورجع هارون وأصحابه وحملوا سبع عشرة حملة ، فانكشفت ميمنة الحسن وثبت هو ، فحمل عليه

(١) فى المخطوطات تمييته والتصويب من الكامل لابن الأثير حيث ينقل منه بالنص راجع ج ٧ ص ٣٢٧ .

الخوارج حملة رجل واحد وهو ثابت ، وضرب على رأسه عدّة ضربات فلم تؤثر فيه ، فلما رأى أصحابه ثباته رجعوا إليه وقاتلوا وصبروا ، فانهزم هارون ومن معه وقتل خلق كثير ، وكانت هذه الوقعة فى سنة اثنتين وثمانين [1] ومائتين ، فتحيّر هارون فى أمره فقصد البريّة ، ونزل عند بنى تغلب ثم عاد إلى معلثايا ، ورجع إلى البريّة ثم رجع إلى دجلة ، وتكرّر ما بين ذلك ،فلما رأى أصحابه قوّة دولة الخليفة المعتضد بالله راسلوا الخليفة فى طلب الأمان ، فأمّنهم فأتاه ثلاثمائة وستون رجلا ، وبقى مع هارون بعضهم ، وهو يجول فى البلاد إلى أن قتل .

ذكر مقتل هارون

وفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين سار المعتضد بالله إلى الموصل ، ووصل إلى تكريت وأقام بها ، وأحضر الحسين بن حمدان وبعثه فى طلب هارون فى جماعة من الفرسان والرجّالة ، فانتخب الحسين ثلاثمائة رجل فسار بهم ، ومعه وصيف فقال له الحسين : مره يا أمير المؤمنين بطاعتى ، فأمره بذلك ، فسار بهم الحسين حتى انتهى إلى مخاضة فى دجلة ، فقال الحسين لوصيف ولمن معه ليقفوا هناك ، وقال : ليس لهارون طريق – إن هرب – غيرها ، فلا تبرحوا من هذا الموضع حتى يمرّ بكم فتمنعوه من العبور وأكون أنا من خلفه ، ومضى الحسين فى طلب هارون فلقيه ، واقتتلوا وقتل من الفريقين عدّة قتلى ، ثم انهزم

(١) فى المخطوطات اثنتين ومائتين وهو سهو كما هو واضح .

هارون ، وأقام وصيف على المخاضة ثلاثة أيام ، فقال له أصحابه : قد طال مقامك ولسنا نأمن أن يأخذ حسين هارون ، فيكون الفتح له دوننا ، والصواب أن تمضى فى آثارهم فأطاعهم ومضى ، ولما فارق المخاضة جاء هارون فعبرها ، وجاء الحسين فى أثره إلى الموضع فلم ير وصيفا وأصحابه فى الموضع الذى تركهم فيه ، فعبر فى أثر هارون وانتهى إلى حىّ من أحياء العرب ، فسأل عنه فكتموه أمره فهدّدهم فأعلموه أنّه اجتاز بهم ، فتبعه حتى أدركه بعد أيام وهارون فى نحو مائة رجل ، فناشده فأبى الحسين إلا قتاله ، وحاربه وألقى نفسه عليه وأسره ، وجاء به إلى المعتضد بالله إلى بغداد فوصلها لثمان بقين من شهر ربيع الأول ، وأدخل هارون على فيل ، وأرادوا أن يلبسوه ديباجا مشهّرا فامتنع [1] ، وقال : هذا لا يحلّ فألبسوه كارها ، ولما صلب نادى بأعلى صوته لا حكم إلا لله ولو كره المشركون ، وكان هارون صُفْريا ، وكانت مدة خروج هذه الطائفة ، منذ خرج مساور إلى أن أسر هارون ثلاثين سنة ، منها أيام مساور عشر سنين ، ومدة خروج هارون عشرون سنة ، والله تعالى أعلم .

---

(١) فى ك ، ت : فأبى ، ولما كان المؤلف ينقل اللفظ كما فى الكامل تأيد ا فى نقله راجع ج٧ ص ٣٣٠ .

الباب التاسع

من القسم الخامس من الفن الخامس

فى اخبار من استقل بالملك والممالك بالبلاد الشرقية والشمالية فى خلال الدولة العباسية وهم ملوك خراسان وما وراء النهر والجبال وطبرستان وغزنه والغور وبلاد السند والهند والدولة السامانية والدولة الصفارية والغزنوية والغورية والدولة الديلمية الختلية .

ذكر اخبار الدولة السامانية

وقيامها بما وراء النهر ونسب ملوكها وابتداء أمرهم

كان أوّل من نبغ منهم وظهر اسمه وولى من قبل الخلافة نصر بن أحمد بن أسد بن سامان خداه بن جثمان بن طمغاث بن نوشرد بن بهرام جوبين بن بهرام خُشْنُش ، وكان بهرام خُشْنُش من الرىّ فجعله كسرى هرمز مرزبان أذربيجان ، وكانت ولاية نصر بن أحمد ما وراء النهر فى سنة إحدى وستين ومائتين من قبل الخليفة المعتمد على الله العبّاسى ، وكان المأمون ، لمّا ولى خراسان فى خلافة أبيه الرشيد ، اصطنع أولاد أسد بن سامان ، وهم نوح وأحمد ويحيى وإلياس ، فقدّمهم ورفعهم واستعملهم ، فلمّا أفضت الخلافة إلى المأمون ورجع

إلى العراق استخلف غسّان [1] بن عبّاد ، فاستعمل غسان نوح بن أسد على سمرقند ، وأحمد بن أسد على فرغانة ، ويحيى على الشاش وأشروسنة ، وإلياس على هراة وذلك فى سنة أربع ومائتين ، ثم أقرّهم طاهر بن الحسين على هذه الأعمال لما ولى خراسان ، ثم توفى نوح بن أسد فأقرّ طاهر أخويه يحيى وأحمد على عمله ، وكان أحمد بن أسد عفيفا عن المطاعم الدنيّة حسن السيرة ، لا يقبل الرشا ، ففيه يقول الشاعر :

ثوى ثلاثين حولا فى ولايته فجاع يوم ثوى فى قبره حشمه

وقيل إنّ هذا الشعر إنما قيل فى ابنه نصر .

وأمّا إلياس فإنه أقام بهراة إلى أن مات ، فأقر عبدالله بن طاهر ابنه أبا إسحاق محمد بن إلياس على عمله بهراة . وكان لأحمد بن أسد سبعة بنين وهم : نصر وأبو يوسف يعقوب وأبو زكريا يحيى وأبو الأشعث أسد وإسماعيل وإسحاق وأبو غانم حُميد ، فلما توفى أحمد بن أسد استخلف ابنه نصرا على أعماله بسمرقند ، فبقى عاملا عليها إلى آخر الأيام الطاهريّة وبعدها إلى أن مضى لسبيله ، وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرا ، فولاه بخارى فى سنة إحدى وستين ومائتين ، فهذا ابتداء أمرهم على سبيل الاختصار .

وهذه الولاية هى أوّل ولاية كانت لملوك هذه الدولة ولأهل هذا البيت من قبل الخليفة ، ففى هذه السنة كان ابتداء دولتهم ، وأوّل من استقلّ منهم بالولاية نصر هذا فى هذا التاريخ ، وكان قبل ذلك

(١) فى المخطوطات حسان والتصويب من الكامل حـ٧ ص ١٩٢ مصدر المؤلف .

يلى الأعمال من قبل عمّال خراسان ، قال : ثم وقع [خلاف] بين نصر وأخيه إسماعيل مرة بعد أخرى حتى أفضى ذلك إلى الحرب بينهما ، فتحاربا فى سنة خمس وسبعين ومائتين ، فظفر إسماعيل بأخيه نصر فلما جىء به إليه ترجّل إسماعيل له ، وقبّل يده وردّه إلى موضعه بسمرقند ، وتصرّف فى النيابة عنه ببخارى وصلح ما بينهما ، وكان إسماعيل خيّرا يحب أهل العلم والدين ويكرمهم ، وببركتهم دام الملك فى عقبة من بعده .

حكى عن أبى إبراهيم إسماعيل بن أحمد هذا قال (١) : كنتُ بسمرقند فجلست للمظالم وجلس أخى إسحاق إلى جانبى ، فدخل أبو عبد الله محمد بن نصر الفقيه الشافعى فقمت له اجلالا لعلمه ودينه ، فلما خرج عاتبنى أخى وقال : أنت أمير خراسان يدخل عليك رجل من رعيّتك فتقوم له فتذهب السياسة بهذا ! ! قال إسماعيل فبتّ فى تلك الليلة فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكأنّى واقف أنا وأخى إسحاق ، فأقبل النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ بعضدى وقال لى : يا إسماعيل ثبت ملكك وملك بنيك بإجلالك محمد بن نصر ، ثم التفت إلى إسحاق وقال : ذهب ملكك وملك بنيك باستخفافك بمحمد ابن نصر .

---

(١) راوى هذه القصة هو أبو الفضل محمد بن عبد الله البلخى ، وهى واردة فى الكامل ج٧ ص ١٩٤ .

ذكر وفاة نصر وقيام أخيه اسماعيل

وفى سنة تسع وسبعين ومائتين توفى نصر بن أحمد ، وكانت مدة استقلاله بالأمر ثماني عشرة سنة تقريبا ، وكان دينا [1] عاقلا حسن الشعر ، ولما مات قام مقامه فى أعماله بما وراء النهر أخوه إسماعيل ابن أحمد .

وفى سنة ثمانين ومائتين غزا إسماعيل بلاد الترك ،وافتتح مدينة ملِكهم وأسر أباه وامرأته خاتون ونحوا من عشرة آلاف ، وقتل منهم خلقا وأصاب من الدواب ما لا يعلم عدده ، وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم .

ذكر ملك اسماعيل خراسان

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين ملك خراسان من عمرو بن الليث الصفّار ، وسبب ذلك[2] أن عمرا كان قد أرسل إلى الخليفة المعتضد بالله يطلب منه أن يوليه ماوراء النهر ، فوجّه إليه الخلع واللواء بذلك ، وكان هو إذ ذاك بنيسابور ، فوجّه لمحاربة إسماعيل محمد بن بشير – وكان صاحبه وخليفته – وعشرة من قوّاده ، فتوجّهوا إلى آمل فعبر إليهم إسماعيل نهر جيحون ، والتقوا فهزمهم وقتل محمد بن بشير فى نحو ستة آلاف رجل ، وبلغ المنهزمون إلى عمرو بنيسابور ، وعاد إسماعيل إلى بخارى ، فتجّهز عمرو لقصده وسار من نيسابور

(١) ق ا : أديبا ويزيد ك ، ت الكامل حـ٧ ص ٣١٧ وهو مصدر المؤلف .
(٢) راجع الكامل حـ٧ ص ٣٤٥ ، ص ٣٤٦ .

نحو بلخ ، فراسله إسماعيل يستعطفه ويقول : إن ولايتك قد اتّسعت ولك دنيا عريضة ، وأنه ليس بيدى إلا ماوراء النهر ، وأنا فى ثغرفاقنع بما فى يدك واتركنى ، فأبى عمرو إلا قتاله ، فذكر أصحاب عمرو له شدّة العبور إلى نهر بلخ ، فقال : لو شئت أن أسكره ببدر الأموال لفعلت ، وسار إسماعيل نحوه وعبر النهر إلى الجانب الغربى ، ونزل عمرو بلخ وأخذ إسماعيل عليه النواحى لكثرة جيوشه ، فبقى عمرو كالمحاصر فطلب المحاجزة فأبى إسماعيل ، والتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كبير قتال حتى ولى عمرو هاربا ، ومرّ بأجمة فى طريقه فقيل له إنّها أقرب الطرق فقصدها فى نفر يسير وقال لعامة من معه : اسلكوا الطريق الواضح ، ودخل الأجمة فوحل به فرسه ومضى من معه ، فجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيرا ، فسيرّه إسماعيل إلى سمرقند ، فلما وصل الخبر إلى المعتضد ذمّ عمرا ومدح إسماعيل ، قال . : ثم خيرّه إسماعيل بين المقام عنده أو انفاذه إلى المعتضد فاختار التوجّه إلى الخليفة فسيرّه إليه ، كانت هذه الوقعة فى شهر ربيع الأول من السنة .

وأرسل الخليفة المعتضد بالله إلى إسماعيل الخلع ، وولاه ما كان بيد عمرو وخلع على نائبه بالحضرة وهو المعروف بالمرزبانى ، فاستولى إسماعيل على خراسان وصارت بيده .

ذكر ملكه طبرستان

وفى سنة سبع وثمانين أيضا ملك إسماعيل طبرستان من محمد بن زيد العلوى ، وسبب ذلك أنه سار لقصد خراسان ، ظناً منه أن إسماعيل لا يتجاوز ماوراء النهر ، فبعث إليه ينهاه عن التعرض إليها ونرك له جرجان فامتنع من ذلك ، فندب إسماعيل لقتاله محمد بن هارون فالتقوا واقتتلوا على باب جرجان ، فانجلت الحرب عن انهزام العلوى بعد أن جرح عدّة جراحات وأسر ابنه زيد بن محمد ، وحمل إلى إسماعيل فأكرمه وأحسن نزله ، وسار محمد بن هارون إلى طبرستان وملكها ، وتولاّها من قبل إسماعيل .

ثم استولى محمد بن هارون على الرىّ فى شهر رجب سنة تسع وثمانين بعد أن خلع طاعة إسماعيل ، وكان أهل الري قد كاتبوه في تسليمها إليه ، فسار إليهم فحاربه واليها وهو اكرتمش[1] التركى ، فقتله محمد وقتل ابنيه وأخاه كيغلغ وهو من قواد الخليفة .

ذكر القبض على محمد بن هارون ووفاته

وفى[2] سنة تسعين ومائتين أنفذ المكتفى بالله عهدا إلى إسماعيل بولاية الرىّ ، فسار إليها ففارقها ابن هارون إلى قزوين ثم عاد إلى طبرستان ، واستعمل ، إسماعيل على جرجان بارس التركى الكبير ،

(١) فى الكامل ج٧ ص ٣٥٧ : الدتمش ، وفى الهامش أن فى مخطوطتين هما C.P. : كرتمش دون نقط وفى المخطوطة B لوكرمش ، أى أن ثلاث مخطوطات من مخطوطات الكامل تؤيد قراءة النويرى

(٢) راجع الكامل ج٧ ص ٣٦٤ ، ص ٣٦٥ .

وألزمه احضار محمد بن هارون ، فكاتبه بارس وضمن له اصلاح أمره . فقصد بخارى فلما بلغها قيد وحمل على جمل ، وحبس فمات بعد شهرين محبوسا ؛ وكان ابتداء أمر محمد بن هارون أنّه كان خياطا ، ثم جمع جمعا من أهل الفساد وقطع الطريق في مفازه سرخس مدّة ؛ ثم استأمن إلى رافع بن هَرْثمة وبقى معه إلى أن انهزم من عمرو الصفّار فاستأمن إلى إسماعيل السامانى فسيّره إسماعيل لقتال العلوى كما قدّمناه ثم خرج عليه كما ذكرنا .

وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين[1] خرجت الترك في خلق كثير لايحصون كثرة ، وكان عسكرهم سبعمائة قبّة تركية ، ولا تكون القبّة التركية إلا لرؤسائهم ، فوجّه إليهم إسماعيل جيشا عظيما وتبعهم خلق من المطّوعة فوصلوا إلى الترك وهم غادون ، فكبسهم المسلمون فى الصبح فقتلوا منهم خلقا كثيرا وانهزم الباقون أقبح هزيمة .

ذكر وفاة اسماعيل وولاية ابنه أحمد

كانت وفاته فى منتصف صفر سنة خمس وتسعين ومائتين . ولُقّب بعد موته بالماضى ، وكان رحمه الله تعالى عاقلا عادلا حسن السيرة فى رعيّته حليما .

حكى عنه أنه كان لولده أحمد مؤدب يؤدّبه ، فمرّ به الأمير إسماعيل فسمع المؤدب يسبّه ، ويقول : لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك . فدخل عليه وقال : يا هذا نحن لم نذنب ذنبا فتسبّنا . فهل

(١) راجع الكامل حـ٧ ص ٣٦٨ .

ترى أن تعفينا من سبّك ، وتخص المذنب بذمّك وشتمك ؟ فارتاع المؤدب وخرج إسماعيل عنه ، وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه. وجرى بين يديه ذكر الأنساب والأحساب فقال لبعض جلسائه : كن عصاميا ولا تكن عظاميا. ومن مكارمه وآدابه أنه لما ولى بعد أخيه نصر واستقل بالأمر استمرّ يكاتب أصحابه وأصدقاءه مما كان يكاتبهم به أوّلا : فقيل له فى ذلك فقال : بجبّ علينا إذا زادنا الله رفعة ألا ننقص إخواننا ، بل نزيدهم رفعة وعلاء وجاها ليزدادوا لنا خلوصا وشكرا ؛ وكانت مدة ولايته منذ أفضى الأمر إليه بعد وفاة أخيه ست عشرة سنة .

ولما مات ولى بعده ابنه :

أبو نصر أحمد بن اسماعيل

قال (١) : ولما استوثق له الأمر ببخارى قصد بالخروج إلى الرى فأشار عليه إبراهيم بن زيلويه بقصد سمرقند ، والقبض على عمّه إسحاق بن أحمد لئلا يخرج عليه ، فاستدعى عمّه إلى بخارى فحضر إليه واعتقله بها ، ولم يزل إلى سنة ثمان وتسعين فأطلقه وأعاده إلى سمرقند وفرغانة ، قال : ولما قبض على عمّه عبر إلى خراسان ، فلما ورد نيسابور هرب بارس الكبير من جرجان إلى بغداد خوفا منه ، وكان لخوفه منه أسباب منها : أن الأمير إسماعيل كان قد استعمل ابنه أحمد على جرجان ـ لما أخذها من محمد بن زيد ـ ثم عزله عنها ،

(١) ابن الأثير ـ الكامل حـ٨ ص ٥ .

واستعمل عليها بارمن الكبير ، فاجتمع عند بارس أموال عظيمة من خراج الرى وطبرستان وجرجان ، فحملها إلى إسماعيل فلما سارت عنه بلغه وفاة إسماعيل فردّها وأخذها ، فلمّا قاربه أحمد خافه فكتب إلى المكتفى بالله يستأذنه فى المصير إليه ، فأذن له فسار إلى بغداد فى أربعة آلاف فارس ، فوصل إليها بعد وفاة المكتفى وولاية المقتدر ، فأعجب المقتدر فسيّره إلى بنى حمدان بعسكره وولاه ديار ربيعة ، فخافه أصحاب الخليفة أن يتقدّم عليهم ، فدسّوا عليه غلاما له فسمّه فمات بالموصل ، واستولى غلامه على أمواله وتزوّج بامرأته .

ذكر استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان

وفى [1] شهر رجب سنة ثمان وتسعين ومائتين استولى على سجستان ، وذلك أنه لما استتب ملكه واستقرت قواعده سار فى سنة سبع وتسعين ومائتين إلى الرى ، وكان مسكنه ببخارى ثم سار إلى هراة ، فسيّر منها جيشا فى المحرّم سنة ثمان وتسعين إلى سجستان وعدّة من قوّاده ، واستعمل عليهم الحسين بن على المروروزى ، وكان بسجستان المُعَدَّل بن على بن الليث الصفار ، وهو صاحبها ، فسيّر المُعدَّل أخاه أبا على محمد إلى بُسْت ليجبى أموالها ، فسار الأمير أحمد إليه ببُست وحاربه ، وأخذه أسيرا وعاد به إلى هراة ، وتوجّه الحسين إلى سجستان وحصر المُعدَّل ، فلما بلغه أن أخاه أُسر ، صالح الحسينَ واستأمن له ، واستولى الحسين على سجستان ،

(١) راجع الكامل حـ٨ ص ٤٥ ، ص ٤٦ .

واستعمل عليها الأمير أحمد أبا صالح منصور بن إسحاق - وهو ابن عمه - وعاد الحسين ومعه المعدّل إلى بخارى ، قال : ولما استولى على سجستان سار سُبُكرى من فارس إليها على طريق المفازة ، فسيّر إليه أحمد جيشا فأخذوه أسيرا واستولى على عسكره ، وكتب الأمير أحمد بذلك إلى المقتدر بالله فشكره ، وأمره أن يحمل السُبُكري ومحمد ابن على بن الليث إلى بغداد ، فسيّرهما فأُدخلا مشهورين على فيلين . وأعاد المقتدر رسل أحمد بالتحف والهدايا .

ثم [1] خالف أهل سجستان على الأمير أحمد

فى سنة ثلاثمائة ، وسبب ذلك أن محمد بن هرمز المعروف بالمولى الصَّنْدلىّ كان خارجىّ المذهب ، وأقام ببخارى وهو من أهل سجستان وكان شيخا كبيرا ، فجاء يوما إلى الحسين بن على العارض يطلب رزقه ، فقال له : إنّ الأصلح لمثلك من الشيوخ أن يلزم رباطا . يعبد الله فيه حتى يوافيه أجله ، فغاظه ذلك وانصرف إلى سجستان . فاستمال جماعة من الخوارج ، وكان رئيسهم محمد بن العبّاس المعروف بابن الحفّار ، ودعا لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفّار ، فقبضوا على منصور بن إسحاق وحبسوه وخطبوا لعمرو وسلّموا إليه سجستان ، فلما بلغ الخبر الأمير أحمد سيّر الجيوش مع الحسين بن على فحصرها تسعة أشهر ، فصعد يوما محمد بن هرمز الصَّنْدلِ إلى السور . وقال : ما حاجتكم إلى أذى شيخ كبير

(١) راجع الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٥٢ ، ص ٥٣ .

لا يصلح إلا للزوم رباط. ؟ ثم مات الصندلىّ فاستأمن عمرو بن يعقوب الصفار وابن الحفّار إلى الحسين ، وأطلقوا منصور بن إسحاق ، وكان الحسين يكرم ابن الحفّار ويقرّبه ، فواطأ ابن الحفّار جماعة على الفتك بالحسين ، فبلغ الحسين ذلك فقبض عليه وأخذه معه إلى بخارى ، واستعمل الأمير أحمد على سجستان سيمجُور الدّوانِى ، فتوجّه إلى سجستان واستصحب معه عمرو بن يعقوب وابن الحفّار ، فتوفى ابن الحفّار .

ذكر[1] مقتل الأمير أحمد وولاية ابنه نصر

وفى سنة إحدى وثلاثمائة خرج الأمير أحمد إلى الصيد ، وكان له أسد يُربط على باب مبيته فى كل ليلة ، فلما كان فى ليلة قتله أغفل الغلمان إحضار الأسد ، فدخل إليه نفر من غلمانه فذبحوه على سريره وذلك فى ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة ، فحمل إلى بخارى فدفن بها وقُتل بعض أولئك الغلمان ، ولُقّب بعد موته بالشهيد وكانت مدة ولايته ست سنين وأربعة أشهر وأياما .

وولى بعده ابنه :

أبو الحسن نصر بن أحمد

وهو الرابع من الملوك السامانية . قال[2] : ولما قتل والده كان عمره ثمانى سنين ، فبايعه أصحاب والده وكان القائم ببيعته أحمد بن

(١) راجع الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٥٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٨ .

محمد بن الليث متولّى بخارى ، فحمله على عاتقه فقال : أتريدون أن تقتلونى كما فعلتم بأبى ، قالوا : لا وإنما نريد أن نضعك فى موضع أبيك أميرا ، فسكن روعه ، وبايعوا له ولقّب بالسعيد ، فاستصغره الناس وظنّوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه - الأمير إسحاق ، وقوّته وكونه شيخ السامانيّة وصاحب سمرقند ، وميل الناس بما وراء النهر إليه وإلى أولاده ، فكان الأمر بخلاف ما ظنّه الناس ، وطالت مدّته ونافت على ثلاثين سنة .

قال : وتولى تدبير دولته أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى ، فأمضى الأمور وضبط الملكة ، واتّفق هو وحشم نصر بن أحمد على تدبير الأمر فأحكموه بالحضرة ، وإنّما طمع أصحاب الأطراف فى البلاد ، وكان ممن خرج عن طاعته أهل سجستان ، فانصرف عنها سيمجُور الدواتى فولّاها المقتدر بالله بدرًا الكبير .

ذكر خروج اسحاق بن أحمد وابنه الياس

قال (١) : ولما توفى الأمير أحمد وولى ابنه نصر خالف عليه عم أبيه الأمير إسحاق بن أحمد - وكان يلى سمرقند - وخالف ابنه إلياس ، وقوى أمرهما ، فسارا نحو بخارى فسار إليهم حمُويه بن على فى عسكر كثيف ، والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم إسحاق إلى سمرقند ، وذلك فى شهر رمضان سنة إحدى وثلاثمائة ، ثم عاد وجمع مرّة ثانية والتقوا فانهزم إسحاق ثانيا ، وتبعه حمُويه إلى سمرقند فملكها قهرا ،

(١) راجع الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٦٠ .

واختفى إسحاق فشدّد عليه الطلب وضيّق عليه ، فاستأمن إلى حمّويه فأمّنه وحمله إلى بخارى ، فأقام بها إلى أن مات . وأمّا ابنه إلياس فسار إلى فرغانة فكان بها إلى أن خرج فى سنة ست عشرة .

ذكر مخالفة منصور بن اسحاق

وفى سنة اثنتين وثلاثمائة خالف منصور بن إسحاق بن أحمد ، على الأمير نصر بن أحمد ، ووافقه على ذلك الحسين بن على المرْورُوذِى ومحمد بن حيْد [1] ، وكان سبب ذلك أن الحسين لمّا فتح سجستان فى الدفعة الأولى فى أيام الأمير أحمد بن إسماعيل طمع أن يتولّاها ، فولّاها منصور بن إسحاق ، ثم افتتحها ثانيا وظن أنه يتولّاها ، فوليها سيْمجُور على ما قلّمناه ، فاستوحش لذلك ونفر خاطره ، وتحدّث مع منصور بن إسحاق فى الموافقة والتعاضد بعد موت الأمير أحمد ، على أن تكون إمارة خراسان لمنصور ويكون الحسين خليفته ، فلمّا قتل الأمير أحمد كان منصور بنيسابور والحسين بهراة ، فأظهر الحسين العصيان وسار إلى منصور بنيسابور ، يحثه على ما اتّفقا عليه فوافقه منصور ، وأظهر الخلاف وخطب لمنصور بنيسابور ، فتوجّه إليهما حمّويه بن على من بخارى فى عسكر كثيف ، فاتّفق وفاة منصور ، فقيل سمّه الحسين ، فلمّا قاربه حمّويه سار الحسين عن نيسابور إلى هراة وأقام بها ، وكان محمد

(١) فى ت : محمد بن حميد ، وكلمة حيد موضوع تحت الحاء فى المخطوطات ما يشبه نقطة فتكون جيما ، والتصويب من الكامل حـ٨ ص ٦٥ وهو مصدر المؤلف .

ابن [١] حيد يلى بخارى مدة طويلة ، ويسير منها إلى نيسابور فى شغل يقوم به ، فوردها ثم عاد منها بغير أمر .فكُتب إليه من بخارى بالانكار فخاف على نفسه ، فعدل عن الطريق إلى الحسين بهراة فقوى به ، وسار إلى نيسابور واستولى عليها ، واستخلف بهراة أخاه منصور ابن على ، فسُيّر إليه من بخارى أحمد بن سهل لقتاله ، فابتدأ أحمد بهراة فحصرها وأخذها ، واستأمن إليه منصور بن على ، ثم سار أحمد ابن سهل منها إلى نيسابور ، وكان وصوله إليها فى شهر ربيع الأوّل سنة ست وثلاثمائة ، فنازل الحسين إلى أن انهزم أصحابه ، فأسره ابنُ سهل وأقام بنيسابور ، وكان ابن حيد بمرو فلمّا بلغه استيلاء أحمد بن سهل على نيسابور ، وأسره للحسين بن على سار إليه . فقبض عليه ابنُ سهل وأخذ ماله وسواده وسيّره والحسين إلى بخارى فحبس الحسين بن على ببخارى إلى أن خلّصه أبو عبد الله الجيهانى . وسيّر ابن حيد إلى خوارزم فمات بها ، ثم عاد الحسين بن على بعد خلاصه إلى خدمة الأمير نصر [٢] بن أحمد . قال [٣] : ولما ظفر أحمد بن سهل بالحسين أقام بنيسابور واستولى عليها ، وخالف [٤] على الأمير نصر وقطع خطبته ، وسار من نيسابور إلى جرجان وبها قراتكين ، فحاربه واستولى عليها وأخرجه عنها ، ثم عاد إلى خراسان

(١) محمد بن حيد لم يكن واليا على بخارى وإنما كان على شرطتها مدة طويلة – راجع الكامل حـ٨ ص ٦٥ .

(٢) فى المخطوطات : الأمير أحمد والتصويب عن الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٦٦ .

(٣) راجع الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٨٨ .

(٤) من كلمة وخالف ..... إلى مرو – يظهر أنه سقط من المؤلف فاستدرك السقط فى الهامش فتنبه لذلك الناسخان للمخطوطتين ك ، ا وسقطت من ت ، وفعلا كما فعل المؤلف .

واستولى على مرو وبنى عليها سورا وتحصّن بها ، فأرسل الأمير نصر الجيوش مع حمّويه بن على من بخارى ، فوافى مرو الروذ وأقام بنواحيها فلم يخرج إليه أحمد بن سهل ، فلمّا رأى حمّويه أنه لا يخرج إليه وأنه تحصّن بمرو شرع فى اعمال الحيلة ، وأمر جماعة من أصحابه بمكاتبة أحمد سرا واظهار الميل إليه ، ودعوه إلى الخروج إليهم ليسلّموا حمّويه إليه ، فأجابهم إلى ذلك وخرج إليه فالتقوا على مرحلة من مرو الروذ ، فى شهر رجب سنة سبع وثلاثمائة ، فانهزم أصحاب أحمد وحارب هو حتى عجزت دابتّه فنزل عنها ، واستأسر (١) فأُخذ أسيرا وأنفذه حمّويه إلى بخارى فمات بها فى ذى الحجة من السنة فى الحبس .

ذكر خروج الياس بن اسحاق بن أسد ثانيا

قد ذكرنا أنه لما انهزم مع أبيه بفرغانة ، فلما كان فى سنة ثلاث(٢) عشرة وثلاثمائة استعان بمحمد بن الحسين بن مت ، وجمع طائفة من الترك فاجتمع معه ثلاثون ألف عنان ، فقصد سمرقند ، فسيّر إليه الأمير السعيد أبا عمرو محمد (٣) بن أسد فى ألفين وخمسمائة رجل ، فكمنوا خارج سمرقند فى يوم ورود إلياس (٤) إليها ، فاشتغل هو ومن معه بالنزول فخرج عليهم الكمين من بين الشجر ، ووضعوا فيهم السيف فانهزم إلياس وأصحابه ، فوصل إلياس إلى فرغانة ووصل

(١) فى الكامل حـ٨ ص ٨٩ : استأمن هو خطأ .
(٢) فى المخطوطات : ست عشرة وهو خطأ تصويبه عن الكامل حـ٨ ص ٩٧ .
(٣) فى المخطوطات : أبا عمر و محمد بن أسد والتصويب عن الكامل حـ٨ ص ٩٧ .
(٤) فى ك ، ت : الناس .

ابن مت إلى طراز ، فقبض عليه دهقان الناحية وقتله وأنفذ رأسه إلى بخارى ، ثم عاد إلياس [فا]خرج[1] مرّة ثالثة ، وأعانه أبو الفضل بن أبي يوسف صاحب الشاش ، فسيّر إليه السعيد ، محمد بن اليسع فحاربهم ، فانهزم إلياس إلى كاشغر وأسر أبو الفضل وحُمل إلى بخارى فمات بها ، وصار إلياس إلى دهقان كاشغر طغانتكين واستقرّ بها .

ثم ولى محمد بن المظفّر فرغانة فرجع إلياس بن إسحاق إليها ، فحاربه فهزمه مرة أخرى فعاد إلى كاشغر ، فكاتبه محمد بن المظفّر واستماله ولطف به فحضر إلى بخارى ، فأكرمه السعيد وصاهره فأقام عنده .

ذكر استيلاء السعيد على الرى

وفى سنة أربع عشرة وثلاثمائة كتب المقتدر بالله إلى الأمير السعيد بولاية الري ، وأمره أن يقصدها ويأخذها من غلام يوسف بن أبي الساج فسار إليها واستولى عليها وأخرج فاتك[2] عنها فى جمادى الآخرة ، وأقام بها شهرين ، وولّى عليها سيمجور الدوانى وعاد إلى بخارى ، ثم استعمل عليها محمد بن صعلوك فوصل إليها وأقام بها إلى أوائل شعبان من السنة ، فمرض فكاتب الحسن الداعى وما كان فى القدوم عليه ليسلّم الري لهما ، فقدما وتسلّما الرى ، وسار عنها وبلغ الدامغان .

(١) فى المخطوطات خرج .
(٢) هو غلام يوسف بن أبي الساج .

ذكر مخالفة جعفر بن أبى جعفر بن أبى داود وعــوده

كان جعفر [١] مقيما بالخُتّل واليا عليها للسامانيّة ، فبدت منه أمور نسب فيها للتقصير ، فكوتب أبو على أحمد بن محمد بن المظفّر بقصده ، فسار إليه وحاربه وقبض عليه وحمله إلى بخارى ، فحبس بها إلى أن خالف أبو زكريا على الأمير السعيد فأخرجه وصحبه ، ثم استأذنه فى العود إلى ولاية الختّل فأذن له ، فسار إليها وتمسّك بطاعة الأمير السعيد ، وذلك فى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة .

ذكر خروج أبى زكريا وأخويه ببخارى

وفى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة خرج أبو زكريا يحيى وأبو صالح منصور وأبو إسحاق إبراهيم - أولاد أحمد بن إسماعيل السامانى ، على أخيهم السعيد نصر بن أحمد ، وكان سبب ذلك أن أخاهم كان قد حبسهم فى القهندُز ببخارى ، ووكل بهم من يحفظهم فتخلّصوا منه ، وسبب خلاصهم أن رجلا يعرف بأبى بكر الخبّاز الأصفهانى كان يقول - إذا جرى ذكر السعيد نصر - : إن له منى يوما طويل البلاء والعناء ، فكان الناس يضحكون منه ، فخرج السعيد إلى نيسابور واستخلف على بخارى أبا العباس الكَوْسج ، وكانت وظيفة إخوته تحمل إليهم من عند هذا الخبّاز وهم فى السجن ، فسعى لهم مع

(١) راجع الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ١٦٣ ، ص ١٦٤ .

جماعة من أهل العسكر فأجابوه إلى ذلك ، فأعلمهم بما فعل ، فلما سار السعيد عن بخارى تواعد هؤلاء للاجتماع بباب القهندز فى يوم جمعة ، وكان الرسم ألاّ يفتح باب القهندز فى يوم الجمعة إلا بعد العصر : فلما كان يوم الخميس دخل أبو بكر الخبّاز إلى القهندز وبات فيه ، وجاء من الغد إلى الباب وأظهر الزهد للبوّاب : وسأله أن يفتح له لئلا تفوته صلاة الجمعة وأعطاه خمسة دنانير ،فلما فتح الباب صاح الخبّاز بمن واعدهم ، فوثبوا بالبوّاب وقبضوا عليه وخرج إخوة السعيد وجميع من فى الحبس من الديلم والعلويين والعيّارين . واجتمعوا إليهم من كان قد وافقهم من العسكر ، ورئيسهم شيرويه الجيلى وغيره من القوّاد ، فعظمت شوكتهم ونهبوا خزائن السعيد ودوره واختص يحيى بن أحمد بأبى بكر الخبّاز وقرّبه وقدّمه وجعله من قوّاده ، وبلغ السعيد هذا الخبر فسار من نيسابور إلى بخارى . فوكل يحيى بالنهر أبا بكر الخبّاز ليمنع السعيد من عبوره . فظفر السعيد به وأخذه أسيرا ، وعبر النهر إلى بخارى وبالغ فى تعذيب الخبّاز ، ثم أحرقه فى التنّور الذى كان يخبز فيه ، وسار يحيى من بخارى إلى سمرقند ثم خرج منها ، وبقى يكرر [الدخول] إلى البلاد والسعيد فى طلبه ، واستمرت هذه الفتنة ثائرة إلى سنة عشرين وثلاثمائة ، فأنفذ السعيد الأمان إلى أخيه يحيى فجاء إليه هو وأخوه منصور ، وزالت الفتنة وسكن الشر ، وأما إبراهيم فإنه هرب إلى بغداد ثم إلى الموصل .

ذكر ولاية محمد بن المظفر خراسان

وفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة استعمل الأمير نصر بن أحمد ، أبا بكر محمد بن المظفّر بن محتاج على جيوش خراسان ، ورد إليه تدبير الأمور بنواحيها جميعا ، وكان سبب تقدّم محمد عنده أنه كان يوما بين يدي السعيد- وهو يحادثه فى بعض مهماته - فلسعته عقرب فى إحدي رجليه عدّة دفعات ، ولم يتحرّك ولا ظهر عليه أثر ذلك ، فلما فرغ من حديثه وعاد إلى منزلة نزع خفّه وقتل العقرب ، فاتصل الخبر بالأمير السعيد فأُعجب به ،وقال له : ما عجبت إلا من فراغ بالك لتدبير ماقلته لك! فهلاّ قمت وأزلتها !! فقال : ما كنت لأقطع حديث الأمير بسبب عقرب ، وإذا لم أصبر بين يديك على لسعة عقرب ، فكيف أصبر - عند البعد منك - على حدّ سيوف أعداء دولتك ، إذا دفعتهم عن مملكتك ؟ فعظم محلّه عنده وأعطاه مائتى ألف درهم ، ثم استعمله على خراسان فأقام واليا عليها إلى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، فاستقدمه واستعمل ابنه أبا على أحمد بن محمد ، وكان سبب ذلك أن أبا بكر مرض مرضا شديدا فعزله واستعمل ابنه فى شهر رمضان ، فأقام بها ثلاثة أشهر وهو يتجهّز ويستعد ، وسار فى المحرم سنة ثمان وعشرين إلى جرجان فاستولى عليها وأخذها من ما كان ابن كالى ، لأن ما كان كان قد خلع طاعة السعيد بعد أن حاصرها أبو علىّ بقية السنة ، واستخلف إبراهيم بن سيمجور الدواتى ، ثم استولى أبو على على الرى فى سنة تسع وعشرين ، ثم استولى على بلد

الجبل (١) زَنْكان وأَبْهَر وقزوين وقُمّ وكَرج وهمذان ونهاوند والدِّينَور إلى حدود حلوان ، وذلك فى سنة ثلاثين ، ورتّب فيها العمال وجبى أموالها ، ورحل إلى جرجان فى سنة إحدى وثلاثين فى جمادى الآخرة ، فأتاه الخبر بوفاة السعيد فسار إلى خراسان .

ذكر وفاة الأمير السعيد نصر بن أحمد وشىء من سيرته

كانت وفاته فى شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ، وكانت علّته السل فأقام به ثلاثة عشر شهرا ، ولم يكن قد بقى من مشايخ دولتهم أحد ، وكانت ولايته ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يوما ، وعمره ثمانيا وثلاثين سنة .

وكان عالما ذا حلم وكرم وعقل ، ومن مكارمه ولين جانبه أن بعض الخدم سرق جوهرا نفيسا ، وباعه على بعض التجّار بثلاثة عشر ألف درهم ، فحضر التاجر عند السعيد وأعلمه أنّه اشترى جوهرا نفيسا لا يصلح إلا للسلطان ، وأحضر الجوهر فحين رآه السعيد عرفه ، فسأل عن ثمنه ومن أين اشتراه ، فذكر الخادم والثمن فأربحه ألفى درهم ، ثم سأله التاجر فى دم الخادم فقال : لابدّ من أدبه ، وأما دمه فهو لك ، فأحضره وأدّبه ثم أنفذه إلى التاجر ، وقال : كنّا وهبنا لك دمه ، وقد أنفذناه إليك . وحكى عنه أنّه لما خرج عليه أخوه أبو زكريا

(١) ورد التعبير فى الكامل حـ٨ ص ٢٩١ : وسير العساكر إلى بلد الجبل فافتتحها واستولى على زنكان وأبهر وقزوين وقم وكرج وهمذان ونهاوند والدينور إلى حدود حلوان .

ونهبت خزائنه وأمواله ، فلما عاد السعيد إلى ملكه قيل له عن جماعة انتهبوا أمواله فلم يتعرض إليهم ؛ وأخبر أن بعض السوقة اشترى منها سكّينا نفيسا بمائتى درهم ، فأرسل إليه وأعطاه الثمن فأبى أن يبيع السكّين إلا بألف درهم ، فقال السعيد : ألا تعجبون من هذا الرجل ! أرى عنده مالى فلم أعاتبه وأعطيه حقّه فيشتط فى الطلب ! ثم أمر بارضائه .

ولما طال مرضه أقبل على الصلاة والعبادة ، وبنى له بيتا وسمّاه بيت العبادة ، فكان يلبس ثيابا نظافا ويمشى إليه حافيا ويصلّى ويدعو ويتضرّع ، ولما مات دفن عند قبر [1] والده رحمهما الله .

وولى بعده الأمير :

نوح بن نصر بن أحمد بن اسماعيل بن أحمد
وهو الخامس من الملوك السامانية

قال [2] : بويع له بعد وفاة أبيه فى شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ولقّب الأمير الحميد ، وفوّض أمر تدبير دولته وملكه إلى أبى الفضل محمد [3] بن أحمد الحاكم ، وصدر عن رأيه ، ولما هرب منه أبو الفضل بن أحمد بن حمّويه ـ وهو من أكابر أصحاب أبيه ـ فأمّنه وأعاده وأحسن إليه ، وولاه سمرقند .

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٣٠٠ ، ص ٣٠١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) فى المخطوطات : إلى أبى محمد الفضل بن أحمد الحاكم ، والتصويب عن الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٣٠١ هذا وقد ذكرت الاسم المخطوطات صحيحا بعد ذلك فى الفقرة التالية .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة خالف عبد الله بن اشكام على الأمير نوح ، وامتنع بخوارزم ، فسار نوح من بخارى إلى مرو بسببه وسيّر إليه جيشا وجعل عليهم إبراهيم بن بارس ، فمات إبراهيم فى الطريق ، وكاتب ابن اشكام ملك الترك واحتمى به وكان لملك الترك ولد عند نوح فى اعتقاله ببخارى ، فراسل نوح أباه فى اطلاقه ليقبض على ابن اشكام ، فأجاب ملك الترك إلى ذلك ، فلما علم ابن اشكام بذلك عاد إلى الطاعة ، وفارق خوارزم فعفا عنه نوح وأكرمه .

ذكر مخالفة أبى على بن محتاج على الامير الحميد

وفى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة خالف أبو على بن محتاج على الأمير الحميد نوح ، وسبب ذلك أنه كان قد جهّزه للمسير إلى الرى فأنفذ إليه عارضا يستعرض العسكر ، فأسقط العارض جماعة منهم وأساء على أبى علىّ ، فنفرت قلوب الجند وساروا وهم كذلك ، وانضاف إلى ذلك أن نوحا أنفذ معه من يتولى أعمال الديوان ؛ وجعل إليه الحل والعقد والإطلاق ، بعد أن كان جميع ذلك أيام السعيد لأبى علىّ ، فازدا قلبه نفورا لذلك ، ثم عزله عن خراسان واستعمل عليها إبراهيم بن سيمجور ، ثم إنّ المتولى أساء إلى الجند فى أرزاقهم فنفروا وشكا بعضهم إلى بعض ، وهم إذ ذاك بهمذان ، فاتّفق رأيهم على مكاتبة الأمير إبراهيم بن أحمد ، عمّ الأمير نوح ، وكان كما قدّمناه فى خدمة الأمير ناصر الدولة بن حمدان بالموصل ، فأظهروا أبا علىّ على

ذلك فنهاهم عنه ، فتواعدوه بالقبض عليه إن خالفهم ، فأجابهم إلى ماطلبوه وكاتبوا إبراهيم ، فحضر إليهم فى شهر رمضان فى تسعين فارسا وساروا فى شوّال فى خدمته إلى الرى ، فلما وصلوا إليها اطلع أبو علىّ أن أخاه الفضل كتب إلى الأمير نوح بخبره ، فقبض عليه وعلى المتولّى الذى أساء إلى الجند ، وسار إلى نيسابور واستخلف نوّابه على الجبل والرى ، واتصل الخبر بالأمير نوح فسار من بخارى إلى مرو ، وكان الجند قد ضجروا من محمد ابن أحمد الحاكم ، مدبّر دولة نوح ، لسوء سيرته فيهم ، فقالوا لنوح : إنّ الحاكم قد أفسد عليك الأمور بخراسان ، وأحوج أبا علىّ ابن محتاج إلى العصيان . وطلبوا تسليمه إليهم وإلّا ساروا إلى عمّه إبراهيم . فسلمّه إليهم فقتلوه فى جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة .

ولما وصل أبو علىّ إلى نيسابور كان بها إبراهيم بن سيمجور ومنصور بن قراتكين وغيرهما من القوّاد ، واستمالهم فمالوا إليه وصاروا معه ، ودخل نيسابور فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، ثم ظهر له من منصور بن قراتكين ما كرهه فقبض عليه ، ثم سار أبو علىّ وإبراهيم من نيسابور فى شهر ربيع الأوّل من السنة إلى مرو ، وبها الأمير نوح ، فهرب الفضل أخو أبى علىّ من محبسه إلى قُهِسْتَان ، ولمّا قارب أبو علىّ مرو انحاز إليه كثير من عسكر نوح ، فسار نوح إلى بخارى واستولى أبو علىّ على مرو فى جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين ، وأتاه أكثر أجناد نوح فسار نحو بخارى ، وعبر النهر

ففارقها نوح وسار إلى سمرقند . ودخلها أبو علىّ فى جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين [1] وخطب فيها لإبراهيم وبايع له . ثم إنّ أبا علىّ اطّلع على أنّ إبراهيم أضمر له شرا ، فسار إلى تركستان وبقى إبراهيم ببخارى ، وفى خلال ذلك أطلق أبو علىّ ، منصور بن قراتكين ، فسار إلى الأمير نوح ، ثم إنّ إبراهيم وافق جماعة فى السرّ على أن يخلع نفسه من الأمر ، ويردّه إلى ابن أخيه الأمير نوح . ويكون هو صاحب جيشه . ويتّفق معه على قصد أبى علىّ . ودعا إلى ذلك فأجابوه وخرجوا إلى أبى علىّ ، وقد تفرّق عنه أصحابه ، فركب إليهم وردّهم أقبح ردّ ، ثم فارق إبراهيم ومن معه بخارى وخرجوا إلى سمرقند إلى خدمة الأمير نوح ، وأظهروا الندم على ما كان منهم فقرّبهم وقبلهم وعذرهم ، وعاد إلى بخارى فى شهر رمضان ، ثم قتل الأمير نوح فى تلك الأيام طغان الحاجب ، وسمل عمّه إبراهيم وأخويه أبا جعفر محمدا وأحمد ، وعادت الجيوش والعساكر اجتمعت عليه . أما الفضل بن محمد أخو أبى علىّ فإنّه لما هرب من أخيه لحق بقوهستان وجمع جمعا كثيرا وسار نحو نيسابور ، وبها محمد بن عبد الرزّاق من قبل أبى علىّ ، فخرج إلى الفضل وتحاربا فانهزم الفضل ومعه فارس واحد ، فلحق ببخارى فأكرمه الأمير نوح وأحسن إليه وأقام فى خدمته .

(١) فى المخطوطات : سنة ست وثلاثين والخطأ واضح والتصويب عن الكامل حـ٨ ص ٣٤٥

ذكر استعمال منصور بن قراتكين على خراسان

قال (١) : ولما عاد الأمير نوح إلى بخارى كان أبو علىّ بالصغانيان ، وبمرو أبو أحمد محمد بن على القزوينى ، فرأى الأمير نوح أن يجعل منصور بن قراتكين على جيوش خراسان ، فولاه وسيّره إلى مرو ، وبها أبو أحمد وقد غوّر المناهل ما بين آمل ومرو ، ووافق أبا علىّ ثم تخلّى عنه ، فسار منصور جريدة في ألفى فارس ، فلم يشعر به إلا وقد نزل بكُشْماهِن ، على خمسة فراسخ من مرو ، فاستقبله أبو أحمد القزوينى بالطاعة ، فأكرمه وسيّره إلى بخارى بماله وأصحابه ، فأكرمه الأمير نوح وأحسن إليه ، ثم ذكر له ذنوبه وقتله .

ثم كانت بعد ذلك حروب بين عسكر الأمير نوح وأبى علىّ ، استمرت إلى جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، فراسل بعد ذلك في الصلح ؛ وسيّر أبو علىّ ابنه عبد الله رهينة فوصل إلى بخارى ، فأمر الأمير نوح باستقباله وأكرمه وأحسن إليه ؛ وخلع عليه قلنسوة وجعله في ندمائه ، فزال الخلف ، واستمرّ أبو علىّ بالصغانيان إلى سنة أربعين .

ذكر عود أبى على الى خراسان

وفي سنة أربعين أعيد إلى قيادة الجيوش بخراسان ، وذلك بعد وفاة منصور بن قراتكين ، فأرسل إليه الأمير نوح الخلع واللواء ؛ وأمره بالمسير إلى نيسابور وأقطعه الرى ، فسار عن الصغانيان

(١) راجع الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٣٤٦ .

واستخلف مكانه ابنه أبا منصور ، ثم خالف على الأمير نوح في سنة اثنتين وأربعين فعزله ، فكتب إلى ركن الدولة بن بُويه في المصير إليه ، فأذن له في ذلك فسار إليه فأكرمه ركن الدولة ، فسأله أن يكتب له عهدا من جهة الخليفة بولاية خراسان ، فأرسل ركن الدولة إلى أخيه معز الدولة في ذلك ، فسيّر له عهدا بما طلب وسيّر له نجدة . فسار أبو عليّ إلى خراسان واستولى على نيسابور ، وخطب بها - وفيما استولى عليه من خراسان - للمطيع ، ولم يُخطب له بها قبل ذلك .

ذكر وفاة الأمير الحميد نوح بن نصر وولاية ابنه عبد الملك

كانت وفاته في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة . وكانت مدة ملكه إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر ، وكان رحمه الله تعالى حسن السيرة كريم الأخلاق ، ولما مات ملك بعده ولده .

ذكر ولاية عبد الملك بن نوح بن نصر بن أحمد بن اسماعيل ابن أحمد وهو السادس من الملوك السامانية

كانت ولاية عبد الملك بما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه الأمير نوح بن نصر ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين.

قال (١) : ولما استقرّ حاله في الملك وثبت أمره ابتدأ بارسال بكر ابن مالك من بخارى إلى خراسان ، وولّاه قيادة جيوشها ، وأمره باخراج أبي عليّ بن محتاج منها وندب معه العساكر ، فسار إلى

(١) راجع الكامل لابن الأثير حـ٨ ص ٣٨١ .

نيسابور فلمّا قاربها تفرّق عن أبي عليّ أصحابه وعساكره ، وبقى معه من أصحابه نحو من مائتى رجل ، سوى من كان عنده نجدة من الديلم ، فاضطَر إلى الهرب فسار نحو ركن الدولة ، فأنزله معه في الرى واستولى ابن مالك على خراسان ، وأقام بنيسابور ، وكان بين عساكره وبين بنى بُويه حروب ، ثم حصل بينهما الصلح والاتفاق ، ودامت أيام عبد الملك إلى سنة خمسين وثلاثمائة ، فركب في يوم الخميس حادى عشر شوّال منها فسقط الفرس من تحته ، فوقع إلى الأرض فمات ، وكانت مدة ملكه سبع سنين وستّة أشهر تقريبا ، ولما مات ، ولى بعده أخوه .

ذكر ولاية منصور بن نوح بن نصر بن أحمد وهو السابع من الملوك السامانية

كانت ولايته بعد وفاة أخيه عبد الملك لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال سنة خمسين وثلاثمائة ، وخالف عليه في سنة إحدي وخمسين الفتكين ، وهو من أكابر القوّاد ، وكان قد طلبه الأمير منصور فامتنع من الحضور ، فأرسل إليه جيشا فهزمهم الفتكين ، وأسر وجوه القوّاد وأظهر العصيان والمخالفة .

ذكر الصلح بين الأمير منصور وبين بنى بويه

وفى سنة إحدى وستين [١] وثلاثمائة تمّ الصلح بين الأمير منصور بن نوح وبين ركن الدولة وعضد الدولة بنى بويه، على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إليه فى كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار ، وتزوج الأمير منصور [٢] بابنة عضد الدولة ، وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لم يُر مثله ، وكتب بينهم كتاب صلح شهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق ، وكان الذى سعى فى الصلح وقرّره محمد بن إبراهيم بن سيمجور صاحب جيوش خراسان من جهة الأمير منصور .

ذكر وفاة الامير منصور

كانت وفاته ببخارى فى منتصف شوّال سنة ست وستين وثلاثمائة ، وكانت مدة ملكه ست عشرة [٣] سنة وأربعة أيام . ولما مات ولى بعده ابنه .

---

(١) فى ك : إحدى وسبعين ويؤيد ا الكامل حـ٨ ص ٤٦١ .
(٢) فى الكامل : حـ٨ ص ٤٦١ : نوح وهو خطأ كما هو ظاهر .
(٣) فى الكامل : حـ٨ ص ٤٩٥ : خمس عشرة سنة وهو خطأ كما هو ظاهر .

ذكر ولاية المنصور
أبى القاسم نوح بن منصور بن نوح بن نصر بن
أحمد بن اسماعيل بن أحمد ، وهو الثامن من الملوك السامانية

ملك ما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه فى منتصف شوّال سنة ست وستين وثلاثمائة ولقب بالمنصور ، واستوزر أبا الحسن العُتْبِي فقام فى حفظ الدولة المقام المرضى ، وعزل محمد بن إبراهيم بن سيمجور عن قيادة جيوش خراسان لأنّه كان قد استوطنها ، وبقى لا يطيع إلا فيما يختار فعزله فى سنة سبعين ، واستعمل عوضه حسام الدولة أبا العبّاس تاش ، ثم قتل الوزير في سنة اثنتين وسبعين ، وسبب قتله أن أبا الحسن بن سيمجور وضع عليه جماعة من المماليك فقتلوه ، فكتب الأمير المنصور نوح إلى حسام الدولة تاش يستدعيه إلى بخارى لتدبير الدولة ، فسار عن نيسابور إليها وقتل من ظفر به من قتلة الوزير .

وفي سنة اثنتين وسبعين سار محمد بن سيمجور نحو خراسان عند خلوّها من حسام الدولة ، وكاتب فايقا وطلب موافقته على الاستيلاء على خراسان ، فوافقه واجتمعا بنيسابور ، واتصل الخبر بحسام الدولة فسار عن بخارى إلى مرو فى جمع كبير ، وتردّدت الرسائل بينهم فاصطلحوا : على أن تكون نيسابور وقيادة الجيوش لأبى العبّاس حسام الدولة تاش ، وتكون بلخ لفايق ، وهراة لأبى على ابن أبى الحسن بن سيمجور ، وتفرّقوا على ذلك وقصد كل منهم عمله .

ولمّا عاد أبو العبّاس إلى نيسابوروترك بخارى استوزر الأمير نوح، عبد الله بن عزير وكان ضدا لأبى الحسين العتبى ، فلما ولى الوزارة ابتدأ بعزل حسام الدولة عن خراسان ، وأعاد ابن سيمجور إليها . فكتب القوّاد بخراسان يسألونه أن يقرّ حسام الدولة عليها فلم يجبهم فكتب حسام الدولة إلى فخر الدولة بن بويه يستمدّه ، فأمدّه بالأموال والعساكر ، وكانت بينهم حروب انتصر فيها حسام الدولة ، واستولى على خراسان وأقام بنيسابور ، وانهزم ابن سيمجور ثم تراجع أصحاب ابن سيمجور إليه ، وجاءته الأمداد من بخارى وعاد لقتال حسام الدولة ، والتقوا واقتتلوا نهارا كاملا انتصر فيه ابن سيمجور ،وانهزم حسام الدولة وأصحابه وأقام بجرجان ، ولم يصل إلى خراسان إلى أن مات في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ، وأقام ابن سيمجور بخراسان إلى أن توفى فجأة وهو يجامع بعض خطاياه .

وفى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة سار بُغْراخَان إيلك ملك الترك بعساكره إلى بخارى ، فسيّر إليه الأمير نوح جيشا كثيفا فهزمهم بُغْراخَان ، فعادوا إلى بخارى وهو فى آثارهم ، فخرج نوح بنفسه وسائر عساكره ولقيه ، فاقتتلوا قتالا شديدا كانت الهزيمة على بُغْراخان ، فعاد إلى بلاَساغُون وهى كرسى ملكه .

ذكر ملك الترك بخارى
وشيء من أخبارهم وخروج الأمير نوح منها وعوده اليها

وفى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ملك شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركى مدينة بخارى ، وكان له كَاشْغَر وبلَاساغُون وخُتَن وطَراز وغير ذلك إلى حدود الصين ، وله عساكر جمّة وهم مسلمون ، وكان سبب إسلامهم أن جدّهم الأول شَبق قراخَاقَان رأى فى منامه كأنّ رجلا نزل من السماء ، فقال له بالتركية ما معناه : اسلم تسلم فى الدنيا والآخرة ، فأسلم فى منامه ، وأصبح فأظهر إسلامه ، فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن شبق ، ثم انتهى ملك هذه الطائفة من الترك إلى بُغْراخان ، وكنّا قصدنا أن نفرد هذه الدولة الخانيّة بترجمة ، ونذكر من ملك منهم وما استولوا عليه من البلاد وغير ذلك ، فلم نظفر بمؤرخ ذكر أخبارهم سياقة ولا متفرّقة ، إذا جُمعت انتظمت على سياقة ، فلذلك دمجنا أخبارهم فى أثناء الدول بحسب وقائعهم مع الملوك ، وما أظن أخبارهم اتّسقت لمؤرخ لأن أخبار الملوك والدول إنما يعتنى بجمعها كتّاب الإنشاء والفضلاء من الناس ، وهؤلاء كانوا أتراكا لا كتّاب لهم ولا اعتناء بشيء من ذلك ، فلذلك انقطعت أخبارهم .

ولنرجع إلى سبب مُلك بُغراخان بخارى . كان سبب ذلك أن أبا الحسن بن سيمجور عامل خراسان – لمّا مات – ولى ابنه أبو على بعده وكاتب الأمير الرضى نوحا أن يقرّه على ما كان بيد أبيه ، فأجيب

إلى ذلك ، وحُملت إليه الخلع وهو لا يشك أنّها له ، فلما بلغ الرسول طريق هراة عدل إليها وبها فايق ، فأوصل إليه العهد بولاية خراسان والخلع إليه ، فعلم أبو على أنّهم مكروا به ، وأنّ هذا دليل سوء يريدونه به ، فلبس فايق الخلع وسار عن هراة نحو أبى علىّ ، فبلغه الخبر فسار جريدة في نخبة أصحابه ، وطوى المنازل حتى سبق خبره ، وأوقع بفايق بين هراة وبوشنج ، فانهزم فايق وأصحابه إلى مرو الروذ ، وكتب أبو على إلى الأمير نوح يجدّد طلب ولاية خراسان ، فأجابه إلى ذلك وجمع له ولاية خراسان جميعها بعد أن كانت هراة لفايق ، وعاد أبو على إلى نيسابور ظافرا وجبى أموال خراسان ، فكتب إليه نوح يستتر له عن بعضها ليصرفه في أرزاق الجند ، فاعتذر إليه ولم يفعل وخاف عاقبة المنع فكتب إلى بُغْراخان يدعوه إلى قصد بخارى ، واستقرّ الأمر بينهما على أن يكون لبغراخان ما وراء النهر جميعه . ولأبى علىّ خراسان ، فطمع بغراخان في البلاد وتجدّدت حركته إليها .

وأما فايق فإنّه أقام بمرو الروذ حتى اجتمع إليه أصحابه ، وسار نحو بخارى من غير إذن ، فارتاب الأمير نوح به وسيّر الجيوش وأمرهم بمنعه ، فقاتلوه وهزموه فعاد وقصد ترمذ ، وكاتب بغراخان أيضا يطمعه في البلاد ، فسار نحو بخارى واستولى على بلاد السامانيّة شيئا بعد شيء ، فسيّر إليه نوح جيشا واستعمل عليهم قائدا كبيرا من قوّاده اسمه انجْ ، فهزمهم بغراخان وأسرانج وجماعة من القوّاد ، فلما ظفر بهم قوى طمعه في البلاد ، وضعف نوح وأصحابه وكاتب أبا علىّ بن سيمجور يستنصره ، ويأمره بالقدوم إليه بالعساكر فلم يجبه إلى ذلك ولا لبىّ دعوته ، وطمع في الاستيلاء على خراسان ، وسار

بغراخان نحو بخارى [١] فلقيه فايق واختص به وصار في جملة أصحابه ، وتنازلوا بخارى فاختفى الأمير نوح وملكها بغراخان ونزلها ، وخرج نوح منها مستخفيا فعبر النهر إلى آمل الشط ، وأقام بها ولحق به أصحابه ، وتابع نوح كتبه ورسله إلى أبى علىّ يستنجده ويخضع له ، فلم يصغ إلى ذلك ؛ وأما فايق فإنّه استأذن بغراخان في قصد بلخ والاستيلاء عليها فأمره بذلك ، فسار نحوها واستولى عليها .

ذكر عود نوح الى بخارى ووفاة بغراخان وقيام ايليك الخان

قال [٢] : ولما نزل بغراخان ببخارى استوخمها فمرض واشتدّ مرضه ، فانتقل نحو بلاد الترك ، ولمّا فارق بخارى ثار أهلها بساقة عسكره ، فقتلوا منهم وغنموا أموالهم ، ووافقهم الأتراك الغزيّة على الفتك والنهب لعسكر بغراخان ، وبادر الأمير نوح بالعود إلى بخارى فيمن معه من أصحابه ، فدخلها وعاد إلى دار ملكه وتباشر أهلها به ، ومات بغراخان وعاد أصحابه إلى بلادهم ، وكان بغراخان ديّنا خيرا عادلا حسن السيرة محباً للعلماء وأهل الدين مكرما لهم ، وكان يحب أن يكتب عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولى بعده أمر الترك ايليك الخان شمس الدولة أبو نصر أحمد بن على .

---

(١) فى المخطوطات : جرجان والتصويب من الكامل حـ٩ ص ٧٠ .

(٢) راجع الكامل لابن الأثير حـ٩ ص ٧٠ .

ذكر ماكان من أخبار أبي علي بن سيمجور وفايق واستعمال محمود بن سبكتكين على خراسان

قال : ولما عاد الأمير نوح إلى بخارى (٢) أسقط في يد أبي عليّ ابن سيمجور ، وندم على ما فرط منه من ترك إعانته عند الحاجة إليه ؛ وأما فايق فإنه لمّا استقرّ الأمير نوح ببخارى حدّث نفسه بالمسير إليه والحكم في دولته ، فسار عن بلخ إلى بخارى فسيّر الأمير نوح الجيوش لردّه ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم فايق وأصحابه ، ولحق بأبي عليّ بن سيمجور ففرح به وقوى جنانه ، واتّفقا على مكاشفة الأمير نوح وإظهار العصيان ، فكتب الأمير نوح إلى سبكتكين وهو يومئذ بغزنة ، يعرّفه الحال ويأمره بالمصير إليه لينجده وولاه خراسان وكان سبكتكين فى هذه الفتن مشغولا بالغزو غير ملتفت إلى ما هم فيه ، فلما أتاه الكتاب سار نحو جريدة ، واجتمع به وقرّرا ما يفعلانه واتّفقا عليه ، وعاد سبكتكين فجمع عسكره وحشد وسار عن غزنة ، ومعه ولده محمود نحو خراسان ، وسار نوح من بخارى واجتمعا وقصدا أبا عليّ وفايقا ، وقد جمعا عساكرهما أيضا واستنصرا بفخر الدولة بن بويه ، فسيّر إليهما عسكرا كثيرا ، والتقوا بنواحى هراة واقتتلوا ، فانحاز دارا بن قابوس بن وشمكير من عسكر أبي عليّ إلى عسكر نوح ومعه أصحابه ، فانهزم أصحاب أبي عليّ وركبهم أصحاب سبكتكين يقتلون ويأسرون ويغنمون ، وعاد أبو على وفايق إلى خراسان

(١) بعد هذه الكلمة فى ت : فسير الأمير نوح الجيوش لرده فالتقوا سقط فى يده ... وهى جملة — كما ترى — مقحمة ، هذا فضلا عن أن هذه المخطوطة تنفرد بكثرة السقط .

وأقام الأمير نوح وسبكتكين بظاهر هراة ، حتى أراحوا واستراحوا وساروا نحو نيسابور ، فسار أبو على وفايق نحو جرجان ، واستولى نوح على نيسابور واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ، ولقّبه سيف الدولة ولقّب أباه ناصر الدولة ، وعاد نوح إلى بخارى وسبكتكين إلى هراة وذلك في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة .

وفي سنة خمس وثمانين فى شهر ربيع الأول سار أبو عليّ وفايق عن جرجان إلى نيسابور ، فكتب محمود إلى أبيه بذلك وبرز إلى ظاهر نيسابور ، وأقام ينتظر المدد فأعجلاه فصبر لهما ، فقاتلاه وهو في قلّة من الرجال فانهزم عنهما نحو أبيه ، وغنما منه شيئا كثيرا ورجع أبو عليّ إلى نيسابور ، وكتب إلى الأمير نوح يستميله ويستقيل من عثرته ، وكاتب سبكتكين بمثل ذلك وأحال فيما جرى على فايق ، فلم يجيباه إلى ما أراد ، وجمع سبكتكين العساكر وسار نحو أبي عليّ فالتقوا بطوس في جمادى الآخرة واقتتلوا عامّة يومهم ، وأتاهم محمود ابن سبكتكين فى عسكر ضخم من ورائهم ، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير ، ونجا أبو على وفايق إلى آمل الشط ، فراسلا الأمير نوح يستعطفانه ، فأجاب أبا عليّ إلى ما طلب وقبل عذره ، إن فارق فايقا ونزل بالجرجانية ، ففعل ذلك فحذّره فايق وخوّفه مكرهم ومكيدتهم فلم يرجع إلى قوله ، وفارقه وسار إلى الجرجانيّة ونزل بقرية بقرب خوارزم تسمى هزاراسب [1] ، فأرسل إليه أبو عبد الله خوارزم

(١) فى المخطوطات : هزارسف ، وفى الكامل حـ٩ ص ٧٥ : هزاراسف والتصويب عن معجم البلدان لياقوت الحموى حـ٤ ص ٩٧١ طبعة أوروبا وراجع لوسترينج : بلاد الخلافة الشرقية ص ٤٥٠ ط كمبردج سنة ١٩٣٠ .

شاه من أقام له ضيافة ، ووعده أنه يقصده ليجتمع به فسكن إلى ذلك فلما كان الليل أرسل إليه خوارزم شاه جمعا من عسكره ، فأحاطوا به وأخذوه أسيرا فى شهر رمضان سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ؛ فاعتقله فى بعض دوره ، وطلب أصحابه فأسر أعيانهم وتفرّق الباقون.

وأما فايق فإنه سار إلى ايليك الخان فأكرمه وعظّمه ووعده أن يعيده إلى قاعدته ، وكتب إلى نوح يشفع فيه ويطلب منه أن يوليه سمرقند ، فأجابه إلى ذلك وأقام بها ؛ وأما ما كان من أبى علىّ بن سيمجور فإنه لمّا أسره خوارزم شاه بلغ خبره إلى مأمون بن محمد والى الجرجانية ، فقلق لذلك وعبر إلى كاث وهى مدينة خوارزم شاه فحصرها وفتحها عنوة ، وأحضر أبا علىّ وفكّ قيده وعاد به إلى الجرجانية ، واستخلف مأمون بعض أصحابه على بلد خوارزم شاه ، وصارت من جملة ما بيده ، وقتل خوارزم شاه بين يدى أبى علىّ بن سيمجور ، وكتب مأمون إلى الأمير نوح وهو يشفع فى أبى علىّ ويسأل الصفح عنه ، فأجابه إلى ذلك وأمر أبو على بالمسير إلى بخارى ، فسار إليها فيمن بقى معه من أهله وأصحابه ، فلمّا بلغها لقيه الأمراء والعساكر ودخل على الأمير نوح فأمر بالقبض عليه وعلى من معه ، واعتقله فمات فى حبسه فى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة .

ذكر وفاة الامير نوح بن منصور

كانت وفاته فى شهر رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، فكان مدة ملكه عشرين سنة وثمانية أشهر ، فاختلّ بموته ملك آل سامان وضعف أمرهم ضعفا ظاهرا ، وطمع فيهم أصحاب الأطراف ، وزال ملكهم

بعد ذلك بمدّة يسيرة على ما نذكره إن شاء الله تعالى ، فكأنّه المعنى بقول القائل :

وما كان قيسٌ هلكهُ هلك واحد ولكنّهُ بنيـان قوم تهدّمـا

ذكر ولاية أبى الحارث منصور بن نوح بن منصور بن نوح ابن نصر بن أحمد بن اسماعيل بن أحمد ، وهو التاسع من الملوك السامانية

ملك ما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه فى شهر رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وبايعه الأمراء والقوّاد وسائر الناس ، وفرّق فيهم بقايا الأموال فاتّفقوا على طاعته ، وقام بأمر دولته وتدبيرها بكتُوزُون ، ولما بلغ خبر وفاة أبيه إلى ايليك الخان سار إلى سمر قند وانضم إليه فايق [و] (١) الخاصة فسيّره جريدة إلى بخارى، فلما سمع الأمير منصور بمسيره تحيّر فى أمره وأعجله عن أن يتجهّز ، فسار عن بخارى وقطع النهر ، ودخل فايق بخارى وأظهر أنّه قصد القيام بخدمة الأمير منصور ، رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم ، وأرسل إليه مشايخ بخارى فى العودة إلى بلده وملكه ، وأعطاه من نفسه مايطمئن إليه من العهود والمواثيق ،فعاد إليها ودخلها وولى فايق أمره ، وحكمه فى دولته ، وولى بكتوزون أمر الجيش بخراسان ، وكان محمود ابن سبكتكين حينئذ مشغولا بمحاربة أخيه إسماعيل ، فسار بكتوزون إلى خراسان ووليها واستقرت قواعده بها .

(١) فى المخطوطات بدون (و) وكذلك الكامل لابن الأثير ٩٠ ص ٩١ .

ذكر القبض على الأمير منصور بن نوح وسمله

وفى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة اجتمع بكتوزون وفايق وتشاكيا ماهما فيه من قلة إنصاف الأمير لهما ، فقبضا عليه وأمر بكتوزون من سمل عينيه ، فكانت مدة ولايته سنة واحدة وسبعة أشهر .

ذكر ولاية عبد الملك بن نوح بن منصور

قال : ولما قبضا على الأمير منصور وسملاه أقاما أخاه عبد الملك في الملك مقامه وهو صبى صغير ، فأرسل محمود بن سبكتكين إلى فايق وبكتوزون يلومهما ويقبّح فعلهما ، وقويت نفسه على لقائهما . وطمع في الملك والاستقلال به ، وسار لقتالهم فسارا نحوه ومعهما عبد الملك ، والتقوا واقتتلوا أشدّ قتال فانهزم السامانيّة ، ولحق عبد الملك وفايق ببخارى ، وقصد بكتوزون نيسابور فاتبعته جيوش محمود حتى لحق بجرجان ، وسار محمود إلى هراة فعاد بكتوزون إلى نيسابور وملكها ، فقصده محمود فهرب إلى بخارى بعد أن نهب مرو . واستقرّ ملك محمود بن سبكتكين بخراسان وخرجت عن ملك آل سامان .

ذكر انقراض الدولة السامانية

كان انقراضها فى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة على يد محمود بن سبكتكين بخراسان وإيليك الخان بما وراء النهر . فأما محمود فإنه ملك خراسان كما ذكرناه ، وأما ايليك الخان وهو شمس الدولة

أبو نصر أحمد بن على فإن عبد الملك - لما انهزم من محمود - بقى بيده ما وراء النهر ، فقصد بخارى واجتمع بها هو وفايق وبكتوزون وغيرهما من الأمراء والأكابر ، فقويت نفوسهم وشرعوا فى جمع العساكر ، وعزموا على العود إلى خراسان ، فاتفقت وفاة فايق فى شعبان من السنة ، فلما مات ضعفت نفوسهم ووهت قوّتهم ، فإنه كان هو المشار إليه من بينهم ، وكان خصيا من موالى الأمير نوح ابن نصر . قال : ولمّا اتصل الخبر بايليك الخان سار فى جميع الأتراك إلى بخارى ، وأظهر لعبد الملك المودّة والموالاة والحميّة له ، فظنّوا صدقه فلم يحترسوا منه ، وخرج إليه بكتوزون وغيره من الأمراء والقوّاد ، فلمّا حضروا عنده قبض عليهم ، وسار حتى دخل بخارى فى يوم الثلاثاء عاشر ذى القعدة ، فلم يدر عبد الملك ما يصنع لقلّة من معه فاختفى ، ونزل ايليك الخان فى دار الإمارة وبثّ العيون على عبد الملك ، وشدّد فى طلبه فظفر به فأودعه بايكند[1] فمات بها ، وهو آخر الملوك السامانيّة ، وانقرضت دولتهم على يده وحبس معه أخاه أبا الحارث منصور بن نوح ، الذى كان فى الملك قبله ، وأخويه أبا إبراهيم إسماعيل وأبا يعقوب ، وأعمامه أبا زكريا وأبا سليمان وغيرهم من آل سامان ، وأفرد كل واحد منهم فى حجرة ، وكانت دولتهم قد انتشرت من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر ، وكانت من أحسن الدول سيرة وعدلا ، وعدّة من ملك منهم عشرة ملوك وهم : نصر بن أحمد بن أسد بن سامان ، ثم أخوه إسماعيل بن أحمد ،

(١) فى الكامل حـ٩ ص ١٠٥ : بافكند .

ثم ابنه أحمد بن إسماعيل ، ثم ابنه نصر بن أحمد ، ثم ابنه نوح بن نصر ، ثم ابنه عبد الملك بن نوح ، ثم أخوه منصور بن نوح ، ثم ابنه نوح بن منصور ، ثم ابنه منصور بن نوح ، ثم أخوه عبد الملك بن نوح . ومدّة ملكهم منذ ولى نصر بن أحمد بن أسد وإلى أن قبض على عبد الملك مائة سنة وتسع وعشرون سنة تقريبا ، ولم يقم لهم بعد ذلك دولة ، وإنما ظهر إسماعيل بن نوح ولم يستقم له أمر ولا قامت له دولة ، فلذلك لم نجعله في جملة ملوكهم ، لأنّه كان كالخارجى ، ونحن الآن نذكر ظهوره وما كان من أمره .

ذكر ظهور اسماعيل بن نوح وما اتفق له بخراسان

وفى سنة تسعين وثلاثمائة خرج أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح من محبسه ، وكان السبب فى ظهوره أنه كان له جارية تأتيه لخدمته ثم تنصرف ، فجاءته فى بعض الأيام على عادتها فلبس ما كان عليها ، وخرج فظنّه الموكّلون به الجارية ، ولما خرج استخفى عند عجوز من أهل بخارى ، إلى أن سكن الطلب عنه ، فسار من بخارى إلى خوارزم وتلقب المستنصر [1] ، واجتمع إليه بقايا القوّاد السامانية والجند فكثرت جموعه ، فبعث قائدا من قوّاده إلى بخارى ، فقاتل من بها من أصحاب إيليك الخان وهزمهم وتبعهم إلى حدود سمرقند ، فاجتمع المنهزمون وعسكر سمرقند وقاتلوه فهزمهم أيضا عسكر المستنصر ، وغنموا أثقالهم فصلحت أحوالهم وعادوا إلى بخارى ،

(١) فى الكامل حـ٩ ص ١١١ : المنتصر .

فاستبشر أهلها بعود السامانية ، فجمع إيليك الخان الترك وقصد بخارى ، فانحاز من بها من السامانيّة وعبروا النهر إلى آمل الشط ، فضاقت عليهم فساروا هم والمستنصر نحو أبيورد ، فملكوها وجبوا أموالها ، وساروا نحو نيسابور وبها منصور بن سبكتكين نائبا عن أخيه محمود ، فاقتتلوا فانهزم ابن سبكتكين وملك المستنصر نيسابور وكثر جمعه ، فاتصل الخبر بيمين الدولة محمود فجدّ فى السير إليها فسار المستنصر عنها إلى اسفرايين ، فلما أزعجه الطلب سار إلى شمس المعالى قابوس بن وشمكير ملتجئا إليه ، فأكرمه وحمل إليه كثيرا وأشار عليه بقصد الرى ، إذ كانت ليس لها من يذبّ عنها ، لاشتغال أصحابها باختلافهم ، ووعده أن ينجده بعسكر مع أولاده ، فسار نحو الرى ونازلها فضعف من بها عن مقاومته ، إلا أنهم حفظوا البلد ، وبذلوا الأموال لأصحابه ليردّوه عنها ، فردّوه وحسّنوا له العود إلى خراسان فسار نحو الدامغان ، وعاد عنه عسكر قابوس ، ووصل المستنصر إلى نيسابور فى شوّال سنة إحدى وتسعين فجبى أموالها ، فأرسل إليه يمين الدولة جيشا فانهزم وسار نحو أبيورد ، وقصد جرجان فردّه شمس المعالى عنها ، فقصد سرخس وجبى أموالها وسكنها ، فسار إليه نصر بن سبكتكين من نيسابور ، والتقوا واقتتلوا فانهزم السامانى ، وأسر جماعة من أعيان عسكره وحملوا إلى غزنة ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، ثم سار السامانى ثانيا حتى وافى الأتراك الغُزيّة ، ولهم ميل إلى آل سامان فاجتمعوا معه ، وسار إيليك الخانَ وذلك فى شوّال سنة ثلاث وتسعين ، فلقيهم بنواحى سمرقند فهزموه ، واستولوا على أمواله

وسواده وأسروا جماعة من قوّاده وعادوا ، وأجمع أصحاب المستنصر على إطلاق الأسرى تقرّبا إلى إيليك الخان ، فشعر بذلك فاختار من أصحابه جماعة يثق بهم ، وسار بهم فعبر النهر إلى آمل الشط. فلم يقبله مكان ، فعاد وعبر النهر إلى بخارى واقتتل هو وواليها الذى هو من قبل إيليك الخان ، فانهزم المستنصر إلى دبوسيّه وجمع بها جمعا ، ثم عاودهم وهزمهم فاجتمع عليه جماعة من فتيان سمرقند وصاروا فى جملة أصحابه ، فجمع إيليك الخان الأتراك وسار إليه والتقوا بنواحى سمرقند ، فانهزم إيليك الخان وذلك فى شعبان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة ، ثم عاد إيليك الخان إلى بلاد الترك فجمع وحشد وعاد إلى المستنصر ، فوافق عوده تراجع الغزيّة الذين كانوا مع السامانى إلى أوطانهم ، فاقتتلوا بنواحى اشروسنة فانهزم السامانى وأكثر أصحاب إيليك الخان القتل فى أصحابه ، وعبر النهر إلى الجوزجان فنهب أموالها ، وسار يريد مرو فسيّر إليه يمين الدولة العساكر ، ففارق مكانه وسار وهم فى أثره ، فأتى بسطام فأزعجه قابوس عنها فضاقت به المذاهب ، فعبر ما وراء النهر وقد ضجر أصحابه منه وسئموا من السهر والتعب والخوف ، ففارقه كثير منهم إلى بعض أصحاب إيليك الخان وأعلموهم بمكانه ، فلم يشعر إلا وقد أحاطت به الخيل من كل جانب ، فطاردهم ساعة وانهزم ونزل بحلّة للعرب ، وكانوا فى طاعة يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، فأمهلوه حتى أظلم الليل ووثبوا عليه فأخذوه وقتلوه ، وكان ذلك خاتمة أمره وآخر ما اتّفق لآل سامان ، ولم يقم منهم بعده أحد ، والله أعلم .

ذكر أخبار الدولة الصفارية
وابتداء أمرها

أوّل من قام منهم يعقوب بن الليث الصفّار ، وكان يعقوب هذا وأخوه عمرو يعملان الصُّفْر بسجستان ويظهران الزهد والتقشف ، وكان فى أيّامهما رجل من أهل سِجِسْتان اسمه صالح بن النضر الكنانى قد تغلّب على سِجِسْتان فى سنة سبع وثلاثين ومائتين فى خلافة المتوكّل على الله ، فصحبه يعقوب وقاتل معه وجعله صالح مقام الخليفة عنه ، فاستنقذ طاهر بن عبد الله بن طاهر – أمير خراسان – سجستان من يده ، ثم هلك صالح بعد ذلك فقام مقامه بأمر المتطوّعة رجل اسمه درهم بن الحسن [1] ، فغلب على سجستان وكان غير ضابط لعسكره وكان يعقوب هو قائد العسكر ، فلمّا رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث ، وملّكوه أمرهم لما رأوه من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم ، فلمّا تبيّن ذلك لدرهم لم ينازعه فى الأمر ، وسلّمه إليه واعتزل عنه فاستبدّ يعقوب بالأمر ؛ وقيل بل احتال صاحب خراسان على درهم حتّى قبض عليه ، وحمله إلى بغداد فحبس بها ثم أطلق وخدم الخليفة ببغداد ، واستقلّ يعقوب بعده بالأمر وعظم شأنه وتولّى أمر المتطوّعة ، وقام بمحاربة الشراة فظفر بهم وأكثر القتل فيهم حتّى كاد يفنيهم ، وخرّب قراهم ، وأطاعه أصحابه طاعة لم يطيعوا أحدا قبله ، فاشتدت شوكته فغلب على سِجِسْتَان

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٤٣ : درهم بن الحسين وكذلك فى وفيات الأعيان لابن خلكان حـ٥ ص ٤٤٢ ط القاهرة ١٩٤٩ ، على أن فى إحدى مخطوطات الكامل المرموز لها A : الحسن .

وأظهر التمسك بطاعة الخليفة ، وكاتبه وصدر عن أمره وأظهر أنه أمره بقتال الشراة ، وملك يعقوب سجستان وضبط الطريق ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فكثر اتباعه .

ذكر ملك يعقوب هراة وبوشنج

قال[1] : ولما كثرا أتباعه خرج عن حدّ طلب الشراة ، فصار يتناول أصحاب أمير خراسان ، وسار من سجستان إلى هراة من أعمال خراسان فى سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، وأمير خراسان يومذاك محمد بن طاهر بن عبد الله ، وعامله على هراة محمد بن أوس الأنبارى فخرج منها لمحاربته ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم ابن أوس وملك يعقوب هراة وبُوشَنْج وصارت المدينتان فى يده ، فعظم أمره وهابه أمير خراسان وغيره من أصحاب الأطراف ، وذلك فى خلافة المعتز بالله .

ذكر استيلائه على كرمان

وفى سنة خمس وخمسين ومائتين استولى يعقوب بن الليث على كِرْمان ، وسبب ذلك أن علىّ بن الحسين بن سبل كان على فارس ، فتباطأ بحمل الخراج منها وكتب إلى المعتز بالله يطلب منه كرمان ، ويذكر عجز الطاهريّة عنها ، فكتب إليه بولايتها وكتب إلى يعقوب أيضا بولايتها ، وقصد بذلك إغراء كل واحد منهما بالآخر فتسقط.

---

(١) راجع الكامل حـ٧ ص ١٢٥ .

عنه مؤونة الهالك منهما وينفرد بالآخر ، وكان كل منهما يظهر الطاعة للخليفة وهو فى باطن أمره على معصيته ، والمعتز يعلم بذلك منهما ، فأرسل علىّ بن الحسين ، طَوْق بن المُغَلِّس إلى كرمان ، وسار يعقوب إليها فسبقه طوق واستولى عليها ، وأقبل يعقوب حتى بقى بينه وبين عسكر كرمان مرحلة ، فأقام بها شهرين لا يتقدّم إلى طوق ، ولا طوق يخرج إليه ، فلمّا طال ذلك عليه أظهر الارتحال إلى سجستان ورجع مرحلتين ، وبلغ طوقا ارتحاله فظنّ أنه قد بدا له فى حربه ، فوضع آلة الحرب وقعد للشرب واللهو ، واتصل ذلك بيعقوب فكرّ راجعا وطوى المرحلتين فى مرحلة [1] واحدة ، فلم يشعر طوق إلا بغبرة العسكر قد طلعت ، فقال : ما هذا ؟ فقيل غبرة المواشى ، فلم يكن بأسرع من موافاة يعقوب فأحاط به وبأصحابه ، فذهب أصحابه يريدون المناهضة والدفع عن أنفسهم ، فقال يعقوب لأصحابه : أفرجوا لهم ، فأفرجوا لهم فمروا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم ، وأسر يعقوب طوقا ، وكان علىّ بن الحسين قد سيّر مع طوق قيودا فى صناديق ، ليقيدّ بها من يأخذه من أصحاب يعقوب ، وفى صناديق أطوقة وأساور يعطيها لأصحاب البلاء من أصحابه ، فلمّا غنم يعقوب عسكرهم رأى ذلك فقال يا طوق : ما هذا ؟ فأخبره ، فأعطى [2] يعقوب الأطوقة والأساور لأصحابه ، وقيّد بالقيود والأغلال أصحاب علىّ ، ولما أخرج يد طوق ليجعل الغلّ فيها رآها يعقوب وعليها عصابة ، فسأله عنها فقال : أصابتنى حرارة ففصدتها ، فأمر

(١) فى الكامل حـ٧ ص ١٢٩ : يوم واحد .
(٢) فى المخطوطات : فأعطاه .

يعقوب بنزع خف نفسه فتساقط منه كسر يابسة ، فقال : يا طوق هذا خفّى لم أنزعه من رجلى منذ شهرين ، وخبزى فيه منه آكل ، وأنت جالس فى الشرب ، ثم دخل كرمان وملكها مع سِجِسْتان .

ذكر ملكه فارس

قال : ولما بلغ على بن الحسين صاحب فارس ما فعله يعقوب بطَوْق أيقن بمجيئه إليه وكان بشيراز ، فجمع جيشه وصار إلى مضيق خارج شيراز ، من أحد جانبيه جبل لا يسلك ، ومن الآخر نهر لا يُخاض على رأس المضيق ، وهو مضيق لا يسلكه إلا واحد بعد واحد وقال : إن يعقوب لا يقدر على الجواز إلينا ، وأقبل يعقوب حتى دنا من ذلك المضيق ونزل على ميل منه ، وسار وحده ومعه رجل آخر فنظر إلى المضيق والعسكر فسبّه أصحاب علىّ وهو ساكت ، ثم رجع إلى أصحابه ، فلما كان الغد سار حتى صار إلى طريق المضيق مما يلى كرمان ، وأمر أصحابه بالنزول وحطّ الأثقال ففعلوا وركبوا دوابّهم وأخذ يعقوب كلبا كان قد ألفه فألقاه فى الماء ، فجعل يسبح إلى جانب أصحاب علىّ ، وكان علىّ وأصحابه قد ركبوا لينظروا إلى فعله ويضحكون منه ، فألقى يعقوب نفسه وأصحابه فى الماء على خيولهم وبأيديهم الرماح ، وجعلوا يسيرون خلف الكلب ، فلما رأى علىّ يعقوب وقد قطع عامّة النهر تحيّر فى أمره ، وانتقض عليه ما كان قد دبّره ، وخرج أصحاب يعقوب فلما صار أوائلهم فى البّر هرب

أصحاب عليّ إلى مدينة شيراز ، فسقط. (١) عليّ بن الحسين عن فرسه فأخذ أسيرا ، وأتى به إلى يعقوب فقيّده واحتوى على ما كان فى عسكره ، ثم رحل من موضعه ودخل شيراز ليلا فلم يتحرّك أحد ، فلمّا أصبح انتهب أصحابه دار عليّ ودور أصحابه ، وأخذ ما فى بيوت الأموال وجبى الخراج ، ورجع إلى سجستان . وقيل إنه كان بينه وبين عليّ حرب بعد عبور النهر ، وذلك أن عليا كان قد جمع عنده جمعا كثيرا من الموالى والأكراد وغيرهم ، بلغت عدّتهم خمسة عشر ألفا من فارس وراجل ، وعبأ أصحابه وأقبل يعقوب وعبر النهر فلما صاروا فى أرض واحدة حمل يعقوب وعسكره حملة رجل واحد ، وتابع الحملات حملة بعد أخرى فانهزم أصحاب عليّ ، وتبعهم وهو يصيح بهم فلا يرجعون ، وقتل الرجّالة قتلا ذريعا ، وأقبل المنهزمون إلى باب شيراز وقت العصر ، فازدحموا إلى الأبواب وتفرّقوا فى نواحى فارس ، وبلغ بعضهم إلى الأهواز فأمر يعقوب بالكف عنهم ، وكانت القتلى منهم خمسة آلاف ؛ قيل وأصاب على بن الحسين ثلاث جراحات ثم أخذ أسيرا .

ودخل يعقوب مدينة شيراز وطاف بها ، ونادى بالأمان فاطمأنّ الناس ، وعذّب على بن الحسين بأنواع العذاب ، وأخذ من أمواله ألف بدرة وقيل أربعمائة ، وأخذ من السلاح والأقمشة وغير ذلك مالا يُحدّ ، وكتب إلى الخليفة المعتز بالله بطاعته ، وأهدى له هدية جليلة : منها عشرة بزاة بيض وباز أبلق صينى ومائة منّ من المسك وغير ذلك

(١) فى المخطوطات : فتقنطر ، ولما كان المؤلف ينقل بالفظ من الكامل حـ٧ ص ١٣٠ كان التصويب منه .

من الطرائف ، وعاد إلى سجستان ومعه علىّ وطوق ، فلما فارق بلاد فارس أرسل الخليفة عماله إليها .

ذكر قصد يعقوب فارس وملكه بلخ وغيرها

وفى سنة سبع وخمسين ومائتين سار يعقوب إلى بلاد فارس ، فأرسل إليه المعتمد على الله ينكر ذلك ، وكتب إليه الموفق أخو المعتمد بولاية بلْخ وطُخَارسْتَان وسِجْستَان والسِّنْد فقبل ذلك ، وعاد وسار إلى بلخ وطخارستان ، فلما وصل نزل بظاهرها وخرّب نوشَاد ؛ وهى أبنية كان قد بناها داود بن العبّاس خارج بلخ ، ثم سار إلى كَابُل واستولى عليها وقبض على رُتْبيل[1] ، وأرسل رسولا إلى الخليفة بهديّة جليلة المقدار ، وفيها أصنام أخذها من كابُل وتلك البلاد ، وسار إلى بُسْت فأقام بها سنة ، وسبب إقامته أنه أراد الرحيل فرأى قوّاده قد حمل بعض أثقاله ، فغضب وقال : ترحلون قبلى ! ! ثم أقام سنة ، وسار إلى بوشنج وقبض على الحسين بن طاهر بن الحسين ، فأنفذ إليه محمد بن طاهر بن عبد الله يسأله فى إطلاقه فلم يجب سؤله .

ذكر ملكه نيسابور

وفى شوال سنة تسع وخمسين ومائتين دخل يعقوب نيسابور ، وكان سبب مسيره إليها أن عبد الله السِّجْزى كان ينازع يعقوب سجستان فلما قوى أمر يعقوب هرب منه إلى محمد بن طاهر ، وطلبه يعقوب

(١) ورد فى وفيات الأعيان لابن خلكان ج٥ ص ٤٤٥ (ط القاهرة ١٩٤٩) : ويسمى كل ملك لهم رتبيل .

منه فلم يفعل ، فسار نحوه إلى نيسابور فلما قرب منها وأراد دخولها وجّه إليه محمد بن طاهر يستأذنه فى تلقّيه ، فلم يأذن له فبعث بعمومته وأهل بيته فتلقّوه ، ودخل نيسابور وأرسل إلى الخليفة يذكر تفريط محمد بن طاهر فى عمله ، وأن أهل خراسان سألوه المصير إليهم ، ويذكر غلبة العلويين على طبرستان وبالغ فى هذا المعنى ، فأنكر عليه ذلك وأمره بالاقتصار على ما أسند إليه ، وألا يسلك معه مسلك المخالفين . وقيل بل كان سبب ذلك أنه كتب إلى محمد يعلمه أنه على قصد طبرستان ، ليمضى ما أمره به الخليفة فى الحسن بن زيد العلوى المتغلّب عليها ، وأنه لا يتعرض إلى شىء من عمله ولا إلى شىء من أسبابه ، وكان بعض خاصّة محمد وأهله لمّا رأوا إدبار أمره مالوا إلى يعقوب ، وكاتبوه واستدعوه وهوّنوا على محمد أمر يعقوب ، وأعلموه أنه لا خوف عليه منه وثبّطوه عن التحرّز منه ، فركن محمد إلى قولهم حتى قرب يعقوب من نيسابور ، فوجّه إليه قائدا من قوّاده يطيّب قلبه ، وأمره بمنعه عن الانتزاح من نيسابور إن أراد ذلك ، ثم وصل يعقوب إلى نيسابور فى رابع شوّال ، وأرسل أخاه عمرو بن الليث إلى محمد بن طاهر فأحضره عنده ، فقبض عليه وقيّده وعنّفه على إهماله أمر عمله وعجزه عن حفظه ، ثم قبض على جميع أهله ، وكانوا نحوا من مائة وستين رجلا ، وحملهم إلى سجستان واستولى على خراسان ، ورتّب نوّابه فى الأعمال ، وكانت ولاية محمد بن طاهر خراسان إحدى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام .

ذكر دخوله طبرستان

وفى سنة ستين ومائتين سار يعقوب إلى طبرستان وملكها ، وسبب ذلك أنه لمّا دخل نيسابور هرب منه عبد الله السِّجْزِى إلى الحسن بن زيد بسارية ، فأرسل يعقوب إلى الحسن يسأله أن يبعثه إليه ويرجع عنه ، فإنّه إنما جاء لذلك لا لحربه فلم يسلّمه الحسن ، فحاربه يعقوب فانهزم الحسن ودخل بلاد الديلم ودخل يعقوب سارية وآمُل ، وجبى من أهلها خراج سنة ، ثم سار فى طلب الحسن بن زيد فصار إلى بعض جبال طبرِسْتان ، فتتابعت عليه الأمطار نحوا من أربعين يوما فلم يتخلّص إلا بمشقّة شديدة ، وهلك عامّة ما معه من الظهر ، ثم أراد الدخول خلف الحسن فوقف على الطريق الذى يريد يسلكه ، وأمر أصحابه بالتوقّف عن المسير ، ثم تقدّم وحده فتأمّل الطريق ورجع إليهم ، فأمرهم بالانصراف وقال : إن لم يكن طريق غير هذا فلا طريق إليه ، وكان نساء تلك الناحية قلن للرجال : دعوه يدخل فإنه إن دخل كفيناكم أمره وعلينا أسره لكم ، فلمّا خرج من طبرستان عرض رجاله ففقد منهم أربعين ألفا ، وذهب أكثر ما معه من الخيل والإبل والأثقال .

وكتب إلى الخليفة بما فعله من هزيمة الحسن ، وسار إلى الرى فى طلب عبد الله السجزى ، فإنه كان قد سار إليها بعد هزيمة الحسن فلما قاربها يعقوب كتب إلى واليها الصلابى (١) ، يخيّره بين تسليم

(١) فى الكامل لابن الأثير حـ٧ ص ١٨٥ : الصلانى ويؤيد المخطوطات الطبرى حـ١٣ ص ٨٨٦ .

عبد الله إليه ويرحل عنه وبين المحاربة ، فسلّمه إليه فانصرف يعقوب عنه وقتل عبد الله السجزى .

ذكر عود يعقوب الى بلاد فارس والحرب بينه وبين محمد بن واصل

كان سبب ذلك أن محمد بن واصل كان قد تغلّب على فارس وقتل الحارث بن سيما ، فأضاف المعتمد على الله فارس والأهواز والبصرة والبحرين واليمامة إلى موسى بن بُغا مع ما كان إليه ، فوجّه موسى ، عبد الرحمن بن مُفلح إلى الأهواز ، وولاه إيّاها مع فارس وأضاف إليه طاشتمُر ، فقاتله محمد بن واصل برام هُرْمُز ، فانهزم عبد الرحمن وأخذ أسيرا وقتل طاشتمر ، وغنم ما كان فى عسكرهما ، فأرسل الخليفة إلى محمد بن واصل فى إطلاق عبد الرحمن ، فلم يفعل وقتله وأظهر أنه مات ، وسار ابن واصل من هذه الوقعة - وقد أظهر أنه يريد واسط - لحرب موسى بن بُغا ، فلما رأى موسى شدّة الأمر استعفى من ولاية فارس ؛ فلما بلغ ذلك يعقوب - وكان بسجستان ، تجدّد طمعه فى ملك بلاد فارس ، وأخذ ما غنمه ابن واصل من الخزائن والسلاح من عبد الرحمن بن مفلح وطاشتمر ، فسار يعقوب حتى نزل البيضا من أرض فارس ، فبلغ ابن واصل خبره وهو بالأهواز ، فعاد منها لا يلوى على شىء ، وأرسل خاله أبا بلال مرداسا إلى يعقوب فوصل إليه وضمن له طاعة محمد بن واصل ، فأرسل يعقوب إلى محمد كتبا ورسلا فى المعنى فحبسهم ابن واصل ، وسار يطلب يعقوب

والرسل معه ، وهو يريد بذلك أن يخفى خبر مسيره ، وأن يصل بغتة فينال منه غرضه ويوقع به ، فسار فى يوم شديد الحرّ فى أرض صعبة المسلك ، وهو يظن أن خبره قد خفى عن يعقوب ، فلما كان وقت الظهر تعبت دوابّهم ، فمات من أصحاب ابن واصل أكثر الرجّالة جوعا وعطشا وتعبا ، وبلغ خبرهم يعقوب فجمع أصحابه وأعلمهم الخبر ، وقال لأبى بلال : إنّ ابن واصل قد غدر بنا وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وسار يعقوب إليه فلما قاربه ضعفت نفوس أصحاب ابن واصل عن مقاومته ،فلما صار بينهما رميه سهم انهزم أصحاب ابن واصل من غير قتال ، وتبعهم أصحاب يعقوب وأخذوا منهم جميع ما غنموه من عسكر عبد الرحمن ، واستولى يعقوب على بلاد فارس ورتّب بها أصحابه وأصلح أحوالها ، ومضى ابن واصل منهزما وأخذ أمواله من قلعته ، وكانت أربعين ألف ألف درهم ، وأوقع يعقوب بأهل زم لأنهم أعانوا ابن واصل ، وحدّث نفسه أنه يستولى على الأهواز وغيرها .

ذكر الحرب بين الموفق ويعقوب

وفى سنة اثنتين وستين ومائتين فى المحرم سار يعقوب من فارس إلى الأهواز ، فلما بلغ المعتمد على الله إقباله أرسل إليه إسماعيل بن إسحاق وبُغْراج ، وأطلق من كان فى حبسه من أصحاب يعقوب ، وكان قد حبسهم لما أخذ يعقوب ، محمد بن طاهر ، وجاءت رسالة يعقوب إلى الخليفة فجلس أبو أحمد الموفّق وأحضر التجّار ، وأخبرهم بتولية يعقوب طبرستان وخراسان وجرجان والرى وفارس والشرطة

ببغداد ، وذلك بمحضر من درهم حاجب يعقوب ؛ وكان قد أرسله يطلب هذه الولاية ، فأعاده الموفّق إلى يعقوب ومعه عمر بن سيما بما أضاف إليه من الولايات ، فعادت رسل يعقوب تقول : إنه لا يرضيه ذلك دون أن يصير إلى باب المعتمد ، وارتحل يعقوب وسار إليه أبو الساج وصار معه ، فأكرمه . وأحسن إليه ووصله ، وسار يعقوب إلى واسط. فدخلها لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين ومائتين ، وارتحل المعتمد على الله من بغداد إلى الزعفرانيّة وقدّم أخاه الموفّق أمامه ، وسار يعقوب من واسط. إلى دير العاقول بالعساكر لمحاربته ، فجعل الموفّق على ميمنته موسى بن بغا وعلى ميسرته مسرورا البلخى وقام هو فى القلب ، والتقوا واقتتلوا فحملت ميسرة يعقوب على ميمنة الموفّق فهزمتها ، وقتل جماعة من القوّاد ثم تراجع المنهزمون ، وكشف الموفّق رأسه وقال : أنا الغلام الهاشمى ، وحمل وحمل معه سائر العسكر فثبت عسكر يعقوب ، وتحاربوا حربا شديدا فقتل من أصحاب يعقوب جماعة ، منهم حسن الدرهمىّ وأصاب يعقوب ثلاثة أسهم ، ولم تزل الحرب قائمة إلى وقت العصر فانهزم أصحاب يعقوب ، وثبت هو فى خاصّة أصحابه ثم مضوا وفارقوا موضع الحرب ، وتبعهم أصحاب الموفّق وغنموا ما فى عسكره ، وكان فيه الدوابّ والبغال أكثر من عشرة آلاف ، ومن الأموال ما لا يحصى كثرة ، ومن جرب المسك عدّة كثيرة ، وخلص محمد بن طاهر وكان مثقلا بالحديد ، فخلع عليه الموفّق وولّاه الشرطة ببغداد ، وسار يعقوب من موضع الهزيمة إلى خوزستان ونزل جنديسابور ، فراسله.

العلوى فقال لكاتبه اكتب إليه : (قُلْ يأيُّها الكافِرُون [١] . .) إلى آخرها وسيّر الكتاب إليه ، وكانت هذه الوقعة لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب ، وكتب المعتمد إلى محمد بن واصل بولاية فارس فعاد إليها [٢] .

ذكر استيلاء يعقوب على الأهواز وغيرها

وفى سنة ثلاث وستين ومائتين أقبل يعقوب من فارس ، فلمّا بلغ النُّوبنْدجان انصرف أحمد بن الليث عن تُسْتر ، فبلغ يعقوب جُنْديُسابور ونزلها ، فارتحل عن تلك الناحية من كان بها من عسكر الخليفة ، ووجّه يعقوب إلى الأهواز رجلا من أصحابه يقال له الخِضْر ابن العنبر ، فلمّا قاربها خرج عنها على بن أبان ومن معه من الزنج ونزل نهر السِّدْرة ، ودخل الخضر الأهواز وجعل أصحابه وأصحاب على بن أبان يغير بعضهم على بعض وينال بعضهم من بعض ، إلى أن استعدّ على بن أبان وسار إلى الأهواز ، فأوقع بالخضر ومن معه من أصحاب يعقوب وقعة عظيمة ، قتل فيها من أصحاب الخضر خلقا كثيرا وهرب الخضر ومن معه ، وأقام علىّ بالأهواز يستخرج ما كان فيها ، ورجع إلى نهر السِّدْرة وسيّر طائفة إلى دوْرق فأوقعوا بمن كان هناك من أصحاب يعقوب ، فأنفذ يعقوب إلى الخضر مددا ، وأمره بالكف عن قتال الزنج والاقتصار على المقام بالأهواز ، فلم يُجب على

(١) سورة رقم ١٠٩ .
(٢) راجع الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٢١٣ .

ابن أبان إلى ذلك دون نقل طعام كان هناك ، فأجابه يعقوب إلى ما طلب ونقل الطعام ، وترك العلف بالأهواز وكف بعضهم عن بعض .

ذكر وفاة يعقوب بن الليث وولاية أخيه عمرو

كانت وفاته فى تاسع عشر شوّال سنة خمس وستين ومائتين بجند يسابور من كور الأهواز ، وكانت علّته القولنج فأمره الأطباء بالاحتقان بالدواء ، فامتنع واختار الموت على ذلك ، وكان المعتمد على الله قد أنفذ إليه رسولا وكتابا يستميله ويسترضيه ، وقلده أعمال فارس ، فوصل الرسول ويعقوب مريض فجلس له ، وجعل عنده سيفا ورغيفا من الخبز الخشكار وبصلا ، وأحضر الرسول وسمع رسالته وقال له : قل للخليفة إنّنى عليل ، فإن مت فقد استرحتُ منك واسترحت منىّ ، وإن عوفيت فليس بينى وبينك إلا هذا السيف حتى آخذ بثأرى أو تكسرنى وتعقرنى [1] فأعود إلى هذا الخبز والبصل وأعاد الرسول ، فلم يلبث يعقوب أن مات .

وكان الحسن بن زيد العلوى - صاحب طبرستان - يسمّى يعقوب السندان لثباته ، وكان يعقوب قد افتتح الرُّخج وقتل ملكها البتبر [2] وكان هذا الملك يُحمل على سرير من ذهب يحمله اثنا عشر رجلا ، وابتنى بيتا على جبل عال سمّاه مكة ، وكان يدّعى الإلهيّة فقتله

(١) فى المخطوطات ووفيات الأعيان لابن خلكان حـ٥ ص ٤٦٣ (ط . القاهرة ١٩٤٩) : تفقرنى والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ٢٢٦ .

(٢) هكذا فى ا ، ت ، وفى ك البقير ، وفى الكامل حـ٧ ص ٢٢٦ : كبتير .

يعقوب ، وافتتح الخلجية [١] وزابُل وغير ذلك ، وكان عاقلا حازما وكان يقول : كل من عاشرته أربعين يوما فلا تعرف أخلاقه لا تعرفها في أربعين سنة .

ذكر ولاية عمرو بن الليث

كانت ولايته بعد وفاة أخيه يعقوب فى تاسع شوّال سنة خمس وستين ومائتين ، ولمّا ولى كتب إلى الخليفة بطاعته ، فولّاه الموفّق خراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد وأشهد عليه بذلك وسيّر إليه العهد والخلع ، فاستخلف عمرو بن الليث ، عبيد الله بن عبد الله بن طاهر على الشرطة ببغداد وسامرّا فى صفر سنة ست وستين ، وخلع عليه الموفّق أيضا ، ولم يزل عمرو فى هذه الولايات إلى أن عزله المعتمد فى شهور سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وأدخل عليه حاج خراسان وأعلمهم أنه عزل عمرو بن الليث عمّا كان قلّده ، ولعنه بحضرتهم وأعلمهم أنه قد قلّد خراسان لمحمد ابن طاهر ، وأمر يلعن عمرو على المنابر فلعن .

وسار صاعد [٢] بن مخلَد إلى فارس لحرب الصفّاريّة ، واستخلف محمدُ بن طاهر على خراسان رافع بن هرثمة ، ثم كانت الحرب بين عمرو بن الليث وعسكر الخليفة وعليهم أحمد بن عبد العزيز بن أبى دُلَف ،

(١) الخلج : جماعة من الترك ؛ راجع لوسترينج : بلاد الخلافة الشرقية ص ٣٤٦ ط كمبردج ١٩٣٠ .

(٢) فى المخطوطات : مخلد بن صاعد ، وهو خطأ صوابه من الكامل حـ٧ ص ٢٩٠ ومن الطبرى حـ١٤ ص ٢١٠٦ .

ودامت الحرب بينهم من أوّل النهار إلى الظهر ، فانهزم عمرو وأصحابه وكانوا خمسة عشر ألفا ، وجرح الدرهميّ مقدّم جيش عمرو ، وقتل مائة رجل من جماتهم [1] وأسر ثلاثة آلاف أسير وغنموا معسكر عمرو ، وكان الذى غنموه من الدوابّ والبقر والحُمُر ثلاثين ألف رأس ، وما سوى ذلك فلا يدخل تحت الاحصاء . وذلك فى عاشر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين ومائتين .

وفى سنة أربع وسبعين سار الموفّق إلى فارس لحرب عمرو بن الليث فى شهر ربيع الأوّل ، فبلغ عمرو الخبر فسيّر عبّاس بن إسحاق فى جمع كثير من العسكر إلى سيراف ، وأنفذ ابنه محمد بن عمرو إلى أرّجان ، وسيّر أبا طلحة شَرْكَب صاحب جيشه على مقدّمته ، فاستأمن أبو طلحة إلى الموفّق ، وسمع عمرو ذلك فتوقف عن قصد الموفّق ، ثم عزم أبو طلحة على العود إلى عمرو فبلغ الموفّق خبره . فقبض عليه بقرب شيراز وجعل ماله لابنه المعتضد ، وسار يطلب عمرا فعاد عمرو إلى كرمان ثم إلى سجستان على المفازة فتوفى ابنه بالمفازة ، وعاد الموفّق .

(١) فى المخطوطات : جماعتهم والتصويب عن الكامل حـ٧ ص ٢٩١ .

ذكر أسر عمرو بن الليث
وقتله وانقراض الدولة الصفارية

وفى سنة سبع وثمانين ومائتين فى شهر ربيع الأوّل منها كانت الحرب بين عمرو بن الليث وإسماعيل بن أحمد السامانى ، صاحب ما وراء النهر ، فأجلت الحرب عن هزيمة أصحاب عمرو وأسره كما قدّمناه مبيّنا فى أخبار الدولة السامانية ، وخيّره إسماعيل فى المقام عنده أو إرساله إلى الخليفة المعتضد بالله ، فاختار أن يتوجّه إلى المعتضد فسيّره إليه ، فوصل إلى بغداد فى سنة ثمان وثمانين ، فلما وصل أدخل بغداد على جمل ، ثم حبس إلى أن قتل فى سنة تسع وثمانين ومائتين

ذكر أخباره وشىء من سيرته

كان عمرو أعور شديد الشره [1] عظيم السياسة ، قد منع قوّاده وأصحابه أن يضرب أحد منهم غلامه إلا بأمره ، وكان يشترى المماليك الصغار ويربّيهم ويهبهم إلى القوّاد ، ويجرى عليهم الجرايات السنيّة ليطالعوه بأخبار القوّاد ، فلا ينكتم عنه شىء من أمرهم ولا يعلمون من ينقل إليه الأخبار ، وكان كثير المصادرات لعمّاله وخواصه .

حكى عنه أنّ محمد بن بشير أكبر حجّابه - وكان يخلفه فى جلائل الأمور والحروب المعضلة - فدخل عليه يوما ، فأخذ يعدّد عليه ذنوبه فحلف محمد بن بشير بالله وبالطلاق أنه لا يملك غير خمسين

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٣٤٧ : السمرة .

بدرة ، وهو يحملها إلى الخزانة ولا يجعل له ذنبا لم يعلمه ، فقال له عمرو : ما أعقلك من رجل ؟ احملها فحملها ، ولا شيء أقبح من هذا الفعل ، ومع ذلك فقد حكى القاضي [1] عياض بن موسى في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم عن الإمام أبي القاسم القشيري أنّ عمرا رؤي في النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، فقيل : بماذا ؟ قال : صعدت ذروة جبل يوما فأشرفت على جنودي ، فأعجبتني كثرتهم فتمنّيت أنّي حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعنته ونصرته ، فشكر الله لي ذلك وغفر لي .

وانقرضت هذه الدولة بأسر عمرو ، وكانت مدتها خمسا وثلاثين سنة ، أيام يعقوب ثلاث عشرة سنة وأيام عمرو اثنتين وعشرين سنة .

ذكر اخبار
أحمد بن عبد الله الخجستاني

وهذه النسبة إلى خُجِسْتَان وهي من جبال هراة من أعمال باذغيس وكان أحمد بن عبد الله هذا من أصحاب محمد بن طاهر ، فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور ضمّ أحمد هذا إلى أخيه علي بن الليث وكان بنو شَرْكَب ثلاثة إخوة : إبراهيم وأبو حفص يعمر وأبو طلحة منصور بنو مسلم ، وإبراهيم أسنّهم ، وكان قد أبلى بين يدي يعقوب

(١) راجع الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي أبي الفضل عياض جـ٢ ص ٣٤ (ط المكتبة التجارية بالقاهرة) .

عند مواقعته للحسن بن زيد العلوى بجرجان بلاء حسنا ، فقدّمه يعقوب فدخل عليه يوما بنيسابور وكان اليوم شديد البرد ، فخلع عليه يعقوب وبرسمّور كان على كتفه ، فحسده أحمد الخجستانى وجاء إليه وقال : إنّ يعقوب يريد الغدر بك ، لأنّه لا يخلع على أحد من خاص ملبوسه إلا غدر به فقال إبراهيم : فكيف الخلاص ؟ فقال : الحيلة أن نهرب جميعاً إلى أخيك يعمر ، وكان يحاصر بلخ ومعه خمسة آلاف رجل ، فاتّفقا على ذلك وتواعدا للخروج فى تلك الليلة ، فسبقه إبراهيم إلى الموعد وانتظره ساعة فلم يره ، فسار نحو سرخس وذهب الخجستانى إلى يعقوب فأعلمه ، فأرسل فى أثر إبراهيم فأدركوه بسرخس فقتلوه ، ومال يعقوب إلى أحمد ، فلما أراد يعقوب العود إلى سجستان استخلف على نيسابور عزيز بن السرىّ وولّى أخاه عمرو بن الليث هراة ، فاستخلف عمرو وعليها طاهر بن حفص الباذغيسى ، وسار يعقوب إلى سجستان فى سنه إحدى وستين ومائتين ، وأحبّ الخجستانى التخلّف لما كان يحدّث به نفسه ، فقال لعلى بن الليث : إن أخويك قد اقتسما خراسان ، وليس لك بها ما يقوم بشغلك ، وأحبّ أن تردّنى إليها لأقوم بأمورك ، فاستأذن أخاه يعقوب فى ذلك فأذن له ، فلمّا حضر أحمد لوداع يعقوب أحسن إليه وخلع عليه ، فلما ولّى عنه قال : أشهد أن قفاه قفا غادر مستعص ، وهذا آخر عهدنا بطاعته ، فلما فارقهم جمع نحو مائة رجل فورد بهم بُست نيسابور ، فحارب عاملها وأخرجه عنها وجباها ثم خرج إلى قُومِس . فغلب على بِسْطام وقتل بها مقتلة عظيمة وذلك فى سنة إحدى وستين وسار إلى نيسابور وبها عزيز بن السرى فهرب منها ، وأخذ أحمد

أثقاله واستولى على نيسابور ، ودعا للطاهريّة وذلك فى أول سنة اثنتين وستين .

وكتب إلى رافع بن هرثمة يستقدمه فقدم عليه ، فجعله قائد جيشه ، وكتب إلى يعمر ابن شركب - وهو يحاصر بلخ - يستقدمه ليتّفقا على تلك البلاد ، فلم يثق إليه لما تقدّم له مع أخيه إبراهيم . وسار يعمر إلى هراة فحاربه طاهر بن حفص فقتله واستولى على أعماله فسار إليه أحمد وكان بينهما مناوشات ، وكان أبو طلحة منصور ابن شركب غلاما من أحسن الغلمان ، وكان عبد الله بن لال[1] يميل إليه وهو أحد قوّاد يعمر ، فراسل ابن لال ، الخجستانىّ أن يعمل ضيافة ليعمر وأصحابه ويدعوهم إليه وأن يكبسهم أحمد وأنّه يساعده . واشترط عليه أنّه إذا ظفر يسلّم إليه أبا طلحة ، فأجابه أحمد إلى ذلك وتواعدا على يوم ، وعمل ابن لال ضيافة وحضرها يعمر . فكبسهم أحمد وقبض على يعمر وسيّره إلى نيسابور فقتله ، واجتمع لأبى طلحة جماعة من أصحاب أخيه فقتلوا ابن لال ، وساروا إلى نيسابور وبها الحسين بن طاهر أخو محمد ، وقد وردها من أصفهان طمعا أن أحمد يخطب لهم ، كما كان يظهر من نفسه فلم يفعل . فخطب ابن طاهر بها لأبى طلحة وأقام معه ، فسار الخجستانى من هراة فى اثنى عشر ألف عِنان ، فأقام على ثلاث مراحل من نيسابور ، ووجّه أخاه العبّاس إليها فخرج إليه أبو طلحة وقاتله ، فقُتل العبّاس وانهزم أصحابه فعاد أحمد إلى هراة .

---

(١) فى الكامل حـ٧ ص٢٠٦ : بلال ، وفى الهامش يذكر أن إحدى المخطوطات كتبته لال

ثم كاتبه أهل نيسابور فى الحضور إليهم ، فسار إليهم وقدم البلد ليلا ، ففتحوا له الباب ودخلها ، وسار عنها أبو طلحة إلى الحسن ابن زيد ، فأمدّه بالجنود فعاد إلى نيسابور فلم يظفر بشىء ، فتوجّه إلى بلخ وذلك فى سنة خمس وستين ، ثم سار الخجستانى لمحاربة الحسن بن زيد لمساعدته لأبى طلحة ، فاستعان الحسن بأهل جرجان فأعانوه ، فهزمهم الخجستانى وجبى منهم أربعة آلاف ألف درهم وذلك فى شهر رمضان من السنة . وتوفى يعقوب بن الليث فى هذه السنة وولى مكانه أخوه عمرو ، فوافى الخجستانى نيسابور واقتتلا فهزمه الخجستانى ، فرجع إلى هراة وأقام أحمد بنيسابور ، ثم سار إلى هراة فى سنة سبع وستين فحصر عمرا ولم يظفر بشىء ، ثم كان له حروب مع أبى العبّاس النوفلى وغيره ، فظفر بالنوفلى وكان قد جاء لحربه من قبل محمد بن طاهر فى خمسة آلاف رجل وقتله ، ثم سار إلى أبيوَرْد وجبى خراج مرو ، ولم يزل كذلك إلى سنة ثمان وستين ومائتين . فقتله غلامه زامجور [1] غيلة وكان قد سكر ونام ثم قتل الغلام . واجتمع أصحاب أحمد الخجستانى وانضمّوا إلى رافع بن هرثمة .

وكان أحمد هذا كريما جوادا شجاعا حسن العشرة كثير البرّ لإخوانه الذين صحبوه قبل إمارته ، ولم يتغيّر عليهم ما كان يعاملهم به من التواضع والأدب .

---

(١) فى الكامل حـ٧ ص ٢١٠ : بالراء : راجور .

ذكر أخبار رافع بن هرثمة

كان رافع بن هرثمة من أصحاب محمد بن طاهر ، فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور وأزال الطاهريّة عنها التحق رافع به ، فلما عاد يعقوب إلى سجستان صحبه رافع ، وكان طويل اللحية كريه المنظر قليل الطلاقة ، فدخل يوما على يعقوب فلما خرج من عنده قال : إنّا لا نميل إلى هذا الرجل فليلحق بما شاء من البلاد ، فقيل له ذلك ففارقه وعاد إلى منزله بتامين ، فأقام إلى أن استقدمه أحمد الخجستانى كما ذكرنا وجعله صاحب جيشه ، فلما قتل اجتمع الجيش عليه ، وسار من هراة إلى نيسابور وكان أبو طلحة قد وردها من جرجان ، فحصره فيها رافع وقطع الميرة عنها ، فاشتدّ الغلاء ففارقها أبو طلحة إلى مرو ، وخطب رافع لمحمد بن طاهر ، ثم قلّد الموفّق محمد بن طاهر أعمال خراسان وكان ببغداد ، فاستخلف رافع بن هرثمة على أعمال خراسان ، وسار رافع إلى خوارزم فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين فجبى أموالها ، ورجع إلى نيسابور .

وفى سنة خمس وسبعين استولى رافع على جرجان ، وأزال عنها محمد بن زيد وسار محمد إلى أسْترابادَ فحصره بها رافع نحو سنتين ، فغلت الأسعار وعدمت الأقوات وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة ، ففارقها محمد ليلا فى نفر يسير فتبعه رافع إلى أرض الديلم حتى اتصل

بحدود قزوين ، وعاد إلى الرى وأقام بها إلى أن توفى المعتمد [1] على الله فى سنة تسع وسبعين ومائتين .

وإنما ذكرنا أخبار أحمد ورافع فى هذا الموضع لتعلقهما بالدولة الصفارية [2] .

(١) ورد فى الكامل لابن الأثير ج٧ ص٣٠٣ (وأقام بها إلى أن توفى الموفق فى رجب سنة ست وسبعين ومائتين) : ونحن نعرف أن الموفق توفى سنة ٢٧٨ هـ والمعتمد توفى سنة ٢٧٩ هـ وباستعراض النصوص يتضح أن بالكامل خطأ ، يؤيده أن بهامش هذه الصفحة ذكر أنه المعتمد .

(٢) زيد المخطوطة ت وحدها بعد ذلك ما يأتى وبخط مخالف : وقتل رافع بن هرثمة على يد أصحاب عمرو بن ليث ، وجىء برأسه إلى المعتضد فنصب ببغداد سنة ٢٨٤ هـ .

شجرة بأسماء العلويين

ممن جاء ذكرهم بهذا الجزء

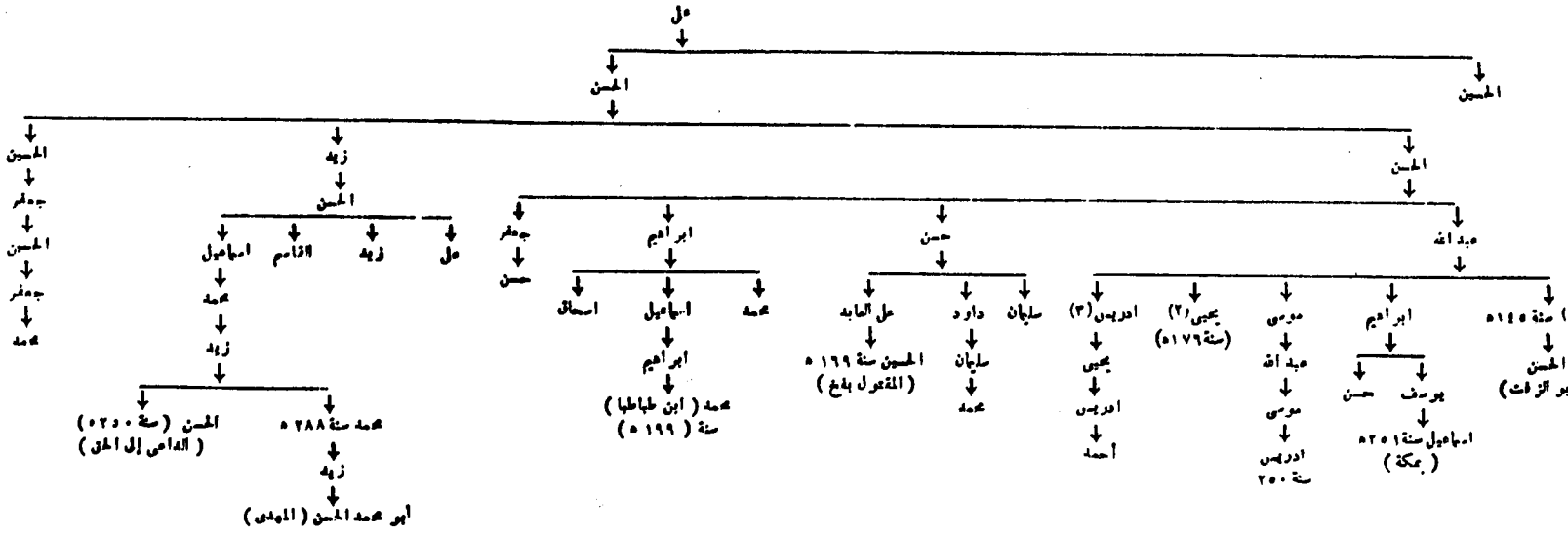

(١) الخارج على المنصور بالمدينة وهو المعروف بالنفس الزكية
(٢) الخارج على الرشيد بطبرستان (الديلم)
(٣) صاحب الدولة الادريسية بالمغرب

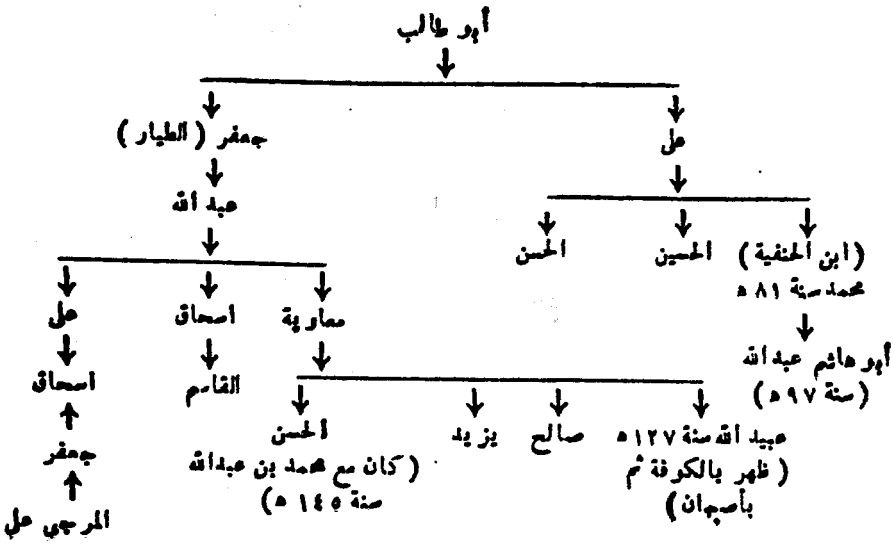
أبو طالب
جعفر (الطيار)
علي
عبد الله
(ابن الحنفية)
محمد سنة ٨١ هـ
الحسين
الحسن
علي
اسحاق
معاوية
أبو هاشم عبد الله
(سنة ٩٧ هـ)
اسحاق
القاسم
جعفر
المرجي علي
الحسن
(كان مع محمد بن عبد الله
سنة ١٤٥ هـ)
يزيد
صالح
عبيد الله سنة ١٢٧ هـ
(ظهر بالكوفة ثم
بأصبهان)

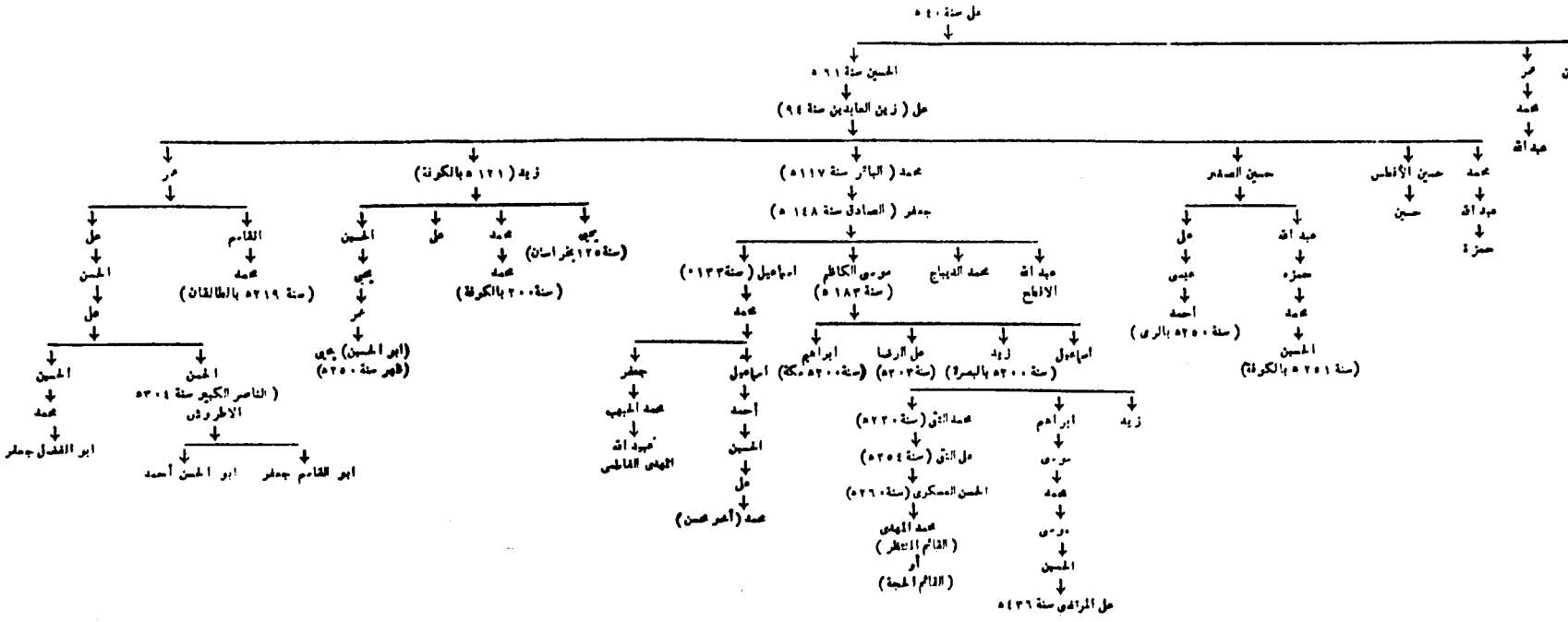
علي سنة ٤٠ هـ
الحسين سنة ٦١ هـ
علي (زين العابدين سنة ٩٤)
عمر
محمد
عبد الله
محمد
عبد الله
حمزة
حسين الأفطس
حسين
حسين الصغير
عبد الله
حمزة
محمد
الحسين
(سنة ٢٥١ هـ بالكوفة)
علي
عيسى
أحمد
(سنة ٢٥٠ هـ بالري)
محمد الباقر سنة ١١٧ هـ
جعفر (الصادق سنة ١٤٨ هـ)
عبد الله
الافطح
محمد الديباج
موسى الكاظم
(سنة ١٨٣ هـ)
اسماعيل (سنة ١٣٣ هـ)
محمد
اسماعيل
(سنة ٢٠٠ هـ بالبصرة)
زيد
علي الرضا
(سنة ٢٠٣ هـ)
ابراهيم
(سنة ٢٠٠ هـ بمكة)
زيد
ابراهيم
موسى
محمد
موسى
الحسين
علي المرتضى سنة ٤٣٦ هـ
محمد التقي (سنة ٢٢٠ هـ)
علي النقي (سنة ٢٥٤ هـ)
الحسن العسكري (سنة ٢٦٠ هـ)
محمد المهدي
(القائم المنتظر)
أو
(القائم الحجة)
جعفر
محمد الحبيب
عبد الله
المهدي الفاطمي
اسماعيل
أحمد
الحسين
علي
محمد (آخر حسن)
زيد (١٢١ هـ بالكوفة)
يحيى
(سنة ١٢٥ بخراسان)
محمد
(سنة ٢٠٠ بالكوفة)
علي
الحسين
يحيى
عمر
(ابو الحسين) يحيى
(ظهر سنة ٢٥٠ هـ)
عمر
القاسم
محمد
(سنة ٢١٩ هـ بالطالقان)
علي
الحسن
علي
الحسن
الحسن
(الناصر الكبير سنة ٣٠٤ هـ)
الاطروش
ابو القاسم جعفر
ابو الحسن أحمد
الحسن
محمد
ابو الفضل جعفر

مراجع التحقيق

١ ـ المقريزى : اتعاظ. الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، طبع القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٢ ـ السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ، طبع القاهرة ، ١٣٠٢ هـ .

٣ ـ محسن الأمين : أعيان الشيعة ، طبع دمشق ، ١٩٤٠ ـ ١٩٤٦ م

٤ ـ الشرتونى : أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد ، طبع بيروت ، ١٨٨٩ م

٥ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، طبع القاهرة ، ١٩٣٢ م

٦ ـ ليسترينج : بلدان الخلافة الشرقية ، طبع كمبردج ، ١٩٣٠ م .

٧ ـ الزبيدى : تاج العروس ، طبع القاهرة ، : ١٣٠٦ هـ

٨ ـ الأصفهانى : تاريخ ملوك الأرض ، طبع كلكتا ، ١٨٦٦ م .

٩ ـ ابن مسكويه : تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، طبع ليدن ، ١٨٦٩ م .

١٠ ـ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، طبع حيدر آباد ، د . ت .

١١ ـ القاضي عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، طبع المكتبة التجارية ، د . ت .

١٢ ـ القرطبي ؛ عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ،طبع ليدن ، ١٨٩٧ م .

١٣ ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى ، طبع أوروبا ، ١٩٠٥ ـ ١٩٢١ .

١٤ ـ البلاذرى : فتوح البلدان ، طبع ليدن ، ١٨٦٦ م .

١٥ ـ الفيروزا بادي : القاموس المحيط ، طبع القاهرة ، ١٣٤٤ هـ

١٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، طبع أوروبا ، ١٨٧٦ م

١٧ ـ الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، طبع القاهرة ، ١٩٦١ م .

١٨ ـ ابن منظور : لسان العرب ، طبع القاهرة ، ١٣٠١ هـ .

١٩ ـ البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، طبع القاهرة ، ١٩٥٤م

٢٠ ـ المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر . طبع باريس ١٨٦١ م ؛ طبع القاهرة ١٢٨٣ هـ .

٢١ ـ الاصطخرى : المسالك والممالك . طبع القاهرة ، ١٩٦١ م

٢٢ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان . طبع ليبزج ، ١٨٦٦ م

٢٣ ـ أبو الفرج الأصبهانى : مقاتل الطالبيين . طبع القاهرة ، ١٩٤٩ م .

٢٤ ـ الشهرستانى : الملل والنحل ، طبع لندن ، ١٨٤٢ م.

٢٥ ـ ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، مخطوط. دار الكتب رقم ١٢٩٦ تاريخ .

٢٦ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، طبع القاهرة ، ٩٤٨ .

فهرس الموضوعات

مقدمة المحقق ٥

الباب السابع (*)

في اخبار من نهض في طلب الخلافة

من الطالبيين في مدة الدولتين

الأموية والعباسية

محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخوه إبراهيم ٧

ذكر حبس أولاد الحسن ١٧

ذكر حملهم إلى العراق ١٩

ذكر ظهور محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ٢٣

ذكر مسير عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله بن حسن وقتل محمد ٤٠

ذكر تسمية المشهورين ممن كان مع محمد بن عبد الله بن حسن ٥٠

ذكر ظهور إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد ٥٢

ذكر مسير إبراهيم ومقتله ٥٧

ذكر ظهور الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو المقتول بفخ ٦٦

(*) انظر نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٣٩١ تحقيق د. حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣

ذكر ظهور يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ٧١
ذكر ظهور محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو المعروف بابن طباطبا ... ٧٣
محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين بن على ٧٣
ذكر ظهور إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب وما كان من أمره ٧٤
ذكر ظهور يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب وهو المكنى بأبى الحسين... ... ... ٧٥
ذكر ظهور الحسين بن محمد ٧٨
ذكر خبر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ٧٩
ذكر ظهور على بن زيد العلوى بالكوفة وخروجه عنها ٨٠
ذكر أخبار الدولة العلوية بطبرستان ، الداعى إلى الحق الحسن بن زيد ٨١
ذكر ملك الحسن بن زيد جرجان ٨٥
ذكر وفاة الحسن بن زيد وشىء من أخباره وسيرته ٨٦
ذكر أخبار محمد بن زيد ٨٨
ذكر مقتل محمد بن زيد وشىء من أخباره ٩١
ذكر أخبار الناصر للحق ٩٣
الحسن بن القاسم الداعى العلوى ٩٧
ملك أسفار جرجان ١٠٠
ذكر ظهور أبى عبد الله محمد بن الحسين الحسنى المعروف بابن الداعى ١٠٢

الباب الثامن من القسم الخامس
من الفن الخامس
فى أخبار صاحب الزنج والقرامطة
والخوارج ببلاد الموصل .

ذكر أخبار صاحب الزنج وابتداء أمره وسبب خروجه ١٠٤
ذكر دخول الزنج الأبله ١١٥
ذكر أخذ الزنج الأهواز ١١٥
ذكر انهزام الزنج من سعيد الحاجب وغلبة الزنج ١١٦
ذكر انهزام الزنج بالأهواز ١١٧
ذكر أخذ الزنج البصرة وتخريبها ١١٨
ذكر مسير المولد لحرب صاحب الزنج وانتصار صاحب الزنج ... ١٢٠
ذكر الحرب بين منصور الخياط والزنج وقتل منصور ١٢٠
ذكر مسير أبى أحمد الموفق لقتال الزنج . وقتل مفلح ١٢١
ذكر مقتل يحيى بن محمد البحرانى ١٢٢
ذكر عود أبى أحمد الموفق إلى سر من رأى واستخلافه محمد المولد على حرب الزنج ١٢٤
ذكر دخول الزنج الأهواز ، ومسير موسى بن بغا لحربهم ١٢٥
ذكر انتداب أبى أحمد الموفق لحرب الزنج وما شغله عن ذلك واستعماله مسرورا البلخى على حربهم وما كان فى خلال ذلك من أخبارهم ... ١٢٨
ذكر دخول الزنج واسط وما تقدم ذلك من الحروب والوقائع ... ١٣٢
ذكر وقائع كانت بين الزنج وبين أحمد بن ليثويه وتكين البخارى واغرتميش فى سنة خمس وسنة ست وستين ومائتين .. . ١٣٥
ذكر دخول الزنج رامهرمز ١٣٨

ذكر مسير أبي العباس بن الموفق وهو المعتضد بالله إلى حرب الزنج وانتزاعه عامة ما كان بيد سليمان بن جامع والزنج من أعمال دجلة ١٤٠
ذكر مسير الموفق لقتال الزنج وفتح المنيعة ١٤٥
ذكر استيلاء أبي أحمد الموفق على طهيثا ١٤٧
ذكر مسير الموفق إلى الأهواز وإجلاء الزنج عنها ١٤٩
ذكر محاصرة مدينة صاحب الزنج وهي المدينة التي سماها المختارة... ١٥٢
ذكر عبور الموفق إلى مدينة صاحب الزنج وخروجه عنها وعوده إليها ١٥٧
ذكر إيقاع أبي العباس بن الموفق بالأعراب وانقطاع الميرة عن الزنج ، ومقتل بهبوذ بن عبد الوهاب ١٦٢
ذكر إحراق قصر صاحب الزنج ، وما يتصل بذلك من الحروب والوقائع ١٦٦
ذكر غرق نصير صاحب الشذا ١٦٩
ذكر احراق قنطرة صاحب الزنج ١٧٠
ذكر انتقال صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي وإحراق سوقه ... ١٧١
ذكر استيلاء الموفق على مدينة صاحب الزنج الغربية ١٧٤
ذكر استيلاء الموفق على مدينة صاحب الزنج الشرقية ١٧٨
ذكر مقتل صاحب الزنج ١٨٠
ذكر أخبار القرامطة وابتداء أمرهم ، وما كان من أخبارهم ، وما استولوا عليه من البلاد وغير ذلك من أخبارهم ١٨٧
ذكر ما فرضه قرمط على من دخل في دعوته ، واستجاب له وكيف نقلهم في استئصال أموالهم من اليسير إلى الكثير حتى استقام له أمرهم ١٩٣
ذكر دعوة القرامطة وعهدهم الذين كانوا يأخذونه على من يغرونه ويستميلونه إلى مذهبهم ، وكيف ينقلونه من مرتبة إلى أخرى ، حتى ينسلخ من الدين ويخلع ربقة الإسلام من عنقه ١٩٥

ذكر صفة الدعوة الثانية ٢٠٢
ذكر صفة الدعوة الثالثة ٢٠٣
ذكر صفة الدعوة الرابعة ٢٠٥
ذكر صفة الدعوة الخامسة ٢٠٧
ذكر صفة الدعوة السادسة ٢٠٩
ذكر صفة الدعوة السابعة ٢١٠
ذكر صفة الدعوة الثامنة ٢١١
ذكر صفة الدعوة التاسعة ٢١٣
ذكر العهد الذى يؤخذ على المخدوعين فى مبدأ الدعوة الخبيثة ... ٢١٧
ذكر ابتداء دعوة القرامطة ٢٢٧
ذكر انتقاض الدعوة عن حالتها الأولى ، ومقتل عبدان ، وما كان من أمر زكرويه بعده ٢٢٩
ذكر أخبار أبى سعيد الجنابى وظهوره بالبحرين ٢٣٣
ذكر استيلاء أبى سعيد الجنابى على هجر ، وما كان من خلال ذلك من حروبه ووقائعه ٢٣٥
ذكر الحرب بين القرامطة أصحاب أبى سعيد وأهل عمان ٢٣٨
ذكر الحرب بين القرامطة وعسكر المعتضد بالله وانتصار القرامطة ٢٣٩
ذكر مقتل أبى سعيد الجنابى ٢٤٣
ذكر أخبار أبى القاسم الصناديقى ببلاد اليمن ٢٤٥
ذكر ظهور القرامطة بالشام ، وما كان من أمرهم وحروبهم ٢٤٦
الحسن بن زكرويه بن مهرويه ٢٤٩
ذكر الحرب بين محمد بن سليمان وبين القرامطة وانهزام القرامطة ، والظفر بالحسن بن زكرويه صاحب الشام وأصحابه وقتلهم ... ٢٥١

ذكر خبر إرسال زكرويه بن مهرويه ، محمد بن عبد الله إلى الشام .
وما كان من أمره إلى أن قتل ٢٥٨
ذكر إرسال زكرويه بن مهرويه ، القاسم بن أحمد ودخوله الكوفة ،
وما كان من امره ٢٦١
ذكر ظهور زكرويه بن مهرويه وقتاله عساكر الخليفة وأخذه الحاج ،
وما كان من أمره إلى أن قتل ٢٦٥
ذكر أخبار من ظهر من القرامطة بعد مقتل زكرويه بن مهرويه ... ٢٧٥
ذكر أخبار أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ... ٢٧٦
ذكر أخذ أبي طاهر الحاج ، وأسره ابن حمدان وما كان من أمره في
إطلاقه ٢٧٩
ذكر دخول أبي طاهر القرمطي الكوفة ورجوعه ٢٨٥
ذكر دخول أبي طاهر القرمطي إلى العراق وقتل يوسف بن أبي الساج ٢٨٧
ذكر أخبار من ظهر من القرامطة بسواد العراق في أثناء وقائع أبي طاهر
الجنابي ٢٩٣
ذكر مسير أبي طاهر إلى مكة شرفها الله ونهبها وأخذ الحجر الأسود
وإعادته ، وما كان من أخباره في خلال ذلك ٢٩٦
ذكر وفاة أبي طاهر بن أبي سعيد الجنابي وأخيه وقيام أخويهما بعده ٣٠٣
ذكر إعادة القرامطة الحجر الأسود إلى الكعبة شرفها الله تعالى ... ٣٠٣
ذكر ملك القرامطة دمشق ومسيرهم إلى الديار المصرية ومحاصرة من بها
ورجوعهم عنها ٣٠٤
ذكر عود القرامطة إلى الشام ، ووفاة الحسن بن أحمد ٣١٤
ذكر استيلاء القرامطة على الكوفة وخروجهم عنها ٣١٦
ذكر ظفر الأصفر بالقرامطة ٣١٧
ذكر أخبار الخوارج ببلاد الموصل ، مساور ومن بعده ... ٣١٨

ذكر مقتل مساور بندارا الطبرى متولى طريق خراسان ٣١٩
ذكر استيلاء مساور على الموصل وخروجه منها ٣٢١
ذكر اختلاف الخوارج على مساور ، وانتصاره على من خالفه وقتاله عساكر الخليفة ٣٢٢
ذكر وفاة مساور وخبر من قام بعده إلى أن قام هارون البجلى ... ٣٢٤
ذكر محاربة محمد بن خرزاد هارون بن عبد الله ، وما كان من خبر ابن خرزاد ومقتله واستقلال هارون بالأمر بمفرده ٣٢٥
ذكر خروج محمد بن عباده على هارون وكلاهما خارجى ٣٢٦
ذكر انهزام هارون من عسكر الموصل ٣٢٨
ذكر مقتل هارون ٣٢٩

الباب التاسع من القسم الخامس
من الفن الخامس

فى اخبار من استقل بالملك والممالك بالبلاد الشرقية والشمالية فى خلال الدولة العباسية ، وهم ملوك خراسان وما وراء النهر والجبال وطبرستان وغزنه والغور وبلاد السند والهند والدولة السامانية والدولة الصفارية والغزنوية والغورية والدولة الديلمية الختلية .

ذكر أخبار الدولة السامانية ، وقيامها بما وراء النهر ونسب ملوكها وابتداء أمرهم ٣٣١
ذكر وفاة نصر وقيام أخيه إسماعيل ٣٣٤
ذكر ملك إسماعيل خراسان ٣٣٤
ذكر ملكه طبرستان ٣٣٦
ذكر القبض على محمد بن هارون ووفاته ٣٣٦
ذكر وفاة إسماعيل وولاية ابنه أحمد ٣٣٧
أبو النصر أحمد بن إسماعيل ٣٣٨

ذكر استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان ٣٣٩
مخالفة أهل سجستان على الأمير أحمد ٣٤٠
ذكر مقتل الأمير أحمد وولاية ابنه نصر ٣٤١
أبو الحسن نصر بن أحمد ٣٤١
ذكر خروج إسحاق بن أحمد وابنه إلياس ٣٤٢
ذكر مخالفة منصور بن إسحاق ٣٤٣
ذكر خروج إلياس بن إسحاق بن أسد ثانيا ٣٤٥
ذكر استيلاء السعيد على الرى ٣٤٦
ذكر مخالفة جعفر بن أبي جعفر بن أبي داود وعوده ٣٤٧
ذكر خروج أبي زكريا وأخويه ببخارى ٣٤٧
ذكر ولاية محمد بن المظفر خراسان ٣٤٩
ذكر وفاة الأمير السعيد نصر بن أحمد وشيء من سيرته ٣٥٠
نوح بن نصر بن أحمد بن اسماعيل بن أحمد ، وهو الخامس من الملوك
السامانية ٣٥٠
ذكر مخالفة أبي على بن محتاج على الأمير الحميد ٣٥٢
ذكر استعمال منصور بن قراتكين على خراسان ٣٥٥
ذكر عود أبي على إلى خراسان ٣٥٥
ذكر وفاة الأمير الحميد نوح بن نصر وولاية ابنه عبد الملك... ... ٣٥٦
ذكر ولاية عبد الملك بن نوح بن نصر بن أحمد بن اسماعيل بن
أحمد ، وهو السادس من الملوك السامانية ٣٥٦
ذكر ولاية منصور بن نوح بن نصر بن أحمد ، وهو السابع من الملوك
السامانية ٣٥٧
ذكر الصلح بين الأمير منصور وبين بني بويه ٣٥٨
ذكر وفاة الأمير منصور ٣٥٨

ذكر ولاية المنصور أبي القاسم نوح بن منصور بن نوح بن نصر بن أحمد
ابن إسماعيل بن أحمد ، وهو الثامن من الملوك السامانية ٣٥٩
ذكر ملك الترك بخارى وشيء من أخبارهم وخروج الأمير نوح منها
وعوده إليها ٣٦١
ذكر عود نوح إلى بخارى ، ووفاة بغراخان وقيام ايليك الخان ... ٣٦٣
ذكر ما كان من أخبار أبي على بن سيمجور وفايق واستعمال محمود بن
سبكتكين على خراسان ٣٦٤
ذكر وفاة الأمير نوح بن منصور ٣٦٦
ذكر ولاية أبي الحارث منصور بن نوح بن منصور بن نوح بن نصر
ابن أحمد بن إسماعيل بن أحمد ، وهو التاسع من الملوك السامانية ٣٦٧
ذكر القبض على الأمير منصور بن نوح وسمله ٣٦٨
ذكر ولاية عبد الملك بن نوح بن منصور ٣٦٨
ذكر انقراض الدولة السامانية ٣٦٨
ذكر ظهور إسماعيل بن نوح وما اتفق له بخراسان ٣٧٠
ذكر أخبار الدولة الصفارية وابتداء أمرها ٣٧٣
ذكر ملك يعقوب هراة وبوشنج ٣٧٤
ذكر استيلائه على كرمان ٣٧٤
ذكر ملكه فارس ٣٧٦
ذكر قصد يعقوب فارس وملكه بلخ وغيرها ٣٧٨
ذكر ملكه نيسابور ٣٧٨
ذكر دخوله طبرستان ٣٨٠
ذكر عود يعقوب إلى بلاد فارس والحرب بينه وبين محمد بن واصل ٣٨١
ذكر الحرب بين الموفق ويعقوب ٣٨٢

ذكر استيلاء يعقوب على الأهواز وغيرها ٣٨٤
ذكر وفاة يعقوب بن الليث وولاية أخيه عمرو ٣٨٥
ذكر ولاية عمرو بن الليث ٣٨٦
ذكر أسر عمرو بن الليث وقتله وانقراض الدولة الصفارية ... ٣٨٨
ذكر أخباره وشيء من سيرته ٣٨٨
ذكر أخبار أحمد بن عبد الله الخجستاني ٣٨٩
ذكر أخبار رافع بن هرثمة ٣٩٣
شجرة العلويين الذين جاءت أسماؤهم بهذا الجزء ٣٩٥
مراجع التحقيق ٣٩٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٣١٠٠

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٣٤٨ ـ ٩

مركز تحقيق التراث

نهاية الأرب
في
فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء السادس والعشرون

تحقيق
محمد فوزي العنتيل

مراجعة
الدكتور محمد طه الحاجري

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

اعتمدنا فى تحقيق هذا الجزء على مخطوطتين ، الأُولى : هى مخطوطة كوبريلى رقم ٥٤٩ معارف عامة وجعلناها هى الأَصل ، وقد رمزنا لها بالحرف ك ، والثانية : النسخة المعروفة بالتيمورية ، وهى ضمن مجموعة بها من ٢٣ – ٢٥ ، وتحمل رقم ٦٩٩ – تاريخ تيمور ، وقد رمزنا لها بالحرف ت .

وقد قابلنا الكتاب مقابلة كاملة على الكامل لابن الأَثير . أما المراجع التى اعتمدنا عليها بصفة عامة فهى :

١ – الكامل لابن الأَثير الجزري ج ٦ ، ج ٧ تحقيق وتعليق عبد الوهاب النجار – نشر دار الطباعة المنيرية بدمشق سنة ١٣٥٣ هـ .

(والأَجزاء ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ط. القاهرة سنة ١٣٠٣هـ) .

٢ – تاريخ أَبى الفدا (المختصر فى تاريخ البشر) ط. الحسينية سنة ١٣٢٥ هـ – لأَبى الفدا (عماد الدين بن إسماعيل) .

٣ – مرآة الزمان فى تاريخ الأَعيان (الجزء الثامن فى قسمين) : سبط ابن الجوزى . (يوسف بن قزاوغلى التركى) ط. ١ حيدر آباد – الهند سنة ١٩٥٢ م .

٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ابن تغرى بردي جـ ٥ ط. دار الكتب سنة ١٩٣٥ م ، جـ ٦ ط. دار الكتب سنة ١٩٣٦ م..

٥ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلى . الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ : نشر مكتبة القدسى سنة ١٣٥٠هـ .

٦ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : لتقى الدين أحمد بن على المقريزي ، تصحيح الدكتور محمد مصطفى زيادة . جـ ١ قسم ١ ط. دار الكتب سنة ١٩٣٤ م .

٧ - شرح اليمينى المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبى النصر العتبي . ط. المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٦ هـ .

٨ - تحقيق ما للهند من مقولة : لأبى الريحان البيرونى . ط. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد . سنة ١٩٥٨ م .

٩ - نهاية الأرب للنويري جـ ١ ، جـ ٨ . ط. دار الكتب .

١٠ - الفخري فى الاداب السلطانية والدول الإسلامية : محمد ابن على بن طباطبا . ط. القاهرة .

١١ - تاريخ البيهقى : لأبى الفضل البيهقى : ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، وصادق نشأت . ط. القاهرة سنة ١٩٥٦م .

١٢ - تاريخ الإسلام السياسى . . . « العصر العباسى الثاني » : الدكتور حسن إبراهيم حسن ، حـ ٣ . ط. القاهرة (الرابعة) سنة ١٩٥٨ م .

١٣ - وفيات الأعيان لابن خلكان .

١٤ – صبح الأعشى : للقلقشندي : جـ ٥ ، جـ ٦ ط. دار الكتب .

١٥ – يتيمة الدهر : للثعالبي .

١٦ – مطالع البدور فى منازل السرور : للغزولى (علاء الدين على ابن عبد الله البهائى)
ط. ١ – مطبعة إدارة الوطن – القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ .

١٧ – الأعلام : خير الدين الزركلى . الأجزاء من ١ – ١٠ الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٥٤– سنة ١٩٥٩ م .

١٨ – معجم البلدان : ياقوت الحموي : القاهرة سنة ١٩٠٦ م .

١٩ – أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : المقدسى
ط. ليدن سنة ١٩٠٩ م .

٢٠ – مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع : صفى الدين ابن عبد الحق البغدادي : تحقيق : على البجاوي .
ط الحلبى سنة ١٩٥٤ م .

ذكر أخبار الدولة الديلمية الجيلية (١)

هذه الدولة كانت ببلاد طَبَرِسْتان ، والرى ، وجرجان ، وقزوين ، وزَنجان (٢) وأَبهر ، وقم ، وأصفهان ، والكَرج (٣) ، وغير ذلك من البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وملوك هذه الدولة مسلمون ؛ وكان الذي دعاهم إلى الإسلام الحسن بن على الأطروش العلوي ، وهو من أصحاب محمد بن زيد ، فلما قتل محمد بن زيد سار الحسن إلى الديلم ، وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة ، ودعاهم إلى الإسلام ، واقتصر منهم على العشر ، وبنى فى بلادهم المساجد ، فأجابه منهم طائفة ، وخرج بهم إلى طبرستان ، وملكها ، وكان منهم ليلى بن النعمان ، وكان أحد قواده ، وتولى جرجان ، وقتل حمويه (٤) فى سنة ثمان

(١) الجيلية نسبة إلى الجيل ، وهم أهل جيلان ، وجيلان : اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان . مراصد الاطلاع جـ١ ص ٣٦٨ ، وانظر أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٣٥٥ . وفى الأصل (الخيلية) ، وكذلك وردت فى جميع المواضع ، وفى التيمورية (الخيلية) والديلمية نسبة إلى الديلم ، وهى تسمية جغرافية للصقع الجيلى من بلاد جيلان الواقعة فى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، والديلمية أيضا تسمية حبشية لهذا الصقع . هامش السلوك للمقريزى تحقيق الدكتور مصطفى زيادة جـ ١ ق ١ ص ٢٣ الأصل . عن الكامل لابن الأثير جـ٨ ص ٩٧ . وفى مراصد الاطلاع (الديلم : جيل سمى بأرضهم ، وهم فى جبال قرب جيلان) .

(٢) زنجان : بلد من نواحى الجبال على رأس الحد من أذربيجان . وأبهر : إحدى مدن الرى . أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٣٧٨ ، ص ٣٨٤ .
مراصد الاطلاع : لصفى الدين البغدادى ص ٦٧١ جـ٢ ، ص ٢١ جـ١

(٣) فى الأصل : الكرج . ناحية بالرى المرجع السابق .

(٤) فى الكامل لابن الأثير أن الذى قتل هو ليل ، وليس حمويه ، وقد جاء فيه مايلى «فى ذى الحجة سنة ٣٠٨هـ ورد ليل بن النعمان نيسابور ، وأقام بها الخطبة للداعى ، وأنفذ السعيد مقر السامانى من بخارى إليه حمويه بن على ، فالتقيا بطوس واقتتلا ، فانهزم أكثر أصحاب حموية حتى بلغوا مرو وبعث حموية وبعض أصحابه ، ومضى ليل بن النعمان منهزما لاقيض عليه ، وأنفذ حمويه من قطع رأسه ؛ وكان قتله فى ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ . الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ١٦٧ وقد بدا فى شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى جـ٢ ص ٢٦٩ ، حوادث سنة ٣١٥ «لبكر بن النعمان» .

وثلاثمائة ، ومنهم سرجاب[١] ، وهو مقدم جيش الحسن ، مات في سنة عشرة وثلاثمائة ، ومنهم ما كان بن كالى ، وكان من قواده أيضا ، واستخلفه على استراباذ[٢] ، فاجتمع عليه الديلم ، وقدموه عليهم ، فاستولى على جرجان ، وأخذها من بغرا نائب السعيد السامانى ، ولم يكن لهؤلاء الذين ذكرناهم كبير مملكة ، وإنما كانوا يستولون على بلد من البلاد ، ويقيمون بها مدة ، ثم يخرجون عنها ويستولون على غيرها .

أول من تقدم من الدَّيْلم ، وكثرت أتباعه ، وعلا إسمه ؛ واتسعت مملكته .

أسفار بن شيرويه الديلمى

ونحن نذكر حاله من ابتداء أمره ، وما آل إليه ، ومن ملك بعده من الديلم والجيل[٣] إلى حين انقراض دولتهم إن شاء الله تعالى ، فنقول :

كان أسفار هذا من أصحاب ما كان بن كالى الديلمى ، وكان سيىء الخلق والعشرة ، فكرهه « ماكان » ، وأخرجه من عسكره ، فالتحق ببكر بن محمد بن اليسع بنيسابور ، وأقام فى خدمته إلى أن قتل ابنُ الأَطروشْ الحسنَ بن كالى أخا ماكان بجرجان ، واستقل ابن الأَطروش بالأَمر ، وجعل مقدم جيشه على بن خرشيد ، فكتب إلى

(١) فى الكامل حـ٦ ص١٦٩ : هو سر خاب ابن و هو ذان ابن عم ما كان بن كالى الديلمى .

(٢) فى الأصل : أسراباذ .

وأستراباذ : إحدى مدن جرجان . أحسن التقاسيم ص ٣٥٣ ومابعدها ؛ وفى مراصد الاطلاع جـ١ ص ٧٠ .

وأستراباذ : بلدة مشهورة من أعمال طبرستان بين السارية وجرجان .

(٣) فى الأصل وفى ت : الخلل .

« أسفار » يستقدمه ، فاستأذن بكراً بن محمد ، وسار إلى جرجان ، واتفق مع على بن خرشيد ، وضبطا تلك الأعمال لابن الأطروش ، فسار إليهم ماكان بن كالى ، وقاتلهم ، فهزموه ، وأخرجوه عن طبرستان ، وملكوها ، وأقاموا بها ، ثم اتفقت وفاة ابن الأطروش ، وعلى بن خرشيد ، فاستقل أسفار بالأمر ، وانفرد به ، فجاءه ماكان ابن كالى ، وهزمه ، وأخرجه عن البلاد ، فرجع إلى بكر بن محمد ابن اليسع بجرجان ، فأقام بها إلى أن توفى بكر ، فتولاها أسفار من قبل السعيد نصر بن أحمد السامانى فى سنة خمس عشرة وثلاثمائة ، وأرسل أسفار إلى مرداويج بن زيار الجيلى[1] يستدعيه إليه ، فجاءه وجعله أسفار أمير جيشه ، وأحسن إليه ، وقصدا طبرستان واستولوا عليها . وكان ماكان بن كالى مع الحسن بن القاسم الداعى العلوي بالريّ ، وقد استولى عليها ، وأخرج عنها نواب السعيد ، واستولى على قزوين ، وزنجان ، وأبهر ، وقم ، فسار نحو طبرستان ، والتقى هو وأسفار عند سارية[2] ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم معظم أصحاب الحسن ؛ قصدا للهزيمة لكراهتهم له ، فإنه كان يمنعهم من المظالم ، وشرب الخمر ، وارتكاب المحارم ، فكرهوه ، وكان أيضا قد قتل جماعة منهم ، فخذلوه فى هذه الحادثه ، فقتل الداعى ، واستولى أسفار على بلاد طبرستان ، والري ، وجرجان ، وقزوين ،

(١) فى الأصل : زياد الختل ، وما أثبتناه موافق لما فى (ت) ، وللكامل لابن الأثير الجزرى ج٦ ص ١٨٩ .

(٢) سارية : من مدن طبرستان . أحسن التقاسيم ص٣٥٣ وما بعدها ، مراصد الاطلاع ج٢ ص ٦٨٢ .

وزنجان، وأبهر، وقم، والكرج، ودعا بها لصاحب خراسان نصر بن أحمد، واستعمل هارون سندان، وهو أحد رؤساء الجيل[١] وخال مرداويج على آمل[٢]، وكان هارون يحتاج أن يخطب فيها لأبى جعفر العلوى، وخاف أسفار ناحية أبى جعفر أن يجدد له فتنة وحربا، فاستدعى هارون إليه، وأمره أن يتزوج من أعيان آمل، ويحضر عرسه أبو جعفر، وغيره من رؤساء العلويين، وأن يفعل ذلك فى يوم ذكره له، ففعل، ثم سار أسفار من سارية مُجدًّا لموافاة العرس، فوصل آمل فى يوم الموعد، وقد اجتمع العلويون عند هارون فهجم على الدار على حين غفلة، وقبض على أبى جعفر، وغيره من أعيان العلويين، وحملهم إلى بخارى، فاعتقلوا بها. ولما فرغ أسفار من ذلك سار إلى الرى وبها[٣] ماكان بن كالى، فأخذها منه، وسار ماكان إلى طبرستان، فأقام هناك. وأحب أسفار أن يستولى على «قلعة ألموت»، وهى قلعة على جبل عال شاهق فى حدود الديلم، وكانت لسياه جشم[٤]، ومعناه: الأسود العين لأنه كان على إحدى عينيه نقطة سوداء، فراسله أسفار، ومنّاه، فقدم عليه، فسأله أن يجعل عياله فى قلعة ألموت، وولاه قزوين، فأجابه إلى ذلك، ونقلهم إليها،

---

(١) من ت. وفى الأصل: رؤسائه الختل.

(٢) آمل: قصبة طبرستان. أحسن التقاسيم ص٣٥٣ وما بعدها، مراصد الاطلاع ج١ ص٦.

(٣) الزيادة: من ت.

(٤) فى الأصل: لساه حسم (كذا)، وفى ت. «لسياه جلسم»، وما أثبتناه موافق للكامل بن الأثير ج٦ ص١٩٦، وعبارته: وكانت «لسياه جسم بن مالك الديلمى»، وفى دائرة المعارف البستانى ج٤ ص ٣٢٢، وفى حديثه عن قلعة ألموت: فى سنة ٣١٦هـ قصد أسفار ابن شيرويه الديلمى والاستيلاء عليها، وكانت حينئذ لسياه جشم ابن مالك الديلمى.

ثم كان يرسل إليهم من يثق به من أصحابه ، فلما حصل له مها مائة رجل استدعاه من قزوين ، وقبض عليه وقتله ، وعظمت جيوش أسفار ، وطار اسمه ، فتجبر وعصى على الأمير السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر ، فسير الخليفة المقتدر هارون بن غريب إلى أسفار فى عسكر ، فالتقوا ، واقتتلوا نحو قزوين ، فانهزم هارون ، وقتل من أصحابه خلق كثير بباب قزوين ، وكان أهل قزوين قد ساعدوا هارون ، فحقد عليهم أسفار ، ثم سار الأمير نصر بن أحمد من بخاري ، وقصد حرب أسفار لخروجه عن طاعته وبلغ (١) نيسابور ، فجمع أسفار عسكره ، فأشار عليه وزيره مطرف (٢) ابن محمد بمراسلته ، والدخول فى طاعته ، وبذل المال له ، إن أجاب ، وإلا فالحرب بعد ذلك ، وكان فى عسكره جماعة من الأتراك أصحاب صاحب خراسان ، فخوفه الوزير منهم ، فرجع إلى رأيه ، وراسله ، فقبل صاحب خراسان ذلك منه ، وشرط عليه شروطا منها : حمل الأموال ، والطاعة ، وغير ذلك ، فشرع أسفار بعد تمام الصلح فى بسط الأموال على الرىّ وأعمالها ، وجعل على كل رجل ديناراً إلا أهل (٣) البلد ، والمحاربين ، فحصّل من ذلك مالا عظيما أرضى منه صاحب خراسان بالبعض ورجع عنه ، وعظم أمر أسفار ، وزاد تجبره ، وقصد

(١) وقصد نيسابور ت .

(٢) فى الأصل : مطربه ، وفى ت : مطرف بن محمد الجرجانى ، وأيضا الكامل ص١٩٦ ج٦ .

(٣) كذا بالأصل ، وهى مضطربه : وعبارة الكامل ص ١٩٦ ج٦ : قسط على الرى وأعمالها على كل رجل دينارا سواء أكان من أهل البلاد أم من المجتاز به ، فحصل له مال عظيم ... » وهو الأنسب .

قزوين لما فى نفسه من أهلها ، فأوقع بهم ، وأخذ أموالهم ، وقتل كثيرا منهم ، وسلط الديلم عليهم ، وسمع المؤذن يؤذن ، فأمر بالقائه من المنارة إلى الأرض ، فاستغاث الناس من شره وظلمه . وخرج أهل قزوين إلى الصحراء : والرجال ، والنساء ، والولدان يتضرعون إلى الله تعالى ، ويدعون عليه ، ويسألون الله تعالى كشف ما بهم ، فبلغه ذلك ، فضحك وسببهم استهزاء بهم ، فقابله الله تعالى فى الغد من نهار الدعاء عليه بما سنذكره .

ذكر مقتل أسفار بن شيرويه

كان سبب قتله أن مرداويج كان أكبر قواده ، وكان قد أرسله إلى سلار صاحب سميران[1] الطَّرْم يدعوه إلى طاعته ، فلما وصل إليه مرداويج تشاكيا ما الناس فيه من الجهد والبلاء ، فتعاقدا ، وتحالفا على قصده ، والتساعد على حربه ، وكان أسفار قد وصل إلى قزوين ، وهو ينتظر وصول مرداويج بكتابه ، فكتب مرداويج إلى جماعة من القواد يثق بهم يعرفهم ما اتفق هو وسلار عليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وكان الجند قد سئموا أسفار ، وسوء سيرته ، وظلمه ، وجوره ، وكان الوزير مطرف بن محمد ، ممن أجاب مرداويج ، ووافقه ، فسار مرداويج نحو أسفار ، فبلغه الخبر ، وأحس بالشر وثار الجند به ، فهرب فى جماعة من خاصته ، وذلك عقب حادثة أهل قزوين ، ودعائهم عليه .

(١) فى ت شميران الطرم ، وأيضاً فى الكامل ص ١٩٧ جـ٦ ، وسميران : قلعة حصينة على نهر جار بين جبال ولاية ثارم ، وطرم : ناحية كبيرة بالجبال المشرفة على قزوين . مراصد الإطلاع جـ٢ ص ٤٧٠ ، ص ٨٦٦ .

فورد الريّ ، وأراد أن يأخذ من مال من كان بها ، فمنعه نائبه المقيم بها ، ولم يعطه غير خمسة آلاف دينار ، فتركه ، وانصرف إلى خراسان وأقام بناحية بيهق . وأمّا مرداويج ، فإنه وصل إلى قزوين ، وسار منها إلى الرى ، وكتب إلى «ماكان بن كالى» ، وهو بطبرستان يستدعيه ليتساعدا على أسفار ، فسار «ماكان» إلى «أسفار» ، فسار أسفار إلى بست ، وركب المفازة نحو الرى ليقصد قلعة «ألموت» التى بها أهله وأمواله ، فانقطع عنه بعض أصحابه ، والتحق بمرداويج وأعلمه بخبره ، فخرج مرداويج من ساعته فى أثره وقدم بعض قواده بين يديه ، فلحقه القائد ، وقد نزل ليستريح ، فسلم عليه بالإمرة ، فقال له أسفار : لعلكم اتصل بكم خبرى ، وبعثت فى طلبى قال : نعم ، فضحك ، ثم سأل القائد عن قواده الذين خذلوه ، فأخبر أن مرداويج قتلهم ، فتهلل وجهه ، وقال كانت حياة هؤلاء غصة فى حلقى ، وقد طابت الآن نفسى ، فامض لما أمرت به ، وظن أنه أمر بقتله ، فقال ما أمرت فيك بسوء ، وحمله إلى مرداويج ، فقتله ، وانصرف إلى الريّ .

وقيل فى قتله : إنه لما قصد ألموت نزل فى دار [1] هناك ، واتفق أن مرداويج خرج إلى الصيد فرأى خيلا يسيرة ، فسيّر من يكشف خبرها ، فوجد رجل أسفار ، فقبض عليه ، وذبحه بيده ، وقيل : بل دخل أسفار إلى رحآ ، وقد نال منه الجوع ، فطلب من الطحّان ما يأكله ، فقدم إليه خبزا ولبنا ، فبينما هو يأكل وغلام له ليس معه

(١) فى ت : واد ، وكذلك فى الكامل ص ١٩٧ ج ٦ .

غيره ، إذ أقبل مرداويج إلى تلك الناحية فى طلبه ، فأشرف على الرحا فرأى أثر الخيل ، فوصل إلى الرحا ، وأخذه وقتله .[١]

ذكر ملك مرداويج

وهو الثانى من ملوك الدولة الديلمية الجيلية . كان ابتداء ملكه عند هرب أسفار ، ولما قتله عاد إلى قزوين ، وأحسن إلى أهلها ، ووعدهم الجميل ، وتمكن ملكه ، وتنقل فى البلاد ، وملكها مدينة بعد أخرى ، وولاية بعد ولاية ، فملك قزوين ، والرى ، وهمذان ، كِنْكَوِرْ ، والدينور ، وبروجرد ، وقم ، وقاجان ، وأصفهان ، وجَرباذْ[٢]قان ، وغيرها ، ثم أساء السيرة فى أهل أصفهان خاصة ، وأخذ الأموال ، وهتك المحارم ، وطغى وتجبر ، وعمل سريرا من ذهب يجلس عليه ، وسرراً من فضة يجلس عليها أكابر القواد ، وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفا بالبعد منه ، ولايخاطبه أحد غير الحجاب الذين رتبهم لذلك ، وخافه الناس خوفا عظيما .

ذكر ملك[٣] طبرستان وجرجان

قد ذكرنا أن مرداويج كان قد كاتب ماكان[٤] ، وطلب منه المعاضدة على أسفار وموافقة ماكان له ، فلما ملك مرداويج ،

---

(١) كان قتل أسفار فى سنة ٣٩٦ هـ .

(٢) جرباذقان : بلدة قريبة من همذان . مراصد الاطلاع ج ١ ص ٣٢٢ ، وفى الأصل جرباذاقان .

(٣) فى ت : ملكه .

(٤) فى ت : مكان بن كالى .

وقوى أمره طمع فى طبرستان ، وجرجان ، وكانتا مع ماكان ، فجمع عساكره ، وسار نحو طبرستان ، فاستظهر على ماكان ، واستولى على البلد ، ورتب فيها أبا القاسم بن باحين ، وهو اسفهسلار[1] عسكره ، وكان حازما شجاعا جيد الرأي ، ثم سار مرداويج نحو جرجان ، وكان بها من قبل ما كان شيرزيل[2] ابن سلار . وياغلى بن ترلى ، فهربا من مرداويج ، فملكها ، ورتب فيها سرجاب[3] نائبا عن أبى القاسم ، فاجتمع لأبى القاسم جرجان ، وطبرستان ، وعاد مرداويج إلى أصفهان ، وسار ماكان إلى الديلم ، واستنجد بأبى الفضل الثائر بها ، فأكرمه ، وسار معه إلى طبرستان ، فلقيهم نائب مرداويج ، وتحاربوا ، فانهزم ماكان والثائر ، فعاد الثائر إلى الديلم ، وقصد « ماكان » بنيسابور ، ودخل فى طاعة السعيد السامانى صاحب خراسان ، واستنجد به ، فأمده بأبى على محمد بن المظفر . واستمد نائب جرجان مرداويج ، فأمده بأكثر جيشه ، فالتقوا ، فانهزم أبو على وماكان ، وعاد إلى نيسابور ، وعاد ماكان إلى الدامغان ليملكها ، فمنعه نائب مرداويج بجرجان من ذلك ، فعاد إلى خراسان . وهذه الوقائع كلها ساقها ابن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل فى حوادث سنة ست عشرة وثلاثمائة ، وما أظنها فى هذه السنة خاصة ، بل فيها وفيما بعدها ، لكنه - والله أعلم - قصد أن يكون الخبر سياقة حتى لا ينقطع ، وهذا كان دأبه فى كثير من الوقائع . وهو حسن .

---

(١) اسفهلار : مقدم العسكر ، وهى مركبة من كلمتين أسفه (فارسية) بمعنى : المقدم ، وسلار : (تركية) بمعنى : العسكر صبح الأعشى ج ٦ ص ٨ .

(٢) ت : شيرزيك .

(٣) ت : وفى الأصل : سرحاب . وانظر رقم ١ ص ١٠ .

ذكر الحرب بين مرداويج وبين هارون بن غريب

قال : ولما استتب لمرداويج الأمر أتاه الديلم من كل ناحية لبذله ، وإحسانه إلى جنده ، فعظمت جيوشه ، وكثرت عساكره ، وكثر الخرج عليه ، فلم يكفه ما بيده ، ففرق نوابه فى النواحى المجاورة له ، وبعث إلى همذان ابن أخت له فى جيش كثيف ، وكان بها أبو عبد الله محمد بن خلف فى عسكر للخليفة ، فتحاربوا وأعان أهل همذان عسكر الخليفة ، فظفروا بالديلم ، وقتل ابن أخت مرداويج ، فسار إلى همذان ، فلما سمع أصحاب الخليفة بمسير مرداويج انهزموا ، وفارقوا همذان ، ونازلها مرداويج ، فتحصن أهلها منه ، فقاتلهم ، وظفر بهم ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وأحرق وسبى ، ثم رفع السيف وأمر (١) بنفيهم ، فأنفذ المقتدر هارون بن غريب فى عساكر كثيرة لمحاربته ، فالتقوا بنواحى همذان ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم هارون ، واستولى مرداويج على بلاد الجبل جميعها ، وما وراء همذان ، وسير قائدا من قواده يعرف بابن عجلان القزوينى إلى الدينور ، ففتحها بالسيف ، وقتل كثيرا من أهلها ، وبلغت عساكره ، إلى نواحى حلوان فغنمت وقتلت ، ونهبت ، وسبت ، وعادت إليه .

---

(١) فى الكامل لابن الأثير ص ٣١٤ ج ٦ : وأمن بنفيهم .

ذكر ملكه اصفهان

قال : ثم أنفذ مرداويج طائفة أخري إلى أصفهان ، فملكوها ، واستولوا عليها ، وبنواله فيها مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فسار مرداويج إليها ، ونزلها ، وهو فى أربعين ألفا ، وقيل خمسين ألفا ، وأرسل جمعا آخر إلى الأهواز ، فاستولوا عليها وعلى خوزستان ، وجبوا أموال تلك البلاد ، والنواحى ، فقسمها فى أصحابه ، وادخر منها ذخائر كثيرة ، ثم أرسل إلى المقتدر رسولا يقرر على نفسه مالاً على هذه البلاد ، ونزل للمقتدر عن همذان ، فأجابه إلى ذلك ، وقرر عليه مائتى ألف دينار في كل سنة .

ذكر وصول وشمكير الى اخيه مرداويج

قال : ولما استقرّ ملك مرداويج أرسل فى طلب (١) أخيه وشمكير ، وهو ببلاد جيلان يستدعيه . قال الجعد (٢) : أرسلنى إليه فجئته فإذا هو فى جماعة يزرعون الأرز ، فلما رأونى قصدونى وهم عرايا حفاة عليهم سراويلات ملّونة الخرق مرقعة ، فسلمت على وشمكير ، فأبلغته رسالة أخيه ، وأعلمته ما هو فيه ، وما حازه من الملك ، فضرط بفيه فى لحية أخيه ، وقال : إنه لبس السودا ، وخدم المسودة يعنى الخلفاء ، فمازلت أمنّيه وأطمعه حتى خرج معى . فلما بلغنا قزوين اجتهدت

(١) فى الأصل : طلبه .

(٢) فى ت : الجعدى ، وفى الكامل ص ٤٢٣ ج ٦ حوادث سنة ٣٢٠ : وكان الرسول ابن الجعد .

به حتى لبس السواد ، ورأيت من جهله أشياء أستحيي أن أذكرها . ثم أعطته السعادة ماكان في الغيب ، فجاء من أعرق الملوك بتدبير الممالك ، وسياسة الرعايا ، وكان وصوله إلى أخيه في سنة عشرين وثلاثمائة .

ذكر مقتل مرداويج

كان مقتله في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وسبب ذلك أنه كان كثير الإساءة إلى الأتراك ، وكان يقول : إن روح سليمان بن داود حلت فيه ، وإن الأتراك هم المردة والشياطين ، فإن أقهرهم[1] ، وإلا أفسدوا ، فثقلت وطأته عليهم ، فلما كان في ليلة الميلاد من هذه السنة ، أمر بأن يجمع الحطب من الجبال والنواحي ، وأن يجعل على جانبي الوادي المعروف بزندره[2] ، ويعمل مثله على الجبل المعروف « بكر ثم كوه » المشرف على أصفهان من أسفله إلى أعلاه بحيث إذا اشتعلت النيران يصير الجبل كله نارًا ، وعمل مثل ذلك بجميع الجبال والتلال التي هناك ، وجمع النفط ، ومن يلعب به ، وجمع له أكثر من ألفي غراب وحدأة ليجعل في أرجلها النفط ، وترسل لتطير في الهواء ، وأمر بعمل سماط عظيم كان فيه مائة فرس ، ومائتا رأس من البقر مشوية صحاحا ، وثلاثة آلاف رأس من الغنم شواء ، غير

---

(١) كذا في الأصل ، ولعلها : قهرهم .

(٢) في الكامل ج٦ ص٢٤٤ : زندروز ، ولعله منسوب إلى نهر «زندروز» . وهو نهر مشهور بأصفهان . صراصه ٦٧٢ - ٢ .

المطبوخ ومن الأوز والدجاج عشرة آلاف طائر ، وما يناسب ذلك من الحلوي ، وركب آخر النهار بغلمانه فطاف بالسماط ، ونظر إليه ، وإلى تلك الأحطاب ، فاستحقر الجميع لسعة البرية ، ولعن وغضب وعاد فدخل خركاه [1] ، وقام ، فلم يجسرُ أحدٌ أن يكلّمه ، واجتمع الأُمراء والقواد وغيرهم ، وكادت الفتنة تقوم لخوفهم منه ، فأتاه وزيره العميد ، وتلطف به ، وعرّفه ما الناسُ فيه ، فخرج ، وجلس على السّماط ، وأكل ثلاث لقم ، ونهب الناس الباقي ، ولم يجلس للشراب ، وعاد إلى مكانه ، وأقام ثلاثة أيام لا يظهر ، فلما كان في اليوم الرابع أمر بإسراج الخيل ليعود إلى منزله ، فاجتمع خلق كثير [وشغبت] [2] الدواب مع الغلمان ، وصهلت ، ولعبت ، فصار الغلمان يصيحون بها لتسكن ، فاجتمع من ذلك أصوات هائلة مختلفة منكرة . وكان مرداويج نائما ، فاستيقظ ، فسمع ذلك ، وسأل عنه ، فعرف صورة الحال ، فازداد غضبا ، وقال ما كفى من إخراق الحرمة ما فعلوه من نهب السماط . وما أرجفوا به حتى انتهى أمر هؤلاء الطلاب إلى هذا ، وسأل عن أصحاب الخيل ، فقيل : إنها للأتراك ، وقد نزلوا للخدمة ، فأمر أن تحط السروج عن الدواب ، وتوضع على ظهور أصحابها ، ويأخذون بإرسال الدواب إلى الاصطبلات ، ومن امتنع من ذلك ضربه الديلم ، ففعلوا ذلك ، فكانت صورة قبيحة أنفت منها نفوسهم . ثم ركب مع خاصته ، وهو يتوعد الأتراك حتى صار إلى داره بعد العشاء بعد أن ضرب جماعة من أكابر الأتراك ،

(١) الخركاه : القبة أو الخيمة . فارسية .
(٢) ت ، وفي الأصل : سعيت .

فاجتمعوا ، وقالوا ما وجه صبرنا على هذا الشيطان ، وتحالفوا على الفتك به ، واتفق دخوله الحمام ، وكان كورتكين يحرسه فى حمامه وخلواته ، فأمره فى ذلك اليوم أن لا يتبعه ، فتأخر مغضبا ، وكان هو الذى يجمع الحرس ، فلم يأمر الحرس باتباعه . وكان له خادم أسود يتولى خدمته بالحمام ، فاستمالوه ، فمال إليهم ، وهجم الأتراك على الحمام ، فقام أستاذ داره [1] ، وهو خادم ، ليمنعهم ، فضربه بعضهم بالسيف ، فقطع يده ، فصاح ، فعلم مرداويج ، فغلق باب الحمام ، وتربسه بسرير كان يجلس عليه إذا غسل رأسه ، فصعدوا السطح ، وكسروا الجامات [2] ، ورموه بالنشاب ، ثم كسروا باب الحمام ، ودخلوا عليه ، وقتلوه ، وكان الذى جمع الناس على قتله توزون ، وهو الذي صار أمير العساكر بالعراق ، وياروق [3] ، ومحمد ابن ينال الترجمان ، وبجكم [4] وهو الذى تولى إمرة العراق . قال : ولما قتلوه أعلموا أصحابهم ، فنهبوا قصره ، وهربوا . هذا ولم يعلم بهم الديلم ، فلما علموا ركبوا فى آثارهم ، فلم يلحقوا منهم إلا نفرا يسيراً ، فقتلوهم ، وعادوا ، واجتمع رؤساء الديلم والجيل ، وتشاوروا على من يقوم مقامه ، فاجتمعوا على طاعة أخيه وشمكير .

---

(١) فى ت: أستاذ داره . وفى صبح الأعشى الأستدار : لقب للذى يتولى قبض مال السلطان وصرفه . استد (فارسية) : الأختر .

دار : الممسك ، وربما يقال : إستادار ، أو أستاذ الدار . صبح الأعشى ج٥ ص ٤٥٧ ، وانظر السلوك للمقريزى .

(٢) ت ، وفى الأصل : الجمامات ، والجامات أيضا فى الكامل ج٦ ص ٢٤٥ .

(٣) فى ت : ياروق .

(٤) ت ، وفى الأصل بحكم ، وانظر الكامل ص ٢٤٥ ج٦ .

ذكر ملك وشمكير بن زيار

وهو الثالث من ملوك الدولة الديلمية الجيلية . قال : ولما قتل مرداويج كان وشمكير بالرى ، فحملوا تابوت مرداويج ، وساروا نحو الرى ، فخرج وشمكير ، ومن عنده من أصحابه ، وتلقوا التابوت مشاة حفاة على أربعة فراسخ ، وكان يوما مشهودا . واجتمع على وشمكير عساكر أخيه . قال : وكان ركن الدولة بن بويه فى جيش مرداويج رهينة عن أخيه عماد الدولة ، فإنه كان قد بذل من نفسه الطاعة لمرداويج ، ورهن عنده أخاه ، فلما قتل مرداويج بذل للموكلين به مالا ، فأطلقوه ، فهرب إلى أخيه عماد الدولة بفارس .

ذكر مافعله الأتراك بعد قتل مرداويج

قال : ولما قتلوه تفرقوا على فرقتين ، ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه بفارس ، وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم ، وهى أكثرها ، فجبوا الأموال ، وخراج الدينور وغيرها ، وصاروا إلى النهروان ، فكاتبوا الخليفة الراضى بالله فى المسير إلى بغداد ، فأذن لهم [1] ، فدخلوا ، فظن الحُجريّة أن ذلك حيلة عليهم ، فطلبوا رد الأتراك إلى بلد الجبل ، فأمرهم ابن مقلة بذلك ، وأطلق لهم مالا ، فلم يرضوا به ، وغضبوا فكاتبهم ابن رائق ، وهو بواسط ،

(١) ت . وهو موافق للكامل ص٢٤٦ ج٦ ، وفى الأصل زياد .

(٢) ت ، وفى الأصل الحجيرية ، وعبارة الكامل : « .. فأذن لهم فدخلوا بغداد ، فظن الحجرية أنها حيلة عليهم .. » ص ٢٤٦ ج٦ .

وله البصرة ، فاستدعاهم فمضوا إليه ، وقدم عليهم بجكم وأمره بمكاتبة الأتراك والديلم أصحاب مرداويج ، فكاتبهم ، فقدم منهم عدة ، فأحسن إليهم ، وأمره أن يكتب إلى الناس فى كتبه بجكم الرائقى ، وكان من أمر بجكم ما قدمناه فى أخبار الدولة العباسية .

وفى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة أرسل وشمكير جيشا كثيفا من الرى إلى أصفهان ، وبها ركن الدولة بن بويه ، فأزالوه عنها ، وخطبوا لوشمكير[1] ، وسار وشمكير إلى قلعة ألموت ، واستولى عليها ، ودامت أيام وشمكير إلى سنة سبع وخمسين .

ذكر وفاة وشمكير

كانت وفاته فى المحرم سنة سبع وخمسين وثلاثمائة . وذلك أنه ركب للصيد ، فعارضه خنزير قد رمى بحربة ، وهى ثابتة فيه ، فحمل الخنزير عليه ، وهو غافل ، فضرب الفرس الذى تحته فشبّ به ، فألقاه إلى الأرض ، فخرج الدم من أنفه وأذنيه ، فمات . وكانت مدة ملكه أربعا وثلاثين سنة تقريبا ، ولما مات قام بالأمر بعده ابنه بهشيتون[2] .

(١) فى ت : وخطبوا لوشمكير بها .
(٢) فى ت : بهسيتون ، وفى الكامل : بيستون .

ذكر ملك ظهير الدولة بهشيتون بن وشمكير

وهو الرابع من ملوك الدولة الديلمية الجيلية . ملك ماكان فى مملكة أبيه بعد وفاته ، وذلك فى المحرم سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، قال : ولما ملك صالح ركن الدولة بن بويه ، فأمده بالخيل ، والمال ، والرجال ، وكان وشمكير قد قصد [1] ركن الدولة ، وأتته العساكر من قبل الأمير منصور بن نوح السامانى ، وكتب إلى ركن الدولة يهدده [2] ويسبه فى كتابه ، ويقول : والله إن ظفرت بك لأفعلن ، ولأصنعن ، فلم يجسر الكاتب [أن] [3] يقرأه على ركن الدولة ، فقرأه هو ، وقال للكاتب اكتب إليه : أما تهددك ، فوالله لئن ظفرت بك لأعاملنك بضد ما كتبت ، ولأحسنن إليك ، ولأكرمنك ، فلما مات استقر الصلح بين ظهير الدولة ، وركن الدولة ، ودامت أيام بهشيتون إلى سنة ست وستين وثلاثمائة ، فتوفى بجرجان ، وكانت مدة ملكه تسع سنين وشهورا ، ولما مات ملك بعده أخوه .

ذكر ملك شمس المعالى قابوس بن وشمكير

وهو الخامس من ملوك الدولة الديلمية الجيلية . كان ملكه بعد وفاة أخيه بهشيتون فى سنة ست وستين وثلاثمائة ، وكان عند وفاته عند خاله بجبل شهريار ، وخلف بهشيتون ابنا صغيرا بطبرستان مع

---

(١) فى ت : قصد حرب ركن الدولة الكامل ص ٨٧ ج ٧ .

(٢) ت : يتهدده .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

جده لأمه ، فطمع جده أن يأخذ الملك ، فبادر إلى جرجان ، فرأى بها جماعة من القواد قد مالوا إلى قابوس ، فقبض عليهم ، وبلغ قابوس الخبر ، فسار إلى جرجان ، فلما قاربها خرج الجيش إليه ، واجتمعوا عليه ، وأطاعوه ، وملكوه ، فهرب من كان مع ابن بهشيتون ، وتركوه ، فأخذه عمه قابوس وكفله ، وجعله أسوة أولاده ، واستولى على جرجان ، وطبرستان ، ودام ملكه إلى أن خلع ، وقتل ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلع قابوس بن وشمكير وقتله وولاية ابنه ملك المعالى منوجهر

وفى سنة ثلاث وأربعمائة خُلع شمس المعالى قابوس بن وشمكير : فكانت مدة ملكه سبعا وثلاثين سنة ، وكان سبب خلعه أنه ـ مع ما كان فيه من الفضائل الجمّة ، وحسن السياسة ـ كان شديد المؤاخذة ، قليل العفو ، يقتل على الذنب اليسير ، فضجر أصحابه منه ، واستطالوا أيّامه ، وأجمعوا على خلعه ، والقبض عليه ، وكان حينئذ غائبا عن جُرجانَ ببعض قلاعه ، فلم يشعر إلا وقد أحاط العسكر به ، وانتهبوا أمواله ودوابّه ، وقصدوا استِنْزاله ، فمانع عن نفسه ، فرجعوا إلى جرجان ، واستولوا عليها وعصوا بها ، وبعثوا إلى ابنه منوجهر وهو بطَبرِستان يعرِّفونه الحال ، ويستدعونه ليولّوه أمرهم ، فسار عَجلاً خوفا من خروج الأمر عنه ، فالتقوا [1] ، واتفقوا

(١) انظر الكامل جـ٧ ص ٢٦٦ . حوادث سنة ٤٠٣ هـ .

على طاعته إن هو خلع أباه ، فأجابهم على كُرهٍ منه ، وكان شمسُ المعالى قد توجّه إلى بسطام [١] ، فقصدوه ، فلما وصل منوجهر إلى أبيه اجتمع به ، وخلا معه ، وعرفه ما هو فيه ، وعرض عليه أن يقاتل معه من خرج عليه ، ولو كان فيه ذهاب نفسه ، فرأى قابوس خلاف ذلك ، وسهل عليه الأمر حيث صار إلى ابنه ، وسلم له خاتم الملك ، وانتقل إلى قلعته : [جنَاشْك [٢]] ليتفرغ للعبادة ، وسار منوجهر إلى جرجان ، وضبط الملك ، وأخذ فى مداراة الذين خرجوا على أبيه ، فدخلوا عليه فى بعض الأيام وحسّنوا له قتل والده ، وخوفوه [٣] ، وصمموا على إعدامه ، وهو لا يجيبهم بكلمة ، ثم فارقوه وجاءوا إلى أبيه ، وقد دخل الطهارة ، وهو متخفف ، فأخذوا ما كان عليه من الكسوة ، وكان فصل الشتاء ، فصار يستغيث ويقول : أعطونى ، ولو جلّ دابة حتى مات من شدة البرد ، وجلس ولده منوجهر للعزاء .

وكان قابوس غزير الأدب ، وافر العلم ، له رسائل ، وشعر حسن . وكان عالما بالنجوم .

قال : ولما ملك منوجهر لقبه الخليفة القادر بالله ملك [٤] المعالى ، ثم راسل [٥] يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، ودخل فى طاعته ،

---

(١) بسطام : بلدة كبيرة بقومس . مراصد ١٩٦ ج١ .

(٢) فى الأصل : خنتاشك ، وفى الكامل ج٧ ص ٢٦١ : جناشك .. قلعة من قلاع جرجان . مراصد ص ٣٤٩ ج١ .

(٣) ت . وفى الأصل : وخرقوه .

(٤) فى الكامل ج٦ ص ٢٦٦ حوادث سنة ٤٠٣ هـ : « ملك المعالى » .

(٥) فى الأصل : أرسل ، وما أثبتناه موافق للكامل ج٧ ص ٢٦٦ .

وخطب له على سائر منابر بلاده ، وتزوج ابنته ، فقوى عضده به ، وشرع منوجهر فى التدبير على قَتَلَةِ أبيه ، فأبادهم بالقتل والتّشريد .

واستمرّ فى الملك إلى سنة عشرين وأربعمائة ، فتوفى فيها ، فكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة .

ولما مات ملك بعده ابنه .

ذكر ملك أنوشروان داره بن ملك المعالى منوجهر[1] ابن قابوس شمس المعالى

وهو السابع من ملوك الدولة الديلمية الجيلية ملك بعد وفاة أبيه منوجهر فى سنة عشرين وأربعمائة ، وقام بتدبير دولته أبو كاليجار القُوهى ، وتقدم على جيشه ، وتزوج بأُمه . ثم قبض عليه أنو شروان بعد ذلك بمساعدة أمه ، فلما قبض عليه طمع فيه السلطان طغرلبك السلجقى ، فسار إلى جرجان فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، ومعه مرداويج بن بسو ، ونازلها ، فلم يمانعه أهلها ، وفتح له أبوابها ، وقرر على أهلها مائة ألف دينار صلحاً ، وسلمّها إلى مرداويج ، وقرّر عليه[2] فى كل سنة خمسين ألف دينار عن جميع الأعمال ، ثم اصطلح أنو شروان ومرداويج ، وتزوج بأُم أنو شروان ، وضمن له أنو شروان فى كل سنة ثلاثين ألف دينار . وبقى أنوشروان يتصرف بأمر مرداويج لا يخالفه فى شىء ، وأقيمت الخطبة لطغرلبك .

---

(١) فى ت : ذكر ملك أنو شروان دارا بن ملك المعالى قابوس شمس المعالى بن وشمكير وهو السابع .

(٢) الزيادة : من ت ، وهو موافق لما ذكره المؤلف فى ص ٧١ ج ٢ . أخبار الدولة السلجوقية .

وانقرضت الدولة الديلمية الجيلية ، وكانت مدة هذه الدولة منذ ملك أسفار بن شيرويه . فى سنة ست عشرة وثلاثمائة ، وإلى أن استولى طغرلبك على جرجان فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، مائة سنة وثمان عشرة سنة تقريبا[١] ، وعدة من ملك منهم سبعة ملوك ، وهم : أسفار بن شيرويه ، ثم مرداويج بن زيار ، ثم وشمكير بن زيار ، ثم ظهير الدوله بهشيتون بن وشمكير ، ثم شمس المعالى قابوس ابن وشمكير ، ثم ملك المعالى منوجهر قابوس[٢] ، ثم ابنه أنوشروان دارا . وعليه انقرضت دولتهم . والله أعلم بالصواب .

ذكر أخبار الدولة الغزنويه

كان ابتداء هذه الدولة بغزنة فى سنة ست وستين وثلاثمائة ، ثم استولت على خراسان ، والغور[٣] ، والهند ، وغير ذلك ، وأول من قام منهم سبكتكين[٤] ، ونحن نذكر أخباره ، وابتداء أمره إلى أن ملك بعده من أولاده ، وأولادهم ، إلى حين انقراض دولتهم .

---

(١) فى ت : مائة سنة وثلاث عشرة تقريباً .

(٢) الزيادة : من ت .

(٣) الغور : فى الأصل الفوز جبال وولاية بين هراة وغزنة . وأكبر مافيها قلعة يقال لها : فيروزكوه ، فيها تسكن ملوكهم . مراصد ج٢ ص١٠٠٥ .

(٤) فى الأصل : التبكين ، والصواب ماجاء ..

ذكر اخبار ناصر الدولة سبكتكين وابتداء امره وماكان منه الى ان ملك

كان سبكتكين من غلمان أبى إسحاق بن [البتكين] (١) صاحب جيش غزنة للسامانية ، وكان مقدما عنده ، وعليه مدار أمره ، وقدم إلى بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أبى إسحاق ، فعرفه أربابُ تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأي ، وعاد معه إلى غزنة ، ثم لم يلبث أبو إسحاق أن توفي ، ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح المتقدم ، فأجمع أصحابه رأيهم على سبكتكين ، فقدموه عليهم ، وولّوه أمرهم ، وحلفوا له وأطاعوه ، فأحسن السيرة فيهم ، وساس أمورهم ، وجعل نفسه كأحدهم فى الحال والمال ، وكان يدخر من إقطاعه ما يعمل منه طعاما لهم فى كل أسبوع مرتين. فعظم شأنه ، وارتفع قدره ، وحسن ذكره ، وتعلقت الأطماع بالاستعانة به .

ذكر ولايته (٢) قصدار وبست

كان سبب ذلك أن طغان خان صاحب بست خرج عليه أمير يعرف ببابى تور (٣) ، فملك مدينة بست منه ، وأجلاه عنها بعد حرب شديدة ، فاستغاث بسبكتكين ، والتزم بمال يحمله إليه فى

(١) فى الكامل ج٧ ص ٨٦ حوادث سنة ٣٦٦هـ (التبكين) وهو موافق لأبى الفدا ص ١١٧ ج ٢ .

(٢) فى ت ، وفى الأصل : ولاية .

(٣) فى الأصل ، وت « ببابى بور » ، والتصويب عن الكامل ج٧ ص٨٦ .

كل سنة ، وطاعة يبذلها ، فسار معه ، ونزل على بست ، وقاتل الخارج على طغان قتالا شديدا ، وهزمه ، وتسلم طغان البلد ، فلما استقر فيه طالبه سبكتكين بما استقر عليه ، فأخذ يماطله ، فأغلظ له فى القول لكثرة مطله ، فحمل طغان الجهل على أن ضرب سبكتكين وحجز العسكر بينهما ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، فانهزم طغان ، واستولى سبكتكين على بست ، وسار طغان إلى قصدار — وكان [1] يتولاها أيضا — فعصى بها ، واستعصم ، وظن أن ذلك يمنعه من سبكتكين ، فسار إليه جريدة ، فلم يشعر إلا والخيل معه ، فأخذه من داره ثم منّ عليه ، وأطلقه ، ورده إلى ولايته ، وقرر عليه مالاً يحمله فى كل سنة .

ذكر غزوه الهند ، وماكان بينه وبينهم

قال : ولما فرغ سُبُكتكين من بُسْت وقُصْدار غزا الهند ، فافتتح قلاعا حصينة على شواهق الجبال ، وعاد سالما ظافرا ، فلما رأى جيبال ملكُ الهند ما دهاه منه حشد ، وجمع ، واستكثر من الفِيَلَة ، وسار حتى اتصل بولاية سُبُكتكين ، فسار سبكتكين من غزنه بعساكره ، وتبعه خلق كثير من المتطوعه ، والتقوا واقتتلوا أياما كثيرة ، وكانوا بالقرب من عقبة عورك ، فلما طال الأمر على ملك

(١) عبارة الكامل : « واستولى سبكتكين على بست ، ثم إنه سار إلى قصدار ، وكان متوليها قد عصى عليه ، لصعوبة مسالكها وحصانتها ، وظن أن ذلك يمنعه » . الكامل ج ٧ ص ٨٦ حوادث ٣٦٦ هـ .

الهند طلب الصلح ، وقرر على نفسه مالاً يؤديه لسبكتكين وخمسين فيلا وبلاداً يسلمها ، فعجل المال والفيلة ، وأعطى جماعة من أهله رهائن على البلاد ، وسيّر معه سبكتكين من يتسلّمها . فلما أبعد ملك الهند قبض على من معه من أصحاب سبكتكين ، وجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه ، فلما اتصل ذلك بسبكتكين جمع العساكر وسار نحوه ، وأخرب كلّ ما مرّ عليه من بلاد الهند ، وقصد لمغان [1] ، وهى أحصن بلادهم ، فافتتحها عنوة ، وهدم بيوت الأصنام ، وأقام فيها شعائر الإسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ، ويقتل أهلها ، فلما بلغ ما أراده عاد إلى غزنة ، فجمع جيبال ملك الهند العساكر [2] ، وسار فى مائة ألف مقاتل ، ولقيه سبكتكين ، وأمر أصحابه أن يتناوبو القتال مع الهنود ، ففعلوا ذلك حتى ضجر الهند من دوام القتال . وحملوا حملة واحدة ، واشتد القتال ، فانجلت [3] الحرب عن هزيمة الهنود ، وأخذهم بالسيف ، وأسر منهم خلق كثير ، وغُنم من أموالهم وأثقالهم ، ودوابهم ما لا يحصى كثرة ، فذلّ الهنود بعد هذه الوقعة . وأطاع سبكتكين الأفغانية والخَلج [4] ودخلوا تحت أمره وطاعته . فعظمت هيبته ، واتسعت مملكته .

---

(١) وفى الأصل لمعان . بالعين المهملة ، وفى المراصد وأحسن التقاسيم : لمغان . أولا مغان : من قرى غزنة ، وقيل : كورة بجبال غزنة ، مراصد جـ ٣ ص ١٢٠٨ وص ١١٩٤ .

(٢) الزيادة : من ت .

(٣) هكذا فى ت . وفى الأصل : فلما انجلت .

(٤) فى الأصل : الخلع ، والتصويب من : ت . الكامل جـ٧ ص ٨٧ . والخليج : صنف من الناس وقعوا فى قديم الزمان إلى الأرض التى هى بين الهند ونواحى سجستان فى ظهر الغور .

ذكر ملك محمود بن سبكتين خراسان

قال : وفى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة كانت ولاية محمود بن سبكتكين خراسان من قِبلِ الأمير نوح بن منصور السامانى عوضا عن أبى على بن سيمجور ، ولقّبه الأمير نوح سيف الدولة ، ولقّب سبكتكين ناصر الدولة ، وأقام محمود بنيسابور ، ثم كانت بينه وبين بن على ابن سيمجور وقعة فى سنة خمس وثمانين ، فانهزم محمود ، ثم جمع عساكره وعساكر أبيه ، فأخرجا بن سيمجور عنها فى بقية السنة ، واستقر ملك محمود بخراسان على ما قدمناه فى أخبار الدولة السامانية .

ذكر وفاة ناصر الدولة سبكتكين وولاية ولده اسماعيل

كانت وفاته رحمه الله فى شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائه ، وكان إذ ذاك ببلخ ، وقد جعلها مقر ملكه ، وابتنى بها دورا ومساكن ، فمرض وطال مرضه ، فارتاح إلى هواء غزنة ، فسار عن بلخ ، فمات فى طريقه ، ونقل إلى غزنة ، فدفن بها . وكانت مدة ملكه نحوا من عشرين سنة ، وكان عادلاً خَيِّراً ، كثير الجهاد ، حسنَ الاعتقاد ، فاضلاً عارفاً ، له نَظْم ونثر وخَطَب فى بعض الجُمَع ، وكان يقول بعد الدعاء للخليفة : « رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليِّى فى الدنيا والآخرة ، توفَّنى مسلماً ، وألحقنى بالصالحين »(١) .

ولما حضرته الوفاة عهد إلى ولده إسماعيل بالملك ، وكان أصغر

(١) سورة يوسف . الآية (١٠١) .

من أخيه محمود ، فبايعه الجند بعد وفاة أبيه ، وحلفوا له ، فأطلق لهم الأموال ، ثم استصغروه ، فاشتطّوا فى الطلب حتى فنيت الخزائن التى خلفها سبكتكين . ثم استولى محمود على الملك فكانت مدة ملك [1] [اسماعيل] [2] سبعة أشهر .

ذكر سلطنة يمين الدولة محمود بن سبكتكين

وهو الثالث من ملوكهم . وهو أول من تلقب بالسلطان ، ولم يتلقب بها أحد قبله .

قال : ولما بلغه خبر وفاة والده كان بنيسابور ، فجلس للعزاء ، ثم أرسل إلى أخيه إسماعيل يعزّيه ، ويعرفه أن أباه إنما عهد إليه بالملك لبعده عنه ، ويذكر له ما يتعيّن من تقديم الكبير ، وطلب منه الوفاق ، وإنفاذ ما يخصه من ميراث أبيه ، فلم يفعل . وتردّدت الرسائل بينهما ، فلم تستقر قاعدة ، فسار محمود عن نيسابور إلى هراة عازما على قصد غزنة ، واجتمع بعمه بغراجق ، فساعده على إسماعيل ، وسار إلى بُست ، وبها أخوه نصر ، فتبعه ، وأعانه ، وسار إلى غزنة ، وبلغ الخبر إسماعيل وهو ببلخ ، فسار عنها مُجِدًّا فسبق أخاه محمودًا إلى غزنه ، وكان الأمراء الذين مع إسماعيل قد كاتبوا أخاه محمودًا يستدعونه ، ووعدوه الانحياز إليه ، فجد [فى] [3] السير ، والتقى هو وإسماعيل بظاهر غزنه ، واقتتلا قتالا شديدًا ، فانهزم إسماعيل ، واعتصم بقلعة غزنه ، فحصره

(١) الزيادة : من ت .
(٢) فى الأصل : محمود ، والتصويب من الكامل ج٧ ص ١٨٠ حوادث سنة ٣٨٧ هـ .
(٣) زيادة يقتضيها السياق .

أخوه محمود ، واستنزله منها بأمان ، فلما نزل إليه أكرمه ، وأحسن إليه ، وشاركه في ملكه ، وعاد إلى بلخ ، واستقامت له الممالك ، وعظم شأنه ، وأطاعته العساكر .

ذكر استيلاء يمين الدولة محمود على خراسان وانتزاعها من السامانية

كان سبب ذلك أن فايقا وبكتوزون مدبرى دولة الأمير منصور ابن نوح قبضا عليه ، وسملاه كما قدمنا ذكر ذلك فى أخبار السامانية ، فسار السلطان محمود نحوهما ، والتقوا بمرو فى جمادى الأولى (١) سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، واقتتلوا قتالاً شديدا ، فانهزم السامانية ، فلحق عبد الملك ، وفايق ببخارى ، وقصد بكتوزون نيسابور ، ثم قصد نواحى جُرجان ، فأرسل محمود خلفه أرسلان الجاذب ، فاتبعه حتى ألحقه بجرجان ، وعاد ، فاستخلفه محمود على طوس ، وسار إلى هراة ، فلما علم بكتوزون بمسير محمود عن نيسابور عاد إليها وملكها ، فقصده محمود ، فهرب منه إلى بخارى بعد أن نهب مرو على طريقه ، واستقر ملك محمود بخراسان ، وزال ملك السامانية منها ، وخطب بها للقادر بالله ، وكان يخطب بها إلى هذا التاريخ للطائع بعد خلعه ، وولى محمود قيادة جيوش خراسان أخاه نصرا ، وجعله بنيسابور ، وسار هو إلى بلخ ، وهى مستقر ملك أبيه ، واتخذها دار مُلْك ،

(١) فى ت : فى آخر جمادى الأولى .

واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته كآل قريغون [١] أصحاب الجَوْزَجَان . وكالشار الساه [٢] صاحب غَرْشِسْتان [٣] ، والشار : لقب لمن ملك غَرْشسْتان ككسرى الفرس ، وقيصر الروم . وفى سنة تسعين وثلاثمائة قتل بغراجق عم يمين الدولة ؛ قتله طاهر بن خلف بن أحمد صاحب سجستان فى حرب بينهما ، فسار يمين الدولة نحو خلف بن أحمد أبو طاهر ، فتحصن منه بحصن أصهنه [٤] ، فحاصره ، وضيق عليه ، فبذل [٥] الأموال ، فأجابه إلى ما طلب ، وأخذ رهائنه على ما تقرر من المال . والله أعلم بالصواب .

ذكر غزوة الهند

وفى المحرم سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة أحب يمين الدولة أن يغزو الهند ويجعل ذلك كفارةً لقتاله مع المسلمين ، فسار [٦] ونزل على مدينة بُرشَوَر [٧] ، والتقى هو وجيبال ملك الهند ، واقتتلوا إلى نصف

(١) فى ت : كالقريمون ، وما أثبتناه عن الأصل كما فى الكامل جـ٧ ص ١٩٦ حوادث سنة ٣٩٠ هـ : وفى تاريخ العتبى «شرح اليمينى على تاريخ العتبى» جـ٢ ص ١٠١ : آل قرينون كانت لهم ولاية الجوزجان .

(٢) كذا بالأصل ، وفى العينى جـ٢ ص ١٣٣ : ذكر الشارير .

(٣) فى الأصل : غزشيسان ، وفى مراصد الاطلاع جـ ٢ ص ٩٨٩ : غرشستان ولاية فى غربى هراه .

(٤) فى ت : أصبهند ، وقد جاء فى كتاب تحقيق ما للهند من مقولة ص ٤٧١ للبيرونى : أصبهند كابل . ولعلها هى .

(٥) فى ت : فبذل له الأموال .

(٦) الزيادة : من ت

(٧) فى الأصل : برسور ، والتصويب من ت ، وفى تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٦٥ : برشاور .

النهار ، فانهزم الهند ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر ملكهم جيبال وجماعة كثيرة من أهله وعشيرته ، وغنم المسلمون أموالهم وجواهرهم ، وأخذ من عنق جيبال قلادة من الجوهر قومت بمائتى ألف دينار ، وأخذ أمثالها من أعناق مقدميه [1] الأسرى ، وغنم المسلمون خمسمائة ألف من الرقيق ، وفتح كثيراً من بلاد الهند ، ثم أحب أن يطلق جيبالا ليراه الهنود فى شعار الذل ، فأطلقه على مال قرره عليه ، فأدى جيبال المال ، ومن عادة الهنود أنه من حصل منهم فى أيدى المسلمين أسيراً لم يُعقد له بعدها رئاسة ، فلما رأى جيبال حاله بعد خلاصه حلق رأسه ، وألقى نفسه فى النار ، فاحترق .

ثم سار محمود نحو ويهند [2] ، فحاصرها ، وأخذها عنوة ، ثم بلغه أن طائفة من الهند اجتمعوا فى شعاب تلك الجبال ، فجهز إليهم من عساكره من قتلهم ، فلم يسلم منهم إلا الشريد ، وعاد إلى غزنة مؤيدا منصورا سالماً ظافرا .

ذكر ملكه سجستان

وفى سنة تسعين وثلاثمائة [3] ملك يمين الدولة سجستان ، وانتزعها من خلف ابن أحمد ؛ وكان سبب ذلك أن يمين الدولة لما رحل عن خلف بعد مصالحته على المال كما قدمناه عَهِدَ خلف لولده طاهر ، وسلم إليه مملكته ، وانقطع للاشتغال بالعلم ، وإنما فعل ذلك ليظهر ليمين الدولة

(١) فى الكامل ج ٧ ص ٢٦٤ حوادث سنة ٣٩٢ مقدمى الأسرى .
(٢) قصبة القندهار على غرب نهر السند . البيرونى - تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٦٥ .
(٣) فى ت : ستة ثلاث وتسعين وثلاثمائة .

تخلّية عن الملك لينقطع طمعهُ عن بلاده ، فعفّه والاُه ، واستقلّ بالملك ، فأخذ أبوه يلاطفه ، وادعى المرض ، فزاره ابنه طاهر ، فقبض عليه ، وسجنه إلى أن مات فى سجنه ، فتغير العسكر لذلك ، وكاتبوا يمين الدولة فى تسليم سجستان إليه ، فجهّز من تسلمها ، وقصد خلفاً ، وهو فى حصن الطاق[1] ، وهذا الحصن له سبعة أسوار محكمة يحيط بها خندق عريض لا يعبر إليها إلا من جسر منه ، فرفع الجسر فأمر يمين الدولة بطم الخندق بالأخشاب والتراب ، فطموا منه ما يعبرون عليه إلى السور ، وتقدم الفيل الكبير إلى باب السور واقتلعه بنابيه ، وملك سوراً بعد سور ، فطلب خلف الأمانَ ، فأمنه وحضر إليه ، فأكرمه ، وملك الحصن ، وخير خلفاً فى المقام حيث شاء ، فاختار أرض الجوزجان ، فسيره إليها مكرما ، فأقام نحو أربع سنين ، ثم بلغ يمين الدولة أنه كاتب [إيلك خان] [2] ملك ما وراء النهر يحثه على قصد يمين الدولة ، فنقله إلى جردين ، فكان بها إلى أن مات فى شهر رجب سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، فسلم محمود جميع ما خلفه إلى ولده أبى حفص ، وكان خلف هذا من العلماء ، وله كتاب صنفه فى تفسير القرآن العظيم من أكبر كتب التفاسير . قال : ولما ملك يمين الدولة سجستان استخلف عليها أميراً كبيراً من أمرائه يسمى قنجى الحاجب ، ثم أقطعها لأخيه نصر بن سبكتكين مضافة إلى نيسابور . والله أعلم .

---

(١) حصن الطاق : حصن بطبرستان فى جبل كان خزانة لملك الفرس . مراصد ج٢ ص ٨٧٦

(٢) فى الأصل : أيليك الخان ، وما أثبتناه نقلا من تاريخ البيهقى ، وتاريخ أبى الفدا ، وقد ورد فيهما أكثر من مرة .

ذكر غزوة بهاطية ، وملكها

وفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة غزا يمين الدولة بهاطيه من أعمال الهند ، وهى وراء [المولتان] (١)، وصاحبها بجراء(٢) . وهى مدينة حصينة عالية السور يحيطها خندق عميق ، فامتنع صاحبها ، ثم ظهر ، فقاتل ثلاثة أيام ، وانهزم فى اليوم الرابع ، وقصد المدينة ، فسبقه المسلمون إلى بابها ، وملكوها ، فهرب بخاصته إلى رءوس الجبال ، فجهز إليه يمين الدولة من يقاتله ، فلما رأى الغلبة قتل نفسه بخنجر ، وأقام يمين الدولة ببهاطية حتى أصلح أحوالها ، وعاد عنها بعد أن ترك بها من يثق به ، ومن يُعلِّم من أسلم شرائع الإسلام ، ولقى فى عوده شدة كثيرة (٣) من كثرة الأمطار ، وزيادة الأنهار ، وغرق من عسكره خلق كثير .

ذكر غزوة المولتان

وفى سنة ست وتسعين وثلاثمائة بلغ يمين الدّولة أن أبا الفتوح والى المولتان خَبُث اعتقاده ، ونُسب إلى الإلحاد ، وأنه دعا أهلَ ولايته إلى ذلك ، فأجابوه ، فرأى أن يغزوه ، فسار نحوه ، فرأى الأنهار

---

(١) فى الأصل المولیان ، والمولتان أدملتان : بلد من بلاد الهند على سمت غزنة . مراصد ج٣ ص ١٣٣٦ . وانظر الكامل ج٧ ص ٢٢٩ حوادث سنة ٣٩٥ هـ .

(٢) فى الكامل : بجيرا ، وفى العتبى ج٢ ص ٦٧ : بجهرا .

(٣) فى ت : شدة كبيرة

التى فى طريقه كثيرة الزيادة لاسيما (سيحون) فأرسل إلى آنَندبال[١] عظيم الهند يطلب إذنه فى العبور ببلاده إلى المولتان ، فلم يجب إلى ذلك ، فابتدأ محمود به ، وجاس خلال بلاده ، وأكثر فيها النهب والقتل والإحراق ، ففر آنندبال بين يديه ، وتبعه إلى أن وصل إلى قشمير ، فلما سمع أبو الفتوح بمقدم يمين الدولة علم العجز عنه ، فنقل أمواله إلى سرنديب ، وأخلى المولتان ، فوصل يمين الدولة إليها ، وملكها عنوة ، وألزم أهلها شرين ألف[٢] درهم عقوبة لعصيانهم

ذكر غزوة كواكير [٣]

قال : ثم سار إلى قلعة كواكير ، وكان صاحبها يعرف ببيدا ؛ وكان بها ستمائة صنم فاقتحمها ، وحرق الأصنام ، فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة « بكالنجار [٤] »، فسار خلفه إليها ، وهى حصن عظيم يسع خمسمائة ألف إنسان ، وفيه خمسمائة فيل ، وعشرون ألف دابة ؛ وفيه من الأقوات ما يكفى الجميع مدة ، فلما صار منه على سبعة فراسخ رأى من الغياض[٥] ما يمنعه عن سلوك الطريق ، فأمر بقطعها ،

---

(١) فى الأصل : إيذيال ، وفى ت : وقد وردت بعد ذلك على الصورة التى أثبتناها ، وكما جاءت أندبال فى البيرونى ص ١٠٥ : « آنندبال بن جيبال » .

(٢) عشرين ألف ألف درهم . هامش الكامل ص ٢٨٨ جـ٧ حوادث سنة ٣٩٦ هـ نقلا عن العتبى .

(٣) الذى فى البيرونى ص ١٦١ : قلعة كوالير .

(٤) فهرب منه إلى مدينة كاليجار فى صبح الأعشى للقلقشندى جـ٥ ص ٨٨ ، وفى البيرونى ص ١٦١ : كالنجر ، وقد ذكر أن قلعة : كوالير وكالنجر تقعان مابين كنوج وججاهوتى .

(٥) ت : فى الأصل : الغياط .

فقطعت ، ورأى في الطريق واديا عظيم العمق بعيد القعر ، فأمر أن يطم[١] بالجلود المملوءة بالتراب فطموه ، ووصلوا القلعة ، فحاصرها ثلاثة وأربعين يوما ، فراسله صاحبها فى الصلح، فامتنع عليه ، ثم بلغه عن خراسان اختلاف بسبب قصد [إيلك خان][٢] ، فصالحه على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مَنّ من الفضة ، ولبس خلعة يمين الدولة بعد أن استعفى من شد المنطقة ، فلم يعفه ، وشدها ، وقطع خنصره ، وأنفذها ليمين الدولة ، توثقة فيما يعتقدونه على عادة الهنود ، وعاد يمين الدولة إلى خراسان .

ذكر عبور عسكر ايلك خان الى خراسان

كان يمين الدولة لما ملك خراسان من السامانية ، وملك إيلك خان ما وراء النهر منهم تراسلا ، وتوافقا ، وتزوج يمين الدولة ابنة [إيلك خان] وانعقدت بينهما مصاهرة ومصالحة ، فلم تزل السعاة حتى أفسدوا ذات بينهما ، وكتم [إيلك خان] ما فى نفسه ، فلما سار يمينُ الدولة إلى المولتان اغتنم [إيلك خان] غيبته عن البلاد ، فسيّر سباشى تكين صاحب جيشه إلى خراسان ، وذلك في سنة ست وتسعين وثلاثمائة في معظم جنده ، وجهز أخاه جعفر تكين إلى بلخ فى عدة من الأُمراء ، وكان يمين الدولة قد جعل بهراة أميراً من أمرائه يقال له أرسلان: الجاذب ،

---

(١) عبارة الكامل ج٧ ص٢٨٨ حوادث سنة ٣٩٦هـ : ... فأمر أن يضم منه مقدار مايسع عشرين فارسا ، فطموه بالجلود المملوءة ترابا .

(٢) فى الأصل : إيليك الخان ، وفى الكامل : إيلك الخان ، وانظر ما مر فى ص ٣٨ : وقد رأينا توحيدها فى جميع الكتاب .

وأمره إذا ظهر[١] عليه مخالف ينحاز إلى غزنة ، فلما عبر سباشى تكين إلى خراسان سار أرسلان إلى غزنة ، وملك سباشى هراه ، وأرسل إلى نيسابور من استولى عليها ، فوصلت الأخبار يمين الدولة وهو بالهند ، فعاد لا يلوى على شىء ، فلما قارب غزنة فرق الأموال فى عساكره ، وقواهم ، واستنفر الأتراك الخَلَجيه ، فجاءه منهم خلق كثير ، فسار بهم إلى نحو بلخ ، وبها جعفر تكين أخو [إيلك خان] ، فعبر إلى ترمذوونزل نحو « مرو » ليعبر النهر ، فقاتله [التركمان][٢] ، فهزمهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم سار نحو [أَبِيوَرْد][٣] ، فتبعه عسكر يمين الدولة ، فوصل إلى جرجان ، فأخرج عنها ، ثم عاد إلى خراسان ، فعارضة يمين الدولة ، فمنعه من قصده وأسرا[٤] أخو سباشى تكين ، وجماعة من قواده ، ونجا هو فى بعض أصحابه ، فعبر النهر ، وانهزم من كان ببلخ مع جعفر تكين[٥] ، وتسلم يمين الدولة خراسان .

---

(١) من ت . أمره أنه إذا ظهر .

(٢) فى الأصل : التركان .

(٣) فى الأصل: أيبور ، وإيبورد : مدينة بخراسان بين سرخس ونسا . مراصد ج١ ص٢٢.

(٤) فى ت : وأسر أخوا سباشى تكين .

(٥) ت ، وفى الأصل : من جعفر تكين .

ذكر انهزام ايلك خان من يمين الدولة

قال : ولما أخرج يمين (١) الدولة عساكر [إيلك خان] من خراسان راسل [إيلك خان] (٢) قدرخان ابن بغراخان ملك الخُتَن (٣) لقرابة بينهما ، واستعان به ، فاستنفر الترك من أقاصى بلادها ، وسار نحو خراسان ، واجتمع هو [وإيلك خان] فعبروا النهر ، واتصل خبرهم بيمين الدولة ، وهو بطخارستان ، فسبقهما إلى بلخ ، واستعد للحرب ، وجمع الترك الغزية والخلج والهند والأفغانية والغزنوية (٤) ، وخرج عن بلخ ، فعسكر على فرسخين منها (٥) بمكان فسيح ، وقدم [إيلك خان] ، وقدر خان في عساكرهما ، ونزلوا بإزائه ، واقتتلوا يومهم ذلك إلى الليل ، فلما كان الغد برز بعضهم لبعض ، فاقتتلوا ، فاعتزل يمين الدولة على نشر مرتفع ينظر إلى الحرب ، ونزل عن دابته ، وعفرّ وجهه على الصعيد تواضعا لله تعالى ، وسأل النصر والظفر ، ثم حمل [بفيلته] (٦) على قلب عسكر [إيلك خان] ، فأزاله عن مكانه ، ووقعت الهزيمة ، وتبعهم

---

(١) ت ، وفى الأصل : خرج .

(٢) الزيادة من هامش الأصل ، ومن ت أيضا ، موافقة للكامل جـ٧ ص ٣٢١ ، أما قدرخان فهو فى الأصل قدز خان ، وما أثبتناه نقلا عن البيهقى الذى ذكره فى عدة مواضع ، وأيضاً أبى الفدا والكامل .

(٣) ختن : بلد وولاية من بلاد تركستان : مراصد جـ١ ص ١٥٢ ، وستجىء فى صفحة ٥٤ من هذا الجزء .

(٤) ت ، وفى الأصل : والإيفانية . والمزتونية .

(٥) فى هامش العتبى : تعسكر على أربعة فراسخ من بلخ بموضع يسمى قنطرة «جر خيان» .

(٦) ت ، وفى الأصل بيقلته .

أصحاب يمين الدولة يقتلون [١] ، ويأسرون ، ويغنمون ، إلى أن عبروا النهر . وأكثر الشعراء القول فى تهنئة يمين الدولة بهذا الفتح ، وذلك فى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة .

ذكر غزوه الهند وعوده

قال : ولما فرغ يمين الدولة من حرب الترك بلغه أن بعض أولاد ملوك الهند واسمه نَواسد[٢] شاه ، وكان قد أسلم على يد يمين الدولة ، واستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم ارتد عن الإسلام ، وعاد إلى الكفر ، فسار إليه مجدا ، فحين بلغ الهندى قربه فرّ من بين يديه ، واستعاد يمين الدولة البلاد ، واستخلف عليها بعض أصحابه ، وعاد إلى غزنة فى السنة المذكورة .

ذكر غزوة بهيم نغز [٣] وماغنمه من الأموال وغيرها

وفى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة استعد يمين الدولة لغزو الهند وسار فى شهر ربيع الآخر من السنة ، فانتهى إلى شاطىء [نهرويهند] [٤] ، فلاقاه هناك ابرهمن نال بن آنندپال [٥] فى جيوش الهند ، فاقتتلوا مليا من النهار ، وكادت الهند تظفر بالمسلمين ، ثم كان الظفر للمسلمين ،

---

(١) فى ت : تقبلون وينهبون ويأسرون إلخ ...

(٢) فى الكامل جـ٧ ص ٢٣٢ : نواسه شاه .

(٣) فى ت : بهم . وفى تاريخ العتبى جـ٢ ص ٩٤ : «وذكر فتح قلعة بهيم نغر ، وبهيم هذه قلعة كانت بنغر ، فنسبت إليه»

(٤) ت ، وفى الأصل : نهر و هند و هو خطأ ، وانظر رقم (٢) ص ٣٧ من هذا الكتاب .

(٥) فى الأصل : أنديال . وانظر رقم (١) ص ٤٠ من هذا الكتاب .

فانهزم الهند على أعقابهم ، وأخذهم السيف ، وتبع يمين الدولة الملك حتى بلغ بهيم نغر ، وهى على جبل عال كان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم ، فينقلون إليها أنواع الذخائر قرنا بعد قرن ، وهم يرون ذلك تقربا لآلهتهم وعبادة ، فقاتلهم عليها ، وحصرها ، ووالى الحصار ، فلما رأى الهنود كثرة جموعه ، وشدة قتاله جبنوا ، وطلبوا الأمان ، وفتحوا باب الحصن ، فملكه المسلمون ، فصعد يمين الدولة إليه فى خواص أصحابه وثقاته ، فأخذ من الجواهر ما لا يحدّ ، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ، ومن الأوانى الذهب والفضة سبعمائة ألف وأربعمائة منّ . وكان فى الحصن بيت مملوء من الفضة طوله ثلاثون ذراعا وعرضه خمسة عشر ذراعا ، فأخذ جميع (١) ما فيه إلى غير ذلك من الأمتعة ، وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم ، ففرش الجواهر في صحن داره ، وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك ، فشاهدوا ما لم يسمعوا بمثله .

وفى سنة أربعمائه . غزا (٢) يمين الدولة الهند وأحرقها ، واستباحها ، ونكس أصنامها ، فلما رأى ملك الهند أنه لا قوة له به راسله في الصلح والهدنة على مال يؤديه إليه وخمسين فيلا ، وأن يكون له فى خدمة يمين الدولة ألفا فارس لا يزالون ، فقبض ذلك منه ، وصالحه ، وعاد إلى غزنه .

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) انظر الكامل ج٧ ص ٢٣١

ذكر غزوة بلاد الغور واستيلائه عليها

وبلاد الغور تجاور غزنه ، وهى جبال منيعة ، ومضايق ، وكان أهلها قد كثر فسادهم ، وتعديهم يقطعون الطريق ويخيفون السبيل ، فأنف يمين الدولة من ذلك ، فسار إليهم فى سنة إحدى وأربعمائة ، وقاتلهم أشد قتال ، ثم سار إلى عظيم الغورية المعروف بابن سُورَى وهو بمدينة آهنكران ، فبرز من المدينة فى عشرة آلاف مقاتل ، فقاتلهم إلى أن انتصف النهار ، فأمر يمين الدولة أن ينهزم المسلمون ، فانهزموا وتبعهم ابن سُورَى حتى أبعدوا عن المدينة ، ثم عطف المسلمون على الغوريه ، ووضعوا فيهم السيف ، وملك المدينة ، وأسر بن سُورَى ، فشرب سمًّا كان معه ، فمات ، وأظهر يمين الدولة شعائر الإسلام فى بلاد الغور ، وجعل عندهم من يعلمهم شعائر الإسلام وشرائعهم . ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار ، فقطع مفازة رمل ، ولحق عساكره عطش عظيم حتى كادوا يهلكون بسببه ، فأرسل الله تعالى عليهم مطرا سقاهم ، وسهل عليهم سلوك الرمل ، فوصلوا إلى الكفار ومعهم ستمائة فيل ، فقاتلهم أشد قتال كان الظفر فيه للمسلمين ، وانهزم الكفار ، وأخذ غنائمهم وعاد سالما .

ذكر ملك قصدار

وفى سنة اثنتين وأربعمائة ملك يمين الدولة قُصدار . وسببُ ذلك أن ملكها كان قد صالحه على قطيعة [١] فى كل سنة يؤديها إلى يمين الدولة ، ثم قطعها اغترارا بحصانة بلده ، وكثرة المضايق فى الطريق إليه ، واحتمى [بإيلك خان] ، وكان يمينُ الدولة إذا قصد المسير إليه رجع عن ذلك إبقاء لمودة [إيلك خان] ، فلما فسد ما بينهما سار إليها فى جمادى الأول من السنة ، فسبق خبره ، فلم يشعر صاحبها إلا وعسكر يمين الدولة قد أحاط به ليلا ، فطلب الأمان ، فأجابه إليه ، وأخذ منه ما كان قد اجتمع عنده من المال ، وأقره على ولايته وعاد . وفى سنة ثلاث وأربعمائة كانت وفاة [إيلك خان] ، وولاية أخيه طغان خان ، وكان قد تجهز للعود إلى خراسان لقتال يمين الدولة . فلما مات طغان خان راسل يمين الدولة ، وتصالحا ، واتفقا أن كلا منهما يستقل [٢] بغزو من يليه من الكفار ، فكان يمين الدولة يقاتل الهند ، وطغان خان يقاتل الكفار .

ذكر فتح ناردين

[وفى] [٣] سنة أربع وأربعمائة سار يمين الدولة إلى الهند، فسار شهرين حتى قارب مقصده ، فسمع عظيم الهند به فجمع ، وبرز إلى جبل صعب

(١) فى ت : قطعية .
(٢) فى ت : يشتغل .
(٣) زيادة تقتضيها العبارة .

المرتقى ، فاحتمى به ، وطاول [١] المسلمين ، وكتب إلى الهنود ، فاجتمع إليه كل من حمل السلاح ، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل والتقوا ، واقتتلوا ، واشتد القتال ، فهزمهم المسلمون ، وأكثروا فيهم القتل ، وغنموا ما معهم من مال وفيلة وسلاح . ولما عاد إلى غزنة أرسل إلى القادر بالله يطلب منه منشورا وعهداً بولاية خراسان وما بيده من الممالك ، فكتب له ولقب نظام الدين [٢] .

ذكر غزوة تانيشر [٣]

قال : وذُكِر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فيلة من جنس فيلة الصليمان الموصوفة فى الحرب ، وأن صاحبها غال فى الكفر ، فعزم على غزوه ، فسار فى سنة خمس وأربعمائة ، فلقى فى طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك ، وقفارا فسيحة الأطراف قليلة المياه ، فقاسى شدة ، ومشقة عظيمة ، فلما قارب المقصد لقى نهراً شديد الجرية صعب المخاضة ، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التى كان يُدِلُّ بها ، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر ، ففعلوا ذلك ، وشغل الهنود بالقتال عن حفظ النهر ، فما كان إلا وقد عبر سائر العسكر ،

---

(١) ت ، وفى الأصل : طال

(٢) ت ، وهو موافق لما فى الكامل ص ٢٧١ ج٧ ، وفى الأصل : نظام الملك .

(٣) ذكرها البيرونى ، وقال : إنها بلد تقع فيما بين النهرين (جون وكفك) . تحقيق ما للهند من مقولة البيرونى فى ص ١٥٨ ، وفى العتبى ج٢ ص ١٥٣ : تانيسر .

وقاتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار . فانهزم الهنود ، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والفيلة ، وعاد إلى غزنة .

ذكر قتل خوارزم شاه وملك يمين الدولة خوارزم

وفى سنة سبع وأربعمائة قُتِل خوارزم شاه أبو العباس [مأمون] (١) بن مأمون . وسبب ذلك أنه كان قد ملك خوارزم الجرجانية (٢) ، وحضر عند يمين الدولة ، وتزوج أخته ، ثم بعث إليه يمين الدولة أن يخطب له على منابر بلاده ، فأجابه إلى ذلك ، واستشار أمراءه ، فغضبوا من ذلك ، وامتنعوا منه ، وتهددوه بالقتل إن فعل ، فعاد الرسول إلى يمين الدولة ، وأخبره بما شاهده ، ثم خافه الأمراء فقتلوه غيلة ، ولم يعلم قاتله ، وأجلسوا أحد أولاده مكانه ، وتعاهدوا على قتال يمين الدولة إن قصدهم ، واتصل الخبر به ، فجمع العساكر ، وسار نحوهم والتقوا ، واشتدت الحرب ، فثبت الخوارزمية إلى نصف النهار ثم انهزموا ، فأخذهم السيف ، ولم يبق منهم إلا القليل . وجمع من أسر منهم وسيرهم إلى أطراف بلاده بالهند ، وملك يمين الدولة خوارزم ، واستناب بها حاجبه التونتاش (٣) .

---

(١) فى الأصل ما بان ، وما أثبتناه نقلا عن العتبى جـ٢ ص ٢٥١ ، والبيهقى ص ٧٣٤ .

(٢) فى الكامل حـ٧ ص ٢٨٢ : ملك خوارزم . والجرجانية : وفى مراصد الاطلاع جـ١ ص ٤٨٧ ، خوارزم ناحية كبيرة قصبتها الجرجانية .

(٣) موافق للعتبى جـ٢ ص ١٤٩ .

ذكر غزوة قشمير وقنوج [١] وغيرهما من الهند

وفى سنة سبع وأربعمائة أيضا بعد فراغ يمين الدولة من خوارزم سار إلى غزنة ، ثم منها إلى الهند عازما على غزو قشمير ، واجتمع له من المتطوعة من بلاد ما وراء النهر وغيره نحو عشرين ألف مقاتل ، وسار من غزنة إليها سيراً دائما فى ثلاثة أشهر ، وعبر نهر سيحون ، [وجيلم] [٢] ، وهما نهران عميقان شديدا الجرية ، ووطىء أرض الهند ، وأتته رسل ملوكها بالطاعة ، وبذل الأتاوة ، فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها [٣] وأسلم على يده ، وسار بين يديه إلى مقصده ، فبلغ [ماء جون] [٤] فى العشرين من شهر رجب ، وفتح ما حولها من الحصون المنيعة ، حتى بلغ حصن هوْدبْ ، [٥] وهو أحد ملوك الهند فنظر « هودب » من أعلى حصنه ، فرأى من العساكر ما هاله ، فعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام ، فنزل فى نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص ، فأقبل عليه يمين الدولة وأكرمه وسار عنه إلى قلعة كُلْجندْ [٦] ، وهو من أعيان الهند ، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة .

---

(١) ذكرها البيرونى فى ص ١٥٧ «كنوج» .

(٢) فى الأصل : حيلم ، وماذكرناه عن البيرونى .

(٣) صاحبها هو : جنكى بر سمهى . العتبى جـ٢ ص ٢٥١ .

(٤) فى الأصل : ماحون ، وفى الكامل جـ ٧ ص ٢٨٢ : «مارجون» وعبارة العتبى جـ٢ ص ٢٦٥ : «فاستظهر مارجون لعشر بقين من رجب سنة ٤٠٩ هـ» وجون» نهر ذكره البيرونى كما مر بهامش ص ٤٨ رقم (٣)

(٥) فى العتبى جـ٢ ٢٦٥ وص ٢٦٦ : قلعة برنة من ولاية هروب ، وهو أحد الرايين أعز الملوك بلغة الهند ، مفرده « راى »

(٦) ت ، وهو موافق للكامل جـ٧ ص ٢٨٣ ، وأيضا للعتبى جـ٧ ص ٢٦٧ . وفى الأصل كلنجد .

فسير كُلْجند عساكره وفيلته إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها ، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم ، وسلك طريقا مختصرا إلى الحصن ، فلم يشعروا به إلا وهو معهم ، فقاتلهم قتالا شديدا ، فانهزموا وأخذهم السيف من ورائهم ، ولقوا نهرا عميقا ، فاقتحموه ، فغرق أكثرهم ، فكان القتلى والغرقى قريبا من خمسين ألفا . وعمد كلجند إلى زوجته ، فقتلها ثم قتل نفسه . وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه . ثم سار نحو بيت متعبد لهم وهو «مهرة» (١) بالهند ، وهو من أحصن الأبنية على نهر ، ولهم فيه كثير من الأصنام من جملتها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجوهر زنتها ستمائة ألف وسبعون ألف وثلاثمائة مثقال ، وبه من الأصنام المصوغة من الفضة نحو مائتى صنم ، فأخذ يمين الدولة جميع ذلك ، وأحرق الباقى ، وسار نحو قَنَوَّج وصاحبها جيبال ، فوصل إليها فى شعبان ، فرأى صاحبها قد فارقها وعبر النهر المعروف بنهر الكَنْك . وهو نهر شريف معظم عندهم – وتقدّم خبره فى باب الأنهار – فأخذها يمين الدولة وسائر قلاعها وأعمالها وهى على النهر المذكور ، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت (٢) صنم يذكرون أنها عملت من مائتى ألف إلى ثلاثمائة ألف سنة كذبا منهم . ولما افتتحها أباحها عسكره . ثم سار إلى قلعة البراهمة ، فقاتلهم فثبتوا ، واستسلموا للقتل ، فقتلوا . ولم ينج منهم إلا القليل . ثم سار نحو قلعة آسى (٣) وصاحبها جنديك . فلما قاربها

(١) فى العتبى ص ٢٥٩ جـ٢ : فتح مهرة وقنوج .
(٢) الزيادة : من ت . وهو موافق للكامل ص ٢٨٣ جـ٧ .
(٣) فى العتبى جـ٢ ص ٢٨٠ قلعة بجندال بهور .

هرب صاحبها ، فأخذها يمين الدولة بما فيها ، ثم سار إلى قلعة شرْوَه[1] وصاحبها جنْدارى ، فلما قاربه نقل ماله وفيلته إلى جبال هناك منيعة ، فنازل يمين الدولة حصنه وافتتحه ، وغنم ما فيه وسار فى طلب جندارى جريدة ، فلحقه فى آخر شعبان فقاتله ، وقتل رجاله ، وأسر كثيرا منهم ، وغنم ما معه من مال وفيلة ، ونجا جذارى فى نفر يسير من أصحابه . ثم عاد يمين الدولة إلى غزنة ، فبنى بها الجامع الذى لم يسمع بمثله ، وأنفق ما غنم فى هذه الغزوة على بنائه . والله أعلم بالصواب .

ذكر أخبار الملوك الخانية بما وراء النهر والأتراك

وفى سنة ثمان وأربعمائة خرج الترك من الصين ، وسبب ذلك أن طغان خان مرض مرضا شديدا ، وطال به المرض ، فطمعوا فى البلاد ، وساروا من الصين فى عدد يزيد على ثلاثمائة ألف خركاه من أجناس الترك منهم الخِطا الذين ملكوا ما وراء النهر ، فساروا إلى أن قربوا من بلا ساغون[2] ، وبقى بينهم وبينها ثمانية أيام واستولوا على أطراف البلاد ، فسأل طغان خان الله تعالى أن يعافيه لينتقم منهم ، ويحمى البلاد ، ثم يفعل به ما يشاء . فعافاه الله تعالى ، فجمع العساكر واستنفر جميع بلاد الإسلام ، فاجتمع له من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألف مقاتل ، فلما بلغ الترك ذلك رجعوا ، فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر ، فأدركهم وهم آمنون ، فكبسهم ، وقتل منهم زيادة على مائتى ألف رجل

(١) موافق لما فى العتبى ج٢ ص ٢٨٢ .

(٢) بلاساغون : بلد عظيم فى ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر . مراصد الاطلاع ج١ ص ٢١٥ .

وأسر نحو مائة ألف ، وغنم من الدواب ، والخركاهات ، والأواني الذهبية والفضية ، ومعمول الصين ما لا عهد بمثله ، وعاد إلى بلا ساغون ، فعاوده المرض ، فمات رحمه الله تعالى . وكان عادلا خيرًا دينًا يحب العلم وأهله ، ويميل لأهل الدين ، ويصلهم ويقربهم .

ولما مات ملك بعده أخوه أبو المظفر أرسلان خان ، ولقبه شرف الدولة ، فحالف عليه قدر خان يوسف بن بغراخان هارون بن سليمان ، وكان ينوب عن طغان خان بسمرقند ، وكاتب يمين الدولة يستنجده على أرسلان ، فعقد يمين الدولة على نهر جيحون جسرا من السفن ، وضبطه بالسلاسل وعبر عليه ، ولم تكن تعرف الجسور قبل ذلك هناك ، فلما عبر النهر اتفق قدر خان وأرسلان خان وتعاقدا على قصد بلاد يمين الدولة واقتسامها ، فعاد يمين الدولة إلى بلاده ، وسار قدر خان وأرسلان خان[1] إلى بلخ والتقوا بيمين الدولة واقتتلوا قتالاً شديدا كان الظَفَر فيه ليمين الدولة عليهما ، فعادا وعبرا جيحون ، وكان من غرق منهم أكثر ممن نجا .

ذكر أخبار قدرخان وأولاده

كان قدرخان يوسف بن بغراخان هارون بن سليمان عادلاً حسن السيرة كثير الجهاد ، فمن فتوحه « خَتَن » ، وهى بلاد بين الصين وتركستان ، كثيرة العلماء والفضلاء واستمر إلى سنة

(١) الزيادة : من ت .

ثلاث وعشرين وأربعمائة ، فتوفي . وكان يديم الصلاة فى الجماعة . ولما توفي ملك أولاده بعده ، واقتسموا البلاد ، فملك أبو شجاع أرسلان خان ، ولقبه شرف الدولة ، كَاشْغَر ، وخُتَنَ[1] ، وبلاَساغُون . وخُطِب له على منابرها . قيل : ولم يشرب الخمر قطّ . وكان دَيِّناً مكرِماً للعلماء، وأهل الدين يقصدونه من كل جهة ، ويصلُهم ويحسن إليهم .

وملك بغراخان بن قدرخان طراز وأسبيجاب[2] فقصد أخاه أرسلان خان وحاربه ، وأسره وحبسه إلى أن مات . وملك بلاده ، ثم عهد بغراخان بن قدرخان بالملك لولدِه الأكبر واسمه حسين جغرتكين . وكان لبغراخان امرأة له منها ولدٌ صغير ، فغاظها ذلك فسمّت بغراخان ، فمات هو وعدّة من أهله . وخنقت أخاه أرسلان خان بن قدر خان ، وذلك فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، وقتلت وجوه أصحابه ، وملّكت ابنَها واسمه إبراهيم ، وسيرّته فى جيش إلى مدينة برْسُخان[3] ، وصاحبها ينالتكين، فظفر به ينالتكين وقتله ،

---

(١) كاشغر : «مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند... وهى فى وسط بلاد الترك ، وأهلها مسلمون». معجم البلدان ٧ : ٢٠٧ وختن : بلد وولاية دون كاشغر وراء بوزكند ، وهى معدودة من بلاد تركستان ، وهى فى وادبين جبال فى وسط جبال الترك معجم البلدان . حـ٣ ص ٤٠١ ، وكلتا المدينتين من المدن التى على حدود الصين ولسترنج .

(٢) طراز : بلد قريب من أسفيجاب ، من ثغور الترك مراصد الاطلاع جـ٢ ص ٨٨٢ أسفيجاب : أحسن التقاسيم ص ٢٦٢ ، وأسفيجاب بلدة كبيرة من أعيان بلاد ماوراء النهر فى حدود تركستان . مراصد الاطلاع جـ١ ص ٧٤ .

(٣) برسخان : وهى قرية من قرى بخارى. مراصد جـ١ ص ١٨٣ ، وهو موافق للكامل حـ٧ ص ٢٩٧ .

وانهزم عسكره إلى أمه . [واختلف] (١) أولاد بغراخان ، فقصدهم طفغاج خان .

ذكر ملك طفغاج خان وولده

هو أبو المظفر إبراهيم بن نصر بن [إيلك] ، ويلقب عماد الدولة ؛ كان بِيدِهِ سمرقند وفرغانه ، وكان أبوه زاهدا متعبداً ، وهو الذى ملك سمرقند ، وورثها طفغاجُ هذا منه ، وكان طفغاج متديِّناً لا يأخذ مالاً حتى يستغنىَ العلماء ، وورد عليه أبو شجاع العلَوى الواعظ . وكان من الزهّاد ، فوعظه ، وقال : إنّك لا تصلح للملك ، فأغلق طفغاج بابه ، وعزم على ترك الملك ، فاجتمع عليه أهل البلد ، وقالوا : قد أخطأ الواعظ ، والقيام بأمورنا متعيِّنٌ عليك ، ففتح بابه ، واستمر فى الملك إلى سنة ستّين وأربعمائة ، ففلج ، ثم مات . وكان في حياته قد جعل الملكَ فى ولده شمس الملك نصر . فقصده أخوه طغان خان بن طفغاج ، وحصره بسمرقند ، فاجتمع أهلها إلى شمس الملك ، وقالوا له : إن طغان خان قد خرب ضياعنا (٢) وأفسدها ، ولو كان غيره ساعدناك عليه . ونحن لا ندخل بينكما ، فوعدهم المناجزة ، وخرج من البلد نصف الليل فى خمسمائة غلام ، فكبس أخاه ، وهو غير متحفِّظ . فهزمه . وكان هذا وأبوهما باق ، ثم قصده هارون بن بغراخان بن قدرخان ، وطغرل قراخان . وكان طفغاج خان قد استولى

(١) واختلف وهو الأنسب ، وهو موافق للكامل الصفحة السابقة ، وفى الأصل : وأخلف

(٢) ت ، وفى الأصل : ضياعا .

على ممالكهما [١]، فقصدا سمر قند فلم يظفرا بشيء . فصالحا شمس الملك ، وعادا فصارت الأعمال المتاخمه لنهر جيحون لشمس الملك ، وأعمال الخافقة فى أيديهما ، والحد بينهما خُجَنْدَة [٢] . ثم مات شمس الملك ، فملك بعده أخوه خضر خان ، ثم مات ، فملك بعده ابنه أحمد خان ، وهو الذى قبض عليه السلطان ملكشاه السلجقى ، ثم أعاده إلى ولايته ، وأحمد هذا هو ابن أخى تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه . وكان أحمد خان قبيح الصورة والفعل كثير المصادرات ، فنفر الرعية منه ، وكاتبوا السلطان ملكشاه السلجقى ، واستغاثوا به [٣] ، وسألوه أن يقدم عليهم ليملك بلادهم ، فعبر ما وراء النهر فى سنة اثنين وثمانين وأربعمائة ، وملك بخارى . وما جاورها ، ثم سار إلى سمر قند ، فملكها ، وهرب أحمد خان ، واختفى فى بيوت بعض العامة ، فغمز عليه ، وحُمِل إلى السلطان ، وفى عنقه حبل ، فأكرمه السلطان . وأرسله إلى أصفهان ، واستولى ملكشاه على سمرقند وبخارى ، واستعمل عليها من قبله على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة السلجقية . ثم ملك محمود خان . وكان جدّه من ملوكهم . وكان أصمّ ، فقصده طغان خان صاحب طراز ، فقتله ، واستولى على الملك . واستناب بسمر قند أبا المعالى محمد بن محمد ابن زيد العلوى البغدادى ، فأقام ثلاث سنين وعصى على طغان خان .

---

(١) من الكامل ص ٢٩٧ جـ ٧ . وفى الأصل : ممالكها .

(٢) خجندة : بلدة مشهورة بما وراء النهر ، على شاطئ سيحون . مراصد الإطلاع جـ ١ ص ٤٥٣ . وفى الأصل : مجنده .

(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : واستعانوا به .

فحاصره، وقتله ،وقتل معه خلقا كثيرا ، ثم خرج طغان خان إلى ترمذ يريد خراسان ، فلقيه السلطان سنجر السلجقى ، فظفر به وقتله ، وصار له أعمال ما وراء النهر ، فاستناب بها محمد خان بن كمشتكين بن إبراهيم بن طفغاج خان ، فأخذها منه عمر خان ، وملك سمرقند ثم هرب من جنده ، وقصد خوارزم ، فظفر به السلطان سنجر ، وولى محمد خان سمرقند ، وولى محمد تكين بن طغان تكين بخارى . هؤلاء ملوك سمرقند وما والاها .

وأما كاشغر وهى مدينة تركستان ، فإنها كانت لأرسلان خان بن يوسف قدر خان ،ثم صارت بعده لمحمود [بغرا] (١)خان صاحب طراز [والشاش] خمسة عشر شهرا ،ثم مات ، فولى بعده طغرا خان بن يوسف واستولى على الملك ، وملك بلاساغون ، وكان ملكه ستة عشر سنة . ثم توفى ، وملك ابنه طغرل تكين فأقام شهرين ، ثم أتى هارون بغراخان أخو يوسف طغرل خان بن طفغاج [بغراخان](٢)، وعبر كاشغر ، وقبض على هارون ، وأطاعه عسكره ، وملك كاشغر وختن ، وما يتصل بها إلى بلاساغون ، وأقام فى الملك عشرين (٣) سنة ، وتوفى فى سنة ست وتسعين وأربعمائة ، فولى بعده (٤) ابنه أحمد أرسلان خان ، وراسل الخليفة المستظهر بالله يطلب منه الخلع والألقاب ، فأرسل إليه

(١) لمحمود بغراخان صاحب طراز والشاش الكامل جـ٧ ص ٢٩٨ . وفى ت : والشاس . والشاش : بلدة بما وراء النهر متاخمة لبلاد الترك ، وقصبتها : بنكث . مراصد الاطلاع جـ٢ ص ٧٧٤ ، وانظر أحسن التقاسيم ص ٢٦٤ .

(٢) فى الأصل : يوزاخان .

(٣) فى الكامل جـ٧ ص ٢٩٨ : تسعا وعشرين سنة .

(٤) ت ، وفى الأصل : بعهده .

ما طلب ولقبه نور الدولة ، ثم صار ملك ما وراء النهر لملوك الخطا، وانقرضت الدولة الخانية ، وإنما ذكرناها فى هذا الموضع لاتحادها وقربها من الدولة الغزنوية ، ولتكون أخبارهم متوالية .

نرجع إلى أخبار يمين الدولة محمود بن سبكتكين .

ذكر غزوة الهند والأفغانية

وفى سنة تسع وأربعمائة جمع يمين الدولة من الجموع ما لم يجمع قبله مثله ، وسبب هذا الاهتمام أنه لما فتح قنوج ، وهرب صاحبها منها ويلقب [براى قنوج ،] وراى[1] لقب للملك ككسرى ، وقيصر ، فلما عاد إلى غزنة أرسل بيدا عظيم ملوك الهند وقسم مملكته كَجُوراهة [2] رسلا إلى راى قنوج واسمه راجيبال يوبخه على هربه ، وتسليم بلاده للمسلمين ، وطال الكلام بينهما ، فآل ذلك إلى الحرب بينهما ؛ فقتل راجيبال وأكثر جنوده ، فازداد بيدا بذلك عظمة وعتوا ، وقصده بعض ملوك الهند الذين ملك يمين الدولة بلادهم ؛ وخدموه ؛ وصاروا فى جُملة جنده ، فوعدهم بإعادة ممالكهم إليهم ؛ فاتصل ذلك بيمين الدّولة ؛ فتجهّز للغَزْو ، وقصد بيدا . وسار من غَزْنة . وابتدأ بالأفغانية ، وهم كُفّار يسكنون الجبال ويفسِدون ، ويقطعون الطريق ، فخرّب بلادهم ، وأكثر فيهم القتل والأسر . ثم استقلّ فى السّير ؛

(١) فى الأصل : بابى قنوج ، و بأبى ....
وفى ت : ياى قنوج ، وفى الكامل جـ٧ ص ٣٠١ رآى قنوج ، وفى العتبى جـ٢ ص ٢٨٠ : رآى قنوج : أى ملكها بلغة الهند ، وقد مر فى رقم (١) بصفحة ٥٠ من هذا الكتاب .

(٢) كجوارهة : قصبة مملكة ججا هونى . عزبى كنك . البيرونى ص ١٦١ .

وبلغ فى الهند ما لم يبلغه غيره ، وعبر نهر الكُنْك ، فلما جاوزه وجد قافلةً تزيد على ألفِ جمل ، فغنمها وسار ، فأتاه خبرُ ملك من ملوك الهِند ، يقال له تروجنيال (١) ، أنه قد سار من بين يديه يريد بيدا ليحتمى به ، فلحِقَه فى رابع عشر شوال (٢) ، فاقتتلوا عامّة نهارهم ، فانهزم تروجنيال ومن معه ، وكثر فيهم القتل والأَسر ، وغنم المسلمون أموالهم وأهليهم ، وأخذوا منهم جواهراً كثيرة ، وما يزيد على مائتى فيل ، وخرج ملكهم ، وأرسل يطلب الأَمان ، فلم يؤمنه ، ولم يقع ، منه بغير الإسلام ، فسار ثم قتله بعض الهنود ، ولما بلغ ذلك ملوك الهند تابعوا رسلَهم إلى يمين الدّولة يبذُلون الطاعة والإتاوة ، وسار بعد الوقعة إلى بارى (٣) وهى من أحْصن البلاد ، فرآها قد خلَت من سكَانها ، فأَمر بهدمها ، وعشرة قلاع معها ، وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وسار يطلب « بيدا » ، فلحقه ، وقد نزل إلى جانب نهر ، وأجرى الماء بين يديه ، فصار وحلا ، وترك عن يمينه وشماله طريقا يبسا يقاتل فيه إذا أراد القتال ، وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وأربعين (٤) فيلا ، فأَرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال فأَخرج إليهم بيدا مثلهم ، ولم يزل كل عسكر يمُدُّ أصحابه حتى كثر الجمعان ، واشتدت الحرب ، ودام القتال حتى حجز بينهما الليل ، فلما كان الغد بكر يمينُ الدّولة

---

(١) بردجيبال . الكامل جـ٧ ص ٣٠١ .

(٢) فى ت : شعبان ، وأيضا فى الكامل جـ٧ ص ٣٠١ .

(٣) ت ، وفى الأصل : تارى . وبارى : فى شرق كَنك . البيرونى فى ص ١٥٨ .

(٤) فى ت : ستة وأربعين فيلا ، وفى الكامل جـ٧ ص ٣٠١ : سبعمائة وستة وأربعين فيلا .

للقتال ، فرآهم قد فارقوا موضعهم ، وانهزموا ، وركب كل فرقة منهم طريقاً ، ووجدوا خزائن الأموال والسلاح بحالها ، فغنم المسلمون جميع ذلك ، واقتفى آثار من انهزم ، فأكثر فيهم القتل والأسر ، ونجا بيدا وعاد يمينُ الدولة إلى غزنة .

ذكر فتح قلعة من بلاد الهند

وفى سنة أربع عشرة وأربعمائة أَوْ غَل يمينُ الدّولة فى بلاد الهند ، فغنم وقتل حتى وصل إلى قلعة فى رأس جبل منيع ليس يُصْعد إليه إلا من طريقٍ واحد ، وفيها خمسمائة فيل ، وغَلات كثيرة ، ومياه ، فحصرها يمين الدولة ، وداوم الحصار ، وضيّق عليهم ، وقتل منهم كثيراً ، فطلبوا الأمان ، فأمّنهم ، وأقرّ مِلكها فيها على خراجٍ يؤخذ منه ، وأهدي له هدايا كثيرة ، وقيل إن هذا الملك هو كابلى[1] ، وهو صاحبُ ألفِ فيل ، وكان فيما أهداه فيلة حوامل ومراضع ، وطائرٌ على هيئة القمرى جلبابه أدكن ، وعيناه ومنقاره حُمر ، وجناحاه مخططان بسواد ، ومن خاصيّته أنه إذا حضَر على رأس الخوان ، وكان فى الطعام سمٌّ دمعت عيناه ، وجرى منهما ماء ، ويتحجر فإذا أخذ ذلك الحجر ، وحُكّ وطُلى به الجراحاتُ الواسعة ألحمها ، وإن كان فى البدن نصل تعسّر إخراجه ، قوبل به ، فيجذبُه حتى يمكن إخراجُه ، فقبل هديّته ، وأقرّه على جِهته ، وعاد إلى غَزْنة مؤيّدا منصورا

(١) فى ت : طابل .

ذكر فتح سومنات (١)

وفى سنة ستّ عشرة وأربعمائة فتح يمين الدولة عدة حصون ومدن من بلاد الهند ، وأخذ الصنم المعروف بسُومنات ، وهو أعظم أصنام الهند ، وكانوا يحجّون إليه كلّ ليلة خسوف ، فيجتمع عنده ما ينوف على ألف (٢) إنسان ، وزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت (٣) إليه فينشئها فيما ينشأ ، وأن المدّ والجزر إنما هو عادة للبحر ويحملون إليه كلّ عِلق نفيس ، ويعطون سدنَته الأموالَ الجليلة ، وفيه من نفيس الجواهر ما لا تُحصى قيمتُه ؛ وبينه وبين نهر الكنك الذى تعظّمه الهنود نحو مائتى فرسخ يتحملون من ماء هذا النهر إلى سُومنات ماء يغسل به فى كل يوم ، وعنده من البراهمة ألف رجل لعبادته ، وتقديم الورّاد إليه ، وثلثمائة رجل تحلق رءوس زواره ولحاهم ، وخمسمائة رجل ، وخمسمائة امرأة يغنّون ، ويرقصون على باب الصنم ، ولكلٍّ منهم فى كلّ يوم شىء معلوم ، وكان لسُومنات من الضِّياع الموقوفة عليه ما يزيد على عشرة آلاف ضَيْعة . قال : وكان يمين الدولة كلّما فتح فتحا من بلاد الهند ، وكسر أصناما ، تقول الهنود : « إنا هذه الأصنام قد سخط عليها سُومنات . ولو أنّه راضٍ عنها لأهلك من تقصدها بسوء » ، فلما بلغ ذلك يمينَ الدولة عزم على غزوه ، وإهلاكه لعل الهنود إذا فقدوه ، ورأوا دعاواهم باطلة

(١) سومنات : «سوم» معناها : القمر « وفات» معناها : الصاحب ، البيرونى ص ٤٢٩ .

(٢) مائة ألف إنسان . الكامل حـ٧ ص ٣٢٠ .

(٣) فى ت : فيمن شاء ، وعبارة الكامل حـ٧ ص ٣٢٠ : . . . اجتمعت عليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء ، وأن المد والجزر الذى عنده إنما هو عبادة البحر على قدر استطاعته .

دخلوا فى دين الإسلام ؛ فاستخار الله تعالى ، وسار من غزنة فى عاشر شعبان من هذه السنة فى ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة ، وسلك طريق المُلتان فوصلَها فى منتصف شهر رمضان ، وفى طريقه إلى الهند قِفارٌ لا تُسلك ، لا ماء فيها ولا ميرة ، فحمل ما يحتاج إليه هو وعسكره ، وزاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل ، تحمل الماء والميره ، وقصد[1] أنْهِلْوارة ، فلما قطع المفازة رأى فى طريقها حصونا مشحونة بالرجال فيسَّر الله فتحها عليه ، وامتار منها ، وسار إلى أنهلوارة ، فوصلها فى مستهل ذى القعدة ، فهرب عنها صاحبُها المدعو نهيم ، وقصد حصناً له يحتمى به ، فاستولى يمين الدولة على المدينة وسار إلى سُومَنَات ، فلقى فى طريقه عدة حصون بها كثير من الأوثان تشبه الحجّاب والنقباء لسومنات ، فقاتل من بها ، وفتحها وخربّها وكسر أصنامها ، وسار[2] منها إلى مفازة قفر قليلة المياه ، فلقى فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لا يدينون للملك ، فهزمهم ، وغنم مالهم ، وامتار من عندهم ، وسار حتى بلغ دبو الواره[3] ، وهى على مرحلتين من سومنات ، وقد ثبت

---

(١) فى ت : أنهلواره ، وفى صفحة ٦٤ من هذا الجزء أنهلوارة أيضا . وعبارة الكامل حـ٧ ص ٣٢٠ : « . . . أنهلوارة ، فلما قطع المفازة رأى فى طرقها حصوناً » . وفى البيرونى ص ١٦٤ : أنهلوارة ، كما هو مثبت هنا .

(٢) فى الكامل ص ٣٢٠ حـ٧ : « وسار منها إلى سومنات فى مفازة قفر قليلة الماء » . وفى كتاب تقويم البلدان : « نهلوارة بالنون والهاء واللام والواو ثم ألف وراء مهملة وهاء ، ومنهم من ذكر الراء أولا وأخر اللام ، وفى كتاب ابن سعيد بتقديم الراء المهملة على اللام قال : « وهى قاعدة الجزرات الهندية » . وقال أبو الريحان : « ونهلوارة بتقدم اللام ، ونقله هنا أوثق من غيره » . وقال بعض المسافرين : نهرواله ، كما قال ابن سعيد ، ص ٣٥٦ – ٣٥٧ وعنه نقل صاحب صبح الأعشى ٥ : ٧٠ .

(٣) دبولواره : وهى على مرحلتين من سومنات وقد ثبت أهلها ظناً منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها وسار عنها إلى سومنات =

أهلها ظنا منهم أن سومنات (١) يمنعهم ، ويدفع عنهم ، فاستولى عليها ، وقتل رجالها ، وغنم أموالها ، وسار عنها ، فوصل إلى سومنات فى يوم الخميس منتصف ذى القعدة ، فرأى حصنا حصينا على ساحل البحر تبلغه أمواجه ، وأهله على الأسوار ينظرون المسلمين ، فلما كان الغد ، وهو يوم الجمعة زحف ، وقاتل حتى قارب السور ، فصعده المسلمون . هذا والهنود تتقدم إلى سومنات ، وتمرّغ وجوهها فى الأرض وتسأله النصر ، واستمر القتال إلى الليل ، ثم بكر المسلمون إليهم ، وقاتلوهم ، فأكثروا فى الهنود ، وأزاحوهم عن المدينة ، فالتجئوا إلى بيت صنمهم ، فقاتلوا على بابه أشد قتال ، فكان الفريق منهم بعد الفريق يفرون إلى الصنم ، فيستغيثون به ، ويبكون ، ويتضرعون إليه ، ويخرجون ، فيقاتلون إلى أن يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم ويبقى منهم شرذمة دخلوا البحر فى مركبين لهم ، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضهم ، وغرق بعضهم .

وأما البيت الذى فيه سومنات ، فإنه مبنى على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص ، وسومنات حجر طوله خمسة أذرع ، ثلاثة مدوّرة ظاهرة ، وذراعان فى البناء ، وليس هو بصورة مصوّرة ، فكسره يمين الدولة ، وأحرق بعضه ، وأخذ بعضه معه إلى غزنة ، فجعله عتبة لباب الجامع . وكان بيت الصنم مظلما ، وإنما كان الضوء فيه من قناديل الجوهر ، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا منّ كلما مضت طائفة من

= فوصلها يوم الخميس الخ .. الكامل ج٧ ص٣٢١ : وسومنات مدينة ساحلية متسعة بها علماء الهند وعبادهم والصنم المعروف لى) . وانظر : صبح الأعشى ج٥ ص ١٧٢ .

(١) الزيادة: من ت . وهو موافق لمامر .

البراهمة من عبادتهم حركوا الجرس ، فتأتى طائفة أخرى ، وعنده خزانة فيها عدة كثيرة من الأصنام الذهب والفضة وعليها الستور [١] المرصعة بالجوهر . كل منها منسوب إلى عظيم من عظماء الهند ، وقيمة ما فى البيوت يزيد على عشرين[٢] ألف دينار ، فأخذ الجميع وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل ، ثم ورد الخبر على يمين الدولة أن نهم صاحب أنهلوارة قصد قلعة تسمى كندهة ، فى البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخا ، فسار يمين الدولة من سومنات ، فلما حاذى القلعة رأى صيادين ، فسألهم عن خوض البحر هناك [٣]، فقالوا إنه ممكن ، ولكن إذا تحرك الهواء غرق من فيه، فاستعان بالله تعالى ، وخاض هو ومن معه ، فسلموا ، فرأوا نهم قد فارق القلعة ، وأخلاها ، فعادعنها ، وقصد المنصورة ، وكان صاحبها قد ارتد عن الإسلام ، ففارقها واحتمى [بغياض] [٤] منيعة ، فأحاط يمينُ الدّولة بتلك الغياض ؛ فقتل أكثر من بها من الهند وغرق بعضهم ولم ينج منهم إلا القليل، ثم سار إلى بهاطية فأطاعه أهلها ، فرحل إلى غزنة ، فوصلها فى عاشر صفر سنة سبع عشره وأربعمائة ، فكانت غيبته فى هذه الغزوة ستة شهور .

---

(١) الستور المعلقة المرصعة بالجوهر . الكامل حـ ٧ ص ٣٢١ .

(٢) ألف ألف دينار : ت ، وكذلك الكامل ص ٣٢١ حـ ٧ ، وهى فى الأصل كذلك، ولكن خطأ وقع فى ترتيب أرقام المخطوطة حيث تنتهى ص ١٩ منها بعبارة : وقيمة ما فى البيوت يزيد على عشرين ألف ، ثم جاءت تكملتها فى ص ٢٢ . كما يأتى : ألف دينار فأخذ الجميع الخ ...

(٣) الزيادة من ت . . وهو موافق للكامل حـ ٧ ص ٣٢١

(٤) فى الأصل : بغياظ

ذكر ملكه الرى وبلد الجبل

وفى سنة عشرين وأربعمائة سار يمين الدولة نحو الرىّ ، فانصرف منوجهر بن قابوس صاحب جرجان وطبرستان بين يديه ، وحمل إليه أربعمائة ألف دينار ، وكان مجدُ الدّولة بن فخر الدولة ابن بُويه قد كاتب يمينَ الدولة يشكو إليه من جنده ، وكان مُتشاغِلاً بالنساء ، ومطالعة الكتب[1] ، ونسْخِها . وكانت أمّه تدبّر المملكة ، فلما ماتت طمع فيه الجند . قال : فلما وصلت كتبه إليه سير إليه جيشا ، وجعل المقدّم عليهم حاجبه ، وأمره بالقبض على مجد الدولة ، فسار الحاجب بالعسكر ، فلما وصل تلقاهم مجد الدولة ، فقبض عليه الحاجب ، وعلى ولده أبى دُلَف ، فانتهى الخبر إلى يمين الدولة ، فسار إلى الرىّ ، ودخلها فى شهر ربيع الآخر ، وأخذ من الأموال ألف ألف دينار ، ومن الجواهر ما قيمته خمسُمائة ألف دينار ، ومن الثياب ستة آلاف ثوب ، ومن الآلات وغيرها ما لا يحصى قيمته ، وأحضر مجد الدولة وسيّره إلى خراسان . ثم ملك قزوين ، وقلاعها ، ومدينة ساوة ، وآوه[2] ، وياقت[3] ، وقبض على صاحبها ، وسيره إلى خراسان .

(١) ونسخها الكامل حـ٧ ص ٣٣٥ : ونحوها ، الأصل .

(٢) قال ابن حوقل : وساوة غربى الرى ، وآوه فى الغرب والجنوب من ساوة . وقال المهلبى : فى العزيزى : وساوة مدينة جليلة على جادة حجاج خراسان ، وبها الأسواق الحسنة وهى صالحة ، وبها المنازل الحسنة ، وبين ساوة رقم اثنا عشر فرسخاً ، وقال . فى اللباب : « وساوة بين الرى وهمذان » تقويم البلدان ص ٤١٩ . وأما آوه فقد نقل أبو الفدا عن المهلبى قوله : « وآوة مدينة فى الشرق بانحراف إلى الشمال عن همذان ، وبينهما سبعة وعشرون فرسخاً . قال : وقزوين عين آوه كذلك ص ٤١٩ ، ونقل عن ياقوت فى المشترك أن « آوه » هى تسمية العامة لمدينة « آيه »

(٣) فى الكامل : يافت .

ولما ملك يمين الدولة الرىّ، كتب إلى الخليفة القادر بالله يذكر أنه وجد لمجد الدولة من النساء الحرائر ما يزيد على خمسين امرأة ولدن له نيفا وثلاثين ولدا، وأنه لما سئل عن ذلك قال: «هذه عادة سلفى»، وصلب من أصحابه الباطنية خلقا كثيرا، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال، وأخذ ما سواها من الكتب، فكانت مائة حمل، وتحصّن منوجهر بن قابوس [بن][1] وشمكير بجبال حصينة، فلم يشعر إلا وقد أطل يمين الدولة عليه، فهرب إلى غياض ملتفّة حصينة، وبذل له خمسمائة ألف دينار، فأجابه يمينُ الدولة إلى ما طلب. وقبض المال وسار عنه إلى نيسابور. ثم توفّى منوجهر عقيب ذلك، ووُلى بعده ابنه أنوشروان، فأقره محمود على ولايته، وقرّر عليه خمسمائة ألف دينار أخرى، وخطب لمحمود فى أكثر بلاد الجبل إلى حدود أرمينية. وخطب له بأصفهان، وعاد إلى خراسان، واستخلف بالرىّ ابنه مسعود: فقصد أصفهان، وملكها من علاء الدولة[2]. وعاد عنها واستخلف بها بعض أصحابه، فثار أهلها، فقتلوه، فعاد إليهم مسعود، فقتل منهم نحو خمسة آلاف قتيل. وسار إلى الرىّ فأقام بها. والله أعلم بالصواب

(١) الزيادة من الكامل ص ٣٤٥ س ٧.

(٢) من الكامل ص ٣٤٥ س ٧، وفى الأصل: علاء الدين، وستتردد علاء الدولة.

ذكر ملك مسعود [١] بن يمين الدولة محمود همذان

وفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة سيّر مسعود جيشا إلى همذان ، فملكها من نواب علاء الدولة بن بويه ، وسار هو إلى أصفهان ، ففارقها علاء الدولة ، فغنم مسعود ما كان له بها من دواب وسلاح وذخائر [٢] وغير ذلك ، ثم عاد إلى بلاده .

ذكر غزوة للمسلمين بالهند

وفى هذه السنة غزا أحمد بن ينال تكين النائب عن محمود بن سبكتكين ببلاد الهند مدينة برسى [٣] ، وهى من أعظم مدن الهند ، وكان معه نحو مائة ألف فارس وراجل ، فشنّ الغارة على البلاد ، ونهب وسبى ، فلما وصل إلى المدينة ، دخل من أحد جوانبها ونهب المسلمون يوما كاملا ، ولم يفرغوا من سوق العطارين والجوهريين [فحسب] [٤] ، وباقى أهل البلد لم يعلموا بذلك لأن طول البلد منزلة ، وعرضه منزلة من منازل الهند ، فلما جاء المساء لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله ، وبلغ من كثرة ما نهب المسلمون أنهم اقتسموا الذهب والفضة بالكيل ، ولم يصل لهذه المدينة عسكر المسلمين قبله ولا بعده .

---

(١) من ت ، وفى الأصل : ذكر ملكة سود .

(٢) الزيادة : من ت .

(٣) فى ت ترمس ، ولم نجدها فيما بين أيدينا من مراجع ، والراجح أنها «بنارس» التى ذكرها البيهقى ص ٤٢٦ ؛ وذلك لأن الحوادث التى أوردها البيهقى متفقة مع ما نحن بصدده .

(٤) بياض بالأصل . والزيادة من الكامل ص ٣٤٥ ج ٧ .

ذكر وفاة يمين الدولة محمود بن سبكتكين وشيء من سيرته

كانت وفاته رحمه الله فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ومولده يوم عاشوراء سنة ستين وثلاثمائة ، فكان عمره إحدى وستين سنة وثلاثة أشهر تقريبا ، ومدة سلطنته ثلاثا وثلاثين سنة وشهرين ، وكان مرضه سوء مزاج وإسهال ، وبقى كذلك نحو سنتين ، وكان قوى النفس لم يضع جنبه فى مرضه بل كان يستند إلى مخدته ، وكان يجلس للناس طرفى النهار ؛ ولم يزل كذلك حتى توفّى قاعدًا ، وكان عاقلاً ديّنا خيّرا عنده علم ومعرفة ، وُصنّف له كثير من الكتب فى فنون العلوم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويصلهم ، وكان عالى الهمة ، قد ذكرنا من فتوحه وغزواته ما يستدل به على ذلك ، ولم يكن فيه ما يعاب إلا طمعه فى الأموال ، فكان يتحيّل على أخذها بكل طريق ، وهو الذى جدّد المشهد بطوس الذى فيه قبر على بن موسى الرضا : والرشيد ، وكان أبوه قد أخربه . قال : وكان يمين الدولة رُبْعة القامة ، حسن الوجه ، صغير العينين ، أحمر الشعر .

ذكر سلطنة محمد بن محمود

وهو الرابع من ملوك الدولة الغزنويه. ملك بعد وفاة أبيه فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة بوصية من أبيه . قال : وهو أصغر من أخيه مسعود ، وكان عند وفاة أبيه ببلخ ، فخطب له من أقاصى الهند إلى نيسابور ، ولقّب جلال الدولة ، فأرسل إليه أعيان الدولة يستدعونه ، ويحثونه على الوصول إليهم ، ويخوفونه من أخيه مسعود ، فسارا إلى غزنة ، فوصلها بعد وفاة أبيه بأربعين يوما ، واجتمعت العساكر على طاعته ، ففرق فيهم الأموال .

ذكر خلع جلال الدولة محمد وملك أخيه مسعود بن محمود

كان سبب ذلك أن يمين الدولة لما توفى كان ابنه مسعود بأصفهان ، فكتب إلى أخيه محمد يقول له : إننى راضٍ بما أوصى لى به أبى ، وبما فتحته من بلاد طبرستان والجبل وأصفهان وغيرهما ، وطلب منه الموافقة وأن يقدمه فى الخطبة على نفسه ، فأجابه بجواب غير مرضى ، فسار مسعود إلى الرى وأحسن إلى أهلها [1] ، ثم سار إلى نيسابور وفعل مثل ذلك . وأما محمد فإنه استخلف عساكره ، وجعل عمه يوسف على مقدمة جيشه ، وسار إلى مسعود. وكان بعض عسكر محمد يميل إلى مسعود لشجاعته ، وبعضهم يخشى سطوته ، فلما همّ محمد

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : إليها !

بالركوب [١] من داره وقعت قلنسوته من رأسه ، فتطيرّ الناس من ذلك ، وسار إلى أن وصل إلى [تكينا باد] [٢] فى مستهل شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وأقام بها إلى أن عيّد . فلما كان ليلة الثلاثاء ثالث شوال ثار به جنده ، فأخذوه وحبسوه ونادوا بشعار مسعود ، وكان الذى سعى فى ذلك ورتّبه خشاوند [٣] الحاجب باتفاق ومساعدة من عمه يوسف ، وأرسلوا إلى مسعود فحضر ، والتقته العساكر إلى هراه [٤] . وسلّموا إليه [٥] الأمر ، فكان أول ما بدأ به أن قبض على الحاجب وقتله ، ثم قبض بعد ذلك على عمه يوسف ، ثم على جماعة من أعيان القواد فى أوقات متفرقة . وكان اجتماع الملك له ، واتفاق الكلمة عليه فى ذى القعدة من السنة ، ووصل إلى غزنة فى ثانى [٦] جمادى الآخرة سنة اثنين وعشرين وأربعمائة ، وأتته بها رسل الملك من سائر الأقطار ، واجتمع له ملك خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند ، وسجستان وكرمان ، ومكران ، والرى ، وأصفهان ، وبلد الجبل ، وغير ذلك ، وعظم سلطانه ، وخيف جانبه .

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل ، بالركوبة .

(٢) فى الأصل : بكناباذ ، وفى ت : بكتانا ، ولم نعثر على أى منهما ، وما أثبتناه نقلا عن البيهقى ص ٢ ، وهى مدينة كانت بموضع قندهار الحالية بأفغانستان .

(٣) فى الكامل جـ ٧ ص ٣٤٧ : على خويشاوند . وسيرد فى صفحتى ٧٣ ، ٧٥ من هذا الجزء : ابن على خشاوند .

(٤) فى الكامل جـ ٧ ص ٣٤٧ : فلما وصل إلى هراة لقيته العساكر .

(٥) ت ، ولم يظهر بالأصل .

(٦) فى الكامل جـ ٧ ص ٣٤٧ : ثامن بدلا من ثانى .

ذكر مسيره الى الهند وما فتحه بها

وفى سنة أربع وعشرين وأربعمائه بلغ السلطان مسعود أنَّ أحمد نيالتكين النائب بالهند خرج عن طاعته واستولى على البلاد ، فسار إلى الهند ، وعاد النائب إلى الطاعة ، وفتح فى سفرته هذه قلعة سرستى[1] وهى من أحصن القلاع ، وكان تعذَّر[2] فتحَها على أبيه ، ففتحها فى سنة خمس وعشرين . ثم سار إلى قلعة مقسى ، فوصل إليها فى عاشر صفر ، وحصرها ووالى الحصار ، فخرجت عجوز ساحرة ، فتكلمت باللسان الهندى طويلا ، وأخذت مكنسة فبلتها بالماء ، ورشت به إلى جهة العسكر ، فمرض مسعود واشتد به المرض ، فرحل عن البلد فصح وعاد إلى غزنة .

ذكر مخالفة نيالتكين النائب بالهند ومقتله

وفى سنة ست وعشرين وأربعمائة خالف أحمد نيالتكين النائبُ بالهند على السلطان مسعود ، ونزع يده من الطاعة ، وأظهر العِصيان ، فسيّر إليه مسعود جيشا كثيفا فقاتلهم ، وانهزم منهم ، وقصد بعض ملوك الهند « ببهاطيه » ، ومعه جمع كثير من عساكره الذين سلِموا ، وطلب منه سفنا ليعبر بهم[3] السند ، فأحضر إليه السفن ، وأمرهم أن يلقوه فى جزيرة فى وسط النهر ، فألقَوه بها وهو يظن أنها متّصلة بالبر ، فأقام بها تسعة أيام إلى أن نفدت أزوادهم ، وأكلوا دوابّهم ، وعجزوا عن خوض الماء لعمقه ، فعبر الهندى إليهم فى السفن وقَتَل

(١) فى تاريخ أبى الفدا ج٢ ص ١٥٨ : « سرسى » .
(٢) ت ، و فى الأصل : تعدد .
(٣) فى الكامل ج٩ ص ١٥٢ : ليعبر نهر السند .

وأسر ، فعندها قتل أحمدُ نفسه ، واستوعب أصحابه القتل والأسر .

وفى سنة ثلاثين وأربعمائة . التقى الملك مسعود والسلجقية ببلاد خراسان ، ووقع بينهم حروب كان الظفر فيها لمسعود ، وفتح قلعة خراسان ، وأخرج طغرلبك من بلاد خراسان إلى البرية ، وكان آخر الحرب بينهم فى سنة إحدى وثلاثين .

ذكر القبض على السلطان وقتله وشيىء من سيرته

وفى سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة فى شهر ربيع الأول جهّز السلطان ولده مودودا إلى خراسان فى جيش كثيف ، لردّ السلجوقية عنها ، وسار مسعود بعد ذلك بسبعة أيام إلى بلاد الهند ليشتّى بها على عادة والده ، واستصحب معه أخاه محمدا وكان قد سمله ، فلما عبر سيحون ، وعبر بعضُ الخزائن جمع أنوشتكين البلخى الخصى الغلمان الداريّة ، ونهبوا ما تخلف من الخزائن ، وأقاموا أخاه محمدا ، وقاتلوا مسعودا ، فانهزم وتحصّن فى بعض الحصون ، فحصره أخوه محمد ، فقالت له أمه : إن هذا المكان لايعصمك ، ولأن تخرج إليهم بعهد خير لك [من][1] أن يأخذوك قهرا ، فخرج إليهم ، فقال له أخوه : والله [2] لا قاتلتك بفعلك ، ولكن اختر لنفسك جهة تكون فيها بحريمك وأولادِك ، فاختار قلعة كيدى ، فأنفذه إليها ، وأرسل مسعود إلى أخيه محمد يطلب منه مالاً ينفقه ، فأعطاه خمسمائة درهم ،

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) فى الكامل جـ٩ ص ١٦٧ : « والله لاقابلتك الخ ..... » .

فبكى وقال : بالأمس وحكمى على ثلاثة آلاف حمل من الخزائن ، واليوم لا أملك ألفَ درهم ، فأعطاه الرسول ألف دينار فقبلها ، ثم اتفق أحمد بن السلطان محمد ، وابن عمه يوسف ، وابن على خشاوند على قتل مسعود (فدخلوا عليه ، وقتلوه فأنكر محمد ذلك ، وساءه ، فكانت مدة سلطنة مسعود[1]) عشر سنين وخمسة شهور تقريبا ، وكان شجاعا كريما ذا فضائل كثيرة ، يحب العلماء ويحسن إليهم ، ويتقرب إلى خواطرهم ، وصنفوا له التصانيف الكثيرة فى فنون العلوم[2] ، وكان كثير الصدقة ، تصدّق مرة فى شهر رمضان بألف ألف درهم ، وأكثر الإدْرارات والصِّلات ، وعمّر كثيراً من المساجد فى ممالكه ، وكان عفيفا عن أموال الناس ، وكان يحب الشعر ويجيز الشعراء ، أعطى شاعراً ألف دينار ، وأجاز آخر عن كل بيت ألف درهم

ذكر سلطنة جلال الدولة محمد بن محمود السلطنة الثانية وقتله

ملك ثانيا عند انهزام أخيه مسعود فى ثالث[3] عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، وكان أخوه قد سمله ، ولما طلب للولاية امتنع من قبولها ، فتهدده القواد بالقتل فأجاب ، وفوّض الأمر إلى ولده أحمد ، وكان فيه هَوَج ، فقتل عمه مسعودا ، وقيل : إن

(١) بياض بالأصل ، والزيادة من ت .
(٢) فى ت : العلم .
(٣) فى ت : فى ثالث عشر ربيع الآخر الخ ...

مسعودا لما حبس دخل عليه عبد الرحمن وعبد الرحيم أولاد محمد ، فأخذ عبد الرحمن القلنسوة من على رأس عمّه مسعود ، فأخذها عبد الرحيم من يده ، وأنكر عليه ، وقبلها ووضعها على رأس عمه مسعود ، وكان ذلك سبب سلامته .

قال : وكتب السلطان محمد إلى مودود بن أخيه مسعود يقول له : إن والدك قتل قصاصًا ، قتله أولاد أحمد نيالتكين بغير رضاى ، فأجابه مودود من خراسان يقول : أطال الله بقاء الأمير ، ورزق ولده المعتوه عقلا يعيش به ، فقد ركب أمرا عظيما ، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدى الذى لقّبه أمير المؤمنين سيّد الملوك والسلاطين ، وستعلمون فى (١) أى حتف تورّطتم وأىّ شر تأبّطتم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، ثم كتب شعرا :

نُمَلِّقُ هاماً من كرامٍ أعزّة علينَا وهم كانُوا أعقّ وأظْلَما(٢)

قال : وطمع (٣) الجند فى محمد ، ونقصت هيبة الملك ، فمدوا أيديهم إلى أموال الرعايا ونهبوها ، فخربت البلاد ، فكان المملوك يباع فى بعض المدن بدينار ، والخمر تباع كل مَنٍّ بدينار . قال : وسار مودود بن مسعود من خراسان إلى غزنة ، وعاد عمه محمد والتقيا ، فانهزم محمد وعسكره وقبض عليه وعلى ولده أحمد ، فقتلهما مودود فى شعبان سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة ، فكانت مدة سلطنة محمد الأولى سبعة أشهر ، والثانية أربعة أشهر وأياما .

---

(١) الزيادة من ت

(٢) من شعر الحصين بن الحمام المرى . المفضليات .

(٣) ت ، وفى الأصل : وجمع

ذكر سلطنة مودود بن مسعود[١] بن محمود بن سبكتكين

وهو السادس من ملوك الدولة الغزنوية . كان ملكه بعد انهزام عمه جلال الدولة محمد . قال : ولما التقوا وانهزم محمد وعسكره ، ثم قبض عليه وعلى أولاده وأنوشتكين البلخى الخصى وابن على خشاوند ، فقتلهم مودود ، ولَمْ يترك منهم إلا عبد الرحيم ابن عمه بن محمد لإنكاره على أخيه ، أخـذ القلنسوة من رأس مسعود ، وبنى مودود فى موضع الوقعة قريةً ورباطًا وسمّاها « فتح أباد » ، وقتل من كان له تسبب فى القبض على أبيه ، ودخل غزنة فى الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين [وثلاثين][٢] وأربعمائة ، واستوزر أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد وزير أبيه ، وأظهر العدل ، وأحسن السيرة ، وسلك سيرة جده محمود بن سبكتكين .

ذكر مخالفة محمود بن مسعود على أخيه مودود ، ووفاة محمود

كان مسعود قد جهّز ابنه محمودا إلى بلاد الهند فى سنة ست وعشرين وأربعمائة ، فبلغه خبر وفاة أبيه ، وما آل الأمر إليه من سلطنة أخيه ، وكان قد فتح لهاوور[٣] ، وملتان ، فأخذ الأموال ، وأظهر

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) فى تقويم البلدان نقلا عن اللباب : «ولوهور مدينة كبيرة من بلاد الهند كثيرة الخير ، ويقال لها : « أيضا لهاور » ص ٣٥٩ . أما ياقوت فقد ذكرها فى المعجم بواوين — كما هنا — فى تعريفه بلوهور .

الخلاف على أخيه مودود ، فاضطرب لذلك ، وجهز جيشا لمنعه ، فعرض محمود العساكر ، وأنفق فيهم الأموال ليأخذ البلاد من أخيه مودود وعيد عيد الأضحى ، وأقام بعده ثلاثة أيام ، وأصبح ميتا[1] بلهاوور ، فما عرف ماكان سبب وفاته ، فعند ذلك ثبت قدم مودود فى الملك ، وراسلته الملوك وخافته ، وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ملك مودود عدة من حصون الهند ، فراسله ملوكها وأذعنوا له بالطاعة .

ذكر وفاة مودود
وملك ولده ، ثم أخيه على بن مسعود ، ثم عبد الرشيد

وفى العشرين من شهر رجب الفرد ، سنة إحدى وأربعين وأربعمائة كانت وفاة[2] مودود وعمره تسع وعشرون سنة ، ومدة ملكه تسع سنين وأحد عشر شهرا ، وكانت وفاته بغزنة ، وعلته القولنج ، وملك بعده ولده ، فبقى فى الملك خمسة أيام ، ثم عدل الناس عنه إلى عمه على بن مسعود ، وكان مودود لما ملك قبض على عمه عبد الرشيد ابن محمود ، واعتقله بقلعة مندين[3] بطريق بست ، فلما توفى مودود كان وزيره قد قارب القلعة بعساكر جردها مودود معه لقتال السلجقية ، فنزل عبد الرشيد من القلعة إلى العسكر ، ودعاهم إلى طاعته ، فأجابوه ، وسار بهم إلى غزنة ، فهرب علىّ بن مسعود ، وملك

---

(١) ت ، و فى الأصل : مبيتا .

(٢) ت .

(٣) فى ت : سدين ، وفى الكامل ص ١٩٢ ج ٩ : ميدين ، ولعلها (منديش) وهى اسم ولاية فى غور ، وهذه القلعة بها . تاريخ البيهقى . ص ٧٠ . وغيرها .

عبد الرشيد ، ولقب[١] شمس الله سيف الدولة ، وقيل[٢] جمال الدولة .

ذكر مقتل عبد الرشيد

كان مقتله فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة[٣] ؛ وسبب ذلك : أن طغرل الحاجب كان مودود قد نَوه بذكره ، وقدّمه وزوّجه أخته ، فلما توفى مودود ، وملك عبد الرشيد استمر به على ما كان عليه ، وجعله حاجب حجّابه ، فأشار طغرل على عبد الرشيد بقصد الغز ، وإخراجهم من خراسان ، فتوقف استبعاداً لذلك ، فلم يزل به حتى جهز معه ألف فارس ، فسار نحو سجستان ، وبها أبو الفضل نائبا عن بيغو[٤] ، فحاصر قلعة طاق[٥] أربعين يوما ، فلم يتهيأ له أن يملكها ، فسار نحو مدينة سجستان ، فاتصل خبره ببيغو ، فخرج فى عساكره إليه ، فلما رآه بيغو استقلّ من معه ، فسيّر إليه طائفة من أصحابه ، فلم يعرّج طغرل عليهم ، بل اقتحم هو ومن معه نهراً هنالك ، وحمل على بيغو ، وقاتله فهزمه ، ثم عطف طغرل على تلك الطائفة التى كانت خرجت لقتاله ، فهزمهم ، وغنم ما معهم ، وانهزم بيغو إلى هراة ، ودخل طغرل الحاجب سجستان ، وملكها ، وكتب

---

(١) فى الكامل جـ ٩ ص ١٩٣ : شمس الدين الله .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : وقتل .

(٣) زيادة من ت

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل مسعود ، وفى الكامل جـ٩ ص ٢٠١ : بيغوا .

(٥) هكذا فى ت ، وفى الأصل: طارق . وفى الكامل جـ٩ص ٢٠١ : طاق ، وقد مر التعريف به فى ص ٣٥ من هذا الكتاب .

إلى عبد الرشيد يعلمه بذلك [١] ويستمده ليسير إلى خراسان ، فأمده بعدّة كثيرة من العساكر ، فاشتد أمره بهم ، وحدث نفسه بالاستيلاء على غزنة ، فأحسن إلى من معه ، واستمالهم فمالوا إليه ، فاستوثق منهم ورجع بهم إلى غزنة ، فلما صار على خمسة فراسخ منها كتب إلى عبد الرشيد يعلمه أن العسكر خالفه ، وطلبوا الزيادة فى العطاء ، وأنهم عادوا بقلوب متغيّره ، فلما وقف على ذلك جمع أصحابه ، واستشارهم ، فحذّروه من طغرل ، وقالوا : إن الأمر قد أعجل عن الاستعداد ، وليس إلا الصّعود إلى القلعة ، والتحصّن بها ، فتحصن بقلعة غزنة ، وعبر طغرل غزنة ، واستولى عليها وجلس بدار الإمارة ، وأرسل إلى من بالقلعة يتهددهم إن لم يسلموا إليه عبد الرشيد ، فسلّموه له ، فقتله ، واستولى على القلعة ، وتزوّج ابنة السلطان مسعود كرها ، وكان فى أعمال الهند أمين يسمى خزخير [٢] بعساكر كثيرة ، فأرسل إليه طغرل ، واستدعاه للموافقة والمساعدة على إخراج الغز من الأعمال ، ووعده وبذل له الرغائب ، فلم يرض خزخير فعله ، وأنكر عليه وأغلظ له فى الجواب ، وكتب إلى زوجة طغرل ابنة السلطان مسعود ، وإلى وجوه القوّاد يقبّح [٣] عليهم موافقتهم ، وصبرهم على قتل ملكهم ، فعبروا على طغرل ، وقتلوه .

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : لذلك .
(٢) فى ت حزخير ، وفى الكامل ج٢ ص ٢٠٢ : خرّخيز .
(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : يفتح .

ذكر ملك فرخ[١] زاد بن مسعود بن محمود بن سبكتكين

وهو العاشر من ملوك الدوله الغزنويه . مَلَك بعد مقتل طغرل الحاجب المستولى على مُلك عبد الرشيد ، وكان سببُ ملكه أنه لما قتل طغرل وصل خرخير[٢] بعد مقتله بخمسه أيام إلى غزنه ، وأظهر الحزنَ على عبد الرشيد ، واستشار الأمراء فيمن يلى الأمر ، فأشاروا بولايه فرّخ زاد ، وكان معتقلاً فى بعض القلاع فأحضروه ، وأجلس بدار الإمارة ودبر خرخير الأمر بين يديه ، وقتل من أعان على قتل عبد الرشيد . قال : ولما بلغ داود السلجقى أخا طغرلبك صاحب خراسان قتلُ عبد الرشيد جميع عساكره ، وسار إلى غزنه ، فخرج إليه خرخير ، وقاتله فانهزم داود ، وغنم ما كان معه ، وفى سنة خمس وأربعين وأربعمائة ثار مماليك فرخ زاد به ، وقصدوا قتله وهو فى الحمام ، فمانع عن نفسه بسيفٍ كان معه ، فأدركه أصحابه وخلّصوه وقتلوا أولئك الغلمان ، واستمر ملكه إلى سنه إحدى وخمسين ، وكان بعد هذه الوقعة يُكثِر من ذكر الموت ويحتقر الدنيا ويزدريها ، فلما كان فى هذه السنه أصابه قُولَنج ، فمات .

---

(١) فى الأصل : قرج ، وفى ت : فرخ راد ، وفرخ زاد . وفى الكامل جـ٢ ص ١٠٢ فرخزاد .

(٢) فى ت : خرخير ، وانظر . هامش (٢) فى الصفحة السابقة .

ذكر ملك ابراهيم بن مسعود بن محمود

وهو الحادي عشر من ملوكهم ، ملك بعد وفاة أخيه فرّخ [١] زاد فى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة فأحسن السيرة ، واستعد لجهاد الهند ، واستقر الصلح بينه وبين [جغرى بك] [٢] داود السلجقى صاحب خراسان على أن يكون لكل واحد منهما [ما] [٣] بيده ، وترك منازعة الآخر فى ملكه .

ذكر غزو ابراهيم بلاد الهند وما فتحه منها

وفى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة غزا بلاد الهند ، ففتح قلعة أجود ، وهى على مائة وعشرين فرسخا من لهاوور ، وهى حصينة تحوى عشرة آلاف مقاتل ، فحصرها وداوم الزحف ، فملكها فى الحادي والعشرين من صفر ، وفتح غيرها من الحصون فى هذه السنة . فمن ذلك قلعة روماك ، وموضع يقال له : « دره نوره » ، وكان به أقوام من الخراسانية جعل أجدادهم فيه فراسياب التركى ، ولم يعترضهم أحد من الملوك ، فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا عليه ، وقاتلوه ، فظفر بهم وأكثر فيهم القتل ، وتفرق من سلم منهم فى البلاد ، وسبى من النساء والصبيان مائة ألف ، وفى هذه القلعة حوض قطره نصف فرسخ لا يدرك

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : قزح .

(٢) هكذا فى الكامل جـ١ ص٥ : وفى الأصل جغريبك .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

قعره ، يشرب منه أهل القلعة ودوابهم ، ولا يظهر فيه نقص وفتح « دَرَة[1] » وهى بين جبلين والسبيل إليها متعذر ، فوصلها فى جمادى الأولى ، وأقام بها ثلاثة أشهر ، وافتتحها وعاد إلى غزنة .

ذكر وفاة ابراهيم وشىء من سيرته

كانت وفاته فى سنة إحدى وثمانين أوربعمائة ، وكانت مدة ملكه تزيد على ثلاثين سنة ، وكان عادلاً كريماً مجاهداً ، وكان ذا رأى سديد ، فمن رأيه أن السلطان ملكشاه السلجقى قصد غزنة بعساكره وجنوده ، فلما علم إبراهيم عجزه عنه كتب إلى جماعة من أمرائه يشكرهم ، ويعدهم الجميل على تحسينهم لصاحبهم ، قصد بلاده ليتم له ما اتفقوا عليه من قبضه ، وأمر القاصد أن يتعرض إلى ملكشاه ، فتعرض له ، فأنكره ملكشاه ، وقبض عليه وقرره بالضرب ، فأعطاه الكتبَ بعد امتناع ، فعاد من طريقه ، وكتم ذلك عن أمرائه خوفا من الخلاف عليه . وكان يكتب بخطّه فى كل سنة مصحفاً ، ويبعثه إلى مكة مع الصدقات والصِّلات ، ولما مات ملك بعده ابنه .

---

(١) درة : بلد بين هراة وسجستان ، وهى آخر عمل هراة ، ومن هراة إلى أسفزار ثلاث مراحل ، ومن أسفزار إلى درة مرحلتان ، ومن درة إلى سجستان سبعة أيام . معجم البلدان ٢ ، ٤٥٣ .

ذكر ملك علاء الدولة
أبى سعد [١] جلال الدين مسعود بن ابراهيم

وهو الثانى عشر من ملوك الدولة الغزنوية . ملك غزنة وما معها بعد وفاة [إبراهيم] [٢] أبيه فى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة . وهو زوج ابنة السلطان ملكشاه السلجقى ، واستمر ملكه إلى سنة ثمان وخمسمائة فتوفى فى شوال منها بغزنة ، ولم أظفر بشىء من أخباره فأورده ، ولما مات ملك بعده ولده .

ذكر ملك ارسلان شاه بن علاء الدولة مسعود

وهو الثالث عشر من ملوك الدولة الغزنوية ، وأمه سلجقيه وهى أخت السلطان ألب أرسلان ملك بعد [٣] وفاة أبيه فى شوال سنة ثمان وخمسمائة ولما ملك قبض على إخوته وسجنهم ، فهرب أخ له اسمه بهرام شاه إلى خراسان ، فوصل إلى السلطان سنجر بن ملك شاه ، فأرسل إلى أرسلان شاه فى معناه ، فلم يجبه ، فأعد السير وقصد غزنة ، ومعه بهرام شاه والتقى هو [وسنجر بن] [٤] ملكشاه على فرسخ من غزنة بصحراء [شهراباذ] [٥] ، وكان أرسلان شاه فى ثلاثين ألفا ، ومعه مائة وستون فيلا ، فكادت الهزيمة تكون على سنجر ثم كانت

---

(١) هكذا فى ت ، وهو موافق للكامل حـ ١ ص١٧٧ حوادث سنة ٨٠٥ . ولأبى الفداء ص٢٢٨ حـ ٢ وفى الأصل : سعيد .

(٢) مابين الحاصرتين ليس فى ت .

(٣) مابين الحاصرتين سقط من ت .

(٤) ماأضفناه يقتضيه السياق .

(٥) فى الأصل : سهراياذ ، وما أثبتناه موافق لما سيجىء من هذا الكتاب ، وأيضا الكامل حـ ٦٥ ص ٢٧٨ .

وخمسمائة ومعه بهرام شاه ، وتسلّم قلعة البلد ، وكان أرسلان شاه قد اعتقل أخاه طاهرا بالقلعة الكبيرة التى بينها وبين غزنة تسعة فراسخ ، وهى عظيمة لا يطمع فيها ولا طريق عليها ، واعتقل بها أيضا زوجة بهرام شاه ، فلما انهزم أرسلان شاه استمال أخوه طاهرا المتحفظ بها حتى سلم القلعة للملك سنجر ، وكان قد تقرر بين السلطان سنجر وبهرام شاه أن يجلس بهرام شاه على سرير جده محمود بن سبكتكين وجده ، وأن الخطبة بغزنة للخليفة ، ثم للسلطان محمد بن ملكشاه ، والملك سنجر ، وبعدهم لبهرام شاه ، فلما دخلوا غزنة كان سنجر راكبا ، وبهرام شاه راجلا بين يديه حتى جاء إلى السرير ، فصعد بهرام شاه إليه ، وجلس ورجع سنجر ، وكان يخطب له بالملك ، ولبهرام شاه بالسلطان على عادة آبائه ، وحصل لسنجر من الأموال ما لا يحد ، وكان على حيطان دور ملوك غزنة ألواح الفضة ، وسواقى المياه إلى البساتين من الفضة ، فقلع أصحاب سنجر كثيرا من ذلك ، فمنعهم سنجر ، وصلب جماعة منهم ، وأقام بغزنة أربعين يوما ، وهو أول سلجقى خطب له بغزنة ، وعاد إلى خراسان .

ذكر ملك بهرام شاه بن مسعود[1] بن ابراهيم

وهو الرابع عشر من ملوك الدولة الغزنوية . ملك غزنة عند انهزام أخيه أرسلان شاه لعشر بقين من شوال سنة عشر وخمسمائة ، وأما

(١) هكذا ت ، وفى الأصل : لما ولى مسعود بن إبراهيم .

أرسلان شاه فإنه لما انهزم قصد هند وخان [١] ، واجتمع معه أصحابه ، فلما عاد الملك سنجر إلى خراسان توجه إلى غزنة ، ففارقها بهرام شاه إلى باميان [٢] ، وأرسل إلى الملك سنجر يعلمه الحال ، فأمده بجيش ، وأقام أرسلان شاه بغزنة شهرا ، وسار فى طلب بهرام شاه فبلغه وصول عسكر سنجر ، فانهزم بغير قتال ، للخوف الذي وقع فى قلوب أصحابه ، ولحق بجبال أوغان [٣] ، فسار بهرام شاه فى طلبه بعسكر سنجر ، وضايقوا البلاد التى هو فيها وأخربوها ، وتهددوا أهلها ، فسلموه إليهم ، فخنقه أخوه بهرام شاه ، ودفنه بغزنة بتربة أبيه ، وكان قتله فى جمادى الآخرة سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وعمره سبعا وعشرين سنة ، واستقر بهرام شاه فى الملك ، وكان بينه وبين الملوك الغورية من الوقائع ما نذكره فى أخبارهم إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة بهرام شاه

كانت وفاته فى شهر رجب سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، فكانت ولايته ستا وثلاثين سنة ، وكان عادلا حسن السيرة جميل الطريقة يحب العلماء ويكرمهم ، ويبذل لهم الأموال الكثيرة ، ولما مات ملك بعده ولده .

---

(١) لعلها التى يذكرها ياقوت فى معجم البلدان ٨ : ٤٨٣ باسم : هنديجان ، وقيل عن مسعود المهلهل : إنها بخوزستان بعد آسك بينها وبين أرجان ، ويقول عنها : إنها ذات آثار عجيبة وأبنية عالية وتثار منها الدخائن كما تثار بمصر ، وبها نواويس بديعة الصنعة وبيوت نار .

(٢) فى تقويم البلدان ص ٤٦٧ عن اللباب : «والباميان بلدة بين بلخ وبين غزنة» ، ويروى عن المهلبى : «أنها فى جهة الشمال من غزنة وبينهما ٤٥ فرسخا» . كما يذكر عن بن سعيد أنه من بعض جبالها ينزل بعض أنها رجيحون .

(٣) فى الكامل ج ١٠ ص ١٧٩ : أوغنان .

ذكر ملك نظام الدين خسروشاه [١] ابن بهرام شاه بن مسعود

وهو الخامس عشر من ملوك الدولة الغزنوية ، ملك غزنة بعد وفاة والده فى شهر رجب سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وكان عادلاً حسن السيرة فى رعيته محبا للخير وأهله يقرب العلماء ، ويحسن إليهم ويرجع إلى أقوالهم ويقتدى بآرائهم ، ولم يزل كذلك إلى أن توفى فى شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وكانت مدة ملكه سبع سنين وقيل إنه عاش إلى سنة تسع وتسعين [٢] . وأن الدولة انقرضت باعتقاله ، ولما مات ملك بعده ولده .

ذكر ملك ملكشاه بن خسرو [٣] شاه بن مسعود ابن ابراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين

وهو السادس عشر من ملوك الدولة الغزنوية ، وعليه انقرضت دولتهم . ملك غزنة بعد وفاة والده فى شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ولما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور إلى غزنة ، وكان له مع ملكشاه ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الغورية . وفى سنة خمس وخمسين [٤] وخمسمائة قصد الأتراك الغزية

---

(١) فى الأصل : خيرد، وما أثبتناه من ت، وهو موافق للكامل حـ ١١ ص ٧١ .
(٢) فى ت : سبعين .
(٣) ت : وفى الأصل : « خروشاه » .
(٤) فى ت : سبع و خمسين . راجع الكامل حـ ١١ ص ٢٥ .

بلاد غزنة ونهبوا وخربوا ، وقصدوا مدينة غزنه ، ففارقها ملكشاه إلى لهاوور وملكها الغزية ، وكان القيّم بأمرهم زنكى بن على بن خليفه الشيبانى ، ثم جمع ملكشاه العساكر ، وعاد إلى غزنة ، ودخلها فى جمادي الآخرة سنة تسع وخمسين ، وتمكن فى دار ملكه إلى أن ظهر أمر الملوك الغورية (١) ، فانقرضت الدولة الغزنويه على يد الملوك الغوريه .

وذكر ابن الأثير الجزري فى تاريخه الكامل أن دولتهم انقرضت فى أيام خسرو شاه بن بهرام شاه والد ملكشاه ، وأن خسروشاه لما ملك الغورية غزنة سار إلى لهاوور ، فحاصره شهاب الدين الغوري بها فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وشدّد الحصار عليه ، وبذل له الأمان على أن لا يطأ بساطه ، وأن شهاب الدين يجعل لخسروشاه مهما اختار من الإقطاع ، ويزوجه ابنته ، فاستحلفه على ذلك ومكنه من لهاوور ، واجتمع به ، فأكرمه وعظمه ، وبقى كذلك مدة شهرين ، فورد رسول غياث الدين الغورى إلى أخيه شهاب الدين وهو يستدعى خسرو شاه وولده إليه ، فأعلمه بذلك ، فامتنع ، فمنّاه شهاب الدين ، وطيب خاطره ، ثم جهزه هو وابنه إلى غياث الدين ، فسارا على كره ، فلما وصلا إليه رفعهما إلى بعض القلاع ، فكان آخر العهد بهما . وانقرضت الدولة الغزنوية .

وكان ابتداؤها فى سنة ست وستين وثلاثمائة ، وانقرضت فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، فتكون مدتها مائتى سنة وثلاثة عشر

---

(١) فى الأصل : الفوزية ، والفوز ، وقد صوبناها حيثما وجدت ، وانظر حاشية ص ٢٩ من هذا الجزء .

سنة تقريبا ، وعدة ملوك هذه الدولة ستة عشر ملكا ، وهم ناصر الدولة سبكتكين ، ثم ولده يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، ثم ولده محمد ولى مرّتين ، ثم أخوه مسعود بن محمود ، ثم مودود بن مسعود بعد عمه محمد فى السلطنة الثانية ، ثم ولى ولدٌ لمودود خمسة أيام . ثم على بن مسعود ، ولم تطل مدته أيضا ، ثم عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين ، ثم فرخ زاد ، ثم أخوه إبراهيم بن مسعود ، ثم ابنه علاء الدولة أبو سعد جلال الدين بن مسعود ، ثم ابنه أرسلان شاه ، ثم أخوه بهرام شاه ، ثم ابنه خسرو شاه ، ثم ابنه ملكشاه ، وعليه انقرضت دولتهم ، وكانت هذه الدولة من أحسن الدول وأكثرها جهادا وفتوحا ، وقد ذكرنا من أخبار ملوكها ما يُستدَلّ به على بعد هممهم ، وتمكن سلطانهم .

ذكر أخبار الدولة الغورية

كان ابتداء هذه الدولة ببلاد الغُور (١) فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم أزالت ملوك الدولة الغزنوية آل (٢) سبكتكين عن غزنة ، وملكوا بعض بلاد الهند ، وأول من نبغ منهم وظهر اسمه الحسين بن الحسين (٣) بن الحسن . وكان قد ملك قبله بلاد الغور محمد بن الحسين ، وكان قد صاهر بهرام شاه صاحب غزنة ، فعظم

(١) الغور : جبال وولاية بين هراة وغزنة ، وهى بلاد واسعة موحشه. معجم البلدان ٦ : ٣١٣ ، وهى كما يقول ليسترنج : تؤلف اليوم قسما من أفغانستان . بلدان الخلافة الشرقية ص ٣٧٧ .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : إلى .

(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل الحسن بن الحسن ، وسوف ترد فى الصفحة التالية الحسين بن الحسين.

شأنه بمصاهرته وعلت همته ، فجمع جموعا كثيرة ، وسار إلى غزنة ليملكها ، وأظهر الخدمة والزيارة لبهرام شاه وهو يريد المكر فعلم به بهرام شاه ، فقبض عليه وسجنه ثم قتله ، فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الأخذ بثأره لتمكن الدولة الغزنويه ، ثم ملك بعد محمد أخوه سام بن الحسين ، فمات بالجدرى ، وملك بعده أخوه سورى ابن الحسين بلاد الغور ، وقوى أمره ، وتمكن فى مملكته ، فجمع العساكر ، وسار إلى غزنة طالبا لثأر أخيه محمد ، فلما وصل إليها وملكها فى جمادى (١) الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، فارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند ، وجمع جموعا كثيرة ، وعاد إلى غزنة : وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سورى قلوبهم مع بهرام شاه ، فلما التقوا انضم عسكر غزنة إلى بهرام ، وسلّموا إليه سورى وذلك فى المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، فصلبه بهرام شاه ، وكان سورى هذا من الملوك الأجواد الكرام ، حتى إنه كان يرمى الدراهم بالمقاليع ليتوصّل بذلك إلى راحة الفقراء ، ثم ملك بعده أخوه الحسين ابن الحسين هذا بلاد الغور ومدينتها فِيروزكُوه (٢) ، فسار فى سنة خمس وأربعين إلى مدينة هراة وحصرها ، وكان أهلها قد كاتبوه ، وطلبوه ليسلموها له هربا من ظلم الأتراك ، فلما حاصرها امتنع أهلها عليه ثلاثة أيام ، ثم سلموها له ، فدخلها ، وأظهر طاعة السلطان سنجر ابن ملكشاه السلجقى .

---

(١) فى ت : جمادى الأولى ، وكذلك فى الكامل حـ١١ ص ١٢ .

(٢) فيروزكوة : قلعة حصينة فى جبال غورستان بين هراة وغزنه ، وهما دار من يملك تلك النواحى . مراصد حـ٣ ص ١٠٥٦ .

ذكر الحرب بينه وبين السلطان سنجر

وفى سنة سبع وأربعين وخمسمائة كانت الحرب بين علاء الدين الحسين صاحب الغور وبين السلطان سنجر السلجقى ؛ وسبب ذلك أن علاء الدين هذا قوى أمره ، وكثرت أتباعه ، وتلفت وتعرّض إلى أعمال غزنة . وسار إلى بلخ ، فملكها ، فسار إليه السلطان سنجر فثبت له ، واقتتلوا ، فانهزمت الغُوريّه ، وأسر علاء الدين ، وقتل من أصحابه خلق كثير ، وأحضر بين يدى السلطان ، فقال له : يا حسين لو ظفرتَ بى ما كنت تصنعْ ؟ فأخرج له قيداً من الفضة ، فقال له : كنتُ أقيِّدك بهذا ، وأحملك إلى مدينة فيروزكوه . فخلع السلطان عليه ، ورده إلى فيروزكوه .

ذكر ملكه (١) غزنة ، وخروجه عنها ، وقتل اخيه

قال : ولما أطلقه السلطان سنجر أقام بفيروز كوه مدة حتى اجتمع له أصحابه ، وأصلح ما تشعّث من حال عسكره وقصد غزنة ، وملكها يوم ذاك بهرام شاه ، فلم يثبت له وفارقها إلى مدينة كرمان . وهى مدينة بين غزنة والهند ، وليست كرمان المشهورة بل غيرها ، وملك علاء الدين غزنة ، وأحسن السيرة فى أهلها ، واستعمل عليهم أخاه سيف الدين ، وأجلسه على تخت المملكة ، وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين بعده ، ثم عاد علاء الدين إلى بلد الغُور ، وأمر أخاه أن

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ملك .

يخلع على أعيان البلد خِلَعاً نفيسة ، ويصِلَهم بصلاتٍ سنية [١] ، ففعل ذلك وأحسن إليهم ، فلما جاء الشتاء ووقع الثلج ، وعلم أهل غزنة أن الطريق قد انقطع بينهم ، وبين الغُور كاتبوا بهرام شاه واستدعوه ، فسار نحوهم فى عسكره ، فلما قارب البلد ثار أهلها على سيف الدين ، فأخذوه بغير قتال ، وانهزم من كان معه ، فمنهم من نجا ومنهم من أخذ ، ثم سوّدوا وجه سيف الدين ، وأركبوه بقرة ، وطافوا به البلد ، ثم صلبوه ، وهجوه بالأشعار ، وغنى بها حتى النساء ، ثم توفّى بهرام شاه ، وملك بعده ابنه خسرو شاه ، فتجهز علاء الدين إلى غزنة فى سنة خمسين وخمسمائة [٢] ، فسار خسرو شاه إلى لهاوور وملك علاء الدين البلد ، ونهبها ثلاثة أيام ، وأخذ الذين أسروا أخاه ، وهم من العلويين ، فألقاهم من شواهق الجبال ، وأخرب المحلّة التى صُلِب فيها أخوه ، وأخذ النساء الذين تغنّين بهجو أخيه ، فأدخلهن حماما ، ومنعهن الخروج حتىّ متن فيه ، وأقام بغزنة حتى أصلحها ، ثم عاد إلى فيروزكوه ، ونقل معه من أهل غزنة خلقاً كثيراً ، وحملهم المخالى مملوءة ترابا ، فبنى قلعة فيروزكوه وتلقب بالسلطان المعظم وحمل [الجتر] [٣] على عادة السجلقية .

(١) هكذا فى ت ، و فى الأصل : مسنية .
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : خمس وخمسمائة .
(٣) فى الأصل : الخبر .

ذكر خروج غياث الدين وشهاب الدين ابنى أخى علاء الدين الحسين على عمهما وموافقته (١)

قال : لما قوى أمر عمهما علاء الدين استعمل العمال والأمراء على البلاد ، فكان ممن استعمل غياث الدين أبو الفتح محمد ، وأخوه شهاب الدين أبو المظفر محمد ابنا سام ، على بلد من بلاد الغور ، فأحسنا السيرة فى أعمالها ، واستمالا قلوب الناس ، فانتشر ذكرهما ، فسعى بهما إلى عمهما من حسدهما ، وأوهمه أنهما يريدان الوثوب به ، وقتله ، والاستيلاء على مُلكه ، فأرسل يستدعيهما فامتنعا ، وكانا قد علما الخبر ، فجهز إليهما عسكراً مع قائد من قوّاده ، فلما التقوْا انهزم عسكر عمهما ، وأسر القائد فأبقيا عليه ، وأحسنا إليه ، وأظهر العصيان على عمهما ، وقطعا خطبة ، فتوجه إليهما وسارا إليه ، والتقوْا واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم عسكر علاء الدين ، وأخذ أسيراً ، فأجلساه على التخت ، ووقفا فى خدمته ، ونادوا فى عسكره بالأمان ، فبكى عند ذلك ، وقال : هذان صبيان قد فعلا ما لو قدرت عليه منهما لم أفعله ، وأحضر القاضى ، وزوج غياث الدين بنتاً له ، وجعله ولى عهده بعده ، وبقى كذلك إلى أن مات ، وكان وفاته فى شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسمائة .

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : موافقة .

ذكر ملك سيف الدين محمد بن علاء الدين الحسين بن الحسين[١]

وهو الثانى من الملوك الغورية [٢] . ملك بعد وفاة أبيه ، وأطاعه الناس ، وراسل الملوك وهاداهم ، واستمرّ إلى أن قتل فى شهر رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وذلك أنه جمع عساكره وحشد فأكثر وسار من جبال الغور يريد الغُزّ ، وهو ببلخ فاجتمعوا له وتقدّموا إليه ، واتفق أنه خرج جريدة فى جماعة من خاصته ، فسمع به الغز فركبوا وأوقعوا به فقتل .

وكان ملكا عادلاً حسن السيرة ، فمن ذلك أنه لما ملك هراه أراد عسكره نهبها ، فنزل على درب المدينة ، وأحضر الأموال والثياب ، وفرقها فى عسكره ، وقال : هذا خير لكم من نهب أموال الناس ، فإن المَلِك يبقى على الكفر ولا يبقى [٣] على الظلم . رحمه الله تعالى .

ذكر ملك غياث الدين أبى الفتح محمد بن بسام ابن الحسين بن الحسن

وهو الثالث من الملوك الغورية . كان استقلاله بالملك بعد وفاة ابن عمه سيف الدين فى شهر رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وخطب له فى الغور ، وغزنة ، ثم ملك الغز غزنة منه ، وبقيت بأيديهم خمسة عشر سنة يصبون على أهلها العذاب ، ويتابعون الظلم ، هذا

---

(١) فى الأصل: الحسن ، وما أثبتناه موافق لما مر فى ص ٨٧، وأيضا لما سيجىء فى ص ١٢١ .

(٢) فى الأصل : الغزية ، والتصويب من السياق .

(٣) هكذا فى ت، وفى الأصل : « فإن الملوك تبقى على الكفر ولا تبقى على الظلم » .

وغياث الدين يحسن السيرة فى رعيته ، والناس يشكون إليه حالهم ، وهو يدبر ملكه إلى أن قوى أمره ، وكثرت أتباعه ، واشتد بأسه .

ذكر ملك غياث الدين غزنة

قال : ولما قوى أمر غياث الدين ، وتمكن فى ملكه ، وزاد طغيان الغز ، وأذاهم للناس ، جهز جيشا كثيفا مع أخيه شهاب الدين إلى غزنة ، وفيه أصناف الغورية ، والخراسانية ، والخَلج ، فساروا إليها ، فلقيهم الغزو اقتتلوا ، فانهزمت الغورية أولا ، ثم كانت الدائرة على الغُز ، فقتل أكثرهم ، ودخل شهاب الدين غزنة ، وتسلمها وأحسن السيرة فى أهلها ، وأفاض العدل ، وسار منها إلى كِرمان ، وسوران[1] ، فملكها ، ثم تعدى بعد ذلك إلى السند ، وقصد العبور ، إلى بلد ، وملك لهاوور ، وملكها يومئذ خسرو شاه بن بهرام شاه ، فسار فيمن معه إلى ماء السند ، فمنعه من العبور فرجع عنه ، وقصد خرشابور ، فملكها ، وما يليها من جبال الهند ، وأعمال [الأفغان][2] ورجع ..

ذكر ملك شهاب الدين لهاوور وانقراض الدولة الغزنوية

وفى سنة تسع وخمسين[3] وخمسمائة سار شهاب الدين إلى لهاوور فى جمع عظيم ، وحشد كبير ، فحصرها ، وتهدد أهلها إن

---

(١) سوران : مدينة كبيرة عليها حصون سبعة بعضها خلف بعض ، وهى ثغر من الغز والكيماك : أحسن التقاسيم ص ٢٧٤

(٢) فى الأصل : الإلدان .

(٣) فى ت : تسع وسبعين .

منعوه ، وبذل لخسرو شاه الأمان على أن يطأ بساطه ، ويخطب لأخيه فامتنع ، فلما طال الحصار خذله أهل البلد ، فطلب الأمان ، فأمنه شهاب الدين ، وحلف له ، ودخل الغورية البلد ، وبقى كذلك شهرين ، ثم جهز خسرو شاه هو وولده إلى أخيه غياث الدين كما ذكرناه فى أخبار الدولة الغزنوية .

قال : ولما كثرت جموع غياث الدين ، واتسعت مملكته كتب لأخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له ، وأن يذكر بالسلطنة ، ويلقبه بألقاب السلاطين ، وكان لقبه أولا شمس الدين ، ثم تلقب غياث الدين ، ولقب الآن غياث الدنيا والدين معين الإسلام قسيم[1] أمير المؤمنين ، ولقب أخاه عز الدين. قال : ولما استقر أمر « لهاوور » ، سار شهاب الدين إلى أخيه غياث الدين ، واتفقا على المسير إلى خراسان ، فقصد مدينة هراة ، فملكها واستناب بها ، وملك عدة من بلاد خراسان ، ورجع غياث الدين إلى مدينة فيروزكوه وشهاب الدين إلى غزنة .

ذكر مسير شهاب الدين الى الهند

قال وسار شهاب الدين إلى الهند ، وحاصر بلدا من بلادها ، وملكها ، وكان قد حصرها طويلا فلم يظفر منها بطائل ، فراسل زوجة الملك الهندي فى أن يتزوجها ، وكانت غالبة على أمر الملك ، فأعادت عليه الجواب أنها لاتصلح لذلك ، وأن لها ابنة جميلة تزوجه

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : قيم

بها ، فأجابها إلى ذلك ، فسقت زوجها سما ، فمات ، وسلمت إليه البلد ، فأخذ الصبيّة فأسلمت ، وتزوجها ، وحملها إلى غزنة ، ووكل بها من علمها القرآن ، وتشاغل عنها ، فتوفيت والدتها ، ثم توفيت بعد عشرة سنين ، ولم يرها ، فبنى لها مشهداً ، ودفنها فيه ، فأهل غزنة يزورون قبرها ، ثم عاد إلى بلاد الهند ، وملك كثيرا منها .

ذكر ظفر الهنود بالمسلمين

قال : ولما اشتدّت نكاية شهاب الدين فى بلاد الهند تجمع ملوكهم من كل جهة ، وتحالفوا على التعاضد ، والتناصر على حربه ، وجاءوا من كل فج عميق ، وركبوا الصعب والذلول ، وكان الحاكم على جميع الملوك امرأة من ملوكهم ، فلما سمع شهاب الدين باتفاقهم وتعاضدهم ، تقدم إليهم فى عسكر عظيم ، والتقوا ، واقتتلوا ، فانهزم المسلمون ، وقتل منهم خلق كثير ، وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده ، وضربة على رأسه سقط منها إلى الأرض ، وحجز الليل بين الفريقين ، ثم حمل شهاب الدين إلى مدينة أخيه على رؤوس الرجال ، فعمد إلى أمراء الغورية الذين انهزموا أن ملأ لهم مخالى خيلهم شعيرا ، وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم ، فأكلوه .

ذكر ظفر المسلمين بالهنود

قال : واتصل الخبر بغياث الدين أخى شهاب الدين ، فأمد المسلمين بالعساكر ، فرجع شهاب الدين إلى الهنود ، وجمع الهنود جموعا عظيمة ، وجددوا أسلحتهم ، ووفروا جموعهم ، وساروا بمَلِكَتهم فى عددٍ كثير ، فراسلها شهابُ الدين ، وخدعها أن يتزوّجها ، فلم تجبه إلى ذلك ، وقالت : إما الحرب ، وإما أن تسلّم بلاد الهند ، وتقتصر على ملك غزنة ، فأجابها إلى العوْد إلى غزنة ، وأن يرسل إلى أخيه فى ذلك ، وإنما فعل ذلك مكرا ، وكان بين العسكرين نهر ، وقد حفظ الهنود مخائِضَه ، وأقاموا ينتظرون جواب غياث الدين ، فجاء رجل من الهنود إلى شهاب الدين ، وأعلمه بمخاضته ، فاستوثق منه ، وجهّز جيشا فعبروا المخاضة والهنود على غِرّة ، فلبسوهم ، وكان مقدّم الجيش الحسين بن حرميل الغورى ، وهو الذى صار بعد ذلك صاحب هراة ، فوضع السيف فى الهنود ، فاشْتَغلوا به ، وأغفلوا المخائض ، فعبر شهابُ الدين وبقيّة العسكر ، ونادوا بشِعار الإسلام ، وأكثروا فى الهنود القتل ، فما سلم منهم إلا القليل ، وقتلت مِلكتهم ، وتمكن شهاب الدين بعد ذلك من بلاد الهند ، ودانت له ملوكها ، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة « دهلى » ، وهى كرسى الممالك التى فتحها من بلاد الهند ، وأرسل عسكرا مع محمد بن بختيار ، فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل إليها مسلم قبلهم ، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق ، ولعل ذلك كان فى سنة ثلاث وثمانين . وفى سنة ست وثمانين وخمسمائة كانت الحربُ

بين غياث الدين ، وسلطان شاه أخى خوارزم شاه . وذلك أن سلطان شاه تعرض إلى بعض بلاد غياث الدين ، وجمع عساكره ، والتقوا ، فانهزم سلطان شاه ، واستعاد غياث الدين بلاده [1] ، وعاد إلى غزنة .

ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارسى [2] الهندى

وفى سنة تسع [3] وخمسين وخمسمائة كانت الحرب بين شهاب الدين ، وبين ملك [بنارسى] ؛ وسبب ذلك أن قطب الدين أيبك لما أقطعه شهاب الدين مدينة دهلى أو غل فى بلاد الهند ، وقتل وسبى وعاد ، فبلغ ذلك ملك [بنارسى] ، وهو أكبر ملوك الهند ، وولايته من حدود الصين إلى بلاد ملاو طولا ، ومن البحر إلى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضا ، فجمع جيوشه ، وسار يطلب بلاد الإسلام ، ومعه سبعمائة فيل ، وقيل إن عسكره بلغ ألف ألف رجل ، وسار شهاب الدين نحوه ، فالتقى العسكران على جون [4] ، وهو نهر كبير يقارب دجلة ، فاقتتلوا ، فانتصر المسلمون على الهنود ، وكثر القتل فيهم والأسر ، وقتل ملكهم ، وغنم المسلمون منهم تسعين فيلا من جملتها فيل أبيض ، وباقى الفيلة قتل بعضها ، وانهزم بعضها ، ودخل شهاب

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : بلاد

(٢) فى ت : بيارسى ، وفى الأصل : بيارسى ، وما أثبتناه عن البيرونى ، وفى ص ١٥٩ .

(٣) ذكرها الكامل فى حوادث سنة ٥٩٠ ، وذكر تجهيز ملوكه قطب الدين فى حوادث سنة ٥٨٩ ، ولعله الصواب . وقد ذكر الكامل أيضا أن هذه الحرب كانت بين شهاب الدين . تاريخ الكامل ج ١٢ ص ٤٠ وما بعدها .

(٤) فى الأصل ماجون ، وفى ت : ساجون ، والصواب ما أثبتناه كما مر فى ص ٥٠ رقم (٤) .

الدين بلاد [بنارسى] وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل ، وعاد إلى غزنه . وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة . صار شهاب الدين إلى الهند ، وملك قلعة [1] بهنكر ، وهى قلعة عظيمة منيعة ملكها بالأمان ، ثم صار منها إلى قلعة كواكير ، وبينهما مسيرة خمسة أيام ، فأقام عليها شهرا ، وصالحه أهلها على مال ، فصالحهم على وسق فيل ذهبا ، فقبض المال ، ورحل عنها .

ذكر ملك الغورية مدينة بلخ

وفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ملك شهاب[2] الدين سام ابن محمد بن مسعود مدينة بلخ ، وسام هو ابن أخت غياث الدين ، وله باميان ، وكان صاحب بلخ [زاير] [3] يحمل الخراج إلى ملك الخطا بما وراء النهر ، فتوفى فى هذه السنة ، فسار شهاب الدين سام إلى بلخ ، وملكها ، وخطب فيها لخاله غياث الدين ، وفيها انهزم الخطا من الغورية .

ذكر ملك شهاب الدين وأخيه غياث الدين ماكان لخوارزم شاه بخراسان

وفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة ملكا ذلك . وسبب ذلك أن محمد بن حرميل نائب الغورية بالطالقان كان قد استولى على مرو الروذ [4] ، فكاتبه جقر التركى نائب خوارزم شاه بمرو أن يكون فى

---

(١) لعلها كالنجر التى مر ذكرها فى ص ٤٠ رقم (٤) .
(٢) فى الكامل ج ١٢ ص ٥٢ حوادث سنة ٥٩٢ : بهاء الدين سام .
(٣) فى ت : أزيك ، وفى الكامل ج ١٢ ص ٥٢ وكان صاحبها تركيا ، اسمه أزبك .
(٤) هكذا فى ت . وفى الأصل مرو والرود .

فى جملة عسكر غياث الدين ، ويفارق خدمة الخوارزمية ، فلما وصل الخبر إلى غياث الدين علم أنه ماقصد الانتماء إليه إلا لضعف صاحبه ، فطمع فى البلاد ، وجهز شهاب الدين من غزنة ، وسار لذلك ، فوصله كتاب جقر يستحثه على السير إليه ، يسلم إليه مرو ، فسار إليها ، فقاتله أهلها مع العسكر الخوارزمى ، ثم سألوا الأمان ، فكف عنهم ، وتسلم البلد ، ووعده جقر الجميل ، ثم حضر غياث الدين إلى مرو ، وسلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه ، وكان قد هرب من عمه إليه كما نذكره فى أخبار الخوارزمية ، ثم سار غياث الدين إلى مدينة سَرَخْس ، فأخذها صلحا ، وسلمها للأمير زنكى بن مسعود ، وهو من أولاد عمه ، وأقطعه معها «نسا» ، و «أبيورد» ، ثم سار إلى طوس فامتنع عليه أميرها ، وأغلق الأبواب دونه ثلاثة أيام ، فغلت الأسعار ، وبلغ الخبز ثلاثة أمناء بدينار ، فضجّ أهلُ البلد ، فطلب الأمان ، فأمّنه ، فخرج إليه فأكرمه ، وخلع عليه ، وسيره إلى هراة ، وملك البلد ، ثم أرسل إلى على شاه[1] أخى خوارزم شاه ، وهو ينوب عن أخيه بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ، ويحذره من المقام بها ، فامتنع عليه ، وحصّنَ البلدَ ، وخرب ما بظاهره من العمارة ، فسار شهاب الدين إليها ، فقدمها فى أول شهر رجب من السنة ، وقدم العسكر للحصار ، فملك البلد عنوة ، ونهبه عسكرُه ساعةً من نهار ، فبلغ الخبر غياث الدين ، فنادى من نَهب أو آذى فدمه حلال ، فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره ، وتحصن الخوارزميّون بالجامع ، فأخرجهم

(١) عبارة الكامل ص٦٤ ج١٢ حوادث سنة ٥٩٧ : « على شاه بن خوارزم شاه تكش ، وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور . وهو موافق لما سيجىء فى الصفحة التالية »

أهل البلد ، فنهب الغورية ما لهم ، وأحضِر على شاه بن خوارزم شاه إلى غياث الدين راجلا ، فأنكر ذلك على محضرِه ، وعظُم الأمر فيه ، وحضرت داية [1] كانت لعلى شاه ، وقالت لغياث الدين : هكذا تفعل بأولاد الملوك ، فقال : لا ، بل هكذا ، وأخذه بيده ، وأقعده معه على السرير ، وطيّب نفسه ، وسيّر جماعة من الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الاستظهار ، وولى غياث الدين ابن عمه ضياء الدين محمد بن على حرب خراسان ، وضم إليه وجوه الغورية ، ورحل إلى هراة ، وسلم على شاه لأخيه شهاب الدين ، وأحسن إلى أهل نيسابور ، وفرق فيهم مالاً كثيرا .

قال : ثم سّار شهاب الدين إلى ناحية قُهِستان ، فأخرب قرية للإسماعيلة ، وقتل من بها من الرجال ، ونهب الأموال ، وسبى الذرارى ، ثم سار إلى كتابان [2] ، وهى من مدن الإسماعيلة ، فحصرها ، فطلب أهلها الأمان ليخرجوا منها ، فأمنهم وأخرجهم ، وملك المدينة ، وسامها إلى بعض الغورية ، فأقام بها شعائر الإسلام ، فكتب صاحب قهستان إلى غياث الدين يقول له : إن بيننا عهدا ، فما الذى أوجب محاصرة بلادى؟ فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالرحيل عنها ، وقال له : ما لك ولرعيتى ، فامتنع من الرحيل ، فقال له الرسول : فإذاً أفعل ما أمرنى به غياث الدين ، وجبذ الرسول سيفه ، وقطع أطناب سرادق شهاب الدين ، فارتحل كارها ، وتوجه إلى الهند ، ولم يقم بغزنة غضبا على أخيه .

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : دابة .

(٢) كذا بالأصل ، ولعلها تكينا باده التى سبق التعريف بها فى حاشية ص ٧٠ من هذا الجزء .

ذكر ملك شهاب الدين أنهلوارة [١] من الهند

قال: ولما سار شهاب الدين من بلاد الإسماعيلية إلى الهند، أرسل مملوكه قطب الدين أيبك إلى أنهلوارة، فوصلها فى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، فقاتل عسكر الهند بها، فهزمهم، وملكها عنوة، وهرب ملكها، وجمع وحشد فعلم شهاب الدين أنه لا يستمر له ملكها إلا بمقامه بها لأنها من أعظم البلاد، فصالح على مال فى العاجل والآجل، وسلمها لصاحبها ولما توجّه شهاب الدين إلى الهند عاد خُوارزم شاه إلى البلاد، واسترجعها من أيدى غِياث الدين، وهرب هندوخان منه؛ وذلك فى بقية سنة سبع [٢] وتسعين وخمسمائة وسنة ثمان وتسعين.

ذكر وفاة غياث الدين وشىء من سيرته

كانت وفاته فى جمادى الأُولى سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فأُخْفِيت وفاته، وكان أخوه شهاب الدين بطوس، وقد عزم على قصد خوارزم [٣]، فأتاه الخبر بوفاة أخيه، فعاد إلى هراة، وجلس للعزاء فى شهر رجب، وخلف غياث الدين من الولد ابنه محمودا،

---

(١) فى الأصل: نهروالة، وقد مر تصحيحها فى ص ٦٣ حاشية (١).

(٢) هكذا فى ت. وفى الأصل سنه تسع وتسعين وخمسمائة وسنة ثمان وخمسين وهو ظاهر الخطأ.

هذا وقد جاء فى الكامل جـ١٢ ص ٦٧، ص ٦٨: «وجمع خوارزم شاه عساكره، وسار عن خوارزم نصف ذى الحجة سنة ٥٩٧هـ، فلما قارب نسا وأبيورد هرب هندوخان بن أخى ملكشاه من مرو إلى غياث الدين بفيروزكوه، وملك خوارزم شاه مدينة مرو.

(٣) فى الكامل جـ ١٢ ص ٧٠ حوادث سنة ٥٩٩هـ: على قصد خوارزم شاه.

وكان غياث الدين مظفَّرا منصورا فى حروبه لم تنهزم له راية ، وكان قليل المباشرة للحروب ، وإنما كان له ذكر ومكائد ، وكان جوادا ، كريما ، حسن الاعتقاد ، كثير الصدقات ، والأوقاف ، بنى المساجد ، والمدارس بخراسان للشافعية ، وبنى الخانكاهات ، وأسقط المكوس ، وكان عفيفا عن أموال الناس ، ومن مات فى بلاده ولا وارث له تصدّق بما يخلّفه ، ومن مات من التجار وله أهل بغير بلاده ، سلّم ما له لرفقته من التجار ، فإن تعذر ذلك سلّمه للقاضى إلى أن يصل مستحقّه ، وكان إذا وصل إلى بلد عمّ أهله بإحسانه ، سيما الفقهاء وأهل الفضل ، فإنه يخلع عليهم ، ويصلهم ، ويفرض لهم الأُعطِيات فى كل سنة من خزائنه ، وكان يراعى من يقصده من العلويين ، ويجزل صِلاتهم وكان حسن الخط ، ذا فضل وبلاغة ، وكان ينسخ المصاحف بخطه ، ويوقفها فى المدارس التى أنشأها ، ولم يظهر منه تعصب لمذهب على مذهب ، وكان يميل إلى الشافعية - لأنه متمذهب بمذهب الشافعى - من غير أن يطمعهم فى غيرهم ، ولا يعطيهم ما ليس لهم. رحمه الله تعالى .

ذكر استقلال شهاب الدين بالملك ومافعله مع ورثة اخيه

استقل شهاب الدين الغورى بالملك بعد وفاة أخيه غياث الدين فى شهر رجب سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وولّى ابن أخيه محمودا مدينة بُسْت ، ولقبه بلقب أبيه ، وجعله عن المُلْك بمعزل ،

ولم يحسن الخلافة عليه [١] بعد أبيه ، ولا على غيره من أهله ، فمن جملة ما فعله أن غياث الدين كان له زوجة مغنية [٢] ، فلما مات أخذها شهاب الدين ، وضربها ضربا مبرّحا ، وضرب ولدها ربيب غياث الدين ، وزوج أختها ، وأخذ أموالهم ، وسيّرهم إلى بلاد الهند على أقبح صورة ، وكانت قد بنت مدرسة ، ودفنت فيها أباها وأخاها ، فهدمها شهاب الدين ، ونبش قبور الأموات ، ورمى عظامهم ، وفعل ما يناسب هذه الأفعال الشنيعة ، وتوجه إلى الهند .

ذكر حصره خوارزم ، وانهزامه من الخطا

وفى شهر رمضان سنة ستمائة عاد شهاب الدين من بلاد الهند ، وقصد خُراسان . وسبب ذلك أنه بلغه أن خوارزم شاه حصر مدينة هراة ، فعاد من الهند حنقا عليه ، وقصد خوارزم [٣] ، فأرسل إليه خوارزم شاه يقول له : إما أن ترجع ، وإلا حاصرت هراة ، ومنها إلى غزنة ، وكان خوارزم شاه بمرو ، فأجابه شهاب الدين : لعلك تنهزم على عادتك أول مرّة ، ونحوارزمُ تجمعنا .

فسار خوارزم شاه من مرو إلى خوارزم ، فسبق شهاب الدين إليها ، وحرّق العلوفات التى فى الطريق ، وقطع الطرق بإجراء المياه ، فتعذّر على شهاب الدين سلوكها ، فأقام أربعين يوما حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم ، فخرج

---

(١) هكذا فى ت . وفى الأصل : إليه . والعبارة فى الكامل ج ١٢ ص ٧٠ .

(٢) كانت له زوجة كانت مغنيه ، وفى الأصل منيعة .

(٣) يعنى بها مدينة « خوارزم » ، وانظر الكامل ج ١٢ ص ٦٧ وما بعدها .

إليه خوارزم شاه ، والتقى العسكران بصوقرا[١] ، ومعناه : الماء الأسود ، واقتتلوا ، فأسر جماعة من الخوارزمية ، وأمر شهاب الدين بقتلهم ، وكان خوارزم شاه أرسل إلى ملك الخِطا يستنجد ، فسار من بلاده بما وراء النهر لقصد شهاب الدين ، فعاد عن خوارزم ، ولقى أوائل عسكر الخطا فى صحراء أيدى حوى[٢] فى أول صفر سنة إحدى وستمائة ، فقتل منهم وأسر ، ثم دهمه الخِطا فى اليوم الثانى ، فانهزم عسكره منهم ، وبقى شهاب الدين فى نفر يسير ، وقتل بيده أربعة من فيلته كانت قدعيت ، وأخذ الخطا فيلين ، ودخل شهاب الدين إلى أيدى حوى[٢] ، فحصره الخطا بها ، ثم صالحوه على فيل ثالث يعطيه لهم ، ففعل ، وخلص ، وشاع الخبر فى جميع بلاده أنه عَدِمَ ، ثم وصل إلى الطالقان فى سبعة نفر ، وقد قتل أكثر عسكره ، ونهبت خزائنه ، فأخرج إليه الحسن بن حرميل صاحب الطالقان خياما ، وجمع[٣] ما يحتاج إليه ، وسار إلى غزنة ، واستصحب معه الحسن بن حرميل لأنه بلغه أنه قصد الانضمام إلى خوارزم شاه ، فجعله شهاب الدين أمير حاجب ، قال : ولما وصل الخبر بقتله إلى غزنة ، جمع تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين ، وهو أول مملوك اشتراه أصحابه ، وقصد قلعة غزنة ليصعد إليها ، فمنعه مستحفظها ، فعاد إلى داره ، فلما وصل شهاب الدين إلى غزنة أمر بقتل الدز ، فشفع

(١) فى ت : بصبوق ، ولعلها : شبورقان : وهى بلده قرب بلخ . انظر البيهقى حاشية ص ٩٧ ، والمقدسى أحسن التقاسيم ص ٢٩٨ .

استبعد هذا ، وانظر : ما يقابل كلمه الماء الأسود فى اللغه التركية أو الفارسيه .

(٢) ، (٢) فى ت : أندى جوى ، وفى الكامل : اندخوى ج ١٢ ص ٧٢ حوادث سنة ٦٠٠هـ ، والذى بين أيدينا أند خوز : وهى : بلد بين بلخ ومرو . مراصد ج١ ص١٢٢ .

(٣) فى ت : وجميع ما يحتاج إليه .

فيه مماليك شهاب الدين ، فأطلقه ، وسار مملوك له اسمه أيبك كان قد سلم [١] من المعركة ، فلحق ببلاد الهند ، ودخل المولتان ، وقتل نائب السلطنة بها ، وملك البلد ، وأخذ الأموال السلطانية ، وأساء السيرة فى الرعية ، وأشاع قتل شهاب الدين ، فلما اتصل خبره بشهاب الدين سار إلى الهند ، وأرسل إليه عسكرا ، فأخذوه ، وقتل شرّ قِتلة ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة إحدى وستمائة ، وأمر شهاب الدين أن ينادى فى جميع بلاده بغزو الخطا .

ذكر قتل شهاب الدين بنى كركر [٢]

كان سبب ذلك أنه لما شاع قتل شهاب الدين خرجوا فى البلاد ، وأفسدوا ، وقطعوا الطريق ، وأخافوا [٣] السبيل ، فراسلهم قطب الدين أيبك ، فامتنعوا عليه ، فسار شهاب الدين من غزنة ، ووصل إليهم فى يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستمائة ، فاقتتلوا قتالا شديدا من أول النهار إلى العصر ، فبينما هو كذلك ، إذ أقبل أيبك نائبه بالهند ، فانهزم الكركرية ، ومن انضم إليهم ، وقتلوا بكل مكان ، وقصد من بقى منهم أجمةً هناك ، وأضرموا نارا ، وكان أحدهم يقول لصاحبه : لا تَنْزِل للمسلمين يقتلوك ، ثم يلقى نفسه فى النار ، فيلقى صاحبُه نفسه بعده ، فعمّهم البلاء ، وغنِم المسلمون أموالَهم وأهلِهم ، وهرب ابن كركر بعد قتل

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : أسلم .
(٢) فى الكامل ص ٨٠ ج ١٢ حوادث سنة ٦٠٢ : ذكر قتال شهاب الدين الغورى بنى كوكر .
(٣) هكذا فى ت . وفى الأصل : وخافوا .

إخوته وأهله ، وكان معهم صاحبُ قلعة الجودىّ ، ثم سار شهاب الدين نحو لهاوور ، فتقام بها إلى سادس عشر شهر رجب من السنة ، وعاد إلى غزنة .

ذكر مقتل شهاب الدين وشىء من سيرته

كان مقتله فى أول ليلة من شعبان سنة اثنتين وستمائة ، وذلك أنه لما عاد من لهاوور نزل بمنزلة يقال لها : دميل . بعد صلاة العشاء ، وكان بعض الكركريه لزموا عسكره ، وقد عزموا على قتله لما فعله بهم من القتل والأسر ، فلما كان فى هذه اللّيلة تفرّق عنه أصحابه ، وبقِى وحده فى خِركاه ، فثار أولئك النفر ، فقتل أحدهم بعض الحرس بباب السرادق ، فثار أصحابه ليبصروا ما به ، فَخَلَتْ مواقِفُهم ، وكثر الزحام ، فاغتنم الكركريّة غفلتَهم عن التحفّظ ، فدخلوا على شهاب الدين ، فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة ، فمات ، ودخل أصحابه عليه ، فوجدوه قتيلاً على مصلّاه ، وهو ساجد ، فقتلوا أولئك النَفَر الكركريّة ، وقيل إن الذى قتله الإسماعيلية لخوفهم من خروجه إلى خراسان .

وكان رحمه الله شجاعاً مقداماً ، كثير الغزو إلى بلاد الهند ، عادلاً فى رعيّته ، حسنَ السيرة فيهما ، حاكما بينهم بإحكام الشرع الشريف . حكى عنه . أنه لقى صبيا من العلويين عمره خمس سنين ، فدعا له الصبى ، وقال : لى خمسة أيام ما أكلتُ شيئا ، فعاد من الركوب لوقته والصبىُّ معه ، فنزل فى داره ، وأطعمه من أطيب الطعام بحضرته ، وأعطاه مالا ،

وسلّمه إلى أبيه ، وفرق فى العلويين مالا عظيما ، وكان شافعى المذهب رحمه الله تعالى .

ذكر ما اتفق بعد وفاة شهاب الدين

قال : ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الملك ابن خواجا (١) ، فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك ، وجعلوا شهاب الدين فى مِحفَة ، وساروا به ، فرتّب الوزيرُ الأمور ، وسكّن الناس ، وجعل الشمسيّة على المِحِفّة ، وحفّها بالحشم ، وكان شهاب الدين قد جمع أموالاً عظيمة من بلاد الهند فى سَفرته ، فكانت الخِزانة التى معه ألفى حمل ومائتى حمل ، وأعاد الوزير من كان معه من العسكر الهندى إلى خدمة قطب الدين ، فإن شهاب الدين كان قد جمع العساكر لقصد الخِطَا ، وفرق فيهم أموالا كثيرة ، وسار الوزير ومعه العسكر الغَزْنَوى ، وكان الوزير والأتراك يميلون إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين ، والأمراء الغُوريّة تميل إلى بهاء الدين سام صاحب بامِيان ، فأرسلت كل طائفة إلى من تميل إليه يعرفونه قتل شهاب الدين ، ثم سار الوزير والعسكر إلى أن وصلوا إلى كرمان المدينة التى بين لَهاوُور وغزنة ، وكان بها تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين ، فلما عاين المحفّة ترجّل ، وقبّل الأرض على عادته ، وتقدّم وكشف عن شهاب الدين ، فلما رآه قتيلا خرّق ثيابه ، وصاح ، وبكى ، وأبكى الناس ، وكان من أكبر المماليك الشهابية ، فطمع فى ملك غزنة ، فسأل

(١) عبارة الكامل : مؤيد الملك بن خوجا سنجستان . الكامل ص ٨٢ ج ١٢ حوادث سنة ٦٠٢ هـ ص ١٠٦ .

الوزير عن الأموال والسلاح والدواب ، فأخبره بما خرج من ذلك وما بقى ، فأنكر عليه ، وأساء جوابه ، وقال : إن الغُوريه قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب بامِيان ليملُكوه غزنة ، وقد كتب إلىَّ غياث الدين (١) ، وهو مولاى وابن مولاى ، يأمرنى ألّا أترك أحدا يقرب من غزنة ، وقد جعلنى نائبه فيها ، وفى سائر الوِلاية المجاوِرة لها لاشتغاله بخُراسان ، وقد أمرنى أيضا أن أتسلَّم الخِزانة منك ، فلم يقدر الوزير على الامتناع لميل الأتراك إلى الدز ، فتسلمها ، وسار بالمحفة إلى غزنة ، فدفن شهاب الدين بمدرسته ، وكان وصولهم إليها لثمان بقين من شعبان سنة اثنتين وستمائة .

ذكر مسير بهاء الدين سام صاحب باميان الى غزنة (٢) ووفاته

وبهاء الدين سام هذا هو ابن أخت غياث الدين ، وشهاب الدين ، وكانا قد ملكاه بامِيان ، فأحسن السيرة ، وأحبّه الأمراء الغُوريه ، وكاتبوه للحضور إلى غزنة ، فأعاد عليهم الجواب يأمرهم بحفظ البلد ، وأنه واصل إليهم ، وسار عن بامِيان مرحلتين ، فوجد فى رأسه صداعا اشتدَّ عليه ، فنزل وقد أيقن بالموت ، وأحضر ولديه : علاء الدين وجلالَ الدين ، وعهد بالملك إلى علاء الدين ، وأوصاهما بالأمراء الغورية ، ومات .

---

(١) غياث الدين محمود . الكامل ص ٨٣ ج ١٢ حوادث سنة ٦٠٢ هـ .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : غزوية .

ذكر ملك علاء الدين بن سام مدينة غزنة ، وأخذها منه

قال : ولما توفى بهاء الدين سام ، وعهد إلى ابنه علاء الدين ، سار إلى غزنه ، ومعه أخوه جلال الدين ، فتلقاهما الأمراء الغورية ، وخرج الأتراك [1] معهم على كره ، ونزلا دار السلطنة فى مستهل شهر رمضان سنة اثنتين وستمائة ، فأراد الأتراك منعهم ، فنهاهم الوزير عن ذلك لقلتهم ، واشتغال غياث الدين بابن حرميل صاحب هراة ، فاستقر علاء الدين ، وجلال الدين بدار السلطنة بالقلعة ، فراسلهما الأتراك أن يخرجا من الدار ، وإلا قاتلوهما ، ففرقا فيهم أموالا كثيرة واستحلفاهم [2] ، فحلفوا ، [واستبوا] [3] غياث الدين محمود ، فأنفذا خلعا إلى تاج الدين الدز ، ووعداه الجميل والحكم فى دولتهما ، فوصله الرسول ، وقد سار عن كرمان لقصد غزنة ، فرده أقبح رد ، وقال : قل لهما يخرجان من غزنة ، ويكتفيان بباميان ، فإنى لا أقدم أحدا على ولد سيدى غياث الدين ، ولم يقصد الدز بذلك حفظ البيت وإنما أراد التمهيد لنفسه ، فعاد الرسول ، وأبلغهما مقالته ، ووصل الدز إلى غزنة ، فخرج إليه الغوريه ، والتقوا فى خامس شهر رمضان ، فانحاز إليه الأتراك ، وخدموه ، فهزموا الغوريه ، ودخل العسكر المدينة ، ونهبوا دور الأمراء الغورية [4] ، والباميانية ، وحصر الدز القلعة ، فخرج جلال الدين منها إلى باميان فى نحو عشرين فارسا ليجمع العساكر ،

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : الأمراء .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : واستحلفوهم .

(٣) فى الأصل : وأسسوا ، وفى ت : وأسلبوا ، وما أثبتناه عن الكامل ج ١٢ ص ٨٥ حوادث سنة ٦٠٢ هـ موافقة السياق .

(٤) الزيادة من ت .

وأوصى أخاه علاء الدين بحفظ الحصن ، فشدد عليه الدز الحصار ، وضيق عليه ، فأجاب إلى مفارقة الحصن ، وحلف الدز أنه لا يؤذيه ، وسار علاء الدين من غزنة ، فلما رآه الأتراك نهبوا ما كان معه ، وألقوه عن فرسه ، وأخذوا ثيابه ، وتركوه عريانا بسراويل ، فبلغ الدز الخبر ، فأنكر عليهم ، وأرسل إليه بثياب ودواب ومال ، واعتذر إليه (١) ، فأخذ ما لبسه ، ورد الباقى ، ولما وصل إلى باميان لبس ثياب سواد ، وركب حمارا ، فأخرجوا له المراكب الملوكية والملابس ، فلم يلبس ولم يركب ، وقال : أريد أن يرانى الناس على هذه الحال ، وماصنع بى أهل غزنة ، حتى إذا عدت إليها وخربتها ونهبت أهلها لا يلومنى أحد ، ودخل دار الإمارة ، وشرع فى جمع العساكر .

ذكر ملك تاج الدين الدز غزنة

قال : ولما توجّه علاء الدين من غزنة ، أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين إلا أنه لم يأمر بالخطبة له ولا لغيره ، إنما : يخطب للخليفة ، ويترحم على شهاب الدين فحسب ، فلما كان فى سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والقراء والمقدمين ، وأحضر رسول الخليفة ، وهو مجد الدين أبو على بن أبى الربيع مدرس النظامية ، وكان قد حضر برسالة من دار الخلافة إلى شهاب الدين ، فوجده قد قتل ، وركب الدز والناس فى خدمته ، وعليه ثياب الحزن ، وجلس فى دار السلطنة فى غير المجلس الذى كان

(١) الزيادة : من ت .

يجلس فيه مولاه شهاب الدين ، [فتغير] (١) الناس عليه ، وتنكروا له ، فإنهم أنما كانوا يطيعونه لإظهاره طاعة غياث الدين محمود ، فلما استقل بالأمر خالفوه ، ففرق فيهم الأموال والإقطاعات ، واستعان على ذلك بالخزانة التى أخذها عند مقتل شهاب الدين ، وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد الملوك الغورية ، وغيرهم من الأكابر ، فأنفوا من خدمته ، واستأذنوه على اللحاق بغياث الدين ، فأذن لهم ، فلحق بعضهم به ، وبعضهم بأصحاب باميان ، وأرسل غياث الدين إلى الدز يشكره على مافعل ويطالبه (٢) بالخطبة له ، ونقش السكة باسمه ، فلم يفعل ، وغالط فى الجواب ، وطلب منه أن يخاطب بالملك ، وأن يعتقه من الرق ، وأن يزوج بن غياث الدين ، بابنة الدز ، فلم يجبه إلى ذلك : قال ، ولما ملك الدز غزنة أحضر مؤيد الملك الوزير ، وألزمه الوزارة ، فوزر على كره منه .

ذكر حال غياث الدين محمود بن غياث الدين بعد مقتل عمه شهاب الدين

قال : لما قتل شهاب الدين كان غياث الدين هذا «ببُست» فى إقطاعه ، فبلغه الخبر ، وكان شهاب الدين قد ولى الملكَ علاء الدين محمد بن أبى على بلاد الغُور ، وغيرها مما يجاورها ، فلما بلغه قتل شهاب الدين ، سار إلى مدينة : « فيروزكوه » ؛ خوفا أن يسبقه

(١) فى الأصل فعبر : وعبارة الكامل ج ١٢ ص ٨٦ : فتغيرت نيات كثير من الأتراك.
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ويقابله .

غياث الدين إليها[١] ، فملكها ، وكان حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية إلا أن الناس كرهوا منه أنه كان كرّاميا ، وكانوا يميلون إلى غياث الدين ، فأنف الأمراء من خدمة علاء الدين مع وجود ابن سلطانهم ، وكان علاء الدين هذا قد أحضر الناس ، وحلفهم أنهم يساعدونه على قتال خوارزم شاه ، وبهاء الدين صاحب بامِيان ، ولم يذكر غياث الدين احتقارا له ، فحلفوا له ولولده من بعده ، هذا وغياث الدين بمدينة بُسْت لم يتحرك انتظارا لما يكون من صاحب بامِيان لأنهما كانا قد تعاهدا فى أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين ، وغزنة والهند لبهاء الدين صاحب بامِيان ، بعد موت شهاب الدين ، فلما بلغه ما اتفق من وفاة بهاء الدين وإخراج أولاده من غزنة جلس على التخت ، وخطب لنفسه ، وتلقب بألقاب والده ، وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبى على ، وهو بفَيْروزكوه يستدعيه ، ويستعطفه ليصدر[٢] عن رأيه ، ويسلم مملكته إليه ، وكتب إلى الحسن بن جرميل وإلى هراة مثل ذلك ، فأما علاء الدين فأغلظ له[٣] فى القول وتهدّد الأمراء الذين مع غياث الدين ، فسار غياث الدين إلى « فيروزكوه » ، فأرسل علاء الدين عسكرا مع ابنه ، وفرق فيهم أموالا جمة ليمنعوا غياث الدين ، فلقوه بالقرب من فيروزكوه ، فلما تراءى الجمعان كشف إسماعيل الخلَجى المغفرَ[٤] عن رأسه ، وقال : « الحمد

(١) الزيادة : من ت .
(٢) فى الكامل ج ١٢ ص ٨٧ : ليصده عن رايه .
(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : فأغلظه .
(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : المعفر .

لله إذ[1] الأتراك الذين لم يعرفوا أباهم لم يضيعوا حق التربية »، وردّوا ابنَ ملك باميان ، وأنتم مشايخ الغورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان وربّاكم ، كفرتم إحسانه ، وجئتم لقتال ولده أهذا فعل الأحرار ، فقال محمد المرغنى ، وهو مقدم العسكر : لا والله وترجل عن فرسه ، وألقى سلاحه ، وقصد غياث الدين ، وقبل الأرض بين يديه ، وبكى بصوت عال ، وفعل سائر الغورية مثل فعله ، فانهزم خواصّ علاء الدين مع ولده ، فلما بلغه الخبر خرج عن فَيرُوزكوه هارباً نحو الغور ، وهو يقول : أجاور بمكة ، فأنفذ غياث الدين خَلْفَه من العسكر من أدركه ، فأُخذ وحُبس ، وملك غياث الدين فيروزكوه ، وفرح به أهل البلد ، وقبض على جماعة من الكرّاميّه أصحاب علاء الدين ، فقتل بعضهم ، وسكن دار أبيه ، وأعاد رسومه ، وسلك سبيل العدل والإحسان ، ثم لم تكن له همة إلا فى أمر الحسن بن حرميل ، وملاطفته ، فتكررت المكاتبات منه إليه ، وابن حرميل يغالظه[2] فى الجواب ، ويطاوله ، وكان ابن حرميل[3] قد كتب إلى خوارزم شاه بالانحياز إليه ، وبذل الطاعة ، وأنه يسلم إليه هراة ، فكان من أمره ما نذكره فى أخبار الدولة الخوارزمية من انضمام بن حرميل إلى خوارزم شاه ، وملكه ما كان للغورية بخراسان ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) فى الكامل ج ١٢ ص ٨٨ : ... إن الأتراك الذين لم يعرفوا آباءهم ... الخ

(٢) فى ت : يغالطه .

(٣) فى ت : جرميل ، وفيها تصحيف واضح .

ذكر عود علاء الدين وجلال الدين ابنى بهاء الدين سام صاحب باميان الى غزنة

قال : ولما فارق علاء الدين غزنة على الصِّفة التى ذكرنا ها ، والتحق بباميان ، شرع فى الاستعداد وجمع العساكر لقصد غزنة ، وأما الدزّ ، فإنه استولى على غزنة ، وأحسن إلى الناس ، وبسط العدل والإنصاف ، ولم يخطب لنفسه ولا لغيره ، وكان يعد الناس ، ويقول : إن رسولى عند مولاى غياث الدين ، فإذا عاد خطبت له ، فتمسك[1] الناس بقوله ، وإنما كان يفعل ذلك مكرا وخَديعة بهم وبغياث الدين لأنه كان يضعف عن مقاومة صاحب باميان ، وكانوا كذلك[2] إلى خامس ذي القعدة سنة اثنتين وستمائة ، فبينما الناس على ذلك إذ ورد عليهم الخبر أن صاحب باميان قد جمع الجيوش ، وأقبل بها ، وعزم على نهب غزنة ، فجهز الدز جيشا كثيفا من عسكره ، وسيرهم إلى طريق صاحب باميان ليمنعوه من الوصول إلى غزنة ، فلم يكن لهم قِبلٌ به ، فلما التقوا قتل من الأتراك جماعة ، وانهزم من سلم ، وتبعهم علاء الدين يقتل ويأسر ، فخرج الدز من غزنة هارباً إلى كرمان ، فنزل علاء الدين غزنة ، واتبع الدز إلى كرمان ، فملكها ، وأمّن أهلها ، وعزم على العود إلى غزنة ، ونهبها ، فراسله رسول الخليفة ، وشفع فى أهلها ، فشفّعه فيهم بعد مراجعات ، ثم وصل علاء الدين ، وجلال الدين إلى غزنة ، ومعهما ما بقى من الخزانة التى كان الدز

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : خطب له تمسك .
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : الذلك .

قد أخذها من الوزير مؤيد الملك ، فكانت تسعمائة حِمل ، وفيها من الثياب المنسوجة بالذهب اثنا عشر ألف ثوب ، وقصد علاء الدين أن يستوزِر مؤيّد الملك ، فسمع جلال الدين بذلك فأحضره ، وخلع عليه ، واستوزره ، فغضب علاء الدين من ذلك ، وقبض على مؤيد الملك ، وقيده وحبسه ، فتغيرت نيّات الناس ، واختلف علاء الدين ، وجلال الدين ، واقتسما ما كان فى الخزانة وجرى بينهما مُشَاحَّة[1] فى القسمة لا تجرى بين التجار ، فعلم الناس أنه لا يتم لهما أمر ، ولا يستقيم لهما دولة ، وعاد جلال الدين ببعض العسكر إلى باميان ، واستقر علاء الدين بغزنة ، فأساء وزيره عماد الملك السيرة فى الأجناد والرعية ونهب أموال الأتراك حتى باع أمهات الأولاد .

ذكر عود تاج الدين الدزالى غزنة

قال : ولما انفرد علاء الدين بغزنة ، وأقام بها جمع الدز جمعا كثيرا من الأتراك ، وعاد إلى كرمان ، وبها عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له المؤيد ، وكان المؤيد قد اشتغل باللهو واللعب ، فلم يشعر إلا وعسكر الدز قد هجم على البلد[2] ، وقتل من فيه من العسكر عن آخرهم فى المعركة صبرا ، وقتل المؤيد ، فوصل الخبر إلى غزنة فى العشرين من ذى الحجة من السنة ، فصلب علاء الدين الذى جاء بالخبر ، فتغيمت السماء وأمطرت حتى خرب بعض غزنة ، ووقع بَرَدٌ كبار مثل بيض الدجاج . فضج الناس إلى علاء الدين ، فأنزله آخر

(١) فى الكامل ج ١٢ ، ص ٩١ ، مشاحنة .
(٢) فى الأصل : هجم البلد .

النهار ، فانكشفت الظلمة ، وكتب علاء الدين إلى أخيه جلال الدين يعلمه بالخبر ، ويستنجده ، ووصل الدز آخر ذى القعدة إلى غزنة ، وحاصر القلعة ، وكان بينه وبين علاء الدين قتال شديد ، وجاء جلال الدين بأربعة آلاف من عسكر بامِيان ، فلقيه الدز بقرية [بَلْق[1]] واقتتلوا ، فانهزم عسكر جلال الدين ، وأخذ هو أسيرا ، وأسر من البامانية ألف أسير ، وعاد الدز إلى غزنة ، فبعث إلى علاء الدين فى تسليم القلعة أو قتل الأسرى ، فامتنع من التسليم فقتل منهم أربعمائة بإزاء القلعة ، فراسله عند ذلك فى طلب الأمان ، فأمنه ، فلما خرج قبض عليه ووكل به وبأخيه [من يحفظهما] [2] وقبض على وزيره عماد الملك ، وكتب إلى غياث الدين بالفتح ، وأرسل إليه الأعلام ، وبعض الأسرى وذلك فى صفر [سنه ٦٠٣] [3]

ذكر ما اتفق لغياث الدين محمود مع تاج الدين الدز وأيبك [4]

قال : ولما عاد الدز إلى غزنة كتب إليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له ، فأجابه جواب مدافع ، وكان جوابه أشد مما تقدم ، فأعاد عليه الجواب يقول : إما أن تخطب لنا ، وإما أن تعرفنا ما فى نفسك ، فلما وصل إليه الرسول خطب لنفسه بغزنة بعد الترحم على شهاب الدين ، فساء الناس ذلك منه ، وتنكروا له ، ولم يروه أهلا

(١) فى الأصل : تلف ، وفى ت : تلف ، وفى الكامل ص ٩٢ ج ١٢ حوادث سنة ٦٠٢ هـ : بلق ، وهو الصواب . وبلق ناحيه بغزنة ، مراصد الاطلاع ج١ ص ٢١٩ .

(٢) ، (٣) الزيادة من الكامل ص ٩٢ ج ١٢ حوادث سنة ٦٠٢ هـ .

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : أبيك .

أن يخدموه ، ولما خطب لنفسه أرسل إلى غياث الدين يقول : بماذا تشتط[1] على هذه الخزانة ، نحن جمعناها بأسيافنا ، وهذا الملك قد أخذته ، وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة ، وأقطعتهم الإقطاعات ، ووعدتنى بأمور لم تفِ لى بشىء منها ، فإن أنت عتقتنى خطبت لك ، وحضرت إلى عندك ، فأجابه غياث الدين إلى العتق بعد الامتناع ، وأشهد عليه بعتقه ، وبعتق قطب الدين أيبك النائب ببلاد الهند . وأرسل إلى كل منهما ألف قباء ، وألف قلنسوة ، ومناطق الذهب ، وسيوفا كثيرة ، وجِتْرَيْن ، ومائة رأس من الخيل ، فقبل الدز الخلع ، ورد الجتر ، وقال : نحن عبيدك ، والجتر له أصحاب ، وسار رسول أيبك ، وكان « بفَرشابور[2] » ، وقد حفظ المملكة ، وضبط البلاد ، فلما قرب الرسول منه تلقاه ، وترجل وقبل حافر الفرس ، ولبس الخلعة ، وقال : أما الجتر فلا يصلح للمماليك ، وأما العتق فمقبول ، وسوف أجازيه بعبودية الأبد . قال : وأرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا ، وأنه يسير إليه العساكر إلى غزنة ، فإذا ملكها من الدز اقتسموا المال أثلاثا ، ثلث له ، وثلث لغياث الدين ، وثلث للعسكر ، فأجابه غياث الدين إلى ذلك ، ولم يبق إلا الصلح ، فوصل الخبر إلى خوارزم شاه بموت صاحب مازَنْدران ، فسار عن هراة إلى مرو ، وسمع الدز بالصلح ، فجزع لذلك جزعا عظيما ، ظهر أثره عليه ، وأرسل إلى غياث الدين

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : تسقط .

(٢) فرشابور : مدينة وولاية واسعة من أعمال طاور بينها وبين غزنه .

يقول له[١] : ما حملك على هذا فأجابه : حملني عليه عصيانك وخلافك ، فسار الدز إلى [تكينا باد][٢] فأخذها ، وإلى بست وتلك الأعمال ، وقطع خطبة غياث الدين عنها ، وأرسل إلى صاحب سجستان يأمره بإعادة الترحم على شهاب الدين ، وقطع خطبة خوارزم شاه ، وأرسل إلى ابن حرميل صاحب هراة بمثل ذلك ، وتهددهما بقصد بلادهما . ثم إن الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان [من أسره][٣] ، وسير معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز[٤] لإعادته إلى ملك باميان ، وكان قد ملكها عباس عم جلال الدين ، وعلاء الدين لما أسرهما الدز ، فاسترجعها من عمه .

قال : وبلغ قطب الدين أيبك ما فعله الدز ، فكتب إليه يفتح ذلك عليه ، وينكر فعله ، ويقول : إن لم تخطب له بغزنة ، وتعود إلى طاعته ، وإلا قصدت بلادك ؛ ثم بعث أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتحف ، وأشار عليه بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلبه الآن ، وأنه عند الفراغ من أمر غزنة يسهل أمر خوارزم شاه وغيره ، قال : وخالف أيدكز على الدز ، فأقام بكابل ، وكتب إلى أيبك يعرفه مخالفته له ، وانتصاره لغياث الدين فصوب رأيه ، وأشار عليه بقصد غزنة فى غيبة الدز ، فإن حصلت له القلعة يقيم بها إلى أن يأتيه ، وإن تعذرت عليه ينحاز إلى غياث الدين ، أو يعود إلى كابل ، فوصل أيدكز إلى غزنة فى أول شهر رجب

(١) الزيادة من ت .

(٢) فى الأصل : تكماناد . وقد تقدمت فى ص ٧٠ من هذا الجزء .

(٣) الزيادة من الكامل ص ٩٧ ج ١٢ حوادث سنة ٦٠٣ هـ ، وأثبتناها ليستقيم المعنى .

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : أيدكر ، وسترد فى هذه الصفحة أيدكز . وانظر الكامل ص ٩٧ ج ١٢ .

سنة ثلاث وستمائة ، فمنعوه القلعة ، فأمر أصحابه بنهب البلد فنهبوا عدة مواضع ، فتوسط القاضى بينهم أن يسلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية [١] ، وأخذ له من التجار شيئا آخر ، وخطب أيدكز بغزنة لغياث الدين محمود ، وقطع خطبة الدز ، ففرح الناس لذلك ، واتصل الخبر بالدز ، ووصل إليه رسول أيبك ، فخطب لغياث الدين فى تكيناباد[٢] ، وأسقط اسمه من الخطبة ، ورحل إلى غزنة ، فلما قاربها فارقها أيدكز إلى بلد الغور ، وأقام فى نمران ،[٣] وكتب إلى غياث الدين [محمود] [٤] ، يخبره بحاله ، وأنفذ إليه المال الذى أخذه من الخزانة والتجار بغزنة ، فأرسل إليه خلعا سنية ، وأعتقه ، وخاطبه بملك الأمراء ، ورد عليه مال الخزانة[٥] ، وقال له : أما مال الخزانة ، فقد أعدناه إليك ، وأما أموال التجار وأهل البلد فقد أرسلناها إلى أربابها لئلا تقبح دولتنا بالظلم ، وقد عوضتك عنها ضعفيها ، وأرسل أموال الناس إلى القاضى بغزنة ، وأمره بردها على أربابها ، ففعل ذلك ، وكثر الدعاء له ، وصار الدز بين الطاعة والخلاف لغياث الدين .

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل هكذا (ركسه) .

(٢) فى الأصل تكناباذ ، وفى ت تكناباذ ، وانظر ما مر فى ص ٧٠ من هذا الجزء .

(٣) لم نعثر على نمران ، ولعلها : نميزان ، وهى إحدى قرى هراة . مراصد ص ١٠٠٧ ج ٢ .

(٤) زيادة من ت .

(٥) هكذا فى ت ، وفى الأصل : مالى .

ذكر مقتل غياث الدين محمود ، وانقراض الدولة الغورية

كان مقتله فى سنة خمس وستمائة . وسبب ذلك أن خوارزم شاه سلم هراة إلى خاله أمين [١] ملك ، وأمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام [٢] ، ويقبض عليه ، وعلى على شاه بن خوارزم شاه ، ويأخذ فيروزكوه ، فسار أمين ملك إلى فيروزكوه ، واتصل الخبر بغياث الدين ، فبذل الطاعة ، وطلب الأمان ، فأمنه ، فلما نزل إليه من فيروزكوه قبض عليه ، وعلى على شاه أخى خوارزم شاه ، فسألهما أن يحملهما إلى خوارزم شاه ليرى فيهما رأيه ، فأرسل أمين [٢] ملك إلى خوارزم شاه يعرفه الخبر ، فأمره بقتلهما ، فقتلا فى يوم واحد ، واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه . وانقرضت الدولة الغورية بقتل غياث الدين هذا . وكانت من أحسن الدول ، وأكثرها جهادا ، وكان غياث الدين هذا عادلا كريما حليما ، من أحسن الملوك سيرة ، وأكرمهم أخلاقا ، وهو آخر ملوك الدولة الغورية ، وكان ابتداء هذه الدولة من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وانقراضها فى سنة خمس وستمائة ، فتكون مدتها ثلاثا وستين سنة تقريبا ، وربما ظهرت قبل هذا التاريخ ، وإنما انتشرت واشتهرت وتمكنت فى سنة ثلاث وأربعين . فلذلك جعلنا ابتداءها فيها . وعدة من ملك منهم عشرة ملوك ، وهم محمد بن الحسين وهو بن الحسن ملك ببلاد الغور قبل سنة ثلاث وأربعين ، ولم أظفر بابتداء ملكه ،

---

(١) فى ت : أمير ملك ، وهو موافق للكامل ص ١٠٤ ج ١٢ .

(٢) الزيادة من ت .

فاذكره فى سنته ، ثم ملك بعده أخوه سامُ بن الحسين ، ثم ملك بعده أخوه سُورى بن الحسين ، ثم ملك بعده أخوه الحسين ، وهو أول من علا ذكره ، وطار اسمه ، وتمكّنت دولته ، ثم ملك بعده ابنهُ سيف الدين محمد بن الحسين ، ثم ملك بعده غياث الدين أبو الفتح محمد ابن سام بن الحسين ، ثم ملك بعده شهاب الدين محمد بن سام ، ثم اضطرب أمر الدولة الغورية بعده ، فملك علاء الدين ، وجلال الدين ابنا بهاء الدين سام صاحب باميان ، ولم تطل مدّتهما . وإنما ذكرناهما فى عدد الملوك الغورية ؛ لأنهما استوليا على غَزْنة ، وخطب لهما بها ، وملك غياث الدين محمد ، وكانت دولته فى غاية الاضطراب كما ذكرنا .

ذكر أخبار تاج الدين الدز ، وماكان من أمره بعد مقتل غياث الدين

استقبل تاج الدين الدز بملك غَزْنة بعد مقتل غياث الدين محمود ، وأحسن السيرة فى الرعية ، ودام ملكه بها إلى أن ملكها السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن رتكش [1] فى سنة ثنتى عشرة وستمائة [2] على ماذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الخوارزمية ، ولما ملكها خوارزم شاه هرب تاج الدين الدز من غزنة ، وسار إلى مدينة « لهاوور » ، واستولى عليها من صاحبها ناصر الدين قباجة

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : تكين ، وما أثبتناه موافق لمرآة الزمان ، قسم ص ٤٧١ حوادث سنة ٥٩٥ هـ . وأيضا لشذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٤ حوادث سنة ٥٩٦ هـ .
وقدمرت (تكش) ، فى ص ٩٦ من هذا الجزء .

(٢) فى مرآة الزمان : أن خوارزم شاه توفى سنة ٥٩٥ هـ ، وفى شذرات الذهب أنه توفى سنة ٥٩٦ هـ .

وهو من المماليك الشهابية بعد حرب كانت[1] بينهما انتصر فيها الدز ، ثم سار من مدينة لهاوور إلى الهند ليملك ما بيد المسلمين منها ، فلقيه شمس الدين الترمش مملوك قطب الدين أيبك ، وكان قد ملك بعد وفاة مولاه ، فاقتتلا قتالا شديدا ، أجلت الحرب عن قتل تاج الدين الدز ، وكان محمود السيرة فى ولايته ، كثير العدل والإحسان إلى رعيته ، لاسيما التجار الغرباء ، ومن محاسن أعماله ومكارم أخلاقه وحلمه أنه كان له أولاد ، ولهم مؤدِّب يعلمهم القرآن ، فضرب أحدهم ، فمات ، فأحضره الدز ، وقال له : يا مسكين ما حملك على ما فعلت ، فقال : والله ما أردت إلا تأديبه ، فمات . فقال له : صدقت ، وأعطاه نفقة ، وقال له : تغيّبْ ، فإن أمّه لا تقدر على الصبر ، وربما أهلكتك ، ولا أقدر أمنعك ، وهذا نهاية الحلم ، ولم يشتهر الأحنف بن قيس بالحلم بأكثر من هذا ، وكان القاتل ابن أخيه ، وهذا أجنبي رحمه الله تعالى .

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : كان .

الباب العاشر
من
القسم الخامس من الفن الخامس
فى أخبار ملوك العراق ، وما والاه
وملوك الموصل والديار الجزيرية ، والبكرية [١] والبلاد الشامية ، والحلبية ، والدولة الحمدانية ،والديلمية البويهية، والسلجوقية ، والأتابكية .

ذكر أخبار الدولة الحمدانية

وهذه الدوله كانت بالموصل . وديار ربيعة ، وديار بكر ، والثغور ، وحلب ، وجد ملوكها الذين ينسبون إليه هو مكابد المحل حمدان بن الحارث بن لقمان بن راشد بن رافع بن مسعود التغلبى [٢] العدوى ، وإنما سمى الأمير حمدان مكابد المحل لأن الموصل أجدبت فى بعض السنين حتى عدم القوت بها ، فمات الناس أجمع سنتين إلى أن أغيثوا ، ففيه يقول الشاعر :

مازلتَ فى قَيْظِ المعيشَةِ جاهداً
حتّى دُعيتَ مُكابِدَ المَحْـلِ

(١) فى ت : والتكرية .
(٢) الثعلبى فى الأصل ، وأيضا فى ت ، وما أثبتناه نقلا عن الأعلام للزركلى جـ ٥ ص ٣٠٥ .

وكان لحمدان أبناء كثيرون . منهم الأمير أبو الهيجاء عبد الله ، والمملكة فى أولاده .

ذكر ابتداء امارة أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون بالموصل

كان ابتداء إمارته فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين . وذلك أن الخليفة المكتفى[١] بالله استعمله على الموصل وأعمالها فى هذه السنة، فسار إليها وقدمها فى[٢] أول المحرم ، فأقام بها يوماً واحدا ، وخرج من الغد بمن قدم معه وبمن فيها ، فأتاه الصريخ من نِينَوَى أن الأكراد [الهذانية][٣] ، ومقدمهم محمد بن بلال قد أغار على البلد ، فسار من وقته ، وعبر الجسر إلى الجانب الشرقى ، فلحق الأكراد بالعروبة على [الخازِر][٤] ، فقاتلوه فقُتلَ رجلٌ من وجوه أصحابه اسمه سيما الحمدانى ، فعاد عنهم ، وكتب إلى الخليفة يستمده ، فأتته العساكر بعد شهور ، فسار فى شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين إليهم ، وكانوا قد اجتمعوا فى خمسة آلاف بيت ، فلما عاين الأكرادُ الجيشَ قصدوا جبل السَّلْق ، وامتنعوا به وهو جبلٌ عالٍ مشرفٌ على الزاب ، وجاء مقدمهم إلى أن قرب من أبى الهيجاء ، وراسله فى الحضور عنده ،

(١) هكذا فى ت، وفى الأصل: المستكفى، وهو خطأ ظاهر؛ لأن المستكفى توفى سنة ٣٣٣هـ . انظر معجم الأنساب، والأسرات الحاكمة لزامباور ص٣ ج١ .

(٢) زيادة من ت .

(٣) فى الأصل: الهدانية ، وفى الكامل : الهذانية، وما أثبتناه نقلا عن النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ص ١٢ ج ٦ .

(٤) فى الأصل الحادر ، وفى ت : الحاذز ، والخازر : نهر بين إربل والموصل ، ثم بين الزاب الأعلى والموصل . مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٤٥ .

وأن يرهن أولاده عنده ، ويتركون القتال ، فأجابه أبو الهيجاء إلى ذلك ، ورجع محمد بن بلال ليأتى بالرهائن ، فحثّ أصحابه على المسير نحو أذربيجان ، فبلغ بن حمدان خبره ، فأراه النجدة التى وصلت إليه من قِبل الخليفة على المسير معه ، فتثبطوا عنه ، فسار عبد الله بأصحابه يقفوا أثر الأكراد ، فلحقهم وقد تعلقوا بالجبل المعروف بالقنديل ، فقتل منهم جماعة ، وانصرف عنهم ، ولحق الأكراد بأذربيجان ، ورجع عبد الله إلى الموصل ، ثم خرج إلى الأكراد ، وحاصرهم بجبل السَّلقَ أشد حصار ، فنجا محمد بن بلال بأهله وأولاده ومن لحق بهم ، واستولى عبد الله على بيوتهم وسوادهم وأموالهم وأهليهم ، فطلبوا الأمان فأمنهم ، وأبقى عليهم وردهم إلى بلدهم ، ورد عليهم أموالهم ، وقتل منهم قاتل صاحبه سيما ، وأمنت البلاد معه ، وأحسن السيرة فى أهلها[1] ، ثم حضر إليه محمد بن بلال بأمان ، وأقام بالموصل[2] ، وتتابع الأكراد الحميدية وأهل جبل داسن[3] إليه بالأمان ، فأمنت البلاد ، واستقامت ، ولم تزل كذلك إلى سنة إحدى وثلاثمائة .

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) فى ت : « ثم إن محمد بن بلال طلب الأمان من بن حمدان ، فأمنه وحضر عنده ، وأقام بالموصل .

(٣) فى الأصل : راسن ، وفى الكامل ج ٦ ص ١١٢ داسن ، وداسن جبل فى شمالى الموصل من شرقى دجله مراصد ج ٢ ص ٥٠٩ .

ذكر مخالفة عبد الله بن حمدان ، ورجوعه الى الطاعة

وفى سنة إحدى وثلاثمائة خالف الأمير أبو الهيجاء عبد الله على الخليفة المقتدر بالله ، فثار به أهله ، ونهبوا داره ، فكتب إلى بنى تغلب [1] ، فأتوه فدخل [2] الموصل ، وأوقع بأهلها وقتل منهم فأرسل إليه الخليفة مؤنسا المظفر فى جيش ، فقصده أبو الهيجاء واستأمن له ، وأظهر الطاعة ، وقال : إنه ما فارقها ، وسار معه إلى بغداد ، فخلع المقتدر عليه ، وولى مكانه نحرير الصغير ولاه [3] مؤنس المظفر .

ذكر القبض على بنى حمدان ، واطلاقهم

وفى سنة ثلاث وثلاثمائة قبض الخليفةُ المقتدر بالله على أبى الهيجاء ابن حمدان ، وجميع إخوته وحبسهم ، وكان سببُ ذلك أنّ أخاه الحسينَ بن حمدان خرج عن الطاعة ، وكان بالجزيرة ، فسيّر إليه الخليفةُ جيشاً ، وكان بينهم حروب كان آخرها أنْ الحسين أسر وأحضر إلى بغداد ، فقبض المقتدر على جميع إخوته وأهله ، وحبسهم واستمروا فى الحبس بدار الخليفة إلى سنة خمس وثلاثمائة فأطلقوا . وفى سنة ثمان وثلاثمائة خلع المقتدر بالله على أبى الهيجاء بن حمدان ، وقلّده طريق خراسان ، والدِّينور ، وخلع على أخويه أبى العلاء وأبى السرايا .

---

(١) فى الأصل : ثعلب . وانظر ص ١٢٣ من هذا الجزء .
(٢) فى ت : أهل .
(٣) هكذا فى ت . وفى الأصل : وولاه .

وفى سنة ثنى عشرة وثلاثمائة . أسر القرامطة أبا الهيجاء بن حمدان ، ثم أطلقوه ، وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار القرامطة . وفى سنة أربع عشرة وثلاثمائة ضمن أبو الهيجاء أعمالَ الخراج والضياع بالموصل [وقردى وبازَبْدى] (١) ، وما مع ذلك مضافا إلى ما بيده من ولاية طريق خراسان ، وغيرها ، وكان هو مقيما ببغداد وابنه ناصر الدولة يخلُفُه بالموصل ، وأقام على ذلك إلى أن قُتِل فى يوم الإثنين سابع عشر المحرّم سنة سبع عشرة وثلاثمائة عند خلع المقتدر بالله وبيعة القاهر على ما شرحناه مبينا فى خلافة المقتدر بالله .

وكان القاهر بالله لما بويع بالخلافة فى النصف من المحرم اختص بأبى الهيجاء حمدان ، فلما ثار الجند بعد يومين من بيعته كان أبو الهيجاء عنده ، فبادر بالقيام ليخرج ، فتعلق القاهر بأذْياله ، واستجار به ، فحملته الحمية العربية على الثبات ، ودخل الأجناد على القاهر وهو وأبو الهيجا [يتخللان] (٢) القاعات حتى حُصرا (٣) بقاعة ، فدخل عليهم الجند من بابها ، فجرد أبو الهيجاء سيفه ، وأوقف القاهر وراءه ، وصار يحمل على الأجناد ، فيردهم إلى الدهاليز ، ثم يعود ويعودون ، فصعد بعض الجند إلى أعلى القاعة ، ورموه بالنشّاب إلى أن مات . هذا أحدُ ما قيل فى صفة قتله . وكان شجاعاً فاتكا كريما محبوبا إلى الخلفاء والأمراء ، وخلف من الأولاد : أبا محمد الحسن ، وأبا الحسين على ،

(١) فى الأصل : قروى ، وبارندى ، وفى ت : فزدى ، وباريدى . وقردى : موضع فى شرقى دجله تقابل الجزيرة . مراصد ج ٣ ص ١٠٧٧ . وبازبدى : كورة من ناحية جزيرة بن عمر غربى دجلة . مراصد ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) فى الأصل : يتخللون .

(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : حضروا .

وأبا العطاف خير ، وأبا زهير . والمملكة من هؤلاء فى الحسن وعلى وعقبهما ، واستبد ابنه الحسن بالأمر على ما نذكره بعد ذكرنا لأخبار عمه الحسين بن حمدان .

ذكر أخبار الحسين بن حمدان بن حمدون ، وهو أخو أبى الهيجاء

كان الحسين هذا من أمراء بنى حمدان المشهورين ولى قمّ وأعمالها ، والموصل ، والجزيرة ، وغير ذلك من الأعمال الجليلة ، وكان شجاعاً سفّاكاً ، ذا همّة عالية ، اجتمع عنده نيِّف وعشرون طوقاً من خِلع الخلفاء كلّ طوق منها لقتلِه خارجيًّا ، ولم يزل عند الخلفاء يُعدّ للمهمات إلى أن خالف على المقتدر بالله فى سنة ثلاث وثلاثمائه . وكان إذ ذاك بالجزيرة ، وجمع نحواً من عشرة آلاف ، فبعث المقتدر لحربه [رائقاً][1] الحجرى فى جيش كثيف ، فانهزم الحسين ، وقصد ابنَ أبى الساج بأذربيجان ، ومرّ على أرزن فخرج إليه واليها ليردّه ، فهزمه الحسين . وكان مؤنس المظفّر بالقرب من أرزن ، فبعث إليه من أدركه ، وقبض عليه ، وأدخلا إلى بغداد ، وهو مشهور على جمل فى زى شنيع وابنه كذلك ، وقبض عند ذلك على سائر إخوته ، وهم أبو الهيجاء ، وأبو العلاء سعيد ، وأبو السرايا ، وأبو الوليد ، وحمدون ، واعتُقِلوا فى دار الخلافة ، ولم يُترَكْ منهم إلا داود ، وأقام

(١) فى الأصل : رافقا ، وفى شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٢٩ : ... رائقاً . كما أثبتناه . . . وفى الكامل ج ٦ ص ١٥٨ حوادث سنة ٣١٤ : رائقا الكبير . . .

الحسين فى الحبس إلى أن عزَم الخليفةُ على إخراجه فى سنة خمس وثلاثمائة وتوليته مقدمة الجيش لمحاربة يوسف بن أبى الساج ، فلم يفعل ، وامتنع ، وقال : الساعة لما احتجتم[1] لى ، فغضب الخليفة لذلك، وأمر قاهرا الخادم أن يقتله، فقتله فى الحبس ،ورمى رأسه إليه ورميت جثّتهُ فى دجلة ، وأطلق عند ذلك سائر بنى حمدان ، وما منهم ، إلا من له ذكر وتقدم ، وإنما خصصْنا عبد الله والحسين بالذكر دون غيرهما من إخوتهما لاشتهارهما فى الدولة العبّاسية ، وتقدمهما ، ولأنهما وليا جلائل الأعمال ، وتقدما على الجيوش فى الحروب. وقد تقدم من أخبارهما فى الدولة العباسية ما يستدل به على تقدمهما وشجاعتهما ، وذكرنا أيضا فى أخبار الخوارج بالموصل كيف كان ظفر الحسين بهارون الخارجى الذى كانت فتنته قدعمت ، فلنذكر الطبقة الثانية منهم ، وهم أولاد عبد الله بن حمدون .

ذكر أخبار ناصر الدولة

هو أبو محمد الحسن [2] بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان ابن حمدون . لما قتل والده كان يخلُفه بالموصل وأعمالها ، فتقدم فى خدمة الدولة العباسية ، وتنقل فى الولايات إلى أن تولى الموصلَ فى أيام الراضى بالله ، وتغلب عليها فى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

(١) فى الأصل ، وفى ت : كما احتجتم .

(٢) هكذا فى ت : وهو موافق لما فى الكامل ج ٦ ص ٢٤٨ حوادث سنة ٣٢٣ هـ والنجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٨ حوادث سنة ٣٢٤هـ، فى الأصل: أبو محمد الحسين، وذكر ص ١٣٢ سطر ٤ — الحسن .

لما ضعفت الدولة العباسية ، فندب ابن مقلة الوزير إليه عمه أبا العلاء سعيد بن حمدان ، وولاه الموصل ، وأمره بالقبض على ناصر الدولة ، فلما قرب من الموصل ، خرج ناصر الدولة لتلقيه ، فخالفه سعيد ، ودخل البلد [ونزل] (١) داره ، وقبض على خزائنه ، فبلغه الخبر فرجع عجلا ، ودخل الدار ، وقبض على عمه ، وأمر بعض الغلمان بعصر مذاكيره ، فعصرت حتى مات ، وذلك فى شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، فاتصل الخبر بابن مقلة ، فتجهز فى العساكر الخليفية ، وسار من بغداد إلى الموصل لخمس خلون من شعبان ، وكان ناصر الدولة لدهائه ومكره لا يصافف من يقصده ، فلما بلغه خبر مسير بن مقلة ، رفع أموا له وخزائنه وحرمه إلى قلعة الموصل ، وجعل فيها من خواص غلمانه من يدفع عنها ، ثم خرج من الموصل فى عسكره ، وأخرج معه كل تاجر فى البلد ، ولم يترك بالموصل علوفة ولا قوتا إلا رفعه إلى القلعة ، فوصل الوزير بن مقلة إلى الموصل ، وهى بهذه الصفة ، فأقام بحال سيئة ، وبعث بالعساكر مع على بن خلف بن طيّاب (٢) فى طلب ناصر الدولة ، فسار خلفه ودخل ناصر الدولة إلى أرمينية ، فعاد ابن طياب ولم يتبعه ، وطال المقام على ابن مقلة ، ونفدت الأقوات ، فقلد الموصل لعلى بن خلف ، وقلد جزيرة ابن عمر لما كرد الدّيْلمى ، وقلد عبدالله بن أبى العلاء المقتول والده نَصيبين وعاد إلى بغداد ، وانتهى الخبر إلى ناصر الدولة ، فخرج من أرمينية ، وقد أطاعه سائر ملوكها وجبى خراجها ، وقصد الجزيرة

(١) فى الأصل : وترك داره .

(٢) فى الكامل ج ٦ ص ٢٤٨ حوادث سنة ٣٢٣ هـ : طباب .

وبها ما كرد ، فكاتب ما كرد من كان مع ناصر الدولة من الأمراء ، ووعدهم عن الوزير ابن مقلة ، فاستأمنوا إليه ، وفارقوا ناصر الدولة ، فانفصل عن الجزيرة كالمنهزم وراسل على بن أبى جعفر [١] الديلمى وهو مع على بن خلف بالموصل ، ووعده الجميل والإحسان إليه ، فأفسد من مع ابن طياب ، ووصل ناصر الدولة إلى الموصل ودخلها ، فاستأمنوا إليه ، وخرج بن طياب هارباً فى ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، ثم جهز ناصر الدولة الجيوش مع على بن أبى جعفر إلى الجزيرة لقتال ما كرد ، وإخراجه منها ، فلما قرب [٢] منها ، فارقها ما كرد وسار إلى نصيبين [٣] ، واستنجد بأبى ثابت العلاء بن المعمر [٤] ، فجمع له العرب وأنجده ، فكتب علىّ لناصر الدولة بالخبر بأخيه سيف الدولة على بن عبد الله ، وأمر على بطاعته ، ثم سار ناصر الدولة بنفسه تابعا لأخيه وقاتل ما كرد وأبا ثابت ، فقُتِلَ أبو ثابت ، وهرب ما كرد إلى الرقة ، وانهزمت بنو حبيب بعد مقتل أبى ثابت إلى بلاد الروم وتنصروا إلى الآن ، واستقامت مملكة الموصل ، وديار ربيعة ، ومصر لناصر الدولة ، وفى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة خرج الخليفة الراضى بالله ، ومعه بجكم [٥] طالبا الموصل ، فأخرج ناصر الدولة جيشه مع ابن عمه الحارث بن سعيد ، فلما التقى الجيشان ، وقع فى جيش ناصر الدولة أنه استأمن ، فانهزموا إلى

(١) فى ت : على بن يا جعفر . وفى الأصل : على بن أبا جعفر .
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : قارب .
(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : نصيب .
(٤) الزيادة من ت . وانظر الكامل ج ٦ ص ٢٤٩ حوادث سنة ٣٢٣ .
(٥) ت ، وفى الأصل : بجكم .

ناصر الدولة ، فدخل الموصل فى ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من المحرم ، وصلى الجمعة ، ثم خرج من الموصل ، ودخلها بحكم يوم السبت ، وسار ناصر الدولة إلى الخالدية ثم رحل منها يريد برقعيد [١] ، وبقى بها جماعة من أهله ، ووافى بحكم الخالدية ، فأوقع بهم وخرج أبو وائل وتمادي الأمر على ذلك ، ثم وقع الصلح على مال بذله الحسن ، وعاد ناصر الدولة إلى الموصل لليلتين خلتا من شهر ربيع الآخر منها ، واستمر إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة [٢] ، والله أعلم بالصواب .

ذكر ولاية ناصر الدولة امرة الأمراء بالعراق

كان [٣] سبب ذلك أن أبا الحسن بن البريدي لما ملك بغداد ، وهرب المتقى لله إلى الموصل ، ومعه أمير الأمراء أبو بكر بن رائق ، واستنجد بناصر الدولة ، فقتل ناصر الدولة ابن رائق فى شهر رجب سنة ثلاثين [٤] وثلاثمائة كما قدمنا ذكر ذلك فى أخبار الدولة العباسية ، فرد المتقى لله تدبير الدولة إلى ناصر الدولة وساروا جميعا إلى بغداد ومع ناصر الدولة أخوه سيف الدولة ، فانهزم البريديون من بين يديه ، وتولى ناصر الدولة إمرة الأمراء ، ونعته المتقى بهذا النعت ، ونعت أخاه : سيف الدولة ، وخلع عليهما . وذلك فى شوال

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل برتميد ، وبرقعيد : بليدة فى طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين . مراصد ج ١ ص ١٦ .

(٢) راجع ذلك فى الكامل ج ٦ ص ٢٦٩ حوادث سنة ٣٢٧ ، وفى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٦٤ .

(٣) الزيادة : من ت .

(٤) ت ، وفى الأصل : ثلاث .

سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وزوج المتقى لله ولده أبا منصور بابنة ناصر الدولة ، وضرب ناصر الدولة السكة عياداً [١] لم يضرب قبله مثله إلا السندى، وزاد على نقش السكة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] وهو أول من فعل ذلك ، وأقام ببغداد ثلاثة عشر شهرا ، ثم اجتمعت الأتراك، وقلّموا عليهم توزون، وهو بواسط ، وسيف الدولة فى عسكره معهم ، وبلغ ناصر الدولة قيام الأتراك، فسار إلى الموصل صحبة المتقى ، وأمر أخاه سيف الدولة بمناصبة الأتراك ، فكبسه توزون ليلا ، فانهزم إلى الموصل ، ثم راسل توزون المتقى فى الصلح فأجاب ، ورجع فكان من أمره والقبض عليه وسمله ما قدمناه .

وأقام ناصر الدولة بالموصل لا يتعرض لبغداد إلى أن ملكها معز الدولة بن بويه الديلمىّ ، فتحرك إليها فى جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وحاصر [٣] معز الدولة بن بويه حتى كاد يأخذه ، ثم رجع عنها فى صورة منهزم وامتنع من حمل المال ، فتجهز معز الدولة إلى الموصل لقتاله ، فرفع أمواله إلى القلعة ، ولم يترك فى البلد قوتا ولا علوفة البتّة وبقى فى خيل جريده [٤]. فلما قرب معز الدولة إلى الموصل فارقها ناصر الدولة ، وسار فكان تارة بنصيبين [٥] وتارة بآمد ، وتارة ببلد [٦] ، ونزل معز

(١) ت ، وفى الأصل غيارا .
(٢) زيادة من ت
(٣) هكذا فى ت : وفى الأصل : وحاجز .
(٤) فى ت : وبقى فى خيله جريدة .
(٥) من ت ، وفى الأصل : بنصيب .
(٦) بلد : مدينة قديمة فوق الموصل على دجلة: وقربه من قرى دجيل قرب الجزيرة. مراصد ج ١ ص ٢١٧ .

الدولة قصر ناصر الدولة ، وأقام بالموصل ، فنفدت الأزواد فبعث بغالاً تُحمِّله مع سراياه إلى القرى لتحصل الأقوات والعلوفات ، ففرَّقَ عند ذلك ناصر الدولة بنيه ، وهم ثمانية كل منهم تزيد مماليكه وغلمانه على خمسمائة رجل ، فكانوا لا يجدون سرية إلا هزموها ، ولا قافلة إلا نهبوها ، فإذا خرج معز الدولة في طلبهم تكشفوا بين يديه ، ويخلفه ناصر الدولة إلى الموصل ، فيأخذ ما يجد بها من الأموال ، ويرفعه إلى القلعة ، وإن وجد أحدا من قواده سجنه بها ، فكان هذا دأبه إلى أن استقر الصلح بينه ، وبين معز الدولة في سنة خمس وثلاثين . وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة في شهر رجب ملك معز الدولة ابن بويه الموصل ، وفارقها ناصر الدولة إلى نصيبين[1] ، فتبعه معز الدولة ، ففارقها ، وبعث أولاده إلى الموصل لقتال من فيها ، فرجع إليهم معز الدولة ، فانكشفوا بين يديه ، فسار إلى بلد ، واجتمع ناصر الدولة بأولاده ، وسار إلى الموصل ، فأسروا من أصحاب معزّ الدولة الذين تركهم بها نيفا وسبعين قائدا : فقيَّدهم ناصر الدولة ، وحملهم إلى القلعة ، ومعهم ستمائة من الجند ، ووجد مائة وثلاثين بدرةً لمعزّ الدولة ، فأخذها ، وخرج من الموصل ومضى إلى حلب ، وأقام عند أخيه سيف الدولة ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن تم الصلح بين معزّ الدولة بن بويه وسيف الدولة ، وأبى تغلب بن ناصر الدولة على إطلاق الأسرى وردّ ثمانين بدرة ، فأجاب إلى ذلك ناصر الدولة ، ورجع معز الدولة

(١) هكذا في ت ، وفي الأصل : نصيب .

إلى بغداد ، وعاد ناصر الدولة إلى الموصل ، ولم يزل بها مالكا [لها](١) من غير منازع إلى أن قبض عليه ولده .

ذكر القبض على ناصر الدولة ووفاته

وفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة فى ليلة الثلاثاء لست بقين من جمادي الأولى ، قبض عدة الدولة أبو تغلب فضل الله على والده ناصر الدولة ، وهو نائم بعد أن شاخ وكبر ، فحمله على فراشه إلى قلعة الموصل ، واعتقله بها ، فكان بها إلى أن مات ، وكانت وفاته فى يوم الجمعة وقت العصر لاثنتى عشرة (٢) ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، فكانت مدة تغلبه نحواً من ثلاث وثلاثين سنة ، سوى ولاية الموصل قبل ذلك .

وكان له من الأولاد عشرة وهم : عدة الدولة الغضنفر أبو تغلب فضل الله(٣) ، وكان قد ولاه الجزيرة ، وأبو المظفر حمدان ولاه نصيبين ، وأبو الفوارس محمّد ولاه الموصل ، وأبو القاسم هبة الله ولاه بلد ، وأبو طاهر إبراهيم ولاه سنجار ، وأبو المرجّى جابر . وأبو البركات لطف الله ، وأبو المطاع ذو القرنين ، وأبو عبد الله الحسين .

كُتَّابُه : دنجا (٤) بن إسحاق ، كان كاتب المطيع لله ،

(١) زيادة من ت .

(٢) راجع هذه الأحداث فى الكامل ج ٦ ص ٢٥٣ – ٢٥٥ حوادث سنتى ٣٤٧ هـ ، ٣٤٨ هـ . وأيضا فى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٩ .

(٣) ذكر فى الأصل : عدة الدولة الغضنفر وأبو تغلب فضل الله على أنهما اسمان لشخصان مختلفين ، ولكن مما هو مذكور قبل ذلك ، وبعده يثبت أنه اسم لشخص واحد ، وعلى ذلك يكون عدد الأولاد تسعة لا عشرة كما ذكر . انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور ج ٢ ص ٢٠١ – ٢٠٣ .

(٤) فى ت دنجار ، وانظر ص ١٤٨ من هذا الجزء .

أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي ، وأبو الحسن الباهلي ، وبهلون بن هاشم ، وأبو القاسم بن مكرم .

ذكر أخبار سيف الدولة

هو أبوالحسن[1] علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون . كان في ابتداء أمره في خدمة أخيه ناصر الدولة إلى أن دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، فانفرد سيف الدولة بديار بكر ، والسبب في ذلك أن علي بن أبي[2] جعفر الديلمي لما استأمن إلى ناصر الدولة كما ذكرناه ، وخرج على عليّ بن خلف بن طياب سأله أن يولّيه الجزيرة عند إخراج ماكرد منها ، فاعتذر عنها ، وكان أحمد بن نصر القنسوري بديار بكر في عِدّة قليلة ، فجهز ناصر الدولة مع علي ابن أبي جعفر جيشا ، وأمره أن يسير إلى ديار بكر ، فانصرف أحمد ابن نصر عنها ، ودخلها عليّ بن أبي جعفر ، وسكن أرزن ، وأقام الدعوة لناصر الدولة ، وهو في خلال ذلك يحصّن البلد ، ويستكثر من الرجال والأجناد ، فنمى الخبرُ إلى ناصر الدولة ، فلم يأمن شرّه ، وأمره بالقدوم عليه ، فأبى ذلك ، وأظهر العصيان ، فندب ناصرُ الدولة عند ذلك أخاه سيف الدولة لحربه ، وقال له : إن فتحتَ ديار بكر ، وقبضتَ على عليّ الديلمي ، ملّكتُكَ بلادها وقلاعها من غير أن تَحمِلَ عنها شيئا لخليفة ، ولا لغيره ، فسار سيفُ الدولة في ألف

(١) هكذا في ت ، وفي الأصل هو الحسن بن علي ، وفي الأعلام للزركلي جـ٥ ص ١١٨ : علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربعي ، أبو الحسن سيف الدولة .

(٢) في ت : ابن بأ جعفر ، وقد مر .

فارس ، فتحصّن منه فى قلعة « أرزن » وهى المعروفة بحصن العيون ، فنزل سيف الدولة تحتها على النهر المعروف [بسريط.] (١) وحصر (٢) عليا بها ، فبعث الديلمىّ حاجبه بدر الجستانى إلى ابن يرنيق (٣) ملك أرمينية ، وإلى سائر بطارقتها يستنجد بهم على سيف الدولة ، فاتّصل خبر الحاجب بسيف الدولة ، فرصده عند عوده ، فقبض عليه ، فسأله الديلمى الأمان على أن يمضى إلى بغداد ، أو يبقى فى خدمته ، فأجابه إلى ذلك ، وحلف له ، ونزل إليه وسلّم القلعة ، فوفّى له سيف الدولة ، وأقام علىّ فى خدمته إلى أن استأمن إلى ابن رائق ، وملك سيف الدولة بعد ذلك جميع بلاد أرمينية وما جاور بلاد بكر ، ثم ملك حلب (٤) وانتزعها من يد الأخشيدية ، ثم قُلّد بعد ذلك الثغور (٥) الجزيرية ، وهى طرسوس ، وعين زَرْبة (٦) ، والمصيصة ، وما جاورهم من الثغور ، من غير أداء مال عن شىء مما بيده من الأعمال ؛ لأنه كفى المسلمين أمر الروم نحواً من أربعين وقعة له وعليه . وكان بعيد الهمة شجاعا يلقى الأمور بنفسه .

وكان شاعره أبو الطيب المتنبى يمدحه فى كل غزاة ،

---

(١) فى الأصل : لشريط ، وفى ت بشريط . وسريط : نهر يصب فى دجله مأخذه من أرزن . مراصد ج ٢ ص ٧٠٤ .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : وحصنى .

(٣) فى ت : برنيق .

(٤) راجع الكامل ج ٦ ص ٣١٢ ، حوادث سنة ٣٣٣ هـ ، والنجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(٥) هكذا فى ت ، وفى الأصل : الفور .

(٦) هكذا فى ت ، وفى الأصل : زرزنة . وقد ذكرها صاحب مراصد الاطلاع فى موضعين ، وقال : إنها من الثغور قرب المصيصة ، وتكتب زربة ، وزربى . مراصد ج ٢ ص ٦٦٢ ، ص ٩٧٧ .

ويذكر وقائعه ، فكان الدمستق يقول : « بُلينا بشاعر كذّاب ، وأمير خفيف الركاب »

وكان لسيف الدولة خمسمائة غلام أقران لهم بأس شديد ، إذا حمل بهم فى جيش حزقه[1] . وكان سنه عند ولايته خمس عشرة سنة ، فظهرت شجاعته . وكان أديبا فاضلا وله شعر ذكره الثعالبى فى يتيمة الدهر ، ومن جملة غزواته أنه خرج غازيا فى ذي القعدة سنة ست وعشرين وثلاثمائة ، فانتهى إلى حصن « دادم »[2] وسار إلى حصن زياد[3] ، فشارف فتحه ، وأقام عليه تسعة أيام ، فوافاه الدمستق فى مائتى ألف ، فانكفأ راجعا يريد [شمشاط][4] ، وخيول الروم تسايرة ، فلما كان يوم النحر وصل إلى موضع بين حِصْنى [زياد ، ودادم][5] وسلام ، فوقف ، وأقبلت عساكر الروم ، فناجزهم القتال ، فهزم الله الروم ، وأسر سيف الدولة منهم سبعين بطريقاً ، ولم يزل القتل والأسر فيهم إلى الليل ، وأخذ سرير الدمستق وكرسيه . ولسيف الدولة مع الروم وقائع كثيرة مشهورة ذكرها كثير من المؤرخين تركناها لاشتهارها .

وفى سنة ثلاثين وثلاثمائة . ملك سيف الدولة مدينة حلب ، وانتزعها من يد أحمد بن سعيد الكِلابىّ صاحبِ الإخشيد ، واتفق خروج العدوّ إلى تلك النواحى ، فسار إليهم ، وأوقع بهم وقعة عظيمة ، فاعتصموا

(١) حزقه : ضيق عليه ، وربما كانت تحريف (مزقه) .

(٢) دادم : من ثغور الروم . مراصد ج ٢ ص ٥٠٤ .

(٣) حصن بأرض أرمينية بين آمد ، وقلقليه ، ويعرف باسم خر بيرت . مراصد ج ١ ص ٤٠٧ ، ص ٥٧ .

(٤) فى الأصل : شمياط ، وشمشاط : مدينة بالروم على شاطىء الفرات من أعمال خربرت . مراصد ٨١١ ج ٢ .

(٥) فى الأصل : زياد سلام ، وما أثبتناه هو المناسب لما مر .

منه بجبل منيع ، فصعد إليهم ، فكان منهم من ألقى نفسه من الجبل فمات ، وغنم منهم غنيمة عظيمة .

ولما بلغ الإخشيد ذلك أنفذ عسكره مع كافور ، فهزمهم سيف الدولة ، ودخل حمص وأعمالها ، فملكها وسار إلى دمشق ، ودخلها ، فكاتبه الإخشيد ، وبذل له الموادعة بعد أن بذل له أن يحمل إليه من المال نظير ما كان يحمل لابن رائق ، فلم يجب إلى ذلك ، وقال : جوابك إذا دخلت مصر إن شاء الله . ثم جرت بينهما أمور ، واتفقا على أن يكون لسيف الدولة حمصُ ، وحلبُ ، وما بينهما ، وأفرج عن دمشق ، وتزوج بابنة أخى الإخشيد . ثم مات الأخشيد عند رجوعه على ما نذكره فى أخباره ، وذلك فى المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، فمضى سيف الدولة إلى دمشق ، واستأمن إليه جماعة منهم : « يانس المونسى » ، وأقام بها . ثم سار لحرب كافور الإخشيدى ، فنزل اللَّجُون[1] والإخشيديه بقربه ، والتقوا ، فانهزم جيش سيف الدولة ، ورجع هو إلى دمشق ، فأخذ والدته وخاصّته وأمواله ، وسار إلى حلب ، ثم وقع الصّلح بينهم فى سنة ست وثلاثين على ما وقع بينه وبين الأخشيد أولا .

وفى فتح سيف الدولة دمشق يقول الخالديان[2] :

يا سيف دولة آل النبى حويتَ العلا دولة وابتداء

(١) بلد بالأردن . النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٢ حوادث سنة ٣٣٤ .

(٢) هما سعيد بن هاشم بن وعله بن عرام ، وأخوه محمد ، وهما من أهل الخالدية من قرى الموصل ، ونسبتهما اليها ، وقيل نسبتهما إلى جدهما اسمه خالد بن منبه . . وكانا من خواص سيف الدولة بن حمدان ، وكانا يشتركان فى نظم الأبيات والقصيد ، فتنسب إليهما معا . وقد توفى سعيد سنة ٣٧١ هـ - ١٩٨١ م ، وتوفى محمد فى سنة ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م . الأعلام للزركلى ج ٣ ، ج ٧ . وانظر النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٨٣ ، حوادث سنة ٣٣٣ هـ

ليهنكَ أنّك داني النـدا ومجدُك فوق النجوم اعتلاء
وأنّك لمـا ملكتَ الملوك تكبّرت أن تلبس الكبرياء
ولما حويتَ العراق انكفيت إلى عرصاتِ الشام انكفاء
وجُزتَ دمشق فطهرتهـا وأبدلتَها بالظلام الضياء
وما مصرٌ عنك ممنوعة إذا ما استعنتَ عليها القضاء

وفى سنة ست وثلاثين ظفر سيف الدولة القَرْمطى الملقب بالهادى، واستنقذ أبا وائل.

وفى سنة إحدى وأربعين بنى سيف الدولة مرعش، فسار إليه الدمستق، فأوقع به سيف الدولة. وفي سنة اثنتين وأربعين فتح حصن العريمة، وأخرب مدينة ملَطْية، وكان الدمستق قد أخرب الحدَث فى سنة سبع وثلاثين، فسار إليه سيف الدولة، ونزل به فى يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخره سنة ثلاث وأربعين، فحطّ الأساس، وحفر أوله بيده، وحفر الناس وأقام إلى أن بناه ووضع بيده آخر شرّافة [1] منه لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رجب من السنة. وفى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة. ورد على سيف الدولة من سائر الثغور طرسوس [2]، وأذنة، والمصيصة رسل نوابه، ومعهم رسول ملك الروم فى طلب الهدنة، فهادنهم، ولم يزل سيف الدولة فى ملكه يوما له ويوما عليه إلى أن كبرت سنه. وضعف فى آخر عمره واضطرب أمر دولته.

---

(١) الشرافة: زوائد توضع فى أطراف الشيء وتحليه له. المعجم الوسيط.
(٢) هكذا فى ت، وفى الأصل: طوسوس.

ذكر اختلال دولته واستيلاء الدمستق على حلب[1]، وما أخذه من أموال سيف الدولة

قال: ولما كبر سيف الدولة وضعفت قدرته لمرض لحقه فى آخر عمره فلج منه نصفه ، وتفرقت عنه البوادى وتقاعد عنه المسلمون، وفسد مابينه وبين ابن الزيات أمير الثغور من قبله[2]، واشتغل عنه أخوه ناصر الدولة بحرب معز الدولة ، فلم ينجده ، فقويت الروم ، واستولى الدمستق على الثغور ، ثم قصد حلب فى حشد عظيم من الروم والأرمن ، فلم يشعر به سيف الدولة إلا وقد أطلّ على البلد ، فقاتله سيف الدولة ، وحمل بنفسه وغلمانه وابن أخيه هبة الله بن ناصر الدولة حتى كاد أن يؤخذ ، فانهزم ، وملك الرومُ داره بظاهر حلَب وكان ذرعُها ستة آلاف ذراع ، وأخذ منها مالا يحصى من الأموال ، فكان من جملة ما أخذ مائةُ بَدرةٍ ذهباً ، ومائتا بدرة من الورق ، وثلاثمائة حمل من البزّ الفاخر ، وخمسون حملا من الديباج ، ومن أوانى الذهب والفضة مالا يحصى كثرة ، ومن الخيل ثمانمائة فرس ، ومن البغال خمسمائة ، ومن السلاح ، والمناطق ، والتجافيف ، والسيوف مائة حمل ، ومن الجمال ألفا جمل[3] ، ونقل سقوف الدار معه .

وكان نزوله على حلب فى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، وفتح البلد فى يوم

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : طب .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ومن قبله .

(٣) راجع بالكامل جـ ٧ ص ٢ ، وما بعدها حوادث سنة ٣٥١هـ ، والنجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٢٢ .

الثلاثاء ، وأقام فيه إلى يوم الثلاثاء الكائن بعده ، وتحصن [١] أهل حلب فى القلعة بما أمكنهم من الأموال ، واستولى الدمستق على البلد بما فيها ، ثم فارقها ، ورجع سيف الدولة إليها ، وقد ذهب أكثر أمواله ، فبعثت له أخته هدية من ميًا فارقين كان من جملتها مائة ألف دينار .

ذكر وفاة سيف الدولة

كانت وفاته رحمه الله فى الضحى من نهار الجمعة لخمس بقين من صفر سنة خمس وخمسين وثلاثمائة [٢] ، وكان مولده فى يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثمائة ، فكان عمره اثنين وخمسين سنة وشهرين وثمانية أيام . وكانت مدة ملكه نحوا من ثلاثين سنة . وكان شجاعا كريما معجبا بارائه محبا فى الفخار والبذخ مظفرا فى حروبه جائرا على رعيته ، اشتد بكاء الناس منه وعليه ، وكان له من الأولاد خمسة . وهم : أبو الهيجاء عبد الله ، توفى فى حياة أبيه فى صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة . وأبو البركات وهو أكبرهم ، توفى فى حياة أبيه فى جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . وأبو المعالى شريف ، وهو الذى ملك بعد أبيه . وأبو المكارم مات فى حياته . وست الناس ابنته .

كتابه : أبو الحسن [٣] على بن الحسين المغربى والد الوزير .

---

(١) فى ت : وانحصر .

(٢) فى ت ، وفى الكامل جـ ٧ ص ٢٤ ، والنجوم جـ ٤ ص ١٦ ، وشذرات الذهب جـ ٣ ص ١٨ : « أن وفاة سيف الدولة كانت سنة ٣٥٦ هـ » .

(٣) فى الأصل : أبو الحسين ، وما أثبتناه موافق للنجوم الزاهرة ص ١١٧ جـ ٤ حوادث سنة ٣٦٥ ، وانظر ص ١٥٨ من هذا الجزء .

وأبو محمد بن الفياض . وأبو إسحاق محمد أحمد القراريطى [١] .
وأبو الفرج محمد بن على السرّمرّائىّ ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن فهد الموصلى وغيرهم .

حجابه : نجاغلامه ، وقرعوية ، وبقى .

فهذه الطبقة الثانية من آل حمدان . فلنذكر الطبقة الثالثة منهم .

ذكر أخبار عدة الدولة الغضنفر

وهو أبو تغلب الغضنفر ابن ناصر الدولة أبى محمد الحسن أبى الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون .

ملك الموصل ، وما كان بيد أبيه عند قبضه على والده ناصر الدولة فى ليلة الثلاثاء لستٍّ بقين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، وأطاعه سائر إخوته إلا أبو المظفر حمدان ، وهو الذى يليه فى العمر . وكان ناصر الدولة قد قلده الرحبة ، ولما مات عمه سيف الدولة سار إلى الرقة ونصيبين ، فملكها ، وسوّغه والده ارتفاع [٢] جميع تلك البلاد . فكتب أبو المظفر إلى أخيه أبى تغلب يأمره بإطلاق والدهما ناصر الدولة ، وتوعّده إن لم يفعل ، فغضب لذلك ، وفسد الحال بينهما ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ، فجهز أبو تغلب جيشاً لقتال أخيه ، وجعل عليه أخاه أبا البركات ، فكان له معه حروب ووقائع ، آخرها أن أبا المظفر حمدان ظفر بأخيه أبى البركات ، وضربه على رأسه ، فسقط إلى الأرض ، فأخذه أسيراً واستباح سواده ، وانقسم عسكره بين مستأمن إلى حمدان ، وأسير ، وقتيل ، ثم انكفأ حمدان

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : القرازيطى ، وانظر شذرات الذهب ج٣ ص ٢٦ .
(٢) الارتفاع : العمل الجامع الشامل لكل عمل . نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٨٥ .

إلى قَرْقيسياء[١] ليعالج أخاه من ضربته ، فمات أبو البركات بعد أيام فأنفذه حمدان فى تابوت إلى الموصل ، واستحكمت عند ذلك العداوة بين بنى حمدان ، وبين أخيهم أبى تغلب . واختلف باقى الإخوة ، وكانوا متفرقين فى أعمالهم فاحتال أبو تغلب على أخيه محمد ، وكان واليا على نصيبين حتى قبض عليه ، وذلك فى شعبان سنة ستين وثلاثمائة واعتقله فى قلعة أَرْدُمشْت[٢] ، فلم يزل بها حتى هرب أبو تغلب ، وملكها عضد الدولة بن بويه ، فأطلقه وأكرمه ، ورد عليه ضياعه ومنها قلعة : الشعبانى [٣] ، وقلعة أهرون [٤] ، وغيرهما من القلاع . وفى سنة إحدى وستين وثلاثمائة سلّم أخو حمدان لأمه لأبى تغلب الغضنفر قلعةَ ماردين[٥] ، فأخذ منها جميع أمواله وحرمه ، وكان المحاصر له بجيش أبى تغلب أبو اليقظان عمار بن أبى السرايا نصر بن حمدان. وفى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فى آخر يوم من شهر رمضان أوقع أبو القاسم هبة الله بن ناصر الدولة بالدمستق ملك الروم الوقعة المشهورة ، وكان الدمستق فى نحو خمسين ألفا فأسر أبو القاسم ، وقتل أكثر الجيش وكانت الوقعة على بلد . قال : ثم أخذ أبو تغلب فى استفساد إخوته واحدًا بعد واحد حتى صاروا بأجمعهم إليه إلا أبو طاهر [٦] إبراهيم ، فإنه استأمن إلى بختيار ، ومضى إلى بغداد . وسار أبو تغلب

---

(١) قرقيسياء : بلد على الخابور عند مصبه : مراصد ج٣ ص ١٠٨٠ وفى الأصل : قرقيشيا.

(٢) قلعة حصينة قرب جزيرة بن عمر فى شرقى دجلة . مراصد ج١ ص ٥٤

(٣) فى الأصل : الشعبابى ، وما أثبتناه من ت ، وهو موافق للكامل ج٧ ص ٩٦

(٤) فى الكامل : هرور انظر ج٧ ص ٩٦

(٥) قلعة على قمة جبل الجزيرة. مراصد ١٢١٩ ج٣

(٦) هكذا فى ت : وفى الأصل : أبو الطاهر ، وقد مرت فى ص ١٣٥ : طاهر .

بجماعة إخوته إلى قرقيسيا ، فنزل بها ، وبعث أخاه ، أبا القاسم هبة الله إلى الرحبة فى جيش ليوقع بأخيه حمدان ، فخرج حمدان هارباً ، واتبعه ابنه أبو السرايا وسلك طريق البرية ، وكاد هبة الله أن يأخذه . وقيل : إنه قدر عليه وتركه ، وسار حمدان إلى بغداد ، فدخلها فى ذى الحجة سنة ستين وثلاثمائة ، واجتمع بأخيه إبراهيم ، وأقاما عند بختيار مدة ، ثم كوتب إبراهيم من الموصل (بالعودة إلى طاعة أخيه فهرب ، فأغضب ذلك عز الدولة بختيار وسار إلى الموصل)[1] فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين ، فدخلها ، ورحل أبو تغلب إلى سنجار . ثم تقرر الصلح بينهما على أن يفرج أبو تغلب لأخيه حمدان عن ضياعه التى كان قبض عليها ، فأجاب إلى ذلك ، وأفرج له عنها ، واستقر ملك الغضنفر بالموصل إلى أن ملك عضد الدولة بن بويه بغداد ، وأخرج ابن عمه عز الدولة بختيار إلى الشام وشرط عليه ألا يتعرض إلى بلاد عدة الدولة الغضنفر ، فأجاب إلى ذلك ، وسار وصحبته[2] حمدان بن ناصر الدولة فلما وصل مبكراً أفسد حمدان نيته ، وحرضه على طلب بلاد أخيه أبى تغلب ، فعزم على ذلك ، وسار فنزل تكريت ، فوصل إليه على بن عمر الكاتب بهدية من أبى تغلب ، وصحبه فى الطريق ، فلما خلا به أفسد بينه وبين حمدان وعرفه أن مصالحة أبى تغلب بإفساد حمدان هى الرأى الصريح ، وذكر أنه سلم[3]

---

(١) الزيادة بين القوسين من : ت .

(٢) من هامش ت : وسار عز الدوله وصحبته حمدان . . . إلخ

(٣) هكذا فى ت ، وهو موافق للسياق ، ولما جاء فى الكامل ج ٧ ص ٩٢ حوادث سنة ٣٦٧ هـ ، أما فى الأصل فهو : إن لم يسلم حمدان .

حمدان إلى أبى تغلب عاضده على إخراج عضد الدولة من العراق وأعاد مملكته إليه ، ولم يزل يغريه إلى أن بعث لأبى تغلب ، وأخذ عليه العهود بذلك ، وقبض عند ذلك على حمدان ، وسلمه لأبى تغلب ، وأخته جميلة ، فحبساه ، ثم قتلاه صبراً ، وهرب ولده أبو السرايا إلى عضد الدولة ببغداد .

ذكر فساد حال عدة الدولة ، وزوال ملك بنى ناصر الدولة وماكان من أمر عدة الدولة الى أن قتل

قال : ولما قتل أخاه جمع الجموع لنصرة عز الدولة بختيار وجمع بختيار أيضا ، وسارا إلى بغداد وخرج عضد الدولة ، فنزل الحصن[1] غربى سامرا ، ونزلا تجاهه ، وباكروا القتال فى يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة من السنة ، وبعث الجيوش فى طلب أبى تغلب عدة الدولة ، ومحمد ابن عمه معز الدولة ، فتنقل أبو تغلب فى البلاد من مدينة إلى أخرى ، والجيوش تطلبه إلى أن سار إلى حصن زياد ، وكاتب ملك الروم قلاروس المنعوت[2] بورد يستنجده ، وكان ورد قد خرج عليه ملك آخر ، وانقضت عنه جموع الروم ، فبعث إلى أبى تغلب يسأله اللحاق به ليلقى الخارج عليه ، فإن نُصِرَ عليه عاد معه لنصرته ، فبعث إليه أبو تغلب قطعة من جيشه ، ثم عاد

(١) فى الكامل جـ٧ ص ٩٢ حوادث سنة ٣٦٧ : فالتقوا بقصر الجص .
وقصر الجص : قرب سامرا بناه الخليفة المعتصم للنزهه . بلدان ياقوت جـ٧ ص ١٠٠ .

(٢) فى ت : المنعوت نورد ، والكامل موافق للأصل .

فنزل بآمد وأقام بها قريبا من شهرين ، فاستولى عضد الدولة على ميافارقين والجزيرة ، وسائر بلاد عدة الدولة ، ففارق آمد عند ذلك ، وسار إلى دمشق ، وملك عضد الدولة آمد والرحبة ، وسائر بلاد بنى حمدان إلا ما كان فى يد سعد الدولة بن سيف الدولة ، فإنه لم يتعرض إليه كحلب ، وديار مضر ، وربيعة ، وما والاها من الحصون والبلاد لخدمة خدمه بها سعد الدولة ، ثم ملك عضد الدولة بعد ذلك قلاع أبى تغلب التى فيها أمواله وذخائره وهى من (١) جانب دجلة الشرقى على طريق الجزيرة .

قال : ولما وصل أبو تغلب إلى دمشق وجد قسّام العيّار متغلبا عليها ، فنزل بظاهرها ، وكتب إلى العزيز خليفة مصر يسأله أن يولّيه الشام ، فخاف العزيز عاقبته ، وكاتبه بأن يفعل ذلك ، ويأخذها من قسّام ، وكاتب قسّام ألاّ يسلّم إليه البلد ، فطال الأمر على أبى تغلب ، وضجر من تردد الرسائل ، واجتمع معه بنو عقيل ، فسار وقصد الرملة ، وذلك فى المحرم سنة تسع وستين (٢) وثلاثمائة ، فهرب [دغفل] (٣) بن الجراح منه ، ثم حشد ، وجمع ، وقصد الرملة ، والتقى مع أبى تغلب على باب الرملة فى يوم الإثنين لليلة خلت من صفر سنة تسع وستين ، فانهزم بنو عقيل ، وسائر من مع عدة الدولة ، ولم يبق معه إلا غلمانه ، وهم نحو سبعمائة فارس ،

---

(١) فى ت : وهى فى جانب دجلة .

(٢) فى الأصل سنة تسع وسبعين ، وما أثبتناه يؤيده سياق الحوادث .

(٣) فى الأصل : عقل بن الجراح ، وفى الصفحة التالية ص ١٤٨ : دغفل ، وفى الكامل ج ٧ ص ٩٨ ، ص ٩٩ : دغفل بن المفرج بن الجراح الطائى .

فانهزم بهم ، وأدركته الخيل ، فثنى وجهه لقتالهم ، فقتل فرسه ، وأسره سبع الطائى وهو ابن عم لد غفل بن الجراح ، وسلمه إلى دغفل ، فقتله فى يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من صفر سنة تسع وستين وثلاثمائة ؛ وكان [١] مولده يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وكانت مدة ملكه إلى حين انفصاله عن آمد نحواً من ثنتى عشرة سنة . وكان له من الأولاد . أبو الهيجاء أحمد ، وأبو الفتح نصر الله .

كتابه : أبو موسى النصرانى . وقرة بن ديما [٢] . وأبو الحسن على بن عمر بن ميمون . وعلى بن عمر بن عمر [٣] .

فلنذكر أخبار أولاد سيف الدولة :

ذكر أخبار سعد الدولة

هو أبو المعالى شريف بن سيف الدولة أبى الحسن على بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون .

ملك حلب وديار بكر ، وغير ذلك مما كان بيد والده سيف الدولة بعد وفاته فى يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، ولما توفى والده سيف الدولة بحلب كان سعد الدولة بديار بكر ، فاجتمعت غلمان أبيه : قرعون . وبقى . وبشارد [٤] ، وغيرهم على تقديمه ونصرته ، وضبط قرعويه حلباً نيابة عنه ،

(١) الزيادة من ت . وانظر تفصيل ذلك فى الكامل جـ ٧ ص ٩٥ ، وما بعدها حوادث سنة ٣٦٨ هـ ، سنة ٣٦٩ هـ

(٢) فى ت : ريجا

(٣) فى ت : عمرو .

(٤) فى ت : وتشاده

وبعث بتابوت مولاه إلى ديار بكر مع بقى وبشارة[1] الخادم في جمادى الأولى من السنة وكان بينَ بقَى وبشارة منافرة ، فأذاع بقى عن بشارة أنه قد كاتب حمدان بن ناصر الدولة ، وكان قد غلب على الرقة ونصيبين عند وفاة عمه ، وعزم على أخذ حلب وكتب بقَى إلى[2] قرعويه بذلك ، فقبض على أسباب بشارة بحلب . ولما بلغ بشارة الخبر داخلَ بقى وآنسه ، وأظهر له المودة فأنسر به ، وأخبره بما أضمره ، وأنه يقصد الاستيلاءَ على ديار بكر ، ويقبض على أبى المعالى ابن مولاه ، ويملك هو التدبير . وضمن لبشارة أنه يسلم إليه ميافارقين ، فأظهر بشارة القبول ، والإقبال عليه ، وسار بمسيره ، فلما قربوا من ميافارقين ، كتب بشارة إلى أبى المعالى يحذره من الخروج للقاء التابوت ، ويعرفه ما عزم عليه بقى ، فأظهر أبو المعالى علة ، وامتنع من الركوب ، وأخرج أهل البلد لتلقى التابوت ، فلم يدخل بقى المدينة ، ووكّل بأبوابها خلقا من الرجال الذين أعلمهم بالخبر ، وقبض على قوم من الكتاب ، وطالبهم بمال ينفقه في رجاله ، فدخل بشارة المدينة ، وطلع على السور ، وأغلق الأبواب ، وخاطب أصحاب بقَى عن أبى المعالى بكل جميل ، فمالوا إليه ، وفارقوا صاحبهم فبطل ما دبره بقَى ، وسار إلى منازكرد[3] ، وكتب إلى أبى المعالى يطلب منه الأمان .

---

(١) في ت : تشاده .

(٢) في الأصل : على .

(٣) منازجرد ، وأهله يبدلون الجيم كافا : بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم من أرمينية ، وأهلها أرمن وروم . مراصد ج ٣ ص ١٣١٤

فأمنه ، ولما حصل عنده قبض عليه ، وسلمه لبشارة ، فقتله ، وسار أبو المعالى إلى حلب فى شهر رجب من السنة .

ذكر مقتل أبى فراس الحارث ، واستيلاء أبى المعالى على حمص

قال المؤرخ : كان سيف الدولة قد أقطع أبا فراس الحارث ابن سعيد بن حمدان ، وهو خال أبى المعالى شريف حِمْصَ بعد خلاصه من أسر الروم ، فأكثر الظلم والتعدى على أهلها . فلما توفى الأمير سيف الدولة اضطربت أموره ، ثم فسد ما بينه وبين ابن أخته أبى المعالى ، فسار أبو المعالى ، ففارق حِمْص ، وانحاز إلى ضيعة له فى طريق البرية تعرف « بصدد » ، وجمع سعد الدولة أعراب بنى كلاب وظالماً العقيلى ، وبعثهم على[1] مقدمته مع قرعويه ، فكبس أبا فراس « بصدد » ، فناوشهم القتال ، ثم قتله بعض غلمان قرعويه ، وعاد سعد الدولة إلى حمص ، فولاها لذكا غلام قرعويه .

ذكر استيلاء قرعويه على حلب ، واخراج أبى المعالى عنها

قال : ثم فسد ما بين سعد الدولة وبين قرعويه ، ووافقه أكثر الغلمان ، وأهل البلد ، فأخرج أبا المعالى منها ، وقطع دعوته ، وتغلّب على البلد ، فسار سعد الدولة إلى أرزن ، وميّا فارِقين ،

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : من .

فمر فى مسيرة بحران ، فأغلق أهلها الأبواب فى وجهه ، ومنعوه من الدخول إليها إلا أنهم لم يقطعوا دعوته ، فمضى إلى ميّافارقين ، وكانت والدته بها ، فبلغها أن غلمانه قد عزموا على القبض عليها ، وحملها إلى القلعة ، فأغلقت أبواب المدينة فى وجه ابنها ثلاثة أيام إلى أن توثقت منه ، وممن معه ، ومن أجناده ، ثم فتحت الأبواب وأطلقت أرزاق غلمانه ، فصلحت أحوالهم ، ثم جمع سعد الدولة واحتشد ، وسار إلى حلب ، فنزل عليها فى شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وحاصرها ، وفى مدة غيبته نزل أبو البركات ابن ناصر الدولة بجيش على ميّا فارقين ، فأغلقت والدة أبى المعالى الأبواب دونه ، وضبطت البلد ، وراسلته تتعرف منه سبب مقصده ، فعرفها أنه يقصد العدو ، وأنه يريد منها ما يتقوى به على قصده ، فبذلت له مائتى ألف درهم ، فلم يقنع بها ، وطلب منها ضياعاً كانت لسيف الدولة بالقرب من نَصِيبين ، فأعملت التدبير إلى أن أفسدت عليه جماعة ممّن معه ، ثم ركبت ، وكبسته فى عسكره ، وقتلت جماعةً من غلمانه ، فانهزم أبو البركات ، وراسلها ، فردّت عليه بعضَ ما نهبت منه ، وأطلقت له مائة ألف درهم ، وأطلقت حاجبه ، وكانت قد أسرته ، فرحل عنها ، ولم يزل أبو المعالى على حصار حلب حتى فتح الرومُ أنطاكية فى يوم النحر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، واستقرّوا بها ، وأنفذوا جيشاً لأخذ حلب ، فارتحل أبو المعالى عنها ، ونزلت الروم عليها ، وملكوا المدينة ، فصالحهم قرعويه على أن يؤدّى لهم جالية (١) ، ويكون فى ذمّتهم إلى أن يموت ،

(١) دفع لهم ما لا نظير جلائهم .

فإن مات ولى مكانه غلامه بكجور ، وكتب فيهم [١] كتاباً ، ونزل أبو المعالى معرة النعمان ، ووالدته نائبة عنه بميّافارقين ، فورد عليها الخبر أن ملك الروم تحرك لقصد ديار بكر ، فخافت أنها لا تنهض بضبط ميّا فارقين ، فتبرأت من الأمر ، ودبر البلد أهله ، ثم راسلوا أبا تغلب بن ناصر الدولة فى وال . فبعث إليهم أبا الفوارس هزارمرد أحد مماليك سيف الدولة الكبار .

ذكر الصلح بين سعد الدولة وقرعويه ، والقبض على قرعويه، وقيام بكجور ، وعود ملك «حلب» الى سعد الدولة

وفى سنة تِسْع وخمسين وثلاثمائة تمّ الصلح بين أبى المعالى وقرعويه ، ودعا له بحلب ، وكان أبو المعالى ينزل بحماه ، وكانت حمص قد أخربها الروم عند دخولهم إليها فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ، فنزل دقطاش [٢] غلام سيف الدولة بها وعمرها لأبى المعالى . فنزلها بعد ذلك ، وكان قرعويه قد قدم غلامه بكجور على قرعويه . واعتقله ، وملك حلب ، وأقام بها نحوا من خمس سنين ، فلم يرض أهلها سيرته ، وكاتبوا أبا المعالى ، فسار إليها ، ونزل معرة النعمان ، ففتحها ، ثم نزل على حلب فى سنة ست وستين وثلاثمائة ، وأقام عليها نحواً من أربعة أشهر ، وافتتحها بحيلة ، وتحصن بكجور بالقلعة ، ثم صالح على أن يوليه سعد الدولة حمص ، وسلم القلعة

(١) فى ت : بينهم .
(٢) فى ت : دقطاص .

بما فيها ، فتسلمها سعد الدولة ، ووفى لبكجور ، وعظمت مملكة أبى المعالى عند ذلك ، وقويت حرمته ، وتمكنت دولته .

ذكر تولية سعد الدولة من قبل الخليفة وتلقيبه[1]

كان سبب ذلك أن عضد الدولة البويهى لما ملك العراق بعد ابن عمه عز الدولة بختيار كاتبه أبو المعالى يبذل له الطاعة والدعوة ، فتنجز له من الخليفة الطائع لله الخلع واللقب بسعد الدولة ، والولاية على مابيده من الأعمال ، وأرسل ذلك مع رسول ، وخادم الخلافة . وكان جلوس الخليفة لذلك فى شهر رجب سنة سبع وستين وثلاثمائة .

ذكر خلاف[2] بكجور على الأمير سعد الدولة وماكان من أمره

قال : وأقام بكجور بحمص ، وعمّرها أحسن عمارة ، وأمّن أهلها وطُرُقاتها إلى أن وقع بينه وبين سعد الدولة فى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة . فسار بكجور إلى حلب وحاصرها ، فبلغ ذلك ملك الروم ، فسار لنصرة أبى المعالى ونزل[3] أنطاكية ، وكان معه مفرج [ابن دغفل بن الجراح ، وكان بين مفرج وبكجور مودة ، فكتب إليه مفرج][4] يخبره بقصد الروم ، فرحل عن حلب ، وسار إلى حمص وأخذ ما أمكنه من أمواله ، وكان العزيز صاحب مصر استدعى بكجوراً

(١) فى الأصل : وتلقيه .
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : خلافة .
(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : وترك .
(٤) الزيادة بين الحاصرتين من ت ، وانظر ص ١٤٧ من هذا الجزء .

ليوليه الشام ودمشق لما اشتهر من شهامته ، فتولى دمشق بعد خطب عظيم جرى له ، واضطراب حال ، ودخلت الروم حمص الدخلة الثانية بإذن سعد الدولة لأنه خاف أن يملكها بكجور بالمغاربة ، وكان دخولهم إليها فى يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة .

وتسلم بكجور دمشق فى يوم الأحد مستهل شهر رجب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة . ثم وقع بين بكجور ، وبين يعقوب بن كلس الوزير ، فقبض بكجور على وكلاء الوزير بدمشق ، فاستحكمت العداوة بينهما ، وأفسد الوزير نفس نزار صاحب مصر على بكجور ، فبعث منيراً الخادم فى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة لقصد بكجور ، وإخراجه من دمشق من غير إظهار ذلك بل أظهر أنه قصد بإرساله طرد مفرج بن دغفل من دمشق ، وجرى من الأمور ما أوجب خروج بكجور بأمواله وحرمه من دمشق . وكان خروجه فى يوم الثلاثاء منتصف شهر رجب سنة ثمان وسبعين . وسار بكجور إلى الرقة ؛ وكان قد بعث غلامه وصيفاً فى سنة ست وسبعين وثلاثمائة إليها ؛ فتسلمها من ديلمى ، وكان بها من أصحاب عضد الدولة بعد وفاته ، فلما دخلها بكجور راسل الطائع لله ، فلم يجد عنده ما يؤثره ، فأقام على الدعوة لنزار صاحب مصر ، وبعث إليه نزار يقول : إنى ما أردت إخراجك من دمشق ؛ وإنما أردت طرد ابن الجراح منها ، وأبقى عليه ضياعه ، وأمواله بها ، وقوى أمر بكجور بالرقة ؛ واشتد طمعه فى أخذ حلب من سعد الدولة وكاتب نزارا بذلك ، وطلب إنجاده ، فكتب نزار إلى والى طرابلس بالمسير إلى بكجور متى استدعاه ،

وجمع بكجور العرب وكتب إلى نزار [١] والى طرابلس أن يوافيه بحلب ، وكان سعد الدولة قد كاتب بسيل [٢] ملك الروم يعلمه بذلك ، ويطلب منه أن يأمر نائبه بأنطاكية ، وسائر الثغور بإنجاده متى طلبهم ، فكتب بسيل لهم بذلك ، ثم أرسل سعد الدولة بكجور ، وبذل له أن يقطعه من الرقة إلى حمص ، فقال لرسوله : «قل له الجواب ماتراه دون ما تسمعه» . ثم سار بكجور لحرب سعد الدولة ، وتقدمت مقدماتها فتطاردا [٣] ، فكان سعد الدولة يخلع على من أبلى من أصحابه ، وينعم عليهم ويحملهم ؛ وبكجور يكتب أسماء من أبلى من أصحابه لينظر فى أمرهم ، فتغيرت لذلك قلوبهم . ثم كاتب سعد الدولة أعراب بكجور ، وأطمعهم فعصوا [٤] على بكجور ونهبوا سواده . ثم سار كل من العسكرين فى يوم السبت لسبع خلون من صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة إلى الآخر ، والتقوا ، واقتتلوا قتالاً شديداً كان الظفر لسعد الدولة وأصحابه على بكجور ، فانهزم إلى حلب ، واستولى القتل والأسر على غلمانه ، واستخفى بكجور فى بيت رحى بظاهر حلب ، وتقلبت به الأحوال إلى أن استجار ببعض العرب ، فحمله إلى سعد الدولة ؛ فضرب عنقه ، ثم سار سعد الدولة بعد أن أعاد الروم إلى بلادهم ، وقصد الرقة ، فنازلها وتحصن منه سلامة الرشيفى [٥] غلام بكجور بحصن الرافقة ، ومعه حرم بكجور

(١) فى الأصل : وكتب إلى نزار ، وفى ت : وكتب نزال .
(٢) فى ت : يسيل أو يسل .
(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : فتطاردوا .
(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : فقضوا .
(٥) فى ت : الرشيق

وأمواله ، وابن المغربى كاتبه ، فكاتبه سعد الدولة فى تسليم الحصن ، فبعث سلامة إليه يقول : أنا عبدك ، ولكن لبكجور عندى صنائع تمنعنى من تسليم الحصن إلا أن أستوثق لحرمه وأولاده ، فإن أمنتهم على أن يكون لك السلاح من أموالهم دون غيره سلمت لك الحصن ، فأجابه سعد الدولة إلى ذلك ، وحلف له وتسلم الحصن . ولما نزل أولاد بكجور ، وحملوا أموالهم قال ابن أبي حصين قاضى حضرة سعد الدولة : إن بكجوراً مملوكك لم تعتقه ، وأولاده كذلك ولا مال لهم ، ولا إثم عليك فى أخذ أموالهم ، فقبض عليهم عند ذلك ، وأخذ الأموال ، وهرب ابن المغربى إلى الكوفة ، وكتب أولاد بكجور بذلك إلى العزيز نزار صاحب مصر ، فكتب العزيز إلى سعد الدولة كتابا يهدده فيه ويقول : إن لم تطلق آل بكجور وأموالهم بعثت الجيوش لحربك . وأنفذ الكتاب مع فائق الصقلبى ، فوصل إليه ، وقد عاد من الرقة ، وهو نازل بظاهر حلب . فلما وقف سعد الدولة على الكتاب غضب ، وأحضر الرسول ، وصفعه ، وألزمه أن يأكل الكتاب فتناوله ، ومضغه حتى فرغ منه ، وقال له : عد إلى صاحبك ، وقل له لا حاجة لك فى إرسال الجيوش ، فأنا سائر إليك ، والخبر يأتيك من الرملة ، وعزم سعد الدولة على قصد العزيز صاحب مصر ، فعاجلته منيته .

ذكر وفاة سعد الدولة

كانت وفاته ليلة الأحد لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ، وسبب ذلك أنه لما أعاد رسول العزيز بالرسالة التى ذكرناها قدّم بعض جيوشه إلى حمص . وأقام هو بظاهر حلب أياماً ليرتب أحواله ، فعرض له قُولنج أشفى منه ، فأشار أطباؤه عليه بدخول حلب وملازمة الحمام ، ففعل ذلك وانتفع[1] وصح ، فلما كان فى اليوم الثالث من صحته زُينَ له[2] البلد ليركب ، فجاءته جارية فى ليلة ذلك اليوم من جملة حظاياه ، وكن أربعمائة حظية ، وكان سعد الدولة يهواها ، فلما رآها ما تمالك عند رؤيتها أن واقعها ، فلما فرغ سقط عنها ، وقد جف نصفه الأيمن ، وفلج فدخل عليه النفيس الطبيب ، والتمس أن يجس نبضه ، فناوله اليد اليسرى فقال : يا مولاى اليمين ، فقال : يا نفيس ما تركت لى اليمين شيئاً ، أراد بذلك نقض اليمين التى حلفها لآل بكجور . وتوفى فى هذه المرضة .

ومن العجب أن والده سيف الدولة فلج نصفه الأيسر قبل وفاته . وفلج نصف سعد الدولة الأيمن ، فاجتمع منهما مفلوج ، وكانت مدة ملكه خمسا وعشرين سنة وتسعة أشهر . وكان له من الأولاد . أبو الفضائل وهو الأكبر . وأبو الهيجاء .

كتابه : أبو الحسن المغربى[3] والمصيصى وغيرهما .

حاجبه : لؤلؤ الكبير الجراحى وغيره . والله أعلم .

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : واتبع .

(٢) الزيادة : من ت .

(٣) فى الأصل أبو الحسين ، وما أثبتناه فى ت ، وقد مر فى ص ١٤٤ من هذا الجزء

ذكر أخبار أبى الفضائل بن [١] سعد الدولة أبى المعالى شريف بن سيف الدولة أبى الحسن على بن عبد الله بن حمدان بن حمدون

ولى سعد وفاة أبيه فى يوم الأحد لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ، وذلك أن والده سعد الدولة لما أدركته الوفاة عهد إليه ، وأوصى لؤلؤًا [٢] الجراحى ، وجعله مدبر جيشه ؛ وأوصاهما بالسيدة ستّ النساء ، وبولده أبى الهيجاء عبد الله الأصغر.

ذكر ماكان بين لؤلؤ الجراحى وبين العزيز نزار صاحب مصر

وفى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة وصلت جيوشُ العزيز نزار صاحب مصر لمحاصرة حلب ، وسبب ذلك أن ابن المغربى لما انهزم من سعد الدولة إلى الكوفة عند القبض على آل بكْجورُ كاتب العزيز يستأذنه فى الانضمام إليه ، والانحياز إلى جهته ، فأذن له ، فسار إليه ، ودخل القاهرة فى يوم الخميس النصف من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ، وبلغ عند العزيز مرتبة عظيمة حتى صار يستشيره فى عظائم الأمور ، ويأتمنه على الأسرار ، فلما بلغه وفاة سعد الدولة حسَّنَ للعزيز أن يبعث جيشا إلى حلب . وكان العزيز قد بعث [بمنجوتكين] [٣] التركى فى جيش إلى دمشق فى تاسع شهر رمضان

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : لولد .

(٣) فى الأصل بنجو تكين ، وفى ت بنجو تكين ، وما أثبتناه نقلا عن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٧ حوادث سنة ٣٦٥ .

سنة إحدى وثمانين ، وأمره بحرب منير الذى كان قد تسلّم دمشق من بكجور ، ولأنه كان قد عصى على العزيز ، فأمره أنه إذا أخذ دمشق يمضى إلى حلب ، واستكتب العزيز بن المغربى ، فسار إلى دمشق ، وهزم منيراً ، واستولى على البلد للعزيز ، وأقام بها إلى أن انسلخت سنة إحدى وثمانين ، وسار إلى حلب ، وكان لؤلؤ قد كتب إلى بسيل ملك الروم ، وعقد بينه وبين أبى الفضائل بن سعد الدولة كما كان بينه وبين أبيه ، فأمر بسيل « البُرجى » (١) صاحب أنطاكيه أن يكون ظهراً لأبى الفضائل على كل من يقصده ، وينجده متى طلبه . ولما نزل منجوتكين على حلب قاتلها مدة شهرين فلم يظفر منها(٢) بشىء ، فاستظهر عليه أبو الفضائل ولؤلؤ غاية الاستظهار ، فعاد عنها فى شهر رمضان وولى حمص (٣) لمعضاد الحمدانى . ثم سار إلى حلب فى سنة ثلاث وثمانين ، ثم عاد عنها وسار إليها فى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، وقد جمع واستعد ، فنازلها وضايقها مدة شهرين ، فبعث لؤلؤ إلى البرجى صاحب أنطاكية فى الحضور إليه ، فجمع الروم . وكان قد خرج إليه من بلاد الروم رئيس عظيم عندهم يقال له : أصابع الذهب ، فجمع أيضا مَنْ أمكنه ، وسارا بمن معهما حتى نزلا على نهر المقلوب (٤) ، فأقاما هناك ، ورجع منجوتكين عن حلب ، ونزل بإزائهما ، وكان عسكره أكثر من جمعهما ، فاقتتلوا ، فكانت الدائرة على الروم ،

---

(١) البرجى : نائب ملك الروم بأنطاكيه . المرجع السابق ص ١١٨ .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : منهم .

(٣) الزيادة من ت .

(٤) نهر المقلوب : هو نهر انطاكيه ويسمى نهر العاصى . المرجع السابق ص ١١٩ .

وذلك فى شعبان سنة أربع وثمانين ، وعاد منجوتكين إلى محاصرة حلب ، فحاصرها من شعبان إلى شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين ، فاشتد الحصار على أهلها ، وكانت الأخبار ترد على بسيل ملك الروم وهو ببلاد انبلغر [١] وله بها سنين كثيرة ، وقد استحوذ على أكثرها ، فخاف على حلب فترك قتال البلغر ، ورجع إلى [٢] القسطنطينية ، وخرج في نحو أربعين ألفا من خواص أصحابه يركبون البغال الرهاوين ويجنبون [٣] الخيل ، وسار لا يلوى على متأخر ولا يقف [٤] لمنقطع فوصل إلى [إعزاز] [٥] في سبعة عشر ألفا ، وعزم على أن يكبس منجو تكين ، فنمى الخبر إليه ، فانهزم لوقته ، وسار إلى دمشق .

ذكر الصلح بين أبى الفضائل والعزيز نزار صاحب مصر

قال : ولما رجع منجوتكين إلى دمشق توسط بدر الحمدانى في الصلح بين العزيز وأبى الفضائل ، فتم ، وانعقد فى بقية سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، وورد كتاب الصلح على أبى الفضائل مع مختار الحمدانى ، وأقام الأمر على ذلك إلى أن توفي لؤلؤ [٦] الحمدانى ،

---

(١) فى ت : البلغى . وانظر المرجع السابق ص ١١٨ .

(٢) الزيادة من ت .

(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : يخبثون

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ولا يعقب .

(٥) فى الأصل : إغزار ، وفى ت : إعزار ، وفى شذرات الذهب ص ١٦١ ج ٣ : عزاز . وما أثبتناه نقلا عن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٨ ويقع فى الشمال الغربى من حلب .

(٦) وهو لؤلؤ الكبير ، غلام سيف الدولة بن حمدان توفى سنة ٣٩٩ هـ النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٦١ ، ص ٢٢١ .

وانقطع خبر أبي الفضائل ولم يسمع له ذكر إلا أن لؤلؤاً الجراحي كان يدبر أمر حلب إلى سنة أربع وأربعمائة ، وكتب له سجل في شوال من السنة من قبل الحاكم صاحب مصر بملك حلب ، ولقبه مرتضى الدولة [1] .

وانقرضت الدولة الحمدانية بعد أبي الفضائل ، وكانت مدة هذه الدولة منذ ولى أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ابن حمدون ولاية الموصل في سنة اثنتين وتسعين ومائتين إلى أن استقل لؤلؤ الجراحي بالملك بعد أبي الفضائل في سنة أربع وأربعمائة [2] سنة واثنتا عشرة سنة تقريبا . وعدة من ملك منهم ستة ملوك ، وهم : أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان . ثم ابنه ناصر الدولة أبو محمد الحسن ، ثم أخوه سيف الدولة أبو الحسن علي . وعُدّة الدولة الغضنفر أبو تغلب بن ناصر الدولة ، وسعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة . ثم أبو الفضائل بن سعد الدولة ، وعليه انقرضت دولتهم من سائر البلاد ، وكان ملك هذه [2] الدولة بعد وفاة أبي الهيجاء عبد الله في فخذين : الفخذ الأول منها : في ناصر الدولة أبي محمد الحسن وبنيه ، وقاعدة ملكهم الموصل ، وآمد وديار ربيعة ، وسنجار ، وغير ذلك مما والاه وجاوره ، وانقرضت دولتهم من الموصل ، وما معها بخروج أبي تغلب الغضنفر بن ناصر

---

(١) جاء في المرجع السابق ص ٢٢١ : « ولما مات لؤلؤ : غلام سيف الدولة تولى الملك بعده ابنه مرتضى الدولة » . وانظر أيضا أبا الفدا ص ١٤٠ ج ٢ .

(٢) ، (٢) الزيادة من ت .

الدولة من آمد كما ذكرنا ، وافترق بعده أبناء ناصر الدولة ، فبعضهم دخل في طاعة الأمير عضد الدولة ، وبعضهم دخل في طاعة العزيز نزار صاحب مصر ، وبعضهم التحق بابن عمهم أبي المعالي شريف بن سيف الدولة ، فممن سار إلى الديار المصرية : أبو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة ، وأخوه أبو المطاع ذو القرنين ، وولد للحسين بمصر ولده الحسن وهو المنعوت ناصر الدولة . تمكن ناصر الدولة الحسن هذا من دولة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين[1] الله صاحب ملك مصر تمكنا عظيما ، وقاد الجيوش ، وعظم شأنه ، ونفذت أوامره حتى لم يبق للمستنصر معه بالديار المصرية إلا مجرد اسم الخلافة . ثم لم يرض ناصر الدولة بذلك ، ولا اقتصر عليه ، ولاقنع به إلى أن حصر المستنصر في قصره ، وجرى له معه وقائع ، نذكرها إن شاء الله تعالى في أخبار المستنصر بالله ، ونذكر هناك أيضا مقتل ناصر الدولة هذا . وكان مقتله في شهر رجب من شهور خمس وستين وأربعمائة بداره بمصر ، وهي الدار المعروفة بمنازل العز التي هي الآن مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية ، ولم يذكر بعد ناصر الدولة هذا أحد من آل حمدان بولاية فنذكره . فهذا الفخذ الأول . والفخذ الثاني منها : في سيف الدولة أبي الحسن علي وبنيه ، وقد تقدم ذكرهم رحمهم الله تعالى .

انتهت أخبار الدولة الحمدانية بعون الله تعالى . فلنذكر أخبار الدولة الديلمية البويهية .

---

(١) الزيادة من ت ، وانظر النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١ . حوادث سنة ٤٢٨ هـ .

ذكر أخبار الدولة الديلمية البويهية

وابتداء امر بويه ، ونسبه ، وكيف تنقلت به وببنيه الحال الى ان استولوا على الأقاليم والممالك . وسياقة اخبارهم الى ان انقضت دولتهم

ذكر ابتداء حال بويه ، ونسبه ، وماكان من امره

هو أبو شجاع بويه بن فَنّاخسرو بن تمام بن كوهى بن شيرزيل الأصغر بن شيركنده[1] بن شبيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرويه بن سنان[2] بن شيش[3] فيروز بن شيروزيل بن شيسناد[4] ابن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك بن سابور بن سابور ذى الأكتاف فهم من الفرس ، وإنما نُسِبوا إلى الديلم لطول مقامهم ببلادهم ، ولذلك لم نذكرهم عند ذكرنا لأخبار الدولة الديلمية الجيلية .

وأما ابتداء حال بويه فقد نقل جماعة من المؤرخين أنه كان صيّاداً يعيش من صيد السمك ، ثم تنقلت به الحال إلى أن خدم جنديا [5] ، وخرج مع الناصر للحق الحسن بن على العلوى ، وكان يلحظه بعين التقدّم لشجاعته ، وكان له خمسة أولاد المشهور منهم ثلاثة ، وهم: عماد الدولة أبو الحسن على ، وركن الدولة أبو على الحسن ، ومعزّ الدولة أبو الحسين أحمد ، فهولاء الذين ملكوا البلاد على

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) فى الكامل ج ٦ ص ٢٣٠ ، حوادث سنة ٣٢١ هـ : سشتان .

(٣) فى ت : سيش ، وفي الكامل : سهس . الصفحة السابقة .

(٤) فى الكامل ج ٦ ص ٢٣٠ : سنباد .

(٥) هكذا فى ت ، وفى الأصل : جندا .

مانذكره إن شاء الله تعالى ، وكان له ابنان غيرهؤلاء ، وهما : محمد ، وإبراهيم قتل أحدهما مع الناصر للحق ، والآخر مع الحسن بن القاسم الداعى .

وحكى ابن الأثير فى تاريخه الكامل :

أن زوجة بويه ماتت ، وخلفت له ثلاثة بنين ، فاشتد حزنه عليها ، فحكى شهريار[1] رستم الديلمى قال : كنت صديقا لأبى شجاع بويه ، فدخلت إليه يوما ، فعذلته على كثرة حزنه ، وقلت له : أنت رجل تحتمل الحزن ، وهؤلاء المساكين أولادك يهلكهم الحزن ، وسليته جهدى [2] ، وأخذته ففرحته [3] ، وأدخلته ، ومعه أولاده إلى منزلى ، فأكلوا طعاما ، وشغلته عن حزنه ، فبينما هم كذلك إذ اجتاز بنا رجل يقول عن نفسه : إنه منجم ، ومعزم ، ومعبر للمنامات ، ويكتب الرُّقَى والطِّلَّسمات ، وغير ذلك ، فأحضره أبو شجاع ، وقال له : رأيت فى منامى كأنى أبول ، فخرج من ذكرى نار عظيمة استطالت ، وعلت حتى كادت تبلغ السماء ، ثم انفرجت ، فصارت ثلاثَ شُعب ، وتولّد من تلك الشعب عدة شعب ، فأضاءت الدنيا بتلك النيران ، فرأيت البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران ، فقال المنجم : هذا منام عظيم لاأفسّره إلا بخِلعة وفرس وركب ، فقال أبو شجاع : والله ماأملك إلا الثياب التى على جسدى ، فإن

(١) هكذا فى ت ، وفى الكامل ج ٦ ص ٢٣٠ حوادث سنة ٣٢١ هـ ، وانظر أيضا — الفخرى لابن طباطبا ؛ وفى الأصل : شهر باذ .

(٢) فى الأصل : بجهدى .

(٣) فى ت : ففرجته .

أخذتها بقيت عريانا ، قال المنجم: فعشرة دنانير قال : والله لا أملك دينارا ، فكيف عشرة ، فأعطاه شيئا ، فقال المنجم : إعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ، ويعلو ذكرهم فى الآفاق كما علت تلك النار ، ويولدلهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب ، فقال أبو شجاع : أما تستحى ؟ تسخربنا ؟ أنا رجل فقير ، وهؤلاء أولادى فقراء مساكين [كيف][1] يصيرون ملوكا ؟ فقال له المنجم : أخبرنى عن وقت[2] ميلادهم ، فأخبره ، فجعل يحسب ثم قبض على يد أبى الحسن على فقبلها ، وقال هذا والله الذى يملك البلاد ، ثم هذا من بعده . ثم قبض على يد أخيه أبى على الحسن ، فاغتاظ منه أبو شجاع ، وقال لأولاده : اصفعوا هـذا الحكيم ، فقد أفرط فى السخرية بنا فصفعوه ، وهو يستغيث ، ونحن نضحك منه ، ثم أمسكوه ، فقال: اذكروا لى هذا إذا قصدتكم ، وأنتم ملوك ، فضحكنا منه وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم . ثم اتفق خروج جماعة من الديلم لملك البلاد . منهم : ماكان بن كالى ، وليلى بن النعمان ، وأسفار بن شيرويه . ومرداويج بن زياد ، وخرج مع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم ، وخرج أولاد أبى شجاع فى جملة من خرج مع ماكان بن كالى . فلما استولى مرداويج على ماكان بيد ماكان من طبرستان وجرجان ، وضعف ما كان ، وعجز ، قال له عماد الدولة ، وركن الدولة : نحن فى جماعة ، وقد صرنا ثقلا عليك وعيالاً ، وأنت مُضيِّق عليك ، والأصلح لك أن نفارقك ؛ لنخف عليك مؤونتنا ، فإذا

(١) الكامل ج ٦ ص ٢٣١ حوادث سنة ٣٢١ هـ .
(٢) الزيادة فى ت .

صلح أمرك عدنا إليك ، فأذن لهما . فسارا إلى مرداويج ، واقتدى بهما جماعة من قواد ماكان ، وتبعوهما ، فلما صاروا إليه قبلهم أحسن قبول ، وخلع على ابنى بويه ، وأكرمهما ، وقلد كلّ قائد من قواد ماكان ، الواصلين إليه ناحية من نواحى الجبل ، فقلد على بن بويه الكرج [1].

ذكر اخبار عماد الدولة ابى الحسن على بن بويه وابتداء الدولة البويهية

كان عماد الدولة قد خرج مع أبيه فى جيش الناصر للحق ، ثم تنقلت به أمور فى خدمة الملوك ، ودخل إلى خراسان كرّتين ، وصار من أصحاب ماكان ، ثم فارقه إلى مرداويج بن زيار ، ومعه أخواه ، فولاه مرداويج الكرج ، وقلد جماعة القواد المستأمنة الأعمال ، وكتب لهم العهود ، وساروا إلى الري ، وبها وشمكير بن زيار أخو مرداويج ، ومعه الحسين [2] بن محمد الملقب بالعميد ، وهو والد أبى الفضل الذي وزر لركن الدولة بن بويه ، فلما وصل عماد الدولة إلى الرىّ عرض بغلة للبيع ، فبلغت ألفى وثمانمائة درهم فعرضت على العميد ، فاستجادها ، وقصد أن يبتاعها ، فحلف عماد الدولة أنه لايأخذ لها ثمنا ، وتابع بعد [3] ذلك مواصلة العميد وبره ، فبلغ عنده مبلغا عظيما ، وتمكن منه .

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل: الكرخ ، وما ذكرناه موافق للكامل ج ٧ ص ٢٣١ . حوادث سنة ٣٢١ . والكرج : بلدة من ناحية روذراور بين همذان وشهاوند . معجم البلدان : ياقوت ج ٧ ص ٢٣٠ .

(٢) فى ت : الحسن .

(٣) الزيادة : من ت .

قال : وكان مرداويج قد تعقب رأيه فى تولية عماد الدولة الكرج ، وفى تولية القواد المستأمنة إليه لقرب عهدهم بصحبة ماكان ، فكتب إلى أخيه ، وإلى العميد : بأن يمنعا عماد الدولة من النفوذ إلى الكرج إلا أن يكون قد فات ، وكان الرسم جارياً أن يقرأ العميد الكتب ، ثم يوقف وشمكير عليها بعد ذلك ، فلما قرأها بعث إلى عماد الدولة يأمره أن يبادر بالخروج إلى عمله ، فسارع إلى ذلك ، ثم عرض العميدُ الكتب على وشمكير ، فعزل من الولاة من لم يمض إلى عمله ، وأبقى عماد الدولة . قال : وتسلم عماد الدولة الكرج ، وأخذ فى الإفضال على الرجال ، وعلى عامل البلد ، فكانت كتب العامل تمضى إلى الرىّ يشكره ، ثم فتح قلاعاً كانت باقية فى أيدى الخرّمية[1] ، وأخذ منها أموالا جمة ، وغنائم كثيرة ، وصرف أكثرها فى جمع الرجال عليه واستجلابهم .

ذكر خروج عماد الدولة بن بويه عن طاعة مرداويج ، ومخالفته له ، وملكه أصفهان

كان سبب ذلك أن عماد الدولة لما تحقق قدم مرداويج على ولايته احتاط لنفسه ، وأخذ فى جمع الرجال ، والإنعام عليهم ، وهو فى ذلك يظهر طاعة مرداويج ، واتفق أن مرداويج سبب[2] لبعض قواده على الكرج بمال ، فأنعم عماد الدولة على أولئك القواد ، واستمالهم ،

(١) فى الأصل الخزمية ، وما أثبتناه من ت ، وهو موافق للكامل ج٦ ص ٢٣١ ، حوادث سنة ٣٢١ هـ .

(٢) فى ت : سبب بمعنى : ترك .

فمالوا إليه ، وباطنوه ، فلما وثق منهم أعلن بخلع مرداويج ، وبايعه القواد ، فخرج بهم عماد الدولة من الكرج بعد أن استصفى أمواله ، وقصد أصفهان ، وعرض أصحابه ، فكانوا ثلاثمائة رجل ، لكنهم منتجبون[1] مستظهرون فى العدة ، وسار إليها ، وبها أبو الفتح المظفر بن ياقوت والياً للحرب ، وأبو على[2] رستم واليا للخراج ، وهما من قبل الخليفة ، وكاتبهما عماد الدولة أن يدخل معهما فى خدمة السلطان ، فامتنعا من ذلك ، وانفق فى غضون ذلك ، وفاة رستم ، فنزل عماد الدولة بجوزنجان[3] ، وهى قرية على ثلاث فراسخ من أصفهان ، وبرز إليه أبو الفتح بن ياقوت فى ألوف من الرجال من جملتهم ستمائة ديلمى ، فاستأمن إلى عماد الدولة منهم أربعمائة رجل ، وانفصل المائتان الأخر لاحقين بماكان ، وهو يومئذ بكرمان ، وانهزم ابن ياقوت بعد حرب شديدة ، ودخل عماد الدولة أصفهان فى يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وكانت أصفهان أول شئ استولى عليه عماد الدولة بن بوية . والله أعلم .

---

(١) منتجبون : مختارون .

(٢) فى الكامل جـ٦ ص ٢٣٢ ، حوادث سنة ٣١١ هـ : أبو على بن رستم .

(٣) لعلها جوز دان ، وهى قرية كبيرة على باب أصفهان . مراصد جـ١ ص ٣٥٧ .

ذكر استيلائه على أرجان وغيرها ، وملك مرداويج أصفهان

قال : ولما بلغ مرداويج خبر الوقعة خاف جانب عماد الدولة ، وأهمّه أمره ، فشرع فى إعمال الحيلة ، فراسله يعاتبه ، ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته ليمده بالعساكر الكثيرة ؛ ليفتح بها البلاد ، ولايكلفه سوى الخطبة له فى البلادالتى يستولى عليها ، ولما سير الرسل جهز أخاه وشمكير فى عسكر ضخم ليكبس عماد الدولة ، وهومطمئن ، فنمى الخبر إلى عماد الدولة ، فارتحل عن أصبهان بعد أن أقام بها نحوا من شهر ، وتوجه إلى أرّجَان وبها أبو بكر محمد بن ياقوت ، فانهزم أبو بكر عنها إلى رامهرمز من غيرحرب ، ودخلها عماد الدولة ، واستخرج منها أموالا [وانفقها] (١) فى جيشه ، ثم وردت على بن بويه كتب من أبى طالب زيد بن على النوبندجانى يستدعيه إلى شيراز مدينة بلاد فارس ، ويهون عليه أمر أميرها ياقوت ، وكان ياقوت فى جيش كثير العدد من قبل الخليفة ، فسار عماد الدولة إلى قرية تعرف بالخوان(٢) دان ، فسار إليه ياقوت ، ووردت مقدمته فى (٣) ألفى رجل ، فوافاهم عماد الدولة بالنُوبَنْد جان . وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة ، فلم يثبتوا له ، وانهزموا إلى

(١) فى الأصل : ونفق ، وما أثبتناه هو ماية تضيه السياق .

(٢) لم نجدها فيما بين أيدينا من كتب البلدان ، ولعلها : خورا واذان التى ذكرها المقدسى فى أحسن التقاسيم ص ٣٣٥ ، وهى قريبة من النوبندجان ، أو خواذان ، وهى قريبة كذلك من النوبندجان . أحسن التقاسيم ص ٤٥٣ . أو هى خوتذان « موضع بين أرجان والنوبندجان من أرض فارس » معجم البلدان ٤ : ٤٨٠ .

(٣) للزيادة من ت .

مكان يقال له : الكُرْكان ، (١) ووافاهم ياقوت بهذا الموضع ، وأقام عماد الدولة أربعين يوما فى ضيافة زيد بن على النُوبَنْد جانى . وكان مبلغ ماخسر عليه فى هذه المدة مائتى ألف دينار ، ثم سار بعد ذلك إلى اصطخر ، وسار ياقوت وراءه يتبعه ، حتى انتهى إلى قنطرة على طريق كرمان ، فسبقه ياقوت إليها ، ومنعه من عبورها واضطره إلى الحرب .

ذكر استيلائه على شيراز

قال : ولما سبقه ياقوت إلى القنطرة اضطر إلى محاربته ، وابتدأت الحرب بينهما فى يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، واستمرت إلى يوم الخميس ، فأحضر عماد الدولة أصحابه ، ووعدهم الجميل ، وأنه يترجل معهم عند الحرب ، وكان من سعادته أن جماعة من أصحابه استأمنوا إلى ياقوت ، فضرب ياقوت أعناقهم ، فأيقن من بقى مع عماد الدولة بن بويه أنه لا أمان لهم عند ياقوت ، فقاتلوا قتال من استقتل ، ثم قدم ياقوت أمام أصحابه رجالة كثيرة يقاتلون بقوارير النفط ، ليحرقوا أتراس الديلم ، فلما رموا النار انقلبت الريح ، فصارت فى وجوههم ، واشتدت فعادت النار عليهم ، وتعلقت فى ثيابهم ووجوههم ، فاختلطوا وركبهم أصحاب بن بويه ، فقتلوا أكثر الرجّالة ، وخالطوا الفرسان ، فكانت الهزيمة على ياقوت وأصحابه .

(١) كركان : قرية بفارس ، وكركان أيضا قرية بقرميسين . معجم البلدان ٧ : ٢٣٩ .

ولما انهزم أصحاب ياقوت صعد على نشز مرتفع . ونادى فى أصحابه الرَّجعة الرَّجعة ، فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس ، فقال لهم اثبتوا فإن الديلم مشتغلون بالنهب ، ويتفرقون ، فنأخذهم ، فثبتوا معه ، فلما رأى بن بويه ثباتهم نهى أصحابه عن النهب ، وقصد ياقوت ، فانهزم ياقوت[1] منه ، واتبعه أصحاب بن بويه يقتلون ، ويأسرون ، ويغنمون ، ثم رجعوا إلى السواد[2] ، فغنموه ، ووجدوا فيه برانس لبود عليها أذيال الثعلب ، ووجدوا قيودا وأغلالا فسألوا عنها ، فقال أصحاب ياقوت : إن هذه كانت أعدت لكم لتجعل عليكم ، ويطاف بكم البلاد ، فأشار أصحاب بن بويه عليه : أن يفعل ذلك بأصحاب ياقوت ، فامتنع عماد الدولة ، وقال : إنه بغى ولؤم ، وقد لقى ياقوت بغيه ، ثم أحسن إلى الأسارى ، وأطلقهم وقال : هذه نعمة والشكر عليها يقتضى المزيد ، وخيَّر الأسارى بين المقام عنده ، واللحاق بياقوت ، فاختاروا المقام عنده ، فخلع عليهم ، وأحسن إليهم ، وسار من موضع الوقعة ، حتى أتى شيراز ، ونادى فى الناس بالأمان ، وبث العدل ، وأقام [رشحنة][3] تمنع من الظلم ، واستولى على تلك البلاد .

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : النواد .

(٣) فى الأصل : سنجة ، وفى ت : سجنة ، وما أثبتناه هو الأنسب . والشحنة : هى رئاسة الشرطة . هامش السلوك ج ١ ص ٣٥ . وفى النجوم ج ٥ ص ٧٣ : رشحنة البلد : من كان فيه الكفاية لضبطها من السلطان .

ذكر واقعة غريبة اتفقت لعماد الدولة كانت سبب ثبات ملكه وقيام دولته

قال : ولما دخل عماد الدولة شيراز طلب الجند أرزاقهم ، فلم يكن عنده ما يعطيهم ، وكاد أمره ينحلّ[1] ، فجلس فى غرفة فى دار الإمارة بشيراز ، وهو يفكر فى أمره فرأى حية خرجت من موضع فى سقف تلك الغرفة ، ودخلت فى بخش[2] هناك ، فخاف أن تسقط عليه ، فدعا الفراشين ، ففتحوا ذلك الموضع ، فرأوا وراءه بابا ، فدخلوا منه إلى غرفة أخرى ، فإذا فيها عشرة صناديق مملوءة مالا ومصاغا ، فكان فيها ما قيمته خمسمائة ألف دينار ، فأنفقها ، وثبت ملكه بعد أن كان قد[3] أشرف على الزوال .

وحكى . أنه أراد أن يفصل ثيابا ، فدلوه على خياط . كان لياقوت ، فأحضره ، فحضر خائفا ، وكان أصم ، فقال له عماد الدولة لا تخف ، فإنما أحضرتك لتفصل لنا ثيابا ، فلم يفهم الخياط . ما قال ، فابتدأ وحلف بالطلاق والبراءة من دين الإسلام أن الصناديق التى عنده لياقوت ما فتحها ، ولا علم ما فيها ، فعجب عماد الدولة من هذا الاتفاق ، وأمره بإحضارها ، فأحضر ثمانية صناديق فيها أموال وثياب ، قيمة ما فيها ثلاثمائة ألف دينار ، ثم ظهر له من ودائع ياقوت ، وذخائر عمرو ، ويعقوب ابنى الليث جملة كبيرة ، فامتلأت خزائنه ، وثبت ملكه .

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ينجل .

(٢) بخش : ثقب (القاموس) ، وانظر شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٣) الزيادة من ت .

ذكر تولية عماد الدولة من قبل الخليفة

قال : ولما تمكّن عماد الدولة من شيراز ، وثبت ملكه ببلاد فارس ، كتب إلى الخليفة الراضى بالله ، وإلى وزيره أبى على بن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة ، ويطلب أن يُقَاطَع على ما بيده من البلاد ، وبذل ألف ألف درهم ، فأجيب إلى ذلك ، وتقدّمت إليه الخِلع ، و شرطوا على الرسول ألاّ يسلم إليه الخلع إلا بعد قبض المال . فلما وصل الرسول خرج عماد الدولة إلى لقائه ، وطلب منه الخلع واللواء ، فذكر له ما اشتُرِط عليه ، فأخذها منه قهرا ، ولبسها ، ونشر اللواء ، ودخل البلد ، وغالط الرسول بالمال ؛ فمات الرسول عنده فى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة . قال : ولما سمع مرداويج ما حصل لعماد الدولة ابن بويه قام لذلك وقعد ، فسار إلى أصفهان للتدبير عليه (١) ، وعزم على الخروج إليه بنفسه ؛ فبلغ عماد الدولة ذلك ، فبادر بمكاتبته ؛ وسأله إقراره على بلاد فارس على أن يقيم له الدعوة ، ويضرب باسمه السِّكّة ، ويُنفِذ إليه أخاه ركنَ الدولة بن بويه رهينة ، فقبل ذلك منه ، واعتقل ركنَ الدولة ، فلما صار فى اعتقاله لم يكن بأسرع أن اتفق (٢) قتل مرداويج على ما قدمنا ذلك فى أخبار مرداويج ، فهرب ركن الدولة بمواطأة من سجانه ، وخرج إلى الصحراء ليفك قيوده ، فأقبلت بغالٌ عليها تبن ، ومعها بعض أصحابه وغلمانه ؛ فلما رأوه ألقوا التبن ، فكسروا قيوده ، وحملوه إلى أخيه عماد الدولة بفارس

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : إليه .
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : من .

وفى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة تسمى عماد الدولة [شاهنشاه] ، [١] ولبس تاجا من الذهب مرصعا بالجوهر ، وجلس على السرير .

ذكر وفاة عماد الدولة بن بويه
وملك بن اخيه عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه

كانت وفاته فى جمادى الآخرة ، وقيل توفى لأربع عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين [٢] وثلاثمائة ، وكانت علته قرحة فى كُلاه طالت به ، وتوالت عليه الأسقام والأمراض ، ولما أحس بالموت أنفذ إلى أخيه ركن الدولة أن ينفذ إليه عضُد الدولة فناخسروا ولده ليجعله ولىّ عهده ، ووارثَ ملكه بفارس ؛ لأن عماد الدولة لم يكن له ولد ذكر ، فأنفذه [٣] ركن الدولة ، فوصل قبل وفاته بسنة ، فخرج عماد الدولة إلى لقائه فى جميع عساكره ، وأجلسه على سرير ، ووقف عماد الدولة بين يديه ، وأمر الناس بطاعته ، والانقياد إليه ، وقبض على من كان يخاف منه من القواد . ثم توفى عماد الدولة بعد ذلك بسنة ، فكانت مدة مملكته لبلاد فارس سنة وعشرة أشهر وعشرين يوما ، وكان عمره ما بين ثمانية وخمسين سنة إلى تسع وخمسين ، وقيل سبعة وخمسين ودفن بدار المملكة بشيراز ؛ وكان شجاعاً عاقلاً كريماً مجربا حسن السياسة عظيم القدر ، ووزر

---

(١) فى الأصل : شاه فشاه .

(٢) فى الكامل ج ٦ ص ٣٣٢ : « أن ذلك كان فى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة » . وكذلك فى تاريخ أبى الفدا ج٢ ص ٩٨ .

(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : فأنفذ .

له فى ابتداء أمره أبو سعيد إسرائيل بن موسى النصرانى إلى أن قتل ، ثم وزر له أبو العباس أحمد بن محمد إلى أن مات عماد الدولة .

وحجابه : خُطلخ إلى أن قتل ، ثم سباسى حتى توفى ، ثم بارس إلى أن توفى عماد الدولة ، ولما مات عماد الدولة استقر عضد الدولة فى الملك بعده ببلاد فارس ، ثم كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى فى الطبقة الثانية من بنى بويه ، وكان عماد الدولة هو الأسنّ الأكبر من بنى بويه (١) . والمشار إليه بينهم ، فلما مات صار أخوه ركن الدولة أمير الأمراء . وكان معز الدولة هو المستولى على العراق ، وهو كالنائب عنهما .

ذكر أخبار ركن الدولة ابى على الحسن بن بويه

كان ركن الدولة فى خدمة أخيه عماد الدولة يندبه فى مهماته وأشغاله ، وجهزه وهو فى حرب ياقوت فى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة إلى كازرون (٢) ، وغيرها من أعمال فارس ، فاستخرج منها أموالاً جليلة ، فأنفذ ياقوت عسكرا إليه لمنعه من ذلك ، فقاتلهم وهزمهم ، وهو فى نفر يسير ، وعاد إلى أخيه بالغنائم والأموال ، ثم جهزه عماد الدولة رهينة عند مرداويج فى سنة ثلاث وعشرين كما ذكرناه ، فلما خلص بعد مقتل مرداويج ، والتحق بأخيه عماد الدولة جهزه بالعساكر إلى أصفهان ، فاستولى عليها ، وأزال عنها وعن عدة من

(١) الزيادة من ث .

(٢) تاريخ أبى الفدا ج٢ ص ٧٩ . وقد ذكرها المقدسى فى أحسن التقاسيم ص ٤٢٤ ، كازرون : إحدى مدن سابور بفارس .

بلاد الجبال نواب وشمكير ، فأقبل وشمكير ، وجهز العساكر نحوه ، فبقيا يتنازعان ملك تلك البلاد ، وهى أصفهان ، وهمدان ، وقم ، وقاجان ، وكرج ، والرىّ ، وكنكور ، وقزوين ، وغيرها ، ثم استولى ركن الدولة على أصفهان ، وملكها في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وملك الرى فى سنة ثلاثين .

ذكر ملك ركن الدولة بن بويه طبرستان وجرجان

وفى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فى شهر ربيع الأول اجتمع ركن الدولة ، والحسن بن فيرزان ، وقصدا بلاد وشمكير ، فالتقيا به ، فانهزم وشمكير ، وملك ركن الدولة طبرستان ، وسار منها إلى جرجان ، فملكها ، واستأمن إليه من قواد وشمكير مائة وثلاثة عشر قائدا ، فأقام الحسن بن الفيرزان بجرجان ، ومضى وشمكير إلى خراسان يستنجد بالسامانية ، واتفقت وفاة الأمير عماد الدولة ، فسار ركن الدولة لتقرير أمر ولده عضد[1] الدولة بفارس ، فسار منصور ابن قراتكين صاحب جيش الأمير نوح بن نصر السامانى إلى الرى ، ودخلها ، وأخرج نائب ركن الدولة منها ، وورد سجل من الخليفة المطيع لله بتقليد ركن الدولة إمرة الأمراء موضع عماد الدولة ، فقبله ، وانصرف إلى الرىّ ، ففارقها منصور بن قراتكين قبل وصول ركن الدولة إليها ، وسار إلى أصفهان ، ثم رحل منها ، فنزل طرف مفازة بها على النهر المعروف بور برودیم ، ثم رحل عنه ، والتقى مع ركن

(١) الزيادة من ت .

الدولة على الروذبار[١] ، والنهر يحجز بينهما ، لكنه نهر يخاض ، فأقامت الحرب بينهما سبعة أيام ، ثم عبر منصور النهر بجيوشه ، والتقوا من وقت العصر إلى صدر من الليل ، ثم[٢] سار منصور فى بقية من الليل إلى الرى ، وقدم ركن الدولة مقدمته نحو قاجان ، فلما وصل إليها بلغه وفاة منصور بالرى ، فسار إليها ، ودخلها بغير قتال وتجهز منها[٣] لحرب وشمكير لأنه الذى أغرى بينه ، وبين صاحب خراسان . فالتقيا على باب الرى بجبل طبرك ، وتواصلوا أربعة أشهر حتى سقط الثلج ، فرجع وشمكير ، ثم اتفقت وفاته ، وقيام ولده « بهسيتون » فى الملك بعده ، فدخل فى طاعة ركن الدولة ، فزال الخوف ، وحصل الأمن واستقر الأمر على ذلك إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة .

ذكر ماقرره ركن الدولة بين بنيه وما أفرده لكل منهم[٤] من الممالك

وفى سنة خمس وستين وثلاثمائة سار ركن الدولة من الرى إلى أصفهان ، واستدعى ولده عضد الدولة من بلاد فارس ، وجمع سائر أولاده ، وحواشيهم ، فقسم ركن الدولة ممالكه على أولاده . فجعل لابنه عضد الدولة بلاد فارس . وجعله الملك على جماعة البيت بعد

(١) روذبار : اسم لعدة مواضع . انظر مراصد الاطلاع جـ٢ ص ٦٣٩ .
(٢) الزيادة من ت .
(٣) فى ت : وتجهز فيها .
(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : منها .

أن أوصاه على إخوته ، وعلى بن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة ، فإن معز الدولة كان قد توفى ، وملك ابنه بختيار بعده على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وسلم ركن الدولة إلى عضد الدولة أخاه الأصغر خسرو فيروز ، وجعل لمؤيد الدولة ، وهو شقيق عضد الدولة بلاد الرى ، وأصفهان ، وقم ، وقزوين ، وزنجان ، وأبهر ، وما والاها ، وأفرد لفخر الدولة همذان ، والدينور ، والإيغارين[1] وما اتصل بهم ، واستحلف الأخوين على طاعة عضد الدولة ، واستحلف عضد الدولة على الوفاء لهما ، وكتب الكتاب بينهم ذو الكفايتين أبوالفتح بن العميد ، ومات ركن الدولة عقيب ذلك .

ذكر وفاة ركن الدولة بن بويه وشيء من اخباره وسيرته

كانت وفاته بالرى فى ليلة السبت لاثنتى عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ست وستين وثلاثمائة ، وقدزاد على سبعين سنة ، وقيل أقل من ذلك . وكانت مدة إمارته أربعا وأربعين سنة . وكان رحمه الله حليما كريماً ، كثير البذل للمال ، حسن السياسة لرعيته وجنده ، رؤوفا بهم عادلاً فى الحكم بينهم بعيد الهمة متحرجا من المظالم مانعا لأصحابه من الظلم عفيفا عن الدماء ، وكان يجرى الأرزاق على أهل البيوتات . ويصونهم عن التبذل ، وكان يقصد المساجد الجامعة فى أشهر الصيام للصلاة . وينتصب لرد المظالم ، ويتعهد العلويين

(١) فى الأصل : الأبغادين . وفى ت : الأبغارين وصحته : الإيغارين . وهما : الكرج والبرج ، وسميا بالإيغارين ، لأنهما حبسا على عيسى . ومعقل ابنى أبى دلف العجلى . مراصد ج ١ ص ١٧٣ .

بالأموال الكثيرة ، ويتصدق على ذوى الحاجات ، ويلين جانبه للخاص والعام، وحكى عنه : أنه سار فى بعض أسفاره ، ونزل فى خركاة قد نصبت له قبل أصحابه ، وقدم إليه الطعام ، فقال لبعض أصحابه لأى شىء قيل فى المثل : خير الأشياء فى القرية الإمارة ، فقال : لقعودك فى الخركاة ، ولهذا الطعام بين يديك ، وأنا لا خركاة ، ولا طعام ، فضحك ، وأعطاه الخركاة ، والطعام .

ومن محاسن أفعاله ما فعله من نصرة بختيار بن أخيه معز الدولة على ابنه عضد الدولة على ما نذكره فى أخبار عز الدولة بختيار .

وكان له من الأولاد : عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو ، وفخر الدولة أبو الحسن على . ومؤيد الدولة أبو منصور بويه ، وأبو العباس خسرو فيروز .

وزراؤه : أول من وزر له : الأستاذ أبو الفضل أحمد بن العميد إلى أن توفى فى سنة تسع وخمسين ، فاستوزر بعده ولده ذا الكفايتين أبا الفتح محمد ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة إلى أن توفى ركن الدولة .

ذكر أخبار معز الدولة بن بويه

هو أبو[1] الحسين[2] أحمد بن بويه ، ومعز الدولة أصغر إخوته سنًّا ، وأكثرهم سعادة ، وأوسعهم ملكا . وكان فى ابتداء أمره مع أخيه عماد الدولة ، وحضر معه المصاف الذي كان بينه ، وبين ياقوت فى سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة ، وهو صبى لم تنبت لحيته ،

(١) زيادة من ت .

(٢) فى الأصل : الحسن . وانظر ص ١٦٣ ، وص ١٨٤ من هذا الكتاب .

وعمره تسع عشرة سنة ، وكان فى ذلك اليوم من أحسن الناس أثراً فى الحرب .

ذكر مسيره الى كرمان ، وزوال يده فى الحرب ، وماتفق له

وفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة سار معز الدولة إلى كرمان ، وسبب ذلك أن أخويه : عماد الدولة ، وركن الدولة لما تمكنا من بلاد فارس ، وبلاد الجبل ، وبقى هو ، وهو الأصغر بغير ولاية يستبد بها رأيا أن يُسيِّراه إلى كرمان ، فسارإليها فى عسكر ضخم، فلما بلغ السيرجان[1] استولى عليها ، وجبى أموالها ، وأنفقها فى عسكره ، وكانت عساكر نصر بن أحمد السامانى صاحب خراسان تحاصر محمد بن إلياس بن اليسع بقلعة هناك ، فلما بلغهم إقبال معز الدولة ، ساروا عن كرمان إلى خراسان ، فتخلص محمد بن إلياس من القلعة ، وسار إلى مدينة قم ، وهى على أطراف المفازة بين كرمان ، وسجستان ، فسار إليه معز الدولة ، فرحل عن مكانه إلى سجستان بغير قتال ، فسار ابن بويه إلى جيرفت وهى قصبة كرمان ، واستخلف ثم بعض أصحابه ، فلما قارب جيرفت أتاه رسول على الديحى[2] المعروف بعلى كلويه ، وهو رئيس القُفْصَ البلوصُ[3] ، وكان هو وأسلافه متغلبين على تلك الناحية إلا أنهم يجاملون كل سلطان يرد البلاد ،

---

(١) السيرجان : مدينة بين كرمان وفارس . مراصد ج٢ ص ٣٦٥ .

(٢) فى ت : الدبحى ، وفى الكامل ج٦ ص ٢٥٥ : الزنجى .

(٣) فى الأصل : البلوخى : وصحتها ماأثبتناه .

ويطيعونه ، ويحملون إليه مالاً معلوما ولا يطئون بساطه ، فبذل لابن بويه ذلك المال ، فامتنع من قبوله إلا بعد دخول جيرفت ، فتأخر على كلوية نحو عشرة فراسخ ، ونزل بمكان صعب المسلك ، ودخل ابن بويه جيرفت ، وصالح عنى كلويه ، وأخذ رهائنه ، وخطب له . فلما استقر الصلح بينهما أشار بعض أصحاب ابن بويه عليه بقصد على والغدر به ، وهون عليه أمره ، وأطمعه فى أمواله ، وقال له : إنه قد ترك الاحتراس ، وسكن إلى الصلح ، فأجابه إلى ذلك ، وركب نحوه جريدة ، وكان على متحرزاً قد وضع العيون على ابن بويه ، فعند ما تحرك للمسير بلغه ذلك ، فجمع أصحابه ، وكمنهم بمضيق على الطريق ، فلما اجتاز ابن بويه بهم ثاروا ليلاً من جوانبه ، فقتلوا من أصحابه ، وأسروا ، ولم يفلت إلا اليسير ، وجرح معز الدولة عدة جراحات ، وأصابته ضربة فى يده اليسرى ، فقطعتها من نصف الذراع ، وأصابت يده اليمنى ضربة أخرى ، فسقط بعض أصابعه ، وسقط إلى الأرض ، وقد أثخن بالجراح ، وبلغ الخبر إلى جيرفت ، فهرب من بها من أصحابها ، ولما أصبح على كلويه تبع القتلى ، فرأى الأمير أبا الحسين[1] وقد أشرف على التلف ، فحمله إلى جيرفت[2] ، وأحضر له الأطباء ، وبالغ فى علاجه ، واعتذر إليه ، وأنفذ رسله إلى عماد الدولة بالاعتذار ، ويعرفه غدر أخيه ، ويبذل من نفسه الطاعة ، فأجابه عماد الدولة إلى ما بذله ، واستقر بينهما الصلح ، وأطلق كل

---

(١) هكذا فى ت ، وأيضا فى الكامل حـ٦ ص ٢٥٥ ، حوادث سنة ٣٢٤ هـ . وفى الأصل : أبا الحسن . وقد مر تصويبه .

(٢) فى ت : حيرفت . وهو خطأ .

من عنده من الأسرى ، وأحسن إليهم ، ووصل الخبر إلى محمد بن إلياس بما جرى على ابن بويه ،فسار من سجستان إلى جنابه ، فتوجه إليه معز الدولة ، وواقعه ، ودامت الحرب بينهما عدة أيام ، فانهزم ابن إلياس ، وعاد ابن بويه بالظفر ، وسار إلى على كلويه لينتقم منه ، فلما قاربه أسرى على أصحابه الرجّالة ، فكبسوا عسكره ليلاً في ليلة شديدة المطر ، فأسروا منهم ، وقتلوا ، ونهبوا وعادوا ، فلما أصبح ابن بويه ،سار نحوهم ، فقتل منهم عددا كثيرا ، وانهزم علىّ ، وكتب معز الدولة إلى أخيه عماد الدولة بما جرى له معه ، ومع ابن إلياس ، فأمره أخوه بالوقوف مكانه ، ولا يتجاوزه ، وأنفذ إليه قائدا من قواده يأمره بالعود إليه إلى فارس ، ويلزمه بذلك، فعاد إلى أخيه . وأقام عنده باصطخر إلى أن قصدهم أبو عبد الله البريدى منهزماً من ابن رائق وبجكم ، وأطمع عماد [1] الدولة في العراق ، فسير معه معز الدولة كما قدمنا ذكر ذلك فى أخبار الدولة العباسية فى أيام الراضى بالله .

ذكر استيلاء معز الدولة على الأهواز

كان مسير معز الدولة بن بويه إلى الأهواز في سنة ست وعشرين وثلاثمائة للسبب الذى قدمناه ، فسار إليه ، ومعه أبو عبد الله البريدى ، وكان بها بجكم الرائقى ، فسار لحربهم ، وقاتلهم بأرجان ، فانهزم منهم إلى الأهواز ، وأقام بها ثلاثة عشر يوما ، ثم انهزم إلى تُستَر ،

(١) انظر الكامل ج ٦ ص ٢٥٦ .

وسار إلى واسط ، واستولى معز الدولة والبريدي على الأهواز ، وأقاما بها خمسة وثلاثين يوما ، ثم هرب البريدى خوفا على نفسه من معز الدولة ، فكاتبه يعيب عليه ذلك ، ويعتبه ، فاعتذر البريدى إليه أنه خاف على نفسه ، وطلب من معز الدولة أن يفرج عن الأهواز ؛ ليتمكن من ضمانه ، فإنه كان قد ضمن الأهواز ، والبصرة من عماد الدولة فى كل سنة بثمانية عشر ألف ألف درهم ، فرحل عنها إلى عسكر مُكْرم[1] خوفا من أخيه لئلا يقول له : كسرتَ المال ، ثم أنفذ إليه البريدى ثانيا يذكر خوفه منه ، ويطلب منه أن ينتقل إلى السوس[2] ليبعد عنه ، ويأمن هو بالأهواز ، فحذّره أصحابه ، وخوفوه غدر البريدىّ ، فامتنع من إجابته إلى ذلك ، وكتب إلى أخيه عماد الدولة ، فأنفذ إليه جيشا ، فقوِى بهم ، واستولى على الأهواز ، وهرب البريدى إلى البصرة ، وأقام معز الدولة بالأهواز ، وقصد البصرة وواسط ، وعاد عنهما[3] ، ولم يزل كذلك إلى أن استولى على بغداد .

ذكر استيلائه على بغداد
وتلقيبه وتلقيب اخوته من ديوان الخلافة

كان استيلاء معز الدولة على بغداد فى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فى خلافة المستكفى بالله ، وسبب ذلك أن ابن [شيرزاد][4]

(١) عسكر مكرم : بلدة من نواحى خوزستان . مراصد ج٢ ص ٩٤١ .
(٢) السوس : بلدة بخوزستان . مراصد ج٢ ص ٧٥٥ .
(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : عنها .
(٤) هكذا فى ت . وفى الأصل : ابن شيراز ، وانظر الصفحة التالية ص ١٨٤ ، وانظر تاريخ أبى الفدا ج٢ ص ٩٣ وما بعدها .

لما استولى على إمرة الأمراء ببغداد بعد وفاة توزون ، على ما قدّمناه فى أخبار الدولة العباسية فى أيام المستكفى بالله ، استعمل ينال[١] كُوشه على واسط ، فكاتب معز الدولة ، وهو بالأهواز ، ودخل فى طاعته ، واستقدمه ، فسار إليه ، وقصد بغداد ، فلما فارقها استتر المستكفى بالله وابن شيرزاد[٢] ، وخرج الأتراك من بغداد إلى الموصل ، فلما أبعدوا ظهر المستكفى بالله ، وقَدِمَ معزُ الدولة أبا محمد الحسن[٣] ابن محمد المهلبى إلى بغداد ، فاجتمع بالخليفة ، فأظهر السرور بمقدم ابن بويه ، وأعلمه أنه إنما استتر ليتفرق الأتراك ، ويحصل الأمر لمعز الدولة بغير قتال ، ووصل معز الدولة إلى بغداد فى حادى عشر جمادى الأولى من السنة ، ونَزل بباب الشمّاسيّه ، ودخل من الغد إلى الخليفة ، وبايعه ، وحلف له ، ولقبه الخليفة بمعز الدولة ، ولقب أخاه أبا الحسن عليًّا عماد الدولة ، ولقب أبا على الحسنَ ركن الدولة . وأمر بضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم . وخلع الخليفة على معز الدولة . وطوّقه ، وسوّره ، وفوض إليه ما وراء بابه ، وعقد له لواء ، وأمر بالخطبة له على المنابر ، وسأل معز الدولة الخليفة أن يأذن لابن شيرزاد فى الظهور ، وأن يأذن له أن يستكتبه . فأجابه إلى ذلك ، فظهر ابن شيرزاد ، ولقى معز الدولة ، فولاه أمر الخراج وجباية الأموال ، ونزل معز الدولة بدار مؤنس ، ونزل أصحابه فى دور

---

(١) هكذا فى ت ، وكذلك فى الكامل ص ٣١٤ ج ٦ . حوادث سنة ٣٣٤ ، وفى الأصل : مثال ، وانظر الصفحة التالية (ينال كوشه) .

(٢) انظر هامش (٤) من الصفحة السابقة ، وفى الأصل : شيرازاذ .

(٣) الزيادة من ت . وانظر ص ١٨٩ .

الناس ، فلحق الناس لذلك شدة عظيمة ، وصار رسما عليهم ، وهو أول من فعله ببغداد ، ولم يعرف بها قبله ، وأخذ معز الدولة فى مضايقه الخليفة ، والحجر عليه ، حتى فى نفقته ، ورتب له فى كل يوم خمسة آلاف درهم ، فكانت ربما تأخرت عنه ، فأفرد له ضياعا ، وسلمت إليه فولاها من قبله ، ولم يبق له حكم فى غيرها ، ثم خلعه معزّ الدولة على ما ذكرناه لثمان بقين من جمادى الآخرة . وبايع المطيع لله

ذكر الحرب بين معز الدولة ، وناصر الدولة بن حمدان

وفى شهر رجب سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة سيّر معز الدولة عسكرا مقدمهم ينال كوشه وموسى قيادة على مقدمته نحو الموصل ، فلما نزلوا عُكبرا أوقع ينال كوشه بموسى ، ومضى هو ومن معه إلى ناصر الدولة ، وكان قد خرج من الموصل يريد العراق ، فوصل إلى سامّرا فى شعبان ، ووقعت الحرب بينه وبين أصحاب معزّ الدولة بعُكبُرا ، فسار معز الدولة هو والمطيع لله (١) إلى عكبرا فى شهر رمضان ، فلما سار عن بغداد التحق ابن شيرزاد بناصر الدولة ، وعاد إلى بغداد مع عساكر لناصر الدولة يحارب معزّ الدولة ، فلما كان فى عاشر رمضان ، سار ناصر الدولة من سامّرا إلى بغداد ، وأقام بها ، فسار معز الدولة إلى تكريت ، وكانت لناصرِ الدّولة ، فنهبها ، وعاد هو والخليفة إلى بغداد ، ونزلا بالجانبِ الغربى . وناصرُ الدّولة بالشرقى . ثم وقعت الحرب بينهم ببغداد ، وانتشرت أعراب ناصر

(١) الزيادة من ت .

الدولة بالجانب الغربي فمنعوا أصحاب معزّ الدولة من الميرة والعلف ، فقلت الأسعار على الدَّيلم ، وضاق الأمر على معزّ الدولة ، حتى عزم على الرجوع إلى الأهواز ، وقال : نعمل معهم حيلة ، فإن أفادت ، وألا عدنا ، فرتب ما معه من المعابر بناحية التمارين ، وأمر وزيره أبا جعفر [الصيمرى][1] ، واسفهدوست بالعبور ، ثم أخذمعه بقية العسكر ، وأظهر أنه يريد قطربّل [2] ، وسار ليلا ، ومعه المشاعل على شاطىء دجلة ، فسار أكثر عسكر ناصر الدولة بإزائه ليمنعوه من العبور ، فتمكن الصيمرى ومن معه العبور ، فعبروا فلما علم معز الدولة بعبور أصحابه عاد إلى مكانه : فعلموا بحيلته ، فلقيهم ينال كوشه فى جماعة من أصحاب ناصر الدولة ، فهزموه واضطرب العسكر الحمدانى ، وانهزموا ، وتبعهم ناصر الدولة ، وملكَ الديلمُ الجانب الشرقيّ ، وعاد الخليفة إلى داره . وذلك فى المحرم سنة خمس وثلاثين ، ونهب الديلم أموال الناس ببغداد ، وكان مقدار مانهبوه من أموال المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار ، وأمرهم معز الدولة برفع السيف ، والكف عن النهب ، وأمر الناس ، فلم ينتهوا [2] ، فأمر وزيره الصيمرى ، فركب ببغداد ، وقتل وصلب جماعة ، وطاف بنفسه ، فامتنعوا ، واستقر معز الدولة ببغداد ، وأقام ابن حمدان بعكبرا ، فأرسل فى الصلح بغير مشورة الأتراك التوزوتية ، فهمّوا بقتله ، فى شهر المحرم سنة خمس وثلاثين .

(١) فى الأصل الضميرى ، وفى الكامل : الصيمرى ، وهو الأصوب ، نسبة إلى « صيمرة » وهى اسم لبلدين : أحدهما : بالبصرة ، والثانى : بين ديار الجبل وخوزستان . مراصد الاطلاع حـ٢ ص ٨٦٠ . وانظر الكامل ص ٣١٦ حـ ٦

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ينهبوا .

ذكر اقطاع البلاد وتخريبها

وفى سنة أربع وثلاثين أيضا شغب الجند على الأمير معز الدولة ، وأسمعوه المكروه ؛ بسبب أرزاقهم ، فوعدهم إلى مدة ، فاضطر إلى أخذ الأموال من غير وجهها ، ثم أقطع القرى جميعها التى كانت للسلطان، وأصحاب الأملاك ، فبطل لذلك أكثر الدواوين ، وكانت البلاد قبل ذلك قد خربت من الاختلاف والغلاء ، فأخذ القواد القرى العامرة ، فازدادت عمارة لحمايتهم لها ، وأما الأتباع فازداد ما أخذوا[1] خرابا ، واختلت البلاد بسبب ذلك ، وتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة[2] للنوائب ، وأقطع معز الدولة غلمانه على الأتراك ، وزادهم على الديلم ، فوقع بينهم بسبب ذلك [الوحشة والمنافرة][3] ، والله أعلم بالصواب .

ذكر استيلائه على البصرة

كان معز الدولة قد ضم البصرة وأعمالها لأبى القاسم بن البريدى فى سنة أربع وثلاثين ، ووقع الاختلاف بينهما فى سنة خمس وثلاثين ، فأرسل إليه معز الدولة جيشا ، فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم أصحاب ابن البريدى ، ثم سار معز الدولة هو ، والخليفة المطيعُ لله إلى البصرة فى سنة ستٍّ وثلاثين لاستعادتها من ابن البريدى ،

(١) فى ت : ما أخذوه

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : وغيره .

(٣) الزيادة من الكامل جـ٦ ص ٣١٧ ، حوادث سنة ٣٣٤ هـ .

وسلكوا البرية إليها ، فلما وصل الدرهمية [١] استأمن إليه عساكر ابن البريدى ، وهرب أبو القاسم [٢] فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى هجر ،والتجأ إلى القرامطة ، وملك معز الدولة البصرة . وسار منها إلى الأهواز ، وأقام الخليفة ،والصيمرى بالبصرة ،والتقى معز الدولة بأخيه عماد الدولة بأرّجان فى شعبان ، فنزل معز الدولة ، وقبل الأرض بين يديه ، وكان يقف قائما ، فيأمره بالجلوس ، فلا يفعل ، ثم عاد إلى بغداد .

ذكر ملك معز الدولة الموصل وعوده منها بعد الصلح

وفى سنة سبع وثلاثين ، سار معز الدولة إلى الموصل ، ففارقها ناصر الدولة إلى نَصِيبين ،وملك معز الدولة الموصل فى شهر رمضان، وظلم أهلها ، وعسفهم ، وأخذ أموال الرعايا ، فكثر الدعاء عليه ، وقصد الاستيلاء على جميع بلاد ناصر الدولة ، فأتاه الخبر من أخيه ركن الدولة أن عساكر خراسان قد قصدت جرجان ، والرى ، واستمده ، فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة ، فترددت الرسائل بينهما ، واستقرت الحال على أن يؤدى ناصر الدولة عن الموصل ، وديار الجزيرة كلها ، والشام ، فى كل سنة ثمانيةَ آلاف ألف درهم ويخطب فى جميع بلاده لبنى بويه ، وعاد معز الدولة إلى بغداد ، فدخلها فى ذى الحجة من السنة .

---

(١) لعلها الدرهمة « أرض باليمامة» كما يقول ياقوت فى معجم البلدان ٣ .

(٢) فى ت : ابن القاسم .

ذكر وفاة الوزير الصيمرى ، ووزارة المهلبى

فى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة توفى أبو جعفر محمد بن أحمد الصيمرى وزير معز الدولة بأعمال الجامدة[١]، واستوزر معز الدولة بعده أبا محمد الحسن بن محمد المهلبى فى جمادى الأولى ، وكان يخلف الصيمرى بحضرة معز الدولة ، فعرف أموال الدولة والداوين ، وظهرت أمانته ، وكفاءته ، فاستوزره ، ومكّنه من الوزاة ، فأحسن السيرة ، وأزال كثيرا من المظالم ، ثم ضربه معز الدولة بالمقارع فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ، مائة وخمسين مقرعة ووكل به فى داره[٢]، ولم يعزله من وزارته بل ضربه لأمور نقمها عليه . وفى سنة خمس وأربعين فى شهر رجب عصى على معز الدولة روزبهان بن ونداخزشيد[٣]، وسار إلى الأهواز ، وأطاعه أكثر الدَّيْلم [فسار إليه][٤] معز الدولة ، ولقيه بالأتراك فقط ، وعدتهم ألف فارس . وذلك فى يوم الإثنين سلخ شهر رمضان من السنة ، فهزمه معز الدولة ، وأسره .

وفى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة . استولى معز الدولة على الموصل ؛ وسبب ذلك أنه كان قد ضمنها له ناصر[٥] الدولة بن حمدان فى كل سنة بألفى ألف درهم . فلما كان فى هذه السنة أخر حمْل

---

(١) الجامدة : قرية كبيرة من أعمال واسط فى طريق البصرة مراصد جا ص ٣٠٧ .

(٢) الزيادة من ت .

(٣) فى ت : رورنهان بن ونداخراشيد . وفى الكامل جـ٦ ص ٣٤٩ حوادث سنة ٣٤٥ هـ : روز بهانذ بن وندادخرشيد الديلمى .

(٤) الزيادة من ت .

(٥) فى الأصل : كان قد ضمنها لناصر الدولة . وما أثبتناه يقتضيه السياق .

المال ، فسار معز الدولة إلى الموصل ففارقها ناصر الدولة إلى نصيبين ، ودخلها معز الدولة . ثم سار منها إلى نصيبين ، ففارقها ناصر الدولة ، وتوجه إلى أخيه سيف الدولة بحلب ، فراسله سيف الدولة فى الصلح ، فامتنع من تضمين ناصر الدولة لخُلفه معه مرة بعد أخرى ، فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفى ألف وتسعمائة ألف درهم ، فضمنه ، وذلك فى المحرم سنة ثمان وأربعين ، وانحدر إلى بغداد ، وفى سنة [خمسين](١) وثلاثمائة أمر معز الدولة ببناء داره ببغداد ، فشرع فى عمارتها ، فكان مبلغ الخرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، فاحتاج بسبب ذلك إلى مصادرة جماعة من أصحابه .

ذكر ماكتب على مساجد بغداد

وفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة فى شهر ربيع الآخر منها كتب عامّة الشيعة ببغداد بأمر معز الدولة على المساجد ماصورته : «لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من غَصب فاطمةَ رضى الله عنها فَدكاً (٢) ، ومن منع أن يدفن الحسين (٣) عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أباذرّ الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى» . فلما كان الليل محاه بعض الناس ، فأراد معز الدولة إعادته ، فأشار عليه الوزير

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : خمس .

(٢) فى ت : بذكا . وفدك : قرية بخيبر فيها نخل ، وعين أفاءها الله على نبيه ، وكان على والعباس يتنازعانها ، وسلمها عمر رضى الله عنه إليهما ، فذكر على أن النبى (ص) كان جعلها فى حياته لفاطمة رضى الله عنها وولدها ، وأبى العباس ذلك . القاموس تاج العروس جـ٧ ص ١٦٦ .

(٣) فى ت : الحسن .

المهلبي أن يكتب مكان مامحى : « لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولايذكر [أحداً فى اللعن] [1] إلا معاوية ، ففعل ذلك ».

ذكر وفاة الوزير المهلبى

وفى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة سار الوزير المهلبي فى جمادى الآخرة فى جيش إلى عمان ليفتحها ، فلما بلغ البحر اعتل ، واشتدت علته ، فأُعيد إلى بغداد ، فمات فى الطريق فى شعبان وحمل تابوته إلى بغداد ، فدفن بها ، وقبض معز الدولة أمواله ، وذخائره ، وأخذ أهله ، وأصحابه ، وحواشيه ، حتى ملاّحه ، ومن خَدمه يوما واحدا ، فاستعظم الناس ذلك ، واستقبحوه ، فكانت مدة وزارته ثلاث عشر سنة ، وثلاثة أشهر ، وكان كريما فاضلا ذا عقل ومروءة ، فمات بموتة الكرم . ونظر فى الأُمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين [2] الشيرازى . وأبو الفرج محمد بن العباس بن فساعن [3] من غير تسمية لأحد منهما بوزارة .

وفيها . فى يوم عاشوراء أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم ، ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء ، وأن يظهروا النّياحة ، ويلبسوا ثيابا عملوها من المسوح [4] ، وأن تخرج النساء منشرات

---

(١) الزيادة من الكامل جـ٧ ص ٤ ، حوادث سنة ٣٥١ . وانظر تاريخ أبى الفدا جـ٢ ص ١٠٤ .

(٢) فى ت : الحسن ، والصواب ماهو بالأصل ، وجاء فى النجوم الزاهرة جـ١ ص ١٩٧ ، حوادث سنة ٣٥١ أبو الفضل العباس بن الحسن الشيرازى . وكذلك فى شذرات الذهب جـ ٣ ص ٩ حوادث سنة ٣٥٢ .

(٣) فى ت : قنا نجس ، وفى الكامل جـ ٧ ص ٦ ، حوادث سنة ٣٥٢ : فانجس

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : المنسوج ، وانظر شذرات الذهب بالصفحة السابقة .

الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ،ويدُرن فى البلد بالنوايح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن على بن أبى طالب ، ففعل الناس ذلك . ولم يكن للسنّية قدرة على المنع ، لكثرة الشيعة ، ولأن السلطان منهم .

وفيها . فى ثامن [عشر] (١) ذى الحجة أمر معز الدولة أيضا بإظهار الزينة فى البلد وإشعال النيران بمجلس الشرطة، وفتحت الأسواق ليلا . فعل ذلك فرحا بعيد الغدير (٢) ، وكان يوما مشهودا .

ذكر وفاة معز الدولة بن بويه

كانت وفاته فى ليلة الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الآخر ، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة (٣) بعِلّةِ الذَّرَب ، وكان بواسط. وقد جهّز الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين الخارج عليه فابتدأ به الإسهال وقوى عليه ، فسار نحو بغداد، وخلف أصحابه ،ووعدهم أن يعود إليهم . فلما وصل إلى بغداد اشتد مرضه ، وصار لايثبت فى معدته شىء ، فلما أحس بالموت عهد إلى ابنه بختيار، وأظهر التوبة، وتصدق بأكثر ماله ، واعتق مماليكه ورد شيئا كثيرا على أصحابه وتوفى . ودفن بداره ثم نقل إلى مشهد بنى له فى مقابر قريش، فكانت

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ثامن ذى الحجة .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : بعبد العزيز ، وانظر الكامل ج ٧ ص ٦ ، وكذلك شذرات الذهب الصفحة السابقة .

(٣) جاء فى الكامل ج ٧ ص ٢١ حوادث سنة ٣٦٥ هـ: « أنه توفى فى الثالث عشر من ربيع الآخر من هذه السنة» . (أى فى سنة ٣٦٥) . وكذلك أيضا فى شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨ .

إمارته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين. ومولده على ما حكاه إبو اسحاق الصابى فى سنة ثلاث وثلاثمائة ، فيكون عمره على هذا ثلاثا وخمسين سنة تقريبا . وكان ملكا شجاعا مقداما ، قوى القلب ، صليب العود ، أبى النفس ، إلا أنه كان فى أخلاقه شراسة ، وكانت إحدى يديه مقطوعة. وقد ذكرنا سبب قطعها مما تقدم ؛ وقيل فى قطعها غير ذلك . ومعز الدولة هذا هو الذى أحدث السُّعاة ، ورتب لهم الجرايات الكثيرة لأنه أراد أن يصل خبره إلى أخيه ركن الدولة سريعا ، فنشأ فى أيامه فضل ، ومرعوش ، وفاقا جميع السعاة ، وكان الواحد منهما يسير فى اليوم الواحد نيفا وأربعين فرسخا ؛ وكان أحدهما ساعى السُّنّية ، والآخر ساعى الشيعة .

أولاده : عز الدولة أبو منصور بختيار مشيد الدولة أبو حرب حبشى . عمدة الدولة أبو اسحق إبراهيم أبو طاهر محمد .

وزراؤه . أول من وَزَرَ له أبو الحسن أحمد بن محمد الرازى ، وكان يخاطب بالأُستاذيه إلى أن توفى بالأهواز فى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة . فاستوزر أبا جعفر محمد بن أحمد بن يعلى الصيمرى . وكان شجاعا حسن الآثار إلى أن توفى فى ليلة الإثنين لست خلون من جمادى الأُولى سنة تسع وثلاثين ، فاستوزر أبا محمد الحسن بن محمد المهلبى من ولد قبيصة (١) بن المهلب ، وخوطب بالأُستاذية مدة ، ثم خوطب بالوزارة إلى أن توفى سنة اثنتين وخمسين . فلم يستوزر بعده أحدا .

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : قبيضة ، وانظر ترجمته فى وفيات الأعيان ص ١٧٨ ، ص ١٧٩ ج ١ .

حجابه :مكلى التركى إلى أن قتل فى وقعة ناصر الدولة ، فاستحجب ينال كوشه[1] التركى ، ثم قبض عليه ، واستحجب الحاجب الكبير سُبُكْتِكين التركى ، فطالت يده ، وتجاوز حدَّ الحجَّاب إلى حد الأولاد ، وقادجميع جيوشه ، ونعت بالاسفهسلارية ، وكانت إقطاعاته في كل سنة عشرة آلاف ألف درهم ، فأقام إلى أن توفي معز الدولة ، فهذه الطبقة الأُولى من بنى بويه قد ذكرناها .

فلنذكر الطبقة الثانية منهم :

ذكر أخبار عز الدولة بختيار

هو أبو منصور بختيار بن معز الدولة بن بويه . كان والده معز الدولة قد عقد له الأمر من بعده في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر المحرم سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، وبايع له الأجناد ، ولقبه المطيع فى يوم الإثنين لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين . ثم جلس فى السلطنه بعد وفاة أبيه فى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة . والله أعلم بالصواب .

ذكر ماكان من الحوادث فى أيام عز الدولة بختيار

كان أبوه قد أوصاه بطاعة عمِّه ركن الدولة . واستشارته فى جميع ما يفعله ، وأوصاه أيضا بطاعة عضد الدولة بن عمه لأنه أكبر منه سنا ، وأقوم بالسياسة ، ووصاه بتقرير كاتبيه أبى الفضل العباس

(١) فى الأصل : ينال كوشى ، وقد مر تصويبه ص ١٨٤ من هذا الجزء .

ابن الحسن ، وأبى الفرج محمد بن العباس ، وبالحاجب سُبُكتكين ، فخالف جميع وصاياه ، واشتغل باللعب واللهو ، وعشرة النساء ، والمساخر ، والمغنّين ، وشرع فى إيحاش كاتبيه ، والحاجب ، فاستوحشوا ، وانقطع الحاجب عنه ، ولم يحضُر دارَه ، ونفى أكابر الدَّيلم عن مملكته شرها فى إقطاعاتهم وأموالهم ، وأبعد المتصلين بهم ، فاتفق أصاغرهم ، وطلبوا الزيادات ، فاضطر إلى مرضاتهم ، واقتدى بهم الأتراك ، وخرج الديلم إلى الصحراء ، وطالبوا بختيار بإعادة من أسقطه منهم ، فاضطر إلى إجابتهم لتغير [1] الحاجب سُبكتكين عليه ، وفعل الأتراك مثل فعلهم ، واتصل خبروفاة معز الدولة بكاتبه أبى الفرج محمد بن العباس ، وهو يتولىّ أمر عمان ، فسلمها لنواب عضد الدولة ، وسار نحو بغداد ، وإنما فعل ذلك لأن بختيار لماملك بعد وفاة أبيه انفرد أبو الفضل بالنظر فى الأمور ، فخاف أبو الفرج أن يستمر انفراده عنه ، فسلم عمان إلى نواب عضد الدلة لئلايؤمر بالقيام [2] بها لحفظها وصلاحها ، ولما وصل إلى بغداد لم يتمكن مما أراد ، وانفرد أبو الفضل بالتدبير دونه .

---

(١) فى الأصل : ليعبر ، وفى ت : ليغر ، وما أثبتناه هو الأنسب نقلا عن الكامل جـ ٧ ص ٢٢ . حوادث سنة ٣٥٦ هـ .

(٢) فى ت : بالمقام .

ذكر خروج مشيد الدولة حبشى بن معز الدولة على أخيه عز الدولة

وفى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة عصى حبشى على أخيه ، وكان بالبصرة ، فسير إليه وزيره أبا الفضل العباس ، وأمره بأخذه كيف أمكن ، فسار الوزير ، وأظهر أنه يريد الانحدار إلى الأهواز ، فلما بلغ واسط أقام بها ليصلح أمرها ، وكتب إلى حبشى يعده أن يسلم إليه البصرة سلما ، ويصالحه عليها ، وقال : « إننى قد لزمنى مال على الوزارة ، ولابد من مساعدتى ». فأنفذ إليه حبشى مائتى ألف درهم ، وتيقن حصول البصرة له ، وأرسل الوزير إلى عسكر الأهواز يأمرهم بقصد « الأبلة » فى يوم ذكره لهم ؛ فلم يتمكن حبشى من إصلاح شأنه ، فظفروا به ، وأخذوه أسيرا ، وحبسوه برامهرمز ، فأرسل عمه ركن الدولة ، فخلصه منها ، فصار إلى عضد الدولة ، فأقطعه إقطاعا وافرًا (١) ، وأقام عنده إلى أن مات فى آخر سنة تسع وستين وثلاثمائة . وأخذ الوزير أمواله بالبصرة ، وكانت شيئا كثيرا ، ومن جملة ما أخذ عشرة آلاف مجلد سوى الأجزاء ، وما ليس له جلد .

---

(١) فى الأصل : وأمرا .

ذكر عزل أبى الفضل الوزير ووزارة ابن بقية

وفى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة عزل الوزير أبو الفضل العباس من وزارته فى ذى الحجة ، واستوزر محمد بن بقية ، فعجب الناس من ذلك لأنه كان وضيعا فى نفسه وهو من أهل أوانا (١) ، وكان أبوه من الفلاحين لكنه كان قريبا من بختيار ، وكان يتولى مطبخه ، ويقدم إليه الطعام ، ومنديل الخوان على كتفه إلى أن استوزره ، وحُبِس الوزير أبو الفضل ، فمات عن قريب ، واستقامت أمور ابن بقية ، ومشت الأحوال بين يديه بما أخذه من أموال أبى الفضل وأصحابه ، فلما فَنِى ذلك ظَلم الرعية ، فخربت ، وزاد الاختلاف بين الأتراك ، وبختيار ، فشرع ابن بقية فى إصلاح الحال بين بختيار ، وسُبُكتكين ، فاصطلحا ، وركب سبكتكين إلى بختيار ، ومعه الأتراك ، ثم عاد الحال إلى ما كان عليه من الفساد . وسبب ذلك أن ديلَمِيًّا اجتاز بدار سبكتكين ، وهو سكران ، فرمى الروشن (٢) بزوبين فى يده ، فأثبته ، فصاح سُبُكتكين بغلمانه ، فأخذوه ، وظن أنه وضع على قتله ، فقرره ، فلم يعترف ، فأنفذه إلى بختيار ، فأمر بقتله ، فلما قتل قوى ظن سُبُكتكين أنه كان وضعه عليه ، وأنه إنما (٣) قتله لئلا يذكر ذلك إذا قرره (٤) .

---

(١) أوانا : بليدة من دجيل ، تحاذى عكبرا . مراصد ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : الروسن أو الروشن : الكوة : القاموس والزوبين : تعريف زوبين ، وهو الرمح القصير . اذى شير : الألفاظ الفارسية المعربة ص ٨١ .

(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : لما .

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : قرر .

ذكر الفتنة بين بختيار وأصحابه

وفى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ابتدأت الفتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز حتى عمت العراق جميعه ، واشتدت ، وسبب ذلك أن عز الدولة قلت الأموال عنده ، وكثر إدلال[1] جنده عليه ، واطراحهم لجانبه ، وشغبوا عليه مرة بعد مرة ، فتعذر عليه القرار ، ولم يجد وزيره جهة يحتال منها ، فتوجّه إلى الموصل فى هذه السنة ؛ ليستولى عليها من أبى تغلب بن حمدان ، فلم يُفتح عليه بطائل ، ولم يحصل له من المال ما يسد به الخَلّة ، فرجع ، وقصد الأهواز ليتعرض إلى واليها بختكين[2] أزاذرويه ، ويعمل له حجة يأخذ منه مالا ومن غيره ، فسار بختيار ، وتخلف عنه سبكتكين ببغداد ، فلما وصل إلى الأهواز خدم واليها بختيارا ، وبذل من نفسه الطاعة ، وحمل إليه أموالا جليلة ، وبختيار مع هذا يفكر فى طريق يأخذه بها ، فاتفقت فتنة الأتراك والديلم ، وكان سببها أن بعض الديلم نزل دارا بالأهواز ، ونزل بعض الأتراك بالقرب منه ، وكان هناك لَبِن موضوع ، فأراد غلام الديلمى ، أن يبنى به[3] معلفا للدواب ، فمنعه غلام التركى ، فتضاربا ، وخرج كل من الدّيلمى والتركى لنصرة غلامه ، فضعف التركى عنه[4] ، فركب ، واستنصر بالأتراك ، فركبوا ،

---

(١) فى ت : دلال .

(٢) فى الكامل ج ٧ ص ٥٢ : بجتكين آزاذرويه .

(٣) فى ت : أن يبنى منه .

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : عنده .

وركب الديلم ، وأخذوا السلاح ، فقتل بعض قواد الأتراك ، فطلب الأتراك بثأر صاحبهم ، وقتلوا من الديلم قائدا ، وخرجوا ظاهر البلد ، واجتهد بختيار فى تسكين الفتنة ، فعجز عن ذلك ، فجمع الديلم ، واستشارهم فيما يفعله ، وكان أذناً ، فأشاروا عليه بقبض رؤساء الأتراك ، فأحضر أزاذرويه ، وكاتبه سهل بن بشر ، وسباشى الخوارزمى ، وبكتيجور ، وكان حموًا لسبكتكين ، فقيدهم ، وأطلق أيدى الديلم فى الأتراك ، فنهبوا أموالهم ودوابهم ، وقتل بينهم قتلى ، فهرب الأتراك ، وأخذ بختيار أقطاع سبكتكين ، وأمر فنودى فى البصرة بإباحة دم الأتراك . والله أعلم بالصواب .

ذكر حيلة لبختيار عادت عليه

كان بختيار قد واطأ والدته ، وإخوته (١) أنه إذا كتب إليهم بالقبض على الأتراك يظهرون أن بختيارا قد مات ، ويجلسون للعزاء ، فإذا حضر سُبكتكين عندهم قبضوا عليه . فلما قبض على الأتراك كتب إليهم على أجنحة الطيور بذلك ، فعندها أوقفوا الصراخ فى داره ، وأشاعوا موتَه ظنًّا منهم أن سُبُكتكين يحضر إلى عندهم ساعة يصل إليه الخبر ، فلما سمع الصراخ أرسل يتعرف الخبر ، فأعلموه ، فأرسل (٢) يسأل عن الذى أخبرهم ، وكيف أتاهم الخبر ، فلم يجد نَقْلاً يثق القلب به ، فارتاب لذلك ، ثم وصلت رسل الأتراك بما جرى

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : وأخواته .
(٢) الزيادة من ت .

عليهم ، فعلم أن ذلك مكيدة ، ودعاه الأتراك إلى أن يأتمر عليهم فتوقف ، وأرسل إلى أبي إسحاق إبراهيم بن معز الدولة يعلمه أن الحال قد فسد بينه ، وبين أخيه ، فلا يرجى صلاحه ، وأنه لا يرى العدول عن طاعة مواليه ، وإن أساءوا إليه ، ودعاه أن يعقد له الأمر ، فعرض قوله على والدته ، فمنعته منه ، فركب سبكتكين في الأتراك ، وحصر ديار[1] بختيار يومين ، ثم أحرقها ودخلها ، وأخذ أبا إسحاق وأبا طاهر محمد[2] ، ووالدتهما ، ومن كان معهما ، فسألوه أن يمكنهم من الانحدار إلى واسط ، ففعل ، وانحدروا في الماء ، ومعهم المطيع لله ، فأعاده سبكتكين ، وذلك في تاسع ذي القعدة سنة ثلاث وستين ، واستولى سبكتكين على جميع ما كان لبختيار ببغداد ، ونزل الأتراك في دور الديلم ، وتتبعوا أموالهم ، وثارت العامة من السنة لنصرة سبكتكين ، فأحسن إليهم ، وجعل لهم العرفاء ، والقواد ، فثاروا بالشيعة ، وحاربوهم ، وسفكت بينهم الدماء ، وأحرق الكرخ ، وظهرت السنة ، ثم خلع سبكتكين المطيع ، وبايع لابنه الطائع ، على ما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية .

---

(١) في ت ، وحصر دار .

(٢) زاد في الكامل ج ٧ ص ٥٣ حوادث سنة ٣٦٣ هـ : ابني معز الدولة ووالدتهما الخ ..

ذكر ماتفق لبختيار بعد قبضه على الأتراك ، ووفاة سبكتكين وقيام الفتكين

قال (١) : ولما قبض بختيار على الأتراك كما ذكرناه ، ورأى ما فعله سبكتكين ، وأن بعض الأتراك بواد الأهواز قد عصوا عليه ، أتاه مشايخ الأتراك من البصرة فعاتبوه على ما فعل بأصحابهم ، وقال له الديلم : إنا لا نستغنى عن الأتراك فى الحرب يدفعون عنا بالنُّشَّاب ، فاضطرب رأيه ، ثم أطلق آزاذرويه ، وجعله صاحب الجيش مكان سبكتكين ، وظن أن الأتراك يأنسون به ، وأطلق المعتقلين منهم ، وسار إلى واسط ، وكتب إلى عمه ركن الدولة ، وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن ينجداه ، ويكشفا ما نزل به ، وكتب إلى أبى تغلب بن حمدان يطلب منه أن يساعده بنفسه ، وأنه يسقط عنه المال الذى عليه ، وأرسل إلى عمران بن شاهين بالبطيحة خِلَعاً ، وأسقط عنه باقى المال ، وطلب منه أن يسير إليه بعسكر . فأما عمه ركن الدولة ، فإنه جهز عسكرا مع وزيره أبى الفتح بن العميد ، وكتب إلى ابنه عضد الدولة بإنجاد ابن عمه ، فوعد بالمسير إليه ، وانتظر ببختيار الدوائر ليستولى على العراق . وأما عمران بن شاهين ، فإنه أخذ الخلع ، وقبل إسقاط المال ، وأبى أن ينجده . وأما ابن حمدان ، فإنه أجاب ، وسارع بإرسال أخيه أبى عبدالله الحسين إلى تكريت فى عسكر ، وانتظرا انحدار الأتراك من بغداد ، فإن ظفروا ببختيار

(١) الزيادة من : ت .

دخل بغداد مالكا لها ، فلما انحدروا عن بغداد سار أبو تغلب بن حمدان إليها ، ودخلها ليوجب على بختيار الحجة فى إسقاط المال الذى عليه ، ووصل إلى بغداد ، والناس فى بلاء عظيم من العيّارين ، فحمى البلد ، وكفّ أهل الفساد ، وأما الأتراك فإنهم انحدروا مع سبكتكين إلى واسط ومعهم الخليفة الطائع [1] والمطيع ، فتوفى المطيع [2] بدير العاقول لما قدمناه [3] ، ومرض سبكتكين ، فمات ، فحملا إلى بغداد ، وقدّم الأتراك عليهم الفتكين ، وهو من أكابر قوادهم وموالى معز الدولة ، وظن بختيار أن نظام الأتراك قد انحل بموت سبكتكين ، فلم يزدَدْ إلا قوّةً واشتدادا ، وسار الأتراك إليه ، وهو بواسط ، فقاتلوه ، واتّصلت الحرب بينهم خمسين يوما ، والظفر فيها للأتراك ، وحصروه حتى اشتد عليه الحصار وأحْدَقُوا به ، فتابع إنفاذ الرسل إلى عضد الدولة ابن عمه ، وكتب إليه :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركنى ولما أمزق

فلما رأى عضد الدولة ذلك ، وأن الأمر قد بلغ ببختيار ما كان يرجوه ، سار نحو العراق نجدة لبختيار فى الظاهر ، وطالباً للاستيلاء فى الباطن .

---

(١) عبارة الكامل ص ٥٦ جـ ٨ حوادث سنة ٣٦٣ : الطائع لله والمطيع أيضا وهو مخلوع .

(٢) الزيادة من ت .

(٣) فى ت : كما ذكرناه .

ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق والقبض على بختيار

قال : وسار عضد الدولة فى عساكر فارس ، واجتمع بابن العميد وزير أبيه بالأهواز ، وهو بعساكر الرى ، وساروا إلى واسط ، فلما بلغ الفتكين خبر وصولهم رجع إلى بغداد ، واجتمع بختيار بعضد الدولة ، وسار عضد الدولة إلى بغداد فى الجانب الشرقى ، وأمر بختيار أن يسير فى الجانب الغربى ، ولما رجع الفتكين إلى بغداد فارقها ابن حمدان إلى الموصل ، ووصل الفتكين بغداد ، وصار محصورا من جميع جهاته ، وذلك أن بختياراً كتب إلى ضبة بن محمود[1] الأسدى بالإغارة على أطراف بغداد ، وقطع الميرة عنها ، وكتب بمثل ذلك إلى بنى شيبان ، وكان أبو تغلب بن حمدان من ناحية الموصل يمنع الميرة عنها ، وينفذ سراياه ، فغلت الأسعار ببغداد ، وخرج الفتكين فى الأتراك للقاء عضد الدولة ، فلقيه بين ديالى[2] والمدائن ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم الأتراك ، وقتل منهم خلق كثير ، وذلك فى رابع عشر جمادى الأولى ، وسار الأتراك إلى تكريت ، وسار عضد الدولة إلى بغداد ، وترك بدار المملكة ، وأراد التغلب على العراق ، واستضعف بختيارا ، وإنما خاف من أبيه ركن الدولة ، فوضع جند باختيار على أن يثوروا به ، ويشغبوا عليه ، ويطالبوه بالأموال ،

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) ديالى نهر كبير بالقرب من بغداد . وهو الحد بين طريق خراسان والخالص. معجم البلدان جـ ٣ ص ١١٨ . والمدائن : بلدة صغيرة فى الجانب الغربى من دجلة مراصد ١٢٤٣ .

والإحسان إليهم لأجل صبرهم معه ، ففعلوا ذلك ، وبالغوا ، وكان بختيار لا يملك شيئاً ، والبلاد خراب ، فلا تصل يده إلى أخذ شيء[1] منها ، وأشار عضد الدولة على بختيار أن لا يلتفت[2] إليهم ، وأن يغلظ لهم فى الجواب ، ولا يعدهم بما لا يقدر عليه ، وأن يعرفهم أنه لا يريد الإمارة عليهم والرئاسة ، ووعده أنه إذا فعل ذلك توسط بينهم على ما يريده ، فظن بختيار أنه ناصحٌ له ، ففعل ذلك ، واستعْفى من الإمارة ، وأغلق باب داره ، وصرف كتّابه وحجّابه ، وراسله عضد الدولة ظاهراً بمحضَرٍ من مقدمى الجند يشير عليه بتطييب قلوبهم ، وكان قد أوصاه سرًّا أنه لا يقبل منه ، فعمل بختيار بما أوصاه به ، وقال : لست أميرهم ، وقد برئت منهم وترددت الرسائل بينهم ثلاثةَ أيام ، هذا ، وعضد الدولة يغريهم به ، والشغب يزيد كل يوم ، فأرسل بختيار إلى عضد الدولة يطلب منه إنجازَ ما وعد به ، ففرق الجند على عِدةٍ جميلة ، واستدعى بختيارا وإخوته ، فقبض عليهم ، ووكل بهم ، وذلك لأربع بقين من جمادى الآخرة ، وجمع الناس ، وأعلمهم استعفاء بختيار من الإمارة لعجزه عنها ، ووعدهم الإحسان إليهم ، والنظر فى أمورهم ، فسكنوا إلى قوله . والله أعلم .

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) فى الأصل: يلتفت .

ذكر عودة بختيار الى ملكه

قال : ولما قبض عضُدُ الدولة على بختيار كان ولده المرزبانُ بالبصرة متولِّيا لها ، فامتنع على عضُد الدولة ، وكتب إلى رُكن الدّولة يشكو ما جرى على أبيه وعمِّيه من عضد الدولة ، ومن أبى الفتح بن العميد ، ويذكر الحيلة التى تمّت عليه ، فلما سمع ركنُ الدولة ذلك ألقى نفسه إلى الأرض ، وتمرَّغ عليها ، وامتنع من الأكل والشرب عدَّة أيام ، ومرض ، وكان محمد بن بقيَّة قد خدم عضد الدولة بعد بختيار ، وضمن منه مدينة واسط وأعمالها ، فلما صار إليها خلَع طاعةِ عضد الدولة ، وخالف عليه ، وأظهر الامتعاض لقبض بختيار ، وكاتَب عمران بن شاهين ، وطلب مساعدته ، فأجابه إلى ذلك ، وكان عضد الدولة قد ضمن لسهل بن بشر وزير الفتكين بلد الأهواز ، وأخرجه من حبس (١) بختيار ، فكاتبه (٢) عمه ابن بقية ، واستماله فأجابه ، وكاتب ركن الدولة من عصى على ابنه عضد الدولة ، بالثبات والصبر ، وأنه على المسير إلى العراق لإزاج عضدالدولة ، وإعادة بختيار ، فاضطربت النواحى على عضد الدولة ، وتجاسر عليه الأعداء ، وانقطعت عنه موارد فارس ، ولم يبق بيده إلا قصبة بغداد ، وطمع فيه العامة ، فرأى إنفاذ أبى الفتح بن العميد برسالة إلى أبيه يعرفه ما جرى له ، وما فرق من الأموال ، وضَعْف بختيار عن حفظ البلاد ، وأنه إن أعيد خرجت المملكة وتدبير الخلافة عنهم ، وكان فى ذلك

(١) التصويب من الكامل حـ ٧ ص ٦٠ وفى الأصل : جيش .
(٢) فى ت : فكايت .

بوارُهم ، وسأله ترك نصرة بختيار ، وقال لأبى الفتح : فإن أجاب إلى ما تريد ، وإلاَّ فقل له : إنى أضمن منك أعمالَ العراق ، وأحمل إليك فى كل سنة ثلاثين ألف[1] درهم ، وأبعث بختيارا وأخوته إليك ، لنجعلهم بالخيار بين الإقامة عندك ، أو بعض بلاد فارس ، وإن أحببتَ أنت أن تحضُر إلى العراق لتَلىَ تدبير الخلافة وتُنفذَ[2] بختيار إلى الرى ، وأعود أنا إلى فارس ، فالأمر إليك ، وقال لابن العميد : فإن أجاب إلى ذلك ، وإلا فقل له : أيها السيدُ الوالد أنت مقبول الحكم والقول ، ولكن لا سبيلَ إلى إطلاق هؤلاء القوم بعد مكاشفتهم ، وإظهار العداوة ، وسيقاتلوننى بغاية ما يقدرون عليه ، فتنتشر الكلمة ، ويختلف أهل هذا البيت أبدا ، فإن قبلتَ ما ذكرتُه ، فأنا العبدَ الطائع ، وإن أبيتَ وحكمت بانصرافى ، فإننى سأقتل بختيارا وإخوته ، وأقبضُ على كلِّ من اتهمه بالميل إليهم ، وأخرجُ عن العراق ، وأتركُ البلاد سايبةً ليدبِّرها من اتفقَت له ، فخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة ، وأشار أن يسير غيرُه بها ، ويسير هو بعده ، ويكونَ كالمشير على ركن الدولة بأجابته إلى ما طلب ، فأرسل عضدُ الدولة رسولا غيره ، وسير بعده ابن العميد على الجمَّازات[3] ، فلما حضر الرسول عند ركن الدولة ، وذكر بعض الرسالة ، ووثب إليه ليقتله ، فهرب من بين يديه ، ثم ردَّه بعد أن سكن

(١) فى الكامل جـ ٧ ص ٦١ ، حوادث سنة ٣٦٤ هـ ثلاثين ألف ألف درهم .

(٢) فى ت : وتنفذ . فى الأصل : ومقيد .

(٣) جمع جمازة ، وهو من آلات المحامل : تاج العروس . والجماز : الجمل السريع الذى يحمل البريد ، ويقصد به الساعى المرح .

تاريخ البيهقى : ترجمة يحيى الخشاب . كشاف المصطلحات التاريخية . صادق نشأت .

غضبُه ، وقال : قل لفلان - يعنى عضُد الدولة - وسماه بغير اسمه ، وشتمه : خرجتَ إلى نُصْرة ابن أخى ، أو الطمع فى ملكه ؟ أما عرفتَ أنى نصرتُ الحسنَ بن (١) الفيرزان ، وهو غريبٌ منى ، مرارًا كثيرة أخاطِرُ فيها بمُلكى ونفسى ، فإذا ظفرت أعدت له بلاده ، ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد ، كلَّ ذلك طَلَباً لحسن الذكر ، ومحافظة على الفتوة ، تريد أن تَمُنَّ على بدرهمين أنفقتَهما(٢) على ، وعلى أولاد أخى ، ثم تطمع فى ممالكهم ، وتهددنى بقتلهم ؟ فعاد الرسول ، ووصل ابنُ العميد ، فحجبه ركنُ الدولة ، وتهدَّده بالهلاك ، وأنفذ إليه يقول : والله لاتركتك وذلك الفاعل -يعنى عضد الدولة- [تجتهدان](٣) جهدكما ، ثم لا أخرج إليكما إلا فى ثلثمائة جمَّازة ، وعليها الرجال ، ثم أثبتوا إن شئتم ، فوالله لا أقاتلكما (٤) إلا بأقرب الناس إليكما ، وكان ركن الدولة يقول : أننى أرى أخى معزَّ الدولة فى المنام كلَّ ليلة يعضّ على أنامِله ، ويقول : يا أخى هكذا ، أضمنت لى أن تخلفنى فى ولدى ، ثم أن الناس سعوا لابن العميد ، وتوسَّطوا له عند ركن الدولة ، وقالوا إنما [تُحمَّل] (٥) ابن العميد هذه الرسالة ليجعلها طريقاً إلى الخلاص من عضُد الدولة ، والوصول إليك لتأمر بما تراه ، فأذن له فى الحضور عنده ، واجتمع به وضمن إعاده بختيار عضد

(١) انظر ص ١٨٦ من هذا الكتاب .
(٢) فى الأصل ، وفى ت : أنفقتها .
(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : تجتهدن .
(٤) فى ت : قاتلتكما .
(٥) فى الأصل : إنما على ، والتصحيح موافق للكامل ص ٦١ ج ٦ .

الدولة إلى فارس ، وتقرير بختيار ، فردّه إلى عضد الدولة فعرّفه جليّة الحال ، فأجاب عضد الدولة إلى العود إلى فارس ، وأعاد بختيار ، وخلع عليه ، وشرط عليه أن يكون نائباً عنه بالعراق ، ويخطب له ، وجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش ، وردّ عليهم جميع ما كان لهم ، وسار إلى فارس فى شوال من السنة ، وأمر أبا الفتح بن العميد وزير أبيه أن يلحقه بعد ثلاثة أيام ، فلما سار عضد الدولة أقام ابن العميد عند بختيار ، وتشاغلا باللذات ، واتفقا فى الباطن أنه إذا مات ركن الدولة سار إليه ووزر له ، فاتّصل ذلك بعضد الدولة ، وكان سبب هلاك ابن العميد ، واستقر بختيار ببغداد ، ولم يف لعضد الدولة ، ولما ثبت ملك بختيار أنفذ ابن بقية من خلفه له ، وحضر عنده ، وأكد الوحشة بينه وبين عضد الدولة ، واستمال ابن بقية الأجناد إليه ، وجبى كثيراً من الأموال إلى خزائنه ، وقوى أمره. هذا ما كان من أمر بختيار .

وأما ما كان من أمر الفتكين فإنه سار إلى التتار ، واستولى على دمشق ، وأخذها من ريان خادم المعزّ لدين الله العلوى صاحب مصر ، وخطب بها للطائع لله فى شعبان ، وأقطع البلاد ، وكثر جمعه ، وتوفّرت أمواله ، وكاتب المعزّ بالانقياد إليه ، فطلبه إلى الحضور عنده ليخلع عليه ، فلم يجبه ، فتجهّز المعزّ وقصده ، فمات ، وولى بعده العزيز ، فطمع الفتكين ، واستولى على بعض بلاد الساحل ، فجهز إليه العزيز العساكر مع جوهر ، فحصر دمشق ، فاستنجد الفتكين بالحسن بن أحمد القرمطى ، فأتاه ، ففارق جوهرُ البلد بعد أن أقام عليها سبعة أشهر ، فتبعه الفتكين والقرامطة ، فأدركوه

بظاهر الرملة ، فاقتتلوا، ثم حصل اتفاقهم على تخلية[1] سبيل جوهر، فسار إلى مصر، فخرج العزيز بجموعه ، وقاتل الفتكين وأسره، وأحسن إليه ، ونقله معه إلى مصر ، وأنزله عند قصره ، وحكمه فى دولته ، فتكبر على وزيره يعقوب بن كلس ، فوضع عليه من سقاه سماً ، فمات . والله أعلم .

ذكر مقتل عز الدولة بختيار بن معز الدولة وشيء من أخباره

كان مقتله فى ثامن عشر شوال سنه سبع وستين وثلثمائة ، وسبب ذلك أنه كان بينه ، وبين ابن عمّه عضُد الدولة بن ركن الدولة ماقدمناه ، وقام عمه ركن الدولة فى نُصرته حتى أعاده ، فلما مات ركن الدولة فى سنة ست وستين سار عضد الدولة إلى العراق وكان بينه وبين بختيار واقعة ، واصطلحا بعد ذلك ، ثم سار عضد الدولة فى هذه السنة ، واستولى على بغداد كما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره ، وخرج بختيار من بغداد بما زوده به عضد الدولة ، وقصد الشام ، ومعه حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان ، فلما صارا بعكبرا حسّن له حمدان قصد الموصل ، وأطمعه فيها ، وقال : هى خيرٌ من الشام وأسهل ، فسارا نحو الموصل ، وكان عضد الدولة قد حلّفه أنه لايقصد ولايه أبى تغلب بن حمدان لمودة كانت بينهما ، فنكث وقصدها ، فلما صار إلى تكريت أتته رسل أبى تغلب تسأله أن يقبض على أخيه حمدان ، ويُسْلِمه إليه ، وإذا فعل ذلك سار معه

---

(١) ت . وفى الأصل : تحصل .

بنفسه وعساكره إلى العراق، وقاتل عضد الدولة ، وأعاده إلى ملك بغداد، فقبض بختيار عند ذلك على حمدان، وسلمه لرسل أخيه ، وسار بختيار إلى الحديثة[1]، واجتمع بأبي تغلب ، وصارا جميعا نحو العراق، وكان مع أبي تغلب نحوا من عشرين ألف مقاتل ، وبلغ ذلك عضد الدولة ، فسار من بغداد نحوهما ، والتقوا بقصر [الجصّ][2] بنواحي تكريت ، فهزمهما عضد الدولة ، وأسر بختيار ، وجيء به إلى عضد الدولة ، فلم يأذن له بالدخول عليه ، وأمر بقتله ، واستقر ملك عضد الدولة .

وكان عمر بختيار ستا وثلاثين سنة ، ومدة ملكه أحد عشر سنة وستة شهور .

أولاده : إعزاز الدولة المرزبان أبو عبد الله الحسين ، أبو العباس سلار ، أبو القاسم ، أبو نصر شاهفرون ، أبو محمد سهلان .

وزراؤه : أول من وزر له : أبو الفضل العباس بن الحسين إلى أن قُبِض عليه في سنة تسع وخمسين ، فاستوزر أبا الفرج محمد ابن العباس ، ثم قبض عليه في شهر رجب سنة ستين ، واستوزر أبا طاهر محمد بن بقية ، وأقام إلى أن قُبِض عليه بعد انهزامه من عضد الدولة في الكرّة الثانية ، وسمله ، ثم صلبه عضد الدولة بعد أن رماه تحت أرجل الفِيلَة .

---

(١) الحديثة : اسم لعدة مواضع. والمراد بها هنا حديثة الموصل : « وهي بليدة كانت بالجانب الشرقي . قرب الزاب الأعلى ، وقد كانت قصبة كورة الموصل ... » معجم البلدان ج٣ ص ٢٣٠ .

(٢) في الأصل : الحصن ، وهو خطأ .

حجابه : إبراهيم بن إسماعيل قتل فى الوقعة ، وأما المرزبان ابن عز الدولة، وعماه : عمدة الدولة إبراهيم، وأبو طاهر محمد، فإنهم وصلوا إلى دمشق والتجئوا إلى غلامهم الفتكين ، وشهدوا معه حرب القائد جوهر بعسقلان ، ثم حضروا الواقعة الكائنة بين الفتكين والعزيز ، فقتل محمد ، وأسر المرزبان عمه إبراهيم ، والفتكين ، ومنّ عليهم العزيز ، واستخدمهم إلى أن توفى المرزبان بمصر فى سنة ست وتسعين وثلثمائة فى أيام الحاكم ، وتوفى إبراهيم فى أيامه أيضا لليلتين خلتا من من شهرربيع الأول سنة أربعمائة بعد أن نعت بعزيز الدولة الحاكمية.

ذكر أخبار عضد الدولة

هو أبو شجاع فناخسرو عضد الدولة تاج الملة شاهنشاه بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه .

اجتمع له من الممالك ما تفرق لأبيه وعميه ، وقد قدمنا أن عمه عماد الدولة بن بويه جعله ولى عهده ، وذلك لأربع عشرة بقيت من جماد الأولى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة [1] ، فأول ما ظهر من أفعاله بعد وفاة عمه ببلاد فارس أنه استولى على حصن ابن [2] عمارة المتوسط لمدينة هرو ، وهى مدينة على ساحل البحر الهندى من أعمال فارس قد بنيت على مصبّ الماء تجمع المراكب المنكسره ، والبضائع الغارقة ، فيستعين أهلها بذلك ، وأهل هذا الحصن ينسبون إلى معد

(١) الزيادة فى ت

(٢) هكذا فى ت وفى الأصل : حصن بنى عمارة : وما أثبتناه موافق للمقدسى. أحسن التقاسيم ص ٤٤٨ .

يكرب[٦] ، ثم إلى الجلندى بن كركر يتوارثونه لم ينتزع منهم ، ولم تفتح عنوة، ولا صلحا قبلها. ذكربن جوقل فى كتابه : أن صاحب هذا الحصن هو الملك المذكو وفى القرآن فى قوله تعالى : « وكانَ وراءهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غصْبًا » (١).ولم يباشر عضد الدولة الحصار بنفسه ، وإنما بعث عليا بن الحسين السيفى فى جيش إلى الحصن ، فحاصره برهة من الدهر حتى استعزل صاحبه ،وهو أبو طالب بن رضوان بن جعفر بالأمان ، وتسلم الحصن بما فيه ، وفى سنة ست وخمسين وثلثمائة بعث إلى عمان عسكرا مع عسكر لعمه معز الدولة ، ففتحها ، ثم بعد ذلك « كرمان » فى شهر رمضان سنة سبع وخمسين وأقطعها ولده أبا الفوارس ، وأطاعه صاحب سجستان ، ونقش السكة باسمه ، وأقام له الخطبة . ثم ملك قلعة بردَسير (٢) وهى مثوى آل اليسع ، ولما عاد من كرمان فتح جبال القُفص ، وهذه البلاد لها جبل وسهل. فأهل السهل يعرفون : بالمنوجان وهو اسم البلاد ، وأهل الجبل يعرفون : بالقُفص ، والبُلوُص ، وهم قبائل وشعوب ، وبلادهم هذه فى طرف كرمان مما يلى فارس ، ثم جرت لجيشه معهم بعد ذلك وقائع كان الظفر فيها لأصحاب عضد الدولة ، وفى أثناء حروب جيشه لهم حصل استيلاء (٣) عضد الدولة على هرموز ،

---

(١) سورة الكهف الآية ٧٨ .

(٢) فى الأصل : بودشير ، وفى ت : بروشير ، وما أثبتناه نقلا من المقدسى، وأحسن التقاسيم ص ٤٦٠ ، ص ٤٦١ ، وعبارته : « بردسير : قصبة . حصينه ، وبها قلعة كبيرة من بناء أبي على بن الياس » .

(٣) فى ت : استيلاء أصحاب عضد الدولة .

وبلاد التيز، ومُكْران [١] فى سنة متين وثلثمائة ، ثم سألوا الأمان على إقامة الصلوات ، وإيتاء الزكاة ، والاجتهاد فى الطاعة ، واجتناب إخافة السبيل فأمنهم . قال المؤرخ: ثم سار عسكره ، ومقدمة كوركير إلى أمة من ورائهم يقال لهم الخُرَّمِيَّة [٢] ، والحاسكية فهزمهم ، وقتل منهم خلقا ، وأسر مقدميهم ، وجماعة من رؤسائهم ، وأنفذهم إلى شيراز ، وتوطأت هذه البلاد مدة ، ثم كان بينهم ، وبين العسكر العضدى وقعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وثلثمائة ، ودامت إلى غروب الشمس، فانجلى ذلك اليوم عن قتل أكثر مقاتليهم [٣] ، والإحاطة بحريمهم ، وذراريهم ، ولم يبق منهم إلا اليسير ، ثم كان بين عضد الدولة ، وبين عز الدولة بختيار ابن معز الدولة ماقدمناه فى أخبار بختيار [فى سنة [٤] أربع و متين وثلثمائة ، فلافائدة فى إعادته ، فلما مات والده ركن الدولة فى] سنة ست وستين وثلاثمائة قصد العراق فى تلك السنة ، فخرج عز الدولة لقتاله ، والتقوا ، واقتتلوا فى ذى القعدة من السنة ، فالتحق بعض أصحاب بختيار بعضد الدولة ، فانهزم بختيار ، واحتوى عضد الدولة على ماله ، ومال وزيره ابن بقية ، وسير عضد الدولة جيشا إلى البصرة ، فملكها .

---

(١) فى الأصل : أليتر ومكران ، وما أثبتناه من ت ، وفى تحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى ص ١٦٧ : تيز : قصبة مكران وانظر المقدسى أحسن التقاسيم ص ١٧٥ ، ٤٧٦

(٢) انظر الكامل جـ٧ ص ٤١ .

(٣) ت : مقاتلتهم .

(٤) مابين الحاصرتين سقط من ت .

ذكر القبض على أبى الفتح بن العميد

وفى سنة ست وستين وثلاثمائة قبض عضد الدولة على أبى الفتح بن العميد وزير أبيه وسمل إحدى عينيه ، وقطع أنفه ، وكان سبب ذلك أنه لما فارق عضد الدولة بغداد كما ذكرناه فى أيام بختيار ، أمر ابن العميد أن يلحقه بعد ثلاث ، فخالفه ، ووافق عز الدولة ، ووعده أن يلحق به إذا مات ركن الدولة ، ثم صار يكاتبه بأشياء يكرهها عضد الدولة ، وكان لابن العميد نائب يعرض كتبه على عز الدولة ، وذلك النائب يكاتب عضد الدولة بما يكتبه ابن العميد بختيار ساعة بساعة ، فلما ملك عضد الدولة بعد موت أبيه كتب إلى أخيه مؤيد الدولة بالرى يأمره بالقبض على ابن العميد ، وعلى أهله ، وأصحابه ، ففعل ذلك ، وكان أبو الفتح ليلة قبضه قد أمسى مسرورا ، فأحضر ندماءه ، والمغنين ، وأظهر من آلات الذهب والفضة والزجاج ، وأنواع الطيب ماليس لأحد مثله ، وشربوا وعمل شعرا ، وغنى له به ، وهو :

دعوتُ المنى ودعوتُ العُلى فلما أجابا دعوتُ القَدح
وقلتُ لأيام شرخ الشباب : إلىَّ فهذا أوانُ الفـــرح
إذا بلـغ المـرءُ آمالَه فليس له بعدهـا مقترح

وشرب ليلته على هذا الشعر إلى أن سكر ، وقام ، وقال لغلمانه : اتركوا المجلس على ما هو عليه لنصطبح غدا ، وقال لندمائه بكروا غدًا لنصطبح ، ولا تتأخروا ، فانصرف الندماء ، ودخل هو إلى بيت

منامه ، فلما كان وقت السحر استدعاه مؤيد الدولة ، فقبض عليه ، وأرسل إلى داره ، فأخذ جميع ما فيها ، ومن جملته ذلك المجلس بما فيه .

ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق

كان استيلاؤه على بغداد في سنة سبع وستين ، وذلك أنه سار إلى العراق ، وأرسل إلى عزّ الدولة ابن عمه يدعوه إلى طاعته ، وأن يتوجّه من العراق إلى أي جهة أحب ، فأجاب إلى ذلك ، وسار عن بغداد ، وكان من خبره ، ومقتله ما قدمناه ، ولما قَدِم عضد الدولة إلى بغداد نزل بباب الشمّاسية فى يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع الآخر من السنة ، وتلقاه الخليفة الطائع لله في البحر قبل ذلك بيومين ، ثم دخل إلى دار الخلافة فى يوم الأحد لتسع خلون من جمادي الأولى [1] منها ، وقبل الأرض بين يدي الخليفة الطائع لله ، فخلع عليه ، وتوّجه ، وطوّقه ، وسوّره ، وقلّده ما وراء داره [2] ، وعقد له لواءين : أحدهما : على المشرق ، والآخر : على المغرب ، وأرخى إحدى ذؤابتيه منظومة بالجوهر ، وزاد فى لقبه تاج الملّة : ، وكان وزنُ السوادين ، والطوق : ألفين وخمسمائة مثقال . قال أبو اسحاق الصبائى ، وكان فى غرة التاج وجوانبه من الجوهر ، وأحجار الياقوت الأحمر ما يتجاوز إحصاؤها التثمين ، أو يحدها التقويم ، وطرح بين يديه

(١) فى ت : جمادى الأول .
(٢) فى ت : ماوراء بابه .

من نشار الذهب والورق شيء كثير على الأنطاع حتى صار كالبيدر ، وقرىء عهده بين الخليفة ، ولم يجر بذلك عادة ، وأخذ الخليفة النؤابةَ للرُّخاة ، فعقدها بيده ، وذلك بمسألة تقدمت من عضد الدولة ، وقلّده الخليفة سيفا ثانيا وركب من مراكب الخليفة بركبْ الذهب ، وبين يديه آخر مثله ، والجيش بين يديه ، وخلفه مشاة إلى أن خرج من باب الخاصة ، فسار الجيش أمامه ، واستقر مُلكه ببغداد ، خُطِب له بها ، ولم يخطب لملك قبله ببغداد ، وضُرِب على بابه ثلاث نوب ، ولم تجر بذلك عادة . قال : ولما دخل إلى بغداد أرسل إلى بختيار يطلب منه وزيره محمد بن بقية ، فسمله [1] بختيار ، وأنفده إليه ، فأمر عضُد الدّولة بالقائه بين قوائم الفِيلة ، فوطئته حتى مات ، وصلب على رأس الجسر فى شوال ، فرثاه أبو الحسن الأنبارى بقوله :

علوٌّ فى الحياة وفى الممات لحق أنت إحدى المعجزات

وقد ذكرنا الأبياتَ فى باب المراثى ، وبقى ابن بقية مصلوبا إلى أيام صمصام الدولة ، فأنزل عن جذعه ، ودفن ، ولما استقر ملك عضد الدولة ببغداد ، أتاه الخبر أن عزَّ الدولة بختيارا قد نقض العهد ، واجتمع هو وابن حمدان ، واتفقا على حربه ، فخرج إليهما ، فكان من أمرهما ما قدمناه فى أخبار بختيار ، وأخبار الدولة الحمدانية.

(١) ت : فسلمه

ذكر استيلاء عضد الدولة على ملك بنى حمدان

قال : ولما انهزم أبو تغلب فى الحرب التى قدمناها مع عز الدولة، سار إلى الموصل ، فسار عضد الدولة نحوه ، فملكها في ثانى عشر ذى القعدة سنة سبع وستين ، وملك ما يتصل بها ، فظن أبو تغلب أنه يفعل كما فعل غيره يقيم يسيرًا ثم يضطرّ إلى المصالحة ، ويعود، فكان عضد الدولة أحزم من ذلك ، وذلك أنه لما قصد الموصل حمل معه الميرة والعلوفات ، وأقام بالموصل ، وبثّ سراياه فى طلب أبى تغلب، فأرسل أبو تغلب يسأل أن يضمن البلاد منه ، فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : هذه البلاد أحبّ إلى من العراق ، فسار أبو تغلب إلى نصيبين، فسير عضد الدولة سَرِيّة استعمل عليها حاجبه طغان إلى « جزيرة ابن عمر » ، وسرية فى طلب أبى تغلب ، وعليها أبو طاهر محمد على طريق « سَنجار[1] »، فسار أبو تغلب مجدا إلى ميّا فارقين[2] ، ثم منها إلى بدليس[3] ، واستولى عضد الدولة على مَيّافارقين ، وديار مضر[4]، وغيرها من بلاد الجزيرة ، وذلك فى سنة ثمان وستين وثلثمائة ، ثم عاد إلى بغداد فى سلخ ذى القعدة من السنة ، واستخلف على أعمال أبى أبى تغلب بن حمدان أبا الوفا طاهر محمد ، وفى سنة تسع وستين

(١) سنجار : مدينة من نواحى الجزيرة : ياقوت ٥ — ١٢٤ .

(٢) فى ت : ديار مضر و، آمد، وغيرها الخ . .

(٣) ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر . معجم البلدان ٨ : ١٠٤ « يعبرها قوم من الجزيرة إلا أنها دون دجلة . . . فلذلك جعلناها بأرمينية. الاصطخرى المسالك والممالك ص ١٦١ ط مصر . (مجموعة تراثنا) .

(٤) بدليس : بلدة من نواحى أرمينية فى خلاط. معجم البلدان ٢ : ٩١ .

فى شهر رجب جهّز عضد الدولة جيشا إلى بنى شيبان ، وكانوا قد أكثروا الغارات، والفساد فى البلاد ، وعجز الملوك عن طلبهم، وكانوا قد عقدوا بينهم وبين أكراد شَهْر زور (١) مصاهرات ، وكانت شَهْرزُور ممتنعة على الملوك ، فأمر عضد الدولة عسكره بمنازلتها لتنقطع أطماع بنى شيبان عن التحصن بها ،فاستولى أصحابه عليها ، وملكوها فهرب بنو شيبان ، وسار العسكر فى طلبهم ، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة قتل فيها من بنى شيبان خلق كثير ، ونهبت أموالهم ، ونساؤهم ، وأسر منهم ثمانمائة أسير حملوا إلى بغداد .

ذكر عمارة عضد الدولة بغداد ، وما فعله من وجوه البر

وفى سنة تسع و ستين وثلاثمائة شرع عضُد الدولة فى عمارة بغداد وكانت قد خربت لتوالى الفتن فيها ، وعمّر مساجدها ، وأسواقها ، وأدرّ الأموال على الأئمة ، والمؤذّنين ، والفقهاء ، والغرباء ، والضعفاء، وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها ، وجدّد مادثر من الأنهار ، وأعاد حفرها ، وتسويتها وأطلق مكوس الحُجّاج ، وأصلح الطرق من العراق إلى مكة ، وأطلق الصلات لأهل البيوتات ، والشرف ، والضعفاء المجاورين بمكة والمدينة ، وفعل مثل ذلك بمشهد على ، والحسين ، وأجرى الجرايات على الفقهاء ، والمحدثين ، والمتكلمين ، والمفسرين ، والنحاة ، والشعراء والأطباء ، والحسّاب ، والمهندسين ،

(١) شهر زور : كورة واسعة فى الجبال بين أربل وهمذان، معجم البلدان: ٣١٢ . ويقول الأصطخرى ص١١٨ : « أنها مدينة صغيرة قد عمل عليها الأكراد على قربها من العراق » .

وأذن لوزيره نصر بن هارون ، وكان نصرانيا بعمارة البيع ، والديرة ، وإطلاق الأموال لفقرائهم .

ذكر قصد عضد الدولة (١) اخاه فخر الدولة ، واخذ بلاده

قال : وفى هذه السنة سار عضد الدولة إلى بلاد الجبل ، فاحتوى عليها ، وسبب ذلك أن عز الدولة بختياراً كان يكاتب فخر الدولة بعد موت ركن الدولة يدعوه إلى الاتفاق معه على عضد الدولة ، فأجابه إلى ذلك ، واتفقا عليه ، وعلم عضد الدولة بذلك ، فكتمه إلى الآن ، فلما خلا وجهه من أعدائه كاتبه يعاتبه على ماكان منه ، ويستميله ، فأجاب جواب المناظر المناوىء ، وكان رسول عضد الدولة إليه خواشاده ؛ وهو من أكابر أصحابه ، فاستمال أصحاب فخر الدولة ، وضمن لهم الإقطاعات ، وأخذ عليهم العهود ، فلما عاد إلى عضد الدولة برز من بغداد ، وقدم جيوشه يتلو بعضها بعضا ، فخرج إليه أصحاب فخر الدولة ، وانضموا إلى عسكره ، وخرج فخر الدولة من همذان هاربا إلى جرجان ، والتجأ إلى شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، فأمنه ، وآواه ، وحمل إليه فوق مافى نفسه ، وشركه فيما تحت يده من ملك وغيره ، وملك عضد الدولة ماكان بيد أخيه فخر الدولة : همذان ، والرى ، ومابينهما من البلاد ، وسلم ذلك لأخيه مؤيد الدولة وجعله نائبه فى تلك النواحى ، ثم عرج عضد الدولة على ولاية حسنويه (٢) ،

---

(١) من ت .

(٢) حسنويه الكردى : أبو الفدا حـ٢ ص ١٢١ .

فقصد نهاوند [١] ، والدينور ففتحهما [٢] وعدة قلاع ، وأخذ مافيها من ذخائر حسنوية ، وكانت جليلة المقدار ، وأصاب عضد الدولة فى هذه السفرة صرع ، كان قد حدث به وهو بالموصل، فكتمه، وصار كثير النسيان لايذكر الشيء إلا بعد جهد كبير ، وبقى الصرع يعاوده إلى أن قتله على مانذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك عضد الدولة بلد الهكارية

وفى هذه السنة سير عضد الدولة جيشا إلى الأكراد الهكّارية بأعمال الموصل ، فأوقع بهم ، وحصر قلاعهم ، وطال مُقام الجند فى حصرها ، وكان من بالحصون من الأكراد ينتظرون نزول الثلج ليرحل العسكر عنهم ، فقدر الله تعالى أن الثلج تأخر نزوله فى تلك السنة ، فطلبوا الأمان ، فأجيبوا إليه ، وسلّموا القلاع ونزلوا إلى الموصل مع العسكر ، فلم يفارقوا أعمالهم غير يوم واحد حتى نزل الثلج ، ثم أن مقدم الجيش غدر بالهكّارية ، وقتلهم على جانبي الطريق من معلثايا [٣] إلى الموصل نحو خمسة فراسخ . والله أعلم بالصواب .

ذكر وفاة عضد الدولة وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته ببغداد فى ثامن شوال سنة اثنين وسبعين وثلثمائة ، وذلك أنه اشتد به ماكان يعتاده من الصرع ، وضعفت قوته عن دفعه،

---

(١) الدينور : « مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسية . معجم البلدان : ١٨٨

(٢) نهاوند . « مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام » معجم البلدان ٨ : ٣٢٩

(٣) موافق الكامل جـ٧ ص ١١٢ . ومعلثايا : بليدة قرب جزيرة ابن عمر من نواحى الموصل . مراصد ص ١٢٩ .

فخنقه، فمات، ودفن بمشهد على بن أبي طالب رضى الله عنه، وجلس ابنه صمصام الدّولة للعزاء، وأتاه الخليفة الطائع لله، فعزّاه به، وكان عُمر الدولة سبعا وأربعين سنة، مدة سلطنته بالعراق خمسُ سنين وستة شهور، وأما مدة ملكه ببلاد فارس منذ وفاة عمّه عماد الدولة وإلى أن توفى هو: ثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرون يوما (١). قال: ولما حضرته الوفاة لم ينطلق لسانه بغير قول الله تعالى: «ما أغنى عنّى ماليه. هلك عنّى سُلْطانيةَ» (٢)، وكان عاقلا حسن السياسة، شديد الهيبة، بعيد الهمة ثاقب الرأى محبا للفضائل وأهلها، باذلا فى مواضع العطاء، مانعا فى أماكن الحزم، ناظرا فى عواقب الأمور، وكان له شعر حسن فمنه قوله - وقد أرسل إليه أبو تغلب بن حمدان يعتذر من مساعدته لبختيار، ويطلب الأمان - فقال عضد الدولة:

أأفاق حين وطئت ضيق خناقة
يبغى الأمان وكان يبغى صارما
فلأركبنّ عزيمةً عَضُدِيّةً
تاجيةً تدع الأنوفُ رواغِما

وقال أبياتا، فمنها بيت لم يفلح بعده، وهى:

ليس شربُ الكاس إلا فى المطر
وغناء من جوارٍ فى السحر
غانياتٍ صالباتٍ للنهى
ناعماتٍ (٣) فى تضاعيف الوتر

(١) فى السلوك للمقريزى جـ١ قسم ١ ص ٢٨: أربع وثلاثون سنة.
(٢) سورة الحاقة، الآية (٢٨)، (٢٩).
(٣) الكامل ص ٧ جـ٩: تلغماث.

مبرزات الكأس من مطلعِهـــا
ساقياتِ الراح من فَاقَ البشر
عضد الدّولة وابنَ ركنهـــا
ملكَ الأملاك غلاّب (١) القـدر .

ومن أخباره أنه كان فى قصره جماعة من الغلمان يحمل إليهم مشاهراتهم من الخزانة ، فأمر أبا نصر خواشاذه أن يتقدم بصرف جوامكهم إلى نقيبهم فى شهر ، وقد بقى منه ثلاثة أيام ، قال أبونصر : فأنسيت ذلك أربعة أيام ، سألنى عضد الدولة عن ذلك ، فاعتذرت بالنسيان ، فأغلظ لى ، فقلت : أمس استهل الشهر ، والساعة يحمل المال ، وماهذا مما يوجب شغل القلب ، فقال : المصيبة بما لانعلم من الغلط أكبر منها فى التفريط ، أما تعلم أنا إذا أطلقنا لهم مالهم قبل محلّه كان الفضل لنا عليهم ، وإذا أخّرنا عنهم ذلك حتى استهلّ الشهر الآخر حضروا عند عارضهم(٢) ، وطالبوه ، فيعِدُهم ثم يحضرون فى اليوم الثانى ، فيعدهم ، ثم يحضرون فى اليوم الثالث ، ويبسطون ألسنتهم ، فتضيع المنّة ، وتحصل الجرأة ، وتكون إلى الخسارة أقرب منا إلى الربح ، وكان لايُعوِّلُ فى الأمور إلا على الكفاءة ، ولانجعل للشفاعات طريقا إلى معارضة ماليس (٣) من جنس الشافع ، ولافيما يتعلق به .

---

(١) هكذا فى ت. وهو موافق للكامل ، والنجوم الزاهرة ص ١٤٢ ج٤ ، وفى الأصل خلاب.

(٢) العارض : « رئيس ديوان الجند ، ويوكل إليه نفقات الجيش ، وأرزاق جنده وله الحل والعقد والإثبات والاسقاط» تاريخ البيهقى : كشاف المصطلحات التاريخية .

(٣) فى ت: من ليس من جنس الشافع ولا فيما لايتعلق به .

حكى أن مقدّم جيشه أسفاربن كَرَدَوَيْه شفع فى بعض أنباء العدول ليتقدّم عند القاضى بسماع البيّنة بتزكيته ، وتعديله ، فقال له : « ليس هذا من أشغالك ، إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى زيادة قائد ، ونقل رتبة جندى ، وما يتعلق بهم ؛ وأما الشهادة وقبولها ، فهى إلى القاضى وليس لنا ، ، ولا لك الكلام فيه ، ومتى عرف القضاة من إنسان ما تجوز معه قبول شهادته ، فعلوا ذلك بغير شفاعة » ، وكان رحمه الله يخرج كل سنة أموالاً كثيرة للصدقة ، والبر فى سائر البلاد ، ويأمره بتسليم ذلك إلى القضاة ، ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقه ، وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ، ويحاسبهم به إذا عملوا ، وكان محباً للعلوم وأهلها ، مقرّبا لهم ، محسنا إليهم وكان يجلس معهم ، ويعارضهم فى المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنّفوا له الكتب منها : الإيضاحُ فى النحو ، ومنها الحجّة فى القراآت ، ومنها الملكى فى الطلب ، والتاجى فى التاريخ إلى غير ذلك ؛ وعمل المصالح العامة فى سائر البلاد كالبارستان[1] والقناطر ؛ فمن جملة ما عمره : المدينة التى سماها « كرد فناخسرو » ، وهى على دون الفرسخ من شيراز ، وساق إليها الماء من عين كانت على أربع فراسخ منها ، وبدأ بالعمارة فى يوم الأحد لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، قال الصابى : بلغت النفقة عليها عشرين ألف ألف درهم ، ومن غريب عمائره : السكر[2] الذى

(١) فى ت : كاليمارستات .

(٢) السكر : ما يسد به النهر ونحوه ، وفى أحسن التقاسيم ص ٤٤٤ : « قد سكر عضد الدولة النهر الذى به شيراز واصطخر بحائط عظيم جعل أساساً بالرصاص » .

أنشأه على النهر المعروف بالكُرّ [١] اصطخر ، وحرمه [٢] على عشرة فراسخ من قصبة شيراز ، وهو شاذروان [٣] عظيم ، ينحط الماء من رءوس الجبال ويجتمع عليه ، وينحط إلى أغوار كانت قفاراومهامه ، فلما تم له ذلك بنى فى تلك الأراضى ثلثمائة قرية ، ونقل إليها الفلاحين ، وسماها رستاق فناخسرو ، وصار فى مقدار خراج بلاد فارس . قال الصابى : وانتهت النفقة عليه ألفى ألف دينار ، واجتمع لعضد الدولة من الممالك سجستان ، وكرمان ، وجرجان ، وطبرستان ، والرى وأصفهان ، وهمذان ، وسائر بلاد أذربيجان ، وبلاد فارس ، وعمان ، والعراق [٤] ، والموصل ، وديار مصر ، وديار بكر ، والجزيرة ، وكان مع ما فعله من الخير والبر أحدث فى آخر أيامه رُسوماً جائرة فى المساحة ، والضرائب ، وكان يتوصّل إلى أخذ المال بكل طريق ، وكان يُرفع [٥] إليه من الأعمال فى كل سنة بعد مارتّبه من الصّلات ، والإدرارات ، وجهاتِ البر إثنان وثلاثون ألف ألف دينار .

أولاده : شرف [الدولة] [٦] أبو الفوارس شيرزيل ، صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان ، بهاء الدولة أبو نصر خسرو فيروز ، وقيل فيروزشاه ، تاج الدولة أبو الحسين أحمد ، وهو أديب آل بويه ،

---

(١) فى الأصل : الكو ، وما أثبتناه نقلا عن أحسن التقاسيم ص ٤٤٦ : هو نهر بأرض أرمنية ؛ انظر نهاية الأرب جـ١ ص ٢٦٢ .

(٢) كذا بالأصل ، وفى ت .

(٣) الشاذروان : أساس يوثق حول القناط ونحوها . تاريخ البيهقى : كشاف المصطلحات التاريخية .

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : والعاق .

(٥) فى ت : يدفع .

(٦) فى الأصل : الدين : وهو خطأ ظاهر . وانظر النجوم الزاهرة جـ٤ ص ١٥٤ .

أبو طاهر فيروز شاه ، أبو دلف سهلان توفى فى حياته .

وزراؤه : الأستاذ الجليل أبو القاسم المطهر بن [1] عبد الله إلى أن قتل نفسه فى سنة تسع وستين ، وهو يحاصر البطيحة ، وبهاء الحسن بن عمران بن شاهين ، فاستوزر الأستاذ أبا منصور نصر بن هارون النصرانى الشيرازي المشهور بعلو الطبقة فى الحساب .

حجابه : أبو على اليتمى ، أبو حرب طغان ، أبو الفتح المظفر ابن محمود ، أبو القاسم سعد بن محمد الشاسى وغيرهم . فلنذكر بقية من فى طبقة عضد الدولة .

ذكر أخبار مؤيد الدولة أبى منصور بويه ابن ركن الدولة بن بويه

كان مؤيد الدولة شقيقا لعضد الدولة . وأمهما جارية تركية . وكان نائبا عن أبيه بأصفهان عند خروج عضد الدولة منها إلى بلاد فارس ، فلما توفى والده مضى إلى الرى . وتسلمها ، وتسلم سائر البلاد المقررة له بوصية أبيه ، وهى قزوين ، وزنجان ، وقم ، وقاجان ، وأبهر ، وما والاها مضافا إلى الري ، وأصفهان ، وكان لايبرم أمرا إلا برأى أخيه عضد الدولة ، ولما وقع بين عضد الدولة وبين أخيه فخر الدولة ما ذكرناه ، وأخذ بلاده من يده سلمها لمؤيد الدولة نيابة عنه ، وندبه إلى المسير إلى طبرستان ، وجرجان لانتزاعهما من يد قابوس بن وشمكير ، فسار إليهما . وانتزعهما منه ، ثم اتفقت

(١) فى الأصل : أبو ، وما أثبتناه من ت ، وهو موافق للكامل جـ ٧ ص ٩٩ .

وفاة عضد الدولة ، وأقام مؤيد الدولة بعده فى البلاد إلى أن توفى بجرجان فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة . فكانت مدة ملكه بعد وفاة أبيه سبع سنين ، وستة أشهر ، وأياما .

ولده : أبو النصر .

وزراؤه : ذو الكفايتين أبو الفتح بن العميد إلى أن قبض عليه بأمر أخيه عضد الدولة كما ذكرناه ، وقطع يده ، وأنفه ، ثم قتله بعد مصادرته ، واستوزر بعده الصاحب الجليل أبا القاسم إسماعيل بن عباد ، وكان يلبس القباء استخفافا بالوزارة ، وانتسابا إلى الجندية ، وإنما عرف ابن عباد بالصاحب[1] لصحبته لابن العميد .

ذكر اخبار فخر الدولة وفلك الأمة[2] ابى الحسن على بن ركن الدولة بن بويه

وفخر الدولة هذا هو أوسط أولاد ركن الدولة يلى عضد الدولة فى السن ، وأمه ابنة الحسن بن الفيرزان أحد ملوك الديلم ، فجمع المملكة من الطرفين ، وكان والده ركن الدولة قد جعل له همذان ، والدينور ، [والأيغارين][3] ، ونهاوند ، وما والى ذلك من بلاد الجبل . ولما وقع بينه وبين أخيه عضد الدولة ما ذكرناه من ميله مع ابن عمه عز الدولة بختيار على أخيه عضد الدولة ، أرسل عضد الدولة جيشا مع أبى الفتح المظفر الحاجب ، وتلاه بجيش آخر . ثم عززهما بجيش

(١) له ترجمة فى الكامل ص٣٧ ج٩ حوادث سنة ٣٨٥هـ ، والنجوم الزاهرة ص١٦٩ ج٤ .
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ملك الأمير . انظر النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٧ .
(٣) فى الأصل : الأنفار ، وفى ت : الأنعارين .

ثالث ، ثم سار هو بنفسه . فالتحق به بعض أصحاب فخر الدولة ، وكاتبه عبيد (١) الله بن محمد حمدويه ، فعلم فخر الدولة أنه لا قبل له بما دهمه ، ففارق بلاده ، وسار فى خواص غلمانه إلى « هوسم » (٢) من بلاد الجبل ، والتحق بعلى بن الحسين العلوى ، ثم انتقل من «هوسم» إلى جرجان ، والتجأ إلى قابوس بن وشمكير ، وكان عنده مكرما إلى أن توفى عضد الدولة ، ثم توفى مؤيد الدولة بجرجان ، فضبطها الصاحب بن عباد بالعساكر . وجمع القواد واستشارهم ، وقرر الأمر لفخر الدولة ، ثم خاف افتراق الأجناد ، فأجلس أبا العباس خسرو فيروز على سرير المملكة ، وكاتب فخر الدولة سرا يستدعيه ، فسار عن نيسابور إلى جرجان ، فدخل الصاحب على خسرو فيروز ، وقال له : هذ أخوك ، وأكبر منك قد وصل ، وميلُ الأجناد إليه أكثر من ميلهم لك ، وحسّ له الخروج للقائه ، فخرج إليه ، وتلقّاه ، وتسلّم فخر الدولة الملك ، وبالغ فى إكرام الصاحب ، وعرف له حقّ جميله ، وحسنَ تدبيره . ونعته بكافى الكفاة ، مضافا إلى الصاحب الجليل ، واحتوى فخر الدولة على ممالكه التى كانت بيده ، وما كان بيد أخيه مؤيد الدولة ، ومملكة قابوس بن وشمكير ، ودخل أخوه خسروفيروز فى طاعته ، ثم سأل فخرُ الدولة الخليفةَ الطائع لله أن يضيف إلى نعته نعتاً آخر ، فنعته بفَلَكِ الامّة ، واستمر فى الملك إلى أن توفى فى شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة . فكانت مدّة ملكه

(١) فى الأصل : عبد الله ، وما أثبتناه من ت ، وهو موافق للكامل ج ٧ ص ١٠٢ .
(٢) هوسم : خلف طبرستان والديلم . معجم البلدان ج ١ ص ٤٨٥ .

الأول منذ وفاة والده إلى أن انهزم من أخيه عضد الدولة ثلاث سنين وشهورا ، ومملكتهُ الثانية من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين إلى شعبان سنة سبع وثمانين أربعة عشر سنة تقريبا ، وكان شاعراً بارعاً ، فمن شعره[1] ماذكره الثعالبي :

أدر الكأس علينا أيها الساقي لنشرب[2]
من شَمول مثل شمس في فم الندمان تغرُب
شربت منها فحالت[3] قمرا يلثم كوكب
ورد خديها[4] جنىً لكن الناطور[5] عقرب
فإذا مالذعت فال بريق درياق مجرّب

وكان له من الأولاد : مجد الدولة أبو طالب رستم . شمس الدولة أبو طاهر صاحب همذان . عين الدولة أبو شجاع بويه . أبو منصور صاحب أصفهان .

وزراؤه : أبو عمر سيد بن المرزبان إلى أن نكبه . واستوزر عبيد الله بن محمد بن حمدويه إلى أن استأمن إلى عضد الدولة ، ثم استوزر الصاحب الجليل كافي الكفاة أبا القاسم بن عباد إلى أن

(١) في يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٢٠١ : « الأبيات منسوبة لأبي العباس خسرو (ابن) فيروز بن ركن الدولة » . هكذا ورد اسمه ، والصواب خسرو وفيروز كما تقدم هنا .
(٢) في يتيمة الدهر : لنطرب .
(٣) في يتيمة الدهر : فحكت حين تجلت .
(٤) في يتيمة الدهر : خديه .
(٥) في ت : المنظور .

توفى فى صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، ولم يُرَ أحدٌ سعِد بعد وفاته كما كان فى حياته غيره ، وذلك أنه لما توفى غُلِّقت له مدينة الرى ، واجتمع الناس على باب قصره ، وحضر فخر الدوله ، وسائر القواد مُشاةً مغيّرى الزىّ ، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحةً واحدة ، وقبّلوا كلهم الأرض ، ومشى فخر الدولة فيها ، وجلس للعزاء أياماً ، واستوزر بعده أبا على حموله[1] .

هذه الطبقة الثانية من بنى بويه ، فلنذكر الطبقة الثالثة :

ذكر أخبار مجد الدولة ، وكنف الأمة أبى طالب رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه

لما توفى والده فخر الدولة اجتمع الأجناد على تولية ولده المذكور ، ونعتَه القادرُ بالله بهذين النعتين ، وكان عمرهُ عند وفاة أبيه أربع سنين ، فدبّرت والدته ابنةُ المرزبان المعروف بالسلار الأمر ، ثم بلغ مبلغ الرجال ، فلم يكن له من اللذّات غير التمتع بالنساء ، والنظر فى الدفاتر ، والاشتغال بالعلوم ، ثم توفيت أمه ، فورد محمود بن سُبُكتكين ، فقبض عليه ، ثم استولى بعد ذلك ابنه أبو كالنجار على الرى إلى أن أتته الغزّ فى سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة ، فاستولوا على الرىّ وتحصن هو بقلعة طبرك[2] ، ثم انتزل منها ، وأما شمس الدولة أبو طاهر بن فخر الدولة ، فإنه كان على أيام أخيه بهمذان ،

(١) فى الكامل ج ٩ ص ٣٨ أن الذى وزر لفخر الدولة بعد موت الصاحبين عباد وهو : أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبى الملقب بالكافى .

(٢) قلعة على رأس جبل بقرب مدينة الرى . معجم البلدان — ٦ — ١٢ .

ثم استولى على الجبل ، وتوفى فى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، وقام بعده ابنه سماء الدولة .

ولنرجع لأخبار عضد الدولة ونجعل التراجم لمن ملك العراق وخدم الخلفاء ، ونورد فى أخباره وقائع من سواه :

ذكر أخبار (١) صمصام الدولة

وهو أبو كالنجار المرزبان بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه . لما توفّى عضدُ الدولة اجتمع القوّاد والأمراء على ولده أبى كالنجار المرزبان ، فبايعوه ، وولّوه الإمارة ، وركب الخليفة الطائع لله ، وعزاه ، ولقّبه ، وقال له : « نضّر الله وجه الماضى ، وجعلك الخلَف الباقى ، وصيّر التعزية بعده لك لابك ، والخَلَف عليك لامنك » . قال : ولما رجع (٢) خلع على أخويه أبى الحسين أحمد ، وأبى طاهر فيروز شاه وأقطعهما فارس ، وأمرهما بالجد فى المسير ليسبقا أخاهما شرف الدولة (٣) أبا الفوارس شيرذيل إلى شيراز ، وكان عند وفاة أبيه بكرمان ، فلما وصلا إلى أرّجان أتاهما الخبر بوصول شرف الدولة إلى شيراز ، فعاد إلى الأهواز ، وملك شرف الدولة بلاد فارس ، وقبض على نصربن هارون النصرانى وزير أبيه ، وقتله لأنه كان يسىء صحبته أيام أبيه ، وخطب شرف الدولة لنفسه ، وتلقب بتاج الدولة ، وقطع خُطبة أخيه صمصام الدولة ، وأظهر مشافتته ، وفرّق الأموال ، وجمع الرجال ، وملك البصرة ،

(١) الزيادة من ت .

(٢) فى ت : ولما ولى .

(٣) الزيادة من ت ، وقد ذكر « مشرف » وهو خطأ ، وأما مشرف الدولة : « فهو ابن بهاء الدولة بن عضد الدولة ، وسيجىء .

وأقطعها أخاه أبا الحسين ، فلما اتّصل ذلك بصمصام الدولة سيّر جيشا ، واستعمل عليهم الأمير أبا الحسن على بن ونقش حاجب عضد الدولة ، فجهز تاج الدولة عسكرا ، واستعمل عليهم أبا الأعز دبيس بن عفيف الأسدى ، فالتقيا بظاهر « قُرْقُوب »[1] ، واقتتلوا ، فانهزم عسكر صمصام الدولة ، وأسر ابن ونقش مقدم الجيش ، فاستولى حينئذ أبو الحسين بن عضد الدولة على الأهواز ، ورامهرمز وطمع فى الملك ، وكانت هذه الواقعة فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ، وفى سنة خمس وسبعين وثلثمائة ملك شرف الدولة الأهواز من أخيه أبى الحسين ، وملك البصرة من أخيه أبى طاهر ، وقبض عليه ، فراسله أخوه صمصام الدولة ، فاستقر الأمر على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ، وفى خلال مسير الرسل وعودهم ملك شرف الدولة واسط ، وغيرها ، وكاتبه القواد ، فرجع عن الصلح ، وعزم على قصد بغداد . والله أعلم .

ذكر ملك شرف الدولة أبى الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة العراق ، والقبض على صمصام الدولة

وفى سنة ست وسبعين وثلثمائة سار شرف الدولة من الأهواز إلى واسط ، وملكها ، فاستشار صمصام الدولة أصحابه فى قصد أخيه شرف الدولة ، فنهوه عن ذلك ، وحذروه منه ، فلم يرجع إليهم ، وسار فى طيارة إليه ، فلما وصل إليه لقيه شرف الدولة ، وأكرمه ، وطيب قلبه ، ثم

(١) قرقوب : بلدة متوسطة بين واسط البصرة والأهواز ، وكانت تعد من أعمال كسكر . معجم البلدان ٧ : ٥٩ .

قبض عليه بعد قيامه من عنده، وأرسل إلى بغداد من احتاط على دار المملكة، وسار فوصل إلى بغداد فى شهر رمضان، ونزل بالشقيقى، ومعه صمصام الدولة، ثم سيره إلى بلاد فارس، واعتقله بقلعة هناك، فكانت إمارة صمصام الدولة بالعراق ثلاث سنين وأحد عشر شهرا. وكان صمصام الدولة كريم النفس ندىّ الكف إلا أنه كثرت في أيامه الخوارج، وعم الغلاء، فاستنفذ ذلك أمواله، ولم يتعدَّ أمرُه العراق.

وزراؤه: أول من وزر له. أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ثمانية عشر شهرًا، فاعتقله، ثم اشترك فى الوزارة بين أبى القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبى الحسن بن برمويه، وكان قد أخصاه بعد أولاده إلياس بن كرمان، فأقاما شهرين، ويومين بعد أن انفرد عبد العزيز بالوزارة ثلاثة أشهر، واتفقت فتنة، فانهزم عبد العزيز إلى الأهواز، وقتل ابن برمويه، وفيها يقول بشير بن هارون:

وزارة قد أثخنت كل عين ... مقسومة الرتبة فى ساقطين
هذا بلا ذقن ولا عارض ... وذا بلا رأى ولا خصيتين
ومن أعاجيب أحاديثنا ... ما ذكره قد شاع فى الخافقين
أنا نرى الخصى بلا لحية ... والناقص المجبوب ذا لحيتين

ثم (١) استوزر بعدهما الأستاذ أبا الريان أحمد بن محمد سبعة أشهر، وتسعة أيام، وقبض عليه، وقتله، ثم استوزر أبا عبد الله بن الهيثم، وأبا الفتح محمد بن فارس شركة، فأقاما بقية أيامه

(١) الزيادة: من ت.

إلى أن ملك شرف الدولة ، فقبض على أبى الفتح ، وصادره ، وأعاد بن الهيثم إلى ديوان النفقات . والله أعلم بالصواب .

ذكر سمل صمصام الدولة

وفى سنة تسع وسبعين وثلثمائة سُمل صمصام الدولة ، وكان سببُ ذلك أن نحريراً الخادم ، كان يشيرُ على أخيه شرف الدولة بقتله ، وهو يُعرِض عن ذلك ، فاتّفق أنَّ شرف الدولة اعتُّل ، فقال له نحرير : إن الدّولة مع صمصام الدولة على خطر ، وإذا لم تقتله ، فاسمُله ، فأرسل فى ذلك محمداً الشيرازى الفرّاش ، فمات شرف الدولة قبل وصوله إلى صمصام الدولة ، فلما وصل الفرّاش إلى القلعة لم يُقدِم على سمله فاستشار أبا القاسم العلاء بن الحسن الناظر هناك ، فأشار بسمله ، فسمله ، فكان صمصامُ الدولة يقول : ماأعمانى إلا العلاء ، فإنه أمضى فى حكمُ سلطان قد مات ، ثم كان لصمصام الدّولة دولة بعد دولة . سنذكرها إن شاء الله تعالى ، ولم يمنعه العمى مما قدر له .

ذكر وفاة شرف الدولة وشىء من أخباره

كانت وفاته ببغداد فى مستهل جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وقيل فى ثانيه ، وكانت علته الاستسقاء وحمل إلى مشهد على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فدفن به ، فكانت إمارته ست سنين ، وسبعة أشهر ملك فيها بغداد سنتين ، وثمانية أشهر ، وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة ، وخمسة أشهر ، ونفذ أمره بين خراسان ، والموصل ،

وديار بكر ، والعراق ، وخوزستان ، وفارس ، وكرمان ، وسراة عُمان من غير إراقة دم ، ولا إنفاق مال ، وكان يُحب الخير ، وينفر من الشر ، وأزال عن الناس التأويلات ، والمصادرات ، وكان كريما سخيًّا يحب الشعر ويثيبُ عليه ، قال أبو اسحاق الصابى : وكانت جماله فى سفره ثلاثة عشر ألف رأس ،وكان له من المماليك الأتراك ألفان ، ومائتا مملوك ، وكان له من الخدم ستمائة ، ولما اشتدّت علّته أرسل ولده أبا على إلى بلاد فارس ، وأصحبه الخزائن ، والعدد ، وجماعة كثيرة من الأتراك . قال : ولما أيس أصحابُ شرف الدّولة منه اجتمع عليه أعيانهُم ، وسألوه أن يُسنِد الملك إلى من يراه ، فقال : أنا فى شغل عما تدعوننى إليه ، ثم مات .

ولده : الأمير أبو على .

وزراؤه : أبو القاسم العلاء بن الحسن ، ثم اعتقله مدة وأطلقه واستنابه[1] ببلاد فارس. واستوزر أبا محمد علىّ بن العباس ، واستوزر بعده أبا منصور محمد بن الحسن بن صالحان إلى أن توفى رحمه الله .

ذكر ملك بهاء الدولة وضياء الملة [2]

هو أبو نصر خسرو فيروز بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ملك بعد وفاة أخيه شَرف الدّولة فى ثانى جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وكان سبب ملكه أنه لما مرض شرفُ الدّولة أشير

(١) الزيادة من ت .

(٢) هكذا فى ت . وفى الأصل الدولة . وفى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٥ حوادث سنة ٣٧٩ : « لقب الخليفة الطائع أبا نصر بهاء الدولة أو ضياء الملة » .

عليه أن يستنيبه إلى أن يشفى من مرضه ، فامتنابه ، فقبل النيابة بعد امتناع منه ، فلما مات شرفُ الدولة جلس بهاءُ الدولة للعزاء ، وركب الطائع إليه ، وعزاه ، وخلع عليه خلعْ السلطنة ، وأقر أبا منصور الحسن بن صالحان على وزارته .

ذكر قيام صمصام الدولة ببلاد فارس

قد ذكرنا ما كان من أمره ، والقبض عليه ، وسمْله ، فلما مات شرفُ الدولة إضطرب أمر الديلم ، ووقع بينهم وبين الأتراك ، فأنزلوا صمصام الدولة من قلعة شيراز ، وحمله غلامه سعادة على كتفه ، وبايعه الديلم ، وانقادوا لأمره ، فعند ذلك بايع الأتراك أبا على بن شرف الدولة ، ولقبوه شمس الدولة ، وقمر الملة (١) .

ذكر مسير أبى على بن شرف الدولة الى بلاد فارس ، وما كان بينه وبين عمه صمصام الدولة ، وعودة الى بهاء الدولة ، وقتله

قد ذكرنا أن شرف الدولة لما اشتدت علته جهز ابنه أبا على إلى فارس ، ومعه والدته ، وجواريه ، وسيَّر معه الأموال ، والجواهر ، والسلاح ، فلما بلغ البصرة أتاه الخبر بوفاة أبيه ، فسيَّر ما معه فى البحر إلى أرَّجان ، وسار مجدًّا حتى وصل إليها ، واجتمع معه من بها من الأتراك ، وسار مجدًّا نحو شيراز ، وكاتبهم متولِّيها ، وهو

(١) من ت ، وفى الأصل : قمر الدولة .

أبو القاسم العلاء بن الحسن بالوصول إليها ليسلمها إليهم ، وكان صمصام الدولة ، ومن معه قد ساروا إلى سيراف (١) ، ووقعت الفتنة بها بين الأتراك ، والديلم ، فخرج الأمير أبو على إلى معسكر الأتراك ونزل معهم ، فاجتمع الديلم ، وقصدوا داره ليأخذوه ، ويسلموه إلى صمصام الدولة ، فرأوه قد انتقل إلى الأتراك ، فكشفوا القناع ، وجرى بينهم قتال ، ثم سار أبو على والأتراك إلى فسا (٢) ، فاستولوا عليها وأخذوا ما بها من الأموال ، وقتلوا من بها من الديلم ، وسار أبو على إلى أرّجان ، وعاد الأتراك إلى شيراز ، فقاتلوا من بها من الديلم الذين مع صمصام الدولة ، ونهبوا البلد ، وعادوا إلى أبي على بأرّجان وأقاموا معه (٣) مديده ، ثم وصل رسول من بهاء الدولة إلى أبى على ، وطيب قلبه ، وأرسل إلى الأتراك الذين معه سرا واستمالهم إلى نفسه وأطمعهم ، فحسنوا لأبى على المسير إلى بهاء الدولة ، فسار إليه ، فلقيه بواسط في منتصف جمادى الآخرة سنة ثمانين وثلثمائة ، فأكرمه ، ثم قبض عليه بعد ذلك وقتله ، وتجهز بهاء الدولة للمسير إلى الأهواز لقصد بلاد فارس .

---

(١) سيراف : « مدينة جليلة على ساحل بحر فارس ، كانت قديما فرضة الهند وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام » . معجم البلدان ٥ : ١٩٢ .

(٢) فسا : « مدينة بفارس . . . بينها وبين شيراز أربع مراحل » . معجم البلدان ٣٧٦ .

(٣) فى الكامل : « وأقاموا معه مديدة فالكلام متصل » . الكامل ص ١٣٩ ج ٧ .
وفى الأصل سراً ، اسمالهم ، ولكنها مشطوبة . وانظر السطر الثانى .

ذكر مسير بهاء الدولة الى الأهواز ، والصلح بينه وبين صمصام الدولة

قال : وسار بهاءُ الدّولة إلى خُوزستان ، فأتاه نعى أخيه أبى طاهر ، وكان مع صمصام الدولة ، فجلس للعزاء ، ورحل إلى أرّجان ، واستولى عليها ، وأخذ ما فيها من الأموال التى جمعها صمصام الدولة بقلعتها ، وكانت ألفَ ألفِ دينار قاشانية ، وثمانيه آلاف ألف درهم عدليه ، ومن الجواهر ، والثياب ما لا يحصى قيمته ، ففرّق ذلك على الجند ، ولم يبق منه إلا القليل ، ثم سارت مقدمته ، وعليها العلاء بن الفضل إلى النُّوبَنْدَجَان[1] ، وبها عسكر صمصام الدولة ، فهزمهم وبث أصحابه فى نواحى فارس ، فسيّر صمصام الدولة عسكرا ، وعليهم فولاذ ابن ما[2] بدار ، فواقعهم ، فانهزم أصحاب بهاء الدولة ، وعادوا إليه ، ثم ترددت الرسائل بين صمصام الدولة ، وبهاء الدولة فى الصلح ، فاستقر على أن يكون لصمصام الدولة فارس ، وأرّجان ، ولأخيه بهاء الدولة خوزستان ، والعراق ، وأن يكون لكل واحد منهما إقطاع فى ملك الآخر ، وحَلَفَا على ذلك ، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز ، ثم إلى بغداد ، وفى سنة ثمانين وثلثمائة أيضا قبض بهاء الدولة على وزيره أبى منصور بن صالحان ، واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير ،

---

(١) النوبندجان : «مدينة من أرض فارس ، من كورة سابور ، قريبة من شعب بوان ، وبينها وبين أرّجان ستة وعشرون فرسخا وبينها وبين شيراز قريب من ذلك» . معجم البلدان ٨ : ٣٢٠ .

(٢) فى الكامل ص ١٤٥ ج ٧ : قولازماندار ، وفى هامشه بالصفحة نفسها عن تجارب الأمم : قولاذ بن ماناذر .

وكان المدبّر لدولة بهاء الدولة أبا الحسن [1] بن المعلم ، وأبيه الحكم ، وفى سنة إحدى وثمانين قبض بهاءُ الدولة على الخليفة الطائع لله ، وبايع القادر بالله كما ذكرناه فى أخبار الدولة العبّاسية ، وفيها قبض على وزيره أبى نصر سابور ، واستوْزَر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف وقبض على أبى نصر خواشاذه ، وأبى عبد الله بن طاهر ، وفى سنة اثنتين وثمانين قبض بهاءُ الدّولة على أبى الحسن بن المعلم ، وكان قد استولى على الأمور كلها ، وخدمه الناس كلُّهم حتى الوزراء ، فأساء السيرة ، فشغَب الجند ، وشكوا منه ، وطلبوا تسليمه إليهم ، فراجعهم بهاء الدولة ، ووعدهم أنه يكف يده ، فلم يقبلوا ذلك ، فقبض عليه ، وعلى جميع أصحابه ، فلم يرجع الجند ، فسلّمه إليهم ، فسقوه السمّ مرتين ، فلم يؤذه ، فخنقوه ، ودفنوه ، وقبض على وزيره أبى القاسم لأنه اتهم بمباطنة الجند فى أمر ابن المعلم ، واستوزر أبا نصر سابور ، وأبا منصور بن صالح جميعا ، وفى سنة ثلاث وثمانين شغب الجند على بهاء الدولة ، ونهبوا دار الوزير سابور ، واختفى منهم ، واستعفى ابن صالحان من الأنفراد بالوزارة ، فأعفى ، واستوزر أبا القاسم على بن أحمد ، ثم هرب إلى البطيحة ، وعاد سابور إلى الوزارة بعد أن أصلح الديلم .

---

(١) فى النجوم الزاهرة : أبو الحسين جـ ٥ ص ١٥٩ حوادث سنة ٣٨١ هـ . وفى شذرات الذهب جـ ٣ ص ٩٧ كذلك ، وإن كان قد جاء فى ص ١٠١ جـ ٣ أيضا : أبو الحسن .

ذكر ظهور أولاد بختيار ، واعتقالهم ، وقتل بعضهم

وفى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ظهر أولاد عز الدولة بختيار بن معز الدولة من محبسهم ، واستولوا على القلعة التى كانوا معتقلين بها ، وكان سبب اعتقالهم أن شرف الدولة كان أحسن إليهم بعد وفاة والده عضد الدولة ، وأطلقهم . وأنزلهم بشيراذ ، وأقطعهم ، فلما مات شرف الدولة حبسوا فى قلعة ببلاد فارس ، فاستمالوا مستحفظها ، ومن معه من الديلم ، ففرجوا عنهم ، فانفذوا إلى أهل تلك النواحى ، فاجتمعوا تحت القلعة ، فبلغ ذلك صمصام الدولة ، فسيّر إلى القلعة جيشا ، فتفرق ذلك الجمع ، وحصر جيشه القلعة ، وراسل[1] مقدم الجيش وجوه الدّيلم سرًّا ، واستمالهم ، ففتحوا القلعة ، فملكها أصحابُ صمصام الدولة ، وأخذوا أولاد بختيار ، وكانوا ستة ، فأمر صمصام الدولة بقتل اثنين ، وحبس أربعة .

ذكر مقتل صمصام الدولة

كان مقتلهُ فى ذى الحجة سنةَ ثمانٍ وثمانين وثلثمائة ، وسبب ذلك أن جماعة كثيرةً من الدّيلم استوحشوا منه لأنه أمر بعرضهم ، وإسقاط من ليس بصحيح النسب ، فأسقط منهم ألف رجل ، واتفق [أن][2] أبا القاسم ، وأبا نصر ابنى عز الدولة بختيار بن معز الدولة خدعا الموكّلين

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : وأرسل .
(٢) زيادة يقتضيها السياق .

بالقلعة ، فأفرجوا عنهما ، فجمعا لفيفاً من الأكراد ، واتّصل بهما الذين أسقطوا من الخدمة من رجال الديلم ، وقصدوا أرّجّان ، فاجتمعت عليها العساكر ، فتجهز صمصام الدولة ولم يكن عنده من يدبره ، فأشار عليه أصحابه بالصّعود إلى القلعة التى على باب شيراز ، والامتناع بها ، فأراد الصّعود إليها ، فمنعه مستحفظها ، فأشار بعض أصحابه عليه بقصد الأكراد ، والتقوا بهم ، فخرج بخزائنه ، وأمواله ، فنهبه أصحابه ، وأرادوا قتله ، فهرب وسار إلى « الدودمان » على مرحلتين من شيراز ، فقبض عليه رئيسها طاهر . وبلغ أبو نصر الخبر ، فبادر إلى شيراز ، ودخلها وأخذ صمصام الدولة ابنُ طاهر ، فقتله ، وقال : هذه سنة سنها أبوك يعنى ما كان من قتل عضد الدوله بختيار ، وكان عمر صمصام الدولة يوم قتل خمسا وثلاثين سنة ، وسبعة أشهر ، ومدة إمارتَه بفارس تسع سنين ، وثمانية أشهر . وكان كريما حليما ، وسلمت والدته لبعض قواد الديلم ، فقتلها ، وبنى عليها دكّة فى داره ، فلما ملك بهاء الدولة فارس أخرجها ، ودفنها فى تُربة بنى بويه .

وزراؤه فى مملكته الثانية : العلاء بن الحسن ، ثم قبض عليه ، واستوزر أبا القاسم المعمر بن الحسين الزنجى نحوا من سنة ، ثم قبض عليه ، واعتقله ، وأعاد العلاء ، ثم بعثه إلى الأهواز ، فمات ، فاستوزر أبا الطيّب الفرحان بن شيراز ، وأنفذه إلى الأهواز ، فأقام إلى أن قتل صمصام الدولة .

ذكر ملك بهاء الدولة فارس وخوذستان وكرمان

قال : ولما قتل صمصام الدولة ، استولى ابنا بختيار على بلاد فارس وكاتبا [أبا على بن أستاذ (١) هرمز] وهو بالأهواز يأمرانه بأخذ البيعة لهما ، واليمين ، فخافهما أبو على ، ثم راسله بهاء الدّولة يستميله ، ويعدُ الدَّيلم الخير والإحسان، فأجابوه إلى الدخول فى طاعته ، وأنفذوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة ، واستوثقوا منه ، وكتبوا إلى أصحابهم المقيمين بالسوس بصورة الحال رجاء أن يخرجوا إلى طاعته، فخرجوا بالسلاح ، وقاتلوه قتالاً شديدًا ، فضاق بذلك درعاً ، فقيل له : إن عادةَ الدَّيلم أن يشتد قتالهم عند الصلح لئلا يظن بهم العجز ، ثم كفوا عن القتال ، وأرسلوا من يحلّفه (٢) لهم ، ونزلوا إلى خدمته ، واختلط العسكران ، وسارو إلى الأهواز ، فقرر أبوعلى ابن اسماعيل أمورها ، وقسم الإقطاعات بين الأتراك والديلم ، ثم ساروا إلى رامهرمز ، فاستولوا عليها ،وعلى أرّجان ، وغيرها من بلادخوز ستان، وسار أبو على إلى شيراز ، فنزل بظاهرها ، فحاربه ابنا بختيار ، فلماً اشتدت الحرب مال بعض أصحابهما إليه ، ودخل بعض أصحابه البلد ، ونادوا بشعاربهاء الدولة فهرب ابنا بختيار ، فأما أبو نصر فإنه لحِق ببلاد الدَّيلم ، وأما أبو القاسم ، فلحق ببدر بن حسنويه الكُردىّ ، ثم قصد البطيحه ، ولما ملك أبو على بشيراز كتب إلى بهاء الدولة بالفتح

---

(١) فى الأصل على بن أسياد ، وما أثبتناه من أبى الفدا ج٢ ص ١٤٠ حوادث سنة ٤٠٦ وهو موافق لما يجىء فى ص ٢٤٢ .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : يخلفه.

فسار إليها ، وأمر بنهب قرية الدودمان ، وإحراقها ، وقتل من كان بها من أهلها ، وأخرج أخاه صمصام الدولة ، وجدّد أكفانه ودفنه ، ثم سَيَّر عسكرا مع أبى الفتح أستاذ هرمز إلى كرمان ، ففتحها ، وأقام نائبا عن بهاء الدولة ، وذلك فى سنة تسع وثمانين .

ذكر وفاة عميد الجيوش ، وولاية فخر الملك العراق

وفى سنة إحدى وأربعمائة توفى عميد الجيوش أبو على أستاذ هرمز ببغداد ، وكانت ولايته بها ثمانى سنين وأربعة أشهر وسبعة عشر يوما ، وكان من حجاب عضد الدولة وجعله فى خدمة ابن صمصام الدولة ، فلما قُتل اتصل بخدمة بهاء الدولة ، فجعله نائبه ببغداد ، ولما مات استعمل بهاء الدولة مكانه فخر الملك أبا غالب ، فوصل إلى بغداد فى ذى الحجة من ذى السنة .

ذكر وفاة بهاء الدولة

كانت وفاته بأرّجان فى عاشر جمادى (١) الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة ، وكان مرضه تتابع الصرع مثل مرض أبيه ، وحمل إلى مشهد على بن طالب رضى الله عنه ، ودفن عند قبر أبيه عضد الدولة ، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وتسعة أشهر ونصف شهر ، ومدة ملكه أربعا وعشرين سنة ، وأياما .

أولاده : سلطان الدولة أبو شجاع فنّاخسرو . مشرق الدولة

(١) فى شذرات الذهب ص ١٦٦ ج ٣ فى جمادى الأولى

أبو على [١] . جلال الدولة أبو طاهر . قوام الدولة أبو الفوارس .

وزراؤه : أبو منصور بن صالحان أحد وزراء أخيه شرف الدولة، وزرله عشرة أشهر وأياما، ثم أبو نصر سابور بن أرْدشير أحد عشر شهر، ثم قبض عليه في سنة ثمانين، واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبا القاسم على بن أحمد الأبرهونى، ثم قبضه، وأعاد سابور، ثم أشرك بينه وبين ابن صالحان، ثم استوزر أبا العباس عيسى ستة عشر يوما . واستوزر الموفق عبد الملك أبا على الحسن بن محمد بن إسماعيل سنتين وشهرين، وقلد بعده عميد الجيوش الصاحب، واستوزر بعده فخر الملك [٢] وزير الوزراء الكامل ذا الجلالين [٣] أبا الغالب محمد بن خلف، وهو أعظم من وزر للديلم على الإطلاق، بعد أبى الفضل بن العميد، وابن عباد .

ذكر ملك سلطان الدولة

هو أبو شجاع فاخسرو بن بهاء الدولة [٤] بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه . كانت ولايته بعد وفاة أبيه، فى عاشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة، ولما ولى سار من أرّجان إلى شيراز، وولّى أخاه جلال الدولة البصرة، وأخاه أبا الفوارس كرمان، وكان القادر بالله قد ولاه العهد

(١) فى السلوك جـ ١ ص ٢٩ : شرف الدولة أبو على الحسن جلال الدوله .

(٢) هكذا فى ت : وهو موافق لأبى الفدا ص ١٢٠ جـ ٢ ؛ وفى الأصل : فخر الدولة وانظر ص ٤٤ جـ ٢ .

(٣) فى ت : الجلالتين .

(٤) بالأصل : بهاء الدولة بن شرف الدولة . وهو خطأ واضح لأنهما أخوان .

بسؤال أبيه ، فلما مات والده قام مقامه ، ودخل بغداد ، وأعطى كلَّ غلام من أشرافها سبعين ديناراً ودست ثياب ، فأكثروا عليه بالمطالبات ، فضجر ، وفارق بغداد ، وتوجَّه إلى الأهواز .

ذكر قتل فخر الملك ، ووزارة ابن سهلان

وفى سنة ست وأربعمائة قبض سلطان الدولة على نائبه بالعراق ووزيره فخر الملك [1] أبى غالب ، وقتله فى سلخ شهر ربيع الأول ، فكانت نيابته بالعراق خمس سنين وأربعة أشهر واثنى عشر يوما ، وكان حسن الولاية والآثار ، ووجد له ألف ألف دينار عينا ، سوى مآنهب ، وقيمة العروض ، وكان القبض عليه بالأهواز .

حكى ابن علمكان [2] ، وكان من أكابر القوّاد قال : قتل إنسان ببغداد ، فكانت زوجته تكتب إلى فخر الملك تتظلم وتتشكّى ، وهو لا يلتفت إليها ، فلقيته يوماً فقالت له : تلك الرقاع التى كنت أكتبها إليك صرت أكتبها إلى الله تعالى ، فلم يمض على ذلك غير قليل حتى قبض هو وابن علمكان ، فقال له فخر الملك : قد برز جواب رقاع تلك المرأة . ولما قبض على فخر الملك استوزر سلطان الدولة أبا محمد الحسن ابن سهلان ، ولقب عميد أصحاب الجيوش . وفى ثمان وأربعمائة ضعف أمر الديلم ببغداد ، وطمع فيهم العامة ، فانحدروا إلى واسط ،

(١) فخر الملك : أبو غالب بن الصيرفى محمد بن على بن خلف ، وجاء فى شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨٥ : « أن قتله كان فى سنة ٤٠٧ هـ » .

(٢) فى ت : علكان .

فخرج عليهم عامّتها وأتراكها فقاتلوهم ، فدفع الديلم عن أنفسهم ، وقتلوا من أتراك واسط ، وعامّتها جماعة كثيرة ، وعظم أمر العيّارين ببغداد فأفسدوا ، ونهبوا .

ذكر ولاية ابن سهلان العراق

وفى سنة تسع وأربعمائة استعمل سلطان الدولة أبا محمد الحسن ابن سهلان على العراق فى المحرم ، فسار ، وأوقع فى طريقه بالعرب ، ولما وصل واسط وجد الفتن بها قائمة ، فأصلحها ، وقتل جماعةً من أهلها ، وورد عليه الخبر باشتداد الفتَن ببغداد ، فسار إليها ، فدخلها فى أواخر شهر ربيع الآخر ، فهرب منه العيّارون [ونفى] (١) جماعة من البّاسيين وغيرهم ، ونفى أبا عبد الله محمد بن النعمان فقيه الشيعة ، وأنزل الديلم أطراف الكرخ وباب البصرة ، ولم تكن له عادة بالنزول هناك ، ففعلوا من الفساد مالم يشاهد مثله ، فمن ذلك أن رجلا من المستورين أغلق بابه عليه خوفا منهم ، وانقطع بداره ، فلما كان فى أول يوم من شهور رمضان خرج لبعض شأنه وقد أطمأن لتعظيم الشهر ، وكفّ الناس فيه عن الفساد ، فرآهم على حال عظيم من الفساد وشرب الخمور ، فأراد الرجوع إلى داره ، فمنعوه وأكرهوه على الدخول معهم إلى دار من دورهم ، وألزموه بشرب الخمر ، فامتنع ، فصبوها فى فيه قهرا ، وقالوا له : قم إلى هذه المرأة فافعل بها ، فامتنع فألزموه ، فدخل معها إلى بيت فى الدار ، وأعطاها دراهم ، وقال لها :

(١) ما بين الحاصرتين من الكامل ص ٣٠٠ ، حوادث سنة ٤٠٩ . وفى الأصل : ونهى .

هذا أول يوم من شهر رمضان ، والمعصية فيه تتضاعف ،وأحبُّ أن تخبريهم أنى فعلت ، فقالت : لا ، ولا كرامة ، ولا عزازة ، أنت تصون دينك عن الزنا فى هذا الشهر ، وأنا أريد أن أصون أمانتى ولسانى عن الكذب فيه ، فصارت هذه الحكاية سائرة فى بغداد ، ثم إن أبا محمد بن سهلان أفسد قلوب الأتراك والعامة ، فانحدروا إلى واسط ، فلقوا بها سلطان الدولة ، فشكوه إليه فسكَّنهم ، ووعدهم أن يتوجه إلى بغداد ويصلح الحال ، وكتب إلى ابن سهلان يستقدمه ، فخافه ، فهرب إلى بنى حقاجة ، ثم إلى الموصل ، ثم إلى الأنبار ثم سار إلى البطيحة .

ذكر ملك مشرف [1] الدولة أبى على بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه العراق

كان استيلاء مشرف[2] الدولة على العراق فى سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، وكان سبب ذلك أن الجند شغَبوا على سلطان الدولة ، ومنعوه من الحركة ، وأرادوا ترتيب مشرف [2] الدولة أخيه فى الملك ، فأُشير على سلطان الدولة بالقبض عليه ، فلم يمكنه من [3] ذلك ، وأراد سلطان الدولة الانحدار إلى واسط ، فقال له الجند : إما أن تجعل عندنا ولدك ، أو أخاك مشرف الدولة . فراسل

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : شرف الدولة وهو خطأ . وقد مر ما يثبت ذلك .
(٢) ، (٢) فى ت . والأصل : شرف . وقد مر تصويبه .
(٣) الزيادة من ت .

أخاه مشرف الدولة بذلك ، فامتنع ، ثم أجابه بعد مداودة ، ثم اتفقا ، واجتمعا ببغداد ، واستقر بينهما أنهما لا يستخدمان ابن سهلان ، وفارق سلطان الدولة بغداد ، وقصد الأهواز ، واستخلف أخاه مشرف الدولة بها ، فلما انحدر سلطان الدولة ووصل تُسْتَر استوزر ابن سهلان ، فاستوحش مشرف الدولة ، فانفذ سلطان الدولة ابن سهلان ليخرج أخاه مشرف الدولة من العراق ، فجمع مشرف[1] الدولة عسكراً كثيرا ، منهم أتراكُ واسط ، وأبو الأعزّ دبيس بن على بن مزيد ، ولقى ابنَ سهلان عند واسط ، فانهزم ابنُ سهلان ، وتحصّن بواسط ، فحصره مشرف[1] الدولة وضيّق عليه ، حتى بيع كُرّ[3] الحنطة بألف دينار قاشانية ، وأكل الناس حتى الكلاب ، فاستخلف ابن سهلان مشرف الدولة ، وسلم إليه البلد ، وخرج إليه ، فخوطب حينئذ مشرفُ الدولة . وذلك فى ذى الحجة سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، وحضر إليه الديلم الذين كانوا بواسط ، وصاروا معه ، فحلف لهم وأقطعهم ، فلما اتصل الخبر بسلطان الدولة سار عن الأهواز إلى أرجان ، وقطعت خطبته من العراق ، وخطب لمشرف الدولة ببغداد ، فى أول المحرم سنة ثنتى عشرة وأربعمائة ، وقبض على الوزير ابن سهلان ، وكحله ؛ فلما سمع سلطان الدولة بذلك ضعفت نفسه ، وسار إلى الأهواز فى أربعمائة فارس ، فقلت عليهم الميرة ؛ فنهبوا السواد فى طريقهم ، فاجتمع الأتراك الذين بالأهواز ، وقاتلوا أصحاب سلطان الدولة ، ونادوا بشعار مشرف الدولة .

---

(١) ، (١) ف ت . وفى الأصل شرف الدولة .

(٢) الكر : مكيال لأهل العراق أربعين أردبا .

قال : ولما خطب لمشرف الدولة طلبوا منه[١] أن ينحدروا إلى بيوتهم بخوز ستان ، فأذن لهم ، وأمر وزيره أبا غالب بالانحدار معهم ، فقال له : إن فعلت خاطرتُ بنفسي ، ولكن أبذلها فى خدمتك ؛ ثم انحدر بالعسكر ، فلما وصل إلى الأهواز نادى الديلم بشعار سلطان الدولة ، وهجموا على أبى غالب ، فقتلوه ، فسار الأتراك الذين كانوا معه إلى طراد بن دُبيس ، ولما بلغ سلطان الدولة قتله اطمأن ، وقويت نفسه ، وأنفذ ابنه إلى الأهواز ، فملكها .

ذكر الصلح بين سلطان الدولة وأخيه مشرف[٢] الدولة

وفى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة حصل الإتفاق والصلح بينهما ، على أن يكون العراق جميعه لمشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة ، وحلف كل منهما لصاحبه .

ذكر الخلف بين مشرف الدولة والأتراك وعزل الوزير ابن المغربى[٣]

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة تأكدت الوحشة بين الأثير عنبر الخادم ، ومعه الوزير ابن المغربى وبين الأتراك ؛ فاستأذن الأثير

---

(١) فى الأصل : طلب منهم ، وما أثبتناه هو المناسب للسياق .

(٢) هكذا فى ت . وفى الأصل : شرف ، وقد سبق تصويبه .

(٣) فى الأصل : المقرى ، وفى ت : الغزى ، وما أثبتناه هو الصواب نقلا عن الكامل وأبى الفدا الذى أورد اسمه : أبو القاسم المغربى واسمه الحسين ص ١٥٥ ج ٢ . وفى وفيات الأعيان لابن خلكان أبو القاسم الحسين بن على بن الحسين ص ١٩٥ وما بعدها ج ١ . وأيضا شذرات الذهب ج ٣ ص ٢١٠ . وانظر الصفحة التالية من هذا الجزء .

والوزير مشرف الدولة فى الانتزاح إلى بلد يأمنان فيه على أنفسهما ، فقال : وأنا والله أسير معكما ؛ فساروا جميعا ، ومعهم جماعة من مقدّمى الديلم إلى السنّدية (١) ، وبها قرواش (٢) ، ثم ساروا إلى أوانا ، فعظم ذلك على الأتراك ، فراسلوه ، واعتذروا ، فكتب إليهم الوزير يقول : إننى تأملت مالكم من الجامكيات ، فإذا هى ستمائة ألف دينار ، وعلمت دخل بغداد ، فإذا هو أربعمائة ألف دينار ، فإن أسقطتم مائة ألف تحملت الباقى ، فقالوا : نحن نسقطها ، فاستشعر منهم الوزير ، فهرب إلى قرواش ، فكانت وزارته عشرة أشهر وخمسة أيام ، فلما أبعد خرج الأتراك ، وسألوا مشرف الدولة ، والأثير فى الانحدار معهم ، فأجابهم إلى ذلك .

ذكر وفاة سلطان الدولة

كانت وفاته بشيراز فى شوال سنة خمسة عشرة وأربعمائة ، وكان عمره اثنين وثلاثة سنة وخمسة أشهر ، وخمسة أيام ، ومملكة بالحضرة ، وإمارته ببلاد فارس ، وخوزستان ، وكرمان ثنتى عشرة سنة ، وأربعة أشهر وثلاثة أيام .

وزراؤه : فخر الملك أبو غالب بن خلف إلى أن قتله بالأهواز ، واستوزر أبا محمد الحسن بن الفضل بن سهلان ، واستوزر ذا السعادتين أبا غالب الحسنَ بن منصور ، ثم استوزر أبا الفتح

(١) السنديه : من قرى بغداد على نهر عيسى . معجم البلدان : ج ٥ ص ١٥٣ .
(٢) هو معتمد الدولة قرواش بن المقلد ، صاحب الموصل . أبو الفدا ص ١٥٢ ج ٢ .

عبد الحكم بن إبراهيم بن الخصيب [وقبض [١] عليه] واستوزر أبا محمد الحسن بن محمد بن بابشاد من أهل رامهرمز . ولما مات ، ولى بعده ابنه أبو كاليجار المرزبان ، على ما نذكره ، بعد عمه .

ذكر وفاة مشرف الدولة

كانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة ، وعمره ثلاث وعشرون سنة وثلاثة أشهر ، وملكه خمس سنين ، وخمسة وعشرون يوما ، وكان ملكا عادلا : كثير الخير ، قليل الشر ، حسن السيرة .

وزراؤه : ذو السعادتين أبو غالب الحسن بن منصور ، ثم عزله ، واستوزر مؤيد الملك زعيم الكفاة مجد المعالى أبا على الحسن فى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، ثم استوزر أبا قاسم بن المغربى .

ذكر سلطنة جلال الدولة

هو أبو طاهر فيروز خسرو بن بهاء الدولة خسرو فيروز بن عضد الدولة ابن ركن الدولة بن بويه . ملك بعد وفاة أخيه [٢] مشرف الدولة ، فى شهر ربيع الأول سنة سته عشر وأربعمائة ، [وكان عند [٣] وفاته بالبصرة] ،

---

(١) ما بين الحاصرتين سقط من ت .

(٢) فى الأصل : بعد وفاة أبيه ، وما أثبتناه من ت ، وهو الصواب .

(٣) ما بين الحاصرتين سقط من ت .

وكان أبوه قد رتّبه بها فى حياته ، فلما مات مشرفُ الدولة خُطِب له ببغداد ، وطُلب فلم يصعد إليها ، وإنما بلغ واسط ، وأقام بها ، ثم عاد إلى البصرة ، فقطعت خُطبته ، وخُطِب لابن[1] أخيه أبى كاليجار ابن سلطان الدولة فى شوال ، وهو حينئذ صاحب خوزستان ، فلما اتّصل ذلك بجلال الدولة أصعد إلى بغداد ، فانحدر عسكرها ليرده عنها ، وقاتلوه ونهبوا بعض خزائنه ، فعاد إلى البصرة ، وأرسلوا إلى الملك أبى كالنجار ليحضُر إلى بغداد ، فوعدهم بذلك ، ولم يمكنه . لأن الحرب كانت بينه وبين عمه أبى الفوارس صاحب كرمان ، وانقطعت خطبة جلال الدولة إلى سنة ثمان عشرة وأربعمائة ، ثم عاد إلى السلطنة ، وكان سبب ذلك أن الأتراك كانوا قد طمعوا فى الناس ببغداد ، وصادروهم ، وأخذوا أموالهم ، وعظم الخطب ، وزاد الشر ، وأحرقت المنازل ، والدروب ، والأسواق ، وطمع العيّارون ، والعامة ، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره كما يفعل السلطان بمن يصادره ، ووقعت الحربُ بين العامّة والجند ، فظفر الجندُ بهم ، ونهبوا الكرخ وغيره ، وذلك فى سنة سبع عشرة ، فلما رأى القوادّ وعقلاء الجند أن الملك أبا كاليجار لا يصلُ إليهم ، وأن البلاد قد خربت ، وطمع فيهم المجاورون لهم من الأعراب والأكراد ، وقصدوا دار الخلافة ، وراسلوا الخليفة القادر بالله ، واعتذروا من انفرادهم بالخطبة لجلال الدولة أوّلاً ، وردّهم له ثانيا ، وبالخطبة لأبى كالنجار ، وقالوا : إن أمير المؤمنين صاحب الأمر ونحن العبيد ، وقد أخطأنا ، ونسأل

(١) الزيادة من ت .

العفو ، ولا يُدَلّنا ممّن يجمع كلمتنا ، وسألوا أن يرسل الخليفه إلى جلال الدولة ليصعد إلى بغداد ، ويملكه ويجمع الكلمة ، وأن يحلفه رسول الخليفة ، فأجابهم الخليفه إلى ما سألوا ، وراسله هو وقواد الجند فى الإصعاد ، واليمين للخليفة ، ولهم ، فحلف لهم ، وأصعد إلى بغداد ، وانحدر الأتراك إليه ، فلقوه فى الطريق ، ووصل بغداد فى ثالث شهر رمضان سنة ثمانى عشرة وأربعمائة ، ونزل بالنجمى ، فركب الخليفة فى الطيّار ، وانحدر لتلقيه ، فلما رآه جلال الدولة ، قبل الأرض بين يديه ، ثم دخل جلال الدولة إلى دار المملكة ، وأمر بضرب النُّوب الخمس على بابه فى أوقات الصلوات ، فراسله الخليفة فى قطعها ، فقطعها غضبا ، ثم أذن له الخليفة فى إعادتها ففعل.

ذكر شغب الأتراك ببغداد على جلال الدولة

وفى سنة تسع عشرة وأربعمائة ثار الأتراك ببغداد على جلال الدولة ،وطالبوا الوزير أبا على بن ماكولا بمالهم من المعلوم ، ونهبوا داره ودُور كُتّاب جلال الدولة ، وحواشيه ، حتى المغنّين ، والمخنثين ، ونهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة ، ليضربها دنانير ودراهم ، ويغرقها فيهم ، وحصروا جلال الدولة فى داره ، ومنعوه الطعام والماء حتى شرب أهله ماء البئر ، وأكلوا ثمرة البستان ، فسألهم أن يمكنوه من الانحدار ، فتأخروا له ولأهله ، فجعل بين الدار وبين السفن سُرادقاً (١)

(١) عبارة الكامل (حوادث سنة ٤١٩ هـ) : « فاستأجروا له ولأهله وأنقاله سقفا مجفل بين الدار والسفن سرادقاً » .

لتجتاز حُرمه فيه ، لئلا يراهم العامة والأجناد ، فقصد بعض الأتراك السرادق ، فظن جلال الدولة أنهم يريدون الحريم ، فصاح بهم ، وقال : بلغ من أمركم إلى الحريم ؟ وتقدم إليهم وبيده طبر ، (٢) فصاح صغار الغلمان ، والعامة : جلال الدولة يامنصور ؛ ونزل أحدهم عن فرسه ، وأركبه إياه ، وقبلوا الأرض بين يديه ، فرجعوا إلى منازلهم ، ولم تمض عشرة أيام حتى عادوا ، وشغبوا ؛ فباع جلال الدولة فرشه ، وثيابه ، وخيامه ، وفرق أثمان ذلك فيهم ، فسكنوا ، وضعف حال جلال الدولة ؛ وقلت الأموال عنده ، وطمع القواد فيه ، حتى انتهى حاله في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة في شهر رجب أن أخرج دوابه من الاصطبل ، وهي خمس عشرة دابة و سيّبها في الميدان ، بغير سايس ، ولاحافظ ، ولاعلف ، فقيل : إنه فعل ذلك لأمرين : أحدهما : عدم العلف عنده ، والثاني : أن الأتراك كانوا يلتمسون دوابه يطلبونها منه ، فضجر من ذلك ، فأخرجها ، وقال : هذه دوابي ، خمسة لمركوبي ، والباقي لأصحابي ، وفرق حواشيه ، وفراشيه ، وأتباعه ، وأغلق باب داره لانقطاع جاريه فثارت فتنة لذلك بين العامة والجند ، وعظم الأمر ، وظهر العيارون ببغداد .

---

(١) فارسية ، ومعناها : الفأس . صبح الأعشى ص ٤٥٨ جـ٤ .

ذكر وثوب الجندبه واخراجه من بغداد وعوده اليها

وفى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة فى شهر ربيع الأول ،تجددت الفتنة بين جلال الدولة وبين الأتراك ، فأغلق بابه ، فجاء الأتراك ونهبوا داره ، وسلبوا الكتاب ، وأرباب الديوان ثيابهم ، وطلبو الوزير أبا إسحاق السهيلى ، فهرب ، وخرج جلال الدولة إلى عكبرا ، فى شهر ربيع الآخر ، وخطب الأتراك ببغداد للملك أبى كاليجار ، وأرسلوا إليه يطلبونه وهو بالأهواز ، فمنعه العادل بن ماقيه[1] من الإصعاد إلى أن يحضر بعض قوادهم ، فلما رأوا إمتناعه من الوصول إليهم ، أعادوا خطبةَ جلال الدولة ، وساروا إليه ، وسألوه العود إلى بغداد ، فعاد بعد ثلاثة وأربعين يوما .

واستوزر أبا القاسم بن ماكولا ، ثم عزله ، واستوزر بعده عميد الملك أبا سعيد عبد الرحيم ، فوزر أياما ثم استتر . وسبب ذلك أن جلال الدوله تقدم إليه بالقبض على أبى المعمر إبراهيم بن الحسين البسامى طمعا فى ماله عليه ، وجعله فى داره فقبض فثار الأتراك ، وقصدوا دار الوزير ، وضربوه ، وأخرجوه من داره حافيا ، ومزقوا ثيابه وعمامته ، وأخذوا خواتيمه فدميت إصبعه ، وكان جلال الدوله فى الحمام ، فخرج فزعا لينتظر ما الخبر ، فوجد الوزير فقبلَ الأرض ، وذكر ما فعل به ، فقال له جلال الدولة أنا ابن بهاء الدولة ، وقد فعل فِىَّ أكثر من

(١) فى تاريخ البيهقى ص ٤٥٨ : ابن ما فيه ؛ وفى الهامش : هو أبو منصور بهرام ابن ماقند الملقب : بالعادل .

هذا ، ثم أخذ من البساسى ألف دينار ، وأطلقه ، واختفى الوزير .
وفى سنة أربع وعشرين وأربعمائة فى شهر رمضان شغب الجند على جلال الدولة ، وقبضوا عليه ، وأخرجوه من داره ، ثم سألوه ليعود إليها فعاد ، وسبب ذلك أنه استقدم الوزير أبا القاسم من غير أن يعلموا ، فاستوحشوا من ذلك ، واجتمعوا وهجموا عليه فى داره ، وأخرجوه إلى مسجد هناك ، فوكلوا به فيه ، وأسمعوه مايكره ، ونهبوا بعض مافى داره ، فجاء بعض القواد فى جماعة من الجند ، وأعاده إلى داره ، فنقل جلال الدولة حرمه ، وما فضل فى داره بعد النهب ، إلا الجانب الغربى ، ونزل بدار المرتضى ، وعبر الوزير معه ، ثم راسله الجند ، وقالوا نريد أن تنحدر عنا إلى واسط ، وأنت ملكنا ، وتترك عندنا بعض أولادك الأصاغر ، فأجابهم إلى ذلك ، وأرسل سرا إلى الغلمان الأصاغر ، واستمالهم ، وإلى كل واحد من الأكابر واستماله ، وقال : إنما وثوقى بك وسكونى إليك ، فمالوا إليه ودخلوا عليه ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وسألوه العود إلى داره ، فعاد وحلف لهم على الإخلاص ، والإحسان إليهم ، وحلفوا له على المناصحة .

وفى سنة سبع وعشرين وأربعمائة عاد الجند إلى الشغب وثاروا به وأرادوا إخراجه من بغداد ، فاستمهلهم ثلاثة أيام ، فلم يمهلوه ، ورموه بالآجر ، فأصابه بعضه ، فاجتمع الغلمان ، وردّهم عنه ، فخرج من باب لطيف ، وركب فى سُمارية متنكرا ، وصعد راجلا منها إلى دار المرتضى بالكرخ ، ثم سار إلى رافع بن الحسين بتكريت ، وكسّر الأتراك باب داره ، ودخلوها ، ونهبوها ، وخلعوا كثيرا من ساجها وأبوابها ، فأرسل الخليفة إليهم ، وسكنهم ، وأعاده إلى بغداد . والله أعلم .

ذكر الفتنة بين جلال الدولة ، وبارسطغان ، وقتل بارسطغان

وفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة كانت الفتنة بينهما ، وكان بارسطغان من أكابر الأمراء ، ويلقب حاجب الحجاب ، وكان سبب الفتنة : أن جلال الدّولة نسبه إلى فساد الأتراك ، والأتراك نسبوه إلى أخذ الأموال ؛ فخاف على نفسه : فالتجأ إلى دار الخلافة ، وذلك فى شهر رجب سنة سبع وعشرين ، فمنع الخليفة منه ، وأرسل بارسطغان إلى الملك أبى كاليجار يحثه على طلب ملك العراق ، فأرسل أبو كاليجار جيشاً فوصلوا إلى واسط وأخرجوا منها الملك العزيز بن جلال الدولة ، فأصعد إلى أبيه ، فعند ذلك كشف بارسطغان القناع ، وانضمّ إليه أصاغر المماليك ، ونادوا بشعار أبى كاليجار ، وأخرجوا جلال الدّولة من بغداد ، فسار إلى أوانا[1] ومعه البساسيرى ، وأرسل بارسطغان إلى الخليفة فى الخطبة لأبى كاليجار ، فامتنع واحتج بعهود جلال الدولة ، فأكره الخطباء على الخطبة لأبى كاليجار ، ففعلوا ، وسار الأجنادُ الواسطيّون إلى باب بارسطغان ، وكانوا معه ، ثم عاد جلال الدّولة إلى الجانب الغربى ببغداد ، ومعه قراوش بن المقلّد العقيلى ودبيس بن على [2] بن مزيد الأسدى ، وخطب له بالجانب الغربى ، ولأبى كاليجار بالجانب الشرقى ، ثم سار جلال الدولة إلى الأنبار ، وسار قرواشُ إلى الموصل ، ووصل الخبر إلى بارسطغان بعوْد

(١) أوانا : بليدة كثيرة البساتين والشجر ، نزهة من نواحى دجيل بغداد ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت . معجم البلدان جـ١ : ص ٣٦٦ .

(٢) فى ت : دبيس على .

أبى كاليجار إلى فارس ، ففارقه الدَّيلم الذين كانوا نَجدةً له ، فضعف أمره ، فرفع ماله وحرمه إلى دار الخلافة ، وانحدر إلى واسط ،وعاد جلال الدولة إلى بغداد ، وأرسل البساسيرى والمرشد وبنى خفاجة فى إثر بارسطغان ، ومعهم جلال الدولة ودبيس ، فلحقوه بالخيزرانية ، فقاتلوه ، فسقط عن فرسه ، فأسر وجىء به إلى جلال الدولة ، فقتله ، وكان عمره نحواً من سبعين سنة . فضعف أمر الأتراك ، وطمع فيهم الأعراب ، واستولوا على إقطاعهم .

ذكر الصلح بين جلال الدولة وأبى كاليجار

وفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وقع الصّلح بين جلال الدّولة ، وأبى كاليجار ، والاتفاق ، وزال الخلف بعد أن كان بين عساكرهما حرب قبل ذلك ، فاتفقا الآن ، وكان الرسل فى الصلح أقضى القضاة أبا الحسن الماوردى ، وأبا عبد الله المردوستى ، وغيرهما ، وتزوّج أبو منصور بن على أبى كاليجار بابنة جلال الدولة ، وكان الصداق خمسين ألف دينار قاشانيه . والله أعلم .

ذكر مخاطبة جلال الدولة بملك الملوك

وفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة سأل جلال الدولة الخليفة القائم بأمر الله أن يُخاطَب بملك الملوك ، فامتنع ، ثم أجاب إذا أفتى الفقهاء بجوازه ، فأفتى قاضى القضاة أبو الطيب [1] الطبرى ،

(١) هكذا فى ت . وفى الأصل : أبو الخير وماذكره الكامل موافق لما أثبتناه ، وأيضا صبح الأعشى ج ١٦ ج ٦ .

والقاضى أبو عبد الله الصيمرى [١] ، والقاضى ابن البيضاوى ، بجواز ذلك ، ومنع منه أقضى القضاة أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى الشافعى ، وجرى بينه وبين من أفتى بجوازه مراجعات ، فخطُبِ لجلال الدولة بملِك الملوك ، وكان الماوردى من أخص الناس بجلال الدولة ، وهو يتردَّد إلى دار الملك فى كل يوم ، فلما أفتى بالمنع انقطع ، ولزم بيتَه من شهر رمضان إلى يوم عيد النحر ، استدعاه جلال الدّولة ، فحضر خائِفا ، فأُدخِل عليه وحده ، فقال له : قد علم الناسُ أنكَ من أكثر الفقهاء مالا وجاهاً وقُرْباً منا ، وقد خالفتَهم فيما وافق هواى [٢] ، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة منك واتِّباع الحق ، وقد بان لى موضعُك من الدين ، ومكانُك من العلم ، وجعلت جزاء ذلك إكرامك ، بأن أدخلتك إلىَّ وحدك ، وجعلت إذْنَ الحاضرين إليك ليتحققوا عودى إلى ماتحبّ ، فشكره ودعا له ، وأذن لكلٍّ من حضر للخدمة بالانصراف [٣] ، والله أعلم .

ذكر وفاة جلال الدولة

كانت وفاته ببغداد سادس شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، وكان مرضُه ورما فى كبده ، وكان مولده فى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، وكانت مدة عمره إحدى وخمسين سنة ، ومدة ملكه ببغداد

---

(١) فى الأصل : الضيرى وهو خطأ ، وما أثبتناه من المرجع السابق .

(٢) هواى : فى الأصل . هؤلاء .

(٣) فى صبح الأعشى : للخدمة بالانصراف . وفى الأصل بالخدمة والإنصراف ، وهو لا يتفق مع السياق .

منذ خطب له ثانيا ، سبع عشرة سنة وشهرين ، ومنذ وصل إليها ست عشرة سنة وأحد عشرة شهرًا ، وكانت أيامه كثيرة الوهن والاضطراب ، وضعفت المملكة فى أيامه ، وقد تقدم مايدل على ذلك ، وكان كثير الصدقة ، وزيارةِ الصّالحين والمشاهد ، وكان يمشى حافياً قبلَ وصوله إلى كلِّ مشهد نحوًا من فرسخ .

أولاده : الملك العزيز أمير الأُمراء أبو منصور ، توفى بديار بكر فى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وعمره ثلاث وثلاثون سنة .

وزراؤه : أبو سعد عبد الواحد بن على بن ماكولا ، ثم نكبه ، واستوزر أخاه أبا على الحسن ، ثم عزله ، واستوزر أبا القاسم بن ماكولا ، وهو أخوهما ، ثم استوزر عميد الملك أبو سعيد عبد الرحيم ، واستوزر غير هؤلاء ، والله أعلم .

ذكر أخبار السلطان شاهنشاه

هو أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة أبى شجاع فنّاخسرو بن بهاء الدولة أبى نصر خسرو فيروز بن عضُد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ملك بعد وفاة والده سلطان الدولة ، كرمان ، وفارس ، وخوزستان ، ثم ملك الحضرة ببغداد ، بعد وفاة عمِّه جلال الدولة . على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ابتداء ملكه

لما توفى والده سلطان الدولة فى شوال سنة خمس عشرة وأربعمائة بشيراز ، كان هو بالأهواز ، فطلبه الأوحد أبو محمد بن مكرم ليملك البلاد ، وكان هواه معه ، وهوى الأتراك مع عمه أبى الفوارس بن بهاء الدولة صاحب كرمان ، فكاتبوه أيضا يطلبونه إليهم ، فتأخر أبو كاليجار ، وسبقه عمه أبو الفوارس إليها ، فملكها ، وكان أبو المكارم ابن أبي محمد بن مكرم قد أشار عليه ابنه ، لما رأى الاختلاف ، أن يسير إلى مكان يأمن فيه على نفسه ، فلم يقبل قوله ، ففارقه ، وقصد البصرة ، فلما ملك أبو الفوارس طالبه الجند بحق البيعة ، فأحالهم على ابن مكرم ، وألزمه بإيصال [المال (١)] إليهم ، فتضجر من ذلك ، فقبض أبو الفوارس عليه وقتئذ ، فلما سمع ابنه بقتله صار مع الملك أبى كاليجار وأطاعه ، وتجهز الملك أبو كاليجار ، وقام بأمره أبو مزاحم صندل الخادم مربيه ، وساروا بالعساكر إلى فارس . فبعث أبو الفوارس عسكرًا مع وزيره أبى منصور الحسن بن على البشنوى لقتاله ، فوصل أبو كاليجار والوزير فتهاون به ؛ لكثرة عساكره ، فأتوه وهو نائم ، وقد تفرق عسكره فى البلد ، لابتياع ما يحتاجون إليه ، وكان جاهلاً بالحرب ، فلما شاهد أعلام أبى كاليجار شرع الوزير يرتب العسكر ، وقد داخلهم الرعب ، فحمل عليهم أبو كاليجار ، فانهزموا وغنم أموالهم ، فلما انتهى خبر الهزيمة إلى أبى الفوارس سار إلى كرمان ، ودخل أبو كاليجار شيراز ، وملك فارس .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ذكر عودة أبى الفوارس الى فارس واخراجه

قال : ولما ملك أبو كاليجار البلاد ، ودخل شيراز ، وجرى على الدَّيلم الشيرازيَّةِ من عسكره ما أخرجهم عن طاعته ، وتمنَّوا أنهم كانوا قُتِلوا مع عمه ؛ ثم إن عسكر أبى كاليجار شَغَبوا عليه ، وطالبوه بالمال فأظهر ديْلَمُ شيراز ما فى نفوسهم من الحقد ، فعجز عن المقام معهم ، فسار عن شيراز إلى النونبدجان ، ولقى شدَّة فى طريقه ، ثم فارقها لشدَّة حرِّها ، ووخامة هوائها إلى شِعْب بوّان ، فأقام به ، وهو أحد متنزهات الدنيا الأربع ، ولما سار عن شيراز أرسل الدَّيلم الشيرازيّون إلى أبى الفوارس يحثّونه على الوصول إليهم ، فسار إليهم وتسلَّم شيراز ، وقصد أبا كاليجار بشعب بوّان ، ثم استقر بينهما الصلح ، على أن يكون لأبى الفوارس كِرمانُ وفارس ، ولأبى كاليجار خوزستان ، وعاد أبو الفوارس إلى شيراز ، وسار أبو كاليجار إلى أرَّجان ، ثم إن وزيره أبى الفوارس صادر الناس ، وأفسد قلوبهم ، واجتاز به مالٌ لأبى كاليجار ولمن معه من الديلم ، فأخذه ، فحينئذ حثَّ العادل ابن ماقيه[1] صندلاً الخادم على العوْد إلى شيراز ، فعادت الحالُ إلى أشدَّ ما كانت عليه ، ثم خرج كل واحد ، من أبى الفوارس وأبى كاليجار ، والتقَوا ، واقتتلوا ، فانهزم أبو الفوارس إلى دارا بْجِرد[2] ؛ وملك أبو كاليجار فارس ، وعاد أبو الفوارس فجمع الأكراد ؛ فاجتمع له نحو عشرة

---

(١) انظر ص ٢٥٤ من هذا الجزء .

(٢) فى الأصل : دار الجرد . وفى ت : بجرد ، وفى الكامل : أبجرد ، وما أثبتناه من مراصد الاطلاع ج٢ ص ٥٠٥ ، والمقدسى أحسن التقاسيم ج١ ص ٤٢ .

آلاف مقاتل ، والتقوا واقتتلوا نحو البيضاء ، واصطخر ، فانهزم أبو الفوارس ومن معه ، وسار إلى كرمان ، واستقر ملك أبي كاليجار بفارس ، في سنة سبع عشرة وأربعمائة ، وفي أثناء ذلك خُطِب لأبي كاليجار ببغداد ، بعد وفاة مشرف الدولة ، كما قدمناه في أخبار جلال الدولة ، وفي سنة ثماني عشرة وأربعمائة استقر الصلح بين أبي كاليجار ، وعمه أبي الفوارس صاحب كرمان ، على أن تكون كرمان لأبي الفوارس وبلاد فارس لأبي كاليجار ، ويحملَ لعمِّه في كلِّ سنة عشرين ألف دينار ، وفوَّض أبو كاليجار أمور دولته إلى العادل ابن ماقية ، فأجابه بعد امتناع ، وشرط عليه ألا يعارض فيما يفعله ، وفي سنة تسع عشرة وأربعمائة توفي أبو الفوارس صاحب كرمان ، فاستولى أبو كاليجار على كرمان .

ذكر ملك أبي كاليجار العراق

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ملك العراق ، وذلك بعد وفاة عمه جلال الدولة ، وذلك أن جلال الدولة [1] لما مات كان ولدُه الأكبرُ الملكُ العزيز بواسط ، فكاتبه الأجنادُ بالطاعة ، وشرطوا عليه تعجيلَ ما جرت به العادة من حقِّ البيعة ، فتردَّدت الرسائلُ بينهم في مقدار المال ، فلم يكن عنده ما يعطيه لهم ، وبلغ خبرُ موته الملكَ أبا كاليجار ، فكاتب القوَّاد والأجناد ورغَّبهم في المال ، وبكثرته وتعجيله ، فمالوا إليه ، وعدلوا عن الملك العزيز ، وأرسل الأموال ،

(١) الزيادة من ت .

وفرقّها على الجند وأولادِهم ببغداد ، وأرسل إلى الخليفة عشرة آلاف دينار ، ومعها هدايا كثيرة ، فخُطِب له ببغداد فى صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، ولقّبه الخليفة محى الدين ، وسار إلى بغداد فى مائة فارس من أصحابه ؛ ليلاً مخافة الأتراك ، فلما وصل إلى النعمانيه لقيه دبيس بن مزيد ، ودخل إلى بغداد فى شهر رمضان ، ومعه وزيره ذو السعادتين أبو الفرج بن محمد بن جعفر بن محمد بن فسابخس[1] وزينت بغداد لقدومه ، وخلع على أصحاب الجيوش ، وهم البساسيرى والنشاودى[2] والهمام أبو البقاء ، وجرى من ولاة العرض تقديم لبعض الجند وتأخير ، فشغب بعضهم ، وقتلوا واحداً من وُلاة العرض بمرأىً من الملك أبى كاليجار ، واستمر ملكه إلى سنة أربعين وأربعمائة فتوفى بمدينة [خنّاب][3] من كرمان ، فى رابع جمادى الأولى منها ، وقد عزم على المسير إلى كرمان ، وكان عمره أربعين سنة وشهورا ، ومدة ملكه ، منذ ملك فارس بعد وفاة أبيه ، أربعاً وعشرين سنة و سبعة أشهر ، بما فى ذلك من مدة الحرب بينه وبين عمه أبى الفوارس ، ومنذ ملك العراق بعد عمه جلال الدولة أربع سنين وشهرين ونيفًا وعشرين يوما ، ولما توفى نهب الأتراك الذين بالعسكر الخزائنَ والسلاح والدوابَّ ، وانتقل ولده أبو منصور فلا ستون إلى مخيَّم الوزير أبى منصور ، وأراد الأتراك نهبها ، فمنعهم الديلم ،

(١) فى ت : سخس ، وما أثبتناه موافق للكامل ص ١٨١ ج ٧ حوادث سنة ٤٣٦ هـ .
(٢) فى ت : التشاودرى والهمام وأبو النقاء ، وما فى الأصل موافق للكامل بالصفحة نفسها .
(٣) فى الأصل : جناب ، وما أثبتناه نقلا عن المقدسى : ٤٦٥ . ومراصد الاطلاع ص ٤٨٣ ج ١ .

وعاد العسكر إلى شيراز ، فملكها الأمير أبو منصور ، وكان رحمه الله منصفا للتجار فى معاملاتهم ، يربحون عليه الأرباح الكثيرة ، مع بخله العظيم ، وخلف بقلعة اصطخر تسعة وعشرين ألف بدرةٍ ورقا ، وأربعمائة بدرةٍ عيناً ، سوىَ الجواهر والثياب .

أولاده : الملك الرحيم أبو نصر أبو منصور فلاستون . أبو طالب كامروا – أبو المظفر بهرام – أبو على[1] كيخسرو شاه ، وثلاثة بنين أصاغر .

وزيره : العادل أبو منصور بهرام .

ذكر ملك الملك الرحيم ابى نصر

هو أبو نصر خسرو فيروز بن أبى كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة فناخسروا بن بهاء الدولة أبى نصر خسرو فيروز بن عضد الدولة ابن ركن الدولة ، وهو آخر ملوك الدولة البويهية ، وعليه انقرضت دولتهم ، وكان ملكه ببغداد بعد وفاة أبيه كاليجار ، وذلك أنه لما ورد الخبرُ بوفاته إلى بغداد ،وبها ولَدهُ أبونصر هذا أحضَر الجند واستحلفهم، وراسل الخليفة القائم بأمر الله ، فى الخُطبة لنفسه وتلقيبه بالملك الرحيم ، تردَّدت الرسائل فى ذلك إلى أن أجابه الخليفةُ إلى الخُطبة ، ولم يجبه إلى اللَّقب ، وقال : لا يجوز أن يلقَّب أحد بأخص صفاتِ اللهُ عز وجل ، واستقر ملكه بالعِراق وخُوزِستان والبصرة ، وكان بالبصرة أخوه أبو على كيخسرو واستولى أبو منصور على شيراز ، فسير

(١) ف ت : كنجشرو شاه . وما أثبتناه موافق للكامل ج ٩ ص ١٨٩ .

إليه الملكُ الرحيم أخاه أبا سعيد فى عسكر ، فملكوا شيراز ، وقبضوا على أبى منصور ووالدته ، وذلك فى شوال سنة أربعين وأربعمائة ، وخُطِب للملك الرَّحيم بشيراز ، ثم خالفه أهلُها بعد ذلك ، وصاروا مع أخيه أبى منصور ، وكان بينهم حروب ووقائع يطول شرحها ، ولم يزل الملك الرحيم فى الملك إلى أن قطعت خُطْبته ، عند وصول السّلطان طُغُرلبك السّلجقى إلى بغداد ، فخطب له بها بعد الخليفة ، ثم بعده للملك الرحيم ، بشفاعة الخليفه إلى السلطان طغرلبك - ثم قبض طغرلبك على الملك الرحيم (١) ، وقُطِعت خطبته ، لخمس بقين من شوال ، وقيل فى سلخ شهر رمضان سنة سبع وأربعين ، وسيره السلطان إلى الرىّ ، واعتقله فى قلعتها ، فمات فى سنة خمسين وأربعمائة وانقطعت الدولة البويهية من بغداد بزوال ملكه . وكان ملكه سبع سنين وشهورا ، وبلغ من العمر أربعا وعشرين سنة وشهورا .

وزراؤه : الوزير أبو السعادات ، وأبو الفرج بن فسانجس ، وابنه الوزير أبو الغنائم ، والوزير أبو الحسن على بن عبد الرحيم .

جامع أخبار ملوك بنى بويه عدة من ملك منهم ستة عشر ملكا

وهم عماد الدولة أبو الحسن على بن بويه . ركن الدولة أبو على الحسن معز الدولة أبو الحسن أحمد عز الدولة بختيار بن معز الدولة. عضُد الدولة أبو شجاع فناخسرو شاهنشاه . وفيه يقول المتنبى :

أبو شجاع بفارس عضد الدولة فناخسرو شاهنشاه .

(١) الكامل جـ٥ ص ٢١٣ . حوادث سنة ٤٤٧ .

مؤيّد الدولة أبو منصور بويه ركن الدولة . فخر الدولة وفلك الأمة أبو الحسن على بن ركن الدولة مجد الدولة ، وكنف الأمة أبو طالب رستم بن فخر الدولة ، وهؤلاء الثلاثة لم يملكوا العراق- صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة - شرف الدولة أبو الفوارس شيرذيل [١] بن عضد الدولة بهاء الدولة وضياء الدولة أبو نصر خسرو فيروز بن عضد الدولة [سلطان الدولة أبو شجاع فناخسرو بن بهاء الدولة] [٢] مشرف الدولة بن بهاء الدولة - جلال الدولة أبو طاهر فيروز خسرو بن بهاء الدولة - الملك شاهنشاه أبو كاليجار [٣] المرزبان بن سلطان الدولة . الملك الرحيم أبو نصر ، وملك منهم أيضا شمس الدولة أبو طاهر بن فخر الدولة ، ملك همذان ثم استولى على الجبل ، وأبو الفوارس بن بهاء الدولة صاحب كرمان . ومدة ملكهم منذ استولى عمادُ الدولة على أصفهان لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، وإلى أن انقطعت خطبة الملك الرحيم لخمس بقين من شوال سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، مائة سنة وخمس وعشرون سنة [٤] وأحد عشر شهرًا وأربعة عشر يوما . ومنذ ملك معزُّ الدولة بغداد ، ولقبه الخليفة المستكفى بالله العباسى ، ولقب إخوته بالألقاب التى ذكرناها ؛ ونقش أسماءهم على السكّة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة

(١) هكذا فى ت . وهو موافق لما سبق ، وفى الأصل : شيرويل .
(٢) الزيادة من ت .
(٣) فى ت : أبو على كاليجار .
(٤) زيادة من ت .

أربع وثلاثين وثلاثمائة وإلى هذا التاريخ ، مائة سنة وثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما . وكان لهم فى غالب الأوقات من الأقاليم : سجستان ، وطبرستان ، وجرجان ، دعوة وخطابة ، وسكة ، وكرمان ، والرى ، وأصفهان ، وهمذان ، وبلاد فارس ، وخوزستان ، والعراق ، والموصل ، وديار بكر ، ومايليها ، وجميع عُمان ، وانقرضت دولتهم كأن لم تكن ، فسبحان الدائم الذى لايزول ملكه ، ولايفنى دوامه ، سبحانه وتعالى .

وحيث ذكرنا الدولة البويهية ، وأخبار ملوكها .
فلنذكر أخبار الدولة السلجقية .

ذكر أخبار الدولة السلجقية وابتداء أمر[1] ملوكها وكيف تنقلت بهم الحال ، الى أن استولوا على البلاد ، وماحازوه من الأقاليم والممالك ، وغير ذلك من أخبارهم

كان ابتداء ظهور[2] هذه الدولة فى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ، وملوكها هم الذين ينسب إليهم القبة والطير . يقال : إنهم اتخذوا ذلك تبركا بالطائر الذى يقال إنه إذا وقع ظله على أحد من البشر سعد سعادة عظيمة ، وقيل : إن ظله وقع على أبيهم سلجق ، فكان من أمره ما نذكره ، وقد اختلف فى انتسابهم إلى أى قبيلة ، فمن الناس من ذهب إلى أنهم من التركمان ، ومنهم من يقول إنهم من الترك ، وفى أخبارهم

(١) زيادة من ت .
(٢) زيادة من ت .

ما يدل على أنهم من الأتراك . وأول من نبغ من ملوك هذه الدولة وعلا قدره ، وطار اسمه ، واستولى على البلاد ، وقاتل الملوك ، وحاز الممالك ونعت بالسلطنة : طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجق بن يقاق .

وطُغْرُلْبك : بضم الطاء المهملة ، وسكون الغين المعجمة ، وضم الراء ، وسكون اللام ، وفتح الباء الموحدة وبعدها كاف .

ولنبدأ بذكر آبائه ، وابتداء أمرهم على سبيل التلخيص والاختصار ، لتكون أخبارهم سياقة ، يتلو بعضها بعضاً . فأما يقاق[1] ، وقيل فيه دقاق ، ومعنى يُقاق : القوس الجديدة ، فكان رجلاً تركيا شهما ، صاحب رأى وتدبير ، وهو أول من دخل فى دين الإسلام ، وكان مقدم طائفته من الأتراك ، ومرجعهم إليه ، لا يخالون له قولا ، وكان ملك الترك فى زمانه[1] بيغوا يتدبر برأيه ، ويقتدى بمشورته ، ويستصحبه فى حروبه ، فيقال : إن بيغو جمع عساكره ، وأرادوا المسير إلى بلاد الإسلام ، فنهاه يقاقُ عن ذلك ، وطال الخطاب بينهما ، فأغلظ له ملك الأتراك فى الكلام ، فلطمه يقاق فشجَّ رأسه فثاربه خدم بيغو ، وأرادوا قتلَه ، فمانع عن نفسه ، واجتمع من أصحابِه من مانَع عنه ، ثم صلح الأمر بينهما ، فكان يقاق عند بيغو إلى أن مات . وخلف ولده سُلْجُق .

---

(١) فى الكامل جـ ٩ ص ١٦٢ ، وفى السلوك ص ٣٠ جـ ١ : تقاق .

(٢) فى ت : بيغو ، وكذلك فى تاريخ أبى الفدا ص ١٦٣ جـ ٢ . وفى تاريخ اليمينى ص ٥٠٣ : بيغو .

ذكر أخبار سلجق بن يقاق

« وسلجق » بتفخيم الجيم ؛ لتكون بين السين والجيم ، ورأيت جماعة من المؤرخين أثبتوا فى اسمه واوًا ، فقالوا : « سلجوق » . قال ابن الأثير : وإثبات الواو فى اسمه غلط ، والصواب سلجق . قال : ولما توفى والدُه يقاق ، ظهر على سُلجق مخايل النجابة ، وأمارات التقدم ، فقرَّبه ملكُ الترك ، وفوَّض إليه تدبير العساكر ، ولقَّبه سباشى[1] ، ومعناه : [قائد][2] الجيش ، فكانت امرأةُ الملك تحذِّره منه ، وتخوِّفه عاقبة أمره ، لما رأت من انقياد أصحابه إليه ، وطاعة الناس له ، وأغْرتَه بقتله ، فبلغَ سُلجق الخبر ، فسار بجماعته ومن يطيعه ، والتحق بملك الخانيةَ : شهاب الدولة هارون بن [إيلك خان][3] ، ملك ما وراء النهر ، فأمدَّه شهاب الدولة بجيش كثيف ، ليغزو بلاد كفَار الترك ، فاستشهد فى بعض حروب الكفار ، وقيل : بل توفى بجنْد ودفن بها ، قال ابن الأثير فى تاريخه الكامل : إنه لما فارق بيغو أقام بنواحى جنْد ، وأدام غَزْو كفار الترك ، وكان ملكُ الترك يأْخذ الخراج من المسلمين فى تلك الديار ، فطرد سلْجُق عمّاله عنها ، ثم استنجد به بعض ملوك السامانية على هارون بن [إيلك خان] الخان ؛ لأنه كان

---

(١) هكذا فى ت . وفى الأصل . شياشى ، ومعناها (صاحب الجيش) . مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٢٠ ، وقد وردت فى البيهقى (سباشى) فى مواضع متعددة .

(٢) فى الأصل : مؤيد . وما أثبتناه هو المناسب لما سبق .

(٣) فى الأصل إيليك الخان . وما أثبتناه موافق للبيهقى ص ٥٤٩ ، ولأبى الفدا ص ١٦٣ ج ٢ .

قد استولى على بعض بلاده ، فأرسل إليه سلجق ابنه أرسلان ، فى جمع من أصحابه ، فقوى بهم السامانى على هارون ، واستعاد ما كان أخذه من بلاده ، وعاد أرسلان إلى أبيه .

قال : ولما توفى سلجق كان له من العمر مائة وسبع سنين ،وخلف من الأولاد : أرسلان ، وميكائيل ، وموسى ، فغزا ميكائيل بعض بلاد كفار الترك ، وباشر القتال بنفسه ، فاستشهد فى سبيل الله ، وقيل بل مات فى حبس السلطان محمود بن سبكتكين ؛ لأنه طلبه أن يكون فى جملة أصحابه ، فامتنع من ذلك ،فقبض عليه ، واعتقله ، فمات فى اعتقاله ، والله تعالى أعلم .

وخلف ميكائيل من الأولاد طُغْرُلْبك محمد ، وجغرى بك داوود ، وبيغو ، فأطاعهم عشائرهم ، وانقادوا لأمرهم ، فنزلوا بالقرب من بخارى ، على عشرين فرسخاً منها ، فخافهم أميرها ، فأساء جوارهم ، وقصد الإيقاع بهم ، فانتموا إلى بغراخان ملك تركستان ، واجتمعوا به ، وأقاموا عنده ، واستقر الأمر بين طُغْرُلْبك وأخيه جغرى بك داوود ، أنهما لا يجتمعان عند بغراخان ، وإنما يحضر أحدهما ، ويقيم الآخر فى أهله ؛ خوفا منه أن يقبض عليهما معا ، فاجتهد بغراخان فى اجتماعهما ، فلم يتهيأ له ، فقبض على طغرلبك ، فسار داود فى عشائره ومن معه ، وقصد بغراخان وقاتله وهزمه ، وخلّص أخاه وانصرفوا إلى « جنْد » ، وهى بقرب بخارى .

وأما أرسلان بن سلجق أخو ميكائيل فإن إيلك خان لما ملك مملكة السامانية ، بما وراء النهر ، ومنها بخارى ، أعظم محل أرسلان ، وكان

على تكين فى جيش أرسلان خان أخو إيلك خان ، فهرب ولحق ببخارى ، واستولى عليها ، واتفق مع أرسلان بن سلجق ، وقوي أمرهما ، فقصدهما[١] إيلك خان أخو أرسلان خان ، وقاتلهما ، فهزماه ، وبقيا ببخارى ، وكان على تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، فيما يجاوره من البلاد ، ويقطع الطريق على رسله إلى ملوك الترك ، فلما عبر محمود نهر جيحون هرب على تكين من بخارى ، ودخل أرسلان بن سلجُق وجماعته إلى المفازة[٢] ، فكاتبه محمود واستماله ورغَّبه ، فأتاه ، فقبض عليه لوقته ، وسجنه ونهب خركاهاته ، واستشار فيما يفعل بقومه وعشيرته ، فأشار أرسلان الجاذب[٣] بقطع أباهيمهم حتى لا يرموا النشّاب ، أو يغرقوا فى نهر جيحون ، فقال له : ما أنت إلا قاسى القلب ، ثم أمر بهم ، فعبروا نهر جيحون ، وفرقهم فى نواحى خراسان ، ووضع عليهم الحُرج ، فجار العمال عليهم ، وامتدت الأيدى إلى أموالهم وأولادهم ، فانفصل منهم ألفا رجل ، وساروا إلى كرمان ، ومنها إلى أصفهان ، وجرى بينهم وبين صاحبها علاء الدولة بن[٤] كاكويه حرب ، فساروا من أصفهان إلى أذربيجان .

هؤلاء جماعة أرسلان ، وأما أولاد أخوته[٥] : فإن تكين صاحب

---

(١) فى الأصل : فقصد ، والصحيح ما أثبتناه نقلا عن : ت .

(٢) هكذا فى ت . وفى الأصل : المقار .

(٣) فى الأصل : الجادب ، وما أثبتناه موافق للبيهقى ص ٦٨ ، والعينى . ص ٧٦ ج ٢ .

(٤) الزيادة من تاريخ أبى الفدا ج ٢ ص ١٥٤ ، وقد ورد فى البيهقى فى مواضع متعددة : علاء الدولة بن كاكو .

(٥) فى ت : أخوية .

بخارى أعمل الحيلة فى الظفر بهم ؛ فراسل يوسف بن موسى بن سلجق وهو ابن عم طغرلبك، واستماله ، وطلب منه الحضور عنده ، فأتاه ، ففوّض إليه على تكين التقدم على جميع الأتراك الذين فى ولايته ، وأقطعه إقطاعا كبيرا ، ولقبه بالأمير اينانج بيغو [1] وقصد بذلك أن يُعينه على أولاد عمه وأن يأخذَ بعضهم ببعض ، فعلم يوسُف مراده ، فلم يطعه فى ذلك ، فلما رأى أن مكيدته لم تؤثّر ، ولا يبلغ بها غرضاً ، أمر بقتله ، فقتله ألب قرا ، أحد أمراء على تكين ، فعظم ذلك على طغرلبك ، وداوود وعشائره ، فلبسوا ثياب الحداد ، وجمعا من الأتراك ما قدرا على جمعه ؛ لطلب ثأر ابن عمّهم ، وجمع على تكين جيوشه ، والتقوا ، واقتتلوا ، فانهزم عسكر على تكين . [2] ، وذلك فى سنة عشرين وأربعمائة ، ثم قصدا ألب قرا قاتل يوسف بن عمّهما ، فقتلاه فى سنة إحدى وعشرين ، وأوقعا بطائفة من عسكر على تكين ، فقتلا منهم نحو ألف رجل ، فجمع على تكين عساكره ، ومن حمل السلاح من أصحابه ، وتبعهم خلق كثير من أهل البلاد ، وقصدوا السلجقية من كل جانب ، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة ، وسبوا كثيرا من نسائهم ، فألجأتهم الضرورة إلى العبور إلى خراسان ، فلما عبروا جيحون ، كتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتاش [3] ، يستدعيهم إليه ؛ ليكونوا يداً واحدة ، فساروا إليه ، واجتمعوا بظاهر خوارزم ، فى سنة ست وعشرين وأربعمائة ، واطمأنوا

(١) هكذا فى ت . وهو موافق للكامل . وفى الأصل : اينانج بيغو فى . وقد مر تصويبه .

(٢) الزيادة من ت .

(٣) هكذا فى ت . وفى الأصل : التونتاش

إليه فغدر بهم ، وأكثر فيهم القتل والنهب ، فساروا إلى مفاذة نسا ،[١] وقصدوا مروَ فى هذه السنة ، وذراريهم[٢] ، ونساؤهم فى الأسر .

ذكر ماتفق بين طغرلبك وداود وبين السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين

قال : ولما اتفق لهم مع خوارزم شاه هارون ماذكرناه ، راسلوا الملك مسعود – وهو بطبرستان – يطلبون منه الأمان ، وأن يكونوا فى خدمته ، ويدفعوا الطائفة التى تفسد فى بلاده ، ويكونوا من أعظم أعوانه ، فقبض على الرسل ، وجهز عسكرًا جرارًا مع حاجبه بكتغدى ، وغيره من الأمراء ، فالتقوا عند نسا فى شعبان سنة ست وعشرين وأربعمائة ، فانهزم السلجقية ، وغنم العسكرُ المسعودى أموالهم وأثقالهم ، فجرى بين العسكر منازعة على الغنائم أدت إلى القتال بينهم ، فقال داود لأصحابه : إن العسكر الآن قد اطمأنّ ، واستقر والرأى أن نقصدهم ، لعلنا نبلغ منهم غرضاً ، فعاد ووافق وصولهم إليهم ، وهم فيما وقع بينهم من الاختلاف ، وقتال بعضهم بعضاً ، فأوقعوا لهم ، وقتلوا منهم ، وأسروا ، فاستردّوا ماأخذوه ، وعاد المنهزمون من المعسكر المسعودى إلى نيسابور ، فندم مسعود على ردّه السلجقية ، عند بذلهم الطاعة ، وعلم أن هيبتهم قد تمكنت فى قلوب عساكره ، فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم ، فقال طغرلبك لإمام

(١) فى الأصل : بسا ، وما أثبتناه موافق للكامل . وانظر أحسن التقاسيم ص ٣٢٠ وما بعدها ، وانظر الصفحة التالية من هذا الجزء .

(٢) فى الكامل : وبقى ذراريهم .

صلواته : أكتب إليه : « قُلْ اللَّهمَّ مالكِ المُلك ... - إلى - قدير »[١] ، ولاتَزِدْ على ذلك ، ففعل ، فلما ورد الجواب على مسعود ، كتب إليهم يعِدهم المواعيد الجميلة وسيّر إليهم الخلع ، وأمرهم بالرحيل إلى آمُل الشط ، وهى مدينة على نهر جيحون ، وأقطع دهشان لداود ، ونَسا لطغرلبك ، وفراوَه [٢] لبيغو ، ولقب كلَّ واحد منهم [٣] بالدَّهْقَان ؛ فاستخفُّوا بالرسول والخلع ؛ ثم قالوا له : لو علمنا أن السلطان يبقى علينا إذا قدر لأطعناه ؛ وكلنا نعلم أنه متى قدر علينا أهلكنا ؛ فنحن لانطيعه ، ثم أرسلوا إليه يخادعونه بإظهار الطاعة له ، وسألوه إطلاق عمهم أرسلان بن سلجق ؛ فأجابهم إلى ذلك ؛ وأحضره عنده ببلخ ، وأفرج عنه وأمره بمراسلة بنى أخيه يأمرهم بالكفّ عن الشر ؛ والدخول فى الطاعة ، ففعل أرسلان ، وأرسل إليهم مع الرسول أشفا ، فلما جاء الرسول إليهم ؛ وأدى الرسالة ؛ وسلّم إليهم الإشفى نفروا واستوحشوا ؛ وعادوا إلى ماكانوا عليه من الشر ؛ فأعاد الملك مسعود عمهم أرسلان إلى الحبس ؛ وسار إلى غزنة وقصد السلجقية بلخ ، ونيسابور ، وطوس ، وجوزجان ، وأقام داود بمدينة مرو ، وانهزمت العساكر المسعودية من السلجقية مرة بعد أخرى ؛ واستولى الرعب عليهم ، هذا والملك مسعود يغزو الهند ، والكتب تصل إليه بأخبار السلجقية وهو لايجيب عنها ؛ ولايلوى على مافيها لاشتغاله بما هوأهم عنده من ذلك ، وهو غزو الهند ، وفتح قلاعهم ، على ماقدمناه فى أخبار الدولة الغزنويه .

(١) سورة آل عمران . آية (٢٥) .

(٢) فى الأصل : قراده ، وما أثبتناه نقلا عن البيهقى ص ٤٦٩ .

(٣) فى الأصل : منهما .

ذكر ابتداء الدولة السلجوقية واقامة الخطبة لطغرلبك وداود

كان سبب ذلك أن وزراء السلطان مسعود، وأهل دولته، لما كرروا عليه القول وواصلوا[1] الرسل إليه، يعرفونه ماآل إليه أمر السلجقية، ويحذرونه عاقبة توانيه فيهم، جهز جيشا كثيفا مع حاجبه سباشى، ومرداويج بن بسو[2]، فأقام سباشى بهراه ونيسابور، ثم أغار على مرو وبها داود، فانهزم داود بين يديه، وتبعه العسكر المسعودى، فعطف داود عليه، وحمل على صاحب جوزجان[3]، فقتله، فانهزم عسكر مسعود، وعاد دواد إلى مرو، فأحسن إلى أهلها، وخطب لنفسه فيها فى أول جمعة من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وهى أول خطبة أقيمت لهم، ولقب فى الخطبة بملك الملوك، وقويت نفوس السُلْجُقية وزاد طمعهم فى البلاد، ثم التقى العسكر المسعودى بعد ذلك، والسلجقية، وباشر سباشى الحرب بنفسه، واقتتلوا على باب سرْخس. فى شعبان سنة ثمان وعشرين، فانهزم سباشى أقبح هزيمة، وتبعه داود إلى طوس يأخذ أصحاب سباشى باليد، وكفوا عن القتل، وغنموا أموالهم، فكانت هذه الواقعة هى التى أوجبتْ ملْك السلجقية خراسان، ودخلو قصبات البلاد، فدخل طغرلبك نيسابور، وسكن الشادياخ[4]، وخطب له فيها فى شعبان، ولقّب بالسلطان المظفر وبثوا النواب فى النواحى،

---

(١) ت: وواصلوا، وفى الأصل: وأوصلوا.

(٢) هكذا فى ت. وفى الأصل: بشر.

(٣) فى الأصل: خوزستان.

(٤) إحدى مدن نيسابور. مراصد ج٢ - ٧٧٢.

وسار داود إلى هراة ، وتوجه سباشى إلى غزنة ، فاضطر مسعود إلى المسير إلى خراسان ، وجمع من العساكر مايضيق بها الفضا ، وفرق فيهم الأموال ، وسار من غزنة ، ومعه من الفيلة عدد كثير ، فوصل إلى بلخ ، فقصده داود ، ونزل قريبا منها ، ودخلها يوماً جريدة ، على حين غفلة من العسكر ، فأخذ الفيل الكبير الذي على باب الملك[1] مسعود ، وعدة جنائب ، فعظم قدره فى نفوس الناس وازدادت ، هيبته فى قلوب العسكر ، ثم سار مسعود من بلخ فى مستهل شهر رمضان سنة تسع وعشرين ، ومعه ألف فارس سوى الأتباع ، وسار إلى جوزجان ، فأخذ واليها الذى كان للسلجقية ، فصلبه ، وسار منها ، فوصل إلى مرو الشاهجان ، وسار داود إلى سَرخَس ، واجتمع بأخويه طغرلبك وبيغو ، فراسلهم مسعود فى الصلح ، فتوجه إليه بيغو بالجواب ، فأكرمه مسعود وخلع عليه ، وكان مضمون رسالته : « إنا لا نثق بمصالحتك بعد مافعلناه من هذه الأفعال ، التى كل فعل منها موبق مهلك » ، وآيسوه من الصلح ، فسار مسعود من مرو إلى هراة ، وقصد داود مرو ، فامتنع أهلها من تسليمها . فحاصرهم سبعة أشهر ، وملكها ، فسقط فى يد مسعود ، وسار من هراة إلى نيسابور ثم إلى سرخس ، وكلما اتبع السلجقية إلى مكان ساروا منه إلى غيره ، ولم يزل كذلك حتى أدركه الشتاء ، فأقام بنيسابور ينتظر الربيع ، فلما جاء الربيع اشتغل مسعود بلهوه وشربه ، حتى انقضى فصل الربيع ، فلما جاء الصيف عاتبه أصحابه على إهماله أمر السجلقية ، وعدم مناجزتهم الحرب ، فسار من نيسابور فى طلبهم ، فدخلت السلجقيه البرية ،

(١) فى ث : على باب دار الملك مسعود .

وتبعهم مرحلتين ، وقد ضجر عسكره من التعب والكلال ، فنزل الملك مسعود منزلاً قليل الماء ، فاقتتل عسكره على الماء ، ونهب بعضُهم بعضاً ؛ فعلم داود بما هم فيه ، فرجع عليهم ، فولّوا منهزمين لايرجع بعضهم على بعض ، وثبت مسعود ، ثم انهزم فى نحو مائة فارس ، حتى أتى غَرْشِسْتان(١) وغنم السلجقية من المعسكر المسعودى مالا يدخل تحت الإحصاء ، فقسم داود ذلك على أصحابه ، وآثرهم على نفسه ، ونزل فى سرادق مسعود ، وجلس على كرسيه ، ثم أطلق الأسرى ، ووضع خراج سنة كاملة .

ذكر ملك داود وطغرلبك وبيغو نيسابور وبلخ وهراة

قال : وسار طغرلبك إلى نيسابور ، فملكها فى أواخر سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ، فقيل إنه أكل لوزينجا ؛ فقال : هذا ططماج (٢) طيب ، إلا أنه لاثوم فيه ؛ ورأى أصحابه الكافور ، فأكلوا منه ؛ وقالوا : هذا ملح مُرّ ؛ واستولى السلجقية حينئذ على جميع البلاد ، فسار بيغو إلى هراة ، فدخلها ، وسار داود إلى بلخ ؛ وبها [ألتونتاش](٣) الحاجب والياً عليها لمسعود ، فراسله داود فى تسليم البلد إليه ، وعرفه عجز صاحبه عن نصرته ، فحبس ألتونتاش رسله ؛ فنازله داود ، وحصر المدينة ، فأرسل ألتونتاش إلى مسعود وهو بغزنه يعرفه الحال ؛

(١) فى الأصل : غر شهشان وقد مر التعريف بها .

(٢) فى الأصل : نظماج وصوابه : ططماج وهو : خبز فطير وإصلاحه بالثوم ويؤكل معه النعناع . مطالع البدور فى منازل السرور للغزولى ص ٥٥ ج ٢ .

(٣) فى الأصل : التونتاق . وما أثبتناه وفقا لما أورده البيهقى وعدة مواضع .

وماهو فيه من ضيق الحصار ، فجهز مسعود العساكر الكثيرة ، فجاءت طائفة منهم إلى الرُّخَّج ، وبها جمع من السلجقية ، فقاتلوهم ، فانهزمت السلجقية ، وقتل منهم ثمانمائة رجل وأسر كثير ، وخلا ذلك الصقع منهم . وسارت طائفة إلى هراة وبها بيغو ، فقاتلوه ، ودفعوا عنها ، ثم جهز مسعود ولده مودودًا وسيَّره فى عسكر كبير مددًا لهذا العسكر ، فسار عن غزنه فى سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة ، فلما قاربوا بلخ سيَّر داود طائفة من عسكره ، فأوقعوا بطلائع مودود ، فانهزمت الطلائع ، وتبعهم عسكر داود ، فلما أحس بهم عسكر مودود رجعوا إلى ورائهم ، فلما اتصل هذا الخبر بألتونتاش صاحب بلخ أطاع داود وسلم إليه البلد ، ووطىء بساطه ، ثم اتفق قتل السلطان مسعود فى سنة اثنتين وثلاثين ، وملك بعده أخوه محمد ، ثم قتل مودود بن مسعود ، فتمكن السلجقية .

ذكر ملك طغرلبك جرجان وطبرستان

وفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ملك طغرلبك جرجان وطبرستان ، وسبب ذلك أن أنوشروان بن (١) منوجهر بن قابوس بن وشمكير صاحبها قبض على أبى كاليجار بن ويْهان القُوهى صاحب جيشه ، وزوج أمه . فعلم طغرلبك عند ذلك أنه لامانع له ، ولادافع من البلاد ، فسار إليها ، وقصد جرجان ، ومعه مرداويج بن بسَّو ، فلما نازلها فتح له مستحفظها أبوابها ، فدخلها ، وقرر على أصحابها مائة ألف دينار

(١) الزيادة من الكامل ج ٩ ص ١٧١ ، حوادث سنة ٤٣٣ هـ ، وبها يستقيم المعنى .

صلحا ، وسلم البلد لمرداويج ، وقرر عليه فى كل سنة خمسين ألف دينار ، عن جميع الأعمال ، وعاد إلى نيسابور ، وقصد مرداويج بن بسو أنوشروان « بسارية » ، فاصطلحا على أن ضمن له أنو شروان ثلاثين ألف دينار ، وأقيمت الخطبة لطُغْرُلْبك فى سائر البلاد ، وتزوج مرداويج بوالدة أنوشران ، وتمكن ، وبقى أنو شروان يتصرف بأمر مرداويج ، لايخالفه فى شىء ألبته ، وملك خوارزم فى سنة أربع وثلاثين من شاه ملك ابن على ، وكان فى طاعة مودود صاحب غزنة .

ذكر مسير ابراهيم ينال (١) الى الرى وهمذان

وإبراهيم ينال هو أخو طغرلبك لأمه . قال : ولما ملك إخوته خراسان سار هو إلى الرى ، فملكها فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، ثم سار عنها إلى البلاد المجاورة لها ، ثم انتقل [بروجرد] ، (٢) فملكها ، ثم قصد همذان . وكان بها أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدولة ، ففارقها إلى سابور خواست ، ونزل إبراهيم عليها ، وأراد دخولها ، فقال له أهلها : إن كنت تريد منا الطاعة ، ومايطلبه السلطان من الرعية ، فنحن باذلوه ، وداخلون تحته ، فاطلب أولاً هذا المخالف عليك الذى كان عندنا ، يعنون كرُشاسف ، فإنا لا نأمن عوده إلينا ؛ فإذا ظفرت به كُنّا لك ، فكف عنهم ، وسار إلى كرشاسف بعد أن أخذ من أهل البلد مالاً ، فلما قارب (٣) سابور ، خواست

(١) فى ت : نيال .

(٢) فى الأصل : يزد جرد ، وما أثبتناه من الكامل ج ٩ ص ١٧٥ حوادث سنة ٤٣٤ هـ .

(٣) الزيادة من ت ، وهو موافق لما فى الكامل بالصفحة السابقة .

تحصّن منه كرشاسف بالقلعة ، وملك إبراهيم البلد قهرا ونهبه ، ثم عاد إلى الري ، وذلك فى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة .

ذكر خروج طغرلبك الى الرى وملكه بلد الجبل

قال : ولما فرغ طُغْرُلْبك من خوارزم ، وجرجان ، وطبرستان خرج من خراسان إلى الرى ، وغيرهما من بلاد الجبل ، وسار أخوه إبراهيم يُنال إلى سجستان ، وأخذ طغرلبك قلعة طبرك من مجد الدولة بن بويه ، وأقام عنده مكرّماً ، وأمر طغرلبك بعمارة الرىّ ، وكانت قد خربت ، فوجد فى دار الإمارة مراكب ذهب مجوهرة ، وبرنيتين من الصينى [مملوءتين][1] ، وأمولا كثيرة . وسار إلى قزوين ، وحصرها ، فوقع الصلح على ثمانين ألف دينار ، ودخل صاحبها فى طاعته ، وأطاعه ملك الديلم ، وحمل إليه مالا وعروضا ، وأطاعه غيره من الملوك ، وأرسل سرية إلى أصفهان ، وبها أبو منصور [فرامرز[2]] الدولة ، فأغارت وعادت سالمة ، وخرج طغرلبك من الرى ، وقصد أصفهان ، فصالحه صاحبها ، وصانعه بمال ، وسار إلى همذان ، فملكها من صاحبها كرشاسف بن علاء الدولة ، وسار معه إلى أبهر وزنجان ، وطلب منه طغرلبك تسليم قلعة كنكور ، فأرسل إلى من بها ليسلموها ، فامتنعوا ، فقال له طغرلبك : ماامتنعوا إلا بأمرك ورأيك ، فاصعد إليهم ، وأقم

(١) فى الأصل : مملوءة .

(٢) فى الأصل : فرارمور ، وما أثبتناه نقلا عن أبى الفدا ج ٢ ص ١٦٥ ، والكامل ج ٩ ص ١٧٦ حوادث سنة ٤٣٤ هـ .

معهم ، ولاتفارق موضعك حتى آذن لك» ، واستناب بهمذان ناصر العلوى .

وفى سنة خمس وثلاثين وصل إلى طغرلبك رسول الخليفة القائم بأمر الله ، وهو أقضى القضاه أبو الحسن على الماوردى ، فتلقاه طغرلبك على أربعة فراسخ ، إجلالاً لرسالة الخليفة ، وذكر طاعته للخليفة ، ووقوفه عند أوامره .

وفى سنة ست وثلاثين وأربعمائة استوزر السلطان طغرلبك أبا القاسم على بن عبد الله الجوينى ، وهو أول وزير وزر له .

وفى سنة سبع وثلاثين أمر السلطان طغرلبك أخاه إبراهيم ينال بالخروج إلى بلاد الجبل ، فسار من همذان ، (١) وقصد كرمان ، وبها كرشاسف بن علاء الدولة ، ففارقها خوفا ، ودخلها إبراهيم ، وملكها ، وسار إلى الدينور ، فملكها ، وملك [قرميسين] (٢) فى شهر رجب بعد حصار وقتال ، وملك الصيمرة فى شهر شعبان ونهبها ، وأوقع بالأكراد المجاورين لهما ، ثم سار إلى حلوان ، فنهبها ، وأحرقها .

ذكر ملك ينال قلعة كنكور وغيرها

وفى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة سار إبراهيم إلى قلعة كِنْكِور ، وبها عُكبر بن فارس ، صاحب كرشاسف ، فامتنع عكبر بها إلى أن فقدت ذخائره وفنيت الأقوات ، فعند ذلك أعمل الحيلة ، وعمد

(١) فى ت : فسار من كرمان وقصد همذان ، وكذلك فى الكامل ج ٩ ص ١٨٢ ، حوادث سنة ٤٣٧ هـ .

(٢) ت ، فى الأصل : قزمسين ، وهو خطأ .

إلى بيوت الطَّعام التى بالقلعة فملأها تراباً وحجارة ، وسدّ أبوابها ، ونشر من داخل الأبواب شيئاً من الطعام ، وعلى رأس التراب والحجارة مثل ذلك ، وراسل إبراهيم فى تسليم القلعة إليه ،على أن يؤمنه على من بها من الرجال ، وما بها من الأموال ، فامتنع إبراهيم من ترك المال ؛ فأخذ عكبر رسول إبراهيم ، وطوّفه على بيوت الطعام ، فرآها مملوءة وظنها[1] طعاما ، وقال له : قل لصاحبك إننى لم أرسل إليه خوفا من المطاولة ، ولا إشفاقاً من نفاد الميرة ؛ ولكنى أحببت الدخول فى طاعته ، فإن بذل لى الأمان على ماطلبته لى ، وللأمير كرشاسف وأمواله ؛ ولمن بالقلعة ، سلّمتها إليه ، وكفيتُه مؤنة المقام ، فلما عاد الرسول إلى إبراهيم ، وأخبره بما رأى وسمع ، أجابه إلى ماطلب ، ونزل عكبر ، فلما تسلّم إبراهيم القلعة تبينت له مكيدته ، وعاد إلى همذان ؛ وسيّر جيشا عليهم [نسيب][2] له اسمه أحمد ، وسلم إليه سرجاب[3] ابن أبى السؤل ؛ ليفتح به قلاعه ، وكان الأكراد الملاذية قد قبضوا عليه ، وسلّموه لإبراهيم ينال ، قبل ذلك ، فسار به أحمد إلى قلعة كلكان ، فامتنعت عليه ، فسار إلى قلعة[4] دردبلوه ، فحصرها ، وامتدت طائفة ممن معه إلى تلك الأعمال ؛ فنهبوها ، ووصلوا إلى الدسكرة[5] ، وباجسرى ، والهارونية ، وقصر سابور ، وجميع

(١) الزيادة : من ت .
(٢) فى الأصل : نسيبا .
(٣) سرخاب : الكامل ص ١٨٥ ج٩ حوادث ٤٣٩ هـ .
(٤) فى ت : دردبلوه . وفى الكامل بالصفحة السابقة : دذدبلويه .
(٥) الدسكرة: اسم لمواضع كثيرة، والمقصود هنا قرية فى طريق خراسان قريبة من شهرابان. وهى دسكرة الملك منسوبة إلى هرفر بن سابور بن أردشير . معجم البلدان لياقوت ص ٦٠ ج ٤ =

تلك الأعمال ، ونهبوها ، فوصل الخبر إلى بغداد ، فارتاع أهلها ، ثم سار إبراهيم ينال إلى السيروان ، فحصر القلعة ، وضيّق على من بها ، وأرسل سرّية نهبت البلاد ، وانتهت إلى عشرة فراسخ من تكريت ، ثم تسلم السيروان من مستحفظها بعد أن أمنه ، واستخلف عليها رجلا من أصحابه ، وانصرف إلى حلوان ، وعاد إلى همذان .

ذكر غزو ابراهيم ينال الروم

وفي سنة أربعين وأربعمائة غزا إبراهيم الروم ، فظفر وغنم وأسر وسبى ، وكان سبب : ذلك أن خلقاً كثيرا من الغز مما وراء النهر ، قدموا عليه ، فقال لهم : إن بلادى تضيق عن مقامكم ، والقيام بما تحتاجون إليه ، والرأى أن تمضوا إلى غزو الروم ، وتجاهدوا فى سبيل الله تعالى ، وتغنموا وأنا سائر فى أثركم ، فساروا بين يديه وتبعهم ، فوصلوا إلى ملازكرد ، وأرزن الروم ، وقاليقلا ، وبلغوا طرابزون (١) ، وتلك النواحى كلها ، ولقيهم عسكر عظيم

= وليس بين أيدينا « باحرى » ؛ وما أثبتناه موافق الكامل بالصفحة نفسها ، وباجسرى ، قال عنها ياقوت : إنها فى شرق بغداد . أما الهارونية : فهى من قرى بغداد قرب شهرابان فى طريق خراسان . وانظر أحسن التقاسيم ص ١١٥ ، والسيروان : « كورة بالجبل ، وهى كورة ما سبذان ، وقيل : بل هى كورة بنفسها ملاصقة لما سبذان » معجم البلدان ٥ : ١٩٦ .

(١) فى ت : أطرابزون ، وفى الكامل ج٩ ص١٨٨ : طرابزون . والذى ذكره ياقوت : أطرابذندة ، وقال إنها : إحدى مدن الروم على ضفة بحر القسطنطينية الشرقى . بلدان ج ١ ص ٢٨٣ .

للروم [والأنجاز] (١) ، يبلغون خمسين ألفا ، فاقتتلوا وكانت بينهم عدة وقائع ، تارة لهؤلاء ، وتارة لهؤلاء ، ثم كان الظفر للمسلمين . فأكثروا القتل في الروم ، وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم . وممن أسر قاريط (٢) ملك الأنجاز ، فبذل في نفسه ثلثمائة ألف دينار ، وهدايا بمائة ألف دينار ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولم يزل يجوس خلال تلك الديار وينهبها ، إلى أن بقى بينه وبين القسطنطنية خمسة عشر يوما ، واستولى المسلمون على تلك النواحى ، وغنموا ما فيها ، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس ، وأخذوا من الدواب والبغال ، والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء ، قيل : إن الغنائم حملت على عشرة آلاف عجلة ، وإنه كان فى جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع . والله أعلم .

ذكر الوحشة بين طغرلبك وأخيه ابراهيم ينال والاتفاق بينهما

وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة استوحش إبراهيم من أخيه السلطان طغرلبك ؛ وكان سبب ذلك أن : طغرلبك طلب من أخيه إبراهيم أن يسلم إليه مدينة همدان ، والقلاع التى بيده فى بلد الجبل ، فامتنع من ذلك ، واتهم وزيره أبا يعلى (٤) فى السعى بينهما .

---

(١) فى الأصل : الإنجاز ، وفى الكامل : ص ١٨٨ ج ٩ : الأنجاز ، وما أثبتناه منه ، وهو موافق لياقوت ج١ ص٧٢ : بلدان .

(٢) فى ت : قايط ، وما فى الأصل موافق للكامل فى الصفحة نفسها .

(٣) ت ، وفى الأصل : ولا تفارق بينهما .

(٤) فى الكامل : أبا على ص١٩٢ ج ٩ ؛ حوادث سنة ٤٤١ هـ .

فقبض عليه وضربه ، وسمل إحدى عينيه ، وقطع شفتيه ، وجمع جمعا ، والتقى مع السلطان طغرلبك ، وكان بينهما قتال ، فانهزم إبراهيم ، وسار طغرلبك فى أثره ، وملك جميع قلاعه وبلاده ، وتحصّن إبراهيم بقلعة [سرْماج][1] ، فحصره طغرلبك بها ، فملكها فى أربعة أيام ، وكانت من أحصن القلاع ، واستذل ينال منها ، وأرسل إلى [نصر] [2] الدولة بن مروان يطلب منه إقامة الخطبة له فى بلاده ، فأطاعه ، وخطب له فى سائر ديار بكر ، وراسل ملك الروم السلطان طُغرلبك ، وأرسل إليه هدّية عظيمة ، وطلب منه المعاهدة ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل ملك الروم إلى ابن مروان يسعى فى فداء ملك الأنجار ، فأرسل نصر الدولة إلى السلطان شيخ الإسلام أبا عبد الله ابن بهران[3] فى معناه ، فأطلعه بغير فداء ، فعظم ذلك عنده ، وعند ملك الروم ، وأرسل إليه هدايا عظيمة ، فقيل : إنه أرسل إليه ألفَ ثوبٍ من الديباج ، وخمسمائة ثوب من أصناف الحرير ، وخمسمائة رأس من الكراع ، إلى غير ذلك ، وأنفذ إليه مائتى ألف دينار ، ومائة لبنة من الفضة ، وثلاثمائة مهرى ، وثلاثمائة حمار مصرية ، وألف عنز بيض الشعور ، سود العيون والقرون ، وأنفذ إلى البزمرون عشرة أمناء

---

(١) الزيادة : من الكامل بالصفحة السابقة ، وسرماج : قلعة بين همذان وخوزستان فى الجبال كانت لبدر بن حسنويه الكردى ، صاحب سابورخواست . معجم البلدان لياقوت جـ٥ ص ٧٥ .

(٢) فى الأصل : نصير . وما أثبتناه موافق للكامل بالصفحة نفسها ، وهو أحمد بن مروان ابن دوستك نصر الدولة . الكردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٦٩ . وشذرات الذهب جـ ٧ ص ٢٩٠ .

(٣) فى ت ابن برهان ، وفى الكامل بالصفحة السابقة : ابن مروان .

مسكا ، وعَمرَ مسجد القسطنطينية ، الذي بناه مسلمة بن عبد الملك ، وعمر منارته ، وجعل فيها القناديل ، وعلّق في محرابه[١] قوساً ، ونشّابه ، وأقيمت فيه الصلاة والخطبة لطُغْرلبك ، فدان له الناس حينئذ ، وعظم شأنه ، وتمكن ملكه ، فكانت الدولة السُّلجقية فى زيادة ، والبُويهية فى نقص . قال : وأما إبراهيم ينال فإنه لما نزل إلى أخيه طغرلبك أكرمه ، وأحسن إليه ، ورد عليه كثيرا مما أخذ منه ، وخيره بين أن يقطعه بلادا يسير إليها ، وبين أن يقيم معه ، فاختار الإقامة معه .

ذكر ملك طغرلبك أصفهان

كان قد حاصرها فى سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة ، فلم يظفر منها بطائل ، ثم اصطلح هو وصاحبها أبو منصور فرامرز[٢] بن علاء الدولة ، على مال يحمله إلى السلطان طغرلبك ، ويخطب له بأصفهان ، وأعمالها ، ثم حصل بعد ذلك من صاحبها تلون ، فكان يطيعه تارة ويعصيه تارة ، ويطيع الملك الرحيم بن بويه ، فجاء[٣] السلطان إليها فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، وحاصرها سنة ، وتسلمها فى سنة ثلاث وأربعين ، واستطابها ، وجعلها دار مقامه ، ونقل ما كان له بالرى من الذخائر والأموال والسلاح إليها ، وخرب

(١) ت ، وفى الأصل : حجراته .
(٢) انظر ص ٢٨٠ من هذا الجزء .
(٣) فى ت : فجاز .

قطعة من سورها ، وقال : إنما يحتاج إلى الأسوار من تضعف قدرته ، وأما من حصنه عساكره وسيفه ، فلا حاجة به إليها .

ذكر استيلاء ألب أرسلان على مدينة فسا

وفى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة سار ألب أرسلان بن داود جغرى بك من مدينة مرو بخراسان إلى بلاد فارس ، وأخذ[1] فى مسيره على المفازة من غير علم عمه طغرلبك ، فوصل إلى مدينة فسا ، فانصرف النائب بها من بين يديه ، ودخلها ألب أرسلان ، وقتل من الديلم نحو ألف رجل ، وعددا كثيراً من العامة ، ونهبوا ما مقداره ألف ألف دينار ، وأسر ثلاثة آلاف إنسان ، وعاد إلى خراسان ، ولم يلبث مع عمه طغرلبك . والله أعلم بالصواب .

ذكر استيلاء طغرلبك على أذربيجان ، وغزو الروم

وفى سنة ست وأربعين وأربعمائة سار السلطان طغرلبك إلى أذربيجان ، فقصد تبريز ، وصاحبها الأمير أبو منصور وهشوذان ابن محمد الراوى[2] ، فأطاعه ، وخطب له ، وحمل إليه ما أرضاه . وأعطاه ولده رهينة ، وكذلك فعل معه سائر ملوك تلك النواحى . بذلوا له الطاعة والخطبة ، وانقاد العساكر إليه ، فأبقى بلادهم عليهم ، وأخذ رهائنهم ، وسار إلى أرمينية ، وقصد « ملازكرد » من الروم ،

---

(١) فى ت : وأغز ، ولعلها : أغذ .

(٢) فى ت : الداودى . وفى الكامل ص ٢٠٧ ج ٩ : الروادى ، وهو موافق للأصل .

فحصرها ، ونهب ما جاورها من البلاد ، وخرّبها ، وأثر فى بلاد الروم آثاراً عظيمة ، ونال منهم من النهب والأسر والقتل شيئاً كثيرا ، ثم عاد إلى أذربيجان عند دخول الشتاء ، وعاد إلى الرى ، والله أعلم .

ذكر دخول السلطان طغرلبك الى بغداد والخطبة له بها ، وانقراض الدولة البويهية

كان دخوله إليها يوم الإثنين لخمس بقين من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وكان سببُ ذلك أن المظفَّر أبا الحارث ألب أرسلان التركى ، المعروف بالبساسيرى ، عظم أمره بالعراق ، وطار اسمه فى الآفاق ، واستولى على البلاد ، وعظمت هيبته فى قلوب العباد ، وخافه أمراء العرب ، وخطب له على منابر العراق ، ولم يبق لبنى بُويه معه إلا مجرَّد الاسم ، ووقع بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله ، من الوحشة ما قدمناه ، فى أخبار الدولة العباسية ، حتى بلغ الخليفة أنه يريد القبض عليه ، فعند ذلك كاتب الخليفة السلطان طُغرلبك ، وهو بنواحى الرىّ يستنصر به ، ويحثه على المسير إلى بغداد ، وكان طُغرلبك قد عاد إلى الرىّ ، بعد عوده من غزو الروم ، فرتب أمور الرى ، وعاد إلى همذان فى المحرَّم من السنة ، وأظهر أنه يريد الحجّ ، وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، وإزالة ملك المستنصر العُبيدى عنها ، وسار إلى حُلوان ، وانتشر أصحابه فى طريق خراسان ، فأجفل الناس إلى غربىّ بغداد ، وأخرج الأتراك خيامهم إلى ظاهرها ، وسمع الملكُ الرّحيم بقرب

السلطان طُغرلبك من بغداد ، فأصعد من واسط إليها ، وفارقه البساسيرى بمراسلة الخليفة فى معناه ، كما ذكرناه ، ووصل الملك الرحيم إلى بغداد ، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة يبالغ فى إظهار الطاعة والعبودية ، وإلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان ، فأنكروا ذلك ونفروا منه ، وراسلوا الخليفة ، وقالوا : إنا فعلنا بالبساسيرى ما فعلناه ، وهو كبيرنا ومقدمنا اتباعا لأمر أمير المؤمنين ، ووعدنا أمير المؤمنين برد هذا الخصم ، ونراه قد قرب منا ، ولم يُمنع من المجىء ، وسألوا التقدم إليه فى العود ، فغُولطوا فى الجواب ، وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه ، ويختار انقراض الدولة البويهية ، ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد ، وأرسل إلى الخليفة يظهر العبودية ، وسأل تقرير قاعدته مع طغرلبك ، وكذلك سأل من معه من الأمراء ، فأجيبوا بأن المصلحة أن تدخل الأجناد خيامهم ، من ظاهر بغداد ، وينصبوها [1] بالحريم ، ويرسلوا رسُولاً إلى طُغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة ، فأجابوا إلى ذلك ، وراسلوه ، فأجابهم إلى ما سألوه ، ووعدهم الإحسان إليهم ، وتقدم الخليفة إلى الخطباء بجوامع بغداد بالخطبة للسلطان طغرلبك ، فخطب له لثمان بقين من شهر رمضان من السنة ، وأرسل طُغرلبك يستأذن الخليفة فى دخول بغداد ، فأذن له ، وخرج وزير الخليفة ، وروساء بغداد وأعيانها ، وأمر الملك الرحيم للقائه ، واستحلفه [2] الوزير للخليفة ، وللملك الرحيم ، ودخل بغداد فى يوم الإثنين لخمس بقين من شهر رمضان ، ونزل بباب

(١) ت ، و فى الأصل : و ينصبونها .
(٢) هكذا فى ت ، و فى الأصل : و استحلفه .

الشماسية ومعه ثمانية عشر فيلا ، ودخل عسكره بغداد للامتياز ، وشراء ما يريدونه من أهلها ، وأحسنوا معاملتهم ، فلما كان الغد ، وهو يوم الثلاثاء ، جاء بعض العسكر إلى باب الأزج ، وأخذوا واحدًا من أهله ، فطلبوا منه تبنا ، وهو لا يفهم عنهم ما يريدون ، فاستغاث عليهم ، وصاح العامة لهم ، ورجموهم ، وسمع الناس الصياح ، فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرلبك ، فارتج البلد من أقطاره وأقباوا من كل جهة ، وقتل من الغز من وجد فى محال بغداد إلا أهل الكرخ ، فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز بأذية بل حموهم ، وخرج عامّة بغداد ، ومعهم جماعة من العسكر ، يقصدون العسكر السلطانى ، ولم يركب الملك الرحيم ، ودخل أعيان أصحابه إلى دار الخليفة ، وأقاموا بها نفياً للتهمة عن أنفسهم ، ظناً منهم أن ذلك ينفعهم ، وأما عسكر السلطان طغرلبك ، فإنهم لما رأوا فعل العامّة وظهورهم من البلد قاتلوهم ، فقتل من الفريقين خلق كثير ، وانهزمت العامة ، ونهب الغز بعض الدروب ، ونقل الناس أموالهم إلى باب النوبى ، وأرسل طغرلبك من الغز إلى الخليفة يعتب ، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأصحابه ، ويقول : «إن حضروا برئت ساحتهم ، وإن تأخروا عن الحضور تيقّنتُ أن الذى جرى كان بوضعهم» ، فتقدم الخليفة إلى الملك الرحيم وأصحابه يقصد السلطان ، فركبوا إليه ، وأرسل الخليفه معهم رسولا يبرئهم عند السلطان ، فلما وصلوا إلى جهة السلطان ، أمر بالقبض على الملك الرحيم ومن معه ، فقبضوا كلهم فى آخر شهر رمضان ، وحبسو . ثم حمل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان ، وأرسل الخليفة إلى السلطان ينكر

ما جرى ، من قبض الملك الرحيم وأصحابه (ونهب)[١] بغداد ، ويقول: « إنهم خرجوا إليك بأمرى ، وأمانى ، فإن أطلقتهم ، وإلا فأنا أفارق بغداد » ، فأطلق بعضهم ، وأخذ جميع إقطاعات عسكر الملك الرحيم ، وأمرهم بالسعى فى أرزاق يحصّلونها لأنفسهم ، فتوجّه كثير منهم إلى البساسيرى ، ولزموه ، فكثر جمعه ، وكان من أمره ماقدمناه وأمر طُغْرلبك بأخذ أموال الأتراك البغداديين وانتشر الغز فى سواد بغداد ، فنهبوا من الجانب الغربى من تكريت إلى النيل[٢] ، ومن الجانب الشرقى إلى النهروانات[٣] ، وأسافل الأعمال ، فأسرفوا فى النهب حتى بلغ ثمن الثور ببغداد خمسة قراريط إلى عشرة ، والحمار بقيراطين إلى خمسة ، وخرب السواد ، وأجلى أهله عنه ، وضمن السلطان طغرلبك البصرة ، والأهواز من هزار سب بن [تَنكُر][٤] بن عياض بثلثمائة ألف و ستين ألف دينار ، وأقطعه أرّجان ، وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز ، دون الأعمال التى ضمنها ، وأقطع الأمير أبا على بن أبى كاليجار الملك قرميسين وأعمالها ، وأمر أهل الكرخ أن يؤذّنوا فى مساجدهم سحراً للصبح : « الصلاة خير من النوم » ، وأمر بعمارة دار الملك ، فعمرت وزيد فيها ، وانتقل إليها فى شوال .

---

(١) ت . وفى الأصل : ونهبت

(٢) بلدة بالفرات بين بغداد والكوفة . أبو الفدا ص ١٣٥ ج ٢ ، وانظر ياقوت ج ٨ ص ٣٦٠ .

(٣) انظر ياقوت ص ٢٣ ج ٢ .

(٤) فى الأصل : ينكر ، وفى ت : منكر ، وفى الكامل ص ٢١٣ ج ٩ . بنكير ، وما أثبتناه نقلا عن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٨٦ .

ذكر مسير السلطان الى الموصل

وفى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة سار السلطان طغرلبك إلى الموصل ؛ وسبب ذلك ، أنه لما أقام ببغداد عم الناس ضرر عسكره ، وضاقت عليهم أرزاقهم ومنازلهم ، فأرسل إليه الخليفة القائم بأمر الله يذكر له ما الناس فيه من الجور والظلم ، ويعظه ، ويقول : إن أزلتَ ذلك وإلافتُعين الخليفة على الإنبراح من بغداد ، فقال السلطان لوزيره الكندرى [1] : « بكِّرْ إلى الخليفة واعتذر له بكثرة العساكر والعجز عن تمهيدهم ، وضبطهم » فلما كان تلك الليلة رأى السلطان فى منامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنه عند الكعبة وهو يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، والنبى معرض عنه ، وقال : يُحكِّمُك الله فى بلاده وعباده ، فلا تراقبُه فيهم ، ولا تستحيي من جلالة الله عز وجل ، فى سوء معاملتهم ، وتغتر بإمهاله عند الجور عليهم ، فاستيقظ فزعاً ، وأحضر عميد الملك الوزير ، وذكر له مارآه ، وأرسله إلى الخليفة يعرفه أنه مقابل مارسم به بالسمع والطاعة ، وأخرج الجند من دُور العامّة ، وأمر أن يظهر من كان مُختفياً ، وأزال التوكيل عمّن كان وكل به ، وعزم على الرحيل ، وأتاه خبر البساسيرى ، والوقعة التى كانت بينه وبين قريش بن بدران صاحب الموصل ، على ما قدمناه

(١) فى ت : الكندى ، وهو خطأ : والصواب ما فى الأصل ، والكندرى هو : عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور بن محمد ، والكندرى نسبة إلى كندر ، وهى قرية بنواحى خراسان . وفيات الأعيان ص٢٩٢ وما بعدها ج١ . بلدان ياقوت ج ٧ ص ٢٨٤ . وانظر الكامل ج ٩ ص ٢١٨ وأبا الفدا ج ٢ ص ١٨٤ .

فى أخبار القائم بأمر الله ، فتجهز ، وسار عن بغداد . فى عاشر ذى الحجة[1] من السنة ، ومعه خزائن السلاح والمجانيق ، وكان مقامه ببغداد ثلاثة عشر شهراً وأياماً ، لم يلق الخليفة فيها ، وسار إلى [البوازيج] [2] وأقام بها حتى أتاه ياقوتى بالعساكر ، فى سنة سبع وأربعين ، فسار بهم إلى الموصل ، وسير هزارسب بألف فارس اختارهم من العسكر ، فدخل البرية ، وأوقع بالعرب ، وعاد إلى السلطان ، فعندها أرسل نور الدولة دبيس بن مزيد ، وقريش بن بدران صاحب الموصل ، يسألان هزارسب أن يتوسط لهما عند السلطان طُغرلبك ، فسعى فى ذلك ، فأجابه إليه فى حقهما دون البساسيري ، فتوجَّه البساسيري عند ذلك إلى الرَّحبة [3] ، وتبعه الأتراك البغداديون ، ومقبل بن المقلد ، وجماعة من عقيل . ثم سار السلطان إلى ديار بكر ، التى هى لابن مروان ، ووصل إلى جزيرة ابن عمر ، فأرسل إليه بن مروان يذكر ما هو بصدده من حفظ ثغور المسلمين ، وما يعانيه من مجاهدة الكفار ، وبذل ما يصلح ، ثم وصل إبراهيم ينال إلى السلطان ، فلما وصل أرسل هزارسب إلى نور الدولة بن مزيد ، وقريش ، يعرِّفهما وصوله ، ويحذرهما منه ، فسار من جبل سنجار إلى الرحبة ، فلم يلتفت البساسيرى إليهما . فانحدر نور الدولة إلى بلد العراق ، وأقام قريش عند البساسيرى

---

(١) فى ت : وفى عاشر ذى القعدة .

(٢) فى الأصل : البوزيج ، وفى ت : اليواريخ ، وصحته ما ذكرناه ، وهو موافق الكامل الصفحة السابقة . والبوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة . ياقوت ١٠ ص ٥٠٣ .

بالرحبة ، وشكى قتلمش بن عم السلطان ما لقى من أهل سنجار في العام الماضى ، عند انهزامه من البساسيرى ، وأنهم قتلوا رجاله ، فسيّر العساكر إليهما ، فصعد أهل سنجار على السّور ، وسبّوا السلطان ، وأخرجوا جماجم القتلى وقلانسهم ، وجعلوها على القصب ، ففتحها السلطان عنوة ، وقتل أميرها علىّ بن (١) مرحا ، وخلقا كثيرا من رجالها ، وسبى نساءهم ، وسأل إبراهيم ينال في الباقين ، فتركهم السلطان ، وسلّمها هى والموصل إلى أخيه إبراهيم ينال . والله أعلم بالصواب .

ذكر عودة السلطان الى بغداد

قال : وكان عوْد السلطان إلى بغداد ، في سنة تسع وأربعين ، فخرج رئيس الرؤساء إلى لقائه ، وأبلغه سلام الخليفة ، واستيحاشه ، فقبّل الأرض ، وقدم رئيس الرؤساء جاماً من ذهب فيه جواهر ، وألبسه فرجية جاءت معه من عند الخليفة ، فلبسها ، ووضع العمامة على مخدّته ، فقبل السلطان الأرض ، ولم يمكن أصحابه من النزول في دور الناس ، وطلب الاجتماع مع الخليفة فأذن له فى ذلك ، وجلس الخليفةُ يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة من السنة جلوسا عاماً ، وحضر وجوهُ عسكر السلطان ، وأعيان بغداد ، وحضر السلطان والخليفة جالس على سريرٍ عالٍ من الأرض ، نحو سبعة أذرع ، وعليه بُردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب الخيرزان ، فقبل

(١) فى الكامل ص ٢٢٠ ج ٩ : عجلى بن مرجا .

السلطان الأرض ويد الخليفة ، وأجلس على كرسى ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنِس بقربك ، وقد ولّاك جميع ما ولّاه الله من بلاده ، ورد إليك مراعاة عباده ، فاتّق الله فيما ولّاك ، واعرِف نعمتَه عليك فى ذلك ، واجتهد فى نشر العدل ، وكفّ الظلم ، وإصلاح الرعية ، فقبّل الأرض ، وأمر الخليفةُ بإفاضة الخِلَع عليه ، فقام إلى موضع لَبِسها فيه ، وعاد فقبل يد الخليفة ، ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملكِ المشرق والمغرب ، وأعطى العهد ، وخرج ، فأرسل إلى الخليفة هدية كبيرة ، منها خمسون ألف دينار ، وخمسون مملوكا أتراكا ، من أجود ما يكون بخيولهم وسلاحهم ، وغير ذلك من الثياب ، وغيرها .

ذكر مفارقة ابراهيم ينال الموصل وماكان من أمره الى أن قتل

وفي سنة خمسين وأربعمائة فارق إبراهيم ينال الموصل ، وتوجه نحو بلاد الجبل ، فنَسب السلطانُ رحيله إلى [العصيان] (١) وأرسل إليه يستدعيه ، وبعث الفرجية التى خلعها عليه الخليفة ، وكتب الخليفةُ أيضا إليه كتابا ، فرجع إبراهيم إلى السلطان ، وهو ببغداد ، فخرج الوزير الكندرى(٢) لاستقباله ، وأرسل الخليفة إليه الخِلَع ، ولما فارق إبراهيم الموصل استولى عليها البساسيرى ، كما قدمناه ،

(١) بياض بالأصل ، و ت . وما أثبتناه نقلا عن الكامل ج ٩ ص ٢٢٢ .
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : الكندى ، وانظر حاشية ص ٢٩٢ من هذا الكتاب .

فسير السلطان إليها جريدة في ألفي فارس ؛ وكان قد فرق عساكره بسبب النوروز ، ففارقها البساسيرى ومن معه ؛ فسار السلطان إلى نصيبين ، ليتبع آثارهم ، ويخرجهم من البلاد ، ففارقه أخوه إبراهيم ينال ، وسار نحو همذان ، فوصل إليها ، لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة ، وقد قيل : إن المستنصر كاتبه ؛ وكاتب البساسيرى ؛ وأطمعه في السلطنة والبلاد ، ففعل ذلك ؛ وسار السلطان في أثره ؛ وهو في قلة من العسكر ، وكان إبراهيم قد اجتمع له كثير من الأتراك ، وحلف لهم أنه لايصالح أخاه طُغرلبك ؛ ولايكلفهم المسير إلى العراق ، فلم يقو السلطان (١) له ، وأتى إلى إبراهيم محمد ، وأحمد ابنا أخيه [أرتاش] (٢) في خلق كثير ؛ فازداد بهم قوة ، وازداد طغرلبك ضعفاً ، فانزاح بين يديه إلى الرى ؛ وكاتب ألب أرسلان ، وياقوتي [وقاورد] (٣) بك أولاد أخيه ، وكان داود قد مات على مانذكره ، وملك بعده ابنه أرسلان خراسان ، واستدعاهم ؛ فقدموا إلى عمّهم طغرلبك بالعساكر الكثيرة ، فلقى إبراهيم بالقرب من الرى ، فانهزم إبراهيم ، ومن معه ، وأخذ أسيرًا هو ، ومحمد ، وأحمد ابنا أخيه ، فأمر السلطان به ، فخنق بوترقوسه في تاسع جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين ، وقتل ولدى أخيه ، وفي أثناء هذه السنة عند اشتغال السلطان طغرلبك بحرب أخيه إبراهيم ؛ استولى

(١) في الكامل ص ٢٢٥ ج ٩ : فلم يقو به طغرلبك .

(٢) في الأصل : أرتاش. وما أثبتناه موافق للكامل في الصفحة نفسها ، وسيجيء كذلك.

(٣) في الأصل : قاروت ، وفي الكامل ص ٢٦ ج ١٠ : قاروت ، وما أثبتناه موافق للنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٣ ، ٩٣ حوادث سنة ٤٦٥ .

البساسيرى على بغداد . وأخرج الخليفة منها ، وكان ماقدمناه فى أخبار القائم بالله ، وكان إبراهيم ينال قد خرج على أخيه مرارًا ، وهو يقدِرُ عليه ، ويعفو عنه ، وإنما قتله فى هذه الواقعة لأنه علم أن الذى جرى على الخليفة كان بسببه ، ولما فرغ طغرلبك من أمر أخيه ، عاد إلى العراق ، وأعاد الخليفة إلى بغداد ، وكان ماقدمناه من مقتل البساسيرى .

ذكر وفاة جغرى [1] بك داود صاحب خراسان ، وملك ابنه ألب أرسلان

كانت وفاته فى شهر رجب سنة إحدى وخمسين ، وقيل فى صفر سنة اثنين وخمسين وأربعمائة ، وعمره نحو سبعين سنة ، كان له خراسان ، وكان حسن السيرة معترفاً بنعمة الله عليه ، شاكرًا عليها ؛ فمن ذلك أنه أرسل إلى طغرلبك مع عبد الصمد قاضى سرخس ، يقول : قد بلغنى إخرابُك للبلاد التى فتحتها وملكتها ، وجلاء أهلها عنها ، وهذا مالاخفاء به فى مخالفة أمر الله تعالى ، فى بلاده وعباده ، وأنت تعلم مافيه من سوء السمعة ، وإيحاش الرعية ، وقد علمت أننا لقينا أعداءنا ، ونحن فى [2] ثلاثين رجلا ، وهم فى ثلثمائة ، فغلبناهم ، ثم كنا فى ثلثمائة ، وهم فى ثلاثة آلاف ، فغلبناهم ، ثم كنا فى ثلاثة آلاف ، وهم فى ثلاثين ألفا ، فدفعناهم ، وقاتلنا بالأمس شاه ملك ،

(١) فى الأصل : جغرز ، وما أثبتناه موافق للكامل ص ٢ ج ١٠ .

(٢) الزيادة من ت .

وهو فى أعداد كثيرة فقهرناه ، وأخذنا مملكتة بخوارزم ، وهرب بين أيدينا إلى خمسمائة فرسخ من موضعه ، فظفرنا به ، وأسرناه ، وقتلناه ، واستولينا على ممالك خراسان ، وسجستان ، وصرنا ملوكا متبوعين ، بعد أن كنا أصاغر تابعين ، وماتقتضى نعم الله علينا أن نقابلها بهذه المقابلة ، فقال طُغرُلبك : قل له فى الجواب : ياأخى أنت ملكت خراسان ، وهى بلاد عامرة ، فخربتها ، ووجب عليك مع استقرار قدمك عمارتُها ، وأنا وردتُ بلادًا أخربها من تقدمنى ، واجتاحها من كان قبلى ، فما أتمكن من عمارتها ، والأعداء محيطة بها ، والضرورة تقود إلى طرْقها بالعساكر ، فلا يمكن دفع مضرتهم عنها .

ولداود مناقب كثيرة ، وكان له من الأولاد : ألب أرسلان ، وياقوتى ، وسليمان ، وقاورد بك . ولما مات ملك بعده ابنه ألب أرسلان ، وتزوج طغرلبك بزوجة أخيه داود ، وهى والدة سليمان ، ووّصى له بالملك بعده ،وفى سنة اثنين وخمسين توفيت زوجة السلطان طغرلبك ، فوجد عليها وجدًا شديدا ، ونقل تابوتها إلى الرى .

ذكر زواج السلطان طغرلبك بابنة الخليفة

وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة عقَد السلطان طغرلبك على ابنة الخليفة القائم بأمر الله ، وكانت الخِطبة تقدَّمت فى سنة ثلاث وخمسين ، مع أبى سعيد[1] قاضى الرى، فانزعج الخليفة من ذلك ،

---

(٢) فى الكامل ص ٧ ج ١٠ : أبى سعد .

[وأرسل] (١) فى الجواب أبا محمد التميمى ، وأمره أن يستعفى ، فإن أعفى والآكمّ الأمر ، على أن يحمل السلطان ثلثمائة ألف دينار ، ويسلم « واسط » وأعمالها ، فلما وصل إلى السلطان ذَكَر لعميد الملك الكندرى الوزير ما ورد فيه من الاستعفاء ، فقال : لا يحسن أن يردّ السلطان ، وقد سأل وتضرّع ، ولا يجوزُ أيضا مقابلتهُ بطلب الأموال والبلاد ، فهو يفعل أضعاف ما طلب منه ، فقال له التميمى : الأمر لك ، ومهما فعلته فهو الصواب . فبُنِى الأمر على الإجابة ، وطالع به السلطان، [فسرّ به] (٢) وجمع الناس ، وعرفهم أن هِمّته قد سمت إلى الإتصال بهذه الجهة النبوية ، وبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواه من الملوك ، وتقدّم إلى الوزير عميدِ الملك أن يسير ، ومعه أرْسلان خاتون ابنة أخيه داود ، وهى زوجة الخليفة القائم بأمر الله ، وأن يصحبها مائة ألف دينار برسم (٣) الجمل ، وما شاكلها من الجواهر ، وغيرها ، ووجه معه فرامرز (٤) بن كاكويه ، وغيره من وجوه الأمراء ، وأعيان الرى ، فلما وصلوا امتنع الخليفة من الإجابة ، وقال : إن أعفينا ، وإلا خرجنا من بغداد ، فقال عميد الملك : « كان الواجب الامتناع من غير اقتراح وعد (٥) الإجابة إلى ما طلب ، فالامتناع سعى على دمى » ، وأخرج خيامه إلى النهروان فاستوقفه قاضى القضاة ، والشيخ أبو منصور بن يوسف فانهيا إلى

(١) هكذا فى ت . والكامل ص ٧ ج ١٠ ، وفى الأصل : وراسل .
(٢) الزيادة من ت ، وموافق للكامل ص ٧ ج ١٠ .
(٣) فى الكامل بالصفحة السابقة : برسم الحمل .
(٤) فى الأصل : قرامرز ، وأثبتناه موافق لما مر فى ص ٢٨٦ من هذا الجزء .
(٥) فى الأصل : وعيد ، وفى ت : وعند . وما أثبتناه هو الأنسب .

الخليفة عاقبة انصرافه ، فكتب الخليفة إلى عميد الملك يقول : نحن نرد الأمر إلى رأيك ، ونعوّل على أمانتك ودينك ، فحضر يوما عند الخليفة ، ومعه جماعة من الأمراء ، والحجّاب ، والقضاة والشهود ، فتكلم ، وقال للخليفة : أسأل مولانا أمير المؤمنين ، التطوّل بذكر ما شرف به العبد الخاص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب ليعرفه الجماعة ، فغالطه ، وقال : قد سطر فى المعنى ما فيه كفاية ، فانصرف عميد الملك ، ورحل فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة ، وأخذ المال معه إلى همذان ، فكتب السلطان إلى قاضى القضاة ، وإلى الشيخ أبى منصور بن يوسف يعتب ، ويقول : هذا جزائى من الخليفة الذى قتلتُ أخى فى خدمته ، وأنفقت مالى فى نُصرته ، وأهلكت خواصّى فى محبته ، وأطال العتاب ، فعاد الجواب بالاعتذار ، وطلب السلطان طغرلبك ابنة أخيه زوجة الخليفة ، لتعاد إليه ، وجرى ما كاد يفضى إلى الفساد الكلى ، فلما رأى الخليفة شدّة الأمر أذن فى ذلك ، وكتب الوكالة باسم عميد الملك الوزير ، وكان العقد فى شعبان سنة أربع وخمسين بظاهر تبريز ، وهذا ما لم يجْرِ مثله ، فإن بنى بويه مع تحكّمهم على الخلفاء ما طمعوا بمثل هذا ، وحمل السلطان أموالا كثيرة ، وجواهر نفيسة للخليفة ، ولولى العهد ، وللجهة المطلوبة ، ولوالدتها ، وغيرهم .

ذكر وصول السلطان الى بغداد ودخوله بابنة الخليفة

وفى سنة خمس وخمسين وأربعمائة فى المحرم توجه السلطان طغرلبك من أرمينية إلى بغداد ، وأراد الخليفة أن يستقبله ، فاستعفى من ذلك ، ووصل عميد الملك إلى الخدمة ، وطالب بالجهة ، فقيل له : خطك موجود بالشرط ، وأن المقصود بهذه الوصلة التشريف لا الإجتماع[1] ، وإنه إن كانت مشاهدة ، فتكون فى دار الخلافة ، فقال للخليفة : السلطان يفعل هذا ، ولكن يفرد له من الدور والمسكن ما يكفيه ، ومن خواصه ، وحجابه ، ومماليكه ، فإنه لا يمكنه مفارقتهم ، فحينئذ نُقِلت إلى دار المملكة فى منتصف صفر ، وجلست على سرير ملبس بالذهب ، ودخل السلطان إليها ، وقبل الأرض ، وخدمها ، ولم يكشف الخمار عن وجهها ، ولا قامت هى له ، وحمل لها أشياء كثيرة من الجواهر ، وغيرها ، وبقى يحضر فى كل يوم ، ويخدم ، وينصرف ، وعُمل السِّماط عدّةَ أيام ، وخلع على عميد الملك ، وجميع الأمراء .

ذكر وفاة السلطان طغرلبك وشىء من سيرته

كانت وفاته بالرىّ فى يوم الجمعة لثمان خلون من شهر رمضان سنه خمس وخمسين وأربعمائة ، وكان قد سار من بغداد فى شهر ربيع الأول إلى بلد الجبل ، ومعه أرسلان خاتون ابنة أخيه داود ،

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : لا اجماغ .

وهى زوجة الخليفة لأنها شكت إليه اطّراح الخليفة لها[١] ، واتفق مرضه ، فمات ، ونقل إلى مرو ، ودفن عند قبر أخيه داود ، وكان عمره سبعين سنة تقريبا ، ومدة ملكه منذ خطب له بنيسابور فى شعبان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ، وإلى أن توفى سبعة وعشرين سنة ، وأياما ، ومنذ ملك بغداد سبع سنين ، وأحد عشر شهرا ، واثنا عشر يوما ، وكان عاقلا حليما من أشد الناس احتمالا ، وأكثرهم كتمانا لسره ، وكان يحافظ على الصلوات ، ويصوم الإثنين ، والخميس ، وكان ملبسُه البياض إلا أنه كان فيه ظلم وقساوة ، وكان أصحابه يغصبون الناس أموالهم ، وأيديهم مطلقة فى ذلك ، فلا يمنعهم ، وكان عقيما لم يولد له ،

وزراؤه : أول من وزر له أبو القاسم على بن عبد الله الجوينى فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، ثم وزر بعده رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن على بن ميكائيل ، ثم وزر له بعده نظام الملك ، ثم وزر له بعده عميد الملك أبو نصر الكندرى ، وهو أشهر وزرائه ، وإنما اشتهر دون غيره من وزرائه ؛ لأن السلطان طغرلبك عظمت دولته فى وزارته ، وملك العراق[٢] ، وخطب له بالسلطنة . وقد تقدم من أخبار هذا الوزير ما يدل على تمكنه ، والله أعلم .

---

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : إليها .

(٢) الزيادة من ت .

ذكر أخبار السلطان عضد الدولة

هو ألب أرسلان أبو شجاع محمد بن جغرى بك داود بن ميكائيل ابن سلجق ، وهو الثانى من ملوك الدولة السلجقية ، ومعنى اسمه رجل أسد ، واللام والباء فى ألب مفخمتان . ملك خراسان بعد وفاة أبيه دواد فى شهر رجب سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، وقيل فى صفر سنة اثنتين وخمسين ، وملك العراق وغيره بعد وفاة عمه السلطان طغرلبك فى سنة خمس وخمسين ، وكان طغرلبك قد نصّ على توليه سليمان ابن أخيه داود أخى ألب أرسلان لأن أمه كانت عنده ، فتبع هواها فيه ، فلما مات السلطان طغرلبك نفّذ الوزير عميد الملك وصيته فيه ، وأجلس سليمانَ فى السلطنة ، فاختلف الأمراء عليه ، ومضى بعضهم إلى قزوين ، وخطب لعضد الدولة ، فلما رأى عميدُ الملك فساد الحال ، وميلَ الناس إلى عضدُ الدّولة ، أمر بالخطبة له بالرىّ ، ثم من بعده لسُليمان ، وما اتّصل بألب أرسلان الخبر بوفاة عمه جمع العساكر ، وسار نحو الرى ، فلما قرب منها خرج إليه الوزير عميد الملك ، وأظهر طاعته ، واستقرت السلطنة له بمفرده .

ذكر القبض على عميد الملك الوزير وقتله

قال : ولما استقر ملك عضد الدولة ، قبض على الوزير عميد الملك الكندرى ، وسبب ذلك أنه لما رأى ميل الناس إليه ، وانقيادهم لأمره خافه ، فأمر بالقبض عليه ، وأنفذه إلى مرو الروذ ، واعتقله بها سنة ، ثم أمر بقتله ، وكان هذا الوزير كثير البغض للشافعى وأصحابه ، وكان خصيًّا [1] خصاه طغرلبك لأنه أرسله يخطب له امرأة ، فتزوّجها ، وعصى عليه ، فلما ظَفِر به خصاه ، وأقره على خدمته ، وقيل : بل أعداؤه أشاعوا عنه أنه تزوّجها ، فخصى نفسه ليبرأ مما قيل فيه . قال المؤرخ : ومن العجب أن ذكره دفن بخوارزم لما خصى ، ودمه مسفوح بمرو ، وجسده مدفون بِكُنْدر [2] ، ورأسه ما عدا قحفه مدفون بنيسابور ، ونقل قحفه إلى كرمان ، ولما عرض على القتل ، قال لقاتله : قل لنظام الملك بئسما عودت الأتراك قتل الوزراء ، وأصحاب الديوان ، قال : ولما قبض السلطانُ ألب أرسلان على الوزير عميد الملك أمر بعودة ابنة الخليفة إلى بغداد ، وأعلمها أنه ما قبض عليه إلا لكونه [3] نقلها من بغداد إلى الرى بغير رضا الخليفة ، وأمر الأمير أيتكين السليمانى بالمسير فى خدمتها [والمقام] [4] شحنة ببغداد ، وأنفذ أبا سهل محمد بن هبة [5]

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) ت ، وفى الأصل : كنده ، وقد مر تصويبه .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) فى الأصل وإقامة ، وما أثبتناه نقلا عن الكامل ص ١٢ ج ١٠ .

(٥) هكذا فى ت ، وفى الأصل : بقية ، وما أثبتناه موافق للكامل ص ١٢ ج ١٠ .

المعروف بابن الموفق ، وأمره بالسير في الصحبة ، ومخاطبة الخليفة في الخطبة له ، فمات بالجدري قبل وصوله ، فأرسل العميد أبا الفتح بن المظفر بن الحسين ، فمات أيضا في الطريق ، فأرسل رئيس العراقيين (١) ، فوصل إلى بغداد في نصف شهر ربيع الآخر ، واقترح السلطان أن يخاطب : بالولد المؤيد ، فأجيب إلى ذلك ؛ ولقب ضياء الدين عضد الدولة ، وجلس الخليفة جلوسا عاما في سابع جمادى الأولى ، وشافه الرسل بسلطنة ألب أرسلان ، وسلمت الخلع عليهم ، وأرسل من الديوان لأخذ البيعة النقيب طراداً الزينبي ؛ فوصلوا إليه ، وهو بنَقْجُوان (٢) من أذربيجان ، فلبس الخلع ، وبايع الخليفة .

ذكر ملك عضد الدولة ختلان ، وهراه ، وصغانيان

كان أمير ختلان بعد وفاة السلطان طغرلبك عصى بالقلعة ، ومنع الخراج ، فقصده السلطان ، فوجد الحصن منيعا ، فحاصره ، ثم قتل صاحب الحصن بسهم جاءه ، وهو على شرفة من شرفات السور ، فهلك ، وملك ألب أرسلان الحصن ، وكان فخر الملك بيغو بن ميكائيل في هراة ، فعصى أيضا عليه ، وطمع في الملك لنفسه ، فسار إليه ، وحصره ، وضيق عليه ، وأدام القتال ليلا ونهارا ، فسلم

(١) في الكامل بالصفحة السابقة : العراقين .

(٢) فقجوان ، وقد يقال : نخجوان : بلد بأقصى أذربيجان ، معجم البلدان ٨ : ٣٠٧ ، ٢٧٣ .

المدينة ، وخرج إلى ابن أخيه ، فأكرمه ، وسار إلى صغانيان[1]، وأميرها موسى ، وكان قد عصى عليه ، فلما وصل لم ينتصف النهار حتى ملك القلعة قهرًا ، وأمر بقتل موسى ، فبذل فى نفسه أموالا كثيرة ، ثم عاد السلطان إلى مرو ، ثم منها إلى نيسابور .

ذكر الحرب بين السلطان وبين شهاب الدولة قتلمش وموته

كان شهاب الدولة قُتُلْمِش بن سلجق قد عصى على طُغرُلْبك ، فلما مات جمع عساكره ، وقصد الرَّى ، واستولى عليها ، فسار السلطان من نيسابور فى أول المحرم سنة ست وخمسين ، فوصل إلى دامغان ، وأرسل قتلمش يتنكر عليه ، وينهاه ، فأجاب بجواب غير مرض ، ونهب قرى الرىّ ، وأجرى الماء على وادى الملح ، وهى سبخة ، فتعذر على السلطان سلوكها ، فجاء ، وخاض فى الماء بعسكره ، ولقيه ، واقتتلوا ، فلم تثبت عسكر قتلمش ، ومضى هو إلى قلعة كردكوه ، وكانت من حصونه ، واستولى القتل والأسر على عسكره ، ثم عفا السلطان عنهم بشفاعة نظام الملك ، فلما سكن الغبار ، ونزل العسكر ، وجد قلتمش ميتا لم يُدْر كيف كان موته ، فقيل إنه مات من الخوف ، فبكى السلطان لموته ، وجلس لعزائه ، وعظم عليه فقده ، وقتلمش هذا هو جد الملوك السلجقية ملوك الروم ، وكان قتلمش يعلم علم النجوم ، يعلمه أولاده من بعده ، فزادوا فيه ، فنالهم به غضاضة فى دينهم .

---

(١) ت ، وفى الأصل : صغانيان . وصغانيان : ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة بترمذ. بلدان : ياقوت ج ٥ — ٣٦١ .

ذكر فتح مدينة آنى ، وغيرها من بلاد النصرانية

قال : وسار ألب أرسلان من الرى إلى أذربيجان فى أول شهر ربيع الأول ، وقد عزم على جهاد الروم ، وغزوهم ، فأتاه أمير من الروم كان يكثر غزوهم اسمه طغركين[1] ، ومعه من عشيرته خلق كثير قد ألفوا الجهاد ، وخبروا تلك البلاد ، وحثه على قصد بلاد الروم ، وضمن له سلوك الطريق المستقيم ، فسار معه فوصل إلى نَفْجُوان ،وأمر بعمل السفن لعبور النهر ، وجمع العساكر ، وسار إلى بلاد الكرج ، وجعل مكانه فى عسكره ولده ملكشاه ، والوزير نظام الملك ، فساروا إلى قلعة فيها جمع كثير من الروم ، فحاصروها ، فملكها المسلمون ، وقُتِل أميرُها ،وساروا منها إلى قلعة سمارس[2] . وهى قلعة فيها الأنهار الجارية ، والبساتين ، فملكوها ، وفتحوا قلعة أخرى بالقرب منها ، وشحنوها بالرجال والذخائر والأموال ، والسلاح وسلم هذه القلاع إلى أمير نقجوان ، ثم سار إلى مدينة مريم ونسيين ، وفيها كثير من الرهبان والقسوس ، وملوك النصارى ، وعامتهم يتقربون لأهل هذه البلد ، وهى مدينة حصينة ، وسورها من الحجر المبنى بالرصاص والحديد ، وعندها نهر كبير ؛ فأعدّ نظام الملك السفن لقتال من بها ، وداوم القتال ليلا ونهارا إلى أن يسّر الله فتحها ، وأحرقوا البيع ، وقتلوا كثيرا من أهلها ، وأسلم كثير ، فنجوا

---

(١) فى الكامل ص ١٣ ج ١ : طغدكين .

(٢) كذا فى الأصل ، وت ولم نجد أيا منهما فيما بين أيدينا من مراجع . ولعله : سرمارى وهي قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط . مراصد .

من القتل ، ثم استدعى السلطان ابنه ، والوزير ، فسارا إليه ، ففرح بما يسّره الله من الفتح على يد ملكِشاه ابنه ، وفتح عدة من الحصون في طريقه ، وأسر من النصارى مالايُحصى كثرة ، وساروا إلى سيبد سهر ، فجرى بين أهلها ، وبين المسلمين حروب شديدة ، ثم يسّر الله فتحها ، وملكها السلطان ، وسار منها إلى مدينة أعال لال ، وهى حصينة عالية الأسوار شاهقة ، وهى من جانبيها الشرقى والغربى على جبل عال ، وعليه عدّة من الحصون ، ومن الجانبين الآخرين نهر كبير لا يخاض ، وكان ملكها من الكرج ، فجرى عليها حروب عظيمة ، ويسّر الله فتحها ، واعتصم جماعة من أهلها فى برج من أبراج المدينة ، فأحرقه السلطان بالنار ، وغنم المسلمون من المدينة ما لا يحصى ، وخرجوا إلى خيامهم ، فلما جن الليل عصفت الريح ، فاحترقت المدينة من نار البرج ، وذلك فى شهر رجب سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وملك السلطان قلعة حصينة كانت إلى جانب المدينة ، وأخذ ما فيها ، وسار منها إلى ناحية قرش[1] ، ومدينة آني وبالقرب منها بسل وورده . وجوده ، فخرج أهلها مذعنين معلنين بالإسلام ، وخربوا البيع ، وبنوا المساجد ، وسار منها إلى مدينة آنى ، فرآها حصينة لا تُرام . ثلاثة أرباعها على نهر أرس[2] ، والربع الآخر على نهر عميق شديد الجرية لو طرحت الحجارة فيه لحملها ، والطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصمّ ، وهى مدينة

---

(١) لعلها : قرص : وهى مدينة بأرمينية من نواحى تفليس . بلدان ياقوت ٧ — ٥٢ .

(٢) وهو نهر الرس . ويخرج من أقاصى بلاد الروم . نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٢ . وأحسن التقاسيم ص ٣٧٩ .

عامرة آهلة ، فحصرها ، وضيَّق على من بها إلا أن المسلمين أيسوا من فتحها لما رأوا من حَصَانتها ، فأتى من لطف الله تعالى ما لم يكن فى حساب ، وانهدم من السّور قطعة كبيرة لم يعلم سبب هدْمِها ، فدخل المسلمون فى المدينة ، وقتلوا من أهلها ما لا يُحصى كثرة ، وأسروا نحوًا مما قتلوا ، وسارت البشائر بهذا الفتح فى البلاد ، وقرئ كتاب الفتح ببغداد فى دار الخلافة ، فبرز خطّ الخليفة بالثناء على ألب أرسلان ، والدعاء له ، فرتّب السلطان بالمدينة أميرا فى عسكر جرار ، وعاد عنها ، وقد راسله ملك الكرج فى الهدنة ، وصالحه على أداء الجزية فى كل سنة ، وعاد السلطان إلى أصفهان ، وكرمان ، ثم إلى مرو ، وزوج ابنة مَلِكشاه بابنة خاقان ملك ما وراء النَهر ، وزُفت إليه فى هذه السنة ، وزوّج ابنه أرسلان شاه بابنة صاحب غزنه ، فاتحد البيت السلجقى والمحمودى ، واتفقت الكلمة .

وفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة ابتدئ بعمارة المدرسة النظامية ببغداد ، وكملت عمارتها فى سنة تسع وخمسين ، وتقرر التدريس بها للشيخ أبى اسحاق الشيرازى ، فلما اجتمع الناس لحضور الدروس طُلب ، فلم يوجد ، وكان سببُ تأخره أنه لقيه صبىّ ، فقال : « كيف تدرس فى مكان مغصوب ؟ » ، فلم يحضر ، فلما أيس الناس من حضوره درس بها أبو نصر الصبّاغ صاحب كتاب الشامل ، ثم تلطف نظام الملك بالشيخ أبى إسحاق ، حتى درّس بها بعد عشرين يوما .

ذكر تقرير ملكشاه فى ولاية العهد بالسلطنة من بعد أبيه وتقرير البلاد باسم أولاد السلطان وأخوته

وفى سنة ثمان وخمسين وأربع مائة سار السلطان ألب أرسلان من مرو إلى [أرزكان][1] ، ونزل بظاهرها ، ومعه جماعة من أمراء دولته ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق لولده ملكشاه بأنه السلطان من بعده ، وركبه ، ومشى بين يديه يحمل الغاشية [2] ، وخلع السلطان على جميع الأمراء ، وأمر بالخطبة له فى جميع بلاده ، وأقطع البلاد : ومازندران للأمير أينانج بيغو ، وبلخ لأخيه سليمان بن داود جفرى بك ، وخوارزم لأخيه أرسلان [أرغو][3] ومرو لابنه أرسلان شاه ، وصغانيان وطخارستان لأخيه إلياس ، وولاية بغشور[4] ونواحيها لمسعود بن أرتاش ، وهو من أقارب السلطان .

---

(١) فى ت : أرزنكان ، وفى الكامل : رايكان . والذى بين أيدينا : « أرزكان » وهى من قرى فارس على ساحل البحر . مراصد ج ١ ص ٥٥ .

(٢) الغاشية : كسوة توضع على السرج لتغطيته حين يترجل الراكب ، وكانت امتيازاً يمنح للعظماء . تاريخ البيهقى : كشاف المصطلحات التاريخية ، وانظر صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) فى الأصل : أرعو ، وما أثبتناه موافق للكامل ج ١٠ ص ١٧ .

(٤) بغشور : انظر أحسن التقاسيم ص ٣٠٨ .

ذكر عصيان ملك كرمان ، وعوده الى الطاعة ، وطاعة حصون فارس

وفى سنة تسع وخمسين وأربعمائة عصى قرار أرسلان ملك كرمان على السلطان ، ونزع الطاعة ، وسبب ذلك أن وزيره حسّن له هذا الفعل ، فظن أنه يقدر على الاستبداد بالأمر ، فسار السلطان ألب أرسلان إليه ، والتقت مقدمته بمقدمته ، فانهزم أصحاب قرا أرسلان بعد قتال ، وسار لا يلوى على شىء ، فوصل إلى قلعة ، وامتنع بها ، وراسل السلطان فى طلب الأمان ، وبذل الطاعة ، فأمّنه ، وحضر إليه ، فأكرمه ، وأعاده إلى مملكته ، فقال قرا أرسلان للسلطان : إن لى بنات ، وقد جعلت أمرهنّ إليك ، وتجهيزهن ، فأعطى السلطان إلى كل واحدة منهن مائة ألف دينار سوى الثياب ، ثم سار السلطان منها إلى فارس ، فوصل « اصطخر » ، وفتح قلعتها ، واستنزل واليها ، فحمل إليه الوالى هدايا عظيمة جليلة المقدار من جملتها قدح فيروزج مكتوب عليه اسم جمشيد الملك ، وأطاعه جميع حصون فارس ، وبقيت قلعة هناك يقال لها : بهزاف[1] ، فسار نظام الملك إليها ، وحصرها ، ففتحها فى اليوم السادس[2] عشر من منازلتها[3] ، ووصل السلطان إليها بعد الفتح ، فعظم محل نظام الملك عنده ، وعلت منزلته ، وزاد فى تحكمه ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) فى الكامل ج ١٠ ص ١٩ : بهتزاز .

(٢) فى ت : الحادى عشر .

(٣) فى الأصل : من منازلها .

ذكر اقامة الخطبة بحلب

وفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة خطب تاج الملوك محمود بن نصر بن [1] مرداس بحلب للخليفة القائم بأمر الله ، وللسلطان ألب أرسلان ، و سبب ذلك أنه لما رأى انتشار الدولة السلجقية ، وقوتها ، وإقبالها ، جمع أهل حلب ، وقال : هذه دولة جديدة ، ومملكة شديدة ، ونحن تحت الخوف منهم ، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم ، والرأى أن نقيم الخطبة قبل أن يأتى وقت لا ينفعنا فيه ذلك ، فأجاب مشايخ البلد ، ولبس المؤذنون السواد ، وخطب لهما ، فأخذت العامة حُصر الجامع ، وقالوا : هذه حصر على بن أبى طالب : فليأت أبو بكر بحصر يصلى عليها بالناس ، وأرسل الخليفة : إلى محمود الخِلع مع نقيب النقباء طِراد بن محمد الزينبى ، والله أعلم .

ذكر استيلاء السلطان على حلب

وفى سنة ثلاث وستين أيضا سار السلطان إلى حلب ، وجعل طريقه على ديار بكر ، فخرج إليه صاحبُها نصر بن مروان ، وخدمه بمائة ألف دينار ، وحمل إليه إقامة بلغ السلطان أنه بسطها على البلاد فأمر بردّها ، ووصل إلى آمد ، فرآها ثغرا منيعا ، فتبرك به ، وجعل يمر بيده على السور ، ويمسح بها صدره ، وصار إلى الرُّها ، فحصرها ، فلم يظفر منها بطائل ، فسار إلى حلب ، فسأل صاحبها محمود نقيب

(١) فى الكامل ج ١٠ ص ٢١ : محمود بن صالح بن مرداس . وفى النجوم الزاهرة ص ١٠٠ ج ٥ ، حوادث سنة ٤٦٧ : محمود بن نصر بن صالح . صاحب حلب ، و يعرف بابن الروالوة .

النقباء رسول الخليفة أن يخرج إليه ، ويعلمه أنه لبس بخلع الخليفة واستعفاه من الحضور ، فقال : لابد من حضوره ، وأن يبطل الأذان بحي على خير العمل ، فامتنع محمود ، واشتد الحصار على البلد ، وغلت الأسعار ، وزحف السلطان يوما ، فوقع حجر منجنيق [على] (١) فرسه ، فلما عظم الأمر على محمود صاحب حلب خرج ليلا هو وأمه ، ودخلا على السلطان ، وقالت له : هذا ولدى تفعل به ما تحب ، فتلقاهما بالجميل ، وأحسن إلى محمود ، وخلع عليه ، وأعاده .

ذكر خروج ملك الروم الى خلاط وأسره

ولما عاد السلطان من حلب وصل إلى مدينة «خُوىّ» من أذربيجان ، فبلغه خروج أرمانوس ملك الروم فى مئتين ألوف من الروم ، والفرنج والعرب للثغره (٢) ، والكرج ، والروس ، وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، وأنه وصل إلى بلاد «خلاط» ، فلم يتمكن السلطان من جمع العساكر لبعدها ، وقرب العدو ، فسيّر أثقاله مع نظام الملك إلى همذان ، وسار هو ، فيمن معه من العسكر ، وهم خمسة عشر ألف فارس (٣) ، وجد فى السير ، وجعل له مقدمة ، فالتقت بمقدمة العدو ، وهم عشرة آلاف فارس من الروس ، فقاتلوهم ، فانهزم الروس ، وأسر مقدمهم ، وحمل إلى السلطان ، فجدع أنفه ، وأرسل إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة ، فأجاب : لا هدنة إلا «بالرى» ،

(١) زيادة يقتضيها السياق ، وفى الأصل : وفى .
(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل المنتصرة .
(٣) زيادة من ت .

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة ركب السلطان ، وقال لأصحابه : من أراد الانصراف ، فالينصرف ، فما ها هنا سلطان يأمر وينهى ، وبكى ، وأبكى ، ورمى القوس والنشاب ، وأخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض ، وتحنط ، وقال : إن قتلت ، فهذا كفنى ، وذلك لخمس بقين من ذى القعدة سنة ثلاث وستين ، وزحف إلى الروم ، وزحفوا له ، فلما قاربهم ترجّل ، وعفر وجهه فى التراب ، وبكى ، وأكثر من الدعاء ، ثم ركب وحمل ، فأعطى الله النصر للمسلمين ، فقتلوا من العدو ما لا يحصى كثرة ، وأسر ملك الروم ، أسره بعض غلمان كوهراتين ، ولم يعرفه ، وأراد قتله ، فقال له خدم معه : هذا الملك لا تقتله ، وكان هذا الغلام قد عرض على عضد الدولة ، فلم يجز عرضه استحقارًا له ، فشكره كوهراتين ، فقال نظام الملك : عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرًا ، فكان كذلك ، فلما أسره الغلام أحضره إلى مولاه كوهراتين ، فأحضره إلى السلطان ، فضربه السلطان ثلاث ضربات بالمقرعة ، وقال : ألم أرسل إليك فى الهدنة ، فأبيت ، فقال : دعنى من التوبيخ ، وافعل ما تريد ، فقال السلطان : ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى ؟ فقال : كنت أفعل كل قبيح ، قال : فما تظن أنى أفعل معك ؟ فقال : إما أن تقتلنى ، وإما أن تشهرنى فى البلاد ، والأخرى بعيدة ، وهى العفو ، وقبول الأموال ، واصطناعى باتباعك ، وقال : ما عزمت على غير هذا ، ففدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وقطيعة فى كل سنة ثلثمائة ألف وستين ألف

دينار ، وإطلاق كل أسير فى بلاد الروم من [١] المسلمين ، وأن ينفذ إليه عساكر الروم متى طلبها ، واستقر الأمر على ذلك ، وأنزله السلطان فى خيمة ، وأطلق له جماعة من أسر من البطارقة ، وخلع عليه من الغد ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، وقام ملك الروم إلى جهة الخليفة ، وكشف رأسه ، وأومأ إلى الأرض بالخدمة ، ثم جهز السلطان معه عسكرا يوصله إلى مأمنه ، وشيّعه فرسخا ، وأما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة ، وملك البلاد ، فلما وصل أرمانوس الملك إلى قلعة دوفنه [١] ، بلغه الخبر ، فلبس الصوف ، وأظهر الزهد ، وأرسل إلى ميخائيل يعرفه ما تقرر بينه وبين السلطان ، فأجاب ميخائيل بإيثار ما استقر ، وجمع أرمانوس ما عنده من المال ، فكان مائة ألف دينار [٢] ، وطبق عليه جواهر بتسعين ألف دينار ، فحمل ذلك إلى السلطان ، وحلف أنه لا يقدر على غيره ، ومضى أرمانوس بمن معه إلى بلاد الأرمن ، فملكها ، وقتل ملكها ، وأرسل رأسه إلى بغداد ، ودعا للسلطان بها .

---

(١) زيادة من ت .

(١) فى الكامل ج ١١ ص ٢٣ : دو نيه

(٢) الزيادة من ت .

ذكر ملك أتسز بيت المقدس [١] والرملة ودمشق

وفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة قصد [أتسز بن أوق] [٢] الخوارزمى ، وهو من أمراء السلطان ملكشاه ، فجمع الأتراك ، وسار إلى فلسطين ،ففتح الرملة ، وسار منها إلى بيت المقدس [٣] ،وحصره ، وفيه عساكر المصريين ، ففتحه ، وملك ما يجاورهما [٤] من البلاد ما عدا عسقلان ، وقصد دمشق ، فحصرها ، وتابع النهب لأعمالها حتى خربها ، وقطع الميرة عنها ، ولم يقدر عليها ، ثم فتحها فى سنة ثمان وستين وأربعمائة فى سلطنة ملكشاه فى خلافة المقتدى ، وذلك أنه جعل يغير عليها فى كل سنة ، ويقصد أعمالها عند إدراك المُغَلّ [٥] ، فيقوى هو وعسكره ، ويضعف أهل دمشق وجندها ، ثم حصر دمشق فى شهر رمضان سنة سبع وستين ، وأميرها يوم ذاك المعلّى بن حيْدره من قبل المستنصر صاحب مصر ، فعجز عن فتحها ،فانصرف عنها فى شوال ، واتفق أن أميرها المعلى أساء المسيرة مع الجند والرعية ، فثار به العسكر ، فهرب إلى « بانياس » ، ثم منها إلى « صور » ، ثم سار إلى مصر ، فحبس بها حتى مات ، ولما هرب من دمشق اجتمعت

---

(١) فى الأصل : أتسر ، وما أثبتناه نقلا عن الكامل ص ٢٣ ج ١٠ ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٨٧ .

(٢) فى الأصل : أتسر بن أرمق ، وفى ت : ابن بارمق ، وما أثبتناه نقلا عن الكامل والنجوم الزاهرة بالصفحتين السابقتين المذكورتين فى حاشية (٣) .

(٣) هكذا فى ت ، وفى الأصل : البيت المقدس .

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل : ما يجاورها .

(٥) انظر ص ٢٠٨ من نهاية الأرب ج ٨ .

المصامدة ، وولوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودي المعروف : بزوين[١] الدولة ، واتفق وقوع غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضا ، ووقع الخلف بين المصامدة ، وبين أحداث البلد ، فعاد أتز[٢] إلى دمشق ، ونازلها فى شعبان سنة ثمان وستين ، وحصرها حتى عدمت الأقوات ، فتسلمها عند ذلك بالأمان ، ودخلها بعسكره فى ذي القعدة ، وخطب بها للمقتدى لخمس بقين من الشهر ، وعوض عنها انتصار بقلعة بانياس ، ومدينة « يافا » من الساحل :

ذكر تزويج ولى العهد بابنة السلطان

وفى سنة أربع وستين وأربع مائة ، أرسل الخليفة القائم بأمر الله عميد الدولة بن جهير إلى السلطان بالخلع له ، ولولده ملكشاه ، وأمره أن يخطب سفرى خاتون ابنة السلطان لولى العهد المقتدى بأمر الله ، ففعل ذلك ، فأجيب إليه ، وعقد النكاح بظاهر نيسابور ، وكان عميد الدولة الوكيل فى قبول النكاح ، ونظام الملك الوكيل من قبل السلطان وكان النثار من الجوهر . .

ذكر ملك السلطان قلعة فضلون

وفى هذه السنة سير السلطانُ الوزير نظام الملك فى عسكر إلى بلاد فارس ، وكان بها حصن من أمتع حصونها ، وفيه صاحبه فضلون ، وهو لا يعطى الطاعة ، فنازله ، وحاصره ، فامتنع ، وقاتل ، فلم تطل

(١) فى الكامل ص ٣٤ ج ١٠ : رزين الدولة .
(٢) فى الأصل : انشز ، وصحتها ما أثبتناه .

المدة حتى نادى أهل الحصن بطلب الأمان بغير سبب ظاهر ولا قتال ، وظهر أن [١] سبب ذلك أن جميع آبار الحصن غارت مياهها فى ليلة واحدة ، فأمنهم نظامُ الملك ، وتسلَّم الحصن ، وهرب فضلون إلى القلعة ، ثم قبض عليه[٢] وجيءَ به إلى السلطان ، فأحسن إليه ، وأمنه ، وأطلقه .

ذكر مقتل السلطان عضد الدولة ألب أرسلان ، وشىء من سيرته

وفى سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان ما وراء النهر ، فعقد جسرًا على جيحون ، وعبر عليه فى نيف وعشرين يوما ، وكان عسكره يزيد على مائتى ألف فارس ، وكان ببعض القلاع رجل خوارزمى اسمه يوسف قد عصى ، وتحصَّن بالقلعة ، فبعث إليه السلطان جماعة ، فحاصروه ، وأخذوه ، وأتوا به إلى السلطان ، فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد ، وتُشدَّ أطرافُه إليها ، فقال يوسف : يا مخنَّث ، مثلى يقتل هذه القتلة ؟ فغضب لذلك ، وأخذ القوس والنَّشاب ، ورماه ثلاث مرَّات ، وهو يخطىء ، وكان لا يخطىء فى رمْيه ، فوثب يوسف ، وضربه بسكِّين فى خاصرته ، وأدركه الجند ، فقتلوه ، وسدّ جرح السلطان ، وعاد إلى جيحون وقال : ما من وجهٍ قصدته ، وعدوٍّ أردته إلا استعنت [٣] بالله عليه ، فلما كان بالأمس صعدت

---

(١) الزيادة من ت .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) هكذا فى ت . وفى الأصل : استغيث .

على تل؛ فارتجت الأرض تحتى من عظم الجيش ، فقلت فى نفسى : أنا ملك الدنيا ، وما يقدر أحد على ، فعجزنى الله تعالى بأضعف خلقه ، وأنا أستغفر الله ، وأستقيله من هذا الخطأ ، وأحضر الوزير نظام الملك ، والجند ، وأوصاهم بولده ملكشاه ، واستحلفهم له .

وتوفى فى عاشر شهر ربيع الأول ، وحمل إلى «مرو» ، فدفن بها عند أبيه ، وكان مولده فى سنة أربع وعشرين ، فكان عمره أربعين سنة وشهورا ، وكانت مدة ملكه منذ خطب له بالسلطنة تسع سنين ، وستة أشهر ، وأياما .

وكان كريما عادلا عاقلا لا يسمع السعايات ، وكان رحيم القلب ، رفيقا بالفقراء ، كثير الصدقة ، تصدّق فى شهر رمضان بخمسة عشر ألف دينار ، وكان فى ديوانه أسماء خلق من الفقراء فى جميع مملكته عليهم الإدرارات ، والصلات ، ولم يسمع عنه بمصادرة بل قنع بالخراج والغنائم ، قيل : إن بعض السعاة كتب إليه سعاية فى نظام الملك الوزير ، وذكر ما له من الرسوم والأموال ، وترك الرقعة على مصلاه ، فقرأها ، ثم سلمها إلى نظام الملك ، وقال له : إن كانوا صدقوا فى الذى ذكروا ، فحسن أخلاقك ، وإن كانوا كذبوا فاغفر لهم زلتهم ، وأشغلهم بمهمّ يشتغلون به عن السعاية بالناس ، وناهيك بهذه مكرمة .

وكان له من الأولاد : ملكشاه ، وتكش ، وإيار ، وتُتُش ،

(١) الزيادة من ت ، وهى موافقة للكامل ص ٢٦ ج ١٠ .

وأرسلان [١] أرغو ، وتوزى [٢] برش ، وساده ، وعائشه ، وبنت أخرى .

وزيره : نظام الملك .

ولما وصل الخبر إلى بغداد بموته حبس الوزير فخر الدولة بن [جهير] [٣] للعزاء فى صحن دار السلام ، وملك بعده ابنه .

ذكر أخبار السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب ارسلان محمد بن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجق

وهو الثالث من ملوك الدولة السلجقية .

ملك بعد وفاة أبيه فى عاشر ربيع الأول سنة خمس وستين وأربعمائة ، وكان والده قد حلّف له العساكر كما قدمناه ، وكان ملكشاه قد صحب والده فى هذه السّفرة ، ولم يصْحبه فى سفرة غيرها ، فأوصاه والده أن يعطى عمه قاورد [٤] بك بن داود أعمالَ فارس، وكِرمان، وشيئا عيّنه من المال ، وأن يزوج زوجته ، وكان قاورد بك بكرمان ، وأوصى بأن يعطى ابنَه إيازَ ما كان لأبيه داود ، وهو خمسمائة ألف دينار ، وقال : من لم يرض بما أوصيتُ له

(١) فى الكامل ص ٢٦ ج ١٠ أرغو أيضا : ولكن فى النجوم الزاهرة ص ٦٦١ ج ٥ حوادث سنة ٤٩١ : أرسلان أرغون وقد مر ص ٣١٠ من هذا الجزء .

(٢) فى الكامل بالصفحة السابقة : يورى برش .

(٣) فى الأصل : جهيز ، وصوابه ما أثبتناه نقلا عن الكامل ص ٦٢ ج ١٠ حوادث سنة ٤٨٣ ، وشذرات الذهب ج ٣ ص ٣٦٩ ، والنجوم الزاهرة ص ٦٣٠ ج ٥ . وهو محمد بن محمد بن جهير الوزير أبو نصر فخر الدولة .

(٤) أنظر ما مر فى ص ٢٩٦ من هذا الجزء .

به ، فقاتلوه ، واستعينوا على حربه بما جعلتُ له ، وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر ، ، وقد تولّى تدبير دولته الوزيرُ نظامُ الملك وزير أبيه ، فعبر النهر فى ثلاثة أيام ، وزاد الأجناد سبعمائة ألف دينار ، وعاد إلى خراسان ، وقصد نيسابور ، ومنها إلى الرى ، وكتب إلى ملوك الأطراف بإقامة الخطبة له ، فخطب له . والله أعلم .

ذكر الحرب بين السلطان ملكشاه وبين عمه قاورد بك

قال : ولما بلغ قاورد بك وفاة أخيه ، وكان بكرمان قصد الرى ليستولى على المملكة ، فسبقه إليها ملكشاه ونظام الملك ، وسارا منها ، فالتقوا بالقرب من همذان فى رابع شعبان ، واقتتلوا ، فانهزم قاورد بك وعسكره ، ثم أسر ، وجيء به إلى السلطان ، فأمر بخنقه ، وأقرّ كرمانَ بيد أولاده ، وسيّر لهم الخلع ، فملك سلطانُ شاه بن قاورد بك كرمان [1] ، وفوض السلطانُ جميع أمور دولته إلى نظام الملك الوزير ، ولقبه ألقابا من جملتها : أتابك ، ومعناه : الأمير الوالد ، وأقطعه إقطاعا وافرًا زيادة على ما كان له ، من جملته طوس ، وأحسن السيرة ، وظهر من عدله ما لا مزيد عليه ، وفى سنة ست وستين وأربعمائة . فى ثالث صفر . ورد كوهراتين [2] إلى بغداد من قبل السلطان ملكشاه . فجلس الخليفة القائم بأمر الله له مجلسا عاما ، وسلم إليه عهد السلطان ملكشاه بالسلطنة واللواء ، وعقده الخليفة بيده ، وفيها

---

(١) زيادة من ت .

(٢) فى الكامل ص٣١ ج١٠ حوادث سنة ٤٦٦ كوهرائين ، وفى النجوم الزاهرة ص ٩٣ ج ٥ حوادث سنة ٤٦٥ سعد الدولة كوهراين أيضا .

استعاد السلطان ترمذ من خاقان تكين [١] وكان قد غلب عليها لما مات ألب أرسلان ، فلما استقامت الأمور لملكشاه حصرها ، واستعادها ، وأخذ منها [٢] أخ الخاقان ، فأكرمه ، وأطلقه ، وقصد سمرقند ، ففارقها صاحبها ، فأرسل يطلب المصالحة ، واعتذر من تعرضه إلى ترمذ ، فوقع الصلح بينهما ، وعاد السلطان ، وأقطعه بلخ ، وطخار ستان لأخيه شهاب الدين تكش .

ذكر استيلاء تكش على بعض خراسان

وفى شعبان سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة سار ملكشاه إلى الرى ، وعرض العسكر ، وأسقط منهم سبعة آلاف رجل ، فقال له الوزير نظام الملك : هؤلاء الجند لم يكن منهم كاتب ، ولا تاجر ، ولا خياط. وليس لهم صنعة غير الجندية ، ولا نأمن أن يقدموا منهم رجلا ، ويقولوا هذا السلطان ، فيكون لنا منهم شغل ، ويخرج عن أيدينا أضعاف مالهم من الجارى إلى أن تظفر بهم ، فلم يقبل السلطان نصحه ، وقطعهم ، فمضوا إلى أخيه تكش ، فقوى بهم ، وأظهر العصيان على أخيه ، واستولى على مرو الروذ ، ومرو الشاهجان ، وترمذ ، وغيرها ، وسار إلى نيسابور طمعا فى ملك خراسان ، فسبقه السلطان إليها ، فعاد تكش ، وتحصن بترمذ ، وأسر جماعة من أصحاب السلطان ، فقصده السلطان ، فأطلقهم ، واستقر الصلح بينهما ، ونزل تكش

(١) فى الكامل ج ١٠ ص ٣٢ : خاقان التكين .

(٢) الزيادة من ت .

عن ترمذ ، ثم عاد إلى العصيان فى سنة سبع وسبعين ، وأخذه السلطان وسمله .

وفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة مات للسلطان ملكشاه ولد اسمه داود ، فجزع عليه جزعا شديدا ، ومنع من دفنه حتى تغيرت رائحته ، وأراد أن يقتل نفسه ، فمنعه خواصه .

ذكر قتل أبى المحاسن بن أبى الرضا (١)

وفى سنة ست وسبعين(٢) وأربعمائة فى شوال قتل سيد الرؤساء أبو المحاسن بن كمال الملك أبى الرضا ، وكان قد قرب من السلطان ملكشاه قربا عظيما ، وكان أبوه يكتب الطغراء ، فقال أبو المحاسن للسلطان : سلم إلىّ نظام الملك وأصحابه ،وأنا أحمل إليك منهم ألف ألف دينار ، فإنهم يأكلون الأموال ، ويقتطعونها (٣) ، وعظّم عنده ذخائرهم ، وأموالهم (٤) ، فبلغ ذلك نظام الملك ، فعمل سماطا عظيما . وأقام عليه مماليكه ، وهم ألوف من الأتراك ، وأقام خيلهم . وجعل سلاحهم على جمالهم ، فلما حضر السلطان ، قال له : إنى قد خدمتك ، وخدمت أباك وجدك ، ولى حق خدمة ، وقد بلغك أخذى لعشر أموالك ، وقد صدق الناقل ، هذا أنا آخذه وأصرفه إلى هؤلاء الغلمان الذين جمعتهم لك ، وإلى الصدقات ، والصلات ، والوقوف التى عظم ذكرها ،

(١) فى الأصل : الرضى . وما أثبتناه نقلا عن الكامل بالصفحة السابقة ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠١ .

(٢) هكذا فى ت . وفى الأصل : وفى ست وأربعين .

(٣) فى ت : ويقطعونها ، وفى الكامل ص ٤٤ ج ١٠ : ويقطعون الأعمال .

(٤) زيادة من ت .

وشكرها ، وأجرها لك ، وأموالى وجميع ما أملكه بين يديك ، وأنا أقنع بمرقعة وزاوية ، فأمر السلطان بالقبض على أبى للحاسن ، وأن تسمل عيناه ، وأنفذه إلى قلعة نساوة ، [1] وسمع أبوه كمال الملك الخبر ، فاستجار بدار نظام الملك ، فسلم ، وبذل مائتى ألف دينار ، وعزل عن الطغراء ، ورتب مكانه مؤيد [الملك[2]] بن نظام الملك المقدم ذكره [3] .

ذكر ملك السلطان حلب وغيرها

كان سبب ذلك أن سليمان بن قتلمش السلجقى صاحب الروم فتح أنطاكية ، وكان بينه وبين شرف [4] الدولة مسلم صاحب حلب وقعة قتل فيها شرف الدولة ، ثم قتل سليمان ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار ملوك الروم السلجقية ، فلما وقع ذلك كتب ابن الحبيبى [5] مقدم حلب إلى السلطان ملكشاه يعلمه ذلك ، ويستدعيه ليتسلمها خوفا من تتش صاحب دمشق ، فسار من أصفهان فى جمادى الآخرة سنة ست [6] وسبعين وأربعمائة ، وجعل طريقه على الموصل ،

(١) فى الكامل بالصفحة السابقة : ساوة .

(٢) فى الأصل : مؤيد الدولة ، وما أثبتناه نقلا عن الكامل بالصفحة السابقة ، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٠١ .

(٣) زيادة من ت .

(٤) هو مسلم بن قريش بن بدران شرف الدولة أمير بن عقيل . صاحب الموصل والجزيرة وحلب ، النجوم الزاهرة جـ٥ ص١١٩ حوادث سنة ٤٧٧ ، وانظر شذرات الذهب جـ٣ ص ٣٦٢ حوادث سنة ٤٧٨ .

(٥) فى الأصل هكذا : الحمى ، وفى ت : الحيثى . وفى الكامل جـ ٥١ جـ ٦٠ حوادث سنة ٤٧٩ : ، ابن الحثيثى . وما أثبتناه موافق لأبى الفدا .

(٦) الزيادة من ت ص ١٩٧ جـ ٢ .

فوصل إليها فى شهر رجب ، وسار منها إلى حرّان [١] ، فسلمها إليه ابن الشاطر ، فأقطعها السلطان محمد بن شرف الدولة ، وسار إلى الرّها ، وهى بيد الروم ، فحصرها ، وملكها وسار إلى قلعة جعبر ، فحاصرها يوما وليلة ، وملكها ، وأخذ صاحبها جعبر ، وهو شيخ أعمى ، وولديه ، وكانت الأذية بهم عظيمة يقطعون الطريق ، ويلجئون إليها ، ثم عبر الفرات إلى مدينة حلب ، فملك فى طريقه مدينة منبج ، فلما قارب حلب رحل عنها أخوه تتش ، وكان قد ملك المدينة ، وسلك البرية ، ومعه الأمير أرتق ، فأشار عليه بكبس عسكر السلطان ، فامتنع ، وقال لا أكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإنه يعود بالوهن علىّ ، وسار إلى دمشق ، ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة والقلعة بعد أن امتنع مالك [٢] بن سالم بها ، ثم سلمها [٣] على أن يعوضه غيرها ، فعوضه قلعة جعبر ، فبقيت فى يده ، ويد أولاده إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود بن زنكى على ما نذكره إن شاء الله تعالى ، وأرسل الأمير نصر بن على بن منقذ [٤] الكنانى صاحب شيزر إلى السلطان ، وبذل الطاعة ، وسلم إليه اللاذقية ، وكفر طاب ، وأقاميه ، فأجابه السلطان إلى المسالمة ، وترك قصده ، وأقر عليه شيزر ، ولما ملك السلطان حلب سلمها إلى قسيم الدولة آق سنقر ، وهو جد نور الدين الشهيد ، وقبل تسلمها فى سنة ثمانين .

---

(١) ت ، وهو موافق للكامل بالصفحة السابقة . وفى الأصل : خراسان .

(٢) فى الكامل بالصفحة السابقة : سالم بن مالك .

(٣) هكذا فى ت . وفى الأصل : سلمة .

(٤) هكذا فى ت . وفى الأصل : على بن منقذ .

ذكر دخول ملكشاه بغداد

كان دخوله إلى بغداد فى ذى الحجه سنة سبع [١] وسبعين وأربعمائة بعد رجوعه من حلب ، وهو أوّل دخوله إليها ، ونزل بدار المملكة ، وركب من الغد إلى الخليفة ، ولعب بالأكرة ، ومضى إلى الصيد هو ونظام الملك فى البرية ، فاصطاد شيئا كثيرا من الوحوش والغزلان ، وغير ذلك ، وأمر ببناء منارة بقرون الغزلان ، وحوافر الحمر الوحشية التى صادها . قال ابن خلكان فى وفيات الأعيان[٢] : «والمنارة باقية إلى الآن ، وتعرف بمنارة القرون» ، وعاد إلى بغداد ، ودخل الخليفة المقتدى ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وفوض إليه أمر [٣] البلاد ، والعباد ، وأمره بالعدل ، وطلب السلطانُ بأن يقبِّل يد الخليفة ، فلم يجبه ، فسأل أن يقبل خاتمه ، فأعطاه ، فقبله ، ووضعه على عينيه ، وأمره الخليفة بالعود ، فعاد ، ولما خرج من عنده لم يزل الوزير نظام الملك قائما يقدم أميرًا أميراً إلى الخليفة . وكلما قدم أمير يقول : هذا العبد فلان ، وإقطاعه كذا وكذا ، وعدة عسكره كذا ، إلى أن أتى على آخر الأمراء ، فخلع الخليفة على نظام الملك ، ودخل نظام الملك إلى المدرسة النظامية ، وسمع الناس عليه الحديث بالمدرسة ، وأقام ببغداد إلى صفر سنة ثمانين وسار إلى أصفهان .

---

(١) فى ت : تسع ، والكامل موافق للأصل الكامل ص ٩٣ ج ١٠ .

(٢) الزيادة : من ت .

(٣) الزيادة : من ت .

وفى [١] سنة ثمانين وأربعمائة جعل السلطان ولى عهده ولده أبا شجاع ، ولقبه ملك الملوك عضد الدولة تاج [٢] الملة عدة أمير المؤمنين ، وأرسل إلى الخليفة أن يخطب له ببغداد ، ويلقبه بهذه الألقاب ، فخطب له فى شعبان ، ونثر الذهب على الخطباء .

ذكر ملك ملكشاه ماوراء النهر

وفى سنة اثنين وثمانين وأربعمائة ملك السلطان ملكشاه ماوراء النهر ، وسبب ذلك أن سمر قند كان قد ملكها أحمد بن خضر خان أخو شمس الملك الذى كان قبله ، وهو ابن أخى تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه ، وكان ظالما قبيح الصورة كثير المصادرات للرعية ، فنفروا منه ، واستغاثوا بالسلطان ، فسار من أصفهان ، وكان قد حضر إليه رسول صاحب الروم بالجزية المقرَّرة عليه ، فأخذه نظام الملك معه إلى ماوراء النهر ، وحضر فتح البلاد ، وإنما فعل ذلك ليؤرخ عنهم أن ملك الروم حمل الجزية من بلاده إلى كاشغر ، وليرى عظم ملك السلطان ، وكثرة جيوشه ، وسعة ممالكه ، فسار السلطان من أصفهان إلى خراسان ، وجمع من العساكر ما لا يحصرها ديوان ، وقطع النهر ، ووصل بخارى ، وملكها ، وملك ما على طريقه إليها ، وما جاورها ، وقصد سمرقند ، ونازلها ، وحصرها ، وملكها ، واختفى أحمد خان صاحبها فى بيت بعض العوامّ ، فأُخِذ ، وحُمل إلى السلطان ، وفى عنقه حبل ، فأكرمه السلطان ، وبعثه إلى أصفهان ، ورتب

(١) الزيادة : من ت .

(٢) فى الكامل ص ٥٥ ج ١٠ : وتاج الملة .

بسمر قند الأمير العميد أبا طاهر عميد خوارزم ، وسار السلطان ؛ وقصد كاشغر ، فبلغ [بيوزكند] (١) وأرسل رسلا إلى ملك كاشغر ، فأمره بأقامة الخطبة له ؛ وضرب السكّة باسمه ، وتوعّده إن خالف ، فأجاب إلى ذلك ، وفعله ، وحضر إلى السلطان ، فأكرمه ، وتابع الإنعام عليه ، وأعاده إلى بلده ، وعاد السلطان إلى خراسان .

ذكر عصيان سمرقند وفتحها

قال : ولما أُبعد السلطان عن سمرقند لم يتفق أهلها وعسكرها المعروفون بالجكلية مع العميد أبى طاهر نائب السلطان عندهم ، فاحتال حتى خرج من عندهم ، ومضى إلى خوارزم ، وكاتب مقدم الجكلية ، واسمه عزّ (٢) الدولة يعقوب تكين ، وهو أخو ملك كاشغر يستدعيه ، فحضر عنده بسمر قند ، واتفقا ، ثم إن يعقوب علم أن أمره لايستقيم معه ، فوضع عليه من الرعّية من ادّعى عليه بدماء قوم كان قتلهم ، فقتله يعقوب ؛ واتصلت الأخبار بالسلطان ، فعاد إلى سمر قند ، فلما وصل إلى بخارى هرب يعقوب المستولى على سمر قند ومضى إلى فرغانة ، ولحق بولايته ، فملك السلطان سمر قند (٣) ورتب بها الأمير أتسز (٤) ، وسار فى أثر يعقوب حتى نزل بيوزكند

(١) فى الأصل : يوزكند ، والصواب ما أثبتناه عن ياقوت ويقال لها : بوزكند . بلدان ياقوت — ١ — ٣٧٤ ، ٨ — ٥٣٠ .

(٢) انظر الكامل ج ١٠ ص ٥٩ حوادث سنة ٤٨٢ هـ .

(٣) الزيادة : من ت ، وهو موافق للكامل بالصفحة السابقة .

(٤) فى الأصل : أتشز . وفى الكامل بالصفحة نفسها أيسر ، وقد مر تصويبها فى ص ٣١٦ من هذا الجزء .

وأرسل العساكر إلى ملك كاشغر يطلبه منه ، وأنه إذا لم يرسله قصد بلاده ، واتفق أن عسكر يعقوب شَغَبوا عليه ، ونهبوا خزائنه ، فاضطَر إلى أن هرب إلى أخيه بكاشغر ، واستجار به ، وكان بينهما عداوة مستحكمة ، فكاتبه السلطان فى إرساله ، وإنه إن لم يفعل كان هو العدو ، فقبض عليه ، وسيّره مع ولده ، وجماعة من أصحابه ، وأمرهم أنهم إذا صاروا بالقرب من السلطان سملوه ، فإن رضى السلطان بذلك ، وإلا سلّموه إليه ، فلما قصدوا سمْلَهُ وأحموا الميل ، جاءهم الخبر أن طغرل بن ينال كبس ملك كاشغر وأسره ، فأخروا يعقوب ، وأطلقوه ، ثم انفق هو والسلطان ، وجعله السلطان يقابل طغرل ، وعاد السلطان إلى خراسان .

ذكر وصول السلطان الى بغداد

وفى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وأربعمائة وصل السلطان إلى بغداد ، وهى المرة الثانية ، ونزل بدار المملكة ، ووصل إليه أخوه تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وقسيم الدولة « آق سنقر » صاحب حلب وغيرهما من عمال الأطراف ، وأمر السلطان بعمارة الجامع المعروف بجامع السلطان ، وابتدىء بعمارته فى المحرم سنة خمس وثمانين .

ذكر ملك السلطان اليمن

قال : ولما وصل السلطان إلى بغداد كان ممن حضر معه [١] جُبق أمير التركمان ، وكان صاحب قرميسين ، وغيرها ، فأمره السلطان أن يسير بجماعة من أمراء التركمان إلى الحجاز ، واليمن ، ويكون أمرهم [٢] إلى سعد الدولة كوهراتين ليفتحوا البلاد ، فاستعمل سعد الدولة أميراً اسمه ترشك ، فساروا واستولوا على اليمن ، وملكوا عدن ، وأساءوا السيرة فى أهلها ، فظهر على ترشك الجدري ، فتوفى فى سابع يوم وصوله إليها ، فعاد أصحابه إلى بغداد .

ذكر مقتل الوزير نظام الملك

وفى ليلة السبت العاشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة قتل الوزير خواجا بزرك قوام الدين نظام الملك أبو على الحسن بن على بن إسحاق بالقرب من نهاوند ، وكان هو والسلطان ملكشاه قد عادا من أصفهان إلى بغداد ، فلما كان بهذا المكان بعد أن فرغ من إفطاره ، وقام من خيمته إلى خيمة حرمه ، أتاه صبي ديلمى من الباطنية فى صورة مستميح ، أو مستغيث ، فوثب عليه ، وضربه بسكين ، فمات ، وهرب الصبي ، فعثر فى أطناب الخيمة ، فأدركوه وقتلوه ، ولما قتل ركب السلطان إلى خيمته ، وسكن عسكره وأصحابه ،

(١) فى ت : حضر عنده .

(٢) هكذا فى ت . وفى الأصل : أميرهم .

وقيل فى سبب موته[١] أنه كان[٢] قد ولى عثمان بن ابنه[٣] جمال الملك رئاسة مرو ، فأرسل السلطان إليها شِحْنة من أكبر مماليكه ، وأعظم أمرائه يقال له : قودن ، فجرى بينه ، وبين عثمان منازعة ، فحملت عثمان حدة الشبيبة على قبضه ، والإخراق به ، ثم أطلقه ، فجاء إلى السلطان مستغيثا ، وأخبره بما صنع به عثمان ، فغضب السلطان ، وأرسل إلى جده الوزير نظام الملك يقول : « إن كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدى فى السلطنة فلذلك حكم ، وإن كنت نائبى ، فيجب أن نلتزم حد البيعة ،[٤] والنيابة . هؤلاء أولادك قد استولى كل منهم على كورة عظيمة ، وولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة إلى أن فعلوا كيت وكيت ... » ، وأطال القول ، وأرسل إليه بهذه الرسالة تاج الملك ، ومجد الملك الباسلانى وغيرهما ، من أرباب دولته ، وأرسل معهم الأمير « باليرد[٥] » ، وكان من ثقاته ، وقال له : تعرفنى مايقول ، فربما كتم هؤلاء شيئاً ، فحضروا عند الوزير ، وأدوا الرسالة ، فقال : قولوا للسلطان إن كنت ما عمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فإنك[٦] ما نلت هذا الأمر إلا بيدى ، ورأيى ، أما يذكر حين قتل أبوه ، فقمت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه

(١) فى ت : مثله . وهو موافق للكامل ص ٧٠ ج ١٠ حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٢) الزيادة : من ث .

(٣) هكذا فى ت . وفى الكامل بالصفحة السابقة ، وكان سبب قتله أن عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك كان قد ولاه نظام الملك رئاسة مرو ، وفى الأصل بن أخيه ، وهو خطأ ، ظاهر ، وسيأتى فى هذه الصفحة ما يرجحه .

(٤) فى ت : حد النيابة ، وانظر أيضا الكامل ص ٧١ ج ١٠ .

(٥) فى الكامل بالصفحة السابقة : يلبرد .

(٦) هكذا فى ت . وفى الأصل فإنى .

من أهله وغيرهم ، وهو فى ذلك الوقت يتمسك بى ويلازمنى ، ولايخالفنى ، فلما رددت الأمور إليه ، وجمعت الكلمة عليه ، وجمعت له الأمصار القريبة والبعيدة سمع فىّ السعايات. قولوا له : «إن ثبات هذه القلنسوة [معذوق[1]] بهذه الدواة ، وأن انفاقهما رباط. كل رعية ، وسبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك». فى كلام كثير قاله ، فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما قاله عن السلطان ، ومضى كل منهم إلى خيمته وجاء باليرد [2] إلى السلطان ، فأخبره بما قاله الوزير على غرة ، وجاء الجماعة بكرة النهار إلى السلطان ، فأخبروه عنه بالعبودية ، فقال لهم : إنه قال : كيت وكيت ، فأشاروا عند ذلك بكتمانه رعاية لحق نظام الملك ، ولعظم شأنه ، فإن مماليكه كانوا قد أنافوا على عشرين ألفا غير الجند والأتباع ، فوقع التدبير عليه حتى قتل ، وظن السلطان أن الدنيا قد صفت له بعد ذلك ، فما عاش بعده إلا خمسة وثلاثين يوما .

ذكر ابتداء حال نظام الملك وشىء من سيرته وأخباره

كان نظام الملك من أبناء الدهاقين بطوس ، فزال ما كان لأبيه من مال وملك ، وتوفّيت والدة نظام الملك ، وهو يرضع ، فكان أبوه يطوف به على المراضع يرضعنه حِسبةً حتى شبّ ، وقرأ ، وتعلم العربية ، وتفقه ، وصار من الفضلاء ، وسمع الحديث الكثير ، وكان يطوق

(١) فى الأصل : تعددت . وفى ت . معروف ، وما أثبتناه هو ما ذكره الكامل ص ٧١ ج ١٠ ومعذوق : متوط ومرتبط ، وانظر ص ٢٢٢ ج ٨ من نهاية الأرب ، وأيضا حاشية رقم ٦ .

(٢) انظر حاشية رقم ٥ بالصفحة السابقة ص ٣٣١ .

بلاد خراسان ، ووصل إلى غزنة فى صحبة بعض المتصوفين ، ثم لزم أبا على بن شادان متولّى الأمور بباخ لداود والد السلطان ألب أرسلان ، فحسُنت حاله معه ، وظهرت كِفايته ، وأمانته ، وصار معروفا عندهم بذلك ، فلما حضرت أبا على الوفاة أوصى ألب أرسلان به ، فولاه شغله ، ثم صاروزيرًا له إلى أن ولى السلطنة ، وتنقّل فى الوزارة ، فكانت وزارته ثلاثين سنة . هذا أحد ما قيل فى ابتداء أمره .

وأما سيرته : فإنه كان عالما أديبا جوادا كثير الحلم والصفح عن المذنبين ، وكان مجلسه عامرا بالفقهاء ، والفقراء ، وأئمة المسلمين ، وأهل الخير والصلاح . أمر ببناء المدارس فى سائر الأمصار والبلاد ، وأجرى لها الجرايات العظيمة ، وأسقط المكوس والضرائب ، وأزال لعن الأشعرية من على المنابر ، فإن الوزير عميد الملك الكندرى كان قد حسّن للسلطان لعن الرافضة ، وأضاف إليهم الأشعرية ، وكان نظام الملك رحمه الله تعالى إذا سمع المؤذن أمسك عما هو فيه ، ويجيبه ، فإذا فرغ من الأذان لا يبدأ بشىء قبل الصلاة ، وله من حسن الآثار ما هو موجود باق إلى وقتنا هذا رحمه الله تعالى .

ذكر وفاة السلطان ملكشاه وشىء من سيرته

كانت وفاته ببغداد فى يوم الجمعة منتصف شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وذلك أنه لما قتل الوزير نظام الملك كما قدمناه ، سار السلطان إلى بغداد ، فدخلها فى الرابع والعشرين من شهر رمضان من السنة ، وخرج فى أوائل شوال إلى ناحية دجيل للصيد ، فاصطاد

وحشا [١] وأكل من لحمه ، فابتدأت به العلة ، فعاد إلى بغداد ، فتوفى ولم تشهد جنازته ، ولا صلى عليه فى الصورة الظاهرة ، ولا هلب عليه ذنب فرس كعادة أمثاله من الملوك ، ولا لطم عليه وجه ، وحمل إلى أصفهان ، ودفن بها فى مدرسة له موقوفة على طائفة الشافعية ، والحنفية .

قال : وكان مغرما بالعمارة ، فحفر الكثير من الأنهار . وعمر الأسوار على كثير من البلاد ، وصنع فى طريق مكة مصانع ، وكان كثير الصيد ، وكانت السبل فى أيامه آمنة ساكنة تسير القوافل مما وراء النهر إلى أقصى الشام ، وليس معهما خفير ، وحكى محمد ابن عبد الملك الهمذانى : أن السلطان [٢] لما توجه لحرب أخيه تكش اجتاز بمشهد على بن موسى الرضا بطوس ، فدخل ومعه نظام الملك الوزير فصليا ، وأطال الدعاء ، ثم قال لنظام الملك : بأى شىء دعوت قال : أن ينصرك الله ، ويظفرك بأخيك ، فقال : أما أنا ولم أدع بهذا ، وإنما قلت اللهم انصر نفعنا للمسلمين والرعية ، وحكى عنه حكايات تدل على محاسنه ، وجودته ، وخيره .

وكان قد قرر ملك البلاد لمماليكه ، فجعل غلامه برسق يحارب الروم ، فضايقهم حتى قرر عليهم ثلثمائة ألف وثلاثين ألف دينار جالية ، ثم توجه إلى القسطنطينية وحاصرها ، وقرر عليهم ألف ألف دينار ،

(١) هكذا فى ت . وفى الأصل : لحما .
(٢) الزيادة : من ت .

وبنى قونية[1] ، وقصرا ، وسير أخاه تاج الدولة تتش إلى دمشق ،وقسيم الدولة آق سنقر بحلب ، وغيرهم فى كل جهة .

وكانت مدة ملكه عشرين سنة ، وسبعة أشهر ، وستة أيام ، وكان له من الأولاد أبو المظفر بركيا روق ، ومحمد طبر ، وأبو الحارث سنجر شاه ، ومحمود ، وهو أصغرهم .

وزيره : نظام الملك ، وقد تقدم ذكره .

ذكر أخبار السلطان بركيا روق

هو أبو [2] المظفر بركيا روق بن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغرى بك بن ميكائيل بن سلجق ، وهو الرابع من ملوك الدولة السلجقية .

وبركيا روق بفتح الباء الموحدة ، وسكون الراء والكاف ، وفتح الياء المثناة من تحت ، وبعد الألف راء مضمومة ، وبعد الواو الساكنة قاف .

قال المؤرخ : لما مات السلطان ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون موته ، وأرسلت إلى الأمراء ، وفرقت الأموال ، واستخلفت لولدها محمود ، وعمره أربع سنين وشهورا ، وأرسلت إلى الخليفة

(١) فى ت : ديتى قرية. ويبدو أن العبارة غير سليمة ، فقد جاء فى النجوم الزاهرة ص ١٩٠ ج ٥ حوادث سنة ٤٩٨ فى الحديث عن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش ما يلى : وكان مبدأ قلج أرسلان هذا أنه خدم ملكشاه السلجوقى ، فأرسله على جيش لغزو الروم ؛ فسار وافتتح ملطية وقيسارية وأقصرى وقونية وسيواس وجميع ممالك الروم ،فأقره ملك شاه بها . وانظر أيضا أبا الفدا ص ١٨٤ ، ١٨٥ ج ٢ .

(٢) الزيادة : من ت . وانظر أيضا شذرات الذهب ص ٤٠٧ ج ٣ .

المقتدى بأمر الله فى الخطبة له ، فأجابها إلى ذلك على أن يكون الأمير أتسِزْ مدبر الجيش ، وتاج الملك يتولى تدبير الأموال والدواوين ، وخطب له ، ولقب ناصر الدنيا والدين ، وكانت الخطبة له فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوال ، وكان بركيا روق إذ ذاك بأصفهان ، فكتبت تركان خاتون بالقبض عليه ، فقبض عليه ، فلما ظهر موت السلطان ملكشاه ، ثارت المماليك النظامية ، وأخرجوه من الحبس وملكوه ، فسارت تركان خاتون من بغداد إلى أصفهان ، فلما قاربتها تحول بركيا روق إلى الري ، ولقيهم أرغش [1] النظامى فى عساكره ، وإنما حمل النظامية على نصرة بركيا روق كراهتهم لتاج الملك ، فإنه الذى دبر فى قتل مولاهم . قال : وأرسلت تركان خاتون العساكر لقتال بركيا روق ، فلما التقى العسكران انحاز جماعة من الأمراء الذين فى عسكرها إلى خدمة بركيا روق منهم : الأمير باليرد ، [2] وكمشتكين الجاندار [3] ، وغيرهما ، فقوى بهم ، وكانت الحرب بينهم فى آخر ذى الحجة من السنة ، فانهزم عسكر تركان خاتون ، وعاد إلى أصفهان ، وسار بركيا روق فى أثرهم ، وحصرهم بها .

---

(١) فى الكامل ص ٧٤ ج ١٠ ، حوادث سنة ٤٨٥ أرغش .

(٢) انظر حاشية رقم ٥ من ص ٣٣١ من هذا الجزء .

(٣) الجاندارية : وظيفة صاحبها كالمتسلم يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان . هامش النجوم الزاهرة ص ١٣٢ ج٦ . عن صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ .

ذكر قتل تاج الملك

كان تاج الملك فى عسكر تركان خاتون ، فانهزم إلى نواحى بروجرد فأُخِذ ، وجىء به إلى عسكر بركياروق ، وهو يحاصِر أصفهان ، وكان يعرف كفايته ، فأراد أن يستوزره ، فشرع فى إصلاح أكابر المماليك النظامية . وفرق فيهم مائتى ألف ، فزال مافى نفوسهم منه ، فوثب عثمان الذى كان نائب نظام الملك ، ووضع الغلمان الأصاغر النظامية ، واستغاثوا ألا تَقنعوا إلا بقتل قاتل مولاهم ، ففعلوا ذلك ،[1] وهجموا عليه ، وقطعوه عضوا عضوا ، وذلك فى المحرم سنة ست وثمانين وأربعمائة ، فاستوزر بركياروق عز الملك بن نظام الملك ، واستولى بركياروق على الرى . وهمذان ، وما بينهما ، وقدم بغداد فى أواخر سنة ست وثمانين ، وخطب له بها فى يوم الجمعة رابع المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وحملت إليه الخلع ، فلبسها ، وعلم الخليفة على عهده ، ومات [2] فجأة ، وتولى ابنه المستظهر بالله الخلافة ، فأرسل الخلع والعهد إلى السلطان بركياروق ، فأقام ببغداد إلى شهر ربيع الأول من السنة ، وسار إلى الموصل ، ثم إلى نصيبين ، وكان بينه ، وبين عمه تتش من الحرب ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) زيادة من ت .

(٢) أى الخليفة المقتدى بالله . شذرات الذهب ج٣ – ص ٣٨٠ ، والنجوم الزاهرة ج٥ – ص ١٤١ .

ذكر انهزام بركياروق من عمه تتش ودخوله الى أصفهان ووفاة أخيه محمود

قال : ولما اتصل بتتش وفاة أخيه ملكشاه سار من الشام ، وملك حلب ، وحران ، والرها ، والجزيرة جميعها ، وديار بكر ، وخلاط ، وآذربيجان ، وهمذان على ما نذكره فى أخباره إن شاء الله تعالى ، فلما قارب البلاد سار السلطان بركيا روق لدفعه عنها ، ووصل إلى أربل ، وقرب من جيش عمه ، ولم يكن معه غير ألف فارس ، وكان عمه فى خمسين ألفا ، فجهز عمه من أمرائه من كبس عسكره ، فهرب بركيا روق ، ونهب سواد عسكره ، ولم يبق معه إلا برسق ، وكمشتكين الجاندار ، وبركيا روق ، وهم من الأمراء الأكابر ، وخطب لعمه عند هذه الحادثة ببغداد على ما نذكره . وسار هو إلى أصفهان ، وكانت تركان خاتون والدة أخيه محمود قَدْ ماتت ، فخرج إليه أخوه الملك محمود ، وتلقاه ، وأدخله البلد . وكان ذلك خديعة ليقبض عليه ، فلما دخل بركيا روق قبض عليه محمود ، وقصد سمله ، فاتفق أن محمودًا حُم وجُدِر ، فقال لهم أمين الدولة بن التلميذ [1] الطبيب : « إن الملك قد جدر ، وما أراه يسلم ، والمصلحة إبقاء بركياروق ، فإن مات صاحبكم ملكوه ، ولا تعاجلوه بالإتلاف » ، فتركوه ، فمات محمود فى سلخ شوال سنة سبع وثمانين وأربعمائة [2] فكان هذا من الفرج بعد الشدة كما قيل :

---

(١) فى الأصل : ابن التلميذ . وما أثبتناه موافق للكامل ص٨١ ج ١٠ ، وشذرات الذهب ص ١٩٠ ج ٤ حوادث سنة ٥٦٠ هـ

(٢) زيادة من ت .

« مصائب قوم عند قوم فوائد »

قال : ولما مات محمود حبس بركياروق للعزاء به ، واستوزر مؤيد الملك بن نظام الملك فى ذى الحجة ، فكاتب الوزير الأمراء العراقيين ، والخراسانيين ، واستمالهم ، فعادوا كلهم إلى بركياروق ، فعظم شأنه ، وكثرت عساكره ، والتقى هو وعمه تتش فى سنة ثمان وثمانين ، واقتتلوا بالقرب من الرىّ ، فانهزم عسكر « تتش » ، وقتل على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبارد ، واستقامت السلطنة لبركياروق ، وفى سنة ثمان وثمانين ، عزل بركياروق وزيره مؤيد الملك بن نظام الملك ، واستوزر أخاه فخر الملك .

ذكر مقتل أرسلان أرغو

وفى المحرم سنة تسعين وأربعمائة قتل أرسلان أرغو [1] بن ألب أرسلان أخو ملكشاه بمرو ، وكان ملك خراسان . وسبب قتله أنه كان شديداً على غلمانه كثير الإهانة لهم والعقوبة ، فطلب غلاما منهم ، فدخل عليه ، وليس عنده أحد ، فانكر عليه تأخره عن الخدمة ، فاعتذر ، فلم يقبل عذره ، وضربه ، فأخرج الغلام سكينا ، فقتله بها ، وأخذ الغلام ، فقيل له لم فعلت هذا ، فقال لأريح الناس منه . والله أعلم .

(١) فى الكامل ص ٩٠ ج ١٠ حوادث سنة ٤٩٠ أرسلان أرغوف ، وانظر ما مر فى هامش ص ٣١٠ من هذا الجزء .

ذكر ملك بركياروق خراسان ، وتسليمها لأخيه سنجر

قال : كان السلطان بركيا روق قد جهز العساكر مع أخيه الملك سنجر إلى خراسان لقتال عمه أرسلان أرغو ، وجعل الأمير قماج أتابكاً لسنجر ، ورتب فى وزارته أبا الفتح علىّ بن الحسين الطوسى فلما وصلوا إلى الدامغان ، بلغهم خبر قتله ، فأقاموا هناك حتى لحقهم السلطان ، وساروا إلى نيسابور ، فوصلوها فى خامس جمادى الأولى من السنة ، وملكها السلطان وسائر البلاد الخراسانية بغير قتال ، وسار إلى بلخ ، وكان عسكر أرسلان أرغو قد ملكوا ابنا صغيراً عمره سبع سنين ، فلما بلغهم قدوم السلطان أبعدوا إلى جبال [طخارستان ،] (١) وطلبوا الأمان ، فأمنهم السلطان ، وحضروا إليه فى خمسة عشر ألف فارس ، فأخذ ابن عمه ، وأحسن إليه ، وتسلمته والدة بركياروق تربية ، وتفرّق جيشه فى خدمة الأمراء ، وسار السلطان إلى ترمذ ، (٣) فسلمت إليه ، وأقام ببلخ سبعة أشهر ، وأرسل إلى ما وراء النهر ، فأقيمت له الخطبة بسمر قند ، ودانت له البلاد .

ذكر خروج أمير أميران

وفى سنة تسعين وأربعمائة خالف أمير اسمه محمد بن سليمان ، ويعرف بأمير أميران ، وهو ابن عم ملكشاه ، على السلطان بخراسان ،

(١) فى الأصل . طبرستان . وما أثبتناه نقلا من الكامل ص ٩٢ ج ١٠ ، وهو الأنسب .
(٢) زيادة من ت . وهى موافقة للكامل ص ٩٢ ج ١٠ .

وتوجه إلى بلخ ، واستمد صاحب غزنة ، فأمده بجيش كثير ، وشرط عليه أن يخطب له فى جميع ما يفتحه من البلاد الخراسانية ، فقويت شوكته ، فسار إليه الملك سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان أخو السلطان جريدة ، وكبسه ، وأسره ، وكحله .

ذكر ظهور السلطان محمد طبر بن ملكشاه والملك سنجر وخروجهما على أخيهما السلطان بركياروق والخطبة لمحمد

وإنما ذكرنا أخبار السلطان محمد ، وأخيه سنجر فى دولة السلطان بركياروق لأنه فى هذا التاريخ [كان[1]] هو الملك المشار إليه ، وهما كالخوارج عليه ، وإن كان محمد فى هذه المدة ملك البلاد ، وخطب له ببغداد ، وغيرها ، إلا أنه لم يستقل بغير منازع ؛ فلهذا أوردناه الآن فى دولة بركياروق ، وسنذكر سلطنته بعد وفاة السلطان بركيا روق ؛ ثم نذكر بعده سلطنة السلطان سنجر إن شاء الله تعالى . كان السلطان محمد طبر ، وسنجر أخوين لأب وأم ، وأمهما أم ولد ، ولما مات والدهما السلطان ملكشاه كان محمد معه ببغداد ، فسار مع أخيه محمود ، ووالدته تركان خاتون إلى أصفهان ، فلما حصر بركيا روق أصفهان خرج إليه محمد ، وسار معه إلى بغداد سنة ست وثمانين ، وأقطعه بركياروق كَنْجه [2] ، وأعمالها ، وجعل معه الأمير ، فبلغ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) مدينة عظيمة قصبة بلاد أران . وأهل الأدب يسمونها جنزه وكنجة من نواحى لرشان بين خوزستان وأصبهان : بلدان ياقوت .

تكين [١] أتابكاً له ، فلما قوى محمد قتله ، واستولى على جميع أعمال « أرّان » إلى « كنجه » من جملتها ، وظهرت شهامته ، واتفق أن السلطان عزل مؤيد الملك بن نظام الملك من وزارته . فسار إلى الأمير أتسز [٢] ، وحسن له العصيان على السلطان . فلما قتل أتسز سار مؤيد الملك إلى السلطان محمد ، فأشار عليه بمخالفة أخيه ، والسعى فى طلب السلطنة ،ففعل ذلك ، وقطع خطبة السلطان بركيا روق من بلاده ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، واستوزر مؤيد الملك ، وذلك فى سنة اثنين وتسعين وأربعمائة ، واتفق أن السلطان قتل وزيره « مجد الملك الباسلانى [٣] » فى هذه السنة . وكان قد تمكن منه ، فنفرت خواطر الأمراء من السلطان ،ففارقه مع جماعة منهم ، والتحقوا بمحمد ، فقوى بهم ، وسار نحو الرى . فسبقه إليها السلطان بركياروق ، وجمع العساكر ، وسار إلى أصفهان فأغلق أهلها الأبواب دونه . فسار إلى خوزستان ، وورد السلطان محمد إلى الرى ، واستولى عليها فى ثانى ذى القعدة من السنة . ووجد بها زبيدة خاتون ، والدة أخيه بركياروق . فسجنها مؤيد الملك بالقلعة ثم خنقها .

---

(١) فى الكامل ص ٩٩ ج ١٠ حوادث سنة ٤٩٢ : فبلغ تكين .

(٢) فى الأصل : أتسر ، وانظر حاشية رقم (٢) ص ٢١٧ من هذا الجزء .

(٣) فى الكامل ص ١١٠ ج ١٠ حوادث سنة ٤٩٢ البلاسانى ، وهو : مجد الملك أبو الفضل أسعد بن محمد . وكذلك فى أبى الفدا ص ١٢١ ج ٢ .

ذكر اقامة الخطبة لمحمد ببغداد

قال : ولما قوى أمر السلطان محمد سار إليه سعد الدولة كوهراتين[١] من بغداد ، وكان قد استوحش من السلطان بركياروق ، فاجتمع هو وكريوقا صاحب الموصل . وجكرمش صاحب الجزيرة . وسرجاب[٢] ابن بدر صاحب كنكور ، وغيرها ، وساروا إلى السلطان محمد ، ولقوه «بقم» ، فخلع عليه سعد الدولة ، ورده إلى بغداد ، وسار بقيتهم فى خدمته إلى أصفهان ، فلما وصل سعد الدولة إلى بغداد خاطب الخليفة فى الخطبة إلى محمد ، فأجاب إلى ذلك ، وخطب له فى يوم الجمعة سابع عشر فى ذى الحجة سنة اثنين وتسعين وأربعمائة ، ولقب غياث الدنيا والدين .

ذكر اعادة الخطبة ببغداد للسلطان بركياروق

قال : لما سار بركياروق إلى خوزستان عندما منع من دخول أصفهان كما ذكرناه جمع العساكر ، وكان أمير جيشه حينئذ ينال ابن أنو شتكين الحساء ، فتجهز ، وسار إلى واسط ، ثم منها إلى بغداد ، فدخلها فى سابع عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة ، وخطب له بها فى يوم الجمعة نصف صفر قبل وصوله إليها بيومين ، وكان سعد الدولة كوهراتين « بالشفيعى » ، ومعه إيلغازى بن

---

(١) انظر حاشية رقم (٢) ص ٣٢١ من هذا الجزء .

(٢) فى الكامل ص ١١٠ ج ١٠ حوادث سنة ٤٩٢ : سرخاب بن بدر صاحب كنكور وغيرها . وفى الأصل : سرجاب ابن بدر صاحب كيكور وغيرهم .

أرتق ، وغيره من الأمراء ، فأرسل إلى مؤيد الملك[١] ، وإلى السلطان محمد يستحثهما على الوصول إليه ، فأرسلا [كريوقا] [٢] صاحب الموصل ، وجكرمش ، فأما جكرمش[٣] ، فاستأذن سعد الدولة فى العود إلى بلده ، فأذن له ، فعاد إلى جزيرة ابن عمر ، وبقى سعد الدولة فى جماعة من الأمراء ، فكتب أعيانهم إلى السلطان بركياروق أن يخرج إليهم ، وأنهم لا يقاتلونه ، فخرج إليهم ، فلما عاينوه ترجلوا ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وعادوا فى خدمته إلى بغداد ، واستوزر السلطان الأعز أبا المحاسن بن عبد الجليل بن على الدهشانى ،[٤] وقبض على عميد الدولة [٥] بن جهير وزير الخليفة ، وطالبه بالأموال ، فاستقر الأمر بينهما على مائة ألف وستين ألف دينار يحملها ، وخلع الخليفة على بركياروق ، والله أعلم بالصواب .

ذكر الحرب بين السلطانين بركياروق ومحمد والخطبة لمحمد ببغداد

وفى سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة سار السلطان بركياروق من بغداد ، وجعل طريقه على شهرزور ، وأقام بها ثلاثة أيام ، والتحق به عالم

---

(١) هكذا فى ت : مؤيد الدولة ، وانظر ص ٣٢٤ من هذا الجزء .

(٢) فى الأصل : كويوفا ، وقد مركما صوبناه فى الصفحة السابقة .

(٣) ت وفى الأصل : حرمكش ، وقد مر وفى الصفحة السابقة .

(٤) فى ت : الدهشتان ، وما فى الأصل موافق للكامل ص ١٠٢ ج ١٠ حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٥) فى الأصل : عبد الملك . وما أثبتناه موافق للكامل بالصفحة السابقة ، والنجوم الزاهرة ص ١٦٧ ج ٥ .

كثير من التركمان [١] ، وغيرهم ، وسار نحو أخيه محمد ، فوقعت الحرب بينهم فى رابع شهر رجب [بإسبيدروز] ، [٢] ومعناه : النهر الأبيض ، وهو على عدة فراسخ من همذان ، وكان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل ، فحمل كوهراتين من ميمنة بركياروق على ميسرة محمد ، وبها مؤيد الملك والنظامية ، فانهزموا ، ودخل عسكر بركياروق فى خيامهم ، ونهبوا ما فيها ، وعاد سعد الدولة ، فكبابه فرسه ، فقتله خراسانى ، وأخذ رأسه ، وكان سعد الدولة خادما من خدام الملك أبى كاليجار بن سلطان الدولة من بويه ، ثم انتقل بعده إلى السلطان طغرلبك ، وتنقل فى خدمة الملوك السلجقية ، فلما قتل تفرقت عساكر بركياروق ، وبقى فى خمسين فارسا ، وأسر وزيره الأعز ، فأكرمه مؤيد الملك ، وأحسن إليه ، وأعاده إلى بغداد ، وأمره بالمخاطبة فى إعادة الخطبة للسلطان محمد ، ففعل ، وأجيب إلى ذلك ، وخطب له فى يوم الجمعة رابع عشر رجب من السنة .

ذكر حال السلطان بعد الهزيمة وانهزامه أيضا من أخيه سنجر

قال : وانهزم السلطان بركياروق فى خمسين فارسا . فقصد الرى ، فاجتمع معه جمع صالح ، فسار إلى « أسفرايين [٣] » ، ثم

(١) فى الأصل : التركان . وما أثبتناه نقلا عن الكامل بالصفحة السابقة .

(٢) فى الأصل : بأسبورة . وما أثبتناه نقلا عن ياقوت فى معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٦ . وهو الصواب لاتفاق ذكره عن هذه البلدة مع ما هو مذكور .

(٣) بليدة من نواحى نيسابور . بلدان ياقوت ١ — ٢٢٨ .

إلى نيسابور ، واستدعى الأمير ذاد حبشى بن التوتيان [١] ، وكان بيده حينئذٍ أكثر خراسان ، وطبرستان ، وجرجان ، فاعتذر أن الملك سنجر قصد بلاده فى هذا الوقت بعساكر بلخ ، وسأل السلطان أن يحضر إليه ليعينه على حرب الملك سنجر ، فسار إليه فى ألفى فارس ، فعلم بقدومه الأمراء والأكابر من أصحاب سنجر دون الأصاغر ، وكان مع الأمير ذاد عشرون ألف مقاتل منهم رجالة [٢] الباطنية خمسة آلاف ووقع المصاف بين بركياروق ، وسنجر خارج البوسنجان ، فانهزم أصحاب سنجر أولاً ، واشتغل أصحاب بركياروق بالنهب ، وكانت الدائرة عليهم ، فانهزموا ، وأسر أكثر أعيان بركياروق وقتل أمير ذاد [٣] ، وسار بركياروق إلى جرجان [٤] ، ثم إلى دامغان ، وسار فى البرية ، فرأى فى بعض المواضع . ومعه سبعة عشر فارسا ، وجمّازة واحدة ، ثم كثر جمعه ، فصار فى ثلاثين ألف فارس ، وسار إلى أصفهان ، فسبقه السلطان محمد إليها .

---

(١) فى ت : ابن التوتيتاق . وفى الكامل ص ١٠٣ ج ١٠ : وابن حيش بن التوتتاق . وفى الأصل : داد . وسيأتى زاد فى مواضع عده ، فوضعناه لذلك .

(٢) فى ت : رجال .

(٣) الزيادة : من ت .

(٤) فى الكامل ص ١٠٣ ج ١٠ : ثلاثة آلاف فارس .

ذكر الحرب بين السلطانين بروكياروق ومحمد ثانيا ، وقتل مؤيد الملك (١)

وفى سنة أربع وتسعين وأربعمائة فى ثالث جمادى الآخرة كان المصاف الثانى بينهما ، وكان مع كل واحد منهما خمسة عشر ألف فارس ، فاستأمن كثير من أصحاب محمد إلى بركياروق ، ودام القتال بين الفريقين إلى آخر النهار ، فانهزم السلطان محمد ، ومن معه ، وأسر وزيره مؤيد الملك ، فأمر السلطان بقتله ، وأخذ ما كان له من الأموال والجواهر لبغداد ، والله أعلم بالصواب .

ذكر حال محمد بعد الهزيمة واجتماعه باخيه سنجر

ولما انهزم السلطان محمد سار طالبا خراسان إلى أخيه سنجر ، فأقام بجرجان ، وأرسل إلى أخيه يطلب منه مالا وكسوة وغير ذلك ، فسير إليه ما طلب ، وترددت الرسائل بينهما . وتحالفا ، واتفقا ، ولم يكن قد بقى مع السلطان محمد غير أميرين فى نحو ثلثمائة فارس ، فلما استقرت بينهما القواعد سار سنجر فى عساكره إلى أخيه ، فاجتمعا بجرجان ، وسارا منها إلى دامغان ، وسارا إلى الرى ، وانضم إليهما النظامية ، فكثر جمعهم ، وعظمت شوكتهم ، والله أعلم .

---

(١) ت ، وفى الأصل : مؤيد الدولة . وقد مر تصويبه فى ص ٣٢٤ ، وما بعدها من هذا الجزء .

ذكر مافعله بركياروق ، ودخوله الى بغداد

قال : ولما انهزم السلطان محمد أقام بركياروق بالرى ، واجتمعت عليه العساكر ، فسار معه نحو من مائة ألف فارس ، فضاقت عليهم الميرة ، فتفرقت العساكر عنه ، فعاد دبيس بن صدقة إلى أبيه ، وتوجه الأمير إياز إلى همذان ، وتفرقت العساكر إلى أن بقى فى قلّة من العسكر ، فبلغه اجتماع أخويه ، وأنهما حشدا ، وكثرت جموعهما ، فتوجه إلى بغداد ، وضاقت عليه النفقات ، فراسل الخليفة عدة مراسلات ، فتقرر أن يحمل إليه خمسين ألف دينار ، فحملهما الخليفة إليه ، فلم تغن شيئاً ، فأفضى الحال إلى أن مد يده إلى أموال الناس ، وانتهبها ، فركب من ذلك خطّةً شنيعة ، وخالفه الأمير صدقة بن منصور بن دبيس صاحب الحلة ، وقطع خطبته من بلاده ، وخطب للسلطان محمد ، وسبب ذلك أن الوزير أبا المحاسن وزير بركياروق سير يطالبه بألف ألف دينار وكسور ، وقال : إنها قد تخيرت عليك ، فاما أن ترسلها وأما أن تتجهز الجيوش إليك ، فقطع الخطبة ، وعصى عليه ، والله أعلم بالصواب .

ذكر وصول السلطان محمد ، وسنجر الى بغداد ، ورحيل بركياروق عنها

وفى السابع والعشرين من ذى الحجه سنة أربع وتسعين وأربعمائة وصل السلطان محمد وسنجر الملك إلى بغداد ، ولما وصلا حلوان سار إيلغازى بن أرتق فى عسكره إلى السلطان محمد ، وخدمه ، وكان

عسكر السلطان محمد يزيد على عشرة آلاف فارس سوى الأتباع ، فلما وصلت الأخبار بذلك كان السلطان بركياروق على شدة من المرض ، فخاف أصحابه ، واضطربوا ، وعبروا به فى محفة إلى الجانب ، وتيقن أصحابه موته ، ثم تراجعت إليه روحه ، ووصل السلطان محمد ، والملك سنجر إلى بغداد ، فخرج توقيع الخليفة المستظهر بأمر الله يتضمن سوء سيرة بركياروق ، والاستبشار بقدومهما ، وخطب للسلطان محمد بالديوان العزيز ، ونزل الملك سنجر دار كوهراتين ، ثم كانت الحرب بين السلطانين فى صفر سنة خمس وتسعين ، وهو المصاف الثالث ، ووقع بينهما الصلح على أن يكون بركياروق السلطان ، ومحمد الملك ، وتضرب له ثلاث نوب ، ويكون له من البلاد [جنزة] (١) وأعمالها ، وأذربيجان ، وديار بكر ، والجزيرة ، والموصل ، وأن يمده السلطان بالعساكر يفتح بها ما تمنع عليه ، وحلف كل واحد منهما للآخر ؛ وانصرف الفريقان من المصاف فى رابع شهر ربيع الأول ، وتفرقت العساكر ثم انتقض ذلك ، والتقوا فى جمادى الأولى من السنة ، وكانت بينهما واقعة ، وهو المصاف الرابع انهزم فيه السلطان محمد ، وأصحابه بعد قتال ، ولم يقتل فى هذا المصاف غير رجل واحد قتل صبرا ، وسار محمد فى نفر يسير إلى أصفهان ، وحمل عليه بيده ليتبعه أصحابه ، وأخذ السلطان بركياروق خزانته ؛ ووصل محمد إلى أصفهان ، فأصلح سورها ، وحفر خندقها ، واعتد للحصار ؛ وجاء

(١) فى الأصل : الجرة ، وفى ت : الخبزه . معرب كنجة ، وما أثبتناه موافق لما فى الكامل ص ١١٥ ج ١٠ حوادث سنة ٤٩٥ .

بركياروق ، وحاصره بها حصارا شديدا حتى ضاقت الميرة ، واستمر الحصار إلى عاشر ذى الحجة ، واقترض محمد أموال الأعيان ، ثم فارق البلد فى مائة وخمسين فارسا ، ومعه الأمير ينال ، فاستخلف على البلد جماعة من الأمراء الأكابر ، وبعث السلطان فى طلبه ، فلم يدرك ، وسار محمد ، ووصل إلى « ساوة » ، واجتمع عليه عسكره الذى كان بكنجه ، وأعمالها ، ورحل إلى همذان ، وبلغ جمعه ستة آلاف فارس ، وأقاموا إلى آخر المحرم سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وأتاهم الخبر بقصد بركياروق لهم ، فاجتمع على محمد جماعة أخرى ، والتقوا على باب « خوى » ، وهو المصاف الخامس ، وكان الظفر فيه لمحمد ، وانهزم بركياروق وأصحابه ، وسار محمد إلى « خلاط » ، ثم إلى تبريز ، وأذربيجان .

ذكر الصلح بين السلطان بركياروق وأخيه محمد

وفى سنة سبع وتسعين وأربع مائة تم الصلح بين السلطان بركياروق ، وبين أخيه محمد ، وحلف كل منهما لصاحبه ، واستقرت القواعد ، ووضعت الحرب أوزارها ، وتقرر بينهما أن السلطان بركياروق لا يعترض على أخيه محمد ، ولا يذكر معه على منبر من منابر البلاد التى استقرت له ، ولا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة من الوزير ،[1] ولا يعارض أحد منهما العسكر فى قصد أيهما شاء ، وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيدروز ، وباب

(١) فى الكامل ص ١٢٩ ج ١٠ : الوزيرية .

الأبواب ، وديار بكر ، والجزيرة[١] ، والموصل ، والشام ، وبلاد سيف الدولة صدقة ، وانتظم الأمر على ذلك ، ولما انتظم أمر بركياروق عاجلته المنية فلم تطل مدته بغير منازع ، وشغله حرب عمه وإخوته عن حروب أعدائه ، ولم يفعل شيئاً غير قتله للباطنية على ما نذكره فى هذا الموضع ، وإنما أخرناه عن موضعه حتى لا ينقطع خبره مع أخيه محمد .

ذكر أخبار الباطنية وابتداء أمرهم وما استولوا عليه من القلاع وسبب قتلهم

والباطنية هم الإسماعيلية ، وهم طائفة من القرامطة الذين قدمنا ذكرهم.

قال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل : أول ما عرف من أحوال هؤلاء فى هذه الدعوة الأخيرة التى اشتهرت بالباطنية والإسماعيلية أنه اجتمع منهم فى أيام السلطان ملكشاه ثمانية عشر رجلا ، وصلوا صلاة العيد فى ساوة ، فظفر بهم « الشحنة » ، فسجنهم ، ثم سئل فيهم ، فأطلقهم ، فهذا أول اجتماعهم ، ثم دعوا مؤذنا من أهل « ساوة » كان مقيما بأصفهان ، فلم يجب دعوتهم ، فخافوه أن ينمّ عليهم ، فقتلوه ، وهو أول قتيل لهم ، وأول دم أراقوه ، فاتصل خبر مقتله بالوزير نظام الملك ، فأمر من يتّهم بقتله ، فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر ، فقتل ، ومثّل به ، وجرّوا برجله فى الأسواق ، وهو أول قتيل منهم ؛ ثم إن الباطنية قتلوا الوزير نظام الملك ، وهى أول[٢] قتلة مشهورة كانت

(١) فى الأصل بأسند ، ورايات الأبواب ، وديار الجزيرة . وما أثبتناه هو الصواب . وانظر الكامل ص ١٢٩ ج ١٠ ، وأبا الفدا ج ٢ ص ٢١٧ وباب الأبواب : مدينة على بحر الجزر . مراصد ١٤٣ .

(٢) ت . وهو موافق للكامل ص ١٠٩ ج ١٠ حوادث سنة ٤٩٤ هـ . وفى الأصل : وهو .

لهم ، وناهيك بها قتلة ، وقالوا : قتل منا نجاراً ، فقلتلناه به ، وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند «قاين» [١] كان قائده على مذهبهم ، فاجتمعوا عنده ، وقووا به ، فاجتازت لهم قافلة عظيمة من كرمان بقصد «قاين» ، فخرجوا عليها هم ، وقائد البلد وأصحابه ، فقتل أهل القَفَل [٢] عن آخرهم لم ينج منهم غير رجل تركمانى ، فوصل إلى قاين ، وأخبره بالقصّة [٣] ، فسار أهلها مع القاضى الكرمانى إلى جهادهم ، فلم يقدروا عليهم ، ثم مات السلطان ملكشاه ، فعظم أمرهم ، واشتدت شوكتهم ، واشتغل السلطان بركياروق بحرب إخوته وأهله ، فاجتمعوا ، وصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ، ويقتلونه ، ففعلوا ذلك بخلق كثير ، وزاد الأمر حتى إن الإنسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقنوا قتله ، وقعدوا للعزاء به ، فحذر الناس ، وصار لا ينفرد أحد ، وأخذوا فى بعض الأيام مؤذنا أخذه جار له باطنى ، فقام أهله للنياحة ، فأصعده الباطنية إلى سطح داره ، وأروه أهله كيف يلطمون عليه ، ويبكون ، وهو لا يقدر يتكلم خوفا منهم ، وذلك بأصفهان .

ذكر ما استولوا عليه من القلاع ببلاد العجم

قال : واستولوا على عدّة حصون منها قلعة أصفهان ، وهى التى بناها السلطان ملكشاه ، وسبب بنائها أنه ركب للصيد ، ومعه

---

(١) قاين : بلد قريب من طبس بين نيسابور وأصبهان . معجم البلدان (عن السمعانى) ٧ : ٢٠

(٢) القفل : اسم جمع قافل ، والمقصود القافلة . القاموس .

(٣) هكذا فى ت ، وهذا موافق للكامل ص ١٠٩ ج ١٠ وفى الأصل : بالقضية .

مقدّم من مقدمى الروم كان قد لجأ إليه ، وأسلم ، وصار معه ، فهرب من ملكشاه كلب من كلاب الصيد ، فأتبعه ، فوجده فى موضع القلعة ، فقال الرومى : لو أن عندنا مثل هذا الجبل لجعلنا عليه حصنا يشفع به ، فأمر ملكشاه ببنائه ، فلما انقضت أيام ملكشاه ، وصارت أصفهان بيدتركان خاتون والدة السلطان محمود استولى الباطنية عليه ، فكانوا يقولون : إن قلعة يدل عليها كلب ، ويشير بها كافر لاتكون خاتمتها إلا بهذا الشر. ومنها «ألموت» وهى من نواحى قزوين. قيل : إن ملكاً من ملوك الديلم كان كثير الصيد ، فأرسل عُقابا ، وتبعه ، فرآه قد سقط على موضع القلعة ، فوجده حصينا ، فأمر ببنائه ، وسماها [1] قلعة الألموت ، ومعناها بالديلم : تعليم العقاب ، ويقال لهذا الوضع وما جاوره : طالقان وفيها قلاع حصينة أشهرها : الألموت [2] . ومنها قلعة [طَبَس] [3] ، وقهستان ، ومن جملتها جور [4] ، وجوسف [5] ، وزُوزَن ، وقاين ، وتون [6] وتلك الأطراف المجاورة لها ، ومنهاقلعة وسنملوه [7] وهى بقرب أبهر. ملكوهافى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقتل من كان بها عن آخرهم ، ومنها قلعةخالنجان [8] وهى على خمسة

(١) الزيادة : من ت :

(٢) فى الكامل ص ١١٠ ج ١٠ : آلمة موت ، وفى تاريخ أبى الفدا ص ٢١٤ ج ٥ : سماها اله الراموت ، ومعناه بلسان الديلم – تعليم العقاب .

(٣) فى الأصل : طيس . وما أثبتناه من ياقوت ٦ – ٢٨ ، والمقدسى ص ٣٢٩ .

(٤) لعلها : خور : المقدس ص ٣٠١ .

(٥) لعلها خوست ص ٣٢١ .

(٦) ت . وفى الأصل : يون ، وانظر المقدسى ص ٣٢١ وياقوت ٢ – ٤٣٥ .

(٧) ذكر أبو الفدا قلعة : سنكور ، ولعلها ستملويه ، وهى تعزوين «مراصد» ج ٦١٥ .

(٨) فى مراصد الاطلاع : خان ليخان ص ٤٤٨ . وفى أحسن التقاسيم ص ٣٨٩ : الخولنجان ، وهى من نحو خوزستان ، فلعلها هى .

فراسخ من أصفهان ، ومنها كردكوه [١] ، وهى مشهورة ، ومنها قلعة الباطن بخوزستان ، وقلعة الطنبور ، وبينها وبين أرجان فرسخان ، وقلعة لأوجان [٢] ، وهى بين فارس وخوزستان ، فهذا ما ملكوه من القلاع فى هذه المدة القريبة .

ذكر قتل الباطنية وسببه

كان قتلهم فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة ، وسبب ذلك أنه لما اشتد أمرهم ، وقويت شوكتهم ، وكثر عددهم شرعوا فى قتل الأمراء ، والفتك بهم ، وكان أكثر من قتلوا من هو فى طاعة السلطان محمد مخالف للسلطان مثل شِحنة أصفهان وغيره ، فلما ظفر السلطان بركياروق بأخيه محمد انبسط جماعة منهم فى العسكر ، واستغووا جماعة منهم ، وأدخلوهم فى مذهبهم ، وزاد أمرهم حتى كادوا يظهرون بالكثرة والقوة ، فصاروا يتهددون من لم يوافقهم بالفتك ، وانتهى الحال إلى أن الأمراء ما بقى منهم من يجسر أن يمشى حاسرا . إلا بدرع تحت ثيابه ، حتى الوزير الأعز كان يلبس ذردية تحت ثيابه ، فأشير على السلطان بالفتك بهم قبل أن يعجز عنهم ، وأعلموه ميل الناس إلى مذهبهم ، ودخولهم فيه حتى إن عسكر السلطان محمد كانوا يشنّعون ذلك عليه ، ويكبرون فى المصاف على أصحابه ، ويقولون لهم : يا باطنية ، فاجتمعت هذه البواعث كلها ، فأذن السلطان فى قتلهم ، وركب هو والعسكر ، وطلبوهم ، وأخذوا جماعة

(١) هكذا فى ت ، وفى الإصل : كودكوه .
(٢) فى تاريخ أبى الفدا ص ١٨٤ ج ٢ : خلاوخان .

ممن كان وافقهم ، فلم يفلت منهم إلا من لم يعرف ، ومن جملة من اتهم : مقدّمهم الأمير محمد بن علاء الدولة صاحب مدينة يزد ، فهرب ، وسار يومه ولياته . فلما كان فى اليوم الثانى وجد فى العسكر ، وقد ضل عن الطريق ، فقتل ، ونهب خيامه ، وممن قتل ولد كيقباد مستحفظ تكريت ، وقتل منهم جاولى سقاوه[1] فى هذه ثلثمائة رجل .

ذكر وفاة السلطان بركياروق ووصيته لولده ملكشاه بالملك

كانت وفاته فى ثانى عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة بأصفهان بمرض السل ، والبواسير ، وسار منها فى محفّة يطلب بغداد ، فلما وصل إلى [بروجرد[2]] ضعف عن الحركة ، فأقام بها أربعين يوما ، فاشتد مرضه ، فلما أيس من نفسه خلع على ولده ملكشاه ، وعمره أربع سنين وثمانية أشهر ، وجعل الأمير إياز أتابكة . وخلع على الأمراء ، واستحلفهم له ، وأمرهم بالطاعة لهما ، فحلفوا على الوفاء ، وأمرهم بالسير إلى بغداد . فساروا ، فلما كانوا على اثنى عشر فرسخا من بروجرد . وصل إليهم خبر وفاته . وحمل إلى أصفهان ودفن بها ، وكان له من العمر خمسة وعشرون سنة ، ومدّة ملكه اثنتا عشرة سنة ، وأربعة أشهر . وقاسى من الحرب والاختلاف ما قدمناه . وكان حليما كريما صبورا عاقلا كثير المداراة حسن العفو لا يبالغ فى العقوبة ، عفوه أكثر من عقوبته .

---

(١) فى الكامل ص ١٠٣ ، ج ١٠ حوادث سنة ٤٩٣ : سقاووه .

(٢) فى الأصل : بزجرد . وما أثبتناه نقلا عن الكامل ص١٣٢ ج١٠ ، وشذرات الذهب ص ٤٠٨ ج ٣ .

ذكر الخطبة لملكشاه بن السلطان بركياروق ببغداد

قد ذكرنا وصيَّة والده له بالملك ، واستخلافه الأمراء ، وتقرير قواعده ، وإنفاذه إلى بغداد . قال : ولما جاءه الخبر بوفاة أبيه ، سار به أتابكه الأمير إياز ، وإيلغازى شِحنة بغداد ، ودخلا به إلى بغداد ، وخُطِب له [بجوامعها] (١) فى شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، ولقب بألقاب جدِّه جلال الدولة ، ونشرت الدنانير على الخطباء ، ثم قدم عمه السلطان محمد على ما نذكره .

ذكر أخبار السلطان محمد

هو غياث الدين أبو شجاع محمد طبر يمين أمير المؤمنين ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغرى بك بن ميكائيل بن سلجق ، وهو الخامس من ملوك الدولة السلجقية .

قد قدمنا من أخبار هذا السلطان ، ووقائعه مع أخيه السلطان بركياروق وحروبه ، والخطبة له ببغداد مرة بعد أخرى ما يستغنى عن إعادته ، ونحن الآن نذكر أخباره فى سلطنته بعد وفاة أخيه . قال : لما مات السلطان بركياروق ، وخطب لولده ملكشاه ببغداد كما ذكرناه ، كان السلطان محمد إذ ذاك يحاصر جكرمش ، وسكمان القطبى(٢) ،

(١) هكذا فى ت ، وفى الأصل : بجامعها . وما أثبتناه موافق للكامل ص ١٣٣ ج ١٠ .

(٢) هكذا فى ت . وفى الأصل : القيطى . وقد ذكر ابن الأثير فى الكامل ص ١٣١ ج ٧ الغيطى ، وهو ينسب إلى قطب الدولة اسماعيل بن ياقوت بن داود ، وانظر أيضا أبا الفدا ص ٢١٢ ج ٢ .

وغيرهما من الأمراء وكان سيف الدولة صدقة صاحب الحلة قد جمع خلقا كثيرا من العساكر بلغت عدتهم خمسة عشر ألف فارس ، وعشرة آلاف راجل ، وأرسل ولديه بدران ، ودبيس إلى السلطان محمد يستحثه على الحضور إلى بغداد ، فاستصحبهما معه ؛ فلما سمع الأمير إياز بمسيره إليه خرج هو والعسكر الذى معه من الدور ، ونصبوا الخيام بالزهراء[1] خارج بغداد ؛ وجمع الأمراء ؛ واستشارهم فيما يفعله ، فبذلوا الطاعة واليمين على قتال السلطان ؛ ودفعه عن السلطنة ، والاتفاق على طاعة ملكشاه بن بركياروق ؛ وكان أشدهم « ينال » وصبارو[2] ، فلما تفرقوا ، قال له وزيره الصفىّ أبو المحاسن : « اعلم أن حياتى مقرونة بثبات نعمتك ودولتك ؛ وأنا أكثر التزاما بك من هؤلاء ؛ وليس الرأى ما أشاروا به ؛ فإن كل واحد منهم يقصد أن يسلك طريقا ، ويقيم سوقا لنفسه . وأكثرهم يناوئك فى المنزلة ، وإنما يقعد بهم عن منازعتك قلة العدد والمال ، والصواب مصالحة السلطان محمد ، والدخول فى طاعته ، وهو يقرك على ما بيدك من الإقطاع ، ويزيدك عليه ما أردت » ، فتردّد رأى الأمير إياز فى الصلح إلا أنه يظهر المباينة ، وجمع السفن التى ببغداد ، وضبط المشارع من متطرق إلى عسكره ، أو إلى البلد ، ووصل السلطان محمد إلى بغداد فى يوم الجمعة لثمان بقين من جمادى الأولى ، سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، ونزل بالجامع الغربى ، وخطب له بالجامع ، وأما جامع المنصور ، فإن الخطيب قال : « اللهم أصلح سلطان العالم » . لم يزد على

(١) فى الكامل ص ١٣٢ ج ١٠ : الزاهر .
(٢) فى الكامل بالصفحة السابقة : صباوو .

ذلك ، وركب إياز فى عسكره ، وهم عازمون على الحرب ، وسار حتى أشرف على عسكر السلطان محمد ، وعاد إلى مخيّمه ، فدعا الأمراء إلى اليمين مرة ثانية على المخالصة لملكشاه ، فأجاب بعضهم ، وتوقف البعض ، وقالوا : قد حلفنا مرة ، ولا فائدة فى إعادة اليمين لأنا إن وفينا بالأولى ، وفينا بالثانية ، فأمر إياز حينئذٍ وزيره الصفى أبا المحاسن بالعبور إلى السلطان محمد ، والمشى فى الصلح ، وتسليم السلطنة إليه ، فعبر يوم السبت لسبع بقين من الشهر إلى عسكر محمد ، واجتمع بوزيره سعد الملك أبى المحاسن سعد بن محمد ، وعرّفه ما جاء فيه ، فأحضره إلى السلطان ، فأدى الرسالة ، واعتذر عن صاحبه ، فأجابه السلطان جوابا لطيفا ، وطيب نفسه ، وأجاب إلى اليمين ، فلما كان الغد حضر قاضى القضاة ، والنقيبان ، والصفى وزير إياز عند السلطان ، فقال له وزيره سعد الملك : إن إياز يخاف لما تقدم منه ، وهو يطلب العهد لنفسه ، وللأمراء الذين معه . فقال السلطان : أما ملكشاه فلا فرق بينه وبين أخى ، وأما إياز والأمراء الذين معه ، فأحلف لهم إلا ينال الحسامى وصبارو ، وحلف لهم ، فلما كان الغد حضر الأمير إياز إلى السلطان ، فلقيه الوزير ، وكافة الناس ، ووصل سيف الدولة صدقه فى ذلك الوقت ، ودخلا جميعا إلى السلطان ، فأكرمهما ، وأحسن إليهما ، وقيل : بل ركب السلطان ، ولقيهما ، وأقام السلطان ببغداد إلى شعبان ، وسار إلى أصفهان على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر قتل الأمير إياز

كان سببُ ذلك أنه لما سلَّم السلطنة لمحمد ، وصار فى جملة أصحابه ، عمل وليمة عظيمة فى ثامن جماد الآخرة فى داره ، ودعا السلطان إليها ، فجاء وقدم له إياز شيئا كثيرا ، من جملته حملَ بلخُش (١) ، كان إياز قد أخذه من تركة مؤيد الملك بن نظام الملك ، وحضر الوليمة سيف الدولة صدقة بن مزْيد ، فاتفق أن إياز تقدم إلى غلمانه بلبس السلاح ، ليعرضهم على السلطان ، فدخل إليهم رجل من أبهر كانوا يضحكون منه ، فألبسوه ذرعا تحت قميصه ، وتناولوه بأيديهم ، وهو يسألهم أن يكفوا عنه ، فلم يفعلوا ، فلشدَّة ما ناله هرب منهم ، ودخل بين خواص السلطان ، فرآه السلطان مذعورا ، فاستراب منه ، وقال لغلام له أن يمسكه من غير أن يعلم به أحد ففعل ، فرأى الدرع تحت ثيابه ، فأعلم السلطان بذلك ، فاستشعر السوء وقال : إذا كان أصحاب العمائم قد لبسوا الدروع ، فما ظنك بغيرهم من الجند ، ونهض وعاد إلى داره ، فلما كان فى ثالث عشر . استدعى الأمير صدقة وإياز ، وجكرمش ، وغيرهم من الأمراء ، فلما حضروا أرسل إليهم : أنا بلغنا أن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش ، قصد ديار بكر ليملكها ، ويسير منها إلى الجزيرة ، وينبغى أن تجتمع آراؤكم على من يسير إليه ليمنعه ، ويقاتله ، فقال الجماعة : ليس هذا الأمير إلا للأمير إياز . فقال إياز : ينبغى أن أجتمع أنا وسيف

---

(١) فى الكامل ص ١٣٥ ج ١٠ سنة ٤٩٨ هـ : الحبل البلخشى ، والتلخشى : جوهر يجلب من بلخشان . الألفاظ الفارسية المعربة ص ٢٦ ادى شير .

الدولة صدقة على هذا الأمر ، فقبل ذلك السلطان ، فاستدعى إياز وصدقةَ والوزير سعد الملك ، فقاموا ليدخلوا عليه ، وكان قد أعدّ جماعة من خواصّه لقتل إياز إذا دخل عليه ، فلما دخل ضرب أحدهم رأسه فأبانه ، فغطى صدقة وجهه بكُمّه ، وأما الوزير فغشى عليه ، وتفرق أصحاب إياز ، وكان زوال نعمته العظيمة ودولته فى مزحة مزحها غلمانه ، ولما كان الغد كفّنه قوم من المتطوعة ودفنوه .

وكان من جملة مماليك السلطان ملكشاه ، وكان غزير المروءة ، شجاعا حسن الرأي فى الحرب . ولما قتل اختفى وزيره الصفى ، ثم أخذ وحمل إلى الوزير سعد الملك ، ثم قُتل فى شهر رمضان ، وسار السلطان إلى أصفهان ، فوصل إليها فى شهر رمضان وأمن أهلها .

ذكر خروج منكبرس [1] على السلطان محمد والقبض عليه

وفى المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة أظهر منكبرس ابن الملك بوزي برس [2] بن ألب أرسلان ، وهو ابن عم السلطان محمد العصيانَ ، والخلافَ على السلطان ، وسببُ ذلك أنّه كان بأصبهان ، فلحقته ضائقة شديدة ، وانقطعت عنه الموادّ ، فسار إلى نهاوند ، واجتمع عليه بها جماعة من العسكر ، وظاهره على أمره جماعة من الأمراء ، فتغلب على نهاوند ، وخطب لنفسه بها ، وكاتب الأمراء بنى برسق يدعوهم إلى طاعته ونصرته ، وكان السلطان محمد قد قبض على أخيهم زنكن بن برسق ، فكاتب زنكى إخوته ، وحذرهم

(١) هكذا فى ت . وهو موافق للكامل ص ١٣٩ ج ١٠ ، وانظر فى الصفحة التالية .
(٢) فى ت : برش . وفى الكامل بالصفحة السابقة : بوريرس .

من طاعته ، وأمرهم بالتدبير فى القبض عليه ، فلما أتاهم كتاب أخيهم بذلك أرسلوا إلى منكبرس يبذلون له الطاعة والموافقة ، فسار إليهم وساروا إليه ، واجتمعوا به ، وقبضوا عليه بالقرب من أعمالهم ، وهى بلد « خوزستان » ، وتفرق أصحابه وأتوابه إلى أصفهان ، فاعتقله السلطان مع بنى [1] عمه تكش ، وأخرج زنكى بن برسق ، وأعاده إلى مرتبته ، واستنزله وإخوته عن أقطاعهم وهى الأسر [2] ، ونيسابور ، وغيرهما ما بين الأهواز وهمذان ، وأقطعهم عوض ذلك الدور وغيرها وفيها [3] ظهر بنهاوند أيضا رجل من أهل السواد ، ادعى النبوة ، فأطاعه خلق كثير ، واتبعوه ، وباعوا أملاكهم ، ودفعوا أثمانها إليه ، وهو يخرج جميع ذلك ، وسمى أربعة من أصحابه أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليا ، ثم قُتل بنهاوند ، فكان أهلها يقولون : ظهر عندنا فى مدة شهرين اثنان : أحدهما يدعى النبوة ، والآخر المملكة ، فلم يتم لأحد منهما أمر ، والله أعلم .

ذكر ملك السلطان محمد قلعة [شاه دز] من الباطنية وقتل ابن عطاش [4]

وفى سنة خمسمائة ملك السلطان القلعة التى كانت الباطنية ملكوها بالقرب من أصفهان ، واسمها « شاه دز » ، وقتل صاحبها أحمد

(١) فى الكامل بالصفحة السابقة : ابنى عمه .
(٢) لعلها : أشتر : وهى ناحيه بين نهاوند وهمذان . بلدان ياقوت جـ١ ص ٢٥٤ .
(٣) زيادة من ت ، ومكانها بياض بالأصل .
(٤) فى الأصل شاه در ، وما أثبتناه من ياقوت وفى الكامل ص ١٥١ جـ ١٠ شاهدز .
(٥) هكذا فى ت . وفى الأصل : ابن غطاس ، وما أثبتناه موافق للكامل ص ١٥١ جـ١٠ ، والنجوم الزاهرة ص ١٩٤ جـ ٧ .

ابن عبد الملك بن عطاش وولده . وكانت هذه القلعة قد بناها السلطان لمكشاه ، واستولى عليها بعده أحمد بن عبد الملك ؛ وكان قد اتصل بِدْزِ [1] دار القلعة ، فلما مات استولى عليها ، وكان الباطنية بأصفهان قد ألبسوه تاجا ، وجمعوا له أموالا عظيمة ، فاشتد بأسه ، وكثر جمعه ، واستفحل [2] أمره بالقلعة ، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق ؛ وأخذ الأموال ، وقتل من قدروا عليه ، فقتلوا خلقا كثيرا ، وجعلوا لهم على القرى السلطانية ، وأموال [3] الناس ؛ ضرائب يأخذونها ؛ ليكفوا عنها الأذى ، فتعذر انتفاع السلطان بقراه ؛ والناس بأملاكهم ، ومشى لهم الأمر بما كان بين السلطان وأخيه من الاختلاف ، فلما صفت السلطنة لمحمد ، ولم يبق له [4] منازع ، لم يكن عنده أمر أهمّ من الباطنية ، فخرج بنفسه ، وحاصرهم ، في سادس شعبان ، وأحاط بجبل القلعة ؛ فلما اشتد الحصار عليهم طلبوا أن ينزل بعضهم من القلعة ؛ ويرسل السلطان معهم من يحميهم ، إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بأرجان [5] ، وكانت لهم ، وينزل بعضهم ، ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس ، وأن يقيم البقية منهم في ضرس [6] من القلعة ، إلى

(١) في ت : بدر دار . وما أثبتناه موافق للكامل بالصفحة نفسها ، والسلوك ص٣٥ ج١ . ودزدار : فارسية ، معناها : حاكم حصن .

(٢) من الكامل الصفحة السابقة ، وفي الأصل : واستحفل .

(٣) في ت : وأملاك .

(٤) هكذا في ت . وفي الأصل : عنده .

(٥) في الأصل : بأزجان ، وما أثبتناه من الكامل .

(٦) في ت : في حرمس ، ج ١٠ ص ١٥٢

والضرس : الأكمة الخشنة التي كأنها مفرشة . وقيل : الضرس قطعة من « القف » ما ارتفع من الأرض مشرقه - شيئا . وإنها حجر واحد لا يخالطه طين الخ . « تاج العروس ٤ - ١٦٤ » .

أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم ، وينزلون حينئذ ، ويرسل السلطان معهم من يوصلهم ، إلى ابن الصباح بقلعة ألموت ، فأجيبوا إلى ذلك ، وتوجه معهم من أوصلهم إلى قلعتى الناظر ، وطبس ، وعاد منهم من أخبر ابن غطاس بوصولهم ، فلم يُسلّم السن الذى بيده ، ورأي السلطان منه العذر ، فجدد الحصار ، فجاء إلى السلطان من دلّه على عورة ذلك السن ، فملكه ، وقتل من فيه من الباطنية ، واختلط بعضهم بمن دخل ، فسلموا ، وأسر ابن عطاش ، فتركه السلطان أسبوعا ، ثم أمر به ، فشهر فى جميع البلاد ، وسلخ جلده ، فمات ، وحشى تبنا ، وقتل ولده ، وحملت رأساهما إلى بغداد ، وألقت زوجته نفسها من القلعة ، فهلكت . كانت مدة البلوي بابن عطاش ثنتا عشرة سنة .

ذكر القبض على الوزير وقتله ، ووزارة أحمد بن نظام الملك

وفى سنة خمسمائة قبض السلطان محمد على وزيره سعد الملك أبى المحاسن ، وأخذ ماله ، وصلبه على باب أصفهان ، وصلب معه أربعة نفر من أعيان أصحابه ، فأما الوزير ، فنسب إلى خيانة السلطان ، وأما الأربعة ، فنسبوا إلى اعتقاد مذهب الباطنية ، ثم استشار السلطان فيمن يجعله وزيرًا ، فذكِر له جماعة ، فقال : أن آبائى[1] رأوا على نظام الملك البركة ، وله عليهم الحق الكبير ، وأولاده أعذياء بنعمتنا ،

(١) عبارة الكامل ج ١٠ ص ١٥٣ : إن أبائى أدروا على نظام الملك البركة ، ولهم عليه الحق الكثير ، وأولاده أغتربار نعمتنا .

ولا معدل عنهم ، فاستوزر أبا نصر أحمد ، ولقب ألقاب أبيه قوام الدين نظام الملك صدر الإسلام ، وحَكَّمهُ ، ومَكَّنهُ ، وقوى أمره .

ذكر قتل الأمير صدقة بن مزيد (١)

كان مقتله فى سنة إحدى وخمسمائة ، وكان سبب ذلك أنه قد عظم أمره ، واشتهر ذكره ، واستجار به الأكابر من الخلفاء ، فمن دونهم ، وأجار على الخلفاء والملوك ، وكان ممن أكد أسباب (٢) دولة السلطان محمد ، وأقام فى حقه ، وعضده ، وجاهر السلطان بركياروق بسببه (٣) ، فلما استوثق الأمر للسلطان محمد ، زاده على ما بيده من الإقطاع زيادة عظيمة ، منها مدينة واسط ، وأذن له فى أخذ البصرة ، ثم أفسد ما بينهما العميد أبو (٤) جعفر محمد بن الحسن البلخى ، وقال للسلطان : إن صدقة عظم أمره ، وكثر إدلاله ، وهو يحمى كلَّ من يفر من السلطان ، والتحق به ، ونسبه إلى مذهب الباطنية ، ولم يكن كذلك ، وإنما تشيع ، واتفق أن السلطان محمد سخط على أبى دلف سرخاب (٥) بن كيخسرو صاحب ساوه ، فهرب منه ، وقصد صدقة ، واستجار به فأجاره ، فأرسل السلطان

(١) هكذا فى ت . وفى الأصل : يزيد . ويؤيد ما أثبتناه الكامل بالصفحة نفسها حيث ذكر اسمه كاملا : الأمير سيف الدولة صدقه بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى أمير العرب ، وهو موافق لأبى الفدا ص ٢٢٢ ج ٢ .

(٢) الزيادة : من ت .

(٣) فى الكامل ج ١٠ ص ١٥٤ : وجاهر السلطان بركياروق بالعداوة .

(٤) هكذا فى ت . وفى الأصل : ابن ، وما أثبتناه موافق للكامل ص ١٥٤ ج ١٠ ، واختلف فى اسم أبيه حيث قال : أبو جعفر محمد بن الحسين البلخى .

(٥) هكذا فى ت . وفى الأصل : سرجاب . وما أثبتناه موافق للكامل بالصفحة نفسها .

يطلبه من صدقة ، وأمره بتسليمه إلى نوابه ، فلم يفعل ، وأجاب : إننى لأمكن منه بل أحامى عنه ، أقول ما قاله أبو طالب لقريش لما طلبوا النبى صلى الله عليه وسلم :

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وظهر منه أمور أنكرها السلطان ، فتوجه السلطان إلى العراق ؛ ليتلافى هذا الأمر ، فلما سمع صدقة به ، استشار أصحابه فيما يفعله ، فأشار عليه ابنه دبيس أن ينفذه إلى السلطان ، ومعه الأموال والخيل والتحف ليستعطفه ، وأشار سعيد بن حميد صاحب جيش صدقة بحربه ، وجمع الجند ، وتفريق المال فيهم ، واستطال فى القول ، فمال صدقة إلى قوله ووافقه[1] ، وجمع العساكر ، فاجتمع له عشرون ألف فارس ، وثلاثون ألف راجل ، وأرسل الخليفة المستظهر بالله إلى الأمير صدقة ، يحذره عاقبة أمره ، وينهاه عن الخروج من طاعة السلطان ، فأجاب : إننى على الطاعة ، لكن لا آمن على نفسى فى الاجتماع به ، ثم أرسل السلطان إلى صدقة يطيّب قلبه ، ويبسط ويزيل خوفه ، ويأمره بالانبساط على عادته ، فأجاب : إن أصحاب السلطان قد أفسدوا قلبه علىّ ، وغيّروا حالى عنده ، وزال ما كان عليه فى حقى من الإنعام ، وذكر سالف خدمته ومناصحته ، وقال سعيد بن حميد صاحب جيشه : لم يبق لنا فى صلح السلطان مطمع ، وليرين خيولنا ببغداد[2] ، وامتنع صدقة من الاجتماع

(١) هكذا فى ت . وفى الأصل : ورافقه ص ٣٧٦

(٢) فى ت : بحلوان .

بالسلطان ، وكان السلطان وصل إلى بغداد جريدة فى خيل ، لا تبلغ ألفى فارس ، فأرسل إلى جيوشه ، فأتته من كل جهة ، وتكررت الرسائل من الخليفة إلى صدقة ، وهو يجيب : إننى ما خالفتُ الطاعة ، ولا قطعت الخطبة ، وجهز ابنه دبيسا ، ليسير إلى السلطان ، فبينما هو فى ذلك إذ ورد الخبر أن طائفة من عسكر السلطان ، قد وقعت الحرب بينهم وبين أصحاب صدقة ، وأن عسكر السلطان انهزم ، وأسر جماعة من أعيانهم ، فأخر صدقة ابنه ، ثم ترددت الرسائل من الخليفة إلى صدقة ، يقول : إن إصلاح قلب السلطان موقوف على إطلاق الأسرى ، ورد جميع ما أخذ من العسكر المنهزم ، فأجاب أولاً بالخضوع والطاعة ، ثم قال : لو قدرت على الرحيل من بين يدى السلطان لفعلت ، ولكن ورائى من يثقل ظهرى : ثلثمائة امرأة لا يحملهن مكان ، ولو علمت أننى إذا جئت للسلطان مستسلما قبلنى ، واستخدمنى ، لفعلت . ولكننى أخاف ألا يقبل عذرى ، ولا يعفو ، وأما ما نهب فإن الخلق كثير . وعندى من لا أعرفه ، وقد نهبوا ودخلوا البر ، ولا طاقة لى بهم ، لكن إن كان السلطان لا يعارضنى فيما فى يدى ، ولا فيمن أجرته ويقر سرخاب [1] على إقطاعه بساوة ، ويتقدم بإعادة ما نهب من بلدى . ويحلفه [2] وزير الخليفة بما أثق به من الأيمان ، على المحافظة فيما بينى وبينه ، فحينئذ أخدم بالمال ، وأدوس [3] بساطه بعد ذلك ، فعادت الرسائل بذلك [4] مع أبى منصور بن

(١) فى الأصل : سرجاب . وانظر ما مر فى حاشية ٢٥ ص ٣٦٤ من هذا الجزء .
(٢) فى الأصل : وتحلفه ، وما أثبتناه موافق للكامل ص ١٥٧ ـ ١٠ .
(٣) فى الأصل : أيوس ، وما أثبتناه نقلا عن الكامل بالصفحة نفسها .
(٤) هكذا فى ت . وفى الأصل : بعد ذلك .

معروف ، وأصر صدقة على قوله ، فعند ذلك سار السلطان فى ثامن شهر رجب إلى الزعفرانية ، وسار صدقة فى عسكره إلى قرية مطر ، وأمر جنده بلبس السلاح ، واستأمن نائبه[1] سلطان بن دبيس وهو ابن[2] عم صدقة إلى السلطان ، فأكرمه ، وعبر السلطان[3] إلى دجلة ، ولم يعبر هو ، فصاروا هم وصدقة فى أرض واحدة ، بينهما نهر ، والتقوا فى تاسع عشر شهر رجب ، وكانت الريح فى وجوه أصحاب السلطان ، فلما التقوا صارت فى وجوه أصحاب صدقة ، ورمى الأتراك بالنشاب ، فكان يخرج فى كل رشقة سبعة عشر ألف فردة ، لا تقع إلا فى فارس أو فرس ، فكان أصحاب صدقة إذا حملوا منعهم النهر ، والنشاب يصل إليهم ، وحمل صدقة على الأتراك ، وجعل يقول : أنا صدقة ، أنا ملك العرب[4] ، فأصابه سهم فى ظهره ، وأدركه غلام اسمه برغش ، فتعلق فى صدقة وهو لا يعرفه ، فسقطا جميعا إلى الأرض ، فعرفه صدقة ، وقال : يابرغش أرفق ، فضربه بالسيف ، فقتله ، وأخذ رأسه وحمله إلى البر سقى[5] ، فحمله إلى السلطان ، فلما رآه عانقه ، وأمر لبرغش بصلة ، وبقى صدقة طريحا ، إلى أن سار السلطان ، فدفنه إنسان من المدائن ، وكان عمر صدقة تسعا وخمسين سنة ، وكانت إمرته إحدى وعشرين سنة ،

---

(١) ت . وفى الأصل : بأمين . وعبارة الكامل بالصفحه نفسها : واستأمن ثابت بن سلطان ابن دبيس بن على بن فريد ، وهو ابن عم صدقه إلى السلطان محمد ألخ .

(٢) فى ت : ابن صدقه ، وانظر ماسر .

(٣) فى ت : وغير عسكر السلطان ، وما فى الأصل موافق للكامل بالصفحة نفسها .

(٤) فى الأصل : القرب . وما أثبتناه موافق للكامل ص١٥٧ ج١٠ ، وانظر أبا الفدا ص ٢٥٢ ج ٢ .

(٥) هكذا فى ت . وفى الأصل : الرسقى .

وحمل رأسه إلى بغداد ، وقتل من أصحابه ما يزيد على ثلاثة آلاف فارس ، وأسر ابنه دبيس ، وسرخاب بن كيخسرو الديلمى ، فأحضر بين يدى السلطان ، فطلب الأمان ، فقال السلطان : أنا عاهدت الله أنى لا أقتل أسيرا ، فإن ثبت عليك أنك باطنى قتلتك . قال : ونهب من أموال صدقة ما لا يحد ولا يوصف .

وكان له من الكتب المنسوبة الخطوط ألوف مجلدات ، وكان يقرأ ولا يكتب ، وكان جوادا حليما ، صدوقا ، كثير البشر والخير والإحسان ، يلقى لمن يقصده بالبشاشه والفضل ، ويبسط آمال قاصديه ، ويزورهم ، وكان عاقلا ، عفيفا ، دينا ، حاز الأوصاف الجميلة ، رحمه الله تعالى .

قال : ولما قتل صدقة عاد السلطان إلى بغداد ، ولم يصل الحلة ، وأرسل أماناً لزوجة صدقة ، فأصعدت إلى بغداد ، فأطلق السلطان ابنها دبيسا ، وأنفذ معه جماعة من الأمراء لتلقيها ، فلما جاءت اعتذر السلطان إليها من قتل صدقة ، وقال : وددت أنه حمل إلى حتى كنت أفعل معه ما يعجب الناس منه ، لكن الأقدار غلبتنى عليه ، واستحلف ابنها دبيسا أنه لا يسعى بفساد .

وفى سنة إحدى وخمسمائة فى شعبان أطلق السلطان الضرائب والمكوس ، ودار البيع ، [والإجتيازات] (١) ، وغير ذلك ، مما ينا سبه بالعراق ، وفيها خرج السلطان إلى أصفهان ، وكان مقامه ببغداد ، فى هذه الدفعة خمسة أشهر وسبعة عشر يوما .

---

(١) من الكامل ج ١٠ ص ١٦٠ . وفى الأصل الاختيازات .

وفى سنة اثنتين وخمسمائة استولى مورود ، وعسكر السلطان على الموصل ، وكان جاولى سقاوة قد تغلب عليها ، فأخذت منه ، بعد حرب وحصار ، ثم عاد جاولى إلى خدمة السلطان .

وفى سنة ثلاث وخمسمائة سيّر السلطان وزيره نظام الملك أحمد ابن نظام الملك إلى قلعة ألموت ، لقتال الحسن بن الصباح ، ومن معه من الإسماعلية ، فحصرهم ، وهجم الشتاء عليهم ، فعادوا ، وفيها فى شهر ربيع الآخر توجه الوزير نظام الملك إلى الجامع ، فوثب عليه الباطنية ، وضربوه بالسكاكين ، فجرح فى رقبته ، فمرض مدة وبرأ ، وأخذ الباطنى ، فسقى الخمر حتى سكر ، وسئل عن أصحابه ، فأقر على جماعة بمسجد المأمونية ، فقتلوا ، وفيها عزل الوزير نظام الملك ، واستوزر بعده الخطير محمد بن الحسين .

وفى سنة خمس وخمسمائة بعث السلطان الجيوش لقتال الفرنج ، وكانوا قد استولوا على البلاد ، ففتحوا عدة حصون للفرنج ، وقتلوا من بها منهم ، وحصروا مدينة الرُّها ، ثم رحلوا عنها .

وفى سنة تسع وخمسمائة أقطع السلطان محمد الموصل ، وما كان بيد آق سنقر البرسقى للأمير جيوش (١) بك ، وسير معه ولده الملك مسعود بن محمد .

---

(١) فى الأصل : الرستق للأمير جيوشك ، وما أثبتناه نقلا عن الكامل جـ ١٠ ص ١٨١ ، وموافق لأبى الفدا جـ ٢ ص ٢٢٩ .

ذكر وفاة السلطان محمد وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وكان ابتداء مرضه فى شعبان ، فانقطع عن الركوب ، وتزايد مرضه ودام ، وأرجف بموته . فلما كان يوم عيد النحر ، حضر الناس إلى دار السلطان ، فأذن لهم فى الدخول ، وجلس السلطان وقد تكلف ذلك ، حتى أكل الناس وانصرفوا ، فلما انتصف الشهر أيس من نفسه ، فأحضر ولده السلطان محموداً وقبله وبكيا ، وأمره أن يخرج ، ويجلس على تخت السلطنة ، وينظر في أمور الناس ، وكان عمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة ، فقال لوالده [1] : إنه يوم غير مبارك ، يعنى من طريق النجوم ، فقال السلطان : صدقت يا بنى [2] ولكن على أبيك ، وأما عليك فمبارك بالسلطنة ، فخرج وجلس على تخت السلطنة [3] وبالتاج والسوارين ، وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر أحضر الأمراء ، وأعلموا بوفاة السلطان ، وخطب لمحمود بالسلطنة .

وكان مولد السلطان محمد فى ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين ودُعى [4] له بالسلطنة ببغداد ، فى الدفعة الأولى ، في يوم الخميس سابع عشر ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت ،

---

(١) هكذا فى ت ، والكامل ج ١٠ ص ١٨٥ . وفى الأصل : لولده .

(٢) زيادة من ت ، وموافقة للكامل بالصفحة نفسها .

(٣) هكذا فى ت ، وفى الكامل بالصفحة نفسها . وفى الأصل : فبارك بالسلطنة والتاج والسوارين .

(٤) هكذا فى ت ، وفى الأصل . ودعا .

وأعيدت عدة دفعات كما قدمناه فى أخبار بركياروق . وكانت مدة اجتماع الناس عليه بغير منازع ، منذ تسلم السلطنة من الأمير إياز أتابك ملكشاه بن بركياروق ، ثنتا عشرة سنة وسبعة أشهر .

وأما سيرته فكان ملكا عادلا شجاعاً [1] ، حسن السيرة ؛ فمن جملة ذلك أنه اشترى مماليك من بعض التجار ، وأحالهم بالثمن على عامل خوزستان ، فأعطاهم البعض ، ومطلهم بما بقى ، فحضروا مجلس الحكم ، وأخذوا معهم غلمان القاضى إلى السلطان ، ليحضر معهم إلى مجلس الحكم ، فلما رآهم ، قال لحاجبه : انظر حاجة هؤلاء فسألهم ، فقالوا : لنا خصم يحضر معنا إلى مجلس الحكم ، فقال : من هو ؟ فقالوا : السلطان ؛ وذكروا قصتهم . فأعامه الحاجب ذلك ، فأمر بإحضار العامل إليهم ، وغرّمه غُرما ثقيلا ، ونكلَ به ، ثم كان يقول بعد ذلك : ندمت ندامة عظيمة ، حيث لم أحضر معهم إلى مجلس الحكم ، فيقتدى بى غيرى ، ولا يمتنع أحد عن الحضور إليه ، وأداء الحق . ومن عدله أنه كان له خازن يعرف بأبى أحمد القزوينى ، فقتله الباطنية ، فلما قتل أمر بعرض الخزانة عليه ، فعرضت ، فإذا درج فيه جوهر نفيس ، فقال : إن هذا الجوهر عرض علىَّ منذ أيام ، وهو فى ملك أصحابه ، وسلمه إلى خادم له ، وأمر بتسليمه إليهم ، فسأل عنهم وكانوا غرباء — وقد تيقنوا ذهاب مالهم ، وأيسوا منه ، فلم يطلبوه ، [فأحضرهم] [2] وسلمه إليهم ،

(١) زيادة من ت .

(٢) هكذا فى ت ، وهو الأنسب للسياق . وفى الأصل فأحضره وهو موافق للكامل ص١٨٥ ج ١٠ .

وأطلق المكوس والضرائب فى جميع البلاد ، ولم يعلم منه فعل قبيح ، ولا عرف عنه ، وعلم الأمراء سيرته ، فلم يتجاسروا على الظلم ، وكفوا عنه .

وكان له من الأولاد : محمود ، وطغرل ، ومسعود ، وسليمان شاه ، وسلجق . تولوا كلهم السلطنة إلا سلجق .

وزراؤه : مؤيد الملك بن نظام الملك . ثم سعد الملك أبو المحاسن ، إلى أن قتله ، ثم أحمد بن نظام الملك ، ثم خطير الملك ، وكان فى نهاية الجهل ، فعزله بعد مدة ، وصادره ، وولى غيرهم ، وممن استوزره : ربيب الدولة أبو منصور بن أبى شجاع .

ولما توفى السلطان محمد انتقلت السلطنة من العراق إلى خراسان ؛ وذلك أن سنجر شاه لم يبق فى البيت أكبر منه ، فكان هو السلطان المشار إليه ، ولنذكر الآن أخباره ؛ لأنه كان ملكا فى حياة أخيه ، وعظم شأنه ، واستولى على عدة ممالك ، فإذا انقضت دولته ، عدنا إلى ذكر أولاد محمد ، [و] [1] غيرهم إن شاء الله تعالى .

ذكر أخبار السلطان سنجر

هو معز الدين [2] عماد آل سلجوق أبو الحارث سِنْجر شَاه برهان أمير المؤمنين ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه ، وقد تقدم ذكر نسبه ، وكان والده سماه أحمد ، وإنما قيل له : سنجر ؛ لأنه

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : معز الدولة ، وما أثبتناه موافق للنجوم الزاهرة ص ٣٢٧ جـ٥ ، والكامل ص ١٩٣ جـ ١٠ .

ولد بسنجار ، فقيل له : سنجر باسم المدينة التى ولد بها ، ونعت أيضا بالسلطان الأعظم ، قال المؤرخ : ولما مات السلطان محمد كان سنجرشاه مستقر الأمر بخراسان ، وقد ذكرنا ذلك فى أيام أخيه السلطان بركياروق ، وكان قد سلمها له لما فتحها ، فى خامس جمادي الأولى سنة تسعين وأربعمائة [1] ، وقد قدمنا من أخباره فى أيام أخيه السلطان بركياروق ، وحروبه معه ، ما يستغنى الآن عن إعادته ، فلما مات بركياروق استغل سنجرشاه بملك خراسان ، وبقى العراق وما معه بيد أخيه السلطان محمد ، على ما قدمنا ، قال : واتفق وقعتان لسنجر شاه عظيمتان ، فى أيام أخويه بركياروق ومحمد نحن الآن نذكرهما .

فأما الأولى : فهى واقعته مع [قدر خان] [2] صاحب سمرقند وما وراء النهر ، وكانت فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وذلك أن قَدْر خان قصد خراسان ، وطمع فى ملكها لصغر سن سنجر ، وجمع من العساكر ما طبق الأرض ، قيل : كانوا مائة ألف مقاتل ، وقيل : مائتى ألف عنان ، مسلمون وكفار ، وكان من أمراء سنجر أمير اسمه : كندغدي [3] ، قد كاتب قدر خان بالأخبار ، وأعلمه بحال سنجر وضعفه ، واختلاف الملوك السلجقية ، وأشار عليه

---

(١) هكذا فى ت : وفى الأصل : سنة تسعة وتسعين وأربعمائة ، وهو خطأ . وانظر الكامل ج١٠ ص ٩١ ، وأبا الفدا ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) فى الأصل : قد زخان . وما أثبتناه موافق للكامل ج ١٠ ص ١٢١ حوادث سنة ٤٩٥ ، وهو كما ذكره الكامل قدرخان جبريل بن عمر .

(٣) موافق للكامل ج ١٠ ص ١٢١ وفى ت : كنك عدى .

بالسرعة ، فبادر قدر خان ، وقصد البلاد ، فسار سنجر نحوه ليقاتله ، وكان معه كندغدي ، وهو لا يتهمه فى مناصحته ، فوصل إلى بلخ فى ستة آلاف فارس ، وبقى بينه وبين قدرخان مسافة خمسة أيام ، فهرب كند غدي ، والتحق بقدر خان ، فلما تدانى العسكران أرسل سنجر يذكر قدر خان العهود القديمة والمواثيق ، فلم يصغ إلى ذلك ، فأذكى[1] سنجر عليه العيون ، وبث الجواسيس ، فكان لا يخفى عنه شيء من أخباره ، فأتاه من أخبره أنه قد نزل بالقرب من بلخ ، وأنه خرج يتصيّد فى ثلثمائة فارس ، فندب السلطان سنجر الأمير برغش لقصده ، فسار إليه ، فلحقه وقاتله ، فانهزم أصحاب قدر خان ، وأسرهو وكند غدي ، وأحضرهما إلى السلطان سنجر ، فأما قدرخان : فإنه قبل الأرض واعتذر ، فقال له سنجر : إنْ خَدَمْتَنا أو لم تخدمنا فما جزاؤك إلا السيف ، ثم أمر به ، فقتل ، وأما كندغدى فإنه نزل فى قناة ومشى فيها فرسخين تحت الأرض ، على ما كان به من النقرس ، وقتل فيها حيتين عظيمتين ، وسبق أصحابه إلى مخرجها ، وسار فى ثلثمائة فارس إلى غزنة ، وقيل : بل جمع سنجر عساكره ، والتقى هو وقدرخان ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم أصحاب قدرخان ، وأسر هو وحمل إلى سنجر ، فقتله ، وحصر « ترمذ » ، وبها كند غدى[2] ، فطلب الأمان ، فأمنه سنجر ، وتسلم « ترمذ » ، فأمره سنجر بمفارقة بلاده ، فسار إلى غزنة ، فأكرمه صاحبها علاء الدولة ، وقدمه وأحسن إليه ، قال : ولما قتل قدرخان أحضر السلطان

(١) من الكامل بالصفحة نفسها ، وفى الأصل : فأولى .

(٢) فى الأصل : كند على ، وفى ت : كند عدى ، وقد سبق تصويبه .

سنجر شاه محمدًا أرسلان بن سليمان بن داود بغراخان من مرو ، وملكه سمرقند ، وهو من أولاد الملوك الخانية ، وأمه ابنة السلطان ملكشاه ، وكان قد دفع عن ملك آبائه ، فقصد مرو ، فأقام بها إلى الآن ، فولاه سنجر أعمال قدرخان ، وسير معه العسكر ، فملك جميع البلاد ، وعظم شأنه ، وارتفع محله ، ودام فى ملك ما وراء النهر ، وهو على الطاعة للسلطان سنجر ، إلى سنة سبع وخمسمائة ، فظهر منه ظلم للرعية ، واستخف بأوامر السلطان سنجر ، فتجهز بعساكره ، وقصده ، فخاف محمد ، وأرسل إلى السلطان يستعطفه ، واعترف بالخطأ ، فأجابه السلطان إلى الصلح ، على أن يحضر ويطأ بساطه ، فأرسل يذكر خوفه لسوء صنيعه ، وأنه يحضر إلى الخدمة ، ويخدم السلطان وبينهما نهر جيحون ، ثم يعاود بعد ذلك الحضور عنده ، والدخول عليه ، فأجاب السلطان إلى ذلك ، وكان سنجر على شاطىء جيحون من الجانب الغربى ، ومحمد من الجانب الشرقى ، فترجل وقبل الأرض وسنجر راكب ، وعاد كل منهما إلى خيامه ، وسكنت الفتنة ، فهذه الوقعة الأولى .

وأما الثانية : فإنه لما مات علاء الدولة صاحب[1] غزنة ، فى شوال سنة ثمان وخمسمائة ، وملك ابنه أرسلان شاه ، وأمه سلجقية ، وهى أخت السلطان ألب أرسلان بن داود ، فقبض على إخوته وسجنهم ، وهرب أخ له اسمه بهرام شاه إلى خراسان ، والتحق بالسلطان سنجر ، فأرسل إلى أخيه فى معناه ، فلم يفعل ، ولا أصغى إلى قوله ، فتجهز

(١) فى ت : علاء الدين ، وقد مرت ترجمته .

سنجر شاه إلى المسير إلى غزنة ، ومعه بهرام شاه ، فلما بلغ بست اتصل به نصر بن خلف ، صاحب سجستان ، وسمع أرسلان شاه الخبر ، فسير جيشا كثيفا ، فهزمه سنجر ، وعاد من سلم إلى غزنة بأسوأ حال ، فخضع حينئذ أرسلان شاه ، وأرسل إلى الأمير أتسز ، [1] وكان على مقدمة سنجر ، يضمن له الأموال الكثيرة ، ليعود عنه ، ويحسّن إلى سنجز [2] العود ، فلم يفعل ، فأرسل أرسلان شاه امرأة عمه نصر ، وهى أخت السلطان سنجر من والده بركياروق ، وكان علاء الدولة قتل زوجها ، ومنعها من الخروج عن غزنة ، وسألها سؤال سنجر فى الصفح ، وأرسل معها الأموال والهدايا والتحف ، وكان معها مائتا ألف دينار ، وطلب من السلطان أن يسلم إليه أخاه بهرام شاه ، فوصلت إليه ، وكانت موغرة الصدر من أرسلان شاه ، فهونت أمره عند السلطان سنجر ، وأطمعته فى البلاد ، وهونت عليه الأمر ، وذكرت له ما فعل بإخوته ، وأنه قتل بعضهم ، من غير أن يخرجوا عن الطاعة ، فسار الملك سنجر ، وأرسل خادما من خواصه برسالة إلى أرسلان شاه ، فقبض عليه واعتقله ، واستمر سنجر على سيره لقصد غزنة ، فلما سمع بقربه أطلق الرسول ، ووصل سنجر إلى غزنة ، ووقع المصاف على فرسخ منها بصحراء شهراباذ ، وكان أرسلان شاه فى ثلاثين ألف فارس ، وخلق كثير من الرجالة ، ومعه مائة وستون [3] فيلا عليهم المقاتلة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، كان الظفر لسنجر شاه

---

(١) فى الكامل ص ١٧٧ ج ١٠ حوادث سنة ٥٠٨ هـ « أتسر » .

(٢) هكذا فى ت ، وفى الأصل : مجهز ، وما أثبتناه موافق للكامل ص ١٧٧ ج ١٠ .

(٣) فى الكامل ص ١٧٨ ج ١٠ : مائة وعشرون فيلا .

ومن معه ، ودخل غزنة ، وملك قلعتها ، ورتب بهرام شاه فى الملك ، وقرر أن يكون الدعاء بغزنة للخليفة ، ثم للسلطان محمد ، ثم للملك سنجر ، وبعدهم لبهرام شاه ، وحصل لأصحاب سنجر من الأموال ما لا يحد ، وكان من دور ملوكها عدة دور ، على حيطانها ألواح الفضة وسواقى البساتين من الفضة ، فقُلع أكثر ذلك ونُهب ، فمنع سنجر أصحابه ، وصلب جماعة ، حتى كف الناس ، وكان من جملة ما حمل لسنجر خمسة تيجان قيمة ، أحدها يزيد على ألفى ألف دينار وألف وثلثمائة قطعة مصاغة مرصعة ، وسبعة عشر سريرا من الذهب والفضة ، وأقام سنجر بغزنة أربعين يوما ، حتى استقر بهرام شاه ، وعاد إلى خراسان ، ولم يخطب بغزنة لسلجقى قبله .

ذكر القبض على الوزير محمد

قال : ولما عاد السلطان سنجر من غزنة قبض على وزيره أبى جعفر محمد بن فخر الملك أبى المظفر ، بن الوزير نظام الملك ، وكان سبب ذلك أنه أوحش الأمراء ، واستخف بهم ، فغضبوا من ذلك ، وشكوا إلى السلطان وهو بغزنة ، فاستمهلهم إلى أن يخرج من غزنة ، ووافق ذلك تغير السلطان عليه ، لأشياء نقمها منه ، منها أنه أشار على السلطان بقصد غزنة ، فلما قصدها ، ووصل إلى بست ، أرسل صاحبها أرسلان شاه إلى الوزير محمد ، وضمن له خمسمائة ألف دينار إن هو أثنى عزم السلطان سنجر عن قصدها ، ورده ، فلما أتته الرسالة أشار على السلطان بمصالحة أرسلان شاه ، والرجوع إلى خراسان ، فلم يوافقه على ذلك ، وفعل بمثل ذلك بما وراء النهر ، ومنها أنه نقل

إليه أنه أخذ من غزنة أموالا عظيمة المقدار ، وغير ذلك ، فلما عاد إلى بلخ قبض عليه ، وأخذ ماله وقتله ، وكان له من الجواهر والأموال شيء كثير ، ووجد له من العين ألف ألف دينار ، ولما قتله استوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرازق بن أخي نظام الملك ، ويُعرف هذا الوزير بابن الفقيه ، فلم يبلغ منزلة أبي جعفر فى علو الهمة ، ونفاذ الكلمة ، ثم ندم السلطان سنجر على قتل أبي جعفر ، رحمه الله تعالى .

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وبين ابن أخيه محمود بن محمد

كانت الحرب بينهما فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وسبب ذلك أنه لما بلغ السلطان سنجر شاه وفاة أخيه السلطان محمد ، وجلوس ابنه السلطان محمود ، وهو زوج ابنة السلطان سنجر ، حزن لوفاة أخيه حزنا عظيما ، وجزع ، وتألم ألما شديدا ، وجلس للعزاء على الرماد ، وأغلق البلد سبعة أيام ، وتقدم إلى الخطباء يذكر أخيه السلطان محمد على المنابر بمحاسن أعماله ، من قتال الباطنية ، وإطلاق المكوس ، وغير ذلك ، وكان يلقب بناصر الدين ، فتلقب بعد وفاة أخيه بمعز الدين ، وهو لقب أخيه ملكشاه ، وعزم على قصد بلد الجبال والعراق ، وما هو بيد محمود بن أخيه ، وندم عند ذلك على قتل وزيره أبي جعفر ؛ لأنه كان يبلغ به من الأغراض ما لا يبلغه بكثرة العساكر ، لميل الناس إليه ومحله عندهم . قال : ثم أرسل السلطان إلى عمه سنجر شرف الدين أنوشروان بن خالد ، وفخر الدين طغايرك ، ومعهما الهدايا والتحف ، وبذل له النزول عن مازندران ،

وحمل إليه مائتى ألف دينار فى كل سنة ، فوصلا إليه وأبلغاه الرسالة ، فقال : لابد من القتال ، وسار نحو الرىّ والأمير أتسز فى مقدمته ، فلما بلغ السلطان محمود مسير عمه إليه ، ووصول الأمير أتسز إلى جرجان ، تقدم إلى الأمير على بن عمر ، وهو أمير حاجب أبيه بالمسير ، وضم إليه جمعا كثيراً من الأمراء والعساكر ، فاجتمعوا فى عشرة آلاف فارس ، وساروا إلى أن قاربوا مقدمة السلطان سنجر ، وعليها الأمير أتسز ، راسله الأمير على بن عمر يعرفه وصية السلطان محمد ، بتعظيم السلطان سنجر ، والرجوع إلى رأيه وأمره ، والقبول منه ، وأنه ظن أن السلطان سنجر يحفظ السلطنة على ولده محمد ، وأنه أخذ علينا العهود بذلك ، وليس لنا أن نخالفه ، وأما حيث جئتم إلى بلادنا ، فلا نحتمل ذلك ولا نعصى عليه ، وقد علمت أن معك خمسة آلاف فارس ، وأنا أرسل إليك أقل منهم لتعلم أنكم لا تقاومونا ولا تقومون بنا ، فلما سمع الأمير أتسز ذلك عاد عن جرجان ، ولحقه بعض عسكر محمود ، وأخذوا قطعة من سواده ، وأسروا عدة من أصحابه ، وعاد الأمير على إلى السلطان محمود ، وقد بلغ الرى ، وأقام بها ، فشكره على ما كان منه ، وأشير على محمود بالمقام بالرى ، وقيل له إن عساكر خراسان إذا علموا بمقامك لا يفارقون حدودهم ، ولا يتعدون ولا يتهم ، فلم يقبل ذلك ، وضجر من مقامه ، وسار ووصل إليه الأمير منكبرش [1] من العراق ، فى عشرة آلاف فارس ،

(٢) فى الكامل ص ١٩٤ ج ١٠ : مكيرس .

والأمير منصور بن صدقة أخو دبيس ، والأمراء البلخية [١] ، وغيرهم ، وسار إلى همذان ، فبلغه وصول عمه سنجر إلى الرى ، فسار نحوه ، وقصد قتاله فالتقيا بالقرب من ساده [٢] ، وكان السلطان سنجر فى عشرين ألفا ، ومعه ثمانية عشر فيلا ، ومحمود فى ثلاثين ألفا ، وهم أكابر الأمراء ، ومعه تسعمائة حمل من السلاح ، فلما التقوا ضعفت نفوس الخراسانية ، لما رأوا من عسكر محمود من الكثرة والقوة ، فانهزمت ميمنة سنجر ، واختلط أصحابه ، وصاروا منهزمين لا يلوون على شىء ، ونهب من أثقالهم شىء كثير ، وقتل من أهل السواد خلق كثير ، ووقف السلطان سنجر بين الفيلة فى جمع من أصحابه ، وبإذائه السلطان محمود ، ومعه أتابكه « عز [٣] على » ، فلما تعاظم الأمر على سنجر ألجأته الضرورة أن يقدم الفيلة للحرب ، وكان من بقى معه أشاروا عليه بالهزيمة ، فقال : إما النصر وإما القتل ، وأما الهزيمة فلا ، فلما تقدمت الفيلة نفرت منها خيل أصحاب محمود ، وتراجعت على أعقابها بأصحابها ، فأشفق السلطان سنجر على محمود ، وقال لأصحابه : لا تفزعوا الصبى بحملات الفيلة ، فكفوها عنهم ، وانهزم السلطان محمود ومن معه ، وأسر أتابكه « عز على » ، وكان يكاتب السلطان ، ويعده أنه يحمل إليه السلطان محمود ، فعاتبه على تأخيره عن ذلك ، فاعتذر بالعجز ، فقتله ، قال : وتم الظفر للسلطان سنجر وأرسل من أعاد المنهزمين من أصحابه ،

---

(١) من الكامل ص ١٩٤ : البكجية .

(٢) هكذا فى ت ، والكامل ص١٩٤ ج١٠ وأبو الفدا ص٢٣١ ج٢ . وفى الأصل شادة .

(٣) فى الكامل ص ١٩٥ ج ١٠ : غزغلى .

ونزل فى خيام السلطان محمود ، وتراجع أصحابه إليه ، ووصل الخبر إلى بغداد فى عشرة أيام ، وأرسل الأمير دبيس بن صدقة فى الخطبة للسلطان سنجر ، فخطب له فى السادس والعشرين من جمادى الأولى من السنة ، وقطعت خطبة محمود ، وأما محمود فإنه سار من موضع الكسرة إلى أصفهان ، وسار السلطان سنجر إلى همذان ، فرأى قلة عسكره واجتماع العساكر على ابن أخيه محمود ، فراسله فى الصلح ، وكانت والدة السلطان سنجر تشير عليه بذلك ، وتقول له : إنك قد استوليت على غزنة وأعمالها ، وما وراء النهر ، وملكت البلاد ، فتركت الجميع لأصحابه ، فاجعل ولد أخيك كأحدهم ، فأجاب إلى قولها ، وراسل محمودا فى الصلح ، وتحالفا ، وسار السلطان محمود إلى عمه السلطان سنجر ، فبالغ فى إكرامه ، وحمل إليه محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهراً ، وردها باطناً ، ولم يقبل منه سوى خمسة أفراس عربية ، وكتب السلطان سنجر إلى سائر الأعمال التى بيده : خراسان ، وغيرها ، وغزنة ، وما وراء النهر ، بالخطبة للسلطان محمود بعده ، وكتب إلى بغداد بمثل ذلك ، وأعاد عليه جميع ما أخذ منه ، سوى الرى ، وقصد بأخذها أن يكون له فى هذه البلاد ، لئلا يحدث محمود نفسه بالخروج عن طاعته .

ذكر قدوم السلطان سنجر الى الرى

وفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة خرج السلطان سنجر من خرسان إلى الرى فى جيش كثير ، وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة ، والملك طغرل ، كانا قد التحقا به ، على ما نذكره فى

أخبار السلطان محمود ، فلم يزل دبيس يطمع السلطان سنجر فى العراق ، ويسهل عليه الأمر ، ويلقى إليه أن الخليفة المسترشد بالله ، والسلطان محمود ، قد اتفقا على الامتناع منه ، حتى أجاب إلى المسير إلى العراق ، فلما وصل الرىّ كان السلطان محمود بهمذان ، فأرسل السلطان سنجر يستدعيه ، لينظر هل هو على الطاعة ، أو تغير على ما زعم دبيس بن صدقة ؟ ، فبادر إلى المسير إليه ، فلما وصل العسكر بتاتّيه ، وأجلسه معه على التخت ، وبالغ فى إكرامه ، وأقام عنده إلى منتصف ذى الحجة من السنة ، وعاد السلطان سنجر إلى خراسان .

ذكر ملك السلطان سنجر مدينة سمرقند من محمد خان وملك محمود بن محمد

وفى شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، ملك السلطان سنجر مدينة سمرقند ، وسبب ذلك أنه لما ملكها رتب فيها محمد خان ابن أرسلان بن سليمان بن داود بغراخان ، كما ذكرناه ، فأصابه فالج ، فاستناب ابناً له يعرف بنصرخان ، وكان شجاعا ، وكان بسمر قند[1] إنسان علوى فقيه مدرس ، إليه الحل والعقد ، والحكم فى البلد ، فاتفق هو ورئيس البلد على قتل نصر خان ، فقتلاه ليلا ، وكان أبوه محمد خان غائبا ، فعظم ذلك عليه ، وكان له أخ آخر ببلاد تركستان ، فاستدعاه ، فلما قرب من سمر قند خرج العلوى ، والرئيس[2] لاستقباله فقتل العلوى فى الحال ، وقبض على الرئيس ،

(١) هكذا فى ت : وفى الأصل : بنصر قند ، وما أثبتناه موافق للكامل ص٢٣٦ ج١٠ .
(٢) فى الأصل : والدبيس ، وما أثبتناه يقتضيه السياق ، وهو موافق للكامل ص٢٣٦ ج١٠

وكان والده أرسلان خان قد أرسل إلى السلطان سنجر يستدعيه ، ظنا منه أن ابنه لا يتم أمره مع الرئيس والعلوي ، فتجهز سنجر ، وسار يريد سمرقند ، فلما ظفر ابنه بهما ندم على طلب السلطان ، فأرسل إليه يعرفه أنه قد ظفر بهما ، وأنه على الطاعة ، ويسأله العود إلى خراسان ، فغضب من ذلك ، وبينما هو فى الصيد إذ رأى اثنى عشر رجلا فى السلاح التام ، فقبض عليهم وعاقبهم ، فأقروا أن محمداً خان أرسلهم ليقتلوه ، فقتلهم ، ثم سار إلى سمرقند ، فملكها عنوة ، ونهب بعضها ، ومنع من الباقى ، وتحصن منه محمد خان ببعض الحصون ، فاستنزله بأمان بعد مدة ، فلما نزل إليه أكرمه وأرسله إلى ابنته ، وهى زوجة السلطان سنجر ، فبقى عندها إلى أن توفى ، وأقام سنجر بسمرقند حتى أخذ الأموال ، والأسلحة ، والخزائن ، وسلم البلد إلى الأمير حسن تكين ، وعاد إلى خراسان ، فمات حسن تكين بعد مسير السلطان ، فملك بعده عليها محمود بن محمد خان .

وفى[1] سنة خمس وعشرين مات السلطان محمود بن محمد ، أخى السلطان سنجر ، فسار السلطان سنجر إلى العراق ، والتقى هو وابن أخيه السلطان مسعود بن محمد ، فانهزمت جيوش مسعود ، وحضر هو إليه ، فأرسله إلى كنجة ، بعد أن كان مسعود استقر فى السلطنة ، وأقام السلطان سنجر فى السلطنة السلطان طغرل[2] أخيه محمد ، وكان من أمره وأمر أخيه مسعود ، ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبارهم .

(١) زيادة من ت .

(٢) هكذا فى ت . وهو موافق للكامل ص ٢٤١ ج ١٠ ، وفى الأصل طغر .

ذكر مسير السلطان الى غزنة وعوده

وفى ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، سار السلطان سنجر من خراسان إلى غزنة ، وسبب ذلك أنه نُقل إليه عن صاحبها بهرام شاه أنه تغير عن طاعته ، ومد يده إلى ظلم الرعية ، واغتصاب أموالهم ، وكان سنجر هو الذى ملكه غزنة ، كما ذكرناه ، فلما قارب السلطان غزنة أرسل إليه بهرام شاه رسلا يبذل الطاعة ، والتضرع ، وسأل العفو عن ذنبه والصفح ، فأرسل إليه سنجر المقرب جوهر الخادم ، وهو أكبر أمير عنده ، ومن جملة أقطاعه الرى [1] فى جواب رسالته يجيبه إلى العفو ، إن حضر عنده ، وعاد إلى طاعته ، فلما وصل المقرب إلى بهرام شاه أجاب بالسمع والطاعة ، وركب مع المقرب ، وسار لتلقى السلطان ، فلما قاربا بالسلطان [و] [2] نظر بهرام شاه إلى عسكره ، والخبر على رأسه ، نكص على عقبيه عائدًا ، فأمسك المقرب بعنان فرسه ، وقبح عليه ذلك ، وخوفه عاقبته ، فلم يرجع ، وولى هاربا ، ولم يخرج على غزنة ، فسار السلطان ، ودخل غزنة ، وملكها واحتوى على ما فيها ، وجبى أموالها ، وكتب إلى بهرام شاه يلومه على ما فعله ، وحلف أنه ما أراد به سوءاً ، ولا مطمع له فى بلده ، ولا هو ممن يكدر صنيعه ، ويعقب حسنته معه بسيئة ، وإنما قصده لإصلاحه ، فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ، ويتنصل ويقول :

---

(١) فى ت : الذى ، وما أثبتناه موافق لأبى الفدا ص٢٥ ج ٣ حوادث سنة ٥٣٤ هـ ، والكامل ص ١١ ج ١١ .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

إن الخوف منعه من الحضور ، ولا لوم على من خاف من السلطان ، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده ، وفارق غزنة ، وعاد إلى خراسان ، ورجع بهرام شاه إلى غزنة .

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه

وفى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، سار السلطان سنجر إلى خوارزم شاه أتسز بن محمد ؛ وذلك أنه بلغه أنه يحدث نفسه بالامتناع عليه ، وترك خدمته ، وجمع خوارزم شاه عسكره ، والتقوا فانهزم أصحاب خوارزم شاه ، ولم يثبتوا ، وقتل ولد خوارزم شاه ، وملك السلطان « خوارزم » ، وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ، ولد أخيه محمد ، وعاد إلى مرو ، فى جمادي الآخرة منها ، وهذه الحرب هى التى أوجبت الفتن العظيمة ، التى نذكرها إن شاء الله تعالى .

ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا ، وملكهم ماوراء النهر

وفى سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، كانت الحرب بين السلطان سنجر وبين الخِطا ؛ وسبب ذلك أن خوارزم شاه لما قتل ابنه فى حرب السلطان ، كما ذكرناه ، حمله الألم إلى أن راسل ملك الخطا يستدعيه ، لقصد سنجر وملك بلاده ، ويهون عليه أمره ، فصار فى ثلثمائة ألف عنان ، وسار سنجر إليه بجميع عساكره ، والتقوا بما وراء النهر ، واقتتلوا قتالا شديدا ، وانجلت الحرب عن هزيمة سنجر ، وقتل من أصحابه مائة ألف قتيل ، فيهم اثنا عشر ألفا كلهم أصحاب

عمامة ، وأربعة آلاف امرأة ، وأسرت زوجة السلطان سنجر ، وهى تركان خاتون ، ثم فُديت بخمسمائة ألف دينار ، [(١)] وانهزم سنجر إلى ترمذ ، ولم ينهزم قبلها ، ولما تمت هذه الهزيمة أرسل إلى ابن أخيه السلطان مسعود ، وأذن له أن يتصرف فى الرى ، وما معها ، على قاعدة أبيه السلطان محمد ، وأمره أن يكون مقيما بها بعساكره ، بحيث إنه إذا احتاج إليه استدعاه ، ففعل ذلك ، وملك الخطا ما وراء النهر ، وتغلب خوارزم شاه على البلاد ، في هذا التاريخ ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره ، وفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة حاصر السلطان سنجر خوارزم شاه بخوارزم ؛ فراسله ، وبذل الطاعة والأموال ، فقبل السلطان ذلك منه ، وعاد عنه .

ذكر انهزام السلطان سنجر من الغز ، وأسره ، وذكر أحوال الغـز

ولنبدأ بذكر حال هؤلاء الغز ، ومبدأ أمرهم ، وما كان منهم إلى أن أسروا السلطان ، فنقول : إنهم طائفة من الترك مسلمون ، كانوا بما وراء النهر ، فلما ملك الخِطا أخرجوهم من بلاد ما وراء النهر ، فقصدوا خراسان ، وكانوا خلقا كثيرا ، فأقاموا بنواحى بلخ ، يرعون فى مراعيها ، وكان لهم أمراء ، وهم : دينار ، وبختيار ، وطوطى ، وأرسلان ، وجغر ، ومحمود ، فأراد الأمير قماج ، وهو مقطع بلخ إبعادهم ، فصانعوه لشىء بذلوه له ، فعاد منه ، وأقاموا على

(١) فى الأصل وتم سنجر إلى ترمذ ، وما أثبتناه موافق للكامل ص ٣١ ج ١١ .

عادة حسنة ، لا يؤذون أحداً ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة فعاودهم قماج ، وأمرهم بالانتقال عن بلده ، فامتنعوا ، وانضم بعضهم إلى بعض ، واجتمع معهم [1] غيرهم من طوائف الترك ، فسار قماج إليهم ، فى عشرة آلاف فارس ، فجاء إليه أمراء الغز ، وبذلوا له عن كل بيت مائتى درهم ، فلم يجبهم ، وشدد عليهم فى الانشراح عن بلده ، فعادوا عنه ، واجتمعوا ، وقاتلوه ، فانهزم ، ونهبوا عسكره ، وأكثروا القتل فى العساكر والرعايا ، واسترقوا النساء والذرارى ، وعملوا كلّ عظيمة ، وقتلوا الفقهاء [1] ، وخربوا المدارس ، وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو ، وبها السلطان سنجر ، فأعلمه الحال ، فراسلهم وتهددهم ، وأمرهم بمفارقة البلاد ، فاعتذروا وبذلوا مالا كثيرا ؛ ليكف السلطان عنهم ، ويتركهم فى مراعيهم ، فلم يجبهم إلى ذلك ، وجمع عساكره من أطراف البلاد ، فاجتمع له ما يزيد على مائة ألف فارس ، وقصدهم ، ووقع بينهم حرب شديدة ، فانهزمت عساكر السلطان سنجر ، وانهزم هو فى أصحابه ، وتبعهم الغز يقتلون منهم ، ويأسرون ، حتى صارت القتلى كالتلال ، وقتل علاء الدين قماج ، وأسر السلطان سنجر وجماعة من الأمراء ، فضرب الغز [2] أعناق الأمراء ، وأما السلطان سنجر فإنّ أمراء الغز اجتمعوا ، وقبّلوا الأرض بين يديه ، وقالوا : نحن عبيدك ، لا نخرج عن طاعتك ، ومضى على ذلك ثلاثة أشهر ، ودخلوا معه إلى مرو ، وهى كرسى مملكة خراسان ، فطلبها منه بختيار إقطاعا ، فقال له السلطان سنجر : هذه دار الملك ، ولا يجوز

(١) ، (١) زيادة من ت .
(٢) زيادة من ت .

أن تكون إقطاعا لأحد ، فضحكوا منه ، وَحَبَقَ له بختيار بفمه ، فلما رأى ذلك من فعلهم نزل عن سرير الملك ، ودخل خانقاه مرو ، واستولى الغز على البلاد ، وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله ، وولوا على نيسابور والياً فظلم الناس ، وعسفهم وضربهم ، وعلق فى الأسواق ثلاث غرائر ، وقال أريد ملء هؤلاء ذهبا ، فثار به العامة ، فقتلوه ، وقتلوا من معه ، فدخل الغز نيسابور ، ونهبوها وجعلوها قاعا صفصفا ، وقتلوا من بها ، ولم يرفعوا السيف عن كبير ، ولا صغير ، ولم يسلم من بلاد خراسان غير هراة ودهستان ، لحصانتهما .

ذكر هرب السلطان سنجر شاه [1] من أسر الغز

قال : كان هربه من الأسر فى شهر رمضان ، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . ولما هرب سار إلى قلعة ترمذ ، هو وجماعة كانوا معه من الأمراء ، فاستظهر بها على الغز ، وكان خوارزم شاه أتسز بن محمد ، والخاقان محمود بن محمد ، يقصدان الغز ويقاتلانهم ، وكانت الحرب بينهم سجالا ، وغلب كل منهم على ناحية من خراسان ثم سار السلطان من ترمذ إلى جيحون ، يريد العبور إلى خراسان ، واتفق أن على بك مقدم القادغلية [2] توفى ، وكان أشد على السلطان من كل أحد ، فأقبلت القادغلية ، وغيرهم ، من أقاصى البلاد وأدانيها إلى السلطان ، وعاد إلى دار ملكه بمرو [3] .

---

(١) زيادة من ت .

(٢) أنظر الكامل ص ٧٢ ج ١١ .

(٣) زيادة من ت : وهو موافق للكامل ص ٧٩ ج ١١ .

ذكر وفاة السلطان سنجر شاه ، وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، أصابه قولنج بعد ذَرب ، فمات منه ، ودفن بقبة بناها لنفسه ، وسماها دار الآخرة ، وكان مولده بسنجار فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، فكان عمره أربعا وسبعين سنة وثمانية أشهر ، ومدة ملكه - منذ سلم له أخوه السلطان بركياروق راسان ، فى خامس جمادى الأولى سنة تسعين وأربعمائة ، وإلى هذا التاريخ - إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وأياما ، ومنذ استقل بالسلطنة ، بعد وفاة أخيه محمد نحواً من أربعين سنة ، ولم يزل أمره عاليا إلى أن أسره الغز ، كما ذكرناه ، وكان من أكابر الملوك ، وعظمت مملكته ، ملك من (١) نهاوند ، وغزنة ، وسمرقند ، إلى خراسان ، وطبرستان ، وكرمان ، وسجستان ، وأصفهان ، وهمذان ، والرى ، وأذربيجان ، وأرمينية ، ودانية ، والعراق ، وبغداد ، والموصل ، وديار بكر ، وربيعة ، ومضر ، والجزيرة ، والشام ، والحرمين ، وخطب له على منابرها ، وضربت السكة باسمه ، فى هذه الأقاليم وبلادها ، ووطئت ملوكُها بساطه ، وكان من أعظم الملوك همة ، وأكثرها عطاء ، ذُكر عنه أنه اصطبح خمسة أيام متواليات ، ذهب فى الجود بها كل مذهب ، فبلغ ما أعطاه من العين سبعمائة ألف أحمر ، غير ما وهب من الخيول ، والخلع ، وغيرها ، وفرق فى يوم واحد ألف

(١) زيادة من ت ، وانظر أبا الفدا : ص ٣٠ ج ٣ .

ثوب أطلس ، واجتمع فى خزانته ما لم يسمع أنه اجتمع فى غيره من الأكاسرة ، قال الشيخ جمال الدين أبو الحسن على بن أبى المنصور ابن ظافر بن حسين الأزدى ، صاحب كتاب الدول المنقطعة : صح عند جميع الناس أن الجوهر الذى اجتمع عنده كان وزنه ألفا وثلاثين رجلا ، قال : وكان لسنجر مماليك اختصهم بالمحبة ؛ فكان يشترى أحدهم بما قام فى نفسه ، ويهواه ويُسعده حتى إذا يقل عذاره ، سلاه وجفاه ، وطرده ، أو قتله ؛ فمنهم سنقر الخاص ، كان لصيرفى اشتراه السلطان بألف ومائتى دينار ركنية ، وتشريف ، فبلغ مبلغا عظيما ؛ حكى عنه عبد العزيز صاحب خزائنه [عن] (١) غرامه بسنقر هذا ، قال : استدعانى السلطان ، وقال لى : أنت تعلم أن سنقر الخاص حدقتى ، التى أنظر بها ، وقلبى الذى أفهم به ، وهذه خزائنى تحت يدك ، وحمول غزنة ، وخوارزم قد وصلت ، وأريد أن تصير له سرادقا كسرادقى ، وخيلا مثل خيلى ، وتشترى له ألف مملوك يمشون فى ركابه ، وتحل إقطاع من تراه ، وتضيفه إليه ، وتعمل له خزانه كخزانتى ؛ وأريده يكون صاحب عشرة آلاف فارس ، وحثّنى على ذلك ، فشرعت فى ترتيبه (٢) ، وكلته فى مقدار عشرين يوما ، فأنفقت عليه سبعمائة ألف دينار ركنية ، سوى ما نقلته من الخزائن ومن الجواهر والثياب ، وغير ذلك ، وأخبرت السلطان به فسره ، وشكرنى عليه ، وفوض إلى أمر خزانته ، مضافا إلى الخزانة ، ولم يمض سنيات حتى

(١) فى الأصل : عند .

(٢) هكذا فى ت ، وهو الملائم للسياق. وفى الأصل : (تربيته) .

احضرّ عذاره فسلاه السلطان ، وتمادى هو فى بسطه،[وأساءت] (١) على أكابر الأُمراء ، فتهدده ، فلم يلتفت ، فأمر الأمراء بقتله إذا دخل عليه ، فقتلوه بالسيوف .

وممن بلغ عنده مبلغا لم يبلغه أحد قبله ، الأمير المغترب اختيار الدين جوهر التاجى الخادم ، كان خادما لوالدة السلطان سنجر ، فلما توفيت فى شوال سنة عشر وخمسمائة انتقل إليه ، فشغف به ، وغلب حبه عليه ، وارتفع إلى حد لم يرتفع إليه غيره ، وبلغت عدة عسكره ثلاثين ألف فارس ، وكان أمره لا يرد ، وإذا ركب مشى الأُمراء فى ركابه ، وإذا جلس وقفوا ، حتى يأذن لهم ، وأعطاه الرى ، ثم مله بعد ذلك ، وكرهه ، ودس عليه بعض الباطنية ، فقتله غيلة .

قال : ولما مات السلطان سنجر انقطع استبداد السلجقية بمملكة خراسان ، واستولى عليها خوارزم شاه أتسزبن محمد ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره .

وزراؤه : العميد أبو الفتح بن أبى الليث إلى أن قتل فى يوم عاشوراء سنة خمسمائة ، واستوزر بعده ولده صدر الدين محمد إلى أن قتل ببلخ ، فى الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة . قتله قايماز مملوك السلطان ، الذى كان يهواه ، فقتله به ، واستوزر أبا جعفر محمد بن فخر الملك أبى المظفر بن الوزير نظام الملك ، ثم قتله كما قدمناه ، واستوزر بعده الوزير شهاب الإسلام عبد الدوام ابن إسحاق ، أخى نظام الملك ، إلى أن توفى بسرخس ، فى يوم

---

(١) هكذا فى ت ، وهو الأنسب . وفى الأصل : رأس .

الخميس سابع المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة ، واستوزر بعده الوزير بغاى بك الكاشغرى ، فأحسن التدبير ، وكان أعور ، فصرفه فى نصف صفر سنة ثمان عشرة ، واستوزر بعده معين الدين مختص القاشانى ، فقتله الباطنية ، فى تاسع عشر صفر سنة إحدى وعشرين ، فاستوزر نصير الدين أبا القاسم محمود بن أبى توبة المروزى ، وكان من أفضل الوزراء ، وأجملهم سيرة ، وأحسنهم طريقة ، [وأغزرهم [1]] أدبا وعلما ، وكثر فى أيامه أهل العلم والأدب ، وصُرِف فى سنة ست وعشرين ، واستوزر الوزير القوام أبا القاسم [2] الدزكزينى ، واستمر فى وزارته إلى أن توفى ، فى ذى الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

قال : ولما حضرت السلطان سنجر الوفاة استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بغراخان ، وهو ابن أخت السلطان ، ولم يكن من السلجقية ، وإنما هو من أولاد الملوك الخانية ، فأقام بها خائفا من الغز ، وبقيت خراسان على هذا الاختلاف ، إلى سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، ثم راسله الغز ، وسألوه أن يملكوه عليهم ، فالتحق بهم ، ثم خُلع فى جمادى الآخرة سنة ست وخمسين ، وسمل ، وإنما أوردنا اسمه ها هنا ، على سبيل الاستطراد ؛ ولأن سنجر عهد إليه بالملك بعده .

---

(١) هكذا فى ت ، وهو المناسب للسياق . وفى الأصل : (أعزهم) .

(٢) زيادة من ت .

انتهت أخبار الدولة السلجقية بخراسان وما يليها ، والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

كمل الجزء الرابع والعشرون من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى رحمه الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

فهرس الموضوعات

— تقـــديم ... ...

— ذكر ملك محمود بن سبكتكين خراسان ... ٣٣
— ذكر وفاة ناصر الدولة سبكتكين وولاية ولده إسماعيل ... ٣٣
— ذكر سلطنة يمين الدولة محمود بن سبكتكين ... ٣٤
— ذكر استيلاء يمين الدولة محمود على خراسان وانتزاعها من السامانية ... ٣٥
— ذكر غزوه الهند ... ٣٦
— ذكر ملكه سجستان ... ٣٧
— ذكر غزوه بهاطية وملكها ... ٣٩
— ذكر غزوه المولتان ... ٣٩
— ذكر غزوه كواكير ... ٤٠
— ذكر عبور عسكر إيلك خان إلى خراسان ... ٤١
— ذكر انهزام إيلك خان يمين الدولة ... ٤٣
— ذكر غزوه الهند وعوده ... ٤٤
— ذكر غزوه بهيم نغر وما غنمه من الأموال وغيرها ... ٤٤
— ذكر غزوه بلاد الغور واستيلائه عليها ... ٤٦
— ذكر ملكه قصدار ... ٤٧
— ذكر فتح ناردين ... ٤٧
— ذكر غزوه تانيشر ... ٤٨
— ذكر قتل خوارزم شاه وملك يمين الدولة خوارزم ... ٤٩
— ذكر غزوه قشمير وقنوج وغيرها من الهند ... ٥٠
— ذكر أخبار الملوك الخانية بما وراء النهر والأتراك ... ٥٢
— ذكر أخبار قدرخان وأولاده ... ٥٣
— ذكر ملك طفغاج خان وولده ... ٥٥
— ذكر غزوه الهند والأفغانية ... ٥٨
— ذكر فتح قلعة من بلاد الهند ... ٦٠
— ذكر فتح سومنات ... ٦١

- ذكر ملكه الرى وبلد الجبل ... ٦٥
- ذكر ملك مسعود بن يمين الدولة محمود همذان ... ٦٧
- ذكر غزوة للمسلمين بالهند ... ٦٧
- ذكر وفاة يمين الدولة محمود بن سبكتكين وشيء من سيرته ... ٦٨
- ذكر سلطنة محمد بن محمود ... ٦٩
- ذكر خلع جلال الدولة محمد وملك أخيه مسعود بن محمود ... ٦٩
- ذكر مسيره إلى الهند وما فتحه بها ... ٧١
- ذكر مخالفة نيالتكين النائب بالهند ومقتله ... ٧١
- ذكر القبض على السلطان وقتله وشيء من سيرته ... ٧٢
- ذكر سلطنة جلال الدولة محمد بن محمود السلطنة الثانية وقتله ... ٧٣
- ذكر سلطنة مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين ... ٧٥
- ذكر مخالفة محمود بن مسعود على أخيه مودود ووفاة محمود ... ٧٥
- ذكر وفاة مودود وملك ولده ، ثم أخيه على بن مسعود ، ثم عبد الرشيد ... ٧٦
- ذكر مقتل عبد الرشيد ... ٧٧
- ذكر ملك فرخ زاد بن مسعود بن محمود بن سبكتكين ... ٧٩
- ذكر ملك إبراهيم بن مسعود بن محمود ... ٨٠
- ذكر غزو إبراهيم بلاد الهند وما فتحه منها ... ٨٠
- ذكر وفاة إبراهيم وشيء من سيرته ... ٨١
- ذكر ملك علاء الدولة أبى سعد جلا الدين مسعود ابن إبراهيم ... ٨٢
- ذكر ملك أرسلان شاه بن علاء الدولة مسعود ... ٨٢
- ذكر ملك بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم ... ٨٣

— ذكر وفاة بهرام شاه ٨٤
— ذكر ملك نظام الدين خسرو شاه بن بهرام شاه بن مسعود ٨٥
— ذكر ملك ملكشاه بن خسرو شاه بن مسعود بن إبراهيم ابن مسعود بن محمود بن سبكتكين ٨٥
— ذكر أخبار الدولة الغورية ٨٧
— ذكر الحرب بينه وبين السلطان سنجر ٨٩
— ذكر ملكه غزنه وخروجه عنها وقتل أخيه ٨٩
— ذكر خروج غياث الدين وشهاب الدين ابنى أخى علاء الدين الحسين على عمهما وموافقته ٩١
— ذكر ملك سيف الدين محمد بن علاء الدين الحسين بن الحسين ... ٩٢
— ذكر ملك غياث الدين أبى الفتح محمد بن بسام بن الحسين ابن الحسن ٩٢
— ذكر ملك غياث الدين غزنة ٩٣
— ذكر ملك شهاب الدين لهاوور وانقراض الدولة الغزنوية ٩٣
— ذكر مسير شهاب الدين إلى الهند ٩٤
— ذكر ظفر الهنود بالمسلمين ٩٥
— ذكر ظفر المسلمين بالهنود ٩٦
— ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنا رمي الهندى ٩٧
— ذكر ملك الغورية مدينة بلخ ٩٩
— ذكر ملك شهاب الدين وأخيه غياث الدين ما كان لخوارزم شاه ٩٨
— ذكر ملك شهاب الدين أنهلوارة من الهند ١٠١
— ذكر وفاة غياث الدين وشيء من سيرته ١٠١
— ذكر استقلال شهاب الدين بالملك وما فعله مع ورثة أخيه ١٠٢
— ذكر حصره خوارزم وانهزامه من الخطا ١٠٣
— ذكر قتل شهاب الدين بنى كركر ١٠٥

- ذكر مقتل شهاب الدين وشيء من سيرته ١٠٦
- ذكر ما اتفق بعد وفاة شهاب الدين ١٠٧
- ذكر مسير بهاء الدين سام صاحب باميان إلى غزنة ووفاته ١٠٨
- ذكر ملك علاء الدين بن سام مدينة غزنة وأخذها منه... ... ١٠٩
- ذكر ملك تاج الدين الدز غزنة ١١٠
- ذكر حال غياث الدين محمود بن غياث الدين بعد مقتل عمه شهاب الدين ١١١
- ذكر عود علاء الدين وجلال الدين ابنى بهاء الدين سام صاحب باميان إلى غزنة ١١٤
- ذكر عود تاج الدين الدز إلى غزنة ١١٥
- ذكر ما اتفق لغياث الدين محمود مع تاج الدين الدز وأيبك ١١٦
- ذكر مقتل غياث الدين محمود ، وانقراض الدولة الغورية ١٢٠
- ذكر أخبار تاج الدين الدز ، وما كان من أمره بعد مقتل غياث الدين ١٢١

الباب العاشر من القسم الخامس
من الفن الخامس

فى أخبار ملوك العراق وما والاه ، وملوك الموصل ، والديار الجزيرية ، والبكرية ، والبلاد الشامية ، والحلبية ، والدولة الحمدانية ، والديلمية البويهية ، والسلجوقية ، والأتابكية

— ذكر أخبار الدولة الحمدانية ١٢٣

— ذكر ابتداء إمارة أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون بالموصل ١٢٤

— ذكر مخالفة عبد الله بن حمدان ، ورجوعه إلى الطاعة ١٢٦

— ذكر القبض على بنى حمدان وإطلاقهم ١٢٦

— ذكا أخبار الحسين بن حمدان بن حمدون وهو أخو أبى الهيجاء ١٢٨

— ذكر أخبار ناصر الدولة ١٢٩

— ذكر ولاية ناصر الدولة إمرة الأمراء بالعراق ١٣٢

— ذكر القبض على ناصر الدولة ووفاته ١٣٥

— ذكر أخبار سيف الدولة ١٣٦

— ذكر اختلال دولته واستيلاء الدمستق على حلب وما أخذه من أموال سيف الدولة ١٤١

— ذكر وفاة سيف الدولة ١٤٢

— ذكر أخبار عدة الدولة الغضنفر ١٤٣

— ذكر فساد حال عدة الدولة ، وزوال ملك بنى ناصر الدولة ، وما كان من أمر عدة الدولة إلى أن قتل ١٤٦

— ذكر أخبار سعد الدولة ١٤٨

- ذكر مقتل أبي فراس الحارث واستيلاء أبي المعالي على حمص ... ١٥٠
- ذكر استيلاء قرعوية على حلب وإخراج أبي المعالي عنها ... ١٥٠
- ذكر الصلح بين سعد الدولة وقرعوية ، والقبض على قرعويه ، وقيام بكجور ، وعود ملك حلب إلى سعد الدولة ... ١٥٢
- ذكر تولية سعد الدولة من قبل الخليفة وتلقيبه ... ١٥٣
- ذكر خلاف بكجور على الأمير سعد الدولة وما كان من أمره ... ١٥٣
- ذكر وفاة سعد الدولة ... ١٥٧
- ذكر أخبار أبي الفضائل بن سعد الدولة أبي المعالي شريف ابن سيف الدولة أبي الحسن على بن عبد الله بن حمدان ابن حمدون ... ١٥٨
- ذكر ما كان بين لؤلؤ الجراحي وبين العزيز نزار صاحب مصر ... ١٥٨
- ذكر الصلح بين أبي الفضائل والعزيز نزار صاحب مصر ... ١٦٠
- ذكر أخبار الدولة الديلمية البويهية ... ١٦٣
- ذكر ابتداء حال بويه ونسبه وما كان من أمره ... ١٦٣
- ذكر أخبار عماد الدولة أبي الحسن على بن بويه وابتداء الدولة البويهية ... ١٦٦
- ذكر خروج عماد الدولة بن بويه عن طاعة مرداويج ومخالفته له وملكه أصفهان ... ١٦٧
- ذكر استيلائه على أرجان وغيرها ، وملك مرداويج أصفهان ١٦٩
- ذكر استيلائه على شيراز ... ١٧٠
- ذكر واقعة غريبة اتفقت لعماد الدولة كانت سبب ثبات ملكه وقيام دولته ... ١٧٢

— ذكر تولية عماد الدولة من قبل الخليفة ١٧٣
— ذكر وفاة عماد الدولة بن بويه وملك أخيه عضد الدولة ابن ركن الدولة بن بويه ١٧٤
— ذكر أخبار ركن الدولة أبي على الحسن بن بويه ١٧٥
— ذكر ملك ركن الدولة بن بويه طبرستان وجرجان ١٧٦
— ذكر ما قرره ركن الدولة بين بنيه وما أفرده لكل منهم من الممالك ١٧٧
— ذكر وفاة ركن الدولة بن بويه وشيء من أخباره وسيرته... ١٧٨
— ذكر أخبار معز الدولة بن بويه ١٧٩
— ذكر مسيره إلى كرمان ، وزوال يده فى الحرب ، وما اتفق له ١٨٠
— ذكر استيلاء معز الدولة على الأهواز ١٨٢
— ذكر استيلائه على بغداد وتلقيبه وتلقيب إخوته من ديوان الخلافة ١٨٣
— ذكر الحرب بين معز الدولة وناصر الدولة بن حمدان ١٨٥
— ذكر إقطاع البلاد وتخريبها ١٨٧
— ذكر استيلائه على البصرة ١٨٧
— ذكر ملك معز الدولة الموصل وعوده منها بعد الصلح. ١٨٨
— ذكر وفاة الوزير الصيمرى ووزارة المهلبى ١٨٩
— ذكر ما كتب على مساجد بغداد ١٩٠
— ذكر وفاة الوزير المهلبي ١٩١
— ذكر وفاة معز الدولة بن بويه ١٩٢
— ذكر أخبار عز الدولة بختيار ١٩٤
— ذكر ما كان من الحوادث فى أيام عز الدولة بختيار ١٩٤
— ذكر خروج مشيد الدولة حبشى بن معز الدولة على أخيه عز الدولة ١٩٦

— ذكر عـزل أبي الفضل الوزير ووزارة ابن بقية ١٩٧
— ذكر الفتنة بين بختيار وأصحابه ١٩٨
— ذكر حيـلة لبختيـار عادت عليـه. ١٩٩
— ذكر ما اتفق لبختيار بعد قبضه على الأتراك ووفاة سبكتكين وقيـام الفتـكين ٢٠١
— ذكر استيلاء عضـد الدولة على العـراق والقبض على بختيـار ٢٠٣
— ذكر عودة بختيار إلى ملـكه ٢٠٥
— ذكر مقتـل عز الدولة بختيـار بن معز الدولة ، وشيء من أخبـاره ٢٠٩
— ذكر أخبـار عضـد الدولة ٢١١
— ذكر القبض على أبي الفتح بن العميـد ٢١٤
— ذكر استيلاء عضد الدولة على العـراق ٢١٥
— ذكر استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان.. ... ... ٢١٧
— ذكر عمارة عضد الدولة بغداد، وما فعله من وجوه البر ٢١٨
— ذكر قصد عضد الدولة أخاه فخر الدولة وأخذه بلاده ٢١٩
— ذكر ملك عضد الدولة بـلد الهكارية ٢٢٠
— ذكر وفاة عضد الدولة وشيء من أخباره وسيرته ٢٢٠
— ذكر أخبـار مؤيد الدولة أبي منصـور بويه بن ركن الدولة ابن بويه ٢٢٥
— ذكر أخبـار فخر الدولة وفلك الأمة أبي الحسن علي بن ركن الدولة بن بويه ٢٢٦
— ذكر أخبـار مجد الدولة وكنف الأمة أبي طالب رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه ٢٢٩
— ذكر أخبـار صمصام الدولة ٢٣٠

– ذكر ملك شرف الدولة أبى الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة العراق ، والقبض على صمصام الدولة ٢٣١
– ذكر وفاة شرف الدولة وشيء من أخباره ٢٣٣
– ذكر ملك بهاء الدولة وضياء الملة.. ... ... ٢٣٤
– ذكر قيام صمصام الدولة ببلاد فارس ٢٣٥
– ذكر مسير أبى على بن شرف الدولة إلى بلاد فارس ، وما كان بينه وبين عمه صمصام الدولة ، وعوده إلى بهاء الدولة ، وقتله ٢٣٥
– ذكر مسير بهاء الدولة إلى الأهواز ، والصلح بينه وبين صمصام الدولة ٢٣٧
– ذكر ظهور أولاد بختيار واعتقالهم وقتل بعضهم ٢٣٩
– ذكر مقتل صمصام الدولة... ... ... ٢٣٩
– ذكر ملك بهاء الدولة فارس وخوذستان وكرمان ٢٤١
– ذكر وفاة عميد الجيوش ، وولاية فخر الملك العراق ٢٤٢
– ذكر وفاة بهاء الدولة ٢٤٢
– ذكر ملك سلطان الدولة ٢٤٣
– ذكر قتل فخر الملك ووزارة ابن سهلان ٢٤٤
– ذكر ولاية ابن سهلان العراق ٢٤٥
– ذكر ملك مشرف الدولة أبى على بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه العراق ٢٤٦
– ذكر الصلح بين سلطان الدولة وأخيه مشرف الدولة.. ... ... ٢٤٨
– ذكر الخلف بين مشرف الدولة والأتراك وعزل الوزير ابن المغربى ٢٤٨
– ذكر وفاة سلطان الدولة ٢٤٩
– ذكر وفاة مشرف الدولة ٢٥٠

- ذكر سلطنة جلال الدولة ٢٥٠
- ذكر شغب الأتراك ببغداد على جلال الدولة ٢٥٢
- ذكر وثوب الجند به وإخراجه من بغداد وعوده إليها.. ... ... ٢٥٤
- ذكر الفتنة بين جلال الدولة ، وبارسطغان ، وقتل بارسطغان ٢٥٦
- ذكر الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار ٢٥٧
- ذكر مخاطبة جلال الدولة بملك الملوك.. ... ... ٢٥٧
- ذكر وفاة جلال الدولة ٢٥٨
- ذكر أخبار السلطان شاهنشاه... ... ... ٢٥٩
- ذكر ابتداء ملكه ٢٦٠
- ذكر عودة أبي الفوارس إلى فارس وإخراجه ٢٦١
- ذكر ملك أبي كاليجار العراق ٢٦٢
- ذكر ملك الملك الرحيم أبي نصر.. ... ... ٢٦٤
- جامع أخبار ملوك بني بويه عدة من ملك منهم ستة عشر ملكاً ٢٦٥
- ذكر أخبار الدولة السلجقية وابتداء أمر ملوكها ، وكيف تنقلت بهم الحال ، إلى أن استولوا على البلاد وما حازوه من الأقاليم والممالك ، وغير ذلك من أخبارهم ٢٦٧
- ذكر أخبار سلجق بن يقاق ٢٦٩
- ذكر ما اتفق بين طغرلبك وداود وبين السلطان مسعود ابن محمود بن سبكتكين ٢٧٣
- ذكر ابتداء الدولة السلجوقية وإقامة الخطبة لطغرلبك وداود ٢٧٥
- ذكر ملك داود وطغرلبك وبيغو نيسابور وبلخ وهراة ٢٧٧
- ذكر ملك طغرلبك جرجان وطبرستان. ٢٧٨
- ذكر مسير إبراهيم ينال إلى الري وهمذان ٢٧٩
- ذكر خروج طغرلبك إلى الري وملكه بلد الجبل. ٢٨٠
- ذكر ملك ينال قلعة كنكور وغيرها ٢٨١

– ذكر غزو إبراهيم ينال الروم ٢٨٣
– ذكر الوحشة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال والاتفاق بينهما. ٢٨٤
– ذكر ملك طغرلبك أصفهان ٢٨٦
– ذكر استيلاء ألب أرسلان على مدينة فسا. ٢٨٧
– ذكر استيلاء طغرلبك على أذربيجان وغزو الروم ٢٨٧
– ذكر دخول السلطان طغرلبك إلى بغداد والخطبة له بها وانقراض الدولة البويهية ٢٨٨
– ذكر مسير السلطان إلى الموصل... ... ... ٢٩٢
– ذكر عودة السلطان إلى بغداد ٢٩٤
– ذكر مفارقة إبراهيم ينال الموصل ، وما كان من أمره إلى أن قتل ٢٩٥
– ذكر وفاة جغرى بك داود صاحب خراسان وملك ابنه ألب أرسلان ٢٩٧
– ذكر زواج السلطان طغرلبك بابنة الخليفة. ٢٩٨
– ذكر وصول السلطان إلى بغداد ودخوله بابنة الخليفة ٣٠١
– ذكر وفاة السلطان طغرلبك وشيء من سيرته ٣٠١
– ذكر أخبار السلطان عضد الدولة ٣٠٣
– ذكر القبض على عميد الملك الوزير وقتله... ... ... ٣٠٤
– ذكر ملك عضد الدولة ختلان وهراة وصغانيان. ٣٠٥
– ذكر الحرب بين السلطان وبين شهاب الدولة قتلمش وموته ٣٠٦
– ذكر فتح مدينة آنى وغيرها من بلاد النصرانية... ... ... ٣٠٧
– ذكر تقرير ملكشاه فى ولاية العهد بالسلطنة من بعد أبيه وتقرير البلاد باسم أولاد السلطان وأخوته. ٣١٠

- ذكر عصيان ملك كرمان وعوده إلى الطاعة وطاعة حصون فارس ٣١١
- ذكر إقامة الخطبة بحلب ٣١٢
- ذكر استيلاء السلطان على حلب ٣١٢
- ذكر خروج ملك الروم إلى خلاط وأسره ٣١٣
- ذكر ملك أتسز بيت المقدس والرملة ودمشق ٣١٦
- ذكر تزويج ولى العهد بابنة السلطان... ... ... ٣١٧
- ذكر ملك السلطان قلعة فضلون... ... ... ٣١٧
- ذكر مقتل السلطان عضد الدولة ألب أرسلان ، وشيء من سيرته ٣١٨
- ذكر أخبار السلطان جلال الدولة ملكشاه ٣٢٠
- ذكر الحرب بين السلطان ملكشاه وبين عمه قاورد بك ٣٢١
- ذكر استيلاء تكش على بعض خراسان ٣٢٢
- ذكر قتل أبى المحاسن بن أبى الرضا ٣٢٣
- ذكر ملك السلطان حلب وغيرها ٣٢٤
- ذكر دخول ملكشاه بغداد ٣٢٦
- ذكر ملك ملكشاه ما وراء النهر... ... ... ٣٢٧
- ذكر عصيان سمرقند وفتحها ٣٢٨
- ذكر وصول السلطان إلى بغداد ٣٢٩
- ذكر ملك السلطان اليمن ٣٣٠
- ذكر مقتل الوزير نظام الملك. ٣٣٠
- ذكر ابتداء حال نظام الملك وشيء من سيرته وأخباره ٣٣٢
- ذكر وفاة السلطان ملكشاه وشيء من سيرته ٣٣٣
- ذكر أخبار السلطان بركيا روق... ... ... ٣٣٥
- ذكر قتل تاج الملك ٣٣٧

- ذكر انهزام بركيا روق من عمه تتش ودخوله إلى أصفهان ووفاة أخيه محمود ٣٣٨
- ذكر مقتل أرسلان أرغو.. ... ... ٣٣٩
- ذكر ملك بركيا روق خراسان وتسليمها لأخيه سنجر. ٣٤٠
- ذكر خروج أمير أميران... ... ... ٣٤٠
- ذكر ظهور السلطان محمدطبر ملكشاه والملك سنجر ، وخروجهما على أخيهما السلطان بركيا روق والخطبة لمحمد... ... ... ٣٤١
- ذكر إقامة الخطبة لمحمد ببغداد ٣٤٣
- ذكر إعادة الخطبة ببغداد للسلطان بركيا روق ٣٤٣
- ذكر الحرب بين السلطانين بركيا روق ومحمد والخطبة لمحمد ببغداد ٣٤٤
- ذكر حال السلطان بعد الهزيمة وانهزامه أيضاً من أخيه سنجر ٣٤٥
- ذكر الحرب بين السلطانين بركيا روق ومحمد ثانياً ، وقتل مؤيد الملك ٣٤٧
- ذكر حال محمد بعد الهزيمة واجتماعه بأخيه سنجر ٣٤٧
- ذكرما فعله بركيا روق ودخوله إلى بغداد. ٣٤٨
- ذكر وصول السلطان محمد وسنجر إلى بغداد ورحيل بركيا روق عنها... .. .. ٣٤٨
- ذكر الصلح بين السلطان بركيا روق وأخيه محمد. ٣٥٠
- ذكر أخبار الباطنية وابتداء أمرهم وما استولوا عليه من القلاع وسبب قتلهم ٣٥١
- ذكر ما استولوا عليه من القلاع ببلادالعجم ٣٥٢
- ذكر قتل الباطنية وسببه ٣٥٤
- ذكر وفاة السلطان بركيا روق ووصيته لولده ملكشاه بالملك ... ٣٥٥
- ذكر الخطبة لملكشاه ابن السلطان بركيا روق ببغداد ٣٥٦

– ذكر أخبـــار السلطان محمد. ٣٥٦
– ذكر قتل الأمير إيـــاز ٣٥٩
– ذكر خروج منكبرس على السلطان محمد والقبض عليه... ... ٣٦٠
– ذكر ملك السلطان محمد قلعة شاه دز من الباطنية ، وقتل ابن عطاش ٣٦١
– ذكر القبض على الوزير وقتله،ووزارة أحمد بن نظام الملك. ٣٦٣
– ذكر قتل الأمير صدقة بن مزيد... ... ... ٣٦٤
– ذكر وفاة السلطان محمد وشيء من أخباره وسيرته... ... ... ٣٧٠
– ذكر أخبار السلطان سنجر ٣٧٢
– ذكر القبض على الوزير محمد ٣٧٧
– ذكر الحرب بين السلطان سنجر وبين ابن أخيه محمود بن محمد ٣٧٨
– ذكر قدوم السلطان سنجر إلى الرى ٣٨١
– ذكر ملك السلطان سنجر مدينة سمر قند من محمد خان ، وملك محمود بن محمد ٣٨٢
– ذكر مسير السلطان إلى غزنة وعوده ٣٨٤
– ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه... ... . ٣٨٥
– ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا ، وملكهم ما وراء النهـــر... ... ... ٣٨٥
– ذكر انهزام السلطان سنجر من الغز ، وأسره ، وذكر أحوال الغـــز... ... ... ٣٨٦
– ذكر هـــرب السلطان سنجر شاه من أسر الغـــز. ٣٨٨
– ذكر وفاة السلطان سنجر شاه، وشيء من أخباره وسيرته ... ٣٨٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٠٠٤/١٩٨٤

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٥١٢ - ٠

مركز تحقيق التراث

نهاية الأرب
في
فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء السابع والعشرون

تحقيق

دكتور سعيد عاشور

مراجعة

دكتور محمد مصطفى زيادة
دكتور فؤاد عبد المعطي الصياد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إذا كانت الأجزاء السابقة واللاحقة فى موسوعة « نهاية الأرب » للنويرى قد عالجت فى الجانب التاريخى دولا وأحداثا سبق النويرى إلى التأريخ لها عديد من الكتاب والمؤرخين المسلمين ، فإن هذا الجزء السابع والعشرين من نهاية الأرب يمتاز بعلاج نواح فى تاريخ الشرق الأوسط تفتقر إليها المكتبة العربية . ففى هذا الجزء يعالج النويرى تاريخ السلاجقة فى العراق والشام وبلاد الروم (آسيا الصغرى) . وتاريخ الدولة الخوارزمية حتى سقوطها عند مقتل السلطان جلال الدين سنة ثمان وعشرين وستمائة ؛ وأخيرا تاريخ المغول وحركتهم التوسعية ودويلاتهم التى انقسمت إليها دولة جنكزخان ، وما كان من توسعهم فى الشرق الأوسط على حساب القوى الإسلامية العديدة ، ويدخل ضمن ذلك علاقتهم بسلطنة المماليك حتى عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون .

ومن هذا العرض الموجز نخرج بفكرة عن أن النويرى خصص معظم هذا الجزء السابع والعشرين لعلاج تاريخ السلاجقة والخوارزمية والمغول ، وقدم لنا فى علاجه لهذه الجوانب كثيرا من المعلومات الطريفة الجديدة المفصلة التى يندر أن نجد لها شبيها فى الموسوعات

العربية السابقة بل إن المؤرخين اللاحقين بالنويرى - مثل المقريزى وابن تغرى بردى والعينى لم يعطوا تلك الجوانب - وخاصة ما يتعلق بالمغول ودولهم وأخبارهم الداخلية - القدر الكافى من الأهمية ؛ مما جعل كتابات النويرى فى هذا الجزء بالذات تبدو فى نظرنا ذات أهمية خاصة .

وربما كان فى هذه الحقيقة بعض السر فى الصعوبات الكبيرة التى اعترضتنا عند تحقيق هذا الجزء بالذات . فما أسهل أن يقوم محقق بتحقيق كتاب أو جزء من كتاب يعالج أحداثا ودولا - مثل دولة المماليك - سبق أن نشرت فيها كتب بالعربية . مما يمكنه من مقارنة الأسماء وتصحيح الأعلام فى سهولة ؛ وما أصعب أن يقوم محقق بتحقيق فصول جديدة على المكتبة العربية مما يجعله يقف وقفة طويلة أمام كل اسم وكل علم . وهو فى وقفته هذه لابد وأن يفترض الكثير من إهمال الناسخين وخطأ الرواة وعبث الزمان على مر العصور والأجيال .

هذا إلى أنه إذا كان النويرى نفسه قد اعتمد فى الفصول الأخرى التى حواها القسم التاريخى من كتابه على كتابات غيره من المؤرخين السابقين أو المعاصرين - مثل ابن الأثير - فإنه فيما يتعلق بتاريخ الخوارزميين والمغول لم يجد فيما يبدو كتابات عربية وافية ينقل عنها - سوى المنشى النسوى - مما جعله يركن إلى الروايات الشفوية . وقد أدى ذلك إلى وجود كثير من الأخطاء أو التحريفات فيما كتبه النويرى عن المغول بصفة خاصة . الأمر الذى جعلنا نعتمد على المصادر الفارسية والمراجع الأوربية فى تحقيق هذا الجزء . وهنا لا يسعنى

سوى أن أشكر زميلى وصديقى الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد لما قدمه لى من معونة صادقة فى استشارة المصادر الفارسية على وجه الخصوص .

* * *

وقد اعتمدنا فى تحقيق هذا الجزء على عدة نسخ : منها نسخة مكتبة كوبريللى باستنبول وتوجد منها صورة كاملة بدار الكتب المصرية (رقم ٥٤٩) ، واتخذنا حرف « ك » رمزا لهذه النسخة . ومنها نسخة أيا صوفيا ، وتوجد أيضا منها صورة كاملة بدار الكتب المصرية (رقم ٥٥١) ، ورمزنا لهذه النسخة بحرف « ص » . ومنها نسخة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية (رقم ١٢١٤) . وهى التى رمزنا إليها بحرف « ع » . وأخيرا تأتى نسخة المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية (رقم ٦٩٩) وهى مرموز لها بحرف « ت » .

ورأت اللجنة المشرفة على تحقيق هذا الكتاب أن تتخذ النسخة الأولى « ك » أصلا معتمدا للتحقيق ، وذلك توحيدا لخطة العمل فى جميع أجزائه من ناحية ، ولأنها أكمل النسخ من ناحية أخرى غير أننا عند مقابلة هذه النسخة ببقية النسخ أثناء قيامنا بتحقيق هذا الجزء ، وجدنا نقصا كبيرا فيها ، وصفحات عديدة ساقطة منها وخاصة فى باب المغول – الأمر الذى تطلب منا مقابلة النسخ الأربع بعضها ببعض مقابلة دقيقة ، بحيث نقدم للباحث صورة صادقة كاملة للمتن كما أورده المؤلف . ولا يفوتنى فى هذا الموضع أن أقدم شكرى للدكتور حسنين محمد ربيع – تلميذى سابقا وزميلى حاليا –

لمعاونته الصادقة لى فى عملية مقابلة نسخ الكتاب لاستكمال النقص فى النسخة الأصلية .

والله نسأل أن يوفقنا دائما فى المحافظة على تراث الآباء والأجداد ليظل حيا قويا ،نستمد منه ، ونتخذ منه أساسا سليما فى بناء مجدنا الحديث .

٢٣ - ٨ - ١٩٦٦ المحقق

سعيد عبد الفتاح عاشور .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقى

ذكر أخبار السلطان مغيث الدين

هو أبو القاسم محمود بن محمد طبر بن ملكشاه : جلس على تخت السلطنة فى النصف من ذى الحجة ، سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، كما قدمنا ذكر ذلك فى أخبار أبيه السلطان محمد ، ثم خطب له بالسلطنة ببغداد بعد وفاة أبيه على عادة الملوك السلجقية ، فى يوم الجمعة ثالث عشر المحرم سنة ثنتى عشرة وخمسماية ، فى خلافة المستظهر بالله ، ودبر دولته الوزير الربيب أبو منصور .

ولما ولى (السلطان مغيث الدين) عزل بهروز عن شحنكية [1] ، بغداد ، وولى اقسنقر البرسقى ، — وكان بالرحبة — فى إقطاعه ، فسار إلى السلطان محمد قبل وفاته يسأله الزيادة فى إقطاعه ، فبلغه وفاته قبل وصوله إلى بغداد ، وأرسل مجاهد الدين بهروز يمنعه من دخول بغداد ، فسار إلى السلطان محمود فلقيه توقيع السلطان بولاية

---

(١) شحنة البلدمن كان فيه الكفاية لضبطها من قبل السلطان ، والشحنكية القيام مقام السلطان فى ضبط البلد ، أو النيابة .

شحنكية بغداد وهو بحلوان [١] ، فلما ولى هرب بهروز إلى تكريت [٢] وكانت له .

ثم ولى السلطان شحنكية بغداد للأمير منكبرس [٣] ، وهو من أكابر الأمراء ، فسير إليها ربيبه الأمير حسين بن أرديل ، أحد أمراء الأتراك لينوب عنه . فلما فارق باب همذان اتصل به جماعة من الأمراء البلخية ، فلما بلغ البرسقى ذلك خاطب الخليفة المستظهر بالله أن يأمره بالتوقف عن العبور إلى بغداد إلى أن يكاتب السلطان ، فأرسل إليه الخليفة فى ذلك ، فأجابه : إن رسم الخليفة بالعود عدت ، وإلا فلابد من الدخول إلى بغداد . فجمع البرسقى أصحابه وسار إليه والتقوا واقتتلوا ، فقتل أخ للأمير حسين وانهزم هو ومن معه ، وعادوا إلى عسكر السلطان ، وذلك فى شهر ربيع الأول من السنة .

قال : وكان الأمير دبيس بن صدقة عند السلطان محمد منذ قتل والده ، فلما توفى السلطان خاطب السلطان محمود فى العودة إلى بلدة الحلة [٤] ، فأذن له فعاد إليها ، فاجتمع له خلق كثير من العرب والأكراد وغيرهم .

(١) حلوان : مدينة كبيرة بالعراق ، قال عنها ياقوت انها فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد .

(٢) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل غرب دجلة .

(٣) فى ابن الأثير منكوبرس (حوادث سنة ٥١٣ هـ) .

(٤) استغلت قبيلة بنى مزيد – وهى إحدى قبائل الشيعة من البدو – فرصة ضعف الخلافة العباسية من ناحية والخلافات التى دبت داخل سلطنة السلاجقة فى أواخر القرن الحادى عشر من ناحية أخرى ، وأعلنت استقلالها فى منطقة نفوذها – على الضفة الغربية للفرات . وقد أقدم على هذه الخطوة الشيخ صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى ، الذى بنى منزلة الحلة سنة ١١٠١م واتخذها مقراً له . ولم تلبث هذه الامارة أن امتدت من هيت إلى الكوفة وواسط .

ذكر مسير الملك مسعود ابن السلطان محمد وجيوش بك وماكان بينهما وبين البرسقى والأمير دبيس بن صدقة

قال : وفى جمادى الأولى سنة ثنتى عشرة وخمسماية برز اقسنقر البرسقى ، ونزل بأسفل الرقة فى عسكره ، ومن انضاف إليه ، وأظهر أنه على قصد الحلة وإخراج الأمير دبيس بن صدقة عنها ، وجمع جموعا كثيرة من العرب والأكراد وفرق الأموال الكثيرة والسلاح . وكان الملك مسعود بن السلطان محمد بالموصل عند أتابكه [1] الأمير جيوش بك كما ذكرناه فى أخبار السلطان محمد ، فأشار عليهما جماعة بقصد العراق ، وقالوا لامانع دونه ، فسارا فى جيوش كثيرة ، ومع الملك مسعود وزيره فخر الملك أبو على بن عمار صاحب طرابلس ، وقسيم الدولة اقسنقر جد نور الدين الشهيد [2] ومعهم صاحب سنجار ، وصاحب أربل ، وكرباوى بن خراسان التركمانى صاحب البوازيج [3] .

فلما علم البرسقى بقربهم خافهم ، وتجهّز لقتالهم عندما قربوا من بغداد ، فسار إليهم ليقاتلهم ، فأرسل إليه الأمير كرباوى

---

(١) أتابك لفظ تركى معناه مربى الملك . وكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعانا فى تكريمه . وقد استطاع بعض أولئك الأتابكة تأسيس بيوت حاكمة صغيرة عندما ضعفت دولة السلاجقة ، وعرفت هذه الدويلات الصغيرة باسم الأتابكيات .

(٢) المقصود به نور الدين محمود بن زنكى .

(٣) البوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة ، وهى من أعمال الموصل .

فى الصلح ، وأعلمه أنهم إنما جاءوا نجدة له على دبيس ، فاصطلحوا وتعاهدوا . ووصل الملك مسعود إلى بغداد ، ونزل بدار المملكة ، فأتاهم الخبر بوصول الأمير عماد الدين منكبرس المقدم ذكره فى جيش كبير ، فسار البرسقى عن بغداد ليحاربه ويمنعه من دخولها ، فلما علم منكبرس بذلك قصد النعمانية واجتمع هو والأمير دبيس ابن صدقة واتفقا على المعاضدة والتناصر وقوى كل منهما بصاحبه . فلما اجتمعا سار الملك مسعودوالبرسقى وجيوش بك ومن معهم إلى المدائن للقاء دبيس ومنكبرس ، فأتتهم الأخبار بكثرة جمعهما ، فعاد البرسقى والملك مسعود وعبرا نهر صرصر [1] ، وحفظا المخائض عليه ، ونهب الطائفتان السواد نهبا فاحشا ، واستباحوا النساء ، فأرسل الخليفة المسترشد بالله — وكان قد بويع له بعد وفاة أبيه — إلى الملك مسعود وإلى البرسقى ينكر ذلك ، ويأمرهم بحقن الدماء ، وترك الفساد ، والموادعة والمصالحة . فأنكر البرسقى أن يكون ذلك قد وقع ، وأجاب إلى العود إلى بغداد ، وعاد ، ووقع الصلح والاتفاق بينهما . وكان سبب الاتفاق أن جيوش بك كتب إلى السلطان محمود يطلب الزيادة للملك مسعود ولنفسه ، فوصل كتاب الرسول يذكر أنه لقى من السلطان إحسانا كثيرا ، وأنه أقطعهم أذربيجان . فوقع الكتاب إلى منكبرس ، فأرسله إلى جيوش بك ، وضمن له إصلاح السلطان محمود له وللملك مسعود . وكان منكبرس متزوجا بأم الملك مسعود واسمها سرجهان ، فعند ذلك تفرق عن البرسقى

(١) جاء فى معجم البلدان لياقوت « صرصر قريتان من سواد بغداد صرصر العليا وصرصر السفلى ، وهما على ضفة نهر عيسى ، وربما قيل نهر صرصر فنسب النهر إليهما » .

من كان معه ، وبطل ماكان يحدث به نفسه من التغلب على العراق بغير أمر السلطان والتحق بخدمة الملك مسعود ، واستقر منكبرس فى شحنكية بغداد ، وعاد الملك مسعود وجيوش بك إلى الموصل وعاد دبيس إلى الحلة

واستقر منكبرس ببغداد ، وأخذ فى الظلم والعسف والمصادرات ، فاختفى أرباب الأموال ، وانتقل جماعة إلى حريم الخلافة خوفاً منه ، وكثر فساد أصحابه ، حتى أن بعض أهل بغداد تزوج بامرأة فلما زفت إليه أتاه بعض أصحاب منكبرس وكسر بابه وجرح الزوج عدة جراحات ، وابتنى بالمرأة . فكثر الدعاء على منكبرس وأصحابه واستغاث الناس وأغلقوا الأسواق . فبلغ السلطان ذلك فاستدعاه إليه وحثه على اللحاق به ، وهو يغالط ويدافع .فلما بلغ أهل بغداد ذلك طمعوا فيه وهموا به ، ففارق بغداد ، وسار إلى السلطان . وظهر من كان قد استتر من الناس .

ذكر عصيان الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل لما توفى والده بقلعة من سرجهان [١] . وكان والده قد أقطعه ساوه وآوه [٢] وزنجان فى سنة أربع وخمسماية ؛ وعمره إذ ذاك سنة ، فإن مولده كان فى سنة ثلاث وخمسماية .

(١) قلعه حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوين وزنجان وأبهر . ذكر ياقوت أنه راى هذه القلعة بنفسه فوجدها من أحصن القلاع وأحكمها (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠٧) .

(٢) ساوة مدينة حسنة بين الرى وهمذان ، وآوه مدينة أخرى تبعد عن ساوه نحو فرسخين قال ياقوت إن ساوة سنية شافعية وآوه أهلها شيعة إمامية .

وجعل السلطان أتابكه الأمير شيركير ، ففتح عدة من قلاع الاسماعيلية فى سنة خمس وخمسمائة ، منها قلعة كلام وقلعة بيرة[١] وغيرهما . فازداد ملك طغرل بما فتحه أتابكه شيركير ، فأرسل السلطان محمود الأمير كندغدى[٢] ليكون أتابكا لأخيه الملك طغرل ومدبرا لأمره ، وأمره بحمله إليه . فلما وصل إليه حسن له مخالفة أخيه ونزع يده من طاعته ، فوافقه على ذلك ، فسمع السلطان الخبر ، فأرسل شرف الدين أنو شروان بن خالد ، ومعه خلع وتحف وثلاثين ألف دينار ، ووعد أخاه باقطاع كثير زيادة على مابيده إن هو قصده واجتمع به ، فلم يجب إلى الاجتماع به . وقال كندغدى : « نحن فى طاعة السلطان ، وأى جهة أراد قصدناها ، ومعنا من العساكر مانقاوم بهم من أمرنا بقصده» . فبينما هم فى ذلك إذ ركب السلطان محمود من باب همذان فى عشرة آلاف فارس جريدة . وذلك فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وكتم مقصده ، وعزم على أن يكبس أخاه طغرل والأمير كندغدى. فرأى أحد خواص السلطان تركياً من أصحاب الملك طغرل ، فأعلم السلطان به ، فقبض عليه . وكان معه رفيق سلم ، وسار عشرين فرسخاً فى ليلة ، ووصل إلى الأمير كندغدى وهو سكران ، فأيقظه بعد جهد ، وأعلمه بالخبر ، فقام كندغدى لوقته وأخذ الملك طغرل

---

(١) كلام وبيرة من قلاع طبرستان التى استولى عليها الاسماعيلية .

(٢) فى ابن الأثير كنتغدى (حوادث سنة ٥١٣ هـ) .

وسار به مختفيا ، وقصدا قلعة سميران [١] ، فضلا عن الطريق إلى قلعة سرجا هان [٢] ، وكان ضلالهما سببا لسلامتهما ، فإن السلطان جعل طريقه على قلعة سميران . فسلما منه بما ظناه عطبا . ووصل السلطان إلى عسكر أخيه فكبسه ونهب مافيه وأخذ من خزانة أخيه ثلثماية ألف دينار . وأقام السلطان بزنجان وتوجه منها إلى الرى ونزل طغرل من قلعة سرجاهان ، ولحق هو وكندغدى ، بكنجة [٣] ، وقصده أصحابه فقويت شوكته ، وتمكنت الوحشية بينهما .

وفى سنة ثلاث عشرة وخمسماية

كانت الحرب بين السلطان سنجر شاه وبين السلطان محمود ، وكان الظفر لعمه سنجر شاه عليه ، وقطعت خطبته من بغداد ، وخطب لسنجر شاه ، ثم اتفقا وحضر (السلطان محمود) إلى خدمة عمه فأكرمه وأحسن إليه وجعله ولى عهده كما قدمناه فى أخبار السلطان سنجر .

قال : وأقطعه عمه سنجر شاه من حد خراسان إلى الداروم [٤] بأقصى الشام ، وهى من الممالك : همذان ، وأصفهان ، وبلد

(١) فى ك شيران وفى ابن الأثير وياقوت وردت سميران بالسين وذكر ياقوت أنها من أمهات القلاع فى الديلم .

(٢) كتبها النويرى قبل ذلك سرجهان ، وكذلك جاءت فى ابن الأثير (حوادث سنة ٥١٣ هـ).

(٣) كنجة بفتح الكاف والجيم وسكون النون من نواحى لرستان بين خوزستان وأصبهان (معجم ياقوت) .

(٤) الداروم قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر .

الجبال جميعها ، وديار مضر[١] ، وبلاد فارس ، وكرمان وخوزستان والعراق ، وأذربيجان ، وأرمينية ، وديار بكر ، وبلاد الموصل ، والجزيرة ، وديار ربيعة [٢] ، ومابين هذه من الممالك .

قال القاضى عماد الدين بن الأثير فى تاريخه : ورأيت منشوره بذلك ، وليس ابن الأثير هذا هو الجزرى صاحب التاريخ المترجم بالكامل بل هو صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية وهو الذى عاصرناه .

ذكر مقتل الأمير منكبرس

ومنكبرس هو الذى كان شحنة بغداد الذى قدمنا ذكره ، وكان مقتله فى سنة ثلاث عشرة وخمسماية . وكان سبب قتله أنه لما انهزم السلطان محمود من عمه ، عاد إلى بغداد ، فنهب عدة مواضع من طريق خراسان ، وقصد دخول بغداد ، فسير دبيس بن صدقة من منعه ، فعاد وقد استقر الصلح بين السلطان وعمه . فدخل إلى السلطان سنجر ومعه سيف وكفن ، فقال له : « أنا لاأؤاخذ أحدا » وسلمه إلى السلطان محمود وقال له : « هذا مملوكك ، اصنع به ماتريد » فأخذه ، وكان فى نفسه منه أشياء : منها أنه لما توفى السلطان محمد أخذ سريته والدة الملك مسعود قهرا قبل انقضاء عدتها ، ومنها استبداده بالأمور دونه ، ومسيره إلى شحنكية العراق والسلطان

(١) المقصود بديار مضر : الأراضى السهلة الممتدة شرق الفرات .
(٢) ديار ربيعة : ما كان بين الموصل ورأس عين وحوض نهر الخابور جميعه .

كاره لذلك ، ومافعله ببغداد . فقتله السلطان محمود صبرا وأراح الناس من شره والله أعلم .

ذكر مقتل الأمير على بن عمر

وفيها أيضا قتل الأمير على بن عمر ، حاجب السلطان محمد ، وكان قد صار أكبر الأمراء ، وانقادت له العساكر ، فحسده الأمراء وأفسدوا حاله مع السلطان محمود وحسنوا له قتله . فعلم بذلك فهرب إلى قلعة برجين – وهى بين بروجرد [1] وكرج – وكان بها أهله وماله ، وسار منها فى مائتى فارس إلى خوزستان ، وكانت بيد أقبورى بن برسق وابنى أخويه أرغلى بن يلبكى وهندو بن زنكى . فأرسل إليهم وأخذ عهودهم بأمانه وحمايته . فلما سار إليهم أرسلوا عسكرا منعوه من قصدهم ، ولقوه على ستة فراسخ من تستر [2] فانهزم هو وأصحابه ووقف به فرسه ، فانتقل إلى غيره ، فتشبث ذيله [3] بسرجه الأول (فأزاله) [4] ثم عاود التعلق فأبطأ فأدركوه وأسروه وكاتبوا السلطان محمود فى أمره ، فأمرهم بقتله فقتلوه .

---

(١) بروجرد بفتح الباء وضم الراء وكسر الجيم بلده بينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخا (معجم ياقوت) .

(٢) تستر : بالضم ثم السكون ، وصفها ياقوت بأنها كانت على أيامه أعظم مدينة فى خوزستان

(٣) فى ابن الأثير « فتشبث ذيله » .

(٤) ما بين الحاصرتين سقط من ك والتكملة من النسخة (ع) .

ذكر عصيان الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والحرب بينهما والصلح

وفى سنة أربعة عشرة وخمسماية فى شهر ربيع الأول كان المصاف بين السلطان محمود وأخيه مسعود . وكان لمسعود الموصل وأذربيجان وكان سبب هذه الحرب أن دبيس بن صدقة كان يكاتب جيوش بك أتابك الملك مسعود ، ويحثه على طلب السلطنة . وكان مقصده أن يقع الاختلاف بينهما ، فينال من الجاه وعلو المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السلطان محمد وبركياروق . وكان اقسنقر البرسقى مع الملك مسعود منذ فارق شحنكية بغداد ، وأقطعه الملك مسعود مراغة مضافة إلى الرحبة . وكان بينه وبين دبيس عداوة مستحكمة . فكاتب دبيس جيوش بك يشير عليه بالقبض على البرسقى ، فعلم البرسقى بذلك ، ففارقهم إلى السلطان محمود ، فأكرمه وأعلا محله وزاده .

واتصل الأستاذ أبو اسماعيل الحسين بن على الأصبهانى الطغرائى بالملك مسعود . فاستوزره مسعود بعد (أن) عزل (أبا على)[1] بن عمار ، فحسن له أيضا مخالفة السلطان ، والخروج عن طاعته . فبلغ السلطان محمود الخبر فكتب إليهم يحذرهم من مخالفته ، ويعدهم الإحسان إن أقاموا على الطاعة ، فلم يصغوا إلى قوله وأظهروا ما كانوا أضمروه ،

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من الكامل فى التاريخ لابن الأثير حوادث سنة أربع عشرة وخمسمائة .

وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة ، وضربوا له النوب الخمس [١] ، وكان ذلك على تفرق عساكر السلطان محمود ، فقوى طمعهم وأسرعوا إليه ليلقوه وهو فى قلة من العسكر . واجتمع إليه نحو خمسة عشر ألف فارس .

فسار السلطان إليهم فالتقوا عند عقبة استراباد [٢] نصف شهر ربيع الأول ، واقتتلوا نهارا كاملا والبرسقى فى مقدمة عسكر السلطان محمود وأبلى يومئذ بلاء حسنا . فانهزم عسكر الملك مسعود فى آخر النهار ، وأسر جماعة كبيرة من أعيان أصحابه . وأسر الوزير ، فأمر السلطان بقتله وقال : « ثبت عندى فساد نيته » وكان حسن الكتابة والشعر ، وله تصانيف فى صنعة الكيميا ضيعت للناس من الأموال مالا يحصى كثرة .

قال : ولما انهزم أصحاب الملك مسعود وتفرقوا ، قصد جبلا بينه وبين المصاف اثنى عشر فرسخا ، واختفى فيه بألفى فارس ، وأرسل إلى أخيه يطلب منه الأمان ، فرق له وأجابه إلى ماطلب ، وأمر اقسنقر البخارى بالمسير إليه وإعلامه بعفو السلطان وبسط أمله .

ولما كتب إلى أخيه فى طلب الأمان وصل إليه بعد ذلك بعض

---

(١) النوبة : فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس يكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .

(٢) كذا فى ك ، وفى ابن الأثير اسداباذ وفى ع البخارى. وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان أن استراباذ بفتح الألف وسكون السين وفتح التاء بلدة كبيرة من أعمال طبرستان .

الأمراء ، وحسن له المسير إلى الموصل ، ومكاتبة دبيس بن صدقة ؛ والاتفاق معه ، ومعاودة طلب السلطنة ، فسار من ذلك الموضع ووصل اقسنقر البخارى فلم يجده فسار فى أثره وجد السير ، فأدركه على ثلاثين فرسخا من مكانه ذلك ،فاجتمع به وعرفه عفو أخيه عنه ، وضمن له ما أراد ، وأعاده إلى العسكر ، فأمر السلطان العساكر باستقباله وتعظيمه ،ففعلوا ذلك . وأمر السلطان بإنزاله عند والدته وجلس له وأحضره ، واعتنقا وبكيا ، وانعطف عليه السلطان محمود ، ووفّى له ، وخلطه بنفسه فى جميع أحواله ، فعد الناس ذلك من مكارم السلطان محمود . وكانت الخطبة لمسعود بالسلطنة بأذربيجان والجزيرة والموصل ثمانية وعشرين يوما .

وأما أتابكه جيوش بك فإنه سار إلى عقبة استراباد ، وانتظر الملك مسعود فلم يره ، فلما أيس منه سار إلى الموصل ، ونزل بظاهرها وجمع الغلات من السواد إليها ، واجتمع إليه عسكره فلما بلغه ماكان من أمر الملك مسعود وأخيه ، سار إلى السلطان وهو بهمذان ودخل إليه فأمنه .

وأما الأمير دبيس بن صدقة . فإنه نهب البلاد وخربها وفعل الأفعال القبيحة ، فأمنه السلطان ، والله أعلم.

ذكر طاعة الملك طغرل لأخيه السلطان محمود

قال : كان دخول الملك طغرل فى طاعة أخيه السلطان محمود فى المحرم سنة ست عشرة وخمسماية ، وكان قد قصد أذربيجان

فى سنة أربع عشرة . وكان أتابكه كندغدى يحسن له ويقويه عليه ؛ فاتفقت وفاته فى شوال سنة خمس عشرة وكان الأمير اقسنقر صاحب مراغة [١] عند السلطان ببغداد ، فاستأذن السلطان فى المضى إلى إقطاعه فأذن له ، فلما سار عن السلطان ظن أنه يقوم مقام كندغدى عند الملك طغرل ويتنزل منزلته ، فسار إليه واجتمع به ، وأشار عليه بمكاشفة أخيه ، وقال له : « اذا وصلت إلى مراغة ، اتصل بك عشرة آلاف فارس وراجل » فسار طغرل معه ، فلما وصلا إلى اردبيل [٢] ، أغلقت أبوابها دونهما ؛ فسارا عنها إلى قرية تبريز ، فأتاهما الخبر أن السلطان محمود سير الأمير جيوش بك إلى أذربيجان ، وأقطعه البلاد ، وأنه نزل على مراغة فى عسكر كثيف ، فعدلا إلى خويه [٣] وانتقض عليهما ما كانا فيه ، وراسلا الأمير شيران [٤] — الذى كان أتابك طغرل — (أيام أبيه) [٥] يدعوانه إلى إنجادهما . وكان باقطاعه أبهر وزنجان [٦] ، فأجابهما واتصل بهما ، وساروا إلى أبهر فلم يتم لهم ما أرادوه فعند ذلك راسلوا السلطان بالطاعة وسألوا الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، واستقرت القاعدة ، وتم الصلح .

---

(١) مراغة بفتح الميم والراء وصفها ياقوت بأنها أعظم وأشهر بلاد أذربيجان .

(٢) أردبيل بفتح الألف وسكون الراء من أشهر مدن أذربيجان .

(٣) كذا كتبها النويرى ، وفى ياقوت خوى بضم الخاء وفتح الواو وتشديد الياء بلد مشهور من أعمال أذربيجان « كثير الخير والفواكه ينسب إليها الثياب الخوية » .

(٤) فى ابن الأثير شيركير (حوادث سنة ٥١٦ هـ) .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين من ابن الأثير . حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة .

(٦) أبهر بلدة من نواحى أصبهان وكذلك زنجان بفتح أوله وسكون ثانيه .

ذكر قتل الوزير السميرمي

وفي سلخ صفر سنة ست عشرة وخمسمائة قتل الوزير كمال الدين أبو طالب السميرمي وزير السلطان محمود . وكان قد برز مع السلطان ليسير إلى همذان ، فدخل إلى الحمام وخرج وبين يديه الرجالة والخيالة ، وهو في موكب عظيم ، فالجتاز بمنفذ ضيق فيه (حظائر الشوك) [1] فتقدم أصحابه لتضييق المكان ، فوثب عليه باطني ، وضربه بسكين فوقعت في بغلته ، وهرب الضارب إلى حجلة ، وتبعه الغلمان فخلا الموضع ، فظهر رجل آخر فضربه بسكين في خاصرته ، وجذبه عن البغلة إلى الأرض فوضربه عدة ضربات. وعاد أصحاب الوزير فحمل عليهم رجالان بالطنبانات ، فانهزموا منهما ثم عادوا وقد ذبح الوزير مثل الشاة ، وبه نيف وثلاثون (٢) ، جراحة فقتلوا قتلته .

قال : ولما كان في الحمام أخذ المنجمون له الطالع للخروج فقالوا : « هذا وقت جيد ، وإن تأخرت يفوت طالع السعد» فأسرع وركب وأراد أن يأكل طعاما فمنعوه لأجل الطالع ، فقتل ولم ينفعه ذلك . وكانت وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر ، وانتهب ماله ، وأخذ السلطان خزانته . وكانت زوجته قد خرجت في هذا اليوم في موكب كبير ومعها نحو مائة جارية وجمع من الخدم ، والجميع بمراكب

(١) قوله : « فيه حظاير » وما هو مثبت مأخوذ عن الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٥١٦ هـ .

(٢) قوله نيف وثلاثون .

الذهب .. فلما سمعن بقتله عدن حافيات حاسرات ، وقد تبدلن عن العز هوانا ، وعن المسرة أحزانا .

وكان السميرمى ظالما كثير المصادرات للناس ، سيئ السيرة ، فلما قتل أطلق السلطان ما كان جدده من المكوس ، واستوزر بعده شمس الملك عثمان بن نظام الملك .

ذكر قتل الأمير جيوش بك

كان مقتله فى شهر رمضان سنة ست عشرة وخمسماية . وكان السلطان قدمه بعد عوده إليه ، وأحسن إليه ، وأقطعه أذربيجان ، وجعله مقدم عسكره ،فجرى بينه وبين الأمراء منافرة ومنازعة ، فوشوا به عند السلطان فقتله . وكان عادلا ، حسن السيرة .

وفيها أقطع السلطان محمود الأمير اقسنقر البرسقى مدينة واسط وأعمالها ، مضافة إلى ولاية الموصل وشحنكية العراق ، فسير البرسقى إلى واسط عماد الدين زنكى .

ذكر ظفر السلطان محمود بالكرج

وفى سنة سبع عشرة وخمسماية اشتدت نكاية الكرج (١) فى بلاد الإسلام ، وعظم الامر على الناس ، لا سيما أهل

(١) الكرج ، بضم الكاف وسكون الراء ، وصفهم ياقوت بأنهم « جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون فى جبال القبق (على حدود أرمينية) حتى ملكوا مدينة تفليس ، ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة » .

دربند شروان(١) ، فسار منهم جماعة كثيرة من أعيانهم إلى السلطان ، وشكوا إليه ذلك ، فسار إليهم وقد وصل الكرج إلى شماخى (٢) فنزل السلطان ببستان هناك ، وتقدم الكرج إليه ، فخافهم العسكر خوفا شديدا ، وأشار الوزير على السلطان بالعود . فلما سمع أهل شروان بذلك ، قصدوا السلطان وقالوا : « نحن نقاتل مادمت عندنا وإن تأخرت ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا » فأقام بمكانه ، وبات العسكر على وجل عظيم ، فأتاهم الله بفرج من عنده ، وألقى بين الكرج والقفجاق الاختلاف ، فاقتتلوا تلك الليلة ، ورحلوا شبه المنهزمين ، وكفى الله المؤمنين القتال. وأقام السلطان بشروان ثم عاد إلى همذان .

وفي سنة ثمان عشرة وخمسماية عزل اقسنقر البرسقى عن شحنكية العراق ورسم له بالعـود إلى الموصل ، وأرسل السلطان محمود إليه ولدا صغيرا له مع أمه ليكون عنده . فلما وصل الصغير إلى العراق تلقته المواكب ، وكان لدخوله يوما مشهودا . وتسلم البرسقى الصغير وسار به وبأمه إلى الموصل . وولى شحنكية العراق سعد الدولة برنقش (٣) . وملك البرسقى فى هذه السنة مدينة حلب وقلعتها .

---

(١) دربند شروان وتسمى أيضا الدربند أو الباب أو باب الأبواب ، وهى مدينة على بحر طبرستان أو الخزر ، سميت الباب لأنها ثغر هام بناها انوشروان فنسب إليه (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٣) .

(٢) شماخى بفتح الشين والميم ، مدينة عامرة تعد من أعمال باب الأبواب أو دربند شروان (ياقوت) .

(٣) فى ابن الأثير « برنقش التركوى » . (الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ) .

ذكر وصول الملك ودبيس بن صدقة الى العراق وعودهما

كان الخليفة المسترشد بالله خرج لقتال دبيس بن صدقة في سنة سبع عشرة وخمسماية ، وقاتله ، فانهزم دبيس كما ذكرناه فى أخبار المسترشد ، ثم التحق بعد هزيمته بالملك طغرل أخى السلطان محمود . فلما وصل إليه أكرمه وأحسن إليه ، وجعله من أعيان خواصه وأمرائه . فحسن له دبيس قصد العراق ، وهون الأمر عليه ، وضمن له أن يملكه ، فسار معه إلى العراق فى سنة تسع عشرة وخمسماية فوصلوا إلى دقوقاء [1] فى عساكر كثيرة . فكتب مجاهد الدين بهروز من تكريت يخبر الخليفة بذلك ، فخرج الخليفة فى العساكر والرجال ونزل بصحراء الشماسية [2] ، وبرنقش أمامه .

فلما بلغ الملك طغرل الخبر ، عدل إلى طريق خراسان ، وتفرق أصحابه للنهب وتوجه هو ودبيس إلى الهارونية [3] . وسار الخليفة حتى أتى الدسكرة [4] ، فاستقر الأمر بين طغرل ودبيس أن يسيرا حتى يعبرا نهر ديالى [5] ويقطعا جسر النهروان ، ويقيم دبيس لحفظ المخايض ، ويتقدم الملك طغرل إلى بغداد فيملكها وينهبها .

(١) دقوقاء بفتح أوله وضم ثانيه مدينة بين اربل وبغداد . (ياقوت : ج ٢ ص٤٥٩)

(٢) الشماسية ، « بفتح أوله وتشديد ثانيه ، منسوبة إلى بعض شماسى النصارى ، وهى مجاورة لدار الروم التى فى أعلى بغداد ، وإليها ينسب باب الشماسية » (ياقوت) .

(٣) الهارونية : مدينة صغيرة قرب مرعش بالثغور الشامية .

(٤) الدسكرة بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح كافه قرية كبيرة غربى بغداد (ياقوت ج ٢ ص ٤٥٥) .

(٥) ديالى ؛ بفتح أوله نهر كبير قرب بغداد ، وهو نهر يعقوبا الأعظم ، وهو نهر تامرا بعينه (ياقوت) .

فسارا على ذلك فحصل لطغرل حمى شديدة منعته من ذلك ، وبلغ الخليفة الخبر ، فعاد إلى بغداد . وانتقض على طغرل ودبيس مادبراه ، فقصدا السلطان سنجر واجتازا فى طريقهما بهمذان ، فبسط على أهلها مالا كثيرا وأخذاه ، فبلغ خبرهما السلطان محمود فجد السير فى إثرهما ، فانهزما منه إلى خراسان ، واجتمعا بالسلطان سنجر ، وشكيا من الخليفة ، وبرنقش ، وأقاما عند السلطان سنجر ؛ ثم كان من أمرهما مانذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر مقتل البرسقى وملك ابنه عز الدين مسعود

وفى سنة عشرين وخمسماية قتل اقسنقر البرسقى صاحب الموصل بمدينة الموصل ، قتله الباطنية فى يوم الجمعة بالجامع . وكان من عادته أنه يصلى الجمعة فى الجامع مع العوام . وكان قد رأى فى منامه فى تلك الليلة أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضهم ونال منه الباقى ماأذاه ، فقص ذلك على أصحابه فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال : « لاأترك الجمعة لشئ أبدا » فغلبوه على رأيه ومنعوه من قصد الجمعة ، فعزم على ذلك ، وأخذ المصحف ليقرأ فيه ، فأول ماخرج له ولله تعالى : « وكان أمر الله قدرا مقدورا » فركب إلى الجامع على عادته . وكان يصلى فى الصف الأول ، فوثب عليه بضعة عشر نفسا ،عدة الكلاب التى رآها ، فجرحوه بالسكاكين ، فجرح (هو) [1] ، بيده ثلاثة منهم ، وقتل رحمه الله تعالى .

(١) أضيف ما بين إلى الحاصرتين من ابن الأثير . (الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ)

وكان تركيا خيرا ، يحب أهل العلم والدين ، كثير العدل يحافظ على الصلوات لأوقاتها ، ويصلى بالليل تهجدا . ولما قتل كان ابنه مسعود بحلب يحفظها من الفرنج ، فأرسل إليه أصحاب والده بالخبر فسار إلى الموصل ، ودخلها فى أول ذى الحجة ، ثم توجه إلى السلطان محمود فأحسن إليه وأعاده .

وفى هذه السنة وقع الاختلاف بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بالله .

وكان سببه برنقش ، فسار السلطان إلى العراق ، وكان بينه وبين الخليفة ماقدمناه فى أخبار المسترشد بالله ، ثم اتفقا على مال حمله الخليفة إليه .

وفى سنة إحدى وعشرين وخمسماية .

أسند السلطان شحنكية العراق إلى عماد الدين زنكى على ماتذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره .

وفيها فى عاشر شهر ربيع الآخر سار السلطان محمود من بغداد وحمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة ، فقبل جميع ذلك ، ولما أبعد عن بغداد قبض على وزيره أبى القاسم على بن الناصر التسابادى (١) فى شهر رجب لأنه اتهمه بمالأة المسترشد بالله ، وأرسل إلى بغداد وأحضر شرف الدين أنوشروان بن خالد ، فوصل إلى السلطان وهو بإصفهان ، فخلع عليه الوزارة واستوزره ، فاستمر عشرة أشهر وعزل نفسه ، وعاد إلى بغداد فى شعبان سنة اثنتين وعشرين ، فأعيد الوزير أبو القاسم .

(١) كذا فى ك وفى ح التسابانى ، وفى ابن الأثير الأنسابادى .

وفى سنة إحدى وعشرين توفى عز الدين مسعود بن البرسقى أمير الموصل فأقام السلطان مقامه عماد الدين زنكى .

وفى سنة اثنتين وعشرين وخمسماية قدم السلطان سنجر عم السلطان (محمود) إلى الرى ، واستدعى السلطان (محمود)[1] فسار إليه فأكرمه وأجلسه معه على التخت ، ولما عاد (سنجر) [2] إلى خراسان سلم دبيس بن صدقة إلى السلطان محمود ، وأوصاه بإكرامه وإعادته إلى بلده ، فرجع محمود إلى همذان ، ودبيس فى صحبته . ثم سار إلى العراق ، وقدم بغداد فى المحرم سنة ثلاث وعشرين : ودبيس معه ليصلح حاله مع الخليفة المسترشد بالله . فامتنع الخليفة من إجابة السلطان إلى ولاية دبيس ابن صدقة البتة ، فلم يمكن السلطان إجباره وأقام ببغداد إلى رابع جمادى الآخرة من السنة ، وعاد إلى همذان ، وجعل بهروز على شحنكية بغداد ، وسلم إليه الحلة واستصحب دبيس بن صدقة معه .

ذكر مافعله دبيس بن صدقة وماكان من أمره

قال : ولما سار السلطان محمود من بغداد إلى همذان ماتت زوجتا ابنة عمه السلطان سنجر ، وكانت تعتنى بأمر دبيس . فلما ماتت انحل نظامه . واتفق أن السلطان مرض مرضا شديدا ، فأخذ دبيس ابنا له صغيرا وقصد العراق ، فلما بلغ المسترشد خبره ، جند

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من ابن الأثير حوادث سنة ٥٢٢ هـ .
(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من ابن الأثير حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

الأجناد وحشد وجمع . وكان بهروز بالحلة ففارقها ودخلها دبيس في شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسماية . فلما بلغ السلطان الخبر أحضر الأميرين نيزك [١] والأحمديلي وقال : « أنتما ضمنتما مني دبيس بن صدقة وأريده منكما » . فسار الأحمديلي إلى العراق فاتصل خبره بدبيس ، فكتب إلى الخليفة يستعطفه ويقول : « إن رضيت عني فأنا أرد أضعاف ما أخذت ، وأكون العبد المملوك » ، وترددت الرسائل بينهما ، ودبيس في خلال ذلك يجمع الرجال والأموال [٢] ، وكان معه ثلثمائة فارس فصار في عشرة آلاف فارس . ووصل الأحمديلي بغداد في شوال ، وسار إلى دبيس ، وسار السلطان بعد ذلك إلى العراق ، فأرسل إليه دبيس هدايا جليلة وبذل ثلثمائة حصان منعولة بالذهب ومائتي ألف دينار إن رضي عنه السلطان والخليفة ، فلم يجبه إلى ذلك . فسار إلى البصرة وأخذ منها أموالا كثيرة ، فسير الخليفة في إثره عشرة آلاف فارس ففارق البصرة ودخل البرية ، ثم سار إلى الشام في سنة خمس وعشرين ليملك صرخد ، وكان صاحبها قد توفي ، واستولت جاريته على القلعة وما فيها ، فاستدعت دبيس بن صدقة ليتزوج بها ، ويملك القلعة . فسار إليها فضلّ عن الطريق ، فنزل بناس من كلب [٣]

---

(١) كذا في ك . وفي ابن الأثير : الأميرين قزل والأحمديلي .

(٢) كذا في ك ، وفي ع الأموال والرجال .

(٣) بنو كلب قبيلة من عرب الجنوب أو اليمنيين مدوا نفوذهم ، ذلك الوقت على أجزاء من جنوب الشام ووسطها .

كانوا بنواحى الغوطة [١] فأخذوه وحملوه إلى تاج الملوك صاحب دمشق ، فحبسه عنده ، فسمع أتابك زنكى خبره ، فأرسل إليه يطلبه منه ويتهدده إن لم يرسله إليه ، فأرسله إليه ، فأحسن إليه زنكى إحسانا لم يسمع بمثله ، وكان قد ظن أنه يهلكه فأقام عنده وانحدر معه إلى العراق (والله اعلم) .

وفى سنة أربع وعشرين وخمسماية خرج الملك مسعود بن محمد من خراسان وكان عند عمه السلطان سنجر ووصل إلى أساوه . فسار السلطان من بغداد إلى همذان ، وفى ظنه أن مسعود يخالفه على عادته . فلما وصل إلى كرمان وصل إليه أخوه الملك مسعود وخدمه ، فأقطعه كنجه وأعمالها .

ذكر وفاة السلطان محمود وشىء من أخباره وملك ابنه داود

كانت وفاته بهمذان فى شوال سنة خمس وعشرين وخمسماية وكان له من العمر نحو سبع [٢] وعشرين سنة ، وكانت مدة سلطنته ثلاث عشرة سنة [٣] وتسعة أشهر وعشرين يوما . وكان حليما كريما عاقلا ، يسمع مايكره فلايعاقب عليه مع القدرة ، قليل الطمع

(١) وصف ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٩) الغوطة بالضم ثم السكون ، بأنها التى منها دمشق ، وبأنها كلها أشجار وأنهار « وهى بالأجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظرا وهى إحدى جنات الأرض الأربع » .

(٢) فى ك سبعة .

(٣) فى ك ثلاث عشر . وقد ذكر ابن الأثير أن مدة سلطنة محمود بلغت اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما (الكامل ، حوادث سنة ٥٢٥ هـ) .

فى أموال الناس ، عفيفا عنها ، كافا لأصحابه عن الظلم والتطرق إلى أموال الرعية .

ونقل بعض المؤرخين أن الأموال ضاقت فى آخر أيامه حتى عجزوا فى بعض الأيام عن إقامة وظيفة الفقاعى ، فدفعوا له بعض صناديق الخزانة فباعها وصرف ثمنها فى حاجته . ولما توفى والد السلطان محمد خلف ثمانية آلاف ألف دينار ، سوى المصوغات والجواهر وأصناف الثياب وغير ذلك ، فآل الأمر فى أيام محمود إلى هذه الغاية . قال : وطلب يوما من سابور الخادم الخازن غالية [1] ، فشكا [2] إليه الإقلال واستمهله . ثم أحضر إليه بعد مدة ثلاثين مثقالا ، فقال له السلطان وكان خازن أبيه : « كم كان فى خزانة السلطان والدى من الغالية ؟ » فقال : « كان فى قلعة أصفهان منها فى أوانى الذهب والفضة والبلور المحكم والصينى مايقارب ماية وثمانين رطلا ، ومعنا فى خزانة الصحبة مايقارب ثلاثين رطلا » فجعل يتعجب من ذلك ويقول لمن حضر : اعجبوا من التفاوت بين هذه الأيام وتلك » .

وكان له من الأولاد . محمد شاه ولى السلطنة ، وملكشاه وليها أيضا ، وجفرى شاه ، وداود ووزراؤه ربيب الدولة أبو منصور وزير والده . ثم نظام الدين كمال الملك أبو طالب على بن أحمد السميرمى ، صفى أمير المؤمنين إلى أن قتل كما ذكرناه . واستوزره بعده شمس الدين عثمان بن نظام الملك إلى أن قتله فى سنة سبع

(١) الغالية : أخلاط من الطيب ، ويقال تغليت بالغالية وتغللت أى تطيبت بها .
(٢) فى ك فشكى .

عشرة وخمسماية . واستوزر الوزير القوام أبا القاسم على بن الناصر النسابادى ، وقبض عليه فى شهر رجب سنة عشرين . واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد ، ثم استعفى من الوزارة وأعيد الوزير أبو القاسم .

قال : ولما توفى السلطان محمود جلس ابنه داود فى السلطنة باتفاق من الوزير أبى القاسم ، وأتابكه اقسنقر الأحمديلى ؛ وخطب له فى جميع بلاد الجبل [وأذربيجان] [1] . ولما اطمأن الناس وسكنوا سار الوزير بأمواله إلى الرى ليأمن بها حيث هى للسلطان سنجر. وكان سبب خوفه أنه قبل وفاة السلطان محمود خاف من جماعة من الأمراء وأعيان الدولة منهم : عين الدولة أبو نصر أحمد بن حامد المستوفى ، والأمير أنوشتكين المعروف بشير كير . وولده عمر وهو أمير حاجب ، فقبض عليهم . فأما عين الدولة فإنه أرسله إلى مجاهد الدين بهروز فحبسه بتكريت ، ثم قتل بها ، وأما شيركير وولده . فقتلهما فى جمادى الآخرة .

ذكر أخبار السلطان غياث الدنيا والدين أبى الفتح مسعود بن ملكشاه وماكان من أمره ، وخروجه من السلطنة وسلطنة أخيه السلطان طغرل ، وعوده اليها

وقد رأيت من قدم أخبار السلطان طغرل على أخبار أخيه السلطان مسعود ثم ذكر سلطنة مسعود بعدها . وليس كذلك لأن السلطان

(١) ما بين الحاصرتين سقطت من ك ، والإضافة من ع .

طغرل ماتسلطن إلا بعد حرب السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر ، ومسعود لم يحارب عمه سنجر بعد أن خطب له بالسلطنة فتعين بهذا أن السلطان مسعود تقدمه فى السلطنة وقد بدأت بأخبار السلطان مسعود وجعلت أخبار السلطان طغرل مندمجة فى أخبار السلطان مسعود وبينتها بالتراجم الدالة عليها لأن السلطان مسعود تسلطن قبله وعاش بعده .

ذكر ما اتفق للسلطان مسعود مع أخيه الملك سلجق شاه وداود بن محمود واستقرار السلطنة بالعراق لمسعود

قال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه المترجم بالكامل : لما توفى السلطان محمود بن محمد ، وخطب لولده الملك داود ببلاد الجبل أذربيجان سار الملك داود من همذان فى ذى القعدة سنة خمس وعشرين وخمسماية إلى زنكان (١) ؛ فأتاه الخبر بمسير عمه . السلطان مسعود من جرجان ، وأنه وصل إلى تبريز واستولى عليها . فسار الملك داود إليه ، وحصره بها وجرى بينهما قتال إلى سلخ المحرم سنة ست وعشرين ، ثم اصطلحا وتأخر الملك داود مرحلة ، وخرج السلطان مسعود من تبريز ، واجتمعت عليه العساكر وسار إلى همذان وكانت رسل الملك داود تقدمت إلى بغداد فى طلب الخطبة ، فأجاب المسترشد بالله إن الحكم فى الخطبة للسلطان سنجر ، فمن أراد

(١) كذا فى ك و ع . وفى ابن الأثير زنجان . وفى معجم البلدان لياقوت أرزنجان بفتح أوله وسكون ثانيه بلد كبير مشهور قرب أذربيجان .

خطب له . وأرسل الخليفة إلى السلطان سنجر أن لايأذن فى الخطبة لأحد ، وأنه ينبغى أن تكون الخطبة له وحده دون بنى أخيه ، فوقع ذلك منه موقعا حسنا . ثم إن السلطان مسعود كاتب عماد الدين أتابك زنكى صاحب الموصل وغيرها يستنجده ويطلب مساعدته فوعده بالنصر ، فقويت نفسه بذلك على طلب السلطنة .

قال : ثم إن السلطان[1] سلجق شاه بن محمد سار به أتابكه قراجا الساقى صاحب بلاد فارس وخوزستان فى عسكر كثير إلى بغداد ، فوصل إليها قبل وصول أخيه السلطان مسعود ، ونزل بدار السلطنة ، فأكرمه الخليفة واستخلفه لنفسه . ثم [وصل رسول السلطان] [2] يطلب الخطبة لنفسه ويتهدد إن منعها ، فلم يجبه المسترشد إلى ماطلب ، فسار حتى نزل عباسية [3] الخالص . فبرز عسكر الخليفة وعسكر سلجق شاه قراجا الساقى نحو مسعود ، وقد عزموا على حربه ، فأتاهم الخبر بوصول عماد الدين زنكى إلى المعشوق [4] ، فعبر قراجا الساقى فى أكثر العساكر إلى الجانب الغربى وسار فى يوم وليلة إلى المعشوق ، والتقى هو وزنكى فهزمه الساقى وأسر جماعة من أصحابه ، وانهزم زنكى إلى تكريت ، وسار إلى الموصل .

---

(١) كذا فى ك وفى ابن الأثير . أما فى ع فقد وردت « ثم إن الملك سلجق ...» (الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦ هـ) .

(٢) فى ك ، ع « ثم وصلت رسل مسعود » والتصحيح المثبت من ابن الأثير (الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦ هـ) .

(٣) فى الأصل « عباسة » ، وما هنا من ياقوت معجم البلدان.

(٤) المعشوق ، اسم لقصر عظم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء .

قال : وسار السلطان مسعود من العباسية المالكية [١] ، وحصلت المناوشة بين عسكره وعسكر أخيه سلجق شاه ودامت يومين ، فأرسل سلجق شاه إلى قراجا يستحثه في العود ، فعاد مسرعا . فلما علم مسعود بهزيمة زنكى رجع إلى ورائه ، وأرسل إلى الخليفة يعرفه وصول السلطان سنجر إلى الرى ، وأنه عازم على قصد الخليفة وغيره ، ويقول : « إن رأيتم أن نتفق على قتاله ودفعه عن العراق [ويكون العراق] [٢] لوكيل الخليفة فأنا موافق على ذلك » . وترددت الرسائل بينهم ، فوقع الاتفاق على أن يكون العراق لوكيل الخليفة ، والسلطنة لمسعود وسلجق شاه ولى عهده ، وتحالفوا على ذلك . ودخل السلطان مسعود بغداد ونزل بدار السلطنة ونزل سلجق شاه بدار الشحنكية ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ست وعشرين وخمسماية .

ذكر الحرب بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر شاه وهزيمة مسعود وسلطنة طغرل

قال : ولما وصل الخبر بوفاة السلطان محمود إلى عمه السلطان سنجر شاه ، سار عن خراسان إلى بلاد الجبال [٣] ومعه الملك طغرل ابن السلطان محمد ، وكان قد لازمه ، فوصلا إلى الرى ثم إلى همذان ، فاتصل الخبر المسترشد بالله والسلطان مسعود ومن

(١) المالكية : قرية على الفرات بالعراق .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من ك والاضافة من ع .
(٣) الجبال اسم علم للبلاد الممتدة من أصبهان إلى زنجان وقزوين والرى .

معه ، فاتفقوا على قتاله وأن يكون الخليفة معهم . فتجهز الخليفة وتقدم السلطان مسعود وسلجق شاه وقراجا الساقى ، وساروا لقتال السلطان سنجر شاه ، وتأخر الخليفة فأرسل إليه قراجا وألزمه بالخروج ، وقال : « إن الذى تخافه من سنجر آجلاً أنا أفعله عاجلا » فبرز حينئذ وسار حتى بلغ خانقين [1] وأقام بها ، وقطعت خطبة سنجر من العراق جميعه . ووصلت الأخبار بوصول عماد الدين زنكى ودبيس بن صدقة إلى قرب بغداد . فأما دبيس فذكر أن السلطان سنجر أقطعه الحلة وأرسل إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرضى عنه فامتنع من إجابته . وأما زنكى فإنه ذكر أن سنجر أعطاه شحنكية العراق . فعاد المسترشد إلى بغداد ، وأمر أهلها بالاستعداد ، وجند بها أجنادا وسار إلى السلطان مسعود ، فلقيتهم عساكر سنجر وهو فى مائة ألف ، منهم خوارزم شاه اتسز بن محمد والتقوا عند الدينور (٢) . وكان مسعود يدافع الحرب وينتظر وصول الخليفة ، فلما نازله السلطان سنجر لم يجد بدا من المصاف ، فوقعت الحرب ، وقامت على ساق ، فحمل قراجا الساقى على القلب فى عشرة آلاف فارس من شجعان العسكر ، فجاء خوارزم شاه والملك طغرل وصاروا من وراء ظهر قراجا الساقى وصار هو فى الوسط ، فقاتل إلى أن جرح عدة جراحات ، وقتل كثير من أصحابه وأسر هو فانهزم السلطان مسعود ، وذلك فى ثامن شهر رجب سنة ست وعشرين [3] وخمسماية .

(١) خانقين : بلدة من نواحى السواد على الطريق من بغداد إلى همذان .
(٢) الدينور : مدينة من أعمال الجبل قرب همذان .
(٣) فى ك وعشرون .

قال : ولما تمت الهزيمة على مسعود ، نزل السلطان سنجر وأحضر قراجا الساقى وسبه ووبخه وقال له : « يامفسد ، أى شىء كنت ترجو بقتالى » قال : « كنت أرجو أن أقتلك وأقيم سلطانا أحكم عليه » . فقتله صبرا ، وأرسل إلى السلطان مسعود يستدعيه ، فحضر إليه فأكرمه ، وعاتبه على عصيانه ومخالفته وأعاده إلى كنجه . وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد فى السلطنة ، وخطب له فى جميع البلاد ، واستوزر له الوزير : أبا القاسم النساباذى وزير السلطان محمود ، وعاد إلى خراسان .

ذكر الحرب بين السلطان طغرل بن محمد وبين أخيه الملك داود بن محمود

قال : لما توجه السلطان سنجر إلى خراسان عصى الملك داود بن محمود على عمه السلطان طغرل وجمع العساكر ، وسار إلى همذان فى مستهل شهر رمضان سنة ست وعشرين وخمسماية . فخرج إليه السلطان طغرل ، وعبى كل منهما أصحابه ، والتقوا فوقع الخلف فى عسكر داود ، فهرب أتابكه اقسنقر الأحمديلى ، وتبعه الناس ، وبقى الملك داود متحيرا إلى أوائل ذى الحجة منها فقدم بغداد هو وأتابكه الأحمديلى .

ذكر عود السلطان مسعود [بن محمد] [١] الى السلطنة وانهزام طغرل

قال : لما سمع السلطان مسعود انهزام داود . وأنه قصد بغداد ، سار هو أيضا إلى بغداد فى سنة سبع وعشرين وخمسماية . فلما قاربها لقيه داود ودخل فى خدمته إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة فى صفر ، وخاطب فى الخطبة ، فأجيب إلى ذلك ، وخطب لـه ولداود بعده . ودخلا إلى الخليفة فأكرمهما وخلع على مسعود فى يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الأول من السنة . وكانت الخلع سبع دراريع مختلفات الأجناس والألوان والسابعة سوداء ، وتاجا مرصعا بالجوهر والياقوت ، وطوق ذهب وسراويل ، وقلده بسيفين وعقد له لواءين بيده ، وسلم إليه داود بن أخيه وأوصاه به مشافهة. ووقع الاتفاق على مسير مسعود وداود إلى أذربيجان ، وأرسل الخليفة معهما عسكرا فساروا .

وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان ، وهرب من بها من الأمراء مثل قراسنقر وغيره ، وتحصن كثير منهم بمدينة أردبيل [٢] ، فقصدهم مسعود وحصرهم بها وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وانهزم الباقون . ثم سار بعد ذلك إلى همذان لمحاربة أخيه الملك طغـرل فاستولى عليها فى شعبان . ولما استقر بها قُتل اقسنقر الأحمديلى ،

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من ك ، والإضافة من ع .

(٢) أردبيل : مدينة من أشهر مدن أذربيجان .

قتله الباطنية . وسار طغرل حتى بلغ قم [١] ، ثم عاد إلى أصفهان وأراد أن يتحصن بها ، فسار إليه مسعود ليحاصره بها فرحل طغرل إلى بلاد فارس . واستولى مسعود على أصفهان ، وفرح أهلها به ، ثم سار منها نحو فارس ، فوصل إلى موضع بقرب البيضا [٢] ، فاستأمن إليه أمير من أمراء أخيه طغرل معه أربعماية فارس ، فأمنه فخاف طغرل من عسكره أن يلتحقوا بأخيه ، فانهزم وقصد الرى .

قال : ولما تم على طغرل ماتم من الهزيمة ، قال لوزيره أبي القاسم النساباذى : « قد علمت أنه ماتم علىّ هذا الخذلان إلا لظلمك للعباد فقال له : « لا تقلق ، قد أمرت أهل ألموت بقتل اقسنقر وسائر أعدائك وهم فاعلون » فأمر به فضرب وصلب ، فانقطع به الحبل ، فقطع إربا إربا ، وطيف بأعضائه فى كل بلد عضو ، وكان قتله بأصفهان .

واستمر طغرل حتى أتى الرى فى ثلاثة آلاف فارس ، وسار الملك مسعود فى طلبه فلحقه بموضع يقال له ذكراور ، فوقع بينهما مصاف هناك ، فانهزم طغرل ووقع عسكره فى أرض قد نضب عنها الماء ، وهى وحل ، فأسر منهم جماعة فأطلقهم مسعود ، ولم يقتل فى هذا المصاف إلا نفر يسير . وكان هذا المصاف فى ثامن عشر شهر رجب سنة سبع وعشرين وخمسماية ، ورجع الملك مسعود إلى همذان .

---

(١) قم بالضم وتشديد الميم ، مدينة قرب قاشان استحدثها المسلمون (ياقوت ، ج ٤ ص ٣٩٧) .

(٢) البيضاء : مدينة مشهورة بفارس قرب شيراز .

ذكر عود الملك طغرل الى الجبل وانهزام السلطان مسعود

وفى سنة ثمان وعشرين وخمسماية عاد الملك طغرل إلى بلاد الجبل فملكها ؛ وسبب ذلك أن السلطان مسعود لما عاد من حربه ، بلغه عصيان داود ابن أخيه بأذربيجان ، فسار إليه وحصره بقلعة روندر [1] واشتغل بحصره ، فجمع الملك طغرل العساكر ، واستمال بعض أمراء السلطان مسعود ، وتقدم لفتح البلاد وفتحها أولا فأولا ، وكثرت عساكره ، فقصد مسعود . فلما قارب قزوين سار مسعود نحوه ، ولما تدانا العسكران انهزم السلطان مسعود وذلك فى أواخر شعبان من السنة ، فأرسل إلى الخليفة المسترشد بالله فى القدوم إلى بغداد فأذن له . وكان نائبه بأصفهان النفيس [2] السلاحى ومعه الملك سلجق شاه ، فلما سمعا بانهزام مسعود قصدا بغداد فنزل سلجق شاه بدار السلطان فأكرمه الخليفة وأنفذ إليه عشرة آلاف دينار ، ثم قدم مسعود إلى بغداد ، وأكثر أصحابه على الجمال لعدم الخيل ، فأرسل إليه الخليفة مايحتاج إليه من الخيل والخيام والسلاح والثياب وغير ذلك ، ونزل بدار السلطنة ، وذلك فى منتصف شوال من السنة . وأقام طغرل بهمذان فعاجلته المنية .

---

(١) روندر فى ك ، ع . وفى ابن الأثير رونزر وفى ياقوت روينلر ، وهى قلعة حصينة من أعمال اذربيجان قرب تبريز (معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٥) .

(٢) كذا فى ك ، ع . وفى ابن الأثير البقش السلاحى (الكامل ، حوادث سنة ٥٢٨ هـ)

ذكر وفاة الملك طغرل وملك أخيه السلطان مسعود بلد الجبل

كانت وفاته بهمذان فى المحرم سنة تسع وعشرين وخمسماية ومولده فى المحرم سنة ثلاث وخمسماية . وكان عاقلا خيرا عادلا ، محسنا إلى الرعية قريبا منهم . وكان قبل وفاته قد خرج يريد السفر لقتال أخيه مسعود ، فدعا له الناس فقال : « ادعو لخيرنا للمسلمين » وكان له من الأولاد أرسلان شاه ، ولى السلطنة ، ومحمد ألب أرسلان لم يلها . وزراؤه : الوزير قوام الدين النساباذى وزير السلطان محمود إلى أن قتله ، ثم استوزر شرف الدين على بن رجا . قال : ولما توفى وصل الخبر بموته أخيه السلطان مسعود ، فسار من وقته نحو همذان ، وأقبلت العساكر إليه ودخلت فى طاعته ، واستقل بالسلطنة بعده .

وفى هذه السنة وقع بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود ، والتقوا واقتتلوا ، فانهزمت عساكر الخليفة ثم قتل على ماقدمناه فى أخبار الدولة العباسية .

ذكر قتل الأمير دبيس بن صدقة

وفى سنة تسع وعشرين وخمسماية قتل السلطان مسعود الأمير دبيس بن صدقة وهو على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى . أمر غلاما أرمنيا بقتله ، فقام على رأسه وهو ينكت الأرض بإصبعه فضرب عنقه وهو لايشعر . وكان صدقة يعادى المسترشد كما

ذكرناه ، فلما قتل المسترشد ظن صدقة أن الدنيا قد صفت له ، فما لبث بعده . وهذه عادة الدنيا يتبع صفاها كدرها . وجودها ضررها كما قيل .

إن الليالى لم تحسن إلى أحد إلا أساءت إليه بعد إحسان

قال : ولما قتل دبيس كان ابنه صدقة بالحلة ، فاجتمع إليه مماليك أبيه وأصحابه وكثر جمعه ، وبقى بها إلى أن قدم السلطان بغداد فى سنة إحدى وثلاثين ، فقصده وأصلح حاله معه ، ولزم بابه .

ذكر اجتماع الأطراف على حرب السلطان مسعود وخروجهم عن طاعته

وفى سنة ثلاثين وخمسماية اجتمع كثير من أصحاب الأطراف على الخروج عن طاعة السلطان [مسعود] . فسار الملك داود ابن أخى السلطان فى عسكر أذربيجان إلى بغداد ، فوصل إليها فى رابع صفر ونزل بدار السلطنة . ووصل بعده عماد الدين زنكى صاحب الموصل. ووصل الأمير برنقش بازدار صاحب قزوين وغيرها ؛ والنفيس الكبير [صاحب أصفهان وصدقة بن دبيس][1] صاحب الحلة وغيرهم . فجعل الملك داود فى شحنكية بغداد برنقش بازدار ، وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب لداود . فسار السلطان مسعود إلى بغداد ، فتفرقت تلك الجيوش وسار الخليفة وزنكى إلى الموصل

(١) ما بين قوسين ساقط من ك والإضافة من ع .

وخلع الراشد ، وبويع المقتفى على ماقدمنا ذكره فى أخبار الدولة العباسية . .

وفى سنة ثلاثين وخمسماية عزل السلطان وزيره شرف الدين أنو شروان بن خالد واستوزر كمال الدين أبا البركات بن سلمة الدركزينى وهو من خراسان .

وفيها أرسل السلطان قراسنقر بعساكر كثيرة فى طلب الملك داود ، فسار وأدركه عند مراغة ، فالتقيا واقتتلا قتالا شديدا ، فانهزم داود إلى خوزستان ، فاجتمع عليه هناك كثير من التركمان وغيرهم ، فبلغت عدتهم عشرة آلاف فارس ، فقصد بهم تستر (١) وحاصرها . وكان عمه السلطان سلجق شاه ابن السلطان محمد بواسط ، فأرسل إلى أخيه السلطان مسعود يستنجده ويستمده ، فأمده بالعساكر ، فسار إلى داود وهو يحاصر تستر ، فالتقوا فانهزم سلجق شاه .

وفى سنة إحدى وثلاثين وخمسماية أذن السلطان مسعود للعساكر التى عنده ببغداد فى العود إلى بلادهم ، وذلك فى المحرم منها . وسبب ذلك أنه بلغه أن الراشد بالله المخلوع فارق الموصل . قال : وزوج ابنته الأمير صدقة بن دبيس بن صدقة ، وتزوج الخليفة المقتفى بفاطمة أخت السلطان فاطمأن السلطان عند ذلك وفرق العساكر .

---

(١) تستر بالضم ثم السكون وفتح التاء الأخرى وصفها ياقوت بأنها أعظم مدينة بخوزستان على أيامه (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٩) .

ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الأمراء

وفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسماية كانت الحرب بينهم ؛ وسبب ذلك أن الراشد بالله المخلوع فارق الموصل وسار نحو أذربيجان فوصل إلى مراغة . وكان الملك داود بن محمود والأمير منكبرس صاحب فارس والأمير بوزابه نائبه بخوزستان ، والأمير عبد الرحمن طغايرك على خوف ووجل من السلطان . فتجمعوا كلهم ووافقوا الراشد على الاجتماع معه ليكونوا يدا واحدة ويردوه إلى الخلافة فأجابهم إلى ذلك ، إلا أنه لم يجتمع معهم . ووصل الخبر إلى السلطان وهو ببغداد ، فسارعنها فى شعبان ، والتقوا واقتتلوا ، فانهزم الملك داود ، وأسر الأمير منكبرس فقتل صبرا بين يدى السلطان وتفرقت عساكر السلطان مسعود فى النهب واتباع من انهزم ، وكان بوزابه وعبد الرحمن طغايرك على نشز من الأرض ، فرأيا السلطان وقد تفرقت عساكره ، فحملا عليه ، فلم يثبت لهما وانهزم ، وقبض بوزابه على جماعة من الأمراء منهم صدقة بن دبيس صاحب الحلة وأتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وعنتر بن أبى العساكر ، وتركهم عنده . فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس قتلهم جميعا وصار العسكران مهزومين ، وهذا من عجيب الاتفاق .

وقصد السلطان مسعود أذربيجان وقصد الملك داود همذان ، ووصل إليها الراشد بعد الوقعة واختلفت آراء الجماعة ، فمنهم

من يقول : نقصد بغداد ونملكها ، ومنهم من يقول : بل نتبع مسعود ، فإذا فرغنا منه هان مابعده . وكان بوزابة أكبر الجماعة ، فرأى أن يتوجه إلى بلاد فارس ليملكها بعد صاحبها منكبرس ،فسار إليها وملكها ، وصارت بيده مع خوزستان . وسار سلجق شاه إلى بغداد ليملكها فمنعه من بها ، وقاتله شحنتها . قال : ولما قتل الأمير صدقة أقر السلطان الحلة على أخيه محمد بن دبيس ، وجعل معه مهلهل ابن أبي العشاير ، وهو أخو عنتر المقتول ، ليدبر أمره .

ذكر قتل الوزير الدركزيني ووزارة ابن الخازن وزير قراسنقر

وفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسماية قبض السلطان مسعود على وزيره كمال الدين أبى البركات بن سلمة الدركزينى ، وكان شهما شجاعا عادلا نافذ الحكم حسن السيرة ، أزال المكوس ورفع المظالم . وكان يقيم مؤنة السلطان ووظايفه وجمع له خزانة وكشف أشياء من الخيانات كانت مستورة ، فثقل أمره على المتصرفين وأرباب الأعمال ، فأوقعوا بينه وبين الأمراء . وكان أشدهم عليه قراسنقر صاحب أذربيجان : فإنه فارق السلطان وأرسل إليه يقول : « أما أن تنفذ برأس الوزير إلىّ وإلا خدمنا سلطانا آخر » فأشار الأمراء بقتله ، فقتله على كره منه ، وأرسل برأسه إلى قراسنقر ، فرضى . وكانت وزارته سبعة أشهر ، واستوزر [السلطان مسعود] بعده أبا العز طاهر بن محمد البروجردى [1] وزير قراسنقر ، ولقب

---

(١) البروجردى نسبة إلى بروجرد ، وهى بلدة بين همذان والكرج .

عز الملك . وضاقت الأمور على السلطان ، فاستقطع البلاد على غير رضاه ، ولم يبق له غير اسم السلطنة .

وفيها توفيت زبيدة خاتون زوجة السلطان مسعود ، وهى ابنة السلطان بركياروق ، فتزوج مسعود بعدها سفري ابنة دبيس بن صدقة فى جمادى الأولى وتزوج أيضا ابنة قاروت ، وهو من البيت السلجقى .

وفيها أيضا قتل السلطان [مسعود] ابن البقش السلاحى شحنة بغداد لظلمه وعسفه للناس ، وجعل شحنة العراق مجاهد الدين بهروز ، فأحسن السيرة .

وفى سنه ثلاث وثلاثين وخمسماية قدم السلطان مسعود إلى بغداد فى فصل الشتاء ، وصار يشتو [1] بالعراق ويصيف بالجبال . ولما قدمها أزال المكوس وكتب الألواح بإزالتها ، ووضعت على أبواب الجوامع وفى الأسواق . وتقدم إلى الجند أن لاينزل أحد منهم فى دار عامى إلا من أذن له ، فكثر الدعاء له والثناء عليه .

وفى سنة تسع وثلاثين وخمسماية قبض السلطان على وزيره البروجردى ،واستوزر بعده المرزبان أبا عبد الله بن نصر الأصفهانى وسلم إليه البروجردي ، فاستخرج منه الاموال ،ومات مقبوضا عليه .

(١) فى الأصل يشتو .

ذكر اتفاق بوزابة وعباس على الخروج عن طاعة السلطان مسعود

وفى سنة أربعين وخمسماية سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان فى عساكره إلى قاشان ، ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود ، واتصل بهم الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد ، واجتمع بوزابه والأمير عباس صاحب الرى ، واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان وملكا كثيرا من بلاده . فأتاه الخبر وهو ببغداد ومعه الأميرعبدالرحمن طغايرك – وهو الحاكم فى دولته – وكان ميله إليهما . فسار السلطان عن بغداد فى شهر رمضان . فلما تقابل العسكران ولم يبق إلا القتال ، لحق سليمان شاه بأخيه السلطان مسعود ، وشرع عبد الرحمن فى تقرير الصلح على القاعدة التى أرادوها . وأضيف إلى عبد الرحمن ولاية أذربيجان وارّانية على مابيده . وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود ، [وهو وزير بوزابه] (١) وصار السلطان معهم تحت الحجر .

ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الرى

وفى سنة إحدى وأربعين وخمسماية قتل السلطان مسعود الأمير عبد الرحمن طغايرك أمير حاجب دولته والحاكم عليها ، وكان لم يبق للسلطان معه غير الاسم وكان سبب قتله أنه لما ضيق على السلطان

(١) أضيف ما بين الحاصرتين من ابن الأثير : (الكامل ، حوادث سنة ٥٤٠ هـ) .

وحجر عليه واستبد بالأمر دونه وأبعد خواصه عنه ، فكان ممن أبعد عنه بك أرسلان المعروف بخاص بك ، وكان السلطان قد رباه وقربه فأبعده عنه وحجبه ، وصار لايراه . وكان فى خاص بك عقل وتدبير وجودة قريحة ، فاستقر بينه وبين السلطان قتل عبد الرحمن . فاستدعى خاص بك من يثق به وتحدث معهم ، فكلهم خاف الإقدام عليه إلا رجل اسمه زنكى ـ وكان جاندارا ـ فإنه بذل من نفسه أن يلقاه ويبدأه بالقتل ، ووافق خاص بك على ذلك جماعة من الأمراء فبينما عبد الرحمن فى موكبه بظاهر جَنَزَه (١) ، إذ ضربه زنكى الجاندار على رأسه بمقرعة حديد كانت فى يده ، فسقط إلى الأرض وأجهز عليه خاص بك ، وأعانه جماعة ممن كان واطأه من الأمراء .

وبلغ السلطان الخبر وهو ببغداد ، ومعه الأمير عباس صاحب الرى وعسكره أكثر من عسكر السلطان ، فأنكر الأمير عباس ذلك وتألم له ، فداراه السلطان ولطف به ، ثم استدعاه فى بعض الأيام . فلما عبر إليه ، منع أصحابه من الدخول وعدل به إلى حجرة ، وقيل له : اخلع الزردية ، وكان لايزال يلبسها ، فقال : إن لى مع السلطان أيمانا وعهودا ، فلكموه وخرج عليه غلمان أعدوا له ، فتشاهد وخلع الزردية وألقاها فضربوه بالسيوف ، واحتزوا رأسه ، وألقوه إلى أصحابه ، ثم ألقوا جسده ونهبت خيامه . وكان مقتله فى ذى القعدة. وكان من غلمان السلطان محمود حسن السيرة ودفن بالجانب الغربى ثم أرسلت ابنته وحملته إلى الرى ودفنته هناك .

---

(١) جنزه مدينة بأران وهى بين شروان وآذربيجان ، وتسمى كذلك كنجه (ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ١٧١) .

قال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل : ومن الاتفاق العجيب أن العبادى كان يعظ يوما فحضره عباس فأسمع [العبادى] بعض من حضر المجلس ، ورمى بنفسه نحو الأمير عباس ، فضربه أصحابه خوفا عليه ، لأنه كان شديد الاحتراس من الباطنية ، لايفارق لبس الزردية ومعه الغلمان الأجلاد ، فقال له العبادى : « ياأمير كم ذا الاحتراز ، والله لئن قضى عليك بأمر لتحلن أنت بيدك أزرار الزردية ، فينفذ القضاء فيك » فكان كما قال

كان السلطان قد استوزر ابن دارسمت وزير بوزابة كارها ، فلما كان الآن استعفى وسأل العزل والعود إلى صاحبه فعزله وقرر معه أن يصلح له بوزابه ويزيل ماعنده من الاستشعار بسبب قتل عبد الرحمن وعباس .

وفيها حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت ، والله أعلم .

ذكر قتل الأمير بوازية

قال : ولما اتصل بالأمير بوزابة قتل عباس جمع عساكر فارس وخوزستان وسار إلى أصفهان فحصرها وسير عسكرا آخر إلى همذان ، وعسكرا ثالثا إلى قلعة الباهلى (١) ثم سار هو عن أصفهان

(١) كذ فى ك ، ع ، وفى ابن الأثير (الكامل حوادث سنة ٥٤١ هـ .) قلعة الماهكى من بلد اللحف ، صقع معروف من نواحى بغداد سمى بذلك لأنه فى لحف جبال همذان ونهاوند ، وتلك النواحى وهو دونها مما يلى العراق ، وفيه عدة قلاع حصينة » ، (معجم البلدان ج ٥ ص ١٤) .

وراسل السلطان مسعود فى الصلح فلم يجبه ؛ وسار مجداً فالتقيا بمرج قراتكين [١] واقتتل العسكران ، فانهزمت ميمنة السلطان وميسرته واقتتل القلبان أشد قتال وأعظمه ، وصبر الفريقان فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه . وقيل بل كبا به فرسه فأخذ أسيرا ، وحمل إلى السلطان فقتل بين يديه ، وانهزم أصحابه . وبلغت هزيمة ميمنة السلطان وميسرته إلى همذان . وقتل من الفريقين خلق كثير . وكانت هذه الحرب من أعظم الحروب الكائنة بين الأعاجم . وكانت فى سنة اثنتين وأربعين والله أعلم .

ذكر الخلف بين السلطان وجماعة من الأمراء ووصولهم الى بغداد وماكان منهم

وفى سنة ثلاث وأربعين وخمسماية فارق السلطان مسعود جماعة من الأمراء الأكابر وهم : ايلدكز المسعودى صاحب كنجة وأرانية [٢] ، وتبر الحاجب ، وطرنطاى المحمودى شحنة واسط ، وابن طغايرك وغيرهم . وكان سبب ذلك ميل السلطان إلى [خاص بك] ، واطراحه لهم فخافوا أن يفعل بهم كما فعل بعبد الرحمن وعباس وبوزابة ، ففارقوه وساروا نحو العراق . فلما بلغوا حلوان خاف الناس ببغداد وأعمال

(١) هكذا ذكرها النويرى وابن الأثير ، ولعلها مرج قرابلين التى ذكرها ياقوت ، وقال إنها على مرحلة من همذان فى جهة أصبهان ، وكانت به عدة وقائع للسلجوقية . (معجم البلدان ج ٥ ص ١٠١) .

(٢) ذكر ياقوت أن أران إسم ولاية واسعة يفصلها عن أذربيجان نهر الرس . ؛ وقال أيضاً إن اران قلعة مشهورة من نواحى قزوين .

العراق ، وغلت الأسعار وأرسل الخليفة إليهم العبادى الواعظ. فلم يرجعوا ، ووصلوا إلى بغداد فى شهر ربيع الآخر ، ومعهم الملك محمد ابن السلطان محمود ، فنزلوا بالجانب الشرقى .

ووقع القتال بين الأمراء وعامة بغداد ومن بها من العسكر عدة وقعات ، فانهزم الأمراء من العامة فى بعض الأيام خديعة ومكرا ، فلما تبعوهم عطفوا عليهم وقتلوهم ، فأصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله وتفرق العسكر بالمحال الغربية ، وأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة ونهبوا بلد دجيل [1] وغيره ، وأخذوا النساء والولدان ثم اجتمع الأمراء ونزلوا مقابل التاج [2] وقبلوا الأرض أمام الخليفة المقتفى ، وترددت الرسائل بينهم وبين الخليفة إلى آخر النهار ، وعادوا إلى خيامهم ثم تفرقوا وفارقوا العراق .

هذا كله والسلطان ببلد الجبل ، والرسل بينه وبين عمه سنجر تتردد. وكان سنجر يلومه على تقدمه خاصبك [خاص بك] ويتهدده أن يزيله عن السلطنة إن لم يبعده ، وهو يغالط. ولايفعل . فسار السلطان سنجر إلى الرى ،وسار السلطان مسعود إلى خدمته واسترضاه فسكن . وكان اجتماعهما فى سنة أربع وأربعين وخمسماية .

---

(١) ذكر ياقوت أن دجيل إسم نهر يخرج من دجلة من أعلى بغداد بينها وبين تكريت . ولعل المقصود فى المتن بلدة تقع عند ذلك الموضع .

(٢) التاج إسم لدار مشهورة من دور الخلافة العباسية ببغداد ، وكان أول من وضع أساسه وسماه بهذه التسمية الخليفة المعتضد ، ولم يتم فى أيامه فأتمه ابنه المكتفى (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣) .

ذكر وفاة السلطان مسعود

كانت وفاته بهمذان فى شهر رجب سنة سبع وأربعين وخمسماية ومرض بحمى حادة نحو أسبوع ومات ، ودفن بمدرسة جمال الدين إقبال الجمدار . وكان مولده فى ذى القعدة سنة اثنتين وخمسماية ، فيكون عمره أربعا [٣] وأربعين سنة وثمانية أشهر ، ومدة سلطنته منذ وقع اسم السلطنة عليه إحدى وعشرين سنة وشهورا ، بما فى ذلك من أيام أخيه السلطان طغرل . وكان رحمه الله حسن الأخلاق والسيرة كريما عفيفا عن أموال الرعية من أصلح الملوك سيرة ، وألينهم عريكة . ولما مات زالت سعادة البيت السلجقى بموته ، ولم يقم له بعده قائمة ، فكأنه المعنى بقول الشاعر :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ذكر سلطنة ملكشاه بن محمود بن محمد طبز بن ملكشاه والقبض عليه

قال المؤرخ : كان السلطان مسعود قبل موته قد استدناه وقربه وأقره عنده ، وعهد إليه بالسلطنة بعده . فلما توفى السلطان خطب الأمير خاصبك بن بلنكرى لملكشاه بالسلطنة باتفاق الأمراء ، ورتب الأمور وقررها بين يديه ، وأذعنت له جميع العساكر بالطاعة . وكان ملكشاه شريبا خميرا ، لايصحو ساعة واحدة ، كثير الاشتغال

(٣) فى ك. أربعة .

باللهو ، فاجتمع الأمراء على خلعه وتولية السلطنة محمد بن محمود فخلعوه وقبض عليه خاصبك واعتقله بمرج همذان فتراخى مستحفظوه فهرب ، ولم يطلب ولا عُلم له خبر فكانت مدة سلطنته شهرين أو ثلاثة . وقال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه : إنه توجه إلى أصفهان وكثرت جموعه ، وكتب إلى بغداد فى طلب الخطبة لنفسه ، فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيا كان خصيصا به يقال له أغلبك الكوهزاتينى (١) فمضى إلى بلاد العجم واشترى جارية من قاضى همذان بألف دينار ، وباعها من ملكشاه ووضعها لتسمه ، ووعدها بمواعيد كثيرة ، فسمته فى لحم مشوى . فمات فى سنة خمس وخمسين وخمسماية ، وجاء الطبيب فأعلم أصحابه أنه مات بسم ، فقررت الجارية فأقرت . ولما مات خرج أدل البلد أصحابه وخطبوا لسليمان شاه بن محمد والله أعلم .

ذكر سلطنة محمد بن محمود

هو أبو شجاع محمد بن محمود ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان محمد جغرى بيك داود بن ميكائيل بن سلجق . ومحمد هذا فى طبقة محمود ومسعود ابنى محمد طبر ، وقيل هو محمد بن محمود بن محمد طبر أخو ملكشاه الذى ذكرناه آنفا .

قال : ولما قبض خاصبك على ملكشاه أرسل إلى محمد وهو بخوزستان وكان عمه السلطان سنجر قد ملكه إياها ، واستدعاه ليسلطنه ،

(١) أغلبك [أغل بك] الكوهزاتينى ، ورد الاسم بهذه الصيغة فى نهاية الأرب . أما فى ابن الأثير فقد ورد الاسم برسم (أغلبك الكوهرايينى) .

وسير إليه الأمير مشيد الدين وكاتبه الزنجانى ، وكان قصد خاصبك أنه إذا حضر عنده قبض عليه وخطب لنفسه بالسلطنة . فلما اجتمعا بمحمد حسنا له قتل خاصبك إذا استقر فى السلطنة ، وقالا له ان أمرك لايتم إلا بقتله . وعادا إلى خاصبك وأخبراه أن محمدا قد حلف له ، وسار محمد من خوزستان إلى همذان فى عدة يسيرة ، فتلقاه خاصبك وخدمه وأجلسه على تخت المملكة ، وذلك فى أوائل صفر سنة ثمان وأربعين وخمسماية ، وخطب له بالسلطنة ، وبالغ فى خدمته ، وحمل إليه هدايا عظيمة جليلة المقدار .

ولما كان فى اليوم الثانى أو الثالث من جلوسه ، استدعى خاصبك ليشاوره فجاء إليه ومعه زنكى الجاندار ، وهما قتلة عبد الرحمن طغايرك فقتلهما جميعا ، وألقى رأسيهما إلى أصحابهما ، فتفرقوا ولم ينتطح فيها عنزان . ووجد فى خزانة خاصبك ألف وسبعماية ثوب من الديباج لون العنابى خاصة ، سوى أنواع الثياب الأطلس والمصور وغير ذلك . وطلب له كفن فلم يقدر عليه ، حتى جبى له من سوق العسكر .

قال وكان أيدغدى التركمانى ـ المعروف بشملة ـ مع خاصبك لما استدعاه السلطان ، فنهاه عن الدخول إليه فلم يرجع إلى قوله ، فلما قتل خاصبك مضى هو إلى خوزستان .

قال : وكان خاصبك صبيا تركمانيا ، اتصل بالسلطان مسعود تقدم عنده على سائر الأمراء .

قال : ولما قتل السلطان خاصبك أشار عليه وزيره جلال الدين

ابن الوزير قوام الدين أن يبعث برأس خاصبك إلى الأميرين صاحبي أذربيجان ، ففعل . فلما وصل الرأس إليهما أكبرا ذلك ، وعزما على إخراج سليمان شاه عليه .

ذكر سلطنة سليمان شاه بن محمد طبر بن ملكشاه

قال : لما أخرج سليمان شاه من محبسه بقزوين اتصل به الأمير مظفر الدين بن ألب أرغو أو أخرجه معه إلى زنجان واتصل به الأمير شمس الدين ايلدكز والأمير آق سنقر بعسكريهما ، وأخذاه من زنجان ومضيا إلى همذان فأجفل منهما محمد إلى أصفهان. وجلس سليمان شاه على سرير السلطنة بهمذان ، وأخذ فى الشرب واللهو فكان لايصحو ، وكذلك وزيره فخر الدين أبو طاهر القاشانى فلما رأى أيلدكز ذلك عزم على الرجوع فعاد إلى بلاده ، ورجع نصرة الدين آق سنقر إلى أعماله . ثم اجتمع الأمراء مع نصير الدين أرسلان وقرروا أن ينتقلوا إلى مرج قراتكين ويتركوه بهمذان ؛ ويقبضوا على وزيره . وكان مع سليمان شاه تباتكين بن خوارزم شاه وأخوه يوسف وأختهما زوجته والغالبة على أمره ، فجاءت إليه ليلا وهو معرس على ابنة ملك الكرج ، وأخبرته باجتماع الأمراء بالمرج ، واتفاقهم على القبض عليه وعلى وزيره ، فهرب بها وبأخويها ليلا ، وترك خاتون الكرجية ؛ وأصبح الأمراء فما علموا أين راح ولاكيف ذهب .

ذكر عود السلطان محمد من أصفهان الى مقر ملكه

قال : لما فارق همذان وصل إلى أصفهان كاتبُ أمراء الأطراف فأتى إليه الأمير إينانج صاحب الرى فقويت به يده ؛ واتفق رجوع أيلدكز فسار السلطان محمد إلى همذان ، فدخلها فى سنة ثمان وأربعين وخمسماية ، واستقامت له المملكة .

وفى سنة تسع وأربعين عزم الخليفة المقتفى على قطع دعوة الترك من بغداد ، وفعل ماقدمنا ذكره فى أخبار المقتفى من إخراج الشحنة مسعود البلالى الخادم منها ؛ وتقوية الخليفة لوزيره عون الدين بن هبيرة ، وما أقطعه من الإقطاعات ، وماحازه الخليفة من ملك العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان ومن تكريت إلى عبادان .

قال : ولما عاد السلطان بعد هرب سليمان شاه ؛ راسل الخليفة فى الخطبة فامتنع ، واجتمع عند السلطان الأمراء الذين انقطعت أرزاقهم من بغداد ، وسألوه فى الرحيل معهم إليها . وكان يرجع إلى عقل ودين ، فاستمهلهم حتى يكاتب الخليفة كرة ثانية ؛ فامتنعوا وقالوا : « نحن نكفيك أمره » فوافقهم فتأهبوا وخرجوا وعليهم مسعود البلالى الذى أخرجه الخليفة من بغداد ، وأخذوا معهم لفيفا من التركمان ، وساقوا مواشيهم وأغنامهم ليقاتلوا عليها . وكانت تكريت قد بقيت بيد مسعود البلالى ، وملكشاه بن سلجق معتقل بها وأرسلان شاه بن طغرل ، فلما احتاج هذا الجمع إلى ملك يضم شملهم اجتمعوا على إخراج أرسلان شاه بن طغرل . فأخرجوه وركبوه ووصلوا به إلى نواحى العراق ، وأرهبوا على الناس .

وخرج الخليفة بعسكره وجنوده متوشحا بالبردة ، وبيده القضيب ، وعلى مقدمته وزيره عون الدين بن هبيرة . وخيم الخليفة على مرحلتين ، من بغداد وتقابلا قريبا من شهر والخليفة ينتظر البداية . فظن مسعود البلالى أنه إنما ترك البداية بالحرب خورا فبدأه ، وركب الجيشان والتقيا ، وكانت وقعة عظيمة انهزم فيها الملك أرسلان بن طغرل ووصل إلى أرانية ، واستقر عند شمس الدين أيلدكز زوج أمه . وغنم الخليفة وعسكره معسكرهم وأغنام التركمان وذراريهم والترك ، وقتلوا فى كل واد . وعاد الخليفة إلى بغداد فى أواخر سنة تسع وأربعين وخمسماية .

قال : ولما رجع العسكر إلى السلطان محمد عاتبهم ، وقال : لقد أتيتم بعثرات لاتقال ، وأفسدتم هيبتنا عند الخليفة ، وأخرجتم أرسلان بن طغرل وما حفظتموه ، وقد صار عند أيلدكز ، وصار الخليفة لنا خصما . ولم يستقم للملوك السلجقية بعدها ببغداد سلطنة .

ذكر وصول سليمان شاه بن محمد طبر الى بغداد وخروجه بالعساكر وحربه هو والسلطان محمد وهزيمته وحصار السلطان محمد بغداد ورجوعه

وفى سنة خمسين وخمسماية وصل السلطان سليمان شاه إلى بغداد مستنجدا بالخليفة المقتفى على السلطان محمد ، فلم يلقه الوزير عون الدين بل لقيه ابنه عز الدين محمد . فلما أخبره ابن الوزير سلام أمير المؤمنين عليه ترجل وقبل الأرض ودخل بغداد. فلما وصل إلى باب النوبى من القصر ، أنزلوه ليقبل العتبة ، فقبلها وما قبلها قبله ملك سلجقى ولاديلمى . وأنزله الخليفة بدار السلطنة وخطب له على المنابر ، ولم ينعته بالسلطان ولابالمعظم (١) وجهز معه الخليفة جيشا كثيفا ، واستوزر له شرف الدين الخراسانى

وسار سليمان شاه بالجيوش إلى أذربيجان ثم إلى أرانية ثقة أن يخرج معه شمس الدين ايلدكز . وتحرك السلطان محمد إليه من همذان ، والتقوا ؛ فانهزم سليمان وعاد إلى بغداد على طريق الدربند ، فقبض عليه على كورجك ، واعتقله بقلعة الموصل وذلك فى شعبان سنة إحدى وخمسين وخمسماية . وتجهز السلطان محمد بقصد بغداد ، فوصل إليها فى ذى القعدة من السنة ، وقد جمع الجيوش

---

(١) يذكر ابن الأثير ، فى حوادث سنة ٥٥١ هـ رواية تختلف إذ يقول عن سليمان شاه أنه لما حلف للخليفة خطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه غياث الدنيا والدين وباقى ألقابه وخلع عليه خلع السلطنة .

العساكر وحاصرها ، وكان الخليفة قد حصن بغداد بالمجانيق والرجال والسفن وغير ذلك ، واستمر الحصار والحرب إلى سنة اثنتين وخمسين وجرت فى خلال هذه المدة وقائع كثيرة يطول شرحها كان آخرها أنه وقع الاختلاف بين أصحاب السلطان فهزمتهم جيوش الخليفة ونهبوا أثقالهم ، ولم تفلح السلجقية بعدها مع الخلفاء .

ذكر وفاة السلطان محمد بن محمود وما اتفق بعد وفاته

قال الشيخ جمال الدين أبو الحسن على بن أبى المنصور ظافر ابن حسين الأزدى فى أخبار الدولة . أنه توفى فى سنة خمس وخمسين وخمسماية ، وقال : ولم أعرف له عقبا فأذكره وقرض الدولة السلجقية بوفاته . وقال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل أنه توفى سنة أربع وخمسين بباب همذان ، وكان مولده فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسماية ، وأنه لما حضرته الوفاة أحضر أمواله وجواهره وخصاياه ومماليكه ونظر إليها من طيارة وبكى ، وقال : « هذه العساكر والأموال والمماليك وغيرها لم تغن عنى مقدار ذرة ولايزيدون فى أجلى ذرة » وفرق من ذلك شيئا كثيرا وكان كريما عادلا كثير التأنى فى أموره . وكان له ولد صغير فسلمه إلى اقسنقر الأحمديلى وقال له : « أنا أعلم أن العساكر لاتطيع هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به إلى بلادك » فرحل به إلى مراغة . فلما مات اختلف الأمراء فطائفة طلبوا ملكشاه وأخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه عمه وهم الأكثر ، وطائفة طلبوا أرسلان الذى مع ايلدكز فأما ملكشاه فإنه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة

التركمانى وغيرهما ، فوصل إلى أصفهان فسلمها إليه ابن الخجندى وجمع له مالا أنفقه عليه وأرسل إلى العساكر بهمذان يدعوهم إلى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق ولأن أكثرهم كان يريد سليمان شاه .

ذكر مسير سليمان شاه بن محمد طبر الى همذان

وفى سنة خمس وخمسين وخمسماية سار سليمان شاه من الموصل إلى همذان وكان معتقلا بها كما قدمناه ؛ فلما مات السلطان محمد بن محمود . أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى أتابك قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل فى طلبه منه ليولوه السلطنة ، فاستقرت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه هو السلطان وقطب الدين ودود أتابكه وجمال الدين وزير قطب الدين وزيره ؛ وتحالفوا على ذلك وجهزه قطب الدين بما يحتاج إليه من الأموال والخيول وغير ذلك . فلما قارب بلاد الجبل أقبلت العساكر إليه أرسالا فاجتمع عسكر عظيم فخافهم قطب الدين مودود على نفسه ؛ وعاد إلى الموصل. فلما فارقه قطب الدين لم ينتظم أمره وقبض العسكر على سليمان شاه بباب همذان فى شوال سنة ست وخمسين وخمسماية .

ذكر سلطنة أرسلان شاه ابن الملك طغرل ابن محمد طبر

قال : لما قبض الأمراء على سليمان شاه فى شوال خطبوا لأرسلان شاه ، وهو الذي كان قد تزوج أيلدكز بأمه ، ثم خطب له فى سنة

ثمان وخمسين بقومس وبسطام ودامغان [١] . وذلك أن المؤيد صاحب نيسابور فتح هذه الجهات وخطب بها لأرسلان شاه فأرسل إليه الخلع فلبسها المؤيد ؛ ودام ملك أرسلان شاه إلى سنة ثلاث وسبعين وخمسماية ، فتوفى ولم أقف من أخباره على شيء فأذكره . وذلك أن الدولة السلجقية كانت قد ضعفت وبقى ملوكها يقتصرون على حفظ مابأيديهم دون التطلع إلى ماسواه . ولما مات أرسلان شاه خطب بعده لولده طغرل .

ذكر أخبار السلطان طغرل بن ارسلان شاه ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان

خطب له بالسلطنة ببلاد الجبل بعد وفاة أبيه أرسلان شاه فى سنة ثلاث وسبعين وخمسماية ، ونحن نذكر ماظفرنا به من أخباره على سبيل التلخيص والاختصار :

ذكر الحرب بين طغرل وجيوش الخليفة الناصر لدين الله وظفره بهم

وفى سنة أربع وثمانين وخمسماية جهز الخليفة الناصر لدين الله عسكرا كثيفا ؛ وجعل المقدم على الجيش وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس ، وسيرهم لمساعدة قزل على كف السلطان طغرل عن البلاد.

---

(١) قومس بالضم ثم السكون وكسر الميم وهى كورة كبيرة تشتمل على مدن وقرى وتقع فى ذيل جبال طبرستان . وبسطام ودامغان بلدتان كبيرتان فى كورة قومس .

فسار العسكر فى ثالث صفر إلى أن قارب همذان ، وخرج طغرل إليهم ، والتقوا واقتتلوا فى ثامن شهر ربيع الأول عند همذان ، فانهزمت عساكر بغداد ولم تثبت ، وأخذ أصحابه ماكان مع الوزير من خزانة وغيرها وعاد إلى همذان .

ذكر اعتقال طغرل وخلاصه وماكان من أمره الى أن قتل ، وانقراض الدولة السلجقية

قال : واتفق أن قزل أرسلان بن أيلدكز ظفر بالسلطان طغرل ، واعتقله ، ولم أظفر بتاريخ اعتقاله [١] ولاكيفيته [٢] فأذكره ، إلا أنه لم يزل فى اعتقاله إلى أن مات قزل أرسلان فى سنة ثمان وثمانين وخمسماية ، فخرج طغرل من حبسه بعد قزل واجتمع عليه جماعة والتقى هو و [قتلغ اينانج] [٣] بن البهلوان بن ايلدكز ، فانهزم اينانج إلى الرى ، وملك طغرل همذان وغيرها ؛ فأرسل قتلغ اينانج إلى علاء الدين خوارزم شاه تكش يستنجده ، فسار إليه فلما تقاربا ندم قتلغ اينانج على استدعائه خوارزم شاه وخاف على نفسه فمضى

(١) هذا التاريخ هو رمضان سنة ٥٨٦هـ (أنظر الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى والدكتور عبد النعيم محمد حسنين والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد ، ص ٥٠٠ حاشية ٣ . القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) أسر السلطان طغرل فى قلعة دزمار وقيل فى كهران (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

(٣) فى ك فيلغ بن إينانج والتصحيح من ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٤٥ .

بين يديه ؛ وتحصن فى قلعة له ، فوصل خوارزم شاه إلى الرى وملكها ، وفتح قلعة طبرك[1] فراسله طغرل واصطلحا .

ذكر مقتل السلطان طغرل وانقراض الدولة السلجقية

كان مقتله فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسعين وخمسماية ؛ وسبب ذلك أنه قصد الرى فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه تكش وفر منه قتلغ اينانج بن البهلوان ، فراسل خوارزم شاه يسأله النصر مرة ثانية . واتفق وصول رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد . فسار خوارزم شاه لقتاله . فلما سمع طغرل بذلك كانت عساكره متفرقة فما أمهل حتى يجمعها ، بل سار فيمن معه وكان يدل بشجاعته ؛ فالتقى العسكران بالقرب من الرى ؛ فحمل طغرل بنفسه فى وسط عسكر خوارزم شاه ، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه ، وقتلوه وحملوا رأسه إلى خوارزم شاه ، فأنفذ الرأس إلى بغداد فنصبها بباب النوبى . وملك خوارزم شاه جميع تلك البلاد وانقرضت الدولة السلجقية من العراق والجبال وخراسان ، ولم يبق من البيت السلجقى إلا من هو ببلاد الروم ، على مانذكره بعد ذكر الملوك السلجقية بالشام إن شاء الله .

وكانت مدة هذه الدولة منذ خطب لداود فى شهر رجب سنة ثمان وعشرين وأربعماية ؛ ماية سنة وإحدى وستين سنة وثمانية

(١) طبرك بفتح أوله وثانيه والراء ، قلعة على رأس جبيل قرب مدينة الرى (ياقوت ٤ ص ١٦)

أشهر وأياما . ومدتها بالعراق منذ خطب للسلطان طغرل بك ببغداد فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وأربعماية ، وإلى أن قطعت عند إخراج مسعود البلالى الشحنة من بغداد فى شهور سنة تسع وأربعين وخمسماية ؛ ماية سنة وستين. فلنذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام .

ذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام وحلب

وأول من ملك منهم السلطان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان محمد بن جغربيك داود بن ميكائيل بن سلجق وهو أخو ملكشاه وكان السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام وما يفتحه من تلك النواحى فى سنة سبعين وأربعماية ، فجاء إلى حلب وحصرها ولحق أهلها مجاعة شديدة . وكان معه جماعة كثيرة من التركمان فأنفذ إليه الأقسيس[1] صاحب دمشق يستنجده على العساكر المصرية ، لأنها كانت قد حاصرته بدمشق من قبل أمير الجيوش بدار الجمالى ، فسار إلى نصرة الأقسيس . فلما سمع العسكر المصرى بقربه فارقوا البلد وعادوا إلى مصر ؛ وخرج الأقسيس يلتقيه عند سور دمشق ، فاغتاظ منه تتش كونه لم يتقدم فى تلقيه ، وعاتبه ، فاعتذر بأمور لم يقبلها منه ، فقبض عليه تتش فى الوقت وقتله ، وملك دمشق

(١) الأقسيس هو إتسز بن أبق وهو أحد القادة الأتراك من أتباع ألب أرسلان استطاع أن يغزو فلسطين ودمشق لحسابه الخاص (أنظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ٨٩-١١٢) .

وأحسن السيرة فى أهلها ، وعدل فيهم ، وذلك فى سنة إحدى وسبعين وأربعماية وقيل فى سنة اثنتين وسبعين .

وفى سنة أربع وسبعين افتتح تاج الدولة [تتش] انطرطوس بعض الحصون الساحلية .وعاد إلى دمشق . وفى سنة تسع وسبعين وأربعماية كانت الحرب بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجقى صاحب الروم وانطاكية ، فهزم عسكره وقتله على مانذكره إن شاء الله فى أخبار سليمان . وملك تتش مدينة حلب خلا القلعة ، فكتب العتابى إلى السلطان ملكشاه يستدعيه ، فوصل إليها وفارقها تتش كما قدمنا ذكره .

ذكر استيلائه على حمص وغيرها من ساحل الشام

كان تاج الدولة تتش قد توجه إلى أخيه السلطان ملكشاه إلى بغداد فى سنة أربع وثمانين ، وجاء إليه أيضا زعماء الأطراف ، فلما أذن لهم فى العود أمر [ملكشاه] اقسنقر صاحب حلب ، وتوران صاحب الرها ، أن يسيرا فى خدمة أخيه [تتش] بعساكرهما إلى أن يستولى على ماهو للمستنصر العلوى صاحب مصر بساحل الشام من البلاد ، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها .

فساروا فى سنة خمس وثمانين ، ونزل[تتش] على حمص وحصرها وبها صاحبها ملاعب ، وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين ، فحصروا البلد وضيقوا على من به وملكه تتش ، وأخذ ملاعب وولديه.

ثم سار إلى قلعة عرقة ، وهى بالقرب من طرابلس فملكها وملك أفامية ، ثم نازل طرابلس وبها جلال الملك بن عمار ، فراسل [ابن عمار] اقسنقر وحمل إليه ثلاثين ألف دينار وتحفا بمثلها وعرض عليه المناشير التى بيده من السلطان بالبلد والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته ، والتحذير من محاربته فقال اقسنقر لتتش : « أنا لاأقاتل من هذه المناشير بيده » ورحل من الغد ، فرحل تاج الدولة وعاد بوزان إلى بلاده ، والله أعلم :

ذكر ماتقوله فى طلب السلطنة

قال : لما بلغ تاج الدولة تتش قدوم أخيه السلطان ملك شاه إلى بغداد توجه من دمشق إلى خدمته ، ، فلما وصل إلى هيت (١) أتاه الخبر بموته ، فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق . فتجهز لطلب السلطنة ، وجمع العساكر وأخرج الأموال وسار إلى حلب وبها قسيم الدوله اقسنقر ، فصالحه قسيم الدولة وأتبعه لما علم من اختلاف أولاد صاحبه ، وأرسل إلى ياغى سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة ، حتى يروا مايكون من أولاد ملكشاه ، ففعلوا ذلك وصاروا معه وخطبوا له فى بلادهم .

وقصد تتش الرحبة فملكها فى المحرم سنة ست وثمانين وأربعماية ،

---

(١) هيت : مدينة عليها سور ولها قلعة حصينة وفيها نخل كثير ؛ وهى على جانب الفرات الغربى (أنظر لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، الترجمة العربية ص ٩٠) .

ثم سار إلى نصيبين ففتحها عنوة وقتل من أهلها خلقا كثيرا ونهب الأموال وفعل الأفعال القبيحة ، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلى . وسار يريد الموصل ، وأتاه الكافى بن فخر الدولة بن جهير وكان بجزيرة ابن عمر [١] فاستوزره ، والتقى بإبراهيم ابن قريش بن بدران أمير بنى عقيل [٢] فى شهر ربيع الأول . وكان إبراهيم فى ثلاثين ألفا وتتش فى عشرة آلاف ، فاقتتلوا فانهزم ابراهيم والعرب ، ثم أخذ أسيرا وجماعة من العرب فقتلوا صبرا ، ونهبت أموالهم ومامعهم من الخيل والإبل والأغنام وغيرها وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفا من السبى والفضيحة ، وملك تتش بلادهم الموصل وغيرها ، واستناب بها على بن شرف الدولة مسلم وهو ابن صفية عمة تتش .

ذكر ملكه ديار بكر وأذربيجان وعوده الى الشام

قال : ثم سار تاج الدولة تتش فى شهر ربيع الآخر فملك ميافارقين وسائر ديار بكر من ابن مروان ، وسار منها إلى أذربيجان . وانتهى خبره إلى ابن أخيه بركياروق وكان قد استولى على كثير من البلاد ، فسار فى عسكره ليتبع عمه ، فلما تقارب العسكران

(١) جزيرة ابن عمر : قال عنها ياقوت إنها بلدة فوق الموصل : بينهما ثلاثة أيام . تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة ، ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع جوانبها .

(٢) بنو عقيل : قبيلة من العرب سيطروا على الموصل سنة ٩٩٦ ، وكان أميرهم عندئذ حسام الدين المقلد . وظل العقيليون يحكمون هذه المدينة حتى سنة ١٠٩٦ عندما انتزعها منهم كربوغا السلجوقى .

اجتمع قسيم الدولة وبوزان وقالا : « نحن إنما أطعنا هذا حتى ننظر مايكون من ابن صاحبنا وقد ظهر أمره » ففارقاه والتحقا ببركياروق فعاد تتش إلى الشام .

ذكر عود تتش الى البلاد وملكه همذان وغيرها

قال : ولما عاد إلى الشام أخذ فى جمع العساكر فكثرت جموعه وعظم جنده . فسار فى سنة سبع وثمانين وأربعماية عن دمشق نحو حلب لطلب السلطنة ، فاجتمع قسيم الدولة اقسنقر وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدولة بركياروق بالأمير كربوقا . فالتقوا بالقرب من تل السلطان[1] قريب حلب واقتتلوا واشتد القتال فانهزموا ، وثبت قسيم الدولة فأخذ أسيرا وجيء به إلى تاج الدولة فقال له : « ماكنت تصنع بى لو ظفرت » قال : « كنت أقتلك » قال : « فأنا أحكم عليك بحكمك » فقتله صبرا . وسار نحو حلب ، ودخلها وأسر بوقا وبوزان وتسلم الرها وحران . وسار إلى بلاد الجزيرة فملكها جميعها ، وملك ديار بكر وخلاط . وسار إلى أذربيجان فملك جميع بلادها ، ثم منها إلى همذان فملكها ، واستوزر فخر الملك بن نظام الملك .

ذكر انهزام بركياروق منه

قال : ولما سار تتش إلى أذربيجان كان بركياروق بنصيبين فبلغه الخبر . فسار إلى قتاله ولم يكن معه غير ألف رجل ، وعمه

(١) تل السلطان : موضع قريب من حلب ، فيه خان ومنزل للقوافل .

فى خمسين ألفا . فجهز إليه عمه بعض الأمراء فكبسه وهزمه ونهب سواده ، فسار إلى أصفهان على ماذكرناه فى أخباره وخطب للسلطان تاج الدولة ببغداد .

ذكر قتل تاج الدولة تتش

قال : ولما هزم بركياروق سار من موضع الوقعة إلى همذان ، ثم سار إلى الرى وكاتب الأمراء الذين بأصفهان يدعوهم إلى طاعته ، ويبذل لهم الأموال الكثيرة . وكان بركياروق مريضا بالجدرى ، فأجابوه يعدونه أنهم ينحازون إليه ، وهم ينتظرون مايكون من صاحبهم . فلما عوفى بركياروق أرسلوا إلى تتش أنه ليس لك عندنا إلا السيف ، وخرجوا له والتقوا بموضع قريب من الرى ، وقد كثرت جموع بركياروق ، فانهزم أصحاب تتش وثبت هو فى القلب فقتله أصحاب قسيم الدولة بثأر صاحبهم ، والله أعلم .

ذكر حال الملك رضوان وأخيه دقاق بعد قتل أبيهما تتش

قال :كان تاج الدولة تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان . وكتب إليه من بلد الجبل قبل المصاف الذى قتل فيه يأمره بالمسير إلى بغداد ، وأن يقيم بدار المملكة . فسار فى عدد كثير منهم إيلغازى بن أرتق ، والأمير وثاب بن محمود بن صالح ابن مرداس وغيرهما . فلما قارب هيت جاءه الخبر بقتل أبيه ، فعاد إلى حلب ومعه والدته فملكها ، وكان بها أبو القاسم بن على

الخوارزمى قد سلمها تتش إليه ، وحكّمه فيها وفى القلعة . ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين بن إيتكين ، وكان مع تتش فسلم من المعركة . وكان مع رضوان أيضا أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام فكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكمه فى البلد ؛ فاستمال جناح الدولة المغاربة ، وكانوا أكثر أجناد القلعة . فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان ، واحتاطوا على أبى القاسم ، وأرسل إليه الملك رضوان يطيب قلبه ، فاعتذر فقبل عذره ، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها ، وكانت الخطبة قد دامت باسم أبيه بعد قتله نحو شهرين .

وسار جناح الدولة فى تدبير الدولة أحسن سيرة ، وخالف عليهم الأمير ياغى سيان[1] بن محمد بن ألب التركمانى صاحب انطاكية ثم صالحهم ، وأشار على الملك رضوان بقصد ديار بكر لخلوها من وال يحفظها . فساروا جميعا وقدم عليهم من بالأطراف الذين كان تتش قد رتبهم فيها ، وقصد واسروج ، فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق فأخذها ومنعهم منها ، وأمر أهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلموا من عساكره وما يفسدونه من غلاتهم ، ويسألونه الرحيل . فرحل عنهم إلى الرها ، وكان بها رجل يقال له الفارقليط - كان يضمن البلد من بوزان - فقاتل قتالا شديدا ثم ملكها . وطلب ياغى سيان القلعة من رضوان فوهبها له ، فتسلمها وحصنها ، فهرب رجالها وأرسل إليهم أهل حران يطلبونهم ليسلموا إليهم

(١) ذكره النويرى فى ك ، ع « باغى سنان » ، وذكره ابن الأثير « باغيسيان » (الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨ هـ) .

البلد ، فسمع ذلك قراجا فصلب ابن الفتى وغيره ممن اتهمهم وجاء الخبر إلى رضوان وقد اختلف جناح الدولة وياغى سيان وأضمر كل منهما لصاحبه الغدر ، فهرب جناح الدولة إلى حلب فدخلها ، واجتمع بزوجته أم الملك رضوان . وسار رضوان وياغى إلى حلب ، فسمع بدخول جناح الدولة إليها ، ففارق ياغى سيان الملك رضوان وسار إلى انطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمى ودخل رضوان حلب .

هذا ماكان من أمر رضوان ، وأما الملك دقاق بن تتش ، فإنه كان قد حضر المصاف مع أبيه ، فلما قتل أبوه أخذه إيتكين الحلبى – وهو من غلمان أبيه – وساربه إلى حلب ، فأقام عند أخيه الملك رضوان. ثم راسله الأمير ساوتكين الخادم – متولى دمشق – سرا يدعوه ليملكه دمشق ؛ فهرب من حلب . فأرسل أخوه رضوان فى طلبه عدة من الخدام فلم يدركوه ، وسار حتى وصل إلى دمشق ففرح به ساوتكين الخادم وأظهر البشر لوروده . فلما صار بدمشق أرسل إليه ياغى سيان يشير عليه أن ينفرد بملك دمشق عن أخيه رضوان. واتفق وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق ومعه جماعة من خواص تتش وعسكره وقد سلموا من الوقعة وكان طغتكين قد أسر ثم خلص فلما وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق وأرباب الدولة وبالغوا فى تعظيمه وإكرامه . وكان طغتكين زوج والدة دقاق ، فمال إليه لذلك ووثق به وحكمه فى بلاده . ثم اتفقا على قتل ساوتكين الخادم فقتلاه . وسار إليه ياغى سيان من انطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمى فجعله وزيراً لدقاق ، وحكمه فى دولته . فصارت دمشق لدقاق وحلب لرضوان .

ذكر الحرب بين الملكين رضوان وأخيه دقاق

وفى سنة تسعين وأربعمائة سار الملك رضوان من حلب إلى دمشق يريد الاستيلاء عليها وانتزاعها من أخيه دقاق . فلما قاربها رأى حصانتها وامتناعها ، فعلم عجزه عنها . فسار إلى نابلس وإلى القدس ليأخذه ، فلم يمكنه ذلك وانقطعت العساكر عنه فعاد إلى حلب ومعه ياغى سيان صاحب انطاكية وجناح الدولة وكانا قد التحقا به . ثم فارقه ياغى سيان وقصد دقاق وحسن له محاصرة أخيه بحلب . فجمع دقاق عساكره وسار ومعه ياغى سيان ، فأرسل رضوان إلى سقمان بن ارتق وهو بسروج يستنجده ، فأتاه فى خلق كثير من التركمان . فسار بهم رضوان نحو دقاق والتقيا بقنسرين [1] ، واقتتلا فانهزم دقاق وعسكره ونهبت خيامهم وأموالهم وعاد رضوان إلى حلب . ثم اتفقا على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل أخيه دقاق ، وقيل كان ذلك فى سنة تسع وثمانين .

وفى سنة تسعين وأربعماية خطب الملك رضوان فى أكثر ولايته للمستعلى بأمر الله صاحب مصر . [2] وسبب ذلك أن جناح الدولة كان قد فارق رضوان لتغير رآه منه ، وجاء إلى حمص وكانت له ، فلما رأى ياغى‌سيان بعده عن رضوان صالحه ،

---

(١) قنسرين ، مدينة بينها و بين حلب مرحلة من جهة حمص .

(٢) فى هذه الإشارة إلى إعتراف الملك رضوان – وهو سلجوقى سنى بالخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر ، دليل واضح على أن بلاد الشام فى تلك الفترة الحرجة التى أوشكت فيها أن يطأ أقدام الصليبيين أرض الشام ، غدت ميداناً للتنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية .

وجاء إلى حلب ، ونزل بظاهرها وكان لرضوان منجم يقال له الحكيم أبو سعد يميل إليه ، فقدمه بعد مسير جناح الدولة فحسن له مذهب العلويين . وأتته رسل المستعلى تدعوه إلى طاعته ويبذل له المال وإنفاذ الجيوش لأخذ دمشق ، فخطب له بشيزر وجميع أعمال ولايته سوى أنطاكية ، وقلعة حلب ، والمعرة [1] ، وكانت الخطبة أربع جمع . ثم حضر إليه سقمان بن أرتق وياغى سيان فأنكرا ذلك واستعظماه فأعاد الخطبة العباسية . وسار ياغى سيان إلى انطاكية فلم يقم بها غير ثلاثة أيام حتى وصل الفرنج إليها وحصروها وملكوها فى سنة إحدى وتسعين وأربعماية على مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار المستعلى صاحب مصر .

ذكر ملك دقاق مدينة الرحبة

وفى شعبان سنة ست وتسعين وأربعماية ملك الملك دقاق مدينة الرحبة ؛ وكانت بيد قايماز أحد مماليك السلطان ألب أرسلان ، استولى عليها لما قتل كربوقا ، فسار دقاق وطغتكين [2] أتابكه إليه وحصراه ، ثم رحلا عنه . فاتفقت وفاته فى صفر من هذه السنة ، وقام مقامه غلام تركى اسمه حسن ، وخطب لنفسه وخاف من الملك دقاق ، فاستظهر لنفسه وأخذ جماعة من أعيان

(١) المقصود بالمعرة هنا معرة النعمان ، وهى مدينة كبيرة قديمة من أعمال حمص ، بين حلب وحماة .

(٢) فى ك ، ع . (طغركين أتابك) ، وما هنا من ابن الأثير حوادث سنة ٤٩٦ هـ وسيكرر النويرى الاسم بالصورة السالفة أو طغرتكين .

البلد وصادرهم وحبس آخرين ، فسار دقاق إليه وحاصره ، فسلم العامة البلد واعتصم هو بالقلعة فأمنه دقاق وسلمها له فتسلمها وأقطعه إقطاعا كثيرا بالشام ، وقرر الرحبة وجعل فيها من يحفظها وعاد إلى دمشق .

ذكر وفاة الملك دقاق وملك ولده ثم أخيه

كانت وفاته فى شهر رمضان سبع وتسعين وأربعماية . ولما توفى خطب أتابكه طغرتكين لولد له صغير عمره سنة واحدة ، ثم قطع خطبته وخطب لبلتاش[1] ابن تتش عم هذا الطفل فى ذى الحجة وله من العمر اثنتا[2] عشرة سنة . ثم أشار عليه طغرتكين بقصد الرحبة فخرج إليها وملكها ، وعاد فمنعه من دخول البلد ، فمضى إلى حصون له. وأعاد طغرتكين خطبة الطفل ولد دقاق ، وقيل إن والدة بلتاش خوفته من طغرتكين وقالت له : إنه زوج أم دقاق ، وهى لاتتركه حتى يقتلك ويستقيم الملك لولد ابنها ، فخاف . ثم حسن له من [كان] [3] يحسد طغرتكين مفارقة دمشق وقصد بعلبك وجمع الرجال والاستنجاد بالفرنج ، والعود إلى دمشق وأخذها من طغرتكين. فخرج من دمشق سرا فى سنة ثمان وتسعين وأربعماية مع صغر سنه ، ولحقه الأمير إيتكين الحلبى وهو صاحب بصرى ، فعاثا فى ناحية حوران ولحق بهمامن كان يريد الفساد ، وراسلا بغدوين ملك الفرنج[4]

(١) كذا فى النويرى ، وفى ابن الأثير : وخطب لبكتاش ابن تتسن .
(٢) فى ك. إثنا .
(٣) أضيف ما بين الحاصرتين من ابن الأثير سنة ٤٩٧ هـ .
(٤) المقصود به بلدوين الأول ملك مملكة الصليبيين في بيت المقدس (١١٠٠ – ١١١٨م) .

يستنجدانه ، فأجابهما إلى ذلك . فسارا إليه واجتمعا به ، وقررا معه القواعد ، وأقاما عنده ، فلم يريا منه إلا التحريض على الإفساد فى أعمال دمشق وتخريبها . فلما يئسا من نصرته فارقاه وتوجها فى البرية إلى الرحبة فملكها بلتاش [1] وعاد عنها ، واستقام أمر طغرتكين بدمشق ، واستبد بالأمر وأحسن إلى الناس ونشر فيهم العدل .

هذا ماكان من أمر ملوك دمشق ثم انتقل مكلها إلى طغرتكين وأولاده من بعده على مانذكرم إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا لملوك حلب السلجقية ومن ملكها بعدهم إلى أن ملكها أتابك زنكى بن اقسنقر .

ذكر أخبار ملوك حلب

قد قدمنا أن حلب كانت بيد الملك رضوان بن تتش ، فلم تزل بيده إلى أن توفى فى سنة سبع وخمسماية . وكانت أموره غير مشكورة فإنه قتل (أخويه) [2] أبا طالب وبهران وكان يستعين فى كثير من أموره بالباطنية لقلة تدبيره . فلما مات ملك بعده ابنه تاج الملوك ألب أرسلان الأخرس ، وعمره ست عشره سنة . ولم يكن أخرس ، وإنما كان فى لسانه حبسه وتمتمة وأمه بنت ياغى سيان الذى كان صاحب أنطاكية .

قال : ولما ملك تاج الملوك سلك سنة أبيه فى قتل إخوته فقتل

(١) كذا فى ك ، ع ، وفى ابن الاثير : بكتاش حوادث سنة ٤٩٧هـ .
(٢) فى ك (قتل أخواه) .

أخوين له وهما شقيقه ملكشاه ، ومبارك لأبيه ، واستولى على أمور دولته لؤلؤ الخادم ، فلم يكن لتاج الملوك معه فى السلطنة غير اسمها ، ومعناها للؤلؤ . ولم تطل مدته فى الملك ، فإن غلمانه قتلوه فى سنة ثمان وخمسماية ، وأقاموا بعده أخاه سلطان شاه بن رضوان ، فكان مع لؤلؤ كعادة أخيه . فلما كان فى سنة إحدى عشرة وخمسماية - وقيل سنة عشر - قتل لؤلؤ المستولى على الأمر .وكان سبب قتله أنه أراد قتل سلطان شاه كما فعل بأخيه ، ففطن غلمان سلطان شاه لذلك ، فبادروه بالقتل . وولى أتابكة سلطان شاه بعده شمس الخواص يارقتاش ، فبقى شهراً وعزلوه ، وولى بعده أبو المعالى بن الملحى الدمشقى ثم عزلوه وصادروه . فخاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد إلى الأمير نجم الدين إيلغازى بن أرتق وانقرضت الدولة السلجقية من حلب ، والله أعلم .

ذكر أخبار من ملك حلب بعد انقراض الدولة السلجقية منها

ملكها الأمير نجم الدين ايلغازى بن أرتق باتفاق أهلها فى سنة إحدى عشرة وخمسماية ، فتسلمها . وكان له مع الفرنج وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها . واستناب بحلب ولده سليمان ، فخالفه وعصى عليه . فى سنة خمس عشرة وخمسماية وكان عمره إذ ذاك عشر سنين ، فبلغ والده الخبر ، فسار مجداً فلم يشعر إلا وقد هجم البلد وقبض على من كان حسن لابنه العصيان ، وقتلهم . وكان منهم إنسان من أهل حماة من بيت قرناص ، كان إيلغازى قد قدمه على أهل حلب وجعل إليه الرئاسة فجازاه بذلك ،

فقطع يديه ورجليه وسمله [فمات] [١]. وأراد قتل ولده فمنعته رقة الوالد، واستناب بحلب سليمان شاه ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق، ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين؛ فلم تزل حلب بيده، إلى أن توفى فى سنة ست عشرة وخمسماية بميافارقين. وبقى سليمان بحلب إلى أن استولى عليها، ابن عمه بلك بن بهرام بن أرتق؛ وبقيت بيد بلك إلى أن قتل فى سنة ثمان عشرة وخمسماية وهو يحاصر منبج [٢]، وكان قد قبض على صاحبها حسان البعلبكى، وملك المدينة وحاصر القلعة، فأتاه سهم فقتله وكان حسام الدين تمرتاش ابن إيلغازى مع عمه بلك، فحمله مقتولا إلى ظاهر حلب، فتسلمها فى العشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمانى عشرة، واستولى عليها، وجعل فيها نائبا يثق به، وعاد إلى ماردين. وكان يحب الدعة والرفاهية، فلما عاد إلى ماردين ملك حلب اقسنقر البرسقى صاحب الموصل بمكاتبة من أهلها، لأن الفرنج كانوا حاصروهم وضيقوا عليهم، فكتبوا إليه يستنجدونه، فحضر بعساكره، فرحل الفرنج عنها، وملكها فى ذى الحجة سنة ثمانى عشرة، فكانت بيده إلى أن قتل فى سنة عشرين وخمسماية على يد الباطنية.

وملك بعده ابنه عز الدين مسعود إلى أن توفى فى سنة إحدى وعشرين وخمسماية، فبقيت بيد نائبه قومان، ثم استناب بعده يا قتلغ، فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسماية، فظهر منه بعد

---

(١) مابين الحاصرتين ساقط من ك، والإضافة من (ع).

(٢) منبج: مدينة كبيرة غربى الفرات فى الطريق إلى حلب.

أيام جور عظيم وظلم شديد، ومد يده إلى أموال الناس. وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق - الذي كان صاحبها قديما - فأطاعه أهلها، وقبضوا على أصحاب قتلغ الذين بالمدينة فى شوال من السنة، وحاصروه فى القلعة. فسمع الفرنج بذلك فتقدموا إلى المدينة، فصولحوا بمال حتى رحلوا عنها. وداموا على حصار قتلغ بالقلعة إلى منتصف ذى الحجة، ثم ملكها عماد الدين زنكى بن اقسنقر، على مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الأتابكية. هذا ماكان من أمر حلب، فلنذكر أخبار دمشق.

ذكر أخبار من ملك دمشق بعد انقراض السلجقية منها الى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكى

أول من ملكها معتمد الدولة ظهير الدين طغرتكين، وقيل فيه طغركين وطغدكين. استولى على دمشق كما قدمناه فى سنة سبع وتسعين وأربعماية، واستقل بالأمر منذ فارقها الملك بلتاش بن تتش وكان لطغرتكين مع الفرنج وقائع كثيرة فى سنين عديدة يطول شرحها، أضربنا عن ذكرها لأنها لم تسفر عن فتح بلد ولا أسر ملك وملك طغرتكين بصرى فى سنة تسع وتسعين وأربعماية، وكانت بيد إيتكين الحلبى، فلما صار مع السلطان الملك بلتاش كما ذكرنا سلمها أهلها لطغرتكين، فتسلمها وأحسن إليهم، واستمر فى ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسماية، فتوفى فى ثامن عشر صفر منها، وكان عاقلا خيرًا، كثير الغزو والجهاد للفرنج، حسن

السيرة فى رعيته ، مؤثرا للعدل فيهم . ولما توفى ملك بعده ابنه والله أعلم .

ذكر أخبار تاج الملوك بورى بن أتابك طغرتكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه فى ثامن عشر صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسماية بوصية من أبيه له بالملك . وكان أكبر أولاده ، فلما ملك أقر وزير والده – وهو أبو على طاهر بن سعيد المزدغانى– على وزارته .

ذكر أخبار الاسماعيلية وقتل الوزير المزدغانى

كان بهرام مقدم الإسماعيلية قد هرب قديما من بغداد إلى الشام بعد قتل أخيه إبراهيم الإسدابادى ، وملك قلعة بانياس ، وجعل خليفته بها يدعو الناس إلى مذهبه ، فكثروا وانتشروا ؛ وملك عدة حصون منها القدموس وغيره ، وهى الآن تعرف بقلاع الإسماعيلية ، من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية .

وكان بوادى (التيم) من أعمال بعلبك أرباب مذاهب مختلفة منهم النصيرية الدرزية والمجوس وغيرهم ، وأميرهم اسمه الضحاك ، فسار إليهم بهرام فى سنة اثنتين وعشرين وخمسماية وقاتلهم ، فخرج إليه الضحاك فى ألف رجل ، وكبس عسكره وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وقتل بهرام فيمن قتل ، وانهزم من بقى وأتوا بانياس على أقبح صورة . وكان بهرام قد استخلف على بانياس رجلا من

أعيان أصحابه اسمه إسمعيل ، فقام مقامه ،وجمع شمل من سلم من أصحابه ، وبث دعاته فى البلاد ، وساعده الوزير المزدغانى وعاضده وأقام المزدغانى بدمشق عوض بهرام إنسانا اسمه أبو الوفا ، فقوى أمره على شأنه ، وكثر أتباعه حتى صار هو المستولى على دمشق ، وحكم أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك . ثم إن المزدغانى راسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور ،واستقر الأمر بينهم على ذلك ، وتقرر الميعاد فى يوم جمعة عينوه ، وقرر المزدغانى مع الإسماعيلية أن يحتاطوا على أبواب الجامع فى ذلك اليوم ، فلا يمكنوا أحدا من الخروج منه ، لتجيىء الفرنج ويملكوا البلد . فاتصل الخبر بتاج الملوك . فاستدعى الوزير المزدغانى فحضر إليه فلما خلا به قتله وعلق رأسه على باب القلعة ، ونادى فى [الناس] (١) بقتل الباطنية ، فقتل منهم ستة آلاف ؛ وذلك فى منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسماية .فخاف إسماعيل متولى بانياس عند ذلك من الناس أن يثوروا به وبأصحابه ، فسلم بانياس إلى الفرنج ، وانتقل إليهم هو ومن معه ، فلقوا شدة عظيمة وهوانا ومات إسمعيل فى أوائل سنة أربع وعشرين وخمسماية .

ذكر حصار الفرنج دمشق وانهزامهم

قال : ولما بلغ الفرنج ماكان من قتل المزدغانى عظمت المصيبة عليهم ، واجتمعوا بجملتهم ، صاحب القدس وصاحب انطاكية وصاحب

(١) فى ع « ونادى فى البلد » .

طرابلس وغيرهم من ملوك الفرنج وقمامصتهم ومن وصل إليهم فى البحر فكانوا فى ألفى فارس . وأما الراجل فلايحصى كثرة ، وساروا إلى دمشق لمحاصرتها . فبلغ ذلك تاج الملوك ، فجمع العرب والتركمان فاجتمع معه ثمانية آلاف فارس ، ووصل الفرنج إلى دمشق فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين فنازلوها . وأرسلوا سراياهم إلى أعمالها لجمع الميرة والإغارة . فبلغ تاج الملوك أنهم ساروا إلى حوران ، فسير أميرا من أمرائه اسمه شمس الخواص فى جمع من المسلمين ، فلقوا الفرنج وقاتلوهم قتالا شديدا . كان الظفر للمسلمين وقتل الفرنج فلم يفلت منهم غير مقدمهم فى أربعين رجلا ، وأخذوا [أخذ المسلمون] مامعهم وكان عشرة آلاف دابة موقرة ، وثلثماية أسير ، وعادوا إلى دمشق بالظفر والغنيمة . فألقى الله الرعب فى قلوب الفرنج فرحلوا شبه المنهزمين ، وأحرقوا ماتعذر عليهم حمله من سلاح وغيره ، وتبعهم المسلمون يقتلون من تخلف منهم . وكان نزولهم ورحيلهم فى ذى الحجة . وفى سنة أربع وعشرين استوزر تاج الملوك الرئيس أبا الدوّاد المفرج بن الحسن بن الصوفى .

وفى سنة خمس وعشرين وخمسماية

ثار الباطنية بتاج الملوك . فجرحوه جرحين فبرأ أحدهما وبقى الآخر ، فاشتد عليه فى شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسماية فأضعفه وأسقط قوته فمات ، فى الحادى والعشرين من الشهر . وكانت مدة إمارته أربع سنين وخمسة أشهر وأياما ، وكان كثير الجهاد مقداما فقام فى حروبه مقام أبيه وفاق عليه ولما مات قام بعده ولده إسمعيل بوصية منه .

ذكر أخبار شمس الملوك اسماعيل ابن تاج الملوك بورى بن طغرتكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه فى الحادى والعشرين من شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسماية . وكان والده قد أوصى له بالملك ولولده الآخر شمس الدولة محمد بمدينة بعلبك وأعمالها . فنفذت وصيته وقام بتدبير الأمر بين يدى شمس الملوك الحاجب فيروز شحنة دمشق - وهو صاحب أبيه - واعتمد عليه ، وابتدأ أمره بالرفق بالرعية ، والإحسان إليهم .

قال: وبلغ شمس الملوك أن أخاه شمس الدولة صاحب بعلبك استولى على حصنى اللبوة والراس واستمال من بهما وتسلمهما ، وجعل فيهما من الجند من يحفظهما . فراسله فى ذلك وتلطف معه وقبح عليه فعله ، وطلب إعادتهما إليه ، فامتنع . فتجهز بعساكره فى آخر ذى الحجة من السنة وقصد جهة الشمال ، ثم عطف مغربا ، فلم يشعر من بحصن اللبوة إلا وقد نزل عليهم ، وزحف لوقته فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولاغيره ، فراسلوه فى طلب الأمان ، فأمنهم وتسلم الحصن من يومه . وسار إلى حصن الراس وفعل به كذلك ، وتسلمه وجعل فيهما من يحفظهما . ثم رحل إلى بعلبك وحصرها وبها شمس الدولة وقد استعد ، فوالى الزحف حتى ملك البلد بعد قتال شديد . وتحصن شمس الدولة فنازله فراسله فى طلب الأمان وأن يقره على ماأوصى له به والده ، فأجابه إلى ذلك وعاد إلى دمشق .

ذكر ملكه قلعة بانياس

وفى سنة سبع وعشرين وخمسماية ملك شمس الملوك قلعة بانياس من الفرنج . وسبب ذلك أن الفرنج استضعفوه وطمعوا فيه . وكانت قد تقررت بينهم هدنة ، فقصدوا نقضها ، ومدوا أيديهم إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت ، فشكا (١) التجار ذلك إلى شمس الملوك ، فراسل الفرنج فى إعادة ماأخذوه ، فلم يردوا شيئا . فجمع العساكر وتأهب ولم يعلم أحدا بمقصده . ثم سار فى آخر المحرم من السنة ونزل على بانياس فى صفر . وزحف زحفا متتابعا . وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه ، وتبعه الناس فوصلوا إلى السور ونقبوه ، ودخلوا البلد عنوة ، والتجأ من كان فيه من جند الفرنج إلى الحصن ، فقتل كثير من الفرنج بالبلد وقاتل من بالقلعة قتالا شديدا ، ثم ملك القلعة بالأمان فى رابع صفر وعاد إلى دمشق .

ذكر ملكه مدينة حماة

وفى شوال سنة سبع وعشرين وخمسماية ملك شمس الملوك مدينة حماة وهى لأتابك زنكى بن اقسنقر ، . وذلك أنه لما ملك قلعة بانياس أقام بدمشق إلى شهر رمضان ، وسار إلى حماة فى العشر الأخر منه . وكان قد بلغه أن الخليفة

(١) فى ك. « فشكى » .

المسترشد بالله قد حضر إلى الموصل ، فطمع في البلاد لتغير الخليفة على زنكى ، فحصر حماة وقاتل من بها يوم العيد ، وملك البلد فى اليوم الثانى قهرا ، وطلب من به الأمان فأمنهم ، وحصر القلعة ، واستولى عليها وعلى مابها من الذخائر ، وسار منها إلى قلعة شيزر ، وبها صاحبها ابن منقذ ، فحصرها ونهب بلدها . فراسله صاحبها وسار معه بمال ، فعاد إلى دمشق فى ذى القعدة من السنة .

وفي تاسع شهر ربيع الآخر وثب على شمس الملوك بعض مماليك جده طغرتكين ، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئا ، وتكاثر عليه مماليك شمس الدولة فمسكوه ، فقرره ما الذى حمله على مافعل ، فقال : « أردت راحة المسلمين من شرك وظلمك » فلم يزل يضرب حتى أقر على جماعة أنهم وضعوه على ذلك ، فقتلهم من غير تحقيق ، وقتل أخاه سونج ، فعظم ذلك على الناس ، ونفروا عنه وأنفوه .

ذكر ملكه شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج

وفى سنة ثمان وعشرين وخمسماية سار إلى شقيف تيرون (١) وهو فى الجبل المطل على بيروت وصيدا ، وكان فى يد الضحاك بن جندل رئيس وادى التيم قد تغلب عليه وامتنع به واحتمى على المسلمين والفرنج . فسار إليه [شمس الملوك] وملكه فى المحرم من هذه السنة ، فعظم أخذه على الفرنج ، لأن الضحاك كان لايتعرض إلى شىء من بلادهم المجاورة له ، فجمع الفرنج جموعهم فساروا إلى بلد حوران

(١) حصن وثيق بالقرب من صور .

يخربون أمهات الضياع . فسار إليهم[شمس الملوك]ونزل بإزائهم وجرت بينهم مناوشة عدة أيام ، ثم نهض ببعض عسكره وجعل بقيتهم قبالة الفرنج . وسار وقصد بلاد طبرية والناصرة وعكا وماجاورها من البلاد ، والفرنج لايشعرون به ، فقتل وخرب وأحرق وسبى وامتلات أيدى المسلمين من الغنائم ، فبلغ الفرنج خبره ، فرجعوا إلى بلادهم ، وعاد هو على غير الطريق الذي سلكه ، فوصل سالما وراسله الفرنج فى تجديد الهدنة .

ذكر مقتل شمس الملوك وملك أخيه شهاب الدين محمود

وفى شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسماية ، قتل شمس الملوك إسمعيل . وسبب ذلك أنه كان قد ركب طريقا شنيعا ن الظلم ومصادرات العمال وغيرهم من أهل البلد وأعيانه ، وبالغ فى العقوبات ، وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس . ثم ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكى ليسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول ، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال ، ونقل ذلك إلى صرخد وتابع الرسل إلى زنكى يحثه على الوصول ويقول : إن أهملت المجىء سلمت البلد إلى الفرنج . فامتعض أصحاب أبيه وجده منه ، وذكروا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر . ثم ارتقب غفلة غلمانه وأمرت غلمانها بقتله فقتلوه. وأمرت بإلقائه فى موضع من الدار ليشاهده غلمانه ، فلما رأوه سروا بمقتله. وأمه زمرد خاتون ابنة جاولى ، وهى التى بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادى الشقراء ، ونهر بردى . هذا أحد ماقيل فى قتله .

وقيل كان سبب مقتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز ، وكان متمكنا منه حاكما فى دولته ثم فى دولة ولده هذا ، فاتهم بأم شمس الملوك . وبلغه الخبر فهم بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر ، وتحصن بها وأظهر الطاعة لشمس الملوك. وأراد [شمس الملوك] ، قتل أمه ، فبلغها الخبر فقتلته خوفا على نفسها ، والله أعلم . وكان مولده فى سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسماية ، فتكون مدة حياته اثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر ، ومدة ملكه سنتين وتسعة أشهر وأياما .

ذكر أخبار شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك بورى بن طغرتكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شمس الملوك فى شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسماية . وحلف له الناس واستقر له الأمر ثم وصل أتابك زنكى إلى دمشق ونازلها فى أول جمادى الأولى من السنة ، فبينما هو يحاصر [دمشق] إذ ورد عليه رسول الخليفة المسترشد بالله بالخلع ويأمره بصلح صاحب دمشق والرحيل عنها ، فصالحه ، وخطب له بدمشق مع صاحبها ، وفارق البلد لليلتين بقيتا من الشهر.

ذكر ملكه مدينة حمص

وفى الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وخمسماية ، تسلم شهاب الدين محمود مدينة حمص وقلعتها . وذلك أن أصحابها

أولاد الأمير خرخان بن قراجا (١) الوالى عليها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر زنكى إليها وإلى أعمالها ، وتضييقهم على من بها ، فراسلوا شهاب الدين فى تسليمها ، فأجابهم ، وسار إليها وتسلمها ، وسلم إليهم تدمر ، وأقطع حمص لمملوك جده معين الدين أنر (٢) وجعل فيها نائبا عنه ممن يثق به من أعيان أصحابه ، وعاد إلى دمشق ثم ملكها أتابك زنكى فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسماية ،وتزوج زمرد خاتون والدة شهاب الدين لتحكمها بدمشق ، وظن أنه تملك البلد باتصاله بها ، فلم يتهيأ له ملكها .

قال : واستمر ملك شهاب الدين محمود إلى سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية ، فقتل على فراشه فى شوال منها ، قتله ثلاثة من خواصه كانوا يبيتون عنده فقتلوه ليلا ، وخرجوا من القلعة فنجا أحدهما وقتل الاخران .

ذكر ملك جمال الدين محمد ابن تاج الملوك بورى بن طغرتكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شهاب الدين محمود فى شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية . وذلك أن محمود لما قتل ، كتب معين الدين أنر إلى جمال الدين صاحب بعلبك بالخبر ، واستدعاه ليملكه

---

(١) هو صمصام الدين خير خان بن قراجا .
(ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ - ٢١٢)

(٢) فى المتن اتسز ، وقد آثرنا إستعمال الصيغة الشائعة فى بقية المراجع ، وقد كرر النويرى الإسم بصيغة أتسز .
(أنظر إبن خلكان ؛ وفيات الأعيان ج ١ ص ٩٦ ، ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٥٣٤ هـ.) .

البلد ، فجاء مسرعا وجلس لعزاء أخيه ، وخلف الجند وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنر ، وزاده فى علو مرتبته ، وأقطعه بعلبك ، وزوجه بأمه .

قال : ولما اتصل بزمرد خاتون قتل ابنها محمود كتبت إلى زوجها أتابك زنكى وهو بالجزيرة أن ينهض فى طلب ثار ابنها ، فسار مسرعا وملك بعلبك عنوة فى ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ، وحصر دمشق فى سنة أربع وثلاثين ، وبذل لمعين الدين حمص وبعلبك وغير ذلك على أن يسلم إليه دمشق فلم يوافق ، فجد فى الحصار. فبينما هو يحاصرها مرض جمال الدين محمد ومات فى ثامن شعبان منها ، فطمع زنكى حينئذ فى البلد ووالى الزحف والقتال . قال : ولما مات جمال الدين ولى بعده ولده .

ذكر أخبار مجير الدين ابق ابن جمال الدين محمد بن بورى ابن طغرتكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه فى ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسماية ، وهى إذ ذاك محاصرة ، فقام بتدبير دولته معين الدين مدبر دولة أبيه . وداوم زنكى الحصار وضيق على أهل البلد ، فعند ذلك راسل أنر الفرنج واستدعاهم لنصرته ، وإعانته على حرب زنكى . وبذل لهم بذولا من جملتها أن يحاصر بانياس ويسلمها إليهم . وخوفهم أن زنكى إن ملك دمشق قصدهم وغزاهم . فاجتمعوا وعزموا على المسير إلى دمشق ، فاتصل ذلك بزنكى فتوجه إلى حوران

وقصد غزو الفرنج وذلك فى منتصف شهر رمضان . فبلغ خبره الفرنج فأقاموا ببلادهم ، فعاد إلى حصار دمشق ثم نزل بعذرا [١] فى سادس شوال ، وأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة ، وعاد إلى بلاده .

ووصل الفرنج إلى دمشق فى ميعاد أنر ، بعد رحيل زنكى فسار معهم إلى بانياس وحصرها وأخذها وسلمها للفرنج . ولما فعل ذلك عاد زنكى لمحاصرة دمشق فقاتله أهلها ، فرحل عنهم . ثم اتفق قتل عماد الدين زنكى فى سنة إحدى وأربعين وخمسماية : فسار مجير الدين ابق إلى بعلبك وحصرها وبها نجم الدين أيوب ، فخاف أن أولاد زنكى لايمكنهم إنجاده فى عاجل الحال ، فصالحه وسلم القلعة إليه ، وأخذ منه إقطاعا ومالا ، وملكه عدة قرى من بلد دمشق . وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وسكنها ، وأقام بها ، واستمرت دمشق بيد مجير الدين إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكى فى سنة تسع وأربعين وخمسماية على مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره .

ولما ملكها [نور الدين] تحصن مجير الدين بالقلعة ، فراسله فى تسليمها وبذل له إقطاعا من جملته مدينة حمص ، فأجاب إلى ذلك ، وسلم القلعة وتسلم الإقطاع ، وسار إلى حمص . ثم راسل أهل دمشق بعد ذلك على أن يسلموها إليه . فعلم نور الدين به ،

---

(١) عـذراء : قرية بغوطةدمشق ، (ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٩١) .

وأخذ منه حمص وعوضه عنها بالس [١] فلم يرض بها ، وسار إلى بغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية . وتوفى بها .

هذا ماكان من أخبار ملوك دمشق على سبيل الاختصار ، وإنما أوردنا أخبارهم فى هذا الموضع على سبيل الاستطراد ، ولئن تكون أخبارهم متتابعة . فلنرجع إلى أخبار الملوك السلجقية ، ولنذكر ملوك الروم منهم .

ذكر أخبار الملوك السلجقية أصحاب قونية واقتصرا (٢) وملطية ودقوقا من الروم

أول من ملك منهم شهاب الدولة قتلمش بن أرسلان بيغو ابن سلجق . وكان ابتداء أمره أنه عصى على السلطان طغرل بك فى سنة ثلاث وخمسين وأربعماية ، وملك قلعة كردكوه وامتنع بها ، وأخذ أموالا كانت حملت من خوارزم إلى السلطان . فسير إليه طغرلبك جيشا فهزمه مرة بعد أخرى . فلما مات طغرلبك أظهر [شهاب الدين قتلمش] العصيان على ألب أرسلان ابن جغر بيك [٣] داود ، وجمع جموعا كثيرة ، وقصد الرى ليستولى عليها عندما بلغه وفاة طغرلبك ، فسار إليه السلطان ألب أرسلان والتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر قتلمش ، وفر هو لقصد كردكوه .

---

(١) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقة .

(٢) تكتب أيضاً آقسرا (انظر محمود بن محمد المشتهر بالكريم الاقسرائى : ... الأخبار ومسايرة الأخيار ، ص ٣٠ : ٣٢ : ٤١ ، (أنقرة : ١٩٤) .

(٣) كذا فى النويرى ، وفى ابن الأثير : جغرى بك .

فوجد ميتا غير مقتول ، كما ذكرنا ذلك فى أخبار ألب أرسلان فى سنة ست وخمسين وأربعماية ولما مات ملك بعده ابنه سليمان .

ذكر أخبار الملك سليمان ابن شهاب الدولة قتلمش

وهو الثانى من الملوك السلجقية بالروم ، ملك ماكان بيد أبيه بعد وفاته فى سنة ست وخمسين وأربعماية .

ذكر فتح مدينة أنطاكية

وفى سنة سبع وسبعين وأربعماية سار سليمان من بلاده ، وقصد الشام وملك مدينة انطاكية ، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلثماية . وكان سبب ملكه إياها أن صاحبها الفزدرؤس الرومى [1] كان قد سار عنها إلى بلاد الروم ، ورتب فى انطاكية شحنة وكان الفزدرؤس كثير الإساءة إلى أهل البلد وإلى جنده ، حتى أنه حبس ابنه ، فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان ، فكاتبوه يستدعونه فركب فى البحر ومعه ثلثماية فرس وكثير من الرجالة ، وخرج منه وسار فى جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها فى وقت الموعد ، فنصب السلاليم وصعد باتفاق من الشحنة وابن صاحبها ، فملكها فى شعبان من السنة . وقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى ، وقتل كثيرا منهم ، ثم عفا

(١) كذا فى ك ، ع . و فى ابن الأثير الفردوس الرومى (حوادث سنة ٤٧٧ هـ) .

عنهم ، وتسلم القلعة وأخذ من الأموال مالايحصى كثرة ، وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم . وأرسل إلى السلطان ملكشاه يبشره بالفتح فأظهر الفرح بذلك وهنأ الناس .

قال : ولما فتحها أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب حلب يطلب منه حمل ماكان صاحب انطاكية يحمله إليه ، ويخوفه معصية السلطان . فأجابه أن صاحب انطاكية كان كافرا يحمل الجزية عن رأسه وأصحابه ، وأنا مسلم والخطبة والسكة فى بلادى للسلطان ، وهذا الفتح إنما فتحته بسعادته وكاتبته به . فنهب شرف الدولة بلد انطاكية ، ونهب سليمان بلد حلب ، فلقيه أهل السواد ، فشكوا إليه من نهب عسكره . فقال لهم : « أنا كنت أشد كراهة لما جرى ، ولكن صاحبكم أحوجنى إلى مافعلت ، فلم تجر عادتى بنهب مال مسلم . ولا أخذ ماحرمته الشريعة » وأمر أصحابه بإعادة مانهب على أصحابه ، فأعادوه . ثم جمع شرف الدولة الجموع وسار لقتال سليمان . فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم عسكر شرف الدولة وقتل هو ؛ وذلك فى يوم الجمعة لست بقين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعماية .

ذكر قتل الملك سليمان قتلمش

قال : ولما قتل سليمان بن شرف الدولة ، أرسل إلى مقدم حلب يطلب تسليمها له ، فأنفذ إليه مالا ، واستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملكشاه . وأرسل المقدم إلى تتش صاحب دمشق يعده بتسليمها إليه ، فسار تتش إلى حلب . فعلم سليمان بذلك ،

فسار نحوه والتقوا وقاتلوا ، فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو فى القلب . فلما عاين الهلكة . قتل نفسه بسكين ، وقيل بل قتل فى المعركة ، واستولى تتش على معسكره ، وذلك فى سنة تسع وسبعين وأربعماية . وكان سليمان قد أرسل جثة شرف الدولة مسلم فى صفر سنة ثمان وسبعين على بغل ، ملفوفة فى إزار إلى حلب ، وطلب من أهلها تسليمها إليه ، فأرسل تتش جثة سليمان فى صفر من السنة التى تليها على تلك الهيئة ، وطلب منهم تسليمها . ولما قتل ملك بعده ببلاد الروم ولده والله أعلم .

ذكر أخبار قلج أرسلان بن سليمان

وهو الثالث من الملوك السلجقية بالروم .

ملك بعد قتل أبيه فى صفر سنة تسع وسبعين وأربعماية ، واستمر فى المملكة الرومية وملك الموصل فى سنة خمسماية . وذلك أن صاحبها جكرمش كان قد حاصره جاولى سقاووا [1] ، وأسره ومات فى أسره . فكتب أصحاب جكرمش إلى الأمير صدقة ، وإلى قسيم الدولة اقسنقر البرسقى ، وإلى قلج أرسلان ، يستدعون كل واحد منهم إليها ، ليسلموا إليه الموصل ، فامتنع صدقة ، وسار قلج أرسلان . فلما وصل إلى نصيبين رحل جاولى عن الموصل ، واتفق وصول البرسقى وهو شحنة بغداد إلى الموصل ، ونزل بالجانب الشرقى بعد رحيل جاولى وفى ظنه أنه يملك البلد ، فلم يخرج إليه

(١) تكتب أيضاً " جاولى سقاور " .
(أنظر : الكريم الأقرابى : مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ص ٣٣٤) .

أحد من أهلها ولا راسلوه بكلمة واحدة ، فعاد فى بقية يومه. وأرسل أصحاب جكرمش وأهل الموصل إلى قلج أرسلان واستحلفوه لهم ، فحلف ، وحلفهم على الطاعة له والمناصحة ، وسار إلى الموصل وملكها لخمس بقين من شهر رجب سنة خمسماية ، وأسقط خطبة السلطان وخطب لنفسه بعد الخليفة ، وأحسن إلى العسكر وخلع على ولد جكرمش وأخذ القلعه ، من غُزغلى [1] مملوك جكرمش وجعل عليها دزدارا ، ودفع الرسوم المحدثة فى الظلم ، ونشر العدل وتألف الناس ، وقال : « من سعى إلى بأحد قتلته » فلم يسع إليه أحد بأحد .

ذكر قتل الملك قلج أرسلان وملك ولده الملك مسعود

كان مقتله فى العشرين من ذى القعدة من سنة خمسماية . وذلك أنه لما فارق جاولى الموصل سار إلى الرحبة وملكها بعد حصار وقتال ، فلما أحكم الملك قلج أمر الموصل ، سار عنها لقتال جاولى ، وجعل ابنه ملكشاه فى دار الإمارة بالموصل ، وسنّه إحدى عشرة [2] سنة ، وجعل معه أميرا يدبره وجماعة من العسكر. وكانت عدة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدد الكاملة والخيل الجيدة. فسمع عسكره بقوة جاولى وكثرة أتباعه وجنده ، فاختلفوا ، فكان أول من خالف عليه إبراهيم بن ينال صاحب آمُد [3] ، وكان معه لما فتح

(١) فى ابن الأثير غزغلى (سنة ٥٠٠ هـ ج ١٠ ص ١٥٩) ..
(٢) فى ك . أحد عشر .
(٣) آمد : وصفها ياقوت بأنها أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً .

الموصل . ففارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور [١] إلى بلده ثم فارقه غيره . فعمل قلج فى المطاولة لما بلغه من قوة جاولى وكثر جموعه ، وأرسل فى طلب عساكره ن الروم . وكان فى جملة عسكر جاولى الملك رضوان صاحب حلب ، فاغتنم جاولى قلة أصحاب قلج فقاتله قبل وصول عسكره ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فحمل قلج بنفسه وانهزم أصحابه . فلما رأى قلج انهزام عسكره ألقى نفسه فى الخابور ، وحمى نفسه بالنشاب ، فانحدر به الفرس إلى ماء عميق ، وغرق ، فظهر بعد أيام ،فدفن بالسليمانية وهى قرية من قرى الخابور . وسار جاولى ودخل الموصل وأرسل ملكشاه بن قلج إلى السلطان محمد .

قال : وملك بعده ولده الملك مسعود بن قلج ، وأقام فى الملك إلى سنة إحدى وخمسين وخمسماية ، فتوفى فيها . ولم أقف من أخباره على شىء أورده له ، وملك بعده ولده .

ذكر أخبار الملك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود

ابن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق وهو الخامس من الملوك السلجقية ببلاد الروم .

ملك بعد وفاة والده فى سنة إحدى وخمسين وخمسماية . وكان ذا سياسة ، وعدل وافر ، وهيبة عظيمة ، وله غزوات كثيرة إلى بلاد الروم . وكان له من بلاد الروم قونية وأعمالها واقصرا وسيواس

(٣) الخابور : بلد شرق دجلة ، من أعمال الموصل

وملطية وغير ذلك. وكان له عدة أولاد، فلما كبرت سنه فرق بلاده على أولاده فى حياته، وملك نحو تسع [١] وعشرين سنة .

ذكر تسليمه البلاد لبنيه وبنى أخيه وماجعل لكل منهم

قال المؤرخ : لما ضعف الملك عز الدين قلج أرسلان هذا عن القيام بوظائف الملك لكبر سنه ، أفرد البلاد لأولاده وأولاد أخيه وسلم لكل واحد منهم جهة ، فسلم إلى ابنه ركن الدين سليمان دوقاط ، وإلى ابنه غياث الدين كيخسرو قونية ، ولولده محى الدين أنقره – وتسمى أنكورية – ولولده معز الدين قيصر شاه ملطية ، ولولده مغيث الدين طغرل شاه أبلستين ، ولولده نور الدين محمود قيسارية ، ولولده قطب الدين سيواس وأقصرا ، ولولد أخيه نكسار ، ولولد أخيه أماسيا . هذه أمهات البلاد ، ويضاف إلى كل جهة ماتجاورها . ثم ندم على ذلك وأراد أن يجمع جميع المملكة لولده الأكبر قطب الدين ، وخطب له ابنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب مصر ليتقوى به ، فلما اتصل ذلك ببقية أولاده امتنعوا من طاعته ، وأزالوا حكمه عنهم ، فكان يتردد بينهم على سبيل الزيارة ، ثم توجه إلى ولده غياث الدين [كيخسرو] [٢] صاحب قونية . فخرج إليه وقبل الأرض بين يديه واستبشر بقدومه . وائتمر بأمره . فقال له : « أريد أن أسير إلى ولدى محمود صاحب

(١) فى ك . تسعة .

(٢) فى ك . بيخسروا ، والتصحيح من الكريم الأقسرائى (أنظر مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ، ص ٣١ ، ٣٢) .

قيسارية ، وآخذها منه ، فسار هو وولده كيخسرو ، وحصرا محمود ، فمرض قلج أرسلان ، وتوفى فى منتصف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسماية فعاد كيخسرو إلى بلده ، واستقر كل واحد منهم على ما بيده من البلاد .

ذكر قتل نور الدين محمود واستيلاء قطب الدين على قيسارية ووفاته واستيلاء ركن الدين سليمان على سائر المملكة

قال : كان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا توجه من أحدهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية ، ويجتمع بأخيه نور الدين محمود صاحبها ، ويظهر له المودة . فاطمأن له محمود . وكان الأمير اختيار الدين حسن أحد أمراء والده يحذره عاقبة طمأنينته لأخيه ، فنزل قطب الدين فى بعض الأحيان بظاهر قيسارية وجاء نور الدين إليه فقتله ، ورمى برأسه إلى أصحابه ، وتسلم البلد بعد أن امتنع من بها عليه ، ثم قتل الأمير اختيار الدين حسن وكان من أكابر الأمراء الديانين ، وألقاه فى الطريق ، فجاء كلب ليأكل من لحمه ، فثار الناس وقالوا : « لاسمعا ولاطاعة هذا أمير كبير فى الإسلام ، وبنى مدرسة للعلم ، وله صدقات دارة ، ولانتركه تأكله الكلاب » فأمر عند ذلك بدفنه ، فدفن فى مدرسته . ثم مرض قطب الدين ومات ، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس ، وهى تجاوره ، فملكها ثم ملك قيسارية أقصرا .

ثم سار بعد ذلك إلى قونية ، وبها أخوه غياث الدين فحصره بها . وملكها ، ففارقها غياث الدين إلى الشام . ثم عاد إلى الروم وسار إلى القسطنطينية ، ثم ملك البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وسار ركن الدين بعد ذلك إلى نكسار وأماسيا فملكها من ابنى عمه ، وملك ملطية فى شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسماية ، وفارقها أخوه معز الدين قيصر شاه ، وسار إلى الملك العادل أبى بكر ، وكان زوّجه ابنته . فاجتمع لركن الدين سليمان ملك جميع البلاد التى كانت بيد إخوته وأولاد عمه إلا أنقره ، فإنها امتنعت عليه لحصانتها ، فجعل عليها من عسكره من يحصرها ، فحوصرت ثلاث سنين كوامل وتسلمها فى سنة ستماية ، وعوض أخاه محى الدين عنها قلعة فى أطراف بلاده ، وحلف له عليها ، فسار محى الدين إليها فجهز فى إثره من قتله .

ذكر وفاة ركن الدين سليمان وملك ولده قلج ارسلان

قال : ولما غدر بأخيه محى الدين صاحب أنكورية وقتله ، لم يمهله الله عز وجل ، فمرض بالقولنج ، بعد قتله لخمسة أيام ، ومات فى سبعة أيام ، وكانت وفاته فى سادس ذى القعدة سنة ستماية .

وكان قيما بأمر الملك ، شديدا على الأعداء ، إلا أن الناس كانوا ينسبونه إلى فساد فى اعتقاده ، وأنه يقول بقول الفلاسفة . وكان كل من رمى بهذا المذهب يأوى إليه ، لكنه كان يستر ذلك عن الناس ، ولا يتظاهر به .

قال : ولما مات اجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان ،وملكوه عليهم وكان صغير السن ، فبقى إلى بعض سنة إحدى وستماية .

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قلتمش بن أرسلان بيغو بن سلجق ، بلاد الروم من ابن أخيه ، وهو الثانى من ملوك السلجقية بالروم

ملك المملكة الرومية في شهر رجب ، سنة إحدى وستماية . وذلك أن ركن الدين سليمان لما أخذ منه قونية ، كما قدمناه ، قصد الشام إلى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب ، فلم يجد عنده قبولا ، فسار من عنده وتنقل فى البلاد إلى أن سار إلى القسطنطينية ، فأحسن إليه ملك الروم وأكرمه وأقطعه إقطاعا ، فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الأكابر . وكان للبطريق قلعة من قلاع القسطنطينية ، فلما ملك الفرنج قسطنطينية (١) ، هرب غياث الدين إلى [حميه] (٢) ، بالقلعة فنزل عنده وقاسمه فيما هو فيه وقنعا بها فلما مات أخوه فى سنة ستماية كما ذكرناه ، وملك ولده قلج أرسلان ، فخالف عليه بعض الأمراء الأكابر وكان من الترك ، فأنف أن يملك صغيرا ، فراسل غياث الدين فحضر إليه فى جمادى الأولى ،واجتمع معه بعض العسكر وتوجه إلى قونية وبها قلج أرسلان بن أخيه ، فخرج له بعض عسكرها

(١) يقصد بذلك استيلاء الصليبيين فى المملكة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤م) .

(٢) فى جميع نسخ المخطوطة حموه .

فهزموه وبقى حيران ولايدرى مايصنع ، ولا أين يتوجه. فقصد بلدة صغيرة من بلاد قونية يقال لها أوكرم ، فقدر الله أن أهل مدينة أقصرا وثبوا على واليها ، فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين . فلما وصل الخبر أهل قونية قال أهلها : «نحن أولى بذلك منهم : لأنه كان حسن السيرة فينا » فنادوا باسمه ، وأخرجوا من عندهم ، واستدعوه ، فملك المدينة وقبض على ابن اخيه ، وملك البلاد أجمع فى ساعة واحدة ، فسبحان من إذا أراد أمرا هيأ أسبابه . وحضر إليه أخوه قيصر شاه الذى كان صاحب ملطية ، فلم يجد عنده قبولا : فأعطاه شيئا وأمره بمفارقة البلاد ، فعاد إلى الرها ، واستتب الملك لكيخسرو وأعظم شأنه ، والله أعلم .

ذكر ملكه مدينة انطاكية

وفى ثالث شعبان سنة ثلاث وستماية ملك الملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطاكية بالأمان ، وكانت للروم . وكان قد حصرها قبل هذا التاريخ وهدم عدة أبرجة من سورها ، وأشرف على فتحها عنوة ، فاستنجد من بها من الروم بفرنج جزيرة قبرص ، فوصل إليها جماعة منهم فيئس منها وفارقها وترك طائفة من أصحابه بالقرب منها فى الجبال التى بينها وبين بلاده ، وأمرهم بقطع الميرة عنها. فضاق أهلها فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم ، فظنوا أنهم يريدون إخراجهم من المدينة. فوقع الخلف بينهم ، فأقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين يطلبونهم ليتسلموا البلد ، فوصلوا إليهم واجتمعوا

معهم على قتال الفرنج ، فانهزم الفرنج منهم واعتصموا بالحصن . فأرسل المسلمون يطلبون كيخسرو ، فجاء من قونية وحصر الفرنج وتسلم الحصن . واستمر غياث الدين كيخسرو فى الملك إلى أن توفى سنة سبع وستماية وملك بعده ولده الملك الغالب عز الدين كيكاووش[1] ابن كيخسرو ، وملك كيكاووش هذا بعض بلاد حلب ، وانتزعت منه ، واستمر فى المملكة الرومية إلى سنة ست عشرة وستماية ، فتوفى ولم يكن له ولد فملك بعده أخوه .

ذكر ملك علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق وهو العاشر من ملوك السلجقية بالروم

ملك بعد وفاة أخيه فى سنة ست عشرة وستماية ، وكان أخوه كيكاووش قد اعتقله لما ملك ، وأشار عليه أصحابه بقتله فلم يفعل . فلما مات كيكاووش أخرج الجند كيقباذ وملكوه عليهم. وقيل إنه لما اشتدت علة كيكاووش أخرجه من الاعتقال ، وحلف له العساكر .

قال : ولما ملك كيقباذ خالف عمه مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم ؛ ومغيث الدين هذا هو الذى أمر ولده أن ينتصر وزوجه ملكة الكرج ، وأقام معها مدة ، فهويت غيره من مماليكها فرآه معها ، فأنكر ذلك عليها ، فاعتقلته . ومات مغيث الدين هذا فى سنة اثنتين وعشرين وستماية ، وملك بعده ابنه .

(١) كذا فى ك ، وفى ع كيكاوش ، وفى غيره من المراجع العربية كيكاوس ، (زامباور ص ٢١٥) .

قال : ولما ملك كيقباذ خاف من الروم المجاورين لبلاده ، فأرسل إلى الملك الأشرف صاحب دمشق وصالحه ، وتعاهد على المصافاة والتعاضد ، والله أعلم .

وفى سنة ثلاث وعشرين وستماية فى شعبان سار كيقباذ إلى بلاد الملك المسعود صاحب آمد ، وملك عدة من حصونه . وكان صاحب آمد قد اتفق مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه على مخالفة الأشرف صاحب دمشق ، فأرسل الأشرف إلى كيقباذ بقصد آمد ، فسار وفتح حصن منصور [١] وحصن سمسنكاذا وغيرهما . فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الملك الأشرف ، وعاد إلى موافقته . فأرسل الأشرف إلى كيقباذ يعرفه الصلح وأن يعيد إلى صاحب آمد ما أخذه ، فامتنع وقال : « ماأنا نائب الأشرف يأمرنى وينهانى » فأمر الأشرف عساكره بمساعدة صاحب آمد إن أصر ملك الروم على قصد محاصرته [٢] . فاجتمع العسكر الأشرفى مع صاحب آمد وساروا إلى كيقباذ وهو يحاصر قلعة الكختا ،فالتقوا فى شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه هزيمة عظيمة ، وأسر كثير من أصحابه ، وجرح ، وملك كيقباذ قلعة الكختا .

---

(١) حصن منصور ، حصن غربى الفرات قرب سميساط بينه و بين زبطرة مرحلة ، وهو منسوب إلى منصور بن جعونة بن الحارث العامرى القيسى الذى تولى بناء عمارته ايام مروان بن محمد أما حصن مسنكاذا فلم يرد لـه ذكر . .

وقد ذكره ابن الأثير باسم حصن شمكا زاد (الكامل ج ١٢ ص ١٨٩) .

ياقوت ولعله حصن قريب من حصن منصور (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٦٥) .

(٢) كذا فى ك ، وفى ع " إن أصر ملك الروم على قصده " .

وفى سنة خمس وعشرين وستماية ملك كيقباذ أرزنكان [١] وكان صاحبها بهرام شاه قد طال ملكه بها ، وجاوز ستين سنة ، ولم يزل فى طاعة السلجقية ملوك الروم . فلما توفى ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه ، فأرسل إليه كيقباذ يطلبه بعسكره يسير معه إلى مدينة : أرزن [٢] الروم ليحاصرها . فحضر إليه فقبض عليه وأخذ مدينته ، ثم ملك حصن كماخ [٣] ، وكان من أمنع الحصون. وقصد أرزن الروم ليأخذها من ابن عمه طغرل شاه ، فاستنجد صاحبها بالأمير حسام الدين على نائب الأشرف بخلاط ، وأظهر طاعة الأشرف ، فسار إليه بمن عنده من العسكر خوفا أن كيقباذ إذا ملك أرزن الروم قصد خلاط وغيرها ، فعاد ولم يقدم على قصدها ، وتوجه إلى مدينة أنطاكية ليشتو بها والله أعلم .

ذكر اجتماع كيقباذ والأشرف على حرب جلال الدين خوارزم شاه وانهزامه منهما

كان سبب ذلك أن جلال الدين خوارزم شاه لما حاصر خلاط حضر إليه صاحب أرزن الروم . وهو طغرل شاه السلجقى ابن عم كيقباذ ، وأطاعه وأعانه على الحصار . وكان بينه وبين ابن عمه

(١) أرزنكان هى أرزنجان ، وهى بلدة طيبة من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط ، قريبة من ارزن .

(٢) ارزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، لها قلعة حصينة ، وكانت من أعمر نواحى ارمينية .

(٣) فى نسخ المخطوط كماج والتصحيح من ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ١٩٨) . وقد جاء فى ياقوت ان كمخ بالفتح ثم السكون هى كماخ بالألف ، وهى مدينة بالروم .

عداوة مستحكمة فخاف كيقباذ أن السلطان جلال الدين يتوصل إلى ملك بلاده ، فراسل الملك الكامل صاحب مصر [١] وهو إذ ذاك بحران ، وساله أن يستدعى الملك الأشرف من دمشق ، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف [٢] واجتمع هو وكيقباذ ، واتفقا على حرب جلال الدين. وكان عسكر كيقباذ عشرين ألف فارس وعسكر الأشرف خمسة الآف فارس ، إلا أنهم كانوا من الشجعان الذين لايقوم أحد بحربهم . فسار جلال الدين لقتالهم والتقوا يوم السبت الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستماية بمكان من أعمال أرزنجان ، فانهزم جلال الدين وعاد إلى خلاط ، فأخذ من كان بها من أصحابه وفارقها ، وأسر فى هذه الوقعة جماعة من أصحاب السلطان . فأمر كيقباذ بضرب أعناقهم ، وأسر ابن عمه صاحب أرزن الروم ، وقصد به بلده ، فتسلم أرزن الروم وماممها من القلاع ، وما بها من الخزائن وغيرها . فكان طغرل شاه كما قيل : « خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين » ؛ وكان هذا قد عاهد جلال الدين على أنه يملكه بعض بلاد كيقباذ ، فأخذ مابيده . واستمر كيقباذ فى الملك إلى أن توفى ، وكانت وفاته فى سنة أربع وثلاثين وستماية ، وملك بعده ولده .

---

(١) المقصود به الملك الكامل (الأول) ناصر الدين أبو المعالى محمد ، المتوفى سنة ٦٣٥ هـ .

(٢) المقصودبه الملك الأشرف (الأول) مظفر الدين ابو الفتح موسى المتوفى سنة ٦٣٥ هـ . على الترجيح .

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو ابن الملك علاء الدين كيقباذ غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق ، وهو الحادى عشر من الملوك السلجقية ، بالروم

ملك المملكة الرومية بعد وفاة أبيه الملك كيقباذ فى سنة أربع وثلاثين وستماية. وجلس على تخت السلطنة بمدينة قونية وراسله الملوك فى الموافقة ، وهى السنة التى وصل التتار فيها إلى الروم . وفى سنة خمس وثلاثين أرسل غياث الدين إلى والدة الملك العزيز يخطب بنت ابنها العزيز لنفسه ، وأن يتزوج الملك الناصر صاحب حلب أخت السلطان غياث الدين . فاستقر بينهما الأمر ، وعقد عقد السلطان على غازية خاتون ابنة الملك العزيز على خمسين ألف دينار . ووصل الصاحب كمال الدين بن العديم من حلب إلى السلطان. يزوج أخته من الملك الناصر على نظير هذا الصداق . فحصل الاتفاق بينهما ، ثم أرسل السلطان غياث الدين إلى حلب يطلب أن تقام له الخطبة بها وتضرب السكة باسمه . فتوقفت الصاحبة والدة العزيز فى ذلك ، فأشير عليها بالموافقة فأجابت إلى ذلك ، وخطب له بحلب. وفى سنة إحدى وأربعين وستماية ، دخل بيجو مقدم التتار إلى بلاد الروم ، والتقى هو والسلطان غياث الدين فكسرهم كيخسرو ، ثم عاودوا القتال فهزموه ، وقتل جماعة من أصحابه ، والتجأ إلى بعض المعاقل ، ثم حصلت المهادنة على أتاوة يؤديها غياث الدين للتتار فى كل سنة .

وفى سنة أربع وخمسين وستماية وصل التتار إلى بلاد الروم صحبة جرماغون وبيجو من قبل منكوفان الملك . فخرج السلطان غياث الدين لقتالهم بجميع عساكره ، واستصحب حريمه ليقاتل قتال الحريم . واستشار أصحابه فيما يفعل ، فكان منهم من هول عليه أمر التتار وكان غياث الدين قد زوجه والده بكرجى خاتون ابنة ملك الكرج . فلما أفضت السلطنة إليه جعل أخاها مقدما على الجيش ، وكان نصرانيا ، لم ينتقل عن ملته : فكرهه الأمراء وكرهوا السلطان بسببه . فلما كان فى هذا الوقت قال للسلطان غياث الدين : « ضم إلى من فى عسكرك من الكرج والفرنج ، وأنا ألقى التتار بهم » . فغاظ الأمراء كلامه ، وتقدم أحد أعيانهم فحلف أنه لابد أن يلقى التتار بنفسه ، ومن صحبه : وركب فى نحو عشرين ألف فارس ، وتقدم إلى التتار وهم بصحراء اقشهر زنجان ، وكان غياث الدين على الجبل الأقرع واسمه كوسا داغ ، وهو مشرف على الوطأة التى نزل بها التتار . وسار الأمير فيمن معه ، وتبعه السلطان ببقية الجيش فوجد المقدم أمامه وادٍ قطعه السيل ، فلم يستطع قطعه إلى جهة التتار ، فسار مع لحف الجبل ، يطلب طريقا يمكنه التوصل منه إلى التتار . فركب التتار وقصدوه ودنوا منه وراسلوه بالسهام ، فأهلكوا أكثر الخيل التى معه ، فكان السهم لايقع إلا فى فرس أوفارس ، فتفرقوا عند ذلك ، وطلبوا النجاة لأنفسهم . وعاد السلطان غياث الدين إلى المخيم . وجهز حريمه إلى قونية ، وهى دار المملكة ، ومسافتها من المكان الذى هو فيه نحو شهر ، فسرن صحبة أمير ، ولم يحملن معهن إلا ماخف، ورجع

السلطان وترك الوطاق والدهاليز والخيام منصوبة ، وبها الأثقال والخزائن والذخائر . وأقام التتار ثلاثة أيام لم يقدموا على دخول الوطاق ظنا منهم أنها مكيدة ، ثم عبروا الوطاق واستولوا على مافيه ، ورجعوا .

وتوفى غياث الدين فى هذه السنة ، وخلف ثلاثة أولاد : عز الدين كيكاووش ، وركن الدين قلج أرسلان وعلاء الدين كيقباذ .

ذكر أحوال أولاد السلطان غياث الدين كيخسرو بعد وفاة أبيهم

قال : لما توفى غياث الدين استقر أولاده الثلاثة فى السلطنة ، ولم ينفرد بها أحد عن الآخر ، وضربت السكة باسمهم جميعا ، وخطب لهم وكان والدهم قد جعل ولاية عهده لولده علاء الدين كيقباذ بن كرجى خاتون ، فاتفقوا على أن يتوجه إلى منكوقان يطلب منه الصلح والهدنة ، ويقرر له أتاوة . هذا بعد أن استولى بيجو على قيسارية وأعمالها وماحولها ، وصار بيده من المملكة الرومية مسافة شهر .

قال : فتوجه علاء الدين كيقباذ إلى منكوقان ملك التتار ومعه الهدايا والتحف ، وذلك فى سنة خمس وخمسين وستماية . وقصد الأرد (١) ومعه الأمير سيف الدين طرنطاى ، وهو من أكابر الأمراء

(١) الأوردو أو الأردو أو الأردو هو الاسم الذى أطلقه المغول على المكان الذى يقيمون فيه ، والمقصود به هنا فى النص المكان الذى به بلاط الحاكم .

وشجاع الدين ملك السواحل . وأقام أخواه بقونية فاختلفت آراؤهما وآل أمرهما إلى القتال . فانتصر عز الدين كيكاووش واستقر بقونية بمفرده ، واعتقل ركن الدين قلج أرسلان ، كل ذلك وبيجو بالروم

قال : ولما اعتقل قلج أرسلان ، ضاق أصحابه ومنهم الصاحب شمس الدين الطغراى والأمير سيف الدين جاليش وغيرهم ، ففكروا فيما يفعلون فزوّروا كتابا عن السلطان عز الدين كيكاووش إلى سيف الدين طرنطاى ورفيقه ، أن يسلما إليهم السلطان علاء الدين كيقباذ ، وما معهما من الهدايا والتحف ، ليتوجه الصاحب بذلك إلى منكوقان ، ويعود طرنطاى ورفيقه إلى قونية . وساروا بهذه الكتب الموضوعة فى إثر السلطان كيقباذ ، فلحقوه وقد وصل إلى أردوباطو فدخلوا على باطو وقالوا : « إن السلطان عز الدين كان قد أرسل أخاه ليتوجه إلى القان وأرسل معه هذين - يعنون طرنطاى ورفيقه - ثم اتضح له أنهما قد أضمرا السوء ، وأن طرنطاى ضربته صاعقة فيما مضى من الزمان ، فلايصلح أن يدخل بين يدى القان [1] . ورفيقه شجاع الدين طبيب ساحر ، وقد أخذ صحبته شيئا من السم القاتل ليغتال به منكوقان . فأرسلنا عوضا عنهما وأمر بردهما » فلما سمع باطو ماقاله الصاحب ، أمر بإحضار طرنطاى ورفيقه وفتش ماممهما من القماش والأصناف ، فكان فيه برانى أشربة وعقاقير ، من جملتها السقمونيا ، فأمره أن يأكل من ذلك فأكل وامتنع من السقمونيا ، فظنها باطوسمّا ، واستدعى الأطباء فقالوا إنها من الأدوية وآخر الأمر

(١) القـــان أو الخـــان ، لفظ تركى بمعنى رئيس أطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون حكم جزء من أجزاء إمبراطوريتهم الواسعة ، نظر : (Enc. Insl. Art. Khon)

أن باطو خير الصاحب ورفقته بين أن يستصحبوا الهدايا إلى القان ، ويكون السلطان صحبة طرنطاى ورفيقه أو العكس . فاختار الصاحب أن يكون السلطان معه والهدايا مع طرنطاى ، وافترقا على .ذلك . وتوجه السلطان كيقباذ والصاحب إلى القان وتوجه طرنطاى ورفيقه بالهدايا إليه ، وافترقوا فى الطريق ، فكل قصد جهة . واتفقت وفاة السلطان فى طريقه ، وجرت لهم خطوب يطول شرحها ، آخرها أنهم وصلوا إلى القان بالأردو وتنافسوا الرياسة فى مجلسه ، ثم اتفق الحال أن تكون مملكة الروم مقسومة بين الأخوين ، فجعل لعز الدين كيكاووش من نهر سيواس إلى حد بلاد اشكرى [1] ، ولركن الدين قلج أرسلان من نهر سيواس إلى تخوم أرزن الروم من الجهة الشمالية المتصله ببلاد التتار . واستقر عليهما اتاوة يحملونها إلى الأردو وعاد الصاحب شمس الدين وطرنطاى ورفقتهما من عنده ، فماوصلوا إلى الروم حتى دخله التتار ، وكان بينهم وبين السلطان عز الدين مانذكره إن شاء الله فى أخبار التتار .

قال : ووصل الصاحب ورفقته الى الروم

فى سنة سبع وخمسين وستماية ، واستقرت القسمة بين الأخوين على ماقرره منكوقان ، وانفرد كل منهما بما استقر له ، وانضم إليه جماعة من الأمراء . ثم قدم هولاكو وملك بغداد ، فاستدعاهما فسار إليه ، وحضرا معه أخذ حلب ، ثم عادا إلى بلادهما على القسمة التى قسمها منكوقان . فلما كان فى سنة ستين

(١) أطلق المسلمون لقب اشكرى على إمبراطور الروم أو الدولة البيزنطية ، والمقصود هنا ببلاد اشكرى الإمبراطورية البيزنطية .

وستماية بعث هولاكو يستدعى شمس الدين يوتاش نائب السلطان عز الدين ، فأرسله إليه فوصل إلى أرزنكان صحبة رسل هولاكو. فوافق وصولهم إليها عند غطاس النصارى ، فخرجوا إلى الفرات بجمع كثير ، ومعهم الجاثليق وقد رفعوا الصلبان على الرماح ، وأعلنوا بالنواقيس والصياح ، فأنكر عليهم شمس الدين ، وقصد منعهم ، فمنعه رسل هولاكو ، وقالوا : « هذه بلاد السلطان ركن الدين فلا يحدث فيها » وسألوا الجاثليق : « كيف كان عادتكم فى أيام السلطان غياث الدين ؟ » فقال : « كنا نحمل له ثلاثة آلاف درهم ، ونعمل مانختار » فأخذوا منه ثلاثة آلاف درهم ومكنوه من عمل العيد كما أراد . فلما جرت هذه المفاوضة بين رسل هولاكو وشمس الدين ، عاد مغضبا ورجع إلى السلطان عز الدين ، وحمله على المخالفة والعصيان ، فوافقه على ذلك واستولى على أكثر بلاد أخيه ركن الدين . فتوجه ركن الدين إلى هولاكو واستنصر به ، فبعث معه تومانا (١) من التتار ، فكسرهم عز الدين . ثم استمدوا هولاكو ، فأمدهم بتومان آخر فهرب عز الدين وفارق البلاد ودخل إلى الأشكرى بالقسطنطينية ، وصحبته أخواله ، وهما على دين النصرانية ، وثلاثة نفر من أمرائه. واستولى ركن الدين على جميع البلاد واستقل بملكها .

وأما عز الدين فإنه لما وصل إلى الأشكرى أكرمه وأحسن إليه ،

---

(١) التومان : الفرقة من الجيش التى يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل ؛ وقائد التومان يعتبر من أكبر أصحاب الرتب العسكرية فى جيش المغول . انظر :

(Quatrimére : Hist des Sultans Mamlouks, II, 2, p. 152).

فأقام عنده إلى سنة اثنتين وستين وستماية ، فقصد الأمراء الذين كانوا معه وهم عز الدين أمير آخر ، وعلى بهادر ، وأمير مجلس ، أن يثبوا على الأشكرى فيقتلوه ، وأعلموا صاحبهم عز الدين بذلك. وقالوا له : « اكتمه عن خاليك » فلم يكتمه عنهما ، وأعلمهما به ، وأمرهما أن يعرفا الأشكرى بذلك ، وأنه لايركب فى اليوم الذى قصد الأمراء الفتك به فيه . فعرفاه ، فقبض على الأمراء وكحلهم ، وقبض على السلطان عز الدين واعتقله بقلعة من القلاع الغربية ، فأقام بها إلى سنة ثمان وستين وستماية . وجمع الأشكرى أصحاب الأمراء وأتباعهم ، وعرض عليهم الدخول فى دينه . فمن وافق تركه ، ومن أبى كحله . فمنهم من وافق وتنصّر ، ومنهم من امتنع فكحل ، وعرض على رجل منهم أن يتنصر فصاح وقال : « الجنة معدة للإسلام ، والنار معدة لكم » فقال : هذا رجل ثابت على دينه وأطلقه ، وكتب له ورقة للطريق .

وفى سنة ثمان وستين وستماية خلص السلطان عز الدين وأهله من الاعتقال ، وسبب ذلك أن منكوتمر بن طغان جهز عسكر إلى اسطنبول ، فأغاروا عليها ، وأخذوا عز الدين من القلعة التى كان بها ، وأحضروه إلى منكوتمر ، فأكرمه وأحسن إليه وأقام ببلاده قرم ، وتزوج بها ، واستمر إلى أن توفى فى سنة سبع وسبعين وستماية .

ذكر قتل السلطان ركن الدين قلج ارسلان وولاية ابنه غياث الدين كيخسرو

وفى سنة ست وستين وستماية دبر البرواناه على السلطان ركن الدين ، واتفق مع التتار الذين عنده على قتله ليتمكن من البلاد . فعمل وليمة واجتمع فيها التتار ، واستدعوا السلطان فحضر إليهم وأكل وشرب ، فقاموا إليه وخنقوه بوتر ، فمات ، واستقر فى الملك بعده ولده السلطان غياث الدين كيخسرو ، وله من العمر أربع سنين ، واستولى البرواناه على الحكم فى المملكة الرومية ، والله أعلم .

ذكر خبر البرواناه معين الدين سليمان وأصله وتنقله

أما أصله فمن الديلم . وكان والده مهذب الدين على . حضر وهو شاب فى أيام السلطان علاء الدين كيقباذ إلى سعد الدين المستوفى بالروم ، وهو إذ ذاك نافذ الحكم ، فسأله أن يجرى عليه جاريا فى بعض المدارس ، يكون درهما فى اليوم ، يقتات به . وكان شاب جميلا وسيما من طلبة العلم ، فمال إليه المستوفى فقال : « أريد أن أتخذك ولدا » وأخذه وقربه وأدناه وأحسن إليه ، وزوجه بابنته . ثم اتفقت وفاة المستوفى ، فوصف مهذب الدين للسلطان علاء الدين بالكفاية والمعرفة والفضيلة ، فقربه منه ، وترشح للوزارة واستوزره

وألقى إليه مقاليد الدولة ، ورزق مهذب الدين ولده معين الدين سليمان المسمى بالبرواناه .

وتقدم معين الدين فى الدولة السلجقية إلى أن استولى على الحل والعقد . ولم يكن للسلطان غياث الدين كيخسرو هذا معه فى السلطنة غير الاسم . ومعين الدين هذا هو والد الأمير علاء الدين على بن البرواناه ، أحد أمراء الدولة الناصرية [١] . وولى القاهرة ، ثم ولى نيابة دار العدل الشريف ، وتقدم على الجيوش . قال : واستمر غياث الدين كيخسرو فى اسم السلطنة بالروم إلى أيام السلطان أحمد [٢] فى سنة إحدى وثمانين وستماية ، فاستدعاه إلى الأردو ، وعزله عن السلطنة ، ورسم له بالإقامة بارزنكان ، فأقام بها إلى سنة اثنين وثمانين وستماية . فدس عليه أرغون بن أبغا من خنقه بوتر فمات .

ولما عزل غياث الدين فوض السلطان أحمد السلطنة فى الروم إلى السلطان مسعود ابن السلطان غياث الدين كيكاووش ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان علاء الدين كيقباذ ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان عز الدين قلج أرسلان ابن الملك

---

(١) المقصود بالدولة الناصرية هنا (دولة المماليك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون .

(٢) هو تكودار بن هولاكوخان . تولى عرش المغول فى إيران سنة ٦٨١ هـ. كان أول أمره يدين بالمسيحية ؛ لكنه – بسبب إتصاله بالمسلمين وكثرة إختلاطه بالعظماء والأئمة منهم – أعلن إسلامه ؛ ولقب بالسلطان أحمد فكان بذلك أول ايلخانات المغول الذين اعتنقوا الدين الإسلامى فى إيران لم يمكث فى الحكم طويلا إذ سرعان ما قتل فى سنة ٦٨٣ ، (أنظر تاريخه المفصل فى كتاب جامع التواريخ ، المجلد الثانى – الجزء الثانى ، ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد ص ٨٨ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٠ .

مسعود ابن الملك قلج أرسلان ابن الملك سليمان ابن الملك شهاب الدولة قتلمش بن رسلان بيغو بن سلجق ملك المملكة الرومية ، بعد عزل غياث الدين كيخسرو ابن ركن الدين قلج أرسلان فى أيام السلطان أحمد فى سنة إحدى وثمانين وستماية ، فاستمر وليس له من الأمر شىء إلا اسم السلطنة خاصة ، والحكم فى المملكة الرومية للتتار وشحانهم (جمع شحنة) .

هذا آخر ماتصل إلينا من أخبارهم إلى حين وضعنا هذا التأليف فى سنة أربع عشرة وسبعماية . فلنذكر أخبار الدولة الأتابكية ، لأنها من فروع الدولة السلجقية ، وبتمامها يتم هذا الباب إن شاء الله تعالى .

ذكر أخبار الدولة الأتابكية

وهذه الدولة من فروع الدولة السلجقية كان ابتداؤها أولا بحلب فى سنة تسع وسبعين وأربعماية ، ثم انقطعت بقتل اقسنقر مدة ثم قامت بالموصل وحلب والشام وبمصر خطبة . وقاعدة هذه الدولة وعمادها المشار إليه من ملوكها نور الدين محمود بن زنكي . ونحن نذكر أصل هذا البيت الأتابكى وننقله إلى أن ملك نور الدين الشهيد وما انتهى إليه حال هذه الدولة إلى حين انقراضها ، فنقول أصل البيت الأتابكى اقسنقر التركى .

ذكر أخبار قسيم الدولة أقسنقر التركى

كان تركيا من أصحاب السلطان ركن الدولة ملكشاه السلجقى ، وتربى معه من صغره وهو من أترابه ، واستمر فى صحبته حتى أفضت إليه السلطنة ، فكان من أعيان أمرائه ، واعتمد عليه فى مهماته وزاد فى علو مرتبته ، فصار الوزير نظام الملك مع عظم شأنه وجلالة قدره ، يتقيه ويداريه . ومما يدل على مكانته وعلو شأنه كونه لقب قسيم الدولة مع صون الألقاب والمشاححة فيها فى ذلك الوقت .

ولما ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب كما ذكرناه فى أخباره سلمها لقسيم الدولة فى سنة تسع وسبعين وأربعماية ، وقيل فى سنة ثمانين ، فعمرها وأحسن السيرة فيها فمال الناس إليه وأحبوه ، ثم تسلم من الأمير نصر بن على بن منقذ الكنانى صاحب شيزر ، اللاذقية وأفامية وكفر طاب ، فأشار الوزير نظام الملك على السلطان ملكشاه أن يسلم ذلك إلى قسيم الدولة مع حماه ومنبج ، فأقطعه السلطان جميع ذلك ، فعظمت هيبته ، وظهرت كفايته ، وقمع أهل الفساد والبغى . ثم استدعاه السلطان إلى العراق فقدم متجملا بعسكر عظيم ، فاستحسن ذلك منه وعظمه وأعاده إلى أعماله . وفى سنة إحدى وثمانين وأربعماية قصد اقسنقر شيزر ونهبها وعاد إلى حلب . وفى سنة ثلاث وثمانين حاصر مدينة حمص وملكها ، فسار صاحبها ملاعب إلى الديار المصرية .

وفى سنة أربع وثمانين ملك حصن أفامية والرحبة . واستمر قسيم الدولة كذلك إلى أن مات السلطان ملكشاه فى سنه خمس

وثمانين، فجهز عند ذلك جيشا إلى تكريت فملكها . واتفق أن تاج الدولة تتش صاحب دمشق طمع بعد وفاة أخيه السلطان ملكشاه فى السلطنة ، فسار من دمشق إلى حلب ، فلم يمكن قسيم الدولة إلا موافقته والدخول فى طاعته . وكان من أمر تتش ماقدمناه فى أخباره ، وفارقه قسيم الدولة والتحق بالسلطان بركياروق ولد صاحبه السلطان ملك شاه كما قدمنا ذكر ذلك مبينا .

ذكر قتل قسيم الدولة

قال: ولما فارق قسيم الدولة تتش واستمر في خدمة السلطان بركياروق وعاد تتش إلى الشام ، أمر بركياروق قسيم الدولة وبوزان صاحب حوران بالعود إلى بلادهما ليمنعا تتش من التغلب عليها ، فعادا ، وجمع تتش العساكر وسار نحو حلب ، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان ، وأمدهما السلطان بركياروق بالأمير كربوقا صاحب الموصل . فالتقوا مع تتش بالقرب من تل السلطان على ستة فراسخ من مدينة حلب . فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرا ، فقتله تتش صبرا ، ودخل بوزان وكربوقا حلب ، فحصرهما تاج الدولة تتش وفتحها وأخذهما ، فقتل بوزان واعتقل كربوقا ، فلم يزل إلى أن خلص فى أيام الملك رضوان بعد قتل تتش . وكان مقتل قسيم الدولة فى سنة سبع وثمانين وأربعماية . وكان رحمه الله حسن السيرة والسياسة كثير الإحسان إلى رعيته فكانوا فى أيامه بين عدل غامر ورخص شامل وأمن واسع ، رحمه الله تعالى .

ذكر أخبار عماد الدين أتابك زنكى بن قسيم الدولة اقسنقر

قال المؤرخون : لما قتل قسيم الدولة كان عُمْر ولده زنكى نحو عشر سنين ، ولم يخلف من الذرية غيره ، فاجتمع مماليك والده عليه وأصحابه . فلما خلص قوام الدين كربوقا من السجن ، بعد قتل تتش فى سنة تسع وثمانين وأربعماية ، وملك حران ونصيبين والموصل وماردين ، وعظم شأنه وهو فى طاعة السلطان بركياروق ، أحضر مماليك قسيم الدولة ، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكى ، وقال : « هو ابن أخى ، وأنا أولى الناس بتربيته » فأحضروه إليه ، وأقطعهم كربوقا الإقطاعات السنية واستعان بهم فى حروبه ، وسار بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان ، والتقوا فهزمهم كربوقا. وهو أول مصاف حضره زنكى بعد قتل والده . ولم يزل عند كربوقا إلى أن توفى [كربوقا] فى سنة أربع وتسعين وأربعماية . وملك بعده موسى التركمانى ، فقتل ولم تطل مدته . ثم ملك الموصل شمس الدولة جكرمش ، وهو من مماليك السلطان ملكشاه ، فاتخذ عماد الدين زنكى كالولد ، فكان عنده إلى أن قتل فى سنة خمسماية . ثم ملك الموصل بعده جاولى سقاور ، فاتصل به عماد الدين ، وقد كبر وظهرت شهامته . ولم يزل معه حتى عصى على السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه ، فأرسل السلطان الأمير مودود إلى الموصل ، فى سنة اثنتين وخمسماية ، وأقطعه إياها ، ففارقه عماد الدين وغيره من الأمراء ، والتحقوا بمودود ، فأكرم زنكى وشهد حروبه .

ثم سار مودود إلى الشام ففتح فى طريقه قلاعا كانت للفرنج ، ثم حضر عند أتابك طغرلتكين (طغتكين) صاحب دمشق وسار إلى طبرية وحاصرها ، وقاتلوا قتالا شديدا ، فظهر من عماد الدين زنكى شجاعة عظيمة ، منها أنه كان فى نفر وخرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه فهزمهم ، واستمر فى حملته وهو يظن أن أصحابه يتبعونه ، فتخلفوا عنه وتقدم وحده إلى أن وصل إلى باب المدينة ، وأثر رمحه فيه . وقاتل الفرنج عليه وحمى نفسه ، وعاد سالما ، فعجب الناس من إقدامه وسلامته . ثم عاد إلى دمشق صحبة الأمير مودود ، فخرج مودود لصلاة الجمعة ، فلما صلى وانصرف ، فبينما هو فى صحن الجامع ويده بيد طغرلتكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين ، فحمل إلى بيت طغرلتكين فمات فى بقية يومه ، وكان صائما ولم يفطر ، وقتل قاتله . قال : ولما قتل كتب ملك الفرنج إلى طغرلتكين يقول :

« إن أمة قتلت عميدها ، فى يوم عيدها ، فى بيت معبودها ، حقيق على الله أن يبيدها » ثم أقطع السلطان الموصل وغيرها بعد قتل مودود للأمير جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعود ، كما ذكرناه . ثم جهز السلطان اقسنقر البرسقى فى العساكر لقتال الفرنج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه ، فساروا وفيهم عماد الدين زنكى . وكان يعرف فى عساكر العجم زنكى الشامى ، فسار اقسنقر إلى الرها وإلى سميساط.[1] وبلد سروج ،

(١) هى مدينة على الشاطىء الغربى للفرات فى طرف بلاد الروم .

وقاتل الفرنج وأبلى زنكى فى هذه المواقف بلاء حسنا . فعادت العساكر تتحدث بما فعله ، وعاد البرسقى وأقام زنكى بالموصل مع الملك مسعود ، والأمير جيوش بك ، إلى أن أظهر العصيان على السلطان فى سنة أربع عشرة وخمسماية ، ثم استأمن الملك مسعود لأخيه السلطان على ماقدمنا ذكر ذلك فى أخبار الدولة السلجقية .

ذكر ابتداء حال عماد الدين زنكى وترقيه وتنقله فى الولايات

كان ابتداء ولايته فى سنة ست عشرة وخمسماية ، وذلك أن السلطان محمود أقطع الأمير اقسنقر البرسقى مدينة واسط وأعمالها ، مضافا إلى مابيده من ولاية الموصل وشحنكية العراق وغير ذلك . فسير البرسقى إليها عماد الدين زنكى وأمره بحمايتها . فسار إليها فى شعبان وقام بحمايتها أحسن قيام ، وحضر مع الخليفة المسترشد بالله قتال دبيس بن صدقة أمير الحلة . وكان لعماد الدين فى ذلك آثار حسنة ، وأقام إلى أن عزل اقسنقر البرسقى عن شحنكية العراق ورجع إلى الموصل فى سنة ثمانى عشرة وخمسماية . وكان عماد الدين إذ ذاك بالبصرة قد سيره البرسقى لحمايتها . فلما توجه البرسقى إلى الموصل أرسل إليه يأمره باللحاق به ، فقال لأصحابه : « قد ضجرنا مما نحن فيه بالموصل ، فى كل يوم أمير جديد ، ونحتاج نخدمه ، وقد رأيت أن أسير إلى السلطان محمود فأكون معه » ؛ فأشاروا عليه بذلك . فسار إلى السلطان [محمود] فقدم عليه وهو بإصفهان ، فأكرمه . وكان يقف عن يمين تخت السلطان إلى جانبه لايتقدم عليه غيره ، وهى منزلة والده من قبله .

ثم بلغ السلطان [محمود] أن العرب تجمعت ونهبت البصرة ، فأقطعها لعماد الدين زنكى ، وأعاده إليها ، وهذه الولاية هى أول ولاياته من قبل السلطان ، فضبط عماد الدين زنكى البصرة وأعمالها وقام فيها أحسن قيام ، وكف الأيدى عنها .

فلما وقع الاختلاف بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بالله ، وحضر السلطان إلى بغداد وحصرها كما قدمنا ذكر ذلك ، أرسل إلى عماد الدين زنكى وهو بواسط يأمره بالحضور بنفسه ومعه المقاتلة فى السفن وعلى الدواب . ففعل [عماد الدين زنكى] ذلك وجاء فى موكب عظيم فى البر والبحر ، فركب السلطان للقائه ، ورأى الناس من ذلك ماهالهم ، وعظم عماد الدين فى أعينهم . ثم حصل الاتفاق بعد ذلك بين السلطان والخليفة كما ذكرنا .

ذكر ولاية عماد الدين زنكى شحنكية العراق

وفى شهر ربيع الاخر سنة إحدى وعشرين وخمسماية أسند السلطان محمود شحنكية العراق إلى الأمير عماد الدين زنكى . وسبب ذلك أن السلطان لما عزم على المسير عن بغداد إلى همذان ، نظر فيمن يصلح لشحنكية العراق ممن يأمن جانبه مع الخليفة . واعتبر أعيان دولته ، فلم ير فيهم من يقوم بأعباء هذا الأمر مقامه ، فاستشار أصحابه فى ذلك فكل أشار عليه به [عماد الدين] وقالوا : « لايقدر على سد هذا الخرق ، وإعادة ناموس هذه الولاية ، ولايقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكى ، ففوض إليه

ولايتها ، مضافا إلى مابيده من الإقطاع . وكانت شحنكية العراق من أعظم الولايات . وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن من جهة العراق .ولم يطل مقام زنكى ببغداد حتى انتقل إلى ولاية الموصل.

ذكر ولاية عماد الدين زنكى الموصل وأعمالها

كانت ولاية عماد الدين زنكى الموصل وأعمالها فى سنة إحدى وعشرين وخمسماية . وسبب ذلك أن اقسنقر البرسقى لما قتل على ماذكرناه ، وولى بعده ابنه مسعود فى ثامن ذى القعدة سنة عشرين وخمسماية ، فمات مسعود فى سنة إحدى وعشرين وهو يحاصر الرحبة . فلما مات قام بعده أخ له صغير ، واستولى على البلاد جاولى مملوك أبيه ، ودبر أمر الصبى وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير أعمال الموصل على الصغير ولد اقسنقر البرسقى ، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك . وكان الرسول فى ذلك القاضى بهاء الدين على ابن القاسم الشهرزورى وصلاح الدين محمد [الباغسيانى] (١) أمير حاجب البرسقى ، فسارا حتى حضرا دركاة السلطان ليخاطباه فى ذلك . وكانا يكرهان جاولى ويخافانه ، ولايرضيان بطاعته ، فاجتمع صلاح الدين مع نصير الدين جغر الذى صار ينوب عن عمادالدين . فذكر له صلاح الدين ماورد فيه ، وكان بينهما صهارة. فخوفه نصير الدين من جاولى ،وقبح عنده طاعته ، وقرر فى نفسه أن جاولى إنما أبقاه لحاجته إليه وأنه متى أجيب إلى مطلوبه لا يبقى على أحد منهم ، وحسن له المخاطبة فى ولاية عماد الدين زنكى ،

(١) فى ك. الياغيثانى والتصحيح من ابن الأثير ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ . (الكامل). وفى التاريخ الباهر الياغسيانى .

وضمن له الولايات والإقطاعات الكبيرة وكذلك للقاضى بهاء الدين ، فقاما وركبا إلى دار الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد ، واجتمعا به وقالا له : « قد علمت وعلم السلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منهما ، وقويت شوكتهم بها ، واستولوا على أكثرها ، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ، ماعدا البلاد الباقية للمسلمين . وكان البرسقى بشجاعته وانقياد العساكر إليه ، يكف بعض عاديتهم وشرهم ، وقد زاد طمعهم منذ قتل ، وولده هذا طفل صغير ، ولابد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأى وتجربة ، يذب عنها ، ويحمى حوزتها . وقد أنهينا الحال لئلا يجرى خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فيختص اللوم بنا ويقال لم لا أنهيتم إلينا جلية الحال » ، فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فاستحسنه وشكرهما عليه ، وأحضرهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية ، فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكى ، وبذلا عنه تقربا إلى خزانة السلطان مالا جليلا ، فأجاب السلطان إلى ولايته ، فأحضره وولاه جميع تلك البلاد ، وكتب منشورة بها ، وسار عماد الدين زنكى إليها فبدأ بالبوازيج [1] ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره ، لأنه خاف من جاولى أنه ربما يصده عن البلاد . ثم سار عن البوازيج إلى الموصل ، فلما سمع جاولى بقربه خرج إلى لقائه ومعه سائر العسكر ، وترجل عند مقابلته ، وقبل الأرض بين يديه ، وعاد فى خدمته إلى الموصل ، فدخلها فى

(١) البوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة . (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٥٠٣)

شهر رمضان من السنة . وأقطع جاولى الرحبة وسيره إليها ، وولى نصير الدين دز دارية قلعة الموصل وجعل إليه سائر دزدارية القلاع ، وجعل صلاح الدين محمد أمير حاجب ، وبهاء الدين على الشهرزورى قاضى القضاة بجميع بلاده ، وزاده إقطاعا وأملاكا ، وكان لايصدر إلا عن رأيه .

فلما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمرو بها مماليك البرسقى ، فامتنعوا عليه فحصرهم وراسلهم ، وبذل لهم البذول الكثيرة على التسليم ، فلم يجيبوه إلى ذلك فجد فى قتالهم(١) وكان بينه وبين البلد دجلة ، فأمر الناس بإلقاء أنفسهم فى الماء ، ففعلوا وعبروا سباحة وعبر بعضهم فى السفن والأكلاك ، وتكاثروا على أهل الجزيرة . وكانوا قد خرجوا إلى أرض بين الجزيرة ودجلة ، تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا عسكر عماد الدين ، فلما رأوه قد عبر دجلة انهزموا ودخلوا البلد ، وأرسلوا فى طلب الأمان ، فأمنهم ودخل البلد بعسكره . ثم زادت دجلة فى تلك الليلة زيادة عظيمة لحقت سور البلد ، وصارت الزلاقة مملوءة بالماء ، فلو أقام بها عماد الدين تلك الليلة هلك هو وعسكره ولم يسلم منهم أحد ، فأيقن الناس بسعادته .

ثم سار عن الجزيرة إلى نصيبين ، وكانت لحسام الدين تمرتاش ابن إيلغازى صاحب ماردين ، فلما نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا

(١) فى المتن " فلم يجيبوا إلى ذلك جد فى قتالهم " ، والتصحيح من ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٥٢١ هـ .

فاستنجده على أتابك زنكى ، فوعده النجدة بنفسه وجميع عسكره . وعاد تمرتاش إلى ماردين ، وأرسل رقعة على جناح طائر إلى نصيبين ، يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه واصلانِ إليهم بالعسكر الكثير لدفع زنكى عنهم ، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام . فبينما أتابك زنكى فى خيمته وإذا بطائر سقط على الخيمة وهو ينظر إليه ، فأمر بمسكه فمسك ، فرأى فيه الرقعة فقرأها ، وأمر بكتب غيرها يقول : « إننى مضيت إلى ركن الدولة وقد وعدنى النصرة بجميع العساكر وما نتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوما » وأمرهم بحفظ البلد هذه المدة ، إلى أن يصلوا وجعلها على الطائر ، وأرسله . فوصل إلى نصيبين فلما قرأ من بها الرقعة ، سقط فى أيديهم ، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى زنكى وصالحوه وسلموا إليه البلد ، فبطل على داود وتمرتاش ماكانا عزما عليه .

ولما ملك نصيبين سار عنها إلى سنجار ، فامتنع من بها عليه ثم صالحوه وسلموها إليه ، وسير منها الشحن إلى الخابور فملكه جميعه . ثم سار إلى حران وهى للمسلمين . وكانت الرها وسروج والبيرة وتلك النواحى جميعها للفرنج ، وأهل حران معهم فى ضر عظيم ، وضيق شديد ، لخلو تلك البلاد من حامى يذب عنها . فلما قاربها خرج أهل البلد إلى لقائه ، وسلموها إليه ، فأرسل إلى خوستكين [1] صاحب الرها ، وتلك البلاد وهادنه مدة يسيرة ،

(١) كذا فى ك ، والمقصود به جو سلين دى كورتناى صاحب الرها الصليبى وخلفه بلدوين دى بورج فى حكمها .

وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد ، ويحشد ، ويملك حلب والشام ، ثم يقاتل الفرنج .

ذكر ملك عماد الدين حلب

وفى المحرم سنة اثنتين وعشرين وخمسماية ، ملك عماد الدين زنكى حلب وقلعتها . وسبب ذلك أنها كانت بيد قرمان نيابة عن عز الدين مسعود بن اقسنقر البرسقى . ثم استناب بعده قتلغ فوصل إليها بعد وفاة مسعود ، وتسلمها . ثم ثار به أهل المدينة وسلموها إلى سليمان بن عبد الجبار . فسير عماد الدين إليها الأمير سنقردار والأمير حسن قراقوش فى عسكر قوى ، ومعهما التوقيع من السلطان لعماد الدين بالموصل والجزيرة والشام . فوصلا إلى حلب وسيرا قتلغ وابن عبد الجبار إلى عماد الدين بالموصل ، فسار إليه وأقام حسن قراقوش بحلب واليا عليها . فلما وصل بدر الدولة [سليمان] بن عبد الجبار وقتلغ إلى عماد الدين أصلح بينهما ، ولم يردهما إلى حلب ، وسير حاجبه صلاح الدين محمد الباغسيانى فى عسكر إلى حلب ، فصعد إلى قلعتها ورتب الأمور ، وجعل فيها واليا . وسار عماد الدين إلى الشام فى جيوشه ، فملك فى طريقه مدينة منيح وبزاعة ، ووصل إلى حلب ، فتلقاه أهلها ، فدخلها ورتب أحوالها ، وجعل رئاستها لأبى الحسن على بن عبد الرزاق .

ذكر ملكه مدينة حماه

وفى سنة ثلاث وعشرين ملك عماد الدين زنكى مدينة حماة . وسبب ذلك أنه أظهر أنه يريد جهاد الفرنج ، وأرسل إليه تاج الملوك بورى بن أتابك طغرتكين صاحب دمشق يستنجده ، ويطلب منه معونته على جهاد الفرنج ، وكانوا قد حصروا دمشق . فأجاب إلى ذلك وجرّد تاج الملوك عسكرا من دمشق ، وأرسل إلى ابنه سونج وهو بمدينة حماه يأمره بالنزول إلى العسكر والمسير به إلى زنكى . ففعل وساروا جميعهم فوصلوا إليه ، فأكرمهم وأحسن لقاءهم ، وتركهم أياما ، ثم قبض على سونج بن تاج الملوك ، وعلى جماعة من الأمراء والمقدمين ، وأنهب خيامهم ومافيها واعتقلهم بحلب . وسار من يومه إلى حماة ، فوصل إليها وهى خالية من الجند فاستولى عليها ، ورحل عنها إلى حمص . وكان صاحبها خيرخان [1] بن قراجا فى عسكر عماد الدين ، وهو الذى أشار عليه بالقبض على تاج الملوك ، فقبض عليه أيضا . ونزل على حمص ، وطلب منه أن يأمر أصحابه وولده بحمص بتسليمها ، فأرسل إليهم فلم يفعلوا ، فحصرها مدة طويلة ، ثم رحل عنها وعاد إلى الموصل .

(١) وفى ابن الأثير قيرخان (الكامل حوادث سنة ٥٢٣ هـ) .

ذكر ملكه حصن الأثارب وهزيمة الفرنج

قال: ولما فرغ عماد الدين من أمر البلاد الشامية، رجع إلى الموصل فأراح واستراح، وأمر أصحابه بالاستعداد فاستعدوا. ورجع إلى حلب وعزم على قصد حصن الأثارب، وهو فيما بين حلب وانطاكية على ثلاثة فراسخ من حلب. وكان من به من الفرنج يقاسمون أهل حلب على جميع أعمالها الغربية حتى على رحى لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق. فلما علم الفرنج بقصده جمعوا فارسهم وراجلهم واستعدوا وساروا نحوه، فتقدم إليهم والتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وأسر كثير من فرسانهم، وقتل كثير، وتقدم إلى الحصن فنازله وفتحه عنوة، وعم من فيه بالقتل والأسر وأخربه، وجعله دكا. ثم سار إلى قلعة حارم وهى بالقرب من انطاكية فحصرها، فبذل الفرنج نصف دخل بلد حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد اشتد أزر المسلمين وصار قصار الفرنج حفظ مابأيديهم، وذلك فى سنة أربع وعشرين وخمسماية.

ولما عاد إلى ديار الجزيرة ملك سرجا [1] ودارا وهما من أعمال ركن الدولة صاحب حصن كيفا.

---

(١) هكذا فى ك، وفى ابن الأثير سرجى (الكامل حوادث سنة ٥٢٤ هـ)، وكتبها ياقوت سرجه بفتح أوله وسكون ثانيه، وقال انه حصن قرب دارا بناه الرومان القدماء وما زال باقياً إلى أيام ياقوت رآه بنفسه. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠).

وفى سنة ست وعشرين سار عماد الدين بالعساكر من الموصل إلى العراق لنصرة السلطان مسعود بعد وفاة السلطان محمود . وكان مسعود قد كاتبه واستنجد به ، فسار إليه ومعه الأمير دبيس بن صدقة فسار حتى نزل إلى البادية . وخرج الخليفة المسترشد بالله لحربه - وذلك فى سابع عشرين شهر رجب من السنة - والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فحمل عماد الدين على ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة إقبال فهزمها ، فحمل الخليفة بنفسه واشتد القتال فانهزم دبيس ، وأراد عماد الدين الصبر فرأى الناس قد تفرقوا عنه فانهزم ، وقتل من العسكر جماعة .

ثم سار المسترشد وحاصر الموصل كما ذكرناه فى أخباره . وأن سبب ذلك أن الخليفة أرسل الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفراينى الواعظ إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة ، زادها الشيخ [أبو الفتوح] زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة ، فقبض عليه عماد الدين وأهانه ولقبه بما يكره . فسار الخليفة فى النصف من شعبان سنة سبع وعشرين ونازل الموصل ، ففارقها زنكى ببعض العسكر ، وترك بعضه مع نائبه نصير الدين جقز دزدار القلعة . ووصل عماد الدين إلى سنجار وقطع الميرة عن عسكر الخليفة وتخطف من ظفر به من العسكر . وقام الحصار ثلاثة أشهر ، ثم رحل الخليفة عنها ولم يظفر منها بشىء .

وفى مدة الحصار ملك شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة .

ذكر حصره مدينة آمد وملكه قلعة الصور

وفى سنة ثمان وعشرين وخمسماية اجتمع عماد الدين أتابك زنكى وتمرتاش صاحب ماردين ، وحصرا مدينة آمد فأرسل صاحبها إلى داودبن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده ، فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرْحَلَهُما عنها ، فالتقوا على بابها ، واقتتلوا فى جمادى الآخرة . فانهزم داود وقتل جماعة من عسكره . ولم يبلغ عماد الدين من آمد غرضا ، فقصد قلعة الصور[1] من ديار بكر ، وحصرها وضايقها ، فملكها فى شهر رجب . واتصل به ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثى [2] فاستوزره . وكان حسن السيرة عظيم الرياسة والكفاية ، والله أعلم .

ذكر ملكه قلاع الأكراد الحميدية

وفى سنة ثمان وعشرين وخمسماية أيضا استولى[عمادالدين زنكى] على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش [3]

---

(١) الصور بفتح الصاد وسكون الواو ، قلعة حصينة على رأس جبل قرب ماردين ، قال عنها ياقوت انه رآها فلم ير أحكم منها (معجم البلدان ج ٣ ص ٤٣٤) ...

(٢) نسبة إلى كفر توثا ، وهى فى ياقوت قرية كبيرة من أعمال الجزيرة بينها وبين دارا خمسة فراسخ .

وكفر توثا أيضا من قرى فلسطين .

(٣) العقر بفتح العين وسكون القاف ، قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد ، وهي شرقى الموصل وتعرف بعقر الحميدية ، (ياقوت ج ٤ ص ١٣٦) ، والشوش " قلعة عظيمة عالية جداً قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل ، قيل هى أعلى من العقر وأكبر ولكنها دونها فى القدر " ، (ياقوت ج ٣ ص ٣٧٢) .

وغيرهما . وكان لما ملك الموصل أقر صاحبها الأمير عيسى الحميدى على ولايتها وأعمالها ، فلما حضر المسترشد الموصل حضر عيسى إليه وجميع الأكراد معه . فلما رحل المسترشد أمر عماد الدين بحصر قلاع الأكراد فحصرت مدة طويلة ، وقوتل من بها إلى أن ملكت فى هذه السنة ، فاطمأن حينئذ أهل السواد المجاورين لهذه القلاع ، لأنهم كانوا مع الأكراد فى ضيق عظيم من نهب أموالهم .

وفيها صلح أمرزنكى مع الخليفة .

ذكر حصره مدينة دمشق

وفى سنة تسع وعشرين وخمسماية نازل عماد الدين أتابك زنكى مدينة دمشق ، وحصرها فى جمادى الأولى . وكان سبب ذلك أن صاحبها شمس الملوك كان قد كتب إليه يستدعيه ليسلم إليه البلد ، فسار إليها ، فقتل شمس الملوك قبل وصوله وملك أخوه شهاب الدين محمود كما ذكرناه . فاستمر فى مسيره فحاصرها . فأتاه وهو فى الحصار رسول الخليفة بالخلع ، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق والرحيل عنها فصالحهم ، وخطب له بدمشق ورحل عنها لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة .

وفى سنة ثلاثين وخمسماية استنصر الخليفة الراشد بالله بعماد الدين على السلطان مسعود كما ذكرناه فى أخبار الدولة العباسية فجاء إليه هو وأصحاب الأطراف إلى بغداد . وكان بين الخليفة والسلطان ماذكرناه من غلبة السلطان مسعود ومسير الخليفة إلى

الموصل مع عماد الدين ، وقد شرحنا ذلك مبينا فى أخبار الدولة العباسية ، فلافائدة فى إعادته ، وإنما نبهنا عليه فى هذا الموضع جريا على القاعدة .

ولما خلع الراشد وبويع للمقتفى [١] لأمر الله ، أرسل إليه عماد الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى ، فحضر إلى الديوان ، فأمر الخليفة أن يعطى أتابك زنكى صريفين [٢] ودرب هرون وجَرّى ملكا ، وهى من خاص الخليفة ، وزاد فى ألقابه وقال : « هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب من خاص الخليفة . » فعظم بذلك شأنه ، وبايع للمقتفى لأمر الله وخطب له بالموصل .

ذكر غزاة العسكر الأتابكى الى بلاد الفرنج

وفى شعبان سنة ثلاثين وخمسماية جهز عماد الدين أتابك زنكى عساكره مع الأمير أسوار نائبه بحلب ، فقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم ، وساروا نحو جهة اللاذقية ، فنهبوا منها شيئا كثيرا ، وقتلوا وأسروا سبعة آلاف أسير مابين رجل وامرأة وصبى ، وغنموا ماية ألف رأس من الدواب ، مابين فرس وحمار وبقر وغنم ،

(١) فى ك ، ع " للمتقى لأمر الله " ، وتكرر هذا الخطأ بعد ذلك فى المتن . والصحيح المقتفى لأمر الله . (أنظر : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ص ٤) .

(٢) صريفون أو صريفين إسم لأكثر من قرية بالعراق أشهرها على ضفة نهر دجيل قرب عكبراء ، وكذلك توجد قرية من قرى واسط بهذا الاسم .

وغنموا غير ذلك من الأقمشة والعين والحلى مالايدخل تحت الإحصاء وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها ، ورجعوا بالظفر والغنيمة ، والله أعلم

ذكر ملكه قلعة بعرين وهزيمة الفرنج

وفى سنة إحدى وثلاثين وخمسماية حصر عماد الدين زنكى حمص ، وهى لصاحب دمشق ، فلم ينل منها غرضا . فرحل عنها إلى بعرين [١] وهى للفرنج ، فحاصرها فى شوال ، وهى من أمنع الحصون وأحصنها ، وزحف عليها ، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا بملوكهم وقمامصتهم وكنودهم [٢] ليرحلوه عنها . فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال ، فأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية ، فاحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه ، فحصرهم . فدخل القسوس والرهبان إلى بلاد الفرنج والروم وما ولاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين ، وقالوا : « إن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد البيت المقدس » فاجتمعت ملوك النصرانية وصاروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام ، وجدّ عماد الدين فى الحصار ، فقلت الأقوات عندهم ، فسألوا الأمان على أن يتركهم يتوجهوا إلى بلادهم . فلم يجب إلى ذلك ، إلى أن بلغه أن ملك الروم قد أقبل بجموع الفرنج والنصرانية ، فآمنهم على تسليم الحصن وخمسين ألف دينار . ففعلوا ذلك . فلما فارقوا

(١) بعرين : بلد بين حمص والساحل ، يقول ياقوت : إن هذه الصيغة هى التى تتلفظ بها العامة ، وصحتها بارين .

(٢) كنود جمع كوند ، وهو الكونت أى أمير .

الحصن بلغهم اجتماع الروم والفرنج بسببهم ، فندموا على تسليمه وفتح عماد الدين فى مقامه المعرة وكفر طاب من الفرنج .

ولما فتح المعرة حضر إليه أهلها أرباب الأملاك ، وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فاعتذروا أنها عدمت عندما ملكها الفرنج ، فأمر بإحضار دفاتر الديوان بحلب ، وكشف منها فمن وجد باسمه خراج فيها عن ملك سلمه إليه أو لعقبه إن كان قد مات . وأعاد الأملاك بهذه الطريق . وهذه غاية فى الإحسان وفى تسهيل البر والخير ونهاية فى العدل

وفيها سار [عماد الدين] إلى دقوقا وملكها بعد قتال شديد

ذكر ملكه مدينة حمص وغيرها من أعمال دمشق

وفى المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسماية وصل زنكى إلى حماة ، وسار منها إلى بقاع بعلبك ، فملك حصن المجدل [1] وسار إلى حمص وحصرها وملكها وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وكان لصاحب دمشق ، وبعث إلى شهاب الدين محمود صاحب دمشق يخطب أمه زمرد خاتون ابنة جاولى ، فتزوجها وحملت إليه .

---

(١) المقصود بالمجدل هنا مجدليابه ، وهى قرية قرب الرملة فيها حصن محكم .

ذكر وصول ملك الروم الى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين

كان ملك الروم صاحب القسطنطينية قد دخل إلى البلاد فى سنة إحدى وثلاثين وخمسماية ، وخرج على انطاكية وسار إلى أذنه والمصيصة [١] ، وهما بيد ابن لاون الأرمنى [٢] صاحب الدروب [٣] فحصرها وملكها ورحل إلى عين زربة [٤] فملكها عنوة ، وملك تل حمدون وحمل أهله إلى جزيرة قبرص ، وعمر ميناء اسكندرونه ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة انطاكية فى ذى القعدة فصالحه صاحبها ريمند الفرنجى [٥] ، فرحل عنها إلى بغراس [٦] ودخل ابن ليون فى طاعته .

ثم سار إلى الشام فى سنة اثنتين وثلاثين وقصد بزاعة فحصرها وهى مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب ، فملكها بالأمان فى

---

(١) المصيصة ، مدينة على شاطىء جيحان بين أنطاكية وبلاد الروم .

(٢) المقصود بملك الروم فى المتن الإمبراطور خنا الثانى كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية (١١١٨ – ١١٤٣م) .

أما إسم ابن لاون فهو لقب إعتاد المؤرخون المسلمون إطلاقه على أمراء أرمينيا الصغرى وملوكها ، والمقصود فى المتن الأمير ليون الأول الأرمنى .

(٣) الدروب جمع الدرب وهو الطريق الذى يسلك ؛ والمقصود بالدروب هنا المنطقة الواقعة فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى وبها الممرات والمسالك المؤدية إلى بلاد الشام .

(٤) عين زربى أو زربه ؛ بلدة قرب المصيصة .

(٥) المقصود به ريموند دى بواتيه الذى أصبح أمير أنطاكية بعد أن تزوج من الأميرة كونستانس وريثة إمارة أنطاكية سنة ١١٣٦ .

(أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ص ٥٨٣) .

(٦) مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ .

الخامس والعشرين من رجب ، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى فتنصر قاضيها وجماعة من أهلها وأعيانها نحو من أربعماية نفس . وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى ، ودخنوا على من دخل المغاير ، فهلكوا . ثم رحل [ملك الروم] إلى حلب ونزل على قويق[1] ومعه الفرنج الذين بساحل الشام ، وكان عماد الدين يحاصر حمص فلما بلغه خبرهم ، سير طائفة من العسكر ليحفظوا حلب منهم ، فلما نزلوا على حلب خرج إليهم أحداث البلد وقاتلوهم قتالا شديدا ، فقتل كثير من الروم وجرح كثير ، وقتل بطريق عظيم القدر عندهم . فأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى قلعة الأثارب[2] ، فخاف من بها من المسلمين فهربوا عنها فى تاسع شعبان ، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى ، ومعهم جمع كثير من الروم يحفظونهم ، وساروا . فلما سمع الأمير سوار نائب عماد الدين بحلب بذلك ، سار بمن عنده من العسكر إلى الأثارب فأوقع بالروم وقتلهم وخلص الأسرى وعاد إلى حلب .

وأما عماد الدين فإنه فارق حمص وسار إلى سلمية [3] فنزلها ، وعبر ثقله الفرات إلى الرقة ، وأقام جريدة . وقصد الروم شيزر ، وهى من أمنع الحصون وكانت للأمير أبى المعالى سلطان بن على بن منقذ الكنانى ، فنازلوها وحاصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا

(١) قويق : بضم أوله وفتح ثانيه ؛ نهر مدينة حلب .

(٢) الأثارب : قلعة معروفة بين حلب و أنطاكية .

(٣) سلمية : بفتح أوله وثانيه وسكون الميم بليدة من أعمال حماه ، وكانت تعد من أعمال حمص .

فأرسل صاحبها إلى عماد الدين يستنجده ، فسار إليه ونزل على نهر العاصى بينها وبين حماه ، فكان يركب بعسكره إلى شيزر ويقفون[١] حيث يراهم الروم ، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم . ثم أرسل إلى ملك الروم يقول : « إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال ، فانزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها » . ولم تكن له بهم قوة ، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه ، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بقتاله وهونوا عليه أمره ، فلم يفعل ، وقال : « أتظنون أن ليس لهم من العسكر إلا ماترون ، إنما هو يريد أن تلقوه[٢] فيأتيه من نجدات المسلمين مالايحد » وكان عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يقول إن فرنج الشام خائفون منه ، ولو فارق مكانه لتخلفوا عنه . ويرسل إلى الفرنج فيقول : « إن ملكَ ملِك الروم من الشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعها » . فاستشعرت كل طائفة من الأخرى . فرحل ملك الروم من شيزر فى شهر رمضان وكان مقامه عليها أربعة وعشرين[٣] يوما وترك المجانيق وآلات الحصار كما هى ، فسار عماد الدين يتبع ساقة العسكر ، فظفر بكثير منهم ممن تخلف .

---

(١) فى ك ويقفوا .
(٢) فى ك : تلقونه .
(٣) فى ك وعشرون .

ذكر ملك عماد الدين بعلبك

وفى ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية ملك [عماد الدين] زنكى مدينة بعلبك وهى لصاحب دمشق . وسبب ذلك أن شهاب الدين محمود صاحب دمشق قتله غلمانه فى هذه السنة كما ذكرنا ، وملك بعده أخوه جمال الدين محمد . وكانت والدة محمود زوجة عماد الدين بحلب ، فوجدت لذلك وجدا عظيما وحزنت حزنا شديدا وكتبت إلى أتابك زنكى وهو بالجزيرة تعرفه بالحادثة وتطلب أن يقصد دمشق ويطلب ثأر ولدها . فبادر إلى ذلك ولم يتوقف وعبر الفرات عازما على قصد دمشق . فبلغ ذلك صاحبها فاحتاط واستعد ، وسار عماد الدين إلى بعلبك فوصل إليها فى العشرين من ذى القعدة ، وضيق على أهلها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقا ترمى ليلا ونهارا . فأشرف أهلها على الهلاك ، فطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم المدينة . وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك ، فلما أيسوا من نصرة معين الدين أتابك صاحب دمشق — وكانت بعلبك له — فطلبوا الأمان ، فأمنهم وتسلم القلعة منهم . ثم غدر بهم وصلبهم ولم ينج منهم إلا القليل . فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وحذروه ونفروا منه .

قال : ولما فتح بعلبك كان لمعين الدين بها جارية وكان يهواها ، فأخذها زنكى وسيرها إلى حلب ، فلم تزل بها إلى أن قتل زنكى ، فسيرها نور الدين إلى معين الدين ، فكانت أعظم أسباب المودة بينهما . قال :

ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق فى شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وخمسماية ونزل على داريا [١] ، فقاتله أهل دمشق فكسرهم وتقدم إلى المصلى [٢] فقاتلوه مرة بعد أخرى . كل ذلك والظفر له عليهم . وأرسل إلى صاحب دمشق يبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختاره من البلاد ، فمال إلى تسليمها ، فحذره أصحابه وخوفوه عاقبة غدره ، فامتنع من الإجابة فعاد عماد الدين القتال والزحف . واتفقت وفاة جمال الدين صاحب دمشق فى ثامن شعبان ، وولى بعده ابنه مجير الدين أبق ، فاشتد طمع عماد الدين وزحف زحفا شديدا ، فلما رأى أنابك [أنر] [٣] أن عماد الدين لايندفع عنهم ، راسل الفرنج واستنصر بهم ، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير لدفعه عن دمشق ، فعلم عماد الدين بذلك فتوجه إلى حوران فى خامس [٤] عشر رمضان عازما على لقاء الفرنج قبل أن يجتمعوا مع الدماشقة . فلما بلغ الفرنج خبره لم يتحركوا من بلادهم ، فعاد إلى حصار دمشق ونزل بعذرا [٥] شماليها فى سادس شوال ، وأحرق عدة من قرى المرج والغوطة ، ورحل إلى بلاده .

ثم وصل الفرنج إلى دمشق ، وكان معين الدين قد بذل لهم أنه يحاصر بانياس ويسلمها إليهم ، وكانت فى طاعة زنكى . ففعل

---

(١) داريا ، قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة .

(٢) فى ابن الأثير " الموصل " حوادث سنة ٥٣٤ هـ ، وهذا تحريف من غير شك . وربما كان المقصود بالمصلى هنا موضعاً للصلاة خارج دمشق .

(٣) فى ك اتشز .

(٤) فى ابن الأثير خامس رمضان حوادث سنة ٥٣٤ هـ .

(٥) كذا فى المتن ، وعذراء بالفتح ثم السكون قرية بغوطة دمشق (ياقوت ج ٤ ص ٩١) .

معين الدين ذلك وسلمها للفرنج . فلما بلغ عماد الدين ذلك رجع إلى بعلبك وفرق عساكره للإغارة على بلد حوران وأعمال دمشق . وسار جريدة ، فنزل على دمشق بخواصه فى آخر الليل ، ولم يعلم به أحد من أهلها . فلما أصبح الناس ورأوا عسكره ارتج البلد ، واجتمع العسكر والعامة على السور ، وخرجوا إليه فقاتلوه ، فلم يمكنه الإقدام على القتال لتفرق عساكره ، فأحجم عنهم وعاد إلى مرج راهط ، وأقام ينتظر عود عسكره ، فعادوا إليه وقد ملأوا أيديهم من الغنائم فلما اجتمعوا رحلوا إلى بلاده .

ذكر ملكه شهرزور وأعمالها

وفى سنة أربع وثلاثين وخمسماية ملك [عماد الدين زنكى] شهرزور وأعمالها ومايجاورها من الحصون ، وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركمانى . وكان حكمه نافذا على سائر التركمان ، قاصيهم ودانيهم ، وكلمته لاتخالف ، يرون طاعته فرضا ؛ وتحاماه الملوك ، وأتاه التركمان من كل فج عميق . فلما كان فى هذه السنة سير أتابك عماد الدين عسكرا ، فجمع قفجاق أصحابه ولقيهم ، واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره ، وسار الجيش الأتابكى فى أعقابهم فحصروا الحصون والقلاع وبذلوا الأمان لقفجاق فسار إليهم ، وانخرط فى سلك العسكر وسار فى الخدمة هو وابنه من بعده .

وفى سنة خمس وثلاثين وخمسماية كان بين أتابك زنكى وبين داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا حرب شديدة انهزم فيها

داود ، وملك زنكى من بلاده قلعة بهمود [١] ، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل .

وفيها خطب له بمدينة آمد وصار صاحبها فى طاعته ، وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكى فلما رأى قوة زنكى سار معه .

وفيها أغار العسكر الأتابكى من حلب على بلد الفرنج ، فأخربوا ونهبوا وظفروا بسرية للفرنج ، فقتلوا منهم وكان عدة من قتل سبعماية رجل .

توفى ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثى وزير عماد الدين أتابك زنكى ، وكان رحمه الله حسن السيرة كريما رئيسا

ذكر ملك عماد الدين زنكى قلعة آشب وغيرها من بلاد الهكارية [٢]

وفى سنة سبع وثلاثين وخمسماية أرسل عماد الدين جيشا إلى قلعة آشب [٣] ، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها ، وبها أموالهم وأهلوهم [٤] . فحصرها الجيش الأتابكى وضيق على من بها وملكها ، فأمر عماد الدين بهدمها ، وبنى القلعة العمادية وكانت العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخرّبوه لكبره ، لأنه كبير جدا ، فعجزوا عن حفظه فخربت الآن آشب وعمرت العمادية . والعمادية

(١) فى ك ، وفى ع « نهمرد » . وما هنا من ابن الأثير (الكامل — حوادث ٥٣٥ هـ) . ابن واصل (مفرج الكروب ج ١ ص ٨٩) .بهمرد .

(٢) الهكارية عشيرة من أكبر عشائر الأكراد . ، (العـزاوى : العشائر الكردية) .

(٣) آشب بكسر الشين قلعة حصينة من أعمال الموصل وتقع شمالها (ياقوت ج ١ ص ٥٤) .

(٤) فى ك « وأهليهم » .

نسبة إلى عماد الدين زنكى . وكان نصير الدين جقر نائب عماد الدين بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية .

ذكر صلحه والسلطان مسعود

وفى سنة ثمان وثلاثين وخمسماية وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته ، وجمع العساكر وتجهز لقصد بلاد زنكى ، وكان قد حقد عليه واتهمه أنه أفسد عليه أصحاب الأطراف وحرضهم على الخروج على السلطان . فلما بلغ زنكى ذلك أرسل إلى السلطان يستعطفه ويستميله ، وأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنبارى في تقرير القواعد ، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار ، يحملها عماد الدين إلى السلطان ليعود عنه ، فحمل منها عشرين ألف دينار أكثرها عروضا . ثم تنقلت الأحوال بالسلطان حتى احتاج إلى مدارة زنكى ، فأطلق له مابقى . ومن جيد الرأى مافعله عماد الدين زنكى فى هذه الحادثة ، فإن ولده الأكبر سيف الدين غازى كان لايزال عند السلطان – سفرا وحضرا – بأمر والده ، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل أن يمنع ابنه المذكور من الدخول . فلما هرب غازى أرسل إليه يأمره بالعود إلى السلطان ، ولم يجتمع به ، وأرسل معه رسولا إلى السلطان يقول : « إن ولدى هرب خوفا لما رأى تغير السلطان على ، وقد أعدته ، ولم أجتمع به فإنه مملوكك والبلاد لك » فوقع ذلك من السلطان بموقع عظيم ، ومال إلى زنكى

ذكر ملكه بعض ديار بكر

وفى سنة ثمان وثلاثين وخمسماية سار عماد الدين زنكى إلى ديار بكر ، فملك بها عدة حصون منها مدينة طنزة [١] ومدينة أسعرد [٢] ومدينة المعدن التى يعمل بها النحاس ، ومدينة حيزان [٣] وحصن الرونق [٤] ، وحصن قطليس [٥] ، وحصن باناسا [٦] وحصن ذى القرنين وغير ذلك . وأخذ من بلاد ماردين مماهو بيد الفرنج حملين والموزر [٧] وتل موزر [٨] وغيرها من حصون شبختان [٩] ، ورتب أمور الجميع وجعل فيها من يحفظها. وقصد مدينة آمدوحانى [١٠] فحصرهما وأقام بتلك الناحية . وفيها سير عسكرا إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها .

---

(١) طنزة بفتح أوله وسكون ثانيه ، بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، ياقوت ج ٤ ص ٤٣ .

(٢) هكذا ذكرها أيضاً ابن الأثير فى حين ذكرها ياقوت إسعرت .

(٣) جاء فى ياقوت أن حيزان « بلد قرب إسعرت من ديار بكر » .

(٤) رسمه ابن الأثير الدوق ورسمه ابن واصل الروق (مفرج الكروب ج ١ ص ٩٢) .

(٥) رسمه ابن الأثير مطليس وابن واصل قطايس .

(٦) بائسية فى ابن الأثير .

(٧ موزر بضم الميم وتشديد الزاى كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم (ياقوت ج ٥ ص ٢٢١) .

(٨) فى ابن واصل تل موزن (مفرج الكروب ج ١ ص ٩٢) .

(٩) فى ابن الأثير من حصون جوسابن (حوادث سنة ٥٣٨ هـ) .

(١٠) حانى ، إسم مدينة معروفة بديار بكر فيها معدن الحديد (ياقوت ج ٢ ص ٢٠٨) .

ذكر فتح الرها وغيرها من بلاد الجزيرة مما هو بيد الفرنج

وفى سادس جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسماية فتح عماد الدين أتابك زنكى مدينة الرها من حصون الفرنج الجزيرية . وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة ، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها ، وبلغت آمد ونصيبين ورأس عين والرقة وكانت مملكة الفرنج بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وسن بن عطير [1] وحملين والموزر والقرادى وغير ذلك . وكانت هذه الأعمال وغيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين [2] الفرنجى ، وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم ، لما فيه من الشجاعة والمكر . وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج بها من يمنعها ويتعذر عليه ملكها لما هى عليه من الحصانه . فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم . فاطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية . فبلغ أتابك زنكى ذلك فنادى فى العسكر بالرحيل إلى الرها وجمع الأمراء عنده وقدم الطعام وقال : « لايأكل معى على مائدتى هذه إلا من يطعن معى غدا فى باب الرها . » فلم يتقدم غير أمير واحد وصبى لايُعرف ، لما يعلمو من إقدام زنكى وشجاعته ، وأن أحدا لايقدر على مساواته فى الحرب . فقال الأمير لذلك الصبى :

(١) فى ابن الأثير « سن بن عطية » (حوادث سنة ٥٣٩ هـ) .

(٢) فى ك جلو سكين ، والمقصود جوسكين الثانى أمير الرها عندئذ .

« ما أنت فى هذا المقام » فقال أتابك زنكى : « دعه فوالله إنى أرى وجهه لايتخلف عنى . »

وسار والعسكر معه فوصل إلى الرها ، فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج والصبى معه ، وحمل فارس من الفرنج على زنكى عرضا فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله ، وسلم زنكى . ونازل البلد وقاتل عليه ثمانية وعشرين يوما وملكه عنوة ، وملك القلعة ، ونهب الناس الأموال ، وقتلوا الرجال ، وسبوا الذرية والنساء .

فلما رأى عماد الدين البلد أعجبه ورأى أن تخريب مثله لايجوز فى السياسة ، فنودى بالعسكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم ، ورد ماغنموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا ذلك وعاد البلد إلى حالته الأولى ، وجعل فيه عسكرا يحفظه وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ماعدا البيرة لحصانتها .

وحكى ابن الأثير رحمه الله فى تاريخه الكامل قال : حكى لى بعض العلماء بالأنساب والتواريخ ، قال : كان صاحب صقلية قد أرسل سرية إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال فنهبوا وقتلوا . وكان عند صاحب صقلية رجل مسلم كان يكرمه ويحترمه ، ويرجع إلى قوله ، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، حتى كان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب . ففى بعض الأيام كان جالسا فى منظرة يشرف على البحر ، وإذا بموكب لطيف قد أقبل وأخبر من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام وظفروا وغنموا وقتلوا . وكان المسلم

إلى جانبه ، وقد أعفى فقال له الملك : « يافلان ألاتسمع إلى مايقولون » قال : « لا » قال : « إنهم يخبرون بكذا وكذا ، أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها . » قال : « كان قد غاب عنهم وشهد فتح الرها ، فقد فتحها المسلمون الآن » فضحك من هناك من الفرنج فقال الملك : «لاتضحكوا فما يقول والله إلا الحق » فوصل بعد أيام الخبر من فرنج الشام بفتحها . قال ابن الأثير : وحكى لى جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنسانا صالحا رأى الشهيد زنكى فى منامه فقال له : « مافعل الله بك » قال : « غفرلى بفتح الرها » .

ذكر مقتل نصير الدين جقر ، وولاية زين الدين على كورجك

كان مقتله فى ذى القعدة تسع وثلاثين وخمسماية . وسبب ذلك أنه كان ينوب عن عماد الدين أتابك زنكى بالموصل وسائر الأعمال التى شرقى الفرات . وكان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجى ولد السلطان محمود عند زنكى . وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن هذه البلاد لهذا الملك . وكان ألب أرسلان فى هذه السنة بالموصل ، ونصير الدين يحضر إلى خدمته فى كل يوم ، فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقالوا له : « إن قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها ، ولايبقى مع أتابك زنكى فارس واحد » فمال إلى ذلك. فلما دخل نصير الدين إليه وثب إليه من عنده فقتلوه ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظنا

منهم أنهم يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلاد ، فلما رأى أصحابه الرأس قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير ، فدخل القاضى تاج الدين يحيى بن الشهرزورى إلى الملك ألب أرسلان وخدعه ، وكان فيما قاله حين رآه منزعجا : « يا مولانا لم تحرد من هذا الكلب ؟ هو وأستاذه (١) مماليكك ، الحمد لله الذى أراحنا منه ومن صاحبه على يديك » ثم قال له : « وما الذى يقعدك فى هذه الدار ؟ قم لتصعد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون البلاد بعد الموصل مانع » فقام معه وركب وأصعده إلى القلعة ، فلما قاربها أراد من بها من النقيب والأجناد القتال ، فتقدم إليهم القاضى تاج الدين فقال : « افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا ما أردتم » ففتحوا الباب ودخل الملك والقاضى إلى القلعة ومعهما من أعان على قتل نصير الدين . فلما صاروا بالقلعة سجنوا كلهم إلا القاضى .

وبلغ الخبر عماد الدين وهو يحاصر قلعة البيرة ، وقد أشرف على فتحها ، فخاف أن تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ، ففارق البيرة وأرسل زين الدين على بن بُكتكين (٢) إلى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه . وسار عماد الدين عن لبيرة ، فخاف من بها من الفرنج أن يعود إليهم . فسلموها لصاحب

---

(١) فى المتن : « هذا وأستاذه مماليكك » والتصحيح من ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩٥ .

(٢) هكذا فى ابن الأثير حوادث سنة ٥٣٩ هـ ، وفى ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ص ٩٦ . وفى المتن (ك ، ع) بكتن .

ماردين . وملكها المسلمون . فإن لم يكن عماد الدين زنكى فتحها فهو سبب فتحها .

ذكر مقتل عماد الدين زنكى

كا مقتله رحمه الله لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسماية . وذلك أنه كان يحاصر قلعة جعبر ، وكانت بيد سالم بن مالك العقيلى منذ سلمها السلطان ملكشاه إلى أبيه ، عوضا عن قلعة حلب كما تقدم في أخبار السلجقية . فحاصرها عماد الدين الآن وأقام عليها إلى هذا التاريخ ، فدخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة ، وهربوا إلى القلعة ولم يشعر أصحابه . فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها بالعسكر ، وأعلموهم بقتل صاحبهم ، فبادر أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق . ثم مات رحمه الله تعالى وكان عمره نحوا من أربع [1] وستين سنة ، ومدة ملكه منذ ولى الموصل وإلى أن قتل عشرين سنة .

وكان حسن الصورة أسمر اللون ، وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته ، عظيم السياسة لايقدر القوى معه على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم ، وتنقل الولاة ، ومجاورة الفرنج ، فعمرها وامتلات بأهلها وغير أهلها . وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول : « مهما كانت البلاد لنا فأى حاجة لكم إلى أملاك ؟ فإن خرجت عن أيدينا فالأملاك تذهب معها ، ومتى

(١) فى ك وأربعة .

صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية ، وتعدوا عليهم ، وغصبوهم أملاكهم ، والإقطاعات تغنى أصحاب السلطان عنها » (١)

وخلف من الأولاد سيف الدين غازى وهو أكبر أولاده ونور الدين محمود وهو الملك العادل ، وقطب الدين مودود ، وهو أبو الملوك بالموصل ، ونصير الدين أمير أميران . فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والإناث ، ونور الدين من الذكور ، وبقى في عقب قطب الدين على مانذكره إن شاء الله تعالى .

قال : ولما قتل أتابك زنكى كان ولده نور الدين محمود معه ، فأخذ خاتمه من يده وسار إلى حلب فملكها . وسنذكر أخباره مفصلة بعد سيف الدين غازى ، والله أعلم .

ذكر ملك سيف الدين غازى ابن الشهيد عماد الدين أتابك زنكى

قال : لما قتل أتابك زنكى كان الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود معه ، فاجتمعت العساكر عليه وكان الحاكم على دولة زنكى والمدبر لها من أرباب الأقلام جمال الدين محمد بن على بن منصور الإصفهانى شبه الوزير ، ومعه الحاجب صلاح الدين محمد بن أيوب الباغسيانى فاتفقا على حفظ الملك لأولاد صاحبهم عماد الدين وتحالفا على ذلك ، وركبا إلى خدمة الملك ألب أرسلان ، وخدماه ،

(١) فى ابن واصل " مهما كانت البلاد لنا فأى حاجة لكم إلى الأملاك ! فان الإقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فان الأملاك تذهب معها . . . » ، (مفرج الكروب ج ١ ص ١٠١) .

وضمنا له فتح البلاد ، وقالا له : « إن أتابك زنكى إنما كان الناس يطيعونه لأنه كان نائبك » فقبل منهما ذلك وظن صدقهما ومناصحتهما وقربهما ، وأرسلا إلى زين الدين على بن مظفر الدين صاحب اربل بالموصل يعرفانه [١] بوفاة الشهيد ويأمرانه [٢] أن يرسل إلى ابنه سيف الدين غازى ليحضر إلى الموصل ، وكان بشهرزور وهى إقطاعه من قبل أبيه ، ففعل ذلك ووصل إلى الموصل . وأشار جمال الدين على الملك بإرسال الحاجب صلاح الدين إلى حلب ليدبر أمر نور الدين فأمره بالمسير إليها فسار ، وكانت حماه إقطاعه ، وانفرد جمال الدين بالملك ألب أرسلان فقصد به الرقة ، واشتغل بالشرب واللهو واستمال جمال الدين العسكر ، وحلفهم لسيف الدين غازى ، وصار يأمر من تخلف بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك ، وبقى جمال الدين يسير بالملك من الرقة إلى سنجار ، ويخذله ويطعمه ، ومازال حتى انتهى به إلى الموصل . وأرسل الأمير عز الدين الدبيسى إلى الملك فى عسكر ، والملك فى نفر يسير ، فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به . فاستقر أمر سيف الدين بالموصل واستوزر جمال الدين وأرسل إلى السلطان مسعود فى إمرة الموصل فأمره على البلاد ، وأرسل له الخلع . وكان سيف الدين قد تقدمت له خدمة على السلطان مسعود ولازمه سفرا وحضرا فى أيام زنكى .

قال : ولما استتب الأمر لسيف الدين غازى بالموصل عبر إلى الشام لينظر فى أمور البلاد ، ويقرر قاعدة بينه وبين أخيه نور الدين ،

(١) فى ك : يعرفاه .
(٢) فى ك : ويأمراه .

ولما عبر الفرات لم يحضر نور الدين إليه وخافه فراسله واستماله بحسن سياسته ، فاستقرت الحال بينهما أن يجتمعا خارج العسكر السيفى ، وكل منهما فى خمسمائة فارس . فسار نور الدين يوم الميعاد من حلب بهذه العدة ، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس ، فلما رآه نور الدين ترجل وقبل الأرض ، وأعاد أصحابه فاجتمعا وتحالفا واتفقا أحسن اتفاق ، واستقر نور الدين بحلب وما معها ، وسيف الدولة بالموصل وما معها .

ذكر حصر الفرنج دمشق
ومافعله سيف الدين غازى

وفى سنة ثلاث وأربعين وخمسماية وصل ملك الألمان [١] فى جمع كثير من الفرنج وعزم على ملك الشام ، وظن أنه يملكه لامحالة لكثرة أصحابه ، واجتمع عليه من بالشام والسواحل من الفرنج . ووصل إلى دمشق وحاصرها ، ونزل الميدان الأخضر ، فأيقن أهلها بخروجها عن الإسلام . وكان ملكها يوم ذاك مجير الدين أبق بن محمد ابن بوري بن طغرتكين ، وليس له من الأمر شيء والحكم في البلد لأتابكه معين الدين [أنر] مملوك جد أبيه ، فأرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده ، فجمع عساكره والعساكر الحلبية ، وسار إلى دمشق ، فخافه الفرنج . ثم راسل فرنج الساحل وأوعدهم بحصر بانياس ، فاجتمعوا بملك الألمان وقالوا له : « إن هذا ملك بلاد المشرق

(١) المقصود بملك الألمان هنا كونراد الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأحد أقطاب الحملة الصليبية الفاشلة المعروفة بالثانية .

قد قدم ، وخوفوه عاقبة أمره ، فرحل ملك الألمان إلى بلاده ، وتسلم الفرنج بانياس ، كما وقع الاتفاق عليه ، وعاد سيف الدين إلى الموصل .

ذكر وفاة سيف الدين غازى ابن عماد الدين زنكى

كانت وفاته فى أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسماية بالموصل لمرض حاد ، ودفن بمدرسته التى بناها بالموصل . فكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما ، وعمره نحوا من أربع (١) وأربعين سنة . وخلف ولدا ذكرا رباه عمه نور الدين محمود أحسن تربية ، وزوجه بابنة عمه قطب الدين ، ولم تطل مدته ، ومات فى عنفوان (٢) شبابه ، وانقرض عقب غازى بوفاته .

قال : وكان سيف الدين غازى يمد لعسكره فى كل يوم سماطا كبيرا ، طرفى النهار يكون فى سماطه للغداء مائة رأس من الغنم ، وأمر الأجناد أن يركبوا بالسيوف والدبابيس ، فاقتدى به أصحاب الأطواف وهو أول من حمل على رأسه السنجق من عمال الأطراف ، وبنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل ، ووقفها على طائفتى الشافعية والحنفية ، وبنى رباط الصوفية بالموصل . ولم تطل أيامه حتى يفعل ما فى نفسه من وجوه البر ، رحمه الله . وسنذكر إن شاء الله تعالى من ملك الموصل بعده إذا انقضت أخبار الشهيد نور الدين وولده .

(١) فى ك وأربعة .
(٢) فى ك عنوان .

ذكر أخبار الملك العادل نور الدين أبى القاسم محمود ابن أتابك عماد الدين أبى سعيد زنكى بن أقسنقر

قد ذكرنا أنه لما مات والده رحمه الله فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسماية ، توجه بخاتمه إلى حلب وملكها ، وذكرنا أيضا ما كان بينه وبين أخيه سيف الدين غازى رحمه الله ، وما اتفقا عليه ، فلنذكر من أخباره خلاف ذلك . ولنبدأ بغزواته وفتوحاته ، ثم نذكر ما استولى عليه من الممالك وغير ذلك .

ذكر الغزوات والفتوحات النورية وما استنقذه من أيدى الفرنج

ذكر عصيان مدينة الرها وفتحها الفتح الثانى ونهبها

قال : لما قتل أتابك زنكى كان جوسكين الفرنجى صاحب الرها فى ولايته وهى تل باشر ، فراسل عامة أهل الرها من الأرمن وحملهم على العصيان والامتناع على المسلمين ، فأجابوه إلى ذلك . فسار فى عساكره إلى الرها وملك البلد ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها فسار نور الدين ، وجد السير إليها . فلما قاربها هرب جوسكين عنها ، وعاد إلى بلده ، ودخل نور الدين البلد . ونهب المدينة ، وسبى أهلها ، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل . وذلك فى سنة إحدى وأربعين وخمسماية . وفى سنة اثنتين وأربعين وخمسماية ،

فتح [نور الدين] مدينة ارتاح [١] بالسيف ، ونهبها وحصر مايوله[٢] وبصرفوث[٣] وكفر لاثا [٤] ، وكان الفرنج بعد قتل أتابك زنكى قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذ منهم فخاب ظنهم .

ذكر فتح حصن العريمة

وفى سنة ثلاث وأربعين وخمسماية فتح حصن العريمة ، وهو من أعمال طرابلس . وكان ملك الألمان لما سار عن دمشق وجه إلى العريمة ولد ألفتش [٥] صاحب ظليطه ، وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج . وكان جده هو الذى فتح طرابلس ، فملك العريمة ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص ، فأرسل القمص إلى نور الدين ، وإلى معين الدين صاحب دمشق أن يقصدا حصن العريمة ويملكاه . فسار نور الدين من حلب ومعين الدين من دمشق واستمدا سيف الدين غازى ، فأمدهما بعسكر كثيف مع الأمير عز الدين الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر . فنازلوا الحصن ، وحصروه وبه ولد ألفتش ، فاستسلم من به بعد امتناع ، وملكه المسلمون ، وأخذوا كل من فيه من فارس وراجل وصبى وامرأة . وكان ولد ألفتش ممن أسر وأخربوا الحصن ثم عادوا

---

(١) ارتاح : إسم حصن منيع كان من أعمال حلب .
(٢) كذا فى ك ، وفى ابن الأثير مابوله .
(٣) بسرفوث أو بصرفوث . حصن من أعمال حلب
(٤) كفر لاثا ؛ بلدة من نواحى حلب
(٥) تعريب ألفونس . وقد ذكرت بعض المراجع العربية الاسم بصيغة الأذفونس .

ذكر انهزام الفرنج بيغرا (١)

وفى سنة ثلاث وأربعين أيضا ، اجتمع الفرنج لقصد حلب : فسار إليهم الملك العادل نور الدين بعسكره ، فالتقوا بيغرى ، واقتتلوا قتالا شديدا ، أجلت الحروب عن ظفر الملك العادل ، وانهزام الفرنج وأسر جماعة من مقدميهم .ولم ينج من ذلك الجمع إلا اليسير.وأرسل نور الدين من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهم . وفى هذه الوقعة يقول ابن القيسرانى من قصيدة أولها :

يـاليـت أن الصـد مصـدود أو لا ، فليـت النوم مردود

جـاء منها

وكيف لايثنى على عيشنا المحمـ ـود والسلطان محمـود

وصـارم الإسـلام لاينثنـى إلا وشلـو الكفر مقـدود

مكـارم لم تـك(٢) موجـودة إلا ونور الـدين مـوجـود

وكـم له من وقعـة يومهـا عنـد ملـوك الكفـر مشهود

---

(١) كذا فى المتن ، كتبه ابن الأثير وابن واصل " يغرى " بالياء وهى بلدة قريبة من دربساك .

(٢) فى الأصل « لم تكن » والتصحيح من ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٥٤٣ هـ.

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية

وفى سنة أربع وأربعين وخمسماية ، غزا نور الدين بلاد الفرنج ، من ناحية انطاكية وقصد حصن حارم[١] وهو للفرنج ، وحصره وخرب ربضه ، ونهب سواده ثم رحل إلى حصن إنب [٢] فحصره ، فاجتمعت الفرنج لقتاله مع البرنس ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم الفرنج وقتل البرنس [٣] وجماعة كثيرة من أصحابه ، وأسر خلق كثير . وكان البرنس من عتاة الفرنج . ولما قتل ملك بعده انطاكية ابنه بيمند [٤] ، ثم غزاهم نور الدين غزوة ثانية ، فقتل وأسر ، وكان ممن أسر البرنس الثانى زوج أم بيمند صاحب انطاكية . وكان قتل البرنس [ريموند] عظيما عند الطائفتين وأكثر الشعراء مدح نور الدين بهذا الظفر ، فكان ممن قال فيه ابن القيسرانى الكاتب قصيدته المشهورة وهى :

هذى العزائم لاماتدعى القضُب ... وذى المكارم لاماقالت الكتب

وهذه الهمم اللائى متى خُطبت[٥] ... تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابن عمادالدين ذِرْوَتها ... براحة للمساعى درنها تعب[٦]

---

(١) حارم بكسر الراء وصفه ياقوت بأنه حصن حصين من أعمال حلب تجاه أنطاكية معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) إنب بتشديد النون ، حصن من أعمال عزاز على الضفة الشرقية لنهر العاصى قرب معرة النعمان .

(٣) المقصود بالبرنس ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية .

(٤) بوهيموند الثالث وكان قاصراً عند مقتل أبيه ريموند .

(٥) كذا فى ك ، ع وفى ابن واصل « إذا خطبت » ج ١ ص ١٢١) .

(٦) كذا فى ك ، ع ، وفى ابن واصل « التعب » وفى ابن الأثير (ج ١ ص ١٢١) .

مازال جدّك يبنى كل شاهقة حتى بنى قبة أوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالإفرنج[1] راجفة فؤاد روميّة الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها[2] الصلب وانحطت لها الصلب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم طهارة كل سيف عندها جنب

ذكر فتح حصن أفامية

وفى سنة خمس وأربعين وخمسماية فتح الملك العادل نور الدين حصن أفامية من الفرنج ، وهو مجاور شيزر وحماة ، وهو من أحصن القلاع وأمنعها ، فاجتمع الفرنج من الساحل وساروا نحوه ليرحلوه ، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه من الذخائر والسلاح وشحنة بالرجال . وسار عنه فى طلب الفرنج ، فعدلوا عن طريقه وسألوه الهدنة ، وعاد مظفرا منصورا .

ذكر أسر جوستكين وفتح بلاده

كان نور الدين قد جمع عساكره فى سنة ست وأربعين وخمسماية وسار إلى بلاد جوستكين الفرنجى وهى شمالى حلب ، وعزم على محاصرتها . وكان جوستكين فارس الفرنج وطاغيتهم ، صاحب رأى وشجاعة ، فجمع وأكثر ، وسار نحو نور الدين والتقوا واقتتلوا ،

(١) كذا فى ك ، ع وفى ابن واصل « فى الافرنج » ج ١ ص ١٢١ .
(٢) كذا فى ك ، ع وفى ابن واصل « لها » ج ١ ص ١٢١ .

فكانت الهزيمة على المسلمين ، وقتل كثير منهم . وأسر سلحدار نور الدين فيمن أسر ، فأخذ جوستكين سلاحه ، وأرسله إلى الملك مسعود قلج صاحب الروم ، وقال : « هذا سلاح زوج ابنتك وسآتيك بعده بما هو أعظم منه » فأهم نور الدين ذلك وعظم عليه ، وعلم أنه لايتمكن من جوستكين فى حرب ، لأنه إما أن يحارب أويحتمى بحصونه . فجعل عليه العيون من التركمان ، ووعدهم إن أسروه وأتوا به أو برأسه بمواعيد كثيرة . فرصدوه إلى أن خرج إلى الصيد ، وأسروه فصالحهم على مال يؤديه إليهم ، فسير فى إحضار المال إليهم فجاء بعضهم إلى أبي بكر بن الداية ، نائب نور الدين بحلب ، وأخبره بالقضية . فسير عسكرا مع من حضر إليه بالخبر ، وكبس التركمان وأخذوا جوستكين أسيرا . وكان من أعظم الفتوحات ، وأصيبت النصرانية كافة بأسرها (١)

ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها ، وهى تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البادة وكفر سود ، وكفر لاثا ، ودلوك ، ومرعش ، ونهر الجوز ، وغير ذلك من أعماله فى مدة يسيرة . واجتمع الفرنج فى سنة سبع وأربعين ، وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو بدلوك ، فلما قربوا منه رجع إليهم واقتتلوا قتالا شديدا كان الظفر له وقتل وأسر منهم . وعاد إلى دلوك فملكها . وكان نور الدين إذا فتح حصنا من هذه الحصون شحنه بما يحتاج إليه من الرجال والسلاح والذخائر وغيرها .

(١) فى ك بأسره .

ذكر حصر قلعة حارم وفتحها

وفى سنة إحدى وخمسين وخمسماية حصر نور الدين قلعة حارم وشدد الحصار ، فصالحه الفرنج على نصف أعمال حارم ، وصالحهم ورحل عنهم ثم فتحها فى شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسماية .

ذكر ملكه بانياس وماقرره على طبرية واعمالها

وفى سنة تسع وخمسين ملك حصن بانياس ، وكان بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسماية ، كما قدمنا . فنازله ، فجمع الفرنج لقصده ، فلم يكمل جمعهم إلا وقد ملك الحصن وشحنه بالرجال والذخائر ، ثم شاطر الفرنج على أعمال طبرية ، وقرروا له على الأعمال التى لم يشاطرهم عليها فى كل سنة مالا يحملونه إليه ، والله أعلم .

ذكر فتح المنيطرة

والمنيطرة فيما بين طرابلس وبعلبك وهى الآن من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية . فلما كان فى سنة إحدى وستين وخمسماية ، سار نور الدين إليها جريدة ، وملكها وأعجل الفرنج عن الاجتماع لرده ، وسبى وغنم ، فجاء الفرنج بعد أن ملكها فأيسوا منها ، ورجعوا عنها ، والله أعلم .

ذكر فتح صافيثا وعريمة

وفى سنة اثنتين وستين وخمسماية جمع نور الدين العساكر وسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل واجتمعا على حمص ، فدخل بالعساكر إلى بلاد الفرنج بالساحل واجتاز على حصن الأكراد (١) ، فأغاروا ونهبوا وسبوا . وقصدوا عرقة (٢) فنازلوها وحصروها ، وحصروا حلبة وأخذوها وخربوها . وسارت عساكر المسلمين فى بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب ، وفتحوا العريمة ، وصافيثا ، وعادوا إلى حمص فصاموا بها شهر رمضان ، وكان الفرنج فى سنة ثمان وأربعين قد كبسوا عسكر نور الدين بالبقيعة على حين غفلة من العسكر ، فنالوا من المسلمين منالا عظيما ، فجعل نور الدين فى مقابلة ذلك فتح حارم وبانياس والمنيطرة وصافيثا وعريمة وتخريب بلادهم ، وأدرك ثأره عن غير بعد .

ثم سار بعد شهر رمضان إلى بانياس ، وقصد العبور إلى بيروت ، فجرى بين العسكر اختلاف أوجب رجوعه . وأعطى قطب الدين فى هذه السنة الرقة ، وأعادهُ إلى بلده . هذا مافتحه رحمه الله من بلاد الفرنج ، فلنذكر مااستولى عليه من البلاد الإسلامية :

---

(١) حصن الأكراد ؛ حصن منيع على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب ، وكان هذا الحصن مركزاً هاماً لهيئة فرسان الإستبارية على عصر الحروب الصليبية .

(٢) عرقة بكسر أوله وسكون ثانيه ؛ بلدة فى شرق طرابلس ، وفى النص وردت عرقاً بالألف .

ذكر مااستولى عليه من البلاد الاسلامية

فى سنة أربع وأربعين وخمسماية ، استولى الملك العادل [نور الدين] على سنجار ، وكانت بيد أخيه قطب الدين ، ملكها بعد وفاة سيف الدين غازى ، ثم حصل الاتفاق بينهما على أن يكون نور الدين صاحب حلب وحمص والرحبة والشام ؛ وقطب الدين بالموصل وديار الجزيرة ، وسلم سنجار لأخيه قطب الدين ، وأخذ نور الدين ماكان من الذخائر بسنجار ، وكانت كثيرة جدا ، وعاد إلى حلب وقد حصل الاتفاق بينه وبين أخيه .

ذكر ملكه مدينة دمشق

وفى سنة تسع وأربعين وخمسماية ملك دمشق من مجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغرلتكين . وسبب قصده لها أن الفرنج ملكوا فى السنة التى قبل هذه السنة مدينة عسقلان ، واستولوا على تلك النواحى ، فلم يتمكن نور الدين من غزوهم ودفعهم ، لأن دمشق تحول بينه وبينهم . ولم تمكنه مفاجأة صاحبها لعلمه أنه إن سار إليها راسل صاحب دمشق الفرنج واستنجد بهم . وكان قد استقر لهم ضريبة على دمشق تحمل إليهم فى كل سنة ، ويحضر رسلهم لقبضها ، فزاد استيلاؤهم إلى أن أخذوا كل من فيها من الغلمان والجوارى ، بحيث أنهم يطلبون الغلام أو الجارية ويخيروه ، فان اختار الرجوع إليهم أخذوه ، اختار مولاه أو امتنع ؛ وان اختار

المقام عند مواليه تركوه . فأهم ذلك نور الدين ، وخاف أن الفرنج متى استولت على دمشق ملكوا الشام أجمع ، فأخذ فى إعمال الحيلة وراسل مجير الدين صاحبها وهاداه وداهنه واستماله . وبقى يوقع بينه وبين أمرائه ، فكتب إليه يقول : « إن فلانا الأمير قد كاتبنى فى تسليم دمشق » فقبض عليه مجير الدين حتى اختل أمر عسكره وضعف . ثم راسل نور الدين الأحداث من الأمراء بدمشق ، ووعدهم الجميل فمالوا إليه ووعدوه بتسليمها له ، فسار إليها . فلما نازلها كاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم بعلبك ليمنعوا نور الدين عنه ، فحشدوا فارسهم وراجلهم ، فلم يتكامل جمعهم إلا وقد ملك نور الدين دمشق ، سلمها له الأمراء ، ودخلها من الباب الشرقى . وتحصن صاحبها بالقلعة ، فبذل له نور الدين حمص ، فرضى وسلم القلعة وسار إلى حمص ، ثم عوضه عن حمص مدينة بالس فامتنع ، وتوجه إلى بغداد ومات بها .

وفى سنة اثنتين وخمسين ، ملك نور الدين حصن شيزر من آل منقذ وكانت الزلزلة قد هدمت أسواره فعمرها والله أعلم .

ذكر ملكه بعلبك

وفى سنة اثنتين وخمسين وخمسماية ملك بعلبك وقلعتها . وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعى ، منسوب إلى البقاع البعلبكى ، كان صاحب دمشق قد ولاه إياها ، فلما ملك نور الدين دمشق لم تمكنه مشاححته لقربه من الفرنج ، فطاوله إلى الآن وملكها منه .

ذكر ملكه قلعة جعبر

وفى سنة أربع وستين وخمسماية ملك [نور الدين] قلعة جعبر من صاحبها شهاب الدين مالك بن على بن مالك العقيلى وكانت بيده وبيد آبائه كما تقدم . وكان السبب فى ملكه لها أن صاحبها سار إلى الصيد ، فأسره بنو كلاب (١) وجاؤوا به إلى نور الدين فى شهر رجب سنة ثلاث وستين ، فاعتقله نور الدين وأكرمه فى اعتقاله . وأخذ فى طلبها باللين ، فلم يوافق على إعطائها ثم أخذه بالشدة فلم يوافق ، فسير الجيوش لحصرها ، فحوصرت مدة فلم يظفر منها بطائل ، فعاود صاحبها بالملاطفة ، وعوضه عنها سروج وأعمالها والملاحة التى من بلد حلب وباب بزاعه ، وعشرين ألف دينار معجلة . فقبل العوض وسلم القلعة . وهذه القلعة فى عصرنا هذا إلى سنة أربع عشرة وسبعماية خرابا لاباب عليها والله أعلم .

ذكر ملكه الديار المصرية

وفى سنة أربع وستين وخمسماية ملك أسد الدين شيركوه الديار المصرية بجيوش الملك العادل نور الدين ، وهى السفرة الثالثة له إليها من قبل نور الدين ونذكر ذلك مفصلا فى أخبار الدولة الأيوبية ، ودامت الخطبة بها للملك العادل مدة حياته ، وصدرا من أيام ولده الملك الصالح إسمعيل .

---

(١) بنو كلاب ، قبيلة من عرب الشمال أو القيسيين سيطرت فى ذلك الوقت على جهات من شمال الشام والجزيرة .

ذكر ملكه الموصل

وفى سنة ست وستين وخمسماية ملك الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين ، وأقر عليها سيف الدين غازى بن قطب الدين ، على ماسنذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار غازى . وأطلق نور الدين سائر المكوس بالموصل وبسائر البلاد . وجاءته الخلع من الخليفة المستنصر بالله ، فلبسها ، ثم خلعها على سيف الدين غازى ابن أخيه . وأمر ببناء الجامع النورى بالموصل ، فبنى وأقام بالموصل عشرين يوما وعاد إلى الشام .

ذكر وفاته رحمه الله وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاة الملك العادل نور الدين محمود فى حادى عشر شوال سنة تسع وستين وخمسماية ، بعلة الخوانيق ، ولقب بعد موته بالشهيد . ومولده فى سنة إحدى عشرة وخمسماية ، فيكون عمره نحوا من ثمان [1] وخمسين سنة ، ومدة ملكه منذ وفاة أبيه ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر وستة أيام . ومن العجب أنه ركب إلى الميدان الأخضر بدمشق فى ثانى شوال ، ونصب فيه قبقا [2] ،

---

(١) فى ك ثمانية .

(٢) القبق ؛ لعبة رياضية فتنصب خشبة عالية فى ميدان اللعب وتعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها إلى هدف معين ، وذلك تمريناً لهم على إحكام الرمى ، وأحياناً يكون بدل هذه الدائرة شكل قرعة عسلية ، واسمها بالتركية القبق .

أنظر ما كتبه محمد مصطفى زيادة فى السلوك ج ١ ص ٥١٨ حاشية ٦) .

فسايره الأمير همام الدين مودود ، وقال له : « أترى هل نكون ههنا فى مثل هذا اليوم من العام المقبل ؟ » فقال له نور الدين : « لاتقل هكذا ، قل هل نكون ههنا بعد شهر ؟ فإن السنة بعيدة » ورجع إلى القلعة ، وختن ابنه وأصابته العلة ، فمات بعد عشرة أيام . ومات الأمير همام الدين قبل استكمال الحول . ودفن نور الدين بقلعة دمشق ، ثم نقل إلى مدرسته التى بناها بجوار سوق الخواصين بدمشق وقبره هناك مشهور .

وأما سيرته وأفعاله رحمه الله تعالى فإنه أفرغ وسعه فى الجهاد ، واستنقذ من أيدى الفرنج ماذكرناه . وكان ثابتا فى حروبه ، وبنى المدارس والمساجد والربط والبيمارستان والخانات والطرق والجسور ، وجدد القنى وأصلحها ، وأوقف الوقوف على معلمى الخط لتعليم الأيتام ، وعلى سكان الحرمين الشريفين ، وأقطع أمراء العرب الإقطاعات حتى كفوا عن التعرض إلى الحاج . وبنى أسوار المدن والحصون التى هدمتها الزلزلة التى ذكرناها فى أخبار الدولة العباسية . وكان رحمه الله مواظبا على الصلاة فى الجماعة ، حريصا على فعل الخير ، عفيف البطن والفرج ، مقتصدا فى الإنفاق والمطاعم والملابس ، لم تسمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى سخطه وعاقب على شرب الخمر

قال الشيخ عز الدين أبو الحسن على بن عبد الكريم الجزرى المعروف بابن الأثير رحمه الله : « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين

ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه » قال : وكان رحمه الله لايفعل فعلا إلا بنية حسنة . كان بالجزيرة رجل من الصالحين العباد ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله فيرجع إلى قوله ، فبلغه أن نور الدين يُدْمِنُ اللعب بالأكرة (١) فكتب إليه يقول : « ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة » فكتب إليه نور الدين بخطه يقول : « والله مايحملنى على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، إنما نحن فى ثغر ، العدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب فى الطلب ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا . إذ لابد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت حماما لاقدرة لها على إدمان السير فى الطلب ، ولامعرفة لها بسرعة الانعطاف فى الكر والفر فى المعركة فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب حمامها ، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب . فهذا والله الذى بعثنى على اللعب بالكرة » .

قال : وحكى عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يحضرها عنده ، فوصفت له ، فلم يلتفت إليها ؛ فبينما هم معه فى حديثها إذ جاءه رجل صوفى فأمر له بها . فقيل له إنها لاتصلح لهذا الرجل ، ولو أعطى غيرها كان أنفع له . فقال : « أعطوها له ، فانى أرجو أن أعوض عنها فى الآخرة » فسلمت إليه . قيل والذى أعطيها شيخ الصوفية عماد الدين بن حمويه ، فبعثها إلى همذان ، فبيعت بألف دينار .

(١) لعب الكرة أو الأكرة أو الجوكان ، هى اللعبة المعروفة اليوم باسم بولو ، فيركب اللاعبون الخيل ، وبيد كل منهم عصا طولها نحواً من أربعة أذرع يحاول إجتذاب الكرة بها . (أنظر ما كتبه محمد مصطفى زيادة فى السلوك ج ١ ص ٤٤٤ حاشية ١) .

قالوا وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، وسمع الحديث وأسمعه ، وكان يعظم الشريعة المطهرة ، ويقف عند أحكامها ، فمن ذلك أنه كان يلعب بالكرة عند دمشق ، فرأى إنسانا يحدث آخر ويومئ إليه بيده ، فأرسل يسأله عن حاله ، فقال : « لى مع الملك العادل حكومة ، وهذا غلام القاضى ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمنى على الملك الفلانى » فلما قيل ذلك له ألقى الجوكات من يده وخرج من الميدان وتوجه إلى القاضى كمال الدين بن الشهرزورى وأرسل إليه يقول : « انى قد جئت فى محاكمة فاسلك معى ماتسلكه مع غيرى . » فلما حضرا ، ساوى خصمه وحاكمه ، فلم يثبت قبله حق ، وثبت الحق لنور الدين . فعند ذلك أشهد على نفسه أنه وهب الملك للذي حاكمه ، وقال : « كنت أعلم أن لاحق له عندى ، وإنما حضرت معه لئلا يظن بى أنى ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لى ، وهبته له » .

قال : وهو أول من بنى دار الكشف وسماها دار العدل ، وكان يجلس فيها فى الأسبوع يومين ، وعنده القاضى والفقهاء لفصل الحكومات بين القوى والضعيف . وكان شجاعا حسن الرأى والمكيدة فى الحرب ، عارفا بأمور الأجناد . وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين . وتركشين [1] ، وباشر القتال بنفسه . وكان يقول : « طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها » .

قال : ومن أحسن الآراء ماكان يفعله مع أجناده . كان إذا توفى

(١) التركاش أو التركش ، الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب .

أحدهم وخلف ولدا ، أقر الإقطاع عليه : فإن كان كبيرا استبد بتدبير نفسه ، وإن كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق إليه يتولى أمره إلى أن يكبر . فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، وكان ذلك سببا عظيما للنصر فى المشاهد والحروب . قال : وبنى أسوار مدن الشام وقلاعها ، فمنها حلب وحماه وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون ، وأخرج عليها الأموال الكثيرة التى لاتسمح النفوس بمثلها . وبنى المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها . وبنى الجوامع فى كثير من البلاد ، فمنها جامعه بالموصل ، إليه النهاية فى الحسن والإتقان وفوض عمارته والخرج عليه للشيخ عمر الملا ، وكان من الصالحين . فقيل له إنه لايصلح لمثل هذا العمل، فقال : « إذا وليت بعض أصحابى من الأجناد والكتاب ، أعلم أنه يظلم فى بعض الأوقات ، فلايقى عمارة الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظنى أنه لايظلم ، فإن ظلم كان الاثم عليه لاعلى » وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصى من أحسن الجوامع وأنزهها ، وجدد فى غيرها من عمارة الجوامع ماكان قد تهدم بسبب زلزلة وغيرها . وبنى البيمار ستانات فى البلاد ، ومن أعظمها وأشهرها البيمارستان الذى بناه بدمشق ، وقفه على كافة المسلمين من غنى وفقير ، وبنى الربط والخانقاهات (١) للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الإدرارات الصالحة .

---

(١) خانقاه وجمعها خانقاوات وخانقاهات ، وهى منزل الصوفية .

قال : وكان قد ضبط ناموس الملك إلى غاية لامزيد عليها ، فكان يلزم الأجناد بوظائف الخدمة ، ولايجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، إلا نجم الدين أيوب ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره ، فإنهم كانوا يقفون حتى يأمرهم بالجلوس . وكان مع ذلك إذا دخل عليه الفقير والصوفى والفقيه يقوم له ويجلسه إلى جانبه . وكان إذا أعطى أحدهم شيئا يقول إن هؤلاء لهم فى بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا .

ولم يزل الناس معه فى غاية الأمن والخير والبركة والنمو والإحسان والعدل والبر وإظهار السنة وقمع البدعة إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى .

ذكر أخبار الملك الصالح
اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك زنكى بن أقسنقر

ملك بعد وفاة والده فى حادى عشر شوال سنة تسع وستين وخمسماية . وحلف له الأمراء وأطاعه الناس فى سائر البلاد وخطب له الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالديار المصرية . ولم يكن الملك الصالح إذ ذاك قد بلغ الحلم . وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم . قال العماد الأصفهانى الكاتب : وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلى معزيا للملك الصالح وفى آخره :

« وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره ، وسيل لقراره ، إلى أن يزعجه من مجاثمه ، ويستوقفه عن مواقف مغانمه ، وذلك من أقل فروض البيت الكريم ، وأيسر

لوازمه . أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع عشر ذى القعدة وهو اليوم الذى أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح فيه بذكره فى الموقف العظيم ، والجمع الذى لالغو فيه ولا تأثيم ، وأشبه يوم الخادم أمسه فى الخدمة ، وفيما لزمه من حقوق النعمة ، وجمع كلمة الإسلام عالما أن الجماعة رحمة » .

قال : ولما بلغ سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود وفاة عمه ، استبشر لذلك ، ونادى بالموصل بالفسحة فى الشرب واللهو . وكان الخبر قد أتاه وهو سائر إلى خدمة عمه نور الدين ، فإنه كان قد استدعاه بالجيوش ، فعاد وهرب سعد الدين كمشتكين ، على مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار سيف الدين غازى مبينا . قال : ولما اتفق ذلك منه لم يكتب الجماعة الذين فى خدمة الملك الصالح إلى صلاح الدين يوسف بالخبر ، خوفا أنه إذا بلغه ذلك أقصدهم ، واستولى على الملك الصالح وأبعدهم ، فشق ذلك عليه وكان من أمره مانذكره إن شاء الله تعالى .

قال : وأقام الملك الصالح بدمشق وجماعة الأمراء عنده لم يمكنوه من المسير إلى حلب ، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين بن الداية ، ويختص بخدمته ، فإنه كان من أكبر الأمراء النورية . ولما وصل كمشتكين من الموصل إلى حلب أحسن إليه الأمير شمس الدين ابن الداية ، وأكرمه ، وجهزه إلى دمشق لإحضار الملك الصالح منها إلى حلب ، وجهز معه العساكر . فلما قارب دمشق سير الأمير شمس الدين محمدبن المقدم عسكرا إليه ، فهزموه . ونهبوا مامعه ،

فعاد إلى حلب منهزما ، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم نظر أمراء دمشق المصلحة ، فعلموا أن مسيره إلى حلب أجود من مقامه بدمشق . فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعدالدين كمشتكين ليأخذ الملك الصالح ، فجهزه إليهم ، فسار إلى دمشق فى المحرم سنة سبعين وخمسماية ، فأخذ الملك الصالح وعاد به إلى حلب . فلما وصل إليها ، قبض سعد الدين على ابن الداية وإخوته ، وعلى الرئيس ابن الخشاب رئيس حلب ، ومقدم الأحداث بها .

واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح ، فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء بدمشق أن سعد الدين يسير إليهم ويفعل بهم كما فعل بابن الداية ، فراسل سيف الدين غازى بن مودود فى الحضور من الموصل ليتسلم دمشق فخشى غازى أن تكون مكيدة فلم يحضر ، فراسله سعد الدين ، واتفق الحال على أن يستقر بيده ما استولى عليه من الأعمال الجزيرية . فقال أمراء دمشق : حيث صالح سيف الدين ، لم يبق له مانع من المسير إلى دمشق . فراسلوا الملك الناصر صلاح الدين فى الحضور من مصر ليتسلمها .فوصل إليها ، وتسلمها ، وملك حمص وحماه وبعلبك .ولم يقطع خطبة الملك الصالح ، وأظهر أنه إنما حضر لخدمته ، واسترجاع مااستولى عليه سيف الدين غازى وغيره من الأعمال الجزيرية . ثم كان بينه وبين العسكر الحلبى من الحروب مانذكره فى أخبار الدولة الأيوبية ، إلى أن أحوجوه إلى الاستقلال بالأمر والخطبة لنفسه وملك البلاد .

ذكر مقتل سعد الدين كمشتكين وحصر الفرنج حارم

وفى سنة ثلاث وسبعين وخمسماية قبض الملك الصالح على سعد الدين ، وهو المتولى على أمر دولته ، والحاكم فيها . وسبب ذلك أن أبا صالح بن العجمى كان من أكابر حلب ، وكان مقدما عند نور الدين ، وتقدم عند ولده وأطاعه الناس ، وكثرت أتباعه ، فوثبت عليه بعض الباطنية بالجامع فقتله ، فنسب ذلك لسعد الدين فوشوا به عند الملك الصالح ، فقبض عليه . وكانت حارم اقطاعه ، فامتنع من بها من تسليمها فسيره الملك الصالح تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها ؛ فأمرهم فلم يرجعوا إلى قوله ، وعذب وهم ينظرون إليه إلى أن مات تحت العقوبة . فبلغ الفرنج ذلك ، فنازلوا قلعة حارم ونصبوا عليها المجانيق ، فصالحهم الملك الصالح على مال ففارقوها ، وتسلمها بعد حصار ثان ، ورتب فيها من المماليك النورية من يحفظها .

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل

كانت وفاته لخمس بقين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسماية . وابتدأت علته فى تاسع الشهر ، وكان مرضه القولنج ومات وله من العمر تسع عشرة سنة . وقيل فى سبب وفاته إن علم الدين سليمان بن جندر سقاه فى عنقود عنب وهو فى الصيد ؛

(١) هكذا ورد إسمه فى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠ – ٣١ ، وابن واصل أو مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٣ ، وفى ابن الأثير حوادث سنة ٥٨٢ هـ . وهو سليمان بن جندر من أصفياء صلاح الدين الذى ضرب له مثل الطير الذى يحضن لأولاده ، واستمع صلاح الدين إلى نصيحته .

وقيل بل سقاه ياقوت الأسدى فى شراب ، فعظم موته على سائر الناس ، وحزنوا لفقده حزناشديدا .

قال ابن الاثير : ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوى ، فاستفتى الفقيه علاء الدين الكاشانى وأفتاه بجواز شربها ، فقال : «إن كان الله قد قرب أجلى أيؤخره شرب الخمر» فقال : لاوالله فقال : « والله لالقيت الله تعالى وقد استعملت ماحرمه على » ومات رحمه الله ولم يشربها .

ولما أيس من نفسه أحضر الأمراء والأجناد فى الثالث والعشرين من شهر رجب وأوصاهم بتسليم البلد لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ، واستحلفهم على ذلك . فقال بعض أصحابه إن عز الدين ملك الموصل وله ما يكفيه ، ولو أوصيت بها لابن عمك عماد الدين زنكى فإنه تربية والدك ، وزوج أختك ، وليس له غير منجار . فقال: « إن هذا لم يغب عنى ، ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تمكن وتغلب على عامة البلاد الشامية ، ومتى كانت حلب لعماد الدين عجز عن حفظها وعز الدين يحفظها ، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام فاستحسن الناس ذلك منه ، وعجبوا من جودة رأيه مع صغر سنه ، وأن مرضه لم يشغله عن حسن اختياره . ثم مات رحمه الله .

وكان عفيف اليد والفرج واللسان ، لايعرف له شىء مما يتعاطاه الملوك والشباب ، حسن السيرة ، عادلا فى رعيته . وبوفاته انقرض عقب نور الدين المذكور .

ولنرجع إلى ذكر ملوك الموصل الذين ملكوا بعد وفاة سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى .

ذكر أخبار قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازى فى أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسماية. وذلك أنه لما مات سيف الدين غازى اجتمعت كلمة الوزير جمال الدين الأصفهانى وزين الدين على أمير الجيش على تولية قطب الدين طلبا للسلامة ، فاستحلفوه وحلفوا له وركبوه إلى دار السلطان ، وأطاعه سائر البلاد التى كانت تحت يد أخيه . وتزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين . وكان سيف الدين غازى قد تزوجها ولم يدخل بها ، فتزوجها قطب الدين وهى أم أولاده الملوك .

قال : ولما ملك قطب الدين كان نور الدين بحلب ، وهو أكبر منه ، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه ، فسار إليهم ، وقصد انتزاع الملك من أخيه قطب الدين ، ثم اتفقا وعاد نور الدين إلى حلب ، وشهد قطب الدين بعض الحروب مع أخيه نور الدين ؛ كما ذكرناه فى أخبار نور الدين .

ذكر القبض على الوزير جمال الدين محمد بن على ابن منصور الأصفهانى ووفاته وشىء من أخباره وسيرته

وفى سنة ثمان وخمسين وخمسماية قبض قطب الدين على الوزير جمال الدين واعتقله ، فتوفى فى اعتقاله فى شعبان سنة تسع وخمسين [ولعمرى ماكان يستحق أن يعتقل ، وهو الذى عمل على إثبات الملك فى البيت الأتابكى بعد قتل الشهيد أتابك زنكى ، على ماقدمنا فى أخبار سيف الدين غازى] (١)

قال بن الأثير الجزرى رحمه الله فى تاريخه الكامل : حكى لى إنسان صوفى يقال له أبو القاسم ؛ كان مختصا بخدمته فى الحبس ، قال : « لم يزل مشغولا فى محبسه بأمر آخرته ، وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر ، فلما أن مرض قال لى فى بعض الأيام : ياأبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفنى » قال : « فقلت فى نفسى قد اختلط عقله » فلما كان الغد أكثر السؤال عنه ، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط ، فقلت : « قد جاء الطائر » فاستبشر ثم قال : « جاء الحق » وأقبل على الشهادة ، وذكر الله تعالى إلى أن توفى . فلما توفى طار ذاك الطائر ، فعلمت أنه رأى شيئا فى معناه » .

ودفن بالموصل عند فتح [الكرامى](٢) رحمة الله عليهما نحو

---

(١) ما بين الحاصرتين مذكور بالهامش (٩٣ ب ؛ ع) .

(٢) فى ك الكارى والتصحيح من ابن الأثير ، (أنظر الكامل ، حوادث سنة ٥٥٩ هـ) .

سنة ، ثم نقل إلى المدينة ، فدفن بالقرب من حرم النبى صلى الله عليه وسلم فى رباط بناه لنفسه . وقال لأبى القاسم : « بينى وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله إلى المدينة فدفنه بها فى التربة التى عملها ، فإذا أنا مِت فامض إليه وذكره » . فلما توفى سار أبو القاسم إلى شيركوه فى المعنى ، فقال له شيركوه : «كم تريد» فقال « أريد أجرة جمل يحمله ، وجمل يحملنى وزادى» فانتهره وقال : « مثل جمال الدين يحمل هكذا إلى مكة » وأعطاه مالا صالحا ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين ، وجماعة يقرءون بين يدى تابوته إذا حمل وإذا أنزل عن الجمل. فإذا وصل إلى مدينة يدخل أولئك القراءون ينادون للصلاة عليه ،فيصلى عليه فى كل بلد يجتاز بها ، وأعطاه أيضا مالا للصدقة فصلى عليه فى تكريت وبغداد والحلة فيد [1] ومكة والمدينة ، وكان يجتمع له فى كل بلد من الخلق مالايحصى ، ولما أراد الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد بأعلا صوته :

سرى نعشه [2] فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتنثنى [3] رماله عليه وبالنادى فتثنى أراملـــه

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم ، وطافوا به حول الكعبة ،وصلوا

(١) فيد بلدة فى منتصف الطريق بين مكة والكوفة يمر بها الحجاج ، (معجم ياقوت ج ٤ ص ص ٢٨٢) .

(٢) كذا فى نسختى النويرى ك ، ع . وفى ابن (كثير سرى نعشه على الرقاب) .

(٣) كذا فى ك ، وفى ع فتثنى ، وكذلك فى ابن كثير البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤٩ .

عليه بالحرم الشريف ، وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا .

وأما سيرته رحمه الله فكان [الوزير جمال الدين محمد بن على] أسخى الناس وأكثرهم بذلا للمال ، رحيما بالخلق متعطفا عليهم عادلا فيهم ، فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف (١) بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة ، وبنى الحجر بجانب الكعبة ، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام . ولما أراد ذلك أرسل إلى المتقى لأمر الله هدية جليلة ، وطلب منه ذلك ، وأرسل إلى الأمير عيسى أمير مكة هدية كبيرة ، وخلعا ثنية ، منها عمامة شراها بثلثماية دينار ، حتى مكنه من ذلك. وعمر أيضا المسجد الذى على جبل عرفات ، والدرج الذى يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة فى صعودهم . وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء ، وأجرى الماء إليها من نعمان فى طرق معمولة تحت الأرض. وأخرج على ذلك مالا كثيرا وكان يجرى الماء فى المصانع فى كل سنة أيام الحج . وبنى سورا على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم . وعلى فيد .

وكان يخرج على باب داره فى كل يوم للصعالك والفقراء ماية دينار أميرى ؛ هذا سوى الإدرارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب البيوت . ومن أبنيته العجيبة التى لم ير الناس مثلها الجسر الذى

---

(١) ذكر ابن كثير (البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤٨) « وبنى مسجد الخيف ودرجه وعملها بالرخام ، وبنى على المدينة النبوية سوراً .

وجاء فى ياقوت أن الخيف ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء ، ومنه مسجد الخيف من منى .

بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلز فقبض قبل أن تكمل عمارته وبنى أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالأرفاد ، وبنى الربط . وقصده الناس من أقطار الأرض. وكانت صدقاته وصلاته من أقاصى خراسان إلى حدود اليمن ، وكان يشترى الأسرى فى كل سنة بعشرة آلاف دينار ، هذا من الشام حسب ، سوى مايشترى من الكرج .

وقال ابن الأثير : أيضا حكى لى والدى عنه قال كثيرا ماكنت أرى جمال الدين إذاقدم إليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه فى خبز بين يديه . فكنت أنا ومن يراه نظن أنه يحمله إلى أم ولده على . فاتفق أنه فى بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين ، وكنت أتولى ديوانها ، وحمل جاريته أم ولده إلى دارى لتدخل الحمام ، فبقيت فى الدار أياما . فبينما أنا عنده فى الخيام ، وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعل . ثم تفرق الناس فقمت فقال : « اقعد» فقعدت . فلما خلا المكان قال لى : « قد آثرتك اليوم على نفسى ، فإننى فى الخيام مايمكننى أن أفعل ماكنت أفعله. خذ هذا الخبر واحمله أنت فى كمك فى هذا المنديل ، واترك الحماقة من رأسك ،وعد إلى بيتك ، فإذا رأيت فى طريقك فقيرا يقع فى نفسك أنه مستحق ، فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام » قال : ففعلت ذلك ، وكان معى جمع كثير ففرقتهم فى الطريق لئلا يرونى أفعل ذلك ، وبقيت فى غلمانى ، فرأيت فى موضع إنسانا أعمى وعنده أولاد له وزوجته ، وهم من الفقر على حال شديد ، فنزلت عن دابتى إليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم إياه . وقلت للرجل تجيىء غدا بكرة إلى دار فلان ، أعنى دارى ــ ولم أعرفه نفسى ــ فإننى آخذ لك

من صدقة جمال الدين شيئا . ثم ركبت إليه العصر ، فلما رآنى قال : « ماالذى فعلت فى الذى قلت لك » فأخذت أذكر له شيئا يتعلق بدولتهم فقال : « ليس عن هذا أسألك ، إنما أسألك عن الطعام الذى سلمته إليك » فذكرت له الحال ففرح ، ثم قال : « بقى أنك قلت للرجل يجىء إليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجرى لهم كل شهر دنانير » قال : فقلت له : « قد قلت للرجل يجى إلى » فازداد فرحا وفعل للرجل ماقال . ولم يزل يصل إليه رسمه حتى قبض. قال : وله من هذا كثير. فمن ذلك أنه تصدق بثيابه من على بدنه فى بعض السنين التى تعذرت فيها الأقوات .

ولما وقفت على ترجمته لهجت بالترحم عليه ، وقرأت ختمة شريفة فى شهر رمضان سنة أربع عشرة وسبعماية وسألت الله تعالى أن يسطر ثوابها فى صحيفة حسناته ،وقررت ذلك على نفسى فى كل سنة فى شهر رمضان وأرجو أن لاأقطعها مالم أنس ذلك . رحمه الله تعالى .

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين

وفى سنة ثلاث وستين وخمسماية فارق زين الدين على بن بكتكين النايب عن قطب الدين خدمته ، وسار إلى أربل .وكان هو الحاكم فى الدولة وأكثر البلاد بيده ، ومنها أربل وبها أهله وأولاده وخزانته ، وشهرزور وجميع القلاع التى معها ، وجميع بلاد الهكارية وبلد الحمدية ، وتكريت وسنجار ، وحران ، وقلعة الموصل هو بها . وكان قد أصابه طرش ثم عمى ، فما عزم على

مفارقة الموصل إلى بيته بأربل ، سلم جميع ماكان بيده من البلاد إلى قطب الدين ، وبقى معه أربل خاصة . وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة ، ماانهزم من حرب قط . وكان كريما كثير العطاء للجند وغيرهم ، فمن عطاياه أن الحيص بيص الشاعر قد امتدحه بقصيدة ، فلما أراد إنشادها قال له : « أنا لاأعرف ماتقول ولكنى أعلم ماتريد »وأمر له بخمسمائة دينار وخلعة وفرس فكان مجموع ذلك بألف دينار.ولم يزل بأربل إلى أن مات بها فى هذه السنة .

ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح وحكمه فى البلاد ، فعمر القلعة وكانت خرابا لأن زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة . وسار عبد المسيح سيرة شديدة وسياسة عظيمة وكان خصياً أبيض من مماليك أتابك زنكى .

ذكر وفاة قطب الدين مودود وملك ولده سيف الدين غازى

كانت وفاة قطب الدين مودود بن زنكى بالموصل فى ذى الحجة سنة خمس وستين وخمسماية ، وقيل فى شوال منها . وكان مرضه حمى حادة فكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهورا . وكان من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال الرعية ، كثير الإنعام والإحسان إليهم ، محبوبا إلى كبيرهم ، وصغيرهم عطوفا على مريفهم ووضيعهم ، كريم الأخلاق . ولما مات رحمه الله تعالى ملك بعده ولده سيف الدين غازى .

ذكر أخبار سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى

ملك الموصل وما كان بيد والده قطب الدين بعد وفاته فى ذى الحجة أو شوال سنة خمس وستين وخمسماية ؛ بوصية من أبيه. وكان والده قد أوصى بالملك بعده لولده الأكبر عماد الدين زنكى ، فعرف عبد المسيح رأيه عنه . فلما كان فى اليوم الثانى استخلف سيف الدين غازى ، فاستقر فى الملك بعد وفاة أبيه ،واستولى عبد المسيح على المملكة . ولم يكن لغازى معه غير الاسم ، فاتصل ذلك بنور الدين محمود ، فأزعجه وأنف منه وكبر لديه ، فسار إلى الموصل سنة ست وستين ودخلها من غير قتال . وكان الجند والعوام قد كاتبوه فى تسليم البلد إليه . فلما علم بذلك عبد المسيح كاتبه أيضا وسأله الأمان ، فأمنه وقال : « لاسبيل أن يكون بالموصل » ؛ ونقله إلى الشام ودخل نور الدين الموصل فى ثالث عشر جمادى الأولى ، وأقر سيف الدين غازى على الموصل ، وولى القلعة خادما يقال له سعد الدين كمشتكين ، وجعله دزدارا ثم عاد إلى الشام رحمه الله .

ذكر ملك سيف الدين غازى البلاد الجزيرية

كان سبب ذلك أن عمه الملك العادل نور الدين قد استدعاه بعساكر الموصل وديار الجزيرة وغيرها لقصد الغزاة فسار سيف الدين غازى وجعل على مقدمته سعد الدين كمشتكين . فلما كانوا ببعض

الطريق ، وافاهم الخبر بوفاة نور الدين ، فهرب سعد الدين جريدة ، واستولى غازى على بركه وثقله وموجوده . وعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى الخابور ، واستولى عليه وأقطعه . وسار إلى حران فحصرها عدة أيام ، وبها قايماز الحرانى مملوك نور الدين ، فأطاعه بعد امتناع على أن تكون حران له . فلما نزل إليه ، قبض عليه سيف الدين غازى ، وسار إلى الرها فحصرها وملكها ، وبها خادم خصى أسود لنور الدين ، فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر ، فأعطيها ثم أخذت منه ، ثم انتهى حاله إلى أن استعطى مايقوم به .

وسير سيف الدين إلى الرقة ، فملكها وملك سروج وجميع بلاد الجزيرة ، إلا قلعة جعبر لحصانتها ،ورأس عين لأنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين . وعادعبد المسيح إلى خدمة سيف الدين من سيواس ، وحسن لسيف الدين العبور إلى الشام ليملكه ، فأشار عليه عز الدين محمود – وهو من أكابر الأمراء – أن يقتصر على مابيده ، فرجع إليه وعاد إلى الموصل ، وذلك فى سنة تسع وستين وخمسماية

ذكر حصره أخاه زنكى بسنجار

وفى سنة سبعين وخمسماية فى شهر رمضان حصر سيف الدين غازى أخاه عماد الدين زنكى بسنجار . وكان سبب ذلك أن الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين كتب إلى [ابن عمه] سيف الدين

[غازى] [١] يستحثه على الوصول إليه ليدفع الملك الناصر صلاح الدين يوسف عن حلب ، فجمع سيف الدين غازى العساكر ، وكاتب [أخاه] عماد الدين فى اللحاق به . وكان صلاح الدين قد كاتبه وأطمعه فى الملك ، فامتنع عماد الدين بسبب ذلك . فجهز سيف الدين العساكر مع أخيه عز الدين مسعود إلى الشام . وتوجه هو [سيف الدين] لحصار أخيه بسنجار ، فحصرها ، وبينما هو كذلك ، إذ أتاه الخبر بانهزام أخيه مسعود من صلاح الدين ، فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على مابيده ، ورحل إلى الموصل . ثم كان بين سيف الدين وبين الملك الناصر [صلاح الدين] مانذكره فى أخبار الملك الناصر من هزيمة غازى فى سنة إحدى وسبعين .

ورجع [سيف الدين] إلى الموصل . وعزل عز الدين زلفندار [٢] واستعمل مكانه فى إمارة الجيش مجاهد الدين قايماز .

وفى سنة اثنتين وسبعين وخمسماية عصى شهاب الدين محمد بن مروان [٣] صاحب شهرزور على سيف الدين غازى وكان قبل ذلك فى طاعته ، فراسله فى معاودة الطاعة . فعاد وحضر إلى الخدمة

---

(١) أضيف مابين الحاصرتين من ابن الأثير حوادث سنة ٥٧٠ هـ

(٢) فى ابن الأثير اسمه عز الدين محمود « ويلقب أيضا زلفندار (حوادث سنة ٧٥٠ هـ)

(٣) فى ابن و اصل « شهاب الدين محمد بن بزان » (مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٨)

ذكر وفاة سيف الدين غازى

كانت وفاته فى ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسماية وكان مرضه السل ، فطال به ، ثم أدركه سرنيام [١] فمات ، وعمره نحوا من ثلاثين سنة ، وكانت مدة ولايته عشر سنين وشهورا وكان حسن الصورة تام القامة أبيض اللون . وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس ولم يذكر عنه فى نفسه ماينافى العفاف . وكان شديد الغيرة لايدخل دوره غير الخدام الصغار فإذا كبر أحدهم منعه . وكان لايحب سفك الدماء ولاأخذ الأموال على شحه وجبنه .

ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده معز الدين سنجر شاه ، وكان عمره حينئذ اثنتى عشرة [٢] سنة ، فخاف على الدولة من ذلك ، لتمكن صلاح الدين يوسف بالشام ، وامتنع عز الدين مسعود من الموافقة والأيمان . فأشار الأمراء أن يكون الملك بعده لعز الدين مسعود أخيه . ففعل ، وجعل لولده سنجر شاه جزيرة ابن عمر وقلاعها ، وجعل قلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك [١]

---

(١) فى ابن الأثير حوادث سنة ٥٧٦ هـ « ثم أدركه فى آخره برسام ومات »
(٢) فى ك : اثنى عشر .
(٣) فى ك كتبك والتصحيح من ابن الأثير (الكامل حوادث سنة ٥٧٦ هـ)

ذكر ملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازى فى ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسماية ، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز . وفى سنة سبع وسبعين كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل ، وأوصى بحلب لعز الدين مسعود كما ذكرناه فى أخباره . فكاتبه الأمراء بذلك واستدعوه لتسليمها . فسار إليها ومعه مجاهد الدين قايماز ، فدخلها فى العشرين من شعبان منها وأقام بحلب عدة شهور ثم سار إلى الرقة .

ذكر تسليم حلب الى عماد الدين زنكى وأخذ سنجار عوضا عنها

قال : ولما فارق عز الدين مسعود حلب ووصل إلى الرقة ، جاءته رسل أخيه عماد الدين زنكى صاحب سنجار يطلب منه أن يسلم إليه مدينة حلب ويأخذ سنجار ، فلم يجب إلى ذلك ، فراسله مرة أخرى وألح فى طلبها ، وقال متى لم تسلم إلى حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار [الأمراء] (١) بتسليمها إليه فسلمها له ، وتسلم سنجار ، وعاد إلى الموصل .

(١) كذا فى ك ، ع . والتصحيح بين الحاصرتين من ابن الأثير سنة ٥٧٧ هـ

ذكر القبض على مجاهد الدين قايماز

وفى جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وخمسمائة قبض عز الدين مسعود على نائبه مجاهد الدين قايماز . ولما قصد القبض عليه لم يقدم عليه مفاجأة لقوة مجاهد الدين ، فأظهر المرض وانقطع عن الركوب فدخل إليه مجاهد الدين وحده ، وكان خصيصا به لايمنع من الدخول على النساء . فقبض عليه وركب لوقته إلى القلعة . واحتوى على أموال وقايماز وخزائنه ، وولى زلفندار قلعة الموصل وجعل شرف الدين أحمد بن أبى الخير - وهو ابن أمير حاجب العراق - أمير حاجب ، وحكمه فى دولته . وكانت أربل وأعمالها تحت حكم مجاهد الدين ، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين على ، وهو صبى صغير. وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر وهى لمعز الدين سنجر شاه ابن سيف الدين غازى ، وهو صبى أيضا ؛ وبيده شهرزور وأعمالها ونوابه بها ، ودقوقا ، وقلعة عقر الحميدية ونائبه بها . ولم يكن مع عز الدين إلا الموصل خاصة وقلعتها لمجاهد الدين [1] . فلما قبض امتنع صاحب أربل عن الطاعة ، واستبد صاحب الجزيرة وأرسل الخليفة من حصر دقوقا وأخذها ، ولم يحصل لعز الدين غير شهرزور والعقر ، وصارت أربل والجزيرة أضر شىء عليه وأرسل صاحب أربل إلى الملك الناصر صلاح الدين بالطاعة له ، وقوى طمع الملك الناصر فى الموصل لما قبض على مجاهد الدين ، فلما

(١) فى ابن الأثير : «وقلعتها بين مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك واسمه عز الدين» ، سنة ٥٧٩ هـ .

رأى عز الدين ماحصل من الضرر والفساد بسبب قبض مجاهد الدين ، قبض على شرف الدين أحمد الحاجب وزلفندار ، عقوبة لهما كونهما حسنا له القبض على قايماز .

ذكر اطلاق مجاهد الدين قايماز وماكان من العجم وانهزامهم

قال : وفى المحرم سنة ثمانين وخمسماية أطلق عز الدين مسعود مجاهد الدين قايماز ، وذلك بشفاعة شمس الدين بن البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل . ولما أطلقه سيره إلى ابن البهلوان وإلى أخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين . فبدأ فى مسيره بقزل وهو صاحب أذربيجان ، فلم يمكنه من المضى إلى شمس الدين ، وقال : « مهما يختار أنا أفعله » وجهز معه ثلاثة آلاف فارس ، وساروا نحو أربل ليحصروها . فلما قاربوها أفسدوا فى البلاد وخربوها ، وسبوا وأخذوا النساء قهرا ، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم . وسار إليهم زين الدين يوسف صاحب أربل فى عسكره ، فلقيهم وهم قد تفرقوا للنهب ، فانتهز الفرصة وقاتل من لقى منهم ، فهزمهم وتمت الهزيمة على العجم ، وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، وعاد العجم إلى بلادهم ، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل ، وكان يقول : مازلنا ننتظر العقوبة من الله عز وجل على سوء فعل العجم » .

ذكر وفاة عز الدين مسعود

كانت وفاته فى التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة . ودفن بالمدرسة التى أنشأها بالموصل مقابل دار المملكة وبقى فى مرضه مايزيد على عشرة أيام لاينطق إلا بالشهادتين وتلاوة القرآن والاستغفار . وكانت مدة ملكه ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر إلا أياما . وكان خيِّر الطبع كثير الخير والإحسان وزيارة الصلحاء وبرهم . وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لايكلم جلساءه إلا وهو مطرق . وماقال فى شيئ سُئِله « لا » ولبس خرقة التصوف [1] بمكة ، وكان يلبسها فى كل ليلة ، ويخرج إلى مسجد بناه فى داره فيصلى فيه نحو ثلث الليل ، رحمه الله .

وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ، وقام بتدبير دولته فى ابتدائها مجاهد الدين قايماز مدبر دولة والده ؛ واستمر نور الدين أرسلان شاه فى الملك إلى سنة سبع وستماية ؛ فتوفى فى أوائل شهر ربيع منها ، ودفن فى مدرسته التى أنشأها مقابل داره بالموصل . وكانت علته قد طالت ، وكانت مدة ملكه سبع عشرة [2] سنة وأحد عشر شهرا . وكان بينه وبين الملك

(١) كان من نظم الصوفية أنه إذا ارتبط أحدهم بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ألبسه الشيخ خرقة التصوف ، وسميت كذلك إمعاناً فى إظهار الزهد والتقشف ، وقد حكى الرواة أنه لما أسرى بالنبى (ص) إلى السموات العلى ، أخذه جبريل عليه السلام بيده وأدخله الجنة حيث جاء به إلى قصر من ياقوتة حمراء ففتح القصر وأخرج للرسول منه صندوقاً من نور ، ثم فتح الصندوق وأخرج منه زيق الفقراء . فلبس النبى زيق الفقراء أو خرقة الفقراء ، وعن طريقها إنتقل المدد إلى مشايخ الصوفية .

(أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور ، السيد أحمد البدوى) .

(٢) فى ك سبعة عشر .

العادل بن أيوب مخالفة ، ثم اتفاق ومصاهرة . وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه مانعا من تعدى بعضهم على بعض .

ولما مات ملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن نورالدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عمادالدين زنكى . وكان والده قد حلّف له العساكر وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكى قلعة عقر الحميدية [1] وقلعة سوس وأمر أن يتولى تدبير دولة القاهر فتاه بدر الدين لؤلؤ ، فقام بتدبير الدولة والنظر فى مصالحهما . واستمر الملك القاهر فى الملك إلى سنة خمس عشرة وستماية ، فتوفى فى ليلة الأثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول منها ، فكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر . وكان كريما قليل الطمع فى أموال رعيته مقبلا على أمرائه . وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه ملك الموصل ، بوصية من أبيه . وكان عمره يوم ذاك عشر سنين . وجعل الوصى عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ فقام أحسن قيام وراسل الملوك أصحاب الأطراف المجاورين له ، وطلب منهم تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التى كانت اتفقت بينهم وبين أبيه ، فوافقوه . وكتب إلى الديوان العزيز ، فجاءته الخلع والتقليد من الخليفة بولاية نور الدين . ونظر بدر الدين فى أمور الدولة فلم يلبث نور الدين إلى أن توفى فى هذه السنة .

(١) عقر الحميدية أو العقر ، قلعة حصينة فى جبال الموصل ، أهلها أكراد ، وهى شرق الموصل .

ولما مات استحلف بدر الدين لؤلؤ العساكر لأخيه ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه ، وله من العمر ثلاث سنين . واستمر بدر الدين لؤلؤ فى تدبير الدولة ، فتجدد طمع عز الدين زنكى بن مسعود ومظفر الدين عمّيه فى ملك الموصل لصغر سنة ، فجمعا الرجال وتجهزا للحركة ، وقصدا أطراف الموصل بالنهب والفساد ، فخرج إليهم بدر الدين لؤلؤ بعساكر الموصل ، والتقوا ، فكانت الهزيمة على العسكر البدرى ، وعاد إلى الموصل وتبعه مظفر الدين ، ثم حصل الاتفاق بعد ذلك واستقر كل واحد على مابيده . ثم ملك عماد الدين قلعة كواشى [1] وهى من أحسن قلاع الموصل .

ثم مات ناصر الدين محمود بعد مدة يسيرة ، واستقر بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل ، وتلقب بالملك الرحيم ودامت أيامه إلى أن توفى فى سنة سبع وخمسين وستماية ، فكانت مدة ملكه نحو أربعين سنة ، وملك بعده أولاده ، فكان الذى استقل بملك الموصل من أولاده الملك الصالح ركن الدين إسمعيل ، قتله التتار فى سنة تسع وخمسين وستماية ، وملك ولده الملك المجاهد سيف الدين إسحاق بلاد الجزيرة ، وملك الملك المظفر علاء الدين على سنجار . ولما استولى التتار على هذه الممالك وصل هؤلاء إلى الديار المصرية المحروسة فى أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وجهزهم صحبة الخليفة المستنصر بالله ، فكان من أمره وأمرهم ماذكرناه ونذكره

(١) جاء فى معجم ياقوت أن الكواشى بالفتح قلعة حصينة فى الجبال التى فى شرق الموصل . (معجم البلدان ج ٤ ص ٤٨٦) .

إن شاء الله تعالى ؛ فلنرجع إلى ذكر أخبار عماد الدين زنكى بن مودود .

ذكر أخبار عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن اقسنقر

إستقر ملكه بسنجار بعد وفاة أبيه واستقلال أخويه سيف الدين غازى ثم عز الدين مسعود بملك الموصل ، ثم تعوض عماد الدين بحلب عن سنجار كما قدمنا ذكره فى أخبار عز الدين مسعود . ثم أخذ الملك الناصر يوسف منه حلب ، وعوضه عنها بسنجار وربض الخابور والرقة ، على مانبينه إن شاء الله فى أخبار الملك الناصر فاستقر ملكه أخيرا بسنجار وما معها فى سنة تسع وسبعين وخمسماية ولم يزل بها إلى أن توفى فى المحرم سنة أربع وتسعين وخمسماية وكان عادلا حسن السيرة فى رعيته عفيفا عن أموالهم ، كثير التواضع ، يحب أهل العلم والدين ، ويجلس معهم ، ويرجع إلى آرائهم إلا أنه كان شديد البخل .

ولما مات ملك بعده ولده قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى . وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برنقش مملوك أبيه ، وكان دينا خيرا عادلا حسن السيرة . واستمر ملك قطب الدين بسنجار إلى سنة ست عشرة وستماية ، فتوفى فى ثامن صفر منها . وكان كريما حسن السيرة فى رعيته كثير الإحسان إليهم . وكان قد سلم الأمور إلى نوابه .

ولما مات ملك بعده ابنه عماد الدين شاهان شاه بن محمد . ولما ملك سار بعد شهور إلى تلعفر [١] ، وهى فى مملكته فدخل عليه أخوه عمر بن محمد فى جماعة فقتلوه .

وملك عمر بن محمد - وهو فروخ شاه - فبقى بسنجار إلى أن أخذها الملك الأشرف فى سنة سبع عشرة وستماية ، وعوضه عنها الرقة . وهو آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكى ، فكانت مدة ملكهم لها أربعا وتسعين سنة . وتوفى بعد أخذها منه بقليل . فلنذكر أخبار أولاد غازى .

ذكر اخبار معز الدين سنجر شاه ابن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى

ملك جزيرة ابن عمر بعد وفاة والده فى صفر سنة ست وسبعين وخمسماية . وكان كثير الأذى لعمه عز الدين مسعود ، فحاصره مسعود فى سنة سبع وثمانين أربعة أشهر ، واستقرت القاعدة بينهما على أن يكون لكل منهما نصف أعمال الجزيرة ، وتكون الجزيرة بيد سنجر شاه فى جملة النصف . ودام ملكه بالجزيرة إلى أن قتل .

---

(١) كذا فى ك ، ع ، وفى ابن الأثير تل أعفر (حوادث سنة ٦١٦ هـ) . وقد جاء فى ياقوت إن العامة تقول تل أعفر ، أما الخاصة فيقولون تل يعفر - وأصله التل الأعفر ، وهو اسم قلعة حصينة بين سنجار والموصل .

ذكر مقتله وملك ولده معز الدين محمود

كان قتله فى سنة خمس وستماية على يد ولده غازى . وسبب ذلك أن سنجر شاه كان سى السيرة فى رعيته وأولاده وجنده وغيرهم ، فكان من جملة مااعتمده مع أولاده أنه بعث ابنيه[١] محمودا وسودودا إلى قلعة فرح [٢] من بلد الزوزان [٣] وأخرج ابنه غازى إلى دار بالمدينة أسكنه بها ووكل به من يمنعه من التصرف وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل إليها من البستان الحيات والعقارب وغير ذلك من الحشرات ، فاصطاد غازى حية وسيرها إلى أبيه لعله يرق له ويعطف عليه ، فلم يزده إلا تماديا وإصرارًا . فعندها أيس من خيره وأعمل الحيلة حتى نزل من الدار ، ووضع إنسانا كان يخدمه أظهر أنه غازى ، وخرج من بلاد الجزيرة وقصد الموصل . فشاع الخبر أن غازى قد توجه إلى الموصل وهو مختلف بالجزيرة ماخرج منها ، ثم أعمل الحيلة وتسلق فنزل إلى دار أبيه ، فستر عليه سرارى والده لبغضهم فى أبيه . ثم اتفق أن والده شرب فى بعض الأيام وسكر ودخل الخلاء ، فضربه ابنه غازى هذا بسكين فقتله ، ثم ذبحه وتركه ملقى وقعد يلعب مع الجوارى .

---

(١) فى المتن (إبنـاه) .

(٢) هكذا وردت فى المتن ؛ ولم نعثر على هذا الإسم فى ياقوت ، وربما كانت قلعة برخ أو برخو التى أوردها ياقوت ضمن قلاع كورة زوزان .

(٣) زوزان بفتح أوله وثانيه ، وصفها ياقوت بأنها كورة حسنة بين جبـال أرمينيـة وبين أخـلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل ؛ أهلها أرمن وفيها طوائف من الأكـراد ، (معجم البلدان ج ٣ ص ١٥٨) .

فخرج بعض الخدم الصغار إلى باب الدار وأعلم أستاذ الدار بالخبر فأحضر أعيان الدولة ، وعرفهم الأمر وأغلق الأبواب على غازى واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه ودخل على غازى فمانع عن نفسه ثم قتلوه ورمى على باب الدار ، وأكلت الكلاب بعضه ودفن باقيه .

ووصل محمود إلى البلد وملك ولقب معز الدين لقب أبيه . وغرّق الجوارى اللواتى اتفقن مع غازى على قتل أبيه فى دجلة . ثم قتل محمود أخاه مودودا بعد مدة يسيرة .

ثم استقرت هذه الممالك الجزيرية وغيرها في يد بدر الدين لؤلؤ وهو الملقب بالملك الرحيم ، وملك أولاده من بعده إلى أن استولى عليها التتار فى سنة سبع وخمسين وستماية . هذا ملخص ماوصل الينا من أخبار هذه الدولة فلنذكر ماعداها .

الباب الحادى عشر
من
القسم الخامس
من الفن الخامس

فى اخبار الدولة الخوارزمية
والدولة الجنكزخانية

الدولة الخوارزمية هى من أعظم الدول الإسلامية والدولة الجنكزخانية هى دولة التتار وإنما جمعناهما فى باب واحد لتعلق كل دولة منهما بالأخرى ، ولأن الدولة الخوارزمية انقرضت عند قيام الجنكزخانية ، وغلبة جنكزخان التمرجى على البلاد على مانشرح ذلك إن شاء الله تعالى فى مواضعه .

ذكر أخبار الدولة الخوارزمية وابتداء أمر ملوكها وظهورهم وما استولوا عليه من البلاد والأقاليم وماكان بينهم وبين الملوك من الحروب والوقائع

وهذه الدولة هى من جملة فروع الدولة السلجقية لأن أصل البيت الخوارزمى من مماليك أحد أمراء الدولة السلجقية ، على مانذكر ذلك إن شاء الله تعالى . ولنبدأ بذكر ابتداء أمر ملوكها . وأول من نبغ منهم وترشح للولايات وماوليه وكيف تنقلت بهم الحال إلى أن ملكوا أقاصى البلاد وأدانيها وماآل إليه أمرهم إلى حين انقراض دولتهم ؛ فنقول :

أول من نبغ منهم خوارزم شاه محمد بن انوشتكين (١) ولى خوارزم من قبل أمير (داذ) (٢) حبشى متولى خراسان فى شهر رجب سنة تسعين وأربعماية وأبوه انوشتكين مملوك الأمير تلكاتك (٣) أحد أمراء السلجقية ، إشتراه من رجل من غرشستان (٤) . وكان

---

(١) يكتب أيضاً نوشتكين غرجه (أنظر الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ ص ٢ ، ليدن ١٩١٦) .

(٢) فى ك دار والصواب داذ كما بين الحاصرتين نقلا عن إبن الأثير ، حوادث سنة ٤٩٠ . وأما الجوينى فيكتب هذا الاسم داد بك حبشى بن التونتاق . (أنظر تاريخ جها نكشاى ، ج ٢ ص ٢) .

(٣) كذا فى المتن ، وفى إبن الأثير بلكباك ، ويكتبه الجوينى بلكاتكين ، (أنظر تارخ جها نكشاى : ج ٢ص ١) .

(٤) غرشستان بالفتح ثم السكون ، و لاية حددها ياقوت بأن هزاه فى غربيها والغور فى شرقيها و مرو عن شمالها . وغزنة عن جنوبها ، معجم البلدان ج ٤ ص١٩) .

حسن الطريقة كامل الأوصاف فكبر وعلا محله ، وولد له محمد هذا ، فانتشأ أحسن نشأة ، وتعلم وتدرب ، وتقدم بنفسه كما قيل: نفس عصام سودت عصاما . ولحظته العناية الأزلية لظهور ماهو كامن فى الغيب .

وكان سبب ولايته خوارزم أنه لما ولى أمير داذ حبشى خراسان كان خوارزم شاه البلخى قد قتل [١] فنظر الأمير حبشى فيمن يوليه خوارزم ، فوقع اختياره على محمد هذا ، فولاه خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه على عادة ولاة خوارزم فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها ، وقرب أهل العلم والدين ، فازداد ذكره حسنا وظهر اسمه ، وعلا محله فلما ملك السلطان سنجر شاه السلجقى خراسان أقر محمد على ولاية خوارزم وظهرت كفايته فعظم محله عند السلطان سنجر ، واصطلى حرب الأتراك بنفسه ، وهزمهم ودام فى ولاية خوارزم إلى أن توفى فى سنة [إحدى وعشرين وخمسمائة] [٢] وولى بعده ولده اتسز بن محمد .

ذكر أخبار خوارزم شاه اتسز بن محمد

ولى خوارزم من قبل السلطان سنجر بعد وفاة أبيه . وكان قد انتشأ فى حياة أبيه ، وقاد الجيوش ، وقصد بلاد الأعداء وقاتلهم

(١) فى ابن الأثير «خوارزم شاه اكنجى» حوادث سنة ٤٩٠ هـ ويكتبه الجوينى اكنجى (جهانكشاى ا ج ٢ ص ٣) .

(٢) بياض فى (ك) و (ع) وما بين الحاصرتين من النسختين ، (تاريخ تيمور ٦٩٩ ورقة ٤٥٠) .

وملك مدينة منقشلاغ (٢) . فلما مات أبوه ولاه السلطان بعده ، فأفاض العدل ، وأمن البلاد ، فأحبه السلطان سنجر وقربه وأدناه وعظمه واعتضد به ، واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه ؛ فظهرت كفايته فزاده تقدما وتقريبا . ولم يزل عنده فى هذه المنزلة إلى أن فسد مابينهما واقتتلوا على مانذكره .

ذكر الحرب بين خوارزم شاه اتسز والسلطان سنجر السلجقى ، واستيلاء سنجر على خوارزم ، وماكان من أمر اتسز الى أن استقر الصلح بينه وبين السلطان سنجر

وكانت الحرب بينهما فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية . وسبب ذلك أن السلطان بلغه أن خوارزم شاه اتسز قد عزم على الخروج من طاعته والامتناع عليه ، فقصد خوارزم بعساكره فلما قاربها جمع أتسز عساكره وخرج لقتاله . والتقوا ، فلم يكن له قبل بعساكر سنجر لكثرتها ، فانهزم هو ومن معه وقتل من أصحابه خلق كثير ، وقتل له ولد ، فوجد اتسز عليه وجدا عظيما .

ولما انهزم السلطان اتسز ملك سنجر خوارزم وأقطعها لابن أخيه سليمان شاه بن محمد على ماقدمناه فى أخبار الدولة السلجقية . ثم عاد السلطان إلى مرو فجمع خوارزم شاه أصحابه ورجع إلى خوارزم فأعانه أهلها على ملكها ، ففارقها سليمان شاه ومن معه ، ورجع إلى

---

(٢) منقشلاغ بالفتح ثم السكون ثم فتح القاف ، قلعة حصينة فى آخر حدود خوارزم (ياقوت ، ج ٥ ص ٢١٥) .

عمه السلطان سنجر ، واستحكمت العداوة بين السلطان سنجر وأتسز ، وعلم أتسز أنه لاقبل له به ، فكاتب ملك الخطا [١] بما وراء النهر ، وحثه على المسير لقتال السلطان سنجر وأطمعه في ملك بلاده . فسار ملك الخطا فى ثلثماية ألف فارس ، وكان من انهزام سنجر ، ومُلك الخطا ماوراء النهر ماقدمنا ذكره في أخبار سنجر ، وذلك فى سنة ست وثلاثين وخمسماية .

ولما تمت الهزيمة على سنجر استولى خوارزم شاه اتسز على البلاد وقصد خراسان فوصل إلى سرخس [٢] فى شهر ربيع الأول من السنة ورحل منها إلى مرو الشاهجان [٣] ، فنزل بظاهر البلد واستدعى الفقهاء والأعيان ، فثار عامة مرو ، وقتلوا بعض أصحاب خوارزم شاه وأخرجوهم من البلد ، وأغلقوا أبوابه واستعدوا للامتناع ، فقاتلهم ، ودخل البلد فى سابع عشر الشهر ، وقتل جماعة كثيرة من أعيان البلد ، وعامتهم واستصحب جماعة من فقهائها معه ، وسار فى شوال إلى نيسابور فخرج إليه جماعة من العلماء والفقهاء والزهاد ، وسألوه أن لايفعل بأهل نيسابور مافعل بأهل مرو. فأجابهم

(١) الخطا ، قبائل من الأتراك نزحوا من موطنهم الأصلى فى شمال الصين فى أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) واستقروا غرب اقليم التركستان حيث كونوا دولة عرفت باسم مملكة الخطا . وقد أطلق عليها المغول اسم « الغرا خطائيين » . وقره لفظ تركى معناه أسود ؛ وربما أطلق المغول هذا اللفظ على الخطا تعبيرا عن عدائهم وكراهيتهم لهم .
(فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٩) .

(١) سرخس بفتح أوله وسكون ثانيه ثم فتح الخاء ؛ مدينة قديمة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو .
(معجم ياقوت ج ٣ ص ٢٠٨)

(٢) مرو الشاهجان ، قال عنها ياقوت إنها مرو العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها ، (معجم البلدان ج ٥ ص ١١٢)

إلى ذلك ، وأخذ أموال أصحاب السلطان جميعها ، وقطع خطبة سنجر وخطب لنفسه ، وسير جيشا إلى أعمال بيهق [١] فقاتلوا أهلها خمسة أيام ثم ساروا ينهبون البلاد .

واستمرت حال خوارزم شاه أتسز إلى سنة ثمان وثلاثين وخمسماية فجمع السلطان عساكره وسار إلى خوارزم ، فتحصن أتسز بها ، وجمع عساكره ولم يخرج من المدينة . وكان القتال يقع بينهما من وراء السور . ثم راسل السلطان فعفا عنه وبذل له الأموال ، فأجابه إلى ذلك على قاعدة استقرت بينهما ، وعاد سنجر إلى مرو

واستقر خوارزم شاه بخوارزم ، إلى أن مات وكانت وفاته فى تاسع جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وخمسماية . وكان قد أصابه فالج فعالجه الأطباء منه فلم يبرأ فاستعمل أدوية شديدة الحرارة بغير رأى الأطباء ، فاشتد مرضه وضعفت قوته فمات . ولهج عند موته بقوله تعالى : « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه [٢] » وكان حسن السيرة ، كافا عن أموال رعيته ، محبوبا إليهم .

ولما توفى ملك بعده أحد أولاده ، فقتل نفرا من أعمامه وسمل أخاً له ، فمات بعد ثلاثة أيام ، وقيل بل قتل نفسه . وملك بعده أيل [٣] أرسلان بن اتسز بن محمد ، وأرسل إلى السلطان سنجر ، وبذل له الطاعة والانقياد لأمره . فكتب له منشورا بولاية خوارزم ،

---

(١) بيهق بالفتح ، ناحية . كبيرة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحى نيسابور . (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٥٣٧) .

(٢) قرآن كريم ، سورة الحاقة ، آية ٢٨ ، ٢٩

(٣) فى المتن « ألب » وما الحاصرتين الاسم الصحيح كما ورد فى ابن الأثير ، حوادث سنة ٥٦٨) . وذكره أيضا الجوينى (انظر تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ ص ١٢) .

وسير إليه الخلع فى شهر رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسماية ، وذلك بعد هرب سنجر من أسر الغزو ، وعوده إلى مرو واستقرار ملكه . فأمن أيل أرسلان بهذه الولاية واستمر إلى سنة ثمان وستين وخمسماية فتوفى بعد عوده من قتال الخطا . ولما مات ملك بعده ولده السلطان شاه .

ذكر ملك سلطان شاه محمود بن ايل ارسلان ابن اتسز بن محمد ، واخراجه من الملك ، وملك اخيه علاء الدين تكش

لما مات ايل أرسلان ملك بعده ولده سلطان شاه محمود ، ودبرت والدته المملكة والعساكر . وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيما بجند[1] وكان والده أقطعها له ، فأنف من تولية أخيه الصغير وتقديمه عليه ، وقصد ملك الخطا بما وراء النهر ، واستمده على أخيه ، وأطمعه فى الأموال والذخاير ، فجهز معه جيشا كثيفا . فلما قارب خوارزم ، خرج منها سلطان شاه وأمه ، وسارا إلى المؤيد صاحب نيسابور واستنجداه . ودخل علاء الدين تكش خوارزم وملكها بغير قتال .

ولما اجتمع السلطان شاه وأمه بالمؤيد أهديا له هدايا جليلة ، وأطمعاه فى الذخائر والأموال ، فجمع جيوشه وسار حتى بقى من

(١) جند فى المتن مشكولة بفتح أوله وثانيه ، وفى ياقوت بفتح الجيم وسكون النون ، اسم مدينة عظيمة فى بلاد تركستان بينها وبين خوارزم عشرة أيام ، (معجم البلدان ج٢ ص ١٦٨)

خوارزم على عشرين فرسخا ، فتقدم إليهم تكش بعساكره ، فانهزم المؤيد ، ثم أخذ أسيرا وجيء به إلى خوارزم شاه تكش ، فقتل بين يديه صبرا . وهرب سلطان شاه إلى دهستان (١) فقصده تكش ، وافتتح المدينة عنوة ، وهرب سلطان شاه منها ، وأخذت أمه فقتلها تكش ، وعاد إلى خوارزم وتوجه سلطان شاه إلى غياث الدين ملك الغز فأكرمه وعظمه .

قال : ولما ثبت قدم علاء الدين فى الملك ترادفت عليه رسل ملك الخطا بالتحكم فى بلاده ، وطلب الأموال والمقترحات ، لأنهم رأوا أنهم هم الذين ملكوه ، فأنفت نفسه من ذلك ، وداخلته حمية الإسلام والملك ، فقتل أحد أقارب ملك الخطا ، وأمر وجوه أهل خوارزم أن يقتل كل رجل منهم واحدا من الخطا ففعلوا . ونبذ عهد ملك الخطا . فبلغ ذلك سلطان شاه ، فسار إلى ملك الخطا ، واستنجده على أخيه . وزعم أن أهل خوارزم معه ، وأنه إذا وصل إليهم سلموا إليه البلد ، فجهز معه جيشا كثيفا من الخطا ، فسار بهم وحصر خوارزم ، فأمر تكش بإجراء ماء جيحون عليهم ، فكادوا يغرقون ، فرحلوا عن البلد ولم يبلغوا منها غرضا ، وندموا على قصدهم خوارزم .

ولم يزل سلطان شاه مشردا فى البلاد ، تارة عند الخطا ، وتارة عند غياث الدين ، وكرة يغار بالخطا على مرو و سرخس إلى أن مات فى شهر رمضان سنة تسع وثمانين وخمسماية .

---

(١) دهستان ، بكسر أوله وثانيه ، بلد مشهور قرب خوارزم (ياقوت ج ٢ ص٤٩٢)

ذكر ملك تكش مدينة بخارى من ملك الخطا

وفى سنة أربع وتسعين وخمسماية جهز ملك الخطا جيشا كثيفا لحصر خوارزم ، فحصروها . فكان خوارزم شاه يخرج إليهم فى كل ليلة ، ويقتل منهم خلقا كثيرا ، حتى أتى على أكثرهم ، فدخل من بقى منهم إلى بلادهم . ورحل تكش فى آثارهم ، وقصد مدينة بخارى فنازلها ، فقاتله أهلها مع الخطا ، وانتهى حالهم فى نكايته أنهم أخذوا كلبا أعور وألبسوه قباء وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه وكان تكش أعور - وطافوا بالكلب على السور ، ثم رموه بالمنجنيق ، وقالوا للعسكر هذا ملككم . ثم ملك تكش البلد عنوة بعد أيام يسيرة وعفا عن أهله ، وأحسن إليهم وفرق فيهم مالا كثيرا ، وأقام بها مدة ثم عاد إلى خوارزم . .

وفى سنة خمس وتسعين وخمسماية وصلت الخلع من جهة الخليفة إلى خوارزم شاه تكش ولولده قطب الدين محمد والتقليد بما بيده من البلاد ، فلبسا الخلع ، واشتغل تكش بقتال الملاحدة (١) فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى أرسلان [كشاى] (٢) وانتقل

---

(١) المقصود بالملاحده هنا الاسماعيلية الباطنية أو الحشيشية وقد أطلق عليهم الملاحدة لأنهم غيروا فى أحكام الدين ، كما سموا الباطنية لأنهم يظهرون غير مايبطنون ، وقد استطاع مؤسس تلك الطائفة - وهو الحسن بن الصباح - أن يستولى على كثير من القلاع فى قوهستان وخوزستان ، أهمها قلعة ألموت الشهيرة .

(٢) كشاه كما وردت فى المتن . وما بين الحاصرتين مصحح كما أورده الجوينى الذى يذكر أن هذه القلعة سبق أن فتحها أرسلان بن طغرل ، ولهذا السبب سميت بقلعة أرسلان كشاى أى قلعة أرسلان الفاتح ، (أنظر تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ ص ٤٣ - ٤٤) .

إلى حصار الموت . ثم عاد إلى خوارزم ، وأمر ولده قطب الدين بحصار قلعة ترشيش [١] من حصون الملاحدة ، فحصرها فأذعنوا له بالطاعة وصالحوه على ماية ألف دينار ، ففارقها وأجابهم إلى الصلح لما بلغه من مرض أبيه . ورحل عنها ، وعاد إلى خوارزم فمات والده قبل وصوله إليه .

ذكر وفاة خوارزم شاه تكش

كانت وفاته فى العشرين من شهر رمضان سنة ست وتسعين وخمسماية بشهر ستانه [٢] بين نيسابور وخوارزم . وكان قد سار من خوارزم لقصد خراسان وبه مرض الخوانيق ، فاشتد مرضه ومات ، ولما اشتد به المرض أرسل من معه إلى ولده قطب الدين يستدعونه ، فوصل بعد وفاة أبيه ،وتولى الملك ، ولقب بلقب أبيه علاء الدين خوارزم شاه ، وأمر بحمل أبيه إلى خوارزم ، فحمل إليها ودفن فى تربة كان قد عملها فى المدرسة التى بناها ، وكان عادلاً حسن السيرة وله معرفة وعلم . وكان حنفى المذهب ويعرف الأصول رحمه الله تعالى .

---

(١) فى المتن برشيش بفتح الراء ، وفى ابن الأثير وياقوت ترشيش بضم التاء وسكون الراء ، وهى ناحية من أعمال نيسابور وتكتب أيضاً طرثيث ، (ياقوت ج ٢ ص ٢٢ ، ج ٤ ص ٣٣) .

(٢) فى ك ، ع : شهرستاه ، والاسم الصحيح من ابن الأثير سنة ٥٩٦ هـ . شهرستانة .

ذكر أخبار السلطان علاء الدين ابى الفتح محمد ابن علاء الدين تكش بن الب ارسلان بن اتسز ابن محمد بن انوشتكين

وهو الذى عظم من ملوك هذه الدولة شأنه ، وكثرت جيوشه وأعوانه ، وشاع بين الملوك ذكره ، وعم الممالك نهيه وأمره ، واجتمع فى ملكه ماافترق لغيره من الممالك ، وتسهل لديه ماشسع على من سواه من المسالك ، ودان لطاعته ملوك الأقطار ، فتساوى عنده الآمر والمأمور ، والمملوك والمالك .

قال شهاب الدين محمد بن أحمد بن على المنشى النسوى (١) فى تاريخه ، أنه ضم إلى ماورثه من أبيه من ملك خراسان وخوارزم والعراق ومازندران (٢) ، وضم إلى هذه الواسطة كرمان ومكران وكيش وسجستان وبلاد الغور وغزنة وبأميان (٣) إلى مايليها من الهند بأغوارها وأنجادها ، والسيوف مهملة فى أغمادها ، والعواتق

---

(١) هو محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشى النسوى ، صاحب كتاب سيرة جلال الدين منكبرتى ، وقد رجعنا إلى كتابه فى تحقيق هذا الجزء .

(٢) مازندران ، بفتح الميم والزاى وسكون النون إسم لولاية طبرستان (ياقوت ج ٥ ص ٤١) .

(٣) باميان : بلدة بين بلخ وهراة وغزنة . وبها قلعة حصينة ، وقد خرج من هذه المدينة جماعة من أهل العلم منهم أبو بكر محمد بن على بن أحمد الباميانى ، وهو من المحدثين الثقاة (أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩ ، القاهرة ١٣٢٣ هـ . = ١٩٠٦ م) .

معطلة فى نجادها ، ملكها بالهيبة عفوا صفوا ، وملك عن الخطاية[١] وغيرهم من ملوك الترك ، وقروم[٢] ماوراء النهر مايقارب أربعماية مدينة . وخطب له على منابر فارس وأران[٣] وأذربيجان إلى مايلى در بندشروان .

قال : واشتملت جريدة ديوان الجيش على مايقارب أربعماية ألف فارس ، فلما عظم شأنه وتمكن سلطانه تطاول إلى طلب ملك آل سلجوق والحكم ببغداد ، وتكررت مراسلاته إلى الخليفة فلم يجب إلى ذلك ، فاحتفل بهذا الأمر ، فكان من جملة ذلك أن بطل النوب الخمس التى كانت تضرب على أبواب الملوك فى أوقات الصلوات الخمس على عادة من تقدمه[٤] ، وجعلها إلى أولاد السلاطين يضربونها فى الأقاليم التى سماها لهم على أبواب دور السلطنة واختص هو بضرب نوبة الاسكندر ذى القرنين ـ وهى عند طلوع

---

(١) هكذا فى المتن ، وقد كتبها النسوى الخطايية ، (أنظر سيرة جلال الدين منكبرتى ص ٣ ، نشر وتحقيق حافظ حمدى ، ص ٣ ، القاهرة ١٩٥٣) . والخطاطبية نسبة إلى قبائل الخطا الذين أسسوا دولة لهم فى إقليم التركستان فى مستهل القرن السادس الهجرى

(٢) جمع قرم ، وهو السيد العظيم فى قومه .

(٣) أران بالفتح وتشديد الراء إسم لولاية كبيرة بينها وبين أذربيجان نهر الرس (معجم ياقوت ج ١ ص ١٣٦) .

(٤) جرت العادة بأن تدق نوبات من الطبول ، فى أوقات معينة على أبواب السلاطين ، تقوم بذلك الطبلخاناة ، وهى فرقة الموسيقى السلطانية ، وقد إعتبر القلقشندى ذلك من رسوم الملك ويشترك فيها الملوك ، وقال إن الطبلخاناه عبارة عن طبول متعددة معها أبواق وزمر تدق فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب . أما نوبة ذى القرنين فكانت كما هو واضح من النص تضرب فى وقتى الشروق والغروب ، وقد ذكر القلقشندى : " ويقال إن الإسكندر كان معه أربعون حملا طبلخاناه . . .وأن السر فى ذلك إرهاب العدو فى الحرب » .
(صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ٩)

الشمس وعند غروبها - واستعمل بهذه النوبة سبعا [١] وعشرين دبدبة من الذهب ورصعها بأنواع الجواهر ؛ وكذلك جمع مايحتاج إليه من الآلات . ونص فى أول يوم اختاره لضربها على سبعة وعشرين ملكا من أكابر الملوك وأولاد السلاطين ليسمع بذلك. وكان منهم ابن طغرل السلجقى ، وأولاد غياث الدين صاحب الغور وغزنة والهند ،والملك علاء الدين صاحب باميان والملك تاج الدين صاحب بلخ ، وولده الملك الأعظم صاحب ترمذ [٢] ، والملك سنجر صاحب بخارى ، وأشباه هؤلاء وأعوزه لتمام سبعة وعشرين ملكا فكملهم بابن أخيه أدبزخان [٣] ، ووزير الدولة نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح ، فهؤلاء الذين ضربوها فى اليوم الذى اختير لضربها فشغله عن ملك بغداد حادثة التتار ، وهى الداهية العظمى ؛ على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وها نحن نذكر سياقه أخباره وابتداء سلطنته فنقول :

كان ابتداء ملكه بعد وفاة أبيه فى العشر الآخر من شهر رمضان سنة ست وتسعين وخمسماية . ولما ملك استدعى أخاه على شاه ابن تكش ن إصفهان ، فسار إليه فنهب أهل إصفهان خزانته . فلما وصل إلى أخيه ولاد حرب خراسان والتقدم على جندها وسلم إليه نيسابور . قال وكان هندوخان ابن أخيه ملكشاه بن تكش ، فخاف عمه محمد فهرب إنه بعد أن نهب كثيرا من خزائن جده تكش عند وفاته ، فإنه كان معه وسار إلى مرو وجمع جموعا كثيرة ، فسير إليه

(١) فى ك : سبعة .

(٢) ترمذ بفتح التاء وكسر الميم مدينة مشهورة على الجانب الشرقى لنهر جيحون . (ياقوت ج ٢ ص ٢٦) .

(٣) هكذا فى ك ولكن النسوى يكتبها أربز خان .

(أنظر سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص ٦٦ ، نشر حافظ همدى) .

عمه جيشا مقدمه جقر التركى ، فهرب هندوخان عن خراسان ، وسار إلى غياث الدين ملك غزنة يستنجده على عمه . فأكرمه وأحسن إليه وأقطعه أقطاعا ، وأوعده النصرة ، ودخل جقر مدينة مرو وبها والده هندوخان وأولاده ، فأرسلهم ، إلى خوارزم مكرمين ، ثم راسل جقر غياث الدين صاحب غزنة فى الانضمام إليه ومفارقة الخوارزمية ، فأطمعه ذلك فى البلاد ، وجهز أخاه شهاب الدين لقصد خراسان ، والاستيلاء على مابها من بلاد خوارزم شاه . فسار فى جمادى الأولى سنة سبع وتسعين ، وملك مرو وسلمها غياث الدين إلى هندوخان بن ملكشاه ، وملك سرخس ، وملك طوس ، وملك نيسابور وبها على شاه أخو السلطان خوارزم شاه ، فسلمه إلى أخيه شهاب الدين على ماقدمناه فى أخبار الدولة الغورية .

ذكر ملك خوارزم شاه
وماكان الغورية قد ملكوه من بلاده

كان سبب ذلك أن شهاب الدين الغورى بعد أن ملك ماملك من بلاد خوارزم شاه ، توجه إلى الهند ، بعد أن رتب فى كل بلد من نوابه من يحفظه ويقوم بمصالحه فلما توجه إلى الهند راسل خوارزم شاه غياث الدين وعاتبه ، وقال فى جملة رسالته: إننى كنت أظن أنك تنصرنى على من يقصد التطرق إلى بلادى من ملوك الخطا وغيرهم ، فحيث لم تفعل فلاأقل أن لاتؤذينى فى ملكى . وطلب منه إعادة ماأخذه من بلاده . وقال : ومتى لم تفعل انتصرت عليك بالخطا

وغيرهم من الأتراك ، إن عجزت عن استرجاع بلادى ، إلى غير ذلك من الكلام فأخذ غياث الدين يغالطه في الجواب ويكرر الرسائل ، وهو ينتظر خروج شهاب الدين من الهند ، فإن غياث الدين كان يعجز عن ملاقاته لما به من النقرس ، فجمع علاء الدين العساكر وسار فى منتصف ذى الحجة سنة سبع وتسعين وتوجه إلى مرو ، فلما قاربها هرب منها ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه وتوجه إلى غياث الدين ، وملكها خوارزم شاه ،وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين محمد الغورى صهر غياث الدين ، وهو الذى كان يلقب ضياء الدين ، فقاتله قتالا شديدا . وطال مقام خوارزم شاه ، فراسله غير مرة فى تسليم البلد وهو لايجيب ، رجاء أن يصله المدد من غياث الدين فلما طال عليه الحصار وأيس من وصول الأمداد إليه ،راسل فى طلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغورية ، فأجابه إلى ذلك وتسلم البلد ، وأحسن إلى علاء الدين ومن معه .

ثم سار خوارزم شاه إلى سرخس وبها الأمير زنكى فحصره أربعين يوما ، فضاقت الميرة على أهل البلد ، فراسله زنكى أن يتأخر عن باب البلد ليفارقها هو ومن معه ، واعتذر أنه لايمكنه الاجتماع به لقرب نسبه من غياث الدين ، فتأخر خوارزم شاه عن المدينة وأبعد . فخرج زنكى ، وأخذ من الغلات والأقوات والأحطاب التى كانت فى العسكر مايحتاج إليه ، وعاد إلى البلد وأخرج منه من كان ضاق به الأمر ، فندم خوارزم شاه على موافقته ، ورحل عن البلد ، وترك عليه جماعة من أمرائه يحاصرونه . فلما سار خوارزم شاه

عن سرخس قصد نائب الغورية بالطالقان [١] أن يكبس العسكر الخوارزمى المحاصر لسرخس . وكتب بذلك إلى زنكى ؛ فشعر الخوارزميون بذلك ففارقوا سرخس ، فأدركهم نايب الطالقان ، وأوقع بهم ، وقتل أمير علمهم ، وكسر كوساتهم [٢] ، فانقطع صوتها عن العسكر ، ولم يروا الأعلام ، فانهزموا ، ونال الغورية منهم منالا عظيما قتلا وأسرا .

فلما اتصل هذا الخبر بخوارزم شاه ، عاد إلى خوارزم ، وكتب إلى غياث الدين وراسله فى الصلح ، فأجابه عن رسالته مع أمير كبير من الغورية يقال له الحسن بن محمد المرغنى ، ومرغن من قرى العور ، فقبض عليه خوارزم شاه ، وكان أخوه عمر بن محمد المرغنى نائب الغورية بهراة . وسار خوارزم شاه إلى هراة بمكاتبة بعض أمرائها ، فنمى خبر من كاتبه إلى المرغنى ، فأمسكهم ، وأقام خوارزم شاه يحاصر المدينة أربعين يوما ، ثم رجع عنها لما بلغه عود شهاب الدين الغورى من الهند وذلك بعد مصالحة أميرها المرغنى على مال حمله إليه .

ولما عاد شهاب الدين من الهند بلغه مافعله خوارزم شاه فى غيبته ، وما ملكه من بلاد خراسان ، فسار إلى خراسان ، فانتهى إلى بلخ ثم إلى باميان وإلى مرو ، عازما على حربه . فالتقت أوائل عسكريهما ،

---

(١) الطالقان : اسم لبلدتين كبيرتين ، إحداهما بخراسان بين مرو وبلخ ، والثانية بلدة بين قزوين وأبهر . والأولى هى المقصودة فى النص .

(٢) الكوسة وجمعها كوسات هى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، وكان الضرب بالكوسات فى مناسبات معينة من شعائر الملك فى كثير من بلاط الحكام فى العصور الوسطى (انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٣،٩)

فاقتتلوا قتالا شديدا ، وتوجه خوارزم شاه شبه المنهزم ، وتوجه شهاب الدين إلى طوس فشتا [١] بها وهو على عزم المسير لمحاصرة خوارزم ، فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين ، فعاد إلى هراة وجلس للعزاء

واستخلف بطوس محمد بن جريك [٢] ، فجهز خوارزم شاه من عساكره من حصر طوس فجرى بينهم وبين النايب بها حروب كثيرة ، آخرها أن النايب بها سأل الأمان لنفسه فأمنه منغور [٣] التركى - وهو مقدم العسكر الخوارزمى - فلما خرج إلى العسكر قتلوه ، وأخذوا مامعه ، وملكوا طوس . واتصل هذا الخبر بشهاب الدين الغورى فعظم عليه ، وترددت الرسائل بينه وبين خوارزم شاه ، فلم يحصل بينهما اتفاق .

ثم قصد شهاب الدين غزو الهند على عادته ، فاستعمل على هراة ابن أخيه ألب غازى ، وقلد الملك علاء الدين محمد بن على الغورى بمدينة فيروزكوه [٤] وبلد الغور ، وولاه حرب خراسان . وتوجه إلى الهند ، فقصد خوارزم شاه مدينة هراة وحاصرها ، وذلك فى شهر رجب سنة ستماية . واستمر إلى سلخ شعبان ، وكثرت القتلى بين العسكرين ، فراسل خوارزم شاه ألب غازى أن يخرج إليه ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه ، فلم يجبه إلى ذلك ثم اتفق

---

(١) فى ك : فشتى .

(٢) كذا فى المتن وفى ابن الأثير « ابن جر بلك » الكامل حوادث سنة ٥٩٨ هـ . وفى الجوينى محمد بن خرنك . (انظر تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ ص ٤٨ ، ٥٢)

(٣) وفى ابن الأثير برقور التركى . حوادث سنة ٥٩٩ هـ .

(٤) فيروزكوره معناها الجبل الأزرق وهى قلعة عظيمة حصينة بين هراة وغزنة، قال عنها ياقوت إنها دار مملكة من يتملك تلك النواحى . (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٨٤)

مرض ألب غازى ، واشتد به فخاف أن يشتغل بمرضه ، فيملك البلد فأجاب إلى ذلك ، واستحلفه على الصلح ، وأهدى له هدية جليلة ، وخرج من البلد ليخدمه ، فسقط إلى الأرض ، فمات ولم يشعر به أحد . وارتحل خوارزم شاه إلى سرخس فأقام بها .

قال : ولما اتصل الخبر بشهاب الدين عاد من الهند ، وقصد خوارزم ، فراسله خوارزم شاه فى العود ، وتهدده إن لم يعد بحرب هراة ، ومنها إلى غزنة ، فعاد عليه جوابه أن خوارزم تجمعنا . وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس إلى مرو ، ونزل بظاهرها ، فلما أتاه جواب شهاب الدين فرق عساكره وأحرق جميع مامعه من العلوفات ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم فسبقه إليها ، وقطع الطريق التى تسلكها الغورية بإجراء المياه فيها ، فتعذر على شهاب الدين سلوكها ، وأقام فى إصلاحها أربعين يوما حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم . والتقى العسكران بسوقرا ، ومعناه الماء الأسود ، وجرى بينهم قتال شديد ، كثرت فيه القتلى من الطائفتين ، فأرسل خوارزم شاه إلى الأتراك الخطا يستنجدهم على الغورية ، وهم حينئذ ملوك ماوراء النهر ، فاستعدوا وساروا إلى بلاد الغورية ، فبلغ شهاب الدين خبر مسيرهم ، فعاد عن خوارزم .

وكان من أمره مع الخطا وقتالهم وهزيمته منهم ماقدمناه فى أخباره وذلك فى صفر سنة إحدى وستماية ، فلا فائدة فى إعادته فى هذا الموضع . ولم تطل مدة شهاب الدين بعد ذلك فإنه قتل فى أوائل شعبان سنة اثنتين وستماية ، فاستولى خوارزم شاه حينئذ على مانذكره بخراسان وغيرها

ذكر استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان

كان سبب ذلك أن شهاب الدين الغورى لما قتل كما ذكرنا استقر الملك بعده لغياث الدين بن غياث الدين أخيه ووقع من الاختلاف بين الغورية وافتراقهم ماذكرناه فى أخبارهم ، واتفق أن الحسين بن [خرميل] [1] والى هراة كاتب خوارزم شاه فى الانتماء إليه والخروج عن طاعة الغورية . وشرع يغالط فى الخطبة بهراة لغياث الدين وهو ينتظر وصول العسكر الخوارزمى إليه ، فراسله غياث الدين ، فى الخطبة له ، وجهز إليه الخلع فلبسها ابن خرميل وأصحابه ووعد بالخطبة له فى يوم الجمعة . فلما كان فى يوم الجمعة قرب العسكر الخوارزمى من هراة فطالبه رسل غياث الدين بالخطبة ، فقال نحن فى أشغل من ذلك بقرب هذا العدو .

ولما وصل العسكر الخوارزمى تلقاهم ابن خرميل وأنزلهم بظاهر هراة ، وجهز إليهم الإقامات ، فقالوا قد رسم لنا خوارزم شاه أن نطيعك ولانخالف أمرك ، فشكرهم على ذلك . ثم بلغه أن خوارزم شاه نزل على بلخ وحاصرها ، وأن صاحبها قاتله بظاهر البلد . وأنه نزل على أربعة فراسخ منها ، فاستدل ابن خرميل بذلك على عجزه ، وندم على مراسلته ، وقال للعسكر إن خوارزم شاه قد صالح غياث الدين والمصلحة أن ترجعوا ، فرجعوا . واتفق أن غياث الدين

---

(١) فى ك الحسين بن جرميل ومابين الحاصرتين الاسم الصحيح كما أورده ابن الأثير ، حوادث سنة ٦٠٠ هـ . وكما ذكره الجوينى (تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ ص ٦٤ ، ٦٥)

بلغه مافعله ابن خرميل ، فاحتاط على إقطاعه وقبض على من يلوذ به ، فوصل الخبر إليه بذلك فأعاد العسكر الخوارزمى بعد رحيله بيومين وسلم لهم البلد ، وأخرج من كان بها من الغورية ، ومن يميل إليهم ، ثم ملك خوارزم شاه مدينة بلخ فى سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وستماية صلحا ، بعد حروب كثيرة بينه وبين عماد الدين . وخلع خوارزم شاه عليه ، وأقره بالبلد ثم سار عنها إلى جرزبان [1] ، وبها على بن أبى على ، فراسله وآيسه من نجدة غياث الدين ، فنزل عنها وسلمها له ، وتوجه إلى غياث الدين وسلّم خوارزم شاه جرزبان إلى ابن خرميل فإنها كانت أقطاعه ، ثم قبض على عماد الدين صاحب بلخ وسيره إلى خوارزم ، واستناب ببلخ جقر التركى .

ذكر ملكه ترمذ وتسليمها للخطا

قال : ثم سار خوارزم شاه من مدينة بلخ إلى ترمذ مجدا ، وبها ولد عماد الدين صاحب بلخ ، فراسله فى تسليمها ، ووعده الخير ، واعتذر من إرسال أبيه إلى خوارزم أنه أنكر منه حاله ، وأنه سيره مكرما ، فرأى ابن عماد الدين أن خوارزم شاه قد حاصره من جانب والخطا حاصروه من جانب ، فضعفت نفسه وسلم البلد ، بعد أن استحلف خوارزم شاه على الوفاء له . ولما تسلم خوارزم شاه البلد ، سلمها للخطا خديعة منه ليتمكن من ملك خراسان .

---

(١) كذا فى المتن بضم الجيم وسكون الراء وضم الزاى غير أن الصيغة الشائعة للاسم هى كرزوان ، وهى بلدة فى الجبل قرب الطالقان جبلها متصل بجبل الغور (ياقوت ج ٤ ص ٤٥٠)

وفى سنة اثنتين وستماية ، سار من عسكر خوارزم شاه عشرة آلاف فارس إلى بلد الجبل ، فوصلوا أرزنكان ، وكان صاحبها أيتغمش قد اشتغل بحرب صاحب أربل ومراغه ، فاغتنموا خلو البلاد وأفسدوا وقتلوا ونهبوا ، ثم عاد أيتغمش فاوقع بهم ، فانهزم الخوارزميون ، وأخذهم السيف من كل جانب .

ذكر ملكه الطالقان

قال : ولما سلم خوارزم شاه ترمذ إلى الخطا سار إلى [اندخوى] (١) وكان النايب بها عن غياث الدين سونج أمير شكار ، فاستماله خوارزم شاه ، فأبى إلا القتال ، وبرز لقتاله فالتقوا بالقرب من الطالقان . فلما تقابل العسكران حمل سونج بمفرده حتى قارب عسكر خوارزم شاه ، وألقى نفسه إلى الأرض ، ورمى سلاحه ، وقبل الأرض ، وسأل العفو عنه . فذمه خوارزم شاه وسبه ، وأخذ ماباالطالقان من مال وسلاح ودواب ، وأنفذه إلى غياث الدين مع رسول ، وأراد بذلك التقرب إليه وملاطفته . واستناب بالطالقان بعض أصحابه ، ووصل رسول غياث الدين إلى خوارزم شاه بالهدايا .

قال : وتوجه ابن خرميل نائب خوارزم شاه بهراة إلى اسفزار (٢) فى صفر سنة ثلاث وستماية . وكان صاحبها قد توجه إلى غياث الدين

---

(١) فى ك : اندجوى ، ومابين الحاصرتين اندخوى كما ذكره ابن الأثير ، حوادث سنة ٦٠٣ هـ

(٢) اسفزار بفتح الهمزة وسكون السين ، والفاء تضم أو تكسر . مدينة من نواحى سجستان من جهة هراة .

فحصرها وتسلمها فى شهر ربيع الأول من السنة بالأمان . ولما أخذها أرسل إلى صاحب سجستان يدعوه إلى طاعة خوارزم شاه ، والخطبة له ببلاده ، فأجابه إلى ذلك وخطب له .

ذكر أسر خوارزم شاه وخلاصه

وفى سنة أربع وستماية عبر السلطان علاء الدين خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا . وسبب ذلك أنهم كانت قد طالت مدتهم ببلاد تركستان وماوراء النهر ، وثقلت وطأتهم على الناس . وكان لهم فى كل مدينة نائب يجبى لهم الأموال وهم يسكنون الخركاهات[١] على عادتهم قبل الملك . وكان مقامهم بنواحى أوزكند[٢] وبلاساغون[٣] وكاشغر[٤] . فاتفق أن سلطان سمرقند وبخارى ويلقب قان قانان[٥] ومعناه سلطان السلاطين ، وهو من أولاد الملوك الخانية عريق فى الإسلام والملك ، أنف من تحكم الكفار الخطا على المسلمين ، فأرسل إلى خوارزم شاه يحثه على قصد الخطا وقتالهم ، وأنه يكون معه عليهم ، ويحمل إليه مايحمله إليهم ، ويخطب له ببلاده ،

---

(١) الخركاه : لفظ فارسى شرحه Dozy بأنه نوع من الخيمة يتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة وتغطيها قطع من اللبد .

(٢) أوزكند بضم أوله ، بلد بما وراء النهر من نواحى فرغانه ، ويقال أوزجند . (ياقوت ج ١ ص ٢٨٠)

(٣) بلاساغون : بلد عظيم وراء نهر سيحون قريب من كاشغر (ياقوت ج ١ ص ٧٧)

(٤) كاشغر : وصفها ياقوت بأنها مدينة وقرى ورساتيق وسط بلاد الترك يسافر إليها من سمرقند . (ج ٤ ص ٤٣٠) .

ويضرب السكة باسمه ، وحلف له على ذلك ، وسير إليه أكابر بخارى وسمرقند . فاستوثق خوارزم شاه منه وأخذ فى إصلاح بلاده وتقرير النواب بها ، وصالح غياث الدين محمود الغورى على مابيده ثم جمع العساكر وسار إلى خوارزم ، وتجهز منها وعبر جيحون . واجتمع بسلطان سمر قند ، فاجتمع الخطا ، وجاء إليه . وكان بينهم حروب كثيرة تارة له وتارة عليه ، ودامت على ذلك مدة ، فاقتتلوا فى بعض الأيام فانهزم عسكره ، وقتل منهم وأسر جماعة ، فكان من أسر خوارزم شاه ، أسر هو وابن شهاب الدين مسعود وهو من أكابر أمرائه ، أسرهما رجل واحد . ووصلت العساكر الخوارزمية إلى خوارزم وقد فقدوا السلطان فاتصل الخبر بكزلك[1] خان والى نيسابور وكان إذ ذاك يحاصر هراه بعد قتل ابن خرميل على مانذكره ، ففارق هراه وتوجه إلى نيسابور وكان خوارزم شاه لما ملكها من الغورية خرب سورها فشرع فى إصلاحه وشحنها بالجند واستكثر من الميرة وعزم على الاستيلاء على خراسان ، إن صح له فقد السلطان . واتصل خبر خوارزم شاه بأخيه على شاه وهو بطبرستان فدعا لنفسه وقطع خطبة أخيه واستعد لطلب السلطنة .

هذا ماكان من أولئك ، وأما خوارزم شاه فأنه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود : « المصلحة أن تصير خادما لى فى هذه المدة لأتحيل فى خلاصك » فصار خوارزم شاه يخدمه ، ويقف بين .

---

(١) هكذا فى ك ، وهو مطابق لما ورد فى ابن الأثير ، حوادث سنة ٦٠٤ هـ. ولكن الجوينى يكتبه كزلى ، (تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ ص ٦٩) .

يديه ، ويلبسه قماشه ، ويطويه إذا قلعه ، ويقدم له الطعام ، ويعامله معاملة الغلمان . فقال الذى أسرهما لابن مسعود: « أرى هذا يخدمك » فقال : « هو غلامى » قال: « فمن أنت » قال: « أنا فلان » فأكرمه الخطاى وعظمه وقال له: « لولا أن القوم قد عرفوا بمكانك عندى أطلقتك » فشكره ابن مسعود وأعقله أياما وقال له: « إنى أخاف أن يرجع المنهزمون فلا يرانى أهلى معهم ،فيظنون إننى قتلت ، فيقتسمون مالى فأهلك ، وأحب أن تقرر علىّ ماتريد من المال ، أحمله إليك ، فقرر عليه مالا وقال : «أريد أن تأمر رجلا عاقلا من أصحابك يذهب بكتابى إلى أهلى ، ويخبرهم بعافيتى ، ويحضر معه المال » ثم قال : إن أصحابك لايعرفون أهلنا ، وهذا غلامى أنا أثق به ، ويصدقه أهلى بسلامتى . فأذن الخطاى فى إرساله ، فجهزه وأرسل معه عدة من الفرسان يحمونه ، فسار حتى قارب خوارزم ، وعاد الفرسان ووصل خوارزم شاه إلى خراسان ، فاستبشروا به وضربت البشائر وبلغه مافعله أخوه بطبرستان وكذلك خان بنيسابور . فأما كزلك خان فإنه لما بلغه وصوله أخذ أمواله وأهله وأصحابه وهرب صوب العراق ؛ وأما على شاه فهرب إلى غياث الدين الغورى فأكرمه . ودخل خوارزم شاه إلى نيسابور ، وأصلح أمرها ، وجعل فيها نائبا وأما ابن مسعود فإن الخطاى قال له : « قد عدم خوارزم شاه فهل عندك شئ من خبره » قال : « هو أسيرك » قال : « فلم لاأعلمتنى به حتى كنت أبالغ فى خدمته وأسير بين يديه إلى ملكه ؟ » قال : خفت عليه منك . فسار الخطائى وابن مسعود إلى خوارزم شاه فأكرمهما إكراما كثيرا وبالغ فى الإحسان إليهما .

ذكر قتل الحسين بن خرميل وحصر هراه وملك فيروزكوه والفور

كان سبب ذلك أن خوارزم شاه لما سار إلى بلاد الخطا ساءت سيرة من بهراة [١] من العسكر الخوارزمى ؛ وتعدوا على الرعية . فقبض ابن خرميل النايب بهراة عليهم وحبسهم ؛ وكتب بذلك إلى خوارزم شاه ، فعظم ذلك عليه ؛ وما أمكنه الإنكار عليه لبعده عن البلاد ، فكتب إليه يستصوب رأيه فيهم ، ويأمره بإنقاذه ، إليه لاحتياجه إلى الجند . وقال : « قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل أن يكون عندك لعقله وحسن سيرته ، وأرسل إلى جلدك أن يحتال وفى القبض على ابن خرميل » فسار جلدك في ألفى فارس إلى هراه ، فخرج إليه ابن خرميل ، فنهاه الوزير المعروف بخواجا الصاحب ، كان قد حنكته التجارب ، وقال : « أخشى عليك أن تكون مكيدة » فخالفه وخرج للقاء جلدك ، فلما التقيا ترجلا للسلام ؛ فحال جلدك بين ابن خرميل وأصحابه وأمسكه ، فانهزم أصحابه ودخلوا مدينة هراة ، وأعلموا الصاحب بذلك ، فأغلق الأبواب وامتنع على جلدك ، فقدم ابن خرميل إلى السور ، وخاطب الوزير فى فتح الباب ، فامتنع وأظهر شعار غياث الدين الغورى ، فعندها قتل جلدك ابن خرميل ؛ وكتب إلى خوارزم شاه يعلمه بذلك ، فأنفذ خوارزم شاه إلى كزلك خان والى نيسابور ، وإلى أمير الدين صاحب زوزن [٢] يأمرهما

(١) هـراه : مدينـة عظيمة من أمهات مدن خراسـان .

(٢) زوزن بضم أوله وقد يفتح ، كوره واسعة بين نيسابور وهراه كانت تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة من أخرجت من الفضـلاء وأهل العـلم (ياقوت ج ٣ ص ١٥٨) .

بالمسيرة إلى هراة وحصارها ، فسارا فى عشرة آلاف فارس ، فعجزا عنها وقال الوزير: « ماأسلمها إلا لخوارزم شاه ، إذ أعاد هذا كله قبل أسر خوارزم شاه » . فلما أسر وشاع عدمه فارقها كذلك خان إلى نيسابور كما ذكرنا ، واستمر من سواه على حصارها فلما عاد خوارزم شاه ودخل إلى نيسابور كما ذكرنا ، سار منها إلى هراة ، وأحسن إلى العسكر الذى استمر على حصارها وشكرهم ، وطلب تسليمها فامتنع الوزير وقال : لاأسلمها إلا إلى غياث الدين . ثم اتفقت فتنة بهراة بين الوزير والجند ، فكتب إلى خوارزم شاه من البلد ، فزحف عليها وهدم برجين من أبراجها ، وأهلها قد اشتغلوا بالفتنة الكائنة بين الوزير والجند . فملكها خوارزم شاه وقبض على الوزير وقتله وذلك فى سنة خمس وستماية . وأصلح حال البلد وسلمه إلى خاله أمير ملك ، وهو من أعيان أمرائه ، وأمره بالمسير إلى غياث الدين محمود الغورى بفيروزكوه ، وأن يقبض عليه وعلى أخيه على شاه بن تكش ، ويأخذ فيروزكوه . فسار إلى فيروزكوه ، فاتصل الخبر بصاحبها غياث الدين محمود ، فبذل الطاعة وسأل الأمان ، فأمنه ونزل غياث الدين إليه ، فقبض أمير ملك عليه وعلى على شاه أخى خوارزم شاه ، وكتب إلى خوارزم شاه بذلك ، فأمره بقتلهما فقتلا فى يوم واحد ، وذلك فى سنة خمس و ستماية . وانقرضت الدولة الغورية بقتل غياث الدين هذا واستقامت خراسان لخوارزم شاه .

ذكر عوده الى بلاد الخطا وظفره بهم وأسر مقدمهم وملكه ماوراء النهر

قال : ولما استقر ملك خراسان للسلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد ، جمع العساكر وعبر نهر جيحون ، وجمع الخطا جمعا عظيما ، وكان المقدم عليهم طاينكوه ، وهو شيخ دولتهم والقائم مقام الملك فيهم ، وكان عمره قد تجاوز ماية سنة ، وله خبرة بالحروب . فاجتمع خوارزم شاه ـ هو وصاحب سمرقند ـ والتقوا هم والخطا ، وذلك فى سنة ست وستماية . فجرى بينهم حروب كان الظفر فيها لخوارزم شاه وانهزم الخطا وقتل منهم وأسر خلقا كثيرا . فكان ممن أسر مقدمهم طاينكوه ، فأكرمه خوارزم شاه وأجلسه معه ، ثم جهزه إلى خوارزم . وقصد خوارزم شاه بلاد ماوراء النهر ، فملكها مدينة بعد أخرى حتى بلغ أوزكند [1] ، فجعل نوابه فيها على عادة الخطا وعاد إلى خوارزم ، ومعه سلطان سمرقند . وكان من أحسن الناس صورة ، فكان أهل خوارزم يتجمعون حتى ينظروا [2] إليه ، فزوجه خوارزم شاه ابنته ، ورده إلى سمرقند ، وبعث معه شحنة يكون بها على عادة الخطا .

---

(١) أوزكند بالضم بلد بما وراء النهر ، ويقال له أيضاً أوزجند . (ياقوت ج ١ ص ٢٨٠) .

(٢) فى ك ينظرون .

ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين

قال: ولما عاد صاحب سمرقند إليها ومعه الشحنة ، أقام معه سنة ، فرأى صاحب سمرقند من سوء سيرة الخوارزميين ماندم بسببه على مفارقة الخطا ، فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه ، ويعود إلى طاعته ، وأمر بقتل كل من بسمرقند من الخوارزمية ، ممن كان بها قديما وحديثا ، وأخذ أصحاب خوارزم شاه ، فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم فى الأسواق كما يعلق القصاب اللحم . ومضى إلى القلعة ليقتل زوجته – ابنه خوارزم شاه – فأغلقت الأبواب ، ووقفت بجواريها ، ومانعت عن نفسها ، وأرسلت إليه تقول: « أنا امرأة وقتل مثلى قبيح عليك ، وما فعلت معك من الإساءة مااستوجب ذلك منك ، ولعل تركى أحمدُ عاقبة ، فاتق الله . » فتركها ووكل بها من يمنعها من التصرف فى نفسها .

ووصل الخبر إلى خوارزم شاه ، فعظم عليه ، وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء ، فمنعته أمه من ذلك ، وقالت: « هذا بلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل . » فأمر بقتل أهل سمرقند فمنعته من ذلك أيضا ، فتركهم . وأمر عساكره بالتجهز إلى ماوراء النهر ، وسيرهم أرسالا ، فعبروا جيحون ، وعبر هو فى آخرهم ، وسار حتى نزل على سمرقند . وأنفذ إلى صاحبها يقول : قد فعلت مالم يفعله مسلم ، واستحللت من دماء المسلمين مالم يقدم عليه غيرك من مسلم ولاكافر ، والآن عفا الله

عما سلف ، فاخرج من البلاد وامض إلى حيث شئت . فامتنع من ذلك ، فأمر خوارزم شاه بالزحف على سمرقند ، فلم يكن بأسرع من أن فتح البلد ، وأمر أن لايتطرق إلى الغرباء بسوء ، وأذن لأصحابه فى نهب البلد ، وقتل أهله ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام . فيقال أنهم قتلوا من أهل سمرقند مايتى ألف إنسان ، وسلم الدرب الذى فيه الغرباء ، فلم يُعدم منهم أحد ، ثم أمر بالكف عن النهب والقتل . ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ماملأ قلبه هيبة ورعبا ، فطلب الأمان فلم يجبه خوارزم شاه إلى ذلك ، وزحف على القلعة وملكها ، وقتل صاحبها صبرا . وقتل معه جماعة من أقاربه ، ولم يترك أحدا ممن ينسب إلى الخانية . ورتب فيها وفى سائر البلاد نوابه ولم يبق لغيره بها حكم .

ذكر الواقعة التى أفنت الخطا

وهذه الواقعة قد اختلف فى إيرادها ابن الأثير الجزرى فى تاريخه المترجم بالكامل ، وشهاب الدين محمد المنشى فى التاريخ الجلالى ، ونحن الآن نذكر فى هذا الموضع مانقله ابن الأثير ، ونذكر فى أخبار الدولة الجنكزخانية مانقله المنشى . وإنما نبهنا على ذلك فى هذا الموضع لئلا يقف عليه مُتأمل فيرى فى النقل الاختلاف فيظن أن ذلك عن سهو أو غلط أوالتباس .

فأما ماحكاه ابن الأثير فإنه قال : لما فعل خوارزم شاه بالخطا مافعل -يعنى من هزيمتهم وأسر مقدمهم طاينكوه - مضى من سلم

منهم إلى ملكهم ، فإنه لم يكن قد شهد الحرب ، فاجتمعوا عنده . وكانت طائفة عظيمة من التتار قد خرجوا من بلادهم حدود الصين ونزلوا وراء بلاد تركستان ، وكان بينهم وبين الخطا حروب كثيرة وعداوة . فلما بلغهم مافعله خوارزم شاه بعساكر الخطا قصدوهم مع ملكهم كشليخان (١) فأرسل ملك الخطا إلى خوارزم شاه يقول : « أما ماكان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فمعفو عنه ، وقد أتانا من هذا العدو مالا قبل لنا به ، فإن انتصروا علينا وملكوا البلاد ، فلادافع لهم عنك ، والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم ، ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لانتعرض لما بيدك من البلاد ، ونقنع بما فى أيدينا . » وأرسل إليه كشليخان يقول : « إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداؤنا ، فساعدنا عليهم ، ونحلف لك أننا إذا انتصرنا عليهم لانقرب بلادك ، ونقنع بالمواضع التى ينزلونها ، والمراعى التى يرعونها . » فأجاب كل منهما : « إننى معك على خصمك ، » وسار بعساكره إلى أن نزل قريبا من الموضع الذى يتصافون (٢) ، فيه ولم يخالطهم مخالطة يعلمون بها أنه مع أحد منهم على الآخر ، فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها .

والتقى التتار والخطا فانهزم الخطا منهم هزيمة عظيمة ، فعند ذلك مال خوارزم شاه على الخطا ، وجعل يقتل منهم ويأسر وينهب ، فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرة مع ملكهم ، فى موضع من نواحى

---

(١) فى ابن الأثير كشلى خان ، (الكامل ، حوادث سنة ٦٠٤ هـ) ، وفى الجوينى كوجلك خان (تاريخ جهانكشاه ، ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣) .

(٢) فى ك يتصافوا .

بلاد الترك ، تحيط بها جبال يتعذر الوصول إليها إلا من جهة واحدة ، فتحصنوا بها ، وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة . وصاروا فى عسكره فأنفذ خوارزم شاه إلى كشليخان ملك التتار يمت عليه (١) بأنه ساعده ، ولولا ذلك ماتمكن من الخطا . فاعترف له بذلك مدة ، ثم أرسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا . وقال: « كما أن نحن اتفقنا على إبادتهم ينبغى أن نقتسم بلادهم ، » فقال: « ليس لك عندى إلا السيف ، ولستم بأقوى منه شوكة ، ولاأعز ملكا ، فإن رضيت بالمسالمة وإلا سرت إليك وفعلت بك شرا مما فعلت بهم » وتجهز كشليخان ونزل بالقرب من خوارزم شاه ، فعلم خوارزم شاه أنه لاطاقة له به ، فكان يراوغه . فإذا سار إلى موضع قصد خوارزم شاه أهله وأثقالهم ، فينهبها ، وإذا سارت طائفة منهم عن مكانهم سار فأوقع بهم . فأرسل إليه كشليخان يقول: « ليس هذا فعل الملوك وإنما هو فعل اللصوص ، فإن كنت سلطانا كما تقول فيجب أن نلتقى ، فإما تهزمنى وتملك البلاد التى بيدى ، أو أفعل أنا بك ذلك . فكان خوارزم شاه يغالطه فى الجواب ، ولايصمم على حربه ، ولكنه أمر أهل الشاش(٢) وفرغانة وأسفيجاب(٣) وكاشان ، وماحول ذلك من المدن التى لم يكن فى الدنيا أنزه منها ولاأحسن عمارة ، بالجلاء

(١) المت هو التوسل بقرابة .

(٢) قال ياقوت : إن الشاش بلدة بما وراءالنهر ثم ماوراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك ، خرج منها العلماء وأهلها شافعية المذهب معجم البلدان ج ٣ ص ٣٠٨ .

(٣) أسيفيجاب بالفتح ثم السكون ، بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان ، (ياقوت ج ١ ص ١٧٩) .

منها واللحاق ببلاد الإسلام ، ثم خربها جميعا خوفا من التتار أن يملكوها .

ثم اتفق خروج جنكزخان التمرجى ملك التتار على كشليخان ، فاشتغل بقتاله عن قتال خوارزم شاه ، فخلا وجهه ، وعاد من بلاد ماوراء النهر إلى خراسان .

ذكر ملك خوارزم شاه كرمان ومكران من السند

قال : كان من جملة نواب خوارزم شاه تاج الدين أبو بكر نايبه بمدينة زوزن . وكان تاج الدين هذا فى ابتداء أمره جمّالا ، يكرى الجمال للأسفار ، ثم صار على جمال خوارزم شاه ، فرأى منه جلدا وأمانة ، فقدمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكره ، ثم ولاه مدينة زوزن. وكان ذا عقل وسياسة ، فقال يوما لخوارزم شاه : « إن بلاد كرمان مجاورة لبلدى ، فلو أضاف السلطان إلىّ عسكرا لملكتها فى أسرع وقت » فسير معه عسكرا فمضى إلى كرمان ، فقاتل صاحبها [حرب] [1] بن محمد بن أبى الفضل ، وملكها فى أسرع وقت ، وسار منها إلى نواحى مكران ، فملكها إلى السند من حدود كابل ، وسا إلى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران ، فأطاعه صاحبها وخطب بها لخوارزم شاه ، وخطب لـه

(١) فى ك حرز ، وما بين الحاصرتين حرب كما كتبه ابن الأثير الذى ينقل عنه النويرى عباراته هنا بنصها تقريباً ، (أنظر حوادث سنة ٦١١ هـ) .

بقلهات [١] وبعض عمان ، وذلك فى سنة إحدى عشرة وستماية أو مايقاربها .

ذكر ملكه غزنة وأعمالها

قال: ولما استولى خوارزم شاه على عامة بلاد خراسان، وملك باميان [٢] وغيرها ، أرسل إلى تاج الدين الدز صاحب غزنة ، وهو الذى ملكها من الغورية ، وهو من مماليكهم ، أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه ، ويسير إليه قبلا ، ليصالحه ويقر بيده غزنة . واستشار تاج الدين أمراءه فى ذلك فأشاروا به ، وكان الحاكم على دولته والمتصرف فيها خوشداشه قتلغ تكين وهو النايب عنه بغزنة ، فكان ممن أشار بذلك ، فخطب لخوارزم شاه بغزنة ، وضرب السكة باسمه ، واستقر ذلك . ثم مضى تاج الدين الدز إلى الصيد ، فأرسل قتلغ تكين إلى خوارزم شاه يستدعيه ليسلم إليه غزنة ، فسار مجدا، وسبق خبره ، وتسلم غزنة والقلعة من قتلغ تكين ، وقتل من بها من عسكر الغورية ، فوصل الخبر إلى صاحبها تاج الدين الدز فهرب هو ومن معه إلى لهاوور [٣].

---

(١) قلهـات ، بالكسر ثم السكون ، مدينة بعمان على ساحل البحر ، إليها ترفأ أكثر سفن الهنـد .

(ياقوت ج ٤ ص ٣٩٣) .

(٢) باميان ، بكسر الميم ، بلدة فى الجبال بين بلخ وهراه وغزنة ، بها قلعة حصينة .

(٣) لهاوور ، ولهاور ولوهور ، أسماء لمدينة واحدة فى الهنـد ، وصفها ياقوت بأنها مدينة عظيمة مشهورة ، لعلهـا اليوم لاهـور .

(معجم البـلدان ج ٥ ص ٢٦) .

وأقام خوارزم شاه بغزنة ، فلما تمكن أحضر قتلغ تكين ، وسأله كيف كانت حاله مع الدز ، فأخبره أنه كان الحاكم على دولته ، والمتصرف فى الحكم وغيره ، وكان يعرف ذلك ، وإنما أراد إقامة الحجة عليه. فلما انتهى حديثه قال[خوارزم] شاه له: « إذا كنت مارعيت الحق لمن أنت وهو من بيت واحد ، وقد حكمك فى ملكه وصرفك فيه ، فكيف تفعل مع ابنى إذا تركته عندك؟ » وأمر بالقبض عليه ، وأخذ منه أموالا جمة حملها على ثلاثين دابة وأربعماية مملوك ، ثم قتله . وترك ولده جلال الدين بغزنة فى جماعة من عساكره وأمرائه وكان ملكه لها فى سنة ثنتى عشرة وستماية ، وقيل سنة ثلاث عشرة.

ذكر عزمه على المسير الى العراق وقصد بغداد ، ومراسلته فى طلب آل سلجق ببغداد وما أجيب به

قال شهاب الدين محمد المنشى في تاريخه : لما عظم أمر السلطان [خوارزم شاه] وتجلت له الدنيا فى أرفع ملابسها وأشرقت شمس دولته من أكرم مطالعها ، واستملئت جريدة ديوان الجيش على مايقارب أربعمائة ألف فارس ، سمت همته إلى طلب ماكان لبنى سلجوق من الحكم والملك ببغداد ، وترددت الرسل فى ذلك مرارًا (١) فلم يجبه الخليفة إلى مراده لعلمه بما بين يديه من الشواغل عما وراء

(١) العبارة بين القوسين أخذها المحقق عن شهاب الدين محمد المنشى النسوى حيث أن معنى الجملة مضطرب فى المتن لسقوط فقرة من النص فى جميع النسخ التى اعتمد عليها المحقق فى تحقيق الكتاب .

(سيرة السلطان جلال الدين ص ١١) .

النهر وبلاد الترك . قال : وحكى القاضى فخر الدين عمر بن سعد الخوارزمى – وكان عند السلطان من ذوى الحظوة والاختصاص – وقد أرسله إلى بغداد مرارا ، قال : كان آخر رسالاتى إليها مطالبة الديوان بما ذكرناه ، فأبوا ذلك وأنكروه كل الإنكار ، وقالوا : إن اختلاف الدول ، وتقلب الدهر ، وتغلب الخارجى على بغداد ، وتسحب الإمام القائم بأمر الله منها إلى مدينة عانة ، وانتصاره بطغرلبك ابن ميكائيل هو الذى اقتضى تحكم بنى سلجوق فى بغداد ، [1] وإلا فليس يحسن أن يكون مع الزمان على أكتاف الخلافة محتكم يأمر فيها كيف شاء بما سر وساء ، وليس فيما أنعم الله عليه به من الممالك الواسعة والأقاليم المتباعدة المتشاسعة غنية عن الطمع فى ملك أمير المؤمنين ، ومشاهد آبائه الراشدين ، قال: وأصحب فى عوده الشيخ شهاب الدين السهروردى [2] رحمه الله مدافعا ، وواعظا وازعاً ، عما كان السلطان يلتمسه .

وتراجعت المراسلات فى المعنى وتكررت ، فكانت غير مجدية ، وانضاف إلى ذلك كثرة استهانتهم بالسبيل الذى كان للسلطان فى طريق مكة ، حتى بلغه تقديمهم سبيل صاحب الإسماعيلية جلال الدين الحسن على سبيله .

---

(١) يشير إلى ما حدث فى عهد الخليفة العباسى القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ ، ١٠٣١ – ١٠٧٥ م) (من إنحلال أمر الخلافة وضعف سلطنة آل بويه ، وهى التى يقصدها فى النص بعبارة « وتغلب الخارجى على بغداد » لأن بنى بويه كانوا شيعة ، الأمر الذى جعل الخليفة القائم بأمر الله يستعين بالسلاجقة ويأمر بالخطبة لطغر لبك السلجوقى فى جوامع بغداد فخطب له يوم الجمعة ٢٢ محرم سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) .

(٢) نسبة إلى مدينة شهرورد ، وقال ياقوت إنها ربما كانت سهرورد ، ولم يحدد مكانها .

قال المنشى : وسمعت القاضى فخر الدين المذكور يقول : إن الشيخ شهاب الدين لما دخل على السلطان ، وعنده من حسن الاعتقاد برفيع منزلته ، وعالى قدره ، وتقدمه فضلا على مشايخ عصره ، ماأوجب تخصيصه بمزيد الإكرام عن سائر الرسل الواردة عليه من الديوان ، فوقف قائما فى صحن الدار ثم أذن له فى الدخول . ، فلما استقر المجلس بالشيخ قال: إن من سنة الداعى للدولة القاهرة أن يقدم على أداء الرسالة حديثا من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، تيمنا وتبركا ، فأذن له السلطان فى ذلك ، وجثا على ركبتيه أدبا عند سماع الحديث . فذكر الشيخ حديثا معناه التحذير من أذية بنى العباس ، فلما فرغ من رواية الحديث قال السلطان : « أنا وإن كنت رجلا تركيا قليل المعرفة باللغة العربية ، لكنى فهمت معنى ماذكرته من الحديث ، غير أننى ماأذيت أحدا من ولد العباس ، ولاقصدتهم بسوء ، وقد بلغنى أن فى محابس أمير المؤمنين منهم خلقا مخلدين [1] ، يتناسلون بها ، ويتوالدون ، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع وأجدى وأنجع . » فقال الشيخ : إن الخليفة اذا بويع فى مبدأ خلافته على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاده ، فإن أفضى اجتهاده إلى حبس شرذمة لإصلاح أمة ، لايقدح ذلك فى طريقته المثلى . وطال الكلام [2] ، وعاد الشيخ والوحشة قائمة على ساقها. واتفق بعد ذلك قتل الاسماعيلية

---

(١) فى ك خلق مخلدون .

(٢) نقل أبو المحاسن حديث السهروردى عن وصف المقابلة التى تمت بينه وبين السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، (أنظر النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢١٩ – ٢٢٠) .

أغلمش الأتابكى ، وكان ينوب عن السلطان بالعراق ، فركب يلتقى الحاج عند منصرفهم من الحج . قفز عليه باطنى فى زىّ حاج فقتله ، وانقطعت حينئذ خطبة السلطان بالعراق فحركه ذلك إلى المسير لإعادتها .

ذكر مسيره الى العراق وما اتفق له

قال: ولما قتل أغلمش ، وكان يقيم رسمى الخطبة والطاعة للسلطان بالعراق ، طمع الأتابك أزبك بن محمد صاحب أران وأذربيجان ، وسعد بن زنكى [1] صاحب فارس فيه فنهضا إليه لعلمهما ببعد السلطان ، وأنه فى أعماق بلاد الترك . فرحل أزبك ودخل أصفهان بمواطأة من أهلها ، وملك سعد الرى وقزوين وسمنان [2] وماتاخم ذلك ودانانه . فانتهى الخبر إلى السلطان وهو بسمرقند ، فاختار من العساكر ماية ألف ، وترك معظم عساكره مع أمرائه بما وراء النهر وثغور الترك. فلما وصل إلى قومس اختار ممن استصحبه معه اختيارا ثانيا ، ونهض فى اثنى عشر ألف فارس وسار مجدا فسبق خبره إلى جبل برزك وهى كورة من كور الرى ، وسعد بظاهرها . فلما رأى سعد أوائل الخيل قد أقبلت ، ظن أنهم من الأزبكية [3]

---

(١) كذا فى المتن وفى النسوى ، وفى ابن الأثير : سعد بن دكلا ، ولعله تحريف . (حوادث سنة ٦١٤ هـ .) .

(٢) سمنان ، بكسر أوله ، بلدة بين الرى ودامغان قرب قومس ، وتوجد بلدة بنفس الإسم أيضاً فى العراق .

(٣) نسبة إلى أوزبك بن البهلوان أتابك أذربيجان .

المنازعين له فى ملك العراق ، فركب بنفسه وعسكره وصدق القتال . فلما شاهد السلطان جده أمر بنشر الجتر (١) . وكان ملفوفا فنشر ، فحين تحقق أصحاب سعد أن الجيش جيش السلطان ولوا الأدبار ونزل سعد فقبل الأرض ، فأُخذ وكُتف وأُحضر بين يدى السلطان فأمر بالاحتياط عليه ، وحمله على بغل حتى وصل إلى همذان ، وقضى وطره من أزبك على ما سنذكره .

وأما الأتابك أزبك صاحب أران وأذربيجان فإنه لما سمع ماحل بسعد من الأسر والإهانة(٢) ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ولم يبق له هوى العود إلى ملكه ، وقنع من الغنيمة بالإياب . فركب وأعد السير إلى أن قارب همذان ، وهو يظن أن السلطان بالرى . فلما بقى على مرحلة من همذان ، بلغه أن السلطان بها ، فسقط فى يده ، وتحير لايعرف طريق الرى . فاستشار أصحابه ، فأشار بعضهم بعوده إلى أصفهان ، وأشار بعضهم بالمبادرة إلى أذربيجان جريدة ، وترك أثقاله . وأشار عليه وزيره ربيب الدين أبو القاسم بن على بالتحصن بقلعة قزوين ، وكانت قريبة منه ، وهى من أمهات قلاع الأرض ، ومشاهير حصونها ، فلم يوافقه . واجتمع رأيه أن وجه أثقاله وخزائنه ومعظم حاشيته مع الملك نصرة الدين محمد بن تتشتكين (٢)

---

(١) الجتر : مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب ، وتحمل على رأس السلطان فى المواكب والأسفار .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ — ٨)

(٢) فى النص « الأهنة » .

(٣) كذا فى النص وفى النسوى « بيشتكين » .

(سيرة السلطان جلال الدين ص ١٦) .

صوب تبريز ، واستصحب من خواصه زهاء مائتى فارس ، وأخذ بهم نحو أذربيجان فى المسالك الوعرة والجبال الصعبة . ووجه الوزير ربيب الدين إلى السلطان برسالة ، يعتذر إليه ، فوقع الأمير دكجك السلحدار على أثقاله ومن معها ، فهزمهم وتبعهم إلى ميانج [1] وهى كورة من كور أذربيجان على حافة النهر الأبيض ، وأسر الملك نصرة الدين ومعظم من معه ، وانتهبت الخزائن والأثقال ، ووجد الوزير ربيب الدين فى الطريق فساقه فى جملة الأسرى إلى المخيم ، فلم يصدق فى رسالته ، واعتقد أنه زورها عند أسره. قال : وبقى فى كل يوم يساق الأتابك سعد ونصرة الدين والوزير ربيب الدين إلى الميدان بهذان فيهانون والسلطان يلعب بالأكرة إذلالا لهم ، ولم يزالوا كذلك إلى أن عاد نصير الدين دولتيار وهو متولى منصب الطغرا [2] للسلطان ، وهو من المناصب الجليلة . غير أنه دون كتابة الإنشا فى بيت الخوارزمشاهية وفوقها عند السلاجقة وكان السلطان قد بعثه رسولا إلى الأتابك أزبك ، بعد حربه يأمره بإقامة رسمى الخطبة والسكة باسمه فى عامة مملكته ، وأن يحمل فى كل سنة إلى الخزانة السلطانية أتاوة معلومة ، فجعل بالسكة والخطبة ، وخطب للسلطان على منابر أذربيجان وأران ، إلى مايلى دربند شروان وسير إلى السلطان من الهدايا والتحف والألطاف جملة طائلة ، وسلم

(١) ميانج ؛ هكذا وردت فى معجم ياقوت تحت مادة أذربيجان واللفظ غير واضح فى المتن ، وذكره النسوى ينانج .

(٢) الطغرا : هى الإشارات السلطانية التى تثبت على الفرمانات والبراءات والمناشير والعملات وغير ذلك ، ومتولى هذه الوظيفة هو المكلف بوضع هذه العلامات ويسمى الطغرائى .

قلعة قزوين إلى نواب السلطان ، واعتذر فى أمر الأتاوة أن الكرج استضعفوا جانبه ، واستولوا على أطراف بلاده ، وهذه حاله والبلاد بما تثمر من الأموال ، فكيف إذا انقسمت ، وحمل منها أتاوة ؟ . فقبل السلطان عذره فى ذلك ، ورضى منه بالسكة والخطبة ، وبعث إلى الكرج رسولا من جهته يقول : إن بلاد الأتابك أزبك صارت من جملة بلادنا ، وهى كأحد ممالكنا ، وحذرهم من الوصول إليها وقصدها ، فعاد رسول السلطان من الكرج ، ومعه رسولهم مصحوبا بالتقادم . هذا ماكان من أمر أزبك .

وأما الملك نصرة الدين فإنه كان يحضر إلى الميدان فى كل يوم كما ذكرنا . فنظر السلطان إليه فى بعض الأيام فاذا بأذنيه حلقتان كبيرتان مجوفتان فى غلظ السوار ، فسأله عن ذلك فقال: إن السلطان ألب أرسلان . السلجقى لما غز الكرج ونصره الله عليهم وأسر أمراءهم من عليهم ، وأطلقهم ، وأمر أن يشنقوا كل واحد منهم بحلقتين ، يكتب عليهما اسمه ،فلما تطاولت المدة ووهت قواعد الدولة السلجقية خلع أولئك ربقة الطاعة ، ماخلا جدى فإنه أسلم وسلمت بلاده وأعقابه ، ببركتى الإسلام والوفاء فرق له السلطان ، وأمر بإطلاقه ، وخلع عليه ، وغير الحلقتين ، وكتب عليهما اسمه ، وأمر له بتوقيع بما كان تحت يده من البلاد التى ورثها أبا عن جد مثل مدينتى أبهر [1] وفراوى [2] بقلاعهما وأعمالهما وأضاف إليه مدينة

(١) أبهر : مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل .
(ياقوت ج ١ ص ٨٢) .

(٢) لعلها فراوة التى قال عنها ياقوت إنها بلدة من أعمال نسا ، بينها وبين دهستان وخوارزم .

سراة وهى أقرب المدن إليه مما يملكه أزبك ، وخلع عليه خلعة ملوكية .

وأما الأتابك سعد الدين زنكى صاحب فارس فإن السلطان أطلقه وتسلم قلعتى اصطخر [1] واسكناباد وسلمها السلطان إلى المؤيد الحاجب ، وزوّج الأتابك سعد بامرأة من بيت والدته ، وشرط عليه أن يحمل فى كل سنة إلى الخزانة ثلث الخراج من بلاده ، وأعاده بالخلع والتشاريف ، وكان ولده نصرة الدين أبو بكر لما بلغه أسر والده انتصب مكانه واستمال قلوب الأمراء وبذل الأموال فأطاعوه . فلما أطلق الأتابك سعد ، ووصل إلى شيراز – وهى كرسى مملكته – امتنع ولده من تسليم الملك. فبينما نصرة الدين ذات يوم فى داره لم يرعه إلا وقد فتح عليه الباب ، ودخل حسام الدين تكين باش [2] – وهو أكبر مماليك الأتابك والمقدم فى دولته – والأتابك وراه وبيده سيف مجرد ، فضرب به وجه ابنه ضربة أثرت فى وجهه ، وحجز بينهما اختلاط الفريقين ، فأمر الأتابك بالقبض على ابنه ، فقبض عليه واعتقله مدة ثم أطلقه وعظم حال حسام الدين عنده ورقاه إلى درجة الملوكية ، هذا ماكان من أمره .

---

(١) بالكسر وسكون الخاء بلدة في فارس وصفها ياقوت بأنها من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها ، (معجم البلدان ج ١ ص ٢١١) .

(٢) فى النسوى تكشن باش ، (سيرة جلال الدين ص ١٩) .

ذكر قصد السلطان بغداد ومارتبه من احوال مملكته وعوده بعد مسيره

قال شهاب الدين محمد المنشى : ثم عزم السلطان على قصد بغداد ، ورتب أحوال مملكته ، وأظهر الناموس . فمن ذلك أنه ضرب نوبة الإسكندر على ماقدمناه ، ومنها أنه سير الملك تاج الملك بلكان خان[1] صاحب أترار إلى مدينة نسا [2] ليقيم بها ، وسير إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز البخارى المعروف بصدر جيهان [3] ، رئيس الحنفية ببخارى وخطيبها . قال : ولعله يعد من الملوك والأكابر ، وكان تحت يده ستة آلاف فقيه . ومنها

---

(١) هكذا فى المتن ولكن النسوى يكتبها باكاخان (سيرة جلال الدين ، ص٦٦ ، ٨٦ ، نشر حافظ حمدى) .

(٢) نسا مدينة بخراسان بينها وبين مرو خمسة أيام ، (ياقوت ج ٥ ص ٢٨٢) .

(٣) هو أحد الأفراد البارزين فى أسرة آل برهان المشهورة ، ويطلق عليهم أيضاً بنو مازه كانت لهم رئاسة المذهب الحنفى الذى كان سائدا فى منطقة ما وراء النهر ، وهم يتوارثون هذه الرئاسة أباً عن جد .

وفى أواخر دولة القرا خطائيين الذين كانوا يحكمون منطقة ما وراء النهر كان آل برهان يعدون من جملة ملوك بخارى ، وكانوا يدفعون الجزية للقرا خطائين ، وفى عهد هذه الأسرة صارت بخارى مجمع الفضلاء والفقهاء كما صارت بيوتهم ملجأ لأصحاب التيجان ، ومؤسس هذه الأسرة هو الصدر الأعظم برهان الملة ولى الدين عبد العزيز بن عمر بن مازه من أحفاد الخليفة عمر بن الخطاب . وقد إستمر أفراد هذه الأسرة يقومون برئاسة الحنفية فى بخارى حتى عهد أولجايتو ، (٧٠٣ – ٧١٦ هـ) . ومنذ ذلك التاريخ لا يعلم أى شىء عنهم .

(أنظر : Barthold : Turkestan own to the mongol Invasion, P. 326, Lnodon, 1928.

وانظر أيضاً محمد عوفى : لباب الألباب ، تعليقات العلامة الإيرانى محمد بن عبدالوهاب القزوينى ، ص ٥٩٥ وما بعدها ، نشر سعيد نفيسى ، طهران ١٣٣٥ ش .

أنه قسم الملك بين أولاده ، وعين لكل واحد منهم بلادا ، ففوض خوارزم وخراسان ومازندران إلى ولى عهده قطب الدين أزلاغ شاه ، واختار لتواقيعه طرة من غير تلقيب ، وهى السلطان أبو المظفر ازلاغ شاه ابن السلطان محمد ناصر أمير المؤمنين . وإنما خصصه بولاية العهد دون جلال الدين اتباعا لرأى أمه تركان خاتون . وفوض ملك غزنة وباميان والغوروبست [١] وتكياباذ وزمين [٢] وما يليها من الهند إلى ولده الملك جلال الدين منكبرتى ، واستوزر له الصدر شمس الملك شهاب الدين الهروى ، واستناب عنه كريره[٣] ملك ، واستصحب جلال الدين معه ، وفوض ملك كرمان وكيش ومكران لولده غياث الدين [بيرشاه] [٤] واستوزر له الصدر تاج الدين ابن كريم الشرق النيسابورى ، وسلم ملك العراق إلى ولده ركن الدين غور شايجى واستوزر له عماد الملك محمد بن الشديد الساوى واختار لتواقيعه من الطرة السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبوالحارث غور شايجى ابن السلطان الأعظم محمد قسيم أمير المؤمنين .

---

(١) بست : مدينة بين سجستان وغزنة وهراة ، (ياقوت . معجم البلدان) .

(٢) زمين داور ، كتبها ياقوت ، زمنداور ، وقال إنها ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة للغور ، (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٤) .

(٣) فى النسوى كربر ملك (سيرة جلال الدين ٢٥) .

(٤) فى ك تيز شاه ، وما بين الحاصرتين بيرشاه الإسم الصحيح كما كتبه النسوى ، (أنظر سيرة جلال الدين ، ص ٧٢ ، نشر حافظ حمدى) .

كذلك كتبه الجوينى بهذه الصورة ، (أنظر جهانكشاى ، ج ٢ ص ١ ، ٢ ، ٩).

قال :ولما رتب هذه القواعد وقرر هذا النظام عزم على قصد بغداد وسير أمامه من العساكر ماغصت به البيداء فضاقت برحبها ، وسار وراءهم إلى أن علا عقبة سراباد . وكان قد قسم نواحى بغداد وهو بهمذان أقطاعا وعملا ، وكتب بها توقيعات ، فسقط عليه بالعقبة ثلج عظيم ، فأهلك خلقا كثيرا من الجيش وتلفت الأثقال ، فرجع السلطان منها ، وتطير من قصد بغداد ، وكان ذلك فى سنة أربع عشرة وستماية . قال: ولما رجع السلطان إلى نيسابور أتاه الخبر بوفاة مؤيد الملك قوام الدين والى كرمان ونايبه بها . فملّك السلطان ولده غياث الدين بير شاه كرمان وكيش ومكران فسار إليها واستقام أمره بها .

ذكر عود السلطان الى بلاد ماوراء النهر ووصول رسل التتار اليه وماتفق من الحوادث

قال : ثم عاد السلطان عند منصرفه من العراق إلى ماوراء النهر ووصل إلى سمر قند ، فوافته بعد ذلك رسل جنكزخان مالك التتار وهم محمود الخوارزمى وعلى خواجه البخارى ويوسف بن كنكا الأترارى [1] مصحوبين بمجلوبات الترك من نقر المعادن ونصب الختو ونوافج المسك وأحجار اليشب والثياب التى تسمى طرقوا وتتخذ من وبر الجمال البيض يباع الثوب منها بخمسين دينارا

(١) فى ك يوسف بن كنكا الأترارى ، ولكن النسوى يكتبه يوسف كنكا الأترارى ، (أنظر سيرة جلال الدين ، ص ٨٣ ، نشر حافظ حمدى) .

وأكثر . وكانت الرسالة تشتمل على طلب المسالمة والموادعة ، وقالوا له: إن الخان الكبير يسلم عليك ويقول : ليس يخفى علىّ عظم شأنك وسعة سلطانك ، ولقد علمت بسطة ملكك ونفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض ، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجب ، وأنت عندى مثل أعز أولادى وغير خاف عنك أيضا أننى ملكت الصين ومايليها من بلاد الترك وقد أذعنت لى قبايلهم وأنت أخبر الناس أن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفضة وأن فيها لغنية عن طلب غيرها فإن رأيت أن تفتح للتجار فى الجهتين سبيل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد .

قال المنشى : فلما سمع السلطان الرسالة صرف الرسل ، ثم استدعى محمود الخوارزمى ليلا بمفرده ، وقال له : أنت رجل خوارزمى ، ولابد لك من موالاة فينا ومبيل إلينا ، ووعده بالإحسان إن صدقه فيما يسأله عنه ، وأعطاه جوهرة نفيسة من معضدته علامة للوفاء بما وعده ، وشرط عليه أن يكون عينا له على جنكزخان . فأجابه إلى ذلك رغبة أو رهبة ثم قال : « أصدقنى فيما يقول جنكزخان أنه ملك الصين واستولى على مدينة طوغاج (١) أصادق فيما يقول أم كاذب ؟ » قال: « بل صادق ومثل هذا الأمر لايخفى » . ثم قال له : « أنت تعرف ممالكى وبسطتها وعساكرى وكثرتها ، فمن هذا اللعين حتى يخاطبنى بالولد (٢) ؟ وما مقدار مامعه من

(١) ذكرها النسوى « طمغاج » ، (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٣) .

(٢) حرص جنكزخان فى رسالته إلى السلطان محمد خوارزمشاه على أن يعتبر السلطان فى منزلة الإبن ، وهذا التعبير فى ذلك العصر يعبر عن صلة الحاكم بالمحكوم ، فكأن جنكزخان أراد أن يشعر السلطان محمد بأنه تابع له .

(Spuler : Die Mongoten in Iran, p. 42).

العساكر ؟ » فلما شاهد محمود الخوارزمى آثار الغيظ على وجه السلطان أعرض عن النصح ، وقال : ليس عسكره بالنسبة إلى عسكرك إلا كفارس فى خيل ، أودخان فى جنح ليل .

ثم أجاب السلطان إلى المهادنة واستقر الحال على المسالمة إلى أن وصل من بلاد التتار تجار إلى أترار وهم عمر خواجه الأترارى ، والجمال المراغى [١] ، وفخر الدين البخارى [٢] وأمين الدين الهروى وكان ينال خان[٣] ابن خال السلطان ينوب عن السلطان بأترار فشرهت نفسه فى أموال أولئك التجار [٤] ، فكاتب السلطان يقول : [إن] [٥] هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار فى زى التجار وليسوا بتجار ، وإنما هم أصحاب أخبار ، وإنهم إذا خلوا بأحد من العوام يهددونه ، ويقولون إنكم لفى غفلة عما وراءكم ، وسيأتيكم ما لاقبل لكم به فأذن له السلطان فى الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه ، فقبض ينال خان عليهم ، وانقطع خبرهم ، وأخذ ماكان معهم من الأموال والأمتعة ثم وردت رسل جنكزخان بن كفرج بغرا كان أبوه من

---

(١) ذكرها النسوى « الجمال المراغى » (ص ٣٤) .

(٢) ذكرها النسوى « فخر الدين الدنزكى البخارى » ، (ص ٣٤) .

(٣) ذكر السيوطى أن حاكم أترار فى ذلك الوقت كان خال السلطان وليس ابن خاله كما ذكر النسوى ، (أنظر تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة سنة ١٩٥٢) .

(٤) يفهم من أقوال المؤرخين أن هؤلاء التجار قد موا من بلاد المغول على رأس قافلة ضخمة تتكون من خمسمائة من الابل وتحمل ثروة كبيرة من الذهب والأقمشة وغيرها ، (أنظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٠ — ٤٠١ .) .

(٥) ما بين الحاصرتين [إن] غير موجود فى ك ، ومأخوذ عن النسخة ت . ورقة ٤٦٨ .

أمراء السلطان تكش ومعه رجلان يقولون للسلطان: « إنك قد كتبت خطك وأمانك للتجار أن لاتتعرض إليهم ، وقد غدرت ونكثت ، والغدر قبيح على الملوك ، فإن زعمت أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمرك فسلمه إلىّ لأجازيه على فعله ، وإلا فأْذن بالحرب » فلم يرسل ينال خان ، وظن أنه إن لاطف جنكزخان ، أطمعه ، وأمر بقتل رسله ، فقتلوا . فيالها من قتلة هدرت دماء الإسلام ، وأجرت بكل قطرة سيلا من الدم الحرام . فعند ذلك تجهز جنكزخان لقصده .

ذكر مااعتمده السلطان من سوء التدبير لما قصده التتار

كان أول مااعتمده من سوء التدبير لنفاذ حكم العلى القدير أنه لما بلغه خبر التتار وقصدهم البلاد ، عزم أن يبتنى سورا على مدينة سمرقند على كبرها ودورها ، على ماقيل اثنى عشر فرسخا ، ثم يشحنها بالرجال ، لتكون سداً بينه وبين الترك . ففرق عماله فى سائر أقاليم مملكته ، وأمرهم أن يستسلفوا خراج سنة خمس عشر وستماية برسم عمارة السور ، فجبى خراجا كاملا وأعجله التتار فلم يتمكن من عمارته ، ثم بعث الحياة مرة ثانية إلى سائر الممالك ، وأمرهم بجباية خراج ثالث فى سنتهم ، وهى سنة أربع عشرة وستماية ، وأن يُستخدم بذلك رجّالة ورماة ، يستخدم من كل بلد بقدر مايتحصل من المال . ثم فرق عساكره بمدن ماوراء النهر وبلاد الترك فترك ينال خان بأترار فى عشرين ألف فارس

وقتلغ خان فى جماعة أخرى فى عشرة آلاف فارس بشهر كنت ، [١] والأمير اختيار الدين كشكى أمير آخور ، واغل حاجب الملقب باينانج خان فى ثلاثين ألف فارس ببخارى ، وطغاينجان [٢] خاله وأمراء الغور فى أربعين ألف فارس بسمرقند وفخر الدين حبش النسوى وعسكر سجستان بترمذ ، وبلخمورخان بوخش [٣] وأبا محمد خال أبيه ببلخ. ولم يترك بلدا مما وراء النهر خاليا من عسكر كبير فكان ذلك من أعظم الأسباب التى استولى بها جنكزخان على البلاد الإسلامية ، ولو جمع عساكره ولقى التتار لهزمهم .

ولما شارف جنكزخان تخوم البلاد الإسلامية تباشر صوب أترار ، واستولى عليها [٤] بعد قتال . وأحضر ينال خان بين يديه ، وأمر بسبك الفضة وقلبها فى أذنيه وعينيه فمات . ثم استولى جنكزخان على البلاد وتحيل حتى أوقع بين السلطان علاء الدين خوارزم شاه وبين أمه وأخواله .

---

(١) وردت فى ياقوت شهر كند بفتح أولها وسكون ثانيها ؛ وهى مدينة فى طرف تركستان بينها وبين مدينة خوارزم عشرة أيام أو أقل .

(٢) وردت فى النسوى « طغانخان » ؛ (سيرة السلطان منكبرتى ص ٣٦) .

(٣) وخش مدينة فى نواحى بلخ على نهر جيحون (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ٤٠٤ ، القاهرة ١٣٢٣ هـ . = ١٩٠٦ م) .

(٤) يذكر الجوينى أن جنكيزخان كلف إبنيه جغتاى وأوكتاى بفتح أترار ، على حين سار هو لفتح بخارا ، ومعنى هذا أنه لم يشترك فى الإستيلاء على أترار كما ذكر النويرى نقلا عن النسوى ، (أنظر تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ ص ٦٤) .

ذكر ماوقع بين السلطان علاء الدين خوارزم شاه وأمه وأخواله من الاختلاف بحيلة تمت بجنكزخان عليهم وما فعلته والدته من القتل ومفارقة خوارزم وما آل اليه أمرها

كان سبب ذلك أن جنكزخان لما ملك أترار ، أحضر نايب الوزارة بها ، وهو بدر الدين العميد ، واتفق معه على أن زور كتبا على لسان الأمراء أقارب والدة السلطان إلى جنكزخان ، يبذلون له الدخول فى طاعته ، ويقولون : « إنا تسحبنا من بلاد الترك بعشائرنا ومن يلوذ بنا إلى السلطان ، رغبة فى خدمة والدته ، فما نصرناه على كافة ملوك الأرض ، وذلت له الجبابرة وخضعت له الرقاب فها هو الآن تغيرت نيته فى حق والدته ، عتوا منه وعقوقا ، وهى تأمرنا بخذلانه ، فنحن على انتظار وصولك واتباع أمرك . » وكان هذا تدبير نايب الوزارة المذكور [1] . وسلم جنكز خان الكتب إلى بعض خواصه ، وأمره أن يتوجه بها إلى السلطان ، ويظهر له أنه قد هرب من صاحبه إليه ، ففعل ذلك . فلما وصل إلى السلطان ووقف على الكتب لم يشك فى صحة ذلك ، ونفر من هؤلاء [2] الأمراء ، ونأى عنهم وبدد شملهم .

---

(١) أشار نائب الوزارة المذكور على جنكيزخان بهذه الحيلة لأنه كان يحقد على السلطان لقتله أباه وعمه وجماعة من أقاربه ، (أنظر النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٢ ، نشر حافظ حمدى) .

(٢) فى ك : تلك .

فلما فعل ذلك بأقارب والدته تركان خاتون غضبت لذلك ، وكتب جنكزخان إليها على يد دانشمند الحاجب – وهو من خواصه – وهى إذ ذاك بخوارزم ، يقول : « قد عرفت مقابلة ابنك حقوقك بالعقوق ، وقد قصدته بمواطأة من أمرائه ، ولست بمعترض إلى ماتحت يدك من البلاد ، وأسلم لك خوارزم وخراسان وما يتاخمهما من قاطع جيحون . فكان جوابها عن هذه الرسالة أن خرجت عن خوارزم ، واستصحبت ماأمكنها من حرم السلطان وصغار أولاده ونفايس خزائنه ، وأمرت بقتل من كان بخوارزم من الملوك المعتقلين وأبناء الملوك وأكابر الصدور ، فقتلت زهاء اثنين وعشرين [1] نفسا منهم إبنا السلطان غياث الدين الغورى وابن طغرل السلجقى وعماد الدين صاحب بلخ وابنه بهرام شاه صاحب ترمذ وعلاء الدين صاحب باميان ، وجمال الدين عمر صاحب وخش وابنا [2] صاحب سقناق من بلاد الترك ، وبرهان الدين محمد وصدرجهان وأخوه [3] افتخار جهان وابناه ملك الإسلام وعزيز الإسلام واستصحبت معها عمر خان صاحب يازر [4] فصحبها إلى بلاده ، وخدمها أتم خدمة ، حتى إذا قاربت تخوم يازر خافت أن يفارقها ، فأمرت بضرب عنقه فقتل صبرا .

وسارت بمن معها إلى قلعة ايلال من قلاع مازندران ، فأقامت بها

---

(١) فى النسوى « زهاء إثنى عشر نفساً » ، (سيرة السلطان جلال الدين ص ٣٩) .

(٢) فى ك وابنى .

(٣) فى ك وأخيه .

(٤) أنظر (سيرة السلطان جلال الدين ص ٣٩) حيث الإسم كالآتى : « عمر خان ابن صاحب يازر » .

وذلك فى سنة خمس عشرة وستماية ؛ وأمرت بتحصين القلعة ، فحصنت ؛ ثم حوصرت أربعة أشهر فكان من الاتفاق العجيب أن القلعة نفذ ماؤها ، وكانت العادة أن تلك القلعة دائمة الأنواء ، فقدر الله عز وجل أن صحت السماء فى زمن الحصار حتى نفذ الماء ، فألجأها ذلك إلى طلب الأمان ، فأجيبت إليه ، ونزلت من القلعة ومعها الوزير محمد بن صالح . وذكر أنها لما نزلت من القلعة فاضت الصهاريج فى هذا اليوم ، حتى نزل السيل من باب القلعة وحملت تركان خاتون أسيرة إلى جنكزخان . قيل أنه انتهى حالها إلى أن كانت تحضر سماط جنكزخان وتحمل منه فى كل وقت مايقوتها مدة بعد أن حكمت فى أكثر البلاد على مانذكره .

وأما صغار أولاد ابنها الذين كانوا معها فقتلوا عن آخرهم إلا أصغرهم فإنه ترك عند جدته مدة ثم قتل بعد ذلك خنقا . هذا ماكان من الذكور . وأما الإناث فزوجوا بالمرتدة إلا سلطان خان [1] — التى كانت امرأة صاحب سمرقند — أخذها دوشى خان واصطفاها لنفسه هذا ماكان من أمرها وأمر من معها بعد وفاة ابنها ، فلنذكر شيئا من أخبارها وما كان لها من الحكم فى دولة ابنها .

كانت تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد من قبيلة بياووت [2] وهى فرع من فروع يمك ، وهى بنت

---

(١) فى النسوى « خان سلطان » ، (سيرة السلطان جلال الدين ص ٤١) .

(٢) قبيلة بياووت ، فرع من قبائل قنقلى ، ويرجع أصلها إلى السهول الواقعة فى شمال خوارزم ، وفى الشمال الشرقى من بحر قزوين .

خان جنكش ، ملك من ملوك الترك وتزوج بها السلطان تكش . ولما انتقل الملك إلى ابنها أتته قبائل يمك ومن يجاورها من الترك فكثر بهم ، واستظهر بمكانهم وتحكمت هى بهذا السبب فى الممالك ، فلم يملك السلطان إقليما إلا وأفرد لخاصتها منه ناحية جليلة . ولقبت عند ارتفاع شأنها بخداوند جهان ؛ معناه صاحبة العالم . وكانت [ذات] [1] مهابة ورأى . وإذا رفعت الظلامات إليها حكمت فيها على قانون العدل والإنصاف ، غير أنها كانت [جسورا] [2] على سفك الدماء ، وكان لها خيرات وسبلات فى البلاد . قال المنشى : وكان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الفضلاء وسادات الأكابر وإذا ورد عنها وعن السلطان توقيعان مختلفان فى قضية واحدة لم ينظر إلا فى التاريخ فيعمل بالآخر منهما فى سائر الأقاليم . وكان طغرا تواقيعها عصمة الدنيا والدين ألغ تركان ملكة نساء العالمين ، وعلامتها اعتصمت بالله وحده ، وكانت تكتبها بقلم غليظ ، وتجود الكتابة فيها بحيث يعسر أن يزور عنها ، فلنرجع إلى أخبار السلطان .

---

(١) فى ك ذا .

(٢) فى ك جسورة .

ذكر ما اتفق للسلطان بعد أن ملك التتار البلاد الى أن توفى

قال : لما ملك جنكزخان أترار ، ملك بعدها بخارى ثم سمرقند ؛ فاتصل الخبر بالسلطان وهو مقيم بحدود كتلف (١) وأندخوذ (٢) ينتظر وصول الجموع المتفرقة إليه من الجهات . فلما اتصل خبر ملك جنكزخان بخارى بالسلطان ، عبر جيحون وقد أيس من بلاد ماوراء النهر ، وفارقه إلى التتار من الأتراك عشيرة أخواله زهاء سبعة آلاف من الخطايية ، واتصل علاء الدين صاحب قندز وغيره بجنكزخان وأخذ الناس فى التخاذل والتسلل . فلما اتصلت هذه الجموع بجنكزخان عرفوه بمكان السلطان وبما هو عليه من الوجل . وبما داخله من الخوف فعند ذلك جرّد بمنويّة (٣) وسبطى (٤) بهادر فى ثلاثين ألف فارس فعبروا النهر صوب خراسان ورحل السلطان من حافة جيحون إلى نيسابور . وتسلل عنه الناس فلم يقم بنيسابور إلا ساعة من نهار ، ثم سار حتى أتى العراق فنزل بمرج دولت أباد . وهى من أعمال همذان وأقام أياما يسيرة ومعه زهاء عشرين ألف فارس فلم يرعه إلا صيحة الغارة وإحداق خيول التتار به ؛ فغاتهم بنفسه ، وشمل القتل جل أصحابه ، ونجا السلطان فى نفر يسير

(١) كتلف : بلدة فى خراسان بين مدينتى بلخ ومرو .

(٢) جاء فى ياقوت « أندخوذ بالفتح ثم السكون بلدة بين بلخ ومرو » .

(٣) ذكرها النسوى « بمه نويه » ، (سيرة السلطان جلال الدين ص ٤٤) .
ويذكره الجوينى بمه نوين ، (أنظر تاريخ جهكشاى ، ج ٢ ص ١١١) .

(٤) هكذا فى المتن ، ويكتبه الجوينى سبتاى (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

من خواصه إلى بلد الجبل ثم منها إلى الاستنداد [١] وهى أمنع ناحية من نواحى مازندران ذات دربندات ومضايق ثم منها إلى حافة البحر وأقام عند الغرضة بقرية من قراها ، يحضر إلى المسجد فيصلى به إمام القرية الصلوات الخمس ويُقرأ له القرآن ، وهو يبكى وينذر النذور ويعاهد الله تعالى بإقامة العدل . ولم يزل كذلك إلى أن كبسه التتار فحين هجموا الضيعة ركب السلطان المركب وخاضت خلفه طائفة منهم فلم يدركوه .

قال شهاب الدين المنشى : حدثنى غير واحد ممن كان مع السلطان فى المركب قال : كنا نسوق المركب بالسلطان وبه من علة ذات الجنب ما آيسه من الحياة وهو يظهر الاكتئاب ، ويقول لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين . فلما وصل الجزيرة [٢] سر بذلك سرورا تاما وأقام بها فريدا طريدا والمرض يزداد به . وكان فى أهل مازندران ناس يتقربون إليه بالمأكول والمشروب وما يشبهه ، فقال فى بعض الأيام : أشتهى أن يكون عندى فرس يرعى حول خيمتى هذه – وقد ضربت له خيمة صغيرة – فلما سمع تاج الدين حسن وكان من جملة سرهنكيته [٣] أهدى إليه فرسا أصفر قال : وكانت

(١) هكذا فى ك ولا يعلم على وجه الدقة صحة إسم هذا المكان ، ولعله إستراباد إحدى مدن جرجان قرب حدود مازيزران (أنظر لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ص ٤١٩ ، بغداد ١٩٥٤) .

(٢) المراد بها جزيرة آبسكون ، وهى جزيرة منعزلة فى بحر قزوين .

(٣) سرهنك : لقب أطلقه السلاجقة على الموظف الذى ينظم الإجتماعات الرسمية السلطانية ، وأخذ العثمانيون هذا اللفظ بعد ذلك فأطلقوه على شاويشية الديوان السلطانى العثمانى . .

جشارات خيله تنيف على ثلاثين ألف جشار متفرقة فى ممالكه ويدل على ذلك ماقاله الأمير اختيار الدين أكبر أمير أخورية السلطان ، وكان قد ضم إليه ثلاثين ألف فارس ، فكان يقول : إن المرتب معى ثلاثون ألف فارس ولو شئت جعلتها ستين ألفا من غير أن أتكلف صرف دينار أو درهم ، وذلك أننى أستدعى من كل جشار (١) من جشارات خيل السلطان جوبانا واحدا فينيفوا على ثلاثين ألفا ، فانظر إلى ما بين الحالتين فى الكثرة والقلة والعزة والذلة .

قال : وكان من حمل إليه شيئا من المأكولات وغيره فى تلك الأيام كتب له توقيعا بمنصب جليل وإقطاع طايل فربما كان الرجل يتولى كتابة التوقيع لنفسه لعدم من يكتب عند السلطان . وكانت هذه التواقيع تسمى التواقيع الجزيرية ، وكلها برسالة جلال الدين . فلما ظهر أمر جلال الدين أحضرت إليه التواقيع فأمضاها بكمالها ومن كان معه منديل أوسكين علامة من السلطان بإقطاع أوغيره قبلها جلال الدين وأمضى حكمها .

ذكر وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش

كانت وفاته بالجزيرة فى سنة سبع عشرة وستماية . وذلك أنه لما استقر بها اشتدت به علة ذات الجنب فمات وغسله شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش ومقرب الدين مهتر مهتران (٢) مقدم

(١) الجشار وجمعه جشارات ، مكان رعى الماشية من الغنم والخيل وغيرها .

(٢) المهتر أو المهتار لقب يطلق على فراش البيوت السلطانية ، فيقال مهتار الشرابخاناه ومهتار الركاب خاناه ، والمقصود بمهتر مهتران الواردة فى النص كبير الفراشين أو مقدمهم كما ذكر المؤلف نفسه .

الفراشين ، ولم يكن عنده مايكفن فيه فكفنه شمس الدين محمود المذكور بقميصه ، ودفن بالجزيرة فكانت مدة سلطنته إحدى وعشرين سنة ، وكان له من الأولاد خمسة وهم جلال الدين منكبرتى ، وقطب الدين أزلاغ شاه ، وآق شاه ، وركن الدين غور شايجى - وكان بالعراق - وغياث الدين بير شاه وفيه يقول المنشى :

أذل [1] الملوك وصاد القروم ... وصيّر كل عزيز ذليلا
وحف الملوك به خاضعين ... وزفوا إليه رعيلا رعيلا
فلما تمكن من أمره ... وصارت له الأرض إلا قليلا
وأوهمه العز أن الزمان ... إذا رامه ارتد عنه كليلا
أتته المنية مغتاظة ... وسلت عليه حساما صقيلا
فلم تغن عنه حماة الرجال ... ولم يجد قيلٌ عليه فتيلا [2]
كذا يفعل الله بالشامتين ... ويفنيهم الدهر جيلا فجيلا

هذا ماتفق للسلطان ؛ وأما التتار الذين ساقوا خلفه فإنهم خربوا البلاد وسفكوا الدماء واستولوا على الممالك وساووا فى القتل بين المملوك والمالك ، على مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخبارهم . فلنذكر الآن أخبار أولاد السلطان علاء الدين محمد وماكان من أمرهم بعد وفاة أبيهم ونورد أخبارهم فى جملة أخبار أخيهم السلطان جلال الدين فإنه الملك المشار إليه منهم .

---

(١) فى ك أزال .

(٢) فى النسوى « قفيلا » .

(سيرة السلطان جلال الدين ص ٤٨) .

ذكر أخبار السلطان جلال الدين منكبرتى

وقيل فيه منكوبرتى ابن السلطان علاء الدين أبى الفتح محمد ابن تكش بن ألب أرسلان بن اتسز بن محمد بن انوشتكين . ملك بعد وفاة أبيه فى سنة سبع عشرة وستماية ، وذلك أن والده السلطان لما اشتد مرضه بالجزيرة خلع قطب الدين أزلاغ شاه من ولاية العهد وفوضها للسلطان جلال الدين بحضور أخويه أزلاغ شاه وآق شاه . وقال : إن عرى السلطنة قد انفصمت والدولة قد وهت قواعدها وتهدمت ، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبثت بالممالك أظفاره ، وتعلقت أنيابه ، وليس يأخذ بثارى منه إلا ولدى منكوبرتى وهأنا موليه ولاية العهد فعليكما بطاعته والانخراط فى سلك تباعته . وشد سيفه بيده فى وسط جلال الدين ثم مات بعد ثلاثة أيام .

قال : ولما دفن السلطان بالجزيرة ركب جلال الدين البحر ومعه أخواه [1] ومعهم زهاء سبعين نفسا لقصد خوارزم ، فلما قاربوها التقوهم منها بالدواب والأسلحة والأعلام ، وتباشر الناس بمقدمهم واجتمع عندهم من العساكر ممن أضمرته البوادى ونقضتهم المجالس والنوادى زهاء سبعة آلاف فارس ، أكثرهم البياووتية ومقدمهم توخى بهلوان الملقب بقتلغ خان ، فمالوا إلى أزلاغ شاه للقرابة التى بينهم ، وعزموا على القبض على جلال الدين وقتله أو سمله . فعلم إينانج خان بما دبروه ، فأعلم بذلك جلال الدين وأشار عليه بالرحيل

(١) ف ك أخويه .

فرحل صوب خراسان فى ثلثماية فارس ، مقدمهم دَمَر ملك [١] وقطع المفازة الحاجزة بين خوارزم وخراسان وهى ست عشرة [٢] مرحلة فى أيام قلايل ، وتخلص منها إلى بلد نسا [٣] . وكان جنكزخان لما بلغه عود أولاد السلطان إلى خوارزم وجه إليها عسكرا كثيفا وتقدم إلى من بخراسان من عساكره بالتفرق على حافات تلك البرية مترصدين فضربوا على البرية المذكورة حلقة من تخوم مرو إلى حدود شهرستان ، حتى إذا همّ أولاد السلطان بالمسير إلى خراسان عند إزعاجهم من خوارزم يقبضون عليهم . وكان بحافة برية نسا منهم سبعماية فارس فلما خرج جلال الدين من البرية صادفهم أمامه ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا كان الظفر فيه لجلال الدين عليهم ، فعمهم بالقتل وغنم مامعهم ، ولم يفلت منهم إلا الشارد . وهذا أول مصاف كان بين جلال الدين وبينهم فتقوى بما غنمه منهم ووصل إلى نيسابور .

وأما أخواه [٤] فإنهما أقاما بعده بخوارزم ثلاثة أيام ؛ وأتاهم الخبر بحركة التتار فخرجا بمن معهما مجفلين إلى صوب خراسان . فلما انتهوا إلى مرج سابغ [٥] ونزلوا به ، وافتهم الأخبار أن طائفة من التتار أقبلت فى طلبهم ، فركب أزلاغ شاه ومن معه ورحل والتتار

---

(١) المقصود به تيمور ملك الحاكم السابق لمدينة جند .

(٢) فى ك ستة عشر .

(٣) نسا ، مدينة فى خراسان .

(٤) فى ك أخويه .

(٥) هكذا فى ك ، ولكن النسوى يكتبها سائغ ومرج سائغ هو من المروج المشهورة بقرب قلعة خرندز ، إحدى قلاع خراسان الحصينة ، (أنظر سيرة جلال الدين ، ص ٧٩ نشر حافظ حمدى) .

فى طلبه إلى استوى [١] بلد خيوشان[٢] فأدركه التتار بقرية تسمى فرست [٣] ، فوقف لهم واقتتلوا قتالا شديدا كان الظفر لأزلاغ شاه عليهم ، فسروا بذلك وظنوا أنه لم يكن من التتار بتلك الناحية غير هذه الطائفة التى انهزمت ، واستقروا بتلك المنزلة ، فلم يرعهم إلا وخيول التتار قد أحدقت بهم إحداق الأطواق بالأعناق فثوى اليسر عسراً وترادف النصر كسراً ، فكانوا إن شاء الله كما قيل :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

فاستشهد أزلاغ شاه وآق شاه ومن معهما وعاد التتار برأسيهما وقد نصبوهما على الرماح .

ذكر مسير جلال الدين من نيسابور الى غزنة

قال : وأقام جلال الدين بنيسابور شهرا يتابع الرسل إلى الجهات فى الاحتشاد والاستمداد ، إلى أن علم التتارية فأسرعوا نحوه وأعجلوه عن مراده ، فخرج من نيسابور فى من انضوى إليه من الخوارزمية ، إلى أن وصل إلى القلعة القاهرة وهى التى بناها مؤيد الملك صاحب كرمان بزوزن ، فهم أن يتحصن بها فبعث إليه عين الملك ختن مؤيد

(١) تكتب أيضاً إستوا بالألف ، وهى كورة من نواحى نيسابور ، وتشتمل على قرى كثيرة ، (أنظر ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) هكذا فى ك ، ويكتبها النسوى خوشان ، (أنظر سيرة جلال الدين : ص ١٣٠ ، نشر حافظ حمدى) .

(٣) هكذا فى ك ، ويكتبها النسوى « وشت » ، (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

الملك – وهو مستحفظها – يحذره ذلك ، ويقول : إن ملكا [١] لايحسن به أن يتحصن بقلعة ولو بنيت على قرن الفرقد أوهامة الجوزاء بل أعلا وأبعد ، وحصون الملوك متون الحصن ، وماللضراغم وللمدن ولو تحصنت بالقلعة لأفنت التتار أعمارهم إلى أن ينالوا الغرض . فأمر جلال الدين بإحضار ما فى القلعة من الذهب فأحضر ، وفرق أكياسه على من صحبه من خواصه ، وفارق القاهرة ، وجد السير إلى تخوم بست ، فأعلم أن جنكزخان مقيم بالطالقان [٢] بجيوش عظيمة ، فتحير فى أمره لايدرى مايصنع . ثم خاطر بنفسه واستمر فى السير ، فبلغه أن أمين ملك وهو ابن خالة متولى هراة ومقطعها بالقرب منه ، وقد أخلى هراة ومعه زهاء عشرة آلاف فارس ، والأتراك الذين سلموا من النكبة ، فبعث جلال الدين إليه يعلمه بقربه ويحثه على سرعة الوصول إليه ، فاجتمعوا واتفقا على كبس التتار المحاصرين قلعة قند هار [٣] فنهضا إليهم وأوقعا بهم فلم يسلم من التتار إلا من وصل بخبرهم إلى جنكزخان وهم نفر يسير ، فأخبروه بما تم على عسكره ، فغضب لذلك . وساق جلال الدين حتى أتى غزنة وكان بها كربر ملك ينوب عنه منذ جعلها والده له كما قدمناه ، وقد ضبطها . فوصل إليها جلال الدين فى سنة ثمانى عشرة

---

(١) فى ك ملك .

(٢) الطالقان : بلدة بخراسان بين مرو الروز وبلخ .

(٣) قند هار ، بضم القاف وسكون النون وضم الدال ، مدينة قال عنها ياقوت أنها فى الإقليم الثالث وأنها من بلاد السند أو الهند .

وستمائة ، فسر الناس بوصوله واتصل به سيف الدين بغراق[1] الخلجى وأعظم ملك صاحب بلخ ، ومظفر ملك صاحب الأيغانية والحسن قزلق وهم فى زهاء ثلاثين ألف فارس ومعه عسكره وعسكر أمين ملك مثلها .

ذكر الحرب بين جلال الدين وتولى خان بن جنكزخان وانهزام التتار وقتل تولى خان

قال المنشى : ولما بلغ جنكزخان ماحل بعسكره بقندهار ، جرد ابنه تولى خان فى عسكر كثيف ، فاستقبله جلال الدين بنية فى الجهاد قوية وهمة فى الإسلام أبية . فلما تراءى الجمعان حمل بنفسه على قلب تولى خان ، فبدد نظامه ونثر تحت قوائم الخيل أعلامه وألجأه فى الانهزام وإسلام المقام ، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام وقتل تولى خان[2] فيمن قتل ، وكثر الأسر فى التتار حتى كان الفراشون يحضرون أساراهم إلى بين يديه فيدقون الأوتاد فى آذانهم تشفيا بهم . وكانت شرذمة من التتار قد حاصرت قلعة ولخ وضايقتها فلما بلغهم ماحل بأولئك رجعوا عنها .

---

(١) نسبة إلى خلج بفتح أوله ، وهو موضع قرب غزنة .

(٢) هذه الرواية نقلها النويرى عن النسوى فوقع فى الخطأ إذ أن تولوى خان لم يقتل فى هذه الموقعة ، بل إنه لم يشترك فيها أصلا ، ومن الثابت أنه توفى وفاة طبيعية عقب مرض لم يمهله ، وكان ذلك فى سنة ٦٣٠ هـ. (أنظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥٥٩ ، طبع طهران) .

ذكر الحرب بين جلال الدين وجنكزخان وانهزام جلال الدين

قال : ولما عاد من سلم من المعركة إلى جنكزخان قام بنفسه وعساكره لقصد حرب جلال الدين . واتفق أن العساكر الخلجية فارقوا جلال الدين فى ذلك الوقت صحبة سيف الدين بغراق وأعظم ملك ومظفر ملك . وسبب ذلك أنهم لما كسروا التتار زاحمهم الأتراك فيما أفاء الله عليهم من الغنائم ، فاتفق أن بعض الأتراك الأرمينية نازع أعظم ملك فى فرس من خيل التتار . وطال بينهما التنازع فضربه التركى بمقرعة ، فاشمأزت لذلك نفوسهم ونفرت قلوبهم وفارقوا جلال الدين ، واجتهد على ردهم فأبوا ذلك . ولما بلغه أن جنكزخان قد قاربه بجيوشه علم أنه لاطاقة له بملاقاته بعد مفارقة هذه الجيوش له ، فرأى أن يتأخر إلى حافة ماء السند ثم يستأنف مكاتبة من فارقه ، فإن رجعوا إليه لقى جنكزخان بهم وبمن معه من الأتراك . فعاجله جنكزخان عن إمضاء مادبره ؛ وكان جلال الدين قد أصابه قولنج شديد عند خروجه من غزنة ولم ير مع ذلك الجلوس فى المحفة ، وركب الفرس تجلدا ، فمن الله عليه بالعافية ، فورد عليه الخبر أن مقدمة جنكز خان نزلت بجردين فركب ليلا وكبس المقدمة فقتلهم ولم يفته إلا من نجا به فرسه . فلما بلغ جنكزخان هذا الخبر هاله ، وجاء جلال الدين إلى حافة ماء السند ، وضاق عليه الوقت عما كان يثق به من جمع المراكب واسترجاع الكتايب ، ووصل مركب واحد فأمر بتعبير والدته وحرمه ومن ضمته الدور وحجبته الستور ، فانكسر المركب قبل عبورهم .

ووصل جنكزخان فلقيه جلال الدين واقتتلوا قتالا شديدا فحمل جلال الدين بنفسه على قلب جنكزخان فمزقه ، وانهزم جنكزخان . وكادت الدائرة تكون عليهم ، لولا أن جنكزخان كان قد كمن كمينا فيه عشرة آلاف فارس فخرجوا على ميمنة جلال الدين - وفيها أمين ملك - فكسروها وطرحوها على القلب ، فتبدد نظامه ، وتزعزعت عن الثبات أقدامه ، وانجلت المعركة عن قتلى مصرعين فى الدماء ، وغرقى غاطسين فى الماء ، فكان الرجل يأتى إلى الماء يهوى بنفسه فى تياره وهو يعلم أنه غريق لامحالة . وأسر ولد جلال الدين وهو ابن سبع أو ثمانى سنين فقتل بين يدى جنكز خان .

قال : ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كثيرا رأى والدته أم ولده وجماعة من حرمه يصحن بأعلى أصواتهن : بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن . فهذه من عجائب البلايا ونوادر المصايب والرزايا . وأما العساكر الخلجية المفارقة لجلال الدين فاستنزلهم جنكزخان بعد فراغه من جلال الدين من عصم الجبال والحصون ، وقتلهم أجمعين .

ذكر حال جلال الدين بعد عبوره ماء السند

قال : ولما وصل جلال الدين إلى حافة ماء السند اقتحم بفرسه ذلك الماء العظيم ، فخلص إلى البر ، وخلص معه أربعة آلاف رجل من عسكره حفاة عراة ، وفيهم ثلثماية فارس كانوا قد تقدموا جلال الدين (ومعهم) من خواصه ثلاثة نفر وهم قلبرس بهادر وقابقح

وسعد الدين على الشربْدار [١] ، ورمى بهم الماء إلى جهة بعيدة عن القوم ولم يعلموا ماكان منه ، فاتصل بهم فى اليوم الثانى .

قال : وكان فى الزردخانا [٢] الجلالية [٣] شخص يعرف بجمال الزراد ، وقد انتَبَذ قبل الوقعة بما كان له من المال إلى بعض الجهات ، فوصل إذ ذاك بمركب فيه ملبوس ومأكول ، فوقع ذلك عند جلال الدين موقعا عظيما وولاه أستاذ داريته [٤] ، ولقبه اختيار الدين .

قال : ولما علم زانه شنزه صاحب جبل الجودى بما كان من أمر جلال الدين وانهزامه ، وأنه فى قلة من أصحابه ، ركب فى ألف فارس وخمسة آلاف راجل . فقصد جلال الدين عبور الماء إلى جهة التتار ويختفى بمن يسلم معه فى الغياض ويعيشون [٥] بالغارات ، لعلمه أن الجنود إن ظفروا به قتلوه وقتلوا من معه . فحين تواتروا على ذلك توجهت الرجالة لهذا القصد ، وتأخر عنهم جلال الدين بمن معه من أصحاب الخيل على رسم الترك ، فجاء زانه شنزه ، ومعه

---

(١) حققت هذه الأسماء من : النسوى (محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٨٥ ، طبعة باريس سنة ١٨٩١) .

(٢) الزرد خاناه : دار السلاح ، وقد أطلقها المقريزى على السلاح نفسه ، ومن معانى الزردخانه أيضاً ، السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب ، (أنظر المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٠٦ حاشية ١) .

(٣) نسبة إلى جلال الدين منكبرتى .

(٤) أستاذ الدار أو الإستادار : هو الذى يتولى شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان ، وهو الذى يمشى بطلب السلطان ويحكم فى غلمانه ، وباب داره . وله حديث مطلق وتصرف تام فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات ، والكساوى ، (أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢) .

(٥) فى ك ويعيشوا .

أعيان أصحابه وخيالته . فلما رأى جلال الدين حمل عليه بمن معه ، فلما قاربه رماه جلال الدين بسهم فى صدره فقتله وانهزم عسكره وتحمل جلال الدين فيما غنمه من خيله وعدته ، وما أفاء الله عليه من أمواله وأسلحته .

قال : ولما سمع قمر الدين نائب قباجة بدبدبة وساقون ، تقرب إلى جلال الدين بهدايا جليلة وألطاف ، وفى جملتها الدهلين ، فوقع ذلك من جلال الدين موقعا عظيما [1] .

ذكر ماكان بين جلال الدين وقباجة[2] من وفاق وخلاف

قال : ثم بلغ جلال الدين أن بنت أمين ملك سلمت من الغرق إلى أوجاهى من مدن قباجة ، فراسله جلال الدين يذكر أنها تمت له بقرابة ، وأن نساءه غرقن وطلبها ، فتقدم قباجة بتجهيزها إليه وجهز معها هدايا تليق بجلال الدين . فقبل جلال الدين ذلك منه وانتظم بينهما الصلح وأمنت البلاد إلى أن قضت الفرقة وتأكدت أسباب الوحشة

وسبب ذلك أن شمس الملك شهاب الدين ألب ، كان السلطان علاء الدين قد استوزره لجلال الدين ، فرمته الوقعة إلى قباجة ،

---

(١) فى ع « موقعاً حسناً »

(٢) هو ناصر الدين قباجة المعزى كان يحكم فى المولتان وبعض نواحى أخرى من بلاد السند من سنة ٦٠٢ - ٦٢٥ ، وكان أحد المروجين للأدب الفارسى ، (أنظر تاريخه بالتفصيل فى كتاب طبقات ناصرى تأليف منهاج الدين عثمان بن سراج الدين الجوزجانى ، ج ١ ص ٤١٨ - ٤٢١ تصحيح عبد الحى حبيبى ، طبع كابول ، ١٣٤٢ ش) .

فأمنه وآواه وأحسن إليه . واعتقد قباجة أن جلال الدين قتل ، فاسترسل مع شمس الملك فى أمور كان الحزم يقضى إخفاءها عنه ، فلما تحقق سلامة جلال الدين استوحش من شمس الملك وندم على ما كان قد أبداه له ، ولما بلغ جلال الدين أن شمس الملك عنده استدعاه ، فحمل قباجة التوهم منه على قتله فقتله ، لما كان قد أودعه من أسرار خشى إذاعتها . ومن ذلك أن قرن خان بن أمين ملك كانت الوقعة طرحته إلى مدينة كلور [1] من مدن قباجة ، فشرهت نفوس عامتها إلى سلبه ، فقتل وحمل إلى قباجة من سلبه درة كانت فى أذنه فأخذها ، فحقد جلال الدين ذلك عليه وأسره فى نفسه إلى أن اتصل بخدمته جماعة من الأمراء المفارقين لخدمة أخيه غياث الدين بمن معهم من العسكر ، فقويت نفسه بهم وقصد مدينة كلور فحاصرها وداوم القتال والزحف بنفسه فأصابته نشابة فى يده ، ولم يفتر فى القتال ليلا ولانهارا حتى ملكها وملك مقاتلتها ثم رحل منها إلى قلعة برنوزج فحاصرها وباشر القتال بنفسه وأصابته هناك نشابة أخرى ، فألحق برنوزج بأختها وتأكدت الوحشة بهذه الأسباب بينه وبين قباجة . ولما رأى قباجة أن بلاده تطوى شيئا فشيئا فزع إلى الاحتشاد ، فركب فى زهاء عشرة آلاف فارس ، وأنجده شمس الدين ايلتتمش [2] ببعض عساكره ، فعلم جلال الدين بخبره

(١) من مدن إقليم البنجاب .

(٢) هو شمس الدين أبو المظفر إيلتتمش أو التتمش ، أعظم سلاطين الهند ، حكم من سنة ٦٠٤ — ٦٣٠ ، حارب ناصر الدين قباجة فى سنة ٦٢٥ وانتصر عليه ، وقد عرف بميله إلى العلم والأدب ورعايته للعلماء والأدباء ، (أنظر الجوزجانى : طبقات ناصرى ، ج ١ ص ٤٤ ومابعدها) .

ونيته ليلا ، وأحاط بعسكره فأعجنهم عن الركوب ، فانهزم قباجة بنفسه ومن نجا به فرسه ، وترك العسكر شاغرا بما فيه من الخيام والخزائن والعدد المتوفرة ، فاحتوى جلال الدين على ذلك .

ذكر الحوادث بعد كسر جلال الدين قباجة وماجرى بينه وبين شمس الدين ايلتتمش

قال : لما كسر جلال الدين قباجة نزل على نهاوور [١] وكان بها ابن لقباجة [٢] وقد عصى على والده وتغلب عليها ، فأقرها جلال الدين عليه على مال يحمله فى كل سنة ومال يعجله . ورحل صوب سيستان وبها فخر الدين السلارى واليا عليها من جهة قباجة ، فتلقاه بالطاعة ، وسلم إليه مفاتيحها ، فجبى المال ثم رحل عنها صوب أوجا فحاصرها أياما ، وقاتله أهلها فقتل من الفريقين خلق كثير ، ثم صالحوه على مال حمل إليه . ورحل صوب خانسر [٣] وكان ملكها من أتباع شمس الدين فخرج طائعا للخدمة الجلالية . فألقى بها عصى القرار ليريح من معه ، فأتاه الخبر أن إيلتتمش قاصده فى ثلاثين ألف فارس ومائة ألف راجل وثلثماية فيل ، فخرج جلال الدين نحوه مجدا ، وقدم أمامه جهان بهلوان أزبك باين — وهو من حماة الأبطال —

---

(١) المقصود هنا مدينة لاهور .

(٢) فى ك اينا .

(٣) اسماء المدن فى هذا الجزء — ومعظمها فى الهند — لاتوجد فى معجم ياقوت ، واعتمد المحقق فى تصحيحها على المنشى النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٩٠ (طبعة باريس ١٨٩١) .

فساق ، وخالفه يزك شمس الدين ، فتوسط أزبك عسكر شمس الدين فهجم على جماعة منهم ، فقتل منهم وحضر إلى جلال الدين من أخبره بذلك الجمع الكثير ثم ورد عليه برسول إيلتتمش فى طلب الموادعة ويقول : « ليس بخفى علىّ ماوراءك من عدو الدين ، وأنت سلطان المسلمين وابن سلطانهم ، ولست استحل أن أكون عليك عونا ، ولايليق بمثلى أن يجرد السيف فى وجه مثلك ، إلا لضرورة الدفع ، وإن رأيت أن أزوجك ابنتى لتزول الوحشة وتتأكد الثقة بينى وبينك فافعل » .

فمال جلال الدين إلى ذلك وأصحب رسوله باثنين من أصحابه ، يزيدك بهلوان وسنقرجق طايسى ، فمضيا إليه وأقاما لديه وترادفت الأخبار على جلال الدين أن ايلتتمش وقباجة وسائر ملوك الهند قد تآمروا على أن يمسكوا على جلال الدين حافة مآء خجنير ، فعظمت إذ ذاك بليته وفترت فى وجوه العزائم نيته ، ورأى أن الزمان حزّب عليه أحزابا ومتى سد للحوادث بجهده بابا فتح عليه أبوابا ، فاستشار نصحاءه فى ذلك ، فأشار عليه الذين وردوا من العراق وهم الذين انفصلوا من أخيه غياث الدين أن يقصد العراق وينتزعه من يد أخيه ، وأشار عليه جهان بهلوان أزبك باين بلزوم بلاد الهند خشية من جنكزخان واستضعافا لملوك الهند ، فحمله شغفه بحب الممالك الموروثة والحكم فيها على قصد العراق ، فاستناب جهان بهلوان على ماكان يملكه من بلاد الهند ، والحسن قزلق على ماقد نجا من بلاد الغور وغزنة من صدمات التتار ، فاستمر جهان بهلوان فيما ولاه إلى سنة

سبع وعشرين وستماية ، ثم طرد عنها ووصل إلى العراق على مانذكره فى موضعه ؛ واستمر قزلق إلى حين وفاته .

ذكر طلوع جلال الدين من الهند ووصوله الى كرمان وماجرى له من الحوادث الى ان ملك العـراق

كان عوده من الهند فى سنة إحدى وعشرين وستماية . قـال شهاب الدين محمد المنشى : قاسى جلال الدين ومن معه من رذايا الأرواح المتخلصة من مشتجر الرياح فى البوادى ، القاطعة بين كرمان والهند ، شدائد نستهم سائر الكرب ، وأوردتهم بأجمعهم سواقى العطب . وقد أوعزتهم فى تلك القفار علالات الشفاه [1] ، وبلالات الأفواه ، فضلا عن الأقوات ، فكان الرجل يتنفس عند هبوب السموم كتنفس المحموم . قال : فتخلص إلى كرمان فى أربعة آلاف ، فيهم ركّاب أبقار وحمر . وكان بها براق الحاجب ينوب عن أخيه غياث الدين بير شاه . وبراق هذا كان حاجبا لكورخان ملك الخطايية ، ورد رسولا على السلطان مبدأ المكاشفة بينهما ، فمنعه أن يعود إلى مرسله رغبة فيه ، ثم اتصل بخدمة غياث الدين .

فلما وصل جلال الدين أقام بكراشير [2] ـ وهى دار المملكة ـ شهرا ثم أحس أن براقا قد أضمر الغدر به ، فقصد جلال الدين

(١) فى ك الشفاه

(٢) هكذا فى ك ويكتبها النسوى كواشر (انظر النسوى : سيرة جلال الدين ، ص ١٧٥ ، نشر حافظ حمدى) .

القبض عليه واستشار فى ذلك ، فأشار أورخان بالقبض عليه ، وأن يواليه مملكة كرمان ويستظهر بها على غيرها من الممالك . وخالفه فى هذا الرأى شمس الملك على بن أبى القاسم المعروف بخواجه جهان ، وقال: هذا أول من بذل الطاعة من نواب الأطراف ، وولاة البلاد ، وليس كل أحد يتحقق غدره ومكيدته ،فمتى عوجل نفرت القلوب واشمأزت النفوس وتبدلت الأهواء ، وتغيرت النيات والآراء .

فرحل جلال الدين إلى صوب شيراز ، وورد عليه الأتابك علاء الدولة صاحب يزد ، مذعنا بالطاعة ، وقدم له تقادم كثيرة فكتب له توقيعا بتقرير بلاده عليه . وكان الأتابك سعد صاحب فارس قد استوحش من أخيه غياث الدين لإساءة سبقت ، فرغب جلال الدين فى إصلاحه لنفسه ، وسير الوزير شرف الملك إليه خاطبا ابنته ، فأسرع إلى الإجابة والانقياد وزوجه ابنته وحملها إليه فاستظهر جلال الدين بمصاهرته ثم تقدم من شيراز إلى أصفهان ، فخرج إليه القاضى ركن الدين مسعود بن صاعد بأحسن اللقاء ، قال: ولما بلغ غياث الدين توسط جلال الدين فى بلاده ، ركب إليه فى جموعه فى زهاء ثلاثين ألف فارس ، فرجع جلال الدين حين سمع بقربه وقد أيس مما طمحت إليه نفسه ، وسير إلى غياث الدين أدك أمير أخور ؛ وكان من دهاة خواصه ، يقول : « إن الذى قاسيته بعد السلطان من الشدايد الفادحة ، لو عرضت على الجبال لأشفقن منها واستثقلتها فأبين أن يقبلنها ، وحين ضاقت على الأرض بما رحبت ، وانتفضت يدى عما ورثت وكسبت ، وكنت قصدتك لأستريح عندك أياما وحيث علمت أن ليس عندك للضيف إلا ظبى

السيف ، ورجعت بظمأ من الشوق عن المناهل .» وسير إليه سلب تولى خان بن جنكزخان وفرسه وسيفه. فلما سمع غياث الدين الرسالة انصرف إلى الرى ، وتفرقت عساكره فى المصايف .

قال: وكان جلال الدين سير صحبة رسوله عدة خواتيم ، وأمره بإيصالها إلى جماعة من الأمراء علامات منه ، يستميلهم ويمنيهم الإحسان ،فمنهم من تناول الخاتم وسكت وأجاب إلى الانقطاع إليه أو التقاعد عن نصرة غياث الدين ، ومنهم من سارع إلى غياث الدين فناوله الخاتم ، فعند ذلك أمر بالقبض على الرسول المذكور والاحتياط عليه . وبادر إلى خدمة جلال الدين ، أبو بكر ملك – وهو من بنى أخواله – وذكر له أن القلوب مجتمعة على محبته ، فركب جلال الدين فى ثلاثة آلاف ضعاف ، وجد السير حتى وافى غياث الدين وأعجله عن التدبير . فلما أتاه النذير ركب فرس النوبة إلى قلعة سلوقان ، ودخل جلال الدين خيمته وبها بكلواى والدة غياث الدين ، فاستوفى لها أدب الخدمة ، وشرط التعظيم والحرمة وأنكر انزعاج غياث الدين وإخلاءه (١) مكانه ، وذكر لها إشفاقه عليه . فسيرت إليه من سكن روعته ، فعاد إلى خدمة أخيه جلال الدين ونزل جلال الدين فى منزلة السلطان ، وأتته الأمراء واستعفوا مما كان منهم ، فأقبل عليهم وعاملهم بالإحسان . ثم جاءه من كان بخراسان والعراق ومازندران من المتغلبين . فمنهم من حسنت سيرته فى أيام الفتنة ، فأقره وأعاده إلى مكانه ، ومنهم من ساءت طريقته فأذيق

(١) فى ك وإخلاؤه .

وبال طغيانه ، وتفرقت الوزراء والعمال فى الأطراف فضبطوها بتواقيع جلال الدين .

ذكر مسيره صوب خوزستان

ولما تمكن السلطان جلال الدين من أخيه غياث الدين ، وصار معه كأحد أمرائه ، توجه نحو خوزستان ، وشتى بها ، ووجه من هناك ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود العارض النسوى رسولا إلى الديوان العزيز .وكان من قبل ذلك قد جرد جهان بهلوان إيلجى برسم اليزك ، فصادف المذكور عسكرا من عساكر الديوان وعربان خفاجة ، فأوقع بهم وأخرق الهيبة ، وهتك الحرمة ، فعادوا إلى بغداد على وجه غير مرضى ، وأحضرت طائفة منهم إلى المخيم الجلالى ، فأطلقوا . ووصل ضياء الملك بعد الحادثة إلى بغداد فطال مقامه ، وأرجف الناس به إلى أن ملك السلطان مراغة ، فأذن له في العود بوفور الحظ من الإنعام .

قال : ولما انجلى الشتاء رحل السلطان نحو أذر بيجان ، فلما أشرف على دقوقا صعد أهلها السور وشتموه ، لما بلغهم من شنه الغارات على بلاد الديوان ، فغاظه ذلك وأمر بالزحف عليها ، فلم تكن إلا حملة واحدة حتى ملكوا البلد ووضعوا السيف في أهلها . ثم سار نحو أذربيجان . فلما حاذى جبال همذان أتاه إيغان طايسى [1] من أذربيجان ، وانتظم فى الخدمة .

---

(١) كذا في ك ، وفى النسوى وردت «يغان طايسى» .

ذكر ملكه أذربيجان ومراغة

قال: ولما انتظم أيغان طايسى فى الخدمة رحل السلطان صوب أذربيجان ، فلما قاربها ورد على شرف الملك كتب من أهل مراغة ، حاثين عزائم السلطان بالمسير إليها لضعف الأتابك صاحبها عن دفع الكرج . فساق إليها ودخلها من غير مدافع ، وأقام بها أياما . ووجه من هناك القاضى مجير الدين عمر بن أسعد الخوارزمى رسولا إلى ملك الروم وملك الشام ومصر بكتب تتضمن تملكه بلاد أذربيجان وقلعه ما تشبثت بها من أنياب الكرج ، وإعلامهم أنه نوى أن يغزو الكرج . ثم رحل من مراغة صوب أذربيجان ، وهى أرض معشبة ذات مياه جارية ، وقد خرب التتار مدينتها ، فأقام بها أياما والناس يمتارون من تبريز وبها بنت طغرل بن أرسلان زوجة الأتابك أزبك ، فلم يمنعوهم . وجاءه من أهل تبريز من أطمعه فى ملكها ، فسار نحوها ، وأحاط بها من كل جانب ، فخرج إليه الرئيس نظام الدين ابن أخى شمس الدين الطغرائى ، وكان متحكما فيها ، يملك رقاب أهلها موالاة له ولأسلافه . وتقدم إلى الأمراء بترتيب آلات الحصار من المجانيق والدبابات والسلاليم ، فأخذوا فى ترتيب ذلك . فلما كان بعد سبعة أيام خرج إليه رسول من جهة بنت السلطان طغرل فى طلب الأمان لها ولجواريها وخدمها ، على أموالهم ودمائهم ، وعلى أن تكون مدينة خوى مفردة باسمها . فأجاب إلى ذلك ، وتسلم تبريز ، وذلك فى سنة اثنتين وعشرين وستماية ، وسير معها خادميه تاج الدين قليج وبدر الدين هلال ، فأوصلاها إليها بمن معها من أتباعها . وولى السلطان رياسة تبريز للرئيس نظام الدين .

ذكر كسر السلطان الكرج

قال : ولما ملك السلطان أذربيجان اجتمع الكرج بموضع يعرف بكربى – من حدود دوين [١] – فى ستين ألفا ، وقد قلقوا لمجاورته ، وقصدوا باجتماعهم أعلامه بما هم عليه من الكثرة والقوة ، لعله يرغب فى مهادنتهم . فلما بلغ السلطان اجتماعهم توجه نحوهم فيمن حضر من عساكره ، وقد كان أكثرهم تفرقوا إلى إقطاعاتهم بالعراق وغيره . فحين وصل إلى شاطئ نهر أرس ، [٢] وجد هناك أمراء الترك ومقدمهم جهان بهلوان ايلجى ، فأعلموه بأن العدو بالقرب منهم ، وأن فيهم كثرة ، فكان جوابه عن ذلك عبوره إلى المخاضة بفرسه ، وتبعته العساكر . فلما انتهى إلى كربى رأى الكرج وقد نزلوا على نشزعال ، فلم يتقدموا ، إليه وبات ليلته وعليه الحرس حتى الصباح ، وقال لأصحابه : إن هؤلاء قصدهم المطاولة . وأمر بالحملة عليهم من كل جهة ، فحملوا عليهم صاعدين إليهم ،فبادرت ميسرة السلطان بالصعود ، وفيهم غياث الدين أخوه وأورخان وأيغان طايسى وغيرهم ، فحمل عليهم شلوة – وكان من فرسان الكرج المشهورين – والتقى

---

(١) وردت فى النسوى « زون » ، وتكرر هذا الإسم فى ك فى صورة « دوين » وفى النسوى فى صورة (زون) . ولم يرد اسم زون فى معجم ياقوت ولعله تحريف فى الكتابة ، أما دوين ، فقد ذكر ياقوت أنها بلدة من نواحى أران فى آخر حدود أذربيجان قرب تفليس .

(٢) يسمى أيضا نهر الرس ، ويصب فى بحر قزوين بعد أن يلتقى بنهر الكر . وقد ورد ذكر هذين النهرين فى القلقشندى . (انظر صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٠٢) (وانظر أيضا لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية : الترجمة العربية ، ص ٢١١ ، ٢١٣ ، ٣١٣) .

الفريقان برأس الجبل ، فولت الكرج ، وقتل منهم زهاء أربعة آلاف ، ووقف السلطان على التل ، والكرج تساق إليه ، وتبع المسلمون من انهزم من الكرج . قال المنشئ : حكى شمس الدين القمى ، وكان من حجاب الأتابك أزبك ـ قال : « أرسلنى صاحبى إلى الكرج أيام استيلائهم ، فخاشننى شلوة فى الكلام ، حتى قال وددت أن يكون على ـ يعنى ابن أبى طالب (رضى الله عنه [1] ـ باقيا فى زمانى ، لأريه من سطوتى ماينسى يومى بدر وحنين » فلما كان فى هذه الوقعة نزل إلى الأرض ولطخ وجهه بالدم ، ونام بين القتلى . فحدث ابن داية غياث الدين وهو صبى به ، فأخرجه وأحضره إلى السلطان مكتوفا فأمنه . قال : ووجه السلطان ملك الخواص تاج الدين قليج إلى تبريز بجماعة من أمرائهم الأسرى ورؤوس القتلى . وساق من المعركة إلى مدينة دوين فزحف عليها وافتتحها فى الوقت .

ذكر عوده من دوين الى تبريز وتركه الميمنة ببلاد الكرج

قال : لما حصل للسلطان ماذكرناه من النصر والظفر والفتوح ، بث غيارته إلى أخريات بلاد أبخاز وفى نفسه قصد تفليس ، فورد عليه كتاب من شرف الملك بتبريز يذكر فيه أن شمس الدين الطغرائى وابن أخيه الرئيس نظام الدين قد تآمرا [2] على الفتك به والعصيان

(١) فى ع (عليه السلام) .
(٢) فى ك (قد تؤامروا)

على السلطان ، وكان ذلك إفكاً وزوراً وكذباً ، افتراه من كان يلوذ بشرف الملك من نوابه وخواصه . وذلك أن الطغرائى كان دينا ، منصفا ، حسن السيرة ، ذابا عن الرعية ، لايمكن من الحيف عليهم ، تارة بالشفاعة ، وطورا بالتوبيخ والتشنيع ؛ ونواب شرف الملك يكرهون ذلك . فلما وقف على الكتاب عزم على العود إلى تبريز ، وأحضر أمراء الميمنة بباب سرادقه ، وخرج إليهم بعض الحجاب ، وقال : السلطان يقول لكم : « إنا قد تحققنا تقصيركم فى المصاف ، واتفاقكم على أن تولوا وجوهكم إن حمل الكرج عليكم ، وحيث وهب الله لنا النصر والظفر ، فقد عفونا عنكم ماتحققناه ، على أن تقيموا ببلادها فتقلبوها بغاراتكم ظهرًا لبطن إلى أن تعود إليكم » . فضمنوا له ذلك ، وأقاموا ثلاثة أشهر يشنون عليها الغارات إلى أن أخلوها قتلا وسبيا ، ورخصت المماليك الكرجية ، حتى أن المملوك منها يباع بدينارين أو ثلاثة .

قال : ورجع السلطان إلى تبريز ، وكان رجوعه فى شهر رجب سنة اثنتين وعشرين وستماية ، وأحضر شرف الملك إلى بين يديه من الأوباش من شهد على الطغرائى وابن أخيه بما كان أنهاه عنهما . فأمر بالقبض عليهما . فأما الرئيس فقتل فى الوقت وترك بالشارع طريحا ، وأما الطغرائى فحبس وصودر على ماينيف على ماية ألف دينار كان الذى وصل منها إلى الخزانة السلطانية دون الثلاثين ألفا ، ثم حمل من تبريز إلى مراغة محتاطا عليه . هذا وشرف الملك يعمل الحيلة

على قتله حتى أخذ خاتم السلطان بذلك ، وأراد الله تعالى إبقاءه [١] فضن [٢] النائب بمراغة بقتله ، فأعانه بالخيل وهربا جميعا وسارا إلى أربل ومنها إلى بغداد . وحج في سنة خمس وعشرين فلما ازدحم الناس حول الكعبة وقف تحت الميزاب وعلى رأسه مصحف ، والحاج من الأقاليم وقوفا ، والذى كان يتولى ركب السلطان فيهم ، وقال : « أيها الناس ، قد أجمع المسلمون كافة أن ليس لِلهِ فى أرضه مقام [٣] أشرف من هذا المقام ، ولا يوم [٤] أجل من هذا اليوم ، ولا كتاب [٥] أعظم من هذا الكتاب ، وأنا حالف بهذه الثلاثة أن الذى نسبنى إليه شرف الملك ما كان إلا إفكا مفترى» . وغلظ بما تغلظ به أيمان البيعة فى البراءة ، وتفرق الناس إلى بلادهم وتحدث بذلك كل طائفة . وتواترت به الأخبار على السلطان ، فعلم عند ذلك براءته ، وندم على فعله ، وأمنه وأعاده إلى تبريز ، ورد عليه أملاكه هذا ما كان من أمره .

قال : وأقام السلطان بتبريز ، فصام بها شهر رمضان ، وأمر بمنبر فوضع بدار السلطنة ، ونص على ثلاثين من علماء الأطراف وفضلائها ، وقد حضروا لحاجاتهم ، فوعظ كل واحد منهم يوما والسلطان لجانب المنبر ، فشكر منهم من وعظ وقال حقا ، وذم من بالغ فى الإطراء .

---

(١) فى ك أبقاه
(٢) كذا فى ك ، ع أما فى ت فهى « فضن »
(٣) فى ك : مقاماً
(٤) فى ك : يوماً
(٥) فى ك : كتابا

ذكر ملك السلطان كنجة وسائر بلاد أران

قال: ولما استقر السلطان بتبريز بعد انصرافه من الكرج ، وجه أورخان في رجالة إلى كنجة ، فتسلمها وما يضاف إليها من الكور ، مثل بيلقان[1] وبرذعة[2] وسكور [3] [وشيز] [4] فتمكن أورخان بكنجة .

ذكر نكاح السلطان بنت طغرل بن أرسلان

قال: وورد على السلطان نساء من قبل بنت طغرل بن أرسلان وهو بتبريز ، يعلمن السلطان برغبتها فى أن يملكها ، ويعلن أنها أثبتت بالشهود أنها مطلقة من زوجها الأتابك أزبك ، فأجابها إلى ذلك وشهد لها أن زوجها حلف بطلاقها أن لايغدر بفلان وغدر به ، وحكم

---

(١) بيلقان إحدى مدن أرمينية ، وهى قريبة من شروان ، (أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٤٠ ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ت ١٩٠٦م)

(٢) برذعة : بلد فى أقصى حدود أذربيجان ، (أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٦١) .

(٣) هكذا في ك ، ولعلها شمكور ، وهى فى قلعة فى نواحى آران بينها وبين كنجه يوم واحد ، (أنظر ياقوت معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٩٥) ، ويذكر القلقشندى أن شمكور بقرب برذعه ، وبها منارة في غاية الارتفاع والشهوق (أنظر صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٦٣)

(٤) في ك سير والتصحيح من النسوى . (سيرة جلال الدين ، ص ٢٠٥) . وشير ، ناحية من نواحى أذربيجان يقال إن منها زردشت نبى المجوس ، (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣٢٥) .

بذلك قاضى تبريز عز الدين القزوينى . فتزوج بها السلطان جلال الدين وسار بعد عقد النكاح إلى خوى ودخل بها ، وزادها على خوى مدينتى سلماس وأرمية [١] بأعمالهما . قال : وكان الأتابك بقلعة ألنجة من أعمال نخجوان [٢] يسمع باستيلاء السلطان على بلاده ، فلم يزد على قوله : « إن الأرض لله يورثها من يشاء [٣] » ؛ فلما بلغه أمر النكاح وأنه برغبة الملكة ، حم لوقته ومات بعد أيام .

ذكر عوده الى بلد الكرج وفتحه تفليس

قال : ثم سار السلطان بعد عيد الفطر من سنة اثنتين وعشرين وستماية إلى غزو الكرج فلما وصل إلى نهر أرس مرض مرضا شديدا تعذرت بسببه حركته ، فشتا [٤] هنالك ، وقاسى من معه من شدة الثلوج أمرا عظيما . فلما انكشف الشتاء ، تقدم السلطان إلى مروج تفليس ، وجر العساكر إليها متجردة عن أثقالها ، فوجدها منيعة حصينة ، قد بنى معظم سورها على الجبال والشقفان . فخرج عامة أهلها فتأخر الجيش حتى أبعدهم عن المدينة ، وحملوا عليهم حملة

(١) في ك سلمان وأرمينية ، والتصحيح من النسوى ، وقد ذكر ياقوت أن سلماس مدينة مشهورة بأذربيجان ، بينها وبين أرمية يومان وأرمية مدينة قديمة عظيمة بأذربيجان ويذكر القلقشندى أن لأرمية قلعة على جبل تسمى قلعة تلا في غاية الحصانة ، وهذا وضع هولاكو فيها أمواله ، (أنظر صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٥٩)

(٢) في ك نخوجان . والتصحيح من النسوى . وقد ذكر ياقوت أن نخجوان بلد في أقصى اذربيجان .

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة : (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) [سورة الأعراف ، آية ٢٨] .

(٤) في ك فشتى

كان فيها بوارهم ، وسبقهم إلى الباب غياث الدين ، فملكت المدينة ؛ وتحكمت السيوف فى أهلها ، وقتل من بها من الكرج والأرمن ؛ وتحصن أجناد الكرج بالقلعة - وبينها وبين المدينة نهر عظيم لايخاض - . وكان بينهما جسران [1] من الخشب فأحرقا ، فلم يبت السلطان حتى عبر النهر إلى صوب القلعة ، وأمر بنصب آلات الحصار ، فخرج رسول الكرج فى طلب الأمان ، فأجاب [السلطان] [2] إلى ذلك ، وتسلمها بما فيها .

ذكر المصاف الكائن بينه وبين التتار بظاهر أصفهان

وفى سنة أربع وعشرين وستماية وردت الأخبار من خراسان بحركة التتار ، وأنهم على عزم العبور ، فجمع السلطان عساكره وتوجه إلى أصفهان ، وجرد أربعة آلاف فارس صوب الرى ودامغان [3] لليزك ، فكانت الأخبار ترد من جهتهم يوما فيوما ؛ والتتار يتقدمون واليزك يتأخر ، إلى أن عادوا إلى السلطان . ونزل التتار شرقى أصفهان على مسيرة يوم بقرية تسمى السين [4] وفيهم تاجن نوين [5]

(١) فى ك جسرين

(٢) ما بين الحاصرتين منقول عن النيسوى (سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص ٢١٢ ، نشر حافظ حمدى) .

(٣) دامغان ، بلد كبير بين الرى ونيسابور .

(٤) السين : قرية بينها وبين إصفهان أربعة فراسخ (أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٠٣)

(٥) نوين لقب عند المغول أطلق على طبقة الأمراء من أفراد أسرة جنكيزخان ، وكانو يتمتعون بامتيازات خاصة .

وباناك نوين وباقو نوين وأسن طغان نوين وياتماس نوين وباشاور نوين وغيرهم . وكان المنجمون أشاروا على السلطان بمصابرتهم ثلاثة أيام والتقائهم فى اليوم الرابع ، فتأخر عن الملتقى وظن التتار أن ذلك فشلا منه ووهنا ، فجردوا ألفى فارس إلى جبال بلاد اللؤلؤ للإغارة . فاختار السلطان من عسكره ثلاثة آلاف ، فأخذوا عليهم المضايق وأوقعوا بهم ، وأحضروا منهم إلى السلطان زهاء أربعماية أسير ، فأمر بضرب أعناقهم . ثم خرج للقاء التتار فلما تراى الجمعان خذله غياث الدين وفارقه بعسكره وطائفة من عسكر السلطان مقدمهم جهان بهلوان أيلحى ، فلم يعبأ السلطان بمفارقتهم ، وصمم على لقاء التتار ، فالتقوا واقتتلوا ، وحملت ميمنة السلطان على ميسرة التتار فانهزموا وركبهم السيف إلى تخوم قاشان [1] ، وهم يظنون أن الميسرة فعلت بالميمنة كذلك .

وكان للتتار كمين [2] ، فخرج وقد جنحت الشمس للغروب على ميسرة السلطان ، فضربها على القلب ، فثبت الأمراء والخانات أصحاب السلطان حتى قتلوا ، ولم يسلم منهم إلا ثلاثة وهم كوج تكين بهلوان والحاجب الخاص خان بردى وأودك أمير أخور . وأسر علاء الدولة أبا خان صاحب يزد ، أخذه رجل من المرتدة ، فأعطاه ماكان معه من المال ، فأطلقه فوقع بالليل فى بئر فمات . ووقف السلطان فى القلب وقد أحاطت به التتار من كل جانب ، ولم يبق

(١) قاشان : مدينة قرب أصبهان

(٢) فى ك كمينا

معه الا أربعة عشر من خواص مماليكه ، فالتفت فإذا هو بحامل [سنجقه] (١) قد ولى منهزما ، فلحقه وطعنه فقتله ، وحمل على التتار ، فأفرجوا له ولخواصه ، فخرج . قال : ثم تفرق القلب والميسرة وطرحتهم الجفلة إلى كرمان وأذربيجان ، ومنهم من دخل إلى أصفهان . وعادت الميمنة بعد يومين من جهة قاشان ، وظنوا أن السلطان بأصفهان ، فلَمَّا تحققوا الحال تسحبوا .

قال : وخفى أمر السلطان ثمانية أيام ، وكان المصاف فى الثانى والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وعشرين وستماية . وكان الأتابك إيغان طايسى لم يخرج من أصفهان يوم المصاف لمرضه ، فاتفق القاضى ومن تخلف بها من أرباب الدولة على أنهم إن صلوا العيد ولم يظهر السلطان أجلسوه على سرير الملك ، فلما خرج الناس لصلاة العيد حضر السلطان إلى الصلاة ، فسر الناس به وأقام بها عدة أيام إلى أن تجمع ماتشتت من عساكره المتفرقة .

وأما التتار فإن السيوف نالت منهم منالا عظيما ، ولم يخلص منهم – مع انتصارهم – إلى ماوراء جيحون إلا قليل (٢) ؛ فإن السلطان لما تجمعت عساكره سار (٣) فى آثارهم إلى الرى . وحكى ابن الأثير فى تاريخه الكامل أن ابن جنكزخان أرسل إلى السلطان إثر هذه الوقعة يقول : إن هؤلاء ليسوا منا (٤) .

(١) فى ك صنجقه ، والتصحيح من النسوى ، (سيرة جلال الدين منكبرتى ؛ ص ٢٣٧ ، نشر حافظ حمدى) .

(٢) فى ك قليـــلا .

(٣) فى ك ثار .

(٤) نص ما ذكره ابن الأثير عن ذلك « وأرسل إليه ابن جنكزخان يقول إن هؤلاء ليسوا من أصحابنا ، إنما نحن أبعدناهم عنا » ، (الكامل ، حوادث ٦٢٥ هـ) .

ذكر ما آل اليه أمر غياث الدين

قال : وأما غياث الدين ، فإنه لما فارق السلطان عند لقاء التتار ، سار إلى خوزستان ، وأرسل وزيره كريم الشرق إلى الديوان العزيز معلما بمفارقته لأخيه ، ويذكر أنه قد جاور الممالك الديوانية زمانا بالعراق فأحسن الجوار ، إلى أن حضر أخوه من الهند فشن الغارات عليها وقلبها بطنا لظهر وسأل أن يُعان على استرجاع ماغصبه جلال الدين من ملكه ، ويكون من جملة غلمان الديوان ، فأعيد رسوله بوعد جميل ، وأنعم عليه بثلاثين ألف دينار . ثم تسحب غياث الدين إلى ألموت لما بلغه ظهور السلطان .

قال : ولما وصل السلطان إلى الرى مقتفيا آثار التتار بعد الوقعة ، ففرق عساكره بتخوم ألموت من حدود الرى إلى أبخاز [1] فصار علاء الدين صاحب ألموت كالمجنون ، فراسل السلطان يلتمس الأمان لأخيه غياث الدين ليعود إلى الخدمة ، فأجابه إلى ذلك وحلف له ؛ وأصحب رسوله رسولين من عنده إلى غياث الدين وهما تاج الملك نجيب الدين يعقوب الخوارزمى وجمال الدين فرج الطشتدار . فلما وصلا إلى غياث الدين ندم على طلبه الأمان ، وسأل صاحب ألموت أن يعينه بما يحمله هو ومن معه ، فأعانه بثلثماية فرس أو أربعماية ، فخرج ووقعت عليه طائفة من العساكر المركزة حول ألموت فلحقوه

(١) أبخاز ، بالفتح ثم السكون ، قال عنها ياقوت : أنها إسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب يسكنها أمة من النصارى يقال لهم الكرج .

بحدود همذان وكادوا يمسكونه ، ثم خلص منهم ونجا إلى كرمان - وبها الحاجب براق نائبه - فسار إليه طمعا فى وفائه . فأول ما اعتمده معه أنه تزوج بوالدته على كره منها ومنه .ثم ذكر بعد ذلك أنها قصدت أن تسقيه سما فقتلها وقتل معها الوزير كريم الشرق وجهان بهلوان إيلجى ، وحبس غياث الدين ببعض القلاع ، واختلفت الأقاويل فى عاقبة أمره ،فقيل إن براقا قتله بعد حين وقيل إنه تخلص من الحبس إلى أصفهان وقتل فيها بأمر السلطان والله أعلم .

ذكر مسير السلطان الى خلاط ومحاصرتها

قال : وسار السلطان إلى خلاط. وكان قدم العساكر والأثقال كلها ، وتوجه هو جريدة فى ألف فارس صوب نخجوان وحث السير إلى ناحية بجنى [1] وكمن بها ليلا حتى إذا أصبحت رعية الكرج ، وسرحوا بمواشيهم على عادتهم ، ضرب عليها وساقها إلى نخجوان ، فكان الثور الجيد يباع بدينار . وكان سبب مسيره إلى نخجوان رغبة صاحبتها فى الاتصال به ، فتزوجها وأقام بها أياما ، ثم سار حتى أتى خلاط ، وقد سبقته العساكر إلى تخومها ، وأقامت على مسيرة يوم منها . فلما وصل إليهم ورد عليه رسول من عز الدين أيبك نائب السلطان الملك الأشرف موسى بها ، يذكر أن السلطان استنابه ، وقبض على الحاجب لإساءته وتطرقه إلى بلاد السلطان

(١) بجنى : قلعة من قلاع أولك بن إيوانى الكرجى (أنظر النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص ٢٩٢ نشر حافظ حمدى)

جلال الدين وأنه من جملة نوابه ؛ وبالغ فى الملاطفة . فأجابه السلطان عن ذلك بجواب مغالط ، وقال : إن كنت تقصد رضاى فابعث إلى بالحاجب على . فلما عاد الرسول بهذا الجواب قتل الحاجب على ، ورحل السلطان ، ونزل على خلاط. وحاصرها ونصب عليها اثنى عشر منجنيقا كانت العمالة منها ثمانية .

ذكر الحوادث فى مدة حصار خلاط

كان من ذلك وصول ركن الدين جهان شاه صاحب أرزن الروم ، فتلقاه السلطان أحسن لقاء . وقدم المذكور إلى السلطان ماقيمته عشرة آلاف دينار ، وخلع السلطان عليه وعلى أصحابه وأعاده إلى بلده . وأمره أن يجهز إليه مايمكنه من آلات الحصار ؛ فسير منجنيقا كبيرا وأتراسا ونشابا وغير ذلك .

ومنها أن خان سلطان أخت السلطان [1] التى كانت أسرت مع تركان خاتون ، واستخصها دوشى خاتون بن جنكزخان لنفسه على ماقدمناه ، وصل رسولها إلى السلطان بخاتم كان لإبنها أمارة ؛ وهى تذكر أن الخاقان قد أمر بتعليم أولادها القرآن ، « وقد بلغه أخبار شوكتك وعزم على مصاهرتك والمهادنة معك ، على أن تشاطره الملك على نهر جيحون ؛ فيكون لك مادونه وله ماوراءه ، فان كنت تجد من قوتك ماتقاومهم وتنتقم منهم فشأنك وما أردت ؛

(١) فى النسوى « أن خان سلطان أكبر بنات السلطان محمد »
(سيرة السلطان جلال الدين ص ١٨٣)

وإلا فاغتنم السلامة والمسالمة حال رغبتهم فيها . » فتشاغل عنها بخلاط ولم يعد عليها جوابا يقتضى الصلح .

ومنها ورود سعد الدين الحاجب رسولا من الديوان العزيز إلى السلطان يلتمس أشياء ، منها أنه يستصحب معه رسولا من أجلاء أصحاب السلطان وخواص حضرته ليعود بالخلع ؛ ومنها أن السلطان لايحكم على بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ومظفر الدين كوكبرى صاحب أربل وشهاب الدين سليمان شاه ملك الأبويه وعماد الدين بهلوان بن هزارسف ملك الجبال ، بل يعدهم فى جملة أولياء الديوان وأتباعه وخدمه وأشياعه .

ومن جملتها أن السلطان علاء الدين لما رجع من جبال همذان ولم يتم له ماأراه من قصد بغداد ، أسقط خطبة الخليفة بعامة ممالكه ، واستمر الحال على ذلك . فلما خاطبه رسول الديوان فى ذلك أصدر تواقيعه إلى عامة بلاده بالخطبة لأمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر .

ذكر مسير رسول السلطان الى الديوان العزيز واجتماعه بالخليفة وما اتفق له وعوده بالخلع والتشاريف

قال شهاب الدين محمد المنشى وهو كاتب السلطان جلال الدين : لما انقضت أشغال رسول الخليفة سعد الدين بن الحاجب أعاده السلطان وأصحبه الحاجب الخاص بدر الدين طولق . وكتب السلطان إلى أمير المؤمنين يسأله أن يحضر بين يدى المواقف الشريفة ،

تميزا له على سائر الملوك بمزيد الإكرام ؛ فأجيب إلى ذلك . قال المنشى : حدثنى الحاجب الخاص قال : كان السلطان أمرنى أنى إذا حضرت إلى الديوان لاأقبل يد الوزير بدر الدين القمى [1] ؛ ولاأوفيه حق التعظيم لأمور كان ينقمها عليه ، ففعلت ذلك امتثالا لما أمر . فلما مضت أيام فإذا بحراقة فى بعض العشيات وصلت إلى منزلى بحافة دجلة ، ودخل على سعد الدين الحاجب ، وقال : استعد لخدمة أمير المؤمنين . فركبت الحراقة وركبها سعد الدين معى ، فتكلم الملاح بكلمات غريبة لم أفهمها ؛ فقفز سعد الدين من الحراقة إلى أخرى بجنبها وتركنى منفردا فيها ، فسألته عن ذلك ، فقال : «ماكنت أعرف أن تلك من المراكب الخاصة ، وقد سيروها لك تشريفا ، فقمت وخدمته وشكرت ودعوت ، وسقنا إلى أن وصلنا إلى باب كبير ، فدخلت وتأخر سعد الدين ولم يتغير من هناك . فقلت : « لم لاتدخل ؟ » فقال : « وما منا إلا له مقام معلوم ، ليس لى أن أتعدى هذا المقام » . وكان خلف الباب خادم ، فأوصلنى إلى باب آخر وطرق الباب ، ففتح فدخلت وإذا بخادم شيخ جالس على دكة وبين يديه مصحف وشمعة ، فأجلسنى ورحب بى إلى أن جاء خادم آخر أبيض حسن الصورة فصافحنى ولاطفنى بالعجمى وأخذ بيدى وأوصانى بتعظيم المواقف الشريفة ، وحسن الأدب وتقبيل الأرض حيث يشير إلى . فذكر ماتفق له إلى أن انتهى إلى

(١) فى ك القمنى والتصحيح من النسوى (سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٠٥ ، نشر حافظ حمدى) وقد ولد مؤيد الدين القمى فى مدينة قم إحدى مدن العراق العجمى ، ونشأ فى بغداد ، وتوفى بها . تولى الوزارة فى عهد الناصر و الظاهر والمستنصر من الخلفاء العباسيين إلى أن توفى فى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) ، فى عهد الخليفة المستنصر ، (أنظر إبن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٨٥ – ٢٨٧ ، القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)

الستر والوزير قائم فأمر بالوقوف بالقرب من الوزير ، ثم قال له أمير المؤمنين : كيف الجناب العالى الشاهنشاهى - وهكذا كان يخاطب فى الكتب - ثم وعده بمواعيد جميلة فى حق السلطان ، وأنه يقدمه على سائر ملوك زمانه ، وخلع عليه وأعيد ؛ وأصحب بالأمير فلك الدين ابن سنقر الطويل وسعد الدين بن الحاجب ، ومعهما خلعة للسلطنة ؛ فوصلوا إلى خلاط فى فصل الشتاء ، والسلطان يحاصرها .

قال : وكان الذى استصحبوه من الأنعام والخلع خلعتين للسلطان إحداهما جبة وعمامة وسيف هندى مرصع النجاد والثانية قباء وكمة وفرجية [1] وسيف قلاجورى محلى بالذهب معرقه الحياصة بالدنانير ، وقلادة مرصعة يمنية ، وفرسان بالساحات والسرفسارات والطوق أثقل مايكون وأبهى ، وثمان تطبيقات طبقت حوافرها عند التسليم وزن كل تطبيقة منها مائة دينار ، وترس ذهب مرصع بنفائس الجواهر ، وثلاثون فرسا من الخيل العربية مجللة بالأطلس الرومى مبطنة الجلال بالأطلس البغدادى وعلى رأس كل جنيب مقود من الحرير وقد ضرب عليه ستون دينارا خليفتية ؛ وثلاثون أو عشرون مملوكا بالعدة والمركوب ، وعشرة فهود بجلال الأطلس وقلائد الذهب ، وعشرة صقور مكللة الكمام بصغار الحب ، ومائة وخمسون بقجة فى كل واحدة عشرة ثياب وخمسة أكر من العنبر الأشهب مضلعة بالذهب ، وشجرة عود طولها خمسة أذرع أو ستة تحمل بين يدى رجلين ، وأربع عشرة خلعة برسم الخانات كلها بالخيل والساجات

(١) القبـــاء والكمة والفرجية ، ثياب متشابهة أشبه بالقفطان » ، أنظر :

Dozy : Dict. Vet. Ar.

والكرفسارات والطوق وحوائص الذهب والكنابيش ، وثلثمائة خلعة برسم الأمراء ، كل خلعة قباء وكمة فحسب . وكانت خلعة شرف الملك الوزير عمامة سوداء وقبـاء وفرجية وسيفا [١] هنديا [٢] وأكرتين [٣] من العنبر وخمسين [٤] ثوبا وبغلة . وعشرون خلعة برسم أصحاب الديوان كل خلعة منها جبة وعمامة . قال المنشى : وخصصت من سائر أرباب الديوان ببغلة شهباء جيدة وعشرين [٥] ثوبا أكثرها أطلس رومى وبغدادى .

قال : فلبس السلطان الخلع خلعة بعد أخرى فى نهار واحد ولبس الناس بعده . ثم خاطب رسولا الخليفة السلطان فى الشفاعة فى أمر خلاط. وترك الحصار فلم يرد عليهما جواب شفاعتهما . ثم بعث إليهما بعد عودهما إلى منازلهما معاتبا ، وقال : قد بلغتمانى عن أمير المؤمنين أنه يريد إعلاء أمرى وتعظيم شأنى وتحكيمى على ملوك الزمان ثم تشيران على بإزالة الحصار بعد أن آن الفتح ؟ وهذا ينافى ماذكرتما ، فاعتذرا ، وقالا : « إنما قلنا ذلك شفقة ، وخشينا أن يطول الحصار ، ولاتتمكن منها فترجع عنها ، فيكون ذلك بوساطتنا أسلم من مطاعن المستعجزين » فقبل عذرهما ، واستمر الحصار . وكان أهل خلاط. قد كفوا عن الشتم فى أيام حضور رسل الخلافة فلما تحققوا أنهم ماشفعوا عادوا إلى عادتهم فى السب

(١) فى ك وسيف .
(٢) فى ك هنـدى .
(٣) فى ك واكرتان .
(٤) فى ك وخمسـون .
(٥) فى ك وعشرون .

والشتم . ثم وردت عليه رسل الملوك ، كالملك المسعود صاحب آمد والملك المنصور صاحب ماردين يبذلان الطاعة ، فكتب إليهما بالخطبة له فى بلادهما .

ومما اتفق له أن امرأة عجوزا أتته وهى من دهاة الأرض تتكلم بثلاث لغات : الفارسية والتركية والأرمينية ، وكان مضمون رسالتها أن ركن الدين العجمى - وهو من ذوى الحظ. عند الملك الأشرف - استدعى من السلطان خمسة آلاف دينار يفرقها فى الأجناد بخلاط. فتجلب أهواءهم وتسلم للسلطان خلاط . فدفع السلطان لها ألف دينار وقال : إذا ثبت صدقك وعدت برسالة ثانية كملت لك المال ، وكانت الرسالة غير صحيحة ، فشاع الخبر فى العسكر حتى بلغ عز الدين أيبك فقتل ركن الدين ، ثم ظفر السلطان بالعجوز بعد فتح خلاط. واستعاد الذهب منها وقد صرفت منه ثلثماية دينار ، وأمر بقتلها فقتلت .

ذكر ملكه مدينة خلاط

قال : وملك السلطان جلال الدين خلاط. فى آواخر سنة ست وعشرين وستماية وقيل إنه حاصرها فى أوائل سنة ست وعشرين وملكها يوم الأحد لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين قال : ولما طالت مدة الحصار وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والسنانير ، أدلى الأمير إسمعيل الإيوانى بعض أصحابه ليلا من السور ، فحضر إلى السلطان وأعلمه أن اسمعيل يلتمس

من السلطان أن يعين له أقطاعا بأذربيجان ليسلم المدينة ، فأقطعه السلطان سلماس وعدة ضياع بأذربيجان ، وحلف له على تقريرها بيده . ولبس الناس لامة حربهم وأدلى إسمعيل الحبال ليلا ، فطلعت أعلام السلطان مع رجاله ، واستعد الناس للزحف . فلما أصبحوا زحفوا على الثلمة فقاتل من بخلاط من بقايا الأجناد القيمرية (١) قتالا شديدا ، ثم نظروا إلى الأبراج وإذا أكثرها قد مليت بالرجال والأعلام السلطانية فزحف عليهم من بالأبراج فولوا منهزمين ، وأسرت الأمراء القيمرية والأسد بن عبد الله وغيرهم ، وتحصن عز الدين أيبك ومجير الدين وتقى الدين ابنا الملك العادل بن أبى بكر ابن أيوب بالقلعة . وأراد السلطان أن يحمى خلاط من النهب فغلبوا على رأيه فيها ، فأباحها ثلاثة أيام ، ومات جماعة كثيرة من أهلها بالعقوبات فى طلب الأموال . ثم نزل تقى الدين وناصر الدين القيمرى وطلبا الأمان لعز الدين أيبك ، فأمنه . ونزل إليه هو ومجير الدين ثم قبض السلطان بعد ذلك على عز الدين وحبسه وترددت رسل الملك الأشرف فى الصلح فأمر السلطان بقتل عز الدين أيبك فى محبسه فقتل . قال : ولما ملك السلطان خلاط أمر بعمارة ماهدمته المجانيق منها فعمر وأقطع كورها للخانات والأمراء ، ثم وردت رسل الديوان بالشفاعة فى تقى الدين ومجير الدين ، فسلم السلطان تقى الدين خاصّة .

---

(١) الأمراء والأجناد والمماليك القيمرية نسبة إلى قيمر ، وهى قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط ، كان معظم أهلها من الأكراد

ذكر مسيره الى بلد الروم وانهزامه من عسكرى الشام والروم

قال : ولما ملك السلطان خلاط سار منها إلى منازجرد [١] ليرتب الحصار ، فوصل إليه ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب أرزن الروم نائبا ، وأعلم السلطان باتفاق ملوك الشام والروم عليه وقال : « إن الرأى أن تبادرهم قبل أن يجتمعوا » فصوب السلطان رأيه ، وعرف نصيحته ، فاتفقا على أن يقيما بخرت برت [٢] وينظرا حركة العساكر ، فأيهما تحرك أولا ساقا إليه قبل اتصاله بصاحبه .

فلما وصل السلطان إلى خرت برت مرض مرضا شديدا يئس منه من الحياة ، وتواترت كتب ركن الدين صاحب أرزن الروم يحرضه على الحركة ، ويعلمه بحركة العسكر ، والسلطان فى شغل بنفسه عن قراءتها . فحين خف عنه المرض ركب بعد اجتماعهما ؛ وكان قد أذن لبعض العساكر الأرانية والأذربيجانية والعراقية والمازندانية فى العود إلى أوطانهم ، ولم يستحضرهم وسار ، وجرد أمامه أوترخان فى ألفى فارس برسم اليزك . ثم التقى الجمعان بعد ذلك واقتتلوا قتالا شديدا ، فكانت الهزيمة على أصحاب السلطان ،

---

(١) يقال لها أيضاً منازكرد وملازجرد ومنزيكرت . وتقع بين خلاط وبلاد الروم . وتعد فى أرمينية وأهلها أرمن وروم . (أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ١٦٤) .

(٢) خرتبرت ، بالفتح ثم السكون ، إسم أرمنى لحصن معروف فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية مسيرة يومين ؛ وهو الحصن المعروف فى أخبار بنى حمدان باسم حصن زياد .

وأسر ألغ خان وأطلس ملك وعدة من المفاردة [١] ؛ فأمر صاحب الروم بضرب أعناقهم . وأسر ركن الدين صاحب أرزن الروم على ماذكرناه فى أخبار السلجقية ملوك الروم .

قال : وسار السلطان جلال الدين إلى أن وصل إلى منازجرد ، فوجد وزيره شرف الملك قد ضايقها ونصب عليها عدة من المجانيق وأشرف على فتحها ، فاستصحبه معه إلى خلاط ، فلما وافاها حمل ماأمكنه من الخزائن ، وأحرق البقية لقلة الظهر وضيق الوقت وفارقها إلى أذربيجان . فلما وصل إلى سكماناباذ ، خلف شرف الملك ومن كان معه من العراقيين هناك برسم اليزك ، وأقام بخوى . وأما أصحاب السلطان الذين كانوا بزكا ، فإن الهزيمة استمرت بهم إلى موقان [٢] . قال : ولما بلغ الملك الأشرف أن شرف الملك هو المقيم بسكماناباذ راسله فى طلب الصلح ، وقال : إن سلطانك هو سلطان الإسلام والمسلمين وسيدهم ، والحجاب دونهم ودون التتار ؛ وغير خاف علينا ماتم على حوزة الإسلام وبيضة الدين بموت والده ، ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الإسلام . وطلب منه أن يرغبه فى الألفة وضمن له من علاء الدين كيقباذ والملك الكامل أخيه ، والقيام بما يزيل عارض الوحشة ؛ فركن السلطان إلى ذلك ، وترددت الرسائل إلى أن تم الصلح .

---

(١) المفاردة ومفردها مفردى ؛ نوع من العساكر التابعين مباشرة للسلطان ؛ وقد عرف لهم فى مصر زمن المماليك ديوان المفرد .

(أنظر المقريزى : السلوك : ج ١ ص ٤٨٠) .

(٢) موقان : بالضم ثم السكون ، ولاية فى أذربيجان .

ذكر وصول مقدمة التتار الى تخوم اذربيجان ورحيل السلطان من تبريز الى موقان

قال: كان السلطان قد جرد يرغو أحد بهلوانيته[١] ليكشف بالعراق أخبار التتار فلما وصل إلى مرج شروان [٢] بين زنجان[٣] وأبهر صادق [٤] يزك التتار ، وكان معه من أصحابه أربعة عشر نفسا فلم ينج منهم غيره ، فرجع إلى تبريز بالخبر المزعج . فرحل السلطان من تبريز إلى موقان ، اذ كانت عساكره بها متفرقة فى مشاتيها ، فأعجلته الحادثة قبل أن ينظر فى أمر حرمه فيسيرها إلى قلعة حصينة من حصونه ، فخلفها بتبريز ، وسار فيمن معه من خواصه متوجها إلى موقان . حاثا فى السير ليجمع بها متفرق عساكره . فوصلها فوجد عساكره متفرقة ، منهم من أقام بها ومنهم من توجه ليشتى بشروان ، ومنهم من امتد إلى المكتور [٥] . فوجه إليهم البهلوانية بقداح كانت علامات الاستقرار والاستحضار وقد هجم التتار عليهم قبل اجتماعهم وانتقض هذا النظام .

---

(١) البهلوان : لفظ فارسى بمعنى بطل ، واستخدم اللفظ عن الأتراك بمعنى الماهر فى الرماية .

(٢) فى المتن « مرج شروبان » . والصيغة المثبتة من النسوى ، (سيرة السلطان جلال الدين ص ٢٢٠) .

(٣) زنجان بفتح أوله وسكون ثانيه ، قرب أذربيجان وقزوين .

(٤) أبهر : بفتح أوله بلد قريب من زنجان وقزوين .

(٥) وردت فى النسوى : « المتكور » .

(سيرة السلطان جلال الدين ص ٢٢١) .

ذكر كبسة التتار السلطان وهو بعد (شيركبوت)

قال : لما انفصلت البهلوانية لجمع العساكر اشتغل السلطان بالصيد وهو فى قلّ من العدد زهاء ألف فارس من خواصه ، فترك ليلة بقرب شيركبوت ، وهى قلعة مبنية على تل بموقان ، يحيط بها خندق بعيد القعر ، متصل متسع العرض ، ينبع الماء منه فيفيض فيسقى البلد . فبينما هو بتلك المنزلة كبسه التتار ليلا فانهزم وساقوا فى أثره . فلما وصل إلى نهر آرس أوهم التتار أن قطع النهر صوب كنجة وعطف إلى أذربيجان ، فأقام بماهان [1] ، وهى فضاء كثيرة الصيد فشتا [2] بها . وكان عز الدين صاحب قلعة شاهق يبعث إلى السلطان مايحتاج إليه من المأكل وغيره فى المراكب . وقد كان قبل ذلك يجاهره بالعداوة ، فرضى عنه السلطان كل الرضى ، وكان عز الدين يعلم بأخبار التتار فلما انقضى الشتاء أخبره أن التتار قد ركبوا من أوجان [3] لقصده ، وأنهم تحققوا مكانه ؛ وأشار إليه بالعود إلى أران فرحل صوبها .

---

(١) ماهان : مدينة تقع على مرحلتين قصيرتين من جنوب شرق مدينة كرمان ، (أنظر لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٥ – ٣٤٦) .

(٢) فى الأصل فشتى .

(٣) أوجان : إحدى المدن بإقليم أذربيجان .

ذكر القبض على شرف الملك وزير السلطان وقتله

قال المنشى : لما نبت الجفلة بالسلطان شرع شرف الملك فى تمهيد القواعد لنفسه ، وكاتب الملك الأشرف وغيره من الملوك ، وذكر رجوعه عن السلطان ، ونعت جلال الدين بالمخذول ، وكتب إلى نواب الأطراف فى ذلك وذكره فى كتبه إليهم بالظالم المخذول ؛ وصدر منه من الأفعال مايناسب ذلك ، فظفر السلطان بشيئ من هذه الكتب وكتمها ؛ لكنه كان يكتب إلى نواب الأطراف يحذرهم منه ومن امتثال أمره ، ويغض منه فى كتبه . وكان شرف الملك قد استقر بقلعة حيزان [1] وعمرها وصادر أصحاب السلطان ، وجاهر بالعداوة ، فلما رجع السلطان من ماهان وقارب حيزان ، راسله فى النزول إليها وتغافل عن جميع ماصدر منه ، وأوهمه أنه باق على ماعهده . ونزل شرف الملك إليه فأكرمه بما لم يكن يعامله به قبل ذلك ، فإنه أحضره فى مجلس شرابه وشرب معه ، ولم تكن هذه عادتهم مع وزرائهم ، فسر شرف الملك بذلك وظن أنه زاده تقريبا وتعظيما .

قال : وسار السلطان حتى قارب قلعة جاريبرد – وهى من مضافات أران – وعزم على أن يحبس شرف الملك بها ، فركب إليها وصعد

---

(١) حيزان : بكسر أوله وسكون ثانيه ، إحدى مدن أرمينية ، وهى قريبة من شروان . (أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٨١) . ويروى القلقشندى : أن هذه المدينة تقع وسط أرض جبلية ، وتمتاز بكثرة أشجارها ، وبخاصة شجر البندق . (أنظر صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣١٩ – ٣٢٠) .

لكشفها ، وصعد شرف الملك معه ، فأمر السلطان واليها سرا — واسمه سملان سلك بك وهو شيخ تركى ظالم شرير — أنه إذا نزل يمنع شرف الملك من النزول ويحبسه بالقلعة ويقيده . وكان يخشى منه أنه يفارقه إلى بعض الجهات فيثير فتنة ، وعزم على حبسه إلى أن تخمد فتنة التتار ، ثم يخرجه ويعيده إلى الوزارة من غير تقرير عشر البلاد ، بل يقرر باسمه في كل شهر ألف دينار أسوة بوزير الخليفة ، ولا يطلق يده فى الإطلاقات . فحبس شرف الملك بالقلعة ، ونزل إلى متولى القلعة بعد حبسه بأيام وقد جلس السلطان للمظالم ، فكثرت الشكوى فى متولى القلعة والسلطان لايجيب في أمره بشيئ تألفا له . فخاف المتولى أن السلطان يعزله ، فاتفق مع شرف الملك . وكان السلطان لما اعتقل شرف الملك ضم مماليكه الذين أمّرهم إلى أوترخان وكان كبيرهم ناصر الدين قشتمر ، فدخل يوما على أوترخان بخاتم شرف الملك وقال إن متولى القلعة سيره إليه يقول : إننى قد واطأت صاحبك على إطلاقه ، وأننا نصالح الكرج ، فمن رغب منكم فى خدمته فليأت القلعة . فلما سمع السلطان بذلك سقط فى يده وفت فى عضده . وكان ابن المتولى فى جملة بهلوانية السلطان وجماقداريته ، فبعثه إلى أبيه يقبح عليه فعله ويذكره بإحسانه إليه وأنه ليس لجنايته موجب . فرجع الغلام وأخبر السلطان عن أبيه . أنه على الطاعة إن وثق من السلطان أنه لايعزله . فقال السلطان مصداق هذا القول أنه يبعث إليه برأس شرف الملك . ووجه صحبة ابن المتولى خمسة من السلحدارية . قال : فلما دخلوا عليه وعلم مقصدهم استمهلهم ريثما يتوضأ ويصلى ركعتين . فلما فرغ من صلاته أذن لهم فى

الدخول . فقالوا له : ماذا تختار : الخنق أم السيف ؟ فاختار السيف فقالوا : إن الملوك لاتقتل بالسيف ، والخنق أهون عليك ، فقال : شأنكم وماتريدون . فخنقوه وخرجوا من عنده حتى يبرد ثم يدخلوا عليه فيقطعوا رأسه . فلما دخلوا عليه وجدوه قد أفاق وجلس ، فضربوا عنقه . هذا مانقله شهاب الدين المنشى فى سبب قتله .

وقال غيره من المؤرخين : إن سبب خلاف شرف الملك على السلطان وانضمام الناس إليه أن جلال الدين ظهر منه فى هذه السنة – وهى سنة ثمان وعشرين وستمائة – نقائص وأمور دلت على نقص عقله ، وأوجبت انحراف وزيره وعساكره عنه . فمنها أنه كان له خادم خصى يسمى قلج ، وكان جلال الدين يحبه ، فمات فأظهر عليه ن الهلع والجزع مالم يسمع بمثله ، ولانقل عن مجنون ليلى ولاغيره من جهال العرب ، الذين ضرب بهم المثل ، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا فى جنازته رجّاله . وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس كما أمرهم ، ومشى هو بعض الطريق راجلا ، فألزمه وزيره وأمراؤه بالركوب ، وأرسل إلى أهل تبريز أن يتلقوا الجنازة فتلقوها ، فأنكر عليهم لتأخرهم وكونهم ماتقدموا الموضع الذى لقوها فيه ، وكونهم لم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما أظهروا ، وقصد معاقبتهم على ذلك ، فشفع فيهم الأمراء فتركهم ولم يدفن الخادم ، وكان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكى ، وامتنع من الأكل والشرب . وكان إذا اقدم له طعام يقول : احملوا من هذا إلى قلج ، فيحملونه ويعودون فيقولون : هو يقبل الأرض ويقول : إننى الآن أصلح مماكنت ، ولايتجاسر أحد يقول : إنه مات ،

فإنه قيل له مرة إنه مات فقتل القائل . فحصل لأمرائه من الغيظ والأنفة ماحملهم على الخروج عن طاعته والانحياز عنه والانضمام إلى وزيره ؛ فكان ذلك سبب خروجه .

ذكر رحيل السلطان صوب كنجة وتملكها ثانيا

قال : كان أوباش كنجة قد قتلوا من بها من الخوارزمية وتجاهروا بالفساد ، وملك زمام أمرهم رجل يعرف ببندار وأطاعه الأوباش فبسط يده فى المصادرات ، واقتصرت أذيته على من لم يدخل معه فى العتو . فوجه السلطان إليه يدعوه إلى الطاعة ، ويحذره ويحذرهما من المخالفة ، فلم يجيبوا إلى ذلك . فسار السلطان إليها ، ونزل ببعض بساتينها ، وترددت الرسائل فى بذل الأمان والوعد بالعفو ، فلم يجيبوا إلى ذلك ، وخرجوا للحرب ، ورموا خيمة السلطان بالسهام ووصلوا إلى حائط البستان . فركب فيمن حضر من خواصه ، وأوقع بهم ، وسار حتى دخل المدينة . وأقام بكنجة سبعة عشر يوما ينتظر مايسوغه التدبير ، ثم أجمع على الاستنجاد بالملك الأشرف موسى على التتار ، وكان جماعة من الجبناء يسيّرون عليه بذلك وهو يخالفهم باطنا ويوافقهم ظاهرا . فسار إلى خلاط من طريق كيلكون ، والغارات تنقلب بلاد الكرج بطنا لظهر ، والسلطان يتابع رسله إلى الملك الأشرف يستنجد به . ولما بلغ الملك الأشرف توجه الرسل إليه يستمدونه ، توجه إلى مصر واجتمع رسل السلطان بدمشق ، والكتب ترد عليهم من الملك الأشرف بأننا واصلون من مصر لإنجاد السلطان .

مواعيد كما لاح سراب المهمه القفـــر
فمن يوم إلى يوم ومن شهـر إلى شهـــر

ثم وردت عليه كتب رسله يؤيسونه من إنجاد الملك الأشرف ، فبعث إلى الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر يستصرخه بنفسه ، ومن عنده ومن حوله من الملوك ، مثل صاحب آمد وماردين . فأجاب الملك المظفر أنه غير مستقل بالأمر وإنما هو ينوب عن إخوته . وأما صاحب آمد وماردين فلم يسمعا الرسالة .

ذكر نزول السلطان بلد آمد وكبس التتار له وماكان من أمره

قال : لما آيس السلطان جلال الدين من إنجاد الملوك أحضر أمراءه واتفقوا على أن يتركوا أثقالهم بديار بكر ، ويتجردوا (١) خفافا بمن يعز عليهم من نسائهم وأولادهم إلى أصفهان . فورد علم الدين سنجر – المعروف بقصب السكر – رسول الملك المسعود صاحب آمد رسالة تشتمل على الطاعة والخدمة ، ويزين للسلطان قصد الروم ، وأطمعه فى الاستيلاء عليها وعدَم من ينازعه ، ووعد السلطان أن يخرج بنفسه وأربعة آلاف فارس ولايفارق خدمته . وكان سبب ذلك أن صاحب الروم قدْ أوغر صدر الملك المسعود صاحب آمد ، واستولى على عدة من قلاعه . فمال السلطان إلى كلامه ، وعدل عما كان قد عزم عليه من المسير إلى أصفهان ، وعطف صوب بلد آمد ،

(١) فى ك ويتجردوا .

ونزل الجسر بقربها . قال: وشرب تلك الليلة حتى سكر ، فأتاه وهنا من الليل شخص تركمانى وقال : « إننى رأيت فى منزلتك التى كنت بها أمس عسكرا قد نزلها غير ذى عسكرك بخيل أكثرها شهب . » فكذبوه ، وقالوا : هذه حيلة . فلما كان قبيل الفجر ، أحاط التتار به وبمن معه ؛ فكانوا كما قيل :

فمساهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

قال : وأحاط التتار بخركاة (١) السلطان وهو نائم فى سكره ، وإذا بأورخان قد وصل بأصحابه ، وحمل على التتار حتى كشفهم عن الخركاة ، ودخل بعض الخواص فأخذ بيد السلطان وأخرجه من الخركاة وعليه طاقية بيضاء . فركب فرسه ولم يذكر فى ذلك الوقت إلا الملكة ابنة الأتابك سعد ؛ فجهز فى خدمتها من يسوق بها إلى حيث ترميهم الجفلة ؛ وساق وأطلاب التتار تتبعه مجدة فى السير خلفه فلما رأى ذلك ، أمر أورخان أن يفارقه بمن معه من العسكر ليتبع التتار سواده ؛ ويخلص هو بمفرده ؛ ففعل ذلك .

قال المنشى: ولقد أخطأ ، فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه خلق كثير ، ووصل إلى أربل ومعه أربعة آلاف فارس ، وساق إلى أصفهان وملكها زمنا إلى أن قصدها التتار . وأما السلطان فساق بعد فراقه لأورخان إلى أن وصل إلى باشورة آمد ؛ فرموه بالحجارة

(١) الخركاة : بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه ، وتحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للمبيت فى الشتاء لوقاية البرد . (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٨) .

ومنعوه الدخول ، فتيا سر عنها ، وانضم إليه تقدير مائه فارس ، فرمته الجفلة بهم إلى حدود جزيرة ، وبها الدربندات المنيعة ، فمنعوه من العبور ، فأشار عليه أوترخان بالعود ، وقال : إن أسلم الطُّرقِ اليوم طريق سلكه التتار ، فرجع ووصل إلى قرية من قرى ميا فارقين ونزل ببيدرها وسيب الخيل لتستوفى شبعها ، ثم ركب أوترخان وفارقه فى ذلك الوقت جبنا منه وخورا ، ووثوقا بما كان بينه وبين الملك المظفر شهاب الدين غازى من المكاتبات ، وأقام السلطان بالبيدر طول ليلته ، فلما أصبح طلع عليه طائفة من التتار فركب وعوجل أكثر من معه عن الركوب فقتل بعضهم وأسر بعضهم . (والله أعلم)

ذكر مقتل السلطان جلال الدين وانقراض الدولة الخوارزمية

كان مقتله رحمه الله فى النصف من شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة وذلك أنه لما كبسه التتار بالبيدر وركب ، أخبرهم من أسر من رفاقه أن الذى انهزم هو السلطان ، فجدوا فى طلبه وساق خلفه منهم خمسة عشر فارسا ، فلحقه منهم فارسان فقتلهما ، ويئس الباقون من الظفر به فرجعوا ، ثم صعد جلال الدين إلى جبل . وكان الأكراد يحفظون الطرق لما يتخطفونه [1] فأخذوه وسلبوه على عادتهم بمن يظفرون [2] به ، وأرادوا قتله فقال لكبيرهم سِرًّا : « إننى

(١) فى ك يتخطفوه .
(٢) فى ك نظفروا .

أنا السلطان فلا تعجل بقتلى ، ولك الخيار فى أن تحضرنى عند الملك المظفر شهاب الدين فيغنيك أو إيصالى إلى بعض بلادى فتصير مَلكاً » فرغب الرجل فى إيصاله إلى بلده ، ومشى به إلى عشيرته ، وتركه عند امرأته ومضى بنفسه إلى الخيل لإحضار مايحمله عليه . فلما توجه الكردى جاء شخص من سفلة الأكراد وأراذلها وبيده حربة ، فقال للمرأة : ماهذا الخوارزمى؟ ولم لاتقتلونه؟ » فقالت : « قد آمنه زوجى وهو السلطان » فقال الكردى : « كيف تصدقون أنه السلطان وقد قتل لى بخلاط أخ خير منه » وضربه بالحربة ضربة فمات منها . فكانت مدة ملكه منذ وفاة أبيه اثنتى عشرة [1] سنة تقريبا.

قال : وكان أسمر قصيرا ، تركى العبارة . وكان يتكلم بالفارسية ، وكان حليما عفيف اللسان لايكاد يضحك إلا تبسما ، وكان يحب العدل . قال المنشى : وكان يكتب إلى الخليفة فى مبدأ خروجه من الهند والوحشة قائمة ، حذوا على منوال أبيه خادمه المطواع منكوبرتى ابن السلطان سنجر . ولما أتته الخلع الخليفتية بالسلطنة كتب إليه « عبده » والخطاب : « سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين وإمام المسلمين ، خليفة رسول رب العالمين ، إمام المشارق والمغارب المنيف على الذروة العلياء من لؤى بن غالب » . وكان يكتب إلى علاء الدين كيقباذ وملوك مصر والشام أجمع اسمه واسم أبيه منعوتا بالسلطان ، ولايزيدهم على ذلك . وكانت علامته على تواقيعه « النصرة من الله وحده » ، وكان يكاتب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأشباهه بهذه العلامة وخوطب من الخليفة فى مبدأ طلوعه من الهند : الجناب الرفيع الخاقانى

(١) فى ك إثنى عشر .

ولم يزل يقترح عليهم أن يخاطب بالسلطان ، فلم تحصل الإجابة لذلك إذ لم تجر به عادة ، فلما كثر إلحاحه خوطب بالجناب العالى الشاهنشاهى .

وانقرضت الدولة الخوارزمية بقتل السلطان جلال الدين ، وكانت مدة قيام هذه الدولة منذ ولى خوارزم شاه محمد بن أنوشتكين خوارزم من قبل أمير داذ حبشى متولى خراسان فى شهر رجب سنة تسعين وأربعماية ، وإلى أن قتل السلطان جلال الدين هذا ، مائة سنة وثمان [١] وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وأياما . وعدة من ولى منهم سبعة وهم خوارزم شاه محمد بن أنوشتكين [٢] ، ثم ابنه اتسز بن محمد ، ثم ابنه ايل [٣] أرسلان بن اتسز ، ثم ابنه سلطان شاه محمود بن ايل [٤] أرسلان ، - ولم تطل أيامه - ، ثم أخوه علاء الدين تكش ، ثم ابنه علاء الدين محمد بن تكش ، ثم ابنه جلال الدين منكوبرتى .

(١) فى ك وثمـــان .
(٢) كان يلقب بقطب الدين .
(٣) فى ك ألب .
(٤) فى ك ألب .

ذكر أخبار الدولة الجنكزخانية وابتداء أمرها وماتفرع عنها

والدولة الجنكزخانية هى دولة التتار وقيل فيهم التاتار ، وهذه النسبة إلى جنكزخان التمرجى . [1] ونحن نذكر ملخص أخباره وابتداء ظهوره وما كان من أمره إلى أن ملك البلاد ، ونشرح من ذلك مالخصناه مما طالعناه ونورد ماتلقفناه من أفواه الرجال وسمعناه . ولما اتسعت ممالك هذه الدولة وبعدت ، وكانت بين المؤرخين الضالة التى مانشدت ، تعذر علينا أن نتحقق أحوالها ، ونجوس خلالها ونستوعب أخبارها ، ونستقصى آثارها . ولم يمكن أن نخلّ بها وقد اشتهرت ، ونطوى أخبارها وقد انتشرت ، فأوردنا من أخبار ملوكها طرفا على غير مساق ، ونبذة على غير اتساق ، مما أورده المنشى فى تاريخه الجلالى ، وعز الدين بن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل . وأما غيرهما ممن لعله أرخ لهم فلم يصل ماأرخه إلينا ، ولا ورد مادونه من أخبارهم علينا ، فنقلنا مانورده مما لم يتضمن تاريخيهما ، وما بعدهما مما نقل إلينا عن رسلهم الذين وردوا إلى أبواب ملوكنا من جهتهم ، ومن غيرهم ممن ورد من تلك البلاد على ماسنقف عليه إن شاء الله . ولنبدأ بذكر أخبار جنكزخان .

---

(١) يذكر محمد المنشى النسوى : أنه إسم لقبيلة جنكز خان ، (أنظر سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٩ ، نشر حافظ حمدى ، القاهرة ١٩٥٣) . ولكن يحتمل أن يكون هذا اللفظ محرفاً عن تمرجين أو تمورجين ، وهو الإسم الأصل لجنكز خان (أنظر الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٢٦ ، ٢٨ ، ليدن ١٩١١) .

ذكر أخبار جنكزخان التمرجى
وابتداء أمره وسبب ظهور ملكه

وجنكزخان التمرجى هو أصل هذه الدولة ، والقائم بأمرها ، والناشر لذكرها . وإليه يرجع ساير ملوكها الذين استولوا على أقاصى البلاد وأدانيها ، ورقاب العباد ونواصيها من الصين إلى الفرات وما دانا ذلك وتخلله وجاوره من الممالك والمدن والحصون والقلاع والأقطار . وقد اختلف فى نسبة جنكزخان إلى التمرجى فقال قوم إنه كان حدادا والتمرجى بلغتهم هو الحداد ، وقال قوم بل هى نسبة إلى قبيلة تعرف بالتمرجى ، وأنهم سكان البرارى ببلاد الصين وجين الصين . وتسمى هذه البلاد بلغتهم جين[1] [وماجين] [2] بين الجيم والشين . ومسيرة أقطارها ستة أشهر ، وبها جبال منيعة تحيط بها كالسور ، بها الأنهار العذبة المتسعة ، وقيل إنه يحوى ملك الصين سور واحد لاينقطع إلا عند الجبال المنيعة والأنهار الوسيعة وكان ملك الصين ينقسم قديما إلى ستة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر يتولى أمره خان ، والخان بلغتهم الملك ، يحكم ذلك الخان على القوم القاطنين بذلك السقع ، ومرجع هؤلاء الخانات الستة

---

(١) تكتب بالجيم المثلثة (ج) ، وهو الحرف الفارسى الذى ينطق تش أو مثل : Ch فى اللغة الإنجليزية .

(٢) مابين حاصرتين غير موجود فى ك وموجود فى ع وت (للوقوف على مزيد من التفصيلات عن هذه الأماكن أنظر رشيد الدين فضل الله الهمذانى ، تاريخ المغول ، المجلد الثانى — الجزء الأول ، مقدمة كاترمير ، الترجمة العربية ، ص ١١٠ وما بعدها) .

إلى خان واحد هو ملكهم الأكبر ، ومقامه بطوغاج بوسط أرض الصين ، وله مصايف ومشاتى يصيّف فى هذه ويشتى فى الأخرى .....

وأما مبدأ أمر جنكزخان وسبب ملكه فقيل إنه تزهّد مدة طويلة وانقطع بالجبال . وكان سبب زهده أنه سأل بعض اليهود فقال له : « بم أعطى موسى وعيسى ومحمد هذه المنزلة العظيمة ، وشاع لهم هذا الذكر » ، فقال له اليهودى : « لأنهم أحبُّوا الله وانقطعوا إليه فأعطاهم » ، فقال جنكزخان : « وأنا إذا أحببت الله وانقطعت إليه يعطينى ؟ » قال : « نعم ، وأزيدك أن فى كتبنا أن لكم دولة ستظهر » فترك جنكز خان ما كان فيه من عمل الحديد أو غيره وتزهد ، وفارق قومه وعشيرته ، والتحق بالجبال وكان يأكل من المباحات ، فشاع ذكره فكانت الطائفة من قبيلته تأتيه للزيارة فلا يكلمهم ، ويشير إليهم أن يصفقوا بأكفهم ، ويقولوا : يا الله ياالله يخشى در ، فيفعلون ذلك ويوقعون له وهو يرقص ، فكان هذا دأبه وطريقته مع من يقصده للزيارة ، وهو مع ذلك لايدين لديانة ولايرجع إلى ملة بل مجرد محبة الله بزعمه ، فمكث كذلك ماشاء الله أن يمكث فهذه كانت بدايته .

وأما سبب ملكه فحكى شهاب الدين محمد المنشى وغيره فى سبب ملك جنكزخان أنه كان من جملة الستة خانات الذين يحكمون على مملكة الصين خان يسمى دوشى خان . وكان الخان الكبير الذى مرجع الستة إليه فى زمن ظهور جنكز خان التمرجى ملك اسمه الطون خان (١) فاتفقت وفاة دوشى خان أحد الخانات الستة ولم يخلف

(١) فى ع التون خان ، وكذلك وردت فى النسوى .

ولدا ، وله زوجة هى عمة جنكز خان التمرجى ، فاختارت أن ترتبه مكان زوجها دوشى خان . وكان الخان الأكبر غائبا عن مدينة طوغاج[1] فلما قصدت ذلك أرسلت إلى اثنين من الخانات الستة يسمى أحدهما كشلوخان والآخر جنكزخان وهما متوليان على مايتاخم ولاية زوجها دوشى خان ، فأعلمتهما بوفاة زوجها ، وأنه لم يخلف ولدا ، وأنها تقصد ترتيب ابن أخيها مكانه . وسألتهما الإعانة والمساعدة على ذلك . فأجاباها إليه وأشارا أن تقيمه مقام زوجها ، وضمنا لها أمر التون خان الأكبر . فأقامته ولقبته جنكزخان ، وانضم إليه أقوام من عشيرته . فلما عاد التون خان إلى طوغاج حضر الخانات إلى خدمته وجاء كل منهم بما جرت به العادة من التقادم ، وعرض عليه الحجاب الأمور التى اتفقت فى غيبته ، وقدموا بين يديه التقادم إلى أن وصلوا إلى تقدمة جنكز خان التمرجى بحضور الخانين اللذين أشارا على عمته بتقدمته . فعجب التون خان من توليته فى غيبته وكونه ترشح لما لايستحقه ، فغضب من ذلك وخرج وأمر أن تقطع أذناب خيله وترد مطرودة . ففعل ذلك وشتمه الحجاب وشتموا صاحبيه كشلوخان وجنكزخان ، وبالغوا فى وعيده ووعيدهما . فلما خرجوا من بين يديه نزعوا أيديهم من الطاعة وانفردوا عن الخان الكبير التون خان ، وخالفوه وانضم إليه خلق كثير ، فكثرت جموعهم وأهم التون خان أمرهم ، فكاتبهم يعدهم تارة ويتهددهم أخرى ، على أن يرجعوا إلى الطاعة ، فأبوا إلا الخلاف . فلما أيس

(١) يكتبها النسوى طمغاج (أنظر سيرة جلال الدين ، ص ٣٩ ، نشر حافظ حمدى) .

التون خان من رجوعهم إلى الطاعة جمع جموعه وخرج فالتقوا واقتتلوا فكسروه ، وقتلوا من قبائل الترك الذين معه مقتلة عظيمة ، وهرب التون خان بنفسه إلى وراء كنك [١] وأخلى البلاد ، فتمكنوا منها وملكوها ، وضعف أمر التون خان ووهى حتى راسلهم يطلب المهادنة وقنع بالسقع الذى انتهى هربه إليه ، فأجابوه إلى ذلك .

واستمر الأمر بين الثلاثة : كشلوخان وجنكزخان الأكبر ، وجنكزخان الأصغر تمرجى ، هذا على المشاركة ، فكانوا كذلك إلى أن مات جنكزخان الأكبر ، وبقى كشلوخان ، وجنكزخان تمرجى مشتركين فى الأمر ، وامتدت أيديهما فى البلاد ، وسارا إلى بلاساغون[٢] فملكاها ومايتاخمها ويدانيها من البلاد . فاتفقت وفاة كشلوخان فقام ولده مقامه ، ولقب كشلوخان بلقب أبيه ،فلم ينصفه جنكزخان واستضعف جانبه لحداثة سنه ، ولم يعامله بما كان يعامل به أباه من الاشتراك فى الأمر والنهى والتناصف فى قسمة الممالك . فجرى بينهما مراسلات ومعاتبات أفضت إلى مفارقة كشلوخان بن كشلوخان إلى قيالق [٣] والمالق [٤] ، فصالحه صاحبها ممدوخان بن أرسلان واتفقا وتعاضدا .

واتفق أن كورخان ـ خان الخانية ملك الخطا ـ كان بينه وبين

---

(١) ذكر ياقوت أن كنك بالكسر ثم السكون إسم واد فى بلاد الهند .

(٢) ذكره النسوى بلا ساقون .

(٣) تكتب فى المصادر الفارسية فياليغ ، مدينة فى تركستان الشرقية على حدود كاشغر وختن ، وكانت فى حوزة ملوك الأتراك المسلمين المعروفين بالخانيين . (أنظر الجوينى ، تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٣١ حاشية ٤) .

(٤) إحدى مدن تركستان .

السلطان علاء الدين محمد بن تكش من الحروب ماذكرناه فى أخباره ، وكان السلطان علاء الدين لما هزم كورخان التجا إلى حدود كاشغر فقصده كشلوخان وممدوخان (١) وأرادا أنهما يجلسانه على تخت الملك لينضاف إليهما بسببه قبائل الترك ، فنهضا إليه من قيالق وكبسا عليه وهو بحدود كاشغر وأخذاه وأجلساه على سرير الملك . وكان كشلوخان يقف بين يديه عند الإذن العام موقف الحجاب ، فيشاوره فى سائر الأمور ولايعمل منها إلا بما يختاره ، فكانت واقعتهم هذه شبيهة بواقعة السلطان سنجر شاه السلجقى مع الغز لما أسروه ، قال : واستوليا على خزانته وأمواله وذخائره ، فبلغ السلطان علاء الدين محمد بن تكش ذلك ، فأرسل إلى كشلوخان يطالبه بإرساله إليه ويتهدده إن أخره عنه ، ويقول : إنه كان هادنه على أن يزوجه ابنته طوغاج خاتون ويزفها إليه بما فى خزانته من الجواهر النفيسة والأعلاق الثمينة ، على أن يتركه فى أخريات بلاده ؛ فما أجاب إلى ذلك ، ودافعه عنه بالملاطفة والممالطة .

وفى أثناء ذلك بلغ جنكزخان تمرجى أن كشلوخان استولى على كاشغر وبلاساغون وأن ملك الخطا قد وقع بين يديه ، فبعث إليه ولده دوشى خان (٢) فى زهاء عشرين ألف فارس فأوقع بهم دوشى خان ابن جنكزخان ، وغنم مامعهم وذلك فى سنة ثنتى عشرة وستمائة وكان السلطان علاء الدين قد عبر النهر لقصد كشلوخان وقتاله ، فبلغه أن دوشى خان بن جنكزخان أوقع به ، وجاءته رسالة دوشى خان

(١) مهدوخان ق ك ، أما ع ، ت ووقه ٤٩٦ فهى : ممدوخان .
(٢) يكتب أيضاً توشى خان وجوجى خان وهو الإبن الأكبر لجنكز خان .

مع من يقول له : إنه يقبل الأرض ويعتذر من عبوره إلى البلاد ، ويقول : إنه إنما عبر لطلب كشلوخان وينازله فى رسالته وقال : إن الغنائم بين يديه إن شاء أن ينعم على من باشر القتال بشئ منها ، وإلا فالأمر إليه وإلا يرسل من يتسلمها ويسوقها إلى عنده ،وذكر له أن أبا جنكزخان أوصاه بسلوك الأدب فى خدمة السلطان علاء الدين إن صادفه أو صادف بعض عساكره . فلم يصغ علاء الدين إلى كلامه وقال: إن كان جنكزخان أمرك أن تقاتلنى فالله أمرنى بقتالك . وتقدم إليه والتقيا ، فكسر دوشى خان ميسرة السلطان علاء الدين ومزقها ، وكادت تكون الهزيمة حتى عطفت الميمنة على ميسرة دوشى خان ثم حجز بينهما الليل فأجحوا نيرانا كثيرة . وركبوا وساقوا فى تلك الليلة مسيرة يومين ، وتمكن الرعب فى قلب السلطان محمد وعاد إلى سمر قند . ثم راسل جنكز خان السلطان علاء الدين خوارزم شاه وهاداه ، وطلب منه أن يفسح للتجار أن تتواصل من بلادهما واتفقا على ذلك على ماقدمناه فى أخبار خوارزم شاه .

ذكر خروج التتار الى البلاد الاسلامية

كان سبب ذلك أن جنكزخان لما راسل السلطان محمد وهاداه ، وانتظم بينهما الصلح ، وفسحا للتجار فى الوصول إلى بلاد الإسلام وبلاد الصين ، فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن وصل إلى أترار

(١) أترار مدينة على نهر سيحون ، وتعتبر مفتاح إقليم ما وراء النهر .

ـ وهى من ممالك السلطان علاء الدين محمد ـ عدة من تجار جنكزخان . وكان بها ينال خان ينوب عن السلطان ، فقتلهم وأخذ أموالهم . فاتصل ذلك بجنكز خان ، فراسل السلطان يلومه على ذلك ، ويقول : إنك كتبت خطك وأمانك للتجار ، وقد غدرت ونكثت ، فإن زعمت أن الذى ارتكبه ينال خان كان عن غير أمرك فسلمه إلى لأجازيه على فعله ، وإلا فأذن بالحرب . فقتل رسله كما قدمنا ذلك فى أخبار خوارزم شاه ، فعند ذلك تجهز جنكز خان لقصد البلاد الإسلامية . وكان من سوء تدبير علاء الدين خوارزم شاه وتفرقة عساكره فى كل مدينة من مدن ماوراء النهر ماذكرناه ، فتجهز جنكزخان بجموع التتار ، ولما شارف البلاد الإسلامية تياسر صوب أترار واستولى عليها بعد قتال شديد ، وأحضر ينال خان بين يديه وأمر بسبك الفضة وقلبها فى أذنيه وعينيه ، فمات .

ذكر استيلاء جنكزخان على بخارا

قال : ولما استولى جنكز خان على أترار وقتل النائب بها ، ورتب الحيلة التى أوقع بها بين السلطان علاء الدين خوارزم شاه وبين أمه وأخواله على ماقدمناه فى أخبار الدولة الخوارزمية ، تقدم إلى بخارا ، وقصد بذلك أن يقطع بين السلطان وبين عساكره المتفرقة ، حتى أنه لو أراد جمعهم لعجز عن ذلك فلما انتهى إليها حاصرها ، وقدم بين يديه رجال أترار ، وداوم الحصار والقتال ليلا ونهارا وكان بها

الأمير اختيار الدين كشلى أمير آخور[1] وأغلى حاجب الملقب بإينانج خان فى ثلاثين ألف فارس ، فلما رأوا أنها قد أشرفت على الأخذ تخاذلوا ، وأجمعوا على الهزيمة ، فخرجوا وحملوا على التتار حملة رجل واحد ، فأفرجوا لهم وانهزموا أمامهم حتى كادت الهزيمة تكون على جنكز خان ، وظن أنهم يعودون للقتال . فلما علم جنكزخان أن مقصدهم الهرب أرسل فى آثارهم من أكابر التتار من يتبعهم ويتخطفهم إلى أن وصلوا إلى حافة نهر جيحون ، فلم ينج منهم إلا إينانج خان فى شرذمة يسيرة ، وشمل القتل معظم ذلك الجيش وغنم التتار مامعهم .

قال : ولما فارق العسكر الخوارزمى بخارا طلب أهلها الأمان فآمنهم وكان قد بقى من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة ، وفتحت أبواب المدينة بالأمان ،وذلك فى يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة سنة ست عشرة وستمائة . فدخل التتار بخارا ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم : أخرجوا إلينا جميع ماهو متعلق بالسلطان من الذخائر وغيرها ، وساعدونا على قتال من بالقلعة ، وأظهروا لهم العدل وحسن السيرة . ودخل جنكز خان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى فى البلدان أن لايتخلف أحد ومن تخلف قتل. فحضروا بأجمعهم وأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك ، حتى كان التتار يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها فى الخندق .

---

(١) أمير آخور : مركب من لفظين الأول عربى وهو أمير والثانى فارسى وهو آخور ، ومعناه (المعلف) فيكون المعنى هو أمير المعلف إذ أنه يشرف على الإصطبلات وما فيها من الخيل والبغال والجمال ، ويكون فى الغالب مقدم ألف رجل .

ثم تابعوا الزحف على القلعة وبها أربعماية فارس من المسلمين ،فبذلوا جهدهم ومانعوا اثنى (١) عشر يوما يقاتلون جميع الكفار وأهل البلد ، فما زالوا كذلك إلى أن وصل النقابون إلى القلعة . واشتد الأمر ورمى المسلمون بجميع ماعندهم من حجارة وسهام ونار ثم قاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وملك جنكزخان القلعة ، فلما فرغ من أمر القلعة أمر بجمع رؤساء البلد، فجمعوا وعرضوا عليه فقال لهم: «أريد منكم النقرة التى باعكم خوارزم شاه فإنها لى وأخذت من أصحابى» فأحضر كل من كان عنده شئ منها ماعنده ، ثم أمرهم بالخروج من البلد مجردين فخرجوا ليس مع أحد منهم غير ثيابه التى عليه. ونهب التتار البلد وقتلوا من تخلف فيه . وأحاطوا بالمسلمين فأمر أصحابه أن يقتسموهم ففعلوا ذلك وأصبحت بخارى خاوية ؛ على عروشها ،وارتكب التتار من الفساد العظيم والناس ينظرون إليهم ولايستطيعون ردهم . فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت وقاتل حتى قتل ، ومنهم من استسلم وأسر . وألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب فى طلب الأموال ثم ساروا إلى سمرقند .

ذكر استيلائه على سمرقند

قال : ولما فرغ جنكز خان من أمر بخارا سار إلى سمرقند وقد تحقق عجز السلطان علاء الدين عن قتاله ، وهو بمكانه بين ترمذ

(١) فى ك إثنا .

وبلغ ، وأمر جنكز خان أن يتوجه من سلم من أهل بخارا فخرجوا مشاة على أقبح حال ، فمن أعياه التعب وعجز عن المشى قتل . فلما قاربوا سمرقند ، ورموا الخيالة ، وتركوا الأثقال والأسارى والرجالة وراهم ، وتقدموا شيئا فشيئا ليكون ذلك أرعب لقلوب المسلمين ، فاستعظم أهل البلد سوادهم فلما كان فى اليوم الثانى وصلت الأسارى والرجال والأثقال ومع كل عشرة من الأسارى علم ، فظنه أهل البلد أن الجميع مقاتلة وأحاطوا بالبلد ، وكان [طغانخان] (١) خال السلطان وأمراء الغور فى أربعين ألف فارس وقيل فى خمسين ألف فارس ، وعامة البلد لايحصون كثرة ، فخرج إليهم شجعان أهله وأهل الجلاد رجال ، ولم يخرج معهم أحد من العسكر الخوارزمى لما فى قلوبهم من الجزع فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتار يتأخرون وأهل البلد يتتبعونهم ويطمعون ، فيهم ، حتى بعدوا عن البلد ، وكان التتار قد كمنوا كمينا ، فلما جاوزه المسلمون خرج الكمين من ورائهم وحال بينهم وبين البلد وعطف عليهم التتار فصاروا فى وسط القوم وآخرهم السيف ، قتلوا عن آخرهم ، وكانوا سبعين ألفا . فضعفت نفوس الجند ومن بقى من العامة وأيقنوا بالهلاك ؛ فقال الجند ـ وكانوا أتراكا ـ نحن من جنس هؤلاء ولايقتلوننا(٢) ، فطلبوا الأمان فأجابوهم له ، ففتحوا أبواب البلد وخرج الجند إليهم بأهاليهم وأموالهم فقال لهم التتار : « إدفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم » . ففعلوا ذلك ثم وضعوا فيهم السيف

(١) ما بين حاصرتين هو الهجاء الصحيح لهذا الإسم (أنظر النسوى ، ص ٩٠) .
(١) فى ك يقتلونا .

وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا نساءهم فلما كان فى اليوم الرابع نودى فى البلد أن يخرج أهله بأجمعهم ومن تأخر قتل ، فخرج جميع من به من الرجال والنساء والصبيان ، ففعلوا مع أهل سمرقند كفعلهم مع أهل بخارا من النهب والقتل والسبى والفساد ، ونهبوا مافى البلد ، ثم أحرقوا الجامع وتركوا البلد على حاله ، وذلك فى المحرم سنة سبع عشرة وستمائة . هذا وخوارزم شاه مقيم بمنزلته كلما اجتمع إليه عسكر سيره إلى سمرقند فيرجعون ولا يقدمون عليهم. نعوذ بالله من الخذلان .

قال : ولما ملك جنكزخان بخارى وسمرقند فرق عساكره للاستيلاء على الممالك ، فجهز طائفة خلف خوارزم شاه وهى المغربة ، وطائفة إلى خراسان وطائفة إلى خوارزم وطائفة إلى بلاد فرغانة وطائفة إلى ترمذ وطائفة إلى كلاية ، فاستولت كل طائفة على ما توجهت إليه وفعلت من القتل والنهب والأسر والسبى والتخريب وأنواع الفساد مافعله أصحابهم . فأول طائفة جهزها من أصحابه الطائفة المغربة وفعلت ماأذكره .

ذكر مافعلته الطائفة المغربة من التتار

قال ابن الاثير : لما ملك جنكز خان سمرقند جهز خمسة وعشرين ألف فارس من أصحابه فى طلب خوارزم شاه حيث كان . وهذه الطائفة تسميها التتار المغربة لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم لأنهم الذين أوغلوا فى البلاد وكان المقدم

على هذه الطائفة سبطى بهادر [١] ويمنويه [٢] فساروا وقصدوا موضعا يسمى فنج اب ومعناه خمس مياه ، فلم يجدوا سفينة ، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر ووضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم . وألقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها وشدوا تلك الحياض إليهم ، فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض ، فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه فى أرض واحدة . وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعبا وخوفا وحصل بينهم اختلاف ، فكان ثباتهم بسبب أن نهر جيحون فاصل بينهم وبين التتار . فلما عبروه كان من أمر السلطان علاء الدين وانهزامه ووفاته ماقدمناه فى أخباره .

ذكر استيلائهم على مازندران ووصولهم الى الرى وهمذان

قال ابن الأثير : لما أيس التتار المغربة من إدراك خوارزم شاه قصدوا بلاد مازندران فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها ، فقتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد وألحقوها بغيرها ثم سلكوا نحو الرى ، ووصلوا إليه فى سنة سبع عشر وستماية أيضا . وكان مسيرهم إلى الرى فى طلب خوارزم شاه ، لأنهم بلغهم أنه توجه نحو الرى ، فجدوا السير فى أثره وانضاف

(١) ، (٢) الهجاء الصحيح لإسمى هذين القائدين هو سبتاى بهادر ، يمه نوين ، (أنظر الجوينى ، تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ در تاريخ خوارزمشاهيان ، ص ١١١ ، لندن ١٩١٦) .

إليهم كثير من العساكر المسلمين والكفار والمفسدين ، فوصلوا الرى على حين غفلة من أهلها فملكوها ، ونهبوا وسبوا الحريم ، وأسرفوا فى القتل ومضوا مسرعين فى طلب خوارزم شاه ، ونهبوا فى طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها ، ووضعوا السيف فى الرجال والنساء والأطفال ، ولم يبقوا على شيئ . وانتهوا إلى همذان ، فلما قاربوها خرج رئيسها إليهم ومعه الجُمل من الأموال والأقمشه والخيل وغير ذلك ، وطلب الأمان لأهل البلد ، فأمنوهم ثم فارقوها . وساروا إلى زنجان ففعلوا أضعاف مافعلوه بالرى ، ووصلوا إلى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا فى قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف واقتتلوا هم وأهل البلد فى باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين وقتل من الفريقين مالا يحصى ، فزادت القتلى من أهل قزوين على أربعين ألف قتيل ثم فارقوا قزوين .

ذكر مسيرهم الى أذربيجان وقتالهم مع الكرج

قال : لما هجم الشتاء على التتار بهمذان وبلد الجبل وترادفت الثلوج ساروا إلى أذربيجان ، وعاثوا فى طريقهم ونهبوا وخربوا مامروا عليه من المدن الصغار والقرى على عادتهم ، ووصلوا إلى تبريز وبها أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان ، فلم يخرج إليهم ولاقاتلهم لاشتغاله باللهو والشرب ، وصالحهم على مال وثياب ودواب ، وحمل ذلك إليهم ، فتوجهوا من عنده يريدون ساحل البحر لقلة رده وكثرة مراعيه . فوصلوا إلى موقان [1] وتطرقوا فى مسيرهم إلى بلاد الكرج

(١) موقان ، بالضم ثم السكون ، ولاية بأذربيجان .

فجاء إليهم من الكرج نحو عشرة آلاف ، فالتقوا واقتتلوا فانهزمت الكرج ، وقتل أكثرهم وأرسل الكرج إلى أزبك صاحب أذربيجان يطلبون منه الصلح ، والاتفاق على دفع التتار ،فاتفقا على أنه إذا انحسر الشتا لقوهم . وراسلوا الملك الأشرف بن العادل صاحب خلاط. وديار الجزيرة فى ذلك ، وظنوا جميعهم أن التتار لايتحركون إلى انقضاء فصل الشتاء ، فما صبروا (التتار) وتحركوا وتوجهوا نحو بلاد الكرج ، وانضاف إليهم (إلى التتار) مملوك تركى من مماليك أزبك اسمه أقوش ، وجمع أهل بلد الجبل والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم ، فاجتمع إليه جماعة منهم ، فمال التتار إليه للجنسية فسار فى مقدمتهم إلى الكرج فملكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وقتلوا ووصلوا إلى قرب تفليس ، فاجتمعت الكرج ، فلقيهم أقوش بمن معه فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم أدركهم التتار فلم يثبت الكرج وانهزموا أقبح هزيمة ، وأخذهم السيف من كل جانب وقتل منهم مالايحصى كثرة – وذلك فى ذى القعدة – ونهبوا من البلاد ماكان قد سلم منهم .

ذكر ملكهم مدينة مراغة

قال : ولما فعلوا بالكرج مافعلوه ، ودخلت سنة ثمان عشر وستمائة ساروا من بلاد الكرج ومروا على تبريز ، فصانعهم صاحبها أيضا بمال وثياب ودواب ، فساروا عنه إلى مدينة مراغة فحصروها ، وليس بها من يمنعها لأن صاحبتها كانت امرأة وكانت مقيمة بقلعة رويندز[1] ، فقاتلهم أهلها ، فنصبوا عليها المجانيق واستعانوا بأسرى المسلمين.

(١) رويندز : قلعة حصينة من أعمال أذربيجان قرب تبريز.

وكانت عادتهم (التتار) إذا فتحوا مدينة استعانوا بأسراها على فتح غيرها ، ويجعلون الأسرى أمامهم عند القتال ، فيقع القتل فيهم . فإذا فتحوا البلد قتلوهم بعد ذلك وتعوضوهم بمن أسروه من البلد الآخر . فأقاموا عليها عدة أيام وملكوها عنوة ، وذلك فى رابع صفر من السنة ، ووضعوا السيف فى أهلها ، ونهبوا ما صاح لهم وحرقوا ماسواه . قال : واختفى بعض الناس منهم ، فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم نادوا فى الدروب أن التتار قد رحلوا فينادون فيسمعهم من اختفى فيظهر فيقتلونه .

قال ابن الأثير : ولقد بلغنى أن امرأة من التتار دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها ، وهم يظنون أنها من الرجال ، فلما وضعت السلاح ، رأوها امرأة ، فقتلها رجل كانت أخذته أسيرا . قال : وسمعت من بعض أهلها أن رجلا من التتار دخل درباً فيه مايزيد على مائة رجل فقتلهم واحدا واحدا ، حتى أفناهم ولم يمد أحد يده إليه . وقعت الذلة على الناس ، نعوذ بالله من الخذلان .

قال : ثم رحلوا نحو مدينة أربل ، فكتب مظفر الدين صاحبها إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر ، فسير إليه جماعة ، وكتب الخليفة إلى صاحبى الموصل وأربل يأمرهما بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا [1] لمنع التتار ، لما بلغه أنهم عدلوا عن إربل لصعوبتها وقصدوا العراق . فسار مظفر الدين ومن معه من العسكر الموصلى فى صفر . وكتب الخليفة إلى الملك الأشرف

(١) دقوقاء ؛ بفتح أوله وضم ثانيه ، مدينة بين أربل وبغداد .

بأمره بالحضور بنفسه فى عساكره لتجمع العساكر ويقصدون التتار فمنعه من ذلك مسيره إلى الديار المصرية لنصرة الملك العادل بن أيوب على الفرنج ، واستعادة دمياط من أيديهم. فلما اجتمع مظفرالدين هو والعسكر الموصلى بدقوقا ، سير إليهم الخليفة مملوكه قشتمر (١) – وهو أكبر أمير بالعراق – ومعه عشرة من الأمراء فى نحو ثمان مائة فارس ، فاجتمعوا ليتصل بهم عساكر الخليفة ، والمقدم عليهم مظفر الدين صاحب إربل ، فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على التتار . ولما سمع التتار باجتماع العسكر رجعوا القهقرى ، ظنا منهم أن العسكر يتبعهم ، فلما لم يتبعهم أقاموا وأقام العسكر بدقوقا ، ثم تفرق المسلمون وعادوا إلى بلادهم .

ذكر ملكهم همذان وقتل أهلها

قال: لما تفرق العسكر الإسلامى عاد التتار إلى همذان ، فنزلوا بالقرب منها ، وكان لهم شحنة يحكم فيها ، فأرسلوا إليه أن يطلب لهم من أهلها مالا وثيابا وكان رئيس همذان من الأشراف ذا رئاسة قديمة بها وهو الذى سعى فى أمر أهل البلد مع التتار ، وتوصل إليهم بما جمع من الأموال فما طلب المال ثانيا من أهل همذان لم يجدوا مايحملونه لهم ، فاجتمعوا إلى الشريف ومعهم انسان فقيه قام فى اجتماع الكلمة على التتار ، فشكوا إلى الشريف حالهم ، وما نالهم من الهوان ، وطلب مالايقدرون عليه . فقال : إذا كنا نعجز

(١) هو جمال الدين قشتمر من الأمراء المعروفين فى عهد الخليفة المستنصر العباسى . .

عن دفعهم فليس إلا مصانعتهم بالأموال ، فثاروا عليه ، وأغلظوا له فى القول ، فوافقهم على مرادهم . فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتار فوثب العامة على الشحنة فقتلوه ، وامتنعوا . فتقدم إليهم التتار وحصروهم ، فقاتلهم أهل البلد قتالا شديداً ، والرئيس والفقيه فى أوائلهم ، فقتل من التتار خلق كثير ، وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا . ثم اقتتلوا من الغد أشد مما مضى بالأمس . وأرادوا الخروج فى اليوم الثالث ، فلم يطق الفقيه الركوب ولم يوجد الرئيس ، وهرب من سرب كان قد صنعه إلى ظاهر البلد هو وأهله ، واستعصم بقلعة هناك على جبل عال . فحار الناس ثم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا ، وكان التتار قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم ، فلما تقاصر أهل البلد عن الخروج إليهم طمعوا واستدلوا على ضعفهم ، فقصدوهم وقاتلوهم ، ودخلوا المدينة بالسيف ، وذلك فى شهر رجب سنة ثمان عشرة . وقاتلهم الناس فى الدروب بالسكاكين فقتل من الفريقين مالايحصى ، ثم قوى التتار على المسلمين فأفنوهم وما سلم منهم إلا من كان عمل له نفقا فى الأرض ، واختفى فيه ، ثم أحرقوا البلد ورحلوا عنه .

ذكر مسيرهم الى أذربيجان وملكهم اردويل (١) وغيرها

قال : لما فرغوا من همذان ساروا إلى أزربيجان فوصلوا إلى أردويل فملكوها ، وقتلوا وخربوا أكثرها وساروا إلى تبريز ، ففارقها صاحبها أزبك بن البهلوان وتوجه إلى نقجوان وكان كثير التخلف والشرب واللهو ، فقام بأمر تبريز شمس الدين الطغرائى ، وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع ، وحذرهم عاقبة التخاذل والتوانى ، وحصن البلد . فبلغ التتار ذلك فراسلوه يطلبون منه مالا وثيابا فاستقر الأمر بينهم على قدر معلوم فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سراو(٢) فنهبوها وقتلوا جميع من فيها . ورحلوا عنها إلى بيلقان من بلاد أران (٣) فنهبوا كل مامروا به من البلاد والقرى وقتلوا من ظفروا به وحصروا بيلقان (٤) ، فاستدعى أهلها منهم رسولا ليقرر الصلح فأرسلوا إليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم ، فقتلوه ، فزحف

---

(١) أردويل أو أردبيل : إحدى مدن أذربيجان ، بينها وبين تبريز سبعة أيام ، (أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٨٣) . ويذكر القلقشندى أنها كثيرة الخصب وعلى فرسخين منها جبل عظيم الارتفاع ، وأهلها غليظو الطبع شرسو الأخلاق ، (أنظر صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٥٦) .

(٢) سراو : بفتح أوله وآخره ، مدينة بأذربيجان بين أردبيل وتبريز .

(٣) أران : بالفتح والتشديد ، إسم ولاية واسعة من صقاع أرمينية ، ذكر ياقوت : أن أهم مدنها جنزة التى تسميها العامة كنجة .

(٤) بيلقان : بالفتح ثم السكون مدينة قرب الدربند الذى يقال له باب الأبواب ، تعد فى أرمينية الكبرى ، قرب شروان .

التتار إليهم وقاتلوهم وملكوا البلد عنوة ، وذلك فى شهر رمضان من السنة ، ووضعوا السيف فلم يبقوا على أحد من الرجال والنساء والأطفال حتى شقوا بطون النسوان الحوامل وقتلوا الأجنة . وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها . ثم ساروا إلى مدينة كنجة - وهى أم بلاد أران - فعلموا بكثرة من فيها وشجاعتهم لدربتهم بقتال الكرج ، فلم يقدموا عليهم لذلك ولحصانة البلد . فراسلوا أهلها فى طلب المال والثياب ، فحمل إليهم ماطلبوا وساروا عنها ..

ذكر وصولهم الى بلاد الكرج

قال : لما فرغوا من البلاد الإسلامية أذربيجان وأران بعضها بالملك وبعضها بالصلح ، ساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضا : وكان الكرج قد استعدوا لهم ، وسيروا جيشا كثيفا إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتار عنها ، فالتقوا ، فلم يثبت الكرج وولوا منهزمين فأخذتهم سيوف التتار ، فلم يسلم منهم إلا الشديد . فكانت القتلى منهم نحو ثلاثين ألفا ، ونهبوا ماوصلوا إليه من بلادهم وخربوها ، كعادتهم . ووصل من سلم من الكرج إلى مدينة تفليس - وبها ملكهم - فجمع جموعا أخرى ، وسيرهم ليمنعوا التتار من توسط بلادهم فرأوهم قد دخلوا البلاد ولم يمنعهم وعر ولا مضيق ، فعادوا إلى تفليس ونهب التتار مامروا عليه من بلادهم ، ورأوا البلاد كثيرة المضايق والدربندات فما أوغلوا فيها ، وداخل الكرج منهم خوف عظيم

قال ابن الأثير : سمعت عن بعض أكابر الكرج أنه قال : من

حدثكم أن التتار انهزموا وأسروا فلا تصدقوه ، وإذا حُدثتم أنهم قتلوا فصدقوا ، فإنهم قوم لايفرون أبدا ، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه عن الدابة وضرب رأسه بالحجر حتى مات ، ولم يسلم نفسه للأسر ...

ذكر وصولهم الى دربند شروان (١) ومافعلوه فيه

قال : لما عادوا من بلاد الكرج قصدوا در بند شروان فحصروا مدينة شماخى (٢) وقاتلوا أهلها ، فصبروا على الحصار وقاتلوا أشد قتال ، وعلموا أن الموت لابد منه ، فقالوا نموت كراما وصبروا إلى أن كلوا وتعبوا . وتوالى الزحف ، فملك التتار البلد ، وأكثروا القتل ونهبوا الأموال . ثم أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك ، فأرسلوا رسولا إلى شروان ملك الدربند ، وطلبوا منه أن يرسل إليهم رسولا يسعى بينهم فى الصلح ، فأرسل عشرة من أعيان أصحابه ، فقتلوا أحدهم وقالوا لمن بقى : دلونا على طريق نعبر فيه ولكم الأمان ، وإلا قتلناكم . فقالوا : ليس فيه طريق البتة ، وإنما فيه موضع هو أسهل مافيه ، فساروا بهم إلى ذلك الطريق فعبروا فيه .

---

(١) شروان : مدينة من نواحى باب الأبواب ، ويطلق الفرس على باب الأبواب إسم الدربند . وقال ياقوت إن باب الأبواب هو الدربند ، دربند شروان ؛ وهى مدينة على بحر ممتد من الجبل ، ولا مسلك على جبلها إلى بلاد المسلمين .

(٢) شماخى : بفتح أوله ، مدينة عامرة وصفها ياقوت بأنها قصبة بلاد شروان فى طرف أران .

ذكر مافعلوه باللان وقفجاق

قال : لما عبر التتار دربند شروان ، ساروا فى تلك البلاد والأعمال - وفيها أمم كبيرة من اللان واللكز وطوائف من الترك - فنهبوا وقتلوا كثيرا من اللكز - وهم مسلمون وكفار - ووصلوا إلى اللان وهى أمم كثيرة ، فبلغهم الخبر فجدوا وجمعوا جمعا من قفجاق . فقاتلوهم فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى . فأرسل التتار إلى قفجاق فقالوا : نحن وأنتم جنس واحد واللان ليسوا منكم ، ولا دينكم كدينهم حتى تنصروهم ، ونحن نعاهدكم أننا لانتعرض إليكم ، ونحمل لكم من الأموال والثياب ماشئتم ، وتتركوننا وإياهم . فاستقر الأمر بينهم على ماحملوه لهم من مال وثياب وغير ذلك ففارقهم قفجاق فأوقع التتار عند ذلك باللان ، فقتلوا منهم وسبوا وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون . لما استقر بينهم من الصلح فطرقوا بلادهم وأوقعوا بهم الأول فالأول . وأخذوا منهم أضعاف ماحملوه إليهم . وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ، ففروا من غير قتال ، واعتصم بعضهم بالغياض وبعضهم بالجبال ولحق بعضهم ببلاد الروس . وأقام التتار ببلاد قفجاق ، وهى أرض كثيرة المرعى صيفا وشتاء وفيها أماكن باردة فى الصيف وأماكن حارة فى الشتاء ، وغياض ، وهى على ساحل البحر ، ووصلوا إلى مدينة سوداق - وهى مدينة قفجاق - فملكوها ، وفارقها أهلها ، فبعضهم صعد إلى الجبال بأهله وماله . وبعضهم ركب فى البحر وساروا إلى بلاد الروم التى بيد الملوك السلجقية . . .

ذكر مافعلوه بقفجاق والروس

قال : لما استولى التتار على قفجاق وتفرقوا ، والتحقت طائفة كثيرة منهم ببلاد الروس – وهى بلاد كبيرة طويلة عريضة تجاور القفجاق وأهلها يدينون بدين النصرانية – فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم ، واتفقوا على قتال التتار إن قصدوهم . فسار التتار إلى بلاد الروس فى سنة عشرين وستمائة ،فسار قفجاق والروس إلى طريق التتار ليلقوهم قبل وصولهم إلى بلادهم ويمنعوهم عنها ؛ فبلغ التتار مسيرهم ، فرجعوا على أعقابهم . فطمعت القفجاق والروس فيهم ، وظنوا أنهم عادوا خوفا منهم ،وعجزوا عن قتالهم ؛ فأتبعوهم وساقوا فى إثرهم اثنى عشر يوما ، فعطف التتار عليهم وهم على غرة ؛ لأنهم كانوا قد آمنوا ووثقوا بالقدرة عليهم : فلم يجتمعوا للقتال إلا وقد بلغ التتار منهم مبلغا عظيما .

فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله . ودام القتال عدة أيام ؛ فاستظهر التتار عليهم ، فانهزمت قفجاق والروس هزيمة فاضحة . وكثر القتل فى المنهزمين ، فلم يسلم منهم إلا القليل . ووصل من سلم منهم على أقبح حال ،والتتار تتبعهم يقتلون وينهبون ويخربون فاجتمع كثير من أغنياء تجار الروس وأعيانهم ، وحملوا مايعز عليهم ، وتوجهوا فى البحر فى عدة مراكب إلى بلاد الإسلام ، فلما قاربوا المرسى الذى يقصدونه انكسر منهم مركب فغرق ونجا من فيه وسلم باقى المراكب [وأخبر من بها بهذه الحال] (١)

(١) التكملة بين الحاصرتين من ابن الأثير ؛ الكامل حوادث سنة ٦١٧ هـ .

ذكر عود التتار الى ملكهم

قال : ولما فعل التتار بالروس ماذكرناه عادوا عنها وقصدوا بلغار فى أواخر سنة عشرين وستمائة[١] . فلما سمع بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدة مواضع ، وخرجوا إليهم فلقوهم واستجروهم إلى أن جاوزوا مواضع الكمناء ، فخرجوا من وراء ظهورهم . وبقى التتار فى وسطهم ، وأخذهم السيف من كل ناحية ، فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل نحو أربعة آلاف رجل ، فساروا إلى سقسين وعادوا إلى ملكهم جنكز خان . وكانت الطرق منقطعة تتخللهم فى البلاد . فلما خلت البلاد منهم اتصلت الطرق وحمل التجار الأمتعة على عادتهم .

هذا مافعله التتار المغربة منذ مفارقتهم جنكزخان وإلى أن عادوا إليه فى مدة أربع سنين فلنذكر أخبار غير هذه الطائفة من سيرهم جنكزخان .

قال : ولما جهز جنكزخان هذه الطائفة المغربة جهز طائفة إلى بلاد فرغانة وطائفة إلى ترمز وطائفة إلى كلانة [٢] وهى قلعة حصينة

---

(١) الواقع أن جنكز خان توفى سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ .) ، وظل المغول الذين يعملون فى أوربا حتى وفاته يتوسعون فى روسيا ، ولم يكن ذلك إلا بعد سنة ١٢٤٠ (٦٣٨ هـ .) — أى فى عهد أقطاى الذى خلف أباه جنكز خان فى زعامة إمبراطورية المغول — عندما أخذ فرع من المغول يعمل ضد البولنديين والهنغاريين، وقسم آخر منهم يعمل ضد الصرب والبلغار ، (أنظر : (Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 637-638).

(٢) كلانة : قلعة وصفها ابن الأثير بأنها قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وأمنع الحصون .

إلى جانب جيحون . فسارت كل طائفة إلى الجهة التى أمرت بقصدها ونازلتها . واستولت عليها ، وفعلت من القتل والنهب والأسر والسبى والتخريب وأنواع الفساد كما فعل أصحابهم . فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان ، وهو مقيم بسمرقند ، فجهز جيشا إلى خوارزم مع أحد أولاده وجهز جيشا آخر فعبروا نهر جيحون إلى خراسان .

ذكر ملك التتار خراسان

قال أبو الحسن بن الأثير : لما سار الجيش الذى جهزه جنكزخان إلى خراسان عبروا جيحون ، وقصدوا مدينة بلخ . وطلب أهلها الأمان فأمنوهم ، فسلم البلد ولم يتعرضوا إليه بنهب ولاقتل ، بل جعلوا فيه شحنة . وقصدوا الزوزان[1] وميمند واندى خوى [2] وفارياب [3] فملكوا الجميع ، وجعلوا فيه ولاة ، ولم يتعرضوا إلى أهلها بسوء ، سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ، وذلك فى سنة سبع عشرة وستماية . ثم قصدوا الطالقان ، وهى ولاية تشتمل على عدة بلاد ، وفيها قلعة حصينة يقال لها (منصور كوه) لاترام علوا وارتفاعا وبها رجال شجعان يقاتلون فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ، ولم يظفروا

(١) زوزان : بفتح أوله وثانيه ، قال عنها ياقوت أنها كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل ، وأهلها أرمن وفيها طوائف من الأكراد .

(٢) كتبها ياقوت أندخوذ ، وقال إنها إحدى مدن خراسان بين بلخ ومرو .

(٣) فارياب : بكسر الراء ، مدينة مشهورة بخراسان قرب بلخ غربى جيحون .

منها بشيء فكاتبوا جنكز خان ، وأعلموه بالعجز عنها لحصانتها وكثرة من بها من المقاتلة . فسار بنفسه وبجموعه ، وحصرها ومعه خلق كثير من الأسرى والمسلمين ، فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم . فقاتلوا ، وأقام عليها أربعة أشهر أخرى ، فقتل من التتار خلق كثير . فلما رأى جنكزخان ذلك أمر أن يجمع له الأحطاب والأخشاب فجمعت ، وصار يعمل صفا من خشب وحطب وفوقه من التراب ما يغطيه ، حتى صار تلا عاليا يوازى القلعة ، فعند ذلك اجتمع من بالقلعة وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا الجبال والشعاب ، وقتل الرجالة ، ودخل التتار القلعة وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأمتعة .

قال : ثم جمع جنكزخان أهل البلاد الذين أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها ، وسيرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو ، فوصلوا إليها وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين مايزيد على مائتى ألف رجل . وهم معسكرون بظاهر مرو ، وقد عزموا على لقاء التتار ؛ فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا . ولما رأى المسلمون إقدام التتار وصبرهم ، ولوا منهزمين ، فقتل منهم وأسر خلق كثير ، ولم يسلم منهم إلا القليل ، ونهبت أموالهم . وأرسل ابن جنكز خان إلى ماحوله من البلاد ، وأمرهم بجمع الرجال لحصار مرو ، فاجتمعوا وتقدموا للحصار ولازموا القتال . هذا وأهل البلد قد ضعفت نفوسهم بانهزام تلك الطائفة الكبيرة . فلما كان فى اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتار إلى أمير البلد يقولون له : « لاتهلك نفسك ومن معك ، واخرج إلينا ولك الأمان ، ونحن نجعلك أمير

هذه البلد ونرحل عنك ! » . فطلب الأمان لنفسه وأهل البلد فأمنوهم ؛ فخرج إليهم فخلع عليه ابن جنكز خان واحترمه وقال له : « اعرض عليّ أصحابك حتى أستخدم منهم من يصلح لخدمتنا وأعطيه إقطاعا ويكون معى » فجمعهم له ، فلما تمكن منهم أمر بالقبض عليهم وعلى أميرهم ثم قال : « اكتبوا لنا تجار البلد ورؤساء أرباب الأموال فى جريدة واكتبوا أرباب الصناعات والحرف فى أخرى واعرضوا ذلك علينا » . ففعلوا ، فأمر أن يخرج أهل البلد منه بأهليهم وأموالهم فخرجوا بأجمعهم ، فجلس على كرسى من الذهب ، وأحضر أولئك الجند الذين قبض عليهم ، وأمر بضرب أعناقهم فقتلوا صبرا ، والناس ينظرون إليهم ويبكون عليهم . وأما العامة فتقاسمهم التتار فكان يوما مشهودا ، وأخذوا أرباب الأموال ، فاستصفوا أموالهم وعذبوهم على طلب المال ؛ ثم أحرقوا لبلد وتربة السلطان سنجر ، ونبشوا القبر طلبا للمال . ودأبوا على ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الرابع ، أمر بقتل أهل البلد كافة ؛ وقال : هؤلاء عصوا علينا ؛ فقتلوا أجمعين ، وأمر بإحصاء القتلى فكانوا سبعمائة ألف قتيل .

ثم ساروا إلى نيسابور ، فحوصرت خمسة أيام ، وبها جمع صالح من العسكر الإسلامى ، فلم تكن لهم بالتتار قوة ، فملك التتار المدينة ، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلوهم ، ونهبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بالمال ، كما فعلوا بمرو ، وأقاموا خمسة عشر يوما يخربون ويفتشون المنازل ، وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم أن قتلاهم سلم كثير منهم ولحقوا ببلاد الإسلام ، فأمروا أن تقطع

رؤوس أهل نيسابور حتى لايسلم منهم أحد . فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم إلى طوس ففعلوا بها كذلك ، وخربوهـا ، وأحرقوا المشهـد الذى فيه على بن موسى الرضا والرشيد . ثم ساروا إلى هراة وهى من أحصن البلاد ، فحصروها عشرة أيام فملكوها وآمنوا وقتلوا بعضهم وجعلوا فيها شحنة .

ذكر ملكهم مدينة غزنة وبلاد الغور

قال ابن الأثير : لما فرغ التتار من خراسان وعادوا إلى ملكهم جنكز خان وهو بالطالقان ، جهز جيشا كثيفا وسيره إلى غزنة وبها السلطان جلال الدين منكوبرتى ابن السلطان جلال الدين خوارزم شاه وكان قد وصل إليها بعد مفارقته خوارزم كما قدمناه ، وقد اجتمع عنده من الجيوش نحوا من ستين ألفا . وكان الجيش الذى سار إليه من عسكر التتار نحو اثنى (١) عشر ألفا . فلما وصلوا إلى أعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع السلطان جلال الدين إلى موضع يقال له بلق (٢) فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديدا ، ودامت الحروب بينهم ثلاثة أيام ، فانتصر المسلمون وانهزم التتار ، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا ، وعاد من سلم منهم إلى ملكهم بالطالقان .

قال : فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا على الوالى الذى عندهم من قبل التتار فقتلوه ، فسير إليهم جنكز خان عسكرا فملكوا البلد وخربوه وقتلوا من فيه وسبوا الحريم ، ونهبوا السواد أجمع وأحرقوا المدينة .

(١) فى ك اثنا .

(٢) بلق : بالفتح ثم السكون ، ناحية بغزنة من أرض زابلستان .

وهذه الحرب والواقعة لم يذكرها شهاب الدين المنشى فى تاريخه ؛ وإنما قال : إن جلال الدين لما سار إلى غزنة اجتمع فى طريقه بابن خال أمين ملك ، وهو الذي كان يتولى هراة وهى إقطاعة ، وكان قد فارقها ومعه زهاء عشرة آلاف فارس ، فاتفقا على كبس التتار المحاصرين قلعة قندهار ، فنهضا إليها وأوقعا بمن عليها من التتار ؛ فلم يسلم منهم إلا من وصل بخبرهم إلى جنكز خان فغضب لذلك وجهز ابنه تولى خان . وقد ذكرنا ذلك فى أخبار جلال الدين فلنذكر ماساقه ابن الأثير .

قال : ولما انهزم التتار أرسل جلال الدين إلى جنكز خان رسولا يقول له فى أى موضع يختار أن تكون الحرب حتى يأتى إليه ، فجهز جنكزخان عسكرا كثيرا مع ابنه تولى خان [1] فوصل إلى كابل . فتوجه إليهم جلال الدين بالعساكر الإسلامية ، فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم جيش التتار، وقتل تولى خان بن جنكز خان وغنم المسلمون مامعهم واستنقذوا مافى أيديهم من الأسارى ، ولم يذكر ابن الأثير قتل تولى خان ، وانما ذكره المنشى وهو الصحيح [2] . فلما بلغ جنكز خان انهزام عساكره وقتل ولده غضب لذلك ، وتجهز بنفسه وبجيوشه ،وسار إلى صوب غزنة لحرب جلال الدين وطلب

(١) يكتب أحياناً تولى وأحياناً تولوى كما ورد فى النسوى ، وأما رشيد الدين فيكتبه دائماً تولوى.

(٢) الواقع أن ما يذكره النويرى هنا نقلا عن المنشى غير صحيح ، إذ لم يحدث أن قتل تولوى بن جنكز خان فى هذه الواقعة . بل توفى وفاة طبيعية على أثر مرض لم يمهله ، وكان ذلك فى سنة ٦٣٠ هـ . فى عهد أخيه أوكتاى ، (أنظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥٥٩ ، نشر بهمن كريمى ، طهران ١٣٣٨ هـ. ش.)

ثأر ابنه . واتفق اختلاف المسلمين ، ومفارقة العساكر الخلجية صحبة سيف الدين بغراق وأعظم ملك ومظفر ملك للسلطان جلال الدين بسبب ماوقع منهم عند قسم الغنيمة على مابيناه فى أخبار جلال الدين واجتهد جلال الدين فى ردهم فعجز ، ودهمه وصول جنكز خان ، ففارق غزنة وتوجه صوب السند ،فأدركه جنكز خان قبل عبور ماء السند فاضطر جلال الدين إلى القتال فكان من أمره وانهزامه وعبوره إلى بلاد الهند ماقدمناه فى أخباره . ولما فارق جلال الدين البلاد رجع جنكز خان إلى غزنة فملكها من غير مدافع ولامانع لخلوها من العساكر فقتل التتار أهلها ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وألحقوها بخراسان ...

ذكر ملكهم مدينة خوارزم

قال شهاب الدين المنشى : كان حصار خوارزم فى ذى القعدة سنة عشرين وستماية ، واستيلاؤهم عليها فى صفر . قال : لما انفصل جلال الدين وإخوته عن خوارزم كما ذكرناه فى أخباره ، وافى التتار نحومها ، وأقاموا بالبعد منها حتى تكاملت عدتهم وآلات الحصار . ثم تقدموا إليها . فأول من وصل إليها منهم باجى ملك [1] فى عسكر كثيف ثم بعده أوكتاى [2] بن جنكز خان وهو الذى انتهت إليه

(١) وردت فى النسوى « باجى بك » . (سيرة السلطان جلال الدين ص ٩٢) .

(٢) ورد اسمه فى النسوى « أوكطاى » (ص ٩٢) .

القانية [١] فيما بعد ثم سير جنكز خان بعدهم حلقته الخاصة ومقدمها بقرجن نوين وأردفهم بابنه جغطاى ومعه طولن نوين [٢] واستون نوين وقاضان نوين فى مائة ألف فارس. وطفقوا يستعدون للحصار ويستعملون آلاته من المجانيق والدبابات وغير ذلك . ولما رأوا خوارزم وبلدها خالية من حجارة المنجنيق وجدوا هناك من أصول التوت الغلاظ. ماالستعملوه بدلا من الحجارة ، فكانوا يقطعونها وينقعونها فى الماء فتصير كالحجارة ثقلا وصلابة ، فتعوضوا بها عن الحجارة .

ثم وصل دوشى خان بن جنكز خان إلى بلاد ماوراء النهر فراسلهم فى الأمان وقال : إن جنكز خان قد أنعم عليه بها وأنه لايؤثر تخريبها ويضن به ويحرص على عمارانها . قال : ومما يدل على ذلك أن العساكر مدة مقامهم بالقرب منها ماتعرضوا إلى الغارات على رساتيقها فمال ذووا النباهة من أهلها إلى المسالمة ، فغلب عليهم السفلة وامتنعوا ، فعند ذلك ساق إليها دوشى خان ، وأخذ يطويها محلة محلة ، فكلما أخذ واحدة منها التجأ الناس إلى أخرى ، وهم يحاربون أشد حرب إلى أن أعضل الأمر ، ولم يبق معهم إلا ثلاث محال تراكمت الناس فيها متزاحمين . فأرسلوا إلى دوشى خان

---

(١) القانية من القان ، والمقصود بها هنا فى نص الرئيس الأعلى لدولة المغول . والملاحظ أن المغول أطلقوا لقب خان أو قان على رؤسائهم من رجال الصف الثانى الذين يتولون جزءاً من دولة المغول ، أما الخاقان فهو اللقب الذى اختص به خان المغول الأعظم أو الرئيس الأعلى لإمبراطوريتهم ومقره قراقورم . وربما استعمل المغول لقب خان أو قان بمعنى خاقان ، وذلك من باب الإختصار .

(٢) ورد الإسم فى النسوى « طولن جربى » (ص ٩٣) .

الفقيه علاء الدين الخياطى[١] محتسب خوارزم - وكان من أهل العلم والعمل - مستعطفا له ؛ فأمر دوشى خان باحترامه ، وأن تنصب له خيمة . ثم أحضره فأدى رسالته فقال فى جملة ماقال : إننا قد شاهدنا هيبة الخان وقد آن أن نشاهد مرحمته . فاستشاط غضبا وقال : « ماذا رأوا من هيبتى وقد أفنوا رجالى؟ فأما أنا فشاهدت هيبتهم وها أنا أريهم هيبتى . » وأمر بإخراج الناس ونودى فيهم بانفراد أرباب الصنائع وانعزالهم على حدة ؛ فمنهم من فعل ونجا ،[٢] ومنهم من اعتقد أن أرباب الحرف تساق إلى بلادهم وغيرهم يترك فى وطنه فلم ينفرد ، ثم وضع السيف فيهم فقتلوا جميعا وحكى ابن الأثير فى تاريخه الكامل أن التتار بعد ذلك فتحوا السكر[٣] الذى يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء فغرق جميعه وتهدمت الأبنية ولم يسلم من أهله أحد البتة ، فإن الذين اختفوا من التتار غرقهم الماء وقتلهم الهدم . وهذا مالم يسمع بمثله من قديم الزمان ولاحديثه . ثم عاد التتار إلى جنكز خان وهو بالطالقان . .

ذكر عود طائفة من التتار الى همذان وغيرها

وهم غير التتار المغربة الذين قدمنا ذكرهم

قال ابن الأثير: وفى سنة إحدى وعشرين وستمائة وصلت طائفة

---

(١) ذكره النسوى « عالى الدين الخياطى » (ص ٩٤) .

(٢) تكرر فيما سبق أكثر من مرة أن المغول كانوا يحرصون عند الاستيلاء على مدينة أو حاضرة كبيرة على الاستفادة من أرباب الصنائع فيعزلونهم على حدة ، ويرسلونهم إلى منغوليا للاستفادة من مهاراتهم فى الصناعة أو حروبهم التالية .

(٣) سكر النهر سده ، وبابه نصر ؛ والمقصود بالسكر هنا السد الذى يحجز ماء النهر .

من التتار من جهة جنكرخان إلى الرى ؛ وكان من مسلم من أهلها قد عادوا إليها وعمروها ، فوضع التتار فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤوا ، ونهبوا البلد وخربوه ، وتوجهوا إلى ساوة [1] ففعلوا بها كذلك ، ثم إلى قم وقاجان [2] وكانتا قد سلمتا من التتار والمغربة . ثم عاثوا فى البلاد يخربون ويقتلون ثم قصدوا همذان ، وقد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها ، فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا .

قال : وكانوا لما وصلوا إلى الرى رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فقتل بعضهم وانهزم الباقون إلى أذربيجان ، فنزلوا بأطرافها ، فلم يشعروا إلا والتتار قد كبسوهم ، ووضعوا فيهم السيف ، فانهزموا فوصلت طائفة منهم إلى تبريز ، وتفرق الباقون ووصل التتار إلى قرب تبريز فراسلوا صاحبها أزبك بن البهلوان فى طلب من التحق به من الخوارزمية ، فعمد إلى من عنده منهم فقتل بعضهم وأسر البعض ، وساق الأسرى وحمل الرؤوس إلى التتار ، وأنفذ إليهم من الأموال والثياب والدواب شيئا كثيرا فعادوا عن بلاده نحو خراسان .

قال : ولم تكن هذه الطائفة أكثر من ثلاثة آلاف ، وكانت الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس ؛ وعسكر أزبك أكثر من الجميع ، ومع هذا فلم يمتنعوا عنهم ولا حدثوا نفوسهم بحربهم

---

(١) ساوة ، وصفها ياقوت بأنها مدينة حسنة فى منتصف المسافة بين الرى وهمذان .

(٢) مدينة مستحدثة قال ياقوت : أنها تذكر مع قاشان (قاجان) ، وهما قرب أصبهان ، إسلامية .

هذا كله وجلال الدين خوارزم شاه ببلاد الهند . ثم انفق خروجه منها فى سنة إحدى وعشرين وستمائة ؛ واستولى على ملك العراق ، وانتزعه من يد أخيه غياث الدين [ببرشاه] (١) وملك أذربيجان ومراغة وغيرها ، وقاتل الكرج على ماقدمناه فى أخباره . ولم يهجه التتار ولاقاتلوه إلى سنة خمس وعشرين وستمائة بعد وفاة جنكزخان وقيام ولده [أوكداى] (٢) مقامه .

هذا ما انتهى إلينا من وقائع التتار وحروبهم وماستولوا عليه فى أيام ملكهم جنكزخان التمرجى ؛ وهو على سبيل الاختصار لعدم من تحقق من أخبارهم ويدون آثارهم . ثم كان بعد وفاة جنكزخان وقيام من قام بعده من أولاده حروب ووقائع ، نذكرها إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا وفاة جنكزخان .

---

(١) الإسم الصحيح لغياث الدين ابن السلطان علاء الدين محمد خوارزم مشاه ؛ (أنظر النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى والجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ٢) .

(٢) ذكر هذا الإسم محرفاً فى ك فكتب « لولديه » ، والصواب « أوكتاى » أو «أوكداى » . وقد ورد مصححاً فى مواضع أخرى من هذا الكتاب .

ذكر وفاة جنكزخان التمرجى
وأسماء أولاده واخوته وماقرره لأولاده
من الوظائف والبقاع وغير ذلك

كانت وفاة جنكز خان فى سنة أربع وعشرين وستماية ، وقيل فى سنة خمس وعشرين فى فصل الشتاء . قال : ولما حضرته الوفاة طلب إخوته وهم أوتكين[وبلكوتى] (١) ونوين و [الحاي نوين ووكوب ووكابى] (٢) وحضر من أولاده جغطاي و (أوكتاى) (٣) وكتب لهم وصية وقال امتثلوها بعدي ، وإذا أنا مت وجاء وقت الربيع تجمعوا كلكم وتعمل وليمة عظيمة ثم تقرأ هذه الوصية بحضوركم ، وينصب فى الملك من عينته فيها وامتثلوا أمره ، ثم فرقهم فى مشاتيهم التى قررها لهم ففعلوا ذلك وامتثلوا أمره على ماذكره ، ومات هو . وكان له من الأولاد تسعة عشر ولدا من امرأة واحدة وهى تسوجى خاتون ؛ (٤)

---

(١) ورد فى الجوينى بلكوتى وبيلكتاى ، (أنظر تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ١٤٥) . وأما رشيد الدين فيكتبه فى كل المواضع بلكوتى ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٠٣ ، نشر بهمن كريمى ، طهران ١٣٣٨ هـ. ش .) .

(٢) هـذه الأسماء مغلوطة هنا إلى حد كبير فقد ذكر رشيد الدين أربعة إخوة لجنكز خان : أوتكين وبلكوتى اللذين سبق ذكرهما وجوجى قار وقاجيون . (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٠٣ ، وما بعـدها) .

(٣) كتب فى ك « أوكدية » ، والصواب أوكتاى أو أوكداى .

(٤) الثابت فى المراجع أن جنكز خان كانت له زوجات ومحظيات كثيرات ولكن كان يفضل عليهن جميعاً زوجته المسماه يسونجين بيكى ، وهى التى أسماها النويرى فى النص تسوجى خاتون ، كذلك من الثابت أن جنكز خان أنجب تسعة أولاد من بينهم أربعة كانوا من زوجته هذه ، وهؤلاء كانوا أولاده . المفضلين الذين عهد إليهم بجلائل الأعمال ، أنظر : (فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ١٠٩) .

[منهم تلى خان وهو طلوخان وهو الذي قتل فى سنة ثمانى عشرة وستمائة] (١) فى الحرب التى كانت بينه وبين السلطان جلال الدين منكوبرنى على ما قدمنا ذكر ذلك . وكان لتلى خان من الأولاد منكوقان وهو الذي استقر فى القانية بعد على ما نذكره إن شاء الله تعالى ؛ وهو لاكو وأريق بوكا وقبلاي ، وهو الذي جلس على تخت القانية بعد منكوقان واستقرت القانية فيه وفى بنيه من بعده إلى آخر وقت ، وسنذكر لك ذلك إن شاء الله تعالى . وكان جنكزخان قد فوض لابنه تلى خان هذا ترتيب العساكر والجيوش وتدبيره فى المقام فى مشتاه ومصيفه وجعل له من البلاد خراسان والعراقين وما يليها ، فقتل قبل تمام الفتوح . ومنهم دوشى خان بن جنكز خان وهو الذي فتح خوارزم فى حياة أبيه كما تقدم ، وفتح أيضا بعد وفاة أبيه بلاد الشمال ، واستولى على ملكها ، وأباد من بها من طوائف الأتراك وقبائل القفجاق وغيرهم من القبائل : كاللان ، وآلاص (٢) ، والأولاق (٣) ، و [الجركس] (٤) والروس وغيرهم من سكان البلاد الشمالية . واستقر ملك هذه البلاد بيده ؛ ثم بيد باطوخان بن دوشى خان ثم فى (صرطق بن دوشى خان) (٥) ، ثم فى أولاد باطوخان وإخوته على ما نذكره بعد .

---

(١) سبق أن نقدنا هذه الرواية وقلنا إنها غير صحيحة .

(٢) تكتب أيضاً الآس ، ويعرفون عند بعض الكتاب بالآلان والأوسيت ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، الترجمة العربية ، ص ٢١٢ حاشية ١) .

(٣) بضم الهمزه وسكون الواو ويقال لهم البرغال وهم جنس معروف (لمعرفة مزيد من التفصيلات أنظر صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٤) .

(٤) كتبت الجهركس والصواب الجركس ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الأول الترجمة العربية ص ٢١٢ ، وانظر أيضاً صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٦٢) .

(٥) سرتاق كما ورد فى رشيد الدين هو ابن باتو وحفيد دوشى وليس إبنه كما ذكر النويرى .

ومن أولاد دوشى خان بن جنكز خان أرديوا وهو صاحب غزنة وباميان . وقد قيل إن أرديوا بن جنكز خان ، وكان جنكز خان قد جعل وظيفة دوشى خان ترتيب الصيد ، وهى عندهم أكبر المراتب ، وعين له من البلاد والمياه لمشتاه ومصيفه حدود قيالق وبلاد خوارزم إلى أطراف [سقسين] (١) وبلغار إلى حيث تنتهى حوافر خيلهم من الفتوح .

ومنهم أوكتاي خان بن جنكز خان وهو أوكتاي ، وهو الذي جلس على تخت القانية بعد وفاة أبيه جنكز خان ، وكان جنكز خان قد جعله مشيره وصاحب الرأي وعين له من البلاد آمل (٢) وقوتاق (٣) وجعله ولى عهده من بعده ، وعهد إليه أنه إذا انتهى الملك إليه أن يعطى مابيده من البلاد لولده كيوك خان ثم يتحول إلى مستقر الملك من بلاد الخطا والأيغور بقرا قورم وغيرها .

ومنهم جغطاي بن جنكز خان كان أبوه قد فوض إليه مهمات

---

(١) كتبت سقستين والصواب سقسين ، كما ورد فى الجوينى عدة مرات ، (أنظر تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٣١ ، ١٥٠ ، ٢٠٥) .

(٢) آمل : مدينة بطبرستان ، (أنظر القزوينى : آثار البلاد ، ص ١٩٠) ، وربما أخطأ النويرى فى كتابة إسم هذا المكان إذ المقصود هنا أيميل ، كما ذكر الجوينى (أنظر : تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٣١) أى حوض نهر أيميل الذى يصب فى بحيرة الأجول . ويقع فى غرب منغوليا .

(٣) كتبها الجوينى قوناق (نفس المصدر ونفس الصفحة) .

السياسة والحكومة للياسا [١] واليرغو [٢] ، وجعل له من البلاد للمراعى والمشاتى والمصيف من حدود بقاع الأيغور وسمرقند وبخارى ومايتاخم ذلك من البلاد . وكان مقامه قبل ذلك بقرب المالق ومايليها ؛

فهؤلاء الأربعة هم المشار إليهم من أولاد جنكز خان وله غير هؤلاء منهم أورخان ، وكلكان ، والغوانوين ، وجورجاي [٣] ، وأولطاي خان ، وأرديوا ، وقد تقدم الخلاف فيه هل هو ابن جنكز خان أو ابن دوشى خان [٤] .ومن أولاده مغل بن جنكز خان وهو جد نوغية ، ولنوغية هذا أخبار تذكر بعد ان شاء الله تعالى . وقد قيل إن مغل بن دوشى خان .

وأما بقية أولاد جنكز خان فلم تنقل إلينا أسماؤهم بحكم أنه لم يكن لهم ملك وإنما كانوا فى خدمة إخوتهم . وعين جنكز خان أيضا لأخوته وأقاربه أماكن من ملكه ، فاستقرت حالهم على ماقرره

---

(١) جاء فى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ج ٦ ص ٢٦٨) أن جنكز خان هو صاحب « التورا » و « اليسق » ، « والتورا» باللغة التركية هو المذهب واليسق هو الترتيب ، وأصل كلمة اليسق سى ياسا ، وهو لفظ مركب من أعجمى وتركى ومعناه التراتيب الثلاث (الثلاثون لأن سى كلمة فارسية بمعنى العدد ٣٠) . . . وعلى هذا مشت التتار من يومه إلى يومنا هذا ، وانتشر ذلك فى سائر الممالك حتى ممالك مصر والشام ، وصاروا يقولون « سى يسا » فثقلت عليهم فقالوا سياسة » .

أنظر أيضا المقريزى ج ٢ ص ٢٢٠ تحت عنوان ذكر أحكام السياسة .

(٢) اليرغوا أو اليارغو : كلمة مغولية بمعنى العدل والقانون واليارغوجى بمعنى القاضى والمقصود بهذا اللفظ هنا أحكام القضاء .

(٣) كتب رشيد الدين هذا الإسم « جورجيتاى » ، أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٢٧) .

(٤) والحقيقة هى أن أوردوا أو أوردا إنما هو إبن دوشى خان أو جوجى خان .

لهم ، وكان قد خالف جنكز خان من قبائل التتار أويرات وقنورت[1] فلم يزل جنكز خان يلاطفهم ويسوسهم إلى أن قرر على نفسه أن يزوجوهم مالهم من البنات ولذريتهم . واستقرت هذه القاعدة فيهم إلى وقتنا هذا .

هذا ملخص ماانتهى إلينا من أخبار أولاد جنكز خان وماقرره لهم ؛ فلنذكر أخبار من انتصب فى القانية بعد وفاة جنكز خان من أولاده وأولادهم .

ذكر ملك أوكتاى بن جنكزخان

قد ذكرنا أن جنكز خان كان قد كتب وصية قبل وفاته بمحضر إخوته وبعض بنيه ، وقرر معهم أن يعملوا بها بعده ، وأمرهم أنه إذا دخل فصل الربيع يجتمع إخوته وأولاده ، والخواتين[2] والأمراء وأن يذبحوا الذبائح ويعملوا الأفراح أربعين يوما من حين اجتماعهم ؛ ثم تقرأ وصيته ويعمل بمقتضاها . فلما دخل فصل الربيع وذلك فى سنة خمس وعشرين وستمائة ، سُير حلف الأعمام والأخوة والخواتين وأمراء التمانات[3] ؛ فكان أول من حضر منهم جغطاى بن جنكز خان ثم أخوه أوكتاى ثم حضر نقيبهم

(١) هكذا فى ك ، ولكن الإسم الصحيح لهذه القبيلة هو قنقورات أو قنقرات . (أنظر الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٢٨ ، وأنظر أيضاً رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١ ؛ طهران ١٣٣٨ هـ. ش)

(٢) الخواتين ، جمع خاتون ، وهو لقب لقبت به الأميرات و الملكات .

(٣) أراد بالتمانات هنا (التومانات) جمع تومان فيكون المقصود بأمراء التمانات كبار أمراء الجيش الذين يتولى الواحد منهم قيادة عشرة آلاف مقاتل .

ولم يتخلف منهم أحد . ثم ذبحوا الذبائح وأحضروا الخمور وألبان الخيل ، وهى القمز [١] . وعملوا الأفراح إلى أن مضت المدة التى عينها لهم ، ثم اجتمعوا وأخرجوا كتاب الوصية الذي اكتتبه جنكز خان ، فقرىء بمشهد منهم ، فإذا الوصية فيه بالملك لأوكديه خان . فلما سمع أوكديه خان ذلك قال : كيف أجلس على كرسى الملك وفى إخوتى وأعمامى من هو أكبر منى وأصلح ، فلا أجلس . فلم يرجعوا إلى قوله ، وأقام أخوه جغطاي وأخذ بيده اليمنى وأخذ عمه أوتكين بيده اليسرى فأقاماه وأجلساه على كرسى الملك . ثم ملأ أخوه الأصغر وهو ألغو نوين هناباً [٢] من المشروب فناوله إياه ، فعند ذلك قام جميع من حضر من أعمامه وإخوته وأمراء التمانات فضربوا جوك – وهو الخدمة عندهم – ؛ وكيفيته أن يبرك الرجل منهم على أحد ركبتيه ويسير بمرفقه إلى الأرض ؛ وهذه الخدمة عندهم غاية التعظيم . وشرب أوكديه خان ذلك الهناب . وأمر بإجلاس الناس على مراتبهم ، ونزلهم منازلهم ، فأجلس الأعمام والإخوة عن يمينه وأجلس الخواتين عن يساره . فقام الإخوة وجلسوا بين يديه وقالوا : قد امتثلنا ياسا أبينا جنكز خان ، ونشد أوساطنا فى الخدمة والإخلاص ، ونبذل أنفسنا فى الطاعة ، فشكرهم أوكديه وفتح الخزائن ، وفرق الأموال والخلع ، وأنعم حتى على الغلمان

---

(١) تكتب أيضاً القميز ؛ لفظ تترى يقصد به نوع من الخمور يصنع من لبن الخيل ، (أنظر : المقريزى : السلوك ص ٦٠٧ حاشية ٢ للدكتور محمد مصطفى زيادة) .

(٢) الهناب : قدح للشراب .
(Dozzy : Supp. Dict. Ar.)

والرعاة ، وفرق الناس فى مصايفهم ومنازلهم واستقر هو بقرا قروم وجهز أخاه دوشى خان [١] إلى بلاد الشمال ففتحها فى سنة سبع وعشرين وستماية وملكها وأقام بها على مانذكر ذلك فى أخبارهم .

فلنذكر الحروب الكائنة بين عساكر أوكديه خان وبين السلطان جلال الدين وغيره من المسلمين .

ذكر الحروب الكائنة بين التتار والسلطان جلال الدين ، وماكان من أمرهم الى أن ملكوا ماكان بيده

كانت أول حرب وقعت بين السلطان جلال الدين منكوبرتى وبين التتار بعد خروجه من الهند فى سنة خمس وعشرين وستمائة بظاهر أصفهان ، فهزموه ثم هزمهم ، وأذاهم بالقتل ولم يسلم منهم إلا قليلا . وحكى أن هذه الطائفة من التتار كان جنكزخان قد نقم على مقدمها وأبعده عنه ، وأخرجه من بلاده ، فقصد خراسان فرآها خرابا ، فقصد الرى لتغلبه على تلك النواحى . ثم تقدم إلى قرب أصفهان فالتقى هو وجلال الدين ، ولما هزمه جلال الدين ، أرسل إليه أوكديه بن جنكزخان يقول إن هذه الطائفة ليست منا ، فأمن عند ذلك جانب أوكتاى ، ثم انقطعوا عنه ثلاث سنين .

---

(١) هذا الجزء وهو ٣٤ صفحة ساقط من النسخة ك التى إعتمدناها أصلا فى النشر حتى عنوان « وأما ملوك غزنه وباميان . . . » .

وقد إعتمدنا فيه على مقابلة النسخة ع من ص ١٨٠ ب حتى ص ١٩٧ ب ؛ بنسخة ت . (المكتبة التيمورية من ورقة ٥١٧ إلى ورقة ٥٣٠) .

وفى سنة ثمان وعشرين وستمائة فى أوائلها ، وصلت طائفة من التتار من بلاد ماوراء النهر إلى تخوم أذربيجان . وكان سبب ذلك أن مقدم الاسماعيلية كاتبهم وعرفهم أن جلال الدين قد ضعف وانهزم من كيقباذ صاحب الروم ومن الأشرف ، وأنه وقع بينه وبين من يجاوره من الملوك ، ووصلت إساءته إلى كل منهم وأنهم لاينصرونه وضمن لهم الظفر به . [1] فبادرت طائفة منهم من التتار ودخلوا البلاد ، واستولوا على الري وهمذان ومابينهما من البلاد ، ثم قصدوا أذربيجان وقتلوا من ظفروا به من أهلها ، ولم يقدم جلال الدين على قتالهم لتفرق عساكره ومخالفة وزيره شرف الملك عليه . وكان من كبسهم للسلطان جلال الدين ، وانهزامه منهم ، وتنقله من مكان إلى آخر ماقدمناه فى أخباره . ثم كبسه التتار وهو بالقرب من آمد فهرب منهم . وكان من خبر مقتله ماقدمناه ، فتمكن التتار بعد مقتله من البلاد وملكوها من غير ممانع عنها ولامدافع .

---

(١) يلاحظ أن جلال الدين منكبرتى إستشار مختلف القوى المجاورة له فى الشرق الأوسط بعد عودته من الهند سنة ٦٢٢ هـ. (١٢٢٥ م) ، ذلك أنه لم يكتف بمحاربة أخيه غياث الدين واستثارة عداء الخلافة العباسية ، وإنما حارب الإسماعيلية الباطنية سنة ٦٢٤ هـ. كما انتزع خلاط سنة ٦٢٧ هـ. من صاحبها الأشرف موسى ابن الملك العادل الأيوبى ، وبهذه السياسة الخاطئة لم يحتفظ جلال الدين بصديق أو حليف يمكن أن يساعده إذا تعرض لخطر المغول بل إن أمراء الموصل وما بين النهرين أسرعوا إلى تكوين حلف ضده وانضم إلى هذا الحلف علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم . (أنظر : النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى ص ٣٣٤) .

ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتار

قال ابن الأثير الجزرى : وفى سنة ثمان وعشرين وستمائة أطاع أهل أذربيجان التتار . وسبب ذلك أن جلال الدين لما كبسه التتار بآمد وانهزم منهم ، وانقطع خبره ، سقط فى أيدي الناس وأذعنوا بطاعة التتار وحملوا إليهم الأموال والثياب وغير ذلك . فممن دخل فى طاعتهم أهل مدينة تبريز – وهى توريز – وهى أصل أذربيجان ومرجع الجميع إليها . وكان مقدم جيش التتار نزل بعساكره بالقرب منها ودعا أهلها إلى طاعته ، وتهددهم إن امتنعوا عليه ، فأرسلوا إليه الأموال والتحف ومن كل شى حتى الخمر ، وبذلوا الطاعة ، فشكرهم على ذلك ، وطلب حضور أكابر أهلها إليه ، فتوجه إليه قاضى البلد ورئيسه وجماعة من الأعيان ، وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وكان مرجع الجميع إليه ، إلا أنه لايظهر ذلك . فلما حضروا عنده سألهم عن سبب امتناع الطغرائى من الحضور ، فاعتذروا بانقطاعه وعدم تعلقه بالملوك وأنهم الأصل ، فسكت . ثم طلب صناع الثياب الخطاى وغيرها فحضروا إليه ، فأمرهم أن يستعملوا للقان ثيابا ، وقرر ثمنها على أهل تبريز ، وطلب منهم خركاة للقان أيضا فعملوا خركاة عظيمة غشوا ظاهرها بالأطلس وباطنها بالسمور والقندر ، وقرر عليهم فى كل سنة من المال والثياب شيئا معلوما .

ذكر دخول التتار ديار الجزيرة

قال : لما انهزم جلال الدين من التتار على آمد نهب التتار سواد آمد وميا فارقين وقصدوا مدينة أسعرد [١] فقاتلهم أهلها فبذل لهم التتار الأمان ، فسلموا لهم البلد ، فعند ذلك بذلوا فيهم السيف حتى كادوا يأتون عليهم . فما سلم منهم إلا من اختفى ، وقليل ماهم . قيل إن القتلى بلغت تقدير خمسة عشر ألفا ، وكانت مدة الحصار خمسة أيام ، ثم ساروا منها إلى مدينة طنزة [٢] ففعلوا فيها كذلك ، وساروا منها إلى واد بالقرب منها يقال له وادي القريشية ، فيه طائفة من الأكراد القريشية ، وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة ، والطريق إليه ضيق ، فمنعهم القريشية منه وقتلوا كثيرا منهم ، فعاد التتار ولم يبلغوا منهم غرضا ، وساروا فى البلاد لامانع يمنعهم فوصلوا إلى ماردين فنهبوا مامروا عليه من بلدها واحتمى صاحبها وأهل دنيسر بقلعة ماردين. ثم وصلوا إلى نصيبين الجزيرة فأقاموا عليها بعض يوم ونهبوا سوادها ، وقتلوا من ظفروا به ، وغلقت أبوابها فعادوا عنها ، وتوجهوا إلى بلد سنجار ، فوصلوا إلى البلاد من أعمالها ، فنهبوا ودخلوا الخابور فوصلوا إلى عربان [٣] ، فنهبوا

---

(١) هكذا وردت فى ك ، وكذلك ذكرها ابن الأثير (الكامل ؛ حوادث سنة ٦٢٨ هـ) . ومن الواضح أنها من مدن ديار بكر قرب ميافارقين .

(٢) طنزة : بفتح أوله وسكون ثانيه ، بلد بجزيرة ابن عمر بديار بكر .

(٣) عربان : بفتح أوله وثانيه ، وهى بلدة بالخابور من أرض الجزيرة . وفى الأصل ، وكذلك فى ابن الأثير (هرابان) .

وقتلوا وعادوا وتوجهت طائفة منهم على طريق الموصل ، فوصلوا إلى قرية تسمى المؤنسة ، وهى على مرحلة من نصيبين بينها وبين الموصل ، فنهبوا واحتمى أهلها وغيرهم بخان فيها ، فقتلوا كل من فيه ومضت طائفة منهم إلى نصيبين الروم وهى على الفرات من أعمال آمد ، فنهبوا وقتلوا منها ثم عادوا إلى آمد ثم إلى بلد بدليس[١] فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال ، فقتلوا فيها يسيرا ، وأحرقوا المدينة ، ثم ساروا من بد ليس إلى خلاط. فحصروا مدينة من أعمالها يقال لها باكرى [وهى] [٢] من أحصن البلاد ، فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها ، وقصدوا مدينة أرجيش [٣] من أعمال خلاط. ، وهى مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك ؛ وذلك فى ذي الحجة سنة ثمان وعشرين وستمائة .

قال ابن الأثير فى تاريخه الكامل : لقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه الله تعالى فى قلوب الناس منهم ، حتى قيل إن الواحد منهم كان يعبر [٤] القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فيقتلهم واحدا بعد واحد ولايجسر أحد يمد يده إليه . قال : ولقد بلغنى أن إنسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن معه مايقتله به فقال له : ، ضع رأسك على الأرض ولاتبرح ،

(١) بدليس : بالفتح ثم السكون وكسر اللام ، بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط .

(٢) ما بين حاصرتين من ابن الأثير حوادث سنة ٦٢٨ .

(٣) أرجيش : بالفتح ثم السكون ، مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى قرب خلاط ، أكثر أهلها أرمن نصارى

(٤) فى ابن الأثير : يدخل القرية ، حوادث سنة ٦٢٨ .

فوضع رأسه على الأرض ومضى التتاري وأتى بسيف فقتله به . قال : وحكى لى كثير من ذلك أعفيت عنه رغبة فى الاختصار .

قال : وفى ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وصلت طائفة من التتار من أذربيجان إلى أعمال أربل ، فقتلوا من على طريقهم من التركمان الإيوائية والأكراد وغيرهم إلى أن دخلوا إلى بلد أربل ، فنهبوا القري وقتلوا من ظفروا به ، ثم وصلوا إلى بلد دقوقا وغيرها وعادوا ، ولم يرعهم أحد ولاوقف فى وجوههم فارس .

هذا آخر ماأورده ابن الأثير والمنشى فى تاريخيهما من أخبار التتار لم يتجاوزا سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وبعض ماأوردناه لم يورداه فى تاريخيهما كوفاة جنكز خان وقيام ولده ، فإنه ماوصل إليهما . والله أعلم .

ذكر وفاة آوكتاى خان وقيام ولده كيوك خان بعده وقتله

كانت وفاة أوكديه خان بن جنكز خان فى « سنة إحدى وثلاثين وستمائة » (١) ولما دنت وفاته استدعى أعمامه والأمراء وأمرهم بإجلاس ولده كيوك خان على كرسى المملكة ، وأمر أن يكون جلوسه بحضور الأعمام والإخوة والأمراء . فلما مات اجتمعوا كلهم ، إلا دوشى خان (٢) فإنه كان قد أوغل فى بلاد الشمال واستولى

(١) المشهور أن وفاة أوكتاى حدثت فى سنة ٦٣٩ ، وليس فى سنة ٦٣١ ، كما ذهب النويرى (أنظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٤٨٠) .

(٢) يبدو أن هذه الواقعة التى ذكرها النويرى غير صحيحة لأن دوشى خان (جوجى خان) توفى قبل أبيه جنكز خان بنحو ستة أشهر ، ويذكر الجوينى أن الذى كان يحكم فى القبجاق ، =

عليها وعلى مايدانيها من القفجاق وغيرها ، فلم يمكنه الحضور لبعد المسافة ، فأرسل أخاه مغل بن جنكز خان ، ومغل هذا هو جد نوغيه فسار مغل وأوصى على أولاده لعلمه ببعد المسافة . فلما وصل إلى قرا قروم اجتمع أهل البيت الجنكزخانى والخواتين فأنكروا عليه وقالوا له : ولمَ لم يأت دوشى خان ، فاعتذر عنه بأعذار ، فلم يقبلوها وأشاروا أن يسقوه سما فيقتلوه ، فناولوه قدحا فشربه . فلما علم أن فيه السم أيس من الحياة وأخرج سكينا كان فى خفه ووثب على كيوك فقتله (١) ، وخرج جماعة من أكابر الناس عليه فقتلوه .

ذكر جلوس منكوقان (٢) بن (تلى خان (٣)) بن جنكزخان على تخت القانية

ومنكوقان هو الملك الرابع من الملوك الذين جلسوا على تخت القانية . قال : ولما قتل كيوك خان من غير وصية اجتمع أولاد الخانات وأمراء التمانات ، واتفقت آراؤهم على إقامة منكوقان ، فإنهم لم يجدوا فى البيت أرجح منه ولا أرشح للملك ، فأجلسوه

= فى ذلك الوقت هو باتو بن جوجى ، ولم يحضر بنفسه القوريلتاى لتنصيب كيوك خان وإنما إكتفى بإرسال أخاه الأكبر « هردو » ، وبعضاً من إخوته الآخرين ، (أنظر تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٢٠٥) .

(١) يذكر كل من الجوينى ورشيد الدين أن كيوك توفى وفاة طبيعية ولم يقتل ، (أنظر تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٢١٦ ، وانظر أيضاً جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥٧١) .

(٢) يكتب هـذا الإسم منكو ومانجو ومونككا ومونكا .

(٣) ما بين الحاصرتين غير موجود بالنسخة ت التيمورية .

على كرسى القانية . ولما استقر جرد أخاه قبلاي إلى بلاد الخطائية [١] فعاد منهزما منهم ، فأعاد وجهز معه أرنيكا [٢] ، فتوجها إليهم بعساكرهما فكسروهم وغنموا غنايم كثيرة ، فوقع بين الأخوين التنازع فى الغنايم ، حتى كان بينهما [٣] قتال ، فهزم أرنيكا قبلاي ثم اصطلحا واستقر الأمر بينهما وكانت سائر ملوك التتار داخلة تحت طاعة من ينتصب على تخت القانية يأتمرون بأمره . وانما استقل كل منهم بنفسه وانفرد بمملكته بعد وفاة منكوقان . ولما ملك منكوقان انقطع التتار عن الوصول إلى العراق والروم وغيرهما مما يكون داخلا [٤] فى طاعة الخلفاء العباسيين مدة سنين ، وأري ذلك إنما كان لاشتغالهم بقتال من يليهم ، ثم رجعوا إلى هذه الممالك ففتحوها مملكة بعد أخري [٥] .

---

(١) تشتمل هذه البلاد الأقاليم الجنوبية فى بلاد الصين .

(٢) هكذا فى ك ، وهو أريق بوكا كما يذكره رشيد الدين .

(٣) فى ك : (بينهم) .

(٤) فى ك : داخل .

(٥) إتصف عهد كيوك وخليفته منكو خان بالمحاولات التى بذلها الغرب الأوربى المسيحى للإتصال بالمغول ومحالفتهم بقصد نشر المسيحية بينهم من ناحية واستشارتهم ضد المسلمين فى الشرق الأدنى من ناحية أخرى . وفعلا أرسلت البابوية ولويس التاسع ملك فرنسا عدة سفارات إلى قرا قورم لهذا الغرض . (أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٨ وما بعدها) .

ذكر دخول التتار الى بلاد الروم وماستولوا عليه من البلاد

كان أول دخول التتار إلى البلاد الرومية فى سنة أربع وثلاثين وستمائة ، فى أواخر أيام السلطان علاء الدين كيقباد وابتداء سلطنة ولده غياث الدين كيخسرو . ثم وردت طائفة منهم إلى الروم فى سنة إحدى وأربعين وستمائة ، فى أيام السلطان غياث الدين كيخسرو . وكانت هذه الطائفة من قبل باطوخان بن دوشى خان بن جنكز خان ، ملك البلاد الشمالية ؛ فجمع كيخسرو العساكر وخرج إليهم والتقوا واقتتلوا . فكانت الهزيمة أولا على التتار ثم تراجعوا ، فهزموا صاحب الروم هزيمة عظيمة ، وقتلوا وأسروا خلقا كثيرا من المسلمين ، ونهبوا من الأموال مالايحصى كثرة . وهرب غياث الدين إلى بعض المعاقل ، وتحكمت التتار فى البلاد ، ثم استولوا على بلاد خلاط وآمد ، ودخل غياث الدين بعد ذلك فى طاعة التتار على مال يحمله إليهم .

وفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، قصد التتار بغداد ونهبوا مامروا عليه فى طريقهم ، ووصلوا إلى ظاهرها ، واستعدت عساكر الخليفة للقائهم . فلما جاء الليل أوقد التتار نارا عظيمة ورجعوا تحت الليل . ثم انقطعت أخبار التتار إلى أن جردهم منكوقان فى سنة أربع وخمسين وستمائة على مانذكره .

ذكر تجريد منكوقان العساكر الى بلاد الروم وماستولوا عليه منها

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة جرد منكوقان جرماغون وبيجو[١] وجماعة من عساكره إلى بلاد الروم ؛وهى يومئذ فى يد السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ السلجقى . فساروا إليها ونزلوا على أرزن الروم [٢] ، وبها يومئذ سنان الدين ياقوت العلائى أحد مماليك السلطان علاء الدين كيقباذ . فحاصروها مدة شهرين ونصبوا عليها اثنى عشر منجنيقا . فهدموا أسوارها ، ودخلوها عنوة ؛ وأخذوا سنان الدين ياقوت ، وملكوا القلعة فى اليوم الثانى ، وقتلوا الجند واستبقوا أرباب الصنائع وذوى المهن ، وقتلوا ياقوت ؛ وغنموا وسبوا ، وعادوا . ومات جرماغون

ثم عاد بيجو إلى الروم مرة ثانية فى هذه السنة ، فوصل إلى آقشهر زنجان ، ونزل بالصحراء التى هناك . فجمع غياث الدين كيخسرو عساكره وسار للقائهم ، فانهزم من غير لقاء ، كما ذكرناه فى أخباره ، وغنم التتار خيامه وخزائنه وأثقاله إلا ماحمله مما خف منها . وفر غياث الدين إلى قونية وتوفى فى هذه السنة .

---

(١) كتب النويرى إسم هذا القائد بيجوا ،وفى مواضع أخرى كتبه بيجو بدون الألف ، وهو الأصح لأنه قريب من الهجاء الذى وجدناه فى المصادر الفارسية ، وهو بايجو ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ٢ ص ٧١٩ ، نشر الدكتور بهمن كريمى ، طهران ١٣٣٨ هـ. ش.) .

(٢) مدينة مشهورة من مدن أرمينية بقرب خلاط ، (أنظر زكريا القزوينى : آثار البلاد ، ص ٣٣٢ ، نشر وستنفلد ، جوتنجن ١٨٤٨) .

وعاد بيجو ثم رجع إلى بلاد الروم فى سنة خمس وخمسين وستمائة فدخلها وشن الغارات وسبى ، وكان المحرك لعوده أن بيجار الرومى حضر إلى باب السلطان غياث الدين ليحضر السماط ، ولم تكن له صورة بعسكر الروم ، فمنعه البرددارية [1] وضربه بعضهم بعصاه على رأسه ، فسقط طرطوره إلى الأرض فشق ذلك عليه ، وقال : أنتم رميتم طرطورى فى هذا الباب ، لابد أن أرمى عوضه رؤوسا كثيرة . وخرج من فوره وتوجه إلى بيجو وحثه على قصد الروم ، فقصده وأغار وخرج بعد الإغارة .

ثم عاد إلى الروم فى هذه السنة ، وقد استقل عز الدين كيكاوس ابن كيخسرو بالسلطنة . فلما بلغه عود التتار ، جهز جيشه وقدم عليهم أميرا من أكابر أمرائه اسمه أرسلان دغمش ، فتوجه بعساكر الروم وكان بيجو قد نزل بصحراء قونية . فلما كان بعد توجه أرسلان بأيام شرب كيكاوس مسكرا وتوجه إلى بيت أرسلان دغمش وهو على حالة من السكر ليهجم على حريمه ؛ فبلغه ذلك فغضب له وقال : أكون قد بذلت نفسى فى دفع عدوه ويخلفنى فى حريمى بهذا . وأجمع على الخلاف ، وأرسل إلى بيجو ووعده أنه يتخاذل عند اللقاء وينحاز إليه .

فلما التقوا ، عمل أرسلان إلى سناجق [2] صاحبه فكسرها

---

(١) البرد دار : هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الحملة ، متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه .
(صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٨) .

(٢) فى ك صناجق .

وانهزم بالعسكر ثم توجه إلى بيجو فأكرمه وتلقاه وحضر معه إلى قونية . ولما اتصل خبر الكسرة بالسلطان عز الدين فر من قونية إلى العلايا [١] وأغلق أهل قونية أبواب المدينة . فلما كان يوم الجمعة أخذ الخطيب مايملكه من ماله وحلى نسائه وأحضره معه إلى الجامع ، ورقى المنبر وقال : « يامعشر المسلمين ، إننا قد ابتلينا بهذا العدو وليس لنا من يعصمنا منه ، وقد بذلت مالى ، فابذلوا أموالكم واشتروا نفوسكم بنفائسكم ، واسمحوا بما عندكم لنجمع من بيننا مانفدى به نفوسنا وحريمنا وأولادنا » . ثم بكى وأبكى الناس وسمح كل أحد بما أمكنه .

وجهز الخطيب المذكور الإقامات وخرج إلى مخيم بيجو فلم يصادفه ، لأنه كان قد توجه إلى الصيد ، فقدم ماكان معه إلى الخاتون زوجة بيجو ، فقبلته منه وأقبلت عليه وأكل من المأكول فأكلت وقدم المشروب فأخذ منه شيئا على سبيل الشاشنى [٢] ، وناوله لصغير . فقالت له : لم لاتشرب أنت منه ؟ فقال : هذا محرم علينا . قالت : من حرمه ؟ قال : الله حرمه فى كتابه . قالت : فكيف لم يحرمه علينا ؟ فقال : أنتم كفار ونحن مسلمون . فقالت له : أنتم خير عند الله أم نحن ؟ قال : بل نحن . قالت : فإذا كنتم خيرا

---

(١) مدينة أسسها السلطان علاء الدين السلجوقى ، وقد زارها ابن بطوطة حين جاء من الشام سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) ، ووصفها بأنها مدينة كبيرة على ساحل البحر ولها تجارة مع الإسكندرية وذكر أن لها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة بناها أيضاً السلطان علاء الدين ، (أنظر لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ص ١٨٣ ، بغداد ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤ م) .

(٢) كلمة فارسية تكتب هكذا جاشنى ومعناها الذوق ، (أى ذوق الطعام أو الشراب) .

منا عنده ، فكيف نصرنا عليكم ؟ فقال : هذا الثوب الذى عليك – وكان ثوبا نفيسا يمنيا مرصعا بالدراتب [١] – تعطيه لمن يكون خاصا بك أو بعيدا عنك ؟ قالت : بل أخص به من يختص بى . قال : فإذا أضاعه وفرط فيه ودنسه ، ماكنت تصنعين به ؟ قالت : كنت أنكل به وأقتله . فقال لها : دين الإسلام بمثابة هذا الجوهر ، والله أكرمنا به فما رعيناه حق رعايته ، فغضب علينا وضربنا بسيوفكم واقتص منا بأيديكم . فبكت زوجة بيجو وقالت للخطيب : من الآن تكون أبى وأكون ابنك . فقال : مايمكن حتى تسلمى . فأسلمت على يديه ، وأجلسته إلى جانبها على السرير ، فحضر بيجو من الصيد ، فهم الخطيب أن يقوم له ، فمنعته وقالت : « أنت قد صرت حماه [٢] وهو يريد يجئ إليك ويخدمك » . فلما دخل بيجو إلى الخيمة قالت له : هذا قد صار أبى . فجلس بيجو دونه وأكرمه وقال لزوجته : أنا عاهدت الله أنى إذا فتحت قونية وهبتها لك . فقالت : وأنا وهبتها لأبى . ثم أمر بفتح قونية ، وأمن أهلها ورتب على كل باب شحنة من التتار ورسم أن لايدخلها من التتار إلا من له حاجة ، وأن يكونوا خمسين خمسين ، لايزيدون على ذلك . فلم يتعرضوا لأهلها بسوء . ثم اتفق بعد هذه الواقعه توجُّه رسل صاحب الروم إلى منكوقان ، ومصالحتهم وبذلهم مابذلوه وقسمه البلاد بين ولدى كيخسرو على ماقدمناه فى أخبارهم .

---

(١) هكذا فى ك وربما كان صحتها الدرارى .

(٢) فى ك : حموه .

ذكر مهلك منكوقان وماحصل بين اخوته من التنازع فى القانية

كانت وفاة منكوقان بمقام نهر ألطاى من بلاد أيغور ، سنة ثمان وخمسين وستمائة [١] . وكان قد قصد غزو الخطا . وكان منكوقان يدين بدين النصرانية [٢] ، وكان أخوه [٣] أرنيكا [٤] ينوب عنه فى كرسى المملكة بقراقروم . فلما مات منكوقان ، أراد [أرنيكا] الاستيلاء على المملكة ، وكان أخوه قبلاى مجرداً ببلاد الخطا من جهة منكوقان ، فجلس فى دست القانية . فأرسل بركة بن باطوخان صاحب البلاد الشمالية إلى أرنيكا يقول : أنت أحق بالقانية ، لأن منكوقان رتبك فيها فى حياته ، وانضم إليه بنو عمه قجى [٥] ابن أوكتاى وإخوته . ثم عاد قبلاى من بلاد الخطا ،فسار أرنيكا لحربه ، والتقوا واقتتلوا فكانت الكسرة على قبلاى ، وانتصر أرنيكا ، واحتوى على الغنائم والسبايا واختص بها ، ولم يسهم منها لأحد

---

(١) يذكر رشيد الدين أن وفاة منكوقان وقعت فى سنة ٦٥٥ ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٦٠٣)

(٢) لا يوجد فى المراجع ما يثبت أن منكوقان كان يدين بالمسيحية ، وإنما الثابت أنه كان بوذياً رغم أن والدته سرقوبنى كانت مسيحية ، ومهما يكن من أمر فقد اشتهر منكوقان ووالدته بالتسامح الدينى مع جميع رعاياهم حتى المسلمين منهم .

أنظر : رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ ، (نشر بلوشيه) .

(٣) فى ك : « أخاه » .

(٤) كذا فى ك : وصحة الاسم « أريق بوكا » أو « أرغيغا » ، وتشير المراجع إلى أن منكو خان نفسه كان يرغب فى أن يخلفه أخوه هذا فى القانية .

(أنظر زامباور : معجم الأسرات ؛ ص ٣٦١) .

(٥) هكذا فى ك : وتكتب أيضاً قاش ، (أنظر المرجع السابق) .

من بنى عمه شيئا . فوجدوا عليه وتفرقوا عنه ومالوا إلى قبلاى ، فعاود القتال ، فاستظهر [قبلاى] عليه وأخذ أرنيكا أسيرا .

ذكر ملك قبلاى بن تولى خان بن جنكزخان القانية وهو الخامس من ملوكهم

قال : ولما انهزم جيش أرنيكا وأسر هو ، استقر قبلاى فى القانية بقراقروم ؛ وسقى أرنيكا سما فمات . وبلغ ذلك هولاكو ، فسار فى طلب القانية لنفسه ؛ فما وصل إلى البلاد إلا وقد استقر (أخوه) [1] قبلاى فى القانية فاستقر له ماافتتحه من الأقاليم .

وفى سنة سبع وثمانين وستمائة كانت الحرب بين جيوش قبلاى القان وبين قيدوا [2] بن قيجى بن طلوخان بن جنكز خان صاحب ماوراء النهر . وكان سببها أنه (قبلاى) غضب على أمير من أمرائه اسمه طردغا ، فأحس أن قبلاى قد عزم على الإيقاع به ، فهرب ولحق بقيدو وحسّن له قصد قبلاى وحربه . وأطمعه فى القانية . وقال : إن قبلاى قد كبر سنه ومابقى ينهض بتدبير مملكته وإنما أولاده هم الذين يتولون الأمور وهم صبيان ؛ فسار قيدو بجيوشه وطردغا صحبته ، وبلغ قبلاي الخبر فجهزجيوشه صحبة ولده نمغان [3] . فلما صار قيدوا بالقرب من القوم بلغه ماهم عليه

(١) فى ك : « أخاه » .

(٢) هكذا فى ك : ويكتب أيضاً قايدو . ويذكر رشيد الدين أن قايدو هذا هو ابن قاشى بن أوكتاى ؛ (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٤٤٧ - ٤٤٨) .

(٣) هكذا فى ك : ولكن رشيد الدين يكتبه نوموغان ؛ (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٦١٣) .

من الكثرة ، فهمّ بالرجعة فقال له طردغا : « يعطينى الملك تمانا [١] من نقاوة العسكر ، وأنا أدبر الحيلة وأهزمهم » فقال له قيدوا : «وكيف تصنع ؟ » فقال : « إن الطريق أمامنا فيه واد بين جبلين ، فأتوجه أنا بالتمان وأكمن فى الوادى ، ويتقدم الملك إلى القوم ، فإذا التقى الجمعان يرجع الملك فهم لابد يتبعونه ، فإذا تبعوه نستدرجهم إلى أن يصيروا بينه وبين الوادي ، فأخرج أنا إليهم ويعطف الملك عليهم بمن معه » . ففعل قيدو ذلك وفر أمامهم حتى تجاوزوا الكمين . فخرج عليهم طردغا وعطف قيدو بمن معه فانكسر نمغان وعساكره وقتل منهم خلق كثير . وسار قيدو ومن معه فى آثارهم حتى أشرفوا على منازلهم ، ونهبوا من النساء والصبيان شيئا كثيرا . وجلبت المماليك التتار إلى الديار المصرية إثر هذه الوقعة . قال : ولما وصل نمغان إلى أبيه غضب عليه ، وأرسله إلى بلاد الخطا فأقام حتى مات .

ودامت أيام قبلاي وطالت إلى سنة ثمان وثمانين وستمائة [٢] ، فكانت مدة ملكه نحوا من ثلاثين سنة [٣] . ولما مات جلس بعده ابنه شرمون بن قبلاي بن تلى خان بن جنكز خان وهو السادس من ملوكهم .

كان جلوسه على تخت القانية بعد وفاة أبيه فى شهور سنة ثمان

(١) أى عشرة آلاف جندى .

(٢) هكذا فى ك . ولكن رشيد الدين يذكر أن قوبلاى توفى فى سنة ٦٩٣ ، (أنظر جامع التواريخ ، ح ١ ص ٦٦١) .

(٣) هكذا فى ك ، ولكن رشيد الدين يذكر أن قوبلاى حكم مدة خمس وثلاثين سنة (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

وثمانين وستمائة وكان لقبلاي ثلاثة أولاد وهم نمغان وشرمون[١] وكملك[٢] . فأما نمغان فإنه كان ببلاد الخطا كما ذكرنا ،فمات بها.وكان شرمون هو الأكبر ، فجلس فى الملك ودامت أيامه إلى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وتوفى فيها أو فيما يقاربها . ولما مات سار طقطا بن منكوتمر صاحب البلاد الشمالية فى طلب القانية ، فمات أيضا ولم يلها . وجلس على كرسى القانية أحد أولاده ولم يصل إلينا جلية الخبر فنذكره .

فلنذكر ملوك البلاد الشمالية من البيت الجنكزخانى

ذكر أخبار ملوك البلاد الشمالية من أولاد جنكزخان التمرجى

هذه المملكة ببلاد الشمال ونواحى الترك والقفجاق وكرسيها مدينه حراى[٣] . وأول من ملك هذه المملكة من أولاد جنكز خان .

---

(١) هكذا فى ك ، ويكتب أيضاً شيرامون وسيرامون ، ولكن المصادر الأخرى تخالف النويرى . إذ تذكر أن شيرامون هو إبن كوجو بن أوكتاى . وكوجو هذا هو الإبن الثالث لأوكتاى وولى عهده ، ولكنه توفى فى عهد أبيه ، ولهذا إختار أوكتاى حفيده شيرامون بن كوجو ليكون وليا لعهده وكان طفلا صغيراً . (أنظر الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٢٠٦ حاشية ٤ ، وأنظر أيضاً رشيد الدين . جامع التواريخ . ج ١ ص ٤٤٦) .

(٢) هكذا فى ك ، ويكتب أيضاً كوملك وكملا ، كما ذكر فى رشيد الدين ، ويلاحظ أن كملا هذا هو ابن جيم كيم بن قوبلاى فهو إذن حفيد قوبلاى وليس إبنه ، (أنظا جامع التواريخ ، ج ١ ص ٦١٣) .

(٣) تكتب أيضاً سراى ، مدينة على الشاطىء الأيسر لنهر الفولجا . إتخذها هذا الفرع من المغول حاضرة له ، ويذكر الجوينى أن الذى بناها هو باتو بن جوجى ، (أنظر تاريخ جهانكشاى ، وانظر أيضاً : (Howorth, Hist, of the Mongols, II, 1, p. 36)

دوشى خان [١] وهو الذى فتحها لما جهـزه أخوه أوكديه خان عند انتصابه فى القانية بعد مهلك جنكز خان ، وذلك فى سنة سبع وعشرين وستمائة ، وهلك فى سنة إحدى وأربعيـن وستمائة .

وملك بعده ابنه باطوخان بن دوشى خان ، وهو الملقب صاين قان ، واستمر فى الملك من سنة إحدى وأربعين وستمائة إلى أن توفى فى سنة خمسين وستمائة . وكانت مدة ملكه عشر سنين وهو الثانى من ملوك هذه المملكة .

ولما مات صاين قان خلف من الأولاد ثلاثة ، وهم طغان وبركة وبركجار [٢] . فنازعهم عمهم صرطق [٣] بن دوشى خان بن جنكز خان الملك ، واستبد به دونهم ، فملك فى سنة خمسين وستمائة وهو الثالث من ملوك هذا البيت واستمر فى الملك إلى أن هلك فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، فكانت مدة ملكه سنة وشهوراً . ولم يكن له ولد .

وكانت براق شين [٤] زوجة طغان ابن أخيه باطوخان قد

---

(١) سبق أن ذكرنا فى أكثر من موضع أن توشى خان (جوجى) توفى فى عهد أبيه جنكز خان ولم يدرك أخاه أوكتاى عندما تولى عرش المغول ، وإنما الذى قام بفتح البلاد الشمالية هو باتو ابن جوجى بتكليف من أوكتاى وكان ذلك فى سنة ٦٣٣ هـ (أنظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥١٣) .

(٢) بركة وبركجار من أولاد دوشى (جوجى) وليسا من أبناء باطو (باتو) ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥٠٦ ، وما بعدها) .

(٣) يكتب أيضاً سرتاق، وكتبه المقريزى (السلوك ج ١ ص ٣٩٤) « صرطق خان ابن دوشى خان » ، ومن الواضح أن رواية المقريزى تتفق مع رواية النويرى فى أن صرطق أو سرتاق هو ابن دوشى خان ، وهـذا يختلف بدوره مع ما ورد فى زامبـاور (ص ٣٦٣ من أن سرتاق بن باطو أو باتو بن دوشى) .

(٤) تكتب أيضاً برقجين خاتون ، (أنظر زامباور ص ٣٦٣) .

أرادت أن تولى ولدها تدان منكوا السلطنة بالبلاد الشمالية بعد وفاة صرطق ، وكان لها بسطة وتحكم ، فلم يوافقها الخانات أولاد باطو خان عمومة ابنها ، وأمراء التمانات على ذلك . فلما رأت ذلك من اقناعهم راسلت هولاكو بن تلى خان وأرسلت إليه نشابة بغير ريش ، وقباءاً بغير بنود ؛ وأرسلت إليه تقول له : « قد تفرغ الكاشن من النشاب وخلا القرنان من القوس ، فتحضر لتتسلم الملك » ثم سارت فى إثر الرسول ، وقصدت اللحاق بهولاكو أو إحضاره إلى بلاد الشمال . فلما بلغ القوم مادبرته أرسلوا فى إثرها وأعادوها على كره منها وقتلوها .

هذا ماانتهى علمه إلينا من أخبار هؤلاء الملوك الثلاثة ، ولم نطلع على ماكان لكل منهم من الأخبار والحروب والوقائع والفتوحات فنذكره ، وإنما أوردنا ماأوردناه وما نورده مما تلقفناه من أفواه الرجال .

ذكر ملك بركة بن باطوخان بن دوشى خان ابن جنكزخان وهو الرابع من ملوك هذه المملكة الشمالية

كان جلوسه على تخت المملكة الشمالية فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة بعد وفاة عمه صرتق ، وأسلم بركة هذا وحسن إسلامه ؛ وأقام منار الدين ، وأشهر شعائر الإسلام وأكرم الفقهاء وأدناهم منه ، وقربهم لديه ووصلهم . وابتنى المساجد والمدارس بنواحى مملكته ، وهو أول من دخل فى دين الإسلام من عقب جنكز خان .

لم ينقل إلينا أن أحدا منهم أسلم قبله [١] . ولما أسلم أسلم أكثر قومه وأسلمت زوجته ججك خاتون ، واتخذت لها مسجدا من الخيام تسافر به .

وفى سنة ثلاث وخمسين وستمائة كانت الحرب بين بركة وهولاكو [٢] ملك خراسان والعراقين وما مع ذلك . وذلك أن هولاكو لما انتهت إليه رسالة براق شين زوجة طغان كما ذكرناه ، أطمعه ذلك فى ملك هذه المملكة ليضمها إلى مابيده من الممالك . فتجهز وسار بجيوشه إليها ، فكان وصوله بعد قتل براق شين وجلوس بركة على سرير الملك وانتظام الأمر له .

ولما اتصل ببركة خبر هولاكو وقربه من البلاد سار بجيوشه للقائه وكان بينهما نهر يسمى نهر ترك وقد جمد ماؤه لشدة البرد ، فعبر عليه هولاكو بعساكره إلى بلاد بركة . فلما التقوا واقتتلوا كانت الهزيمة على هولاكو . فلما وصل إلى ذلك النهر تكردس أصحابه عليه ، فانخسف بهم ، ففرق منهم خلق كثير [٣] ، ورجع هولاكو بمن بقى معه من أصحابه إلى بلاده . ونشأت الحرب بينهم من هذه

---

(١) ذكر المقريزى عن بركة خان هذا أنه « أسلم وأظهر شعائر الإسلام فى مملكته واتخذ المدارس وأكرم الفقهاء . وأسلمت زوجته ججك ، واتخذت لها مسجداً من الخيم ، وذلك على يد الشيخ نجم الدين كبرا » .

(السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٩٥) .

(٢) فى ع هولاكوا ، وكذلك تكررت فيما بعد .

(٣) عن هذه الواقعة ، أنظر أيضاً رشيد الدين : جامع التواريخ ، تاريخ هولاكو خان ، المجلد الثانى — الجزء الأول ، الترجمة العربية ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

السنة ، وكان فيمن شهد هذه الوقعة مع بركة ابن عمه نوغيه [١] ابن ططر بن مغل بن جنكز خان فأصابته طعنة رمح فى عينه فغارت . ولنوغيه هذا أخبار نذكرها بعد إن شاء الله تعالى .

وراسل بركة هذا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ملك الديار المصرية والممالك الشامية فى سنة إحدى وستين وستمائة يخبره بما من الله تعالى به عليه من الإسلام فأجابه السلطان يهنيه بهذه النعمة ؛ وجهز له هدايا جليلة ؛ من جملتها ختمة شريفة ذكر أنها من المصاحف العثمانية ، وسجادات للصلاة وأكسية لواتية ؛ وعدة من النطوع المصرطقة والأديم وسيوف قلاجورية مسقطة ، ودبابيس مذهبة ، وخوذ وطوارق ، وفوانيس وشمعدانات ؛ ومشاعل جفناوات وقواعد برسمها مكفتة ، وسروج خوارزمية ؛ ولجم ؛ كل ذلك بسقط الذهب والفضة ؛ وقسى حلق وقسى بنيدق وحروج وأسنة ونشاب بصناديقه وقدور برام ؛ وقناديل مذهبة ؛ وخدام سود ، وجوارى طباخات ، وخيول عربية سبق ، وهجن نوبية ، وحمير فرة ، ونسانيس وبغانغ وغير ذلك . [٢] وأعاد السلطان الملك الظاهر رسله فى شهر رمضان من السنة المذكورة ؛ وكتب إليه يغريه بهولاكو ويحضه على حربه .

---

(١) يكتبه رشيد الدين نوقساى ، ويذكر أنه إبن تاتار بن بوقال إبن جوجى خان . فهو بالنسبة لبركة ليس ابن عمه كما ذهب النويرى بل حفيد أخيه ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥١٧ طبع طهران) .

(٢) أنظر ماكتبه ابن ابى الفضائل (كتاب النهج السديد ص ١١١) عن هذه الهدية ، وكذلك ماكتبه ابن واصل (مفرج الكروب ص ٤٢٢ ب مخطوط) .

وفى سنة ثلاث وستين وستمائة كانت الحرب بين عساكر بركة وعساكر أبغا بن هولاكو ، وذلك أن هولاكو لما توفى فى هذه السنة وجلس ابنه أبغا بعده ، جهز جيشا لقتال بركة ، فلما بلغه الخبر جهز جيشا وقدم عليه ييسوا نوغا [1] بن ططر بن مغل ، فصار فى المقدمة ثم أردفه بمقدم آخر اسمه بستاى فى خمسين ألف فارس ، فسبق نوغا بمن معه وتقدم إلى عسكر أبغا وبستاى على إثره . فلما أشرفت عساكر أبغا على بستاى وهو مقبل فى سواده العظيم تكردسوا وتجمعوا للهزيمة ، فظن بستاى أنهم أحاطوا بنوغا ومن معه فانهزم راجعا من غير لقاء. وأما نوغا فإنه تبع عساكر أبغا وواقعهم وهزمهم ، وقتل منهم جماعة وعاد إلى بركة ؛ فعظم قدره عنده وارتفع محله ، وقدمه على عدة تمانات. وعظم ذنب بستاى عند بركة.

ودامت أيام بركة هذا بهذه المملكة إلى أن توفى فى سنة خمس وستين وستمائة وهو على دين الإسلام ، رحمه الله تعالى .ولم يكن لبركة ولد يرث الملك من بعده فاستقر الملك من بعده لابن أخيه منكوتمر [2] .

---

(١) ويكتب أيضاً « نوقاى » أو « نوغاى » .
(أنظر : رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج ٢ ص ١٤) .
(٢) وتكتب أيضاً منكو تيمور وهو ابن طوغان بن باطوخان .
وإذن فهو بالنسبة لبركة ليس ابن أخيه كما ذهب النويرى بل حفيد أخيه .

ذكر ملك منكوتمر بن طوغان [١] بن باطوخان ابن دوشى خان بن جنكزخان وهو الخامس من ملوكهم بهذه المملكة

ملك هذه المملكة وجلس على كرسى الملك بصراى ، وصار إليه ملك بلاد الشام والترك والقفجاق وباب الحديد وما يليه ؛ وذلك فى سنة خمس و ستين وستمائة . ولما ملك كاتبه السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى من الديار المصرية بالتهنئة والتعزية بعمه [٢] ، وأغراه بأبغا بن هولاكو وحرضه عليه كما كان قد فعل لما كاتب بركة ، وذلك فى سنة ست وستين وستمائة .

ذكر مسير عساكر منكوتمر الى بلاد القسطنطينية

وفى سنة ثمان وستين وستمائة جهز منكوتمر جيشا إلى اصطنبول . وكان رسول السلطان الملك الظاهر ركن الدين يومذاك عند الأشكرى [٣] ، وهو فارس الدين المسعودى . فخرج المذكور إلى عسكر منكوتمر وقال : أنتم تعلمون أن صاحب اصطنبول صلُح مع صاحب مصر وأنا رسول الملك الظاهر ، وبين أستاذى وبين الملك منكوتمر مراسلة ومصالحة واتفاق . واصطنبول مصر ومصر اصطنبول . فرجعوا عنها

(١) تكتب أيضاً توقوقان (أنظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ص٥١٤ ، طبع طهران) .

(٢) الصواب عم أبيه .

(٣) الأشكرى هو اللقب الذى لقب به المعاصرون فى المراجع العربية إمبراطور الروم فى القسطنطينية .

ونهبوا بلادها وشعثوا. فلما وصل الفارس المسعودى فى الرسلية إلى الملك منكوتمر من جهة السلطان ، أنكر عليه كونه صد جيوشه عن أخذ اصطنبول . وكان المسعودى قد فعل ذلك من قبل نفسه وبرأيه ، لا برأى السلطان الملك الظاهر وأمره . فلما عاد المسعودى إلى السلطان الملك الظاهر نقم عليه وضربه واعتقله .

ولما كان جيش منكوتمر باصطنبول ورجعوا ، مروا بالقلعة التى فيها عز الدين كيكاوس صاحب الروم معتقلا فأخذوه منها ، وأحضروه إلى الملك منكو تمر ، فأكرمه وأحسن إليه وأقام عنده إلى أن مات .

ودامت أيام منكوتمر إلى سنة تسع وسبعين وستمائة وتوفى ، ووردت الأخبار بوفاته إلى الديار المصرية فى سنة إحدى وثمانين وستمائة . وكان سبب وفاته أنه طلع له دمل فى حلقه فبظه فمات منه فى شهر ربيع الأول من السنة . فكانت مدة ملكه نحو أربع عشرة [1] سنة .

وخلف منكوتمر من الأولاد تسعة [2] ، وهم ألغى [3] وأمه ججك خاتون [4] وكان لها حرمة وبسطة لأنها من الذرية القانية ،

---

(١) فى ك : أربعة عشر .

(٢) يذكر رشيد الدين أنه كان لمنكوتمر عشرة أولاد ويزيد على ما ذكره النويرى اسم « مولاقاى » .

(أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥١٤ طبع طهران) .

(٣) يكنيه رشيد الدين « ألغوى » . (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

(٤) يذكر رشيد الدين أولجاى خاتون هى والدة ألغوى (نفس المصدر ونفس الصفحة) .

وبرلك[١] ، وصراى بغا[٢] ، وطغرلجا [٣] ، وتلغان [٤] ، وتدان[٥] وطقطا [٦] وهو الذى ملك البلاد فيما بعد ، وقدان ، وقطغان [٧] . وكان له (منكوتمر) من الإخوة لأبيه تدان منكوا [٨] ، وأدكجى [٩] ؛ وتدان منكوا أكبرهم. فدفع تدان منكوا أولاد أخيه عن الملك واستقر هو فى الملك بعد أخيه منكوتمر .

ذكر ملك تدان منكوا [١٠] بن طغان بن باطوخان ابن دوشى خان بن جنكزخان

ملك البلاد الشمالية بعد وفاة أخيه فى شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستمائة [١١] . وقيل إنه جلس فى جمادى الآخرة سنة ثمانين . وهو السادس من ملوك هذه المملكة . وكان السلطان الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية قد أرسل

(١) يكتب أيضا بورلوك (نفس المصدر السابق ونفس الصفحة) .
(٢) يكتب أيضا سراى بوقا . (نفس المصدر ونفس الصفحة) .
(٣) يكتب أيضا طغريلجه . (نفس المصدر ونفس الصفحة) .
(٤) فى مقابل هذا الاسم يذكر رشيد الدين اسما مختلفا هو اباجى (نفس المصدر ونفس الصفحة) .
(٥) يكتب أيضا تودا كان . (نفس المصدر ونفس الصفحة) .
(٦) يكتب أيضا توقتاى (نفس المصدر ونفس الصفحة) .
(٧) يكتب أيضا قودوقاى. (نفس المصدر ونفس الصفحة) .
(٨) ويكتب أيضا تود امنكو . (أنظر : « زامباور» : معجم الأنساب ص ٣٦٣) .
(٩) يكتبه رشيد الدين أولا تجى . (أنظر : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥١٤) .
(١٠) يكتبه رشيد الدين تودا مونككا (أنظر : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥٢٧ طبع طهران) .
(١١) يذكر رشيد الدين أن وفاة تدان منكوا كانت فى سنة ٦٨١ هـ . (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة)

رسلا إلى منكوتمر وهما شمس الدين سنقر الغتمى ، وسيف الدين تلبان الخاص تركى ؛ وسيرمعهما ستةعشر تعبية من القماش النفيس لمن يذكر : الملك منكوتمر ، وأدكجى ، وتدان منكو ، وتلا بغا [١] ، ونوغاى ؛ وكان قد تقدم عنده .وما هو للخواتين من الأقمشة وهن : ججك خاتون وإلجى خاتون وتوتكين خاتون ، وبدارن خاتون وسلطان خاتون وخطلوا خاتون .وماهو للأمراء وهم : الأمير مادوا أمير الميسرة ، والأمير طبرا أمير الميمنة. وماهو لقيالق زوجة ايلجى . وماهو للسلطان غياث الدين صاحب الروم. وكانت هدية جليلة من الأقمشة والتحف والقسى والجواشن والخوذ . فلما وصلا وجدا منكوتمر قد مات ، وجلس تدان منكوا فى الملك ، فقدموا له الهدية فقبلها .

واستمر تدان منكوا فى الملك إلى سنة ست وثمانين وستمائة ؛ فأظهر الزهد والتخلى عن النظر فى أمور المملكة وصحب الفقراء والمشايخ وقنع بالقوت ، فقيل له : إن المملكة لابد لها من ملك يسوس أمورها ، فنزل عن الملك لتلابغا [٢] .

---

(١) يكتبة رشيد الدين تولا بوقا وهوابن تارتوبن توقو قان بن باتو بن جوجى خان (أنظر المصدر السابق ص ٥١٤) .

(٢) يذكر رشيد الدين أن تودا مونككا عزل من منصبه بحجة أنه مجنون ، (نفس المصدر ج ١ ص ٥٢٧ طبع طهران) .

ذكر ملك تلابغا بن طربوا بن دوشى خان ابن جنكزخان

ملك البلاد الشمالية بعد تزهد تدان منكوا فى سنة ست وثمانين وستمائة ، وهو السابع من ملوك هذه المملكة .فلما ملك تجهز بعساكره لغزو الكُرك (١) واستدعى نوغيه بن ططر بن مغل بن دوشى خان ، وهو الذى قلعت عينه فى حرب هولاكو كما ذكرناه. وأمره بالمسير بمن معه من التمانات ، فسار إليه وتوافيا فى المقصد ، وشنوا الغارة على بلد كرك ونهبوا وقتلوا وعادوا وقد اشتد البرد وكثرت الثلوج ، ففارقهم نوغيه بمن معه وسار إلى مشاتيه ، فوصل سالما . وسار تلابغا ، فضل عن الطريق فهلك جماعة ممن معه واضطره الحال إلى أن أكل أصحابه دوابهم وكلاب الصيد ولحوم من مات منهم لشدة مانالهم من الجوع . فتوهم أن نوغيه قصد له المكيدة فأضمر له السوء ، وكان ذلك سبب قتله .

ذكر مقتل تلابغا

كان مقتله فى سنة تسعين وستمائة وذلك أنه لما عاد من غزو الكرك اجتمع على الإيقاع بنوغيه ، ووافقه على ذلك من انتمى إليه من أولاد منكوتمر . وكان نوغيه شيخا مجربا له معرفة وممارسة بالمكائد ،

(١) وردت بهذا الرسم فى المخطوط فى جميع النسخ التى رجعنا إليها ؛ ولم نجد فى ياقوت موضعاً بهذا الإسم قريباً من المنطقة التى يعنيها النويرى قرب وطن القفجاق .

فنمى الخبر إليه فكتمه ، ثم أرسل تلابغا يستدعى نوغيه وأظهر له احتياجه إلى مشورته وأخذ رأيه ، فراسل نوغيه والدة تلابغا وقال لها : إن ابنك شات وإننى أحب أن أبذل له النصيحة وأعرفه بما يعود عليه نفعه من مصالح ملكه ، ولايمكن أن أبديها له إلا فى خلوة يجب ألا يطلع عليها سواه ؛ وأختار أن ألقاه فى نفر يسير . فمالت المرأه إلى مقالته وأشارت على ابنها بموافقته والاجتماع به وسماع مايقول . ففرق تلابغا عساكره التى كان جمعهـا وأرسل إلى نوغيه ليحضر عنده ، فتجهز بجميع من عنده من العساكر وأرسل إلى أولاد منكوتمر الذين كانوا يميلون إليه ، وهم طقطا برلك وصراى بغا وتدان باللحاق معهم . ثم سار مجدا فلما صار بالقرب من مقام تلابغا الذى تواعدا أن يجتمعا فيه ترك العسكر الذى معه وأولاد منكوتمر طقطا وإخوته كمينا واستصحب معه نفرا يسيرا ، وتوجه نحو تلابغا ، فصار تلابغا لتلقيه ومعه من أولاد منكوتمر أولغى وطغرلجا وتلغان وقدان وقتغان ، وهم الذين انحازوا إليه . فلما اجتمع تلابغا ونوغيه وأخذا فى الحديث لم يشعر تلابغا إلا وخيول أصحاب نوغيه قد أقبلت ، فتحير فى أمره وتقدم العسكر ، فأمرهم نوغيه بإنزال تلابغا ومن معه من أولاد منكوتمر عن خيولهم فأنزلوهم ، ثم أمر بربطهم فربطوا وقال لطقطا : هذا تغلب على ملك أبيك وهؤلاء بنو أبيك وافقوه على أخذك وقتلك . وقد سلمتهم إليك ، فاقتلهم أنت كما تشاء ، فقتلهم جميعا .

ذكر ملك طقطا بن منكوتمر بن طوغان ابن باطوخان بن دوشى خان بن جنكزخان وهو الثامن من ملوك هذه المملكة

ملك البلاد الشمالية فى سنة تسعين وستمائة . وذلك أنه لما قتل تلابغا وإخوته الخمسة أولاد منكوتمر أجلسه نوغيه على كرسى الملك ، ورتب أمور دولته ، وسلم إليه من بقى من إخوته الذين اتفقوا معه . وقال : « هؤلاء إخوتك يكونون فى خدمتك فاستوص بهم » . وعاد نوغيه إلى مقامه ، وبقى فى نفسه من الأمراء الذين اجتمعوا مع تلابغا عليه عندما أرسل إليه يستدعيه .

ذكر ايقاع طقطا بجماعة من امرائه

وفى سنة اثنتين وتسعين وستمائة . جهز نوغيه زوجته ييباق خاتون إلى الملك طقطا برسالة . فلما وصلت إلى الأردو تلقاها بالإكرام واحتفل بها غاية الاحتفال ، ثم سألها عن موجب حضورها ، فقالت له : أبوك يسلم عليك ويقول لك : قد بقى فى طريقك قليل شوك فنصفه . قال : وما هو ؟ فسمت له الأمراء وهم : « كلكتاى [1] ويوقق وقرا كيوك وما جار (وتاين [2] طقطا) وكبى وبركوا [3] وطراتمر والتمر ونكا وبيطرا وبيملك تمر وبيطقتمر (وبيقور الطاجى) [4]

(١) فى النسخة ت كل كياي ، ورقة ٥٢٧ .
(٢) فى ت : وياى .
(٣) فى ت : يركو .
(٤) فى ت : بيقور أقطاجى .

وتادوة [١] وملخكا وبرلغى [٢] وكنجك وشردق وقراحين وجاجرى وابشقا بيننجى. وهؤلاء هم الذين اتفقوا مع تلابغا على نوغيه ».

فلما أبلغتة هذه الرسالة، وسمت له هؤلاء الأمراء، طلبهم وقتلهم جميعا، وعادت ييلق خاتون إلى نوغية فاطمأن خاطره؛ وتحكم أولاد نوغيه وأولاد أولاده. وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة [٣] وهم جكا وتكا [٤] وطراى وابنة تسمى طغلجا وابن بنت يسمى أقطاجى. وكانت ابنته متزوجة لشخص يسمى طاز بن منجك، فقويت شوكتهم، ثم وقع الخلف بين طقطا ونوغيه.

ذكر ابتداء الخلف بين طقطا ونوغيه

وفى سنة سبع وتسعين وستمائة ابتدأ الخلف بين طقطا ونوغيه؛ وكان لذلك أسباب منها أن ييلق خاتون زوجة نوغيه نفرت من ولديه جكا وبكا وأظهرا لها الإساءة والامتهان، فأغرت طقطا بهما وأرسلت إليه تحرضه عليهما. ومنها أن بعض أمراء طقطا أو جسوا منه خيفة ففارقوه وانحازوا إلى نوغيه؛ فقبلهم وأحسن إليهم، وأنزلهم فى حوزته، وزوج أحدهم وهو طاز بن منجك بابنته؛ فطلبهم طقطا منه فمنعهم عنه فأغضبه ذلك، وأرسل إليه رسولا وصحبته محراث [٥] وسهم نشاب وقبضة تراب. فجمع أكابر

(١) فى ت: بارق.

(٢) فى ت: بر ليق.

(٣) يذكر رشيد الدين هؤلاء الأولاد الثلاثة على هذا النحو: جسوكه وبوكه وبورى، (أنظر جامع التواريخ، ج ١ ص ٥١٧).

(٤) هكذا فى ك، والصواب بكا على نحو ما ورد فى رشيد الدين.

(٥) فى ك: محراثاً.

عشيرته وقال : « ماعندكم فيما أرسله طقطا ؟ » فقال كل منهم قولا ، فقال : « ماأصبتم وأنا أخبركم بمراده . أما المحراث فهو يقول : إن نزلتم إلى أسافل الأرض أطلعتكم بهذا المحراث ، وأما النشابة فيقول : إن طلعتم إلى الجو أنزلتكم بهذا السهم ، وأما التراب فيقول : اختاروا لكم أرضا تكونون فيها للملتقى » . فقال نوغيه لرسوله : « قل لطقطا إن خيلنا قد عطشت ونريد نسقيها من ماء تن - وهو نهر على مقام صراى وفيه منازل طقطا - وجمع جنوده وسار للقائه .

ذكر الوقعة الأولى بين طقطا ونوغيه

وفى سنة سبع وتسعين وستمائة سار طقطا للقاء نوغيه ، فجمع عساكره ومن انضاف إليه ، وكانوا يزيدون على مائتى ألف فارس . وسار كل منهما لقصد صاحبه ، فالتقوا على نهر يقصى بين مقام طقطا ومقام نوغيه . فكانت الهزيمة على طقطا وعساكره ، وانتهت بهم الهزيمة إلى نهر تن ، فمنهم من عبر وسلم ومنهم من هوى به فرسه فغرق . وأمر نوغيه عساكره أن لايتبعوا منهزما ولايجهزوا على جريح . وأخذ الغنائم والسبايا والأسلاب وعاد إلى مكانه .

ذكر الوقعة الثانية وقتل نوغيه

وفى سنة تسع وتسعين وستمائة ، عزم طقطا على حرب نوغيه ، واتفق أن جماعة من أمراء نوغيه الذين كان يعتمد عليهم فارقوه وانحازوا إلى طقطا . فقويت به شوكتهم ، وكانوا فى ثلاثين ألف فارس . ولما تجهز طقطا اتصل خبره بنوغيه ، فتجهز أيضا لحربه وخرج كل منهما للقاء الآخر . فلما صار بينهما مسافة يوم ، أرسل نوغيه شخصا ومعه مائة فارس للكشف ، فظفر بهم طقطا وقتلهم ونجا مقدمهم بمفرده . فأخبر نوغيه أن العسكر قد دهمه ، فركب فيمن معه والتقوا على كوكان لك واقتتلوا ، فكانت الكسرة على نوغيه فى وقت المغرب ، فانهزم أولاده وعشائره وثبت هو على ظهر فرسه ، وكان قد كبر وطعن فى السن ، وتغطت عيناه بشعر حواجبه ، فوافاه رجل روسى من عسكر طقطا وقصد قتله ، فعرفه بنفسه وقال : « أنا نوغيه فاحملنى إلى طقطا فلى معه حديث » . فلم يصغ الروسى لمقالته وقتله . وحمل رأسه إلى طقطا وقال : « هذا رأس نوغيه » . فقال له : « ومن الذى أعلمك أنه نوغيه ؟ » فقص عليه القصة . فآلمه ذلك ، وأمر بقتل قاتله ، وقال : « إن من السياسة قتله حتى لايجترئ أمثاله على قتل مثل هذا الرجل الكبير » . ثم عاد طقطا إلى مقامه .

ذكر أخبار أولاد نوغيه

ولما انهزم عسكر نوغيه وقتل ، استقر أولاده بمقامه فلم تطل بهم الأيام حتى وقع الخلف بينهم . وقتل جكا بن نوغيه أخاه بكا ، واستبد جكا بملك أبيه وأقام له نائبا يسمى طنغر ؛ فنفر عنه أصحابه وعلموا أنه لايبقى عليهم بعد أن قتل أخاه . واتفق نائبه طنغر مع طاز بن منجك – وهو صهر نوغيه ، زوج ابنته طغلجا – على الإغارة على بلاد أولاق والروس . فسارا وتذاكرا سوء سيرة جكا فيهم ، واتفقا على أن يقبضا عليه عند عودهما . وعادا لذلك . فبلغه الخبر ففر منهما فى مائة وخمسين فارسا ، ودخل بلاد آص وكان بها مقدم وطمأن من عسكره فأقام بينهم . ووصل طنغر ثانية وطاز بن منجك صهره إلى بيوته فنهبوها واستولوا عليها .

ولما أقام جكا ببلاد آص تسلل إليه كثير من عسكره . فكثرت بهم عدته . وسار لحرب طنغر وطاز بن منجك . والتقوا واقتتلوا فاستظهر جكا عليهما وأسروا بيوتهما به . وكانت أخته طقلجا تقاتله بنفسها فى هذه الوقعة . فلما انكسر زوجها ومن معه ، كاتبوا طقطا يستمدونه ، فأمدهم بجيش صحبة أخيه برلك بن منكوتمر . فلما جاءهم المدد والتقوا للقتال لم يكن لكيجا [1] بهم قبل . فهرب إلى بلاد [2] أولاق . وكان ملكها والحاكم عليها صروجا أحد

(١) هـذا فى ك ، والصواب جكا كما سبق أن ذكر النويرى .

(٢) فى ك : أحـد .

أقارب جكا فآوى إليه ، فاجتمع أصحابه وقالوا : هذا عدو طقطا ، ولا نأمن أنه إذا بلغه أنه انحاز إلينا يقصدنا بجيوشه ولا قبل لنا به. فأمسكه دعوقه فى قلعته واسمها تزنوا وطالع طقطا بأمره فأمره بقتله ، فقتله فى هذه السنة وهى سنة سبعمائة ، ودخلت مملكة الملك طقطا ممن يساويه ، واستقر يزلك [1] بن منكوتمر فى مقام نوغيه من قبل أخيه طقطا . ولم يبق من أولاد نوغيه إلا أصغرهم وهو طراى . ورتب طقطا بيجى بن قرمسى يرصع أباجى أخاه . وجهز ولديه يكل بغا وأربصا إلى بلاد نوغيه ، فاستقر يكل بغا فى صنعجى ونهر طنا [2] وتايل باب الحديد ، وهى منازل نوغيه . وأقام ايربصا ، بنق ورتب أيضا أخاه صراى بغا . [3] .

ذكر مااتفق طراى بن نوغيه وصراى بغا بن منكوتمر من الخروج عن طاعة الملك طقطا وقتلهما

وفى سنة إحدى وسبعمائة تحرك طراى بن نوغيه فى طلب ثار أبيه وأخيه من طقطا ، ولم يكن له قوة بنفسه ، فجاء إلى صراى بغا ابن منكوتمر . وكان أخوه [4] طقطا قد رتبه فى مقام نوغيه فتوصل طراى إليه ولازمه ، ولم يزل يلاطفه حتى حسّن له الخروج على أخيه طقطا وأن يستقل بالملك . فوافقه صراى بغا ومال إليه

(١) هكذا فى ك ، والصواب برلك .
(٢) فى الهامش يوجد عبارة نهر طونه ور (تيمورية ٥٢٩)
(٣) هذا الجزء غير واضح فى ع و ك ، ومنقول عن ت ورقة ٥٢٨ — ٥٢٩ .
(٤) فى ك : وكان أخساه .

وركب بتمانه وعبر نهر اتل ، وترك العسكر ، وتوجه جريدة ، اجتمع بأخيه برلك ، وعرفه ماعزم عليه وطلب منه الموافقة فأجابه إلى ماطلب . ثم بادر برلك [1] بالاجتماع بأخيه طقطا ، وعرفه الصورة وماهمّ به صراى بغا وطراى بن نوغيه . فركب طقطا لوقته فى خواصه وجهز إليهما من أحضرهما ، فقتلا بين يديه ، ورتب ولده فى المكان الذى كان قد رتب فيه صراى بغا . ولما قتل طقطا طراى هرب قرا كشك بن جكا بن نوغيه ، وهرب معه اثنان من أقاربه وهما جركتمر ويلتطلوا . - وكان برلك قد أرسل فى طلبه - فانهزم هو وهذان إلى بلاد ششتمن [2] إلى مكان يسمى يدرك بالقرب من كدك ومعهم نحو ثلاثة آلاف فارس ، فآواهم ششتمن وأصحابه وقاموا عنده يعبرون على الأطراف ويأكلون من كسبهم إلى آخر أيام طقطا .

وفى سنة سبع وسبعمائة وردت الأخبار إلى الديار المصرية أن طقطا نقم على الفرنج الجنوبية الذين بقرم وكفار البلاد الشمالية لأمور نقلت إليه عنهم ، منها استيلاؤهم على أولاد التتار وبيعهم بالبلاد الإسلامية ، فأرسل جيشا إلى مدينة كفا وهى مسقط رؤوسهم . فشعر الفرنج بهم فركبوا فى مراكبهم وتوجهوا فى البحر فلم يظفر الجيش منهم بأحد . فنهب طقطا أموال من كان منهم بمدينة صراى ومايليها .

---

(١) فى ت : زين لك ورقة ٥٢٩ والصواب برلك .

(٢) فى ت : سيشمين ورقة ٥٢٩

وفى سنة تسع وسبعمائة كانت وفاة ايرصا [١] بن طقطا حتف أنفه . وكان مرشحا عند أبيه للتقدمة على العساكر . وتوفى أيضا أخوه برلك بن منكوتمر ودامت أيام طقطا إلى أن توفى فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وملك بعده ؛

أزبك بن طغولجا بن منكوتمر بن طغان ابن باطوخان بن دوشى خان بن جنكزخان وهو التاسع من ملوك هذه المملكة

ووصلت رسله إلى أبواب مولانا السلطان الملك الناصر [٢] سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وغيرها من الممالك الإسلامية وكان وصولهم فى ذى الحجة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وصحبهم من التقادم لمولانا السلطان مالم تجر بمثله عادة . وكان من جملة رسالته أنه هنأ مولانا السلطان الملك الناصر بإيصال الإسلام من الصين إلى أقصى بلاد الغرب ؛ وقال إنه كان قد بقى فى مملكته طائفة على غير دين الإسلام فلما ملك خيرهم بين الدخول فى دين الإسلام أو الحرب ؛ فامتنعوا وقاتلوا ، فأوقع بهم وهزمهم واستأصل شأفتهم بالقتل والأسر . وجهز إلى مولانا السلطان عدة من سباياهم ، فأعاد مولانا السلطان رسله صحبة رسل منه وأنعم عليهم وأرسل معهم الهدايا الوافرة . هذا مانقل إلينا من أخبار ملوك هذه المملكة

(١) يذكر رشيد الدين أن توقتاى (طقطا) كان له ابن إسمه تانوس ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥١٤ ، طبع طهران) .

(٢) يقصد المؤلف السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

الشمالية إلى حين وضعنا لهذا التأليف. ومهما اتصل بنا من أخبارهم بعد ذلك نورده إن شاء الله فى جملة أخبار الدولة الناصرية بالديار المصرية المحروسة .

وأما ملوك ماوراء النهر من ذرية جنكزخان

فلم يصل إلينا من أخبارهم ماندونه لبعد بلادهم وانقطاع رسلهم عن ملوكنا ؛ إلا أن ملك ماوراء النهر انتهى إلى قيدوا بن قيجى بن طلوا بن جنكز خان ، وطلوا هو تلى خان . ورأيت فى شجرة وضعها الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصورى أن قيدوا ابن قيجى بن أوكديه بن جنكز خان[1] .وطالت أيام قيدوا واستمر الملك إلى أن توفى فى تسع وسبعمائة [2] . وكرسى مملكته . كاشغر وقلا صاق [3] ، وله تركستان وقيالق [4] والمالق [5] وبخارى وغير ذلك . ولما مات ملك بعده ابنه جابار واستمر إلى أن مات فى سنة سبع عشرة وسبعمائة [6] . وملك بعد أخوه ألوين بغا

(١) هذا الرأى الذى رواه النويرى عن الأمير بيبرس الدوادار صاحب كتاب زبدة الفكرة هو الرأى الصحيح . إذ جاء فى رشيد الدين (جامع التواريخ ؛ ج ١ ص ٤٤٧) أن قايدو (قيـــدوا) هو إبن قاشى (قيجى) بن أوكتاى (أوكديه) (أوكديه) بن جنكز خان .

(٢) الحقيقة أنه توفى سنة ٧٠١ هـ = ١٣٠١ م ، (أنظر إستانلى لين بول : طبقات سلاطين إسلام ، ترجمة عباس إقبال ، ص ١٨٦ ؛ طهران ١٣١٢ ش) .

(٣) فى ت : فاصلاق ورقة ٥٣٠ .

(٤) فى ت : أبالق ورقة ٥٣٠ .

(٥) فى ت : المـــاق ورقة ٥٣٠ .

(٦) الحقيقة أن جابار عزل سنة ٧٠٦ هـ . (أنظر زامباور : معجم الأنساب ، ص ٣٦١) وجابار كما يكتبه رشيد الدين هو الابن الأكبر لقايدو ، ويقال إنه كان لقايدوا أربعون ولداً ولكن هذا القول مبالغ فيه إذ عرف أن له ٢٤ ولداً فقط ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٤٤٨ طبع طهران) .

ابن قيدوا . ولقيدوا غير هؤلاء من الأولاد تانجار [١] وأروس [٢] . وهذه الطائفة يقابلون القان الكبير الجالس على تخت القانية بقراقروم وغيره .

وأما ملوك غزنة وباميان وهم أولاد أرديوا [٣] بن دوشى خان ابن جنكز خان وهم أقرب إلى ملوك البلاد الشمالية من غيرهم من البيوت لأن أرديوا بن دوشى خان هو أخوباطو خان بن دوشى خان . فدوشى خان بن جنكزخان يجمعهم وأخبارهم أيضا منقطعة عن بلادنا لبعد بلادهم ، لأن بيت هولاكو بيننا وبينهم . والذى وصل إلينا من أخبارهم أن ملك غزنة وباميان انتهى إلى قيجى [٤] بن أرديوا بن دوشى خان. ودامت أيامه إلى أن توفى فى سنة إحدى وسبعماية ، فاختلف أولاده وبنو عمه فى الملك بعد وفاته وتنازعوه بينهم وافترق بعضهم عن بعض ، وكان له من الأولاد [٥] . نيان . وكبلك [٦] وطقتمر . وبغانمر . وهغطاى .

---

(١) فى ت : بابنجـــار ورقة ٥٣٠ .

(٢) فى ت : أدوين ورقة ٥٣٠

(٣) يكتبه رشيد الدين « أورده » ، وهو الإبن الأكبر لجوجى (توش خان) ، (أنظر نفس المصدر ، ص ٥٠٦) .

(٤) أخطأ النويرى فى ذكر هذا الإسم فقد سبق أن عرفنا أن قاشى (قيجى) هو ابن أوكتاى ، ولم يكن إبناً لأورده بن جوجى . وهو — بدون شك — يقصد « قوينجى » بن أورده ابن جوجى خان الذى خلف أباه فى ولاية العرش ، وحكم مدة طويلة ، وكان على علاقة طيبة بالسلطان أرغون والسلطان نجازان خان من حكام المغول فى إيران . ويذكر رشيد الدين أن قوينجى هذا كان ضخم الجثة إلى درجة مفرطة ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ٥٠٧) .

(٥) يذكر رشيد الدين أنه كان لقوينجى أربعه أولاد هم : نايان وجقيرتاى وجغان بوقا وماقوداى . (أنظر نفس المصدر ، ص ٥٠٨) .

(٦) يكتبه رشيد الدين « كوبلك » ويذكر أنه ابن عم نايان (عمزاده) ، وليس أخاه . كما ذكر النويرى .

وصاحى . وكان كبلك قد استقر فى الملك بعد وفاة أبيه فسار أخوه نيان إلى الملك طقطا واستنجد به ، واستمده على أخيه ، فأمده بأخيه برلك وسار كبلك إلى قيدوا واستعان به فأمده بجيش .وعادا من جهة طقطا وقيدوا ، والتقوا واقتتلوا فكُسر كبلك ثم مات واستقر أخوه نيان فى المملكة الغزنوية ، واستمر إلى سنة ثمان وسبعماية ، فوقع الخلف بينه وبين أخيه منغطاى بن قيجى [1] وتنازعا الملك ، وانحاز إلى كل واحد منهما فئة ، فاستظهر منغطاى على أخيه نيان بكثرة من انحاز إليه ، فانهزم نيان واستقر منغطاى فى الملك . وأقام نيان ببلاد بكمرش وهى على أطراف حدودهم . ثم توجه قرشياى بن كبلك إلى قيدوا فى سنة تسع وسبعماية ، واستنجده على عمه نيان ، فأنجده عليه ، وجرد معه جيشا . فقصد نيان واقتتلا فانهزم نيان وتوجه إلى عند الملك طقطا ، لأنه كان قد أمده أولا وأعانه . وتمكن قرشتاى من بلاد نيان واستقر بها ، واستمر منغطاى فى ملك المملكة الغزنويَّة إلى وقتنا هذا .

وانقطعت أخبارهم عنا من سنة عشر وسبعمائة فلم يصل إلينا منها مانشرحه . وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار هذين البيتين لتكون دالة على وجودهم ومنبهة عن ممالكهم ، وإلا فأخبارهم كثيرة لم نظفر بها . فلنذكر الآن نبذة من أخبار هولاكو بن تولى خان ابن جنكز خان ، وأخبار أولاده ، وما ملكه وملكوه بعده من الأقاليم . والممالك .

---

(١) صحة هـذا الإسم « قوينجى » ، كما سبق أن ذكرنا .

ذكر أخبار هولاكو بن تولى خان بن جنكزخان وابتداء أمره وما استولى عليه من الممالك والأقاليم ومن ملك من ذريته

وهذا البيت من التتار وهو أقرب البيوت إلى القان الكبير ، لأن القانية استقرت فى إخوة هولاكو ، ثم فى بنى أخيه قبلاى بن تولى خان ، كما قدمناه فى أخبارهم .

وكان ابتداء أمر هولاكو أن أخاه منكوقان وهو الجالس فى أيامه على تخت القانية بقراقروم بعثه لفتح العراق فى سنة خمسين وستماية ، فسار فيمن معه من الجيوش إلى بلاد الاسماعيلية ، ويسمون ببلاد العجم الملاحدة ، فاستولى عليها وأباد أهلها قتلا وأسرا وسبيا ونهبا . ثم كان بينه وبين بركة من الحرب ماشرحناه فى أخبار بركة . وكانت الهزيمة على هولاكو وقتل كثير من أصحابه وغرق كثير منهم . وعاد هولاكو إلى العراق بمن بقى معه . وتمكنت العداوة بين هذين البيتين ونشأت الحرب بينهم من هذه السنة وهى سنة ثلاث وخمسين .

ذكر استيلائه على بغداد وقتله الخليفة المستعصم بالله

وفى سنة ست وخمسين وستماية سار هولاكو بعساكر التتار إلى مدينة بغداد ونازلها . وكان قد أرسل إلى بيجو [1] يستدعيه من بلاد الروم ، فكره بيجو اللحاق به . وما أمكنه مفاجأته بذلك ؛ فاعتذر إليه أن جمعا كثيرا من القرى تليه والأكراد والياروقية قد تجمعوا فى الطرقات ، ومقدمهم شرف الدين بن بلاش ، وأنهم أخذوا عليه وعلى من معه المضيق ، ولاسبيل لهم إلى الخروج من حدود ديار بكر . وقصد بيجو بذلك المدافعة . فجهز هولاكو تمانين من التوامين [2] التى معه ، مقدم أحدهما قدغان ومقدم الآخر كتبغا [3] نوين لفتح الطريق . وفى أثناء ذلك أوقع [4] بالأكراد والقراتلية وقعة عظيمة وجعل منهم أهل أرزنجان وتحصنوا بجبل يسمى أرن سور . فلما وصل التتار إلى أرزنجان تسلموها وحاصروا

---

(١) يكتب أيضاً بايجو وباجو والهجاء الأول هو المشهور ، وهو من قواد المغول المشهورين . كلفه — أول الأمر — أركتاى قا آن بأن يسير لفتح بلاد الروم ، فحارب السلطان غياث الدين كيخسروا الثانى (٦٣٤ — ٦٤٤) ، وانتصر عليه فى موضع كوسه داغ من نواحى أرزنجان فى ٦ المحرم سنة ٦٤١ ، وبذلك دخلت هذه البلاد تحت سيطرة المغول . كذلك عاون هولاكو فى فتح بغداد ، ورغم هذا كان هولاكو ينقم عليه فأمر بقتله ، (لمعرفة مزيد من التفصيلات عن بايجو أنظر الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ٣ ص ٤٦٧ ، وما بعدها) .

(٢) أراد النويرى بالتوامين جمع تمان ، وهى فرقة كبيرة من الجيش تعدادها عشرة آلاف جندى .

(٣) يكتب أيضاً كيتو بوقا وكيدبوقا .

(٤) فى ك أنفع .

كماج ، وهزموا الأكراد وقتلوا منهم وسبوا ، وأقام قدغان وكتبغا حتى وصل إليهما بيجو .

وأخبرنى الأتمر البدرى رحمه الله وهو من ذرية بيجو كما زعم ، وكان له معرفة بأخبارهم . أن منكوقان لما جهز بيجو لفتح الروم ، أوصاه أنه لايتعرض إلى بغداد ، وأنه لما جهز هولاكو أوصاه أن لايخالف بيجو وأنه لايصل إلى بغداد . وكتب معه إلى بيجو بذلك . فغير هولاكو الكتب وجعل معناه أن بيجو لايخالف أمر هولاكو ؛ وكانت كراهية منكوقان لفتح بغداد أنهم رأوا فيما عندهم أنها إذا فتحت لاتطول مدة القان .

ثم توجه بيجو ومن عنده إلى هولاكو ونزلوا بالجانب الغربى من بغداد ، ونزل هولاكو بالجانب الشرقى منها . وحاصروها واشتد الحصار ، فخرج إليهم عسكر الخليفة صحبة مجاهد الدين أيبك الدوادار الكبير [1] — وكان مقدما على عشرة آلاف فارس — فالتقى مع التتار وهزمهم . فولوا عامة ذلك النهار ، وقتل كثيرا منهم إلى أن حجز بينهم الليل . واستبشر المسلمون بالنصر . فلما أصبحوا تراجع التتار إليهم ، فانكسر الدوادار ومن معه . وكان أكثر أصحابه لما أيقنوا بالظفر دخلوا بغداد فى تلك الليلة ، فلما انهزم مجاهد الدين

(١) هكذا فى المتن والصواب « الدوادار الصغير » ، ذلك لأن مجاهد الدين أيبك الدوادار الصغير هو الذى كافح المغول وحاربهم أثناء محاولتهم فتح بغداد سنة ٦٥٦ . أما الدوادار الكبير واسمه علاء الدين أبو شجاع البندقدارى بن عبد الله الظاهرى فلم يعاصر هذه الأحداث إذ أنه توفى فى شوال سنة ٦٥٠ هـ ، (أنظر الحواشى والتعليقات القيمة التى كتبها العالم الإيرانى المرحوم محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى نهاية الجزء الثالث من كتاب تاريخ جهانكشاى ، ج ٣ ص ٤٤٩ ، وما بعدها) .

بمن بقى معه قصد التحصن ببغداد ، فحال بينه وبينها – للقضاء المقدر – شق انبثق من دجلة ، وساحت منه مياه عظيمة ، فصار الماء أمامه والتتار وراءه ، فأدركوه هو ومن معه ، وأخذهم السيف ، ومرق جماعة منهم . وقتل مجاهد الدين أيبك وولده أسد الدين – وكان مقدم خمسة آلاف فارس – ، « وسليمان شاه ترجم [1] » . أمير علم الخليفة ، وجماعة من الأمراء ، وأسروا خلقا . وحملت رؤوس هؤلاء الثلاثة إلى الموصل ، وحملت على باب المدينة ترهيبا لأهلها .

ورمى أهل بغداد بالداهية الكبرى والمصيبة العظمى : وارتاع الخليفة وأغلقت أبواب المدينة ، وأحاط بها التتار وضايقوها وفتحوها عنوة ، ودخلوها فى العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستماية ؛ ووضعوا السيف فيها سبعة أيام ، لم يرفعوه عن شيخ كبير ولا طفل صغير . وجئ بالخليفة إلى هولاكو فأمر أن يجعل فى جولق ويداس بأرجل الخيل ، ففعل به ذلك حتى مات ، كما ذكرناه فى أخبار الدولة العباسية . ومن عادة التتار أنهم لايسفكون دماء الملوك والأكابر غالبا .

وسبى التتار من بالقصر ، وأخذوا ذخائر الخلافة ، واستدعى هولاكو الوزير ابن العلقمى ، وكان قد كاتبه وحثه على قصد بغداد وأضعف جيوش الإسلام . فلما مثل بين يدى هولاكو سبه

---

(١) هكذا فى ك : وكلمة « ترجم » محرفة عن « برجم » الذى يبدو أنه كان والد أو جد سليمان شاه . ويذكر العلامة القزوينى اسمه مصححاً على هذا النحو : سليمان شاه بن برجم الإيرانى (أنظر الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ٣ الحواشى ، ص ٤٥٣ ، وما بعدها) .

ووبخه على عدم موافاته لمن هو غذى نعمته ، وأمر بقتله فقتل . وقيل لم يقتله بل استبقاه . ثم عزم هولاكو على إحراق مدينة بغداد ، فمنعه كتبغا نوين ، وقال هذه أم الأقاليم ويتحصل منها الأموال العظيمة ، والمصلحة إبقاؤها ، فأبقاها ورتب فيها شحنة ، ثم سار عنها بعد انقضاء الشتاء إلى الشام ؛ وجرد إلى ميّا فارقين ، والله أعلم .

ذكر استيلاء التتار على ميافارقين

وفى سنة ست وخمسين أيضا أرسل هولاكو طائفة من عساكره إلى ميا فارقين صحبة صرطق [1] نوين وقطغان نوين . وكان بها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر غازى بن العادل أبى بكر ابن أيوب ، فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق من كل ناحية ، فقاتله أهلها ، وامتنعوا وصبروا على شدة الحصار ، وقلت الأقوات عندهم حتى أكلوا الكلاب والسنانير والميتة . ففتحها التتار بعد سنتين ، بعد أن فنى الجند من كثرة القتال ، وأسر من بقى ، وأخذ الملك الكامل صاحبها وتسعة نفر من مماليكه ، وأحضروا بين يدى هولاكو فقتلوا ، إلا مملوكا واحدا يسمى قراسنقر سأله عن وظيفته ، فذكر أنه أمير شكار [2] ، فأبقاه وسلم إليه طيوره . وجاء قراسنقر هذا بعد موت هولاكو إلى الديار المصرية فى الأيام

(١) يكتبه رشيد الدين سونتاى ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى — الجزء الأول ، الترجمة العربية ، ص ٣١٩ .)

(٢) أمير شكار مكون من كلمة أمير عربية وشكار فارسية بمعنى صيد : أو هو موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها ، وكذلك كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته .
(القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٦١) .

الظاهرية ، فجعله السلطان من مقدمى الحلقة المنصورة . وكان استيلاء التتار على ميافارقين فى سنة ثمان وخمسين وستماية .

ولما قتل الملك الكامل هذا حمل التتار رأسه على رمح وطيف به البلاد ومروا به على حلب وحماه ووصلوا به إلى دمشق فى سابع عشرين جمادى الأولى من السنة ، وطافوا به فى دمشق بالمغانى والطبول ؛ وعلق رأسه بباب الفراديس فلم يزل إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس .

ذكر وفاة بيجو مقدم التتار

وفى سنة ست وخمسين أيضا نقم هولاكو على بيجو لما بلغه عنه من إضمار الخلاف وماقصده من التأخير عنه لما طلبه وأنه قصد الانفراد ببلاد الروم . فلما فرغ من فتح بغداد والعراق سقاه سما فمات . وقيل إنه كان قد أسلم قبل موته ؛ ولما حضرته الوفاة أوصى بأن يغسل ويدفن على عادة المسلمين . وكان له من الأولاد أفاك [1] . وسوكناى . وأفاك هذا هو أبو سلامش [2] ، قطقطو اللذين وفدا إلى الديار المصرية فى الأيام المنصورية .

ولما فتح هولاكو العراق جاءه ملوك الأطراف ؛ فكان ممن جاءه الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بهدايا جليلة وتحف .

---

(١) يكتبه رشيد الدين « أداك » ، (أنظر جامع التواريخ ، ج ١ ص ١٥٩ ، طبع طهران) .

(٢) يكتبه رشيد الدين سولا ميش ، (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

ولما قصد السفر من الموصل جاءه أهلها وقالوا : « إنا نخشى عليك من سطوة هذا الملك الجبار » فقال : « أرجو أن أتمكن منه وأعرك أذنيه » فلما جاءه وقدم مامعه أعجب هولاكو وأقبل عليه . فلما فرغ من تقدمته قال : « قد بقى معى شيئ خاص بالقان » وأخرج له حلقتى أذن من الذهب ، فيهما درتان كبيرتان ، فأعجباه فقال : « أشتهى القان يشرفنى بأن أجعلهما بيدى فى أذنيه ليعظم قدرى بذلك عند الملوك وأهل بلادى وأعلم رضاه عنى » فأصغى إليه بأذنيه فمسكهما ووضع الحلقتين فيهما ، ونظر إلى من معه من أهل الموصل يعنى : « أننى قد قلت قولا وقد حققته » .

وأرسل إليه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب الشام ولده العزيز بهدايا وتحف اقتداء بصاحب الموصل ، فقبل تقدمته وسأله عن تأخير أبيه ، فاعتذر بأنه لايمكنه مفارقة البلاد خوفا عليها من عدو الإسلام الفرنج ، فقبل عذره وأعاده إلى أبيه . وجاءه عز الدين كيكاوس ، وركن الدين قلج أرسلان ملك الروم فقسم البلاد بينهما على ماقرره منكوقان .

وفى سنة سبع وخمسين وستماية وجه هولاكوا أرغون — وهو من أكابر المقدمين — فى جيش إلى كرجستان ، فغزا تفليس وأعمالها ، فأغار ونهب وعاد إليه وهو بالعراق .

وفيها أيضا قدم هولاكو إلى شرقى الفرات ونازل حران وملكها ، واستولى على البلاد الجزيرية ، وذلك بعد وفاة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل .

وأرسل هولاكو أحد أولاده إلى حلب فوصل إليها فى العشر الآخر من ذى الحجة من السنة . وكان الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بحلب ينوب عن ابن أخيه الملك الناصر ، فخرج بالعسكر الحلبى لقتال التتار ، فأكمن التتار كمينا عند الباب المعروف بباب الله قريب من مدينة حلب من شمائلها ، والتقوا واقتتلوا عند بانقوسا (١) ، فاندفع التتار بين يدى العسكر الحلبى وتبعهم العسكر حتى خرجوا عن البلد ، ثم عطفوا عليهم ، فطلب المسلمون المدينة والتتار يقتلون فيهم . وهلك فى الأبواب جماعة من المنهزمين .

ثم رحل التتار إلى اعزاز وتسلموها بالأمان ، ثم تقدم هولاكو بجيوشه فبدأ بالبيرة فملكها ، ووجد بها الملك السعيد ابن الملك العزيز أخا الملك الناصر معتقلا فأطلقه ، وسأله عما كان بيده فقال : الصبيبة وبانياس ، فكتب له بذلك فرمانا ، ثم تقدم هولاكو إلى حلب .

ذكر منازلة هولاكو مدينة حلب واستيلائه عليها وعلى بلاد الشام

وفى سنة ثمان وخمسين وستماية عبر هولاكو الفرات بجموعه ، ونازل حلب ، وأرسل إلى الملك المعظم توران شاه ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف يقول : « إنكم تضعفون عن لقاء المغل ، ونحن قصدنا الملك الناصر ، فاجعلوا عندكم شحنة وبالقلعة شحنة

(١) بانقوسا : جبل فى ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال .

ونتوجه نحن إلى العسكر فإن كانت الكسرة عليهم كانت البلاد لنا وتكونون [١] قد حقنتم دماء المسلمين . وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين فى الشحنتين إن شئتم القتل أو الإطلاق فقال له الملك المعظم : « ليس له عندى إلا السيف » . وكان الرسول إليه من جهة هولاكو صاحب أرذن الروم ،فعجب من جوابه ، وتألم لما علم من ضعف المسلمين عن ملا قاة التتار

وأحاط التتار بحلب فى ثانى صفر وهجموا على البواشير فى الثالث من الشهر ؛ فقتل من المسلمين جماعة ،منهم أسد الدين ابن الملك الزاهر صلاح الدين . واشتدت مضايقة التتار لحلب ، وهجموه من عند حمام حمدان وذلك فى يوم الأحد تاسع صفر ؛ وصعد إلى القلعة خلق كثير . وبذل التتار السيف والنهب فى أهل حلب إلى يوم الجمعة رابع عشر الشهر ، فأمر هولاكو برفع السيف ؛ ونودى بالأمان ؛ فقتل منها فى هذه المدة مالايحصى كثرة ؛ وكان قد تجمع بها من أهل القرى خلق كثير . وسبى من النساء والذرارى زهاء مائة ألف ، بيعوا فى جزائر الفرنج وبلاد الأرمن ؛ ولم يسلم ممن كان بحلب إلا من التجأ إلى أماكن كان مع أهلها فرمانات من هولاكو منها : دار شهاب الدين بن عمرون ، ودار نجم الدين أخى مزدكين ، ودار البازيار ، ودار علم الدين قيصر الموصلى ، والخانقاه التى فيها زين الدين الصوفى ، وكنيسة اليهود . فقيل إن الذين سلموا فى هذه الأماكن يزيدون على خمسين ألف إنسان .

---

(١) فى ك : وتكونوا .

واستمر الحصار على القلعة والمضايقة لها نحو شهر ، فوثب جماعة ممن بالقلعة على صفى الدين بن طرزة رئيس حلب وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز ابن القاضى نجم الدين بن أبى عصرون فقتلوهما لأنهم توهموا أنهما باطنا التتار . ثم سأل من بالقلعة الأمان ، فأمنوا ، وتسلمها التتار فى يوم الإثنين حادى عشر ربيع الأول من السنة . وأمر هولاكو من كان بالقلعة أن يعود كل منهم إلى داره وملكه وأن لايعارض . ونزل العوام والغرباء إلى الأماكن التى أحميت بالفرمانات . وكان بقلعة حلب فى الاعتقال جماعة من البحرية الصالحية الذين حبسهم الملك الناصر ، منهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، وسكز ، وترامق ، وغيرهم ؛ فأخذهم وأضافهم إلى مقدم يسمى سلطان جق من أكابر القفجاق . وكان سلطان جق هذا قد هرب من التتار لما استولوا على بلاد القفجاق وقدم إلى حلب ، فأكرمه الملك الناصر وأحسن إليه وأقام عنده ، فلم توافقه البلاد فالتحق بهولاكو فأكرمه ؛ هذا ماكان من أمر حلب .

وأما حماه فان صاحبها الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب كان قد فارقها وتوجه إلى دمشق ، وترك بها الطواشى مرشد . فلما بلغه أخذ حلب فارق حماه ، وتوجه إلى الملك المنصور بدمشق ، فتوجه أكابر حماه بمفاتيحها إلى هولاكو . وسألوه الأمان لأهل البلد ، وطلبوا منه شحنة يكون عندهم ؛ فامنهم وأرسل معهم شحنة من العجم اسمه خسرو شاه ، كان يدعى أنه من ولد خالد بن الوليد ، فقدم حماه وأقام بها وآمن أهلها . وكان

بقلعة حماه مجاهد الدين قايماز أمير جاندار فسلم القلعة إليه . ودخل فى طاعة التتار .

ووصل إلى هولاكو وهو على حلب جماعة منهم الملك الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه وهو صاحب حمص ، فأكرمه هولاكو وأعاد عليه حمص . وكان الملك الناصر قد أخذها منه فى سنة ست وأربعين وعوضه عنها تل باشر ، فأعادها هولاكو عليه الآن. ووصل إليه أيضا من دمشق القاضى محيى الدين بن الزكى فأقبل عليه هولاكو وخلع عليه وولاه قضاء الشام . ولما عاد ابن الزكى إلى دمشق لبس خلعة هولاكو ، فكانت مذهبة ،وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو .

ثم رحل هولاكو إلى حارم بعد أن ولى على حلب عماد الدين القزوينى . فلما وصل إليها طلب تسليمها ، فامتنع من بها أن يسلموها إلا إلى فخر الدين متولى قلعة حلب . فأحضره هولاكو فتسلمها ، فغضب هولاكو وأمر بقتل من بها فقتلوا عن آخرهم وسبى النساء .

ذكر استيلاء التتار على دمشق

قال : وجرد هولاكو إلى دمشق مقدما يسمى السبان وصحبته علاء الدين الكازى وزين الدين الحافظى وزير الملك الناصر بحلب ؛ وكان قد خدم هولاكو . وكان الملك الناصر قد فارق دمشق فى منتصف صفر فوصل التتار إلى دمشق ، وملكوا المدينة بالأمان ، ولم يتعرضوا إلى قتل ولا إلى نهب . وعصيت القلعة عليهم فحاصرها

التتار ، وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة ، وضايقوا القلعة ونصبوا عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان فى منتصف جمادى الأولى من السنة . ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها فتسلموها وخربوا قلعتها .

وجرد هولاكو إلى الشام كتبغا نوين فى اثنى عشر ألف فارس وأمره أن يقيم بالشام ، فوصل إلى دمشق وهو الذى حاصر قلعتها وفتحها وقتل واليها بدر الدين بن [قرْمجاه] (١) ونقيبها . ونزل كتبغا بالمرج ، وحضر إليه رسل الفرنج بالساحل ، وأحضروا معهم التقادم ، وحضر إليه أيضا الملك الظاهر أخو الملك الناصر ، وكان بصرخد فأقره على حاله .

ثم توجه كتبغا إلى عجلون فامتنعت عليه قلعتها ، فحاصرها وأحضر إليه الملك الناصر وهو فى حصار عجلون ، فأمر من بالقلعة أن يسلموها إلى التتار فسلموها . وجهز كتبغا الملك الناصر إلى هولاكو فوصل إليه وهو بحلب فسأله عن عساكر الديار المصرية ، فقال : « عساكر ضعيفة ، وهم نفر قليل » وصغرهم عنده . وقال : « يكفيهم القليل من الجيش » . فاقتصر هولاكو عند ذلك على كتبغا نوين ومن معه ولم يردفه بغيره .

وعاد هولاكو من حلب إلى بلاد قراقروم لطلب القانية لنفسه ، فوجدها قد استقرت لأخيه قبلاى ، كما قدمنا ذكر ذلك . ولما فارق

---

(١) فى ك : علاء الدين بن قزل ، واللفظ الأخير غير واضح ، والتصحيح بين الحاصرتين من المقريزى ، (السلوك ج ١ ص ٤٢٦) .

حلب أمر عماد الدين القزوينى فى المسير إلى بغداد ، ورتب مكانه رجلا أعجميا . وأمر هولاكو أن يخرب أسوار قلعة حلب ، وأسوار المدينة ، فخربت عن آخرها . وأمر الملك الأشرف موسى صاحب حمص أن يتوجه إلى حماه ويخرب أسوارها وأسوار قلعتها ، فوصل إلى حماه ونزل بدار المبارز وشرع فى تخريب سور القلعة ، فخربت أسوارها وأحرقت زردخاناتها ، وبيعت الكتب التى بدار السلطنة بأبخس الأثمان ، وسلمت أسوار المدينة ، لأن حماه كان بها رجل يقال له إبراهيم بن الفرنجية كان ضامن الجهة المفردة ، فبذل لخسرو شاه جملة كثيرة من المال وقال : إن الفرنج بالقرب منا ، فى حصن الأكراد ، ومتى ضربت أسوار المدينة لايقدر أهلها على المقام بها . فأخذ منه المال وأبقى أسوار المدينة . ولم يزل خسرو شاه بمدينة حماه إلى أن انهزم التتار على عين جالوت ففارقها وعاد إلى هولاكو .

وأما كتبغا نوين فإنه أرسل إلى الملك المظفر قطز صاحب الديار المصرية يطالبه ببذل الطاعة أو تعبية الضيافة ، فقتل (قطز) رسله إلا صبيا واحدا فإنه استبقاه وأضافه إلى مماليكه . وتجهز وسار إلى لقاء التتار ، فتجهز كتبغا لقتاله والتقوا بعين جالوت ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم التتار وأخذهم السيف والأسار ، وقتل كتبغا نوين ، وفر من بقى من أصحابه إلى هولاكو . ولما استقرت القانية لقبلاى ، استقر لهولاكو مانذكره .

ذكر الأقاليم التى استقرت فى ملك هولاكو بعد وفاة منكوقان

منها :

إقليم خراسان : وكرسيه نيسابور ومن مدنه المشهورة طوس وهراة وترمذ ولحج ومرو. ويضاف إليه همذان ونسا وكنجة ونهاوند .

عراق العجم : وكرسيه أصفهان . ومن مدنه قزوين وقم وقاشان وسجستان وطبرستان وكيلان وبلاد الاسماعيلية وغيرها .

عراق العرب : وكرسيه بغداد ومن مدنه واسط. والكوفة والبصرة والدينور وغير ذلك .

أذربيجان : وكرسيها تبريز وهى توريز ؛ ومن مدنها الأهواز وغيرها .

بلاد فارس : ومدينتها شيراز ؛ ومن أعمالها كنشن وكرمان وكازرون والبحرين .

ديار بكر : وكرسيها الموصل ومن مدنها ميافارقين ونصيبين وسنجار وأسغرد [1] ورأس العين ودنيسر وحران والرها وجزيرة ابن عمر وخرتبرت وملطية وسمياط. وغيرها .

بلاد الروم : وكرسيها قونية وتشتمل البلاد الرومية على عدة أعمال منها : أرمينية الكبرى ، ومن ملكها سمى شاه أرمن . ومن مدنها خلاط. وأعمالها وان وسطان وأرجيس وما معها .

(١) هكذا فى ك .

أرزن الروم وأعمالها ؛ ومن مدنها شهر وبانوب وقجمار وتسمى دار الجلال .

مدينة ألتى [١] وأعمالها ، وهى متصلة ببلاد الكرج وتخومها وهى ذات قلعة حصينة .

أرزنجان وأعمالها ، ومن مدنها أقشهر ودرخان وكماج وقلعة كغونية وما مع ذلك .

سيواس وبلاد دانشمند وتسمى دار العلاء ، ومن مدنها أماسية وتوقات وقمنات وبلاد كنكر وبلاد انكورية ومدينة سامسون وكستمونية وطرخلوا وبرلوا وهذه متصلة بسواحل البحر المحيط وطنغزلوا وأعمالها وقرا حصار ودمرلوا وأقصرا وأنطاليا والعلايا .

ذكر مهلك هولاكو ونبذة من أخباره

كانت وفاته فى تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وستماية بالقرب من كورة مراغة . وقيل إنه حمل إلى قلعة تلا [٢] ودفن بها . وكانت مدة ملكه منذ فتح بغداد سبع سنين وشهورا ومنذ وفاة أخيه منكوقان واستقلاله بالملك خمس سنين .

---

(١) ألتى بضم الهمزة : قلعة حصينة ومدينة قرب تفليس .

(٢) يقول لسترنج فى كتابه بلدان الخلافة الشرقية ، الترجمة العربية ، ص ١٩٥ : جدد هولاكو قلعة شاها — وقد سماها حافظ إبرو قلعة تلا فى بحيرة اورمية — وجعل فيها أمواله مما نهبه من بغداد وأقاليم الخلافة . ثم صارت هذه القلعة مدفناً له . وكانت تعرف بالفارسية باسم كور قلعة (قلعة القبر) .

وقد ذكر رشيد الدين الهمذانى أنه أقيم لهولاكو ضريح كبير على جبل شاهو المواجه، لدهخوارکان ، ودفن تابوته فى تلك المقبرة ، (جامع التواريخ ص ٣٤١) .

وكان لهولاكو أحكام غريبة منها ماحكى عنه أن قوما أتـوه واستغاثوا أن بعض صناع المبارد قتل قرابة لهم ، وسألوه أن يمكنهم منه ليقتلوه بصاحبهم فسأل عن صناع المبارد وكم عدتهم ، فذكر له عدة يسيرة فأطرق ساعة ورفع رأسه إلى أولياء المقتول ، وأمرهم أن يقتلوا بصاحبهم بعض صناع البرادع والرحال ، فقالوا : إن الذى قتل صاحبنا . مباردى ولايقتل به غيره . فسأله بعض خواصه عن ذلك فقال : إن صناع المبارد عندنا قليل ومتى قتلناه احتجنا إليه ، ولايقوم غيره مقامه ، وصناع البرادع والرحال كثير ، ومن قتلناه منهم استغنينا عنه . فلما امتنع أولياء المقتول من ذلك أطلق لهم بقرة وقال : خذوا هذه بدلا من صاحبكم .

ومنها أن بعض الصناع الزراكشة تخاصم مع رجل فضربه ضربة أصابت إحدى عينيه فزالت ، فجاء إلى هولاكو واستغاث على الزركشى أنه قلع عينه ، فأمره أن يقلع عين أحد صناع النشاب . فقيل له عن ذلك فقال : إن الزركشى يحتاج إلى عينيه ومتى قلعت إحداهما تضرر ، والنشابى لايحتاج إلا إلى عين واحدة فإنه إذا قوم السهم غلق إحدى عينيه ونظر بالأخرى ، وما أشبه هذه الأحكام . ولهولاكو وقائع من هذا الجنس أضربنا عن ذكرها .

وكان له من الأولاد الذكور خمسة عشر وهم جمغار [1] وهو

---

(١) يكتبه الجوينى جومغار أغول ، (أنظر تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ٩٦) . ويكتبه رشيد الدين جومقور ، ويذكر أنه الإبن الثانى لهولاكو . أما الإبن الأكبر لهولاكو فهو آباقا خان (أبغا) ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى – الجـزء الأول ، الترجمة العـربية ، ص ٢٢٣) .

أكبرهم سنا ، وأباقا وهو أبغا وهو الذى ملك بعده . ويصمت [١] ، وتشتشين [٢] ويكشى [٣] . وتكدار [٤] ـ وهو أحمد وملك بعد أبغا ـ . وأجاي . وألاجو [٥] وسبوجى [٦] . ويشودار [٧] . ومنكوتمر . وقنغرطاى [٨] . وطرغاي و « طغاى تمر » وهو أصغرهم . ولما مات هولاكو ملك بعده أبغا .

ذكر ملك أبغا بن هولاكو بن تولى خان ابن جنكزخان

وهو الثانى من ملوك هذا البيت جلس على كرسى المملكة بعد وفاة أبيه هولاكو فى تاسع عشر شهر ربيع الاخر سنة ثلاث وستين وستماية . فأول مابدأ به أن جهز جيشا لحرب عساكر بركة ملك

(١) يكتبه رشيد الدين : يشموت ، (أنظر المصدر السابق ، ص ٢٢٥) .

(٢) يكتبه رشيد الدين : توسين ، (أنظر نفس المصدر ، ص ٢٢٦) . وأما ميرخوند (روضة الصفا) فيكتبه تشين أغول ، (أنظر كاتر مير ص ١٠٦) .

(٣) يكتبه رشيد الدين بيكين ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى ـ الجزء الأول ، الترجمة العربية ، ص ٢٢٥) .

(٤) يكتبه رشيد الدين تاكودار ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى ـ الجزء الأول الترجمة العربية ص ٢٢٦) .

(٥) يكتبه رشيد الدين هولاجو ، (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) . وكان هولاجو هذا يتمتع بمنزلة كبيرة لدى المغول ، وقد رفض أن يلى العرش فى ايران عندما عرض عليه عقب وفاة آباقا خان ، (أنظر كاتر مير ، ص ١١٠) .

(٦) يكتبه رشيد الدين سياوجى أو شيبا دجى ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى ـ الجزء الأول ، الترجمة العربية ص ٢٢٩) .

(٧) يكتبه رشيد الدين ييسو دار ، (أنظر نفس المصدر ص ٢٢٧) .

(٨) يكتبه رشيد الدين قو نقرتاى ، (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

البلاد الشمالية ، فتوجه العسكر والتقى مع عساكر بركة ، فكانت الهزيمة على أصحاب أبغا كما شرحنا ذلك فى أخبار بركة ، وهى الوقعة الثانية بين عسكريهما .

وفى سنة اثنتين وسبعين وستماية وقع بين أبغا وبين ابن عمه تكدار [١] بن موجى بن جغطاي بن جنكز خان . وكان تكدار مقدما على ثلاثين ألفا ، وهو مقيم ببلاد كرجستان ، فكاتب قيدو وقصد الاتفاق معه على أبغا ، فوقعت الكتب فى يد أبغا فطلب عساكره المتفرقة من الروم وغيرها وقصد تكدار ، فانهزم والتجأ إلى بلاد الكرج بمن معه ، فمنعه صاحبها الملك كركيس من دخولها ، فأوى إلى جبل من جبالها هو ومن معه ، فأكلت خيولهم من عشبه وكان فيه حشيشة مضرة بالدواب ، فنفقت خيولهم ، فطلبوا الأمان من أبغا فأمنهم فنزلوا إليه ، ففرّق أصحاب تكدار فى جيوشه ، ورسم لتكدار أن لايركب فرسا قارحا ولاجزعا [٢] إلا مهرا صغيرا ، وأن لايمس بيده قوسا . فبقى كذلك حتى مات ، حتى أن ولدا له صغيرا أحضر إليه قوسه ليوتره له ، فامتنع وقال : ماأقدر أمس القوس بيدى لأجل مرسوم أبغا .

وفى سنة خمس وسبعين وستمائة وقع المصاف الكائن بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين المغل أصحاب أبغا ،

---

(١) يكتبه رشيد الدين تكو دار أو نكو دار وهو ابن موجى ييه بن جغتاى ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، الترجمة العربية ، ص ٢٠٧) ، وهو ليس ابن عم آباقا خان (أبغا) ، كما يذكر النويرى ولكنه أحد أحفاد عم أبيه هولاكو .

(٢) الفرس القارح هو الناضج الذى إنتهت أسنانه ويكون قد أتم من العمر خمس سنين ، أما الجذع فهو المهر فى السنة الثالثة .

ومعهم العسكر الرومى بالبلستين [١] من بلاد الروم . فكانت الهزيمة على المغل وعساكر الروم ، على مانذكر ذلك إن شاء الله فى أخبار دولة الترك فى أيام الملك الظاهر . وقتل وأسر من المغل فى هذا المصاف خلق كثير ، وقيل أيضا وأسر من عسكر الروم . فلما اتصلت هذه الوقعة بأبغا جاء إلى موضع المضاف وشاهد القتلى ، فاستعظم قتل المغل وأسرهم ؛ وجاءه أيبك الشيخ أحد أمراء الملك الظاهر – وكان قد هرب – فأطلعه على أن البرواناه – وهو المتحكم فى الروم نيابة عن الملوك السلجقية – كاتب الملك الظاهر ، وحثه على قصد الروم ، فنقم أبغا على البرواناه وأكد ذلك عنده أنه وجد القتلى من المغل وليس من الروم إلا القليل ، فأمر عند ذلك بنهب بلاد الروم ، وقتل من بها من المسلمين ، فتفرقت عساكره تقتل وتنهب المسلمين خاصة سبعة أيام ، ووكل أبغا بالبرواناه من يحفظه من حيث لم يشعر بذلك .

ثم سار إلى أرزنكان [٢] اشتراها ؛ واعتد ثمنها من الإتاوة التى على بلاد الروم ، وأخذ فى استرجاع قلاع الروم . فلما وصل إلى قلعة بابرت [٣] ، خرج إليه شيخ منها ، وقال له : « أريد أمان القان لأتكلم بين يديه » . فقال : « قل ولك الأمان » . فقال : « إن

(١) المقصود بها أبلستين بالفتح ثم الضم ، وهى مدينة مشهورة ببلاد الروم بآسيا الصغرى ؛ كانت عندئذ بيد سلاجقة الروم .

(٢) أرزنجان بالفتح ثم السكون، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف ، بلدة طيبة كثيرة الخيرات من بلاد أرمينية قريبة من أرزن ، غالب أهلها أرمن ، وفيها مسلمون هم أعيان أهلها.

(٣) بابرت بكسر الباء الثانية ، وصفها ياقوت بأنها قرية كبيرة ومدينة حسنة من نواحى أرزن الروم .

عدوك حضر إلى بلادك ولم يتعرض إلى رعيتك ، ولا أسأل لهم محجمة دم ، وأنت قصدت العدو وجئت فى طلبه ، فلما فاتك قتلت رعيتك ونهبت بلادهم وخربتها . فمن هو من الخانات الذين تقدموك من أسلافك فعل مثل هذا الفعل وسن هذه السنة ؟ » فأنكر أبغا عند ذلك على الأمراء الذين أشاروا عليه بذلك وأمر بإطلاق الأسرى المسلمين ، فأطلقوا ، وكانوا أربعمائة ألف أسير ، وعاد إلى الأردو .

ذكر قتل سليمان البرواناه (١)

قال : ولما وصل أبغا إلى الأردو استشار فى أمر البرواناه ، فطائفة أشارت بقتله ، وطائفة أشارت بإبقائه ، فهم بإعادته إلى الروم . فتجمع نساء من قتل من المغل ونحن وبكين ، فسمعهن أبغا وسأل عن شأنهن ، فقيل إنهن بلغهن أن القان يريد إطلاق البرواناه ، فهن يبكين على أهلهن وأزواجهن . فعند ذلك أمر أبغا كوكجى بهادر – وهو من أمرائه – أن يأخذ البرواناه ويتوجه به إلى موضع عينه له فيقتله . فاستدعى البرواناه وقال : إن أبغا يريد أن يركب ، ورسم أن تركب أنت وأصحابك معه ، فركب فى اثنين وثلاثين نفرا من

(١) هو معين الدين سليمان بن على الملقب ببروانه . إشتغل أول أمره معلماً للأطفال . ثم وصل بجده وكفاحه إلى منصب الوزارة لملاحقة الروم . وبعد ذلك خلصت له البلاد ، وهادن المغول وقبل الخضوع لهم . وفى سنة ٥٧٦ عندما انتصر الظاهر بيبرس على المغول إنتصاراً ساحقاً فى موقعة إبلستين إتهم البروانه بمصانعة بيبرس فقبض عليه المغول وقتلوه شر قتلة مع طائفة كبيرة من أهل الروم ، وكان ذلك فى سنة ٦٧٦ ، (أنظر شرح أحواله فى المنهل الصافى لأبى المحاسن ، والجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص ل ح من المقدمة حاشية ١) .

مماليكه وألزامه ، وتوجه مع كوكجى ، فأخذ به نحو البر ومعه مائتا [1] فارس. فلما انتهوا إلى المكان المعين أحاط به فسأل المهلة أن يصلى ركعتين ، فأمهله . فلما قضى صلاته قتله وقتل من معه . ولما بلغ من بقى من مماليك البرواناه قتل صاحبهم تجمعوا وفيهم سنجر البروانى ، وبكتوت أمير أخور ، وأوْتروا قسيّهم ونكثوا نشابهم ، وقالوا : نموت كراما . فطولع أبغا بخبرهم فشكرهم على ذلك وأعادهم إلى الروم . وكان مقتل البرواناه فى آخر صفر سنة ست وسبعين وستمائة .

وفى سنة ثمانين وستماية فى رابع عشر شهر رجب انهزم التتار أصحاب أبغا الذين حضروا مع جهته إلى الشام والتقوا مع السلطان الملك المنصور قلاوون ، وكانوا صحبة منكوتمر بن هولاكو . وكان أبغا قد نازل الرحبة ثم جرد هؤلاء وعاد إلى الأردو ، ووصل منكوتمر بمن معه إلى حمص ، والتقوا هم والعساكر الإسلامية . فاستظهر التتار فى مبادئ الوقعة فانهزمت ميسرة الملك المنصور ، وماشك التتار فى الظفر ، ونزلوا وأكلوا الطعام . ثم كانت الدائرة عليهم فانهزموا أقبح هزيمة على مانبينه فى أخبار السلطان الملك المنصور . وأما منكوتمر ابن هولاكو فإن الهزيمة استمرت به إلى جزيرة ابن عمر ، فلما وصل إليها مات . وقيل إن علاء الدين الجوينى صاحب الديوان كان قد عزم على اغتياله واغتيال أبغا ونقْل الملك عنه ، فكتب إلى مؤمن أغَا ـ شحنة الجزيرة ـ يأمره أن يتحيل على منكوتمر ويقتله ، فسقاه

(١) فى ك : مائتى .

مؤمن سما فمات. ولما مات هرب مؤمن الشحنة ن الجزيرة ، وعلم أصحاب منكوتمر بأمره فطلبوه فلم يدركوه ، فقتلوا نساءه وأولاده . وتوجه مؤمن إلى الديار المصرية ومعه ولداه فأعطوا بها أقطاعا ، وحمل منكوتمر إلى قلعة تلا فدفن بها .

وفى سنة ثمانين وستماية أيضا كانت وفاة علاء الدين الجوينى (١) صاحب الديوان . وكان قد تمكن فى دولة التتار تمكنا عظيما بسبب أخيه الصاحب شمس الدين ، فإنه كان المشار إليه .ثم نقم عليه أبغا لما توهم أنه واطأ المسلمين ، واستصفى أمواله . ثم مات بعراق العجم وولى بعده ولد أخيه هارون بن الصاحب شمس الدين .

ذكر وفاة أبغا بن هولاكو

كانت وفاته فى أوائل المحرم سنة إحدى وثمانين وستمائة . وكان سبب موته أن الصاحب شمس الدين محمد الجوينى صاحب الديوان كان إليه التصرف فى الأموال ، وكانت تحمل إليه من سائر بلاد التتار ، وتصرف بقلمه ، فخاف غائلة أبغا ، فتحيل فى قتله ، ودس إليه من سقاه سما ، فمات . وقيل إنه منذ انكسرت جيوشه على حمص أخذ حاله فى النقص ، ثم أتاه الخبر أن الخزائن التى جمعها هولاكو — وكانت ببرج بقلعة فى وسط البحر — فسقط

(١) يذكر النويرى والمقريزى وابن شاكر الكتبى أن وفاة علاء الدين الجوينى كانت فى سنة ٦٨٠ ، أما المصادر المعاصرة للجوينى أو القريبة العهد منه مثل جامع التواريخ ، المجلد الثانى — الجزء الثانى ، الترجمة العربية ، ص ٩٩ ومثل تاريخ الوصاف ، ص ١١٩ طبع بمباى فتذهب إلى أن وفاة الجوينى حدثت فى سنة ٦٨١ ، ونحن نرجح هذا التاريخ .

البرج بجميع مافيه من الأموال والذخائر والجواهر فى البحر . ثم دخل الحمام وخرج فسمع أصوات الغربان ، فقال لمن حوله : إننى أسمع هذه الغربان تقول : « أبغا مات » ، وركب فعوت كلاب الصيد فى وجهه ، فتشاءم بذلك . ولم يلبث أن مات فى التاريخ ، وقيل فى نصف ذى الحجة سنة ثمانين وستمائة . (١)

وخلف من الأولاد أرغون ، وكيختو(٢) . ومات أخوه أجاى بعده بيومين .

ذكر ملك توكدار بن هولاكو
وهو المسمى أحمد سلطان ، وهو الثالث من ملوك هذا البيت

كان جلوسه على كرسى المملكة بعد وفاة أخيه أبغا فى المحرم سنة إحدى وثمانين وستمائة . وذلك أن أبغا لما مات كان ولده الأكبر أرغون بخراسان . وكان كيختو عنده بالأردو فاجتمع الأمراء ليقع اتفاقهم على من يجلس مكان أبغا . وكان بعض المغل يختار توكدار (٣) لأنه كان قد استمالهم إليه ، فاجتمع رأيهم عليه . فجلس على كرسى المملكة ، وأرسل أخاه قنغرطاى يقول لأرغون ابن أخيه أبغا : « إن الشرط فى الياسا أنه إذا مات ملك لايجلس عوضه إلا الأكبر

(١) يذكر رشيد الدين أن وفاة آباقا خان كانت فى يوم الأحد ١٦ من المحرم سنة ٦٨١ ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى — الجزء الثانى ، الترجمة العربية ، ص ٨٥) .

(٢) يكتب أيضاً كيخاتو خان .

(٣) تكودار هذا هو الذى تسمى باسم أحمد ، وهو الابن السابع لهولاكو . أنظر . (رشيد الدين الهمذانى ، جامع التواريخ ص ٨٨) .

من أهل بيته ، وهذا عمك أحمد هو الأكبر . وقد أجلسناه ، ومن خالف يموت » فأطاعوه .

ولما جلس كان أول مابدأ به أنه أظهر دين الإسلام وأشاعه ، وكتب إلى بغداد كتابا ، نسخته بعد البسملة : « إنا جلسنا على كرسى الملك ، ونحن مسلمون ، فتبلغون أهل بغداد هذه البشرى ، ويعتمدون فى المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد فى أيام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذى حق إلى حقه فى أوقاف المساجد والمدارس ، ولايخرجون عن القواعد الإسلامية . وأنتم ياأهل بغداد مسلمون ،وسمعنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لاتزال هذه العصابة الإسلامية مستظهرة ظافرة إلى يوم القيامة . وقد عرفنا أن هذا خبر صحيح ورسول صحيح . رب واحد . أحد . فرد . صمد . فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى جميع البلاد » . وكتب إلى السلطان الملك المنصور قلاوون يعلمه بإسلامه .

واستولى على السلطان أحمد وعلى دولته الشيخ عبد الرحمن ، وأصله من الموصل ، وكان مملوكا ؛ ويقال له عبد الرحمن النجار ، وأظهر للمغل المخاريق والخيل ، وأخذ فى إفساد مابين السلطان أحمد وبين أهله ، وقصد بذلك الاستبداد ، وعظم أمره ، وتحدث فى سائر الأوقاف ، ومال إليه أبناء المغل . وانتهى من أمره أن أحمد سلطان كان يقف فى خدمته ، ويقتدى بما يقول ، وركب بالخبز والملاح دارية . وحضر عبد الرحمن هذا فى رسلية إلى السلطان الملك المنصور (قلاوون) . فقتل أحمد فى غيبته ، فأقام هو بالشام . ومات به ،على ماذكره إن شاء الله فى أخبار الملك المنصور .

ذكر مااتفق بين توكدار وبين أرغون ابن أخيه أبغا

وفى سنة اثنتين وثمانين وستماية سار أرغون بن أبغا من خراسان لقتال عمه توكدار ، فجرد إليه عمه جيوشا صحبة الناق نائبه ، فكبسهم أرغون وهم على غير استعداد ، فقتل منهم جماعة . فركب أحمد سلطان فى أربعين ألف فارس وسار لقصد أرغون ، وأسره من غير حرب ، وعاد إلى تبريز . فجاءت زوجة أرغون وخواتين كثيرة من النساء اللواتى لهن الدخول على أحمد ، وسألته العفو عن أرغون وإطلاق سبيله والاقتصار به على خراسان . فلما أجاب إلى ذلك — وكان أحمد قد أمسك من أكابر أمراء المغل اثنى عشر أميرا وقيدهم وأهانهم — فتغيرت خواطر الأمراء عليه وعزموا على قتله .

ذكر مقتل توكدار بن هولاكو

كان مقتله فى سنة اثنتين وثمانين وستمائة. وذلك أنه لما أسر أرغون ابن أخيه أبغا ، وكل به من يحفظه . واتفق تشويش خواطر المغل عليه من أسباب : منها إساءته إلى أكابرهم ؛ ومنها ما ألزمهم به من الدخول فى دين الإسلام طوعا أو كرها ؛ ومنها وثوبه على أخيه قنغرطاى[1] وإحضاره من الروم وقتله ؛ وغير ذلك مما نقل عنه فى ميله إلى أبناء المغل والخلوة بهم ، وهو أمر لم يألفوه قبله . فأجمعوا على قتله ،

(١) ويكتب أيضاً قونقورتاى ، وقنقورتاى ، وقنقرتاى ، وقونكقورتاى أغول .

وإقامة أرغون . وكان من جملة الأمراء ثلاثة وهم بغا [١] وأروق ـ وهما أخوان ـ وقرمشى بن هندغون [٢] . فتوجهوا إلى ججكب [٣] وشكوا إليه مايلقون من أحمد ، وعرفوه ماعزموا عليه ، فوافقهم ججكب ، واتفقوا جميعا . وجاءوا إلى المكان الذى فيه أرغون تحت التوكيل ، فأطلقوه وكبسوا الناق [٤] نائب أحمد فقتلوه ؛ وقصدوا الأردو ، فأحسّ بهم أحمد فركب فرسا وانهزم فأدركوه وقتلوه وأقاموا أرغون .

ذكر ملك أرغون بن أبغا بن هولاكو ابن تولى خان بن جنكزخان ، وهو الرابع من ملوك هذا البيت

كان جلوسه على كرسى المملكة فى جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين [٥] وذلك أن الأمراء لما أطلقوه من توكيل عمه توكدار وفرّ توكدار ، أجلسوه على كرسى السلطنة . وساق المغل خلفه وكان قد هرب هو وصاحب الديوان شمس الدين ، فأدركوا توكدار وقبضوا عليه ، وأحضروه إلى أرغون فقتل بين يديه . وأما شمس الدين صاحب الديوان ، فإن أرغون اتهمه أنه دبر على [ابيه] [٦] أبغا

(١) يكتب أيضاً « بوقـا » .
(٢) هكذا فى ك ؛ وفى رشيد الدين « قورمشى بن هندو نويان » .
(٣) ويكتب أيضاً جو شكاب .
(٤) ورد فى جامع التواريخ بصيغة « علينـاق » (ص ١١٤) .
(٥) يذكر رشيد الدين أن أرغون جلس على العرش فى ٢٧ من جمادى الأولى سنة ٦٨٣ ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، ص ١٢٦) .
(٦) فى ك أخيه والصواب أبيه ، كما هو مذكور بين الحاصرتين .

وعمه منكوتمر حتى ماتا ، وأخرج الملك منه إلى عمه أحمد ، فطلبه ففر منه ولجأ إلى بعض القلاع ، فأُخذ وجئ به إليه ، فقتله صبرا ، وأرسل كل قطعة منه إلى مكان من بلاده ، واستناب أرغون (الأمير) أبغا - أحد الأمراء الثلاثة الذين اتفقوا على إقامته - ثم أوقع به بعد مدة يسيرة وبالأميرين الآخرين ، واستناب طاجار [1] ، ودس على ججكب جوشكاب من سقاه سما فمات . وقتل غياث الدين كيخسرو صاحب الروم لتوهمه أنه واطأ [2] عمه أحمد على قتل عمه قنغرطاى ، وكان قنغرطاى قد أقام ببلاد الروم من أيام أبغا ، وقرر أرغون أن بيدو يحكم على إقليم بغداد ، وأولاجو يحكم على إقليم الروم ، وترك ولديه غازان وخربندا بخراسان ، ووكل أمرهما إلى نيروز [3] ، وجعله أتابكهما ، واستوزر سعد الدولة اليهودى ، وأصله من أبهر من كور عراق العجم . وكان (سعد الدولة) فى أول أمره يشتغل بالطب ، فتميز وانتقل إلى أن ترشح للوزارة .

وأحسن أرغون إلى والدة عمه أحمد وهى [قوتوى خاتون] [4] ، وأبقى عليها بلادها التى كانت لها فى زمن ابنها وهى طوبان ، وميا فارقين . ودامت أيامه إلى سنة [تسعين] [5] وستمائة فمات

---

(١) جاء فى جامع التواريخ بصيغة « طغاجار » ، (ص ١٤٢) .

(٢) فى ك : واطئ .

(٣) نيروز ، وتكتب أيضاً نوروز .

(٤) فى ك : قتوخان والصواب « قوتوى خاتون » كما كتب بين الحاصرتين ، وذلك طبقا لما ورد فى رشيد الدين ، ويكتب أيضاً « قوتى خاتون » ، (أنظر جامع التواريخ ، المجلد الثانى - الجزء الثانى ، ١٧ ، ٧٢ ، ٨٨) .

(٥) فى ك : سبعين والصواب تسعين كما هو مذكور بين الحاصرتين

حتف أنفه فى شهر ربيع الأول منها على شاطئ نهر الكر [١] من بلاد أران . وقيل إنه مات مغتالا بسم . وقيل إنه كان يدين بدين البخشية وهى الطائفة المشهورة بعبادة الأصنام . وكان يجلس فى السنة أربعين يوما فى خلوة ، ويتجنب أكل لحوم الحيوان . فوفد عليه رجل من الهند يزعم أنه يعلم علم الأديان والأبدان ، وأوحى إليه أنه يتخذ له معجونا ، من داوم مناولته طالت حياته ، وركب له . فتناول منه فأوجب له انحرافا وصرعا ، فمات وملك بعده أخوه كيخاتو .

ذكر ملك كيخاتو (٢) بن أبغا بن هولاكو وهو الخامس من ملوك هذا البيت

جلس على كرسى المملكة بعد وفاة أخيه أرغون فى شهر ربيع الأول سنة تسعين وستمائة . وذلك أن أرغون لما مات كان له من الأولاد غازان وخربندا ، وكانا بخراسان ، فاجتمع الأمراء وأرباب الرأى على إقامة كيخاتو فأقاموه فى المملكة .

فلما استقر حكمه ونفذ أمره أساء السيرة ، وخرج عن الياسا المقررة . وأفحش فى الفسق ، وتعرض إلى نسوان المغل وأولادهم الذكور . وتمادى على ذلك فاجتمعوا وشكوا ذلك إلى بيدو [٣] ابن

---

(١) الكر : بضم الكاف وتشديد الراء ، نهر بين أرمينية وأران ، يشق مدينة تفليس (ياقوت) .

(٢) كان كيخاتو بوذياً ، وأصدر سنة ٦٩٣ عملة ورقية اسمها « جاو » .

(٣) يكتب أيضاً بايدو .

عمه ، فوثب به [بيدو بن طرغاى] (١) وبشتاى وصنجك ، فعلم بهم فهرب من الأردو إلى نحو كرخستان (٢) ، فقتل بمقام سلاسوار (٣) من أعمال موغان ، فى شهر ربيع الآخر سنة أربع وتسعين وستمائة (٤) .

ذكر ملك بيدو بن طرغاى بن هولاكو بن تولى خان ابن جنكزخان ، وهو السادس من ملوك هذا البيت

جلس على كرسى المملكة فى جمادى الأولى سنة أربع وتسعين وستماية بعد مقتل كيخاتو . ولما ملك كان غازان بن أرغون بخراسان وصحبته أتابكه نيروز ، فحسن له قصد بيدو وانتزاع المملكة منه . فجمعا وحشدا وحضرا من خراسان ، وسار بيدو بعساكره إليهما . فلما تراءى الجمعان تبين لغازان أن جمعه لايقوم بمن مع بيدو ، فراسله واتفقا على الصلح وعاد غازان إلى خراسان . وأقام نيروز عند بيدو ، فإنه منعه من الرجوع مع غازان لئلا يتفقا على حربه مرة ثانية . فأعمل نيروز الفكرة واغتنم الفرصة فى مدة إقامته عند بيدو .

---

(١) فى ك : بيدو وطرغاى ، ولكن الصواب ما كتب بين الحاصرتين طبقاً لما ورد فى جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، الترجمة العربية ، ص ٢٢٦ .

(٢) هكذا فى ك ، ويبدو أن الكلمة محرفة عن كرجستان التى نسميها الآن جورجيا ، وتفليس قصبتها ، وهى فى أعالى نهر الكر ، (أنظر لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، الترجمة العربية ، ص ٢١٦) .

(٣) تكتب : سلاسلار .

(٤) يذكر رشيد الدين أن كيخاتوخان قتل فى يوم الخميس ٦ من جمادى الأولى سنة ٦٩٤ .

واستمال جماعة من الأمراء لغازان واستوثق منهم أنه متى دنا منهم انحازوا إليه وفارقوا بيدو . فلما استوثق منهم أعلم غازان بأمرهم فتجهز للمسير من خراسان وبلغ بيدو خبره فأوجس منه خيفة ، وذكر ذلك لنيروز ، فقال : « أنا أكفيك أمره وأدفعه عن قصدك ، ومتى توجهت إليه ثنيت عزمه ، وأرسلته إليك مربوطا . » فاستحلفه بيدو أنه لايخون ثم جهزه . فسار إلى غازان وأخبره بما اتفق عليه الامراء وتعاضدا وخرجا معا لقصد بيدو ، وأرسل إليه نيروز قِدرا مربوطا فى عدل ، وقال : « قد وفيت بما قلت لك وأرسلت قازان إليك » ومعنى قازان فى لغتهم القدر ، فغضب بيدو لهذه الرسالة وتحقق أنه خدعه ومكر به ، وسار بيدو للقائهما . فلما التقى الجمعان بنواحى همذان ، انحاز الأمراء الذين وافقوا نيروز إلى جهة غازان ، فقوى بهم وضعف بيدو وهرب ، فأدركوه بنواحى همذان ، وقتلوه فى ذى الحجة [1] من السنة ، فكانت مدة ملكه نحو سبعة أشهر .

(١) يذكر رشيد الدين أن بايدو قتل فى ٢٣ من ذى القعدة سنة ٦٩٤ ، (أنظر جامع التواريخ : داستان غازان خان ، نشر كارل يان ، ص ٩٣ ، لندن ١٩٤٠) .

ذكر ملك غازان (١) بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ابن تولى خان بن جنكزخان وهو السابع من ملوك هذا البيت

جلس على كرسى المملكة بعد مقتل بيدو ابن عم أبيه فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وستماية . وترك أخاه خربندا بخراسان واستقر نيروز أتابك العسكر ومدبر المملكة .

وفى سنة خمس وتسعين وستمائة فارقت الطائفة الأويراتية (٢) بلاد التتار ، وحضروا إلى الديار المصرية والشام ، والتجأوا إلى الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، وكانوا زهاء ثمانية عشر ألف بيتا ومقدمهم طرغاى ، وسنذكر أخبارهم فى دولة الترك فى الأيام العادلية ، وكان سبب هربهم أن مقدمهم طرغاى كان ممن وافق بيدو على قتل كيخاتو ، فلما صار الملك إلى غازان خافه طرغاى على نفسه ، فهرب هو ومن انضاف إليه .

وفى سنة سبع وتسعين وستماية حضر إلى غازان جماعة من

---

(١) كان بوذياً ثم اعتنق الإسلام عند إعتلائه العرش ، وقد إستهل عهداً جديداً إسمه العهد الإيلخانى يبدأ من ١٣ رجب سنة ٧٠١ هـ. (مارس ١٠٣٢ م) ، لم يعد فيه تابعاً لخاقانات المغول العظام فى قراقورم .

(أنظر زامباور : معجم الأسرات ، ص ٣٦٢) .

(٢) نسبة إلى أويرات أو عويرات ، وهو إسم لبعض قبائل المغول كانت تسكن فى أواسط آسيا ، وبعد خضوعها لجنكز خان ساعدته فى حروبه ؛ حتى إذا ما كانت هذه السنة نزح معظمها إلى دولة المماليك بمصر . ، (أنظر) .

Howorth : Hist of the Mongols, Vol. 1, p. 681, seg).

النواب بالممالك الإسلامية والأمراء ، وهم : الأمير سيف الدين قفجاق.[١] نائب الشام ، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار المعروف بالسلاحدار ، والأمير فارس الدين البكى الساقى نائب المملكة الصفدية ، والأمير سيف الدين بوزلار ، والأمير سيف الدين عزاز الصالحى ، والتحقوا به للسبب الذى نذكره إن شاء الله فى أخبار الملك المنصور لاجين المنصورى

وفيها قتل غازان أتابكه نيروز[٢] وسبب ذلك أن نيروز أحس بما أضمر له غازان من قتله ، فكاتب الملك المنصور لاجين ، والتمس منه أن يجرد عسكرا ليساعده على الحضور إلى أبوابه ، فوقعت الأجوبة فى يد غازان ، فأحضره وقتله . وقتل أخويه فيما بعد ، وقتل الذى وصل إليه بالأجوبة من الديار المصرية . ورتب قطلوشا[٣] فى نيابته عوضا عن نيروز .

وفيها أيضا فارق سلامش بن أفاك بن بيجو وأخوه قطقطو بلاد التتار إلى الديار المصرية وكان سلامش معدما على التمان ببلاد الروم . فلما وصل إلى الديار المصرية خيره الملك المنصور لاجين فى المقام بمصر أو الشام ، فسأله أن يجرد معه عسكرا ليخلص أهله من الروم ، فجرد معه طائفة من العسكر بحلب . فلما قاربوا بلاد الروم ظفر بهم التتار وأخذوا عليهم المضايق ففر سلامش ، والتجا إلى قلعة من قلاع الروم ، ثم أحضر إلى غازان فقتله ، واستقر قطقطو بمصر .

(١) وتكتب أيضاً قبجق (المقريزى السلوك ، ج ١ ص ٨٧١) .

(٢) يذكر رشيد الدين أن نوروز قتل فى ٢٣ من شوال سنة ٦٩٦ ، (أنظر جامع التواريخ ، داستان غازان خان ، ص ١١٦) .

(٣) يكتبه رشيد الدين قتلغ شاه ، (أنظر جامع التواريخ ، داستان غازان خان ، ص ١١٦) .

ذكر مسير غازان الى الشام
ووقعة مجمع المروج واستيلائه على البلاد الشامية
وعوده عنها

وفى سنة تسع وتسعين وستمائة توجه غازان بعساكره وجموعه ومن انضم إليه من الكرج والأرمن وصحبته الأمراء والنواب الذين التحقوا به من الديار المصرية والشام ، وسار بهم حتى قطع الفرات وانتهى إلى حلب ، وتقدم إلى مجمع المروج بالقرب من حمص . وجاء السلطان الملك الناصر [1] بعساكره والتقوا فى يوم الأربعاء ثامن وعشرين [2] شهر ربيع الأول من هذه السنة ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت ميمنة التتار هزيمة قبيحة ، وقتل منهم خلق كثير ، فاعتزل غازان فى نحو ثلاثين فارسا واعتد للهزيمة . ثم ركب من التتار من لم يشهد الوقعة ، وحملوا على ميسرة الملك الناصر ، فانهزمت وكانت الكسرة . وعاد الملك الناصر إلى الديار المصرية . وكانت القتلى من جيش غازان أضعاف من قتل من العساكر الإسلامية ، والنصر لهم .

ولما عاين غازان من قتل من عساكره ورأى الهزيمة ظنها مكيدة

---

(١) المقصود به السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان المماليك ؛ وكان عندئذ فى سلطنته الثانيـــة .

(٢) يذكر رشيد الدين أن التقاء الجيشين كان فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهـــر ربيع الأول .

(أنظر جامع التواريخ ، داستان غازان خان ، ص ١٢٦) .

فتوقف عن اتباع من انهزم . ثم سار إلى حمص وبها الخزائن السلطانية فسلمها إليه والى حمص من غير ممانعة ، وأخرج إليه مفاتيح البلد فتسلمها ، وأمن أهلها . ورحل منها إلى دمشق ونزل بالغوطة وهى أحد مستنزهات الدنيا الأربعة ، وخرج إليه أكابر دمشق بالتقادم والتحف والهدايا . وتعرض من فى عسكره من الأرمن إلى المدارس والمساجد والجامع بجبل الصالحية وخربوه وحرقوه . ورتب الأمير سيف الدين قفجاق لتحصيل الأموال من الدماشقة ، فأخذ فى جبايتها فجبى من الأموال مالايحصى كثرة . ورسم بمحاصرة القلعة فحوصرت وبها الأمير علم الدين سنجر أرجواش المنصورى فحفظها فلم يتمكن غازان منها ولما اشتد الحصار خشى أرجواش أن يتمكن التتار من القلعة بما حولها من البنيان ، فهدمه جميعه ، فكان من جملة ماهدم دار السعادة وهى الدار التي يسكنها نواب السلطنة ؛ ودار الحديث الأشرفية ، والمدرسة العادلية ، ودار تعرف بالزين الحافظى ، وطواحين باب الفرج ؛ وغير ذلك مما جاور القلعة . وجاء رجل منجنيقى فالتزم لغازان بأخذ القلعة ، وقرر أن ينصب المجانيق عليها فى جامع دمشق ، فأجمع أرجواش رأيه أنه متى نصبت المجانيق بالجامع رمى عليها بمجانيق القلعة . وكان ذلك يؤدى إلى هدم الجامع ، فانتُدب رجال من أهل القلعة بعد أن تهيأت أعواد المجانيق ولم يبق إلا رميها وخرجوا بحمية الإيمان ، وهجموا الجامع ومعهم المياسير ، فأفندوا مارتبه التتار وهيؤوه من أعواد المجانيق ، ثم جددوا غيرها واحترزوا عليها . فانتدب رجل من أهل القلعة ، وبذل نفسه والتزم بقتل المنجنيقى ، وخرج إلى الجامع والمنجنيقى بين المغل ؛ فتقدم إليه وضربه بسكين

فقتله ، وهجم رجال القلعة فنفرت الناس عن القاتل وحماه أصحابه فجاء إلى القلعة وبطل مادبروه من عمل المجانيق ونصبها على القلعة .

وكتب غازان إلى سائر نواب القلاع والحصون الشامية والساحلية فى تسليمها فما أجابه أحد إلى تسليم مابيده ، وتربصوا ثقة بالله تعالى ثم بالعساكر الإسلامية أنها لاتتأخر عن دفع غازان . وتقدم بكتابة الفرمانات وابتدأها بقوله بعد البسملة : بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية ، وأظهر فيها شعائر الإسلام واتباع السنة . هذا وأفعاله تناقض أفعاله لأنه رضى بما فعله الأرمن من الفساد . ثم رتب الأمير سيف الدين قفجاق قبجق فى النيابة عنه بالشام ، ورتب الامير سيف الدين بكتمر السلحدار فى النيابة بالممالك الحلبية والحموية وحمص ، ورتب الأمير فارس الدين البكى الساقى فى النيابة بالممالك الطرابلسية والصفدية والفتوحات والسواحل ، وجعل الأمير يحيى ابن جلال الدين على جباية الأموال ، ومرجع نواب الممالك إليه ، وجرد من عسكره عشرين ألف فارس صحبة بولاى [1] وانشقا [2] وججك وهولاجو ، فنزلوا الأغوار ، وشنوا الغارات ، فانتهت غاراتهم إلى القدس وبلد الجبل ونابلس ووصلوا إلى غزة ، وقتلوا بجامعها خمسة عشر نفرا .

ورحل غازان عائدا إلى الشرق فى منتصف جمادى الأولى ، وترك نائبه قطلوشاه يحاصر قلعة دمشق ، فحصرها أياما فلم يتمكن منها ،

---

(١) يكتبه رشيد الدين مولاى (أنظر جامع التواريخ ، داستان غازان خان ، ص ١٣٢) .
(٢) يكتبه رشيد شينقا ، (أنظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

فجبى له قفجاق من أهل المدينة مالا فأخذه وتوجه إلى غازان . ثم لم يلبث بولاى ومن معه من التتار إلا قليلا ، وتوجهوا إلى بعلبك والبقاع فأغاروا عليها ورجعوا إلى الشرق فى ثامن شهر رجب من هذه السنة ؛ لما بلغهم أن السلطان الملك الناصر تجهز بجيوشه لدفعهم .

وأما السلطان الملك الناصر ، فإنه لما دخل إلى الديار المصرية شرع فى الاهتمام والاحتفال بالعساكر ، وأنفق فيهم الأموال ، وعاد إلى الشام فبلغه توجه غازان ، فجرد نائبه الأمير سيف الدين سلار واستاذ داره الأمير ركن الدين بيبرس ، ثم انحاز إليه الامراء : سيف الدين قفجاق ، وسيف الدين بكتمر ، وفارس الدين البكى . على مانذكر ذلك فى أخبار الدولة الناصرية .

وفى سنة سبعماية عاد غازان لقصد الشام ، وانتهى إلى حلب وتقدم ونزل فيما بينها وبين حماه . ثم خرج السلطان الناصر بعساكره إلى الشام ، وأقام بمنزله بدعرش بالقرب من غزة ، وجرد من العساكر طائفة . ثم عاد غازان إلى الشرق والملك الناصر إلى مصر من غير قتال .

ذكر مسير غازان الى الشام وعوده وتجريد عساكره وانهزامها بمرج الصفر

وفى سنة اثنتين وسبعماية سار غازان من الأردو ونازل الرحبة وحاصرها ، فخرج إليه نائبها بلبان [1] الغتمى بالإقامات ولاطفه ، وقال : « أنت أيها الملك متوجه إلى الشام فإذا أخذت البلاد فهذه القلعة لاتمتنع عليك » فوافقه غازان ، وأخذ ابنه ومملوكه رهينة ، ثم رحل عنها وعاد إليها . وجرد قطلوشاه وصحبته اثنا عشر تمانا لقصد الشام وعاد غازان إلى العراق فى أوائل شعبان من السنة .

وهجم عساكره على أطراف البلاد الحلبية فتأخر العسكر إلى حماة وغارت كل طائفة منهم على القريتين [2] ونهبوا من هناك من التركمان وسبوا نساءهم وذراريهم ، وتوجهوا منها فى البرية إلى صوب عُرض [3] ، وهم زهاء عشرة آلاف فخرج إليهم طائفة من العساكر الإسلامية مقدمهم الأمير سيف الدين اسندمر كرجى نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية ، وعدتها على التحرير ألف وخمسمائة فارس ، فالتقوا هم والتتار على عرض ، واقتتلوا أشد قتال ، فكانت الكسرة على التتار ، وقتل منهم خلق كثير .

ثم اتفق بعد ذلك اجتماعهم ووصولهم إلى الشام والعساكر

(١) هكذا فى ك ؛ وفى المقريزى ورد اسمه « علم الدين سنجر الغتمى » . (السلوك ، ج ١ ص ٩٣٠) .
(٢) القريتان : قرية كبيرة من أعمال حمص .
(٣) عرض : بضم أوله وسكون ثانيه ، بليد فى برية الشام يدخل فى أعمال حلب .

تتأخر عنهم منزلة بعد أخرى ، إلى أن قاربوا دمشق ونزلوا على مرج الصفر ، واجتمع به سائر نواب السلطنة بالشام ، والعساكر المجردة من الديار المصرية . ووصل السلطان بعساكره إلى المرج فى مستهل شهر رمضان ، وفى الساعة التى انتهى السلطان فيها إلى هذه المنزلة كان وصول التتار ، وكنت ممن شهد هذا المصاف فى جملة العساكر الإسلامية. فالتقى الجمعان يوم السبت مستهل شهر رمضان من بعد الزوال إلى عشية النهار ، فهزمت ميسرة التتار ميمنة المسلمين ؛ فأردفها القلب ، وألجأوا التتار إلى جبل هناك ، فارتقوا ذروته وأحاطت العساكر الإسلامية بهم وهرب فى هذا اليوم بولاى فى نحو عشرين ألف فارس . وكان مقابل الميسرة الإسلامية فلما رأى كثرة جموعها فرّ من غير قتال طائل . وبات التتار على الجبل فى تلك الليلة ، وأصبحوا يوم الأحد إلى وقت الزوال ففرج لهم الأمير سيف الدين اسندمر كرجى نائب الفتوحات فرجة من طرف الميسرة ؛ فانهزموا منها على فرقتين فرقة تتلوها أخرى ، وأخذهم السيف من كل مكان . وسنذكر إن شاء الله هذه الوقعة فى أخبار الدولة الناصرية ونزيدها بيانا وتفصيلا .

ذكر وفاة غازان

كانت وفاته فى الثالث عشر من شوال سنة ثلاث وسبعماية بمقام جبل من نواحى الرى ، فكانت مدة ملكه ثمان سنين وعشرة شهور . ولما مات ملك بعده أخوه خربندا ويقال فيه خدابندا .

ذكر ملك خدابندا (١) بن أرغون بن أبغا ابن هولاكو بن تولى خان

وهو الثامن من ملوك هذا البيت جلس على تخت المملكة بعد وفاة أخيه غازان فى الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وسبعماية ، وتلقب بأولجاتو سلطان ، وذلك بمقام أوجان . ولما جلس أطلق رسولى الملك الناصر ، وكان غازان قد عوقهما ؛ وهما الأمير حسام الدين ازدمر المجيرى ، والقاضى عماد الدين بن السكرى ، وجهزهما إلى الديار المصرية ، وأصحبهما رسولا من جهته . فوصلوا فى سنة أربع وسبعماية وكان مضمون رسالته التماس الصلح والاتفاق .

ذكر قتل قطلو شاه نائب خربندا وتولية جوبان النيابة

وفى سنة خمس وسبعماية جرد خربندا نائبه قطلوشاه وهو الذى كان ينوب عن غازان ، وأقره خربندا إلى جبال كيلان لقتال الأكراد فسار إليهم والتقوا واقتتلوا فهزمه الأكراد وقتلوه ؛ ورتب خربندا بعده فى النيابة جوبان .

وفى سنة سبع وسبعمائة سار خربندا (٢) إلى جبال كيلان ،

(١) ورد إسمه فى زامباور « أولجاتيو خدا بنده محمد » ، وكان مسلماً شيعياً . (معجم الأسرات ص ٣٦٢) .

(٢) للوقوف على تفصيلات حروب خربندا فى كيلان ، أنظر حافظ آبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدى ، نشر الدكتور خانبابابيانى ، ص ١٠ وما بعدها ، طهران ١٣١٧ هـ. ش.

وأوقع بالأكراد وقتل منهم خلقا كثيرا ، وسبى نساءهم وأولادهم ، وأمر ببيعهم بمدينة تبريز ، فبيعوا بها .

وفى سنة تسع وسبعمائة ابتنى خربندا بابنة الملك المنصور نجم الدين غازى بن المظفر قرا أرسلان صاحب ماردين ، وحملت إليه إلى الأردو ، وحمل جهازها على مانقل إلينا على ألف جمل .

وفيها توفى ولد خربندا واسمه أبو يزيد [1] .

وفى سنة اثنتى عشرة وسبعماية وصل إلى خربندا من نواب السلطنة بالشام والأمراء جماعة وهم. الأمير شمس الدين قرامنقر المنصورى نائب المملكة الحلبية ، والأمير جمال الدين أقش الافرم نائب المملكة الطرابلسية ، والأمير عز الدين أزدمر الزردكاش ، والأمير سيف الدين بلبان الدمشقى ، وبدر الدين بيسرا الحسامى ؛ والتحقوا به وأقاموا عنده .

وكان سبب ذلك أن السلطان الملك الناصر قبض على جماعة من الأمراء ممن اتهمهم ونقم عليهم . فخاف هؤلاء على أنفسهم ففارقوا البلاد ، ولجأوا إليه ، فقبلهم وأكرمهم وتجهز بعساكره وقصد الشام ونازل الرحبة والأمراء معه . وقيل إن خربندا لم يصل إلى الرحبة ، وإنما وصلت جيوشه إليها ، وحاصروها وأقام هو شرقى الفرات . ثم رجعت عساكره عنها فى السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ولم يعلم سبب رجوعهم ، وعادوا إلى بلادهم .

---

(١) يكتبه حافظ آبرو بايزيد (أنظر المصدر السابق ، ص ٧٠) .

ذكر خبر مدينة قنغر لام[1] وتسمى السلطانية

هذه المدينة كان غازان قد شرع فى إنشائها واهتم بأمرها ، فهلك قبل تكملتها ، فأمر خدا بندا بالاهتمام بعمارتها . وهى مدينة بالقرب من قلعة كَرد كوه على عشرة مراحل من مدينة تبريز . ووصلت إلينا الأخبار فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة أنها كملت وسكنت وأن خدابندا نقل إليها من مدينة تبريز جماعة كثيرة من التجار والمتعيشين والحاكة والصناع وغيرهم ، وألزمهم سكناها والإقامة بها ، فسكنوها على كره منهم . ثم وصلت الأخبار إلينا أن أكثر الحاكة والصناع تسحبوا منها وعادوا إلى تبريز وغيرها من البلاد التى نقلوا منها .

ذكر وفاة خدابندا وملك ابنه أبى سعيد بن خدابندا

وفى سنة ست عشرة وسبعمائة وردت الأخبار بوفاة خدا بندا وأن وفاته كانت فى سابع شوال من السنة . وكان قد أظهر الرفض وتمذهب به ، وقرب الروافض ، وأبعد أهل السنة وأطرحهم وأهانهم ، ونقل إلينا أنه قبل وفاته أمر بإشهار النداء بنواحى مملكته أنه من تلفظ بذكر أبى بكر وعمر مات ؛ فأهلكه الله تعالى بعد سبعة أيام من حين أمر بذلك . ولما هلك اختلفت آراء الأمراء وأرباب دولته ، فيمن يجلس على تخت السلطنة ، فذكر لنا أن منهم من مال إلى

(١) يكتبها حافظ آبرو قنقـــر أولا نك .

ابن قازان [١] ، ومنهم من مال إلى غيره من أهل هذاالبيت الجنكزخانى ثم اجتمعت كلمتهم على أن أقاموا أبا سعيد بن خدا بندا وعمره أحد عشر [٢] سنة فنصبوه فى الملك ، وقام بتدبير دولته جوبان نائب أبيه ، ووصلت رسله وهدا ياه إلى السلطان الملك الناصر بالديار المصرية . وتكرر ذلك منه ، وانتظم الصلح ، وحصل الاتفاق . هذا ماانتهى إلينا من خبر التتار إلى حين وضعنا لهذا التأليف ، ومهما ورد علينا من أخبارهم بعد هذا أوردناه فى أخبار الدولة الناصرية بالديار المصرية آخر كتابنا هذا إن شاء الله تعالى .

كمل الجزء الخامس والعشرون من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول الجزء السادس والعشرين الباب الثانى عشر من القسم الخامس من الفن الخامس فى أخبار ملوك الديار المصرية والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وانتهينا من المراجعة الخامسة فى تمام الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ٢١ جمادى الآخرة سنه ١٣٨٥ . الموافق ١٦ أكتوبر سنه ١٩٦٥ . وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

---

(١) لم يعقب غازان خان أولادا من الذكور غير ولد واحد إسمه الجو ، وقد توفى فى عهد الطفولة ، (أنظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، داستان غازان خان ، ص ١٣) .

(٢) يذكر حافظ آبرو أن أبا سعيد تولى عرش المغول فى إيران فى أوائل صفر سنة ٧١٧ هـ. وكان فى الثانية عشر من عمره ، (أنظر نفس المصدر ، ص ٧٣) .

مراجع التحقيق

أولا ـ المراجع العربية

ـ ابن الأثير :

١ ـ الكامل فى التاريخ ـ ١٢ جزءا . (القاهرة ١٢٩٠ هـ)

٢ ـ اللباب فى تهذيب الأنساب ـ ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٥٧ هـ)

ـ إبن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف)

١ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ ١٢ جزءا طبعة دار الكتب المصرية ـ بقية الكتاب طبعة كاليفورنيا (١٩٣١م)

٢ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ـ ٣ أجزاء ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ـ إبن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن) :

المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك (حيدر أباد ١٣٥٧ هـ)

ـ إبن حوقل (أبو القاسم محمد) :

المسالك والممالك والمفاوز والمهالك (ليدن ١٨٢٢ م)

ـ إبن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد) :

وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان ٣ أجزاء (القاهرة ١٢٩٩هـ)

ـ رشيد الدين (الهمذانى) :

جامع التواريخ ـ نقله من الفارسية إلى العربية محمد صادق

نشأت ومحمود موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد
(القـاهرة ١٩٦٠) .

- زكريا القزوينى :
آثار البلاد - نشر وستنفلد (جوتنجن ١٨٤٨ م)

- زامباور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى
نقله إلى العربية الأستاذ الدكتو زكى محمد حسن وآخرون
(القـاهرة ١٩٥١ م)

- سعيد عبد الفتاح عاشور :
الحركة الصليبية - جزءان (القاهرة ١٩٦٣ م.)

- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :
تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (القاهرة
١٣٥١ هـ)

- إبن شاكر الكتبى :
فـوات الوفيات (القـاهرة ١٢٩٩ هـ)

- إبن طبا طبا :
الفخـرى فى الآداب السلطانية (القـاهرة ١٩١٣ هـ)

- إبن العبرى :
تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨م)

- العينى (بدر الدين محمود) :

عقـد الجمان فى تاريخ أهل الزمان

(مخطوطة دار الكتب المصرية فى ٢٣ جزءاً) .

- فؤاد عبد المعطى الصياد :

المغـول فى التاريخ (القـاهرة ١٩٦٠ م) .

- أبو الفـدا (الملك المؤيد اسماعيل)

المختصر فى أخبار البشر - ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

- أبو الفضائل (مفضل ابن) :

كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

(بـاريس ١٩٣٢م) .

- القلقشندى (أبو العباس أحمد) :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (القـاهرة ١٩١٣ م) .

- إبن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل)

البداية والنهاية (مخطوط. بدار الكتب المصرية)

- لسترانج :

بلـدان الخلافـة الشرقية .

ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ١٩٥٤م)

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة

حتى سنة ٧٥٥هـ - بقية الكتاب مخطوط. بدار الكتب المصرية

- المنشى النسوى :

سيرة جلال الدين منكبرتى

تحقيق حافظ. حمدى (القـاهرة ١٩٥٣) .

(وطبعة باريس ١٨٩١)

- إبن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

تحقيق جمال الدين الشيال حتى سنة ٦١٥ هـ - بقية الكتاب مخطوط. بدار الكتب المصرية .

- ياقـوت (شهاب الدين أبو عبد الله)

معجم البلدان - ٥ مجلدات (بيروت ١٩٥٥م) .

ثانيا ـ المراجع الفارسية

ـ حافظ. آبرو :

ذيل جامع التواريخ رشيدى ـ نشر الدكتور خانب بابيانى
(طهران ١٣١٧ هـ . ش)

ـ رشيد الدين فضل الله :

جامع التواريخ ـ جـزءان .

نشر الدكتور بهمن كريمى (طهران ١٣٣٨ هـ. ش.)

ـ رشيد الدين

تاريخ مبارك غازانى ـ دا متان غازان خان

(هـرتفـورد ١٩٤٠ م)

ـ عبد الله بن فضل الله الشيرازى :

تاريخ وصاف (بمبـاى ١٩٢٦ م) .

ـ عطا ملك الجـوينى :

تاريخ ملك نكشاى

تحقيق محمد بن عبد الوهاب القزوينى (ليدن ١٩١١ ـ
١٩٣٧ م)

ـ محمد بن على بن سليمان الراوندى :

راحـة الصدور وآية السرور

تحقيـق محمد إقبال (ليـدن ١٩٢١ م) .

- محمد عـوفى :

لباب الألباب - تحقيق سعيد نفيسى (طهران ١٣٣٥هـ.ش)

- محمود بن محمد المشتهر بالكريم الاقسرايى :

مسامرة الأخيار ومسايرة الأخبار .

تحقيق عثمان توران (أنقرة ١٩٤٤ م) .

- منهاج سراج الجوزجانى :

طبقات ناصرى - الجزء الأول - تحقيق عبد الحى حبيبى

(كابول ١٣٤٢ ش .)

ثالثا ـ المراجع الأوربية

— Allen (W.E.D.) :
A Hist. of the Georgian People (London, 1932).

— Barthold; Spuler :
Dié Mongolen in Iran. (Leipzig, 1939).

— Barthold :
Turkestan down to the Mongol Invasion. (Oxford, 1928)

— Cahen (C.) :
La Tughra Selijukide. (I.A. ; 1945).

— Cam. Med. Hist. (Cambridge, 1957)

— Dozy (R.) :
1. Dict. des Noms des Vetements chez les Arabes. (Cambridge, 1957)
2. Supplement Aux Dictionnaires Arabs.

— D'Ohsson (M.) :
Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan Jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan. (Paris, 1824).

— Encyclopaedia of Islam.

— Howorth (H.) :
The History of the Mongols (4. Vols.) (London, 1876).

— Lane-Poole (S.) :
Mohammadan Dynesties.
(Westminster, 1894).

— Quatrémere (E.) :
Hist. des Sultans Mamlouks de l'Egypte. (Paris, 1845).

فهرس موضوعات

الجـزء السـابع والعشرون

من كتاب نهـاية الأرب
فى فنـون الأدب للنـويرى

رقم الصفحة

— المقـدمة ٥
— ذكر أخبار السلطان مغيث الدين.. ... ... ٩
— ذكر مسير الملك مسعود ابن السلطان محمد وجيوش بك ، وما كان بينهما وبين البرسقى والأمير دبيس بن صدقة ١١
— ذكر عصيان الملك طغرل على أخيه السلطان محمود ١٣
— ذكر مقتل الأمير منـكبرس ١٦
— ذكر مقتل الأمير على بن عمـر.. ... ... ١٧
— ذكر طاعة الملك طغرل لأخيـه السلطان محمود. ٢٠
— ذكر قتل الوزير السميرمى.. ... ... ٢٢
— ذكر قتل الأمير جيوش بك. ٢٣
— ذكر ظفر السلطان محمود بالكرج ٢٣
— ذكر وصول الملك ودبيس بن صدقة وعودهما. ٢٥
— ذكر مقتل البرسقى وملك ابنه عز الدين مسعود... ... ... ٢٦
— ذكر ما فعله دبيس بن صدقة وما كان من أمره. ٢٨
— ذكر وفاة السلطان محمود ، وشىء من أخباره ، وملك ابنه داود ٣٠
— ذكر أخبار السلطان غياث الدين والدنيا ، أبى الفتح مسعود ابن ملكشاه ، وما كان من أمره وخروجه من السـلطنة وسلطنة أخيـه السلطان طغرل وعوده إليها ٣٢

رقم الصفحة

- ذكر ما اتفق للسلطان مسعود مع أخيه الملك سلجق شاه وداود ابن محمود واستقرار السلطنة بالعـراق لمسعود.. ... ... ٣٣
- ذكر الحرب بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر شاه وهـزيمة مسعود وسلطنة طغرل ٣٥
- ذكر الحرب بين السلطان طغرل بن محمد وبين أخيه الملك داود ابن محمود ٣٧
- ذكر عود السلطان مسعود بن محمد إلى السلطنة وانهزام طغرل ٣٨
- ذكر عود الملك طغرل إلى الجبل وانهزام السلطان مسعود ٤٠
- ذكر وفاة الملك طغرل وملك أخيه السلطان مسعود بلد الجبل ٤١
- ذكر قتل الأمير دبيس بن صدقة ٤١
- ذكر اجتماع الأطراف على حرب السلطان مسعود وخروجهم عن طاعتـه ٤٢
- ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الأمـراء ٤٤
- ذكر قتل الوزير الدركزيني ووزارة ابن الخازن وزير قراسنقر ٤٥
- ذكر اتفاق بوزابة وعباس على الخروج عن طاعة السلطان مسعود ٤٧
- ذكر قتل عبد الرحمن طغا يرك وعباس صاحب الرى ٤٧
- ذكر قتل الأمير بوزابة ٤٩
- ذكر الخلف بين السلطان وجماعة من الأمراء ووصولهم إلى بغـداد ، وما كان منهم ٥٠
- ذكر وفاة السلطان مسعود... ... ... ٥٢
- ذكر سلطنة ملكشاه بن محمود بن محمد طبر بن ملكشاه ... ... والقبض عليـه ٥٢
- ذكر سلطنة محمـد بن محمود ٥٣
- ذكر سلطنة سليمان شاه بن محمد طبر بن ملكشاه ٥٥

رقم الصفحة

— ذكر عود السلطان محمد من أصفهان إلى مقر ملكه ٥٦
— ذكر وصول سليمان شاه بن محمد طبر إلى بغداد ، وخروجه بالعساكر وحربه هو والسلطان محمد ، وهزيمته ، وحصار السلطان محمد بغداد ورجوعه ٥٨
— ذكر وفاة السلطان محمد بن محمود وما اتفق بعد وفاته ٥٩
— ذكر مسير سليمان شاه بن محمد طبر إلى همذان ٦٠
— ذكر سلطنة أرسلان شاه ابن الملك طغرل بن محمد طبر ٦٠
— ذكر أخبار السلطان طغرل بن أرسلان شاه بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان ٦١
— ذكر الحرب بين طغرل وجيوش الخليفة الناصر لدين الله وظفره بهم ٦١
— ذكر اعتقال طغرل وخلاصه وما كان من أمره إلى أن قتل ، وانقراض الدولة السلجقية ٦٢
— ذكر مقتل السلطان طغرل وإنقراض الدولة السلجقية ٦٣
— ذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام وحلب. ٦٤
— ذكر إستيلاء (تتش) على حمص وغيرها من ساحل الشام ... ٦٥
— ذكر ما اتفق فى طلب السلطنة ٦٦
— ذكر ملكه ديار بكر وأذربيجان وعوده إلى الشام.. ... ... ٦٧
— ذكر عود تتش إلى البلاد وملكه همذان وغيرها ٦٨
— ذكر انهزام بركيا روق منه. ٦٨
— ذكر قتل تاج الدولة تتش... ... ... ٦٩
— ذكر حال الملك رضوان وأخيه دقاق بعد قتل أبيهما تتش ... ٦٩
— ذكر الحرب بين الملكين رضوان وأخيه دقاق ٧٢
— ذكر ملك دقاق مدينة الرحبة ٧٤
— ذكر وفاة الملك دقاق وملك ولده ثم أخيه ٧٤

رقم الصفحة

- ذكر أخبار ملوك حلب ٧٥
- ذكر أخبار من ملك حلب بعد انقراض الدولة السلجقية منها ٧٦
- ذكر أخبار من ملك دمشق بعد انقراض الدولة السلجقية منها ، إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكى ٧٨
- ذكر أخبار تاج الملوك بورى بن أتابك طغرتكين. ٧٩
- ذكر أخبار الإسماعيلية وقتل الوزير المزدغانى... ... ... ٧٩
- ذكر حصار الفرنج دمشق وانهزامهم... ... ... ٨٠
- ذكر أخبار شمس الملوك إسماعيل ابن تاج الملوك بورى ابن طغر تكين ٨٢
- ذكر ملكه قلعة بانياس ٨٣
- ذكر ملكه مدينة حماة. ٨٣
- ذكر ملكه شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج. ٨٤
- ذكر مقتل شمس الملوك وملك أخيه شهاب الدين محمود ٨٥
- ذكر أخبار شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك بورى بن طغر تكين ٨٦
- ذكر ملكه مدينة حمص ٨٦
- ذكر أخبار مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن بورى بن طغر تكين... ... ... ٨٨
- ذكر أخبار الملوك السلجقية أصحاب قونية واقصرا ، وملطية ودقوقا من الروم ٩٠
- ذكر أخبار الملك سليمان ابن شهاب الدولة قتلمش ٩١
- ذكر فتح مدينة أنطاكية ٩١
- ذكر قتل الملك سليمان قتلمش ٩٢
- ذكر أخبار قلج أرسلان بن سليمان ٩٣
- ذكر قتل الملك قلج أرسلان وملك ولده الملك مسعود ٩٤

رقم الصفحة

- ذكر أخبار الملك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود ٩٥
- ذكر تسليمه البلاد لبنيه وبنى أخيه وما جعل لكل منهم ٩٦
- ذكر قتل نور الدين محمود واستيلاء قطب الدين على قيسارية ووفاته واستيلاء ركن الدين سليمان على سائر المملكة ٩٧
- ذكر وفاة ركن الدين سليمان وملك ولده قلج أرسلان ٩٨
- ذكر ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه ، وهو الثانى من ملوك السلجقية بالروم ٩٩
- ذكر ملكه مدينة أنطاكية ١٠٠
- ذكر ملك علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان . . . ، وهو العاشر من ملوك السلجقية بالروم ١٠١
- ذكر إجتماع كيقباذ والأشرف على حرب جلال الدين خوارزم شاه وانهزامه منهما ١٠٣
- ذكر ملك غياث الدين كيخسرو ابن الملك علاء الدين كيقباذ ابن غياث الدين كيخسرو . . . . ، وهو الحادى عشر من الملوك السلجقية بالروم ١٠٥
- ذكر أحوال أولاد السلطان غياث الدين كيخسرو بعد وفاة أبيهم ١٠٧
- ذكر قتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين كيخسرو ١١٢
- ذكر خبر البرواناه معين الدين سليمان وأصله وتنقله ١١٢
- ذكر أخبار الدولة الأتابكية ١١٤
- ذكر أخبار قسيم الدولة أقسنقر التركى ١١٥
- ذكر قتل قسيم الدولة ١١٦
- ذكر أخبار عماد الدين أتابك زنكى بن قسيم الدولة اقسنقر ١١٧
- ذكر إبتداء حال عماد الدين زنكى وترقيه وتنقله فى الولايات ١١٩

رقم الصفحة

ـ ذكر ولاية عماد الدين زنكى شحنكية العـراق ١٢٠
ـ ذكر ولاية عماد الدين زنكى الموصل وأعمالها... ... ... ١٢١
ـ ذكر ملك عماد الدين حلب. ١٢٥
ـ ذكر ملكه مدينـة حمـاه ١٢٦
ـ ذكر ملكه حصن الأثارب وهزيمة الفرنج ١٢٧
ـ ذكر حصره مدينة آمد وملكه قلعة الصور. ١٢٩
ـ ذكر ملكه قلاع الأكراد الحميدية ١٢٩
ـ ذكر حصره مدينـة دمشق ١٣٠
ـ ذكر غـزاة العسكر الأتابكى إلى بلاد الفرنج ١٣١
ـ ذكر ملكه قلعة بعرين وهزيمة الفرنج. ١٣٢
ـ ذكر ملكه مدينة حمص وغيرها من أعمال دمشق ١٣٣
ـ ذكر وصول ملك الروم إلى الشـام وملكه بزاعة وما فعـله بالمسـلمين ١٣٤
ـ ذكر ملك عماد الدين بعلبـك... ... ... ١٣٧
ـ ذكر ملكه شهر زور وأعمالها... ... ... ١٣٩
ـ ذكر ملك عماد الدين زنكى قلعة آشب وغيرها من بلاد الهـكارية ١٤٠
ـ ذكر صلحه والسلطان مسـعود ١٤١
ـ ذكر ملكه بعض ديـار بـكر ١٤٢
ـ ذكر فتح الرهـا وغيرها من بلاد الجـزيرة مما هو بيـد الفـرنج... ... ... ١٤٣
ـ ذكر مقتل نصير الدين جقر . وولاية زين الدين على كورجك ١٤٥
ـ ذكر مقتل عماد الدين زنكى ١٤٧
ـ ذكر ملك سيف الدين غازى ابن الشهيد عماد الدين أتابك زنكى ١٤٨

رقم الصفحة

- ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعله سيف الدين غازى ١٥٠
- ذكر وفاة سيف الدين غازى ابن عماد الدين زنكى... ... ... ١٥١
- ذكر أخبار الملك العادل نور الدين أبى القاسم محمود ابن أتابك عماد الدين أبى سعيد زنكى بن أقسنقر ١٥٢
- ذكر الغزوات والفتوحات النورية وما استنقذه من أيدى الفرنج
- ذكر عصيان مدينة الرها وفتحها الفتح الثانى ونهبها ١٥٢
- ذكر فتح حصن العريمة ١٥٣
- ذكر انهزام الفرنج بيغرا ١٥٤
- ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية ١٥٥
- ذكر فتح حصن أفامية ١٥٦
- ذكر أسرجوستكين وفتح بلاده ١٥٦
- ذكر حصر قلعة حارم وفتحها ١٥٨
- ذكر ملكه بانياس وما قرره على طبرية وأعمالها ١٥٨
- ذكر فتح المنيطرة ١٥٨
- ذكر فتح صافيثا وعريمة... ... ... ١٥٩
- ذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية ١٦٠
- ذكر ملكه مدينة دمشق ١٦٠
- ذكر ملكه بعلبك ١٦١
- ذكر ملكه قلعة جعبر.. ... ... ١٦٢
- ذكر ملكه الديار المصرية ١٦٢
- ذكر ملكه الموصل... ... ... ١٦٣
- ذكر وفاته رحمه الله وشىء من أخباره وسيرته ١٦٣
- ذكر أخبار الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك زنكى بن أقسنقر ١٦٨

رقم الصفحة

ـ ذكر مقتل سعد الدين كمشتكين وحصر الفرنج حارم ١٧١
ـ ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل. ١٧١
ـ ذكر أخبار قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ١٧٣
ـ ذكر القبض على الوزير جمال الدين محمد بن على بن منصور الأصفهانى ووفاته وشىء من أخباره وسيرته... ... ... ١٧٤
ـ ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين ١٧٨
ـ ذكر وفاة قطب الدين مودود وملك ولده سيف الدين غازى ١٧٩
ـ ذكر أخبار سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ١٨٠
ـ ذكر ملك سيف الدين غازى البلاد الجزيرية ١٨٠
ـ ذكر حصره أخاه زنكى بسنجار. ١٨١
ـ ذكر وفاة سيف الدين غازى. ١٨٣
ـ ذكر ملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ١٨٤
ـ ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين زنكى وأخذ سنجار عوضاً عنها ١٨٤
ـ ذكر القبض على مجاهد الدين قايماز... ... ... ١٨٥
ـ ذكر إطلاق مجاهد الدين قايماز وما كان من العجم وانهزامهم ١٨٦
ـ ذكر وفاة عز الدين مسعود. ١٨٧
ـ ذكر أخبار عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ١٩٠
ـ ذكر أخبار معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى. ١٩١
ـ ذكر مقتله وملك ولده معز الدين محمود. ١٩٢

الباب الحادى عشر

من القسم الخامس من الفن الخامس

فى أخبار الدولة الخوارزمية والدولة الجنكزخانية

رقم الصفحة

- ذكر أخبار الدولة الخوارزمية وابتداء أمر ملوكها وظهورهم ، وما استولوا عليه من البلاد والأقاليم ، وما كان بينهم وبين الملوك من الحروب والوقائع ١٩٧
- ذكر أخبار خوارزم شاه إتسز بن محمد ١٩٨
- ذكر الحروب بين خوارزم شاه إتسز والسلطان سنجر السلجقى ، واستيلاء سنجر على خوارزم ، وما كان من أمر إتسز إلى أن استقر الصلح بينه وبين السلطان سنجر ١٩٩
- ذكر ملك سلطان شاه محمود بن أيل أرسلان بن إتسز بن محمد ، وإخراجه من الملك ، وملك أخيه علاء الدين تكش ٢٠٢
- ذكر ملك تكش مدينة بخارى من ملك الخطا ٢٠٤
- ذكر وفاة خوارزم شاه تكش... ... ... ٢٠٥
- ذكر أخبار السلطان علاء الدين أبى الفتح محمد بن علاء الدين تكش بن ألب أرسلان بن إتسز بن محمد بن أنوشتكين ... ٢٠٦
- ذكر ملك خزارزم شاه وما كان الغورية قد ملكوه من بلاده ٢٠٩
- ذكر استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان ٢١٤
- ذكر ملكه ترمذ وتسليمها للخطا. ٢١٥
- ذكر ملكه الطالقان ٢١٦
- ذكر أسر خوارزم شاه وخلاصه ٢١٧
- ذكر قتل الحسين بن خرميل وحصر هراة وملك فيروزكوه والغور ٢٢٠

رقم الصفحة

- ذكر عوده إلى بلاد الخطا وظفره بهم وأسر مقدمهم وملكه ما وراء النهر ٢٢٢
- ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين ٢٢٣
- ذكر الواقعة التى أفنت الخطا ٢٢٤
- ذكر ملك خوارزم شاه كرمان ومكران من السند ٢٢٧
- ذكر ملكه غزنة وأعمالها ٢٢٨
- ذكر عزمه على المسير إلى العراق وقصد بغداد ، ومراسلته فى طلب آل سلجق ببغداد وما أجيب به ٢٢٩
- ذكر مسيره إلى العراق وما اتفق له. ٢٣٢
- ذكر قصد السلطان بغداد وما رتبه من أحوال مملكته وعوده بعد مسيره ٢٣٧
- ذكر عود السلطان إلى بلاد ما وراء النهر ، ووصول رسل التتار إليه وما اتفق من الحوادث... ... ... ٢٣٩
- ذكر ما اعتمده السلطان من سوء التدبير لما قصده التتار ٢٤٢
- ذكر ما وقع بين السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، وأمه وأخواله من الاختلاف بحيلة تمت بجنكزخان عليهم ، وما فعلته والدته من القتل ومفارقة خوارزم وما آل إليه أمرها... ... ٢٤٤
- ذكر ما اتفق للسلطان بعد أن ملك التتار البلاد إلى أن توفى... ٢٤٨
- ذكر وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش .. ٢٥٠
- ذكر أخبار السلطان جلال الدين منكبرتى ٢٥٢
- ذكر مسير جلال الدين من نيسابور إلى غزنة ٢٥٤
- ذكر الحرب بين جلال الدين وتولى خان بن جنكزخان وانهزام التتار وقتل تولى خان ٢٥٦
- ذكر الحرب بين جلال الدين وجنكزخان وانهزام جلال الدين ٢٥٧
- ذكر حال جلال الدين بعد عبوره ماء السند ٢٥٨

رقم الصفحة

ـ ذكر ما كان بين جلال الدين وقباجة من وفاق وخلاف ... ٢٦٠
ـ ذكر الحوادث بعد كسر جلال الدين قباجة وما جرى بينه وبين شمس الدين إيلتتمش. ٢٦٢
ـ ذكر طلوع جلال الدين من الهند ووصوله إلى كرمان ، وما جرى له من الحوادث إلى أن ملك العراق ٢٦٤
ـ ذكر مسيره صوب خوزستان. ٢٦٧
ـ ذكر ملكه أذربيجان ومراغة ٢٦٨
ـ ذكر كسر السلطان الكرج. ٢٦٩
ـ ذكر عوده من دوين إلى تبريز وتركه الميمنة ببلاد الكرج ... ٢٧٠
ـ ذكر ملك السلطان كنجة وسائر بلاد أران ٢٧٣
ـ ذكر نكاح السلطان بنت طغرل بن أرسلان... ... ... ٢٧٣
ـ ذكر عوده إلى بلد الكرج وفتحه تفليس... ... ... ٢٧٤
ـ ذكر المصاف الكائن بينه وبين التتار بظاهر أصفهان ٢٧٥
ـ ذكر ما آل إليه أمر غياث الدين ٢٧٨
ـ ذكر مسير السلطان إلى خلاط ومحاصرتها... ... ... ٢٧٩
ـ ذكر الحوادث في مدة حصار خلاط ٢٨٠
ـ ذكر مسير رسول السلطان إلى الديوان العزيز واجتماعه بالخليفة وما اتفق له وعوده بالخلع والتشاريف ٢٨١
ـ ذكر ملكه مدينة خلاط ٢٨٥
ـ ذكر مسيره إلى بلد الروم وانهزامه من عسكرى الشام والروم ٢٨٧
ـ ذكر وصول مقدمة التتار إلى تخوم أذربيجان ورحيل السلطان من تبريز إلى موقان ٢٨٩
ـ ذكر كبسة التتار السلطان وهو بحد (شيركبوت) ٢٩٠
ـ ذكر القبض على شرف الملك وزير السلطان وقتله... ... ... ٢٩١
ـ ذكر رحيل السلطان صوب كنجة وتملكها ثانياً ٢٩٤

رقم الصفحة

- ذكر نزول السلطان بلد آمد وكبس التتار له وما كان من أمره ٢٩٥
- ذكر مقتل السلطان جلال الدين وانقراض الدولة الخوارزمية ٢٩٧
- ذكر أخبار الدولة الجنكزخانية وابتداء أمرها وما تفرع عنها ٣٠٠
- ذكر أخبار جنكزخان التمرجي وابتداء أمره وسبب ظهور ملكه ٣٠١
- ذكر خروج التتار إلى البلاد الإسلامية ٣٠٦
- ذكر استيلاء جنكزخان على بخارا ٣٠٧
- ذكر استيلائه على سمرقند. ٣٠٩
- ذكر ما فعلته الطائفة المغربة من التتار. ٣١١
- ذكر استيلائهم على مازندران ووصولهم إلى الرى وهمذان ٣١٢
- ذكر مسيرهم إلى أذربيجان وقتالهم مع الكرج. ٣١٣
- ذكر ملكهم مدينة مراغة. ٣١٤
- ذكر ملكهم همذان وقتل أهلها. ٣١٦
- ذكر مسيرهم إلى أذربيجان وملكهم أردويل وغيرها... ٣١٧
- ذكر وصولهم إلى بلاد الكرج... ... ... ٣١٩
- ذكر وصولهم إلى دربند شروان وما فعلوه فيه ٣٢٠
- ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق. ٣٢١
- ذكر ما فعلوه بقفجاق والروس... ... ... ٣٢٢
- ذكر عود التتار إلى ملكهم. ٣٢٣
- ذكر ملك التتار خراسان ٣٢٤
- ذكر ملكهم مدينة غزنة وبلاد الغور ٣٢٧
- ذكر ملكهم مدينة خوارزم... ... ... ٣٢٩
- ذكر عود طائفة من التتار إلى همذان وغيرها... ... ... ٣٣١
- ذكر وفاة جنكزخان التمرجي ، وأسماء أولاده وإخوته وما قرره لأولاده من الوظائف والبقاع وغير ذلك.. ... . ٣٣٤

رقم الصفحة

ـ ذكر ملك أوكتاى بن جنكزخان. ٣٣٨
ـ ذكر الحروب الكائنة بين التتار والسلطان جلال الدين ، وما كان من أمرهم إلى أن ملكوا ما كان بيده ٣٤٠
ـ ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتار ٣٤٢
ـ ذكر دخول التتار ديار الجزيرة ٣٤٣
ـ ذكر وفاة أوكتاى خان وقيام ولده كيوك خان بعده وقتله .. ٣٤٥
ـ ذكر جلوس منكوقان بن (تلى خان) بن جنكزخان على تخت القانية ٣٤٦
ـ ذكر دخول التتار إلى بلاد الروم وما استولوا عليه من البلاد ٢٤٨
ـ ذكر تجريد منكوقان العساكر إلى بلاد الروم وما استولوا عليه منها ٣٤٩
ـ ذكر مهلك منكوقان وما حصل بين إخوته من التنازع فى القانية ٣٥٢
ـ ذكر ملك قبلاى بن تولى خان بن جنكزخان القانية ، وهو الخامس من ملوكهم ٣٥٤
ـ ذكر أخبار ملوك البلاد الشمالية من أولاد جنكزخان التمرجى ٣٥٦
ـ ذكر ملك بركة بن باطوخان بن دوشى خان بن جنكزخان ، وهو الرابع من ملوك هذه المملكة الشمالية ٣٥٨
ـ ذكر ملك منكو تمر بن طوغان بن باطو خان بن دوشى خان ابن جنكزخان ، وهو الخامس من ملوكهم بهذه المملكة ٣٦٢
ـ ذكر مسير عساكر منكو تمر إلى بلاد القسطنطينية ٣٦٢
ـ ذكر ملك تدان منكوا بن طغان بن باطو خان بن دوشى خان ابن جنكزخان ٣٦٤
ـ ذكر ملك تلابغا بن طربوا بن دوشى خان بن جنكزخان ... ٣٦٦

رقم الصفحة

— ذكر ملك طقطا بن منكوتمر بن طوغان بن باطوخان بن دوشى خان بن جنكز خان ، وهو الثامن من ملوك هذه المملكة ٣٦٨

— ذكر إيقاع طقطا بجماعة من أمرائه... ... ... ٣٦٨

— ذكر ابتداء الخلف بين طقطا ونوغيه ٣٦٩

— ذكر الوقعة الأولى بين طقطا ونوغيه ٣٧٠

— ذكر الوقعة الثانية وقتل نوغية ٣٧١

— ذكر أخبار أولاد نوغية ٣٧٢

— ذكر ما اتفق طراى بن نوغية وصراى بغا بن منكوتمر من الخروج عن طاعة الملك طقطا وقتلهما... ... ... ٣٧٣

— أزبك بن طغو بجا بن منكو تمر بن طغان بن باطوخان بن دوشى خان بن جنكز خان ٣٧٥

— ذكر أخبار هولاكو بن تولى خان بن جنكز خان ، وابتداء أمره وما استولى عليه من الممالك والأقاليم ومن ملك من ذريته ٣٧٩

— ذكر استيلائه على بغداد وقتله الخليفة المستعصم بالله ٣٨٠

— ذكر استيلاء التتار على ميا فارقين ٣٨٣

— ذكر وفاة بيجو مقدم التتار ٣٨٤

— ذكر منازلة هولاكو مدينة حلب واستيلائه عليها وعلى بلاد الشام ٣٨٦

— ذكر استيلاء التتار على دمشق. ٣٨٩

— ذكر الأقاليم التى استقرت فى ملك هولاكو بعد وفاة منكوقان ٣٩٢

— ذكر ملك هولاكو ونبذة من أخباره ٣٩٣

— ذكر ملك أبغا بن هولاكو بن تولى خان بن جنكزخان ٣٩٥

رقم الصفحة

— ذكر قتل سليمان البروانا ٣٩٨

— ذكر وفاة أبغا بن هولاكو ٤٠٠

— ذكر ملك توكدار بن هولاكو ، وهو المسمى أحمد سلطان وهو الثالث من ملوك هـذا البيت ٤٠١

— ذكر ما اتفق بين توكدار وبين أرغون ابن أخيه أبغا ٤٠٣

— ذكر مقتل توكدار بن هولاكو ٤٠٣

— ذكر ملك أرغون بن أبغـا بن هولاكو بن تولى خـان بن جنكز خان ، وهو الرابع من ملوك هـذا البيت ٤٠٤

— ذكر ملك كيخاتو بن أبغـا بن هولاكو ، وهو الخامس من ملوك هـذا البيت ٤٠٦

— ذكر ملك بيدو بن طرغاى بن هولاكو بن تولى خان بن جنـكز خان ، وهو السادس من ملوك هـذا البيت ٤٠٧

— ذكر ملك غازان بن أرغون بن ألغا بن هولاكو بن تولى خان ابن جنكز خان ، وهو السابع من ملوك هذا البيت ٤٠٩

— ذكر مسير غازان إلى الشام ، ووقعة مجمع المروج واستيلائه على البـلاد الشـامية وعوده منها ٤١١

— ذكر مسـير غازان إلى الشـام وعوده ، وتجريد عسـاكره وانهزامها بمرج الصفر ٤١٥

— ذكر وفاة غـازان ٤١٦

— ذكر ملك خـدا بندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى خـان ٤١٧

— ذكر قتل قطلو شاه نائب خر بندا وتولية جوبان النيابة ٤١٧

— ذكر خبر مدينة قنغر لام ، وتسمى السلطانية ٤١٩

— ذكر وفاة خـدا بندا وملك ابنه أبى سعيد بن خدا بندا ٤١٩

مراجع التحقيق

رقم الصفحة

(أولا) المراجع العربيـــة ٤٢١
(ثانياً) المراجع الفارسية ٤٢٥
(ثالثاً) المراجع الأوربيـــة... ... ... ٤٢٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٤٧٥/١٩٨٥

ISBN ٩ ـ ٠٦٠٨ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مركز تحقيق التراث

نِهَايَةُ الأَرَبِ
فِي
فُنُونِ الأَدَبِ

تأليف

شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النُّوَيْرِي

٦٧٧ - ٧٣٣هـ

الجزء الثامن والعشرون

حققه ووضع حواشيه

دكتور محمد محمد أمين
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتور محمد حلمي محمد أحمد
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

نِهَايَةُ الأَرَبِ

فِي

فُنُونِ الأَدَبِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وذريته وتابعيه إلى يوم الدين.

وبعد فهذا هو الجزء الثامن والعشرون من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى، وهو الجزء السادس والعشرون من مخطوطة الكتاب المحفوظة بمكتبة كوبريللى بالأستانة، والتى توجد منها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة.

ويختلف منهج التحقيق فى هذا الجزء بالذات عن منهج تحقيق الأجزاء السابقة، فضلا عن الأجزاء اللاحقة، ذلك، أنه توجد عدة نسخ غير متكاملة من مخطوط نهاية الأرب لدرجة أنه توافرت لبعض الأجزاء أربع نسخ، منها نسخة بخط المؤلف فى بعض الأحيان، مما جعل مهمة تحقيق النص أكثر سهولة، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لهذا الجزء بالذات، فلا توجد نسخ أخرى كاملة من هذا الجزء بين ما هو معروف من نسخ كتاب نهاية الأرب.

وتزداد صعوبة العمل فى تحقيق هذا الجزء لوجود نقص فى أوله ــ قد لايزيد عن بضع ورقات ــ كما يوجد نقص فى آخره ــ قد يكون ورقة واحدة ــ، كما أن سياق الكلام والحوادث غير متصل فيما بين اللوحتين ١٢٤، ١٢٥.

فأوراق هذا الجزء تبدأ باللوحة رقم ٧ ، وعلى هامشه إشارة لأحد العاملين بدار الكتب «الأصمعى» فى الثلاثينات من هذا القرن ، تفيد أن الأوراق من ١ إلى ٦ موضوعة خطأ . وبالبحث عن هذه الأوراق المفقودة ، وبالرجوع إلى سلبيات تصوير هذا الجزء ، والتى ترجع إلى سنة ١٩٢٣ ، تبين أن هذه الأوراق موجودة بالسلبية ، ولكن بها أخبار حوادث سنوات ٥٩٩ ــ ٦٠٢هـ ، وهذه الأحداث تقع ضمن الجزء التالى ، وأن الأوراق التى نزعت من بداية الجزء ٢٦ نقلت إلى موضعها فى بدايات الجزء ٢٧ من المخطوطة .

وإزاء هذا الوضع لم نجد بُدًّا من تقديم المتن الموجود من الجزء ٢٦ من المخطوط كما هو ، مع الإشارة إلى مواضع النقص .

وإزاء عدم وجود نسخ أخرى من هذا الجزء كان لزاما الرجوع إلى المصادر التى نقل عنها النويرى للمقابلة عليها فى محاولة لتقديم نص أقرب مايكون لنص المؤلف ، ولم يكن الأمر سهلا ، فرغم أن النويرى يبدأ عباراته بلفظ «قال» ، أو «قال المؤرخ» ، فإنه لايذكر لنا من الذى قال ، أو من هو المؤرخ إلا فى حالات محدودة ذكر فيها صراحة أنه نقل عن «ابن جلب راغب فى تاريخ مصر» ، وهو المعروف بابن ميسر .

وعن طريق متابعة هذه الإشارات ، مع مقارنة النصوص ومقابلتها على المصادر المعاصرة للأحداث أمكن التعرف على أهم مصادر النويرى فى هذا الجزء .

وطبيعة هذا الجزء الذى يتناول فيه النويرى «أخبار ملوك الديار المصرية» من بداية العصر الطولونى حتى دخول الملك العادل الأيوبى القاهرة فى أوائل العصر الأيوبى ، جعلت النويرى ينتقى لكل فترة

مصدرا أو أكثر يأخذ عنه مادته العلمية ، فعلى سبيل المثال ، عندما يتناول أخبار الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا يعتمد على كتاب افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، وعندما تنتقل الدولة إلى مصر يعتمد على كتاب أخبار مصر لابن ميسر ، وعندما يتحدث عن الحملة الصليبية الأولى يعتمد على كتاب الكامل لابن الأثير ،وهكذا .

وبالإضافة إلى هذه المصادر الأساسية كان النويرى ينقل عبارات أو مقتطفات من مصادر أخرى يضمنها كتاباته ، وعلى سبيل المثال أيضا ما كان يأخذه عن كتاب أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر .

لذلك استلزم تحقيق هذا الجزء بالذات مقابلة ما ورد به مع المصادر المعاصرة للأحداث ، فى محاولة لتقديم نص متكامل أقرب مايكون إلى نص المؤلف ، واقتضى الأمر إضافة بعض الكلمات أو العبارات ، أو تصحيح بعضها وفقا لما يرد فى هذه المصادر .

وفى جميع الأحوال أشرنا إلى ذلك فى الهوامش ، فكل ما أضيف إلى المتن وضع بين حاصرتين [ ] ، وكل ما تم تصحيحه تم التنبيه عليه فى الهوامش .

وبالإضافة إلى معالجة النص تم التعريف بالأعلام والأماكن والمصطلحات بقدر الإمكان ، وذلك عند ورودها لأول مرة ، مع ترك المعروف منها والمتواتر حتى لاتثقل الهوامش ويطغى التعليق على النص الأصلى للمؤلف .

ولما كان هذا الجزء يتناول أساسا العصر الفاطمى ، من الورقة ٢١ إلى الورقة ١٠٥ ، فقد كان للنصوص التى نشرت حديثا عن هذا العصر

أهمية خاصة فى تحقيق هذا الجزء ، وعلى سبيل المثال : أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر والذى صدر عام ١٩٧٢ ، والجزء الثالث من اتعاظ الحنفا للمقريزى عام ١٩٧٣ ، وكتاب افتتاح الدعوة للقاضى النعمان عام ١٩٧٥ ، وأخبار مصر للمسبحى عام ١٩٧٨ ، وأخبار مصر لابن ميسر عام ١٩٨١ ، ونصوص من أخبار مصر لابن المأمون عام ١٩٨٣ .

وقبل أن أختتم هذه المقدمة أحب أن أشير إلى أن مؤسسة التأليف والترجمة سبق وأن عهدت إلى المرحوم الدكتور محمد حلمى محمد أحمد الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة بتحقيق هذا الجزء من كتاب نهاية الأرب ، وقد قام رحمه الله بإنجاز هذا التحقيق فى حوالى سنة ١٩٦٥ ، ولكن ولأسباب مختلفة تأخر طبع أجزاء كتاب نهاية الأرب .

وعندما شرع مركز تحقيق التراث فى تقديم هذا الجزء إلى المطبعة فى عام ١٩٨٥ رأى أن التحقيق المقدم من المرحوم الدكتور محمد حلمى محمد أحمد منذ عشرين عاما فى حاجة إلى استكمال . ولم يكن فى وسع أحد أن يستكمل ما بدأه الدكتور محمد حلمى محمد أحمد نظرا لاختلاف مناهج التحقيق ، فضلا عن ظهور العديد من المصادر والمراجع التاريخية التى لم تكن متوافرة وقت أن حقق المرحوم الدكتور محمد حلمى محمد أحمد هذا الجزء ، ومن ثمَّ أصبح من الضرورى إعادة قراءة هذا الجزء وتحقيقه فى ضوء المصادر التى ظهرت بعد سنة ١٩٦٥ .

ورغم عدم إمكانية الإفادة من التحقيق الذى قام به الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ــ للأسباب المذكورة ــ فإنى رأيت أن أضع اسم المرحوم الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ــ كمحقق مشارك ــ على غلاف هذا الجزء باعتبار أنه ــ رحمه الله ــ أول من عمل فى تحقيق هذا

الجزء ، وأن ظروف وفاته هى التى حالت دون أن يظهر هذا الجزء بتحقيقه ، وذلك تكريما له ، وإحياءً لذكراه ، رحمه الله .

وفى ختام هذه المقدمة لايسعنى إلا أن أتقدم بالشكر إلى كل من الأستاذ محمد كامل محمد شحاته ، وكيل الوزارة ورئيس قطاع دار الكتب والوثائق القومية ، والأستاذ على عبد المحسن زكى مدير عام مركز تحقيق التراث ، لما قاما به من تذليل للصعاب والمعوقات الإدارية ، وتوفيرهما للمخطوطات والمصورات التى احتجت إليها عند تحقيق هذا الجزء .

كما أوجه الشكر إلى السيد / محمد محمد صقر الباحث الأول بمركز تحقيق التراث لما بذله من جهد فى الإشراف على طبع هذا الجزء وتصحيح تجارب الطباعة ، مما أدى إلى إخراج الكتاب على هذا النحو .

كذلك أوجه الشكر إلى السيدة / حكمت الخضرى لما بذلته من جهد فى إعداد (ماكيت) الكتاب .

وبعد ، فالكمال لله وحده ، ولايسعنى إلا أن أذكر قوله تعالى : ﴿ربَّنا لاتُؤَاخِذنا إنْ نَسِينا أو أخْطَأْنا﴾ ، وأدعوه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لخدمة التراث الإسلامى ،

والله ولى التوفيق ..

دكتور محمد محمد أمين

القاهرة ١٥ شعبان ١٤٠٦ هـ
فى ٢٤ ابريل ١٩٨٦ م

[الباب الثانى عشر من القسم الخامس
من الفن الخامس
أخبار ملوك الديار المصرية] (١)

[الدولة الطولونية] (٢)

[٧] فتجهز أحمد للمسير إلى الشام (٣) ، وسار فى شوال سنة أربع وستّين لقَصْده (٤) . واستخلف على مصر ابْنَهُ العبَّاس ، وعضّده بأحمد بن محَمد الواسطى . وكتب إلى عَلىّ بن أمَاجُور وإلى أصحاب أبيهِ الَّذين أقامُوه يذكُر أنَّ الخليفة (٥) أقطعه الشام والثُّغور مضافًا إلى ما بيده . فأجابُوه بالسّمع والطَّاعة . وتلقّاه ابن أمَاجُور بالرّملة . فأقرَّه عليها . وسار إلى دمشق فملكَها وأقرَّ قوَّاد أماجور على إقطاعاتهم . وسار إلى حمص فتلقَّاه عيسى الكرخِىّ ،

---

(١) [ ] إضافة من خاتمة جـ ٢٥ من مخطوط نهاية الأرب عن نسخة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٢١٤ معارف عامة ، وهى صورة عن نسخة بخط المؤلف محفوظة بمكتبة أمانة خزينة باستنبول تحت رقم ١٣٧١ .

(٢) [ ] إضافة تتفق مع الموضوع التالى ، وهو أخبار الدولة الطولونية .

(٣) هذه بداية ما وجد من الجزء السادس والعشرين من مخطوط نهاية الأرب .
وفى سيرة ابن طولون : « ومن إقبال أحمد بن طولون أيضًا موت ماجور ، وكان أحد من يعرب عليه ، ويسعى فى أذيته فلا تمكنه ، فلما بلغه موته حمد الله عز وجل على ذلك ، واستخلف ابنه العباس على مصر ، وخرج من وقته » ـ ص ٩١ .

(٤) المقصود هنا على بن أماجور ، وورد فى الكامل : « وفى هذه السنة (٢٦٤ هـ) توفى أماجور مقطع دمشق ، وولى ابنه مكانه ، فتجهز ابن طولون ليسير إلى الشام فيملكه » ـ جـ ٧ ص ٣١٦ . ورد أن خروج أحمد بن طولون كان فى شعبان ـ الولاة والقضاة ص ٢١٩ .

(٥) المقصود هو الخليفة العباسى أبو العباس أحمد المعتمد على الله ، ولى الخلافة فى الفترة من ٢٥٦ـ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

وكان يتقلَّدُها ، فشكاهُ أهلُها فعزله عنهم [وولَّاها يُمن التركى] [١] . وملك حَماة وحلب .

وأرْسل إلى سيما الطَّويل بأنطاكية يدعُوه إلى طاعته ليُقَرَّ على ولايته ، فامتنع ، فعَاوَدَه ، فلم يُطعه ، فَسَار إليه . ودَلّوه على عَوْرة أنطاكية فنصب عليها المجانيق ، وملك البلد عنوة ، وقاتله سيما الطويل حتى قتل ، فساء أحمد قتله لأنّه كان نصيحه قديمًا [٢] ؛ وكان ذلك فى المحرّم سنة خمس وستين ومائتين .

ورحل عن أنطاكيّة إلى طرسُوس [٣] . فدخلها فى جَمْعٍ عظيم ، وعزم على المُقام بها ومُلازمة الغَزْو ، فغَلا السّعر وضاقَت بعَسَاكره ، فركب أهلُها إليه بالمخيَّم وقالوا له : لقد ضيَّقت علينا بلَدنا وأغْلَيت أسعارنا ، فإما أقَمْت فى عَدَدٍ يَسير وإمّا رحلت عنا ، وأغلظُوا له فى القول وشغَبُوا عليه ، فقال لأصْحَابه أن ينهزموا عن الطرسوسيّين ويرتحلُوا عن البلد ، ليَظْهر للعدُوّ أنّ ابنَ طولون على كثرة عساكره لم يَقْوَ لأهل طرسوس ، وأنّه انْهزَم عنهم ، لِتَقَع مهابتهم فى قلوب العدوّ .

وعاد إلى الشام ، فأتاهُ خبرُ ولدهِ العبّاس أنّه عصى عليه بمصر وأخذ الأموال وسار إلى برقة ، فلم يكترث أحمد لذلك ، وقضى أشْغَاله ، وحفظ

---

(١) [ ] إضافة من سيرة ابن طولون للتوضيح .

(٢) أمر أحمد بن طولون رجاله ألا يقتلوه وإن أمكن قتله ، وألا يرموه ، وأن يأخذوه سليمًا ، ولكن أهل أنطاكية رموه بالطوب والحجارة من منازلهم لبغضهم له ، فتحير فى الميدان ، ولحقه سهم فصدعه ، فقتل فى المعركة ، ولم يعلم أحد إلا بعد انتهائها — سيرة ابن طولون ص ٩٦ ، انظر أيضًا الكامل جـ ٧ ص ٣١٧ .

(٣) طَرَسوس : بفتح أوله وثانيه ، مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم — معجم البلدان .

أطرافَ بلادِه . وبعث إلى حَرّان[١] أحمد بن جِيغَوَيْه فى جيشٍ كثيف ، ونزل غلامُه لؤلؤ بالرَّقّة[٢] فى جيشٍ كثيف ، وكانت حرّان لمحمّد بن أتامش ، فأخرجه أحمد بن جيغويْه عنها ، وهزمه هزيمةً قبيحة ، فاتصل خبرُه بأخيه موسى بن أتامش ، وكان شجاعًا بطلا ، فجمع عسكرًا كثيرًا ، وسار بهم إلى نحو حَرّان . فاتّصل ذلك بابن طولون ، فأهمّه وأقلقه وأزعجه ، فنظر إليه رجلٌ من الأعراب يقال له أبو الأغَرّ ، فقال له : أيها الأمير أراك مفكّرًا منذ أتاك خبرُ ابن أتامش ، وما هذا محلُّه ، فإنه طائش قَلِق ، ولو شاء الأمير أتيته به أسيرًا . فغاظه قولُه[٣] ، وقال : لقد شئت أن تأتينى به أسيرًا [فقال الاعرابى][٤] فاضمُم إلىَّ عشرين أختارُهم . قال : افعل . فانتقاهُم أبو الأغرّ ، وسار بهم .

فلمّا قاربَ عسكرَ مُوسى ، كَمَّن بعضهم ، وجعل بينَه وبينهُم إشارةً إذا سمعُوها ظهَرُوا .

ثمّ دَخَل العسكر فيمن بقِى معه على زِىّ الأعراب ، وأصحابُ موسى على غرّة ، وقد تفرّق بعضهم فى حوائجهم ، فانْزَعج العسكرُ وركِبُوا ، فركب مُوسى ، فانهزم أبو الأغر بين يَدَيْه ، فاتّبعه حتى أخْرجَهُ من العسكر ، واستمرَّ حتّى جاور الكمين ، فنادى أبو الأغرّ بالإشارة التى بيْنَه وبينهم ، فثاروا ،

---

(١) حَرّان : بفتح الحاء وتشديد الراء ، قصبة ديار مضر بالجزيرة ، على الطريق الرئيسية الموصلة إلى الموصل والشام ، وإلى منطقة الثغور ـ معجم البلدان .

(٢) الرقّة : بتشديد الراء والقاف : بلدة على الفرات اتخذها بعض الخلفاء العباسيين مصطافا لهم ـ معجم البلدان .

(٣) يرى البلوى أن الأمير الذى أغاظه هذا القول هو ابن جغويه ، وليس أحمد بن طولون ، كما يذكر النويرى وابن الأثير ـ سيرة ابن طولون ص ١٠٤ ، وانظر الكامل جـ ٧ ص ٣١٨ .

(٤)] إضافة من سيرة ابن طولون ص ١٠٤ .

وعطف أبو الأغرّ على مُوسى فأسره ، وأخذُوه حتّى وصلُوا به إلى ابن جيغَوَيْه وإلى ابن طولون فاعتقلاه ، ورُفع إلى مصر . وكان وصُولُه إليها فى سنَةِ ستٍّ وستّين[١] ..

ذكر عصيان العباس بن أحمد بن طولون على أبيه وما كان من أمره

وفى سنة خمسٍ وستّين ومائتين عصى العَباس بن أحمد على أبيه ، وسبب ذلك أنّ أباه لمّا استخلَفَه بمصر ، كما ذكرناه ، وخرج إلى الشّام ، حسَّن للعبَّاس جماعةٌ كانوا عنده أخْذَ الأموال والإنْسِرَاح[٢] إلى برقة ، ففعل ذلك ، وحمل معه أحمد بن محمد الواسطى كاتب أبيه ، وأيمن الأسود مقيَّدَيْن .

فلمَّا رجع أحمد إلى مصر وجَدَهُ قد أخَذَ ألفى ألف دينار ، واسْتَلَف من التُّجار ثلاثمائة ألف دينار ، وأمرَ صاحب الخراج أنْ يضْمَنَها لهم ، ففعل . فراَسَل أحمد ابنه واسْتَعطفه ، فَلَم يرجع ، فخاف مَن معه وأشارُوا عليه بقَصْد إفريقية ، فسار إليها ، وكاتَب وُجُوه البربر ، فأتاهُ بعضُهم وامتنع بعضُهم . وكَتَب إلى إبراهيم بن الأغلب[٣] يقولُ : إن أمير المؤمنين قلَّدَنى

(١) « وكان ذلك فى سنة خمس وستين ومائتين » ـ الكامل جـ ٧ ص ٣١٨ .

(٢) « الإنشراح » فى الكامل جـ ٧ ص ٣٢٤ .

(٣) هو إبراهيم (الثانى) بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، كان على رأس دولة الأغالبة التى استقلت بتونس عن الدولة العباسية ، وولى إبراهيم الحكم فى الفترة من ٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ ـ ٩٠٢ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٦ .

إفريقية وأعمالَها ، ورحل حتَّى أتى حصن لِبْدَة[١] ، ففتحه أهله له ، فقابلهم أسوأ مقابلة ، ونهبهم ، فمضى أهلُ الحصن إلى إلياس بن منصور النَّفُوسى ، رئيس الإباضيّة هناك ، فاستغاثُوا به ، فغضب لذلك ، وسار إلى العباس ليقابله .

وكان إبراهيم بن الأغلب قد أرسل إلى عامل طرابلس جيشًا[٢] وأمره بقتال العبّاس ، فالتقَوْا واقتتلوا قتالًا شديدًا حتى حجز بينهما اللّيل . فلمّا كان الغد وافَاهُم إلياس ابن منصور الإباضى فى اثنى عشر ألفا من الإباضيّة ، فأجمع هو وعامل طرابلس على قتال العبّاس . فاقتتلوا ، فقُتِل من أصحابه خلقٌ كثير ، وانهزم أقْبَح هزيمة ، وكاد أن يُؤْسر . فخلَّصَه مولًى من مواليه ، ونهبُوا سوَادَه ، وأكثر ماحمله من مصر . فعاد إلى برقة أقْبَح عَوْد .

[وشاع بمصر أن العباس قد انهزم][٣] [٨] فاغتمّ أبُوه لذلك غمًّا شديدًا ، وسيَّر إليه العساكر ، فقاتَلَهم وقاتلوه ، فانهزم ، وكثُر القتل فى أصحابه ، وأُخِذ أسيرًا ، وحُمِلَ إلى أبيه . فحبسه فى حجرةٍ فى الدَّار إلى أنْ قدَمِ العسكر ببقيَّة الأسرى من أصحابه . فلمَّا قَدِموا أحضَرهم أحمد عنده ، والعبّاس معهم ، وأمره أن يقطع أيدى أعْيَانِهم وأرْجُلَهم ، ففعل ذلك . فلمّا فرغ منهم وبَّخَه أبُوه وذنَّبَه . وقال له : هكذا يكونُ الرَّئيس والمقدّم ! كان الأحسَن أنّك ألْقَيت نفسك بين يدىَّ وسألت الصَّفح عنك وعنهم ،

(١) لبدة : مدينة فينيقية قديمة ، تقع شرق طرابلس بشمال بيبيب ــ بنحو ١٢٤ كم ـ معجم البلدان الليبية ص ٢٩٥ .

(٢) « وكان الأغلب قد أنفذ إلى محمد بن قرهب عامل طرابلس بخادم له يعرف ببلاغ فى جمع من أهل القيروان كثير » ـ سيرة ابن طولون ص ٢٥٤ .

(٣) [ ] هذه العبارة مشطوبة بالأصل ، وأثبتناها اهتداء بما جاء فى سيرة ابن طولون ص ٢٥٥ ، والكامل جـ ٧ ص ٣٢٥ .

فكان ذلك أعْلَى لمحلِّك . وكنت قضيت حقوقهم[١] . ثم أمَرَ به فضربَه مائة مِقْرَعة ، ودُمُوع أحمد تجرى على خدِّه رِقَّةً على ولده ، ثم رَدَّه إلى الحجرة واعتقله ، وذلك فى سنة ثمانٍ وستين ومائتين .

ذكر خلاف لؤلؤ على احمد

كان سببُ ذلك أنّ الحُسَين بن مُهَاجر[٢] غلَب على أحمد بن طولُون، وحسَّن له جَمْع الأموال ومَنَعه من سماحته وجَرْيه على عوائده الجميلة ، فنَفَرت القلوبُ عن أحمد ، وتغيَّرت الخواطرُ عليه . فتنكَّر له غلامُه لؤلؤ ، وكان عمدته عليه . وكان فى يده حَلَب وحمص وقِنَّسرين وديار مُضَر . وكان أحمد إذا أنكر على لؤلؤ شيئًا أوْقَع بكاتبه محمّد بن سليمان . ويقولُ له . هذا منْكَ ليس منه ،فحمل محمّدَ بن سليمان الخوفُ من أحمد على أنْ حسَّن [-][٣] لؤلؤ حَمْل جُملةٍ من المال إلى الموفّق[٤] . فحمَل ذلك إليه ، وكتب إليه عن لؤلؤ كتابًا يعرِّفه رغبتَه فى المصير إليه ، والتَصرُّف تحت أمره ونهْيِه . والدُّخول فى طاعته ، فسُرَّ الموفَّق لذلك واستبشر . يِمَا فى نَفْسه من أحمد ، ورأى أنَّ ذلك من الفُرص الَّتى يتعيَّنُ انتهازُها . فأجابه بأحْسَن جواب ، وأنفَذَ إليه خِلعًا .

---

(١) « وكتب قضية حقوقهم » فى الأصل ، والتصحيح من سيرة ابن طولون ص ٢٧١ ، الكامل جـ ٧ ص ٣٢٥ .

(٢) « الحسن بن مهاجر » فى سيرة ابن طولون ص ٢٧١ .

(٣) [ـ] إضافة من سيرة ابن طولون ص ٢٧٦ تتفق وسياق الكلام .

(٤) هو طلحة ويقال محمد بن المتوكل . الموفق أبو أحمد . ولى عهد أخيه الخليفة العباسى المعتمد على الله . وكان فى خلاف مع أحمد بن طولون . وتوفى المتوفى سنة ٢٧٨ هـ/٨٩١ م - شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٧٢

وكانت مع لؤلؤ طائفةٌ من خواصِّ أحمد ، فلمَّا أنكرُوا حالَه ، واطَّلعوا على ما فعله ، فارقُوه ، والتحقُوا بأحمد ، وأطْلَعوه على ما كان من أمْرِ لؤلؤ . فتألَّم لذلك . وأخَذَ فى إعمال الحيلة والمخَادَعة لِلُؤلؤ والتلطُّف به ، ومكاتبة محمّد بن سليمان ، فلم يُفِدْ ذلك عنْدَه . فكتب أحمد إلى المعتمد على الله كتابًا يقول فيه : إنّى خائفٌ على أمير المؤمنين من سُوءٍ يلحقُه ، وقد اجتمع عندى مائة ألف عِنانٍ أنْجاد ، وأنا أرى لسيِّدى أميرِ المؤمنين الانْجذاب إلى مصر ، فإنّ أمْرَه يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العزّ ، ولا يتهيَّأُ لأخيه الموفق شىْءٌ ممَّا يخافه عليه . وجهَّز له قرين ذلك ، سفاتج [1] بمائة ألف دينار ، وذلك فى سنة ثمانٍ وستين ومائتين . وأظهر أحمد الخروج لهذا الأمر . فلمَّا وصل كتابهُ إلى الخليفة . تجهَّز لقَصْده مصر ، فكان من خُروجه ورُجُوعه إلى بغداد ما ذكرناه فى أخباره .

وأمّا أحمد فإنَّه تجهّز إلى الشام ، وأخَذَ معه ابْنَه العبّاس مقيّدًا ، واستخلف ابنَه خمارويه على مصر . فسَار ، فوَصل إلى دمشق وهو يُظهِر الانتصارَ للمعتمد ، ويَقْصِد لؤلؤًا غلامَه فعِنْد ذلك الْتَحَق لؤلؤ بالموفَّق ، وكان لحاقُه به فى سنة تسعٍ وستين .

وانتهى إلى أحمد عَوْدُ المعتمد ، وأنَّه ضُيِّق عليه ، فأحضر أحمد قضاةَ أعماله وفيهم بَكَّارُ بن قُتَيبة [2] والعُمرى وأبوحازم ، وغيرهم ، وخلع الموفَّق ، فكلُّهم وافقه على ذلك إلَّا بكَّار . وأسقط أحمدُ دعْوَة الموفَّق ، وقلع اسمه

(١) سفتجة ــ سفاتج : صك مالى ، أو حوالة مالية ــ القاموس المحيط ، السلوك جـ ٢ ص ٤٢٠

(٢) ولى قضاء مصر من قبل الخليفة العباسى المتوكل ، سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م ،وتوفى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ــ الولاة والقضاة ص ٤٧٦ .

من الطُّرُز . فلمّا بلغ الموفَّقَ ذلك أمَرَ بلَعْن أحمد بن طُولُون فى المنابر فى سائر الأمصار . ثم رجع الموفَّق عن ذلك ، وأمر كاتبَه صاعدَ بن مخلَّد وجماعةً من خاصَّته بمكاتبة أحمد بن طُولُون وتوبيخه على ما فعله ، فكتبوا إليه واستمالُوه ، فعَلِم أنّ ذلك عنْ رأيِ الموفَّق وإذْنِه لهم ، فأجابهُم بأحْسَن جواب . فعرضُوا كُتُبه على الموفَّق ، فسرَّهُ ما تضَمَّنَتْه ، وعلم أنَّ ابن طولون إنّما فعل ذلك لمغالاته فى المناصحة هم . وكان الموفَّق كامل العقل ، فسَكَّن ذلك منه ما كان فى نفسه على أحمد ، ومال قلبُه إليه . وكتب الموفَّق إلى أخيه المعتمد يُعْلمه برجوعِه عن أمْرِ أحمد ونَدَمِه على ما كان منه فى حقِّه ، وسأله أنْ يكتب إليه ، فسُرَّ المعتمد بذلك ، وكتب إلى أحمد كتابًا بخطّه ، وأمَرَه بالرجوع عمَّا هو عليه من أمْر الموفَّق ، وبعث إليه كتاب الموفَّق برجوعه عن لَعْنه ، وأنْفَذ الكتاب مع الحسن بن عطَّاف . فلمَّا بلغ الرَّقَّة بلغه وفاةُ أحمد ابن طولُون(١) ، فرجعَ إلى الحضرة .

وأما لؤلؤ فإنّه بلغهُ أنّ مولاه أحمد باع أولاده وخدمه بسُوق الرَّقيق بمصر ، وقبَض على أملاكه ، فبلغ ذلك منه كلَّ مبلغ ، وتقدَّم إلى الموفَّق وبكى ، وسأله إنْفَاذ الجيوش معه ، وضَمِن له أخْذ البلد من مولاه ، وبَسَط لسانه فى سيرته ، فخلع الموفَّق عليه ، وحَمَله على دابّة ، ووعَدَه ، وأمر بتجريد الجيوش[٩] معه ، كلُّ ذلك وهو يسخرُ به ويماطلُه إلى أن يعودَ جوابُ أحمد مع الحسَن ابن عطَّاف ، فقبض حينئذٍ على لؤلؤ وردَّه إلى مولاه ، واستقبح ما فعله لؤلؤ فى حقِّ سيدِه ، فلمَّا اتفق وفاةُ أحمد ، أقامَ لؤلؤ فى

(١) توفى أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣ م ـ الكامل جـ ٧ ص ٤٠٨ ، شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٥٧ ، وانظر ما يلى عن وفاته .

خدْمَة الموفَّق إلى سنة ثلاثٍ وسبعين ، فقبض الموفَّق عليه ، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار ، وكان لؤلؤ يقول : ليس لى ذنب إلَّا كثرة مالى .

ولم تزل أمور لؤلؤ فى إدْبار إلى أن افتقر ، ولم يبْقَ له شىء ، فعاد إلى مصر فى آخر أيام هارون بن خُمَارَويه[1] بغلام واحد . وهكذا تكون ثمرةُ الغَدر وكفر الإحسان .

ذكر وفاة أحمد بن طولون
وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاته فى نصف اللَّيل من ليلة الأحد لعشر ليالٍ خلوْن من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين .

قيل : وكان سببُ وفاته أن نائبَهُ بطرسوس[2] وثب عليه يازمان[3] الخادم وقبض عليه ، وأظهر الخلاف على أحمد . فجمَعَ أحمدُ العساكر ، وسار إليه . فلمَّا وصل إلى أذَنَة[4] كاتَبَه وراسَلَه واستمالَه ، فلم يلتفت

(١) ولى فى الفترة من ٢٨٣ ــ ٢٩٢ هـ/٨٩٦ ــ ٩٠٥ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢٨ .

(٢) كان نائب احمد بن طولون بطرسوس أخوه موسى ، فلما حضرته الوفاة استخلف عليها أحد أعوانه يسمى خليفة طخشى ، وهو الذى ثار عليه يازمان ــ سيرة ابن طولون ص ٣١٠ .

(٣) ورد فى المخطوط بعدة صور : مازيار ، بازمار ، بازيار ، وورد فى الكامل بازمار ، وورد فى سيرة ابن طولون ، والنجوم الزاهرة يازمان ، فوجدنا الرسم طبقًا للصورة الأخيرة لورودها فى سيرة ابن طولون ، والولاة والقضاة .

(٤) أذنه = أطنه : بفتح أوله وثانيه ، من بلاد الثغور ــ قرب المصيصة ــ معجم البلدان .

يا زمان الخادم إلى رسالته . فسار أحمدُ إليه وحَصَره ، فخرق يا زمان نهر البلد[١] على مَنْزلة العسكر ، فكاد النَّاس يهلكون . فرحَل أحمد حَنِقا ، وكان الزمان شتَاء ، وكتب إلى يا زمان : إننى لم أرحل إلّا خوفًا أن تنْخرِق حرمةُ هذا الثَّغر ، ويطمع العدو فيه . وعاد إلى أنطاكيَّة ، فأكل من لبن الجواميس وأكْثَرَ منه ، فأصابته هيضة واتّصلت به حتى صار منها ذَرَب[٢] . وكان الأطبّاءُ يعالجونه ، وهو يأكلُ سرًّا غير ما يصفونه ، فلم ينجع الدّواء فيه . فمات رحمه الله .

هكذا ذكر ابنُ الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل فى سبب وفاته[٣] .

وأما صاحبُ الدّول المنقطعة[٤] فإنه قال : إنَّه رجع إلى مصر واعتلَّ بزلق للمعدة . واشتدّت به العلّة وطالت ، فعهد إلى ابنه أبى الجيش خُمارَويه ، وأطلَقَ ابنَه العباس من قيده ، وذلك فى القَعْدة سنةَ سبعين ومائتين ، وخلع عليه وقلَّده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشَّامات والثُّغور ، وأوصاه بتَقْوى الله وطاعة أخيه . ثمّ تُوفّى رحمه الله وسِنُّه يومئذٍ خمسون سنَة وشهرٌ وثمانية وعشرون يومًا ، ومدّة إمرته على مصر ستّ عشرة سنة وشهر واحد وسبعة وعشرون يومًا[٥] .

---

(١) كان يسمى « نهر البردان » ، ويعرف حاليًا بنهر « قره صوره » ، أى النهر الأسود ــ سيرة ابن طولون ص ٣١٠ .

(٢) ذرب : فساد المعدة .

(٣) الكامل جـ ٧ ص ٤٠٩ .

(٤) هو على بن ظافر ، جمال الدين ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م ــ انظر مقدمة الجزء المطبوع من كتابه : أخبار الدول المنقطعة ، نشر أندريه فريد ـ القاهرة ١٩٧٢ .

(٥) انظر أيضًا تفاصيل أمر مرضه ووفاته فى سيرة ابن طولون ص ٣١٢ وما بعدها ، الولاة والقضاة ص ٢٣١ .

وأمّا سيرته ، فإنّه ، رحمه الله ، كان عادلًا شُجاعًا ، كريمًا متواضعًا ، حَسَن السِّيرة ، يُباشر الأمور بنفسه ويتفقّد رعاياه ، ويحبُّ أهل العلم ، ويُدْنى مجالسهم . وكان كثير الصَّدقات . وهو الذى بنى قلعة يافا ، وكانت المدينة بغير قلعة .

اولاده ثلاثة وثلاثون[١] . منهم[٢] : أبو الفضل العبّاس ، أبو الجيش خُمارَويه ، أبو العشائر مُضَر . أبو الكرم ربيعة ، أبو المقانب شيبان ، أبو ناهض عياض ، أبو معدّ عدنان ، أبو الكراديس خزرج . أبو حبشون عدىّ ، أبو شجاع كندة ، أبو منصور أغلب ، أبو بهجة ميسرة ، أبو البقاء هدى ، أبو المفوض غسّان ، أبو الفرج مبارك ، أبو عبد الله محمد ، أبو الفتح مظفر .

والبنات ستّ عشرة ، وهُنَّ : فاطمة ، ولميس ، وتعلب[٣] ، وصفية ، وغالية[٤] ، وخديجة ، وميمونة ، ومريم ، وعائشة ، وأم القرى[٥] ، ومؤمنة ، وعزيزة ، وزينب ، وسمانة ، وسارة ، وغريرة .

وخلّف من الأموال والعين والورق كثيرًا ، ومن الغلمان أربعةً وعشرين ألف غلام ، ومن الموالى سبعة آلاف رجل ، ومن الخيل سبعة آلاف وثلاثمائة وخمسين رأسًا ، منها : لركابه ثلاثمائة وخمسون ، ومن الجمال ثلاثة آلاف

---

(١) « منهم سبعة عشر ذكرًا ، وست عشرة أنثى » سيرة ابن طولون ص ٣٤٩ .

(٢) هكذا بالأصل ، والواقع أن المؤلف أوردهم جميعًا حسب رواية البلوى .

(٣) هكذا بالأصل ، وفى سيرة ابن طولون ، ولعله محرف عن « تغلب » .

(٤) لم تذكر فى سيرة ابن طولون .

(٥) « أم الهدى » فى سيرة ابن طولون .

جمل ، وألف بغل ، ومن المراكب الحربيّة الكبار مائتى مركب بآلتها ، ومن الأمتعة والفُرُش والآلات والأوانى ما لا يُحصى كثرة ولا يُعدّ اتّساعا ، وأنفق على الجامع مائة ألف وعشرين ألف دينار ، وعلى البيمَارِسْتان ستّين ألف دينار ، وعلى العين الّتى بالمعافِر مائة ألفٍ وأربعين ألفَ دينار ، وعلى حِصْن الجزيرة مائة ألف دينار . وأنفق فى بناء الميدان مائةَ ألفٍ وخمسين ألف دينار ، وعلى مرمّات الثّغور وحِصْن يافا مائتى ألف دينار .

وكانت صدقاتهُ فى كلِّ شهر ألف دينار سِوى المرتّبات ، وكانت له وظائفُ من خُبز ولحمٍ تجرى على قومٍ مستورين ، فى كلِّ شهر ألفا دينار . وكان يصنع فى كلِّ جمعة من أصناف الأطعمة والحلو أشياء كثيرة يحضُرها النّاس من فقير ، ومستُور ، ومتجمِّلٍ ، ومحتاج ، وكان إذا عاين ذلك وهو بمشترف عالٍ يسجدُ لله تعالى شكرًا تارةً ، ويصلّى تارةً ، ويدْعو تارةً ، ويبكى تارةً . فكانت سيرتُه رحمه الله أجمل سيرة ، وفراسَتُه أعظم فراسة ، بحيث إنّه كان ينظُر إلى الرّجُل فيدرك [١٠] بفراسته غرضه ، ولمّا مات ملك بعده ولده .

ذكر ولاية أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الثانى من ملوك الطولونية

مَلَك بعد وفاة أبيه فى يَوْم الأحد لعشرٍ خلَوْن من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين ، وهو ابن عشرين سنة وشهور ، فى خلافة المعتمد على الله . وذلك أنّه لمّا تُوفّى والدهُ اجتمع الأجنادُ وقتلوا وَلَده العباس الأكبر وولّوْا خمارويه ، فاستقلّ بالأمر .

ذكر مسير إسحاق بن كنداجق[١] ومحمد بن أبى الساج إلى الشام

قال المؤرِّخ[٢] : لمّا توفى أحمدُ بن طولون كان إسحاق بن كنداجق على المَوْصل والجزيرة ، وابن أبى السَّاج[٣] على أرمينية والجبال ، فطمعا فى الشّام ، واستصغَرَا أولاد أحمد بن طولون ، فكاتبا الموفَّق واستمدَّاه ، فأمَرَهُما بقصد الشام ، ووعَدَهما إنْفَاذ الجيوش . فجمَعَا وقصدَا ما يجاورُهما من البلاد ، فاستولَيَا عليها ، وأعانَهُما نائبُ دمشق الّذى كان من قِبَل أحمد بن طولون ووعدَهُما الانْحيَاز إليهما ، وأظْهَر العِصْيان ، واستولى إسحاق على حَلَب وحمص وأنطاكيّة ودمشق .

فلمَّا انتهى الخبر إلى أبى الجيش خُمارويه ندب العساكر المصريَّة إلى الشام ، فملكُوا دمشق ، وهرب نائبها . وسار عسْكَر خُمارويه من دمشق إلى شَيْزَر[٤] لقتال إسحاق وابن أبى السّاج ، فطاولهم إسحاق ينتظر المدَدَ من العراق . وهجم الشّتاء على الطَّائفتين ، وأضرَّ بأصحاب خُمارويه ، فتفرَّقوا فى المنازل بشَيْزَر . ووصَل العسكر العراق إلى ابن كنداجق وعليهم أبو العبّاس أحمد بن الموفَّق ، وهو المعتضد بالله . فلمَّا وصلَ سار مجِدًّا إلى عسْكَر

(١) « بن كنداجيق » فى الكامل جـ ٧ ص ٤٠٩ ، « بن كنداج » فى الولاة والقضاة ص ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٠ .

(٢) المقصود ابن الأثير ، فالمؤلف يكاد ينقل عنه الأحداث التالية ــ الكامل جـ ٧ ص ٤٠٩ ــ ٤١٠ .

(٣) هو محمد بن ديوداد أبى الساج ــ الولاة والقضاة ص ٢٣٥ .

(٤) شيزر : بتقديم الزاى على الراء ، وفتح أوله ، كانت تابعة لحمص ــ معجم البلدان .

خُمارَويه بشيزر ، فكبسهم فى المساكن ووضع فيهم السَّيف ، فقَتَل منهم مقتلَةً عظيمةً ، وسار مَنْ سَلِم منهم إلى دمشق على أقبح صُورة . فسار المعتضدُ إليهم ، ففارَقُوا دمشق وتوجَّهوا إلى الرَّملة ، وأقامُوا بها . ودخَل أبو العبّاس المعتضد إلى دمشق فى شعبان سنةَ إحدى وسبعين ومائتين . وكتَبَ عسكرُ مصر إلى خُمَارَويه ، فخرج من مصر بعساكره .

ذكر وقعة الطواحين

وفى سنة إحدى وسبْعين ومائتين كانت وقعة الطَّواحين [1] بين أبى العبّاس أحمد بن الموفَّق ، وهو المعتضد ، وبين أبى الجيش خمارويه بن أحمد .

وكان سببُ هذه الوقعة أنَّ المعتضد لَمَّا ملك دمشق سار بعَسَاكره إلى الرَّملة لقَصْد عسكر خُمَارَويه ، فأتاه الخبر بوُصُول خماوريه إلى عسكره وكَثْرَةِ مَنْ معه من الجموع ، فهمَّ المعتضد بالعَوْد ، فلم يُمَكِّنه مَنْ معه من أصحاب ابن طولون الَّذين صارُوا معه . وكان المعتضِدُ قد أوْحَش ابن كنداجق وابن أبى السّاج ونسبها إلى الجبن ، حيث انتظراه حتّى وصل إليهما ولم يناجِزَا عسكر خمارويه الحرب ، ففسَدَتْ نياتُهما .

قال : ورَحَل خُمارويه ونزل على الماء الّذى عليه الطواحين [عند الرملة] [2] وملكه ، فنسبت الوقعة إليه . ووَصَل المعتضد وقد عَبّأ أصحابه ، وفعل خمارويه كذلك ، وجعل كمينًا عليهم سعد الأيسر ، فحملت ميسرةُ المعتضد على مَيْمنة خُمَارَويه فانهزمت . فلمَّا رأى خُمَارَويه ذلك ، ولم يكن

(١) الطواحين : موضع قرب الرملة ــ معجم البلدان ، وورد أن هذا الموضع على « نهر أبى فطرس » ــ الولاة والقضاة ص ٢٣٥ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ٧ ص ٤١٤ .

رأى مصافًّا قبله ، ولّى منهزمًا فى طائفة من الأحداث الّذين لا عِلْمَ لهم بالحرب ، ولم يقف دون مصر .

ونزل المعتضدُ إلى خيام خُمارَويه وهو لا يَشكُّ فى تمام النَّصر ، فخرج سعد الأيسر بالْكَمين وانضاف إليه مَنْ بقى من الجيش ، ونادَوْا بشعارهم ، وحملُوا على عسكر المعتضد وقد اشتغَلُوا بنَهْب السّواد ، فوضع المصريُّون السَّيف فيهم . فظنَّ المعتضدُ أنّ خُمارويه قد عاد ، فركِبَ وانهزم لا يَلْوى على شىء ، ووصَل إلى دمشق فلم يفتح له أهلها ، فمضى منْهزمًا حتّى وصل طرسوس . واقْتَتَل العسكَران وليس لواحدٍ منهما أمير[١١]، وطلب سعد الأيسر خُمارَويه فلم يجده . فأقام أخاه أبا العشائر مُقامه . وتمّت الهزيمة على العراقيِّين ، وقتل منهم خلق كثيرٌ ، وأسر خلق كثير .

وجاءت البشائر بالنَّصر إلى مصر ، فسُرّ خمارويه بالظّفر ، وخَجِل من الهزيمة ، وأكثر الصَّدقة ، وفعل مع الأسْرى ما لم يُسْبق إليه ، وقال لأصحابه : هؤلاء أضيافُكم ، فأكرموهم . ثم أحضرهم بعد ذلك وقال : من اختار المُقام عنْدَنا فله الإكرام والمواساة ، ومَنْ أراد الرُّجوع جهَّزْنَاه وسيَّرناه ، فمِنهم من أقام ، ومنهم من عاد مكرَّمًا . وسارَت عساكرُ خُمارَويه إلى الشَّام ففتحه أجمع ، واستقر ملك خُمارَويه(١) .

وفى سنة اثنتين وسبعين ومائتين زُلْزِلت مصر فى جُمادى الآخرة زلزلَةً شديدة أخْرَبَت الدُّور والمسجد الجامع ، وأحْصى بها فى يومٍ واحدٍ ألف جنازة .

---

(١) انظر الكامل جـ ٧ ص ٤١٤ ــ ٤١٥ .

ذكر اختلاف محمد بن أبي الساج وإسحاق بن كنداجق والخطبة لخمارويه بالجزيرة

وفى سنة ثلاثٍ وسبعين ومائتين فسَدت الحالُ بين محمد بن أبي الساج واسحاق بن كنداجق [١] ، وكانا قبل ذلك متّفقين بالجزيرة .

وسببُ ذلك أنّ ابن أبي السّاج نافَسَ إسحاق فى الأعمال وأراد التقدُّم ، فامتنع إسحاق عليه ، فكاتَب محمَّدُ بن أبي الساج خُمارَويه وانضمَّ إليه ، وخطب له بأعماله ، وهى قِنِّسرين ، وسير ولده دِيوَذَاد [٢] إلى خمارويه رهينةً ، فأرسل خُمارَويه إلى الشّام ، واجتمع هو وابن السّاج ببالس [٣] . وعبر ابنُ أبي السّاج الفرات إلى الرَّقَّة فلقيه إسحاق ، وكان بينهما حرب انجلت عن انهزام إسحاق ، واستولى ابنُ أبي الساج على ما كان معه . وعبر خُمارَويه الفرات ونزل الرَّافِقَة [٤] ، وانهزم إسحاق إلى قلعة مَارِدِين [٥] ، فحصره ابنُ أبي السّاج بها ، وسار عنها إلى سنجار [٦] ، وأوْقَع بطائفةٍ من

---

(١) أحمد بن إسحاق بن كنداجق » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق ، ومن الكامل جـ ٧ ص ٤٢٢ .

(٢) « ديوداد » فى الكامل جـ ٧ ص ٤٢٢ .

(٣) بالس : بين حلب والرقة ، كانت على الضفة الغربية للفرات ، ثم انحرف عنها الفرات شرقًا حتى صار منها على مسافة أربعة أميال ــ معجم البلدان .

(٤) الرافقة : بلدة متصلة البناء بالرقة على الفرات ــ معجم البلدان .

(٥) ماردين : قلعة على قمة جبل بإقليم الجزيرة ، ومنازلها متدرجة على سفح الجبل ــ معجم البلدان .

(٦) سنجار : بلدة فى لحف جبل عال ، قرب الموصل ــ معجم البلدان .

لأعراب . وسار إسحاق إلى الموصل فلَقِيَه ابنُ أبي الساج ببَرْقَعِيد[١] ، وكَمَّن له ، واقتتلُوا ، فخرج الكمينُ على إسحاق ، فانهزَم وعاد إلى مَارِدِين . فقَوِى ابنُ أبي السّاج وظهر أمره ، واستولى على الجزيرة والمَوْصِل ، وخطب لخمارويه فيها ، ثمّ لنفسه بعده .

وفيها أيضًا ثار السُّودان بمصر ، وحصَرُوا صاحبَ الشّرطة[٢] ، فركِب خُمَارَويه بنفسه ، وبيدِه سيفٌ مسلول ، وقصد دَارَ صاحبِ الشُّرطة ، فقتَل مَنْ لقِيَه من السُّودان ، فهُزِموا ، وكثر القتل فيهم ، وسكنت مصر .

ذكر الاختلاف بين خمارويه ومحمد بن أبي السّاج والحرب بينهما

وفى سنة أربع وسبعين ومائتين خالف محمّد بن أبي الساج على خُمَارَويه ، فسار خمارويه إلى الشّام ، فقَدِمَها فى آخر السّنة ، وسار ابن أبي السّاج إليه ، فالتقَوْا عند ثِنيّة العقاب[٣] ، على مرحلةٍ من دمشق إلى جهة حمص . واقتتلوا فى المحرّم سنة خمسٍ وسبعين ، فانهزمت ميمنَةُ خُمَارَويه ، وأحاط عسكَرُ خُمارويه بابن أبي السّاج ، فانهزم ، واستُبِيحَ عسكرُه .

وكان قد خلَّف بحمص أموالًا كثيرة ، فندب خُمَارَويه إليها قائدًا من قوّاده فى جيشٍ جريدةً[٤] ، فسبقوا ابنَ أبي السّاج إليها ومنعُوه من الدّخول

(١) برقعيد : بلدة من أعمال الموصل ــ معجم البلدان .

(٢) هو موسى بن طونيق ، الذى صرف فى مستهل المحرم سنة ٢٧٤ هـ/٨٨٧ م ــ الولاة والقضاة ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

(٣) ثنية العقاب : بالضم ، تشرف على غوطة دمشق ، فى الطريق من دمشق فى اتجاه حمص ــ معجم البلدان .

وورد فى الكامل « فالتقيا فى البثنية من أعمال دمشق » ــ جـ ٧ ص ٤٢٨ .

(٤) الجريدة : الفرقة من العسكر الفرسان ، والفرقة من الجند إذا خرجت مسرعة من غير أثقال لمهمة تستدعى الإسراع فى الخروج ــ لسان العرب .

والاعتصام بها ، واستولوا على أمواله الّتى بها . فمضى إلى حلب ، ومنها إلى الرَّقَّة ، فتبعه خُمارَويه ، ففارقَها . وعبر خمارويه الفرات وسار فى أثرِه ، فوصل إلى مدينة بَلَد[1] ، وسبقه ابنُ أبى السّاج إلى الموصل ، ثمّ فارقها إلى الحديثة[2] ، وأقام خمارويه ببَلَد ، وعُمِلَ له سريرًا طويلَ الأرجُل ، وكان يجلس عليه فى دجلة .

ذكر الدعاء لخمارويه بطرسوس

وفى سنة سبعٍ ومائتين دعا يازمان بطرسوس لخُمارَويه . وسببُ ذلك أنَّ خمارويه أنْفَذ إليه ثلاثين ألف دينار ، وخمسمائة ثوب ، وخمسمائة مطرف ، وسلاحًا كثيرًا ، فلمَّا وصل ذلك إليه ، دَعَا له ، ثمّ وجَّه إليه خمسين ألف دينار .

ثم توفى يازمان فى جُمادى الآخرة سنةَ ثمانٍ وسبعين ، فخلفه ابنُ عجيف ، وكتب إلى خُمارَويه بوفاة يازمان ، فأقَرَّه على ولاية طرسوس ، وأمدَّه بالخيل[١٢] والسّلاح والذّخائر ، ثمّ عزله ، واستعمل عليها ابنَ عمِّه محمَّد ابن موسى بن طولون .

ذكر الفتنة بطرسوس

وفى سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين ثار النَّاسُ بطرسوس بالأمير محَمد بن موسى ، فقبضوا عليه . وسببُ ذلك أنَّ الموفق كان له خادم من خواصه يقال

(١) بلد : اسم لمواضع كثيرة ، والمقصود هنا بليدة من نواحى دجيل قرب الحظيرة وحربى ، من أعمال بغداد ــ معجم البلدان .

(٢) الحديثة : هى حديثة الموصل : كانت على دجلة بالجانب الشرقى قرب الزاب الأعلى ــ معجم البلدان .

له رَاغِب ؛ فلمَّا مات الموفَّق اختارَ راغب الجهاد ، فسار إلى طرسوس على عزْم المقام بها ، فلمَّا وصل إلى الشّام سيَّر ما مَعه من دوَابٍّ وآلات وخيام وغير ذلك إلى طرسوس ، وسار هو جريدة إلى خُمَارَويه ليزُورَه ويعرِّفَه ما عزم عليه ، فلَقِيَ خُمَارَويه بدمشق ، فأكرمه خمارويه وأنِس به وأحبَّه ، فاستحْيَا راغب أن يَطْلُب منه المسير إلى طرسوس ، فطال مُقَامُه عنده . فظنَّ أصحابه أنَّه قَبَض عليه ، وأذاعوا ذلك ، فاستعْظَمه النّاس ، وقالوا : يَعْمَد إلى رجلٍ قصد الجهاد فى سبيل الله فيقبض عليه ، فشغَبُوا على أميرهم ، وقبضوا عليه ، وقالوا : لا تزالُ فى الحبس حتى يُطْلِق ابنُ عمِّك خمارويه راغبًا ، ونهبوا دارَه ، وهتكُوا حرمه .

وبلغ الخبر خُمَارَويه فأطْلَع راغبًا عليه ، وأذِن له فى المسير إلى طرسوس . فلمَّا دخلها أطلق أهلُها اميرَهم محَمد بن موسى . فسار عنها إلى البيت المقدّس . ولمَّا سار عنها وَليَها أحمد العجيفى ، وكان يليها قبل ذلك (١) .

ذكر زواج المعتضد بالله بابنة خمارويه ابن أحمد بن طولون

قال : ولمَّا توفى المعتمد على الله (٢) وتولَّى المعتضد بالله (٣) بادَرَ خُمَارَويه

---

(١) انظر الكامل جـ ٧ ص ٤٥٠ .

(٢) توفى فى ١٩ رجب ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م ــ الكامل جـ ٧ ص ٤٥٥ ، شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٧٣

(٣) هو أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل ، المعتضد بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة ٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ/٨٩٢ ــ ٩٠٢ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

إليه بالهدايا الجليلة على يد الحسَين[١] بن عبدالله بن منصور بن الجَصَّاص الجوهرى ، فأقرَّه المعتضد بالله على ما بيده من الأعمال . وسأل خُمارَويه المعتضد أنْ يزوّج ابنته قطر الندى[٢] للمكتفى بالله ولىّ العهد ، فقال المعتضد بل أنا أتزوجها . [وكان ذلك][٣] فى سنة ثمانين ، وحُمِلَت إليه فى سنة إحدى وثمانين ومائتين ، وأصْدَقها ألف ألف درهم .

وقيل : إنّ المعتضد بالله إنَّما قَصَد بزواجِها إفقارَ الطُّولُونيَّة ، وكذلك كان ، فإنَّ خمارويه جهَّزَها بجهاز لم يسمع بمثله[٤] ، حتى قيل إنَّه كان لها ألف هاون من ذهب ، وشرط المعتضد على خُمارَويه أنْ يحمل فى كلِّ سنة مائتى ألف دينار ، بعد القيام بجميع وظائف مصر وارزاق الجند ، فأجاب إلى ذلك .

ذكر مقتل أبى الجيش خمارويه

كان مقتلُه فى ليلة الأحد لثلاثٍ بَقِينَ من ذى القَعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، وقيل[٥] فى ذى الحجة منها بدمشق .

---

(١) « الحسن » فى الأصل ، وهو الحسين بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن الجصاص ، التاجر الجوهرى ، ت سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م ـ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٧٧ .

(٢) قطر الندى ، واسمها اسماء ، توفيت سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠م ، ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد ـ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٥٠ .

(٣) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام .

(٤) عن جهاز قطر الندى انظر المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٣١٩ ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٠٥ ، جـ ٢ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦١ وما بعدها .

(٥) الكامل جـ ٧ ص ٤٧٤

وكان سببُ قتله أنّه قيل له إن جوارى داره قد اتّخذَت كلُّ واحدةٍ منهنّ خَصِيًّا وجعلته لها كالزّوج ، وقال له النّاقل إنْ شئت [أن] (١) تعلم صحّة ذلك فقرِّرْ بعضَ الجوارى بالضّرب ، فكتب مِن وَقْتِه إلى نائبه بمصر يأمُره أنْ يسيِّر إليه الجوارى ، فاجتمع جماعةٌ من خَدَم الخاصّة وتواعدوا على قتله ، فذبحوه على فراشه ليلاً . فلما قُتِل قُتِل من خَدَمه الّذين اتُّهِموا بقَتله نيّفٌ وعشرون نفسا .

وحُمل خُمارَويه إلى مصر فدفن بجبل المقطّم . وكانت مدّة ملكه ثنتى عشرة سنة وأياما .

ذكر ولاية أبى العشائر جيش

ابن أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون

وهو الثالث من الملوك الطولونية

ملك بعد وفاة أبيه فى يوم الأحد لثلاثٍ بقين من ذى القَعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين . وذلك أنّ خُمارَويه لمّا قُتل اجتمع القوّادُ على ابنه أبى العشائر[١٣]وبايعوه ، وكان مع أبيه بدمشق ، وهو أكبر ولده ، ففرّق فيهم الأموال ، ورجع إلى مصر ، وكان صبيًّا غِرًّا .

---

(١) [ ] إضافة يقتضيها سياق الكلام من الكامل جـ ٧ ص ٤٧٥ .

ذكر عصيان دمشق على جيش وخلاف جنده وقتله

وفى سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين خرج جماعةٌ من قوّاد جيش بن خمارويه وجاهرُوه بالخلاف ، وقالوا : لا نرضى بك أميرًا ، فاعتزلْنا حتى نولّى الإمارة [1] عمّك .

وكان سببُ ذلك أنه لمّا وَلِى قَرَّبَ الأحداث والسَّفل ، وأخلد إلى سماع أقوالهم ، فغيّروا نِيّته على قواده وأصحابه ، فصار يقَعُ فيهم ويذمُّهم ، ويُظهر العزمَ عَلى الاستبْدَالِ بهم ، وأخْذِ نعمهم وأموالهم ، فاتّفقوا على قَتْله وإقامة عَمّه . فبلَغَهُ ذلك فلم يَنْتَهِ ، وأطلق لسانه فيهم ، ففارقه بعضُهم ، وخلعه طُغْج بن جُفّ [2] أمير دمشق .

وسار القوّادُ الذين فارقوه إلى بغداد ، وهم : محمّد بن إسحاق بن كنداجق ، وخاقان المفلحى ، وبدر بن جُفّ أخو طغج ، وغيرهم من قوّاد مضر [3] . فسلكوا البرِّيَّة وتركوا أموالَهم وأهليهم ، فتاهوا أيّامًا ، ومات جماعةٌ منهم من العطش ، وخرجوا فوق الكوفة بمرحلتين ، وقَدِمُوا على المعتضد ، فخَلَعَ عليهم ، وأحسن إليهم . وبقى سائرُ الجند بمصر على خلافِهم ، فسألهم كاتبُه على بن أحمد الماذرائى أن ينصرفوا يومهم ذلك ،

---

(١) « فتنح عنا حتى نولى عمك نصر بن أحمد بن طولون » فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٣ .

(٢) ولى حكم دمشق وطبرية من قبل خمارويه ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٥٧ .

(٣) عن هؤلاء القواد انظر النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٩ ــ ٩٠ .

فرجعوا ، فقتل جيش عمَّيْن من عمومته (١) ، فثار الجند إليه ، فرمَى لهم بالرّأسَيْن ، فهجم الجند عليه وَقتلُوه ، ونهبوا داره ، ونهبُوا مصر وأحرقوها (٢). وكانت ولايتُه تسعة أشهر ، وقيل ثمانية ، والله أعلم .

ذكر ولاية أبى موسى هارون
ابن أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون
وهو الرابع من ملوك الدولة الطولونية

ملك بعد مقتل أخيه فى سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين ، وهو ابن عشر سنين ، فاختلَّت الأحوال ، واختلف القوّاد وطمعوا ، فانحلّ النظام ، وتفرَّقت الكلمة ، ثم اتَّفقوا على أن جعلوا أبا جعفر بن أبَى التُّركى مدبّر الدولة ، وكان مقدَّمًا عند أبيه وجدّه . فأصلح الأحوال جَهْد طاقَتِه . وجَهز جيشًا إلى دمشق عليه بدر الحمامى والحسنَ بن أحمد الماذرائى ، فأصلحا حالَهَا ، وقرَّرَا أمور الشّام ، واستعملا على دمشق طُغج بن جُفّ الفَرْغانى ، وهو والدُ الإخشيد ، ورجَعَا إلى مصر ، وفى الأمور اختلالٌ ، والقوّاد قد تغلَّبُوا ، وضمّ كلٌّ منهم إلى نفسه طائفةً من الجند . ولم يزل الأمر على ذلك إلى سنة إحدى وتسعين ومائتين .

---

(١) أحدهما نصر بن أحمد بن طولون ــ النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٣ .

(٢) تعددت الروايات فى قتله انظر تاريخ الطبرى جـ ١٠ ص ٤٥ ، الولاة والقضاة ص ٢٤٢ ، والروايات المختلفة التى وردت فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٩ وما بعدها .

ذكر انقراض الدولة الطولونية

كان انقراضها فى يوم الخميس لِلَيْلَتين بقيتا من صفر ، سنةَ اثنتَيْن وتسعينَ ومائتين

وسببُ ذلك أن الخليفة المكتفى بالله[1] ندب محمّد بن سُليمان كاتب الجيش فى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، وخلع عليه وعلى جماعةٍ من القوّاد ، وأمرَهُم بالمسير إلى الشّام ومصر وانتزاعها من هارون بن خُمارويه ، لِمَا ظهر من عَجْزه واختلاف أصحابه عليه .

فسار عن بغداد فى شهر رجب ، هو وعشرة آلاف ، ووصل إلى حُدود مصر فى المحرَّم سنة اثنتين وتسْعين ومائتين ، ووجَّه المكتفى أيضًا دميانة الرّومى غلام يَازمان بالمراكب ، فوصل إلى تنّيس[2] ودخل نهر النّيل ، فوجه إليه هارون جماعةً من القوّاد ، فالتقَوْا ، فهزمهُم دميانة ، وزحف محمّد بن سليمان بالجيوش فى البرّ حتى دَنَا من مصر ، وكاتب مَنْ بها من القوّاد ، فكان أوّل مَنْ خرج إليه والتحق به بدر الحمامى ، وهو رئيس القوّاد ففَتّ ذلك فى أعضاد المصريّين . وتَتَابَع القوّاد إليه . فلمّا رأى هارون ذلك خرج بِمَن بقى معهُ من القوّاد لقتال محمّد بن سليمان ، فكانت بينهم حُروبٌ ، ثمّ وقع بين

---

(١) هو على بن أحمد بن طلحة ، أبو محمد ، المكتفى بالله ، ولى الخلافة العباسية ببغداد فى الفترة من ٢٨٩ ــ ٢٩٥ هـ/٩٠٢ ــ ٩٠٨ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٢) تنيس : من المدن المصرية القديمة ، ما بين الفرما ودمياط ، وهى جزيرة ببحيرة المنزلة ــ القاموس الجغرافى ــ القسم الأول ص ١٩٧ ــ ١٩٨ .

أصحاب هارون فى بعض الأيّام ، فاقتتلوا ، فخرج هارون ليسكّنهم ، فرماهُ بعضُ المغاربة بمِزْرَاقٍ[١] فقتله ، وقيل بل فَعَل ذلك عمّه شيبان ، وذلك لاثنتى عشرة ليلةً بقيت من صفر ، سنةَ اثنتين وتسْعِين ومائتين .

وكانت مدّة ولايته نحوًا من تسع سنين تقريبًا .

فبايع الأجناد عمّه [١٤] أبا المقانب شيبان بن أحمد بن طولون ، وهو الخامس من ملوك الدّولة الطُّولُونية ، وعليه انقرضت .

قال : ولمّا بويع بذل الأموال للجند فأطاعوه[٢] ، وقاتلوا معه قتالاً شديدًا ، ثم لم يلبثوا أن وافتهم كُتُب بدر الحمامى يدعوهم إلى الأمان فأجابوه إلى ذلك . وسار محمّد بن سليمان إلى مصر ، فدخلها فى يوم الخميس لِلَيْلتين بقِيَتا من صفر ، سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، فأرسل إليه شيبانُ يطلب منه الأمان ، فأمّنه ، فخرج إليه ولم يعلم به أحدٌ من جنده ، فلمّا أصبحوا قصدُوا دَار الإمارة[٣] فلم يجدوه ، فبقُوا حَيَارى .

واستولى محمّد بن سليمان على مصر ، وعلى منازل آل طولون وأموالهم ، وقبض عليهم كلِّهم ، وهم عشرون رجلاً ، فقيدهم وحبسهم ، واستصفى أموالهم . وكتب بالفتح إلى الخليفة ، فأمره بإشخاص ال طولون وأشياءهم[٤] من مصر والشام إلى بغداد ، فحملهم وأتباعهم وانْقَاض

---

(١) مزراق : ما زرق به ، وهو نوع من الرماح ، صغير ، ويرمى به من اليد — خزانة السلاح ص ٣٨ .

(٢) « فأطلقوه » فى الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ .

(٣) « قصدوا داره » فى الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ .

(٤) « وأسباهم » فى الأصل ، و « وأسبابهم » فى الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ ، تاريخ الطبرى جـ ١٠ ص ١١٩

قصورهم ، وعاد إلى بغداد ، وولّى معونة[١] مصر عيسى النوشرى[٢] .

وانقرضت الدّولة الطُّولونيّة : وكانت مدّتها من لَدُنْ ولاية أحمد بن طولون وإلى آخر أيام أبى المقانب سبعا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام ، وملك منهم خمسة نفر .

(١) « معاوية » فى الأصل ، والتصحيح مما يلى ، ومن الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ .

(٢) انظر الولاة والقضاة ص ٢٥٨ ،

وهو عيسى بن محمد النو شرى ، الأمير أبو موسى ــ النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٥ .

ذكر أخبار من ولى مصر بعد انقراض الدّولة الطولونية وإلى قيام الدّولة الإخشيديّة من الأعمال وملخّص ما وقع فى أيامهم من الحوادث

لمّا انقرضت الدولة الطولونية كما ذكرنا ، كان أول من ولى مصر عيسى النوشرى ، رتّبه فى ولاية معونتها محمّد بن سليمان الكاتب ، فلما سار محمد إلى العراق ظهر بمصر رجل يسمى إبراهيم الخليجى وتغلب عليها .

ذكر إبراهيم الخليجى[1] وما كان من أمره

كان ابراهيم هذا من القوّاد الطُّولونيّة ، وكان قد تخلّف عن محمّد بن سليمان [2] ، فاستمال جماعة وخالف على السّلطان وكثر جمعه . وعجز النوشرىّ عنه ، فسار إلى الإسكندرية ، ودخل الخليجى مصر . وكتب النوشرىّ إلى المكتفى بالخبر ، فندب إليه الجنود مع فاتك مولى المعتضد ، وبدر الحمامى ، فساروا فى شوّال سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، ووصلوا إلى نواحى مصر فى سنة

(١) ورد اسمه فى المصادر بصور مختلفة فهو « ابن الخليج » فى الولاة والقضاة ص ٢٥٩ . و « إبراهيم الخليجى » فى تاريخ الطبرى جـ ١٠ ص ١١٩ ، و « محمد بن على الخليج » فى المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٢٧ ، و « ومحمد بن على الخلنجى » فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٧ ، و « الخلنجى » فى الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ .

(٢) « كان تخلفه فى دمشق ومعه شفيع الخادم الطولونى » ــ النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٧ .

ثلاث ، فتقدم أحمد بن كيغلغ[١] فى جماعة من القوّاد ، فلقيهم الخليجى بالقرب من العريش ، فهزمهم أقبح هزيمة ، فندب من بغداد جماعة من القوّاد فيهم إبراهيم بن كيغلغ[٢] فخرجوا فى شهر ربيع الأول . واتّصلت الأخبار بقوة الخليجى حتى برز المكتفى بالله إلى باب الشماسيّة على عَزْم المسير إلى مصر ، ثم التقى القوّاد بالخليجى ، واقتتلوا قتالاً شديدًا عدة دفعات ، كان آخرها أن انهزم الخليجى ودخل فسطاط مصر ، واستتر عند رجل من أهلها ، ودخل عسكر الخليفة فظفروا به وأخذوه هو والذى استتر عنده[٣] وحبسوهما ، وكتبوا بذلك إلى الخليفة ، ووجه فاتك إبراهيم الخليجى إلى بغداد ، فدخلها هو ومن معه فى شهر رمضان ، فحبسهم المكتفى .

واستقر عيسى النوشرى بمصر إلى سنة سبع وتسعين ومائتين ، فتوفى فى شعبان منها ، وحمل إلى البيت المقدس فدفن به .

واستعمل المقتدر[٤] على مصر تكين الخاصّة[٥] فى منتصف شهر رمضان من السّنة .

---

(١) ولى حكم مصر مرتين سنة ٣١١ هـ/٩٢٣ م ، ٣٢١ هـ/٩٣٣ م ــ الولاة والقضاة ص ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٢ ــ ٦٣ ، وانظر ما يلى .

(٢) توفى سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٣ .

(٣) وذلك فى رجب سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م ــ الولاة والقضاة ص ٢٦٢ .

(٤) هو جعفر بن أحمد بن طلحة ، أبو الفضل ، المقتدر بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ/٩٠٨ ــ ٩٣٢ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٥) ولى حكم مصر ثلاث مرات ، وتوفى بها فى المرة الثالثة سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٢ ، وانظر ما يلى .

وفى سنة ثلاثمائة ندب تكين عسكرًا وجعل مقدمه أبا النمر[١] أحمد بن صالح ، فمضى إلى برقة والتقى مع عسكر حُباسَة قائد المهْدى ، وأبلى بلاء حسنا . ثم صرفه تكين وولى حر المنصورى فمضى إلى برقة فوجد أبا النمر موافقا لحباسة ، فلمّا علم أبو النمر بعزله تخاذل حنقا[٢] على تكين ، فاغتنم حباسة الفرصة وحاربهما ، فكسرهما ، وعادا إلى مصر .

ذكر استيلاء حُباسَة على الإسكندريّة

[١٥] وفى المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة سار حباسة قائد المهدى من برقة ودخل الإسكندرية وملكها ، فوصل من بغداد أحمد بن كيغلغ ، وأبو قابوس محمود بن حمد ، والقاسم بن سيما ، فى جمع من القواد والعساكر ، وكان وصولهم فى العشرين من صفر ، فخرج بهم تكين إلى الجيزة فى يوم الاثنين لسبعٍ خلَوْن من جمادى الأولى فعسكر بها ، وسار حباسة من الإسكندرية بعسكر مستوفى ، ونودى فى فسطاط مصر بالنّفير فى العشرين من الشهر ، فخرج الناس إلى الجيزة ، ولم يتخلف أحد من الخاصّة والعامّة ، وتقدم حباسة فى جيوشه والتقى الفريقان وكثرت القتلى بينهم ، فقُتل أكثرُ رجال حباسة ، وانهزم بمن بقى معه .

ثم قدم مؤنس الخادم من العراق فى منتصف شهر رمضان من السّنة ، ومعه جمع من الأمراء ، وأمر أحمد بن كيغلغ بالمسير إلى الشام ، وصرف

---

(١) هكذا بالأصل ، والولاة والقضاة ص ٢٦٨ ، و « أبو اليمن » فى المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٢٧ ، و « أبو اليمنى » فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٧٢ .

(٢) « حمقا » فى الأصل والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

تكين الخاصّة عن ولاية مصر لأربع عشرة ليلة خلت من ذى القعدة . فكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرين .

وفى سنة ثلاث وثلاثمائة قدم أبو الحسن ذكا (١) الأعور الرومى أميرًا على مصر ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر ، وخرج مؤنس بجيوشه إلى العراق لثمان خلون من شهر ربيع الأول ، وخرج ذكا إلى الإسكندرية لإصلاحها ، وجعل فيها ولده مظفرًا وتتبَّع من كان يُذكر بمكاتبة المهدى ، فحبس جماعةً منهم ، وقطع أيْدىَ جماعةٍ وأرجلَهم .

ذكر وصول أبى القاسم بن المهدى إلى الدّيار المصريّه واستيلائه على الإسكندرية والفيّوم والأشمونين

وفى سنة سبع وثلاثمائة ، فى الثانى من صفر ، وصل أبو القاسم بن المهدى بجيوش المغرب إلى الإسكندريّة وملكها . وهى الدّفعة الثّانية ، فإنه كان قد قدم فى سنة إحدى وثلاثمائة وملكها أيضًا ، ثم عاد إلى أفريقية .

ووافق وصوله الآن والجند مخالفون لِذكَا أمير مصر ، فتقاعدوا عن الخروج معه للقاء عسكر المهدى ، فخرج إلى الجيزة فى عسكر قليل فى النّصف من صفر ، وابتنى حصنًا بالجيزة ، واحتفر خندقًا على عسكره ، ثم صُرِف ذُكا ، وتُوُفّى لليلةٍ خلت من شهر ربيع الأول من السنة ، وكانت مدة إمارته أربع سنين وأياما .

---

(١) « دعا » فى الأصل ، كما ورد فى الأصل بعد ذلك « وكا » ، والتصحيح هنا وفيما يلى من الولاة والقضاة ص ٢٧٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٨٦ .

وقدم أبوقابوس محمود بن حمد أمير الشام بعساكره نُصْرةً لعساكر مصر ، فكان قدومُه لثمان خلون من شهر ربيع الأول ، ونزل الجيزة ، ثمّ قدم إبراهيم بن كيغلغ لسبع بقين من شهر ربيع الآخر . ودخل تكين الخاصّة متولّيًا لإحدى عشْرةَ ليلةً خلت من شعبان سنة سبع وثلاثمائة ، ونزل الجيزة ، وحفر خندقًا ثانيًا ، وأقبلت مراكب المهدى صاحب إفريقيّة ، وهى مائة مركب حربيّة [١] ، وعليها سليمان الحاكم [٢] ، فبعث تكين إلى بَمَال الخادم أمير طَرَسُوس أن ينجده ، فحضر إليه فى مراكبه [٣] ، وانتهى إلى ثغر رشيد ، والتقت مراكبه بمركب المهدىّ لعشرٍ بقين من شوال من السنة ، وكان بينهم حرب شديدة ، وهبّت ريح على مراكب المهدىّ فألقتها إلى البر ، وتكسّر أكثرُها ، وأُسر مَن فيها ، وقتل منهم خلق كثير ، ودخل من بقى منهم إلى الفسطاط ، وهم سبعمائة نفر ، فقُتلوا عن آخرهم .

وقدم مؤنس الخادم من بغداد فى الخامس من المحرم سنة ثمان وثلاثمائة [٤] ، وتولّى إمرة مصر من بغداد هلال بن بدر ، ودخلها فى السّادس من ربيع الآخر سنة تسع وثلاثمائة ، وأقام إلى سنة [٥] عشرة ،

---

(١) « ثمانون مركبًا » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧١ .

(٢) هكذا بالأصل ، و « عليها سليمان الخادم ويعقوب الكنافى » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧١ ، وانظر أيضًا الولاة والقضاة ص ٢٧٦ .

(٣) فى اتعاظ الحنفا أن الخليفة المقتدر هو الذى أمر بإرسال مراكب طرسوس جـ ١ ص ٧١ .

(٤) « وصرف تكين عن مصر يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع وثلاثمائة وولى مؤنس عليها أبا قابوس محمود بن حمك فأقام عليها أيامًا ، ثم رد تكين عليها يوم الجمعة لخمس بقين من ربيع الأول فأقام أربعة أيام » ــ الولاة والقضاة ص ٢٧٨ .

(٥) « وأقام إلى ست عشرة » فى الأصل ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٧٩ .

فشغب[١] عليه الجند ، وكثر النهب والقتل والفساد بمصر فصُرف هلال عن مصر فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . فكانت مدة ولايته نحو سنتين .

وتولى مصر أحمد بن كيغلغ فقدمها فى شهر رجب من السنة ، فأقام بمنية الأصبغ[٢] ، وأحضر الجند ، ووضع العطاء فيهم ، وأسقط كثيرًا من الرّجاله ، فسعت الرجال عليه ، وخرجوا لقتاله ، فانتقل إلى فاقوس وأقام بها إلى أن قدم رسول تكين الخاصّة بولاية مصر ، وذلك فى ذى القعدة من السّنة .

وقدم تكين من العراق لعشر مضين من المحرم سنة ثنتى عشرة وثلاثمائة ، فكان بها إلى أن توفى فى السادس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وحمل إلى بيت المقدس فدفن هناك ، فكانت مدة ولايته هذه تسع سنين وأربعة أشهر إلا أربعة أيام ، واستخلف ابنه محمد ، وكان الوزير بمصر والمتولّى لخراجها يومئذ محمد بن على الماذرائى[٣] فوقع بينه وبين محمد

---

(١) « فشعت » فى الأصل ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٧٩ .

(٢) منية الأصبغ : قرية تنسب إلى أبى ريان أصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، أنشأها على الخليج المصرى عرفت باسمه ، وعرفت فى العصر الفاطمى بقرية الخندق ، وهى فى شرق القاهرة حاليا بوسط منطقة دير الملاك ، القاموس الجغرافى ــ القسم الأول ص ٤٢٨ .

(٣) اختلفت المصادر ـ فى رسم هذا الاسم ، ففى الأصل ، وعقد الجمان ، « الماردانى » ، وفى المواعظ والاعتبار « المادرانى » ، و « الماذرائى » فى الولاة والقضاة ص ٢٤٤ .

ونسبت هذه الأسرة إلى ماذاريا : من أعمال البصرة ، ويقول ياقوت : ينسب إليها الماذرائيون ، كتاب الطولونية بمصر ــ معجم البلدان .

ولذلك تم تصحيح الاسم هنا وفى المواضع التالية .

ابن تكين فتنة لأربع بقين من الشهر ، وانتشرت حتى قامت الحرب بينهما ، وقتل فيها جماعة من الفريقين وأحرق دور الماذرائى الوزير وجماعة من أصحابه .

[١٦] وخرج محمد بن تكين هاربًا من مصر ، ودُعى بمصر لمحمَّد ابن طُغج بن جُفّ الإخشيدى فى يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من السّنة ، ثم دُعِى لأحمد بن كيغلغ[١] فى شوال من السنة ، ثم رجع محمد بن تكين إلى مصر فى يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من صفر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، وأقام بالجيزة أياما ، ودخل دار الإمارة بمصر ، واستقر بها لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول ، ودُعِى له بالأمارة ثمّ وقع بينه وبين عرب المغاربة حرب انجلت[٢] عن انهزامهم إلى الصَّعيد ، وأقام محمد بن تكين ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يومًا ، ثم هرب مع جماعة من أصحابه لخمس خلون من شهر رجب . ودخل أحمد بن كيغلغ فى يوم السّبت السّادس من الشهر ، ثم رجع محمد بن تكين لقتاله لثلاث بقين منه ، وكان بينهما حرب انجلت[٣] عن انهزام محمد بن تكين ، ثم نفى بعد ذلك إلى الصعيد ، فلم يزل هناك إلى أن جاء محمّد بن طُغج .

---

(١) « لمحمد بن كيغلغ » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٨٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٤٢ ، ومما يلى .

(٢) ، (٣) « أجلت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام ، وما جاء فى الولاة والقضاة ص ٢٨٢ .

ذكر أخبار الدولة الإخشيدية
وابتداء أمر من قام بها وكيف كان سبب ملكه وقيامه
ومن ملك بعده إلى أن انقرضت أيامهم

كانت هذه الدّولة بمصر والشام ، وهى من الدُّول المشهورة . وأول من ولى من ملوكها الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج . واسم طُغج عبد الرحمن ابن جُفّ بن يَلْتكين بن فُورى[1] بن خاقان الملك ، وهو من فرغانة ، وكان طغج من القواد الطّولونيّة ، وتولّى لخمارويه بن أحمد [بن طولون][2] دمشق والشام . ولما مات طُغج ترك من الأولاد أبا بكر محمدًا الإخشيد ، وأبا القاسم عليًّا ، وأبا المظفر الحسين ، وأبا الحسن عبيد الله ، وكان أبو بكر أكبرهم فتولّى الولايات وتنقل فى المراتب إلى أن ملك مصر والشام .

وكان ابتداء ولايته الدّيار المصريه والدعاء له بها فى يوم الجمعة لاثنتى عشر ليلةً خلت من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، كما قدمناه ، ولم تثبت ولايته هذه . ثم دُعى لأحمد بن كيغلغ ، وكان ما ذكرناه ، ثم وَلِىَ مصر فى سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاثمائة فى خلافة الرّاضى بالله[3]

---

(١) « بن قروى » فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ــ انظر ترجمة أبو بكر محمد بن أبى محمد طغج جـ ٥ ص ٥٦ رقم ٦٨٩ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) هو أحمد بن جعفر المقتدر بالله ، أبو العباس الراضى بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٣٢٢ ــ ٣٢٩ هـ/٩٣٤ ــ ٩٤٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

وكانت هذه الولاية مفتعلة فى ابتدائها ، وذلك أن التقليد من دار الخلافة ببغداد خرج باسم محمد بن تكين الخاصّة ، وكان بن طغْج بالسّاحل فقبض على الرّسول الواصل من دار الخلافة وأخذ منه التّقليد وكشط « تكين » وكتب « طغج » وأنفذ التقليد إلى مصر فورد فى يوم السبت لثلاث عشرة ليلةً خلت من شعبان ، فاعتزل أحمد بن كيغلغ النّظر ، وامتنع محمد ابن على الماذرائى الوزير من التسليم له ، وكان غالبًا على أمر أحمد [بن كيغلغ][1] ، وعزم على قتال محمد بن طغج ، فبلغه ذلك ، فبعث صاعد بن كلملم بمراكب كثيرة من ساحل الشام ، وسار هو فى البرّ ، فقدمت عساكره مصرَ برًّا وبحرًا ، ووصل صاعد إلى الجيزة فى يوم الخميس لخمس بقين من شعبان ، وأقام خمسة أيام ، وأحرق الجسر ، ووصل الإخشيد إلى مصر فلقيه محمد بن على الماذرائى الوزير وأحمد بن كيغلغ ومحمد بن عيسى النوشرى وبرزوا لقتاله . فلما تصافُّوا للقتال انحاز أحمد بن كيغلغ وانضم إلى الإخشيد ، وقاتل الماذرائى وابنُ النوشرى قتالاً شديدًا ، ثم انهزما إلى الفيوم .

ودخل الإخشيد مصر بعد القتال فى يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان من السنة ، فندب صاعدًا لقتال الماذرائى وابن النوشرى ، فوقع بينهما حرب انجلت[2] عن قتل صاعد وهرب النوشرى إلى برقة ، وراسل القائِم[3]

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) « أجلت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام ، وما ورد فى الولاة والقضاة ص ٢٨٧ .

(٣) هو الخليفة الفاطمى الثانى بالمغرب ، وهو القائم بالله أبو القاسم محمد ، ولى الخلافة بالمغرب فى الفترة من ٣٢٢ ــ ٣٣٤ هـ/٩٣٤ ـ ٩٤٥ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣٣ .

صاحب إفريقية يطلب نجدة ، فسير إليه عسكرًا عليه أبو تازرت[١] فدخلوا الإسكندرية وملكوها ، فخرج إليهم أبو المظفر الحسين بن طغج ومعه صالح ابن نافع ، ووقع بينهم القتال ، فانهزم النوشرى وعسكر المغاربة ، وقتلوا أبو تازرت ، وأسر عامر المجنون ، وجماعة منهم . وأما محمد بن على الماذرائى الوزير فإنه استتر ، ودام استتاره إلى أن دخل الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة وتلقاه الإخشيد ، وزينت له مصر ، فأخرجه . ثم وصل التقليد من دار الخلافة لمحمد بن طغج فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .

وفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة نعت الخليفة الراضى بالله محمَّد بنَ طُغج بالإخشيد بسؤالٍ منه فى ذلك . ومعنى الإخشيد ملك الملوك .

وفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة خرج الإخشيد إلى الشام واجتمع بالخليفة المتقى[٢] بالله بالرَّقة ، وخدمه ، ومشى بين يديه ، وسأله المسير معه إلى مصر [١٧] وخوَّفه من توزون التّركى ، فلم يقبل منه . فضمَّ إليه الإخشيد عسكرًا وقائدًا من قُوّاده ورجع الإخشيد إلى الشام ، ثم إلى مصر . وولّاه المتقى مصر والشام والحرمين ، وعقد لولديه من بعده ،

---

(١) « أبو بارونت » فى الأصل ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٨٨ .

(٢) « الملتقى بالله » فى الأصل ، وهو تحريف .

وهو أبو إسحاق إبراهيم المتقى بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

أُنوجُور وعلى ، على أن يكفلهما[1] كافور الخصىّ . وكان عوْدُ الإخشيد إلى مصر فى يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى ، وأخذ البيعة على الناس لولده أبى القاسم أنوجور لليلتين بقيتا من ذى القعدة منها .

(١) « اونجور وعلى ، وعلى أن يكلفهما » فى الأصل ، وهو تحريف ، وسيجرى تصحيح اسم أنوجور فيما يلى طبقًا لضبطه فى عقد الجمان وهو « بفتح الهمزة وضم النون والجيم بعدها وقبلها واو ساكنة »

ذكر مسير الإخشيد إلى الشام ووفاته وشيء من أخباره وسيرته

وفى خامس شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خرج الإخشيد إلى الشام والتقى بأصحاب ابن حمدان[١]، عَلَى لدّ[٢]، وهزَمَهم. ثم سار إلى حمص وقاتل سيف الدولة بن حمدان، ومضى إلى حلب. ثمّ وقع الصلح بينهما، وتسلم الإخشيد من سيف الدوّلة حلب وحمص وأنطاكية[٣]، وتزوج سيف الدولة بنت عبيد الله بن طغج أخى الإخشيد. ثم عاد الإخشيد إلى دمشق فتوفّى[٤] بها فى يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجّة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان عمره ستًا وستين سنة وخمسة أشهُر وسبعة أيّام، وكانت مدة ولايته الثانية[٥] من لدُن دخوله إلى مصر وإلى حين وفاته إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر إلّا يومًا واحدًا.

قال التنوخى[٦]: وكان الإخشيد حازمًا شديدًا، يتيقّظ فى حروبه،

---

(١) هو على بن عبدالله بن حمدان، سيف الدولة، أبو الحسن حكم حلب فى الفترة ٣٣٣ - ٣٥٦ هـ/٩٤٤ - ٩٦٧ م - تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤.

(٢) لُدّ: بالضم والتشديد: هى مدينة اللد، من فلسطين - معجم البلدان.

(٣) عن تفاصيل الصراع بين الإخشيد وسيف الدولة انظر الكامل جـ ٨ ص ٤٤٥، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٥٤ - ٢٥٦، الولاة والقضاة ص ٢٩٢، مصر فى عصر الإخشيديين ص ٣٦٧ - ٣٧٢.

(٤) «فتولى بها» فى الأصل، وهو تحريف، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٩٣.

(٥) «الأولى» فى الأصل، والتصحيح يتفق وسير الأحداث - انظر ما سبق.

(٦) هو المحسن بن أبى القاسم على بن محمد، القاضى أبو على التنوخى، صاحب كتابى الفرج بعد الشدة، وجامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، والمتوفى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م - وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٥٩ رقم ٥٥٧.

حسَن التَّدبير ، مكرماً للأجْناد ، أيِّدًا[١] فى نفسه ، لا يكاد يجرّ قوسه الأفذاذ من النّاس لقوته ، حسن السيرة فى رعيّته ، وكان جيشه يحتوى على أربعة آلاف رجل ، وله ثمانية آلاف مملوك ، يحرسه فى كل ليلة منهم[٢] ألفا مملوك . وكان إذا سافر يتنقّل فى الخيام عند النّوم حتى كان ينام فى خيمة الفرّاشين . قال وترك الإخشيد سبع بيوت مال ، فى كل بيت مال منها ألف ألف دينار من سكّةٍ واحدة .

أولاده : أبو القاسم أُنوجُور، أبو الحسن على .

كُتّابه : أبو جعفر بن المنفق ، وابن قوماقس ، وابن الرودبارى .

ولما مات ملك بعده ابنه أنوجور .

ذكر ولاية أبى القاسم أُنُوجُور

ومعنى أنوجور محمود ؛ ابن أبى بكر محمد بن طغُج ، وهو الثانى من ملوك الدّولة الإخشيديّة .

كانت ولايته بالشام بعد وفاة أبيه لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وبويع له بمصر عند ورود الخبر بوفاة الإخشيد فى اليوم الثانى من المحرّم سنة خمس وثلاثين ، وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة . وقام ببيعته الوزير أبوبكر محمد بن على بن مقاتل[٣] . وكان أبوالمظفّر الحسن بن

(١) د ، يئيد . أيدا : اشتد وقوى وصلب ــ القاموس .

(٢) « منها » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق ، فالضمير عائد على ثمانية آلاف مملوك .

(٣) هو صاحب خراج مصر يومئذ ــ الولاة والقضاة ص ٢٩٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩١ .

طغج بمصر فقبض على الوزير محمد بن على المذكور فى ثالث المحرّم ، وعزله ، وولّى الوزارة[١] محمد بن على الماذرائى ، وحبس ابن مقاتل ، فلم يزل فى الاعتقال إلى أن قدم كافور بالعسكر من الشام فأفرج عنه . وكان قدوم كافور بالعسكر فى يوم الثلاثاء لثمان مضين من صفر سنة خمس وثلاثين .

ثم خرج كافور بالعسكر إلى الشّام ومُقَدّمه أبو المظفّر بن طغج ، أخو الإخشيد ، وذلك لسبعٍ بقين من شهر ربيع الأوّل . وكان سبب خروجه أن سيف الدّولة بن حمدان طمع فى ملك الشام لمّا تُوُفى الإخشيد ، فسار إلى دمشق وملكها ، ثم سار إلى الرّملة فلقيه كافور بها وقاتله ، وكانت الهزيمة على ابن حمدان . واستعاد الإخشيديّة ما كان سيفُ الدولة استولى عليه ، وأقام كافور بالشّام .

ذكر قيام أبى نصر غَلْبُون بن سعيد المغربى وما كان من أمره

كان قيامه فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، وكان يتولى ـ ل اسيوط وأخميم من صعيد مصر ، فعزله [١٨] كافور عنها وهو بالشّام ، فامتنع ، وطمع لخُلُوّ البلاد من الأستاذ كافور ، فندب إليه عسكرًا فهزمهم غَلْبُون ، وهزم عسكرًا ثانيًا ، وتقوّى بما أخذه منهم . ثم سار إلى الشّرقيّة فى أواخر السّنة ثم سار منها ونزل على بركة الحبش[٢] فخرج إليه جماعةٌ من الإخشيديّة

(١) « وولى مكانه على الخراج » فى النجوم الزاهرة . « وجعل مكانه » فى الولاة والقضاة .

(٢) بركة الحبش : من أجل متنزهات مدينة الفسطاط ، وكانت تعرف ببركة المغافر وحمير ، وتعرف باصطبل قامش ، وكانت فى ملك أبى بكر محمد بن على الماذرائى ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٥٢ .

فهزمهم . فرحل عند ذلك أبو القاسم أنوجور وأخوه وأهلها[١] ، والوزير إلى الشام ، وأخليت دارُ الإمارة ، فدخل غلْبُون مصر وسيَّر عسكرًا إلى أبى القاسم فتبعه إلى مسجد تبر[٢] . ومُسِك الوزير محمّد بن الماذرائى وجىء به إلى غلبون ، فلما رآه أطلقه .

وسار أبو القاسم نحو الشّام ، فلقيه مرتاح الشّرابى فى أثناء الطَّريق ، وقدْ قدم مِنْ قِبَل كافور فى جماعة من الإخشيديّة ، فردّه . وعاد أبو القاسم إلى مصر بالعسكر فوجدُوا غلْبون وقد تفرّق عنه أصحابُه فى البلد ، فحاربهم فى نفرٍ يسير ، فانهزم . ودخلوا دار الإمارة ، فوجدوا الوزير ابن الماذرائى ، فهمُّوا بقتله ، فأخذه القائد منجح وخبأه عنده ، ونُهبت دُورُه وأحرق بعضُها .

ووصل الخبر إلى كافور بالشّام فقبض على ولده ، واستوزر عوضًا عنه أبا الفضل جعفرَ[٣] بن الفرات المعروف بابن حنزابة ، ثم قدِم الأستاذ كافور من الشّام فى شهر رمضان ، سنة ست وثلاثين ، فأطلق الوزير ابن الماذرائى وأكرمه ، وردَّ عليه ضِياعَه وأملاكه ، واستوزر محمد بن على بن مقاتل .

وفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة لِستٍّ خلون من صَفر زُلْزِلت مصر ، وتتابعت الزّلازلُ بها ، فتهدَّم أكثرُ دُورها ، وسقط من الجامع العتيق بمصر

---

(١) « وأهليهم » فى الأصل والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٢) مسجد تبر : خارج القاهرة ، وعرف قديمًا بالبئر والجميزة ، وتسميه العامة مسجد التبن وهو خطأ ، وموضعه خارج القاهرة من المطرية — وتبر أحد الأمراء الأكابر فى أيام كافور — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٣) هو جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات ، المعروف بابن حنزابة ، توفى سنة ٣٩١ هـ/١٠٠٠ م — وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٤٦ رقم ١٣٣ .

قطعة ، وتوالت الزَّلازل فى سنة أربعين أيضًا ثلاثة أيامٍ متوالية ، وخُسفَ بعضُ القرى وهلك من كان بها .

فقال محمد بن عاصم من قصيدة مدح بها كافور جاء منها :

ما زُلْزِلَت مِصرُ منْ سُوءٍ يُرادُ بها وإنَّما رقَصَت مِنْ عدْلِه فَرحَا

وفى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة انقضَّت نارٌ من السَّمَاء فأحرقت أكثرَ دُور مصر .

ذكر وفاة الوزير أبى بكر محمد بن الماذرائى وشىء من أخباره ومآثره

وفى شوال من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة مات الوزير أبوبكر محمد بن على بن أحمد بن إبراهيم الماذرائى ، وزر لخمارويه[1] بن أحمد ولغيره من أمراء مصر ، ومولدُه بالعراق سنة سبعٍ وخمسين ومائتين ، وكان له ضِياعٌ وأملاكٌ ، قيل إن مقدار ارتفاعها[2] فى كل سنة أربعمائة ألف دينار . وواصل الحجَّ من سنة إحدى وثلاثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين ،وكان ينفق فى كل حجة مائة ألف وخمسين ألف دينار ، وكان يحمل معه أحواضًا من الخشب على الجمال ، مزروعٌ فيها الخضروات ، وكان لا ينصرف عن الحجاز إلا وقد استغنَى فقراؤه . ثم واصل الحج من سنة نيّفٍ وعشرين إلى سنة أربعين . وقام أربعين سنةً يصوم .

---

(١) « وزير » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٢) ارتفاعها : إيرادها .

وقال المسبّحى فى تاريخه[١] : حَبَس هذا الوزير على مكة والمدينة ضياعًا ارتفاعها نحو مائة ألف دينار فى كل سنة ، منها كورة سيوط ، ومنها نوير ، ومنها بركة الحبش . وحبس أيضًا عليهما بالشام . وقال فى كُتُب وقفه : منْ بدلها فرسُولُ الله صلى الله عليه وسلم خصمه . رحمه الله تعالى .

وفى سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة خالف شبيب العقيلى ، وكان واليًا على الرّملة والساحل ، وسار إلى دمشق وفتحها ، ودخل إليها من باب الجابية ، فوقع عن فرسه ميتًا ، واختُلِف فى موته ، فقيل إن امرأةً أرْخَتْ عليه حجرَ طاحون ، وقيل بل مات حَتْف أنفه ، واتّصل الخبرُ بالأُستاذ كافور فسكن بعد قلق عظيم . واللّه أعلم .

ذكر وفاة أبى القاسم أنوجور وولاية أخيه أبى الحسن على بن الإخشيد

كانت وفاتُه لِسبعٍ[٢] خلَوْن من ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، وكانت مدّة وقوع اسم الملك عليه أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وأيّامًا . وكان كافور هو الغالب على أمره والحاكم [١٩] فى دولته ، وليس لأبى القاسم معه إلا مجرّد الاسم .

---

(١) هو محمد بن عبيد الله بن أحمد ، الأمير المختار عز الملك المسبحى ، المتوفى سنة ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م ، صاحب كتاب أخبار مصر ، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء الأربعين ويتناول أحداث سنتى ٤١٤ ، ٤١٥ هـ ، ونشره أيمن فؤاد سيد ، وتيارى بيانكى — المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٧٨ .

(٢) « لثمان » فى الولاة والقضاة ص ٢٩٦ ، « سابع أو ثامن » فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩٣ .

ولما مات عُقِدت البيعة بعده لأخيه أبي الحسن عليّ في يوم الأحد لثمانٍ خلَوْن من ذي القعدة ، فجرى الأستاذ كافور معه على قاعدته مع أخيه ، وزاد على ذلك بأنْ حجبَه ومنَعَهُ من الظُّهور إلى النّاس إلّا معه .

ولم يزل الأمر على ذلك إلى أنْ تُوُفّي لإحْدَى عشْرةَ ليلةً خلت من المحرّم سنةَ خمسٍ وخمسين[1] وثلاثمائة ، وكان مدة ملكه خمس سنين وشهرين وأيّامًا ، وقيل : إنّ وفاته كانت في هذا التاريخ من سنة أربع وخمسين ،

وكان مولده لأربع بقين من صفر سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة ، وخلّف ولدًا واحدًا وهو أبو الفوارس أحمد .

ذكر ولاية أبي المسك كافور الخصيّ الإخشيدي واستقلاله بملك مصر دون شريك ولا منازع

كانت ولايته بعد وفاة أبي الحسن علي، ابن سَيده ، لإحدى عشرة ليلةً خلَتْ من المحرّم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة . وقيل في هذا التاريخ من سنة أربعٍ وخمسين .

قال الفرغاني المؤرخ : لمّا توفي عليّ بن الإخشيد استدعاني كافور وقال لي : ما ترى أن أصنع ؟ فقلت له : أيها الأُستاذ إنّ للمرحوم عندك صنائعَ وآثارًا تقتضي أن يُنْظَر لعقبه ؛ والرأيُ عندي أن تنصب أحمد بن الأمير عليّ مكان[2] أبيه ، وتدبر أنت الدولة كما كنت . فاعتذر بصغره ، فقلت : قد

---

(١) اتفق على هذا التاريخ الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٩٦ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٢٦ .

(٢) « ما كان » في الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

عُقد لأبيه ولم يبلغ سِنَّهُ ، وأجاز ذلك ثلاثة أئمّة : المتّقى والمستكفى[١] والمطيع[٢] . فقال ننظر فى ذلك . وانصرفت . فبلغنى أنّه قال بعدى : أبو محمد لا يُشَكّ فى ولائه[٣] لكنه يميل إلى الْفَرْغَانيَّة ، ثم لم يقبل ما أشار به الفرغانى ، بل وثب على الأمر وأنزل اسم مواليه عن المنابر ، وأقام كذلك إلى أن تُوفِّى فى يوم الثلاثاء لعشرين بَقِينَ من جُمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة .

وكان سبب وفاته أنه سُمَّ فى لوزينج[٤] قدمته له إحدى جواريه وقد أتى من الميدان وهو جائع ، فأكله ومات ، وقُتِلت الجاريةُ بعده ، وكانت قد وُضعت لذلك . ومات وله من العمر خمس وستون سنة على التّقدير ، فإنه جُلِب فى سنة ثنتى عشرة وثلاثمائة وعمره أربع عشرة سنة ، وبيع بأثْنَىَ عشر دينارًا[٥] .

قال المؤرخ : وكان لكافور معروف فى كل سنة للحاج أكثر ما[٦] يُنْفِذُ معهم مالاً وكُسوة وطعامًا ، ويبعث معهم صندوقين من كُسوة بَدَنِهِ تُفرّق على الأشراف . وكان له من الغلمان الأتراك ألف وسبعون غلامًا يغلق عليهم باب داره ، وتمام الألفى غلام روم ، سِوَى الْمُوَلَّدين والسُّودان،يكون عدّةُ

---

(١) هو أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله ، الخليفة العباسى ببغداد ، ولى فى الفترة من ٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ/٩٤٤ ـ ٩٤٦ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٢) هو أبو القاسم الفضل المطيع لله ، الخليفة العباسى ببغداد ، ولى فى الفترة من ٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ/٩٤٦ ـ ٩٧٤ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٣) « فى ولايته » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) لوزينج : نوع من الحلوى .

(٥) « اشتراه سيده أبو بكر محمد الإخشيد بثمانية عشر دينارًا من البزياتين » ـ النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١ .

(٦) « فى كل سنة لحاج أكثر » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

غلمانه أربعة آلاف غلام . وكان راتبه فى مطبخه فى كل يوم ألف وسبعمائة رطل لحمًا سوى الدّجاج والفراريج والخراف المشويّة والحلوى وغير ذلك . وخُطب له بالحرمين الشريفين ، ونَفَذ حكمه فى الشّام والحجاز وطَرَسُوس . وكانت له خزانة شراب يُفرَّق منها فى كل يومٍ خمسون قرابة[1] من سائر الأشربة فى الحاشية . ولما مات كافور خلّف فى خزائنه عينًا وجوهرًا وثيابًا وسلاحًا بمبلغ ألف ألف دينار .

وحكى عنه أنه كان فى ابتداء أمره قبل اتصاله بالإخشيد لحقه جرب حتّى كان لا يقابَل فطرده سيِّدُه ، وكان يمشى فى سوق بنى جاسة ، وفيه طبّاخ يبيع الطبيخ ، فطلب كافور منه أن يطعمه ، فضربه بالمغرفة على يده ، وهى حارَّة ، فسقط مغشيًّا عليه ؛ فأخذه رجل من المصريّين وداواه حتى وجد العافية فأتى إلى سيّده فقال له سيِّدهُ : خُذ أجرة ما فعلت . فأبى ؛ وقال : أجْرِى على الله . وكان كافور كلما عزَّتْ نفسُه يذكِّرها بضرب الطّباخ بالمغرفة ، وربما يركب ويأتى ذلك الخُطّ وينزل ويسجد شكرا لله عز وجل .

وحكى أيضًا أنه اجتاز يومًا بالنحَّاسِين وهو فى موكبه فوقف على حانوت هرَّاس[2] ، وكان إلى جانبه الوزير ابن الفرات فبكى كافور بكاءًا شديدًا وكان يقول فى بكائه : فاز الجمال فاز الجمّال ، وساق وهو على تلك الحال ، فلمّا استقرّ بمكانه وسكن ، سأله الوزير عن سبب بكائه ، فقال : لمّا طلعتُ من المركب من بحر الحجاز ، وكان يومئذ سيدى الذى جلبنى إبراهيم البلوقى ،

---

(١) قرابة : من الآنية : ما قارب الامتلاء ــ والمقصود راوية الماء التى تصنع من جلد الحيوان ، وتستخدم فى نقل الماء .

(٢) هراس : أى بائع الهريسة ، وهى نوع من الحلوى .

فركب الجمل وقصدنا قُوص ونزلنا فى بعض الأيام وجلستُ مع الجمّال ورجلٍ آخر كان معنا قد وصل من الحجّ ، فقال الرجل : أشتهى على الله قِدْر هريسةٍ قدّامى . فقلتُ : أنا أشتهى على الله ملك مصر ، فقال الجمّال اشتهيتُ على الله الجنّة . وغاب عنى هذا الحديث . فاتّفق أنّ سيّدى إبراهيم باعنى لمحمد بن هاشم ، ثمّ باعنى لأبى أحمد بن عيّاش ، فوهبنى لجاريةٍ له ، ثمّ وهب [٢٠] أبو أحمد الجاريةَ بعد مدّةٍ الإخشيدَ ، فطلبنى تكين الخاصّة من الإخشيد فأهدانى إليه ،فلم أزل إلى أن ملكت مصر . وصاحبُ الحانوت الذى وقفتُ عنده هو الذى اشتهى الْقِدْر الهريسَة ؛ فعرفت أنّ ذلك الوقت وهب الله لكلٍّ منّا ما اشتهى ، ففاز الجمّال بالجنة .

وحكى أبو جعفر المنطق قال : دعانى كافور يومًا وقال لى : أتعرف مُنَجِّمًا ، كان يجلس عند دار فلان؟ فقلت : نعم . قال : ما صنع ؟ قلت : مات منذ سنين كثيرة . فقال : مررتُ عليه يومًا فدعانى وقال : أَنْظُر لك ؟ قلت : افعل . فنظر ، ثمّ قال : سَتَمْلك هذه المدينة وتأمر فيها وتنهى . وكان معى درْهمين فدفعتُهما إليه ، وقلت : ما معى غيرهما . وقال : وأزيدُك ؛ ستَمْلك هذه المدينة وغيرَها وتبلغ مبلغًا عظيمًا ، فاذكرنى . فانصرفت . فلمّا نمتُ البارحَة رأيتُه فى منامى وهو يقول لى : ما على هذا فارقتنى . وأريد أن تمضى وتسأل عن حاله ، وهل له ورثة ؟ فسألتُ عنه فقيل : له ابنتان إحداهُما بكر والأُخرى متزوّجة ، وأعلمته ؛ فاشترى لهما دارًا بأربعمائة دينار ، ودفع للبكر مائتى دينار تتجهز بها .

وقال الحسن بن زولاق المصرى المؤرخ : كان الشريف عبد الله بن أحمد

الحسينى ، وهو ابن طباطبا ، يرسل إلى كافور فى كل يوم جامين[١] حلوى[٢] ورغيفًا فى منديل مختوم ، فخُوطِب كافور فى الرّغيف وقيل له الحلوى حَسَنٌ فما تصنع بالرغيف ؟ فأرسل إليه وقال : يُجْرِينى الشريفُ فى الحلوى على العادة . ويعفينى من الرغيف ، فركب الشّريف إليه وقال : أيّدك الله ، أنا ما أُنفذ الرغيف تطاوُلاً ولا تعاظُمًا وإنّما هى صبيّة حَسَنِيّة تعجنُه بيدها وتخبزه ، فأرسله[٣] على سبيل التبرّك ؛ فإذا كرهتَه قطعناه . فقال : لا والله ، ولا يكون قُوتى سِواه .

وقيل أنه ركب يومًا فى موكبه والشّريف أبوجعفر[٤] نقيب الطالبين يسايره ، فوقعت مقرعته ، فنزل الشريف فناوله إياها ؛ فتذمّم كافور من ذلك وتأوّه وبلغ منه مبلغًا عظيمًا . فلمّا نزل إلى داره أرسل إلى الشّريف جميع ما كان يملكهُ فى موكبه من مماليك ودوابّ وآلة واعتذر منه . قال التنوخى فى نشوار المحاضرة : وكان قيمة ما سيّره إليه خمسة عشر ألف دينار[٥] .

وفى سنة سِتّ وأربعين وثلاثمائة قدم عليه أبوالطيب المتنبى[٦] فأكرمه وخلع عليه ، وأنزله بدار ، وحمل إليه ألوفًا من المال ، فقال أبوالطيب

---

(١) الجام : إناء من فضة ــ القاموس المحيط .

(٢) « حلوا » فى الأصل .

(٣) « فيرسله » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) هو مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوى النسابة ، أبو جعفر ــ النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣ .

(٥) انظر تفصيل ذلك فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣ ـ ٤ .

(٦) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندى الكوفى ، أبو الطيب المتنبى ، الشاعر المشهور ، توفى سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٠ رقم ٥٠ .

قصيدته التى أولها :

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا وحسب[١] المنايا أن تكون أمانيًا
تَمَنَّيْتُهـا لمـا تمنّيتُ أن أرى صديقا ، فأعيا أو عـدوًّا مداجيًا

وجاء منها فى مدح كافور :

فجاءتْ[٢] به إنسانَ عينِ زمانه وخلَّت بيـاضًـا خَلْفَهـا ومـآقِيَـا

فَحسُن موقعُه عند كافور ، ثمّ هرب منه وهَجَاهُ بما هو مسْطورٌ فى ديوانه[٣] .

ولما مات كافور قام بالأمر بعده أبـو الفوارس أحمـد بن على بن الإخشيد محمد بن طغج بن جُفّ ، كانت ولايته بعد الأستاذ كافور لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة . وذلـك أن القواد والغلمان الإخشيديّة اجتمعوا وتحالفوا ألاّ يختلفوا ، وعقدوا الرئاسة له ،

---

(١) « وحب » فى الأصل ، والتصحيح من ديوان المتنبى .

(٢) « فجاءت بنا » فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧ .

(٣) للمتنبى فى كافور أهاج كثيرة ، أشهرها قصيدته الدالية ، التى قالها فى يوم عرفة قبل مفارقته مصر بيوم واحد والتى مطلعها :

عيـد بأيـة حال عـدت يـاعيـد بمـا مضى أم لأمـر فيـك تجديـدُ

ومنها :

من علّم الأسود المخصى مكرمة أقـومـه البيض أم آبـاؤه الصيـد
أم أذنـه فى يـد النخـاس دامية أم قـدره وهـو بـالفلسين مـردود

انظر ديوان المتنبى ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٨ .

وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وجعلوا الخليفة عنه الحسن[١] بن عبد الله ابن طغج ، وهو ابن عم أبيه ؛ وردُّوا تدبير العساكر والرجال إلى شمول[٢] الإخشيدى ، وتدبير الأموال إلى جعفر بن حنزابة[٣] الوزير ؛ وذلك كلُّه قبل دفن كافور . ؟

وأقام الأمرُ على ذلك ثلاثة أشهر وثمانية عشر يومًا ، واشترك معه ابنُ عمّ أبيه الحسن بن عبيدالله بن طغج ، وكان يخطب لهما جميعًا بمصر والشّام والحرمين ، يُبْدأ فى الخطبة بأبى الفوارس ويُثنّى بأبى محمد الحسن .

ثم سار الحسن إلى الشام لقتال القرامطة ، وصادر الوزير جماعةً من المصريين ، وقبض على يعقوب بن كلّس وصادره على أربعة آلاف وخمسمائة دينار ؛ وقبض على إبراهيم بن مروان النّصرانى ، كاتب أنوجور وعلى ابنى الإخشيد وصادره على عشرة آلاف دينار . ولم يقدر الوزير على رضا الإخشيديّة والكافورية لتباين أغراضهم ؛ فاضطرب التدبير على الوزير ، واسْتَتَر مرّتين ، ونُهبت داره ودُورُ أصحابه ، فكتب جماعة من وُجوه البلد إلى المعز[٤] بإفريقية يستدعون منه إنفاذ العساكر .

وكان بمصر فى هذه السّنة غلاء شديد وفناء عظيم ، فإن النيل انتهت زيادته فى سنة ست وخمسين وثلاثمائة إلى اثنى عشر ذراعًا وتسعة عشر

---

(١) « حسين » فى الأصل ، والتصحيح من بعض المواضع التالية فقد ذكر حسين وأحيانا الحسن ، ومن النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٩ .

(٢) « سمول » فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢١ .

(٣) هو جعفر بن الفرات ، أبو الفضل ، انظر ما سبق ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٠ .

(٤) هو معد بن إسماعيل ، أبو تميم ، المعز لدين الله ، أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، توفى بالقاهرة سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م — وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٤ رقم ٧٢٧ .

أصبعًا ، ولم يوف فى السنة التى قبلها ، فاشتد الغلاء ، وكثر الوباء .

نقل بعضُ المؤرخين أنه أحصى من كُفِّن ودُفن خارجًا ، عدا من رُمِى فى البحر ، ستمائة ألف إنسان .

وفى سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة قدم الحسن بن عُبيدالله من الشّام [٢١] منهزمًا من القرامطة ، ودخل مصر ، وقبض على جعفر بن الفرات الوزير ، واستوزر الحسن بن جابر الرياحى ، ثم أطْلق الوزير بن الفرات ، بوسَاطة أبى جعفر مسلم الحسينى الشريف ، وفوّض إليه الوزارة ، ثم سار الحسن بن عُبيدالله إلى الشّام فى مستهل شهر ربيع الآخر ؛ وخرج جماعةٌ من الأولياء والكتاب والأشراف إلى الشام ، وخرج يعقوب(١) بن كلّس إلى الغرب مستترًا ، ثمّ صار منه ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ثمّ تواترت الأخبار فى جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة أن المعزَّ صاحب إفريقية قد جهّز عساكره مع غلامه جوهر إلى مصر ، فجمع الوزيرُ القوّاد ووقع رأيهم على تقديم نحرير سويران فاستدعوه من الأشْمُونين(٢) ، وعقدُوا له الرئاسة عليهم .

ووصل الخبر بوصول جوهر إلى برقة ، فاجتمع رأى الجماعة على أن بعثوا الشريف أبا جعفر مسلمًا الحسَنى وأبا إسماعيل بن أحمد الزينبى وأبا الطيب

---

(١) هو يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس ، أبو الفرج ، استوزره العزيز بالله الخليفة الفاطمى ، وتوفى ابن كلس سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠م ــ وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٢٧ رقم ٨٣١ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢ ، الإشارة إلى من نال الوزارة ص ١٩ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٢٦ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٨ ، وانظر ما يلى فى خلافة العزيز بالله .

(٢) الأشمونين : من المدن المصرية القديمة ، وهى حاليًا قرية من قرى مركز ملوى ، محافظة أسيوط ــ القاموس الجغرافى ق ٢جـ ٤ ص ٥٩ ـ ٦٠ .

العباس بن أحمد العباسى والقاضى أبا ظاهر ، وغيرهم ، لتقرير الصلح بينهم وبين جوهر على تسليم البلاد له ، فساروا فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فلقوه على تُروجَة [١] ، فأكرمهم وأجابهم إلى ماطلبوه ثم بعد انفصالهم اجتمع القواد على إبطال المصالحة وتجهّزوا للحرب ، ورجع أولئك النّفر بكتاب الأمان ، فلم يقبل القواد ذلك ، وخرجوا إلى الجيزة بأجمعهم .

ووصل جوهر وابتدأ القتال يوم الخميس الحادى عشر من شعبان من السّنة ، ثمّ سار جوهر بعد ذلك إلى منية شَلَقَان [٢] وملك المخايض ، فبعث المصريون مزاحِم بن أرتق لحفظها فلم يحفظها ، وخامر عليهم ، وعدى [٣] جوهر ، وانهزم الإخشيديون ، ودخل جوهر مصر بعد العصر من يوم الثلاثاء لثلاثَ عشرةليلةً بقيت من شعبان منها ، وندب القائد جوهر المعزّىُّ بعد ذلك جعفرَ بن فلاح إلى الشام ، والتقى هو والحسن بن عبيد الله على الرملة فى شهر رجب سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، واقتتلا [٤] فانهزم الحسن وأُسر ، وملك جعفر الشّام أجمع .

وانقرضت الدّولة الإخشيدية ، وكانت مدتُها خمسًا وثلاثين سنة ، وتسعة أشهر ، وأيّامًا .

---

(١) تروجة : من القرى المصرية القديمة ، من أعمال البحيرة ، مكانها اليوم كوم تروجة بمركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة ــ القاموس الجغرافى ق ١ جـ ١ ص ١٩٠ .

(٢) منية شلقان : من القرى المصرية القديمة ، من أعمال القليوبية ، وحاليًا تبع مركز قليوب ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ٥٦ .

(٣) « عدا » فى الأصل .

(٤) « واقتتلوا » فى الأصل .

ذكر أخبار الدولة العُبَيديّة
التى انتسب ملوكها إلى الشرف
وألحقوا نسبهم بالحسين بن على بن أبى طالب
رضى الله عنهما

هذه الدّولة من الدُّول التى امتدَّت أيامُها واتّسعَت ممالكُها ، واستولت مُلوكُها على كثيرٍ من الممالك المشهورة شرقًا وغربًا ، ببلاد المغرب ، والدّيار المصرية ، والبلاد الشاميّة ، والثّغور والعَواصم ، وغير ذلك .

وكان ابتداءُ ظهور هذه الدّولة ببلاد المغرب ، وإنّما أوردناها فى أخبار ملوك الدّيار المصرية ، وألحقنا ملوكها بملوك هذا الوادى لأن الدِّيار المصرية قاعدةُ ملكهم وبها قام أكثر ملوكهم .

ولنبدأ بذكر أخبار ملوك هذه الدّولة وابتداء أمرهم ، وما قيل فى نسبهم وإلى من ينسبون ، وكيف تنقَّلَتْ[1] بهم الحال إلى أن ملكوا البلاد ، واستولوا على الأقاليم . وهذه الدّولة أسبابٌ ولوازمُ وشيعة . هم الذين مهّدوا لهم البلاد . ووطّنوا الممالك . وهزموا الجيوش ، وفتحوا الأقاليم ، وأبادُوا الأبطال . حتّى استقر المُلك لملوك هذه الدّولة وتسلّمُوه عفوًا صفوًا .

---

(١) « تنقلب » فى الأصل .

لابُدَّ لنا أن نبتدئ بذكر أخبارهم ، وما فتحُوه واستولوا عليه قبل ظهُور المهْدىّ الّذى هو أوّل ملوك هذه الدّولة ، ثم نذكر عاقبة أمر مَنْ قرر لهم الملك معهم ، ونذكر مَنْ ملك مِنْ ملوك هذه الدولة واحدًا بعد واحد إلى أن انقرضت دولتهم وبادت أيّامُهم .

فنقول وبالله التوفيق :

أوّلُ من ملك منهم عُبَيْدالله المنعوت بالمهدىّ ، ونسَب نفسَهُ أنه : عبيدالله بن الحسن بن علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، وأهل العلم بالأنساب من المحقّقين يُنكرون ذلك وينْفُونه عن[1] الشّرف ، ويقولون : اسم عبيدالله سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله القدّاح[2] بن أبى شاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان ، صاحب كتاب « الميدان فى نصر الزّندقة » ، وهو من أهل رَامَهُرْمُز[3] ، كورة من كور الأهواز ، وكان من خُرَّمِيَّة المجوس[4] ، ومن المؤرخين من زعم أن الحسين بن أحمد زوج أم سعيد وأن أبا سعيد يهودى .

وقال القاضى أبوبكر بن الطيّب[5] فى كتابه المسمّى بكشف الأسرار

---

(١) للدراسة التفصيلية انظر : ذكر ما قيل فى أنساب خلفاء الفاطميين ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) « القراح » فى الأصل .

(٣) رامهرمز : وتسميها العامة : رامز تكاسلا ، وهى من نواحى خوزستان ــ معجم البلدان .

(٤) الخرمية : حركة دينية ترجع إلى أصول مجوسية ، يعتقدون فى تناسخ الأرواح ، ويتحللون من القيم الدينية ــ الكامل جـ ٦ ص ٣٢٨ .

(٥) هو محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم ، القاضى أبو بكر ، البصرى ، البغدادى ، المالكى ، الأشعرى ، المعروف بالباقلانى ، توفى فى بغداد سنة ٤٠٣ هـ/ ٩٨٨ م ــ العبر جـ ٣ ص ٨٦ .

وهتك الأستار : إنّ سعيدًا هذا كان قد رباه عمّه محمد بن أحمد المكنى بأبى الشلغلغ [٢٢] وكانُوا دُعاةً لمحمّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق ، يأكلون البلاد باسمه ويدَّعون أنّه حيٌّ يُرزق إلى زمانهم ، وفيه عمل ابن المنجم قصيدته التى يقول فيها :

فـإنّـك فى دعــواك أنّـك منهم ... كمن يَدَّعى أنّ النُّحاس من الذّهب
متى كان مولى البـاهلِيّين ملحَقًا ... بِآل رسُول الله يـومًا إذا انْتُسب

ولما ملك بهاءُ الدّولة أبو نصْر [بن] (١) عضد الدّولة فناخسرو ابن بُويه ، بغْدادَ جمع الطالبيّين من آفاق العراق ، وسألهم عنهُم ، فكلُّهم أنكرهُم ونفاهم ، وتبرّأ منهم ؛ فأخذ خُطُوطَهم بذلك . وكان ممن شهد الشّريفان الرّضِىّ (٢) والمرتضى (٣) وأبو حامد الأسفراينى (٤) ، وأبو الحسين

---

(١) [بن] إضافة يقتضيها السياق فهو بهاء الدولة أبو النصر فيروز بن عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٩٠ ، وانظر ترجمة عضد الدولة فى وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٥٠ رقم ٥٣٢ .

وقد ولى أبو نصر بهاء الدولة حكم العراق فى ظل الخلافة العباسية فى الفترة من ٣٧٩ ــ ٤٠٤ هـ/ ٩٨٩ ـ ١٠١٣ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٩٠ .

(٢) هو محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم ، الشريف الرضى أبو الحسن ، توفى ببغداد سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٤١٤ رقم ٦٦٧ .

(٣) هو على بن الحسين بن موسى ، أخو السابق ، توفى ببغداد سنة ٤٣٦ هـ/١٠٤٤ م ــ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣١٣ رقم ٤٤٣ .

(٤) هو أحمد بن محمد بن أحمد الإسفرايني الشيخ أبو حامد ، الفقيه الشافعى ، توفى ببغداد سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٧٢ رقم ٢٦ .

القُدُورى[١] ، وغيرهم[٢] ، وذلك فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة[٣] بأمر القادر بالله[٤] العباسىّ .

هذا مع ما ينسب إلى بنى بويه من التشيُّع . فلنذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم .

ذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم

قال أبو محمد عبدالعزيز بن شدّاد بن الأمير تميم بن المعزّ بن باديس فى كتابه المترجم بالجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان : أوّل من قام منهم أبوشاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان ، وكان مِمّن صحبَ أبا الخطّاب محمّد بن أبى زينب[٥] مولى بنى أسد ، فألقَوْا إلى كلّ من اختصُّوا به أنّ لكل شىء من العبادات باطنًا ، وأنّ الله تعالى ما أوجب على أوليائه صلاةً ولا زكاةً ولا صوْمًا ولا حجًا ؛ ولا حرّم عليهم شيئًا من المحرمات ؛ وأباح لهم نكاح البنات والأخوات . وإنما هذه العباداتُ عذابٌ على الأمّة وأهل الظّاهر ، وهى ساقطةٌ عن الخاصّة . يقولون ذلك لِمَنْ يثقون به ويسْكُنون

---

(١) هو أحمد بن محمد بن احمد ، أبو الحسين القدورى ، الفقيه الحنفى ، توفى ببغداد سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م - وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٨ رقم ٣٠ .

(٢) عن أسماء الموقعين على هذا المحضر انظر الكامل جـ ٩ ص ٢٣٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٣) « فى سنة ٤٠٢ هـ » فى كل من الكامل واتعاظ الحنفا .

(٤) هو أبو العباس أحمد القادر بالله ، ولى الخلافة العباسية ببغداد فى الفترة من ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ/٩٩١ ـ ١٠٣١ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٥) هو محمد بن أبى زينب الأسدى الأجدع ، مولى بنى أسد ، ويعرف أصحابه بالخطابية ، وهم من غلاة الشيعة ـ الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٩ .

إليه . ويقولون فى آدمَ وجميع الأنبياء : كذّابونَ محتالونَ طلابٌ للرّئاسة .

فاشتدّت شوكَةُ هؤلاء فى الدّولة العبّاسيّة ، وتفرقوا فى البلاد شرقًا وغربًا ، يُظهرون التقشُّف ، والزّهد ، والتصوّف ، وكثرةَ الصّلاة والصِّيام ، يُعرِّفون الناس بذلك وهم على خلافه ، ويذكرون أبا الخطاب إلى أنْ قامت البيِّنة بالكوفة أنّ أبا الخطاب أسْقَطَ العبادات وأحلّ المحارم ، فأخذه عيسى[١] بن موسى الهاشمى ، مع سبعين من أصحابه ، فضَربَ أعناقَهم ، فتفرّق بقيّةُ أصحابه فى البلاد ، فصار قومٌ مِمَّن كان على مذهبه إلى نواحى خراسان ، وقومٌ إلى الهند ، وصار أبوشاكر ميمون بن سعيد إلى بيت المقدس مع جماعةٍ من أصحابه ، وأخذوا فى تعلم الشعبذة[٢] والنارنجيات[٣] والْحِيَل ومعرفة الرّزق من صنعة النّجوم والكيمياء ، ويحتالون على كلّ قوم بما يتّفق عندهم ، وعلى العامّة بإظهار الزُّهد والورع ، ونشأ لأبى شاكر ابنٌ يقال له عبدالله القدّاح ، علّمه الحِيَل وأطْلعه على أسرار هذه النِّحلة ، فتحذَّق وتقدّم ، وكانوا يظهرون التشيع والبكاء على أهل البيت ويزيدون أكاذيب خترعوها يخدعون بها ضعفاء العقول .

وكان من كبار الشعوبيّة[٤] رجل يسمى محمد بن الحسين بن جهار نجار

---

(١) هو عيسى بن موسى بن محمد بن على العباسى ، ولى عهد السفاح بعد أخيه المنصور ، خلعه المهدى ، توفى سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م ــ العبر جـ ١ ص ٢٥٣ .

(٢) يقال : شعوذ وشعبذ ، والشعوذة والشعبذة : خفة فى اليد ، وأخذ كالسحر ، القاموس المحيط .

(٣) النارنجيات : هى الرقى أو الطلاسم أو السحر ، وعن أخبار أصحاب النارنجيات والحيل انظر الفهرست لابن النديم ص ٤٢٩ ـ ٤٣٥ .

(٤) « الشعتية » فى الأصل .

الملقب دندان[١] وهو بنواحى الكَرَج[٢] وأصفهان له حالٌ واسعة وضِياع عظيمة ، وهو المتولّى على تلك المواضع ، وكان يبغض العرب ويذمُّهم ، ويجمع معايبهم ، وكان كلُّ من طَمِع فى نوالِه تقرَّب إليه بذمِّ العرب ، فسمع به عبدُالله بن ميمون القدّاح وما ينتحله من بُغْض العرب وصَنْعة النّجوم ، فسار إليه ، وكان عبدالله يتعاطى الطِّب وعلاج العين ، ويقدَحُ الماء النّازل فيها ، ويُظهر أنه إنّما يفعل ذلك حِسْبةً وتقربًا إلى الله عز وجلّ ، فطار له هذا الاسمُ بنواحى أصفهان والجبل ، فأحضره دندان وفاتحه الحديث ، فوجده كما يحبّ ويَهْوَى ، وأظهر له عبدالله من مساوئ العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتدّ إعجابُه به ، وقال له : مثلُك لا ينبغى أن يطبّ ، وإنّ قدرَك يرتفع ويجلّ عن ذلك ، فقال : إنّما جعلت هذا ذريعةً لما وراءه ممّا أُلقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على رفقٍ ومَهَل ، من الطَّعن على الإسلام ، وأنا أشير عليك ألّا تُظهر ما فى نفسك إلى العرب ، ومَن يتعصّبُ لهذا الدّين ، فإنَّ هذا الدّين قد غلب على الأديان كلِّها فما يطيقهُ ملوك الرّوم ، ولا الترك ، والفرس ، والهند ، مع بأسهم ونجدتهم ، وقد علمت شدَّة بابَك صاحب الْخُرَّمية[٣] وكسرةَ عساكره ، وأنّه لما أظهر ما فى نفسه من بُغْض الإسلام وترك التستُّر بالتشيّع[٤] [٢٣] كما يقول أوّلاً قُلِع أصله ،

---

(١) اختلفت المصادر فى رسم هذا الاسم فهو زيدان ، وزندان ، وذيذان .. إلخ كما اختلفت فى التعريف به المصادر السنية عن المصادر الشيعية ــ للتفصيل انظر اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٣٩ هامش ٥ .

(٢) الكرج : مدينة بين أصفهان وهمذان ــ معجم البلدان .

(٣) بابك الخرمى : قائد حركة خارجة عن الدولة العباسية ، بدأت فى سنة ٢٠١ هـ/٨١٦م ، واستمرت هذه الحركة حتى سنة ٢٣٣ هـ/٨٣٧م ــ الكامل جـ ٦ ص ٣٢٨ ، ص ٤٧٧ .

(٤) « ترك السير بالتشيع » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

فاللهَ اللهَ أن تُظهرْ ما فى نفسك ، والزم التشيُّع والبكاء على أهل البيت ، فإنّك تجدُ مَنْ يساعدُك على ذلك من المسلمين ، ويقول : هذا هو الإسلام [وسُبَّ أبا بكر وعمر] (١) وادَّعِ عليهما عداوَةَ الرّسول وتغييرَ القرآن وتبديلَ الأحكام ، فإنك إذا سبَبْتهما سبَبْتَ صاحبها (٢) ؛ فإذا استوى لكَ الطّعنُ عليهما فقد اشتفيتَ من محمّد ، ثم تُعْمِلُ الحيلة بعد ذلك فى استئصال دينه . ومَنْ ساعدَك على هذا فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك [الأمر] (٣) كما تريد ، فقال دنْدان (٤) : هذا هو الرأى .

ثم قال له عبدالله القدّاح : إن لىَ أصْحابًا وأتباعًا أبثُّهم فى البلاد فيُظهرونَ التقشُّف والتصوّف والتشيع ، ويدعُون إلى ما تريدهِ بَعْد إحكامِ الأمر . فاستصْوبَ دنْدان ذلك وسُرَّ بِه ، وبذل لعبدالله القدّاح ألفى ألف دينار . فقبل المال وفرّقه فى كُور الأهوازِ والبصرة وسواد الكوفة ، وبطالقان ، وخراسان (٥) ، وسَلَمْيَة من أرض حمص .

ثم مات دنْدان فخرج عبدالله القدّاح إلى البصرة وسواد الكوفة ، وبثّ الدعاة ، وتقوى بالمال ، ودبّر الأمر .

---

(١) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام .

(٢) يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٣) [ ] إضافة تتفق والسياق .

(٤) « ديدان » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق .

(٥) « بطالقان خراسان » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٠ .
وطالقان : مدينة بخراسان بين مرو الروز وبلخ ــ معجم البلدان .

وحكى الشّريف أبو الحسين محمّدُ بن على الحسَين المعروف بأخى محسن[١] فى كتابه أن عبد الله بن ميمونٍ هذا كان قد نزل عسكر مُكْرَم[٢] فسكن بساباط أبى نوح ، وكان يتستّر بالتشيُّع والعلم ، فلمّا ظهر عنه ما كان يضمرُه ويُسِرُّه من التّعطيل والإباحة ، والمكر والخديعة ، ثار النّاس عليه ، فأول من جاءه[٣] الشيعة ، ثم المعتزلة وسائر الناس ، وكبسوا دارَه ، فهرب إلى البصرة ومعه رجل من أصحابه يعرف بالحسين الأهوازى ، فنزل بِبَاهلة على موالٍ لآل عقيل بن أبى طالب ، وقال لهم : أنا من ولد عقيل ، وداع[٤] إلى محمّد بن إسماعيل بن جعفر[٥] . فلمّا أقام وانتشر خبرُه طلبه العسكريُّون فهرب وأخذ طريق الشام ومعه الحسين الأهوازى ، فلما توسطا الشام عدَلَا إلى سَلَمْية[٦] ليَخْفَى أمرهُما فأقام بها عبد الله وخفى أمره .

نرجع إلى قول ابن شداد . قال : ثم مات عَبد الله ، وكان له جماعة من الولد فخلفه منهم ابنه[٧] أحمد ، فقام مُقام أبيه ، وجرى على قاعدته ،

---

(١) علوى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وله مجلد يشتمل على بضع وعشرين كراسة فى الطعن على أنساب الخلفاء الفاطميين ــ انظر اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) مكرم : من نواحى خوزستان ــ معجم البلدان .

(٣) « فأول من ثار عليه » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ١٩ .

(٤) « داعى » فى الأصل ، والتصحيح من كنز الدرر جـ ٦ ص ١٩ .

(٥) « فادعى أنه من ولد عقيل بن أبى طالب ، وأنه يدعو إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق » ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٦) سلمية : بفتح أوله وثانيه ، وسكون الميم ، وياء مثناه من تحت خفيفة ــ بليدة من جهة البرية من أعمال حماة ، وكانت من أعمال حمص ــ معجم البلدان .

(٧) « أبيه » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦ .

وبَثّ الدُّعاة ، واستدعى رجلا من أهل الكوفة يقال له أبو الحسين رستم بن الكرخيين بن حوشب بن زادان النجار ؛ وكان هذا الرّجل من الإماميّة الذين يقولون بإمامة موسى[١] بن جعفر ، فنقله إلى القول بإمامة إسماعيل[٢] بن جعفر . وكانوا يرْصُدون مَن يرِدُ من المشاهد وينظرون إليهم ، فمن كان فيه مطْمَعٌ وجهالة استدعَوْه ، ولا يستدعُون إلا الجُهّال ومَنْ له بأسٌ وجلَد ، وعشيرة ومال ، وعزّ ومنعة ، ويتجنّبون الفقهاء والعُلماء ، والأدباء والعقلاء .

وكانوا يطلبون أطراف البلاد ، فقال لهم بعض من ورد عليهم : إن بجَيْشَان[٣] والمدحرة والْجَنَد[٤] من أرض اليمن رجلاً جلْدًا كثير المال والعشيرة ، يتشيّع ، وبهذه الناحية شاعرٌ يقال له ابن خيران يسبُّ فى شعره أبا بكر وعمر ، المهاجرين والأنصار ، على مثل سبيل الحميرى الشاعر ، فورَدَ ذلك الرّجل المذكور ، وهو أبو الخير محمد بن الفضل من أهل جَيْشَان من اليمن ، ودخل إلى الحيرة ، فرأوه يبْكى على الْحُسَين بن على ، فلما فرغ من زيارته أخذ الدّاعى يدَه وقال له : إنّى رأيت ما كان منك من البكاء والقلق

---

(١) هو موسى بن جعفر الصادق ، أبو الحسن ، موسى الكاظم ، توفى سنة ١٨٣ هـ/٧٩٩ م — وتنسب إليه الفرقة الموسوية — وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٠٨ رقم ٧٤٦ ، الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٨ .

(٢) هو إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتنسب إليه الفرقة الإسماعيلية الواقفة الذين قالوا إن الإمام بعد جعفر إسماعيل نصًّا عليه باتفاق أولاده ، ومن ثم الإمامة بعده فى أولاده — الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٧ .

(٣) جيشان : بالفتح ثم السكون ، مخلاف باليمن — معجم البلدان .

(٤) جَنْد : بالفتح ثم السكون ، أحد أقسام اليمن الثلاثة فى العصر الإسلامى الأول وهو أعظمها — معجم البلدان .

على صاحب هذا القبر ، فلو أدْركتَه ما كنتَ تصنع قال : كنت أجاهد بين يديه ، وأجعل خدّى أرضًا يطأ عليها ، وأبذل مالى ودمى دونه . فقال له : أتظنّ أنْ ما بقى لله حجّة بعد صاحب هذا القبر ؟ قال : بلى ، ولكن لا أعرفُه بعينه ، قال : فتريده ؟ قال : إى والله . فسكت عنه الدّاعى . فقال له محمد ابن الفضل : ما قلتَ لى هذا القول إلا وأنت عارفٌ به . فسكت الداعى ، فقوِىَ ظنّ ابن الفضل أن هذا الرجل يعرف الإمام والحجّة ، فألحّ عليه وقال له : اللهَ اللهَ فى أمرى ، اِجمْع بينى وبينه ، فإنى خرجت إلى الحجّ وجئت إلى هذه الزيارة أريدُ الله تعالى ، فسكت الدّاعى ، وازدادت رغبةُ ابن الفضل ، فصار يتضرع إليه ، ويسأله ، ويُقبّل يده . فقال له الدّاعى : اصبر ، ولا تَعْجَل ، وأقِمْ ، فهذا الأمر لا يتمُّ بسرعة ، ولابدَّ له من صبر ومهلة . فقال ابن الفضل لأصحابه ومَنْ كان معه من جيْشان : انصرفوا فلِى بالكوفة شغل ، فانصرفوا ، وأقام هو واجتمع بالدّاعى ، فقال له : ما عملْتَ فى حاجتى ؟ فقال انتظرنى حتى أعود إليك ، فانصرف عنه ومضى إلى أحمد بن القدّاح وعرّفه حال ابن الفضل وحرْصَه على لقاء الحجّة وإمام الزمان ، وبقى الدّاعى يَرْقُبه ويراه لا يكاد يبرح من المسجد من غير أن يعلم ابن الفضل به ، فلمّا كان بعد أربعين يومًا أتاه إلى المسجد وهو جالس ، فقال له : أنت بَعْدُها هنا ؟ فقال : نعمْ ، ولولا تحنّنى لأقمت فى هذا المسجد إلى أن أموت . فعلم الدّاعى أنه قد قصده ، فأخذه وجمع بينه وبين أحمد بن عبدالله ابن ميمون [٢٤] .

وحكى الشريف أبوالحسين محمد بن على الحسينى فى كتابه الّذى صرّح فيه فنفى هؤلاء عن النّسب إلى الحسين بن علىّ ، رضى الله عنهما ، واستدلّ

على ذلك بأدلة يطول شرحها ـ أنّ أحمد بْنَ عبد الله بن ميمون لمّا قام بالأمر بعد أبيه عبد الله بعث الحسين الأهوازى[١] من سلَمِيَة داعيةً إلى العراق ، فلمّا انتهى إلى سواد الكوفة لقى حَمْدَانَ بن الأشعث ، وهو قَرْمَط الذى يُنْسب إليه القرامطة ، فصحبه ، وأتبعه قرمط ، وتابعه كثير من النّاس . فلما مات الأهوازى أسند الأمر من بعده إلى حمدان بن الأشعث ، قرمط ، وقد ذكرنا هذه القصّة فى أخبار القرامطة .

نرجع إلى قول ابن شداد . قال : وكان أحمد يقول للحسن ابن حَوشب الكوفى النّجار : يا أبا القاسم هل لك فى غُرْبةٍ فى الله ؟ فيقول : الأمر إليك يا مولاى ، فلمّا اجتمع بابن الفضل قال له : قد جاء ما كنتَ تريدُ يا أبا القاسم ، هذا رجلٌ من أهل اليمن ، وهو عظيم الشأن ، كثير المال ، ومن الشيعة ، قد أمكنك ما تريد ، وثَمَّ خَلْقٌ من الشيعة ، فاخرج وعَرِّفهم أنك رسُول المهدىّ ، وأنه فى هذا الزّمان يظهر فى اليمن . واجمعْ المال والرّجال ، والزَم الصوم والصّلاة والتقشف ، واعمل بالظاهر ولا تظهر الباطن ، وقل لِكلِّ شىء باطنٌ ، وإنْ ورد عليك شىء لا تعلمهُ فقل لهذا مَنْ يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره . وجَمَع بينه وبين ابن الفضل ، وخرجا جميعًا إلى أرض اليمن .

ونزل ابن حَوشب بعدن ، وكان فيها قومٌ من الشيعة يعرفون ببنى موسى ، وخَبَرُهُم عند ابن ميمون ، فنزل ابن حَوشب بالقُربِ منهم ، وأخذ فى بيع ما معه من القماش ، ولزم الزّهد والتقشف . فقصده بنو موسى وقالوا له : فيم جئت ؟ قال : للتجارة . قالوا : لستَ بتاجر ، وإنّما أنت رسول المهدىّ ،

---

(١) « إلى هوارى » فى الأصل ، والتصحيح مما يلى ، ومن اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦ .

وقد بلغنا خبرك . وعرّفوه بأنفسهم ، فأظهر أمره عليهم ، وسار إلى عدن لاَعَة[١] . وسار ابن الفضل إلى بلده . ولما وصل ابن حَوشب إلى عدن لاَعَة قوَّى عزائمهم وقرَّب أمَر المهدىِّ عليهم ، وأنه من عندهم يخرج ، وأمرهم بالاستكثار من الخيل والسلاح

ولم يزل أمرُ ابن حَوشب يقْوَى وأخبارُه ترد على مَنْ بالكوفة من الإمامية وطبقات الشيعة ، فيُبادرون إليه ، ويقول بعضهم لبعض : دارَ الهجرة ، فكبر عددُهم واشتدَّ بأسُهم ، وأغار على من جاوره ونهب وسبى ، وجبى الأموال ، وأنفذ إلى مَنْ بالكوفة من ولد عبدالله القدّاح أموالاً عظيمة ، وهدايا وطُرَفًا ، وكذلك لابن الفضل .

وكانوا نفذوا إلى المغرب رجلين ، أحدهما يعرف بالحلوانى والآخر بأبى سفيان[٢] ، وتقدّموا إليهما بالوصول إلى أقاصى المغرب ، والبعد عن المدن والمنابر ، وقالوا لهما ينْزلُ كلُّ واحدٍ منكما بعيدًا من الآخر ، وقُولَا : لكلِّ شىءٍ باطن ، ونحن فقد قيل لنا اذهبا فالمغرب أرض بُور فاحْرُثاها واكْرُباها حتى يأتىَ صاحب البذر ، فنزل أحدهما بأرض كتامة[٣] بمدينة مرمجنه[٤] والآخر سوق[٥] حمار ، فمالت قلوب أهل تلك النّواحى إليهما ، وصارا يحملان

---

(١) عدن لاعة : قرية بجوار مدينة لاعة فى جبل صبر باليمن ـ معجم البلدان .

(٢) « هما أبوعبد الله الحسين بن أحمد بن محمد ، وأخوه أبو العباس محمد بن أحمد بن محمد » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦ .

(٣) « كتانة » فى الأصل ، والتصحيح مما يلى .

(٤) مَرْمجنة = مرماجنّة : بالفتح ثم السكون ، قرية بأفريقية (تونس) لقبيلة هوارة من البربر ـ معجم البلدان .

(٥) كذا فى الأصل والكامل ، و « سوق حماد » فى اتعاظ الحنفا ، « سوجمار » فى افتتاح الدعوة ص ٢٩ .

التّحف التى تُحمل إليهما إلى ابن القدّاح ، ثم ماتا على قُرْبٍ بينهما بعد أن أقاما سنين كثيرة .

فقال ابن حَوشب لأبى عبدالله الحسين بن أحمد بن زكريا الشيعى ، وكان قد هاجر إليه ، يا أبا عبدالله أرض كتامة من المغرب قَدْ حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا ، وليس لها غيرُك ، فبادر إليها فإنها موطأة ممهدة لك ، فخرج أبو عبدالله وأخرج ابنُ حَوشب معه عبدَالله بن أبى ملاحف ، وأمدّه بمال ، وأوصاه بما يعمل وكيف يحتال . وكان أبو[1] عبدالله قد شاهد أفعال ابن حَوشب وعرف تدبيره ، فسار إلى مكة ، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وأما أحمد بنُ عبدالله بن ميمون فإنه لما قوى أمره ، وكثرت أمواله ، ادّعى أنه من ولد عقيل ابن أبى طالب ، وهم مع هذا يستُرون أمرهم ، ويُخفون أشخاصهم ، ويُغيّرون أسماءهم وأسماء دُعاتهم ، ويتنقلون فى الأماكن . ثم مات أحمد فخلفه محمّد . وكان لمحمد ولدان ، أحمد والحسين ، فمات أحمد وصار الحسين إلى سلمية وله بها أموال من ودائع جدّه عبدالله القدّاح ، ووكلاء ، وأتباع ، وغلمان . وبقى ببغداد من أولاد القدّاح أبو الشلغلغ[2] ، وهو محمد بن أحمد بن عبدالله بن ميمون بن ديصان ، وهو مؤدب بآداب الملوك .

وكان الذى بسلمية يدّعى أنه الوصىّ وصاحب الأمر دون بنى القدّاح ،

---

(١) « بن عبد الله » فى الأصل ، وهو تحريف ــ انظر ما سبق .

(٢) « الشلعلع » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦ .
وفيه أيضًا اختلاف عما ورد هنا فيمن خلف أحمد بن عبد الله بن ميمون .

ويكاتب الدّعاة ، ويراسلونه من اليمن ، والمغرب ، والكوفة . واتفق أنه جرى بحضرته بسلمية حديث النّساء فوصفوا امرأةَ رجلٍ يهودى حداد مات عنها زوجها ، وأنها فى غاية الجمال ، فقال لبعض وكلائه : زوِّجنى بها ، فقال إنها فقيرة ولها ولد ، فقال : ما علينا من الفقر ، زوّجنى بها فأَرْغِبْها وأبذل لها ما شاءت . فتزوَّجها وأحبّها ، وحَسُن موقعُها عنده ، وكان ابنُها يماثلها فى الجمال ، فأحبّه وأدبه ، [٢٥] وعلّمه ، وأقام له الخدم والأصحاب فتعلّم الغلام ، وصارت له نفس كبيرة وهمّة عظيمة .

فمن العلماء من أهل هذه الدّعوة من يقول : إن الإمام الذى كان بسلمية من ولد القدّاح مات ولم يكن له وَلَد ، فعَهِد إلى ابن اليهودى الحدّاد ، وهو عبيدالله الذى نُعِت بالمهدىّ ، وأنه عرَّفه أسرار الدّعوة من قولٍ وفعلٍ ، وأعطاه الأموال ، وتقدّم إلى أصحابه ووكلائه بطاعته ، وخدمته ومعونته ، وعرّفهم أنه الإمام والوصىّ ، وزوجه ابنة عمّه أبى الشلغلغ .

هذا قول ابن القاسم الأبيض العلوى وغيره من العلماء بهذه الدعوة .

وبعضُ الناس ، وهم قليل ، يقولون إن عبيدالله هذا ، المنعوت بالمهدىّ ، من وَلَد القدّاح .

ومنهم من يقول فيه قولاً آخر ، نذكر إن شاء الله عزّ وجَلّ .

فهذا ما حكى فى ابتداء أمرهم ، فلنذكر أخبار الشيعىّ ببلاد المغرب ، والله أعلم .

ذكر أخبار أبى عبدالله الشّيعى[١] داعى المغرب وما كان من أمره وكيف ظهر وما فتحه من بلاد المغرب

قال أبوإسحاق إبراهيم[٢] بن القاسم الكاتب المعروف بابن الرّقيق ، فى تاريخ إفريقية ، وغيرُ ابن الرّقيق ممَّن ذكر أخبار هذه الدّولة[٣] : كان أبو عبدالله الشيعى من أهل الكوفة ، وقيل من أهل صنعاء ، واسمه الحسين ابن أحمد بن محمّد بن زكريّا ، فاتصل بالذى يدّعى أنه الإمام ، وهو ابن القداح الّذى ذكرناه المختلف فى نسبه ، فأرسله إلى أبى القاسم الحسن بن حَوشب[٤] الكوفى النجار ، وهو المعروف بالصَّنَاديقى ، داعيتهم باليمن وكتب إليه أن ينصره ويرشده ، وقال لأبى عبدالله : امتثل سيرته ، وانظر[٥] إلى

---

(١) « الشعبى » فى الأصل ، والتصحيح مما يلى .

(٢) هو إبراهيم بن القاسم القروى الكاتب القيروانى ، أبو إسحاق ، المعروف بابن الرقيق ، توفى سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٢ م ، ومن مؤلفاته تاريخ القيروان ــ هدية العارفين جـ ١ ص ٧ .

(٣) يعتمد النويرى ابتداء من هذا الجزء من الكتاب على كتاب افتتاح الدعوة ، للقاضى النعمان ، فنقل منه صفحات متتالية ، وأحيانًا لجأ إلى الاختصار أو حذف بعض الفقرات ، وسوف نشير إلى نقاط الاختلاف الجوهرية بين الكتابين ، كما يتضح من الهوامش التالية .
وكتاب افتتاح الدعوة نشر فى بيروت سنة ١٩٧٠ بتحقيق وداد القاضى وبعنوان « رسالة افتتاح الدعوة » ، ثم نشر فى تونس سنة ١٩٧٥ . بتحقيق فرحات الدشراوى ، وبعنوان « كتاب افتتاح الدعوة » .

وسنعتمد على هذه النشرة الأخيرة فى مقابلة ما جاء بنهاية الأرب .

(٤) « إلى أبى القاسم رستم بن الحسن » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٥ .

(٥) « وانتظر » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٣٠ .

مخارج أفعاله فاعمل بها ، ثم اذهب إلى المغرب . فخرج حتى انتهى إلى أبى القاسم ، فأنزله وأكرمه ، وأقام عنده من وقت انصراف الحَاجِّ مِنْ مكة إلى اليمن إلى وقت خروجهم فى العام المقبل . فخرج أبو عبد الله مع الحاجّ إلى مكة .

فلما قضى الناس حجّهم واستقرُّوا بمِنًى جعل الشّيعى يمشى بمِنًى وينظر إلى الناس ، فمرّ بجماعة من كتامة وهم فى رحالهم ، وكانوا من الشّيعة الّذين تشيّعوا بسبب الحلوانى وفيهم حُرَيْث الجِيمْلِي وموسى بن وجاد[1] فسمعهما الشيعىّ يذكرَانِ لأصحابهما فضائل على بن أبى طالب ، رضى الله عنه . فجلس إليهما وذكر من ذلك شيئًا ، وأقبل على القوم وحدَّثهم طويلاً ، ثم نهض ليقوم فقاموا معه ، ومشَوْا بمشيه ، وعرفوا مكانه . ثم أتَوْا من الغد فأوسَعَ لهم فى الحديث ، فزادهم ذلك فيه رغبةً ، وعليه إقبالاً . ثم صحبهم فى طُول الطريق بعد انصرافهم من الحج إلى أنْ وصلوا إلى مصر ، وهم يُبالغون فى خدمته ، ويرحلون برحيله ، وينزلون بنُزوله ، وهو يسألُهُم عن بلادهم فى خلال ذلك ، وعن طاعتهم لملوكهم ، فيقولون ما علينا طاعةٌ لهم ، وهو لا يُعَرّض لهم بقَصْده ولا رغبته فى بلادهم . فلما أتَوْا مصر أظهر أنه يُريد الإقامة بها ، فتألّموا لفراقه ، وقالوا ما الذى تقصد بمُقامِك مصر ؟ قال : التعليم . فسألوه أن يصحبهم إلى بلادهم وأنهم يوجِبُون له على أنفسهم أجرةً فى كلّ سنة ، وما أوْجَب . ولم يُجبهم إجابةً كلّية ؛ ورغبتُهم كلَّ يوم تزيد فيه ، فأجابهم إلى الخروج معهم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، وجعلوا يزيدون فى بِرِّه ، ويقولون له : عندنا كثيرٌ من إخوانك ومَنْ يذهبُ إلى

(١) « وموسى بن مكارم » فى افتتاح الدعوة ص ٣٤ .

مذهبك ، ولو رأوْكَ ما رضُوك إلّا إلى شيوخهم ، فضلاً عن صبيانهم ؛ ولسنا نخلِّيك للتعليم بل نُعدُّك لما هو أعظم منه .

فلما عزم على المسير معهم جمعوا له دنانير وأتوه بها ، فامتنع مِنْ قبولها ، وقال لم يكن منى ما يوجب ذلك ؛ فعظُم فى أنفسهم ، وزادت هيبته فى صدورهم . وخرجُوا به من مصر . وساروا حتى إذا كان بسوجار(١) من أرض سماتة ، تلقاهم رجالٌ من الشيعة ، فأخبروهم بخبر الشّيعى ، ونظروا إلى تعظيم الكتاميين له ؛ فرغب كلُّ واحدٍ منهم أن يكون نزولهُ عنده ، حتى رَمَوْا عليه السهام ، فخرج سهم أبى عبد الله الأندلسىّ فنزل عنده ، ونزل كل واحد على صاحبه . وأصاب أبو عبد الله عندهم من علم الشيعة أصلاً قويًّا ، فزادَ فى الكلام معهم ، فأجلُّوه .

ثم سار القوم فدخلوا حد كتامة يوم الخميس النّصف من شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين ، ومعهم أبو عبد الله الأندلسى وأبو القاسم الوَرْفَجُومى ، فأراد كلُّ واحد من الكتاميين نزول الشيعِىّ عنده ، وتنازعوا فى ذلك حتى خيّروه فى النزول ، فقال أىّ موضع عندكم [٢٦] فجّ الأخيار ؟ فقالوا : عند بنى سكتان فقال : فإيّاهُ نقصد ، ثُم نأتى كلَّ قومٍ منكم فى موضعهم ، ونزورهم فى بيوتهم ، ولا نجعل لأحدٍ منكم حظًّا من نفسى دون أحد إن شاء الله تعالى ، فأرضاهم كلَّهم بذلك ، وسار كلُّ قوم إلى جهتهم ، وسار الشّيعى مع موسى بن حريث وأبى القاسم الورفجومى وأبى عبد الله الأندلسى إلى

(١) « بشرب حمار » فى الأصل ، والتى ذكرت من قبل على أنها « سوق حمار » ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٤٠ .

إيكجان[١] موضع موسى من بنى سكتان . قال ولما نزل عبد الله بإيكجان ومضى كل معه من الحجيج إلى مرافقهم أخبروا من قدموا عليه من أصحابهم بخبره ، ووصفوه لهم مع النّاس ، فتسامع النّاس به ، وأقبلوا إليه من كل ناحية ؛ فكان يجلس لهم ويحدثهم [بظاهر][٢] فضائل على رضى الله عنه .

قال : فاتصل خبر الشيعى بابراهيم[٣] بن أحمد صاحب إفريقية ، فكتب إلى مُوسى بن عَيّاش[٤] يسأل عن خبره فضعّف موسى أمره. فكتب إليه ثانيًا وأرسل ابن المعتصم المنجم ؛ وأمر إبراهيم بنُ أحمد موسى بْن عيّاش أن يتلطّف فى اتصاله إلى أبى عبدالله ، وأن يختبر أحواله ، ويأتيه بصحيح خبره ، وأوصاه بوصايا أمره أن يذكرها له .

فلمّا وصل إلى موسى أرسل إلى بنى سكتان يخبرهم أن إبراهيم قد بعث برجل إلى أبى عبدالله ليجتمع به . فرُفع ذلك إلى أبى عبدالله ، فأذن له . فلمّا انتهى إليه قرّبه وأقبل عليه ، فقال له ابن المعتصم : إن الأمير إبراهيم ابن أحمد وجّهنى إليك برسالة ، فإن أذِنت لى أدَّيتُها . فقال له : أدِّ رسالتك قال : وأنا آمن ؟ قال : نعم . فقال : يقول لك الأمير : ما حَمَلك على التعُّرض لسخطى ، والوثوب فى ملكى ، وإفساد رعيّتى ، والخروج عَلَىَّ ؛ فإن كنت تبتغى عَرَضا من أعراض الدنيا فإنك تجدُه عندى ، وإن أنت

---

(١) إيكجان ــ إنكجان : بالياء أو النون : من بلاد كتامة بالمغرب ، سماها أبو عبد الله الشيعى دار الهجرة ــ معجم البلدان .

(٢) [ ] إضافة من افتتاح الدعوة ص ٤٩ تتفق وسياق الكلام .

(٣) هو إبراهيم (الثانى) بن أحمد بن محمد الأغلب ، كان على رأس دولة الأغالبة فى الفترة ٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ/٨٧٥ ـ ٩٠٢ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٦ .

(٤) « موسى بن العباس » فى افتتاح الدعوة ص ٥٤ .

تلافَيْت أمرك ، ورجعت عن غيّك ، فَصِرْ إلىَّ وأنت آمن ؛ فإن أردتَ المقام ببلدنا أقمت ، وإن أحببت الانصرافَ انصرفت . وإن كان قصدُك قصْدَ من سَوّلت له نفسُه الخلاف على الأئمة ، واستفْسَادَ جَهَلة الأمة ، فلقد عرفتَ عواقب من تُمنِّيه نفسُه أُمنيتك ، وسوّلت له ما سوّلت لك ، من الهلاكِ العاجل ، قبل سوء المصير فى الآجل . ولا يَغُرَّنَّك ما رأيتَ من إقبال هؤلاء الأوباشِ عليك ، واتّباعهم إياك ، فإنى لو صرفت وجهى إليك لَأَسْلَمُوك ، وتبرّءُوا منك . واعلم أنى إنّما أردت الإعذار إليك ، لاستظهار الحجّة عليك . وهذا أوّل كلامى[1] وآخره ، لا أقبل لك بعد هذا توبة ، ولا أقيلُك عثرة ، ولا أجعل جواب ما يمكن منك إلا النُّهوض إليك بنفسى ، وجميع أبطالِ رجالى ، وأنصار دولتى . وجملة أهل[2] مملكتى فعند [ذلك][3] تندم حين لا ينفعُك النّدم ، ولا تقبلُ منك التّوبة . فانظر فى يومك لغدك ، وقد أعذر إليك من[4] أنذر .

فقال له أبو عبد الله الشيعى : قد قُلت فاسْمَعْ ، وبلّغْت فابْلَغ : ما أنا ممّن يُروَّع بالإيعاد ، ولا ممّن يَهُوله الإبراق والإرعاد . فأما تخويفُك إيايَّ برجال مملكتك ، وأنصار دولتك ، أبناءِ حطامِ الدّنيا ، الّذين يقتادون لكل سائق ، ويجيبون كلّ داع وناعق ، فإنى فى أنصار الدّين ، وحُماة المؤمنين ، الذين لا تروعهم كثرة أنصار الباطل[5] ، مع قول الله تعالى ، وهو أصدق

---

(١) « كلامك » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٥٧ ، ويتفق مع السياق .

(٢) « أهل على » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٥٧ .

(٣) [ ] إضافة من افتتاح الدعوة ص ٥٧ .

(٤) يوجد هذا النص مع اختلاف محدود فى الألفاظ فى افتتاح الدعوة ص ٥٦ ــ ٥٧ .

(٥) « أنصار الظالمين » فى افتتاح الدعوة ص ٥٧ .

القائلين : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِين ﴾[1] فأمّا ما أطْمَعَ به من دُنياه وعَرَضَه من زَبَدِها وحُطامها ، فلستُ من أهل الطّمع فأميل إليه ، ولا ممن يرغب فيما عنده فيأتيه . وإنما بعثت[2] رسولاً لأمرٍ قد حمّ وقرب ، فإن سوّلت له نفسه ما وعد به ، ودعته[3] إليه ، فسوف يعلم أنّ الله عز وجل من ورائه ولن تغنى عنه فئةٌ شيئًا ولَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِين[4] فهذا جوابُ ما جئت به فبلّغْه إن شاء الله .

قال[5] : ولما اشتهر أمرُ الشّيعى ببلد كتامة ، ونظر رؤساء القبائل وولاة البلدان فلم يَرَوْا فى إبراهيم بن أحمد نهضةَ فى أمر ، وخافوا على زوال الرئاسة من أيديهم ، وتقديم مَنْ يُسارع إلى أمرِه عليهم ، ممَّن كانوا يَرَوْنه دُونهم ، كتب بعضُهم إلى بعض فى ذلك ، فاجتمعوا وتعاقدوا . وكان ممن سعى فى ذلك موسى بن عياش صاحب مِيلَة[6] ، وعلى بن عسلوجة صاحب سَطِيف[7] وحى بن تميم صاحب بلزمة[8] وكلٌّ هؤلاء أمراء هذه المدن . وعندهم العِدّة والعُدّة والأموالِ الكثيرة والنّجدة ، والقوّة ، ومن مُقَدَّمى

---

(١) سورة البقرة رقم ٢ جزء من الآية رقم ٢٤٩ .

(٢) « يبعث » فى الأصل . والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٥٨ .

(٣) « وعدته » فى الأصل . والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٥٨ .

(٤) الجملة مقتبسة من الآية ١٩ من سورة الأنفال : ﴿ ... وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(٥) المقصود هو القاضى النعمان صاحب كتاب افتتاح الدعوة الذى يأخذ عنه النويرى .

(٦) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى إقليم أفريقية (تونس) بالقرب من قسنطينة ــ معجم البلدان .

(٧) سطيف : مدينة صغيرة فى جبال كتامة ، بين تاهرت والقيروان ــ معجم البلدان .

(٨) بلزمة : مدينة صغيرة قرب بحيرة بادغوس فى الطريق من بجاية إلى بطنة ــ المغرب ص ٥٠ .

كتامة وكبارِهم ووُلَاةِ أمورهم : فتح بن يحيى المشالى [١]، وكان يقال له الأمير ، ومهدى بن كناره [٢] ، رئيس لهيصة ، وقرح بن خيران [٣] رئيس أجّاته ، وثميل بن فحل [٤] رئيس لطاية ، واستعملوا آراءهم فى أخذ الشّيعى فعلموا ، أنهم لا يقدرون عليه عنوةً من أيدى بنى سكتان لأنّهم يمنعونه ، ويجتمع عليهم جيملة وغيرها من قبائل كتامة ، فتفرّق ذات البين ، ويكون ذلك داعيةً إلى أن يجعلوا له أنصارًا ، وتصير كتامة فريقين ، ولم يأمنوا سوء العواقب ، فقصدوا بنان [٥] بن صقلان ، وهو من وُجوه بنى سكتان ، ولم يكُن له يومئذٍ دخْلٌ فى أمر الشيعىّ ، وأرسلوا جماعةً منهم إليه ، وبعثوا له أربعة أفراسٍ وأغْنُمًا وهديّه . وقالوا له : إن هذا الرجل قد بدّل الدّين ، وفرّق الجماعة ، وشتّتَ الكلمة ، وأدخل الاختلاف بين الأقارب[٢٧] وقد قصدناك فى أمْرِه . وأمْلَكْناك فى قطع هذا المكرُوه بأنْ تقبضَ على الشيعىّ وتخرجه من بلدنا ، وتنفيَه عنّا إنْ كرهت قتله ، ونجعل لك بعد ذلك التّقْدمة على جميع كتامة والعرب ، فيكون لك شرف الدنيا وفخرها ، وثواب الآخرة وأجرها ، وتزيل عن أهل بيتك مكروهًا ، وتقطع عنهم شرًا . وأخذوا معه فى ذلك وحذّروه عواقب السلطنة .

فقال لهم بنان : هذا رجلٌ صار بين أظْهُرنا ، وهو ضيفٌ عندنا ، كيف ينبغى أن نفعل فيه مثل هذا الفعل . فتنازعُوا فى ذلك طويلاً ، وكان آخر خطاب بنان لهم أنْ قال : الرأى أن نَجمع العلماء إليه فيناظرَهم ، فإن كان

---

(١) « المسالتى » فى افتتاح الدعوة ص ٨٠ .

(٢) « كناوة » فى افتتاح الدعوة ص ٨٠ .

(٣) « بن جيران » فى افتتاح الدعوة ص ٨٠ .

(٤) « وتميم بن فحل » فى افتتاح الدعوة ص ٨٠ .

(٥) « بيان بن صقلان » فى افتتاح الدعوه .

على حقٍّ فما أولانَا وإيّاكُم بنُصرته واتّباعه ، وإن كان على باطلٍ عرَّفْنا من اتّبعه أنْ يرجعوا عنه .

فانصرفوا إلى أصحابهم وأخبروهم بما كان من بنان ، فخافوا أن تقوم حُجّته ، ويستحكم أمره ، فتزول رئاستُهم بسببه . فأجمعوا على أن يَمضوا فى جماعة ويُظهروا أنهم أتَوْا بالعلماء ، فإذا خرج إليهم قتلوه ، وانصرفوا على حميّة .

فاحتمعوا فى عددٍ عظيم من الخيل والرَّجْل ؛ فلمّا رآهم بنو سكتان ركبوا خيولهم ؛ والتقى الجمعان . فقالوا لبنان إنما أتَيْناك لِمَا كان بيْننا وبينك . فقال : إنّما كان بيننا أنْ تأتُوا بالعلماء ، وقد أتيتم بالزّحف والعُدَّة . وعَلاَ الكلامُ بينهُم ، فالتحم القتال ، وتداعت جِيمْلَة من كلّ مكان ؛ فانهزم القوم ، وانصرف عنهم بنو سكتان . وكان الشيعىّ قدْ سُيِّر فى مبادئ هذا الأمر ، وخاف عليه أصحابه .

ثم راسل الجماعة بنانًا مرّةً ثانية ، وقالوا . قد كُنّا أخطأنا فيما أتَيْنا به من الجمع ، ولم يكن ذلك عن قصد ، ولكن تسامَعَ النّاسُ بنا فتبِعونا . وقد رجَوْناك لإصلاح جَماعتنا ، وقدَّمناك ، واخترناك لأنفسنا ، لتحْقنَ دِماءَنا ، وتجمع ما تبدَّد من شملنا . فقد عَادَى من أجل هذا الرَّجُلِ الأخُ أخَاه ، والابنُ أباه ، والقريبُ قريبه ؛ وهذه فتنةٌ قد بَدَتْ . ورِدَّةٌ قد ظهرت . وهذا الرجل من أهل المشرق ، وهُمْ كما علمت شياطين . وعلماؤُنا بَرْبر ، وقومٌ ليست لهم تلك الأذهان ؛ فإنهم[إنْ](١) ناظَروه يظهر عليهم ولم يجدُوا حجّة . يحتجون بها عليه . وقالوا له : أتُرى نحن وآباؤُنا والنّاسُ كلُّهم فى

(١) [ ] إضافة يقتضيها السياق ، « وإن ناظروه ظهر عليهم » فى افتتاح الدعوة .

ضَلَالة ، وهذا وحدَه على الحقّ والهُدَى . وكرَّرُوا عليه ما وعدُوه به من التَّقْدِمة عليهم ؛ فأصغى إليهم ووَعَدَهم أن يتلطَّف فى إخراجه . فجعل يتكلم فى ذلك ويحتجّ على أهل بيته ، ويخوّفهم العواقب ؛ فاتصل كلام بنان بالشيعىّ فانتقل عنهم .

ذكر انتقال أبى عبدالله الشّيعى عنْ بنى سكتان إلى بنى عصمة بتازرارت (١)

قال : واتّصل هذا الخبرُ بالحسن بن هارون العصمى (٢) ، وكان قد دخل فى هذا الأمر ، وهو معروفٌ بالأدب وكثرة النّعمة ، وهو مطاع فى قومه . فأتى الشّيعى ورغب إليه فى الانتقال إلى مكانه ، ووَعَده بالذَّبِّ عنه ، والمدافعة بنفسه وأهله وماله ؛ وذكر ذلك لأصحابه فأشاروا عليه به . وعظم ذلك على بنى سكتان وكرهوه ، وقالوا له : نحن ندافع عنك بأنفسنا حتى نُقتَل كلُّنا دونك . فشكر قولهم . وانتقل إلى الحسن بن هارون إلى تازرارت فتلقاه مَنْ بها من أصحابه وغيرهم . وقام (٣) العصميون (٤) بما احتاج إليه الشيعىُّ وأصحابُه ، وقاسموه أموالهم . وأقبل أصحابُ الشيعى من كلّ ناحيةٍ ، وكلٌّ

---

(١) « تازررت » فى الأصل ، والتصحيح من المغرب فى ذكر بلاد أفريقية ص ١٦١ ، وتازرارت : تقع على مسافة يوم من جبل درن الذى يعترض الصحراء متصلاً بجبل نفوسة وجبل أوراس ــ المغرب ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

وهى « تازروت » فى افتتاح الدعوة ص ٨٧ .

(٢) « العشمى » فى افتتاح الدعوة ص ٨٧ ، وما يلى ذلك .

(٣) « وأقام » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) « وقام الغشمانيون » فى افتتاح الدعوة ص ٨٨ . وما يلى ذلك .

منهم يأتى بما يملكه ، ويبذُله بين يديه . فاجتمع أمره، وامتنع جانبُه ، واجتمعت عصمان على نُصْرته ، وخلقٌ كثيرٌ من قبائل كتامة ، وندم بنان بن صقلان على ما كان منه فى حقه ، وعَظُم شأنُ الحسن بن هارون بفعله .

وكان للحسن أخ هو أسَنُّ منه ، اسمه محمود . فَوَجِد فى نفسه من ذلك ، وكان قبلَ ذلك مُقْدِمًا على أخيه لسِنّه ، وكان أيضًا مُطاعًا فى أهل بيته ، فنَكَل بذلك ، وفشا[1] عنه هذا والحسن يُدَاريه ويستَعطِفه ، خوفًا من أن يفترق جماعةُ عصمان .

فلمّا صار أمر الشيعىّ . بتازرارت إلى ما صار إليه وانتهى ذلك إلى القوم الّذين كانوا تعاقدوا عليه أولا ، فسقط فى أيديهم ، وعظم أمره عليهم ، فرجوا أن يصلوا من محمود بن هارون إلى ما يريدونه من أمر الشّيعى . . فاجتمعوا إلى مهدى بن أبى كتامة اللهيمى[2]. فذكروا له ما بلغهم عن محمود ، وقالوا له : هذا جارُك وصديقُك ، فلعلّك أن تستميلَه فتُفَرِّقَ به جماعةَ عصمان ، فيمكننا ما تريد .

فركب مهدى إلى محمود ، وذكر له اجتماع وُجوه كتامةَ وأنهم أرسلوه إليه وقالوا إنّه قد أجحف أخوك بنفسه وأهلِ بيته وجاء إلى عصمان بِبَلِيَّة قد تَعَافَى منها بنو سكتان ، وتخلَّصُوا من شَرِّها [٢٨] . وجعل يخوفه من سوء العواقب ، ووعده عنهم[3] بالتَّقْدِمة على أنفسهم . فاستمالَهُ بذلك مع ما

---

(١) « فشق ذلك عليه ، وتكلم به ، وفشا عنه » فى افتتاح الدعوة ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢) « مهدى بن كناوة اللهيصى » فى افتتاح الدعوة . ص ٩٠ .

(٣) « ووعدهم عنه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق ، وما جاء فى افتتاح الدعوة ص ٩١ « ويعده عنهم » .

داخله[١] من الحسد لأخيه والغَيْرَة منه .

فقال : القولُ فى ذلك ما قُلتَ ، ولكنَّه قد تمكَّن وقَوِى وَكَثُرت أتباعُه ، وليس هو الآن كما كان فى بنى سكتان ، وقد أجابته عصمان وكثيرٌ من عامَّة كتامة ، فهم يقاتلُون دونه ؛ فمتى دعوتُ من يطيعنى من عصمان إلى أخْذِه صرنا فريقين ، وأهلَكَ بعضُنا بعضًا . وما أرى فى أمره إلَّا ما رأى لى بنان[٢] : أنْ يأتى بالعلماء إليه فيناظروه ، فإن قامت حجّتُهم عليه وجدنا السّبيل إليه ، وإن كانت الأخرى دبَّرنا رأيًا آخر إن شاء الله تعالى .

وانصرف مهدى إلى القوم فأخبرهم . فقالوا : من الذى يُناظرهُ من عُلمائنا وأنتَ ترى الواحدَ من جُهَّالنا إذا دخل فى أمره ناظرهم فقطعهم ، فكيْفَ به فقال : قد رأيتُ من محمود شهوةً فى قتله ومال إلى ما وعدناهُ به من التّقدِمة ، مع ما داخَله من الحسد لأخيه ؛ ولم أجد عنده غيرَ ما فارقتُه عليه . وما علينا أن نَأتىَ بالعلماء فإذَا هُم أخرجُوه وقعنا[٣] عليه أسيَافنا فقتلناه ، ويكون بعدُ ما عساه أن يكون . فأرسَلُوا فى طلب العلماء من كلِّ ناحيةٍ ، وقالوا لا نأتيه فى احتفال كما فعلنا ببنى سكتان .

واتصل الخبر بالحسن بن هارون ، وبالشّيعىّ ، فقال لهم لِيَجْتمِعْ جماعةُ عصمان إلى محمود فيلاطفوه ويذكرُوا له ما اتصل بهم ، ويُحذّروه العَارَ ، والنَّقص ، وسُوءَ العواقب ، ويقدِّمُوه على أنفسهم ، ويعظّموه ، ويرفعُوا من شأنه . ففعلوا ذلك ؛ ووافاه أخوه الحسن وجماعةُ عصمان ، وقالوا : نحن

---

(١) « ما دخله » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٩١ .

(٢) « إلا ما رآه بيان » فى افتتاح الدعوة ص ٩١ .

(٣) «وضعنا» فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٩٢ .

أهلُ بيتك وعشيرتك وأنت أميرُنا ومقدَّمنا ، وهذا الرّجلُ ضيفُك وضيفُنا ، وقد رأيتَ ما لحق ببنى سكتان من النَّقْص فى إخراجه ، وأنّهم نَدِمُوا عليه ، وأن بنانا حاول رَدّهُ إليه ليصلح ما أفسده على نفسه فلم يجبه إلى ذلك . فلا تجعَلْ علينا عارًا ولا نقصًا . وحلَفُوا له وقدَّموه على أنفسهم فمال إليهم .

فلما علم محمود ان أولئك القوم قَرُبوا من تازرارت ركب فى جماعةٍ وأركب الشِّيعىُّ أصحابَه معه وقال لهم : إن قَدَرْتم أن تلحموا الحرب[1] فافعلوا . فلمّا التَقَوا قالوا لمحمود : هؤلاء العلماءُ قد جئنا بهم ؛ وعزلوهم ناحية : فقال لَهُم محمود : انصرفُوا ودعُوهُم عندنا حتى نجمعَ بينهم وبين الرّجل ، مع عشرة رجالٍ مِن وُجُوهَكم وخِياركم ، فى مجلسٍ ، فننظر ما يكون بينهم . فانحَلَّ ما عقَدُوه . فقالوا : وما عليكم أن تُخرِجُوه إلى ها هنا ونشهد ما يكونُ منه ومن العلماء ، فيكونَ ذلك أشهرَ وأقْطعَ للأمر : فقال لهم محمود : قد بلَغَنا عنكم أنَّكُم عقدتُم أمرًا وطمِعتم أن تنزعوا ضيفَنا مِنْ أيدينا بالتَّغلُّب .

فردُّوا عليهم . فحمَل عليهم هو وأصحابه ، والتحم القتال ، وقاتل محمود قتالاً شديدًا فجرح ، ثم افترقوا ، فمات محمود من جِرَاحه ، فسُرّ أخُوه والشِّيعىُّ بموته ، وأظهرُوا الطَّلب بِدَمِه . واجتمعت عصمان ألْباً واحدًا وصَحَّت الرئاسةُ للحسن بن هارون وولَّاه الشِّيعى أعنّة الخيل ، وقَوّدَه وعَوَّدَه على جميع أصحابه .

واشتعلت الحرب بين عصمان ولهيصة بسبب قتل محمود . واجتمع أمراء بلزمه وأكثر القبائل للشِّيعىّ وأظهر نفسه ، وكان يشهدُ الحرب ويباشرها .

---

(١) « أن تلقحوا الحرب » فى افتتاح الدعوة ص ٩٣ .

وطالت الحرب بينهم ، ثمّ اصطَلَحت لهيصة وعصمان بعد أن قتل مهدى ، وانضمُّوا كلهم إلى الشّيعى ، واشتدَّ أمرُه ، وحاربوا مَنْ بينهم من القبائل ، وشنُّوا الغارات على مَن بَعُدَ منهم . وبعث الشيعىّ خيلاً مُغيرةً إلى مزاتة ورئيس مزاتة(١) يومئذ يوسف القنطاسى ، وكان قدم على إبراهيم بن أحمد فوصله وحيّاه ، وكساه ، وأعطاه جاريةً ؛ فكبستْهُ خيل الشّيعى ، وأخذوا جميعَ ما كان له ، وسبَوْا الجارية ، وقتلُوا مَنْ قدروا عليه من أصحابه ، واختفى هو فنجا ، ووصلوا إلى الشِّيعىِّ بالغنيمة فاصطفى الجارِيةَ لنفسه وهى أمّ ولده .

فلما رأت القبائل ظُهور الشّيعى واجتماع لهيصة له ، وقتل مهدى ، مشى بعضهم إلى بعض ، وأرسلوا إلى مزاته ، فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا إليه بِعِيالَاتِهم ويُحيطوا به من كلّ جانب ، فتُسْلِمَه عصمان ولهيصة ومَنْ مَعَهُم ويستأصلوهم . فانتهى الأمر إلى الشّيعى ، فجمع أصحابه كلَّهم بتازرارت ، وجاءت كتامة من أطرافها وأحاطوا به . فخندق على نفسه ، وأشار عليه وُجُوه أصحابه أن يعتزل الحرب وهم يقاتلون . فشكرهم على ذلك ، وأبى أن يقبَلَه . ووعدهم النّصر ، وحثّهم على القتال ؛ فأخرج كلُّ واحدٍ ما عنده من مالٍ وسلاحٍ وكراعٍ ، وتشاوروا فيه ، وكمَّلوا عِدّتهم وعُدّتهم ، فبلغوا سبعمائة فارس ، لا يزيدون ولا ينقصون ، وألْفَى راجل . والتَقَوْا بعد مراسلةٍ لم تُجْدِ شيئًا واقْتَتَلُوا قتالاً شديدًا . ودامَ القتال بينهم ثلاثةَ أيّام ، ودام فى اليوم الثّالث إلى العصر ، وكان الظَّفَرُ لأصحاب الشيعى . وانهزم أولئك ، وتبعوهم وقد امتلأت أيدى أصحابه من الغنائم والأموال ؛ وتفرّق ذلك الجمع . قال : فبيع الجِمَالُ كُلُّ عشرة بدينارٍ [٢٩] والحمارُ بعشر

(١) تسكن هذه القبيلة فى الطريق إلى قفصة وقسطيلية ــ المغرب ص ١٤ .

بصلات ، وغنموا من الخيل مَا لَا يُحصى .(١)

وانصرف الشيعىّ إلى تازرارت وابتنى بها قصرًا يسكنه ، واتخذها دار مُقامه ؛ وأقطَع أصحابَه دُورًا حَوْل قصره . وارتحل إليه أصحابُه من كلِّ ناحية ، وابتَنَوْا وسكنُوا ، وقَوِى أمرُهم . واستَأْمن إليه كثيرٌ من القبائل ؛ وشنّ الغارات ، وداوم الحرب ، فأقبل النّاس إليه من كل جهة .

ولحق فتح بن يحيى بإفريقية(٢) فقدم على أبى العبّاس [بن](٣) إبراهيم ابن أحمد ؛ وهو يومئذ بتونس بعد خروج أبيه إبراهيم إلى صقلّية ، فوصله وأدناه ، وأكرمه ، وسأله عن الشّيعىّ ، فَضعَّف أمره ، فقال : أليس قد اجتمعتُم عليه فى عساكر عظيمةٍ فلم تَقدرُوا عليه ؛ فقال : ليس أمرُنا من أمرِك فى شىء ، إنّما نحنُ مُقاتلةٌ بغير رأس ، ونقاتل مَنْ يعرفنا من أهل بلدنا ، ولو جاءه عسكرٌ من قِبَلِك لكانت هيْبَتُه فى صدور النّاس . فأطمعه أبو العباس ، ثم أمسك عنه .

قال : واستولى الشيعى على جميع بلد كتامة ، وظهرت دُعاتُه فى كلّ ناحية منها ، وغلب عليها ؛ وكانت وقائع كثيرة ببلد كتامة .

وأقام بعد انهزام الجمع نحو سنتين وهو يشنّ الغارات ، ويَغْنم الأموال ، حتّى أجابُوه ، وسلّموا الأمر إليه . ولم يبق إلّا المدينة الحصينة ومَنْ فيها من

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى افتتاح الدعوة ص ١٠٣ ـ ١٠٩ .

(٢) وذلك بعد هزيمته من الشيعى ــ انظر تفصيل ذلك فى افتتاح الدعوة ص ١١١ ـ ١١٤ .

(٣) [ ] إضافة من افتتاح الدعوة ص ١١٤ .

وهو أبو العباس عبد الله (الثانى) بن إبراهيم (الثانى) ، الذى كان على رأس دولة الأغالبة فى الفترة من ٢٨٩ ـ ٢٩٠ هـ/٩٠٢ ـ ٩٠٣ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٦ .

أمَرائها ومَنْ انضَمّ إليها من القبائل .

ذكر تغلُّبِ أبي عبدالله الشيعي على مدينة مِيلَة

قال ابن الرقيق : كان سبب ذلك أن قيس بن أبي جرير[١] من وُجوه أهل مِيلَة ، وهم [من][٢] ربيعة وكان رئيسُهم يومئذ حسن بن أحمد ، فوصل إلى الشيعيّ سرًا وأطْلعه على أمْر المدينة ، فتقدَّم الشيعيّ إليها وقاتل مَنْ بها ، وغَلَب على جميع أرضها ، فدخل جميعُ مَنْ كان بها إلى الحصن ، ثم سألوا الأمان ، فأمّنهم مَا لَم يُحدثوا حدثًا . ففتحوا أبواب المدينة ودخلها أصحابُ الشيعي ، وخرج إبراهيم بن موسى بن عيّاش مع جماعةٍ منهم فى الليل ، فهرَبُوا إلى إفريقية ، إلى أبي العبّاس بن إبراهيم ، فأخبرُوه بالخبر ، وضعَّفوا عنده أمر الشيعيّ ، وسألوه فى إخراج عسكر إليه ، وضَمِنوا أمره . فأمر بالحشد . وجَمَع وجوه رجاله ، وأمّر عليهم ابنه محمَّدًا المعروف بأبي حوال[٣] فاجتمع لهُ عساكر عظيمة انتقى منْها اثنى عَشر ألف فارس . واتّصل الخبر بالشّيعيّ فاستعدَّ للِّقاء .

---

(١) هكذا فى الأصل ، « وكان بنو أبي خنزير من وجوه أهل ميلة » فى افتتاح الدعوة ص ١٣٥ .

(٢) [ ] إضافة من افتتاح الدعوة ص ١٣٥ للتوضيح .

(٣) « أبي جوال » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ، فى هذا الموضع والمواضع التالية . وورد فى الكامل « وبلغ الخبر أمير أفريقية ، وهو حينئذ إبراهيم بن أحمد ، فنفذ ولده الأحول » جـ ٨ ص ٣٤ ، وفيه تحريف ، فالقائد أبو حوال (أو الأحول) حفيد إبراهيم بن أحمد وليس ابنه ، وانظر أيضا نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٥ .

ذكر الحرب بَين أبى عبدالله الشّيعىّ وَبين أبى حوال محمد بن أبى العباس

قال[١] : وخرج أبوحوال بالعَسكر الّذى اختاره مِن مَدينة تونس ، فى سَنة تسْعٍ وثمانين ومائتين ، وكلّ مَنْ مرّ عليه من القبائل ، بدأهمْ بالعَطاءِ وخلع على وجُوههم ، وقصد إلى سَطيف ، فلم يصلْ إليها حتّى زاد فى عسكره مثله . وتلقّاهُم بنو عُسْلوجة أصحابُ سطيف[٢] ، وبنو تميم أصحابُ بلزمه ، ومنْ حولَهم ممّن لم يدْخل فى طاعة الشيعىّ ، فقتل من وجوههم قتلاً ذريعًا ، وانتهب أموالهم ، وسَبَى نساءهم وذرارِيهم ، وقصَد الشيعى بتازرارت ، واتصل به الخبر ، فبرز إليه بِمَن معه ، والتقَوْا ببلد بلزمة ، واقتتلُوا قتالاً شديدًا ، فانهزم الشّيعىّ وأصحابه ، واتّبعهم أبو حوال إلى الليل . ثم أصبح فلقُوه واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانهزم الشيعىّ ثانيةً إلى تازرارت وجاءهُم ثلجٌ عظيم ، فحال بينهم .

ولم ير الشيعىّ أن تازرارت تحصّنهم ، فأخذوا ما قدَرُوا عليه ، وانضموا إلى إيكجان . فلمّا ارتفع الثّلج تقدَّم أبو حوال إلى تازرارت فأخْرَبَها وهدَم قصر الشيعى وسار إلى مِيلَة ، ثم التقى هو والشيعىّ واقتتلوا إلى الليل ، فانهزم أبو حوال إلى تونس ، ورجع الكتاميّون إلى مِيلَة ، واعتلَّ الحسنُ بن هارون فمات بإيكجان ، وسكنها الشيعىّ وابْتَنى بها قَصْرًا .

---

(١) مازال النويرى يأخذ عن القاضى النعمان فى كتابه افتتاح الدعوة .

(٢) انظر ما يلى عن فتح مدينة سطيف ، وأصحابها .

وجاء الخبر إلى الشيعىّ بوفاة إبراهيم بن أحمد وأنَّ ابنَه أبا العباس ولِىَ الأمرَ بعْدَه[١] ، وجلَس فى المسجد وردَّ على الناس ظُلامَاتهم ، وأنّه يجلسُ على حصيرٍ وبين يديه الدِّرَّة ، فاغتمَّ لذلك لأن العوامَّ مالت إليه . ثمّ أتاهُ الخبرُ بقتل أبى العبّاس ، وأنّ ابنَه زيادَة الله[٢] قتله ووَلِىَ مكانه ، وأنّه شرب الخمور وارْتكب المحارم ، وعكف عَلى الملاهى ، فسرَّه ذلك ، وقال لهم : قَدْ زال عنكُمْ ما كنتم تخافونه ، وهذا آخرُ ما تُحاربون ، وسيصير الأمر إليكم .

قال : ثم خرج أبو حوال بالعساكر تانيةً قبل وفاة أبيه ، فهزمه الشيعىّ واستولى على مِيلَه ، وعاد أبوحوال إلى بلاده وقد ملَك زيادةُ الله ، فقتله زيادة الله [٣٠] وقتل إخوته ، والله أعلم .

ذكرُ تَغلُّب أبى عبدالله الشيعىّ على مدينة سَطِيف

كانت مدينة سَطيف لعلىّ بن حفْص ، المعرُوف بابن عسلوجة ، وكان قد زحف مع أبى حوال لقتال الشّيعىّ . فلمّا استقام أمرُ الشيعىّ وأخذ مِيلَة ذهب بجمُوعه إلى سَطيف وأقام عليها أربعين يومًا وهو يقاتله ، ثمّ انصرف إلى

---

(١) توفى إبراهيم بن أحمد فى ١٦ ذى القعدة ٢٨٩ هـ/٢٢ أكتوبر ٩٠٢ م ، وولى بعده ابنه أبو العباس عبد الله ، والذى قتل فى ٢٩ شعبان ٢٩٠ هـ/٢٨ يولية ٩٠٣ م ــ انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٢) هو عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، أبو مضر ، زيادة الله (الثالث) ، ولى دولة الأغالبة فى الفترة من ٢٩٠ ــ ٢٩٦ هـ/٩٠٣ ـ ٩٠٩ م ــ نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٥ وما بعدها .

إيكجان فأقام بها شهرًا ، وجَمَع (١) مَنْ قَدر عليه ، وعَاد إلى مدينَة سَطيف فأحاط بها ، وقاتلهُ علىّ بن عسلوجة ، فهزمهُ الشيعىّ فتحصَّنَ بالمدِينَة . وأقام أيّامًا يُحاصرُه ، فمات على بن عسلوجة ، هو وأخوه أبوحبيب . فى أيَّامٍ قلائل فاستَوْلى الشيعىّ عليها(٢) .

ذكر خروج إبراهيم بن حنبش إلى بلد كتامة

قال(٣) : لمّا اتصل بالأمير زيادة الله أخبارُ الشيعىّ ، وظهورُه على بلد كتامة ، وافتتاحُه مِيلَة ، ووصل إلى زيادة الله مِنْ كتامَة من خاف على نفسه ، وعرّفوه أنّه إنْ لم يُعاجِل الشيعىّ زاد أمرُهُ ، أخذ زيادة الله عند ذلك فى الاحتشاد وَزَاد فى العطاء . فاجتمعت له عساكر عظيمة ، فقدَّم عليها إبراهيم بن حنبش(٤) ، فبلغت عدّة مَنْ خرج معه أربعينَ ألفًا ، مِنْ فارسٍ وراجلٍ . وأخْرَج معه أموالاً جليلة وسلاحًا كثيرًا ، وعُدَدًا عظيمة ، وأمر ببَذل الأموال ، وأخرج معه وُجُوه رجاله ومَنْ وصل إليهم من كتامة .

---

(١) « وجميع » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) انظر تفصيل هذه الأحداث فى افتتاح الدعوة ص ١٦٥ ما بعدها .

(٣) ما زال النويرى ينقل عن افتتاح الدعوة ص ١٦٨ ومابعدها .

(٤) هكذا فى الأصل ، ولم تتفق المصادر على رسم واحد لاسمه ، فهو « خنيش » فى الكامل جـ ٨ ص ٤٠ ، « حبشى » فى افتتاح الدعوة ص ١٦٨ ، و « حنيش » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٢ ... إلخ .

فسار إبراهيم بن حنبش حتى أتى قسطنطينية [١]، وبينها وبين إيكجان الّتى بها الشيعىّ نحو مرحلتين ، وأردفه زيادة الله بسديد بن أبى شدّاد [٢] ، فاجتمع معه نحو مائة ألف . وأقام بقسطنطينية ستّةَ أشهر لا يتقدّم إليه الشيعى ، فلمّا رأى ذلك زحف بعساكره كلّها ، فندب الشيعىّ خيلاً اختارها من كتامة ليختبرُوا بُرُوزَ حنبش ، فأتوه . فلمّا رأى الخيْلَ قصدها بنفسه . هذا والأثقال على الدوابّ ؛ فانتشبَت الحرب ، واقتتلوا قتالاً شديداً . واتّصلَ الخبر بأبى عبْدالله الشيعىّ ، فزحَفَ بِمَن معه ، فوقَعَت الهزيمَة على ابن حنبش وأصحابه ، وأسْلموا الأثْقال ، وتبعهم أصحابُ الشيعىّ يومَهُم ذلك إلى الليل ، ومن الغدَ ، يقتلُون ويغنَمُون . فقتَلُوا منهم كثيرًا وغنمُوا من الأمْوال والأمتعَة والسّلاح والكراع ما لَا يُحصى كثرة .

ووصل ابن حنبش إلى باغاية [٣] وكتب كتابًا بخطّه إلى زيادة الله يخبرُه بالخبر . ثم قدِم إلى إفريقية ، فاضطربت وماجت بأهلها ، وعظُم أمْر الشيعىّ ثم غلب على مدينة طُبْنَة [٤] ثم على مدينة بلزمة ، ثم مدينة تيْجَس [٥] ، ثم

---

(١) هكذا بالأصل ، والكامل ، وافتتاح الدعوة ، و« قسنطينية » فى اتعاظ الحنفا ، وفى العبر وديوان المبتدأ جـ ٤ ص ٣٥ « قسنطينة » ومازالت تعرف بالاسم الأخير حتى الآن .
وهى مدينة مبنية على هضبة صخرية مرتفعة يحيط بها الوادى من جميع الجهات — انظر معجم البلدان .

(٢) هكذا بالأصل ، و« شيب بن أبى الشداد » فى افتتاح الدعوة ص ١٧٠ .

(٣) « بالاية » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ١٧٢ ، ومما يلى هنا فى نفس الورقة — انظر ما يلى .

(٤) طُبْنَة : بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة — من أكبر مدن نهر الزاب ، وقد اندثرت الآن — معجم البلدان — دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) تيجس : مدينة على الطريق من القيروان إلى قسنطينة ، كان عليها سور صخر رومى — المغرب ص ٦٣ .

مدينة بَاغَاية[١] ، ثم قَفْصَة[٢] ، وقَصْطِيلِيَة[٣] ، ثم مدينة الأُرْبُس[٤] .
وكان له فى خلال هذه الفتوحات وقائعُ كثيرة كان آخرُها مع إبراهيم بن أبى الأغلب لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة ، سنة ستّ وتسْعين ومائتين ، فانهزَم إبراهيم إلى جِهَة القيْروان واتّبعهُم أصحابُ الشيعىّ يقتُلُون ويغنَمون ويأسرون[٥] .

ذكر هرب زيادة الله إلى المشرق

قال[٦] : ولمّا وصَل خبر هذه الهزيمَة إلى زيادة الله وهو برَقَّادَة[٧] ، وكان قد علم أنّه لا يقومُ له أمر إذَا انْهزم إبراهيم ، لأنّه آخر ما جمع من الجيوش واستنْفذَ فيه الوُسْع والطّاقة ، فلمّا جاءه خبر الهزيمة أظهر أنّه جاءه الفتحُ ، وأرسل إلى السُّجون فأحضَر رجالاً منها فضرب أعناقهم ، وأمر أن

---

(١) باغاية : مدينة كبيرة بين بجانة وقسنطينة، وعلى مقربة منها جبل أوراس ــ معجم البلدان، المغرب ص ٥٠.

(٢) قَفْصة : بالفتح ثم السكون ، وصاد مهملة ، بلدة صغيرة ، من عمل الزاب الكبير ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب ــ معجم البلدان .

(٣) قَصْطِيلية= قسطيلية : بالفتح ثم السكون وكسر الطاء ، مدينة كبيرة من أرض الزاب الكبير ــ معجم البلدان .

(٤) الأُرْبُس : بالضم ثم السكون والباء الموحدة مضمومة ، مدينة كبيرة ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب ــ معجم البلدان .

(٥) عن تفاصيل فتح هذه المدن ــ انظر افتتاح الدعوة من ص ١٧٣ إلى ص ٢٤٠ .

(٦) المقصود هو القاضى النعمان ، فمازال النويرى ينقل عن افتتاح الدعوة ص ٢٤٣ .

(٧) رقادة : مدينة بأفريقية بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وظلت دار ملك الأغالبة حتى هرب منها زيادة الله وتركها لأبى عبد الله الشيعى ــ معجم البلدان .

يُطاف برُءوسهم فى القيروان ، وأخذ فى تجهيز أثقاله ، وحَملها وحَمل أموالَه ، وأنْذر خاصّته وأهلَ بيته بالخُروج معه ، وعرَّفهُمْ بالخبر ؛ فأشارَ عليه ابنُ الصَّائغ [١] بالمُقام ، فأبى ذلك ، وخرج إلى مصر ، كما ذكرنَاه [٢] وأقبل النَّاس فى صبيحة يومِ هربِ زيادة الله وانتَهبُوا رقَّادَة . والله أعلم .

[٣١] ذكر رجوع أبى عبدالله الشِّيعىّ إلى إفريقية

قال : ولمّا وافاهُ الخبر بهرب زيادَة الله أمير إفريقية ، وهو بناحية سَبِيبة [٣] رَحَل لِوَقته ، وخرج إليه شُيوخ القَيْروان ، وتلقَّوْه ، فأكرمهم ، ودخل أبو عبدالله الشيعىّ رقَّادة فى يوم السّبت غرّة شهر رجب ، سنة ستّ وتسعينَ ومائتين ، ونزل ببعض قُصورها ، وفرَّق دُورَها على كتامة ، ولم يكن قد بقى بها أحدٌ من أهلها ، وأمر مُنَاديه فنَادى فى القَيْروان بالأمان ، فرجع

---

(١) هو عبد الله بن الصائغ ، الذى ولى الوزارة والبريد لزيادة الله ـ نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٥ .

(٢) يشير المؤلف إلى ما سبق أن ذكره عند حديثه عن دولة الأغالبة ـ انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٧ وما بعدها .

(٣) « سبتة » فى الأصل ، فهو تحريف ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٢٤٣ ، الكامل جـ ٨ ص ٤٦ .

سَبِيبة : بفتح أوله وكسر ثانيه ، ناحية من أعمال القيروان ـ معجم البلدان .

أما سبتة : فهى فى أقصى بلاد المغرب فى مواجهة جزيرة الأندلس ، على طرف مضيق جبل طارق ـ معجم البلدان ـ وهى بالتالى بعيدة عن مسرح الأحداث الواردة بالمتن .

النّاس إلى أوطانهم . وغيَّر المنكَرات ، ووَلَّى قضاءَ القيروان محمّد [١] بن عمر المرْوَزِىّ ، وأمره ، ورتّب الخطباء وأمرهم أن يصلُّوا على : رسول الله ﷺ ، وعلىّ ، والحسن والحسَيْن وفاطمة ، وأمر بضَرب السّكّة ، وأنْ يُنْقش على الوجه الواحد « بلغت [٢] حجّة الله » . وعلى الوجه الآخر « تفرّق أعداءُ الله » ، ونقش على السلاح « عُدَّة لسَبيل [٣] الله » ، ونقش على خاتمه الّذى يَطْبع به الكتب (وتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً) [٤] ورسم فى جلال الخيل [٥] « المُلْك لله » .

ذكر خروج أبى عبْدالله الشّيعىّ إلى سجلماسة [٦]

قال [٧] : ولمّا استقرّ أبو عبدالله الشيعى برَقّادة ، أتاهِ أخوه أبو العبّاس محمد ابن أحمد ، فَسُرّ بمقدَمه ، وكان أسَنَّ من أبى عبدالله وَأحَدَّ ذِهنًا ،

---

(١) هو محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المروزى (المروذى) أصله من خراسان ، وتوفى سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م ــ افتتاح الدعوة ص ٢٤٧ ، طبقات علماء أفريقية ص ٢٣٩ ، وانظر ما يلى فى أخبار وفاة المهدى .

(٢) « بلقب » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٢٥٠ ، الكامل جـ ٨ ص ٤٧ .

(٣) « عدة فى سبيل الله » فى افتتاح الدعوة ، والكامل .

(٤) سورة الأنعام آية ١١٥ .

(٥) الجلّ للدابة : كالثوب للإنسان ، يلبس ليقى من البرد ، والجمع جلال أو إجلال . القاموس . « ووسم الخيل الملك لله » فى افتتاح الدعوة ص ٢٥١ ، و « ووسم الخيل على أفخاذها » فى الكامل جـ ٨ ص ٤٧ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٤ .

(٦) سِجِلْماسة : بكسر أوله وثانيه وسكون اللام ، وبعد الألف سين مهملة : مدينة عظيمة على حدود المغرب الجنوبية الشرقية ، على بعد نحو ٢٠٠ ميل جنوب شرق فاس ، أسسها المدرار ابن عبد الله سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م . وقد درست اليوم ــ معجم البلدان ــ دائرة المعارف الإسلامية .

(٧) مازال النويرى يأخذ عنه ــ افتتاح الدعوة ص ٢٦٩ .

وكان الشيعىّ يعظّمه ، فإذا دخل قام إليه . وإذا دخل هُو على أبى العبّاس قبّل يده ووقف حتى يأمرَهُ بالجلوس فيجلس .

ولما وصل أبو العباس أراد أنْ يَنْفِىَ من القيرْوان من خالف مذهبه ، فقال له أبو عبدالله إن دَوْلتنا دولَةُ حجّة وبيانٍ ، وليْسَت دولَة قهرٍ واستطالة ، فاترك النّاس على مذَاهبهم ، فتركهُم .

وأخذ أبو عبدالله فى الخروج إلى سِجِلْمَاسَةَ ، فرحل إليها فى النّصف من شهْر رمضانَ من السّنة . فى جيوشٍ عظيمة ، واستخلف على إفريقية ابا زاكى تمام ابن معارك وأخاه[1] أبا العباس .

قال : ولمّا خرج اهْتَزّ الغربُ لخروجه وزَالَتْ زنَاتَة[2] والقبائلُ عن طريقه ، وأوْقَع بقبائلَ عرضتْ له فى الطّريق حتّى إذا قرُب من سِجِلْماسة رَاسَل أميرها الْيَسَع بن مدْرَار[3] ، وكان مِنْ أمره مَعَهُ ما نذكره بعْدُ فى أخبار المهْدىّ عُبيدالله إن شَاء الله .

فهذه أسبَابُ ظهورِ هذه الدّولة وقيامها وخبرُ شيعتها . فلنذكُر أخبارَ المهدىّ وما كانَ مِنْ أمره . وخروجَه من بلاد الشام ، وما اتفق لهُ فى مَسيره إلى أن تسلم المُلك من أبى عبيدالله الشيعىّ ، بعْد أن مهّدَ له القواعد وفتح

---

(١) هكذا فى الأصل ، وفى افتتاح الدعوة ص ٢٧٥ ، أما فى اتعاظ الحنفا فلم يرد ذكر لأبى زاكى تمام ، فورد « واستخلف أخاه أبا العباس على أفريقية » ص ٦٥ .

(٢) زناتة : قبيلة كبيرة من البربر ، ينتسبون إلى زنا بن يحيى بن ضرى بن زجيك بن مادغس — العبر وديوان المبتدأ جـ ٦ ص ٩١ .

(٣) ولى سجلماسة فى صفر سنة ٢٧٠ هـ/أغسطس ٨٨٣ م ، وهو آخر أئمة سجلماسة من المدراريين ، إذ ظل فى الحكم حتى قتل على يد عبيد الله المهدى سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م — انظر ما يلى .

البلاد . ثم نذكر فى أخبار عبيْدالله ، المنعوت بالمهدىّ ، تتّمةَ أخبار أبى عبدالله الشيعىّ إلى أن قُتِل هو وأخُوه أبوالعبّاس محمد بن أحمد .

فنقول وبالله التوفيق .

ذكر ابتداء الدّولة العُبيْديّة وأخبار المهدى عبيْدالله وماكان من أمره منذ خرجَ من الشّام إلى أن ملك البلاد وَتسلم الأمر منْ أبى عَبدالله الشيعىّ

كان ابتداء ظهور هذه الدولة وقيامها ببلاَد المغرب فى سنة ستّ وتسعينَ ومائتين ، عند ظُهور عبيْدالله بن الحسَن المنعُوت بالمهدىّ ، وخَلاَصِه من سِجْنِ سِجِلْمَاسَة وقَتْله الحسن بن مِدْرَار . ومنهم من يَجعل ابتدَاءها عند وُصول عبيْدالله إلى رَقّادة فى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبْع وتسعينَ ومائتين ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ولنبدأ بأخبار المهْدىّ فى رحْلته إلى المغرب .

ذكر رحيل عبيْدالله من الشام [٣٢] ووصوله إلى سجلماسة

وكان سببُ ذلك أن المعتضدَ بالله أبا العبّاس العباسىّ طلب عبيْدالله هذا طلبًا شديدًا ، فخافَ على نفْسه إنْ هو أقام بالموضع الذى هُو فيه مِنْ أرْض الشام ، فخرج بِنَفْسِهِ وبوَلده أبى القاسم محمّد ، وهو يَوْمئذٍ غلام حَدَث وعُبيدُالله شابّ ، وخرج معه خاصّته ومَوَاليه ، يريدُون المغرب ، وذلكَ فى خلافة المكتفى بالله العباسى ، وأمير إفريقية يومئذٍ زيادةُ الله بن أبى العبّاس بن إبراهيم بن أحمد .

فلما انتهى عبيد الله إلى مصر أرادَ أن يقصد اليمن ، وكان بها أبو القاسم الحسن بن حوشب الكُوفى الدّاعى كما ذكرْنا ، وقد استقَام له الأمْر ومَلك أكثر البلاد ، ثم بعث بعْدَه علىّ بن الفضل فاستحلّ المحارِمَ ودعا النّاس إلى الإباحات ، فلما اتّصل ذلك به كَرِه دُخول اليمن على هذه الحال ، وبلغَهُ ما فعل الشيعىّ بالمغرب ، وما فُتح على يدَيْه فأقام بمصرَ مستِترًا فى زىّ التُّجار ، وعامل مِصرَ يومئذٍ عيسى النَوشَرى بعد انقراض الدَّولة الطُّولُونيّة ؛ فأتَتْه الكتُب بصفته ، وأُمِر بالقَبْض عليه .

وكان بعض خاصّة النُّوشَرى يتشيع ، قيل إنّه ابْن المدبّر ، فبادَرَ إلى عبيْد الله وأخبره ، وأشار عليه بالمسير ؛ فخرَج منْ مِصْر بمن صحِبَه . ففرّق النُّوشَرى الرّسُل وذكر لهُمْ صفَته ، ثم خرج بنفسه فأدركه وقدْ رحل من تَروجة ، وهى على مَرحلةٍ من الإسكندرية ، فمشَى النُّوشَرىّ فى القافِلَة التى عُبيد الله فيها ، وجعَل ينظر إلى وُجُوه القوْم ، حتّى رأى عبيْدَ الله على هيئته التى وُصفت له ، فقبض عليه وعلى منْ كانَ معَهُ ، وأطلق الرِّفقة وعاد به إلى بِبُسْتَانٍ فنزل به ، وأنزل عبيُد الله ومَنْ معه بمُفْرَدِهم ووَكل بهم . ثم خَلاَ بهِ وقال له أصْدقنى عن أمْرك فأنى ألطف فى خلاصك ، فقد جاءت صفتُك مِن قِبَل أمير المؤمنين وأمر بطلبك ، وذكر أنّك تَرومُ الخلافة . فقال عبيد الله[1] إنما أنا رجُلٌ تاجر ، ولست أعلم شيئًا ممّا تقول ، وأنت غنىٌّ عن تقلُّد إثمى . فما زال يلاطِفُه يَوْمَه ولَيْلَته حتّى أطلقه وقال : اِمْضِ إلى سبيلك وأنا أبعثُ معَك خيلاً تشيِّعك . فشكره وقال : أنا أستغنى بنفْسى وبمن مَعِى ، وانصرف . فرجع أصحابُ النُّوشَرى عليه بالملامَة ، وقالوا له : مَاذَا صنعته

(١) « أبو عبد الله » فى الأصل ، والتصحيح من السياق .

بنفسك ! عمدت إلى بُغْيَة أمير المؤمنين وطلبته فأطلقته . فندِمَ على إطلاقه وهمّ أنْ يبْعَث إليه خيلاً تردُّه .

فلمَّا سار عبْيدُ الله أميالاً افتقد أبو القاسم ابنُه كلبةَ صيدٍ كانت له ، فبكى عليهاَ فعرفّهْ عبيده[1] أنهُم تركُوها بالبُسْتان ؛ فرجع عبيدُ الله فى طلبها ، فرآهم النُّوشَرى ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ فقال بعْض أصحابه : الرّجل قَدْ رجع . فبعَث غِلمَانه فسألوا أصحاب عبيْد الله عن سَبَب رجوعه ، فقالوا : افتقد وَلَدُ سيدنا كلبةً ، وهو عزيز على أبيه ، فعادَ معه فى طلَبها بعد أن قطع أمْيالاً كثيرة . فقال النُّوشَرى لأصحابه : قبّحكم الله ! أردْتم أن تحملونى على رجلٍ حالُه مثلُ هذه الحال أعتقِلُه بشُبْهةٍ . لو كان مرتابًا لَطَوى المراحل وما عادَ إلينا مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ فى طلب كلبةِ صيْدٍ .

ورجع النُّوشَرى مِنْ وقته إلى مِصر ، وعاد المهدىّ ولحق برفقته . فلمّا انتهى إلى مدينة طرابلس ، فارق مَنْ كان معَهُ من التُّجار ، وقدَّم أبا العبَّاس محمّدَ بن أحمد بن محمّد بن زكريا ، أخا أبى عبْد الله الشيعىّ إلى القَيْروان ببعض ما كان معه ، وأمره أن يلحق بكتامة . فلما وصل أبو العبّاس إلى القَيْروان وجدَ الكتُب قدْ سبقت إلى زيادة الله فى أمر عبيْد الله فأحضر الرّفقة وسألهم عنه ، فأخبروه أنه تَخلَّف بطرابلس وذكرُوا أنّ أبا العبّاس من أصحابه ؛ فأُخِذ وقُرِّرَ ، فأنكر ، فحُبس .

واتصل الخبر بعبيْد الله بطرابلس فصادف رِفْقَةً خارجةً إلى قَصْطِيلِيَة ، فخرج معهم ، وأتى كتابُ زيادةَ الله إلى طرابلس بصفته وطَلَبِه،فكتب إليه عاملُها أنه خرج مِنْ عَمله ، وسار عُبيد الله حتىَ وصل إلى قصْطِيلِيَة ، ثم منها

(١) « أبوه » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ٨ ص ٣٨ ، وهو يتفق مع السياق .

إلى سِجِلْماسة ، وصاحب سجلماسة يومئذٍ اليَسَعُ بن مدرار ، فهَادَاه عبيْد الله ، فأكرمه اليَسَع وعظّمه . فلم يزل كذلك إلى أن أتاه كتاب زيادَة الله يخبرهُ أنه هو الّذى يدعُو إليه الشيعىّ ، فتغير اليَسَع عند ذلك عليه إلّا أنه لم يكن منْه فى حقه ما يكره .

ثم كان من تغلُّب الشيعىّ ما قدّمناه . وعَلِمَ بمكان عبيْد الله ، وكان يُكاتبه فى السِّرّ . فلمّا هَزَم الشيعىُّ جيشَ إبراهيم بن حنبش كتب إلى عبيد الله يخبرُه بالفتح ، فأرسل إليه مالاً مع رجالٍ من قِبَلِه من كتامة ، وكان ذلك أول فتح ورد على عبيْد الله ، فسُرّ به . ثم استولى الشيعىّ على ما ذكرناه ، وهرب منهُ زيادة الله ، وملك رقّادَة والقيروان . وسار إلى سجلماسة فلما انتهى خبرهُ إلى اليَسَع بن مدرار وقرب من سجلماسة سأله فحلف أنه ما اجتمع بالشيعىّ ولا رآه قطّ ولا عرفه ، وقال : إنما أنا رجل تاجر فأغلظ له فى القول فلم [يغير](١) كلامَه الأوّل ولم يخرج عنه . فجعله فى دارٍ وجعل عليه حرسًا ، وجعل ابنه أبا القَاسم فى دارٍ أخرى ، وفرّق بينهما . واختبر كلَّ واحدٍ منهما [٣٣] فلم يجِد بينهما خلافًا ، وامتحَنَ رجالاً كانوا معهُما بالعذاب ليُقرُّوا فلم يعترفوا بشىء .

واتصل الخبر بالشّيعىّ فعظُم عليه ، وأرسل إلى اليَسَع بن مدرار يؤمِّنُه جانِبَه ويذكر أنّه إنّما قصد سِجِلْماسَة لحاجَةٍ وبعدُه الجميلَ والبِرَّ والإكْرام ، وأكد ذلك وبالغ فيه فلما وصلت رسل اليسع رَمَى بالكتب وقتل الرُّسل ، واتّصل ذلك بالشيعىّ فعاوَدَه ولَاطَفَه ؛ كُلُّ ذلك خوفًا منه أن يكون منه فى حقِّ عبيد الله ما يكرهه ؛ فقتل الرُّسُل أيضًا فلمّا رأى الشيعىّ إصرارَه عبّأ

(١) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام .

عساكرهُ ودنا منَ المدينة فخرج إليه اليسعُ بمن مَعه ، فناوشهم القتال ، فقُتل من أصحابه جماعة وكانَ ذلك فى آخر النّهار ، فحجز بينهما اللّيل .

فلما جَنّ اللّيل هرب اليسعُ بنُ مدرار مع أهل بيْته وبات الشيعىّ ومَنْ معه فى غمٍّ عظيمٍ تلك الليلة ، لا يعلم ما صُنِع بعبيدالله وابنه،ولم يُمكِنْه دخولُ المدينة،وما علم بهرب اليسع حتى أصبح ، فخرج إلى الشيعى وُجُوه أهلِ المدينة وأعلموه بهرب اليَسَع ، فدخل إلى المكان الذى فيه عُبيدالله فأخرجه وأخرج ولده أبا القاسم ، وقرَّب لهما فرسين وحَفّت بهما العساكر ، وسار الشّيعىُّ والدُّعاة بين يدَىْ عبْيدالله وهُو يقول : هذا مَولاى ومَوْلاكُم ؛ حتى انتهى عُبيدالله إلى فُسطاطٍ ضُرب لهُ،فدخله ، وهو إذ ذاك شابٌ لم ينبذه الشّيب ، وابنه حرطَرَ شَارِبُهُ .

هذا ما حكاهُ إبراهيم بين الرّقيق فى تاريخه .

وقال غيره إن اليسع بن مدرار لمّا أراد الخروجَ من سجِلْماسَة أحضر الشخص الذى اعتقله وقتله قبل هروبه ، وأن الشيعى لمّا دخل وعَلِم بقتل عُبيدالله خاف من كتامَة لأنه كان يَعِدُهم بخُروج المهدىّ وملكِه الأرض على زعمه ، وخَشِى أن يفتضح فيهلِك ويزُول ما حصَل فى يده ، فأخرج لهم رجلاً يهوديًّا كان يخدم الشّخصَ المقتول ، وقال هذا إمَامُكم وإمامُ الاسماعيلية،وأرْكبه ومشىٰ فى رِكابه وانْسلَخ له من الأمر . وهذا فيه بُعْدٌ ، وأرَاهُ مِن التّغالى فى نَفْيهم عن النّسبَ ؛ والذى حكاهُ ابنُ الرّقيق أشبه . فلنرجع إلى ما حكاه إبراهيمُ بن الرّقيق .

قال : ولما استقرّ عبيدُ الله بالفسطاط أمر بطلب اليَسع بن مِدْرَار حيث كان ، فخرجَت الخيلُ فى طلبه ، فأدركوه ومن معهُ مِن أهل بيته ،

فأخذُوهم وأتَوْا بهم إلى عبيد الله ، فأمرَ بضَرْب اليَسع بالسياط ، فضرب وطيف به فى بلاد سجلْمَاسة ؛ ثم أمر بقَتْلِه فقُتل هو وكلُّ من هرب معه من أهل بيته وغيرهم . وأمَّن الناسَ بعد ذلك وسكّنهم ، واستعملَ عليهم عاملًا ، وأتَتْه القبائل من كلِّ ناحية فأكرمهم ، ووعدهم بكل جميل .

وأقام بسجلْمَاسَة أربعين يومًا ، ثم سارَ يُريد إفريقية . فلما حازى بلاد كتامَة مال إليها ، ووصل إلى إيكجان ، وأمر بإحضار الأموال التى كانت مع الشيعىّ والشيوخ ، فأحضرها وشدّها أحمالاً وقدِم بها . وكان وُصُوله إلى رَقَّادَة فى يوم الخميس لعشرٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين .

وفى هذه السنة زال ملْكُ بنى الأغلب وكان له بإفريقية مائة سنة واثنتا عشرة سنة . وزال بزواله ملْكُ بنى مِدْرار وكان له بسِجلْمَاسَة وما حَوْلها مائةُ سنة وستون سنة . وزال ملكُ بنى رُسْتَم من تاهرت [1] وما حَولها ، وله مائة سنة وثلاثون سنة [2] .

قال : ولما قارب عبيْد الله القيروان تلقَّاه شيُوخها ومشَوْا بين يديه ، فجزاهم خيرًا ونزل عبيْد الله بقصْرٍ من القصُور برَقَّادَة ، وأنزل العساكر بدُورِها ودُعِى له بالخلافة فى يَوم الجمعة لِتسْعٍ بقينَ من شهْر رَبيع الآخرِ من السّنة برَقَّادَة والقَيْروان والقصر القديم [3] وأنفَذ رسُله بدُعاتِه وأتَتْه وفود البلدان .

---

(١) « تهرت » فى الأصل ، والتصحيح من معجم البلدان .

(٢) عن هذه الدول ومدة حكمها انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ .

(٣) القصر القديم = قصر قيروان : مدينة عظيمة قبلى القيروان بنحو أربعة أميال ، أسسها إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م ـــ واتخذها عاصمة لدولته ـــ معجم البلدان .

قال ثمّ عرض عليه الشيعىّ جَوَارِىَ زيادة الله فاصطفى منْهنَّ لنفسه وأعطى ولدَه ، وفرّق أكثرهُنّ على وُجُوه كتامةَ ؛ وقسّم عليهم أعمال إفريقية ، واستعْملَ وُجُوهَهم على مُدنها ، وأمرهم بالتجمُّل وحُسْن اللّباس ، فلبِسوا الثّياب الفاخرة وركبوا بالسُّروج المحلّاة . ورتّب الدّواوين وأنعم على النّاس ، فرفع إليه صاحبُ بيت المال ما أخرجه من الصِّلاتِ فى شهر رمضان ، فبلغ مائة الف دينار واستكْثَره صاحبُ بيْت المال فقال عبيْد الله : لو بلغتُ ما أؤمِّله ما رضيتُ بمثلِ هذا المال لرجلٍ واحد [من أوليائى] (١) .

ذكر أخبار أبى عبيد الله الشيعىّ وأخيه أبى العبَّاس وما كان من أمرهما بعْدَ قيامِ عُبيْد الله المهْدىّ إلى أن قتلهما

قال : لمّا استقامت الأمور لعبيْد الله المهدىّ داخل أبا العبّاس محمدًا أخا الشّيعىّ فساد دينه(٢)

وسبب ذلك أنّ أخاه أبا عبْد الله كان يعظّمه ويقومُ له عَنْ مجلسه ويقبّل يده [٣٤] كما قدمْناه ، وكان لأبى عبْد الله من الرئاسَة ونُفُوذ الكلمة والغَلَبة على الأمر كلِّه ما ذكرناه(٣) . فلمّا صار الأمر لعبيْد الله المهدىّ زالتْ تلك الرئاسةُ عن أبى عبد الله وأخيه ، فداخَلَه الحسَد ، فجعل يُزْرى على عُبيد الله عند

(١) [ ] إضافة للتوضيح من افتتاح الدعوة ص ٣٠٤ .
(٢) « داخل أبا العباس الحسد » فى الكامل جـ ٨ ص ٥٠ ، واتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٧ .
(٣) كما ذكرناه فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

أخيه وأبو عبد الله ينكر ذلك على أخيه ، وأبو العبّاس لا يَرْعَوى ، ويؤكّد أسبابَ النّفاق . ثم قال أبو العبّاس لأخيه : لقد ملكت أمرًا عظيمًا وانْطاع لك النّاس ، فجئتَ بمَن أزَالَك عنه وأخرجَك مِنه ، وكان الواجبُ عليه ألّا يهتَضِمَك هذا الاهْتِضَام . ولم يَزَل يُغْريه بِمثل دلك إلى أنْ أثّر ذلك فيه ، وَحَمله على مُشَافَهة عُبيد الله المهدىّ ببُغضه ، وأشارَ عليْه بتفويض الأمُور إليه والانْقطاع فى قصْره والاحتِجاب عَن الناس ، وقال هذا أهيَبُ لك وأشدُّ لامرك . فردَّ عليه فى ذلك ردًّا لطيفًا . وكان قد بلغ المهدىّ ما هُو عليه ، فحقّقه ولم يُرِه أنّه اطّلع على شىء من ذلك . وعَمَد أبو العبّاس إلى الدُّعاة ، وكانوا يعظّمونه لِما يرَوْن من تَعظيم أخيه أبى عبيد الله له ، فجعل يرمز لهم ، ثمّ صرَّح ، وطعن فى عبيْد الله ، وأدخل فيه الشُّبهة . وكلُّ ذلك يبلُغ عبيدَ الله فيُعْرِض عنه ويُغضى عليه ، هذا والشيعىُّ فى ذلك مُدَارٍ لم يبلُغ حد النِّفاق إلى أن فشا أنّ حال أبى العبّاس قد انْتهيت إلى عُبيد الله .

ومازال أبو العبّاس يتخيّل إلى أنْ قال للدُّعاة إنّ الإمام هو الّذى يأتى بالآيات والمعجزات ويُختم بخاتمه فى البلاط ، فأمّا هذا فقد شككْنَا فيه . فعند ذلك أرْسَل هارونُ بن يونس[1] أحد المشايخ إلى عبيْد الله يقولُ : قد شككنا فى أمرك فأْتِنا بآيةٍ إن كنتَ المهدىّ كما قلت . فتعاظَم ذلك وقال : ويْحَكُم إنكم كنتُم قد أيقّنتُم والشكُّ لا يُزيل اليقين ، فأبيتم إلّا الإصْرار ! ثمّ أمر مَنْ قتله . فلمّا علم أبو العبّاس والقومُ الذين استْزلّهم[2] بقتله جعلوا ذلك سبباً لمبَايَنة عبيد الله وأجمعوا على النّقض والإبْرَام فى دَار ابى زاكى ابن مُعارك ، وعزموا على الفتْك بعُبيد الله . واجتمع كتامَة إلّا قليلاً منهم ؛

(١) « بن يوسف » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ١١١ و ص ٣١٠ .
(٢) استزلهم : أى جعلهم يزلون ، أى الذين أغواهم .

وكان عزوية (١) بنُ يوسف يأتى بأخبَارهِمْ لعُبيد الله ، فجمع عبيْد الله إليه مَنْ سَلِم من النِّفاق والعَبيد واستعدَّ لَهُم ، على كثرتهم وقلَّة المبايعين له . فجمعوا له الجُموع وأحاطوا بقصْره ليُوقِعُوا به ، وهو فى ذلك جالسٌ منتصبٌ غير مكترث ؛ فقذف الله فى قلوبهم الرُّعبَ على كثرتهم وقلَّة مَنْ معه ، حتّى كانوا يَعبرُون وقد عزمُوا على الفَتْك به ، فإذا قابَلُوه ملأت الهيبَةُ قلوبَهم فإذا انصَرفوا نَدِموا على تَركه ﴿ لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ (٢) .

فنظر عُبيْد الله فى بعض الأيّام إلى أبى عُبيد الله الشيعىّ وقد لَبس توبَه مقلوبًا ، ودخل علَيه ثلاثةَ أيّام وهُو على تلك الحال ، فقال له فى اليَوم الثّالث : يا أبا عبْد الله ؛ ما هذَا الأمرُ الّذى شغَلَك وأذْهَلَك عن أمر نفسك ؟ فقال : وما هُو يا مولاى ؟ قال : إنّ ثوبك مقلوبٌ عليك منذ ثلاثة أيّام ما اهتَديْت له ، وما أحْسِبُك نزَعْته . فنظر إليه وقال : والله يا مَوْلاىَ ما علمتُ به . فقالَ : إنّ هذا لَشُغُل عظيم ؛ فأين تَبيت مُنْذ كذَا من اللّيالى ؟ فسكَت . فقال : ألَستَ تبيتُ فى دَار أبى زاكى قال له : بلى . قال : وماأخْرجَك مِنْ دَارك التى أنزَلْتُك بها ؟ قالَ : يا مولاىَ خِفت . قال : وما يخافُ المرءُ إلّا من عدُوِّه ، والمؤمن لا يخافُ وليَّه (٣) . فسكت أبو عبْد الله وأيقن أنّ عورتَه قد بَدَت لعبيْد الله ، ووجَبت حُجّتُه عليه ، وحلَّ له قتلُه . فانصرف وأعْلَم القومَ بما جَرى بينهُما ، فأمسكُوا عن الدّخول إلى عبيْد الله وخافُوا على أنْفُسهم مِنه . ثمّ جاءُوه بعدَ ذلك وأظهرُوا البراءةَ مما قِيل فيهم ،

---

(١) « عروبة » فى الأصل ، والكامل جـ ٨ ص ٥٢ ، وأخبار الدول المنقطعة ص ٩ ، والتصحيح هنا والمواضع التالية من افتتاح الدعوة ص ٣١٢ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٤ .

(٣) « عدوه » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٣١٤ .

واعتذَرُوا ؛ فردَّ عليهم ردًّا جميلاً ، وأخرج جماعةً منهُم إلى البُلدان ، فتفرَّقت جماعتُهم . وأخرج فيمن أخرج أبا زاكى بنَ مُعَارك[١] إلى طرابلس ، وكان غزوية بن يوسف واليًا عليها[٢] ، فلمّا وصل إليه كتب إليه عبيد الله ، فقتَلَه وبعث برأسه إليه . وقُتل جماعةٌ منهم كذلك فى البلدان بصنوفٍ من القتل .

وخرج أبو عبْد الله فى بَعْض الأيام هو وأخوه أبو العبّاس يُرِيدان قصْر عبيْد الله على العَادة . فحمل غزوية بن يوسُف[٣] على أبى عبيْد الله ، وحمل خير بن ماشيت[٤] على أبى العبّاس . فقال أبو عبد الله لابن غزوية : يا بُنىّ لا تفعلْ . فقال : الّذى أمَرْتنا بطاعته أمَرنا بقتلك . وقتَلاهما فيما بين القَصْرين ؛ وذلك فى يوم الاثنين ، النّصف من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وتِسعين ومائتين . وأمر عبيْد الله بدَفْنهما .

قال : وهذَا اليَوْم هو الْيومُ الّذى قُتل فيه أبو زاكى بطرابلس .

قال : ولما قتل أبو عبْد الله وأبو العبّاس ثار جماعةٌ من بنى الْأَغلَب وأصرُّوا على النِّفاق ، وكانوا بالقصر القديم ، فأخرجُوا منه الكتاميّين وقتلُوا جماعةً منهُم ، فأحاط به مَنْ حوله من كتامة ، فقاتلهم بنُو الأغلب ، وقُتل من

---

(١) « بن معادل » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق .

(٢) « وكان عمه أبو يوسف عاملاً عليها » فى افتتاح الدعوة ، ص ٣١٥ ، وأخبار الدول المنقطعة ص ١٠ ، وهو الأرجح ـ انظر ما يلى .

(٣) فحمل ابن غزويه بن أبى يوسف » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق ، وافتتاح الدعوة ص ٣١٦ .

(٤) « حبر بن تماشت » فى افتتاح الدعوة ص ٣١٦ ، « حبر بن القسم » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١٠ .

الطَّائفتين قتلى كثير . فبلغ ذلك عبيْد الله فردَّ كتامة وأنكر عليهم ، فتفرَّق بنو الأغلَب وانصرفوا إلى دورهم ، فتركهم عبيْد الله ثم قبض عليهم فقُتلوا على باب رقَّادَة ؛ ثم تتَبَّع مَنْ بقى منهم فقتلهم . ولمّا استقامت الأمور لعُبَيْد الله [٣٥] عَهِد إلى ولده أبى القاسم ، وخرجَتْ كتبهُ : مِنْ وَلِىّ عهد المسلمين محمد بن عبيد الله .

ذكر أخبار مَن خالف على عُبَيْد الله وما كان من أمرهم

قال : وبقيت[١] بقيّة من المنافقين علَيه ، فسارُوا[٢] إلى بلد كتامة ، فأقامُوا غلامًا حَدَثًا من جبل أُورَاس من جهة أورسَّه[٣] . وزعموا أنّه المهدىّ ، ثمّ نحلُوه النُّبوَّة ، وزعموا أنّ الوحى يأتيه ، وقالوا : أبو عبد الله حىٌّ لم يمت ؛ وأباحُوا الزّناء ، وأحلُّوا المحارم . وزحفوا إلى مِيلَة فأخذوها . فبلغ ذَلك عبيدَ الله[٤] فأخرج إليهم ولىَّ العهد فى عسكرٍ فحاصَرها مدَّة ، ثم قاتلُوه فهزمَهُم حتى انْتهى بهم إلى البحر ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأخذ الغُلامَ الّذى نصَبُوه فأتَى به إلى أبيه ، فأمرَ بقتله ، فقُتل .

وخَالَف علَيه أهلُ طرابلس ، فأخرج إليهم عسكرًا مع أبى يوسف ، فحاصرها ، ثمّ انْصرف عنها ولم يفتحها ، فخرج إليها بعْد ذلك أبُو القاسم ، وقد قدّموا على أنفسهم ابنَ إسحاق القُرشى ، فكان خُروجُه يومَ الأحد

---

(١) « وتغيب » فى افتتاح الدعوة ص ٣٢٤ .

(٢) « فصاروا » فى افتتاح الدعوة ص ٣٢٤ .

(٣) « أو سنة » والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ١٠٧ ، ص ٣٢٤ .

(٤) « أبو عبيد الله » فى الأصل ، وهو تحريف .

لِلَيْلَتَيْن خلتا من جُمادى الأولى سنة ثلاثمائة . فحاصَرها وَضيَّق على مَنْ بها حتى أكلوا الجِيَف ، ففتحُوا فى آخر شهر رجب من السّنة ، فعفا عنهم ، لكنّه غرّمهم جميع ما أنفَق من مالٍ وغيرِه ، وكانت جملته ثلاثمائة ألف وأربعين ألف دينار ، وحمل وُجُوه رجالِهم معه إلى رَقَّادَة رهائن ، واستَخْلَف عليها ، وانصرف .

ذكر بناء مدينة المهديّة

وفى سنة ثلاثمائة (١) خرج عبيْد الله إلى تونس وقرطاجنة وغيرها ، يرتاد لنفسه موضعا على ساحل البحر يبتنى به مدينة ، فاختار مَوْضِع المهديّة ، فأمرَ ببنائها وتَحصينها بالسُّور وأبواب الحديد المحكم ، فجُعل فى كلِّ مصراعٍ من الحديد مائةُ قنطار . وكان ابتداءُ الشُّروع فى بنائها فى يوم السّبت لخمسٍ خلَوْن من ذى القَعدة (٢) من السنة . وانتقل إليها فى سنة ثمانٍ وثلاثمائة . قال : ولمّا عزم على الانتقال إليها ثَقُل ذلك على جنده ، فقال : نحن ننْتَقل إليها ونَدعُكُم بمكَانِكم ، وعمّا قليلٍ ستنتقلون . ففعَلُوا ذلك ، فما كان إلّا أنْ أرسل الله عليهم أمطارًا غزيرة ، فهدَمَت مساكنهم ، فسألوه النُّقلة إليها فأذن لهم .

وفى سنة ثلاث وثلاثمائة خرج ولىّ العهد أبو القاسم إلى الدّيار المصريّة .

---

(١) هكذا فى الأصل ، وفى أخبار الدول المنقطعة ص ١١ ، ولكن ورد أن اختيار موقع المهدية والبدء فى بنائها كان سنة ٣٠٣ هـ فى كل من : الكامل جـ ٨ ص ٩٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) « فى يوم الخميس لخمس خلون من ذى القعدة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١١ .

وكان خروجُه من رَقّادة لستٍّ بَقِينَ من جُمادى الآخرة منها[١] ؛ وكان من أمره وأمر حباسة بن يوسف ووصولهما إلى الإسكندرية ما قدّمناه فى الحوادث فيما كان بين الدّولة الطُّولُونيّة والدّولة الإخشيدية .

ولما وصل حباسة إلى عبيدالله أمر بقَتله على ما كان من انهزامه .

ثم خرج أبوالقاسم بابنه إلى الديار المصرية . وكان خروجُه يوم الاثنين غُرّة ذى القَعدة ، سنة ستٍّ وثلاثمائة ، وَوصَل إلى الإسكنْدَرية فى شهر ربيع الآخر سنة سبعٍ وثلاثمائة ، فخرجَ عنها عامل المقتدر ، وملكها أبوالقاسم . ثمّ ملَك الفَيّوم والأُشمونين ، وغير ذلك . وأقام نحو سنتين . ثمّ وقع الفنَاء فى عسكره ، وماتت خيلُهم ؛ وجاء مُؤنس من بَغداد واجتمعت عليه العساكر كما ذكرنا ، فعجز عن قتالهم ، فرجع إلى أفريقية . وكان وصولُه إلى المهديّة لعشر ليالٍ مضيْنَ من شهر رمضان سنة تسع وثلاثمائة .

ذكر خروج أبى القاسم إلى بلاد المغرب [٣٦]
وبنائه مدينة المسيلة

قال : وفى سنَة خمْس عشرة وثلاثمائة خرج أبوالقاسم ، ولىّ العَهد ، إلى بلاد المغرب فى عسكرٍ عظيم وكان خروجه من المهديّة فى يوم الخميس لسَبعٍ مضَيْن من صَفر منها ، ففتح مزاته ، وهوارة ، ومطماطة ، ولماية ،

---

(١) ورد هذا الحدث فى أحداث سنة ٣٠١ هـ فى كل من الكامل جـ ٨ ص ٨٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨ . وانظر ما سبق عن ذكر هذه الحوادث بعد انتهاء الدولة الطولونية .

وكل من خالطهم من الصُّفْرِيّة[١] والإباضيّة[٢] وبلغ إلى ما وَرَاء تاهرت[٣] . ولمّا انصرف من سفرته اختط مدينة الْمَسِيلة[٤] برمحه ، وأمر عليّ بن حمدُون الأويسى ببنائها ، واسْتعمله عَلى المحمدية فبناها وحصَّنها ، وكانت خطّةً لبنى كملان فأخرجهم منها ، وأمرهم أن يرتفعوا إلى فَحْص[٥] القيروان ، وانتقل الناس إليها وعظم أمرها .

ذكر وفاة عُبَيْد الله المهْدىّ وشىء من أخبَاره

كانت وفاتُه ليلة الثّلاثاء ، النّصف من شهْر ربيع الأول[٦] ، سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ؛ وهو ابنُ ثلاثٍ وستّينَ سنة . وكانت إمارتُه منذُ وصل

---

(١) الصفرية : أصحاب زياد بن الأصفر ــ الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٧ .

(٢) الأباضية : أصحاب عبد الله بن إباض ــ الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٤ .

(٣) « تهرت » فى الأصل .

(٤) المسيلة : بالفتح ثم الكسر ، والياء ساكنة ولام ، مدينة بالمغرب تسمى أيضًا « المحمدية » ــ معجم البلدان .
وورد فى أخبار الدول المنقطعة « بنى عبد الرحمن المتسمى بالمغرب بمحمد المدينة المعروفة بالمحمدية » ص ١١ .

(٥) فَحْص ــ فحوص : كل موضع يُسكن ــ القاموس .

(٦) « فنعى صبيحة يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من جمادى الآخر » فى افتتاح الدعوة ص ٣٢٩ ، وفى طبعة أخرى « ربيع الآخر » ــ والافتتاح هو المصدر الوحيد الذى ضبط الوفاة فى شهر جمادى الآخر لا فى ربيع الأول ــ وقد يرجع السبب فى الاختلاف على تاريخ الوفاة إخفاء خبر موته لمدة سنة حتى يدبر ابنه أمره ــ انظر الكامل جـ ٨ ص ٢٨٤ .

إلى رَقَّادة إلى يوم وفاتِه أربعًا وعشرين سَنة وعشرة أشهر[١] وعشرين يومًا .

قال : ولمّا مات كتَمَ ابنُه أبوالقاسم موتَه سنةً حتى دبَّر أمره .

أولاده : أبوالقاسم عبدالرحمن ، ولىُّ عهده وتسمَّى بالمغرب محمدًا .

أبوعلىّ أحمد ، مات بمصر للنِّصف من ذى القَعدة سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ودفن بالقصر .

أبوطالب موسى ، مات بمصر فى ذى القعدة سنة ثلاثٍ وستين وثلاثمائة ودفن بالقصر .

أبوالحسين عيسى ، تُوفِّى برَقّادَة فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة .

أبوعبدالله الحسين ، تُوفِّى بالمغرب فى أيّام القائم .

أبوسليمان داود ، تُوفِّى بالمغرب فى أيام القائم .

وكان له سبعُ بنات ، ومن السَّرارى أمّهات الأولاد ستّة .

قضاته : أبوجعْفر محمّد بن عمر[٢] المرورزى ، مات بعد أن عُزل فى سنة ثلاثٍ وثلاثمائة ، ثم إسحاق بن المنهال ؛ ثمّ محمّد بن محفوظ المصمودى ، مات فى المحرم سنة سبعٍ وثلاثمائة ؛ ثم محمّد بن عمران النفطى ، مات فى سنة عشرٍ وثلاثمائة ، ثم إسحاق بن المنهال ثانيًا .

---

(١) « وشهرا واحدا » فى افتتاح الدعوة ص ٣٣٠ ، و « شهرًا » فى الكامل جـ ٨ ص ٢٨٤ . وما أورده النويرى يتفق مع ما سبق ذكره من أن المهدى دخل إلى رقادة « لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين » ــ انظر ما سبق ، وانظر أيضًا اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٣ .

(٢) « عمار » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع ما سبق .

حاجبه : جعفر بن على .

حامل مظلّته : [مسعود الصقلبى ، ثم غرس الصقلبى][1]

ذكرُ بيْعة القائم بأمْر الله

هو أبو القاسم محمّد ، وقيل أبو العبّاس ، ويدعى نزارًا ، وكان اسمُه بالمشرق عبد الرحمَن فتَسمى محمّد بن عبيد الله المهدىّ ، وهو الثّانى من مُلوك الدّولة العُبَيْدِيّة ؛ بايعَ لَهُ أبوه بولاية العهد كما تقدَّم ، ثم جُدِّدت لهُ البَيْعةُ بعدَ وفاة أبيه بِسنة ، فإنَّه كتَم وفاتَه سنةً كاملةً ، حتّى مَهَّد قواعدَ دَولته ، ثم أظهَرها . واستقلَّ بالأمر وهو ابنُ سبعٍ وأربعين سنة ، فقام مقَام أبيه ، واقتفى آثارَه ، وأظْهرَ عليه من الحزن ما لم يُسْمَع بمثله ووَاصَل الْحُزْنَ لفَقْده ، ولم يَرْقَ[2] سريرًا ، ولا ركب دابةً منذ أفْضى إليه الأمر إلى أن مَات إلَّا مَرّتين ، مرَّةً صلّى على جنازة ، ومرَّةً صلّى بالنّاس العيد . وافتُتِحت فى أيّامه مدائنُ كثيرةٌ من مُدُن الروم ؛ وثارَ عليه عدَّة ثُوّار فتمكّن منهُم ؛ فكان مِمّن ثار عليه ابنُ طالوت القُرَشىّ ، فسارَ إلى ناحية طرابلس وزَعَم للبربر أنّه المهدىُّ فقامُوا معَه واتبعُوه ، فزحَفَ بهم على مدينة طرابلس فى عددٍ عظيم ، ثم تبيَّن للبربر أمره فقتلُوه ، وأتَوْا برأسه إلى أبى القاسم .

قال : وأوّلُ ما بدأ به أنه أمر باتّخاذ أنواع السّلاح فى سائر البلاد ،

---

(١) [ ] إضافة من أخبار الدول المنقطعة ص ١٣ لاستكمال النص ، والمظلة هى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائر من فضة ، مطلية بالذهب ، تحمل على رأس السلطان فى العيدين ، وهى من بقايا الدولة الفاطمية — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٩ ، جـ ٤ ص ٧ ، ٨ .

(٢) «لم يرقد سريرا» فى افتتاح الدعوة ص ٣٣١ .

وأخرج ميسور[١] الصقلبي فى عددٍ عظيمٍ إلى المغْرب ، فانتهى إلى مدينةِ فَاس ، وهزَم ابن أبي العافية ، وأخذ ابْنَه الثورى أسيرًا ، وأخرج بعدَ ذلك يعْقُوب بن إسحَاق على أُسْطولٍ عظيم إلى بلد الرُّوم ، فافتتح بلد جنوة .

وكان مِمّن خرج عليه أبُو زيد مُخَلَّد بن كَيْداد[٢] ، فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وهو رَجُلٌ إباضىّ ، يُظهر الزُّهد ، وأنَّه إنما قام عليهم غضبًا لله . وكان لَا يَركَب غير حِمار ، ولا يلْبَس إلَّا الصُّوفَ . وكان بَيْنَهُا وقائعُ كثيرة ، فملك أبوزيد جميع مُدُن الْقَيْروان ، ولم يَبْق للقائم غير المهديّة ، فحاصرها أبوزيد إلى أن هلك القائم . وكان بيْنَه وبين ابنه المنصور ما نذكرُه إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة القائم بأمر الله [٣٧] وشىء من أخباره

كانت وفاته بالمهديّة فى يوم الأحد الثّالث عشرَ من شوّال سنة أرْبعٍ وثلاثين وثلاثمائة . ومولده بسَلمْية التى بالقُرب من مدينة حماة من الشّام فى المحرّم سنةَ ثمانين ومائتين[٣] . وكان عُمره أربعًا وخمسين سنة وتسعة أشهر ، ومدة ملكه ثنتى عشرة سنةً وستّة شهور وأيّامًا .

أولادُه : كان لهُ من الأولاد الذّكور سبعة ، وهم : أبو الطاهر إسماعيل قام بالأمر بعده ؛ وأبو عبدالله جعفر ، توُفّى فى أيّام المعزّ ؛ وحمزة ،

---

(١) « منشورًا الصقلبى » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٣٣٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٦ .

(٢) من قبيلة زناته من مدينة توزر ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٥ ، وفيه « أبو يزيد مخلد » .

(٣) « ولد بسلمية سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقيل ولد فى المحرم سنة ثمان وسبعين » ــ كنز الدرر جـ ٦ ص ١١٠

وعدنان . وأبو كتامة قَضَوْا بالمغرب ؛ ويوسف ، مات ببَرقة سنة اثنتين وستّين وستّمائة ؛ وأبو القرَان عبدالجبار ، تُوفّى بمصر فى سنة سبعٍ وستّين وثلاثمائة ، وأربعُ بنات وسبْع سَرَارٍ .

قضاته : إسحاق بن أبى المنهال إلى أن تُوفّى ؛ ثم أحمد بن بحر إلى أنْ قتله أبو زيد (١) لمّا فتح إفريقية فى صفر سنة ثلاثين ؛ ثم أحمد بن الوليد ، ولّتْه الرَّعيّةُ فأقره .

حاجبُه : جعفر بن على حاجب أبيه .

ذكر بيعة المنصور بنصرالله

هو أبو الظّاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله بن عبيْدالله المهدىّ ، وهو الثالث من ملوكهم . بايع له أبُوه القائم بأمْر الله فى حياته ، وولّاهُ حرْبَ أبى (٢) زيد ؛ وهَلك أبُوه القائم بأمر الله ، فأخْفى إسمَاعيل موته ، وناصب أبَا زيد حتّى رجَع إلى المهْديّة ، وتوجّه أبو زَيد إلى سُوسَة فحاصرَها ، فأدركه المنصُور إسماعيل فطرده عنها ؛ ووَلَى عليه الهزائم إلى أن أسَرَه فى يوم الأحد لخمسٍ بَقِين من المحرَّم سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة ؛ فمات بَعْد أسره بأربعة أيّام من جراحةٍ كانت به ، فأمَر المنصُور بسَلْخِهِ ، وحَشَى جِلْدَه قُطنًا وصَلبَه ، وبنَى مدينتَه المسمَّاة بالمنصُوريّة فى موضع الْوقْعةِ ، واستوطنها فى سنة سبعٍ وثلاثين وثلاثمائة .

---

(١) « أبو يزيد » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١٧ .

(٢) « ابن » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع ما سبق .

وكان المنصُور شجاعًا بليغًا يرتجِلُ الخطب . حكى المَرْورُوذىّ قال : خرجت مع المنصُور يومَ هُزم أبوزيد ، فسايَرتُه وبيده رمحان[١] فسقط أحدهما مرارًا وأنا أمسحُه وأناوِلُه إيّاه وتفاءلْت له بذلك . فأنشدت :

فألْقت عصاها واستَقرَّ بها النّوى كما قرَّ عينًا بالإيـاب المسَافِـر

فقال : ألَا قلتَ ما هُو خيرٌ من هذا وأصدق ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾[٢] .

ذكر وفاة المنصُور بنصْرالله وشىء من أخباره

كانت وفاتُه فى يوم الجمُعة آخرَ شوّال سنةَ إحدى وأربَعين وثلاثمائة . وكان سببُ وفاتِه أنّه خرج فى شهْر رمضانَ من السَّنة إلى جَلُولاء[٣] ومعه جاريتُه قضيب ، وكان يحبُّها ، فجاء مطرٌ عظيم وَريحٌ شَديدةٌ بجلولاء واشْتدّ البردُ بها ؛ فخرجَ منها على فرسٍ وقَضِيبُ فى غمازيه وهو يريد المنصُوريّة ، ودَامَ عليه المطَر والبرْد .

قال أبوالرّقيق : أخبرنى مَنْ كان معَهُ ، قال : كنّا ننظُر إلى العبيد السُّودَان على الطريق قُعودًا فنتأمّلُهم فنجدُهم موتَى ، وقد جَفُّوا من البرد . ووصل المنصور إلى قَصره آخرَ النّهار ، فدخل الحمّام ، فاعتَلَّ لِوَقته . وصلّى العيدَ

---

(١) « ريحان » فى الأصل ، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة ص ١٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٨٨ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ١١٧ ــ ١١٩ .

(٣) جلولاء : مدينة بأفريقية ، بينها وبين القيروان ٢٤ ميلاً ــ معجم البلدان .

بالنّاس فى مَبَادِئ عِلّته ، ثم اشتدّت به ، فماتَ فى التّاريخ [المذكور][1] ، وأوصى ابنه أنْ يُمنع من النَّوح عليه .

وكان مولدُه بالقيْروان ، فى سنة اثنتَين وثلاثمائة ، وكان عمرُه أربعين سنة .

وقال ابنُ الرّقيق : إنّه وُلد برَقّادَة فى سنة إحْدَى وثلاثمائة ، وكان عمرُه أربعين سنة تقريبًا . ومدَّة ملكه سَبْعُ سِنين وأيّام[2] .

أولاده الذكور خمسة ، وهم : أبو تميم معدّ ، وهاشم ، وحيدرة ، ماتَ بمصر سنة اثنتَين وثمانين وثلاثمائة ، وأبو عبدالله الحسين ، وأبو جعفر طاهر . وكان له خمسُ بنات ، وثلاثُ أمّهات أولاد .

قضاته : أحمد بن محمد بن الوليد ، ثم محمد بن أبى المسطور ، ثم عبدالله بن هاشم ، ثم على بن أبى شعيب ، عَلَى المنصُوريّة . ثُم أبو محمد زُرارة بن أحمد ، ثم أبوحَنيفةَ النّعمان[3] بن محمّد التّيمى .

حاجبه : جعفر بن على ، حاجب أبيه وجدّه .

[٣٨] ذكر بيعة المعزّلدين الله

هو أبو تميم معدّ بن المنصُور بن القائم بن المهدىّ ، وهو الرّابع من ملُوك الدّولة العُبيْديّة . وأول من مَلَك مصر والشّام منهم .

---

(١) [ ] إضافة تتفق مع السياق .

(٢) « وستة أيام » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١٩ .

(٣) هو صاحب كتاب افتتاح الدعوة .

صار الأمرُ إليه ببلاد المغرب بعد وفاة أبيه المنصور ، فى آخر شوال سنة إحدَى وأربعين وثلاثمائة ، فدبَّر الأمُور وأحكَمها إلى يوم الأحد السّابع مِنْ ذى الحجة من السنة ، فجلَس على سرير الملك ، ودل عليه الخاصّة وكثيرٌ من العامَّة فسلّموا عليه بالخلَافة ، وتلقَّب بِالمعزّ لدين الله . ولم يُظْهر على أبيهِ حُزنًا ؛ وكان عمرُه يوم وَلِىَ أرْبعًا وعشرين سنة . وأرسل إلى جميع مَنْ بالمهديَّة من عُمُومته وعُمُومة أبيه ، فأتَوْه وسلَّموا عليه بالإمارة ، فأخذ عليهم البيعة ، ومشَوْا بين يديه رجَّالَةً ، وأرضاهم بالمصلّاة . واستقام له الأمر . وصلّى بالنّاس عيد الأضحى ، ثم صرفَهُم إلى المهديّة .

ودخل فى طاعته مِنَ العُصاة مَنْ عَصى على غيره ممّن كان بجبل أوراس من بنى كملان ومليلة ، وهما من قبائل هَوّارة .

ثمّ بعث القائدَ جوهرًا فى يوم الخميس لِسبعٍ خلَوْن من صَفر ، سنة سبعٍ وأربعين وثلاثمائة ، فى جيشٍ عظيم إلى المغرب ، فسار حتّى بَلَغ البحر المحيط ، فأمر أن يُصَاد من سَمَكِه ، وجعلَهُ فى قُلَّةٍ وجعل فيها الَماء ، وحملَها إلى المعزّ صُحْبة البريد ؛ وجعل فى باطن كتابه من ضريع البحر . وعاد وفَتَح فاس يوم الخميس لعشرٍ بَقِينَ من شهر رمضان سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة ؛ واستْخلَف عليها وعلى سجِلْمَاسة وتاهرت وعاد جوهرٌ من المغرب إلى رَقّادَة يوم الجمعة لاثنَتَىْ عشرة [ليلة][1] بقيت من شعبان .

وفى سنة خمسين[2] وثلاثمائة ، فى النّصف من المحرّم ، غلبت الرّوم على

---

(١) « ليلة » إضافة يقتضيها السياق .

وانظر تفصيلات فتوحات جوهر بالمغرب فى : أخبار الدول المنقطعة ص ٢١ ـ ٢٣ ، الكامل جـ ٨ صفحات ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ .

(٢) « خمس » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث .

جزيرة إقريطش [١] ، ففتحوا المدينَة وقتلوا مِنْ أهلها مائتى ألف رجل وسَبَوْا مِن النساء والصِّبيان مثل ذلك ، وحرَّقوا المصَاحف والمساجد ؛ وكانُوا قد أتَوْا فى سبعمائة مركب .

وفى سنة إحدى وخَمْسين وثلاثمائة بعثَ المعزّ لدين الله عُمّاله من بَرْقة إلى سجِلْماسَة ، إلى جزيرة صقلّية ، وأمرهم أن يكتُبوا جميعَ الأطفال الّذين فى أعمالِهِم من الخاصَّة والعامَّة ليُختنوا مع أوْلاده ، فبلغُوا عدَّةً لا تُحصى . فلمّا كان فى أول يَوم منْ شهرِ ربيع الأول من هذه السنة ابتدأ بطُهور أولاده وأهْل بيته وأولاد خاصَّته من الكُتّاب ورِجال الدّولة وغيرهم ، وأعطاهم الصِّلات والكساوى . قال : وازْدَحم النّاس فى يوم الاثْنَين لإحدَى عشرةَ [ليلةً] [٢] خلت من شهْر ربيع الأول فمات من الرّجال مائة وخمسون نفسًا .

وفى سنة خمسٍ وثلاثمائة أمر المعزّ لدِين الله بحَفْر الآبار فى طريقِ مِصْر وأن يُبنى لَهُ فى كلِّ موضعٍ يُقيم به قُصور ، فأخذُوا فى عمل ذَلك ، حتّى تمّ ، وفى يوم الجمُعة لِلَيْلةٍ بقِيَت من جُمادى الآخرة ، سنةَ سبعٍ وخمسين ، وردت النُّجُبُ من مِصْر بوفاة كافور الإخشيدى ، وكانت وفاتُه لعشرٍ بقينَ من جُمادى الأولى . كما تقدم .

---

(١) أقريطش : بفتح الهمزة وتكسر ، جزيرة فى بحر المغرب ، يقابلها من أفريقية لوبيا ـ معجم البلدان ، وهى حاليًا جزيرة كريت بالبحر المتوسط .
ونجح البيزنطيون فى استرداد جزيرة كريت والاستيلاء على عاصمتها سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١م ـ بعد حصار دام ثمانية أشهر ، وذلك فى عهد الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى وتحت قيادة نقفور فوقاس ـ المسلمون والبيزنطيون ص ١٢٤ .

(٢)] إضافة تتفق والسياق .

ذكر خبر إرسال القائد جوهر الكاتب بالعساكر إلى الدّيار المصريّة

وفى سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة قَدِم القائدُ جوهر من المغرب بعَسْكرٍ عظيم من كتامَة والجند والبربر ؛ فأمرهُ المعزُّ بالاسْتعداد والخُروج إلى مصر. فأقام بقصر الماء بالقُرب من المنصُوريَّة ليجتمع إليه الحشود ؛ وفتح المعز بيْتَ المال وَوضَع العطاء .وحَشَد من إفريقية من الكتاميين والزويليين والجند والبربر ، وأعطى من مائة دينارٍ إلى عشرين دينارًا حتى عمَّهم بالعطاء ، وتصرفوا فى القيروان وصبره فى ابتياع ما يحتاجُون إليه ، ثم أمر المعزُّ بالرَّحيل ، فرحل فى يوم السّبت لأرْبَع عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الأول منها . وفارقه خمسمائة فارس من البربر ، فجرَّد خلفَهُم عدّةً من الوُجوه فلم يَرْجعوا ؛ فقال المعز : الله أكرَمُ أن ينصرَنا بالبَرْبَر ، ثم سار جوهر بجميع مَنْ معه من العساكر ، ومعه ألف حمل من المال ، ومن السلاح والعُدَد والكراع ما لايوصف ، وأغَذَّ السير حتى أقبل على الدّيار المصرية .

[٣٩] ذِكر خبر وصُول جَوْهر القائد بالعسَاكر إلى الدّيار المصرية

وما كان بينه وبين الإخشيدية والكافورية من المراسلة فى طلب الأمان وتقريره الصّلح

ونكثهم وقتاله إياهم إلى أن ملك الدّيار المصرية واختط القاهرة .

قال ابن جلب(١) راغب فى تاريخ مصر : وفى جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة وردَت الأخبار إلى مصر بقدوم القائد جوهر ، فاضطرب المصريون لذلك اضطرابًا شديدًا ، ووقع اتّفاقُ أرباب الدّولة بحَضْرة الوزير جَعفر بن الفَضل على مُراسَلته فى الصُّلح وطلب الأمان ، وإقْرارِ ضِيَاعهم وأعمالِهم فى إيديهم . فراسَلُوه فى ذلك. واشْتَرط تحرير سويران(٢) ألّا يجتمع مع القائدِ جَوْهر ، وأن يكون له الأشْمونين إقطاعًا ، وتَقلُّدَ مكّة والمدينة ، ويَتَوجّهُ فيقيم بالحجاز ، وسألوا الشّريف أبا جعفر مُسلم الْحسَنى فى المسيرِ برِسَالتهم إلى جَوْهر ، فأجابهم ، وشَرَط أن يكون معَهُ جماعةٌ من الأعْيَان ، فجهَّزوا معه أبا إسماعيل إبْراهيمَ بن أحمد الزّينبى ، وأبَا الطيّب العباس بن أحمد العبّاسى والقاضى أبا طَاهر ، وغيرهم . وكتَب الوزير كتابًا بما يُريد .

وسار أبوجعفر بمَنْ معهُ فى يوم الاثْنَين لاثْنَتَىْ عشرة ليلةً بَقِيَتْ مِن شهْر رجب من السَّنة ، وقيل لِلَيْلةٍ بقيت منه ، فلَقِى القائدَ جوهرًا قد نزل بتُروجَه فاجتمعُوا به فبالغ القائدُ فى إكرام الشّريف ، وأدى الشّريف إليْه الرسَالة وأعطاه كُتُب الجماعة ، وعرَّفَه ما التمسوه ، فأجابَهُم إلى ذلك ، وكتب كتابًا بالأمان نُسخَتُهُ .

« بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم . هذا كتابٌ من جوهر الكاتب ، عبد أمير

---

(١) هو محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب ، المعروف بابن ميسر ، والمتوفى سنة ٦٦٧ هـ/١٢٦٨ م ــ المنهل الصافى .

وكتابه : أخبار مصر ، نشر حديثا بالقاهرة بتحقيق أيمن فؤاد سيد ، وصدر عن المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٨١ بعنوان : المنتقى من أخبار مصر » .

وسوف نشير إلى ما يوجد فى هذه الطبعة فى هذا الجزء من نهاية الأرب .

(٢) « تحرير الشوبزانى » فى وفيات الأعيان ــ فى ترجمة جوهر ــ جـ ١ ص ٣٧٨ ، « ابن الشويزانى » فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٠ .

المؤمنين المعزّ لِدِين الله صَلَوات الله عليه ، لجماعة أهل مصرَ منَ السّاكنين بها وبغَيْرها (١) .

إنّه قد وَرَد منْ سألتمُوه الترسُّل إلىَّ والاجتماع مَعى ، وهم (٢) : أبوجعفر الشّريف أطال الله بقاءه ، وأبوطاهر إسماعيل الرئيس (٣) ، أيّده الله ، وأبوالطيب الهاشمىّ ، أيّده الله ، والقاضى أبو طاهر (٤) أعزه الله ، وأبوجعفر أحمد بن نصر أعزه الله .

فذكرُوا عنكم أنّكم التمستُم كتابًا يشتملُ على أمانِكمْ فى أنفُسِكم وأموالكم ، وبِلادِكم ونَعَمِكُم (٥) وجميع أحوالكم ؛ فعرَّفتهُم ما تقدَّم به أمرُ مولانا وسيدّنا أمير المؤمنين ، صلواتُ الله عليه ، مِن نَصْرِه لكم (٦) .

لتَحْمَدوا اللهَ (٧) تعالى على ما أوْلاَكم وتحمدُوهُ على ما حباكم (٨) ، ولْتَدْأَبُوا (٩) فيما يلزمكم ، وتُسَارِعُوا للطَّاعة (١٠) العَاصِمة لكم ، العائدة بالسَّعادة عليكم ، المقْضِيَة بالسلامة لكم (١١) ، وهو أنّه صلواتُ الله عليه ،

---

(١) « أهل مصر الساكنين بها ، من أهلها ، ومن غيرهم » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٣ .

(٢) « وهو » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا ، ويتفق مع السياق .

(٣) « الرسى » فى اتعاظ الحنفا .

(٤) « أبو طاهر » ساقط من اتعاظ الحنفا .

(٥) « ونعمكم » ساقط من اتعاظ الحنفا .

(٦) « وحسن نظره لكم » فى اتعاظ الحنفا .

(٧) « فلتحمدوا الله » فى اتعاظ الحنفا .

(٨) « وتشكروه على ما حماكم » فى اتعاظ الحنفا .

(٩) « وقد أبوا » فى اتعاظ الحنفا .

(١٠) « إلى طاعته » فى اتعاظ الحنفا .

(١١) « العائدة بالسلامة لكم ، وبالسعادة عليكم » فى اتعاظ الحنفا .

لمْ يكُنْ إخراجُه هذه العَساكر [1] المنصُورة ، والجيوش المظفَّرة ، إلا لِمَا فيه إعزازُكم وحِمايتُكم ، والجهادُ عنكم ؛ إذْ قد تخطفتكم [2] الأيدى ، واستطال عليكم الْمُشرِك [3] ، وأطمعتْه نفسُه بالاقتدار على بلادكم [4] [فى هذه السنة ، والتغلب عليه ، وأسر من فيه] [5] والاحتواء [6] على نَعَمِكم وأمْوالِكُم ، حسب ما فعله فى غَيْركم مِنْ أهل بلدان المشْرق ، وتأكّدَ عزمُه واشتدَّ كلبه ، فعاجَله مَوْلانا وسيِّدُنا أمير المؤمنين ، صلواتُ الله عليه ، بإخراج العساكر المنصورة وبادَرَه بإنفاذ الجيوش المظفَّرة لتقاتله [7] دُونكم ، وتجاهدَهُ [8] عَنكم وعن كافّة المسْلمين بِبَلَد المشرق ، الّذين عمَّهم الخزْى ، وعلَتْهم [9] الذِّلّة ، واكْتَنَفَتْهم المصائب ، وتتابعت لَدَيْهم [10] الرَّرايا ، واتَّصلَ عندهُم الخوف ، وكثُرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعَلَا صياحهم [11] ، ولم يُغِثْهم [12] إلَّا مَنْ أرْمَضَهُ [13] حالُهم ، وأبكى عنَه ما نَالُهم ، وأسْهَرَه [14] ما حلّ بهم ، وهو مولانا وسيِّدُنا [فرَجًا بفضل الله ،

(١) « للعساكر » فى اتعاظ الحنفا ص ١٠٤ .
(٢) « تخطفكم » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا .
(٣) « المستذل » فى اتعاظ الحنفا .
(٤) « بلدكم » فى اتعاظ الحنفا .
(٥) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .
(٦) « والاحتما » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا .
(٧) « لتقاتله » ساقط من اتعاظ الحنفا .
(٨) « وبجاهدته » فى اتعاظ الحنفا .
(٩) وشملتهم » فى اتعاظ الحنفا .
(١٠) « لديهم » ساقط من اتعاظ الحنفا .
(١١) « صراخهم » فى اتعاظ الحنفا .
(١٢) « فلم يغثهم » فى اتعاظ الحنفا .
(١٣) « إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم » فى اتعاظ الحنفا .
(١٤) « وأسهرها » فى اتعاظ الحنفا .

وإحسانه لديه ، وما عوّده وأرجاه عليه ، استنقاذَ من أصْبَح منهم فى ذلٍّ مقيم ، وعذاب أليم][1] أميرُ المؤمنين ، صلوات الله عليه ، وأن يُؤمَّن من استولى عليه المهل [2] ويفرخ روع مَنْ لم يزل فى خَوفٍ ووَجل . وآثر إقامَة الحجّ الذِى تعطَّل ، وأهمَل العبادُ فروضَه وحقوقه ، لِلْخوفِ [3] المستولى عليهم ، و[إذ] [4] لا يأمنون على أنفسِهِم ولا على أموالهِم ، [و] [5] إذ قَدْ وقعَ [6] بهم مرّةً بعد أخرى ، فسُفكت دِماؤهم .

وأطال جوهر فى كتابه [7] ، وحضّهم على الطّاعة ؛ وأشْهد عليه الشُّهُود فيه ، وخَلعَ على الجماعة ،وحملهم .

قال : ولما توجّه الشريف وَمَنْ معه إلى القَائد جوهر ، اضطرب بعْدَه البلدُ اضطرابًا شديدًا ، وأخذت الإحشديّة والكافوريّة فى إخراج مضارِبِهم ، وقام رجل من أهل بَغْداد،بعرف بابن شعبان ، يومَ الجمعة فى المسجد قبْل الصّلاة فقال : أيها النّاس قد أظلّكُم من أخْربَ فَارس وسَبَى أهلها ، وذكر ما حلَّ بأهل بلاد المغرب منه ، وقال : القوا الرّجل القليلَ المعرفة،يعنى الوزيرَ جعفر ابن حنزابة ، فإنّه قد شرَع فى إتلَاف بَلدِكم وسَفْك دمائكم بمراسلة هذا الرّجل،يعنى القائدَ جوهرًا ، فسمع النّاس كلامَه ،

---

(١)[ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٢) هكذا فى الأصل ، وفى اتعاظ الحنفا ، ورجح محقق اتعاظ الحنفا أن تكون « الوهل » بمعنى الفزع .

(٣) « لخوف » فى اتعاظ الحنفا .

(٤) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٥) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٦) « أوقع » فى اتعاظ الحنفا .

(٧) انظر بقية الكتاب فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٤ ـ ١٠٧ .

ورجعوا عما سألوه من الأمان . وبلغ الشّريفَ ومَنْ معه انتقاضُ الإخشيديّة والكافوريّةِ ، وعزمهُم على القتال ، فكتموه عن القائد جوهر خوفًا أن يعتقلهم ، وبادَرُوا [٤٠] بالعَوْد وساروا . فبلغَ القائدَ ذلك بعد رحيلهم ، فردَّهم ، وقال : قد بلغنى أنّ القوْم قد نقضُوا ورجعوا ، فردُّوا علىَّ خطِّى فرفقوا به ودارَوْه ، وقالوا : إذًا يُظْفِرُك الله وينصرُك . فقالَ لِلقَاضى : ما تقولُ فيمن أراد [أن] (١) يشقّ مدينةَ مصر فيجعلها طريقًا لجهاد المشركين والحجِّ إلى بيت الله الحرام ؟ فمنعوه ، من الجوازِ له أن يقابلهم . فقال : نعم ، اكتب خطّك بذلك(٢) .

ثم سار الشريف ومَنْ معَه إلى مِصر فوصلوها لسبعٍ خلَوْن من شعبان ، فركب الوزيرُ والنّاس إليهم ، واجتمع الإخشيديّة والكافوريّة وغيرهم ، فقرأ عليهم السّجل الذى كتبه القائد ، وأوصل إلى كلِّ واحدٍ جوابَ كتابه بما أرادَ من الأمان والولاية والإقطاع . فلما قرءُوا الكتب خاطبوا الشّريف بخطابٍ طويل ؛ فقال نحرير ما بيننا وبينه إلّا السيف فقدَّمُوا عليهم نحرير سويرَان ، وعبأوا عساكرهم ، وعدّوا إلى الجيزة والجزيرة ، وحفِظُوا الجسور .

ووصل جَوْهَر ، وابتدأ القتال بينَهم فى حادى عشر شعبانَ . ثمّ مضى القائدُ جوهر بعدَ ذَلك إلى مُنْيَة الصّيادين (٣) ، وأخذ المخاضة بمُنْيَة شلقان واستأمن إليه جماعةٌ من أهل مصر وغلمانهم فى مراكب ، ووَقَع القتال ،

---

(١) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام .

(٢) « فقال : ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضى إلى الجهاد لقتال الروم فمنع ، أليس له قتالهم ؟ ، فقال له القاضى : نعم ، فقال : وحلال قتالهم ؟ ، قال : نعم » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٨ .

(٣) منية الصيادين : من القرى القديمة ، وهى حاليًا جزء من وراق الحضر ، التابعة لمركز إمبابة بمحافظة الجيزة ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ٣ ص ٦٥ .

وزحف جَعْفر بن فَلاح ، بالرجالِ ، وقاتل عساكِرَ مصر ، ووقَعَ القتلُ فى الإخشيديّة والكافوريّة فانهزَمُوا ليلاً ودخلوا مِصْر وأخذوا مَا فى دُورِهم ، وسارُوا إلى الشّام .

قال : ولما انْهزمَ ركِبَ الناس إلى دار الشّريف أبى [١] جعفر مسلم وسألوه كِتابًا إلى القائد جَوْهر بإعَادة الأمان عليهم ؛ فكتب كتابًا إليه يهنئُه بالفتح ، وسأله إعَادَة الأمان للمصريّين ؛ فكتب القائدُ أمانًا وبعثه إلى الشّريف ، فقرأه على النّاس ، وهو :

« بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وصل كتاب الشّريف ، أطال اللهُ بقاءه وأدَامَ عِزّه وتأييدَه وتمكينَه [٢] ، يهنّئُ بما هيأه الله [٣] من الفتح المبارك [٤] ، « وهو ، أيّده الله ، المهنأ بذلك لأنها دَوْلتُه ودولة أهله ، وهو المخصُوص بذلك » [٥] وأمّا ما سأل من الأمان وإعادَةِ الأمان الأول ، فقد أُعيدَ إليه ما طلب ، وجعلت إليه عن مولانا وسيدِنا أمير المؤمنين ، صلواتُ اللهُ عليه ، أن يُؤمّن النّاس كيف شاء بما شاء [٦] . وقد كتبتُ إلى الوزير ، أيده الله ، بالاحتياط على بيوت [٧] الهاربين إلى أنْ يدخلوا فى الطّاعَة ، وما دَخَلت فيه

---

(١) « ابن » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق .

(٢) « وعلوه » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٠ .

(٣) « وهو المهنأ بما هنأ به » فى اتعاظ الحنفا .

(٤) « الميمون » فى اتعاظ الحنفا .

(٥) « » ساقط من اتعاظ الحنفا .

(٦) « فوقفت على ما سأل من إعادة الأمان الأول ، وقد أعدته على حاله ، وجعلت إلى الشريف ــ أعزه الله ــ أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ــ ويزيد على ما كتبته كيف يشاء ، فهو أمانى ، وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٠ .

(٧) « دور » فى اتعاظ الحنفا .

الجماعة [١] . ويعمل الشّريف أيّده الله ، على لقائى فى يوم الأحد لأربعَ عشرةَ ليلةً تخلو من شعبان [٢] بجماعة الأشراف والعُلماء والثناء ، وأهل البلدان إن شاء الله تعالى » .

فقرأ الشريف الكتاب على الناس وسكّنَهم وهدّأهم ، ففتحوا البلد ، وأخذ النّاسُ فى التجهُّز إلى لقاء القائد جوهر ، وقتل نحرير وميسر وبلال ويمن الطويل . وجِئَ برُءُوسهِم إلى القائد .

قال : وخرج النّاسُ إلى الجيزة والْتَقَوْا القائد ، فنادى منادٍ ينزل النَّاسُ كلُّهم إلا الشَّريف والوزير ، ففعلُوا ذلك ، وسلَّموا عليه واحدًا واحدًا ، وأبوجعفر أحمد بنُ نَصر يعرِّفُه بالنّاس ، والشَّريف أبوجعفر مسلم عن يمينه ، وأبوالفضل الوزير عن يساره .

فلمَّا فرغ السّلام انصرف النّاس ، وابتدأ العسكرُ فى الدُّخول منذُ زوال الشَّمس . فعبرُوا الجسْر بالدُّرُوع والجواشن [٣] ، ودخل القائدُ جوهر إلى المدينة بعد العصر من يوم الثلاثاء لاثنتى عشرةَ ليلةً بقيت من شعبان ، سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة . والبنود [٤] والطّبول بين يديه ، ونزلَ الموضعَ الذى اختطّ فيه القاهرة واختط القصر .

---

(١) « إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة » فى اتعاظ الحنفا .

(٢) « فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٠ .
والمرجح ما أورده النويرى ، فقد اتفقت المصادر على أن دخول جوهر إلى المدينة « بعد العصر من يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان » انظر ما يلى .

(٣) الجوشن ــ الجواشن : مثل الزرد يلبس على الظهر ، ولكنه يتكون من حلقات تتداخل فيها صفائح رقيقة . صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٣ .

(٤) البنود : جمع بند ـ فارسى معرب ، وهو العلم الكبير ، ويذكر ابن خلكان أن هذا البند كان أبيض اللون ــ صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٩ ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٩ .

وأصبح المصريُّون حضَرُوا إليه للهناء ، فوجدوه قد حفر أساس القصر فى تلك الّليلة . قال : ولم يكن فى المكان عمارة ألْبَتّة إلّا بستان كافور . ولم يزل هذا البستان على حالتِه إلى سنة خمسٍ وأربعين وستمائة فعمر مكانه مساكنُ وهو الخطّ الذى يُعْرف الآن بالكافوْرىّ (١) .

قال صاحب كتاب خطط (٢) مصر : لمَّا دخل جوهر القائد واختطّ القاهرةَ قرّر كلَّ جانب منها على أميرٍ من أمراء عَسْكره وأرصدَهُ لبناء تلك (٣) الحارة حَسْبما أمره المعزّ لدين الله فسميت كلُّ حارةٍ باسم مُقَدَّمها أو الطّائفة التى نزَلَت بها . وابتدأ بالعَمارَة فى شهر رَمَضان من السنة (٤) .

قال المؤرخ : ودخل القائدُ جوهر مِصْر ، وبين يديه ألفٌ ومائتا صندوق مالاً (٥) ، وأقام عسكرُه يَدْخُل سبعةَ أيّام . وبعث إلى مولاه المعزّ لدين الله يبشِّرهُ بالفتح .

قال : ولما دخل القائدُ مِصر كان الغلاءُ بِها ، فنادَى مُنادِيه : مَنْ عِنْدَه قمح فَلْيُخرجْه . وفرَّق الصّدقات على النّاس ، وأقرّ أباَ الفضل على الوزارة ،

---

(١) بستان الكافورى : أنشأه الأمير محمد بن طغج الإخشيد ، فلما جاء جوهر إلى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة ، وعرف ببستان كافور ، ثم اختط مساكن بعد ذلك — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٥ .

(٢) هو أحمد على بن عبد القادر ، تقى الدين المقريزى ، المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١ م — وصاحب كتاب : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

(٣) « ذلك » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٤) انظر ذكر بناء القاهرة وما كانت عليه فى الدولة الفاطمية — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٢٦١ ومابعدها .

(٥) « ويقال إن المال كان فى ألف وخمسمائة صندوق » — اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١١ .

وجهَّز جعفر[١] بن فَلاحٍ إلى الشّام .

ذكر إقامة الخُطبة ، وضرب السكة بمصر ، [٤١] للمعزّ لدين الله وما قيل فى الدعاء له على المنبر ، وما نقش على السِّكة

وفى يوم الجمُعة لعشرٍ بَقِينَ من شعبان من السّنة ركب القائدُ جوهر إلى المسجد الجامع العتيق[٢] لصَلاة الجمعة ، ولإقامة الدّعوة . فى عسْكرٍ كثير . وخطب هبةُ الله بن أحمد خليفَة عبدالسميع بن عُمير العّباسى ، لغيبة عبدالسميع . فخطب وعليه البياض ، ودعا للمعزّ لدِين الله . وقال فى دُعائه فى الخطبة الثّانية :

اللّهم صلِّ على عَبْدك ووَليِّك ، ثمرة النُّبوَّة ، وسليل العِتْرة الهادِيَةِ المهديَّة ، عبدالله الإمام مَعدّ أبى تميم المعزّ لدين الله ، أمير المؤمنين ، كما صلَّيت على آبائِه الطاهرين وأسلافه المُنْتَخَبِين[٣] ، الأئمةِ الراشدين . اللهم ارفع دَرَجته ، وأَعْلِ كلمته ، وأوضِحْ حُجَّته ، واجْمَع الأمَّة على طاعته . والقلوبَ على مُوالَاتِه [وصحبته][٤] ، واجعَل الرَّشاد فى مُوافقته ، وَورِّثْه مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ، وأَحْمِدْهُ مبادئَ الأُمور وعواقِبَها ، فإنك تقولُ وقولُك

---

(١) هو جعفر بن فلاح الكتامى ، أبو على ، أحد قواد المعز ، قتل على يد القرامطة سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م - وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٦١ رقم ١٣٨ ، الإشارة ص ٣٠ ـ ٣٢ .

(٢) هو جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٣) « المنتخبين » ساقط من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٤ .

(٤) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٥ .

الحق ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ﴾[١] فلقد امتعض[٢] لِدينكِ ، ولما انتُهك من حرمتك[٣] ، ودَرَس من الجهاد فى سبيلك ، وانقطع من الحجِّ إلى بيْتك ، وزيارةِ قبرِ رسُولِك صلى الله عَلَيْه [وسلم][٤] وأعدَّ للجهاد[٥] عُدَّته ، وأخذ لكل خطْبٍ أُهْبَته فسيَّرَ الجيوشَ لِنَصرك[٦] ، وأنفق الأموال فى طَاعَتِكَ ، وبَذَلَ المجهود فى رضاك ، فارْتَدَع الجاهل ، وقَصُر المُتَطَاول ، وظَهَر الحقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ . فانصُر اللَّهم جُيُوشه التى سيَّرها ، وسراياه التى انْتَدَبها لقتال المشركين [وجهاد الملحدين، والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرم][٧] وإزالَةِ الظُّلْم والتُّهَم[٨] ، وبَسْطِ العَدل فى الأمم . اللَّهم اجْعَل رَاياتِه عاليةً منشُورة[٩] ، وعساكَرَه مُؤَيَّدةً منصُورة[١٠] ، وأَصْلِح به وعلى يَديه ، واجعل لنا منه واقيةً عليه .

وضُربت السّكة على الدّنانير ، وكان على الوجه الواحد لا إلَه إلاَّ الله محمَّدٌ رسولُ الله ، علىٌّ خيرُ الوصيِّين ، ووزيرُ خَيْر المرسَلِين ، محمد رسول الله أَرْسَلَهُ بَالْهُدَى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِه

---

(١) سورة الأنبياء رقم ٢١ آية ١٠٥ .

(٢) « فقد امتعض » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ص ١١٥ .

(٣) « حريمك » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا .

(٤) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٥) « فأعد للجهاد » فى اتعاظ الحنفا .

(٦) « لنصرتك » فى اتعاظ الحنفا .

(٧) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٥ .

(٨) « والتهم والنهم » فى اتعاظ الحنفا .

(٩) « مشهورة » فى اتعاظ الحنفا .

(١٠) « وعساكره غالبة منصورة » فى اتعاظ الحنفا

الْمشرِكُون[١] . وعلى الوجه الآخر دعاء الإمام معدّ ، لتوحيد[٢] الإله الصّمد ، المعزّ لدين الله ، أمير المؤمنين . ضرب بمصر فى سنة ثمانٍ وخمسين [وثلاثمائة][٣] .

قال : وأشْرَكَ القائدُ جوهر فى الدّوَاوين المصريِّين والمَغَاربة ، فجعل فى كلِّ مكانٍ مصريًّا ومغربيًّا .

وفى ذى الحجّة من السنة تكامل بمصر من الإخشيدية وقوّادهم خمسةُ آلاف فارس استأمنوا للقائد جوهر ، وفيهم أربعة عشر رئيسًا فأمَّنهم ، ثم قبض عليهم واعتقلهم ، ثم سَيَّرهم إلى المعزِّ بإفريقية .

وفى سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائة ، فى يوم الجمعة لثمانٍ خلَوْن من شهر ربيع الآخر[٤] ، صلّى القائدُ جوهر فى جامع ابن طولون وأذّن « حىّ على خَيْر العمل » . وهو أوّل ما أُذّنَ به بمصر ، ثم أُذّن بذلك بالجامع العتيق بمصر فى الجمعة الثانية .

---

(١) يوجد اختلاف فى ترتيب العبارات السابقة فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٦

(٢) « بتوحيد » فى اتعاظ الحنفا .

(٣) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٤) « من جمادى الأولى » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٠ ، الكامل جـ ٨ ص ٥٩٠ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٢٥ ، أخبار الدول ص ٢٣ ــ ٢٤ .

وعن ذكر الأذان بمصر انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٦٩ .

ذكر خروج تبر الإخشيدى والقبض عليه

وفى شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ثار تبر الإخشيدى[١] بناحية أسْفل الأرض ، ودعا للخليفة المطيع لله ، وكتب اسمه على البنود ، فراسَلَه جوهر ، فلم يَقْبل ؛ وكان معه أبو القاسم العلوى الأقطينى . فأنفذ القائد جوهرٌ العساكر لقتاله برًّا وبحرًا ، وكان قد كَبَس صَهْرَجت[٢] ونهبها ، فأمَرَ القائد بنَهْب دُورِه بمصر . وقَبَض على صهره فأغار تبر ، ونهب ضياعًا . فوافَتْه العساكر بصَهْرجت ، فانهزم إلى تَنّيس ، وركب البحر الملح يُريد الشام ، ثم إلى الروم ، فأنْفَذَ القائدُ جوهرٌ أسطولا خلفه . فلما بلغ صُور[٣] دخل بها الحمّام ، فقُبض عليه وجماعةٌ من أتباعه وغلمانه ، وذلك فى شهر رمضان منها ، وحُمِل إلى مصر ، فقدِمَها لأربع عشرة ليلةً خلت من شوال ، فأُدخِل على فيل وبين يديه رجلٌ وخَلفه رجلٌ ، وغلامه عجيبٌ على جمل خلفه ، ومعه قرد ، وخلفه غلامُه سرور على جمل ، وجماعةٌ على جمل منكَّسِى الرؤوس ، ثم اعتُقِلوا واستَصْفَى القائدُ أمواله وودائعه ، وطُولب بالأموال ، فلما اشتد عليه الطلب جرح نفسه فماتَ بعد أيَامٍ فسُلخ جَلدُه وحُشِى تِبناً وصُلبَ جلده ، وضُرِب شلوه[٤] .

---

(١) عن تبر الإخشيدى انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٢) صهرجت : من القرى القديمة التابعة لمحافظة الدقهلية ، بالقرب من ميت غمر ، فهناك صهرجت الصغرى تابعة لمركز أجا ، وصهرجت الكبرى تابعة لمركز ميت غمر ــ القاموس الجغرافى ق ٢ ص ١٧٣ ، ص ٢٥٧ .

(٣) صُور : بضم أوله ، وسكون ثانيه ، وآخره راء ، مدينة مشهورة ، على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، تقع حاليًا جنوب لبنان ــ معجم البلدان .

(١) شلو = أشلاء : عضو ــ أعضاء ، شلو الإنسان : أعضاؤه بعد البلى والتفرق ــ القاموس .

ذكر فتوح الشام

[٤٢] قد ذكرنا أن القائد جوهرًا جهَّز جعفر بن فلاح إلى الشام بالعساكر فى سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة ، فسارَ جعفر ولَقِى الحسن بن عبد الله بن طُغج بالرَّملة ، وهو يومئذ صاحب الشام ، فهزمه جعفر بن فَلاح وأسره ، وبعث به إلى مصر ، ثمّ سار إلى دمشق فملكها فى سنة تِسعٍ وخمسين بعد حَرْب شديدةٍ . فكتب إلى القائد جوهر بالفَتْح ، واستأذنه فى المسير إلى غزو أنطاكية (١) . فأذن له القائد فسار نحوها فى نحو عشرين ألف فارس . فأقام مدةً وكثُرت جُموعُه وعساكره وانبسطت يدُه ، ودانت له البلاد ، فحاصر أنطاكية مدة إلى أن اتَّصل به مسير مَدَدِ الرُّوم إليها ، فعاد عنها إلى دمشق (٢)

---

(١) استولى البيزنطيون على أنطاكية فى ذى الحجة ٣٥٨ هـ/أكتوبر ٩٦٩ م ، وذكر ابن الأثير أن استيلاء البيزنطيين على أنطاكية كان فى المحرم ٣٥٩ هـ ــ الكامل جـ ٨ ص ٦٠٣ .

(٢) ورد فى اتعاظ الحنفا « فلما كان فى ربيع الأول سنة ستين أنفذ جعفر غلامه فتوح على عسكر إلى أنطاكية وكان لها فى أيدى الروم نحو من ثلاث سنين .... وبعث عسكرا بعد عسكر إلى أنطاكية ... وورد على ابن فلاح خبر هزيمة عسكره »

وهكذا يؤكد المقريزى أن جعفر بن فلاح لم يسر بنفسه إلى أنطاكية ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٦ ، انظر أيضًا كنز الدرر جـ ١ ص ١٣٣ .

ذكر مقتل جعفر بن فلاح
واستيلاء القرامطة على دمشق

وفى سنَة ستين وثلاثمائة[١] وصَل الحسنُ الأعصم[٢] القَرْمطىّ إلى دمشق . وقيل إنهَ إنَّما قدم بأمر الخليفة المطيع فخرج إليه جَعْفر بن فَلاَح وقاتله ،وكان عليلاً فقُتل وانهزم أصحابه ونُصب رأسُه على دمشق .

وملك القَرمطىُّ دمشق والشام ، وسار إلى الرَّملة فانحاز عنه سعادة بن حَيان[٣] إلى يافا وتحصن بها ، فسارَ إليه وحاربه ، ثم سار يُريد مصر ، فتأهب القائدُ جوهر لذلك ، وحَفَر خندقًا[٤] ، وبنى عليه بابًا كبيرًا ، وركّب عليه الباب الحديد الذى كان على الميدان الإخشيدى ، وبنى عليه بابين آخرين ، وبنى القنطرة على الخليج ، وجعلَها ممرًّا لِمَن يريد المقس[٥] .

---

(١) « فى هذه السنة فى ذى القعدة » الكامل جـ ٨ ص ٦١٤ .

(٢) هو الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطى ، المعروف بالأعصم ــ الكامل جـ ٨ ص ٦١٥ ، وورد ذكره فى الأصل فى عدة مواضع بصور مختلفة . مثل : الأعسم ، الأغشم ــ انظر أيضًا اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٠ .

(٣) كان سعادة بن حيان واليًا على الرملة من قبل جوهر الصقلى منذ شوال ٣٦٠ هـ ـ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٨ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٣٥ .

(٤) سماه المقريزى « خندق السرى بن الحكم » المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٥) المَقس : قرية قديمة على شاطئ النيل ، كانت تسمى أم دنين ، وعندما أنشئت القاهرة كان المقس خارج السور ، وعندما أدار صلاح الدين السور على مصر والقاهرة جعل نهاية السور التى تلى القاهرة عند المقس ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٢١ وما بعدها .

وكاد القَرمطى يأخذ القاهرة ، ثمَّ رجَع عنها بغير سبب عُلِم[١] ، وكبس الفرما ، ثم قاطَع أهْلهَا على مالٍ فحملوه إليه ، وأخذ عاملَها عبدالله بن يوسف ، و قيل إنّه كان مَعَهُ خمسة عشر ألف بغل تحمل صناديق الأموال وأَوَانِىَ الذَهب والفضَّة والسّلاح ، سوى ما تحمل المضارب والخيام والأثقال[٢] .

وفى سنة ستّين وثلاثمائة أيضًا بنى جوهرٌ سورًا على القُصُور التى بناها فى سنة ثمانٍ وخمسين وجعلها بلدًا وسماها المنصورية ، ولما استقرَّ المعزّ سمّاها القاهرة .

وفى سنة إحدَى وستّين وستمائة ، فى المحرَّم ، كبس يارُوق الفرما وأخرج منها ابن العُمر القَرمطىّ ، وأرسل إلى مصر رؤوسا وأعلامًا وغيرَ ذلك . وفى هذا الشّهر عصى أهل تنيس وغيَّروا الدَّعوة ، ودَعَوْا للمُطِيع والقرامطة ، وحاربوا ياروق . وفى صَفَر وصل ياروق منَهزِمًا من الْقَرامطة وهم فى إثره ، وأقبلت عساكر القرامطة حتى بلغوا عين شمس واستعدَّ القائد [جوهر][٣] لِلِقَائهم ، وأغلق الأبواب التى بناها .

وفى مُستَهلِّ ربيع الأول جاءت مقدِّمة القرامطة ووقفوا على الخندق ،

---

(١) يذكر المقريزى أن القتال خارج الخندق استمر ثلاثة أيام من مستهل ربيع الأول ٣٦١ هـ ، وفى اليوم الثالث « اقتتلوا قتالاً شديدًا قتل فيه خلق كثير ، وانهزم الأعسم ونهب سواده » اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٠ .

أما ابن أيبك فيقول : « ودام القتال والمحاصرة ثلاثة أشهر ، ثم أن القرمطى رحل بغير سبب ، ولا علم له خبر » كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٣ .

وانظر ما يلى :

(٢) ورد نفس المعنى فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٥ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

فقاتلهم القائدُ ، واشتدَّ القتال ، وقُتل من الفريقين قتلى كثيرة ، وأصبح النّاس متكافئين للقتال . وسار الأعصم القَرمطىّ بجميع عسكره ، ووقَعَ القتالُ على الخندق والباب مُغْلق ، وعمل القائد جوهر الحيلَة فانْهَزَم عن القَرمطىّ ، ودام القتال إلى الزَّوال ، ثم فتح القائد البَاب وانْتَصَبَ للقتال ، وخرجت العبيدُ والمغَاربة إلى القرامطة . واشتدَّ القتالُ واضْطَرب النّاسُ فى المدينة وكثُرب القتلى من الفَريقين . وانهزم الأعصم القرمطى ، وأراد المغاربةُ اتّباعه فمنعهم[1] القائدُ جوهر لِدُخول اللَّيل ، وخشيةً من مَكيدةٍ أو كَمِين . ونُهِبت صناديق القَرمطىّ ودفائِره ، وفارقَ القرمطىَّ من كان معه من الإخشيدية والعرب . قيل : وهذه أوّلُ هزيمةٍ كانت للقرامطة[2] .

ثم وصل بعد الكسرة بيومين أبو محمد الحسنُ بن عمّار بمَدَدٍ معه من جهة المعزّ ، وهرب القرمطىُّ الذى كانَ بتَنّيس وعادت الدّعوةُ المعزّيةُ بها .

وفى شهر ربيع الآخر قبض القائدُ على أربعمائةٍ وأربعين رجلاً من الإخشيديّة والكافوريّة وقيّدهم وحبَسهم .

وفى شعبان منها وَرَدَ على القائد جوهرٍ رسولٌ من ملك الرّوم[3] برسالته وهديته .

---

(١) « فمنعه » فى الاصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) هذا تفصيل لما سبق أن أورده النويرى ملخصًا ، فقد استولى القرامطة على دمشق وقتلوا جعفر بن فلاح فى ذى القعدة ٣٦٠ هـ ، ثم تقدموا فى اتجاه القاهرة فكانت هذه الوقعة فى ربيع الأول ٣٦٢ هـ ــ انظر ما سبق .

(٣) المقصود الامبراطور البيزنطى ، وهو فى ذلك الوقت الامبراطور حنا الشمشقيق (يوحنا تزيمسكس) والذى ولى العرش البيزنطى فى الفترة من ٩٦٩ ـ ٩٧٦ م ــ انظر مقدمات العدوان الصليبى على الشرق العربى ، الإمبراطور يوحنا تزمسكس وسياسته الشرقية ص ٣٥ وما بعدها

وفى شهر رمضان لسبعٍ خلَوْن منه كَمُل بناءُ الجامع بالقاهرة ، وجُمِعَت فيه الجمعة .

وفى شوّال منها ابتدأ القائد جوهرٌ يحفِر الخَنْدق الذى كان عبد الرحمن ابن جحدم[١] ، خليفة عبدالله بن الزبير ، حفره قبلىّ[٢] مصر ، ثم شَقّ الخندق حتى بلغ قبر الإمام الشّافعى رحمه الله ، فعَدَل به عنه ، ثم شقَّه مُشرِّقًا إلى الجبل على المقابر ، أراد بذلك أن يحفظ طريق الحج من ناحية القلزم .

وفى ذى القَعدة منها خرج أبو محمد الحسَن بن عمّار إلى تنّيس ، فسار إليه أسطولُ القرامطة فواقعهُ وأسَرَ منه سَبْعَ مراكب ، وسيَّرها إلى مصر ومعها خمسمائة رجل منهم[٣] .

ذكر خروج المعز لدين الله من بلاد الغرب إلى الديار المصرية [٤٣] ومارتَّبه ببلاد المغرب قبل مسيره

وفى يوم الاثنين لثمانٍ بقينَ من شوَّال سنة إحْدى وستِّين وثلاثمائة ، رحَل

---

(١) « بن محدر » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٤١ .
وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم ، ولى مصر من قبل عبد الله بن الزبير فدخلها فى شعبان ٦٤ هـ/٦٨٣ م ، وذلك مدة تسعة أشهر ــ الولاة والقضاة ص ٤١ وما بعدها

(٢) كان الغرض من هذا الخندق أن يخندق به على الفسطاط فى مواجهة الغزو الأموى ــ الولاة والقضاة ص ٤٢ .

(٣) « فواقعهم وأسر منهم سبع مراكب وسيرهم إلى مصر ومعهم خمسمائة رجل منهم » فى الأصل ، وتصحيح الضمائر يتفق والسياق .

المعزّ لدين الله من المنصورية إلى سِرْدَانية [١] ومعه يوسُف بن زَيْرى [٢] بن مناد فسلَّم إليه إفريقية وأعمالَها وسائر أعمال المغرب ، وذلك فى يوم الأربعاء لسبعٍ بَقين من ذى الحجة منها ، وأمر الناس بالسَّمع والطّاعة لَه ، وفوّض إليه أُمُور البَلاد كلِّها إلّا بلاد جزيرة صِقلِيَّة وطرابلس . وأقام المعز بسردانية أربعة أشهر ، ورَحل منها لخمس خَلَوْن من صفر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، وسار حتى أتى قابس ، ثم وصل إلى طرابلس فأقام بها أيّامًا ، ورحل منها فى يوم السّبت لثلاثَ عشرةَ ليلة بقِيَتْ من شهر ربيع الآخر منها ، وسار فوصل إلى الإسكندرية فى يوم الجمعة لستٍّ خلَوْن من [٣] شعبان،ونزل تحت المنار ، وأنزل النَّاسَ حولها ، وأتاه أهلُها فسلَّمُوا عليه ، ووافى يوم الأحد أبوطاهر [٤] قاضى مصر ، ومعه العُدُول وقدم أبو عبدالرحمن بنُ أبى الأعز فى بنى عَمِّه وغيرهم من العرب ، فركب لهُم المعزّ فسلَّموا عليه وانصرفوا .

ثم رحل من الإسكندرية يوم الاثنين لثلاثٍ بقين من شعبان . فلما

---

(١) سردانية : منتزه فيه ثمار عظيمة بالقرب من مدينة جلولاء التى تبعد نحو ٢٤ كم من القيروان ــ المغرب ص ٣٢ .

(٢) هو يوسف بلكين بن زيرى ، رئيس بربر صنهاجة ، والى الفاطميين على القيروان منذ سنة ٣٦١ هـ ٩٧٢ م ، والذى أعلن استقلاله عن الفاطميين ، وأسس دولة بنى زيرى ــ توفى سنة ٣٧٣ هـ/٩٨٤ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٧ ــ ٤٨
وقد ترجم له ابن خلكان باسم « بلكين بن زيرى » ــ وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٨٦ رقم ١١٩ .

(٣ « لست بقين من شعبان » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٤ ، ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٧ .

(٤) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن نجير ، أبو الطاهر الذهلى ، ولى قضاء مصر منذ عهد كافور سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م ــ وحتى سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م ، وتوفى فى السنة التالية ــ ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٨١ وما بعدها .

كان يومُ السّبت لليلتين خلَتَا من شهر رمضان نزل المنية بساحل مصر ، وهى بُولاق ، فأقام بها إلى يوم الاثنين ؛ وخرج إليه الشريف أبو جعفر مُسلم الحسَنى قبل وُصُوله فى جَمَاعة الأشراف وَوُجُوه البلد ، فرأى المعزّ وهو سائرٌ والمظلّة على رأسه ، فنادى منادٍ : يتَقدمُ الشّريف أوّل الناس ، فتقدّم وسلّم على المعز . ثم تقدّم النّاسُ كلُّهم وسلّموا عليه واحدًا بعد واحد حتى فرغوا ، وهو واقف على دابّتِه ؛ ثم سارَ والشريف يحادثه .

قال : وأخذ الناس فى التّعْدية بِعيالَاتِهم وأَثْقَالهم فى هذه الأيام إلى ساحل مصر ، وتفرق النّاسُ فى الدُّور بمصرَ والقاهرة ، وأكثرهم فى المضارب فيما[1] بين القاهرة ومصر .

ثم عبرَ المعزُّ لدين الله إلى القاهرة يوم الثلاثاء لخمسٍ خلَوْن[2] من شهر رمضان ، سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، ولم يدخل إلى مِصْر ودخل إلى قصره .

فلما انتهى إلى الإيوان الكبير خرَّ ساجدًا للهِ تعالى ، وجلس على سرير الجَوْهر[3] الذى صنعه لهُ القائدُ جوهر ، وقَبِلَ الهناء ، ومدحه الشعراء .

قال : وكان تَلَقّى القائد جوهر له عند جَوَازه من الجسر الثّانى ، فكانت مُدَّة تدبير جوهر الديار المصرية إلى أن قدم المعز ، أربع سنين وعشرين يومًا .

---

(١) « فيمان » فى الأصل .

(٢) « لسبع خلون » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٤ .
ويتفق ابن خلكان مع النويرى فى أن دخول المعز إلى القاهرة كان لخمس خلون من شهر رمضان ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٧ .

(٣) « سرير الذهب » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٦ .
والمقصود العرش .

وحكى بعض المؤرخين أنّه لما وصل المعزُّ وخرج الأشراف للقائه ، قال له أبو [محمد][1] عبدالله بن أحمد بن طَبَاطَبَا الحسينى ، من بينهم يا مولانَا ، إلى مَنْ تنتسب ؟ فقال المعزُّ : سنقعُدُ لكم ونجمعُكم ونسرد عليكم نسبَنا . فلما استقرَّ فى قصره جمعَ النّاس فى مجلسٍ عامٍّ وقال : هل بَقِى من جِمَاعَتِكم أحد ؟ فقالوا : لم يبق مِنا مُعْتَبر فجرَّدَ عِنْد ذلك سيفه إلى نصفه وقال هٰذا نَسَبِى وفرَّق المال وقال : هذا حَسَبِى . فقالوا : سمعنا وأطعنا . وكان الخليقَ بما قيل :

جَلَوْا صارمًا وتَلَوْا باطلاً وقالُوا : صَدَقْنا ؟ فقلنا : نَعَمْ !

وقال ابن جلب راغب فى تاريخه : إنّ المعزّ لمّا قدِم صَعِد المنبر وخطَب خُطبة بليغة ، وذكر نسَبه إلى علىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه . فكتب إليه بعض المصريين ورقةً ولصقها بالمنبر فيها :

إنّا سمعْنَا نسبًا مُنكرا يُتْلى على المِنْبر فى الجَامع
إنْ كُنتَ فيما تَدَّعى[2] صادقًا فاذكر أبًا بعد الأبِ الرّابع

---

(١) [ ] إضافة للتصحيح .
فهو عبد الله بن أحمد بن طباطبا الحسينى ، أبو محمد ، وقد توفى سنة ٣٤٨ هـ/٩٥٩ م ، وقد ناقش ابن خلكان تناقض تاريخ وفاته ومقابلته للمعز ، ويقول : (إن صاحب هذه الرواية هو صاحب كتاب الدول المنقطعة ، ثم علل هذا التناقض بقوله : « ولعل صاحب الواقعة مع المعز ولده » والله أعلم أى ذلك كان) .
وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٨١ وما بعدها رقم ٣٤٢ ، الدول المنقطعة ص ٢٧ ــ ٢٨ .
ويذكر ابن أيبك « أن الشريف الذى جرى للمعز معه هذا السؤال هو أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى ، والشريف أبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الحسنى الزينبى » ، ثم يقول : « ولعل يكون صاحب هذه الواقعة بعض ولده » ــ كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٧ .

(٢) « فيما قلته » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٧ .

أو فَدَعِ[١] الأَنْساب مستُورَةً وادْخُل بنا فى النَّسب الواسع
أو كُنتَ فيما تدّعى صادقا فانْسُبَ لنا نفْسَك كالطّائع[٢]

قال : وكان يتظَاهَرُ بذكر الْماجَرَيَات قبل وقُوعها لاطلاعه على علم النَّجامة ولِكتْب كاتب عنده يَسْتدلُّ ، فكتَب إليه بعضُ المصريين ورقة وطرحَها فى مجلسه ، فيها :

بالظلم والْجَوْرِ قد رضينا وليس بالكُفْر والحَماقَةِ
إنْ كُنتَ أُوتِيتَ[٣] عِلْمَ غيبٍ فقُلْ لنا كاتبَ البطاقة[٤]

وقال بعض المؤرخين : لمّا قدم المعزُّ إلى مصر أحضر معه توابيت آبائه . وكان معه خمسة عشر ألف رجل تحمل صناديق الأموال والسّلاح وغير ذلك ، وكان معه مائة جمل تحملُ شِبْه الطّواحين من الذهب ، وثلاثة آلاف جمل على كل جمل صُنْدوقان وألف وثمانمائة بختى محملة ،وثلاثمائة جمل تحمل الخركاهات وجملان يحملان[٥] الإكسير الذى يصنع به الكيمياء [٤٤]

---

(١) « اولادع » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٧ ، ووفيات الاعيان جـ ٥ ص ٣٧٣ .
(٢) المقصود الخليفة العباسى الطائع لله ، أبو بكر عبد الكريم الذى ولى الخلافة العباسية فى الفترة من ٣٦٣ ــ ٣٨١ هـ/٩٧٤ ـ ٩٩١ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .
ويذكر ابن خلكان هذه الحادثة وهذه الأبيات فى ترجمة العزيز بالله ، وكذلك ابن تغرى بردى ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٧١ رقم ٧٥٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٦ .
(٣) « إن كنت أعطيت » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٧ ، ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٧٤ .
(٤) يذكر ابن خلكان هذه الحادثة وهذه الأبيات فى ترجمة العزيز بالله ، وكذلك ابن تغرى بردى ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٧١ رقم ٧٥٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٦ .
(٥) « تحمل » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

وثلاثة آلاف شينى وغراب[١] فى البحر تحمل الموجود . ومن الرجال المقاتلة منْ قَبِيلة كتامة مائةُ ألف ، ومن البربر أربعون ألفًا ، ومن الرموح ستون ألفًا ، وغير هؤلاء من قبائل العرب والمغاربة ، وهو مع ذلك شديدُ الخوف من القرمطى .

قال ابن زولاق[٢] فى تاريخ مصر : ولما انقضى شهرُ رمضَان ركب المعزّ لصلاة العيد وصلّى بالناس ، وكان القاضى ابنُ النعمان[٣] يبلِّغ عنه فى التكبير . وقرأ فى الأولى بَعْد الفاتحة « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة » ، وفى الثانية بعد الفاتحة بسورة الضُّحَى ، ثم صعد المنبر وَخَطب بعد أن سلَّم على الناس يمينًا وشِمالاً ، وذلك بالمصلى الذى بناه القائد جوهر[٤]

قال : وأقام المعزُّ بعد مَقْدمِه أيَّامًا وعزل القائد جوهرًا من جميع ما كان إليه من النَّظَر على الدَّواوين وجباية الأموال ، وتدبير الأمور ، وغير ذلك . والله أعلم[٥] .

---

(١) شينى ، أو شانى ، أو شينية ، أو شونة : والجمع : شوانى : سفينة حربية كبيرة ، ومن أسمائها أيضًا غراب : وجمعها أغربة ــ معجم السفن الإسلامية ص ٨٣ ، ص ١٠٤ .

(٢) هو الحسن بن إبراهيم بن الحسين المصرى ، ابن زولاق ، المؤرخ ، صنف كتاباً فى خطط مصر ، وكتابًا فى أخبار قضاة مصر ، وتوفى سنة ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م ــ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٩١ رقم ١٦٧ .

(٦) هو على بن النعمان بن محمد بن حيون ، أشركه الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى قضاء مصر مع أبى طاهر الذهلى ، وتوفى القاضى على بن النعمان سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤١٧ وما بعدها .

(٤) المقصود الجامع الأزهر ، والذى كان يسمى أيضًا جامع القاهرة ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٧٣ .

(٥) وذلك فى المحرم سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م ــ المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٣

ذكر مكاتبةِ المعزِّ لدين الله القَرْمطيِّ وجواب القرمطيّ له

قال بعض المؤرخين : لما استقر المعز بالقاهرة أهمه أمر الأعصم القرمطيّ فرأى أن يكتب إليه كتابًا يُعْلِمهُ فيه أن المذهب واحد . وأن القَرامِطة [منهم][1] استمدُّوا وهم سادتُهم فى هذا الأمر . وبهم وصَلُوا إلى هذه الرتبة ، فكتَب إليه المعز كتابًا مشحونًا بالمواعظ وضمَّنه من أنواع الكفر ما لا يصْدُر إلا عن مارقٍ من الدين .

كان عنوانَ الكتاب :

« من عَبْد الله ووَليِّه ، وخِيرته وصفيِّه . معَدّ أبى تميم بن إسْمَاعيل ، المعزّ لدينِ الله أمير المؤمنين ، وسُلاَلة خَيْر النبِّيين ، ونَجل [على][2] أفضل الوصيّين إلى الحسن بن أحمد .

وأول الكتاب :

« رُسُومُ النطقاء ، ومذاهبُ الأئمة والأولياء[3] ، ومسالكُ الرُّسل والأنبياء[4] ، السّالف منهم والآنف[5] ، صلى الله[6] علينا وعلى آبائنا أُولِى الأيدى والأبْصَار، فى متقدِّم الدهور والأكوار . وسالف الزمان والأعصار .

---

(١) [ ] إضافة من كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٨ .

(٢) [ ] إضافة من كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٨٩ .

(٣) « والأنبياء » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .

(٤) « والأوصياء » فى نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٠٨ ، اتعاظ الحنفا . و « الأصفياء » فى كنز الدرر .

(٥) « السالف والآنف منا » فى نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٠٨ ، فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .

(٦) « صلوات الله » فى نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٠٨ ، وفى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .

عند قيامهم بأحكام الله وانتصابهم لأمر الله ، الابتداءُ بالإعذار : والانتهاءُ إلى الإنذار[١] ، قبل نفاذ الإنذار[٢] فى أهل الشقاق والإصرار[٣] ، ولتكون الحجَّة على مَنْ خالف وعصَى والعقوبة على من بَاينَ وغوى ، حَسْبَمَا قال الله تعالى[٤] : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٥] ، ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٦] .

وقد ذكرنا فى أخبار القَرامطة جُملةً من مواعظ هذا الكتاب على ما نقف عليه هناك[٧] . ومن جملة ما لم نذكره هناك .

أمَا عَلِمت أنِّى[٨] ﴿ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةِ * الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾[٩] أعْلم ﴿ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾[١٠]

وحشاه بأنواعٍ من الكفر وحَضّه[١١] على اقْتفاءِ آثار آبائه وعُمومته ومُوَالاتهم ، فقال : إن آباءك كانوا أتباع آبائى . ثم قال فيه بعد الإطالة : وكتابُنا هذا من فُسطاطِ مصر ، وقد جئناها على قَدَر مقدُور ، ووقتٍ

---

(١) « بالانذار » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .

(٢) « قبل إنفاذ الأقدار » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .

(٣) « والآصار » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .

(٤) « قال الله عز وجل » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنف .

(٥) سورة الإسراء رقم ١٧ آية رقم ١٥ .

(٦) سورة فاطر رقم ٣٥ آية رقم ٢٤ .

(٧) انظر نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٠٨ وما بعدها .

(٨) « وإنا لـ ... » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ١٥٢ .

(٩) سورة الهمزة رقم ١٠٤ آية ٦ ، ٧ .

(١٠) سورة غافر رقم ٤٠ جزء من الآية ١٩ .

(١١) « وحظه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، ومع ما جاء فى اخبار الدول المنقطعة ص ٢٦ .

مذكور ، لا نرفَعُ قدمًا ولا نضع قدمًا إلا بعلم مصنُوع ، وعلم مجموعٍ ، وأَجلٍ معلُوم » . ثم قال فيه : « وأما أنت أيّها الغادر [الخائن] (١) النَّاكثُ المُبَايِنْ (٢) عن هدى (٣) آبائه وأجداده ، المنسلخ من دين أسْلافه وأنداده ، المُوقِدُ لنار الفتنة ، الخارجُ عن الجماعة والسُّنَّة ، لم أُغْفِل أمرك ، ولا خَفِى علىَّ خبرك ، وإنّك منّى بمنظر وبمسمع ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّنِى معَكُما أَسْمَعُ وأرَى ﴾(٤) ، ﴿ مَا كَان أَبُوكِ امرَأَ سَوْءٍ وما كَانَت أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾(٥) فعرِّفْنا على أىِّ رأيٍ ضللت (٦) وأىّ طريقٍ سلكْت .

وقال فى فصل منه : « إنّا لسنا مُهْمِلِيك ولا مُمْهِلِيكَ إلّا ريْثما يَرِدُ به كتابُك والوقوف على مجرى جوابك ، فانْظُر لنفساك ما يبقى ليومك ومعادك ، قبل انْغِلاق باب التّوبة ، وطول وقت النَّوْبة . حينئذ ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾(٧) . ثم ختمه بأن قال : « فما أنت وقومُك إلّاكمناخ نَعَم ، أو مَراحِ غنم » . فأمَّا ﴿ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَيَنَّكَ ﴾(٨) ، ﴿ فإنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾(٩) . هكذا رأيت . والتّلاوة فى سُورة يونس(١٠) ﴿ أَوْ نَتَوفَيَنَّكَ فَإِلَيْنَا

---

(١) [ ] إضافة من كنز الدرر جـ ٦ ص ١٥٢ .

(٢) « البائن » فى كنز الدرر جـ ٦ .

(٣) « عن هوى » فى الأصل ، والتصحيح من كنز الدرر جـ ٦ .

(٤) سورة طه رقم ٢٠ آية ٤٦ .

(٥) سورة مريم رقم ١٩ جزء من الآية رقم ٢٨ .

(٦) « على أى رأى أنت » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ١٥٣ .

(٧) سورة الأنعام رقم ٦ جزء من الآية رقم ١٥٨ .

(٨) سورة يونس رقم ١٠ جزء من الآية رقم ٤٦ .

(٩) سورة الزخرف رقم ٤٣ جزء من الآية رقم ٤٢ .

(١٠) « القصص » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من القرآن الكريم .

مَرْجِعُهُمْ ﴾ (١)، فَعِنْدَها تخسر ﴿ الدُّنْيا وَالآخِرة ، ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَان الْمُبِينُ ﴾(٢) . وأَنْذَرْتُهُمْ ﴿ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (٣) . ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) . فليتدبَّر من كان ذَا نذير . وليتفكَّر من كان ذا تَفكير ؛ ولْيَحذَرْ يوم القيامة ، يوم الحسرة والنّدامة ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فى جَنْبِ الله ﴾ (٥) . و﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا ﴾ (٦) . ويَا لَيْتَنَا ﴿ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾(١٤) . ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ (٨) . وسَلم من عواقب الرّدى . وهو حَسْبُنَا ونعم الوكيل

قال : فلما وقف الحسن(٩) بن أحمد القرمطى [على](١٠) هذا الكتاب المطوّل(١١) كتب جوابه بعد البَسْملة : « وصل كتابك الّذى كثُر تَفصيلُه

---

(١) سورة يونس رقم ١٠ جزء من الآية رقم ٤٦ . وهو يكمل ما جاء فى هامش (٥) .
(٢) سورة الحج رقم ٢٢ جزء من الآية رقم ١١ .
(٣) سورة الليل رقم ٩٢ جزء من الآيات ١٤ ـ ١٦
(٤) سورة الأحقاف رقم ٤٦ جزء من الآية ٣٥ .
(٥) سورة الزمر رقم ٣٩ جزء من الآية رقم ٥٦ .
(٦) سورة الأنعام رقم ٦ جزء من الآية رقم ٣١ .
(٧) سورة الأعراف رقم ٧ جزء من الآية رقم ٥٣ .
(٨) سورة طه رقم ٢٠ جزء من الآية رقم ٤٧ .
(٩) « الحسين » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح مما سبق .
(١٠) [ ] إضافة يقتضيها السياق .
(١١) انظر فقرات مطولة من هذا الخطاب فى كل من : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٨٩ ـ ٢٠١ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٩ ـ ١٥٦ .

وقلَّ تحصيلُه ؛ ونحن سائرون على إثره . والسَّلام »[١]

وقيل إنّه كتب : « والجوابُ ماتراه دون ماتسمعه »[٢] .

وقيل [٤٥] إنّه كتب إليه :

ظنّت رجالُ الغَرب أنّ سُهولتى بمحالها ، وأخو المِحَال ذليل
إنْ لم أرَوِّ النيلِ مِن دَمِهم ، فلا نلت المُراد ، ولا سقانى النيل

وفى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة . فى شعبان ، بلغت تقدمةُ القرامطة إلى أرياف مصر وأطراف المحلة[٣]. فنهبوا ، واستخرجوا الخراج ؛ واشتهر الأعصَم القرمطىّ ببلبيس فتأهَّب المعزُّ لِلقائه ، وعرض العساكر ، وفرّق فيهم الأموال والسّلاح .

وسيَّرَ جيشا قدَّم عليه ولدَه الأمير عبْد الله[٤] ، فالْتقى معَ الأعصَم ، فانهزم القرمطىّ وأسر جماعةً من رجاله ، وجهّز جيشًا آخر قدّم عليه ريان الصقلبى فى أربعة آلاف فارس . فأزال القرامطة عن المحلة ونواحيها .

---

(١) انظر أيضًا نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣١١ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٠٢ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٥٦ ، الكامل جـ ٨ ص ٦٣٨ .

(٢) أخبار الدول المنقطعة ص ٢٦ .

(٣) المحلة : فى محافظة الغربية ، وقد ورد فى اتعاظ الحنفا « وانبسطت سرية القرمطى فى نواحى أسفل الأرض » أى الوجه البحرى ــ جـ ١ ص ٢٠٢ ، وانظر أيضًا المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٥ .

(٤) توفى الأمير عبد الله فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٤ هـ/٩٧٤ م ــ فى يوم ٢٣ من الشهر فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٦ ، وفى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢١٧ ، وفى التاسع من جمادى الأولى فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٦ .

وفى هذا الوقت ورد الخبرُ من الصّعيد الأعْلَى أن عُبَيْد الله [١] أخا الشريف مسلم أوغل فى الصّعيد واستخرج الأموال ، وقتل ألفًا من المغاربة .

وفى هذه السنة ، فى المحرّم منها ، انْبَسطت المغاربة فى نَواحى القَرافة ، ونزلوا فى الدُّيُور ، وأخرجوا النّاس من أمَاكنهم ، وشرعُوا فى السّكن فى المدينة ، وكان المعزّ أمَرَهم أن يسكنوا أطراف المدينة ، فاستغاث النّاس إلى المعزّ فأمرَ أنْ يسكُنوا نَواحِيَ عين شمس ، وركب بنفسه وشاهد المكان ، وأخبرهم بالبناء فيه ، وهو الموضع المعروف الآن بالخندق [٢] ، وجعل لهم واليًا وقاضيًا ، ثم سكن أكثرُهم بالمدينة مخالطين للناس .

ذكر فتوح طرابلس الشام

كان فتوحها فى سلخ شهر ربيع الآخر سنة أربع وستّين وثلاثمائة ، على يد ريَّان الخادم غُلَام المعز ، وهرب ابن الزَّرَّات بعد أن كان نصب عليها الصّلبان وجعلها للرُّوم .

وفى جُمادى الأولى منها سار نصير الخادم غلام المعزّ فى عسكر كثير ، ودخل إلى بيروت ، وتواقع مع الرّوم على طَرَابلس وهزمهم ، وكانت الوقعة فى نصف شعبان .

---

(١) « عبد الله بن عبيد الله » فى اتعاظ الحفاظ جـ ١ ص٢٠٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) « وخندق العبيد » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٤٥ .
والخندق : خارج باب الفتوح ، كانت تعرف بمنية الأصبغ ، واشتهرت باسم الخندق لمرور الخندق الذى حفره جوهر بها ، ومكانها حاليًا المنطقة الواقعة حول دير الملاك البحرى من منطقة حدائق القبة ضمن القاهرة .
المواعظ والاعتبار ــ جـ ٢ ص ١٣٦ ، القاموس الجغرافى ق ١ ص ٥٦ .

وفى هذا الشّهر وصل الخبر إلى المعز بوصول أفتكين التركى من بغداد إلى دمَشْق بقَصْد مصر. فشرع المعزّ فِى تجهيز العساكر.

وفى شهر رمضان منها كثرت الأراجيف بمسير الرُّوم إلى الشام لأن أفتكين التُّركى كاتب ابن السنهسكى(١) فسار بالرّوم إلى بَيْروت، فلقيهم نصير غلام المعزّ فهزموه وأسَرُوه. وتوجَّهوا إلى صَيْدا فخرج إليهم أفتكين التُّركى وقبَّل الأَرض لابن السنهسكى وهادَنَه على دمشق؛ وسار ابن السنهسكى إلى طرابلس، فخرجَ إليْه رَيّان الخادم بعساكر المعزّ فقاتله وهَزمه، وقتل مقْتَلة عظيمة مِن عامّة عسكره. وانصرف ابن السنهسكى معْلُولاً، فسُرّ المعزّ بذلك. وهنأه النّاس بهٰذا الفتح، ومدحه الشّعراء(٢).

ذكر وفاة المعز لدين الله وشىء من أخباره

كانت وفاتُه بالقاهرة لسبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ وقيل فى يوم الجمعة لاثنَتَىْ عشرةَ ليلةً بَقِيَت من الشهر(٣). وكانت مدة حياته خمسًا وأربعين سنة وخمِسة أشهر وعشرة أيام، ومدّة مقامه بمصر سنتين وسبعة أشهر وأيّامًا.

---

(١) هكذا بالأصل، والمقصود الامبراطور البيزنطى ابن الشمشقيق ــ انظر ما سبق، وورد اسم «ابن السميسق» فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٠.

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٢١ ــ ٢٢٢.

(٣) هناك اختلاف فى تحديد يوم وفاة المعز لدين الله، انظر مثلاً: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٢٩ حيث يعلل سبب الاختلاف بإخفاء خبر وفاة المعز «ولم يظهر ذلك ولا نطق به أحد مدة ثمانية أشهر» ــ وانظر أخبار الدول المنقطعة ص ٢٦، المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٨، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٨، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٤ وما بعدها.

وكان نقش خاتمه : بِنَصر العزيز العَليم ينْتصر الإمام أبو تميم . وقيل : كان لتوحيد الإله الصّمد دعاء الإمام[١] معَدّ . وقيل : لتوحيد الإله العظيم دعاء الإمام[٢] أبو تميم .

أولاده : أبو المنصور نزار تميم الظّاهر[٣] ، وبه كنى ، توفّى بمصر فى ذى القعدة سنة أربعٍ وسبعين وثلاثمائة ؛ الأمير عقيل ، توفّى فى شعبان من السنة ؛ وسبع بنات .

قضاته : قاضيه الواصل معه من المغرب أبو حنيفة النّعمان بن محمّد الدّاعِى ، مات بمصر فى سلخ جُمادى الآخرة سنة خمس وستّين وثلاثمائة ، ولم يَلِ القضاء بها ؛ واستقْضَى بالمغرب أبا طالب أحمد بن القائم[٤] بن محمد بن المنهال ؛ ولمّا وصل إلى مصْرَ وجد القائد جوهرًا قد استخلف على القضاء أبا طاهر محمّد بن أحمد بن عبد الله الذهلى البغدادى ، وهو القاضى على أيام كافور . فأقرّه ، وكان أبو سَعيد عَبْد الله[٥] بن محمّد بن أبى ثوبان حكم بمصر بين المغاربة الجند والتجار إلى أن مات فى شهر ربيع الأول سنة خمس وستين ؛ فتولّى القضاء أبو الحسَن علىّ بن النعْمان على قاعدته إلى أنْ مات [٤٦] أبو طاهر ، فقضى أبو الحسَن على الجميع .

كتّابه : كان جوهر قد فوض تدبير الأموال فى أيامه إلى علىّ ابن العرمرم

---

(١) ، (٢) « الإله » فى الأصل ، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة ص ٣٠ .

(٣) « الشاعر » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٨ .

(٤) « بن القسم » فى اخبار الدول المنقطعة ص ٢٨ ، « بن أبى القاسم » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤٧ . ورد إلى مصر بأهله وأولاده فى شوال ٣٦٨ هـ/مايو ٩٧٩ م ـ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٥) قدم صحبة المعز من بلاد المغرب ، فولاه نظر المظالم بمصر ، ... ذيل الولاة والقضاة ص ٥٨٧ .

وأبى محمد الرودبارى ، ورجاء بن صولات[١] ، وعبدالله بن عطاء الله ، وأبى الحسن الكرجى[٢] ؛ وردَّ تدبير هؤلاء الكتاب إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات . واستقرّ الأمر بعد وُصُول المعزّ على عسلوج ، ويعقوب بن يوسف .

وممّن وزر للمعزّ يعقوب بن كلّس ، وهو أول وزراء دَوْلتهم بمصر ، وهو من جملة كتاب الدّوْلة الإخشيدية . وسنذكر خبره إن شاء الله مُستَوفًى فى أخبار العزيز .

حاجبه : جعفر بن علىّ إلى أن تُوفّى ، فوَلِى عمّار بن جعفر ؛ والله أعلم بالصواب .

ذكر بيعة العزيز بالله

وهو أبو المنصور[٣] نزار[٤] بن المعزّ بن المنصور بن القائم بن المهدىّ ، وهو الخامس من ملوك الدولة العُبَيْديّة ، والثانى من ملوك مصر والشام منهم .

كان قد وَلِى الْعَهد منْ أبيه فى حياته ، ثم بايَعه النّاس فى يوم وفاة أبيه ، لِسَبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الآخر سنة خمسٍ وستّين وثلاثمائة .

---

(١) « ابن صولاب » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١٢٩ .

(٢) « الكرخى » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٩ .

(٣) « وهو ابن المنصور » فى الأصل ، وهو تحريف .

(٤) انظر ترجمته وأخباره فى : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٧١ رقم ٧٥٩ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ وما بعدها ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٨ وما بعدها ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٧٤ وما بعدها ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٦ وما بعدها ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٢ وما بعدها ، الكامل جـ ٨ ص ٦٦٥ وما بعدها .

حكى الرئيس ابن القلانِسى فى تاريخ الشام فى سبب بيعة العزيز الأولى أن أباه المعزّ لدين الله كان مُغرَمًا بعلم النُّجوم والنّظر فيما تقتضيه أحكام مولده ، فحكم له بقطع ، فاستشار منجمه فيما يزيله عنه ، فأشار عليه أن يعمل له سردابًا تحت الأرض ويتوارى فيه مدّة إلى حين زوال ذلك القطع . فصنع ذلك وأحضر وُجوه دولته ، وقال لهم : إنّ بينى وبيْن الله عهدًا وعَدَنِيه قد قرب أوانه ، وقد جعلت عليكم ولدى نزارًا ، ولقّبته بالعزيز بالله ، واستخلفته عليكم وعلى تدبير أحوالكم مدّة غيبتى ؛ فالزمُوا الطّاعة والمناصَحَة له . فقالوا : نحنُ عبيدُك وخدمُك . فأخذ البَيْعة له ووَصّاه بما أراد ، وجعل القائد جوهرًا مدبِّرًا لأموره ، ونزل السِّرداب الّذى اتخذه ، وأقام به سنةَ . فكانت المغاربة إذا رَأَوْا سحابًا ترجَّلوا على الأرض وأوْمَوْا بالسّلام عليه . ثمّ خرج بعد ذلك ، وجلس النّاس ، فدخلوا على طبقاتهم وسلَّموا عليه ؛ ولم يلبث بعد ذلك إلّا مدّةً يسيرة ، واعتلَّ فمات[١] .

ذكر الحرب بين أفتكين التركى وعساكر العزيز بالله

ولنذكر ابتداء أمر أفتكين[٢] لتأتى أخبارهُ بسياقه .

هو أبو المنصور أفتكين المعزّى ، أحد مماليك معزّ الدولة بن بويه[٣] وكان سبب وصوله إلى الشام أنه لما وقعت الفتنة بين الترك والديلم ببغداد

---

(١) انظر الكامل جـ ٨ ص ٦٦٤ .

(٢) « هفتكين » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ١٧٥ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ ، « الفتكين فى ذيل تاريخ دمشق ، والكامل جـ ٨ ص ٦٥٦ و « أفتكين » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٨ .

(٣) هو معز الدولة أبو الحسين أحمد ، حكم العراق فى الفترة من ٣٢٠ ــ ٣٥٦ هـ/٩٣٢ ـ ٩٦٧ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٩٠ .

وخلع المطيع[١] كما ذكرناه ، وتوالت تلك الفتن ، انفصل أفتكين عن بغداد فى سنة ثلاثٍ وستّين وثلاثمائة فى ثلاثمائة غلام ، وسار حتّى قَدِم حمص فأقام أيّامًا يسيرة ، وسار منها إلى دِمَشق ، فوجد أحْدَاث البلد قد تحكّموا فيها والفتن بين أهلها وبين عسكر المغاربة . فخرج إليه شيوخ دمشق وأظهروا السُّرور به ، وسألوه أن يتولّى عليهم ، ويكفّ أيْدى المفسدين ، وتَوثّقوا منه وتَوثّق منهم بالأيْمان ، ودخل البلد وأصلح أمره ، وأحسن السّيرة ، وكفّ المفسدين ، فاستقام له الأمر وثبت قدمُه[٢] . فاضطر إلى مكاتبة المعزّ لدين الله بمصر فكاتبه وخادعه ، وغالطه ، وأظهر الانقياد إليه والطاعة لأمره . فأجابه المعزّ يستدعيه إلى حَضْرته ليشاهدَه ، ويصطَفِيَه لنفسه ، ويُعيدَه إلى ولايته ؛ فلم يثق إلى ذلك وامتنع من الإجابة . ووافق ذلك علّةَ المعزّ ووفاتَه .

وكتب أفتكين فى أثناء هذه القضيّة إلى مولاه ببغداد يقول إنّ الشام قد صفا فى يدى ، فإن سيَّرت إلىَّ عسكرًا ومالاً وسلاحًا فتحتُ ديار مِصْر ، فبعث إليه الجواب : غرك عزك فصارَ قُصار ذلك ذُلَّك فَاخْشَ فاحِشَ فِعْلك ، فَعَلِّك تهدأ بهذا . فلما أَيِس أفتكين من إنفاذ العساكر إليه من بغداد اضْطُرّ عند ذلك إلى مُكَاتبة القرامطة ، فقصدوه ووافوه فى سنة خمسٍ وستّين وثلاثمائة ؛ وكان الذى أتاه منهم إسحاق ، وكسرى ، وجعفر ؛ فنزلوا بظاهر دمشق ، ووافاه معهم كثيرٌ من العجم . فأكرمهم أفتكين وحمل إليهم الميرة ، فأقاموا أيّامًا وتوجّهوا إلى الرّملة ، فخرجت إليهم عساكر السّاحل ، واقتتلوا ، فهزمهم أفتكين ، وقتل منهم مقتلةً عظيمة .

---

(١) خلع المطيع لله فى منتصف ذى القعدة ٣٦٣ هـ/أغسطس ٩٧٤ م ــ الكامل جـ ٨ ص ٦٣٧ ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٢٠١ وما بعدها .

(٢) انظر الكامل جـ ٨ ص ٦٥٦ وما بعدها .

وكان على السّاحل ظالم بن موهوب العقيلى ، فانهزم إلى صُور . وأحصيب القتلى فجاءُوا أربعة آلاف فارس ، فكاتب العزيزُ بن المعزّ أفتكين واستمالَهُ ووعَدَه إنْ وطِئَ بساطَه أنْ يرفع منزلته . فأبى إلّا مخَالفتَه ، وأغلظ له فى الجواب . فاستشار العزيزُ وزيره يعقُوب بن كلّس فيما يفعله فأشار عليه بإخراج [٤٧] جوهر القائد إليه بالعساكر ؛ فشرع العزيز فى ذلك وجهّز جوهرا ، فلما سمع أفتكين ذلك عاد إلى دمشق واستشار أهلها ، وقصَد التَّوَجُّه لبلاد الرّوم ؛ وكان أهل دمشق يَكرهُون المغاربة لمخالفتهِمْ لهُم فى الاعتقاد ، فطمأنُوه ، وثبَّتُوه لِلِقاء عساكر مصر . وخرج جوهر فى العساكر العظيمة بعد أن استَصْحب أمانًا من العزيز لأفتكين (١)

فلما وصل جوهر إلى الرّملة كاتب أفتكين ولَاطَفَه ، وعرَّفه ما مَعَهُ له من الأمان ؛ فلاطفه أيضًا أفتكين فى الجواب واعتذر إليه بأهل دِمَشق ، فعلم جوهر أنّه لابُدّ من الحرب . فسار إليه ونزل بالشماسية (٢) فبرز إليه أفتكين ؛ ونشبت الحرب بين الفريقين مُدّة شهرين ، وقتل من الطائفتين عدد كثير . وظهر من شجاعة أفتكين ما عظُم به قدره فى النّفوس ، فأشار عليه أهل دمشق بمكاتبة أبى محمد الحسن بن محمد القرمطىّ واستدعائه لدفع عساكر مصر ، فكاتبه فأتاه القرمطىّ ، فعلم جوهر أنه إن أقام استظهر أفتكين عليه ، فرجَعَ إلى طبريّة وتبعه أفتكين والقرمطىّ فقاتلاه ؛ فانْهزَم إلى عسقلان فتبعه أفتكين وحَصَره بها حتى أشرف جوهر على الهلاك ، فصالحه ، ووقع الصُّلح

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٨ ، الكامل جـ ٨ ص ٦٥٨ ، وكنز الدرر جـ ٦ ص ١٧٥ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ .

(٢) الشماسية : محلة بدمشق ــ معجم البلدان .

بينهما على أن يخرج جوهر وأصحابه حُفاةً عُراةً لا شيء يستُر عوراتِهم [١] .

وكان العزيز قد خرج من الدّيار المصريّة لإغاثةِ جوهر ، فلقيه فى الطريق على تلك الحال ، فاخبره جوهر أن كتامة خذلوه فقبض عليهم ، ثم أظهر الغضب على جوهر وعزله عن الوزارة .

ذكر حرب أفتكين وأسره

وفى سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة ، فى المحرّم منها ، وصل العزيز بالله إلى الرّملة وأفتكين وعسكره بالطَّواحين ، ووقع المصَافّ بينهُما ، ونشبت الحرب فى يوم الخميس سابع الشهر . فانهزم أصحاب أفتكين وقتل عامتهم وشوهد العزيزَ فى هذا اليوم وقد انفرد عن عسكره وصلى على الأرض وهو يقول : اللّهم ارحمنى وارحم مَنْ وَرَائى من هذه القبلة ، وانصرنى ، فما أَسْتمدُّ النّصر إلّا منك ، وهو يعفّر وجهه على التّراب ويبكى ، ثمّ ركب وقد انتصر عسكرُه ، وجِيء إليه بأفتكين أسيرًا ، اسره مفرج بن دغفل ابن الجرّاح الطائى[٢] أمير طيئ ، فجاء به وفى عنقه حبل ، فأحْسن إليه العزيز لِمَا رأى من شجاعته ، ومَنّ عليه ، ورجع به إلى مصر ؛ فأقام بها إلى أن مات فى سنة سبعين وثلاثمائة ، والحجّاب والأكابر يركبون إلى داره .

ولما رجع العزيز هنأه الناس بهذا الفتح ، ومدحه الشعرا . فمنهم الحسين

---

(١) عن الصلح بين أفتكين وجوهر ، انظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ ، الكامل جـ ٨ ص ٦٥٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤١ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ .

(٢) « وسار العزيز وعلى مقدمته حسان بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح الطائى » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤٢ .

ابن عبدالرحيم الزلالى بقصيدته التى أولها :

لَاحَ للحقِّ شهابٌ فوقَدْ فسرآى قاصدُه أيْن قصد
بالعَزيز بنِ المعزّ اعْتَضدت دولَةُ الحقّ ، وبالله اعتضد
يا أميرَ المؤمنين المرتَضَى وعمادَ الدّين ، والرّكن الأسدّ
بنزارِ بنِ معدٍّ ، وهماْ خير أمناء نزارِ بن معد[١]

ومنها :

أصْلح الشّامَ بما دبّره وتلَافَاه ، وقدْ كانَ فَسَد
أطفأ الفتْنَةَ فيه ، بعدما أبْرق التركىُّ فيها ورَعد

وكان عَوْدُ العزيز إلى مصر ووصُولُه إليها فى يوم الاثنين لست بقين من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وستّين وثلاثمائة .

وفى سنة تسع وستين وثلاثمائة ، فى ثامن عشر شهر ربيع الأول ، تزوّج العزيز بابنة[٢] عمه ، وأمْهَرَها مائتى ألف دينار عينا .

ذكر فتوح اللاذقية

وفى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، فى حادى عشر شهر ربيع الأول ، ورد كتاب نزال[٣] يذكر فيه أنه وَاقَع الرُّوم بساحل الشّام ، وكَسَرهُم ، وأخذ

---

(١) المقصود فى أول البيت هو العزيز بالله ، وفى آخره الجدان الثامن عشر والتاسع عشر للرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) « وعقد العزيز على امرأة » فى اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٥٢ .

(٣) نزال والى طرابلس من قبل الخليفة الفاطمي . تكملة تاريخ ابن البطريق ص ١٦١ .

اللاذقية . ثم ورد نزال من الشّام فى العاشر من جُمادى الآخرة ، ومعه نحو خمسمائة نفر من الرّوم أسرى فى السّلاسل .

وفى هذه السّنة وصل من تنّيس رجل وامرأة بمولودة لها رأسان ووجهان وأربع أيدٍ كاملة الخلق فى جسد واحد ، وسنها دون الشهرين .

وفيها كان النّوْرُوز لِسبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول وأكل الناس [٤٨] الرُّطب قبل النَّوْروز على عادتهم ، وأصرمت النَّخل[١] ، ولم يَبْقَ عليها شىء ألبتّه ، ثم حمل النخل ثانيًا ، فأكل الناس البلح والبُسْر مرةً ثانية ؛ ولم يتّفق مثل ذلك فى زمنٍ من الأزمنة .

ذكر فتح قِنّسرين وحمص

وفى سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاثمائة ، فى شهر ربيع الأول منها ، دخلت عساكر العزيز إلى قنّسْرين وحمص ، وأقاموا الدعوة لهُ بها .

وفيها فى ثامن شوّال صرَف العزيزُ وزيرَه يعقوبَ بن كلّس واعتقله ، وحمل من مالِه خمسمائة ألف دينار ؛ ثم افرج عنه بعد ذلك ، وأعاده إلى الوزاره ، فى سنة أربع وسبعين ، ووهب له العزيز مالاً كثيرًا وألفًا وخمسمائة غلام تكون فى خدمته ، وإليهم تنسب حارة الوزيرية[٢] بالقاهرة .

---

(١) أصرم النخل : حان له أن يصرم أى يقطع . القاموس .

(٢) انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٥ .

وفى هذه السّنة اشتد الغلاء بمصر وبلغت حملة الدّقيق الجُشكار[١] أحد عشر دينارًا والعلامة اثنى عشر دينارًا ؛ والحملة ثلاثمائة رطل بالمصرى .

وفيها فى العشرين من ذى القَعدة ورد الخبر أنّ ابن حَمْدان[٢] خطب للعزيز بحلب والجزيرة كلِّه .

وفى سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمائة خُطب للعزيز بمعرّة النّعمان .

وفى سنة ثمانٍ وسبعين وثلاثمائة استجدّ العزيز فى جامع مصر[٣] العين الفوّارة ، ودامت إلى أيّام العاضد ، فحربت فى الحريق فى سنة أربعٍ وستين وخمسمائة ؛ ثمَ جدَّدَها الملكُ العادلُ أبوبكر بن أيوب وفيها لَاعَنَ القاضى محمّد بن النُّعمان بين رجلٍ من لدن عقيل وامرأته .

وفى سنة ثمانين وثلاثمائة اختطَّ العزيز الجامعَ بالقاهرة ، وهو الجامعُ المعروف بالحاكم[٤] بباب الفتوح .

وفى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة خرج منير والى دمشق على العزيز بالله[٥] ، وقتَلَ ابن أبى العَواد[٦] الكاتب ولحقه بشارة الإخشيدى ، فسار

---

(١) الجشكار أردا انواع الدقيق ، والعلامة أجود أنواعه ، ومازال هذان الاصطلاحان يستعملان بهذا المعنى فى الريف المصرى .

(٢) هو سعد الدولة أبو المعالى شريف بن سيف الدولة أبو الحسن على ، الذى ولى حكم حلب فى الفترة من ٣٥٦ ـ ٣٨١ هـ/٩٦٧ ـ ٩٩١ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤ .

(٣) المقصود جامع عمرو بن العاص والإشارة فيما يلى إلى الحريق الذى أشعله شاور فى الفسطاط ــ للمواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٥١

(٤) جامع الحاكم بأمر الله ، نسب إلى الحاكم لأنه هو الذى أكمل بناءه ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٧٧ وما بعدها .

(٥) « وبلغ العزيز أن منير يكاتب صاحب بغداد » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦٩ .

(٦) كان على الخراج بدمشق ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦٩ .

نزال والى الرَّمْلة إلى دمشق ، فحاربه منير ، فهزمه نزال . وكانت الوقعة بمرج عذراء[١] فى تاسع شهر رمضان وهرب منير يريد حلب ، فأخذه العرب وأحضروه إلى دمشق لنزال ، فوجدُوا منجوتكين[٢] قد وصل إليها فأخذ منيرًا وحرسه على جمل وإلى جانبه قرد وعليه طرطور .

وأقام منجوتكين بدمشق بقية سنة إحدى وثمانين . وأمده العزيز فى سنة اثنتين [وثمانين][٣] بخمسمائة فارسٍ وخزانة وسلاح صحبة صالح بن على وجيلين التركى ، فاشتمل عسكر منجوتكين على ثلاثة عشر ألف فارس فطمع فى ملك حلب بحكم وفاة صاحبها سعيد الدولة[٤] بن حمدان فحشد وخرج إليها فى ثلاثين ألف فارس ونازلها ، وفتحها فى شهر ربيع الآخر . وبقيت القلعة بيد أبى الفضل بن سعيد الدولة بن حمدان ولؤلؤ ، فكاتبا بسيل[٥] ملك الرّوم ، فكتب لصاحب أنطاكية ، وهو من قِبَله ، بأنْ يجمع العساكر ويتوجَّه إلى حلب لنُصْرة صاحبها ، ودَفْعِ المغاربة عنها ، فسار إليها فى خمسين ألف راجل .

وقال المسبّحى : كان عسكر الرّوم سبعين ألفا وعسكر منجوتكين خمسة وثلاثين ألفا .

---

(١) مرج عذراء : نسبة إلى قرية عذراء بغوطة دمشق ــ معجم البلدان .

(٢) منجوتكين : كان ممن اصطنعهم العزيز بالله من الأتراك ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦٩ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

(٤) « سيف » فى الأصل ، وهو تحريف .

وهو سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد ، الذى حكم حلب فى الفترة من ٣٨١ ـ ٣٩٢ هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٠٢ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤ .

(٥) هو الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى الذى ولى عرش الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م ــ أوربا فى العصور الوسطى .

فنزل الرّوم على جسر الحديد بين أنطاكية وحلب ، فأشار أصحاب منجوتكين عليه بقَصْد الرّوم ، فتوجه نحوهم[١] وانضم إليه جماعة من بنى كلاب ، فالتَقَوْا فانكسرت عساكر الرُّوم ، وغَنِم منجوتكين ومن معه الغنائم الجزيلة . وجمع من رؤوس الرُّوم مقدار عشرة آلاف رأس ، فسيَّرها إلى مصر .

وتبع منجوتكين الرّوم إلى أنطاكية ، وأحرق ضياعًا ، ونهب رساتيقها[٢] ، ورجع إلى حلب . فعمل لؤلؤ مقدم حلب على رجوع منجوتكين عن بلده ، فكاتب أبا الحسن بن المغربى وزير منجوتكين وخواصَّه أن يحسّنُوا له الرجوع إلى دمشق والعَوْد إلى حلب فى العام المقبل ، ووَعَدَهم[٣] على ذلك بالأموال الجزيلة . فذكروا ذلك لمنجوتكين فصادف هذا الرأى منه موقعاً لسَوْقه إلى دمشق ، فرجع عن حلب .

ولمّا بلغ العزيز رجوعُه عنها انزعج لذلك وعلم أنه بتدبير وزيره ابن المغربى ، فعزله عن وزارة منجوتكين ، وولى صالح بن على الرّوذبارى .

وفى سنة ثلاثٍ وثمانين وثلاثمائة ظهر من الجراد والكمأة[٤] على جبل المقطم بمصر ما لم يعهد مثله ، فخرج النّاس إليه وجعلوا يدخُلون القاهرة

---

(١) « نحوهم إليهم » فى الأصل .

(٢) رستاق ، رسداق ــ رساتيق ، ومنها رزداق ، ورزداقات : القرى وما يحيط بها من الأراضى ، فارسى معرب ــ القاموس .

(٣) « أن يحسنا له » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) الكمأة ــ أكمؤ : نبات يسمى شحم الأرض ، مثل القلقاس ــ لا ساق له ولا عرق ، عديم الطعم ، يؤكل نيئًا ومطبوخًا ــ القاموس

ومصر فى كلِّ يوم . فبيع الجراد أربعة أرطال بدرهم ، والكمأة سبعة أرطال بدرهم .

وفيها فى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة احترقت صناعة الإنشاء[1] بمصر بما فيها من المراكب الحربية وآلات السلاح وغير ذلك ، فاتُّهِم الأمراءُ بذلك . فقتل منهم مائة وسبعة نفر . ثم أحضر عيسى ابن نسطورس مَنْ بقى من الرُّوم فاعترفوا بذلك . فأمر العزيز بالله أن تُنْهَب كنيسة الرّوم ، فنهبت وأخذ منها ما ينيف عن تسعين ألف درهم .

[٤٩] ذكر وفاة العزيز بالله وشىء من أخباره وأخبار وزيره يعقوب بن كلّس ومَنْ وَلِى بعده

كانت وفاةُ العزيز بالله بعد الظهر من يوم الثلاثاء لِلَيْلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة بمدينة بلبيس فى مسلخ الحمام بعلتى القولنج والحصاة[2] .

وكان مولده بالمهديّة فى يوم الخميس لأربعَ عشرةَ ليلةً خلت من المحرّم سنة أربعٍ وأربعين وثلاثمائة .

---

(١) المقصود دار صناعة السفن . وقد ورد الخبر فى أحداث شهر ربيع الآخر سنة ٣٨٦ هـ فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٩٠

(٢) « الحص » فى الأصل

وكانت مدّة حياته اثنتين وأربعين سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما ، ومدّة ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا [١] .

وكان أسمر ، طويلاً ، بدينًا ، أشْهَل ، أعْيَن ، أصْهَب الشّعر ، عريض المنكبين . وكان لا يُؤْثر سفك الدماء .

قال المؤرخ : وجُدّد فى أيام العزيز من الأبنية قصر الذّهب [٢] ، وجامع القرافة [٣] والفوّارة وبستان السردوس [٤] . وقصور عين شمس ، والمصلى الجديد بالقاهرة . وهو أوّل من بنى دار الفطرة [٥] ، وقرر الرّواتب ، وسنّ إعطاء الضّحايا للأولياء . وكان قريبًا من الناس ، بصيراً بالخيل والجوارح والصّيد .

ولده : أبوعلى المنصور ، وهو الحاكم بأمر الله .

---

(١) « وعشرة » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ١٧٥ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٩٢ .
وفى كنز الدرر « وعشرة أيام » جـ ٦ ص ٢٣٨ .

(٢) قصر الذهب : قاعة الذهب ، وكان يقال لها قصر الذهب ، أحد قاعات القصر الكبير الذى هو قصر المعز لدين الله ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٨٥ .

(٣) جامع القرافة : كان موضعه يعرف عند فتح مصر بخطة المغافر ، أنشأته السيدة تغريد والدة العزيز بالله ، على نحو بناء الجامع الأزهر ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣١٨ .

(٤) السردوس : قرية قديمة ، تعرف اليوم باسم باسوس ، إحدى قرى مركز قليوب بمحافظة القليوبية ــ القاموس الجغرافى ق ١ ص ٦٩ .

(٥) دار الفطرة : أنشأها العزيز بالله خارج القصر ، وهى عبارة عن حاصل أو مخزن لجمع أنواع الحلوى التى تفرق ، فى النصف الثانى من شهر رمضان ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٢٥ .

ذكر أخبار الوزير يعقوب بن كلّس

وكُنيَتُه أبو الفرج ؛ وهو أوّل من خوطب بالوزارة فى دولتهم . وكان يهوديًّا من أهل بغداد ، فهاجر منها إلى الشام ونزل الرّملة ، فجلس وكيلاً للتُّجار بها ، فاجتمع عنده مالٌ فاكْتَنَزَه ، وسافر إلى مصر . واتّصل بخدمة كافور ، فتاجر فى متاعٍ كان يُحيله بِثَمَنِه على الضياع ، فكان إذا احتيل على عملٍ بمالٍ لا يخرُج منه حتى يعلم مستخرجه ونفقته وارتفاعه ، فعلم أحوال ديار مصر ، فأُخبر كافور به ، فقال : لو كان هذا مسلمًا لصلح أن يكون وزيرًا . فبلغه ذلك ، فأسلم على يَدَىْ كافور ، فى يوم الجمعة فى الجامع العتيق ، فى سنة خمسين وثلاثمائة .

ثم تعلّقت به مُطَالبات ديوانيّة فى الدولة الإخشيدية فهرب بسببها من مصر ، فلقى العسكر المغربىّ قاصدًا مصر فعاد فى صحبته ، فلمّا ملك القائد جوهر مصر تصرَّف ابن كلّس فى الأمور الدِّيوانيّة مدّة أيام المعز ، ثم انتقل إلى خدمة ولده العزيز ، فاختصّ به وتمكّن منه ، واقتنى الأموال ، فاستوزره فى يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان سنة ثمانٍ وستين[1] وثلاثمائة ، وأقطعه بمصر والشام فى كلِّ سنة ثمانية آلاف دينار ـ وبسطَ يدَه فى الأموالَ ، وكتب اسمه على الطُّرُز[2] ، وابتدأ بنفسه فى المكاتبات والعُنْوانَات : من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين .

---

(١) « سنة خمس وستين » فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٨ ، وذيل تاريخ دمشق ص ٣٢ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٢٧ .

(٢) طراز ـ طرز : كلمة فارسية تعنى الرداء المحلى ، وكانت الحلية أشرطة من الكتابة ، ثم صارت الكلمة تطلق على الدار التى تصنع بها هذه الأشرطة ـ عن دار الطراز فى العصر الفاطمى انظر خزانة الكسوات ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٠٩ .

وتمكن من الدولة حتى أسْقَطَ المغاربة ، واستخدم المشارقة ، فى سنة سبعين وثلاثمائة ، من التُّرك والإخشيدية . وأذل جوهرًا الرُّومى غلامَ المعزّ وجعله على المرمّة . وكان [جوهر][1] يقول : قبح الله طُول هذا العمر الذى أحْوج لمثل هذا .

ثم نكبه العزيز النكبة التى ذكرناها فى سنة ثلاث وسبعين ، ثمّ أطلقه وأعاده إلى الوزارة ، وقال له : عُزِلتَ بالإغراء ، ورُدِدْت بصمم الآراء . ووهب له ألفًا وخمسمائة غلام كما ذكرنا[2] .

ولم يزل ابن كلس على ذلك إلى أن توفى لِستٍّ خلَوْنَ من ذى الحجة ، سنَةَ ثمانين وثلاثمائة .

ولمَّا مرض مَرْضته التى مات فيها ركب العزيز إليه ، وعَادَهُ ، وقال له : وَدَدْتُ أنّك تباع فأبتاعكِ بملكى وولدى .

ولمّا مات أمر العزيز أن يُدفن فى داره فى قُبة كان بناَها لنفسه ؛ وحضر جنازته وصلّى عليه ، وألحده فى قبره .

وبلغ قيمة الكفن الذى أنْفَذه العزيزُ له ، وهو خمسون ثوبا مثقلة سبعة آلاف دينار . وانْصَرف من دفنه ، وأظهر الحُزن وأغلق الدّواوين ثمانية عشر يومًا ، وعطّل الأعمال أيامًا ، واشتملت تركته على مال عظيم .

ولم يستوزر [العزيز][3] بعده أحدًا بل ضمن أموال الدّولة بجماعةٍ من المستخدَمين وجعل الغالبَ عليهم عيسى بن نسطورس النّصرانى ، فمال إلى

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) انظر ما سبق .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

النّصارى وقلدهم الأعمال . واستناب بالشام منشا بن إبراهيم اليهودىّ فقدّم اليهود ومال إليهم ، واطّرح المسلمين ، فوقفَت للعزيز امرأة بيدها قصّة مكتوبٌ فيها : يا أمير المؤمنين بالّذى أعزّ النّصارى بابن نسطورس وأعزّ اليهود بمنشّا بن إبراهيم وأذلّ المسلمين بك إلا ما نظرت فى أمْرى وكشفت ظُلَامتى[1] ! فقبض العزيز على عيسى ، وكتب بالقبض على منشّا بالشام ، ثم شفعت ستّ الملوك ابنة العزيز فى عيسى فردّه إلى ما كان عليه ، وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار ، وشرط عليه استخدام المسلمين فى دولته وأعماله .

قضاته : أبوطالب محمد بن أحمد البغدادى إلى أن استعفى ، ثم على بن النعمان إلى أن تُوُفّى فى شهر رجب سنة أربع وسبعين ، فردّ القضاء إلى أخيه أبى عبدالله محمّد بن النّعمان .

حُجّابه : الأمير منجوتكين [٥٠] ، القائد باروخ .

ولمّا مات العزيز قام بالأمر بعده ولده أبوعلى المنصور .

ذكر بيعة الحاكم بأمر الله

وهو أبو على المنصور بن العزيز بالله نزار ، بن المعز لدين الله أبى تميم معدّ ، بن المنصُور بنصر الله أبى طاهر إسماعيل ، بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد ، بن المَهدى عبيد الله . وهو السادس من ملوك الدّولة العُبيدية ، والثالث من ملوك مصر والشام منهم .

بايع له أبوه العزيز قبل وفاته ببلبيس ، وكان ولّى قبله ابنَه محمدًا فهلك فى حياة أبيه العزيز ، ثم جُدّدت البيعة للحاكم بأمر الله صبيحة وفاة أبيه فى

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٤١ ، الكامل جـ ٩ ص ٧٧ ، ص ١١٦ .

يوم الأربعاء لليلةٍ بقيت من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة ، ولبس أثواب الخلافة ، وتعمَّم بعمامةٍ عليها الجوهر ، وعمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة وستة أشهر[١] . وتولَّى كِفَالته برجوان[٢] الخادم ، وقام بأمر الجيوش وتدبير الدَّولة أبو محمد الحسن بن عمّار ابن أبي الحسين ، وتلقب بأمين الدّولة ، وهو أول من لقب فى دولتهم بمصر ، وكان ذلك بوصية من العزيز .

قال : وكان الكتاميون قد أضعفهم الوزير ابن كلّس ، فأظهرهم ابن عمّار وردَّهم إلى ما كانوا عليه .

ذكر القبض على الوزير عيسى بن نسطورس النصرانى وقتله

كان القبض عليه فى تاسع شوال سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة : وذلك أن ابن عمار اتّهمه بالإغراء عليه ومباطنة منجوتكين ، فبَسَط عليه العذاب . واستخرج منه سبعمائة ألف دينار ، ثم أخرجه لثلاثٍ بقين من المحرم سنة سبع وثمانين على حمار ، إلى المقس ، وضرب عنقه هناك . رحم الله ابن عمار الآمر بقتله ، فلقد حُكى عنه مِنْ جَوْره على المسلمين واطِّراحِه لهم ما لَا مَزِيد عليه .

حكى الأثير بن بيان المصرى أنّ بعض رؤساء المصريّين كتب ورقةً يعاتب فيها عيسى على قُبْح فعله مع المسلمين وبالغ فيها فأجابه عيسى عنها يقول :

---

(١) ولد بالقاهرة فى ٢٣ ربيع أول ٣٧٥ هـ ـ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٧٦ ، وورد أنه ولد فى ربيع الآخر فى أخبار الدول المنقطعة ص ٦٠ .

(٢) هو الأستاذ أبو الفتوح برجوان ، من خدام العزيز بالله ، قتل سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م ـ وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٧٠ رقم ١١٢

«إن شريعتنا متقدِّمة ، والدّولَةُ كانت لنا ثم صارت إليكم ، فَجُرْتم علينا بالجزية والذِّلَّة ، فمتى كان منكم إلينا إحسَانٌ حتى تطالبونا بمثله!. إن مانَعْنَاكم قاتلتمُونا ، وإن سَالَمناكم أهنتمونا ، فإذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقَّعُون أن نصنع بكم» . ثم تمثل فى آخرها ببيتين :

بنتُ كَرمٍ غصبُوها أمَّها ثم داسُوهَا ، هوانًا ، بالقدم
ثم عادوا حكَّمُوها فيهمُ وأناهيك بِخصْمٍ قد حكم !

ذكر مخالفة منجوتكين بدمشق وحربه وأسره وسبب ذلك

كان سبب ذلك أن ابن عمار أظهر الكتاميين وبالغ فى الإحسان إليهم ، وخوَّلهم فى الأموال وبسط أيديهم ، وفرَّق فيهم ما خلَّفَه العزيز .

قال بعض المؤرخين : إن العزيز كان عنده عشرون ألف عليقة ما بين فرسٍ وبغل ، وجمل وحمار ، ومن الأموال ما لا يدخل تحت الإحصاء ؛ ففرَّق ابن عمار ذلك فيمن أراد اصطناعه . فلما كان فى سنة سبع وثمانين ومائتين انبسطت يد كُتامة وجاروا على النَّاس بديار مصر ، وامتدُّوا لِأَخْذِ أموالهم ، ثم اجتمع مشايخهم وحسَّنوا للحسَن بن عمار قتل الحاكم . فعلم برجوان بذلك ، فبالغ فى حفظ الحاكم وضم إليه شكر العضُدى من غلمان عضُد الدَّولة بن بويه . وكاتبا منجوتكين أمير دمشق يُعرِّفانه ما عزم عليه ابن عمّار ، وأنه بَسَط يد كتامة فى الأموال ومكنهم من الجَوْر وأنهم حَصَرُوا الحاكم بقصره ، وأشارَا عليه أن يقصد مصر ليكون عوضًا عن الحسن بن عمّار .

فلما قرأ منجوتكين الكتاب جمع القُوّاد والأجناد وغيرهم بجامع دمشق ، وعرّفهم ما جرى من كتامة ، وبكى ، وخرّق ثيابه ؛ فأطاعه النّاس وحلفوا له على طاعة الحاكم وقتال ابن عمار . فأنفق فيهم الأموال ووثّق منهم ؛ وبرز من دمشق فى ستة آلاف فارس .

فلما تّصل ذلك بابن عمار عَظُم عليه وجمع وُجُوه كتامة وعرّفهم الحال ، فقالوا : [٥١] نعرّف الناس أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وخالف عليه ، وخرج عنه ، ليبالغوا فى قتاله ؛ ففعل ذلك وأظهره ، وفرّق الأموال فى وُجُوه الدَّولة . ثم أحضر برجوان وشكر العضدى وقال لهما : أنا شيخٌ كبير وقد كثُر الكلام علىَّ والقول فىّ ، وليس لى غرضٌ إلّا فى حفظ الإمام الحاكم . وسألهما أن يحلفا له على المساعدة فما وسعهما إلا أن حلفا (١) له . وندب من وقته أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح وقدّمه على العسكر ، وأمره بالمسير إلى الشام ، فخرج فى ستة عشر ألف فارس وراجل . فسار سليمان فى ثانى صفر ، ورحل منجوتكين إلى الرّملة فملكها ومعه مفرّج بن دغفل بن جراح ؛ وسار سليمان حتى نزل بظاهر عسقلان .

وتقابل الجيشان بعد ثلاثة أيّام ؛ وكان المصافّ فى يوم الجمعة لأربعٍ بقينَ من جمادى الأولى سنة سبعٍ وثمانين وثلاثمائة ، فاستأمنت العرب من أصحاب دغفل وغيرهم إلى سليمان ، فاستظهر ، وقتل من أصحاب منجوتكين أربعة قوّاد . وانهزم منجوتكين وأحصيت القتلى من أصحابه فجاءت ألفى فارس ، وامتلأت أيدى أصحاب سليمان . وبذل سليمان لمن

---

(١) « حلفوا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

يُحضر منجوتكين عشرة آلاف دينار ومائتى ثوب ، فأسره على بن الجرَّاح وحمله إلى سليمان ، فسَيَّره إلى مصر . فاصطنع الحسنُ بنُ عمّار منجوتكين ، وسار سليمان ونزل طبريّة .

فلما بلغ أهل دمشق ما اتفق لمنجوتكين نهبُوا دارَه . وبعث سليمان أخاه إلى دمشق فى خمسة آلاف فارس ، فلمّا وصلها أغلقُوا دونه الأبواب ، فكتب إلى أخيه بذلك ، فسار إلى دمشق وتلطَّف بأهلها ، وطيّب قلوبهم ، ففتحوا له الأبواب . ودخل البلد واستقر أمره ، وثبت قدمه ، واستتبَّ له الأمر ، فنظر فى أمر السّاحل واستبدل بولاية الجابرين ، وعزل [الأمير](١) جيش بن الصَّمصامة من طرابلس الشام واستعمل عليها أخاه ، فحضر جيش إلى مصر ولم يجتمع به .

ذكر الفتنة بين المشارقة والمغاربة وهرب ابن عمار وما كان من أمره

كان سبب ذلك أنّ سليمان بن جعفر لما عَزَل جيْشَ بنَ الصّمْصامة عن طرابلس حضر [جيش](٢) إلى مصر واجتمع بشكر الخادم وبرجوان سرًّا وعرَّفَهما بُغْض أهل الشّام فى المغاربة ؛ وكان جيش أيضًا من كتَامة وبيْنه وبين سُليمان عداوةٌ متمكنة ، فحسَّن لهما الفتك بالحسَن بن عمّار ، فوَقَع هذا الكلام من برجوان بالموْقِع العظيم مع ما تقدّم بينهما من الوحشة . وعلم برجوان أن القاهرةَ ومصر قَدْ خَلَتَا من المغاربة ولم يبق فيهما إلاّ العدد القليل ،

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

وأمكنته الفرصة فانتهزها ، وراسَل الأتراك والمشارقة فى القَبْض على الحسن ابن عمّار .

وأحسَّ ابن عمار بذلك فقصد المُبادرة بالإيقاع ببرجوان وشُكر ، ورتَّب جماعةً فى دهليز داره ، وقرر معهم الفتك بهما إذا دخلَا إليه . وكان لبرجوان عيونٌ كثيرة فاطَّلعوا على ما دبّره ابن عمار عليه . واتفق أنّ الحسن استدعاه [ومعه شكر][1] فركبا إلى داره ، وكانت فى آخر القاهرة مما يلى الجبل ، ومعهما جماعة من الغلمان . فلمّا وصلا إلى باب الدّار ظهرت لهما عين القضيّة فعاذَ إلى القصر بسرعةٍ ، وجرّدَ الغلمانُ سيوفهم ، فَدَخَلَا قصر الحاكم . فثارت الفتنة ، واجتمع الأتراك والدَّيْلم والمشارقةُ وغيرهم على باب القصرِ ، وبرجوان يبكى ، وهم يبكون لبكائه ، وهو يحرّضهم على القيام بواجب خدمة الحاكم .

وركب الحسَن بن عمّار فى كتامة إلى الجبل ، وتبعه وجوه الدّولة ، فصار فى عددٍ كثير . وفتح برجَوان خزائن السّلاح وفرَّقها على الغلمان وغيرهم ، وأحدقوا بالقصر ، فبرز منجوتكين وفارحتكين وينال الطويل فى خمسمائة فارسٍ من الأتراك . ووقعت الحربُ بينهم وبين الحسن بن عمّار إلى وقت الظهر من يوم الخميس سلخ شعبان سنة سبعٍ وثمانين وثلاثمائة ، فانهزم ابن عمّار ، ورجعت العامّة إلى داره فنهبوها ونهبوا خزائنه ؛ واستتر عند بعض العوامّ وتفرَّقت عنه جموعه[2] .

وفتح برجَوان باب القصر ، وأجلس الحاكم ، وأوصل إليه النّاس ،

[ ] إضافة للتوضيح .

(٢) عن الآراء المختلفة فى أسباب هذه الفتنة وأحداثها ، انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٤٨ ـ ٤٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٢ .

وجدَّدَ له البيعة على الجند ، فلم يختلف عليه أحد ؛ وكتب الأمانات لوجُوه كتامة وقُوّاد الدَّيْلم وراسَلَهم بما يُطَيِّب قلوبهم فأتوْه . واستقام أمرُ برجَوان وكتب إلى أهلِ دمشق يُطيِّب قلوبهم ويأمرهم بالقيام على سليمان والإيقاع به ؛ فثار أحداث(١) دمشق وقصدوا دار أميرها سليمان ، فوجدُوه وقد الْتَهى بالشُّرب وانهمك على لذَّاته ، فهرب على ظهر فرسه ونُهِبت خزائنه [٥٢] وأمواله . وجعل برجوان الحسينَ بنَ القائد جوهر قائدَ القُوَّاد ، وبعث جيش ابن محمد بن الصّمصامة إلى دمشق ، وتلطَّف فى إخراج الحسن بن عمّار من استتاره ، فخرج ، فأعاد برجوان عليه ما كان بيده من الإقطاعات وحلَّفه ألّا يخرج من داره .

وفى سنة ثمانٍ وثمانين وثلاثمائة عصى أهل صُور على الحاكم بسبب فتنة برجوان وابن عمار وقتلوا جماعةً من جند المصريّين ، وثار بعضُ الملاحين من أهلها . ويعرف بالعلاقة ، فَملك البلد .

وثار مفرج بن دغفل الجراحى بالرّملة ونهبها .

فندب برجوان إلى الشام أبا الحسن عبدالصّمَد ابن أبى يَعْلَى ، وضمّ إليه عسكرًا . فسار من القاهرة لأربع عشرةَ ليلةً خلت من ذى القعدة ، سنة ثمانٍ وثمانين(٢) . فلمّا وصل إلى الرّملة حضر إليه من جند السّاحل خمسة آلاف

---

(١) أحداث : جمع حدث ، ومعناها الشبان الصغار ، وكان الأحداث يكونون نوعًا من رجال الشرطة أو الحرس ، وقاموا بدور هام فى مدن سوريا . خاصة فى حلب ودمشق ، والفارق بين الأحداث والشرطة فى طريقة تجنيدهم المحلية غير الرسمية ، فهم رجال مسلحون من أهل البلد — انظر هامش ٣ فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٩ ، ومادة حدث فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) « وثلاثين » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث ، وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨ ـ ١٩ .

فارسٍ ، ووجد سليمان بن جعفر [بن][1] فلاح بها فقبض عليه وسيَّره إلى مصر . وسيّر إلى صور أبا عبد الله الحسن بن ناصر الدّولة وياقوتا الخادم ومَنْ معه مِنْ عبيد الشّراء ، فوقعت الحرب بينهم وبين أهل صور ؛ ثم طلبوا الأمان فأُمِّنوا . وأسر العلاقة الثائر ، وكان قد استنصر بالروم ، فسُلخ وهو حيّ ، وحُشِي جلده تبنًا وصلب . وكان قد ضرب على الدينار بصَور « عزّ بعد فاقة ، وشطارة بلباقة ، للأمير العلاقة » .

وفيها فى شعبان ورد الخبر بفتح أنطاكية على يد [الأمير][2] جيش بن محمد ابن الصّمصامة .

ذكر قتل برجوان الخصىّ

كان مقتله فى ثالث عشر[3] شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة .

وسبب ذلك أنه كان لِفرْط إشفاقه على الحاكم منَعه من الرّكوب خوفًا عليه ، ومنعه من العَطاء لغيرِ مستحقّ ، فثقُل على الحاكم ، ولم يَبْقَ للحاكم فى الأمر غير الاسم ، واستبدَّ برجوان بالأمر . وكان عند الحاكم خادمٌ اسمه ريدان الصقلبى قد اختصّ به وأنس إليه ، فشرع فى إغراء الحاكم على برجوان . وكان من جُملة ما قال له : إن هذا يقصد أن يفعل بكَ كما فعل كافور الإخشيدى مع أولاد سيّده ، فبَاطَن الحاكم الحُسَين بنَ جوهر قائدَ

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) « فى سادس عشر » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ، ص ٢٥ ، « سادس عشرى » فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣ .

القواد على قتل برجوان ، ووعده أن يفوّض إليه تدبير الأمر بعده . ثم ركب الحاكم وبرجوان فى بعض الأيام إلى بستان اللُّؤلؤة [١] على عادته ، فمال عليه ريدان بسكين فضربه بها فى ظهره وأخرجها من صدره . فقال برجوان للحاكم : غُدِرت . فزعق على الخدَّام فاحتزُّوا رأسه ؛ فانزعج النّاس لذلك ولبسوا السلاح ، فسبق الحاكم ودخل القصر . وحضر شكر الخادم والجند وأحاطوا بالقصر ظنًّا منهم أن الحسن بن عمار تمَّم على الحاكم حيلة . فلما رأى الحاكم ذلك تراءى للنّاس فترجلوا وقبّلوا الأرض ، وسكنت الفتنة .

ثم فتح الحاكم القصر واستدعى أكابر النّاس وقال لهم : أنكرت على برجوان حاله وقتلته ، واستدعى الحسين بن جوهر وأمره بصرف الناس إلى منازلهم ، فصرفهم .

وركب مسعود الحاكمى إلى دار برجوان فأحاط على ما فيها ، وكان من جملة ما وجد له ألف سروال [٢] دبيق بألف تكّة حرير ، وناهيك بموجودٍ يكون هذا من جملته .

وإلى برجوان هذا تنسب حارة برجوان [٣] التى بالقاهرة .

واستقرّ الحسين بن جوهر فى تدبير الدّولة فى ثالث جُمادى الأولى من السنة .

وقتل فى أثناء هذه الفتنة الحسن بن عمّار الكتامى . وتوفّى جيش ابن محمد بن الصّمصامة أمير الشام بدمشق فى ثالث عشر ربيع الأول منها ،

---

(١) « كان الحاكم فى بستان يعرف بدويرة التين والعناب » بالقصر ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٥ .

(٢) « سراويل » فى الأصل .

(٣) انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣ .

وندب الحاكم لولايتها القائد تميم بن اسماعيل المعزّى الملقب بفحل .

ذكر ما فعله الحاكم بأمر الله وأمَر به من الأمور الدالَّة على اضطراب عقله بعد أن استقل بالأمر بمفرده

كان أول ذلك أنه نهى فى سادس شهر رجب سنة تسعين وثلاثمائة أن يخاطِب الناس بعضهم بعضًا بسيدنا أو مولانا ، وألّا يخاطَب بذلك غيره(١) . وفى سنة إحدى وتسعين ، فى شهر المحرم ، أمر أن تُزيَّن مصر ويفتح الناس دكاكينهم ليلاً ؛ ولازَم الركوب بالليل ، وكثر ازدحام النَّاس ، وصار البيع باللّيل أكثر من النهار ، وأكثر الناس الوفود . وغلب النساء على أزواجهم على الخروج ، فأمر فى رابع عشر الشّهر ألّا تخرج أمرأة من العشاء لهذا السبب ، فلم يخرجْنَ بعد أمره(٢) .

وفى سنة ثلاثٍ وتسعين حصل للحاكم مرض المانخوليا ، فأخذ فى قتل أرباب الدّولة وذوى المناصب وغيرهم ، وصدر عنه من الأفعال [٥٣] ما نذكره إن شاء الله تعالى بتواريخه على حكم السّنين .

ذكر بناء الجامع المعروف بجامع راشده

كان ابتداء عمارته فى سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة . وكان سبب إنشائه أن أبا المنصور الزيات الكاتب زرع هذا الموضع

---

(١) قرئ بذلك سجل فى القصر ــ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٥ .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٨ .

وبنى للنَّصارى فيه كنيسة فرفع أمرُه للحاكم ، فأمر بهدم الكنيسة وأن يُجعَلَ موضعُها مسجدًا ، ثم أمر بالتوسعة فيه ، فخربت مقابر اليهود والنّصارى ؛ وجمع فيه الجمعة لليلتين بقيتا من الشهر ، وبُنى فيه منبر من الطّين ، وصَلّى فيه ابن عصفورة القارئ. ثم ظهر بعد ذلك أن المحراب وُضع على غير صحّة فهُدِم ما كان ارتفع من البناء ، ثم بنى عليه ما هو عليه الآن[١] .

ذكر بناء الجامع المعروف بالحاكم الذى هو بين باب النصر و[باب][٢] الفتوح بالقاهرة

قد ذكرنا أن العزيز بالله كان قد اختطّه فى سنة ثمانين وثلاثمائة ، ومات العزيز بالله ولم تكمل عمارته[٣] .

فلما كان فى سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة ، لليلتين بقيتا من جمادى الأولى ، أمَر الحاكمُ بالله بإتمامه . وقيل إن الوزير يعقوب بن كلّس ، وزير العزيز ، هو الذى كان بدأ بعمارته وقدّر له أربعين ألف دينار ، فأخرج له خمسة آلاف دينار ومات ولم يكمل ، فابتُدِئ بعمارته فى هذا التاريخ .

وفى هذه السنة قتل الحاكم مقداد ابن حسن كاتب جوهر ، ضُرِبَ عنقُه وأحرق بالنار ، وفيها لليلتين خَلَتا من ذى الحجة قتل ريدان الصقلبى

---

(١) المقصود بالآن عصر المؤلف ، فليس لهذا الجامع وجود فى العصر الحالى ــ وعن جامع راشده انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٨٢ وما بعدها .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح تتفق وسياق الكلام .

(٣) « صلى العزيز بالله فى جامعه صلاة الجمعة وخطب » وذلك فى ٤ رمضان ٣٨١ هـ قبل أن يكتمل بناؤه ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٧٧ .

الخادم ، وكان خصيصا به مكينا عنده ، وإليه ينسب الريدانية التى هى بظاهر القاهرة خارج باب النّصر . وفيها قتل منجمه العكبرى صاحب الرّصد الحاكمى وكان شديد الاختصاص به . ونادى مُنَاديه بإباحة دم المنَجِّمين وأنهم كفار ، فهربوا ولم يبق بالديار المصرية منجم .

وفى سنة أربع وتسعين وثلاثمائة اشتدت السّوداء على الحاكم ، فصار يركب فى الهاجرة حمارة بلقاء والسّياف بين يديه ، فيقتل من يخطر بخاطره قتله . فقتل خلقًا كثيرًا وغرَّق وأحرق ، حتى قتل الركابية[١] وأصحاب السّتر والوزراء والقضاة ؛ واستمرّ به هذا الحال .

وفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، فى رابع عِشْرِى المحرم قُرئ سجل من الحاكم بمنع الملوخيا[٢] والمتوكلية[٣] والترمس المعفن والدَّلِيَس[٤] وعمل الفقاع[٥] ، وعن ذبح البقر[٦] ، وألا يدخل أحد الحمّام إلّا بمِئزر ، ولا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ، وألا يباع من السّمك ما ليس له قشر .

---

(١) الركابية : هم الذين يحملون السلاح حول الخليفة عند ركوبه فى المواكب ، ولهم زى خاص بهم ، وكانوا يسمون أيضًا صبيان الركاب الخاص ، وهم الذين عرفوا فى عصر المماليك باسم السلاحدارية والطبردارية ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٠ .
وهم غير الركبدارية الذين يحملون الفاشية بين يدى السلطان فى العصور التالية ــ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧ ، ١٢ .

(٢) « وعلل تحريم الملوخية بميل معاوية إليها » أخبار الدول المنقطعة ص ٤٤ .

(٣) « لنسبتها للمتوكل » الخليفة العباسى ، نفس المصدر ص ٤٤ .

(٤) نوع من السمك الصغير لا قشر له ــ انظر ما يلى .

(٥) شراب كالرمان يصنع من الشعير ــ القاموس .

(٦) « إلا ما يصلح للحرث » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٣ .

وفى رابع صفر منها كتب على المساجد بسب الصحابة رضى الله عنهم ، وعلى حيطان الشوارع والقياسر[١] ، ثم نهى عن ذلك فى سنة سبع وتسعين . وأمر اليهود والنصارى الا الحَبابرة بلبس السّواد[٢] ، وأن يحمل النّصارى الصُّلبان على أعناقهم ، وأن يكون طول الصليب ذراعا وزنته عشرة[٣] أرطال ، وعلى أعناق اليهود قوامى الخشب والجلاجل ، وألا يركبوا شيئًا من المراكب المحلّاة ، وأن يكون ركبهم من الخشب وألا يستخدموا أحدًا من المسلمين ولا يركبوا حمارًا لمكّار مسلم .

وفى سابع عِشْرِى صفر منها نودى بالقاهرة ألا يخرج أحد بعد عشاء المغرب إلى الطريق ولا يظهر بها .

وفى سادس عشر شهر ربيع الآخر منها أمر بقتل الكلاب فقتلت عن آخرها[٤] .

وفى تاسع عشر جمادى الآخرة فتحت دار بالقاهرة وسميت دار الحكمة[٥] ، وجلس فيها الفقهاء وحُملت إليها الكتب من خزائن القصور ، ونسخ النّاس من الكتب ما اختاروه ؛ وجلس فيها القُرّاء والفقهاء والنّحاة واللّغويون ، والأطباء والمنجّمون ، بعد أن فُرشت وزُخرفت ، وعُلّقت السّتور على جميع أبوابها وممرّاتها ، وجعل لها قُوّام وخُدّام . وحصل فى هذه الدّار من الكتب والخطوط المنسُوبة ما لم يُرَ مثله ، وأجريَت بها الأرزاق .

---

(١) القياسير » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) « وشعارهم بالسواد شعار الغاصبين العباسيين » ــ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٣ .

(٣) حدد فيما بعد بخمسة أرطال ــ انظر ما يلى فى أحداث سنة ٤٠٣ هـ .

(٤) « فقتلوا عن آخرهم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٥) دار الحكمة ، وتعرف أيضًا بدار العلم ـ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٥٨ .

وفى هذا الشهر مُنِع الناس من العبور إلى القاهرة ركّاباً مع المكّارية ، ومُنع من الجلوس على باب الزُّهومة[١] إلى أقصى [٥٤] الباب [المعروف][٢] بباب الزمرد .

وفى سنة ستٍّ وتسعين وثلاثمائة ركب الحاكم فى مَوْكبه ومعه أرباب دولته فمرّ على الموضع الذى يُباع فيه الحطَبُ وقد تراكمت الأحطابُ فيه بعضُها على بعض ، فوقف وأمر أن تؤجَّج النّار فى بعضها ؛ ثم أمَر بقاضى القضاة بمصر ، وهو الحسين بن على بن النعمان ، فأُنزل عن دابّته ورُمِى به فى تلك النّار حتى هلك[٣] ، ولم يتقدَّم له مقدّمة توجب ذلك[٤] . ثم مرَّ كأن لم يصنع شيئًا .

ذكر أبى ركوة وظهوره
وما كان من أمره إلى أن قتل

كان ظهوره فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، وادّعى أنه الوليد بن هشام[٥] بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموى ، وتلقَّب بالثائر بأمر الله

---

(١) باب الزهومة : من أبواب القصر الفاطمى الكبير الشرقى ، فى آخر ركن القصر ، وكانت حوائج الطعام تدخل من هذا الباب ، ولذلك عرف باسم باب الزهومة ، أى باب الزفر — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٢) إضافة تتفق وسياق الكلام — انظر أيضًا اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٧ .

(٣) باب الزمرد : من أبواب القصر الفاطمى الكبير الشرقى ، وكان يتوصل منه إلى قصر الزمرد فعرف به — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٤) « ضربت رقبته ثم أحرق بالنار » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٩ .
عن سبب قتل القاضى انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٩ .

(٥) « من ولد هشام بن عبد الملك » فى الكامل جـ ٩ ص ١٩٧ .

والمنتقم من أعداء الله . ونحن الآن نذكر أخباره وابتداء أمره ، وكيف تنقّلت به الحال إلى أن كان منه ما نذكره إن شاء الله تعالى .

كان مولده بالأندلس ونشأ بها ثم خرج منها بحالٍ سيّئة يجوبُ البلاد إلى أن وصل إلى القيروان ، ففتح بها مكتبًا يعلّم الصبيان فيه القرآن ، ثم توجه منها إلى الإسكندرية ومنها إلى مصر فأقام بها وبأرْيَافِها يعلم الصبيان ، ثم توجه إلى الفيّوم وعلّم بها الصبيان أيضًا ، وعاد إلى مصر ، وخرج إلى سبك الضحاك[١] فنزل به على رجل يعرف بأبى اليمن ، ثم نزل بقَرَنْفيل[٢] وسار منها إلى البحيرة فنزل على بنى قرة . وكان الحاكم قبل ذلك فى سنة خمسٍ وتسعين قدْ بعث إليهم جيشًا مقدَّمه أبو الفتيان التّركى وقتل الحاكم بعضهم وحرّقهم بالنّار ، فوجدهم قد أجمعوا على أن يلتقُوه بجموعهم ويحاربُوه ، ولم يَعْلموا من يُقدّمونه عليهم ، فعرّفهم أبو ركوة[٣] أنّه من بيت الخلافة ، فانقادوا إليه وبايعوه بالخلافة ، ونُعِتَ[٤] بأمير المؤمنين ، وانضاف إليهم من لوانة ومزاتة وزناتة جمع كثير ، وجاءوا إلى مكانٍ بالقرب من برقة .

فلمّا بلغ الحاكمَ أمرُه جهز العساكر لقَصْده ؛ فأول من خرج بها ينال الطَّويل التركى فى منتصف شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، فالْتَقَوْا

---

(١) سبك الضحاك : من القرى القديمة من أعمال المنوفية ، ويسميها العامة سبك التلات ، لأن سوقها الأسبوعى ينعقد يوم الثلاثاء ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٢ ص ٢١٧ .

(٢) قرنفيل = قرانفيل : من القرى القديمة ــ تابعة لمركز قليوب من أعمال القليوبية ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ٥٧ .

(٣) « وإنما كنى أبا ركورة لركوة كان يحملها فى أسفاره ، سنة الصوفية» ـ الكامل جـ ٩ ص ١٩٧ .

(٤) « وبعث » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع ما جاء فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٦٠ ، وورد « وخاطبوا أبا ركوة بالإمامة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٤٥ .

واقتتلوا ، فقُتل يَنال وعامّة مَنْ معه من العساكر ، وغنموا ما معهم .

وسار أبوركوة إلى برقة وأخذها بعد حصارٍ ، فاستفحل أمره .

وشرع الحاكم فى تجريد العساكر إليه ، فجهّزها فى شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وتسعين وعليها ابن الأرمنية ، فسار إلى المكان المعروف بالحمام[١] ، فلقيه بنو قرّة فى جماعتهم فهزموه وقتلوه وانتهبوا ما كان معه .

فندب الحاكم عسكرًا وقدّم عليه أبا الحسن ابن فلاح وجلين وإبراهيم بن الأفرنجية ؛ ثم ندب القائد أبا الفتوح فضلَ بن صالح لقتاله ، فخرج إلى أرض الجيزة فى رابع شوال وأنفق فى العساكر ، وكوتب على بن الجرّاح بالوصُول إلى الحضرة ، فورَدَ من الشام فى سابع عشر شوّال . وورَدَ الخبر بنهب الفيوم ، فبعث الحاكم سريّة لحفظه ، وسار الفضل بن صالح عن مكانه إلى ذات الكوم[٢] فى رابع ذى القعدة ، وكَسر أبوركوة عسكرَ ابن فلاح ونهب سواده والخزائن التى معه ، وقَتَل من أصحابه جماعةً ؛ فاضطرب النّاس واشتد خوفهم ، وباتوا فى الدكاكين والشوارع . وتوجّه القائد فضل للقاء أبى ركوة ، فالتقيا بموضعٍ يُعرف برأس البركة ، على نصف مرحلة من مدينة الفيوم ، لثلاثٍ خلَوْن من ذى الحجّة . واقتتل العسكران قتالاً شديدًا وانجلت الحرب عن قتل عامّة عسكر أبى ركوة . وانهزم أبوركوة إلى بلاد النّوبة وتبعه الفضل إلى الأعمال القوصية .

---

(١) الحمام : من القرى القديمة ، غربى الاسكندرية بنحو ٧٤ كم على السكة الموصلة بين الإسكندرية ومرسى مطروح ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٤ ص ٢٤٩ .

(٢) ذات الكوم : من القرى القديمة بمركز إمبابة ، من أعمال الجيزة ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٦١ .

وذكر بعض المؤرخين أن الحاكم لمَّا أعياهُ أمرُه دَسّ إليه جماعةً من أولياء دولته وأمرهم بطاعته ، وأن يَذْكُروا انحرافهم عن الحاكم بسبب قتله لهم ؛ ففعلوا ذلك ، فاغترّ به[1] ، ووصل معهم إلى أوسيم على ثلاثة فراسخ من القاهرة ، فالتقى هو والفضل كما ذكرنا ، واتّبعه ، فبلغه أنه وصل إلى بلاد النوبة فكتب إلى متملكها يقول إن عدوّ أمير المؤمنين الحاكم فى بلادك ، وكتب إلى صاحب الجبل وهو نائب صاحب دنقلة ومقره ببلد الدّو[2] فيما بين دنقلة وأسوان . وندب الفضل من العسكر من توجّه لقبضه ، وكان المساعد على مَسْكه الشيخ أبو المكارم هبة الله ، شيخ بنى ربيعة وقيل إنه وجد فى دير يعرف بدير أبى شنودة فى أطراف النوبة ، فمسك . وكان الطعن به فى شهر ربيع الآخر سنة سبعٍ وتسعين وثلاثمائة .

وعاد القائد فضل إلى القاهرة فوصل إلى بركة الحبش فى يوم الجمعة ، النّصف من جمادى الآخرة منها ، وتلقّاه أكابرُ الدّولة الحاكميّة ؛ وركب فى سابع عشر الشّهر وأبوركوة على جمل وعلى رأسه طرطور ، وطيف به على هذه الصفة وخلفه قِرد يصفعُه[3] ، ثم صُلب [٥٥] وضُربت عنقه وجُهّزت

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٦٢ .

(٢) الدو ، وتسمى أيضا الدر ، بلدة قديمة من بلاد النوبة ، وإليها ينسب مركز الدر بمحافظة أسوان — القاموس الجغرافى ق ١ ص ٥٨ .

(٣) « وكان بمصر رجل شيخ يعرف بالإبزارى ، ومن عادته إذا خرج خارجى أن يصبغ طرطورًا كبيرا بألوان الصبغ ، ويعلق عليه من أصناف الخرق الملونة ، ويبتاع قردًا ويعلمه أن يصفع الطرطور بدرة يتخذها له ، فإذا ظفر بالخارجى وأريد إشهاره أركب جملاً وأحضر الإبزارى ، ورسم له أن يلبس الطرطور ، ويقيم القرد من خلفه يصفعه بالدرة ، ويركب معه على الجمل ، وينادى عليه يمينًا وشمالاً حتى يشاهده الناس إلى الموضع الذى يقتل فيه ، فإذا فرغ من ذلك أطلق له مائة دينار وخمس قطع ثياب على رسم ثابت فى الديوان » — أخبار الدول المنقطعة ص ٤٧ ، وانظر أيضًا النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢١٦ .

رأسه إلى البلاد .

ونقل بعض المؤرخين أنه اعتُبرت الأكياس التى خرجت مع القائد فضل لمّا خرج للقاء أبى ركوة ، وكان زنتها فوارغ خمسة وعشرين قنطارًا . وقيل إنّ جملة ما أنفق ألف ألف دينار والله أعلم .

وفى سنة ثمانٍ وتسعين وثلاثمائة أمر الحاكم بقتل أصحاب الأخبار حيثما وجدوا ؛ وذلك أن كان قد قتل خلقًا كثيرًا لسعايتهم ، ثم اطّلع على خبائثهم وأنهم ضيَّروا ذلكَ معيشةً ، فقتلهم عن آخرهم .

وفيها أمر بهدم كنيسة قمامة بالبيت المقدس ، فكتب ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء فى ذلك «خرج أمر الإمامة بهدم كنيسة قمامة [1] ، فلْيُصيَّر طولها عرضًا ، وسقفُها أرضًا» .

وفى سنة ثمانٍ وتسعين أيضًا ، فى سابع عشرى [2] شعبان ، عزل القائد حسين بن جوهر عن جميع ما كان يتولّاه ، وكُتب سجل بتوليته صالح بن على بن صالح الروزبارى فانصرف الحسين إلى داره وأُمِر بلُزومها ، ثم خُلِع عليه وركب فى رابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمائة [3] .

وفى سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمائة ، فى يوم الجمعة التاسع من شهر رمضان ، حضر النّاس إلى القصر وقُرِئ سجل لصالح بن علىّ لقب فيه بثقة الثقات للسّيف والقلم ، وخلع عليه ، وقُيِّد بين يديه بغلات وخيل .

---

(١) كنيسة قمامة = كنيسة القيامة : وأصل تسميتها بالقمامة يرجع إلى أن القبر المقدس بنى على الموضع الذى كانت توضع به القمامة خارج سور بيت المقدس ، وهو الموضع الذى يقال أن المسيح صلب فيه ــ معجم البلدان .

(٢) « فى يوم الجمعة سابع شعبان » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٧٢ .

(٣) فى تاسع عشر ذى القعدة سنة ٣٩٨ هـ ـ فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٧٤ .

وفيها مرض الحاكم فداواه بن معشر، فأعطاه عشرة آلاف دينار.

وفيها سخط الحاكم على وزيره إبن المغربى وقتله، وقتل أخاهِ وابنَه، وهرب ابنُه الآخر إلى الشام.

وفيها فى تاسع عشر ذى الحجّة أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التى فى طريق المقس وكنائس حارة الرّوم، فهُدم جميع ذلك.

وفى سنة أربعمائة، فى يوم الخميس حادى عشر شهر رمضان، جمع الأولياء. وأصحاب الدواوين فى صحن الإيوان بالقصر، وخلع على أبى نصر بن عبدون، وقرئ سجله، ولقّب بالكافى، وولى مكان صالح بن على بن صالح الروزبارى. وكانت مدّة ولايةِ صالح سنتين وأربعةَ عشر يومًا.

ذكر خروج آل الجرّاح على الحاكم ومتابعتهم لأبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى وما كان من أمرهم

كان سبب ذلك أنّ نصر بن عبدون كان بينه وبين بنى المغربى عداوة متمكنة، فسعى بهم عند الحاكم وأغراه، إلى أن أمر بضرب أعناقهم، وذلك فى ثالث ذى القعدة سنة أربعمائة؛ فقتل أخَوَى الوزير وولدَه وثلاثةً من أهل بيته، واستتر الوزير أبو القاسم بن المغربى وهرب إلى الشام، فى تاسع ذى القعدة منها، والتجأ إلى حسّان بن المفرج بن دغفل بن الجرّاح، واستجار به فأجاره؛ وأنشده عند دخوله عليه:

أمّا وقدْ خيّمتُ وسْط الغابِ فليقسُوَنَّ على الزّمانِ عتابى
يترنَّم الفُولاذُ دُون مُخيَّمِي وتَزَعْزَعُ الخرْصان دون قِبابى
وإذا بَنيْتُ على الثَّنِيَّة خيمةً شُدَّت إلى كسر القنا أطنابى

وهى قصيدةٌ مطولة مدح بها آل الجرّاح . فلما سمعها حسّان هشّ لها وجدّد من القول ماطاب به قلبُ الوزير وسكَنَ جأشه .

ثم حسّن ابن المغربى لبنى الجراح أنْ يخرجوا عن طاعةِ الحاكم ، فوافقوه على ذلك ، وقتلوا نارتكين أحد الأمراء الحاكميَّة المقيم بالرَّملة ؛ ثم حسَّن لهم أن يُقيموا أبا الفتوح الحسن بنِ جعفر الحسنى خليفةً ، وهو أمير الحرمين يومئذٍ[1] ، وأن يُحضروه من مكّة ؛ فأجابوه إلى ذلك ، وأسلوا إلى مكّة وأحضروه إليهم . فلمّا قرُب أبوالفتوح من ديار بنى الجرّاح خرجُوا إليه وتلقَّوْه ، وقبّلوا الأرض بين يديه ، وبايعوه بالخلافة ولقبوه الرّاشد بالله . فحينئذ صعد أبوالقاسم بن المغربى المنبر وخطب خطبة يحرّض الناسَ فيها على الخُروج على الحاكم ، فأشار إلى مصر وقرأ : ﴿ طسٓمٓ * تِلكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٤٩ ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٥٧ .

الْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا [مِنْهُمْ] (١) مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾(٢) .

فلمّا سمع الحاكم ذلك أزعجه ، فندب الجيُوش لقتالهم ، مع ياروخ تكين العزيزى ، فاعترضه حسّان بين رفح والدّاروُم(٣) ، والْتَقَوْا واقتتلُوا ، فانهزمت أصحاب ياروخ تكين ، وأسر هو ونقل إلى الرّملة ، وسمع غناء جواريه وحَظَاياه بحضُوره وهو مقيّدٌ معه فى المجلس ، وارتكب معَه الفواحش العظيمة ، ثم قتله صبرًا بين يديه .

وبقى الشّام لِبَنى الجرّاح . فشرع الحاكم [٥٦] يأخذهم بالملاطفَة ، ورَاسَلهم ، وبذل لهم الرَّغائب والأموال ، والأقمشة والجوارى ، وقرَّر لكلٍّ واحدٍ منهم خمسين ألف دينار عينًا ، واستمالهم عن أبى الفتوح . فاتصل ذلك بأبى الفتوح ، فقال لهم : إن أخى قد خرج بمكة ، وأخاف أن يستأصل مُلكى بها . فأعادوه إلى مكّة فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعمائة . وكان الحاكم قد أرسل إلى الوزير أبى القاسم بن المغربى وكتب له أمانًا واستماله ، وبنى على أهله تُربًا فى القرافة وهِى (٤) ستّ ترب ، وتعرف بالسبع قباب إلى هذا الوقت .

ولما ورد أمان الحاكم على أبى القاسم وهو مقيمٌ عند بنى الجراح أجابهُ برسالةٍ وضمَّن أولها بيتين :

---

(١)] إضافة لاستكمال الآية .

(٢) سورة القصص رقم ٢٨ الآيات ١ ـ ٦ .

(٣) الداروم = الدارون : قلعة بين غزة والعريش ، على ساحل البحر ـ معجم البلدان .

(٤) « وهم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

وأنت ، وحَسْبِى أنت ، تعلم أنّ لى لسانًا أمام المجد يَبْنى ويَهدمُ[١]
وليس كريمًا[٢] من تُباسُ يمينُه فيرضى ، ولكن منْ يُعَضُّ فَيَحْلُم

وسأل آل الجرّاح أن يجهّزُوه إلى العراق فجهّزوا معه من أخرجه من بلاد المغاربة ؛ وعاد بنُو الجرّاح إلى طاعة الحاكم . وأقام ابن المغربى بالعراق إلى أن توفى بميَّافَارِقِين[٣] فى سنة ثمان عشرة وأربعمائة ؛ وحمل إلى الكوفة فدفن بها . ولمّا فارق آل الجراح قدم بغداد وتقلد الوزارة لمشرف الدولة بن بويه كما ذكرنا ذلك فى أخبار الدَّولة البويْهيّة[٤] .

ذكر تفويض السّفارة والوساطة لأحمد بن محمد القشورى وقتله

وفى سنة إحدى وأربعمائة فى يوم الخميس رابع المحرّم استدعى الحاكم النّاس على طبقاتهم إلى القصر فركبوا[٥] معه إلى خارج باب الفتوح ، ثمّ عاد إلى قصره وأمَرَ من مكان بالموكب بالنُّزول إلى القصر ، فنزلُوا وحضروا فى الإيوان . فخرج مِنْ عند الحاكم خادمٌ فأخذ بيد أحمد بن محمد المعروف بالقشورى[٦] الكاتب وأخرجه من بين القوم ، ثم عاد القشورى وقد خُلِع

---

(١) « نبنى ونهدم » فى الأصل .
(٢) « وليس كريم » فى الأصل .
(٣) ميافارقين : مدينة بديار بكر فى إقليم الجزيرة شمال العراق ــ معجم البلدان .
(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٢٤٦ وما بعدها .
(٥) « فركب » فى الأصل .
(٦) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٨٤ وما بعدها .

عليه وبيده سجلّ ، فأخذه أبو على العبّاسى الخطيب وقرأه على النّاس ، فإذا هو يتضمّن تقليده السِّفارة والوَساطة بين النّاس وبين الحاكم ، وتفويضَ الأمور إليه . وصرْفَ ابن عبدون . وأقام [القشورى][1] إلى الثالث عشر من الشّهر ، فقُبض عليه وقتَ الظّهر وهو فى مجلس ولايته ، وضَربت رقبتُه ، ولُفَّ فى حصير ورمى . فكانت ولايته عشرة أيام . وكان سبب ذلك إكرامه للقائد حسين بن جوهر وتعظيمه له وكثرة سؤاله الحاكم فى معناه .

وفوضت هذه الوظيفة فى يوم الأحد رابع عشر الشّهر لأبى الخير زُرعة[2] ابن عيسى بن نسطورس النصرانى الكاتب ، على عادة من تقدّمه ، ولم يخلع عليه إذ ذاك ، ثم خلع عليه فى سابع عشر شهر ربيع الآخر منها .

وفى السادس والعشرين منه قُرئ بجامع مصر سجلّ يتضمّن النّهى عن معارضة الحاكم فيما يفعَلُه ، وتركَ الخَوْض فيما لا يعنى ، وإعادة حَىَّ على خيرْ العَمَل فى الأذان ، وإسقاطَ الصّلاة خيرٌ من النّوم ، والنّهىَ عن صلاة التراويح والضّحى .

وفى ثانى عشر شهر جمادى الآخرة دخل قائد القواد الحسين بن جوهر ، والقاضى عبدالعزيز بن النعمان إلى القصر ، وكان قد خلع عليهما فى ثانى صفر ، فلمّا أراد الانصراف بعث إليهما زُرعة بن نسطورس يقول إن الخليفة يريدكما لأمر يختارُه . فجلسا حتى انصرف النّاس ، فقُتلا وقُتِل معهما أبو على أخو الفضلِ بن صالح ، ووقعت الحوطة على دارهم .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) « ولقب الشافى » ، وتوفى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ــ الإشارة ص ٢٨ .

وفى سنة إحدى وأربعمائة قامت دعوة الحاكم بالمدائن ، وهى على نصف مرحلة من بغداد ، وخُطب له بمدينة الأنبار وقصر ابن هبيرة[١] من العراق بدخول مالك بن عقيل بن قِراوش بن المقلد[٢] فى طاعته وإظهار تَشيُّعه ، وذلك فى أيام الخليفة القادر العباسى[٣] . ثم بلغ قراوشَ بن المقلّد اختلالُ أمر الحاكم وقتلُه أربابَ دولته وأن المانخوليا غلبت عليه ،فأعاد الخُطبة العَباسيّة

وفيها قام بدعوة الحاكم بمدينة الجامعين وهى الحلة[٤] وما جاورها من العراق الأمير على[٥] بن مزيد الأسدى ، وكان قد هَزَم خفاجه واستولى على بلادهم وخطب فيها للحاكم .

وفى سنة اثنتين وأربعمائة تاب الحاكم ونهى عن شرب الخمر وعن كلِّ ما يُعمل منه ، كالزبيب والعسل ؛ ونفى المغانى ، وحرّم الملوخيا . ومنع أن تُقبَّل الأرضُ بين يديه ، وأن تُقبَّل يدُه ، وأن يخاطَبَ بمولانا ؛ واقتُصِر على قولهم السّلام على أمير المؤمنين .

---

(١) قصر ابن هبيرة = الهاشمية : بالكوفة ــ معجم البلدان .

(٢) من الأسرة العقيلية التى حكمت الموصل وغيرها ، وبنو عقيل قبيلة عربية كبيرة ، فهى إحدى القبائل الخمس التى يتكون منها بنو كعب ، وكان حاكم الموصل فى ذلك الوقت معتمد الدولة أبو المنيع قراوش بن المقلد ، والذى ولى أمر الموصل فى الفترة ٣٩١ ـ ٤٤٢ هـ/١٠٠١ ـ ١٠٥٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٣) هو أبو العباس أحمد القادر بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ/٩٩١ ـ ١٠٣١ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٤) الحلة : تقع فى مواجهة مدينة « الجامعان » أو الجامعين ، على نهر الفرات بالعراق ، وكانت تعرف بحلة بنى مزيد أو الحلة السيفية ــ معجم البلدان .

(٥) هو على بن مزيد الأسدى ، سند الدولة ، الذى ولى حكم الحلة فى الفترة من ٤٠٣ ـ ٤٠٨ هـ/١٠١٢ ـ ١٠١٧ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

وفى سنة ثلاث وأربعمائة قطعت كروم العنب بأسْرها ورُميت إلى الأرض ودُرست بالبقر ، وجُمع ماكان من الخمر بالمخازن وأهريق فى البحر . وفيها كسرت جرار العسل ؛ وأمِر اليهودُ والنّصارى بلبس العمائم السّود إلا الجبابرة ، ومُنعوا أن يستخدموا [٥٧] المسلمين ؛ وأن يركبوا مع المكّارية ؛ وإذا دخل النّصرانى الحمّام يكونُ الصليب فى عنقه ، واليهودى الجلجل ؛ ثم أفردَ بعد ذلك حمّاماتٌ للنّصارى وحمامات لليهود ؛ وأسلم جماعة من النصارى فى شهر ربيع الأول .

وفيها فى شهر ربيع الآخر شدَّد الحاكم على النّصارى واليهود فى حَمل الصُّلبان ، وأن يكون الصّليب فى طول ذراع وزنتُه خمسة أرطال[١] ؛ فلما أضرّ ذلكَ بهم دخلُوا فى دِين الإسْلام .

وفيها فى شهر رمضان أمر الحاكم ببناء مُصلّى العيد[٢] بسفْح الْمُقطّم وأحسن بناءه ، وكان قبل ذلك ضيِّقًا صغيرًا ، فهدمه الحاكم وبناه على ما هو عليه الآن .

ذكر هدم كنائس الدّيار المصرية

وفى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعمائة أمر الحاكم بهَدْم جميع الكنائس بالديار المصرية فسأل جماعةٌ من النّصارى أن يتوَلَّوْا هدم كنائسهم بأيديهم وأن يبنُوها مساجد ؛ فوهب الحاكم جميع الكنائس بجميع

---

(١) سبق أن حدد بعشرة أرطال ــ انظر ما سبق فى أحداث سنة ٣٩٤ هـ .

(٢) مصلى العيد : شرقى القصر الكبير ، من خارج باب النصر ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٥١ .

ما فيها من أوانى الذّهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل وما لَها من رِباعٍ وأملاك لجماعة من الصّقالبة والفرّاشين والسعدية ، ولم يَرُدَّ من سأله شيئًا منها ، وكُوتب كلُّ متصرِّفٍ فى عملٍ من الأعمال بهَدم ما فى عمله من الكنائس . فهُدمت من جميع أعمال الديار المصرية .

وفى ثالث شهر رجب منها قرئ سجل بتَحْبِيس ضياعٍ ومواضعَ على الفقَراء والفُقَهاء والمؤذِّنين بالجوامع .

وفى رابع عشر جمادى الآخرة منها أمر الحاكم بعمل رصد[1] بالقرافة ، فنزل القاضى مالك بن سعد وأشرف على الرّصد وابتدأ بعمله ولم يتم .

ذكر البيعة بولاية العهد لأبى القاسم عبد الرحيم

وفى ثالث شهر ربيع الأوّل ، سنة أربعٍ وأربعمائة[2] عهد الحاكم بولاية العهد بعده لابن عمّه أبى القاسم عبدالرّحيم بن إلياس بن أحمد بن المهْدى . فبُويع بولاية العهد ، وكُتب اسمه على السّكة ، ودُعىَ له على المنابر .

وفيها منع الحاكم النّساء من الخروج مطلقًا ليلاً أو نهارًا ، ومن دُخول الحمَّامات ، وطلوع الأسطحة ، ومَنَع الأساكِفَة من عمل الخِفَاف لهنّ ، وشدّد فى ذلك . فشكى إليه التُّجار من ذلك ، فأمرهم أن يحملوا ما يبيعونه

---

(١) الرصد : مكان مرتفع لرصد الكواكب . أمّه الأفضل بن بدر الجمالى — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) « وسبعمائة » فى الأصل . وهو تحريف .

فى الأسواق ويطوفوا به فى الدّروب ويبيعوا النساء ، وأن يكون للمرأة شىء مثل المِغْرَفَة بساعدٍ طويل تَتَناول به ما تبتاعهُ من الرّجل . ثمَّ أمر بإطلاق العجائز والإماء فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان منها ، فخرج بعض النّساء إلى القصر داعياتٍ للحاكم . فعلم بهنّ فأعاد المنع والتشديد فى يومه ، ولم يسمح إلا للنّساء المتظلمات للشّرع ، والخارجات للحجّ ، والإماء للبيع ، والأرامل ، وغواسل الأموات ، والأرامل اللّواتى يبعن الغزل .

ذكر إحراق مصر وقتال أهلها .

كان سبب ذلك أن الحاكم ركب فى ذى القَعدة سنة عشر وأربعمائة ، فوجد صورة امرأة متردّية غُسِلت من قراطيس ، وفى يدها جريدة عليها ورقة فيها سَبٌّ للحاكم وأسلافه وذكرهُ بقبيح الفعال . فلمَّا وقف عليها أمر بنَهْبِ مصر وحرْقِ بَعْض دُورِها . وفرّق السلاح على السّودَان والعبيد ، فتبادَرُوا إليها وفعلوا ما أمرهم به . فقام أهلُها وقاتلوا قتالاً شديدًا ثلاثَة أيّام ، ثم أرسلوا إلى الحاكم يستقيلون فلم يُقِلهم ، فعاوَدُوا القتال ؛ وأحرق من مصر جانب جيد . فلما رأى الحاكم أن الأمر يؤول إلى التّلاف كفَّ عنهم بعد أن تلف من العقار ما لا تُحصى قيمته ، وسيَّر عيادًا الصقلبى إليها فى جماعة من الجند لتسكين الفتنة ، فشاهد أمرًا عظيمًا ، فعاد إلى الحاكم وذكر له قُبْح النّازلة وعِظَم الفادحة وقال : لو أن بسيل ملك الروم دخل مصر لما استحسن أن يفعل فيها هذا الفِعل . فغضب الحاكم من كلامه وأمر بقَتلِه ، فقُتل .

وفى سنة عشرٍ وأربعمائة أمر الحاكم وولىَّ العهد ، عبد الرّحيم بن إلياس . بالخروج إلى دمشق واليًا عليها ، ثم عزله فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وأربعمائة .

وفى شهر رجب[٥٨]منها اشتدّ غضب الحاكم على أهل مصر فأحرق السّاحل ، ووقع النّهب فى الأسواق والقياسر(١) .

وسنذكُر إن شاء الله السّبب الذى أوجب خروج الحاكم على أهل مصر إلى أن فعل بهم مافعل .

ذكر غيبة الحاكم بأمر الله وعدمه والسّبب الذى نقل فى إعدامه،وشىء من أخباره وسيرته غير ما تقدم

قال المؤرخ : لمّا كان فى آخر ليلة الاثنين السّابع والعشرين من شوّال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ،ركب الحاكمُ حمارَه وخرج على جارى عادته ، فأصبح عند قبر الفقاعىّ (٢) بقرافة مصر ورَدَّ مَنْ كان معه ، ففُقِد من ذلك الوقت . ولم يزل النّاس يخرجُون ويلتمسون رُجوعه إلى يوم الخميس سلخ الشهر ، ثم خرج مظفّر حامل المظلّة فى يوم الأحد الثّالث من ذى القَعدة ومعه جماعةُ الأمراء والكتاميين إلى حلوان ، وأمعنوا فى الكشف . فبينما هُم كذلك إذْ بَصُروا بالحمار الّذى كان الحاكم قدْ خرجَ عليه وهو على قرنة الجبل ، وقد ضربت يداه بالسيف فأثر فيهما ، فتُتُبِّع الأثر فإذا أثر الحاكم وأثر آخر خلفه وآخر أمامه ، فقَصُّوه حتى انتَهوْا إلى بركة القصب شرقىّ حلوان ، فأنزلوا

---

(١) « القياسير » فى الأصل .

(٢) « القضاعى » فى الأصل ، والتصحيح من كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٩٩ ، النجوم الزاهرة : جـ ٤ ص ١٨٥ ، ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٩٧ .
وعن تربة الفقـاعى انظر الكواكب السيارة .

رجلاً من الرَّجالة فوجد ثياب الحاكم فى البركة ، وهى سبع جباب [١] مزرّرة لم تُحلّ أزرارها ، وفيها آثارُ السكاكين ، فعادوا إلى القصر ولم يشكُّوا فى قتله .

وأما السبب الذى نُقِل فى إعدامه فقالوا : كان السّبب فى ذلك أنّ ستّ الملك أختَ الحاكم وقع بينها وبينه ، فتنكّر لها وهمّ بقتلها . وكرهت أمورًا صدرت منهُ منها أنه رأى بعض قهارِمَتِها داخلةً إلى القصر ، فقال لها : قد سمعت أنّكم تجمعون الجموع وتدخل إليكم الرّجال ؛ وَالله لأقتلنّكم أجمعين .[٢] وتكرر هذا القول منه ، فأعملت ستّ المُلك الحيلة فى إعدامه ، وخرجت ليلاً إلى دار الأمير سَيْف الدّين حسين ابن دوّاس [٣] ، فدخلت عليه واختلت به وعرّفته بنفسها أنها ابنةُ العزيز بالله أخت الحاكم ؛ فعظّمها ، وبالغ فى إكرامها . فقالت له : إنّك قد علمتَ ما فعل أخى وما صدَرَ منه من سَفْك الدّماء وقتل الأولياء وَوُجُوه الدّولة بغير سبب ، وقد عَزَمَ على قَتْلِك وقَتْلى . فقال لها : فكيف الحيلة فى أمره ، فأشارت : أن تُجَهِّزَ إليه رجالاً يقتلونه إذا خرج إلى حُلوان فإنه ينفرد بنفسه هناك ، ووعَدَتْه أن يكون هو المدبّر لِدَولة ولده والوزير لها . فاتّفقا على ذلك وتحالفا عليه ، ورَجَعت هى إلى قصرها .

فلمّا ركب الحاكم وانْفرد عند وُصُوله إلى المقطّم على عادته ، كان ابنُ دوّاس قد أحضر عشرةً من العبيد ، وأعطى كلَّ واحدٍ منهم خمسمائة دينار ، وحلّفهم ، وعرَّفَهم كيف يقتلونه . فسبقُوه إلى الجبل فى تلك اللّيلة ؛ فلمّا

---

(١) « أربع جباب » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٣٠٠ .

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٧ ــ ٥٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٥ .

(٣) كان رئيس الكتاميين ، وكان قد حلف ألا يدخل القصر خيفة من الحاكم ــ أخبار الدول المنقطعة ص ٥٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٥ .

انفرد خرجُوا عليه وقتلوه بالمكان الّذى ذكرناه ، وخرج الموكب لتلَقِّيه على العادة ، فطال انتظارُهم له فلم يرجع ، فعادُوا ؛ ثمّ خرجوا ثانيًا وقَصُّوا الأثر ، فوجدوا حمارَه وثيابَه ، كما ذكرناه ، فعادوا إلى القصر وطَلَبوه من أخته ستّ الملك وقالوا : إن مولانا ما جَرَتْ عادتُه بهذا . فقالت لهم : إن رُقعته قد وصلت إلينا أنه يأتى بُكرة الغد . فتفرَّقوا . فبعثت الأموال إلى وجوه الدّولة والقوّاد على يد ابن دوّاس ، وبقى الأمر مستمرًّا والحال متماسكًا إلى عاشر ذى الحجة من السنة ، فجرى بين العساكر وبين ستّ الملك كلامٌ كثير أوجب أنها أخرجت إليهم ولده أبا الحسن عليًّا فى يوم الأضحى فبايعه الناس ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره . هذا ما حكى فى سبب إعدامه .

وأما سيرته وأفعاله وأخباره ، فقد قدّمنا منها على حكم السنين ما قدمنا ، فلنذكر خلاف ذلك .

قال المؤرخ : كان الحاكم سيئ الاعتقاد ، كثير التنقُّل من حال إلى حال . كان فى ابتداء أمره يلبس الثّياب الفاخرة والمذهبة ، والعمائم المنظومة بالجوهر النّفيس ، ويركب فى السُّروج المُحلَّاة ، ثم ترك ذلك على تدريج أن ينتقل منه إلى لباس الْمُعْلم غير المذهب ، ثم لباس الساذج ؛ ثم زاد به الأمر حتى لبس الصُّوف والشواشى وركب الحمير ، وأظهرَ الزُّهد ، وكثر استطلاعه على أخبار النّاس ، فلم يَخْفَ عليه خبرُ رجلٍ ولا امرأةٍ من حَواشيه ورعيَّته وكان يأخذ بيسير الذُّنوب ، ولا يملك نفسه عند غضبه ؛ أفْنى خلقًا كثيرًا ، وأقام هيبة عظيمة . وكان مع طُغيانه المستمرّ وفَتْكه ، وسفكه للدّماء ، وظلمه ، يركب وحده تارةً وفى الموكب أخرى ، وفى المدينة طورًا وفى البرِّيَّة آونة ، والنّاس كافّةً على غاية الهيبة له والخوف منه ، وهو بينهم كالأسد

الضارى[١]

ثم عَنَّ له أن يدّعى الإلهية ، ويصرّح بالحُلول والتّناسخ : ويحملَ النّاس عليه . وألزم النّاس أن يسجدُوا له مدة إذا ذُكر ؛ فلم يُذكر فى محفل أو غيره إلّا سجَد منْ سمع بذكره ، وقبّل الأرض إجلالاً له [٥٩] . ثم لم يُرْضه ذلك[٢]

فلمّا كان فى شهر رجب سنة تسعٍ وأربعمائة ظهر رجلٌ يقال له حسن ابن حَيدرة الفَرغانى الأخرم يرى حُلُول الإله فى الحاكم ويدعو إلى ذلك ، ويتكلّم فى إبطال النُّبوّة[٣] ، ويتأوّل جميع ما وردت به الشريعة[٤] . فاستدعاهُ الحاكم [وقد كثر تبعه][٥] وخلَع عليه خلعا سنيَّة ، وحملهُ على فرسٍ بسرجه ولجامه ، وركّبه فى موكبه [وذلك][٦] فى ثانى شهر رمضان منها .

فبينما هو يسير فى الموكب فى بعض الأيام تقدّم إليه رجلٌ من الكرخ [وهو على جسر طريق المقس][٧] فألقاه عن فرسه ، وَوَالى الضَّرب عليه حتى قتله [وارتج الموكب][٨] ، وأُمْسك الكرخى فأمر الحاكم بقتله ، فقتل لوقته ونهب الناس دار الأخرم فى القاهرة . وكان بين الْخَلْع عليه وقتله ثمانية أيام[٩] .

ثم ظهر رجل من دعاته فى سنة عشر وأربعمائة يقال له حمزة اللباد ، أعجمى من الزُّوزن ، ولازم الجُلوسَ فى المسجد الذى عند سقاية ريدان خارج باب

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٥١ .

(٣) « النبوات » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ .

(٤) « ما ورد فى الشريعة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ .

(٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) إضافة من أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ .

(٩) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ ـ ٥٢ .

النصر ، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم وأنّ الإله حَلَّ فيه . واجتمع إليه جماعةٌ من غُلاة الإسماعيليّة ، وتلقّب بهَادى المُسْتجيبين.وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة خرج إليه من المسجد وانفرد به وحادثه ، وتمادَى على ذلك وارتفع شأنه ؛ واتّخذ لنفسه خواصَّ لقّبهم بألقاب ، منهم رجل لقّبه بسَفير القُدرة وجعله رسولاً له ، وكان يُرسله لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده فى الحاكم ، فلم يمكنهم مخالفتُه خوفًا على نفوسهم من بطشه[١] .

ثم نبغ شابٌّ من مولَّدى الأتراك اسمه أنوشتكين النجارى[٢]، ويعرف بالدّرزى ، فسلك طريق الزُّوزَنى وكثُرت أتباعه .وكان الحاكم أيضًا يقفُ معه ويخلو به ؛ وسمّى نفسه سَنَدَ الهادى[٣] وحيَاة المستجيبين . واستمر الأمر على ذلك إلى الثّانى عشر من صفر ، سنة إحدى عشرة[٤] وأربعمائة ، فاجتمع جماعةٌ من أصحاب حمزة الزُّوزَنى على خيول وبغال ، ودخَلوا الجامع العتيق رُكبانًا وهم يعلنون بمذهبهم ، وجاء ثلاثةٌ منهم إلى الموضع الذى يجلس فيه قاضى القضاة ، والمتحاكمون جُلُوس ، ينتظرونه ، فتكلّموا بكلاَمٍ أنكره الناس وضجُّوا بالتكبير والتهليل والثناء على الله عزَّ وجلَّ ، واجتمع أهل مِصْرَ بالجامع من كلِّ جهةٍ ، ومضى بعضُ الناسِ لِلِقاء القاضى فلقوه وعرَّفوه ما جرى ، فجاء إلى المجلس ، فتقدَّم إليه أحد الثّلاثة فناوله رُقعةً من الزوزنى[٥] فى أولها : « بسم الحاكم الله الرّحمن الرَّحيم » يأمُره فيها بالاعتراف

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٢ .

(٢) « البخارى » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ .

(٣) « الهادين » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ .

(٤) « أربع عشرة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ ، وهو تحريف .

(٥) « الروزة » فى الأصل ، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ .

بإلهيّة الحاكم . فلم يُجبه القاضِى بشىء سوى أن قال حتى أدخل إلى حضرة مولانا. فطاوَلَه الكلام ، فقتله العوامّ وقتلُوا رفيقيه والجماعة الّذين بالجامع أبْرَحَ قَتل . ووثَبَ العوامُّ على قومٍ كانوا يَعْرِفونهم بهذا المُعتقد فقتلوا مَنْ وجدُوه منهم وحرَّقوهم(١) .

فلّما اتّصل ذلك بالحاكم أمر بعزل أصحاب الشُّرَط وولّى غيرَهم ، وأمَرَهم بطلب من اعْتَدَى على أصحاب الزُّوزنى ، فقبضوا على جماعةٍ منهم يناهزون الأربعين ، فقُتِلوا فى أوقاتٍ متعدّدة . واجتمع الأتراكُ وقصدُوا دَار الزُّوزَنى فغلَّقها عليه وعلى مَنْ عنده ، وقاتلهم من أعْلاها ، فهدَمُوها ونهبُوا ما فيها ، وقتلوا نحوًا من الأربعين رجلاً مِمَّن كان معه فيها . وفرّ الزُّوزَنى فلم يُقْدَر عليه ، ودخل إلى القصر ، فأخفاه الحاكم فيه . فاجتمع الأتراك ولبسُوا سلاحَهُم وطلَبُوه من الحاكم ، فوعدهم بتسليمه لهم ، فانصرفوا . ثمَّ ركبُوا فى اليوم الثّانى وطلبوه منه ، فخرج جوابُه لهم أنّه قُتل ؛ فرجعوا إلى ريدان فى طلب الزُّوزَنى فلم يجدوه . وأظهر الحاكم الْغَضَبَ على كافَّة الجند طول شهر ربيع الأول ، ثم رضى عنهم فى الرّابع من شهر ربيع الآخر .

وتحقق [الحاكم](٢) أنّ أوّل من جَرَّأ عليه العسْكر وحملهم على قتل دُعاته أهلُ مصر ، فأمْهَلَهُم حتّى دخل جُمادى الآخر ، ثم ابْتدأ فى التّدبير عليهم .

فأوّل ما عمل أنْ سلَّط عليهم الرَّجَّالَة ومُقدَّمى السُّودان وغيرهم ، وقرَّر

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ .

(٢) [ ] إضافة من أخبار الدول المنقطعة ص ٥٤ للتوضيح .

معهم أن ينزلوا إلى مصر على هيئة المناسر[١] ، فيكبسون الحمّامات ومنازل أهل مصر ؛ فكانوا يفعلون ذلك نهارًا . وتكرّر ذلك منهم ، فاجتمع النّاسُ ووقفُوا لِلحاكم وسألُوه أنْ يكفَّ عنهم أيديَهم ، فما أجابهم بجواب. فتزايد بهم الضَّرر إلى أنْ بقيت الرّجّالة تكبسُ مساكنهم ويأخُذُون ما فيها ، ويُعرُّونهم فى الطُّرقات ، ويفتحون دكاكين البزَّازين وغيرهم ، وينهبون ما فيها ويحرقون أبوابها بعد ذلك ، والنّاس يستغيثون فلا يُغاثون . ثم نزل بعد ذلك جمع كثير بعد أن غُلِّقت الدّرُوب ، وكانت بقيت تغلق قبل الغروب ، وتخلّلوا البلدان ، وفتحوا ما وراء الجامع من النّحاسين والأبزاريين[٢] والسُّكريّين ودار الشّمع ، وغير ذلك مما يقرب من هذه الأسواق ، وأخذوا ما أرادوا منها ، وأفسدوا بقيّة ما فيها ؛ فكانوا يخلطون العقاقير والأصناف بعْضَها ببعْض ، والمياهَ المختلفةَ بالزّيت ؛ ويُفسدون ما لا يمكنُهم حمله . وطرحُوا النّار فى أبواب القياسر[٣] المجاورة للجامع بعد ذلك ، فأخذ النّاس فى الانتقال إلى القاهرة ، وضجُّوا بِالابتْهال إلى الله تعالى فى كشف ما بِهم من[٤] البلاء .

قال : وكان الحاكم قبل ذلك قد ضيَّق على النّصارى واليهود كما [٦٠] قدمناه ، وأمرهُم بالتّظاهر بالإسلام ؛ فأسلم بعضُهم وهرب بعضهم إلى بلاد الروم ؛ وهدم جميع الكنائس . فلمَّا كان فى شهر جمادى الآخرة ، سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، أذِن لهم بالرُّجوع إلى دينهم ، فارتدُّوا ، وأذن لهم

---

(١) المنسر ــ المناسر : الجماعة من الخيل ، أو قطعة من الجيش بين المائة والمائتين ، لا تمر بشىء إلا اقتلعته ــ القاموس .

(٢) « البزازين » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥٦ .

(٣) « القياسير » فى الأصل .

(٤) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٥ ـ ٥٦ .

ببناء الكنائس فأعادُوها . فاشتدّ غضبُ العسكر وحنَقُهم ، فاجتمع الأتراك والكتاميّون وتحالفُوا على قتل الرَّجّالة الذّين فعلوا بالمصريين ما فعلوا ، فوقع القتال بينهم ، فقُتِل الرَّجّالة أبْرَح قَتْل ، ورأى أهلُ مصر فيهم وفى حرمهم ومنازلهم ما أسلاهم[1] عما جرى عليهم .

وتمادَى الحال على ذلك والحربُ قائمةٌ بينهما ، والحاكم على حَالِهِ فى ركوبه وهيبته ، فإذا بلغَهُ ركوبُهم للحرب تركَهُم تارةً وجاء أخرى ، فإذا رأَوْه تفرَّقوا لهيبته . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن فُقد الحاكم فى التّاريخ الّذى ذكرناه .

ذكر مولد الحاكم ومدَّة عمره وملكه وأولاده وكتّابه ووسائطه وقضاته ونقش خاتمه

كان مولدُه بالقاهرة فى يوم الخميس لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر[2] ، سنة خمس وسبعين وثلاثمائة . فكانت مدَّةُ عمره ستًّا وثلاثين سنة وستة أشهر ويومين ؛ ومدَّة ولايته خمسًا وعشرين سنة وشهرًا واحدًا إلّا ثلاثة أيام إلى يوم ركوبه الذى عدم فيه .

أولاده : أبو الحسن على ، وهو الظاهر أبو الأشبال الحارث ؛ مات فى حياته لعشرٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة أربعمائة .

كتّابه ووسائطه : أمين الدّولة أبو محمد الحسن بن عمّار[3] ، ثم الأستاذ

---

(١) « باسلامهم » فى الأصل ، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة ص ٥٦ .

(٢) انظر ما سبق عن الاختلاف فى يوم ميلاده .

(٣) انظر الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٦ ـ ٢٧ .

برجوان[١] الخصىّ إلى أن قُتل ؛ ثم استقل الحاكم بالأمر وولّى من ذكرناهم وغيرهم . وكتب له أبو العلاء فهد بن إبراهيم النّصرانىّ .

قضاته : أبو عبد الله محمّد[٢] بن النّعمان إلى أن توفّى فى سنة تسعٍ وثمانين وثلاثمائة ؛ وأقام النّاس بغير قاض تسعة عشر يومًا ؛ ثم ولّى أبا عبد الله الحسن[٣] ابن علىّ بن النّعمان إلى أن صرفه فى شهر رمضان سنة أربع وتسعين ؛ وولّى أبا القاسم عبد العزيز[٤] بن محمّد بن النّعمان ثم صرفه فى شهر رجب سنة ثمانٍ وتسعين ؛ وولّى مالك[٥] بن سعيد إلى أن قتله فى سنة خمسٍ وأربعمائة ، لأربعٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر . وأقام النّاس بغير قاضٍ إلى أنْ ولّى أبا العبّاس أحمد[٦] بن محمّد بن عبْد الله بن أبى العوام فى يوم الأحد لإحدَى عشرة ليلةً خلت من جُمادى الآخرة منها إلى آخر وقت .

نقش خاتمه : بنَصْر العلىّ الولىّ ينتصر الإمام أبو علىّ[٧] .

ذكر بيعة الظّاهر لإعزاز دين الله

هو أبو هاشم ، وقيل أبو الحسن ، علىّ بن الحاكم ؛ وهو السّابع من ملوك الدولة العُبيديّة . بويع له بعد أن تحقّق النّاس عدم الحاكم بأمر الله فى

---

(١) انظر الإشارة ص ٢٧ .

(٢) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٥٩٢ وما بعدها .

(٣) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٥٩٦ وما بعدها .

(٤) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٥٩٩ وما بعدها .

(٥) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٦٠٣ وما بعدها .

(٦) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٦١٠ وما بعدها .

(٧) « بنصر الإله العلى ينتصر الإمام أبو على » فى ذيل تاريخ دمشق ص ٨٠ .

يوم الأضحى من سنة إحدى عشرة وأربعمائة . وأقام النّاسُ منذ فُقد الحاكم فى سابع عشر شوّال منها إلَى هذا التّاريخ بغير خليفة ، وستّ الملك ، ابنة العزيز وأختُ الحاكم ، تدبرّ أحوال الدّولة ، وتسكّن الجيوش ، وتفرّق الأموال على يد الأمير سيْف الدّين الحسين بن دوّاس . ثمّ جرى بينهما وبين العساكر كلامٌ كثير أوجب أنها أخرجَت إليهم أبا هاشم هذا وقت الظُّهر من يوم الأضحى ، فبايَعه النّاس وازدحموا عليه ، فركب تحتَ الأرض فى السّرداب إلى قصر الذّهب ، وخرج من بابه إلى باب العيد ، فأجلسته وقالَت : هذا خليفتُكم . فلما رآه ابن دوّاس قبّل الأرض ، وسلّم عليه بالخلافة ، فبايعه الأمراء والأجناد ، ولُقِّب الظّاهر لإعزاز دين الله[١]

وكُتبت الكتب لسائر الأعمال بأخذ البيعة ؛ وجَمعت ستّ الملك الأجناد وأحسنت إليهم ، ورتّبت الأمور أحسن ترتيب ، وعَدَلت عن ولىّ العهد إلياس[٢] بن داوود بن المهدىّ وَجِيء به فبايع والسّيف على رأسه ، وحُبس ، وكان آخر العهد به . وكان يشار بالخلافة إلى عبد الرحيم بن إلياس ابن أحمد بن المهدىّ ، فأدخل عليه الشُّهود وهو يتشحَّط[٣] فى دمه فأشهدهم أنه فعل ذلك بنفسه ، ثم قضى نحبه . وقام ابن دوّاس بتدبير الدّولة هو والعزيز عمار بن محمد ؛ وكانا لا يُصدران إلّا عن رأى ستّ الملك عمة الظاهر .

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٢) « العباس » فى الأصل والتصحيح من النجوم الزاهرة ، فقد ورد « وأما ولى العهد ... فاسمه الياس ، وقيل عبد الرحيم ، وقيل عبد الرحمن بن أحمد ، وكنيته أبو القاسم ، ويلقب بالمهدى » ــ جـ ٤ ص ١٩٣ .

(٣) شحط ــ يتشحط : تضرج بالدم ــ القاموس .

ذكر مقتل الحُسين بن دوّاس

قال : لمَّا استقرّ أمر الظّاهر لإعزاز دين الله وسَكنت الأحوال خرج من القصر خصيٌّ وبيده سيف مجرّد ، واستَدعى وُجوه الدّولة ، والوزيرُ فى دسته والحسَين بن دوّاس قائد القوّاد إلى جانبه . فقال الخصىّ أمر مولانا أن يُقتل بهذا السّيف[٦١]قاتلُ مولانا الحاكم ، فنادَوْا السّمع والطاعة فصبّه على ابن دوّاس فقتله ، ولم يختلف اثنان(١) .

وقيل إنه إنما قُتل فى شهر رجب سنة ثلاثَ عشرة وأربعمائة . والله أعلم .

وباشرت السيّدة ستّ الملك للأمور بنفسها وقامت هيبتها عند الناس .

وفى ثالث عشر ذى الحجّة من السّنة ، فى اليوم الرابع من بَيْعة الظّاهر ، قُرِئ سجلٌ لأصحاب الأخبار أنّهم لايرفعون ما لافائدة فيه مِمّا كان يُنْهى إلى الحاكم .

وفى يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجّة منها ركب القاضى عبْدالعَزيز بن النّعمان ومعه جَمَاعة وتوجّهوا نحو الجبل لافْتِقادِ الحاكم وعادُوا .

وفى يوم الخميس لعشرين منه أُقيمت المآتم فى القصر وسُمع الصُّراخ واتّصل ، وارتجَّ البلد فى تلك اللّيلة بالصّراخ إلى أن مضى وقتٌ كثير من اللّيل ، وأصبح النّاس على وجلٍ ، وأغلقت أبواب القاهرة .

وفى المحرّم سنة ثنتى عشرة وأربعمائة سومح بمكس الفقاع . وكان مبلغه فى الشهر سبعمائة دينار .

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٢٥ وما بعدها .

وفى حادى عشر ذى القَعدة ، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، تُوفّيت ستّ الملك ابنة العزيز ؛ وكان مولدها فى ذى القعَدة سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائة ببلاد المغرب ، وكانت من الدُّهاة .

وفى سنة أربع عشرة وأربعمائة ظهر ببلاد الفيوم بركة ينْصَبّ إليها الماء ، فاستخرج منها سمك بلطىّ ، ومقدارها أربعة آلاف فدان .

وفى شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد الخبر بإقامة الدّعوة الظاهرية بالموصل والبصرة والكوفة وأعمال الشرق .

وفيها وردت الأخبار أن سنان بن صَمْصَام الدّولة وصالح [1] بنَ مرداس جمعا العساكر وحشدا [2] العُربان لحصار دمشق ، وأنّهم حاصرُوها وقَطعُوا أشجارها ، وقتلوا فلّاحى الضّياع . وتقرّر الحال أن يقاتل العوام يومًا وعسكر السُّلطان يومًا ؛ واتّصلت الحرب بينهم وقُتل جمع عظيم . وحاصر صالح بن مرداس حلب ؛ واضطربت أحوال الشّام بأسره ، وتغلّبت الحرب عليه . وطلب سنان من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار ويرتحلُ عنهم ، فأجابه أهل البلد لذلك ، فمنعهم الشّريف ابن الحسن وأشار بنفقتها فى عيّارى البلد ، فأنفقوها [3] وقاتلوا قتالاً شديدًا ، فقُتل من العرب جمع كثيرٌ . وطلب العرب الصُّلح فأجيبوا إليه ، ثم عدوا إليها فى الوقت برأى ابن الجرّاح...

ووصل الخبر من جهة بنى قرة ، عرب البحيرة ، أنهم أقاموا عليهم إنسانًا

---

(١) انظر ترجمته فى زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٧٧ وما بعدها ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٨٧ رقم ٣٠٠ .

(٢) « جمعوا العساكر وحشدوا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٣) « فنفقوها » فى الأصل فى هذا الموضع ومواضع تالية ، وسيجرى تصحيحها .

ببرقة ولقّبوه بأمير المؤمنين .

وفى الحادى والعشرينَ من ذى الحجّة سنة خمس عشرة وأربعمائة اجتمع من العبيد ألف عبد عند سفح المقطّم وقصدوا نهب مصر ، فأركب الظّاهرُ لإعزاز دين الله مَنْ حفظها ، وأمر أهل مصر بقَتْل مَنْ ظفروا به منهم ، ونهبوا فى اليوم الثانى أطراف مصر ، فقاتَلَهم النّاس فانهزموا .

وفى سنة سبع عشرة وأربعمائة جرَّد الظّاهر أمير الجيوش أَنُوشْتكين الدَّزبرى [١] من مصر بعساكر كثيرة لِدَفع العرب [٢] عن الشّام ، وخرج الظّاهر لتوديعه . وسارَ فى سبعة آلاف فارسٍ غير العرب ، وعيَّد عِيد الأضحى فى الرَّملة ، وجمع العساكر . فلما بلغ حسّانَ بن مفرّج [٣] خروجُه بعث إلى صالح بن مرداس [٤] فأتاه من حلب فى بنى كلاب . ووقعت الحرب بينهم بالأُقْحُوانة [٥] من عمل طبريّة يوم الأربعاء لخمسٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة . فطُعِن صالح بن مرداس ، فسقط عن فرسه ، فقُتل ، وحُمل رأسه إلى أمير الجيوش . فعندها انْهَزم حسّان . وقُتل من أصحابهم مقتلةٌ عظيمة ، وهرب أصحاب صالح إلى بعلبك وحمص وصيدا وحصن عَكّار [٦] . واستولى نَصر بن صالح وأخوه ثَمال على حلب وأعمالها

---

(١) « الزربرى » فى الأصل ، والتصحيح من المصادر المتداولة ، وانظر ترجمة مفصلة له فى ذيل تاريخ دمشق ص ٧١ وما بعدها .

(٢) المقصود جيوش صالح بن مرداس .

(٣) حاكم الرملة فى ذلك الوقت .

(٤) « بن برداس » فى الأصل ، فى هذا الموضع ومواضع تالية ، وهو تحريف سيجرى تصحيحه .

(٥) الأقحوانة : على شاطىء بحيرة طبرية ــ معجم البلدان .

(٦) حصن عكار : على جبل عكار شمالى طرابلس ــ بلدان الخلافة .

وبالس[١] ، ومَنْبج[٢] . وسار الدّزبرى حتى أتى دمشق ، ثم إلى حلب ، فظفر بشبل الدّولة[٣] نصر بن صالح فقتله . ثم عاد إلى دمشق فأقام بها وعَلَت منزلتُه .

ذكر وفاة الظاهر لإعزاز دين الله على ابن الحاكم بأمر الله وشىء من أخباره

كانت وفاته فى ليلة الأحد النّصف من شعبان المكرّم من شهور سنة سبعٍ وعشرين وأربعمائة ببستان الدكة بالمقس[٤] ، فركب الوزير صفىّ الدين أبوالقاسم على الجرجرائى[٥] إلى البستان ، وحمل الظّاهر منه إلى القصر .

وكان مولدُ الظّاهر فى يوم الأربعاء لعشرٍ خلَوْنَ من شهر رمضان المعظّم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . وكانت مدّةُ عمره إحدى وثلاثين سنة وأحد عشر شهرًا وخمسة أيّام ، ومدة ملكه خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وستّة

---

(١) « ونابلس » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦ .
وبالس : بين حلب والرقة ، كانت تقع على شاطىء النهر ثم انحسر النهر عنها شيئًا فشيئًا حتى أصبحت على مسافة أربعة أميال من النهر فى زمن ياقوت ــ معجم البلدان .

(٢) منبج : من إقليم العواصم . بينها وبين حلب حوالى ٣٠ ميلاً ، وبينها وبين الفرات حوالى ٩ أميال ــ معجم البلدان .

(٣) « سند الدولة » فى الأصل ، والمقصود نصر بن صالح ولقبه شبل الدولة ــ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦ .
وأخبار الدول المنقطعة ص ٦٤ ، وفيها « وذلك فى سنة ثلاثين وأربعمائة » .

(٤) بستان الدكة بالمقس = منظرة الدكة ، وهى من مناظر الخلفاء الفاطميين ، ولها بستان عظيم بجوار المقس ، فيما بينه وبين أراضى اللوق ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٧٩ .

(٥) انظر الإشارة ص ٣٥ ــ ٣٦ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٧٣ وما بعدها ، أخبار مصر للمسبحى ص ٣٢ هـ ٢ ، وانظر ما يلى .

أيام . وكان أجمل النّاس صورةً . وتولّى غسله قاضى القضاة عبدالحاكم ، ومعه ظاهر بن عبدالخالق بن أحمد ابن المهدى شيخ القرافة ؛ وصلّى عليه قاضى القضاة وأخذ سَلَبه . قال واستمرَّت النّوائح تَنُحْنَ عليه مدّة شهر . وكان كريمًا مشتغلاً [٦٢] بلذّاته معوِّلاً على وزيره .

ولده أبو تميم معدّ المستنصر بالله ، وهو الّذى وَلِىَ الأمْر من بعده على ما نذكره .

وزراؤه ووسائطه : أبو الحسين عمّار[١] بن محمد ، أحد وسائط أبيه الحاكم بأمر الله ، إلى أنْ زال أمرُه فى ذى القعدة سنة ثنتى عشرة وأربعمائة ، ثم قتل ؛ وتولّى الوساطة أبو الفتوح موسى[٢] بن الحسن ، وذلك فى المحرّم سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، إلى أن قُبض عليه فى العشرين من شوّال وقيل صبيحته ؛ وتولى الوساطة أبو الفتح مسعود[٣] بن ظاهر الوزّان إلى أن عزل ؛ وتولّى الوزارة عميد الدّولة أبو محمد[٤] الحسن ابن صالح الروذبارى ، أحد وسائط الحاكم بأمر الله ؛ ثم عُزل فى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة بالوزير أبى القاسم على[٥] بن أحمد الجرجرائى إلى آخر المدّة ، ولقب بالوزير الأجلّ الأوحد صفىّ الدّين ؛ وكان أقطع اليدين ؛ وتمكّن من الظاهر تمكُّناً عظيمًا . حُكى من تمكُّنه أنّه كان بينه وبين خَليل الدولة بن العدّاس عداوة ، فاتّفق

---

(١) الإشارة ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) الإشارة ص ٣٤ .

(٣) الإشارة ص ٣٤ .

« ابن محمد » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الإشارة ص ٣٤ .

(٥) الإشارة ص ٣٥ ـ ٣٦ .

أن خليل الدّولة سأل الظّاهر لإعزاز دين الله أن يشرِّفه بزيارته ببركة الْحَبَش فأجابه الظّاهر إلى ذلك وحضر عنده ، فاغتنم ابنُ العدّاس الفرصة وجعل يذكر للظاهر مثالِبَ الوزير . فسدَّ الظّاهر مسامعه وقال لابن العداس : إنّى وإن رَعَيْت حقَّ تشريفى إياكَ بزيارتى فما أترك حقّ من أرتَضيه لوزارتى ، ولابدَّ أذكُر له طرفًا من ذلك ، فاذكُرْ خيرًا لأحكيَه له . فرجع عن ذكر مثالبه وأثنى عليه ، فذكر الظّاهر للوزير عنه خيرًا ، فكان ذلك سببَ الصُّلح بينهما . وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبارَ الوزير الجرجرائى مستوفاةً عند ذكر وفاته فى سنة ستٍّ وثلاثين فى أخبار المستنصر .

ذكر بيعة المستنصر بالله

هو أبو تميم معدّ[1] ، بن الظّاهر لإعزاز دين الله أبى هاشم علىّ ، بن الحاكم بأمر الله أبى علىّ المنصور ، بن العزيز بالله أبى المنصور نزار ، بن المعزّ لدين الله أبى تميم معدّ ، بن المنصور بنَصر الله أبى طاهر إسماعيل ، بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمّد ، بن المهدىّ عبيد الله .

وهو الثّامن من ملوك الدّولة العُبَيديّة وهو الخامس من ملوك مصر والشّام منهم .

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٦٧ وما بعدها ، ذيل تاريخ دمشق ص ٨٣ وما بعدها ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٤ وما بعدها ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٩ رقم ٧٢٨ المنتقى من أخبار مصر ص ٣ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص١وما بعدها ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٣٤٢ وما بعدها .

بُويع له صبيحة يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلةً بقيَتْ من شعبان[١] سنة سبع وعشرين وأربعمائة . وذلك أنّ الوزير الجرجرائى أحضر وجوه القبائل من الكتاميين ، وغيرهم من الأتراك ، فلمّا اجتمعوا قال لهم: مولانا ضعيفٌ والآجال بيد الله سبحانه ، فإن قضى الله بانتقاله ماتقولُون فى ولده الأمير معدّ ؟ قالوا : الذى يقولُه الوزير نحن به راضُون ، وله سامعون . فلمّا رتّب هذا الأمر استُدعىَ الوزير ، فنهض قائمًا ودخل إلى قاعة من قاعات القصر ، ثم أحضر الجماعة ، فوجدُوا الأمير معدًّا على سرير الملك وعليه التاج ؛ فقال : هذا مولاكم ، سلِّموا عليه بالخلافة . فسلَّموا عليه وانصرفوا ؛ ولُقّب المستنصر بالله ، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين .

فلمّا كان فى صبيحة يَوْمِ مبايعته ، وهو يوم الخميس ، وقف الكتاميّون وعبيدُ الشّراء[٢] وغيرُهم بباب القصر ، وأغلظوا فى الكلام وطلبوا أرزاقَهم واستحقاقاتِهم من الوزير ، فقال : أنا كنت وزير الظّاهر لإعزازِ دينِ الله وقد توفّى ، وأنا أحمل إليكم جميع ما فى دارى . وأصبح حَملَ جميع ما فى دَاره إلى القصر ، فغضِبَ له الأتراكُ ، وأعادوا ما أحضره إلى مكانه . وتقرّر اجتماعُه يوم السّبت ، فاجتمع الأتراك والدّيلم وعليهم السّلاح ، وجاء الكتاميّون ، فلما اجتمعُوا بباب القصر خرج إليهم [أحد][٣] الخَدَم وقال : ليدخل مِنْ كلّ طائفةٍ عشرة أنفس ، فدخل جماعةٌ ، فقال لهم الوزير :

---

(١) « بويع بالخلافة يوم الأحد للنصف من شعبان » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٤ ، وفى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١ ، ونلاحظ أن يوم الأحد هو يوم وفاة أبيه ، ومن المستبعد أن تتم البيعة له بالخلافة فى نفس اليوم ــ انظر ما يلى .

(٢) « الشرى » فى الأصل .

(٣) [ ] إضافة تتفق والسياق .

مولانا يُقرئكُم السّلام ويقول لكم : إذا كان مُستهلّ شهر رمَضان أمر بالنّفقة فيكم . فانصرفُوا ، وجلس قاضى القضاة عَبْد الحاكم يحلّف النّاس للمستنصر بالله . فلمَّا استهلّ شهر رمضان أنفق فى الأشراف والكتاميّين والعرب والدّيلم وغيرهم لكلِّ واحدٍ منهم ثُلثَ رزقه ، فلم يرضَوْا بذلك .

ودامت النّفقة إلى العشر الأوسط من شوّال فتحالف الكتاميون والأتراك أن يكونُوا عُصْبةً واحدة فى طلب واجباتهم . واجتمعوا بباب القصر ، فخرج إليهم الأمير أن احضروا بكرةَ الغد ، فحضروا ، وركب المستنصر إلى أن بلغ بَابَ البحر[1] ، فرمَوْه بالحجارة وصاحُوا عليه ، ورماه أحدُ العبيد بحربةٍ فلم يُصبه ، فرمى نفسه عن دابّته ودخل من باب البحر إلى القصر . وانصرف النّاس ، وعادُوا بُكرةَ نهارِ الغد ، فدخل مِنْ كلِّ طائفةٍ مائة نفر ، ووَقع كلامٌ كثير ، وتقرّر فى آخر الأمر أن يحضروا [٦٣] البغاة منهم ، وخرجوا على مثل ذلك ؛ ثم عادُوا بعد ذلك وتنصّلوا من ذُنوبهم . وسكَّن الوزير جميع الطّوائف ، واختلف بنو قرّة مع كتامة بالجيزة ، فأخرج الوزير عسكرًا فأصلح بينهم ، واستقرّت الأمور .

وركب المستنصر فى مستهلِّ المحرّم سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة من باب العيد[2] إلى باب الذَّهب[3] ؛ ومشى النّاس كافّةً بين يديه ، والوزير راكبٌ

---

(١) باب البحر : أحد أبواب القصر الفاطمى الشرقى الكبير ، يخرج منه الخليفة إذا أراد الذهاب إلى شاطى النيل ، وهو من إنشاء الحاكم بأمر الله ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٣ .

(٢) باب العيد : أحد أبواب القصر الفاطمى الشرقى الكبير ، كان يخرج منه الخليفة فى يومى العيد إلى المصلى بظاهر باب النصر ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٣) باب الذهب : أحد أبواب القصر الفاطمى الشرقى الكبير ، كانت تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة فى يومى الاثنين والخميس ، وهو يؤدى إلى قاعة الذهب ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٢ .

خلفه . وتفرّق النّاس ، ودخل الوزير إلى مكانه ، فدخل عليه جماعة من الأتراك الصّغار وطلبوا أرزاقهم وأغلظوا له فى القول ، وقصدوا قتْله ؛ فدخل بعضُ الأمراء الكبار فخلّصه منهم .

ذكر عود حلب إلى مِلْك مَلِك الدّيار المصرية

وفى سنة تسعٍ وعشرين وأربعمائة ملكت حلب على يد أمير الجيوش أنوشتكين الدّزبرى أمير الشام ، وذلك بعد أن التقى هو ونصر بن صالح بن مرداس ، صاحب حلب ، يوم الجمعة لسبعٍ بَقينَ من جُمادى الآخرة فانهزم عسكر ابن صالح . ثمّ كانت وقعةٌ ثانية ، فانهزم ثَمال بن صالح وأخوه نصْر ، فبادر ثَمال بدخول البلد ، وأخَذَ مِن قلعة حلب أموالاً وتُحفا ، واستخلف بها عمّه مقلّد بن كامل بن مِرداس ، وسار يستنجد بأخواله بنى خفاجة [1] ، فثار العوامّ ونهبُوا حلب . ووافى طغان ، أحد الأمراء الّذين مع أمير الجيوش ، فدخل حلب بموافقةٍ من أهلها . ثم وّصل أنوشتكين الدّزبرى إليها فى يوم الثّلاثاء لثمانٍ خلَوْن من شهر رمضان ، وأقام بها إلى آخر السّنة ، ورجَع إلى دمشق فى تاسع عشرى [2] الحجّة منها .

ذكر الوحشة الواقعة بين الوزير أبى القاسم الجرجرائى وأمير الجيوش أنوشتكين الدّزبرى

قال المؤرخ : كان ابتداءُ الوحشة بينهما فى سنةِ ثلاثين وأربعمائة . وسببُ ذلك أن شبيب بن وثّاب النّميرى صاحب الجزيرة توفّى ، فقصد أميرُ

---

(١) « بأخواله من صاحبه » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٢) « تاسع عشر » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٨٧ .

الجيوش [أنوشتكين] أنْ يزوّج ابنته لولد أبي نصر أحمد بن مروان ليكون له عونًا على بنى نُمير أصحاب الجزيرة ؛ وكتب أمير الجيوش إلى مصر يستدعى ابنته ، فلم يُطْلِقها الوزير ولا رأى إتمامَ الزّواج لانضمام ابن مروان إلى الدَّولة العبّاسية وتَظاهُرِه بموَالاتها . وكتَب لوُلاة الشام ألّا يمتثلوا أمْر أمير الجيوش . فوقعت الوحشةُ بينهما ، وأطلق أميرُ الجيوش لسانه فى الوزير ، وسبَّه .

ودامت الوحشة إلى سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربعمائة ، فصرفه الوزيرُ عن دمشق ، واستعمل عليها ناصر الدّولة الحسن بن الحُسين بن حمدان . فلمّا علم بذلك أهل دمشق تنكَّروا على أميرهم ، وحاصروه بقصره ظاهِرَ دمشق ، فى سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ، فهرب إلى حلب ، وقاسى مشقّةً عظيمة فى طريقه ، ونُهبت أمواله . فلمّا دخل حلب أقام بها ثلاثة أيّام ومرض ، فتُوفّى يوم الأحد النّصفَ من جمادى الأولى ، ووصل سجلٌّ إلى ثَمال بن صالح بن مرداس بولاية حلب ، وذلك قبل وفاة أنوشتكين أمير الجيوش .

ذكر ظهور سكين المشبه بالحاكم وقتله

وفى شهر رجب سنة أربعٍ وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقاهرة رجل يسمى سكين[1] يشبه الحاكم وكان بمصر أقوامٌ يعتقدون أنّ الحاكم حيٌّ وأنّه غاب لرأى رآه . وهذه الطّائفة باقية إلى وقتنا هذا ، ويحلفون فيما بينهم فيقولون : وحقِّ غيبة الحاكم ، إلّا أنّهم لا يتظاهرون بذلك لكلِّ حد . قال : فلمّا كان فى هذه السّنة ظهر هذا الرّجل ، فاجتمع عليه القائلون بغَيْبة الحاكم

(١) هكذا بالأصل : وفى الكامل جـ ٩ ص ٥١٣ ، و « اسمه سليمان » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٩ .

وزفُّوه إلى القصر ، وأدخلوه إيّاهُ ، وقد دُهش النّاس ، فأدّى الأمر إلى أنْ حَارَبهم أولياء الدَّولة ، وركب الوزير ، فأُخِذوا جميعًا وصُلبوا أحياء ، ورُشقوا بالسّهام حتى هلكوا .

ذكر وفاة الوزير صفىّ الدّين أبى القاسم أحمد بن على الجرجرائى وشىء من أخباره

كانت وفاته لثلاثٍ بقِينَ من شهر رمضان سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة ، [٦٤] وأوصى أن يُدفن فى داره فى المكان الّذى كان يجلس فيه ؛ فأُخرج وصلّى عليه المستنصر فى الإيوان ، وأُعيد إلى داره فدُفن بها ، ثمّ نُقل إلى تُرْبَته بالقرافة .

وكانت وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يومًا .

وهذه النسبة إلى جرجرايا ، قريةٌ من قرى العراق .

قدم إلى مصر هو وأخوه أبو عبد الله محمد ، فتنقلت به الحال إلى أن خدم فى الصّعيد ، فكثُرت فيه المرافعات فى أيام الحاكم ، فاعتقله فى شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة ، ثم أمر بقَطع يدِه ، فأخرج اليسار عِوضًا عن اليمين فقطعت ؛ فقيل ذلك للحاكم فقال : إنما أنا أمرت بقَطع يمينه ؛ وأمر بقطع اليمين ، فقُطعت على باب القصْر المعروف بباب البحر ، وهو الباب الّذى مقابل دار الحديث الكاملية[1] فى وقتنا هذا . وكان قطْعُهما فى ثامن عشر شهر ربيع الآخر منها .

---

(١) دار الحديث الكاملية = المدرسة الكاملية : بالقاهرة ، بخط بين القصرين ، أنشأها السلطان الملك الكامل الأيوبى ، سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٧٥ .

قال : ولما قطع الحاكم يديه مَضَى مِن وقته وجَلس فى ديوانه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنّ أمير المؤمنين أدّبنى وما صرفنى . فبلغ الحاكم ذلك ، فأمر باستمراره . ثمّ صرَفه وولّاه ديوان النفقات[1] فى سنة ستٍّ وأربعمائة ، ثم رتّب أن يكون واسطةً فى نظر الدّواوين مع أبى عبيدالله محمد بن العدّاس ، فى سنة ثنتى عشرة وأربعمائة . ثم وَزرَ للظّاهر لإعزار دين الله فى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة ، فاستكتب أبا الفرج البابلى وأبا علىّ الرّئيس . وكان القاضى أبو عبدالله القُضَاعى صاحب كتاب الشّهاب يكتبُ عنه العلامة[2] وهى : « الحمد لله شكرًا لنعمه » . وكانت أيامه تُسمى الأعراس لطيبها . وضَبط الأُمور أحسن ضبط واستعمل الأمانة التامة ، وتمكن فى الدّولة الظّاهرية ، على ما قدّمناه .

قال : وهجاه جماعةٌ من الشعراء . فمن ذلك قولُ أبى الحسن علىّ بن عبدالعزيز الجلبى المعروف بالفكيك ويعرف بجاسوس الفلك :

يا جرجرائىّ اتئد وارفق ، ودَعْ عنك التّحامُق
أزعمتَ أنك فى الثّقا ة ، فهبْك فيما قُلت صادق
أَعَلى الأمانة والتُّقى قُطِعت يَداك من الْمَرَافِق !

قال : ولمّا مات أوصى أنْ تُفوّض الوزارةُ بعده لأبى نَصْر صدقة[3] بن

---

(١) انظر ديوان الرواتب : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٩ ـ ٤٩١ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٠١ .

(٢) المقصود العبارة التى يختارها القاضى لتدون فى بداية الوثائق التى تصدر عنه ، صبح الأعشى جـ ٦ ص ٣١٤ ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١١ .

(٣) « أبو منصور » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٤ ، الإشارة ص ٣٧ .
وعن ترجمته انظر : الإشارة ص ٣٧ ـ ٣٨ .

أبي الفضل يوسف ابن على الفلاحىّ ، فخلع عليه خلع الوزارة . وكان يهوديًّا ، ولُقِّب بالوزير الأجلّ تاج الرئاسة فخر المُلك مُصْطَفَى أميرِ المؤمنين ، ثمّ أسلم بعد الوزارة .

ذكر مقتل أبي سعيد التُّسْتَرى
وعزل الوزير وقتله ووزارة ابن الجرجرائى

وفى سنة تسعٍ وثلاثين وأربعمائة قتل أبوسعيد(١) التُّسْتَرى اليهودىّ ، وكان يتولَّى ديوان والدة المستنصر . وذلك أنها كانت جاريته ، فأخذَها منه الظّاهر واستَوْلدها فولدت المستنصر بالله . فلمّا أفضت الخلافة إلى وَلَدها فوَّضت إليه أمْرَ ديوانها ، فعظُم أمره وانبسطت كلمتهُ بعد وفاة الجرجرائى الوزير حتّى لم يبق للوزير الفلاحىّ معه إلا اسم الوزارة ، فدبَّر الفلاحى فى قتله فقُتل .

وقيل بل كان السَّبب فى قتله أنّ عزيز الدّولة ريحان الخادم كان قد خرج فى هذه السنة إلى بنى قُرّة ، عرب البحيرة ، لِمَا أفسدُوا فى البلاد ، فظفِر بهم وقَتَل منهم . وعادَ إلى القاهرة وقد عظُم قَدرُه وزاد إدْلاله ، فثقُل أمره على أبى سعيد .

واستمال المغاربةَ وزاد فى أرزاقهم ونقص من أرزاق الأتراك ومَنْ ينضافُ إليهم . فجرى بين الطَّائفتين حربٌ بباب زويلة .

---

(١) « أبو سعد » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٤ .
وهو إبراهيم بن سهل بن هارون التسترى ، أبوسعد ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٥٥ ، ص ٤٢٤ .

ومرض إثر ذلك عزيز الدّولة ومات فاتُّهم أبوسعيد أنّه سَمَّه . فلما كان فى يوم الأحد لثلاثٍ خلَوْن من جمادى الأولى ركب أبوسعيد من داره فى مَوكبٍ عظيم وتوجَّه إلى القصر على عادته ، فاعترضه ثلاثةٌ من الغلمان الأتراك واختلطوا فى الموكب وقتلوه . فاجتمعت الطّوائف إلى المُستنصر بالله وقالوا : نحن قتلناه . وقُطِّع لحمه ، فاشترى أهلُه ما وصلوا إليه من أعضائه ، وأحرق ما بقى ، وضَمَّ أهلُه ما اشترَوْه منه فى تابوت وغطّوه بستر ، وأوقدوا أمام التابوت الشموع ووضعوه فى بيت مُفرد . وزرّوا البيتَ بالسُّتور ، فوصل لهب النّار إلى بعض السُّتور فاحترق . وقَوِيت النّار فأحرقت التّابوت بما فيه .

قال : وكان التُّسْتَرى قد زادَ أذاه فى حقّ المسلمين حتى كانوا يَحْلفون : وحقّ النّعمة على بنى إسرائيل .

ولما قُتِل وَلِى مكانه فى نَظَر ديوان والدة المستنصر بالله أبومحمد الحسن بن على بن عبدالرحمن اليازُورى .

وحقدت والدة المستنصر بالله [٦٥] على الوزير الفلاحىّ وتحقَّقَت أنّه تسبَّب فى قتله ، فقبضت عليه وصَرَفَتْه عن الوزارة فى هذه السّنة ، واعتقلته بخزانة البنود[١] ؛ ثم قتل بعد ذلك « أبومنصور صدقة »[٢] ودُفن بخزانة البنود ، وذلك فى سنة أربعين وأربعمائة .

---

(١) خزانة البنود : ملاصقة للقصر الكبير فيما بين قصر الشوك وباب العيد ، وكان يعمل فيها السلاح وآلات الحرب والبنود أى الأعلام ، ثم استخدمت كسجن ، كما يتضح من النص بالمتن — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٢٣ وما بعدها .

(٢) « بيبرس » فى الأصل وهو تحريف ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٩٦ .

ووالدُ هذا الوزير هو أبو الفضل يوسف بن على الذى هجاه الواسانى[١] بقصيدته المشهورة التى أولها :

يا أهل جيرون هل لِسَامركم إذا استقلّت كواكب الحمل

وقد أوْردنا أكثر هذه القصيدة فى الباب الثانى من القِسم الثّالث من الفَنّ[٢] الثانى .

ولمّا قبض عليه وَلِىَ الوزارة أبو البركات الحسين[٣] بن محمد بن أحمد الجرجرائى ، ابن أخى الوزير صفىّ الدّين .

وفى سنة أربعين وأربعمائة صرف ناصر الدّولة الحسن[٤] بن حمدان عن ولاية دمشق ، وأُحْضِر تحت الحُوطة ووَلِىَ مكانه القائدُ طارق ، ثمّ أُطلق ابن حمدان فى سنة إحدى وأربعين .

وفى سنة إحدى وأربعين صرف أبو البركات الحسين بن الجرجرائى عن الوزارة ونُفى إلى صور واعتقل بها ، ثم أُطلق ، فسار إلى دمشق . ونظر فى الدّواوين بعده عميد الدّولة أبو الفضل[٥] صاعد بن مسعود . ثم فُوضت

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن واسانة بن محمد ، أبو القاسم ، المتوفى سنة ٣٩٤ هـ/١٠٠٣ م ، وانظر بقية القصيدة فى نحو ١٤٠ بيت فى يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣١٠ وما بعدها .

(٢) هذا الباب فى الهجاء ، ولكن لم ترد القصيدة فيه فى المطبوع من نهاية الأرب انظر جـ ٣ ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٣) الإشارة ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٤) « الحسين » فى الأصل .

وهو الحسن بن الحسين بن حمدان التغلبى ، ناصر الدولة ، قتل سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢ م ـ انظر ما يلى عن قتله .

(٥) الاشارة ص ٣٩ .

الوزارة لأبي محمد الحسين[١] بن على بن عبدالرحمن اليازورى .

وفى سنة ثلاثٍ وأربعين أظهر المعزّ[٢] بن باديس الصِّنهاجى ، صاحب إفريقية ، الخلاف على المستنصر بالله ؛ وقد ذكرنا سبب ذلك فى أخبار ملوك إفريقية[٣] . وكتب المعزّ إلى بغداد ، فأجيب عنْ رسالته على لسان رسولٍ من بغداد ، يُعرف بأبي غالب الشِّيرازى ، وسيّر إليه صحبته عهدًا بالولاية ولواءً أسود وخلعة فاجتاز أبوغالب ببلاد الرُّوم فقبض عليه صاحب القسطنطينية[٤] وبعثهُ إلى المستنصر بالله ؛ فقَدِم الرّسول إلى مصر وهو مُجَرّسٌ[٥] على جمل ، وحفر بين القصرين حُفَيرة ، وحُرق فيها العَهْد والخلَع واللّواء .

وفيها فى ذى القعدة عصى بنو قُرّة ، عرب البحيرة ، على المستنصر بالله . وكان سبب ذلك أنّ الوزير اليازورى قدَّم عليهم رجلاً يُقال له المقرّب ، فنَفروا منه واستعْفَوْا منه ، فلم يُجب الوزير سُؤالهم ؛ ثم دخلوا على الوزير وطالبوه بواجباتهم ، وأغلظوا له فى القول ، فتوعَّدَهم باستئصال شأفتهم . ففارقُوه وأظهروا العصيان ، واجتمعوا بالجيزة فى جمعٍ كثير ؛ فندب الوزيرُ

---

(١) الإشارة ص ٤٠ وما بعدها .

هو المعز بن باديس بن منصور بن بلكين الصنهاجى ، رابع أمراء بنى زيرى فى أفريقية ، وليها سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥ م إلى أن توفى سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٣٣ رقم ٧٣٠ ، تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٨ . وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٢ هامش ٣ .

(٣) انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٢٠٩ وما بعدها .

(٤) المقصود هو الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين التاسع الذى ولى عرش الإمبراطورية البيزنطية فى الفترة ١٠٤٢ ــ ١٠٥٥ م/٤٣٤ ـ ٤٤٧ هـ .

(٥) التجريس : التشهير ، القاموس .

عسكرًا لقتالهم فكسروه ، فندب عسكراً ثانيًا فهزمهم وقَتَل منهم قَتْلَى كثيرة . وحَمَل إلى الخِزانة المسْتنصرية من أموالهم جمْلَة عظيمة ، فهرَبُوا إلى برقة .

وفى سنة ثمانٍ وأربعين بعث المستنصرُ بالله ووزيرُه اليازُورى خزائن الأموال إلى أبى الحارث[1] أرْسلان البَساسيرى ليقُيم الدّعوة المستنْصِريّة ببغداد واستنفد ما كان بالقصر من الأموال . وكان مِنْ أمر البساسيرى وقيامِه ، والخُطبة للمستنصر هذَا ببغداد ، ما قدَّمناه فى أخبار الدّولة العباسية[2] ولمّا خُطب للمستنصر ببغداد فِى سنة خمسين وأربعمائة ، وَرَد الخبر إلى مصر بذلك فزُيّنت القَاهرة .

وكان عند المستنصر مُغَنِّية تغنى بالطّبل[3] ، فدخلت عليه وغنَّته فى ذلك اليوم :

يا بنى العَبّاس رُدّوا[4] مَلَكَ الأمْرَ معدٌّ
ملكُكُم ملكٌ مُعَارٌ[5] والعوارى تُستردُّ

---

(١) « أبى الحرث » فى الأصل .
وهو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيرى التركى ــ انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٢ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٨٥ ، الكامل جـ ٩ ص ٥ ، ٦ ، ص ٦٤٠ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٦٤ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٤ ، ص ٢٠ . وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩٢ رقم ٨١ .
(٢) انظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٢٢٦ وما بعدها .
(٣) « فوقفت نَسَب طبالة المستنصر » فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٢٥ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٩ .
(٤) « صدوا » فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢ .
(٥) « ملككم كان معارا » فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢ .

فقال لها : تمنىّ . فقالت : أتمنى الأرض المجاورَةَ للمقسم . فقال : هى لكِ . فعُرفت الأرض بأرض الطبّالة[١] إلى وقتنا هذا .

ذكر القبض على الوزير أبى محمد الحسن[٢] بن على ابن عبدالرّحمن اليازورى وقتله وشىء من أخباره

وفى المحرّم سنة خمسين وأربعمائة سُعِى بالوزير المذكور عند المسْتنصر بالله أنّه كاتب السُّلطان طغرلبك السّلجوق وحَسَّن له قصْد الدّيار المصريّة ، فقَبض عليه وجهَّزه إلى تِنّيس ، ثم أمر بقتله ، فقُتل فى الثانى والعشرين من صفَر[٣] منها . وكان من أكابر وُزراء ملوُك هذه الدّولة .

قال المؤرخ : كان والدُ اليازورى قاضى يازور ، وهى قرية من أعمال الرّملة ، فلمّا تُوفّى خلَفه ولدُه الحسين المذكور ، ثمّ عُزل عنها ، فقدِم مصر وسعى فى إعادته لحُكم يازور ، فرأى من قَاضى مصر اطِّراحًا لجانبه ، فصحب رفق المستنصرىّ ـ وكان خصيصًا بوالدة المستنصر ، فكلَّم القاضى فى أن يسمع قوله بمصر ففعل . فلمّا قتل أبوسعيد التّسْترى أشار رفق على [٦٦] والَدَة المستنصر أن يكون اليازُورى وزيرَها ، فرتَّبتْه فى وزارتها ، فخافه الوزير أبوالبركات الجرجرائى أن يلى الوزارة ، فسعى له فى الحكم

---

(١) أرض الطبالة : كانت على جانب الخليج الغربى بجوار خط المقس ، ويذكر المقريزى أنها كانت من أحسن متنزهات مصر ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٢) « الحسين فى الأصل » والتصحيح من الإشارة ص ٤٠ .

(٣) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٦ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٦ .

ليشغله عن الوزارة ، فامتنع اليازورى من ذلك ، فأشارت عليه والدة المستنصر بقَبول الولاية فقبل . ولم تمض إلّا مدّة يسيرة حتى صُرِف ابن الجرجرائى عن الوزارة وفُوّضت الوزارة إلى اليازورى[١] مُضَافةً لما بيدِه من قضاء القضاة وديوان والدة المستنصر بالله .

قال القاضى أبوالحسين أحمد الأسوانى فى تاريخه : حدّثنى القاضى إبراهيم ابن مسلم الفوّى قال : شهدتُ خطير الملك ، ولد[٢] اليازورى الوزير ، وكان قد ناب عن والده فى قضاء القضاة والوزارة وغير ذلك ، وسار إلى الشام بعساكر عظيمة فأصلح أمره . ورأيتُه بعد ذلك بمسجد فوّة[٣] وهو يخيط للنّاس بالأجرة وهو فى حال شديدةٍ من الفقر والحاجة ، فرأيته ذات يوم وهو يطالب رجلاً بأجرة خياطةٍ خاطها له ، والرّجل يدافعُه ويُماطله ، وهو يلحُّ فى الطلب . فلمّا ألح عليه قال له الرجل : يا سيّدنا ، اجعَلْ هذا القدر اليسير من جُملة ما ذهب منك فى السَّفْرة الشامية . فقال : دَعْ ذكر ما مضى . فسألتُه عن ذلك فلم يحدِّثنى بشىء ، وسألتُ غيره فقال : الذى ذهب منه فى سَفْرته فى نفقات سِمَاطه ستّة عشر ألف دينار .

قال المؤرخ : وكان اليازورى سيئ التدّبير ، أوجب سوءُ تدبيرهِ خُروجَ إفريقية وحلب عن المستنصر بالله .

---

(١) يذكر ابن ميسر « واجتمع ناصر الدولة بن حمدان باليازورى ، وأشار عليه بالوزارة مضافًا لأشغاله ، وتحدث له مع المستنصر فأجاب وولاه » ــ المنتقى من أخبار مصر ص ١٦ .

(٢) « غيطر الملك والد اليازورى » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح يتفق مع ما يأتى ، وما ورد فى المنتقى من تاريخ مصر ص ١٧ .

(٣) فوه : من القرى القديمة ، وهى حاليًا قاعدة مركز فوة بمحافظة الغربية ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٢ ص ١١٢ وما بعدها .

قال : ولما قبض على اليازورى وَلِىَ الوزارة بعدَهِ صاحبُه أبو الفرج عبد الله[١] بن محمد البابلى ، وكان خصيصًا به،فلما ولى الوزارة بعده سعى فى قَتْله كلَّ السَّعى ، ويقال إنّه جهّز إليه من قتله بغير أمر المستنصر ، فلما اطّلع على ذلك عظُم عليه . وعُزِل البابلى فى شهر ربيع الأوّل منها . واستوزر أبا الفرج محمد[٢] بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين المغربى ، ثم صرَفه فى شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وأعيد البابلى .

وفى سنة خمسين وأربعمائة استعمل ناصر الدّولة بن حمدان على ولاية دمشق .

وفى سنة ثلاثٍ وخمسين ، فى المحرَّم ، صُرِف البابلىّ عن الوزارة ووَلِيَها عبد الله[٣] بن يحيى بن المدبّر ، ثم صُرف فى بقية السنة ووَلِى أبو محمد عبدُ الكريم[٤] بن عَبد الحاكم بن سعيد الفارقىّ فى شهر رمضان من السنة ؛ فقال أبو الحسن على بن يسر الرحمن بن بشر الصقلى يخاطب ابن المدبر :

لا تجزعنَّ عن الأُمور إذا الْتَوت ... وَابشر بلُطف مسبِّبِ الأسباب
ماكنْتَ إلّا السَّيف ، جُرِّدَ ماضيًا ... وأُقِرَّ مذْخورًا لِيوْمِ ضِراب
للهِ سيرتُك الّتى ما سِرْتَها ... إلا بأقْومِ سنَّةٍ وكِتاب
شيَّدْتَ للوزراء يا ابنَ مدبِّرٍ ... شرفًا لهم يَبْقى على الأَعْقاب
وجمعْتَ بين طهارةِ الأعراق ، والـ ... أَخْلاق ، والأَفْعَال ، والأَثواب

(١) الإشارة ص ٤٦ .
(٢) الإشارة ص ٤٧ .
(٣) الإشارة ص ٤٨ .
(٤) الإشارة ص ٤٨ ـ ٤٩ .

جعَل الإلٰهُ لكلِّ قوْمٍ سادَةً وبنُو المدبّر سادَةُ الكُتّاب

وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة فى المحرم تُوفّى الوزير أبو محمد عبد الكريم ، فرُدّت الوزارة إلى أخيه أبى على أحمد[١] بن عبد الحاكم ، وكان يلى قضاء القُضاة ؛ وصُرِف عن الحُكْم فى صفر ، ثم صُرِف عن الوزارة ، وقيل إنه صَرف عنها بعد سبعة عشرَ يومًا من ولايته . وأعيد البابلى مرة ثالثةً فى شهر ربيع الأول من السنة ، واستعفى بعد خمسة أشهر ، فاستوزر المستنصر سديد الدّولة أبا عبد الله الحسين[٢] بن على الماسكى ، وكان يلى نظر الدّواوين بدمشق ، ثم صُرف فى شوال وأعيد البابلىّ .

ذكر الفتنة الواقعة التى أوجبت خراب الديار المصرية

كان ابتداء هذه الفتنة فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة . وسببُها أنّ المستنصر بالله كان فى كلِّ سنة يركب على النُّجُب ومعه النّساء والخمرُ[٣] إلى المكان المعروف بجُبّ عميرة[٤] ، وهو موضع نزهة . ويَذكُر أنّه خرجَ يريد

الإشارة ص ٤٩ .

(٢) الإشارة ص ٤٩ .

(٣) « والحشم » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٦٥ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٢٤ .

(٤) « يوسف » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا ، والمنتقى من أخبار مصر . جب عميرة : موضعه حاليًا المنطقة المعروفة باسم البركة شمال شرق القاهرة ، وكان هذا الموضع ينزل به حجاج البر عند مسيرهم من القاهرة إلى مكة ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٦٣ .

الحجّ ، على سبيلِ الاستهزاء والتهكّم ، ومعه الخمر فى الرَّوَايا بدلاً عن الماء . يَسقيه للنَّاس كما يُسقى الماءُ فى طَريق مكّة [٦٧] ، شرَّفها الله تعالى . فلمَّا كان فى هذه السّنة خرج على عَادَته فى جُمادى الآخرة ؛ فاتّفق أن بعض الأتراك جرَّد سيفًا على سُكْرٍ مِنْه على بَعْض عَبيد الشّراء ، فاجتمع عليه طائفةٌ من العبيد وقتلُوه ، فجاء الاتراك إلى المُستنصر وقالوا : إنْ كانَ هذا عن رِضاك فالسّمع والطاعة ،وإنْ كان عن غير رِضاك فلا نَصبرُ عليه . فأنكر المستنصر ذلك ؛ فاجتمع جماعةٌ من الأتراك وقتلوا جماعةً من العَبيد بعد قتالٍ شديد على كوم شريك[1] . وكانت والدةُ المستنصر تُعين العبيدَ بالأموال والسّلاح ، فاطَّلع بعضُ الأتراك على ذلك ، فجمَعَ طائفةً كثيرةً من الأتراك ودخل على المستنصر بهم ، وأغلظُوا له فى الكلام ؛ فحلَف أنّه لم يكن عندَهُ عِلْمٌ من ذلك . ودَخَل على والدتِه وأنكرَ عليها ؛ وصَار السَّيفُ بين الطَّائفتين . ثمّ سَعَى أبو الفرج بن المغربى ، الذّى كان يلى الوزارة ، وجماعةٌ معه ، فى الصُّلح بين الطّائفتين ،فاصطلحوا ؛ولم تصْفُ طائفةٌ منهم للأخرى .

ثمّ اجتمع العبيد وخرجُوا إلى شَبرا دَمنهور[2] فى جمع كثير .

وكان سبب كسرتهم أنّ والدة المستنصر لمّا قُتل سيدها ووزيرُها أبو سعيد التُّسْترى اليهودىّ غضِبَت لقتله ، وشرعت فى شراء العبيد السُّودان واستكثرت منهم ، وجعلتهُم طائفةً لها ؛ فاشتَدّ أمرُهم إلى أنْ صارَ العبدُ مِنهم يحكمُ

---

(١) كوم شريك : من القرى القديمة ، إحدى قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة ، وتنسب إلى الصحابى شريك بن سمى ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٨٣ ، القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٢ ص ٣٣٩ .

(٢) شبرا دمنهور : من القرى القديمة ، وهى الآن شبرا الخيمة ، بمحافظة القليوبية ، وتعتبر حاليًا ضمن القاهرة الكبرى ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ١٢ وما بعدها .

حكمَ الوُلاة . فلمَّا وَلِىَ أبو البركات بن الجرجرائى أمَرَتْه أن يُغرِىَ العبيدَ بالأتراك ، فخاف العاقبةَ فلم يفعل ؛ فصَرَفَتْه وولَّت وزيرها اليازُورى وأمرته بذلك ، فلم يقبَلْ منها ، ودبّر الأمرَ وساسه إلى أن قُتِل . ووَزَر البابلىّ فأمرته بذلك ، ففعل ، ووَقَع بين الطائفتين .

قال : فلمَّا خرج العبيد إلى شَبرَا دمنهور قَوِيت شوكةُ الأتراك وطلبوا الزِّياداتِ فى أرزاقهم إلى أنْ خَلتَ الخزائن من الأموال وضعُفت الدّولة ، والعبيد على حالٍ من الضرورة وهُمْ يتزايدُون عِدّة ، فتكامل منهم ما بَيْن فارس وراجل خمسُون ألفًا .

فبعثَت والدةُ المُسْتنصر لقُوّاد العَبيدِ ، فى سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وأغْرَتهم بالأتراك ؛ فاجتمعُوا ووَصَلُوا إلى الجيزة ، فخرج الأتراك لقتالهم ، والمقدَّم عليهم ناصرُ الدّولة الحسن[1] بن حمدان ، فَلقِيَهم فكسرَهُ العبيد ونهبوا عسكره ، واشتَغلُوا بالنَّهب ، فعطَف عليهم ابنُ حمدان وهَزَمهم إلى الصَّعيد ، وعادَ إلى القاهرة وقد قَوِيَت شوكتُه .

ثمّ تجمَّع العبيدُ فى الصّعيد فى خمسة عشر ألف فارس وراجل ، فقلِقَ الأتراك لذلك قلقًا شديدًا ، وحضَر المقدَّمون إلى المستنصر ليشْكُوا ذلك إليه ، فأمرت والدته مَنْ عندَها من العبيد والخدَم بالهُجوم عليهم[2] وقَتْل الأتراك ، ففعلوا ذلك . وسَمع ناصرُ الدَّولة ابنُ حمدان بالخبر ، فَركب إلى ظَاهر القاهرةِ واجتمع إليه مَنْ بقى من الأتراك ووقعت الحرب بينهم وبين العبيد المقيمين بمصر والقاهرة ، ودامَتْ بين الفريقَين أيّامًا . فانتصر ناصر

---

(١) « الحسين » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق ؛ ومن اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٧٣ .

(٢) « عليه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

الدّولة والأتراكُ على العبيد ، وقتلُوا منهم مقْتَلةً عظيمة ؛ ولم يبْقَ منهم بالقاهرة ومِصْر إلّا القليل .

وبقى العبيدُ المقيمون بالصَّعيد على حالهم . وكان بالإسكندريَّة منهم جماعةٌ . فسار ناصر الدّولة إليهم ، فسألوا الأمان ، فأمَّنهم ؛ ورتّب بالإسكندرية من يثق به . وانقضت سنة تسع وخمسين فى حربهم .

وقويَت شوكةُ الأتراك فى سنة ستين وأربعمائة ، وطمِعوا فى المستنصر بالله ، وقلَّ ناموسُه عندهم . وكان مقرّرهم فى كلِّ شهر ثمانيةً وعشرين ألف دينار ، فصار فى كلِّ شهر أربعمائة ألف دينار . وطالبوا المسْتنصِر بالأموال ، فاعتذر أنّه لم يبْقَ عنده شىء منها ؛ فطالبوه بذخائره فأخرجها إليهم ، وقُوِّمت بأبخس الأثمان .

وخرج ناصرُ الدّولة بن حمدان فى جماعةٍ من الأتراك إلى الصَّعيد لقتال مَنْ فيه من العبيد ، وكانَ قد كثُر فسادهم ، فالتقَوْا واقتتلُوا ، فكانت الهزيمة على ناصر الدّولة والأتراك ، فعادوا إلى الجيزة . فاجتمع على ناصر الدّولة مَنْ سَلِم مِن عسكره ، وشَغَبُوا على المستنصر بالله ، واتّهموه أنه يُمِدّ العبيد بالنَّفقات سرًّا ، فحلَف لهم على ذلك .

ثمّ خرج الأتراك إلى العبيد وقاتلوهم ، فقُتل منهم مقتلةٌ عظيمة ولم ينج منهم إلّا القليل . وزَالت دولةُ العبيد ، وعظُم أمرُ ناصر الدّولة بن حمدان .

ذكر الوحشة الواقعة بين ناصر الدّولة والأتراك

وفى سنة إحدى وستين وأربعمائة ابتدأت الوحشة بين ناصر الدّولة بن حمدان وبين الأتراك . وسبب ذلك أنّ ناصر الدَّولة قوِىَ واشتدَّت شوكتهُ ، وانفرد بالأمر دُون قوّاد الأتراك ، فعظُم ذلك عليهم وفسدت نياتهم

[٦٨] ، وشكوا ذلك إلى الوزير الخطير[١] ، وقالوا : كلَّما خرج من الخزانة مالٌ أخذ ناصرُ الدَّولة أكثره وفرّقه فى حاشيته ، ولا يصِلُ إلينا منه إلّا القليل . فقال : ما[٢] وصل إلى هذا الأمر وغيره إلا بكم ، ولو فارقتُموه لم يتمَّ له أمر . فاتّفق أمرهم على محاربته وإخراجه من ديار مصر ، فاجتمعوا وذكَرُوا ذلك للمستنصر ، وسألوه أن يُخْرِجَه عنهم ؛ فأرسل إليه يأمره بالخروج ويتهدَّدُه إنْ لم يفعل . ففارَقَ ناصر الدَّولة القاهرةَ وغدا إلى الجيزة ، ونهبت دُورُه ودور حواشيه وأصحابه .

فلمَّا جاء الليلُ دخل ناصرُ الدّولة ، واجتمع بالقائد تاج الملوك شادى ، وقبّل رِجليه . وسأله أن يُعينه على إلْدِكِز[٣] والوزير الخطير . قال : وكيف الحيلةُ فى ذلك ؟ قال : تركبُ أنت وأصحابُك وتسيرُ بين القصرين ، فإذا أمكنَتْك الفرصة فاقتلهما . فأجابه إلى ذلك .

وركب شادى من بُكرة الغد للتسيير فعلم إلْدِكِز بمراده ، فهرب إلى القصر واستجار بالمستنصر فَسَلِم . وأقبل الوزيرُ فى موكبِه فقتله شادى ، وسيَّر إلى ناصر الدَّولة يأمره بالحضور ؛ فعدَّى من الجيزة إلى القاهرة . فأشار إلْدِكِز على المستنصر بالرّكوب ، وقال : متى لم تركب هلكت[٤] وهلكنا معك . فلبس

---

(١) « خطير الملك » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٣٤ .
وهو محمد بن الحسن بن على اليازورى ، استقر فى القضاء والوزارة فى ١٣ صفر ٤٦١ هـ ، وصرف عنها فى شوال من نفس السنة ــ المنتقى من أخبار مصر ٣٥ .

(٢) « إنما » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٣) شيخ الأتراك والمقدم عليهم ، ولقبه أسد الدولة ، وكان زوج ابنة ناصر الدولة بن حمدان ، ولم يمنعه ذلك من التآمر عليه ــ اتعاظ الحنفا ص ٢٧٩ هامش (١) .

(٤) « وإلا هلكت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

سلاحه وركب ، وتبعَهُ خلقٌ من عامَّة النّاسِ والجند ، واصطَفّوا للقتال . فحملت الأتراك على ناصر الدّولة فانهزم ، وقُتِل من أصْحابه جماعةٌ كثيرة ، ومضى لا يُلْوى على شيء وتبعَه بعضُ أصحابه فالتحق ببنى سِنْبِس بالبحيرة فأقام عندهم وصاهرهم ، وتقوَّى بهم .

ولما تحقّق ناصر الدّولة ميْلَ المستنصر عنه قصَد إبطَال دعْوته ، وكتب إلى السّلطان ألب[1] أرسلان السلجوقى[2] ملك خراسان والعراق يسأله أن يسيرٍ إليه عسكرًا يفتح له مصر ويُقيم الدّعوة العبّاسية بها . فتجهز ألب[1] أرسلان من خراسان بعساكره ، وكتب إلى صاحب حلب[3] يأمره بقَطْع دعوة المستنصر وإقامة الدّعوة العباسية ، ففعل ذلك ، وانقطعت دعوة المستنصر[1] من حلب ؛ ثمّ ملكها ألب[1] أرسلان ؛ كما ذكرناه فى أخبار الدّولة السلجوقية[4] ؛ ثم ملكت عساكره دمشق[5] .

---

(١) بدلاً من كلمة « ألب » فى المواضع الثلاثة فى هذه الفقرة ، وكلمة « المستنصر » بياض فى الأصل ، والتكملة من المنتقى من أخبار مصر ص ٣٥ .

(٢) « السلجقى » فى الأصل ،
وهو ألب أرسلان محمد بن داود بن جغرى بك بن ميكائيل بن سلجوق ، الكامل جـ ١٠ ص ٧٤ وما بعدها ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٢٩٧ وما بعدها .

(٣) هو محمود بن ثمال بن صالح بن مرداس ، رشيد الدولة ، الذى ولى حكم حلب مرتين فى الفترة من ٤٥٢ ـ ٤٥٣ هـ/١٠٦٠ ـ ١٠٦١ م ، والفترة من ٤٥٤ ـ ٤٦٨ هـ/١٠٦٢ ـ ١٠٧٥ م ـ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٢ ، تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٦ .

(٤) « السلجقية » فى الأصل ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٣١٢ .

(٥) كان ذلك سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م على يد القائد التركى ، أحد أمراء السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان ـ المنتقى من أخبار مصر ص ٤٢ .

ذكر الحرب بين ناصر الدّولة والأتراك

قال : ولما اتّصل بالمستنصر مافعله ناصرُ الدّولة من مكاتبة ألب[١] أرسلان جرَّد عسكرًا لِقتاله من الأتراك ، فساروا ثلاث فِرَق . فأرادَ أحدُ المقدَّمين أن يلْقاهُ ليكونَ الظَّفرُ لهُ دُون رفيقَيه ، فتقدَّم والتقى بناصر الدّولة ، فهزمه ناصرُ الدّولة وقتل جماعةً من أصحابه وأسَره . ثمّ الْتقى العسكرُ الثّانى ولم يعلمُوا بما جرى على الأوّل ، فهزمهم أقبح هزيمة ؛ وهرب العسكرُ الثّالث . وقَوِىَ ناصرُ الدّولة بهذا الظّفر ، وقطَع الميرَة عن القاهرة ومصر ، ونهَب أكثر الوجه البحرى ، وقطَع خُطبة المستنصر من الإسكندرية ودمياط والوجه البحرى ، وخطب للقائم بأمْر الله[٢] العبّاسى . وعُدمَت الأقواتُ بالقاهرة ومصر ، واشتدَّ الغلاء ، وكثُر الوباء ، وامتدَّت أيدى الجند إلى نَهْب العوامّ .

ذكر الصُّلح بيْن ناصر الدَّولة والأتراك

وفى المحرّم سنة ثلاثٍ وستين وأربعمائة وقع الصُّلح بين ناصر الدّولة بن حمدان والأتراك . وسببُ ذلك أنّ المستَنْصر بالله والأتراك اشتدَّت بهم الضَّائقةُ لقَطْع الميرَة ، فاضْطرُّوا إلى مُصَالحته ، فصالحوه على أن يكُونَ مقيمًا بمكانه ويُحْمَل إليه مال قرَّره المستنصِر ، ويكون تاجُ الملوك شادى نائبًا عنه . فرضى بذلك وسيَّر الغِلال إلى مصْر . ثمّ وقع الخلافُ بينهم بعْدَ شهور ، فجاء

---

(١) بدلاً من كلمة « ألب » بياض فى الأصل .

(٢) هو الخليفة العباسى أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله ، الذى ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٤٢٢ ـ ٤٧٦ هـ/١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ ـ ١٣ .

ناصرُ الدّولة من البحيرة ، وعساكرَ كثيرةً ، وحاصر مصر فى ذى القَعدة من السّنة ، ودخل أصحابه فنهبوا شطرًا منها ، وأحرقوا دور السّاحل ؛ ثم عادُوا إلى البحيرة . والله أعلم[1] .

ذكر الحرب بين ناصر الدّولة وتاج الملوك شادى وماكان من أمر ناصر الدّولة إلى أن قتل

وفى سنة أربعٍ وستّين وأربعمائة جمع ناصر الدّولة جمُوعه من العُربان وجاء إلى الجيزة ، واستدْعى إليه تاجَ الملوك شادى وبعض المقدَّمين ، فخرجُوا للقائه ، فقبضَ عليهم ونهب مصر [٦٩] وأحرقها .

وكان سببُ ذلك أنّ شادى كان قدْ قَطَع عن ناصر الدّولة ما كان قد تقرَّر حمْلُه إليه من المال ، ولم يُوصِّل إليه إلّا اليسير منه . فلمَّا قَبض عليهم سيَّر المستنصرُ إليه عسكرًا كثيفًا ، فهزموه ، فهرب إلى البحيرة وجمع جموعه من العُربان وغيرهم ، وقطع خطبةَ المستنْصر وأبطل ذكرَه . ثم قدِم ناصر الدّولة فى شعبان من السنة ودخل إلى مصر وحكم بها ، وأرسل إلى المسْتَنصر يطلُب منه المال ؛ فرآه الرَّسولُ وهو جالسٌ على حصيرٍ وحوله ثلاث خدم ، ولم ير شيئًا آخر من آثار المملكة . فلمّا ذكر الرَّسول رسالته للمستَنْصر قال : ما يكفى ناصرَ الدّولة أنْ أجلسَ فى مثلِ هذا البيت عَلَى هذه الحال ! فبكى الرَّسولُ ، وعاد إلى ناصر الدّولة وذكر له الحال ؛ فأطلق ناصرُ الدّولة للمستنصر بالله فى كلِّ شهرٍ مائةَ دينار ، وحَكَم فى القاهرة ، وبالغ فى إهانةِ المستنصر ، وقبض

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٥ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٣٧ .

على والدته وعاقبَها ، وأخذ منها الأموال . وتفرَّق عن المسْتَنصر جميعُ أقاربه وأولاده ، ومضوْا إلى بلاد المغْرب والعراق[١] .

وعمِل ناصرُ الدّولة على إقامة الدَّولة العبّاسية . فنهض إلْدِكِز أحد الأمراء ، ويلدكوز ، واجتمعا بِمَن بقى من الأتراك ، واتَّفقُوا كلّهم على قَتْل ناصر الدّولة ، وكان قد أَمِن وترك الاحتراس لقوّته وسَطوته ، وظنَّ أنَّ الدّنيا صَفَت له . فتواعَدَ الأتراكُ وركبُوا إلى داره ، فى شهر رجب سنة خمس وستين وأربعمائة ، وهو إذْ ذاك بمصر بمنازل العزّ[٢] ، فدخلوا عليه من غير اسْتِئذان إلى أن بلغوا صحن الدّار ، فخرج إليهم فى رداء ، فقتلوه وأخذوا رأسه . وكان الّذى تولى قَتْله إلْدِكز ، وقتل أخوه فخر العرب وأخوهما تاج المعالى وجماعة من أهل بيته . وانقطع ذكرُ آل حمدان ، ولم يبْقَ بمصر لهم ذكر[٣] .

وناصر الدّولة هذا هو الحسَن بن الحسين بن ناصر الدّولة الحسَن بن عبد الله بن أبى الهيجاء حمدان بن حمدون .

نرجع إلى حوادث الدّولة المستنصريّة .

وفى سنة خمسٍ وخمسين وأربعمائة نُدب أمير الجيوش بدر الجمالى لِولاية دمشق على حربها[٤] ، وفُوّض إليه فى سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة ولايةُ

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٣٨ .

(٢) منازل العز : دار أنشأتها السيدة تغريد أم العزيز بالله ، تشرف على النيل ، اتخذها الخلفاء الفاطميون متنزهًا ، وسكنها ناصر الدولة بن حمدان إلى أن قتل ـ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٨٤ وما بعدها ، وجـ ٢ ص ٣٦٤ .

(٣) انظر النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢١ ـ ٢٣ .

(٤) انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٩١ وما بعدها ، الكامل جـ ١٠ ص ٣٠ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٢٨ .

الشّام بأسرها [١]

ذكر الغلاء الكائن بالدّيار المصريّة

كان ابتداؤه فى سنةِ سبعٍ وخمسين وأربعمائة واشتدَّ من سنة إحدَى وستّين ، وقلَّت الأقواتُ فى الأعمال حتّى أكل النّاس الميْتَة ؛ وتَزايدَ فى سنة اثنتَين وستّين : وكثُر الوباء بالقاهرة ومصر حتّى إنّ الواحدَ كان يموت فى البيْت فيموتُ فى بقيّة اليوْم أو اللّيلة كلّ مَنْ بقى فيه . وخَرج من القاهرة ومصْر جماعةٌ كثيرة إلى الشّام والعراق ؛ وأكل بعضُ النّاس بعضًا . ودامَ ذلك إلى سنة أربعٍ وستّين . وشبِّهت هذه السّنين بسنى يوسُف عليه السلام .

قال ابن الهمذانى فى تاريخه[٢] : وفى سنة اثنتين وستّين وأربعمائة ورد إلى بغدادَ من مصر الرّجال والنساءُ هربًا من الجوع والفتنة ، وأخبروا أنَّ بعضهم أكل بعضًا . وورَدَ التّجار ومعهُم ثيابُ صاحبِ مصر وآلاته وذخائره ؛ وكان معهم أشياء كثيرة نُهبت عند القبض على الطّائع ، فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ؛ وما نُهب فى وقعة البساسيرى[٣] .

قال : وخرج من خزانة المستنصر بالله أشياء عظيمة ، من جملتها ثلاثون ألف قطعة بلور كبار ، وخمسة وسبعون ألف ثوب ديباج خسروانى[٤] ،

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ٣٠ .

(٢) هو محمد بن عبد الملك الهمذانى ، صاحب تكملة تاريخ الطبرى .

(٣) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٣ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٣٦ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٧٥ .

(٤) نسبة إلى خسرو شاه من أكاسرة الفرس ، وهو نوع من الحرير رقيق .

وأحد عشر ألف[١] درع ، وعشرون ألف سيف محلاة ، وغير ذلك .

قال المؤرخ : ومِنْ جملة ما بلغ من أمْر الغلاء أنَّ امرأةً كان لها حلى باعت ما يُساوى ألف دينار بثلاثمائة دينار واشترت به حِنْطة ، فنُهبت منها فى الطّريق ، فنَهَبت مع مَنْ نَهب ، فحصَّل لها ما جَاء رغيفًا واحدًا[٢] .

وحكى أنّ بعض أهل اليسار وَقف بباب القصر وصاح واستصرخ إلى أن أُحْضِر بين يدى المُسْتنصر ، فقال له : يا مولانا ، هذه سَبعون قمحةً وقفت علىّ بسبعين دينارًا ، كلّ قمحة بدينار ، فى أيامك ؛ وهو أنى اشتريت أردبّ قمحٍ بسبعين دينارٍ ، فنُهب منّى فنَهَبْت مع مَنْ مهب ، فوقع فى يدى هذه ؛ فكلّ قمحة بدينار . فقال المستنصر الآن فرَّج الله عن النّاس فإنّ أيّامى حُكم لها أنّ القمحة تُباع بدينار[٣] .

قالوا : ولم يكنْ هذا الغلاءُ عن نَقص النّيل ، وإنمّا كان لاختلاف الكلمة وحروب الأجناد ، وتَغلُّب المتغلِّبين على الأعمال . وكان النّيل يزيد ويهبط فى كلّ سنة ، ولم يجِدْ من يزرع الأراضى ؛ وانْقطعت الطُّرقات برًّا وبحرًا إلّا بالخِفَارة الكثيرة ، وأبيع الرّغيف الخبز بأربعة عشر دينارًا أو درهمًا . قال الحوانى : وأبيع الأردبّ القمح بمائتى دينار .

[٧٠] ذكر قدوم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مصر واستيلائه على الدولة

كان تقدّمه فى سنة ستٍ وستّين وأربعمائة . وسبب ذلك أنّ المستنصر

---

(١) « منها واحد وعشرون ألف ذرع » فى المنتقى من أخبار مصر .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٩٩ .

تواترت [١] عليه الرَّزَايَا وحصَره ابنُ حمدان كما ذكرنا فلمّا قتل ابن حمدان استطال إلْدِكز والأتراك والوزير ابن أبي كدينة [٢] ، فضاق المستنصر ذَرعًا ، وكاتب أمير الجيوش بدر الجمالى[٣] وحسَّن له أن يكون المتولِّى لأمر دولته ، فأعاد الجواب واشترط أنْ يستخدم معه عسكرًا ، وألّا يُبقى على أحدٍ من عسكر مصر . فأجابه إلى ذلك . فاستخدم العساكر وركب فى البحر الملح ، وكان إذْ ذاك بعكّا . وسار فى مائة مركب فى أوّل كانون ، وهو وقتٌ لم تجْرِ العادةُ بركوب البحر فى مثله ، فوصل دمياط ، وركب منها . وسار إلى أن نزل بظَاهِر قليوب . وأرسل إلى المستنصر بالله أن يقبض على إلْدِكز[٤] ، فقبض عليه ، ودخل أمير الجيوش إلى القاهرة فى شهر ربيع الآخر منها ، وقيل فى جمادى الأولى . فما لبث أن بعث كل أمير من أمرائه إلى قائدٍ من قوّاد الدّولة ليلاً وأمره أن يأتيه برأسه ؛ فأصبح وقد أُحْضر إليه من رءوس قُوّاد الدّولة شىء كثير . وقَبضَ على الأتراك وقوِيت شوكته ، وقَمعَ كلَّ مفسد ، حتى لم يبق أحد منهم بمصر والقاهرة . وخلع المستنصر[٥] بالله على بدر الجمالى بالطّيلسان ، وصار أمر المستخدَمين فى حكمه ، والدّعاةُ والقضاةُ نوّابه .

قال : ولمَّا قدم مصر حضر إليه المتصدِّرون بالجامع ، فقرأ ابن

---

(١) « لما تواترت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام ،

(٢) هو الحسن بن مجلى بن أسد بن أبى كدينة ـ المنتقى من أخبار مصر ص ٤٠ .

(٣) انظر ترجمته فى : الإشارة ص ٥٥ ــ ٥٦ ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ ــ ١٢٨ ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٤٨ ، الوافى جـ ١٠ ص ٩٥ رقم ٤٥٤٥ .
« بلدكوز » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٤٠ ، و « يلدكوش » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٢ ، الوافى بالوفيات جـ ١٠ ص ٩٥ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٣٩ .

(٥) « على المستنصر باقه » ، وهو تحريف ، والتصحيح يتفق والسياق . وانظر المنتقى من أخبار مصر ص ٤٠ .

العجمى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُم اللهُ بِبَدْرٍ »[١] وسكت عن تمام الآية . فقال له بدر : والله لقد جاءت فى مكانها ، وسكوتُك عن تمام الآية أحسن[٢] ؛ وأحْسَنَ إليه . وقيل : بل قال له : لِمَ لا قرأت « إنْ هُوَ إلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْه »[٣] .

وقَتَل أمير الجيوش من أماثل المصريين ووزرائهم وحكَامهم جماعةً ، وشرع فى إصلاح الأعمال وقَتْل المفسدين .

وفى سنة ثمانٍ وستّين وأربعمائة خُطب للمستنصر بمكّة والمدينة ، وكانت الخطبة بهما قد انقطعت منذ خمس[٤] سنين .

وفيها حاصر أتسيز[٥] دمشق وملكها ، على ما ذكرناه فى الباب العاشر من القسم الخامس من هذا الفنّ فى أخبار الدّولة السلجقية . وانقطعت خُطبة المستنصر من الشّام .

ذكر هلاك عرب الصعيد وقتل كنز الدولة

وفى سنة تسعٍ وستين وأربعمائة اجتمع جماعةٌ كثيرة من عرب جهينة

---

(١) سورة آل عمران رقم ٢ جزء من الآية رقم ١٢٣ .

(٢) بقية الآية « فَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ، وورد فى كنز الدرر « لو أتم الآية أمرت بضرب عنقه » جـ ٦ ص ٣٩٩ .

(٣) سورة الزخرف رقم ٤٣ ، جزء من الآية ٥٩ .

(٤) ورد هذا الخبر فى أحداث سنة ٤٦٧ هـ فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٤ ، وانظر أيضًا الكامل جـ ١٠ ص ٩٨ .

(٥) أتسيز أو أتسز أو أطسز ، ويكتب أحيانًا أقسيس ، أحد أمراء السلطان السلجوقى ملك شاه ، انظر الكامل جـ ١٠ ص ٩٩ وما بعدها ، والمنتقى من أخبار مصر ص ٢٤٢ ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

والجعافرة والثعالبة وغيرهم بمدينة طوخ العليا[(١)] من صعيد مصر ، واتّفقوا على قِتال أمير الجيوش ، فخرج إليهم . فلمَّا قارَبَهم هجم عليهم فى نِصْف اللّيل ، فهزمهم وأبادهم بالقتل ، وغرق خلقٌ كثيرٌ منهم ، وغَنِم أموالَهم وحُمِلت إلى المستنصر .

وكان كنز الدّولة[(٢)] محمّد قد تغلَّب على ثغر أسوان ونواحيها وعظُم شأنه وكثُرت أتباعه ؛ فقاتله أمير الجيوش وقتَلَه ، وبنى فى المكان مسجدًا سمّاه مسجد النّصر . وكانت هذه الوقْعَة آخرَ إصلاح حالِ مصر وعُرْبانها . وقيل كان قَتْل كنز الدّولة فى سنة خمسٍ وسبعين والله أعلم .

وفى غيبة أمير الجيوش [هجم][(٣)] أتسيز على الدّيار المصريّة ، وكان ابن يلدكوز قد الْتحَق به وأهدى له تُحفًا جليلة المقدار ، منها ستّون حبّة لؤلؤ مدحرج[(٤)] تزيد كلُّ حبة على مثقال ، وحجر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالاً ، وغير ذلك ، وأطمعه فى ملك الدّيار المصريّة ، وملك ما وصل إليه . فجمع أمير الجيوش عساكرَه وخرج إليه . وقاتله وهزَمَه ، وقتل خلقًا كثيرًا من أصحابه بعد أن أقام بأرياف مصر جُمَادَيَيْن وبعض شهر رجب[(٥)]

---

(١) طوخ : يوجد بصعيد مصر ٢١ موضع كل منها يحمل اسم طوخ مضافًا إلى اسم آخر . وورد فى معجم البلدان طوخ : قرية بصعيد مصر غربى النيل ، وورد فى القاموس الجغرافى طوخ : قرية فى صعيد مصر الأعلى على غربى النيل ، ومن المرجح أن تكون هذه القرية هى المقصودة ، وهى التى تعرف باسم طوخ دمنو من أعمال قوص ـ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٤ ص ١٨٧ .

(٢) عن بنى كنز انظر تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٦ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح تتفق والسياق ، وانظر أيضًا المنتقى من أخبار مصر ص ٤٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٧ ، الكامل جـ ١٠ ص ١٠٣ .

(٤) « مرجرج » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٤٤ .

(٥) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٤٤ ، واتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٧ وما بعدها .

وفيها خرج على أمير الجيوش عربُ قيس وسليم وفزارة ، فخرج إليهم وقاتلهم ، وهزمهم ، وطردَهم إلى برقة[١] .

وفى سنة سبعين وأربعمائة فوّض لأمير الجيوش بدر الجمالى قضاءُ القضاة ، ونُعِت بكافل قُضاة المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين .

وفى سنةِ سبعٍ وسبعين وأربعمائة خالف الأوحد بن أمير الجيوش على والده ، واجتمع معَه جماعةٌ من العُربان وغيرهم ، واستولى على الإسكندريّة . فسار إليه والدُه وحاصره بها ، وفتحها ، وقبض على ولده ؛ وبنى أميرُ الجيوش الجامع المعروف بجامع العطّارين بالإسكندرية[٢] من أموالٍ أخذها من أهل البلد ؛ وكانت عمارتُه فى شهر ربيع الأول سنة تسعٍ وسبعين . وقامت الخطبة بهذا الجامع إلى آخر أيّام العاضد[٣] .

وفى سنة اثنتين وثمانين [٧١] وأربعمائة ندبَ أميرُ الجيوش بدر الجمالى عسكرًا إلى السّاحل ففتح صُور وصَيدا ، وصارَا بِيَد نوّابه . ثم سار بعد ذلك وفتح جُبيل وعكّا . وكان ذلك فى يد تاج الدولة تُتُش[٤] صاحب دمشق .

ذكر بناء باب زويلة بالقاهرة

وفى سنة خمسٍ وثمانين وأربعمائة أمَر أمير الجيوش بدر الجمالى ببناء باب

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٧٦ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٤٤ .

(٢) كان هذا الجامع خرابًا وجدده بدر الجمالى ــ انظر تاريخ المساجد الأثرية جـ ١ ص ٦٧ ، جـ ٢ لوحة ٣١ ، وانظر المنتقى من أخبار مصر ص ٤٦ هامش ١٨٩ .

(٣) « ولم تزل الخطبة فيه حتى ملك صلاح الدين يوسف فنقل الخطبة منه إلى جامع بناه » المنتقى من أخبار مصر ص ٤٧ ، وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢١ .

[illegible] فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٥٠ ، الكامل جـ ١٠ ص ١٧٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٨ .

زويلة الكبير ، الذى هو الآن باقٍ ، وعلّى أرضَه[١] ، وأراد أن يجعل له عطفةً على عادة أبواب الحصُون حتّى لا تهجم عليه العساكر فى أوقات الحصار ، ويتعذّر دخولها جُملة ؛ فأشار عليه بعضُ المهندسين أن يعمل فى بابه زَلّاقةً من حجارة الصَّوّان ، فعمله على هذا الحكم . ولم يزَلْ كذلك إلى أن دخَل منه السّلطان الملك الكامل[٢] بنُ الملك العادل ، فزَلق فرسه ، فرسَم أنْ يُخفّف من حجارَته ، فخُفّف منها ، ولم يبق إلّا القليل على ما هو عليه الآن[٣] .

وفى سنة ستٍّ وثمانين وأربعمائة ملك تاجُ الدّولة تُتُش ثغر صور بمواطأة من نائب بَدْرٍ بها .

ذكر وفاة أمير الجيوش بدر الجمالى وولاية ولده الأفضل

كانت وفاتُه فى شهر ربيع الأول[٤] ، وقيل فى جُمادى الأول ، سنة سبعٍ وثمانين[٥] وأربعمائة . وكان حكمه بديار مصر حكم المُلوك ولم يَبْق للمستنصر بالله أمر ، بل سلَّم الأمور إليه فضبَطَها أحسن ضبط . وكان شديدَ الْهَيْبة ،

(١) « وعلّى أبراجه » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٥١ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) هو محمد بن أبى بكر بن أيوب ، الملك الكامل ، ولى حكم الدولة الأيوبية فى الفترة من ٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ/١٢١٨ ـ ١٢٣٨ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٤٢ .

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٥١ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٤) « ربيع الآخر » فى المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٨١ ، و « فى ذى العقدة » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٥ .

(٥) « سنة ست وثمانين » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٣٩ ، و « سنة ثمان وثمانين » فى كل من : العبر جـ ٣ ص ٣٢٠ ، شذرات الذهب جـ ٣ ص ٣٨٣ .

سريعَ البطْش ؛ قتلَ خلقًا كثيرًا من أكابر المصرّيين وقُوّادهم وكُتّابهم ؛ وعلى يديه صلحت الدّيار المصريّة بعد أن خربت . وكان له نحو الثّمانين سنة .

وكان أرمنىّ الجنس مملوكًا لجمالىّ الدّولة بن عمار وإليه يُنسب. وتولّى إمرة الشّام والسّاحل .

ولما كان يلى دمشق جرت فتنةٌ من عسكره وأحداث البلد خَرِب بسببها قصرُ الإمارة والجامع الأموى .

ذكر وفاة المستنصر بالله وشىء من أخباره

قال المؤرخ : ولمّا ولِىَ مصر أطلق الخراج للمزارعين ثلاثَ سنين إلى أن تمّت أحوالهم واتّسعت أموالهم. وكانت إمارته بمصر إحدى وعشرين سنة .

ولمّا توفى ولِىَ بعده الوزارة ولده الأفضل ، ونعت بنعوت أبيه، وقبض على جماعةٍ من الأمراء كانوا قد ثاروا عليه .

كانت وفاته فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجّة سنة سبعٍ وثمانين وأربعمائة، ومولدُه فى يوم الأحد سادس عشر جُمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة ، فكانت مدّة حياته سبعًا وستين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام ، ومدة ولايته ستّين سنة وأربعة أشهر .

ولقى فى ولايته أهْوالاً عظيمة وشدائد كثيرة وفاقةً متمكّنة حتى جلس على نخٍّ[1] وكانت أيّامه ما بين غلاءٍ ووباء وفتن ، على ما نذكره . وكان قد عتَا وتجبَّر واشتهر ، وذلك أنه اشتُهر عنه أنه نصب خركاه فى القُصور التى بعين

(١) نخ : نوع من الحصير ــ أو بساط طويل ــ القاموس .

شمس وبنى فسقيَّةً عظيمة وحمل إليها الخمر فى الرَّوَايا وأخرج جميع مَنْ فى قصره من الملاهى والقيان إلى الخركاة وهم يغنون بأصوات مرتفعة ويستقُون من فسقيَّة الخمر ، ويطوفون بالخركاة ، يُضاهون بذلك البيتَ المعظَّم وزمزَم ، ويقول : هذا أطيب من زيارة حجارة ، وسماعِ صوتٍ كريه ، وشرب ماء آسن . فآخذه الله تعالى وعجّل العقوبة ، وأراه الذُّلّ مع قيام سُلطانه ، وسلَّط عليه أنصار دولته حتّى نهبوا أمواله واستولوا على قصره ، ولم يَبْقَ له إلاّ بساطٌ فجذبوه من تحته . وصار إذا ركب لا يجدُ ما يركبه حاملُ مظلّته إلاّ أنْ يُستعار له بغلة ابن هبة ، صاحب ديوان الإنشاء ، وكلُّ خواصِّه مشاة ليس لهم دواب يركبونها ؛ وكانوا إذا مشوْا يتساقطُون فى الطّرقات من الجوع . وكانت ابنة بابشاذ تبعثُ إليه برغيفين فى كلِّ يوم[1] . وهذه عاقبةُ الطغيان والاستهتار .

وكان له أولاد منهم : أبو القاسم أحمد ، وأبو المنصور نزار ، وأبو القاسم محمد ، وأبو الحسين جعفر[2] ، وغيرهم .

ووَزَر له جماعة[3] وهم : أبو القاسم الجرجرائى الأقطع ، وزير والده ، إلى أن توفّى ، فاستوزر من ذكرناهم [٧٢] إلى آخر سنة أربع وخمسين . وتكرَّر بعضُهم فى الوزارة مرارًا واستوزر ابا غالب عبد الظّاهر بن فضل العجمى غير مرّة ، دفعةً فى جُمادى الأولى سنة خمس وخمسين وصُرف بعد

---

(١) « لا يجد من القوت إلا ما تتصدق به عليه الشريفة ابنة صاحب السبيل فى كل يوم » اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٢ .

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٧٧ .

(٣) « ووزر له أربعة وعشرون وزيرًا » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٥٥ ، وفى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٢ .

ثلاثة أشهر ، ودفعةً فى شهر ربيع الآخر سنة ستٍّ وخمسين وصُرف بعد ثلاثة وأربعين يومًا ، ثم وليها ثالثةً فى أيام الفتنة ولُقّب تاج الملوك شادى ، وقتل فى سنة خمسٍ وستين . ووَلِى له الحسن بن ثقة الدولة بن أبى كدينة القضاء والوزارة ، كلّ منصبٍ منها خمس دفعات ، ويقال إنه من ولد عبد الرحمن ابن ملجم قاتل على بن أبى طالب رضى الله عنه . ولمّا وصل أمير الجيوش بدر الجمالى أرسله إلى دمياط وأمر بضرب عنقه ، فدخل عليه السيّاف بسيفٍ كليل[1] فضربه عدّة ضربات حتى أبان رأسه ، وكان عدّة ما ضرَبه عدّة ولاياته الحُكم والوزارة . وولى أبو المكارم أسعد ثم قتله أمير الجيوش ، ووَزرَ بعده أبو على الحسن بن أبى سعد إبراهيم بن سهل التّسْترى عشرة أيام ثم اسْتَعفى ، وكان يهوديا فأسلم ، ووَلِى أبو القاسم هبة الله محمد الرعبانى دفعتين كلّ دفعة عشرة أيام . وَوزَر الأثير أبو الحسن بن الأنبارى أياما وصُرف ، وَوَزر أبو على الحسين بن سديد الدولة الماسَكى مرة ثانية أيّامًا ثم صرف ، ووزر أبو شجاع محمد بن الأشرف بن فخر الملك ، وفخر الملك هو الذى وزر لبهاء الدولة ابن بويه ، فصُرف وسار إلى الشّام فقتله أمير الجيوش فى مسيره . واستوزر أبا الحسن طاهر ابن الوزير الطرابلسى ، من طرابلس الشّام ، ثم صَرَفه ، وكان أحد الكتّاب بديوان الإنشاء ، واستوزر أبا عبد الله محمد بن أبى حامد السيسى يومًا واحدًا ثم قُتل . فاستوزر أبا سعد منصور بن أبى اليمن سورس بن مكرواه بن زنبور . وكان نصرانيًّا ثم أسلم ، والنصارى يُنكرون إسلامه . واستوزر أبا العلاء عبد الغنى بن نصر بن سعيد وصُرف وبقى أيّامًا وقتله أمير الجيوش . ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ووَزر

---

(١) كليل : ضعيف ، وسيف كليل : أى لا يقطع ــ القاموس .

للسَّيف والقَلَم والحُكم إلى أن مات ، ثم ولدُه الأفضل بعده[١].

قضاته : كان منهم جماعةٌ من الوزراء قد ذكرناهم ، ومَنْ لم يَلِ الوزارة عبد الحاكم بن سعيد الفارقى فى أوّل خلافته ، ثم القاسم بن عبد العزيز بن النعمان . وفي ولاية أمير الجيوش أبو يعلى العرقى إلى أن مات ، فولى أبو الفضل القضاعى . ثم جلالُ الدَّولة أبو القاسم على بن أحمد بنِ عمار ، ثم صرفه وولَّى أبا الفضل بن عتيق ، ثم أبا الحسن على بن يوسف الكحال النابلسى ؛ ثم فخر الأحكام محمد بن عبد الحاكم[٢] .

وكان نقش خاتم المستنصر بالله « بنصر السَّميع العليم ينتصر الإمام أبو تميم »[٣]

ذكر بيعة المستعلى بالله

هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معدٌّ ، وهو التّاسع من ملوك الدّولة العُبَيديّة ، والسادس من ملوك مصر منهم . بُويع له فى بُكرة نهار الخميس لاثنتى عشرة ليلةً بقيت من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

وذلك أن المستنصر بالله لما تُوفى بادر الأفضل أمير الجيوش بدُخول القصر وأجلسه على تخت المملكة ، وسيَّر إلى إخوته نزارٍ وعبد الله وإسماعيل ،

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٧٨ ـ ٨١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٥٥ ـ ٥٦ ، الإشارة ص ٣٦ ـ ٥٩ .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٤ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٨١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٥٧ .

(٣) « ينتصر المستنصر أبو تميم » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٤ .

وأعْلَمهَم بوفاة أبيهم ، وأمرهم بسُرعة الحضور . فلمّا حضروا شاهدُوا أخاهم الصّغير وقد جلس على سرير الخلافة ، فامتعضوا من ذلك ، فقال لهم الأفضل : تقدَّموا وقبِّلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلى بالله وبايِعوه ، فهو الذى نصَّ عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده . فقال نزار : لو قُطِّعت ما بايعتُ مَن هو أصغر منّى سنًّا ، وخطُّ والدى عنْدى بولاية العهد ، وأنا أُحضره . وخرج مُسرعًا ليُحضر الخطَّ فمضى إلى الإسكندريّة ، فسيرّ الأفضل خَلْفَه من يُحضره ، فلم يعلم أحدٌ أين توجَّه ولاكيف سلك ، فانزعج الأفضل(١) لذلك .

وقيل إنَّه لمّا تُوفى المستنصر بالله جلس بعدَه ولدهُ أبومنصور نزار ، وهو وليُّ العهد وأُراد أخذ البيعة لنفسه فامتنع الأفضل أمير الجيوش منْ ذلك لكراهته فيه(٢) واجتمع بجماعة الأمراء والخواصّ وقال لهم : إن هذا كبير السّن ولا نأمنهُ على نفوسنا ، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبى القاسم أحمد . فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكى (٣) ، فإن نزارًا كان قد وعده بالوزارة والتّقدِمة على الجيوش مكان الأفضل . فلمَّا علم ابن مصال الحال أطلعَ نزارًا عليه .

وبادر الأفضَلُ وبايع أحمدَ الخلافة ، ونعته بالمستعلى بالله وأجلسه على

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) عن سبب هذه الكراهية ــ انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٦٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢ .

(٣) « المالكى » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٦٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢ .
« من قرية يقال لها لُك برقة » ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢ ، وانظر ما يلى عن قرية لك .

سرير الملك ، [٧٣] وجلس الأفضل على دكّة الوزارة . وحضر قاضى القضاة نصر الإمام على بن الكحال ومعه الشّهود ، وأخذ البيعة على مقدّمى الدّولة ورؤسائها وأعيانها ، ثم مضى إلى إسماعيل وعبدالله ، وهما بالقصر فى المسجد وعليهما التوكيل ، فقال لهما : إن البيعة قد تمّت لمولانا المستعلى بالله ، وهو يُقرِئُكما السّلام ويقول لكما : تبايعانى أم لا ؟ فقالا : السمع والطاعة ؛ إن الله اختاره علينا . وبايعاه ، وكتب بذلك سجلّ قرأه على الأمراء الشّريف سناء الملك محمد بن محمد الحسنى الكاتب بديوان الإنشاء . وبادر نزار وأخوه عبدالله ومحمود بن مصال إلى الإسكندرية ، وعليها ناصر الدّولة [1] أفتكين التّركى ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى ، فعرّفوه الحال ووعدُوه بالوزارة ، فبايعه ، وبايعه أهل الثّغر ، ولُقِّب بالمصطفى لدين الله .

ذكر ما اتّفق لنزار ومَنْ معه

قال : وفى المحرّم سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال . فلمّا قرُب منها خرجوا إليه ، والتقوا ، واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فكانت الهزيمةُ على الأفضل ومَنْ معه ، فرجع إلى مصر ونهبَ نزار ومَنْ معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحرى .

ثم خرج الأفضل ثانيًا وحاصر الإسكندرية ، واشتدَّ الحصار إلى ذى القعدة . فلمّا اشتد الحال رأى ابنُ مصال منامًا ، فلمّا أصبح أحضر رجلاً أعجميًّا وقال له : رأيتُ كأنّى راكبٌ فرسًا وكأنَّ الأفضل يمشى فى ركابى .

---

(١) « نصر الدولة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣ .

فقال له العجميّ : الماشى على الأرض أمْلَك لها . فلمّا سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب إلى لُكّ قرية من قرى برقة . فعند ذلك ضعُفت قوّة نزار وأفتكين ، فاضطرّ إلى مسَالمة الأفضل [وبعثا] [١] يطلبان الأمان ، فأمّنهما وفُتحت البلد .

ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين ، وسيّرهما إلى مصر ، وكان آخرَ العهدِ بنزار . قيل إنّه جعلَهُ بين حائطين إلى أن مات . وكان مولدُه فى عاشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة . وأمّا أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس . وأمّا محمود بن مصال فكاتَبَه الأفضل ورغّبه فى العَوْد ،فعاد إلى مصر ، فأكرمه الأفضل .

وفى سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان [٢] صاحب حلب للمستعلى بالله أربع جُمَع [٣] ، ثم قطع خطبته ، على ما ذكرناه [٤] فى أخبار الدولة السلجقية والله أعلم .

ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدّس

وفى شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام ونزل على البيت المقدس ، وهو فى يد الأمير سُقْمَان

---

(١) [وبعثا] إضافة يقتضيها السياق من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤ .

(٢) هو رضوان بن تتش صاحب حلب وأنطاكية ــ انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩ ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٦٤ .

(٣) « أربعة أشهر » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩ .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٧٢ ـ ٧٣ .

وإيلغازى ، ابنى أُرتُق [١] ، وجماعة من أقاربهما وخلق كثير من الأتراك . فراسلَهُما يلتمسُ منهما تسليم البيت المقدّس من غير حرب ولاسَفْك ، فلم يجيباه لذلك . فنصب المجانيق وهدم منه قطعة ، وقاتل ، فاضطرًا لتسليمه فسلّماهُ له ، فخلع عليهما وأطلقهما . وعاد الأفضل إلى مصر [٢] .

ونَقَل محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب فى تاريخ مصر أن الأفضل لمَّا رجع من بيت المقدس مرَّ بعسقلان ، وكان فى مكانٍ دارسٍ بها رأس الحسين بن على ، رضى الله عنهما ، فأخرجه وعطَّره وطيَّبه ، وحُمل فى سفط إلى أجَلِّ دارٍ بها ، وعمرَ المشهد ، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صَدره وسعى ماشيًا إلى أن ردَّه إلى مقره ، ثم نُقل إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله . وقيل إن المشهد [بعسقلان] [٣] ابتدأ بعمارته بدر الجمالى وكمَّله الأفضل [٤] .

ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميعُ ما استولَوْا عليه مما نذكره داخلاً فى ملك الدولة العُبَيديّة ، بل كان منه ما هو فى أيدى نُوّاب المستعلى وما هو بيد الملوك الذين تغلَّبوا على الأطراف ، ولم يكن أيضًا فى أيام المُسْتعلى خاصَّةً . وإنما وردناه بجُملته فى

(١) وليا القدس بعد وفاة والدهما سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٥٠ .
(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) [ ] إضافة للتوضيح من المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٢٧ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢ .
(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٦٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢ .

هذا الوضع لتكون الأخبارُ متتابعةً ولا تنقطعُ بالسنين والدول . وقد نبّهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية (١) .

والذى نذكرُه الآن فى هذا الموضع هو ما استولَوْا عليه [٧٤] من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها .

وكان ابتداء ظهورهم وامتدادِهم وتطرُّقِهم إلى البلاد الإسلامية فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وذلك أن بلاد الأندلس(٢) لما تقسَّم ملوكها بعد بنى أُمية وصارت كلُّ جهةٍ بيد ملك . وأنِفَت نفسُ كل واحدٍ أن ينقاد إلى الآخر ، ويدخل تحت طاعته ، فكانوا كملوك الطوائف فى زمن الفُرس ، وعجز كلُّ واحدٍ عن مقاومة مَنْ يليه أو يقصدُه من الفرنج ، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال ، وتغلب الأعداء على البلاد الإسْلَامية . فأول ما استولَوْا عليه مدينة طُليطِلة من الأندلس ، على ما ذكرناه(٣) فى سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة ، ثم ملكوا جزيرة صقليّة فى سنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة ، وتطرَّقوا إلى أطْراف أفريقية فملكوا منها شيئًا ثم استُرجع منهم . على ما قدَّمناه(٤)

ذكر ملكهم مدينة أنطاكيَّة

كان استيلاءُ الفرنج خَذَلهم الله تعالى ، على مدينة أنطاكيَّة فى جُمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة . وكانت بيد مُلوك الرُّوم من سنةِ ثمانٍ

---

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٢) يلاحظ أن النويرى ، مثله فى ذلك مثل ابن الأثير ــ يبدأ كلامه عن الحروب الصليبية بغزو الفرنج للأندلس ، فيربط بذلك بين الحركة الصليبية فى بلاد الأندلس ، والحركة الصليبية فى المشرق الإسلامى ــ الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٤٤٢ .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ صفحات متفرقة ، جـ ٢٧ ص ٩٠ وما بعدها .

وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملكُ سُليمانُ[١] بن شهاب الدين ولد قُتْلُمش السلجقى ، صاحب أقصرا وقونية وغير ذلك من بلاد الروم فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، على ما ذكرناه فى أخبار الدولة السّلجقية[٢] ، وبقيت فى يده إلى أن قتل . وتداولتها أيدى المتغلِّبين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد يَاغِى سِيَان وهو يخطب فيها للملك رضوان ابن تُتُش صاحب حلب ، ولأخيه الملك دُقاق صاحب دمشق .

فلمَّا كان فى سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين[٣] ملك الفرنج جمعًا كثيرًا من الفرنج ، وكان تسيب رُجَارْ[٤] الفرنجى صاحب صِقلّية ، فأرسل إليه بغدوين يقول : قد جمعت جمعًا كثيرًا وأنا واصل إليك وسائرٌ مِنْ عندك إلى إفريقية أفتَحُها وأكون مجاورًا لك .

فجمع رُجارْ أصحابه واستشارهم فقالوا كلُّهم : هذا جيد لنا ولهم ، وتصبح البلاد كلُّها للنصرانية . فلمَّا سمع رُجارْ كلامَهم وما اجتمعوا عليه ، رفع رجله وحَبَق حبقَةً قوية ، وقال : وحقِّ دينى هذه خيرٌ من كلامكم . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال إذا وصلوا إلىَّ احتَجْتُ إلى كلفَةٍ كثيرة ، ومراكب تحملُهم إلى إفريقية ، وعساكر من جهتى معهم ، فإن فتحوا البلاد وكانت

---

(١) هو سليمان بن قتلمش بن أرسلان بن بيغو بن سلجوق ، مؤسس دولة سلاجقة الروم أو سلاجقة الأناضول ، وحكم فى الفترة من ٤٧٠ ـ ٤٧٩ هـ/١٠٧٧ ـ ١٠٨٦ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣١٥ ، ٣٢١ .

(٢) انظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٣) « بردويل » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ .

والمقصود بلدوين من أمراء الحملة الصليبية الأولى ، والذى عرف فيما بعد باسم الملك بلدوين الأول Baldwin I ، وهو أول ملك يتوج على مملكة بيت المقدس الصليبية .

(٤) هو روجر الأول Roger I .

لهم وصارت مؤونتهم من صِقلّية وينقطع عنى ما يصل إلىَّ من المال من ثمن الغلّات فى كل سنة ، وإن لم يفتحُوها رجعوا إلى بلادى وتأذَّيتُ بهم ، ويقول تميم[١] ، صاحب إفريقية غدَرْت بى ونقَضْت عهدى ، وتنقطعُ الوُصلة والأسفارُ بيننا وبين بلاد إفريقية ، وإفريقية باقيَةٌ مَتىَ وجدْنا قوة أخذناها بها .

ثم أحضر رسُوله وقال له إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتْحَ بيت المقدس وخلِّصوه من أيديهم ، ويكون لكم الفخر ، وأمّا إفريقية فبينى وبين أهلها أيْمان وعُهود ، فاخرجوا إلى الشام[٢].

وقيل إنَّ المستنصر ، أو المستعلى ، لمّا رأى قوة الدولة السلجقية وتمكُّنَها ، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام [إلى][٣] غزَّة ، ولم يبْقَ بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ، رَاسَل الفرنجَ يدعُوهم إلى الخروج إلى الشّام ، ليملكوه ، ويكونوا بينه وبين المسلمين . والله تعالى أعلم[٤].

قال فلمَّا عزم الفرنج على قصد الشّام ساروا إلى قسطنطينية ليعبُروا المجاز إلى بلاد الإسلام ويسيروا فى البرِّ فيكون أسهل عليهم . فمنعهم ملكُ الروم[٥] من ذلك ، ولم يمكِّنهم أن يمرُّوا ببلاده ، وقال : لا أُمكِّنكم من العبور إلّا أن تحلفوا أنكم تسلمون إلىَّ أنطاكية . وكان قصدُه أن يحثَّهم على

---

(١) هو تميم بن المعز بن باديس ، من بنى زيزي فى أفريقية ، والذى ولى الحكم فى الفترة ٤٥٣ ـ ٥٠١ هـ/ ١٠٦١ ـ ١١٠٧ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٨ .

(٢) انظر الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

(٣) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام من الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٣ .

(٤) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٣ .

(٥) هو الامبراطور الكسيوس كومنين الذى ولى عرش الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ١٠٨١ ـ ١١١٨ م/ ٤٧٤ ـ ٥١٢ هـ .

الخروج إلى بلاد الإسلام ظنًّا منه أن الترك لا يُبْقُون منهم أحدًا لما أرى من صرامتهم وملكهم[١] البلاد .

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج فى سنة تسعين وأربعمائة . ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان[٢] بن سُليمان بن قُتْلُمش ، فلقِيَهم فى جُموعه ومنَعَهم ، فقاتلوه وهزموه ، وذلك فى شهر رجب منها . ومرُّوا فى بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمنى ،فسلكُوها وخرجوا منها إلى أنطاكيّة ، فحصروها[٣] .

قال المؤرِّخ[٤] : فلمَّا سمع صاحبها يَاغِى سِيَان بتوجُّهِهِمْ إليها خاف من النَّصارى الذين بها ، فأخرج مَنْ بها من المسلمين بمفردهم فى أول يومٍ وأمرهُم أن يحفروا الخندق ، ثم أخرج النصارى من الغد لذلك . فعملوا فيه إلى العَصْر ، فلمَّا أرادوا دخول البلد منعهم ، وقال لهم : أنطاكية لكُم فهَبُوها لى حتى أنظرَ ما يكونُ بيننا وبين الفرنج . فقالوا : مَنْ يحفظ أولادَنا ونساءَنا ؟ فقال : أنا أخْلُفكم فيهم[٥] فأمسكوا ثم صاروا فى عسكر الفرنج .

وحُصِرت أنطاكية تسعةَ أشهر، وظهر من حَزْم يَاغِى سِيَان واحتياطه وجَوْدة رأيه ما لم يُشَاهد مثله ، وهلك [٧٥]أكثر الفرنج موتًا وقتلاً ، وحفظ يَاغِى سِيَان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم ، وكفَّ الأيدى عنهم .

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٣ .

(٢) ولى الحكم فى سلطنة سلاجقة الروم فى الفترة من ٤٨٥ ـ ٥٠٠ هـ/١٠٩٢ ـ ١١٠٧ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٢١ .

(٣) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٤ .

(٤) ينقل النويرى عن ابن الأثير ابتداء من ذكر استيلاء الفرنج .

(٥) « أخلفكم فيه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق من الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٤ .

فلمَّا طال مُقام الفرنج عليها رَاسَلُوا أحد المستَحفظين للأبراج ، وهو ذراد ، ويعرف بروزبة [١] ، وبذلوا له مالاً وإقطاعًا ، وكان يتولى حِفظ بُرج يلى الوادى ، وهو مبنى على شباك فى الوادى .

فلمّا تقرَّر الأمر بينهم وبينه ، جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه ، وصعد جماعة كثيرة منهم بالحبال ، فلما زادت عدتهم على خمسمائة ، ضربوا البوق وذلك عند السَّحَر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة،فاستيقظ يَاغِى سِيَان وسأل عن الحال فقيل له : هذا البوق من القلعة ، ولا شك أنها قد أُخِذت . ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج . فَدَاخله الرُّعْب ؛ ففتح باب البلد وهرَب فى ثلاثين غلامًا ، وجاء نائبه ليحفظ البلد ، فقِيل له : إنه قد هرب ، فخرج من الباب الآخر هاربًا . وكان ذلك إعانة للفرنج ، ولو ثبت ساعة لهلكوا .

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه ، ونهبوا وقتلوا مَنْ فيه من المسلمين .

وأما ياغى سِيَان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقله وكان كالوَلْهَان . فرأى نفسه وقد قطع عدَّةَ فراسخ ؛ فقال لمن معه : أينَ أنا ؟ فقالوا : على أربعة فراسخ من أنطاكية . فندم كيف خلص سالمًا ولم يقاتل حتى يُزيلهم عن البلد أو يُقتل .

وجعل يتلهّف على ترك أهله وأولاده والمسلمين ، ويسترجع ؛ فسقَط عن فرسه لشدة ما ناله ، وغُشِى عليه . فأراد أصحابه أن يُرْكِبوه فلم يكن فيه

---

(١) « نيروز » فى زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٢ ، ويعرف فى المراجع الحديثة باسم « فيروز الأرمنى » ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٢٤٥ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ٣٢٨ .

مُسْكة ، وكان قد قارب الموت ، فتركوه وساروا عنه. فاجتاز به إنسان أرمنى كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله. وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكيّة[١]

ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم

قال[٢] : ولما اتصل خبر أنطاكيّة بالأمير قوام الدّين كربوقا صاحب الموصل[٣] جَمَع العساكر وسار لحربهم واجتمع معه الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار[٤] . فلمّا بلغ الفرنج اجتماعُهم عظُمت عليهم المصيبة وداخَلَهم الخوف؛ لِمَا هُم فيه من الوهن وقلّة الأقوات . وسار المسلمون حتى نَازَلُوا أنطاكيّة ، فأساء كربوقا السِّيرة فيمَنْ معه من المسلمين ، فأغْضب الأُمراء وتكبَّر عليهم ، ظنًّا منه أنهّم يقيمون معه على هذه الحال . فأغضبهم ذلك وأضمروا فى أنْفسهم الغَدْر به إذا كانَ قتالٌ ، وعزموا على إسْلامِه عند الصَّدمة[٥] .

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٥ .

(٢) مازال النويرى ينقل عن ابن الأثير .

(٣) أتابك الموصل من قبل سلطان السلاجقة بركياروق ، الذى ولى سلطة السلاجقة بخراسان فى الفترة من ٤٨٧ ـ ٤٩٨ هـ/١٠٩٤ ـ ١١٠٤ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣١٩ .

(٤) « فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك ، وجناح الدولة صاحب حمص ، وأرسلان تاش صاحب سنجار ، وسليمان بن أرتق وغيرهم » ـ الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ .

(٥) « المصدوقة » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ ، أى التخلى عنه عند احتدام القتال .

قال : وأقام الفرنج بانطاكيّة بعد أن ملكوها ثلاثة[١] عشر يومًا ليس لهم ما يأكلونه ؛ فتقَوَّتَ الأقوياء بدوابّهم والضّعفاء بالميتة وورَق الشّجر . فلمّا انتهت حالهم إلى ذلك أرسلوا إلى كربُوقا يطلبون منه الأمان ليخرجُوا من البلد ، فلم يُعْطهم ، وقال : لا تخرجُون منه إلّا بالسّيف .

وكان معهم من الملوك بغدوين وصنجيل وكندفرى والقمص صاحب الرُّها وبيمند صاحب أنطاكيّة[٢] وهو مقدَّم العسكر . وكان معهم راهبٌ مُطاعٌ فيهم[٣] فقال لهم : إن المسيح عليه السّلام كان له حربة مدفونة بالقسيان[٤] الّذى بأنطاكيّة ، وهو بناء عظيم ، فإن وجدتمُوها فإنكّم تظفَرون ، وإن لم تجدوها فالهلاكُ متحقّق .

وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفَّى أثَرها . وأمَرهم بالصّوم ثلاثة أيّام والتّوْبة ؛ ففعلوا ذلك . فلمّا كان فى اليوم الرّابع أدخَلَهم جميعَهم وجميعَ عامَّتِهم والصُّنَّاع ، وحفروا عليها فى ذلك المكان فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبْشِروا بالظَّفر . فخرجُوا فى اليوم الخامس من الباب مِنْ خمسة وستّة ونحو ذلك ؛ فقال المسلمون لكربُوقا : ينبغى أن نقف على الباب فقتلَ كلَّ من يخرج فإنّ أمْرَهم الآن سهل . فقال : أمهلوهم حتى يتكامَلُوا ؛ ولم

---

(١) « إثنى عشر » ــ الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ .

(٢) هذه الأسماء ــ بالترتيب هى :
Baldwin-Raymond of St Gilles- Godefroy-Baldwin de Burgh-Bohemand.

(٣) هو بطرس بارثلميو Peter Bartholomew ــ انظر تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ٣٤٣ وما بعدها ، ص ٣٨٥ وما بعدها .

(٤) القسيان : الاسم العربى لكنيسة القديس بطرس بأنطاكية ، وتنسب إلى الرجل الذى يقولون أن بطرس أحيا ولده بعد موته .

يُمكِّن من مُعَاجَلتهم ؛ فقتل قومٌ من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم .

فلمّا تكامَلَ خروج الفرنج ولم يَبْقَ منهم أحدٌ بأنطاكية ضربوا مصَافًّا عظيمًا ، فانهزم العسكر الإسلامى لِمَا عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم ، فتمَّت الهزيمة عليهم ، ولم يَضْرِب أحدٌ منهم بسيف ولا طَعَن برُمح ، ولا رَمَى بسهم . وآخر مَنْ انهزم سُقمان بن أُرتُق وجناح الدولة ، لأنهما كانا فى الكمين ؛ وانهزم كربُوقا معهم . فلمّا رأى الفرنج ذلك ظنّوه مكيدةً ، فخافوا أن يتبعوهم ؛ وثبت جماعةٌ من المجاهدين وقاتلوا حِسْبَةً ورغبة فى الشَّهادة فقتل الفرنج منهم أُلوفًا ، وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والآلات والدّوابّ ، وغير ذلك ؛ فصلحت حالُهم وعادت إليهم قُوّتهم .

ذكر ملكهم معرة النعمان

[٧٦] قال المؤرِّخ . ثم سار الفرنج إلى معرة النُّعمان (١) ، فنازلوها وحصروها ، وقاتلهم أهلها قتالاً شديدًا ، فرأى الفرنج منهم شدَّةً ونكايةً عظيمة . فعمِل الفرنج عند ذلك بُرْجًا من خشب يوازى سور المدينة ؛ ووَقع القتالُ عليه ، فصبر المسلمون عَلى القتال إلى اللَّيل . ثمَّ خاف قوم منهم وفشِلوا ، وظنّوا أنهم إذا تحصَّنوا ببعض الدُّور الكبار امتنعُوا بها . فنزلوا عن السُّور وأخلَوْا مكانَهم الذى كانوا يحفظونه ، وفعلت طائفة أخرى مثلَ ذلك .

(١) معرة النعمان : بين حماة وحلب ، وكانت تعد من أعمال حمص — معجم البلدان .

ولم تزل كلُّ طائفة منهم تَتْبع الأخرى حتّى خلا السُّور ، فصعد الفرنج إليه على السَّلالِيم . فلمّا عَلَوْه تحيّر المسلمون ودخلوا دُورهم ، ووضع الفرنج فيهم السَّيف ثلاثةَ أيام ، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسَبَوا السَّبْى الكَثير .

وأقاموا بها أربعين يومًا وسارُوا إلى عَرْقة [١] ، فحصروها أربعةَ أشهر ، ونَقَبوا سُورَها عدَّةَ نقوب ولم يقدروا عليها . وراسَلَهم ابنُ منذر [٢] صاحبُ شَيْزَر ، وصالحهم عليها . ثم سارُوا إلى حمص وحَصَرُوها ، فصالحهم صاحبُها جناحُ الدّولة . وخرجوا على طريق النَّواقِير [٣] إلى عكا فلم يقدروا عليها [٤] ؛ فساروا إلى البيت المُقَدَّس .

ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاءُ الفرنج . خذَلهم الله تعالى ، على البَيْت المقدَّس فى يوم الجمعة ، ضُحًى ، لسبعٍ بَقِين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وكان إذْ ذاك بيد افتخار الدّولة نيابةً عن المستعلى بالله . فإنه كان بيد تاج الدّولة تُتش السَّلجقى صاحب الشّام ، وأقْطعه للأمير سُقمان بن أُرْتُق التُّركمانى ؛ فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه [٥] ، وبقى بِيَد نوّابه إلى الآن .

---

(١) عِرْقة : بكسر العين ، وسكون الراء ، تقع على بعد ١٢ ميلاً من طرابلس من الشمال الشرقى فى سفح جبل ، وبينها وبين البحر نحو ميل ــ معجم البلدان .

(٢) « وراسلهم منقذ صاحب شيزر » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٨ .

(٣) النواقير : فرجة فى الجبل بين عكا وصور ــ معجم البلدان .

(٤) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٨ .

(٥) وذلك فى رجب سنة ٤٩١ هـ/أغسطس ١٠٩٨ م ــ انظر ماسبق .

فقصَدَه الفرنج عند عَجزْهم عن فتح عكّا ، وحصروه نيّفًا وأربعين يومًا ، ونصبوا عليه بُرْجين ، أحدهما من ناحية صِهْيَوْن[(١)] ، فأحرقه المسلمون وقتلوا جَميع مَنْ فيه من الفرنج .

فلمّا فرغُوا من ذلك أتاهم الصّارخ أن المدينة قد مُلكت من الجانب الآخر ، وهو الجانب الشّمالى ، وركب النّاسَ السيفُ ولبث الفرنج أسبوعًا يقتلون فيهم .

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، فبذَل لهم الفرنج الأمان ، فسلّموه إليهم ، فوفَوْا لهم ؛ وخرجُوا ليلاً إلى عسقلان وأقاموا بها .

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيدُ على سبعين ألفًا ، منهم جماعةٌ كثيرةٌ من أئمة المسلمين وعُلمائهم ، وعُبّادهم وزُهّادهم ، مِمّن فارق أهله ، ووَطَنه وجَاوَرَ بذلك الموضع الشّريف . وأخذوا مِنّ عند الصّخرة نيِّفًا وأربعين قنديلاً من الفضّة ، زنة كلِّ قنديل [ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنورا من فضة وزنه][(٢)] أربعون رطلاً بالرّطل الشامى[(٣)] ؛ وأخذُوا من القناديل الصِّغار مائةً وخمسين قنديلاً من الفضّة ؛ ومن الذهب نيِّفًا وعشرين قنديلا . وغَنِموا ما لا يقعُ عليه الإحصاء .

---

(١) « وعملوا برجين مطلين على السور ، احدهما بباب صِهْيَوْن ، والاخر بباب العامود وباب الأسباط ، وهو برج الزاوية » ــ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٨ .

(٢) [ ] إضافة من الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٤ .

(٣) الرطل الشامى يساوى ١٢ أوقية ، والأوقية تساوى ٦٠ درهمًا ، أى أن الرطل الشامى يساوى ٧٢٠ درهمًا بالصنجة الشامية ــ صبح الأعشى جـ ٤ ص ١١٨ .

وورد إلى بغداد القاضى سعيد القروى[١] فى شهر رمضان ، ومعه جماعة ، يَسْتَنْفرون النّاس ، وأوردوا فى الدِّيوان كلامًا أبكى العيون ، وصدَع القلوب واستغاثوا بالجامِع يوم الجمعة ، وبكَوْا ، وذكروا ما نَزَل بالمسلمين من البلاء ، وما حَلَّ بهم من المُصيبة . فأمر الخليفة أنْ يسير القاضى أبو محمد الدّامغانى ، وأبو بكر الشّاشى ، وغيرهما[٢] ، إلى السّلطان[٣] بسبب ذلك ، فاتَّفق ما ذكرناه من الاختلاف الذى وقع بين المُلوك السّلجقيّة[٤] ؛ فتمكّن الفرنج من البلاد .

قال : ولمّا اتَّصَل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جَمَع العساكر وخَرَج إليهم ، فقاتلهم فى شهر رمضان من السّنة . ثمّ كَبَسَهُ الفرنج هو ومَنْ معه ، وهم على غير تَعْبِئة ، فهزموهم وقتلُوا منهم مقْتَلَةً عظيمة . وحاصر الفرنج عسقلان ، فصالحهم أهلها على عشرة آلاف دينار ، وقيل عشرين ألف دينار ، فعادُوا إلى القدس .

قال : وكان الذى ملك البيت المقدَّس من الفرنج كندفرى[٥] .

---

(١) « أبى سعد الهروى » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٤ .

(٢) « وأبو بكر الشاشى ، وأبو القاسم الزنجانى ، وأبو الوفا بن عقيل ، وأبو مسعد الحلوانى ، وأبو الحسين ابن سماك » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٤ .

(٣) المقصود السلطان بركياروق .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٩٠ وما بعدها .

(٥) هو جودفرى بوايون Godfrey of Bouillon .

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ[١] : وفى ذى القَعدة سنة ثلاثٍ وتسعين وأربعمائة لقى كُمُشْتَكين بن الدانِشْمند طايلو ، وهو صاحب ملطية وسيواس ، بيمند الفرنجى بالقرب من ملطية ، وكان صاحبُها قد كاتبه واستَقْدمه عليه ، فورَدَ عليه [٧٧] فى خمسة آلاف ؛ فلقيهم ابن الدّانِشْمند ، وقاتلهم ، فهُزِم بيمُند وأُسِر .

ثمُ وصل من البحر سبعةُ قمامصة من الفرنج ، فأرادُوا خَلَاصَ بيمُند ، فأتَوْا إلى قلعة أنكُورية[٢] فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين ؛ وسارُوا إلى قلعةٍ أخرى فحصَرُوها وفيها إسماعيل بن الدّانِشْمند، فجمع الدّانِشْمند جمعًا كثيرًا ، ولقى الفرنج ، وجعل له كمينًا ؛ فقاتلَهم وخرج عليهم الكمينُ فقتلهم . وكانوا ثلاثمائة ألف لم يُفلت منهم غيرُ ثلاثة آلاف[٣] هربُوا .

وسار ابن الدّانِشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها .

قال ابن الأثير الجزرى : وكانت هذهِ الوقائع فى شهورٍ[٤] قريبة .

قال : ولم يزل بيمُند فى أسْرِه إلى سنة خمسٍ وتسعين ، فأخذ منه مائة

---

(١) مازالت الإشارة هنا إلى ابن الأثير .

(٢) أنكورية : فى وسط شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وهى مدينة أنقرة الحالية ــ معجم البلدان

(٣) الإشارة هنا إلى الجموع الصليبية من اللمبارديين الذين تحركوا فى أواخر سبتمبر ١١٠٠ نحو القسطنطينية ، ثم انضمت إليهم جموع أخرى من الفرنسيين والألمان ، والذين أصروا على محاولة تخليص بوهمند من الأسر قبل الاتجاه إلى الشام ــ انظر تفصيل ذلك فى الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٣٥ وما بعدها .

(٤) الكامل جـ ١٠ ص ٣٠٠ .

ألف دينارٍ وأطلقه[١] .

ذكر قتل كندفرى وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه الفرنج من البلاد وهى : حيفا . وأرسوف . وقيسارية . والرها . وسروج

وفى سنة أربعٍ وتسعين وأربعمائة سار كندفرى صاحب البَيت المقدَّس إلى عكَّا ، فحاصرَها ، فأصابه سهمٌ فقتله[٢] . وكان قد عمَّر مدينة يافا وسلَّمها إلى قمص من الفرنج اسمه طَنْكُرى[٣] . فلما قُتِل كندفرى سار أخوه بغدوين[٤] إلى البيْت المقدَّس فى خمسمائة فارس وراجلٍ ، فبلغ ذلك الملكَ شمس المُلوك دُقاق صاحب دمشق ، فنهض إليه فى عَسْكره ومعه الأمير جناح الدَّولة فى جموعه فقاتله ، فنصر على[٥] الفرنج .

وفى هذه السنة ملك الفرنج مدينة حَيْفا عنوةً وهى على ساحل البحر بالقرب من عكّا ، وملكوا أرسوف بأمانٍ وأخرجوا أهلها منها ، وملكوا قيساريّة بالسيف وقتلوا أهلها . وفيها ملك الفرنج مدينة سَرُوج من ديار الجزيرة ، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرّها بمكاتبة من أهلها لأن أكثر أهلها

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٥ .

(٢) تجمع المصادر العربية على أن جود فرى مات مقتولاً بسهم أصابه أثناء حصار عكا ، بينما تجمع المصادر والمراجع الصليبية على أن جودفرى توفى بالحمى ــ الكامل جـ ١٠ ص ٣٢٤ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ٤٤٠ ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦٦ .

(٣) طنكرى أو تنكرى ، هو المعروف فى المراجع العربية الحديثة باسم تانكرد .

(٤) هو بلدوين صاحب الرها ، والذى توج ملكاً باسم « بلدوين الأول » .

(٥) تشير المصادر الغربية إلى أن المعركة انتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين ... الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٧٥ ، الشرق الأوسط جـ ١ ص ٢٩٢ .

أرمن . فلمّا كان الآن جَمَع الأميرُ سُقْمان بن أُرْتق جمعًا عظيمًا من التّركمان وزحف بهم إليهم ، فلَقُوه وقاتلوه ؛ فهزمُوه فى شهر ربيع الأوّل . فلمّا تمّت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سَرُوج ، فتسلّموها ، وقتلُوا كثيرًا من أهلها وسبَوْا حَرِيمهم ، ونهبوا أموالهم ، ولم يَسْلمَ منهم إلّا من انهزم[١] .

ذكر أخبار صنجيل الفرنجى وما كان منه فى حروبه وحصار طرابلس وألْطُونَان وملك أنطرسوس

وفى سنة خمسٍ وتسعين وأربعمائة لقى صنجيل[٢] الملك قِلِج أرسلان صاحب قُونْية ، وصنجيل فى مائة ألف مقاتل وقِلج فى عددٍ يسير ، واقتتلوا ؛ فانْهزم الفرنج وأُسِر كثير منهم ، وفاز قِلِج بالظَّفر والغنيمة[٣] . ومضى صنجيل مهزومًا فى ثلاثمائة ، فوصل إلى الشام ، فأرسل فخر الملك بن عمّار[٤] صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدّولة[٥] بحمْص وإلى الملك دُقاق بدمشق يقول : من الصَّواب معاجَلَةُ صنجيل إذْ هو فى العدد اليسير .

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ .

(٢) المقصود هو ريموند كونت تولوز ، والمعروف فى المراجع الأوربية باسم
'Raymond of st. Gilles'

(٣) الإشارة هنا إلى الجموع الصليبية اللمباردية التى هزمت فى ذى القعدة ٤٩٥ هـ/أغسطس ١١٠١ م ــ الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٣٨ .

(٤) هو القاضى فخر الملك أبو على بن عمار ، الذى ولى حكم طرابلس فى الفترة من ٤٩٣ ــ ٥٠٢ هـ/١٠٩٩ ـ ١١٠٨ م ــ معجم الأسر الحاكمة .

(٥) « إلى الأمير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص » فى الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٤ .
وجناح الدولة هو حسين بن ملاعب ــ صاحب حمص ، قتل سنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م ــ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

فخرج إليه جناحُ الدّولة بنفسه[١] وسيَّر دُقاق ألفَيْ مقاتل ؛ وأتتْهُم الأمداد من طرابلس . وصافُّوا صنجيل فأخرج مائةً من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وبقى هو [فى][٢] خمسين .

فأما عسكر حمص فانْهزمُوا عند المشاهدة وتَبِعَهُم عسكر دمشق .

وأما عسكر طرابلس فإنهم قَتَلوا المائة الذين قاتلوهم ، فحمل صنجيل فى المائتين الباقيتين ، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل . ونَازَل طرابلس وحَصَرها .

وأتاه أهلُ الجبل فأعانوه على حَصْرها ، هم وأهل السّواد ، لأن أكثرهم نصارى . فقاتَل مَنْ بها أشدّ قتال ، فقُتل من الفرنج ثلاثمائة : ثم هادَنهم ابنُ عمّار على مالٍ وخيل ، فرحَل صنجيل عنهم إلى مدينة أنْطَرْسوس ،[٣] وهى من أعمال طرابلس ، فحصَرَها وفتحها[٤] ، وقَتل مَنْ بها من المسلمين .

ورحل إلى حصن ألْطُوبان[٥] ، ومقدَّمُه ابن العريض ، فقاتَلَهم فنُصر

---

(١) « فخرج الأمير ياخز بنفسه » فى الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٤ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٤ .

(٣) أنطرسوس = أنطرطوس : تقع شرقى عرقة بنحو ٢٤ ميلاً ، وتطل على البحر ـ معجم البلدان .

(٤) تشير المصادر الصليبية إلى أن فتح أنطرسوس كان سابقًا على هذه الفترة ، فقد استولى ريموند على أنطرسوس مرتين فى سنة ١٠٩٩ ، ١١٠٠ م ، واستولى عليها نهائيًا فى فبراير ١١٠٢ م (جمادى الأولى ٤٩٥ هـ) ـ انظر الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٥) الطوبان : حصن من أعمال حمص أو حماة ، إلى الشمال الشرقى من حصن الأكراد ـ معجم البلدان .

عليهم وأسَر فارسًا من أكابر فرسانهم ، فبذَل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك .

ثمّ سار صنجيل إلى حصن الأكْراد[١] فحصره ، فجمع الأمير جناح الدّولة عسكره ليسير إليه ويكبِسَه ، فقتله باطِنيٌّ بالمسجد الجامع . فلما قُتلَ صَبَّح صنجيل حمص من الغد ونَازَ لها ومَلَك أعمالها .

[٧٨] ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا

وفى سنة سبْعٍ وتسعينَ وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاَذِقيّة ، فيها التُّجّار والمُقاتلة والحجَّاج وغيرهم ؛ فاستعان بهم صنجيل الفرنجى على حصار طرابلس فحاصرُوها معه وضايقُوها ، فلم يرَوْا فيها مطمعًا ، فرحلوا عنها إلى مدينة جُبَيل[٢] فحصروها وقاتلُوا عليها قتالاً شديدًا . فلمّا رأى أهلُها عجْزَهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها ، فبذل لهم صنجيل الأمان ، وتسلَّم البلد منهم فلم يَفِ لهم . وأخذ الأفرنج أموالهم وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب . ثم سارُوا إلى عكَّا نجدة لبغدوين ، صاحب القدس ، على حصارها ؛ فنازَلُوها وحصروها فى البر والبحر ، وعليها زهرُ الدّولة[٣] الجيوشى ، فقَاتَلَهم أشدَّ قتال . فلمّا عجز عن حِفْظ البلد فارقه ؛ وملك الفرنج عكَّا بالسّيْف ، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة . وسارُوا منها إلى دمشق ثم إلى مصر .

---

(١) حصن الأكراد : على جبل الجليل فى مواجهة حمص ، بينها وبين بعلبك ــ معجم البلدان .

(٢) جبيل . شمال شرقى بيروت بنحو ٢٤ ميلاً ــ معجم البلدان .

(٣) « وكان الوالى بها اسمه بنا ، ويعرف بزهو الدولة الجيوشى نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل » ــ الكامل جـ ١٠ ص ٣٧٣ .

وفى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أَفَامِية وَسَرْمِين من أعمال حلب .

وفى سنة اثنتين وخمسمائة فتح السردانى[١] عرقة ، وذلك أنّها كانت بيد غلام فخر الملك بن عمّار وقد عَصَى على مولاه ، فضاق به القُوت وانْقَطعت عنه الميرة ، فكاتب طُغُز تكين[٢] صاحب دمشق أن يُرسل إليه مَنْ يتسلّم الحصن لعجزه عن حفظه . فبعث إليه طغز تكين صاحبًا له اسمه إسرائيل فى ثلاثمائة ، فتسلّم الحصن . فلمّا نزل غلام ابن عمّار رماه إسرائيل بسَهْمٍ فقتله فى الاختلاط[٣] طمعًا فى المال الذى بعَرقة لئلا يطّلع طُغز تكن عليه .

قال وأراد طُغزتكين أن يشْحن الحصن بالعساكر والأقوات ، فتوالت الأمطار [والثلج][٤] مدّة شهرين ، فعجز عن ذلك . فلمّا انْقَطع المطر ركب أربعة آلاف فارس وجاءُوا إلى عَرقة ، فتوجّه إليه السّرْدانى وهُو يحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس ، فانهزم عسكر طُغُزتكين عندما أشرفَت الخيل من غير قتالٍ، فأخذ السّردانى أثقالهم وتسلّم الحصن بأمان ، وقبض على إسرائيل ، وقال لا أُطْلقه إلا بفُلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيرًا ، ففُودى به .

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت

كان صنجيل لمّا مَلَك مدينة جبيل ، كما ذكرنا ، حصَر طرابلس ، فلمّا

---

(١) هو المعروف باسم « وليم جوردان » .

(٢) « فأرسل إلى أتابك طغتكين » ـ الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٨ .

(٣) « فى الأخلاط » فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٨ ، والمقصود فى ازدحام الناس .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٨ .

لم يتمكّن منها وعجز عن الاستلاء عليها بنى بالقرب منها حِصْنًا وجعل تحته رَبَضًا ، وأقام يرصُدُها ينتظر فرصة ، فخرج فخر المُلك أبو على بنُ عمّار ، صاحب طرابلس ، فأحْرَق ربضه ؛ فوقف صنجيل على سُقوفه المحترقة ، ومعه جماعة من القامصة والفرسان ، فانخسف بهم . فمرض صنجيل عشرة أيّام ، ومات ، وحُمل إلى القُدْس فدفن هناك . وذلك فى سنة تسعٍ وتسعين وأربعمائة(١) .

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين . فسار فخر الملك ابنُ عمّار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسُّلطان على الفرنج ، على ما ذكرناه ، وعاد من بغداد فى منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبيلة(٢) فدخلها وأطاعه أهلُها .

وأما طرابلس فإن ابنَ عمّار لمّا فارقها راسَل أهلُها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه واليا يكونُ عندهم ومعَهُ الميرة فى البحر ، فسيّر إليهم الأفضلُ شرفَ الدّولة بن أبى الطَّيِّب واليًا ، ومعه الغلال وغيرها . فلمّا صار إليها قبض على جماعةٍ من أهل ابن عمّار واستولى على ما وجده من أمواله وذخائره(٣) .

فلمّا كان فى شعبان سنه ثلاثٍ وخمسمائة وصل أسْطُول كبير من بلد

---

(١) ٢٨ فبراير ١١٠٥ م ــ الشرق الأوسط جـ ١ ص ٤٣٦ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٢) جبيلة = جبلة : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية ــ معجم البلدان ، وانظر ما يلى عن فتح جبلة .

(٣) انظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٤٢ .

الفرنج ، مقدَّمه قمص كبير اسمه ريمُند بن صنجيل[١]، ومراكبهُ مشحونة بالرِّجال والسلاح والميرة وليس ريمُند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن[٢] المقدم ذكره . فنزل على طرابلس وكان السَّردانى وهو ابن اخت صنجيل محاصرًا لها قبله ، فجرت بينهما فتنةٌ أدَّت إلى الشرِّ والقتال فوصل تنكرى صاحب أنطاكيّة إليها إعَانةً للسّردانِى ، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدّس فى عسكره ، فأصْلح بينهم[٣] ونزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها ، وذلك [٧٩] فى شعبان ، والْصَقوا أبراجهم بسُورها . فلمَّا شاهد الجند وأهلُ البلد ذلك سُقِطَ فى أيديهم ، وذلَّت نفُوسهم ، وزادهم ضعفًا . فتأخر الأسطولُ المصرىّ عنهم بالميرة والنّجدة ؛ ودَاوَم الفرنج القتال والزَّحف إلى أنْ ملكوا البلد عَنْوة ؛ وذلك فى يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلةً خلت من ذى الحجة ، سنة ثلاثٍ وخمسمائة[٤] ونَهَبُوا ما فيها ، وأسَرُوا الرجال ، وسبَوْا النّساء والذّرّية ، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة

---

(١) « ريمند بن صنجيل » هكذا فى الأصل ، والكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ ، واتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٤٣ ، وغيرهم .

والمقصود برترام (برتراند) الابن الأكبر لريمند كونت تولوز الصنجيلى .
"Bertram, a son of Raymond of Toulouse"

(٢) هكذا فى الأصل ، وهو تحريف ــ انظر الهامش السابق .

وانظر الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ حيث يوجد خلط مماثل .

(٣) تم الاتفاق على تقسيم إرث ريموند كونت تولوز بينهما ، فيحتفظ وليم جوردان بأنطرطوس وما فتحه من البلاد مثل عرقة ، وأن يكون نصيب برترام جبيل وطرابلس عقب الاستيلاء عليها ، وعلى أن يتوارث كل منهما إذا مات دون وارث ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١١٢ .

(٤) دخل الصليبيون طرابلس فى ١٢ يولية ١١٠٩ م ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١١٣ .

وكُتُب العلم الموقوفة ما لا يُحد ولا يُوصف .

وكانت طرابلس من أعظم البلاد وأهلُها من أكثر الناس أموالاً .

وسلِم الوالى الذى كان بها وجماعةٌ من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها ، فوصلوا إلى دمشق ؛ وعاقب الفرنج أهلَ طرابلس بأنواع العقوبات ، وأُخِذت دفائِنُهُم وذخائِرهم[1] .

ووصل الأسطول المصرى بالرجال والغلال وغيرها ، ما يكفيهم سنة ، وكان وصول الأسطول إليها بعْدَ أنْ مُلِكت بثمانية أيام ؛ ففُرِّق ما فى الأسطول على الجهات المجاورة لها : صُور وصَيْدا وبيروت .

ذكر ملك الفرنج جبلة وبُلُنْيَاس

قال : ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكرى صاحب أنطاكية إلى بُلُنْيَاس[2] فافتتحها وأمَّن أهلها ؛ ونزل على مدينة جبلة[3] وبها فخر الملك ابن عَمّار ، وكان القُوتُ قدْ قلَّ بها ، فقاتل مَنْ بها إلى أنْ ملكها فى الثانى والعشرين من ذى الحجة بالأمان .

وخَرج فخر الملك ابنُ عَمَّار وقصد شَيْزَر ، فأكرمه صاحبُها الأمير سُلطان ابن علىّ بن مُنقذ الكنانى . ثمّ سار إلى دمشق فأكرمه طُغْتكين

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦ .

(٢) بلنياس : بضمتين وسكون النون ، وياء وألف وسين مهملة : كورة ومدينة صغيرة وحصن بساحل حمص على البحر ــ معجم البلدان .

وردت « بانياس » فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٦ .

(٣) انظر ما سبق عن جبيلة وجبلة .

صاحبها ، وأجزل له فى العطيّة وأقطعه أعمال الزَّبَدانى ؛ وذلك فى المحرم سنة أربعٍ وخمسمائة[١] .

ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفى جُمادى الأولى[٢] سنة أربعٍ وخمسمائة ملك الفرنج مدينة صَيْدا ، وكانت من جُملة ما هو بيد طُغُرتكين صاحب دمشق . وذلك أنّه وصل فى البحر ستُّون مركبًا للفرنج مشحونة بالرّجال والذَّخائر مع بعض ملوكهم[٣] ، لِيحُجَّ إلى القدس ويغزو[٤] المسلمين بِزَعْمه ؛ فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرّر معه الغَزْو فنَزلُوا[٥] على مدينة صيدا فى ثالث شهر ربيع الآخر ، وضايقوها فى البرّ والبحر ، ومنَعوا الأُسطول المصرىّ من الوصول إليها ، وكان بساحل مدينة صُور . فعمل الفرنج بُرْجًا من الخشب وأحكموه ، وجعلُوا عليه ما يمنع النَّار والحجارة عنه ، وزحفوا به . فلمّا عَايَن أهلُ صيدا ذلك ضعُفَت نفُوسهم وأشفقوا أنْ يصيبَهم مثلُ ما أصاب أهلَ بيروت ؛ فأرسلوا قاضيها ومعه جَماعةٌ من شُيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان ، فأمَّنهم على نفوسهم وأمْوالهم والعسكر الّذى عندهَم ، ومَنْ أراد المُقام بها[٦] عندهم أمَّنوه ،

---

(١) « سنة اثنتين وخمسمائة » فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٧ ، وهو تحريف لا يتفق وسير الأحداث .

(٢) « فى ربيع الآخر » فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٩ .

(٣) هو سيجورد ملك النرويج ، الذى اشترك فى حصار صيدا فى أكتوبر ١١١٠ م ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٤) « ويقرو » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٩ .

(٥) « فنزلا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق من الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٩ .

(٦) [بها] إضافة من الكامل جـ ١٠ ص ٤٨٠ .

ومَنْ أراد المسيرَ عنهم لا يمنعونه ؛ وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالى وجماعةٌ كثيرة معه تحت الأمان ؛ وكانت مدَّة الحصار سبعة وأربعينَ يومًا .

ورحل بغدوين عنها إلى القدس ، ثمّ عاد إليها بعد مدَّة يسيرة يُقرِّر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار ، فاسْتغرَقَ أموالَهُم وأفقرَهم .

ذكر استيلائهم على حصن[1] الأثارب وحصن زردنا

وفى سنة أربعٍ وخمسمائة جمع صاحبُ أنطاكيّة الفارسَ والرّاجل ، وسار إلى حصن الأَثَارِب ، وهو على ثلاثِ فراسخ من حلب ، فحصره ومَنَع الميرة عَمَّن فيه ؛ فضاق الأمر عليهم . فنَقَب المسلمون من القلْعَة نَقْبًا وقصدُوا أنْ يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكيّة فيقتلُوه . فلمَّا فعلوا ذلك استأْمَن إليه صبىٌّ أرمنىّ فعرّفه الحال ، فاحتاط لنفسه واحترز ؛ وجَدَّ فى قتالهم حتى ملك الحصن عَنوة ، وقتل مِنْ أهله ألفى رجل[2] وسبى .

ثم سار إلى حصن زردنا[3] ، فحصره وفتحه ، وفعل باهله مثل ذلك . فلمّا سمع بذلك أهلُ مَنْبج فارقُوها خوفًا من الفرنج ، وكذلك أهلُ بَالِس[4] ، فطلب أهل الشّام الهدنة ، فامتنع الفرنج ثمّ أجابوا . فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنتين [٨٠] وثلاثين ألف دينار ، وخيولٍ وثيابٍ ، وصالحهم ابنُ منقذ صاحبُ شَيْزَر على أربعة آلاف دينار ،

---

(١) « حصين » فى الأصل ، وهو تحريف .

(٢) الكامل جـ ١٠ ص ٤٨١ .

(٣) زردنا : بليدة صغيرة غربى حلب ــ معجم البلدان .

(٤) بالس : بين حلب والرقة ــ معجم البلدان .

وصالحهم علىّ الكردى صاحب حماة على ألفى دينار . وكانت عِدَةُ الهُدنة إلى إدراك الْمُغَلّ وحصاده[١] . ثمّ جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضًا .

ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيلاءُ الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، على مدينة صُور فى الثالث والعشرين من جُمادى الأولى سنة ثمانى عشرة وخمسمائة . وكان ابتداءُ الحصار فى سنة خمس وخمسمائة ؛ وذلك أن الفرنج فى هذه السّنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القُدْس على حصارها ، وكانت إذ ذاك بيد نُوّاب الآمر بأحكام الله[٢] وبها مِنْ قِبَلِهِ عزّ الملك الأعز ، فحصرُوها فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السّنة ، وعمِلوا ثلاثَة أبراج من الخشب عُلُوُّ البُرْج سبعون ذراعًا فى كلّ بُرج ألفُ رجل ؛ ونصبُوا عليها المجانيق . وألْصقُوا أحدَ الأبْراج بسُور صور ، فجمَعَ عزّ المُلك أهْلَ البلد واستشارهم فى حيلة يدفعونَ بها شرَّ الأبراج . فقام شيخٌ من أهلِ طرابلس وضَمِن إحراقها ، وأخذ ألفَ رجلٍ بالسّلاح التام ، ومعَ كلّ رجلٍ حُزمة حطب ؛ فقاتلوا الفرنج حتّى وصلوا إلى البُرج الملتصق بالسُّور وألقَوْا الحطَب من جِهاته ، وأشعلوا فيه النار . ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين فى الأبراج بإطفاء النّار ، فرماهم بجِرَارٍ مملوءة بالعُذْرة كان قد أعدّها لهم فلمّا سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهُم من الرّائحة الكرهة ،

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٤٨٢ .

(٢) الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله أبو على المنصور الذى ولى الخلافة الفاطمية بالقاهرة فى الفترة من ٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ/١١٠١ ـ ١١٣٠ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣٣ ، وانظر ما يلى .

فتمكّنت النار من البُرج . وأحرق المسلمون البرجين [الآخرين] (١) أيضا .

وكاتب عزُّ الملك طُغْتِكين ، صاحبَ دمشق ، فأنْجَده بالرّجال ، وأرسل أصحابه للإغارة على بلاد الفرنج ، فرجعوا مِنْ حصار مدينة صُور فى شوّال من السّنة .

ثم عادُوا فى سنة ستٍّ وخمسمائة إلى الحصار ، وضايقوا البلد ، فأرسل أهلُ صور إلى طُغْتِكين صاحب دمشق يطلبون منهَ أن يرسل إليهم من جهته مَنْ يتولّى أمرهم ويحميهم ، وتكون البلد له . فسيّر إليهم عسكرًا ، وجعل عندهم واليًا اسمه مسعود ، وكان شهمًا شجاعًا عَارفًا بالحرب ومكايدها ، وأمدّه بالعساكر والميرة ؛ فطابت قُلوب أهل البلد . ولم يَقْطع خطبة الآمر بأحكام الله ولا غَيَّر سِكَّته ؛ وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يُعرِّفُه ما عمِل ويقول : متى وصل مِنْ مصر مَنْ يتولّاها ويذُبّ عنها سلّمتها إليه ؛ وطلب منهم ألّا ينقطع الأُسطول عنها بالرّجال والميرة . فأجابه الأفضل إلى ذلك ، وشكره على ما فعل ، وجهّز أسْطولاً إليها ، فاستقامت أحوال أهلها .

ولم يزل كذلك إلى سنة ستّ عشرة وخمسمائة ، بعد قتل الأفضل أمير الجيوش . وذلك أن المأمون بن البطائِحى لمّا وَلِى إمرة الجيوش بعد قَتْل الأفضل سيرَّ إلى مدينة صور أسطولاً على العادة ، وأمَرَ المقدَّم عليه أن يُعْمِل الحيلة على الأمير مسعود ، الوالى من قبل طُغْتِكين ، ويقبض عليه ، ويتسلم البلد منه . وكان سبب ذلك أنّ أهل صور شكَوْا منه إلى الآمر بأحكام الله . فلمَّا وصل الأُسطول وجاء الأمير مسعودٌ ليُسلِّم على المقدَّم قبض المقدَّمُ عليه

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

واعتقله ، وحمله إلى الآمر ؛ فأكرمه وأعاده إلى صاحبه بدمشق . واستَوْلى مقدَّم الأُسطول على مدينة صور ، ورَاسَل الأمير طُغُزتكين بالخدمة ، واعتذر إليه ، فقبل عذره[1] ، ووعده المساعدة .

فلمَّا سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قَوِىَ طمعُهم فيها ، وشرعوا فى الجَمْع ؛ واتَّصَل خبرهُم بواليها ، فعلم أنّه لا قُوّة له ولا طاقة بهم ، لِقلَّةِ مَنْ بها من الجند والميرة ، وأرسل إلى الآمر بذلك ؛ فرأى أن يُردَّ ولاية صور إلى طُغُزتكين ، فأرسل إليه بذلك ، فملكها ورتَّب بها الجند وغيرهم .

وسار الفرنج إلى صور ، ونازَلُوها فى شهر ربيع الأول سنة ثمانى عشرة ، وضيَّقوا عليها ولازموا القتال ؛ فقلَّت الأَقوات ، وسَئِمَ مَنْ بها القتال ، وضعفت نفوسُهم . وسار طُغُزتكين إلى بانياس ليقرُب منهم ويذُبَّ عن البلد ، وأرسل إلى الآمر يستنجده ، فلم ينجده ؛ وأشرف أهلُها على الهلاك . فحينئذٍ رَاسَل طُغُزْتكين الفرنج على أن يسلِّم إليهم البلد ويمكِّنوا مَنْ بها من الجند والرَّعية من الخروج بما قَدَرُوا عليه من أموالهم وغيرها فاستقرَّت القاعدةُ على ذلك ، وفُتحت أبوابُ البلد ، وفارقه أهله ، وحملوا ما أطَاقوا وتفرّقوُا فى البلاد ، ولم يتعرّض الفرنج إليهم . وملك الفرنج البلد فى التّاريخ [٨١] الذى قدّمناه ، ولم يَبْقَ بصور إلّا ضعيفٌ عاجز عن الحركة[2] .

وفى سنة ثلاثٍ وعشرين وخمسمائة ملك الفرنج حصن القدموس[3] من المسلمين ، وملكوا بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلى ورَغْبَتِه فى ذلك ،

---

(١) « فاعتذر إليه وقبل عذره » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) انظر الكامل جـ ١٠ ص ٦٢٠ ــ ٦٢٢ .

(٣) القدموس : من حصون الاسماعيلية ــ انظر ما يلى ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٥٩ ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٧٩ .

وانضمامه إلى الفرنج ، على ما قدّمنا ذكره[١] فى أخبار تاج الملوك طُغْتكين صاحب دمشق .

هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية . فلْنَرجع إلى أخبار الدُّولة العُبَيْدِيَّة .

ذكر وفاة المستعلى بالله

كانت وفاتُه فى يوم الثّلاثاء لثلاثَ عشرةَ بقيتْ من صفر[٢] سنة خمس وتسعين وأربعمائة .

ومولدُه لعشرٍ بقينَ من المحرّم سنة سبعٍ وستين[٣] وأربعمائة ؛ وكان عمرُه ثمانيا وعشرين سنة[٤] وثمانيةً وعشرين يومًا .

ومدّةُ ولايته سبعَ سنين وشهرًا واحدًا وثمانيةً وعشرين يومًا .

ولم تكن لهَ سيرة تُذكر ، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش ، لم يكُن للمستعلى مَعَه من الأمر إلّا الاسمُ ، والرَّسم للأفضل .

---

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٨٠ .

(٢) يوجد اختلاف فى تاريخ وفاته ، فهو ٢٧ صفر فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٥٣ ، ٩ صفر فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٣ ، ١٣ صفر فى أخبار الدول المنقطعة ص ٨٥ .

(٣) يوجد اختلاف أيضًا فى تاريخ ميلاده ، فهو ١٨ محرم ٤٦٨ هـ فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧ ، ١٠ محرم ٤٦٨ هـ فى المنتقى من أخبار مصر ص ٦٩ ، وفى وفيات الأعيان سنة ٤٦٩ هـ ، جـ ١ ص ١٨٠ .

ولا يتفق مع النويرى إلا ابن ظافر — انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٨٥ .

(٤) يوجد اختلاف فى عمره تبعًا للاختلاف فى تاريخ ميلاده ، وتاريخ وفاته انظر الهوامش السابقة .

وكان للمستعلى من الأولاد أبو على المنصُور ، وجعفر ، وعبد الصّمد .

وزيرُه الأفضل أمير الجيوش .

قضاته : أبو الحسن بن الكحّال النابلسى ، ثم أعَادَ بن عبد الحاكم ، ثم أبو طاهر محمد بن رجاء ، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسى .

ذكر بيعة الآمر بأحكام الله

هو أبو على المنصور بنُ المستعلى بالله ، وهو العاشر من ملوك الدّولة العُبَيْديَّة والسّابع من مُلوك الدّيار المصريّة منهم .

قال المؤرخ : لمّا مات المستعلى بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولدَه أبا على هذا على سرير الخلافة ، وذلك فى يوم الثّلاثاء لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقيت من صفر سنة خمسٍ وتسعين وأربعمائة ، وبايع له النّاس ولقّبه بالآمر بأحكام الله وله من العمر خمسُ سنين وشهرٌ واحدٌ وأيام .

قال : ودبّر الأفضل الأمر على ما كان عليه فى أيام أبيه المستعلى[1] .

وفى سنة خمسمائة بنى الأفضل أمير الجيوش الدّار المعروفة بدار الملك[2] على شاطئ النيل بمصر ، وكمُلت عمارتُها فى سنة إحدى وخمسمائة ، وسكنها .

---

(١) ينقل النويرى عن ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٨٧ .

(٢) دار الملك : يقول المقريزى : هى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ، ابتدأ فى بنائها وإنشائها فى سنة إحدى وخمسمائة ، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة ، وسكنها ، وحول إليها الدواوين من القصر فصارت بها ، وجعل فيها الأسمطة واتخذ بها مجلسًا سماه مجلس العطايا ، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء » المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٨٣ .

ومدحه الشُّعراء . فمن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربى من قصيدة جاء منها :

دارٌ هى الفلك الأعلى، وأنت بها شمس الضُّحى، وبَنُوكَ الأنجمُ الزّهر

ودار الملك هذه هى دار الوكالة الآن[١] ؛ وكان موضعَها أخصاص موقوفةٌ على الأشراف ، فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرّياع السّلطانية .

ذكر إنشاء ديوان التحقيق

وفى سنة إحدى وخمسمائة جدّد الأفضل ديوانًا وسمّاه ديوان التحقيق[٢] ، واستخدم فيه أبا البركات يوحَنّا بن أبى اللّيث النّصرانى ؛ وبقى فيه إلى أن قُتل فى سنة ثمانٍ وعشرين[٣] . واستمرّ هذا الديوان إلى أن انقرضت الدّولة العبيديّة وانقطع ، ثم أعاده السّلطان الملك الكاملُ بن الملك العادل فى سنة أربعٍ وعشرين ، واستخدم فيه أبو كُوجك[٤] اليهودى . ثمّ أُبطل فى سنة ستٍّ وعشرين وستمائة فلم يعُدْ . واستُخدِم فى أيام السلطانِ

(١) « ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة » ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٨٣ .

(٢) كانت وظيفة هذا الديوان هى المقابلة على سائر الدواوين ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٩ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٠١ .

(٣) « ثمان عشرة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٩ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٠

(٤) « ابن كوجك » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٧٧ .

الملكِ المعِزّ أيبك صفىُّ الدّين عبدالله بن على المغربى فى استيفاء مقابلة الدواوين ، وهو نوع منه[١] .

ذكر حل الإقطاعات وتحويل السنة

وفى سنة إحدى وخمسمائة كثُرت شكاوَى الأجناد وطوائف العساكر المصريّة بسبب إقطاعاتهم ، وأنّها خرِبت وقَلَّ ارتفاعُها ، وأنّها لا تقوم ببَعْض كُلَفهم ، وأن الإقطاعات الّتى بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع . فأحضر الأفضل محمد [٨٢] بن فاتك البطائِحى[٢] ، وهو وزيرُه وأستاذ داره ، واستشاره فيما يفعل فى ذلك ؛ فأشار عليه بحلِّ جميع الإقطاعات التى بيد الأمراء وغيرهم ، وأن يجمع الأمراء والطّوائف للمزايدة فيها . فاتّفق الرأى على ذلك .

وأحضر الأمراء والأجناد فى دار الوزارة ، وتحدّث معهم فى ذلك ؛ فقال الأمراء : لنا فى إقطاعاتنا أملاكٌ وبساتين ومعاصر وغيرها . فقال الأفضل : الأملاك لـمُلَّاكها على حالها يتصرّفون فيها بالبيع والإيجار .

ثم حلَّ الإقطاعات ووقعت الزّيادة فيها ، وتميّز لكلٍّ منهم إقطاعٌ ، وكتبت المناشير بذلك . ثم شكى إليه كثرة عبرة البلاد[٣] وأنّ متحصّلَها لا يَفِى بالعبرة .

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) انظر الإشارة ص ٦٢ ـ ٦٤ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٨٨ ، الوافى بالوفيات جـ ٤ ص ٣١٣ ومابعدها ، وانظر أيضًا نصوص من أخبار مصر ص ٣ هامش ٢ .

(٣) العبرة : يقصد بها مقدار الضرائب (الخراج والأموال) المقررة على كل إقطاع ـ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٨١ وما بعدها .

وحَصَل للديوان ضياعٌ مفردة [١] عبرتُها خمسون ألف دينار فى كلِّ سنة .

ونُقلت السّنة الشمسية الخَراجيّة إلى الهلاليّة ؛ وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية وسنة سبعٍ وتسعين وأربعمائة الخراجيّة فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة [٢] .

ذكر أخذ الفرما وهلاك بغدوين الفرنجى صاحب القدس

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة [٣] أغار بغدوين ملك الفرنج على الفرما [٤] وقَتَل جميع مَنْ بها ، وأحرق جامعَها ومساجدَها ، وذلك بعد أن حاصرها أيامًا والفرما كانت بلدة بين القصير والغرابى من منازل الرّمل ، وهى الآن خراب . وقصد بغدوين مِصْر فرحل عن الفرما . ورجع إلى البيت

---

(١) « وحصل لديوان السلطان ضياع مفردة » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٤٠ ، وانظر أيضًا نصوص من أخبار مصر ص ٩ ـ ١٠ .

(٢) عن تحويل السنة الخراجية الشمسية إلى الهلالية انظر صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٥٤ ـ ٦٠ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٢٧٣ ـ ٢٨٥ .

(٣) « وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وقيل فى سنة أربع عشرة » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٥٦ ، والكامل جـ ١٠ ص ٥٤٣ ، وكنز الدرر جـ ٦ ص ٤٨٠ .
وهو ما يتفق مع المصادر والمراجع الصليبية التى تذكر وفاته فى ٢ إبريل ١١١٨ م ، وهو يوافق ٨ ذو الحجة ٥١١ هـ ، فقد ذكر ابن الأثير « فى ذى الحجة من سنة إحدى عشرة وخمسمائة توفى بغدوين ملك القدس » ـ الكامل جـ ١٠ ص ٥٤٣ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١٧٢ .

(٤) الفرما : مدينة على الساحل شرقى تنيس ، على بعد ٢٣ كم شرقى محطة الطينة الواقعة على السكة الحديد بين بور سعيد والاسماعيلية ـ معجم البلدان ، القاموس الجغرافى ق ١ جـ ١ ص ٩٢ .

المقدّس ، وهو مثقل بالمرض ، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش . فشقّ الفرنج بطنه وألقوا مصارينه هناك ، فهى تُرْجم إلى وقتنا هذا ، ودخلوا بجثته ، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس .

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة رُتِّب ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة ، ونظر الحسبة وظلم وعسف ؛ وهو الّذى بنى المسجد بسوق الخيل المعروف : بالذّخيرة ، ومسجد « لَا بالله »[1] ، وسببُ تسميته بذلك أنّه كان يَقْبض النّاس من الطّريق ويَعْسِفهم ، فيقولون له : لا بالله ، فيقيّدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة . ولم يعمل فيه صانعٌ إلّا وهو مكره مقيَّد . فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراضٍ شديدة ، ولمّا مات تجنّب النّاس الصلاة عليه وتشييعه .

ذكر نهب ثغر عيذاب

وفى سنة ثنتى عشرة وخمسمائة عمّر الشريف أبو محمد قاسم بن أبى هاشم[2] ، أمير مكة ، مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيّرهم إلى عيذاب[3] ، فنهبوا مراكب التّجار وقتلوا جماعةً منهم . فحضر من سَلِم من

---

(١) كان بخارج القاهرة فى موضع الميدان أسفل القلعة . المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١١ .

(٢) هو قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم ، المتوفى سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ م أو سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م ــ العقد الثمين جـ ٧ ص ٢٨ رقم ٢٣٢٤ ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٣ .

(٣) عيذاب : ميناء صغير على البحر الأحمر ، تصل إليه المراكب القادمة من عدن والحبشة والهند إلى صعيد مصر ، كما كانت على طريق الحج المصرى ، يسير إليها الحجاج من مدينة قوص بصعيد مصر ــ معجم البلدان .

التجار إلى باب الأفضل وشكَوْا ما حلّ بهم فأمر بعمارة حَرَاريق[١] لجهِّزَها ، ومنع الناس أنْ يحجّوا فى سنة أربع عشرة ، وقطَع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار . وكان الأفضل قدْ كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم ، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر ، والتزم بردِّ المال إلى أربابه ، ومن قُتِل من التّجار فماله لورثته . وأعاد الأموال فى سنة خمس عشرة[٢] .

ذكر مقتل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالى وشىء من أخباره

كان مقتله فى يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وقد ركب من دار المُلك بمصر فقُتل عند كرسى الجسر[٣] ، تلة الباطنية . قيل بمواطأة من الآمر لأنه كان قد ضاق منه لتحكُّمِه عليه ومنعه من شهواته ، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام ، فمنعه أبو الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم ، ابن عمه ، وقال : إنّ هذا الأمر فيه من قُبح الأُحدوثة وسوء الشّناعة ما لا تحمد عاقبتُه ، لأنّ هذا الرجل ما عُرف له ولا لأبيه إلّا المودّة فى خدمة هذا البيت والذّب عنه ، وإن قتلناه غيلَةً لا غُنْيَة أن

---

(١) حراقة ــ حراقات ، وحراريق : نوع من السفن الحربية التى ترى بالنيران ــ معجم السفن الإسلامية ص ٣٢ .

(٢) العقد الثمين جـ ٧ ص ٢٩ .

(٣) كرسى الجسر : بالفسطاط ، فى الطريق إلى رحبة الملاحين التى تقع أمام فندق تقى الدين المعروف بسكن الكارم ــ الانتصار ق ٤ ص ٣٥ .

نولّى منصبه لغيره ، فيكون المتولّى بعده على وجلٍ واحتراس . وإنمّا الرأى أنْ ندبّر عليه . فدبّر عليه حتى قتل . هذا أحد الأقوال فى قتله .

قال : ولما وثب الباطنية عليه ضُرِب ثمانى ضربات ، فمات لوقته ، وحُمِل على أيدى مقدَّمى ركابه ، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكّنون أحدًا من الدنُوِّ منه ، وهم [٨٣] يبشرون النّاس بسلامته ، حتى وضعوه على سريره وغُطّى . ونفّذ المأمون أخاه حَيْدرة إلى الآمر يقول له : أدْركنى وتسلّم ملكك لئلا أُغلبَ عليه أنا وأنت ؛ وأوصاه أن يُهنّئ من وَجَدِه بسلامة الأفضل . ففعل حيدرةُ ذلك ، وهنّأ حَرَم الأفضل وغيرهم . فعزم أولادُه على إثارة فتْنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالى ؛ فأمر الآمر بحمْل أولاد الأفضل إلى الإعتقال بخزانة البُنود ، فحُملوا إليها ، وبات الأمر بدار الملك .

قال : وكان الأفضل حسن الاعتقاد فى مذهب السنّة ، جميل السيّرة ، مؤثرًا للعَدل ، صائب الرأى والتّدبير ، حَسَن الهّمة ، كريم النّفس ، صادق الحديث .

ونال النّاس بعد قَتْل الأفضل من الظُّلم والجَور والعسف مَا لَا يُعبَّر عنه . فجاء النّاسُ إلى باب الآمر واستغاثوا ، ولعنوا الأفضل وسبُّوه أقبح سبّ ؛ فخرج إليهم الخدم وقالوا : مولانا يُسلِّم عليكم ويقول لكم : ما السّبب فى سبِّ الأفضل وقد كان قد أحْسَن إليكم وعَدَل فيكم ؟ فقالوا : إنّه عَدَل وتصدَّق وحَسُنت آثارُه ، ففارقْنا بلادَنا حُبًّا لأيّامه ، وأقمنا فى بلده ، فحصل بعده هذا الجورُ ؛ فهُو السّببُ فى خروجنا عن أوْطاننا واستقرارنا ببلده .

قال المؤرخ : لما قُتل الأفضل أحضر الآمر وزيرَه الشيخ أبا الحسن على الحلبى والقائدَ أبا عبد الله محمدًا وسألهما عن الأموال ، فقال القائد : أمّا السّر فأعلمه وأمّا الظاهر فالوزير يعلمه ؛ وأخْبراهُ بذخائره وأمواله . وأقام الآمر فى دور الأفضل ، وهى دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة ، وغيرهما ، أربعين يومًا ، والكُتّاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور ؛ فَوُجِد لهُ من الذّخائر النفيسة ما لا يحصى[1] .

وذكر أن الذى وُجِدَ له من الأموال ستّة آلاف ألف دينار عينًا ؛ وفى بيت الخاصّة ثلاثة آلاف ألف دينار ، وفى البيت البرّانى ثلاثة آلاف [ألف][2] ومائتان وخمسون دينارًا ، وخمسون أردبا دراهم [ورق][3] وثلاثون راحلةً من الذّهب العراقى المغزول برَسْم الرّقم ؛ وعشرة بيوت فى كلّ بيت منها عشرة مسامير من الذهب[4] ، زنة كلّ مسمار مائتا مثقال ، عليها العمائم المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة ، وتسعمائة ثوب من الدّيباج الملوّن ، وخمسمائة صُندوق من دقّ دمياط وتنيس برَسْم كسوة جسده ، ولعبة من العنبر على قدر جسده برَسْم ثيابه توضع ثيابُه عليها لتكتسب رائحتها . وتَرَك من الطِّيب والآلات والنُّحاس ما لايحصى . وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار فى السنة . وكانت الدَّوَاة التى يكتب منها مرصَّعةً بالجواهر ، فقُوِّم ما عليها من الجواهر باثنى عشر ألف دينار . وخلّف من الكتب

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ٧٩ .

(٢) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٠ ، واتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ .

(٣) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٠ ، واتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ .

(٤) كانت هذه المسامير تستخدم كمشاجب تعلق عليها العمائم ــ انظر ما يلى .

خمسمائة ألف مجلد[١]

وحكى القاضى زكىّ الدين أبو زكريّا يحيى بن على الدّمشقى فى تاريخه عما خلّفه الأفضل فقال : خلّف . جملةً لم يُسمع أنّ أحدًا من الملوك والخُلفاء فى هذا الزّمان جمع مثله ولا ادّخر مثل بعضه : وأن الآمر بأحكام الله شرع فى حمل ما فى دُورِه إلى القصر ، فحُمل على عدّةٍ كثيرةٍ من الجمال والبغال ، ونُقل فى شهرين وأيّام .

قال : وحكى الدينبلى التاجر الآمدى أن مُتولّى الخزانة بالقصور ذكر له جُمَلاً ممّا حمَل من موجوده فى الدّار ، منها ستّة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار ، ومن الورِق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار ، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق[٢] ، ومن الآلات مثل أتوار واصطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادى وقدور وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لا يحصى كثيرةً ؛ وبرانى[٣] صينى كبار ؛ وعيبات مملوءة جواهر ، ومن أصناف الدّيباج والعتابى وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن مملوءة صناديقَ كلُّها من الدّبيقى والشرب استعمال تنيس ودمياط ، وخزانة الطّيب مملوءة أسفاطا ، وعود ، وبرانى مسك ونوافج ، وبرانى زجاج مملوءة من

---

(١) عن تركة الافضل انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ وما بعدها ، المنتقى من أخبار مصر ص ٨٠ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٩١ ــ ٩٢ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٨٦ ــ ٤٨٧ ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٥١ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٢ ، وانظر هامش ٢٨٩ من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٠ .

(٢) « طوق » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ .

(٣) برانى ــ برنية : إناء من الخزف اللامع أو من الصينى .

الكافور القنصورى ، غير مصاعد ، ومن العنبر ما لا يحصى كثرة (١).

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صُوَرُ ثمانى جوارى متقابلات ، أربع منهُنّ بيض من كافور ، وأربع سود من عنبر ، قيام فى المجلس ، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلى وأحسن الجواهر ، فكان إذا دخل باب المجلس نَكَّسْنَ رُءوسَهنّ خدمةً له ، فإذا جَلَس فى صدر المجلس استوَيْن قائماتٍ . ووُجِد له من المقاطع والسُّتور ، والدّيباج والدّبيقى الحريرى ، والذهب ، والفرش ، والمخادّ والمساند على اختلاف أجناسها ، كلُّ حجرة مملوءة من ذلك ، وعدّة صناديق مملوءة حقاقَ ذهبٍ عراقىّ بِرَسْم الاستعمال . ووُجد له ثمانمائة جارية [٨٤] منهن حَظايا خمسٌ وستون ، لكلٍّ جارية حجرة وخِزانة مملوءةٌ من الكساوَى والآلات الدّيباج والذّهب والفضة . ومن كل صنف .

قال الخازن : هذا ما حَضَرنى حِفظُه ممّا فى داره.وأما ما كان فى مخازنه وتحت يدِ عُمّاله وجُبَاته وضُمَّانِ النّواحى فما لا يحصى كثرة ، من الأموال والغلال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والأخشاب وغير ذلك . وكلُّ نوع منه ما يجاوز الحدّ والإحصاء ، ولا يمكن تحرير حسابه إلّا فى المدّة الطويلة (٣).

وأمّا العُدد والخيول والسلاح والبقر والغنم والخيام ، فقال الخازن لم تتحرّر

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٨٢ .

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٨٣ .

لكثرتها . وقال حُمِل من داره أربعة آلاف بساط ، وستّون حمل[١] طنافس ، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار ، وخمسمائة قطعة مُحكم ، وألف عِدْل من متاع اليمن والإسكندرية والغرب ، وسبعة آلاف مركب [٢] من أصنافها .

وأمّا ما عمّره من المساجد فمنها : جامع الفيلة[٣] ، وقيل إنّه لم يكمله . وحكى الشريف محمّد بن أسعد الجوانى فى كتابه المترجم بالنقط فى ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل فى سنة ثمانٍ وتسعين وأربعمائة ، وأنّ الأفضل مات ولم يكمِّله فكمَّلَه المأمون فى وزارته ، ووَلّى خطابته الشّريف أمين الدّولة أبا جعفر ، محمد بن محمد بن هبة الله الحسينى الطرابلسى النّسابة ، وأمَر أنْ يَحْضُر جميع وُجوه الدّولة والرؤساء فى أوّل جمعة ، فحضروا . فلمّا رَقِى الشّريف المنبر قال : « الحمد لله » ، وأُرتج عليه ودهش ، فلم يَزَل يكرّرها إلى أن أضْجَرَ النّاس ، ونزل وقد هُمَّ ، ومضى إلى داره ، فاعتلَّ ومات فى سنة سبع عشرة وخمسمائة . ومنها المسجد الّذى على جبل المقطّم . وبنى فى جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية[٤] والمئذنة المستجدة [به أيضًا] [٥] وجامعَ الجيزة . وغير ذلك . وهو الّذى أنشأ التّاج والخمسة وجوه .

---

(١) هكذا فى الأصل ، وفى اتعاظ الحنفا ، « وسور حمل » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٨٣ .

(٢) « وتسعة آلاف سرج » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧١ ، و « سبعة آلاف مركب يعنى سرج » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٨٣ .

(٣) مسجد الفيلة : كان يطل على بركة الحبش ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠.

(٤) « السعيدة » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٥ .

(٥) [ ] إضافة للتوضيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٥ ، وعن مآذن جامع عمرو بن العاص انظر صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ ، الانتصار ق ٤ ص ٦١ .

قال ناظم سيرة المأمون : وعمل الأفضل خيمةً سماها خيمة الفَرَج ، ثم سُمِّيت بالقَاتُول لأنها كانت إذا نُصبت يموتُ تحتها من الفرّاشين رجلٌ أو رجلان (١) . اشتملت على ألف ألف ذراع [وأربعمائة ألف ذراع] (٢) وكان ارتفاعها خمسين ذراعًا بذراع العمل (٣) ، أنفق عليها عشرة آلاف ألف دينار .

ومدحه جماعة من الشعراء وذكَرُوا هذهِ الخيمة ، منهم أبو جعفر محمد بن هبة الله الطرابلسى بقصيدته التى يقول فيها :

ضَـربْت خيمة عـزٍّ فى مقرٍّ عُـلاً ... أوْفَت على عَذَبات الطَّوْد ذى القُنَن (٤)
جاءت مَدَى الطَّرف، حتى خِلْت ذروَتَها ... تأوِى من (٥) الفَلَك الأعلى إلى سَكَن
أقـطارُها مُلِئت مِنْ منـظرٍ عجبٍ ... يُهدِى (٦) إليك ذَكَاء الصَّانِع الفَطِن
فمِنْ رياضٍ سقاها القطْرُ صيِّبَه ... فمـا بها ظمـأً يومًـا إلى الْمُـزن
وجَـامحٍ فى عنـانٍ لا يُجـاذبُـه ... وطـائرٍ غيـر صـدَّاحٍ على فَنَن
وأرْقمٍ لا يمـجُّ الـسّم رِيـقتـه ... وَضَيْغمٍ ليس بالْعَادِى ولا الوَهِن
ومَـائِلين صُفوفًـا فى جَـوانبهـا ... لو يستطيعُون خَرَّ الجمْعُ للذَّقن

---

(١) عن هذه الخيمة وسبب تسميتها انظر : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٨ ، جـ ٣ ص ٤٧١ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٧٠ ــ ٤٧١ .
إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٢ .

(٣) ذراع العمل : طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ، ويستخدم فى العمائر والمبانى ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٢ ــ ٤٤٣ .

(٤) « أوفت على عذبات الطور ذى الفتن » فى نصوص من أخبار مصر ص ١٠٢ .

(٥) « من » ساقط من نصوص من أخبار مصر .

(٦) « يبدى » فى نصوص من أخبار مصر .

زِينَتْ بأرْوَعِ ، لا تُحصَى فَضائلُه ماضٍ مِن المَجْدِ والعلياءِ فى سَنَن
وأطْلَع الدَّستُ فيها شَمس مملكةٍ يرى[1] التَّأمُّل فضْلَ العين والأُذُن
وَعْدٌ على السَّعدِ أنّ النّصر يَضْرِبُها بالصِّين ، بعْدَ فُتوح الهِنْدِ واليمن

وقال أبو على حسن بن زيد الأنصارى ، الكاتب بديوان المكاتبات ، يصفها ويمدح الأفضل :

مهلاً ، فقدْ قَصرت عن شأوِك الأُمم وأبْدَت العجزَ منها هذه الهِمَمُ
أخَيْمةٌ ما نصبت اليوم ، أمْ فلكٌ ؛ ويقْظةٌ ما نراهُ منك ، أم حُلُم ؟
ما كانَ يخْطُر فى الأفكارِ قبلك أن تَسمُو علُوًّا على أفْقِ النُّهى الخِيَم
حتى أتيت بها شمَّاءَ شاهقةً فى مَارِن الدَّهر من تِيهٍ بها شَمَمُ
إنّ الدّليل على تكوِينها فَلَكًا أن احْتَوتك ، وأنت النَّاس كلُّهم

ومنها :

[٨٥] لَدَيْكَ جيشٌ، وجَيْشٌ فى جوَانِبها مُصوَّرٌ، وكلا الجيْشَين مزْدَحِم
إذَا الصَّبا حرَّكتْها ماجِ موكبُها فمُقْدِمٌ منهُم فيها ومُنْهزِم
أخَيْلُها خَيلُك اللّاتى تُغيرُ بها فَليْس تُنْزعُ[2] عنها الحُزْم واللُّجُم
علَّمْت أبطالَها أن يُقْدِموا أبدًا فكلُّهم لغُبار الحرْبِ مُقْتحم
أمَّنتَهم أن يَخافوا سطوةً لِردًى فقدْ تسَالَمت الأسياف والقِمَم[3]
كأنّها جنَّةٌ ، والقاطِنُون بها لا يستطِيلُ على أعْمَارِهم هَرَم

---

(١) « ترى » فى نصوص من اخبار مصر ص ١٠٣ .

(٢) « ينزع » فى نصوص من أخبار مصر ص ١٠٣ .

(٣) « اللمم » فى نصوص من أخبار مصر .

عَلَتْ ، فخِلْنَا لها سِرًّا تحدِّثُه للفَرْقَدَين وفى سَمْعَيْهما صَمَم
إنْ أنبتَت أرْضُها زهرًا ، فلا عجبٌ وقد هَمَت فوْقَها مِن كفِّك الدِّيَم

قَال المؤرخ : وكان للأفضل شعر حسن ، فمن قوله فى غلامه المعالى :

أقضيبٌ يمِيسُ ، أمْ هو قدّ أمْ شقيقٌ يلُوح ، أمْ هو خدّ
أنا مِثلُ الهلال سُقمًا عليه[1] وهْوَ كالْبَدْر حين وَافَاه سَعْدُ[2]

وكانت ولاية لأفضل سبعًا وعشرين سنة وخمسة أشهر .

(١) « خوفًا عليه » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٣
(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٨٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٣ .

ذكر تفويض أمور الدّولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائحى

قال المؤرخ : وفى الخامس من ذى الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة فوّض الآمر بأحكام الله أمورَ الدّولة وإمرة الجيوش للقائد أبى عبدالله محمّد بن الأمير ثقة الدّولة أبى شجاع فاتك بن الأمير منجد الدّولة أبى الحسن مختار المستنصرىّ المعروف بابن البطائحى[1] ، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاذ داره[2] . واستقرَّت نُعوته فى سجلّه المقروء على كافة الأمراء والأجناد بالأجلّ المأمون ، تاج الخلافة ، وجيه الملك ، فخر الصنّائع ، ذخر أمير المؤمنين . ثُمَّ نعِت بعد ذلك بالأجلّ المأمون ، تاج الخلافة ، عزّ الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدّين والدعاة . ثُمَّ نُعِت بعد ذلك بنعوت الأفضل وهى : السّيِّد الأجل المأمون ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين[3] .

قال ناظم سيرة المأمون : ولما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذى الحجة من السّنة ، وهو يومُ الهناء بعيد النَّحر ، جلس المأمونُ فى داره وقْتَ أذان

---

(١) الإشارة ص ٦٢ ــ ٦٤ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٩٩ وما بعدها ، الوافى جـ ٤ ص ٣١٣ وما بعدها ، وانظر المنتقى من أخبار مصر ص ٨٧ هامش ٣١٣ .

(٢) « أستاذ دولته » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٨٨ ، وهى نفس الوظيفة .
أستاذدار : كلمة فارسية مركبة ، وتطلق على متولى الوظيفة الأستادارية ، ويقوم صاحبها بالإشراف على شئون مسكن السلطان أو الأمير ــ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٧ ، الفنون الإسلامية والوظائف جـ ١ ص ٦٥ .

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٨٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٥ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٨٨ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٨٨ .

الفجر ، وجَاء النّاس لخدمَته للهناء على طبقاتهم فى أرباب البيوت والأقلام ، ثم الشّعراء ، وركب إلى القُصور ، فأتى باب الذّهب ، فوجد المرتبة المختَصَّة بالوزَارة قد هُيِّئت له فى موضعها الجارى به العادة ، وأُغْلِق الباب الّذى عندها على الرَّسم المعتاد لوزير السّيف والقلَم ، وهذا البابُ يُعرف بباب السّرداب. فلما شاهد المرْتَبَةَ توقَّفَ عن الجلوس عليها لأنَّه لم يُذكَرْ له ذلك قبل حُضوره ، ثم ألْجأته الضّرورة ، لأجل حُضور الأمراء ، إلى الجلوس عليها فجلس وأولاده الثّلاثة عن يَمينه ، وأخَوَاه عن يساره ، والأمراء المطوَّقُون[1] خاصَّةً قائمون بين يديه ، ومَنْ عداهُم لا يصل إلى هذا الموضع . فما كان بأسْرعَ من أن فُتِح البابِ وخرج عِدَّة من الأُستَاذين المحنكين [2] وخرج إليه الأميرُ الثّقة مُتولّى الرّسالة وزمام القصور [3] ، فوقف أمام المرتبة وقال : أمير المؤمنين يرُدّ على السّيِّد الأجلِّ المأمونِ السّلام . فوقف المأمون عند ذلك وقبل الأرض ، وجَلَس فى موضعه ، وتأخر الأمير الثّقة حتى نزل من على المصطبة التى عليها المرتبة وقبَّلَ الأرض ويَدَ المأمون ، ودخل من فَوْره من الباب ، وأُغْلِق الباب ، على [حاله على][4] ما كان عليه الأفضل .

---

(١) الأمراء المطوقون : من أرباب السيوف ، ومن الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٦ .

(٢) « مطوقين » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٩ .
الأستاذون : الخدام والطواشية ، ومنهم أرباب وظائف القصر وأعلاهم رتبة المحنكون : الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما يفعل المغاربة ، ومنهم أقرب أرباب الوظائف الخاصة إلى الخليفة ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٧ ، ٤٨٠ .

(٣) زمام القصر : وهو الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير ــ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

(٤) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ٩٠ .

قال : وكان الأفضل يقول : ما أزال أعُدّ نفسى سلطانا حتى أجلسَ على تلك المرتبة ويُعلق الباب في وجهى والدّخان فى أنفى ؛ لأن الحمّام كانت خَلْف الباب فى السّرداب .

قال : ثم فُتح الباب وعاد الثّقة وأشار بالدّخول إلى القصر ؛ فدخل المأمون إلى المكان الذى هُيِّئَ له ، ودُعِى لمجلس الوزارة . وبقى الأمراء بالدّهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئون . واستُدعى المأمون فحضر بين يديه وسلّم عليه أولادُه وإخوته[1] ؛ ثم دخل الأُمراء وسلّموا على طبقاتِهم ، ثمّ الأشراف وديوان المكاتبات والإنشاء ، ثمّ قاضى القضاة [٨٦] ، والشهود ، والداعى ، ثم مقدّموا الرّكاب ومتولّى ديوان المملكة . ثُمّ دخل الأجناد من باب البحر ، وهو البابُ الذى يقابل المدرسة الكامليّة الآن ، ثمّ دَخَل والى القاهرة ووَالِى مصر وسلّما بِبَياض أهل البَلدين ، ثم البطرَك والنّصارَى والكُتّابِ منهم ، وكذلك رَئيس اليهود . ودَخل الشّعراء على طبقاتهم ، وأنْشَد كلٌّ منهم ما سمحت به قريحته . وكانت هذه عادَة السّلام على مُلوك هذه الدّولة ، وإنما أوردنا ذلك ليُعْلم منه كيف كانت عادتهم[2] .

وفى سنة سبع عشرة وخمسمائة ورد إلى الدّيار المصريّة طائفةٌ كثيرة من عَرب لَواته من جهة المغرب ، وانتهَوْا إلى الإسكندريّة وأعمالها ، وأفسدوا فسادًا متحكّمًا . فندب المأمون إليهم أخاه نظامَ الملك[3] حَيْدرة ، الملقّبَ بالمؤتمَن ، فقاتلهم وهزمهم ، وغنم أموالهم . وتوجّه إلى الإسكندرية

---

(١) « وأخواه » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٩٠ .

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٨٩ ــ ٩١ حيث توجد تفصيلات أكثر .

(٣) « نظام الدين أبا تراب » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٩٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٩٥ .

ودخلها ، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسرُوا ، فخرج إليهم ، وحاربهم وهَزَمهم ، فعادوا .[١]

ذكر القبض على المأمون

قال : وفى سنة تسع عشرة وخمسمائة فى يوم السّبت لأربعٍ خلَوْن من شهر رمضان قبض الآمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبى عبد الله محمّد وعلى أخوته [الخمسة][٢] وثلاثين نفرًا من خواصّه وأهله ، واعتقله ، ولم يَزَل فى اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين ، فصَلَبه مع أخوته .

وقيل فى سبب ذلك إنّ المأمون رَاسَل الأمير جعفرًا ، أخا الآمر ، وأغراه بقتل أخيه وأنّه يقيمهُ مكانه فى الخلافة ، واسْتَقرّت القاعدة بينهما على ذلك ، واتّصَل ذلك بالشيخ أبى الحسن على بن أبى أسامة ، متولّى ديوان المكاتبات ، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه ، وناله من المأمون أذى كثير ، فأعلم الآمر بالحال . وكان المأمون كثيرَ التطَلُّع لأخبار النّاس والبحث عن أحوالهم ، وكثرت الوشاة فى أيّامه .

قال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل : كان ابتداءُ حال المأمون أن والدَه كان من جواسيس الأفضل بالعراق ، فمات ولم يخلّف شيئًا ، فتزوّجت أمُّه وتركته فقيرًا فاتصل ببعض البنائين بمصر ، ثم صار يحمل الأمتعة بالسُّوق الكبير . فدخل مع الحمّالين إلى دار الأفضل مرّةً بعد أخرى فرآه الأفضل خفيفًا رشيقًا ، حسن الحركة ، حُلو الكلام والحجّة ؛

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٩٨ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٩٣ ، الكامل جـ ١٠ ص ٦١٧ .

(٢) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٣ .

فسأل عنه ؛ فقيل هو ابن فلان ؛ فاستخدمه مع الفرّاشين . ثم تقدّم عنده وكبِرت منزلته وعلت درجته ، إلى أن انتهى إلى ما ذكرنا[١] . قال محمدبن على بن يوسف بن جلب راغب[٢] فى تاريخ مصر : إن ابن الأثير وَهِم فى وفاة والد المأمون ، وأن والدَه مات فى سنة ثنتى عشرة وخمسمائة ، والمأمون إذ ذاك مدبِّر دولة الأفضل [٣] . وأكثر النّاس يذكرون ما ذكره ابن الأثير .

وقال صاحب كتاب البُستان فى حوادث الزّمان : إن المأمون كان يرُشّ بين القصرين ، وجدّه من غلمان المستنصر بالله . والله أعلم [٤] .

ذكر أخبار أبى نجاح بن فنا النصرانى الراهب وقتله

كان هذا الرّاهب من أهل أُشْمُوم طَنّاح[٥] . وكان قد خدَم وَلِىَّ الدّولة يُحَنّا بن أبى الليث ، ثم اتّصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون . وبذل فى مُصَادرة قوم من النّصارى مائة ألف دينار ، فأطلق يده فيهم . وتسلسل الأمر إلى أن عمّ البلاءُ منه جميعَ رؤساء الدّيار المصريّة وقُضاتها وكُتّابها وغيرهم . ولم يَبْق أحدٌ إلا ناله منه مكروه من الضّرب والنهب وأَخْذ المال . وارتفَع شأنُه عند الآمر حتى كان يعمل له [٦] ملابس

---

(١) « حتى صار وزيرًا » فى الكامل جـ ١٠ ص ٦٢٩ ، وانظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٤ .

(٢) المعروف بابن ميسر .

(٣) المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٤ .

(٤) انظر كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٩٣ .

(٥) أشموم طناح = أشمون الرمان : من المدن القديمة ، قرب دمياط ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٦) « إلى أن كان يستعمل له » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٨ .

مخصوصة به بدمياط وتنّيس من الصُّوف الأبيض المنسوج بالذّهب ، فكان يلبسها ويلبس من فوقها الغفافير الدّيباج[١] . وكان يتطيب فى كلّ يوم بعدة مثاقيل من الـمُسك . وكان يركب الحمير بالسُّروج المحلاّة بالذهب والفضة ، ويجلس فى قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويَسْتدعى النّاس للمصادرة . فا ستَدْعَى فى بعض الأيام رجلاً يُعرف بابن الفرس ، وكان من أكابر العدول ذوى الهيئات والدّيانة ، والناس يعظمونه ويبجّلونه ــ وأوقع به الإهانة والإخراق ؛ فخرج من عنده ووقف فى الجامع يومَ الجمعة وقال : ياأهل مصر ، انْظُروا عَدْل مَوْلانا الآمرِ فى تمْكينه هذا النّصرانى من المسلمين ! فارتَجَّ الناس لكلامه وكادت تكون فتنة ؛ فدخل جماعةٌ على الآمر وخوَّفُوه العاقبة ، وعرّفوه ما حلَّ بالمسلمين منه [٨٧] فاستدعاه ، وكان فى المجلس رجلٌ من الأشراف [٢] ، فأنشد الآمر أبياتًا منها :

إن الّذى شُرِّفت من أجْله ... يزعمُ هذا أنّه كاذب

فقال له الآمر : ما تقول ياراهب ؟ فمسكت . فأمَرَ به فقُتل . وكان الّذى تولّى قتله الأمير مقداد والى [٣] مصر ، وصَلَبه على الجسر . ثم أُنْزِل ورُبط على خشبةٍ ورُمِى فى بحـر النيل وخـرجت الكتب إلى الأعمال البحريّة أنّه إذا ألقاه الماءُ إلى جهةٍ أخرجُوه عنها حتّى ينتهى إلى البحر المالح .

---

(١) « عفارة ديباج » فى المنتقى من أخبار مصر .

(٢) يذكر ابن خلكان أنه الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشى المالكى المتوفى سنة ٥٢٥ هـ/١١٣٠ م ــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٦٢ رقم ٦٠٥ .

(٣) « ولى » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢٦ .

ولما قُتِل هذا الرّاهب وجدوا له مقطعًا فيه ثلاثمائة طُرّاحة [١] سامان محشوة ، جدُدًا ، لم تُستعمل . هذا مِنْ هذا النّوع ، خَلاَ ماوُجد من الذّهب والفضة والأقمشة والديباج [٢] .

ذكر مقتل الآمر بأحكام الله
وشىء من أخباره

كان مقتله فى يوم الثلاثاء لليلَتَين خَلَتا [٣] من ذى القَعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بجزيرة مصر [٤] بالقرب من المقياس . وثَب عليه عشرة نفر من النِّزارية وقتلُوه ، فحمل فى جل [٥] إلى الجامع ، ونقل فى مركبٍ عشارى [٦]، وأُحْدِر إلى اللؤلوة فى الخليج ، ثم حُمل إلى القصر ؛ فتوفِّى بقية يومه . وقُتلِ القومُ الذين قتلوه .

---

(١) طراحة : المرتبة ، أو الفراش الذى يجلس عليه ــ القاموس .

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٨٨ ـ ٨٩ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٧ ــ ١٠٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

(٣) « الرابع من ذى القعدة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣٠ .

(٤) « جيزة مصر » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣٠ ، والمنتقى من أخبار مصر ص ١١٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٢ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٠٤ ، وأخبار الدول المنقطعة ص ٩١ .

(٥) الجل للدابة : كساء يقيها من قسوة البرد ــ القاموس .
وفى أخبار الدول المنقطعة « فى شليل من أشلة الخيل » .

(٦) عشارى : عشاريات : مركب صغير نسبيًا يستخدم عشرين مجدافًا ، ويكثر استعماله فى نهر النيل ــ معجم السفن الإسلامية ص ٩٥ وما بعدها .

وكان مولدُه فى يوم الثلاثاء لليلةٍ خلت من المحرّم[١] سنة تسعين وأربعمائة وقتل فى يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم[٢] منها ، فكان عمره أربعًا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وولايته تسعة وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر . وكان محكُومًا عليه إلى أن قُتل الأفضل وتولّى المأمون فظهر أمره ، وصار يتصرَّف [ويركب][٣] فى يوم الجمعة ويوم السّبت ويوم الثلاثاء وإذا لم يركب فى يوم منها ركب فى غيره . ولم يستَوْزِر بعد المأمون وزيرًا للسّيف والقلم ، بل استبدَّ بأموره وباشرها بنفسه .

وكان قبيح السّيرة فى رعيّته ، يظلمهُم ويأخذُ أموالهم ويغتصب أملاكهم ؛ وسفك دماءَهم ، وارتكب المحذورات ، واستحسن القبائح . ويكفى من سُوء سيرته تمكينُه الرّاهبَ من المسلمين ، وقد تقدم خبرُه[٤] .

ووُلد للآمر فى هذه السنة ولدٌ سمى أبا القاسم الطّيب وجعله ولىَّ عهده[٥] ، فأخْفَاه الحافظ .

وزراؤه : الأفضل ؛ ثم المأمون .

قضاته : ابن ذكا النابلسى إلى أن رَفَع إبراهيم حمزة الشاهد إلى الأفضل أمير الجيوش أنه أحدث فى مجلس الحكم فعزله ؛ ووَلّى أبا الفضل نعمة بن بشير الجليس النابلسى إلى أن استقال ؛ فولّى الرشيد أبا عبد

« ولد يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٩١ ، والمنتقى من أخبار مصر ص ١١٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١ .

ولم يتفق مع النويرى فى تاريخ ميلاد الآمر سوى ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧١ .

(٢) هذا يتناقض مع ما جاء فى أول الفقرة .

(٣) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ١١١ .

(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١١١ .

(٥) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢٨ .

الله محمد بن قاسم الصقلى إلى أن توفى ؛ فأعاد الجليس ثم صرفه ؛ وولّى أبا الفتح مسلم ، فبقى إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه لمّا أخْطأ فى قراءته ؛ وولّى أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسى إلى أن تُوفى فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ؛ فولّى الآمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسّر القيسرانى ، فاستمر إلى أن قُتل الآمر بأحكام الله [١] .

ذكر بيعة الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمّد بن المستنصر بالله ، وهو الحادى عشر من ملوك الدّولة العُبيدِيّة والثّامن من ملوك الدّيار المصريّة منهم . بُويع لهُ بَعْد مقتل ابن عمّه الآمر ، فى يوم الثلاثاء لِلَيْلَتَين خَلَتا من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بولاية العهد إلى أنْ يستبرئَ نساءُ الآمر وهل فيهنَّ مَنْ هى مشتملةٌ على حَمْل أمْ لا .

ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ
وما كان من أمر أحمد إلى أن قُتل

قال المؤرّخ : لما بُويع الحافظُ لِدين الله ثار الجُنْد الأفضْلية وأخرجوا ابنَ مولاهم ، أبا علّى أحمد بن الأفضل ، الملقّب بكتيفات ، وولّوْه إمْرة الجيوش ؛ وذلك فى يوم الخميس السّادس[٢] من ذى القَعدة منها ، فحكم ، واعتقل الحافظَ صبيحة يوم بيْعته ، ودعا لِلإمام المُنتظر ؛ وقَوِى أمرُ ابن الأفضل .

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٩٢ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١١٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٢) « سادس عشر » فى المنتقى من أخبار مصر ص ١١٣ .

وفى سنة خمس وعشرين رتّب أحمد بن الأفضل فى الأحكام أربعة قضاة : الشّافعية والمالكية والإسماعيلية [٨٨] والإمامية ، يحكم كلّ قاض بمقتضى مذهبه ويُورِّث بمقتضاه ، فكان قاضى الشافعيّة الفقيه سلطان[١] ، وقاضى المالكية اللّبنى[٢] ، وقاضى الإسماعلية أبو الفضل[٣] ابن الأزرق ، وقاضى الإمامية ابن أبى كامل[٤] .

وسار أحمد بن الأفضل سيرةً جميلة بالنِّسبة إلى أيّام الآمر ، وردَّ على الناس بعضَ مصُادراتهم ، وأظْهر مذهبَ الإمامية الاثنى عشرية ، وأسقط من الأذان قولهم « حىَّ على خيْر العمل » ، وأمر بالدّعاء لنفسه على المنابر بدعاءٍ اخترعه لنفسه وهوَ : « السّيد الأجلّ الأفضل ، مالك أصحاب الدُّول ، والمحامى عن حَوْزة الدّين ، وناشر جَناح العدل على المسلمين ، الأقْرَبين والأبْعَدين ، ناصرُ إمام الحقِّ فى حالَتَى غيبته وحُضوره ، والقائم بنُصرته بماضى سيفِه ، وصائب رأيه وتدبيره ، أمينُ الله على عباده ، وهادى القُضاة إلى اتّباع شرعِ الحق واعتماده ، ومرشدُ دُعاة المؤمنين بواضِحِ بيانه وإرشاده ، مُولى النعم ، ورافعُ الجَوْر عن الأمم ، ما لكُ فضيلَتَى السَّيف والقلم ؛ أبو على أحمد بن السيد الأجلّ الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش[٥] » .

---

(١) هو سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسى ، المعروف بابن رشا ، والمتوفى سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٧٥ ، العبر جـ ٤ ص ٤٢ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٣ .

(٢) هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبنى المغربى ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٢ .

(٣) هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد ، أبو الفضائل ، المعروف بابن الأزرق ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٢ .

(٤) هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبى كامل ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٢ .

(٥) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١١٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

واستمر أمرُه إلى يوم الثّلاثاء سادس عشر المحرّم سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة . فاتّفق ركُوبه فى هذا اليوم إلى الميدان بالبُستان الكبير[١] ظاهرَ القاهرة ، لِلّعب بالأكرة[٢] على جارى عادته ، فوثَبَ عليه مملوكٌ رومىٌّ ، وقيل بَلْ من صِبيان الخاصّة[٣] ، فطعنه طعنةً ألقاه بها عن فرسه ، ونزل واحتزَّ رأسه ، ومضى به إلى القصر ؛ وذلك بموُافَقةِ من الأجناد . فكانت مدَّةُ تغلُّبه على الأمر سنة واحدةً وشهرين وثلاثة عشر يومًا ؛ ودُفن بتربة أبيه خارج باب النصر[٤] .

ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال : ولما قُتل أحمد بن الأفضل بويع الحافظ بالخلافة بيعةً عامّة ، وظهر الحمْلُ المنتظر بنتًا ، فانتقلت الخلافة إليه . وأمر أن يُدْعى له على المنابر : اللّهم صلِّ على الذى شَيَّدْت به الدّين بعد أن رامَ الأعداءُ دُثورَه ، وأقرَرْت الإسلام بأنْ جعلت طُلُوعه على الأمّة وظهورَه ، وجعلْتَه آيةً لِمَنْ يدبِّر الحقائق بِبَاطنِ البصيرة ، مولانا وسيِّدِنا وإمامِ عصْرنا وزمانِنا ، عبد المجيد أبى الميمون ، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، صلاةً دائمة

(١) « البستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٣ . وكان يمتد من زقاق الكحل خارج باب الفتوح إلى المطرية ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٨٧ .

٢ الأكرة لغة فى الكرة ، وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٣ ، والمنتقى من أخبار مصر ص ١١٥ .

(٣) صبيان الخاص = صبيان الحجر : وهم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة ، يقيمون فى حجر منفردة بالقرب من باب النصر ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٧ ، وانظر ما يلى فى أحداث سنة ٥٤٤ هـ .

(٤) تربة أمير الجيوش بدر الجمالى ، وهى أول تربة أنشئت بمقابر باب النصر ــ خارج الباب ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٦٣ .

إلى يوم الدين[١] .

قال : ولما تم أمرَ الحافظ استوزر أبا الفتح يانس ، وهو رومىّ من مماليك الأفضل ، ولقبه بأمير الجيوش ؛ فقتل الطّائفة المعروفة بصبيان الخاصّ ، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل . وكان عظيم الهيبة ، بعيدَ الغَوْرَ ، فخافهُ الحافظ وتخيَّل منه ، وتخيَّلَ يانس أيضا من الحافظ ، فدبّر كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه ، فسَبَق تدبيرُ الحافظ فيه فسَمَّه فى إبريقٍ استعمل الماء منه عند الطَّهَارة فعولج وكادَ أن يبرأ . فكلّم الحافظُ بعض الأطباء ، فقال له الطبيب : إن رأى مولانا أميرُ المؤمنين أن يَمْضى إليه ويزورَه ويَهنِّئه بالعافية فإنّه لابُدّ أنْ ينهض إليك ويمشى ، فإذا مشى لايكاد يعيش أبدًا . فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقّاه ، فمات فى ليلته ؛ وذلك فى السّادس والعشرين من ذى الحجة[٢] فكانت مدةُ وزارته تسعة أشهر .

ذكر الخُلف بين ابنَىْ الحافظِ لدين الله

قال المؤرخ : وفى شعبان سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة جرى بين أبى تراب حَيْدرة وحَسَن ، ولدَىْ الحافظ ، حربٌ شديدة ، وافترقت العساكر على فرقتين ، وهما الرَّيحانية والجيوشيه ، وكان بينهما وقعةٌ فى خامسِ شهرِ رَمضان ووقع الحرب بينهما بين القَصْرين ؛ وقُتل من الطّائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان . وكان سبب ذلك أن الحافظ جَعل وَلَده حَيْدرة ولىَّ عهده من بعده ، فلم يرْضَ حسن بذلك ، فوقع الاختلاف والحرب بينهما . واستَظْهر حسن على أخيه حيدرة ، فهرب حيدرة إلى أبيه ، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه ، فامتنع وضايق القصر ، وطالبه بأخيه

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ١١٧ ، وانظر أخبار الدول المنقطعة ص ٩٥ ، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٢) « لليلتين خلتا من ذى القعدة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٩٨ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٠٦ .

حيدرة ، فتلافاه الحافظ وجعلهُ ولِيّ عهده من بعده . وتمكّن حسَن من الدَّولة والتصرُف فيها بحسَب رأيه ، ولم يبق للحافظ معه حكم [١] .

[٨٩] ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتلُه فى يوم الثّلاثاء الثّالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعٍ وعشرين وخمسمائة وذلك أنه لمّا استقَر فى ولاية العهْد والوزارة والتدبير واستبدَّ بالأمر ، قبض على جماعةٍ من الأمراء وقتلَهم ، بسبَب قيامهم مع أحمد بن الأفضل ، وأقام غيرهم ؛ فخافَهُ مَنْ بقى من الأمراء العُتق ، وأجمعوا على خَلْعِ أبيه من الخلافة وولَدِه حسن من الوزارة فاجتمعوا بين القصرين ، وراسَلُوا الحافظ ، وأعلموه بما أجمعوا عليه ، فاستعْطَفهم الحافظُ واعتذر إليهم ؛ وهرب حسَن إلى أبيه ، فقبَض عليه وقيَّده ، وذكر ذلك للأمراء ، فقالوا : لابُدّ من قَتْله ، فسقاهُ أبُوه سمًّا فمات ، وجعلَه على سرير ، وأمر الأمراء بمشاهدَته ، فدخلُوا عليه ورأَوْه فسكتوا . وقيل إن قيام الأمراء [٢] كان بتدبير الحافظ .

ذكر وزارة بهرام الأرمنى

وفى يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة ، وقيل لإحدى عشرةَ ليلةً خلَتْ منه ، استوزر الحافظُ بهرامَ الأرمنى النّصرانى ، ونعته بسيف الإسلام تاج المُلوك [٣] وكان بهرامُ المذكور قد وصل إلى الدّيار المصريّة

---

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٩ .

(٢) « الأمر » فى الأصل ، والتصحيح من سياق الكلام .

وانظر تفصيل ذلك فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٢١ ـ ١٢٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٥٣ ـ ١٥٥ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) « تاج الخلافة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٥٦ .

واجتمع بالحافظ ، فرأى منه عقلاً وافرًا وإقدامًا فى الحرب وحُسْن تدبير[١].

وكان سببُ وصوله من بلاده أنّ القائم بأمْر الأرمن مات ، وكان بهرام أحقَّ بمكانه من غيره فعَدَل الأرمنُ عنه وولَّوْا غيره ، فغضب لذلك وخرج من تلّ باشر[٢] وقدم مصر ؛ فعيّنه الحافظ للوزارة . واستشار بعض أهله وأكابر دَوْلته فيه ، فكلُّهم كرِه ذلك وأشار عليه ألا يفعل ، وقالوا : إنّه نصرانى لايَرْضاه المسلمون ، وإنّ من شروط الوزارة أنّ الوزير يَرْقى المنبر مع الإمام فى الأعياد ليزرّ عليه المزرة الحاجزَة بينه وبين الناس ؛ وأنّ القضاة هم نواب الوزراء ، من زمن أمير الجيوش . بدر الجمالى ، ويُذْكَرون فى النّيابة عنهمُ فى الكتب الحُكْمية النّافذة عنهم إلى الآفاق وكُتُب الأنكحة . فقال الحافظ : إذا رضِيناهُ نحن فَمَنْ يخالِفُنا ، وهُو وزير السيف ؟ وأمّا صُعُود المنبر فيَسْتنيب عنه فيه قاضى القُضاة ، وأمّا ذكرُه فى الكتب الحكميّة فلا حاجة إلى ذلك . واسْتُوزِر والنّاس يُنكرون ذلك عليه[٣].

وقال بعض المؤرخين : إن بهرام كان والىَ الغربيّة يومئذٍ وإنّه سارَ منها مجدًّا إلى أن وصل إلى القاهرة وحاصَرها يومًا واحدًا ودخلها . فلمّا ولى الوزارة وثبتَتْ بها قدمُه سأل الحافظ أن يَسْمح له بإحضار إخوته وأهله ، فأذن له فى ذلك . فأرسلَ إليهم وأحضرهم من تَلّ باشر ، فتواصَلُوا حتى كَمُل منهم ومِنْ غيرهم من الأرْمَن تقديُر ثلاثين ألف إنسان ؛ فاسْتَطالوا على المسلمين . وبُنيَت فى أيّامه كنائسُ كثيرة ودِيَرَة

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ١٢٢ .

(٢) تل باشر : حصن وكورة شمالى حلب ، وأهلها من النصارى الأرمن ـــ معجم البلدان .

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٥٦ .

حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة ؛ وخاف أهلُ مصر منهم أن يغيِّرُوا الملَّة الإسلاميَّة . وكثُرت الشَّكايات فيه . وكان أخوه المعروف بالباساك ، وإليه تُنسب المنية [١] التى بالقرب من إطفيح [٢] ، قد وَلى الأعمال القوصيَّة فجار فيها جوْرًا عظيما واستباح الأموال ، فعظم ذلكَ على النَّاس .

ذكر خروج بهرام [٣] من الوزارة ووزارة رضوان ابن الولخشى

قال : ولما ثقُلت وطأة بهرام على النَّاس اجتمع الأُمراء وكاتبُوا رضوانَ بن الولخشى ، وذلك فى صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، وكان يوْمئذٍ متولى الغربيَّة ولاه بهرام إيَّاها إبعادًا له ، فلمَّا أتتْه كتُب الأمراء نهضَ فى طَلبِ الوزارة ، ورَقى المنبَر ، وخطب خطبةً بليغةً حرَّض النَّاس فيها على الجهاد . فأجابوه . وحشد العُربان وقدِم إلى القاهرة . وكان الأمراء قد كاتبُوه وقالوا : إذا وَقع الوجْهُ فى الوجْهِ ارفَعْ المصاحف على الرِّماح فإنَّا ننْحازُ إليك ؛ ففعَل ذلك . وخرج بَهرام إليه لمَّا قرُب من القاهرة ؛ فلمَّا عاين الأمراء [٩٠] والجندُ المصاحفَ التحقوا جميعُهم برضوان ، وبقى بَهرام فى الأرمن خاصَّة . فراسَلَ الحافظ وقال : أنا ألقاهُم بمَنْ معى . فخاف الحافظ عاقبةَ ذلك ، فأمره أن يتوجَّه إلى قوص ويُقيم عَند أخيه الباساك إلى حين يدبِّر أمرًا . فعاد بَهرام إلى القاهرة ،

(١) منية الباساك : من القرى القديمة ، وتعرف حاليًا باسم المنيا ، وهى تابعة لمركز الصف بمحافظة الجيزة — القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٣١ .

(٢) أطفيح : من المدن المصرية القديمة ، من أعمال الجيزية ، وإليها تنسب الأعمال الأطفيحية ، وهى حالياً بلدة تابعة لمركز الصف بمحافظة الجيزة ، القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٢٦ .

(٣) «رضوان» فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح مما يلى .

وأخذ ماخفّ حمله ، وخرج من باب البرقيّة فى حادى عشر جمادى الأولى ؛ وتوجّه إلى الأعمال القوصيّة .

قال : ولما انفصل عن القاهرة أتت العوامّ منازل الأرمن ، وكانوا قد نَزلوا الحُسَيْنيّة[1] وعمروها دورًا . ولمّا اتصل بأهل قوص انهزامُ بهرام ثارُوا بأخيه الباساك وقتلُوه ومثّلوا به ، وربَطُوا فى رجله كلبًا ميّتا ، ورَمَوه على مزبلة . فقَدِم بَهرامُ بعدَ ذلك بيومين ، ومعه طائفةٌ من أقاربه ، فرأى الباساك على هذه الحال ، فقَتَل جماعةً من أهل قوص بالسّيف ونَهبَها وسار إلى أسوان . ثمّ رجع ونزَل بالدَّيْرَة البيض[2] ، وهى من أعمال أخميم بالجانب الغربى .

قال : ولمّا فارق بَهرام القاهرة دخَلَها رضوان ووقَف بين القصرين ، واستأذنَ الحافظ فيما يفعلُه ؛ فأمره بالنّزول بِدارِ الوزارة ، فنزلها ، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة ، ونعته بالأفضل . ونَدَب رضوان جماعةً من العسكر مع أخيه ناصر الدّين ، فتوجّهوا إلى بَهرام ، فاستقرّ الأمر بينهم أن يقيم بالدَّيْرَة البيض ؛ وعاد الجُند الّذين مع بَهرام إلى مصر . ودَبر رضوان الأمْرَ أحسن تدبير ، وصادرَ جماعةً من أصحاب بهرام وشدّد عليهم الطّلب ، وقتلهم بالسيف .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة أحضرت[3] من تنّيس امرأة بِغير يَدَيْن ، وموضع يديها مثل الحلَمتَين ، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدَيْ رضوان ، فعرّفته أنّها تعمَلُ برجلَيْها ما يعملُه الناس باليدين من خطٍّ ورَقْم وغير ذلك . فأحضر لها دواةً ، فتناولت الأقلام

(١) الحسينية : خارج باب الفتوح — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٠ .

(٢) « فنزل بالأديرة البيض ، وهى أماكن حصينة فى غربى إخميم » — المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٠ .

(٣) « [illegible] » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٩ ، اتعاظ الحنفا جـ [illegible] ص ١٦٧ .

برِجْلها اليسرى وتأمَّلَتْها قلمًا قلمًا فلم تَرْض شيئًا منها ؛ فأخذت السِّكين وبَرَتْ لنفسها قلمًا وشقَّته وقَطَّته ، واستدعت ورقةً فأمْسكتها برِجلها اليُمنى ، وكتبت باليُسرى بأحسن خطٍّ ما تكتُبُ النِّساء بأيدِيهنَّ مثله ، وحمدت الله فى آخر الرُّقعة ، وناولَتْها للوزير . فتناوَلَها فوجدها قد سألَتْه الزِّيادة فى رَاتِبها ؛ فزادَها ، وأعادها إلى بلدها (١).

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالإسكندريَّة (٢)، واستدعى الفقيه أبا طاهر بْنَ عوف (٣) إلى حضرته وأسْند إليه تدْرِيسَها .

ذكر خروج رضوان من الوزارة
وما كان من أمره إلى أن قتل

وفى شهر رمضان سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بَهرام الأرمنى من الصَّعيد ، وأسكنه فى القُصور وأكرمه ، فعظُم ذلك على الأفضل رضوان ، فشغَب الحافظُ عليه الجند ، فقام بعضُهم عليه ، وجرت بينهم حربٌ بالقاهرة . وطلب رضوان أنْ يسكُن مع الحافظ فى القُصور ، فلم يمكِّنه . فتزايَد الحالُ على الأفضل وضعُفَت قدرته عَنْ لقاء العساكر ، فهرب إلى الشام ، وذلك فى منتصف شوال منها ، وقصد

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٦٧ .

(٢) هى المدرسة الحافظية التى أنشأها رضوان بن ولخشى للفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوض ـ تاريخ مدينة الإسكندرية ص ٤٨ .

(٣) هو إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى ، أبو الطاهر ، توفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م ـ العبر جـ ٤ ص ٢٤٢ ، أعلام الإسكندرية ص ١٠٥ ـ ١٢٧ .

كُمشْتكين والى صَرْخَد[١]، فأقام عندَهُ فأكرمه [٢]. ثمّ عاد إلى مصر فى سَلْخِ المحرَّم سنةَ أربعٍ وثلاثين وقد جمع جمعًا صالحًا من الجند، فخرج إليه العسكر وحاربُوه عند باب الفُتوح، فمضى ونزل عند الرَّصد، ثم مَضَى إلى الصَّعيد. فندب اليه الحافظُ الأمير سيفَ الدّولة أبا الفضل[٣] بن مَصَال بأمان؛ فسار إليه وتلطَّف به، إلى أن أحضره إلى القَصْر، فى رابع شهر ربيع الآخر من السّنة، فاعتقله فى بعض قاعات القصور. فأقام فى الاعتقال إلى سنة اثنتين وأربعين، فخرج من نَقْبٍ نقبه فى القصر، وذلك فى ليلة الثّلاثاء لسبعٍ بقِينَ من ذى القعدة منها. وركب وحَوْله جماعةٌ ممن كان يكاتبُه، وتوجَّه إلى الجيزة، ولقِىَ عسْكر الحافظ وقاتَلَهم عند جامع ابن طُولُونِ، فهزمهم. ودَخَل القاهرة، ونزَل بالجامع الأقمر[٤]، وأغلق الحافظُ باب القصر فى وَجْهه؛ فاستحضَر رَضوان أربابَ الدّولة والدّواوين، وأمَرَ ديوانَ الجيش بعَرض الجُند، فعرضهم، وأخذ أموالاً كثيرة خارجةً عن القصر كانت فى الدّواوين، وأنفق؛ وأرسل إلى الحافظ فى طَلَب المال، فأرسل إليه عشرين ألف دينار. وأمَر الحافظُ مقدَّمى السُّودان بالهُجوم على رضوان وقتله، فهجمُوا عليه، فهمَّ بالركوب، فاعْجلُوه عن ذلك، وضربه بعضُهم بسيفٍ فقتله. وقُتِل معه أخوه، وأحضرت رأسَاهُما إلى الحافظ.

---

(١) صرخد: تلاصق بلدة حوران من أعمال دمشق، وكانت من القلاع الحصينة ــ معجم البلدان.

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٩٩، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠، الكامل جـ ١١ ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) هو سليم بن مصال، نجم الدين أبو الفتح ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٧٣، وانظر ما يلى حيث يلقبه النويرى أيضًا «أبا الفتح» عندما ولى وزارة الظافر.

(٤) الجامع الأقمر: أنشأه الخليفة الآمر بأحكام الله، وقام على إنشائه وزيره المأمون البطائحى، وهو الآن بشارع المعز لدين الله (النحاسين) ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٩٠.

وسكنت الفتنة ، وأرسل الحافظ الرأس [٩١] لزوجة رضوان فلمّا وقع فى حِجْرها قالت : هكذا تكون الرجال . فلم يكن فى وقت رضوان أسمع[1] منه .

وكان مولده فى سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائة . وأوّل ولايةٍ وَلِيهَا الأعمال القوصيّة والأعمال الإخميمية فى سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة .

ذكر وفاة بهرام الأرمنى

كانت وفاته لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنةَ خمسٍ وثلاثين وخمسمائة بالقُصور ، وكان الحافظُ قد أسكنه بدَارٍ بها ولم يمكّنْه من التصرف ، وكان يشاوره فى تدْبير الدّولة والأمور ويصدر عن رأيه . فلمّا هلك حزن عليه حزنًا شديدًا ، وأمر بغَلْق الدّواوين ثلاثةَ أيام .

وأحضر الحافظ بطرك الملكية بمصر ، وأمره بتجهيزه ، فجهّزه . وأُخرج وقتَ صلاة الظُّهر فى تابوتٍ عليه الدّيباج ، وحولَه جماعةٌ من النّصارى يُبَخّرون باللّبان والسّندرُوس والعُود ؛ وخرج النّاس كلُّهم مُشاةً ولم يتخلّف عن جنازته أحد من الأعيان . ثمّ خرج الحافظُ على بغلةٍ خلف التّابوت وعليه عمامةٌ خضراء وثوبٌ أخضر بغير طَيْلسان . ولم تزل النّاس مُشاةً والقَسُوس يُعلنون بقراءة الإنجيل ، والحافظ على حالته إلى دَيْر الخندق[2] بظاهر القاهرة ؛ وقيل بَلْ فى بُستان الزّهرى

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٧ - ١٣٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٨٢ - ١٨٤

(٢) دير الخندق : ظاهر القاهرة من بحريها ، عمّره جوهر الصقلى عوضًا عن دير هدمه بالقاهرة ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٥٠٧ .

فى الكنيسة المستجدة [١] . ونزل الحافظ عن بَغْلته ، وجلس على شَفِير القبر ، وبكى بكاء [٢] كثيرا .

وفى سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة طلع النّيل حتى بلغ تسعةَ عشر ذراعًا وأربع أصابع [٣] ، ووصل الماءُ إلى الباب الجديد [٤] أوّل الشارع الأعظم بالقاهرة ، وصار النّاس يتوجّهُون من القاهرة إلى مِصر مِنْ جهة المقابر . ولمّا وصل الماءُ إلى الباب أظْهر الحافظُ الحُزن والانقطاع ، فدخل عليه بعض خَواصّه وسأله عن السّبب ، فأخرج له كتابًا وقال له : انظُر هذا السّطر ؛ فقرأه ، فإذا فيه : إذا وصل الماءُ إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد . وقال : هذا الكتاب الذى تُعْلَم منه أحوالُنا وأحوال الدّولة وما يأتى بعدها [٥] .

ذكر وفاة الحافظ لدين الله
وشىء من أخباره

كانت وفاته فى ليلة الخميس لخَمسٍ خَلَوْن من جُمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ومولدُه فى المحرّم سنة أربعٍ وستّين

---

(١) كنيسة الزهرى : كانت فى بر الخليج الغربى ، غربى اللوق ، فى الموضع الذى كانت فيه البركة الناصرية ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٥١٢ .

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٧٥ .

(٣) « ثمانى عشرة ذراعًا وثلاث عشرة أصبعًا » فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٨٤ .
ويذكر ابن مماتى أن النيل إذا وصل إلى ستة عشر ذراعًا فقد وجب الخراج ، وأن هذه الزيادة تبشر بمحصول جيد ، فإذا وصلت ثمانية عشر ذراعًا كان هذا نذيرًا بطغيان النيل وفساد المحصول ــ قوانين الدواوين ص ٧٦ .

(٤) الباب الجديد : أنشأه الحاكم بأمر الله ، على يسرة الخارج من باب زويلة .. المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٥) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٨٧ .

وأربعمائة ، وقيل فى المحرّم سنة ثمانٍ وستين[١] . فكانت مدّة عمره ستًا وسبعين سنة وشهورًا ، ومدّة ولايته منذ بويع البَيْعة العامّة الثانية ، بعد قتل أحمد بن الأفضل ، ثمانى عشرة سنةً وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما .

قال المؤرخ : وكان الحافظ موصُوفًا بالبطش والتيقُّظ ؛ وكان شديد المناقشة . وهو الذى عمل طبل القُولَنْج الذى كسَره الملكُ النّاصر صلاحُ الدّين يوسف ؛ وكان هذا الطّبل قد عُمِل من سبعةِ مَعَادن والكواكبُ السبعةُ فى إشراقها . وكان خاصّتُه أنه كلّما ضُرب به ضَربة خرج الرّيحُ من مَخْرج الضّارب[٢] .

قال بعض المؤرخين : إنّ الحافظ خطَر بباله أن ينقل رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم من المدينة إلى القاهرة ، وكانت المدينةُ إذ ذاك يُخطَب بها لِبَنى العبّاس ، لظُهور مُلُوك الدّولة السَّلجقية ؛ فأرسل نحوًا من أربعين رجلاً من أهل النّجدة والقُدرة ، فتوجّهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدّة ، وتحيّلوا بأن حَفَروا سَرَبًا من مكان بعيد ، وعملوا حساب الخرُوج فى المكان المقصود . فعصَم الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلّم من أن يُنْقل من المكان الذى اختارَه له ؛ فيُقال إن السَّرَبَ انهار عليهم فهلكوا ؛ وقيل بل سُعِى بهم فأُهلكوا .

وكان للحافظ من الأولاد : أبو علىّ حسن ؛ هلك كما ذكرنَا ؛ وعبدُ الله ، هلك فى حياته أيضا ؛ وأبو المنصور إسماعيل ؛ وأبو الأمانه جبريل ؛ ويوسف .

---

(١) اختلف المؤرخون فى تاريخ ميلاده فهو سنة ٤٦٧ هـ أو ٤٦٨ هـ فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٠ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٩٨ ، وسنة ٤٦٦ هـ فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٠٦ .

(٢) عن هذا الطبل انظر النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٨ ، وفيات الأعيان ٣ ص ٢٣٧ .

ووزراؤه : تقدَّمَ ذكرُهم . ولمَّا قتل رضوان بن الولخشى لم يستَوْزِر بعده أحدا ، وإنما كانوا كتّابًا . فمِنْ أشهر كُتابه أبو على حسن الأنصارى كان [القاضى][1] الفاضل يقول : لم يَسمْح الزّمان بمثله .

ومِن أشهر شُعرائه الشّريف أبو الحسن الأخفش المغربى ، فى جملة شعره فى قصيدة :

ذكر الدّوْح وشَاطى بَرَدَى ... وحَبَابًا فيه يَحْكى بَرَدا
[٩٢] والصّبا يمرَحُ فى أرجائه ... وتَحُوك الرّيحُ منه زَرَدا
يَنْثر الدُّرَّ عليه فضّةً ... وتُذيب الشّمْسُ فيه عَسْجدا
ورشأ لَوْ لمْ تكُن ريقَتُه ... خمرةً صافيةً ماعَرْ بدا

قضاته : لمّا غلب أحمد بن الأفضل على الآمر ، أبقى محمدَ ابن هبة الله ابن ميسّر القيْسَرانى على القضاء ، ثم صَرَفه الحافظ واستقْضَى أبا الفخر صالح بنَ عبد الله بن أبى رجاء ؛ ثم قبَض عليه الوزيرُ يانس الرُّومى وقتَله ، فولَّى سراجَ الدّين أبو الثُّريّا نجمَ من جعفر ، مضافًا إلى الدّعوة ، إلى أن قُتل فى ذى القَعدة سنة ثمانٍ وعشرين ؛ فأعيد سناء الملك بن ميسّرٍ ، فأقام إلى أن قبض عليه فى يوم الأحد لسبعٍ خلَوْن من المحرم سنة إحدى وثلاثين ، وسيِّر إلى تنّيس فقتل بها . ووَلِىَ بعده القاضى الأعزّ أبو المكارم أحمد بن عبد الرّحمن بن محمد بن أبى عقيل ، إلى أن توفى فى شعبان سنة ثلاثٍ

(١) [ ] إضافة للتوضيح .
وهو عبد الرحيم بن على بن الحسن العسقلانى ، القاضى الفاضل ، توفى سنة ٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م ـ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٥٨ رقم ٣٧٤ .

وثلاثين . وأقام الناس بغير قاض ثلاثة أشهر ، ثم ولى أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصارى لإحدى عشرة ليلةً خلت من ذى القعدة منها . ثمّ جرت مفاوضةٌ بينه وبين « النبيه » [1] أبى الحسن على بن « اسماعيل » [2] ، قيل أدَّت الى مصافَعَةٍ خرج فى أثنائها القاضى إلى القَصْر وهو مخرَّق الأثواب وقدْ تحلَّقت عمامته فى حَلْقِه ؛ فعظُم على الحافظ خروجُه على هذه الهيئة وغرَّمه مائتى دينار ؛ واستناب أباطاهر إسماعيل ابن سلامه الأنصارى ، فأقام فى النّيابة إلى مُسْتهَلّ المحرّم سنة خمسٍ وثلاثين ، فوفَّر جَارِى القضاء ، وهو أربعون دينارا فى كل شهر ، وخدم لجارى التَّقْدِمة فى الدّعوة ، وهو ثلاثون دينارًا ، فى الوظيفتين ؛ فأُجيب إلى ذلك وأقام إلى أن صُرِف لسبعٍ خلون من صفر سنة ثلاث وأربعين ، وبقى على الدَّعوة . ووَلِى القضاءَ أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المقدسى إلى آخر المدّة [3] .

ذكر بيعة الظّافر بأعداء الله

هو أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله ، وهو الثّانى عشر من مُلوك الدّولة العُبَيديّة والتّاسع من مُلوك الدّيار المصريّة منهم . بُويع له بعد وفَاةِ أبيه لخَمْسٍ خلَوْن من جمادى الآخرة سنة أربعٍ وأربعين وخمسمائة . واستَوْزر الأمير نجم الدّين أبا الفتح سليم بن محمّد بن

---

(١) ، (٢) « » بياض فى الأصل ، والتكملة من أخبار الدول المنقطعة ص ١٠١ .
فعندما تولى هبة الله بن عبد الوارث القضاء « أضيفت إليه دار العلم وعزل عنها النبيه أبو الحسن على ابن اسماعيل ، ثم أعيدت إلى النبيه فحضرها أبو الفضائل هذا القاضى المذكور لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين ، وجرت بينهما مفاوضات أدت إلى مصافعة » ــ أخبار الدول المنقطعة ص ١٠١ .

(٣) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٠ ــ ١٠١ .

مصال ، ونَعتَه بالسيِّد الأجل المفضَّل أمير الجيوش ؛ وكان إذْ ذاك من أكابر أمراء الدَّولة .

وفى الرابع من شعبان من السَّنة اجتمع السودان وجماعةٌ من المفسدين بالبَهْنَسَانية[1] فخرج إليهم الوزير فحاربهم وهزمهم .

ذكر قيام العادل بن السّلار ووزارته ومقتل ابن مصال

فى هذه السنة ثار الأمير المظفَّر أبو الحسن على[2] بن السّلار والى الإسكندرية وخرج وحشد وتقدّم بِمَنْ معه ، ودخل القاهرة فى يوم الأربعاء سابع شعبان ، ووقَفَ على باب القصر ، ورَاسَل الظافر والمدبِّر له من النساء ؛ فراجَعَت فى ذلك وفاء لابن مصال ، ثم أجيبَ إلى ما سأله . وفُتح بابُ القصر ، وخُلع على المظفَّر خلعُ الوزارة ولُقِّب بالعادل . فلمّا اتصلَ ذلك بابن مصال جمع عُربان البلاد ، ووافقه بَدْر بنُ رافع مقدّم العربان بتلك البلاد ؛ وقصد ابن السّلار فندب إليه ربيبَه عَبَّاس بن يحيى بن تميم بن المعِّز بن باديس بعسكرٍ معه . فعسكر ببركة الحبش . فندب ابن مصال لحربه الأمير الماجد فجدَّ فى السّير وكبس عسكر عباس ، فأثخنهم جراحًا وقتلا ؛ فانهزَم عباس .

---

(١) البهنسا : مدينة بالصعيد غربى النيل ، وتتبع حاليًا مركز بنى مزار بمحافظة المنيا ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٢) انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤١٦ رقم ٤٨٥ ، العبر جـ ٤ ص ١٣١ . وانظر أخباره فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٢ وما بعدها ، أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩٦ وما بعدها ، النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ٢٨٨ وما بعدها ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٥٢ وما بعدها .

واجمع ابن مصال رأيه على قَصْد بلاد الصّعيد ، فعاجَلَه ابن السّلار وأمدّ رَبيبه بالعَسَاكر وأمرَهُ بمُعاجلته قبل الجمع ، فأدركه بالقُرب من دَلاَص(١) . والتَقَوْا بينها وبين مهد ، وهى قرية هناك ، واقتتلُوا ؛ فانْجلَت الحرب عن قَتْل ابن مصال وبَدْر بن رافع . وكانت هذه الوقعة فى يوم الأحد تاسع عشر شوال . وحُملَ رأس ابن مصال إلى القاهرة ، وطيف به ، وخُلع على العَادل فى ذلك(٢) اليوم .

وفى السّادس والعشرين من شهر رمضان أغلق العادلُ أبوابَ القاهرة والقصُور ، وقَبَض على صِبيان الخاصّ وقتلهم ، وكانوا جمعا كثيرا وهُم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدّولة فكان الرجل إذا تُوفّى وخلَّف أولادًا حُملوا إلى حضرة الخلافة وأودِعوا فى أماكن مُفْردةٍ لهم ، ويؤخذ فى تعليمهم الفروسية وغير ذلك ؛ وتسمَّوْا صِبيان الخاص . وكان سبب إيقاع العادل بهم أنه بلغه أنهم تعاقَدُوا على قَتْله ، فبادر بهم ، وقَبَض عليهم ، وقَتَل أكثرهم ، وجعل مَنْ بقى منهم فى المراكز بالثغور(٣) .

وفى يوم الجمعة لأربعٍ خلَوْن من شوّال من السّنة قَتَل العادل أبا المكرّم الموفّق محمّد بن معصوم التنّيسى ناظر الدّواوين ، وكان سبب ذلك أن العادل فى مبدأ أمره كان من صِبيان الحُجَر وكان يتكرر [دخوله](٤) إلى الموفق برسائل ويكلّمه بكلامٍ غليظ ، فكرهه

(١) دلاص : من القرى المصرية القديمة ، على الضفة الغربية للنيل ، من أعمال البهنسا ، وهى حاليًا تابعة لمركز بنى سويف بمحافظة بنى سويف ، القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٤٢ ــ ١٤٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩٦ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٥٢ - ٥٥٣ ، الكامل جـ ١١ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٣ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح من المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩٩ .

الموفّق ، ثم كُتِب بعد ذَلك لابن السّلار منشورٌ بإقطاع ، فدخل به إليه ، فتَغافَل عنه وأهمل أمره ؛ فقال له ابن السّلار : ما تسمع ؟ فقال : كلامُك ما يدخل فى أُذنى أصْلاً . فأخَذ ابن السّلار منشورَه وخرج مِنْ حيث أتى . فلمّا ولِىَ أمر الدّولة دخل عليه الموفّق وسلّم عليه ، فقال له : ما أظنّ كلامى يدْخُل فى أذنك . فتلجلج بين يديه وقال له : عفو السّلطان . فقال : قد استعملتُ للعفو مِنْ حين خروجى مِن عندك ، ما أتيتك به . وأشار لبعض خدمه فأحضر مسمارًا من حَديد عظيم الهيئة[1] ، وقال : هذا والله أعدَدْته لك مِنْ ذلك الوقت . وضَرب المسمار فى أذُنِه حتى نفذَ من الأخرى ، وحُمل إلى باب زويلة الأوسط ودُقّ المسمار فى خشبةٍ ، وعُلّق عليها وقد مات .

ذكر ما فعله الفرنج بالفرما
وما جهّزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفى شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفرما فنهبُوها وأحرقوها[2] وعادوا إلى بلادهم . فجهّز العادلُ المراكب الحربيّة وشحنَها بالرّجال وسَفَّرَها فى شهر ربيع الأول سنة ستّ وأربعين ، فمضت إلى يافا وقاتلوا مَنْ بِها فى المراكب ، واستَوْلَوْا على عدّةٍ كثيرةٍ من مراكب الفرنج ، وأحرقوا ما عجزُوا عن أخْذه ، وقتلُوا خلقًا كثيرا . ثم امتدُّوا إلى ثغر عكّا وفعلوا فيه كَفِعْلِهم بيافا . وكذلك فعلُوا بصَيْدا وبَيْروت وطَرابلس . وأنكَوْا فى الفرنج نِكايةً عظيمة .

(١) « عظيم الخلقة » فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٠ .
(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٤ .

ووجدُوا طائفةً كثيرة من حُجّاج الفرنج فقتلوهم عن اخرهم . وكان جملة ما أنفق فى هذا الأسطول ثلاثمائة ألف [١] دينار .

وفى سنة ستّ وأربعين قُطِعت جميعُ الكساوى المرتّبة لِلأُمراء والدّواوين عن أربابها ، وتوفّرت .

ذكر مقتل العَادل بن السّلار
وسَلطنة ربيبه عبّاس

كان مقتلُه فى السّادس من المحّرم سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة . وكان سببُ ذلك أن العادةَ كانت جاريةً بتجريد عسكرٍ من مصر فى كلّ سنة لِحفظ عَسقلان من الفرنج ، وكان الفرنج قد حاصَروها فى سنة سبعٍ وأربعين . فلمّا كان فى هذه السنة وقعت القُرْعة فى البَدَل على عبّاس رَبيبِ العادل ، وهو ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، فجرّده العادل بالعساكر ، وقال له : هَذا الثّغر قد نَازله الفرنج ، ولاغُنْيَة أن تتوجّه بالعساكر إليه لتدفَعهم عنه . فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعةٌ من أكابر الأمراء ، منهم أُسَامَةُ بن منقذ ، وكان خصيصا بعبّاس فلمّا وصلُوا إلى بلبيس تذَاكَر عبّاس وأسامة القاهرةَ وطِيب المُقام بها وماخرجا إليه ، وما يلْقَيَانِه من الشّدائد ولِقَاء العدوّ ؛ فتأوّه عبّاس لذلك ولام عمّه كونه جرّدَه ، فقال له أسامة : لو أردت أنتَ كُنتَ سلطان مصر . قالَ : وكيف الحيلةُ فى ذلك ؟ فقال : هذا ولدُك نَصر [٢] ، بينَه وبيْن الظّافر مودّةٌ عظيمة ، فأَرْسِله إليه وخاطِبْهُ على لِسَانه أنْ تكونَ أنت

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٥ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٢ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥ .

(٢) « ناصر الدين » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٤

السّلطان مكان عمّك ، فهو يختارُك ويكره العادل . فإن أجابك لذلك فاقتُل عمّك .

فجهّز عبّاس ابنَه وعرّفه ما تقرّر مع أسامة . فدَخل إلى القاهرة على حينِ غفلةٍ من العادل ؛ واجتمع بالظّافر وأعلمه الحال ؛ فأجاب لما طلب .

ثمّ مضى نصر إلى عِند جدّته ، زوجةِ العادل[1] ، وأعلم العادل أنّ والدَه أعادهُ شفقةً عليه من السّفر . ومضى العادلُ إلى مصر وجهّز المراكب الحربية ، وأنفق فى رجالها ليلحق عبّاسًا ، وأقام طُول نهاره فى العَرْض [٩٤] والنّفقة على رجالها ، وعادَ إلى دارِه بالقاهرة وهُو على غايةٍ من التّعب . فلمّا نام على فراشه احتزّ نصْر بنُ عبّاس رأسه ، ومضى به إلى القصر ، ودخل إلى الظّافر ، وجهّز إلى أبيه ، فركب لوقته ؛ ودخل القاهرة صبيحَة نهارِ الأحد الثّانى عشر من المحّرم ، فوجدَ جماعةً من الأتراك ، كان العادلُ قد اصْطَنعَهم لنفسه ، قد ثَارُوا لذَلك ، فلاطَفَهم وطمّنهم ؛ فلمْ يَطمئنوا . ومضَوْا إلى دمشق .

وكانت وزارةُ العادل ثلاث سنين ونصفَ سنة تقريبًا ؛ وكان من الأكراد الزرزارية . ولمّا قُتل طِيف برأسه فى القاهرة جميعًا . ونَصب الظّافر عبّاسًا فى السّلطنة[2] .

ذكر مقتل الظّافر بأعداء الله وأخويه

كان مقتلُه فى ليلة الخميس سلخ المحرّم سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة . وذلك أنه خرج ليلاً متنكّرًا ومعه خادمان وجاءَ إلى دار نَصْر

(١) هى السيدة بلارة بنت القاسم ـ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٧ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٣ .

ابن عبّاس ، وهى الدّار المعروفة قديمًا بدار جبر بن القاسم ثم عُرفت بسكن المأمون بن البطائحى ، وهى المدرسةُ المعروفة بالسُّيُوفيّة [١] فى وقتنا هذا ، المقابلة لحافر الدبابله . بخُط سُوق السُّيُوفيين بالقاهرة وهى لطائفة الفقهاء الحنفّية . فلمّا جاء الظّافر إليه قتله نصْرُ بن عبّاس ، وحَفَر له تحت لوحٍ رخامٍ ودفنه [٢] ، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر .

وكان سببُ ذلك أنّ الأمراء استوحشوا من أُسَامة بن منقد لمّا حَسَّن لعبّاسٍ قتل عمّه العادل ، وقَصَدُوا قَتْل أسامة . فلمّا علم بذلك اجتمع بعبّاسٍ وقال له : كيف تصبرُ على ما يقولُه النّاس فى ولدك واتّهامِهم أنّ الخليفة الظّافر يفعلُ به ما يفعلُه مع النساء ! فعظُم ذلك على عبّاس . وقيل بل كان الظّافر قد أنْعم على نصْر بنِ عبّاس بقليوب ، فجاء نَصرٌ إلى والدِه وأعلمه بذلك ، فقال له أُسَامَة : ما هى بمهرك غالية . فقال عبّاس لأُسَامة : كيف تكونُ الحِيلة على هذا الأمر ؟ فقال : إنّ الخليَفة فى كلّ وقتٍ يأتى لولدك فى هذه الدّار خِفْية ، فإذا أتاه فأُمُرْه بقَتْله . فأوصى عبّاسٌ ابنَه بذلك ؛ فلما جاءَه قتله نصر [٣] .

قال : ولمّا كان صبيحةَ يومِ قَتْلِه ركِب عبّاسٌ وولدُه على العادَة وأتى إلى القصر ؛ فقال لِبعَض الخدم : أعْلِم مولانا لِيجْلسَ للاجتماع معه .

---

(١) المدرسة السيوفية بالقاهرة : وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م ، وعرفت بالسيوفية لكون سوق السيوفيين كان على بابها ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) « ودفنه فى الباذهنج بدار المأمونى بالسيوفيين » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٦٤ .
« ورمى الكل فى جب عنده وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء ، فصارت من جملة رخام المجلس » ــ أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٥ .

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٧ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٨ ، المواعظ والاعتبار ص ٢٠ .

فدخل وأعْلَم أهل القصر بما التمسهُ عبّاس من الاجتماع بالخليفة . فقالوا : قل له إنّه خرج البارِحَة ولم يَعُدْ . فجاء الخادمُ إليه وأعلَمه الخبرَ ؛ فشدَّدَ عبَّاسٌ فى طَلَب الظّافر ، ودخل إلى القاعات ومعه أكابرُ الخدم ، وقال : لا بُدَّ مِنْ مولانا . فقيل له عند دلك : أنْت أعلمُ بحاله.. فأحضر أخويْه يوسف وجبريل وقال لهما : أنتما قتلتُما مَولانا . فأنكرَا ذلك وحَلَفا عليه الأيمان المغلَّظة . وأحْضر القاضى وجماعةً من الأعيان أهل الفتيا وداعى الدّعاة وقال : قد صحَّ عندى أنّ أخَوَىْ الظّافر قتلاه . فأفْتَوه بقتلهما ؛ فقُتلابين يديه وقيل إنّه قَتَل معهما أبا البقاء ابن حسن بن الحافظ ، وصارم الدّولة ، مُصْلِح ، زمام القصر[١]

قال : وكان الظافرُ مِن أحسن خَلْق الله وجهًا . وكان مولدُه يوم الأحد ، النّصف من شهر ربيع الآخر[٢] سنة سبعٍ وعشرين وخمسمائة ؛ فكانت مدَّة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوما ؛ ومدّة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام[٣]

ولده : أبو القاسم عيسى .

وزراؤه : تقدّم ذكرهم .

قضاته : أبو الفضائل يونس ، إلى أن صرفه العادل بن السّلار فى سنة سبعٍ وأربعين ؛ ووَلَّى أبا المعالى مجلى[٤] بن نجا المخزومى ، فأقام إلى آخر الدّولة .

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٨ ، أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٦ .

(٢) « فى المحرم » كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٥٧ .

(٣) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٩ ، أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٦ .

(٤) هو مجلى بن جميع بن نجا ، القرشى المخزومى ، القاضى أبو المعالى ، صاحب الذخائر ، المتوفى سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٥٤ رقم ٥٥٦ .

ذكر بيعة الفائز بنصر الله

هو أبو القاسم عيسى بن الظّافر بأعداء الله ؛ وهو الثالث عشر من ملوك الدّولة العُبَيديّة والعاشر من ملوك الدّيار المصرية منهم . بُويع له بعْدَ مقتل والده فى يوم الخميس سلخ المحرّم سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة ، وعمرُه خمس سنين . وذلك أنّه لما قُتل الظّافر استدعى عبَّاسٌ ابنَه أبا القاسم عِيسى هذا وحَمله على كَتِفه ، ووقف فى القاعة ، وأمر أنْ تدخُل الأمراء ، فدخلوا ؛ فقال : هذا ولدُ مولاكم وقد قتل أبوه وعَمّاهُ كما تَرَوْن ، والواجبُ الطّاعَةُ لهذا الطفل . فقالُوا بأجمعهم : سمعنا وأطعنا ؛ وصاحوا صيحةً عظيمة زَلّ منها عقلُ الصّبى واختل . ثمّ سيَّره [٩٥] إلى إمّه ولُقّب بالفائز ؛ فأقام يُصْرع فى كلّ يوم[١] .

وانفرد عبّاسٌ بالوزارة وبتدبير الأمور ، ولم يَبْق على يدِهِ يَد ، وظنَّ أن الأمر استقام له .

ذكر خروج عبّاس من الوزارة وما آل إليه أمره

قال المؤرخ : لما قُتل الظّافرُ بأعداء الله أكثَر أهلُ القصر النُّوَاح عليه ، وشرعوا فى إعمال الحيلة على عبّاس ، ووافَقَ ذلك نُفور الأمراءِ منه لإقْدامِه على القَتْل : فاختلفَت الكلمةُ عليه ، وهاجت العَساكر . وتفرّقت الفرق ، ولبسُوا السِّلاح . فخرجَ إليهم عبَّاس فى يومِ الاثنين عاشر شهر رَبيع الأول من السنة ، فقاتلهُم وهزمَهم ، وقتل جماعةً منهم .

---

(١) « وكان واليًا على الأشمونين والبهنسا » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٥ .

فأرْسَلت عمّةُ الفائز أخت الظّافر شعورَ أهلِ القصرِ طيَّ الكتُب إلى الأمير طلائع ابن رُزّيك ، وهو إذ ذاك متولّى الأعمال السُّيوطية ، وقيل كان متولّى مُنية بنى خَصيب[1] ، وسألوهُ الانْتصَار لَمْوْلاه فجمع العُربان والأجناد ومُقْطعى البلاد ، وسار إلى القاهرة ، فوصل إليها فى تاسعِ عَشر شهْر ربيع الأول من السَّنة ، وخرج النَّاسُ للقائه .

فاستشار عبّاس أسامةَ بن مُنقد فأشار عليه باللّحاق بالشَّام . فدخل إلى القَصر وأخذ فى [جَمْع][2] تُحفه وحَمْل أمواله ، وسار هُو وأسَامة بنُ منقذ إلى الشّام على طريق أيلة . فأرسلت عمّة الفائز إلى الفرنج بعَسْقلان رُسُلاً على البريد تُعْلِمُهم الحال وتَبذل لهم الأموال فى الخُروج عَلَى عبّاس وأَخْذِ ما معه . فخرجُوا إليه وقاتَلُوه ، فتخاذَلَ عنه أصحابُه ، ونهبُوا ما معه فأسره الفرنج وحملُوه إلى عسقلان ؛ ونَجَا أسامة إلى دمشق[3] .

وقيل إن الفرنج قتلوا عبَّاسًا وأسرُوا ابنَه نصرًا ففدَاه الصّالح بنُ رزِّيك ، وأحضرَهُ إلى القاهرة وضرب عُنُقَه .

ذكر وزارة الصّالح أبى الغارات طلائع بن رُزيك

قال المؤرخ : لمّا توجّه عبّاس نحو الشّام وافق ذلك قدومَ طلائع بن رزيك ، فخرج الأُمراء والعساكر إليه . فمن الأُمَراء مَنْ شَهر سلاحَهُ

---

(١) منية بنى خصيب : هى مدينة المنيا الحالية ، قاعدة محافظة المنيا وتنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هارون الرشيد ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٩ ، وانظر ما جاء بكنز الدرر جـ ٦ ص ٥٦٧ ، وانظر المواعظ والاعتبار ص ٢٣ ـ ٢٧ .

وقاتَله ، ومنهُم من التَحق به ؛ ثم انْجَلى الأمرُ بعد ساعةٍ عن دُخُول طلائع إلى القاهرة والعساكرُ بين يَدَيه . وشقَّ القاهـرة وهو لابسُ السَّـواد ، وأعلامُه سُودٌ كذلك حُزْنًا على الظَّافر ، وشعورُ نساء القصر التى سُيِّرت إليه على الرِّماح[١].

ونَزَل طلائع دارَ المأمُون الّتى كان بها نَصْر بن عبّاس ، وأحضر الخادم الذى كان مَع الظَّافر لمّا قُتل وأعلمهم بمكانه ، فأُخْرِج وغُسِّل وكُفِّن ، وحُمِل فى تابُوتٍ على أعناق الأمراء والأُستاذين ، وابنُ رزّيك يمشى أمام التّابوت . وأتَوْا به إلى القَصْرفصَلَّى عليه ابنُه الفـائز ودُفِن فى تُـربَتهم بالقَصر وجَلَس الفائز فى بقيَّة النَّهار ، وخَلَع على ابن رُزّيك بـالموشّـح والعِقد ، وعلى ولَده وإخوتهِ وحاشيته ، وقُرِئ سجلُّه[٢] بالوزارة . ونُعِت بالملك الصَّالح . وقَبَض على جماعةٍ من الأُمراء وقَتَلهم ، فى ثالث عِشْرى شهر ربيع الأول من السنة

وفى سنـة خمسين وخَمسمـائـة خـرج الأمـير تميم[٣] ، متـولِّى إخميم وأسيوط ، على الصّالح ، وجمَع جمعًا صالحا[٤] ، فأخرج إليه الصّالـح عسكرًا ، فالتقَوْا واقتتلوا ، فقتل تميم فى سَابع عشر رَجب .

وفى سنة اثنتين وخـمْسِين وخَمسمائة انفسَخت الـهُدنة بين الصَّالح بن رُزّيك والفرنج ، فجهّز الصَّالح الجيُـوش والسَّرايـا إلى بلاد الفـرنج . فوصَلَت سريَّة إلى عسقلان وغَنِمَت وعادت سالمة . وجهَّز المـراكب فى

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ١٠٩ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

(٢) انظر نص هذا السجل فى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢١٤ ، مجموعة الوثـائق الفاطمية ص ٣٣٧ ـ ٣٥٠ ، وجاءت مقتطفات منه فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١١ .

(٣) « الأوحد بن تميم » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٢ .

(٤) « جمعا موفورا » فى المنتقى من أخبار مصر ١٥٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢٤ .

البَحر إلى نحو بيروت ، فأوْقعَت بمراكب الفرنج . وجهَّز سريَّةً إلى جهة الشَّوْبَك[١] فعَاثُوا فى تلك النَّواحى ، وعادُوا سالمين بالغنائم والأسرى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى الحجَّة سنة اثنتين وخمسين قبض الصَّالح ابن رُزّيك على الأمير ناصر الدَّوْلة ياقوت وأولاده واعتقلهم ؛ وسبَبُ ذلك أنّه بلغه أنّه كاتَب أختَ الظَّافر وقصَد القيام على الصَّالح ، وكان واليًا عامِلاً على الأعمال القُوصيّة ، وهُوَ بالقاهرة . ولم يَزَل فى حبْسه إلى أنْ توفى فى شهْرِ رجب سَنَة ثلاث وخمسين .

وفى سنة أربع وخمسين ثارَ على الصَّالح طَرْخانُ بن سَليط بن ظَريف ، متولّى الإسكَنْدريَّة ، وجمَع جمُوعًا من العُربان وغيرها ؛ وتقدَّم بها لحربه ؛ فنَدَب الصَّالح إليه الأمير عزّ الدّين حُسَام بن فِضّة بعسكر ، فالتقَوْا واقتتلوا ، فهَزَم حُسام جيُوشَه وظَفِر به ؛ فاعتَقَله الصَّالح .

فلمّا كان فى المحرَّم سنة خمس وخمسين ثارَ أخوه إسمَاعيل طلبًا لِثأره ، وتلقَّب بالْمَلك الهادى ؛ فنَدب الصَّالح [٩٦] إليه الجيُوش . فلمّا هجمت عليه هرب وأتَى الجيزة ، واستَتَر عنْدِ بَعْض العُربان . فلمّا كان فى يَوْم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طَرْخَان من الاعتقال هُو والمُوكلُ بهِ ، فقُبض عليه فى السّادس من الشهر وصُلِب على باب زَويلة ، ورُمِى بالنَّشّاب ، ثم مُسِك أخوه إسماعيل وصُلِب إلى جانبه بعد ضَرْب عنقه[٢] .

وفى سنة أربعٍ وخمسين بنَى الصَّالح حِصْنا من اللبن على مدينة بلبيس[٣] .

---

(١) الشوبك : قلعة حصينة جنوب البحر الميت ، على الطريق بين مصر والشام ـ معجم البلدان .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٣٦ .

ذكر وفاة الفائز بنَصْر الله

كانت وفاتُه فى لَيْلة الجُمُعَة السّابعِ عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ؛ وقيل للَيْلةٍ بقيت منه ؛ وكان مولدُه فى يوم الجمعةً لِتسعٍ بقِينَ من المحرّم سنة أربعٍ وأربعين ، فكان عمره إحدى عشرة سنةً وستةَ أشهر وأيّامًا ، ومدّة ولايتِه ستّ سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً(١) .

وزراؤه : الأفضل عبّاس بن يحيى بن تميم ؛ ثم الصّالح طلائع بن رُزّيك .

قضاته : أبو المَعالى مجلّى بن نجا القرشى المخزومىّ ؛ ثمّ صُرِف فى أوّل وزارة الصّالح ، وأعيد أبو الفضائل يونُس ؛ ثم صُرِف بالقاضى المفضّل أبى القاسم هبة الله بن كامل .

ذكر بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يُوسف ، بن الحافظ عبد المجيد ، بن محمد ، ابن المستنصر بالله أبى تميم معدّ ، بن الظّاهر لإعزاز دين الله أبى هاشم على ، بن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور [بن العزيز بالله](٢)نزار ، بن المعزّ لدين الله أبى تميم معدّ ، بن المنصُور بنصْر الله أبى طاهر إسماعيل ، ابن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد ، بن المهدىّ عُبَيد الله . وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العُبَيدية ، والحادى عشر من مُلوك الديار المصرية

(١) أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٩ .

وورد أن مدة ولايته « ست سنين وستة أشهر وسبعة عشر يومًا » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٦٦ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

منهم ؛ وعليه انقرضت دولتُهم . بُويعَ له بعد وَفاة الفائز بنصر الله فى يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وكان الملك الصّالح طلائع قَصَد أن يُبايع لِشخص من أقارب العاضد ، فقال له بعض أصحابه لا يكنْ عبّاس أحزمَ منكَ حيثُ اختار صغيرًا وتَرك من هو أسَنّ منه ، واستبَدَّ هو بالأمر . فعَدل الصّالح إلى العاضد ، وبايَع له وهُوَ مراهق البلوغ ؛ فكانت الخلافةُ للعاضِد اسمًا وللصّالح رسمًا[1] .

ويوسُف أبو العاضد هو أحد الأخوين[2] اللذين قَتَلهما عبّاس بعد قتل الظافر .

وفى سنة ستٍّ وخمسين تزوَّج العاضدُ لِدين الله بابنة الملك الصّالح بن رُزّيك ؛ وكان العاضِدُ توقّف عن زواجها ، فجبَرَه الصّالح على ذلك واعتقله إلى أن تزوَّجها ؛ وقَصَد بذلك أن يُرْزَق العاضدُ منها ولدًا فتحصُلَ الخلافةُ والْمُلْك لبنى رُزّيك ، فجاء بخلاف ما قصد[3] .

---

(١) « للعاضد رسمًا ولطلائع حسمًا » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١١١ ، « وكانت خلافته اسمًا له ، وجسمًا ورسمًا للصالح بن رزيك » كنز الدرر جـ ٧ ص ١٣ .

(٢) « الأبوين » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والأحداث السابقة .

(٣) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٤٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٥٥ .

ذكر مقتل الملك الصّالح طلائع بن رُزّيك وقيام ولده الملك العادل رُزّيك

كـان مقتلُه فى السّابـع عشَر من شهـر رَمَضان سنـة ستٍّ وخمسين وخمسمائة . وذلك أنّه ركب فى هذا اليوم مِنْ دار الـوزارة إلى القصر ، وجَلَس على مرتَبَته على عَادته ؛ فلمّا انقضى المجلس خَرج ؛ فبينَما هو فى دهاليز القَصْر وثبَ عليه جماعةٌ فضربُوه بالسّكاكين عِدَّة ضربات مهلكة . وكان سببُ ذلك أنّـه تحكّم فى الدّولـة لخلُوِّها من الأمـراء وصِغَر سِنّ العاضد ، وكان قد فرَّق الأمراءَ وقتَلَ بعضهُم ؛ فبعَثت ستُّ القُصور عمَّة العاضد الأموالَ إلى بَعض الأمراء وأغرَتْهم به ، فرتبوا ذلك . قال : ولمَّا ضُرب بالسّكاكين ألقى ابن الزُّبد نفسه عليه وقَاتل دُونَـه ودخَل بقيَّـةُ الأمراء فخلَّصُوه فركِبَ وبه بَعْض رَمق . فلمّا رأتْه ستُّ القُصور وقَدْ ركب أيْقَنَت بالهلاك . قال : ولمَّا استقرّ فى منزله أرْسل إلى العَاضِد يعاتِبُه على مَا كانَ مِنْه ، فحَلَف وأنكر أن يكون اطَّلع [1] علَى هذا الأمر قبْل وُقوعه فأرسل إليه أن يَبْعثَ إليه عمَّته ستّ القُصور ، فتوقَّف العاضِدُ عن ذلك ، فأرسَل الصّالح إلى [ست][2] القصور وأخرجها ؛ فلَما جاءت إلى منزله أمر [٩٧] بخنْقها ، فخُنِقَت بين يديه حتّى ماتت . ومات الصّالح فى بقيّةِ لَيْلته .

قال : وكان الصّالح شديد التَّشَيُّع متُغَاليًا فى مذهب الإمَاميّة ؛ وكانَ يكره أهْلَ السُّنّـة . وقيل إنَّـه كان يَسبُّ الصّحـابة ، رضى الله عنهم ،

---

(١) « أن يكون الخلع على هذا » فى الأصل ، وهوتحريف ، والتصحيح يتفق والسياق ، انـظر الكامل جـ ١١ ص ٢٧٤ .

(٢) [ ] إضافة تتفق والسياق ، وانظر الكامل جـ ١١ ص ٢٧٤ .

وغضب على مَن يتنقَّصُهم . وكان فيه بُخْلٌ وحَسَد . ومَنع فى أيَّامِهِ من بَيْع الغلال حتى غَلَت الأسعار . وكان كثيرَ التَّطَلُّع إلى ما فى أيدى النَّاس ، وصادَرَ جماعةً ليس لهم تعلُّقٌ بالدَّولة وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالا . وهو أوَّلُ من خُوطِب بالْـمَلك فى الدِّيار المصْريّة [١] .

وقال ابن الحباب فى سيرته : إنَّه من وَلَدِ جَبَلة بن الأيهم الغسَّانى الذى ارْتَدَّ عن الإسْلام فى خِلافة عُمر بن الخطَّاب رضى الله عنه . قال المؤرخ : وكان والدُ الصَّالح يُسمى أسَد رُزِّيك ، قَدِم مع أمير الجُيوش بدر الجمالى .

قال : وكان الصَّالح مع ذلك حازِمًا ضابطًا لأمُور دَوْلته شاعرًا أديبًا . قال القاضى الأرشد عُمارة اليمنى [٢] : دخَلْتُ على الصَّالح قبل وفاته بليلتين فَنَاوَلَنى رُقْعَةً وَقَال : قدْ عَمِلت هذين البيْتين فى هذه السَّاعة ؛ فإذا فيها :

نحْنُ فى غَفْلَةٍ ونَومٍ وللْمَو ... تِ عُيُون يقْظَانَـةٌ لا تَنَـــام
قَدْ رَحَلْنا إلى الحِمَامِ سنِينًا ... لَيْتَ شِعْرى ! متَى يكونُ الحِمَام !!

---

(١) يذكر المقريزى أن « أول من لقب بالملك منهم مضافًا إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله ، فقيل له السيد الأجل الملك الأفضل ، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة » ـ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٤٠ ، ثم أكد ذلك فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٦١ ، ثم عاد المقريزى وذكر فى حديثه عن الصالح طلائع بن رزيك « وهو أول من خوطب بالملك فى ديار مصر ونعت به » اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٨ ، ٢٥١ ،
ولم يرد فى السجل الخاص برضوان بن ولخشى لقب ملك ـ انظر صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦ ، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٣٢٦ ـ ٣٣٣ .

(٢) هو أبو الحسن نجم الدين عمارة اليمنى ، المتوفى سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م ، وصاحب كتاب النكت العصرية ص ٤٨ ـ ٤٩ .

فقلت : هما صَالِحان ، وقُمت ، فكان آخر عهدى به[١] .

قال المؤرخ : وكان الصَّالح يقطَعُ اللَّيل أثلاثا : فالثُّلث الأوّل مع أمراء دَوْلته ووجُوهِها ؛ والثُّلث الثّانى مع جُلَسائه ونُدَمائه وشعرائه ؛ والثُّلث الثالث مع خواصِّ نسائه . فكان يُسَمّى : أبو العمرين قالوا : وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالى :

ومن شعر الصَّالح قوله :

يا مريضَ القَلْب بالذَّنْـ ـبِ ، متى بالعَفْو تَبْرَا
كلَّما جَدَّدْت يومًا تَوْبةً ضيَّعْت أُخْرى
تشتهى الأجْرَ ولا تفْـ ـعلُ ما يُكسبُ أجْرا
أترى بَعْد ذَهاب الْـ ـعُمر تَسْتأنفُ عُمْرا

وقوله :

يَا ماشِيًا فوق الثَّرى رِفْقًا ، فَسوفَ تصيرُ تَحْتَه
إنْ قُلْتَ إنّى أعْرِفُ الْـ ـمَوْلَى الْقَدير ، فَمَا عَرَفْتَه
إن كُنْت تَعْبُد لِلمخا فةِ والرَّجاء ، فَمَا عَبَدْتَه[٢]

والصَّالح هُو الذى بنى الجامع[٣] خارِجَ بابِ زَويلة المعروف به . وكانَ يقول : نَدِمْتُ على ثلاثةٍ : أحدُها أننى بنيت الجامع بِظَاهر القاهرة وجَعَلتُه عونًا على بابِ زَويلة فيضرّها وقت الحصار ؛ والأخرى تَوْلِيَتى شاوَر أعمال الصَّعيد ، والله لا كَانَ خرابُ دَوْلةِ بنى رُزّيك إلا على يديه ؛

---

(١) النكت العصرية ص ٤٨ ـ ٤٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٥٢ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٧٦ .

(٢) انظر النكت العصرية ص ٤٨ .

(٣) عن جامع الصالح : انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٩٣ .

والثّالِثة أنّني أنفقت فى العساكر مائتى ألف دينار لِأجْل فتْح بيت المقدس فتأخّرت عن ذلك[١].

قال : ولمّا توفى دُفِن بدَار الوزارة ثمّ نُقل إلى تربته الّتى بقَرافَة مصر .

قال : ولمّا حضَرته الوفاة أحْضَر ولدَه رُزّيك وأوْصاه بوَصايا كثيرة ، من جُمْلتها أنّه لا يَعْزل شاوَر ولا يغيّر عليه مُغيّرا .

قال : ورثَاه الشّعراء بقصائِدَ كثيرة ، فيها ما قاله القاضى الأرشد عمارة اليمنى :

أفى أهْل ذَا النّادى عليمٌ أُسَائِلُه فإنّى لِما بى ، ذاهبُ العَقْل ذَاهِلُه[٢]
سمعْتُ حديثا أحْسُد الصّمّ عِنده ويُذْهَل وَاعِيهِ ، ويَخرس قائِلُه

ومنها :

وقَد رَابَنى مِنْ شَاهِد الحَال أنّنى أرى الدّسْت منصوبًا ومَا فِيه كافِلُه
وأنّى أرَى فوْقَ الوُجُوهِ كآبَةً تَدُلّ على أنّ النّفُوسَ ثوَاكِلُه
دَعُونى . فما هَذَا أوَان بُكائه[٣] سيَاتِيكُمُ طَلّ البُكَاءِ وَوَابِلُه

وهى قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب

قال : ولمّا مَاتَ الصّالحُ خَرجَت الخِلَع من القصر لوَلَدِه ، وتلَقّب بالملك العَادل مجد الإسلام[٤]

---

(١) أخبار الدول المنقطعة ص ١١٢ .

(٢) « ذاهب اللب ذاهله » فى الروضتين جـ ١ ص ٣١٣ ، النكت العصرية ص ٥٠ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ١٨ .

(٣) « فما هذا وقت بكائه » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٥٢ .

(٤) أخبار الدول المنقطعة ص ١١٢ .

[٩٨] ذكر ظهور حُسَين بن نزار وقتله

وفي شهر رَمضان سنةَ سبعٍ وخمسين وخمسمائة وَرَد حُسين بن نزار، بن المستنصر بالله ابن الظّاهر لإعزاز دين الله مِن بلاد المغرب، وقد جَمَع جمعًا عظيمًا وتلقب بالْمُنْتَصر بالله؛ فخرج إليه الأمير عزّ الدين جُسام بن فضّة ابن رُزّيك على صورة الانضمام إليه واللّحاق به. فلمّا صار عنده فى خَيمته غَدَر به وقَتَله، وحَمَل رأسه إلى العَاضد لدين الله.

وفيها بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام البُرج المعروف به بثَغْر الإسكندرية.

ذكر انقراض دولة بنى رزيك

قد ذكرنا أن الملك الصَّالح بن رُزّيك، والدَ العادل، لمَّا حَضَرتْه الوفَاة أوصى ابنَه العادل بوصَايا كثيرةً منها أنّه لا يعزلُ شاوَر من عمله ولا يحرّكه؛ وحذَّرَه من ذلك فلمّا كان فى سنة سبعٍ وخمسين اجتمع أَقَاربُ العادل وحسَّنُوا له عَزْل شاوَر عن ولاية الصّعيد، فذكَّرَهُم بوصيَّة أبيه، فأصروا على عزله، وكان أشدّهم فى ذلك الأمير عزّ الدّين حُسام ابن فضّة، فألزم العادل إلى أن كتب كتابًا يسْتَدعى فيه شاوَر ويأمُره بالحضور إلى القاهرة فكتب إليه شاوَر يستعطِفُه ويُظْهر الطّاعة والإدْلال لِسَابق الخِدْمة لأبيه، ومُنَاصَحته فى القيام بأمُور الدّولة، ثمّ قال فيه إنْ كان القصدُ أن يلىَ الأعمال أحدُكم فلْيُرسل السّلطان من يتسلّمها غير عزّ الدين حسام؛ وإن كان غيرُكم من الأمراء فأنا أحق به مِنْ سواكم؛ وقد سمعتم وصيَّة أبيكم الصّالح فى حقّى وما كرَّره عليكم فى أمْرى

وإقْرار أعمال الصّعيد فى يدى . وأرسل الكتاب إلى العَـادل ، فوقَفَ عليه ، وأوقف عليه أقاربه وأهله . فقالُوا : إنْ أبْقَيتـه طَمع فى البـلاد ولا يحملُ إليك مالاً . فقال العادل لهم : المصلحةُ تركُه . فصمَّموا على عزله .

فأحضر العادلُ نصير الدّين شيخ الدّولة ، وهو من أقاربه ، وخَلَع عليه وولاَّه الأعمال القوصيَّة ، وكتب على يده إلى شاوَر بتسليم الأعمال إليه ووُصوله إلى القاهرة . وتوجَّه نصير الدّين . فلمّا وصل إلى إخميم أقام بها وأرسل الكتاب إلى شاوَر طَيَّ كتابه ؛ فلمّا وقف شاوَر على الكتاب أرْسل إلى نصير الدّين رسولاً من جهته برِسالة يقولُ لَه : إنّ بينى وبينك صُحْبة ولا تغترّ بقَول حُسام ، وارجع من حيث أتَيت فهو خير لك . فرجَع نصيرُ الدّين إلى القاهرة ولم يُعاوِدْه .

وأظهر شاوَر العصيان على الدّولة ، وأحضر جماعةً من العُربان من بنى شيْبان وغيرهم ، وتوجَّه من الأعمال القوصية ، وجَعَل طريقه على الـواحات ، وخـرج منها إلى تـروجة ، وحشـد العُربـان وأنفق فيهم الأموال ؛ فوافقُوه وانْطاعُوا له ؛ فسار بهم نحو القاهرة . فنَدَب العادلُ لحَرْبِه سيف الدّين حُسَينًا ، صهره ، ومعه جماعةٌ من الأمراء . فَرَاسلَهم شاور واستمالَهم ، وبذل لهم الأموالَ الجمّة ، فمالُوا إليه فلمّـا التقوْا انحازُوا إلى جماعَتهِ وفارقوا مُقدَّمَهم ، فانْهزَم حُسَين واستجار بظَريف ابن مكْنُون أمير جذام فأجَارَه ، وحَملَه فى البحر ؛ فمضى إلى مـدينة الرَّسُول ﷺ فمات هُناك فنَدب إليه العَادل عزّ الدّين حُسامًا ، فانْهزَم منه أيضا .

فعِنْد ذَلك خرج العَادِلُ من القَاهرة وتوجّه إلى إطْفِيح ، واستصحب أهله وذخـائرهُ . واستجـار بسُلَيمـان بن الفَيض اللّخمى ، وكـان من

أصحاب أبيه الصَّالحِ ، فأنزله عنده ؛ ومضى مِنْ وقته إلى شاوَر وأخبره بخبَر العادل ، فندَب إليه جماعةً فأخذُوه أسيرًا هو ومن معـه ، ونهَب أصحابُ ابن الفيض ما كان مَعَه . وحُمِل إلى شاوَر فوصل إليه فى لَيْلة الجمُعة لِثلاثٍ بقينَ من المحرَّم سنةَ ثمانٍ وخمسين وخمسمائة فأمَر شاوَر باعتقاله ؛ وقالَ لسليمان بن الفيض : لقَدْ خَبأك الصَّالح ذخيرةً لَولَدِه حين استجارَ بك فأسْلَمته لى ، وأنا أخْبئُك ذَخيرةً لولدى . ثمَّ أمَر به فشُنق . وسُمّيت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم ، فهى تعرف الآن بهذا الاسم . فكانت أيام العادل سنةً واحدة وثلاثةَ أشْهر وأيّامًا . وجَميعُ دَوْلَة بنى رُزّيك تسِعُ سنين تقريبا .

[٩٩] ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارتُه فى يـوم الأحَد لثمـانٍ بقِينَ من المحرَّم سنـةَ ثمانٍ وخمسين وخمسمائة . وذلك أنّه لما انْهزَمت جُيوش العَادل بن رُزّيك وهرب هُوَ إلى إطْفِيح خَلَت القاهرة منهم ؛ فدخَلها شاوَر ، وحضَر بين يَدَىْ الخليفة العَاضد لِدين الله ، فخَلع عليه خِلَع الوزارة ، وسَلْطَنه ، ولقَّبه بأمير الجُيوش . وأطْلقَ شاور لِأهل القُصور الإطْلاقاتِ الكثيرة ، وزادَهُم على مقرَّرَاتهم فى أيّام بنى رُزّيك واستدعى أمْوَالَ بنى رُزّيك وودائِعَهُم . وبَسَط العَدْل أيّامًا ، ثم شرع فى ظُلْم النّاس ؛ وبَسَط يدَه ويدَ أوْلادِه فى الدَّولة ؛ وقَطَع أرزاق الأمراء وَالجُند واستخفَّ بهم وبالعَاضد . وعَتَا ولدُه الكَامل وتجبَّر ، ولِبَس رداء الكِبْر ، وبذخ فى الأموال ، وصَرَفها فى غير وجُوه مصارفها [1] .

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٥٩ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٩١ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٥ .

وسَاءَتْ سيرتُه فى الأمراء فأجمعوا على إخراج العَادل من الاعْتقَال ونَصْبه فى الوزارة . فاتَّصل ذلك بالكَامل بن شَاور ؛ فأ شارَ على أبيه بقَتْل العادل ، فامْتنَع مِن ذلك وقَال : إنَّه أوْلانى خيرًا فلا أقتُله ، فقَتَله الكاملُ من غير إذْنِ أبيه . فعظُم ذَلك على شَاوَر وعلى الأُمَراء ، وغَضب الأمراءُ لقَتْل العادِل ، وخرَجُوا عن شاوَر ، وافترقوا على فرقتين : فكان الضّرغام وإخوتُه وأهْلُه فرقة ، والظَّهير عزّ الدين مرتفع وعين الزّمان وابن الزّبْد فرقة .

وَكان الضّرغام ومَنْ معهُ أظهَر الفرقتين . فخرج على شاوَر وحَارَبه ، فجمع شاوَر أموالَه وذَخائِره وغِلْمَانَه ، وخرجَ ليلاً من القاهرة ، فرَكِب الضّرغامُ فى إثْرِه فلَحِقَه عند باب النصر ؛ فقاتَله طىٌّ بن شاوَر ، فقُتِل طىّ ، وأُسر أخوه الكَامِل ؛ ومضَى شاوَر إلى الشّام . وذلك فى صبيحة يوم الجمُعَة ، لثَلاثٍ بقِينَ من شَهر رمضان من السّنة . فكانت وزارته ثمانيَة أشهر وخمسةَ أيّام[1] . والله أعلم .

ذكر وزارة الضّرغام بن سوار

قال : ولمّا توجّه شاوَر إلى الشّام عاد الضّرغام إلى القَصر وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور ، ومضى إلى دَارِه بقيَّة ليلَتِه . وجاء إلى القُصور من بُكرة النّهار ، فاستَدْعاه العاضدُ لِدين الله ، وولّاه الوزارة ، ولقّبه بالملك المنصُور ، واستحلف له الأمراء .

---

(١) « فكانت وزارته تسعة أشهر » اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦١ .

وأرسل علم المُلك بن النحاس إلى الملك العَادل نُور الدّين محمود بن زَنكى ، صاحب الشّام ، يقبض على شاور . فأظهر نور الدّين الإجابةَ لذلك ، وباطِنُه بخلاف ظاهِره[١] .

قال : ولمَّا ولِى الضّرغام الوزارة خرجَ عليه الأمير على بن الخوّاص ، فظَفِر به الضّرغام ، فأشهره بالقاهرة ، وصلبه . وأحْضر جماعةً من الأمراء إلى دَارِهِ لدَعوةٍ عملها ، فلما حضَرُوا إليه قَبَض عليهم وقتلهم[٢] .

ذكر قدُوم شاوَر مِنَ الشّام وعوْدُه إلى الوزارة ثانيًا وقَتْل الضّرغام

كان قدومُه فى جُمادى الآخرة سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة .

وذلك أنّه لمَّا توجه إلى دمشق اجْتَمع بالمِلك العادل نُور الدّين محمود بن زنكى ، وحسَّن له أن يُجهّز معه جيشًا يفتح به مصر ؛ ووَصَفها له ورغَّبهُ فيها ، والتزم أنَّهُ يحمل خزائنَها[٣] إليه يستعينُ بها على قِتَال الفرنج . فمال إلَيه ، وجهَّز معه أسدَ الدّين شِيركُوه بعَسَاكر . فلمّا قاربُوا مصر ندب إليهم الضّرغام عسْكرًا وقدّم عليه أخاه نَاصر المسلمين ، فلقيَهُم على بلبيس ، فانْهزَم العسكر المِصرىّ وعاد إلى القاهرة .

---

(١) اتعاظ الحنفاء جـ ٣ ص ٢٦٣ .

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦٣ .

(٣) « ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦٤ ، وانظر أيضًا الروضتين جـ ١ ص ٣٣٢ .

وسار شاوَر والعساكر الشّاميّة ، فنزل بظَاهر القَاهِرة فى آخر الشّهر ، واجتَمعَ معَهُ خلقٌ كثيرٌ من العُربان . فعلم الضّرغامُ أنّه لا قِبَلَ لـهُ بما دَهَمَه ؛ فركب إلى القصر ، وطاف به ، وجَعَل يُنادى العَاضد ، وهُو يَخاف أنْ ينزل إليه . فأرْسَل إليه العاضدُ يقول : أنْـجُ بنفسك . فخَـرجَ من القاهرة يُريد مِصْر ، ودَخَل شاوَر وشيركُوه إلى القاهرة ، ونَدَب جماعةً فى إثر الضرغام فأدركُوه عند مشهد السّيدة نَفيسة ، فقتلُوه هناكَ فى يـوم الجُمعة ، للَيْلتين بقيتا من جُمادى الآخرة . وطِيفَ برَأسه القاهرةَ [١٠٠] على رُمْح ، وبقيَتْ جُثّتُه مُلقاةً بين الآكام ثلاثةَ أيّام حتى أكلتها الكلاب . ودُفن ما بقىَ منه عند بِرْكَةِ الفيل ، وعُمِل عليه قُبّة ، فكانت مدّة ملك الضرغام تسعة أشهر[١] .

وكان فارسًا بطلاً ، كريمًا ، عاقلا ، أديبًا ، يحبّ العلمَاء ويقرّبُهم ؛ وله مجلسٌ يجتمع فيه أهلُ العلم والأدب دون غيرهم . وكان حسن الخَطّ . يُقال إنّه كانَ يُحاكى ابنَ البوّاب[٢] فى خَطّه .

قال : ودخل شاوَر إلى العَاضد لدين الله فى مُسْتَهـلّ شهر رجَب ، فعاتبه على مَاكَان منْهُ فى إحْضَار العسْكَر الشّامىّ ، وحذّره عاقبَةَ ذلك ؛ فوعده أنّـه يَصْرفهم إلى بـلادهم ، فقَبِل ذلـك منه ، وخَلَع عليـه خِلَع الوزارة .

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٦ ، أخبار الدول المنقطعة ص ١١٤ .

(٢) هو على بن هلال ، صاحب الخط الجميل المنسوب ، وعرف بابن البواب لأن أباه كان بوابًا عند بنى بويه ـ وتوفى ابن البواب سنة ٤٢٣ هـ/١٠٣١ م ـ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٤٢ رقم ٤٥٧ .

« ويكتب كتابة ابن مقلة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧١ .

وهو محمد بن على بن الحسين بن مقلة ، الكاتب المشهور ، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ/٩٣٩ م ـ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١١٣ رقم ٦٩٨ .

ذكر غدر شاور بشيركوه

قال : ولما انْتَصب شاوَر فى الوزارة وتَمّ له ماأرَاد ، أخذ فى التَّدبير على العَسْكر الشّامى ، وحلَّف الأمراء ، وتخاذل عن شيركوه ؛ وصارَ يخْرجُ إليه بوجْهٍ عليه آثار الغضب . ففَهِم أسدُ الدّين شيركوه عَنه ، وعلِم شاوَر أنّه لا قِبَل له بشيركوه ، فاستعانَ بالفرنج [١] واستَدْعاهم من السّاحل لنُصْرَته ، ووعَدَهم بالأموال . واتّصل ذلك بأسَد الدِّين فحاصَرَ الْقَاهرةَ .

واتّصل خبرُشاوَر بالملك العادل نُور الدّين ، فكتب إلى أسَد الدين وأعلمه بما بَلَغه من مُبَاطَنة الفرنج ، وأمَرَه بالخُروج عن الدِّيار المصريَّة . فأبَى ذَلك وتوجَّه إلى بلبيس ، واحْتَوى على بلاد الحوف ، وجَعَل مدينَة بلبيس ظهْره . فاجْتمعت العساكرُ المصريّة ومَنْ أتاهُم من الفرنج ، ونَازَلُوا أسَدَ الدّين ، وحصرُوه ببلبيس ثلاثة أشهر ، وهو مُمْتنع بها لم يبرز إليهم ، فبينما هُمْ كذلك إذْ وَرَد الخبر علَى الفرنج أنّ نورَ الدّين مَلَك حَارِم [٢] وسار إلى بَانْياس ، فراَسَلُوا شيركوه يسْألُونه الصُّلح ؛ فأجابَهُم إلى ذلك ؛ وخَرج من مدينة بلبيس [٣] ، فلمّا صَار بظَاهِرها أشَار شاوَر على تلك الفرنج بمُهَاجَمتِه وقَبْضِهِ فامْتَنع مُرّى [٤] ، ملك الفرنج ، وأبى إلاّ الوفاءَ بيَمينه لشيركوه .

وسار أسَدُ الدّين إلى الشّام ، وعادَ شاوَر إلى القَاهرة ، ومعَهُ طائفةٌ من الفرنج يتقوَّى بهم . وكانَ قد بَذَل لهم على نُصْرته أربعمائة ألف دينار ، ويهادنهم خمسَ سنين .

---

(١) المقصود بالملك عمورى الأول Amalric I ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ١١٦٢ - ١١٧٤ م ٥٥٧ - ٥٦٩ هـ الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٨٤ .

(٢) حارم : حصن تجاه مدينة أنطاكية ــ معجم البلدان .

(٣) « فى أول ذى الحجة » ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧٧ .

(٤) المقصود عمورى الأول ــ أملريك الأول .

وكان دُخول شاوَر إلى القاهرة لِستٍّ مضَيْن من ذى الحجة من السَّنة ؛ واستمرَّ بمصر مِنْ غير مُنازع ، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر عَوْد أسد الدّين شيركوه إلى الدّيار المصرية بالعَسَاكر الشاميّة وانفصاله

قال المؤرخ : لمَّا انْفَصل أسدُ الدّين شيركوه عن الدِّيار المصريّة فى سنَة تسعٍ وخمسين ، بقِىَ عندَه منها أمرٌ عظيم . وكان إذا خلاَ بنُور الدّين الشّهيد يرَغِّبه فيها . فجهّزهُ بالعساكر والحُشُود ، فسارَ من الشّام فى شهر ربيع الأوّل سنَة اثنين وستّين وخمسمائة ، فاتّصل ذلك بشاوَر ، فرَاسَل الفرنج وانْتَصر بهم . فخَرج الفرنج ووقفوا على الطّريق الّتى يسلُكها شيركوه إلى الدّيار المصريّة ، فعَدَل شيركوه عن تلْكَ الطّريق وجَعَلها عن يمينه ، وسَارحتى نزل إطفيح ، فى سادِس شهر رَبيع الآخر . وعَبَر النّيل إلى الجَانب الغَربىّ ، ونزل الجيزة ، وأقام عليها إلى العشرين من جُمادى الأولى . واستَوْلَى على الغربية وغيرها . فأرسل شاور إلى الفرنج يَستحثهم ، فأتَوْه على الصَّعب والذُّلول ، وقد طَمِعوا فى ملك الدّيار المصريّة (١) .

فلما تكامَلُوا بالقاهرة توجَّه أسد الدّين شيركوه نحو الصَّعيد ، وسارَ شاوَر وَالفرنج فى آثارهم . فجمع أسدُ الدّين الأُمَراء واستشَارَهُم [فى](٢) العُبور إلى الجانب الشّرقى والعَوْد إلى الشّام ، فوافَقُوه على ذلك ؛ فنهض

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٨٢ ، الروضتين جـ ١ ص ٣٦٤ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٢٤ وما بعدها .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

شرف الدّين بُزغش ، أحد الأمراء المَماليك النُّوريّة ، وكان شُجاعًا مِقْدامًا ، وأنكر ذلك كلّ الإنكار ، وامتنع من الموافقة ، وقال : مَنْ خاف من الأسر أو القَتْل فلا يخدُم المُلوك [١] ويأكل رزقهم ، ويكون فى بيته عند امرأته . وقال : والله لانَزال نُقَاتل إلى انْ نُقتل عن آخرنا أو نَنْتصر . فوافَقَه أسدُ الدّين ، وجَمَع عسكره ورتّبهم ، وجَعَل أثْقَاله فى القَلب ليكثُر بها السَّواد ولِئَلاّ ينهَبها أهلُ البلاد .

فبينما هُم فى التّعبئة إذَا بشاوَر والفرنج قد أقْبلُوا ، ورتّبهم واقتتلوا ، فكانت الهزيمةُ على شاوَر والفرنج [٢] وتَوَالَت عليهم الحملاتُ من العَسْكر الشّامى ، فتمادَتْ بهم الهزيمة إلى الجيزة ، وشِيركوه فى آثارهم . وقُتِل منهم خَلْقٌ وغَرِق كثيرٌ منهم . وأسر أسدُ الدّين [١٠١] صاحبَ قيسارية [٣] .

ودخل شاوَر وَالفرنج إلى القَاهرة ، ومَلَك أسدُ الدّين البرَّ الغَربى بكَماله ؛ وقَصَد الإسكندريّة ليُحاصرها . فلمّا قرُب منْهَا خرج إلَيه أهلُها وسلَّمُوها إليه من غير مُمَانعة ؛ وكان والى الثّغر يوم ذاك نجم الدّين بن مصال . فدخَل شيركُوه البلدَ ، وأقَام بها أيّامًا قلائل ، واستناب بها صَلاَح الدّين يوسَف بن [illegible] نجم الدّين أيوب ، وتركه بها ومعه ألفُ فارس . وتوجّه هو إلى الصّعيد فاسْتَولى عليه ، واستخرج أمواله ؛ وصام شهرَ رمضان بمدينة قوص .

هذا وشَاوَر يتجهّز للخَروج ويرتّب أحْوالَه وأحوال الفرنج ويرمّ ماتلف لَهُم . فلمّا تكامَل ما يحتاجُ إليه قصد الإسكندريّة ، فأخْرج أهْلُها

---

(١) « الكرك » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الروضتين جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٢) « وكانت هذه الواقعة فى موضع يعرف بالبابين بالقرب من الأشمونين ، فى يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة » ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) هو هيو Hugues ــ أخبار الدول المنقطعة ص ١١٥ .

الأموالَ وأنْفقُوها ، واستَعدُّوا للحصَار ؛ فكان فى جُملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زُنْبُورك وما يناسبُ ذلك من الآلات .

وسارَ شاوَر ومُرّى ملك الفرنج ، فنازلوا الإسكندريَّة . فلمّا رأَوْا شدّةَ أهلِها واجتماعَهم على الحصار ، تقدَّم شاوَر إليهم وقال : سلِّموا إلىّ صلاحَ الدّين ومَن معه وأضَعُ عنكم المَكُوس ، وأعطيكم الأخْماس . فامتنعوا وقالوا : معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسْمَاعيلية . فعْند ذلك وقَع الحصار واشْتَدّ على أهل الإسكندرية إلى أن قلَّت الأقوات .

وبلغ ذلك أسدَ الدّين فسار من الصّعيد وجدَّ فى السّير إلى الإسكندرية ، وكان شاور قد أفْسَد التّركمان الذين مع أسد الدين فصَارُوا معه ؛ واجتمع لشيركوه طائفةٌ كبيرةٌ من العُربان ، فلمّا علم شاور بقُربه خافَه وراسلَه فى طلب الصُّلْح ، وبذَلَ له خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذهُ من خراج البلاد ، على أنْ يُفارق الدّيار المصريّة . فأجاب أسدُ الدّين إلى ذلك[1] ، وشرط عليهم أن يرجعَ هو إلى الشّام ويرجع الفرنج إلَى بلادهم . فاستقرّت هذه القاعدة ، وحلف الفرنج عليها .

ففُتِحت الإسكندريّة عند ذلك ، وخرج صلاحُ الدّين يوسفُ إلى مرّى ملك الفرنج وجلس إلى جانبه . فدَخل شاوَر عليهما ، فقال لمرّى : سَلِّمْهُ إلى وأعطيك فى كلِّ سنةٍ خمسين ألف دينار . فقال مُرّى : نحن إذا حلفنا

---

(١) « وأرسل شيركوه إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح ، ورحل عن مصر الى الشام » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٨٥ .

كما ورد « فصالحوا الملك الناصر على أن يسلم إليهم أسد الدين صاحب قيسارية » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١١٥ .

وهذا يدل على أن الصلح تم أولا مع صلاح الدين فى الإسكندرية .

لا نَغْدِر ؛ ووَبَّخَه . وكان أسد الدّين قد شَرط على شاوَر أنّ الفرنج يرحَلون ولايلتمسُون من البلاد دِرْهمًا ولا ضيعةً ولا غير ذلك .

قال : وارْتحل أسدُ الدّين ، ودَخَل مصر بِرِضَاء أهْلِها ، وسارَ إلى بلبيس . وأرْسل إلى ابْن أخيه يوسُف أن يتوجَّه فى المراكب إلى عكّا ، هُو ومَنْ مَعه من العسكر ، وماَ مَعهُ من الأثقال ؛ ففعَل ذلك ، وركب منْ عكّا إلى دمشق .

هكذا حكى ابنُ جلب راغب فى تاريخه . قال : وارْتحل أسَدُ الدّين من بلبيس فى نِصْف شوّال ، ودخل شاوَر إلى الإسكندريّة ، ثمّ خرجَ منها وعاد إلى القاهرة ، فدخَلَها فى مُستهلّ ذى القعدة ، وتلقّاه العاضد لدين الله .

وأمّا الفرنج ، فاستقرّ بينهم وَبيْن شاوَر أنْ يكونَ لهم شِحْنةٌ[1] بالقاهرة وتكونَ أبوابُها بيد فرسانِهم ، ويكونَ لهم فى كلّ سنة مائة ألف دينار .

وفى سنة ثلاثٍ وستّين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شاوَر وطَلَب الوزارة ؛ فندَبَ شاوَر عسكرًا لحَرْبه ، فانهزمَ ومَضى إلى بلاد الفرنج[2] .

---

(١) شحنة : مصطلح يقصد به ما يوضع فى البلد من رجال الأمن لضبطها وحمايتها ــ القاموس .
(٢) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٩٠

ذكر وُصُول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر

قال المؤرخ : وفى سنة أربع وستّين وخمسمائة عَادَ الفرنج إلى القاهرة . وذلك أنهم لمّا توجّهوا فى سنة اثنتين وستّين رتّبوا فى القاهرة جماعةً من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحمُوها من عَسكرٍ يأتى إليها من الشّام ؛ فلمّا رأَوْا خُلُوّ مصر من الأجناد راسَلُوا مِلِكَهم مرّى واستدعَوْه ، وكان مَن الشّجَاعة والمكر على أمرٍ عظيم . فامْتنع وقَال : الرّأىُ ألا نقصدها فإنّها طُعمةٌ لنا ، وأموالُها تُحمل إلينا نتقوّى بها على قتَال نور الدّين ؛ وإنْ قصَدْناها حَمَل أصحابَها الخوفُ على تَسْليمها لنُور الدّين ، وإن أخَذَها وجَعَل فيها مِثْل أسد الدّين شيركوه فهُو هلاكُ الفرنج وخروجُهم من الشام . فلمْ يقبلوا رأيه ، وقالُوا : ما يَصِلُ عسكرُ نور الدّين إلينا إلا وقدْ ملكناها . وغلَبُوا على رأيه .

فتجهّز الفرنج وسارُوا حتىّ وصلوا إلى مدينة بلبيس ونازلُوها ؛ فوقع الإرجَافُ بمصْر ؛ وشرعَ شاوَر فى إنشاء حصنٍ على مِصر واستعمل فيه النّاس ، فلم يبْقَ أحدٌ إلا وعمل فيه ؛ وحفر خَندقا . وملك الفرنج بلبيس عنوةً وسبَوْا وقتلُوا خلقًا كثيراً[1]. وكان معهم بعضُ الأمراء المصريّين مِمّن هرَب من شاور ، منهم يحيى بن الخياط .

ثمّ سارُوا [١٠٢] إلى القاهرة وأحاطوا بها ، وذَلك فى العاشر من صَفر ، فخاف أهلُها إن أهْملوا القتال أن يحلّ بهم ما حَلّ بأهل بلبيس ، فجدُّوا فى القتال والاحتراز .

---

(١) أخبار الدول المنقطعة ص ١١٥ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٩٣ .

قال : ولمَّا قرُب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهْب مصر وإحْراقها ، فأحرقت فى تاسع صفر ، ونهبت ؛ وأمر أهلُها بالانتقال إلى القاهـرة ، فانتقَل بعضُهم ، وتحصَّن البعض بالجزيرة ، وتوجَّه آخرُون فى المراكب إلى ثَغْرى الإسكندريَّة ودمياط ، وطائفةٌ إلى الوَجْه القبلى ؛ وتفرَّقوا وذهبت أموالهم . كلُّ ذلك قبل نُزول الفرنج على القاهرة بيومٍ .

قال : وبَقيت النَّار تعمل فيها أربعةً وخمسين يومًا ؛ إلى حَادى عشر شهر ربيع الآخر .

قال : ولمَّا علم العاضدُ لدين الله عجْزَ أهل القاهرة عن مُقاوَمة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نُور الدِّين محمود بن زنكى يستغيثُ به ، وسيَّر إليه شعورَ نسائه فى طىِّ الكتب .

وقيل إن شاوَرًا أرسل إلى نور الدِّين أيضًا .

وأرسل شاوَر إلى مرِّى ملك الفرنج يُذَكِّره بسابق الصحبة والعُهُود القديمة ، وقرَّر أنْ يحمل إليه ألفَ ألف دينار ؛ فأجاب مرِّى إلى ذلك وقال لأصحابه : نأخُذ المال ونتقوَّى به ونَمْضى ثمَّ نرجع فَلا نُبالى بعْدَ ذلك بنُور الدِّين . فاستَوْثق شاوَر منه بالأيمان وعجَّل له مائة ألف دينار ، وماطَله بالبقيَّة ؛ وشرع يجمعُ له من أهل القاهرة المال ، فلم يحصُل له من جِهَتهم غير خمسة آلاف دينار لِضَعْفهم .

هذا والرُّسُل تتَتابعُ إلى الملك العادل ويَسْتغيثُون به . وقرَّر له ثلث الدِّيار المصرية .

قال : ولما وصلت الكتب إليه طلَب أسدَ الدِّين شيركُوه من حِمْص ، فسارَ منها إلى حَلَب فى ليلةٍ واحدة ، فجهَّزه نُورُ الدِّين وأعطاهُ مائتى ألف دينار سوَى الثِّياب والسِّلاح وغير ذلك . فاخْتَار أسدُ الدِّين من العَسكر ألفَى فارس من الأقوياء ، وستَّةَ آلاف مِن بقيَّة العسكر . وأنْفق نـورُ

الدّين لكلِّ فارسٍ عشرين دينارًا . ثمّ سار شيركوه ، فكان خروجُه من دمشق فى مُنتصف شهر ربيع الأول ؛ وأرْدَفه نورُ الدين بجماعةٍ من الأمراء ، منهم مملوكُه عز الدين جُرْدَيك ، وشرف الدين بزغش وعَين الدّولة اليارُوقى ، وناصح الدّين خُمارتَكين ، وقطب الدين يَنَال بن حسّان المنبجى ، وغيرهم [١] . والله أعلم .

ذكر قدوم أسد الدّين شيركوه إلى الدّيار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال : وقدِم أسد الدّين شيركُوه بالعَساكر ، فكان وُصوله إلى مصر فى يوم الثُلاثاء لليلَةٍ بقيت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستّين وخمسمائة . ولمّا بلغ الفرنج قربُه عادُوا عن القاهرة إلى بلادهم ، وكان رُجوعهم فى يوم السّبت ثالث شهر ربيع الآخر ، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس . ودخل أسدُ الدّين القاهرة فى سَابعِ شهر ربيع الآخر ، وخرج إليه العاضدُ لدين الله وتلقّاه . وحَضَر يوم الجمعة التاسع من الشّهر إلى الإيوان وجَلَس إلى جانب العَاضد ، وخلَع عَليه ؛ وفرح النّاس بقُدومه . وعادَ أهلُ مصر إليها ، وشرعُوا فى إطفاء النّيران وإصْلاح ما تشعَّث . وكانت سقُوفُ جامِع عمْرو بن العَاص بمصر قد احْتَرقت فجدَّدهُ الملك النّاصرُ صلاح الدّين يوسُف .

قال : وأمَر العاضدُ أسدَ الدّين بالنُّزول على شاطىء النّيل بالمقس ، ورتّب له شاوَرولِمن معه الإقامات الوافرة ، وأظهرَ لهُ ودًّا كثيرا ، وصار يتردَّد إليه فى كلّ يوم . فطلب أسدُ الدّين من شاوَر ما لايُنْفقه فى عسكره ، فمطَلَه

---

(١) انظر الكامل جـ ١١ ص ٣٣٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص٢٩٤ .

فسيّر إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكّارى يطالبُه بالنّفقة ويقولُ له : إن العَسْكر قدْ طال مُقامُهم وطالبُوا بالنّفقة وتغيـرت قلوبهم عَليْك ، وإنّى أخشى عليك منهم . فلَمْ يكترِث شاور بذلك ، وشرع فى المُماطلة فيما كان قرّره لنور الدّين .

وعزم شاور على أن يصْنَع دعوةً ويُحضر أسدَ الدّين وجماعةَ الأمراء الذين معه إلى دارِه ، ويقبض عليهم ، ويستخدم من معه من الجُند فيمتنع بهم من الفرنج . فنهاهُ عَن ذلك ولدُه الكَامل ، وحلفَ أنّه إنْ صمّم على هذا الأمر عرّف به شيركوه . فقالَ له أبوه : والله لِئن لم تَفعل هذا قُتِلنا عن آخرِنا . فقال الكاملُ لأبيه : صدَقْت ، ولأنْ نُقتل ونحنُ مسلمون خيرٌ من أنْ نُقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنّه ليس بيْنَك وبين [عود][1] الفرنج إلا انْ يسمعوا أنّ أسد الدّين قد قُبض عليه ، وحينئذٍ لَوْ مشى العاضدُ إلى نور الدّين ما أغاثه ، ويملكُون البلاد . فترك ماعَزَم عليه[2] . واتّصَل ذلك بالعاضد فأعْلم شيركوه .

[١٠٣] ذكر مقتل شاور

كان مقتلُه فى يوم السّبت لثلاثَ عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر من السنة .

وذلك أنّ الأُمراء النُّوريّة لمّا رأوْا مُماطلَته بالنّفقة وبَلَغهم أنّه قد عمل على القبض عليهم اتّفق صلاحُ الدّين يوسُف وعـزّ الدين جُـرْدَيك ، وغيرهما ، على قَتلِه وأعلمُوا أسد الدّين بذلك ؛ فنهاهم عنه . واتّفق أنّ شيركوه خَرج لِزيارة قبر الإمام الشّافعى هذَا اليوم ، وحضر شاور لَهُ على عادته ، فقيل إنّه توجّه للزّيارة ؛ فقال : نتوجّه إليه . فتوجّه ومعَهُ يوسُف

(١) [ ] إضافة للتوضيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٣٩ .
(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٣٩ .

وجُرْدَيك وهما يُسايرانه ، فـأنْزَلاه عن فـرسه ، وكتَّفـاه ، فهرب عنـه أصحابُه . فجعَلاَه فى خَيْمةٍ ، وأحاط بها جماعةٌ ولم يُمْكِنْهم قتلُه بغير أمر أسد الدّين [١] . فحضر من القصر جماعةٌ من قِبَل العاضد ، يستحثّ عـلى قَتله ، وحضر أسدُ الدّين إلى المخيَّم ورُسُل العاضد تتَوَاتر لأسد الدّين يأمره بقتله . فقُتل ، وأُرسِل رأسهُ إلى العاضد عَلى [٢] رُمْح .

ومَضى أولادُه إلى القصور واستجارُوا بالعاضد ، فقُتِلوا بعد العقوبة الشّديدة ، فى يوم الاثنين لأربعٍ خلَوْن من جمادى الأولى منها . وهم : الكامل ، والمعظّم ، وركن الإسلام . وتـأسّف شيركـوه بَعْد ذلـك على الكامِل لأنه بلغَهُ ما جرى بينه وبين أبيه .

قال : ولما قُتل شاوَر استدْعَى العاضدُ أسدَ الدّين شيركُوه ، فَدخَل إلى القاهرة فى السّاعة الّتى قُتل فيها شاوَر ، فرأى العَوامّ وقد اجتمعُوا ، فهالَهُ ذلك ، فقال لهم : إنّ مولانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمرُكم أن تنْهَبوا دُورَ شاور . فتفرّق النّاس عنه ، ونهبوها . ودخل شيركوه إلى القصر ، فتلقّاه العاضد ، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة ، ولقّبه الملك المنصُور أمير الجيوش [٣] . ولم تطُلْ مدّته فى الوزارة حتّى تُوُفى إلى رحمة الله تعالى بعْدَ خمسةٍ وستّين يومًا ؛ وقام بالأمر بعدَه الملك النّاصـر صلاحُ الـدّين يوسف ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدّولة الأيّوبيّة .

---

(١) « نور الدين » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ١١ ص ٣٤٠

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠١ .

(٣) انظر نص المنشور وما كتبه عليه العاضد بخطه فى صبح الأعشى جـ ٩ ص ٤٠٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٢ ، الروضتين جـ ١ ص ٤٠٢ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦٥ .

ذكر انقراض الدّولة العُبَيديّة والخطبة للمستضىء بنُور الله العبّاسى

كان انقراضُ هذه الدّولة عند خَلْع العاضِد لدين الله ، وذلك فى يوم الجمعة لِسَبع مضَيْن من المحرّم سنة سبعٍ وستّين وخمسمائة .

وكان سببُ ذلك أنّ صلاحَ الدّين يوسف لمّا ثبتَتْ قدمُه فى ملك الدّيار المصريّة واسْتمال النّاس بالأموال قَتَل مؤتَمَن الخلافة جوهرًا ، زمام القصور ، ونصب مكانه قَراقوش الأسدىّ الخصىّ خادم عمه ، ثمّ كانت وقعةُ السّودان فأفناهم بالقَتل ، على ما نذكُره إن شاء الله مستوفًى فى أخباره . ثمّ أسْقط من الأذان قولَهم : « حىَّ على خَيْر العمل » ؛ وأبْطَل مجلسِ الدّعوة ؛ وضعُف أمْرُ العَاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملكُ العادلُ نور الدّين إلى الملك النّاصر صلاح الدّين يأمُره بالقبض على العاضد وأقاربه ، والخُطْبة للخليفة المستضىء بنور الله[1] ، وكان المستضىء قد رَاسَله فى ذلك . فامْتَنع صلاحُ الدّين ، وكَره إزالَةَ هذه الدّولة . فكتب إلى الملك العادل يعتَذِرُ ، وقال : إنْ فعلنا هذَا الأمْر لانَأمَن من قيامِ أهلِ مصر علينا لميلهم إلى هذه الدّولة . وكان قَصْد صلاح الدّين أن يتقوّى بالعاضد على نور الدّين إن هو أرادَ الدُّخول إلى الديار المصريّة[2] .

فلما وَرَد جوابُه على نُور الدّين بالاعتذار انْزعَج لذلك ، وَرادَف رُسُلَه إليه يأمرُه بخَلْع العاضد والقَبْض عليه[3] .

---

(١) هو أبو محمد الحسن المستضىء بنور الله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م/ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣ .

(٢) انظر الكامل جـ ١١ ص ٣٦٨ .

(٣) انظر الروضتين جـ ١ ص ٤٩٣ .

فاسْتَدعى الملك النـاصر الأمـراءَ واستشارهم فى ذلـك ، فمِنْهم مَن حذَّره ، ومنهم مَن هَوَّنه عليه . فأحضر الفقيه اليَسع بن يحيى بن اليسع ، وعرَّفه الحال . فلمّا كان فى هذه الجمعة صعد إلى المنبر بجامعِ مصر قبل طُلوع الخطيب ، ودَعَا للمستضىء بنُور الله ؛ فلم يُنْكر عليه أحدٌ . فلمّا كان فى الجُمعة الثّانية أمر الملكُ النّاصر الخطباءَ بمصر والقاهرة أن يخطُبوا للمستضىء بنُور الله أبى محمد الحسن ، بن المستنجـد بالله العبـاسى ؛ فخطبوا له .

ثمّ تُوفى العاضدُ لدين الله إثْر هذا الخَلْع ، فى يوم عاشوراء من السّنة ، بعد ثَلاثةِ أيّامٍ مِن خَلعه . وكانَ ضعيفًا لمّا قُطِعت خطبته ، فقال صلاحُ الدّين : لا تُعْلِموه ، فـإنْ عُوفى أعلَمنَاه ، وإن تُوفى فـلا نفجعُه بهـذه الحادثة .

وقال [١٠٤] بعض المؤرخين : إنّ صلاح الدين لمّا قطع خُطبته دَخَل عليه وقَبض عليه واعتقله ، فلمّا رأى ذلك كان فى ذخائِره فصٌّ فى خاتم ، فمصَّه ، فمات لِوَقته . فكان صلاح الدّين يقولُ : ندمت [على] كَوْنى دخلتُ علَى العاضد وفَعلتُ به ما فعَلْت ، وكان أجَلُه قدْ قرُب .

ولمّا ماتَ جلسَ الملكُ النّاصر للعَزاء به . فكانت مدَّة ولايته إحدْى عشرةَ سنة وخمسة أشهرٍ وتسعة عشر يوما ، ومولدُه فى يوم الثلاثاء لعشر بقِينَ من المحرّم سنةَ ستٍّ وأربعين وخمسمائة ؛ فعمرهُ على هـذا إحدى وعشرون سنة إلاّ أحد عشر يومًا .

وكان له من الأولاد ثلاثة عشر وهم علىّ ؛ وموسى ؛ وعبد الكريم ؛ وأبو الحجّاج يوسف ؛ وأبو الفتوح ؛ وإبراهيم ؛ وجعفر ؛ ويحيى ؛ وعبد القوى ؛ وعبد الصّمد ؛ وأبو البشر ؛ وعيسى . فاعْتقلهم الملكُ النّاصر بأجمعهم ، واستمرُّوا فى الاعتقال إلى سنة اثنتـين وستّمائـة ، فكان من أمرهم ما نذكرُه فى أخبار الدّولة الأيوبية .

ووَزَرله مَن ذكرنا أخبارهم ، وهم : الصّالح أبو الغارات طلائع بن رُزّيك ؛ ثم ولدُه العادل رُزّيك ، ثمّ شاوَر ؛ ثمّ الضرغام ؛ ثم عاد شاور ؛ ثمّ أسد الدّين شيركوه ؛ ثمّ الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف .

قضاته : أبو القاسم هبة الله بن كامل ؛ وأبو الفتح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى ؛ ثمّ الأعز أبو محمّد الحسن بن على بن سلامة ؛ ثم أعيد عبد الجبّار ؛ ثم أعيد ابن كامل ، ثمّ صرف على أيام الملك النّاصر بالقاضى صدر الدين أبى القاسم عبد الملك بن درباس[1] .

وكان العاضد شديدَ التشيُّع متغاليًا فى سبّ الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين . إذَا رأى سُنّيًا استحلّ دمه .

جامع أخبار الدّولة العُبَيديّة ومدّتها ومَنْ ملك من ملوكها

كانت مدّة تغلُّب ملوك هذه الدّولَة على البلادِ منذ أَخْرجَ أبو عبد الله الشيعىّ عُبيدَ الله ، المنعوت بالمهْدىّ ، من سِجِلْماسة ، من سجن الْيَسَع ابن مدرار إلى أن مات العاضد هذا مائتى سنَة وسبعين سنَة وشهورا[2] . منها ببلاد الغرب ، منذُ دخل عُبيد الله المهدى رَقّاده إلى أنْ وصل المعزّ لِدين الله إلى القاهرة أربعُ وستون سنة وعشرة أشهر وخمسة وعشرُون

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ١١٦ ــ ١١٧ .

(٢) « مائتين وتسعة وستين سنة وثمانية أشهر وأحد وعشرين يوما » ــ أخبار الدول المنقطعة ص ١١٧ .

يومًا[١] . وباقى هذه المدّة بمصر والشّام ، إلى أن انقطعت دعوتهم . بخروج عسقلان عن يد المسلمين واستيلاء الفرنج عليها ، فى جُمادى الآخرة سنةَ ثمانٍ وأربعين وخمسمائة ، فى أيام الظافر بأعداء الله فى وزارة عبّاس بن يَحيى بن تميم .

وعدّة من ملك منهم أربعة عشر ملكا تَسَمَّوْا كلُّهم بالخلافة ؛ وهم : عبد الله المنعوت بالمهدىّ ؛ ثم ابنُه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد ؛ ثمّ ابنُه المنصور بنَصر الله أبو الظاهر إسماعيل ؛ ثم ابنه المعزّ لدِين الله أبو تميم معدّ ، وهو أوّل من ملك الدّيار المصريّة والبلاد الشامية منهم ، وإليه تُنسَب القاهرة المعزيّة ؛ ثم ابنُه العزيزُ بالله أبو المنصُور نِزار ؛ ثمّ ابنه الحاكم بأمْر الله أبو على المنصور ؛ ثمّ ابنُه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم ، وقيل أبو الحسن ، علىّ ؛ ثم ابنُه المستنصر بالله أبو تميم معدّ ؛ ثم ابنه المستَعْلى بالله أبو القاسم أحمد ؛ ثم ابنُه الآمر بأحكام الله أبو على المنصُور ؛ ثم ابن عمِّه الحافظُ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمّد بن المستنصر بالله ؛ ثم ابنُه الظّافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ ؛ ثم ابنُه الفائز بنَصر الله أبو القاسم عيسَى بن الظافر ؛ ثم ابنُ عمِّه العاضدُ لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسُف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر ؛ وعليه انقرضت دولتُهم ، وانتهت أيّامُهم ، وباد مُلكهم ، فلم يَعُد إلى وقتنا هذا .

قال المؤرخ : ولما خُلع العاضدُ ومات واعتَقَل الملكُ النّاصر صلاح الدّين يوسف أولادَه بالقُصور مرّ القاضى الأرشد عُمارة اليمنى الشّاعر بالقصور ، وهى مغلَّقَة الأبواب ، مهجورة الجناب ، خاويةٌ على عروشها ، خاليةٌ من أنِيسها ؛ فأنشأ قصيدته المشهورة التى رَثَى بها القُصور وأهلها ،

---

(١) « خمسة وستون سنة وأربعة أشهر ونصف » ــ أخبار الدول المنقطعة ص ١١٧ .

وهى من عيون المراثى [١٠٥] وأوّلها [١] :

رميتَ يادهرُ كفَّ المجد بالشَّلَل
وجِيدَه بَعْد حُسْن الحَلْى [٢] بالعطل

سعيت فى منهج الرّأى العثُور، فإن
قَدَرْت من عثرات الدهر [٣] فاستقل

هَدَمت قاعدة المعرُوف [٤] عن عَجل
سُقِيتَ مُهْلاً، أما تمشى على مَهَل !

لَهْفِى ولَهْفَ بنى الآمال قاطبةً
على فجِيعَتِنا [٥] فى أكرَمِ الدُّوَل

قدِمتُ مِصرَ فأوْلتْنى خلائِفُها
من المكَارِم ما أرْبَى على الأمل

قَومٌ عرفتُ بهم كَسْب الألُوفِ ومن
جمالها [٦] أنّها جاءَت ولَمْ أسَل

منها :

ياعاذلى فى هوَى أبناءِ فاطمةٍ
لك الملامَةُ إن قَصَّرْتَ فى عَذلى

---

(١) انظر هذه القصيدة فى : الروضتين جـ ١ ص ٥٧٠ ـ ٥٧١ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٦ ، صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤ .

(٢) « بعد حلى الحسن » فى الروضتين .

(٣) « من عثرات البغى » فى الروضتين .

(٤) « قواعد المعروف » فى الأصل ، والتصحيح من الروضتين واتعاظ الحنفا .

(٥) « على فجيعتها » فى مفرج الكروب .

(٦) « كمالها » فى المصادر الأخرى .

بالله زُرْساحة القَصْرين ، وابْكِ معى
عليهما ، لاعَلى صِفّينَ والجَمل
وقُل لأَهْلِهما : والله ما الْتَحمَت
فيكُم جِراحى ، ولاقرْحِى بمُنْدَمِل[1]
ماذَا تُرى[2] كانت الإفْرنجُ فاعلةً
فى نَسْل آل أمِير المؤْمِنين على
هَلْ كان فى الأمْرِ شيءٌ غير قِسْمَةِ ما
مُلّكتُمُ بين حُكم السَّبْى والنَّفل
وقد حَصَلتُم عليها واسمُ جدِّكُم
محمَّد ، وأبيكم غيرُ مُنْتقل
مرَرْتُ بالقَصْر ، والأبوابُ خالية
من الوُفُود ، وكانَتْ قِبْلة القبل
فَمِلتُ بوَجْهى خوفَ مُنتقدٍ
من الأعادى ، ووَجْهُ الوُدّ لمْ يَمِل
أسَلْتُ من أسَفِى[3] دمعى غَداةَ خلَتْ
رحابكُم ، وغدت مهجُورَة السُّبل
أبكى علَى مَأثُراتٍ[4] من مَكارِمكم
حَالَ الزّمانُ علَيها ، وهْىَ لم تَحُل

---

(١) « فيكم قروحى ولا جرحى مندمل » فى الروضتين ، « فيكم جروحى ولاقرحى بمندمل » فى مفرج الكروب وصبح الأعشى .
(٢) « ماذا عسى » فى اتعاظ الحنفا .
(٣) « أسبلت من أسف » فى المصادر الأخرى .
(٤) « أبكى على ما بدا لى » والتصحيح من المصادر الأخرى .

وهى قصيدة مشهورة مطوّلة .

ولمّا انقرضت هذه الدّولة قامت الدّولةُ الأيوبيةّ على ماذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار ملوكها والله أعلم .

ذكر أخبار الدولة الأيوبية

وهى دولَة السّلطان الْمَلك النّاصر صلاح الـدّين يوسف بن أيـوب وأولاده ، ودولةُ أخيه الملك العّادل سيف الدّين أبو بكر وأولاده ، رحمهم الله تعالى .

ولْنَبدأ بذكر نَسَب نجم الدين أيّوب والد مُلُوك الدّولة الأيُّوبيّة وابتداءِ حالِه وحالِ أخيه أسد الدّين ، وكيف تنَقّلتْ بهم الحال إلى أن ملك أسدُ الدّين شيركوه الدّيارَ المصريّة ، وكيف انتقل المُلك مِن بعده إلى ابن أخيه الملكِ النّاصر صلاحِ الدّين يوسُف . ثمّ نذكر أخبار مَنْ ملك مِن أولاده وأخيه الملكِ العادل وأولاده فى حَرْبِهم وسَلْمهم إلى حين انْقراض دولتهم . وبالله التوفيق

ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدّين

هو [أبو][1] سعيد أيوب بن شادى بن مروان . هذا هو المقطوعُ به الذى لا نزاعَ فيه ، ولاخلاف بين أحد من المؤرخين ونَقَلة أخبارهم .

وقال الملكُ الأمجد مجدُ الدّين أبو محمد الحسَن ، ابن السلطان الملك النّاصر صلاح الدين أبى المفاخر داوُد ، ابن السلطان الملك المعظّم شرف الدّين أبى المظفر عيسى ، ابن السلطان الملك العادل سيف الدّين أبى بكر محمد ، ابن الملك الأفضل نجم الدّين أبى سعيد أيوب ، رحمهمُ الله تعالى ، فى كتابه المتَرْجَم بالفوائد الجليّة فى الفَرائد النّاصريّة : سمعتُ مَن يقول : مروان بن محمد ؛ وقال بعضُ النّاس محمد بن يعقوب .

---

(١) [ ] إضافة تتفق مع ما يلى .
وانظر ترجمته فى : الروضتين جـ١ ص ٥٣٣ وما بعدها ، وورد « أبو الشكر » فى وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥٥ رقم ١٠٧ .

وقال شهابُ الدّين أبو شامة عبد الرحمن فى كتابه المترجَم بالرّوضَتَين فى أخبار الدّولتين سمعتُ مَن يقولُ : مروان بن يعقوب(١).

وقال [١٠٦] الملك الأمجد : وقد اختُلِف فى نَسبهم على ثلاثةِ أقوال :

القول الأول : ما قاله عز الدّين على بن الأثير الجزَرى المؤرخ أنّ نجم الدين أيوب من بلد دَوِين(٢) من أذْرِبيجَان ، وأصله من الأكراد الرَّوَادِيّة ؛ وهذا القَبِيل هم أشرَف الأكراد (٣).

قال الملكُ الأمجد : وهذا شيءٌ يجرى على ألسنة كثير من النّاس ، ولمْ أرَ أحدًا ممّن أدركه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النّسب ، لكنّهم لايُنكرون أنّ نجم الدّين كان بِدَوين .

قال : والمشهور عند بَيْتنا أنّ جدنا نزل على الأكراد وتزوّج منهم ، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لا غيرُ . ويدلّ على ذلك أن السّلطان الملك النّاصر صلاحَ الدّين يوسف لمّا ملك البلاد تقدّم فى دَوْلته جماعةٌ من الأكراد ، فلم يبق أحدٌ منهم إلاجاء بنُوعمّه وأقاربُه ، حتى صار فى عُصْبةٍ من أهله ؛ والسّلطان رحمه الله لم يأتِ إليه من يُمّت بقَرابة إلا من جهة النّساء فقط ؛ ولو كان من الرَّوَادِيّة لكان جميعُ القبيلة أولادَ عمه وإن لم يكُنْ له ابنُ عمّ قريب فيكون ابنَ عمٍّ بعيد قطعًا لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد . ولا شكّ أنّ الدّواعى تتوفّر على الانتماء إلى الملك ما لاتتوفّر على الانتماء إلى الأمراء .

القول الثانى : أنهم من أولاد مروان بن محمد الأموى ، آخر خلفاء الدولة الأموية .

---

(١) انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٣٤ .

(٢) دوِين : بفتح أوله وكسر ثانيه ، وياء مثناه من تحت ساكنه وآخره نون ، بلدة من نواحى أرّان فى آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس ــ معجم البلدان .

(٣) انظر الكامل جـ ١١ ص ٣٤١ .

قال الملكُ الأمجد : وهذا شئ ادَّعَاه الملك المعزّ فتحُ الدين أبو الفداء إسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين أبى الفوارس سيف الإسلام طغتكين ، ابن أيوب ، باليمن ، لما ملكه بعد أبيه ، وتلقّب بالإمام الهادى بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين . وقال يحيى بن حميد بن أبى طىّ : قد نقّبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بنى أيوب على أنهم لا يعرفون جداً فوق شادى[1] .

القول الثالث : ما ذكره حسن بن عمران الجرشى فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرةً لنسب بنى أيوب ، فوصله بعلىّ بن أحمد المرّى[2] ممدوح أبى الطيب المتنبى الذى يقول فيه :

شرق الجوُّ بالغُبار إذا سا ... ر على بن أحمد القمقام

وقال أيضا فى مدحه :

إنما بن عوف بن سعد ... جمرات لا تشتهيها النعام

ولم يُنْكر الملكُ المعظّم عليه ذلك بل قَبِل منه .

قال : وهذا سَردُ النّسب الذى عَمِله الجرشىّ ، وهو : أيّوب بن شادى ابن مروان بن أبى على .

قال الملك الأمجد : قلت : ويُحتمل أن يكون أبو على هذا هو محمد المقدم ذكره ـ وأبو على كنية له ـ ابن عنترة بن الحسن بن على بن أحمد ابن أبى على بن عبد العزيز بن هدية بن الحصين بن الحارث بن سفيان بن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مُرّة بن عوف بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وبقية النسب معروف . هذا ما قيل فى نسبه . وأما ابتداء حاله :

---

(١) انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

(٢) « على بن محمد » فى الأصل ، والتصحيح من بيت الشعر التالى ، ومن كنز الدرر جـ ٧ ص ٧ .

ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه

قال المؤرخ : قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدّين شيركوه من بلد دَوِين إلى العراق فى خلافة المسترشد بالله[١] ، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد . فرأى من نجم الدّين عقلاً ورأيا وحُسن سيرة ، وكان أسَنَّ من أخيه أسد الدّين ، فجعله مجاهدُ الدين دُزْدارًا [٢] بقلعة تَكْرِيت [٣] ، وكانت له ، فسار إليها ومعه أسد الدّين .

وقيل بل كان نجمُ الدّين قد خدم السّلطان محمد بن ملكشاه السّلجقى [٤] ، فرأى منه أمانةً وعقلا ، وسدادًا وشهامةً ، فولاّه قلعة تَكِريت ، فقام بها أحسن قيام . فلمّا وَلى السّلطان مسعود [٥] أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدّين بهروز ، فأقرّ نجمَ الدّين فى الولاية . وكان آتابك عماد الدّين زنكى بن آق سنقر ، والد السّلطان الشّهيد نور الدّين لمّا انهزم من قراجا السّاقى فى سنة ستّ وعشرين وخمسمائة ، كما ذكرناه[٦] ، بلغت به الهزيمة إلى تكريت ، فقام نجم الدّين بخدمته أتمّ قيام ، وأقام له

---

(١) هو أبو منصور فضل المسترشد بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٥١٢ - ٥٢٩ هـ/١١١٨ - ١١٣٥ م - تاريخ الدول الاسلامية ص ١٣ .

(٢) « فجعله مستحفظانا » فى الكامل جـ ١١ ص ٣٤١ .
ودزدار : كلمة فارسية بمعنى حاكم حصن .

(٣) تكريت : بفتح التاء ــ بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، ولها قلعة حصينة غربى دجلة ــ معجم البلدان .

(٤) توفى سنة ٥١١ هـ/١١١٧ م ــ انظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٣٧٠ وما بعدها .

(٥) عن السلطان مسعود وأخباره ، انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٢ وما بعدها .

(٦) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٤ .

السّفن إلى أنْ عَبَر دجلة ، فكان ذلـك سبب وُصلته بـالبَيت الأتابكى [١٠٧] وتقدّمه .

قال : ثمّ اتفق بين أسد الدّين وبين قوارص النّصرانى ، كاتب بهروز ، مشاجرةٌ فى بعض الأيام ، فكلّمه النّصرانى بكلمةٍ أمضّته ، فضربَ عُنُقَه بيده ، ورماه برجله [١] فلمّا اتصل الخبر ببهروز وحضر عنده مَنْ حذّره من جُرأة شيركوه وتمكين نجم الدّين واستِحْوازه على قُلوب الرّعايا خافَ عاقبةَ ذلك ، وكتب بالإنكار عليه بسببَ ما كان من أخيه ، وعَزَله . فسار نجمُ الدّين أيوب وشيركوه إلى عماد الدين زنكى فى الموصل ، فلمّا وصلاَ إليه سُرَّ بهما وأحسن إليهما ، فأقطعهما الإقطَاعات الجليلة ، وشهدَا معهُ حُروب الكفار وقتال الفرنج .

فلمّا ملَك زنكى قلعة بَعلبك ، فى سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة جعل نجم الدّين دُزْدَارًا بها ؛ فأقام بها إلى أن قُتل عماد الدين زنكى ، فى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . وحَاصَر معينُ الدّين أنر ، صاحب دمشق قلعةَ بعلبك ، حتّى ضاق الأمر على نجم الدّين ، فاضْطُر إلى تَسليمها إليه ، وتعوَّض عنها إقطاعًا وأملاكًا ؛ وكان عندَهُ من الأكابر الأمراء . واتّصل أسد الدين شيركوه بخدمَةِ الملك العادل نُور الدّين محمود بن زنكى ، فجعله مقدَّمًا على عسكره ، وجعل له حمص والرّحبة وغيرهما .

فلما تعلقت همّة نور الدّين بمُلك دمشق أمر أسدَ الدين بمكاتبة أخيه نجم الدّين أيوب فى ذلك ، فرَاسَله ، فأعان نورَ الدّين على فتح دمشق ؛ فعظُم محلُّهُمَا عند نور الدّين . فكان نجم الدين إذَا دخل عليه جلس من غير أنْ يُؤْذن له فى الجلُوس ، ولم تكن هذه الرُّتبةُ لغيره من سَائر الأمراء . فلمّا كان من أمر شاوَر ما قدّمناه وقصَد نورَ الدّين محمود أو استغاث به ،

(١) « فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى . . . وأخذ النصرانى برجله فألقى من القلعة » فى الروضتين جـ ١ ص ٥٣٧ .

أرسل معهُ أسد الدّين بالعساكر ؛ وكان من أمره فى المرّة الأولى ، فى سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة ، والمرّة الثانية ، فى سنة اثنتين وستّين ، والمرّة الثالثة فى سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة [على] ما قدّمنا ذكره فى أخبار الدّولة العُبيْديّة فى أيّام العاضد لِدين الله .

ذكر وزارة الملك المنصور آسد الدّين شيركوه بالدّيار المصريّة ووفاته

كانت وزارتُه للعاضِد لدين الله فى يوم السّبت لثلاثَ عشْرةَ ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة .

وذلك أنّه لما كان من أمر شاور ومقْتَلِه ما ذكرناه آنفا استَدْعى العاضدُ لدين الله أسدَ الدّين شيركوه ، فدخل إلى القَاهرة فى السّاعة التى قُتِل فيها شاوَر ، فرأى من اجتماعِ العوام ما هَالَهُ ، فخاف على نفسه ، فقال لهم : أميرُ المؤمنين يأمُركُم بنهب دارِ شاور . فقصدَهَا النّاس ونهبُوها ، وتفرّقوا عنه . ولمّا نزل أسدَ الدّين بدَارِ شاوَر ، وهى دارُ الوزارة ، لم يجد فيها ما يجلس عليه[1] .

قال : ولمّا تفرق الناس للنهب دخل أسد الدّين على العاضد لدين الله ، فتلقّاه وخَلَع عليه خِلَع الوزارة ، ولقّبه بالملك المنصُور أمير الجيوش ، وكتب له تقليدَ الوزارة ، وكتب عليه العاضد بخطه عهدًا : « عهدٌ لم يُعهد لوزير بمثله ، وتقليدُ أمرٍ رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله . الحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مَرَاشِد سُبُله . فخُذْ كتاب أميرِ المؤمِنين بقُوّة ، واسحب ذَيْل الفخار بأن اعْتززت بخدمتك من

(١) انظر ما سبق تحت عنوان ذكر مقتل شاور .

النّبوة[١] ؛ واتّخذ الفوزَ سبيلا « وَلاتَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْجَعَلْتُم اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً »[٢] .

وخرجَ من عند العَاضد وركب إلى دار الوزارة وسكنها ، واستقلّ بالأمر . واستعمل على الأعْمال من يثقُ به من كُفاةِ أصحابه ، وأقْطَع البلاد لعساكره . وأرْسَل إلى ديوان الإنشاء بالقصر يطلُب منْ يكتُب بين يديه ، فأرْسل إليه متولى الديوان القاضىَ الفاضلَ عبدَ الرَّحيم البَيْسَانى ؛ وظَن رؤساء ديوان المكاتبات أنّ هذا الأمر لا يتمّ ، وأن[٣] أسَد الدّين يُقْتَل عن قريب كما قُتِل غيره ، فأرْسَلُوا إليه القاضى الفاضل وقالوا لعلّه يُقتل معه . فكان من أمره ما كان .

ولم تطُلْ مدّة أسد الدّين فى الوزارة بل انقَضَتْ أيامُه ، وفاجأه حمامه ، فتوفّى فى يوم السّبت لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة من السّنة .

واخْتُلِفَ فى سبب وفاته ، فقِيل إنّه مات فجأةً ، وقيل بعلّة الخوانيق ، وقيل بل سُمّ . فكانت مدّةُ وزارته خمسًا وستّين يومًا[٤] ؛ وعُمل عزاؤه ثلاثَة أيام ، وحمل إلى المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصّلاة

---

(١) « اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة » فى الروضتين جـ ١ ص ٤٠٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٢ .

(٢) سورة النحل رقم ١٦ جزء من الآية رقم ٩١ .
وقارن نص المنشور وما كتب عليه الضد بخطه فى صبح الأعشى جـ ٩ ص ٤٠٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٢ ، الروضتين جـ ١ ص ٤٠٢ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦٥ ، تاريخ ابن الفرات المجلد الرابع الجزء الأول ص ٣٤ - ٤٤

(٣) « فان » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، وما ورد فى الروضتين جـ ١ ص ٤٠٣ .

(٤) « ثلاثة وستين يومًا » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٤ .

والسّلام ؛ ودُفن هناك برباط الوزير [١٠٨] جمال الدّين وزير الموصل [١] .

ولمّا مات أسد الدّين شيركوه استقرّ فى الوزارة بعْدَه الملك النّاصر صلاح الدّين يُوسف بن أيّوب .

ذكر أخبار الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف ابن الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب ووزارته بالدّيَار المصريّة

كانت وزارته بالدّيار المصرية عقب وفاة عمّه الملك المنصور أسد الدّين شيركوه وقد تطاول [٢] جماعةٌ من الأمراء النّورية للوزارة ؛ منهم عين الدولة اليَارُوقى ، وقطب الدّين قايماز ، وسيف الدّين المشطوب الهكّارى ، وشهاب الدّين محمُود الحَارِمى ، وهو خال صلاح الدّين ؛ وخطبها كلٌّ منهم لنفسه . فأشار جماعةٌ من المصريّين وخواصّ العاضِد لدين الله على العاضد أنْ يَولّىَ صلاحَ الدّين ، وقالُوا : إنه أصغر الجماعة سنًا ولايخرُج من تَحْتِ أمرِ أمير المؤمنين . فإذا استقرّ وضَعْنا على العساكر مَن يَسْتميلُهُم [٣] إلينا ، فيبقى عندنَا من الجُند مَنْ نتقوى

(١) هو محمد بن على بن أبى منصور ، جمال الدين أبو جعفر ، وزير الموصل ، توفى سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٣ م - الروضتين جـ ١ ص ٣٤٣ - ٣٥٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٠٦ - ٣١٠ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٤٣ رقم ٧٠٤ .

(٢) « تطاوله » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٣) « تسليمهم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

به ، ثم نأخذ يوسُف بعد ذَلك أو نخرجُه فإنّ أمرَه أسهـل من غيره ، فاستدعَاهُ العاضدُ لدين الله ، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة . ولقّبـه بالملك النّاصر[١]، فلم يُطِعْه أحدٌ من الأمراء الذين كانـوا تطاوَلُـوا للوزارة ولاخَدَمُوه .

وكان الفقيه عيسَى الهكّارى[٢] معه ، فسعَى مع الأمير سيف الدّين على بن أحمد المشطوب حتّى استماله إليه ، وقال له : إنّ هذا الأمرَ لا يصلُ إليك مع اليارُوقى والحارِمى وغيرهما . ثمّ اجتمع بالحَارِمى وقال له مثلَ ذلك ، وقال له : إن صلاحَ الدّين ولدُ أختك ، وعزُّه وملكُه لك ، وقد استقام لهُ الأمرُ ، فلا تكُنْ أوّلَ من سعى فى إخراج الأمر عنه . واجتمع بالأمراء واستمالَهمُ . فأطاعهُ بعضُهم وعصى بعضُهم .

فأمّا الياروقى فإنه قال : لا أخـدُم يوسف أبـدًا ، وعاد إلى الملك العادل نور الدّين هو وجماعة من الأمراء . وصار صلاحُ الدّين نائبًا عن الملكِ العادلِ نور الدّين ، والخطبة لنور الدّين ولا يكاتبه إلا : « بالأمير الأسفهسلار [٣]صلاح الدّين وكافة الأمراء بالدّيار المصرية . يفعَلُون كذَا وكَذَا » . ويفعل علامته فى الكُتُب ، عظمةً أن يكْتُبَ اسمه .

ولمّا وزَر صلاح الدين ثبتَ قدمهُ ، واستمالَ قُلوبَ الناس بالأموال فمالُوا إليه فقوِى أمره ، وضعف أمْر العاضد .

---

(١) انظر نص منشور تعيينه صلاح الدين وزيرًا فى صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٩١ ـ ٩٨ ، تاريخ ابن الفرات المجلد الرابع الجزء الأول ص ٥٧ ـ ٦٣ .

(٢) هو عيسى بن محمد بن عيسى ، الهكارى ، توفى سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م ـ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٩٧ رقم ٥١٦ .

(٣) الاسفهسلار : كلمة تركية مركبة بمعنى مقدم العسكر ، وصاحب هذه الوظيفة زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد ، والتحدث فيهم ـ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٩ .

ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر ، زمام القصور وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدى وحرب السودان

كان مقتلُ مؤتمن الخلافة فى يوم الأربعاء لخمسٍ بقِينَ من ذى القعدة ، من سنة أربعٍ وستين وخمسمائة .

وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع فى نقض[1] إقطاع المصريين ، فاتفق هذا الخادمُ مع جماعةٍ من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية ، والاعْتَضَاد بهم على صلاح الدين ومَنْ معه ؛ وأرْسَل الكتب مع إنسان ، فجعلها فى نعلٍ ولَبِسه ، وسار على أنه فقير رثُّ الهيئة . فلما وصل إلى الْبِيْضَاء[2] وجده تُرْكُمَانى ، فأنكر حاله إذ هو رثُّ الهيئة جديدُ المَدَاس . فأخذ مَدَاسَه وفَتَقه ، فوجد الكتب فيه ، فحمله بها إلى الملك النّاصر ، فوقف عليها ، وكتم الأمر ، وقرَّر الرجل بالعُقوبة ، فأقَرّ أنّ الكتب بخط رجُلٍ يهودى ، فاستحضره ، فأقرّ بها . ثم قتل صلاح الدّين القاصد . واستشعر مؤتَمَنُ الخلافة من الملك النّاصر ، فلزم القصُور واحترَزَ على نفسه ، فكان لا يخرج منها . فلمّا طال ذلك عليه خرَج فى هذا اليوم لِقصر[3] له بالخرقانيّة ، فأرسل إليه الملكُ النّاصر جماعةً فقتلوُه ، وأتَوْه برأسهِ ، فرتَّب حينئذٍ على أزمَّة

(١) « بعض » فى الأصل ، والتصحيح من الروضتين جـ ١ ص ٤٥٠ ، وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١١ .

(٢) « البئر البيضاء » فى الروضتين جـ ١ ص ٤٥٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٢ . وهى موضع قرب بلبيس بينها وبين الخانكة على الطريق بين القاهرة وغزة ــ معجم البلدان .

(٣) « وخرج إلى منظرة له على النيل ، بستان بناحية الخرقانية ، قريبًا من قليوب » ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٢ .

القُصور قراقوش الخصيّ ، وكان من مماليك عمّه أسد الدين ليطالِعه بما يتجدّد بالقصور .

قال : ولما قُتل مؤتمن الخلافة ثار السّودان لذلك وأَخَذتهم الحميّة ، وعظُم عليهم قتلهُ ، لأنّه كان رأسهم ورئيسهم ، فحشَدُوا واجتمعوا ، فزادت عدّتُهم على خمسين ألف عبد ؛ وكانوا أشدّ على الوزراء من العسكر . فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم ، وقدّم على العسكر أبا الهيجاء السّمين ؛ فالتقَوْا بين القصْرَيْن واقتتلوا ، فقتِل من الفريقين جمع كثير . [١٠٩] فلمّا رأى الملكُ النّاصر قوّتَهم وشدّة بأسِهم أرسل إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة[١] ، خارج باب زويلة ، فأحرقها ؛ فاتّصل ذلك بهم ، فضعُفَت نفُوسُهم ، فانهزموا إلى محلّتهم فوجدُوا النّيران تُضْرم فيها . واتّبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها[٢] . ودام [القتال][٣] بينهم أربعة أيّام ، نهارًا وليلاً ، إلى يوم السّبت الثامن والعشرين من ذى القعدة ؛ فخرجُوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقنُوا بالهلاك ، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك النّاصر فقَتَلهم ، ولم يَنْجُ منهم إلا اليسير . وكتب الملك الناصر إلى وُلاة البلاد بقَتْلِ من يجدونه منهم ، فقُتلوا من عند آخرهم .

وبقى الملك النّاصر يخشى من أهل القصر لِمَا فعله بمؤتمن الخلافة جوهر ، فكان جوهر هذا سببَ زوالِ مُلك الدّولة العُبَيديّة وجوهر القائد سببَ مُلك المعزّ للبلاد ؛ فَشتّان بين الجوهرين .

---

(١) المنصورة = الحارة المنصورية ، على يمنة من سلك فى الشارع خارجًا من باب زويلة ، وكانت حارة متسعة جدًّا فيها مساكن السودانيين ، خربها الأمير خطاب بن موسى بأمر صلاح الدين ــ بعد هذه الوقعة ــ وصيرها بستانًا ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) « الطغى » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

ذكر الحوادث فى الأيام النّاصريّة غير الفتوحات والغزوات

لم نقدِّم هذه الحوادث التى نذكرُها الآن على الغزوات والفتوحات إلا أنها سابقةٌ على ذلك فى التّاريخ ، ولأنّا أردنا أنْ نُفرِدَ غزواتِهِ وفتوحاتِه ليأتى الكلامُ عليها سياقةً يتلو بعضُه بعضًا ، ولا ينقطع بغيره ، فكان ممّا نذكره :

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب والد الملك النّاصر إلى الديار المصرية

كان الملك النّاصر قد كتب فى طلب والده ، رحمهما الله تعالى ، فوصل بأولاَده وأهله إلى القاهرة فى السّابع والعشرين من شهر رجب سنة خمسٍ وستين وخمسمائة ؛ ولمّا وصل تلقّاه الخليفةُ العاضد لدين الله بظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج[1] ، ولم تجر بمثل ذلك عادة ، فكان يومًا مشهودًا . وخَلَع العاضدُ عليه ، ولقّبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من أنواع التحف والألطاف شيئًا كثيرًا ؛ وأقطعه الإسكندريّة ودمياط والبحيرة ، وأقطع ولده شمس الدولة ، أخا النّاصر ، قوص وأسوان وعيذاب ، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتى ألف وستّةً وستّين ألف دينار[2] .

ذكر إبطال الأذان بحىّ على خير العمل

قال المؤرخ : ولِعَشْرٍ مضيْنَ من ذى الحجّة سنة خمس وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر أنْ يسقط من الأذان قولُهم « حىّ على

(١) صحراء الإهليلج : شرقى الخندق فى الرمل ، وكانت تنتهى إليها عمارة الحسينية من جهة باب الفتوح ، وكان بها شجر الإهليلج الهندى فعرفت بذلك ، وهو من جملة بستان ريدان الذى يعرف بالريدانية ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٧ ، الروضتين جـ ١ ص ٤٦٥ ، النوادر السلطانية ص ٣٤ ـ ٣٥ .

خير العمل ، محمّد وعلىّ خير البشر » . وكانت أوّل وصْمةٍ دخلت على الشّيعة والدّولة العُبيديّة ؛ ويئسوا بعْدها من خيرٍ يصلُ إليهم من الملك النّاصر . ثم أمر أنْ يُذكر فى الخطبة بكلام مُجْمَلٍ ، ليُلْبِس على الشّيعة والعامّة : اللّهم أصلِحْ العاضدَ لدينك [١] .

ذكر ما أنشأه الملك النّاصر صلاح الدّين بالقاهرة ومصر من المدارس والخوانق

قال المؤرخ : وفى أوّل سنة ستٍّ وستين وخمسمائة أمر الملك النّاصر بهَدْم دارِ المعونة [٢] المجاورة للجامع العتيق بمصر . ودارُ المعونة هى المكان الذى يعتقل فيه النّاس . وأمر ببنائها مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية ، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجّار [٣] . وإنّما عُرفت به لأنه درس بها .

ثم عمر دار الغزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكخته مدرسةً للطائفة المالكيّة [٤] ودرس فيها ابن أبى المنصور .

وفيها اشترى تقىّ الدّين عُمر بن شاهنشاه ، ابن أخى صلاح الدّين ، الدّار المعروفة بمنازل العزّ [٥] بمصر ، وبناها مدرسةً للطائفة الشافعيّة .

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٧ ـ ٣١٨ .

(٢) دار المعونة = حبس المعونة ، بالفسطاط ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٣) مدرسة ابن زين التجار = المدرسةالناصرية = المدرسة الشريفية : وهى أول مدرسة أنشئت بالفسطاط ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ .
وابن زين التجار هو أحمد بن المظفر بن الحسين ، أحد أعيان الشافعية ، توفى سنة ٥١٩ هـ/١١٩٤ م ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٣ .

(٤) المدرسة القمحية بالفسطاط : بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٤ .

(٥) مدرسة منازل العز بالفسطاط : انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٤ .

وكانت هذه الدّار يسكنها الأمير ناصر الدولة بن حمدان فى الأيّام المستنصرية ؛ وقد تقدّم ذكر ذلك .

ثم أمر الملك النّاصر ببناء مدرسةِ الشافعىّ والبيمارستان ، وعمّر الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء على ما يأتى ذكر ذلك .

وفى [هذه][1] السّنة أيضا أبطل الملك النّاصر مجلس الدّعوة من الجامع الأزهر وغيره ، وكان [١١٠] من سُنّة الدّولة العُبيديّة أن يقيموا لهم دُعاةً كالخطباء والله أعلم .

ذكر تفويض القضاء بالدّيار المصريّة للقاضى صدر الدّين بن درباس

وفى سنة ستٍّ وستّين وخمسمائة فى ثامن عشرى جمادى الآخرة فوّض السّلطان الملك النّاصر القضاء بالدّيار المصريّة إلى القاضى صدْر الدّين أبى القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس المارِدَانى ، فاستمرّ إلى آخر الأيّام النّاصرية .

وفى سنة سبعٍ وستين وخمسمائة ، فى سابع المحرم قُطعت خُطبة العاضد لدين الله ، ومات فى يوم عاشوراء كما قدّمناه .

وفيها فى الثّالث عشر من جمادى الأولى كُشِفَ حاصلُ الخزائن بالقصور ، فوُجد فيها مايزيد على مائة صندوق ، ومن الذّخائر النّفيسَة ما لامزيد عليه .

وفيها فى صفر أمَرَ الملكُ النّاصر بإبطال المكُوس بالقاهرة والأعمال عن التُّجار المتردِّدين إليها وإلى ساحل المقسم صادرًا ووارِدًا ، فكان مبلغُ ذلك مائةَ ألف دينار عينا .

---

(١) [ ] إضافة يقتضيها السياق .

وفيها رُسم بتحويل سنة خمسٍ وستّين الخراجية إلى سنة سبعٍ وستين الهلاليّة ، وكانت قد حُوّلت في سنة خمسمائة فى أيام الأفضل أمير الجيوش[١] .

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى فى يوم الثّلاثاء السّابع والعشرين [٢]من ذى الحجة سنة ثمانٍ وستّين وخمسمائة . وذلك أنّه ركب من داره ، فلمّا انتهى إلى باب القصر فى وسط المحجة شبَّ به فرسُه فسقط عنه ، فحُمل إلى منزله ، فعاش ثمانيةَ أيّام ومات فدُفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدّين فى الدّار السّلطانية ، ثم نُقلا إلى المدينة النبويّة ، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام ، وقُبِرَا فى تُربة الوزير جمال الدين الأصفهانى وزير الموصل رحمه الله .

وفى سنة تسع وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر ببيع الكتب التى بخزانة القصر [٣] ، فكانت أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات ، فأبيعت بأخَسِّ الأثمان .

ذكر عمارة قلعة الجبل والسّور

وفى سنة تسعٍ وستين وخمسمائة أيضًا أمر الملك النّاصر بعمارة قلعة الجَبَل والسّور الدّائر على القاهرة ومصر ، وجعل مبدأه من شاطىء

---

(١)انظر ما سبق عن تحويل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية .

(٢) « ثامن عشر ذى الحجة » كنز الدرر جـ ٧ ص ٥٠ .

ويذكر أبو شامة أن نجم الدين وقع من على فرسه فى ١٨ ذى الحجة ، وتوفى فى ٢٧ منه ــ الروضتين جـ ١ ص ٥٣٣ .

(٣) عن خزانة الكتب التى كانت بالقصر انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٠٧ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠٣ .

النّيل إلى شاطئه . فكان دَوْرُ السّور على القاهرة ومصر والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع ، وثلاثمائة ذراع وذراعين . من ذلك ما بين قلعة المقسم والبرج بالكوُم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع ؛ ومن القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع واثنان وتسعون ذراعا ؛ ومن حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع . ودائرُ قلعة الجبل ثلاثة آلاف ومائتا ذراع وعشرة أذرع ، كل ذلك بالذراع الهاشمى . وتولّى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وحفر فى رأس الجبل بئرًا يُتَوصل إلى مائها المعين من دَرَج منحوتةٍ من الجبل ؛ وتوفى الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته[1] .

وفيها أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشّافعى رحمه الله ، وتولاها الفقيهُ الزاهد نجم الدين الخبُوشانى .

وأمر باتّخاذ دارٍ فى القصر بيمارستانًا للمرضى ، ووقَفَ على ذلك وقوفا . وهذا البيمارستان يُسمَّى فى وقتنا هذا البيمارستان العتيق[2] .

وفيها أسقط مكوس مكّة ، شرَّفها الله تعالى ، المقررة على الحاج وعوض أميرها عن ذلك فى كل سنة ثمانيةَ آلاف إردب قمحًا تُحمل إلى ساحل جدة ، وعيَّنَ لذلك ضِياعًا بالدّيار المصرية وقرّر أيضا حَمْل غلاّتٍ إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء ؛ فقال الشيخ أبو

(١) عن قلعة الجبل انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٠٣ ، وانظر أيضًا كريز ويل : وصف قلعة الجبل (ترجمة جمال محرز) ، كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ، ترجمة أحمد دراج .

(٢) [illegible] تمييزًا له عن البيمارستان المنصورى ــ انظر الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ١٥٥ ــ ١٥٦ .

وعن بيمارستان صلاح الدين انظر المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٠٧ ، صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٥ .

الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى[١] فى ذلك من قصيدة يمدح بها الملك الناصر :

رفَعْت مكارم مَكْسِ الحجازِ ... بإنْعامِك الشّامِل الغَامر
وأمَّنْتَ أكنافَ تلك البلادِ ... فهان السَّبيلُ عَلى العَابر
وسُمت أياديك فيَّاضَةً ... على وَاردٍ وعَلى صَادِر
فكَمْ لكَ بالشّرق من حَامدٍ ... وكَمْ لكَ بالغَرْب من شَاكر

ذكر قتل جماعةٍ من المصريين

وفى سنة تسع وستين وخمسمائة أيضا ، فى ثانى شهر رمضان صُلب جماعة مَمَّن أرادَ الوُثوب بمصر من أصحاب الخلفاء العُبيديّين . وسببُ ذلك أن جماعةً من شيعتهم ، منهم عمارة اليمنى الشاعر ، وعبد الصّمد الكاتب ، والقاضى الأعزّ سلامة المعروف بالعوريس[٢] ، والقاضى ضياء الدّين نصر بن عبد الله بن كامل ، وداعى الدعاة ، وغيرهم من جند العُبَيديين ورجال السّودان وحاشية القَصْر ومَنْ وافقهم من الأمراء الصّلاَحية والجند ــ اتّفق رأيُهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقليَّة ومن سواحل الشّام إلى الديار المصريّة على شىء بذلُوه لهم من المال والبلاد ، وقرّروا أنّ الملك الناصر إذَا خرج إليهم بنفسه ثار هؤُلاء بالقاهرة ومِصر وأعادُوا الدولة العُبَيديّة ، العلوية بزعمهم ، ويعود مَنْ معه من العساكر الذين وافقُوهم عنْهُ فلا يَبْقى له مُقام بالبلاَد . وإنْ أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثارُوا به فأخذُوه باليد . وقال لهم عمارة : وأنا فقد أبْعَدْتُ أخاه إلى اليمن خوفًا أن يسدَّ مسدّه ، وتجتمع الكلمة عليه بعده . وأرسلوا إلى الفرنج وتقرّرت هذه القاعدة بينهم .

---

(١) توفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م ــ انظر مقدمة رحلة ابن جبير ص ٥ وما بعدها .

(٢) « العويرسى » فى الكامل جـ ١١ ص ٣٩٨ .

قال : وكان ممن أدخلُوه معهم فى هذا الأمْر زَين الدّين علىّ[١] بنُ نجا الواعظ ، وهْو القاضى ابنُ نجيّة ، ثمّ اختلفُوا فى وزارة الخليفة ؛ فقال بنو رُزّيك : يكون الوزير منّا . والقاضى ؛ وقال بنوشاور : بل يكُون الوزير منّا فحضر ابنُ نجا إلى الملك النّاصر وأعْلَمه بصُورة الحال ، فأمره بمُبَاطَنتهم وموافقتهم ، ومطالعته بأحوالهم . ففعل ذلك .

ثم وصل رسولٌ من مَلِك الفرنج إلى الملك النّاصر بهدَايا ، وهو فى الظّاهر لهُ وفى الباطن لهؤلاء ، فوضع الملكُ النّاصر عليه من النّصَارى من داخله وباطنه ؛ فذكر له الحال على جليّته ، فأعلم به الملك النّاصر . فلما تحقّقه قبض على هؤلاء وصَلَبهم ، فكان ممن صُلِب عمارة اليمنى ، وعبد الصّمد الكاتب ، والقاضى الأعز العوريس ، وغيرهم[٢] .

وجاء عمارة إلى باب القاضى الفاضل لمّا مُسك ، فاحتجب عنه ، فقال عمارة :

عبدُ الرّحيم قد احتَجبْ
إنّ الخَلاَص من العَجبْ[٣]

ونُودى فى أجناد المصريين بالرّحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصى الصّعيد ، واحتاط الملكُ النّاصر على مَنْ بالقصر من سُلالة العَاضِد

(١) هو على بن إبراهيم بن نجا ، الفقيه الحنبلى ، المعروف بابن نجية ، زين الدين أبو الحسن ، المتوفى سنة ٥٩٩ هـ/١١٦٣ م ـ شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٤٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٨٣ .

(٢) عن صلب عمارة الشاعر اليمنى وأصحابه انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٦٠ ـ ٥٧٧ . وعن هذه المؤامرة انظر السلوك جـ ١ ص ٥٥ ـ ٥٧ ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨٧ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٩٨ ـ ٤٠١ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٥٩ .

(٣) « هو العجب » فى الروضتين ، والكامل .

وأهله . وأمّا مَن كان قد وَافَقهم من أصحابه فلم يُخاطبهم فى ذلك ولا أوْهمهم أنّه عَلِم به . وبَلَغ ذلك فرنج السّاحل فلم يتحركُوا من أماكنهم ، وأما فرنج صقليّة فإنهم قصدُوا ثغر الإسكندريّة على ما نذكره .

وفى سنة سبعين وخمسمائة ، فى أوائلها ، خالف الكنزُ[1] ، أمير العرب ، على الملك النّاصر بصعيد مصر ، واجتمع معه جماعةٌ كبيرة من رعَايا البلاد والعُربان والسّودان وغيرهم ، وقَتَل أخا الأمير أبى الهيجاء السّمين ، وكان قد توجّه لإقطاعه بالصّعيد . فعظُم قتلُه على أخيه ، وكان من أكابر الأمراء النّاصريّة ، فَسَار إلى قتال الكنز . ونَدَب معه الملك الناصر جماعةً من الأمراء والعسكر ، فوصلُوا إلى مدينة طُود ، وهى على مسافةِ يومٍ من مدينة قوص إلى جهة الصّعيد ، فامْتنَع مَنْ بها عليهم ، فقاتلُوهم وظَفِرُوا بهم وقتلُوا كثيرًا منهم ، وأخْرَبوا البلد ، فهى إلى وقتنا هذا تُعرف بطُود الخراب ، وغيطانُها عامرة . ثمّ سار العسكر منها إلى الكنز ، فقاتلُوه ، فقُتِل هو ومَن مَعَه من الأعراب ، وأمِنَت البلاد واستقرّ أهلها[2] .

وفى سنة سبعٍ وسبعين وخمسمائة ظهر بالدّيار المصرية فأرٌ كثير جدًّا . قال القاضى الفاضل عبْدُ الرحيم : حدّثنى مَنْ شاهد هذا الفأر وهو يرحَلُ من بقعة إلى أخرى فيغطّى الأرض بكمالها حتى لا يظهر منها شىءٌ ألبتّة

(١) كنز الدولة : لقب منحه لأول مرة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله لحاكم النوبة فى عهده أبو المكارم هبة الله بن محمد بن على عندما قبض على الثائر أبى ركوة وأرسله إلى الحاكم ــ انظر ما سبق ــ وكان آخر من لقب منهم بهذا اللقب كنز الدولة المعاصر لصلاح الدين ، والذى قتل سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م ــ البيان والإعراب ص ٥٠ . وبنو كنز أو الكنوز هم سلالة العرب بعد اختلاطهم بالنوبيين ولا زالت قبيلة الكنوز تعيش حتى اليوم جنوبى أسوان ــ انظر تاريخ دولة الكنوز الإسلامية .

(٢) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٦ وما بعدها ، الروضتين جـ ١ ص ٦٠٠ وما بعدها .

وأنه شاهده يمرُّ بأمَاكن فلا يُلِمُّ بها ولايخرجُ عليها والزُّروع بها محصورة ، ويمرّ بأُخرى فلا يلبثُ أن يُفسِد جميعَ ما فيها ولا يرتحلُ عنها وبها شيءٌ من الزّرع ولا المقات بالجملة .

وفى سنة تسع وسبعين وخمسمائة [١١٢] ظهر بأبوصير السدر(١)من أعمال الجيزة بيت أشاع النّاس أنّه بيت هرمس ، ففُتح بحضُور القاضى نظام الدّين بن الشّهْرزورى وأُخْرِجَ منه أشياء ، من جملتها صُور كِبَاش وضفادع بأزهُر ، وقواريردهنج ، وفلوس من فضّة ونحاس ، وأصنامٌ نحاس وياقوت ، وغير ذلك من الذّهب والفضة والتّحف القديمة ووُجِد فيه خلقٌ كثير من الأموات .

وفى سنة ثمانين وخمسمائة فى يوم الاثنين مستهلّ المحرم دُرِّس فى المدرسَة الفاضلية (٢) الّتى أنشأها القاضى الفاضل عبدُ الرّحيم بالقاهرة بدرب مُلوخيًا ؛ ورُتِّب فيها لإقراء كتاب الله تعالى الشيخ الإمام العالمُ الزّكى أبو [محمد](٣)القاسم بن فيرُّه الرُّعَيْنى الشّاطبى ؛ وفى التّدريس على مذهبى الشّافعى ومالك الفقيه أبو القاسم عبد الرحيم بن سلامة الإسكندرى ، رحمهما الله تعالى .

وحيث ذكرنا هذه النّبْذة من الحوادث الّتى اتّفقت فى خلال دولته ، فلنَذْكر ما استولى عليه من البلاد الإسلاميّة .

---

(١) أبو صير السدر : من القرى القديمة ، التابعة لمركز الجيزة بمحافظة الجيزة ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٣ .

(٢) عن المدرسة الفاضلية بالقاهرة ، انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) [ ] إضافة لتصحيح الاسم .
وهو القاسم بن فيرة ، أبو محمد الشاطبى ، المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٤ م ــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٧١ رقم ٥٣٧ .

ذكر ما استَوْلى عليه الملكُ الناصر من البلاد الإسلامية بنفسه وأتباعه

كان من البلاد التى خُطب بها للملك النّاصر صلاح الدّين يوسف طرابلس الغرب وبعض بلاد إفريقية ، منها مدينة قَابِس [١] .

وسبب ذلك أن شرف الدين قراقوش مملوكُ تقىّ الدين عمر [٢] ، ابن أخى الملك النّاصر ، توجّه فى سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة فى طائفةٍ من الأتراك إلى جبال نَفُوسَة [٣] ، واجتمع به مسعُود بن زِمام المعروف بالبَلاط ، وهو من أعيان أُمراء تلك النّاحية ، وكان خارجًا عن طاعة [ابن] [٤] عبد المؤمن . فاتّفقا وكثُر جمعهما ، ونزَلاَ على طرابُلس الغرب ، فحاصراهَا مدّةً وضيّقا على أهلها ، ثمّ فتحاها ، فا ستَوْلى قراقوش عليها ، وأسْكنَ أهلَه بقصرها . ثمّ ملك كثيرا من بلاد أفريقية إلا المهديّة وسَفَاقُس وقَفْصَة وتُونس وما وَالاَها مِن القُرى والمواضع . وكَثُر جمعُ قراقوش ، فحكم علَى تلك البلاد ، وجمع أموالاً عظيمة وجعلها بمدينةقَابِس ، وقَوِيت نفسُه ، وطمع أنّه يستولى على جميع أفريقيّة لبعد ابن عبد المؤمن عنها واشتغاله بِجهاد الفرنج . ثم جاء نورابه مملوك تقىّ الدين أيضًا ، بطائفة من التُّرك فزَاد بهم قوّةً إلى قوّته . ثم اجتمع الأتراكُ وعلىّ

(١) قابِس : بكسر الباء الموحدة ، مدينة بين طرابلس وسفاقس ، على ساحل البحر ، غربى طرابلس الغرب ــ معجم البلدان .

(٢) هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، توفى سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م ــ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٥٦ رقم ٥٠١ .

(٣) جبال نفوسة : بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة ، جبال فى المغرب بين مدينتى طرابلس والقيروان ــ معجم البلدان .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح ــ انظر ما يلى .
وهو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، الذى تولى زعامة الدولة الموحدية فى الفترة من ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ/١١٦٣ ـ ١١٨٤ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٥٤ .

ابن إسحاق الملَثَّم [المعروف بابن غانية][1] وملكوا بِجَاية فى سنة ثمانين ، وانقادُوا إلى الملَثَّم واستعانوا به ، لأنَّه من بيت المملكة والرئاسة القديمة ، ولقَّبوه بأمير المسلمين ؛ وقصدُوا بلاد أفريقية فملكوها شرقًا وغربا إلا تونس والمهديَّة فإنَّ الموحِّدين حفظوها .

ولمَّا حصل استيلاؤهم على بلاد أفريقية قُطِعت خطبة أولاد عبد المؤمن وخُطب للنَّاصر لدين الله العبَّاسى ؛ وقصدُوا مدينة قَفْصة فتسلَّموها فى سنة اثنتين وثمانين ؛ وأقام بها طائفةً من الملثمين والأتراك .

فلمَّا اتَّصلت هذه الأخبار بالأمير يَعقوب بن يُوسف بن عبد المؤمن[2] اختار مِن عسكره عشرين ألفَ فارس من الموحِّدين ، وسار بهم فى صفر سنةَ ثلاثٍ وثمانين ، فوصل إلى مدينة تونس . وأرسل ستَّة آلاف مع ابن أخيه فسارُوا إلى الملثم والأتراك بقَفْصة ، فهزمهم الملثم ومَنْ معه فى شهر ربيع الأول من السَّنة . فجاء يعقوبُ بن يوسف بمَن معه فى نصف شهر رجب منها ، والتَقَوْا على مدينة قَابِس ، فانهزم الأتراك والملثم ، وقُتل كثير منهم . وفتح يعقوب قَابِس ، وأخذ أموال قَرَاقوش وأهله وحَملهم عَلَى مراكش . وحَصَر مدينة قَفْصة ثلاثَة أشهر وبها التُّرك ، فطلبوا الأمانَ لهم ولأهلِ البلد ، فأمَّنهم وسيَّر الأتراكَ إلى الثَّغور لِمَا رأى من شجاعتهم .

هذا ما اتَّفق لهذه الطائفة ، وإن كانت هذه الفتوحاتُ لا تختَصّ كلّها بالدَّولة الأيوبية ، إلا أنهم كانوا سببًا ، وهم الَّذين استولَوْا على البلاد كما ذكرنا فأوردنَاها فى أخبارهم .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١١ ص ٥٠٧ .
وكان ملكهم بجاية بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن وتولية ابنه يعقوب ــ انظر وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٤ .

(٢) ولى فى الفترة من ٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/١١٨٤ ـ ١١٩٩ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٥٤ .

[١١٣] ذكر استيلائه على اليمن

وفى سنة تسع وستّين وخمسمائة جهّز الملك النّاصرُ أخاه الملك المعظّم شمس الدّولة تورانْشاه [١] إلى اليمن ، فسار فى مستهلّ شهر رجب . وكان عُمارة اليمنى الشّاعر يذكُر له البلاد ويحسّنُها له ويحثه على قصدها ، ويعظّم مملكتها . فسار ووصل إلى مكة شرّفها الله تعالَى ، ومنها إلى زَبيد [٢] وبها صاحبها عبد النبىّ المتغلب عليها [٣] . فلمّا قرُب منها ورأى أهلها انهزموا ، فوصل المصريون إلى سُور زَبيد فلم يَجدُوا عليه مَنْ يمانع عنه ، فنصبوا السُّلالِيم وصعدُوا عليها إلى السّور فملكوا البلد عَنْوةً ونهبُوه ، وأسِر المتغلب عليها عبد النّبىّ وزوجتُه المدعوة بالخيرة ، وكانت امرأةً صالحةً كثيرة الصدقة . وسلّم شمسُ الدّولة عبدَ النّبى إلى سَيف الدّولة مبارك بن كامل بن منقذ ، وهو من أمرائـه ، وأمره أن يستخـرج منه الأموال ، فاستخرج منه شيئًا كثيرا وأظهـر دفائن كـانت له . ودَلّتهم الخيّرة على ودائعَ لها كثيرة . ثم أصلح أمر زَبيد وخطب بها للنّاصر لدين الله [٤] .

ثم سار إلى ثغر عدن ، وهى فُرْضَة [٥] الهند والزّنج والحبشة وعُمَان وكِرمان وكشّ وفارس وغير ذلك ؛ وهى من جهة البّر من أمنع البلاد

---

(١) توفى سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م ــ وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٠٦ رقم ١٢٧ .

(٢) زَبِيد : بفتح أوله وكسر ثانيه ــ مدينة مشهورة باليمن فى مواجهة ساحل باب المندب ــ معجم البلدان .

(٣) هـو عبـد النبى بن عـلى بن المهـدى ، حكم زبيـد فى الفتـرة من ٥٥٨ - ٥٦٩ هـ/ ١١٦٢ - ١١٧٣ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٠٢ .

(٤) هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، الخليفة العباسى فى بغداد ، الذى ولى فى الفترة من ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ــ ١٢٢٥ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣ .

(٥) فرضة = طريق ــ القاموس .

وأحْصَنها . وصاحُبها يومئذ رجلٍ اسمه يَاسر [١] ، فخرج إليه وقاتَلَه ، فانهزم هُو ومَنْ معه ؛ فسَبقَه بعضُ عسكر الدّولة فدخلوا البلد قبل أهله وملكوه ، وأُسِر صاحبه . وقَصَد العسكرُ نَهْبَ البلدِ ، فمنعهم شمسُ الدّولة ، وقال : ما جئنا لنخرب البلاد ، وإنّما جئنا لنملكها ونعمّرها وننتفعِ بها . ثمّ عاد إلى زبيد وحصر ما فى الجبل من الحصون فملك قلعة تِعِزّ واسمها الدّمولة ، وهى من أحصن القلاع ، وبها تكون خزائن صاحب اليمن . ومَلَك غيرها من الحصون والمعاقل ، واستناب بثغر عدن عزّ الدين عثمان الزّنجيلى ، وبزبيد سيف الدّين مبارك بن كامل بن منقذ . وجعل فى كلّ حصنٍ نائبًا من أصحابه .

وأحْسَن شمسُ الدّولة إلى أهل البلاد ؛ وعادت زَبِيدُ إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة والأمن . ثمّ عاد شمس الدولة من اليمن ، وقدم إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر ، فوصل إليها فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة .

ذكر ملكه مدينة دمشق

قال المؤرخ : لمّا توفى الملك العادلُ نور الدّين الشهيد محمُود[٢] ابن زنكى رحمه الله ، كما قدّمناه [٣] فى أخباره ، ووَلِىَ بعدَه ولدُه الملك الصّالح إسماعيل أقرّ الملكُ النّاصر الخطبةَ باسمه بعد أبيه ، ولم يخطُبْ لنفسه . ثم اتّفق ما ذكرناه من نُقْلَة الملك الصّالح من دمشق إلى حلب ، ولم يُستأذن الملكَ النّاصر فى ذلك ولا كتبَ لهُ فيه ؛ فسارَ

(١) فى عهد محمد بن عمران ، الذى حكم عدن فى الفترة من ٥٦٠ ـ ٥٦٩ هـ/١١٦٤ ـ ١١٧٣ م ، وكان صبيا ، فتحكم فى البلد الوزير ياسر بن بلال ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٠٤ .

(٢) عن وفاة نور الدين محمود وترجمته انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٧٧ ـ ٥٨٥

(٣) لم يذكر النويرى فيما سبق وفاة نور الدين محمود ولا أخباره ، وإنما هو ينقل حرفيا عن غيره .

[الملك الناصر][1] من الدّيار المصريّة إلى الشام فى شهر ربيع الأول سنةَ سبعين وخمسمائة ، ووَصَل إلى دمشق فى يوم الاثنين سلخ الشهر ــ وقال ابن شدّاد فى سلخ شهر ربيع الآخر[2] ــ وتسلّم دمشق من الأمير شمس الدّين بن المقدّم ونزل بدار العَقِيقى ، وكانت سكن أبيه ، وأَحْسَن إلى الأُمَراء وأَكْرَمَهم ، وأظهر أنّه إنّما حضر إلى الشّام نُصرةً للملك الصّالح ، وليُعيد عليه ماأخذه ابنُ عمه سيف الدّين غازى[3] من بلاده . وأقرّ خطبته ولم يَقْطعها ولاَخَطب لنفسه .

ذكر ملكه مدينة حمص وحماه

قال المؤرخ : ولمّا ملك دمشق استَخْلف بها أخاه سيف الإسلام[4] طغرتكين بن أيوب ، وتوجّه إلى مدينة حمص فى مستهَلّ جمادى الأُولى ، فنازَلَها ، فملك المدينة ولم يشتغِلْ بالقَلعة ؛ وتَرَك بالمدينة من يحفَظُها ويمنعُ مَنْ [فى][5] القلعة من التصَرّف .

وسار منْها فوصل إلى مَدِينة حماة فى مستهلّ جُمادى الآخرة ؛ وكان بقَلْعتها الأمير عزّ الدّين جُرْدَيك ، وهو من المماليك النوريّة ، فامتنع مِنْ تسليمها . فأَرْسَل إليه يعرّفه ما هُو عليه من الطّاعة للملك الصّالح ، فاستحْلفه جرديك على ذلك ، وخرج إليه ، وترك أخاه بالقلعة ليحْفَظَها . وتوجّه عزّ الدّين جُرديك إلى حلب ليكون سفيرًا [١١٤] بين الملك الناصر وبين كُمُشْتَكين فا عتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر فملكها .

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) انظر النوادر السلطانية ص ٥٠ . وانظر الروضتين جـ ١ ص ٦٠٢ وما بعدها .

(٣) هو سيف الدين غازى بن مودود الذى ولى حكم الموصل فى الفترة من ٥٦٥ ــ ٥٧٦ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٤٦ .

(٤) « سيف الدين » فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٠ ، ٢٢ .

(٥) [ ] إضافة تتفق مع السياق ، ومع ما ورد فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٢ .

ذكر حصره حلب وعوده عنها
وملكه قلعة حمص وبعلبك

قال : ولمّا بلغ الملكَ النّاصر خبرُ عزّ الدين جُرْدَيك والقَبْض عليه ، توجّه إلى حلب وحَصَرها فى جُمادى الآخرة من السّنة . فقاتله أهلُها ، وركب الملكُ الصّالح وهو صبىّ وعمره اثنتا عشرة سنة وجَمَع أهل حلب ، وذكّرَهم بإحسان والده إليهم ، واستنصر بهم فى دَفْع صلاح الدّين ، فبكَوْا وحلَفُوا له على بَذل النّفوس والأموال ، وقاتلوا أشدّ قتال . وأرسل سَعد الدّين كُمُشْتَكين إلى سنان ، مقدّم الإسماعلية ، مالاً كثيرا على قَتْل الملك النّاصر ؛ فسيّر إليه جماعةً ، فظفر صلاحُ الدّين بهم وقتلهم . ورَحَل عن حلب فى مستهلّ شهر رجب من السنة .

وكان سبب رحيله أنّ كُمُشْتكين أرسل إلى القومص رِيمُنْد[1] الصّنجيلى ، صاحب طرابلس ، أن يجهّز إلى بلاد صلاح الدّين من الفرنج مَن يمنعُه من الوُصول إليها . فلمّا بلغَهُ ذلك فارقَ حلب وعاد إلى حماة فى ثامن الشهر ، بعدَ نُزول الفرنج على حمص بيوم . فلمّا سمع الفرنج بقُرْبه رحَلوا عن حمص ، ووَصل صلاح الدّين إلى حمص ، وملَك القلعة بعد حصار . وكان ملكه لها فى الحادى والعشرين من شعبان من السّنة .

ثمّ سار منها إلى بعلبك ، وكان بها يمن الخادم متوليها من أيّام نور الدّين ، فحصَرها الملكُ النّاصر ، فطلب يمن الأمَان ، فأمّنه وتسلّم القلعة فى رابع شهر رمضان .

---

(١) هو ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبى ـ الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٤٤ ، الكامل جـ ١١ ص ٤١٩ ، الروضتين جـ ١ ص ٦١١ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤

ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازى من الملك الناصر وحصره حلب ثانيا

قال المؤرخ . كان الملك الصّالح كتب إلى عمه سيْف الدّين غازى يستنجدُه على قتال صلاحِ الدّين ودَفْعِه فجهَّز العسْكر صُحبةَ أخيه عزّ الدين مسعود ، وتأخّر هو لِمَا وقع بينه وبين أخيه عماد الدّين من الاختلاف الذى قدمناه فى أخبار الدولة الأتابكية [١] فسارت العساكرُ السَّيفيّة ، واجتَمع معهَا العسكرُ الحلبىّ ، وسارُوا كلُّهم لقتال الملك النّاصر فأرسل إلى سيْف الدّين يبذل لهُ تَسْليم حمص وحماة وأن يُقِرّ بيده مدينةَ دمشق نيابةً عن الملك الصالح ؛ فلم يُجِب إلى ذلك وقال : لابُدَّ من تَسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر .

فلما امتنع سيفُ الدّين من إجابته تجهّز عند ذلك للقاء عزّ الدين مسعُود ومَنْ معه وقِتالهم ، فالتقَوْا فى تَاسع عشر شهر رمضان بقُرون حماة[٢] ، فلم تثبُتْ عساكر سيْف الدّين وانهزمُوا لايَلْوى بعضُهم على بعض . وتبعهم الملكُ النّاصر وغَنِم مُعَسكرهم ، ووصل إلى حلب وحاصَرها ، وقَطَع خُطبة الملك الصالح ، وأزَال اسْمه .

فلمّا طال الحصار على مَنْ بحلب راسَلُوه فى الصلح على أن يكون له ما بِيده من بلاد الشّام ولهُمْ ما بأيْديهم منها ؛ فأجابهم إلى ذلك ، وانتَظم الصّلح . فَرحل عن حلب فى العشر الأول من شوال ووَصَل إلى حماة ، ووصلَتْ إليه بها رُسل الخليفة المستضىء بنور الله ، ومعهم الخِلَع والأعلام السُّود وتوقيعٌ من الدّيوان العزيز بالسّلطنة ببلاد مصر والشام .

---

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٧٠ .

(٢) قرون حماة : منطقة جبلية تشرف على مدينة حماة ، وتتكون من قمتين متقابلتين — معجم البلدان .

وفيها ملك قَلْعَة بَعْرِين[١] فى العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزّعفرانى ، وكان من أكابر الأمَراء النُّورية ، فجاء إلى خدْمَة الملك النّاصر ، وظن أنّه يكرّمه ويقرّبه ، فلمْ يَرَ من ذلك شيئًا ، ففارَقَه وعاد إلى قلعته . فلما استقرّ الصُّلح بين المَلِكين النّاصر والصّالح نازَل [الناصر][٢] بعرين ونَصَب عليها المجَانِيق ومَلَكها .

ذكر الحرب بين الملك النّاصر وسيف الدين غازى وانهزام غازى

قد قدَّمنا انهزامَ عزّ الدين مسعُود بالعسكر السّيفى من الملك النّاصر فى سنَةِ سبعين وخمسمائة . فلمّا كان فى سنة إحدى وسبعين جَمع سيْف الدّين غازى جميَع عساكره وفرّق فيهم الأموال ، واستنجد بصاحب حصن كَيْفا[٣] وصاحب مَارِدِين[٤] وغيرهما ، وسار إلى حلب ، واستَصْحَب سعدَ الدّين كُمُشْتكين مدبّر دوْلةِ الملك الصّالح والعسكرَ الحلبىّ .

وكان صلاح الدّين فى قِلَّةٍ من العسكر لأنّه جهَّز أكثر عساكره إلى الدّيار المصريّة فلمّا بلغه ذلك [١١٥] أرْسَل يستَدْعى عساكَره ، فلم تلْحَقْه ؛ وأعْجَلتْهُ الحركةُ ، فسَار من دمشق إلى حلب للقاء غازى ومَنْ معه ، فالتقى العسكران بتَلّ السّلْطان بالقُرب من حَلب ، فى عاشر شوال من السّنة .

---

(١) بعرين = بارين : مدينة وقلعة بين حماة وحلب ــ معجم البلدان .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) حصن كيفا : بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ــ معجم البلدان .

(٤) ماردين : بكسر الراء والدال ، قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة ، تشرف على نصيبين ــ معجم البلدان .

وكان عزّ الدين زلفندار مقدّم العسكر الموصلى قليلَ المعْرِفة بالحُروب ، فجعل أعْلام صاحِبه في وَهدَةٍ من الأرض لا يراها إلا مَن هو بالقُرب منها فلما لم يَرَها النّاس ظنّوا أن سَيف الدّين غازى قد انْهَزم ، وانهزموا لايَلْوى الأخُ على أخيه . ولم يُقْتل من العسكر على كَثرته غيرُ رجل واحدٍ . وانهزم سيف الدّولة إلى الموْصِل وترك أخاه عزّ الدّين بحلب[١] .

قال العماد الأصفهانى : إن سيف الدّين غازى كان فى عشرين ألف فارس ؛ وخطّأه ابنُ الأثير الجزرى فى ذلك وقال إن أخاه مجدَ الدّين أبا السّعادات المبارَك كان يتولّى كتابة الجيش ، وأنه وقَف على جريدة العَرْض فكانت ستّة آلاف[٢] .

وإنْ جَمعْنا بين قولَيْهما فنقول : إنّ الجريدة الّتى وقف عليها ابنُ الأثير كانت للجيش المختصّ بسَيْف الدّين غازى خاصّةً ، والّذى نقله العماد الأصفهانى عن جميع ماصَحِبه من سائر الجيوش الحلبيةّ وَالحِصْفِية ، والمَارِدِينيّة ، والله أعلم .

ذكر ما ملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح بعد هذه الوقعة

قال المؤرّخ : لمّا استولى الملكُ النّاصر على أثْقَال العسكر الموصِلىّ وغنمها ، واتّسع هو وعسكره بها ، سارَ إلى بُزَاعَة[٣] ، فحصَرها وملكَها[٤] بعْد قتالِ مَنْ بِقَلْعتها ، وجعل بها من يحفَظُها . ثمّ

(١) الكامل جـ ١١ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٢) انظر الكامل جـ ١١ ص ٤٢٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) بزاعة : بلدة من أعمال حلب ، فى وادى بطنان ، بين منبج وحلب ـ معجم البلدان .

(٤) وذلك « فى الثانى والعشرين من شوال » ـ الروضتين جـ ١ ص ٦٥٥ .

سار إلى مَنْبج [١] فحصرها فى آخر شوّال ، وبها صاحبُها قطب الدّين يَنال بن حسّان المنْبِجى ، وكان شديدَ الْعَداوَةِ للملك النّاصر والتّحْريضِ عليه ؛ فملَك المدينَة وحاصَر القلعة وملكَها عنوةً ، وأسر صاحبَها يَنال ، ثم أطلقه ، فسارَ إلى الموصل ، فأقطعه سيْف الدّين غازى مدينة الرّقة .

ثم سار إلى قلعة عَزَاز [٢] فناز لها فى ثالث ذى القَعدَة ونصب عليها المجانيق ، ولازم الحصَار ثمانيةً وثلاثين يومًا وتسلّمها فى حادى عشَر ذى الحجّة من السّنة [٣] .

ووثب عليه فى مدّة الحِصار باطنىٌّ [٤] فضربه بسكّينٍ فى رأسه ، فرَدَّ عنه المِغْفَرُ [٥] ، وضربَه عدَّةَ ضربات وقعت فى زيق كزاغنده [٦] .

---

(١) مَنْبج : بالفتح ثم السكون . بلد قديم ، بينها وبين حلب حوالى ٣٠ ميلا ــ معجم البلدان .

(٢) عزاز = أعزاز : بليدة وقلعة شمالى حلب ــ معجم البلدان .

(٣) انظر الروضتين جـ ١ ص٦٥٥ وما بعدها ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢ وما بعدها ، الكامل جـ ١١ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

(٤) المقصود من إسماعيلية الشام المعروفين بالحشاشين أو الحشيشية ــ الروضتين جـ ١ ص ٦٥٨ .

(٥) المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة فى الحرب لحماية الرأس ــ انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤ هامش ٣ .
« فلولا المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله » ــ الكامل جـ ١١ ص ٤٣٠ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤ .

(٦) « طوق كزاغندة » فى الروضتين جـ ١ ص ٦٥٩ .
كزاغند = قزاغند : لفظ فارسى بمعنى المعطف القصير ، ويلبس فوق الزردية ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤ هامش ٥ .

ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها

قال : ثمّ رحل الملكُ النّاصر عن أعْزَاز ونَازل حلب فى نصْفِ ذى الحجة ، وحَصَرها إلى العشرين من المحرَّم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . وتردَّدَت الرّسائلُ بينهم فى الصّلح ، فاستقرّت القاعدةُ بينَ الملك النّاصر وسَيْف الدّين غازِى والملكِ الصّالح وصاحب مَارِدِين وصاحب حِصْن كَيْفَا ، وتحالفوا أن يكونُوا كلُّهم عونًا على النّاكثِ منهم . فتمّ الصّلح ، وأعاد الملكُ النّاصر إليهم قلعة أعْزَاز ، ورجع عن حلب .

ذكر نهبه بلاد الإسماعيلية

قال : لمّا عاد الملك النّاصرُ من حلب قصَد بلاد الإسماعيليّة فى شهر المحرَّم سنة اثنتين وسبعين لقتالهم ، لأنّهم أرادُوا قَتله ؛ فنهَب بلادَهم وخرَّبها ؛ ونازل قلعة مَصْيَاف [1] . فأرسل سنانٌ مقدّم الإسماعيليّة إلى الأمير شهاب الدّين الحارمى صاحب حماة ، وهو خال الملك النّاصر ، يطلُب منه الدّخول بينهما فى الصّلح والشّفاعه ، وتَهدَّده بالقتل إن لم يفعل . ففعَل ذَلك ، وتمّ الصلح . وتوجَّه الملكُ النّاصر إلى دمشق ، ثم رحل منها إلى الدّيار المصريّة لأربعٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول ، ووصل إلى القاهرة لأربع بقين منه .

ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية

وفى سنة ثمانٍ وسبعين[2] وخمسمائة كان الملك الناصر يحاصر بيروت ، فأتَتْه كتب مظفَّر الدّين كوكبرى بن زين الدّين على بن

(١) مصياف = مصياب = مصياث : حصن مشهور للاسماعيلية بساحل الشام قرب طرابلس ــ معجم البلدان .

(٢) « ثمانين وسبعين » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٥ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٨٢ .

تكين[١] مُقْطَع حرَّان يطلبه إلى البلاد ويَعِده المساعدة . فسارَ وَعبَر الفرات ، وكاتَب ملوكَ الأطراف [١١٦] ووَعَدهم ، وبذَل لهم البُذول على نَصْرته فأجابه نورُ الدّين مُحمد صاحب حصن كيفا . فسار الملكُ النّاصر إلى مدينة الرُّها فحصَرها فى جُمادى الأولى ، ودَاوَم الحصار ، فطلب صاحبُها فخر الدّين مسعُود الزّعفرانى الأمان ، فأمّنه وتسلّم البلد ، وصار صاحبُها فى خدمته ؛ وتسلّم القَلْعة . فلما ملكها سلّمها لمظَفّر الدّين صاحب حرّان . ثم سار عَنْها إلى الرّقّة وكان بها مُقْطَعُها قطبُ الدّين يَنال بن حسان المنْبجى ، فملكها ، وسار صاحبُها إلى عز الدّين أتابك . وسار إلى الخابُور فملكَه . بكَمَاله . ثمّ سار إلى نَصيبين ، فملك المدينة لِوَقْتِه ، وحصَر الْقَلْعة عدَّة أيّام ، فملكها ؛ وأقْطَعها للأمير أبى الهيجاء السّمين ، وهو من أكَابر الأمراء ، وسارَعنها ، ومعه نورُ الدّين صاحب الحصن ، فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشىء لحصانتها وكثرة مَنْ بها .

ذكر ملكه مدينة سنجار

قال : ثم سار الملك النّاصر من الموصل إلى سِنْجار ، فسيّر مجاهدُ الدّين قايماز إليها نجدةً من العسكر ، فمنعهمُ الملك النّاصر الوصول إليها ، وأوْقَع بهم وأخذَ سلاحَهم ودَوابَّهُم ، وسار إليها وَنازلها وبها شرفُ الدّين أمير أميران أخو عز الدّين صاحب الموصل ، فملكها بأمانٍ بعْدَ حصارٍ عظيم . وسار شرفُ الدّين ومَنْ معه إلى الموصل .

واستقرَّ لِلْمَلِك النّاصر جميعُ ما ملكَه فى هذه الوقعة بملك سنجار[٢] واسْتَنَاب بها سعد الدّين بن معين الدّين أنر ، وهو من أكابِر الأمَراء ،

(١) « على كوجك » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٦ ، « على بن بكتكين » فى الكامل جـ ١١ ص ٤٨٢ .

(٢) « فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور » ــ الكامل جـ ١١ ص ٤٨٨ .

وأحْسنِهم صورةً ومعنًى . وعاد إلى نصيبين ، فلِقيَه أهلُها وشكَوْا إليه من أبى الهيجاء السّمين فأنكر عليه وعزَلَه .

وسار إلى حرّان فوصلَ إليها فى أوائِل ذى القَعدة ، فكاتب عزُّ الدّين صاحبُ الموصل صاحبَ خلاط ، وهو شاه أرمن[١] ، واستنجد به على حَرْب الملك النّاصر . فلمّا بلغهُ اجتماعُهما سار إلى بَحْرزَم[٢] بالقرب من مارِدِين .

ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا

قال : ثم سار من هذه الجهة الى آمد فوصل إليها فى سابع عشر ذى الحجة[٣] فنازَلَها وحاصَرَها ، و نصب عليها المجانيق . وهى من أحْصَن البلاد ، يُضرب المثل بحَصَانتها ، وكان صاحبها ابن نيسان فى غاية الشّح يبخل ببذل المال ، فملَّه أصحابهُ وتخاذَلُوا عنه . فأخرج نساءً إلى القاضى الفاضل[٤] وسأله أن يأخذ له الأمان ولِأهله ، وأنْ يُؤخّر ثلاثة أيام حتى ينقل مالَهُ بالبلد من الأموال والذّخائر .

فأجابه الملكُ الناصر إلى ذلك ، وتسلَّم البلدِ فى العشر الأول من المحرّم سنة تسعٍ وسبعين وخمسمائة . وانْقضت الأيّام الثّلاثةُ قبل فراغه من نَقْل أموالِه ، فمُنِع ممّا بقى . وسلّم الملكُ النّاصر البلَدَ بما فيه إلى نُور الدّين صاحبِ الحصن ، وكان فيه من الذخائر ماتزيد قيمته على ألف ألف دينار[٥] .

---

(١) « شاهرمن » فى الأصل ، والتصحيح من النوادر السلطانية ص ٥٨ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٨٨ .

(٢) بحرزم : بلدة فى واد بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة ـ معجم البلدان .

(٣) « لثلاث بقين من ذى الحجة » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٤) « الأفضل » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الكامل جـ ١١ ص ٤٩٤ .

(٥) « ألف دينار » فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٣٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٩٤ .

ذكر ملكه تل خالد وعين تاب

قال : ثمّ سار الملكُ النّاصر إلى تلّ خالد من أعمال حلب فحصرها ورمَاها بالمجانيق ، فطلب أهلُها الأمان ، فأمّنهم ، وتسلّمها فى المحرّم أيضًا .

وسار منها إلى عَيْن تاب ، وبها ناصرُ الدّين محمد [بن خمارتكين][1] من أيّام نور الدّين الشّهيد ، فحصَرها ، فَراسَلَهُ فى طلب الأمان على أن يكون الحصنُ بِيَدِه ويكون فى خِدْمته . فأجابهُ إلى ذلكَ وحلفَ لهُ عليه ، فنزل إليه واتصَل بخدمته[2] .

ذكر ملكه حلب

قال : ثمّ سار من عَيْن تاب إلى حَلب فى المحرّم أيضًا ونزل بالميْدان [الأخضر][3] عدّةَ أيّام ثم انتقل إلى جبلْ جَوْشَن[4] ؛ فنزل بأعلاه وأظهر أنّه يريد [أن][5] يبنىَ مساكِنَ لنفْسِه ولأصْحابِه وعَسَاكره ، وأقام أيّامًا والقتالُ بين العسكَرَيْن فى كلّ يوم .

وكان صاحبُها عماد الدّين زَنكى بن مَوْدُود بن زنكى مجدًّا فى القتال ، فطالبه بعضُ الجند بأرْزَاقِهم ، [١١٧] فاعتذر بقلّة المال عنده ؛ وكان قد شحَّ بإخْراجِه ، فقال له مَنْ يريدُ حِفْظ حَلَب يُخرج الأموال وَلَوْباع حلىَّ نسائه . فجنحَ إلى تسليمها ، فراَسَل الملكَ النّاصر فى طَلَب العِوَض عنها : سنجار ونصيبين والخابور والرَّقّة وسَرُوج .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من الروضتين جـ ٢ ص ٤٢

(٢) « وكان أيضًا فى المحرم من هذه السنة » ــ الكامل جـ ١١ ص ٤٩٥ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤١ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٩٦ .

(٤) جبل جوشن: يطل على حلب من غربيها ــ معجم البلدان .

(٥) [ ] إضافة تتفق والسياق .

فَسَلَّمَ [١] مثلَ حلب وأعمالها وتعَوَّض عنها قرًى ومزارِعَ ، وجرت الأيمان على ذلك . وتسلَّمها الملكُ النَّاصر فى ثامن عشر صفر .

فسبَّ النَّاس عمَاد الدِّين زنكى وأسمعُوه المكرُوهَ على فعْله .

واستقرَّت الحالُ بينهما أنّ عمادَ الدِّين يحضُر إلى خدمة الملك النَّاصِر متَى استدعاه بِنَفسه وعسكره ولا يحتجّ بحجة .

قال : ولما تسلَّم الملك النَّاصِر حلب امتدحه الْقَاضى محيى الدين ابن الزَّكى ، قاضى دمشق ، بقصيدةٍ جاء منها :

وفتحُكُم حَلبًا بالسَّيف فى صفر مبشّر بُفُتوح القُدْس فى رجب [٢]

فكان كذلك .

ونقل الملكُ النَّاصر أخاه الملكَ العادل من نيابة الدِّيار المصرية إلى حلَب ، فى سنة تسعٍ وسبعين ، وأعطاه حَلب وقَلْعتها وأعمالها ومَنْبج وما يتعلَّق بها ؛ وسيَّره فى شهر رمضان .

ذكر فتح الملك النَّاصر حارم

قال : ولمَّا فتح الملكُ النَّاصر حلب كان بقَلْعة حَارِم [٣] سرخك ، وهو من المماليك النورية ، فامتنع من تَسْليمها ، فرَاسَله فى ذلك وخيَّره فيما يُريد من القلاع ، ووَعَده الإحسان ؛ فاشْتطَّ فى الطَّلب . فتردَّدَت الرَّسائل بينهم ، فراسل سَرْخَك الفرنج ليحتمى بهم ، فبلغ ذلك مَنْ معه من الأجناد فخافُوا أن يسلِّمها للفرنج ، فقبضُوا عليه واعتقلوه ، ورَاسَلُوا الملكَ النَّاصر فى طلب الأمان ، فأجابهم وتسلَّم الحِصْن ورتَّب

(١) « فتسلم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، وانظر الكامل جـ ١١ ص ٤٩٧ .

(٢) انظر الكامل جـ ١١ ص ٤٩٧ .

(٣) حارِم : بكسر الراء ، حصن وكورة جليلة تجاه أنطاكية ، وهى من أعمال حلب ـ معجم البلدان .

فيه دُزْدَارًا من بعض خوَاصّه[١] ، وأقام الملك النّاصر بحلبَ إلى أن قرّر قواعدَها وأقْطع أعمالَها .

ذكر حصار الموصل

وفى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة حاصر الملكُ النّاصر الموصل . وذلك أنّه سار من دمشق فى ذى القعدة سنة ثمانين لقَصْد حصَارها فلمّا وصلَ إلى مدينة بلد[٢] سيّر إليه عز الدّين صاحب الموصل والدته وا بنة عمه[٣] الملك العادل نور الدّين الشهيد وغيرهما من النّساء فى جماعةٍ من أعيان الدولة يسألُونه المصالحة ، وبذلُوا موافَقَته وإنْجَاده بالعساكر مَتَى طَلَبها ، ليعُود عن قَصْد الموصل . وإنّما أرسلهنّ ظنًّا منه أنّه لوسيّر ابْنَة نُور الدّين إلى الملك النّاصر فى طلب الشّام أعطاه لأنّها ابنةُ مخدومه . فتلقّاهُنّ بالإكرام ، وأحسن إليهن ، واستشار أصحابَه فى ذلك ، فكلٌّ أشارَ عليه بمُوافَقَتِهنّ .

فقال له الفقيه عيسى الهكّارى وعلىّ المشطوب : مثل الموصلِ لاتترك لا مرأة ، وإنّ عزّ الدّين ما أرسلهُنّ إلاّ وقَدْ عجز عن الحرب . فوافَقَ ذلك هواه فردّهنّ خائباتٍ ، واعْتَذر بأعذارٍ غير مقبولة ، وقَصَد الموصل وحاصَرها ، وكان بينهم مناوشاتٌ فلم يتمكّن منها ، فندم حيثُ

---

(١) انظر الكامل جـ ١١ ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤٦ ، شفاء القلوب ورقة ٢٨ ب ، المختصر جـ ٣ ص ٦٧ .

(٢) بلد : من أعمال بغداد ، على نهر دجلة ـ معجم البلدان .

(٣) « والده وابن عمه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، من الكامل جـ ١١ ص ٥١٢ . وأورد ابن واصل هذا الخبر عند منازلة صلاح الدين للموصل للمرة الثالثة ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
وما أورده النويرى يتفق مع ما ورد فى الكامل .

لم يحبِسْ النّساء . ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن[١] صاحبُ خلاط ، فأشار عليه أصحابه بمُفَارقةِ الموصل وقَصْد خِلاط ، ففارقها .

ذكر ملكه ميّافارِقين

قال : ولمّا سار الملكُ النّاصر إلى خِلاَط جعل طريقه مَيّافَارِقِين[٢] وكان صاحبُها قطب الدّين صاحب مَارِدِين قد توفى[٣] وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمُها إلى شاه أرمن وعسكرهُ بها ؛ فتوفى شاه أرمن أيضًا ، فطمِع فى أخذها ونَازَلها . فرآها مشحونةً بالرّجال ، وفيها زوجة قطب الدّين المتوفّى وبناته ، والمقدّم على جيشها أسد الدّين بُرتُقش[٤] ، وكان فيه شجاعةٌ وشهامة . فحصَرهَا الملكُ النّاصر من أوّل جُمادى الأولى ، ونصب عليها المجانيق والعَرّادات ؛ واشتدّ القتالُ فلم يظفَرْ منها بشىء ؛ فرجع عن القوّة إلى إعْمال الحيلة . فراسل امرأةَ قطب الدّين المقيمة بالبلد يقول إنّ أسد الدّين قدْ مَال إلينا فى تَسْليم البلد ، ونحن نَرْعى حقّ أخيك نور الدّين فيك بعد وفاته ، ونريد أن يكون لكِ نصيبٌ ، وأنا أزوِّج بناتك بأولادى ، وتكون مَيّافَارِقين وغيُرها لكِ وبِحُكْمِك ، [١١٨] ووَضع من أرْسل إلى أسد الدّين يعرّفه أنّ الخاتون قد مالَتْ للانقياد إلى تَسْليمها ، وأنّ مَنْ بخلاط قد كاتبُوه ليسلّموها إليه . فسُقِط في يدَه ، وضعُفَت نفسُه ، وأرسل إلى الملك النّاصر يقترحُ إقطاعًا ومالاً ،فأجيب إلى ذلك . وسلّم البلد فى سلْخ جُمادى الأولى ، وعقَد نِكاح بَعْض أولادِه على بَعْض البنات .

---

(١) « شاهرمن » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ١١ ص ٥١١ ، ومفرج الكروب جـ ٢ ص ١٦٨ ، وسيجرى تصحيحها فى المواضع التالية .

(٢) ميافارقين : أهم مدن ديار بكر ، بإقليم الجزيرة ــ معجم البلدان

(٣) هو قطب الدين إيلغازى بن ألبى ، المتوفى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م ، وخلفه ابن حسام الدين يولق أرسلان ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٥٣ .

(٤) « يرنقش » فى الكامل جـ ١١ ص ٥١٥ .

ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها

قال : ولمّا تسلّم الملكُ الناصر مَيّافارقين وفرغ من أمرها وتدبير أحوالها ، عاد إلى الموصل لحصارها . فتردّدت الرّسائل بينه وبين عزّ الدين صاحبها ، ووقع الاتّفاق على أن يسلّم للملك النّاصر شَهْرزُور وأعمالها ، وولاية القرابلي ، وجميع ما وراء الزّاب ، وأن يَخطُب له على منابر بلاده ، ويَضرب السِّكّة باسمه ؛ وتحالفا على ذلك . فتسلّم الملكُ النّاصر البلادَ ، وسكنت الدّهماء .

ورحل إلى حرّان فمرض بها وطال مرضه حتى أُيِس منه ؛ ثمّ عُوفى . وعاد إلى دمشق فى المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

قال : ولمّا كان الملكُ النّاصر مريضًا بحرّان كان عنده ابنُ عمه ناصرُ الدّين محمد [بن][1] شيركوه ، وله من الإقطاع حمص والرّحبة ، فسار إلى حمص واجتاز بحَلب ، وأحضر جماعة من أحْدَاثِها ، ووَعَدهم ، وأعطاهُم مالاً ؛ ثمّ وصل إلى حمص ورَاسَل جماعةً من الدّماشِقة على تسليم البلد إذا مات الملكُ النّاصر . وأقام ينْتَظر مَوْته ؛ فتُوفّى ناصرُ الدّين ليلة عيد الأضحى سنة إحدى وثمانين ، وعوفى الملك الناصرُ .

[وكان الملك الناصر][2] لما بلغَهُ ما اعتمده ناصرُ الدّين بحلب ومُراسلتُه للدّماشقة ، وضَع عليه النّاصح بن العميد سقاهُ سُمًّا فمات ، وطُلب ابنُ العميد من الغَد فلم يُوجد ؛ وسَارَ من ليلته إلى الملك النّاصر ؛ فقَوِيت الظّنّة[3] بذلك .

---

(١) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٢) [ ] إضافة تتفق مع السياق ، وانظر شفاء القلوب ورقة ١١ ، الكامل جـ ١١ ص ٥١٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٣) انظر الكامل جـ ١١ ص ٥١٨ .

ولمّا تُوفى أعْطى الملكُ النّاصر إقطاعَه لولده شيركوه ، وعمره اثنتا عشرة سنة . وخَلّف ناصُر الدّين من الأموال والخيول والآلات شيئًا كثيرا ، فحضر الملك النّاصر إلى حمص وعرض تركته ، وأخذ أكثرَها ، واستعان به على الجهاد ، ولم يُترك إلاّ مالاخير فيه .

وحضر شيركُوه عند الملك النّاصر [بعد موت أبيه بسنة][1] ، فأجلسه فى حجره وسأله إلى أين انتهى من القرآن ، فقال إلى قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[2] ، فاضطرب الملكُ النّاصر لذلك وظنّ أنّه عرّض بفِعله ، وطَلَب مُؤَدّبَه ولَوْحه فوجده كذلك .

فعوّضه عمّا أخذه من مال أبيه الضّياعَ الخرابَ بالشّام فى ذلك الوقت ، وهو الذى يُعرف إلى زَمَانِنا هذا بالخراب الأسدىّ : وورثتُه إلى هذا التّاريخ يبيعُون خرابَ ضياع الشّام والسّواد والبلْقَاء وغير ذلك . واستولَوْا من الخراب على مَا ليس فى كِتابِهم ، وأباعُوا مالاَ هُو لَهُمْ ، فإنّه قيل إن الذى اشتمل عليه كتابُ المبايعة أربعمائة ضيعة ، وهى الّتى كانَتْ قد استَوْلى عليها الخرابُ فى ذلك الوقت ، فأباع ورثتُه جميعَ ماخَرِب بعد ذلك مِمّا لم يتضمّنه كتابُهم وأعانهم على ذلك أنّهم يبيعُونه لأرباب الجاهات بأحسن الأثمان . وأعرف بلدا يسمّى رمدان من بلاد البلقاء بالقرب من الرّقيم والجادِية وسنجاب[3] اشتراها الملك المنْصُور حسام الدين لاجين المنصورى[4] لمّا كانَ ينُوب عن السّلطنة بالشام ،

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١١ ص ٥١٨ .

(٢) سورة النساء رقم ٤ آية رقم ١٠ .

(٣) قرى فى منطقة البلقاء بالقرب من عمان شرقى نهر الأردن ــ معجم البلدان .

(٤) هو الملك المنصور حسام الدين لاجين ، ولى سلطنة المماليك فى الفترة من ٦٩٦ ـ ٦٩٨ هـ/١٢٩٧ ـ ١٢٩٩ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٦٢ .

من الورثة الأسديّة بسبعمائة درهم ؛ فلمّا مات وانتقل بعضُ ميراثه إلى السلطان الملك النّاصِر[١] بالولاء الشّرعى . وكنتُ أباشر ديوانه بالشام ، حَصَّلْتُ من مُغَلّ هذه البلدة فى سنة إحدى وسبعمائة ما أُبِيع بنيّف وعشرين ألف درهم . فانظُر إلى هذا التّفاوُت العظيم .

ذكر غزوات الملك النّاصر وما افتتحه من بلاد الفرنج

وقد رأيت أنْ أُفْرِد غَزَوات الملك النّاصر وفتوحاته ونِكَايَاته فى الفرنج ، ولا أضمّ ذلك إلى غيْره من أخباره ، لأنّ فيه ما يدُلّ على قوّة الإسلام ، وأنّ الله تعالى لَمْ يزل يؤيّد هذا الدّين مِنْ عباده بمَنْ يُناضل عنه ، ويَحْمى حَوْزته ، ويذُب عن أهله ، ويستأصل شأْفَةَ عدوهم .

ونذكر ذلك على التّرتيب .

فكان أول ذلك وصولُ الفرنج إلى ثَغْر دمياط ورُجُوعهم عنه .

كان وصُول الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، إلى ثغر دمياط فى صفر سنة خمس وستين وخمسمائة ، [١١٩] فحاصرُوا الثّغر . وكان سببُ ذلك أنّ أسدَ الدّين شيركوه لمّا وَلِى الوزارة للخَليفة العَاضد لِدين الله خافَهُ فرنج السّاحل ، فكاتبوا أهْلَ صقليّة والأندلس من الفرنج يستمدُّونهم ويخبُرونهم أن أسد الدّين قد مَلَك الدّيار المصرية ، وأنهم لا يأمنونه على البيت المقدّس . فأمدُّوهم بالمال والرّجال والسّلاح ، فنازلوا دمياط وضيّقوا على أهلها . فأرسل الملك النّاصر إليهم العساكر برًّا وبحرًا ، وكتب إلى الملك العادل نُور الدّين الشّهيد بذلك ، ويعرّفه[٢]

(١) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولى عرش السلطة المملوكية ثلاث مرات ، وتوفى سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٦٢ .

(٢) « ويعرفه إلا أنه لا يمكنه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق ، وانظر الكامل جـ ١١ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

أنّه لا يمكِنُه الخروج من القاهرة لأنه لايأمنُ أمر الشّيعة وأنّهم يثورون بعده ، فيبقى الفرنج أمامه والمصريُّون خلفه . فأمدّه نُور الدّين بعسكرٍ ، وخرج نورُ الدّين بنفسه إلى بلاد الفرنـج للإغـارة عليها ؛ فـاسْتَباح أمْوَالها لخلُوّ البلاد السّاحلية منهم فلمّا بلَغهم ذلك رجعُوا إلى بلادهم بسَاحل الشام بعد مُقامهم على دمياط نيّفًا وخمسين يومًا ، ولم يظفرُوا منها بشيءٍ . وأخرج العاضدُ للملك النّاصر فى هذه الغَزَاة ألف ألف دينار مصريّة ، سوى الثّياب والأَسْلحة .

ذكر غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفى سنَة ستّ وستّين وخمسمائة سار الملكُ النّاصر عن القاهرة وأغار على أعمال عسقلان والرّملة ، وهجم على ربَض غزّة فنهبه . وأتاه ملك الفرنج[1] فى قلّةٍ من العسكر ليردّه ، فهزمهُ الملك النّاصر بعد أنْ أشرف على أسْرِه ، وعاد إلى القاهرة ، وعمل مراكبَ مفصّلةً ونقلها على الجمال إلى البحر ، فجمع قِطَعها وشدّها ، وألقاها فى الماء . وحصر أيلة برًّا وبحرًا ، وفتحها فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر ، واستباح أهلها وما فيها ؛ وعاد إلى الدّيار المصريّة[2] .

ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها

قال المؤرخ : وفى صفر سنة سبع[3] وستين توجّه الملكُ النّاصر إلى حصن الشّوْبَك ونازله ، وحَصَره ، وضيّق على مَنْ به من الفرنج . ودام القتال ، فطلب أهله الأمان ، واستمهلُوه إلى عشرة أيّام فأجابهم

(١) المقصود هو الملك عمورى الأول (أملريك الأول) ملك مملكة بيت المقدس الصليبية .

(٢) انظر الكامل جـ ١١ ص ٣٦٥ .

(٣) « ست » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث ، ويتفق مع ما ورد فى الروضتين جـ ١ ص ٥١٨ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٧١ .

إلي ذلك . ثمّ بلغه أنّ الملك العادل نورَ الدّين جاء من دمشق إلى الشّوبك من الجَانب الآخر ، فخاف أنّ نور الدّين مَتَى ملك الشوبك قَبَض عليه ، فعاد إلى الدّيار المصريّة ، وكتب إلى نور الدّين يعتذرُ بمرض أبيه بمصر ، فقبل عُذره ظاهرًا ، ووقعت الوحشة بينهما باطنا

ذكر وصول [أسطول] [1]صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه

كانت هذه الحادثة فى سنة سبعين وخمسمائة ، ولم يكُن للملك النّاصر بها غزاةٌ بنفسه ولا مباشرةٌ للحرب . وكان سببُ وصول هذا الأسطولِ إلى الثّغر ما قدّمناه من مُكاتبة المصريّين الذين صلبهم صلاحُ الدّين الفرنجَ . فوصل من صقلية مائتا شينى تحمل الرجال ، وستّ وثلاثون طريدةً[2] تحمل الخيل ، وستّ مراكبَ تحمل آلة الحرب ، وأربُعون مركبًا تحمل الأزواد . وفى المراكب من الرجال : خمسُون ألفًا ومن الفُرسان ألف فارس وخمسمائة فارس . وكان المقدَّمُ عليهم ابنُ عمّ صاحب صِقليّة . فوصلُوا إلى الثّغر فى السّادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسعٍ وستّين على حين غفلة ، فخرجَ إليهم أهْلُ الثّغر بعُدَدهم وأسلحتهم ، فمنَعهم المتَولّى عليهم ، وأمرهُم أنْ يقاتلُوا مِنْ وراء السّور . وطلع الفرنج إلى البرّ ونصَبُوا الدبّابات [3] وقارَبُوا السّور ؛ وقاتَلَهم أهلُ البلد قتالاً شديدًا . وجاء إلى الإسكندرية مَنْ كان إقطاعُه بالقُرب منها .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١١ ص ٤١٢ .

(٢) طريدة : سفينة حربية مخصصة لحمل الخيول ــ معجم السفن الإسلامية .

(٣) الدبابات : أبراج متحركة تستخدم فى مهاجمة الأسوار والحصون ــ السلوك جـ ١ ص ٥٦ هامش ١ . وانظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤ .

وكتب إلى الملك النّاصر بذلك ؛ فتجهّز بنَفْسه ؛ وقدّم من يُعْلِم أهل الثّغر بُوصوله ، وكان أهل الثّغر قد أنْكَوْا فى الفرنج ، وقتلُوا وجَرحوا كثيرًا منهم ، وحرقوا الدّبابَات .

ولمّا علم الفرنج بَمقْدَم المِلك النّاصر جنَحوا إلى الهرب ، وأخذتهم سُيوف أهل الثّغر ، وحرَقُوا بعضَ مراكبِهم ، ونهبُوا خيامَهم ، وأخذوا سلاحهم ؛ وكثُر القتلُ فيهم ، وهرَب مَنْ بَقِى ؛ واحتَمى ثلاثمائة من الفرسان على تلّ ، فقاتَلَهم المسلمُون طوال الليل إلى ضُحى الغد ، فأُخِذُوا بين أسيرٍ وقتيل .

[١٢٠] ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده

وفى سَنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة خرَج الملكُ النّاصر إلى غزّة وعسقلان .

وكان رحيله من القاهرة بعد صلاَة الجمُعة لثلاثِ ليالٍ خلَوْن من جُمادى الأولى من السّنة ، فوصَل إلى عسْقَلان فى يوم الأرْبعاء للَيْلَةٍ بقيت من الشهر ، فسَبَى وسَلب ، وضرب أعناقَ الأسرى ؛ وتفرّق عسكرُه للإغَارة على الأعمال .

ثمّ سار إلى الرّملة فى يوم الجمُعة مستهلّ جُمادى الآخرة ، فاعترضَه الفرنج وقد جمعُوا جُموعًا كثيرة ؛ فكانَ بينهما وقعَةٌ عظيمة استُشْهِد فيها أحمد ولدُ الملك المظفّر تقى الدين [عمر][1] ، وأسِر ولدُه الثّانى شاهنشاه ، وأقام فى الأسر سبع سنين حتى افْتَكّه السّلطان بمالٍ كثير . وأُسِر الفقيه عيسى الهكّارى .

---

(١) [ ] اضافة للتوضيح .

ثم كانت على المسلمين . وذلك أنّ العساكر كانَت قد تعبَّت للحَرْب ، فلما قارَبَهم العدُوّ أراد بعضُ الأمراء أن ينقل الميْمَنة إلى الميسَرة والميْسرة إلى القَلب ، فلمّا اشتغلوا بهذه التّعبئة هجمَ عليهم الفرنج ، فانكسروا وطلبُوا الدّيار المصرية ، وضلُّوا فى الطّريق . وعادَ السّلطان ومَنْ معهُ إلى القاهرة فى يوم الخميس منْتَصف الشهر [١] .

ذكر وقعة مرج عيون وانهزام الفرنج وأسر ملوكهم

كانت هذه الوقعةُ فى يوم الأحد لثمانٍ خلَوْن من شهر المحّرم سنة خمسٍ وسَبْعين وخمسمائة ؛ وكان الفرنج فى عشرة آلاف مقاتل . فلمّا التقَوْا مع المسلمين انهزم ملكُهم [٢] مجروحا عند اللقاء وأُسِر منهم جماعةٌ ، منهم : مقدَّم الدّاوية [٣] . ومقدَّم الأسْبِتَارية ، وصاحب طبريّة ، وأخو صاحب جبيل [٤] ، وابن القومصيّة [٥] ، وابن بارزان [٦] صاحب الرّملة ، وصاحب جِينين ، وقَسْطِلان يافا ، وابن صاحب مرَقِيّة وعدّة من خيّالة القدس وعكّا . وغيرهم من المقدَّمين الأكابر زادت عدّتُهم على مائتَين وسَبْعين ، سوى غيرهم ، فنقلهم السّلطان إلى دمشق .

فأمّا ابنُ بارزان فإنّه بذَل فى نفسه مائةَ ألف دينار وخمسين ألف دينار صوريّة ، وإطلاق ألف أسير من المسْلمين ، والْتَزم بمكاك الفقيه عيسى الهكّارى . وأما ابنُ القومصية فافتكّتْه أمّه بخمسة وخمسين ألف

---

(١) نظر الكامل جـ ١١ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) هو بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٦٠ .

(٣) هو أودو سانت أماند ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ٢ ص ٦٧٨ .

(٤) « وأخوه صاحب جبيل » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٧٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٥٥ .

(٥) المقصود هيو ابن كونتيسة طرابلس ـ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٦٧٨ .

(٦) هو بلدوين إبلين .

دينارٍ صُوريّة . وأما مقدّم الداوِيّة فإنّه هلَك ، فطُلِبت جُثتُه بإطلاق ألف أسير من مقدَّمى المسلمين (١) .

قال : وفى هذَا اليوم ظَفِر الأسطول المِصرىّ ببَطْشَةٍ (٢) كبيرة للفرنج ، فاستَوْلى عليها وعلى أُخرى ، وعاد إلى الثّغر بألف أسير . والله أعلم .

ذكر هدم بيت الأحزان

كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان فى مدّة مُقام الملك النّاصر على بعلبك واشتغاله بأمرها ؛ فبنَوْه على مخاضة بيت الأحزان ، وبينه وبين صَفَد وطبريّة نصفُ يوم .

وكان فى بنائه ضررٌ عظيمٌ على المسلمين ، فبذلَ لهُم الملك النّاصر فى هَدْمه مائة ألف دينار ، فأَبَوْا ذلك . فجهَّزَ إليه الجيش ، فوصل إلى المخاضة يَوم السّبت لإحدَى عشرةَ ليلةً بقِيَت من شهر ربيع الأول سنة خمس وسَبْعين ، والحِصْنُ مبنىٌّ دُونَها من الغرب . فنَصَبُوا عليه المجانيق بعْدَ العصر من يَوْم الأحد ، فما جَاءَ اللّيل إلاّ وقد استَوْلَوْا على البَاشُورة (٣) . ثم أدارحَوله النُّقُوب ، فاستمرَّت إلى يوم الخميس ، لِستٍّ بقين من الشهر ، فهُدِم الجدار ، ودَخَل العسكر الحِصْن وغَنِمُوا ما فيه ؛ فكان ما غنِمُوه من أنواع السّلاح الجديدة مائَةَ ألف قطعة ؛ وأسروا سبعمائة أسير ، ومن أسْرى المسلمين مائة . ثم هُدِم الحصن إلى الأسَاس ، وكان سمكُه عشرة أذرع (٤) .

(١) انظر مضمار الحقائق ص ١٦ ـ ١٨ ، وانظر تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٦٧٦ ـ ٦٧٩ ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٠٤ ـ ٨٠٥ .

(٢) بطسة = بطشة : مركب حربية كبيرة ـ معجم السفن الإسلامية .

(٣) الباشورة : الحائط الخارجى للحصن ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٨١ هامش ١ .

(٤) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٨٠ ـ ٨٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٨ ، مضمار الحقائق ص ٢٤ ـ ٢٦ .

قال : ولمَّا عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدّمَشقى :

هـلاكُ الـفـرنـج أتـى عـاجـلا
وقـد آن تـكـسِـيـر صُـلْـبـانـهـا
ولـو لـم يـكـن قـدْ دنَا حـتـفُـهـا
لـمـا عَـمَـرت بـيـت أحْـزَانـهـا[1]

ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن

[١٢١]وفى سنة ستّ وسبعين وخمسمائة ، توجَّه الملكُ النّاصر إلى بلاد الأرمن . وذلك أن ابن لاوون [2]ملك الأرمن كان قد اسْتَمال قومًا من التُّركمان ، فلمّا أتوه وهم آمنون أَسَرهم . فدخل الملكُ النَّاصر إلى بلاده واستَوْلى على قلعةٍ تُعرف بالمانقير [3] ، وهَدَمها إلى الأساس ، وأخذ ما فيها من الآلات . ووَجَد المسلمون فى أرْضها صهريجًا مملوءا من الآلات الذّهب والفضّة والنحّاس . فبذل ابنُ لاوون جُملةً من المال ، وأنّه يُطلق الأسرى ، ويشترى خَمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويطلقهم . فأجابه السّلطان إلى ذلك ، وأخذ رهينةً عليه . ثمّ عاد إلى الدّيار المصريّة ، وأقام بها إلى سنةِ ثمانٍ وسبعين وخمسمائة [4] .

ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبرية وبيسان وما كان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب

وفى سنة ثمانٍ وسَبعين وخمسمائة توجّة السّلطان الملكُ النّاصر لقَصد الشام عند وفاة الملك الصّالح بن الملك العَادل نور الدّين . فأغار

(١) الكامل جـ ١١ ص ٤٥٧ .

(٢) هو روبين الثالث ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٧٧٨ .

(٣) « المناقير » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٩٩ .

(٤) انظر الكامل جـ١١٠ ص ٤٦٦ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٩٨ ـ ٩٩ ، النوادر السلطانية ص ٥٤ .

على طبريّة وبَيْسان فى العشر الأوْسَط من شهر ربيع الأوّل ، فانتصَر بعْدَ قتال .

وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عَيْذَاب[١] . وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك[٢] عمل أسْطُولاً بالكرك ، ونَقَل قِطَعه إلى بحر أيْلة ، وجمعها وألْقَاها فى البحر ، وشحَنَها بالمُقاتلة ، فسارُوا فى البحر وافْتَرقُوا فرقَتَين : فرقة حصلت أيلة ، وفرقة توجَّهت إلى عيذاب . وأفْسَدوا السّواحل ، ونهبوا ، وأخذوا ما وجَدُوه من المراكب الإسلامية ومَنْ فيها من التُّجار . وجاءُوا على حِين غَفْلة ، فرأى النّاس مالم يعهدُوه ، فإنّ هذا البحر لم يَرَ النّاسُ فيه فرنجيًّا قطُّ ، لا تاجرًا ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت .

وكان الملكُ العَادِل ينوب عن أخيه الملك النّاصر بالدّيار المصريّة ، فعمر أسطولاً وجَهّز فيه جماعَةً من المسْلمين ، ومقدَّمهُم حُسَام الدّين لؤلؤ الخاص ، فسار فى طلبهم . وابْتَدأ بالمركب التى على أيلة ، فظفِر بهَا ، وقَتَل بَعْضَ من فيها وأسَر بعضهم . وتوجَّه لوقته بعد ظَفَره بهم إلى الذين توجَّهوا إلى عيذاب ، وكانوا قد عَزَموا على الدّخول إلى الحجَاز وأخْذِ الحاج ، والدُّخول بعد ذلك إلى اليمن ، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجَدَهم قد نهبوا ما وجدُوه بها وتوجَّهوا ، فسَار فى أثرهم ، فبلغ رَابغ والحوراء فأدركهم بها ، وأوقع بهم . فلمّا تحقّقوا العَطَب خرجُوا إلى البرّ واعتصَمُوا ببَعْض تلك الشّعاب ، فنزَلَ من مراكبه وقاتَلهم فى البرّ أشدّ قتال ، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هُناك فركبها ، وقاتلهم ، فظَفِر بهم وقَتَل أكثرهم ؛ وأسَر مَنْ بقى ، وأرسل

---

(١) المقصود ميناء عيذاب على البحر الأحمر .

(٢) هو المعروف فى المصادر العربية باسم أرناط ، وفى المصادر والمراجع الأوربية باسم ريجنالد شاتيون ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٧٨٠ .

بَعْضهم إلى مِنًى لِيُنْحرُوا بها عُقوبةً لهم على قَصْدِهم البيْتَ الحرام . وعاد إلى مصر ببقية الأسرى ، فقُتلوا [١] .

ذكر الإغارة على الغور

قال : ولمّا ملك الملكُ النّاصر حلب وعاد إلى دِمَشق ثم رحل منْها فى ثامن جُمادى الآخرة سنةَ تسعٍ وسبعين وخمسمائة نزل على بَيْسان فوجد أَهْلَها قد ارتَحلُوا عنها ، فنهبهَا العسكر النّاصرى وتقوَّوْا بما فيها ، وحرَقُوا ما لم يمكنهم أخذُه . وسار بهم حتى أتى الْجَالوت ، وهى قريةٌ عامِرَةٌ وعندها عينٌ جارية ، فعبّأ أصحابَه عندها للقتال ، ورحَل إلى الفُولة[٢] ، ووقع القتال بينه وبين الفرنج ، وَكان الظَّفر له . ثمّ عاد إلى دمشق ، فوصل إليها فى يوم الخميس الرّابع والعشرين من جُمادى الآخرة من السّنة .

وتوجّه إلى الكرك فى هذه السَّنة ، وعاد .

ثمّ جمع العساكر المصرِيّة والحلبيّة وغيرها وقَصد الكرك فى سنَة ثمانين وخمسمائة ، وهى الدّفعة الثانية ؛ فجمع الفرنجُ فارِسَهم وراجِلَهم للذَّبِّ عنها ، ففارقَها السلّطان ، وجهَّز طائفةً إلى نابلس فنهبوها وعادوا إليه[٣] .

ذكر غزوة الكرك والشوبك وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا

قال العمادُ الأصفهانى فى البرْقِ الشامى : وفى سنةِ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة بَرَز الملك النّاصر من دمَشْق فى أوّل المحرّم ، فى العسكر

(١) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٢٧ ـ ١٣٢ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ .

(٢) الفولة : قرية معروفة بالقرب من عين جالوت ــ معجم البلدان ، النوادر السلطانية ص ٦٢ .

(٣) انظر النوادر السلطانية ص ٦١ ـ ٦٣ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤٨ ـ ١٥١ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٠٢ .

العرمرم ، ومضى بأهل الجنّة لجهَاد أهلِ جهنم . فلمّا وصل إلى رأس الماء [١] أمَر ولَده الأفضل بالمُقَام عندَها ليَجْتمع عندَه الأمراء الواصلون من الجهات . وسار السّلطان [١٢٢] إلى بُصرى ، ثمّ منها إلى الكرك ، ورَعَى الزُّروع وقَطَع الأشجار . ثمّ سار إلى الشّوبك وفَعَل مثلَ ذلك . ووصل إليه العسكر المصرِىّ ففرَّقه على قلْعَتَى الكرك والشّوبك . وأقام إلى أنْ انْقضى من السّنة شهران ، والملكُ الأفضل مقيمٌ برأس الماء ، وقد اجتمعت عنده العساكر ، فتقدّم إلى سريّة منهم بالغارة على أعمال طبريّة ، فانتَهوْا إلى صَفُوريّة [٢] فخرج إليهم الفرنج فقاتلُوهم ، فكان الظّفر للمسلمين ، وهلك مقدّم الأسْبتار ؛ وعادُوا إليه فكانت مقدّمة النّصر المبين .

وانتهت البشائر إلى الملك النّاصر وهو بِنَواحى الكرك والشوّبك ، فسار بمن معَه فى يوم الجمُعة سابع عشَر ربيع الأوّل ، وعَرَضهم فى اثْنَى عشر ألف فارس . وعَزم على دُخول السّاحل ، فانْتهى إلى ثغْر الأُقْحُوَانة [٣] فاجتمعت الفرنج فى زُهاء خمسين ألفًا ، ونزلُوا على مَرْج صَفُوريّة بأرض عكّا ، فلم يتقدّموا عنها . فتقدّم السُّلطان إلى الأمراءِ أن يُقيموا فى مُقَابلتهم ، ونزل هو بمَنْ معَه من خوَاصّه على طبريّة وشرع فى نَقْب سُورها ، فهدَمُوه فى ساعةٍ من نهار ، وامْتنعت القلعة بمَن فيها .

فلمّا اتّصل بالفرنج فتحُ طبريّة تقدّمُوا ، وذلك فى يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر ، فتركَ السّلطان على طَبَريّة من يحفظُ قلعتَها ، وتقدّم بالعسكَر ، فالْتَقَيا على سَطْح جَبل طبريّة الغربّى منهـا . وحالَ

---

(١) رأس الماء : موضع فى حوران ، على مسافة ٢٠ ميلاً شمالى درعا ــ معجم البلدان .

(٢) صفورية : قرب طبرية ــ معجم البلدان .

(٣) ثغر الأقحوانة : على شاطىء بحيرة طبرية ــ معجم البلدان .

بينهُما اللّيل ، فباتَا إلى صبيحة يَوم الجمُعة ، فتصادَمَا بأرض قرية اللّوبيا ؛ واستمرّت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحرُوب . ثمّ باتا إلى صبيحَة يوْم السّبت ، فالْتقَيَا .

فلّما عاين القومص[1] أنّ الدائرة تكونُ على طائفتِه هربَ فى أوائل الأمر قبل اشتداده ، وسار نحوصُور ، فتبعَهُ جماعةٌ من المسلمين ، فنجا بمفرده . ثمّ انهزَمت طائفةٌ أخرى فتبعها أبطالُ المسلمين ، فلم ينجُ منها واحد . واعتصَمت الطّائفة الأخرى بتل حطّين ، فضايقهم المسلمون وأشْعَلُوا حولَهم النّيران ، فقتَلَهم العطش ، فأُسِر مقدَّمُهم ، وقتل الباقون وأسِروا ، وألقى الله عليهم الخِذلان .

قال القاضى أبو المحاسن ابن شداد : لقَد حكى لى مَن أثِق به أنّه لقى بحَوْرَان شخصًا واحدًا ومعه طُنُبُ خيمة فيه نَيّفٌ وثلاثون أسيرا(٢).

وأمّا القومص الذى هرب فإنّه وصل إلى طرابلس ، وأصابه ذات الجنب ، فأهلكه الله .

قال : وبَات السُّلطان بالمنزلة ، ونَزل يوم الأحدِ على طبريّة وتسلّم قلعتهَا فى بقيّة يوْمه ، وأقام بها إلى يوم الثّلاثاء .

قال : ولمّا يسر الله هذا الفتح كتب السّلطان إلى أخيه الملك العادل سيْف الدّين بمصر يُبشّره به ، وأمَره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جِهَة مصر بمَنْ بقىَ عنده من العساكر ، ومحاصَرَةِ ما يليه منها ؛ فسارع إلى ذلك ، وسار ونازل حِصْن مجدليابة (٣) وفتحه ، وغنم ما فيه ، ثم سار إلى يافا وفتحها عنوةً ، وقتل وسبى ، وأَسَر وغنم ..

---

(١) المقصود ريموند صاحب طرابلس ،

(٢) النوادر السلطانية ص ٧٧ .

(٣) « يافا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وعنوان هذه الفقرة ، وما ورد فى الكامل جـ ١١ ص ٥٤٠ ـ ٥٤١ .

ذكر فتح عكا ونابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والنّاصرة ومعليا والفولة والطور والشّقيف وغير ذلك

قال ابن شدّاد : ثمّ رحل السّلطان طالبًا عكّا . وكان نزولُه عليها فى يوم الأربعاء سَلْخَ شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وثمانين ، وقاتلها بُكرةَ الخميس مستهلّ جُمادى الأولى ، فأخذها ، واستَنْقَذ من كان فيها من الأسارى ، وكانوا زهاء أربعة آلاف ؛ واستوْلَى على ما فيها من الأموال والذّخائر .

ثم تفرّقت العساكر فى بلاد السّاحل فأخذُوا نابلس ، وحَيفا ، وقَيْسَاريّة ، وصفُورِيّة ، والنّاصِرة ، ومَعْلَيَا ، والفُولَة ، والطُّور ، والشّقيف وقلاعًا تَلى هذه كثيرة ؛ وكان ذلك لخلُوّها من الرّجال فإنّهم عمّهم القتل والأسر[1] .

ذكر فتح تبنين وصيدا وصرفند وبيروت وجبيل

قال : ثم أرسل السلطان[ابن][2] أخيه تقى الدين إلى تِبْنِين ، فضايقها ، وكتب إلى السلطان أنْ يأتيَه بنفسه ، فوصَل إليها ونازَلها يوم الأحد الحادى عشر من جُمادى الأولى ، فسأل مَنْ بها الأمَان واستُمهلُوا خَمسة أيام لينزلوا بأموالهم ، وأطلقوا الأسارى ، فخرجوا إليه ، فسُرَّ بهم وكَساهُم . وخلص فى تلك السنة [١٢٣] من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير ، ووقع فى أسْره من الكفار مائة ألف .

قال : ثم رحل السّلطان من تبنين إلى صَيْدا ، فاجتاز فى طَريقه بصَرَفَنْد فأخذَها بَعْد قتال .

---

(١) النوادر السلطانية ص ٧٩ ، وانظر الكامل جـ ١١ ص ٥٣٩ وما بعدها .

(٢) [ ] إضافة من الكامل جـ ١١ ص ٥٤١ .

ثم سار إلى صَيْدا ، ففارقَها صاحبُها وتركَها خالية ، فتسلَّمها ساعة وصُوله إليها لِتسعٍ بقينَ من جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وثمانين

وسارَ من يَوْمه نحو بيروت فقاتل أهلُها على سُورها وظنُّوا أنهم قد قَدَروا على حفظه ، فدخَلها المسلمون من الجانب الآخر ، فسألوا الأمان فأمَّنهم على أنفُسهم وأموالهم ، وتسلَّمها فى التاسع والعشرين من الشهر .

وأمّا جُبَيْل فكان صاحبُها فى جملة الأسرى الذين نُقِلوا إلى دمشق ، فسأل إطلاقه وتَسْليمها ، فأحضره مقيّدًا ، فسلّم البلد وأطلق أسرى المسلمين ، وأطلقه السّلطان .

ذكر فتح عسقلان وما يجاورها

قال : وسَار السّلطان إلى عَسْقلان والرملة وغزة والدّارُوم وغير ذلك .

فنَزَل على عَسْقلان فى يوم الأحد سادسَ عشر جُمادى الآخرة ، ونصبَ عليها المجانيق ، فسلَّمُوها على خروجهم بأموالهم سالمين ؛ وذلك فى يوم السبت سلخ جمادى الآخرة [١] .

ثم تسلَّم حصُون الدّاويّة وهى غزّة ، والدّارُوم ، والرّملة ، وتُبْنَى ، وبيت لحم ، ومشهد الخليل ، ولدّ ، وبيت جبريل [٢] .

قال : وكان بين فَتْح عسقلان وأخْذ الفرنج لَها من المسلمين خمسٌ وثلاثون سنة ، فإنّ العدُوّ استولى عليها فى السّابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة .

---

(١) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٤٥ ، النوادر السلطانية ص ٨٠ .

(٢) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢١٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٤٦ .

قال العماد : وفوّض السّلطان القضاء والحُكم والخَطابة وجميعَ المناصب الدينيّة بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدّين عبْد الله بن عمر الدّمشقى ، وهو المعروف بقاضى اليمن .

ذكر فتح البيت المقدس

قال المؤرخ : لمّا فرغ السّلطان الملك النّاصر من أمْر عسْقلان وما يجاوِرُها سَار إلى البيت المقدّس ، فكان وصوله إليه فى يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة . وكان به البَطْرك المعظّم عندَهم ، وهو أعظم شأناً من مَلِكهم ، وبه أيضًا باليان بن بارزان صاحب الرّملة ومَنْ خلص من فرسان الفرنج من حطّين ، واجتمع به أهلُ عَسْقلان وغيرها ، كلُّهم يَرى الموْت عليه أهون من أن يُملك البيتُ المقدّس .

فنزل السّلطان بالجانب الغربىّ وأقام خمسة أيّام يطُوف حوْلَ البلد لينظُر مِن أين يقاتلُه . ثمّ انتقل إلى الجانب الشّمالىّ يوم الجمعة ، العشرين من الشّهر ، وكانت عدّة من به من المقاتلة ستّين ألفًا غير النّساء والصّبيان فنصَب السّلطان المجانيق فى تلك اللّيلة ، ونصب الفرنج على السُّور مجانيق أيضًا ، وقاتلُوا أشد قتالٍ رآهُ النّاس لأنّ كلاًّ من الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات لايُحتاج فيه إلى سُلطان . وكانت خيّالة الفرنج يخرجُون فى كلّ يوم إلى ظاهِر البلد فيقاتلون ويُبارزُون . وتوالَى الزّحف ، ونقب المسلمون السّور مما يلى وادى جهَنّم .

فلما رأى الفرنج ذلك أخلَدُوا إلى طلَب الأمان ، وبعثوا جماعةً من أكابرهم في ذلك ؛ فامْتَنع الملكُ النّاصر من ذلك وقال : لا أفعلُ بكم إلاّ كما فعلتُم بأهله حينَ ملكتُموه فى سنة إحدَى وسَبْعين وأربعمائة من

القَتْل والسّبى . فلما رجع الرّسُل إليهم ، أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضُر إلى الملك النّاصر ، فأمّنه ، فحضر إليه وسَأله الأمان ، فلم يُجِبْه ، واستعطَفَه فلم يتعطّف ، واسترحْمَه فلم يرحمه . فلمّا أيِسَ منه قال لهُ ما معناه : أيها السّلطان ، اعْلَم أنّنا فى هذه المدينة فى خَلْق كثير لا يعلمهم إلاّ الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاءَ الأمان ، وهم يكرهون الموت ويرغبُون فى الحياة ؛ فإذا رأينا أنّ الموت لابُدّ منه والله لنقتُلَنّ أبناءَنا ونِساءنا ، ونُحرق أمْوالَنا وأمتِعتَنا ، فلا نترككم تغنَمون منها دينارًا واحدًا ولا درهمًا ، ولا تَسْبُون ولا تأسِرُون رجلاً ولا امرأة .[١٢٤] فإذا فرَغْنا من ذلك أخْرَبنا الصّخرةَ والمسجد الأقصى ؛ وغير ذلك من المواضع الشّريفة ؛ ثم نقتل مَنْ عِندنا من أسرى المسلمين ، وهم خمسة آلاف ، ولا نترك لنا دابّةً ولا حيوانًا إلا قتلناه . ثمّ نخرج إليكم ، كلُّنا ، فنقاتلكم قتالَ مَنْ يريد يحمِى دمَه ونفْسَه ، فلا يُقْتَل الرّجلُ منا حتى يَقْتُل ؛ فإمّا أن نموتَ أعزاء أو نظْفَر كرامًا .

فلمّا سمع الملكُ النّاصر كلامه استشار عنْد ذلك أصحابه ، فأشاروا عليه بمُوَافقَتهم .

ووقع الصّلح على أن يسلّموا أسْرَى المسلمين ، ويبْذُلوا عن كلّ رجلٍ من الفرنج عشرة دنانير ، وعن كلّ امرأة خمسة ، وعن كلّ طفلٍ وطفلةٍ دينارين ، يستوى فى ذلك الغنىّ والفقير . وبذَل ابن بارزان فى الفُقَراء ثلاثين ألف دينار من مَاله ، وعلى أنْ تكون المدّة أربعين يومًا ، فمن أدّى ذلك قبل المدّة خلص ومن تأخّر استُرِقّ .

وتسلّم السّلطانُ المدينةَ فى يوم الجمُعة السّابع والعشرين من شهر

رجب . وكان يومًا مشهودًا ، ورُفعت الأعلام الإسْلامية على الأسوار[١] ، ورتّب السّلطان على أبواب البلد أُمناء من الأمراء يأخذون من أهله ما استقرّ عليهم ، فخانُوا ، ولوأدّوْا الأمانة لامتلأت الخزائن .

قال : وصلّى الملكُ النّاصر الجمعة الثّانية في رَابع شعْبان فى قبّة الصّخرة ، وكان الخطيبُ والإمَامُ القاضى محيى الدّين ابن الزّكى قاضى دمشق [٢] .

ثم رتّب له خطيبًا وإمامًا ونقل إليه المِنْبر الذى كان عَمِله الملكُ العادل نورُ الدّين بحلب برَسْم البَيْت المقدّس إذا فتحه . وكان بين عَمَله وفَتْح البيت المقدّس مايزيدُ على عشرينَ سنة .

ثمّ تقدّم أمر السّلطان بعمارة المسجد الأقصى ومَحْوِ ما كان الفرنج صنعُوه من الصُّوَر على عادتهم ، ونقل إليه المصَاحِف ، وطهّره من أدْنَاس الكُفر ، رحمه الله تعالى ، وتقدّم بعمل الرُّبُط والمدَارس ، وجَعَل دار الأسْبتار مدرسةً للشّافعيّة [٣] .

ذكر رحيله ومحاصرة صور

قال المؤرّخ : وأقام السّلطان الملك النّاصر بالبيت المقدّس إلى الخامس والعشرين من شعْبَان من السّنة ، ثمّ سار لقَصْد محاصرة صُور وقد اجتمع فيها خلقٌ كثير من الفرنج . وقدِم إليها المَـرْكِيس [٤] فى

---

(١) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢١١ ـ ٢١٧ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٤٦ ـ ٥٥٣ ، النوادر السلطانية ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٢) هو محمد بن على بن محمد ، محيى الدين بن الزكى ، توفى ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ـ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٢٩ رقم ٥٩٤ .

(٣) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٣٠ .

(٤) هو كنراد ابن ماركيز مونتيفرات ـ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٧٦٢ ـ ٧٦٣ .

البحر بأموالٍ عظيمة ؛ وكانت عـادتُه أن يحضـر إلى البَيْت المقدّس بأموالٍ يفرّقُها ، فلمّا حضر فى هذا الوقت وَوَصل عكّا فرآها قدْ خرجَت عن أيدى الفرنج سار إلى صُور فملكها ، وأنْفَق ما مَعُه على مَنْ بها ، فقَوِى أمرُه وانحاز إليه جميعُ مَنْ خلص بالأمان من سائِر البلاد . فأنفق على سور صُور وخَنَادقِها ، وعمَّقهـا ، فصَارت كـالجزيـرة فى البحر لا يُمْكنُ الوصول إليها .

فوصَل الملكُ النّاصر إلى عكّا فى مستهل شهر رمضان ، فأصْلَح من شأنها ، ثم رحل عنها ونَازَل صورٍ فى تاسع شهر رمضان ونزل على نهر بالقرب من البلد ؛ ثمّ نزل على تلٍّ يقارِبُ صور فى الثّانى والعشرين من الشّهر ، وقسّم القتال على العسْكَر لكلِّ جَمْعٍ منهم وقتٌ معلوم . واستدعى الأسطول المِصرىّ ، وكان بعكّا ، فجاءته عشر شوانٍ ، وكان للفرنج فى البحر مراكب فيها رماة الجروخ [١] والزنبوركات [٢] يرمُون مَنْ دنا من البحر . فاسْتَطال الأسطول عليها ، وأحاط بهم المسلمون وقاتلُوا برًّا وبحرًا ؛ ثمّ أغفَلوا أمْرَهم فملك الفرنج من الشوانى خمسةً وأسرُوا مقدَّمها [٣] .

ثمّ كانت حروبٌ كثيرة ووقائع .

ثمّ رحل السّلطان عنها فى آخر شوّال ، وهو أول كانون [٤] ، وسار إلى عكّا ، وأذِن للعساكر بالعَوْد إلى أوطانهم للرّاحة فى الشتاء والعَوْد فى الربيع ، فعادت عساكرُ الشّرق والمَـوْصِل والشّـام ومِصر ، وبقى

---

(١) الجرخ ـ الجروخ : أنواع من السهام ـ انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤٢ هامش ٤ .
(٢) الزنبورك ـ الزنبوركات : نوع سميك من السهام ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤٤ هامش
(٣) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٥ .
(٤) ديسمبر ١١٨٧ م .

السّلطان فى عكّا فى حَلْقَته وخاصّته ، وردّ أمرها إلى الأمير عز الدّين جُرْدَيك (١) .

ذكر فتح هُونِين

قال المؤرخ : كان السّلطان لمّا فتَح تِبْنِين امتنع مَنْ بهُونِين من تسليمها ، وهى من أحْصَن القلاع وأمْنَعها ، فرتّب عليها من يَحْصُرها ؛ فطلَب مَنْ بها الأمان لمّا كان السّلطان يحاصر صُور ، فأمّنهم ، ونزلُوا منها وتسلّمها (٢) .

[واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية ، مع كثرتها ، كان فى ست جمع مع أنها فى أيدى أشجع الناس] (٣) [١٢٥] وأشدهم عداوة للمسلمين ، فيسر الله فتحها فى أيسر مدة .

---

(١) انظر الكامل جـ ١١ ص ٥٥٥ ـ ٥٥٧ .

(٢) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) رغم تتابع أرقام أوراق المخطوط ، فإن الكلام غير متصل فيما بين ورقم ١٢٤ وورقة ١٢٥ ، والفقرة المضافة من الكامل جـ ١٢ ص ١٣ ـ ١٤ لمواصلة تتابع الأحداث ، وتتفق مع السياق الذى أورده النويرى فى بداية الورقة ١٢٥ ، أما المدن والحصون التى تشير إليها هذه الفقرة فهى :

ـ ذكر فتح جبلة ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٨ ، الكامل جـ ١٢ ص ٧ .

ـ ذكر فتح بكسرائيل ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٩ ، الكامل جـ ١٢ ص ٨ .

ـ ذكر فتح اللاذقية ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٩ ، الكامل جـ ١٢ ص ٩ .

ـ ذكر فتح صهيون ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦١ ، الكامل جـ ١٢ ص ١٠ .

ـ ذكر فتح الشغر وبكاس ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٤ ، الكامل جـ ١٢ ص ١٢ .

ـ ذكر فتح سرمانية ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٤ ، الكامل جـ ١٢ ص ١٣ .

ذكر فتح حصن برزية

قال : ولما رحل السلطان من قلعة الثغر سار إلى قلعة برزية [١] ، وبحصانتها يضرب المثل ، وهى تقابل حصن أفامية [٢] وتناصفها فى أعمالها ، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصى ، ومن عيون تنفجر من جبل برزية وغيره .

وكان أهلها أضر شىء على المسلمين يقطعون الطّريق ويبلُغُون فى الأذى .

فنزَل السّلطان شرقيَّها فى رابع عِشْرِى الشّهر [٣] ، وركب من الغَد وطاف عليها لينظُر موضعًا يقاتِلُها منه ، فلم يجده إلا من جهة الغرب . وهذه القلعة لا يمكن أنْ تُقاتَل من جهتى الجنوب والشّمال ألبتَّة ، فإنّ جبلَها لا يُصعد إليه من هاتين الجهتين ؛ وأمّا الجانب الشرقىّ فيمكن الصُّعود منه لِغير مقاتِل لِصُعوبته وارتفاعه ؛ وأما جهةُ الغرب فإنّ الوادى المُطِيف بجَبَلها قد ارْتَفع هناك ارتفاعًا كثيرًا حتّى قارَب القلعة بحيث يصلُ منه حجر المنجنيق والسّهام . فنزَله المسلمُون ونصبُوا المجانيق ، ونصبَ أهلُ القلعة منجنيقًا ، فرأى السُّلطان المجانيق لا تُفيدُ ، فتركها وعزم على الزَّحف ومُكَاثَرتِها بالرّجال ؛ فقسَّم العسكر ثلاثةَ أقسام ، يزحفون بالنّوبة . فطالَ ذلك على أهْلِها وعجزُوا عن مُقَاتلتهم فملكَها المسلمون عنْوةً ونهبُوا وأسرُوا وسبَوْا ، وأخذوا صاحبها وأهْلَه ، وأمْسَتْ خاليةً خاوية . وألقى المسلمُون النّار فى بعْض البيُوت فاحترقت [٤] .

(١) برزية = برزويه : حصن قرب الساحل على سن جبل شاهق ــ معجم البلدان .

(٢) أفامية : حصن على سواحل حمص ، يقابل برزية ــ معجم البلدان .

(٣) هو شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ ــ الكامل جـ ١٢ ص ١٤ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) الكامل جـ ١٢ ص ١٤ ـ ١٧ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ ، النوادر السلطانية ص ٩٢ ـ ٩٣ .

ذكر فتح قلعة دَرْبَسَاك

قال : ثمّ رحَل السّلطان بعد فتُوح برزيّة من الغَد فأتى جسر الحديد ، وهو على العاصى بالقرب من أنطاكيّة ، فأقام هناك حتّى وافاهُ من تخلّف عنْه من عسكره ثمّ سار إلى قلعة دَرْبَسَاك ، فنزَل عليها فى ثامن شهر رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وهى من أحْصَن معاقل الدّاويّة وقلاعهم التى يدّخرُونها عند نُزول الشدائد بهم . فنصَب عليها المجانيق ، وتابَع الرّمْىَ بالحجارة ، فهدم قطعةً يسيرة من سُورِها ؛ ثمّ أمَرَ بالزّحْف عليها ومُهَاجمتها ؛ فتوالى الزّحفُ والقتال ، وتقدّم النّقّابون فنقبوا منها بُرْجًا وعلقوه فسقَط ، وطلَب أهله الأمان فأمّنهم على ألا يخرجُوا منها بغير ثيابهم خاصّةً ، فخرجوا كذلك ، وتوجهوا إلى أنطاكيّة ، وتسلّمه فى تاسع عشر شهر رجب [1] .

ذكر فتح قلعة بَغْرَاس

قال : ثمّ سار عن دَرْبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس ، فحَصَرها بعد أن اختلف أصحابهُ فى حَصْرها ، فمنهم مَن أشار به ، ومنهم من نهى عنه وقال هُو حِصْنٌ حصينٌ ، وقلعةٌ منيعةٌ ، وهو بالقرب من أنطاكية . فسار إليها وجَعَل أكثر عَسْكره مُقابِل أنطاكية يُغيرون على ضِيَاعِها ، وبقى هو فى بَعْض أصحابه على القَلْعة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثّر فيها ، فغلَب على الظُّنون تعذّر فَتْحها . فبينما هُم فى ذلك إذ جاءَ رجلٌ من القلعة يطلب الأمان لرسُولٍ ، فأعْطِيَه ، وجاء رسولٌ يطلب الأمان لأهلها ، وسلّموها على قاعدة دربساك ، فأجَابهم إلى ما طلبوا . وعاد

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ١٧ ــ ١٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ ، النوادر السلطانية ص ٩٣ .

الرَّسُول ومعه الأعلام السُّلطانيَّة فرُفِعَت على رأس القلعة ، وتسلَّمها السّلطان وأمَرَ بتخريبها فخربت[١] .

ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية

قال : ولمَّا فتح السّلطان بغراس قصد حصار أنطاكيّة فجاءته رسُل بيمند تسأله الهدنة ثمانيةَ أشهر بحيث يُطْلِق جميع مَن عنده من أسْرى المسلمين . فاستشار السلّطان أصحابه ، فأشار أكثرُهم بذلك ليستريحَ العسكرُ ويجدِّدوا [١٢٦] ما يحتاجون إليه ، فأجاب إلى ذلك ووُقِّعت الهدنة ثمانيةَ أشهر أولها تشرين الأول[٢] .

وتوجَّه السّلطان إلى حلب فوصل إليها فى ثالث شعبان ، وفرَّق العساكر الشّرقية : عمادَ الدّين زنكى بن مودُود صاحب سنجار ، وعَسْكرَ الموصل ، وغيرَهما . ثمّ رحل إلى دمشق فدخلها فى أول شهر رمضان من السّنة .

ذكر فتح الكرك والشوبك وما يجاورهما

قد ذكرْنا أنّ السّلطان كان قد جَعَل على الكرك من يحصُره ، وهو سعدُ الدّين كمشبه[٣] ، فى أوّل سنةِ أربعٍ وثمانين ؛ فلازَمَ الحصار هذه المدَّة الطويلة حتى نفذَت ذَخائرُ الفرنج ، وأكلوا دوابَّهم . فراسَلوا الملكَ العادلَ أخا السّلطان ، وكان السّلطان قد جعله بتلك النّواحى فى جَمْعٍ من العسكر ، وسألُوه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأرسل إلى سَعْد الدّين مقدّم العسكر فتسلّم القلعة منهم وأمَّنَهم .

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ١٨ ـ ١٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ، النوادر السلطانية ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) شهر أكتوبر ١١٨٨ م ـ شعبان ٥٨٤ هـ ـ الكامل جـ ١٢ ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) « كمشبا » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧١ .

وتسلّم أيضًا ما قَارَب هذا الحصن من الحُصَون وهو الشـوبك ، وهرمز ، والوعيرة ، والسلع فأمِنت القُلوبُ من تلك الجهة[١] .

ذكر فتح قلعة صفد

قال : ولمَّا وصل السّلطان إلى دمشق أُشير عليه أن يفرّق العساكر ، فقال : إنّ العمر قصير والأجل غير مأمون ، وقدْ بقِيَ بيد الفرنج هذه الحصون : صفد والكو كب ، ولابدّ من الفَرَاغ من ذلك فإنّهما فى وَسَط بلاد الإسلام . وأقامَ بدمشق إلى منْتَصَف شهر رمضان من السّنة ، وسار إلى قلعة صفد ، فحصَرها ونصب عليها المجانيق ، وداوَمَ الـرَّمْىَ ليلاً ونهارًا ، فَسألوا الأمان ، فأمّنهم وتسلّمها ، وخرج أهلها إلى صور[٢] .

ذكر فتح كوكب

قد قدّمنا [٣] أنّ السلطان كان قد جعل على كوكب الأمير قايماز النّجمى[٤] . فلمّا حصر السّلطان صَفَد أرسل منْ بصُور مِنْ الفرنج نجدةً من جِهاتهم إلى كوكب ، وهم مائتا رجُـل من الشُّجعان ، فـظَفِر بهم قَايماز فقتلهم عن آخرهم ، وأرْسل إلى السلطان المقدَّمَيْن عليهم ، وهما رجلان من فرسان الأسْبتار ، فأمر بقتلهما ، فقال أحدُهما ما أظن أننا ينالُنا سوءٌ بعد أنْ رأينا وجهَك الصّبيح . فعفَا عنهُما واعتقلهما .

ولما ملَك صَفَد سار عنها إلى كوكب وشدّد الحصار ووَالَى الزّحف ، وأشْرف على أخذها ، فسأل الفرنجُ الأمـان فأمّنهم وأطلقهم ، وتسلّم

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٢٠ ـ ٢١ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ،

(٢) وذلك فى رابع عشر شهر شوال ٥٨٤ هـ ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) لم يذكر النويرى ذلك من قبل ، ولكنه ينقل عن غيره ، وقد تكرر ذلك فى أكثر من موضع .

(٤) هو قايماز بن عبدالله النجمى ، صارم الدين ، توفى سنة ٥٩٦ هـ/١١٩٩ م ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣ ، الدارس جـ ١ ص ٥٧٢ وما بعدها .

الحِصْن فى منتصف ذى القعدة سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة .

فالتحق مَنْ كان به بصُور فقويَت شوكتهم وكثرُوا ، لأنَه اجتمع عندَهُم شُجعان الفرنج وكُمَاتُهم . وتابَعُوا الرّسل إلى ملُوك الفرنج بالأندلُس وصِقِلّيّة والجزائر يستغيثُون بهم ويسألون الأمداد ، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

قال : ثمّ سار السّلطان إلى البيت المقدّس فعيَّد فيه عِيدَ الأضحى . ثمّ سار منه إلى عكّا وأقام بها إلى أن انسلخت السنة[١] .

وفى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثارَ بالقاهرة اثنا عشَر رجلاً من الشّيعة ، ونادوا بشعار العلويّين ، وصاحوا :يا لَعَلِىّ[٢] وسلكوا الدُّرُوب يُنادون ، ظنًّا منهم أن أهل البلد يُلبُّون دعوتهم ويخرجون معهم ، فيعيدون الدولة العُبَيديّة ويملكون البلد ويُخْبِرجونَ مَن بالقصر من العلويين ؛ فلم يُجبهم أحد من الناس .

فلمّا خاب سعيُهم تفرّقُوا فأُخِذوا . وكُتب بذلك إلى السّلطان فأهمّه وأزعجه .

فقال له القاضى الفاضل عبْد الرّحيم : ينبغى أن يَفْرح السّلطان بذلك ولا يحزن ، حيث عَلِم مِن بَوَاطن رعيّته المحبَّةَ له والنّصيحة ، وتَرْك المَيْل إلى عدُوّه . ولو وَضَع السُّلطانَ جماعةٌ يفعلُون مثلَ هذه الحالة ليَعْلم بوَاطن أصحابه ورعيّته وخَسر الأموال[٣] الجلية لكانَ قليلاً فسُرِّىَ عنه .

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٢٢ ـ ٢٣ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٦ ، النوادر السلطانية ص ٩٦ .

(٢) « يال على » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٦ ، الكامل جـ ١٢ ص ٢٤ .

(٣) « وخبر الأموال » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ١٢ ص ٢٤ .

[١٢٧] ذكر فتح شقيف ارنوم

وفى شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة سارَ السُّلطان إلى شقيف أرنوم[١] ، وهو من أمْنَع الحصون ، ليحصره ، ونزل بمرج عُيون فنزل صاحبُ الشّقيف ، وهو أرناط[٢] صاحب صَيْدا ، إلى السّلطان ؛ وكان من أكثر النّاس دَهاء ومكرًا فقال : أنَا محبٌ لك ولدَوْلتك ، ومعترف بإحسانك ، وأخاف أن يطّلِع المركيس على ما بَيْني وبَيْنَك فينال أوْلادى وأهلى منْه أذًى ، فإنّهم عندهُ بصُور ؛ وأحبّ أنْ تمهلَنى حتى أتوصّل إلى تخليصهم من عنده ، وحينئذٍ أحضر أنا وهم إلى عندك ونسلّم الحصن إليك ، ونكون فى خدمتك ، نقنع بما تعطينا من الإقطاع . فأجابه السلطان إلى ذلك وظنّ صدقه ، واستقرَّ الأمر بينهما أن يسلّمَ الشّقيف فى جمادى الآخرة .

وأقام السّلطان بمَرْج عُيون ينتظر الأجل وهو قلقٌ مفكرٌ لقُرب انقضاء الهدنة بينه وبين صَاحب أنطاكية فأمر تقى الدّين ابن أخيه أن يسير فيمن مَعَهُ من عساكره ومَنْ يأتيه من بلاد الشّرق ويكون مقابل أنطاكيّة لئلاَ يُغير صاحبُها على ما يجاورُه من بلاد الإسْلاَم عنْد انقضَاءِ الأجل .

وكان السّلطان أيضًا منزعِجَ الخاطر لِمَا بلغَه من اجْتماع الفرنج بصُور وَمَا يصلُ إليهم من الأمداد ، وأنّهم اجتمعوا فى خلْقٍ كثيرٍ وخرجُوا من مدينة صُور إلى ظاهِرها ؛ فخاف أنْ يترُك الشّقيف وراءَ ظَهره . وكان أرْنَاط فى هذه المدّة يشترى الأقوات من سُوق العسكر ، والسّلاح ، وغيرَ ذلك مما يحصّن به شقيفه ، فيبلُغ السّلطان فلا يُنكره بحسُن ظنّه . وكان قصْدُ أرناط المطَاولةَ إلى أن يظهر الفرنج من صور .

(١) شقيف أرنوم = شقيف أرنون : قلعة حصينة بين بانياس والساحل ـ معجم البلدان .

(٢) واسمه رينالد ، ويعرف بريجنالد صاحب صيدا ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ٨٧٠ .

فلما قاربَ الأجل تقدّم السلطان إلى الشّقيف ، واستدعى أرناط وقد بقى من الأجل ثلاثة أيّام ، فجاءه ، فتحدّث معه فى تَسْليم الحصن ، فاعتذر بأولاده وأهله وأنّ المركيس لم يمكّنهم من المجىء إليه ، وطلَب المهلة مدّةً أخرى . فحينئذٍ تحقق السّلطان مَكْرَه وخداعه ، فأخَذه وحَبَسه ، وأمره بتَسْليم الشَقيف فطَلَب قسّيسًا وحمّله رسالةً سرًّا ، وأظهر أنّه أمره بتَسْليمه ؛ فامْتنع مَنْ بالحصن من تَسْليمه : فسيّر أرناط إلى دمشق وسَجَنه ، وتقدّم إلى الشّقيف وضَيّق على مَنْ به ، وترَك عليه من يحفظُه ويمنعُ مِن الوصول إليه . فتسلّمه فى يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين ، وأطلق صاحبه[1] .

ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وما كان عليها من الوقائع

قال : وجاءت السُّلطانَ كتبُ أصحابه الذين جعلهم يَزَكًا[2] فى مقابَلَة الفرنج على مدينة صُور يخبرونه أنّ الفرنج قد اجتمعُوا على عُبور الجسر الذى لصُور ، وعزَمُوا على حصار صَيْدا . فسار جريدةً فى شجعان أصحابه ، فوَصَل إليهم بعد أنْ كانت الوقعَةُ بين الفرنج وبين اليَزَك .

وذلك أنَ الفرنج خرجُوا من مدينة صُور ، فلقيَهم اليزكُ على مضيق وقاتلُوهم ومنعُوهم ، وكانت حربًا شديدةً ، وأُسِر من الفرنج جماعةٌ ، منهم سبعةُ رجال من فرسانهم المشهورين ، وقُتل من المسلمين

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٢٧ ـ ٢٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤ ، النوادر السلطانية ص ٩٧ .

(٢) اليزك : طلائع الجيش ـ صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١١٠ .

جماعةً . ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صَيْدا فعادوا إلى صُور والله أعلم[١] .

ثم كانت لهم وقعة ثانية بعد وصول السّلطان مع المتطوّعة .

وذلك أنَ السّلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليَزَك فى خَيْمةٍ صغيرة ينتظِرُ عودة الفرنج للخُروج ؛ فرَكِب فى بعض الأيام فى عدَّةٍ يسيرة لينظُر إلى مخيّم الفرنج من الجبل ، فظَنَّ مَنْ هُناك من المتطوّعة أنّه قصد الغَزَاة ، فسارُوا مجدِّين وأوْغَلُوا فى أرض العدوّ وبَعُدُوا [١٢٨] عن العسكر ، وخلَّفوا السّلطان وراءَ ظُهورهم ؛ فبَعث مَنْ يردُّهم فلم يَرْجعوا . وظنّ الفرنج أنّ وَراءَهم مَنْ يحميهم فأحجموا عنهم ؛ فلمّا علمُوا بانفرَادِهم حملُوا عليهم حمْلةَ رَجلٍ واحد ، فقُتل منْهُم جماعةٌ من المعروفين ؛ فشقَّ ذلك على السُّلطان والمسلمين . وكانت هذه الوقعة فى تاسع جُمادى الأولى .

فلمَّا رأى السّلطان ذلك انحدر من الجَبَل بمَن معه ، وحمل على الفرنج فردَّهم إلى الجسر ، فرمَوْا بأنفسهم فى الماء ، فغَرِق منهم مائة دَارِع سوى مَنْ قُتِل . وعادُوا إلى مدينة صُور ، فعادا السّلطان إلى تِبْنِين ثم إلى عكا .

ثم كانت وقعةٌ ثالثة فى يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة صبر فيها الفريقان[٢] .

ذكر مسير الفرنج إلى عكّا ومحاصَرَتها

قال المؤرخ : لما كثُر جمع الفرنج بصُور ، على ما ذكرناه مِنْ أنّ السّلطان كان كلّما فتح حصناً أو مدينةً بالأمان سار أهلُها إلى صُور

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ ، الكامل جـ ١٢ ص ٢٩ .

(٢) انظر تفصيل هذه الوقعة الثالثة فى الكامل جـ ١٢ ص ٣٠ ـ ٣١ .

بأموالهم وأهليهم ، اجتمع بها منهم عـالَمٌ كثير لا يُحْصَـوْن ، وأموالٌ كثيرة ، ثمَ إنّ الرّهبان والقُسُوس لبِسوا السواد وأظهرُوا الحزن على خـروج البَيت المقدّس عنهم ، وتـابَعَهم جمـاعـةٌ من المشهـورين . فأخذهم البطرك[1] ودخَل بهم إلى بلاد الفرنج يطُوفُها بهم ويستَنْجدُون أهْلَها ويستجيرُون بهم ، ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس .

وصوَّرُوا صُورَة المسيح عليه السّلام وصُورة رجل أعرابى والعَربىّ يضربهُ بين جَماعةٍ ، وقالوا : هذا المسيحُ يضربُه محمّد نبى المسلمين ، وقد جَرَحه وقتَله[2] .

فعظُم ذلك على الفرنج وحشدُوا ، حتّى النساء ،فإنّهم كانَ معهم على عكّا عدَّةٌ من النسَاء يبارِزْن الأقران . ومَنْ لم يستطع أن يَخرج استأجَر عنه أو يعطيهم مالاً . فاجتمع لهم من الرّجال والأموال مالاً . يُحصى كثرة .

واجتمعـوا بصُور والبَحْـر يُمِدُّهم بـالأمـوال والأقـوات والعُـدد والذّخائر ، فضاقت عليهم مدينة صُور ، باطنُها وظاهرها ؛ فأرادُوا قَصْد صَيْدا ، فكان من ردِّهم ما ذكرناه .

فاتّفقُوا على قَصْـدِ عكّا ومُحَـاصَرتهـا ؛ فسارُوا إليهـا بفَارِسهم ورَاجِلهم ، ولزِمُوا البَحْر فى مسيرهم ، لا يفارقونه فى السَّهل والوعر ، ومراكِبهُم تُسايِرُهم وفيها السّلاح والذّخائر . فكان رحيلُهم من مدينـة صُور فى ثانى شهر رجب سنةَ خمس وثمانين وخمسمائـة ، ونُزُولهم

---

(١) « البترك » فى الأصل .

والمقصود رئيس أساقفة صور وهو جوسيوس Goscius الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٨٣ .

(٢) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٨٨ ، الكامل جـ ١٢ ص ٣٢ ، الروضتين جـ ٢ ص ١٤١ .

على عكّا فى مُنْتَصف الشّهر . فتخطَّف المسلمون مِنْهم فى مسيرهم وأخذوا مَن انفرد .

وجاء الخبر إلى السُّلطان برحيلهم ، فَسار حتى قارَبَهم . ثمّ نزلوا على عكّا قبل وُصُوله إليها ، ونَازَلُوها من سَائرجهاتِها برًّا وبحرًا ، فلم يَبْقَ للمسلمين إليها طريق . ونَزَل السُّلطان عليهم وضرب خَيْمته على تلّ كيسان[1] وامتدّت ميمنته إلى تلّ العياضِيَّة وميسرَتُه إلى النّهر الجارى[2] ، ونزلت الأثقال بصَفُورِيَّة . وسيّر الكتب إلى الأطراف يستَدْعى العساكر ، فأتاه عسكر المَوْصل ، ودِيار بكر ، وسِنْجار ، وغيرها من بلاد الجزيرة . وأتاه تقىّ الدّين ابنُ أخيه ، ومظفّر الدّين بن زين الدين صاحب حَرّان والرّها . فكانت الأمداد تأتى المسلمين فى البرّ وتأتى الفرنج فى البحر .

وكان بين الفريقين مدّةَ مُقامهم على عكّا حروبٌ كثيرة .

نحن نذكر المشهورَ منها على سبيل الاختصار ؛ وأمّا الحرُوب التى تكون بَيْن بعْض هؤلاء وبعْض هؤلاء ، والمناوشات ، فلو شَرَحْنَاها لطَالَ بها الكتَاب لأن مُدّة هذا الحصار كانَتْ ثلاث سنين وشهرًا .

وكان ابتداءُ القتال فى مُسْتَهَل شعبان من السّنة . فقاتَلَهم السّلطان فى ذلك اليوم ولم يَبْلُغ منهم غرضًا ؛ ثم باكَرَهم القتَال واسْتَدَار عليهم من سائر جهاتهم إلى أنْ انتصف النّهار ، وصَبَر الفريقان أعظم صبر . فحَمل تقىّ الدّين من الميمنة على مَنْ يَلِيه مِنهم وأزاحهُم عن مَوَاقفهم ، فركِبَ بعضهم بعضًا لا يُلوى الأخ على أخيه ، والتجأُوا إلى مَنْ يَليهم من أصحابهم . وانْكَشف نصفُ البَلَد ، وملَك تقىّ الدّين مكانَهم ، ودَخَل

(١) تل كَيْسان : بفتح الكاف وياء ساكنة : موضع فى مرج عكا من سواحل الشام ــ معجم البلدان .

(٢) هو نهر بالس .

المسلمُون البلد وخرجُوا منه ، واتصَلت الطريق وزال الحصار . وأدخل السّلطان إلى البلد [١٢٩] مَنْ أراد من الرّجال ، وما أرَاد من الذّخائر ، والأموال ، والسّلاح ؛ فكان مِنْ جُملة من أمره السلطان بالدّخول إليها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السّمين . وقُتِل من الفرنج فى هَذا اليَوْم خلقٌ كثير .

ثم كانت بينهم وقعات فى ثامن شعبان ، وتاسِعه ، وعَاشِره ، وحادِى عَشَره . ثمّ كانت وقْعَةٌ فى تاسع عشر شعبان بين أهْل عكّا والعدُوّ فقُتِل مَن فى الطّائفتين وجُرح .

ثم كانت الوقعة الكبرى فى الحَادى والعشرينَ من شعبانَ وذلك أن الفرنج اجتمعُوا وتشاوَروا ، وقالوا إن العسكر المصرىّ إلى الآن ما قَدِم وهذا فِعْلُ السّلطان ، فكيْفَ إذَا قدِمت عساكِرُه فأجْمعُوا رأيهم على مُناجَزَة الحرب . وكانت عساكِرُ السّلطان متفرِّقةً : منها طائفةٌ فى مُقَابلَة أنطاكية تمنعُ صاحبَها من الإغارة على الأعمال الحلبيّة ؛ وطائفةٌ على حمص فى مُقَابلَة طرابلس ؛ وطائفةٌ تقاتِل مَنْ بقى بصُور ؛ وطائفةٌ بالدّيار المصرية لحمايَة ثغرَىْ الإسكندرية ودمياط ، ومَنْ بقِىَ من العسكر المصرى إلى الآن لم يَصلْ ؛ وهذاَ ممّا أطْمع الفرنج فى الظّهور .

قال : وأصبح المسلمونَ فى هذا اليوم على عادتِهم ، منهُم من يتقدَّم إلى القتال ومنهم مَنْ هو فى خَيْمته ، ومنهم من قَدْ توجه فى حاجته . فخرج الفرنج مِنْ معَسْكَرهم كالجراد المنْتَشِر قد ملأوا الأرض ، فكانت وقعةٌ عظيمة ابتداؤها على المسلمين ، ثم أنزل الله نصره علَيهم ، فهزَموا الفرنج أقْبحَ هزيمة ، وقُتل منهم من رؤسائِهم عشرة آلاف ، وقتل من المسلمين فى هَذِه الموقعَة من الغِلْمَان ومَنْ لم يعرف مائةٌ وخمسون ، ومن المعْروفين الأمير مجلى بن مروان ،

والظّهير أخو الفقيه عيسى [الهكارى][1] ، وكانَ وَالى البيت المقدّس ، جَمَعَ العِلْم والدّين والشجاعة ، والحاجب خليل الهكّارى ، وجمال الدّين بن رَوَاحة الحمويّ ، ولم يكن بالمصافّ . وأُسِر منَ الفرنج مقدّم الدّاويّة ؛ وكان السّلطان قد أسَره فيما تقدّم وأطلقه ، فقتله الآن .

قال : وأمر السّلطان بجَمْع القَتلى وإلْقَائهم فى النّهر الذى يشرَب منه الفرنج .

قال العمادُ الأصفهانى رحمه الله : ومن العَجب أنّ الذين ثبَتُوا فى هذه الوقعة لم يبلغوا ألفًا ، ردُّوا مائَة ألف ، وآتاهم الله قوةً بعد ضعف .

قال ابن الأثير : وأُخِذ فى جُملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيّات كنّ يقاتِلْن على الخيل ، فلما أُسِرن وأُلقِى عنهنّ السلاح عُرِفن[2] .

ذكر رَحيل السّلطان عَن مَنزلته وتمكّن الفرنج من حصار عكّا

كان رحيلُه فى رابع شهْر رمضان من السّنة . وسبَب ذلك أنه لما قُتِل من الفرنج هذه المقتلَةُ العظيمة جافَت الأرض منهم وتغيَّر الهواء ، وحدث لِلأمزجة فسادٌ ، وحصَل للسّلطان مرض القُولَنْج ، وكان يَعْتريه ، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال ، وقالوا لو أراد الفرنج أن ينصرفوا لما قدَرُوا فإنّا قدْ ضيقنا عليهم ؛ والرأى أنْ يَنْتقل عن هذه المنْزِلة ، فإن رحَلوا فقد كُفِينا شرَّهم ، وإن أقاموا عُدْنا إلى القتال ، فوافَقَهم . وكان بئْس الرّأى .

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) الكامل جـ ١٢ ص ٣٩ .

ورحل السّلطان إلى منزلة الخرُّوبَة[١] ، وكتب إلى أهل عكّا يُعْلِمهُم بسبَب رحيله ويحثّهم على حِفظ البلد وغَلْق أبوابها .

قال : ولما رحَل السلطان بعسَاكره عن تلك المنْزلة أمِن الفرنج وانبسَطُوا ، وانْبَثُّوا ، وعادُوا إلى حصار عكّا فى البّر والبحر ، وشرعوا فى حَفْر خندقٍ عليهم يكونُ بينهم وبين المسلمين إن قَصَدُوهم وعَمِلُوا سُورًا من تُراب ، وجاءوا بما لم يكن فى الحُسْبان . هذا والسّلطان قد اشتدَّ به المرض فلم يستَقِل منه إلى أن تكامَل حَفْر الْخَنـدق وعمل السّور من ترابه .

ذكر وصول العسكر المصرىّ فى البر[١٣٠] والأسطول فى البحر

قال : وفى مُنْتصف شوال سنـة خمس وثمانين وصلت العسَـاكر المصرية ومقدَّمُها الملك العادل سَيْف الدّين . فلما وصلت قوِيتَ قلوبُ النَّاس ، وأحضر من آلات الحصار شيئًا كثيرًا . ثم وصل بعْدَه الأسطول المصرى فى خَمسين قطعة ومقدَّمهم الأمير حُسَام الدّين لؤلؤ ، وكان شهْمًا شجاعًا ، مِقْدامًا ميمونَ النقيبة ، خبيرًا بقتال البحر ؛ فوصل بغتةً ، فوقع على بَطْشَةٍ كبيرة للفرنـج ، فغَنِمها وأخـذَ ما فيهـا من الأموال الكثيرة والمِيرة ، وعَبَر بذلك إلى عكّا ؛ فسكنت نفُوس النّاس بذلك . وقال العماد : إنه ظفر ببطشتين[٢].

---

(١) الخروبة : تل فى الطريق بين صفورية وعكا ، فى منطقة الجبال التى تشرف على السهل بهذه المنطقة ــ معجم البلدان .

(٢) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٠٥ .

ذكر خبر ملك الألمان وما كان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهانى : ونُمِى الخبر بوُصول ملك الألمان[١] إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قَصْد العُبور إلى بلاد الإسلام . فاستَنْفر الملكُ الناصر الجيوشَ والعساكر من كلّ جهة ، وجهَّز القاضى بهاءَ الدّين شدّاد وأمره بالمسير إلى الدّيوان العزيز ببغداد[٢] وأن يمُرَّ على صاحب سنجار[٣] ، وصاحب الموصل[٤] ، وصاحب إربل[٥] ، ويستدعِيهُم بأنفُسِهم وعساكِرهم .

قال ابن شدّاد : فَسرتُ فى حَادى عشر شهر رمضان سنَة خمس وثمانين وخمسمائة ، وأبلغت الرّسائل ، فأجابوا إلى ذلك ، فعُدْت فى خامس شهر ربيع الأول سنة ستّ وثمانين ، وسبقت العساكر[٦] .

ثم وصلت العساكر عند انقضَاء الشتاء فى شهر ربيع الأول وأمده الخليفة بحِمْل من النَّفْط الطَّيَّار وحِمْلين من القنا ، وتَوْقيعٍ بعشرين ألف دينار يُقْبَض على الدّيوان العزيز من التجار ، وخمسةٍ من الزَّرَّاقين .

---

(١) هو الامبراطور فردريك بربروسا ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٨٦ .

(٢) كان الخليفةِ فى ذلك الوقت الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء ، الذى ولى الخلافة العباسية فى الفترة من ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م ــ تاريخ الدول الاسلامية ص ١٣ .

(٣) هو عماد الدين زنكى بن مودود ، الذى ولى سنجار فى الفترة من ٥٦٦ ـ ٥٩٤ هـ/ ١١٧٠ ــ ١١٩٧ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٤٧ .

(٤) هو عز الدين مسعود بن غازى ، الذى ولى حكم الموصل فى الفترة من ٥٧٦ ـ ٥٨٩ هـ ١١٨٠ ـ ١١٩٣ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٤٦ .

(٥) هو زين الدين يوسف بن على الذى حكم إربل فى الفترة من ٥٦٣ ـ ٥٨٦ هـ/١١٦٨ ـ ١١٩٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٤٩ .

(٦) النوادر السلطانية ص ١١٥ .

وكان العدُوُّ قد اصْطَنع ثلاثة أبرجَة من الخشَبَ والحديد كالجبال وألبسَها الجلود المسْقَاة بالخل ، فيسّر الله تعالى على المسلمين إحْراقها ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول .

قال : وكان السّلطان قد كتَب إلى مصْر بعمارة الأسطول وإحضْاره إلى عكّا ، فوصل فى يوم الخميس ثامن الشهر ، فكانت الحرْبُ فى هذا اليوم فى ثلاثة مواضع فى البحر ، والحصار فى البر ، وكان النّصر بحَمد الله للمسلمين .

هذا ما كان من أمْر السّلطان لَمَّا بلغه خبرُ ملك الألمان .

وأما ملك الألمان فقال ابنُ الأثير فى تاريخه الكامل :

وفى سنة ست وثمانين وخمسمائة خرج ملك الألمان من بلاده ، وهم طائفةٌ من الفرنج من أكثرهم عدَدًا وأشدّهم بأسًا ، وكان قد أزعَجَهُ ملك المسلمين البيْت المقدّس ، فجمعَ عسَاكِره وسارَ بهم ، وطريقُه فى مسيره على القسطَنْطينيّة . فأرْسل ملك الرّوم[1] بخبره إلى السّلطان ، ووعده أنّه لا يمكّنُه من العبُور إلى بلاده . فلمّا وصل ملك الألمان إلى القسطنْطينيّة عجَزَ ملكُها عن مَنْعه من العُبور لكثرة جُموعه ، لكنّه منَع عنهم المِيرة ، فقلّت أزْوادُه ؛ وسارُوا حَتّى عبرُوا خليج القسطنطينية ، وصارُوا على أرض بلاد الإسلام ، وهى مملكةُ الملك قِلِج أرسلان بن مسْعُود السلجقى[2] . فلمّا وصلُوا إلى أوائلها ثارَ عليهم التُّرْكمان [فمازالوا][3] يسايِرُونَهم ، فيقتلون من انْفَرد منهم ويَسْرقون ماقدَروا

(١) هو إسحاق الثانى أنجليوس ، الذى ولى عرش الدولة البيزنطية فى الفترة من ١١٨٥ ـ ١١٩٥ م ـ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٨٥١ .

(٢) هو قليج أرسلان بن مسعود ، عز الدين ، الذى ولى سلاجقة الروم فى الفترة من ٥٥١ ـ ٥٨٨ هـ/١١٥٦ ـ ١١٩٢ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٢١ .

(٣) [ ] إضافة تتفق والسياق ـ من الكامل جـ ١٢ ص ٤٨ .

عليه ؛ فنالهم لذلك مشقّةٌ عظيمة ، وهلك كثير منهم من الجُوع والبَرْد وكثرة الثّلوج .

فلمّا قارَبُوا مدينة قُونْيَة خرج إليهم الملك قُطْب الدين مِلكشَاه بن قِلج أرسلان [ليمنعهم][1] فعَجَز عن ذلك ، فعاد إلى قُونيةَ ، فأسرعُوا السّير فى أثرِه فنَازَلُوا قونية وأرسلوا إليه هدية وطلبوا منه أنْ يأذَن للرّعيّة فى بَيْع الأقوات عليهم ، فأذِن فى ذلك .

وطلَبُوا من الملك قطب الدّين أنْ يأمُر رعيّتَه بالكَفّ عنهم وأنْ يجهِّز معَهُم جماعةً من أمرائه رهائنَ ، فخافهم ، وسلّم إليهم نيِّفًا وعشرين أميرًا كان يكرهُهم . فسارُوا بهِم معَهُم ،.ولم يَمْتنع اللّصُوص وغيرُهم من أذَاهم ؛ فقَبَضَ ملكُ الألمان على مَنْ معه من الأمراء وقيَّدَهم ، فمنهم مَنْ مات فى أسره ومنهم من فَدَى نفسه[2] .

قال ابنُ شدّاد : وأعْوَزَهم الزّاد وعَرَاهم جُوعٌ عظيم ، وعجَزوا عن حمل أقْمِشَتهم ، فجمعوا عُـدَدًا كثيرةً وسِـلاحًا[١٣١] وجَعَلُوا ذلـك بَيْدرًا[3] وأضْرمُوا فيه النّار ، لعجزهم عن حَمْله ، ولئلاّ ينتفع به غيرهم .

قال : وبقيت بَعْد ذلك رابيةٌ من حديد[4] .

قال ابن الأثير : ثمّ سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن ، وصاحبها يومئذ لافون[5] بن اصطفانه بن ليـون الأرمنى ، فأمـدّهم بالأقـوات والعُلُوفـات ، وحَكَّمهُم فى بلاده ، وأظْهـر الطّاعـة لهم . ثمّ سار إلى

---

(١) [ ] إضافة من الكامل جـ ١٢ ص ٤٨ .

(٢) انظر الكامل جـ ١٢ ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٣) البيدر : الجرن أو المخزن ــ القاموس .

(٤) النوادر السلطانية ص ١٢٣ .

(٥) هو ليو الثانى بن سديفانى بن ليو الأول ــ تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٣٨ ــ ٨٣٩ .

أنطاكيّة ، وكان فى طَريقهم نهرٌ[١] فنزلوا عنْدَه ، وعَبَر ملكُهم إليه ليغْتَسِل فيه ، فغرق فى مكان لا يَبْلُغ الماءُ وسطَ الرّجل فيه . وكفَى الله شرّه[٢] .

وقال ابنُ شدّاد : إنه لمّا وصل إلى طرسوس سَبَح فى النّهر فمرِض من شدَّة بَرْد الماء فمات ؛ ولمّا مات سَلَقُوه فى خلٍّ وجمَعُوا عِظامَه فى كيس ليحملوها إلى القُدْس ويدفنوها به[٣] .

قال ابن الأثير : وكان معه ولدٌ كبير فملك بعْدَه وسار إلى أنطاكية ، فاختلف أصحابُه عليه ؛ وأحبّ بعضُهم العَوْد إلى بلادِه فتخلّف عنه ، ومال بعضُهم إلى تمليك أخٍ له فعاد أيضا ، وسارَ هُو فيمَنْ بَقِى معَهُ . فعرضَهُم ، وكانوا نيِّفًا وأربعين ألفًا وقع فيهم الوباء والموت ، فوصَلُوا إلى أنطاكيّة وكأنّهم قد نُبِشوا من القبور فتبرَّم بهم صاحبُها وحسَّن لهم المسير إلى عكّا . فسارُوا على اللاذقية وجَبَلة وغيرهما من البلاد التى ملكها المسلمون ؛ وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأَسَرُوا منهم خلقًا كثيرًا ، ومات أكثر مِمّن أسر[٤] .

قال : وبلغوا إلى طرابلس وأقاموا بها أيّامًا فكثُر فيهم الموتُ ، فلم يَبْق منهم إلاّ نحو ألف رجل ، فركبوا فى البحر إلى الفرنج الذين على عكّا .

ولمّا وصلُوا ورَأَوْا ما نالهم فى طريقِهِمْ وماهُمْ فيه من الاخْتلاف عادوا إلى بلادهم ، فغَرِقت بهم المرَاكب ، فلم ينْجُ منهم أحد[٥] .

---

(١) هو نهر سالف .

(٢) الكامل جـ ١٢ ص ٤٩ .

(٣) النوادر السلطانية ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٤) الكامل جـ ١٢ ص ٤٩ .

(٥) الكامل جـ ١٢ ص ٤٩ ـ ٥٠ .

وقال ابن شدّاد : إنّهم لمّا وصلوا إلى أنطاكية طلب ابنُ ملكِهم من صاحبِها قَلْعتها لينقل إليها أموالَه وخزائنَه وأثقاله ، فسلّمها إليه طمعًا فى ماله ، وكانَ كذلك ، فإنّه لم يعُدْ إليه واستَولى الإبرنس على مافيها [١] .

قال : وجاءت فرقةٌ منهم إلى حصن بغراس وظنُّوا أنّه للفرنـج ، ففتح لهم وَالِى الحِصْن الباب وتسلّم منهم الأموال ، وأسَرَ جماعةً منهم وقتل . وخرج إليهم العسْكر الحلبىّ فقَتَل منهم وأسر . ثمّ أخَذَ مَنْ بقى منهم على طَرِيق طرابلس فخرج عليهم مَنْ بالـلاذقية وجبلة ، فقتلوا منهم وأسروا .

ثم ركب ملك الألمان فى البحر من طرابلس بمَنْ بقى معه لِقَصْد عكّا ، فى أواخر شعبان ، فثارت عليهم ريحٌ كسرت منهم ثلاثَ مراكبٍ ، ووصل الباقون إلى صُور ثمّ إلى عكا فى سادس شهر رمضان سنة ستٍّ وثمانين ؛ وكان لِقدُومهم وقْعٌ عظيم [٢] .

وسيأتى ذكرُ ما تجدّد بعد وصولهم إلى عكّا إن شاء الله تعالى . فلنذكر ما كان قبل وُصُولهم من الوقائِع .

ذكر الوقْعَة العادليّة على عكّا

كانت هذه الوقعة فى يَوْم الأربعاء العشرين من جُمادى الأولى سنةَ ستٍّ وثمانين .

قال ابن شدّاد : لمّا بلغ السّلطانَ وُصُول ملك الألمـان إلى بلاد الأرْمن جهَّز بعض العساكر إلى البلاد المُتَاخمة لطريق عَسْكَر العدوّ ،

(١) النوادر السلطانية ص ١٣٦ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

وتقدَّم أمْرُه بهَدْم سورطبريّة وهدْم يَافا وأرْسُوف وقيْساريّة ، وهَدْم سور صَيْدا وجُبَيل ونَقْل أهلها إلى بيروت . فلمّا علِم الفرنج أنّ العساكر قد تفرَّقت نهضُوا للْقِتال بغتةً وهجمـوا على الميمَنَة وفيهـا مخيَّم الملك العـادل ، فلما بَصُـرَ بهم ركب فيمن معه ، وتـلاحَقَت به العَسـاكـر ، واقْتَتلوا ، فكانت من أعْظم الوقَائِع ، قُتل فيها خلقٌ كثير من الفرنج .

قال : ولقد خُضْت فى الدّماء بـدابّتى واجتهدت أن أعـدّهم فما قدرت على ذلك لكَثْرتهم وتفرُّقهم ؛ وشاهدتُ منهم امرأتين مقتولتين . وكانت هذه الوقْعَة فيما بين الظّهر والعصر فى الميمنة وبَعْضِ القلب ، ولم نفقد من المسلمين فيها غير عشرة غير معروفين [١] .

قال : ولمَّا أخبر من بعكّا من المسلمين بهذه الوقعة خرجوا إلى مخيَّم العـدوّ من البلد ، وجَـرَى بينهم مقتَلَةٌ عـظيمـة انتصـرَ فيهـا المسلمون ، ونهبُوا ما كان بخيام الفرنج من الأقمشة وغيـرها ، حتى الطّعام الذى فى القُدُور ، وسبَوْا النّساء .

قال : واختلف النّاس فى عَدَد من قُتِل من الفرنج فى هذه الوَقْعة ، فقيل ثمانية آلاف ، وقيل سبعـة آلاف ، ولم ينقصهم حَازِرٌ عن خمسـة آلاف[٢]

[١٣٢] ذكر وصول الكندهرى إلى عكّا نجدة للفرنج وماجدّده من آلة الحصار

قال : ثمّ وصل الكندهرى[٣] فى البحر نجدةً للفرنج فى عدَدٍ كثير أضعاف ما نقص منهم ، ففرّق الأموال واستخدم ؛ ونصَب المجانيق على

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٩ ـ ١٣١ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٣) هو هنرى تروى كونت شامبانيا ، وهو ابن أخى ملك فرنسا من جهة أبيه ، وابن أخى ملك انجلترا لأمه ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٩١٢

عكا فحرَقها المسلمون ؛ ثمّ نصب منجنيقين فأُحْرِقا فى أوّل شعبان ، وكان قد أُنْفِق عليهما ألفُ دينار وخَمسمائة دينار ، وأسِر من الفرنج سبعون فى هذا اليوم ومن جُمْلتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون[1]

ثمّ جهّز الفرنج بُطَشًا لمحاصرة بُرْج الذبان[2] ، وهو برجٌ فى وسَطِ البحر على باب ميناء عكّا ، فعمدُوا إلى بَطْشة من البُطش وعملوا بُرجًا على صَارِيها وملأوه حطَبًا ونَفْطا على أنهم يُلْحقون البطشة ببُرج الذّبان ، ثمّ يُحرقون البرج الذى على الصّارى . وجعلوا فى البطشة وَقُودًا كثيرًا حتّى يُلْقوهُ فى البرج إذا اشْتعَلت فيه النّيران . وعبئوا بطشةً ثانيةً وملأوها حطبًا على أنّها تدخل بين المراكب الإسلاميّة ثم يلهبونها فتحترق هى والبطش الإسلاميّة وجعلوا فى بطشةٍ ثالثة جماعةً من المُقاتلة . وقدّموا البطشة نحو البرج ، وكان الهواء مُسْعدًا لهم ، فلمّا أحرقوا البطشة والبُرج الّذى قصدوا بهما إحراق بُطش المسلمين وبُرج الذّبان انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى ، فاحترقت البَطْشتان ، وانقلبت الثالثة بِمَنْ فيها من المقاتِلة . والله أعلم[3] .

ذكر ما كان من أمر الفرنج بعد وُصُول ابن ملك الألمان إلى عكّا وما اتّخذوه من آلات الحصار

قال : ولمّا وصَل ابنُ ملك الألمان القائمُ فى الملك بعد أبيه إلى عكّا كان وصولُه إليها فى سادس شهر رَمضان سنةَ ستّ وثمانين

(١) النوادر السلطانية ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) برج الذبان : برج فى وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء عكا ، يحرس الميناء ، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) النوادر السلطانية ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

وخمسمائة . فكان أول ما بدأ به أنّه خرج إلى يَزَكِيَّةِ السّلطان وقاتَلهم ، فقُتل من أصحابه وجُرح خلقٌ كثير ، وانكسَروا ورَجعُوا إلى المخيّم غروبَ الشّمس من ذلك اليوم ؛ وقُتل من المسلمين اثنان وجُرِح جماعة . فلمّا عايَنَ ذلك رجع إلى قتال مَنْ فى البلد ، واتّخذ من آلات الحصار ما لم يُرَ قبل ذلك مثله ، فكان ممّا أحدثه آلة عظيمة تسمّى دبّابة يَدْخُل من تحتها المقاتِلة ، وهى من الخشب الملبّس بصفائح الحديد ، ولها مِنْ تحتها عجلٌ يحرّكُ من داخلها حتى تَنْطَح السُّور بشدّةٍ عظيمة فتهدمه بتكْرَار نَطْحها ، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجالٌ تسحَبُه وفيه كَبْشٌ ، ورأس تلك الآلة ممدة شبه سكّة المحراث ، ورأس الكبش مدَوَّر ، هذا يهدِم بثِقَله ، وتِلك تهدِم بحدَّتها وثِقَلها ، وهى تسمّى سفودا[1] ، وأعد السّتائِر[2] والسّلاليم وغير ذلك ؛ وأعدّ فى البحر بَطشةً عظيمةً وصنع فيها بُرْجا بخُرطوم إذا أرادُوا قلبه على السّور بحرَكَةٍ انقلب بحَركات ويُبْقى طريقًا إلى المكان الذى ينقلبُ عليه تَمْشى عليها المُقَاتلة ، ونصب المجانيق وحكّمها على السّور ، وتوالت حِجارَتُها حتى أثّرت فيها أثرًا بَيِّنًا فأخذ المسلمون سهْمَيْن عظيمين من سِهام الجرُوحْ وأحْرَقُوا نِصَالهما حتّى بقيَا كالشُّعلة من النّار ثم رُمِيا فى منجنيق الفرنج فاحترق ، واتّصل لهبُهُ بالآخر فأحْرَقه[3] .

ثمّ زحف العدوّ على البلد فى شهر رَمَضان فى خلْق كثير ، فأمهلهم أهل البلد حتى سحبوا آلتهم المذكُورة وقارَبُوا أنْ يُلصقُوها بالسّور ويَحصُل منهم فى الخَندق جماعةٌ كثيرة ، فأطلقوا عليهم الجرُوخ

---

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) ستارة : ستائر : وتتخذ من الجلود واللباد ، وتبلل بالخل والشب والنطرون لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية والسفن من قذائف النفط ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٠٣ هامش ٥ .

(٣) انظر النوادر السلطانية ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٦ .

والمجانيق والسِّهام والنيران ، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدوّ من كل مكان ، وكبسُوهم فى الخَنْدق ، فانْهزَموا ؛ ووقَع السَّيف فيمَن بَقِى فى الخَنْدق منهُم . ثم ألْقَوْا النَّار فى كَبْشِهم ، فاحترق ، وسَرَت نارُه إلى السَّفُود فاحترق أيضًا ، وعلَّق المسلمُون فى الكَبْش الكَلاَلِيب الحديد فسحبُوه وهو يَشْتعِل ، فحصل عندهم ، فأطفأوه بالماء . ووُزِن ما كان عليه من الحديد فكان مائةَ قنطار بالشّامى [١٣٣] فكانَ هذا اليومُ من أحْسَن أيام الإسلام(١) .

قال : واستأنَف الفرنج عَمَل دبابة أخرى وفى رأسِها شكْلٌ عظيم يُقال له الكَبْش ، وله قَرْنَان فى طُول الرُّمح كالعُمُد الغلاظ ، وسُقوفها هى والكبش بأعمدة الحديد ، ولَبَّسُوا رأس الكَبْش بعد الحَدِيد بالنّحاس ، فلم يَبْق للنار عليها سبيل ؛ وشحنُوها بالرِّجال . فنصَب المسلمون عليها المجَانيق ورمَوْها بالحجارة ، فأبعدت الرِّجال من حولها ، ثمَّ رمَوْها بحُزَم الحَطب فأحرَقوا ما بَين القِرْنَين ، وخَسَفها المنجنيق ، وخرج أهل عكّا فقطعُوا رأس الكبشين .

قال : وفى العشر الأوسَط من شهر رَمَضان ألْقَت الرِّيح بَطْشَتين فيهمَا رجَالٌ ونساءٌ وصبيانٌ ، ومِيرَةٌ عظيمة وأغنام ، فغنِمهما المسْلمون(٢) .

وكان فى إحداهما امرأةٌ محتَشِمة كثيرةُ الأموال ؛ واجْتَهد الفرنج فى اسْتِنْقَاذها فلم يُجَابُوا لِذلك .

وكان بينهُم فى بقيَّة السّنة عدّةُ وقائع يطول شرحها .

---

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧ .

وفى سابعِ ذى الحجَّة هُدِمَت قطعةٌ عظيمةٌ من سُور عكَّا فسدَّها المسلمون وقاتلُوا عليها قتالاً شديدًا حتى أحْكَموا بناءَها .

وفى ثانى ذى الحجّة هلك ابنُ ملك الألمان وكند كبيرٌ ، ومرض الكندهرى ، ووقع فيهم فناءٌ عظيم . والله أعلم .

ذكر وصول ملك افرنسيس

كان وصولُه فى ثانى عشر شهر ربيع الأوّل سنةَ سبع وثمانين وخمسمائة فى ستّ بُطَش عظامٍ مشحُونة بالمقاتلة[1] ؛ وكان مَلِكاً مطاعًا فيهم ، ووعَدَهم بالأمداد خلفه . وكان معه بَاز عظيمُ الخَلق أبيضُ اللّون ، فطَار منْ يَده وسَقَط على سُور عكَّا ، فأخذَه المسلمون وأنْفذُوه إلى السّلطان ؛ فبَذَل الفرنج فيه ألفَ دينار فلم يُجَابوا لذلك .

قال : وزحف الفرنج على عكّا فى يوم الخميس الرّابع من جُمادى الأولى سنةَ سبعٍ وثمانين ، ونصبُوا عليها سبْعَةَ مجانيق . وبلغ من مُضَايقتهم لها أنّهم كانوا يُلْقُون فى خنْدَقِها ما يموت من دوابّهم ومايُؤْيَس منه ممّن أثخنَتْه الجراح . وانْقسَم أهلُ البلد أقسامًا : قسم يَنْزِلون إلى الخَندق ويقطعُون الدّواب ليسهُل نقلُها ، وقسمٌ ينقلون ذلك إلى البحر ، وقسم يذبُّون عنهم ، وقسمٌ فى المنجنيقَات وحراسَة الأسوار .

قال : وكانوا قد صنَعوا دبَّابَةً عظيمةً أربع طبقات ، الأولى من الخَشب ، والثّانية من الرّصاص ، والثّالثة من الحديد ، والرّابعة من

(١) هبط الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا إلى المعسكر الصليبى أمام عكا فى ٢٠ إبريل سنة ١١٩١ [illegible] الشرق الأدنى [illegible] ٩٢٢

النّحاس ؛ فكانت تعلُو على السُّور وتركَبُ فيها المقاتلَةُ ؛ وقرَّبُوها من السّور فكَادَ أهلُ البلد يطلُبون الأمان ؛ فأعَان الله على حرْقها[1].

وكان فى جُمادى الأولى عدَّة وقعَات .

قال : ولمَّا حُرِقت دبَّابات الفرنج وكِبَاشُهم وأبرجَتهم الخشب وستائرُهم أقامُوا أمَام خيامهم ممّا يلى عكّا تلاًّ مُستطيلاً عاليًا من التُّراب ، فكانُوا يقفون وراءَه ويحوّلونه ليقرّبُوه من السّور ؛ إلى أنْ صَارَ بينه وبين السُّور مقدارُ نصف غلْوَة سهم . فلَمْ تعْمَل فيه النّار .

ذكر وصول ملك الإنكلتير

كان وصولُه إلى عكّا فى ثالث عشَر جمادى الأولى من السّنة [2] بعد أن ملك فى مسيره قبرص عنوةً ؛ ووَصَل فى أربعين قطعة . ولمَّا قدِم توالَى الزّحفُ والقتال . ثمّ مَرِض مرضًا شديدًا وجُرح الإفرنسيس ، وهم مع ذلك لا يَدَعُون القتال . هذَا واللُّصوصُ يدَخلون عليهم فى خِيامهم ويَسْرقون أقمشتهم ويخطَفونهم ، فكانُوا يَدْخلون على الرَّجُل من الفرنج وهو نائم فيُوقظونه ، ويُشيرون إليه بالسِّلاح : إنْ تكلّمت ذبحناك ، ويحملُونه [١٣٤] ويخرجُون به إلى عسكر المسلمين . فعلُوا ذلك مرارًا كثيرةً .

قال : ثمّ تردَّدت الرّسائل من الفرنج إلى السُّلطان مدافعةً بسبب مَرَض الإنكلتير ؛ ثم استأذن فى إهْداءِ جوارح ، وقال إنّها قد ضعُفَت وتغيَّرت من البحر ، وطلب أن يُسيِّر لها دجاجٌ وطيرٌ تأكله لتقْوَى به ثمّ

---

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

(٢) وصل الملك رتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا فى ٧ يونية ١١٩١ م ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٩٢٢ .

مهدى للسّلطان . ففَهِم السُّلطان أنّه يحتاجُ ذَلك لنَفسه لأنّه حديثُ عَهدٍ بمرَض ، فسيّر إليه ذلك . ثمّ أرسل فى طَلَب فاكهةٍ وثلْج ، فأُرسل إليه . وهم مع ذَلك يُحَاصرون البَلَد أشدّ حصار (١) .

ذكر استيلاء الفرنج على عكّا

قال : ثمّ اشتدّ الحصارُ فى سابع جُمادى الآخرة ، فركب السّلطان بالعَسْكر وجرَى قتالٌ عظيم إلى اللّيل ، ولم يَطْعَم فى ذلك اليوم ؛ ولمّا حَالَ بينهُما اللّيل عادَ إلى خيامه . ثمّ بَاكَر القِتال ، فوصَلت مُطالعَةُ مَنْ بالبلد يذكُرون أنّ العَجز قد بلَغ بهم الغاية ، وأنّهم فى الغد مَتَى لم يُعْمَل ما يمنعُ العدوَّ طلبُوا الأمان وسلّموا البلد . فرأى السّلطان مهاجهة العدُوّ ، فلم يساعِدْهُ العسكر . فضعُفَت نفوسُ أهل البلد ، وتمكّن العدوُّ من الخنادق فملكوها ، ونقَبوا السّور وأحْرقُوه ، فوقعت بدَنَةٌ من البَاشورة ودخلَ العدوّ إليها ، فقتل منها زهاء مائةٍ وخمسين نفسًا ؛ وكان منهُم ستّة من أكابرهم ، فقال أحدُهم : لاتقتُلونى حتى أرحِّل الفرنج عنكم . فقُتل رجلٌ من الأكراد وقُتل الخمسة ، فناداهُم الفرنج من الغَد احْفظُوا السّتّة فإنّا نطلقُكم كلُّكم بهم . فقالوا : قدْ قتلناهم . ففَوِى عزمُ الفرنج على عَدم المصَالحة وأنّهم لايُطلقون مَنْ فى البلد إلا بإطْلاق جميع الأسرى الذين فى أيدى المسلمين ، وتُعادُ إليهم البلاد السّاحليّة .

فصالحهم مَنْ بالبلد على أنّهم يسلّمون إليهم البلد وجميعَ ما فيه من الآلات والعُدَد والمراكب ، ومائتى ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥٥ .

مَجَاهيل الأحوال ، ومائة أسير مُعَيَّنين ، وصليب الصَّلَبُوت ؛ على أنهم يخرجون بأنفسهم ونسائهم وذَرَاريهم ، ومَامَعهم من أموالهم وأقمشتهم .

فكتبوا فى ذلك إلى السُّلطان ، فأنكر هذا الأمْر واستَعْظمه ؛ وعزم على أنْ يكتُب بالإنكَار عَلى مَنْ بعكّا . وجمع أمراءه وأصحاب المشُورة ، فما شعَر المسلمون إلا وقدْ ارتفعت أعلامُ الكُفر وصُلبانُه على أسوار البلد ؛ وذلك ظُهر نَهار الجمعة السّابع عشرَ من جُمادى الآخرة ، سنة سبعٍ وثمانين وخمسمائة .

فعظُمت المصيبةُ على المسلمين وتحيَّز المسلمون إلى بعض أطراف البلد . ثم تردّدت الرّسائل بينهُما على تقرير القاعدة فى خَلاص مَنْ بعكّا من المسلمين ، فاستقرّت الحالُ علَى مائة ألف دينار وستّمائة أسير وصَليب الصّلبوت . وأنْفذُوا ثقاتِهم وعاينُوا الصّليب فى ثامن عشر شهر رجَب ؛ ثم طلبوا أن يسلَّم ذلك إليهم فإذا صار عنْدَهم أطلقوا الأسرى ؛ فامتنع السّلطانُ من ذلك إلا بعد تسْليم الأسْرى .

فلمّا رأوْه قد امتنع منهُ أخرجُوا خيامَهم إلى ظاهر الخنَادق فى الحادى والعشرين منَ الشّهر ؛ ثمّ ركبُوا فى وَقت العَصْر فى اليوم السّابع والعشرين من شهر رجَب سنَة سبعٍ وثمانين ، وجمعُوا الأسْرى ، وحملُوا عليهم حَمْلة الرّجل الواحد ، فقتلُوهم صبرًا ، طعنًا بالرّمح وضربًا بالسّيف ، رحمة الله عليهم ؛ ولم يُبْقوا من المسلمين إلاّ أكابرهم . فلمّا اتصل الخبر بالسّلطان حَمل المسلمُون عليهم ، وجَرَت بينهم حربٌ عظيمةٌ دام القتالُ فيها طول النّهار . وتصرّف السّلطان فيما كان قد حصّله من المال ، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم ، وردّ صَليب الصّلبُوت إلى مكانه [1] .

---

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥٥ ـ ٣٦٤ ، النوادر السلطانية ص ١٦٦ ـ ١٧٢ ، الكامل جـ ١٢ ص ٦٦ ـ ٦٨ ، وانظر المختصر جـ ٣ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

ذكر ماكان بعد أخْذِهم عكّا

قال : ثمّ سار الفرنج إلى صَوْب عسقلان فى مستهل شعبان ، وسار السّلطان فى عراضهم ، والمسلمون يتخطّفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ؛ وكلّ أسيرجيءَ به إلى السّلطان أمر بقتله . ثمّ كانت وقعةٌ عظيمة فى تاسع شعبان عند رَحيلهم من قيْسَارِيّة ، انتصر فيها المسلمون . ثمّ رحل السّلطان فنزل شعراء أرْسُوف . وطلب ملكُ الإنكلتير الاجتماع بالمَلك العَادل خلوةً ، فاجتمعا ، فأشار بالصُّلح . وكان حاصلُ كلامه [١٣٥] أنّه قد طال بيننا القتال ونحن فى نُصرة فرنج السّاحل ، ورأيى الصّلح ، ويرجعُ كلٌّ منا إلى مكانه . فقال له الملك العادل : على ماذا يكون الصُّلح ؟ قال : على أن تسلّموا لأهل السّاحل ما أُخِذ منهم من البلاد . فأبى الملكُ العادل (١) .

ثم كانت وقعة أرْسُوف فى يوم السّبت رابع عشر شعبان ؛ وكانت الدائرة فيها على الفرنج (٢) .

ذكر هدم عسقلان

قال : ثمّ رحل السّلطان بعد وَقْعة أرسُوف فى تاسع عشر شعبان ، ونزل بالرّملة ، واستشار أصحابه فى أمْر عسقَلان ، فأشاروا عليه بتَخْريبها خشْيَة أنْ يستولىَ العدوُّ عليها وهى عامرة ، فتكونَ سبَبًا لأخْذ البيْت

(١) انظر النوادر السلطانية ص ١٨٢ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

المقدّس وقَطْعِ طريق مصر . فعَلِم السّلطان عجْزَ المسلمين عن حِفْظها لِقُرب عهدِهِم بقتال عكّا ؛ فسارَ حتَى أتى عَسْقلان ، وأمر بتخريبها ، وكان هُوَوَلَدُه الملك الأفضل يستعملان النّاس فى الخَراب خشية من حُضور العدُوّ فيتعذّر هدمُها ، ثمّ حَرَقها بالنّار ؛ والأخبار تتَواتَرُ من جهة العدوِّ بِعمارة يَافا . واستمرّ الخرابُ والحريقُ إلى سَلْخ شعبان [١] .

ثمّ رحل السّلطان عنها يومَ الثّلاثاء ، ثانى شهر رمضان فنزل على الرَّملة يوم الأربعاء ، وأمَرَ بتخريب حِصْنها وتخريب كنيسة لدّ . وركَب جريدةً إلى القُدس الشريف ، فوصل إليه فى يَوْم الخميس .

وفى يوم الجمعة ثانى عشر شهر رمَضان من السّنة كانت بينَهُم وقعةٌ انتصر فيها المسلمُون .

قال : ثمّ سار السّلطان إلى الرّملة فى سابع شوّال وأقام بها عشرين يومًا ، فجرت وقعاتٌ ؛ منها وقْعَةٌ فى ثامن شوّال ، وفى سادس عشره ، والدّائرة فيها على العدو .

وفى ثامن عشر شوّال اجتمَع الملكُ العادل والإنكلتير على طعامٍ ، وانْفَصلاَ [٢] على توادُد ، وسأله الاجتماعَ بالسّلطان فامْتَنع السّلطان من ذلك .

ثمّ رحل الفرنج فى ثالث ذى القَعدة إلى الرَّملة ، وأظهرُوا قَصْد بيت المقْدِس والحربُ مستمرّةٌ بين المسلمين وبينهم . ورَحَل السّلطان إلى القُدس فى الثّالث والعشرين من ذى القَعدة بنيّة المقام به ، وشرع فى تحصينه .

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

(٢) « وانفصلوا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

ذكر وقوع الصُّلح والهُدْنة العامّة بين المسلمين والفرنج

قال : ولم تزل الحربُ قائمةً والمراسلاتُ متّصلةً بينهُم على طلب الصُّلح ، والسّلطان لايرضى بما يختارُونه ، وهم لايُوافِقون على مايريدُه السّلطان ، إلى الحَادى والعشرين من شَعبان سنةَ ثمانٍ وثمانين وخمسمائة ، فوُقِّعت هدنةٌ عامّة فى البرّ والبحر ، وجُعِل لهم من يَافا إلى قيْسَارية إلى عكّا إلى صُور ، وأدخَلوا فى الصُّلح طرابلس وأنطاكية . وأُخْرِج من عمل يافا الرَّملة ومَجْدَل يَابَا[1] ومن عَمل عكّا الناصرة وصفُوريّة واشْترِط خرابُ عسقلان . ووقعت المصالحة مدَّةَ ثلاثِ سنين وثلاثةِ أشهر[2] ، أوّلها مُبتدأ أيلُول الموافق لهذا التّاريخ ، وذَلك بعد سؤال ملك الإنكلتير وتكرار رَسَائله .

قال : ثمّ أمر السُّلطان أنْ يُنادَى فى الطُّرقات والأَسْواق : ألاَ إنّ الصّلح قد انتظَم ، فمَن شاء مِنْ بلادنا يدخُل بلادَهم ومَن شاء من بلادِهم يدخل بلادَنا فليفعل .

ووَقَع له عزمُ الحجّ فى ذلك المجلس[3] .

ثمّ أمَر بإرْسَال مائة نقّاب لتخريب سُور عسْقَلان وإخْرَاج الفرنج منها ، فخرّبت . وكان يومُ الصُّلح يومًا مشهودًا واختلَط العسكران .

ثمّ اشتَدّ المرضُ بالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعْبَان وسار معه الكندهرى إلى جهَة عكّا ، ولم يبْق بيافا [١٣٦]

(١) مجد ليابة : قرية قرب الرملة ــ معجم البلدان .

(٢) « وثمانية أشهر » فى الكامل جـ ١٢ ص ٨٥ .

(٣) انظر النوادر السلطانية ص ٢٣٥ .

إلا مريضٌ أو عاجز. ثم أذِن السّلطان للنّاس فى الرُّجوع إلى أوطانهم، فسار عسكرُ إرْبِل والموْصِل وسِنجَار؛ وقوى عزمُه على الحج.

ثم عاد السّلطان إلى القُدْس ورتّب أحواله وعَيَّنَ الكنيسة التى فى شارع قُمامة للبيمارسْتان ونقل إليه العقاقير والأدوية؛ وأدار سُور القدس. وأقام بالقُدس إلى يَوم الأربعاء رابعِ شوال، وخرجَ فى يوم الخميس خامس الشهر قاصدًا دمشق. فلمّا انتهى إلى طبريَّة وصل إليه بهاءُ الدين قراقوش الأسدى وقَدْ خلص من الأسْر، فاستصْحَبه معه وكَشَف القلاعَ والحصُون، ودخل إلى دمشق فى يوم الاثنين السادس عشر من شوَّال سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة: وجَلَس النّاس يوم الخميس؛ وأنشده الشّعراء؛ وكان مجلسًا عامًّا، وعمّ النّاس فيه بعَدْله. ولم يَزَلْ كذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى بعدَ صلاة الصُّبح يومَ الأربعاء لثلاثٍ بقِين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة.

وكان مولدُه بقلعة تكريت فى شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة؛ فكان عمرُه سبعًا وخمسين سنةً تقريباً. ومدّةُ ملكه منذ وَلِىَ وَزارة العاضد لِدين الله ولُقّب بالملك النّاصر لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين وخمسمائة وإلى هذا التّاريخ أربعًا وعشرين سنة وثمانيةَ أشهر وخمسة أيام؛ ومنذُ خُلع العاضِدُ فى سابع المحرّم سنة سبعٍ وستّين وخمسمائة اثنتين وعشرين سنةً وشهرًا واحدًا وعشرين يومًا.

وكان ابتداءُ مرضه يومَ السّبت سادس عشر صفر ؛ ونالَ المسلمون لوفاته من الألم مالا يُعبَّر عنه . ولمَّا مات دُفن بقَلْعة دمشق فى منزلـه ؛ ومازال ابنه الأفضل يتروَّى فى مَوضع ينقلُه إليه ، فشرع فى بِناء تربته عند مسجد القَدَم[1] وبنى عندَها مدرسةً للشّافعيّة . وأمر ببناء التّربَة فى سنةِ تسعين وخمسمائة ؛ فاتّفقَ وصُولُ ابنه العزيز تلك السّنة من الدِّيار المصريّة للحصار ، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء . ثمّ أمر بعمارة القبّة فى حَدّ جامِع دمشق ، فعمّرت ونُقل إليها يومَ عاشوراء سنةَ اثنتين وتسعين وخمسمائة ؛ ومشى الأفضلُ أمام تابوته وأخرج مِنْ باب القلعة على دَار الحدِيث إلى بَاب البرَيد ،[2] وأدخل منه إلى الجَامع ، وصُلّى عليه قُدّام باب السر ، صلّى عليه القاضى محيى الدّين محمّد بن على بإذن الأفضل . ثم حمل إلى لَحْدِه ، وألحدَه الأفضلُ وجلَس فى الجامع ثلاثةَ أيام .

وكان الملكُ النّاصر رحمهُ الله كريمًا جوادًا شجاعًا ، حسن الأخلاق ، مضت أكثر أيّامه فى الجهاد فى سَبيل الله تعالى .

قال ابن شدّاد : لمَّا مات السُّلطان لم يُخَلِّف فى خزائنه من الذّهب والفضّة إلا سبعةً وأربعين درهمًا ناصريّة وجرامًا[3] واحدًا ذهبًا صوريًّا ، ولم يخلِّف ملكًا فى سائر أنواع الأملاك . وحُسِب ما وهَبَه من الخيل فى مُدَّة مُقامه على عكّا فكان تقديرُه اثنى عشر ألف رأس ؛ ولم يكُنْ لهُ فرسٌ يركبه إلا وهو مَوْهُوب أو موعودٌ به ، وصاحبُه يلازمُه فى طلبه ؛ وما حضَر

---

(١) مسجد القدم ، جنوبى الحصباء بدمشق

(٢) باب البريد : أحد أبواب الجامع الأموى بدمشق . الدارس جـ ٢ ص ٣٧١ وما بعدها .

(٣) « جرما واحدا » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٦ . وانظر أيضا الفتح القسى ص ٦٢٩ ، حيث ذكر « ولم يخلف فى خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما »

اللقاء إلا اسْتَعار فرسًا فركبه . وكان لا يلْبسُ إلا مايحلّ كالكِتان والقُطن والصّوف . وكان له ركعاتٌ يصلّيها من الليل[١] .

وخلف رحمه الله من الأولاد ، على ما نقله العماد الأصفهانى وغيرُه سبعةَ عشر ولدا : الملك الأفضل نورُ الدّين أبو الحسن [على][٢] ، وهو أكبرهم ؛ والملك العزيز عمادُ الدين أبو الفتح عثمان ؛ والملك الظاهر غياث الدّين ، وقيل شهاب الدّين ، أبو منصور غازى ؛ والملك الظّافر مظفّر الدّين أبو العباس خضر ؛ والملك المعز فتح الدّين أبو يعقوب يوسف [٣] ؛ والملك الأعز شرف الدّين أبو يوسف[٤] يعقوب [١٣٧] والملك المؤيّد نجم الدين أبو الفتح مسعُود ؛ والملك الزّاهر مجير الدين أبو سليمان داود[٥] ؛ والملك المفضل قطب الدّين أبو محمد موسى[٦] ؛ والملك الأشرف عزّ الدّين محمد[٧] ؛ والملك المحسن شهاب الدّين[٨] أبو العباس أحمد ؛ والملك الجواد ركن الدّين أبو سعيد أيوب ؛ والملك المظفّر[٩] فخر الدّين أبو منصور تُورَانشاه ؛ والملك العادل نور الدّين أبو المظفّر

---

(١) النوادر السلطانية ص ٧ وما بعدها .

(٢)] إضافة للتوضيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٣ .

(٣) « إسحاق » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٥ ، الروضتين جـ ١ ص ٧١٠ .

(٤) « أبو سيف » مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٤ .

(٥) « والملك الزاهر محيى الدين أبو الفتح سليمان مسعود » فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٤ ، الروضتين جـ ١ ص ٧١٠ .

(٦) « أبو موسى قطب الدين » فى الروضتين جـ ١ ص ٧١٠ .

(٧) « عزيز الدين » فى الروضتين جـ ١ ص ٧١٠ ، و « نصير الدين » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٥ .

(٨) « يمين الدين » فى مفرج الكروب ، و « ظهير الدين » فى الروضتين ، و « زين الدين » فى شفاء القلوب ورقة ٥٤ أ .

(٩) « المعظم » فى مفرج الكروب ، والروضتين ، وشفاء القلوب .

ملكشاه[١] ؛ والملك المنصُور نُصرة الدّين مروان[٢] ؛ والملك الصالح معين الدين إسماعيل[٣] ؛ وعماد الدين شادى ، ويسمى عمر ؛ وابنة صغيرة[٤] .

ذكر من ملك الممالك التى كانت جارية فى ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استقرّ ملكُ دمشق وما مَعها للملك الأفضل نور الدّين أبى الحسن على ، وهو أكبر أولاده وولىّ عهده ، وعنده أخواه شقيقاه الملك الظّافر خضر والملكُ المفضّل[٥] موسى .

واستقرّ ملكُ الدّيار المصريّة للملك العزيز عماد الدّين أبى الفتح عثمان .

واستقرّ ملكُ حلب وما يَليها للملك الظّاهر غياث الدّين غَازى ، وعنده أخوه الملك الزاهر داوود ، فجعله من قِبَله على البيرة .

واستقرّ ملك حمص والرّحبة [وتدمر][٦] للملك المجاهد أسَد الدّين شيركُوه بن محمّد بن شيركوه ، وهو ولد ابن عمّ السّلطان الملك النّاصر .

---

(١) « الملك الغالب أبو الفتح ملكشاه » فى مفرج الكروب ، والروضتين ، وشفاء القلوب .

(٢) « الملك المنصور أبو بكر » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٥ ، و « نصرة الدين مروان » فى الروضتين جـ ١ ص ٧١١ .

(٣) لم يرد ذكره فى مفرج الكروب والروضتين .

(٤) « وأما البنت فهى مؤنسة خاتون ، تزوجها الملك الكامل محمد » الروضتين جـ ١ ص ٧١١ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٦ ، شفاء القلوب ورقة ٧٤ أ .

(٥) « الأفضل » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع ما سبق .

(٦) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

واستقر ملك حماة وسَلَمْية والمعرّة ومَنْبج للملك المنْصُور ناصر الدّين محمّد بن تقىّ الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيّوب .

واستقرّ ملك حرّان والرُّها ومَيَّافَارِقين والرّقة وقلعة جعبر والكرك والشّوبك للملك العادل سيف الدّين أبى بكر بن أيوب ، وهو أخو السّلطان .

واستقرّ ملك بعلبك للملك الأمجد [بَهْرَامشاه][1] بن فَرُّخْشاه بن شاهنشاه بن أيوب .

واستقر ببعْرين وأفاميه وكَفَرْطَاب عزّ الدّين [إبراهيم][2] بن شمس الدّين بن المقدّم .

واستقرّ بصِهْيَوْن ناصر الدّين [منكورس بن خمارتكين][3] غلام أبى قبيس .

واستقرّ بتلّ باشر بدر الدّين دُلْدُرم بن ياروق .

واستقرّ بَعَيْنْتاب ناصر الدّين شحنة حلب .

هذه الممالك التى كانت جاريةً فى ملك السّلطان الملك النّاصر رحمه الله .

فلنذكر الآن أخبار الدّيار المصريّة ومَنْ ملكها بعْدَ وَفاة السّلطان الملك النّاصر ، ونجعل ما يقع لهؤلاء المُلوك ، أوْ فى ممالكهم ، من الحَوادث فى ضِمنْ أخبار ملُوك الدّيار المصرية ؛ وننبّه عليها بالتراجم ، على مانقفُ عليه إن شاء الله تعالى .

---

(١) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

(٢) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

(٣) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدّين أبي الفتْح عثمان ابن الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف بن أيوب

وهو الثانى من ملوك الدّولة الأيوبية بالدّيار المصرية [١] ملك الدِّيار المصريّة عندما وصل إليه الخبرُ بوَفاة والده السّلطان الملك النّاصر ، رحمه الله تعالى ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

ولما ملك أحْسَن السيرة وأطلق جميع ما كان يُؤْخذ من التُّجار وغيرهم من المكوس على اسْم الزّكاة . وجهّز إلى البيْت المقدّس عشرة الآف دينار لتُصْرفَ فى مَصَالحه ؛ وأكرمَ أصحابَ أبيه وعامَلَهُم الأفضَل أخوه صاحبُ دمشق بخلاَف ذلك ، فمالَت القُلوب إلى الملك العزيز ونَفَرت عن الملك الأفضل . فاستَشْعَر الأفضَلُ من أمرائه ، وعَزَم على القَبْض عليهم ؛ فبلَغهُم الخبرُ ففارقُوه ، واتّصلُوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالدّيَار المصريّة فى بقيّة السّنة فأكرمهم وقرَّبهم [٢] وكان منه ما نذكُرُه إن شاءَ الله تعالى .

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

[١٣٨] كان استيلاؤهم على حصن جُبَيل فى مستَهلّ صَفَر سنةَ تِسْعين وخمسمائة بمُواطَأة ممَّنْ كان فيه . وذلك أنّ الحصن كانَ عدَّةُ مَن فيه خمسةَ عشَر رجلاً ، فندب متولّى البلد منهُم عشرةً لجباية الجزْيَة ، وخرج متولّى الحصن إلى الحمام ، فاستصحب أحد الخمْسَة الذين تأخّروا

(١) ولد الملك العزيز عثمان بدمشق فى ٨ جمادى الأولى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م ــ السلوك جـ ١ ص ١١٤ .

(٢) عن أسباب الوحشة بين الأخوين ــ انظر مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٤ ـ ١٥ .

بالحِصْن معه ، وبقى به أربعةٌ من الأكراد ، فأغلقُوا بابَ الحصْن . وتوجّه أحدُهم إلى الفرنج الذين بالتّيرون فأخبرهم بخلُو الحِصْن ، وكان به حدّادٌ نصرانى ، فصعِد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن . فلمّا عادَ الوالى منعُوه من الدّخول ورَمَوْه بالحِجارة ، فكسَرُوا يده ، وقالُوا هذه القلعة قد صارت للقَوْمَص . وجاء أهل التيرون بالليل فطرَدُوا من كان بالباشُورة من المسلمين .

ووصل ابن ريمون أخو صاحب جُبَيل وتحدَّثُوا مع الأكراد ، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطَوْا نِصفَ ما بالحصن من سائر الحَواصل وغيرها ، وأن تكونَ لهم ثلاثة ضياع من عَمَل طرابُلس ؛ واستحلفهم على ذلك . وتسلّموا الحصْنَ ، فرَتّب الفرنج فيه من الجَرْخِيّة[1] ألفاً وخمسين جرخيا[2] .

فلما اتّصل الخبرُ بالسّلطان الملك العزيز عظُم عليه ، وأخرَجَ خيامه فى يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول ، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جُبَيل من الفرنج ، وأرسل شمس الخلافة رسولاً إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل فتوجّه فى سادس عشر شهر ربيع الآخر .

وفى سنة تسعين وخمسمائة ، لسبعٍ بقينَ من شهر ربيع الأول ، عُزل القاضى صدر الدّين بن دِرْبَاس وفُوّض القَضاء بالدّيار المصرية للقاضى زين الدّين أبى الحسن على بن يُوسف بن عبد الله بن رمضان الدّمشقى ؛ فوَلِىَ سنةً وعُزل فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، وأعيد القاضى صدر الدّين . وقيل بل وَلِى القاضى محيى الدّين محمّد بن عبد الله بن أبى عصرون ، وعُزل فى يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين

---

(١) المقصود رماة السهام الجرخية .

(٢) انظر تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٧٠ ، ص ١٧٧ .

وخمسمائة . وأعيد القاضى زين الدّين الدّمشقى فولى سنَةً ، ثم عزل ، وأعيد القاضى صدر الدّين إلى أن توفّى فى سنة خمس وستمائة والله أعلم .

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام والصّلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة

قال : وفى تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسعين وخمسمائة توجّه الملكُ العزيز إلى الشام وترك بالقاهرة من الأمراء بَهاء الدّين قراقوش وصيرم ، وجَهّز ثلاثة عشَر لواءً إلى ثغرَىْ الإسكندرّية ودمياط ومعهُم سبعمائة فارس . واستصْحَب معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميرا عدتهم تقدير ألفى فارس ، ومن الحَلْقة ألف فارس . فلمّا اتصل بالأفضل خروجُه استعَدّ وأنفق النّفقات الوافرة ، وخرج إلى رأس الماء فى سبعمائة فارس ، ولمّا وصَل الملكُ العزيز إلى الغَوْر احْتاط على الخَاصّ الأفضلى به ، وشَرَع فى إقْطاع أعمال الشام . وجهّز من أمرائه : قايْماز ، وعشرين أميرًا ، منهم ، جهارَكس ، وميمون القَصْرى ، وسُنْقُر الكبير ، والشجاع الخادم ، والجناح ، وجُرْدَيك . فتقدّمُوا ووقعُوا على أطراف العسْكَر الشّامى ، فرجعَ الأفضل إلى دِمشْق وغُلّقت أبوابُ البلد لمّا قرَب العسكر المصرىّ منها .

وتقدّم العزيز وترك ثِقَله بمسجد القصب بظاهر دمشق ، ونزل هو بالكُسْوة [1] ؛ فاستَنجْد الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دِمَشق ، وحضَر الظّاهر من حَلب ، وناصرُ الدّين صاحبُ حماة ، وأسد الدّين

(١) الكُسْوَة : قرية هى أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر .

صاحب حمص ، وعسكرُ الموصل وغيره . فلمّا رأى العزيز اجتماعهم علم أنْ لا قُدْرَةَ له بهذا الجمع ، وكَتب إلى عمّه العادل يقُول : أنا ما خرَجْتُ من الدّيار المِصريّة إلا لِاسْتنقاذ جُبَيل من الفرنج ، فبلغنى أنّ الملكَ الأفضل حالف الفرنج علىَّ ، واستنْصَر بهم ، ووعَدَهم أن يُعيد البلاد إليهم ، فاقْتضى ذلك سَوْقَنَا إليه . [١٣٩] وَبَلَغنا أنك تدخل بيْنَنا وبيْنَه ، وحُوشِيتَ من ذلك ، وأنَا خيرٌ لكَ منْ غيرى . وإنْ أرَدْت أنْ تكُونَ السّلطان ورئيسَ الجماعة فأنَا راضٍ بذلك .

وكتب لأخيه الملك الظّاهر وغيره من[حكام][1] الممالك وتردّدت الرّسائل بَيْنهم .

وتقرَّرت الحال على أن يكُون للملك العزيز البَيْتُ المقدّس وما جاوَرَه من أعمال فلسطين ؛ وأن تكون دمشق وطبريّة وأعمال الغور للملك الأفضل ؛ وأن يُعْطِى الأفضلُ لأخيه الملك الظّاهر جَبَلة واللاذقيّة ؛ وأن يكون للملك العادل بالدِّيار المصريّة إقطاعُه الأوّل ، وأنْ يُخْطَب للملك العزيز ببلاده وتُنْقَش السِّكّة باسمه ؛ وأنّ الملك العزيز يُمِدُّه بألف فارسٍ إعانةً له على فتح خِلاط .

واجتمع الملكُ العادلُ بالملك العزيز ، وتزوَّج العزيزُ ابنْتَه ، وجاء الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب إلى أخيه الملك العزيز . وتقرّرت قواعد الصلح .

وتأخّر الملكُ العزيز إلى الكُسْوة ثم إلى مَرْج الصُّفّر[2] ، ومرض به ثمّ أفاق .

ولمّا عزم على العَوْد إلى الدّيَار المصريّة خرج لوَدَاعه سائرُ الملوك الذين حضَرُوا لنُصْرة الأفضل ، ثم خرج إليه الأفضلُ فى سابع شعبان

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق .

(٢) « مرج الصفر » من نواحى دمشق ، إلى الجنوب الغربى منها ــ معجم البلدان .

وأدركه بنيق ، وهى أعلى الغور ، فأكرمه الملك العزيز ، وبالَغ فى احْترامه وساله الأفضل أنْ يرجع إلى دمشق ليزُورَ قبر أبيه ، فأجاب إلى ذلك ؛ ثم أشارَ عليه أصحابُه ألاّ يفعل ، فامتنع . وعاد الأفضل ، وسار العزَيزُ إلى الدّيار المصريّة فدخلها فى أواخر شعبان .

وفى مستهلّ جماد سنة تسعين وخمسمائة هبَّت رياحٌ عاصفةٌ بالقاهرة مِن وَقْت العَصْر ، وسقَطَ فى ثالث الشهر بَرَدٌ كثير أكْبَرُه قدر البيض وأصغَرُه قدر النّبق ، وصار على جبل المقطم منه شىء كثيرٌ كالجبل الثّانى : ونقَل النّاس منه مدّةَ أربعة أيام ؛ ثم سَالَ حتّى ملأ الخندق ، ودخل الماءُ من المرامى الّتى فى السّور إلى القاهرة ، وعَلاَ ، حتّى خِيف على البلد .

ذكر خروج الملك العَزيز لقَصْد الشّام ثانيا ورجوعه وقصْد العادل والأفضل الدّيار المصريّة وما تقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قَلّد وزارة دمشق لِضياء الدّين ابنِ](١) الأثير الجزَرى وحكّمه فى البلاد ، فقَصَد الأُمراء بالأذى والإطّراح ، وتشَاغَل الأفضَلُ عنهم . ففَارَقَ خدمة الأفضل [فارس الدين] (٢)ميمون القصرى [وشمس الدين](٣) وسنقر الكبير وعِز الدّين سامة ، وغيرهم . وحضر بعضُ هؤلاء إلى الدّيار المصْرِيّة وانضموا إلى الملك العَزيز ، وقالوا له : إنّ الأفضل مسلُوب الاختيار ؛ وحَرّضُوه على قَصْد دمشق ؛ فخرَج إليها فى سَنَة إحْدَى وتسْعين وخمسمائة .

(١) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٠ ، السلوك جـ ١ ص ١٢٣ .
(٢) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١ .
(٣) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١ .

فلمّا اتّصل خبرُ خُروجِه بالأفضل ركبَ من دمَشق فى رابع جُمادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل ، وهو بقلعة جَعْبَر ، واستنجد به ، وسار إلى أخيه الملك الظّاهر بحلب واستَنجد به أيضًا ، فركبَ الملكُ العادلُ وجَدّ فى السّير إلى دمشق خوْفا أنْ يسبقَه العزيز إليها . وكاتَب الملكُ العادل الأمراءَ الذين صُحْبة العزيز ، وكان العزيز قد نَزَل بمنزلة القَوّار على مرحلتيْن من دِمَشق ، واستمالَهُم وحذّرَهم من العزيز ، فمالُوا إليه ، واستمالوا أبا الهيْجَاء السّمين ، وفارقُوا العزيز وقَصَدُوا دمشق ؛ وذلك فى يوم الاثنين رابعِ شوال من السّنة .

فلمّا وَصلُوا إلى دمَشق اتّفقَ العادلُ والأفضل ، وتحالَفَا على قَصْد العزيز وانْتزاع الدّيار المصريّة منه ، على أن يكونَ ثُلُثُ الدّيار المصرية للَملِك العادل إقطاعاً والثُّلُثَان للملك الأفضل . وسارُوا فى طلب الْعَزيز ، فَرجَع إلى الدّيار المصريّةوجَدّ فى السّيْر ودخلَ القاهرة [1] .

قال : ولمّا وصَلَ العادل والأفضلُ إلى القُدس سلّماه وأعمالَه وما يجاوِرُه من أعْمَال السّاحل لأبى الهيجاء السّمين ، فرتّب فيه نُوّابه ، وسار معهُما إلى الدّيَار المصريّة . فنزَل الملكُ العادل على بلبيس ، وكان السعر ما شيا [2] فاستظهر العزيز عليهم .

[١٤٠] قال : ولم يكن غرضُ العادل قَصْدَ مِصْر وإنما خَشِى على الملك العزيز من الأمَراء أنْ يقتُلوه ويستَوْلُوا على الدّيار المصريّة ، فقصدها لهذا السبب .

ولمّا ضاقَت الميرَةُ على العسكر الشّامى وقلّت أزوادُهم ندِمُوا على وصُولهم إلى الدّيار المصريّة ؛ فأرْسَل الملك العادل إلى القَاضى الفاضل

(١) انظر تفصيل ذلك فى مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤٦ ـ ٤٩ .

(٢) « وكانت أيام زيادة النيل ، والأسعار غالية ، والعلف متعذر » فى السلوك جـ ١ ص ١٢٦ .

عبْد الرّحيم فى الاجتماع به ، فأذِنَ له العزيزُ فى ذلك ؛ فخرج إليه ، فاستَبْشَر النّاس بخرُوجه رَجَاء وقُوع الصّلح . ورَكِب العادلُ وتلقّاه على فَرَاسِخ [١] ، فاجتمعا ، واستقرّت القواعدُ على أن يكون إقْطاعُ العادل بمصر على عادَتِه ، وأن تكونَ إقامتهُ عِنْد الملك العزيز بالقاهرة ، وأن يعفُو [العزيز][٢]عن الأسَديّة والأكراد .

واجتَمعَ العادلُ بالأفضل وأمَرهُ بالرُّجوع إلى دمشق . ثمّ اجتمع الأفضَلُ بالعزيز ، واستقرّ الصلح بينهما ، وأهدى العزيز إليه هدايَا جليلةَ المقدار . ورَجَع الأفضل إلى دمشق ومعه أبو الهيْجَاء السّمين ، فدَخَلها فى المحرّم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

ولم تَطُل المدّة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضلِ ما استوغَرَ خاطرَه ، فعند ذلك قرّر ، مَعَ الملك العزيز ، أن يُجهّز العساكر لتمهّد قواعدَ المُلك بالشّام وسائر البلاد ، واتّفَقَا على أن يكونَ العزيزُ بدمشق والعادل ينوبُ عنه بالدّيَار المصريّة .

ذكر ملك الملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد

قال : ولمّا اتفقَ الملكُ العادل والملكُ العزيز على ماقرّراه تجهّز [الملك العادل][٣]للمسير إلى دمشق وبرز بخيَامِه من القاهرة فى يوم السّبت

(١) المقصود أنه سار عدة أميال لاستقباله .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح ، وانظر مفرج الكروب جـ ٣ ص ٥٢ ، السلوك جـ ١ ص ١٢٨ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح ــ انظر ما يلى عند الحديث عن خروج العزيز .

مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة [فى] [١] ثلاثة آلاف فارس . ثمّ برَز الملكُ العزيز فى يوم الثّلاثاء ، رابع الشهر ، وظاهرُ خُروجِه وداعُه لعمّه الملك العادل ، وحث العساكر المجرَّدَة على الخروج . وأقام ببركة الجُبّ .

فلمّا كان فى العشرين من الشّهر اتّصل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنّه كاتَب الأسَدِيّة ، وأنّه قبض على أموالٍ كانَتْ للعادِل بدمَشق ، وأطلَقَ رهائن كانت عند نُوّابه ، وأنّه وافق الظاهرَ صاحبَ حلب ؛ فقرّر مع الملك العزيز أنْ يتوجَّهَا جميعًا ويأخُذَا دمَشْق من الأفضل وحَلَب من الظّاهر ، فاتّفقَا على ذلك وعقَدَا بينهُما يمينًا .

وشرع الملكُ العزيزُ فى تَجهيز رِجَال الحلقة والأعيان ، ورَحَل هو وعمُّه الملك العادل من البركة فى يَوم الثّلاثاء ثامن جُمادى الأولى ، فحَصَل لِلْعَادل ضعفٌ فى هذا النّهار منَعَهُ عن الحركة . وكان وُصُولهما إلى بلبيس فى سَابعِ عشَر الشهر ، وكمُلَت صحّة العَادل فى العشرين من الشهر ، وسَارَ إلى الشام علَى مَهَلٍ ورِفق .

فلمّا تحقّق الملكُ الأفضل قَصْدَهما لبلاده اسْتَشار شيوخ دولته ، فأشارُوا عليه أنْ يستقْبل أخاه وعمه ويسلِّم لهُما الأمر ؛ وأشار وزيرُه ضياءُ الدّين ابن الأثير الجزَرى بالتّصميم والمخَالَفة ، فرَجع إلى رأيه ، وحصَّنَ البلد ، وفرّق الأمراء على الأسوار . فلمّا رأى شيوُخ الدولة وأكابرُها أنّه لم يرجع إليهم واعتمد على رأى وزيره راسلُوا الملكَ العزيز والملكَ العادل فى انْتهاز الفُرصة ؛ فركبَا بعساكرهما وتأهّبَا فى يوم الأربعاء السادِسِ والعشرين من شهر رجب وخَرَج أهلُ دمشق لِقتالهم ؛ والْتَقَوْا فى السّابع والعشرين من الشّهر . فلم يكُن بأسْرع من انهزام العَسْكر

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق .

الشامى . وتبعَهُم العزيز والعادل حتى ألجأوهم إلى سُور البلد ، ودخلوا دمشق [١] ، وتبعَهم العسكر ، فملُكت البلد .

فعِندها ركبَ الملكُ الأفضل إلى خَيمة أخيه الملك العَزيز ، واجتمع به بظاهر دمشق .

قالَ : ودخل الملكُ العادل ومَنْ معه باب تُوما والباب الشّرقى ، ونَزَل بالدّار الأسدية . ودَخَل الملكُ العزيز من باب الفَرج وبات فى دار عمّته الحساميّة[٢] . ومَلَك العزيز دمشق وأقيمت لهُ الخُطْبة فى يوم الجمعة الثّامن والعشرين من الشهر .

قال : ولمّا ملك الملكُ العزيز دِمَشق ندم على ما كان قرر من إقامَته بالشام وتَمْكِين عمه الملك العادل من الدّيَار المصريّة واعْتَذر [١٤١] إلى أخيه الملك الأفضل فى السّر . فأظْهَر الأفْضَل سِرّهُ لمن مَعه فظَنّوا أن هذه خديعَة . فأرسل إلى العَادل وأعْلَمه بمُرسَلة العزيز ، فعتَبَه العادل ، فأنكر الحال[٣] . وخَرَج الأفضل إلى صَرْخد [٤]وقُرِّر لَهُ فى كلّ سنة مائتى ألف درهم من صرخد وغيرها ، وهو كارهٌ لـذلك . وسـألَ أن يكون بمكّـة ؛ وينقَطع إلى الله تعالى ، وينزل عن المُلك ، فلم يُجِبْه العزيز .

وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صَرْخـد يوم الاثنـين ، ثانى شعبان سنة اثنتين وتسعين ، فكانت مدّة ملكه لدمشق ، منذُ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز ، ثلاثَ سنين وخمسة أشهر .

---

(١) « من دمشق » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٢) « وبات عند عمته ست الشام بنت أيوب ــ المعروفة بالحسامية ــ والدة حسام الدين بن لاحين ، وإليها تنسب مدرسة ست الشام بدمشق » ــ مفرج الكروب جـ ٣ ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(٣) انظر مفرج الكروب جـ ٣ ص ٦٦ ــ ٦٧ .

(٤) صرخد : قلعة حصينة ، من أعمال دمشق ، ملاصقة لبلاد حوران ــ معجم البلدان .

ودَخَل الملكُ العزيز قلعَةَ دمشق واستقرّ بها فى يوم الأربعاء رابع شَعْبان من السّنة المذكورة ، وجَلَس يوم الجمعة بدَارِ العَدْل وأسقط مِن المكُوس بدمشق ماهو مقَرّرٌ على سُوق الرّقيق وسُوق الدوّاب ودَارِ البطّيخ ، والملاهى ، والعصير ، والفَحْم ، والحديد ، وسَبْكَى الفولاذ والزّجاج .

قال : وهرب ضياءُ الدّين ابن الأثير ونُهبت داره .

ونُودِى فى دمشق أن يلْبَس أهل الذّمّة العمائم الغيار ليُعرفوا من المسلمين وكان سببُ ذلك أنّ الملك العزيز لمّا جَلَس بدَار العَدْل دخلَ عليه رجلٌ له هيئَةٌ حسنة ، فما شكّ العزيز أنه من الأشْراف ، فلمّا علَم أنّه ذمّىٌّ أمر بذلك .

قال : ولاطَف الملكُ العزيز عمَّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق فى النّيابة ، فأجاب إلى ذلك بَعْد امتناع . وسلّم ديوان دمشق لصفىّ الدّين ابن شُكر [1] كاتب العادل .

وفارقَ الملكُ العزيزُ دمشق فى العَشْر الأوسط من شعبان ، وعادَ إلى الدّيار المصريّة بعد أنْ استخْلَف الملك العادل وسلّم إليه دمشق وما هو مضافٌ إليها من القلاع والحصُون والأعمال ؛ والخُطْبة والسّكّة باسم الملك العزيز .

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدةً فى رابع شهر رمضان ؛ وفَوّض شدّ الأمْوال والخطاب عليها للأمير فخر الدّين إيَاز جهارَكس ؛ وضمّن الخُمور فى كلّ سنة بسبعَة عشر ألف دينار ، فتجاهَر النّاسُ بها وظهر

---

(١) هو عبد الله بن على ، صفى الدين ابن شكر ، وزير الملك العادل الأيوبى ، ثم وزير الملك الكامل الأيوبى ، وتوفى سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٥ م ــ السلوك جـ ١ ص ٢٢٠ .

الفَساد وفشا فى النّاس ؛ واجتمع الرّجال والنّساء فى شهر رمضان من غَيْر اسْتِتَار ، سيّما فى الخَليج وساحِل مصر ؛ ورتّب ضمان الخمر فى النّفَقَة على طعام السّلطان ؛ وهذه من البَلايا التى لم يُسْمع بمثلها ، فإنّ عادَة الملوك والأكابر [أن][1] يجتهدوا أن يكون مأكَلُهم من أجَلّ الجهات كالجَوالى[2] وما يُنَاسِبُها . وبِسبب إطلاق الخُمور كَثُر القتل بالقاهرة والجراحَات ، وخَطْف العمائم والأمتعة والمآكل من الأسواق .

قال المؤرخ : وغَلَت الأسعار فى هذه السّنة بالدّيَار المصريّة ، واشتَدّ الأمرُ على النّاس ، وكثُر الوباء ، وبلغ القمح كلّ أردبّ بدينارَين ، وأظُن الدّينار ثلاثَة عشردرهما وثُلُث درهم ، وهذا كان نهايَة الغَلاء فى ذلك العَصر .

ولقد وصف [3]الفَاضل من عظم ماحَلّ بالنّاس غلوّ السّعر أمرًا عظيمًا فكيف لوأدرَك الفاضل الديار المصريّة فى سنَة خمس وتسعين وستّمائة وقد أبيع القَمح سعر الأردب ثلاثَة عشر دينارًا ونصفَ دينار وأبيع الفرُّوج بخمسين درهمًا ، ورطل البطّيخ الأخضر بأربعة دراهم ، والسَّفَرْجلة بثلاثين درهما [4] .

قال المؤرخ : وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السّيد الشريف عبد الرّحيم [5] ، قدّس الله رُوحه ونوّر ضريحه ، بقنا من أعمال قُوص ودُفن بجبّانتها ، وضريحُه معروفٌ هناك من أعظم مزارات

---

(١) [ ] إضافة يقتضيها السياق .

(٢) الجوالى : مصطلح بمعنى الجزية المفروضة على أهل الذمة .

(٣) « وصل » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) يقارن النويرى بالفترة التى عاصرها .

(٥) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائى ، المتوفى سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦ م ــ الطالع السعيد ص ٢٩٧ رقم ٢٣٠ .

أهل الصَّلاح بالدُّنيا .

ومِمَّا نُقِل من كلامه ، قدسّ الله روحه ، وقَدْ سمِع المؤذِّن يقول : أشهد أن لا إلٰـه إلا الله ، فقال الشيـخ شهِدنـا بما شَـاهَدْنـا . ومِن كلامـه : لا يستطيع العارفُ أن يوصِّل إلى منْ لا يعرِفُ حقيقـةَ ما عَـرف ، كما لا يستطيع البصيرُ أن يوصل إلى الأكْمَهِ [1] حقيقة الألوان . وعُرض هذا الكلامُ على الشَّيخ عزِّ الدِّين عَبْد العزيز [2] بن عبد السَّلام ، رحمه الله ونفع به ، فقالَ هَذَا كَلامُ مَنْ غرِق فى الحقيقة .

[١٤٢] ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفى يوم الجمعة عاشر ذى الحجّة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة مَلَك الفرنج مدينة بَيروت من المسلمين وسببُ ذلك أنَّ فرنج السَّاحل راسَلُوا مَلِك الألمان [3] فى سنة اثنتين وتِسْعين وخمسمائة ، وكان قد مَلَك جزيرة صقلية ، وعرَّفُوه أنَّ المسلمين قد اشْتَغَلُوا بحرب بعضِهم بعضًا ؛ فأقبل فى مراكبه [4] إلى عكَّا . وصادَفَ ذلك سقُوط الكُندهرى [5] ملك عكا من

---

(١) الأكمه : الذى يولد أعمى ــ اللسان .

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام الشافعى ، شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد ، توفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦١ م ــ طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ٢٠٩ رقم ١١٨٣ .

(٣) هو الامبراطور هنرى السادس ، الذى عمل على استعادة مكانة الألمان فى الأرض المقدسة ، فأرسل حملة ألمانية عاجلة على رأسها أدولف وكنراد ــ انظر تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٦٩ .

(٤) انظر الهامش السابق .

(٥) هو هنرى كونت ــ شامبانيا . ولقى مصرعه فى ١٠ سبتمبر ١١٩٧ م ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٧٢ .

شُبَّاكٍ فهَلك ، فملَك ملِكُ قبرص [١] عكّا ، وخرج إلى بيرُوت فملَكها من المسلمين ، وكان بها عزّ الدين أسَامة . فعمّرها الفرنج ولَمْ تزل بأيديهم إلى أنْ فتحها الملك الأشْرفُ [٢] في سنة تسعين وستّمائة ، على ما نذكرهُ إن شاء الله تعالى فى أخبار دولة التُرك .

وفيها خرَجَت المراكبُ الحربية لقَصْد بلاد الفرنج ، فوجَدُوا بُطَشًا للفرنج فملكوها ، فوجد المسْلمون فيها أموالاً جليلة .

وفيها أنشأ الأمير فخر الدين إيازجهارَكس النّاصرى القيْسَاريّة المعروفة به بالقَاهرة المحروسة ، وجاءت من أحسن الأبنية [٣] .

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيّوب ملك اليمن وملك ولده شمس الملوك

وفى يوم الأربعاء الثالث من شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفى الملك العزيز سيف الإسلام طُغْتكين بن أيّوب ، أخو السّلطان الملك النّاصر [صلاح الدين] [٤] بالمنصُورة التى أنشأها باليمن . وكان قد طرَدَ ولدَه شمس الملوك [إسماعيل] [٥] إلى الحجاز . فلمّا سمِع بوفاة والده سار إلى اليمَن وملَكَ بعْدَه .

---

(١) « ملك الألمان » فى الأصل ، والتصحيح من تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٢) هو الأشرف خليل بن قلاوون .

(٣) قيسارية جهاركس بالقاهرة : انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٨٧ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح .

(٥) [ ] إضافة للتوضيح ، وانظر مفرج الكروب حيث ورد به أن أباه أبعده إلى الشام ــ جـ ٣ ص ٧٣ .

وإلى سيْفِ الإسلام هذا يُنْسَب البستان [١] الذى كان بظَاهر القاهِرة ، وهو الآن عمائر تُعْرفُ أرضها بحِكر سَيْف الإسلام .

ذكر وفاة الملك العزيز وشىء من أخباره

كانت وفاتُه فى ليلة الأحد العشرينَ [٢] من المحرّم سنة خمس وتسْعين وخَمسمائة بداره بالقاهرة .

وكانَ قد خرَج إلى الفيُّوم لقَصْد الصّيد إلى ذات الصّفا ، فحُمَّ ، فعاد إلى القاهرة واشْتدّ مرضُه ، فمات . وقيل إنّه ساق خَلْف الصّيد فكَبا به فرسُه مرّةً بعد أخرى ، فماتَ بعد ثلاثٍ . ودُفن بداره بالقاهرة [وكان مولده بالقاهرة] [٣] فى ثامن جُمادى الأولى سنةَ سبع وستّين ، وقال الفَاضل فى جُمادى الآخرة . فكانت مدّة عمره سبْعًا وعشرين سنةً وثمانية أشهر واثنى عشر يوما ؛ ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يَومًا .

وكان رحمهُ الله عادلاً كريمًا بالمال ، بخيلاً على طعامه شجاعًا حسَن الأخلاق .

وخَلَّفَ من الأولاد أحد عشر ولدًا ، وهم الملكُ المنصُور محمّد ، القائمُ بعْده ؛ وعلى ، وعمر ، وإبراهيم ؛ وعيسى ؛ ومحمود ؛ ورعاه ، ويوسف ؛

---

(١) بستان سيف الإسلام : شرقى بركة الفيل فيما بين البركة والجبل الذى عليه قلعة الجبل — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٣ ، الانتصار ق ٥ ص ٤٥ .

(٢) « السابع والعشرين » فى مفرج الكروب جـ ٣ ص ٨٣ ، السلوك جـ ١ ص ١٤٤ .

(٣) [ ] إضافة تتفق مع السياق من الروضتين جـ ١ ص ٧٠٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص

ويونس ؛ وولدان صغيران . ولم يخلّف فى خزانته ذهباً ولا دراهم إلاّ بعض قماش ليْسَ بالطّائل .

ذكر سلطنة الملك المنصُور محمد بن الملك العزيز ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصريّة

[١٤٣] ملَك الدّيار المصريّة بعدَ وفاة أبيه فى يَوم الأحد العشرين[١] من المحرّم سنَةَ خمس وتسعين وخمسمائة بوصية منه . ولمّا مَات الملكُ العزيز كان عَمُّه الملك العادل يُحاصِر مَارِدِين فاجتمعت الأمراء الصّلاحية وعَقَدُوا الأمر لِولده ولقّبُوه بالملك المنصور ، وكانَ قبل ذلك يُلقّب بالنّاصر وإنما تركُوا النّاصر لموافَقته لَقَب الخليفة[٢] وركبَ فى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من المحرّم ، وشقّ القاهرة من باب زَويلة إلى باب النّصر ، والأمراء فى خِدمته . وكتب الأمراء إلى الملك العَادل يعزُّونه فى ابنْ أخِيه الملك العزيز ، ويذكُرون اتفاقهم على تنصيب[٣] ولَده فى السّلطنه بعْده ، وأنهم على طَاعة الملك العادل .

ثم اجتمع الأُمراء الأسَدية والصّلاحية بظَاهرِ القَاهرة وقالوا : إن الذى فعلنَاه من حِفظ الملك العَزيز فى وَلَدِه هو نِعْم الرأى ، وإنما هُو صَغير السّن لا يفهم ما يُقال له ، ولا يقُوم بأعباء المُلك ، ولا بد لنا من كبير منْ

(١) « حادى عشر المحرم » فى السلوك جـ ١ ص ١٤٦ ، وهو يتناقض مع ما سبق وروده فى السلوك من أن وفاة العزيز كانت فى ٢٧ محرم ــ انظر السلوك جـ ١ ص ١٤٤ ، ١٤٦ .

(٢) هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، الذى ولى الخلافة العباسية فى الفترة من ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣ .

(٣) « نصب » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

هَذا البيت يُربِّيه ويكْفُلُه ويدبّر أحوال الدَّولة ، ولَيسْ لها مثلُ الملك العادل ، وهو الآن مشغول ببلاد الشّرق.وقصَدُوا أن يكتُبوا إليه ويَستدعوه فكرهَ بعضُهم شِدةَ أخلاقه ومُماقَتَتَهُ[1] للجند فعَدلوا عنه واتفقوا علَى استِدعاء الملك الأفضل من صَرخَد .

وأن يتولَّى أتابكيَّة الملك المنصور وأن ينوب عن الأفضل إلى حين وصوله ، أخوه الملكُ الظافر خِضْر ، فاستَقرَّ ذلك[2] .

وكتبوا إلى الأفضل وذَلك فى يوم الخميس سَادس عشَر صفَر من السّنة ونزل الملك الظّافر بدَارِ السّلطَنة فى القاعة العزيزيَّة ، وقام بنيابة السلطنة .

قال : ولمَّا وصل كِتابُ الأمراء إلى الأفضل خرج من صَرْخَد فى ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر ، وسلك البرِّيَّة إلى البيت المقدَّس .

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة واستقراره فى تدبير دولة المنصور

كان وصولُه إلى القاهرة فى يوم الخميس السّابع من شَهر ربيع الأول سنةَ خمس وتسعين وخمسمائة ؛ فبرزَ الناس لِلِقائه ، وزُيِّنَت المدينةُ ، لقُدومه . ولمَّا دخل أقرَّ الخُطبة باسم الملك المنصُور ابن أخيه ، ونَقَش السّكة باسمه ، وكان الأفضل يُذكر بعده . وكَتَب إلى عمّه الملك العادِلِ يبذُل له الطَّاعة والانْقِياد إلى أمره

---

(١) ماقت الرجل : أبغضه أشد البغض ، والمماقتة من المشاركة : أى أن البغض متبادل بين العادل والجند من الصلاحية ــ القاموس .

(٢) « وأقيم الملك الظافر مظفر الدين خضر بن السلطان صلاح الدين مباشر نيابة السلطنة حتى يقدم الأفضل » ــ السلوك جـ ١ ص ١٤٦ .

قال : ولمَّا وصَل الملكُ الأفضل إلى بلبيس خرج فخر الدّين إيازجهاركس وزين الدين قراجا على أنهما يلتقيَانه ، فتوجها إلى الملك العادل . ثم خرج فى يَوْم وصُوله الأمير شمس الدّين [1] سراسُنْقر بمماليكه وجماعة من أصحابه والتحق بالملك العادل ، وسَار إليه ، إلى مَارِدِين .

ذكر مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصَار دمشق وعوده عنها وخروجه عن الديار المصريّة

قال : ولما استَقَرَّ الأفضل فى تدْبير الدّولة بالدِّيار المصريَّة ، ولم يَبْقَ للملك المنصُور معه إلا الشّركة فى الخُطْبة ، حمَله أصحابُه على قَصد دمشق وحَصْرها ، وقالوا : هى لك بوصِيّة أبيك الملك النّاصر .فعَزم على المسير اليها ، وأمر العَسَاكر بالاسْتعداد لذلك . وبَرَز إلى المخيّم ببركة الجُبِّ ، هو وابن أخيه الملك المنصُور ، فى يوم السّبت العشرين من جُمادى الأولى من السّنة واستَحثَّ العسكر على الخروج .

ووصل إليه فى يوم الأربعاء ، السّادس من جمادى الآخرة ، رسولٌ من أخيه الملك الظّاهر صَاحب حَلب وهو يَلُومُه على إنْفَاذ الرُّسل بالطّاعة للعادل ، ويقول : إن أكثر الناس كانوا منْصَرِفين عنه فانصَرفوا إليه ، وحثّه على سُرعة قَصْد دِمشق ؛ ويقول : اغْتَنم الفُرصة مادام العَادِلُ فى حصَار ما رِدِين ؛ ووَعَده بالوصُول إليه فأكَّدَ ذلك ما عنده ، وأقام ببركة الجُبّ وهو يحثّ العسْكر على سُرعة الحركة ، إلى ثانى شهر رجَب ، فرحل عنها .

---

(١) « أسد الدين » فى السلوك جـ ١ ص ١٤٧ ، ومفرج الكروب جـ٣ ص ٩٢ .

وفى مـدّة مقامـه ببركـة الجُبّ أحضر قـاضى القضاة والشُّهـود ، وأشهدهم على نفسه [١٤٤] أنه وقف المطريَّة[١] ومُنْية الباسل[٢] والرّباع المسـوّغة والمستمـرّة بيد الـدّيوان عـلى عِمارة سُـور القاهـرة ومِصْر والبيمارِستان بالقاهرة .

قال :ولمَّا وصل الأفضل إلى بلبيس احْتاطَ على ما كان بِاسْم العَادل وألْزَامه بالدّيار المصريّه ؛ وأقْطَعه ، ثم قَبَض على أخيه الملك المؤيّد وقَيّدَه وأعاده إلى القاهرة ، فاعتُقل بالقَلْعة . وتمَادى الملك الأفضل فى سَيْره إلى دمشق . هذا ما كان منه .

وأمَّا الملك العادل فإنَ سراسُنقـر النَّاصـرى وصَل إليـه بما رِدِين واستحثّه على العَوْد إلى دمشق ، فأوصى ولدَه الملكَ الكامل بمُحاصَرتها . وفارقَها العادلُ لخَمْسٍ بقينَ من شهر رجب ، ووصل إلى دمَشْق فى يوم الاثنين حادى عشر شعبان ، وأخذ فى تحْصين البلد . ووصلت العساكرُ المصرية فى يوم الخميس ، ورتَّب الأطْلاَب وسارَ الملكُ المنصُور بنُ الملك العزيز فى الْقَلْب وزحَفَ على الْبلَد فأخَذ قصْر حَجَّاج والشَّاغور . وكان العادلُ لما شاهدَ إقبال العَساكر أمر بإحْراق قصْـر حجّاج ، فـأُحرق ، واحترق فيه عدَّة مساجد وأطفال . وأحاطت العَساكر المصريَّة بدمشق ، ودَخَلها جماعة منهم من باب السَّـلامة ، وانتهَـوْا إلى السُّوق الكبـير ، وخرجُوا من باب الفرَاديس . وقدم الأفضل الميدان الأخضر[٣] ثم تأخّر إلى مَيدان الحصى ؛ واستقر بهذه المنْزِلة أكثر من ستَّة أشْهُر .

---

(١) المطرية : من ضواحى القاهرة ـ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ١١ .

(٢) منية الباسل = المنيا = منية الباسك = من إقليم الاطفيحية ، وهى حاليا تابعة لمركز الصف بمحافظة الجيزة ـ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٣١ .

(٣) « وسير الأفضل بالديوان الأخضر » فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٩٥ ، السلوك جـ ١ ص ١٤٨ .

وكاتب الملكُ العادل جماعةً من الأمراء المصريّين ، ففارَقُوه ودَخَلُوا إلى دمشق فأكرمهم .

ثم وصل الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب ومعه أخواه الظّافر والمعزّ وجاءهُم الملكُ المجاهدُ صاحب حمص ، وعسكر حماة دُونَ سُلطانها[٢] ، وحسام الدّين بشارة صاحب حمص بانياس ، وكان من أكابر الدّولة ، فأشار بالصلح .

قال : ولمّا حاصَر الملكُ الأفضل دمشق مَنَع مَنْ يدخُل إليها بشيء من الميرة ، وقطع عنها الأنهار ؛ فاشتدَّ الأمر على أهل دِمشق ، واستغاثَت الرَّعايا على العادل ، وتسلَّطوا عليه ، وحملوه على تَسْليم البلَد . وانْتَقَل أكثر مَنْ فى البلد إلى العَسْكر ، ونصبوا به أخْصَاصًا ومساكن ؛ وأُقيمت الأسواق به .

فلمَّا اشتدَّ الأمر على العَادل كتب إلى الظّاهر يَستميلُه وقال : أنا أسلّم البلَد إليك دَونَ غيرك ، فنُمِى الخبرُ إلى الأفضل ، فاضطَرب رأيُهما ، وقيل بل كتب إليهما يقول : أنا أسلم البلَد إليكُما بعد سَبْعَة أشهر فأجَابَاهُ إلى ذلك . وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقولُ الظّاهر قد صَالَحنى ، وإلى الظّاهر بمثل ذلك .

واتَفقَ فى فَسَادِ حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعاتٌ بالدّيَار المصريَّة جليلَةُ المقدار ، فحسَدَهم آخرون عليها ، فكانوا يأتُون إلى الملك الأفْضل ويقولُون : إنَّ فلانًا قد عزَم على قَصْد عَمّكَ العَادل والانضمام إليه ، ويأتون لذلك الأمير فيقولون : إنّ الأفضل قَدْ عَزم القَبضَ عليك ، ويأتى ذلك الأمير إلى الأفضل فَيَرى فى وجْهه أثر التغيُّر لِمَا نُقل عنه ، فلا يشكّ ذلك الأميرُ فى صِدْق النَّاقل فالْتَحق به جماعةٌ من الأمراء

فبينما الأفضل كذلك إذ قَدِم الملكُ الكامل بن الملِك العَادل من الشَّرق ، فى تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، بالعساكر والتُّركمان فاشْتدَّ به عضُد أبيه . وتأخر الأفضل بمن معه إلى سَفح جَبل العَقَبة ، ثم انتقل إلى مَرْج الصُّفَّر فى يوم الاثنين ثانى عشرى صفر ؛ وعَادَ الظَّاهر والمجاهد[1] .

واشتد البرْد على العَسْكر المِصرى فعاد الأفضلُ إلى الدِّيار المصريَّة ، وسَاقَ العَادل بعسَاكره فى أثره . فكان وُصُول الأفضل إلى بلبيس فى حَادى عشرى شهر ربيع الأول فأشار عليه أصحابه بالإقامة بها .

قال : ولَمَّا وصَلَ المَلَكُ العادِل إلى تلّ العجُول[2] أقام به حتى اجتمع إليه أصحابه ، ورَاسَل الأفضل ، فعاد جوابه أنه لا يصالحه حتى يفارق الأمراء الصلاحية .

فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا وعزموا على المسير إليه .

هذا والأفضل على بلبيس ، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعاتهم وجماعة منهم باطنوا الملك [العادل] [3] .

---

(١) كان يتولى حماة وتوابعها المنصور محمد بن تقى الدين عمر ، وذلك فى الفترة من ٥٨٧ - ٦١٧ هـ/١١٩١ - ١٢٢٠ م - تاريخ الدول الإسلامية ص ١٤٧ .

(٢) تل العجول : بالقرب من غزة - معجم البلدان .

(٣) [ ] إضافة يقتضيها السياق ، انظر مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٠٨ ، السلوك جـ ١ ص ١٥٠ .

وعند هذا الموضع تنتهى اللوحة ١٤٤ وهى آخر ما وجد من جـ ٢٦ من مخطوط نهاية الأرب . ومن الأرجح أن هناك ورقة أخرى مفقودة فيها ذكر للأحداث التى تربط بين ما جاء فى هذه الورقة وبداية الجزء التالى من المخطوط والذى يبدأ بالكلام عن أخبار الملك العادل ودخوله القاهرة فى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ ، وذلك تحت عنوان : « ذكر أخبار السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب وسلطنته » .

[ومضى الملك العادل يطوى المراحل إلى أن دخل الرمل وبلغ الملك الأفضل ذلك ، فرام جمع عساكره ، فتعذر ذلك عليه لتفرقهم فى أخبارهم ، وتشتتهم فى الأماكن التى يربعون فيها خيلهم ، فخرج فى جمع قليل ، ونزل السانح .

ووصل الملك العادل ، وضرب معه مصافا ، فانكسر عسكر الملك الأفضل ، وولوا منهزمين لا يلوون على شىء .

ثم سار الملك العادل بالعساكر ، ونزل بركة الجب ، وسير إلى الملك الأفضل يقول له : « أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ، لأنها أعظم معاقل الإسلام ، ولا تحوجنى إلى أخذها بالسيف ، واذهب الى صرخد وأنت آمن على نفسك » .

فاستشار الملك الأفضل الأمراء فرأى منهم تخاذلا ، فأرسل إلى عمه يطلب منه أن يعوضه عن الديار المصرية بالشام ، فامتنع من ذلك ، فطلب أن يعوضه حران والرها فامتنع ، فطلب منه جافى وجبل جور وميافارقين وسميساط ، فأجابه إلى ذلك ، وتسلم القاهرة منه .][1]

* * *

[انتهى الجزء السادس والعشرون من كتاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع والعشرون ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل][2] .

---

(١) [ ] إضافة لربط أحداث نهاية هذا الجزء بالأحداث التالية فى بداية الجزء التالى ــ مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٠٨ ــ ١٠٩ .

(٢) خاتمة للجزء تتفق وسياق خاتمة الجزء السابق من كتاب نهاية الأرب .

مختصرات مصادر ومراجع التحقيق

تحتوى القائمة التالية على أسماء المصادر والمراجع الإضافية ومختصراتها التى استلزمها تحقيق الجزء الثامن والعشرين من كتاب نهاية الأرب للنويرى .[1]

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : المصادر والمراجع :

(١) اتعاظ الحنفا = المقريزى (أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) :

ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا .

٣ أجزاء ـ تحقيق جمال الدين الشيال ـ محمد حلمى محمد أحمد ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ .

(٢) أخبار الدول المنقطعة = ابن ظافر (جمال الدين بن على ت ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م) :

أخبار الدول المنقطعة ـ دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين ـ تحقيق أندريه فريه .

المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٧٢ .

(٣) أخبار مصر = المسبحى (محمد بن عبيد الله بن أحمد ، ت ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م) :

ـ الجزء الأربعون من أخبار مصر .

تحقيق أيمن فؤاد سيد ، وتيارى بيانكى ـ القسم التاريخى .

المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٧٨ .

---

(١) تخفيفًا لهوامش التحقيق استخدمنا مختصرات فى الإشارة إلى المصادر والمراجع ، وفى هذه القائمة أثبتنا [illegible] الهو[illegible] مرتبة ترتيبا أبجديا . وأمام كل مختصر اسم المصدر أو المرجع مقصود .

(٤) الإشارة = ابن الصيرفى (على بن منجب بن سليمان ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م) :
ـ الإشارة إلى من نال الوزارة .
تحقيق عبد الله مخلص .
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٢٤ .

(٥) الاعتبار = أسامة بن منقذ ، ت ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م) :
ـ كتاب الاعتبار .
نشره فيليب حتى .
جامعة برنستون ـ الولايات المتحدة ١٩٣٠ .

(٦) أعلام الإسكندرية = جمال الدين الشيال :
ـ أعلام الإسكندرية ـ القاهرة ١٩٦٧ .

(٧) افتتاح الدعوة = القاضى النعمان (النعمان بن محمد بن منصور بن حيون ، ت ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م) :
ـ كتاب افتتاح الدعوة .
تحقيق فرحات الدشراوى ـ تونس ١٩٧٥ .

(٨) الانتصار = ابن دقماق (إبراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م) :
ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار .
نشر فولرز ـ بولاق ١٣٠٩ هـ/١٨٩٣ م .

(٩) البداية والنهاية = ابن كثير (إسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٣م) :
ـ البداية والنهاية ـ ١٤ جزء ـ بيروت ١٩٦٦ .

(١٠) تاريخ الحروب الصليبية = رنسمان :
ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمة السيد الباز العرينى .
٣ أجزاء ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩

(١١) تاريخ الدول الإسلامية = أحمد السعيد سليمان
ــ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ــ
جزءان ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٩ .

(١٢) تاريخ دولة الكنوز الإسلامية = عطية القوصى
ــ تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ــ القاهرة ١٩٧٦ .

(١٣) تاريخ ابن الفرات = ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم المصرى ، ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م) :
ــ تاريخ الدول والملوك .
المجلد الرابع ــ البصرة ١٩٦٧ .
المجلد ٧ ــ ٩ ــ بيروت ١٩٣٦ ــ ١٩٤٢

(١٤) تاريخ مدينة الإسكندرية = جمال الدين الشيال
ــ تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ــ
القاهرة ١٩٦٧ .

(١٥) تاريخ ووصف قلعة القاهرة = كازانوفا :
ــ تاريخ ووصف قلعة القاهرة ــ ترجمة أحمد دراج ــ القاهرة ١٩٧٤ .

(١٦) تكملة تاريخ ابن البطريق = يحيى بن سعيد الأنطاكى .
ــ تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى
نشر كراتشكوفسكى ــ ١٩٢٤ .

(١٧) الحركة الصليبية = سعيد عبد الفتاح عاشور
ــ الحركة الصليبية ــ جزءان ــ
القاهرة ١٩٦٢ .

(١٨) حسن المحاضرة = السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م) :
ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ
جزءان ـ القاهرة ١٩٦٧ .

(١٩) خزانة السلاح = مجهول
خزانة السلاح ، مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها ـ نشر نبيل محمد عبد العزيز
القاهرة ١٩٧٨ .

(٢٠) ذيل تاريخ دمشق = ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى ، ت ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م) :
ـ ذيل تاريخ دمشق ـ نشر أمدروز ـ
بيروت ١٩٠٨ .

(٢١) رحلة ابن جبير = محمد بن أحمد بن جبير ، ت ٦١٤ هـ/١٢١٧ م) :
ـ رحلة ابن جبير ـ بيروت ١٩٦٤ .

(٢٢) الروضتين = أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل ، ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٨ م) :
ـ الروضتين فى أخبار الدولتين .
الجزء الأول تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ـ
القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢ .

(٢٣) السلوك = المقريزى (أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) :
ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .
حـ ١ ـ ٢ تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ـ
القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨ .

(٢٤) سيرة ابن طولون = البلوى (عبد الله بن محمد بن عمير ، ت بعد ٣٣٠ هـ/٩٤١ م :
ـ سيرة أحمد بن طولون ـ تحقيق محمد كرد على ـ
دمشق ١٣٥٨ هـ .

(٢٥) شذرات الذهب = ابن العماد الحنبلى (عبد الحى بن أحمد بن محمد ، ت ١٠٨٩ هـ ـ ١٦٧٨ م) :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ ٨ أجزاء ـ بيروت .

(٢٦) الشرق الأوسط والحروب الصليبية = السيد الباز العرينى
ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٦٣ .

(٢٧) شفاء القلوب = الحنبلى :
ـ شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب .
مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٣١ .

(٢٨) صبح الأعشى = القلقشندى (أحمد بن على ، ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) :
صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ـ ١٤ جزء ـ
القاهرة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ .

(٢٩) الطالع السعيد = الادفوى (جعفر بن ثعلب ، ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) :
ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ـ
تحقيق سعد محمد حسن ـ القاهرة ١٩٦٦ .

(٣٠) طبقات الشافعية الكبرى = السبكى (عبد الوهاب بن على ، ت ٧٧١ هـ/ ١٣٧٠ م) :
ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ ١٠ أجزاء ـ القاهرة ١٩٧٦ .

(٣١) العبر = الذهبى (محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م) :
ـ العبر فى خبر من غبر ، نشر صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ـ ٥ أجزاء ـ الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦ .

(٣٢) العقد الثمين = الفاسى (محمد بن أحمد الحسنى المكى ، ت ٨٣٢ هـ/١٤٢٨ م) :
ـ العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين .
تحقيق فؤاد السيد ـ ٨ أجزاء ـ القاهرة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٩ .

(٣٣) عقد الجمان = العينى (محمد بن أحمد ، بدر الدين ، ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م) :
ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

(٣٤) القاموس الجغرافى = محمد رمزى :
ـ القاموس الجغرافى للبلاد المصرية .
قسمان فى ٥ أجزاء ـ القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣ .

(٣٥) القاموس المحيط = الفيروز آبادى (محمد بن يعقوب الشيرازى ، ت ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م) :
٤ أجزاء ـ القاهرة ١٩٥٢ .

(٣٦) قوانين الدواوين = ابن مماتى (الأسعد شرف الدين أبو المكارم ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩ م) :
ـ كتاب قوانين الدواوين ـ تحقيق عزيز سوريال عطية ـ مصر ١٩٤٣ .

(٣٧) الكامل = ابن الأثير (على بن أبى الكرم ، ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م) :
ـ الكامل فى التاريخ .
١٣ جزء ـ بيروت ١٩٨٣ .

(٣٨) كنز الدرر = ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله ، ت بعد ٧٣٦ هـ/ ١٢٣٥ م) :

ـ كنز الدرر وجامع الغرر .

الجزء السادس : الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية .

ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ القاهرة ١٩٦١ .

الجزء السابع : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب .

ـ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ـ القاهرة ١٩٧٢ .

(٣٩) الكواكب السيارة = ابن الزيات (محمد الأنصارى ت ٨١٤ هـ/١٤١١ م) :

ـ الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة .

بولاق ١٣٢٥ هـ .

(٤٠) لسان العرب = ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ، ت ٧١١ هـ/١٣١١ م) :

ـ لسان العرب ـ ٢٠ جزء ـ بولاق ١٣٠٠ ـ ١٣٠٨ هـ .

(٤١) المختصر = أبو الفدا (إسماعيل بن على ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) :

ـ المختصر فى أخبار البشر ـ ٤ أجزاء ـ استانبول ١٩٣٨ .

(٤٢) المسلمون والبيزنطيون = أحمد عبد الكريم سليمان .

ـ المسلمون والبيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط .

الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٨٢ .

(٤٣) مصر فى عصر الإخشيديين = سيدة إسماعيل كاشف .

ـ مصر فى عصر الإخشيديين ـ القاهرة ١٩٧٠ .

(٤٤) مضمار الحقائق = محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبى ، ت ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م) :

ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق ـ تحقيق حسن حبشى ـ القاهرة ١٩٦٨ .

(٤٥) معجم البلدان = ياقوت (ياقوت الحموى ، ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) :
ـ معجم البلدان ـ ٥ مجلدات ـ بيروت .

(٤٦) معجم البلدان الليبية = الطاهر أحمد الزاوى .
ـ معجم البلدان الليبية .
طرابلس ـ ١٩٦٨ .

(٤٧) معجم السفن الإسلامية = درويش النخيلى .
ـ السفن الإسلامية على حروف المعجم .
القاهرة ١٩٧٩ .

(٤٨) المغرب = البكرى (أبو عبيد ، ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) :
ـ المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ـ نشر دى سلان ـ الجزائر ١٨٥٧ .

(٤٩) مفرج الكروب = ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م) :
ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .
جـ ١ ـ ٣ نشر جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠ .

(٥٠) الملل والنحل = الشهرستانى (محمد عبد الكريم) :
ـ الملل والنحل ـ تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ـ ٣ أجزاء ـ القاهرة ١٩٦٨ .

(٥١) المنتقى من أخبار مصر = ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف جلب راغب ، ت ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م) :
ـ المنتقى من أخبار مصر .
تحقيق أيمن فؤاد سيد .
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٨١ .

(٥٢) المواعظ والاعتبار = المقريزى (أحمدبن على ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) :

ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ

جزءان ـ بولاق ١٢٧٠ هـ/١٨٥٤ م .

(٥٣) النجوم الزاهرة = ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م) :

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة..

١٦ جزء ـ القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٧٢ .

(٥٤) نصوص من أخبارمصر = ابن المأمون (موسى بن المأمون البطائحى ، ت ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م) :

ـ نصوص من أخبار مصر .

تحقيق أيمن فؤاد سيد .

المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٨٣ .

(٥٥) النكت العصرية = عمارة اليمنى (أبو الحسن نجم الدين ، ت ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م) :

ـ كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ـ باريس ١٨٩٧ م .

(٥٦) نهاية الأرب = النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م) :

ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب .

٢٧ جزء ـ مطبوع بالقاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٨٥ .

(٥٧) النوادر السلطانية = ابن شداد (يوسف بن رافع ، بهاء الدين ، ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م) :

ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ

تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٤ .

(٥٨) وصف قلعة الجبل = كريزويل :

ـ وصف قلعة الجبل ـ ترجمة جمال محمد محرز ـ القاهرة ١٩٧٤ .

(٥٩) وفيات الأعيان = ابن خلكان (أحمد بن محمد ، ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م) :

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ

٨ أجزاء ـ تحقيق إحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ .

(٦٠) الولاة والقضاة = الكندى (محمد بن يوسف ، ت ٣٥٠ هـ/٩٦١ م) :

ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة ، صححه رفن كست ـ بيروت ١٩٠٨ .

* * * *

محتويات الكتاب
الباب الثانى عشر من القسم الخامس
من الفن الخامس
أخبار ملوك الديار المصرية
الدولة الطولونية

الموضوع	الصفحة
خروج أحمد بن طولون إلى الشام سنة ٢٦٤ هـ	١١
ذكر عصيان العباس بن أحمد بن طولون على أبيه وما كان من أمره	١٤
ذكر خلاف لؤلؤ على أحمد	١٦
ذكر وفاة أحمد بن طولون وشىء من أخباره وسيرته	١٩
ذكر ولاية أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الثانى من ملوك الطولونية	٢٢
ذكر مسير إسحاق بن كنداجق ومحمد بن أبى الساج إلى الشام	٢٣
ذكر وقعة الطواحين	٢٤
ذكر اختلاف محمد بن أبى الساج وإسحاق بن كنداجق والخطبة لخمارويه بالجزيرة	٢٦
ذكر الاختلاف بين خمارويه ومحمد بن أبى الساج والحرب بينهما	٢٧
ذكر الدعاء لخمارويه بطرسوس	٢٨
ذكر الفتنة بطرسوس	٢٨

الموضوع	الصفحة
ذكر زواج المعتضد بالله بابنة خمارويه بن أحمد بن طولون	٢٩
ذكر مقتل أبي الجيش خمارويه	٣٠
ذكر ولاية أبي العشائر جيش بن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وهو الثالث من الملوك الطولونية	٣١
ذكر عصيان دمشق على جيش ، وخلاف جنده وقتله	٣٢
ذكر ولاية أبي موسى هارون بن أبي الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون ، وهو الرابع من ملوك الدولة الطولونية	٣٣
ذكر انقراض الدولة الطولونية	٣٤
ذكر أخبار من ولى مصر بعد انقراض الدولة الطولونية وإلى قيام الدولة الإخشيدية من الأعمال وملخص ما وقع فى أيامهم من الحوادث	٣٧
ذكر إبراهيم الخليجى وما كان من أمره	٣٧
ذكر استيلاء حباسة على الإسكندرية	٣٩
ذكر وصول أبي القاسم بن المهدى إلى الديار المصرية واستيلائه على الإسكندرية والفيوم والأشمونين	٤٠
ذكر أخبار الدولة الإخشيدية وابتداء أمر من قام بها، وكيف كان سبب ملكه وقيامه ومن ملك بعده إلى أن انقرضت أيامهم	٤٤
ذكر مسير الإخشيد إلى الشام ووفاته وشىء من أخباره وسيرته	٤٨
ذكر ولاية أبي القاسم أنوجور	٤٩
ذكر قيام أبي نصر غَلْبُون بن سعيد المغربى وما كان من أمره	٥٠
ذكر وفاة الوزير أبي بكر بن الماذرائى وشىء من أخباره ومآثره	٥٢
ذكر وفاة أبي القاسم أنوجور وولاية أخيه أبي الحسن على بن الإخشيد	٥٣

الموضوع الصفحة

ذكر ولاية أبي المسك كافور الخصى الإخشيدى واستقلاله
بملك مصر دون شريك ولا منازع ٥٤
ذكر أخبار الدولة العبيدية التى انتسب ملوكها إلى الشرف وألحقوا
نسبهم بالحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ٦٣
ذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم ٦٦
ذكر أخبار أبى عبد الله الشيعى داعى المغرب وما كان من أمره ،
وكيف ظهر وما فتحه من بلاد المغرب ٧٧
ذكر انتقال أبى عبد الله الشيعى عن بنى سكتان
إلى بنى عصمة بتازرارت ٨٥
ذكر تغلب أبى عبد الله الشيعى على مدينة مِيلة ٩١
ذكر الحرب بين أبى عبد الله الشيعى وبين
أبى حوال محمد بن أبى العباسى ٩٢
ذكر تغلب أبى عبد الله الشيعى على مدينة سَطِيف ٩٣
ذكر خروج إبراهيم بن حنبش إلى بلد كتامة ٩٤
ذكر هرب زيادة الله إلى المشرق ٩٦
ذكر رجوع أبى عبد الله الشيعى إلى أفريقية ٩٧
ذكر خروج أبى عبد الله الشيعى إلى سجلماسة ٩٨
ذكر ابتداء الدولة العبيدية وأخبار المهدى عبيد الله
وما كان من أمره منذ خرج من الشام إلى أن
ملك البلاد وتسلم الأمر من أبى عبد الله الشيعى ١٠٠
ذكر رحيل عبيد الله من الشام ووصوله إلى سجلماسة ١٠٠
ذكر أخبار أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس وما كان من
أمرهما بعد قيام عبيد الله المهدى إلى أن قتلهما ١٠٦
ذكر أخبار من خالف على عُبَيْد الله وما كان من أمرهم ١١٠
ذكر بناء مدينة المهدية ١١١

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ذكر خروج أبي القاسم إلى بلاد المغرب وبنائه مدينة المسيلة ...	١١٢
ذكر وفاة عُبَيْد الله المهدى وشىء من أخباره	١١٣
ذكر بيعة القائم بأمر الله	١١٣
ذكر وفاة القائم بأمر الله وشىء من أخباره	١١٦
ذكر بيعة المنصور بنصر الله	١١٧
ذكر وفاة المنصور بنصر الله وشىء من أخباره	١١٨
ذكر بيعة المعز لدين الله	١١٩
ذكر خبر إرسال القائد جوهر الكاتب بالعساكر إلى الديار المصرية	١٢٢
ذكر خبر وصول جوهر القائد بالعساكر إلى الديار المصرية	١٢٢
ذكر إقامة الخطبة ، وضرب السكة بمصر للمعز لدين الله وما قيل فى الدعاء له على المنبر ، وما نقش على السكة	١٣١
ذكر خروج تبر الإخشيدى والقبض عليه	١٣٤
ذكر فتوح الشام	١٣٥
ذكر مقتل جعفر بن فلاح واستيلاء القرامطة على دمشق	١٣٦
ذكر خروج المعز لدين الله من بلاد الغرب إلى الديار المصرية ، وما رتبه ببلاد المغرب قبل مسيره	١٣٩
ذكر مكاتبة المعز لدين الله القَرْمطى ، وجواب القرمطى له ...	١٤٥
ذكر فتوح طرابلس الشام	١٥٠
ذكر وفاة المعز لدين الله وشىء من أخباره	١٥١
ذكر بيعة العزيز بالله	١٥٣
ذكر الحرب بين أفتكين التركى وعساكر العزيز بالله	١٥٤
ذكر حرب أفتكين وأسره	١٥٧
ذكر فتوح اللاذقية	١٥٨

الموضوع	الصفحة
ذكر فتح قِنّسرين وحمص	١٥٩
ذكر وفاة العزيز بالله وشيء من أخباره وأخبار وزيره يعقوب بن كلس ومن ولى بعده	١٦٣
ذكر أخبار الوزير يعقوب بن كلّس	١٦٥
ذكر بيعة الحاكم بأمر الله	١٦٧
ذكر القبض على الوزير عيسى بن نسطورس النصرانى وقتله ..	١٦٨
ذكر مخالفة منجوتكين بدمشق وحربه وأسره وسبب ذلك	١٦٩
ذكر الفتنة بين المشارقة والمغاربة ، وهرب ابن عمار وما كان من أمره	١٧١
ذكر قتل برجوان الخصى	١٧٤
ذكر ما فعله الحاكم بأمر الله وأمر به من الأمور الدالة على اضطراب عقله بعد أن استقل بالأمر بمفرده	١٧٦
ذكر بناء الجامع المعروف بجامع راشدة	١٧٦
ذكر بناء الجامع المعروف بالحاكم الذى هو بين باب النصر وباب الفتوح بالقاهرة	١٧٧
ذكر أبى ركوة وظهوره ، وما كان من أمره إلى أن قتل	١٨٠
ذكر خروج آل الجراح على الحاكم ومتابعتهم لأبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى وما كان من أمرهم	١٨٥
ذكر تفويض السفارة والوساطة لأحمد بن محمد القشورى وقتله ...	١٨٨
ذكر هدم كنائس الديار المصرية	١٩١
ذكر البيعة بولاية العهد لأبى القاسم عبد الرحيم	١٩٢
ذكر إحراق مصر وقتال أهلها	١٩٣
ذكر غيبة الحاكم بأمر الله وعدمه ، والسبب الذى نقل فى إعدامه ، وشيء من أخباره وسيرته غير ما تقدم	١٩٤

الموضوع	الصفحة
ذكر مولد الحاكم ومدة عمره وملكه وأولاده وكتابه ووسائطه وفضائه ونقش خاتمه	٢٠١
ذكر بيعة الظاهر لإعزاز دين الله	٢٠٢
ذكر مقتل الحسين بن دوّاس	٢٠٤
ذكر وفاة الظاهر لإعزاز دين الله على بن الحاكم بأمر الله وشىء من أخباره	٢٠٧
ذكر بيعة المستنصر بالله	٢٠٩
ذكر عود حلب إلى مِلْك مَلِك الديار المصرية	٢١٢
ذكر الوحشة الواقعة بين الوزير أبى القاسم الجرجرائى ، وأمير الجيوش أنوشتكين الدزبرى	٢١٢
ذكر ظهور سكين المشبه بالحاكم وقتله	٢١٣
ذكر وفاة الوزير صفى الدين أبى القاسم أحمد بن على الجرجرائى وشىء من أخباره	٢١٤
ذكر مقتل أبى سعيد التسترى وعزل الوزير وقتله ووزارة ابن الجرجرائى	٢١٦
ذكر القبض على الوزير أبى محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى وقتله ، وشىء من أخباره	٢٢١
ذكر الفتنة الواقعة التى أوجبت خراب الديار المصرية	٢٢٤
ذكر الوحشة الواقعة بين ناصر الدولة والأتراك	٢٢٧
ذكر الحرب بين ناصر الدولة والأتراك	٢٣٠
ذكر الصلح بين ناصر الدولة والأتراك	٢٣٠
ذكر الحرب بين ناصر الدولة وتاج الملوك شادى وما كان من أمر ناصر الدولة إلى أن قتل	٢٣١
ذكر الغلاء الكائن بالديار المصرية	٢٣٣

الموضوع	الصفحة
ذكر قدوم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مصر واستيلائه على الدولة	٢٣٤
ذكر هلاك عرب الصعيد وقتل كنز الدولة	٢٣٦
ذكر بناء باب زويله بالقاهرة	٢٣٨
ذكر وفاة أمير الجيوش بدر الجمالى وولاية ولده الأفضل	٢٣٩
ذكر وفاة المستنصر بالله وشىء من أخباره	٢٤٠
ذكر بيعة المستعلى بالله	٢٤٣
ذكر ما اتفق لنزار ومن معه	٢٤٥
ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدس	٢٤٦
ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس	٢٤٧
ذكر ملكهم مدينة أنطاكية	٢٤٨
ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم	٢٥٣
ذكر ملكهم معرة النعمان	٢٥٥
ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس	٢٥٦
ذكر ظفر المسلمين بالفرنج	٢٥٩
ذكر قتل كندفرى وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه الفرنج من البلاد وهى : حيفا وأرسوف وقيسارية والرها وسروج	٢٦٠
ذكر أخبار صنجيل الفرنجى وما كان منه فى حروبه وحصار طرابلس وألطوبان وملك انطرسوس	٢٦١
ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا	٢٦٣
ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت	٢٦٤
ذكر ملك الفرنج جبلة وبُلُنياس	٢٦٧
ذكر ملكهم مدينة صيدا	٢٦٨
ذكر استيلائهم على حصن الأثارب وحصن زردنا	٢٦٩

الموضوع	الصفحة
ذكر حصر مدينة صور وفتحها	٢٧٠
ذكر وفاة المستعلى بأحكام الله	٢٧٣
ذكر بيعة الآمر بأحكام الله	٢٧٤
ذكر إنشاء ديوان التحقيق	٢٧٥
ذكر حل الإقطاعات وتحويل السنة	٢٧٦
ذكر أخذ الفرما وهلاك بغدوين الفرنجى صاحب القدس	٢٧٧
ذكر نصب ثغر عيذاب	٢٧٨
ذكر مقتل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش بن أمير الجيوش بدر الجمالى وشىء من أخباره	٢٧٩
ذكر تفويض أمور الدولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائحى	٢٨٨
ذكر القبض على المأمون	٢٩١
ذكر أخبار أبى نجاح بن فنا النصرانى الراهب وقتله	٢٩٢
ذكر مقتل الآمر بأحكام الله وشىء من أخباره	٢٩٤
ذكر بيعة الحافظ لدين الله	٢٩٦
ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ وما كان من أمر أحمد إلى أن قُتل	٢٩٦
ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية	٢٩٨
ذكر الخُلف بين ابْنَىْ الحافظ لدين الله	٢٩٩
ذكر مقتل حسن بن الحافظ	٣٠٠
ذكر وزارة بهرام الأرمنى	٣٠٠
ذكر خروج بهرام من الوزارة ووزارة رضوان ابن الولخشى	٣٠٢
ذكر خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل	٣٠٤
ذكر وفاة بهرام الأرمنى	٣٠٦
ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشىء من أخباره	٣٠٧
ذكر بيعة الظافر بأعداء الله	٣١٠

الموضوع	الصفحة
ذكر قيام العادل بن السّلار ووزارته ومقتل ابن مصال	٣١١
ذكر ما فعله الفرنج بالفرما وما جهّزه العادل من الأسطول إلى بلادهم	٣١٣
ذكر مقتل العادل بن السّلار وسلطنة ربيبه عباس	٣١٤
ذكر مقتل الظافر بأعداء الله وأخويه	٣١٥
ذكر بيعة الفائز بنصر الله	٣١٨
ذكر خروج عباس من الوزارة وما آل إليه أمره	٣١٨
ذكر وزارة الصالح أبي الغارات طلائع بن رُزّيك	٣١٩
ذكر وفاة الفائز بنصر الله	٣٢٢
ذكر بيعة العاضد لدين الله	٣٢٢
ذكر مَقْتَل الملك الصالح طلائع بن رُزّيك ، وقيام ولده الملك العادل رُزّيك	٣٢٤
ذكر ظهور حسين بن نزار وقتله	٣٢٨
ذكر انقراض دولة بني رزيك	٣٢٨
ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها	٣٣٠
ذكر وزارة الضّرغام بن سوار	٣٣١
ذكر قدوم شاور من الشام وعَوْده إلى الوزارة ثانيا وقتل الضّرغام .	٣٣٢
ذكر غدر شاور بشيركوه	٣٣٤
ذكر عَوْد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية بالعساكر الشامية وانفصاله	٣٣٥
ذكر وصول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر	٣٣٩
ذكر قدوم أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ورحيل الفرنج عنها	٣٤١
ذكر مقتل شاور	٣٤٢

الموضوع	الصفحة
ذكر انقراض الدولة العُبَيْدية والخطبة للمستضىء بنور الله العباسى	٣٤٤
جامع أخبار الدولة العُبَيْدية ومدتها ومَنْ ملك من ملوكها	٣٤٦
ذكر أخبار الدولة الأيوبية	٣٥١
ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدين	٣٥١
ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه	٣٥٤
ذكر وزارة الملك المنصور أسد الدين شيركوه بالديار المصرية ووفاته	٣٥٦
ذكر أخبار الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك الأفضل نجم الدين أيوب ووزارته بالديار المصرية	٣٥٨
ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر زمام القصور وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدى وحرب السودان	٣٦٠
ذكر الحوادث فى الأيام الناصرية غير الفتوحات والغزوات	٣٦٢
ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب والد الملك الناصر إلى الديار المصرية	٣٦٢
ذكر إبطال الأذان بحىّ على خير العمل	٣٦٢
ذكر ماأنشأه الملك الناصر صلاح الدين بالقاهرة ومصر من المدارس والخوانق	٣٦٣
ذكر تفويض القضاء بالديار المصرية للقاضى صدر الدين بن درباس	٣٦٤
ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب	٣٦٥
ذكر عمارة قلعة الجبل والسور	٣٦٥
ذكر قتل جماعة من المصريين	٣٦٧
ذكر ما استولى عليه الملك الناصر من البلاد الإسلامية بنفسه وأتباعه	٣٧١

الموضوع	الصفحة
ذكر استيلائه على اليمن	٣٧٣
ذكر ملكه مدينة دمشق	٣٧٤
ذكر ملكه مدينة حمص وحماه	٣٧٥
ذكر حصره حلب وعوده منها وملكه قلعة حمص وبعلبك	٣٧٦
ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازى من الملك الناصر وحصره حلب ثانيا	٣٧٧
ذكر الحرب بين الملك الناصر وسيف الدين غازى وانهزام غازى	٣٧٨
ذكر ما ملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح بعد هذه الوقعة	٣٧٩
ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها	٣٨١
ذكر نهبه بلاد الإسماعيلية	٣٨١
ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية	٣٨١
ذكر ملكه مدينة سنجار	٣٨٢
ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا	٣٨٣
ذكر ملكه تل خالد وعين تاب	٣٨٤
ذكر ملكه حلب	٣٨٤
ذكر فتح الملك الناصر حارم	٣٨٥
ذكر حصار الموصل	٣٨٦
ذكر ملكه ميَّافَارِقين	٣٨٧
ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها	٣٨٨
ذكر غزوات الملك الناصر وما افتتحه من بلاد الفرنج	٣٩٠
ذكر غزوة بلاد الفرنج وفتح أيلة	٣٩١
ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها	٣٩١
ذكر وصول أسطول صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه	٣٩٢
ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها ، وانهزام عسكر وعوده	٣٩٣

الموضوع	الصفحة
ذكر وقعة مرج عيون وانهزام الفرنج وأسر ملوكهم	٣٩٤
ذكر هدم بيت الأحزان	٣٩٥
ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن	٣٩٦
ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبريه وبيسان ، وما كان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب	٣٩٦
ذكر الإغارة على الغور	٣٩٨
ذكر غزوة الكرك والشوبك وفتح طبريه ومجدل يابا ويافا	٣٩٨
ذكر فتح عكا ونابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة ومعليا والفولة والطور والشّقيف وغير ذلك	٤٠١
ذكر فتح تبنين وصيدا وصرفند وبيروت وجبيل	٤٠١
ذكر فتح عسقلان وما يجاورها	٤٠٢
ذكر فتح البيت المقدس	٤٠٣
ذكر رحيله ومحاصرة صور	٤٠٥
ذكر فتح هونين	٤٠٧
ذكر فتح حصن برزية	٤٠٨
ذكر فتح قلعة دَرْبَسَاك	٤٠٩
ذكر فتح قلعة بَغْراس	٤٠٩
ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية	٤١٠
ذكر فتح الكرك والشوبك وما يجاورهما	٤١٠
ذكر فتح قلعة صفد	٤١١
ذكر فتح كوكب	٤١١
ذكر فتح شقيف أرنوم	٤١٣
ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وما كان عليها من الوقائع	٤١٤

الموضوع	الصفحة
ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها	٤١٥
ذكر رحيل السلطان عن منزلته وتمكن الفرنج من حصار عكا	٤١٩
ذكر وصول العسكر المصرى فى البر والأسطول فى البحر	٤٢٠
ذكر خبر ملك الألمان وما كان من أمره إلى نهايته	٤٢١
ذكر الوقعة العادلية على عكا	٤٢٥
ذكر وصول الكندهرى إلى عكا نجدة للفرنج وما جدده من آلة الحصار	٤٢٦
ذكر ما كان من أمر الفرنج بعد وصول ابن ملك الألمان إلى عكا وما اتخذوه من آلات الحصار	٤٢٧
ذكر وصول ملك افرنسيس	٤٣٠
ذكر وصول ملك الإنكلتير	٤٣١
ذكر استيلاء الفرنج على عكا	٤٣٢
ذكر ما كان بعد أخذهم عكا	٤٣٤
ذكر هدم عسقلان	٤٣٤
ذكر وقوع الصلح والهدنة العامة بين المسلمين والفرنج	٤٣٦
ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	٤٣٧
ذكر من ملك الممالك التى كانت جارية فى ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى	٤٤٠
ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدين أبى الفتح عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	٤٤٢
ذكر استيلاء الفرنج على جبيل	٤٤٢
ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام والصلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة	٤٤٤
ذكر خروج الملك العزيز لقصد الشام ثانيا ورجوعه وقصد العادل والأفضل الديار المصرية وما تقرر من القواعد	٤٤٦
ذكر ملك الملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد	٤٤٨

الموضوع الصفحة

ذكر استيلاء الفرنج على بيروت ٤٥٣
ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن
وملك ولده شمس الملوك ٤٥٤
ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره ٤٥٥
ذكر سلطنة الملك المنصور محمد بن الملك العزيز بن
الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية . ٤٥٦
ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة
واستقراره فى تدبير دولة المنصور ٤٥٧
ذكر مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصار دمشق وعوده
عنها وخروجه عن الديار المصرية ٤٥٨

انتهى بحمد الله الجزء الثامن والعشرون ـ من تجزئة المطبوع ـ من كتاب نهاية الأرب ، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء التاسع والعشرون .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٧٩/١٩٩٢

ISBN 977- 01- 2945- 3

مركز تحقيق التراث

نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
٦٧٧ - ٧٣٣هـ

الجزء التاسع والعشرون

تحقيق
د. محمد ضياء الدين الريس

مراجعة
د. محمد مصطفى زيادة

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

أشرف على طبع هذا الجزء وتصحيحه
الأستاذ/ السيد حسن عرب
الباحث بالمركز

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

باسم الله ، والحمد لله ، وبعد :

فقد عهد إلىّ تحقيق هذا الجزء (التاسع والعشرين) من موسوعة « نهاية الأرب » للنُّوَيْرى (أحمد بن عبد الوهاب ـ المُتوفَّى سنة ٧٣٣ هـ) : الأديب المؤرخ ـ إعْدَاداً لنشره .

ولما شَرَعْتُ فى العمل ، لم أجِدْ فى أول الأمر غيرَ نسخةٍ مخطوطة واحدة لهذا الجزء ، هى النسخةُ التى أُخِذَتْ بالتصوير الشمسى عن الأصل المحفوظ بمكتبة « كُوْبِريلِّى » بالأستانة ، وهى موجودةٌ بدار الكتب المصرية ، وهى التى نَرْمِزُ إليها بحرف (ك) . فعند المراجعة تَبَيَّن لى أن هذه النسخة (ك) تحتوى على أخطاء عديدة ، كما أن هناك نقصاً فى بعض الكلمات أو العبارات . ولم يكن هناك سبيلٌ لمعرفة صواب هذه الأخطاء ، أو إكمال النقص ، إلا بالرجوع إلى المصادر الأخرى التى كَتَبَتْ عن هذا العصر ـ ولاسيما كتب المعاصرين للفَتْرَة ، أو من تلاهم ـ فرجَعْتُ إلى « مرآة الزمان » لسِبْط ابن الجَوْزِى وهو « أبو المُظَفَّر » ، الذى يشير إليه المؤلف وينقلُ عنه كثيراً فى المَتْن ، وكان مُعاصِراً للدولة الأيوبية ، كما رَجَعْتُ إلى « الذَّيْل على الرَّوْضَتَيْن » لأبى شَامَه المؤرخ المعروف ، وكان مُعاصِراً أيضاً ـ وان كان يتأخرُ فى الزمن قليلاً عن ابن الجَوْزِى ـ وإلى كتاب « الرَّوْضَتَيْن » أيضاً لنفْس المؤرخ ، وكذلك كتاب « مُفرِّج الكُروبِ » لابن وَاصِل ، وكتاب « السُّلوك » للمَقْرِيزى و « النجوم الزاهرة » لابن تَغْرِى بَرْدِى ، ثم كتب التاريخ والتَّراجم مثل : « الكامل » لابن الأثير و « وَفَيَات الأَعْيَان » لابن خِلِّكان ، و « حُسْن المُحاضَرة » للسُّيُوطى وهكذا .

ومع ذلك ، لما كان يُمكن أن نَعْتَبِرَ أن التحقيق قد تمَّ ، أو بلغَ الدرجةَ التى نشعر فيها بالثقة ، إلا إذا وُجِدتْ نُسخةٌ أخرى مخطوطة للأَصْل . وقد تم نقل صورةٍ شمسية عن نسخةٍ محفوظة بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية وتبين أن هذه النسخة بخط المؤلف « النويرى » نفسه ! فحينئذ وصل التحقيقُ إلى مرحلته النهائية . وهذه النسخةُ الثانيةُ نرمز إليها بحرف (ع) وبمراجعتها على النسخة (ك) اكتشفنا أن هذه ناقصة بعض الكلمات والعبارات ، بل ناقصةٌ بضع صفحات كاملة ، وذلك فى أحداث سنتى : ٦١٩ و ٦٢٠ هـ . ولما كانت النسخة (ع) هى بخط المؤلف فقد جعلناها الأصل المعتمد للتحقيق ، فهى أقدم وأثبت ، وجعلنا النسخة الأخرى (ك) مساعدة لها . ومن ثم أكملنا النقص الذى أشرنا إليه ، ونقلنا الصفحات من النسخة (ع) ، وساعدتنا هذه أيضاً على تصحيح كثير من الألفاظ ، لم يكن من اليسير الوصولُ إلى صَوابها بغيرها ، وإن كانت هذهَ النسخة من وجه آخر ، غيرَ حسنة الخط ، وتترك كلمات كثيرة بدون نقط ، فالأولى تفوقُها فى حسن الخط وظهوره ، كما وجدنا أن النسخة (ع) بدورها ناقصة بضع صفحات ، فعلى العموم كانت كل منهما مُكَمِّلَةً للأخرى . وبهما ، وبالمصادر السابقة وغيرها ، وصلنا إلى اكمال وتصويب المتْنِ إلى أقصى درجةٍ مُمْكِنَة .

وكان لابُدَّ من تنظيم المتْنِ ، وتقسيمه إلى فقرات ، وتحديد الجُمَل بالفواصل ، وضبط أسماء الأَعْلام والأماكن ، وغيرها من الكلمات التى تحتاج إلى الضَّبْط ، حتى تكون قراءة المتن سَهْلَة ، ويمكن الإفادة منها . وكان من الضرورى بعد ذلك ـ وهذه هى المَرحلةُ الثانية فى المهمة ـ إكمال المتْن بشرح ألفاظه ، والتعليق على الأحداث ، والمصْطَلَحات التَّاريخيّة ، وتحديد المواضع الجغْرافية ، والتعريف بالأَعْلام الواردة فيه بنُبَذٍ موجَزة ، حتى تتّضح معانى الوقائع ، وتظهر روح العصْر الذى حدثت فيه ، وتزيد الفائدة العلمية للكِتَاب .

وهذه الحِقْبَةُ التى يتناولها هذا الجزء من كتاب «النُّوَيرى» ـ تمتد من عام ٥٩٦ هـ : من بدء دخول «العادل» أبى بكر بن أيوب القاهرة ، لِيَبْدَأَ مُلْكَه ومُلْكَ أُسرته فيها ، ثم فى الأقطار المجاوِرة : فلسطين وسوريا ولبنان والعراق والجزيرة ، واليمن أيضاً ـ حتى آخر سنة ٦٥٨ هـ : أى بدء عهد الظاهر بيبرس .

فهى حقبة تبلغ أكثر من ستين عاماً وتشمل أحداثاً هامة من تاريخ مصر والشرق العربى ، فهى تَضُمُّ جزءاً من تاريخ الحروب الصَّلِيبِيَّةِ ، وتاريخ الدولة الأيُّوبيَّة فى مصر والشام والجزيرة منذ بدء عهد العادل ، ثم نهاية هذه الأسرة وقيام دولة المماليك ، وغزو التَّتار وموقعة عين جالوت ، وغير ذلك . هذا إلى الجوانب الأدبية والاجتماعية .

ونأمل أن نكون قد أدَّيْنَا مهمَتنا التى عُهِد إلينا بها على الوجه الذى يحقق أكبر فائدة . والعِصْمَةُ لله وحده ، وبالله تعالى التَّوفيق .

القاهرة صفر ١٣٨٣

يوليه ١٩٦٣ محمد ضياء الدين الريس

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أخبار السُّلْطَان الملك العادل
سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وسلطنته

كان دخول السلطان الملك العادل إلى القاهرة فى يوم السبت ، لاثنتىْ عشرة ليلةَ بقِيَتْ من شهر ربيع الآخر ، سنة سِتٍّ وتسعين وخَمسمائة ـ فى يوم خروج الملك الأَفضل[1] منها .

فاستبق رضاء الأمراء النَّاصِرِيّة[2] ، بإبقاء الخُطبة للملك المنصور بن

---

(١) هو الملك الأفضل (على نور الدين) الإبن الأكبر للسلطان صلاح الدين .
كان الاتفاق قد تم بينه وبين عمه العادل ـ بعد هزيمة الأفضل فى السابع من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ ـ على أن يسلم للعادل البلاد ويأخذ عنها بعض نواح فى المشرق ، فنُفِّذَ ذلك وخرج الأفضل من القاهرة ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر هذه السنة ـ كما هو فى المتن .

(٢) هم الأمراء الصلاحية ، أى أتباع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . وكانوا يؤيدون العادل ، واتفقوا معه على أن يتوجه إلى مصر ليكون هو الوصى على المنصور بن العزيز ـ وكان لم يبلغ العاشرة من عمره بعد ـ بدلا من الأفضل ، على أن يُسلَّم إليه الأمر بعدما يكبر ، وحلفوا على ذلك .

الملك العزيز. وأعاد قاضيَ القضاة: صدرَ الدين عبدالملك بن عيسى بن دَرْباس[١]، إلى القضاء ـ وكان الأفضل قد عزله واستَقْضَى زينَ الدِّين عليَّ بن يوسف[٢].

واستدعى الملكُ العادل ابنَه الملك الكامل من حرَّان[٣] إلى الديار المصرية، لِيستَنِيبَه بها. فسلَّم تلك الولاية لأخيه الملك الفائز، ووصل إلى دمشق، فى سادس عشر شعبان من السنة ـ ومعه شمس الدين، المعروف بقاضى دَارَا، وهو وزيرُه. وخرج من دمشق فى الثالث والعشرين من الشهر، ووصل إلى القاهرة لثمان بقين من شهر رمضان. فالْتَقَاهُ والدهُ وأنزله بالقصر. ثم ركب إليه بعد يومين، واستصحبه معه إلى الدار ـ وكان قد زَوَّجَه بابنة عمه الملك الناصر، فدخل بها.

---

(١) هو صدر الدين عبد الملك بن دَرْبَاس الكردى الشافعى. كان قاضى قضاة مصر فى عهد السلطان صلاح الدين، ولّاه صلاح الدين المنصب فى عام ٥٦٦ هـ بعد أن عزل رئيس قضاة الفاطميّين. كان الأفضل قد عزله. فكان من أول أعمال العادل إعادته إلى منصبه.
(مفرج الكروب: جـ ١ ـ ص ١٩٨
حسن المحاضرة: جـ ٢ ـ ص ٩٣)

(٢) هو زين الدين على بن يوسف بن عبد الله بن بُندار الدمشقى. تفقَّه ببغداد على والده وصار من كبار علماء الشافعية، وَوَلِىَ قضاء الديار المصرية فى عهد العزيز ثم الأفضل.
(حسن المحاضرة جـ ١ ـ ص ١٧٢)

(٣) حرَّان من بلاد المشرق، وهى مدينة مشهورة كانت قصبة ديار مُضَر، تقع فى الجزيرة أى شمال العراق.
(معجم البلدان جـ ٣ ـ ص ٢٤٢)

قال : وركب الملك العادل ـ فى يوم الاثنين ـ بالصَّنْجَق[١] السُّلْطانى . وأمر الخطباء بالخُطبة له ولولده : الملك الكامل بولاية العهد من بعده ـ بعد الخليفة[٢] ـ فخُطب لهما فى الحادى والعشرين من شوال ، سنة ست وتسعين وخمسمائة . وانقطعت خُطبة المنصور بن الملك العزيز ، وأولاد الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، فلم تَعُدْ إلى الآن . وانتقل مُلْكُ الديار المصرية إلى البيت العادِلى ، فكان فيهم إلى أن انقرضت الدولةُ الأيُّوبيَّة .

قال المؤرِّخ : ولم يقطع الملكُ العادل خُطبةَ الملك المنصور إلا بعد أن أحضر الفقهاء والقضاةَ ، واستفْتاهم : هل تجوز ولاية الصغير والنيابةُ عنه ؟ فقالوا : إن الولاية غيرُ صحيحة ، ولا تصح النيابة ـ لا سيما فى السلطنة ـ فإنه لاحَقَّ فيها للصغير . فأحضر الأمراء وخاطبهم فى اليمين له ، فأجابوه إلى ذلك ، وحَلَفُوا له . قال : وركب الملك الكامل فى يوم السبت بالصَّنْجَق السلطانى ـ على عادة الملوك .

قال : ولما وصل الملكُ العادل ، كان الصاحبُ : صفى الدين عبدالله ابن على بن شُكْر[٣] فى صُحْبَتِهِ ، فاستَوْزَرَهُ . وكان ـ على ما حُكى ـ قد استَحْلَف الملكَ العادلَ بالبيت المقدس ، أنه متى حصل له مُلْكُ الديار

---

(١) الصَّنْجَق أو السَّنْجَق : لفظ تركى معناه فى الأصل الرمح ، والمراد به هنا الراية التى تربط به . ج سناجق ، وهى رايات صُغْر صغار . وكانت العادة أن السلطان يركب فى المواكب زمن السلم بالسناجق ، أما فى الحرب فيركب بالأعلام .

(القلقشندى : جـ ٤ ـ ص ٨)

(٢) كان الخليفة فى بغداد إذ ذاك هو الخليفة « الناصر لدين الله : ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ » وهو ابن الخليفة « المستضيىء » الذى خطب له السلطان صلاح الدين فى أول الدولة .

(٣) كان صفى الدين المذكور عالما أديبا ، ويلقب بالدَّمِيرى ، نسبة إلى بلده « دَمِيره » بالقرب من موقع المنصورة ، وقد وصل إلى منصب الوزارة فى عهد العادل ، وجلس فى دار السلطنة فى حجرة القاضى الفاضل ونظر فى الدواوين . سيرد ذكره فى المتن فى سنة ٦٢١ .

المصرية يُمَكِّنه من المصريّين ، فحَلَف له على ذلك . فلما ولى السلطنة استوزره ، وَمكَّنَه .

ذِكْر الغلاء الكائن بالديّار المصرية في الدولة العادلية وهو الغلاء المشهور

قال المؤرخ : كان ابتداءُ هذا الغلاء من استقبال شوال ـ وقيل ذى القعدة ـ سنة ست وتسعين وخمسمائة ، إلى ذى القعدة سنة تسع وتسعين ، فكانت مدته ثلاث سنين وشهراً .

وذلك أن قَرار النيل فى سنة ست وتسعين كان مقداره ذراعان[١] ، وبلغ غايته إلى اثنى عشر ذراعاً[٢] وإحدى وعشرين إصبعاً . فصام الناس ثلاثةَ أيام ، قبل يوم التَّرْوِيَة[٣] ، واستَسْقَوْا ثلاثة أيام ، آخرها يوم العيد . ثم أخذ الماءُ فى النقص ، فاشتد الغلاء وامتد البلاء ، وهَلَكَ القوىّ ، فكيف الضَّعيف ! . قال العماد الأصفهانى : وبلغ سعر القمح عن كل إردب الكيل المصرى خمسة دنانير . واستقر القاعُ فى سنة سبع وتسعين على ذراعين ، وبلغ

---

(١) الموجود فى كل من النسختين (ك) و (ع) : «كان ذراعان» ، فأضفنا كلمة (مقدُاره) بين قوسين لتفادى الخطأ النحوى فى العبارة . على أن الأخطاء النحوية ترد غير قليل فى المتن ، وينبه إليها المحقق كلما وجدت .

(٢) كان يعتبر «وفاء» النيل إذا بلغ ارتفاع مياهه فى المقياس ستة عشر ذراعا . فإذا حصل ذلك أقيم الاحتفال بالوفاء وكسر خليج القاهرة ، وهو يوم مشهود . أما إذا نقص عن ذلك حصل الضرر بمقدار النقص وبدأ الظمأ أو القحط .

(انظر القلقشندى : جـ ٣ ـ ص ٣٠٠)

(٣) يوم التروية هو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة ، سمّى كذلك لأن الحجاج كانوا يتزودون فيه من الماء للقيام بشعائر الحج .

(انظر القاموس المحيط : مادة روى)

غايته خمسة عشر ذراعاً ونصف ذراع . فعَدِمَ الناسُ القوتَ ، وأكل بعضُهم بعضاً ، وأكلوا أولادهم والميْتَةَ . وخرج خلقٌ كثير من الديار المصرية إلى الشام والسواحل .

وحكى ابن جَلَب راغبٍ[1] فى تاريخ مصر : أنه نودى على دجاجة ، تُزُويدَ فيها إلى أن بلغت ألف درهم وَرِقاً . وبِيعَت بطيخة بفرس . قال : وكانت الدّجاجة تباع بالأوقية . وحكى ـ أيضاً ـ أن بعض الناس سمع صياح امرأة ، تفتر ثم تعاود الأنين والصراخ ! فتتبع الصوت ، حتى انتهى به إلى منزل وفيه امرأة سمينة ملقاة . وشاب يقطع من لحم فخذها . فلما راتهم قالت : لا تُعَارِضُوه فإنه ابْنِى ، وأنا قلت له يقطع من لحمى ، ويأكل ويطعمنى ، مما آلمنا من الجوع ! ولم يُسْمَعْ بمثل هذا .

ذكر وفاة القاضى الفاضل
وشىء من أخباره

هو القاضى الفاضل الأسعد محيى الدين ، أبو على عبد الرحيم ، بن القاضى الأشرف أبى الحسين على بن الحسن ، بن الحسين بن أحمد ، بن الفَرَج[2] بن أحمد ، اللَّخْمى ـ الكاتب . كانت وفاته فجأة فى ليلة الأربعاء ، السابع من شهر ربيع الآخر ، سنة ست وتسعين وخمسمائة . ومولده بعسقلان فى خامس عشر جمادى الآخرة ، سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

---

(١) هو تاج الدين محمد بن على بن يوسف ويعرف « بابن ميسر » صاحب « تاريخ مصر » وهو ينسب إلى أحد أجداده وهو « جلب راغب » وكانت وفاة المؤرخ سنة ٦٧٧ هـ . وسيذكر المؤلف فى المتن ترجمة لجده « يوسف » فى أحداث عام ٦٢٤ . ويقول إن أجداده كانوا من الأمراء فى عهد الدولة الفاطمية .

(٢) هكذا رسمه فى كل من النسختين : (ك) و (ع) ـ على أنه ورد فى مراجع أخرى « المفرج » .

وكان أبوه قاضى عَسْقَلان[١] ، وصاحب ديوانها . ونسبته إلى بَيْسان نسبة انتقال . وذلك أن قاضى عسقلان كان قاضىَ البلاد الشمالية من ساحل الشام ، وَبَيْسَانُ[٢] فى ولايته . وكان إذا خرج إليها قاضٍ لحقه من الوَخَم ما يوجب مرضه ، ومنهم من يموت . فقرر قاضى عسقلان على الشهود أن يخرج كلُّ واحد منهم إلى بيسان ثلاثة أشهر ، ويعود ، ويخرج غيره . فجاءت النَّوبةُ لحد القاضى الفاضل[٣] ، فمضى إليها وصح بها جسمه . فاختار الإقامة بها . فأجيب إلى ذلك وعمر بها أملاكاً ، فعُرِف بالبَيْسَانى .

ثم تقلبت بوالد القاضى الأحوال إلى أن ولى القضاء بعسقلان ، والنظر فى أموالها . وبقى إلى زمن الظافر[٤] ، فدخل إلى مصر لمُحَاقَقَة واليها[٥] بسبب كُنْدٍ كبيرٍ[٦] ، من الفرنج كان الوالى دَاجَى عليه وأطلقه . فانتصر

---

(١) مدينة مشهورة من أعمال فلسطين ، بين غزة وبيت جبرين
(معجم البلدان : جـ ٦ ـ ص ١٧٤)

(٢) مدينة بوادى الأردن « الغَوْر » وهى بين حوران وفلسطين .
(المصدر السابق : جـ ٢ ـ ص ٣٣١)

(٣) فى النسخة (ع) : لحد ـ بالحاء المهملة ـ كما أثبتناها هنا ، وفى النسخة (ك) : لجد ـ بالجيم المعجمة . وفى كلتا النسختين : القاضى الفاضل . وظاهر السياق أن الحديث عن والده « القاضى الأشرف » .

(٤) هو الخليفة الفاطمى « الظافر بأمر الله » أبو منصور إسماعيل ، بن الخليفة « الحافظ » صاحب مصر . كانت مدة خلافة الظافر هى الفترة (٥٤٤ ـ ٥٤٩) . وقد استولى الصليبيون على مدينة « عسقلان » فى عام ٥٤٨ فيلزم أن يكون دخول الفاضل ووالده إلى مصر قبل ذلك الحادث .

(٥) الضمير يعود إلى عسقلان : أى والى عسقلان .

(٦) هو نفس لقب « كونت » الفرنسى .

بعض الأمراء للوالى ونصروه ، فخانق الأسعد[1] . وصودر ، ووقع التحامل عليه ، إلى أن لم يبق له شيء .

وخرج ولدُه الفاضل إلى ثغر الإسكندرية ، واجتمع بابن حديد ـ القاضى والناظر بها ـ وَعرَّفه بوالده فعرفه بالسُّمْعَة ، فاستكتبه ابن حديد ، وأطلق له مَعْلُوماً . وبقيت كتبه ترد إلى مجلس الخلافة بخط الفاضل وهى مشحونةٌ بالبلاغة . فكشف عن ذلك ابنُ الخَلاَّل والجَلِيسُ بن الحَبَّاب ـ وكانا فى ديوان المكاتبات ـ فحسداه على فضيلته ، وعلما أنه يتقدم ، فقالا للظافر عنه : انه قَصَّرَ فى المكاتبة .

وكان صاحب ديوان المجلس ـ الأثير بن بَنَان ـ يحكى أنه دخل على الظافر ، فأمره أن يكتب لابن حديد بقطع يد كاتبه ، بسبب أنه جعل بين السطرين الأولين مقدار شبر ، وهذا سوء أدب ، فقال الأثير للظافر : يا أمير المؤمنين ، تأمر بإحضار الكتب ، فأُحْضِرَتْ . فلما قرأها الأثير عَلِمَ فضلَ الفاضل ، فقال له : هذا الكاتب لم يحصل منه سوء أدب ، وإنما حُسِد على بلاغته ، فعُمِل على أذاه . فقال : اكتبْ لابن حديد يُسَيِّره إلينا ،

---

(١) كذا فى كل من النسختين : (ع) و (ك) . وهو خطأ ظاهر لأن الوالى إنما خانق الأشرف ، أى والد الفاضل ، فيلزم تصحيح العبارة بوضع كلمة الأشرف بدل الأسعد .

(انظر النزاع بين والى عسقلان والقاضى الأشرف فى وفيات الأعيان عند ترجمة يوسف الخلال)

لستخدَمه . فصار من كتاب الدَّرْج[١] ، فى أواخر الدولة العُبَيْدِيَّة[٢] .

وأما اتصاله بملوك الدولة الأيوبية فحُكى عن الأثير بن بنان أنه قال : لما ولى أسد الدين شيركوه اختص به ابن الصقيل البلنسى[٣] . وكنت بالقصر أنا والفاضل ، فدخل علينا ابن الصقيل وقال : كنت البارحة عند السلطان ، وذكركما وَتوعَّدكما بالقتل . ثم خرج من عندنا . فلم يكن بأسرع من أن طَلَبَنَا أسدُ الدين من العاضد ، فأرسَلَنَا إليه .

قال الأثير : فلما دخلنا عليه وجدْنا الأمراء عنده . فسلمت سلاماً سمعه من حضر ، فلم يرد علينا ! فقلت له : ولم لا ترد السلام ؟ فالتفت إلىّ ، وقال : لستما عندى من أهل السلام ! لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : السلام تحيةٌ لمِلَّتنا ، وأمانٌ لذِمَّتنا . ولا تحية لكما عندى ! فوقفنا ، فقلت : لا قدرة لى على القيام ، فقال أجْثُ ، فجَثَوْت . ثم قلت ولم لا أتربع ؟ ففسح لى فى ذلك . قلت : وصاحبى . قال : وصاحبك .

---

(١) كان كُتَّاب ديوان الإنشاء بمصر يتكونون من طبقتين :
(ا) الطبقة الأولى : كُتَّاب الدَّسْت ، وهم الذين يجلسون مع كاتبُ السر بمجلس السلطان ، ويقرءون الأوراق على السلطان ويوقعون عليها . وسموا كذلك إضافة إلى دَسْت السلطان وهو مرتبة جلوسه .
(ب) والطبقة الثانية : كتاب الدَّرْج ، وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتب الدَّسْت . وسمو كذلك لكتابتهم فى دُرُوج الورق . والدَّرْج هو الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، وكان عادة عشرين وصلا .

(صبح الأعشى : جـ ١ ـ ص ١٣٧ و ١٣٨)

(٢) أى الدولة الفاطمية ، نسبة إلى عبيد الله المهدى أول خلفائها .

(٣) كذا فى النسخة (ع) ، وفى النسخة (ك) : الصقيل البلسنى . ولم يعثر المحقق على هذا الاسم فى أى مرجع آخر ، ولم يرد ذكره بين كتاب الدولة . ونرجح أن يكون الصواب : ابن الخلال الموفَّق ، لأنه كان صاحب ديوان الإنشاء وكانت وفاته سنة ٥٦٦ هـ . وهذا الحادث وقع فى سنة ٥٦٤ فى وزارة أسد الدين شيركوه

ثم التفت إليه دونى ، وقال له : تكتب للفرنج على لسان شاور ، وتقول فى حقنا ما قلت ، وتحثهم على قتالنا ! والله لأقتلنك شرّ قِتْلة ، ولأسُلّن لسانَك ، ولأقطعنّ يدك ورجلك ، من خلاف ! ! فقلت : أدام الله سلطان مولانا . هذا القاضى إذا عُدِم ، لا يوجد مثلهُ فى جميع البلاد . فالتفت إلىّ ، وقال : نُجرِّب قولك . وقال له : أُكتب كتابين : أحدهما للمولى نور الدين بن زَنْكى ، يُقرأ على منبر دمشق يهنّيه بالفتوح ، وكتاب يُقرأ على منبر القاهرة . واشتغل فى الحديث . فسارع الفاضل فى نَجَازِ [1] الكتابين ، وجعل أسد الدين يُسَارِقُه النظر ، والفاضل يكتب كأنه يكتب من حفظه . وفرغ منهما إلى أسرع وقت . فقال أسد الدين : أقرأهما ، فقرأهما . قال الأثير : والله لو حَسُنَ الرقصُ فى ذلك المكان ، لرَقَصْت ! .

فعند ذلك التفت إلىّ أسدُ الدين ، وقال : يا قاضى ، جزاك الله خيراً فى حقه . عندنا كَتَبَةٌ بالشام نأمرهم بالشىء ، فيمضون ويقيمون اليوم واليومين ، ولا يأتون به على الغرض . وهذا قلنا له كلمتين ، كتب هذه الكتب التى لا نظير لها . وأقمنا عنده إلى صلاة المغرب ، فقام للصلاة . فقال لى : تقدمْ . فقت : هذا أفضل منى ، لأنى توليت المُكُوس [2] ، وهذا لم يَلِ شيئاً منها . فتقدم الفاضل وصلّى . واتصل به . هذا ما نُقِل عن الأثير بن بنان .

---

(١) كذا فى النسخة (ع) . وفى القاموس : « نَجّز حاجتَه : قضاها ، كأنجزها » .

(٢) هى الضرائب التى استحدثت فوق الضرائب الشرعيّة : الخراج والجزية . كان أول من فرضها بمصر أحمد ابن المدبر الذى كان والى الخراج قبل عهد ابن طولون . وكانت تعتبر دائما أنها غير شرعية .
(انظر المقريزى : الخطط جـ ١ ـ ص ١٠٣)

وقيل : إنه لما اتصل بخدمة الملك الناصر صلاح الدين ، وأن الأثير كان يكتبُ بين يديه قبله ، فاشتكى من بُطْئِه فى المكاتبات ، فقيل له : إن الأسعد البَيْسَانى لم يكن فى الكتاب أرشقَ منه . فاستدعاه وأمره بكتاب ، فكتب بين يديه وبالغ فيه ، وأسرع فى نَجَازِه وقرأه عليه . فعظم عند الملك الناصر ، ونعته بالقاضى الفاضل . وكان له شعر حسن .

وقيل : إن أول اتصال الفاضل بالدولة العُبَيْدِيّة فى أيام العادل بن الصالح ابن رُزِّيك[1] . وأنه استخدم فى ديوان الجيوش ، فأقام فيه مدة . فلما كانت دولة شاور الثانية ، نقله إلى ديوان المكاتبات شريكاً للمُوَفَّق بن الخَلَّال . فلم يزل إلى أيام أسد الدين ، فاتفق له ما ذكرناه .

ولما استقرّ الملك الناصر فى المُلْك ، علت منزلته عنده ، واختص به وقرب منه ، وتمكن فى دولته . قال : ومن سعادة الفاضل أنه مات قبل مُلْك العادل ، لأنه كان بينهما شَحْنَاء باطنة . ولما مات ، صلىّ عليه الملك الأفضل . ودُفن بسفح المقطم ـ رحمه الله . وقد ذكرنا من كلامه فى باب كتابة الإنشاء ما يدل على تمكنه وفضله .

---

(١) تولى ابن رزيك الوزارة فى أواخر الدولة الفاطمية ، ما بين سنتى : (٥٥٦ ـ ٥٥٨) أى فى عهد الخليفة « العاضد » (٥٥٥ ـ ٥٦٧) .

ذكر هذه الرواية أيضا « عمارة اليمنى » فى كتابه « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » ص ٥٣ حيث قال إن الوزير العادل بن الصالح رزيك هو الذى استدعى القاضى الفاضل من الإسكندرية واستخدمه فى ديوان الجيش . وقال المقريزى فى ترجمة الفاضل إنه قدم القاهرة وخدم الموفق بن الخلال أولا ، ثم ذهب إلى الإسكندرية واتصل بابن حديد ، وبقى هناك حتى استدعاه العادل بن رزيك واستخدمه فى ديوان الجيش .

(المقريزى : الخطط جـ ٤ ـ ص ١٩٧)

واستهلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ذكر الخلف الواقع بين الأمراء الصّلاحِيّة [١] والسلطان الملك العادل

قال المؤرخ : كان ابتداء فساد الحال بينهم فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وسبب ذلك أن الملك العادل لما ملك الدّيار المصرية أقطع الإقطاعات المخلولة عن الأمراء المنصرفين عن الخدمة ، وحاسب المستمرين حساباً شديداً ، فساءت ظنونهم وتغيرت قلوبهم ، وفسدت نياتهم .

وكان فارس الدين ميمون القَصْرِى [٢] مقيماً بنابلس ، فلما بلغه إسقاط خطبة الملك المنصور بن العزيز ، واستقلال الملك العادل بالملك ـ عظم ذلك عليه ونفر منه ، وأنكره . وكتب إلى الملك العادل يقول : «إنا إنما دخلنا فى طاعتك ، ونصرناك على موالينا : أولاد الملك الناصر ، مراعاةً للملك العزيز ، وخوفاً أن يتطرق إلى ولده ضرر ويزول عنه ملكه ، ولابد أن تعيده إلى حاله . وإن لم ترجعْ عما فعلت ، كان ذلك سبب فساد قلوب الجند ، ودخول الوَهَن على الدولة» . فغالطه العادل فى الجواب .

فراسله ميمون ثانياً يقول إنا كنا حَلَفْنَا على قاعدة ، فإن كانت تغيرت فلا يسعنا المُقَام بعد ذلك بهذه الدار ، وأنا أسألُ أن أُعطَى دُسْتوراً [٣] ليقوم

---

(١) هم الأمراء الناصرية الذين سبقت الإشارة إليهم فى المتن .

(٢) كان من زعماء الأمراء الصلاحية .

(٣) أى إذناً ليذهب حيث يشاء .

عند الله وعند الناس عُذْرى ، فأرسل إليه الملك العادل ، يقول : لم أدخل فى هذا الأمر إلا بعد أن رضى به الجماعة . فإن كرهت مجاورتى فصر إلى أَرْزَن الروم[١] ، وتزوج بصاحبتها مَامَا[٢] خاتون ، فإنها أرسلت إلىّ وطلبت منى من أُنفِذُه إليها .

وكان «ميمون» قد كاتب الأمراء الصَّلاَحِيَّة ، فأجابوه : «إنا قد افتُضِحنا بين الناس بأننا نقيم فى كل يوم مَلِكاً ، ونعزل آخر . ثم إلى من نسلم هذا الأمر ؟ أما الملك الأفضل فغير أهل ، وغيره من إخوته فغير عظيم فى الأنفس . والملك الظاهر بعيد عنا ، ولا يمكنه أن يترك بلاده ويصير إلينا .

قال : واتفق ورود رُسُل الملك الظاهر ـ صاحب حلب ـ إلى عمه العادل ، فى شهر ربيع الآخر من السنة ، وهما : نظام الدين كاتبه ، وعَلَم الدين قَيْصَر الصَّلاَحى . فلما وصلا إلى بِلْبِيس ، أرسل العادل إليهما أن لا يدخلا القاهرة . وأن يذكرا رسالتهما لقاضى بلبيس يبلغها عنهما ، وإن لم يفعلا فيرجعا إلى صاحبهما .

فعادا إلى الملك الظاهر ، واجتمعا بمَيْمُون القَصْرِى فى عودهما ، ورغباه فى الخدمة الظاهرية . فمضى إلى صَرْخَد[٣] وبها الملك الظافر أخو الأفضل . ولحق بميمون جماعة من الصلاحية .

---

(١) بلدة من بلاد أرْمينية ، قال ياقوت عنها فى وقته : أهلها أرمن . ولها سلطان مستقل وولاية ونواح كثيرة الخيرات .

(معجم البلدان : جـ ١ ـ ص ١٩٠)

(٢) كذا فى (ع) . وفى (ك) : واما .

(٣) بالفتح ثم بالسكون . بلد ملاصق لبلاد حوران ، من أعمال دمشق . وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة .

واعتزل عنه فخر الدين جَهَارَكْس [١] فى قلاعه ـ وكان معه بانْيَاس [٢] وتِبْنِين [٣] وَشِقيف أَرْنُون [٤] ووافقه على الاعتزال زين الدين قَرَاجا ، وأظهر الاعتزال عن الفريقين . وباطنهما مع الملك العادل .

قال : ولما وصل ميمون إلى صَرْخَد ، كاتب الأفضل والظاهر ودعاهما إليه . وأنفذ إلى الملك الظاهر فخر الدين الطُّنْبا الجحاف [٥] فلما وصل إليه ، قوى عزم الملك الظاهر على الخروج . فراسل ميمون ، وأخذ عليهُ وعلى من معه من الأمراء العهود والأَيْمان .

---

(١) كان من زعماء الصلاحية أو الناصرية ، بل كان أجلهم وأمثلهم فى عهد الملك العزيز بمصر ، حيث عين أستاد داره . وجِهَاركس بكسر الجيم ، وقد تقرأ بالفتح . وهو لفظ أعجمى معناه : أربعة أنفس .
(انظر وفيات الأعيان : جـ ١ ـ ص ٣٣١)

(٢) مدينة من جُند دمشق ، على مرحلة ونصف منها من جهة الغرب ، وهى فى لِحف جبل الثلج ، وبها قلعة الصُّبَيْبه ، وهى من أجل القلاع وأمنعها .
(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ١٠٤)

(٣) بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلد بانياس ، بين دمشق وصور .
(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ص ٣٦٤)

(٤) قلعة حصينة فى كهف من الجبل قرب بانياس . من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل . والشقيف كالكهف ، أضيف إلى أرنون وهو اسم رجل .
(معجم البلدان : جـ ٥ ـ ٢٨٤)

(٥) كذا فى كلتا النسختين (ع) و (ك) . ولم يعثر المحقق على هذا الاسم فى أى مرجع آخر ولم نجد له تعريفا . ونفترض أنه تحريف لكلمة « الهيجاوى » نسبة إلى أبى الهيجاء ، الذى كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية .

ثم قَدِم عليه أخوه الأفضل فى تاسع جمادى الأولى ، وسارا إلى أَفَاميه[١] ، وبها قَرَاقُوش ـ مملوك شمس الدين بن المُقَدَّم[٢] ـ فأغلق الأبوابَ دونهما ، وامتنع من تسليمها . فضرب الظاهرُ ابنَ المُقَدَّم[٣] تحت القلعة ضرباً مُوجعاً ، بحيث يراه مملوكه قَرَاقُوش ، فلم يكترث لذلك . وراسله ابن المُقَدَّم فى تسليمها ، فامتنع كل الامتناع . فلما أيس الظاهر منه أرسل ابنَ المقدم إلى حَلَب ، وأمر باعتقاله بها .

وسارا بعد ذلك إلى بعلبك لقصد دمشق ، وسار إليهما ميمون القَصْرى ومن معه والملك الظافر ، واجتمعوا بمكان يعرف بالزُّرَّاعة[٤] . وتشاوروا على قصد دمشق ، وبها يومئذ الملك المعظم عيسى بن العادل وهو صغير ، والقَيِّم بأمره فلكُ الدين سليمان بن شروة بن جلدك ـ وهو أخو العادل لأمه ـ ومن الأمراء الأكابر عز الدينّ أسامة[٥] . فساروا بأجمعهم إلى دمشق ، وحاصروها فى رابع عشر ذى القعدة ، سنة سبع وتسعين ، واشتد الحصار .

---

(١) مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكوره من كور حمص . ويسميها بعضهم « فاميه » بغير همزة . (معجم البلدان : جـ ١ ـ ٢٩٨) .

(٢) كان من كبار الأمراء الصلاحية (وهو شمس الدين محمد بن عبد الملك) المعروف بابن المقدّم ، وهو الذى تولى تربية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، ثم سلّم دمشق للسلطان صلاح الدين ، فأعطاه صلاح الدين بعلبك وما حولها ، فظلت بيد أسرته . وقُتل شمس الدين بعرفات بمكة سنة ٥٨٣ هـ . (الكامل لابن الأثير : جـ ١٢ ـ ص ٢٢٨ و ٢٢٩)

(٣) الذى ضُرِب هو ابن الأمير شمس الدين المتقدم ذكره ، واسمه شمس الدين أيضا « ابن المقدم » .

(٤) اسم لعدة مواضع بالشام ، من فلسطين والأردن . والمقصود هنا زراعة الضحاك التى تقع شرق جوبر ، وهى قرية بالغوطة من دمشق .

(معجم البلدان : جـ ٤ ـ ٣٨١ و جـ ٣ : ١٥٨)

(٥) ورد هذا الاسم فى النسختين (ع) و (ك) دائما على أنه « سامه » . ولكن يلاحظ أن محقق السلوك ، وكذلك محقق النجوم الزاهرة اختارا أن يثبتاه : « أسامه » .

قال : ولما اتصل بالملك العادل خروج الظاهر من حلب ، خرج من القاهرة فى شهر رمضان من السنة . وجَدَّ السيرَ إلى أن نزل على نابلس ، وجعل يُعْمِل الحيل والمكايد بين الظاهر والأفضل ، وإفساد قلوب الأمراء الذين مع الظاهر . وأرغب الملك الظاهر أنه إن فارق أخاه الأفضل يملكه قطعة من بلاد المشرق ، التى بيد العادل .

وكاتب الظاهر فخر الدين جَهَارَكْس ، وزين الدين قَرَاجَا ، وأرغبهما فى الانضمام إليه . فوقع الاتفاق معهما ـ بعد مُراجعة ـ أن الأفضل يسلم لزين الدين قَراجَا صَرْخَد وعشرة آلاف دينار ، وللأمير فخرالدين جَهَارَكْس عشرين ألف دينار . واستقرت القاعدة على ذلك . فلما تسلما ذلك وصلا إلى الخدمة الظاهرية ، واجتمعا بالأفضل والظاهر .

ثم شرعا يستوقفان الأمراء عن حصار دمشق [1] . فاتصل ذلك بالملكين فهرب جَهَارَكْس وقَراجَا وصار إلى بانْيَاس ، فراسلهما الظاهر وقَبَّحَ فِعْلَهما . فأعادا الجواب : إنا قد استشعرنا الخوف بسبب ما نُسب الينا . ونحن على الطاعة ومتى فُتحت دمشق كنا فى خدمتكما . وجَدَّ الظاهرُ فى حصار دمشق إلى أن نزل وقاتل بنفسه ، وجرح فى رجله بسهم . ثم هرب الطُّنْبَا الهَيْجَاوى من عسكر الظاهر وتلاه علاء الدين شقير ، ودخلا دمشق . ودخل معهما

(١) أى أنهما رجعا عن الاتفاق الذى عقداه مع الظاهر والأفضل .

جماعة من المفاردة[١] فانحَلَّ لذلك عزم الظاهر ، ورجع عن دمشق إلى بلاده وصحبه الملك الأفضل .

وقيل : بل كان سبب الرجوع عن دمشق أن الاتفاق كان قد حصل بين الأخوين : الأفضل والظاهر ، على أنه إذا فتحت دمشق كانت للأفضل . فإذا استقر بها ، سار هو والظاهر إلى مصر ، وقاتلا العادل ، فإذا حصلت مصر لهما تكون حينئذ للأفضل ، ودمشق للظاهر . فلما قوى الحصار على دمشق ولم يبق إلا فتحها ، حسد الظاهر أخاه الأفضل عليها ، وقال آخذها لنفسى . فلاطفه الأفضل وسأل أن ينعم بها عليه ، فامتنع ، وقال : إن فتحت تكون لى دونك . فلما أَيِسَ منه الأفضل ، خرج من ساعته واجتمع بالأمراء ، وقال : إن كنتم خرجتم إلى فقد أذنت لكم فى الرجوع إلى العادل ، وإن كنتم خرجتم إلى أخى الظاهر فشأنكم وإياه . وكتب فى الوقت إلى عمه الملك العادل ، وهو يطلب منه سُمَيْسَاطَ[٢] وسَرُوج[٣] ورأس العَيْن[٤] ، فأعطاه ذلك ، وحلف عليه . فلما اتصل ذلك بالظاهر كتب أيضاً

---

(١) المفاردة ، بالفاء : فئة من الجيش ، وهم المماليك الخواص للسلطان أو الملك . سموا كذلك لأنهم يأخذون مرتباتهم من الديوان المُفْرَد . وهو ديوان خاص كان موجودا منذ عهد الفاطميين . وهم يقابلون الفئة الأخرى من الجيش ، أى الجنود النظاميين الذين يتناولون مرتباتهم من « ديوان الجيش » والذين كانوا يسمون « الحَلْقة » .

(انظر تعليق زيادة فى السلوك : جـ ١ ـ ص ١٢٢

والقلقشندى : جـ ٤ ـ ص ١٥ و جـ ٣ ـ ص ٤٥٧)

(٢) مدينة على شاطىء الفرات فى طرف بلاد الروم ، تقع على غربى الفرات . ولها قلعة ، يسكنها الأرمن
(معجم البلدان : جـ ٥ ـ ص ١٣٨)

(٣) بلدة قريبة من حَرَّان . من ديار مضر .

(معجم البلدان : جـ ٥ ـ ص ٧٧)

(٤) واسمها الأصلى : رأس عين . مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة . بين حران ونصيبين ودنيسر . وفى رأس عين عيون كثيرة صافية تجتمع كلها فى موضع فتصير نهر الخابور .

(معجم البلدان : جـ ٤ ـ ٢٠٦)

إلى عمه العادل ، يطلب منه مَنْبِج[١] وأَفَامْية[٢] وكَفْر طَاب[٣] ، فأعطاه ذلك . وارتحلا عن دمشق .

فبقى الأفضل بسُمَيْسَاط ، إلى أن مات .

وعاد الظاهر إلى حلب . وصحبه ميمون القَصْرى . فأقطعه الظاهر إقطاعات عظيمة . وهى : أعْزَاز[٤] وقلعتها ، والخُوار[٥] وبلدها ، ونهر الجَوْز[٦] وبلده ، وجِسر[٧] الحديد وبلدها ، وأماكن متفرقة ، وأكرمه إكراماً تاماً . وبقى فى خدمته ، إلى أن مات فى سنة عشر وستمائة . وسار معه أيضاً سَرَا سُنْقُر والفارس البَكِّى ، وجماعة الصَّلاحِيَّة ، وأقطعهم الإقطاعات الحسنة .

---

(١) مدينة كبيرة واسعة ، ذات خيرات كثيرة فى فضاء متسع من الأرض ، بينها وبين الفرات يوم واحد ، وبينها وبين حلب يومان (أو عشرة فراسخ) . وكانت مدينة إقليم (العواصم) فى عهد الخليفة هارون الرشيد .
(معجم البلدان : جـ ٨ ـ ١٦٩)

(٢) سبق ذكرها .

(٣) بلدة بين المعرة وحلب . تقع فى برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار فى الصهاريج .
(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ٢٦٥)

(٤) وهى أيضا (عزاز) بفتح العين : بلدة صغيرة شمالى حلب ، بينهما يوم (٥ فراسخ) فيها قلعة ، ولها رستاق (ضيعة) . وهى طيبة الهواء عذبة الماء .
(معجم البلدان : جـ ٦ ـ ١٦٨)

(٥) لم نجد هذا الاسم فى المعجم . ولكن واضح أنه موضع قريب من عزاز ونهر الجوز . وهذه الأماكن ، فيما يجاور حلب

(٦) ناحية ذات قرى وبساتين ومياه ، بين حلب والبيرة التى على الفرات .
(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ١٦٨)

(٧) بلدة على نهر حماه (العاصى) فى شمال مجراه قريبا من إنطاكية (وحلب) .
(سلوك : جـ ١ ـ ص ١٦٠)

وكان رحيلهم عن دمشق فى ذى الحجة ، سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وسار الملك العادل ودخل دمشق . واصطلح مع الملك المنصور صاحب حماه . وتزوج العادل ابنته .

ذكر اتفاق الملوك الأيوبية
وما استقر لكل منهم من الممالك

قال المؤرخ : ثم استقرت القاعدة بين الملوك ، فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة على أن يكون للملك العادل الديار المصرية ، ودمشق والسواحل وبيت المقدس ، وجميع ما هو فى يده ويد أولاده ببلاد الشرق .

وأن يكون للملك الظاهر حلب وما معها . وأن يكون للملك المنصور ـ ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ حَمَاه وأعمالها ، والمَعَرَّة وَسلَمِيّه[1] وَبارِين[2] .

وأن يكون للملك المجاهد أسد الدين شِيركوه بن محمد بن شيركوه

---

(١) أصل ضبطها أنها : بفتح أولها وثانيها ، ثم سكون الميم وياء بعدها خفيفة (سَلَمِيَّة) ولكن أهل الشام ينطقونها سَلَمِيَّة ـ بكسر الميم وبالياء المشددة . وهى بليدة فى ناحية البرية من أعمال حَمَاه ، بينها مسيرة يومين . وكانت تعد من أعمال حمص .

(معجم البلدان : جـ ٥ ـ ١١٢ ـ ١١٣)

(٢) هذا هو نطقها الصحيح . بالألف وراء مكسورة ، ولكن العامة تقول : بعرين بالعين . وهى مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٣٤ ـ ٣٥)

حِمْص ، والرَّحْبَة[١] ، وتَدمُر[٢] . وأن يكونَ للملك الأمجد ، بن فَرُّخشاه ابن شاهِنْشاه بن أيوب ، بعلبك وأعمالها .

وأن يكون للملك الأفضل ، بن الملك الناصر ، سُمَيْساط[٣] وبلادها ، لا غير .

وأن يقْطَع الملكُ الظاهر خُبْزَ[٤] عماد الدين المَشْطُوب[٥] ولا يستخدِمُه . فقَطَع خُبْزَه ، فصار إلى الملك العادل فلم يستخدمْه ، وقال له : تخدم بعض أولادى . فقصد الملك الأوحد ، فلم يستخدمه . فاستخدمه الملك الأشرف ، وندبه لحصار ماردِين ، وحلف له على أربعمائة فارس ، إذا فتحت . فسار ابن المشطوب إليها وحاصرها ، فأرسل صاحبها إلى الملك الأشرف خمسة آلاف دينار ، فتركها .

نعود إلى أخبار الملك العادل ، فى أثناء هذه المدة التى قدمنا ذكرها ، والحوادث التى وقعت فى خلالها .

---

(١) اسم لعدة أماكن ، ولكن المقصود هنا رحبة (مالك) وهى سميت بذلك نسبة إلى مالك بن طوق التغلبى الذى أحدثها فى عهد الخليفة المأمون ولم يكن لها أثر قديم . وهى تقع على شاطىء الفرات أسفل من (قرقيسيا) بينها وبين حلب خمسة أيام . وبينها وبين دمشق ثمانية أيام .
(معجم البلدان : جـ ٤ ـ ٢٣٦)

(٢) مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام . بينها وبين حلب (٥ أيام) .
(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٣٦٩)

(٣) سبق ذكرها .

(٤) كان يطلق على الإقطاع الذى يُعطَى للجند ، أو إيراده . لأن الجندى أو الأمير كان يعيش عليه .

(٥) هو عماد الدين ، بن الأمير سيف الدين الهكّارى الكردى ، الذى لقب بالمشطوب لشطبة (أى جرحة ظاهرة) كانت فى وجهه ، أصيب بها فى غَزَاة . وكان سيف الدين من كبار الأمراء فى دولة صلاح الدين ، لأنه كان مقدم الأكراد . وله مواقف مجيدة فى حروبه . وسيأتى ذكر عماد الدين هذا ثانية ، فى أخبار الملك الكامل .

وفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، فى ذى القعدة ، اعتقل الملك العادل ، الملك المؤيد والملك العزيز وهما : ابنا أخيه صلاح الدين يوسف . رحمه الله تعالى .

ذكر خبر الزلزلة الحادثة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وغيرها

وفى هذه السنة فى شعبان ، جاءت زلزلةٌ من الصعيد ، فعمت الدنيا فى ساعة واحدة . وهدمت أماكنَ كثيرة بالديار المصرية ، ومات تحت الهدم خلقٌ كثير .

وامتدت إلى الشام والساحل ، فهدمت مدينة نابُلُس ، فلم يبق بها جدارٌ قائم إلا حارة السامِرة[1] ، ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً . وهُدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل . وامتدت إلى دمشق ، فرمت بعض المنارة بالجامع ، وأكثر الكَلَّاسَة والبِيمارسْتان النُّورِى ، وعامة دور دمشق إلا القليل . وهرب الناس إلى الميادين . وسقط من الجامع ستة عشر شُرْفة[2] ، وتشققت قُبَّةُ النَّسْر[3] .

---

(١) طائفة من اليهود لهم مذهب خاص . والموجود فى النسخة (ك) المسامرة . وهو خطأ . أما النسخة (ع) فساقط منها بضع صفحات كاملة من هذا الموضع . ولذا اعتمدنا على النسخة الأولى .

(٢) المكتوب فى النسخة (ك) : شرافة . واللفظ اللغوى الصحيح هو : شرفة .

(٣) واقعة قبلى جامع دمشق ، ليس فى دمشق شىء أعلى ولا أبهى منظرا منها . ولها ثلاث مناثر . (النجوم الزاهرة : جـ ٦ ـ ص ١٧٤)

وتهدمت بَانْيَاس[١] وهُونين[٢] وتِبْنِين[٣] . وخرج قوم من بعلبك يجمعون الرِّيبَاس[٤] من جبل لُبْنان ، فالتقى عليهم الجَبَلاَن ، فماتوا بأسرهم . وتهدمت قلعة بعلبك ـ مع عظم حجارتها . وامتدت إلى حِمْص ، وحَمَاه ، وحَلَب ، والعواصم .

وقطعت البحر إلى قبرص ، وانفرق البحر فصار أطواداً ، وقذف بالمراكب إلى الساحل ، فتكسرت . ثم امتدت إلى خِلاَط وأَرْمِينية وأَذْرِبِيجَان والجَزِيرة .

وأُحصى من هلك فى هذه السنة ، بسبب هذه الزلزلة ، فكانوا ألف ألف إنسان ، ومائة ألف . وكانت قوة الزّلزلة ، فى مبدأ الأمر ، بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف . ثم دامت بعد ذلك أياماً .

حكى ذلك أبو المظفر يوسف سِبْط بن الجَوْزِى[٥] فى تاريخه : «مرآة الزمان» . وقد ذُكِرَتْ زلزلة أيضاً فى شعبان ، سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ،

---

(١) سبق ذكرها .

(٢) الذى ذكره ياقوت عن (هونين) أنها : بلد فى جبال عاملة مطل على نواحى مصر (معجم البلدان : جـ ٨ ـ ٤٨٦) . لكن ليس هذا هو المقصود هنا . ولا يتفق مع السياق . وإنما (هونين) الواردة هنا هى التى تقع عند ملتقى الطريق القادم من صَفَد بالطرق الموصلة من تبنين إلى بانياس . فالحصون الثلاثة متقاربة : بانياس وهونين وتبنين . وهى من أشهر الحصون فى أيام الحروب الصليبية .

(٣) سبق التعريف بها .

(٤) فى (ك) : الرساس . وهو خطأ . وصوابه : الريباس ، وقد صححناه من (الذيل على الروضتين) . وجاء فى «القاموس» :
«والريباس بالكسر : نبت ينفع الحصبة والجدرى والطاعون ، وعصارته تحد النظر» . مادة : «ربسه» .

(٥) مؤرخ وواعظ كبير . ولقبه : «أبو المظفر» . يعتمد عليه المؤلف كثيراً . فكتابه «مرآة الزمان» مرجع هام . وجَدُّه لأمه هو (ابن الجوزى) العالم الشهير . وقد نُسب إليه . وستأتى ترجمة أبى المظفر فى المتن فى مناسبة وفاته سنة ٥٥٤ هـ .

وذُكِرَ مما حدث بسببها نحو هذا . فالله أعلم : هل هى هذه ، أو هما اثنتان ؟ .

وفى هذه السنة توفى الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش الأسَدِى ، الزِّمَام [١] ، فى مستهل شهر رجب بالقاهرة ، وله من العمر ثمان وثمانون سنة .

وهو الذى عَمَّر سور القاهرة ، وقلعة الجَبَل [٢] وقناطر نَهْيَا [٣] من الجِيزة . وعمر بالمَقْس [٤] رِباطاً ، وبظاهر القاهرة ـ خارج باب الفتوح ـ سبيل . والناس ينسبون إليه فى ولايته أحكاماً غريبة ، حتى وضع الأسعد بن مَمَّاتِى خَبَراً لطيفاً ، سماه « الفاشوش فى أحكام قَرَاقُوش » ، ذكر فيه أشياء يبعد وقوعها من مثله [٥] ، فإن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ،

---

(١) كان من الأمراء الأسدية أتباع أسد الدين شيركوه ، ثم لما توفى أسد الدين اتفق بهاء الدين هذا مع الفقيه عيسى الهكّارى على ترتيب صلاح الدين فى الوزارة . فأصبح من أمراء دولة صلاح الدين ، وجعله صلاح الدين زِمامَ القصر ، وناب عنه مدة بالديار المصرية . وقراقوش لقبه : لفظ تركى معناه : العُقاب ، الطائر المعروف .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان : جـ ٣ ـ ص ٢٥٤ و ص ١٦٥)

(٢) هى قلعة القاهرة المعروفة : قلعة صلاح الدين .

(٣) نَهْيا : بالفتح ثم السكون وياء . بلدة من نواحى الجيزة من مصر .

(ياقوت : المعجم : جـ ٨ ـ ص ٣٥٢)

(٤) كان مدخل القاهرة وفرضتها على النيل منذ عصر الفاطميين ، لأن النيل كان عندها ثم انحسر . وكانت هى قرية (أم دنين) التى كان عندها حصن ، وذكرت فى الفتوح عند قدوم عمرو بن العاص . وسميت المقس ، لأن العامل على المكس كان يجلس عندها ـ كما ذكر ياقوت . (معجم البلدان : جـ ٨ ـ ص ١٢٥) ومكانها الآن قرب مسجد عنان بباب الحديد .

(٥) قال القاضى ابن خلكان : « والظاهر أنها موضوعة » .

(جـ ٣ ـ ص ٢٥٤)

ونقول : إن قراقوش المراد فى هذا الكتاب إما أنه شخصية خرافية ، أو شخص آخر غير الأمير بهاء الدين هذا الذى له تاريخ مجيد .

مع حسن تدبيره وسداد رأيه ، كان يعتمد عليه فى المهمات الجليلة والمناصب العالية ، وثوقاً بمعرفته وكفايته . والله أعلم . ولما مات ، أقطع الملك العادل إقطاعه لابنه الملك الكامل .

وفيها ، فى يوم الاثنين مستهل شهر رمضان ، توفى بدمشق القاضى عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، الأصفهانى ، الكاتب ، صاحب الخريدة ، والرسائل المشهورة[1] . ومولده فى يوم الاثنين ، ثانى جمادى الآخرة ، سنة تسع عشرة وخمسمائة .

وفيها كانت وفاة الشيخ جمال الدين أبو الفرج : عبد الرحمن ، بن على ، بن عبيد الله ، بن حماد ، بن أحمد ، بن جعفر ، الجَوْزى الواعظ ، البَكْرى التَّيمى ببغداد ، فى الليلة المُسْفِرَة عن يوم الجمعة ، ثالث عشر رمضان . ودفن يوم الجمعة عند قبر الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله تعالى .

---

(١) الكاتب البليغ والمؤرخ المشهور . ولد بأصبهان ، وقدم بغداد مع أبيه ، وبها تفقه ، واشتغل بالأدب وبرع فى الإنشاء . ثم قدم دمشق أيام نور الدين واتصل به وخدمه ، وقدم إلى مصر ولازم صلاح الدين . وكان فاضلا حافظا لدواوين العرب . وله عدة مصنفات ، منها « خريدة القصر فى شعراء العصر » . وهى المشار إليها هنا .

(النجوم الزاهرة : جـ ٦ ـ ص ١٧٨)

واستهلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة :

ذكر عمارة المسجد الجامع بقاسيون

فى هذه السنة ، شرع الشيخ أبوعمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدَامة المَقْدسى الحَنْبَلى شيخ المَقَادسة ـ رحمه الله تعالى ـ فى بناء المسجد الجامع ، بجبل قاسيون[١] . وكان بالجبل رجل فامى[٢] ، يقال له أبوداود ، فوضع أساسه وبلغ قامة ، وأنفق عليه ما كان يملكه . وبَلَغ مُظَفَّرَ الدين بن زين الدين صاحبِ إرْبِل ذلك ، فبعث إلى الشيخ أبى عمر مالاً يملكه ، ووقف عليه وَقْفاً . ثم أرسل ألف دينار . وأراد أن يسوق إليه الماء من بَرْزَه[٣] ، فقال الملك المعظم عيسى : طريقُ الماء كلها مقابر ، فكيف يجوز أن تنبش أموات المسلمين ! وأشار أن يُشْترى بغل يدور بدولاب ، ويُشترى ببقية المال مكان يوقف عليه . ففعلوا ذلك .

ذكر وفاة الملك المعز صاحب اليمن
وقيام أخيه نجم الدين أيوب

كانت وفاة الملك المعز : فتح الدين أبى الفدا إسماعيل ، بن الملك العزيز ، ظهير الدين أبى الفوارس : سيف الإسلام طُغْتِكِين[٤] بن أيوب ،

---

(١) قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق . وقال ياقوت عنه إنه جبل مقدس .
(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ص ١١)

(٢) فامى : نسبة إلى فامية . وقد سبق ذكرها أنها مدينة حصينة على ساحل الشام . وكورة من كور حمص .

(٣) قرية من غوطة دمشق .
(معجم البلدان . ج ٢ ـ ١٢٤)

(٤) هو أخو السلطان صلاح الدين .

ملك اليمن بالقَرْوِ[١] من أعمال زَبِيد ، فى شهر رجب سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وكان قد ادعى أنه من بنى أمية ، وتلقب بألقاب الخلفاء ، وهو الإمام الهادى بنور الله ، المعز لدين الله ، أمير المؤمنين . وغيَّر زِيَّه ، فلبس القميصَ الواسع والعمامة والطَّيْلُسان . وكتب إليه عمه العادل ينكر عليه ذلك ، فلم يُجِبْه . وكان سبب ذلك أن الشعراء باليمن سموه فى مدائحهم بالخليفة ، وفضلوه على من سواه . ومنهم من امتدحه بقوله :

بنى العباس هاتوا ناظرونا ..

وهى أبيات لم يقع لى منها غير هذا .

ولما مات ، قام بعده بملك اليمن أخوه : نجم الدين أيوب ، وتلقب بالناصر . وكان دون البالغ ، فقام بأمره سيف الدين : مملوك أبيه .

وفيها توفى الرئيس مُؤَيِّد الدين ، أبو المعالى : أسعد ، بن عزالدين أبى يَعْلَى حمزة ، بن القَلَانِسِى التَّمِيمى[٢] بدمشق ، فجأة فى رابع عشرين شهر ربيع الأول . ومولده فى سابع عشر شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة .

---

(١) الموجود فى (ع) « القرز » ولم أجد هذه فى المراجع . وإنما ورد فى ياقوت موضع : القرو . وقال عنه إنه حصن باليمن فى الطريق إلى صنعاء . فرجحنا أنه هو المقصود .

(٢) هو حمزه بن أسد التميمى الملقب (أبو يعلى) والمشهور (بابن القلانسى) : المؤرخ ، صاحب كتاب « ذيل تاريخ دمشق » ، الذى أكمل به « تاريخ دمشق » لابن عساكر .

وكان رئيسَ دمشق وكبيرها وصدرَها . وسائرُ أهل البلد تحت حكمه ، وهو المقدم عليهم . وكان الدماشقة فى الزمن الأول لكل طائفة منهم مقدم ، يركبون [١] مع الملوك ويجاهدون [٢] الفرنج . ولكلٍ طائفة قطعة من السور يحفظونها ، بغير إقطاع لهم على ذلك ولا جَامِكِيَّة [٣] . وما بَرِح الحال على ذلك إلى زمن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ، فأبطل ذلك وقال : لا نقاتل بالعوام . وإنما فعل ذلك خوفاً على نفسه منهم ، فإنهم كانوا إذا طلبهم ملك قتلوه . ولما ولى الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل دمشق ، شرع فى مصادرة أكابر دمشق واستئصال أموالهم . فاشتغلوا بالظلم عما كانوا بصدده ، من ركوب الخيل وجمع السلاح ، وغير ذلك .

وكان مُؤَيَّد الدين هذا رئيسَ دمشق فى زمانه ، ومقدم الجماعة . بحيث أنه لايباع من أملاك دمشق مِلْك ، حتى يأتيه جماعة ويشهدون عنده أنه ملك البائع ، انتقل إليه بالميراث أو الابتياع . فإذا ثبت ذلك عنده كتب بخطه فى ذيل الكتاب ليشهد فيه بالتبايع ، فيشهد الشهود بعد ذلك . وخطه موجود فى الكتب القديمة بذلك . وكان رحمه الله تعالى من أرباب المروءات لمن قصده ولجأ إليه .

وله نَظْمٌ حسن ، فمن نظمه :

يارب جُدْ لى إذا ما ضَمَّنى جَدَثى ... برَحْمةٍ منك تُنْجِينى من النار
أَحْسِنْ إلىَّ إذا أصبحتُ جارَكَ فى ... لحْدِى ، فإنكَ قد أَوْصَيْتَ بالجار

(١) (٢) فى (ع) (يركبوا) و (يجاهدوا) ، وهذا مثل من الأخطاء النحوية التى ترد فى متن الكتاب .

(٣) جامكية : أى راتب معين .

وتوفى والدُه عز الدين[١] حمزة يوم الجمعة ، سابع شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة . ودفن بقاسيون . وكان فاضلاً حسن الخط والنظم . وجمع تاريخاً لحوادث سنة أربعمائة إلى حين وفاته ـ رحمها الله تعالى .

وفى يوم عيد النحر من هذه السنة ، ورد إلى فُوَّه[٢] مراكب الروم فنهبوها نهباً شديداً .

واستهلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة :

فى هذه السنة أخرج الملكُ العادل الملكَ المنصورَ ، بن العزيز ، من الديار المصرية إلى الرُّها[٣] .

وفيها ملك الفرنج القسطنطينية من الروم .

وخرج الفرنج منها لقصد الساحل . [فجمع الملكُ العادل عساكره وخرج إليهم . فاستقر الصلح بينه وبينهم على أن يكون لهم من بلاد المُنَاصَفَات[٤] أشياء ، مثل الرَّمْلَة والناصِرة .

---

(١) هو المؤرخ الذى أشرنا إليه .

(٢) بلدة معروفة بمصر والوجه البحرى : قال عنها ياقوت : « بليدة على شاطىء النيل من نواحى مصر قرب رشيد ، بينها وبين البحر خمسة أو ستة فراسخ . وهى ذات أسواق ونخل كثير .
(معجم البلدان : جـ ٦ ـ ٤٠٦)

(٣) مدينة بالجزيرة ، بين الموصل والشام . وهى مدينة مشهورة كانت مقرا لإحدى الإمارات الصليبية ، وافتتحها عماد الدين زنكى .
(ياقوت : جـ ٤ ـ ٣٤٠)

(٤) أى : البلاد التى كان اتُّفِق عليها فى الصلح مع صلاح الدين أن تكون مناصَفَة بين المسلمين والفرنجة ، فتنازل العادل الآن عن بعضها .

وفيها بعث الخليفة ـ الناصرُ لدين الله ـ الخلَع إلى الملك العادل وأولاده ، وسَرَاويلات الفُتُوَّة[١] ، فلبسوها فى شهر رمضان[٢]] .

ذكر حصار ماردين[٣] وما حصل من الاتفاق

وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، جمع السلطان الملك العادل عساكره ، وفرق فيهم السلاح والأموال ، وقدم عليهم ولده : الملك «الأشرف موسى» ، وأمره بالمسير إلى مارِدِين . فسار إليها وحاصرها ، وشدد الحصار .

فدخل الملك الظاهر غازى ، صاحب حلب ، فى الصلح بين عمه وصاحب ماردين . فأجاب الملكُ العادل إلى الصلح ـ على أن يخطب له صاحب مارِدِين فى جميع بلاده ، ويضرب السِّكَّةَ باسمه ، ويحمل إليه مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ويكون عسكر مارِدِين فى خدمته ، متى طلبه . فأجاب صاحب ماردين إلى ذلك .

فرحل الملك الأشرف عنها ، وحمل صاحب ماردين إلى الملك الظاهر عشرين ألف دينار ، لتوسطه فى الصلح .

---

(١) الفتوة : نظام رياضى شبه عسكرى أوجده الخليفة الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) وصرف عليه جهده ، وكان له ملابس خاصة هى سراويلات الفتوة التى يلبسها من ينتظم فى هذه الهيئة وكان الناصر يبعث إلى المملوك بها علامةً على أنهم أصبحوا أعضاء فيها .

(٢) السطور بين الحاصرتين مفقودة من النسخة (ك) .

(٣) بكسر الراء والدال . قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة ، مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين . وقدامها ربض عظيم . ليس فى الأرض كلها أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم .
(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ٣٦١)

وحُكى أن السبب فى حصار ماردِين أن شاعراً ، يقال له الكَمَال ، قال :

متى تُقْبِل الراياتُ من أرض جِلَّق[١] وتُنْتَزَعُ الشهباء من كَفِّ أُرْتُقِ[٢] !

فبلغ هذا البيت أُرْتُق صاحب ماردين ، فاعتقل هذا الشاعر . فاتصل خبره بالملك العادل ، فندب هذا الجيش إليها . والله أعلم .

وفى هذه السنة ـ فى أواخرها ـ حصل الشروع فى عمارة سور قلعة دمشق . فابتدىء ببرج الزاوية القبلى منها ، المجاور لباب النصر .

وفيها ماجت النجوم شرقاً وغرباً ، وتطايرت كالجراد المنتشر ، يميناً وشمالاً . ولم يُنْقَلْ ذلك إلا فى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى سنة إحدى وأربعين ومائتين . ويقال إن هذه السنة كانت أكثر انتشاراً . والله أعلم .

واستهلت سنة ستمائة

فى هذه السنة وصلت مراكب الفِرِنْج من ساحل عكا إلى فُوَه[٣] ، فنهبوها وغنموا كثيراً من أطرافها . وأقاموا عليها خمسة أيام . وخرج بعض عساكر مصر فقاتلتهم .

---

(١) اسم لمدينة دمشق . ورد فى شعر حسان قبل الإسلام .

(٢) هو أرتق بن غازى (الملقب ناصر الدين) كان هو ملك ماردين فى ذلك الوقت . مدة حكمه : (٥٩٧ ـ ٦٣٧ هـ) وهو السادس من ملوك البيت الأرتقى بماردين .

(٣) سبق ذكرها ، وأنها بمصر على شاطىء النيل قرب رشيد .

وفيها كانت وفاة الحافظ : عبد الغنى بن عبد الواحد بن على ، ابن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر ، المَقْدِسى الحنبلى ، الجَمَّاعِيلى . ولد بجَمَّاعِيل[1] ـ وهى قرية من أعمال نابلس ، فى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

وفيها ، فى العاشر من جمادى الأولى ، كانت وفاة القاضى السعيد أبو القاسم : هبة الله بن أبى الرَّدَّاد[2] ـ متولى المِقْياس بجزيرة مصر ـ وكان خطيبَ الجامع .

واستهلت سنة إحدى وستمائة :

فى هذه السنة رخصت أسعار الديار المصرية . وبلغ سعر القمح ستة أرادب بدينار .

وفيها قدم الملك العادل من الشام فى ثالث جمادى الآخرة وتوجه إلى الإسكندرية ، وحَصَّلَ منها أموالاً جَمَّة .

---

(١) عرفها المؤلف فى المتن . وماورد عنها فى ياقوت هو : «قرية فى جبل نابلس من أرض فلسطين» . (جـ ٣ ـ ص ١٣٤)

(٢) هذا لقب جده الأعلى ، وهو أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام المؤذن (كان يؤذن فى الجامع العتيق ويعلم القرآن) . تولى مقياس النيل الجديد ، بجزيرة مصر فى سنة ٢٤٦ فى عهد المتوكل العباسى ، وتوفى سنة ٢٦٦ . واستمرت ولاية المقياس فى ولده إلى هذا العهد ـ كما قال ابن خلكان : (وفيات الأعيان : جـ ٢ ـ ٢٩٦)

وفيها ، أخرج الملك الكامل أولاد الخليفة العاضد لدين[1] الله ، وهم : داود والمظفّر ، إلى الإيوان بالقصر ، وقيدهم ، وأخذ جميع ما كان عندهم من الأقمشة والأوانى وغير ذلك .

وفيها ابتدأ الصاحب صفى الدين بن شكر بمصادرة أصحاب الدواوين ، ومستخدمى الدولة والمتعينين ، وأهانهم ، لما كان فى باطنه منهم .

وفيها توفى القاضى كمال الدين أبو السعادات : أحمد بن القاضى جلال الدين أبى المعالى شُكْر ، بن محمود بن يعقوب اللَّخْمى . وكان ناظر الدواوين فى الأيام الناصرية والعزيزية . وكانت وفاته بثغر الإسكندرية . وهو الذى نوَّه بذكر الصاحب صفى الدين ورباه ، وصفىُّ الدين رَبِيبُه . كان جلال الدين شكر والمخلص أبو الحسن ـ والد الصاحب صفى الدين ـ إخوةً لأم .

واستهلت سنة اثنتين وستمائة :

فى هذه السنة هُدمت قنطرة الباب الشرقى بدمشق ، وبلط بحجارتها صحن الجامع ، وفُرغ منها فى شهر رمضان سنة أربع وستمائة ، وفيها فى شوال غير قُبَّة النَّسْر بجامع دمشق ، عدة أضلاع من شماليها . والله أعلم .

---

(١) هو آخر الخلفاء الفاطميين .

واستهلت سنة ثلاث وستمائة :

ذكر قصد العادل بلاد الفرنج

فى هذه السنة فى جمادى الأولى ، وقيل فى شعبان ، خرج الملك العادل بعساكره وقصد عكا . فصالحه أهلها . فعاد إلى دمشق .

وخرج الفرنج من طرابلس ، وأغاروا على حمص . فخرج الملك العادل من دمشق ، ونزل على بحيرة قدَس[1] بظاهر حمص ، وحضرت إليه عساكر البلاد . فأقام إلى آخر شهر رمضان . وتوجه يوم العيد إلى حصن الأكراد[2] ، وقاتل أشد قتال ، وفتح بُرْجا بالقرب من الحصن ، وأخذ منه خمسمائة رجل وسلاحاً . ثم سار إلى القُلَيْعات[3] ، فأخذها بعد حصار . وتقدم إلى طرابلس ، وقاتل قتالاً شديداً ، وأقطع ثمارها . ثم أنس من عسكره فشلاً ، فعاد إلى حمص . فأنفذ إليه صاحب طرابلس وطلب الصلح ، وأرسل مالاً وأسرى .

وفيها توفى الطواشى جمال الدين إقبال ، الخادم الصَّلاَحِى ، من خدام

---

(١) بفتح القاف والدال المهملة وسين مهملة ـ كما ضبطه ياقوت .
بحيرة قرب حمص . طولها اثنا عشر ميلا فى عرض أربعة أميال . وهى بين حمص وجبل لبنان . ينبع منها نهر العاصى الذى يذهب إلى حماه .
(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٨٠ ـ ٨١)

(٢) هو حصن منيع على الجبل الذى يقابل حمص ، من جهة الغرب . وسمى كذلك لأن بعض أمراء الشام كان قد أسكن فى موضعه قوما من الأكراد ليكونوا طليعة بينه وبين الفرنج .
(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ٢٨٤)

(٣) قلعة حصينة بالقرب من طرابلس .
(سلوك زيادة جـ ١ . ق ٢ . ص ٥٤٥)

الملك الناصر صلاح الدين يوسف . وكانت وفاته بالبيت المقدس ، بعد أن وقف داريه بدمشق مدرستين : إحداهما على الطائفة الشافعية ، والأخرى على طائفة الحنفية ، ووقف عليهما أوقافاً : جعل ثلثيها للشافعية وثلثها للحنفية . وذلك فى رابع عشر ذى القعدة .

واستهلت سنة أربع وستمائة :

ذكر انتقال السلطنة
من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل

وأول من سكن قلعة الجبل من الملوك الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن السلطان الملك العادل . وذلك فى سنة أربع وستمائة ـ وهو إذ ذاك ينوب عن والده بالديار المصرية .

وأول من بدأ بعمارتها الملك الناصر صلاح الدين يوسف . فعمر بها برجاً ، وهو المطل على مشهد السيدة نفيسة . ثم كملت فى أيام الملك العادل . ونقل أولاد العاضد من القصر إلى قلعة الجبل ، وبنى لهم بها مكان اعتقلوا فيه . فكانوا فيه إلى سنة إحدى وسبعين وستمائة . وتوفى الأمير داود فى هذه السنة .

ذكر ورود رسل الخليفة الناصر لدين الله بالخِلَع
للملك العادل وأولاده ووزيره

كان السلطان الملك العادل قد جهز القاضى نجم الدين خليل الحنفى ـ قاضى عسكر الشام ـ رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله ، فوصل إلى بغداد

فى هذه السنة فجهز الخليفة إلى السلطان رسولين ، وهما : الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِى[1] ونور الدين سُنْقُر الرُّكِنِى الخَليفَتِى . وأصحبهما الخلع للسلطان ، ولولديه : الأشرف والمعظم ، ولوزيره صفى الدين بن شكر ، ولأستاذ داره شمس الدين الدُّكْز العادِلى .

وكانت خلعة السلطان جبة أطلس وسيعة الكُم بطراز ذهب ، وعمامة سوداء بطراز ذهب ، وطوق ذهب مجوهر ، وسيف جميع ملبس بالذهب ، وحصان أشهب بمركب ذهب ، وقصبة ذهب عليها علم أسود ، مكتوب عليه بالبياض .

فتلقاها السلطان الملك العادل إلى الغَسُولة[2] بجميع عساكره ، وعاد . ولبسوا الخلع من القصر إلى القلعة بدمشق . وحمل الأمير بدر الدين دُلْدُرُم التقليدَ على رأسه بين يدى السلطان ، ودخلوا جميعهم من باب الحديد وقت أذان الظهر . وقرأ الوزير التقليد قائماً ، بمحضر من القضاة وبياض البلد ، بإيوان القلعة ، والسلطان وأولاده وسائر من حضر قياماً إلى أن تكاملت قراءته .

وتضمن التقليدُ تفويض البلاد إلى السلطان ، وهى ديار مصر والساحل ودمشق ، وبلاد الشرق وخِلاَط . وحضرت رسل الملوك : الظاهر صاحب

---

(١) نسبة إلى « سُهْرَوَرْد » ـ بضم أوله وسكون ثانيه وفتح الراء والواو . وهى بلدة قريبة من زنجان بالجبال . خرج منها جماعة من الصالحين والعلماء .

(ياقوت : جـ ٥ ـ ١٨٥)

(٢) الغَسُولَة : من قرى دمشق . وهى ـ أيضا ـ منزل للقوافل فيه خان ، على يوم من حمص ، بين حمص وقارا .

والموضع الأول هو المقصود هنا .

(معجم البلدان : جـ ٦ ـ ٢٩٣)

حلب ، والمنصور صاحب حَمَاة ، وصاحب حمص ، ومع كل منهم ألف دينار ، ينثرها على السلطان . فرسم السلطان بتوفير ذلك لرسول الخليفة .

وسار الشيخ شهاب الدين ورفيقه إلى القاهرة ، بخلعة الملك الكامل . فتلقاهما الملك الكامل ، وزينت القاهرة ومصر لدخول الرسل . ولبس الكامل الخلعة الخليفيّة .

ثم عاد الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَردى ورفيقه إلى بغداد . وأصحبهما السلطان أستاذ داره شمْس الدين ، وصحبته التحف والألطاف . فوصل إلى بغداد فى سنة خمس وستمائة . فتلق بالموكب . ونقم الخليفة على الشيخ شهاب الدين السهروردى كونه مد يده إلى الأموال وقبلها ، وحضر دعوات الأمراء بالشام ، منهم الأمير عز الدين سامه وغيره . وكان قبل ذلك قد اشتهر بالزهد . فاعتذر أنه إنما قبل الأموال ليفرقها فى الفقراء فلم يقبل عذره . ومنع من الوعظ ، وأخذ منه الرُّبُط التى كانت بيده . وفرق الشيخ ما كان قد حصل له من الأموال ـ وكانت جملة طائلة ـ فاغتنى بها جماعة من الفقراء . وقبل الخليفة ما كان مع شمس الدين الدُّكْز من الهدايا ، وشَرَّفه وأعاده إلى مرسله .

ذكر استيلاء الملك الأوحد بن السلطان الملك العادل على خِلاَط (١)

وفى سنة أربع وستمائة ، استولى الملك الأوحد : نجم الدين أيوب ، بن الملك العادل على مدينة خِلاَط ، بِمُكَاتَبَةِ أهلها .

(١) بكسر أوله : قال عنه ياقوت (المعجم : جـ ٣ ـ ص ٤٥٣) : ـ
« البلدة العامرة المشهورة ، ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة . وهى قصبة أرمينية الوسطى . فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة .

وكان سبب ذلك أن الهَزَار دِينَارى قتل صاحبها ابن بكْتُمَر ـ وكان شاباً لم يبلغ عشرين سنة ـ وقيل انه غرَّقه فى بحر خِلاط . وكانت أخته بنت بَكْتُمَر زوجة صاحب أَرْزَن الروم[1] ، فقالت : لا أرضى إلا بقتل قاتل أخى . فسار صاحب أرزن إلى خلاط فخرج إليه الهزار دينارى وتبارزا ، فقتله صاحب أرزن الروم . وعاد إلى أرزن . وبقيت خِلاط بغير ملك .

وكان الملك الأوحد ـ صاحب مَيَّافَارِقِين[2] ـ يكاتبه أعيان خِلاَط . فجاء إليهم واستولى على المدينة . واشترط عليه مقدموها شروطاً ، وكانوا جبابرة ، فقبل الشروط . ثم أبادهم ـ قتلا وتغريقاً ـ وبدد شملهم .

ومن عجيب ما اتفق أن الملك العادل ، سيف الدين ، كان له عدة أولاد ، ليس فيهم أقبح صورة من الملك الأوحد هذا ، فإنه كان قصيراً ألثغ زَرِىَّ المنظر .

فخرج مع والده وإخوته إلى الصيد . فأرسل والده بَازِيًّا على طائر ، فسقط البازى على رأس الأوحد ، فضحك السلطان والده ، وقال : قد صاد بازِيُّنا اليوم بومة ! فانكسر خاطر الأوحد لذلك ، وتألم وأسرّها فى نفسه . فلما قدر الله تعالى له بفتح خلاط ، وخطب له بشاه أرمن على قاعدة ملوك خلاط ، كتب إلى أبيه الملك العادل ، يبشره بالفتح ، ويقول له : إن البومة ـ التى صادها بازى مولانا السلطان فى اليوم الفلانى ـ قد اصطادت مدينة خلاط ، وصارت شاه أرمن ! وكان بين الواقعتين عشر سنين .

---

(١) سبق ذكرها ، وأنها مدينة مشهورة لها قلعة حصينة كانت من أعمر نواحى أرمينية .

(٢) أشهر مدينة بديار بكر .

(ياقوت : جـ ٨ ـ ص ٢١٤)

وفى هذه السنة ، فى شهر رجب ، وضعت الساعات بالمئذنة الشمالية بجامع دمشق . وفيها حصل الشروع فى عمارة البرج الذى يقابل المدرسة القَيْمازِيَّة[١] من قلعة دمشق . وفيها حدثت زلازل ورياح شديدة ببلاد خِلاَط ، وخسف بمكان الملك الأوحد بن الملك العادل قد نزل به ثم رحل عنه ، قبل الخسف بليلة .

وفيها كانت وفاة الأمير داود ، بن الخليفة العاضد لدين الله ، فى محبسه بقلعة الجبل . وكان دُعَاةُ الإسماعيلية يقولون إن العاضِد نَصَّ عليه بالإمامة ، وأنه صاحب الأمر بعده . وكان عظيماً عند العامَّة . فلما توفى انقطعت دعوة الإسماعيلية[٢] وزال أمرُهم .

وأَشْهَرَ العادلُ وفاتَه ، فعظُمَ موتُه على من هو يتوالى فيهم . فاستأذن الناس الملكَ الكامل فى النياحة عليه ونَدْبِه ، فأَذِنَ لهم . فبرز النساءُ حاسِرات ، والرجال فى ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا فى ندبه والبكاء عليه . واشتهر من كان مستتراً من الإسماعيلية . فلما اجتمعوا وكملوا ، أرسل الملك الكامل جماعة من عسكره ، فنهبوا ذلك الجمع ، وقبض على المعروفين منهم ، وملأ بهم الحُبُوس ، واستصفى أموال ذوى اليسار منهم ، وهرب جماعة آخرون . وزال أمر الإسماعيلية من الديار المصرية . ولم يتجاهر بعد ذلك أَحَدٌ بمذهبهم .

---

(١) من مدارس الحنفية بدمشق ، أنشأها صارم الدين قيماز النجمى ، الذى كان أستاد دار السلطان صلاح الدين ، والذى توفى سنة ٥٩٦ هـ .

(النجوم الزاهرة : جـ ٧ ـ ٢٨٣ ـ حاشية ٢)

(٢) أى : المذهب الشيعى الذى كانت عليه الدولة الفاطمية . نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .

واستهلت سنة خمسة وستمائة :

فى هذه السنة فى يوم الجمعة ، خامس شهر رمضان ، ولى قاضى القضاة عماد الدين عبدالرحمن ، بن عبد العلى ، بن على ، السُّكَّرِى ـ القضاء بالديار المصرية .

وذلك أن الملك العادل كان قد خرج إلى الشام فى شعبان ، فلما وصل إلى العَبَّاسَة[1] ، بلغه وفاة قاضى القضاة : صدر الدين عبد الملك بن دَرْباس . وكانت وفاته فى ليلة الأربعاء ، الخامس من شهر رجب ، من هذه السنة . ومولده فى أواخر سنة ستَ عشرة ، أو أوائل سنة سبع عشرة وخمسمائة . ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى .

ولما اتصلت وفاته بالسلطان ، استدعى الفقيه عماد الدين ، فسار إلى العَبَّاسَة . فولاه الحكم ، وعاد[2] إلى القاهرة . فدخلها فى يوم الاثنين ، ثامن الشهر . ولما وصل إلى مسجد التِّبْن ، دخل إليه ـ ومسجد التبن بظاهر القاهرة ـ ولبس الطَّرْحة وألقى الطَّيْلُسَان[3] . وكانت العادة جارية أن لا يطرح إلا من عُلِمَ فضله واشتهر .

وفيها كانت وفاة الملك الأمجد : مجد الدين حسن ، بن السلطان الملك

---

(١) قرية بين بلبيس والصالحية .
(معجم البلدان : جـ ٦ ـ ١٠٦)

(٢) الضمير يعود إلى الفقيه عماد الدين .

(٣) ذكر صاحب « صبح الأعشى » ما يأتى :
« ويتميز قضاة القضاء الشافعى والحنفى بلبس طرحة تستر عمامته وتسدل على ظهره وكان قبل ذلك مختصا بالشافعى » . ذكر ذلك وهو يصف زى كبار القضاة والعلماء .
(القلقشندى : جـ ٤ ـ ص ٤١ ـ ٤٢)

العادل سيف الدين أبى بكر محمد ، بالقدس ـ وهو شقيق الملك المعظم والملك العزيز ـ رحمهم الله تعالى .

واستهلت سنة ست وستمائة :

فى هذه السنة ـ وقيل فى سنة سبع ـ نزلت الكُرْجُ [1] على خِلاَط ، وبها الملك الأوحد ، بن الملك العادل . وملك الكُرْج اسمه إيرَانى [2] .

واتفق فى أمر هذا الحصار واقعة غريبة ، ذكرها الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن إبراهيم الجَزَرِى فى تاريخه : «حوادث الزمان» عمَّن حكى لوالده ، قال :

كنت فى خِلاَط ، وقد أشرف الكُرْجُ على فتحها ، ولم يبق إلا دخولهم إليها . فبلغ الملك الأوحد أن منجم ايرانى قد حكم لصاحبه أنه متى زحف يوم السبت أول النهار ، دخل خِلاَط ، وجلس على تَخْت الملك ، ولا يبيت ليلة الأحد إلا فى قلعتها . فأحضر الملك الأوحد منجمه ، وذكر له ما بلغه ، فقال له : لا تخف ، فإن خلاط لا تخرج عن ملكك ، وأنت مستظهر على الكرج .

---

(١) الكرج : أمة من المسيحيين ، مساكنها بجبال القوقاز (القبق) ثم خرجوا واستولوا على تفليس (سنة ٥١٥ هـ) ولم يزالوا متملكين لها حتى أخرجهم منها جلال الدين خوارزم شاه (سنة ٦٢١ هـ) .
(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ٢٣٠ ـ ٢٣١

السلوك : زيادة : جـ ١ ـ ١٦٩)

(٢) هكذا رَسْمُه فى أكثر وروده فى الأصلين . ولكن قرىء فى النجوم الزاهرة : (جـ ٦ ـ ٢٥٩) : «إيوانى» وفى ابن الأثير : إيوانى .

واتفق أن إيرانى شرب الخمر، وركب فى جيوشه وقصد باب أَرْجِيش [١] ، وحمل ليدخل البلد قبل أخيه ، فكبا به فرسه فى حفيرة ، فسقط إلى الأرض . واتفق خروج جماعة من القَيْمُرِيَّة [٢] من ذلك الباب ، ليدفعوا الكُرْج من البلد ، فرأوا إرانى قد سقط ، فحملوا على أصحابه وكشفوهم عنه ، وأسروه . ودخلوا باب المدينة ، وقد تجهز الملك الأوحد للهزيمة ، فجلس فى القلعة أمام تخت المملكة على كرسى . وكان بقلعة خلاط تخت عظيم ، لا يجلس عليه الملك إلا فى يوم ملكه ، ثم لا يعود يجلس عليه . فلما أحضر ملك الكرج إليه ، تلقاه وأكرمه ، وأجلسه على تخت الملك وجلس بين يديه على كرسى ، وقال له : البلاد لك . فكتب إيرانى إلى أخيه ، وإلى الكرج ، بالانصراف عن البلد ، فرحلوا .

وتحالف الملك الأوحد وملك الكرج على الموافقة والمعاضدة . وتزوج الملك الأوحد ابنة إيرانى ، وجهزه إلى مدينته تفليس ، بعد أن استأذن والده على ذلك ، فأذن له . ويقال كان إطلاقه فى ثانى عشر جمادى الأولى ، سنة سبع وستمائة . والله أعلم . وزُفّت البنت إلى الملك الأوحد بعد ذلك ، وهى على دينها ، وبنى لها بيعة بقلعة خلاط . وأطلق الكرج القلاع التى كانت أخذت ـ وهى احدى وعشرون قلعة ـ ومائة ألف دينار . ووافق قول كل من المنجمين : جلس الكرجى على تخت الملك ، وبات بالقلعة ، وانتصر الأوحد .

---

(١) مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى قرب خلاط . وأكثر أهلها أرمن نصارى .
(ياقوت : جـ ١ ـ ١٨١)

(٢) نسبة إلى « قيمر » وهى قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط ، ينسب إليها جماعة من أعيان الأمراء بالموصل وخلاط ، وهم أكراد .
(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ١٩٩)

وفيها جهز الملك العادل جمال الدين المصرى [١] رسولاً إلى الخليفة . فأدى ، وأعيد . وصحبه من الديوان العزيز ابن الضحاك وأقْبَاش [٢] الناصرى . فاجتمعوا بالسلطان الملك العادل على رأس العَيْن .

ذكر حصار الملك العادل سِنْجَار ورجوعه عنها وأخذ نَصِيبين والخَابُور

وفى سنة ست وستمائة ، سار الملك العادل إلى سِنْجَار [٣] ـ وصاحبها ، يوم ذاك ، قطب الدين بن عماد الدين زَنْكِى .

فلما خيم بظاهرها ، أخرج صاحبها نساءه وخدمه ، يسألن العادل إبقاء المدينة عليه . فلما حصلن عنده ، أمر باعتقالهن . وأرسل إلى قطب الدين ، يقول : انه لا يطلقهن إلا بعد تسليم البلد . فاضطر إلى موافقته . وتقررت الحال بينهما : أن يعوض قطب الدين الرَّقَّة وسَرُوج وضياع فى بلاد حَرَّان .

فأطلق العادل النسوة ، وأرسل أعلامه إلى البلد ، فلما دخلن البلد ، ودخلت الأعلام العادلية ، أمر قطب الدين بغلق الأبواب وتكسير الأعلام . وأرسل إلى العادل ، يقول : غَدْرَةٌ بِغَدْرَة ، والبادى أظلم .

---

(١) هو المعروف بالجمال المصرى : يونس بن بدران بن فيروز . ولد بمصر سنة خمس وخمسين وخمسمائة . سمع من السلفى وغيره . وكان يشارك فى علوم كثيرة . ودرس التفسير بالعادلية بدمشق وولى قضاء الشام . كانت وفاته سنة ٦٢٣ هـ .

(السيوطى : حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ص ١٧٢)

(٢) هو خادم الخليفة الناصر لدين الله .

(٣) مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة ، تقع فى لحف جبل عال ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام أيضا . وهى مدينة طيبة فى وسطها نهر جار ، وعامرة جدا .

(معجم البلدان : جـ ٥ ـ ١٤٤)

فحاصرها العادل ، وقطع أشجارَها وهدم جَوَاسِقَها . فانتصر صاحب الموصل لصاحب سِنْجَار ، خوفاً على بلاده . وراسل مظفر الدين صاحب إرْبِل ، وكان بينهما وحشة . وكان من جملة رسالة صاحب الموصل له : أن الأحقاد تذهبها الشدائد . فراسل مظفر الدين العادل ، يشفع عنده فى صاحب سنجار . فرد رسوله أقبح رد . فمضى إلى صاحب الموصل ، واتفق معه ، وراسلا صاحب الجزيرة .

وأرسل مظفر الدين إلى صاحب سنجار ، يشير عليه بمراسلة الخليفة . فأرسل إليه ، فمضى الرسول إلى بغداد . فأرسل الخليفة إلى العادل ، يشفع عنده فى صاحب سنجار . فلم يجب العادل لذلك . فغضب رسول الخليفة ، وعاد إلى الموصل ، وقال لمن بها من الملوك : قد أذن لكم أمير المؤمنين فى قتال العادل .

فكتبوا إلى الملك الظاهر صاحب حلب ، وأغروه بعمه . فأرسل أخاه الملك المؤيد : نجم الدين مسعود إلى عمه ، يشفع فى صاحب سِنْجَار . فرده أقبح رد . فبرز الظاهر من حلب ، فى ثامن شعبان ، لقصد العادل . فتفرقت عساكره ، والتحق بعضها بالعادل .

ثم رأى أهل سِنْجَار أن من خرج منهم غضبه عسكر العادل ، وفسقوا بمن خرج من النساء ، فقاتلوا قتال الحريم . فاضطر العادل إلى الصلح مع صاحب سنجار . فتقرر أن يسلموا إلى العادل : نَصِيبين والخابور ، ويحملوا إليه مالا . ففعل ، وفارق سنجار .

وفيها كانت وفاة الملك المُؤَيَّد : نجم الدين مسعود بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، برأس عَيْن ، عند منصرَفه من عند عمه الملك

العادل ، برسالة أخيه بسبب سنجار . وكان قد نام فى بيت مع ثلاثة نفر ، وعندهم منقل فيه نار ، والبيت بغير منفذ ، فانعكس البخار فأخذ على أنفاسهم ، فماتوا جميعاً فحمل المؤيد فى محفة إلى حلب ، فدفن بها

وفيها توفى الشيخ الإمام العلامة : فخر الدين أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن الحسين بن على بن محمد ، التَّيْمى البَكْرِى الطَّبَرِسْتانى الأصل ، الرَّازِى ـ المعروف بابن خطيب الرَّىّ ، الفقيه الشافعى ، صاحب التصانيف المشهورة[1] . وكانت وفاته بهَرَاه[2] فى يوم الاثنين ـ وهو يوم عيد الفطر ـ سنة ست وستمائة . ومولده فى خامس عشر شهر رمضان ، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة .

وفيها كانت وفاة القاضى الأسعد : أبى المكارم أسعد بن الخطير أبى سعيد ، مُهَذَّب بن مِينَا بن زكريا بن أبى قُدَامة ، بن أبى مَلِيح مَمَّاتِى ، المِصْرى الكاتب الشاعر .

كان يتولى نظر الدّواوين بالديار المصرية . وكان نصرانياً فأسلم فى ابتداء الدولة الناصرية الصلاحية ، هو وجماعته . وله مصنفات عديدة : نظم سِيَرة الملك الناصر صلاح الدين . ونظم كتاب كَلِيلَة ودِمْنَة . وله ديوان شِعر . وباشر ديوان الجيش الصَّلاَحى ، ثم ولى نظر الدواوين . وخاف الصاحبَ صفى الدين بن شكر فهرب إلى حلب ، والتحق بالملك الظاهر صاحبها .

---

(١) هو فخر الدين الرازى ، الإمام المشهور ، صاحب التفسير الكبير : « مفاتيح الغيب » و « المحصل » فى الحكمة وعلم الكلام ، و « الأربعين » فى أصول الدين ، وغيرها من الكتب .

(٢) كانت من مدن خراسان الكبرى قديما ، وهى الآن فى مملكة أفغانستان .

وكانت وفاته بحلب فى سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة ، وعمره اثنتان وستون سنة . ودفن بالمقبرة المعروفة بالمقام ، على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ الهَرَوِى . ومَمَّاتى لقب أبى المليح جده الأعلى . وسبب تلقيبه بهذا اللقب أنه وقع بمصر غلاء عظيم ، وكان كثير الصدقة والإطعام ، خصوصاً لأطفال المسلمين ، وكان الأطفال إذا رأوه نادوه : مَمَّاتى ، فغلب عليه . حكى ذلك ابن خِلِّكَان عن الحافظ زَكِىّ الدين عبد العظيم ـ رحمه الله تعالى .

واستهلت سنة سبع وستمائة :

فى هذه السنة ـ فى يوم الاثنين الثانى والعشرين من شعبان ـ قدم الملك العادل إلى القاهرة ، وصحبته الصاحب صفى الدين عبد الله بن شكر . ثم توجه إلى الطُّور[1] لعمارته .

وفى هذه السنة ، فى سابع شوال ، حصل الشروع فى عمارة مُصَلَّى ظاهر دمشق ، وهى المجاورة لمسجد النارنج ، فعمرت لصلاة العيدَيْن ، ثم عمل بالمصلى رواقات فى سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وعملت حيطانه ورتب فيه خطيب لإقامة صلاة الجمعة فى سابع عشر من شهر رمضان . وفيها ، فى حادى عشر من شهر شوال جددت أبواب جامع دمشق من جهة باب البريد ، وعملت بالنحاس الأصفر وركبت . وفى سادس عشر من شوال حصل الشروع فى إصلاح الفوارة بجَيْرُون[2] . وعمل الشَّاذَرْوَان والبِرْكَة

(١) جبل مطل على طبرية الأردن .
(ياقوت : جـ ٦ ـ ٦٧)

(٢) عند باب دمشق ، وهى سقيفة حولها مدينة . وبه سمى باب جيرون . والمعروف أن بابا من أبواب الجامع بدمشق ، وهو بابه الشرقى ، يقال له : باب جيرون . وقيل إن جيرون هى دمشق نفسها .
(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ١٩١)

بساحتها ، واتخذ فيها مسجد بإمام راتب . وأول من رتب فيه ـ بأمر الصاحب صفى الدين بن شكر ـ الشيخ نفيس الدين المِصْرى ، كان يلقب بُوقَ الجامع لقوة صوته ، وكان حسنَ الصوت .

وفيها فى سابع عشر من ذى القعدة ، وصلت مراكب الفرنج إلى ثغر دمياط ، على غِرَّةٍ من أهله . فنهبوا أطراف الثغر ، وأسروا جماعة من المسلمين .

واستهلت سنة ثمان وستمائة :

والسلطان الملك العادل ، وابنه الملك المعظم ، نازلان بالمُخَيَّم على الطور[1] ، ومعهما العساكر ، لعمارة حصنه . وهما مجتهدان فى إدارته حوشاً .

ذكر بناء القبة على ضريح الإمام الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ وعمارة السوق

كان ابتداء عمارة هذه القُبَّة فى سنة ثمان وستمائة وكانت أرض هذا المكان مقبرة عَتِيقة . فاتفق أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف أنشأ المدرسة المجاورة للضريح . فلما كان فى هذه السنة ، فى خامس عشر من صفر ، توفيت والدة الملك الكامل ، وكان الملك الكامل ، قبل وفاتها بأيام ، رَكِبَ وطَوَّفَ القَرَافة على مكان يبنيه عليها ، ويجعل فيه سوقاً . فوقع الاختيار على دفنها بالضريح . فلما توفيت ، دفنها وعمر عليها هذه القبة الموجودة الآن .

---

(١) سبقت الإشارة إليه ، وأنه جبل مطل على طبرية الأردن .

وغرم عليها أموالاً جليلة المقدار ، أجرى إليها الماء الحلو من بِرْكَة الحَبَش [١] وانتقل البناء من القرافة الكبرى إلى هذا الموضع . ثم تغالى الناس بعد ذلك فى العمائر بالقرافة وزخرفوها ، حتى صارت على ماهى عليه الآن .

وفى هذه السنة ، كانت وفاة الأمير فخر الدين أبى المنصور ، أَيَاز جَهَارَكْس ، الناصرى الصلاحى ، بدمشق فى صفر ، ودفن بقاسِيون .

وكان الملك العادل قد أقطعه بَانْيَاس وتِبْنِين والشَّقِيف وهُونِين [٢] وتلك البلاد ، لأجل انحرافه عن الملك الأفضل ، ابن أخيه الملك الناصر . ولما مات جَهَارَكْس ، أقر السلطان ما كان بيده على ابنيه . وقام بالأمر والتدبير الأمير صارم الدين خَطْلَبَا التَّبْنِينى أحسن قيام ، وسد تلك الثغور . واشترى صارم الدين ضيعة بوادى بَرَدَى [٣] تسمى الكَفْر ، ووقفها على تربة جَهَارَكْس ، وعمر له قبة .

وفيها توفى الأمير صارم الدين بُرْغُش العادلى ، بدمشق ، فى ثالث وعشرين صفر ، ودفن بقاسِيون غربى بالجامع المُظَفَّرِى .

---

(١) كانت من أكبر متنزهات مصر ، وموقعها بظاهر (أى خارج) مدينة الفسطاط من قبليها ، فيما بين الجبل والنيل . وكانت من قبل تسمى ببركة المعافر أو بركة حمير ، وماء النيل يدخل إليها . (السلوك : جـ ١ ـ ١٧٤) نقلا عن الخطط للمقريزى جـ ١ ـ ٤٨٦ .

(٢) سبق التعريف بهذه المواضع كلها ، وكلها حصون وبلاد بين صفد ودمشق .

(٣) أكبر أنهار دمشق . يمر بالغوطة ثم بمدينة دمشق ، حتى يصب شرقيها فى بحيرة المرج . (المعجم : جـ ٢ ـ ١١٨)

واستهلت سنة تسع وستمائة :

ذكر عزل الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر وولاية الصاحب الأعز بن شكر

وفى يوم الاثنين ، لسبع مضين من شهر ربيع الأول ، سنة تسع وستمائة ، صُرِف الصاحب صفى الدين من الوزارة وأُلزِم دارَه .

ونحن الآن نذكر فى هذا الموضع سبب اتصاله بخدمة السلطان العادل ، وموجب انفصاله .

كان قد اتصل بالخدمة العادلية فى أواخر الأيام الناصرية . فلما مات ابن النَّحَّال النصرانى ـ كاتب الملكِ العادل ـ تقدم صفى الدين ، فرآه شهماً مقداماً فقدمه ، وتمكن من دولته . فلما كانت حادثة الأفضل ، ورجوعه عن دمشق بعد حصارها ، وخرج العادل فى طلبه اجتاز بالبيت المقدس ، ومعه صفى الدين ، فتحلف معه أنه إن قَدَّر الله تعالى له بملك الديار المصرية ، تمكنه من المصريين ، وحلفه على ذلك فحلف له .

فلما ملك العادل الديار المصرية ، لم يتمكن صفى الدين من مصادرات المصريين ، لأمرين : أحدهما ما حل بالناس من الغلاء المشهور ، والثانى ملازمة العادل ببلاد الشام . فلم يزل كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة عند قدوم العادل من الشام ، فأمسك الصاحب جماعة من رؤساء المصريين ، وأصحاب الدواوين والمستخدمين وغيرهم ، وعاقبهم أشد عقوبة ونكَّل بهم ، وفعل بهم ما أوجب حِقْدَ الناس عليه . وكثُر بطشه بالناس ، وأقام لنفسه حُرْمةً عظيمة زادت على حرمة السلطان وَعظُم أمره ، حتى كان أولاد

الملك العادل يأتون إلى داره فيجلسون على بابه ، حتى يؤذن لهم ، فثَقُلَ ذلك على أمراء الدولة وخاطبوا السلطان فى أمره ، وهو لا يَسْمعُ فيه كلاَم متكلِّم .

فلما كان فى سنة ست وستمائة ـ والسلطان على سِنْجَار ـ اتفق أن الصاحب تَحَدَّثَ معه فى شىء ، لم يوافق رأى السلطان ، فتوقف عن إجابته . فقام الصاحب من مجلس السلطان ، وقد غضب ، وجرح جرحاً مُفْرِطاً فى المجلس ، حتى خجل العادل ممن حضره ، ووجدوا للكلام مجالا فتكلموا فيه . وكان العادل من أثْبَتِ الناس ، وأَحْلَمِهم وأقلهم بطشاً ، وصفىُّ الدين بخلاف ذلك . فبقيت هذه الحادثة فى نفس السلطان كامنة . وكان القاضى الأعز بن شكر فى هذه السفرة نائب الوزارة بالديار المصرية ، وهو ناظر الدواوين بها فى خدمة الملك الكامل ، فحصل بينهما مودة . فحسده من كان ينوب عن الصاحب فى الوزارة قبله . وكانوا يكاتبون[1] الصاحب ويقولون له إنّ الأعز قد توثب عليك ، واتصل بالكامل وتمكن منه .

فلما كان فى ذى الحجة ، سنة سبع وستمائة ، اجتمع بنو شكر عند الصاحب على طعامه . فأشار أن توضع زِبْدِيَّة[2] طعام مخصوص بين يدى الموفق ـ وهو أحد من كان ينوب عن الوزارة ـ فقال أحد الحاضرين : يدُه طويلة ! ـ يريد أنها تطول لمكان الزبدية . فقال آخر : طَوَّلَها الذى صرفه من نيابة الوزارة ـ يعرض به أنه كان يتبرطل ! فضحك الأعزّ ضحكاً مفرطاً ،

(١) فى (ع) : وكانوا يكاتبوا .

(٢) وعاء للطعام .

بمعنى أنه أمين ، ليس فيه ما يقال كما قيل فى غيره ! فغضب الصاحب لذلك وانتهره ، لإساءته فى مجلسه بالضحك .

فأسرع الأعز فى القيام إلى داره . فلما قام ، قال بعض من حضر للصاحب : لاتأمَنْه من سوء يكيدك به . وأغروه به ، فأمر باحضاره . فلما جاءه الرسول ، علم أنه إن وقع فى يده لا يأمنه على نفسه . فَتَسَوَّرَ من مكان فى داره ، وطلع إلى القلعة ، واحتمى بالكامل . فلما سمع الصاحب بذلك طلبه من الكامل ، فدافعه به . فغضب واجتمع بالملك العادل ، وقال : ان الأعز لزمه حساب ، وقد أحماه الكامل علينا . وكرر عليه القول . فتحدث العادل مع ابنه الكامل فى ذلك ، فقال : يُصْلَح بينهما . وقصد الكامل بذلك مدافعة الأيام ، ليقع سفر العادل إلى الشام معه ، فيسكن ما عند الصاحب منه ، فلم يزده ذلك إلا حنقًا .

فلما كان فى آخر ذى الحجة ـ سنة ثمان وستمائة ـ ركب الكاملُ إلى دار الوزارة ، وحضر مجلس الوزير ، والأعز معه ، وأصلح بينهما . فاصطلحا ظاهراً ، والبواطن بخلاف ذلك . وقصد الصاحب أن الأعز إذا انصرف إلى داره ، قبض عليه ، فلم يفارق الأعز الخدمة الكاملية بالقلعة . فازداد الصاحب حنقاً عليه ، وتحدث مع العادل أن يعزله عن نظر الدواوين . فتوقف السلطان فى ذلك .

وتمادى الأمر ، إلى آخر صفر . فامتنع الصاحب من الكتابة على المَنَاشِير والتَّوَاقِيع ، وحلف أنه لا يباشر والأَعَزُّ يكتبُ معه أبداً . فتعطلت أحوال الناس ، وشكوا ذلك إلى السلطان . فأرسل إلى الصاحب بروضه ،

ويقول : لابد أن أُمَكِّنَكَ من الأعز ، وهو لا يزداد إلا غضباً وإساءة فى الجواب . فإذا عاد رسول السلطان إليه ، لا يمكنه مخاطبته بما قاله الصاحب ، ويغالط فى الجواب . فأرسل السلطان بعض الأمراء إلى الصاحب برسالة ، ومعه أحد مماليكه ، وقال له احفظ ما يقوله الصاحب ، وأَعِدْه علىّ . فكان من جملة قول الصاحب : والله لاكتبتُ والأعزّ يكتب معى أبداً . فعند ذلك ، خرج السلطان على ابنه الكامل وانتهره ، وأغلظ فى القول ، وقال : يُسَلِّم الأعز إلى الصاحب فى هذه الساعة ! .

فلما عاد الكامل إلى القلعة ، تلقاه الأعز على عادته . فقال : قد أمر السلطان بتسليمك للصاحب ، وخرج علىَّ بسببك ، وعجزت عن حمايتك . فقال له الأعز : يا مولانا ، والله عداوتى للصاحب بسببك ! وهو أنه كاتبنى فى حقك أنه لابد أن يعمل على صرفك من مملكة الديار المصرية ، وأن يجعل عوضاً عنك الأشرف موسى . وهذه كُتُبُه إلىّ . فلما وقف الكامل على الكتب كان من جملة ما تضمنته : «وأما هذا المجنون ـ يشير إلى الكامل ـ فلابد من صرفه ، وإحضار الأشرف إلى الدّيار المصرية » . وتضمنت من سبه وشتمه كثيراً .

فعاد الكامل للعادل ، والكتب معه ، وجاء فى غير الوقت المعتاد . فقال له العادل : ما جاء بك الآن ؟ فقال : هذا الصاحب يريد أن يوقع بين السلطان وأولاده ، وبين الإخوة . هذه كتبه للأعز ، وعداوته بسببها . فلما وقف العادل عليها ، عظم عليه سبه لابنه ـ وكان العادل يدارى جميع أولاده ، خوفاً أن يقوم أحدهم عليه ، فَتَنخَرِق حُرْمَتُه ـ فقال نَعْزِلُه ، ولا يُسَلَّم إليه الأعز . ويكتب الأعز وحده .

فخرج الكامل لوقته ، واستدعى الأعز فخر الدين أبا الفوارس مقدام ، بن القاضى جمال الدين أحمد بن شكر . وأمر أميرَ جانداره[١] بجمع الدواوين وتسليمهم للأعز . فسلمهم إليه . وجلس الصاحب الأعز ، وتحدث فى الوزارة لوقته . وقام الصاحب صفى الدين من مجلس الوزراة ولازم داره . ثم كان من خبر مصادرته ، وإخراجه من الديار المصرية ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى .

ذكر حادثة الأمير عز الدين أسامة واعتقاله والاستيلاء على قلاعه

كان الأمير عز الدين أسامة الجَبَلى من أكابر الأمراء ، وصهر الملك العادل . وهو الذى بنى الجسر الذى على نهر الأردن ، المعروف بجسر أسامة . وقيل أنه هو الذى بنى قلعة عَجْلُون[٢] . وكانت داره بدمشق ، التى هى الآن

---

(١) وصف « القلقشندى » « وظيفة » « أمير جاندار » بقوله :

« إمرة جاندار » : وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان . ويقدم البريد مع كاتب السر . وصاحبها كالمتسلم للباب . وإذا أراد أحد تعزير أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ٢٠)

وهذه الكلمة مكونة من جزءين : جان بالفارسية ومعناها روح ، ودار ومعناها صاحب . فهذه الوظيفة تشبه وظيفة الحاجب أو الأمين الأول .

(٢) قلعة من جند (إقليم) الأردن . مبنية على جبل يعرف بجبل عوف ، تشرف على الغَوْر . وهى مُحْدَثَة البناء ، بناها أسامة بن منقذ من أمراء السلطان صلاح الدين فى سنة ٥٨٠ ، وكان مكانها دير به راهب اسمه عجلون ، فسميت به . وهى حصن ـ على صغره ـ جليل منيع .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ١٠٥ ـ ١٠٦)

نقول : وماورد هنا فى صبح الأعشى يخالف ما ذكره المؤلف (النويرى) فى المتن من أن أسامة الجبلى هو الذى بنى قلعة عجلون . وظاهر أن حقيقة الاسم هو أسامة الجبلى هذا ، وأما رواية القلقشندى ففيها التباس بين أسامة هذا وأسامة بن منقذ ، الذى كان فى شيزر ولم يكن هنا .

المدرسة البَادَرَائِيَّة (١) بدمشق .

فاتهمه السلطان بمباطنة الملك الظاهر صاحب حلب ، واستوحش هو أيضاً من السلطان الملك العادل وأولاده ، فقصد الانحياز إلى قلاعه ـ وكان له عَجْلون وقلعة كَوْكَب (٢) . واتفق أن السلطان توجه فى هذه السنة إلى ثغر دمياط ، وصحبته أولاده الملك الكامل والملك المعظم والملك الفائز ، فاغتنم عز الدين أسامة غيبتهم ، وركب من القاهرة فى يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة ، وخرج وأظهر أنه يريد الصيد .

فلما مر ببِلْبِيس ، بَطَقَ (٣) متوليها إلى السلطان يخبره . فقال الملك العادل : من ساق خلفه فله أمواله وقلاعه . فانتدب الملك المعظم لذلك . وركب من ثغر دمياط ليلة الثلاثاء ، غرة شهر رجب . وساق فى ثمانية ممن يعتمد عليهم ، وعلى يده حصان جَنِيب (٤) فوصل إلى غزة صبح الجمعة ،

---

(١) نسبة إلى نجم الدين البَادَرَائى رسول الخليفة إلى الشام ومصر ـ الذى سيأتى ذكره ـ لأنه هو الذى بناها بدمشق . وهو منسوب إلى (بادَرَايَا) وهى بلدة صغيرة بالقرب من موقع واسط بالعراق ، مشهورة بتمرها الغاية فى الجودة .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٢٨)

وهذا الاسم يطلق على موضع آخر بالنهروان . ـ كما ذكر ياقوت ـ ولكنه ليس المقصود هنا .

(٢) أما عجلون فقد تقدم ذكرها . وأما قلعة كوكب فهى أيضا من القلاع التى كان لها شأن فى عهد الحروب الصليبية . ويقول عنها ياقوت (جـ ٧ ـ ٣٠١) : ـ « اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية ، حصينة رصينة ، تشرف على الأردن . افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد » . أهـ .

(٣) بطق : أى أرسل بطاقة كتب فيها ما يريد .

(٤) أى حصان يأخذه المسافر معه للحيطة ، ليبادل الركوب عليه ويريح الحصان الأول .

وسبق أسامة إليها ، وأمسك عليه الطرق . وأما أسامة فإنه تقطعت عنه مماليكه ومن كان معه ، وبقى وحده ، وبه مرض التَّقْرِس . ووصل إلى الدَّارُوم[1] فعرفه بعض الصيادين ، فأعطاه أسامة ألف دينار ، وقال : خُذْ هذه وأوصلنى إلى الشام . فأخذه وجاء إلى رفاقه فعرفوه ، وتوجهوا به على طريق الخليل ، ليتوجهوا به إلى عَجْلون . فوصلوا به إلى القدس ، فى يوم الأحد سادس من شهر رجب . ونزل بصِهْيَوْن ـ وهى ضيعة بالقدس .

وعلم به الملك المعظم ، فأرسل إليه بثياب وطعام ، ولاطفه ، وقال له أنت شيخ كبير ما يصلح لك الحصون ، فسَلِّمْ الىَّ كوكب وعجلون . وقال أنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك ، وتعيش بيننا مثل الوالد . فامتنع من ذلك ، وسب المعظم أقبح سب . فلما يئس منه ، بعث به إلى الكَرَك[2] واعتقله بها واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره . فكان قيمة ما أخذ له ألف ألف دينار .

وأما السلطان الملك العادل فانه كان توجه فى العشرين من جمادى الأولى إلى ثغر دمياط ، وتوجه منه إلى ثغر الاسكندرية ، ثم عاد وتوجه إلى الشام ، فى ثانى شوال من هذه السنة . وحاصر كوكب أشد حصار ، واستولى عليها . وأخذ منها أموالا عظيمة وهدمها وعَفَّى أثرها . وذلك فى العشر الأوسط من ذى القعدة

---

(١) قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر . فيما يرى البحر ، ألا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ .
(المعجم : جـ ٤ ـ ١٣)

(٢) بفتح أوله وثانيه . قلعة حصينة جدا وفى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها ، بين أيلة وبحر القلزم (البحر الأحمر) والبيت المقدس . وهى على سن جبل عال ، تحيط بها أودية ـ إلا من جهة الربض (أى قريتها) .
(ياقوت : جـ ٧ ـ ٢٤٠)

ذكر وفاة الملك الأوحد صاحب خلاط
واستيلاء أخيه الملك الأشرف عليها

وفى هذه السنة ، كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب ، بن السلطان الملك العادل ، وهو صاحب خِلاَط . وكانت وفاته بمَلاَزْكِرْد [1] فى ثامن شهر ربيع الأول ، ودُفن بها .

وكان قد استزار أخاه الملك الأشرف من حرَّان ، فأقام عنده أياماً . واشتد مرضه ، فقصد الأشرف الرجوع إلى حرَّان لئلا يَتَخَيَّلَ [2] منه الأوحد . فقال له الأوحد : يا أخى كم تلح ؟ والله ، إنى ميت ، وأنت تأخذ البلاد ! ثم مات . فدفنه الملك الأشرف . وجاء إلى خِلاط ، واستولى عليها ، وعلى ما بها من الأموال .

فتوجه الملك العادل إليه ، وقد غضب لكونه [3] فعل بغير أمره . فلما وصل إليها ، اعتذر الملك الأشرف أنه إنما فعل ذلك خوفاً أن يسبقه غيره من ملوك الأطراف إليها ، فقبل عذره ، واستمر به فيها [4] . وأنعم السلطان على ولده الملك المظفر شهاب الدين غازى بميَّافَارِقِين وأعمالها .

---

(١) من بلاد أرمينية . كانت عندها الموقعة التاريخية الشهيرة التى هزم فيها السلطان ألب أرسلان الأمبراطورَ البيزنطى وجيشَه .

(٢) يتوهم أنه يدبر له أمرا .

(٣) فى (ع) : كونه . ويتكرر هذا فى مواضع مختلفة .

(٤) هذا تعبير نقابله فى المتن فى عدة مواضع . ومعناه أنه أقر استمراره فيها ، واليًا عليها .

واستهلت سنة عشر وستمائة :

ذكر قيام أهل مصر على الملك الكامل ، ورجمه

وفى جمادى الأولى سنة عشر وستمائة ، شَغَبَ العوامُّ بمصر على الملك الكامل ورجموه ،وسبب ذلك أن أبا شاكر النصرانى الطبيب كان الملك الكامل يميل إليه ، وكان إلى جانب الكنيسة المُعَلَّقَة بمصر مسجد قد عفى أثره ، فقصد العوام تجديده . فامتنع الكامل من إجابتهم إلى ذلك ، بسبب أبى شاكر . فثار العوام ، وقالوا لابد من عمارته . فركب الملك الكامل من القلعة ، وجاء إلى الكنيسة المُعَلَّقة [1] ، وكشف المكان بنفسه . فلما شاهده ، قال : ما كان هذا مسجداً قط . فاستغاث العوام ، وشغبوا ورموه بالحجارة ، فهرب منهم إلى القلعة .

وفيها توجه الملك الظافر الخِضْر ، بن السلطان الناصر : صلاح الدين يوسف بن أيوب ، من حلب لقصد الحج . فنزل بالقَابُون [2] فى يوم الأحد رابع شوال ، ثم انتقل إلى مسجد القَدَم [3] فى خامس الشهر . وكان الملك المعظم بحَوْرَان ، فوصل إلى دمشق ، وأدخله إليها وعمل له ضيافة . ثم توجه

---

(١) ذكر المقريزى عنها فى « الخطط » أنها « بمدينة مصر » ، فى خط قصر الشمع ، على اسم السيدة . وهى جليلة القدر عندهم .

(جـ ٤ ـ ص ٤٢٤)

(٢) موضع بينه وبين دمشق ميل واحد ، فى طريق القاصد إلى العراق ، وسط البساتين .

(ياقوت : جـ ٧ ـ ٤)

(٣) مسجد بدمشق . وأصله « مشهد القدم » . وهو من الآثار التى فى مدينة دمشق وغوطتها ، يقال إن هناك قبر موسى بن عمران .

(النجوم الزاهرة : جـ ٦ ـ ١٢٦ . حاشية ١)

إلى الحجاز ، صحبة الركب الشامى ، فلما وصل إلى المدينة زار رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأحرم بالحج من ذى الحُلَيْفَة (١) ، فلما انتهى إلى بَدْر وجد عسكر الملك الكامل قد سبقه من مصر إلى بدر ، خوفاً منه أن يتوجه إلى اليمن . فقالوا له : ترجع . فعلم مرادهم . فقال إنه قد بقى بينى وبين مكة مسافة يسيرة ، وإنى قد أحرمت . ووالله ما قصدى اليمن ولا أقصد غير الحج ، فقيدونى ، واحتاطوا بى ، حتى أقضى المناسك وأعود . فلم يوافقوه على ذلك ، وأعادوه إلى الشام فصنع كما صنع النَبى صلى الله عليه وسلم حين صده المشركون عن البيت : قصَّر وذَبَح ما تيسر ، وعاد إلى الشام .

وفيها توفى الأمير فارس الدين ميمون القَصْرى بحلب فى رابع عشر (٢) من شهر رمضان . وكان من أكابر الأمراء الناصرية . وكانت أعْزَاز إقطاعَه . وخلف أموالاً جَمَّة . وهذه النسبة إلى القَصْر الذى بالقاهرة ، كان تَرَبَّى (٣) فيه ـ رحمه الله .

---

(١) قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة . ومنها ميقات أهل المدينة .
(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ٣٢٩)

(٢) سبق أن عرفنا بها ، وهى بلدة وقلعة شمالى حلب .

(٣) كان آخر الأمراء الصلاحية ، الذين لعبوا دوراً هاما فى الأحداث السابقة . وبعد وفاته انتهت دولتهم .

واستهلت سنة إحدى عشرة وستمائة :

ذكر استيلاء الملك المسعود بن الملك الكامل على اليمن

وفى هذه السنة جهز الملك الكامل ابنه الملك المسعود ، صلاح الدين أَتْسِزْ ـ وهو أَقْسِيس [1] ـ إلى الحجاز ، ويتوجه من هناك إلى اليمن .

وكان سبب إرساله إلى اليمن أن الناصر أيوب ، بن سيف الإسلام بن أيوب ، قد توفى ، واستولى على اليمن سليمان بن شاهنشاه ، بن تقى الدين عمر ، بن شاهنشاه بن أيوب ـ باتفاق من أجنادها ـ وتزوج بأم الناصر . ووصل الخبر إلى الملك الكامل بذلك ، فجهز ابنه الملك المسعود . فرحل من بِرْكَةِ الحُبِّ [2] فى يوم الاثنين ، سابع عشر من شهر رمضان ، ومعه ألف فارس ، ومن الجَانْدَارِيَّة [3] والرُّمَاة خمسمائة و [كان] ذلك بعد أن سيره إلى خدمة السلطان الملك العادل بدمشق ، ولقبه بالملك المسعود ، وأعاده إلى القاهرة .

---

(١) هذا لقب الملك المسعود بن الملك الكامل . وقد شرحه ابن خِلِّكان فقال :
« وأطسيس بفتح الهمزة وسكون الطاء وكسر السين ـ هى كلمة تركية معناها بالعربية : ما له اسم . ويقال : إنما سمى بذلك لأن الملك الكامل ما كان يعيش له ولد ، فلما ولد له المسعود المذكور قال بعض الحاضرين فى مجلسه من الأتراك : فى بلادنا إذا كان الرجل لا يعيش له ولد سماه : أطسيس ، فسماه أطسيس . والناس يقولون : أقسيس بالقاف . وصوابه بالطاء .

(وفيات الأعيان : جـ ٤ ـ ص ١٧٠)

وهى مذكورة هنا فى المتن بالتاء . وهو تخفيف من الطاء .

(٢) يقع موضعها فى الجهة البحرية من القاهرة ، على نحو بريد منها . عرفت أولا بجُب عميرة ، ثم قيل لها أرض الجب ، ثم عرفت ببركة الحاج لنزول الحجاج بها فى مسيرهم من القاهرة وإليها . وكانت إحدى المتنزهات بظاهر القاهرة يبرز إليها الملوك للصيد .

(المقريزى : الخطط جـ ١ ـ ٤٨٩)

(٣) سبق أن شرحنا وظيفة (الجاندار) . والجاندارية : فئة من المماليك السلطانية كانوا من خواص السلطان الملازمين له من حرسه أو حاشية قصره . وواحدهم « جاندار » .

فتوجه إلى مكة ـ شرفها الله تعالى ، فلما قضى مناسك الحج توجه إلى بلاد اليمن . فكان وصوله إلى زَبِيد فى يوم السبت مستهل المحرم ، سنة ثنتى عشرة وستمائة . فملكها من غير قتال ، وتسلم ثمانية حصون من تِهامة . وندب قطعة من العسكر لحصار تَعِزّ ـ[1] وكان سليمان قد تحصن بها ـ ففتح الحصن فى ثالث صفر ، ودخله العسكر المسعودى ، ومُسِك سليمان واعتُقِل . ثم جهزه إلى الديار المصرية هو زوجته .

وكانت صنعاء فى يد عبد الله بن حمزة ـ المدعى الخلافة ـ فجرد الملك المسعود إليه عسكرا ، فوصل العسكر إلى صنعاء فى مستهل جمادى الأولى . فهرب عبدالله لما سمع بقرب العسكر ، وجعل لا يخرج من مدينة إلا بعد تخريب أسوارها ، وتعفية ما يستطيع من أثرها ، وهدم منار المساجد ، ولحق بالجبال وتعلق بها . وملك الملك المسعود البلاد . وكان جَبَّاراً فاتكا ، فيقال إنه قتل باليمن ثمانمائة شريف ، وخلقاً كثيراً من الأكابر .

وفيها استولى الملك المُعَظَّم ـ شرف الدين عيسى ـ على قلعة صَرْخَد[2] ، وأخذها من ابن قَرَاجا ، وعوضه عنها مالاً وإقطاعا ، وأعطاها لمملوكه ، أستاذ داره عز الدين أَيْبَك المعظمى . فبقيت فى يده إلى أن أخرجه منها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فى سنة أربع وأربعين وستمائة .

---

(١) بالفتح ثم الكسر والزاى المشددة ـ كما ضبطها ياقوت ـ : قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات . (المعجم : جـ ٢ ـ ٣٩٣)

(٢) سبق ذكرها . وهى قلعة حصينة وولاية حسنة ملاصقة لبلاد حوران .

وفيها أُحدثت المعاملة بالقَرَاطِيس السُّود العادِلية بدمشق ، كما يتعامل الناس بالورق بالديار المصرية . فبقيت زماناً ، ثم بطل ضَرْبُها وتناقَصَتْ من أيدى الناس ، إلى أن توفى الملك العادل .

وفيها توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن الملك العادل ، من دمشق إلى الحجاز . وجدد فى الطريق البِرَك والمَصَانِع والمناهل ، وأحسن إلى الناس ، وتصدق ، وحَجَّ قارِناً ـ وكان حَنَفِىَّ المذهب ـ وعاد إلى الشَّام .

وفيها اهتم السلطان ـ الملك العادل ـ بعمل الميدان الذى بسوق الخيل ، بظاهر القاهرة ، والفساقى المجاورة لها .

وفيها ، فى ثالث شهر ربيع الأول ، فوض تدريس الحنفية ، بالمدرسة النُّورِية بدمشق ، للشيخ جمال الدين محمد بن الحَصِيرى[1] العَجَمى . وحضر الملك المعظم درسه مع الفقهاء .

واستهلت سنة ثنتى عشرة وستمائة :

فى هذه السنة ، وصل الملك المعظم شرف الدين عيسى من الحجاز ، وصحبته الأمير السيد الشريف : سِالم بن قاسِم[2] ، أمير المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . وكان قد شكى من قَتَادَة : أمير مكة ، فوعده بالمساعدة عليه . فلما وصل الآن معه ، اجتمع بالسلطان الملك

(١) نسبة إلى حصيرة ـ وهى إحدى قرى بخارى ـ فيما وراء النهر . كما سيرد ذكره فى المتن .

(٢) هو سالم بن قاسم بن مهنا من الأشراف ، من بنى الحسن ، الذين كانوا أمراء المدينة . وكان الشريف سالم هذا مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى فتوحاته ، يتبرك به ويتيمن بصحبته ويرجع إلى قوله . وبقى إلى أن حضر إلى مصر للشكوى من قَتَادة فمات فى الطريق قبل وصوله إلى المدينة .
(القلقشندى : صبح الأعشى : جـ٤ ـ ص ٣٠٠)

العادل ـ وكان بخَرِبَةِ اللُّصُوص[١] ـ وقَدَّمَ الشريف إلى السلطان ما أحضره ـ على سبيل الهدية ـ من تُحف الحجاز ، وعشرين فرساً من خيل الحجاز ، فأكرمه السلطان . واستخدم معه جماعة من أمراء التركمان والرجال ، فتوجه بهم فى ثالث عشر شعبان .

واتفقت وفاته قبل وصوله إلى المدينة ، فقام ولد أخيه الأمير جَمَّاز بن شِيحَه بالأمر بعد عمه ، واجتمع أهله على طاعته . فمضى من كان مع عمه لقصد قَتَادة أمير مكة . فجمع قتادة[٢] عسكره وأصحابه والتقوا بوادى الصَّفْراء[٣] . وكان الظفر لجَمَّاز ومن معه ، واستولوا على عسكر قَتَاده ، قتلا ونهبا وأسرا . وانهزم قتادة إلى الينْبُع[٤] وتحصن بقلعته ، فتبعوه وحصروه .

---

(١) واقعة على الطريق بين بيسان ودمشق .
(عن السلوك ـ زيادة : جـ ١ ـ ٢٨١)

(٢) هو « قتادة » بن إدريس ، من الأشراف من ذرية الحسن بن على . وهو أول أمراء مكة من فرعه ، أخذها من الهواشم وهم فرع آخر من بنى الحسن (سنة ٥٩٩) وخطب للناصر العباسى الخليفة ببغداد ، وتعاظم أمره حتى ملك مع مكة والينبع أطراف اليمن وبعض أعمال المدينة ونجد . وكانت وفاته سنة ٦١٧ . وأسرته هم « بنو قتادة » ، وقد بقيت مكة فى أيديهم حتى عهد الوهابيين .
(القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ٢٧٢)

(٣) وادٍ من ناحية المدينة ، كثير النخل والزرع والخير ، فى طريق الحاج . وبينه وبين بدر مرحلة . والصفراء قرية كثيرة النخل والزرع وماؤها عيون كلها ، وهى فوق ينبع مما يلى المدينة .
(ياقوت : المعجم : جـ ٥ ـ ٣٦٧)

(٤) هى عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر على سبع مراحل من المدينة وهى قرية غناء وقيل : ينبع حصن به نخيل وماء وزرع .
(معجم البلدان : جـ٣ ـ ٢٥١)

ثم عاد من كان مع الأمير سالم من التركمان وغيرهم ، صحبة الناهِض ابن الجرّخِي ، وفى صحبتهم كثير مما غنموه ، من أموالِ قتادة ومن النساء والصبيان . وظهر منهم جماعة من الأشراف ، فسلموا إلى أكابر أشراف دمشق ، ليكفلوهم ويشركوهم فى وقف الأشراف

وفى هذه السنة حصل الشروع فى عمارة المدرسة العادِلية [1] بدمشق وحضر السلطان الملك العادل لترتيب وضعها .

وفيها فى سابع من شهر ربيع الأوّل ، عزل قاضى القضاة : زكى الدين أبو العباس الطاهر ، بن محيي الدين ، [عن] الحكم بدمشق وأعمالها . وولى من الغد الشيخ جمال الدين الحَرَسْتَانِى [2] ، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة وشهور .

وفيها أبطل السلطان الملك العادل ضمان الخمر والقِيان بدمشق ، فى رابع عشرين جمادى الآخرة . وبقى الأمر على ذلك ، إلى أن توفى الملك العادل فى سنة خمس عشرة وستمائة .

---

(١) نسبة إلى السلطان الملك العادل ، لأنه هو الذى بدأ بناءها ، وإن كان الذى أتمها هو ابنه المعظم عيسى . وصارت من المدارس الكبيرة . درس بها الجمال المصرى ـ على ما سبقت الإشارة إليه .

(٢) نسبة إلى « حرستا » : وهى قرية كبيرة عامرة فى وسط بساتين دمشق ، على طريق حمص ، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ .

(معجم البلدان : جـ٣ ـ ٢٥١)

وفيها وصل رسول الخليفة من بغداد ، وهو الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِى[١] ونزل بَجْوسَق[٢] العادل . وتوجه إلى السلطان فلحقه بالقُدْس الشريف ، فأدى الرسالة وعاد ، فى خامس عشر شوال .

وفيها ـ فى منتصف شعبان ، توفى الشيخ الصالح العارف : أبو الحسن على بن حُمَيْد ، المعروف بابن الصَّبَّاغ قدس الله روحه . وكانت وفاته بِقنا ـ من الأعمال القُوصِيَّة من الصعيد الأعلى . ودفن بجانبها عند قبر شيخه : الشيخ السيد القطب عبد الرحيم[٣] . وضريحها من المزارات المشهورة ـ نفع الله تعالى بهما .

---

(١) كنيته (أبو حفص) واسمه : « عمر بن محمد بن عبد الله » ولقبه شهاب الدين ، ونسبه يتصل بأبى بكر الصديق . كان فقيهاً شافعى المذهب ، شيخاً صالحاً ورعا ، كثير الاجتهاد فى العبادة والرياضة ، وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية . وقرأ الأدب وعقد مجالس الوعظ سنين . وأشهر مؤلفاته « عوارف المعارف » . كان شيخ الشيوخ ببغداد . كان مولده بسهرورد سنة ٥٣٩ هـ ، وتوفى سنة ٦٣٢ هـ .
(ابن خلكان . وفيات الأعيان : جـ٣ ـ ١١٩)

(٢) الجوسق : القصر . « القاموس » .

هامش ص ٤٠

(٣) هو السيد الإمام عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائى الشريف الحسنى . قدم من سبته بالمغرب فأقام بمكة سبع سنين ثم قدم قنا فأقام بها سنين كثيرة ، إلى أن مات وعمره ثمانون سنة . كان أحد الزهاد المشهورين والعباد المذكورين ، تخرج به جماعة من الصالحين . وكراماته كثيرة . توفى سنة ٥٩٢ هـ .(٩ من صفر) .
(السّيوطى : حسن المحاضرة : جـ١ ـ ص ٢٢٠)

وأخذ عنه الشيخ أبو الحسن على بن الصباغ القوصى ، صوفى كبير هدى الله به خلقا كثيرا وصحبه جماعة من العلماء . وله كرامات كثيرة . كانت وفاته بقنا فى منتصف شعبان سنة ٦١٢ .
(المصدر السابق)

واستهلت سنة ثلاث عشرة وستمائة :

فى هذه السنة كانت الحادثة بين أهل الشَّاغُور [١] والعُقَيْبَة [٢] بدمشق . وحملت كل طائفة منهم السلاح ، واقتتلوا . فركب العسكر للفَصْل بينهم [٣] . وحضر الملك المعظم من جَوْسَق الرئيس لتسكين الفتنة ـ وكان مقيماً به . وقبض على جماعة من مقدمى الحارات واعتقلوا ، بسبب ذلك .

ذكر القبض على الصاحب الأعز

وفى يوم الاثنين ، سابع عشر جمادى الآخرة ، سنة ثلاث عشرة وستمائة . قبض الملك العادل على وزيره الصاحب فخر الدين الأعز ، وضربه وقيده ، وحمله إلى قلعة بُصْرَى [٤] فاعتقله بها .

وكان لذلك أسباب : منها أنه صرف ما غرم على القبة بالشافعى من مال الديوان ـ وكان وتقرر صرفه من مال الديوان الكاملى . ومنها أنه كشف على الأموال التى أنفقت فى تجهيز الملك المسعود إلى اليمن ، وكانت جملة عظيمة ، فأنكر عليه ذلك ، وفعل به ما فعل .

---

(١) محلة بالباب الصغير من دمشق مشهورة ، وهى فى ظاهر المدينة .
(معجم البلدان : جـ٥ ـ ٢١٥)

(٢) هى قرية من ضواحى دمشق .
(المعجم : جـ٢ ـ ص ١١٨ ـ ١١٩)

(٣) فى النسختين (ع) ، (ك) : « فركب العسكر لابسا بسببهم » . والمعنى لا يفهم . فصححناه من « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزى ، فصار : « للفصل بينهم » كما أثبتناه فى المتن .

(٤) هى قصبة كورة « حوران » ـ وهى من أعمال دمشق ، مشهورة عند العرب قديما وحديثا .
(ياقوت : جـ٢ ـ ٢٠٨)

وعرضت الوزارة على القاضى الأشرف : أحمد بن القاضى الفاضل عبد الرحيم ، فتوقف عنها . ثم خوطب فقال : كان والدى فى الأيام الناصرية لا يكتب فى الدولة . فأجيب إلى ذلك ، واستقرت القاعدة أنه يتحدث فى الأموال بلسانه ، دون قلمه . ورتب القاضى عماد الدين بن جبريل صاحب ديوان الدولة ، ورتب شمس الدين أبو القاسم بن التبنى وزير الصُّحْبة .

وفيها فى شهر المحرم ، صرف قاضى القضاة عماد الدين عبد الرحمن ، ابن عبد العلى بن على السُّكَّرِى[1] ـ عن القضاء بالديار المصرية .

وكان سبب ذلك أن السلطان عقد مجلساً بحضوره بسبب وقف المدرسة ـ التى أوقفها إبراهيم بن شروه[2] ، وولى القطب ، قاضى قُوص ، النظر عليها ـ فلم يمض القاضى عماد الدين الوقف . فقال السلطان : هذه القضية أنا أعرفها وأشهد بها . فامتنع من إثباتها . فغضب السلطان ، وأشهد على نفسه بعزله فى المجلس . ثم صرف عن الخطابة بالجامع الحاكمى ، وولاها الشيخ بهاء الدين بن الجُمَّيْزِى[3] لأربع بقين من شهر ربيع الآخر من السنة .

---

(١) ذكره « السيوطى » بين كبار فقهاء الشافعية ، وقال عنه أنه « ولد بمصر ، سنة ٥٥٣ . وتفقه على الشهاب الطوسى . وله مصنف كبير فى الفقه وحواشى على الوسيط ، ونقل عنه ابن الرفعة . ولى قضاء الديار المصرية . ومات فى شوّال سنة ٦٢٤ .

(حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ١٧٢)

(٢) أخو سليمان (فلك الدين) بن شروه . وهو أخو العادل لأمه .

(٣) ستأتى ترجمته فى ملحق عند سنة وفاته (٦٤٩) .

ولما عزله السلطان عن القضاء ، استشار شيخ الشيوخ : صدر الدين أبا الحسن بن حَمَّويه[١] ، فيمن يوليه القضاء . فأشار أن يقسم العمل شطرين : قِبْلِيًّا وبحريًّا ، وأن يولى ابن عين الدولة القاهرة والوجه البحرى ، وابن الخَرَّاط مصر والوجه القبلى . فعمل برأيه .

وفوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحرى للقاضى شرف الدين بن عين الدولة ، فى يوم السبت ثانى صفر منها ـ وقيل فى المحرم ـ وفوض قضاء مصر والوجه القبلى للقاضى تاج الدين : أبى محمد عبدالسلام بن على بن الخراط ـ وكان قاضى دمياط ـ وذلك فى يوم الاثنين سابع عشر صفر ـ وقيل فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرم .

هذا هو السبب الظاهر [للناس[٢] فى عزل القاضى عماد الدين بن السكرى] وأما السبب الباطن ـ وهو مما أخبرنى به والدى رحمه الله تعالى عن جده زكى الدين عبدالدايم ، وغيره ـ أن الفقيه الشيخ الصالح الشهيد الناطق : رضى الدين : عبدالرحمن العقيلى ، المعروف بالنُّوَيْرى (وهى نسبة انتقال ، وانما هو قدم من بلاد المغرب مع أبيه وسكنا النُّوَيْرة ، واستطونها

---

(١) الموجود فى النسختين : « صدر الدين حسن بن حمويه » . وصوابه : أبا الحسن محمد . وقد صوبناه فى المتن . وهو « صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجوينى » . قال عنه « ابن الأثير » : « كان فقيها فاضلا وصوفيا صالحا ، من بيت كبير من خراسان .

(الكامل جـ ١٢ ـ ص ١٦٥) .

وذكر السيوطى أن السلطان صلاح الدين ولى صدر الدين بن حمويه التدريس بالمدرسة الصلاحية التى كانت « تاج المدارس » بعد وفاة الشيخ نجم الدين الخبوشانى فى عام ٥٨٧ هـ . وكان ولاه قبل ذلك مشيخة « خانقاه سعيد السعداء » وهى أول خانقاه (أى دار للصوفية) عملت بديار مصر .

(حسن المحاضرة : جـ٢ ـ ص ١٤٠ ـ ١٤١)

(٢) هذه الجملة بين القوسين زيادة من نسخة (ع) وليست موجودة فى النسخة (ك) .

الشيخ عبد الرحمن وخدمه أهلها ، وكانوا يفتخرون بالانتساب إلى خدمته ، واختص بخدمته جد والدى زكى الدين عبد الدايم ، فكان أخص الناس به ، وأعلاهم منزلة عنده) ـ كان مع ما هو عليه من العبادة والصلاح المشهور ، ينوب عن القاضى عماد الدين فى الحكم بالنُّوَيْرة ، وما معها . فاتفق أن رجلين[1] تَدَاعَيَا فى بقرة ، فكتب أحدهما محضراً أن البقرة ملكه وشهد فيه جماعة من الشهود ، وأدوا شهادتهم بذلك عند الفقيه ، ولم يبق إلا تسليمها لصاحب المحضر .

فتأمل الفقيه البقرة ، ونظر إليها . وسأله الذى شهد له الحكم بما ثبت عنده ، وتسليمها إليه . فقال : كيف أسلمها إليك ، وهى تقول أنها لخصمك ، وتخبرنى أن المحضر زُور ـ أو ما هذا معناه ؟! . وسلمها لخصمه . فاعترف الخصم الذى أثْبَت بصحة ما أخبر به الشيخ الفقيه رضى الدين عن البقرة ، وأظهر التوبة والإنابة . فلما اتصلت هذه الواقعة بالقاضى عماد الدين ، كتب إلى الشيخ رضى الدين يقول : كان ينبغى أن تعمل فى هذه القضية بظاهر الشرع ، وتسلم البقرة لمن أثْبَتَ . وعزله عن نيابته .

فلما اتصل العزل به ، قال لمن حضر عنده : اشهدوا علىّ أنى قد عزلته ، وعزلت ذريته من بعده . فعُزل فى تلك الساعة . ولم يعد إلى القضاء بعدها ، ولاولى القضاء بعده أحد من ذريته . وأعرف أن القاضى عماد

---

(١) الموجود فى كلتا النسختين : « أن رجلان » . فصححناه . وهذا مثل من الأخطاء النحوية .

الدين ، ولدُ ولده فُوه له بالقضاء غير مرة ، [وعُيِّن][1] وربما فُصِّلت له خِلْعةُ الولاية ، ورُسم بكتابة تقليده ، ثم يُعدَل عنه إلى غيره ، ولا يتم أمره . ومات ـ رحمه الله تعالى ـ ولم يل القضاء . ولم يبق من ذريته فى وقتنا هذا من فيه أهلية لذلك . وهذه الحكاية التى ذكرتها لا أشك فيها ولا أرتاب ، وهى مشهورة يعرفها كثير من الناس .

وفى سنة ثلاث عشرة وستمائة ـ فى العشرين من جمادى الآخرة ـ توفى الملك الظاهر : غياث الدين غازى ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، صاحب حلب ـ رحمه الله تعالى بحلب .

وكان مولده بالقاهرة ، فى منتصف شهر رمضان ، سنة ثمان وستين وخمسمائة . وملك بعده ولده : الملك العزيز غياث الدين محمد . وكان صغير السن ، يقال كان عمره ثلاث سنين ، فقامت ضَيْفَة[2] خَاتُون ـ ابنة الملك العادل ـ بتدبير الدولة . ونصبت شهاب الدين طُغْرل الخادم فى أَتَابِكِيَّة[3] الدولة .

---

(١) زيادة من النسخة (ع) غير موجودة فى النسخة (ك) .

(٢) روى أبو الفداء أنها سميت بذلك لأنه «كان عند أبيها الملك العادل يوم مولدها بحلب ضيف ، فأسماها ضيفة» . وكان العادل واليا على حلب إذ ذاك .
(المختصر فى أخبار البشر : ص ١٢١)

(٣) كلمة تركية مركبة من لفظين : «أتا» ومعناها أب ، و «بك» ومعناها أمير .
فمعناها بالعربية : «الأمير الأب أو الوالد» . وكانت تطلق على مُرَبّى أولاد الملك ، ثم صارت بمعنى الوصى والنائب على المملكة أو كبير العسكر .

ذكر مصادرة الصاحب صفى الدين بن شكر ونفيه من الديار المصرية

كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل ، لما قدم من الشام ، ظن الصاحب صفى الدين أنه يعيده إلى الوزارة . فصار يركب فى المواكب ، ويستعرض للقاء السلطان . ثم فتح بابَه وصار الناس يدخلون إليه ، والأعز وغيره يذكرون ذلك للملك الكامل . فاتفق أن الملك الكامل مَرَّ بدار الصاحب فوجد الخيل على بابه ، فقال لمن معه من الأمراء : ما هذا إلا أحمق ! يفتح بابه ويأمر الناس أن يدخلوا إليه ويمد السِّماط ، والسلطان غير راضٍ عنه . فبلغ العادل ما قاله الكامل . فقال فى مجلسه : ما يكفى ابنَ شكر أنه أخذ مالى ، حتى أطَّرَح جانبى بفتح بابه .

فاتصل ذلك بالصاحب ، فركب إلى القلعة ، وأراد الاجتماع بالملك الكامل ـ وكان الملك الكامل على الشراب . فسير إليه ، وقال ما حاجتك ؟ فإن لنا الآن شغلاً ! فقال : القصد أن يستخدمنى السلطان ، أو يتركنى أخرج من بلاده . وسأل أن يكون الكامل سفيره عند أبيه الملك العادل . فَعَزَّ كلامه عليه ، وقال للرسول قل له : هذا ما لا أدخل فيه .

فعاد خَجِلاً ، ومضى إلى دار والدة الملك المعز مجير الدّين يعقوب ، بن السلطان الملك العادل ، وتعلق بذيل ستر الباب . ووافق أن العادل كان عندها فى ذلك الوقت . فعظم ذلك عليه . لكونه قصد زوجته ، وأراد قتله ، ثم سكن ، وأرسل إلى الملك الكامل يقول : إن ابن شكر أخذ منى وأنا على سِنْجَار ستمائة ألف دينار ، فطالبه بها .

فأحضره الملك الكامل فى مجلس شرابه ، ووبخه ، وأمر بأخذ أملاكه وحسبها له ، بستمائة ألف دينار . ثم حضر جماعة بعد ذلك إلى الملك الكامل ، فقالوا : هذا كان فى ابتداء أمره قَطّاناً ، فمن أين له هذا المال ؟ فقال ابن التبنى : أنا صانعته عن نفسى بمائتى ألف دينار ، وصانعه شهاب الدين بن الفاضل بثلاثمائة ألف دينار . فنقل المجلس إلى الملك العادل ، وذكر له من أخذ منه المصانعات ، فأمر بنفيه .

فاستمهل إلى أن يبيع موجوده ، فأذن له . فشرع فى بيع موجوده إلى أن كمل ثم أرسل إليه السلطان يقول : أخرج من بلادى إلى بلد ، لا تقام لى فيه خطبة . فخرج من القاهرة فى يوم الخميس ، لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة . فلما وصل إلى بلبيس أمر السلطان الملك العادل بتعويقه ، وأخذ منه مالاً ووكل به أياماً ببلبيس ثم أطلقه فتوجه إلى آمِد[1] .

وفيها صادر السلطان الملك العادل حسامَ الدين يونس ، مُتولّى الإسكندرية ، على ثلاثمائة ألف دينار .

وفيها فى سابع شوال ، توجه العادل إلى ثغر الإسكندرية . وذلك أنه اجتمع بها من تجار الفرنج نحو ثلاثة آلاف رجل ، فخاف أهلُ الثغر جانبَهم .

---

(١) أعظم مدن ديار بكر (الجزيرة) على نهر دجلة .

(معجم البلدان : جـ ١ ـ ٦٢)

فخرج السلطان بعساكره إلى الثَّغر ، وبه مَلِكان[١] من ملوك الفرنج . فأحضرهما ، فذَكَرَا أن التجار صمموا على الوثوب بأهل الثغر وقتلهم ، وأخذه . فقَبَضَ حينئذ على تجار الفرنج واستصفى أموالهم ، واعتقلهم ، واعتقل المِلِكَيْن . وعاد إلى القاهرة ، فى سابع ذى الحجة من السنة .

واستهلت سنة أربع عشرة وستمائة :

ذكر مسير السلطان إلى الشام

وفى يوم الأحد ، التاسع من شهر رِبيع الآخر ، من هذه السنة ـ توجه السلطان الملك العادل إلى الشام ، لما بلغه قصد الفرنج بلاد الشام .

وكان رحيله من البِرْكَة[٢] يوم السبت لثمان بقين من الشهر ، وتوجه إلى البيت المقدس . وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، فى كتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين» أنه توجه إلى قلعة الكَرَك بذخائره وأمواله ، وأقام بها مدة ، وترك الأموال والذخائر بها .

وقال غيره : إنه بقى بالقدس إلى أن وصلت أمداد الفرنج فى البحر ، من روميه الكبرى ومن الغرب الشمالى ـ وكان المقدم عليهم صاحب روميه ـ فنزلوا على عكا . وسار الملك العادل على أنه يسبقهم إلى الماء بخَرَبة اللُّصُوص[٣] ، فسبقوه إليها . فلما قاربَهم ، حيَّد عنهم إلى جهة دمشق . فأغاروا

---

(١) فى (ع) : وبه ملكين . فلزم تصحيحه .

(٢) هى بركة الحج التى صارت تعرف ببركة الحاج . وقد سبقت الإشارة إليها . وهى تقع شمال شرق القاهرة ، أول منزلة منها فى الطريق إلى الشام .

(٣) سبق أن بينا موقعها ، وهى على الطريق بين بيسان ودمشق (فى الأردن) .

على بَيْسَان فنهبوها وما حولها ، وعادوا إلى مَرْج عَكَّا بالسبى والغنائم .

وجهزوا آلات الحصار ، وقصدوا الطُّور[1] ـ وكان العادل قد بناه فى سنة تسع وستمائة ـ فحاصروه سبعة عشر يوماً . فقُتِل بعض ملوكهم بسهْم ، ففارقوا الحصن . واستُشْهِد على حصار الطور من أبطال المسلمين : الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم ، وسيف الدين بن المَرْزُبَان ـ وكان من الصالحين الأجواد .

وكتب الملك المعظم إلى الخليفة كتاباً أوله :

قل للخليفةِ ـ لازالت عزَائِمُه ... لها على الكُفْرِ إبْرَاقٌ وإرْعادُ
إن الفرنج بأرض القُدْسِ قد نزلت ... لاتَغْفَلَنَّ ، فأرضُ القدس بَغدادُ

وفى نسخة :

إن الفِرِنْجَ بحصنِ الطُّورِ قد نزلوا ... لاتَغْفَلَنَّ ، فحِصنُ الطُّور بغدادُ

(١) بيناه من قبل . وهو جبل على مقربة من طبرية . كان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل قد بنى عليه قلعة حصينة أنفق عليها أموالا جمة . ولكن لما هاجمها الفرنج بعد ذلك أمر الملك العادل بهدمها ـ على ما سيجىء فى المتن .

ذكر قصد الفرنج جزين[١] وقتلهم

قال : ولما انفصلَ الفرنجُ ، قصد ابنُ أخت الهُنْكُر[٢] جبل صَيْدا وقال : لا بُدَّ لى من أهل هذا الجَبَل . فنهاه صاحب صِيدَا ، وقال إن أهله رُماة ، وبلده وَعْر . فلم يقبل قولَه . وصَعَد فى خمسمائة من أبطال الفرنج إلى مَدْيَن ـ وهى ضيعة المَيَادِنَة[٣] بالقرب من مَشْغَرا[٤] ـ فأخلاها أهلُها . ونزلها الفرنج وترجّلوا عن خيولهم للراحة . فتحدرت عليهم الميادنة من الجبال ، فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم . وأسروا ابن أخت الهُنْكُر . وهرب من بقى منهم نحو صيدا .

وكان معهم رجلٌ[٥] يقال له الجاموس ، كانوا أسروه من المسلمين ، فقال لهم أنا أعرف إلى صَيْدا طريقاً سهلا أوصلكم إليها . فقالوا : إن فعلت أغنيناك . فسلك بهم أودية وعرة ، والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون ،

---

(١) هذا اللفظ لم يكن واضحا فى (ع) . والضبط هنا حسب ما يوجد فى « Gronsset . Histoire des Croissnde III ; P . 205 .

(٢) أى ابن أخت ملك « الهنكر » وهذه هى الصيغة العربية لكلمة (Hangary) وهى المجر ، أى بلاد أو أهل المجر .

وذكر « زيادة » فى السلوك أن ملك الهنكر هذا كان هو Andre II ; Roi de Hongrie (السلوك : جـ ١ ـ ص ١٨٧)

(٣) سكان أو أهل « مدين » مع تحريف فى النطق .

(٤) قرية من قرى دمشق ، من ناحية البقاع .
وقرية على سفح جبل لبنان ـ (بالفتح ثم السكون وغين معجمة وراء)
(نقول : والأخيرة هى المقصودة هنا)

(معجم البلدان : جـ ٨ ـ ٦٤)

وقد ضبطناها كما ذكر ياقوت . أما فى (ك) فقد ذكرت : مسعرا أو مسفرا .

(٥) فى النسختين : (وكان معهم رجلا) !
وهذا مثل من الأخطاء التى أشرنا إليها .

ففهموا أن الجاموس قصد ذلك ، فقتلوه . ولم يُفْلِت منهم إلى صيدا غير ثلاثة ، وكانوا خَمسمائة . وجاءوا بالأسرى إلى دمشق ، وكان يوماً مشهوداً .

وفى هذه السنة ، احترق مسجد الحسين بالقاهرة .

وفيها ، توفى قاضى القضاة جمال الدين أبو القاسم : عبدالصمد بن محمد بن أبى الفضل ، الأنصارى الحَرَسْتَانى [1] وكانت وفاته بدمشق فى رابع ذى الحجة ، ودفن بقاسيون . ومولده فى سنة عشرين وخمسمائة . وأعيد القاضى زكىّ الدين إلى القضاء ، بعد وفاته .

واستهلت سنة خمس عشرة وستمائة :

ذكر تخريب حصن الطُّور [2]

فى هذه السنة استدعى السلطان الملك العادل ولدَه للملك المعظم ، وقال له : إنك قد بَنَيْتَ هذا الطُّور ، وهو يكون سبب خراب الشام ، وقد سلَّم الله تعالى من كان فيه من أبطال المسلمين ، والسلاح والذخائر . وأرى من المصلحة خرابَه ، ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط ، وأنا أعوضك عنه . وكانت دمياط قد حُوصرت ـ على ما نذكره . فتوقف الملك المعظم ، وبقى أياماً لا يدخل على أبيه العادل . فبعث إليه وأرضاه بمال ، ووعده ببلاد بالديار المصرية . فأجاب ، وبعث فنقل ما كان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجْلون والكَرَك ، ودمشق ، وهدمه .

---

(١) سبق شرح هذه النسبة ، وأنها إلى (حرستا) بغوطة دمشق .

(٢) هذا هو الطور بقرب طبرية بالأردن ، الذى تحدثنا عنه .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل
سيف الدين أبى بكر: محمد بن أيوب
وشىء من أخباره

كانت وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة ، سنة خمس عشرة وستمائة ، بعَالِقِين [١] .

وذلك أنه لما عرج عن الفرنج وقصد دمشق ، أقام بظاهرها مدة وهو مريض . فلما بلغه أخذ بُرْج السَّلْسِلَة بثغر دمياط ، ضرب بيده على صدره ، وانزعج ، وحصل له من الغم ما أفضى به إلى الوفاة ـ رحمه الله تعالى . ومات ، وله ست وسبعون سنة تقريباً . وذلك أنه سئل عن مولده ، فقال : ولدت سنة فتوح الرُّها . وذلك فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . وقيل كان مولده ببعلبك ، لما كان والده فى خدمة الملك العادل : نورالدين الشهيد .

ومدة ملكه تسع عشرة سنة [٢] ، وأربعين يوماً . ولما مات لم يشعر بوفاته غيركريم الدين الخِلاَطى . وكان ولده الملك المعظم عيسى بنابُلُس . وكان قد التقى مع الفرنج على القَيْمُون [٣] فى هذا الشهر ، فانتصر عليهم ،

---

(١) قرية بظاهر دمشق .
(زيادة : السلوك : جـ ١ ـ ص ـ ١٩)

(٢) فى النسختين (ك) و (ع) « تسعة عشر سنة » .

(٣) حصن قرب الرملة ، من أعمال فلسطين .
(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ١٩٩)

وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر من الدَّاوِيَّة[١] مائة فارس ، وأدخلهم القدس مُنَكَّسةً أعلامهم . وأقام بنابلس . فكتب إليه على جناح طائر يعلمه بالخبر ، فجاء يوم السبت إلى عالِقِين . فاحتاط على الخزائن ، وصبّر أباه العادل وكتم موته ، وجعله فى مِحَفَّة[٢] ، وعنده خادم يروح عليه ، ورفع طرف سِجاف المِحَفَّة وأظهر أنه مريض . ودخلوا به إلى دمشق فى يوم الأحد ، والناس يشيرون إلى من بالمِحَفَّة بالخدمة والسلام ، والخادم يومىء إلى جهة السلطان ، كأنه يخبره بمن يسلم عليه ، ودخلوا به إلى قلعة دمشق .

قال الشيخ شهابُ الدين أبو شامة ، وشمس الدين أبو المظفر سِبْط ابن الجَوْزى ، فى تاريخهما : ومن العجائب أنهم طلبوا له كَفَناً فلم يقدروا عليه ، فأخذوا عمامة النَّجِيب الفقيه ابن فارس فكفنوه بها ، وأخرجوا قُطْناً من مَخَدَّة فلفوه به ، ولم يقدروا على ما يحفرون به ، فسرق كريمُ فَأْساً من الخَنْدَق فحفروا له به . ودفن بقلعة دمشق ، إلى أن بُنِى له القبة المجاورة لمدرسته ، فنقل إليها فى سنة تسع عشرة وستمائة . وحصل لابنه الملك المعظم وَهْمٌ ، فلما دفن السّلطان قام قائماً ، وشقّ ثيابه ولطم على رأسه ووجهه .

---

(١) الداوية ، أو الديوية . سيرد ذكرهم أيضا فى المتن فيما بعد . ويردون فى مراجع تاريخ الحروب الصليبية . وهذا الاسم الذى أطلقه المسلمون على الطائفة التى عرفت فى أوروبا باسم « فرسان المعبد » (The Templars) وهى طائفة دينية من متزهبين تخصصوا لحرب المسلمين فى الحروب الصليبية فأصبحت فرقة حربية ، كانوا أشد المحاربين تعصبا وأكثرهم قوة وضراوة . ومعهم طائفة أخرى ، سيرد ذكرها فيما بعد ، سميت (الإسبتارية) .

(٢) المحفة : بالكسر : مركب للنساء كالهودج ، إلا أنها ليست لها قبة .

واشتهرت وفاته بعد دفنه . وعُمل عزاؤه ثلاثة أيام ، وصُلى عليه فى غالب مدن الإسلام . ونودى ببغداد : من أراد الصلاة على الملك العادل الغازى ، المجاهد فى سبيل الله ، فليحضر إلى جامع القصر . فحضر الناس وصلُّوا عليه صلاة الغائب . ولم يتأخر غير الخليفة . وتقدموا إلى خطباء الجوامع بأَسْرِهم ، فصلوا عليه بعد صلاة الجمعة .

وكان ـ رحمه الله ـ قد امتد ملكه واتسعت ممالكه . وكان ثَبْتاً حازماً ، حسن التدبير صفوحاً ، يدبّر الملك والممالك على الوجه المرضى ، متمسكاً بأوامر الشرع الشريف ونواهيه ، منفذاً للأحكام الشرعية ، عادلاً مجاهداً عفيفاً ، كبير الصَّدَقَة ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . طَهَّرَ جميع ممالكه من الخمور والفواحش بأسرها ، وأسقط كثيراً من المُكُوس والمظالم . وكان الذى يُتَحَصَّل من هذه الجهات بدمشق خاصة مائة ألف دينار ، فأبطل ذلك . وشدّدَ فى أمر الخمر ، ومنع من دخوله إلى دمشق ـ رحمه الله تعالى .

ذكر تسمية أولاد السلطان الملك العادل وما استقر لهم من الممالك والإقطاع

كان له رحمه الله تعالى من الأولاد الذكور سبعة عشر ، وهم :

الملك الكامل ، ناصر الدين محمد ، ملك الديار المصرية . والملك المعظم : شرف الدين عيسى ، صاحب دمشق والبيت المقدس ، والكَرَك[1]

(١) قلعة كانت شهيرة فى الحروب الصليبية ، وهى تقع فى طرف الشام إلى الجنوب من « البحر الميت » فى الجبال ، بين أيلة والبحر الأحمر (خليج العقبة) والبيت المقدس . وهى حصينة جدا على سن جبل عال ، تحيط بها الأودية العميقة من كل الجهات ، ما عدا جهة واحدة هى المتصلة بقرية صغيرة بجوارها . (معجم البلدان بتصرف)

والشَّوْبَك [١] ، والسواحل . والملك الأشرف : مظفر الدين موسى ، صاحب خِلاَط وما والاها وحرَّان والرُّها ، وما مع ذلك .

والملك المظفر شهاب الدين غازى ، صاحب مَيَّافَارِقِين وما والاها والملك المُظَفَّر شهاب الدين الحافظ أَرْسلاَن صاحب قلعة جَعْبَر [٢] وأعمالها . والملك العزيز : عثمان له بانْياس وتِبْنين وأعمال ذلك ، وعدة أماكن من بلد دمشق ، مثل نَوَى [٣] وغيرها . والملك الصالح : عماد الدين اسماعيل ، له قلعة بُصْرى وأعمالها ، والسواد جميعه ـ وهو والعزيز فى خدمة أخيهما الملك المعظم .

والملك الفائز : إبراهيم ، كان السلطان قد أقطعه الأعمال القُوصِية والملك المفضل : قطب الدين ، أقطعه السلطان أيضاً الأعمال الفَيُّومية ، فأقر الملك الكامل ذلك بأيديهما . والملك المعز : مُجير الدين يعقوب . والملك الأمجد : تقى الدين أبو الفضائل عباس ـ عند أخيهما الملك الأشرف صاحب خِلاَط . وله أيضاً غير هؤلاء : الملك القاهر : إسحاق ، وخليل ـ وهو أصغرهم .

---

(١) الشَّوْبك : (بالفتح ثم السكون . كما ضبطه ياقوت) : قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم ، قرب الكرك .

(٢) هى على الفرات ، بين بالِس والرَّقَّة . قرب صِفِّين .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ١٠٨)

(٣) بلدة صغيرة من إقليم حوران ، قريبة من دمشق .

(معجم البلدان : جـ ٨ ـ ٣١٨)

ومات له من الأولاد ـ فى حياته ـ أربعة ، وهم : شمس الدين مودود ، والد الملك الجواد يونس . والملك الأوحد : نجم الدين أيوب ، الذى افتتح خِلاَط ، كما تقدم . والملك المغيث : محمود . والملك الأمجد حسن ـ وهو شقيق الملك المعظم ، والملك العزيز .

وكان له عدة بنات ، أجلهن ضَيْفَة خَاتُون ، والدة الملك العزيز ، ابن الملك الظاهر صاحب حلب .

ولما مات السلطان الملك العادل ، أقر ولدُه ـ الملك المعظم ـ أحوالَ دمشق ، على ما هى عليه فى أيام والده ، بقية جمادى الآخرة . فلما استهل شهر رجب ، أعاد المُكوس وأطلق الخمور والمنكرات ، وما كان والده السلطان قد أبطله . فقيل له فى ذلك ، فاعتذر بقلة الأموال وقتال الفرنج .

ثم سار إلى بانياس ، وراسل الأمير صارم الدين التَّبِّينِى فى تسليم الحصون التى بيده ، فأجاب إلى ذلك ، وسلمها ، فأخرب الملك المعظم بانياس وتِبْنِين . وأعطى ما كان بيد أولاد الأمير فخر الدين جَهَارَكْس لأخيه الملك العزيز عثمان ، وزَوَّجه ابنةَ[1] جَهَارَكْس . ونزل الأمير صارم الدين وولده وأصحابه من الحصون ، فأكرمهم الملك المعظم وأحسن إليهم ، وأظهر أنه ما أخرب بانْياس وتِبْنِين ، إلا خوفاً من استيلاء الفرنج عليها .

---

(١) فى النسخة (ك) : وزوجة أبيه . وهو خطأ . فصححناه من النسخة (ع) ، وبذلك استقام المعنى .

ذكر أخبار السلطان الملك [الكامل][1] ناصر الدين ابن السلطان الملك العادل سيف الدين ، أبى بكر محمد بن أيوب

وهو السادس من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية .

ملك الديار المصرية بعد وفاة والده الملك العادل ، فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة . وكان قبل ذلك ينوب عن والده بها كما تقدم .

ونحن نذكر أخبار الملك الكامل ، وما اتفق من الحوادث والوقائع فى أيامه ، بالديار المصرية : فى كل سنة نبدأ بذلك ، ثم نذكر فى بقية السنة أخبار ملوك الشام من إخوته وغيرهم ، ومن توفى فيها من المشهورين ، ونأتى بالسنة التى بعدها ، على ما تقف عليه ـ إن شاء الله .

ذكر نزول الفرنج على ثغر دمياط

كان نزول الفرنج على ثَغْر دِمياط فى يوم الثلاثاء ، لثلاث خَلَوْن من شهر ربيع الأول ، سنة خمس عشرة وستمائة ـ وذلك قبل وفاة الملك العادل ، وهو إذْ ذاك بمَرْج الصُّفَّر[2] .

ونزلوا بالبر الغربى[3] . فخرج إليهم الملك الكامل بعساكره ، وكتب إلى السلطان بالخبر . فأرسل إليه عساكر الديار المصرية التى كانت فى صحبته . وأقام الملك الكامل بثغر دمياط بظاهرها ، واتصل القتال بين الفريقين .

---

(١) لم يوجد فى النسخة (ك) ، ولكنه مثبت فى النسخة (ع) . فهى أصح .

(٢) بالقرب من دمشق .

(٣) أى المقابل لمدينة دمياط .

فلما كان فى جمادى الأولى ، ملك الفرنج بُرْجَ السِّلْسِلَة ـ وهو بين دِمياط والبر الغربى ، فى وسط بحر النيل ـ وذلك أنهم عملوا برجا من الخشب على بَطْسَةٍ[1] كبيرة ، وأسندوه إلى البُرج . وحصل القتال بين المسلمين المقيمين به وبين الفرنج ، إلى أن ملكوه فى يوم السبت ، ثامن الشهر .

ثم كانت وَقْعَةٌ كبيرة بين المسلمين والفرنج . فلما كان فى شهر رمضان ، عمل الفرنج مَرَمَّةً عظيمة[2] ، وزحفوا بها فى بَطْسة ، وقصدوا سور دمياط . فأحرقها المسلمون . وغرق للفرنج[3] فى هذا الشهر مراكبُ كثيرة ، فى البحر الملح .

ذكر حوادث وقعت فى مدة حصار ثغر دمياط

كان مما اتفق فى مدة الحصار جباية التبرع من التجار ، من أرباب الأموال وذلك فى ذى القعدة ، سنة خمس عشرة .

---

(١) نوع من السفن . عرّفها فى (محيط المحيط) بأنها : «مركب للحرب أو التجارة» وقال إنها معربة عن الأسبانية . ج . بطس .

(السلوك جـ١ ـ ص ٧٧)

(٢) المرمة : نوع من المراكب الحربية الكبيرة التى كانت مستعملة فى العصور الوسطى .

(مفرج الكروب جـ٣ ـ ٢٦٠) (والسلوك جـ١ ـ ١٨٩)

(٣) فى النسخة (ك) العبارة : «وغرق الفرنج مراكب كثيرة» ولكن فى النسخة (ع) : «وغرق للفرنج مراكب كثيرة» . وهذا هو الصحيح .

وفى يوم الثلاثاء ، سابع عشر من الشهر ، رحل السلطان الملك الكامل عن ثغر دمياط ، وتأخر إلى أُشْمُوم[١] .

وسبب ذلك أن الملك الفائز كان عند أخيه الملك الكامل بثغر دمياط ، وكان الأمير عماد الدين بن المَشْطُوب يكره الملك الكامل ، فأراد القبض عليه ، وإقامة الملك الفائز . فاتصل ذلك بالكامل ، فارتحل عن دمياط ليلاً ، وترك خيامه وخزائنه . فشعر المسلمون برحيله ، فارتحلوا بأجمعهم ، وتركوا أثقالهم وأموالهم . وأصبح الفرنج فلم يروا أحداً فى البر الشرقى . فظنوا أن ذلك مكيدة ، فارتابوا . ثم حققوا الأمر ، فلما اتضح لهم عَدُّوا بجملتهم ، وكبسوا المَنْزَلَة[٢] ونهبوا ما كان بها ، واحتاطوا بدمياط براً وبحراً .

وكان السلطان قصد أن يتوجه إلى مصر ، لخوفه من ابن المشطوب . فأشار عليه بعض الأمراء بالإقامة على المنصورة ، فاستقر بها . وثارت الفتن بالديار من العُرْبَان ، فكانوا على المسلمين أشد من الفرنج .

---

(١) المقصود بها مدينة (أشموم طناح) وكانت عاصمة الدقهلية قبل المنصورة . وهى بقرب مدينة « دكرنس » الحالية ، شمال شرق المنصورة .

(٢) المقصود بها « المنزلة » أى المحلة أو المكان ، الذى نزل به السلطان الكامل قرب دمياط . وهى التى سميت المنزلة العادلية ، نسبة إلى العادل ، وهى على مسافة من دمياط . فليست هى المنزلة المعروفة اليوم المنسوبة إليها بحيرة المنزلة .

ذكر وصول الملك المعظم عيسى ـ صاحب دمشق وإخراج عماد الدين بن المشطوب وما اتفق له بعد خروجه

كان وصول الملك المُعَظَّم شرف الدين عيسى إلى المنصورة فى يوم الخميس ، لليلة بقيت من ذى القعدة ، من السنة . فاشتد به عَضُدُ أخيه الملك الكامل .

ولما وصل ، شكى له ما يحذره من أمر عماد الدين بن المشطوب (١) . فركب الملك المعظم وجاء إلى خيمة عماد الدين . فلما أُخبر بذلك ، قال لغلمانه قولوا له هو نائم ! فذكروا ذلك للملك المعظم ، فقال : ننتظره إلى أن يستيقظ ، وثنى رجله إلى عنق فرسه . فلما طال ذلك على عماد الدين ، خشى عاقبة هذا الأمر . فخرج إليه وهو بغير خُفّ ، وقبّل يده . فقال له المعظم : ليركب الأمير ، حتى يحصل الاتفاق معه على نَصْب المَجَانِيق على أطراف البحر .

---

(١) هو الأمير أحمد ، الملقب بعماد الدين ، بن الأمير على سيف الدين الهكّارى . وعرف الأب هذا باسم « المشطوب » بسبب شطبة : أى أثر جرح كان فى وجهه ، أصيب به فى بعض الغزوات . وسيف الدين هذا كان من كبار الأمراء فى دولة السلطان صلاح الدين ، لأنه كان زعيم الأكراد الهكارية (من جبل هكار) . وكان بطلا شجاعاً . اشترك مع صلاح الدين فى حروبه ، وكان قائد عكا فى أثناء الحصار . وأقطعه السلطان « نابلس » . وكانت وفاته فى سنة ٥٨٨ . فخلفه ابنه (أحمد) هذا الذى عرف بابن المشطوب . والذى لعب هذا الدور المشئوم فى التاريخ ، الذى يتحدث عنه المتن .

فلما ركب ، سايره الملك المعظم وشغله بالحديث حتى أحاط به عسكر المعظم . ثم نظر إليه نظرة مُغْضَب ، وقال له : لما مات السلطان الملك العادل كان من أولاده من اسمه : عماد الدين بن المشطوب ؟! قال : الله الله ، يا مولانا ! فأمر بإنزاله عن فرسه فأُنزل . وحمل على بغلة إلى أُشموم .

ولما أمر الملك المعظم بسفره ، اعتذر أن لا نفقة معه ، وسأل الرجوع إلى خيمته ليلبس خُفَّه ، ويأخذ نفقة . فأعطاه الملك المعظم خمسمائة دينار ، وقال له : جميع ما تُخَلِّف من أموالك وأثقالك ودوابك يصل إليك . ثم رجع المعظم إلى خيمة ابن المشطوب ، فجهز إليه خيله وأثقاله وغلمانه ، وجميع ما يتعلق به ، فلحقوه إلى الشام .

ووصل ابن المشطوب إلى دمشق ، ثم إلى حَماه وأقام بها . فبعث إليه الملك الأشرف منشوراً ، بأَرْجِيش[1] ببلاد خِلاط ، وزيادة . وبعث إليه بالخلع . فتوجه إلى خدمته ، فأكرمه وأحسن إليه . فصار يركب بالشَّبَّابة[2] ، ويمشى مشى الملوك .

ثم خرج عن طاعة الملك الأشرف ، فى سنة سبع عشرة . وعاث فى أرض سِنْجار ، وساعده صاحب ماردِين . فسار إليه الملك الأشرف ، ونزل على دُنَيْسِر[3] . وجاء الملك الصالح ، فأصلح بين الأشرف صاحب

(١) مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى ، قرب خلاط . وأكثر أهلها أرمن نصارى .
(المعجم : جـ ١ ـ ١٨١)

(٢) آلة كالبوق ، يُنفخ فيها أمام السلطان أو الأمير فى المواكب ، كما يفهم من عبارة للمقريزى فى وصف موكب السلطنة .
(الخطط : جـ ٢ ـ ٢٠٩)

(٣) بلدة عظيمة مشهورة ، من نواحى الجزيرة ، قرب ماردين . بينهما فرسخان . ولها اسم آخر ، يقال لها : قوج حصار . وليس بها نهر جار ، إنما شربهم من آبار عذبة طيبة ، وأرضها حرة وهواؤها صحيح (معجم البلدان : جـ ٤ ـ ٩٤)

ماردين . ودخل ابن المشطوب إلى تل أَعْفَر[1] . فسار إليه فارس الدين بن صِيَره من نَصِيبين ، وبدر الدين لؤلؤ من الموصل ، وحصراه بها . فاستنزله الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ بالأمان ، وحمله معه إلى الموصل ، ثم قيده وبعث به إلى الملك الأشرف . فاعتقله بالجُب فمات بالجوع والقمل . وكانت وفاته فى سنة تسع عشرة وستمائة . على ما نذكره .

ذكر وصول الصاحب صفى الدين بن شكر ووزارته

وفى مستهل ذى الحجة ، سنة خمس عشرة وستمائة ، قدم الصاحب صفى الدين بن شكر من آمد ، وكان السلطان قد استدعاه . فلما قدم ، ركب إليه وتلقاه وأكرمه وذكر له السلطان ما يحتاج إليه من الأموال والكُلَف ، فالتزم له بتحصيل ذلك . وشرع فى مصادرات أرباب الأموال والتجار والأكابر . وقرر التبرع على الأملاك ، وأحدث حوادث كثيرة . وجبى الأموال ، حتى من الساسة والصوانع والمغانى ومعلمى المكاتب ، وغيرهم .

واستهلت سنة ست عشرة وستمائة :

فى مستهل المحرم منها ، أمر السلطان بخروج أهل مصر والقاهرة ، لقتال الفرنج . فخرج الناس . وأقام الصاحب بالقاهرة إلى سابع عشرين من شهر

---

(١) هذا هو الشائع . أما الخواص فيقولون : تل يعفر . اسم قلعة وربض . بين سنجار والموصل . فى وسط واد فيه نهر جار . وهى على جبل منفرد حصينة محكمة . وبها نخل كثير يُجلب رطبه إلى الموصل . (المعجم . جـ٢ ـ ٤٠٢)

رمضان ، سنة ست عشرة . فاستدعاه السلطان واستوزره ، وصرفه . واحتجب الملك الكامل من الناس بعد ذلك . وكان قبل ذلك يركب بنفسه ، ويستحث العوام على جهاد الفرنج .

ذكر خراب القدس

كان ابتداء الخراب بالقدس فى بكرة يوم الأحد سابع المحرم ، سنة ست عشرة وستمائة .

وسبب ذلك أن الملك المعظم لما توجه إلى أخيه الملك العادل ، بلغه أن طائفة من الفرنج قد عزموا على قصد القدس . فاتفق مع جماعة من الأمراء على إخرابه . وقال : قد خلا الشام من العساكر ، فلو أخذه الفرنج حكموا على دمشق وبلاد الشام . فأمر بإخرابه . وكان بالقدس الملك العزيز عثمان ، وعز الدين أيبك أستاذ الدار .

ووقع فى البلد ضجة عظيمة . وخرج الناس أجمع ، حتى البنات المُخَدَّرَات والعجائز والشيوخ وغيرهم ، إلى الصخرة والأقصى ، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم . وخرجوا على وجوههم وتركوا أموالهم . وامتلأت بهم الطرقات ، فمنهم من توجه إلى الديار المصرية ، ومنهم من توجه إلى الكَرَك ، وبعضهم إلى دمشق . وصار البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ، ويلففنها على أرجلهن ، من الحَفَا . ومات خلق كثير من الجوع والعطش . ونهب ما كان لهم بالقدس ، حتى بيع القنطار الزيت بالقدس بعشرة دراهم ، ورطل النحاس بنصف درهم .

وأكثر الشعراءُ القولَ فى ذلك ، فقال بعض أهل العلم ـ يشير إلى الملك المعظم ـ من أبيات :

فى رَجَبٍ حَلَّلَ الحُمَيَّا وأَخْرَبَ القُدْسَ فى المُحَرَّم !

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

كان استيلاء الفرنج على ثَغْرِ دِمياط فى يوم الثلاثاء ، لخمس بقين من شعبان سنة ست عشرة ـ وقيل لثلاث بقين منه .

وذلك أنهم كانوا قد أحاطوا بها براً وبحراً ، ومنعوا الميرَة عن أهلها ، حتى هلكوا من الجوع ، ومات أكثرهم . وعُدمت الأقوات ، وغلت الأسعار حتى بيع السكر بزِنَتِه ذهباً ، والدجاجة بثلاثين ديناراً ، والبيضة بدينار ، وبيعت بقرة بألف وستمائة دينار ، واشترط البائع أن يكون له بطنها ورأسها ، فباع ذلك بمائة دينار وأربعة عشر ديناراً مصرية ـ على ما حكاه ابن جلب راغب فى تاريخه .

قال : فلما اشتد بهم ذلك ، بذل لهم الفرنج الأمان على أنهم يخرجون منها ويتسلمها الفرنج ، فأجابوه إلى ذلك ، وخرج الناس منها . وبقى من عجز عن الحركة ، فأسرهم الفرنج ، وحملوا فى المراكب إلى عكا . فكانت مدة الحصار على ثغر دمياط ستة عشر شهراً ، واثنين وعشرين يوماً . وكان السلطان إذا أراد أن يرسل إلى دمياط أرسل العوامين ، فيحملون الكتب ويغطسون فى الماء ، ويطلعون من تحت سور دمياط . فلما أحس الفرنج بذلك ، عملوا شِبَاكاً وخَطَاطِيف من دمياط إلى البر الغربى ، وثبتوا ذلك فى

المراكب . فصار العوَّام إذا غطس فى الماء وقع فى الشباك أو الخطاطيف ، فيأخذونه فلا يكاد يفوتهم عَوَّام ، ويقتلون من يجدونه . فامتنع الدخول إليها .

ولما استولى الفرنج على ثغر دمياط ، أشار السلطان الملك الكامل على أخيه الملك المعظم بالعود إلى الشام ، وغزو الفرج من تلك الجهة ، واستجلاب العساكر من بلاد الشرق .

ذكر عود الملك المعظم شرف الدين عيسى إلى الشام وما اعتمده

قال الشيخ أبو المظفر : يوسف ، سِبط بن الجَوْزى فى تاريخه :

لما استولى الفرنج على ثغر دمياط ، كتب إلىَّ الملك المعظم كتاباً بخطه ، يخبرنى بما جرى على أهل دمياط من الكُفْر ، ويقول : إنى كشفتُ ضياع الشام فوجدتها ألفى ضَيْعة : ألف وستمائة أملاك لأهلها ، وأربعمائة سلطانية[1] . وكم مقدار ما تقوم هذه الأربعمائة من العساكر ؟ وأريد أن يخرج الدماشقة ، ليذبوا عن أملاكهم ـ الأصاغر منهم والأكابر ـ ويكون لقاؤنا وهم فى صحبتك إلى نابلس ، فى وقت سَمَّاه .

(١) أى من أملاك السلطان .

قال : فجلستُ فى جامع دمشق ، وقرأتُ كتابه عليهم ، فأجابوا بالسمع والطاعة فلما حَلَّ رِكابُه بالساحل وقع التقاعد من الأَمَاثِل ، فأَوْجَبَ ذلك أَخْذَ الثُّمْن والخُمْس من أموالهم ، مؤاخذةً لهم . قال : وخرجتُ أنا إليه بالساحل وهو نازل على قَيْسَارِيَّة[1] ، فأقام بها حتى فتحها عَنْوَةً ، وفتح غيرها . وعاد إلى دمشق .

ذكر وفاة ست الشام ابنة أيوب وايقافها أملاكها ، وتفرقة أموالها ، وما فعله الملك المعظم مع قاضى الشام ، بسبب ذلك

وفى هذه السنة فى ذى القعدة ، كانت وفاة ست الشام بنت أيوب : أخت السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، والملك العادل . وهى شقيقة الملك المعظم : شمس الدولة تُورَانْشَاه ، وسيف الاسلام[2] : ابنى أيوب .

وكانت سيدةَ الخَوَاتِين . وهى التى يُنسب إليها المدرستان ، بدمشق وظاهرها ، أحداهما قِبلىّ البيمارستان النُّورى ، والأخرى ظاهر دمشق بالعُوَيْنة . وتعرف أيضاً بالحُسامية ، نسبة إلى ابنها حُسام الدين بن

---

(١) بلد على ساحل بحر الشام ، تعد فى أعمال فلسطين . بينها وبين طبرية ثلاثة أيام . وهناك قيسارية أخرى فى بلاد الروم .

(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ١٩٥)

والمعنى الأول هو المقصود هنا .

(٢) أى : طغتكين .

لاجين[١] ـ وكانت دفنته بها . ودُفنت هى معه فى قبره . وهو القبر الذى يلى الباب القَبْو من القبور الثلاثة . والقِبْلىُّ قبرُ تورانشاه بن أيوب ، والأوسط قبرُ ابن عمها : ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادى ـ وكان قد تزوجها بعد لاجين .

وكانت ـ رحمها الله ـ كثيرةَ الصدقة والبر . وكانت تصنع الأشربة والأدوية والمعاجين والعقاقير ، فى كل سنة بألوف دنانير ، وتفرقها على الناس . وكانت ست الشام ، وأختها ربيعة خاتون ، مَحْرَماً على نيف وثلاثين ملكاً وسلطاناً .

وكان الملك المعظم يتهمها أن عندها من الجواهر مالا يحصى قيمتُه . وأن ذلك اتصل إليها مما كان بالقصور بالقاهرة . وكان كثير الإحسان إليها والبر بها ، ويمنعها من الخروج من دمشق . ويظهر أن ذلك برأيها . ويرجو وفاتها عنده ، ليستولى على أموالها وأملاكها ، فاتفقت وفاتها وهو بالصيد .

ولما مرضت ، جاء وكيلها ابن الشيرجى إلى قاضى القضاة : زكى الدين ، وطلبه إليها بدارها . فأخذ معه أربعين عَدْلاً من أعيان دمشق ، فشهدوا عليها أنها أوقفت أملاكها على مدرستها ، ووجوه البر وأنواع القُرُبَات ، وجعلت دارها مدرسة ووقفت عليها وقوفاً ، وأبرأت جواريها وخدمها ووكلاءها . وماتت بعد ذلك . وأسندت وصيتها إلى القاضى . فعاد

---

(١) هو محمد بن عمر بن لاجين ، وهو ابن أخت صلاح الدين . كان فى القافلة العائدة من الحج التى كان يخشى أن يتعرض لها صاحب الكرك (أرناط) . مما دعا صلاح الدين للخروج إلى هذه الجهة قبل موقعة حطين الفاصلة . وتوفى حسام الدين فى عام ٥٨٧ .

السلطان من الصيد ، فوجد الأمر قد مضى على ذلك . فتألم لوقوعه ، وأنكر على القاضى ، وقال : يحضر إلى دار عمتى من غير إذنى ، ويسمع كلامها ، هو والشهود ! .

ثم اتفق بعد ذلك أن القاضى طلب جابى أوقاف المدرسة العَزِيزِيَّة[1] ـ وهو سالم بن عبدالرازق ، خطيب عَقْرَباً[2] ـ أخو المؤيد العَقْرَبَانِى ـ وطلب منه حسابها ، فأغلظ له فى القول . فأمر القاضى بضربه ، فضُرب بين يديه ، كما تفعل الولاة .

فوجد الملك المعظم سبيلا إلى إظهار ما عنده ، فأرسل إلى القاضى بُقْجَة ، وهو فى مجلس حكمه ، وفى مجلسه الجَمَال المِصْرى وكيل بيت المال ، وجماعة كثيرة من العدول والمتحاكمين ، فجاءه الرسول ، وقال للقاضى : السلطان يسلم عليك ويقول لك : الخليفة ـ سلم الله عليه ـ إذا أراد أن يشرف أحدًا من أصحابه خلع عليه من ملابيسه ، ونحن نسلُكُ طريقَه ! وقد أرسل إليك من ملابيسه ، وأمرأن تلبسها فى مجلسك هذا ،

---

(١) من أشهر مدارس دمشق فى ذلك الوقت . أسسها الأفضل بن صلاح الدين ، ولكن أتمها أخوه العزيز عثمان ووقف عليها أوقافا كثيرة . فنسبت إليه . ودرس فيها عدد من العلماء الكبار .

(٢) اسم أيضا لمدينة الجولان . وهى كورة من كور دمشق . كان ينزلها ملوك غسان .
(ياقوت : جـ ٦ ـ ١٩٤)

وأنت تحكم بين الناس . وكان الملك المعظم أكثر ما يلبس قَبَاءً[١] أبيض ، وكَلُّوتَة صفراء[٢] . وفتح الرسول البُقْجة . فلما نظر القاضى إلى ما فيها وَجِم ! .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : فأخبرنى الرسول الذى أحضر هذه الخلعة والرسالة بذلك ، قال : وكان السلطان قد أمرنى أن أُلبسه إياها بيدى ، إن امتنع أو توقف . فأشرت عليه بلبسها ، وأعدت عليه الرسالة . فأخذ القَبَاء ووضعه على كتفه ، ووضع عمامته بالأرض ولبس الكَلُّوتة الصفراء على رأسه ، ثم قام ودخل بيته إثر هذه الحادثة ، ورمى كبده ومات . ويقال أن ذلك كان فى يوم الأربعاء ، سابع عشرين شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وستمائة .

وفَوَّضَ السلطان قضاء الشام بعده للجمال المصرى[٣] وكيل بيت المال ، وذلك فى شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة .

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى : وكانت حركةً قبيحة وواقعة شنيعة ، لم يجر فى الإسلام أقبحُ منها . وكانت من غلطات المِلك المعظم . قال ولقد قلت له : ما فعلتَ إلا بصاحب الشرع ، ولقد وَجَبَتْ عليك دِيَةُ القاضى . فقال : هو أحْوَجَنِى إلى هذا . ولقد نَدِمْت .

---

(١) ثوب يلبس فوق الثياب ، أو المعطف .

(٢) الكلوتة ـ بلام مشددة ـ (لفظة فارسية) وهى غطاء للرأس مثل الطاقية ، من الصوف المضرب بالقطن أو من الجوخ ، كان يلبسها السلاطين والأمراء الأيوبيون ثم المماليك . وردت إلى مصر مع الأيوبيين . (أنظر صبح الأعشى جـ ٤ ـ ٥ و ٦ والسلوك ـ زيادة جـ ٢ ـ ٤٩٣)

(٣) سبقت ترجمته . وسيذكره المؤلف أيضا فى المتن عند (سنة ٦٢٣) .

واتفق أن الملك المعظم بعث إلى شرف الدين بن عُنَيْن الشاعر[1] ـ حين تَزَهَّد ـ خَمْراً ونَرْدا ، وقال : سَبِّحْ بهذا ـ إشارةً إلى أن زهده ليس حقيقة ! فكَتَبَ إليه ابن عُنَيْن :

يا أيها الملك المعظم ، سُنَّةً أحْدَثْتَها ، تَبْقَى على الآباد
تَجْرِى الملوكُ على طريقِك بعدها : خَلْعَ القضاة وتُحْفَةَ الزُّهَّاد

وفى هذه السنة ، توفى الشيخ جلال الدين أبو محمد : عبد الله بن نجْم ابن شَاسْ بن نِزَار ، بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن شَاسْ ، الجُذَامِى السَّعْدِى : الفقيه المالكى . وكان عالمَ مذهب مالك فى زمانه . وصَنَّف فى مذهب مالك كتاباً نفيسا ، سماه : « الجواهر الثمينة فى علم صاحب المدينة » . فانتفع به المالكية انتفاعًا كثيرا . وكان مُدَرِّساً بمدرسة المالِكية بمصر ، المجاورة للجامع . ثم توجه إلى ثغر دمياط بنِيَّة الجهاد ، فتوفى هناك فى جمادى الآخرة ، أو رجب ، سنة ست عشرة وستمائة ـ رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى بالقاهرة القاضى : جمال الدين أبو الحسن على ، ابن القاضى شرف الدين أبو المعالى شُكْر ، بن القاضى كمال الدين أبو السَّعَادات : أحمد بن شُكْر ، الشافعى ـ رحمه الله تعالى .

---

(١) هو أبو المحاسن « محمد بن نصر الدين » الشاعر المشهور . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان (جـ ٤ ـ ص ١٠٦ وما بعدها) .

واستهلت سنة سبع عشرة وستمائة :

فى هذه السنة ، كانت وقعة البَرَلُّس [١] : بين السلطان الملك الكامل والفرنج . وكانت من الوقعات العظيمة ، المشهورة . قتل من الفرنج فيها عشرة آلاف . وغنم المسلمون خيولَهم وسلاحَهم . فرجعوا إلى دِمياط .

وفيها أخذ ابن حَسُّون ـ مُقَدَّم الشَّوَانى [٢] الإسلامية ـ للفرنج إحدى عشرة حَرَّاقَة [٣]

---

(١) ضبطها ياقوت « بفتحتين وضم اللاّم المشددة » . وهى « بليدة على شاطىء نيل مصر ، قرب البحر من جهة الإسكندرية .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ١٥٣)

كانت البرلس من الثغور المصرية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط بين دمياط ورشيد ، وإليها نسبت بحيرة البرلس الواقعة شمال الغربية . ويطلق اسم البرلس أيضا على المنطقة الساحلية المعروفة بإقليم البرلس . لكن الدولة الأيوبية بنت قلعة بقرية البرلس على شاطىء البحر ، فبعد ذلك عرفت قرية البرلس باسم « البرج » واختفى اسمها الأصلى . إلا أن البرلس لا تزال علَما على إقليم البرلس ولا تزال البحيرة تحمل اسمها .

(النجوم الزاهرة : جـ ٦ ـ ٢٤٨)

(٢) جمع « شينى » ، أو « شينية » ، وهى نوع من السفن الحربية فى مصر . ويظهر أن الشوانى كانت أكبر السفن الحربية فى مصر وأكثرها استعمالا

(السلوك ـ زيادة : جـ ٢ ـ ٣٠٦ ـ حاشية ٢)

راجع (الخطط للمقريزى : جـ ٢ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥)

(٣) نوع من السفن الحربية التى كانت تستعمل فى ذلك العصر ، وكانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو .

(السلوك : جـ٢ ـ ٣٠٦ ـ حاشية ٣)

وهناك نوع آخر من الحراقات كان يستعمل فى الأغراض المحلية كالنزه أو حمل الأمراء ـ كما يفهم من المقريزى (جـ٢ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥) . لكن ليس هو المقصود هنا .

وفيها فى يوم الاثنين ، السابع عشر من جمادى الآخرة ، احترق بمدينة قُوص ، بظاهرها ـ خانُ الأمير مجدالدين مكرم بن اللمطى . وعُدِم للتجار فيه ما يقارب قيمته خَمسمائة ألف دينار .

وكان متولى الأعمال القُوصية ، يومَئذٍ ، الأمير سيف الدين : سُنْقُر الدَّوَادَار العادِلِى . فكتب الأديبُ الفاضل : نجم الدين عبدالرحمن ابن وَهِيب القُوصِى (١) ، عن المتولى ، كتابًا إلى السلطان الملك الكامل ، يخبره بهذه الحادثة ، وهو :

« المملوكُ يُقَبِّلُ الأرضَ بالمقام العالى ، المَوْلَوِىّ السلطانى ، المَلَكى الكامِلِى الناصِرى : غياثِ الاسلام ، سلطانِ الأنام ، ولىِّ النعمة ، كاشفِ غَيَاهِب الغُمَّة ، جامع فضِيلَتَىْ السيف والقلَم ، ورافع زِينَتَى العِلْم والعَلَم ـ لازالت آيات مُلْكِه باهرة ، ونجوم خُرْصَانِه (٢) فى سماء العَجَاج (٣) زاهرة ، ووجوه أوليائه ناضرة ، إلى ربها ناظِرة ووجوه أعدائه ساهية ساهرة ، تَظُنُّ أن يُفْعَلَ بها فَاقِرَةَ (٤) .

---

(١) سيذكر المؤلف نبذة عنه سنة وفاته (سنة ٦٣٢) ، ويصفه بأنه « كان أديباً فاضلا » .

(٢) جمع خرص ـ بضم الخاء . وهو « القناة والسنان » أو « خرص » بالفتح ، وهو « الرمح » . والمعنى الأول هو الأنسب ، لأن الأسنة هى التى تلمع .
« القاموس المحيط »

(٣) العجاج : الغبار والدخان ـ كما جاء فى القاموس .
والمراد به هنا : غبار المعارك فى الحرب ، أى الحرب .

(٤) الفاقرة : الدّاهية .
« القاموس المحيط »

ويُنْهِى وقوعَ الكائنةِ التى عظُمَ مصابُها وأصاب عظيمُها ، وآلم موجِعُها وأوجع أليمُها ، وسَقِمَ بها من القلوب صحيحُها ، وصحَّ بها من الخطوب سقيمُها . وأحالت الأفكارَ فى ميدان الفِكْرَة ، وأطلق من الألسن والأعين عِنَان العَبْرَةِ والعِبْرَة . وهى حلولَ النار بالخانِ ، الذى أنشأه الأمير مجدُ الدين مكرم بن اللَّمَطى بظاهر مدينة قُوص

وهذا الخانُ المذكور ، قد كان محطًّا للرفيق ومجتَمَعًا للسُّفَّار ، يأتون إليه من كل فَجٍّ وطريق ، خصوصا الكَارِمَ [1] الإسكندرى ـ عوَّضهم الله أموالَهم ، وبلَّغهم آمالهم ـ فلا ينزلون بغيره منزِلا ، ولا يختارون سواه حِصْنًا وَمَوْئِلاً . وإذا حلِ به أحدُهم فكأنه ما فارق وطنَه . يتخيَّرُون منازله وغُرَفه ، ويُهْرَعُون إليه كما يُهْرَعُون ليوم عَرَفَة .

فاتفق لقضاء الله السابق وقَدَره اللاحِق ، وإظهار ما كان من مُغَيَّبِه مستورا ، وتلاوتهم كان ذلك فى الكتاب مسطُورا ـ فاتفق يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الآخرة ، أن خَطَبَتْ على أعاليه ألسنُ النِّيران ، واسْوَدَّ الفضاءُ المُشْرِق لتتابُع الدُّخان . وعايَنَ أهلُه الهلاك ، وجاءهم الموتُ من كل مكان . فلم يلبثوا إلا ساعةً من نهار ، وقد أَحْدَقَتْ بهم النار إحْداقَ الأَجْفان بالأَحْداق واستدار عليهم اللهبُ استدارةَ الأَطْواق بالأَعْناق . وتلا لهم لسانُ القدر : ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عند الله باق .

---

(١) يقصد تجار الكارم من أهل الإسكندرية الذين كانوا ينزلون بقوص .
وقد ذكر « القلقشندى » بين الوظائف الديوانية : وظيفة نظر البَهار والكارِمى . قال : وموضوعها التحدث على واصل التجار الكارِمية من اليمن من أصناف البهار وأنواع المتجر . وهى وظيفة جليلة .
فهؤلاء كانوا هم التجار فى التوابل والأفاوية والعنبر ، وما إلى ذلك . وكان لتجارتهم شأن كبير . وكانت هذه التجارة تصل من اليمن وعدن والهند .

وزَحَفَت الخطوبُ إليه زَحْفا ، وصار للوقت دَكًّا دكًّا . والناسُ حوله صفًّا صَفًّا . هذا ، ولسانُ النار يقول : هل من مَزِيد ؟ ومدامعُ الخلق تَهْمى وتَزِيد ، فَعَلَتْ الأصواتُ عند ذلك بالدعاء ، وكاد اللهبُ يخمَد من جَرَيان ماءِ البُكَاء ، وشَهِد الناسُ منه اليومَ المَشْهُود . وهبَّت الأرياحُ فلم تُخْمِدْ للأرواح ضِراما ، وخَالَفَتْ هذه النارُ نارَ الخَلِيل [١] ، فلم تُعْقِبْ بَرْدًا وسَلَاما !

فكلٌّ مَالِكٍ لموضع صار فيه «مالِكا [٢]» . وكلُّ ذى حال حسنة حالُه حالِكا . فمِنْ فائزٍ بنفسه دون نفائسِه ، ومن راغبٍ فى هَرَبه لشدة رَهَبِه ، ومن آبِقٍ [٣] بُمرْدِه [٤] دون أهله وولده . قد لزم كل منهم مايَعْنِيه ، وعمل بقوله عز وجل : «يوم يَفِرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأْنٌ يُغْنِيه» . فإنا لله وانا اليه راجعون ، ولأمره طائعون . لاصادف لمُصَادِف قضائه ، ولاصَارِفَ لصَرْفِ بَلَائِه .

لم يُبْقِ هذا المصابُ لهولاء القوم جلَدا ، ولم يؤخِّرْ عنه حُزْنا ولاكَمَدا . وكلٌّ أحد منهم يقول : أَهْلَكْتُ مالاً لُبَدَا [٥] . فكم من كريم كان يُجْزِلُ الهِبَات فصار جديرا بأن يُتَصَدَّقَ بها عليه . وكم من مُمَوِّلٍ كان يؤدى الزكاة فصار مستَحِقًّا بأن تُصْرَفَ إليه . كانوا أَعِزَّاء فى الغُرْبةِ بأموالهم ، فصاروا

---

(١) إبراهيم - عليه السلام .

(٢) يقصد «مالكا» خازنَ النار .

(٣) آبق : هارب .

(٤) غلمانه .

(٥) «مالاً لُبَداً» : أى كثيرا .
«التبدت الشجرة : كثرت أوراقها» .
«القاموس»

أذِلاَّء فى المواطن لإقْلاَلِهم . لم يَخْلُصْ لهم إلا النَّزْرُ اليسير ، والشىءُ الحقير ، والقليلُ من الكثير مقدارَ أزْوَادِهم إلى مواطِنهم ، وكَفَافِهم إلى وصول مَسَاكِنهم .

هذا ، ولم يُعْلَمِ السببُ فى وقوع النار . فقال قوم : صاعقةٌ سمائية ، وقال قوم : آفةٌ أرضية . وتزاحمت فى ذلك الظنون ، وعند الله من علمه السرُّ الكنون . إلا أن المملوك أرسل عليه من الماء طُوفَانا ، وأجرى إليه بحارا ـ ولا أقول غُدْرَانا ـ إلى أن عاد غريقًا بعد ماكان حَرِيقا ، وصار مَوْرِدا بعد ماكان مَوْقِدا . وأصبح ماء ثَجَّاجًا [1] بعد ماكان سِرَاجًا وهَّاجا . وعلموا أن المدفوع من بلاء الله أعظم ، وقرأوا : « ولكن اللهَ سَلَّمْ » .

أنْهىَ المملوكَ ذلك ، ليُطَالِعَ بخَفِىِّ الأحوال وجَلِيِّها ، حتى لايخفى عن عِلْمِه السامى خافِية ـ لازالت أنوارُ المملوك بذلك المقام مُتَوَالِية مُتَلاَلِيَة ـ إن شاء الله تعالى .

وفيها ، فى العشر الآخر من شعبان ، صُرِف قاضى القضاة تاج الدين ابن الحَرَّاط [2] عن القضاء ، بمصر والوجه القبلى .

وسبب ذلك أن إحدى بنات مَرْزُوق العَلاَئِى تزوجت بإنسان عَلاَّف اسمه داود ، وهو غير كُفْءٍ لها . فاستدعاه السلطان إلى المنصورة ، وعقد له

---

(١) ثجَّ الماءُ : سالَ . والثَّجِيج : السيل . ثَجَّاجاً : سيَّالاً ، أو منهمرا .

(٢) هو : عبد السلام بن على بن منصور الدمياطى المعروف بابن الحراط . ولد بدمياط ، ورحل إلى بغداد فتفقه بها ، وتميز فى الفقه والخلاف ، ورجع إلى بلده فأقام بها قاضيا مدرساً ، ثم ولى قضاء مصر والوجه القبلى . ولد سنة ٥٧١ هـ . ومات سنة ٦١٩ هـ .

(حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ص ١٧٢)

مجلسا وسلم المرأة لزوجها . وصَرَفَ القاضىَ عن الحكم ، وصك الشهود . وأضاف قضاء مصر والوجه القبلى لقاضى القضاة : شرف الدين بن عَيْنِ الدولة الصَّفْرَاوِى .(١)

ثم ولى القاضى تاجُ الدين المذكور ، بعد ذلك ، قضاء دمياط وكان بها ، إلى أن مات ـ رحمه الله .

وفيها خُرِّبَتْ صَفَد (٢) . ثم عَمَّرَها الفِرِنْجُ بعد ذلك ، عندما تسلموها من الملك الصالح إسماعيل ـ فى سنة ثمان وثلاثين .

وفيها قَتَل صاحبُ سِنْجار (٣) أَخَاه . فسار الملك الأشرف إليها ، فأخذها وعوض صاحب سِنجار الرَّقَّة (٤)

وفيها قصد مُظَفَّرُ الدين بن زين الدين ـ صاحب إِرْبِل(٥) ـ الموصل . فخرج إليه بدرُ الدين لؤلؤ ، فهزمه زين الدين ، فأفلت لؤلؤ وحده . فانتصر الملك الأشرف له ، ونازل إِرْبِل . فبعث الخليفة إليه ، فَرَدَّه عنها ، وأصلح بين الملوك .

---

(١) سيذكر المؤلف ترجمةً له فى سنة وفاته (٦٣٩ هـ) ومنها يُعلم أنه كان من كبار القضاة .

(٢) مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام ، وهى من جبال لبنان .
(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ١٥٣)

(٣) مدينة كبيرة بالجزيرة ، فى قاعدة جبل ، تبعد عن الموصل بمسيرة ثلاثة أيام . وهى مدينة طيبة عامرة .
(ياقوت : جـ ٥ ـ ١٤٤)

(٤) مدينة مشهورة على الفرات . معدودة من بلاد الجزيرة لأنها على جانب الفرات الشرقى ، بينها وبين حران ثلاثة أيام .
(المرجع السابق : جـ٤ ـ ٢٧٢)

(٥) قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى فضاء منبسط من الأرض ، تعد من أعمال الموصل ، وأكثر أهلها أكراد .
(ياقوت : معجم البلدان : جـ ١ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣)

وفى هذه السنة ، كانت وفاة الملك الفائز : إبراهيم ، بن الملك العادل .

وكان قد وافق الأميرَ عمادَ الدين بن المَشْطوب ، وحَلَفَ له جماعةٌ من الأمراء بالديار المصرية على الملك الكامل . وكاد أمرهُ يَتِم . فاتفق من إخراج ابن المشطوب ما قَدَّمْنَاه . وبقى الملك الكاملُ فى ضِيقٍ منه .

فيقال انه استشار الصاحبَ ـ صفى الدين بن شُكْر الوزير ـ فى أمره ، فأشار بإرساله إلى الملوك ببلاد الشَّرْق ، يَسْتَحِثُّهُم على الحضور . فلما كانت واقعة البَرلُّس ، قال السلطان الملك الكامل للملك الفائز : إن الملك المُعَظَّم قد أبْطَأ علينا والملكُ الأشرف ، وليس لهذا المُهِم سؤال ، فتوَجَّهْ إلى أخيك الملكِ الأشرف ، وعرِّفْه ما نحن فيه من الضائِقة . فتوجه .

وكان الملك الأشرف على الموصل . فمَرِض الفائزُ بين سِنْجَار والموصل . فمات ـ وقيل انه سُمّ ـ فرَدَّهُ من معه الى سِنْجار . فدُفن عند تربة عماد الدين زَنْكِى ـ رحمهما الله تعالى .

وحكى ابن جَلَب راغب ، فى وفاته ، أن السلطان جَهَّزه إلى الملك الأشرف ، باتفاق من الملك المعظم ، وبرأى الصاحب صفى الدين ، وأنه جهز معه شيخَ الشيوخ ، فسقاه سُمًّا فى طريقه . فلما شعر الفائز به ، قال له : يا شيخَ السُّوء فَعَلْتَها بى ! كُلْ من هذا الذى أحْضَرْتَه . فأكَلَ منه ، فماتاَ جميعا [1] .

(١) هذه الرواية تبدو أنها غير قابلة للتصديق .

وحكى غير ابن جَلَب راغب ـ وهو أَقْعَدُ منه بهذه الحادثة ـ فى وفاة شيخ الشيوخ ، فقال ما معناه : كانت وفاة شيخ الشيوخ : صدر الدين[١] أبى الحسن محمد ، بن الإمام شيخ الشيوخ عماد الدين أبى الفتوح عمر[٢] ، ابن الفقيه أصيلِ خُراسان أبى الحسن على ، بن الإمام الزاهد : أبى عبدالله محمد ، بن حَمَّوِيه[٣] ، الحَمَّوِى الخُرَاسانى النَّيسابُورى الجُوَيْنى ، البُحَيْرَابَاذِى[٤] الشافعى ـ فى منتصف جمادى الآخرة ـ وقيل فى يوم الاثنين رابع عشرين الشهر بالموصل ، بعلة الذَّرَب[٥] . وكان الملك الكامل قد أرسله إلى الخليفة ، يستنجده على الفرنج ، فمرض بين حَرَّان والموصل ، فوصل إلى الموصل ومات بها . وقيل كانت وفاته فى جمادى الأولى .

---

(١) سبق التعريف به . ونزيد على ذلك أنه كان من كبار فقهاء الشافعية . وتولى التدريس بالمدارس (الصالحية ، والشافعى ، والمشهد الحسينى) وولى مشيخة سعيد السعداء (دار الصوفية) وكان كبير القدر عند صلاح الدين ، مبجلا من العادل والكامل . وبعثه الملك الكامل رسولا إلى الخليفة يستنجد به على الفرنج لما أخذوا دمياط ، فأدركه الموت بالموصل سنة سبع عشرة وستمائة ، عن ثلاث وسبعين سنة .
(حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ١٧٢) و (١٤٠ ـ ١٤١)
وهو والد فخر الدين بن الشيخ ، وإخوته .

(٢) هو والدُ صدر الدين . قدم إلى الشام فى الأيام النورية ، ففوض إليه الشهيد نور الدين ـ رحمه الله ـ مشيخة الصوفية . ولما ماتَ صار ذلك بعده لولده صدر الدين .
(ابن واصل : جـ ٣ ـ ٢٥٧)

(٣) جدهم هذا هو حمويه بن على ، الذى كان حاكما على خراسان أيام الدولة السامانية .
(النجوم الزاهرة : جـ٦ ـ ص ٩٠)

(٤) نسبة إلى « بُحَيْرَابَاذ » ـ بالضم ثم الفتح ـ وهى من قرى جُوَيْن من نواحى نَيْسَابور . وقال ياقوت فى هذه المادة :
منها أبو الحسن على بن حمويه الجوينى (وهذا هو جد صدر الدين) ومات سنة ٥٣٠ فى نيسابور ، وحمل إلى جوين فدفن بها . وهم أهل بيت فضل وتصوف ، ولهم عَقِب بمصر كالملوك ، يعرف أبوهم بشيخ الشيوخ .
(ياقوت : معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٧٧)

(٥) بفتحتين ـ مرض يصيب الأمعاء : إسهال أو دوسنطاريا .

ومولده بجُوَيْن فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . وجُوَيْنُ هذه ، التى نُسِب إليها ، ناحية كبيرة من نواحى نَيْسَابُور ، وإليها يُنْسب إمام الحَرَمَيْن أبوالمعالى : عبدالملك الجُوَيْنى . وأما أبوالمعالى الجُوَيْنى : محمد بن الحسن ابن عبدالله ـ فهو منسوب إلى جُوَيْن : قريةٍ من قرى سَرَخْس . وهو إمام فاضل . وأما وَقَّاد بن قَيْس الجُوَيْنى الشاعر فنسوب إلى جُوَيْن : بطنٍ من سِنْبِس [1] .

وفى هذه السنة كانت وفاة السيد الشريف : قَتَادة بن إدريس ، الزَّيْدى الحَسَنى [2] العَلَوى ، أمير مكة . وكنيته أبو عَزِيز . كان رحمه الله ـ عادِلاً مُنْصِفا . واطمأَن الحاجُّ فى أيامه . وماوَطِىء بساطَ خليفةٍ قَطْ . وكان يُحَمَّلُ إليه فى كل سنة من بغداد الخِلَعُ والذهب . وكان يقول : أنا أَحَقُّ بالخلافة من غيرى .

وبعث إليه الخليفةُ الناصرُ يستدعيه ، ويقول له : أنت ابنُ العم والصاحب ، وقد بلغنى شهامتُك وحفظك للحاج ، وعدلُك وشرَفُ نفسك ، وقد أحببتُ أن أراك وأشاهدَك ، وأحسن إليك . فكتب إليه :

---

(١) إحدى قبائل العرب .

(٢) سبق ذكره . وهو مؤسس أسرة « قتادة » من أمراء مكة ، منذ سنة ٥٩٩ هـ . وهم الذين ظلوا يحكمون مكة إلى مجىء الوهابيين . وهو من عقب الحسن بن على . وذكر المؤلف وفاته سنة ٦١٧ هـ .

ولى كَفٌّ ضِرْغَام أَدِلُّ بِبَسْطِها وأَشْرِى بها بين الورى وأَبِيعُ
تَظَلُّ ملوكُ الأرض تَلْثمُ ظهرَها وفى وَسْطها للمُجْدِبِين[1] رَبِيعُ
أأجعلُها تحت الرَّجا ، ثم أَبْتَغِى خَلاصًا لها ، إنى إذًا لَوَضِيع
وما أنا إلا المِسْكُ فى كل بُقْعَة يَضُوعُ[2] ، وأما عِندكم فَيَضِيعُ

وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ إحدى الجُمَادَيَيْن ، بمكة ـ شرفها الله تعالى ـ وله سبعون سنة .

وملك بعده ابنه الحسن ـ وقيل أن ابنه الحسن سَمَّه ـ وكان له ولد آخر اسمه : راجح . وكان قَتَادَة قد اتسعت ولايتهُ من حدود اليمن إلى المدينة : وله قلعة يَنْبُع واستكثر من المماليك . وذكر ابن الأثير وفاته فى سنة ثمان عشرة . والله أعلم .

وفيها ، كانت وفاة الملك المنصور : محمد بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب ـ صاحب حَماه .

وكان شجاعا مُحِبًا للعلماء . وصنف كتابا سماه : « المِضْمَار » جمع فيه جُملةً من التواريخ ، وأسماء من ورد عليه وأقام عنده ، فى عشرة مجلدات . وكان كثير الصدَقة ، حَافِظًا لرعيته . وكانت وفاته بحَماه فى شوال ، ودفن عند أبيه .

وقام بعده بمُلك حَماه ولدُه الأكبر : الملك الناصر قِلِيجْ أَرْسَلان .

---

(١) الذين أصابهم الجدب ، وهو ضد الخصب .

(٢) يفوح شذاه .

ثم أخذ منه الملك الكامل حماه ، وأعطاها لأخيه الملك المُظَفَّر ، واعتقل قِلِيج أَرْسَلان فى الجُبِّ بقلْعة الجَبَل ، بظاهر القاهرة المُعِزِّية .

وفيها كانت وفاة الملك الصالح : نجم الدين محمود بن محمد بن قَرَا أَرْسَلان بن أُرْتُق ، صاحب آمِد . وكان شجاعا عاقلاً جواداً ، مُحِباً للعلماء . وكان الملك الأشرف يُحِبُّه ، وحضر إلى خدمة الأشرف غير مرة إلى دُنَيْسِر ، وغيرها . ومات بآمِد فى صفر .

وقام بعده ولدُه الملك المسعود . وكان ضد اسمه : بخيلاً فاسِقا . حَضَره الملكُ الكامل بعد ذلك فى آمِد ، ووجد فى قصره خَمسمائة امرأة من الحرائر يَفْتَرِسُهُنّ ، من بَنات الناس . فأخذه الكامل إلى مصر ، وأحسن إليه . وكاتب الرومَ وسعى فى هلاك الكامل . فقَبَض عليه واعْتَقَله فى الجُبّ . ثم أَطْلقه ، فتوجه إلى التتار . وكان معه جواهر كثيرة ، وأخت جميلة ، فقتله التتار ، وأخذوا ما معه .

وفيها ، فى العشر الأول من ذى الحجة ، توفى الشيخ القدوة العارف : أَسَد الشام عبد الله اليُونَانِى[1] صاحب الكرامات المشهورة والرِّيَاضَات والمُجاهَدَات . وكان ـ رحمه الله ورضى عنه ـ لايقومُ لأحدٍ من الملوك ولالغيرهم ، تعظيماً لله تعالى ، ويقول : لاينبغى القيامُ لغير الله تعالى . وكان لايَمَسُّ بيده دِرْهماً ولادِينارا ، ولايلبس غير الثوب الخام ، وقَلَنْسُوَة

(١) نسبة إلى « يونان » . قرية من قرى بعلبك

(ياقوت جـ ٨ ـ ٥٣١)

من جِلد الماعز . ويبعث إليه بعضُ أصحابه فى الشتاء بفَرْوة قَرَظ [١] ، يلبسها ، ثم يُؤْثِرُ بها إذا اشتد البرد . وكان إذا لبس ثوبًا قال : هذا لفلان وهذا لفلانة ، يُوعِد به ويُعطيه إذا أتاه غيره .

وكان من خبَر وفاته أنه دخل الحمام فى يوم الجمعة واغتسل ، ولبس ثَوْبَيْه ، وكان قد سَمَّاهما لامرأتين ، وصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح . وجاءه داود المُؤَذِّن وكان يغسل الموتى ، فقال له : وَيْحَك يا داود ، انظر كيف تكونُ غدًا ! فلم يفهمْ . ثم صعد الشيخ المَغَارة ، وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا الصخرة التى عند اللَّوْزَة ، التى كان ينام تحتها ويجلس عندها ، وعندها قبره . فنُجِّزَتْ فى نهار الجمعة ، وبقى منها مقدار نصف ذراع . فقال لهم : لاتطلع الشمس إلاوقد فرغتم منها .

وبات فى ليلة السبت ، وهو يذكر أصحابه ومعارفَه ، ويدعو لهم حتى طلع الفجر . فصلى بهم الصبح ، وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها ، فجلس وبيده سُبْحة . وقام الفقراء ليكملوا حفر الصخرة ، فطلعت الشمس وقد فرغوا منها ، والشيخ قاعد وبيده السُّبْحة . وجاء خادم من القلعة إليه فى شغل ، فرآه نائما ، فما تجاسر أن يوقظه . فجلس ساعة ، فلما طال مجلسه قال لخادم الشيخ : يا عبدَ الصمد ، ما أستطيع أن أقعد أكثر من هذا . قال عبدُ الصمد : فتقدمتُ إليه ، وناديته : سَيِّدى سيِّدى ! فما تكلم . فحركته ، فإذا هو ميت ! فارتفع الصياح .

---

(١) جاء فى « القاموس » « القَرَظ ـ محركة ـ ... اديمٌ مقروظ دُبِغ وكَبْش قَرَظى : يمنى . فإما أن يكون المعنى بفروة من جلد مدبوغ ، أو بفروة كبش

وكان الملك الأمجد ـ صاحب بعلبك ـ فى الصيد ، فأرسلوا إليه . فجاء ، فرآه على تلك الحال : لم يقع : ولاوقعت السُّبحَة من يده ، وهو كأنه نائم ! فقال : نبنى عليه بنياناً وهو على حاله ، ليكون أُعجوبة ! فقال أتباع الشيخ : السُّنَّةُ أَوْلى . وغسله داود ، ودفع الثوبين للمرأتين .

ولما أَلْحَدوهُ ، قال له الحفَّار : ياشيخ عبد الله ، اذكر ما فارقْتَنَا ، أو اذْكُرنا عند ربك . قال : ففتح عينيه ، ونظر إلىَّ شَزْرًا[1] . ودُفن رحمه الله فى يوم السبت ، وقد جاوز ثمانين سنة . والأخبار عنه فى الكرامات كثيرة ، قد اقتصرنا على هذه النبذة .

واستهلت سنة ثمانى عشرة وستمائة :

ذكر وصول ملوك الشرق إلى السلطان الملك الكامل وانهزام الفرنج واستعادة ثغر دمياط ، وتقرير الهدنة

فى هذه السنة ، توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن السلطان الملك العادل ، إلى أخيه الملك الأشرف ، واجتمعا على حَرَّان[2] .

وكان الملك المعظم من أحرص الناس على إعانةِ أخيه الملك الكامل ، على استعادة ثَغْر دمياط من الفرنج . وكان الملك الأشرف قد بَايَنَ الملكَ الكامل ، وتقاعد عنه فى هذه الحادثة : فتلطف الملك المعظم بالملك

(١) شزره ، وإليه ـ يشزره : نظر منه فى أحد شِقَّيه . أو هو نظر فيه إعراض أو نظر الغضبان بمؤخر العين . ونظر بعضهم إلى بعض شَزْراً . وعين شَزْراء حمراء .

« القاموس المحيط »

(٢) سبق ذكر موضعها . وهى قصبة ديار مضر بالجزيرة

الأشرف ، ولم يزل به حتى قطع الفُرَات بالعساكر ، والمعظم يَقْدُمُه ، إلى أن نزل الملك المعظم على حِمص ، والأشرف على سَلَمِيَّة [١] .

قال أبو المُظَفَّر يوسف ، فى تاريخه : وكنتُ قد توجهتُ إلى حمص لطلب الغَزَاة ، وكان العزمُ قد وقع على دخول العساكر إلى طَرَابُلُس . فاجتمعتُ بالملك المعظم على حِمص فى شهر ربيع الآخر . فقال لى : قد سَحَبْتُ الأشرفَ إلى ههنا بأسنانى وهو كارِه ، وكل يوم أعتِبه فى تأخرة وهو يُكَاشِر [٢] ، وأخاف من الفرنج أن يستووا على مصر . وهو صديقُك ، فتَوَجَّهْ إليه ، فإنه قد سألنى عنك مرارا .

قال : ثم كتب كتابا إلى أخيه بِخَطِّه نحو ثمانين سَطْرا ، فأخذتهُ وتوجهتُ إليه إلى سَلَمِيَّة ؟ فتلقانى وأكرمنى ، فقلت له : المسلمون فى ضائقة ، وإذا أخذ الفرنج الديارَ المصرية ، ملكوا حضرموت وعفوا آثار مكة ، وأنت تلعب ؟ قم الساعة وارحل . فأمر برمى الخيام والدَّهْلِيز [٣] لوقته . وقمت فركبت ، وسبقته إلى حِمص . فركب المعظم والْتقى بى ، وقال : والله ما نِمتُ البارحة ، ولا أكلتُ فى يومى هذا ! فأخبرته أن الملك

---

(١) سبق بيان موضعها ، وهى بليدة من أعمال حماه أو حمص ، فى ناحية البرية .

(٢) فى « القاموس » : كشر عن أسنانه يكشر كشرا : أبدى ـ يكون فى الضحك وغيره . وقد كاشَره فكأن المعنى هنا وهو يكشر عن أسنانه ، كناية عن المعارضة أو العناد . وقد ط محقق (النجوم الزاهرة) وهو يكاسر ـ بالسين ـ وتعب فى تفسيره ، فأبْعَد .

(٣) السرادق . أو الخيمة الكبيرة المنصوبة للملك

الأشرف يصل إليه بُكْرَةَ الغد . فسُرَّ بذلك ، ودعا لى . وأقبلت الأَطْلاب[١] من الغد . وجاء الأشرف فما رأيت أجمل من طُلْبِه[٢] ، ولا أحسن رجالا ولا أكمل عدة .

قال : وبات الأخوان الملِكان فى تلك الليلة يتشاوران . فاتفقا على الدخول فى السحر إلى طرابُلس ، وكانوا على أحسن حال . فأنطقَ الله الملكَ الأشرف ـ من غير قصْد ـ وقال للمعظم : ياخُوَنْد[٣] ، مَ عِوَض دخولنا إلى الساحل ونُضْعِفُ عساكرنا وخيلنا ، ونُضيع الزمان ، ما نتوجه إلى دمياط ونَستريح ! فحلَّفَه المعظم بقُولِ رُمَاة البُنْدُق[٤] فحَلَف ، وقَبَّلَ المعظم قدمَه .

ونام الأشرف ، فخرج المعظم من الخَيْمة ونادى فى الناس : الرحيلَ إلى دمياط ، وما كان يَظُنُّ أن الأشرف يسمحُ بذلك . وساق المعظم إلى دِمشق ، وتبِعَتْه العساكر . ونام الأشرف فى خيمته إلى وقت الظهر ، وانتبه فدخل الحَمَّام فلم يَرَ حول خيمته خَيْمة ! فسأل عن العساكر ، فَأُخْبر بالخبر . فسكت وركب إلى دمشق . ونزل القصر فى رابع عشر جمادى الأولى ، فأقام بها إلى سَلْخِ الشهر .

---

(١) الأطلاب : جمع طَلَب . وهذا لفظ كردى ، معناه : الكتيبة . ورد هذا اللفظ مع جيش الدولة الأيوبية ، واستعمل فى دولتى الأيوبيين والمماليك .
فالأطلاب : يعنى : كتائب الجند .
(انظر السلوك ـ زيادة : جـ ١ ـ ٢٤٨)

(٢) : أى من جُنده ، أو كتيبته .

(٣) لفظ تركى أو فارسى ، وأصله « خُدَاوَنْد » . ومعناه : السيد ، أو الأمير .
(المصدر السابق جـ١ ـ ٢٢٤)

(٤) رُماة البندق هم أهل « الفُتُوَّة » الأعضاء فى ذلك النظام ، الذى كان شائعا فى عهد الخليفة الناصر ـ كما أشرنا إليه من قبل . فمعنى العبارة إذن أنه حلفه بقسم الشرف الذى كان يقسم به أعضاء نظام « الفتوة » ، وكان نظاما شبيها بالفروسيه .

وَعَرَضَ العساكر ، وتوجه إلى مصر ، هو والملك المعظم ـ فى غرة جمادى الآخرة . ووصلوا إلى المنصورة ، فى ثالث شهر رجب من السنة . ووصل أيضاً الملك المظفر بن الملك المنصور ، صاحب حَماه ، وغيرهُ من الملوك . هذا ما كان من خَبَر هؤلاء .

وأما الملك الكامل ، فإنه فى هذه السنة اجتهد فى قتال الفرنج .. واستمر القتال بينهم وبينه فى البر والبحر . وطلع النيلُ وعم البلاد ، وجرى فى بحر المَحَلَّة ، فرَتَّبَ السلطانُ مراكب الأسطول فى بحر المَحَلَّة ، ومنع الميرَةَ (١) عن الفرنج . فاشتد ضررهم لذلك ، وَعدِموا القُوت . وعزموا على الرجوع إلى دمياط ، فأحرقوا أَثْقَالهم وهربوا ليلاً . فأمر السلطان بقطع جِسر البَرَمُون (٢) ، وغيره من الجسور ، فقُطعت . فأحاط بهم النيل من كل جانب . وكان فيهم مائة كُنْد (٣) ، وثمانمائة من الخَيَّالة المعروفين ، وَمِلِك عكا ، والدُّوك (٤) واللُّوكان (٥) نائب البَاب (٦) ، ومن الرَّجَّالَة ما لا يُحصى كَثْرة .

فلما عايَنُوا الهلاك ، راسلوا السلطان ، وبذلوا له أن ينزلوا على ثَغْر دمياط ، ويُؤَمِّنُهم على أنفسهم وأموالهم . فأجابهم إلى ذلك . ووصل

---

(١) المؤن والأقوات .

(٢) بلد فى محافظة الدقهلية ، بالقرب من المنصورة .

(٣) من أرفع ألقاب الشرف عند الفرنجة ، وهذا تعريب لقب « Comte » الفرنسى « كونت » .

(٤) أى : الدوق .

(٥) هكذا فى (ع) ومعناه غير ظاهر . ونرجح أنه تحريف للقب « الكاردينال » .

(٦) البابا ، كما كان يُنطق فى تلك العصور فى الشرق .

المَلِكان : الأشرف والمُعَظَّم فى هذه الأيامُ . وتقررت الهدنة ثمانىَ سنين ، وأنه يُطْلَق جميعُ الأسرى من الجهتين .

وجلس الملكُ الكامل مَجْلِساً عظيماً . ووقف الملكُ الأشرف والملكُ المعظم وسائر الملوك فى خِدمته . ولم يجلس معه إلا الملك المعظم محمد [بن] سَنْجَرَشَاه ، بن أتابك ، صاحب جزيرة ابن[1] عمر ـ وكان قد وصل إلى الملك الكامل فى أوائل هذه السنة ، قبل وصول الأشرف والمعظم ـ وعَظَّمَه الملكُ الكامل تعظيماً كثيراً . وكان فى مدة مقامه عنده ، إذا حضر رسلُ الفرنج يقول لهم الملك الكامل : إنه الآن لا حُكْمَ لى ، وحديثُكم مع ملِك الشَّرْق ، والأَمْرُ له . وحضر رسولُ الفرنج مرة ، فوقف الملك الكامل بين يدى الملك المُعَظَّم هذا ، وكذلك من كان بحضرته من الملوك الأيوبية . وكان الملك المعظم محمد شَكْلاً مهيباً ، جَهُورِىَّ الصوْت ، هَيُولَ الخِلْقة ففَرِقَ رسلُ الفرنج منه . ولما جلس السلطان فى هذا اليوم ، أراد الملك المعظم الوقوف بين يديه مع الملوك الأيوبية ، فلم يُمَكِّنْه من ذلك ، وأجلسه إلى جانبه .

وحضر الملك يوحنا ـ صاحب عكا ـ إلى السلطان بظاهر البَرَمُون ، بعد أن أعطاه السلطان رهاين : ولَدَه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأخاه الملك المفضل قطب الدين ، وجماعة من أولاد الأمراء . فحلف يوحنا

---

(١) هى بلدة فوق الموصل . بينها ثلاثة أيام (١٥ فرسخا) ولها رُسْتَاق (مجمع قرى) مخصب . وتحيط بها دِجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ، ثم عُمِل خندق أُجرِى فيه الماء فى هذه الناحية ، فصارت جزيرة فعلاً . (معجم البلدان : جـ ٣ ـ ١٠٢)

للسلطان ، ولأخوَيْه : الأشرف والمعظم ، وحلفوا له . وذلك فى يوم الأربعاء ، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب ، من السنة .

وتسلم ثغر دمياط فى تاسع عشر شعبان من السنة . فكانت مدة استيلاء الفرنج على الثغر ستتين ، إلا ستة أيام . ومدة مقامهم بالديار المصرية ثلاث سنين ، وأربعة أشهر ، وستة عشر يوماً . وتوجه الفرنج إلى عكا : بعضهم فى البر ، وبعضهم فى البحر .

وعاد الملك المعظم ، صاحب الجزيرة ، والملك المعظم ، صاحب دمشق ، إلى ممالكهما . وتأخر الملك الأشرف عند السلطان الملك الكامل ، وتصافيَا ، وزال ما عند كلٍّ منهما من الآخر . واتفقا على الملك المعظم صاحب الشام .

ذكر رجوع السلطان إلى القاهرة
وإخراج الأمراء إلى الشام

قال : ولما تسلم السلطان ثغر دمياط ، وعاد الفرنج إلى بلادهم ، رجع السلطان إلى القاهرة . واستقر بقلعة الجبل .

ثم ركب فى ذى القعدة ، وجاء إلى مَنْظَرة الصاحب صفى الدين بن شُكْر ، لزيارته . فزاره ، واستشاره فى أمر الأمراء ، الذين كانوا مع عماد الدين بن المشطوب ، لما قصد إقامة الفائز . فأشار بإخراجهم من البلاد . وكانوا فى الجزيرة ، مقابل ثغر دمياط ، لعمارتها . فكتب السلطان إليهم بالانصراف ، إلى حيث اختاروا . فتوجهوا إلى الشام . ولم يتعرض لشىء من

موجودهم ، وأقطع أَخْبَازَهُم[١] لمماليكه .

فى هذه السنة ـ أعنى سنة ثمانى عشرة وستمائة ـ كانت وفاة أمين الدين أبو الدرّ : ياقوت بن عبد الله المَوْصِلى ، الكاتب المعروف بالمالكى ـ نسبة إلى السلطان مَلِكْشَاه السَّلْجُقى . إليه انتهى حسنُ الخَطِّ وجَوْده الكتابة فى زمانه ، وما أَدَّى أحدٌ طريقَة ابن البَوَّاب[٢] فى زمانه مثله . وكتب كثيراً من الكتب . وانتشر خطه . وكان مُغْرًى بنقل صِحاح الجوهرى ، كتب منها نسخاً كثيرة : كل نسخة فى مجلدة واحدة . قال ابن خِلِّكَان : ورأيت منها نسخاً عدة ، وكل نسخة تباع بمائة دينار . وكتب عليه خلقٌ كثير ، وانتفعوا به . وقصده الناس من البلاد إلى الموصل . وبها مات ، وقد أَسَنَّ وتغير خَطُّه ـ رحمه الله .

واستهلت سنة تسع عشرة وستمائة :

فى هذه السنة ـ فى أولها ـ وصل الملك الأشرف إلى القاهرة إلى أخيه الملك الكامل ، وأمر بعمارة تربة لوالدته بالقرافة . وعاد فى شعبان من السنة .

وفيها ظهر بالشام جرادٌ كثير ، لم يعهد مثله . فأكل الزَرْعَ والشجر . فأظهر الملك المعظم أن ببلاد العجم طائراً ، يقال له : السَّمَرْمَر يأكلُ الجراد . فأرسل الصدْرَ البَكْرِى مُحْتَسِبَ[٣] دمشق ، وَرَتَّبَ معه صُوفِيَّة ، وقال :

(١) أى إقطاعاتهم من الأراضى ، أو إيراداتهم منها . جمع خُبْز . وهو الإقطاع للجند أو إيراده ، كما كان يفهم فى ذلك الزمان .

(٢) هو : أبو الحسن على بن هلال ، المعروف بابن البواب ، الكاتب المشهور . المتوفى سنة ٤٢٣ ببغداد . (انظر ترجمة فى وفيات الأعيان جـ٣ ـ ص ٢٨)

(٣) المحتسب هو الذى يقوم بوظيفة الحِسبة ، وهى وظيفة شرعية . من واجبات صاحبها أن يراقب الآداب العامة وتنفيذ الأحكام الدينية ، من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

تمضى إلى العجم . فهناك عينٌ يجتمع فيها السَّمَرْمَر ، فتأخذ من مائها قوارير ، وتعلقه على رءوس الرماح ، فكلما رآه السمرمر يَتْبَعْك !

وكان قصدُ الملك المعظم فى إرسال البَكْرِىّ أن يتوجه إلى السلطان : جلال الدين خُوَارَزْم شَاه ويتفق معه ، لما بلغه إتفاق الملك الكامل والأشرف عليه . فتوجه البكرى ، واجتمع بالسلطان جلال الدين ، وقرر معه الأمور ، وجعله سَنَداً للملك المعظم . وكان الجراد قد قَلَّ ، فلما عاد البكرى كثر وولاه الملك المعظم مَشْيَخَة الشيوخ[١] مضافة إلى الحِسْبَة[٢] .

وفيها نُقِل الملك العادل فى تابوته من قلعة دمشق إلى مدرسته[٣] ، التى أنشأها عند دار العَقِيقِى[٤] . وأُخرجت جنازته من القلعة ، وعليها مرقعته ، وأرباب الدولة حوله . ودخلوا من باب البريد إلى الجامع ، ووضع فى صحن الجامع ، قبالة حائط النَّسْر . وصلى عليه الخطيب الدَّوْلَعِى[٥] . ثم حملوا جنازته وخرجوا من باب البَطَّاقِين ، خوفاً من ازدحام الناس فى الطريق . فلم يصل إلى تربته إلا بعد جهد ، لضيق المسلك . وتَرَدَّدَ القراءُ والفقهاء مُدةً إلى التربة ، غُدْوة وَعشِية . ولم تكن كملت عمارتها .

---

(١) يراد بها الإشراف على دور الصوفية (الخانقاهات) . فقد صار متوليها يلقب بشيخ الشيوخ .

(٢) سبق تعريفها منذ قليل .

(٣) هى المدرسة التى سميت « العادلية » نسبة إليه ، لأنه هو الذى وضع أساسها وبدأ بناءها ، وإن كان الذى أتمها ابنه الملك المعظم .

(٤) العَقِيقى هو : أحمد بن الحسين بن أحمد العلوى الدمشقى ، ويعرف بالعقيق ، توفى سنة ٣٧٧ هـ ونسبت الدار إليه .

(عن النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ١٧١ حاشية ٣)

(٥) نسبة إلى « الدَّوْلَعِيَّة » : قرية كبيرة بينها وبين الموصل يوم واحد .

(معجم البلدان : جـ٤ ـ ١٠٥)

ثـم درس فيها قاضى القضاة جمال الدين المِصْرى ، قبل كمال عمارتها . وحضر السلطان الملك المُعَظَّم ، وتكلم فى الدرس مع الجماعة .

وكان الإجتماع بالإيوان الشمالى بالمدرسة . وجلس عن يمين السلطانَ إلى جانبه ـ الشيخ جمال الدين الحَصِيرى شيخ الحَنَفية ، ويليه شيخ الشافعية : الشيخ فخرالدين بن عَسَاكِر ، ثـم القاضى شمس الدين الشِّيرازى ، ثـم القاضى محيى الدين بن الزَّكِى . وجلس عن يسار السلطان ، إلى جانبه ، مُدَرِّس المدرسة قاضى القضاة[1] ، وإلى جانبه سيف الدين على الآمدى ، ثـم القاضى شمس الدين يحيى بن سَنِىٍّ الدولة ، ثـم القاضى نجم الدين خليل قاضى العسكر . ودارت حَلْقَةٌ صغيرة ، والناس وراءهم متصلون مِلْءَ الإيوان . وكان فى تلك الحلقة أعيانُ المدرسين والفقهاء . وقُبالةَ السلطان الشيخ تَقِىّ الدين بن الصَّلاَح وغيره . وكان مجلساً جليلاً ، لم يقع مثلُه إلا فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

ذكر توجه الملك المسعود بن الملك الكامل من اليمن إلى الحجاز ، وما اعتمده

فى هذه السنة ، حج الملكُ المَسْعُودُ بن السلطان الملك الكامل بالناس من اليمن ، فى عسكر عظيم .

---

(١) أى جمال الدين المصرى .

وجاء إلى الجبل وقد لَبِسَ هو وأصحابه السلاح ، ومنع عَلَمَ الخليفة[١] . أن يصعد إلى الجبل . وأَصْعَدَ عَلَمَ أبيه : الملك الكامل ، وعَلَمَه . وقال لأصحابه : إن طلع البَغَادِدَة بعَلَم الخليفة فاكسروه ، وانهبوهم . ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس ، يضربون الكُوسَات[٢] ويتعرضون إلى الحَاجِّ العراقى ، وينادون : يا ثَارَاتِ ابنِ المُقَدَّم[٣]

فأرسل[٤] إليه حسامُ الدين بن أبى فِراس ـ أميرُ الحاج العراقى ـ أباه ، وكان شيخاً كبيراً ، فَعَرَّفه ما يجب من طاعة الخَليفة ، وما يلزمه من ذلك من الشَّنَاعَة . فيقال إنه أَذِنَ فى صعود العلَم قبيل الغروب . وقيل لم يأْذَنْ .

وبدا من الملك المسعود أَقْسيس[٥] فى هذه الواقعة جنونٌ عظيم ، وأفعالٌ شنيعة . قال أبو المُظَفَّر[٦] : حَكَى لى شيخُنا جمال الدين

(١) كان لايزال هو الخليفة (الناصر لدين الله) ، فإنه لم يتوفف إلا فى سنة (٦٢٢) ، وهذه أحداث سنة (٦١٩)

(٢) عَرَّفها القلقشندى بأنها : «صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يُدَقّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . ومع ذلك طبول وشَبَّابة . يدق بها مرتين فى القلعة فى كل ليلة ... وكذلك إذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه .
وقد عد ذلك من رسوم الملك وآلاته .
(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ٩)

(٣) المقصود به هو «شمس الدين بن المقدم» أحد كبار الأمراء فى دولة صلاح الدين . ومناداتهم بثأر المقدم تشير إلى الحادث الذى وقع سنة ٥٨٣ هـ بمكة ، بعرفات ، وقتل فيه ابن المقدم هذا . (انظر تفصيل الحادث فى ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ـ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩) .

(٤) من هنا ، أى قوله : «ثارات ابن المقدم» ... إلى قوله : «وفيها أنشأ الملك الكامل دار الحديث الكاملية» ـ أى بضع صفحات كاملة ـ مفقودة كلها من النسخة (ك) ، فاعتمدنا على النسخة الأخرى : (ع) فقط

(٥) سبق تفسير هذا الاسم . وهو كلمة تركية ، أصلها : أَطْسِيز أو أَتْسِيز .

(٦) أى سِبط ابن الجوزى ، المؤرخ .

الحَصِيرِى[١] ، قال : رأيتُ أَقْسِيسَ قد صعد على قُبَّةِ زَمْزَم ، وهو يرمى حَمَام مكة بالبُنْدُق ! قال : ورأيتُ غِلمانه فى المَسْعَى يضربون الناس بالسيوف فى أرجلهم ، ويقولون : اسعوا قليلاً قليلاً ، فإن السلطان نائمٌ سَكْرانُ فى دار السلطنة التى بالمسَعْىَ . والدَّمُ يجرى من ساقاتِ الناس ! .

وفيها ، فى العشرين من شعبان ، ظهر كوكبٌ كبير فى الشرق ، له ذُؤابةٌ طويلة غليظة . وكان طلوعه وقت السَّحَر ، فبقى كذلك عشرة أيام . ثم ظهر أول الليل فى المغرب مما يلى الشمال . فبقى كذلك إلى آخر شهر رمضان .

وفى هذه السنة ، توفى الملك المُفَضَّل قُطْبُ الدين أحمد بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ، بالفيوم . ونُقل إلى القاهرة فدفن بالقَرافة الصغرى .

وإلى قُطْبِ الدين هذا ، تُنْسب الدارُ القُطْبِيَّة التى بين القَصْرَيْن بالقاهرة المُعِزِّيّة ، التى هى الآن البِيمارسْتان المَنْصُورى . وكان قد جمع أخواته بنات الملك العادل ، بعد وفاة أبيه ، وسكنها ، وهُنَّ تحت كَنَفِه ، فسُمِّيتْ الدار القطبية به ـ رحمه الله تعالى .

---

(١) وهو شيخ الحنفية ، وقد تقدم ذكره فى المتن .

وفيها تُوفى الأمير عماد الدين : أبو العباس أحمد ، بن الأمير الكبير سَيْف الدين أبى الحسن على ، بن أحمد ، بن أبى الهَيْجَا ، بن عبد الله ، بن أبى الخليل بن مورتان ، الهَكَّارى[١] ، المعروف بابن المَشْطُوب[٢] . والمشطوب لقب والده ، لُقِّبَ به لَشَطْبَةٍ كانت بوجهه .

وكان أميراً كبيراً ، وافر الحُرْمة عند الملوك ، يَعُدُّونَه بينهم كواحد منهم . وكان عالىَ الهمة غزير الجود ، واسع الكرم ، شجاعاً أَبِىَّ النفْس . وكان من أمراء الدولة الصَّلاَحِيَّة . فإن والده لما توفى[٣] ، كانت نابُلُس إقطاعاً له ، أَرْصَدَ منها السلطانُ الملك الناصر صلاح الدين الثُّلُثَ لمصالح بيت المقدس ، وأقطع ولده عماد الدين هذا بَقِيَّتَها . ولم يزل قائم الجاه والحُرْمة نافذ الكلمة ، إلى أن صدر منه على ثَغْرِ دمياط ما قدمنا ذِكْره . وكان من خَبَرِه واعتقاله ما قدمناه . ثم كانت وفاته بحَرَّان . وبَنَتْ له ابنتهُ قُبَّةً على باب مدينة رأس عين ، ونقلته من حَرَّان إليها ، ودفنته بها .

وأما والدهُ ـ رحمه الله تعالى ـ فكان من أكابر الأمراء الصَّلاَحِيَّة . وكان الملك الناصر[٤] قد رتَّبه بعكا ، هو وبهاء الدين قَراقُوش الأَسَدِى . ولما خلص منها ، وصل إلى السلطان وهو بالقدس . قال ابن شَدَّاد : إنه دخل عليه بَغْتَةً ، وعنده الملك العادل ، فنهض إليه واعتنقه ، وسُر به سروراً عظيماً . وأخلى له المكان ، وتحدث معه طويلاً .

(١) نسبة إلى « الهكارية » : وهى بلدة وقرى فوق الموصل ، فى بلد جزيرة ابن عمر ، يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية .

(ياقوت : جـ٨ ـ ٤٦٩)

(٢) سبق ذكره غير مرة فى أيام العادل والكامل .

(٣) وذلك سنة ٥٨٨ هـ .

(٤) أى السلطان صلاح الدين بن ايوب .

ولم يكن فى الدولة الناصرية من يُضاهيه فى الرُّتبة وعلو المنزلة . وكانوا يسمونه : الأميرَ الكبير . وكان ذلك عَلَماً عليه عندهم ، لا يشاركه فيه غيرهُ . وكان إقطاعه ـ نابُلسُ وغيرها ـ بعد خلاصه من الأسر ـ ثلاثمائةَ ألف دينار . وكانت وفاته ـ أعنى والدَه ـ بالقدس ، فى يوم الخميس سادس عشر شوال ، سنة ثمان وثمانين[1] وخمسمائة ، بعد خَلاصه من الأسر بعكا بمائة يوم . ودُفن بداره ، بعد أن صُلِّى عليه فى المسجد الأقصى ـ رحمه الله تعالى .

وفيها توفى جلال الدين أبوبكر ، بن القاضى كمال الدين أبى السعادات : أحمد بن شُكْر .

واستهلت سنة عشرين وستمائة :

ذكر مُلْكِ الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل مكة ـ شرفها الله تعالى

وفى هذه السنة ، ملك الملك المسعود أَقْسِيس بن السلطان الملك الكامل ـ صاحب اليمن ـ مكة ـ شرفها الله تعالى . وكان صاحبها يومئذ : الأمير حسن بن قَتَادة[2] ، وكان قد أساء السيرة . فسار إليه الملك المسعود وقاتله بالمَسْعَى بِبَطْنِ مكة ، فى رابع شهر ربيع الآخر . فتغير الخليفة الناصر لدين الله على الملك الكامل ، بسبب ذلك .

---

(١) الموجود فى (ع) : «سنة ثمان وخمسين وخمسمائة» . وهو خطأ . والصواب كما أثبتناه هو : «سنة ثمان وثمانين وخمسمائة» .

(٢) هو الأمير حسن بن قتادة بن إدريس الحَسَنى . وقد تقدم ذكرهما .

ذكر عصيان الملك المُظَفَّر شهاب الدين غازى على أخيه الملك الأشرف وقتاله ، وانتصار الملك الأشرف

وفى هذه السنة ، عاد الملك الأشرف موسى من الديار المصرية ، من عند أخيه الملك الكامل . فلما وصل إلى دمشق ، تلقاه أخوه الملك المعظم عيسى ، وعرض عليه النزول بالقلعة . فامتنع ، ونزل بجَوْسَق أبيه . وبدت الوحشة بين الإخوة : الكامل والمعظم والأشرف .

وركب الأشرف من الجَوْسَق فى وقت السحَر ، فسار ونزل ضُمَيْر (١) . ولم يعلم المعظم برحيله . وسار يَطْوِى البلاد إلى حَرَّان . وكان الأشرف قد استناب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازى ، صاحب مَيَّافَارِقِين ، بخِلاَط ، لما توجه إلى مصر ، وجعله وَلِىَّ عَهده ، وَمكَّنَه فى جميع بلاده . فسَوَّلَتْ له نفسُه العِصيان ، وحسَّنَه له أخوه الملك المعظم ، وغيره ، ووعدوه المساعدة والإنْجَادَ على أخيه الأشرف .

فسار الأشرف من حَرَّان إلى سِنْجَار . وكتب إلى أخيه غازى أن يحضر إليه ، فامتنع . فكتب إليه ثانياً ، يُحَذِّرُه عاقبةَ العصيان ، ويلاطفُه ويقول له : أنت ولىُّ عهدى ، والبلاد والخزائن بِحُكْمِك ، فلا تُخَرِّبْ بيدك وتسمع كلامَ أعدائك . فأَصَرَّ على العصيان .

---

(١) ضُمَيْر : موضع قرب دمشق ـ قيل هو قرية وحصن ، فى آخر حدود دمشق مما يلى السماوة (أى على حدود البرية : الصحراء) .

(معجم البلدان : جـ ٤ ـ ٤٤١)

فجمع الأشرف عساكرَ الشرق وحلَب ، وتجهز وسار إليه . وجمع غازى جَمْعاً ، وخرج إليه . والتقوا ، واقتتلوا ، فى سنة إحدى وعشرين وستمائة . وقاتل غازى قتالاً شديداً . وكان أهل خِلاط يحبون الملك الأشرف . فبينما غازى يقاتل من باب فتح أهل خِلاط باباً آخر . وأصعدوا صَنَاجِقَ الأشرف منه ، ونادوا بشعاره . فهرب غازى إلى القلعة ، وتحصن بها يومين .

ثم نزل إلى أخيه الملك الأشرف ، واعتذر . فَقِبلَ عُذْره ، وأعاده إلى مَيَّافَارِقين وديارَ بكْر . فتوجه إلى مَيَّافَارِقين ، مريضاً من جراحات أصابتْهُ . وأقام الملك الأشرف بِخلاط ثلاثة أيام ، وسَلَّمها لمملوكه أَيْبَك والحاجب عَلِىّ ، ورجع إلى رأس عَيْن .

وكان الملك المعظم قد خرج من دِمشق ، ونزل بالقَطَنَة [1] ، لإنجاد أخيه غازى على أخيه الأشرف . وبعث إليه عيسى الدُّبَاهى سِرًّا . فوصل ، وقد فاتِ الأمرُ . ورجع المعظم إلى دمشق ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين وستمائة .

وفيها كانت وفاة مُبارز الدين سُنْقُر الحلَبى ـ الصَّلاَحى ـ والد الظَّهِير .

وكان قبل ذلك مقيماً بحلب ، ثم انتقل إلى ماردين فخاف الملك الأشرف عاقبة قرْبِه ، فبعث إلى أخيه الملك المعظم يقول : ما دام المبارز فى الشرق لا آمن على نفسى ! فبعث إليه الملك المعظم ولدَه الظَّهِير غازى ، يلتمس منه وصوله إليه ، ويُعَرِّفُه رغبتَه فيه ، ووعده أن يُقْطِعَه نابُلسُ ، وما اختار من بلاد الشام .

---

(١) موضع قريب من دمشق .

فتوجه إليه ولدُه الظَّهِير ، وأبلغه رسالة الملك المعظم إليه . وعرفه رغبته فيه . فأشار عليه صاحبُ ماردِين أن يقيم ، ولا يتوجه ، وقال : هذه خَدِيعة . وَمكَّنَه من مملكته وخزائنه . فأبى إلاّ الانحياز إلى الملك المعظم . وتوجه إلى الشام ، فى سنة ثمانى عشرة[١] وستمائة .

فخرج المعظم إليه وتلقاه ، ولم يُنْصِفْه . ونزل بدار شبل الدولة الحُسَامى[٢] بقاسِيون . وأعرض المعظم عنه ، إلى أن تفرق عنه مَنْ كان حوله ، وأنفق ما كان فى حاصِله ، واحتاج إلى بيع دوابه وقماشه . ولم يزل كذلك إلى أن مات غَماً ، فى هذه السنة . وكان قد وصل إلى الشام ، ودائرته بمائة ألف دينار ، فمات وليس له ما يُكَفَّن فيه ! فقام بتجهيزه شبل الدولة كافور الحُسامى ، وابتاع له تُربةً بألف درهم ، ودفنه بها .

وكانت للمُبارِز المواقفُ المشهودَة ، حتى يقال إنه لم يكن فى زمانه أشجع ولا أكرم منه . ويقال إنه كان مملوك شمس الدولة تورانشاه بن أيوب[٣] ـ رحمهما الله تعالى .

واستهلت سنة إحدى وعشرين وستمائة :

ذكر وصول الملك المسعود من اليمن

وفى هذه السنة ، قدم الملك المسعود أَقْسِيس ـ بن الملك الكامل ـ من اليمن إلى القاهرة ، من جهة الحجاز . وإنما جاء طَمَعاً فى أخذ دمشق والشام .

---

(١) فى (ع) : «فى سنة ثمانية عشر» .

(٢) نسبة إلى حسام الدين لاجين ، ابن أخت صلاح الدين .

(٣) أى أخى صلاح الدين .

وكان معه من الهدايا والتحف أشياء كثيرة : من جملة ذلك ثلاثة أفيلة ، الكبير منها يدعى بالمِلِك ، وعليه مِحَفة بدَرَابِزين ، يجلس فيها على ظهره عشرة أنفس ، وفيَّالُه راكبٌ على رقبته ، وبيده كُلَّاب يضربه به ، ويسوقه كيف أراد ! وركب السلطان الملك الكامل للقائه . فلما دنت الفِيَلةُ منه ، وضعت رؤوسها إلى الأرض ، خدمة للسلطان ! وكان فى جملة الهدية مائتا [1] خادم ، وأحمال من العود والمسك والعنبر ، وتُحَفِ اليمن .

وقيل إن قَدْمَتَه هذه كانت فى سنة ثلاث وعشرين . والله أعلم .

وفيها ، أنشأ الملكُ الكاملُ دارَ الحَدِيث الكَامِلِيَّة [2] التى بالقاهرة المُعِزِّيَّة بين القَصْرَيْن وهى تقابل باب القَصْر ، المعروف بباب البحر .

وفى سنة إحدى وعشرين أيضاً ـ فى سَلْخِ شعبان ـ توفى الوزير الأعز فخر الدين أبو الفوارس مِقْدَام بن القاضى كمال الدين أبو السعادات أحمد بن شُكْر ومولده فى سنة إحدى وستين وخمسمائة .

---

(١) الموجود فى (ع) : «وكان فى جملة الهدايا مائتى» ـ وهذا مثل آخر من الأخطاء النحوية فى المتن .

(٢) وهى دار الحديث ، وليس بمصر دار حديث غيرها ، وغير دار الحديث بالشيخونية . قال المقريزى : وهى ثانى دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، ثم بنى الكامل هذه الدار . بناها الملك الكامل وكملت عمارتها فى سنة إحدى وعشرين وستمائة . وجعل شيخها أبا الخطاب عمر بن دحية ثم وليها بعده أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية ، ثم وليها الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى الخ .

(السيوطى : حسن المحاضرة : جـ ٢ ـ ١٤٢)

وتوفى الصاحب صفى الدين أبو محمد عبد الله ، بن المخلص أبى الحسن على ، بن الحسين بن عبد الخالق ، بن الحسين بن الحسن بن منصور ـ الشَّيْبى القُرَشِى المالِكى ، المعروف بابن شُكْر . ولم يكن من بنى شُكْر ، إنما هو ابن عم كمال الدين أحمد بن شكر لأُمِّه ، فعُرِفَ به .

ومولده بالدَّمِيرَة : بلدةٌ من الأعمال الغَرْبِيَّة بالديار المصرية ـ فى تاسع صفَر ، سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وقد تقدم ذكر وزارته وعزله وإعادته ، وغير ذلك من أحواله . وكانت وفاته فى يوم الجمعة ثامن شعبان ، ودفن برِباطه الذى أنشأه بالقاهرة ، بالقرب من مدرسته[1] .

وكان شديدَ البَطْش ، عظيم الهَيْبة سريع البادِرة ، جَسُوراً مِقداماً . وقاسى الناس منه شدائد كبيرة . وانتزح جماعةٌ من الأكابر عن أوطانهم بسببه . وكان كريماً ، إلا أنه لم يُسْمَعْ بوزير من المُتَعَمِّمِين[2] كان أظْلَمَ منه .

ولما مات ، استوزر السلطان الملك الكامل بعده ولدَه : الصاحب تاج الدين يوسف ، نحو شهرين . ثم قبض عليه واعتقله . وانتصب السلطانُ الملكُ الكامل للأمور بنفسه ، وقَرَّرَ مصالحَ دولته ، ونظر فى وجوه الأموال ومصارفها ، واستصفى أموال الصاحب صفى الدين ، وذخائره وأملاكه .

وفيها ، فى سلخ شوال ، توفى القاضى الأسعد : أبو البركات عبد القوى ، بن القاضى الجَلِيس : مَكِين الدولة أبى المعالى عبد العزيز بن الحسين ، بن عبد الله بن الحَبَّاب ـ رحمه الله تعالى .

---

(١) وهى المدرسة الصاحبية . عُرفت بهذا الأسم نسبة إليه . أى الصاحب بن شكر . وكانت هذه المدرسة لدراسة المذهب المالكى ، وهو مذهب مؤسسها .

(٢) أى من الفقهاء أو العلماء ، مقابل الوزراء من أمراء الجند أو غيرهم .

واستهلت سنة ثنتين وعشرين وستمائة :

ذكر ابتداء المعاملة بالفلوس

بالديار المصرية

فى هذه السنة فى ذى القعدة ، ضربت الفُلُوس[١] بالقاهرة ومصر ، وصارت من جُمْلةِ النقود . وتقررت القِيمةُ عن كل درهم وَرِق[٢] ، من معاملة الديار المصرية ، ستة عشر فَلْساً . ثم أُبطِلت المعاملة بها ، فى سنة ثلاثين وستمائة . ثم عادت .

وفيها ضُرِبت دراهم مستديرة ، وأمر السلطان أن لا يُتعامل بالدراهم المصرية العُتُق[٣] ، وحصل للناس ضررٌ عظيم بسبب ذلك[٤] ، وصار كل ما يُتحَصَّل منها يُسبَك ويضرب من الجَدِيد ، وبلغ ضرب العَتِيق ستين درهما بدينار .

---

(١) هى أقل وحَدَات النقود . وهى التى تصنع من نحاس . وصارت قيمة « الفَلْس » ـ كما ذكر فى المتن ـ إذ ذاك ١٦/١ من الدرهم الفضة .

(٢) الدرهم الورِق : هو الدرهم الخالص أى من الفضة ، إلا بنسبة قليلة مما يخلط به . فهو غير الدرهم النُّقْرَة ، الذى كانت تكثر فيه نسبة النحاس ، من نحو الثلث فأكثر .

(٣ ، ٤) الدراهم العُتُق : أى القديمة المطبوعة من الأزمنة السابقة ، وكانت قد تَلِفَت وكسرت بمرور الزمن . وحصل للناس ضرر : لأنه أبطل التعامل بها ، وكان الناس يتعاملون بها كأنها دراهم صحيحة .
(راجع القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ـ ص ٤٤٣ وما بعدها)
(ورسالة المقريزى « إغاثة الأمة » عن النقود)

وفيها ، فى يوم الأربعاء سابع عشر شعبان ، استخدم السلطانُ الملكُ الكامل القاضىَ سديدَ الدين : أبا عبد الله محمد بن سليم ، صاحب ديوان الجيوش . ثم صُرف بعد ذلك بمدة يسيرة . وهو والد الصاحبِ بهاء الدين على ، المعروف بابن حِنا : وزير الدولة الظاهرية الرُّكْنِيَّة[1] ـ وسيأتى ذكره ـ إن شاء الله تعالى .

وفيها صَلَب الملكُ المعظم عيسى رجلاً ، يُقال له : ابن الكَعْكِى ، ورفيقاً له .

وكان ابن الكعكى رأسَ حرب[2] ، وله جماعةٌ أتْباع وكانوا ينزلون على الناس فى البساتين ، ويقتلون وينهبون . والمعظم يوم ذاك بالكَرَك ، وبلغه أن ابن الكعكى قال لأخيه الملك الصالح إسماعيل : أنا آخذ لك دمشق ، وكان إسماعيل ببُصْرَى . فكتب الملك المعظم إلى مُتَوَلِّى دمشق أن يصلب ابنَ الكَعْكِى ، ورفيقَه ، مُنَكَّسَيْن . فصُلِبَا ، فى العشر الآخر من شهر رمضان . فأقاما أياماً لا يجسر أحد أن يطعمهما ولا يسقيهما ، فما تا . وقدم الملك المعظم دمشق بعد وفاتهما ، فمرض مرضاً أشْفَى منه ، ثم أَبَلَّ . ولم يزل يَنْتَقِضُ عليه ، حتى مات . وكان رفيقُ ابن الكعكى خَيَّاطاً ، شهد له أهل دمشق بالصلاح ، والبراءة مما رُمِى به .

---

(١) أى دولة الظاهر ركن الدين بيبرس .

(٢) أى رأس عصابة مسلحة .

وفيها كانت وفاة الملك الأفضل ، نور الدين على بن السلطان الملك الناصر : صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ فجأة ـ فى صفر ، سنة ثنتين وعشرين وستمائة ، بسُمَيْساط . ونُقل إلى حلَب ، فدُفن بها بظاهرها بتربته .

وكان مولده بالقاهرة فى سنة خمس وستين وخَمسمائة ، يوم عيد الفطر . وكان فاضلاً شاعراً حسن الخَط قليل الحظّ ، تقلّبت به الأحوال . وقد تقدم ذكر ملكه دمشق ومصر ، وغير ذلك . ثم استقر آخرا بسُمَيْساط .

ومما يُعزَى إليه من الشعر أنه كتب إلى الخليفة الناصر ـ لما أُخْرِج من دمشق[1] ، واتفق عليه أخوه الملك العزيز عثمان وعمه الملك العادل أبو بكر :

مولايَ ، إن ابا بكر[2] ، وصاحبه
عثمان[3] ، قد غضبا بالسيف حقَّ عَلِى[4]
فانظرْ إلى حَظ هذا الاسم ، كيف لَقِى من الأواخر ، ما لاقى من الأُوَلِ

فأتاه الجواب من الإمام الناصر ، وفى أول الكتاب :

وَافَى كتابُك يا ابن يوسفَ مُعلِناً بالوُد ، يُخْبِرُ أن أصلكَ طاهرُ
غَصَبُوا علياً حقَّهُ إذ لم يكن بعد النبى له بيَثْرِبَ ناصرُ
فابْشِرْ ، فإنَ غَدا عليه حسابهُم واصبِرْ ، فناصرُك الامامُ الناصِر

(١) كان ذلك سنة (٥٩٢) ، أى بعد وفاة والده السلطان صلاح الدين بثلاث سنوات .

(٢و٣و٤) يقصد بأبى بكر : العادل ، عمه . وبعثمان : العزيز ، أخاه . و « على » هو نفسه : الأفضل .

وقيل أن الخليفة جَرَّدَ لنُصرته سبعين ألف فارس ، فبلغه فَوَاتُ الأمر فأعاد العسكر إلى بغداد .

وفيها ، فى يوم الخميس سادس عشر ذى الحجة ـ وقيل سابع عشر ذى القعدة ـ توفى الإمام فخر الدين أبو عبد الله : محمد بن إبراهيم بن أحمد ابن طاهر ، بن أبى الفوارس الخَبْرِى الفارسى الشِّيرازى الفَيْرُوزَبَادِى ، الشافعى الصوفى ، من أَجَلِّ مشايخ الطريقة ، كبير الشأن . وكانت وفاته بمعبده : معبد ذى النُّون بالقرافة الصغرى ، على شَفِير الخندق من غربيِّه . ودفن بتربته ، وقبره من المزارات المباركة المشهورة . وكان من علماء مشايخ وقته ، شديد الهَيْبة فى قلوب الناس . وله تصانيف كثيرة فى الطريق ، وشعر .

قدم دمشق فى شهر رجب ، سنة ست وستين وخمسمائة ، ودخل مصر فى نصف شعبان من السنة : ورحل إلى الإسكندرية ، وسمع بها من الحافظ السِّلَفى (١) ، وحَدَّثَ بالكثير عنه . وتوفى ، وله من العمر ثلاثٌ وتسعون سنة . وجاوَرَ بمكة ، وحَدَّث بها . وقال : نحن من خَبْر سَرُوشِين ، وهو إقليم من عمل شِيراز ، مشرَبهُم من جبَل الدينار . ولهم خَبْر آخر يقال له : خَبْر سَمْكان ، من عمل شِيراز أيضاً . وخَبْر ثالث ، يقال له : خَبْرُ فَيْرُوز أَبَاد ـ خَبْر بإسكان الباء المُوَحَّدَة .

(١) هو الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد .... بن إبراهيم سِلَفَه ، الأصبهانى الإسكندرى . قدم إلى الإسكندرية سنة ٥١١ هـ فأقام بها ، وبنى له ابن السلار وزير الظافر مدرسة فوضها إليه ، وبقى حتى وفاته سنة ٥٧٦ هـ قال السيوطى : «كان إماما حافظا متقنا ناقدا وكان أوحد زمانه فى علم الحديث» .
(وفيات الأعيان : جـ ١ ـ ٨٧)
(وحسن المحاضرة : جـ ١ ـ ١٤٨ ـ ١٤٩)

واستهلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة :

ذكر وصول رسول الخليفة إلى الملوك أولاد السلطان الملك العادل ، وطلب الصلح بينهم والاتفاق

فى هذه السنة ، قدم الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجَوْزِى[١] ، رسولاً من الخليفة الظاهر بأمر الله[٢] ـ إلى السلطان الملك الكامل وإخوته ، وصُحْبَتُه الخِلَعُ للملك الكامل ، والتقليد بالولاية . والخِلَعُ لولديْه : الملك المسعود ، والملك الصالح . وخِلْعة لوزيرة الصاحب صفى الدين ـ وكان قد مات ـ فأمر السلطان الفخرَ سليمان ، كاتب الإنشاء ، أن يلبس خلعة الصاحب ، فلبسها .

ولبس السلطان وولداه الخِلَع ، وعبروا من باب النصر ، وخرجوا من باب زُوَيْلَة[٣] بالقاهرة ، وطلعوا إلى القلعة . وكان يوماً مشهوداً .

ووصل أيضاً ـ صُحْبَتَه ـ الخِلَع للملك المعظم شرف الدين عيسى ، وللملك الأشرف : مظفر الدين موسى .

---

(١) هو أبو المحاسن يوسف ، بن أبى الفرج (ابن الجوزى) البغدادى الحنبلى . ولد سنة ٥٨٠ هـ وتوفى سنة ٦٥٦ . وَزَر للظاهر ، وصار أستاذ دار المستعصم آخر خلفاء بغداد .

(النجوم الزاهرة : جـ٦ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)

(٢) هو الخليفة « الظاهر بأمر الله » بن الناصر . تولى الخلافة عقب وفاة والده . (سنة ٦٢٢) . لكن خلافة الظاهر لم تكمل السنة . فقد توفى سنة ٦٢٣ .

(٣) نسبة إلى (زويلة) ـ بالضم ثم الفتح ثم السكون ـ : قبيلة من قبائل البربر ، الواصلين مع جوهر (الصقلى) من المغرب .

(صبح الأعشى : جـ ٣ ـ ٣٥٢ ـ ٣٥٣)

وتضمنت رسالتُه إلى الملك المعظم رجوعَه عن السلطان جلال الدين خُوارَزْم شاه [1] ، والصلحَ مع إخوته : الملك الكامل والملك الأشرف . وكان الملك المعظم قد راسل السلطانَ جلالَ الدين ـ كما تقدم . ثم بعث إليه مملوكَه الركين ، فرَحَّلَه من تَفْلِيس ، وأنزله على خِلاط . والأشرف يومئذ بحرَّان .

فقال الملك المعظم للشيخ جمال الدين : الرسول : « إذا رجعتُ عن السلطان جلال الدين ، وقَصَدنى ، إخوتى ينجدوننى ؟ قال : نعم . فقال : ليس لكم عادة تنجدون أحدا ! هذه كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دِمياط ، ونحن نكتب إليه نستصرخ به ، ونقول انجدونا . فيجيىء الجواب : إنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ، ولم يفعلوا . ثم ضرب له مثلاً وحكى عليه حكاية . وقال : إن إخوتى قد اتفقوا علىّ ، وقد أنزلتُ السلطان جلال الدين خوارزم شاه على خِلاط . فإن قصدنى الأشرف مَنَعَه ، وإن قصدنى الكامل قَدَرْتُ على ملاقاته ودَفْعِه .

وفى هذه السنة ، عاد الملك المسعود إلى اليمن . وكان عَوْدُه فى ذى القَعدة . وقد تقدم ذكر وصوله إلى خدمة أبيه بالهدايا ، فى سنة إحدى وعشرين وستمائة . وذكر ابن جلب راغب : أن قدومه وعَوْده كان فى هذه السنة . والله أعلم .

---

(١) لأنه كان هناك عداء بين الخلفاء العباسيين وشاهات الدولة الخوارزمية .

وفيها وصل الملك الأشرف إلى أخيه الملك المعظم بدمشق ، وأعطاه رسالة ، وتضرع إليه واعترف له بسابق فضله وسالف إحسانه ، وسأله أن يرسل إلى السلطان جلال الدين خُوارَزْم شاه يُرَحِّلُه عن خِلاط . فبعث إليه فرحَّلَه عنها ، وكان قد أقام عليها أربعين يوماً . وسقط عليه وعلى أصحابه بها ثَلْجٌ عظيم .

وأقام الملك الأشرف عند أخيه الملك المعظم بدمشق . وكان المعظم يلبس خِلْعَة خُوارَزْم شاه ، ويركب فرسَه ، وإذا جلسوا على الشراب يحلف برأس خُوارَزْم شاه ، والأشرف يتألم لذلك أشَدَّ الألم ، ولا يستطيع أن يتكلم . ثم توجه الملك الأشرف إلى ضيافة أخيه الملك الكامل بالديار المصرية .

وفيها ، عَقَد السلطان الملك الكاملُ نِكاح ابنته على ابن صاحب الروم[1] .

وفيها توفى شِبْلُ الدولة : كافور بن عبدالله الحُسَامى[2] ، خادمُ ست الشام .

وكان عاقلاً أديباً فاضلاً ، له حُرْمة وافرة فى الدولة ، ومنزلة عالية عند الملوك .

وبنى مدرسة على نهر ثَوْرَا[3] وتُربة ، ووقف عليها الأوقاف ، ونقل إليها الكتب الكثيرة . وبنى الخَانْقَاه للصوفية ، إلى جانب مدرسته . وفتح

(١) أى صاحب دولة الروم السلجوقية ، وكان هو فى ذلك الوقت السلطان « علاء الدين كيقباذ » .

(٢) نسبة إلى حسام الدين ، محمد بن عمر بن لاجين بن ست الشام ، أى ابن أخت صلاح الدين .

(٣) من أنهار دمشق ، ويتصل بنهر بردى من الجهة الشمالية .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ١١٨ ـ ١١٩) .

طريقاً للناس من الجبل إلى دمشق ، قريبة عند القِفَارات ، على طريق عين الكرش . وبنى المَصْنَع الذى على رأس الزُّقَاق ، ومصنعاً آخر عند المدرسة . وكان كثير الإحسان إلى الفقراء ، وصدقاتُه دَارَّةٌ إلى الآن . وسمع الحديث ورواه . وكانت وفاته فى شهر رجب الفرد ، ودفن بترتبه إلى جانب مدرسته[١] ـ رحمه الله تعالى .

وفيها فى نصف شهر رجب ، توفى قاضى القضاة جمالُ الدين : أبو محمد وأبو الفضل وأبو الوليد وأبو الفرج : يونُسُ بن بَدْران بن فَيْرُوز ، بن صَاعِد بن على بن محمد بن على ، القُرَشى الشَّيْبِى ، الحِجَازى الأصل ، المَلِيجى المَوْلِد[٢] المِصْرِى الدار ، الدِّمشقى الوفاة ، المعروف بالمِصْرى . مولده تقريباً سنة خمسين وخَمسمائة . وبلده التى ولد بها مَلِيج : من الأعمال المُنُوفية ، بالديار المصرية . تفقه بمصر ، وسمع بالإسكندرية والقاهرة . وتَرَسَّلَ لبغداد . وتولى وِكالة بيتِ المال بدمشق ، ثم ولى القضاء بها ـ كما تقدم ـ فى سنة ثمان عشرة وستمائة . رحمه الله تعالى

وفيها كانت وفاة الشريف حَسَن بن قَتَادة ، بن إدْرِيس الحَسَنِى : أمير مكة ـ شرفها الله تعالى .

وكان قد وِلِىَ الإمارة بعد أبيه كما تقدم ـ مُغَالَبَةً ـ وكان سيىء السِّيرة ، ظلوماً مِقداماً . وقتل أَقْبَاش[٣] أميرَ الحاج العراقى ، فى سنة سبع عشرة . وأحدث بمكة أموراً مُنْكَرَة . ولما وصل الملك المسعود إلى مكة ،

---

(١) التى عرفت باسم (المدرسة الحسامية)

(٢) هو الجمال المصرى ، الذى تقدم كثير من أخباره .

(٣) هو « أَقْبَاش » بن عبدالله الناصرى : مملوك للخليفة الناصر ، اشتراه وربّاه وقربه إليه . ورقاه حتى ولاه إمارة الحج . وكان سبب مقتله أنه تدخل فى نزاع بين حسن بن قتادة أمير مكة وأخيه راجح ، فقتله جند حسن . (ابن الأثير : جـ ١٢ ـ ١٦٥)

وأخذها منه ، هَرَب . فتوجه إلى بغداد مريضاً ، فمات بالجانب الغربى على دِكة . فلما عُلِمَ به ، غُسّل وكُفّن وصُلّى عليه وحُمل إلى مشهد موسى ، ودُفن هناك .

واستهلت سنة أربع وعشرين وستمائة :

فى هذه السنة ، عاد الملك الأشرف موسى إلى بلاده .

وفيها قدم رسول الأَنْبُرُور[1] إلى الملك الكامل ، بطلب الفُتُوح[2] . وتوجه إلى الملك المعظم بدمشق ، فأَغْلَظَ له . وقال : قُلْ لصاحبِك ما أنا مثلُ الغَيْر ، ليس عندى إلا السيف !

وفيها كان خِتان الملك العادل بن الملك الكامل ، وعُمِل سِماط[3] عظيم بالمَيْدان الأسود ، تحت قَلْعة الجبل .

ذكر هدم مدينة تِنِّيس[4]

وفى شوال ، سنة أربع وعشرين وستمائة ، أمر السلطان الملك الكامل

(١) أى الإمبراطور فردريك الثانى : امبراطور ألمانيا .

(٢) يقصد بها فتوح صلاح الدين : أى البلاد التى فتحها صلاح الدين فى فلسطين .

(٣) المائدة الملكية .

(٤) تِنِّيس : ضبطها ياقوت (بكسرتين وتشديد النون وسين مهملة) ـ وقال القلقشندى : والجارى على الألسنة فتح التاء . (جـ٣ ـ ٣٨٧) ـ : جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر ، ما بين الفَرَما ودمياط .
(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٤١٩)

وهى أيضا : ـ
بلدة تلك الجزيرة ، وكانت ثغراً من الثغور المصرية . وموقع مكانها الآن شمال شرق بحيرة المنزلة قرب بورسعيد .

بهدم مدينة تِنِّيس . وسيَّرَ إليها النَّقَّابين والحَجَّارين ، فهُدِّمت بكمالها فى هذا الشهر ، وأُخْلِيَتْ ولم يبق بها ساكن . وكانت من المدن الجليلة : كدِمياط والإسكندرية .

ذكر الوحشة الواقعة بين السلطان الملك الكامل وبين اخيه المعظم

وفى هذه السنة ، تأكدت الوحشة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك المعظم : صاحب دمشق . فكتب الملك الكامل إلى الأَنْبُرُور ـ ملك الأَلْمَان ـ أن يحضر إلى الشام والساحل ، ويعطيه البيت المقدس ، وجميع الفتوحات الصَّلاَحِيَّة بالساحل .

وكتب الملك المعظم إلى السلطان : جلال الدين خُوَارَزْم شاه ، يسأله أن يُنْجِدَه ويعُينه على أخيه الملك الكامل . ويكون من جُملة المنتمِين إليه ، ويَخْطُبُ له على منابر بلاده ، ويضرب باسمه الدينار والدرهم ، فأجابه إلى ذلك . وسيَّرَ إليه خِلْعةً فلَبِسها ، وشَقَّ بها مدينة دِمشق . وغَرِم على رُسُلِ السلطان جلال الدين ، فى مدة تسعة أشهر ، تسعمائة ألف درهم . وقطع خُطبةَ الملك الكامل .

فتجهز الملك الكامل وخرج لقصد دمشق . فكتب إليه الملك المعظم يقول : إنى قد نَذَرْتُ لله تعالى أن كل مَرْحَلَة رَحَلْتَ منها لقصدى أتصدق بألف دينار ، فإن جميع عسكرك معى وكتبهُم عندى ، وأنا آخذك بعسكرك . هذا ما كتب له فى الباطن . وكتب إليه فى الظاهر يقول : أنا مملوكك ، وما خرجت عن محبتك وطاعتك ، وأنا أول من حضر لخدمتك قبل ملوك جميع الشام والشرق . فأظهر السلطان هذا الكتاب للأمراء ، وعاد إلى القاهرة ، وقبض على جماعة من الأمراء الذين تَوَهَّمَ فيهم أنهم كاتبوا الملك المعظم : من جملتهم الأمير فخر الدين الطُّنْبَا الحُبَيشىَ[1] ، وفخر الدين الطُّنْبَا الفَيُّومى أمير جَانْدار ، وعشرة من الأمراء البحرية العادِلية ، وأخذ جميع أموالهم .

وفيها ، فى يوم الأربعاء ، سابع عشر شهر ربيع الأول ، توفى القاضى ناصر الدولة أبوالحجاج يوسف ، بن الأمير فخر الدين شاهان شاه ، بن الأمير عزالدين أبى الفضل غَسَّان ، بن الأمير العظم جلال الدين أبى عبدالله : محمد بن جَلَب راغِب الآمِرى[2] ، وقد تجاوز سبعين سنة .

وهو من أولاد الأمراء المصريين ، لم يزالوا أمراء من الدولة الآمِرِيَّة إلى أيام شاوَر الوزير ، فأبادهم وقتل بعضهم . ولما جاء أسدُ الدين شِيرِكوه إلى الديار المصرية تَزَيَّا القاضى ناصر الدولة بزِىِّ القُضاة ، وخَدَم فى الخِدَم الديوانية ، وعند الأمراء . وناصرُ الدولة هذا هو جد تاج الدين محمد بن

(١) كذا رسمها فى (ع) وأثبتها محقق السلوك كذلك أما فى (ك) فرسمت : الجيشى .

(٢) نسبة إلى الخليفة الفاطمى « الآمر » : (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ) .

على ، المعروف بابن مُيَسَّر[١] ، صاحب التاريخ ـ رحمه الله تعالى .

وفيها فى يوم الأحد تاسع عشر شوال ، كانت وفاة قاضى القضاة : عماد الدين عبد الرحمن ، بن عفيف الدين أبى محمد عبد العلى بن على ، السُّكَّرِى . تَفَقَّه على الفقيه شهاب الدين الطُّوسى[٢] ، وعلى الفقيه أبو المنصور ظَافِر بن الحسين[٣] . وسَمِعَ الحَدِيثَ وحَدَّث به . وَولى القضاء ـ كما تقدم . وولى الخَطابة بالجامع الحاكمى بالقاهرة ، والتدريس بمدرسة منازل العِزّ[٤] بمصر . ثم صُرف عن القضاء والخطَابة كما تقدم . وكان هَيُوباً . وصَحِب جماعةً من المشايخ ، وله معهم أحوال ومكاشَفات . ومولده بمصر فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة . رحمه الله تعالى .

---

(١) هو الذى أشار إليه المؤلف (النويرى) كثيراً بقوله : ابن جبب راغب ، واقتبس منه غير مرة .

(٢) الشهاب الطوسى : أبو الفتح محمد . قال النووى فى طبقاته : كان صدر العلماء فى عصره . وعليه مدار الفتوى فى المذهب الشافعى . ولد سنة ٥٢٢ . وتوفى بمصر سنة ٥٩٦ هـ .
(حسن المحاضرة : جـ١ ـ ١٧٠ ـ ١٧١)

(٣) ذكره السيوطى بين الفقهاء المالكية ، وقال عنه أنه « ظافر بن الحسين » أبو منصور الأزدى المصرى ، شيخ المالكية . انتفع به بشر كثير . مات بمصر سنة ٥٩٧ هـ .
(المصدر السابق : جـ١ ـ ص ١٩٣)

(٤) بنتها السيدة « تغريد » أم العزيز بالله الخليفة الفاطمى ، ولم يكن بمصر أحسن منها ، وما زال الخلفاء يتداولونها ، حتى كانت سنة ٥٦٦ فاشتراها الملك المظفر تقى الدين عمر ، بن شاهنشاه بن أيوب (ابن أخى صلاح الدين) وجعلها مدرسة للشافعية ووقف عليها وقوفا جليلة .
(المقريزى : الخطط : جـ ٤ ـ ١٩٤)
(وابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ـ ١٩٩)

ذكر وفاة الملك المعظم عيسى
وشيء من أخباره وسيرته ، وقيام ولده الملك الناصر داود

وفى هذه السنة ، فى يوم الجمعة مستهلّ ذى الحجة ، كانت وفاة الملك المعظَّم شرف الدين عيسى ، بن السلطان الملك العادل : سيف الدين أبى بكر محمد ، بن أيوب بن شادى ـ صاحب دمشق ، وكانت مدة ملكه ، بعد وفاة والده الملك العادل ، تسع سنين وستة أشهر ، إلا ثمانية أيام . ومولده بالقاهرة فى سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان ـ رحمه الله ـ قد جَهَّزَ العساكر إلى نابُلُس ، خوفاً من اتفاق أخيه الملك الكامل مع الأَنْبَرُور ، فمرض فى منتصف شوال واشتد به مرضه ، وأصابه ذَرَبٌ مُفْرِط حتى رَمَى قطعةً من كبده . وقيل أنه سُمَّ ، ومات وغسّله كريم الدين الخِلاطى ، والنَّجْمُ يصب عليه الماء . وكان قد أوصى أن لا يُدفن بقلعة دمشق ، وأن يُخْرَج إلى الميدان فيُصَلَّى عليه ويحمل إلى قاسيون ، فيدفن على تربة والدته تحت الشجرة . فلم تُنَفَّذْ وصيته ، ودفن بالقلعة . ثم أخرج منها بعد مدة ، لما ملك الملك الأشرف ، على حالةٍ غيرِ مناسبة لمثله ، وبين يديه نصفُ شَمْعَة ومعه العزيز خليل ، ودُفن مع والدته فى القُبَّة ـ وفيها أخوه الملك المغيث .

وكان الملك المعظم ـ رحمه الله تعالى ـ فقيهاً فاضلاً ، نَحْوِيًّا ، قرأ القرآن وتفقه على مذهب أبي حنيفة على الشيخ فخر الدين الرّازى ، وحَفِظَ المَسْعُودى ، واعتنى بالجامع الكبير . واشتغل بالأدب على تاج الدين الكِنْدِى[1] ، فأخذ عنه كتابَ سِيبَوَيْه ، وشَرْحَه للسِّيرافى ، والحُجَّة فى القِراءات لأبى على الفارِسى ، والحَمَاسة . وقرأ الإيضاح لأبى على ، حِفْظاً . وَسمِع مُسْنَدَ أحمد بن حنبل بدمشق على ابن طَبَرْزَدْ[2] ، وأشياء من مسموعاته . وسمع السِّيرةَ لابن هشام ، وغير ذلك . وله ديوان شعر . وصنَّف فى العروض ، وكان مع ذلك لا يقيم وزنَ الشعر فى بعض الأوقات .

وكان شُجاعاً مِقْداماً كثير الحَيَا متواضِعاً ، حَسَن الصَّوْت ضَحُوكاً غَيُوراً ، جواداً حسن العِشْرة ، محافظاً على الصُّحْبَة والمودة وكان إذا خرج إلى الغَزَاة لا ينام إلا على حبل طرح ، وَزَردِيَّته مَخَدَّته . ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وسِيبويه . وكان يركب فى كل يوم غالباً ، فإذا نزل مَدَّ السِّماط ، فإذا أكل الناس انتصب لقضاء الحوائج إلى الظهر .

---

(١) هو زيد بن الحسن .. الكِنْدى ، الملقب تاج الدين . البغدادى المولد والمنشأ ، الدمشقى الدار والوفاة . المقرىء النحوىّ الأديب . كان أوحد عصره فى فنون الآداب ، وعلوّ السماع (فى الحديث والقراءات) . رحل عن بغداد إلى حلب ، ثم انتقل إلى دمشق ، وسافر إلى مصر واقتنى من كتب خزائنها كل نفيس ، وعاد إلى دمشق واستوطنها ، وقصده الناس وأخذوا عنه . كان مولده سنة ٥٢٠ ، وتوفى سنة ٦١٣ بدمشق .
(وفيات الأعيان : جـ ٢ ـ ٨٧)

(٢) هو أبو حفص ، عمر بن أبى بكر ـ المعروف بابن طبرزد ـ : المحدث المشهور ، البغدادى الملقب : موفق الدين . كان عالى الإسناد فى سماع الحديث ، طاف البلاد ، وأفاد أهلها . وكان فيه صلاح وخير . ولد سنة ٥١٦ هـ وتوفى سنة ٦٠٧ ببغداد .
وطبرزد : اسم لنوعٍ من السكر .
(وفيات الأعيان : جـ ٣ ـ ١٢٤)

وكان فى أيام الفَتْح مع الفرنج يرتب النيرانَ على الجبال ، من باب نابُلُس إلى عكّا . وله جماعةٌ على جبل الكَرْمَل ـ المقابل لعكا ـ عليه المُنَوِّرُون ، وبينهم وبين الجواسيس علامات . وله فى عكا أصحاب أخبار ـ وأكثرهم نساء الخَيَّالة ـ وكانت طَاقات بيوتهم مقابلة الكَرْمَل ـ فإذا عَزَم الفرنج على الإغارة فَتَحَت المرأةُ طاقَتَها . فإن كان يخرج مائةُ فارس ، أَوْقَدَتْ

شَمعةً واحدة . وإن كانوا مائتين ، أوقدت شمعتين . وتُشير بالنار إلى الجهة التى يقصد الفرنج الإغارة عليها . وكان الفرنج لا يقصدون جهة ، إلا يجدون عسكر المعظم قد سبقهم إليها . وكان يُعْطِى النساء الجواسيس فى كل فتح جُملةً كثيرة .

قال الشيخ أبو المظفر ، يوسف سبط ابن الجوزى : قلت للملك المعظم فى بعض الأيام : هذا إسراف فى بيوت الأموال . فقال : أنا أستفتيك :

لما أن عزم الأَنْبَرور على الخروج إلى الشام ، أراد أن يخرج من عكا بَغْتَة ، ويسير إلى باب دمشق ، فَبَعَثَ فارساً عظيماً ، وقال له : أَخْفِ أمْرَنَا ومجيئَنا إلى البلاد لنُغِير بَغْتَة . وكان بعكا إمرأة مستحسنة ، فكتبت إلىَّ تخبرنى الخبر . فَبَعَثْتُ إليها ثياباً مُلَوَّنَة ، وَمَقَانِعَ(١) وعنبرا ، فلَبِسَتْ ذلك ، واجتمعت بذلك الفارس . فدُهِش ، وقال : من أين لك هذا ؟ فقالت : من عند

(١) (ج) مِقْنَع أو مِقْنَعَة : قال فى القاموس : والمِقْنَع والمِقْنَعَة : ما تُقَنِّعُ به المرأةُ رأسَها .

صديقٍ لى من المسلمين . فقال : من هو ؟ فقالت : الكَرِيدى . فَصَلَّبَ[١] على وجهه ، وقام فخرج من عندها . فمازالت تلك المرأة تتلطف به ، حتى تَسْحَبَ المودةَ بينى وبينه . فصِرْتُ أُهادِيه ، حتى كان يبعث إلىَّ كُتُبَ الأَنْبَرورُ التى يبعثها إليه ، مَخْتُومَة . وأُرْسِلُ إليه ، فيكتب ما أقول . فأنا أُدَارِى عن المسلمين بهذا القَدْرِ اليسير ، وأَفْدِى به الخَطير ، فإن الأَنْبَرورُ لو جاء بَغْتَةً ، أَسَرَ من أهل الشام ، وساق من مواشيهم وأموالهم ما لا يحُصى قيمتُه .

وكان الملك المعظم ـ رحمه الله ـ قد أمر الفقهاء أن يُجَرِّدُوا[٢] له مَذْهَبَ أبى حنيفة ، دون صاحِبَيْه . فَجَرَّدُوا له المذهب فى عشر مُجَلَّدات ، وسماه التَّذْكِرَة . فكان لا يفارقه سَفَراً ولا حضَرا ، ويُدِيم مطالعتَه . ويكتب على كل مُجَلَّد : أَنْهَاهُ ـ حِفْظاً ـ عيسى بن أبى بكر بن أيوب . قال أبو المظفر : فقلت له : ربما تُؤخَذُ عليك ، لأن أكبرَ مدرس فى الشام يَحْفَظُ القَدُورِى[٣] مع تَفَرُّغِه ، وأنت مشغول بتدبير المُلك . فقال : ليس الاعتبارُ بالألفاظ ، وإنما الاعتبار بالمعانى . باسم الله ، سَلُونى عن جميع مسائلها .

---

(١) أى رسم على وجهه إشارة الصليب .

(٢) أى يجردوا آراء أبى حنيفة وحده ، دون آراء صاحبيْه : محمد وأبى يوسف ، وغيرهما . أى يجمعوها وحدها فى مؤلف .

(٣) اسم كتاب مشهور من موجَزات الفقه ، على المذهب الحنفى .

وكان رحمه الله تعالى ـ حسنَ التدبير للمُلْك . وكان وزيره شرف الدين بن عُنَيْن ، الشاعر الهَجَّاء المشهور . واستَعْفَى من الوزارة ، وكتب إلى الملك المعظم :

أقِلْنِى عِثَارِى ، واتَّخِذْها وَسِيلةً تكون برُحْماها إلى الله راقيا
كَفَى حَزَنى أن لستَ ترضى، ولاأرى فتىً راضياً عنى ، ولا اللهَ راضيا
أَخوضُ الأفاعى طولَ دهرىَ دائِباً وكم يُتَوَفَّى من يخوضُ الأفَاعيا

فأعفاه . ولابن عُنَيْن أخبار نذكُرُها ، إن شاء الله تعالى ـ عند وفاته .

ولما مات الملك المعظم ، ملك بعده دمشق ولدُه : الملك الناصر صلاح الدين داود . فأساء السِّيرة ، واشتغل عن مصالح دولته بالشرب واللهو والطرب . فاقتضى ذلك ما نذكره ، من إخراجه من دِمشق .

واستهلت سنة خمس وعشرين وستمائة :

فى هذه السنة ، وصل إلى دمشق الأمير عماد الدين بن الشيخ [1] ، من جهة السلطان الملك الكامل ، إلى ابنِ أخيه الملك الناصر ، ومعه جَلْدَك بالخلَع والتغيير للملك الناصر . وأقام عمادُ الدين بدمشق .

(١) هو أحد أبناء صدر الدين شيخ الشيوخ ، الذى تقدمت ترجمته وأخباره ، فكل من أبنائه صار يدعى : ابن الشيخ . وكانوا إخوة الملك الكامل من الرضاع ، لأن أمهم ـ وهى بنت الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون الفقيه الكبير ـ أرضعته .

وفيها عزم الملك الكامل على المسير إلى الشام ، وَبَرَزَ بخيامه ظاهرَ القاهرة . ولما عزم على ذلك سَلْطَنَ[١] ولدَه نجم الدين أيوب ، ونَعَتَهُ بالملك الصالح ، وركب بشِعار السَّلْطَنَة[٢] فى سَلْخ شعبان ، ووالده الملك الكامل مُبَرِّز بظاهر القاهرة .

ورتَّب السلطانُ مع الملك الصالح ـ فى النيابة ـ الأميرَ فخر الدين : يوسف بن الشيخ[٣] . فأساء الملك الصالح السيرة بعد توجه والده ، واشترى بُستان الخَشَّاب[٤] ، وعَمَّر فيه مناظر . ففارقه الأمير فخر الدين بن الشيخ ، فى العشرين من شوال ، ولحق بالسلطان الملك الكامل .

وفيها فى سادس عشر شعبان ، أفرج السلطان الملك الكامل عن تاج الدين : يوسف ، بن الصاحب صَفِىّ الدين بن شُكْر ـ وكان قد استوْزَرَه بعد وفاة والده ، ثم اعتقله بعد شهرين ـ كما تقدم . فأفرج عنه الآن ، وأنعم عليه بمائة وخمسين ديناراً ، واستخْدَمَه مُوَقِّعاً[٥] .

---

(١) أى لَقَّبَه وأعلنه : سلطانا .

(٢) هو كل رسوم الملك وأدواته ومظاهره ، التى كان يسير بها السلطان فى الموكب فى مناسبة توليه وغيرها . انظر : (صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ٦ وما بعدها)

(٣) هو أخو عماد الدين بن الشيخ الذى تقدم ذكره ، وابن آخر لصدر الدين شيخ الشيوخ . وسيكون لفخر الدين هذا شأن فى عهد الملك الصالح وموقعة المنصورة .

(٤) كان موقع هذا البستان فى المنطقة التى يحدها ـ اليوم ـ شارع المبتديان من الشمال ، وقصر العينى فى الجنوب ، ونهر النيل فى الغرب ، والخليج المصرى من الشرق .
(ملحق النجوم الزاهرة : جـ ٧ ـ ص ٣٨٨)

(٥) يطلق لفظ المُوَقِّعِين على كتاب الدَّسْت : أى الذين يكتبون عن السلطان أو نائبه ، مباشرة .
(انظر القلقشندى : جـ ١ ـ ص ١٣٧)

وفيها كانت الوَقْعَةُ على صُور[١] . وذلك أن الملك العزيز عثمان ، وصارم الدين التِّبْنِينِى ، كَمَنَا للفرنج قريباً من صُور . فلما تَعَالَى النّهار ، خرج أهل صور[٢]: فارسُهم وراجلُهم بمواشيهم ، فخَرَجَا عليهم فيمن معهما من الكَمِين ، فقتلوا وأسروا سبعين فارساً ، واستَاقُوا الأغنام والجواميس . ولم يسلم ممن خرج من الفرنج ، غير ثلاثة .

وفيها توفى شرف الدين أبو المعالى : شُكْر بن القاضى كمال الدين أبى السعادات ، أحمد بن شكر . وهو أخو الوزير الأعز فخر الدّين مقدام . وكان قد ولى نظر ثغر الإسكندرية وغيرها ـ رحمه الله تعالى .

وفيها توفى أبو الفتح : نَصْر بن صَغِير بن دَاغِر ، أبوخالد القَيْسَرَانى الحلَبى كان شيخاً أدِيباً ، له نظم حسن . رحمه الله تعالى .

واستهلت سنة ست وعشرين وستمائة :

ذكر تسليم البيت المقدس وما جاوره للفرنج

كان تسليمُ البيت المُقَدَّس وما جاوره للفرنج فى العشر الآخر ، من شهر ربيع الأول ، من هذه السنة .

---

(١) مدينة كبيرة معروفة على ساحل الشام . احتلها الفرنج مدة طويلة أيام الحروب الصليبية .

(٢) المقصود بهم الفرنج ، فقد كانوا محتليها فى ذلك الوقت .

وسببُ ذلك أن السلطان الملك الكامل ، لما اتصلت به أفعال ابن أخيه الملك الناصر داود ، خرج من القاهرة فى الثالث والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين ، واستناب ولدَه الملك الصالح كما تقدم ، وبقى إلى العشر الأوسط من شهر رمضان ، وسار إلى البيت المقدس . ثم عاد ونزل بِتَلّ العُجُول[١] . فأرسل الملك الناصر داود الفخرَ بن بُصَاقَة[٢] إلى عمه الملك الأشرف ليستنجدَه ، ويعرفه قصد الملك الكامل بلاده . فجاء الأشرف إلى دمشق ، ونزل ببستانه بالنَّبْرَب[٣] . ولما شاهد حركات ابن أخيه المذمومة ، أطمعته نفسه فى أخذ دمشق لنفسه .

ووصل الملك الكامل إلى نابُلُس ، ورتَّبَ الوُلاة والنُّوَّاب فى البلاد الساحلية . فبلغه أن الأَنْبَرُور فَرْدِيك[٤] قد وصل إلى يافا فى ميعاده . فعاد إلى تل العجول ، وتردّدت الرسائل بينه وبين الأَنْبَرُور . وكانَ السفير بينهما الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ ، والصَّلاَح الإِرْبِلِىّ . فتقرر الصلح على : أن السلطان يعطى الأنبرور البيت المقدس ، والقَرَايَا التى على طريقه من يافا إلى

---

(١) موضع بالقرب من غزة .

(مفرج الكروب : جـ ٣ ـ ٧٤)

(٢) هو كاتب الإنشاء فخر القضاة ، نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى الغِفَارى . كان أكتب أهل زمانه بلا مدافعة ، وأطولهم باعاً فى الأدب . وله ديوان شعر . ولد بقوص سنة ٥٧٧ . ومات بدمشق سنة ٦٤٦ هـ .

(حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ٢٤٣)

(٣) قرية مشهورة بدمشق ، على نصف فرسخ منها . فى وسط البساتين . قال عنها ياقوت : أنزه موقع رأيتُه .
(معجم البلدان : جـ ٨ ـ ٣٥٥)

(٤) أى الأمبراطور فِرِدْرِيك .

القدس . ومدينة لُدّ [١] وتِبْنِين [٢] وأعمالها . ووُقِّعَت الهُدْنة مدةَ عشر سنين . وتسلم الأنبرور البيت المقدس ، وهذه الأماكن . فحضر الأئمة والمؤذنون ، الذين كانوا بالصخرة والمسجد الأقصى ، إلى باب الدِّهليز الكامِلى . وأذَّنوا فى غير وقت الأذان . فأمر الملك الكامل أن يُؤْخَذَ منهم ما معهم من السُّتُور والقناديل والآلات ، وأن يتوجهوا إلى حال سبيلهم .

قال : ولما وصلت الأخبارُ بتسليم بيت المقدس للفرنج ، عُمِلَت الأَعْزِيَة فى جميع بلاد الإسلام ، بسبب ذلك . وأشار الملك الناصر داود ـ صاحب دمشق ـ إلى الشيخ شمس الدين أبى المُظَفَّر : يوسف سِبْط ابن الجَوْزى . أن يَذْكرَ ما جرى على القُدْس فى مجلس وعظه بجامع دمشق ، ليكون ذلك زيادةً فى الشناعة على عمه الملك الكامل .

فجلس ووعَظ ، وقال : انْقَطَعَتْ عن بيت المَقْدِس وفودُ الزائرين ! يا وحشة للمجاوِرين ! كم كانت لهم فى تلك الأماكن رَكْعَة ! كم جرت لهم فى تلك المساكن من دَمْعَة . بالله لو صارت عيونهم عُيوناً لما وَفَتْ . ولو انقطعت قلوبهم أَسَفاً لما اشْتَفَتْ . أَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَ المسلمين . يا مَحِلَّةَ مُلوك المسلمين . لهذه الحادثةِ تُسكَب العَبَرات ، ولمثلِها تَنْقَطِع القلوبُ من الزفرات ، لمثلها تعظم الحسرات .

---

(١) قرية صغيرة معروفة قرب بيت المقدس .

(٢) هذه الكلمة غير ظاهرة فى (ع) ، وبغير نقط ، ولكنها تبدو فى صورة (تبنين) . وتبنين المشهورة ، التى مر ذكرها ، هى بالقرب من بانياس ودمشق . ويظهر أن هناك تبنين أخرى صغيرة فى هذا الموضع ، فقد ورد ذكرها فى (ابن الأثير : جـ١١ ـ ص ٢٢٢) قرية من بيت لحم والخليل .

ثم أنشدَ قولَه :

أَعَيْنَيَّ لاَ تُرقَيْ[1] من العَبَراتِ صِلِى بالبُكا الآصالَ بالبُكُرَاتِ

وهى أبيات ذكر فيها البيتَ المُقَدَّس وفضله ، وزوّاره ، وما حل به من هذه الحادثة ـ تركنا ذكرها اختصاراً .

وكان الملك الأشرف قد قال للملك الناصر داود : أَنَا أَتوَجَّهُ إلى عمك الملك الكامل ، وأُصْلِحُ حالَكَ معه . وتوجه إلى السلطان فوجده قد سَلَّمَ البيت المقدس للفرنج ، فشق ذلك عليه ولامَه . فقال الملك الكامل : ما أحْوَجَنِى إلى هذا إلا المُعَظَّم ـ يُشير إلى أن المعظم أعطى الأَنْبُرُور من الأُرْدُنِّ إلى البحر ، وأعطاه الضِّياعَ التى من باب القدس إلى يافا ، وغيرها .

ولما اجتمع الملك الأشرف بالملك الكامل اتفقا على حصار دمشق . وقَبَض الملك الناصر على فخر الدين بن بُصَاقة[2] ، وابن عمه المُكَرَّم . واعتقلهما فى الجُبّ[3] ، واستأصل أموالهما . وكان قد اتهم الفخر أنه حَسَّنَ للأشرف الاستيلاء على دِمشق .

---

(١) رَقَأ الدمع ، كجَعَل : جَفَّ . (القاموس) .
فمعنى (لا تَرْقَى) فى البيت : لا تجِفّى من العَبَرات : الدموع .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) أى فى الجُبّ بالقلعة .

وفى هذه السنة فى آخر صفر ، فوّض الملكُ الناصر داود القضاءَ بدمشق للقاضى : محيى الدين أبى الفضائل ، يحيى بن محمد بن على بن محمد بن يحيى ، القُرَشى : المعروف بابن الزَّكى ـ شريكاً لقاضى القضاة : شمس الدين أحمد الخُوَيِّى[1] . وعَزَل القاضى نجم الدين : أحمد بن محمد بن خلف المَقْدِسى ـ وكان ينوب عن القاضى شمس الدين الخُوَيِّ فى القضاء . وصار الخُوَيِّ وابن الزَّكى فى القضاء جميعاً .

ذكر توجه السلطان إلى دمشق
وحصارها ، وأخذها من ابن أخيه : الملك الناصر داود ،
واستقرار الملك الناصر بالكَرَك وما معها

قال : لما سلم السلطان الملك الكامل البيت المقدس وما جاوره إلى الأَنْبَرور ، سار إلى دمشق ، وصحبه الملك الأشرف . ووصل إليه الملك العزيز عثمان ، صاحب بانْيَاس ، ومعه ولده الملك الظاهر ، فأعطاه خمسين ألف دينار ، وأعطى ولده عشرة آلاف ، وأنعم عليهما بقماش وخِلَع ، وذلك بمَنْزِلَة سَكَّاء[2] .

---

(١) هذا ضبطُها . فهى نسبة إلى (خُوَىّ) ـ بضم الخاء وفتح الواو ثم الياء المشددة . وهى : « بلد مشهور من أعمال اذربيجان ، كثير الخير والفواكه » .

(معجم البلدان : جـ٣ ـ ٤٩٤)

(٢) كانت مكتوبة فى الأصل ، فى النسختين : منزلة سكريير (هكذا) ولم نجد فى المعاجم هذا الاسم . وإنما وجدنا « سكاء » ـ بفتح أوله وتشديد ثانيه وللد ـ : اسم قرية بينها وبين دمشق أربعة أيام ، فى الغوطة .

(معجم البلدان : جـ٥ ـ ٩٦)

ثم قَدِم عليه الأمير عز الدين أَيْدَمُر المُعَظَّمِى ـ وكان الملك الناصر بن سيده قد أساء إليه ـ فأنعم عليه السلطان بعشرين ألف دينار من الخزانة ، وكتب له توقيعاً بعشرين أردب غلة ، على الأعمال القُوصيَّة ، وأعطاه أملاك الصاحب صفى الدين بن شُكْر . وكان قد عزم على العود إلى الديار المصرية ، فلما جاءه الأمير عز الدين قال : قد جاءنى مِفتاح الشام ، وسار إلى أن وصل إلى دمشق وحاصرها . وكان نزوله عليها فى شهر ربيع الآخر .

وشدد الحصار ، وضَيَّق على مَنْ بالبلد . فخرج إليه الملك الناصر داود سِرًّا ، ووقف على باب الدِّهْلِيز[1] وأرسل مملوكَه خلف أحد الحُجَّاب ، فلما جاء إليه الحاجب ، قال له : قُلْ لمولانا السلطان : مملوكُكَ داود ابن أخيك بالباب ، فأعلم الحاجبُ السلطانَ فخرج إليه وتلقاه واعتنقه ، فَقَبَّلَ الناصرُ رِجْلَه وقال : يا عم قد جئتُكَ بذُنُوبى وهؤلاء حَرَمُ أخيك . فبكَى الملكُ الكامل ، وقال : والله يا وَلَدى ، لو كان وصولك إلىَّ قبل إستنجادك بعمك الأشرف ، وحضوره من بلاده ـ أبقيت دمشق عليك . ولكن إذْ جاء الملك الأشرف إلى عندى ، أنا أعطيك الكَرَك[2] والشَّوْبَك[3] والساحِل[4] والغَوْر[5] . وإذا سَيَّرتُ إليك فلا توافق حتى يكمل لك ألف وخَمسمائة فارس . عُدْ إلى مكانك . فعاد الناصر ، وهو طيب النفس .

---

(١) خيمة الملك أو السلطان . أو الخيمة الكبيرة .

(٢) (٥) سبق التعريف بهذه المواضع . فالغَوْر : وادى بالأردن ، والساحل ساحل فلسطين . والكرك والشوبك قلعتان شهيرتان . فى جنوب البحر الميت ، بين الجبال .

وبلغ الملك الأشرف خروج الملك الناصر إلى السلطان ، فركب وأسرع ليدركه ويقبض عليه ، فلم يدركه . فوبخ الأشرفُ الكاملَ على إطلاقه وتمكينه من دمشق . فقال له الملك الكامل : إنه جاءنى وَبكَى ، وقال هؤلاء حَرَم أخيك . ثم قال الملك الكامل : هؤلاء أولادُنا ، لابد لهم من مكان يأوون إليه . فقال الأشرف : يكون لهم الشَّوْبَك . فقال الكامل : ما يكفيهم إلا أن تكون الكَرَك معها . فسيَّرَ إلى الناصر فى إعطائه الكَرَك والشَّوْبَك ، فلم يَرْضَ بذلك . ولم يَزَلْ إلى أن يُقَرِّرَ له الكَرَك والشَّوْبَك والغَوْرَيْن والبَلْقَاء ، فأجاب إلى ذلك .

وخرج الناصر عن دمشق ، وتسلمها الملك الكامل فى غرة شعبان . فكان مدة المقام عليها أربعة أشهر . ومضى إلى الكَرَك ، وتسلم ما أُقْطِعَ باسمه . وقيل إن السلطان لم يعطه الشَّوْبَك ، وسأله إياها ، فقال له : يا ابن أخى أنا ليس لى حِصْنٌ يحمى رأسى ، وافرض أن هذا الحصن لك وقد وهبتنى إياه . وإنه أعطاه الكَرَك وعَجْلُون ونَابُلُس وبلاد القُدْس . والله أعلم .

ذكر تسليم دمشق للملك الأشرف

قال : لما تسلم الملك الكامل دمشق ، سأله أخوه : الملك الأشرف موسى ، أن يَهَبَه دمشق ، ويُعَوِّضَه عنها حَرَّان وأعمالَها ، والرُّهَا وسَرُوج ، ورأسَ عَيْن والرَّقَّة ، وجُمْلِين . فَرضِىَ كلٌّ منهما بذلك . وتسلم الملك الأشرف دِمشق . ووجه الملك الكامل الأميرَ فخر الدين بن الشيخ ، فتسلم ذلك . وتسلم الملك الأشرف دمشق . وتوجه الملك الكامل إلى هذه الجهات ، فَرَتَّبَ أَحْوالَها .

قال : ولما أقام الملك الأشرف بدمشق ، دخل عليه شرف الدين بن عُنَيْن الشاعر ، فلم يَرَ منه ما كان يَعْهَدُه من الملك المعظم ، من الإنبساط ، وما كان يقع فى مجلسه من سماع أَهَاجِى ابن عُنَيْن ، فيما كان يفعله . فنهاه الملك الأشرف ، وقال : ليس مجلسى كما عَهِدْتَ . يكفينى ما أنا فيه ، حتى أضيف إليه ثَلْبَ المسلمين . فخرج من عنده ، وقال :

وكنا نُرَجِّى بعد عيسى[١] محمداً[٢] لِيُنْقِذَنا من شِدَّة الضُّر والبَلْوَى
فأَوْقَعَنَا فى تِيهِ موسى[٣] كما تَرَى حَيارَى ، بلا مَنٍّ لديه ولا سَلْوَى !

فبلغ الأشرفَ ذلك ، فأمر بقطع لسانه . فدخل عل جماعة من الأكابر ، وحلف أن الشعر ليس له . ثم هرب إلى بلاده بزُرَع[٤] وحَوْرَان . فكف الملك الأشرف عن طلبه .

ذكر أخذ مدينة حَمَاه
وتسليمها للملك المظفر

قال : لما توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق ، اجتاز بمدينة حماه ، فأخذها من صاحبها : قِلِيج أَرْسَلان بن الملك المنصور[٥] ـ وكان قد

(١) يقصد بعيسى : الملكَ المعظم الذى كان صاحب دمشق .

(٢) محمدا : يقصد به الملك الكامل .

(٣) يقصد به الملك موسى الأشرف .

(٤) هى بلدة من بلاد حوران . وضبطها صاحب صبح الأعشى بضم الزاى وفتح الراء المهملة وعين مهملة . (صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ١٠٨)

(٥) أى الملك المنصور محمد ، بن المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . والمظفر هذا هو ابن أخى صلاح الدين .

استولى عليها لما قدم الملك المظفر[١] إلى الملك الكامل بالمنصورة . فلما استقر الملك الكامل بمصر ، أرسل إلى قِلِيج أَرْسَلان يُقَبِّحُ عليهِ فعله ، ويلتمس منه الخروج عن حَمَاه ، وإعادتها إلى أخيه . فلم يُجِبْ إلى ذلك . فأقطع الملك الكامل المظفر إقطاعاً بمصر .

فلما اجتاز الملك الكامل الآن بحَمَاه ، خرج إليه قِلِيجْ أَرْسَلاَن فَقَبَضَ عليه ، وسَلَّم حَمَاه للملك المظفر ، وهو أخو قِلِيج أرسلان ، فتسلمها .

وفى هذه السنة فى شهر رجب ، وصل القاضى بهاء الدين بن شَدَّاد ، قاضى حلب ، فى خِطبة ابنة السلطان الملك الكامل للملك العزيز بن الملك الظاهر ، صاحب حلب . فزوجه السلطان بابنته .

وفيها قبض السلطان الملك الكامل على ورثة ولد القاضى الفاضل ، وسائر أملاكه . وأخذت الكتب من داره وحُمِلت إلى القلعة ، فكانت عِدَّتُها أحد عشر ألف مُجَلَّدًا .

ذكر وفاة الملك المسعود ، صاحب اليمن

كانت وفاة الملك المسعود صلاح الدين أَقْسِيس[٢] بن السلطان الملك الكامل ، صاحب الحجاز واليمن ـ فى ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة . ومولده فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

---

(١) هو المظفر ، بن الملك المنصور محمد ، بن المظفر تقى الدين عمر المذكور .

(٢) سبق تفسير هذا الاسم . وهو لفظ تركى أصله : أَطْسِيزْ ، أو أَتْسِيزْ .

وكان بلغه وفاة عمه الملك المعظم بدمشق ، فطمع فى الشام . وتجهز جِهازاً لم يسبقه أحد من الملوك إليه . وذلك أنه نادى فى التجار ببلاد اليمن : من أراد السفر صُحْبَةَ السلطان إلى الديار المصرية والشام فليتجهز .

فتجهز معه سائرُ التجار الذين وصلوا من الهند ، بالأموال والأقمشة والجواهر . فلما تكاملت المراكب ، قال اكتبوا لى [ما] معكم من البضائع ، لأحْمِيَها من الزكاة . فكتبوها له . فصار يكتب لكل تاجر برأس ماله على بعض بلاد اليمن ، واستولى على البضائع . فاجتمعوا واستغاثوا ، فلم يَسْمَعْ شكواهم . فيقال إن نقله كان فى خَمسمائة مركب ، ومعه ألف خادم ، ومائة قنطار من العنبر والعود والمسك ، ومائة ألف ثوب ، ومائة صندوق فيها الأموال والجواهر .

وركب إلى مكة ، فمرض فى طريقه . فما دخل مكة إلا وقد فُلِجَ ويَبِسَتْ يداه ورجلاه ، ورأى فى نفسه العِبَر . فلما احتُضِر بعث إلى رجل مغربى بمكة وقال : والله ما أرضى لنفسى ، من جميع ما معى ، كَفَناً أُكَفَّنُ فيه ، فَتَصدَّقْ على بكَفَن ! فبعث إليه نِصف ثوب بَغْدادى ، ومائتى درهم ، فكفنوه بهما . ودفن بالمُعَلَّى . ويقال إن الهواء ضرب المراكب فرجعت إلى زَبِيد ، فأخذها أصحابها .

وحُكى أن الملك الكامل ـ والده ـ سرَّ بوفاته . ولما جاء خَزِنْدَارُه [١] إليه ، لم يسأله كيف مات ، بل قال : كم معك من المال والتحف !

وكان الملك المسعود قد استناب باليمن أُسْتَاذَ دَاره [٢] : عمرَ بن على ابن رَسُول . فتزوج زوجتَه : ابنةَ صاحب جَوْزا [٣] ومَلَكَ البلاد . وكتب إلى السلطان الملك الكامل ، وجَهَّزَ إليه الأموال والتحف . واستقر على حكم النيابة .

ثم استَقَلَّ بعد ذلك بمُلْكِ اليمن ، وتلقب بالملك المنصور . وأرسل رسولاً إلى الديوان العزيز فى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، فوصل فى سابع عشر صفر منها ، فتلقاه بعضُ الأمراء ودخل ، وقَبَّلَ العَتَبَة بالباب النُّوبِى . وحضر فى اليوم الثالث من وصوله إلى دار الوزير وأدَّى رسالتَه ،وأنهى إلى الديوان العزيز استيلاء مُرْسِلِه على جميع بلاد اليمن ، وأنه مُخْلِصٌ فى طاعة الديوان .

---

(١) أى صاحب الخزنة ، وهو متولى الشئون المالية .
« دار » لفظ فارسى ، بمعنى صاحب ، أو المشرف على ...
قال صاحب صبح الأعشى : « الخازندارية موضوعها التحدث فى خزائن الأموال السلطانية .. » .
(جـ ٤ ـ ص ٢١)

(٢) وظيفة « الاستادارية » كانت من الوظائف الرئيسية للسلطان أو نوابه أو الأمراء وقد عرفها « القلقشندى » بما يلى : « وموضوعها التحدث فى أمر بيوت السلطان كلها ... وهو الذى يمشى بطلب السلطان ويحكم فى غلمانه وباب داره .. وله حديث مطلَق وتصرف تام فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك للماليك وغيرهم » .
فهو المتولى شئون دار السلطان أو النائب أو الأمير . وهو أشبه « بناظر الخاصة » الذى كان موجودا بمصر .
(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ٢٠)

(٣) هكذا فى (ع) . وفى (ك) : حورا .
ولم أجد أيا منهما فى معجم البلدان . ولكن وجدت فيه :
« جوزان : قرية من مخلاف بغدان باليمن » .

وهو يسأل قَبُولَ ما سيَّره من التحف والهدايا . حكاه ابن الساعى فى تاريخه .

واستمر المُلْكُ بالديار اليمانية فيه وفى أولاده من بعده ، إلى وقتنا هذا .

وفيها فى جمادى الأولى ، توفى ناصر الدين مَنْكُورس بن بدر الدين خُمَارْتكِين عتيق مجاهد الدين بُزاَن صاحب صَرْخد . وكان ناصر الدين المذكور صاحب صَهْيُون[1] . وتولى مملكة صَهْيُون بعده ولدُه مُظَفَّرُ الدين عثمان .

واستهلت سنة سبع وعشرين وستمائة :

فى هذه السنة ، فى ثانى عشر شهر رجب منها ، قدم السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية .

وكان سبب عَوْدِه أنه بلغه أن ابنَه الملك الصالح ـ نجم الدين أيوب ـ قد ترتب على المُلْكِ بالديار المصرية ، وأنه اشترى ألفَ مملوك ، فعاد . وأخرج ابنه الملك الصالح إلى بلاد الشرق ، ولم يُعْطِهِ شيئاً .

---

(١) ذكرها النويرى فى المتن من قبل ، وقال إن «صهيون ضيعة بالقدس» .
وقال ياقوت : «صهيون» تطلق على عدة أماكن . فهى موضع معروف بالبيت المقدس ، محلة فيها كنيسة صهيون . وصهيون ـ أيضا ـ حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام ، وهى قلعة حصينة مكينة فى طرف جبل ، خنادقها أودية واسعة عميقة ولها ثلاثة أسوار . وكانت بيد الإفرنج حتى استرجعها الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ .
(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ٢٤٠)
(انظر أيضا صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ١٤٥)

ولما وصل الملك الكامل إلى قلعة الجبل ، عَمِلَ له صلاحُ الدين الإرْبِلى دَعوةً فى داره ، فحضرها السلطان . فأنشده الصلاح :

لو تعلمُ دارُنا بمن قد جُمِعَتْ مالت طَرَباً وصَفَّقَتْ واستَمَعَتْ
والخمرةُ لو تعلم من يَشْرَبهُا كانت شكَرَتْ لعاصريها ، ودَعَتْ

وفيها قَصَّرَ النيلُ فلم يُوفِ ، وانتهى إلى ثلاثة عشر ذِراعاً وثلاثة وعشرين أصبعاً وقيل أنه انتهى إلى أربعة عشر ذراعاً ، وأصابع ، وقيل بل بلغ ستة عشر ذراعاً وعشرة أصابع . فارتفع سعرُ الغَلَّة . فسَعَّرَ الملكُ الكامل القمحَ بعشرين درهماً وَرِقا[1] الإرْدَبّ . وأَمَرَ مستخدمى[2] الأَمْراء السلطانية ببيع القمح بخمسة وعشرين درهما وَرِقا . ومنع الناس من شراء الكثير منه ، إلا المَئُونَة . واستمر السعر كذلك بقية السنة .

ثم أَطْلَقَ السلطانُ سِعْرَ الغَلَّة ، فى ثالث المحرم سنة ثمان وعشرين ، وأمر أن يباع بالسعر الواقع . فأبيع القمحُ فى هذا الوقت بخمسين درهماً ورِقا الإردب ، والخبزُ أربعةَ أرطال بدِرهم وَرِق . فنال الناسَ من ذلك شِدَّةٌ عظيمة .

هكذا نقل مؤرخو[3] ذلك العصر . فكيف لو شاهدوا ما شاهدناه فى سنة خمس وتسعين وستمائة ، على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى .

---

(١) الورق : الدرهم الفضة . والمقصود به هنا الدرهم الأصلى المطبوع ، الذى كانت نسبة الفضة فيه عالية ، قبل أن يظهر الدرهم النقرة الذى زادت فيه نسبة النحاس . وقيمة الدرهم الأولى أعلى .

(٢) فى (ك) و (ع) : «وأمر مستخدمين الأمراء» !

(٣) فى (ك) و (ع) : «هكذا نقل مؤرخى ذلك العصر» . وهو مثل آخر من الأخطاء النحوية .

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفى هذه السنة ، بعث الملك الأشرف ـ صاحب دمشق ـ أخاه الملك الصالح إسماعيل إلى بَعْلَبَكّ . فحَصَرها ونصب عليها المَجَانِيق [١] ، ورماها بأحْجارها .

ثم توجه إليها الملك الأشرف . ودخل الصاحب صفى الدين ـ إبراهيم ابن مَرْزُوق ـ بين الملك الأشرف والملك الأمجد صاحب بعلبك ، وحصل الاتفاق . فتسلمها الملك الأشرف ، وانتقل الأمجدُ منها إلى دمشق . وأقام بداره بها ، وهى الدار المعروفة بدار السعادة ، التى ينزلها نُوَّابُ السلطنة فى وقتنا هذا . ولم تَطُلْ مدةُ حياته ، فإنه قُتل فى سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة .

وفيها استولى السلطان : جلال الدين خُوَارَزْمْ شَاه [٢] على مدينة خِلاَط ، بعد أن حاصرها مدةَ عشرة أشهر . وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار جلال الدين . ولما ملكها ، أخذ منها مُجِيرَ الدين يعقوب وَتقىَّ الدين عباس : ابنىْ [٣] الملك العادل ، وأخذ الكُرْجِيَّةَ : زوجة الملك الأشرف ، ودخل بها من ليلته . وقَتَل عز الدين أَيْبَك الأشْرَفِى .

---

(١) جمع : منجنيق . آلة من آلات الحرب التى كانت تستخدم فى تلك العصور ، ولا سيما فى الحصار . وهى أشبه بالمقلاع تقذف منها الحجارة الكبيرة ، لتدك مواقع العدو .

(٢) هو جلال الدين ، منكبرتى بن محمد بن تكش . وكان هذا السلطان ـ « جلال الدين » ـ آخر سلاطين الدولة الخوارزمية (شاهات خوارزم) وكانت مدة حكمه هى : (٦١٧ ـ ٦٢٨ هـ) وفى هذه السنة الأخيرة قضى التتار على دولته ، وقُتل هو فى أثناء فراره . وكان ظالما ، نفر الملوك والناس من حوله .

(٣) فى (ع) : « ابنا » الملك العادل .

وبلغ الملكَ الأشرفَ ذلك ، وهو بدمشق ، والملك الكامل بالرَّقَّة[١] فتوجه من دمشق إلى الرقة . وأتته رسل السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ ـ صاحب الروم[٢] ـ فى الإجتماع على حرب جلال الدين . فاستشار الملكُ الأشرف أخاه الملكَ الكاملَ فى ذلك ، فأشار به . وقطع الملكُ الكاملُ الفُرَاتَ فى سبعة آلاف فارس ، وتوجه إلى الديار المصرية ـ للسبب الذى ذكرناه .

وسار الملك الأشرفُ إلى حَرَّان فى سَبعمائة فارس ، فأقام بها . وكتب إلى حَلَب والمَوْصِل والجَزِيرة فجاءته العساكر ، وتوجه إلى صاحب الروم واجتمعوا . والتقوا بالسلطان جلال الدين خُوَارَزْم شاه ، فكسَرُوه .

وقد ذكرنا خبر استيلاء جلال الدين على خِلاط ، فى أخباره . وذكرنا خبر هذه الكَسْرَة فى أخبار السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ صاحب الروم ، فى أخبار الدولة السَّلْجُقِيَّة . فلْنذْكرِ الآن ما يتعلق بالملك الأشرف .

ولما انهزم جلال الدين ، قال الملك الأشرف للسلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ : لابُدَّ لى من خِلاط . فأعطاه علاء الدين . وأنعم على أصحابه : من الأموال والخِلَع والثياب والتُّحف والخيول ، ما قيمته ألفا ألف دينار .

---

(١) مدينة مشهورة على الشاطىء الشرقى للفرات . من بلاد الجزيرة . وبينها وبين حران ثلاثة أيام .

(ياقوت : جـ ٤ ـ ٢٧٢)

(٢) هو علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قِلِيج أرسلان . وكانت مدة حكمه ما بين سنتى : (٦١٦ ـ ٦٣٤ هـ) . وهو صاحب الروم : أى دولة الروم السلجوقية بآسيا الصغرى .

وتوجه كَيْقُبَاذ إلى بلاده ، وجَرَّدَ فى خدمة الملك الأشرف جماعة ، فتوجه بهم إلى خِلاط . فوجد جلال الدين قد أخذ مُجِيرَ الدين وَتقِىَّ الدين والكُرْجِيَّةَ معه . فساق الأشرفُ خَلْفَه . ثم تراسلا ، واصطلحا . فأطلق جلالُ الدين مُجيرَ الدين وتَقِىّ الدين ، وبعث بهما إلى الخليفة ببغداد . فأنعم الخليفةُ على كل منهما بخمسة آلاف دينار . وعاد الملك الأشرف إلى دمشق ، فى سنة ثمان وعشرين وستمائة . فأقام بها شهراً ، وتوجه إلى أخيه الملك الكامل بالديار المصرية .

وفى هذه السنة ، استخدم الملك المُظَفَّر : شهاب الدين غَازِى ـ صاحب مَيَّافَارِقِين ـ العِزَّ بن الجَامُوس على ديوانه . وأَمَّرَه وأعطاه الكُوسَات [1] والأعْلام ، وقَدَّمَه على جماعة ومَكَّنَه . ودُعِى بالصاحب الأمير عز الدين . فظلم الناس وعَسَفَهُم ، وأخذ أموالهم . فلم تُمْهِلْهُ المقَادِير ، ومات فى بقية سنة سبع وعشرين بمَيَّافَارِقِين . واستولى الملك المظفر على تَرِكَتِه ، وظهر له سوءُ فعله ، فصار يُصَرِّحُ بلَعْنِه . وجاء عمه من دمشق يطلب ميراثه ، فسبه المظفر ، ثم أعطاه ألف درهم وعاد إلى دمشق .

---

(١) عرفها القلقشندى بأنها : «صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . ومع ذلك طُبول وشبَّابة . وهى من علامات السلطان أو الإمارة .
(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ٩)

وفيها ، فى ثامن جُمَادى الآخرة ، توفى بمصر الفقيه الإمام : شرف الدين أبو عبد الله محمد ، بن الشيخ أبى حفص عمر ، بن الشيخ أبى عبد الله محمد بن عمرو بن جعفر ، الأَزْدِى الغَسَّانى ، المالِكى ـ المعروف بابن اللَّهِيب . ومولده فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة . وتولى التدريسَ بالمدرسة الصَّاحِبِيَّة[1] بالقاهرة ، إلى حين وفاته . وهو من بيت الخير والصلاح والفِقْه .

واستهلت سنة ثمان وعشرين وستمائة :

فى يوم الاثنين ، عاشر جمادى الآخرة ، قَدِمَ الملك الأشرف إلى القاهرة ، لخِدمة السلطان الملك الكامل ـ ومعه صاحبُ الجَزِيرة .

وفيها ، فى منتصف شعبان ، إبتدأ السلطان الملك الكامل بحفْر البَحر ، من دار الوِكالة إلى صناعة التَّمْر الفاضِلِية . واستعمل فيه الملوكَ والأمراء ، وعَمِلَ بنفسه .

وكان هذا البحرُ فى أوان احتراق النيل يكون طريقاً سالكاً إلى المقياس . وتمر المراكب ما بين الروضة والجيزة . ثم صار على العكس من ذلك فى سنة ثلاث عشرةِ وسبعمائة[2] ، فصار فى احتراق النيل ليس بين الروضة وبين بر الجيزة غير ماء قليل يُخَاض ، فلا يُغَطِّى أكثرَ من خلخال . ثم أخذ فى الزيادة بعد ذلك . إلى أن صار ، فى سنة عشرين وسبعمائة[3]

---

(١) نسبة إلى الصاحب « صفى الدين بن شكر » وزير العادل والكامل ، لأنه هو الذى أسسها . وكان ابن شكر مالكىَّ المذهب .

(٢) (٣) هكذا فى النسختين .

وما بعدها تسافر فيه المراكب صيفاً وشتاءً . والبَحْرَان الآن على ذلك . ولكن البحر فيما بين الروضة ومصر أكثر ، وهو البحرُ الذى تسافر فيه السفن فى الاحتراق .

نَعُودُ إلى سياقةِ أخبار سنة ثمان وعشرين وستمائة . وفيها بنى أسد الدين شيركوه ـ صاحب حِمْص والرَّحْبَة ـ قلعة بالقرب من سَلَمِيَّة [1] وسماها شُمَيْمِسَ ، وهى على تَلٍّ عال .

وفيها كان مَقْتَلُ الملك الأمجد : بَهْرَام شاه ، بن فَرُّخْشَاه ، بن شَاهِنْشاه ابن أيوب ـ صاحب بَعْلَبَكّ . كان وكانت بعلبك بيده ، منذ أعطاه إياها السلطان الملك الناصر صلاح الدين عند وفاة أبيه ، فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . فلم تزل بيده ، إلى أن انتزعها الملك الأشرف منه ـ كما تقدم ـ فى السنة التى قبلها . وأعانه على ذلك صاحب حِمص : أسدُ الدين شيركوه .

وكان سبب مقتله أن بعض مماليكه سرق له حِيَاصَة [2] ودَوَاة ـ قيمةُ ذلك مِائَتَا دينار ـ وخَبَّأَ هُمَا عند مملوك آخر ، فلما ظهر له ذلك حَبَسَ السارقَ فى خِزانة داره ـ والخِزانة خلف المكان الذى يجلس فيه الملك الأمجد ـ وتَوَعَّدَ ذلك المملوكَ ـ بقطْع اليد . فلما كانت ليلة الأربعاء ، ثانى عشر شوال ، جلس على عادته أمام الخزانة ـ وعنده عباس بن أخى الشريف البهاء وهما يلعبان بالنَّرْد ، وعنده فُهَيْد المُنَجِّم وبيده الاسْطِرْلاَب ليأخذ له طَالِعَ الوقت .

---

(١) سبق ذكرها . وهى بلدة من عمل حمص ، على طرف البرية . وشُمَيْمِس اسم تل بجوارها .

(٢) هى المِنطقة أو الحزام ، كانت تُشد فوق القَباء ، وهو الكساء الخارجى . وكانت الحياصة تصنع فى الغالب من الفضة المطلية بالذهب ، وربما جُعلت من الذهب .

فقال له فُهَيْد : يا مولانا انظر إلىّ ، فهذه ساعةٌ سعيدة ، لو أردْتَ أخذ دمشق لأخَذْتَها . فقال له : لا تكلِّمْنى ، فقد تَعَيَّن لى الغَلَب ! وكان مع المملوك الذى فى الخزانة سِكِّين ، فعالج رَزَّةَ الخِزانة برِفْقٍ فقلَعَها ، وفتح الباب . فهجم على الملك الأمجد وأخذ سيفه فجذبه وضربه به . فصاح ، فَحلَّت الضَّرْبةُ كَتِفَه ، ونزل السيفُ إلى ثَدْيِه . ثم ضربه أخرى ، فقطع يدَه وقَطَعَتْهُ فى خَاصِرتِه . وهرب يصعد إلى السطح ، فتبعوه . فألقى نفسه إلى الدار . فماتا جميعاً . وجُهِّزَ الملك الأمجد ودُفن فى تربة أبيه ، التى على الميدان على الشَّرَف الشَّمالِى .

وكان فاضلاً شاعراً ، وله ديوان شعر بأيدى الناس ـ رحمه الله تعالى . قال أبو المظفر : ورآه بعض أصحابه فى المنام بعد موته ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال :

كنتُ من ذَنْبِى على وَجَلٍ زال عنى ذلك الوجَلُ
أَمِنَتْ نَفْسِى بَوَائِقَها[1] عِشْتُ لما مِتُّ يا رَجُلُ

قال أبو المظفر : وكان الأمجد قد قتل ابْناً له جميلاً ، كان وَاطَأَ عليه الملكَ العزيزَ عثمان[2] ، وكتب إليه يقول : قد يَسَّرْتُ باب السِّرّ[3] فِسِرْ إلينا

(١) البوائق : المُهْلِكَات .

(٢) كان هو صاحب قلعة بانياس . وهو ابن الملك العادل .

(٣) هو الباب ، فى القلعة أو القصر ، الذى يَخْتَص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة . ويكون هذا الباب عادة مغلقا .

وقت السَّحَر . وكان الملك العزيز بالصُّبَيْبَة [١] ، فسار منها فى أول الليل ـ والمسافة بعيدة ـ فوصل إلى بعلبك وقد طلعت الشمس ففاته الغَرَض . واطلع الأمجدُ على ما فعله ابنُه فقتله . وقيل بَنَى عليه بيْتاً ، فمات .

وفيها تُوفى المُهَذَّب الدَّخْوار ، الطبيب [٢] : رئيس الأطباء بدمشق . وكان طبيباً حاذِقاً ، وما كان يُرى أن فى الدنيا مثلُه . وكان يُقْرَأ عليه الطِّب . وكانت له دار بدمشق وبستان . فوقف الدار مدرسةً يُقْرَأُ فيها الطب ، وَوقَفَ بُستانه عليها . والمدرسة باقيةٌ بدمشق ، تعرف بالدَّخْوَارية ، رأيتها فى سنة ثلاث وسبعمائة .

وفيها ، فى ثامن عشر شعبان ، توفى الأمير شجاع الدين أبو المنصور : جَلْدَك بن عبد الله المُظَّفَرِى التَّقَوِى [٣] ، بالقاهرة . سَمِعَ من الحافظ السِّلَفى . وكان مُكَرَّماً لأهل العلم والفضلاء ، مساعداً لهم بماله وجاهه . وحضر مواقف كثيرة فى قتال العدو بالساحل . وتولى ثَغْرَ دمياط والإسكندرية ، وقوص ، وشَدَّ الدواوين [٤] ، وغير ذلك . وكان يكتب فى

---

(١) اسم لقلعة بانياس . وقد سبق الكلام عن هذه القلعة ، وهى بالقرب من دمشق ، من جهة الغرب بميل إلى الجنوب .

(٢) هو عبد الرحيم بن على الدَّخْوار . ولد بدمشق ونشأ بها . كان فاضلاً حاذقا بعلم الطب ، أستاذ عصره . ووقف داره وكتبه على الأطباء .

(النجوم الزاهرة : جـ ٦ ـ ٢٧٧)

(٣) نسبة إلى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب : ابن أخى صلاح الدين .

(٤) عد صاحب « صبح الأعشى » هذه الوظيفة من بين الوظائف السلطانية الخاصة بأرباب السيوف (أمراء الجند) وقال عنها : « وموضوعها : أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير ، متحدثا فى استخلاص الأموال وما فى معنى ذلك » .

(جـ ٤ ـ ص ٢٢)

كل بلد يتولاه ختْمَة . فحِكى عنه أنه قال : كتبتُ بخطى أربعاً وعشرين ختْمَة . وكان قد قارب ثمانين سنة ـ وقيل مات فى عَشْرِ التسعين . والله أعلم .

واستهلت سنة تسع وعشرين وستمائة :

فى هذه السنة توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق ، بسبب فتح آمِد . وسنذكر ذلك .

وفيها ـ فى جمادى ـ عُزِل قاضى القضاة : شمس الدين بن سَنِىّ الدولة الخُوَيِّى ، وقاضى القضاة شمس الدين بن سَنِىّ الدولة ـ جميعاً ـ عن قضاء القضاة بدمشق ، وفُوِّض ذلك إلى قاضى القضاة : عماد الدين عبدالكريم ، بن قاضى القضاة جمال الدين الحَرَسْتَانِى .

وفيها توفى الأمير فخر الدين عثمان بن قَرَل الكامِلى بحرَّان ، فى الثامن والعشرين من ذى الحجة ، ودفن بظاهرها . ومولده بحلب فى سنة إحدى وستين وخمسمائة .

وكان أحد الأمراء الأكابر فى الدولة الكامِلية . وكان راغباً فى فعل الخير ، مبسوط اليد بالصدقة والإسعاف ، يتَفَقَّدُ أربابَ البيوت وغيرهم . وأنشأ المدرسة المعروفة بالقاهرة المُعِزِّيَّة ، والمسجَد المقابل لها ، وكُتَّابَ السبِيل والرِّباط بالقرافة بسفح المُقَطَّم . وأوصى بوَصِيَّةٍ ذكر فيها كثيراً من أنواع البر ـ رحمه الله تعالى .

واستهلت سنة ثلاثين وستمائة :

ذكر استيلاء السلطان الملك الكامل على آمِد وحصن كَيْفا[١]

كان الاستيلاء على ذلك فى سنة ثلاثين وستمائة . وكان السلطان قد تَوَجَّهَ فى سنة تسع وعشرين وستمائة ، واستَقَلَّ رِكابَه من مَقَرِّ مُلكه ، بقلْعة الجَبَل المحروسة بظاهر القاهرة المُعِزِّيّة ، فى ثامن جمادى الآخرة ، واستصحب عساكرَ الديار المصرية . ووصل إلى دمشق واستصحب أخاه الملك الأشرف ، وولدَه الملكَ الصالح نجم الدين أيوب .

وكان سبب قصده هذه الجهة أن أخاه الملك الأشرف ، بما حضر إلى الديار المصرية ، عرَّفَ السلطانَ أن الملك المسعود مودود بن الملك الصالح بن أُرتُق ، صاحب آمِد وبلادها وحصن كَيْفا ـ قد اشتغل عن مملكته باللهو والشرب والطرب ، وأنها خاليةٌ من العساكر . فتجَهَّزَ إليها .

ولما بلغ الملكَ المسعودَ أن السلطان قصد بلادَه ، بادر بإرسال وزيره شرف العُلا إلى السلطان يستعطِفه ، ويسأل مَرَاحِمَه فى إبقاء ما بيده والكفِّ عن طلبه . فوصل إلى السلطان ، وكان إلْباً[٢] على صاحبه ، وعرَّفَ السلطانَ إقْبالَه على اللهو والطرب ، وأن مملكته خالية من العساكر ، فأطمعه فى أخذ البلاد .

---

(١) هى بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر ، من ديار بكر . وقد يقال لها : كَيَّا . وهى لصاحب آمد .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ص ٢٨٦)

(٢) أى مُؤْلِباً على صاحبه : ألَّبَ عليه : أى حرَّض عليه العدو .

فسار إليها ، ونازلها فى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذى الحجة ونَصَبَ عليها المَجَانِيق . وأنذر صاحبها الملك المسعود ووعده بالإقطاعات الكبيرة ، فلم يُصْغ إلى ذلك . ثم شاهد الغَلَبَة ، فخرج إلى السلطان وفى عنقه مِنديل . فَوَكَّل به ، وَتَسَلَّم آمِد فى مستهل المحرم ، سنة ثلاثين وستمائة . واستولى على أمواله وذخائره ، وطلب منه تسليم القلاع فسلَّمها بجُملتها .

ودخل الملك الكامل إلى آمِد . فَتَرجَّلَ فى خِدمته جميعُ الملوك الأيوبية ، وسائرُ ملوك الشرق ـ إلا صاحب الروم السلطان : علاء الدين كِيْقُبَاذ السَّلْجُقِى ، وصاحب الجَزِيرة[1] الملك المُعَظَّم : محمد بن سَنْجَر شاه ، فإنهما أرادا أن يَتَرجَّلاَ فلم يُمَكِّنْهما الملكُ الكامل من ذلك ، ودخلا راكِبَيْن لركوب السلطان ، ونزلوا جميعاً فى القَلْعة .

وبقى حصن كَيْفَا بيد نائبه ، لم يُسَلِّمْه . فكتب الملك المسعودُ إلى نائبه أن يسلمه ، فامتنع من ذلك . فبعث السلطان الملك الكاملُ أخاه الملك الأشرف إلى الحصن ، ومعه الملك المسعود ، فتوجه به وعاقَبَه تحت الحصن ، وكان يَبْغَضُه ، فأصر النائبُ على الامتناع من تسليمه . وكان بينهما إشارة ، فلما آلمته العُقُوبة جاء إلى تحت الحصن ، وقَبَض على شَعر نفسه وقَطَعه بمِقَصّ ، فعند ذلك سَلَّمَ النائبُ الحصنَ ـ وكانت هذه إشارةً بينهما . وكان تسليمُ الحصن فى صفَر من السنة .

(١) المقصود بها «جزيرة ابن عمر» ، وهى بلدة فوق الموصل قريبة منها .

وكان الملك المسعود ، لما حاصر السلطان آمِد ، قد كتب إلى نائبه بحصن كَيْفا يقول له : من مرَّ عليك من أهل الجَزِيرة فاعْتَقِلْه ، لأن صاحب الجزيرة كان قد توجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل . وكان المتولى يَرْصُدُ القُفُولَ إذا مرَّت بالحصن ، فمن كان منهم من أهل الجزيرة قبض عليه واعْتَقَلَه . واجتمع فى حبسه خَلْقٌ كثير منهم . فلما فُتِحَ الحصن أفْرَجَ السلطانُ عنهم .

وأنعم الملك الكامل على ولده ، الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بحصن كَيْفا وأعماله ـ وكان ، منذ أخرجه من الديار المصرية ، بغير ولاية . وجَعَلَ شهابَ الدين غازى ـ بنَ شمس الملوك ـ نائبَ السلطنة بآمِد . ومُعِينَ الدين بن الشيخ الوزير ، والطَّوَاشى شمس الدين صَوَاب العادِلى متولى تدبير تلك الممالك . قال أبو المظفر : قال لى الملك الأشرف : وَجَدْنا فى قصر الملك المسعود خَمسمائة حُرَّة من بنات الناس للفراش .

وعاد السلطان إلى الديار المصرية فى سنة ثلاثين وستمائة ، واستصحب أكابر أهل آمِد وأعيانَها ، صُحْبَتَه ، إلى الديار المصرية ـ وكان منهم بدر الدين ، وموفق الدين ، وابن أخيهما شمس الدين ، وجماعة كبيرة . فأما هؤلاء الثلاثة فإنهم باشروا وترقوا فى المناصب بالديار المصرية ، والشام . ومن عداهم من أهل آمد نالتهم فاقَةٌ شديدة وضَرُورة ، حتى استَعْطَوْا بالأَوْرَاق . وأما الملك المسعود فإن السلطان أنعم عليه بالإقطاعات بالديار المصرية .

ذكر توجه رسول السلطان الملك الكامل إلى بغداد ، وَعوْدِه هو ورسول الخليفة بالتقليد[١]

فى هذه السنة تَوَجَّهَ القاضى الأشرف : بهاء الدين أبو العباس ، أحمد ابن القاضى محيى الدين عبدالرحيم البَيْسَانى ـ رسولاً من جهة السلطان الملك الكامل إلى الدِّيوان العَزِيز . فعاد فى صحبة رسول الخليفة[٢] ، وهو الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجَوْزِى ، ومعهما جماعةٌ من الأَجْناد . وأُعْطِى ابنُ الجوزى مَحِفَّة تَمييزاً له .

ونُفِّذَ معهما تقليدٌ ، من إنشاء الوزير أبى الأزهر : أحمد بن النَّاقِد[٣] ، بخَطِّ العَدْل ناصر بن رشيد الحَرْبَوِى[٤] . وفى أعلاه بخط الوزير ما مثاله : للآراء المقدسة ـ زادها الله تعالى جلالاً وتعظيماً ـ مزيد فى شرفها فى تتويجه . والعلامة المُسْتَنْصِرية عليه ، تحت البَسْمَلَة : « اللهُ القاهرُ فوق عباده » .

---

(١) مما ينبغى التنبيه إليه أن هذا التقليد الذى سيورد المؤلف نصه فيما يلى نشره محقق « مفرج الكروب » بين ملاحق هذا الكتاب (جـ٣ ـ ٣٦١ ـ رقم ٢٨) على أنه « العهد المكتوب به من ديوان الخلافة ببغداد إلى السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب » . وصحته كما هو ثابت فى المتن وكما تدل عليه نصوص الوثيقة أن العهد هو للسلطان الكامل بن السلطان العادل .

(٢) الخليفة المقصود هو « المستنصر بالله » بن الخليفة « الظاهر » . وكان مدة خلافة المستنصر من ٦٢٣ إلى ٦٤٠ هـ .

(٣) هو شهاب الدين أحمد بن محمد .. بن الناقد . نشأ وتنقل فى المناصب حتى ولى الوزارة للخليفة « المستنصر » (٦٢٣ ـ ٦٤٠) . وكان رجلاً فاضلا دَيِّناً . سار فى وزارته أحسن سيرة . وكانت وفاته فى سنة ٦٤٢ . (النجوم الزاهرة ـ ص ٣٥٠)

(٤) فى النسخة (ك) هكذا : الحربوى ، وفى النسخة (ع) : الحزبوى .

ونُسخةُ التقليد

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى أطْمَأنّت القلوبُ بذِكْرِه ، وَوَجَب على الخلائق جَزيلُ حمدِه وشكره ، وَوَسِعَتْ كُلَّ شىء رَحمتُه ، وظهرت فى كلِّ أمْرٍ حِكْمتُه . ودَلَّ على وَحْدانيته بعجائب ما أحْكَمَهُ صُنْعاً وتَدْبيراً ، وخلق كُلَّ شىء فَقَدَّره تَقْدِيرا ـ مُمِدُّ الشاكرين بنَعْمَائِه التى لا تُحْصَى عَدَداً . وعَالِمَ الغَيْبِ الذى لا يُظْهِرُ على غَيْبِه أحَدا . لا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ فى الإبرام والنَّقْض ، ولا يَئُودُه حِفْظُ السمواتِ والأرض . تعالى أن يُحيطَ به الضَّمِير ، وجَلَّ أن يَبْلَغَ وصفَه البيانُ والتفسير ، ليس كِمِثْلِه شىء وهو السميعُ البصير .

وأحمَد اللهَ الذى أرسل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق ، بَشِيراً ونَذِيرا . وداعِياً إلى الله بإذْنِه ، وسِرَاجاً مُنِيراً . وابْتَعَثَهُ هادِياً للخَلْق ، وأوْضَحَ به مَنَاهِجَ الرُّشْدِ وسُبُلَ الحق . واصْطَفاه من أشرف الأنْساب وأعَزِّ القبائل . واجْتَبَاه لإيضاح البراهين والدلائل ، وجعله لَدَيْه أعظمَ الشُّفعاء وأقربَ الوسائل . فقَذَفَ ـ صلى الله عليه ـ بالحقِّ على الباطل . وحَمَلَ الناسَ بشريعتِه الهادِية على المَحَجَّةِ[1] البيضاء والسَّنَنِ العادِل ، حتى استقام إعوجاجُ كل زائِغ ، ورجع إلى الحق كلُّ حائِدٍ عنه ومائِل . وسَجَد للهِ كلُّ شىء يَتَفَيَّأُ ظلالُه عن اليمين والشمائل . صلى الله عليه وعلى آله وصحبِه الكرام

(١) الطريق الممهد .

الأفاضل ، صلاةً مستمِرَّةً بالغُدُوات والأصائِل ـ خُصوصاً على عَمِّه وصِنْوِ[١] أبيه : العباسِ بن عبد المطلب ، الذى اشتهرت مناقبُه فى المجامِع والمحافِل . ودَرَّتْ ببرَكة الاسْتِسْقاء به أخْلافُ[٢] السُّحُب الهواطِل ، وفاز من تَنْصِيصِ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عَقِبِه ، فى الخلافة المُعَظَّمَة ، بما لم يَفُزْ بِهِ أحدٌ من الأوائل .

والحمد لله الذى حازَ شريفَ مواريثِ النبوة والإمامة ، وَوفَّرَ جَزيلَ الأقسام من الفضل والكرامة ، لعبدِه وخليفتِه ، ووارث نبيه ومُحْيِى شريعتِه : الذى أحَلَّهُ الله عز وجلّ من مَعَارِج[٣] الشرف والجلال فى أرفع ذِرْوة ، وأعْلَقَه من حُسْن التوفيق الإلٰهى بأمتن عِصْمة وأوثق عُرْوَة ، واستَخْرَجَه من أشرف نجار[٤] وعُنصر ، واختصه بأزكى مِنحة وأعظم مَفْخَر . ونَصَبَه للمؤمنين علَما ، واختاره للمسلمين إماماً وحَكَماً ، وناط به أمرَ دينه الحَنِيف ، وجعله قائماً بالعدل والإنصاف بين القَوىّ والضعيف : إمامِ المسلمين ، وخليفةِ رب العالمين : أبى جعفر المنصور ، المُسْتَنْصِر بالله ، أمير المؤمنين ، ابن الإمام السعيد التقىّ أبى نصر محمد : الظاهر بأمر الله ، [ابن الإمام السعيدِ الوفىّ أبى العباس أحمد : الناصِر لدين الله][٥] ، ابن الإمام السعيدِ الزكى : أبى محمد الحسن المُسْتَضِىء بأمر الله ، أمير المؤمنين ـ

(١) الصِّنْو . بالكسر : الأخ الشقيق . وصِنْوَان : النخلتان فما زاد فى الأصل الواحد : كل واحد منهما صِنْو . أو عام فى جميع الشجر . وهما صِنْوَان .

(٢) جمع : خِلْف ـ بالكسر : الضَّرْع ، أو هو للناقة كالضرع للشاه .

(٣) عَرَجَ عُرُوجا : ارتقى . والمِعْراج والمَعْرَج : السُّلَّم والمَصْعَد . فالمعارج : المراقى .

(٤) النَّجَار : الأصل .

(٥) ما بين الحاصرتين مفقود من النسخة (ك) . وموجود فى النسخة الأخرى ، وفى بقية المراجع .

صلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى آبائِه الطاهرين ، الأئمة المَهْدِيِّين ، الذين قَضَوْا بالحق وبه كانوا يَعْدِلون . ولَقُوا الله تعالى وهو عنهم راضٍ ، وهم عنه راضُون .

وبعد : فبِحَسْبِ ما أفاضَه اللهُ تعالى على أميرِ المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ من خلافَتِه فى الأرض ، وفَوَّضَه إلى نظره المُقَدَّسِ فى الأمور من الإبرام والنقْض ، واستخْلَصه له من حِياطَة بلاده وعبادِه ، وَوكَلَهُ إلى شَريف نظره ومُقَدَّسِ اجتهاده ـ لا يزال صلوات الله عليه ـ يَكْلَأُ[1] العبادَ بعين الرِّعاية ، ويسلُك بهم فى المصالح العامة والخاصة مذاهبَ الرُّشْد وسُبُلَ الهداية ، وينشر عليهم جناحَىْ عدْلِه وإحسانِه ، ويُنْعِمُ لهم النظرَ فى ارْتِيادِ[2] الأُمَناءِ الصُّلَحاء ، من خُلَصَاء أكْفَائِه وأعوانه ـ مُتَخَيِّراً للاسْتِرْعاء من استحْمَدَ إليه بمشْكُورِ المَسَاعِي وتَعَرَّفَ إليه فى سياسة الرعايا بجميل الأسباب والدّواعى ، وسَلَكَ فى مفروض الطاعة الواجبة على الخلائق قَصْدَ السبيل . وعلم منه حُسْنَ الاضطلاع فى مصالح المسلمين بالعِبْءِ الثقيل . واللهُ عز وجل يُؤَيِّدُ آراءَ أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ بالتأييد والتسديد . ويُمِدُّه أبداً من أقْسام التوفيق الإلٰهى بالموفور والمزيد ، ويَقْرِن عزائمَه الشريفة باليُمْن والنجاح ويُسَنِّى له فيما يأتى ويَذَرُ أسبابَ الخير والصلاح . وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله ـ عليه يَتَوكَّلُ وإليه يُنِيب .

---

(١) كَلَأَه : كمَنَعَه : حَرَسَه . وكلأ بصرَه فى الشىء : رَدَّدَه .

(٢) الرَّوْد : الطَّلَب ، كالرِّياد والارتياد ، والذهاب والمجىء . والرائِد : المُرْسَلُ فى طلب الكَلأ .

وَلِمَا وَفَّقَ اللهُ تعالى نَصِيرَ الدين : محمد[١] ، بن سيف الدين أبى بكر ، بن أيوب ـ من الطاعة للشهورة ، والخِدَم المشكورة ، والخُطْوَةِ فى جهادِ أعداء الدين بالمساعى الصالِحة ، والفوز من المرَاضِى الشريفة الإمامية ـ أجلّها الله تعالى ـ بالمغانم الجزيلة والصَّفْقَةِ الرابحة ـ لِمَا وَصَلَ فيه سالِفَ شريفِ الاختِصَاص بآنِفِه . وشَفَعَ تالِدُه[٢] فى تحصيل مأثور الاستخلاص بطارِفِه[٣] . واستوجب بسلوكه فى الطاعة المفروضة مَزِيدَ الإكرام والتفضيل ، وضَرَعَ فى الإنعام عليه بمَنْشُور شريفٍ إمامى يَسْلُك فى اتِّباعِه هُدَاه . والعمل بمراشده سَوَاءَ الصراطِ وقَصْدَ السبيل ـ اقتضت الآراء الشريفة المقدسة ـ زادها الله تعالى جلالاً مُتألِّقَ الأنوار ، وقُدْساً يتساوى فى تعظيمه من هو مُسْتَخفٍ بالليل وسَارِبٌ بالنهار ـ الإيعازَ بإجابتهِ إلى ما وَجَّهَ أمَلَه إلى الإنافَةِ[٤] فيه به إليه . والجَذْبِ بَضَبُعِه[٥] إلى ذِرْوة الاجْتِبَاء الذى تظهرُ أشِعَّةُ أنواره الباهِرةِ عليه .

فَقَلَّدَهُ ـ على خِيَرةِ الله تعالى ـ الزَّعَامةَ والصَّلاة ، وأعمالَ الحرْب ، والمَعَاوِنَ[٦] والأَحْداثَ[٧] ، والخَراج والضِّياع ، والصَّدَقات والجَوَالى[٨] ، وسائرَ وجوه الجِبايات ، والفَرْضَ والعَطاء[٩] والنفقة فى

(١) نصير الدين محمد : هو الملك الكامل .

(٢ـ٣) التالد : القديم ، والطارف : الجديد .

(٤) ناف وأناف على الشيء : أشرف . والمُنيف : جبل وحِصن . وأناف عليه : زادَ .

(٥) الضَّبُع : العَضُد .

(٦) أموال تُجبَى من المدن ، غير الخراج .

(٧) الغرامات التى تؤخذ من مرتكبى الأحداث .

(٨) ما يؤخذ من أهل الذمة : أى الجِزَى . الجوالى جمع جالية .

(٩) الفَرْض : تقدير الرواتب . والعَطَاء : صرف الرواتب المقررة .

الأولياء ، والمظَالم والحِسبة فى بلاده[(١)] ، وما يفتتحه ويستولى عليه من بلاد الفرنج المَلاعِين ، وبلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقَصْده ، من المارقين عن الإجماع المنعقد بين المسلمين ، ومن يَتَعَدَّى حُدودَ الله تعالى ، بمخالفة من جُعِلَت الأعمالُ الصالحات بولائِه المفروض على الخلائق مَقْبُولة ، وطاعتُه ـ ضاعف الله جلاَله ـ بطاعتِه وطاعةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مَوْصُولَة ، حيث قال ـ عزَّ مِنْ قائل : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .

واعْتَمَدَ ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ فى ذلك على حُسْنِ نَظَره ، ومَدَدِ رِعايته . وألقى مقاليدَ التفويض فيه إلى وُفور اجْتِهاده ، وكمال سياسته . وخَصَّهُ من هذا الإنْعام الجزيل بما يَبْقَى له على تعاقب الدهر واستمراره ، ويُخَلِّدُ له على مَمَرِّ الزمان حُسْنَ ذكره وجزيلَ فَخاره . وحَبَاهُ بتقليدٍ يُوَطِّدُ له قواعد الممالك ، ويَفْتَحُ بإقْليده[(٢)] رِتَاجَ[(٣)] الأبواب والمسالك ، ويُفِيدُ قاعدتَه فى بلادهِ زيادةَ تقريرٍ وتمْهيد ، ويَطِيرُ به صيتُه فى كل قريب وبعيد .

---

(١) وظيفة دينية هامة ، وهى الإشراف على تنفيذ قوانين الشرع ، ولا سيما ما يتعلق بالآداب العامة ، ومصالح الجمهور : مثل منع الغش فى البيع والشراء .

(٢) : المفتاح .

(٣) الرِّتَاج : الباب العظيم ، وهو الباب المغلق . ورَتَجَ البابَ أغلقه . فالمقصود هنا مُغْلَق الأبواب . أو ما يُغْلَق به الباب .

ووَسَمَه بالملك الأجلّ : السيدِ الكامِل ، المجاهد المرابِط ، نصيرِ الدين ، ركن الإسلام ، جمالِ الأنام ، جلالِ الدولة فخْر الملة . عِزِّ الأمة . سنَد الخلافة . تاجِ الملوك والسلاطين . ، قامع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، إلْب غازِى بِكْ ، محمد ، بن أبى بكر بن أيوب ، معين أمير المؤمنين ـ رعِايةً لسوابق خِدَمه ، وخِدَم آبائه وأسلافه ، وإبانَةً عن وُفُور احْتِبَائِه [1] ، وكَمال ازْدِلافِه [2] . وإنافَةً به [3] من ذِرْوة القُرْب إلى مَحَلٍّ كريم ، وإختصاصاً له بالإحسان الذى لا تَلَقَّاهُ إلا مَنْ هو ـ كما قال الله تعالى ـ ذو حَظٍّ عظيم ـ وُثُوقاً بصحة ديانته التى يسلك فيها سَواءَ سبيله ، وإستنامةً إلى أمانته فى الخِدْمة التى يَنْصَحُ فيها لله تعالى ولرسوله . وركوناً إلى [كون] الإنعام عليه موضوعًا بحمد الله تعالى فى أحسن مَوْضِع ، وَاقِعاً به لَدَيْهِ فى خير مُسْتَقَرٍّ ومُسْتَوْدَع .

وأميرُ المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ لازالت الخِيَرةُ موصولةً بآرائه ، والتأييدُ الإلهى مقروناً بإنفاذِه وإمضائِه ـ يستمِدّ من الله عز وجل حُسْنَ الإعانِة فى اصطفائِه ، الذى اقتضاه نظره الشريف و اعتمادُه ، وأدى إليه إرتيادُه المُقَدَّسُ الإمامى واجتهادُه . وحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْمَ الوكيل ـ .

أَمَرَهُ بتَقْوى اللهِ تعالى ، التى هى الجُنَّةُ الواقية ، والنِّعْمة الباقية ، والمَلْجأُ المَنِيع والعمادُ الرفيع ، والذَّخِيرةُ النافعةُ فى السِّرِّ والنَّجْوَى ، والجَذْوَةُ

(١) اصطفائه .

(٢) قربه وتقدمه .

(٣) إعلاء له ورَفْعا .

المُقْتَبَسَةُ من قوله سبحانه : وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . وأن يَدَّرِعَ شِعارَها فى جميع الأقوال والأفعال ، ويهتدىَ بأنوارها فى مُشْكِلاتِ الأمور والأحوال . وأن يَعْمَل بها سرًّا وجهرا ، ويَشْرَحَ للقيام بحدودها الواجهة صَدْرا . قالَ الله تعالى : ومَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عنه سيئاتِه ويُعْظِمْ له أَجْرا .

وأَمَرَه بتلاوةِ كتاب الله مُتَدَبِّراً غوامِضَ عجائبه ، سالِكا سَبِيلَ الرَّشادِ والهِدايةِ فى العَمَل به . وأن يجعله مِثَالاً يَتَّبِعُه ويَقْتَفِيه ، ودَليلاً يهْتَدِى بمراشده الواضحة فى أوامِرِه ونواهِيه . فإنه الثِّقْلُ الأعظم ، وسَبَبُ الله المُحْكَم ، والدليلُ الذى يَهْدِى لِلَّتِى هى أَقْوَمْ . ضَرَب اللهُ تعالى فيه لعباده جوامع الأمثال ، وبَيَّنَ لهم بهُداه الرُّشْدَ والضلال . وفَرَّقَ بدلائله الواضحةِ وبراهِينه الصادِعة بين الحَرَام والحلال . فقال ـ عَزَّ مِنْ قائل ـ : هذا بيان للناس وهُدًى ومَوْعِظَةٌ للمُتَّقِين . وقال تعالى : كِتابٌ أَنْزَلْنَاه إليك مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِه وليتذكر أولو الأَلْبَاب .

وأَمَرَهُ بالمحافظة على مفروض الصَّلَوات ، والدخول فيها على أكمل هَيْئَة من قوانين الخُشوع والإِخْبَات . وأن يكون نظرُه فى موضع نَجْواه من الأرض ، وأن يُمَثِّلَ لنفسه فى ذلك مَوْقِفَه بين يَدَىْ الله تعالى يوم العَرْض . قال الله تعالى : قد أَفْلَحَ المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشِعون . وقال سبحانه : إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كِتاباً مَوْقُوتًا . وأن لا يشتغل بشاغل عن أداء فُروضها الواجبة ، ولا يلهوَ بسببٍ عن إقامة سُنَنِها الراتبة ، فإنها عمادُ الدِّين الذى سَمَتْ أعاليه ، ومِهَادُ الشَّرْع الذى رَسَتْ قواعدُه ومبانيه . قال الله تعالى : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانِتِين . وقال سبحانه : إن الصلاةَ تَنْهَى عن الفَحْشَاء والمُنْكَر .

وأَمَرَهُ أن يَسْعَى إلى صلوات الجُمَعِ والأَعْياد . ويقومَ فى ذلك بما فَرَض الله تعالى عليه وعلى العباد . وأن يتوجهَ إلى المساجدِ والجوامِع متواضِعاً ، ويبرز إلى المُصَلَّياتِ الضاحِية فى الأعياد خاشِعاً . وأن يحافِظَ فى تشييد قواعد الإسلام على الواجب والمَنْدُوب . ويُعَظِّمَ باعْتِمَادِ ذلك شعائرَ اللهِ التى هى من تَقْوَى القُلُوب . وأن يَشْمَلَ بوافرِ اهتمامه واعتنائِه ، وكمالِ نظره وإرْعائِه ، بُيُوتَ الله التى هى مَحَالُّ البَرَكات ومواطن العبادات ، والمساجدَ التى تَأَكَّدَ فى تعظيمها وإجلالها حُكْمُه والبُيُوتَ التى أَذِنَ الله أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُه . وأن يُرَتِّبَ لها من الخَدَم من يَتَبَتَّلُ[1] لإزالة أَدْناسِها . ويَتَصَدَّى لإذْكاءِ مصابيحها فى الظلام وإيناسِها . ويقومُ لها بما تحتاج إليه من أسباب الصلاح والعمارات . ويُحْضِرُ إليها ما يليق من الفرش والكُسُوَات .

وأَمَرَهُ باتِّباع سُنَّةِ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى أوضح جَدَدَها[2] وَثَقَّفَ ـ عليه السلام ـ أَوَدَها[3] . وأن يعتمدَ فيها على الأسانيد التى نقلها الثِّقات . والأحاديثِ التى صَحَّتْ بالطُّرُق السليمة والرواياتُ . وأن يَقْتَدِيَ بما جاءت به من مكارِمِ الأخلاق ، التى ندب ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى التمسك بِسَبَبِها ، ورَغَّبَ أُمته فى الأَخْذِ بها والعمل بأَدَبِها . قال الله تعالى : « **وما آتاكم الرسولُ فخُذوه وما نهاكم عنه فانْتَهُوا** » . وقال سبحانه وتعالى : « **من يُطِعِ الرسولَ فقد أطاع الله** » .

---

(١) أى من ينقطع ويخصص جهده لخدمتها .

(٢) الجَدَد : ما استرق من الرمل . والأرض الغليظة المستوية . جَدَدَها : أى طريقها المستوى .

(٣) أى : سَوَّى عِوَجَها : الأَوَد : العِوَج . والمراد : يَسَّرَ صِعابها .

وأَمَرَه بمُجالسةِ أَهْل العلم والدين ، وأُولِى الإخلاص فى طاعة الله تعالى واليَقِين . والاستشارة بهم فى عوارِض الشك والالْتِباس . والعمل بآرائهم فى التَمْثِيل والقِياس . فإن فى الاستشارة بهم عَيْنَ الهداية ، وأَمْناً من الضَّلال والغِواية . وبها يُلْقَح عُقْمُ الأَفْهام والأَلْباب ، ويُقْتَدَح زِنادُ الرُّشد والصواب . قال الله تعالى فى الإرشاد إلى فضلها ، والأمر فى التمسك بحَبْلها : « **وشَاوِرْهُمْ فى الأَمْر** » .

وأَمَرَه بمراعاة أحوال الجُنْد والعسكر فى ثُغُوره ، وأن يشملَهم بحُسْن نظره وجميل تدبيره . مستصلحا نِيَّاتِهم بإدامة التلطف والتعهد ، مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التَّفَحُّص عنها والتَّفَقُّد . وأن يَسُوسَهم سياسةً تبعثُهم على سلوك المَنْهَجِ السليم . وتَهْدِيهم فى انتظامها واتِّسَاقِها إلى الصراط المستقيم . وتَحمِلُهم على القيام بشرائط الخِدَم ، والتَّلَزُّمِ بها بأَقْوى الأسباب وأَمْتَنِ العِصَم . ويدعوهم إلى مَصْلَحَةِ التواصل والائتلاف . ويصدهم عن مُوجِبات التخاذُلِ والاختلاف . وأن يَعْتَمِدَ فيهم شرائط الحَزْم فى الإعطاء والمَنْع . وما تقتضيه مصلحةُ أحوالهم من أسباب الخَفْضِ والرَّفْع . وأن يُثيبَ المُحْسِنَ منهم على إحسانه ، ويُسْبِلَ على المُسىء ـ ما وَسِعَهُ العَفْو واحْتَمَلَ الأَمْر ـ صَفْحِه وامتنانه . وأن يأخذ برأى ذوى التجارب منهم والحُنْكة ، ويَجْتَنِى بمشاورتهم فى الأمر ثَمَرَ الشِّرْكة . إذ فى ذلك أَمْنٌ من خطأ الإفراد ، وتَزَحْزُحٌ عن مَقَامِ الزَّيْغِ والاسْتِبْداد .

وأَمَرَهُ بالتَّبَتُّلِ[١] لما يليه من البلاد ويتَّصِلُ بنواحيه من ثُغُور أولى الشرك والعناد . وأن يَصرف مَجَامِع الالتفات إليها . ويخُصَّها بوفور الإهتمام بها والتطلع عليها . وأن يشمل ما ببلاده من الحصون والمعاقِل بالإحكام والإتقان ، وينتهى فى أسباب مصالحها إلى غاية الوُسْعِ ونهاية الإمكان ، وأن يَشْحَنَها بالمِيَرة[٢] الكثيرة والذخائر ، ويمدها من الأسلَحة والآلات بالعَدَدِ المستصلح الوافر ، وأن يتخير لحراستها من يختاره من الأمناء الثُّقَاة . ويسدها بمن ينتخبه من الشجعان الكُمَاة[٣] . وأن يتأكد عليهم فى أسباب الحَيْطة والاستظهار ، ويوقظهم للاحتراس من غَوائل الغَفْلَة والاغترار . وأن يكون المُشَار إليهم ممن تَرَبَّواْ فى ممارسة الحروب على مكافحة الشدائد وتدربوا فى نصب الحبائل للمشركين والأخذ عليهم بالمَرَاصد وأن يعتمد هذا القَبِيل بمواصلة المَدَد وكثرة العدد ، والتوسعة فى النفقة والعطاء . والعمل معهم بما يقتضيه حالُهم وتفاوتُهم فى التقصير والغَنَاء . إذ فى ذلك حَسْمٌ لمادَّةِ الأَطْماع فى بلاد الإسلام ، ورد لكيد المعاندين من عَبَدَةِ الأصنام .

فمعلومٌ أن هذا الغَرَض أوْلى ما وُجِّهَتْ إليه العنايات وصُرِفَتْ ، وأحقُّ ما قُصِرَت عليه الهمم ووُقِفَتْ . فإن الله تعالى جعله من أهم الفُروض التى ألْزَمَ فيها القيامَ بحقه ، وأكبر الواجباتِ التى كَتَبَ العملَ بها على خَلْقِه . فقال سبحانه وتعالى ـ هادياً فى ذلك إلى سبيل الرشاد ، ومُحَرِّضاً لعباده على

---

(١) الانقطاع ووفور العناية .

(٢) المؤن والأقوات .

(٣) جمع كَمِىّ : وهو الشجاع ، أو لابس السلاح .

قيامهم له بفروض الجهاد : « ذلك بأنهم لا يُصِيبُهم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ [١] فى سبيل الله ولا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ ، ولا يَنَالُون من عَدُوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ، إن الله لا يُضِيع أَجْرَ المُحْسِنِين . ولا يُنْفِقُون نَفَقَةً صغيرةً ولا كبيرةً ، ولا يَقْطَعُون وادِياً - إلا كُتِبَ لهم ، ليجزيَهُم اللهُ أحسنَ ما كانوا يعملون » . وقال تعالى : « **فاقْتُلُوهم حيث ثَقِفْتُمُوهم** » [٢] . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : من نَزَلَ منزِلاً يُخِيف فيه المشركين ويُخيفونه ، كان له كأَجْرِ ساجد لا يَرْفَعُ رأسَه إلى يومِ القيامة ، وأَجْرِ قائم لا يَقْعُدُ إلى يوم القيامة ، وأَجْرِ صائم لا يُفْطِر . وقال عليه السلام : غُدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحةٌ خيرٌ مما طَلَعَتْ عليه الشمس . هذا قوله - صلى الله عليه وسلم - فى حق من سَمِعَ هذه المَقَالة فوقف لَدَيْها . فكيف بمن كان كما قال عليه السلام : أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بخَيْرِ الناس : مُمْسِكٌ بعِنانِ فَرَسِه فى سبيل الله ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً [٣] طارَ إليها .

وأَمَرَهُ باقتفاء أوامر الله تعالى فى رعاياه ، والاهتداء إلى رعاية العدل والإنصاف والإحسان بمراشده الواضحة وَوَصاياه ، وأن يَسْلُكَ فى السياسة بهم سُبُلَ الصلاح ، ويشملهم بلين الكَنَف وخَفْضِ الجَناح . ويَمُدَّ ظِلَّ رِعايته على مُسْلِمِهم ومُعَاهَدِهِمْ ، ويُزَحْزِحَ الأَقْذَاءَ والشَّوَائِب عن مَنَاهِلِهم فى العَدْل ومَوَارِدِهم . وينظر فى مَصَالحِهم نَظَراً يُسَاوِى بين الضعيف والقوى ، ويَقومَ بأَوَدِهم قِياماً يَهْتَدِى به ويَهْدِيهم فيه إلى الصِّراط السَّوِىّ .

---

(١) مجاعة .

(٢) حيث أدركتموهم ، أو وجدتموهم .

(٣) الهَيْعَة : الصوت تَفْزَعُ منه وتخافه من عدوّ . أى : صوتَ فَزَع ، إيذاناً ببدء قتال .

قال الله تعالى : « **إن الله يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاء ذى القُرْبَى ويَنْهَى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْى ، يعِظُكُم لعلكم تَذَكَّرُون** » .

وأَمَرَه باعتماد أسباب الاسْتِظْهار والأَمَنَة ، واستقصاء الطاقةِ المُستطَاعةِ والقُدْرة المُمْكِنَة ، فى المساعدة على قضاء تَفَثِ[1] حُجَّاجِ بيت الله الحَرام وزُوَّار نَبِيِّه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام . وأن يُمِدَّهم بالإعانة فى ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المَرَام ، ويَحْرُسَهم من التَّخَطُّفِ والأذى فى حالتى الظَّعْنِ والمُقَام . فإن الحَجَّ أحد أركان الدين المُشَيَّدَة وفروضه الواجبة المُؤَكَّدة . قال الله تعالى : ولِلَّهِ على الناس حَجُّ البيت .

وأَمَرَه بتَقْوِيَةِ أيدى العاملين بحُكْمِ الشرع فى الرَّعايا ، وتنفيذ ما يَصْدُرُ عنهم من الأَحكام والقضايا ، والعمل بأقوالِهم فيما يَثْبُتُ لذوى الاستحقاق ، والشَّدِّ على أيديهم فيما يَرَوْنَه من المَنْع والإطلاق . وأنه متى تأخر أحدُ الخَصْمَيْنِ عن إجابة داعى الحُكْم ، أو تَقَاعَس فى ذلك لما يلزم من الأداء والغُرْم ـ جَذَبَه بعِنان القَسْر إلى مجلس الشَّرْع ، واضطره بقُوة الإنصافِ إلى الأداء بعد المَنْع . وأن يَتَوَخَّى عُمَّال الوُقُوفِ التى تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُون بها ، واستمسكوا فى ظل ثوابِ الله بمتينِ سَبَبِها . وأن يمدهم بجميل المعاونة والمساعدة وحُسْنِ المُوَازَرَة والمُعَاضَدَة ، فى الأسباب التى تُؤْذِنُ بالعَمَار والاسْتِنْمَاء ، وتعود عليها بالمَصلحة والاستخلاص والاستِيفاء . قال الله تعالى : وتعاونوا على البِرِّ والتقوى .

---

(١) أى مناسك الحج ، وما يجب فيه .

وأَمَرَهُ أن يَتَخَيَّرَ من أولى الكِفاية والنزاهة من يَسْتَخْلِصُه للخِدَم والأعمال ، والقيام بالواجب من أداء الأمانة والحِراسة والتَّثْمِير ، لبيت المال وأن يكونوا من ذوى الاضطلاع بشرايط الخِدَم المُعيَّنَةِ وأمورها ، والمُهْتَدين إلى مَسَالِكِ صَلاحها وتَدْبِيرِها . وأن يَتَقَدَّمَ إليهم بأخْذِ الحقوق من وجوهها المُتَيَقَّنة ، وجِبايتها فى أوقاتها المُعَيَّنة . إذْ ذاك من لوازم مَصَالِح الجُنْدْ ووُفُور الاسْتِظْهار ، وموجبات قُوَّةِ الشَّوْكَةِ بكثير الأعوان والأنصار ، وأسباب الحَيْطَةِ التى يُحْمَى بها البلاد والأمصار . ويأمرهم بالجَرْيِ فى الطُّسُوق[1] والشُّروط على النَّمطِ المُعْتاد ، والقيامِ فى مَصَالح الأعمال أقدام الجِدِّ والاجتهاد . وإلى العاملين على الصَّدَقَات بأخذ الزَّكَوَات على مشروع السَّنَن المَهْيَع[2] ، وقَصْدِ الصِّراط المُتَّبَع ، من غير عُدُولٍ فى ذلك عن المِنهاج الشرعى ، أو تساهُل فى تبديل حُكْمِها المفروض وقانونها المَرعى فإذا أُخِذَتْ من أربابها الذين يَطَّهَّرُون ويَزْكُونَ بها سَعَى فى العمل فى صَرْفِها إلى مستحِقِّيها بحُكْمِ الشريعة النبوية ومُوجِبها . وإلى جُباة الجِزْيَةِ من أهل الذِّمَّة بالمطالبة بأدائها فى أول السَّنَة ، واستيفائها منهم على حَسَبِ أحوالهم بحُكْم العادة فى الثَّرْوَة والمَسْكَنَة . إجْرَاءً فى ذلك على حُكْمِ الاستمرار والانتظام ، ومُحَافَظةً على عظيمِ شَعائِر الإسلام .

وأَمَرَهُ أن يَتَطَّلَع على أحوال كل من يستَعْمِلُه فى أَمْرٍ من الأُمور ، ويُصَرِّفُه فى مَصْلَحَةٍ من مَصالح الجُمْهُور ، تَطَّلُّعاً يقتضى الوُقوف على حقائق أماناتهم ،

---

(١) ج طَسْق : وهو مِكيال ، أو ما يوضع من الخراج على الجُرْبان (الأفدنة) أو شبه ضريبة معلومة .

(٢) طريق مَهْيَع : أى بيِّن .

ويُوجِبُ تَهْذِيبَهم فى حَرَكاتهم وسَكَناتهم ، ذَهاباً مع النُّصْح لله تعالى فى بَرِيَّته ، وعَمَلاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّته .

وأَمَرَهُ أن يَسْتَصْلِحَ من ذَوى الاضطِلاع والغَناء ، مَن يُرَتَّبُ للفَرْضِ والعَطاء ، والنَّفَقة فى الأَوْلياء وأن يَكونوا من المَشهورين بالحَزْم والبَصِيرة ، والمَوْسُومِين فى المُناصَحَة بإخلاص الطَّوِيَّة وإصفاء السَّرِيرة ، حَالِينَ من الأمانة والصَّوْنِ بما يَزِين . نَاكِبِين عَنْ مَظَانِّ الشُّبَه والطمع الذى بَصِمُ ويَشِين . وأن يأمُرَهم باتِّباع عادات أَمْثالهم فى ضَبْطِ أسماء الرجال ، وتَحْلِيَةِ الأشخاص والأشكال واعتبار شِيَاتِ[1] الخُيول وإثبات أعدادها ، وتحريض الجُنْد على تَخَيُّرِها واقتناء جِيَادِها . وبَذْلِ الجهد فى قيامهم من الكُرَاعِ[2] والبَرْكِ[3] والسِّلاح بما يَلْزَمُهم ، والعمل بقول الله تعالى : « **وأَعِدُّوا لهم ما استَطَعْتُم من قُوَّةٍ ومن رِباط الخَيْل ، تُرْهِبُون به عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وآخَرِين من دُونِهم لا تعلمونَهم اللهُ يَعْلَمُهُمْ** » . فإذا نَطَقَتْ جَرَائِدُ[4] الجُنْدِ المذكورين بما أُثْبِتَ لَدَيْهِم ، وحَقَّقَ الاعتبارُ والعَيانُ قِيامَهم بما وَجَبَ عليهم ، أُطْلِقَتْ لهم المَعَايِش والأَرْزَاق بحسب إِقْرَارَاتِهم ، وأُوصِلَتْ إليهم بمُقْتَضَى واجِباتِهم واستحْقَاقَاتِهم . فإن هذه الحال أصل حِراسَةِ البلاد والعباد ، وقِوَامُ الأَمْرِ فيما أوجبه الله تعالى من أمر الاستعداد

---

(١) أوصاف ، أو علامات .

(٢) اسم جمع . معناه : الخيل .

(٣) البَرْك : المتاع والحاجات .

(٤) كشوف الحساب فى الديوان .

بفَرْضِ الجِهاد . قال الله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا ، وإن الله لمع المُحْسِنِين** » .

وأَمَرَهُ بتفويض أمر الحِسْبَة إلى من يكون بأمرها مضطَلِعا ، وللسنة النبوية فى إقامة حدودها متَّبِعا . فيَعْتَمِدُ فى الكَشْفِ عن أحوال العَامَّةِ فى تصرفاتها الواجِبُ . ويَسْلُكُ فى التطلع على مُعَاملاتهم السَّبِيلَ الواضح والسَّنَنَ اللاحِبَ[1] . ويَأْتِيهم فى الأسواق لاعتبار المكاييل والمَوَازين ، ويَعْتَمِدُ فى مؤاخَذَة المُطَفِّفِين[2] وتأديبهم بما تقتضيه شَرِيعةُ الدين . وُيَحذِّرُهم فى تَعَدِّى حُدود الإنصاف شِدَّة نكَالِه ، ويُقابلُ المستَحِقَّ للمؤاخَذة بما يَرْتَدِعُ به الجمعُ الكثيرُ من أمثاله . قال الله تعالى : « **أَوْفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا من المُخْسِرِين . وزِنُوا بالقِسْطاسِ المُسْتقيم . ولا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءَهم ولا تعثوا فى الأرض مُفْسِدِين** » . وقال سبحانه : « **وَيْلٌ للمُطَفِّفِين الذين إذا اكْتَالُوا على الناس يَسْتَوْفُون ، وإذا كَالُوهمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون . أَلاَ يَظُنُّ أولئك أنهم مَبْعُوثون ليوم عظيم . يوم يَقُومُ الناسُ لربِّ العالَمين** » .

فلْيَتَوَلَّ الملكُ الأَجَلُّ ، السيدُ الكامِل المُجاهِد المُرابِط ، نصيرُ الدين رُكْنُ الإسلام أَثِيرُ الإمام ، جَمال الأنام ، جلال الدولة ، فَخْر المِلة عِزُّ الأُمة ، سَنَدُ الخِلافة ، تاجُ الملوك والسلاطين ، قامعُ الكَفَرة والمُشْرِكين ، قاهِرُ الخَوَارجِ والمتمردين ، أميرُ المجاهدين : أَلْبْ غَازِى بِكْ ، معينُ أمير المؤمنين ـ ما قَلَّدَه عبدُ الله وخليفتُه فى أرْضه ، القائمُ له بحقِّه الواجب

---

(١) أى : الطريق الواضح .

(٢) طَفَّفَ : زاد أو نَقَصَ المِكيالَ عن القدر الحلال .

وفَرْضه : أبو جعفر المنصور « المُسْتَنْصِر بالله » أمير المؤمنين ـ بقلب مطمئن بالإيمان ، ونُصْحٍ لله تعالى ولخليفته ـ صلوات الله عليه ـ فى السر والإعلان ولْيَشْرَحْ بما فُوِّضَ إليه من هذه الأمور صَدْراً ، ولْيَقُمْ بالواجبِ عليه من شُكْرِ هذا الإنعام الجَزِيل سرًّا وجَهْرا . ولْيَعْمَلْ بهذه الوَصايا الشريفة الإمامِية ، ولْيَقْتَفِ آثار مَرَاشِدِها المُقَدَّسة النَبوية . ولْيُظْهِرْ من أثر الجِدِّ فى هذا الأمْرِ والإجتهاد ، وتحقيق الظن الجميل فيه والإرشاد ـ ما يكونُ دَليلاً على تأيد الرأى الأشرف المقدس ـ أَجَلَّه الله تعالى ـ فى اصطناعه واستِكْفَائِه ، وإصابة مواقع النُّجْحِ والرُّشْدِ فى التفويض إلى حسن قيامِه وكَمال غنَائِه ولْيَقْدُرِ النِّعْمةَ عليه فى هذه الحالِ حَقَّ قَدْرِها . ولْيَمْتَرِ ـ[1] بأداء الواجب عليه من جَزِيل الشكر ـ غَزِيرَ دَرِّهَا ، ولْيُطَالِعْ مع الأوقات بما يُشْكِلُ عليه من الأمور الغَوَامِض . ولْيُنْهِ إلى العُلُوم الشريفة المقدسة ـ أَجَلَّها الله تعالى ـ ما يَلْتَبِسُ عليه من الشكوك والعَوَارِض . لِيَرِدَ عليه من الأمثلة ما يُوَضِّحُ له وَجْهَ الصَّوابِ فى الأمور ، ويُمَدَّ من المَرَاشِد الشريفة التى هى شِفاء لما فى الصدور ، بما يكونُ ورودُه عليه . وتتابعُه إليه ، نُوراً على نُور ـ إن شاء الله تعالى .

وكُتِب فى شهر رجب من سنة ثلاثين وستمائة .[2] والحمدُ رب العالمين . وصلواتُه على سيدنا محمدٍ النبى الأُمِّى ، وآلِه الطاهرين .

وفى هذه السنة ، فُتِحَتْ دارُ الحديث الأَشْرَفِية[3] المجاورة لقلعة دمشق المَحروسة ، ليلة النصف من شعبان . وأَمْلَى بها الشيخُ الإمام العلامة : تَقِى

---

(١) مارَ عِيالَه ، وامتار لهم : أى جَلَبَ لهم الطعام .

(٢) هذا نص على تاريخ بمثابة هذا العهد . وهو يثبت أن العهد كان للملك الكامل لا لأبيه .

(٣) مدرسة بناها الأشرف موسى بن العادل .

الدين بن الصَّلاَح الشافِعى[1]. ووَقَفَ عليها الملكُ الأشرف أوقافاً جليلة .

ذكر ركوب الملك العادل بشِعَار السَّلْطَنَة

وفى الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء ، ثامن عشر شهر رمضان ، من هذه السنة ـ سَلْطَنَ السلطانُ الملكُ الكامل وَلدَه الملكَ العادلَ سيفَ الدين أبا بكر ، ورَكَّبَهُ فى هذه الساعة بشِعار السَّلْطَنَة . وشَقَّ القاهرة ، وفى خِدمته جميعُ الأمراء والقضاة وأصحاب الدواوين والأماثِل وغيرهم .

وفيها ـ فى صفر ـ تسلم رَاجِح بن قَتَادة مكة ـ شرَّفها الله تعالى ـ وكان قد قَصَدَها فى سنة تسع وعشرين ، وصحبتُه عسكر صاحبِ اليمن : الملك المنصور عُمَر بن علىّ بن رَسُول . وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ بمكة ، ففارقها .

وفيها كانت وفاة الملك العزيز : فخر الدين عثمان بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب . وهو شَقِيقُ الملك المعظم . وكان صاحب بانْياس وتِبْنِينْ وهُونِين والحُصُون . وهو الذى بنى قلعة الصُّبَيْبَة

وكان عاقلاً قليل الكلام ، مُطيعاً لأخيه الملك المعظم ، وإنما أخرجه عن موالاة ولدِه ـ الملكِ الناصر داود ـ أنه كان قَصَدَ بعلبك فى سنة خمس وعشرين وستمائة ، بمواطَئَةٍ من ابن الملك الأمجد صاحبها ـ كما تقدم ـ فلما

هو أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن ، الكُرْدِى الشَّهْرَزُورِى ، المعروف بابن الصلاح . كان أحد فضلاء عصره فى التفسير والحديث والفقه . درَّس بالمدرسة الناصرية بالقدس . ثم لما بنى الملك الأشرف دار الحديث بدمشق ، فَوَّضَ تدريسها إليه . ولد سنة ٥٧٧ . وتوفى فى سنة ٦٤٣ هـ .

(وفيات الأعيان : جـ ٢ ـ ٤٠٨)

فاته وقتُ الميعاد ، الذى اتفقا عليه ، نزل على بعلبك ، وأخذ فى حِصارها . فأرسل الملك الأمجدُ إلى الملك الناصر يقول له : أنت تعلم ما كان بينى وبين والدك الملك المعظم من المودة ، وأننى كنت صديقَ من صادَقَه وعدُوَّ من عاداه ، فَرَحِّلْ عنى الملك العزيز .

فأنفذ الملكُ الناصرُ داود الفَرَس خَلِيلاً إلى المِلك العزيز ، وأَمَرَه بالرحيل . وقال له : متى لم يَرْحَلْ ، ارْمِ خَيْمتَه على رأسِه ! فرحل العزيزُ إلى بانْيَاس وأَوْجَبَتْ هذه الحادثةُ غضبَه ، إلى أن التحق بالملك الكامل ، وجاء معه إلى دِمشق ـ كما تقدم .

وكانت وفاة الملك العزيز فى يوم الاثنين ، عاشر شهر رمضان ، سنة ثلاثين وستمائة ، ببستانه فى النَّاعِمة ، بَبَيْتِ لِهْيَا[1] من غُوطَةِ دمشق . ودفن بقاسِيون فى تربة الملك المُعَظَّم ، عند والدته ـ رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى يوم الاثنين ، سابع عشرين شهر ربيع الأول ، تُوفى بالقاهرة الشيخ جلال الدين أبو العَزَائِم : هَمَّام بن رَاجِى الله سَرَايا ، بن أبى الفتوح ناصر . بن داود الشافعى : إمام جامع الصالح ، بظاهر باب زُوَيْلَة[2]

رَحَلَ إلى بغداد واشتغل بها مدة ، وسَمِعَ الحديثَ ، واشتغل بالأدب بمصر على ابن بَرِّى[3] ولقى جماعةً من الأدباء ، وصنّف كتباً كثيرة فى

(١) (بكسر اللام) : قرية مشهورة بغوطة دمشق .
(ياقوت : جـ ٢ ـ ٣٢٤)

(٢) هو الباب الجنوبى لمدينة القاهرة القديمة . وقد ذكرناه من قبل .

(٣) هو أبو محمد عبد الله ابن بَرِّى (بفتح الباء) المَقْدِسىّ الأصل ، المصرى . الإمام المشهور فى علم النحو واللغة . اطلع على أكثر كلام العرب ، وله حاشية على الصِّحَاح . ولد سنة ٤٩٩ هـ . وتوفى سنة ٥٨٢ هـ .
(وفيات الأعيان : جـ ٢ ـ ص ٢٩٢)

الأُصول والفروع والخِلاف ، مُخْتَصَرة ومُطَوَلة . وله شِعر . ومولده بُونَا من صَعِيد مصر ، فى ذى القَعدة أو ذى الحِجَّة سنة تسع وخمسين وخمسمائة . رحمه الله . ولما مات ، وَلِىَ الإمامةَ بالجامع الصالِحى بعده ولدُه : نورالدين على .

وفيها كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبى حفص : عمر بن محمد بن عبدالله السُّهْرَوَرْدِى . وهو ينتسب إلى أبى بكر الصِّدِّيق ـ رضى الله عنه ـ فيما قيل . وذكر ابن خِلِّكَان أن وفاتَه كانت فى مُسْتَهَلِّ ذى الحِجة ، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . ومولده بِسُهْرَوَرْد ، فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . وقد تقدم ذكرُ تَرَدده فى الرِّسالة ، من جهة الخليفة إلى الملك العادل ، وغيره . وكان رجلاً صالحاً عابداً ، زاهداً وَرِعاً . وصَنَّفَ كِتاباً للصوفية ، سماه عَوَارِف المَعَارف .

حُكِىَ أنه جلس يوماً ببغداد على مِنبر وعظه ، فذكر أحوال القَوْمِ ، وأَنْشَد :

ما فى الصِّحاب أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُه حَدِيثَ نَجْدٍ ، ولا صَبٌّ نُجَارِيه

وجعل يُرَدِّدُ البيتَ ويَطْرَب ! فصاح به شابٌ من طَرَف المجلس ـ عليه قَبَاءٌ وَكلُّوتَة[1] ـ وقال : يا شيخُ ، كم تَشْطَحُ وتَنْتَقِصُ القَوْم ! والله إن

(١) غطاء للرأس ، اشبه بالطاقية ، كان يلبسه الأمراء الكبراء من غير رجال الدين (شرحناه من قبل) .

فيهم من لا يرضى أن يُجَارِيَك ، ولا يصل فهمُك إلى ما تقول ! هلا أَنْشَدْتَ :

ما فى الصحاب ، وقد سارت حُمُولُهُمُ
إلا مُحِبٌّ لـه فى الركب مَحْبُوبُ
كأنما يُوسفٌ فى كل رَاحِلَةٍ
والحَىُّ فى كل بَيْتٍ منه يَعْقُوبُ

فصاح الشيخ ، ونزل عن المِنبر وقصد الشاب ، لِيَعْتَذِرَ إليه . فلم يَجِدْه . ووجد فى موضعه حُفْرَةً فيها دم ، مما فَحَصَ برجْلِه عند إنشاد الشيخ البيت ! .

وفيها توفى الشيخُ الفاضل : عزالدين أبو الحسن على ، بن أبى الكَرَم محمد بن محمد بن عبدالكريم ، بن عبدالواحد الشَّيْبَانِى ـ المعروف بابن الأَثِير الجَزَرِى[1] . وكانت وفاته فى هذه السنة من شعبان . ومولده فى رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، بجزيرة ابن عُمَر[2] .

وكان رجلا فاضِلاً ، صنَّفَ فى التاريخ كتاب « الكامِل » من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة . وهو من أَجْوَدِ التواريخ التى رأَيْناها . واختصر كتاب « الأَنْساب » لأبى سعيد عبدالكريم بن السَّمْعَانِى ،

(١) هو المؤرخ المشهور : ابن الأثير .

(٢) ورد ذكرها من قبل ، وهى بلدة فوق الموصل

واستَدْرَكَ عليه فى مواضع . ونَبَّهَ على أغاليطَ ، وزاد أشياء . وهو كتابٌ مِفيدٌ فى ثلاث مُجَلَّدات وأصلُه فى ثمانية ، وهو عزيزُ الوجود . وفضائلُه وآدابه مشهورة ـ رحمه الله تعالى .

وفيها كانت وفاة شرف الدين أبى المحاسن : محمد بن نَصْر بن مَكَارِم ، ابن الحسن بن على بن محمد ، بن غالب الأَنْصَارى ، المعروف بابن عُنَيْن ـ الكُوفى الأصل ، الدِّمَشْقى المولد . وقيل بل هو من زُرَع من إقليم حَوْرَان .

نشأ فى دمشق ، وسافر عنها ، وطَوَّفَ البلاد شرقاً وغرباً . ودخل بلاد الجَزِيرة والروم والعراق وبغداد وخُراسان وما وراء النهر ، وبلاد الهند واليمن والحجاز ومصر . ومدح ملوك هذه الأماكن وأعيانها .

وكان ظريفاً حسن الأخلاق جميل العِشرة . غزير المادّةِ فى الشِّعر ، مُولَعاً فى الهِجاء وثَلْبِ أعْرَاضِ الناس ـ خصوصاً الأكابر . وله قصيدة طويلة جمع فيها خَلْقاً كثيراً من رؤساء الشام وأهل دمشق ، سماها : « مِقْرَاض الأعْرَاض » ، يقال إنها خمسمائة بيت .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد نَفَاه من دمشق ، بسبب وُقُوعِه فى الناس . ولما نُفى كَتَب من الهند إلى دمشق :

فَعَلامَ أَبْعَدْتُمْ أخائِقَةٍ لم يَجْتَرِمْ ذَنْبا ولا سَرَقا
انْفُوا المُؤَذِّنَ من بِلادكم إن كان يُنْفَى كُلُّ من صَدَقَا

ولما مات الملك الناصر صلاح الدين ، ومَلَك الملكُ العادل دمشق ، سار متوجهاً إلى الشام . وكتب إلى الملك العادل قَصِيدتَه الرَّائيَّة ، واستأْذَنَهُ فى الدخول إلى دمشق . ووصفها وصف ما قاسى فى الغُرْبَة ، ولما فرغ من وصف دمشق وأنهارها وبساتينها ومُسْتَنْزَهَاتِها ، قال فى قصيدته :

فارَقْتُها لاعن رِضىً ، وهَجَرْتُها لا عن قِلىً ، ورَحَلْتُ لا مُتَخَيِّراً
أَسْعَى لِرِزْقٍ فى البلاد مُشَتَّتٍ ومن العجائب أن يكون مُقَتَّراَ
وأَصونُ وجْهَ مدائحى مُتَقَنِّعاً وأَكُفُّ ذَيْلَ مطامعى مُتَسَتِّراَ

جاء منها فى شكْوَى الغُرْبة ، وما قاساه منها :

أشكو إليك نَوىً ، تَمادَى عُمرُها حتى حسِبت اليومَ منها أَشْهُرا
لا عِيشتى تَصْفُو ولا رَسْمُ الهوى يَعْفُو ، ولا جَفْنى يُصافِحُه الكَرَى
أُضْحِى عن الأَحْوَى المَرِيع مُحَلَّأً[1] وأَبيتُ عن وِرْدِ النَّمِيرِ[2] مُنَفَّرَا
ومن العجائب أَنْ تَفَيَّأَ ظِلَّكُمْ كُلُّ الوَرَى ، ونُبِذْتُ وَحْدِى بالعَرَا

فلما وقف العادلُ على هذه القصيدة ، أَذِنَ له فى الدخول إلى دمشق ، فدخلها .

---

(١) حَلَأَه عن الماء : طَرَدَه ومنعه . « القاموس » .
والأَحْوَى : الأرض المخضَرَّة أو المَرْعَى . فالمعنى : أنه يُضْحِى عن المرعى الخصيب مطرودًا .

(٢) النمير : الغَدير الصافى .

وقـــال :

هَجَوْتُ الأكابرَ فى جِلَّقٍ[١] ورُعْتُ الوَضِيعَ بسَبِّ الرَّفِيع
وأُخْـرِجتُ منهـا ، ولـكـننى رَجَعْتُ على رَغْمِ أَنْفِ الجَمِيع

وكانتَ وفاته فى عشية يوم الأثنين ، العشرين من شهر ربيع الأول ، سنة ثلاثين وستمائة . ومولده فى يوم الاثنين ، تاسع شعبان ، سنة تسع وأربعين وخمسمائة ـ حكاه ابن خِلِّكَان وابنُ السَّاعِى .

وقال أبو المُظَفَّر فى مِرآة الزمان : إن وفاته كانت فى سنة ثلاث وثلاثين .

قال : وكان خَبِيثَ اللسان هَجَّاءً ، فاسِقاً مُتَهَتِّكاً . قال : ولما عاد إلى دمشق ، استَوْزَرَه الملك المعظم . وكانت مجالسُه معمُورةً بقَبَائِحه .

قال : وحضر مجلسَ الإمام فخر الدين الرَّازِى بن خطيب الرَّىّ ، وهو يَعِظ ، فجاءت حَمامةٌ وخَلْفها جَارِح ، فألقت نفسها على الإمام فخر الدين ، فغَطَّاها بكُمِّه . فقال ابن عُنَيْن ، بَدِيهاً :

يا ابن الكِرام ، المُطْعِمِين إذا شَتَوْا فى كل مَسْغَبَةٍ[٢] وثَلْجٍ خَاسف
العاصمين إذا النفوس تَطَايَرَتْ بين المَخَارِم والوَتِين[٣] الرَّاعف

---

(١) من أسماء « دمشق » .

(٢) فى كل وقت للجوع ، أو مجاعة . وفى (ك) : مسبغة ، وهو خطأ . والسَّغَب : الجوع الشديد .

(٣) الموجود فى النسختين : والوسيح . وهو غير معروف فى اللغة . فرجحت قراءتها : والوتين ، وهو عرق فى العنق . وبه يستقيم المعنى فى البيت .

مَنْ أَنْبَأَ الوَرْقَاءَ[1] أنَّ بِحِلِّكُمْ حَرَماً ، وأنَّكَ مَلْجَأٌ للخَائِف
وَفَدَتْ عَلَيْكَ ، وقَدْ تَدَانَى حَتْفُهَا فَحَبَوْتَهَا بِبَقَائِهَا المُسْتَأْنَفِ
ولو أنَّها تُحْيَى بمالٍ ، لانْثَنَتْ من رَاحَتَيْكَ بنَائِلٍ مُتَضَاعِفِ
جاءت سُلَيمانَ الزَّمانِ بشُكْرِها والموتُ يَلْمَعُ من جَنَاحَيْ خَاطِف
قَرْمٌ[2] لَوَاهُ الفَوْتُ حتى ظِلُّه بإزائِهِ يَجْرِى بقَلْبٍ خَائِف

قال : فرمى عليه الإمامُ فخرُ الدين جميعَ ما كان عليه ، وفعل الحاضرون كذلك . فبلغ قيمةُ ذلك أربعة آلاف دينار ! وكتب معه كتاباً إلى الملك الناصر ، وكتاباً إلى الملك العادل ، يَشْفَعُ فيه . فقبل الملك شفاعته .

ولما عاد هجا العادل ، فقال :

إن سلطانَنَا الذى نَرْتَجِيه واسعُ المال ضَيِّقُ الإنْفَاق
هو سَيْفٌ كما يُقَال ، ولكن قَاطِعٌ للرُّسُومِ والأَرْزَاقِ

وهجا أيضاً أولادَ شيخ الشيوخ الأربعة ، فقال :

أولادُ شيخ الشيوخ قالوا ألْقَابُنَا كُلُّها مُحَالُ
لا فَخْرَ فينا ولا عِمَادٌ ولا مُعِينٌ ، ولا كَمَالُ

وأهاجيه فى الأكابر والأعيان كثيرة ـ سامحه الله تعالى وإيانا :

---

(١) الحمامة .

(٢) القَرْم : الفحل ، أو السَّيِّد .

واستهلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة :

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى بلاد الروم

وفى هذه السنة ، وصل الملك الأشرف ، صاحب دمشق ، إلى السلطان بالديار المصرية ، وحرَّضه على قصد بلاد الروم . فخرج بالعساكر من القاهرة فى ليلة السبت ، لخمس خلون من شعبان ، واستناب بالديار المصرية ولَدَه الملكَ العادل : سيفَ الدين أبا بكر .

وسار حتى وصل إلى دمشق ، وجمع سائر الملوك . وسار من دمشق ، فنزل بظاهر البِيرَة[1] . واجتمعت الملوك ، فكانوا ثلاثةَ عشر مِلكا : كلهم من بنى أيوب . وعَرَضَ العساكرَ أَطْلاكًا ، فكبُرت نفسه وتعاظم . ثم دخل بهم الدَّرْبَنْدَات[2] ، وأشرف على أرض الروم ، وما شَكَّ فى أَخْذِها .

فاجتمع الملوك إلى الملك الأشرف ، قالوا : متى فتح الملكُ الكامل بلادَ الروم ، استولى على ممالكنا ، وعوَّضَنَا عنها من بلاد الروم . فاتفقوا على خِذلانه ، ومكاتبة صاحب الروم : علاء الدين كَيْقُبَاد ، بن كِيْخُسْرُو

---

(١) اسم لعدة مواضع . منها بلد قرب سُمَيساط ، بين حلب والثغور الرومية . وهى قلعة حصينة ، ولها رُسْتاق واسع (قُرىً حولها) .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٣٣٠)

(٢) الطرق الضيقة بين الجبال فى مداخل بلاد الروم ، شمالى البِيرة .

(انظر السلوك : جـ ١ ـ ٢٤٨)

السَّلْجُقِى ، فكاتبوه . فوقعت الكتبُ إلى الملك الكامل ، فرَحَل عن الدَّرْبَنْدَات لوقته ، وعاد إلى السُّوَيْدَاء[١] وخيَّمَ بها .

وكان عند نزوله على الدَّرْبَنْدَات ، أرسل الملكَ المُظَفَّرَ صاحب حَماه ، والطَّوَاشىَ شمس الدين صَواب ، وجماعة من الأمراء ، إلى خَرْتَبِرْت[٢] . وكان بها عسكرٌ كَثِيف من عساكر الروم ، فكَسَرُوهُم ، وأسروا بعض الأمراء الكامِلية ، وطلع الملكُ المظفر ، والطواشى صَواب ، والبانْياسِى وجماعةٌ من الأمراء ، إلى القلعة ، فأقاموا بها سبعةَ عشر يوما ، وطلبوا الأمان من صاحب الروم . فأَمَّنَهُمْ على تسليم القلعة ، ولا يأخذوا منها شيئا .

ففعلوا ذلك ، ونزلوا إليه . فخلع عليهم وأعادهم إلى الملك الكامل . ولم يَسْلَمْ من خيلهم فى هذه الوَقْعَةِ إلاّ سبعةٌ أو ثمانية : كلُّ أمير على فرس . فسيَّرَ السلطان الملك الكامل إليهم الخيول ، فركبوها ووصلوا إلى السلطان إلى السُّوَيْدَا ، فأحسن إليهم . ثم عادَ إلى الديار المصرية ، وقد حصلت الوَحْشة بينه وبين سائر الملوك . وكان وصوله فى جمادى الأولى ، سنة اثنتين وثلاثين .

---

(١) بلدة مشهورة فى ديار مضر ، قرب حران . بينها وبين بلاد الروم . فيها خيرات كثيرة . وأكثر أهلها أرمن . (معجم البلدان : جـ ٥ ـ ١٨٠)

(٢) اسم أرمنى . وهو الحصن المعروف بحصن زياد ، فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم . بينه وبين ملطية مسيرة يومين ، وبينهما الفرات .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ٤١٥)

ولما رجع ، جَهَّزَ صاحبُ الروم جيشا كثيفا إلى حَرَّان والرُّها وآمِد ، والسُّوَيْدَا وقَطِينَا[1] ، فاستولى على ذلك ، ورتَّبَ فيهم من يحفظهم . وكانت هذه الجهات تحت يد شهاب الدين غازى ـ أخى السلطان ـ والملك الصالح نجم الدين أيوب : ولدِه .

فلما اتصل ذلك بالملك الكامل ، تجهز بعساكره وخرج من القاهرة ، فى ثالث عشرين ذى القعدة من السنة : وكان قد أَوْصَى ولَدَه الملك الصالح نجم الدين وأخاه شهاب الدين غازى ـ أن صاحب الروم إذا قصد البلاد يتركونها ، ويحضرون ، وقال له : إذا أَخَذَ البلادَ استعدتُها منه ، وإذا أخَذَكُمْ لاأقدِرُ على استعادتكم منه . فلما وصل عسكر صاحب الروم إلى البلاد ، تركاها ، وسارا بعسكرهما إلى سَلَمِيَّه .

ولما قَدِم السلطان إلى دِمشق ، كان بها ولدا[2] ولدِه الملك الصالح ، وهما : جلال الدين ، وتُورانْشاه ، فخرجا يُسَلِّمان على جَدِّهما ، فانْتَهَرَهُما ، فخرجا من عنده . واتصل ذلك بأبيهما ، فعلم أن الغضب إنما هو عليه ، لاعلى ولَدَيْه . فأرسل إليهما وأخذهما من دمشق ، ولم يُشْعِرْ بذلك جَدَّهما .

وسار عن سَلَمِيَّه ، ومعه شهاب الدين غازى ، فوصل إلى حِصن كَيْفا ، ووصل شهاب الدين إلى مَيَّافَارِقِين . فعظُم ذلك على السلطان ، وذكر مافعله الصالح لبعض الأمراء . فتلطف فى الاعتذار عنه ، وقال : الملك الصالح معذور ، لأ السلطان سَلَّمَ له البلاد وجعله تحت الحَجْر . ثم فعل

(١) سبق التعريف بهذه المواطن ، ما عدا الأخيرة .
قَطِينا : بلدة على نهر الزاب الأعلى ، شمالىّ الموصل .

(٢) فى (ع) : «كان بها ولدى ولده» !

السلطانُ بأولاده ما فعل . فأرسل إليه وطَيَّبَ قلبَه ، وأمره أن يمضى هو وشهاب الدين غازى لمحاصَرة السُّوَيْدَاء ، فتَوَجَّهَا إليهما .

ووصل السلطان إليها أيضا . ثم مضى إلى آمِد ، فهرب العسكرُ الرُّومِىُّ منها . ووصل السلطان إلى حَرَّان ، وفَتَحَها عَنْوةً فى ثالث جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين . وفتح قلعةَ الرُّهَا عَنْوَةً . وتَسَلَّمَ السُّوَيْدَاء عَنْوَة ، فى جمادى الآخرة . وهدم قلعة الرُّهَا . وأسَرَ من كان فى هذه القِلاع من الروم . وأخَذَ قَطِيناً فى شهر رجب عنوة ، ونزل على دُنَيْسِر[1] فأخْرَبَها ، إلا الجامِع .

وسيَّرَ جميع الأمراء إلى الديار المصرية فى الجوالق ، وكانوا أكثرَ من ثلاثة آلاف . ورتب ولدَه الملك الصالح بآمِد . وأضاف إليه حَرَّان والرُّها ونَصِيبين ، والخَابُور[2] ورأسَ عين والرَّقَّة ، وجعله سلطانا مستقلا . وعاد إلى الديار المصرية . فوصل إلى القاهرة فى شعبان ، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

---

(١) سبق التعريف بها ، وهى بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة ، قرب ماردين : بينهما فرسخان .

(ياقوت : جـ ٤ ـ ٩٤)

(٢) سبق التعريف بهذه الأماكن . أما الخابور فهو أولاً اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات ، من أرض الجزيرة . ثم أطلق اسمه على ولاية واسعة وبلدان فى تلك الجهة .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ٣٨٣)

نعود إلى تتمة حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

فيها وَلِىَ الأمير جمال الدين يَغْمُور[1] شَدَّ الدواوين بالديار المصرية

وفيها عَمَّرَ الملكُ الأشرفُ مسجدَ جَرَّاح خارج باب الصَّغِير بدمشق ، ورتَّبَ فيه خُطبة للجمعة ، يصلى فيه سكان الشَّاغُور وغيرهم .

وفيها قدم رسولُ الأَنْبَرُور ملكُ الفِرِنْج بالهدايا والتُّحف ، وفى جملة ذلك دُبٌّ أبيض ، شَعره مثل شعر السَّبُع ، ينزِل إلى البحر فيصيد السمك ويأكله ، وطاووس أبيض ، وغير ذلك .

وفيها عُزِل قاضى القضاة عمادُ الدين بن الحَرَسْتَانى عن قضاء الشام ، ووليه قاضى القضاة شمسُ الدين بن سَنِىِّ الدَّوْلَة .

وفيها ، تُوفى الأَتَابِك : شهاب الدين طُغْرِل الخادم ، عَتِيقُ السلطان الملك الظاهِر ، صاحب حَلَب ـ وكان أَرْمَنِىَّ الجنس ، حَسَنَ السِّيرة محمود الطرِيقة ، صالحا عفيفا ، زاهدًا كثير الصدقة والإحسان ، يُقَسِّمُ الليل أَثْلاثًا : فالثُّلُثُ الأول يُجْرِى حكاياتِ الصالحين وأحوالَ الناس ومحاسنَهم ، وينام الثلثَ الأوسط ، ويحيى الثُّلُثَ الآخِر قِراءة وصلاةً وبُكاءً . وكان حَسَنَ الوَساطة عند الملك الظاهر

(١) فى (ع) : شاد . وهذا وصف صاحب الوظيفة . ولكن المراد المصدر . وقد تكلمنا على شد الدواوين فيما تقدم . وهذه الوظيفة هى الكشف عن حسابات الدواوين ومراقبتها ، والتحدث فى ذلك إلى الوزير .

ولما تُوفى الظاهر ، قام بأمر ولدِه العزيز أحسن قيام. واستمال الملكَ الأشرف ، حتى حَفِظَ على الملك العزيز البلاد ـ ولما استعاد الملك الأشرف تَلَّ بَاشِر[1] ، دفعها لهذا الخادِم ، وقال هذه تكون لصدقاتِك وما يلزمُك ، فإنك تَكْرَهُ أن تتصرف فى أموال الصغير ، فنقل إليها من الأموال والذخائر كلَّ نفيس . وكان قد طَهَّرَ حلب من الفِسق والفُجور والمُكُوس . وكان الملك الأشرف يقول : إن كان لِلَّهِ تعالى فى الأرضَ وليٌّ ، فهو هذا الخادم ، الذى فعل ما عجز عنه الفُحُول .

فلما تَرَعْرَعَ المَلِكُ العزيز بن الملك الظاهر ، فى سنة تسع وعشرين وستمائة ـ قال له بعض خَوَاصِّه : قد رَضِيتَ لنفسك أن تكون تحت حَجْرِ هذا الخادم ! فأخذ منه تَلَّ بَاشِر ، ونَزَعَ يدَه منه . وبقى الأتَابِك لا يَنَفَّذُ له أَمْرٌ ثم مَرِض وتوفى بحلب ، فى ليلة الحادى عشر من المحرم ، من هذه السنة . ودُفن بمدرسة الحنفية خارج باب الأربعين ـ رحمه الله تعالى .

وفيها تُوفى الشيخ أبو عبد الله : الحسين بن محمد بن يحيى ، بن مُسْلِم الزَّبِيدِى . سَمِعَ أبا الوَقْتِ عبدَ الأوّل[2] بن عيسى ، وغيره .

---

(١) قلعة حصينة وكورة واسعة فى شمالى حلب : بينها وبين حلب يومان . ولها رَبَضٌ (ريف حولها) وأسواق . وهى عامرة آهلة .

(ياقوت : جـ ٢ ـ ٤٠٢)

(٢) هو : أبو الوقت عبد الأوّل : بن أبى عبد الله عيسى بن شعيب السَّجْزِى (نسبة إلى سِجِسْتان) .

كان من كبار المُحَدِّثين ، دَرَّس فى المدرسة النِّظَامِيَّة ببغداد . وأخذ عنه العلماء . ولد سنة ٤٥٨ ، وتوفى ببغداد سنة ٥٥٣ هـ .

(وفيات الأعيان : جـ ٢ ـ ص ٣٩٢)

وهو من ساكنى باب البصرة ، وحضر إلى الشام وَحَدَّثَ بدمشق بصَحيحِ البُخارى عن أبى الوقْتِ غيرَ مرَّة . وهو شيخُ شيوخنا . ولما وصل إلى دمشق ، أكرمه الملك الأشْرَف ، وحَصَلَ له دُنْيا صالِحة بعد فقر وضَرُورة . ثم عاد إلى بغداد ، فمرض قبل وصوله إليها ، وتوفى بعد أن دخلها بأيام .

كانت وفاتُه يوم الاثنين ، الثالث أو الرابع والعشرين من صفر ، سنة إحدى وثلاثين وستمائة . وسئل عن مولده ، فقال : سنة ست ، أو سبع ، وأربعين وخمسمائة ـ الشَّكُّ منه ـ ودُفن بمقبرة جامع المنصور .

وفيها توفى رُكنُ الدين مَنْكُرِس الفَلَكى : مملوك فَلَك الدين ـ أخى الملك العادل لِأُمِّه ـ كان من أكابر الأمراء . ولاّه العادل مصرَ والشام نِيابةً عنه . وكان صالحا دَيِّناً ، عفيفا عادلا ، كثير الصدقات . وله بقاسِيون مدرسة وتُربة أوقف عليها أشياء كثيرة . وكانت وفاته . بجَرُود[1] : قَرْيةٌ من قُرى دِمشق ، وحُمِلَ منها فدُفن بتربته بقاسِيون ـ رحمه الله تعالى .

وفيها توفى الأمير كريم الدين الخِلاطى . وكان كثير المروءة حسن المُلْتَقَى ، يتعَصَّبُ فى الخَيْر . خدم الملكَ الكامل والمعظم والأشرف . وتَقَدَّمَ فى زمن الملك العادل . وكانت وفاته بدمشق ، ودفن بقاسِيون ـ رحمه الله تعالى .

(١) من أعمال غوطة دمشق .

وفيها توفى صلاح الدين أبو العباس : أحمد بن عبد السيد بن شعبان ابن محمد بن جابر ، بن قحطان الإِرْبِلِى ـ وهو من بيت كبير بإِرْبِل[١] . وكان حاجِبا عند الملك المعظم : مظفر الدين بن زين الدين صاحب إِرْبِل . فتغير عليه واعتقله مدة . فلما أُفرِجَ عنه ، خرج منها إلى الشام ، واتصل بخدمة الملك المغيث : محمود بن العادل ـ وكان قد عَرَفَه من إِرْبِل ـ فحَسُنَتْ حالهُ عنده .

فلما توفى الملك المغيث ، انتقل الصَّلَاح إلى الديار المصرية ، وخدم الملك الكاملَ فعظُمت منزلته عنده ، ووصل منه إلى ما لم يَصِلْ إليه غيرُه ، واختَصَّ به فى خَلَواته . وجعله أميرا .

وكان الصلاحُ ذافضيلةٍ تامة ، ومُشارَكة حَسَنة . وله نظمٌ حسن ، ودُوبَيْت[٢] . ثم تَغَيَّر عليه الملك الكامل ، واعتقله ، فى المحرم سنة ثمانية عشر وستمائة ، والسلطان بالمنصورة . فاستمر فى الاعتقال بقلعة الجبل ، مُضَيَّقًا عليه ، إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين .

فعمل الصلاح دُوبَيْت ، وأملاه على بعض المطربين ، فغَنَّى به عند الملك الكامل . وهو :

ما أَمْرُ تَجَنِّيك على الصَّبِّ خَفِى أَفْنَيْتُ زمانى بالبُكا والأَسَفِ
ماذا غضب بقَدْر ذَنْبى ، ولقد بـالَـغْتَ ومـاقصدُك إلاتَـلَـفِـىَ

(١) قلعة حصينة ومدينة كبيرة بين الزابين ، من أعمال الموصل . بينهما مسيرة يومين . وأكثر أهلها أكراد .
(ياقوت : جـ ١ ـ ١٧٢)

(٢) نوع من الشِّعْر ، له وزن خاص ، غير أوزان البحور العربية المأثورة .

فاستحسنه الملك الكامل ، وسأل لمن هو ؟ فقيل : للصلاح الإِرْبِلى . فأمر بالإفراج عنه . وقيل إن الشعر غير هذا ، وهو :

اصنَعْ ما شِئْتَ ، أنت أنت المحبوب ما لى ذَنْبٌ ، بَلى ـ كما قلت ـ ذُنُوب
هل يسمح بالوصال فى لَيْلَتِنَا يَجْلُو صَدَا القلْبِ ويعفو ، وأتوب

ولما أفرج عنه ، عادت مكانته عنده إلى أحسن ما كانت عليه

ولما توجه الملك الكامل إلى بلاد الروم كان فى خدمته ، فمرِض بالعسكر بالقرب من السُّوَيْدَا ، فحُمِل إلى الرُّها فمات قبل وصوله إليها ، فى خامس عشرين ذى الحجة ، سنة إحدى وثلاثين وستمائة . وكان مولده فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

ولما مات وُجد بداره بدمشق خمسة عشر ألف دينار ، وبداره بالقاهرة خمسة آلاف دينار . ولما عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية ، أقطع ولدَه صَنَافِيْر[1] بالقَلْيُوبِيَّة خاصاً له ، وجعل معه أقارب والده ومماليكه ـ وعدتهم سبعة عشر نفرا ـ وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين .

وتوفى الأديب الفاضل : نجم الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى محمد عبد الوهاب بن الحسن بن على ، المعروف بابن وهيب القُوصى ، بحَمَاه .

---

(١) هى بمركز قليوب (بمصر) ، غربىّ ناحية بَهَادة ، وشمالىّ كفر الحارث . وبالقاهرة الآن شارع يسمى شارع الصنافيرى .

وكان قد تَوَجَّهَ فى خدمة الملك المظفر ـ صاحب حَمَاه ـ ووَزَرَ له . وكانت بينهما مودة ورعاية . ثم نَقِمَ عليه أمرا ، فقتله ـ رحمه الله تعالى . وكان فاضلا ، له اليدُ الطُّولى فى الأدب والتَّرسُّل ، والشِّعر الرائق . وقد تقدم من كلامه ماكَتَب به عن مُتَوَلِّى الأعمال القُوصية ، فى معنى حريقِ خان المكرم ، ظاهر مدينة قوص .

واستهلّت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة ، توجه الأمير أسد الدين جَغْرِيل أحد مماليك السلطان الملك الكامل ـ إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، وصُحْبَتُه سبعمائة فارس فتسلمها فى شهر رمضان . وهرب منها الأمير : راجح بن قَتَادة ، ومن كان بها من عسكر اليمن .

ذكر إنشاء جامع التَّوبَة بالعُقَيبَة[1] بدمشق

فى هذه السنة ، شرع السلطان الملك الأشرف فى هدم خان الزَّنجَبِيلى[2] ، الذى كان بالعُقَيبَة بظاهر دمشق ، وكان قد جمع أنواعَ الفساد من الخُمور والفسق فقيل للسلطان إن مثل هذا لا يصلح أن يكون فى بلاد الإسلام ، فهدمه وعَمَّره جامعا ، غرم عليه جُملةً كثيرة ، وسماه الناس جامع التَّوبة .

---

(١) سبق ذكرها ، وهى ضاحية فى دمشق .

(٢) نسبة إلى زنجبيلة ، وهى قرية من قرى دمشق .

قال القاضى شمس الدين بن خلِّكان فى وَفَيَات الأَعْيان : « وجرت فيه نُكْتَةٌ لطيفة أحببتُ ذِكرَها ، وهى أنه كان بمدرسة سِتِّ الشام التى خارج البلد إمام ، فَعُرف بالجَمَال السِّتِّى ـ أَعْرِفُه شيخا حسنا ، ويقال إنه كان فى صباه يلعب بشىء من الملاهى ، وهى التى تسمى الجَعَانه . ولما أَسَنَّ حَسُنَتْ طريقَتُه ، وعاشر العلماء وأهل الصلاح ، حتى عُدَّ فى الأَخْيَار . فولاه الملك الأشرف خَطابة الجامع ، لثناء الناس عليه . فلما تُوفى ، ولى بعده العمادُ الواسِطِى الواعظ ، وكان يُتَّهَمُ بالشَّرابَ .

وكان صاحبُ دمشق يومئذ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، فكَتَبَ إليه الجمالُ عبدالرحيم : المعروف بابن زُوَيْنَة الرَّحَبِى :

يا مَلِيكًا أَوْضَحَ الحقَّ لدَيْنا وأَبَانَه
جامِعُ التَّوْبَةِ قد قلَّدَنى منه أَمانَه
قال : قل للملِك الصالِح ـ أعلى اللهُ شانَه :
يا عمادَ الدين ، يا من حَمَدَ الناسُ زمانَه
كمْ إلى كمْ أنا فى ضُرٍّ وبُؤْسٍ وإهانَه
لِى خطيبٌ واسِطِىٌّ يَعْشَقُ الشُّرْبَ دِيانَه
والذى قد كان من قبلُ يُغَنِّى بالجَعانَه
فكَمَا نحنُ ، وما زِلْنَا ـ ولا أَبْرَحُ ـ حَانَه
رُدَّنِى للنَّمَطِ الأَوَّلِ ، واسْتَبْقِ ضَمَانَه

وفى هذه السنة ، فى تاسع صفر ، كانت وفاة الملك الزاهد : مجير الدين أبو سليمان ، داود بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ـ صاحب قلعة البِيَرة[1] .

وكان يحب العلماء وأهل الأدب ، ويقصدونه من البلاد . وكان فاضلاً أديباً شاعراً ، جَوَاداً سَمْحا . ومولدُه بالقاهرة لسبع بقين من ذى القعدة ـ وقيل ذى الحجة ـ سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .

ولما مات ، توجه الملك العزيز ، ابن أخيه الملك الظاهر ، إلى قلعة البِيَرة ، فملَكَها .

وفيها توفى الأمير الأجل الطواشى : شمس الدين صَوَاب ، مُقَدَّم عسكر الملك العادل .

وكانت وفاته بحرَّان ، فى العشر الآخِر من شهر رمضان . وكان السلطان الملك الكامل قد جعله بها ، وبغيرها ، من تلك البلاد ـ كما تقدم . وكان أميراً كبيراً فى الدَّوْلَتَيْن : العادِلية والكاملية . وكان خادما عاقلا ، دَيِّناً شجاعاً جواداً . وكان العدل والكامل يعتمدان عليه .

وكان له مائةُ خادم ، تَعَيَّنَ جماعةٌ منهم وتَأَمَّروا بعد وفاته : منهم بدر الدين الصَّوَابى ، وشِبْلُ الدولة : كافور الخَزْنَدار بدمشق ، وشمس الدين صَوَاب السُّهَيْلى بالكَرَك ، وغيرهم . وكان شمسُ الدين صَوَاب العادِلى ـ

(١) ذكرنا موقعها من قبل ، وهى بالقرب من سُمَيْساط ، بين حلب والثغور الرومية . وكان الملك الظاهر غازى ـ صاحب حلب ـ بن السلطان صلاح الدين هو الذى أقطع مجيرَ الدّين هذا ـ وهو أخوه ـ هذه القلعة . فبقيت بيده حتى وفاته هذه السنة . وهى قلعة حصينة ولها رستاق (ريف) واسع .

(ياقوت : معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٣٣٠)

هذا ـ إذا حَمَل فى الأعداء يقول : أين أصحاب الحَصَى[1] . وكان له بِرٌّ وصدقة ، وفيه إنصاف ـ رحمه الله تعالى .

وفيها توفى الصاحب تاج الدين : أبو اسحاق يوسف بن الصاحب الوزير : صفى الدين أبى محمد عبد الله ، بن القاضى المخلص أبى الحسن على ، الشَّيْبى المالِكى بمدينة حَرَّان، فى الحادى عشر من شهر رجب ، ودفن بها ومولده بمصر فى شوال سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

وكان فقيها مالكيا ، دَرَّس بمدرسة أبيه بالقاهرة . وناب عن والده فى الوزارة بالديار المصرية . وَوَلِىَ الوزارةَ بعد والده نحو شهرين . ثم صُرِف واستُخْدِم فى التَّوقيع . ثم ولى نظر الدواوين بالديار المصرية .

ثم عُزِل واعتُقِل ، ثم أفرج عنه فى سادس عشر شعبان ، سنة خمس وعشرين وستمائة . ثم وَلِىَ الجَزيرة وديار بَكْر وحَرَّان فى الدولة الكاملية ومات هناك ـ رحمه الله تعالى .

وفيها توفى شرف الدين ، أبو حفص وأبو القاسم : عمر بن على بن المرشد بن على ، الحَمَوِىّ الأصل ، المِصرى الدار والمولد والوفاة : المعروف بابن الفارِض ، الشاعر .

---

(١) ميدان الحصى بدمشق . لعله يقصد أهل دمشق .

له ديوان شعر مشهور . وكانت وفاته بالجامع الأزهر بالقاهرة المُعِزِّيّة ، فى يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى ، ودُفن من الغد بسفح المُقطم . ومولده بالقاهرة فى الرابع والعشرين من ذى القَعدة ، سنة ست وسبعين وخمسمائة .

واستهلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة ، حصل بمصر وَباءٌ عظيم ، مات فيه خَلْقٌ كثير . واستمر ثلاثة أشهر .

وفيها ، فى المحرم ، وصل الملك الناصر داود ، صاحب الكَرَك ، إلى بغداد . واجتاز فى طريقه بالحِلَّة[1] ، وبها الأمير شرف الدين ، بن الأمير جمال الدين قُشْتُمَر ، زعيم الحِلَّة ومُقَدَّم الجيوش ، فتلقاه وأكرمه ، وأقام له الإقامات الوافِرة . وعَمِلَ له دَعْوَةً عظيمة اشتملت على أنواع من المآكل . قال ابن الساعى فى تاريخه : بَلَغَتْ النفقةُ على تلك الدعوة اثنى عشر[2] ألف دينار .

ثُم قصد بغدادَ ، فوصل إليها فى يوم الاثنين سادس عشر المحرم ، فبَرَزَ لتَلَقِّيه الموكبُ ، وفيه جميعُ الحجاب والدعاة ، وفى صدره قطب الدين : أبو عبدالله بن الأَقْسَاسى ، ـ نَقِيب الطالِبِيِّين ـ وعن يمينه وشماله خادمان من

---

(١) عَلَمٌ لعِدة مواضع . وأشهرها حِلَّة بنى مَزْيَد : مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٣٢٧)

(٢) فى (ع) : « اثنا عشر » .

خَدَم الديوان العَزيز[١] . وحين وافى بَابَ النُّوبِى[٢] نزل وقَبَّل العَتَبة . وحضر دارَ الوزارة ، فأُكْرِم وخُلِع عليهَ قَباء[٣] أطلس ، وشُرْبُوش[٤] ، وأُعْطِىَ فرساً بمركب ذهب . وأُسْكِنَ مَحِلَّةَ المُقْتَدِى ، بالدار المنسوبة إلى أبى تميم المُوسَوِى ، وأُقيمت له الإقامات الوافرة من المَخْزَن المعمور[٥] فى كل يوم .

وأُنْهِى للديوان العزيز ما اعْتَمَدُه معه عَمَّاه من إخراجه من دمشق ـ وهى مملكة أبيه ـ ونَقْلِه إلى الكَرَك .

وأقام ببغداد إلى خامس عشرين شعبان . ثم أُحضر إلى دار الوزارة ، وخُلِع عليه قَبَاء أطلس أسود ، وفَرَجِيَّه[٦] مُمَوَّج ، وعِمامة قَصَب كُحْلِية مُذَهَّبَة . وأُنعم عليه بفَرَس عربى بمركب ذهب ، وكُنْبُوش[٧] ومِشَدَّة إبْرِيْسَم[٨] . وأُعطى العلَم والجَفْتَاوَات[٩] والكُراع[١٠] والخِيام والمفارش

(١) أى ديوان الخلافة . وكان الخليفة إذ ذاك ببغداد : « المستنصر بالله » .

(٦٢٣ ـ ٦٤٠)

(٢) الباب الذى كان ينزل عنده القادمون على الخليفة ، ويقدمون شعائر الولاء .

(٣) الثوب أو الكِساء الخارجى .

(٤) غطاء للرأس أشبه بالطربوش .

(٥) أى خزانة ديوان الخلافة .

(٦) كساء واسع يلبس فوق الثياب يصنع من الجوخ ، له أكمام واسعة طويلة تحت اليد .

(٧) البرذعة تجعل تحت سرج الفرس ، وهو غاشية الفرس .

(٨) حرير .

(٩) أقبية صُفر من حرير مزركش وملابس خاصة .

(١٠) الخيل .

والآلات ، وخمسة وعشرين ألف دينار ، وعِدَّة من الخيل وجوز من الثياب الفاخرة . وشُرِّفَ من معه من أصحابه وأتباعه ومماليكه .

وأُذِن له فى التوجه إلى بلده ـ وذلك بعد الصلح بينه وبين عميه : الكامل والأشرف . وخَرَج من بغداد فى ثالث شهر رمضان ـ وصحبتُه الأمير : سعدالدين حسن بن على ـ إلى الملك الكامل ، يَأْمُرُه عن الديوان العزيز بإجابة سؤاله . ذَكَر ذلك ابن الساعى فى تاريخه .

وفيها ، تُوفى الحافظ : أبوالخطاب عمر بن الحسن بن محمد بن دِحْيَة الأندلُسى البَلَنْسى [1] ، المعروف بذى النَّسَبَيْن .

طَلَب الحديثَ فى أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ، ولقى علماءها ومشايخها . ثم رحل إلى بر العَدْوَة [2] ودخل مَرَاكُش واجتمع بفضلائها . ثم ارتحل إلى إفريقية ، ومنها إلى الديار المصرية ، ثم إلى الشام والشرق والعراق . ودخل إلى عِراق العَجَم وخُراسان ، وما والاها ، ومازَنْدَرَان [3] ، فى طلب الحديث والاهتمام بأئمته ، والأخذ عنهم . وهو فى ذلك يُؤْخَذُ عنه ، ويستفاد منه .

---

(١) نسبة إلى « بلنسية » : وهى مدينة وكورة مشهورة بالأندلس ، شرق قرطبة ، وبينها وبين البحر فرسخ .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٢٧٩)

(٢) أى : البر المقابل للأندلس ، وهو الذى فيه المغرب الأقصى .

(٣) اسم لولاية طبرستان .

(ياقوت : جـ ٧ ـ ٣٦٣)

وقدم مدينة إرْبِل ، فى سنة أربع وستمائة ، عند توجهه إلى خُراسان . واجتمع بصاحبها : الملك المعظم بن زين الدين . وكان المعظم عظيمَ الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فألف له كتابا سماه : التَّنْوِير فى مولد السِّراج المُنير ، وقرأه عليه فأعطاه ألف دينار . وله عدة تصانيف .

ولما عاد إلى الديار المصرية ، وَلاَّه الملك الكامل دارَ الحَدِيث الكامِلية[1] بالقاهرة . ثم عَزَلَه منها قبل وفاته ، وولى أخاه محيى الدين أبا عمرو .

وتوفى أبو عمرو بالقاهرة ، فى يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى ، سنة أربع وثلاثين وستمائة . وكان حافِظا للغة العرب . وكانت وفاة أبى الخطاب بالقاهرة فى الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، ودُفن بسفح المقطم . ومولده فى مستهل ذى القعدة سنة ست وأربعين وخمسمائة .

وفيها ، فى سَلْخ شهر ربيع الآخر ـ توفى الأمير أبو التُّقَى صالح بن الأمير المكرم أبى الطاهر[2] إسماعيل بن أحمد بن الحسن بن اللَّمَطى ، بمُنْيَة بنى

---

(١) سبق الحديث عنها . وهى أول دار للحديث بمصر . تمت عمارتها فى سنة ٦٢١ هـ وجُعِل شيخها أبو الخطاب عمر بن دِحْيَة ، ثم وليها بعده أخوه : أبو عمرو عثمان بن دِحْيَة ، ثم وليها الحافظُ المُنْذِرى .

(السيوطى : حسن المحاضرة : جـ ٢ ـ ١٤٢)

(٢) الأمير المكرم اللمطى كان نائب السلطان بمدينة قوص زمن العادل .

خَصِيب[1] من صَعِيد مصر. وصُلِّى عليه على ساحل البحر، وحُمِل فى مركب وأُحْدِرَ إلى مصر، فوصل بعد صلاة العصر مستهل جمادى الأولى، ودفن بسفح المقطم، بتربة كان أنشأها لنفسه قبل وفاته بيسير ـ وقد قارب الستين. سمع ببغداد جماعة كبيرة وبنَيْسَابُور وبمَرْو وهَرَاه وهَمَدَان ودُنَيْسِر ودِمَشق. وجال فى البلاد كثيرا، ودخل ماوراء النهر. ولم يُحَصَّلْ من مسموعاته إلا اليَسِير ـ رحمه الله تعالى.

وفيها فى شهر ربيع الأول، توفى الأمير فخرالدين أَيَاز البَانْياسى بخَرْتَبِرْت من ديار الجزيرة. وحمل إلى القاهرة، ودفن بتربته التى أنشأها بالقرافة الصغرى، وأنشأ بجانبها حوض سبيل. وكان قد وَلِىَ مصر مدة، وله غزوات وتَقَدُّمٌ فى الدولتين العادِلية والكامِلية. وكان مشهورا فى شبيبته بالقوة. وكان محبا لأهل الخير متفقدا لهم ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، توفى خطيب مصر الشيخ الفقيه: أبوالطاهر محمد بن الحسين ابن عبدالرحمن الجابرى ـ من ولد جابِر بن عبدالله الأنصارى ـ رضى الله عنه. وهو المشهور بالمَحَلِّى، وهو من أصحاب الشيخَيْن: الشاطِبى والقُرَشى.

---

(١) سماها «ياقوت»: منية أبى الخصيب، وقال عنها إنها «مدينة كبيرة حسنة كثيرة الأهل والسكن، على شاطىء النيل فى الصعيد الأدنى».

(المعجم: جـ ٨ ـ ١٨٨)

وفى حاشية «النجوم الزاهرة»: «منية ابن خصيب..»، سميت كذلك نسبة إلى «الخصيب ابن عبدالحميد» صاحب خراج مصر فى عهد الخليفة هارون الرشيد العباسى. وفى الخطط للمقريزى منية الخصيب. وقد اختُصِر اسمها واشتهرت باسم «المنية» ثم «المنيا» وهو الاسم الحالى.

(النجوم الزاهرة: جـ ٥ ـ ٣٠٩ حاشية (١))

واستهلّت سنة أربع وثلاثين وستمائة :

ذكر وقوع الوَحْشة بين السلطان الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف

كان وقوع الوَحْشَة بين الملكين الأخوين فى هذه السنة .

وسببُ ذلك أن الملك الأشرف طلب من أخيه الملك الكامل الرَّقَّة ، وقال إن الشَّرْقَ قد صار للسلطان ، وأنا فى كل يوم فى خِدمته ، فتكون هذه برَسْمِ عَلِيق دَوَابِّى . وجعل الفَلَك المَسِيرى واسطةً بينه وبين السلطان . فكتب الفلَكُ إلى الملك الكامل بذلك ، فأجابه الملك الكامل بكتاب أَغْلَظَ له فيه .

وكان الملك الكامل ، لما عاد من بلاد الشرق فى سنة ثلاث وثلاثين ، بلغه اتفاق الملوك عليه ، فعَجَّلَ السيرَ إلى الديار المصرية .

فكتب إليه الملكُ الأشرف يقول : إنك أخذتَ منى الشرق . وقد افتقرتُ لهذه البواكير ، ودمشق بُستانٌ ليس لى فيها شئ . فبعث إليه عشرةَ آلاف دينار ، فردَّها عليه ، وقال : أنا أدفع هذه لأميرَيْن .

فغضب الملك الكامل ، وقال : الملك الأشرف يكفيه عن المُلْكِ عِشْرَتُه للمَغَانى وَتَعلُّمُه لصناعتهم ! فاتصل ذلك بالملك الأشرف ، فَتَنمَّرَ له وقال : والله لأُعَرِّفَنَّه قَدْرَه . وراسَلَ الملوكَ : بحلَب وحَماه وبلاد الشرق ، وصاحب الروم ، وقال : قد عَرَفْتُمْ بُخْلَ الكامِلِ وطَمَعَه فى البلاد :

فحلفوا كلهم واتفقوا ، وسيروا رسلهم إلى الملك الكامل يقولون : انهم معه صُلْحًا ، ما أقام بالديار المصرية ولم يَخْرُجْ إلى الشام لفتح شئ من البلاد .

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب وقيام ولده الملك الناصر

وفى سنة أربع وثلاثين وستمائة ، كانت وفاة الملك العَزِيزِ غياثِ الدين محمد ، بن الملك الظاهر غازى ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ صاحب حلب ، بها . ومولده فى ذى الحجة سنة تسع أو عشر وستمائة . وَمَلَكَ بعده ولدُه الملك الناصر صلاح الدن يوسف . وكان عمره يوم ذاك ست سنين . فقام بتدبير المملكة والدةُ أبيه ، وهى ابنةُ الملك العادل . وجَعَلَتْ الأميرَ شمس الدين لؤلؤ أتابِكَه . ثم زَوَّجَهُ السلطان الملك الكامل ابنتَه عاشورا شقيقةَ الملك العادل ، فى تاسع عشر ذى الحجة من السنة .

* * *

واستهلّت سنة خمس وثلاثين وستمائة :

ذكر وفاة الملك الأشرف وشيء من أخباره وقيام أخيه الملك الصالح إسماعيل وإخراجه من الملك

فى يوم الخميس رابع المحرم ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، توفى الملك الأشرف : مظفر الدين موسى ، بن الملك العادل : سيف الدين أبى بكر محمد ابن أيوب ـ صاحب دمشق ـ بها . ودفن بقلعتها ، ثم نقل إلى تربته بالكَلاّسه[1] ، بجوار الجامع الأموى .

ومولده بالقاهرة ـ وقيل بقلعة الكَرَك ـ فى سنة ست وسبعين وخمسمائة . وقيل إنه قبل أخيه الملك المعظم بليلة واحدة . وكان ـ رحمه الله تعالى ـ عفيفاً عن المحارم ، ما خلا بامرأة قط إلا أن تكون زوجتَه أو جاريتَه .

وحَكَى أبو المظفر يوسف بن قِزُوغْلى سِبْطُ ابن الجَوْزِى عنه ، فى كتابه : « مِرآة الزمان » ، من الأوصاف الجميلة ، والمروءة الغَرِيرة ، والكفِّ عن المحارم ، والعِفة عنها مع التمكن منها ، ما يُرْجَى له به الخير عند الله تعالى .

وكان مما حكاه عنه قال : جَلَسْتُ يوماً عنده فى مَنْظَرة بقلعة خِلاط ، يَعْتِب على أخيه الملك المعظم فى قضية بَلَغَتْهُ عنه ، ثم قال : واللهِ ما مَدَدْتُ عينى إلى حريم أحد : لا ذكر ولا أنثى .

---

(١) تقع شمالى جامع دمشق .

ولقد كنتُ يوماً قاعداً فى هذه الطَّيَّارَة ، فدخل الخادِم فقال : على الباب امرأةٌ عجوز ، تذكر أنها من عند بنت شَاهْ أَرْمَن ـ صاحب خِلاط . فأَذِنْتُ لها ، فدَخَلَتْ ، ومعها ورقة من عند بنت صاحب خِلاط ، تذكر أن الحاجب «علىّ»[1] قد أخذ ضَيْعَتَها وقصَدَ هلاكها ، وما تَتَجَاسَر أن تظهر ، خوفاً منه . فكتَبْتُ على الورقة بإطلاق القَرْيَة ، وَنَهيْتُ الحاجبَ عنها .

فقالت العجوز : هى تسأل الحضور بين يديك ، فعندها سِرٌّ ما يمكن ذكره إلا للسلطان ! فأَذِنْتُ لها . فتوجَّهَتْ وعادت بعد ساعة ، ومعها امرأة ما رأيت فى الدنيا أحسنَ من قَدِّها ، ولا أظرفَ من شكْلِها ، كأن الشمس تحت نقَابها ! فَخَدَمَتْ وَوَقَفَتْ . فقُمْتُ لها وقلت : وأنتِ فى هذا البلد ، وما علمتُ بك ؟! فَسَفَرَتْ عن وجهها فأضاءت منه المنظرة ! فقلت : غَطِّ وجهَك ، وأخبرينى بحالك .

فقالت : أنا بنتُ شاه أَرْمَنْ ، صاحب هذه البلاد . مات أبى ، واستولى بُكْتُمَر على الممالك ، وتغيرت الدُّوَل ، وكانت لى ضيعة أعيش منها ، أخذها الحاجِب «علىّ» وما أعيش إلا من عمل النَّقْش ، وأنا ساكنةٌ فى دار بالأُجرة ! قال : فبكيتُ ، وأمرتُ الخادم أن يكتب لها توقيعاً بالضَّيْعَة وبالوَصِيَّة ، وأمرت لها بقُماش من الخزانة ، وأمرت لها بدار تصلح لسكنها ، وقلت باسم الله ، امضى فى حفظ الله ودَعَتِه .

---

(١) هو الحاجب على بن حَمّاد المَوْصِلى ، الملقب بالأمير حسام الدين . كان نائب الملك الأشرف بِخلاَط .

(ابن خلكان : جـ ٤ ـ ص ٤١٧)

فقالت العجوز : يا خُونْدْ[١] ، ما جاءتْ إلى خِدْمَتِك إلا حتى تَحْظَى بك الليلة ! قال : فلما سَمِعْتُ كلامَها ، وَقَّعَ اللهُ فى قلبى تَغَيُّرَ الزمان ، وأن يَملكَ خِلاط غيرى ، وتحتاج بنتى إلى أن تقعد مثل هذه القعدة بين يديه . فقلت : يا عجوز ، مَعَاذَ الله ! والله ما هو من شِيمتى ، ولا خَلَوْتُ بغير مَحَارِمِى ، فخذيها وانصرفى ، وهى العَزيزةُ الكَرِيمة ! ومهما كان لها من الحوائج تُنَفَّذْ إلى هذا الخادم . فقامت ، وهى تبكى ، وتقول ـ بالأرمنية : صان الله عاقِبَتَك ، كما صُنْتَنى . قال : فلما خَرَجَتْ ، أَفْتَتَنى نفسى ، وقالت : فى الحلال مَنْدُوحَةٌ عن الحَرام ، تَزَوَّجْها . فقلت : يانفساً خبيثة ، فأين الحَيَا والكرم والمرؤة ! والله لا فَعَلْتُه أبداً .

ومما حكاه أبو المظفر ـ أيضاً ـ قال : كنت عنده بخِلاط ، فقدم النَظَّام بن أبى الحَدِيد ، ومعه نَعْلُ النبى صلى الله عليه وسلم . فأخبرته بقدومه ، فأذن بحضوره . فلما جاء ، ومعه النعل ، قام ونزل من الإيوان ، وأخذ النعل فقبَّلَه ، ووضعه على عينيه ، وبكى ! وخلع على النَظَّام وأعطاه نفقة ، وأجرى عليه جِراية ، وقال يكون فى الصُّحبة نتبرك به .

ثم عزم على أخذ قطعة من النعل تكون عنده . قال بعد ذلك : فلما عزمت على ذلك بِتُّ مفكراً ، وقلت : إن فعلت هذا فعل غيرى مثله ، فيتسلسل الحال ويؤدى إلى استئصاله . فرجعتُ عن هذا الخاطر . وتركته لله ، وقلت : من ترك شيئاً للهِ عَوَّضَه اللهُ خيراً منه . ثم أقام النظَّام عندى شهوراً ومرض ، وأوصى لى بالنعل ، ومات وأخذته بأسره .

---

(١) يا سيد ، أو يا أمير . كلمة فارسية أو تركية .

ولما اشترى دار قايماز النَّجْمى ، وجعلها دارَ حديث ، ترك النعلَ فيها ، ونقل إليها الكتب الثمينة ، وأوقف عليها الأوقاف . وعَمَر غيرها من الأماكن الشريفة : منها مسجد أبى الدَّرْدَاء بقلعة دمشق ـ بناه وزخرفه ـ وكان غالب إقامته به . والمسجد الذى عند باب النصر ، وجامع العُقَيْبَة ومسجداً خارج باب الصغير ومسجد القصب خارج باب السلامة ، وجامع بيت الآبار . ووقف على ذلك الأوقاف الكثيرة . وزاد وقف دار الحديث النُّورِيّة .

هذا وتُربته بالكَلَّاسَة بدمشق ، وتربة والدته بالقَرافة بمصر . وبنى أيضاً ببلاد الشرق وخِلاَط خانات السبيل .

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ حسن الظن بالفقراء ، يحسن إليهم ويزورهم ويتفقدهم بالمال والأطعمة . وكان فى ليالى شهر رمضان لا يغلق باب قلعة دمشق ، ويرسل فى الليل جِفانَ الحُلْوِ إلى الجامع والزوايا والرُّبُط ، ما قرب منه وما بعد .

وكان ابتداء مرضه فى شهر رجب ، سنة أربع وثلاثين وستمائة ، مرضين مختلفين فى الأعالى والأسافل . وكان الحرانحى يخرج العظام من رأسه ، وهو يُسَبِّح الله ويحمَده ثم اشتد به الذَّرَب ، فلما يئس من نفسه قال لوزيره ـ جمال الدين بن جرير ـ : فى أى شى تكفننى ؟ فقال : حاشاك ! فقال دَعْنى من هذا ، فما بقى فى قُوَّةٌ تحمِلُنى أكثر من نهار غد ، وتوارونى . فقال فى الخزانة تَصَافِى . فقال : حاشَ للهِ أن أُكفن من هذه الخزانة .

وقال : لعماد الدين بن مُوسَك أَحْضِرْ لى الوَدِيعة . فقام ، وعاد وعلى رأسه مِئْزَر صوف أبيض تلوح منه الأنوارُ ، ففتحه وإذا فيه خِرَق الفقراء وطواق الأولياء ، وفيه إزار عَتِيق ما يساوى خمسة قَراطِيس . فقال يكون هذا على جسدى أتقى به حَرَّ الوَطِيس ، فان صاحبه كان من الأَبْدَال وكان حَبَشِيًّا ، أقام بجبل الرُّها يزرع قطعة زَعْفران يتقوت بها ، وكنت أصعد إليه وأزوره ،وأعرض عليه المالَ فلا يقبله ، فسألته شيئاً من أثره أجعله فى كَفَنى ، فأعطانى هذا الإزار ، وقال قد أَحْرَمْتُ فيه عشرين حَجَّة . وكان آخر كلامه : لا إله إلا الله . ثم مات فى التاريخ المذكور .

قال أبو المظفر : ولما أحسَّ بوفاته فى آخر سنة أربع وثلاثين ، قلت له : استعد للقاء الله فما يضيرك ، قال : لا والله بل ينفعنى . ففرَّق البلاد ، وأعتق مائتى مملوك وجارية ، ووقف دار فَرُّخْشَاه ، التى يقال لها دار السعادة ، وبستان النَّيْرَب[1] على ابنته . وأوصى لها بجميع الجواهر .

قال أبو المظفر : وحكى لى الفقيه محمد اليونانى[2] ، قال : حكى لى فَقِير صالح من جبل لُبنان ، قال : لما مات الأشرف رايتُه فى المنام وعليه ثياب خُضْر ، وهو يطير بين السماء والأرض ، مع جماعة من الأولياء . فقلت له يا موسى ، إيشْ تعمل مع هؤلاء ، وانت كنت تفعل فى الدنيا وتصنع ؟ فالْتَفَتَ إلى وتبسم ، وقال : الجَسَد الذى كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم ، والروح التى كانت تحب هؤلاء قد صارت معهم ـ رحمه الله تعالى .

---

(١) قرية مشهورة بدمشق ، على نصف فرسخ منها فى وسط البساتين قال ياقوت عنها : هى أنزه موقع رأيته .

(معجم البلدان : جـ ٨ ـ ٣٥٥)

(٢) نسبة إلى يونان : قرية من بعلبك . تقدم ذكرها .

ذكر مُلْكِ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ـ ابن الملك العادل ـ دمشق ، ووصول الملِك الكامل إليها وحصار دمشق وأخذها وتعويض الصالح عنها

لما مـات الملك الأشرف : مظفر الدين موسى ـ رحمه الله تعالى ـ ملك دمشق بعده ـ بوصية منه ـ أخوه الملك الصالح : عماد الدين إسماعيل ، الملقب بأبي الخيش ! وإنما لُقِّب بذلكِ ، لأنه ـ فيما حُكِيَ عنه ـ كان يملأ خيشة تِبْناً ويُبيِّتها فى الماء ، ثم يطعنها برُمحه فيرفعها عليه . فلقب بذلك .

ولما انْفَصَلَتْ أيامُ عزاء الملك الأشرف ، ركب الملك الصالح إسماعيل بشِعار السلطنة ، وتَرَجَّلَ الناس فى ركابه ، وأسدُ الدين شيركوه صاحب حمص إلى جانبه ، وحمل الأميرُ عز الدين أَيْبَك ـ صاحب صَرْخَد ـ الغَاشِية[1] بين يديه . ثم عاد كل منهما إلى مملكته ، واستقر هو بدمشق .

وصادر جماعةً من أهلها ، اتهمهم بمكاتبة الملك الكامل : منهم العَلَم تَعَاسِيف[2] وأولاد مزهر وابن عريف البَدْرِي ، واستصفى أموالهم . وأفرج

---

(١) هى من رسوم الملك . وصفها « القلقشندى » بأنها « هى غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب فى المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية ، رافعاً لها على يديه يلفتها يميناً وشمالاً » . فهى من شعار السلطنة .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ص ٧)

(٢) هو قيصر بن أبى القاسم ، ينعت بالعلَم ، ويعرف : بتعاسيف ، الأصفونى . كان عالماً بالرياضيات وأنواع الحكمة . ولد بأصفون من الصعيد سنة ٥٦٤ .

(حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ص ٢٣٣)

ستأتى ترجمة له بالمتن عند سنة وفاته : ٦٤٩ هـ .

عن الشيخ على الحَرِيرى من الاعتقال بقلعة عزّتا ـ وكان الملك الأشرف قد اعتقله بها فى سنة ثمان وعشرين وستمائة ـ فأفرج عنه الآن ، ومنعه من الدخول إلى دمشق .

وأما الملك الكامل فإنه لما بلغه وفاة أخيه الملك الأشرف ، سُر بذلك سروراً عظيماً ، لما كان قد وقع بينهما من الوحشة التى تأكدت أسبابها ـ وقد تقدم ذكرها . فتجهز بعساكر الديار المصرية وتوجه من قلعة الجبل ، لقصد دمشق ، فى ثالث عشرين صفر . ولما اتصل خبره بالملك الصالح حَصَّنَ دمشق ، وقسم الأبراج على الأمراء ، وغَلَّق أبواب المدينة . وجاء الأمير عز الدين أَيْبَك من صَرْخَد ، وأمر بفتح الأبواب ففُتحت .

ووصل الملك الكامل بعساكره ، ونزل عند مسجد القَدَم . ونزل الملك الناصر داود بالمِزَّة[1] ، ونزل مجيرُ الدين وتقىُّ الدين ابنا الملك العادل بالقَابُون[2] ، وهم فى طاعة الملك الكامل . وأَحْدَقَتْ العساكر بدمشق ،

(١) قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نصف فرسخ .

(معجم البلدان : جـ ٨ ـ ٤٧) .

(٢) موضع بينه وبين دمشق ميل واحد ، فى طريق القاصد إلى العراق ، وسط البساتين .

(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ص ٤)

وقطع الملك الكامل عنها المياه . ورَدَّ ماء بَرَدَى[١] إلى ثَوْرا[٢] . وشدد الحصار ، فغلت الأسعار . وسد الصالح أبواب دمشق ، إلا بَابَىْ الفَرَج والنصر . وتقدم الملك الناصر داود إلى باب تُوما ، وعُمِل النُّقُوب فيه . ولم يبق إلا فتح البلد .

فأرسل الملك الكامل إليه فخر الدين بن الشيخ ، فرده عنها ، ورَحَّلَه إلى أرض بَرْزَه[٣] . وأحرق الصالح إسماعيل قصر حَجَّاج والشَّاغُور ، وأخرب ظاهر دمشق خَرابا لم يُعْهَدْ مثله . واحترق جماعة من سكان هذه الجهات فى دورهم ، ومن سلم منهم لم يبق له ما يَرْجع إليه إلا الكُدْيَة وسؤال الناس . وحُكِى أن الصالح ـ أو ابنه ـ وقف على العُقَيْبَة[٤] ، وقال للزَّرَّاقِين[٥] أحرقوها ، فضربوها بالناس . وكان لرجل من سكانها عشر بنات ، فقال لهن : اخرجْن ، فقلن لا والله ، النار ولا العار ، ما نفتضح بين الناس ! فاحترقت الدار وهم فيها ، فاحترقوا . وجرى من الخراب بظاهر دمشق ما لم يجر مثله قبل ذلك .

(١) (٢) حدد ياقوت مجرى نهر بَرَدَى وصلته بثورا ، فقال : « بردى : أعظم أنهار دمشق ، يخرج من قرية قنوا على خمسة فراسخ من دمشق ، مما يلى بعلبك ، ويمر بالغوطة ، ثم بمدينة دمشق ، فيشق ما بينها وبين العقيبة ، حتى يصب فى بحيرة المرج فى شرق دمشق . ويُسَاوِقُه من الجهة الشمالية نهر « ثورا » ويتصل به فى بعض أجزائه . وفى شمال ثورا نهر يزيد .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ١١٨ ـ ١١٩)

(٣) قرية من غوطة دمشق .

(المعجم : جـ ٢ ـ ١٢٤)

(٤) ضاحية بدمشق . ورد ذكرها قبل .

(٥) الذين يرمون بالنَّفْط . والزَّرَّاقَة : أنبوبة يُزْرَق (يقذف) بها النَّفْطُ فى الحرب .

ثم راسل الملك الصالح أخاه الملك الكامل يقول : بلغنى أنك تعطى دمشق للملك الناصر داود وأنت أحق بها ، وان أنت لم تعطنى ما أريد ، وإلا ضربْتُ قواريرَ النَّفْط فى أربع جوانب دمشق وأحرقتها ، وأحرقت قلعتها ، وأُخرِّبُها خَرابا لا تَعْمُرُ بعده أبدا . فعلم الملك الكامل من جُرْأته أنه يفعل ، فأعطاه ما طلب .

ودخل بينهما الشيخ محيى الدين بن الجوْزى ـ رسول الخليفة ـ وكان بدمشق ـ فوقع الاتفاق والصلح على أن الملك الكامل أقَرَّ بيدِ أخيه الملك الصالح بُصْرَى[1] والسَّوَاد[2] ، وأعطاه بَعلبك وأعمالها . ولو طلب أكبر من ذلك أعطاه ، خوفاً من أن يحرق دمشق .

وتسلم الملك الكامل دمشق ، ودخلها فى عاشر جمادى الأولى ـ وقيل فى أواخر الشهر المذكور . وأفرج عن الفَلَك المَسِيرى ، وكان الملك الأشرف قد اعتقله فى حَبْس الحيَّات . ولما دخل الملك الكامل إلى دار رِضوان بقلعة دمشق ، رأى قبر أخيه الأشرف فرفَسَه برجله وسبَّه ، وقال انقلوه الساعة . فنقلوه إلى الكَلاَّسِة .

ولما ملك الملك الكامل دمشق ، عزم على قصد حِمص ، لاتفاق صاحبها الملك المجاهد شِيركوه ، فيما مضى ، مع الأشرف . فصالحه الملك المجاهد على أن يحمل إلى خزانته ألف درهم ، ودخل عليه بالنساء ، فأجاب الملك إلى ذلك . ومات الكامل قبل حمل المال .

---

(١) هى قصبة كورة حوران . من أعمال دمشق . سبق ذكرها .

(٢) المراد بالسواد : الأرض الزراعية أو القرى حواليها .

ذكر وفاة السلطان الملك الكامل

كانت وفاته فى يوم الأربعاء ، وقيل ليلة الأربعاء ـ الحادى والعشرين من شهر رجب ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، بقلعة دمشق بقاعة الفِضّه . ومولده بالقاهرة فى ذى الحجة ، سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وكان أَسَنَّ أولاد الملك العادل . وكانت مدة عمره تسعا وخمسين سنة وسبعة أشهر ـ تقريباً . ومدة ملكه ـ بعد وفاة والده الملك العادل عشرين سنة ، وشهرين وستة عشر يوماً . وملك دمشق واحِداً[1] وسبعين يوماً . ومنذ خُطب له بولاية العهد ، ثمانياً وثلاثين سنة وتسعة أشهر ، وستة عشر يوماً .

ودُفن بالقلعة . ثم نقل إلى تربته بجوار الجامع الأموى بدمشق . وكان مدة مرضه نيفاً وعشرين يوماً ، بالإسهال والسُّعال ونَزْلةٍ فى حَلْقِه ، ونِقْرس فى رجله . وأظهروا موته يوم الجمعة . ولم يظهروا الحزن عليه بدمشق . حُكى عن خادمه الذى كان يُعَلِّله فى مرضه ، قال : طلب منى الملك الكامل الطَّشْت[2] لسُقْيا ، فأحضرته له . وكان الناصر داود على الباب يطلب الإذن . فقلت له : داود على الباب . فقال : ينتظر موتى ! وانزعج . فخرجت إليه ، وقلت له : ليس هذا وقتَ عبورك ، فإن السلطان منزعج . فتوجه إلى دار أسامة[3] ـ وكان قد نزل بها . ودخلت إلى السلطان ، فوجدته قد قَضَى ، والطَّشْت بين يديه ، وهو مكبوب على المخدة .

(١) فى (ع) : إحدى .

(٢) غلب استعمال هذا اللفظ بالشين المعجمة . وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء . وأصله « طَسّ » بسين مشددة ، ولذا فجمعه طِسَاس وطُسوس .

(٣) هو أسامه أو سامه الجبلى ، الذى مر ذكره فى أول الكتاب . وكان من الأمراء الصلاحيّة .

وكان ملكاً حازماً ، ضابطاً لأموره . متطلعاً لجمع المال ، يباشر الحُمُول التى تصل إليه بنفسه ويكتبها بخطه فى دفترٍ له ، ويحاقِقُ المستخدمين فيما يطلع عليه . وجمع مالاً عظيماً ، حتى يقال إنه خلف ألف إردب ذهب . وهذا ما لم يُسمَعْ بمثله . وأراه ـ والله أعلم ـ من التَغَالى .

وكان يجلس فى مجلس خاص فى كل ليلة جمعة ، يجتمع فيه الفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم . وله فى بقية الجمعة ليال ، يختلى فيها مع نُدَمائه على الشراب وسماع القِيان[1] . وكان حسن الاعتقاد فى السُّنَّة . وكان جَهُورِىَّ الصوت ، وله هيبة عظيمة فى قلوب الرّعايا والخَواصّ . وعَمَّر قاعة بقلعة الجبل ، يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين فى شهر رمضان ، سماها قاعة رمضان . وهى الآن من جملة الخزائن السلطانية .

ذكر ما اتفق بدمشق بعد وفاة السلطان الملك الكامل فى هذه السنة

لما توفى الملك الكامل اجتمع الأمراء ، وهم : سيف الدين على بن قِلِيج ، وعز الدين أَيْبَك ، وركن الدين الهَيْجَاوى ، وعماد الدين ، وفخر الدين : ابنا شَيْخِ الشُّيُوخ[2] ، وتشاوروا فى أمر دمشق ، وانفصلوا

(١) الجوارى المغنيات .

(٢) هو صدر الدين بن حمويه ، الملقب بشيخ الشيوخ لأنه كان شيخ الصوفية ، وكان من كبار فقهاء الشافعية . وقد سبقت ترجمته .

عن غير شيء . وكان الملك الناصر داود بدار أسامة ، فأتاه الرُّكْن الهَيْجَاوى ليلا ، وبيَّن له وجه الصواب . وأرسل إليه أَيْبَك المُعَظَّمِى يقول له : أَخْرِج المال ، وفَرِّقْهُ فى مماليك أبيك والعَوَامّ ، فهم معك ، وتملك البلد ، ويبقى هؤلاء بالقلعة محصورين . فلم يَتَّفِقْ ذلك .

ثم اجتمع هؤلاء الأمراء بالقلعة فى يوم الجمعة ، وذكروا الملك الناصر داود ، والملك الجواد مظفر الدين : يونس بن مودود بن الملك العادل . وكان فخر الدين بن الشيخ يميل إلى الملك الناصر ، وعماد الدين يكرهه فأشار عماد الدين بالملك الجواد ، ووافقه الأمراء ، وقالوا لفخر الدين بن الشيخ : ما تقول فيه ؟ فقد اتفق الأمراء عليه . فقال : المصلحة أن نُوَلِّى بعض الخدام نائباً عن الملك العادل : ابن أستاذنا الملك الكامل ، فمتى شاء عزله [وإن رضى أبقاه ، ولا تولوا من بيت المُلْك فيتعذر عَزْلُه][1] ويستقل بالملك .

وبلغ ذلك الملكَ الجواد فجاء إليه ، وتحدث معه ، وذكر له سالفَ صُحبة ومودة ، وترفق له ووعده أن يعطيه إقطاع مائة وخمسين فارساً ، وعشرة آلاف دينار . فقال : واللهِ لا وافقتُ إلا على ما فيه مصلحة لابن أستاذى . فلما يئس منه ، فرَّق ضِياع الشام على الأمراء وخَلَع عليهم ، وأعطاهم ما فى الخزائن ـ وكان بها تسعمائة ألف دينار . وتوجه فخر الدين بن الشيخ إلى الديار المصرية ، ومعه جماعة من الأمراء ، بعد أن تَرَدَّدَ إلى الملك الناصر مِراراً ، وهو بالقَابُون .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من النسخة (ك) ، فأكملناه من (ع) .

واستقر أمرُ الملك الجواد فى يوم الجمعة . وأرسل الأمراء الأمير ركن الدين الهَيْجَاوى إلى الملك الناصر داود ـ وهو فى دار أسامة ـ فأمره بالخروج إلى مملكته بالكَرَك . فقام وركب ، وقد اجتمع الناس من باب داره إلى القلعة . وهم لا يَشُكُّون أنه يطلُع إلى القلعة . فتوجه . وخرج من باب الفرج . وصاحت العامّة واستغاثوا . محبة له ورغبة فيه . وتوجه إلى القابُون .

وأما الملك الجواد فانه فرّق الأموالَ وخلع الخِلَع . فيقال إنه خلع خمسة آلاف خِلعة . غير الأموال . وأبطل الخمور والمُكُوس . ونفى الخَوَاطى [1] . وأقام الملك الناصر بالقابون أياما . وعزموا على القبض عليه . فرحل . وبات بقصر عَفْرا . وركب خلفه أَيْبَك الأَشْرَفى ليُمْسِكَه . فبعث إليه عماد الدين بن مُوسَك فى السِّر فعرفه . فسار فى الليل إلى عَجْلُون [2] وعاد أَيْبَك إلى دمشق .

ذكر ما وقع بين الملكين : الناصر والجواد وهرب الناصر إلى الكَرَك

قال : ولما توجه الملك الناصر إلى عَجْلُون . سار منها إلى غَزَّة . واستولى على الساحل بموافقة عسكره . ومقدمهم . الأمير مجد الدين عمر ـ أخو الفقيه عيسى الهَكَّارِى [3] ـ ووصلت غاراته إلى الوَرَّادَة [4] وخرَّب بُرْجَ الحَمَام

(١) البغايا .

(٢) فى إقليم الأردن مشرفة على الغَوْر . وبها قلعة حصينة جداً ، بناها أسامة الجبلى .

(٣) هو الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى ، وكان من كبار رجال دولة صلاح الدين .

(٤) منزل فى طريق مصر للقادم من الشام ، فى وسط الرمل والماء والملح ، من أعمال الجِفَار . فيها سوق ومنازل ومسجد ومبرجة للحمام ، يكتب ويعلق على أجنحتها ويرسل إلى مصر بالوارد والصادر .

(معجم البلدان : جـ ٨ ـ ص ٤١٢)

بها . فخرج إليه الملك الجواد فى عسكر مصر والشام ، وأمر الأمراء الأشْرَفية بمكاتبةِ الناصر وإطْماَعِه فى الملك ، ففعلوا ذلك . فاغتر بكتبهم واطمأن إليهم ، وركب من غزة فى سبعمائة فارس ، وقصد نابلس بأثقاله وخزائنه وأمواله ـ وكانت على سبعمائة جمل ـ وضرب دِهْلِيزَه على سَبَسْطِيَه [1] ، وترك عساكره مُقَطَّعَةً خلفه .

والملك الجواد على جِينِين [2] فركب بعسكره وأحاط به . فركب الناصر فى نفَر يسير . وساق نحو نابُلس . واستمرت به الهزيمة إلى قلعة الكَرَك لا يَلْوِى على شىء . واستولى الملك الجواد على خزائنه وذخائره ، وخيوله وخيامه وأثقاله ـ وكان فيها ما لا يُحصَى قيمته . وكانت هذه الواقعة فى رابع عشرين ذى الحجة من السنة .

قال أبو المظفر : وبلغنى أن عماد الدين بن الشيخ وقع بسِفْطٍ صغير ، فيه اثنا عشر قطعة من الجوهر ، وفصوص ليس لها قيمة . فدخل على الجواد وطلبه منه . فأعطاه إياه . قال : وهذه الأموال ـ التى كانت على جِمال الملك الناصر ـ هى التى جَهَّزَ بها الملك المعظم ابنته دار مرشد ، لما زوجها بالسلطان : جلال الدين خُوَارَزْم شاه ـ أخذها الناصر منها ظنا منه أنه يعوضها إذا فتح البلاد ، فكانَ الأمر بخلاف ما ظَنّ .

---

(١) بلدة من نواحى فلسطين . بينها وبين البيت المقدس يومان . وهى من أعمال نابلس . يقال أن بها قبر زكرياء ويحيى بن زكرياء ـ عليه السلام ـ وجماعة من الأنبياء والصالحين .

(ياقوت : جـ ٥ ـ ٢٩)

(٢) بلدة حسنة بين نابلس وبيسان ، من أرض الأردن . بها عيون ومياه .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ١٩٥)

وكان نصحاؤه أشاروا عليه ـ وهو بغزة أنه يبعث بالأموال والأثقال إلى الكَرَك ، على عَقَبَةِ الزُّوَيْرَه[١] ، ويجمع عسكره ويتوجه إليهم جَرِيدَةً[٢] . فاغتر بمكاتبة الأشْرَفِيَّة . وجهز الملك الجواد الطلعات والصَّنَاجِق[٣] إلى الديار المصرية ، فوصلت فى سادس وعشرين الشهر . وعاد إلى دمشق بالظفرَ والغنيمة .

هذا ما كان بدمشق ، فلنذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ببلاد الشرق .

ذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب ببلاد الشرق فى هذه السنة

كان الملك الصالح نجم الدين قد استخدم الخُوَرَازْمِيَّة ، الذين سَلِمُوا من أصحاب السلطان جلال الدين خُوَارَزْم شاه[٤] ، فى سنة أربع وثلاثين

(١) لا توجد فى « معجم البلدان » ، ولكن ورد فى حاشية رقم ٣ بالنجوم الزاهرة : جـ ٧ ـ ص ١٢ أن هناك جهة تعرف اليوم باسم « عقرة الزول » ، وهى على بعد عشرة كيلو مترات غربى العريش ، كانت قديماً أحد مراكز البريد فى الطريق بين مصر وغزة . فيبدو أن عقرة الزول ليست إلا تحريفاً لعقبة الزويرة ، لأن موقعها ينطبق على ما فى السياق .

(٢) فرقة من الجيش ، تخف سريعة على ظهور الخيول لأداء مهمة حربية .

(٣) الألوية ، أو القواد حاملوها ، وقد سبق شرحها فى أول الكتاب .

(٤) السلطان « جلال الدين » كان آخر شاهات الدولة الخوارزمية . وَلِىَ سنة ٦١٧ هـ . وفى سنة ٦٢٨ طارده التتار بعد أن هزموه ، ففر شريداً ، وقُتل فى أثناء فراره فى ذلك العام . ففى ذلك العام (٦٢٨) انتهت الدولة الخوارزمية ، التى كان مقرها خوارزم ، والتى اتسعت حتى نافست الدولة السلجوقية ، وحلت محلها . فبعد انقضاء الدولة ، تفرق جنود الخوارزمية ودخلوا فى خدمة الملوك . وكان الملك الصالح أيوب ممن استخدمهم ، وذلك فى سنة ٦٣٤ ـ على ما ذكر فى المتن . وسيكون لهؤلاء الخوارزمية شأن كبير فى تطور الحوادث فى الشام ومصر والجزيرة منذ ذلك الوقت ، وسيفتحون بيت المقدس مرة أخرى ، كما سيتبين من الأحداث التالية التى سيرد ذكرها فى المتن .

وستمائة . وكانوا ـ قبل ذلك ـ خدموا صاحب الروم السلطان : علاء الدين كيْقُبَاذ ، ففارقوه . واستخْدَمَهُم الملك الصالح ، واستعان بهم ، فخَالَفُوا عليه فى سنة خمس وثلاثين . وأرادوا القبض عليه ـ وكان على الفُرات ـ فهرب إلى سنجار، وكان قد ملكها واستولى عليها بعد وفاة عمه الملك الأشرف . وترك خزانته وأثقاله ، فنهبوا ذلك بجُمْلَتِه . ولما صار بسِنْجَار ، وعلم الملك الرحيم : بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ـ مخالفة الخُوَارَزْمِيَّة ، قصده وحصره بسِنْجار ، فى ذى القعدة . فأرسل الملك الصالح إليه يسأله الصلح . فقال : لابد من حمله إلى بغداد فى قَفَص ! وكان بدر الدين لؤلؤ وملوك الشرق يكرهون مجاورة الملك الصالح ، وينسبونه إلى الكِبْر والظلم .

فبعث الملك الصالح القاضى بدر الدين ـ أبا المحاسن يوسف ـ قاضى سِنْجار إلى الخُوَارَزْمِيَّة ، فتحيَّلَ فى الخروج من سِنْجار ، بأن حَلَقَ لِحيَتَه وتَدَلَّى من السُّور بحبل ، وتوجه إليهم . وشرط لهم كل ما أرادوا . فساقوا جَرَايِدَ[1] من حَرَّانِ ،وكبسوا بدر الدين لؤلؤ وعسكر الموصل بسِنْجار . فهرب منهم على فَرَس . وترك خزائنه وأثقاله وخيوله . فنهبت الخوارزمية جميع ذلك . واقتسموه . فصلحت به أحوالهم واستغنوا .

هذا ما كان من أخبار دمشق والشام ، وأخبار الملك الصالح بالشرك بعد وفاة والده : الملك الكامل ، فى سنة خمس وثلاثين . فلنذكر أخبار الملك العادل .

---

(١) أى : حملات سريعة خفيفة .

ذكر أخبار السلطان الملك العادل

هو سيف الدين : أبو بكر ، بن السلطان الملك الكامل : ناصر الدين أبي المعالى محمد ، بن السلطان الملك العادل : سيف الدين أبى بكر محمد ، ابن أيوب . وهو السابع من ملوك الدولة الأيوبية ، بالديار المصرية .

استقر فى الملك بعد وفاة والده : السلطان الملك الكامل . وذلك أنه لما مات والده بدمشق ، كان هو ينوب عنه بالديار المصرية . فاجتمع الأمراء الذين كانوا بدمشق ، فى خدمة السلطان الملك الكامل ، الأمير سيف الدين على بن قِلِيج ، والأمير عماد الدين ، وفخر الدين : ابنا الشيخ ، وغيرهم من أكابر الأمراء . فى قاعة المَسَرَّة بقلْعة دِمشق ، وحَلَفُوا للملك العادل هذا ، واستحلفوا له جميع العساكر المصرية والشامية . وذلك فى يوم الخميس الثانى والعشرين من شهر رجب ، سنة خمس وثلاثين وستمائة .

ورَتَّبُوا الملكَ الجَوَاد : مظفر الدين يونس بن مودود ـ ابن عمه ـ فى نِيابة السلطنة بدمشق ، كما تقدم . وطالعوا السلطان الملك العادل بالخبر . فخُطِب للملك العادل بالديار المصرية ، فى سابع شعبان من السنة ، وأعلن بوفاة الملك الكامل . فقال القاضى برهان الدين بن الفقيه نصر :

قل للذى خاف من مصر، وقد أَمِنَتْ ماذا تألُّمُه منها وخِيفتُه
إن كان قد مات عن مصر مُحَمَّدُها فقد أقيم أبو بكر خَلِيفتُه (١)

قال : ولما استقر فى المُلْك ، وَضَعَ المُكُوس (٢) ، وزاد الأَجْنَادَ (٣) ، ووَسَّعَ على الناس فى أرزاقهم . ورضى ما قرره الأمراء من استنابة الملك الجواد بدمشق ، وأرسل إليه الخلع والصَّنْجَق . فركب بذلك فى يوم الأحد تاسع عشرين شهر رمضان من السنة .

ووصلت العساكر المصرية التى كانت مع الملك الكامل بالشام ـ وكان ابتداء وصولهم فى ثانى عشر شعبان ، وكملوا فى مستهل شهر رمضان من السنة ـ وتأخر منهم من جُرِّد مع الملك الجَوَاد . فأكرمهم الملك العادل وخلع عليهم ، وزاد فى أرزاقهم . ثم عاد من تأخر منهم إلى الديار المصرية ، بعد هرب الملك الناصر داود من سَبَسْطِيَة ـ كما تقدم . وكان وصولهم فى ثامن المحرم سنة ست وثلاثين وستمائة .

وفى سابع عشرين شوال ، من سنة خمس وثلاثين ، وصل الشيخ محيى الدين يوسف بن أبى الفرج الجَوْزِى ، برسالة الخليفة بالتَّعْزِيَة للملك العادل بأبيه ، والتهنئة له بالملك . واستَحْلَفَه للخليفة . فى ثانى ذى القعدة منها .

---

(١) الموجود فى (ع) : « فقد قام أبو خليفته » . ولكن البيت ينكسر . فإما أن يكون : فقد أقام . أو فقد أقيم . والثانى أولى . ولذا نرجحه .

(٢) الضرائب غير الشرعية ، التى استحدثت زيادة على الخراج .

(٣) أى زادهم فى عطاءاتهم : مرتباتهم .

ذكر ما وقع فى هذه السنة من الحوادث
ـ خلاف ما تقدم ـ

فى هذه السنة ، فى ليلة الإثنين سادس جمادى الآخرة ، أمر السلطانُ الملك الكامل أن لا يُصَلَّى بالمسجد الجامع بدمشق صَلاةَ المغرب إلا خلف إمام واحد : وهو خطيبُ الجامع الشافعى . وأبطل من عداه من الأئمة المالكية والحَنَفية والحنابِلة ، فى صلاة المغرب خاصة ، لانحصارها فى وقت واحد ، واشتباه الحال على المَأْمُومِين

وفيها قصد الملك المنصور : عمر بن على بن رسول ـ متملك اليمن ـ مكة . فلما بلغ الأمير أسد الدين جَغْرِيل الخبر ، خرج من مكة بمن معه من العسكر إلى الديار المصرية ، فى سابع شهر رجب ، ووصلوا إلى القاهرة متفرقين ، فى العشر الأوسط من شعبان . ودخل صاحِبُ اليمن مكة فى تاسع شهر رجب .

وفيها ولى الشريف : شمس الدين الأُرْمَوِى[1] الشافعى ـ قاضى العسكر ـ نِقابة الأشراف بالديار المصرية ـ وذلك فى يوم الأَربعاء سلخ ذى القعدة . وقرىء تقليدُه بجامع مصر ، وحضر قراءتَه الأمير جمال الدين بن يَغْمُور ، وفلك الدين المَسِيرى ، وابن النجيلى .

---

(١) نسبة إلى « أُرْمِيَة » (بالضم ثم السكون) : اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان . وهى ، فيما يزعمون ، مدينة زرادشت : مدينة حسنة كثيرة الخيرات .

(معجم البلدان : جـ ١)

وفيها فى شعبان ، ولى الشيخ كمال الدين : عمر بن أحمد بن عبدالله ابن طَلْحَة النَّصِيبِى[١] ـ الخطابة ، بعد وفاة عمه الدَّوْلَعِى[٢] ـ وكانت وفاته فى رابع عشر جمادى الأولى ، ودفن بالمدرسة التى أنشأها بجيْرُون[٣] . وكان له أخ جاهل فولى الخطابة ، ثم عزل . فوليها الشيخ كمال الدين .

وفيها كانت وفاة قاضى القضاة: شمس الدين أبو البركات ـ يحيى بن هبة الله ـ بن الحسن ، المعروف بابن سَنِىّ الدولة ، فى يوم الأحد سادس ذى القعدة ، ودفن بقاسيون . وكان فقيهاً إماماً فاضلا عفيفاً ـ رحمه الله تعالى . وولى القضاء بعده قاضى القضاه : شمس الدين أحمد بن الخليل الخُوَيِّى فى ذى القعدة ، استِقلالاً وَعَدَّلَ جماعةً كبيرة من أهل دمشق وهو أول قاضٍ رَتَّبَ مراكز الشهود بدمشق وكان قبل ذلك مورقون يورقون المَكْتُوب ، ويتوجه أربابه إلى بيوت العُدُول فيُشَهِّدُونهم .

وفيها توفى الأمير صارم الدين خَطْلَبَا التِّبْنِينى ، فى يوم الاثنين ثالث شعبان ، ودفن بتربته التى أنشأها بقاسيون . وكان دَيِّنا صالحا عاقلا . أقام فى الثُّغُور مدة سنين ، يجاهد العدُوّ . وكان كثير الصدقة دائم المعروف ، طاهر اللسان ، رحمه الله تعالى .

---

(١) نسبة إلى نصيبين . وهى من بلاد الجزيرة على طريق القوافل بين الموصل والشام .

(٢) نسبة إلى الدولعية ، وهى قرية من قرى الموصل .

(٣) اسم دمشق أو موضع فيها .

واستهلت سنة ست وثلاثين وستمائة :

ذكر القبض على الصاحب صفى الدين مرزوق ومصادرته واعتقاله

فى هذه السنة ـ فى أولها ـ قبض الملك الجواد على الصاحب صفى الدين بن مرزوق ، وصادره ، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار .

وكان سبب ذلك أنه كان بينه وبين الملك المجاهد ـ أسد الدين صاحب حِمص ـ عداوة مستحكمة ، لما استوزره الملك الأشرف . وكان الملك الجواد لا يخرج عن رأى الملك المجاهِد ، فحَسَّنَ الملكُ المجاهدُ للملك الجواد القبض عليه . وكان ابن مرزوق قد استشعر ذلك ، فعمد إلى تابوت وضع فيه جواهر ولآلئ ، وأظهر أن إحدى سَرَارِيه قد ماتت وهى عَزِيزَةٌ عنده . وأنه يريد دفنها فى داره المجاورة للمدرسة النُّوريَّة ، بالقرب من الخَوَّاصِين ـ وهى التى تعرف الآن بالنَّجِيبِيَّة الشافِعية ـ وعمل فى القُبَّةِ أَزَجاً ، ثم أخرج التابوت على أعناق غلمانه وخُدامه إلى الجامع ، وحضر الناس للصلاة على المَيِّتَةِ ، بزَعْمِهِم ، وعُمِلَ العَزاء وتَرَدَّدَ القُرَّاءُ إلى التربة أياماً .

ثم قُبض على مرزوق بعد أيام قلائل ، وأُخذ جميع موجوده ، وحُبس بقلعة دمشق . فاتفق أن خادمه الكبير ضرب خادماً صغيراً ، فجاء الخادم ، وسأل الاجتماع بالملك الجواد . واجتمع به وأخبره بالواقعة . فأرسل القاضى والشهود وأميرَ جَانْدَار وأستاذ الدار ، فتوجهوا وفتحوا التربة ، وأحضروا التابوت بحاله . وكُشف بين يدى الجواد وصاحب حمص ، فوجُدِ فيه من

الجواهر ما قُوِّم بمائتى ألف دينار وستين ألف دينار[١] . وكانوا ـ قبل ذلك بأيام ـ قد طولب ابن مرزوق بمال يَحْمِلُه ، فحلف برأس الملك الجواد أنه لا يملك شيئاً . فلما وجد هذا التابوت ، سلَّمَه الجواد للملك المجاهد . فاعتقله بقلعةِ حمص . فأقام سنين لا يرى الضَّوْء . وقيل أنه حُبِس اثنتى عشرة سنة . وأظهر أسد الدين مَوْتَه ، وكتب بينه وبينه مُبَارَأَةً[٢] .

ذكر خروج دمشق عن الملك العادل وتسليمها لأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب

كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل ـ لما حضر الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ من الشام إلى الديار المصرية ـ أنكر عليه ، ولامه وتهدده (لكونه)[٣] سلم دمشق للملك الجواد . فقال : أنا أتوجه إلى دمشق وأنزل بالقلعة ، وأبعث الملك الجواد إلى السلطان . وان امتنع ، أقَمْت نائباً عن السلطان عِوَضَه .

وتوجه من القاهرة فى شهر ربيع الأول ، وقرر أن يُقْطِعَ الملك الجواد ثغر الإسكندرية . ولما عزم على المسير ، أشار عليه أخوه فخر الدين أن لا يتوجه إلى دمشق ، وقال أخاف عليك من ابن مَمْدُود ـ يعنى الجَوَاد .

---

(١) فى (ك) : بمائة ألف دينار ، وأصلحناه ـ كما أثبتناه فى المتن ـ من النسخة الأخرى (ع) .

(٢) مخالَصَة .

(٣) فى (ع) : كونه .

فقال أنا مَلَّكتُه دمشق ، ولا يخالفُنى فقال : أنت فارقته وهو أمير ، وتعود إليه وقد صار سُلطاناً ، فتطلب منه تسليم دِمشق ، وتعوضه الإسكندرية ، ويقيم عندكم ، فكيف يطيب له هذا ؟ أو تسمح نفسه بمفارقة المُلْك ؟ فأما إذا أَبَيْتَ إلا التوجه ، فانزل على طَبَرِيَّة وكاتِبْه . فإن أجاب ، وإلا تُقيم مكانَك وتكتب إلى الملك العادل .

فلم يَرْجع إلى رأيه ، وتوجه إلى دمشق . وخرج الجواد إليه ، وتلقاه بالمُصَلَّى ، وأنزله بالقلعة فى قاعة المَسَرَّة . وأرسل إليه الملك الجواد الخلَع والأموال والأقمشة والخيل ، ففرق عمادُ الدين الخلعَ على أصحاب . وجاء الملك المجاهد أسد الدين ـ صاحب حمص ـ إلى دمشق .

قال : ولما قال الأمير عماد الدين للملك الجواد أن يتوجه إلى الديار المصرية ، ويأخذ ثغر الإسكندرية ـ غضب ، ورَسَمَ عليه فى الدار[1] . ومنعه من الركوب .

ثم جاء إليه وقال : إذا أخذتم دمشق منى ، وأعطيتمونى الإسكندرية ، لابد لك من نائب بدمشق ، فاجعلونى ذلك النائب . ومتى لم تفعلوا هذا ، فقد كاتبْتُ الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأُسَلِّم إليه دمشق ، وأتعوض عنها سِنْجَار . فقال له ابن الشيخ : إذا فَعَلْتَ هذا ، اصطلح السلطان الملك العادل والملك الصالح ، ولا تحصل أنت على شئ ألْبَتَّة

(١) هذا التعبير مقابل ما نقول اليوم من أن شخصاً « حددت إقامته »

ففارقه الجود وخرج مُغْضباً ، وحكى ما جرى بينه وبين ابن الشيخ للملك المجاهد . فقال : والله إن أَنْفَقَ الصالح والعادل لا تَرَكَا بيدِ أحدٍ منا شيئاً ، وسَلَبَانا مُلْكَنَا وما بأيدينا ، حتى نحتاج إلى الكُدْيَةِ[1] فى المَخَالى . ثم جاء صاحب حِمص إلى ابن الشيخ ، وقال له : المصلحةُ أن تكتب إلى الملك العادل ، وتشير عليه بالرجوع عن هذا الرأى : يعنى إخراج الملك بالرجوع عن هذا الرأى . يعنى إخراج الملك الجواد من دمشق . فقال : حتى أتوجه إلى بَرْزَه[2] ، وأُصَلِّى صلاة الاستِخَارة . فقال له أسد الدين : كأنك تريد أن تتوجه إلى بَرْزَة ، وتهرب منها إلى بَعْلَبَك . فغضب عماد الدين وانفصلا على هذه الحال

واتفق الجواد وصاحب حمص على قَتْلِ عماد الدين . وتوجه أسد الدين إلى حِمْص . وكان عماد الدين قد مرِض ، وأَبَلَ[3] .

فلما كان فى يوم الثلاثاء ، السادس والعشرين من جمادى الأولى ، بعث الجواد إلى الأمير عماد الدين يقول له : إن شئتَ أن تركب وتتنزه فاركب إلى ظاهرِ البلد . فظن أن ذلك بوادِرُ الرضا . ولبس فَرَجِيَّةً كان الجواد قد بعث بها إليه ، وقدموا له حِصاناً كان سيَّره إليه أيضاً ، فلما خرج من باب الدار إذا

---

(١) أى : الشحاذة .

(٢) قرية فى بساتين غوطة دمشق ، كما مرّ .

(٣) شفى . أو تماثل للشفاء

هو بنَصْرَانى من نَصارى قَارَا[١] قد وقف وبيده قَصَبَةٌ وهو يستغيث ، فأراد الحاجبُ أن يأخذ القصبة منه ، فقال : لى مع الصاحب شُغْلٌ . فقال عماد الدين : دعوه .

فتقدم إليه ، وناوله القَصَبَة . فلما تناولها ، ضربه النصرانى بِسِكِّين فى خَاصِرَته ! وجاء آخر وضربه بسكين على ظهره ، فمات وأُعيد إلى الدار مَيِّتاً واحتاط الجوادُ على جميع مَوْجُودِه ، وكتب مَحْضَراً أنه ما مالأ على قتله . وقصد استخدام مماليكه ، فامتنعوا وقالوا له : أنت تَدَّعى أنك ما قتلته ، وهذا له إخوة ووَرَثَة ، فبأى طريق تأخذ ماله ؟ فاعتقلهم . وجُهِّزَ عماد الدين ، ودفن بقاسيون فى زاوية الشيخ سعد الدين . وكان مولده فى يوم الاثنين سادس عشر شعبان ، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى .

ولما قُتل عماد الدين ، علم الجواد أنه إن دخل الديار المصرية وسَلِمَ من القتل ، صار ضَمِيمَة[٢] . واتفق وصول رسول الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الملك الجواد ، وهو يبذل له أن يكون له سِنْجَار والخَابُور ونَصِيبِين والرَّقَّه ، ويُسَلِّم دمشق للملك الصالح . فأَذْعَنَ إلى ذلك ، لعلمه أن دمشق لا تبقى له . وقيل إن الملك الجواد هو الذى كتب إلى الملك الصالح ، والتمس منه ذلك ، فأجاب الملك الصالح إليه .

---

(١) اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق ، وهى المنزل الأول من حمص ، للقاصد إليها من دمشق . كانت آخر حدود حمص ، وما عداها من أعمال دمشق . بها عيون جارية يزرع عليها . وأهلها كلهم نصارى .

واسمها الأصلى : قَارَة (والقَارَة أصغر من الجبل) لأنها على رأس قَارَة . ثم قيل : قَارَا .

(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ص ١١)

(٢) أى رهينة ، كالأسير .

ورتَّبَ ولَدَه : الملك المعظم غياث الدين تُورَانْشاه فى بلاد الشرق ، وجعل مُقَامَه بحصن كَيْفا . ورتب النُّواب بآمِد ، وأَقْطَعَ الخُوَارَزْمِيَّة حَرَّان والرُّهَا والرَّقَّة وبِلادَ الجزيرة وسار إلى دمشق ، فوصل إليها يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة ، سنة ست وثلاثين وستمائة .

وحَمَلَ الجَوَادُ الغَاشِيَةَ[1] بين يَدَيْه من تحت القلعة ، وحملها الملك المظفر صاحب حَماه ـ من باب الحديد . وتسلم الملك الصالح القلعة ، وخرج الجواد منها فى تاسع الشهر ، وترك دار فَرُّوخْشَاه . واستوزر الملك الصالح جمالَ الدين بن جَرير . ثم توجه الملك الصالح فى شهر رمضان إلى نابُلُس ، وكان ما نذكره .

ذكر أخبار الملك الجواد ، وما كان من أمره بعد تسليم دمشق

قال المُؤَرِّخ : لما قَدِمَ الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق ، رَتَّبَ له الملك الجواد الضِّيَافَات كل يوم ، فى قاعة من قاعات دمشق ، ورَتَّبَ فى كل قاعة ما تحتاج إليه من الفرش والآلات وأوانى الفضة ، وغير ذلك . وكان إذا حضر إلى قاعة سلمها إليه بجميع ما فيها ، ثم ينتقل إلى قاعة أخرى ، وكان آخر الضيافة فى قاعة المَسَرَّة . ثم خرج الملك الجواد ، وركب والعسكر فى خدمته ، فقال لهم : سلطانُكم الملك الصالح . فحَلَّف الصالحُ العساكَر فى تلك الساعة ، إلا الأمير سيف الدين على ابن قِلِيج ، فإن الصالح قبض عليه .

---

(١) سبق وصفها ، وهى صرح أو أديم مخروز بالذهب ، ويحمل بين يدى السلطان فى الموكب عند توليه الملك . وهى من شعارات السلطنة .

فعظم ذلك على النُّوّاب ، ولامه أصحابه على ما فعل من تسليم السلطنة للملك الصالح . فأراد نقضَ ما أبرمه ، والقبض على الملك الصالح . فاستدعى المُقَدَّمين والجند واستحلفهم ، وجمع الصالح أصحابه عنده فى القلعة ، وأراد أن يحرق دار فَرُّخْشَاه . فدخل جمال الدين بن جرير بينهما ، وأصلح الأمر .

وخرج الجَوَاد إلى التَّيْرَب[1] ، واجتمع الناس على باب القصر يدعون عليه ويَسُبُّونه فى وجهه ـ وكان قد أساء السِّيرة فيهم ، وسلط عليهم خادماً لبنت كُرْجِى يقال له الناصح ، فأخذ أموالهم وصادرهم ، وعلقهم وضربهم ، فيقال إنه أخذ منهم ستمائة ألف درهم . وأرسل الملك الصالح إلى الجواد يأمره أن يعطى الناس أموالهم ، فلم يصغ إلى قوله ، ولا أجابه عن ذلك بجواب . وتوجه إلى بلاد الشرق .

فلما وصل إلى ضُمَيْر[2] رأى بَدَوِياً فاستراب منه ، فقبض عليه ، فوجد معه كتباً من الملك الصالح إلى الخُوَارَزْمِيَّة ـ وكانوا على حِمصْ ـ يُحَسِّنُ لهم القَبْضَ على الملك الجواد ، وأخْذ ما معه ، وأن يُسَيِّروه إليه . فعند

(١) قرية كبيرة فى بساتين دمشق ـ كما سبق ذكره .

(٢) هو قرية وحصن فى آخر حدود أعمال دمشق ، مما يلى السَّمَاوَة (الصحراء) .

(معجم البلدان جـ ٤ ـ ٤٤٢)

ذلك أخذ على طريق السَّمَاوَة[١] وعرج عن حمص ، وسار إلى عانَة ،[٢] فدخلها وأقام بها .

فبلغه أن صاحب الموصل يحاصر سِنْجَار ـ وبها أَيْدُمَر مملوك الجواد ـ فسار إليه فى مائتى فارس . ولما قرب منها رَسَمَ أن يُضْرَب فى كل ناحية طَبلُ باز وفرَّق من معه فِرَقاً ، وجعل كل فِرقة طَبْلَخَاناه [٣] ومشاعل ، وأمرهم أن يضربوا طَبْلَخَاناتِهم جُمْلَةً واحدة وسار إلى سِنْجار لَيْلاً على هذه الصِّفَة ، فظن صاحب الموصل أن معه عَسْكَراً . فارتحل عن سِنْجَار فى ليلته . ودخلها الملك الجَوَاد بُكْرَة النهار ، وأقام بها سنة .

وحاصره الخُوَارَزْمِيَّة ، وعادوا عنه وترددت الرسائل بينه وبين صاحب الموصل فى المصاهرة بينهما . وقصد الجواد أن يتصل بابنة صاحب الموصل ، ليكون عَضُداً له . فعقد عقد النكاح بالموصل ، وكان وكيل الجواد زُرَيْقْ مملوكه .

---

(١) بادية السماوه هى التى بين الشام والكوفة . وهى قفراء .

سميت كذلك لأن بها مادة تسمى السماوة ، أو لأن السماوة هى الأرض المستوية التى لا حجرَ فيها .

(المعجم : جـ ٥ ـ ١٢٠)

(٢) بلد مشهور بين الرقة وهيت . يعد فى أعمال الجزيرة . وهى مشرفة على الفرات . وبها قلعة حصينة .

(المعجم : جـ ٦ ـ ١٠٢)

(٣) هى طبول متعددة ، معها أبواق وزَمْر ، تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص ، تُدق كل ليلة فى القلعة ، وتكون صحبة الطلب فى الأسفار والحروب ، وهى من الآلات العامة لجميع الملوك .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ٨)

ثم سأله صاحب الموصل الاجتماع ، وسير ولده رهينة . فوافق الجواد على ذلك وتوجه إلى عَانَة . هذا ، وصاحبُ الموصل قد أفسد أهل سِنْجار . ولما سار الجواد من سنجار ، جاء صاحب الموصل إليها فدخلها من غير مُمَانِع ـ وذلك فى سنة سبع وثلاثين وستمائة .

فسار الجواد إلى بغداد ، واستنصر بالخليفة . وأقام ببغداد ستة أشهر . فوصله الخليفة بأربعة آلاف دينار ، وأمره بالخروج عن بغداد . فسار إلى عَانَه وأقام ها ، ثم اشتراها الخليفة منه بمائة وعشرين ألف درهم . فقبض الجواد المال وسَلَّمَها ـ وهى جزيرة فى وسط الفرات . وسار الجواد بعد تسليمها إلى حَرَّان ، وهى بيد الخوارزمية ، فأقام عندهم سنة . وسار إلى حلب معهم وقاتل أهلها ، ثم عاد معهم إل حَرَّان .

فاستدعاه الملك الصالح نجم الدين ـ بعد أن ملك الديار المصرية ـ فسار ومر على قَرْقِيسْيَا [١] ، واجتاز بالرَّحَبَة بالبَرِيَّة ، وأقام عند ابن صَدَقَه [٢] أياماً . وسار فى البَرِّيَّة إلى الشَّوْبَك ، وسير مملوكه زُرَيْق إلى الصالح فى البرية . فعظُم ذلك على الصالح ، وأنكر كونه حضر من البرية . ووصل الجواد إلى العَبَّاسَة [٣] ، فأرسل إليه الملك الصالح الطَّواشى دِينارا وأمره برده . وأن يعود إلى الشَّوْبَك [٤] ، ولا يدخل مصر . فسار على طريق الرَّمْلْ يريد الساحل ، ووصل إلى رَفَح .

---

(١) بلد على نهر الخابور (بالجزيرة) قرب الرحبة (رحبة مالك بن طوق) على بعد ستة فراسخ . وعندها يصب نهر الخابور . فى مُثَلَّث بين الخابور والفرات

(معجم البلدان : جـ٧ ـ ٦٠)

(٢) من رؤساء العرب هناك . وسيرد ذكره فيما بعد .

(٣) مر ذكرها ، وهى أول منزلة من مصر للقادم من الشام على الطريق إلى بلبيس .

(٤) قلعة فى جنوب الكرك شمالى أيلة . سبق ذكرها .

فندب الملك الصالح كمالَ الدين بن الشيخ للقبض عليه . فعلم بذلك فتوجه إلى الملك الناصر داود ـ وكان إذ ذاك بالقدس ـ وتحالفا على قتال الصالح ، وذلك فى سنة تسع وثلاثين وستمائة . فاستبشر الناصر بقدومه ، وجَرَّدَ العساكر مَعه . وجاء كمال الدين بن الشيخ ، والتقوا على مكان يقال له بيت قوريك ـ وهى قرية من قرى نابُلس ـ بالقرب منها ، فيما بينها وبين الغَوْر من جهة أَرِيحَا ، فكسره الجواد وأسره . وأحضره إلى عند الملك الناصر داود ، فوبخ الناصر كمال الدين .

وأقام الجواد عند الناصر فتَخَيَّلَ منه وقبض عليه بعد أيام ، وأراد قتله ، لما كان بينهما من الذُّحُولِ[1] القديمة . ثم سَيَّرَه إلى بغداد فى البَرِّية تحت الاحتياط ، فنزل قريباً من الأَزْرَق ، فعرفه جماعة من العرب فأطلقوه .

فتوجه إلى عمه الملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ فلم يُمَكِّنْه من الدخول إليها ، وبعث إليه بالنَفقات . وجَرَّدَ معه خمسمائة فارس ، وكتب إليه بالمسير إلى الساحل والاجتماع بملوك الفرنج ومُقَدَّم الدَّيْوِيَّة[2] . فتوجه إليهم واجتمع بهم بقَيْسَارِيَّة[3] ـ وكانت أمه فرنجية ـ فمالوا إليه .

فبلغ ذلك الملك الصالح نجم الدين ، فكتب إليه يَعِدُه بمواعيد جميلة ، وطلب منه أن يستميل الفرنج إلى طاعته ، وَيعِدُهم عنه بجميع ما يختارونه . ففعل الجواد ذلك ، واستمالهم ، وكتب إليه أن يسير رسوله إليهم .

---

(١) الثارات .

(٢) سبق شرح هذه الكلمة . وهو الاسم الذى أُطلق على فرقة من الرهبان الصليبيين المتعصبين ، الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين ، وهم جماعة فرسان المعبد .

(٣) بلدة على ساحل الشام . مرَّ ذكرها .

ففعل الملك الصالح ذلك ، وأرسل رسوله إلى الفرنج ، واستحلف الملك الجواد ومُقَدَّم الدَّيْوِيَّة وأكابر الفرنج . فلما وثق الصالح بذلك ، سير الأمير ركن الدين الهَيْجَاوى . إلى غزَّة بعسكر ، وكتب إلى الجَوَاد أن يرحل وينزل عند الهَيْجاوى ، ويتفق معه على الصلح . ففعل الجواد ذلك .

ثم كتب الملك الصالح إلى الهَيْجَاوى يأمره بالقبض على الملك الجواد ، وإرساله إليه . فأخبره الهَيْجَاوِى بذلك . فاتفقا على مفارقة الملك الصالح أيوب . فتوجه الجواد إلى عَكَّا ، والتجأ إلى الفرنج . وتوجه الركن الهَيْجَاوِى إلى دمشق ، والتحق بصاحبها الملك الصالح إسماعيل وأقام عنده . ولم يخدمه ، بل كان يتردد إليه فيكرمه ويستشيره فى أموره .

ثم كتب الملك الصالح إسماعيل إلى الملك الجَوَاد يُعَنِّفُه على لحاقه بالفرنج وطَلَبَهُ إليه ثم أرسل إلى الفرنج وطلب منهم المعاضدة على صاحب مصر . ووعدهم أنه إذا ملك مصر أعطاهم البلاد الساحلية .. وجميع فُتُوحِ الملك الناصر صلاح الدين يوسف . فاستشاروا الجواد فى ذلك . فكتب إليهم يحذرهم من الملك الصالح إسماعيل ، وينهاهم عن موافقته . فوقع بخطه للملك الصالح إسماعيل ، فقبض عليه بمنزلة العَوْجَاء[1] . وسيَّره إلى دمشق ، واعتقله بعربا . فمات فى شوال سنة إحدى وأربعين وستمائة . وطلبه الفرنج وشددوا فى طلبه ، فأظهر أنه مات . وأهله يقولون إنه خنقه . والله أعلم . ولما مات دفن بقاسيون فى تُربة الملك المعظم - رحمهما الله تعالى .

هذا ما كان من أمر الملك الجواد . فلنرجع إلى بقية أخبار الملك العادل صاحب مصر .

---

(١) العوجاء : فى عدة مواضع . وأيضاً نهر بين أرسوف والرملة ، من أرض فلسطين من السواحل . (معجم البلدان : جـ ٦ - ٢٣٩)

ذكر مخالفة الأتراك على السلطان الملك العادل ، وتوجههم إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق

وفى سنة ست وثلاثين وستمائة ، ندب السلطان الملك العادل العساكر إلى الساحل ، وقدَّم عليهم الأمير ركن الدين الهَيْجَاوى ، وأنفق فيه الأموال ـ وذلك فى جمادى الآخرة . فأقاموا ببلبيس إلى العشرين من شهر رمضان .

وأظهر جماعةٌ من الأتراكِ والمُضَافِين إليهم الخروجَ عن طاعة الملك العادل ، وشَيَّعُوا أنه يقصد القبض عليهم ، وعزموا على قصد الملك الصالح أيوب . فأرسل الملك العادل إليهم الأميرَ فخر الدين بن الشيخ ، وبهاء الدين ابن مِلَكْشُو ، وطَيَّبَ قلوبهم واستمالهم ، فلم يُجيبوا

ولما كان فى الحادى والعشرين من شهر رمضان ، خرج جماعة من الحَلْقَة[1] من القاهرة ، من باب النصر وغيره ، تقدير ألف فارس من الأتراك ـ وأظهروا أن السلطان عزم على القبض عليهم ، وقصدوا اللحاق بمن كان على بلبيس من الأمراء فَبَطَقَ[2] الملكُ العادل إلى الأمراء الأكراد

(١) كانت الجنود فى زمن الدولة الأيوبية والمماليك تتكون من نوعين ، أو كما قال «القلقشندى» : «كانت الأجناد على طبقتين : الطبقة الأولى : المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً ، وأوفرهم إقطاعاً . ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة . الطبقة الثانية : أجناد الحَلْقَة : وهم عدد جَمٌّ وخلق كثير ، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم ، بواسطة النزول عن الإقطاعات .
(صبح الأعشى : جـ٤ـ ١٥ و١٦ ، وانظر : «السلوك» ـ زيادة : جـ ٦ ـ ١٢٢ حاشية رقم ٢ »).

(٢) أى أرسل بطاقة .

ببلبيس ، بمناجزة الأتراك وقتالهم ، فقاتلهم الأكراد قبل وصول الحَلْقة إليهم . فانهزم الأتراك إلى جهة الشام وانضم أكثرهم إلى الأكراد . ولما انهزموا تَبِعَهم الأكراد ، ثم رجعوا خوفاً على أثقالهم من الحَلْقَة فوجدوا الحَلْقَة قد وصلوا إلى بلبيس ، فلم تتعرض إحدى الطائفتين إلى الأخرى بقتال ، لدخول الليل . وتوجه الأتراك للَّحَاقِ بأصحابهم الذين انهزموا ، وساروا إلى دمشق واتصلوا بخدمة الملك الصالح أيوب .

ذكر وصول الملك الناصر داود ـ صاحب الكَرَك ـ إلى السلطان الملك العادل

وفى خامس شوال ، سنة ست وثلاثين وستمائة ، وصل نَجَّابٌ[1] من الملك الناصر داود ـ صاحب الكَرَك ـ إلى السلطان ، يخبره بوصوله . فخرج السلطان للقائه فى سابع الشهر ، وزُيِّنَت القاهرة ومصر زِينة لم يشاهَد مِثلُها ، وعاد السلطان والملك الناصر معه فى ثامن الشهر ، واستبشر بقدومه وحَلَفَ كلٌّ منهما لصاحبه .

وفى العشرين من شوال ، وردت الأخبار بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر ـ إلى جِينِين فجمع الملك العادل والناصر الأمراء ، وتحالفوا على قتاله . وخرج الملك الناصر داود فى يوم الأحد تاسع ذى القعدة ، لقصد الشام . وندب الملكُ العادلُ جماعة من الأمراء فى خدمته ، لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب . وجَهَّزَ صُحْبَتَه خزانة مال وسِلاح خَانَاه ، وخرج لوداعه إلى بِرْكة

(١) أى : رسول على ظهر فرس نَجِيب : سريع .

الجُبّ ، وعاد إلى القلعة . ثم خرج الملك العادل فى يوم الثلاثاء ـ سَلْخ ذى الحجة ـ لقصد الشام ، لقتال أخيه الملك الصالح ، فنزل على بلبيس

وفى هذه السنة ، فى يوم الأحد ثامن صفر ، كانت وفاة الشيخ الإمام جمال الدين أبى المحامد ، محمود بن أحمد الحَصِيرى الحَنَفى ، بدمشق . وأصله من بُخَارى ، من قرية يقال لها حَصِيره . تفقه فى بلده ، وسَمِعَ الحديثَ الكثير . وقَدِم الشام ، ودَرَّس بالنُّورِيَّة . وانتهت إليه رياسةُ أصحاب أبى حنيفة . وقرأ عليه الملك المعظم الجامِعَ الكبير ، وغيره . وصَنَّفَ الكتب الحسان ، وَشَرَحَ الجامِعَ الكبير . وكان كثير الصدقة غزير الدَّمْعَة نزِهاً عفيفاً . وكان إذا أتى قلعة دمشق لا ينزل عن حماره إلا على الإيوان السلطانى ، والملوك تُعظِّمه وتُجِلُّه . ودُفن بمقابر الصوفية عند المُنَيْبع [1] ، على الجَادَّة رحمه الله تعالى .

وفيها توفى الوزير جمال الدين بن جَرِير ، وزير الملك الأشرف . ثم وَزَرَ للملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق دون الشهر ، ومات . وأصله من الرَّقَّة . وكانت وفاته فى يوم الجمعة ـ السابع والعشرين من جمادى الآخرة ـ بعِلة الخَوَانِيق . ودفن بمقابر الصُّوفِية عند المُنَيْبع ـ رحمه الله تعالى .

وفيها فى شعبان ، توفى الأمير علاء الدين أبو الحسن على ، بن الأمير شجاع الدين أبو المنصور جَلْدَك ، بن عبدالله المُظَفَّرِى التَّقَوِى ، بثَغْر دمياط ـ وكان والياً به ـ رحمه الله تعالى .

---

(١) محلة بدمشق .

ذكر عود السلطان الملك العادل
من بلبيس إلى قلعة الجبل

قد ذكرنا أن السلطان كان قد خرج من قلعة الجبل فى سَلْخ ذى الحجة سنة ست وثلاثين ، لقصد الشام . ونزل على بلبيس وأقام بها ، إلى سادس عشر المحرم من هذه السنة ، ثم رجع .

وكان سببُ رجوعه أن الأمراء قصدوا القبضَ عليه ، وتحيَّلوا على ذلك ، فسألوه أن يَعْمَلَ كلٌّ منهم دَعوةً ويُحَضِّرها للسلطان ، ففَسَحَ لهم فى ذلك . وحضَر عند بعضهم فأكل ، ثم قُدِّم الشرابُ فشَرب ، ورأى ما أنكره فقام ، ودخل إلى خَرْبَشْت[1] لقضاء الحاجة ، فخرج من ظهر خَرْبَشْت ، وركب فرساً وساق إلى القَلْعة . فلما طال على الأمراء انتظارهُ ، دخلوا فلم يجدوه فتفرقوا ، وعلموا أنه شعر بما أرادوه من اغتياله .

فسيَّروا إليه يطلبونه ، فأظهر أنه ما دخل إلى القاهرة إلا لِيُخَلِّقَ[2] المِقْيَاس وَيكْسِرَ الخَلِيج[3] ، ويعودَ إليهم . ثم ألجأته الضرورة إلى الخروج ،

---

(١) لفظ فارسى . معناه الخيمة .
(سلوك : جـ ١ ـ ٢٨٤)

(٢) تخليق المقياس كان احتفالا عظيماً يقام فى كل عام ، احتفاءً بوفاء النيل . وقد وصف القلقشندى موكب ركوب السلطان فى ذلك الحفل ، وصفاً تفصيلياً (جـ ٤ ـ ص ٥١٦) ، وذكر أنه عندما يصل السلطان إلى المقياس يؤتى بالزعفران والمسك ، فيمزجه فى إناء بيده بآلة معه ، ثم يتناوله صاحب بيت المال فيعطيه ليتولى المقياس ، فيلقى هذا نفسه فى الفسقية بثيابه ، فيتعلق فى عمود المقياس برجليه ويده اليسرى ، ويُخَلِّقُه (أى يُضَمِّخُه بالعِطر) بيده اليمنى . فمن ثَمَّ سُمِّى هذا الحفل بالتخليق .
(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ٥١٦ ـ ٥١٧)

(٣) وهو خليج القاهرة . كان يُكسر سده عند بدء الفيضان .

فخرج إلى العَبَّاسَة فى يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر ، وقبَض على الأمير فخر الدين بن الشيخ ، وزين الدين غازى ، وفتح الدين بن الرُّكْن ، ووصل بهم إلى قلعة الجبل بُكرة نهار الأحد السابع والعشرين من الشهر . وفى خامس عشرين صفر ، توجه الملك الناصر داود من العَبَّاسَة إلى الكَرَك ، وصُحْبَتهُ ابن قِلِيج وجماعةٌ من أمراء مصر .

وفى يوم الخميس ، الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ، عَمِلَتْ والدةُ الملك العادل وَلِيمَةً عظيمة فى الميدان تحت قلعة الجبل ، لجميع الناس : الخواصّ والعوامّ ، ذبحت فيها ألفَ رأس من الغنَم ، وجُمْلةً من الخيل والبقر والجاموس والإبل ، وحلت ما يزيد على مائة قنطار من السُّكَّر ، فى ثلاث فَساقِى كانت على جانب الميدان مما يلى القلعة ، وتفرق الناس ذلك بالأوانى . وكان ذلك فَرَحاً باعتقال الملك الصالح أيوب ، فإنه كان قد اعتُقِل بالكَرَك ـ على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى فى أخباره .

ذكر قتال الفرنج وفتح القدس

وفى يوم الخميس ـ ثامن عشر شهر ربيع الأول ، من السنة ـ وردت الأخبار ، إلى السلطان الملك العادل ، أن الفرنج قصدوا الأمير ركن الدين الهَيْجَاوى ومن معه من العسكر ، والتقوا واقتتلوا ، فى يوم الأحد رابع عشر الشهر ، عند سطر الجُمَّيْز بالقرب من غَزَّة .

وكانت الهزيمةُ على الفِرِنْج . وأُسِرَ مَلِكُهم ، وثلاثةٌ من جُنُودِهم ، وما يزيد على ثمانين فارساً ، ومائتين وخمسين راجِلا . وقُتل منهم ألف وثمانمائة إنسان . ولم يُقْتَلْ من المسلمين فى هذه الوَقْعَةِ إلا دون العشرة ،

منهم : الأمير سيف الدين محمد بن الأمير أبي عمر ، وعثمان بن الأمير عَلْكان ابن أبي على الكُرْدِى الهَيْجَاوى ـ وكان شاباً صالحاً ـ وعمره ثلاثون سنة ـ رحمه الله تعالى . فخَذَلَتْ هذه الكَسْرَةُ الفِرِنْجَ .

ثم فتح الملك الناصرُ داود صاحبُ الكَرَك ـ ومن معه من العسكر المِصْرِى ـ البيتَ المُقَدَّس ، فى يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى . فقال جمالُ الدين بن مَطْرُوح :

المسجدُ الأقْصَى له عادةٌ سارَتْ ، فصارت مَثَلاً سائِراً
إذا غدا للشِّرْكِ مُسْتَوْطَناً أن يَبْعَثَ اللهُ له ناصِراً
فناصِرٌ(١) طَهَّرَهُ أوَّلاً ونَاصِرٌ(٢) طَهَّرَهُ آخِراً

قال : ولما فُتِح البَيْتُ المُقَدَّس ، تحصن جماعةٌ من الخَيَّالَة والرَّجَّالَة ، ببُرْجِ داود والأبْراج والبَدَنَات ، فنَصَبَ عليها المَجَانِيق وهَدَمها . فسألوا الأمانَ على أنفسهم خاصة ، فأَمَّنَهم .

ذكر وفاة الملك المجاهِد صاحب حمص

وفى ثامن عشر شهر رجب ، من السنة ـ وقيل فى يوم الثلاثاء العشرين منه ـ توفى الملك المجاهدُ أسد الدين شِيرِكوه ، بن ناصر الدين محمد ، بن الملك المنصور أسد الدين شِيركوه ، بن شادِى ـ صاحب حِمص ـ بها ، ودُفن بها .

(١) يقصد : السلطان صلاح الدين .

(٢) يقصد : الناصر داود صاحب الكرك بن الملك المعظم عيسى .

وكانت حِمص بيده ، منذ أعطاها إياه السلطانُ الملك الناصر : صلاحُ الدين يوسف بن أيوب ـ عم أبيه ـ بعد وفاة والده ، فى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . فكانت مدة ملكه بحِمص سبعاً وخمسين سنة ، تقريباً .

وكان شُجاعاً شَهْماً ، مِقْداماً ، يُبَاشِرُ الحروبَ بنفسه . وحَفِظَ بلادَه من الفِرِنْج والعرب . وبنى الأَبْرَاجَ على مَخَائِضِ العَاصِى[1] ورَتَّبَ فيها الرجالَ والطيور . وكان الفرنج إذا خَرَجُوا أطلق الرجالُ الطيور ، فيركب بنفسه وعساكره ، فيسبق الفرنجَ وَيُرِدُّهم . وكذلك كان يقصد العربْ من جهة البَرِّيَّة . وكان قد منع النساء أن يَخْرُجْن من باب حِمص ، مدة ولايته . وكان إذا اعتقل إنساناً أطال حَبْسَه . وملك بعده حمص ولدُه الملك المنصور إبراهيم .

ذكر وصول رسل الخليفة إلى السلطان الملك العادل بالتَّشارِيف

وفى ثامن عشر شهر رمضان ـ سنة سبع وثلاثين وستمائة ـ وصل الشيخ محيى الدين بن الجَوْزِى ـ رسول الخليفة ـ وفَلَك الدين المَسِيرى ، بخلَع الخليفة إلى السلطان الملك العادل ، ولوَلَدِه . ولُقِّب ولدُه ـ الملك المغيثُ ـ من الدِّيوان العَزِيز بألقاب الملك الكامل جدِّه ، وسُمِّى باسمه ، ثم انْتَقَض ذلك ، وأعيد إلى ألقابه الأُوَل ، وهى الملكُ المغيث فتحُ الدين عمر .

---

(١) هو نهر العاصى المعروف ، الذى يخرج من بحيرة قَدَس بالقرب من حمص ، ويسير شمالا إلى حَماه (ولذلك يسمى أيضاً نهر حماه) ، ثم يستمر حتى إنطاكية .

ووصلت الخلَعُ أيضاً لجماعةٍ من الأمراء ، وخِلْعة للوزير ـ ولم يكن للسلطان الملك العادل وزير ـ فرُسِم بنقل خلعة الوزير إلى الخِزانة العادلية . وكانت جملة الخلَع ثمانى عشرة خِلْعة . وسُيِّر للسلطان مع خِلعته فرس له سَرْجٌ مشغول بالذهب ، وَعَلمان ، وسيفان ، تقلد بهما عن اليمين والشمال . فلَبِس السلطانُ الخِلْعة بظاهر القاهرة ، وشَقَّ البلد .

ثم اتصل بالملك العادل أن الملك الصالح قد أُطْلِق من حَبْسه بالكَرَك ، وأنه قصد نابُلُس ، وخُطِب له بها . فخرج من القاهرة فى يوم السبت الخامس من شوال ، ونزل على بلبيس ، فأقام بها ، إلى أن قبض الأمراء عليه .

ذكر القبض على السلطان الملك العادل وخَلْعِه

وفى يوم الجمعة ، لثمان مَضَيْنَ من ذى القعدة ، سنة سبع وثلاثين وستمائة ـ وقيل لسبع بقين من شوال ، منها ـ قَبَضَ الأمراءُ على السلطان الملك العادل ، وخَلَعُوه .

وذلك أن الأمير عز الدين أَيْبَك الأسمر ـ مُقَدَّم الأشْرَفِيَّة ـ ومُقَدَّمى[1] الحَلْقَة ، وهم : الطَّواشى مسرور الكامِلى ، وكافور الفائِزى ، وجوهر النُّوبِى ، وجماعةٌ من الحَلْقَة ـ اتفقوا على خَلْعِه ، والقبضِ عليه ، واستدعاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب . فخلَعوه وقبضوا عليه . فكانت مدة سلطنته سنتين ، وثلاثة أشهر ، وثمانية عشر يوماً .

---

(١) فى (ع) : ومقدمين الحلقة . ومثل هذا يتكرر .

ولما قُبِض على الملك العادل ، رَكِبَ جماعةٌ من الأتراك وقصدوا أمراء الأكراد ، لما كان بينهم من الذُّحُولِ[١] التى أثَّرَتْها وقعةُ بلبيس . وكان الأكراد على غير أُهْبة ، فنهبهم الأتراك . ووافقهم ممالك الأكراد على أُستاذِيهم[٢] ، ومالوا للأتراك للجِنْسِيَّة ، فاستولى الأتراكُ على خيامهم وأثقالهم وخيولهم . وانهزم الأكراد ، كلٌّ منهم على فرس ، ودخلوا القاهرة . وقبض الأمراء على خواصِّ الملك العادل وحُرَفَائِه .

وكان الملك العادل قد اشتغل باللهو والهَزْل واللعِب . وكان لا يُؤْثِرُ قِيامَ نامُوس المملكة . ووَثِقَ بكَرَمه وبذْله الأموال ، وظن أن ذلك يُغْنِيه عن التحفظ . وكان من أكرم الناس وأكثرهم عَطاء ، ودليل ذلك أنه فَرَّق فى مدة سلطنته ما يزيد على ستة آلاف (ألف)[٣] دينار ، وعشرين ألف ألف درهم ، من الأموال التى خَلَّفَها والدُه : السلطان الملك الكامل .

ذكر أخبار السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل ـ وما كان من أمره بعد وفاة أبيه إلى أن ملَك الديار المصرية

كان السلطان الملك الصالح ، لما تُوُفِّىَ والدُه السلطان الملك الكامل ، مُقَيماً بسِنْجَار[٤] ـ وله آمِد وحَرَّان والرُّهَا ، ونَصِيبِين والخَابُور ، ورَأْسُ عَيْن

(١) الثارات .

(٢) أى رؤسائهم : جمع أستاذ .

(٣) الزيادة من النسخة (ع) ، وليست موجودة فى (ك) . ورقم النسخة الأولى هو الصحيح .

(٤) مدينة كبيرة من نواحى الجزيرة ، بينها وبين كلٍّ من الموصل ونصيبين ثلاثة ايام .

والرَّقَّة[٢] ـ من سنة ثلاثٍ وثلاثين وستمائة . وتوفى السلطان الملك الكامل والدِه ، والأمرُ على ذلك .

ثم كان من أخباره مع الخُوارَزْمِيَّة ، ومُفَارَقَتِهم له ، ومحاصرة الملك الرحيم بدر الدين لُؤلُؤ له بسِنْجَار ، واستنصاره بالخوارزمية وعَوْدِهم إلى خدمته ، وهرب بدر الدين لؤلؤ ـ ما قَدَّمْنَاه .

ومَلَك بعد ذلك دمشقَ من الملك الجَوَاد ـ كما تقدم . ولما ملك دمشق ، راسل عَمَّه الملكَ الصالح عماد الدين إسماعيل ـ صاحبَ بعلبك ـ والتمس منه مساعدتَه على قصد الديار المصرية ، وانتزاعها من أخيه الملك العادل . وشَرَطَ له أنه إذا فَتَح الديارَ المصرية تكون له ، وتكون دِمشق للصالح إسماعيل . فأجابه إلى ذلك ، وشرع فى الاستعداد والاستخدام والاحتِشَاد .

فاتصل ذلك بالملك العادل ووالدتِه ، فكتبا إلى الملك الصالح إسماعيل ، وكتب إليه بعض الأمراء المصريين ، وهم يَصْرِفُون رأْيَه عن مساعدة الملك الصالح أيوب ، وحَسَّنُوا له أخذ دمشق . فاتفق الصالح إسماعيل ، وصاحبُ حمص على مُخالفةِ الملك الصالح نجمِ الدين .

وخرج الملك الصالح أيوب من دمشق فى شهر رمضان سنة ست وثلاثين وستمائة ، وقَصَدَ نابُلُس ـ وهى فى جُملة مملكة الملك الناصر داود ، صاحب الكَرَك ـ فاستولى عليها وعلى بلادها ـ وذلك فى شوال من السنة . وتوجه الملك الناصر داود إلى الديار المصرية ـ كما تقدم .

---

(١) سبق تحديد هذه الأماكن من قبل ، وكلها فى بلاد الجزيرة (أى شمال العراق) .

وأقام الملك الصالح نجم الدين بنابُلس ، ينتظر وصولَ عمه الملك الصالح إليه بعَسْكَرِه ، ليتوجها إلى الديار المصرية . وكان بقلعة دمشق الأمير ناصر الدين القَيْمُرِى ، ينوب عن الملك الصالح ، فاتصل به خبر الملك الصالح إسماعيل وما عَزَم عليه . فكتب إلى الملك الصالح أيوب ، يُعْلِمُه أن عمه الصالح إسماعيل قد عزم على مخالفته ، واستَخْدَم الرجال لذلك ، وحَذَّره منه مَرَّةً بعد أخرى . ووَالَى كُتُبَه إليه ، وهو لا يكترثُ بقوله . فلما كرر كُتُبَه بذلك ، أجابه : إن مِقْرَعَتى إذا وقعت فى فَلاَةٍ لا يقدر أحدٌ أن يَمَسَّها بيده ، ولا يتجاسر عليها ! فلما وقف على جوابه كَفَّ عنه .

وكان الملك المسعود بن الملك الصالح إسماعيل فى خدمة الملك الصالح أيوب ـ هو والأمير ناصر الدين بن يَغْمُور ـ فتواترت كتبُ الملك الصالح إلى عمه الصالح يستحثه على اللحاق به . وهو يتقاعدُ عنه ، ويُجيبه إننى لا يمكننى إخلاء قلعة بعلبك بغير حافظ ، والقصد إرسال ولدى إلىَّ لأجعله بها ، وأحضر إليك . فعند ذلك جَهَّزَ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب الحكيمَ سعدَ الدين بن صَدَقة المَعَرِّى ، إلى عمه الملك الصالح ، برسالةٍ ، ظاهِرُها استحثاثه على سرعة الوصول إليه ، وأَمَرَه أن يطالعه بما يظهر له من أحوال عمه ، وهل هو على الطاعة أو العصيان .

فلما وصل الحكيمُ إلى بعلبك ، اطلع على ما اتفق عليه الصالح إسماعيل وصاحب حمص : من قصد دمشق ، وانحرافهما عن الملك الصالح . فكان يكتب إليه بذلك ، ويدفع البَطَايِقَ إلى البَرَّاج ليرسلها على الحَمَام ، فيَرْصُدُه الصالح إسماعيل ويأخذها منه ، ويُغَيِّرُها بخط أمين الدولة السامِرِى ،

بما معناه أن الملك الصالح إسماعيل مُحِبٌّ فى السلطان ، وقد استَخْدَم واحتَفَل ، وهو على عَزْم القدوم إلى السلطان . فتصل هذه البطايِق المُزَوَّرَة إلى الملك الصالح أيوب ، فلا يشك أنها صحيحة . فعند ذلك أرسل الملكَ المسعودَ إلى أبيه ببعلبك ، وقد طابت نفسه ووَثِقَ [أن عمه] معه .

فلما حَصَل ولَدُه عنده ، سار من بعلبك ، وسار صاحبُ حمص من حمص ، وتوافوا بجبل قاسيون . وكان جملة من استَخْدَمَ الملكُ الصالح إسماعيل ألفَ فارس وأحد عشر ألف راجل . واستخدم صاحب حمص أربعةَ آلاف راجل . وتقرر بينهما أن يكون ثلثا دمشق وأعمالها للملك الصالح إسماعيل ، والثلث لصاحب حمص . وكان الصالح اسماعيل قد أفسد بعض أمراء الصالح أيوب . كل ذلك والأميرُ ناصر الدين القَيْمُرى يَطَّلِعُ عليه ، ويُطَالِع به الملكَ الصالح أيوب ، وهو لا يلتفت إليه ، ولا يرجع إلى نصحه .

ذكر استيلاء الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ـ على دمشق

قال : ولما تكامل للملك الصالح ما أراد من الاستِخْدام والاحْتِشَاد ، ووافقه صاحبُ حِمص ـ المِلِكُ المجاهد أسدُ الدين شِيركوه ـ راسَلَ الأميرَ ناصر الدين القَيْمُرى النائبَ بقلعة دمشق ، وبذل له عشرةَ آلاف دينار على تسليم القلعة . فوافقه على ذلك ، ووقع منه بموقِع ، لأنه كان قد كرَّرَ نصائِحه لمخدومه الملك الصالح ـ نجم الدين أيوب ـ وحذَّره ، فما رَجَعَ إليه ، وأجابه بما تقدم ذكرُه . فحَمَلَه ذلك على موافقةِ الملك الصالح عماد الدين ، وتَفرَّرَ

بينهما أن الصالحُ يحاصِر قلعةَ دمشق ثلاثة أيام ، ويُسَلِّمُها إليه ، ففعل ذلك . ودخل إلى دمشق فى يوم الثلاثاء ، سادس أو سابع عشرين صفر ، سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وكان دخوله من باب الفَرَادِيس ، من غير مُمَانَعَة ، فإنه لم يكن عليه مَن يَدْفَعُ عنه ، ولا عن البلد . ونزل الصالح بداره بدرب الشَّعَّارِين . ونزل صاحب حِمص فى داره . وزحفوا فى يوم الأربعاء ثامن عشرين الشهر على القلعة ، ونَقَبُوها من ناحية باب الفَرَج ، وقاتل عليها ثلاثة أيام ، وتَسَلَّمَها من القَيْمُرى ـ كما تقرر بينهما وكان بها الملكُ المُغِيث : جلال الدين عمر بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاعتقله الملك الصالح إسماعيل عم أبيه فى بُرْجٍ بالقلعة .

واتصل الخبرُ بالملك الصالح أيوب ، وهو بمُخَيَّمِه بظاهر نابُلس ، وقيل له : إن القلعة ما أُخِذَتْ . فاستحْلَفَ عسكرهَ ، وخَلَع على عَمَّيْه : مجيرِ الدين وتقىِّ الدين ، والرُّكْن والتُّمَيْس وغيرهم ، وأعطاهم الأموالَ واستشارهم . فقالوا : نتوجه إلى دمشق قبل أخذ القلعة . فركب بهم من نابُلس ، فلما انتهوا إلى القُصَيْر[1] المُعِينى بالغَوْر[2] أَنْفَقَ فى عسكره ، وجَدَّد

(١) فى عدة مواضع . منها قُصَيْر مُعِين الدين ، وهو بالغَوْر ، من أعمال الأردن ، يكثر فيه قصب السكر . (معجم البلدان : جـ ٧ ـ ١١٥)

فهذا هو القُصَيْر المُعِينى .

(٢) يكثر ذكره فى المتن ، لوقوع بلدان ومواضع كثيرة فيه .

فالغَوْر ـ لغة ـ هو المنخفض من الأرض . والمراد به ـ جغرافيا ـ هو غَوْر الأردن بالشام ، بين البيت المقدس ودمشق . وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سُمِّى الغور . طول مسيرة ثلاثة أيام وعرضه يوم . فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة . وأشهر بلاده بَيْسان بعد طَبَرِية ، ومن قراه أريحا . وعلى طرفه (فى الشمال) بحيرة طبرية ، وعلى طرفه (الجنوبى) البحيرة المنتنة (البحر الميتُ) .

(معجم البلدان : جـ ٦ ـ ص ٣١٢)

عليهم الأَيْمانَ وقت صلاة المغرب . وبلغهم أن قلعة دمشق قد استولى عليها الصالح إسماعيل .

فلما كان فى نصف الليل ، رحلوا عنه بأجمعِهم ، وتركوه وليس معه إلا دون المائةِ من مماليكه . وتفرق عنه بقيةُ مماليكه وخواصِّه . فرجع يقصد نابُلس ، ومعه جاريتُه أُمُّ ولدِه خَليل : المدعوة شَجَر الدُّرَ . وطَمِعَ فيه حتى الغَوَارنَة [١] والعُشْران [٢] وكان مُقَدَّمهم رجل شيخ جاهل ، يقال له تبل [٣] من أهل بَيْسَان ، قد سفَكَ الدماء ورَكِبَتْ الجيوشُ بسببه مِراراً ، فتَبِعَه بمن معه . وقد توجه الملك الصالح على طريق جِينِين يريد نُابُلس ، والغَوَارِنَة والعُشْرَان يتبعونه ، وهو يرجع إليهم ويحمل عليهم بمماليكه فيُفَرِّق جماعتَهم ، وأخذ بعضَ خيولهم ، واستولوا هم أيضاً على بعض ثقله .

ووصل إلى سَبَسْطِيَة [٤] . وكان الوَزِيرِىُّ ـ نائبُ الملك الناصر داود ـ عاد إلى نابُلس ، بعد خروج الملك الصالح منها . فأرسل إليه الملكُ الصالحُ أيوب يقول : إنه قد مضَى ما مضى ، ومازال الملوك على هذه الحال . وقد جئتُ الآن مستجِيراً بابن عمى الملك الناصر . ونزل فى الدار بنابُلس . وكان الملك الناصر داود قد عاد من الديار المصرية على غير رضا ، ووصل إلى الكَرَك . فكتب إليه الوَزِيرِىُّ يخبره بخبر الملك الصالح نجم الدين أيوب .

---

(١) يظهر ان المقصود بهم : اهل الغور .

(٢) هكذا فى (ع) . ويبدو أن المراد بهم العربان البدو ، من العشائر ، سكان هذه الجهة . وورد ذكر «عشران» فى صبح الأعشى (جـ ٤ ـ ٩٩) على أنهم بدو البرية القريبة من غزة .

(٣) قراءة فى النجوم الزاهرة : «مسبل» .

(جـ ٦ ـ ص ٣٠٧)

(٤) سبق ذكرها ، وهى من أعمال نابلس .

ذكر القبض على الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتقاله بقلعة الكَرَك

قال : ولما وصل كتاب الوَزِيرِىّ إلى الملك الناصر بالكَرَك ، ندب الأميرَ عماد الدين بن مُوسك ، والظَّهِير بن سنْقُر الحلَبى ، فى ثلاثمائة فارس إلى نابُلُس . فركب الملك الصالح أيوب وتلقاهم . فخدموه وقالا له : طيِّبْ قلبَك . إنما جِئْتَ إلى بيتِك . فقال : لا ينظر ابنُ عمى إلى ما فعلتُ . فمازال الملوك على هذا . وقد جئتُ إليه ، أستجيرُ به ، فقالا له : قد أجارَك ، ولا بأس عليك . وأقاموا أياماً حول الدار .

فلما كان فى بعض الليالى ، ضُرِب بُوق النَّفِير ، وقيل جاء الفرنج إلى الظَّهْر . فركب الناس وركب مماليكُ الملك الصالح ووصلوا إلى سَبَسْطِيَة . فجاء عماد الدين والظَّهِير والعسكر إلى الدار التى بها الملك الصالح . ودخل الظَّهِير عليه ، وقال له : تَتَوَجَّه إلى الكَرَك . فإن ابنَ عمك له بك اجتماع . وأخَذ سيفَه . وكانت جاريتُه حامِلاً ، فأسْقَطَتْ . وأخذوه ، وأركبوه بغلة ، بغير مِهْمَازٍ فى رجله ، ولا مِقْرَعَةٍ فى يده ـ وذلك فى ليلة السبت ، لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول ـ وتوجهوا به حتى وصلوا إلى الرَّيَّة[1] .

قال أبو المظفر : إن الملك الصالح أخبره . قال : إلى الرَّيَّة فى ثلاثة أيام ، واللهِ ما كلَّمْتُ أحداً منهم كَلِمة . ولا أكلْتُ لهم طعاماً . حتى جاء خطيبُ الرَّيَّة ومعه بُرْدَة وعليها دَجاجَة . فأكَلْتُ منها ـ قال : وأقاموا بالرَّيَّة

(١) هكذا فى كلتا النسختين (ع) و(ك) . ورسمها فى النجوم الزاهرة « الموته » . وقد ورد ذكر « الريه » فى معجم البلدان فى مادة (زغر) (جـ ٤ ـ ٣٩٣) وقال: إنها فى جنوب البحر الميت بجنوب الأردن من أعمال الكرك .

يومين ، وما عَلِمْتُ المقصودَ بى ما هو؟ وإذا هم يريدون أن يأخذوا طالِعاً نَحْساً ، يقتضى أن لا أخرج من الكَرَك . ثم أدخلونى الكَرَك ليلا ، على الطالع الذى كان سبب سعادتى . ووَكَّلَ بى الناصرُ مملوكاً له فظاً غليظاً ، يقال له زُرَيْق وكان أَضَرَّ علىَّ من كلِّ ما جَرَى .

قال : فأقمتُ عندهم إلى شهر رمضان ، سبعة أشهر - يعنى من سنة سبع وثلاثين . وحَكَى الملكُ الصالح له ما ناله من الضائِقة والشِّدة والإهانة شيئاً كثيرا .

ولما توجهوا به إلى الكَرَك ، جهز الوَزِيرِىُّ خِزانته ونساءه ، وخيله وأسبابه ، إلى الصَّلْتِ[1] . وعاد مماليك الملك الصالح فلم يجدوه ، فتفرقوا وأما عسكره الذى فارقه من منزلة القُصَير[2] - فانهم توجهوا إلى دمشق . فمنعهم الصالح من الدخول إليها ، وقال : هذه بلدُ الملك العادل فلا تدخلوها إلا بإذنه . ثم استَخْدَم بعد ذلك جماعةً منهم ، وطَرَدَ طائِفةً واعْتَقَل طائفة .

وزُيِّنَتْ مِصرُ والقاهرة للقبض على المِلِك الصالح شهراً . وعملت والدةُ الملك العادل الوليمةَ التى ذكرناها . وأرسلت القاضىَ الشريف شرف الدين موسى ، والعلاءَ بن النابلسى ، إلى الملك الناصر ، بقَفَص حديد ، لِيَجْعَل فيه الملكَ الصالح ، ويُرْسِلَه معهما إلى الديار المصرية ! وبَذَلَتْ فيه للملك الناصر مِائةَ ألفِ دينار . وكاتبه الصالحُ إسماعيل وصاحبُ حِمص ، فى

---

(١) بلدة فى الأردن جنوب عجلون ، آهلة ذات بساتين وفواكه (صبح الأعشى : جـ ٤ - ١٠٦)

(٢) سبق ذكر «القصير المعينى»

إرسالِه إلى دمشق . وبَذلَ الصالح إسماعيل فيه للناصر رُبْع دمشق . فما أجاب الناصرُ إلى ذلك

وقيل : كان السبب فى امتناع الملك الناصر من تسليمه ، لمن بذل فيه ما بَذَل ، أن الصالح أيوب كان قد أرسل جمالَ الدين بن مطروح ـ الكاتب ـ إلى الخُوارَزْمِيَّة فى الحضور إليه ، لمحاصرة دمشق . فتوجَهَ لذلك . فلما قُبِض على الصالح ، أرسل ابنُ مطروح رسولاً على النُّجُب إلى الملك الناصر ، يقول له : إن فَرَطَ فى الملك الصالح أَمْرٌ ، فاعْلَمْ أن الخوارزمية لا يُبْقُون لك فى البلاد قَمْرَ قَصَبة ، فقد حَلَفوا على ذلك .

وقيل إن والدة الملك الناصر اهتمَّتْ بأمر الملك الصالح ، وخَدَمَتْه أتم خِدمة ، وتولت ذلك بنفسها ، وكانت تطبخ له بيدها . وحَلَفَتْ على وَلَدِها أنه إن فَعَل به ما يكره ، لا أقامت عنده . وقالت له : ما مَلَّكَنَا البلادَ ، وجَعَلَنَا فى هذا الحصن إلا والدُه ـ تعنى : الملكَ الكامل . فتوقف عن إرسالِه . والله أعلم .

ذكر إطلاق الملك الصالح من الاعتقال بالكرك ، وما كان من أمره إلى أن مَلَك الديار المصرية

قال : ولما كان فى أواخر شهر رمضان ، استشار الملكُ الناصر داود الأميرَ عمادَ الدين بن مُوسَك ، وابن قِلِيج ، والظَّهِيرَ ، فى أمر الملك الصالح . فوقع الاتفاق على تحليفه وإخراجِه . فاجتمع الناصرُ والصالحُ وتحالفا ، وأفرج عنه وذلك فى أواخر شهر رمضان ، سنة سبع وثلاثين وستمائة . ولما أخرجه الناصرُ من اعتقاله ، رَكَّبَه بالكَرَك بشِعار السَّلْطَنَة ، وحَمَلَ الغَاشِيةبين يديه ، وأظهر الناصرُ الخلافَ على الملك العادل .

وحَكَى عمادُ الدين بن شَدَّاد ـ فى سبب خلاص الملك الصالح ـ أن الملك العادل كان قد حَلَّفَ الناصرَ ، وحَلَفَ له على الاتفاق واجتماع الكلمة على قتال الملك الصالح ، وأن تكون دمشق إذا فُتحت للملك الناصر . فلما اتفق هجوم الملك الصالح إسماعيل على دمشق ، وأَخَذَها ، أرسل إليه الملك العادل يُصَوِّبُ رأيه ، وَيشْكُر فِعْلَه . فعَظُمَ ذلك على الملك الناصِر ، وكان سببَ خلاص الملك الصالح .

وحكى أبو المظفر يوسف سِبط ابن الجَوْزِى ، فى كتابه : «مِرْآة الزمان» أن الملكَ الصالح نجم الدين أيوب أخبره ـ بعد أن مَلَك الديار المصرية ـ قال : حَلَّفَنى الناصرُ على أشياء ، ما يَقْدِر عليها ملوكُ الأرض ، وهو أن آخذ له دِمشق ، وحِمْص ، وحَماه وحلَب ، والجَزيرة والمَوْصِل وديارَ بكر ، وغيرَها ، وأن يكون له نِصفُ الديار المصرية ، ونِصفُ ما فى الخزائن : من الأموال والجواهر والخيول والثياب وغيرها . فحَلَفْتُ من تحت القَهْرِ والسيف .

وقد شاهَدْتُ أنا بعض نسخةِ اليَمين عند المَوْلَى الملكِ العَزِيز : فخر الدين عثمان ، بن الملك المُغِيث فتح الدين عُمر ـ صاحب الكَرَك ـ كان بالقاهرة ـ وفيها أشياء كثيرة من هذا النَّوْع ، وإلْزَامَات ، يَعْلَمُ المُستَحْلِف العاقل أن الحالِفَ لا يَفِى بها ، لكثرتها وخروجها عن حد القُدْرَة البشرية ، وأن النفوس لا تسمح بها لوالد مُشْفِق ، ولا وَلَدٍ بَارّ ، فكيف لابن عَمٍّ عَدُوّ .

قال المؤرِّخ : ولما أطلقه الملكُ الناصر ، رَكِبَ المَلِك الصالح من يومه ، وسار إلى نابُلُس . فوصل إليها فى يوم السبت ، تاسع عشرين الشهر ، وخُطِبَ له بها يومَ عيد . ونَثَر ابنُ مُوسَك على الخطيب والناس الذهب . وخرج الرُّكْنُ الهَيْجَاوِى إلى الديار المصرية ، فأرسل إليه الملك العادل يأمره بالإقامة على بلبيس ، إلى أن تصل إليه العساكر . ثم خرج الملكُ العادلُ بعساكره ـ فى خامس شوال ـ لقتال أخيه الصالح ، فقَبَضَ الأمراء عليه ـ كما قَدَّمْنا .

ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية وهو السلطان الثامن من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية

قال المؤرِّخ : لما قَبَض الأمراءُ الذين قدمنا ذكرهم على الملك العادل ، كتبوا إلى الملك الصالح يستدعونه ، فسار لوقته .

وكان وصوله ـ والملك الناصر داود ـ إلى بِرْكةِ الحُبِّ[1] ، فى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى القعدة ، سنة سبع وثلاثين وستمائة . فنزل فى خَيْمة الملك العادل ـ والملك العادلُ معتقل فى خَرْكَاه[2] .

(١) سبق ذكرها ، وهى على مرحلة من القاهرة شرقيّها ، وهى المعروفة ببركة الحاج (تابعة الآن لمحافظة القليوبية) .

(٢) لفظ فارسى . خيمة أو مظلة من نوع خاص ، تتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتغطيها قطع من اللبد .

واستدعى الملك الصالح مُعينَ الدين بن شيخ الشيوخ ، واستوزره ، ورد إليه النظرَ فى الدواوين . وأقام ببِرْكَةِ الجُبِّ إلى يوم الأحد ، لستٍّ بقين من الشهر . فركب وصعد إلى القلعة فى الثالثة من النهار ـ وذلك باتفاق المُنَجِّمِين .

واعتَقَل أخاه الملك العادل فى بعض آدُر القلعة . وبقى ابنُه الملك المُغيث ـ فتح الدين عمر ـ فى خدمة عمه السلطان الملك الصالح مدة ، ثم رأى منه نَجابةً فحَجَبه فى الدار القُطْبِيَّة ، عند عمته ابنة السلطان الملك العادل ، أختِ الملك الكامل . فلم يزل الملك المغيث بها ، إلى أن مات عمه الملك الصالح وَملَك ابنه الملكُ المعظم ، فنقله إلى الشَّوْبَك واعتقله بها . وكان من أمره ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى .

وفى الثامن والعشرين من ذى القعدة ، من السنة ـ تقدم أمرُ السلطان بتجريدِ جماعةٍ من الأمراء والعساكر إلى الأعمال القُوصِيَّة ، لإصلاح العُرْبَان بالوجه القبلى . وجَعَل المُقَدَّم عليهم الأمير زين الدين بن أبى زكرى .

ذكر عَوْد الملك الناصر داود إلى الكَرَك

كان عَوْدُه إلى الكَرَك فى ذى الحجة ، من السنة .

وسببُ ذلك أنه اجتمع هو والسلطانُ الملك الصالح ، بقلعة الجبل على شراب ، فلما جَنَّهُم الليلُ وأخذ منهم الشرابُ ، قال الملك الناصر للسلطان : أَفْرِجْ عن أخيك الملك العادل فى هذه الساعة . فلاطَفَه الملكُ الصالح ، وهو يكرر عليه القول ! وكان آخر كلام الملك الناصر أن قال للسلطان : لو غسلتَ رِجْلَىَّ وشَرِبْتَ ماءهما ، ما أدَّيْتَ حَقِّى ! فأمر السلطان مماليكَه بإخراجِه .

فأخرجوه وركّبوه إلى الوزارة . فلما أصبح ، سأل عما كان منه ، فأُخْبِرَ به . فقال : ما بقى لنا مُقَام فى هذه الديار . وأحضر النُّجُبَ ، وعمل عليها الأَخْرَاج ـ وفيها ما كان معه من الأموال ـ وهَمَّ أن يركبَها . فبينما هو يتهيأ للركوب ، إذْ حضر إليه الأمير : عز الدين أَيْدُمَر الجَمَدَار[1] الصالِحى ، ومعه عشرة آلاف دينار ، وعشرة أفراس وخلَع ، وقال له : يقول لك السلطان : هذه ضِيافة ، خُذْها وامضِ إلى بلادك . فأَخَذَها ، وركب من وقته ، وسَلَك طريقَ البَرِّيَّة . ثم ندِم السلطان على إطلاقه ، وكونِه ما قَبَض عليه ليأمن شره .

وقيل : إن السبب عَوْدِه أن الملك الصالح إسماعيل راسل الفِرِنْجَ ، فى قصد بلاد الناصر . فتوجهوا إلى نابُلُس ، فقاتلهم أهلها وهزموهم ، فرجعوا إلى بلادهم . فعاد بسبب ذلك . هذا ما حكاه ابن جلب راغب ، فى تاريخه ، فى سبب عَوْد الملك الناصر .

وحَكَى أبو المظفر يوسف ، فى «مرآة الزمان» ، عما أخبره به الملك الصالح نجم الدين ـ من لفظه ـ عندما حضر إليه فى سنة تسع وثلاثين وستمائة ، عن وقائع اتفقت له ، بين خروجه من اعتقال الملك الناصر إلى أن مَلَك ورجَعَ الناصر .

---

(١) يتكون هذا اللفظ من كلمتين فارسيتين : جاما ، ومعناها الثياب ، ودار ومعناها صاحب . فمعنى اللقب . صاحب الثياب ، فوظيفة حامل هذا اللقب فى الأصل : الإشراف على خزانة الأثواب أو الملابس السلطانية ، وما يتعلق بذلك .

(صبح الأعشى : جـ ٥ ـ ٤٥٩)

منها أنه قال : واللهِ لم أُحْضرْ الملكَ الناصر معى إلى الديار المصرية ، إلا خَشْيَةَ أن يكون قد عَمِلَ عَلَىَّ . ومنذ فَارَقْنَا غزَّة ، تَغَيَّرَ علىّ ولاشك أن بعض أعدائى أطمعه فى المُلْك . فَذَكَرَ لى جماعةٌ من مماليكى أنه تحدث معهم فى قَتْلى . قال : ومنها أنه لما أخرجنى نَدِم ، وعَزَم على حَبْسى ، فرمَيْتُ روحى على ابن قِلِيج ، فقال : ما كان قصدُه إلا أن نتوجه إلى دمشق أولاً ، فإذا أخذناها عُدْنَا إلى مصر .

ومنها أنه لما وصلنا إلى بلبيس ، شرِب وشَطَح إلى العادل ، فخرج العادل من الخَرْكَاه[1] وقَبَّلَ الأرض بين يديه ، فقال له : كيف رأيتَ ما أشرتُ به عليكَ ، ولم تَقْبَلْ مِنِّى ؟! فقال : يا خُونْد[2] ، التَّوْبَة . فقال طَيِّبْ قلبَك ، الساعةَ أُطْلِقُك . قال الصالح : وجاء فدخل علينا الخَيْمة ، ووقف . فقلت له : باسم الله اجْلِسْ . فقال : ما أجلسُ حتى تُطْلِقَ العادل . فقلت : اجْلِسْ ـ وهو يكرر هذا القول . ثم سكت . ولو أطلقتُه ضُرِبَتْ رِقَابُنَا كُلُّها

ثم نام وما صَدَّقْتُ بنومه . وقمتُ فى بقية الليل ، وأخذت العادل فى مَحَفَّة ، ودخلتُ به إلى القاهرة . قال : ولما دخلنا القاهرة ، بعثت إليه بعشرين ألف دينار ، فعادَتْ لى مع مماليكى . ومنها أنه قال فى بعض الأوقات : قَبِّلْ قَدَمَىَّ ورِجْلَىَّ ـ إلى غير ذلك ، مما لا تصبِر عليه النُّفُوس .

---

(١) سبق شرحها نوع من الخيام أو المظلات

(٢) سبق شرحها وهى بمعنى سيد أو أمير

ذكر عدة حوادث وقعت فى سنة سبع وثلاثين وستمائة ـ خلاف ما قدَّمناه

فى هذه السنة ـ فى شهر ربيع الأول ـ أُخرِج الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق ، إلى تربته شمالىّ حائط الجامع الأموى ، وفُتِح فى الحائط ثلاث شبابيك إلى الجامع : أحدها باب يُتَوَصَّلُ منه إلى الجامع .

وفيها فَوَّضَ السلطان الملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ الخَطابةَ بالجامع الأموى لشيخ الإسلام : عِزِّ الدين عبدالعزيز بن عبدِالسلام ـ وذلك فى شهر ربيع الآخر .

وفيها أَمَر الملكُ الصالح ـ المذكور ـ الخطباءَ بدمشق والشام ، بالخُطبة لصاحب الروم .

وفيها فَوَّضَ الصالحُ ـ أيضاً ـ قضاء الشام للقاضى : رفيع الدين أبى حامد ، عبد العزيز بن عبدالواحد ، بن إسماعيل بن عبدالهادى بن عبدالله الجِيلى [1] الشافعى ـ وكان قبل ذلك قاضى بعلبك . وظهر منه من سوء السِّيرة والعَسْف والظلم ، ومُصَادَرات أرباب الأموال ، مالا يَصْدُرُ مثلُه من ظَلَمَةِ الوُلاة . وكانت عاقبة ذلك ما نذكُره ـ إن شاء الله تعالى ـ من قَتْلِه .

وفيها ، فى ليلة الثلاثاء خامس عشر ذى القعدة ، سقط كوكَبٌ عظيم قبل طلوع الفجر بمنزلة ، وكان مستديراً على هَيْئَةٍ ومِقْدَار ، فأضاءت منه

(١) نسبة إلى بلاد الجيل ، وهى على الساحل الجنوبى الغربى لبحر قزوين بجوار بلاد الديلم .

الدنيا ، وصارت الأرض أشدَّ نوراً من ليلة التَّمَام . وشاهده من كان ببلبيس عابِراً عليها آخذاً من المشرق إلى نحو القِبلة ، وشاهده من كان بظاهر القاهرة ، عابِراً من جهة باب النَّصْر إلى صَوْب قلعة الجبل . ثم قَطَعَ البحرَ إلى ناحية الجَزيرة ، وكانت له ذُؤابَة طويلة خضراء ، مبتورةٌ قَدْرَ رُمْحَيْن . واعْتَقَبَهُ رَعْدٌ شديد ، وتَقَطَّعَ منهِ قِطَع . وأقام ، من حينِ إدراك النَّظَر له حين انطفائه ، بقدر ما يقرأ الانسانُ سورة الإخلاص ثلاثين مرة ـ هكذا قَدَّرَهُ من شاهَدَه ـ على ما نُقِلَ إلينا .

وفيها فى شعبان ـ كانت وفاة قاضى القضاء ، شمس الدين أحمد ، ابن الخَليل بن سَعَادة بن جعفر بن عيسى ، الخُوَيِّى[1] الشافعى ، بالمدرسة العادِلية ، بدمشق ، ودفن بقاسِيون . ومولده فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وكان ـ رحمه الله تعالى ـ حسن الأخلاق ، لطيفاً كثير الإنصاف ، عالماً فاضلا فى علوم متعددة ، عفيفاً متواضعاً ـ رحمه الله تعالى .

وكان ورُودُه إلى دمشق ، فى أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى ، ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب . وحُكِى أنه لما ورد إلى دمشق ، كان مع فَضيلته وعلومه يلعبُ بالقانون ، ويُغَنِّى عليه ، وقد أتقنَ صِناعتَه . فأُنْهِيَ إلى الملك المعظم أمرُه ، فاستحضره إلى مجلس أُنْسِه ، ولَعِبَ بين يديه بالقانون ، وغَنَّى عليه ، ونادمَه فأعجبه . وأمره بملازمته فى أوقات خَلواته ومجالس شرابه . هذا سبب اجتماعه بالملك المعظم .

---

(١) نسبة إلى «خوى» وهى بلدة قديمة بأذربيجان ، مشهورة بالثياب التى تنتسب إليها سبق ذكرها

وأما سببُ ولايته القضاء بدمشق ، فإنه كان قد بلغ الملكَ المعظمَ عن القاضى جمال الدين المِصرى ـ قاضى قضاةِ دمشق ـ أنه يتَعاطى الشراب . فأراد تحقيقَ ذلك عَيَاناً ، فاستدعاه ، وهو فى مجلس الشراب ، فحضر إليه . فلما رآه قام إليه ، وناوله هَنَّاباً[1] مملوءاً خَمْراً . فولى القاضى جمال الدين المصرى ورجع ، فغاب هُنَيْهَة ، ثم عاد وقد خَلَعَ ثِياب القضاء : الطَّرْحَة[2] والبَقْيَار[3] والفَوْقَانِيَّةِ[4] ، ولبس قَبَاءً[5] ، وتعمَّمَ بتْخفيفه وحَمَلَ مِنديلا . ودخل على الملك المعظم فى زى النُّدَمَاء . وقَبَّلَ الأرضَ ، وتناول الهَنَّاب من يده وشرِب ما فيه . ونادم المعظمَ فأحسن مُنَادَمَتَه فأعجبه . واعتذر من قراره أنه ما كان يمكنه تعاطى ذلك ، وهو فى زِىِّ القُضاة . فاغْتَبَط الملك المعظم به .

---

(١) الهَنَّاب : قدح للشراب . وهذا اللفظ يوجد فى اللغات الأوربية أيضاً .
(أنظر سلوك ـ زيادة جـ ١ ص ٦٠٧ حاشية ٣)

(٢) كانت من ملابس القضاة . قال فى «صبح الأعشى» : «ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره» .
(جـ ٤ ـ ٤٢)

(٣) عمامة كبيرة من زى القضاة . جاء فى نفس المصدر السابق : «فالقضاة والعلماء يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية» .
(جـ ٤١ ـ ٤٢)
وهى كلمة فارسية ، فسرها دوزى بما تقدم
(سلوك ـ جـ ١ ـ ٥٥)

(٤) كانت من زى القضاة أيضاً ، يلبسونها فى الشتاء . جاء فى المصدر السابق : «وإن كان شتاء ، كان الفوقانى من ملبوسهم (أى القضاة) من الصوف الأبيض الملطى . ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم»
(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ٤٢)

(٥) المراد أنه لبس ثياب الجند ، أو غير رجال الدين .

ولما انقضى مجلسُ الشراب ، ورجع المعظم إلى حِسِّه ، علم أنه لا يجوز له أن يُقِرَّه على ولاية القضاء ـ وقد شاهَدَ من أمره ما شاهَد . ففوَّضَ القَضاءَ للقاضى شمس الدين الخُوَيِّى ، وخَلَعَ عليه . وجلس للحكم بين الناس ، وأحسنَ السِّيرة . وانقطع عن مجلس الملك المعظم وحضوره ، إلا فى أوقات المواكب ، على عادة القضاة .

واستمر على ذلك مدة . ثم ذكره الملك المعظم واشتاق إلى مُنادَمته ، وسماع قانونه . فاستدعاه وتحدث معه ، واستَوْحَشَ منه . ثم كلمه فى الحضور إلى مجلس الأُنْسِ معه ، فى بعض الأوقات ، وأنه لا يُخْلِيه منه جُمْلةً ، وتلطف به فى ذلك . فأجابه عن ذلك ، بأن قال : إذا أَمَرَ السلطان ـ أعزَّه الله بهذا ـ امتثلْتُ أمرَه ، وفَعَلْت . ولكن يكون هذا بعد عَزْلى عن منصب القَضاء والحكم بين الناس ، وتولية قاضٍ غيرى . فإننى لا أجمع بين منصِب القضاء وما يُضَادُّه أبداً ، لما يترتب على ذلك من فساد عقود أنكحة المسلمين ، ويتعلق ذلك بِذمة السلطان . فإنْ أَحَبَّ السلطانُ ذلك ، فَلْيُولَّ قاضٍ غيرى .

فأعجب الملكَ المعظم ذلك منه ، وسُرَّبِه ، وقال : بل نُرَجِّحُ مصلحة المسلمين على غرضنا . واستقر على القضاء . وما سُمِع عنه بعد ولائه القضاء ما يَشِينه فى دينه ولا يَغُضُّ من منصِبه ـ رحمه الله تعالى .

واستهلَّت سنة ثمان وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر ، رَتَّبَ السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب دارَ العدل . وجَعَلَ افتخارَ الدين ياقوت الجمالى نائباً عنه بها . ونُصِب معه شاهدان من العُدُول ، وجماعةٌ من الفقهاء ، منهم :

الشريف شمس الدين الأُرْمَوِى[١] نقيب الأشراف ، والقاضى فخر الدين بن السُّكَّرى ، والفقيه عز الدين . فصار الناس يأتون إليها ، ويتظلمون وتُكْشَف ظُلامَاتهم . وإنما فَعَلَ السلطان ذلك ، لأنه كان غليظَ الحِجَاب ، فاستغنى بذلك عن مواجهة الناس .

وفيها ، فى رابع المحرم ، حَصَلَ الشروع فى بناء القنطرة على الخليج الحاكِمى ـ وهى المعروفة فى وقتنا هذا بقنطرة السَّدّ .

وفيها فى تاسع شهر ربيع الأول ، رَسَمَ السلطانُ بتجهيز زَرَدْ خَانَاه[٢] وشَوَانِى[٣] وحَرَارِيق[٤] إلى القُلْزُم[٥] لقصد اليمن . وجَرَّدَ جماعةً من الأمراء والجند بسبب ذلك ، فى سادس عشر الشهر .

ثم عاد العسكرُ فى خامس شهر رمضان ، بسبب حادثة الأَشْرَفية التى نذكرها . لأنهم بلغهم أن الأشرفية ومن شايَعَهم عزموا على نَهْب العسكر المذكور ـ وكان بِبِرْكَةِ الحَبَشِ . وبَطَلَ التَّجْرِيدُ[٦] إلى اليمن .

---

(١) نسبة إلى أُرْمِية «مدينة قديمة بأذربيجان» ، سبقت الإشارة إليها .

(٢) معناها : بيت السلاح . وقد يقال : السلاح خاناه . وتشتمل على أنواع السلاح : من السيوف والقسىّ العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المانع ، وغير ذلك .
(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ١١)

(٣) ج : شِيَنى . وهى سفينة حربية كبيرة . سبق ذكرها .

(٤) ج حَرَّاقة . وهى نوع من السفن التى كانت تستعمل فى الحرب أو فى السلم .

(٥) هو البحر الأحمر . وهذا اسمه القديم ، نسبة إلى مدينة القُلْزُم التى كانت تقع على رأس خليج السويس ، قرب السويس الحالية .

(٦) أى إرسال جرائد ، أى فرق خفيفة من الجند ، إلى اليمن .

ثم توجه من جملة العسكر ثلاثمائة إلى مكة ، فى أواخر شهر رمضان . فدخلوا مكّة سَلْماً [١] ، فى ذى القعدة ، وهرب من كان بها من العسكر اليمنى .

وفى شهر ربيع الأول من السنة ، قَبَضَ السلطان على الأمير عز الدين أَيْبَك الأسمَر ، والخُدام الذين وافقوه على القبض على أخيه الملك العادل ، وهم : جوهر النُّوبى ، وشمس الخواص سرور ، وكافور الفايزى ، وعلى جماعة من الأتراك والحَلْقَة [٢] ، ونفى جماعةً من الأتراك ، وسيَّرهم مُخَشَّبين فى المراكب نحو الصعيد وبلاد المغرِب ، وأخذ أموالهم وقتل بعضهم . وانهزم بعض الأشرفية ، واختفى بعضهم . وأَمَّرَ السلطانُ مماليكَه ، وأعطاهم الإقطاعات .

وفيها فى يوم السبت ـ تاسع شهر ربيع الآخر ـ وقيل فى خامس عشرة ـ وُلِدَ للسلطان الملك الصالح وَلَدٌ ذَكَر ، من سُرِّيَّتِه : شَجَرِ الدُّرّ ، وسَمَّاه خَلِيلا . ثم مات بعد مدةٍ يسيرة .

وفيها ، فى تاسع شهر ربيع الأول ، صُرِفَ الأمير سيف الدين بن عِدْلاَن ، عن ولاية الصناعة بمصر . ووليها أسد الدين ، بن الأمير شجاع الدين جَلْدَك .

---

(١) بدون قتال .

(٢) سبق شرح هذا اللفظ ، وهم الجنود الثابتون الذين يتقاضون مرتباتهم من ديون الجيش .

وفيها ، فى سابع عشرين شهر ربيع الآخر ، نُقِل الأمير بدر الدين بَاخِل من ولاية مِصر إلى ولاية ثَغْر الإسكندرية . وفيها ، فى سابع شهر ربيع الآخر ، صُرِفَ عن شَدِّ[1] الدواوين عَلَمُ الدين كُرْجى ، ووُلِّى الأمير حسام الدين لُؤْلُؤ .

وفى يوم الاثنين خامس شعبان ، أمر السلطانُ بالشروع فى عمارة قَلْعَة البَحْر ، التى بالروضة . فابتدئ فى حفر أساسها فى هذا اليوم ، وبُنِى فيها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة ، سادس عشر الشهر . وهُدِمَت الدُّور التى كانت بالجزيرة وتَحَوَّلَ الناسُ إلى مصر .

ذكر مَسِير الملك الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق ، منها لقصد الديار المصرية ، وقتاله الملك الناصر صاحب الكَرَك ، وعَوْدِه إلى دمشق

قال المؤرخ : لما اتصل بالملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ ما وقع بمِصر من الفِتَن ، والقبض على الأمراء الأشرفية والخُدَّام وغيرهم ، عَزَمَ على قصد الديار المصرية ، وأطمعته آماله فى الإستيلاء عليها . فتجهز بعساكره ، ومعه الملك المنصور صاحب حِمص ، ونَجْدَةُ من حلب ، وقصد الديار المصرية .

(١) بينا عمل هذه الوظيفة من قبل ، وموضوعها مراقبة حسابات الدواوين .

فبلغه أن الملك الناصر صاحب الكَرَك على حُسْبَان[١] من بلد البَلْقَاء ، فقصده بمن معه . والتقوا واقتتلوا ، فانكسر صاحب الكَرَك . واستولى الصالح إسماعيل على أثْقَالِه ، وأسر جماعة من أصحابه . ثم رحل ونزل على نهر العَوْجَا[٢] ، وطلب الملك الجواد ـ وكان عند الفرنج ـ فحضر إليه . واستنصر بالفرنج ، فكتب الجواد إليهم يحذرهم منه . فوقع كتابه للصالح ، فقبض عليه واعتقله ـ كما ذكرنا ـ وعاد إلى دمشق ، وتفرقت العساكر التى كان قد جمعها .

ذكر تسليم صَفَد وغيرها للفرنج
وما فعله الشيخ عزالدين بن عبدالسلام ـ بسبب ذلك ـ وما اتفق له مع الملك الصالح

وفى هذه السنة ، خاف الملكُ الصالح عماد الدين إسماعيل على نفسه من الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فكَاتَبَ الفِرِنْجَ واستنْصَر بهم ، واتفق معهم على مُعَاضَدته . وأعطاهِم قلعة صَفَد وبلادَها ، وقلعة الشَّقِيف[٣] وبلادَها ، ومناصفة صَيْدَا ، وطَبَرية وأعمالها ، وجبل عامِلَه ، وجميعَ بلاد الساحل . ومَكَّنَهم من دخول دمشق لابتِيَاع السلاح .

---

(١) هى مدينة البلقاء بالشام (ضبطها القلقشندى بضم الحاء وإسكان السين) وهى بلدة صغيرة ، ولها واد وأشجار وأرحية وبساتين وزروع .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ١٠٦)

(٢) نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين ، من السواحل .

(معجم البلدان : جـ ٦ ـ ٢٣٩)

(٣) هى قلعة «شقيف أرنون» ، التى مر ذكرها فى أول الكتاب .
وهى قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل .

(المعجم : جـ ٥ ـ ٢٨٤)

فشَقَّ ذلك على المسلمين . واستفتى المُتَدَيِّنُون ، ممن يَبِيع السلاح ، الشَّيْخَ عِزَّ الدين : عبدَ العزيز بن عبد السلام ، فى مُبَايَعة الفرنج السلاح . فأفتاهم أنه يَحْرُمُ عليهم بيْعُه للفرنج . وتَوَقَّفَ عن الدعاء للملك الصالح إسماعيل على مِنبر الجامع بدمشق ، وجَدَّدَ دُعاءً يدعو به على المنبر ، بعد الخطبة الثانية قبل نزوله ، وهو : « اللهم أَبْرِمْ لهذه الأمة أمراً رشِيداً ، يَعِزُّ فيه وَلِيُّك ويَذِلُّ فيه عَدُوُّك ، ويُعْمَلُ فيه بطاعِتك ، ويُنْهَى فيه عن مَعْصِيَتِك » . والناس يصيحون بالتَّأْمِين ، والدعاء للمسلمين .

فكُوتِب الصالح إسماعيل بذلك ، فَوَرَد كِتابُه بعزْله واعتقاله . واعْتُقِلَ الشيخ أبو عمرو بن الحاجِب أيضاً ، لموافقته الشيخَ على الإنكار . ثم وصل الصالح بعد ذلك إلى دمشق ، فأَفْرَجَ عنهما ، واشْتَرَطَ على الشيخ عز الدين أنه لا يُفْتِى ، ويَلْزَمُ بيتَه ، ولا يجتمع بأحد . فسأله الشيخ أن يُفْسِحَ له فى صلاة الجمعة ، والاجتماع بطبيب أو مُزَيِّن ، إن دعت حاجتُه إليهما ، وفى دخول الحَمَّام ، فأَذِنَ له فى ذلك . ثم انْتَزَح الشيخان : عزالدين وأبو عمرو ، عن دمشق إلى الديار المصرية ـ على ما نَذْكُره ، إن شاء الله تعالى .

وفيها كانت الوَقْعَةُ بين عسكر حَلَب والخُوَارَزْمِيَّة[1] . وكان الملك الجَوَاد والملك المنصور ـ صاحب حِمص ـ مع الخُوَارَزْمِيَّة . فقصدوا حلبا ، ونزلوا على باب بُزَاعَة[2] فى خمسةِ آلاف فارس . وخرج إليهم عسكر حلب

(١) تحدثنا عنهم من قبل ، وهم الجنود الذين سَلِموا من جيش الدولة الخوارزمية ، بعد أن قضى عليها التتار فى سنة ٦٢٨ هـ . وجاءوا إلى الشام حيث استخدمهم بعض الملوك .

(٢) وأصلها : بزاعا . وهى بلدة من أعمال حلب ، فى وادى بُطْنَان : بين مَنْبِج وحلب بينها وبين كل منهما مرحلة . وفيها عيون جارية وأسواق حسنة .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ١٦٢)

فى ألف وخمسمائة ، فكسروهم ، وأسروا من أمرائهم ونهبوا من أثقالهم . فتوجه الخوارزمية حَيْلاَن [١] وقطعوا الماء عن حلَب ، وضايقوهم . ثم عادوا إلى مَنْبِج [٢] ، فنهبوها ، وقتلوا أهلها وفضحوا النساء ، ثم عادوا إلى حَرَّان [٣] . وكان الملك المنصور إبراهيم ـ صاحب حِمص ـ قد نزل على شَيْزَر [٤] ، فاستدعاه الحلبيون ، فجاء إلى حلب ، ونزل بظاهرها ـ ومعه عسكر حمص .

وفيها سَلَّمَ الملكُ الحافظ قلعةَ جَعْبَر [٥] إلى صاحب حلب ، وعوضه عنها أَعْزَاز . وكان سبب ذلك أنه حصل له فالِج ، فتوجه ولده إلى الخُوَارَزْمِيَّة يستنجدهم على أبيه ، وطلب منهم عسكرا لمُحَاصَرَتِه ، فخَشِيَ من ذلك ، فسَلَّمَها لصاحب حلب .

وفيها تسلم عسكرُ صاحب الروم آمِد ، بعد حصار شديد . ويقال إنهم اشتروها بثلاثين ألف دينار .

---

(١) (بالفتح ثم السكون) : من قرى حلب . تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء تسبح إلى حلب ، وتدخل إليها فى قناة وتتفرق إلى الجامع ، وإلى جميع مدينة حلب .

(المصدر السابق : جـ ٣ ـ ٣٨٢)

(٢) هى بلدة من جُنْد قِنَّسْرِين ، شرقىّ حلب ، على نحو مرحلتين منها . وهى كثيرة القُرَى والبساتين .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ٢٢٧) .

(٣) سبق ذكرها . وهى قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرقة يومان ، وبينها وبين الرها يوم .

(المعجم : ٣ ـ ٢٤٢)

(٤) قلعة وكورة قديمة بالشام قرب المعرة . بينها وبين حماه يوم .

(المعجم : جـ ٥ ـ ٣٢٤)

(٥) قلعة على الفرات ، بين بالس والرقة ، قرب صفين .

(المعجم : جـ ٣ ـ ١٠٨)

وفيها ، فى ليلة الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر ، تُوفى الشيخ محيى الدين : أبو عبدالله محمد بن على بن محمد ، المغرِبى الحاتَمى الطائى ، المعروف بابن العَرَبِى ، وهو من أهل الأَنْدَلُس . ومولده فى ليلة الاثنين ، سابع عشر شهر رمضان ، سنة ستين وخمسمائة ، بمُرْسِيَة من بلاد الأَنْدَلُس . ونشأ بها ، وانتقل إلى إِشْبِيلِيَّة[1] ، فى سنة ثمان وتسعين . ثم رحل إلى بلاد الشرق ، ودخل بلاد الروم . وطاف البلاد وحج . وصحب الصوفية . وصنف كتبا كثيرة فى علوم القَوْم . وكانت وفاته بدمشق ، ودفن بقاسيون .

واستهلّت سنة تسع وثلاثين وستمائة :

وفى هذه السنة ، حصل الشروعُ فى عمارة المَدْرَسَتَيْن الصَّالِحِيَّتَيْن ، بالقاهرة المُعِزِّيَّة ، بين القَصْرَيْن ـ والمكانُ التى عُمِرتا فيه من جملة القَصْر . وكان الشروع فى الهدم والإنشاء فى ذى الحجة . ولما كَمُلَتا ، أَوْقَفَهُمَا على طوائف الفقهاء : الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ، وأوقف عليهم الأوقاف . ويقال انه لما فَرَغ من عمارتها نَدِم ، لكَوْنِه لم يَبْنِ مكانهما جامِعاً ، ويُرَتِّب فيه الدروسَ التى رتبها فيهما .

(١) مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس (أسبانيا) كانت مقر دولة بنى عباد ، على شاطىء نهر كبير ، يقال له وادى الكبير .

ذكر صرف قاضى القضاة شرف الدين ابن عَيْنِ الدولة عن القضاء بمصر والوجه القبلى ، وتفويض ذلك لقاضى القضاة بدرالدين السِّنْجَارى

وفى يوم الجمعة عاشر شهر ربيع الآخر ، من هذه السنة ، كتب السلطانُ الملك الصالح إلى قاضى القضاة شرف الدين بن عَيْنِ الدولة كتاباً ، من جملته : أن القاهرة المَحْرُوسَة لما كانت دارَ المملكة ، وأمراءُ الدولة وأجنادُها مقيمون بها ، وحاكِمُها مختص بحضور دار العَدْل ـ تَقَدَّمْنَا أن يَتَوفَّرَ القاضى على القاهرة وعملِها ، لا غير . وفَوَّضَ السلطانُ قضاء القضاة ، بمصر والوجه القبلى ، للقاضى بدر الدين أبى المحاسن : يوسف السِّنْجارى قاضى سِنْجَار . ثم مَرِض القاضى شرف الدين المذكور ، إثْرَ ذلك ، ومات فى هذه السنة .

ذكر وفاة قاضى القضاة شرف الدين ابن عَيْن الدولة ، وشىء من أخباره

وفى ليلة الخميس ، التاسع عشر من ذى القعدة ، سنة تسع وثلاثين وستمائة ـ كانت وفاة قاضى القضاة شرف الدين أبو المكارم : محمد بن عبد الله ابن الحسن بن على ، بن عَيْنِ الدولة : أبى القاسم صَدَقَة بن حَفْص الصَّفْرَاوى الإسكندرانى .

وكان قد وَلِى القضاء فى أيام السلطان الملك العادل : سيف الدين ـ جَدِّ السلطان ـ كما تَقَدَّم ، واستَمَّر بعده .

ولما مات ـ رحمه الله ـ صُلِّى عليه بمُصَلَّى بنى أُمَيَّةَ ، وشَهِدَ جنازته خلقٌ كثير ، ودُفن بعد صلاة الظهر بالقَرَافة ، وأَمَّ الناسَ عليه ولدُه محيى الدين : أبو الصلاح عبد الله . ومولدُه ـ رحمه الله تعالى ـ بثغر الإسكندرية فى يوم السبت ، مستَهَلّ جُمادى الآخرة ، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . وكانت مدة عمره ثمانيا وثمانين سنة ، وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً . ومدة ولاية القضاء ـ استِقْلاَلاً ـ ستا وعشرين سنة ، وتسعة أشهر ، وسبعة عشر يوماً . وناب عن القضاء قبل ذلك ثمانيا وعشرين سنة . وشهرين وأياما .

وكان رحمه الله تعالى ـ ذا رِياسة قَديمة ، ووالده وجده من كبراء أهل الثَّغْر . وَجدُّ أبيه ـ القاضى الجليل ـ من رؤسائه . وبلغ من مَحَلِّهِ فى الدولة العُبَيْدِيَّة[1] أن لُقِّبَ بعَيْنِ الدولة ، ولُقِّب ولدُه بِثِقَةِ الدولة ، وَوَلَدُ وَلَدِه بعَيْنِ الدولة . فسأل تخصيصاً مانِعاً ، لاشْتِبَاه الوَلَد بالجَدّ ، فُمُيِّزَ الوَلَد[2] بعين الدولة وَمكِينِها ، ووالده بِثِقَةِ الدولة وأمينِها ـ بتقليد من الخلفاء العُبَيْدِيِّين . وعُمِّرَ القاضى الجليل مائةَ سنة وأربع سنين . ومات عن عدة أولاد ذكور ، ما منهم إلا من عُدِّلَ[3] بالديار المصرية ، وتولى الأحكامَ الشرعية .

وكان القاضى شرف الدين ـ رحمه الله تعالى ـ مالِكِىَّ المذهب ، ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعى

---

(١) أى : الدولة الفاطمية .

(٢) أى : الحفيد .

(٣) أى شُهِدَ له بالعَدَالة : أى استيفاء الشروط الشرعية للشهادة أمام القضاء ، وتولى أعماله .

وسبب ذلك أنه قَدِم من ثغر الإسكندرية إلى مصر وسكن بها ، فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . واتصل بالقاضى المُرْتَضَى ابن القَسْطَلَانى ، ثم اتصل بقاضى القُضاة : صدر الدين عبدالملك بن عيسى ابن دَرْبَاس الهَذَبَانى [1] ، فعَدَّلَه واستَكْتَبَه ، فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . فلما عُزِلَ ابن الجاموس [2] من خَطابة الجامع بالقاهرة ، أَمَرَه القاضى صدر الدين أن يَخْطُب ، فخطب وأجاد وأبلغ فى المَوْعِظَة ، ونزل فَصلَّى وجَهَر بالبَسْمَلَة .

فلما فَرَغ من الصلاة ، وجلس بين يدى القاضى صَدْرِ الدين ، شكَره وأَثْنَى عليه ـ والمجلس غَاصٌّ بالفقهاء والصُّدور وأرباب المناصب ـ فقال بعض الأكابر : يا شرفَ الدين جَهَرْتَ بالبَسْمَلَة ، وخَالَفْتَ مَذْهَبَك . فأَنْشَدَ قولَ المُتَنَبِّى فى كافُور :

فِراقٌ ، ومن فارقت غيرُ مُذَمَّمٍ وأُمٌّ ، ومن يَمَمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ

(١) سبقت الإشارة إليه فى أول هذا الجزء ، وكان قاضى القضاة فى عهد صلاح الدين .

(٢) هو شهاب الدين محمد بن إبراهيم الحَمَوِى . كان من كبار الشافعية . تفقه بحَماه ، وقدم الديار المصرية ، فولى خطابة الجامع العتيق (جامع عمرو) وتدريس المشهد الحسنى . مات فى ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ . (حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ١٧٢) .

فاستحْسَنَ ذلك القاضى والجماعة . وصار شافِعياً من ذلك اليوم . واشْتَغَل بمذهب الشافعى على القاضى : ضياء الدين أبى عمرو عثمان بن دَرباس [١] ، مُصَنِّف الاسْتِقْصاء ، وعلى الفقيه : أبى إسحاق إبراهيم بن منصور العِراقى [٢]

واستنابه القاضى صدرُ الدين عنه فى الحُكْمِ بمصر ، فى يوم الاثنين والخميس ، فى العشر الأوسط من ذى القعدة ، سنة أربع وثمانين وخمسمائة . فحضر إليه يَسْتَعْفى من ذلك . وكان جَمَالُ الدولة : أبو طالب شَرَاتِكِين ـ سَلَف القاضى صدرِ الدين ـ حاضِراً ، هو من الأَجْنَاد ـ فأَسَرَّ إليه ، وقال له : لا تَسْتَعْفى ، فأنتَ ، واللهِ ، بعد اثنتين وثلاثين سنة ، قاضى القضاة . فأَرَّخَها فلم تَزِدْ ولم تَنْقُصْ .

وَوقَّعَ للقاضى زينِ الدين على بن يوسف الدِّمَشْقى [٣] ، أيامَ وِلايته . ثم عاد القاضى صدرُ الدين إلى الحكم ، فعاد إليه . ووُلِّىَ القاضى مُحيى الدين : أبو حامد محمد بن القاضى شرف الدين بن أبى عَصْرُون ، فوَقَّعَ له .

---

(١) هو أخو صدر الدين بن دَرباس قاضى القضاة ، المتقدم ذكره . كان من أعلم الفقهاء فى وقته بالمذهب الشافعى . وصنف كتاب «الاستقصاء» فى شرح المهذب . وناب عن أخيه فى الحكم . توفى سنة ٦٢٢ هـ .
(المصدر السابق : ص ١٧١)

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن منصور بن المسلم المصرى . وإنما قيل له العراق لأنه سافر إلى بغداد وأقام مدة للدراسة . ولد بمصر سنة ٥١٠ هـ . ثم سافر إلى بغداد لطلب العلم ، ثم عاد إلى مصر ، وتولى خطابة الجامع العتيق بها . وشرح «المهذب» شرحاً حسناً . مات سنة ٥٩٦ هـ .
(المصدر السابق : ص ١٧١)

(٣) هو الذى تولى قضاء مصر فى عهد الملك العزيز والأفضل ، ثم عزله الملك العادل فى أول عهده سنة ٥٩٦ هـ ، وأعاد مكانه صدر الدين بن درباس ـ كما تقدم ذكره فى أول الجزء .

ثم عاد صدرُ الدين ، فعاد إليه ، ولم يَزَلْ كاتِبَه إلى أن تُوفى . وكان كثيرَ الرُّكُون إليه ، والاعتماد عليه . حتى إن شرف الدين مرِض ، فسأل عنه القاضى صدرُ الدين ، فأُخْبِرَ بشدة مرضه ، فقال : واللهِ لئن قُضِىَ عليه بمحتوم ، لأَعْزِلَنَّ نفسى ، لأننى لا أجد من أَثِقُ به سواه .

ولما وُلِّىَ القاضى عمادُ الدين : عبدالرحمن بن عبدالعَلىّ السُّكَّرى القضاء ، كَتَبَ له ، إلى أن عُزِل القاضى عماد الدين فى شهر المحرم ، سنة ثلاث عشرة وستمائة ، فقَسَّمَ السلطانُ الملك العادل القضاء شطْرَيْن : فوَلَّى القاضىَ شرفَ الدين هذا القاهرةَ والوجه البحرى ، فى الشهر المذكور ـ وقيل فى يوم السبت ثانى صفر ـ ووَلَّى القاضىَ تاجَ الدين بن الخَرَّاط مِصر والوجه القبلى ، كما تقدم . ثم أضاف السلطان الملكُ الكاملُ إليه قضاء مصر والوجه القبلى ، فى العشر الآخر من شعبان ـ أو فى شهر رمضان ـ سنة سبع عشرة وستمائة ، كما تقدم ذكر ذلك

وكان السلطانُ الملك الكامل كثيرَ التَّنْويه بذِكْره ، والافتخار بولايته ، والابتهاج بما يراه من أحكامه ، وما يَبْلُغُه من سِيرته ، وما يتحققه من حسن طَوِيَّته ، وجَميل سَرِيرته . وكان إذا نَظَرَ إليه يقول : والله لَتَتْعَبَنَّ بعد هذا ، إذا فقدناه ، ولا نجد بعده من يَقُوم مَقَامه

وكان إذا كتب إلى السلطان ، يستأذنه فى عزل نائب من نوابه بالأعمال ، أو فى أمر يقصد فعله ، يجيبه عن كتابه بخطه على ظهر كتابه ، أو بين سطوره . وكان يقترح ذلك على السلطان ، فى بعض الأحيان . وكان الرسم فى المكاتبات والأجوبة جارياً[1] على غير ما هو عليه ، فى عصرنا هذا .

وقد رأينا أن نثبت من مكاتبات قاضى القضاة إلى السلطان ، وأجوبته له ، فى هذا الموضع ، ما يعلم منه كيف كان الرسم جاريا[2] . فمن ذلك ما كتب به إلى السلطان الملك الكامل :

« اللهم إنى أسألك حسن الفاتحة ، والخاتمة فى عافية . المملوك يخدم المقام المولوى السلطانى المالكى ، الكاملى ـ بلغه الله تعالى كل مراد وأمل ، ووفقه لطاعة ربه فى كل قول وعمل ـ ويُنهى : أن النائب فى الحكم بإطفيح[3] قد كثر من القول فيه ما تقتضى المصلحة الاستبدال به وهو ابن أخت الأجل مجد الدين ، أخى الفقيه الأجل عيسى[4] ـ وقد كان المتظلمون ، من مدة ، حضروا شاكين لأمره ، وطالع المملوك مولانا بحاله ، وكان مولانا فى بعض متوجهاته الميمونة . فورد الجواب ، بأن مولانا ينظر فى ذلك . وقد كثر القول . والمملوك يستأذن على ما يفعله فى أمره ، من صرف أو إبقاء .

(١و٢) فى (ع) : وكان الرسم ... جار .

(٣) مدينة بمصر ، «وهى مدينة لطيفة فى البر الشرقى (أى : الضفة الشرقية للنيل) جنوب الفسطاط . وعملها ما بين المقطم والنيل» .

(صبح الأعشى : جـ ٣ ـ ٣٩٧)

(٤) أى الفقيه : ضياء الدين عيسى الهكارى الذى كان من كبار الفقهاء والأمراء أيام صلاح الدين ، ومن أقرب أصدقائه .

المملوكُ يَخْدُم ، ويُنْهِى أن النائبَ فى الحكم بالمَحَلَّة قد ظهر من أحواله ، وتحَايُفِه على من يحقِد عليه ، وبقصد مُضَادَّته لما فى نفِسه ـ ما يقتضى كَفَّ يدِه وهو يستند إلى مُتَوَلِّى الحرب بالمِحَلة ، ويُعَوِّل على ثنائه عليه ومَيْلِه إليه ـ على ما ذُكِر للمملوك . وهو يستأذِن على أمره .

المملوكُ يسأل الإجراءَ ـ على عادةِ الفضْل والكرم ـ فى أنه ، إن حَسُنَ التشريفُ عن هذين الفَضْلَيْن بالجواب ، أن يكون تشريفُ الخَطِّ الكريم ـ لازال عَالِياً ـ ليكون سَبَباً لستْرِ القضِية ، إلى أن يُعْتَمَدَ فيها ما يُرْسَم من تَوَقُّفٍ أو إمْضَاء واللهُ تعالى يَمُنُّ على المملوك بدوام جميلِ آراء مولانا وعَضُدِه له ، وتقويةِ يدِه فى نيابته عن مولانا فيما فَوَّضَه إليه .

المملوكُ يُنْهِى أن من اعْتُمِد فى أمره من الشهود والنُّواب ـ الأمرُ الذى أَرْشَد مولانا المملوكَ فيه إلى الصواب ـ لِكُلٍّ منهم جِهَة[1] ربما شَقَّ عليها ما جَرَى ، وحصل منها فى حَقِّ المملوك ما يَقْضِى بتغيير خاطر وتقسيم فِكْر . والله ما يبالى المملوك ـ بعد رضى الله تعالى ـ [إلا] برضى مولانا بمن أحب أو أبغض ، أو أعان أو تعصب .

ولو كان كلُّ الناسِ عنى بجانب لما ضَرَّنى ، إذْ كنتُ منكَ بجانِبِ

المملوكُ يُنْهِى أن مولانا ، لما شَرَّفَ المملوكَ فى الخِدْمة ، كان فى التقليد أنه لا يَسْتَنِيبُ إلا من كان على مذهب الإمام الشافعى ـ قَدَّسَ الله رُوحَه . ولما كَانَ بعد ذلك ، وَرَدَ مكتوبٌ من مولانا فى زمن إقامة رِكابه بالمنصورة ،

(١) يظهر أن المعنى أن وراء كل منهم سنداً يستند إليه ، أى شخصية ذات نفوذ تؤيدها ، وأنها قد تغضب لما يحدث وتتقدم بإيذاء صاحب الخطاب وهو « القاضى » .

يتضمن أن أمرَ الإستنابة إلى المَمْلُوك . وفى النواب اليوم شخصان على مذهب مالك ـ رحمه الله تعالى . فيحُيط العُلومَ أنه ما خَالَفَ إلا بعد ما ورد ما ذَكَرَه . وكان مِمَنَّ تَقَدَّمَ المملوكَ فى الحُكْمِ من استناب الشافعيةَ والحنفيةَ والمالكية بمصر نفسها ، وبالأعمال . أُنْهِى ذلك ، والرأى أعْلَى فى التشريف بالجواب ـ إن شاء الله ربُّ العالَمين .

فأجابه على ظَهْرِ كِتابه ـ بخَطِّه ـ ما مِثالُه : « اختَرْتُكَ دون غيرك ، لبَرَاءَةِ ذِمَّتِنا وذِمَّتِك . افْعَلْ ما يُخَلِّصُك عند الله ، من خَيْرٍ معنا تَفْعَلُه ، ومَعَ نفسِك ـ إن شاء الله تعالى » وخَتَمَه . وكَتَبَ على الخَتْم القاضى شرف الدين قاضى القُضاة .

وأضاف السلطانُ إليه الحكمَ فى الينْبُع ، فى بعض شهور سنة ست وعشرين وستمائة ، فاستنابَ فيه . ثم أضاف إليه الحُكْمَ بغَزَّة والخَلِيل والأُرْدُنِّ وطَبَرِيَّة وبَانْيَاس ، فى سنة إحدى وثلاثين ، فاستناب عنه فيها نُوابًا . ثم تقدم إليه أن يستنيب عنه خَطيبا وحاكما بثغر دمياط ، فى شعبان سنة أربع وثلاثين وستمائة ، فاستناب فى ذلك .

وكتب إلى السلطان ـ قبل أن يستنيب ـ يستأذنُه فى النيابة ، ويستوضح عن أمر البلاد الشامية ، فأجابه :

«وَرَدَ كتاب الحَضْرَة ـ أعاد الله علينا من بركاتِها ، ونَفَعَنا بمُتَقَبَّل دَعَواتِها ، وأَسْعَدَ آراءها ، ووَفَّقَ قُصودَها وأَنْحَاءها ، ولازالت تصرفاتُها فى الشريعة أبداً مَيْمُونَة ، وأحكامُها بإصابة الحق مقرونَة ـ وفَضَضْنا خَتْمَها ووَقَفْنَا عليها ، وأحاط عِلْمُنا بما اشْتَمَلتْ عليه ، وما أَوْمَأَت الحَضرةُ إليه

وشكَرْنا اجتهادَها المُفَوَّف البُرود ، وتَحرُّزها فى الأمُور الشرعية الجليلة العُقُود . وأثينا على دِيانتها التى رَقَّتْها عندنا إلى المَقَام المحمود .

فأما إشارتها إلى أنها تَستنيب فى غَزَّة وما معها ، عنا أو عن نفسها ، فنحن أَضَفْنَا ذلك إليها ، وهى تَستنيبُ عن نفسها من يكون أهلاً لذلك . وأما استفهامُها أن المواضع المذكورة : هل لها جَامِكِيَّات[1] مُقَرَّرَة أم لا ؟ نعم لها جَامِكِيَّات مقررة ، والديوانُ شاهدٌ بها . وأما استيضاحُها : هل لهذه المواضع أصْلٌ ، حتى يقالَ : الموضعُ الفلانى وعملُه ، فَيُوَلَّى فيه شخصاً واحداً ، أو كلُّ مَوْضِع ، وإن قَلَّ ، مُفْتَقِرٌ إلى نائبٍ مُفْرَد ـ فلْتَعْلَم الحَضْرةُ أن مُرادَنا أن نَستنيب شخصيْن : أحدَهما لغَزَّة وطَبَرِيَّة والأُرْدُنّ وجَبَلِ الخَلِيل ، والآخر لبَانْيَاس وعملِها .

ثم ذكر غير ذلك فى جوابه ، وقال : وكُتب لسبعٍ خلَوْن من شوال سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، بمنزِلةٍ تقابل البيرة بشاطئ الفُرات ، من بَرِّ الشَّام المحروس ـ شِفَاهاً .

وكتب إلى السلطان أيضاً يستأذنُه فى صَرْفِ بعض النُّوَّاب ، فأجابه :

« وردت مكاتبةُ الحَضْرة ـ أَيَّدَها اللهُ بتوفيقِه فى جميع حالاتِها ، ولا أخلى من صالح دَعَواتها فى شريفِ أَوْقاتها ، وأجْراها من السَّدَاد والتَّحَرُّزِ على مُخْتَار عاداتِها ـ ووَقَفْنا عليها جميعاً ، وأحاطت علومُنا بما أشارت إليه ، وما نَبَّهَتْ فيها عليه .

---

(١) أى مرتبات ثابتة .

فأما إشاراتها إلى صَرْفِ قاضى الفَيُّوم والاستبدال به بخَطيب البلَد وصَرْفِ قاضى قُوص ، وتعريضِها بأنها لا يجوز لها إعادتُه . وعَزْمِها على صَرْفِ قاضى إخْميمْ ، وما عَرَّضَتْ به من انتمائِه إلى كَرِيم الدين الخِلاَطى . وإصرارِها على صَرْفِ قاضى مِنْيَة زِفْتَى ، وتصريحِها بأنه ذَاكرٌ أَنَّا نَعْرِفُه . وقد خَلَعْنَا عليه ـ فجوابُنا عن جميع ذلك : أنا قَلَّدْنَاها هذا الأمرَ العظيم ، وذَمَّمْنَاها هذا الخطبَ الجَسِيم ، ونَهَجْنا بها السُّلوكَ فى طريقِه المستقيم ، وفَوَّضْنَا ذلك إليها ، وجَعَلْنَا أَزِمَّةَ نَقْضِه وإبْرَامِه بيَدَيْها ، وصَيَّرْنا ركائبَ آمالِ طالِبى التَّوْلِيَةِ مُنَاخَةً لدَيْها ـ نَرْجُو بذلك بَرَاءَة الذِّمَّةِ عند الله تعالى ، وأن لا تقوم الحُجَّةُ علينا ولا عَلَيْها .

فمن استصْلَحَتْهُ ورَضِيَتْهُ من النُّواب ، فَلْتُقِرَّه على حالِه . ومن ظهرَ لها اعوجاجُه وسَخْطَتُه ، فلْتَصْرِفْه ، ولا تُعَرِّجْ على أساطيرِ أقواله . فالإرْهاباتُ والتَّمْوِيهَاتُ لا مَدْخَل لها فى أمور الدين ، والشَّرْعُ الشريف مُنَزَّهٌ عن شَفاعة الشافِعين . فلْتَعْلَمِ الحَضْرةُ ذلك ، ولْتُواصل بالمُتَجَدِّدَات [1] ، مُوَفَّقَةً فى ذلك ـ إن شاء اللهُ تعالى . سُطِّرَتْ لإحدى عشرة ليلةً بقِيَتْ من ذى الحجة ، سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، بظاهر السُّوَيْدَا ـ مُشَافَهَةً .

هذا كان الرَّسْمَ فى المُكاتبات والأجْوِبَة . وفيه دليلٌ على أن قاضى القضاة بالديار المصرية ، فى ذلك الوقت ، كان لا يَسْتَقِلُّ بعَزْلِ نائب من نُوَّابه بالأَعْمَال ـ وإن صَغُرَتْ جِهة ولايته ـ إلا بعد مُراجَعةِ السلطان ،

(١) الأخبار والأحداث التى تَجِدّ .

واستئذانِه . ومازال الأمر جارياً على ذلك ، إلى أن ملَكَ السلطانُ الملكُ الصالح نجم الدين ، فغَلُظَ حِجابُه ، وتَعَذَّر خِطابُه وجَوابُه ، وتَعاظَم أن يُشاوَر فى الجُزْئيات ، وأن يُشَافَه إلا فى الأمور المُعْضِلَات . فاستَقَلَّ حينئذٍ القُضاةُ وغيرُهم ، واستبدُّوا بالولايات والعَزْل .

ولْنَرْجعْ إلى أحوال قاضِى القُضاة : شرف الدين ، وسِيرَتِه .

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ جَواداً كريماً ، زاهِداً لا يَدَّخِرُ شيئاً : ولا يَمْلِكُ إلا سَجَّادَةً خَضْراءَ من الصوف ، وسَجَّادَةً من أَدَمٍ ومُشطا وسُبْحه ، ومِقْرَاضاً ، وعُوداً من أَرَاك[1] . وليس له إلا بَدْلَةٌ واحدة ، فإذا تَغَيَّرَتْ ، غُسِلت له ليلاً . وبَغْلة واحدة . فإذا كان زمنُ الربيع ، استأْجَرَ بغلةً فى كل يوم بثلاثة دراهم ، ويقوم بعَلَفِها من عنده . ما مَلَك عَقارا ، ولا وَجَبَتْ عليه زَكَاةٌ فى عُمره .

وكان مَضْبُوطَ المَجْلِس ، لا يُسَارُّ أحَداً فى مجلِسه ولا يَضْحَكُ فيه . وكان كثيرَ العبادة ، يَسْرُدُ الصَّوْمَ ، ولا يُفطِر إلا الأيامَ التى لا يجوز صومُها ، كثيرَ التلاوة للقرآن ، والذِّكْرِ والأَدْعِية . وكان . لا يُكَلِّفُ أحدا قضاءَ حاجة ، إلا ويُعطيه فوق أُجْرَتِه . حتى كان يدفع ملْءَ إبريقٍ ماءً حاراً فى الشتاء من الحَمَّام ، عند كل صَلاة ، نِصف دِرْهم للحَمَّامى ، ورُبع درهم لحامل ذلك إليه . وكان يَدْفعُ لبارى أقلامه أُجْرَة ، من دِرْهَمَيْن إلى ثلاثة .

---

(١) أى : السِّوَاك . لأن شجر الأَرَاك هو الذى يُتَخَذُ منه السِّوَاك .

وكان له شِعْرٌ حسن ، قد وقَفْتُ منه على قصائد ، يمدح بها السلطان الملكَ الكامل ـ تركنا إيرادَها إختصاراً . فمن شعره ، بَدِيهَةً :

وَليتُ القَضاءَ ، ولَيْتَ القضا ءَ لم يكُ شيئا تَوَلَّيْتُه
وقد قادَنى للقضاء القَضَا وما كنتُ قِدْماً تَمَنَّيْتُه

وكان حسنَ النَّثْر . وكانت علامتُه : الحمدُ لله مُتَوَلِّى السرائر . ويكتب تحت خط الشهود : أقامَ شهادتَه عندى بذلك ، وشَخَص المذكور . والله على كل شىء شَهيدٌ . وأخبارهُ ـ رحمه الله تعالى ـ وأوصافُه الحسنة كثيرة ، وقد أتينا منها بما فيه الكِفاية .

ولما مات قاضى القضاة شرفُ الدين فى التاريخ المذكور ، خرج الأمر السلطانى بالإذْن للعُقَّاد والنواب عنه بالقاهرة ـ فى يوم الأحد الثانى والعشرين من ذى القعدة من السنة ـ بالإستمرار ، إلى أن يقع الإختيار على قاضٍ ، ولم يُؤْذَن لنائبِه : القاضى محيى الدين عثمان بن يوسف القَلْيُوبِى ـ بشىء ـ وهو الذى كان خليفةَ القاضى شرف الدين بن عَيْنِ الدولة فى الحُكْم ـ إلى أنْ مات . واستمر ذلك إلى يوم الأربعاء ، الخامس والعشرين من الشهر .

ففوَّضَ السلطانُ قضاءَ القاهرة والوجه البحرى لقاضى القضاة : بَدْر الدين السِّنْجَارِى ـ وصُرِفَ عن الحُكْمِ بمصر والوجه القِبلى . وكان قد

استناب بمصر ابنَ عمه : القاضىَ شمسَ الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلِّكَان[١] ، وفوَّضَ إليه عُقود الأنِكحة وقضاء الجيزَة . واستناب شمس الدين عنه فى قضاءِ الجيزة أخاه : بهاءَ الدين محمد بن محمد . فلما وَلِىَ القاضى بدر الدين القاهرة ، استناب القاضى شمس الدين ـ المذكور ـ بها . فَجلَس فى يوم الخميس ـ السادس والعشرين من ذى القعدة ـ بجامع الأزْهَر ، وأمر الشهود بالانتقال إلى حَرَم الجامع . ثم شَرَكَ بينه وبين القاضى محيى الدين ، فى النيابة بالقاهرة . ووُلِّىَ قضاءَ مصر الشيخُ عِزُّ الدين بنُ عبد السلام .

ذكر وصول شيخ الإسلام[٢] عبدالعزيز بن عبدالسلام ـ إلى الديار المصرية ، وما اتفق له بعد خروجه من الشام إلى أن وصل ، وتفويض القضاء بمصر والخَطابة بها ـ وغير ذلك ـ إليه ، وما فعله وعَزْلِـه نفسَه

كان وصولُه إلى الديار المصرية فى سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وذلك أنه لما وَقَع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق ما وَقَع ، وعَزَلَه وألْزَمَهُ دارَه ـ كما تقدم ـ فارَقَ دمشق ، وقَصَدَ البيتَ المقدس .

(١) هو المؤرخ المشهور صاحب «وفيات الأعيان» .

(٢) ذكره السّيوطى بين «من كان بمصر من الأئمة المجتهدين» ، وقال عنه : «وهو عز الدين بن عبد السلام بن أبى القاسم بن حسن .. السلمى ، شيخ الإسلام ، سلطان العلماء . ولد سنة (٥٧٧) أو (٥٧٨ هـ) وتفقه على الفخر بن عساكر ، وأخذ الأصول عن السيف الآمدى ، وسمع الحديث من عمر بن طبرزد وغيره . وبرع فى الفقه والأصول العربية . قال الذهبى فى العِبَر : «انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع . وبلغ رتبة الاجتهاد . وقدم مصر فأقام بها أكثر من عشرين سنة ، ناشراً للعلم ، امراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، يغلظ على الملوك فمن دونهم . وألف التفسير بمصر وألف كتباً عديدة . وكانت وفاته سنة ٦٦٠ هـ .
(حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧)

فوافاه الملكُ الناصر داود صاحب الكَرَك بالغَوْر[1] ، فأكرمه ونقله إلى الكَرَك . وقال له : تُقيمُ عندى بهذا الحِصن وأنا لا أَخْرُجُ عن أمرِك . فأقام عنده مُدة يسيرة . ثم استأذَنه فى الخروج ، فسأله عن مُوجِب خروجه وكراهة مُقامِه . فقيل إنه قال له : هذا بَلَدٌ صغير ، وأنا أُحِبُّ الانتقال إلى بلدٍ أَنْشُرُ به ما عندِى من العِلْم .

فأَذِنَ له . وتوجه الشيخُ إلى القُدْس ، وأقام به . فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القُدْس ـ وصُحْبَتُه الفِرِنْج ـ فأرسل إلى الشيخ بعضَ خَوَاصِّه بمِنْدِيله ، وقال له : ادْفَعْ إليه مِنْدِيلى وتَلَطَّفْ به واستَنْزِلْه ، وعِدْه بعَوْدِه إلى مناصِبه . فإن أجاب ، فائتِنى به . وإن خاشَنَك فاعتقِلْه فى خَيْمةٍ إلى جانب خَيْمَتِى .

فأتاه الرسولُ ولاطَفَه ، ثم قال له : بَيْنَك وبَيْنَ أَنْ تعودَ إلى مناصبك ، وتعودَ إلى ماكُنْتَ عليه وزِيادة ، أن تُقَبِّلَ يدَ السلطان . فقال له : « واللهِ ما أرضاه أن يُقَبِّلَ يدِى ، فَضْلاً أن أُقَبِّلَ يدَه » ! ! فقال : إنه قد رَسَمَ أن أَعتقِلَك إذا لم تُوافِق . فقال افعلوا ما بَدَالكم ! فاعْتَقَلَهُ فى خَيْمَةٍ إلى جانب خيمة السلطان .

وكان يقرأ القرآنَ والسلطانُ يَسْمَعُه . فقال يوماً لملوكِ الفرنج : تَسمعون هذا الذى يَقرأ ؟ قالوا نعم : قال هذا أكبر قُسُوسِ المسلمين ، وقد حبَسْتُه لإنكاره علىَّ تسليمِى لكم حصُونَ المسلمين ، وعَزَلْتُه من الخطابة بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخْرَجْتُه عن دمشق فجاء إلى القدس . وقد جددت اعتقالَه

(١) أى غور الأردن . وقد تقدم ذكره .

لأَجْلِكُمْ . فقالوا له : لو كان هذا قِسِّيسَنَا ، لغَسَلْنَا رِجْلَيْه ، وشَرِبْنَا مَرَقَتَهَا ! . ثم فارَق الصالحُ القدس .

وقَدِم الشيخُ إلى الديار المصرية . فأقبل عليه السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأَكْرَمَه ، وفَوَّض إليه الخَطابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص بمصر ، فى يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الآخر ، سنة تسع وثلاثين وستمائة ، عِوَضاً عن أبى المجد الإخْمِيمِى ـ وكان أبو المجدِ قد ولى الخطابة بعد وفاة أبى طاهر المَحَلِّى ، وكان ينوب عنه فى حال حياته . وخَطَبَ الشيخُ عزالدين فى هذا اليوم . وأَذَّنَ الأَذانَ الثانى على الدِّكَّة يومئذ ، مؤذِّنٌ واحد ـ خلافَ العادة .

ثم فُوِضَّ إليه القضاءُ بمصر والوجه القِبلى ـ فى يوم الثلاثاء التاسع من ذى الحجة ، من السنة ـ بعد انتقال قاضى القضاة بدر الدين السِّنْجَارى منها إلى القاهرة والوجهِ البَحْرِى . وشَغَرَتْ[1] مصرُ عن حاكِم ، فيما بين نَقْل القاضى بدر الدين وتولية الشيخ ، أربعةَ عشر يوماً ووَلِيَها الشيخُ مُضَافَةً إلى الخَطابة .

وجلس فى هذا اليوم ، وحَكَم بين الناس . واستناب الشيخُ عنه ، فى الحُكْم ، القاضى صَدْرَ الدين مَوهوب : قاضى جزيرة ابنِ عمر . وفى يوم جلوس الشيخ للحكم ، أَسْقَطَ عَدْلَيْن من العُدول المُتَقَدِّمَة .

---

(١) شَغَرت الأرضُ : لم يبق بها أحد يحميها أو يضبطها ، فهى شاغِرة . وقد شَغَرَ البَلَدُ : بَعُد من الناصر والسلطان .

« القاموس المحيط »

وسببُ ذلك أنه وَجَدَ مَسْطُوراً[١] ، فيه شهادتُها ، وهو غير مُؤَرَّخ ، وفى خطِّ كلٍّ منهما : كَتَبَه فُلان فى تاريخه . وسأل أحدَهما عن فرائضِ الصلاة ، فلم يُجِبْهُ جَوابا مُرْضِياً . ثم أَسْقَطَ ، بعد ذلك بأيام ، القاضىَ فخرَ الدين بن قاضى القضاة عمادِ الدين بن السُّكَّرى ـ مُدَرِّسَ مَنَازِل العِزّ ـ لأنه وَجَدَ شَرْطَ الواقِف بالمدرسة أن يكون المُدَرِّس بها عارِفا بالأُصُولَيْن[٢] ، وهو عارٍ عن معرفتهما . فأَسْقَطَهُ لذلك .

وأسقط أيضاً جماعةً من عُدُول[٣] القاضى شرف الدين بن عَيْن الدولة . ثم أسقط ولدَه محيى الدين أبا الصلاح . وطَلَبَه فخرج مستخفيا إلى ثَغْر الإسكندرية . واستند فى إسْقَاطِ كلٍّ منهم إلى موجِب ظاهر . ثم عَزَل نَفْسَه . فتلطف السلطانُ فى إعادته ، فعاد .

ثم أَسْقَطَ الصاحبَ مُعِينَ الدين بن شيخ الشيوخ : وزيرَ السلطان الملك الصالح ونائبه ، ومُقَدَّمَ جيوشه . وعَزَلَ نفسَه عن القضاء ثانياً .

وسببُ ذلك : أن الصاحبَ مُعِينَ الدين كان قد بنى فِرَاشْخَانَاه[٤] على ظهر مسجِد ، بجوار داره . وكان السلطان قد فَوَّضَ إلى الشيخ أيضاً

---

(١) أى مكتوباً ، أى ورقةً مكتوبة .

(٢) أصول الدين ، وأصول الفقه .

(٣) إسقاط العدول ـ المتردد هنا ذكره ـ معناه : الحكم بإنتفاء العَدَالة عن الشخص : أى عدم الأهلية للشهادة أمام القضاء ، ومباشرة الأعمال الدينية التى تشترط فيها العَدَالة . والعَدَالة فى الفقه الإسلامى معناها ـ بإجمال ـ أن يكون المرء جامعاً للفضائل الدينية ، لم يخالف أحكام الدين فى شىء .

(٤) خاناه : معناها بيت أو مخزن .

فراشخاناه : مخزن للفراش .

النظَر فى عمارة المساجد ، بمصر والقاهرة . فأرسل إليه يأمره بهدم ما استجَدَّه على ظهر المسجد وإزالته ، وإعادة المسجد إلى ما كان عليه . فلم يُجِبْ إلى ذلك . ثم عاوده فلم يَفْعَلْ .

فلما طال ذلك على الشيخ ، أمر الفُقَهاء طَلَبَتَه أن يأتوه فى غدٍ ـ ومع كل واحد منهم مِعْوَل ـ ففعلوا ذلك . فلما رآهم العَوَامُّ اجتمع منهم خلقٌ كثير بالمَسَاحى . ورَكِبَ الشيخُ إلى دار الصاحب مُعِين الدين ، وهو فى خِدمة السلطان ، وأمر بإخراج ما فى ذلك المكان ، فأُخْرِج ، ثم أمر بهَدْمِه فهُدِم .

فتألم الصاحبُ مُعِين الدين لذلك ، ولم يُمْكِنْه أن يُحْدِثَ فيه شيئاً . فلما كان بعد مُدة يسيرة ، جلس الشيخُ بجامع مصر لتَعْدِيل من شُهِد بعَدَالتِه ، منهم : فخرُ الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد . واجتمع لذلك جمعٌ كثير من العلماء والفقهاء والأكابر والقُرَّاء ـ وكانت العادةُ كذلك فى إنشاء العَدَالة . فاتصل الخَبَرُ بالصاحب مُعين الدين ، فأمر والىَ مصر أن يَدْخُلَ إلى المجلس ، ويُفَرِّقَ ذلك الجَمْع ، ويقولَ للشيخ عز الدين : يقول لك الصاحبُ : بَلَدُ السلطان لا يجتمع فيه الجُمُوع . ففعل الوالى ذلك .

فصَرَخَ الشيخُ فى المجلس بإسْقاطِ عَدَالةِ الصاحب مُعِين الدين ! ثم عَزَلَ نَفْسَه عُقَيْبَ ذلك . وكَثُر اللَّغَط ، وارتفعت الأصوات . ولما اتصل خبرُ هذا الإسْقاطِ بالسلطان ، مَنَعَ الصاحبَ مُعِينَ الدين من الدخول إليه ثلاثة أيام ، حتى لَفَّقَ صِيغَةً شَهِدَتْ أن الشيخَ إنما أَسْقَطَه بعد أن عَزَلَ نفسَه ، وأن إسقاطَه لم يصادِفْ مَحَلاً ، وأنه باقٍ على عَدَالته .

وأثَّرَ هذا الإسقاطُ فى الصاحب مُعِين الدين أثراً مُؤْلِما . وهو أنه حُكِى أن السلطان أرسل رسولاً إلى الدِّيوان العَزِيز[١] ببغداد ، وكان المُشَافِهُ للرسول عن السلطان الصاحبَ معين الدين . فلما أَبْلَغَ الرسالةَ قال له الوزير : أيوبُ شافَهَكَ بهذه الرسالة ؟ قال : لا ، إنما شافَهَنى بها عنه الصاحبُ معين الدين . فقال له الوزير : مُعينُ الدين أَسْقَطَ الشيخُ عِزُّ الدين عدالتَه ، فلا يُرْجَع إلى مُشَافَهَتِه .

ولما عَزَل الشيخُ نفسَه ، أراده السلطانُ على العَوْدِ إلى القضاء ، فامتنع من ذلك . فَفَوَّضَ السلطانُ الملكُ الصالح القضاءَ بعده ، بمصر والوجه القبلى ، إلى نائبه : القاضى صدر الدين أبى منصور موهوب ، بن عمر بن موهوب ، بن إبراهيم ، الجَزَرِى[٢] الشافعى ـ وذلك فى سنة أربعين وستمائة . فأعاد بعض من أسقطهم الشيخُ عز الدين إلى العَدَالة . ولم تَطُلْ ولايته ، فإنه استمر فى القضاء نحو سنة . وعُزِل ، ولم يَلِ القضاءَ بعدها .

وفى سنة تسع وثلاثين وستمائة ـ أيضاً ـ توجه السلطان الملك المنصور ـ صاحب حِمص ـ وعسكرُ حلب ، إلى حَرَّان ، والتقوا مع الخُوَارَزْمِيَّه ، ومزَّقوهم كُلَّ مُمَزَّق ، فكَسَروا الخُوَارَزْمِية .

(١) أى ديوان الخليفة .

(٢) هو صدر الدين موهوب الجَزَرى . وُلد بالجزيرة (جزيرة ابن عمر) فى جمادى الآخرة سنة ٥٩٠ ، وأخذ عن العَلَم السَّخَاوى والشيخ عزالدين بن عبد السلام ، وتفقه وبرع فى المذهب والأصول والنحو ، وتخرجت به الطلبة وجمعت عنه الفتاوى المشهورة ، وُلى القضاء بمصر . مات سنة ٦٦٥ هـ .

واستهلّت سنة أربعين وستمائة :

فى هذه السنة ، عَزَمَ السلطانُ الملك الصالح نجم الدين على التوجه إلى الشام ، فبلغه أن العساكر مختلفة ، والبلاد مُختَلَّة ، فأقام .

وفيها كانت وَقْعةٌ عظيمة بين عسكر حلَب والخُوارزمية . وكان الملك المُظَفَّر شهاب الدين غَازِى ـ صاحب مَيَّافَارِقِين[1] ـ مع الخُوارَزْمِيّة ، وكانوا قد حَلَفوا له وحَلَف لهم . وأخربوا بلاد الموصل ومارِدِين ، فاضطُر صاحبُ مارِدِين إلى موافقتهم . وجمع غازى الخَانَات الخُوارزميه ، وأشار عليهم بقصد بلاد الموصِل فقالوا : لابد من لقاء العسكر الحلبى ، فألجأته الضرورة إلى موافقتهم .

وركبوا فى ثامن عشرين المحرم ، من جبل مارِدِين إلى الخَابور[2] ، وساقوا إلى المِجْدَل[3] . ووقف الخانات ميمنةً وميسرة ، ووقف الملك المظفر غازى فى القلْب ، والتقوا . فصدمهم العسكر الحلبى صدمةَ رجل واحد .

فانهزموا لا يَلْوون على شىء ، ومعهم الحلبيون يقتُلون ويأسرون . وأخذوا أثقال غازى وأغنام التركمان ، وخيلَهم ونساءهم ، وكانوا خَلْقاً

---

(١) أشهر مدينة بديار بكر (بالجزيرة)
(ياقوت : ٨ ـ ٢١٤)

(٢) بلد بالقرب من قرقيسياء بالجزيرة ، على نهر الخابور الذى يصب فى أعالى الفرات . ونُسِبَت إلى النهر .
(المعجم . سبق ذكره)

(٣) المِجْدَل (بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال ـ كما ضبطه ياقوت) : اسم لبلد طيب بالخابور ، إلى جانبه تل عليه قصر ، وفيه أسواق كثيرة .
المِجْدَل ـ لغةً ـ معناها : القصر المشرف .
(معجم البلدان : جـ ٧ ـ ٣٨٧)

كثيراً . فبيع الفرس بخمسة دراهم ، ورأس الغنم بدرهم . ونُهِبَت نَصِيبِين ، وسُبِى نساؤها ـ وكانت قد نُهِبت مراراً فى سنة تسع وثلاثين ـ يقال نُهبت سبع عشرة مرة ، من المواصِلة والخُوارزمية وعسكر مَيَّافارِقين ومارِدِين ـ وعاد الملك المظفر غازى إلى مَيَّافارِقين .

وتفرقت الخوارزمية ، ثم اجتمعوا على نَصِيبين . ثم رحلوا فنزلوا رأسَ عَيْن ، فقتلوا أهلَها ، ونهبوا الأموالَ وسبوا النساء . وفعلوا بالخابور كذلك ، ونهبوا أغنام التُّرْكُمَان .

وفيها وصل إلى الملك المُظَفَّر ـ شهاب الدين غازى ـ منشورٌ بخِلاَط وأعمالِها ، مع شمس الدين النائب بالروم ، فتسلَّمها وما فيها .

وفيها توفيت ضَيْفَة خَاتُون ، ابنة الملك العادل : سيف الدين أبى بكر ابن أيوب .

وهى والدةُ الملكِ العزيز : بنِ الملك الظاهر صاحب حلب ـ والد الملك الناصر . وكانت هى التى دبَّرتَ الدولة ، وحُفِظَ المُلْكُ بسببها على ابنها وابنه ، بعد وفاة الملك الظاهر . ولما توفيت ، قام بتدبير الدولة الحلبية الأمير الأَتَابِك : شمس الدين لؤلؤ ، أتابك الملك الناصر صاحب حلب .

* * *

ذكر الإتفاق والاختلاف بين الملكين الصالحين : نجم الدين أيوب صاحب مصر ، وعماد الدين إسماعيل صاحب دمشق

فى هذه السنة ترددت الرُّسُلُ بين الملكين الصالِحَيْن : نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية ، وعمِّه عماد الدين إسماعيل صاحب الشام ، وتوجه شرف الدين بن التِّبْنى والأَصِيل الإسْعِرْدِى[1] الخطيب ، إلى دمشق . فأطلق الملك الصالح إسماعيل الملكَ المغيثَ جلال الدين ـ ولدَ السلطان الملك الصالح نجم الدين ـ من الاعتقال . ورَكِبَ وخَطَب لابن أخيه الملك الصالح أيوب بدمشق . ورَضِىَ الملك الصالح أيوب بإقرار دمشق بيد عمِّه الصالح إسماعيل ، بعد أن يُسلِّمَ إليه ولدَه .

وحصل الاتفاقُ على ذلك ، ولم يبق إلا أن يتوجه الملك المغيثُ إلى أبيه . فصرف أمينُ الدولة السَّامِرى ـ وزيرُ الملك الصالح إسماعيل ـ رأيَه عن ذلك وقال : هذا خاتَم سليمان ، لا تخرجْه من يدك يُعْدَمِ المُلكْ . فتوقَّفَ ، ولم ينتظمْ الحال . وقطع خُطبَة ابن أخيه ، وأعاد المِلك المغيثَ إلى الاعتقال بالبُرْج ، واستمر به إلى أن مات . وكانت وفاته يوم الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر ، سنة اثنتين وأربعين وستمائة . وحُمِل إلى تربة جده الملك الكامل فدفن بها . وكان عاقلاً ، ما حُفِظَتْ عنه كلمةُ فُحْش ـ رحمه الله تعالى .

---

(١) نسبة إلى « إسْعِرْد » : بلد بين دجلة وميافارقين .

ولما رجع الصالح إسماعيل عن الصلح ، كتب الملك الصالح أيوب إلى الخُوارزميه فى الحضور إلى الشام . فعبروا إلى الفُرات وانقسموا قسمين : قسم جاءوا على البِقَاع البَعْلَبَكِّى ، وقسم على غُوطَةِ دمشق . ونهبوا وسَبوا وقتلوا . وسد الصالح إسماعيل أبوابَ دمشق . وتوجه الخوارزميه إلى غزَّة . وكان من خبَرهم ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى .

وفيها عزُل قاضى القضاة : صدرُ الدين مَوْهُوب الجَزَرِى عن القضاء بمصر والوجه القبلى ، وفَوَّضَ السلطانُ الملك الصالح ذلك إلى القاضى : أَفْضَل الدين أبى عبدالله ، محمد بن نَامَادِر ، بن عبدالملك ، بن زِنْجِلِين ، الخُونَجِى[1] ، وكانت ولايته فى يوم عيد النَّحْر من هذه السنة . واستمر فى القضاء إلى أن مات .

وفيها فى يوم الجمعة بعد الصلاة ، ثانى العيد الأضحى ، أمر الملكُ الصالح إسماعيل بالقبض على أعوان القاضى رفيع الدين الجِيلى ـ وكانوا ظَلَمة آذوا الناس . وكان كبيرهم الموفق حسين بن عمر بن عبدالجبَّار ـ المعروف بابن الواسِطى . ثم قُبِض على القاضى الرفيع بعد أيام . وأُمِر بمصادرتهم فصودروا ، وعوقبوا وعذبوا بأنواع العذاب ـ وكانوا لذلك أهْلا . ثم قُتِل الرفيع فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، ببعلبك : جَهَّزَه أمينُ الدولة السَّامِرِى إليها ، فقُتل هناك .

---

(١) نسبة إلى « خُونَج » : وهى بلد من أعمال أذربيجان ، بين مَرَاغة وزَنْجَان . وبينها وبين زَنْجان يومان . ويقال لها أيضا : « خُونَا » .

(معجم البلدان : ٣ ـ ٤٩١ ـ ٩٢)

وكان القاضي الرفيع هذا قد صادَرَ أهلَ دمشق ، وفعل ما لا يفعله ظَلَمةُ الوُلاة . وكتب إلى السلطان يقول : إننى قد حملت إلى خِزانتك ألفَ ألف دينار ، من أموال الناس . فقال السامِرى : ولا ألفَ ألف درهم . وكان السامِرىّ قد تمكن من الملك الصالح تَمَكُّناً عظيماً ، لا يخالفه فى شىء ألْبَتَّه . فقال الملك الصالح : أنا أُحَاقِقُه ، فإنه قد أكَل الأموال ، وأقام علينا الشَّنَاعة ، والمصلحةُ تقتضى عزلَه ومؤاخَذَته ، ليعلم الناس أنك لم تأمرْه بأذاهم . فعزَله عن القضاء . ثم تسبب فى قَتْلِه .

ولما عُزِل ، فُوِّضَ القضاءُ بعده لقاضى القضاة محيى الدين يحيى ، بن قاضى القضاه محيى الدين محمد ، بن على بن محمد بن يحيى ، القُرَشى . وقرىء تقليده بالجامِع بدمشق ، فى خامس عشرين ذى الحجة . وحَكَمَ بإسْقاطِ عَدَالةِ أصحاب الرَّفِيع ، وهم : المُعِزّ بن القَطَّان ، والزَّيْن الحَمَوِى ، والجَمَال بن سِيدَه ، والمُوَفَّق الواسِطى ، وسالم المَقْدِسى ، وابنه محمد ـ لِمَا فعلوه بالمسلمين من أنواع الأذى ، وقَطْعِ المُصَانَعَات .

* * *

واستهلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة :

ذكر الواقعة الكائنة بين عسكر مِصر ـ ومن معه من الخُوَارَزْمية ـ وبين عسكر الشام ـ ومن شايعهم من الفِرِنْج ، وانهزام الفِرِنْج وعسكر الشام ، على غَزَّه

قد ذكرنا وصولَ الخوارزمية إلى الشام ، ونزولَهم على غَزَّه .

ولما استقروا بها ، أرسل إليهم السلطانُ الملك الصالح النفقاتِ والخِلَعَ والكَسَاوِى ، وطائِفةً من العسكر المصرى . فاتفق الملك الصالحُ إسماعيل صاحب دمشق ، والملك المنصور صاحب حِمص ، والملك الناصر داود صاحب الكَرَك ، وراسلوا الفِرِنْج . وكان الصالح إسماعيل قد سَلَّمَ إليهم من الحصون ما تقدم ذِكْرُه . ووَعَدَهم الآن أنه متى ملكَ الديار المصرية ، أعطاهم الأعمالَ الساحِلِيّة بأَسْرها . واستقر ذلك بينهم وبين الملوك الثلاثة المذكورين .

وخرج الملكُ المنصور ـ صاحبُ حمص ـ بعسكره وعساكر دمشق . وأقام الصالح بدمشق . وجَهَّزَ الملكُ الناصر داود عسكره من نابُلُس ـ صُحْبَةَ الظهير سُنْقُر الحلبى والوَزِيرِىّ ، وأقام هو بالكَرَك . واجتمَعَتْ هذه العساكر ، وعساكرُ الفِرِنْج : الدَّيْوِيَّة والإسْبِتَار والكُنُود[1] ، على يافا . والعسكرُ المصرى والخُوارزمية على غَزَّه .

---

(١) سبق تفسير هذه الكلمات . فالدَّيْوِيَّة هم طائفة « فرسان المعبد » من الفرنج ، « الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فى الحروب الصليبية . و« الاسبتار » أو « الاسبتارية » هم طائفة أخرى من فرسانهم ، وهم مثل هؤلاء فى التعصب والحماس ، والكنود : أى الأشراف أو الأمراء من الفرنج .

قال أبو المُظَفَّر : وساق صاحبُ حمص وعسكر دمشق ، تحت أعلام الفِرِنْج – وعلى رءوسهم الصُّلْبَان ، والأَقْسَاءُ[١] فى الأَطْلاَبِ[٢] يُصَلِّبُون[٣] على المسلمين ويُقَسِّسُون عليهم ، وبأيديهم كئوسُ الخمر والهَنَّابَات[٤] يَسْقونهم . وساق العسكرُ المصرى والخُوارزمية . والتقوا بمكانٍ يقال له أَرْبِيَا[٥] – بين غَزَّة وعَسْقَلاَن .

وكان الفِرِنْجُ فى المَيْمنة ، وعسكر الناصر داود فى المَيْسرة ، وصاحب حمص فى القَلْب . وكان يوماً عظيماً ، لم يَجْرِ فى الإسلام بالشام مثلُه ، واقتتلوا . فانكسرت المَيْسرة ، وهرب الوَزِيرِىّ ، وأُسِرَ الظَّهِير سُنْقُر الحلَبى وجُرِح فى عينه . ثم انهزم صاحبُ حمص . وكان العسكر المصرى قد انهزم ، ووصل إلى قرب العَرِيش . وثَبَتَ الخُوارزمية والفرنج ، واقتتلوا ، فمَالَت الخُوارزمية عليهم بالسيوف ، يُقَتِّلُونَهم كيف شاءوا .

قال أبو المُظَفَّر : وكنتُ يوم ذاك بالقُدْس ، فتوجهتُ فى اليوم الثانى من الكَسْرَةِ إلى غزة ، فوجَدْتُ الناسَ يَعُدُّون القتلى بالقَصَب ، فقالوا : إنهم يَزِيدون على ثلاثين ألفا .

---

(١) هكذا فى (ع) . والمفهوم أنها جمع قَس . وفى القاموس : القَسّ ، بالفتح : رئيس النصارى فى العلم . كالقسيس . ج قسوس وقسيسون وقساوسة . فالجمع الوارد هنا لم يُذكر ، ولكن يظهر أنه جمع قياسى : جمع قس ، على وزن أفعال ، ولكن أبدلت السين الأخيرة همزة لتعددها ، ولسهولة الهمزة فى النطق .

(٢) سبق شرح هذه الكلمة ، وأنها جمع : طُلْب : بمعنى الكَتِيبة فى الجيش ، وهو لفظ كُرْدِى ، دخل فى المصطلحات الحربية منذ الدولة الأيوبية .

(٣) معنى ذلك : يباركونهم بالصلبان ، أو الإشارات بها أو نحو ذلك .

(٤) ج هَنَّاب : وهو قَدَح الشراب . وتوجد هذه الكلمة فى اللغة الفرنسية .

(انظر السلوك – زيادة جـ ١ – ص ٦٠٧ – حاشية ٣)

(٥) هذه موقعة تاريخية هامة فى الحروب الصليبية . ولم يلتفت إليها كثير من المؤرخين إلا أخيراً

وبَعَث الخُوارزمية بالأُسارى والرءوس إلى الديار المصرية . وفى جملة الأسرى الظَّهِير سُنْقُر وجماعةٌ من المسلمين . وكان يومُ وصولهم إلى القاهرة يوماً مَشْهُودا . وعُلِّقَتْ رءوس القتلى على الأسوار ، وامتلأت الحُبُوس بالأَسْرى . ووصل صاحب حمص إلى دمشق فى نفَر يسير ، ونُهِبَتْ خزانتُه وخيله وسلاحه ، وقُتِلَ أكثرُ أصحابه . فكان يقول : والله لقد علمتُ ، حيث سُقْنَا تحت أعلام الفِرِنْج ـ أننا لا نُفْلِح !

وفى هذه السنة ، توفى شيخ الشيوخ : تاج الدين أبو محمد عبدالله بن عمر بن على بن محمد بن حَمَّويه ، بن محمد بن محمد بن أبى نصر بن أحمد ، بن حِمَّويه بن على . وكانت وفاته بدمشق ، فى سادس صفر . وصُلِّى عليه بجامعها ، ودُفن بمقابر الصُّوفية . ومولدُه يوم الأحد ، رابع عشر شوال ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وهو عَمُّ الأمراء : فخرِ الدين ، وعمادِ الدين ، ومُعِينِ الدين ، وكمالِ الدين : أولاد صَدْرِ الدين شيخ الشيوخ . وكان شيخاً حَسَناً متواضِعاً ، عالِماً فاضلاً ، نَزِهاً عفيفاً أديباً ، صحيحَ الاعتقاد ، شريف النفس عاليَ الهِمة ، قليل الطمَع ، لا يلتفت إلى أحدٍ من أبناء الدنيا ، لا إلى أهله ولا إلى غيرهم ، بسبب دُنْيَاهم . وصنف التاريخَ وغيره ـ رحمه الله تعالى .

وفيها تُوفى الأمير عمر : بن الملك المظفر شهاب الدين غازى ، بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب . وكان يُلَقَّب : بالملِك السعيد . وكان شاباً حسنَ الأخلاق ، جميل الصورة ، جَواداً شجاعاً .

وكانَ التَّتار قد استولوا على ديارَ بكْر ، وأخذوا خِلاَط . فخرج الملك المظفر غازى من مَيَّافَارِقِين ، ليستَنْجِدَ عليهم الخليفةَ والملوك . وخرج معه ولده عمر هذا ، وأمير حسن بن تاج الملوك أخى غازى . فوصلوا إلى الهِرْمَاس [1] ، لوَداع الملك المظفر : فقال المظفر لولده عمر : المصلحةُ تقتضى أن ترجع إلى ميَّافارِقين ، وتحفظ المسلمين من التتار ، وأنا أتوجهُ إلى بغداد وإلى مصر أستنجدُ الملوك .

فقال : والله لا أفارقُك . وجاء حسنُ بن تاج الملوك وجلس إلى جنبه ، وأخرج سِكِّيناً وضرب عمرَ فى خاصِرتَه . وهرب ليَرْمِىَ نفسه فى ماء العَيْن فيغرق . فصاح الملك المظفر : امسكوه ، فقد قتل عمرَ ولدى ! وقام غازى ليقتله ، فقصد حسن الملك المظفر ليقتله . فرمى عمرُ نفسَه على أبيه ، وقال لحسن : يا عدوَّ الله ، قتلتَنى وتَقتل والدى ! فضربه حسنُ بالسيف ، فقَطَعَ خاصِرته فسقط إلى الأرض . وأمر غازى بحسَن فقُطِّعَ قِطَعا ، وحُمِلَ عمر إلى الحصن فدُفن به ـ رحمه الله .

ذكر وفاة الملك المظفر تَقِىّ الدين محمود صاحب حَماه ومُلْكِ ولده المنصور

وفى هذه السنة ، فى يوم السبت ثامن جمادى الأولى ، توفى الملك المظفر تقى الدين محمود ، بن الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد ، بن

---

(١) (بكسر الهاء وآخره سين مهملة) وهو نهر نصيبين ، ويسير حتى يلتقى بنهر الخابور ، فهو من روافده ، ويجرى النهر الكبير حتى يصب عند قرقيسياء .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ٣٨٣)

الملك المظفر تقى الدين عمر ، بن الأمير نور الدولة شاهِنْشَاه بن أيوب ـ صاحب حَماه .

ومولدُه فى يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان ، سنة تسع وتسعين وخمسمائة . وملك حَماه فى سنة ست وعشرين وستمائة ، كما تقدم . ولما مات ملك بعده ولدُه الملك المنصور : ناصر الدين محمد .

وفيها كانت وفاة السلطان نور الدين أَرْسَلاَن شاه ، بن عماد الدين زَنْكى ، بن نور الدين أَرْسَلان شاه ، بن عز الدين مسعود ، بن قطب الدين مَوْدُود بن عماد الدين زَنْكى[1] ، بن قَسِيمِ الدَّوْلة : آقْسُنْقُر[2] . كان والدُه ـ رحمه الله تعالى ـ لما ملك شَهْرَزُور ، وحَضَرَتْه الوفاة ـ أخذ العهودَ على الأمراء والأجْناد والأعيان ، فاستقرَّ بها . وقاتل التتار مِرارًا عَديدة . ثم مات ـ رحمه الله تعالى . وكانت وفاته فى يوم الأحد ، رابع عشر شعبان .

وفيها فى يوم الأربعاء ، العشرين من ذى القعدة ، كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبو طالب : محمد بن أبى الحسن بن على ، بن على بن الفضل ابن التامغاز ، المعروف بابن الخَيْمى . كان إماماً فى اللغة ، راوِيةً للشعر والأدب . وكان مولده فى الثامن والعشرين من شوال ، سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، بالحِلَّةِ المَزْيَدِيَّة[3] . وله نَظْم حسن : رحمه الله تعالى .

---

(١) الذى هو « الأتابك » عماد الدين صاحب الموصل ، والد السلطان نور الدين .

(٢) هو جد الأسرة الأتابكية .

(٣) الحِلَّة : علم لعدة مواضع . وأشهرها حِلَّة بنى مَزْيَد : مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد . وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دُبَيْس بن على بن مَزْيَد ، الأَسَدِى .
(معجمَ البلدان : جـ ٢ ـ ٣٢٧)

ولذا فهى تنسب إلى مزيد هذا ، جدهم .

واستهلّت سنة ثلاث وأربعين وستمائة :

ذكر استيلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق ، وأخذها من عمه الملك الصالح إسماعيل . وعَوْدِ الصالح إسماعيل إلى بعلبك وما معها

لما اتَّفَقَتْ الوَقْعَةُ ـ التى ذكرناها ـ بين عساكر السلطان الملك الصالح نجم الدين ومن انضم إليها من الخُوارزمية ، وبين عسكر الملك الصالح إسماعيل والفِرِنْج وحصلت المُكَاشَفَة ـ جَهَّزَ الملك الصالح نجم الدين جيشاً كثيفاً إلى دمشق ، فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، وقَدَّمَ عليه الصاحبَ مُعين الدين بن شيخ الشيوخ . وأقامه مُقَام نفسه ، وأمره أن يجلس فى رأس السِّماط على عادة الملوك ، ويقف الطواشى شِهاب الدين رشيد ـ أستاد الدار ـ فى خدمته ، وأميرُ جَانْدَار ، والحُجَّاب .

فسار إلى دمشق ، ومعه الخُوارزمية ، فحاصروها أشد حصار . فلما كان فى يوم الإثنين ثامن المحرم ـ سنة ثلاث وأربعين ، بعث الملك الصالح إسماعيل إلى الأمير الصاحب ـ معين الدين بن الشيخ ـ سجَّادةً وإبريقاً وعُكَّازاً ، وقال : اشتغالُك بهذا أَوْلَى من اشتغالك بقتالِ المُلوك ! فبعث إليه الصاحبُ معين الدين جَنْكاً[1] وزَمْراً ، وغُلاَلَة حرير أصفر وأحمر ، وقال : أما ما أرْسَلْتَ به إلىَّ فهو يَصْلُحُ لى ، وقد أرْسَلْتُ بما يَصْلُحُ لك !

(١) من آلات الطرب .

(انظر السلوك ـ زيادة : جـ ١ ـ ٢٧٥ : حاشية ٣)

ثم أصبح معينُ الدين وركِب فى العسكر ، وزحفوا على دمشق من كل ناحية ، ورُمِيَتْ بالمَجَانِيق . وكان يوماً عظيماً .

وبعث الملكُ الصالح إسماعيل الزَّرَّاقِين[1] ، فى يوم الثلاثاء تاسع الشهر ، فأحرقوا الجَوْسَقَ[2] العادِلى ، ومنه إلى زُقاق الرُّمَّان والعُقَيْبَة بأَسْرِها . ونُهِبَتْ أموالُ الناس . وفَعَلَ فيها كما فَعَلَ عندِ حصار الملك الكامل دمشق ، وأَشدَّ منه . واستمر الحالُ على ذلك . ثم خرج الملك المنصور صاحب حمص فى شهر ربيع الأول إلى الخوارزمية ، واجتمع ببركة خَان[3] وعاد إلى دمشق . وجرت وقائعُ فى خلال هذا الحصار .

ثم أرسل السامِرِىُّ وزير الملك الصالح إلى الأمير مُعين الدين ، يطلب منه شيئاً من مَلبوسه . فأرسل إليه فَرَجِيَّة وعِمامة وقَميصاً ومِنديلاً ، فلبس ذلك وخرج إليه بعد العَشاء الآخر ، وتحدث معه وعاد إلى دمشق .

ثم خرج إليه مرة أخرى ، فوقع الاتفاق على تسليم دمشق ـ على أن يكون للملك الصالح إسماعيل ما كان له أوّلاً ، وهو بَعْلَبَكّ وأعمالها وبُصْرَى وبلادها ، والسَّواد . وأن يكون للملك المنصور حِمص وبلادها ، وتَدْمُر والرَّحْبَة .

فأجاب الأميرُ معين الدين إلى ذلك ، وتَسَلَّمَ دمشق . ودخلها فى يوم الإثنين ـ العاشر من جُمادى الأولى ، سنة ثلاث وأربعين وستمائة . وتوجه الملك الصالح إلى بعلبك . وصاحب حِمص إلى بلده .

---

(١) سبق تفسيرها . وهم الذين/يرمون النفط بالزَّرَّاقات .

(٢) الجوسق : القصر . أو نوع خاص من القصور .

(٣) رئيس الخوارزمية .

ونزل الأميرُ الصاحب معين الدين ـ بدار أُسامة ، والطواشى شهاب الدين رَشيد بالقلعة . وَوَلَّى الأميرُ مَعينُ الدين بن الشيخ الجمالَ هارون المدينة . وَعَزل قاضَىَ القضاة محيي الدين ، وفوَّضَ القضاء لقاضى القضاة : صدر الدين بن سَنىّ الدولة . ووصل الأمير سيف الدين بن قِليج من عَجْلُون ، منفصلاً من خدمة الملك الناصر داود ، وأوصى بعَجْلون وما له بها من الأموال للملك الصالح ، ونزل بدمشق بدار فُلوس .

وجَهَّزَ الأميرُ ـ معينُ الدين بن الشيخ ـ الأمير نَاصر الدين بن يَغْمُور إلى الديار المصرية ـ وكان الملك الصالح إسماعيل قد اعتقله بقلعة دمشق ، فى سنة إحدى وأربعين وستمائة ، لموافقته الملكَ الجَواد ، فاستمر فى الاعتقال إلى الآن ـ فجَهَّزَه ، وجَهَّزَ أيضاً أمينَ الدولة السامِرى إلى الديار المصرية ، تحت الاحتياط . فاعتُقِلا مدة ، ثم شَنَقَهما الملك الصالح نجم الدين على قَلْعِة الجَبَل .

وكان أمينُ الدولة يُطبُّ فى ابتداء أمره . ثم تمكن من الملك الصالح إسماعيل ، وَوَزَر له . وارتفع مَحَلُّه عنده ، بحيث إنه ما كان يَخْرُجُ عن إشارته . وكان يتَستَّر بالإسلام ولا يتمسك بدين . وقيل إنه مات فى سنة ثمان وأربعين وستمائة .

قال أبو المظفر : وظهر له من الأموال والجواهر واليواقيت ، والتُّحَف والذخائر ما لا يوجد فى خزائن الخلفاء والسلاطين . وأقاموا يَنْقُلُونه مدة . قال : وبلغنى أن قيمةَ ما ظهر له ثلاثة آلاف ألف دينار ـ غيرَ الودائع التى كانت له عند ثِقاتِه والتجار . ووُجِدَ له عشرة آلاف مجلد ، من الكتب النفيسة والخطوط المَنْسُوبة .

وأما الخُوارزمية فإنهم ما عملوا بالصلح إلا بعد وقوعه . فرحلوا إلى دَارَيّا[1] ، فنهبوها . وقيل إن مُعين الدين منعهم من الدخول إلى دمشق ، وأقطعهم أكثرَ بلاد الشام والسواحل بمَنَاشِيره . ودَبَّرَ الأمرَ أحسن تدبير .

قال : ولما بلغ السلطانَ خروج عمه الملك الصالح إلى بعلبك ، كتب بالإنكار على الطَّوَاشى شهاب الدين رَشِيد والأمراء ، لكونهم[2] مكنوه من المسير إلى بعلبك . وقال إن الأمير مُعين الدين حَلَف ، وأنتم ما حَلَفْتُم . فلم يُفِدْ إنكارُه شيئاً ، بل أثَّرَ ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى .

---

(١) قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق ، بالغوطة .

(معجم البلدان : جـ ٤ ـ ٢٤)

(١) ـ ف (ع) «كونهم» .

ذكر وفاة الأمير الصاحب معين الدين

وفى ليلة الأحد ـ ثانى عشر شهر رمضان ، من السنة ـ كانت وفاة الأمير الصاحب معين الدين الحسين ، بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد ، ابن عمر بن حَمَّويه ـ بدمشق ، وهو يومئذ نائبُ السلطنة بها .

ومات وله ست وخمسون سنة . ودفن إلى جانب أخيه عماد الدين . وكان جواداً كريماً دَيِّناً صالحاً ـ رحمه الله تعالى . ولما مات ، كتب السلطان إلى الطَّوَاشى شهاب الدين رشيد أن يتولى نيابة السلطنة ، بدمشق .

ذكر محاصرة الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك دمشق ، وما حصل بها من الغلاء بسبب الحصار

قال المؤرخ : لَمَّا بلغ الملكَ الصالح عمادَ الدين ـ صاحبَ بعلبك ـ إنكارُ الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ ابن أخيه ـ على الأمراء ، لكونهم [1] مَكَّنُوه من التوجه إلى بعلبك ـ خاف على نفسه ، وعلم سُوءَ رأْيِ السلطان فيه ، وأنه متى ظفِر به لا يُبْقِى عليه ، فكاتبَ الأميرَ عزَّ الدين أَيْبَك

---

(١) فى (ع) «كونهم»

المُعَظَّمى صاحبَ صَرْخَد وأكابرَ الخُوارزمية ، واتفقوا ونازلوا دمشق ، فى ثالث عشرين ذى القعدة ، من السنة . وحاصروها ، ونهبوا بلادَها وعاثُوا فيها ، وقطعوا المِيرةَ [١] عنها .

فَغَلَتْ الأسعار ، وعُدِمَت الأقوات . وبلغ سعرُ القمح ـ عن كلِ غرَارة ـ ألف درهم وثمانمائة درهم ناصِرية . فمات أكثرُ أهل البلد جوعاً واستمر ذلك مدة ثلاثة شهور .

وفى هذه السنة ، وصل رسولُ الخليفة المُسْتَعْصِم بالله [٢] ـ وهو الشيخ جمالُ الدين [٣] عبدالرحمن ، بن الشيخُ محيى الدين يوسف بن الجَوْزِى ـ إلى السلطان الملك الصالح نَجْم الدين أيوب ، بالخلَع والتقليد .

وكانت خِلْعَة السلطان عِمامة سوداء ، وفَرَجِيَّة مُذَهَّبَة ، وثوبيْن مُذَهَّبَة ، وسيفين مُحَلاَّة ، وقَلَميْن ، وطوق ذهب ، وحصان بسَرْج ولجام وعدة خِلَع لأصحاب السلطان . وقرأ الشيخُ جمال الدين ـ رسولُ الخليفة ـ التقليدَ على مِنبر والسلطانُ قائم على قدميه ، وقد لبس خِلْعة الخليفة ، حتى انتهت قراءة التقليد .

---

(١) الأقوات والمئونة .

(٢) هو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد (٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ)

(٣) حفيد أبى الفرج بن الجوزى ، الإمام المشهور الذى مرت ترجمته . وقد خلف والدَه الشيخ محيى الدين فى وظيفته ، فقد سبق أن وفد محيى الدين من قبل الخليفة المستنصر ، رسولاً بالتقليد والولاية إلى السلطان الملك الكامل . (كما مرَّ فى أحداث سنة ٦٣٠) .

وكان من جُمْلة الخلَع الواصلة من الخليفة خِلْعة سوداء للوزير مُعِين الدين ـ وكان قد تُوفى ـ فرَسَم السلطانُ أن يُلْبِسَها أخاه الأميرَ فخر الدين بن الشيخ ، فلَبِسَها ـ وكان السلطان قد أَفْرَجَ عنه من الاعتقال فى هذه السنة ، بعد أن لاقى شدائد كثيرة ـ وكان له فى الاعتقال ثلاث سنين

وفى هذه السنة ، بعث الملكُ الصالح نجمُ الدين الأميرَ حُسام الدين بن بَهْرَام إلى حصن كَيْفا ، لإحضار ولده الملك المعظم تُورَانْشَاه إلى الديار المصرية . وكَتَب إليه : الولد يُقَدِّمُ خِيرةَ الله ، ويصلُ إلى بالِس[1] ، ويُعَدِّى عندها ، فقد اتفقنا مع الحَلَبِيِّين ، وذكروا أنهم يُجَرِّدُون ألفَ فارس فى خِدمتك . واعْبُرْ ببلد ماردِين ليْلاً ، فما نحن متفقين . فلما قرأ الكتاب كَرِه ذلك ، وما كان يُؤْثِرُ الخروجَ من الحِصن . وقال لابن بَهْرَام : يكون الإنسان مالكَ رأسه يصبح مملوكاً محكوماً عليه ! ولم يُجِبْه .

ولما اتصل خبرُ طلَبِه بالملكِ الرحيم بدر الدين لؤلؤ ـ صاحب الموصل أرسل إليه المماليكَ والخيل والخيام . وكذلك فعل شهابُ الدين غازى . قال أبو المُظَفَّر : حَكَى لى الأميرُ حسام الدين بن أبى على أن الملك الصالح كان يَكْرَه مجىء ابنِه المعظم إليه . وكنا إذا قلنا له : أحضِرْه ، يَنْفُضُ يديه ويَغضب ، ويقول : أجيبه أَقْتُلُه ؟ ! وكأَنَّ القضاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِق !

(١) بلدة بالشام ، بين حلب والرقة .
وكانت على ضفة الفرات ، فلم يزل الفرات يشرق عنها قليلاً قليلاً ، حتى صار بينها فى أيامنا هذه (أى القرن السابع) أربعة أميال .

وفيها وصلت الكُرْجِيَّة بنت إيوانى ملك الكُرْج[1] ..وهى التى كانت زوجةَ الملك الأوحد بن الملك العادل ، وتزوجها بعده أخوه الملك الأشرف موسى . ثم أخذها جلالُ الدين خُوارَزْم شاه ، عندما استولى على خِلاَط . فوصلت الآن إلى خلاَط ، ومعها فَرَمان القَان ـ ملكِ التَّتَار ـ بخِلاَط وأعمالِها .

فراسَلَتْ الملكَ المظفر شهابَ الدين غازى بن الملك العادل تقول : أنا كنتُ زوجةَ أخيك ، والقَانُ قد أقطعنى خِلاَط ، فإن تزوجتَ بى فالبلادُ لك . فما أجابها إلى ذلك . فأقامت بخِلاط . وكانت غارات عساكرها تصل إلى مَيَّافَارِقِين .

وفى هذه السنة ، تُوفى فَلَك الدين المَسِيرِى ، وزيرُ العادِل وابنه الكامل . وكانت وفاته فى يوم الجمعة تاسع شهر رجب . وكان عالىَ المنزِلة فى الدولة الأيوبية .

وفيها توفيت رَبِيعة خاتون بنت أيوب ، أُخت الملك الناصر والملك العادل ، وأخت ست الشام . وكانت وفاتها بدمشق بدار العَقِيقِى ـ وقد قارَبَتْ ثمانين سنة .

---

(١) سبق ذكرهم ، وهم ـ كما عرَّفهم ياقوت ـ « جيل من النصارى كانوا يسكنون فى جبال القَبْق (القوقاز) فقويت شوكتهم ، ولهم ولاية تنسب إليهم . (ولاية الكرج أو جورجيا) .

(معجم البلدان : ٧ ـ ٢٣٠ ـ ٢٣١)

وكانت زوجة سعدِ الدين مسعود ، بن مُعين الدين أُنْسِزْ ، ثم مات عنها . فزوجها الملكُ الناصر ـ أخوها ـ من مظفر الدين بن زين الدين ـ صاحب إرْبِل ـ فأقامت بإرْبِل . ثم قَدِمَتْ دِمشقَ فأقامت بها ، وخَدَمَتْها أَمَة اللطيف العالِمة ـ بنت الناصِح بن الحَنْبَلى ـ وحصل لها من جهتها الأموال الكثيرة .

فلما ماتت رَبيعةُ خاتون ، لقيت أَمَةُ اللطيف شدائد كثيرة ، وصُودرت وطُولبت بالأموال ، واعتقِلت بقلعة دمشق ثلاث سنين . ثم أُطلقت من الحَبْس وتزوجت بالملك الأشرف ـ ابن صاحب حمص ـ وتوجه بها إلى الرَّحْبَة . فتوفيت فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة . وظهر لها من الأموال والذخائر ما قيمته ستمائة ألف درهم ـ غير الأملاك والأوقاف .

وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام : تَقِىّ الدين أبو عمرو عثمان ، بن عبد الرحمن بن عثمان ، بن الصَّلاَح ـ المُحَدِّث [1] المُفْتى المشهور . وكانت وفاته بدمشق فى ليلة الأربعاء ، الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر . ومولده فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، بشَهْرَزُور .

وفيها فى ثانى عشر المحرَّم ، توفى بالقاهرة الأمير شجاع الدين بن أبى زكرى . كان من أعيان الأمراء .

وفيها توفى القاضى الأشرف : بهاء الدين أبو العباس أحمد ، بن القاضى الفاضل : محيى الدين عبد الرحيم البَيْسَانى ، فى سابع جمادى الآخرة بمصر . ومولده فى المحرم سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . وكان الملك الكامل

(١) سبقت ترجمة له .

قد عَرَضَ عليه الوزارة فأبَاها ، وتوفر على التَّرسُّلِيَّة إلى الدِّيوان العَزيز ، والمشورة . وكان صالحاً نَزِهاً عفيفاً ، سَمِعَ الحديثَ وأسمعه .

وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام ، المقرىء المفتى : عَلَم الدين أبى الحسن على بن محمد بن عبدالصمد ، المِصرى السَّخَاوِى[1] . قرأ القرآن على الشاطِبى ، وشرح قصيدته . وكانت وفاته بدمشق ، فى ليلة الأحد ثامن عشر جمادِى الآخرة ، ودفن بقاسِيون . سَمِعَ الحافظَ السِّلَفى وأبا القاسم البُوصِيرى ، وغيرَها .

واستهلَّت سنة أربع وأربعين وستمائة :

ذكر وقعة الخُوارزمية وقتل مقدمهم واستيلاء الملك الصالح على بعلبك وأعمالها ، وصرخد

وفى سنة أربع وأربعين ، كانت الوَقْعَةُ بين الخُوارزمية ـ ومن انضم إليهم ـ وبين العساكر الحَلَبية والشامية والحِمْصية .

وذلك أن السلطان الملكَ الصالح نجم الدين كان قد استمال الملكَ المنصور ـ صاحب حِمص ـ إليه . فوافقه ومال إليه ، وانحرف عن الملك الصالح إسماعيل . ثم كتب إلى الحلبيين يقول : إن هؤلاء الخوارزمية قد كثر فسادُهم ، وأخربوا البلاد ، والمصلحةُ أن نتفق عليهم ، فأجابوه .

---

(١) كان فقيهاً مفتياً ، إماماً فى القراءات ، والتفسير والنحو واللغة . لازم الشاطبى . ثم سكن دمشق وتصدر للإقراء وانتفع به الناس . وله مصنفات كثيرة ، منها التفسير وشرح المفصل وشرح الشاطبية . مات سنة ٦٤٣ هـ .

(السيوطى : حسن المحاضرة : جـ ١ ـ ١٧٣)

وخرج الأتابك شمس الدين لؤلؤ بالعساكر الحلَبية . وجمع صاحبُ حِمص أصحابه ، ومن إنضم إليه من العُرْبان والتُّرْكُمَان . وخرج إليهم عسكرُ دمشق . واجتمعت هذه العساكر كلها على حِمص .

واتفق الملك الصالح إسماعيل والخُوارزمية ، والملك الناصر داود صاحب الكَرَك ، وعزالدين أيبك المُعَظَّمى صاحب صَرْخَد ، واجتمعوا على مَرْجِ الصُّفَّر[1] ولم ينزل الملك الناصر من الكَرَك ، بل سيَّر عسكَره وأقام .

وبلغهم أن صاحب حمص يريد قَصْدَهم . فقال بركة خان : إن دمشق لا تَفُوتُنَا ، المصلحة أن نتوجه إلى هذا الجيش ونبدأ بهم . فساروا والتقوا على بحرة حمص ، فى يوم الجمعة ـ سابع أو ثامن المحرم ـ من هذه السنة . وكانت الدائرة على الخُوارزمية . وقُتِلَ مقدمهم بركة خان فى المعركة . وهرب الملك الصالح إسماعيل ، وعز الدين أَيْبَك المعظمى ، ومن سَلِم من العسكر ، كلٌّ منهم على فرس ونُهبت أموالهم . ووصلوا إلى حَوْرَان .

وتوجه صاحبُ حمص والعسكر الحلبى إلى بعلبك ، واستولى على الرَّبَض[2] ، وسلَّمَه للأمير ناصر الدين القَيْمُرى ، وجمال الدين هارون . وعاد إلى حمص ، وودع الحلبيين . وتوجهوا إلى حلب . وجاء الملك المنصور إلى دمشق ، خدمة للملك الصالح ، فنزل ببستان أسامة .

---

(١) بقرب دمشق .

(٢) رَبَض المدينة : ما أمام سورها من الدور والحظائر وبعض القرية ، مما هو مقدم للمدينة .

ومضت طائفة من الخُوارزمية إلى البَلْقَاء[١] ، فنزل إليهم الملك الناصر صاحب الكَرَك وصاهرهم واستخدمهم ، وأسكن عيالهم بالصَّلْت[٢] . وفعل الأمير عز الدين المعظمى كذلك . وساروا فنزلوا نابُلُس ، واستولوا عليها . وعاثوا فى الساحِل .

فندب السلطان الملك الصالح نجم الدين الأميرَ فخر الدين بن الشيخ بالعساكر إلى الشام . فلما وصل إلى غَزَّة ، عاد من كان بنابُلس من الخوارزمية إلى الصَّلْت . فتوجه إليهم ، وقاتلهم على حُسْبَان[٣] وكَسَرَهُم ، وبَدَّدَ شَمْلَهم . وكان الملك الناصر معهم ، فسار إلى الكَرَك وتحصَّن بها . وتبعه الخُوارزمية ، فلم يُمَكِّنْهم من دخول الكَرَك . وأحرق ابنُ الشيخ الصَّلْت . وكان الأمير عز الدين أيبك المعظمى مع الناصر ، فعاد إلى صَرْخَد وتَحيَّزَ بها .

وكانت كَسْرَةُ الخوارزمية هذه فى سابع عشر شهر ربيع الآخر .

ونزل الأمير فخر الدين بن الشيخ على الكَرَك ، فى الوادِى . وكتب إلى الملك الناصر يطلب مَنْ عنده من الخوارزمية .

وكان عنده صبى مُسْتَحْسَن من الخوارزمية ، إسمه طاش بورك بُزْخَان ، فطلبه ابن الشيخ ، فقال الناصر : هذا طَيِّب الصوْت ، وقد أخذتُه ليقرأ عندى القرآن . فكتب إليه ابن الشيخ كتاباً غليظاً ، وذكره غدره بأيْمانه

---

(١) كورة شرق أريحا (شرق الأردن) على مرحلة منها . مدينتها حُسْبَان .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ١٠٦) .

(٢) مدينة بين البَلْقاء وعَجْلون . على مسافة يوم من عَجْلون (بالأردن) .

(٣) حُسْبَان (وهكذا ضبطها القلقشندى ، بضم أولها فسكون) هى مدينة البلقاء .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ١٠٦)

وخُبثه ، وقال : لابُدَّ من الصبى ، وأنا أبعث إليك عِوَضه أعمى يقرأ أطيبَ منه . فبعثه إليه . وتسلم أعيانَ الخوارزمية . ورحل عن الكَرَك . وأحسن الأمير فخر الدين إلى الخوارزمية وخلع عليهم . واستصحبهم معه .

ذكر استيلاء جيش السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على بعلبك ، وخروج الملك الصالح إسماعيل عنها

وفى هذه السنة ـ أيضاً ـ توجه الأميرُ حسام الدين بن [أبى] على من دمشق إلى بعلبك ، وتسلم قلعتَها ـ باتفاق من السَّامَانى ، مملوك الملك الصالح إسماعيل ، وكان حاكِماً عليها . وبعث أولاد الصالح إسماعيل وعياله إلى مصر وتسلم نُوَّابُ الملك الصالح نجم الدين بُصْرَى ـ وكان بها الشهاب غازى والِياً ، فأُعطى حَرَسْتَا[1] القَنْطَرة

وفيها ، فى شهر ربيع الآخر ، توجه الملك الصالح إسماعيل فى طائفة من الخوارزمية ، هاربين إلى حلب . ولم يبق للصالح إسماعيل بالشام مكانٌ يأوى إليه . فتلَقَّاهم الملك الناصر يوسف ـ صاحب حلب ـ وأنزل الصالحَ إسماعيل فى دار جمال الدولة الخادم . وقبض على كَشْلُوخَان والخُوارزمية ، وملأ بهم الحُبُوس .

---

(١) حرستا : قرية كبيرة عامرة فى وسط بساتين دمشق على طريق حمص . وحرستا القنطرة : من قرى دمشق أيضاً ، بالغوطة فى شرقيها .

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حمص ، وقيام ولده الملك الأشرف

وفى هذه السنة ـ فى العاشر من صفر ـ وقيل فى يوم الأحد حادى عشرة ـ كانت وفاة الملك المنصور إبراهيم ، بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، بن ناصر الدين محمد بن شِيركوه بن شادى ، بِبُسْتان الملك الأشرف بالنَّيْرَب ، بظاهر دمشق

وكانت مدة مُلْكِه حمص ست سنين ، وسبعة أشهر . وكان شجاعاً مقداماً . وملك بعده ولده الملك الأشرف : مظفر الدين موسى .

وفيها بعث السلطان الملك الصالحُ نجم الدين الصاحِبَ جمال الدين يحيى بن مَطْرُوح إلى دمشق ، وَزِيراً . وأنعم عليه بإقطاع ، وعِدَّة سبعين فارساً ، فوصل إلى دمشق وباشر ما رَسَم له به . ثم كان من أمره وعَوْدِه ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى .

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الشام ، وما استولى عليه فى هذه السفرة ، وما قرره ، وعوده

فى هذه السنة ، توجه السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى الشام .

فوصل إلى دمشق فى تاسع عشر ذى القَعدة ، وأحسن إلى أهلها وفَرِحَ الناس به وزُيِّنَتْ البلدُ لمَقْدِمِه ، وكان يوماً مشهوداً . وأقام خمسة عشر يوماً وتوجه إلى بعلبك وكَشَفَها

ثم رجع ، وتوجه نحو صَرْخَد . وسعى الأميرُ ناصر الدين القَيْمُرى والصاحب جمال الدين بن مَطْرُوح ، فى الصلح بين السلطان والأمير عز الدين أيبك المعظمى صاحب صَرْخَد . وتوجه السلطان من دمشق إلى بُصْرَى . ونزل إليه الأمير عز الدين أيبك . وتَسَلَّمَ صَرْخَد ، وصَعَد إليها ـ وذلك فى ذى الحجة منها . وقدم عز الدين أيبك إلى دمشق ، ونزل بالنَّيْرَب[1] وكُتِب له منشور بِقَرْقِيْسيا[2] والمِجْدَل[3] وضِياعٍ فى الخابور ، فلم يَحْصُلْ له منها شىء . ثم كان من خبره ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ فى سنة خمس وأربعين وستمائة .

ولما تسلم الملك الصالح صَرْخَد ، عاد إلى الديار المصرية ودخل إلى القُدْس . وتصدق فيه بألفَىْ دينار عَيْناً . وأمر بعمارة سور القدس فذُرع ، فكان ستةَ آلاف ذراع بالهَاشِمى[4] ، فرَسَم أن يُصْرَف مُغَلُّ بلاد القدس عليه ، وإن احتاج إلى زيادة جُهِّزَتْ من الديار المصرية . قال أبو المُظَفَّر : وكنتُ لما أطلقه الملكُ الناصر من اعتقاله ، وجاء إلى القُدْس ، أَخَذْتُ يدَه على ذلك .

(١) سبق ذكرها غير مرة : قرية مشهورة على نصف فرسخ من دمشق ، فى وسط البساتين .

(٢) سبق التعريف بها . وهى مدينة مشهورة على أعالى الفرات عند مصب نهر الخابور .

(٣) بلدة قريبة من قرقيسياء فى وادى نهر الخابور . مرّ ذكرها .

(٤) فى النسختين : القاسمى . ولا يوجد ذراع بهذا الاسم . وصوابه ـ كما نرى ـ بالهاشِمى . والذِّراع الهاشِمى كان هو الذراع الرسمى الذى كان يقاس به أرض السَّواد فى العراق ، ثم صار يُقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها .

(انظر القلقشندى : صبح الأعشى : جـ٣ ـ ٤٤٦ ـ ٤٧)

ولمعرفة هذا الذراع ، والأذرع الأخرى ، راجع :

الريس : (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية)

(باب : المقاييس والنقود الإسلامية) .

وفى هذه السنة ، تسلم السلطان ـ أيضاً ـ حصن الصُّبَيْبَة [1] من الملك السعيد : مجد الدين حسن ، بن الملك العزيز ، بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر ، فى سابع عشرين ذى الحجة . وتسلم الصَّلْتَ من ابن عمه الملك الناصر داود .

وفيها قَبَض الملكُ الناصر داود على عماد الدين ، بن الأمير عز الدين بن مُوسَك فى الكَرَك ، واحتاط على مَوْجودِه . ثم شَفَعَ فيه الأميرُ فخر الدين بن الشيخ فأفرج عنه . وخرج من الاعتقال ، وفى حَلْقه خُرَّاج كبير فَبُطَّ ، وحُشِى من الدواء الحارق ، فمات بالكَرَك . ودُفن بمشهد جعفر الطَّيَّار . وكان ـ رحمه الله تعالى ـ من الأَجْواد .

وفيها توفى الأمير رُكن الدين الهَيْجاوى ، فى معتقله بالديار المصرية .

وكان سببَ اعتقاله أنه فارق خِدمة السلطان الملك الصالح ، والتحق بدمشق . وكان قدومه على العساكر ، فقبض عليه ، واعتقله . فمات فى اعتقاله ـ رحمه الله تعالى . وكان خَيِّراً جواداً ، عفيفاً نَزِهاً ، كثير الإحسان إلى جِيرانه ، يَبُرُّ غَنِيَّهم وفقيرَهم .

واستهلَّت سنة خمس وأربعين وستمائة :

فى هذه السنة ، جهز السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب جيشاً ، وقدم عليه الأميرَ فخرَ الدين بن الشيخ ، وبعثه إلى بلاد الفرنج .

---

(١) سبق ذكرها . وهى قلعة منيعة بحصن بانياس بالقرب من دمشق .

ففتح عَسْقَلان ـ فى ثامن عشرين جمادى الآخرة ـ وأَخْرَبَها . ورحل عنها إلى طَبَرِيَّة ، ففَعل بها كذلك . ثم كتب إليه أن يتوجه إلى دمشق ، ويقيم بها بمن معه من العساكر ، لأَمْرٍ بلغه عن الملك الناصر ـ صاحب حلب .

وفيها تسلم نُوَّاب السلطان الملكِ الصالحِ نجم الدين قلعة شُمَيْمِس[1] ، من الملك الأشرف صاحب حِمص . فأمر السلطان بتحصينها ، وبعث إليها الخزائن .

وفيها جهز السلطان تاجَ الدين بن مهاجر ، والمُبارز نسيبه ، إلى دمشق ، ومعهما تَذْكِرة فيها أسماء جماعة من الدماشقة ، رَسَم بانتقالهم إلى الديار المصرية ، وهم : القاضى محيى الدين بن الزَّكى ، وابن الحَصِيرى ، وابن العماد الكاتب ، وبنو صَصُرَّى الأربعة ، وشرف الدين بن العَمِيد ، وابن الخَطيب العَقْرَبَانى ، والتاج الإسكندرانى ـ الملقب بالشَّحرُور ، وأبو الشامَات ، مملوك الملك الصالح إسماعيل ، وغازى ـ والى بُصْرَى ـ والحَكِيمى ، وابن الهادى المُحْتَسِب .

فتوجهوا إلى الديار المصرية ، وأُمِروا بالمقام بها ، ولم يُحْجَر عليهم ، وخُلِع على بعضهم . وأقاموا بالديار المصرية ، إلى أن توفى الملك الصالح أيوب ، فعادوا إلى دمشق . وكان سبب طلبهم أن السلطان بلغه أنهم خَوَاصُّ الملك الصالح إسماعيل .

وفيها فى شهر ربيع ، فُوِّضَت الخَطابة بدمشق للقاضى عماد الدين بن الحَرَسْتَانى ، ورُسِمَ بإخراج العماد خطيب بيت الآبار[2] ، الخطيب بالجامع ، إلى بيت الآبار .

(١) مر ذكرها . وهى فى سلمية ، من أعمال حمص .

(٢) (ج بئر) : قرية يضاف إليها كُورَة ، من غوطة دمشق ، فيها عدة قرى .

ذكر القبض على الأمير عز الدين أيبك المعظمى ، ووفاته

وفى هذه السنة ـ فى ثالث عشر ذى القَعدة ـ اعتُقِل الأمير عز الدين أيبك المُعَظَّمى صاحب صَرْخَد ـ كان ـ فى دار فَرُّخْشَاه . وذلك بترتيب الصاحبِ جمال الدين بن مَطْرُوح وغيره . ووضعوا مُتَرْجَماً أنه جاءه من حلب ، من جهة الملك الصالح إسماعيل . وكتبوا بذلك إلى السلطان الملك الصالح . [فأَمَر] أن يُحْمَل إلى القاهرة تحت الاحتياط . فحُمل واعتقِل فى دار صَوَاب . ورافَعَهُ ولدُه إبراهيم ، وقال للسلطان : إن أموال أبى قد بعث بها إلى الحلَبيين وأنه لما خرج من صَرْخَد كانت أمواله فى ثمانين خُرْجا ، أودعها عند ابن الجَوْزِى .

ولما وصل إلى الديار المصرية مرضِ ، ولم يُسمع منه كلمة حتى مات . ودفن بمقابر باب النصر ، ثم نقل إلى دمشق ، ودفن بتربته . وكان خَيِّراً دَيِّناً ، كثير الصدقة والإحسان إلى خَلْق الله تعالى . اشتراه الملك المعظم ، فى سنة سبع وستمائة ، لما كان على الطُّور ، وجعله أستادَ داره ، وأعطاه صَرْخَد . وكان عنده فى منزلة الوَلَد . رحمهم الله تعالى .

وطُلِب جماعةٌ اتهموا بأمواله ، بسعاية ولده إبراهيم ، وهم : البُرْهان كاتبه ، وابن المَوْصِلى صاحب ديوانه ، والبدر الخادم ، وسُرور ، وغيرهم ، وحُملوا إلى الديار المصرية . فمات البُرْهان بظاهر دمشق ، عند مسجد النَّارِنْج ، لِمَا ناله من الفزع . وأما بَقِيَّتُهم فإنهم عُوقبوا على أمواله ، فلم يظهر عندهم الدِّرهم الواحد .

وفيها كانت وفاة الشيخ الصالح المُحَقِّق على الحريرى ، المقيم بقرية بشر ، المجاورة لزُرَع[1] من بلاد حَوْرَان . وبهذه القرية قبر اليَسَع ـ عليه السلام . وهذا الشيخ هو شيخُ طائفة الحَرِيرِيَّة .

واستهلَّت سنة ست وأربعين وستمائة :

فى هذه السنة ، استولى الملك الناصرُ ـ صاحب حلب ـ حمص ، وانتزعها من الملك الأشرف موسى صاحبِها ، وعَوَّضهَ عنها تَلَّ بَاشِر .

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق ، وما اعتَمَده

فى هذه السنة ، توجه السلطان من الديار المصرية إلى دمشق ، وعَزَل الطواشىَ شهابَ الدين رشيد الدين عن النيابة ، والصاحب جمال الدين بن مطروح عن الوِزارة . وفَوَّضَ نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور .

وجَهَّزَ العساكر مع الأمير فخر الدين بن الشيخ إلى حِمص . وسَخَّر الفلاحين لحمل المَجَانِيق إلى حمص ، فنالهم لذلك مشقةٌ عظيمة ، وكان يَغْرَم على العود الذى يساوى دِرهما ألف درهم ، فخَرِبَ الشام لذلك . ونَصَب المجانيقَ على حمص . وكان الشيخ نجم الدين البادَرَائى بالشام ، فدخل بين الطائِفتين ، ورَدَّ الحلبيين إلى حلب ، والعسكَر الصالحى إلى دمشق .

---

(١) هكذا ضَبَطها القلقشندى . وقد مرّ ذكرها .

وفيها احترق المَشْهَد الحُسَيْنِى بالقاهرة . وذَكَرَ مَنْ تَتَبَّعَ التواريخ أنه ما احترَقَ مكان شريف إلا وأعقبه غَلاء ، أو جلاءٌ من العدو . وكان كذلك : أُخِذَتْ دمياط ، على ما نذكره .

ذكر وفاة الملك المظفر شهاب الدين غازى وقيام ولده الملك الكامل

فى هذه السنة ، توفى الملك المظفر شهاب الدين غازى ، بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ـ صاحب مَيَّافَارِقِين . وقام بأمر مملكته بعده ولدُه الملك الكامل ، ناصر الدين محمد .

وفيها ، تُوفى الملك العادل : سيفُ الدين أبو بكر ، بن الملك الكامل ، بن الملك العادل ـ أخو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكان السلطان قد رَسَمَ أن يتوجه إلى الشَّوْبَك ، بنسائه وولده وعياله ، فى خامس شوال ، على ما حكاه سعد الدين مسعود بن شيخ الشيوخ تاج الدين . وبعث إليه الطواشى مُحْسِنَ الخادم ، فأخبره بما رَسَمَ به السلطان من توجهه . فامتنع ، وقال : إن أراد قتلى فى الشَّوْبَك فههنا أَوْلَى ، ولا أتوجَهُ أبداً . فعَذَلَه مُحْسِن الخادم ، فرماه بدَوَاةٍ كانت عنده .

فعاد إلى السلطان وأخبره . فقال له : دَبِّرْ أمرَه . فأخذ ثلاثة مماليك ـ وقيل أربعة ـ ودخلوا عليه ، فى ليلة الاثنين ثانى عشر شوال ، فخنقوه بشاش عَلَمِه ـ وقيل بوَتَر ـ وعَلَّقوه بعمامته ، وأظهروا أنه شَنَقَ نفسه . وخرجت جنازتُه كجنازة الغُرَبَاء ، ودفن بتربة شمس الدولة . ولم يتمتع الملك الصالح بعده بالدنيا ، فإنه مات بعد ذلك بعشرة أشهر .

وفيها ، فى خامس شهر رمضان ، كانت وفاة قاضى القضاة : أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن نامادِ بن عبد الملك ، ابن زِنْجِلِين ، الخُونَجِى [١] ـ قاضى مصر والوجه القِبلى . ودفن بالقَرافة ، بالقرب من تربة الإمام الشافعى . ومولده فى جمادى الأولى ، سنة تسعين وخمسمائة . وكان قد تَفَرَّدَ فى زمانه بعلم المنطِق ، حكِيماً أُصُولِياً ، فاضلاً ، مُشَارِكاً فيما عدا ذلك [٢]

ولما مات ـ رحمه الله تعالى ـ أُقِرَّ نائبُه ـ القاضى جمال الدين يحيى ـ على القضاء ، إلى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين ثم فُوِّضَ القضاءُ بمصر والوجه القِبلى للقاضى عماد الدين أبى القاسم إبراهيم ، بن هبة الله بن إسماعيل ابن نَبْهَان ، بن محمد الحَمَوِى المعروف بابن المُقَنْشع [٣] ـ فى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين .

وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام العلاّمة : جمال الدين أبو عمرو عثمان ، ابن عمر بن أبى بكر بن يونس ، الدَّوِينِى [٤] ثم المِصرى ، الفقيه المالِكى ـ المعروف بابن الحاجب .

---

(١) تقدم ضبطها ، وأنها نسبة إلى « خُونَج » بلد من أعمال أذربيجان .

(٢) قال السيوطى عنه : « أفضل الدين الخونجى ... الفيلسوف .. برع فى علوم الأوائل ، حتى صار أوحد وقته فيها ، وصنف الموجز فى المنطق ، وكشف الأسرار فى الطبيعى ، وشرح مقالة ابن سينا ، وغير ذلك . ولى قضاء الديار المصرية بعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

(حسن المحاضرة : جـ ٢ ـ ٢٣٣)

(٣) فى القاموس : « الرجل المُقَنْشِع لحمُه كِبَراً » : أى المتيبس ، كجلد القِربة اليابسة .

(٤) نسبة إلى « دَوِين » (ضبطها ياقوت بفتح أوله وكسر ثانيه » ، وضبطها غيره بضم الأول وفتح الثانى . وهى « بلدة من نواحى أرّان فى آخر حدود أذربيجان ، بقرب من تفليس . منها ملوك الشام بنو أيوب » .

(ياقوت : جـ ٤ ـ ١١٢)

كان والده حاجِبَ الأمير عز الدين مُوسَك الصَّلاَحى ـ مُتَوَلِّى الأعمال القُوصِية ـ ومولده بإسْنَا ـ مدينة مشهورة من عمل قُوص ـ فى سنة سبعين وخمسمائة . وانتقل إلى القاهرة فى صِغَره ، فقرأ القرآنَ ، واشتغل بالعلم على مذهب الإمام مالِك ، فتفقه . واشتغل بالعربية ، فبرع وأَكَبَّ على الاشتغال حتى صار يُشَار إليه . ،انتقل إلى دمشق ، ودرس بجامِعها . وكان من أَحَدِّ الناس ذِهْنا . وغَلَبَ عليه عِلْمُ العربية . وقيل أنه قَدِم إلى دمشق مراراً ، آخرها سنة سبع عشرة وستمائة . وصحب شيخَ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، واختص به ولازمه .

وخرج معه من دمشق ، فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وقدم إلى الديار المصرية . وأقام بالقاهرة واشتغل الناس عليه . وله مُصنَّفٌ فى مذهب الإمام مالِك ـ هو من أجود مُختصرات المالِكية ، ما حَفِظَه طالب منهم إلا وأشير إليه بالفِقْه . ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية للإقامة به ، فلم تَطُلْ مدة إقامته بالثغر . وكانت وفاته فى ضحى يوم الخميس ، سادس عشر شوال ، ودفن بخارج باب البَحْر ـ رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى شهر رمضان ، توفى الوزير : أبو الحسن على بن يوسف بن إبراهيم ، بن عبد الواحد بن موسى بن أحمد بن محمد إسحاق ، القِفْطى ـ المعروف بالقاضى الأكرم ، وزير حلب .

كان جَمَّ الفضائل ذا فُنون ، مُشارِكاً لأرباب كل علم فى علومهم : من القِراءات ، والحديث والفقه ، والنحو واللغة ، والأصول والمنطِق ، والنجوم

والهندسة ، والتاريخ ، والجَرْح والتَّعْدِيل[١] ـ يتكلم فى كل عِلم مع أربابه أحسن كلام . وله شِعر حسن .

وصنف كتباً كثيرة ، منها : كتاب الضاد والظاء ، وهو ما اشتبه فى اللفظ واختلف فى الخط ، وكتاب الدُّرّ الثَّمِين فى أخبار المُتَيَّمِين . وكتاب مَنْ أَلَوتْ الأيامُ عليه فرَفَعَتْه ، ثم أَلَوتْ عليه فوَضَعَتْهُ . وكتاب أخبار المُصَنِّفِين ، وما صَنَّفُوه . وكتاب أخبار النَّحْوِيِّين . وكتاب تاريخ مصر ، من ابتدائِها إلى حين مَلَكَها الملكُ الناصرُ صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ فى ستٍّ مُجلدات . وكتاب تاريخ الأَلَمُوت[٢] ، ومن تولاَّها . وكتاب تاريخ اليَمَن ، منذ اختُطَّتْ إلى زمانه . وكتاب الحِلَى والشيآت . وكتاب الإصلاح لما وقع من الخَلَل فى كتاب الصِّحَاح[٣] . وكتاب الكلام على المُوَطَّأ[٤] وكتاب الكلام على صَحيح البُخارى . وكتاب تاريخ محمود بن سُبُكْتُكِين وبَنِيه ، إلى حين انقراضِ دولتهم ، وكتاب تاريخ السَّلْجُقِيَّة ، من ابتداء أمرهم إلى انتهائه . وكتاب الإيناس فى أخبار آل مِرْداس . وكتاب الرد على النصارى . وغير ذلك .

---

(١) معنى ذلك فى مُصطلَح الحديث العلم بأحوال الرجال رُواة الحديث ، من حيث الثقة بهم والاعتماد عليهم فى الرواية واستيفاء الشروط ، وغير ذلك . فالجرْح الحكم بعدم عدالتهم ، والتعديل الحكم بها لهم .

(٢) قلعة « أَلَمُوت » قلعة شهيرة بجبال أذربيجان بالقرب من بحر قزوين ، نالت شهرتها لأنها هى التى اعتصم بها « الحسن بن الصباح » زعيم طائفة الباطنية أو « الحَشِيشية » ، الذين كان لهم دور كبير فى الأحداث ، وكان سلاحهم « الاغتيال » .

(٣) أى كتاب « الصِّحَاح » للجوهرى . وهو معجم لغوى كبير .

(٤) وهو تأليف الإمام « مالك » أقدم كتاب فى الحديث والفقه .

وكان ـ رحمه الله ـ سَخِيَّ الكَفِّ ، طَلْقَ الوجه . وكان مُحِبا للكتُب ، جَمَّاعاً لها ، جَمَعَ منها ما لم يجمعه أحدٌ من أمثاله . واشتهر بالرغبة فيها ، والمُغالاة فى أثْمانها ، فقَصَدَه الناسُ بها من الآفاق . فاجتمع له منها ألوف كثيرة ، بالخطوط المَنْسُوبَة ، وخطوط المشايخ والمُصَنِّفِين . ولم يَقَعْ له كتابٌ مَلِيح فَرَدَّه ، بل يبالغ فى إرضاء صاحبه بالثَّمَن . فإذا ملكه استَوْعَبَ قِراءته ، ثم جعله فى خَزَائِنِه ، ثم يَشِحُّ فى إخْراجِه ، فلا يكاد يُظْهِرُ عليه أحَدا ، صِيانةً له وضَنًّا به ! .

قال الحافظ مُحِبُّ الدين بن النجار : كُنَّا عنده ليلة ، فى شهر رمضان ، فجَرَى بَحْثٌ أفْضَى إلى اعتبار كَلِمة وكَشْفِها من كتاب الصِّحَاح . فقال لبعض مماليكه : إذهبْ إلى المُؤَيدِّ ـ يعنى أخاه ـ وأحضِر من عنده نسخة من الصِّحَاح . قال : فقلتُ له : والمَوْلَى ما عنده نُسخةٌ من الصِّحَاح ؟ ! فقال : وحياتِك ـ يا مُحِبّ ـ عندى خمسُ نسخ ، وما يطيبُ على قلبى أن أُخْرِجَ منها نسخة ـ لاسيما بالليل ، ونحتاج إلى إدخال الضوء . وله فى شغَفِه بالكتب حكايات كثيرة ، أضْرَبْنا عن ذكرها . وأَوْصَى بكتبه بعد وفاته للملك الناصر : صلاح الدين يوسف ، بن الملك العزيز ، صاحب حلب . وكانت تساوى خمسين ألف دينار . ودفن بحلب ـ رحمه الله تعالى .

وفيها توفى عماد الدين ، بن سديدِ الدين ، محمد بن سليم بن حِنَّا ـ وهو أخو الصاحب بهاء الدين .

واستلّهت سنة سبع وأربعين وستمائة :

والسلطانُ الملك الصالح نجم الدين بدمشق ، وهو مريضٌ . فعاد إلى الديار المصرية فى مِحَفَّة[1] ، لشدة ما ناله من المرض . وكان خروجه من دمشق فى يوم الإثنين ، رابع المحرم ، ونادى فى الناس : من كان له عَلَيْنا أو عندنا شىء ، فليحضُر لقَبْضِه . فطلع الناس إلى القلعة ، وأخذوا ما كان لهم .

وفى هذه السنة ، رَسَمَ السلطانُ لنائبه بدمشق ـ الأمير جمال الدين بن يَغْمُور ـ بهَدْم دار أُسامة ، وقَطْعِ أشجار بُسْتانِ القَصْر بالقابُون ، وهَدْمِ القصر . فتوقف عن ذلك مدة ، ثم تَرَادَفَتْ عليه الكُتب بذلك ، ففَعَل .

ذكر استيلاء الفرنج على ثغر دمياط

وفى سنة سبعٍ وأربعين وستمائة ، وصل رِيدَ افْرَنْس[2] بعساكره وجموعه إلى ثَغْرِ دِمياط .

وخرج السلطانُ الملك الصالح بعساكره إلى المنصورة ، ونزل بها . وجَرَّدَ إلى ثغر دمياط جماعةً من الأمراء ، فالتقوا مع ريدَا فرَنْس ، واقتتلوا قتالاً شديداً فقُتل الأمير شهاب الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أَزْبَك الوَزِيرى .

وخرج أمراء الكِنَانِيَّة من دمياط وأخلَوْها ، فاستولى عليها رِيدَا فرَنْس

---

(١) ـ بالكسر ـ هو كالهودج ، ولكن بلون قبة . سبق ذكر ذلك .

(٢) معنى هذا اللقب : أى « ملك فرنسا » وهو الملك « لويس التاسع » . وهذه هى حملته على مصر التى بعدها المؤرخون « الحملة الصليبية السابعة » .

فى يوم الأحد ، لسبع بقين من صفر ، من السنة . فشَنَق السلطانُ أمراءَ الكِنانِية ـ وكانوا نَيِّفاً وخمسين أميراً ـ بعد أن استَفْتَى فى شَنْقِهم ـ لخروجهم عن الثَّغْر بغير أَمْرِه . وكان قد جَعَل [عندهم من المِيرَة ما يَكفِيهم زَمَناً طويلاً[1]] .

ذكر استيلاء السلطان على قلعة الكَرَك وبلادها

وفى هذه السنة ، مَلَك الملكُ الصالح نجم الدين أيوب قلعةَ الكَرَك ، وبلادَها .

وسببُ ذلك أن صاحبها الملك الناصر داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى ـ توجه منها إلى بغداد ، واستَخْلَفَ أولادَه بها . فكاتَبوا السلطانَ ، واتفقوا معه على تسليمها . واشترطوا عليه شروطاً ، وتولى ذلك من أولاده : الملكُ الأمجد أبو على الحسن .

فأجاب السلطانُ إلى ما التمسوه ، وتسلم القلعة ، ووفى لهم بما اشترطوه ـ وذلك فى جمادى الآخرة . وأخرج عِيالَ الملك المعظم وأولادَه وبناتِه ، وأُمَّ المَلِك الناصر ، وجميعَ من كان بالحصن . وبعث الملك الصالح إلى الحصن ألفَ ألف دينار ـ عَيْناً ـ وجواهرَ وذخائر وأسلحة ، وغير ذلك .

---

(١) ما بين الحاصرتين لم يكن ظاهرا فى النسخة (ك) ، فأكملنا المتن من النسخة (ع) .

ولما عاد الملك الناصر من بغداد ، ووجد الأمرَ على ذلك ، توجه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، صاحب حلب ، وأقام عنده ، إلى أن ملك دمشق . وحضر فى خِدمته إليها . ثم بلغه عنه أسباب رَدِيَّة ، فأخرجه إلى البُوَيْضَا بظاهِر مدينة دمشق . فمات بها حَتْفَ أَنْفِه .

وكانت وفاته فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة . ونقل من البُوَيْضا ، وصُلِّى عليه عند باب النصر ، ودفن عند أبيه بالتربة المُعَظَّمِيَّة ، بقاسيون ـ رحمه الله تعالى .

ذكر وفاة الملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب

كانت وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ بمَنْزِلَة المنصورة ، فى ليلة الإثنين النصف من شعبان ، سنة سبع وأربعين وستمائة . ومولده بالقاهرة المُعِزِّيَّة فى سنة ثلاث وستمائة .

ولما مات ، كُتِم أمرُ وفاته ، ودُفن بالمنصورة . ثم نُقل ـ فى سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ إلى تربته ، التى بُنيت بعد وفاته ، بجوار مدرسته بالقاهرة المحروسة ، بين القَصْرَيْن . فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية عشرَ سنين ، إلا خمسين يوماً .

وكان مَلِكاً مَهِيباً ، شجاعاً حازماً ، ذا سَطْوة . وكانت البلاد فى أيامه آمنة ، والطرق سابِلة . وكان عفيفَ الذَّيْل . غير أنه كان عظيم الكِبْر ، غليظ الحِجاب . وكان مُحِبًّا لجمع المال . ويقال إنه عاقَبَ امرأةَ أبيه ـ أمَّ أخيه الملك العادل ـ وأخذ منها الأموال والجواهر . وقتل أخاه وجماعة من الأمراء ومات فى حبسه ما يزيد على خمسة آلاف .

ولما مات ، كانت سُرِّيَّته ـ والدةُ خليل ـ فى صُحْبَتِهِ بالمنصورة . فكُتِم أمرُ وفاته إلا عن خَواصِّ الأمراء . وكان السِّمَاط[1] يُمَدُّ على العادة . والأمراء ، ومن جرت عادته بحضور السِّمَاط ، يدخلون ويأكلون وينصرفون . ويظنون أن السلطان إنما احتجابه بسبب مرضه . وكانت والدةُ خَليل تَكتب خَطًّا يشبه خَطَّ السلطان ، فتَخْرُجُ العَلاَئِمُ[2] بَخطِّها .

واتفق الأمراءُ على إحضارولده :الملك المُعَظَّم غياثِ الدين تُورَانْشَاه من حصن كَيْفَا . وكان السلطان الملك الصالح قد كتب كِتاباً بخَطِّه ، يشتمل على وصيته لوَلَدِه الملك المعظم . نَذْكُرُ ـ إن شاء الله تعالى ـ مضمونَه فى أخبار الملك المعظم . فتَوَجَّهَ لإحضاره الأمير فارس الدين أَقْطَاى الصالِحى ـ مملوك والده . وقام بتدبير الدولة ـ فيما بين وفاةِ السلطان الملك الصالح ووصول الملك المعظم ـ الأميرُ فخر الدين : يوسفُ بن الشيخ ، إلى أن قُتِل .

(١) المائدة السلطانية .

(٢) جمع علامة . وكان المتبع أن كل سلطان له علامة : قول مأثور أو دعاء أو اسم ، أو نحو ذلك ، يكتبه بخطه على الرسائل ، لتدل على صحة الوثيقة . فهذه هى العلامة السلطانية

ذكر خبر الأمير فخرالدين أبى الفضل يوسف ابن الشيخ ، وقتله

لما مات السلطان الملك الصالح ، قام بتدبير الأمر بعده ـ إلى أن يصل ولدُه الملك المعظم ـ الأمير فخر الدين أبوبكر أبو الفضل : يوسف ، بن شيخ الشيوخ صَدْرِ الدين[1] . وكان هو وزيرَ السلطان ومُقَدَّمَ جيوشه ، والمُشار إليه فى دولته .

فدَبَّرَ الأَمرَ أحسن تدبير ، وأَقْطعَ البلاد بمَناشيرِه . وأطلق السُّكَّرَ والكِتَّان أن يسافِر به التُّجَّارُ إلى الشام ـ وكان ذلك قد مُنِع ، وأراد جماعةٌ من العسكر أن يَمْلِكُوه ، فامتنع من ذلك .

وتنكر له بعض الأمراء المماليك الصالِحِية ، وعزموا على قتله فاستدعى أكابَر الأمراء ، وأَعْلَمَهم أنه لا طمَع له فى الملك ولا رغبة ، وأنه إنما يحفظه للملك المُعَظَّم إلى أن يَصِل . فاعتذروا له وحَلَفُوا . وكان المُتَّهَم بإغراء الأمراء الطواشى مُحْسِن ، وجماعة . وجَهَّزَ جماعةً يستحث الملك المعظم من دمشق ، بعد وصوله إليها .

فلما كان فى يوم الثلاثاء ـ رابع ذى القعدة أو خامسه ـ هجم الفرنج على عساكر المسلمين ، واندفع المسلمون بين أيديهم . وكانت وقعة عظيمة .

---

(١) سبقت ترجمة صدر الدين ـ الفقيه وشيخ الصوفية ـ وبيته ، وأخبارهم . فالأمير فخر الدين ، الذى عرف بابن الشيخ ، كان أحد أولاده ، الذين ميزوا أنفسهم فى الدولة الأيوبية ، وتبوءوا مناصب عالية . وقد وصل فخر الدين إلى أن صار وزيرَ الملك الصالح ، ومقدم جيوشه ـ كما ذُكر فى المتن ـ وأصبح له المقام الأول ، حتى ذاع الاعتقاد بأنه يطمع فى الملك .

لكنه سيموت شهيداً فى مقدمة موقعة المنصورة ـ كما سيتبين من المتن

فركب فخرُ الدين في وقت السحَر ليَكشِف الخبر ، وأنفَذَ إلى الأمراء والحَلْقَة [١] ليركبوا . وساق بنفسه في طائفة من مماليكِه وأجْناده . فصَدَمَه طُلْبُ [٢] الدَّاويَّة [٣] وحملوا عليه . فهرب من كان معه ، وثَبَتَ هو . فطُعِن في جَنْبِه ، فوقع عن فرسه . فضربوه ضربتين في وجهه ، طُولاً وعَرْضاً ، بالسيف فقتلوه ! .

وجاء مماليكُه إلى داره ، فكسروا صناديقَه ، ونهبوا أكثر ما فيها . ونُهِبت أموالُه وخيله . وأخذ الجَوْلاني [٤] قُدُورَ حَمَّامِه ، والدِّمْياطيُّ أبوابَ داره . ثم أُخرِج من المعركة بقميصٍ واحد ، وجُعِل في حَرَّاقَة [٥] وأُرسل إلى مصر . وحُمل إلى تربته بالقَرافة الصغرى ، بجوار تربة الإمام الشافعي ، فدفن عند والدته . واشتد بُكاءُ الناس عليه ، وعُمِلت له الأَعْزِية . وكان له من العمر ، يوم مات ست وستون سنة ـ رحمه الله تعالى . وكان له شِعرٌ جيِّد كثير ، فمن شعره :

عَصَيْتُ هوى نفسي صَغِيراً ، فِعنْدَما رَمَتْني الليالي بالمَشِيب وبالكِبَرْ
أَطَعْتُ الهوى ـ عَكْسَ القَضِيَّةِ ـ لَيْتَني خُلِقْتُ كَبيرا ، وانْتَقَلْتُ إلى الصِّغَر

---

(١) سبق تفسير ذلك . وهم الجنود النظامية في الجيش من المماليك القدماء .

(٢) سبق تفسير هذا اللفظ ، وأن معناه : الشرطة أو الفرقة ، وهو لفظ كردي .

(٣) سبق الحديث عنهم ، وهم هيئة صليبية دينية متعصبة ، كانوا يسمون فرقة « فرسان المعبد » .

(٤) نسبة إلى جَوْلان . وهي قرية من نواحي دمشق .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ١٧٦)

(٥) سفينة حربية في (ع) ، كما سبق ذكره .

ذكر أخبار السلطان الملك المعظم

غياث الدين تُورَانْشَاه ، بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد ، بن أيوب ، وهو التاسع من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية

مَلَك الديارَ المصرية والشام ، بعد وفاة والده السلطان الملك الصالح وكان مُقيماً بحصن كَيْفَا[1] ، وما مع ذلك ، منذ تركه والدُه هناك ـ كما تقدم . فلما مات السلطان ، اجتمع رأىُ الأمراء على إقامته ، وجهزوا لإحضاره الاميرَ فارس الدين أَقْطَاى ، كما ذكرنا آنِفاً .

وكان السلطانُ الملك الصالح ، فى مرض مَوْتِه ، قد كتب إلى ولَدِه الملك المعظم هذا كِتاباً ، أَسْنَدَ فيه المُلْكَ إليه ، واشتمل كتابُه على جُمْلةٍ من الوَصايا . وقد وَقَفْتُ على الكِتاب المذكور ـ وهو بخَطِّ السلطان الملك الصالح بجُمْلَتِه . وقد رأيتُ أن أشرحَ ما تَضَمَّنَه ، لِماَ فيه من الوَصَايا التى يتعين على الملوك التمسكُ بها والرجوع إليها ، والإعتمادُ عليها .

ابتدأ السلطانُ الملك الصالح كِتابَه هذا ـ الذى منه نَقَلْتُ ـ بأن كَتَبَ فى طُرَّتِه قبل البَسْمَلَة : والده أيوب بن محمد[2] .

---

(١) بلد ، وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر ، من ديار بكر .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ٢٨٦)

(٢) من هنا تبدأ وصية الملك الصالح أيوب لابنه تورانشاه . وهى وصية تاريخية لها أهميتها ، وإن كانت مكتوبة بأسلوب الخطاب الدارج بين العربية والعامية . وقد تركنا ألفاظها العامية على ما هى عليه ، كما وردت فى (ع) ، دون أن نحاول تغييرها .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الوَلَد تورانشاه ـ أصلحه الله ووفَّقَه يا ولدى ، أنت تعلم ما سبب تأخير طَلَبِك إلا ما أعلمُه منك ، من الصِّبيانية والجُرأة وقلة الثبات . والمُلْكُ ما يَحتمِل هذا . والوالد ما يشتهى لولده إلا الخير . والخصائل التى أعرفها منك اتركْها ، يدوم لك المُلْك . وإن أنت خَالَفْتَ أمرى وبَقِيتَ على ما أعلمه منك ، يروح منك المُلْك . واثبت فى جميع أمورك . وسُنَّ سِيرَتى فى العسكر . واترك الأشياء على ما هى عليه : كل أحد مُتَوَلِّى الشغلَ الذى هو فيه ، ولا تُحْدِثْ حادث .

والوصيةَ بجميع الأمراء ، وأَكْرِمْهم واحْتَرِمْهُم ، وأرفع منزلتهم . فهم جناحُك الذى تطير به ، وظهرُك الذى تركن إليه . وطَيِّبْ قُلوبَهم ، وزِيدْ فى إقطاعهم . وزيد كلَّ أمير على [ما] معه من العِدَّة عشرين فارس . وأنفِق الأموال . وطَيِّبْ قلوب الرجال ، يحبوك وتنال غرضك فى دفع هذا العدو . ولا تُؤاخِذْ بما جَرَى فى دِمياط ، فهذا أمرٌ سَمَاوِىّ ، ما لِأَحدٍ فى هذا حيلة .

والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندى من أقَدِّمُ سواه ، فأَكْرِمْه ، واحتَرِمْه كما تحترمنى . واجعله عندك كالوَالِد . واسمع قولَه ورأيه ولا تُخالِفْه . واجعل له من العِدة مائتى فارس .

يا ولدى : الوصيةَ بأم خليل ، فلها علىَّ من الحقوق والخِدمة ما لا أقدر أَصِفُه ، ارْعَى جانبَها وأكرمها واحْترمها ، وارفعْ منزلتها ، فهى عندى بمنزلةٍ عظيمة . وكنت طَيِّبَ القلب بصُحْبَتِها ، آمِناً على نفسى من جهتها ، فاجعلها لك مثلَ الوالِدة . واجتهد فى اتصال الراحة إليها ، وطَيِّبْ

قلبَها ، واجعلها حاكِمةً على جميع أمورِك وأموالك . ولا يبدو منك كلمةٌ تُضَيِّق صدرهَا ، ولا توجع لها قلباً أبداً ، ولا من يتعلق بسببها ، ولا من يضيق صدرها بسببه .

ولا تَخْرُجْ عن رأيها وتدبيرها . وهذه وصيتى فلا تخالفْ أمرى . واخدمها كما تخدمنى ، واحترمها كما تحترمنى . ولا تَجْعَلْ على يدها يد . والوصية بجميع العِيال ، أَحْسِنْ إليهم فلهم علَىَّ خِدْمَة . ولا تُقَصِّرْ فى حق الصغير منهم والكبير . واحفظ وصيتى ، فمتى خالَفْتَنى يروح منك المُلْك ، وتكون عاقاً لى . وكتبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد ، لئلا تضيق صدورهم . وكتبتُها فى مدة طويلة .

واعلمْ يا ولدى أن المِلك فى ابتداء مُلْكِه كمثل الشَّجَرة فى ابتداء طُلوعها ، فيأتى ريحٌ يهب عليها يُحَرِّكُها ، وربما يَقْلَعُها من أصلها . فإذا مَضَتْ عليها الأيامُ والسنين قَوِىَ أَصْلُها ، واشتد ساقُها ، فلا تحركها الرياحُ العواصف . فاعلم يا ولدى إشارتى ، وتَنَبَّهْ لغَرَضِى . وإن ضاق صدرُك من شخص فاحْتَمِلْه ، وأَحْسِنْ إليه تحسن سِيرتُك ، ويُحِبُّك عدوُّك . ولا تعجل بالعُقوبة . واعلم أن الناس أعداءٌ لبعضهم البعض ، فلا تسمع كلامَ أحد دون أن تُقَابِلَ بينه وبين خَصْمِه ، ولو أتاك مقطوع اليد . فربما خصمُه أسوأُ حالاً منه . فإذا عُرِفَ هذا منك ، تَقِلُّ الشَّكَاوى والرَّفَاعَات [1] ، ويستريحُ خاطرُك .

---

(١) أى ما يُرفع من الشكاوى ، أى الشكاوى المكتوبة .

والذى أُعَرِّفُك به يا ولَدِى : لَمَّا نَزَلَ العَدُوُّ على زمن الشَّهِيد[1] ـ رحمه الله ـ على دِمياط ، ما كان فيها سوى الوالى والكِنانِيَّة ، وأَهْلُها حَفِظُوها إلى أن وَصَل الشَّهِيدُ من القاهرة ، وعسكرُ مصر من الشام . وما قدر العدو ينزل بَرَّ دِمياط ، وما كان فيها ذخيرةُ شهرٍ واحد .

فلما اختلف العسكرُ على الشَّهِيد[1] ـ رحمه الله ـ وَتَحزَّبُوا ـ مثل ابن المَشْطُوب[2] والأَكْرَاد ـ مع الملك الفائز ، غَضِبَ الشَّهِيدُ ، وساق إلى أُشْمُوم . وتبعه العساكر ، وتركوا جميعَ الخِيَم والقُماش . وخرج من دمياط من خرج ، والوالى .

وما بقى فيها إلا أهلُها . وغَلَّقُوها وقَعَدُوا فيها وحَفِظُوها ، إلى أن مات أكثرُ من فيها والباقى تَكَشَّحُوا ، وخلت الأَصْوَارُ من المُقَاتِلين . فصَعَدَت الفِرِنْجُ وأَخَذَتْها ، بعد أن تَعِبُوا من النُّقُوب من تحت الأرض ، وشربوا بالبتاتى ، والزحف عليها من جميع الجهات ، وما قدروا يأخذوها .

وأنا قَوَّيْتُ دمياط ، ومَلأْتُها ذَخائر من كل شىء ، يكفيها عشرين سَنَة ، مع ما كان عند أهلها من الذخائر . واكْشِفْ من الديوان يُعَرِّفُوك ما كان فيها من الخَيْرَات . وقَوَّيْتُها بجميع عسكر الديار المصرية ، من فارس وراجِل ، ونقدى ، وما خليت لها عُذْر ، حتى بَقِيتُ وَحْدِى فى أُشْمُوم بسبب المرض .

---

(١) يقصد والدَه : الملكَ الكامل بن العادل .

(٢) الأمير أحمد بن على الهَكَّارى ـ الذى عُرف بابن المَشْطُوب . تقدم ذكره وأخباره فى أوائل الكتاب .

فلما أن أَقْبَلَ العدو وشاهدوه وطلبوا البَرَّ بالحَرَاريق ، انهزموا وسَلَّمُوا لهم البَرّ ، واشتغلوا بالنساء ونَقْلِهم من دمياط ، وهَرَبَت العَوَامُّ وتَبِعَهم الأجناد . وكان المُقَدَّمَ عليهم الأخُ فخر الدين سَاقَ خَلْفَهم ورَدَّهم ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير . فلما أصبح ، ما وجد فى المدينة أحد . هربوا الكِنانية فى الليل ، وكسروا الخُوَخ [1] ونزلوا من السُّور ، وتركوا أموالَهم وذخائرهم نهبوها المسلمين بعضهم بعض . وأخلوا دمياط ، حتى أخذتها الفرنجُ ثانى يوم . وهذا كله بقضاء الله وقَدَره .. واصبرْ تنال ما تريد .

وهذا العدو المَخْذُول ، إن عَجَزْتَ عنه ، وخرجوا من دمياط وقصَدُوك ، ولم يكن لك بهم طاقَةٌ وتأَخَّرْتَ عنك النَّجْدة ، وطلبوا منك الساحِلَ وبَيْتَ المقدس وغَزَّة وغيرَها من الساحل ـ أعطيهم ولا تَتَوَقَّفْ ، على أن لا يكون لهم فى الديار المِصرية قَفْر قَصَبَة .

وإن نزلوا مَنْزِلَةَ من تَقَدَّمَهُم من العدوّ قُبَالَةَ المنصورة ، فَرَتِّبِ العسكر يكونوا ثابتين خلف السَّتَايِر مع البحر ، لِيلْ ونَهار . فهم ما لهم زَحْفٌ إلا بالشَّوَانى [2] ، فقَوُّوا الشَّوَانِى ، كيفما قَدِرْتُم . واجهدوا أن يكون بعضُ الحَرَارِيق [3] على بَحْر المَحَلَّة من خلف مراكِبهم ، تقطع عنهم المِيرَة . وهو يكون ـ إن شاء الله ـ سببَ هلاكهم . فتلك المَرَّة ما انتصر الشهيدُ ـ رحمه الله ـ عليهم إلا من بَحْر المَحَلَّة .

---

(١) الطاقات والنوافذ فى الحصن .

(٢) السفن الحربية الكبيرة . تقدم ذكرها .

(٣) سفن حربية أصغر من الأولى .

وتكون العرب مع الخُوَارَزْمِية مع ألفين فارس بينهم وبين دمياط . واستَخْدِم ، الفارسَ والراجِل . وأنفِق الأموال ولا تتوقف . وإن كان الشَّرْقُ لا يُنْجدُوك لأجل الناصر وإسماعيل ، واشْتَرَطُوا أن تَرُدَّ عليهم بلادَهم ، ورأيتَ الغُلُوبِيَّة ، ولابدَّ من ذلك وإلا ذهب المُلْك ـ فالضرورات لها أحكام .

إعْلَمْ ـ يا وَلَدِى ـ أن الديارَ المصرية هى كُرْسِىُّ المملكة ، وبها تَسْتَطِيلُ على جميع الملوك . فإذا كانت بيدك ، كان بيدك جميع الشَّرْق . ويَضْرِبُوا لك السِّكَّة والخُطْبَة .

فاتَّفِقْ أنت والأخ فخر الدين ، وأرْضِى الناصِرَ[1] بما يطيب به قلبُه . فالناصرُ ما أَخْرَجَه من يدِى إلا تَغَيُّرِى عليه ، بسبب أوراقٍ كانت تصل إلىَّ عنه أنه فَعَلَ وصَنَع . وكَشَفْتُ عن ذلك ، ما رأيت لها صِحَّة . فلما انقطع رَجَاهُ مِنِّى لتَغَيُّرِى ، استند إلى إسماعيل وابن مَمْدُود ، وجَرَى منهم ما جرى . كل ذلك من إسماعيل وابن مَمْدُود ، وهو يشارِكُهم فى جميع ما يفعلوه .

وأما الذى فَعَلَه معى على نابُلُس فما كان إلا مصلحةً عظيمة ، أنا أَشْكُرُه عليها . طَلَع بى الكَرَك إلى أن ذَهَبَتْ أيامُ القُطُوع . لولا ذلك أَخذَنى إسماعيل[2] ، لأنه ضَيَّقَ عَلَىَّ أرضَ الشام بالعسكر فى طَلَبِى ، فما فعل فى حقى إلا خيرٌ . فهو كان السبب فى خروجى ، فى الوقت الذى كان قَدَّرَ اللهُ بتوجهى فيه إلى الديار المصرية بالمُلْك . فلا يضيع له هذا القَدْر .

---

(١) المقصود : الناصر داود صاحب الكرك ابن المعظم عيسى .

(٢) يقصد : الملك الصالح إسماعيل ، وهو عمه ، الذى استولى على دمشق حيناً ، وطالما نازعه

وكنت نَوَيْتُ له كلَّ خير . فإن حصل بينكما اتّفاق ، وصَفَتْ نِيَّتُه فى محبتك ، ووَفى لك باليَمين ، فخاطِرُك به مُسْتَرِيح فى أَمْرِ الساحِل . فما ذُنُوبُه عندى ذنوبُ إسماعيل ، الذى بارَزَنى ، وأخذ مِنِّى دِمشق ، واعتقَل ولَدى ، وفعل فى حَقِّى ما فَعَل ، وأعطى الساحلَ والحصونَ التى فيه لعَدُوِّ الدِّين ، واستعان بالكُفْرِ[1] علىَّ ، وعَلَى أَخْذِ بلادى . فارضيه بشىء يستعين به : بُصْرَى مع السَّوَاد ، ولا تُعطى له قَلْعَةَ بعلبك . وتُحسن إلى أولاده وأهله ، وينفذوا إليه . فالله يقابِل المسىء ، ويُجازِى المُحْسِن وأَطْلِق المُحْتَبَسِين كلهم ، إلا من كان له تَعَلُّقٌ فى قَبْضِ عمك ، أو مُفْسِدٌ فى الدولة .

فإنْ قَدَّرَ اللهُ لك بالنصر على هذا العَدُوِّ المَخْذول[2] ، وأَخَذْتَ دمياط ـ إن شاء الله تعالى ـ ابْنِى بأَشُورة[3] تكون طولَ قامة ، وبَسْطَة بشَراريف ، ومَرَامِى من فوق وأسفل ، وتكون البَاشُورة عَرْض يُتَمَكَّن القتالُ عليها ، إما بالحَجَر أو بالطوب الأحمر ، ويكون لها سلالِم ، بَيْنَ كل سُلَّم وسُلَّم ثلاثين خَطوة . تعمل هذه الباشورة من قُبَالَة بُرْجِ السِّلْسِلَة ، قريب من الماء البحر إلى البَرْزَخ ، إلى المكان الذى نزلوا فيه الفرنج ، وفوق منه بثلاث رَمْيَات نُشَّاب . ومن آخر هذه الباشورة تَحْفِر خَنْدَق ، من البحر المالِح إلى البحر الحلو ، مثل ما حَفَره الشَّهِيد[4] تلك المَرَّة ، بحيث إذا جاء العدُو

(١) بالصليبين .

(٢) الصليبين الذين احتلوا دمياط .

(٣) حائط ظاهرى حول الحصن ، تقابلها كلمة «Bastion» بالفرنسية

(سلوك : زيادة جـ ١ ـ ١٥٠ ـ نقلاً عن دوزى)

(٤) والده : السلطان الكامل .

لا يقدر على الماء الحلو ، ولا يبقى له منزلة ينزل فيها . وبين كل سلمين لعبتين يرموا بالحجارة ، والعسكر تُقَاتِل من على الباشورة والمِنْجَنِيق والرُّمَاة تَرْمى من خلف الباشورة من المَرَامى ، ما يقدر أحد يقرب البر . وعجبت كيف غَفَل عن هذا الشهيدُ ـ رحمه الله ـ وعمل قلعة .

فهذه الباشورة فيها ألفُ مصلحة قَسِّطْها على الأمراء وعلى بيتِ المال والأَسْرَى الفرنج تعمل فيها . واجْتَهِدْ فى عملها تَأْمَنْ على دمياط وتستريح وإن لم يخرج العدوُّ من دِمياط وتَطَاوَل الأمر ينتظروا نجدة تصل إليهم ، ازْحَفْ عليهم من بَرِّ دمياط ومن برّ البَرْزَخ ، بالفارس والراجِل وبالشَّوَانى من البحر ، لعل أن تملكوا بَرَّ البَرْزَخ . فإذا مَلَكْتُوه مَلَكْتُم فم البحر ، ومنعتوا أن يدخل إليه مركب ، أو يخرج .

ويا ولَدى : قَلَّدْتُ إليك أمورَ المسلمين ، فافعل فيهم ما أَمَرَك اللهُ به ورسولُه . يا ولدى إياك والشُّرْب ، فإن جميع الآفات ما تأتى على الملوك إلا من الشُّرْب . ولا تخالفنى تَنْدَمْ ، وتُدْخِلْ عليك العَارِض[1] . فما يَسْقِيك إلا من تَأْمَنُ إليه ، ولا يَدْخُلُ عليك العارِض إلا من القَرِيب . يا ولدى : وامنع المسلمين والنصارى أن يَعْصِروا الخمر . وطَهِّر العساكر من القِحاب ، والمدن . ولا تجلس مع من يشرب ، فيزين لك الشيطان فتشرب ، فتكون قد خالَفْتَنى ، وتُدْخِل عليك العارِض . وأنا قد جَرَّبتُ الأشياء ووَقَعْتُ فيها ، وتحقَّقْتُ الخطأ من الصواب ، وندِمت وقت لا ينفع الندَم . فاجتنب يا ولدى ما حَذَّرْتُكَ منه . فقد أخبرك مُجَرِّب صادق ، مُشْفِق عليك

(١) المرض .

وانْظُرْ يا ولَدِى فى ديوان الجيش . فهم الذين أفسدوا البلاد وأَخْرَبُوها ـ وهم النَّصَارَى ـ أَضْعَفُوا العساكر ، وكأنِ البلاد مِلْكُهم يَبِيعوها بيع . إذا كُتِبَ منشور لأمِيرٍ يأخذوا منه المائتين وأكثر ، ومن الجندى من المائة ونازِل . ويكون الجندى خُبْزُه[1] ألف دينار يفرقوا خُبْزَه فى خمس ست مواضع : فى قُوص وفى الشرقية وفى الغَربية ، فيُرِيدُ الجندى أربع وُكَلاَء ، يرُوح الخُبْزُ للوُكَلاَ . ومتى يحصلُ للجندى من خُبْزِه شىء ، إذا كان مَثَلاً فى بَيْكَار[2] ويُقَاسِى العَلِيقَة بثلاثة نُقْرَة[3] ، كيف يكون حالُه ؟ يَخْرَب بيتُه ويَهْلَك ! فهذا سبب هلاك الجُندى . والنصارى يقصِدوا هذا ، لخَراب البلادِ وضَعْفِ الأَجْناد ، حتى تروح منا البلاد . وجُندى يَحْصُل له وجندى ما يحصل له شىء أصلا .

تُرُدّ عِبْرَةَ البلاد[4] إلى ما كانت عليه فى زمن صلاح الدين ـ رحمه الله . والجُندى لا يكون خُبْزُه مُفَرَّق ، بل فى موضع أو موضعين قريبَيْن . فتَعْمُر البلاد ويَقوى الجندى ويقوى الفلاح . فإذا كانوا جماعة فى بلد ، وكل أحد يخرب من ناحية ويَجُور المُقْطَعِين على الفلاَّحين ، تخرب البلاد . وهذا كله فِعْلُ النصارى .

---

(١) أى : إقطاعه ، الذى يأخذ منه راتبه .

(٢) : أى حرب . هذه الكلمة تعنى الحرب ، بصفة عامة .

(٣) أى دراهم نُقْرة . وهى العملة التى كانت متداولة . وقد سبق تفسيرها والعَلِيقة : علف حصانه .

(٤) أى نظام البلاد ، أو وضعها .

وبلغنى أنهم بَعَثُوا إلى ملوك الفِرِنْج فى الساحل فى الجزائر ، وقالوا لهم . أنتم ما تجاهدوا المسلمين ، بل نحن نجاهدُهم الليلَ والنهار ، بأَخْذِ أموالِهم ونَسْتَحِلُّ نساهم ، ونُخَرِّبُ بلادَهم ونُضعف أجنادهم . تعالوا خُذوا البلادَ ، ما تركنا لكم عَاقَة . فالعدُوُّ معك فى دولتك ـ وهم النصارى . ولا تركن لمن أَسْلَم منهم ولا تَعْتَقِدْ عليه ، فما يسلم أحد منهم إلا لِعِلَّة ، ودينُه فى قلبه باطنٌ كالنارِ فى الحَطَب !

ياولدى ، أكثر الأَجْنَاد اليوم عامَّة ، وباعة وقَزَّازِين : كل من لَبِس قَبَاءً[1] ورَكِبَ فَرَس ، وجاء إلى أميرٍ من هؤلاء الترك ، وقدم له فرس ، ويُبَرْطِل نَقِيبَه وأُستاذَ داره[2] على خُبْزِ جندى ، من جندى معروف بالشجاعة والحرب ـ طرده أميره ، وأعطى خُبزَه لذاك العامى الذى لا ينفع وأكثرهم على هذه الحالة . فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هَرَبُوا ، وينكسروا العسكر . لأنهم ما يعرفوا قِتال ، ولا هو شُغْلُهم . فينبغى أن لا يُستخدم [إلا] من يعرف يلعب بالرمح على الفرس ، ويرمى بالنُّشَّاب والأُكَرة ، وتظهر فُروسيته ـ حينئذ يُستخدم .

واحْفَظْ يا ولدى ما أقوله لك ، فهذا جميعه ما عَرَّفَنى به إلا الأخُ فخرالدين ، وأخبرنى أنه وقفَ على كتابٍ بخط صلاح الدين ، أن الفَيُّوم وسَمَنُّود والسواحل والخَراج للأسطول . فالأُسطولُ أحد جناحى الإسلام . فينبغى أن يكونوا شِبَاعاً . ورجال الأسطول إذا أُطلِق لهم كل شهر عشرين

---

(١) ثوب فوق الثياب ، وهو لبس الجندى فى ذلك الوقت

(٢) أى استاذ دار ذلك الأمير : المتولى شئون قصره ، أو وكيله .

درهم مستمرة راتبه ، جاءوا من كل فَجٍّ عميق ، ورجال معروفين بالقَذْف والقتال . وإنما تِجُو[١] وقتَ الحاجة تقبضوا ناس مستورين لهم أطفال وبنات ، وهو الذى يُطعمهم ويَسقيهم ، تأخذوه فى الأسطول ولا ينفع ، تموت أطفاله بالجوع ، ويدعو علينا ! كيف تنتصر على العدو ؟ ! وتأخذوا إلى البحر عند قبض الأسطول كل يوم ألف دينار ، لأنه يقبض من الصبح إلى المغرب ، مساتير وبياعين وأرباب معايش ، يِجُو أهاليهم إلى بيت الوالى ، كل أحد يَزِنُ الذهب ويُخَلِّص نفسَه[٢] . والفقير الذى ماله قدرة تُحَدِّرُوه فى المراكب . فقد نَبَّهْتُ الولَدَ على هذه الأشياء . والأخُ فخر الدين عرفنى بهذه الأحوال جميعها . فاسمع ما بَقُوله لك .

الولَد يَتَوَصَّى بالخُدام : مُحسن ورَشيد والخدام المُقَدَّمِين ، لا تغيرهم . فما قَدَّمْتُ أحد من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نُصحه وشفقته . وأستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم . وكذلك الحُسام لا تغيرهم . فإنى أعتمد عليهم فى جميع أمورى .

القَيْمُرِيَّة[٣] ، الولَد لا يَسْمَعْ كلامَ بعضهم فى بعض . وناصرُ الدين عند كذب وخُبث . وما باطنه جَيِّد . وقد عَرَّفْتُ الأخَ فخر الدين الرُّسُل الذى مُسِكوا من دمشق إلى حلب من عنده . والحسام يكون بمفرده لا حَلٌّ ولا رَبْط . وضيا الدين القَيْمُرِى ، إن احتاجوا إلى أن يَخْرُجَ عسكرٌ إلى جهة من الجهات ، يكون مُقَدَّم . وناصرُ الدين أرجل لا يَخْرُجَ مع عسكر .

---

(١) أى تجيئوا ، أو تجيئون .

(٢) يعنى أن الناس يأتون إلى الأسطول يخلصون أنفسهم بدفع مبالغ معينة ، ومن لا يقدر على الدفع يُجَنَّد مع عدم كفاءته .

(٣) طائفة من أمراء الجنود الكردية .

وسيف الدين القَيْمُرِى تعمل معه ما يُقَرَّر مع الأخ فخر الدين ، يكون مُقَدَّم العسكر فى دِمشق . وابن يَغْمُور مُشِدّ [١] ، وناصر الدين على المَظَالِم . فابن يَغْمُور يصلح يكون مُشِدّ ووالى وجابِى الأموال ، ولا يصلح يكون مُقَدَّم على عسكر ، ولا يصلح لجُنْديه . ولا تُؤْمِنْ إليه كل الأَمْن . بل تُمَشِّى به الحالَ فى مكان مُدة ، ثم يُنْقَل إلى غيره . وهو بالكُتَّاب أَلْيَق .

وكذلك قرائبُ فخرِ الدين عثمان كلهم لا يصلُحوا لجندية . ابنُ العزيز الرأى عندى أن تؤخذ جماعته ، ويبقى هو ومماليكه بمفردهم ، ويُقْطَع له ولمماليكه ، وحاشيته ودُوره ، ما يقوم بهم من خاصة . فالأخ فخر الدين يعرف ما جرى منه ، فهو نَحْس مفسد مخسخس . وقد عَرَفَ الأخُ فخر الدين حالَه وما جرى منه فى دمياط وغير دمياط ، فما يصلُح لصالِحَة .

مُتَوَلِّى ديوان الأَحْبَاس [٢] اصْرِفْه . ووَلِىَّ ابنَ النَّحْوِى ، فقد سألنى المتصدرين ذلك . وطرائق بن الجباب غير صالحة . والوكيل اصرِفْه . ووَلِىَّ ابن الفقيه نصْر ، فهو رجل جيِّد فقيه عنده خوفٌ من الله .

وقد عَيَّنْتُ فى ورقةٍ عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تُقَدِّمُهم ، تعطى لكل واحد كُوَس [٣] وعَلَم ، وتُحسِن إليهم .

وَتَوَصَّى بالمماليك غايةَ الوَصية . فهم الذى كنت أعتمِد عليهم ، وأثق بهم . وهم ظَهرى وساعِدى . تتلطَّف بهم ، وتُطيِّب قلوبهم ، وتوعدهم بكل خير . ولا تخالفْ وصيتى . ولولا المماليك ماكنتُ قدرتُ أركب فرس ، ولا أروح إلى دمشق ، ولا إلى غيرها . فتكرمهم وتحفظ جانبَهم .

(١) وهو الناظر فى حسابات الدواوين .

(٢) أى الأوقاف .

(٣) من شعارات السلطنة والإمارة . وهى صنوج من نحاس يدق بها فى المواكب ـ كما تقدم ذكر ذلك .

فهذه وصيتى إليك ، فاعمل بما فيها ولا تخالفْ وصيتى . وكل يوم طالِعْها ، واقف عليها . ولا تَعملْ شىء دون أن تشاورَ الأخ فخر الدين . والله يقدر بما فيه الخير ـ إن شاء الله تعالى .

يا ولدى ، إن ألزموك ـ الحلبيين ـ أن تدفع الكَرَك[1] إلى الناصر ، فأعطه الشَّوْبَك . وإن لم يَرْضَ زِدْه من الساحل ، حتى يَرْضى . ولا تخرج الكَرَك من يدك . اللهَ اللهَ احفظ وصيتى . فلا تعلم ما يكون من هذا العدو والمخذول ، لعله ـ والعياذُ بالله ـ أن يتقدم إلى مصر يكون ظهرُك الكَرَك ، تحفظ فيه رأسَك وحريمَك ، فمصر مالها حِصْن . ويجتمع عندك العسكر وتتقدم إليهم ، تردهم عن مِصر . وإن لم يكون لك ظهر مثل الكَرَك ، تفرقت عنك العساكر . وقد عزمتُ أن أنقل إليها المال والذخائر والحَرَم ، وكل شىء أخاف عليه ، واجعلها ظَهْرى . والله ما قوى قلبى واشتد ظهرى ، إلا لما حَصَلَتْ فى يدى .

الحمد لله وحده ، وصلواتُه على سيدنا محمد نبيه ـ وآله وصحبه ـ وسلامه

هذا آخرُ ما تضمنه كتاب الوصية . وقد نقلتُه بنَصِّه وهيئته ـ على ما فيه من لَحْنٍ فى بعض ألفاظه ، ونقص أَلِفَات فى بعضه .

ولم يَعْتَمِد الملكُ المعظم ما أوصاه به ، ولا رجع إليه ولا عَرَّج عليه ، بل خَالَفَه فى جميع ما تضمنته وصيتُه . وكان من أمره ، وزوال ملكه ، ما نذكره .

---

(١) قلعة الكرك الشهيرة (شمالى أيلة) التى تقدم ذكرها مراراً ويؤكد الملك الصالح هنا أهميتها .

ولْنَرْجعْ إلى سِياقة أخبار الملك المعظم :

قال : ولما وصل إليه الأميرُ فارس الدين ، وهو بحصِن كَيْفا ، رَحَل وسلَكَ البَرِّيَّة[1] . وأخْفَى أمرَه عن الملوك المجاورين له . خَشْيةً من غائِلتهم . وترك بالحصن ولدَه الملك الموحد ، وسار حتى انتهى إلى دمشق .

فكان وصولُه إليها فى يوم السبت . سَلْخَ شهر رمضان ، سنة سبع وأربعين وستمائة . وعَيَّدَ بها عيد الفِطْر . وخَلَع وأنعمَ على الأمراء ، وأقرَّ الأميرَ جمال الدين موسى بن يَغْمُور على النِّيَابَة بدمشق . وأفرج عن كل من كان فى حَبْسِ والده . قال أبو المظفر : وبلغنى أنه كان بدمشق ثلاثمائة ألف دينار ، فأخذها صُحْبَتَه ، وتجهز إلى الديار المصرية

وكان رحيله من دمشق فى الخامس والعشرين من شوال ، منها . وكان سبب تأخره بدمشق ، هذه المدة ، أنِ الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ كان قد سيَّرَ إليه جماعة من المماليك الصالِحِية . يستحثه على سرعة الحضور . فأوهمه بعضُهم أن فخر الدين حَلَّفَ العساكرَ لنفسه . وأنه متى حضر قَتَلَه ، واستقَلَّ بالأمر . فأنْفَقَ الملكُ المعظم الأموالَ بدمشق . واستَحْلَفَ العساكر . وحَلَّفَ المماليكَ الذين حضروا من جهة الأمير فخر الدين ، على قَتْلِ فخر الدين . فَحلَفُوا له . فاتفق قَتْلُ فخرِ الدين قبل وصول الملك المعظم ، كما تقدم .

وجهز الملك المعظم كاتبَه ـ معينَ الدين ، هِبة الله بن أبى الزَّهْر حَشِيش ـ إلى قلعة الكَرَك ، فى مُستهل ذى القعدة . فحقَّقَ ما بها من الأموال

(١) البادية بين العراق والشام . فى الشمال

والذخائر ، وحمل إليه من حاصِلها مائتى ألف دينار ، عَيْناً ، مما كان الملكُ الصالح قد نَقَلَه إليها . ولحق معينُ الدين السلطانَ إلى الرَّمْل[1] . وكان نَصْرانياً فوعده بالوزارة ، فأَسْلم . ووصل السلطانُ إلى العساكر الديار المصرية ، بمَنْزِلَة المنصورة ـ فى يوم الثلاثاء سابع عشر ذى القعدة ، من السنة .

ولما وَصَل ، وضع يدَه على ما سَلِمَ من تركة الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ ، وأخذ مماليكَه الصغار ، وبعضَ قُماشه ـ وثُمِّنَ ذلك بخمسة عشر ألف دينار ـ وهى دون نصف القِيمة ، فيما قيل . ولم يُعَوَّض الوَرَثة عن ذلك شيئاً ، فإنه قُتِل قبل ذلك .

ذكر عدة حوادث كانت فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، غير ما تقدم

فى هذه السنة تَأَمَّرَ بمكة ـ شرَّفَها الله تعالى ـ أبو سعد على بن قَتَادَة ، وذلك فى العشرين من ذى القعدة .

وفيها قُتِل الأمير شِيحَه ، صاحب المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ وولى بعده ولدُه عيسى بن شِيحَه .

وفيها فى خامس عشر شعبان ، تُوفى الطَّوَاشى مسرور بالقاهرة ، ودفن بتربته بالقرافة .

---

(١) البادية بين الشام ومصر ، من العريش إلى الصالحية . وفيها الطريق إلى مصر

وفيها توفى الشيخ صالح أبو الحسن على ، بن أبى القاسم بن عربى بن عبد الله ، الدِّمياطى ، المعروف بابن قُفْل ـ فى يوم الأحد الرابع والعشرين من ذى الحجة ، برِباطه بالقَرافة ، وبه دفن .

وفيها توفى شهابُ الدين ابن قاضى دَارا[1] . وكان من النُّظَّار فى الدولة الكامِلية ، وبعدها . وَلِىَ نظر الأعمالِ القُوصِيَّة[2] . وكان السلطان الملك الكامل يكتب إليه بخَطِّه ، ويأمره وينهاه . ويقال إنه كان من ظَلَمَةِ النُّظَّار ، يُضْرَب بظُلمه المَثَل . سامَحَه الله ـ وإيانا بكَرَمِه .

واستهلَّت سنة ثمان وأربعين وستمائة :

ذكر هزيمة الفرنج وأَسْرِ ملِكهم رِيدَا فَرَنْسْ

قال المُؤَرِّخ : لما وصلَ السلطانُ الملك المعظم إلى المنصورة ، كان ملك الفرنج رِيداَ فَرَنْس[3] ـ بعساكِره وجُموعه ـ بالجزيرة التى قُبالةَ المنصورة ، وهى الدَّقَهْلِية . فرحل بمن معه طالباً دِمياط . وذلك فى ليلة الأربعاء ، مستهل المحرم ، من السنة .

---

(١) بلدة فى لِحف (قاعده) جبل بين نصيبين وماردين ، من بلاد الجزيرة .

(معجم البلدان : جـ ٤ ـ ص٥)

(٢) الأعمال التابعة لقوص ، وهى مدينة كبيرة بالصعيد بالديار المصرية .

(٣) لويس التاسع ، ملك فرنسا . وسبق ذكره . والمؤلف يذكر هنا تقهقر لويس التاسع بجيشه بعد هزيمته فى موقعة المنصورة . لكن يلاحظ أنه (أى المؤلف) لم يذكر الموقعة نفسها . غير مقدمتها التى كان فيها حادث الأمير فخر الدين بن الشيخ .

فتَبِعَتْهُ عساكرُ المسلمين إلى فَارِسْكُور[١] ، وقاتلوه قِتالاً شديداً وأخذوه أَسِيراً ـ هو وأخوه ـ واستولوا على عساكر الفرنج ، وقتلوا منهم زِيادةً عن عشرة آلاف فارِس . وأُسِرَ من الخَيَّالَة والرَّجَّالَة ما يُناهِزُ مِائةَ ألف . وجِيء بِرِيداً فَرَنْس وأخيه إلى المنصورة ، فاعتُقِلا فى دار فخر الدين بن لُقْمَان[٢] بها . ورتَّبَ السلطانُ الأميرَ فخر الدين الطُّورِى[٣] لقتل أَسْرَى الفرنج فكان يَقْتُل منهم فى كل ليلة ثلاثمائة نَفَر ، ويَرْمِيهم فى البحر .

وكتب السلطانُ الملكُ المعظم ـ كِتاباً بخَطِّه إلى الأمير جمال الدين موسى ابن يَغْمُور النائب بدمشق ، مَضْمونُه بعد البسملة :

« ولده تُورَانْشَاه . الحمد لله الذى أَذْهَبَ عنا الحَزَنَ . وما النصرُ إلا من عند الله . ويَومئذٍ يَفرحُ المؤمنون بنصر الله ، ينصرُ من يشاء وهو العزيز الرحيم . وأما بِنِعْمَةِ ربك فحَدِّثْ . وان تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تُحْصُوها . يُبَشِّرُ المجلِسَ السامى الجَمَالى ـ بل يُبَشِّرُ الإسلامَ كافَّة ـ بما مَنَّ اللهُ به على المسلمين ، من الظفَر بعَدُوِّ الدين . فإنه كان قد استفحل أمْرُه ، واستحْكَم شرُّه ، ويَئِس العِبادُ من البلاد والأهل والأولاد . فنُودُوا : لا تَيْأَسُوا من رَوْحِ الله .

---

(١) هى البلدة المعروفة على شاطىء النيل ، على الضفة الشرقية . بالقرب من دمياط .

(٢) كاتب الإنشاء فى الدولة .

(٣) نسبة إلى الطور ، وهو حصن وجبل بجوار طبرية .

ولما كان فى يوم الأربعاء ـ مُسْتَهَلَّ السنة المبارَكة ـ تَمَّمَ الله على الإسلام بركاتها ـ فَتَحْنَا الخزَائن ، وبَذَلْنَا الأموال ، وفَرَّقْنَا السِّلاح ، وجمعنا العُرْبان والمُطَّوِّعَة[1] ، واجتمع خَلقٌ لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وجاءوا من كل فَجٍّ عميق ، ومن كل مكان بعيدٍ سحيق . ولما رأى العدُوُّ ذلك أرسل يطلبُ الصلح ، على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامِل ، فأَبَيْنَا . ولما كان الليلُ ، تركوا خِيامهم وأموالَهم وأثْقالهم ، وقصدوا دِمياط هارِبين ، ونحن فى آثارهم طالِبين . وما زال السيفُ يَعْمَلُ فى أَدْبارِهم ، عَامَّةَ الليل . وحَلَّ بهم الحَرَب والوَيْل .

فلما أصبَحْنَا نَهارَ الأربعاء قَتَلْنَا منهم ثلاثين ألفاً ، غيرَ من ألقى نفسه فى اللُّجَج . وأما الأَسْرى فحَدِّثْ عن البحر ولا حَرَج . والتجأ الإفْرَنْسِيسُ إلى المِنْيَة[2] ، وطَلَبَ الأمانَ فأَمَّنَّاه ، وأخَذْنَاه وأَكْرَمْنَاه . وتَسَلَّمْنَا دِمياط بعَوْنِ الله تعالى ، وقُوته وجلاله وعظَمته . وذكر كَلاماً طويلاً .

---

(١) فى النسخة (ك) : العربان المطاوعة ، وفى (ع) العربان والمطاوعة . ولكنها وردت فى المراجع الأخرى مثل السلوك والنجوم الزاهرة : « العربان والمطوعة » ـ وهكذا أثبتناها فى المتن .

(٢) هى « منية أبى عبد الله » ، ولا تزال هذه القرية موجودة إلى اليوم ، واسمها « ميت الخولى عبد الله » ، وتقع على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط من النيل ، وتتبع مركز فارسكور بمحافظة الدقهلية .

وبَعَث مع الكتاب غِفَارَة[١] رِيدًا فَرَنْسْ إلى الأمير جمال الدين ، فلَبِسَها . وهى إسْقِلاَط[٢] أحمر ، تحته سِنْجَاب[٣] ، وفيها شكل بُكْلَة[٤] ذهب . فنَظَم الشيخُ نجمُ الدين محمد ، بن الخضْر بن إسرائيل ، مُقَطَّعَات ثَلاَثاً ، ارْتجَالاً ، وهى :

إن غِفَارة الفَرَنْسِيس التى جا ءتْ حِبَاءً لسَيِّد الأُمراء
كبياض القِرْطاسِ لَوْناً ، ولكِنْ صَبَغَتْهَا سُيوفُنا بالدِّماء

وقال ـ يخاطبُ الأميرَ جمال الدين :

يا واحدَ العَصْرِ الذى لم يَزَلْ يَجُوزُ فى نَيْلِ المَعَالى المَدَا
لازِلْتَ فى عِزٍّ وفى رِفْعَةٍ تَلْبَسُ أَسْلاَبَ مُلوكِ العِدَا

---

(١) الغفارة : المعطف . جمعها غفائر .

(سلوك ـ زيادة جـ ١ ـ ق ٢ ـ ٣٥٧)

(٢) هكذا فى (ع) . وفى السلوك « اشكرلاط » وفى النجوم الزاهرة : « سقرلاط » وهو نوع من القماش لونه قرمزى ، كان يرد من بلاد إيرلنده .

(سلوك : زيادة ـ جـ ١ ـ ٣٥٧)

وفى النجوم الزاهرة (جـ ٦ ـ ص ٣٦٨ . حاشية ٢) : سقرلاط : ملابس صوفية مدفئة (عن القاموس الفرنسى الإنجليزى) .

(٣) فرو سنجاب .

(٤) البكلة : معرب اللفظ الفرنسى ومعناه : مشبك .

(سلوك ـ جـ ١ ـ ٣٥٧)

وكتب عن الأمير جمال الدين مُقَدَّمَةَ كتاب ، للسلطان :

أَسَيِّدَ أَمْلاَكِ الزمان بأَسْرِهِمُ تَنَجَّزْتَ من نَصْرِ الإلٰه وُعُودَه
فلا زالَ مولانا يُبِيحُ حِمىَ العِدَا ويُلْبِسُ أَسْلابَ المُلوك عبِيدَه

ولما وصل هذا الكتابُ بهذه البشرى ، اجتمع عَوَامُّ دمشق فى العشرين من المحرم ودخلوا كنيسة مَرْيَمَ بالمغانى والبشائر ، وهَمُّوا بهدْمها . وأما النصارى ببعلبك فيقال إنهم سوَّدُوا وجوه الصُّورَ ، التى فى كنائسهم ، حُزْنا على هذه الحادثة . فعلم بهم مُتَوَلِّى البلد ، فجَنَّاهم جِنَايةً شديدة[1] ، وأمَرَ اليهودَ بصفْعِهم وضرْبِهم وإهانتِهم .

وفيها نَفَى السلطانُ الملك المعظم الملكَ السعيدَ مُجيرَ الدين حسن ، بن الملك العزيز عثمان ، بن الملك العادل ـ وهو ابن عم أبيه ـ من الديار المصرية إلى الشام . ووصل إلى دمشق ، واعتُقِل بعَزَّنا[2] ثم أُفْرِجَ عنه ، على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى .

ذكر مَقْتَل السلطان الملك المعظم

كان مَقْتَلُه ـ رحمه الله تعالى ـ فى يوم الثلاثاء ، السابع والعشرين من المُحَرَّم ، سنة ثمان وأربعين وستمائة

(١) أى : عاقبهم عقوبة شديدة .

(٢) مضبوطة هكذا بالقلم فى (ع) ، بشَدَّةٍ على الزاى . وهى قلعة قرب دمشق .

وسببُ ذلك أنه لما مَلَكَ شرع يُبْعِدُ مماليكَ والده وغِلمانَه وتَرَابِيَه ، ويُقَرِّبُ غِلمانه الذين وصلوا معه من بلاد الشرق وجَعَلَ خادمَه الطواشى مسْرُور أستادَ داره[1] ، والطَّواشى صَبِيح أميرَ جَانْدار[2] ـ وكان عَبْداً حبَشيا فَحْلاً ـ وأمر أن يُصاغَ عَصَاة من ذهب ، وأنعم عليه بالأموال والإقطاعات . وتوعد جماعةً من مماليك والده ، وأهانَهم . وكان يسميهم بأسمائهم ، من غير أن يَنْعَتَ أحداً منهم .

وكان قد وَعَدَ فارس الدين أَقْطَاى بالإمْرَة ، فلم يَفِ له . فاستَوْحَشَ منه . وكانت والدةُ خليل ـ سُرِّيَّة أبيه ـ قد توجهت إلى القلعة لَمَّا وصل إلى الشام ، فأرسل إليها يتهدَّدُها ، ويطلب منها الأموالَ والجواهر . فيقال إنها خافَتْه ، وكتبت إلى المماليك الصالِحِية بسببه .

فاجتمع منهم جماعةٌ ، واتفقوا على قَتْلِه . فلما كان يوم الإثنين ـ سادس أو سابع عشرين المحرم ، جلس السلطانُ على السِّمَاط ، واجتمع الأمراءُ على العادة . فلما تفرقوا ، تقدم أحد مماليك والده ، وضرَبَه بالسيف . فالتقى الضربةَ بيده ، فانهزم الضاربُ فقامَ السلطانُ ، ودخل إلى بُرْجٍ خشب كان فى خَيْمَته ، وقال : من ضَرَبَنى ؟ قالوا : الْحَشِيشِيَّة[3] . فقال : لا واللهِ ،

---

(١) سبق شرحه غير مرة . معناه : المشرف على القصور السلطانية .

(٢) سبق شرحه غير مرة . معناه : الحاجب الأول أو الأمين الأول .

(٣) يقصدون من طائفة الحَشِيشية أو « الحشّاشين » وهو الاسم الذى أُطلق على طائفة الباطنية من الشيعة الإسماعيلية ، الذين كانوا أتباع « الحسن بن الصباح » الذى ظهر فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، وبقى أتباعه يتوارثون مذهبه ، وكانوا يبيحون اغتيال خصومهم .

إلاَّ البَحْرِيَّة [١] ! واللهِ لا أَبْقَيْتُ منهم بَقِيَّة ! وقد عَرَفْتُ الضارِب واستَدْعَى الجَرَائِحِىَّ [٢] لِيَخِيطَ يدَه

فاجتمع الجماعةُ الذين اتفقوا على قتله ، وهجَموا عليه ، وبأيديهم السيوف مَجْذوبة . فهرب إلى أعلى البُرْج . وأغلق بابَه . فحرقوه بالنار ، فنزل من البُرْج ، وهرب إلى البحر . فأدركوه ، وضربوه بالسيوف ! فرَمَى نفسه فى البحر ، وهو يستغيثُ بهم . وتعلق بذيل أَقْطَاى ، واستجارَ به ، فما أجارَه . وهو يقول : دَعُونى أعودُ إلى الحصن ، فو اللهِ ما أريد المُلْك . وهم لا يَلتفتون إلى قوله . وقتلوه فى الماء ، فمات قَتِيلاً حرِيقا غَرِيقا ! وكانت مدةُ سلطنته واحِداً وسبعين [٣] يوماً . وانهزم أصحابه الذين وصلوا صُحْبَتَه من الشَّرْق ، واختفوا .

وكان الذين باشَروا قتلَ الملك المعظم ، من مماليك أبيه ، أربعة حُكِى عن سعد الدين مسعود ، بن تاج الدين شيخ الشيوخ ، أنه قال : أخبرنى صادقٌ أن السلطان الملك الصالح ، لما أَمَر الطَّواشى مُحْسِن الخادم بقتل أخيه الملك العادل ـ أَمَرَه أن يأخذ معه من المماليك من يَخْنُقُه ، فعَرَضَ مُحْسِنٌ ذلك على جميع المماليك ، فامتنعوا بأَسْرِهم . إلا هؤلاء الأربعة ، فإنهم أجابوه وتوجهوا معه ، وخَنَقُوا المَلِكَ العادل . فسلَّطَهم اللهُ تعالى على ولَدِه الملك المعظم هذا ، فقتَلُوه

---

(١) يقصد : طائفة المماليك البحرية . وهم المماليك الذين جلبهم أبوه الملك الصالح أيوب ، وأسكنهم قلعة جزيرة الروضة ، فعرفوا بالبحرية ، نسبة إلى بحر النيل . وهم الذين سيرثون الدولة

(٢) أى الجراح الطبيب .

(٣) فى النسخة (ك) : « أحد وسبعون » وفى النسخة (ع) « أحد وسبعين »

قال أبو المُظَفَّر يوسف سِبْطُ ابن الجَوْزِى : وحَكَى لى العِمادُ بن دَرْبَاس ، قال : رأى جماعةٌ من أصحابِنا الملكَ الصالحَ نجم الدين فى المنام ، وهو يقول :

قَتَلُوه شَرَّ قِتْلَه ... صار للعالم مُثْلَه
لم يُراعوا فيه إلاًّ[1] ... لا ، ولا مَنْ كان قَبْلَه
ستراهم عن قَليلٍ ... لأَقَلُّ الناس أُكْلَه

والملك المعظم هذا هو آخرُ ملوك الدولة الأيوبية ، بالديار المصرية ، المستقلين بالملك . وملكت بعده شَجَرُ الدُّرّ .

ذكر ملك شجر الدر : والدة خليل سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب

قال : ولما قُتِل الملك المعظم ، اتفق الأمراءُ الصالِحية والبَحْرِية على إقامة شَجَرَ الدُّرّ[2] ـ سُرِّيَّة السلطان الملك الصالح نجم الدينِ أيوب ـ وحَلَفُوا لها ، واستَحْلَفُوا جميعَ العساكر الشامية والمصرية .

---

(١) أخذاً من قوله تعالى : « لا يَرْقُبون فى مُؤْمِنٍ إلاًّ ولا ذِمَّة » .
· أى عهداً .

(٢) هكذا دائماً فى (ع) « شجر الدر » ، وكذا فى كثير من المراجع .

وكانت المَنَاشِير والتَّوَاقِيع تَخْرُج باسمها . ويُكْتَبُ عليها ما صورتُه : والدة خَليل . ويَكْتُبُ المُوَقِّع : خَرَجَ الأمرُ العالى المَوْلَوِى السُّلْطانى الخَاتُونى الصالِحى ، الجَلالى العِصَمى الرَّحِيمى ـ زاده الله شَرَفاً ونَفَاذا . وقد شاهدتُ منشوراً منها ، هذه ترجمتُه . وتواقيعُها موجودةٌ بأيدى الناس ، إلى وقتنا هذا . وخُطِبَ باسمها على المنابر . واستَقَرَّ الأميرُ عزالدين أَيْبَك ـ التُّرْكُمَانِى الصالِحى ـ أَتَابِكَ العساكر .

ذكر استعادة ثغر دمياط من الفرنج وإطلاق ريدا فرنس

قال : ثم حصل الاتفاقُ بين الأمراء وريدَا فَرَنْس ـ مِلِكِ الفرنج ـ على أن يُسَلِّمَ ثَغْرَ دمياط ، ويَحْمِلَ إليهم وَظِيفَةً[1] تقرَّرَتْ بينهم ، ويُطْلِقُوه . فسَلَّمَ إليهم الثَّغْرَ فى يوم الجمعة ، ثالث صفر ، سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة . وتوجه هو ـ وأخوه وزوجته ، ومن بَقِىَ من الفرنج ـ إلى بلادهم . فكانت مدةُ استيلائهم على الثَّغْر أحدَ عشر شهرا ، وتسعة أيام .

ذكر خلع شَجَرِ الدُّرِّ نفسها من الملك وانقراض الدولة الأيوبية من الديار المصرية

كان سببُ ذلك أن الأمراء اتفقوا على أن يتزوج الأميرُ عزالدين أَيْبَكَ التُّرْكُمَانى شجرَ الدر ، فتزوجها ، وخَلَعَتْ نفسَها من المُلْك ، وسَلَّمَت

(١) مبلغاً معيناً من المال يُدفع فى ميعاد مقرر .

السَّلْطَنَةَ إليه ـ فى التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة. وكانت مدةُ مُلْكِها ثلاثةَ أشهر وقد قيل إن زواجه بها كان فى سنة تسع وأربعين وستمائة

وانتصب الأميرُ عِزُّ الدين فى السلطنة ، وتَلَقَّبَ بالملك المُعِزّ . وأقام معه المِلِك الأَشْرَفَ : مُظَفَّر الدين موسى ، بن صلاح الدين يوسف ، بن الملك المسعود صلاح الدين أَقْسِيسْ ملك اليمن ، بن الملك الكامل ـ وكان عمره ست سنين . فأقام على ذلك زَمَناً ، ثم حَجَبَهُ الملك المُعِزّ ، واستَقَلَّ بالمُلْك .

وانقرضت الدولةُ الأيوبية من الديار المصرية .

[الأيوبيون فى غير الديار المصرية[1]]

وبَقِىَ من ملوكها مَنْ نَذْكُرُهم : بالشام ، وحِصن كَيْفا ، ونَصِيبِين ، ومَيَّافَارِقِين . وهم :

الملكُ الناصر صلاح الدين يوسف ، بن الملك العزيز غِياث الدين محمد ، بن الملك الظاهر غياث الدين غازى ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادِى ـ صاحب دمشق وحلب وحمص ، وما مع ذلك

(١) وضعنا هذا العنوان ولم يكن موجوداً فى النسخة (ع) ، لأنه لابُدَّ منه ليدل على المواد القادمة ، وهى تُكَوِّن فصلاً مستقلاً قائماً بذاته ، بعد انقراض « الدولة الأيوبية » من مصر.

وليس من الذُّرِّيَّة الصَّلاَحِيَّة من يُخْطَب له بمملكة ، سِواه .

ومن الذُّرِّيَّة العادِلية من نذكرهم ،

وهـــم :

الملك المُغِيث فَتْحُ الدين عمر ، بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر ، بن الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد ، بن أيوب ـ صاحب الكَرَك والشَّوْبَك .

والملك المُوَحِّد : تَقِىّ الدين عبدالله ، بن الملك المعظم غياث الدين تُورَانْشَاه ، بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ صاحب حصن كَيْفا ونَصِيبين ، وأعمال ذلك .

والملك الكامل ناصرُ الدين محمد ، بن الملك المُظَفَّر شهاب الدين غازى ، بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ـ صاحب مَيَّافَارِقِين

ومن الذُّرِّيَّة الأيوبية :

الملك المنصور ناصر الدين محمد ، بن الملك المظفر تَقِىّ الدين محمود ابن الملك المنصور محمد ، بن الملك المظفر تقى الدين أبى سعد عُمَر ، بن شَاهِنْشاه ، بن أيوب ـ صاحب حَمَاه .

هؤلاء بنو أيوب

ومن الذرية الأَسَدِية : شِيركوه بن شادِى

الملكُ الأشرف مظفر الدين موسى ، بن الملك المنصور إبراهيم ، بن الملك المجاهِد أسد الدين شيركوه ، بن الأمير ناصر الدين محمد ، بن الملك

المنصور أسَد الدين شِيركوه ، بن الأمير ناصر الدين محمد ، بن الملك المنصور أسَد الدين شِيركوه بن شادى ـ صاحبُ تَلّ بَاشِر والرَّحْبَة .

وسنورد فى هذا الموضع نُبَذاً من أخبارهم ، تدل على مُلَخَّصِ أحوالهم ، إلى حين وَفاة كل منهم ، ومَنْ قام بعده من أولاده ، إن كان ـ على سبيل الاختصار .

أما السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، بن الملك العزيز ، بن الملك الظاهر ، ابن الملك الناصر : صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ فإنه كان بيده مُلْكُ حلب وأعمالها

مَلَك ذلك بعد وفاة والدِه الملك العزيز ـ كما تقدم ـ فى سنة أربع وثلاثين وستمائة . ثم استولى على حِمْص ، فى سنة ست وأربعين وستمائة : انتزعها من الملك الأشرف موسى ، بن الملك المنصور إبراهيم ، بن شِيركوه ، وعَوَّضَه عنها تَلَّ باشِر ـ وقد تقدم أيضاً . ثم استولى على دمشق .

ذكر استيلاء الملك الناصر على دمشق

وفى سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ بعد مَقْتَل الملك المعظم تورانشاه ـ تجهز الملك الناصر من حلب بعساكره ، فوصل إلى قَارَا[1] فى مستهل شهر ربيع الآخر .

(١) سبق ذكرها . وهى قرية كبيرة على الحدود بين أعمال حمص ودمشق . وأهلها نصارى .

وسبب ذلك أن الأمراء القَيْمرِيه (١) ، الذين بدمشق ، كاتَبُوه وبَاطَنُوه على أَخْذِها . فإن الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور ـ نائب السلطنة بها ـ اتفق هو والأمراء الصالِحِية النَّجْمِيَّة ، الذين كانوا بدمشق ، وتظافروا . واجتمعت كلمتهم . فتغيرت بواطن الأمراء القَيْمُرِيَّة ، فكاتَبُوه ، فسار إلى دمشق . ولما اتصل خبر مَقْدَمِه بالأمير جمال الدين بن يَغْمُور ، أحضر الملكَ السعيد بن الملك العزيز عثمان ، من قلعة عَزَّتَا (٢) إلى دمشق ـ وكان قد اعتقله بها ـ كما تقدم ، وأنزله فى دار فَرُّخْشَاه .

وتقدم المِلِكُ الناصر بعساكِره ، ونزل القَصْر . ثم انتقلوا إلى دَارَيَّا (٣) ، فى يوم السبت سابع الشهر . وزحفوا على المدينة يوم الأحد ثامنه ، وجاءوا إلى باب الصغير ـ وكان مُسَلَّماً إلى الأمير صارِم الدين القَيْمُرِى ، وإلى باب الجابِيَة وكان مُسَلَّماً إلى الأمير ناصر الدين القَيْمُرِى . فلما انتهى العسكرُ الناصِرى إلى البابَيْن ، كُسِرت أَقْفَالها من داخل المدينة ، وفُتح البابان ، ودخل العسكر الناصِرى منهما .

ونُهِبت دار الأمير جمال الدين ، بن يَغْمُور ، وسيف الدين المُشِدّ ونُهِبَ عسكرُ دمشق ، وأُخِذَت خيولهم من إسْطَبْلاَتهم . ودخل الأميرُ جمال الدين بن يَغْمُور القلعة ، وبها الملك المجاهد إبراهيم . ثم نُودى بالأمان

(١) ذكرنا من قبل أنهم طائفة من أمراء الجند الأكراد ، ينسبون إلى جبل قيمر ببلاد الأكراد .

(٢) هكذا هى مضبوطة فى (ع) بالقلم . قلعة قرب دمشق .

(٣) قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة . مر ذكرها .

ونزل الملكُ الناصر فى دِهْلِيز[١] ضُرِبَ له بالمَيْدان الأخضر . ونزل الأمير شمس الدين لُؤْلُؤ ـ أتَابِكِه ـ فى الجَوْسَق[٢] العادِلى . ثم انتقل الملك الناصر بعد ذلك إلى القلعة ، واستولى على ما بها من الخزائن والذخائر . واعتَقَل الأميرَ جمال الدين بن يَغْمُور ، ثم أفْرَجَ عنه وأحْسَنَ إليه . واعتَقَلَ الأمراءَ الصالِحِية ، وأرسلهم إلى الحصون ، وأقْطَعَ أصحابَه أخْبَازَهُم[٣]

وكان الملكُ الناصر داود ـ بن الملك المعظم ـ قد نزل بالعُقَيْبَة[٤] ، فجاءه الملك السعيدُ بن الملك العزيز عثمان ، فبات عنده ليلة . ثم هرب إلى قلعة الصُّبَيْبَة[٥] ـ وكان بها أحد خدامه ، وقد كاتَبَه ـ فوصل إليها وفتح له الباب ، فدخلها واستقرَّ بها .

وتَسلَّم الملك الناصر داود بعلبك من الحُمَيْدِى ، وتسلم بُصْرَى وصَرْخَد . ثم قَبَضَ عليه الملكُ الناصر يوسف بعد ذلك ـ فى ثانى شعبان من السنة . وذلك أن السلطان كان قد مرض ونزل بالمِزَّة[٦] . ونزل الناصر داود بالقصر بالقَابُون[٧] ، فأرسل إليه الأميرَ ناصر الدين القَيْمُرِى ونظامَ الدين بن المَوْلَى ، فأحضراه إلى المِزَّة ، وضُرِبت له خيمة واعتُقِل بها .

---

(١) سرادق كبير .

(٢) الجوسق : القصر .

(٣) أى إقطاعاتهم التى يتناولون منها مرتباتهم .

(٤) ضاحية بدمشق . سبق ذكرها غير مرة .

(٥) هى قلعة بانياس ، من أرض دمشق .

(٦) قرية وسط بساتين دمشق ، بينها نصف فرسخ .

(٧) موضع بينه وبين دمشق ميل واحد ، وسط البساتين .

واختُلِف فى سبب القبض عليه : فنُقِل أنه كان قد طلب من السلطان دُسْتُوراً إلى بغداد ، فأَذِن له وأعطاه أربعين ألف درهم ، فأنفقها فى الجُند وعَزَم على قصد الديار المصرية . وقيل : إن الملك الصالح إسماعيل جاءه كتاب من الديار المصرية ، فأوقف الأتابك شمس الدين لؤلؤ عليه . وأخبر القاصدُ أنه أحضر إلى الناصر داود كتاباً ، فسئل عن ذلك ، فأنكره . فنَقِمَ عليه السلطان بسبب ذلك . وقيل : بل أشار عليهم الملك الصالح إسماعيل بالقبض عليه ، وقال أنتم ما تعرفونه ، نحن نَعْرِفُه . وأنتم على قصد الديار المصرية ، والمصلحةُ أن لا نتركه خلفنا ، ولا نستَصْحِبُه .

فقُبِض عليه ، واعتُقِل بالمِزَّة أياماً . ثم نُقل فى قلعة حمص ، واعتقل بها . وأُسْكِن أهلُه ووالدته وأولاده فى خانقاه الصوفية ، التى بناها شِبلُ الدولة كافور الحُسامى . ثم نُقِل إلى البُوَيْضَا ـ وهى قرية قِبْلىّ دمشق ، كانت تكون لعَمِّه الملك المُعِزّ مجير الدين يعقوب بن العادل . وتُوفى بها ، كما تقدم .

ذكر توجه رسول السلطان الملك الناصر يوسف إلى الديوان العزيز ببغداد . وما جهزه صحبته من الهدايا والتقادم ، وما أورده الرسول فى الديوان العزيز من كلامه

ولما استولى الملك الناصر على دمشق ، جهز الصاحبَ كمال الدين أبا حفص عمر بن أبى جَرَاده ـ المعروف بابن العَدِيم[1] إلى الديوان العَزِيز[2] .

قال تاجُ الدين على بن أُنْجَب ـ المعروف بابن السَّاعى ـ فى تاريخه : كان وصولُ كمال الدين بن أبى جَرَاده إلى بغداد ، فى شعبان ، سنة ثمانٍ وأربعين فأُكْرِم ، وخرج إلى لقائه مَوْكِبُ الديوان العَزِيزى ، مُصَدَّراً بِعارِض الجيش ، مُجَنَّحاً بخادِمَيْن من خَدَم الدار العزيزة . فالتقاه ظاهرَ البلد ، ودخل معه . وقَبَّلَ صخرةَ باب النُّوبِى على العادة ، وانْكَفَأَ إلى حيث أُنْزِل

(١) هو كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ... بن أبى جرادة عامر بن ربيعة ... العقيلى الحلبى الفقيه الحنفى ، الكاتب المعروف بابن العديم . مولده بحلب سنة ٥٨٦ . وسمع الحديث من أبيه وعمه ، وحدَّث بالكثير فى بلاد متعددة . ودرس وأفتى وصنف . كان إماماً علماً فاضلاً . وهو أحد الرؤساء المشهورين والعلماء المذكورين وجمع لحلب تاريخاً كبيراً فى غاية الحسن . وتاريخ وفاته سنة ٦٦٥ هـ .

(النجوم الزاهرة : جـ ٧ ـ ٢٠٨ ـ ٢٠٩)

(٢) هو ديوان الخلافة ببغداد . والخليفة إذ ذاك كان هو « المستعصم بالله » .

وحَضَر ـ فى اليوم الثالث من قدومه ـ دارَ الوزير ، وأدى رسالته . وعرض ما صحبه من تُحف وهدايا . ومن جملة ذلك : دار خشب بديعة الصنعة ، وخمسة وعشرون[١] جملاً ، وعشرة أرؤس من الدواب : منها أربع بغلات ، وبقيتها من جِيَاد الخيل ، مُجَلَّلَة بالأَطْلس [وزَرَدِيات[٢] وخُوَذ ـ عمل الفرنج ـ ومائة وخمسين طَقْشاً[٣] ، وثلاثمائة تُرس لليد ، وعشرين ثوباً سِقْلاط[٤] . ومن الثياب : الأطلس] والرُّوسى والخِطَائى[٥] والمُمَوَّج ، ومَقَاصِير ونَقَايِير وخياشى مذهبة ، وحَريرى ألف وخمسمائةِ قطعة ، وصناديق بها أوانى ذهب وفضة مجوهرة ، وثلاثمائة مُجَلَّد بخطوط مَنْسُوبَة ، وأصولٍ صحيحة الضَّبْط ، ومُصحف كريم بخط ابن الخَازِن ، وكتب عليه من نظمه قوله :

« وعليكُمُ نَزَلَ الكِتابُ وفيكمُ وإلى ربُوعِكُمُ نَحِنُّ ونَرْجعُ »

---

(١) فى النسختين : « وعشرين » .

(٢) ما بين الحاصرتين غير موجود فى النسخة (ك) ، فأثبتناه من النسخة الأخرى (ع) .

(٣) هكذا رَسَمها وضَبَطها فى (ع) ، والكلمة ليست عربية ، ولكنها ـ فيما يبدو ـ فارسية ، معناها : الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها السهام ، أصلها تركاش أو طركاش .

(انظر الكلمة الأخيرة فى : السلوك ـ زيادة جـ ١ ـ ص ٣٧١ ق ٢)

(٤) سبق تفسيره . وهى ثياب صوفية ، كانت ترد من الخارج .

(٥) نسبة إلى بلاد الخِطا ، من بلاد الترك فى أواسط آسيا .

قال : وكان قد جلس له الوزيرُ فى الشُّبَّاك العَالى . وجَلَس بين يديه على الصُّفَّة الطويلة ، ظاهِرَ الشباك ، حاجِباً باب النُّوبِى ـ وذكر جماعةً قال : ثم أُذِنَ للرسول فى الدخول ، وجَلَس إلى جانب حاجِب باب النُّوبِى . وقرأ القُرَّاء ، ثم نهض الرسولُ ، وخطب خُطبةً بليغة من إنشائِه

قال ابن أنجب : وكنت حاضرا ومن خَطِّه الرائقِ نقلتُها ، وهذه نُسختُها :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله الذى أَسْبَغَ علينا جَزِيلَ النِّعْمة . ودَفَع عنا وَبِيلَ النِّقْمة . ومَنَّ علينا بالخلفاء الراشدين ، والأئمة المَهْدِيِّين وجعلنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بأنوارهم خيرَ أُمَّة .

أحمَده على هِباته السنِيَّة ، وصِلاَتِه الهَنِيَّة ، ومِنَنِه التى لا تُحصى بِحَدّ ونِعَمِه التى لا تُسْتَقْصَى بِعَدّ ـ حَمْدَ من لَزِمَهُ الحمدُ وَوَجَب . وتمسك من الطريقة المُثْلَى بأقوى سَبَب . وأَحَلَّنَا اللهُ دارَ المُقَامَةِ من فَضْلِه ، لا يَمَسُّنَا فيها نَصَب .

وأشهد أن لا إله الله وحده ، شهادةَ من أزال عنه الشكَّ ونَفَى ، وخَلَصَ منه الإيمانُ وصَفَا . وتَبَوَّأَ من مَنازل الفَوْزِ غُرَفاً ، واكتسب بطاعة إمَامِه فَخْرا وشَرَفا . وأشهد أن محمداً عبدُه المصطفى المُجْتَبَى ، ورسولُه

الذى اقْتَعَدَ ذِرْوَةَ الشَّرَفِ واحْتَبَى . وتَبَوأ على المَقامات رُتَبا . وفَضَلَ العالَمِين أَصْلا ونَسَبا ـ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابِه . ما هَبَّتْ شَمالٌ وصَبَا .

والصلاةُ والسلام على قَسِيمِ النَّبِىِّ فى النَّسَب ، وشَرِيكِه فى مَدَارِج الفَخَار والرُّتَب . وَاحِدِىّ مالَه من المناقِبِ والحَسَب : خليفةِ الله فى أرضه . القائم بسُنَنِه وفَرْضِه . المُسْتَخْرَج من عُنْصُر النبوة ، المَخصوص بفضيلتى العلم والأُبوة :

إمام الزمان ، المُتَهَجِّد بتلاوة القرآن . الذى هَجَرَ فى حِفْظِ دين الله وَسَنَه[1] . ودَعَا إلى سبيلِ ربه بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحسنة . ذى الفضل المُبِين ، والحَقِّ اليَقِين . الإمام الأَوَّاه : المُسْتَعْصِم بالله ، أميرِ المؤمنين[2] لازالت جِبَاهُ المُلوك العظماء بثَرَى عَتَبَاتِه الشريفة مَوْسُومَة . وأرزاقُ العِباد بما جرى من أوامره اللطيفة مَقْسُومَة . والأقضِيةُ والأَقْدَارُ جاريةً بما يوافق حُكْمَه ومَرْسُومَة . والأَقْذِيَةُ والأَقْذَار بطُول بقائه مَنْفِيَّةً مَحْسُومَة :

ماذا يقولُ الذى يتلو مدائحَه ... وقد أَتَتْنَا بها الآياتُ والسُّوَرُ
إن قالَ ، فالقولُ يَفْنَى دون غايتِها ... وإن أطالَ ، ففى تطويله قِصَرُ
خليفةَ الله ، لا تُحْصَى مَنَاقِبُكُم ... إنَّ البليغَ بها فى حَصْرِها حَصِرُ[3]

---

(١) الوَسَن : النعاس ، أو النوم .

(٢) هو الخليفة « المستعصم » : آخر الخلفاء العباسيين ببغداد (٦٤٠ ـ ٦٥٦) . وكان وصول ابن العديم إلى ديوانه فى عام ٦٤٨ هـ .

(٣) حَصِر : أى عَيِىّ .

أما الشفاعةُ عنكم فى المَعَادِ لنا لذى الكبائرِ والزَّلاَّتِ تُدَّخَرْ
أما النَّدَى من نَدَاكُمُ جَادَ صَيِّبُهُ (١) من بعد ماضَنَّ . فاستَسْقَى به عُمَرُ (٢)
فالغَيْثُ فى هذه الدنيا لنا بِكُمُ والغَوْثُ نَرْجُوهُ فى الأُخْرَى ونَنْتَظِرْ

وبعدُ : فإن اللهِ ـ وله الحمدُ ـ جعل لنا أَئِمَّةً خِيَرَة ، راشِدِين بَرَرَة . يُهْتَدَى بهُدَاهم ، ويُجْتَدَى (٣) نَدَاهُمْ . دَفَعَ عَنَّا الشُّبَهَ واليأس ، ورَفَعَ بهم النَّقْمَةَ والالْتِبَاس . وآخِرَ نَسْلٍ عَمٍّ نَبِيِّه العَبَّاس . مَنْ تَمَسك بهُدَاهم اهْتَدى . ومن حَادَ عن طريقِهم حَادَّ (٤) اللهَ واعْتَدَى . بحُبِّهِمْ يُدْرَكُ الأمَل والسُّول . وطاعتهُم مَقْرونةٌ بطاعةِ الله والرسول . تعظيمُهم واجب مُفْتَرَض . وبمُوَالاَتِهم يُدْرَكُ الفَوْزُ والغَرَض . أقربُ الناس إلى الله من هو فى ولايتهم عَرِيق ، وأَوْلاَهُمْ بالنجاةِ من هو فى بحر مَحَبَّتِهم غَرِيق .

ولما كان عبدُ الديوان العَزِيز : يوسفُ بن محمد بن غَازِى ـ المُسْتَعْصِمى (٥) ـ مِمَّنْ تَقَمَّصَ بِلِباس هذه الأوصاف ، وتخصص باقْتباس هذه الشِّيَم الشِّرَاف . وتَرَدَّى بالتمسك فى هذه الحُلَّة الجَميلة . وتَبَدَّى بالتَّنَسُّكِ بهذه الخَلَّة الجَلِيلَة . واغْتَدَى متقلِّباً فى صدَقات الدِّيوان . واغْتَدَى

(١) الصَّيِّب : المطر المنهمر .

(٢) يشير هنا إلى حادث تاريخى ، وهو أن الخليفة عمر بن الخطاب عند ما أصاب الناسَ الجدبُ ، خرج فصلى صلاة الاستسقاء ، واستشفع بالعباس عم النبى ـ عليه الصلاة والسلام فأجاب الله دعاءهم . والعباس هو جد الخلفاء العباسيين .

(٣) يُطْلَب .

(٤) شاقق .

(٥) نسبة إلى الخليفة « المستعصم » علامة على الولاء .

من نِعَمِه بِلِبان الإحسان ، ووَرِث وَلاءَ هذا البيت النبوى الفاخر ، كابراً عن كابِر ، وأصبح أوّلاً فى العُبُودِيَّة . وإن أمْسَى زَمَنُه الآخِر . وكان أحقَّ العبيدِ بأن يُقْبَل ـ لسَلَفِه سَوَالِفَ الخِدَم . وأوْلاَهُمْ بأن يُسْبَلَ عليه مَعَاطِفُ أذْيالِ الجُود والكَرَم ـ أحَبَّ أنْ تَظْهَرَ عليه آثارُ هذه النِّعْمَة . وأن يُدْرِكَ بها الفضلَ فى الدنيا ، كما يَرجو فى الآخرة الرَّحْمَة .

فارْتَادَ من رَعِيَّتِه من يقومُ مَقَامه فى تقبيل الأرض ، ويقفُ عنه هذا الموقِف الجميل لأداء الفَرْض . ووجَدَ هذا العبدَ المملوكَ ـ الماثلَ بين يدىْ مولانا : سلطان الوزراء وسيدِ المُلوك ـ أقْدَمَهُمْ فى وِلاَياتِ هذه الدولة النَّبوِيَّة المُعَظَّمَة أصْلاً ، وأبْلَغَهُمْ فى مُوالاة المواقف المقدسة المكرمة نَسْلاً ، وأصْلَبَهم ، عند العَجْم[1] فى دعْوَى الرِّقِّ والوَلاَء عُودا . وأثْبَتَهم فى التَّعَلُّقِ بدولة الحقِّ والانْتِمَاء عَمُودًا . فنَدَبَهُ إلى المَسِير إلى دارِ السلام . والنيابةِ عنه فى هذا المقام . والطَّوَاف حول كَعْبَة الرجاء والاسْتِلام . وإنْهَاء ما تَجَدَّدَ من الأحوال بمصرَ والشَّام . وأنْ يَضْرَعَ إلى عَواطِف الإفضال ، ومَشَارِعِ النَّوال . ويَخْضَعَ لمواقِف الآمال ، وشَوَارِع الإقْبال فى أنْ يَحْفَظَ له حَقَّ الآباءِ والجُدُود .

وقد وَقَفَ العبدُ المملوكُ عنه فى هذا الموقِف الجليل ، وحَجَّ عن فَرْضِه إلى كَعْبَةِ الجُود والتَّأْمِيل . وحَظِىَ باستلامِ حِجْرِ رُكْنِها وفازَ بالتَّقْبِيل . ويَوَدُّ مُرْسِلُه لو فَازَ به أو استطاع إليه سَبِيل . فإنه قد حَصَل للعبدِ من القَبُول والثواب . ما أفَاءَ على الأمَل وزاد على الحِسَاب . وتُصُدِّقَ عليه من الديوان

(١) عَجْم العود : اختبار مدى صلابته .

العزيز بصدَقة ، يبقى فخرُها فى الأَعْقَاب . ولا يَنْسَخُ حُكْمَها مَرُّ السِّنِين والأَحْقَاب . واللهُ تعالى يُسْبِغُ ظِلَّ الديوان العَزِيز على كافَّةِ أَوْليائه ويُمَتِّعُهم بدوام اقتدارِ سُلطانه وطول بَقائِه . ويُوزِعُهُم[1] شُكْرَ مولانا سلطانِ الوزراء وجَزِيلِ آلائِه . ويَتولَّى حُسْنَ مُجازاته عنهم ، فإنهم عاجِزون . والحمدُ لله رب العالَمين . وصلَّى اللهُ على سيدنا محمد وآلِه وصحبه ، وسلم تسليما .

قد سيَّرَ عبدُ الديوان العزيز : يوسفُ ، إلى الخزائِن المقدسة ، والمواطن التى هى على التقْوى مُؤَسَّسَة ـ خِدْمَةً على يد أقلِّ مماليكِ الديوان وعبيدِه من طارِف إنعام الديوان العَمِيم وتَلِيدِه ، وسالفِ الإحسان القديم وجديدِه . وهو يَضْرَعُ إلى العواطِف الرحيمة ، ويَسْأَلُ من الصَّدَقاتِ العَمِيمَة ، أَنْ يُنْعَمَ عليه بقَبُولِها . والتَّقَدُّمِ بحَمْلِها إلى الخزائن الشريفة ووُصولِها . وأَنْ يُكْسَى بذلك فَخْراً لا يُبْلِى جِدَّتَه مَرُّ الليالى والأيام . ولا يُذْهِبُ نَضْرَتَه كَرُّ السِّنين والأعوام . والسلام .

فعند ذلك ، أَذِنَ الوزيرُ مُؤَيَّدُ الدِّين بن العَلْقَمى فى إحضار الهَدَايا والمَدّ ، المُقَدَّم ذكره ، فأُدْخِلَ شيئاً فشيئاً ـ والرسولُ قائم ـ إلى أن أُحْضِرَ جميعُه ، وعُرِفَ قَبُولُه . ثم انْكَفَأَ إلى مَنْزِله ، واستُحْسِنَ إيرادُه ، واستُجِيدَ إِنْشَادُه وزِيد فى احْتِرامِه ، وبُولِغ فى إِكْرَامِه

(١) يُلْهِمُهُم

[الحرب بين الملك الناصر والملك المعز]

وفى سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ أيضاً ـ كانت الحربُ بين الملك الناصر ، والملك المعز صاحب الديار المصرية .

وذلك أنه لما استقر له مُلْكُ دِمشق ، وأضافها إلى ما بيده ، حَسَّنَ له أَتَابِكُه ـ شمسُ الدين لُؤْلُؤ ـ والأمراءُ القيمُرِيَّة ، أن يَقْصِدَ الديارَ المصرية ، وينتزعَها من الملك المُعِزّ : عِزِّ الدين أَيْبَك التُّرْكُمانى . وكان شمسُ الدين لؤلؤ ـ المذكور ـ يستقِلُّ عساكرَ الديار المصرية ، ويقول : أنا آخُذُ الديارَ المصرية بمائتى قِنَاع[1] ! .

فسار بجيوشه إليها ، فخرج إليها الملك المعزُّ بالعساكر المصرية . والتَقُوا واقتتَلُوا بمَنْزِلَةِ الكُرَاع[2] ، بالقرب من الخَشَبِى[3] . فكان الظفر له أوّلاً ، وبلغت الهزيمةُ بالعسكر المِصرى إلى القاهرة . ومنهم من فَرَّ إلى جهة الصَّعيد وذلك فى يوم الخميسِ ، العاشر من ذى القعدة من السنة . واتصل خبرُ الهزيمة بمَنْ بقلعة الجَبَل ، فخُطب للملكِ الناصر بها ـ فى يوم الجمعة الحادى عشر من الشهر .

(١) يقصد : بمائتى امرأة . القِناع هو ما تتقنع به المرأة .

(٢) حدَّدها المقريزى بأنها واقعة بين العباسة والسدير .

(سلوك ـ جـ ١ . ق ٢ ـ ٣٧٤)

(٣) أول الجِفَار (المنطقة الرملية) من ناحية مصر (أى للقادم إلى مصر) ، بينه وبين الفسطاط ثلاث مراحل . فيه خان .

(معجم البلدان : جـ ٣ ـ ٤٤١)

وهو بين بلبيس والصالحية ، يعرف اليوم بالسعيدية .

(سلوك زيادة : جـ ١ . ق ٢ ـ ص ٣٧٤)

ولما حَصَلَتْ هذه الهزيمةُ على العسكر المصرى . ثَبَتَ الملكُ المعز فى نحو ثلاثمائة فارس أبطال أصحابِه . وحمل بهم على الصَّنَاجِق الناصِرية ، رجاءَ أن يكون الملك الناصر تحتها ، فيظفر به . وكان الملك الناصر قد احتاط لنفسه واعتزل المعركة ، وتَحَيَّزَ إلى فِئَة . فرجَعَ إلى الشام ـ وصحبه نَوْفَل الزَّبِيدى ، وعلى السَّعْدِى . وكان من انهزام عساكره وتمزيق جيوشه ، وقَتْلِ أتابكه ، ما نذكره فى أخبار الملك المعز ـ جَرْياً على القاعدة .

وكان الأتابك شمس الدين لؤلؤ قد أُسِر ، فأراد الملك المعز إبقاءه ، وأشار عليه بذلك الأميرُ حسام الدين بن أبى على ، وقال : لا تَقْتُلْه ، فإنك تأخذ به الشامَ . فقال الأمير فارس الدين أَقْطَاى : هذا الذى يقول : إنه يأخذُ مصرَ بمائتى قِناع ! فضربوا عُنُقَه ! . وكان ـ رحمه الله تعالى ـ أَرْمَنِىَّ الجِنس ، صالحا عابِدا ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وقُتِل وقد نَافَ على ستين سنة .

ولما حَصَلَتْ هذه الوَقْعَةُ ، تأَكَّدَتْ أسبابُ الوَحْشَةِ بين الملكين : الناصِر والمُعِزّ ، وثارت الفِتَنُ بينهما . وتَجَرَّدَت الجُيوش من كل من الطائِفتين مُقابِلةَ الأخرى ، إلى أن قَدِمَ الشيخُ نجمُ الدين البادَرَائى رسولُ الخليفة ، فأصلح بين المِلكيْن . ووقَعَ الاتفاقُ على أن يأخذ الملكُ المعز من الملك الناصر القُدْسَ وغَزَّة ، وجميعَ البلاد الساحلية . فَتَسلَّمَ ذلك . وحَلَفَ كُلٌّ من المِلكين للآخَر . ثم استعاد الملكُ الناصِر ذلك من الملك المُعِزّ ، لَمَّا التحق بهالأمراءُ البَحْرِيَّة عند هربهم من الديار المصرية ، بعد مقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاى ـ على ما نذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالى . فلنذكرْ خلافَ ذلك من أخباره .

ذكر اتصال السلطان الملك الناصر بابنة السلطان علاء الدين كيقباذ

وفى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، وصلت الخاتُون الكبرى ، ابنة السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذْ السَّلْجُقى [١] ـ صاحبِ الروم [٢] ، وأُمُّها ابنةُ السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ـ صُحْبَةَ الشريف عز الدين المُرْتَضَى ـ وكان السلطان قد عَقَدَ نِكاحَها قبل ذلك ، فزُفَّتْ إليه الآن [٣] . ووصلت إلى دمشق ، واحتُفِل لها إحتفالاً عظيماً ، وتلقاها القضاةُ والأكابر ، وقَدَّموا لها التَّقَادِم [٤] الكثيرة ، وتَجَمَّلَ الملكُ الناصر لقدومها تَجَمُّلاً [٥] ، لم يَرَ الناسُ مثلَه .

وفى هذه السنة ، توفى الملك القاهر : نُصْرَةُ الدين بن الملك الناصرِ صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وهو عَمُّ والدِ الملك الناصر . وكانت وفاته بحلب ـ رحمه الله تعالى .

---

(١) هو علاء الدين كيقباذ ، بن غياث الدين كيخسرو ، بن علاء الدين كيقباذ .

(السلوك للمقريزى . جـ ١ ـ ق ٢ ـ ٤٠٨)

ووفاته سنة ٦٥٥ هـ . فهو حفيد علاء الدين كيقباذ ، الذى كان معاصراً للملك الكامل ، وسبقت أخباره معه فى المتن .

(٢) أى الدولة السلجوقية التى كانت ببلاد الروم (أى بآسيا الصغرى) .

(٣) كان الملك الناصر يوسف بن العزيز قد عُقِد له (فى سنة ٦٣٥) على ملكة خاتون أخت كيخسرو ، وهى بنت السلطان علاء الدين كيقباذ (الذى كان معاصراً للملك الكامل) . وأم ملكة خاتون هذه هى بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، كان قد زوجها الملك المعظم عيسى بن العادل ـ صاحب دمشق ـ من السلطان كيقباذ المذكور .

(أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر : جـ ٣ ـ ص ١٦٢)

(٤) ج : تقدمه . وهى الهدية .

(٥) أى أقام الزينات والمظاهر ، التى تدل على بالغ الاحتفاء والكرم .

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة :

فُتِحت المدرسة الناصِرية ، التى عَمَرَها الملكُ الناصرُ داخلَ باب الفَرَادِيس[١] بدِمشق ، وذُكِرَ بها الدرس بحضرةِ السلطان .

وفيها شَرَعَ الملك الناصر فى عمارة تربته ورِباطه ، غربىَّ قاسيون .

وفيها وصل الشيخ نجم الدين البادَرَائى[٢] رسولا من جهة الخليفة ، إلى دمشق . فرُتِّبَ له فى كل يوم مائةُ دينار ، والإقامات الوافِرة . وبُنِيَت له المدرسة البادَرَائِيَّة بدمشق ـ وكانت قبل ذلك الدارَ المعروفة بأسامه .

وفيها ـ أيضاً ـ كانت وفاةُ الملك المُعِزّ مجيرِ الدين يعقوب ، بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب . ودفن بتربة والده بالمدرسة العادِلية بدمشق ، وحضر السلطان جنازته وغلق البلد . وخلَّف ولديْن وهما : شهاب الدين غازى المعروف بالأسود ، وسيف الدين أبوبكر ، وابنة ـ رحمه الله .

وفيها كانت وفاةُ الشيخ الإمام ، العالم الواعظ ، شمس الدين أبى المُظَفَّر يوسف بن قَزْغلى : سِبْط الشيخ جمالِ الدين أبى الفَرَج بن الجَوْزِى . كان والدُه قَزْغلى تُرْكِياً من عُتَقَاء الوزير عَوْنِ الدين بن هُبَيْرَة[٣] ، زوجه أبو الفرج بن الجوزى ابنتَه ، فولَدَتْ شمسَ الدين هذا . فنُسِب إلى جَدِّه . لا إلى أبيه .

---

(١) باب من أبواب دمشق .

(٢) ذكرنا من قبل أن هذه نسبة إلى « بادَرَايا » ـ بالدال ـ وهى قرية كبيرة بنواحى واسط بالعراق .

(٣) هو الوزير عون الدين بن هُبَيْرة الشيبانى . ولد بالعراق سنة ٤٩٧ هـ بقرية تعرف الآن بدور الوزير ، نسبة إليه . دخل بغداد فى صباه . واشتغل بالعلم وجالس الفقهاء وسمع الحديث ، وقرأ النحو واطلع على أيام العرب . وقرأ الأدب ولازم الكتابة وتعلم صناعة الإنشاء . وفى سنة ٥٤٢ تولى كتابة ديوان الزمام ، ثم ترقى إلى الوزارة سنة ٥٤٤ . وذلك للخليفة المقتفى . ثم للمستنجد . وتوفى سنة ٥٦٠ هـ .
(وفيات الأعيان : جـ ٥ ـ ٢٧٤)

وكانت وفاته بدمشق فى ليلة الثلاثاء . حادى عشر ذى الحجة . بمنزله بقاسيون . ودفن هناك . ومولده فى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد . وشَهِدَ السلطان جنازته . وكان كريماً على الملوك الأيوبية . تَقَدَّمَ من أخباره ما يدلُّ على ذلك . وله مُصَنَّفَات منها : « مِرْآة الزَّمَان » ـ رحمه الله تعالى .

وفى سنة ست وخمسين وستمائة :

كانت وفاة الأمير سيف الدين : على بن عمر بن قَزِل التُّرْكُمَانى . اليَارُوقى . المصرى المولِد والمَنْشأ ، الدِّمَشقى الوَفَاة . المعروف بالمُشِدّ[1] . ودُفن بقاسيون . ومولده فى شوال سنة اثنتين وستمائة . وكان فاضِلاً أديباً . وله ديوان شعر مشهور ـ رحمه الله تعالى .

وفيها توفى الشيخ محيى الدين : محمد بن على بن محمد بن أحمد . الطائى الحاتمى ، المعروف بابن العَرَبِى ، بدمشق ـ فى ثانى جُمادى الآخرة . ودفن بقاسيون . ومولدُه فى سابع عشر رمضان ، سنة ثمان عشرة وستمائة .

ذكر سِيَاقَةِ أخبار الملك الناصر
ومراسلته هُولاكو ، وغير ذلك من أحواله ـ إلى أن قُتِل ـ رحمه الله

قالوا : ولما اتَّصَلَ بالملكِ الناصر صلاح الدين ما ذكرناه . من أخبار هولاكو[2] ، واستيلائه على الممالِك ، وتَقَدُّمِ جيوشه . ارتَاع لذلك وسُقِطَ

---

(١) ذكرنا من قبل أن وظيفة المشد معناها : مراقب حسابات الدواوين .

(٢) قائد التتر المشهور . وهو حفيد « جنكزخان » مؤسس دولتهم . فهو هولاكو بن تولى بن جنكزخان . وهو الذى زحف على فارس والعراق .

فى يدِه . وكان قبل ذلك قد تغافَلَ عن مُراسلة هولاكو منذ وَصَلَ إلى العِراق ، فاستَدْرَكَ الفَارِط ، وجَهَّزَ وَلَدَه الملكَ العزيزَ إلى خِدمته ، وبَعَثَ معه كِتاباً إلى بَدْرِ الدين لؤلؤ صاحبِ الموصل ، والتمس منه أن يُحْسِنَ السِّفارةَ بينه وبين هُولاكو ، ويعتذر عنه . وكتب علاءُ الدين بن يَعِيش ـ كاتبُ الملك الناصر ـ كِتاباً إلى صاحب الموصل ، يَذْكُرُ أنه سيَّرَ ولدَه إلى خِدمة هولاكو ، واستَشْهَدَ فيه بقول الشاعر :

والجُودُ بالنفسِ أَقْصَى غايةِ الجُود .

فقال الملكُ الناصر : لو استَشْهَدْتَ بيتَىْ أبى فِراس كان أَنْسَبَ . فقال : وما هما ؟ قال : قوله :

فَدَى نَفْسَهُ بابْنٍ عليه كنَفْسِه وفى الشِّدَّة الصَّمَّاء تَفْنَى الذَّخَائِرُ
وقد يُقْطَعُ العُضْوُ النَّفِيسُ لغَيْرِه ويُدْفَعُ بالأَمْرِ الكَبِير الكَبَائِرُ

فأصلح الكاتِبُ الكتاب .

وتوجه الملك العزيزُ بالهدايا النفيسة والتُّحَف ، و[illegible] الملكُ الناصر زينَ الدين الحافِظى والأميرَ سيف الدين الجاكى ، وجماعةً من الحُجَّاب ـ وذلك فى سنة خمس وخمسين وستمائة .

فلما وصلوا إلى هولاكو وقَدَّموا التقادِم ، سأل عن سبب تأخر الملك الناصر عن خِدمته . فاعتذروا أن الفرنج بجوار بلاده ، وأنه خشى إن فارقَها أن يستولى عدوُّه عليها ، وأنه سيَّر ولدَه ينوب عنه . فأظهر هولاكو قبولَ العذر ـ وباطنُه بخلاف ذلك ـ وأعادَهم . وكان وصولُهم إلى الملك الناصر فى سنة سبع وخمسين وستمائة .

فعرَّفَ الزينُ الحافِظى الملِكَ الناصرَ أن هولاكو أقبلَ عليهم ، وأحسنَ إليهم . فقال بعضُ الأمراء ، الذين كانوا فى صحبة الملك العزيز : ليس الأمرُ كذلك ، وإنما الزَّيْنُ الحافظىّ كان يتردد إلى هولاكو ويجتمع به سِراً ، وأطمعَه فى البلاد . وكان الأمر كذلك .

وفى خلال ذلك ، وصل الأمراءُ الشَّهْرَزُورِيَّة[1] إلى الشام ، عند انهزامهم من هولاكو ـ وكانوا نحو ثلاثة آلاف فارس . فأشار الأمراء القيمُرية باستخدامهم ، ليكثر بهم جمعه ويستظهر بهم على أعدائه . فاستَخْدَمهم ، وأنعم عليهم وأحسن إليهم ، ووصلهم بالأموال ، وهم لا يزدادون إلا طَلَبا .

ثم بلغه عنهم أنهم مالوا إلى الملك المُغِيث صاحب الكَرَك ، فزاد فى الإحسان إليهم ، فلم يُفِدْ ذلك فيهم . ثم فارقوه ، وقصدوا الملكَ المغيثَ واتصلوا به . فاجتمع عنده البَحْرِيَّةُ والشَّهْرَزُورِيَّة ، فقويت نفسه وطمِع فى أخذ دمشق ، وكاتب جماعةً من الأمراء الناصرية وكاتبوه .

فاتصل ذلك بالملك الناصِر ، فأنعم على أمرائه وطَيَّبَ خواطرهم ، وجَدَّدَ عليهم الأَيْمان . فامتنع جماعةٌ من الأمراء العَزِيزية ـ مماليكِ والده ـ من الحِلْف ، فزادهم وبالغ فى الإحسان إليهم ، ولم يُكَلِّفْهم اليمين .

---

(١) نسبة إلى شهرزور . وهى كورة واسعة فى الجبال ، بين إربل وهَمَذَان ، فيها مدن وقرى إحداها ـ وهى مدينة كبيرة ـ هى قصبتها . وأهل هذه النواحى أكراد .

(معجم البلدان : جـ ٥ ـ ٣١٢)

فهؤلاء الأمراء الشهرزوريه الذين هجروا بلادهم وانتقلوا إلى الشام ، هرباً من هولاكو ـ كانوا إذن من الأكراد .

ثم بلغه أن الملك المغيث خرج من الكَرَك لقصد دِمشق . فخرج بعساكره فى أوائل سنة سبع وخمسين ، ونزل ببركة زَيْزَا[1] ، وخيَّمَ بها نحوا من ستة أشهر . ثم وقع الصلح بين المِلِكَيْن . وحصل الاتفاق على أن يسلم الملك المغيثُ إليه البَحْرِيَّة ، فَسلَّمَ إليه من نذكره منهم .

وعاد إلى دمشق . فلما استقر بها ، بلغه أن هولاكو وصل إلى حرَّان ، ونازلها بعساكره . فاستشار الأمراء فيما يفعله . فأشاروا عليه أن يخرج بالعسكر الشامى إلى ظاهر دمشق ، وصمموا على قتال هولاكو . فخرج بعسكره وخيموا بظاهر بَرْزَة[2] . فصار نجمُ الدين الحاجب والزَّيْنُ الحافِظى ـ وجماعةٌ معهما ـ يذكرون شِدة عزم هولاكو ، ويُعَظِّمُون أمرَه ، ويقولون : من الذى يلتقى مائتى ألف فارس ؟ ! فضَعُفَتْ نفسُه عن ملاقاته .

ثم بلغه أن هولاكو ملك قلعة حرَّان ، وأنه عزم على عبور الفرات إلى جهة الشام ، ومنازلة حلب . فازداد ضعفاً إلى ضعفه . فاجتمعت آراء الأمراء والعساكر أن يُسَيِّروا نساءهم وأولادهم إلى الديار المصرية . ويقيمون هم فى خدمة الملك الناصر جرائدَ ، ففعلوا ذلك . وبعث الملك الناصر زوجتَه : ابنة السلطان علاء الدين كيقُبَاذ بن كيخُسْرو السَّلْجُقى صاحبِ الروم ـ وكان قد تزوج بها فى سنة تسع وأربعين وستمائة ـ إلى الديار المصرية ، وبعث معها ولدَه وأمواله وذخائره . وكذلك فعل جميعُ أمرائه وأجْناده ،

---

(١) زَيْزَا : قرية كبيرة من البلقاء ، ينزل عليها الحجاج ويقام لهم سوق . وفيها بركة عظيمة (وأصل اللفظ فى اللغة المكان المرتفع) .

(معجم البلدان جـ ٤ ـ ٤٢٤)

(٢) فى غوطة دمشق سبق ذكرها مراراً

وصار الجندُ يتوجهون بنسائهم على أنهم يوصلونهم ويرجعون ، فمنهم من يعود ، ومنهم من لا يعود . فتَفلَّلت العساكرُ وتفرقت الجنود ، وضعُفت النفوس . ولم يبق مع الملك الناصر إلا جماعة من أمرائه جَرَائِد[1] .

ونازل هولاكو مدينةَ حلب فى المحرم ، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة . وفتحها عَنْوَة . وسَفَكَ فيها من الدماء ما لم يسفك مثله ، ببلاد العجم ! وأسر التتارُ من النساء والصبيان ما يزيد على مائة ألف .

ثم فتح قلْعة حلب ، فى حادى عشر ربيع الأول من السنة . وأخذ جميعَ ما فيها . وأسر أولادَ الملك الناصر وأمهاتِهم . وخرج إليه الملك المعظم تُورَانْشَاه بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فلم يتعرض هولاكو إليه ، وأَمَّنَه على نفسه . ومات الملك المعظم بعد أيام يسيرة . واستَمَرَّ هولاكو بالوزير[2] المؤيد بن القِفْطى ، على حالِه .

فورد الخبرُ على الملك الناصر بأخذ حلب ، وهو نازل على بَرْزَة . فاستشار الأمراء ، فأشاروا عليه أن يتأخر إلى غَزَّة ، وأن يكاتب الملك المظفر قُطُزْ ويستدعيه بعساكر الديار المصرية ، ليجتمع الكل على لقاء هولاكو ، ودفعه عن البلاد .

---

(١) أى فئات قليلة من الخَيَّالة . بغير عدة ثقيلة . ج جريدة .

(٢) هذا تعبير مألوف فى ذلك العصر ، أى أبقى الوزير فى منصبه وأقره عليه .

فعمِل برأيهم . ورحلوا يوم الجمعة بعد الصلاة ، منتصف صفر ، سنة ثمان وخمسين وستمائة . فانْقَضَتْ مملكةُ الملك الناصر فى ذلك اليوم .

وكانت مدةُ ملكه بحلب ثلاثاً وعشرين سنة ، وسبعة أشهر ، ومدة ملكه منها بدمشق عشر سنين ، إلا خمسين يوماً . ونزل الملك الناصر بمن معه على غزة ، وأقام بها .

ولما توجه الملك الناصر ، دخل الزَّيْنُ الحافِظى [1] إلى دمشق وجَمَعَ أكابرَها ، واتفقوا على تسليم دمشق لنُوَّابِ هولاكو ، وأن يحقِنوا دماءَ أهلها . فتسلمها فخر الدين المَرْدَغَاوِى وابن صاحب أرْزَن والشريف على ـ وكان هؤلاء رسلَ هولاكو إلى الملك الناصر ـ وكانوا عنده بظاهر دمشق : فلما دخلوا إليها وتسلموا قلعتها ، كتبو بذلك إلى هولاكو . فسير إليها المان التترى وعلاء الدين الكازى العجمى ، نُوَّاباً ، وأمرهما هولاكو أن لا يخرجا عن إشارة الزَّيْنِ الحافِظى . وأوصاهما بالإحسان إلى أهل دمشق .

ثم بلغ هولاكو وفاة أخيه مَنْكُوقَانْ [2] ، فعاد من حلب ـ كما قدمناه فى أخباره .

---

(١) اسمه « سليمان بن على بن عامر العَقْرَبانى ، المعروف بالزين الحافظى . كان أبوه خطيب عقربا من قرى دمشق . اشتغل بالطب حتى مهر فيه ، وخدم به أرسلان شاه بن العادل صاحب جعبر ، ثم انتقل إلى خدمة الناصر يوسف بحلب . فصارت له عنده يد ورفعة ، وصار مكينا فى الدولة ، وكان يرسل عنه إلى هولاكو ، فاتصل بالتتار وأطمعهم فى البلاد ، وعاد فهوَّلَ الأمر على الناصر حتى هرب ، فقام بأمر دمشق للتتار . وسنرى مصيره فيما بعد ، فى عهد السلطان قطز ، حيث سيُقْتَل هو وأولاده .

(السلوك للمقريزى جـ ١ ـ ق ٢ ـ ٤٢٣)

(٢) كان هو ملك التتر . وهو ابن تولوى بن جنكزخان . تُوِّج وأُعلن خانا أعظم ، سنة ٦٤٩ هـ . فى مجمع رؤساء التتر . وفى ذلك المجمع قر الرأى على إرسال حملتين حربيتين : إحداهما إلى الصين بقيادة قوبيلاى ، والأخرى إلى بلاد فارس وما وراءها بقيادة هولاكو . وكلاهما أخٌ لمنكوقان .

(السلوك ـ زيادة . جـ ١ ق ٢ ـ ٣٨٣ ـ حاشية ٢)

وبعث كَتْبُغَانُوِينْ[١] فى جيش كثيفٍ إلى الشام فوصل كَتْبُغَا إلى دمشق ، وأقام بها أياماً ، ورحل عنها إلى مَرْج بَرْغُوث[٢] . ثم وصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو ـ وكان قد توجه إلى خدمته وهو بحلب ـ فعاد ، وبيده مَرْسُومَة ، أن يكون نائبَ المملكة بدمشق وحلب ، وجميع البلاد الشامية .

فاجتمع بكَتْبُغَا فى مَرْج بَرْغُوث . فبعث إلى الزَّيْن الحافِظى ونوابِ دمشق بالاتفاق مع الملك الأشرف ، على مصالح البلاد . ثم عَصَى بعد ذلك محمد بن قَرْمَجَاه ، وجمال الدين بن الصَّيْرَفى ـ نَقِيب قلعة دمشق ـ وأغلقوا أبواب القلعة . فحصرها كَتْبُغا ومن معه وقاتل قتالاً شديداً ، ثم تسلمها بالأمان . فكتب الزينُ الحافظى بذلك إلى هولاكو ، فعاد جوابُه بقتل محمد ابن قَرْمَجَاه وجمالِ الدين بن الصَّيْرَفى . فقال كَتْبُغا للزين الحافظى : أنتَ كَتَبْتَ إلى هولاكو بسببِهم ، فاقْتُلْهم أنت . فقتلهما الزينُ الحافظى صَبْراً ، بيده وسيفه ، بمَرْج بَرغوث .

وبعث كَتْبُغا نُوِينْ جيشا إلى نابُلُس ، وقدم عليهم كَشْلُوخَان ، فمَضَى إليها ، وبها فخر الدين إبراهيم بن أبى ذكرى ، نائب السلطنة بها . فركب

---

(١) كتبغا اسم القائد . أما نوين (ويُضبط بكسر الواو ، أو فتحها ـ وهو لفظ أعجمى فارسى على كل حال ، ومعناه : مقدم ألف ـ فهو يقرن بأسماء القواد ، ويكثر وروده هكذا . ومرتبة صاحبه تقابل مرتبة نائب السلطنة أو الوزير .

(سلوك ـ جـ ١ ـ ق ٢ ـ ٤٢٤)

(وصبح الأعشى جـ ٦ ـ ص ٣٣)

(٢) على مسافة يوم من دمشق .

(سلوك جـ ١ ـ ٤٢٥ ـ نقلا عن أبى شامة : الروضتين ٣٨٤ و ٤٩٥)

ومعه الأمير على بن الشجاع الأَكْتَع ، وفخر الدين دَرْباس المِصرى وجماعة ، فصادَفَهم كَشْلُوخَان فى زَيْتون نابُلس ، فقتلَهم بأجمَعِهم .

قال : ولما اتصل بالملك الناصر ومن معه من الأمراء وصول كَشْلُوخَان إلى نابُلس وما فعله ، حملهم الخوف على دخول الرَّمْل [1] فبلغ الملكَ المُظَفَّرَ دخولُهم ، فتوهم أن ذلك مكيدةٌ لتملك الديار المصرية . فكتب إلى الأمراء الناصِرية والشَّهْرَزُورِيَّة ، يَعِدُهم بالإكرام والإحسان إن وصلوا إليه . ففارقوا الملكَ الناصرَ ومضوا إلى المظفر ، أَوَّلاً فأَوَّلاً . ولم يبق مع الملك الناصر إلا الملكُ الصالح نور الدين إسماعيل بن صاحب حمص ، والأمير ناصر الدين القَيْمُرى ، وأخوه شهاب الدين ، وابن عمه شهاب الدين يوسف بن حسام الدين . فوصلوا إلى قَطْيَا [2] .

ثم خَشِىَ عاقبةَ دخوله إلى الديار المصرية ، فعطف من قَطْيَا ، وسلك البَرِّيَّةَ إلى الشَّوْبَك بهم . فوصلوا إليها ، ولم يبق لكل واحد منهم إلا الفرس الذى تحته ، وكل منهم فى نفَرين أو ثلاثة ، وقد نُهِبَتْ خزائنُهم وأموالهم وذخائرهم وبيوتاتُ الملك الناصر .

ثم توجه الملك الناصر بمن معه إلى الكَرَك . وأرسل إليه الملكُ المغيثُ ما يحتاج إليه من الخيل والأقمِشة والبيوتات وغير ذلك ، وعرض عليه المُقامَ عنده ، والانفراد بالشَّوْبَك . وقصد مكافأته عن سالِفِ إحسانه ، فإنه كان

---

(١) سبق تفسيره ، وبينا أن هذا الاسم كان يطلق على المنطقة الرملية بين جلود الشام جنوباً ومصر ، أى من العريش إلى العباسة أو الصالحية .

(٢) أو « قَطْيَة » : قرية فى الطريق بين مصر وجنوب الشام فى وسط الرمل قرب « الفرما » بيوت أهلها من جريد النخل ، وعندهم سمك كثير لقربهم من البحر .

قد أحسن إلى ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان ، لما توجه إليه إلى دمشق ـ على ما نذكره . فلم يُجِبْ الملكُ الناصرُ إلى ذلك ، ومضى إلى البَلْقَاء وأقام بأطراف البلاد .

وسير حسينَ الكُرْدِى الطَّبَرْدَار إلى كَتُبُغا نُوِينْ ، يلتمس أمانَه . وقيل : بل حسين الكردى ، لما شعر بالملك الناصر ، توجه إلى كَتُبُغَا وأعلمه بمكانه . فركب كَتُبُغا بنفسه فى جيش كثيف إلى الملك الناصر وقَبَضَ عليه ، وعلى من معه . فاعتُقِل الأمراءُ القَيْمُرية بدمشق . وكان الملك الظاهر ـ أخو الناصر ـ نازلاً على قلعة صَرْخَد بحربها ، بأمر هولاكو . فأمر كَتُبُغا بطلبه ، وقُبِضَ عليه . وجاء إلى قلعة عَجْلُون وحاصَرَها ـ والملك الناصرُ معه ـ وقَدَّمَه إلى القلعة ، فأمر من بها أن يُسَلِّمُوها ، فسلموها بعد امتناع .

ثم جهز الملكَ الناصرَ وأخاه الملك الظاهر ، والملكَ الصالح بن الملك الأشرف ، صاحب حمص ، إلى هولاكو ـ وصحبتهم الملكُ العزيز فخر الدين عثمان ، بن الملك المُغِيث صاحب الكَرَك . فأخبرنى المَوْلَى الملك العزيز المُشار إليه ـ مَدَّ الله فى عمره ـ أنهم توجهوا جميعاً إلى هولاكو ، واجتمعوا به بتُورِيزْ[1] . فأما الملكُ العزيز فأعاده بعد يومين أو ثلاثة ، فوصل إلى دمشق ـ على ما نذكره . وأما الملك الناصر وابنه الملك العزيز ، والملك الظاهر ، وابن صاحب حمص ـ فإن هولاكو أَخَّرَهُم عنده .

---

(١) هى نفسها « تبريز » ، وهذا نطق شائع لها وعرف ياقوت تبريز بقوله « هى أشهر مدن أذربيجان ، وهى مدينة عامرة حسنة ذات أسوار محكمة ، وفى وسطها عدة أنهار جارية . والبساتين محيطة بها . وكان بها كرسى بيت هولاكو من التتار .

(معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٣٦٢)

قال : وبلغنى أنه سأله عن أحوال الديار المصرية وعساكرها ، فهوَّنَ أمرَها عنده ، والتزم له بفتحِها ، وحَمْلِ أموالِها وأموال الشام إليه . ولم يزل يتلطف إلى أن أمر بعوده .

فلما رجع من عنده ، لقيه من سَلِمَ من الجيش الذين كانوا مع كَتُبُغَا نُوِينْ ، لَمَّا كسرهم الملكُ المظفر قُطُزْ . فقَبَضُوا عليه وأعادوه معهم إلى هولاكو . وقالوا له : ما كان على عسكرك أَضَرَّ من مماليكِ هذا ، ومماليكِ أبيه . وهم الذين قاتلونا وقتلوا كَتُبُغا نُوِينْ ، وهزموا عساكرَك . فأمر بضرب عنُقِه ، وعنقِ ولده الملك العزيز ، وأخيه الملك الظاهر ، وابن صاحب حمص ـ وذلك فى سنة ثمان وخمسين وستمائة .

واجتمع الناس لعَزائِه بجامع دمشق فى سابع جمادى الأولى ، سنة تسع وخمسين وستمائة . ومولده بقلعة حلَب فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان ، سنة سبع وعشرين وستمائة .

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ ملِكا حليماً كريماً ، لم يكن لأحد من الملوك قبله ـ فيما سمعنا ـ ما كان له من التَّجَمُّل . فإنه كان يُذْبَح فى مطبخه فى كل يوم ، أربعمائة رأس من الغنم الكِبار ـ خارِجاً عن الخِراف الرُّضَّع والأَجْدِيَة والدَّجَاج والحَمَام . وكان الغِلمان يبيعون فَضَلاتِ الطعام بظاهر قلعة دمشق ، بأبخس الأثمان ، حتى استَغْنَى أهلُ دمشق فى أيامه عن الطبخ فى بيوتهم .

حتى حُكِيَ عن علاء الدين على بن نصر الله ، قال : جاء السلطانُ إلى دارى بَعْلَبَكّ ، ومعه جماعة من أصحابه . فمددتُ له فى الوقت سماطا ، فيه من

الأطعمة الفاخرة والدجاج المحشو بالسكر والحلويات شيئاً كثيراً . فعجب من ذلك ، وقال : فى أى وقت تَهيَّأ لك هذا كلُّه ؟ فقلت : واللهِ هذا كله من نِعمتك وسِماطك ، ما صنعتُ منه شيئاً ، وإنما اشتريتُه من عند باب القلعة .

وحَكَى مباشرو البيوت بدمشق أن نفقة مطابخه كانت فى كل يوم تزيد على عشرين ألف درهم . وكان إذا مات أحدٌ من أرباب الوظائف فى دولته ، وله ولَدٌ فيه أَهْلِيَّة ، فوَّضَ ما كان بيده من المناصب لولَدِه . فإن كان صغيراً استناب عنه إلى أن يَصْلُح . ومن مات من أرباب الرواتب والصدقات ، أَقَرَّ ما كان باسمه باسم أولاده ـ رحمه الله تعالى .

وكان له شِعر رقيق جيد . فمن شِعره قولُه ، يتشوق إلى حلب :

سقَى حلبَ الشهباءَ فى كل لَزْبَةٍ[1] سحابةُ غَيْثٍ نَوْءُهَا ليس يُقْلِعُ
فتلك رُبُوعى ، لاالعَقِيقُ ولاالغَضَا وتلك ديارى ، لا زَرُودُ ولَعْلَعُ[2]

إلا أنه كان ضعيفَ الرأى ، شَغَلَتْه المَلاَذُّ والشِّعر والغَزَل وتلحينُ الأقوال عن النظر فى أمر دولته . فآل أَمْرُه إلى ما ذكرناه .

هذا ما كان من أمر الملك الناصر ـ على سبيل الاختصار .

وبقى بعد مقتله عند التتار صغارُ أولاده ، الذين أُسِرُوا من حلب ، زمناً طويلاً بعد أن هَلَكَ هولاكو . ومات بعضهم هناك . وبقى منهم ولدُه الصغير

(١) هكذا فى (ع) وفى النجوم الزاهرة . وفى « القاموس » : اللَّزْبَة : الشدة .

(٢) هذه كلها أسماء مواضع فى جزيرة العرب ، ترد فى الشعر الجاهلى ، أو القديم .

نجم الدين أيوب ، فحضَر إلى الشام ، ثم إلى الديار المصرية ، ورُتِّبَ له راتب من جهة المُلُوك ـ أُسْوَةَ أولادِ الملوك الأيوبية . وهو باقٍ إلى وقتنا هذا ، مقيم بالقاهرة المُعِزِّيَّة ـ حماها الله تعالى .

وأما الملك المغيث فتح الدين عمر ابن السلطان الملك العادل ، بن السلطان الملك الكامل ، بن السلطان الملك العادل بن أيوب ـ صاحبُ الكَرَك والشَّوْبَك

فإنه لما قَبَض الأمراءُ على والدِه ـ كما قَدَّمْنا ذكرَ ذلك ـ وملك عَمُّه الملكُ الصالح نجمُ الدين أيوب الديارَ المصرية ، مشى فى خِدمته مُدة . ثم رَأَى منه نَجابةً ونُبْلاً وشَهامة ، فأمر باعتقاله فى الدار القُطْبِيَّة[1] عند عَمَّةِ السلطان وعمة والد الملك المغيث ـ وهى ابنةُ السلطان الملك العادل ، أُخت الملك الكامل ـ رحمهم الله تعالى . فلم يَزَلْ عندها ، إلى أن مات الملك الصالحُ وملك ولدُه الملك المعظم تُورَانْشَاه . فأمر بإرساله إلى قلعة الشَّوْبَك ، واعتقاله بها . ونَدَب لذلك الأميرَ عز الدين الحِلِّى ، والأميرَ سيف الدين بَلَبان النَّجَاحى ، فتوجها به إلى الشَّوْبَك ، واعتقلاه بها ، وعادا إلى الديار المصرية .

---

(١) نسبة إلى : قطب الدين أحمد بن الملك العادل ، وهو أخو الكامل .

فما كان بأسرَع من أن قُتِلَ الملكُ المعظم تُورَانْشاه ـ كما ذكرْنا ـ فلما اتصل خبرُ مَقْتَلِه بابن رَسُول ، وشهاب الدين عُمَر بن صُعْلُوك ـ وكانا مُتَوَلِّيَيْ[1] أمر الشَّوْبَك ـ نَهَضَا وأخرجا الملكَ المغيثَ من الاعتقال ، ومَلَّكَاهُ وحَلَفَا له ، وحَلَّفَا مَنْ عِندهما ـ وكانوا نحو عشرة ـ وحَلَّفَاه بالوفاء لهم . فأرسل إليهما بدرُ الدين بدر الصَّوَابِى الخادِم ـ النائبُ بقلعة الكرك ـ وأَنْكَرَ عليهما إقدامَهما على هذا الأمر بغير إذنِه . فأرسلا إليه يَقولان : بكَ فَعَلْنَا ذلك . فأعاد عليهما الجواب : إذا كان كذلك ، فانقلاه إلى عندى .

فحَلَف للملكِ المُغيثِ وحَلَف الملكُ المُغيث له ، وتَوَثَّقَ كلٌّ منهما من صاحبه بأكِيد الأَيمَان . فانتقل الملكُ المغيث من الشَّوْبَك إلى الكَرَك ـ فى سنة تسع وأربعين وستمائة . وتسلَّمَ ما بها من الخزائن ، التى بقيت مما نَقَلَ إليها الملكُ الصالح نجم الدين أيوب ـ بعد ما أخَذَه الملكُ المُعَظَّمُ منها . فوَجَد بها تسعمائةَ ألف وتسعين ألف دينار عَيْناً . واستَمَرَّ بالكَرَك والشَّوْبَك ، ورُزِقَ بها أولادَه .

وراسل الملكَ الناصرَ صلاح الدين يوسف ـ صاحبَ دمشق وحلب ـ وأرسل إليه والدَه الملك العزيز : فخر الدين أبا المظفر عثمان ، برسالة . فأكرمه الملك الناصر وأَبَرَّه وقَرَّبَه ، وأجلسه فى مجلسه بالقُرْب منه . ورَتَّبَ له فى كل يوم ألف درهم ، وأربعمائة جِرَاية وأربعمائةَ عليقة ، رغير ذلك ، ونَقَّلَه فى مُسْتَنْزَهَات دمشق ، وأقام عنده نحو ثلاثة شهور . ثم رَكَّبَه الملكُ الناصر بشِعار السَّلْطَنة ، وأعاده إلى أبيه . وقد عامله بنهاية البِر وغاية الإكرام .

---

(١) فى (ع) وكانا متوليه

وكان للملك المغيث أخبارٌ ، يأتى ذكرها فى أثناء دولة الترك .

وبعث الملكُ المغيثُ ولدَه العزيز إلى هولاكو ، يلتمس له أمانا . وجهز معه شهابَ الدين بن صُعْلوك والنجيبَ خُزَاعة ـ وهما أعيان أصحابه .

فأخبرنى الملكُ العزيز أنه اجتمع بهولاكو بتُورِيز ، فأمره بالجلوس ، مع صِغَر سنه فى ذلك الوقت . فنظرت إليه الخاتُون ـ زوجة هولاكو ـ وسألته بتَرْجُمَان عن أُمِّه ، وهل هى باقيةٌ أم لا ؟ فقال : هى باقيةٌ عند أبى . فقالت للترجمان : قال له : تُحِبُّ أن أُرُدَّكَ إلى أبيك وأمك ، أو تقيم عندى ؟ قال : فأَعَدْتُ عليها : أنه لا أمْرَ لى فى هذا ، وإنما أبى أرسلنى إلى القان[1] يسأله الأمان لنفسه ولمَن عنده ، وأنا تحت أوامره . فنَهَضَتْ قائمةً وكلَّمَتْ هولاكو ، وشفَعَت . فأشار إليها ، فقالت : قد أعطاك القَانُ أَمَاناً لأبيك ، ودُسْتُورا[2] بالعَوْد ! .

قال : فضَرَبْتُ له جُوكاً ، ورَجَعْتُ مِن عِنده . وأَرْسَلَ معى مِن التتار من يوصلنى إلى الكَرَك ، ويكون بها شِحْنَه[3] . قال : فلما وصلتُ إلى دمشق نزلتُ بدار العَقِيقى ، ونزل التتارُ بمدرسة العادِلية . وكان كَتْبُغَا نُوِينْ قد توجه للقاء العساكر المصرية . فكانت الكَسْرَةُ على التتار ـ على ما نذكره .

قال : فاتصل الخبرُ بنا ، فتحَصَّنا بدار العَقِيقى[4] . فلما كان فى نصف الليل رجع التتارُ هاربين . فقصدوا أخْذِى معهم . فمانَعَ عنى مَنْ

---

(١) هو نفسه لفظ (الخان) .

(٢) أى إذنا ، أو تصريحا .

(٣) كان يراد بها فى ذلك العصر : حامية المدينة .

(٤) الشريف العَقِيقى ، وهو أحد العلويين ، تُوفى فى القرن الرابع . ومر ذكره . فالدار منسوبة إليه .

معى ، وأَعْجَلَهم الهَرَب عن حصار الدار ، فتركونى . قال : ولما جاء الأمير جمال الدين المُحَمَّدِى إلى دمشق ـ قبل وصول الملك المظفر قُطُزْ إليها ـ خرجتُ إليه وتلقيتُه ، وسلمتُ عليه . فسأل عنى ، فأُخْبِر أننى ابن الملك المغيث ، فعوَّقَنى إلى أن قَدِمَ السلطانُ الملك المظفر قُطُزْ . فأمر بإرسالى إلى قلعة الجَبَل .

فنُقِلَ إليها . فكان بها مُعَوَّقاً فى بُرْج ، عند الأمير سيف الدين بلَبَان النَّجاحى . إلى أن أعاده الملك الظاهِر بِيبَرْس إلى أبيه الملك المُغِيث ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى ، فى أخباره .

ولم يزل الملكُ المغيث بالكَرَك والشَّوْبَك ، إلى أن استولى الملكُ الظاهرُ على الشَّوْبَك ، لأربعٍ بقين من ذى الحجة ، سنة تسع وخمسين ، عندما جَرَّدَ إليها الأميرَ بدر الدين الأيدُمُرِى . وبقى بيدِ الملك المغيث الكَرَكُ وأعمالُها . ثم حصل الاتفاقُ بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْسْ والمِلِك المُغيث . وحَلَف السلطانُ الملك الظاهر له يميناً مُسْتَوْفَاة ، وأشهد عليه بما تضمنه مَكتوب الحِلْف .

وقد شاهَدْتُ المَكتوبَ . وهو بخط القاضى فخرِ الدين : إبراهيم بن لُقْمَان ـ صاحبِ ديوان الإنشاء . وما فيه من اسم السلطان بخَطِّ السلطان ، ومثاله : « بِيبَرْس » .

ونسخةُ هذه اليمين ـ على ما شاهدتُه ونقلتُ منه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

أقولُ وأنا بِيبَرْس . واللهِ واللهِ واللهِ ، وتا للهِ وتا للهِ وتا للهِ ، وبا لله وبا للهِ وبا للهِ ، العظيمِ الرحمن الرحيم ، الطالبِ الغالب الضار النافع ، عالِمِ الغيب والشهادة والسِّر والعَلاَنية ، القائم على كل نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ، والمُجَازِى لها بما احْتَسَبَتْ . وجلالِ الله وعظمةِ الله وكبرياء الله ، وسائرِ أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ـ إننى من وقتى هذا وساعتى هذه ، وما مَدَّ اللهُ فى عمرى ، قد أَخْلَصْتُ نِيَّتى وأَصْفَيْتُ سَرِيرَتى ، وأَجْمَلْتُ طَوِيَّتى ، فى موافقة المَوْلَى : الملكِ المغيثِ فتح الدين عُمَر ، بن السلطان الشهيدِ الملك العادل سيف الدين أبى بكر ، بن محمد ، بن أبى بكر بن أيوب ، ومُصَافَاتِه ومَوَدَّتِه .

لا أُضْمِرُ له سوءاً ولا غَدْراً ، ولا خَديعةً ولا مَكْراً لا فى نفسه ولا فى ماله ، ولا فى أولاده ، ولا فى مملكتِه ولا فى قلعتِه ، ولا فى بلادِه ، ولا فى أمرائه ، ولا فى أجناده ، ولا فى غلمانِه ، ولا فى مماليكِه ، ولا فى أَلْزَامِه ولا فى عُرْبانِه ، ولا فى رَعِيَّتِهِ ، ولا فيما يَتَعَلَّقُ به ويُنْسَبُ إليه ، من قليلٍ وكثير .

وإننى والله لا أُعارضُه ولا أُشاققه ، ولا آمرُ من يعارضه فى بلاده الجارية فى مملكته ، وهى : قلعةُ الكَرَك المحروسة ، وربَضُها وسائر عملها ، والغَوْرُ المعروف بِغَوْر زُغَر[1] ـ بكماله ، وحَدُّ ذلك من القِبلة الحَسَا ، ومن الشمال حد الموجب نصف القنطرة والمسيل ، ومن الشرق الثنيتين ، ومن الغرب السبخة المعروفة بأبى ضابط ، ومنتهى حد الغَوْر المذكور من القِبلة الكَثِيب الرمل المعروف بالدبة ، ومن الشمال الماء النازل من الموجب إلى البحيرة .

وإننى والله لا آمر ولا أُشيرُ ، ولا أكتب ، ولا آذن بصَريحٍ ولا بكِنَاية ، ولا بقَوْلٍ لأحد ، فى التعرض لبلاده المذكورة ، ولا السعى فيها بفساد . وإننى واللهِ متى حضر المَوْلَى الملكُ المغيثُ فتح الدين عُمَر المذكور إلى خِدمتى ، عند حُلُولى بالشام المَحْرُوس ، لمنازلة عَدُوٍّ يَطْرُقُ بلادى ، أو لعدو يطرُق بلادَه ، لا أتعرض إليه بأَذِيَّة ، ولا أَقْصِدُه بسوء فى نفسه ولا فى ما لِه ولا فى بلادِه ، ولا فى أُمَرَائِه ولا فى أَجناده ، ولا فى عُربانه ولا فى مماليكه ، ولا فى رعيته ، ولا فيمن يصلُ صُحْبَتَه من أصحابه .

---

(١) ضَبَطها ياقوت بوزن زُفَر ، وقال : « قرية بمشارف الشام . حدثنى الثقة أن زغر هذه فى طرف البحيرة المنتنة (البحر الميت) فى وادٍ هناك ، بينها وبين البيت المقدس ثلاثة أيام . وهى من ناحية الحجاز .

(معجم البلدان : جـ ٤ ـ ص ٣٩٣)

وذكر القلقشندى « عمل زُغَر » من أعمال الكَرَك ، وقال : « وهى مدينة قديمة متصلة بالبادية ، سميت بزُغَر بنت لوط عليه السلام (صبح الأعشى جـ ٤ ـ ١٥٧) وتحدث عن « بحيرة زغر » فقال : « وتعرف ببحيرة سدوم وبحيرة لوط . وهى بحيرة منتنة (يقصد بها البحر الميت) ليس بها سمك ، ولا يأوى إليها طير ، وفيها مصب نهر الأردن المسمى بالشريعة ، عند نهايته . وهى فى آخر الغَوْر من جهة الجنوب .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ـ ٨٣)

وإننى والله لا أطالبُه ، ولا أطالبُ أحداً من أمرائه وأجناده . وأصحابه ومماليكه ولا من غلمانه ، ولا من رعيته ولا من عُرْبانه ، ولا أحداً من سائر أصحابه ، بسببٍ مُتَقَدِّمٍ إلى تاريخ هذه اليمين المباركة . ولا أُمَكِّنُ أحداً من أمراء دولتى ، ولا من جُندها ، ولا من سائر مماليكى ، وأصحابى من الجماعة البَحْرِيَّة وغيرهم ، من مُطالبته ولا مطالبة أحد من أمرائه وأجناده ومماليكه ورعيته ، وسائر أصحابه ، أهل الكَرَك وغيرهم ، بسببٍ مُتَقَدِّمٍ عن تاريخ هذه اليمين المباركة ـ صامتٍ كان أو غيرَ صامِت ـ من قُماشٍ وأثاث ، وغير ذلك .

وإننى واللهِ ، لا أستخدمُ أحداً من أمراء المَوْلَى الملك المغيث : فتح الدين عُمَر المذكور ، ولا من أجناده ولا من أجناد أمرائه ، ولا من مماليكه ولا من مماليك أمرائه ، ولا من عُربانه ولا من غلمانه ، إلا من انفصل عنه بدُسْتُور . ومتى تَسَحَّبَ أحدٌ من أمرائه أو أجناده ، أو أجناد أمرائه أو مماليكه ، أو مماليك أمرائه أو غلمانه أو عربه ، أو غير ذلك من أصحابه وفلاحى بلاده ، وحضَر إلى بلادى أو إلى مملكة من ممالكى . والتَمَس عَوْدَه إليه ـ تَقَدَّمْتُ بإعادته إليه ، بجَهْدِى وطاقتى .

وإننى واللهِ متى قصد بلادَ المولى الملك المغيث فتح للدين عمر المذكور عَدُوٌّ ـ مسلماً كان أو كافراً ـ أَعَنْتُه على دَفْعِه وزجره ورَدْعِه ، جَهْدِى وطاقتى . وإننى واللهِ ، متى تعرض أحدٌ من عرب بلادى إلى بلاد المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور ، أو إلى جهةٍ من جهات مملكته . أو إلى أحد من رعيته أو أحد من سائر أصحابه ، أو سعى بفساد فيما يتعلق بمملكته . واطَّلَعْتُ عليه ـ تَقَدَّمْتُ بزجره وردعه عن ذلك . وفعلْتُ فى أمره ما تقتضيه السِّياسة .

وإنني واللهِ ـ أفي للمَوْلَى الملكِ المغيثِ : فتح الدين عمر ، بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر ، بن الملك الكامل محمد ، بن أبي بكر بن أيوب ـ بهذه اليمين من أولها إلى آخرها ، ما دام وافياً لي باليمين التي يُحَلِّفُه بها نائبي ، لا أنقُضُها ولا شيئاً منها ، ولا أستثني فيها ولا في شيء منها ، ولا أستفتي فيها ولا في شيء منها ، طلباً لنقضِها أو نَقْضِ شيء منها . ومتى نَقَضْتُها أو نَقَضْتُها فيها أو في شيء منها ، طلباً لنقضِها أو نقضِ شيء منها ، فكُلُّ ما أملِكه من صامتٍ وناطق ـ صَدَقَةٌ على الفقراء والمساكين من المسلمين . وكُلُّ مملوكٍ أو أَمَةٍ في مُلْكي ، أو أتملكها فيما بَقِي من عمري ، حُرٌّ من أحرار المسلمين . وعَلَيَّ أن أفُكَّ عشرةَ آلاف رَقَبَة مُؤمِنَة من أيدي الكُفار ، إن خالَفْتُ هذه اليمين أو شيئاً منها .

وهذه اليمينُ يميني ، وأنا بِيبَرْس . والنِّيَّةُ فيها بأسْرِها نِيَّةُ المَوْلَى الملكِ المغيث فتح الدين عمر ، بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر ، بن الملك الكامل ناصر الدين محمد ، بن أبي بكر ، بن أيوب ، ونِيَّةُ مُسْتَحْلِفي له بها ـ أُشْهِدُ اللهَ عَلَيَّ بذلك ، وكَفَى به شَهِيدا . فمَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسه ، ومَنْ أَوْفَى بما عاهَدَ عليهُ اللهَ فسَيُؤْتِيه أَجْراً عَظِيما .

وشَهِدَ على السلطان الملِك الظاهرِ ، بهذه اليمين ، من نَذْكُرُهُمْ وهم : الأتابِك فارس الدين أقطاي ، والأمير الجَيبي ، وقَلاوون الألفي ، وعز الدين أَزْدُمَر[1] ، وأَيْدُمَر الحِلِّي ، وبَيْبَرْس الشَّمْسي ، وبيليك

(١) في (ع) : وأولاد مر .

الشرندار ، وأيبك الأفرم ، وكاتبُ اليمين إبراهيم بن لُقْمان بن أحمد . وهى مُؤرَّخَةٌ فى الثالث والعشرين من المحرم ، سنة ستين وستمائة . وشَهِدَ على السلطان اثنان ممن حضَر من الكَرَك ، وهما : أَمْجَد الكَرَكى ـ وهو كاتبُ الملك المغيث ـ وكان قد أَمَّرَهُ ، وآخرُ لم أُحَقِّق اسْمَه عند قراءته .

وبآخر رَسْمِ خط الشهود خط المُسْتَحْلِف . وصورته :

أَحْلَفْتُ مولانا السلطانَ الكبير ، العالِمَ المجاهد ، المرابِط المؤيّد المنصور ، الملكَ الظاهر أبا الفَتْح بِيَبْرْس بن عبد الله ، الصالِحى ، أعزَّ الله سلطانه ـ بهذه اليمين المبارَكة من أولها إلى آخرها ، على الوجه المشروح فيها ، تاريخ الثالث والعشرين من المحرم ، سنة ستين وستمائة ـ أحسن الله تَقَضِّيها . وكَتَبَهُ خُزاعة بن عبد الرَّزَّاق بن على ـ حامِداً لله تعالى ومُصَلِّياً .

وجهز السلطانُ الملكُ الظاهر للملكِ المغيث ولدَه الملكَ العزيز فخر الدين عثمان ـ وكان مُعتقَلا بالقلعة من الأيام المُظَفَّرِيَّة ، كما قدمنا ـ فأَطْلَقَه السلطان الآن ، وأَقْطَعَه ذِيبَان[1] بمنشور ، ثم سيَّرَ إليه السلطانُ بعد ذلك صَنْجَقاً وشِعَارَ السلطنة . فقبَّلَ الملك المغيث عَقِبَ الصَّنْجَق ، ورَكِبَ بِشعار السلطنة .

وظن الملكُ المغيثُ أن الصلح قد انتظم بمُقْتَضَى هذه اليمين ، فَرَكَنَ إلى ذلك . ثم جَهَّزَ والدتَه فى سنة إحدى وستين وستمائة إلى الملك الظاهِر . فوجدها السلطان بغَزَّة ، فأنعم عليها إنعاماً كبيراً ، وعلى من معها . وأَجْرَى معها الحديثَ فى وصول الملك المغيث إليه ، لينتظم الصلح شِفَاهاً ، وتتأكدَ

(١) (بكسر أوله وسكون ثانية) : بلد بالأردن مما يلى البلقاء .

(معجم البلدان : جـ ٤ ـ ١٩١)

أسبابُه . وأعاد عليها العطاء ثانياً ، وجَهَّزَها إلى الكَرَك . وجهز فى خدمتها الأمير شرف الدين الجَاكى المَهْمَنْدَار[١] ، لتجهيز الإقَامات للملِك المغيث .

فاغتَرَّ الملكُ المغيث بذلك . واستَخْلَفَ ابنَه الملك العزيز فخر الدين بالكَرَك ، واستَحلَفَ له من تَرَكَه بقلعة الكَرَك ، وترك عنده بقيةَ أولاده ـ إخوة الملك العزيز ـ وكان له سبعة أولاد ذكور ، أَسَنُّهُم الملك العزيز فخر الدين عثمان . ووُلد له بعد قبضه ابنان . وكان الملك العزيز ، يوم ذاك ، صغيرَ السن ، فإن مولده ـ كما أخبرنى به ـ فى الأول من يوم الإثنين ثالث شوال ، سنة اثنتين وخمسين وستمائة .

وفارق الملكُ المغيث الكَرَك ، وتوجه إلى السلطان الملك الظاهر ، وهو بمنزلة الطُّور . فلما بلغ السلطانَ وصولُ الملك المغيث إلى بَيْسَان ، ركب إليه وتلقاه ، وساقاَ جميعا إلى مَنْزِلة السلطان . فلما وصلَ الملك المغيث إلى باب الدِّهْلِيز ، تَرَجَّلَ ودخل إلى الخَيْمة . فأُدْخِل على خَرْكَاه[٢] ، وقُبِضَ عليه وعلى مَن معه ـ وذلك فى يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى ، سنة إحدى وستين وستمائة . وأظهر السلطان لقبضه سبَباً ، نَذْكُرُه فى أخبار السلطان الملك الظاهر ـ إن شاء الله تعالى ـ تَقِفُ عليه بعد هذا .

---

(١) كانت وظيفة المهمندار تلقى الضيوف والإشراف على إجراءات الاحتفاء بهم .

(٢) لفظ فارسى معناه : الخيمة ـ كما ذكرنا من قبل .

ولَمَّا قَبَضَ عليه ، جَهَّزَه فى تلك الليلة إلى قَلْعة الجَبَل ـ صُحْبَة الأمير شمس الدين آقسُنْقُر الفَارِقَانِىّ . ولما وَصل إلى قلعة الجبل ، أُدْخِل البرجَ الذى كان به ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان ، فقال للأمير سيف الدين بَلَبان النَّجَاحِى ـ مُتَوَلِّى قلعة الجبل ـ : فى هذا البُرْجِ كان ولدى عثمان ؟ قال : نعم .

ولم يستقرَّ بذلك البُرْج ، بل نُقِل منه فى يومه ، وأُدْخِل إلى قاعة من قاعات الدور السلطانية ، فقُتِل من يومه . وكان آخرَ العهد به .

وتولى ذلك الأميرُ عز الدين أَيْدُمَر الحِلِّى ـ نائب السلطنة ـ بالغيبة . واستُدِلَّ على قتله أن بعضَ الخُدام حَكَى ، فقال : لما أُدخل الملك المغيث إلى القاعة ، طُلِب له طعام من الآدُر[1] السلطانية ـ قال الخادم : فتوجهتُ لإحضار الطعام ، فأتيتُ به على رأس خادم آخر ، فوجدت الأمير عز الدين قد خَرَج من القاعَة ، وأَغْلَقَ الباب ! فقلت : قد حضَر الطعام . فقال : بعد أن أَغْلَقْنَا البابَ لا نَفتحُه فى هذه الليلة . فرجعتُ بالطعام . ولم يُفْتَح ذلك الباب ، إلى ثلاثة أشهر أو نحوها .

وكان مَوْلِد الملك المغيث ـ رحمه الله تعالى ـ بمَنْزِلة العَبَّاسَة[2] فى شهر ربيع الأول ، سنة أربع وثلاثين وستمائة .

---

(١) جمع « دار » . هو أحد جموعها . كما جاء فى القاموس المحيط ، مادة « دار » . ويظهر أن أصل الجمع « أَدْوُر » ثم حصل قلب وصارت « أَأْدُر » ثم « آدُر » .

(٢) سبق تحديد موضعها ، وكانت أول منزلة يلقاها القادم إلى مصر من الشام ، إلى الشرق من بلبيس .

ولما قُبِضَ عليهم ، جهز الملكُ الظاهر ، إلى الكَرَك ، الأميرَ بدر الدين بَيْسَرى ، والأمير أيْدُمَر الظاهِرى ، وكتب إلى مَن بها يَعِدُهم الإحسان . ثم توجه بنفسه إليها ، وتَسَلَّمَها على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى ، فى أخباره . وأنْعَمَ على ولده : الملكِ العزيز فخر الدين عثمان بإمْرَةِ مائة فارس . ورتَّبَ لإخوته وأهِله الرواتب . ثم قَبَضَ عليه ، بعد ذلك ، واعتَقَلَه ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وأما الملك المُوَحِّد تقىّ الدين عبدالله ابن الملك المعظم تُورَانْشَاه ، بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ابن الملك الكامل ناصرالدين محمد ، بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ـ صاحب حصن كيفا ونَصِيبين وأعمالها

فإن والده الملكَ المعظم كان قد تركه بحصن كَيْفا ، عند قدومه إلى الديار المصرية ، وهو دون البلوغ . فاستمر بالحِصن بعد مقتل والده ، ودَبَّرَ أَمْرَ دولته خادِمَا أبيه : افتخار الدين ياقوت ، وجمال الدين طُقُزْ . فلم تَزَلْ هذه المملكة بيده ، إلى أن استولى هولاكو على البلاد .

فلما قارب بلادَ الملك الموحد خرج إليه بأمان وتلقاه ، وقدم له أشياء مما كان عنده من التُّحَف ونفائس الذخائر ، فأقَرَّهُ على عمله . ولم يتعرض لحِصن كيفا ، ولا هَرَاق به دما . وقرر عليه قَطِيعَةً فى كل سنة أحد عشر ألف دينار ثمنها[1] ستة وستين ألف درهم . ثم خرجت نَصِيبين عنه . وذلك أن صاحب ماردِين : الملك المظفر ، بن الملك السعيد بن أُرْتُق ـ ضَمِنَها من التتار ، وأضافها إلى مملكته .

ثم نَقَل أَبَغَا بن هولاكو ـ فى أول دولته ـ المِلِكَ المُوَحِّدَ إلى الأَرْدُوَا[2] ، وأخلى قلعة حِصن كَيْفا ، وخَرَّبَها .

وسببُ ذلك أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، لما ملك الديار المصرية وما معها ، خَشِى عاقبة الملك الموحد ، وأنه من البيت الأيوبى ، ومُلْكُ الديار المصرية لأبيه وجده ، وجدِّ أبيه وجد جده . فأمر بمكاتبته ومكاتبة خادِمَيْه ـ عن جماعة من الأمراء الصالِحية ـ يستدعون الملك المُوَحِّد إليهم ، لِيُمَلِّكُوه مُلْكَ آبائه . ووصلت الكتبُ بذلك إليهم ، فمالت نفوسُ الخُدَّام إلى ذلك ورغبوا فيه ، ولم يَخْشَوْا عاقبةَ المَكايِد .

(١) تبدو فى (ع) كأنها : « عنها » ، ولكن المعنى لا يستقيم ، فرجحنا قراءتها « ثمنها » أى قيمة تحويل العملة . فيمكن أن يدفعوا بالدينار أو بالدرهم .

(٢) لفظ مغولى معناه المعسكر . وقد استعمل فى المراجع العربية أو الفارسية فى هذا العصر ، للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس .

فحَمَلَهم حُبُّ ذلك على أن أجابوا الأمراء عن كتبهم : أنهم يصلون إليهم بالملك الموحد . وأخَذَ القُصَّادُ[١] الكتب ورجعوا ، فظفِر بهم مُقَدَّم التتار . فأرسل الكتبَ إلى أَبَغَا ، فأحضره ، وأحضر الخادِمَيْن ، وقتلهما . وأقره بالأَرْدُوَا مدة سبع سنين ـ هذا ، ونائبه مقيم بحصن كيفا . ثم أطلقه وأعاده إلى الحصن . فكان به إلى أن تُوفى . وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ ضحى يوم الأحد ، النصف من شهر ربيع الآخر ، سنة اثنتين وثمانين وستمائة .

وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة عشر ، وهم : الأمير سيف الدين أبوبكر شادِى الكبير ، وعلاء الدين على الكبير ، ومغُلْطَاى ـ وإنما سُمِّى بذلك ، لأنه وُلد بالأَرْدُوَا[٢] ، فأَمَرَتْ قولى[٣] خاتُون ، زوجة هولاكو ، أن يُسَمَّى بذلك . وأَرْسَلاَن ، ويوسف ، وزكرى ، وعثمان ، وخليل ، وعلى الأصغر ، وإبراهيم شقيقه ، وأبوبكر الأصغر ـ وهو ابن أخت ناصر الدين يحيى ، بن جلال الدين الحيتى ، أحد مُقَدَّمى التتار . ونجم الدين أيوب ، وحسن . ومات من أولاده ـ قبل وفاته ـ الملك المعظم محمد ـ مات قبل والده بسبعة أيام . واللَّمَسن ـ وهو شقيق أرسلان .

ولما مات الملك المُوَحِّد ، ملك حصن كَيفا بعده ولدُه : الملك الكامل سيف الدين أبوبكر شادِى ـ بتقرير التتار . فاستمر إلى شهر رجب ، سنة تسع وتسعين وستمائة . ثم قتله قَازَان ، ملك التتار . وسبب ذلك أن بعض إخوته شكَوْه له ، وذكروا أنه قَتَل بعضهم .

---

(١) الرسل الموفدون .

(٢) معسكر المغول ، كما مر ذكره .

(٣) غير ظاهرة فى (ع) .

وملك بعده الملكُ العادل سيف الدين أبو بكر الأصغر ، مَلَّكه قازان . رِعَايةً لحق أخواله . فملك أربعة أشهر ، وقُتِل بمَنْزِلَة المَيْدان ـ بقرب إرْبِل ـ قتله الأكراد ، هو وأخوه أرسلان ـ وكانا نازليْن بتلك المنزِلة مع جماعة من التتار ، كَبَسَهُم الأكراد الشَّهْرِيَّة [1] بها .

وملك بعده أخوه الملك المعظم ، حسام الدين خليل ـ أربعة أشهر ـ فعَسَف وظَلَم فنازعه فى المملكة ابنُ أخيه الملك الصالح صلاح الدين يوسف ، بن الملك الكامل سيف الدين أبى بكر ، بن الملك المُوَحِّد ، وشكاه إلى التتار ، فسُلِّمَ إليه عَمُّه الملك المعظم ، فخَنَقَه .

واستقر الملكُ الصالح هذا فى المملكة بحِصن كَيْفا ، خمس سنين . ثم نازعه (عَمُّه) [2] حَسَن ، وتوجه إلى التتار فَملَّكُوه الحصن . ولُقِّبَ الملكَ الظاهر بدرَ الدين حسن ، وأرسلوا معه عسكرا ، فهَرَب ابنُ أخيه أمامه . وأقام بالحصن سنة .

ولحق الملكُ الصالح بالشيخ الشرف ، بن الشيخ عَدِىّ الهَكَّارِى ، بجبل هَكَّار [3] ، وأقام سنة . ثم جمع جمْعاً كثيراً من الأكراد ، وعاد إلى الحصن ، عند خلو البلاد من التتار ، وحاصر عمَّه الملك الظاهر حسن ، مدة أربعة أشهر . فوافقه أهلُ القلعة وسلموه إليه ، فقتَله ، وعاد إلى مملكته . وأرسل إلى التتار وأرضاهم ، فأقروه . فهو إلى وقتنا هذا .

---

(١) أى الشهرزورية . نسبة إلى شهرزور . سبق ذكرهم .

(٢) الزيادة من النسخة (غ) .

(٣) بلاد الهكَّارية فوق الموصل ، وأهلها أكراد ـ كما جاء فى ياقوت

أخبرَنى بذلك المَوْلَى الأمير علاء الدين على ، بن الملك المُوَحَّد ـ وهو على الأصغر ، المُقَدَّم الذكر ـ وهو يوم ذاك بالقاهرة المُعِزِّيَّة .

وكان قد فارق الحصنَ ، لَمَّا حصل من ابن أخيه هذا : من قَتْلِ إخوته أولادِ الملك المُوَحَّد . ووصل إلى الديار المصرية ، فى أوائل سنة ثلاث وسبعمائة ، واستقر بها . وأقطعه السلطان الملكُ الناصرُ إقطاعاً متميزاً ، بحَلْقَتِها . وأخبرنى أنه لم يبق من أولاد الملك المُوَحَّد ـ لصُلْبِه ـ سواه . وأن بقية من ذَكَرْنَاهم أفناهم الموتُ والقتل .

وذلك فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة .

وأما الملك الكامل ناصرالدين محمد
ابن الملك المظفر شهاب الدين غازى
ابن الملك العادل : سيف الدين أبى بكر بن أيوب
صاحب ميَّافَارِقِين

فإنه لم يَزَلْ بها ، إلى أن ملك التتار البلاد . فندب هولاكو صَرْطَق نُوِينْ ، وقَطْغَان نُوِينْ[1] لمحاصرته بميَّافَارِقِين ، بطائفةٍ كثيرة من التتار . فحاصروه مدة سنتين ، حتى قَلَّت الأَقْوَاتُ عندهم ، وأكلوا الكلابَ والسَّنَانِير والمَيْتَة . ففتحها التتار بعد أن فَنِىَ من عنده من الجند من القتال ـ وذلك فى سنة ثمان وخمسين وستمائة . وأُسِرَ الملكُ الكامل ، وتسعة نفر من مماليكه ، وأُحضِروا بين يدى هولاكو ، فقُتِلوا ، إلا مملوكاً واحداً ـ كما تقدم فى أخبار هولاكو

(١) قائدان من قواد التتار .

وكان الملك الكامل هذا ـ رحمه الله تعالى ـ ملِكا حازماً كريماً ، كثير الزُّهْد والوَرع . ولما قُتِل ـ رحمه الله ـ حمل التتارُ رأسَه على رُمْحٍ ، وطِيفَ به البلاد . ومرُّوا به على حلب وحَماه وأتَوْا به إلى دمشق ـ فى سابع عشر جمادى الأولى من السنة ـ وطافوا به دمشق ، وأمام الرأس المَغَانى والطُّبول ! وعُلِّقَ رأسُه بباب الفَرَادِيس ، إلى أن دخل الملك المظفر قُطُزْ إلى دمشق ـ بعد هزيمة التتار ـ فأُنْزِل الرأس ، ودُفِن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس

فقال الشيخ شهاب الدين أبوشَامَه[1] فى ذلك ، من أبيات :

ابنُ غَازِى غَزَا وجاهَدَ قَوْماً أثْخَنُوا[2] فى العِراق والمَشْرِقَيْن
طَاهِراً عَالِياً ، وماتَ شَهِيداً بعد صَبْرٍ عليهم عامَيْن
لم يَشِنْهُ إذْ طِيفَ بالرأس منه ولـه أُسْوَةٌ برأسِ الحُسَيْن
ثم وارَوْا بمَشْهَد الرأس ذاك الرأ سَ ، فاستَعْجِبُوا من الحالَتَيْن

(١) فى (ع) « ابن أبى شامة » وهو خطأ لأن القائل هو أبو شامه نفسه . كما صَرَّح بذلك فى كتابه « الذيل على الروضتين »

(٢) أى أكثرو القتل

وأما الملك المنصور ناصرالدين محمد
ابن الملك المظفر تقى الدين محمود ، بن
الملك المنصور أبى عبدالله محمد ، بن الملك
المظفر تقى الدين أبى سعيد عمر ، بن شاهنشاه بن أيوب
صاحب حَمَاه

فإنه كان قد ملك حَماه بعد وفاة والده ـ فى ثامن جمادى الأولى ، سنة اثنتين وأربعين وستمائة . فاستمر فى مُلْكِ حَماه ، وطالت مدتُه . وكان يتردد إلى الديار المصرية فى الأيام الظاهِرية والمنصورية ، وهم يُعَظِّمُونه . وهداياه وتَقَادِمُه تَصِل إلى الملوك . وهو يَشْهَدُ معهم الحروب والوقائع ، بعسكر حَمَاه .

وما زال كذلك ، إلى أن تُوفى فى شوال ، سنة ثلاث وثمانين وستمائة . ومولده فى الساعة الخامسة من يوم الخميس ، لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول ، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

ولما تُوفى ، رَتَّبَ السلطانُ الملكُ المنصورُ سيفُ الدين قَلاَوون فى مُلْكِ حَماه ولدَه : الملكَ المظفَر تقىَّ الدين محمود بن محمد . وكوتب من ديوان الإنشاء بما كان يُكَاتَبُ به والده . وحُمِلَتْ إليه وإلى أهله وإلى أهل بيته الخِلَع والتشاريف السلطانية واستقر فى ملك حماه إلى أن توفى فى يوم الخميس ، الحادى والعشرين من ذى القعدة ، سنة ثمان وتسعين وستمائة ،

ودفن ليلة الجمعة . وكان مولده فى الساعة العاشرة من ليلة الأحد ، خامس عشر المحرم ، سنة سبع وخمسين وستمائة .

واستقرت المملكة الحَمَوِيَّة بعد وفاته فى يد نُوَّابِ ملوك مصر . وكان أولَ من وليها من النواب : الأميرُ شمس الدين قَرَا سُنْقُر المَنْصُورِى ، نُقِلَ من الصُّبَيْبَة إليها . ثم نُقِلَ منها إلى نيابة حلب ، فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، بعد وَقْعَة قَازَان[1] . وفُوِّضَتْ نيابة السلطنة بحَماه إلى الملك العادل زين الدين كَتْبُغَا المنصورى ـ وكان قبل ذلك بصَرْخَد ـ فلم يَزَلْ بها إلى أن مات ، فى سنة اثنتين وسبعمائة . فَوَلِيَها الأميرُ سيف الدين قَبْجَاق المنصورى ، فكان بها إلى أول الدولة الناصرية الثانية . ونُقِلَ منها ، فى سنة تسع وسبعمائة ، إلى نيابة المملكة الحلبية . وفُوِّضَتْ نيابةُ السَّلْطَنة بحَماه للأمير سيف الدين أَسَنْدُمُرْ كُرْجِى[2]

فكان بها ، إلى أن فَوَّضَ السلطانُ ـ الملك الناصرُ ـ نِيابَة المملكة الحَمَوِيَّة إلى الأمير عماد الدين إسماعيل ، بن الملك الأفضل نور الدين على ، ابن الملك المظفر محمود ، بن الملك المنصور محمد ، بن الملك المظفر تَقِىّ الدين عُمَرَ ، بن شاهانشاه بن أيوب ، فى سنة عشرٍ وسبعمائة

---

(١) هو إيلخان المغول فى فارس ، ويقال له أيضاً : غازان .

(٢) ضبطه فى « النجوم الزاهرة » : جـ ٨ ـ ص ١٥٧ هكذا : أَسَنْدَمُرْ كُرْجِى ، وقال : « هو أسندمر بن عبدالله الكرجى ، الأمير سيف الدين ، نائب طرابلس » .

فاستمر فى نيابة السلطنة مدة ثم كوتب بعد ذلك من ديوان الإنشاء بالمقام العالى المَلَكى العِمَادِى ولم يَزَلْ كذلك ، إلى أن فَوَّضَ السلطانُ الملك الناصر إليه سلطنة حمَاه ، ولقبه بالملك المُؤَيَّد . ورَكِبَ بالقاهرة المحروسة بشِعار السلطنة ، وذلك فى يوم الخميس سابع عشر المحرم ، سنة عشرين وسبعمائة ـ على ما نذكره ذلك ، إن شاء الله تعالى ، فى أخبار الدولة الناصرية . وهو باق إلى وقتنا هذا . ويَصِلُ فى كل سنة إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية بالتقادِم والتُّحَف ، ويَحْصُلُ له الإنعام السلطانى ، والتشاريف ، وغير ذلك .

وملوكُ حَماه ـ وإن لُقِّبوا بألقابِ الملوك ، وخُوطبوا وكُوتِبوا بما يُخاطَبَ ويُكاتَب به الملوك ـ فلا تُعَدُّ أيامُهم من جُمْلَةِ الدولة الأيوبية . لأنهم فى الخِدمة السلطانية على رَسْمِ النُّوَّاب . وإنما أَوْرَدْنا ما ذكرناه من أخبارهم ، لِتُعْلَم .

وأما الملك الأشرف مظفر الدين موسى
ابن الملك المنصور إبراهيم ، بن الملك المجاهِد أسد الدين شِيركوه
ابن الأمير ناصرالدين محمد ، بن الملك المنصور أسدالدين شِيركوه
ابنْ شادِى ..
صاحب تَلّ باشِر والرَّحبَة

فقد ذكرنا أنه كان بيده حِمْص وتَدْمُر والرَّحْبَة[1] ، إلى أن استولى الملكُ الناصر ـ صاحبُ حلب ـ على حِمص ، فى سنة ست وأربعين وستمائة ، وعَوَّضَه عنها تَلَّ باشِر[2] . فلم يَزَلْ بها إلى أن استولى هولاكو على حلب ـ كما ذكرنا فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ـ فحضَر إليه ، فأكرمه هولاكو ، وأعاد عليه حمص ، وفَوَّضَ إليه نيابة السلطنة بالشام والسواحل .

فلما هَزَمَ الملكُ المظفر سيف الدين قُطُزْ التتارَ على عَيْنِ جَالُوت . وَوَصَل إلى دمشق ـ أَقَرَّه على حِمص والرحبة وتدمر . وأقر الملكُ الظاهرُ ـ بعده ـ ذلك بيده ، إلى أن تُوفى فى حادى عشر صفر ، سنة اثنتين وستين وستمائة .

ولم يكن له عَقِبٌ ، فاستقرَّ ما كان بيده فى يد نُوَّاب السلطنة ، إلى وقتنا هذا . ولبعضِ من ذكَرْنا أخبارَهم فى هذا الوضع ، أخبارٌ ووقائع مع الملوك ، يأتى ذكرُها فى أخبار ملوك الديار المصرية ـ على ما تَقِفُ على ذلك ، إن شاء الله تعالى ، فى مواضعه . وإنما ذكرناهم فى هذا الموضع ، لتكون أخبارهم مُجْتَمِعَة ، على سبيل الاختصار .

---

(١) تقدم ذكر هذه الأماكن . فتدمر : مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام . والرحبة على شاطىء الفرات الغربى جنوبى قرقيسياء (وهى رحبة مالك) .

(٢) سبق ذكره ، وهو قلعة وكورة شمالىّ حلب .

[إنتهاء الدولة الأيوبية][1]

وكانت هذه الدولةُ الأيوبية بالديار المصرية ـ منذ وَلِىَ الملكُ المنصورُ أسدُ الدين شِيركُوه وِزارةَ العاضِد لدين الله العُبَيْدِى ، ولَقَّبَه بالملِك المنصور أمير الجيوش ، فى سابع عشر شهر ربيع الآخر ، سنة أربع وستين وخمسمائة ، إلى أن مَلَكَ السلطانُ الملكُ المُعِزُّ عزُّ الدين أَيْبَك التُّرْكُمَانى الصالِحى ، فى التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر . سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة ـ أربعاً وثمانين سنة ، وأربعةَ أشهر ، واثنى عشر يوماً ـ وإلى أن استولى هولاكو على الشام ، وهَرَبَ الملكُ الناصرُ ، صاحب الشام وحلب ، فى النصف من صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة ، ثَلاثاً وتسعين سنة ، وعشرة أشهر ، تقريباً .

هذا ما أمكن إيرادُه من أخبار هذه الدولة الأيوبية ، على سبيل الاختصار . فلْنَذْكُرْ أخبارَ دولة التُّرْك ، وهى فَرعُ الدولة الأيوبية .

---

(١) هذا العنوان ليس فى (ع) ، فوضعناه للتوضيح .

ذكر أخبار دولة التُّرك[١]
وابتداء أمر ملوكها ، وما ملكوه من الممالك والحصون والأقاليم والثغور والأعمال ، وما افتتحوه ، وغير ذلك من أخبارهم

كان ابتداءُ هذه الدولة بالديار المصرية . ثم انتشرت بالبلاد الشامية ، ثم امتدت إلى الممالك الحلَبية والفُراتية . ثم استولت على الثُّغُور والقِلاع والحصون الساحلية . واستَنْقَذَتْ حصونَ الدَّعْوةِ من أيدى الإسماعيلية[٢] . وبلغت المملكةَ الرومية . ودانت لها الأقطارُ اليمانية والحِجازية .

وانتمت إليها الطوائف القَرَمَانية[٣] . ورَغِبَ فى مُسالمتها الملوكُ الجَنْكِزْخَانِيَّة . ونَفَذَتْ أوامرُها واتَّصَلَتْ أحكامُها ببلاد إفريقية وما يليها ، والتَّكْرُور[٤] وما يُدانيها . ودَخَل فى طاعتها وعَقْدِ ذِمَّتِها من بإقليم النُّوبَة ، من بلاد الدَّوّ[٥] ، المجاور لثغر أُسوان ، إلى بلاد الكَرْسَى والعُرْيان[٦] ، وهو آخر العَمَل بالقرب من مجرى نهر النيل . على ما نورِد ذلك ، إن شاء الله تعالى ، ونُوَضِّحه ونُبيِّنه ونَشرحه .

---

(١) هى الدولة التى تُسمى الآن فى كتب التاريخ « دولة المماليك » . ولكن الأول : « دولة الترك » هو الاسم التاريخى الذى كانت تعرف به الدولة فى عصرها ـ كما نقرأ فى هذا المتن وفى المراجع الأخرى . والأولى تسمية الدول بأسمائها التاريخية .

(٢) وهم الشيعة « الباطنية » .

(٣) من الطوائف التركية .

(٤) التكرور : بلاد تنسب إلى قبيل من السودان ، فى أقصى جنوب المغرب .

(ياقوت : جـ ٢ ـ ٣٩٩) وهى ـ الآن ـ فى دولة « مالى »

(٥) فيها قلعة « الدو » بالقرب من أسوان . (انظر : سلوك ـ زيادة . جـ ١ ق ٢ ـ ٦٢٢ حاشية ٦)

(٦) هكذا ضُبطت هذه الأسماء بالقلم فى (ع) . ويظهر أن المراد بها جنوب السودان .

ولْنَبْدَأْ بذكر أخبارهم ، وسبب الاستيلاء عليهم .

ذكر أخبار الأتراك وابتداء أمرهم
وكيف كان سبب الاستيلاء عليهم ، واتصالهم بملوك
الإسلام . ومن استكثر منهم ، وتَغَالِىَ فى اتباعهم
وقَدَّمَهم على العساكر

قد ذكرنا فى أخبار الدولة العَبَّاسِيَّة من اتصل منهم بالخلفاء ، وتقدم على العساكر ، وعلا قدرُه وطار اسمُه . وذكرنا أيضاً فى أخبار الدولة العُبَيْدِيَّة ـ فى أيام المستنصِر بالله ـ ما كان من أمرهم ، وقيامهم ، ومحاربتِهم ناصرَ الدولة بن حَمْدَان ـ تارةً ، ومعه أُخْرى .

ثم ذكرنا أن الملكَ الناصر ـ صلاحَ الدين يوسف بن أيوب ـ كان ممن اهتَمَّ بتحصيلهم ، وأخوه الملك العادل ، ثم ابنه الملك الكامل . وكانوا إذ ذاك لا يَجْلُبُهم التُّجَّار إلا خُفْيَةً ، ولا يقدرون على تحصيلهم إلا سَرِقة ، لأن حِمَاهُم كان مَصونا من التَّجَاهُرِ ببَيْعِهم ، أو التطرقِ إليهم .

وأما السببُ الموجِب للاستيلاء عليهم ، وبيعِهم فى الأمصار ـ فهو أنه لما ظهر جَنْكِزْخَان التمرجى ، مَلِكُ التتار ، واستولى على البلاد الشرقية

والشمالية ، وبَثَّ عساكرَه فى البلاد ، فانتهوا إلى بلاد القَفْجَاق واللاَّن[١] ، وأوْقَعوا بهم ـ على ما قَدَّمْنَا ذِكْرَه ، فى أخبار الدولة الجَنْكِزْخَانِيَّة ـ فبيعت ذرارى التُّرْك والقَفْجَاق ، وجَلَبَها التجارُ إلىْ الأمصار .

ثم رَجَعَتْ عنهم هذه الطائفةُ الذين ندبهم جَنْكِزْخَان إليهم ، فى سنة ست عشرة وستمائة ـ وهم التتار المُغَرَّبَة[٢] ـ وعادوا إلى مَلِكِهم جَنْكِزْخَان .

واستقرت طوائفُ الأتراك بأماكنهم من البلاد الشمالية . وهم أصحاب عَمُود[٣] ، لا يسكُنون دارا ، ولا يستوطنون جدارا ، بل يُصَيِّفُون فى أرض ويُشَتُّون بأخرى . وهم قبائل كثيرة فمن قبائلهم ما أورده الأميرُ ركن الدين بِيبَرْس ، الدَّوَادَارِى المنصورى ، نائب السلطنة الشريفة كان ـ أَحْسَنَ اللهُ عُقْباه ، وقد فَعَل ، وعَامَلَه بألْطَافِه فيما بَقِىَ من الأَجَل ـ فى تاريخه[٤] : قبيلة طَقْصَبَا . وتِيبَا . وبُرْجُ أُغْلى . والبُرْلى ، وقُنْغُر أُغلى . وأُنْجُغْلى . ودُرُوت . وقَلاَبَا أُغْلى . وجُرْتَان . وقَرَا تُرْكَلِّى . وكَتُّن .

قال : ولم يزالوا مستقرين فى مواطنهم ، قاطِنِين بأماكنهم ، إلى سنة ست وعشرين وستمائة . فاتفق أن شخصاً من قبيلة دُروت يسمى مَنْغُوش بن

---

(١) القَفْجَاق : القوقاز . واللاَّن « بلاد واسعة فى طرف أرمينية ، قرب باب الأبواب . وهم مجاورون للخزر » .
(معجم البلدان : ٧ ـ ٣١٦)

(٢) هم الفرقة من التتار الذين ندبهم « جنكزخان » للسير إلى الغرب ، أى غرب خراسان (فسموا المُغَرَّبَة لذلك) لمطاردة شاه خوارزم . فساروا محاربين مدمرين ، حتى وصلوا إلى بلاد القَفْجَاق .

(٣) أى أصحاب خيام ينصبونها . فهم قوم رُحَّل .

(٤) المسمى : « زُبدة الفِكرة فى تاريخ الهجرة » . وكانت وفاة بيبرس الدَّوَادَار فى عام ٧٢٥ هـ .

كُتُن خرج مُتَصَيِّداً ، فصادفه شخص من قبيلة طَقْصَبَا اسمه آقْ كُبُك ـ وكان بينهما منافسة قديمة ـ فأخذه أسيراً ، ثم قتله . وأبطأ خبر مَنْغُوش عن أبيه وأهله ، فأرسلوا شخصاً اسمه جَلَنْغَر لكشف خبَره ، فعاد إليهم وأخبرهم بقتله . فجمع أبوه أهله وقبيلته وساق إلى آق كُبُك . فلما بلغه مسيرهم نحوه ، جمع أهل قبيلته وتأهب لقتالهم . فالتقوا واقتتلوا ، وكان الظفر لقبيلة دُرُوت ، وجرح آق كُبُك وتفرق جمعه .

فعند ذلك أرسل أخاه أُنصْ إلى دُوشى خَان بن جَنْكِزْخَان ـ وكان أُوكْدَىْ[1] ، وهو المَلِكُ يومئذٍ بكُرْسى جَنْكِزْخَان[2] ، قد نَدَبَه إلى البلاد الشمالية ـ مُسْتَصْرِخاً به ، وشكا إليه ما حَلَّ بقومه من قبيلة دروت القَبْجَاقِيَّة ، وأعلمه أنه إن قصدهم لم يجدْ دونهم مَنْ يُمَانِع . فسار إليهم فى عساكر ، وأوقع بهم ، وأتى على أكثرهم قَتْلاً وأَسْرا وسَبْيًا . فاشتراهم عند ذلك التجار ، ونقلوهم إلى البلاد والأمصار .

وأما أولُ من استكثر منهم وتغَالَى فيهم ، وقدَّمَهم على العساكر ، فهو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل .

وقد ذكرنا فى أخبار الدولة الكامِلية ـ فى سنة سبع وعشرين وستمائة ـ أن الملك الكامل اتصل به أن ابنَه الملك الصالح ابتاع ألفَ مملوك ، وأنه تَوَثَّبَ على الملك ، فنَقِم عليه وأخرجه من الديار المصرية .

---

(١) فى (ك) : أو كديه . وفى (ع) : أو كديه . وهو « أو كداى » بن جنكزخان . وقد ينطق « أوغطاى » .

(٢) أى كان هو الملك العام على التتار . خَلفاً لجنكزخان .

فلما أَفْضَت السلطنةُ إليه ، استكثر منهم ، وأمرهم وقدَّمَهم على العساكر . فكانوا فى خدمته ، إلى أن مات . وملك بعده ابنه الملك المعظم تُورَانْشَاه ، فعاملهم بما يكرهونه . وبَذَلَ لِسانَه فيهم ، وتواعدهم ، فحَمَلَهُم ذلك على قَتْلِه ، وطَلَبِ المُلْكِ لأنفسهم . وكان ماذكرناه من إقامة شَجَرِ الدُّرّ ، وخَلْعِها .

فَلنذْكُرْ ملوكَ دولة الترك :

أول من مَلَك من ملوك هذه الدولة :

السلطان الملك المعز

عزالدين أيبك التركمانى الصالحى

وليس بتُرْكُمَانى ، وإنما هى نِسبةٌ إلى أولاد التركمانى ، لأنه كان عند أحدِهم ، ثم مَلَكَهُ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب . وهو تُرْكِىُّ الجِنس .

مَلَكَ الديارَ المصرية ، فى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وأربعين وستمائة . وأقام معه فى السلطنة الملكَ الأشرفَ مظفر الدين موسى ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف ، بن الملك الكامل ، وأجلسه على كرسى السلطنة فى يوم الأربعاء ـ ثالث جمادى الأولى ، سنة ثمان وأربعين . ورَكِبَ وشَقَّ المدينة فى يوم الخميس ـ وكان عمره نحو ست سنين .

وكانت المَنَاشِير والتَّواقِيع والمَرَاسِيم تَخْرُجُ عن المَلِكَيْن ، وليس للأشرف معه إلا مجرد التسمية ، والأمر للملك المُعِزّ . ولم يزلْ كذلك ، إلى أن قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاى فى سنة اثنتين وخمسين ـ على ما نذكره . فاستقل حينئذ بالمُلْك . وكان الملكُ الأشرف فى هذه المدة قد حُجِبَ عن الناس ، واسمه قائم دون شخصه .

ذكر الحرب الكائنة بين الملك المعز والملك الناصر صاحب الشام، وانتصار المعز

وفى سنة ثمان وأربعين وستمائة، كانت الحربُ بين السلطان الملك المُعِزّ وبين الملك الناصر - صاحب الشام.

وسبب ذلك أن الملك الناصر، لما استولى على دِمشق فى هذه السنة - كما قَدَّمْنَا فى أخباره - أشار عليه أتابكُه - شمس الدين لؤلؤ - والأمراءُ القَيْمُرِية، بقصد الديار المصرية. فسار من دمشق. واتصل خبره بالملك المعز، فخرج إليه بعساكر الديار المصرية. والتقيا على مَنْزِلَةِ الكُرَاع، بالقرب من الخَشَبِى[1].

واقتتل العسكران، فى يوم الخميس، العاشر من ذى القعدة من السنة.

فكانت الهزيمةُ على العسكر المِصرى. ووصلت طائفة من العسكر المصرى إلى القاهرة. ومنهم من فَرَّ إلى جهة الصعيد. وثَبَتَ الملكُ المعز، واختار من عسكره ثلاثمائة فارس، وحمل بهم على صَنَاجق الملك الناصر، طَمَعاً أن يكون بجهتها فيظفر به. وكان الملك الناصر تَحَيَّزَ إلى فِئَة، واعتزل المعركة خوفاً على نفسه، واحتياطاً لها. فلما عايَنَ حملةَ الملك المعز، وشاهد إقدامَه، انهزم، ورجع إلى الشام - كما تقدم.

(١) سبق تحديد هذين الموضعين. وهما آخر الأرض الزراعية فى شرق محافظة الشرقية. أول طريق إلى الشام.

وساقت الأمراءُ العَزِيزِيَّة ـ مماليكُ والده ـ بأَطْلاَبِهِم[١] إلى خِدْمة الملك المُعِزّ ، ودخلوا فى طاعته ، وهم : الأمير جمال الدين أَيْدُغْدِى العَزِيزِى ، والأمير شمس الدين أَقْش البُرْلِى ، والأمير شمس الدين أَقْش الحُسَامى ، وأمثالهم . وكان سبب انصرافهم عن سلطانهم الملك الناصر أنه أضافهم ، يوم الحرب ، إلى طُلْبِ[٢] الأمير شمس الدين لؤلؤ ـ أتابكِه ـ فعَزَّ ذلك عليهم ، وفارقوا خدمة الملك الناصر .

قال : واجتمع الأمراءُ القَيْمُرِيَّة ، وغيرهم ، إلى شمس الدين لؤلؤ ، وهنُّوه بالنصر على زَعْمِهِم ـ وتفرقت جماعتهُم فى طلَب المكاسب . فلم يبق معهم من مماليكهم إلا نفرٌ قليل . فصادفهم الملكُ المُعِزُّ بمَنْ معه من عسكره ، فقاتلهم . فقُتِلَ شمسُ الدين لؤلؤ ، وجماعة من الأمراء القَيْمُرِية ، وهم : حُسَام الدين ، وصارم الدين ، القَيْمُرِيَّان ، وسعد الدين الحُمَيْدِى ، ونور الدين الزَّرْزارِى ، وجماعة من أعيان مماليك الملك الناصر . وقُتِلَ أيضاً تاجُ المُلوك ، بن الملك المعظم تُورَانْشَاه .

وأُسِرَ جماعةٌ ، وهم : الملكُ الصالح بن العادل سيف الدين أبى بكر ابن أيوب . ثم قَتَلَهُ الملكُ المعز فى سنة تسع وأربعين ، ودفنه بالقَرافة . وأُسِرَ أيضاً الملك المعظم تُورَ انْشَاه ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأخوه نُصْرَةُ الدين ، والملك الأشرف صاحب حِمص ، وشهاب الدين بن حسام الدين القَيْمُرى ، وغيرهم .

---

(١) بفرقهم و جُنودهم . كما سبق شرحه .

(٢) كَتِيبَة ـ كما تقدم .

وأما بقية الأمراء الناصرية ، فانهم ما علموا بشىء من ذلك . بل ساقوا خلفَ من انهزم من العسكر ، إلى أن وصلوا إلى العبَّاسَة[1] وخيَّمُوا بها . ثم بلَغهم الخبرُ فرحلوا بمكاسبهم وأثقَالِهم . قال : ولما انتصر الملكُ المعز ، وقتل من قتل ، وأسر من أسر ، ساق إلى العبَّاسَة ليلتحق بعساكره . فرأى دِهْلِيزَ المِلك الناصر وعساكره قد خيم على العبَّاسَة ، فعرَّجَ عن طريقها . وسار على طريق العَلاَقِمَة[2] إلى بِلْبِيس فلم يَجِدْ بها من العسكر أحداً . وبلغه أن منهم من دخل إلى القاهرة ، ومنهم من انهزم إلى الصعيد . فنزل على بِلْبِيس بمن كان معه ، إلى أن تحقق عَوْدُ من سَلِمَ من العسكر الشامى . وعاد الملك المعز إلى قَلْعَةِ الجَبَل ، مؤيداً منصوراً .

قال : ولما طلع إلى القلعة ، وجد جماعةً من الأمراء المعتقَلين بها ، لَمَّا بَلَغَهُم وصُولُ المنهزمين من العسكر المصرى ، ظنوا أن الهزيمة تستمر ، فخَطَبُوا للملك الناصر على مِنبر الجامع بالقلعة ، فى يوم الجمعة حادى عشر ذى القعدة من السنة . فعَظُمَ ذلك على الملك المعز ، وشَنَقَ الأميرَ ناصر الدين إسماعيل بن يَغْمُور الصالِحى ، وأمينَ الدولة وزيرَ الملك الصالح ، على شَرَارِيفِ قلعة الجبل ـ وكانا من جملة المعتقَلين بها ـ ومن أشار بالخُطْبة للملك الناصر . ثم أخرج جميعَ من دخل إلى القاهرة من العسكر الناصرية ، وأعادهم إلى دمشق على دَوَابّ ـ وكانوا ثلاثةَ آلاف نفس ـ ولم يُرْكِبْ أحداً منهم فرساً ، إلا نورَ الدين بن الشجاع الأكتع ، وأربعةً من مماليك المِلك الناصر .

---

(١) ذُكرت غير مرة من قبل ، وهى شرق بلبيس .

(٢) بُليدة دون بلبيس ، فيها أسواق للعرب .

واستهلّت سنة تسع وأربعين وستمائة :

فى هذه السنة ، خرج الملك المعز بعساكر الديار المصرية ، لقصد الملك الناصر ، فنزل على أُمّ البَارِد عند العبَّاسَة . واتصل ذلك بالملك الناصر ، فجهز العسكر الشامى إلى غزّة ، ليكون قُبَالة العسكر المصرى . وأقام العسكران فى منازِلهما ستين يوماً . ونزل الملك الناصر على غَمْتَا من الغَوْر ، وخيَّمَ عليها . وأقام بعسكره ستة أشهر .

وفيها فى شعبان ، عُزِل قاضى القضاة : عماد الدين أبو القاسم إبراهيم ابن هِبَة الله بن اسماعيل بن نَبْهَان بن محمد ، الحَمَوى ، المعروف بابن المُقَنْشِع ـ عن القضاء بمصر والوجه القبلى . وأضيف ذلك إلى قاضى القضاة : بدر الدين السِّنْجَارِى . فاجتمع له الآن قضاءُ القضاة بالمدينتين ، والوجهين القبلى والبحرى ، ولم يجتمعا له قبل ذلك .

وفيها ، قصد الأميرُ جَمَّاز بن شِيحَة المدينةَ النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ وقَبَضَ على أخيه عيسى ، وأقام بالمدينة .

وفيها ، كانت وفاة الشيخ الإمام العالم بهاء الدين على بن سَلاَمة بن المُسْلِم بن أحمد ، بن على اللَّخمى المِصْرى ، المعروف بابن الجُمَّيْزِى .

وكان إماماً فاضِلا ، عالماً بمذهب الإمام الشافعى . وأَخَذَ العِلْمَ عن الشيخ شهاب الدين محمد الطُّوسى ، وعن محمد بن يحيى ، وشرف الدين بن أبى عَصْرُون . وتَفَقَّهَ بالشام ، وقرأ القرآنَ على جماعة منهم الشاطِبى

والبطايحى . وسَمِعَ الحديثَ الكثير ، ورواه . سمع شُهْدة[1] ببغداد . والحافِظ السِّلَفى بمصر . وأُجيزَ بالفُتْيا فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة . وهو سِبْط الفقيه أبى الفوارس الجُمَّيْزى .

وكان دَمِثَ الأخلاق ، كريم النفس ، قل أن يَدْخُلَ إليه أحدٌ إلا وأطعمه وكان يخالطُ الملوك ، ويُعظِّمونه . ولم يَزَلْ كذلك إلى أن حج فى سنة خمس وأربعين وستمائة . فأهدى له صاحبُ اليمن هدية بمكة . فقبلها . فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكانت وفاته بمصر فى ليلة الخميس ، رابع عشر ذى الحجة . ودفن يوم الخميس بالقرافة ، قريباً من روزبهان . ومولده يوم النحر سنة تسع وخمسين وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى .

وفيها توفى الفقيه الشيخ ، الرِّيَاضى ، عَلَم الدين قَيْصَر : بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر ، الحنفى المصرى ، المعروف بتَعَاسِيف . كان إماماً فى علوم الرياضة ، وفى فنون كثيرة .

وكانت وفاته بدمشق ، فى يوم الأحد ثالث عشر شهر رجب . ودفن خارج باب شرقى ، ثم نقل إلى الباب الصغير . ومولده سنة أربع وسبعين

---

(١) هى فخر النساء : شهدة بنت أبى نصر أحمد . الدينورية الأصل . البغدادية المولد والوفاة . كانت من العلماء . وكتبت الخط الجيد . وسَمِعَ عليها خلق كثير . واشتهر ذكرها وبعد صيتها . كانت وفاتها سنة ٥٧٤ هـ

(ابن خلكان : وفيات الأعيان : جـ ٢ ـ ص ١٧٢)

وخمسمائة . بأصْفُون من عمل مدينة قُوص . من الصَّعِيد الأعلى بالديار المصرية[1] . وأصفون بلدة مشهورة هناك .

وفيها . توفى الصاحب الوزير جمال الدين أبو الحسين يحيى . بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن على بن حمزة بن إبراهيم . بن الحسين ـ بن مطروح .

مِنْ أهل صعيد مصر . ونشأ هناك . وأقام بمدينة قُوص مدة . وتنقلت به الأحوال فى الخِدَم والولايات . ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . فى نيابته عن أبيه السلطان الملك الكامل بالديار المصرية . وانتقل فى خدمته عند توجهه إلى بلاد الشرق ، فى سنة تسع وعشرين وستمائة . ولم يَزَلْ هناك إلى أن ملك الملكُ الصالح الديار المصرية ، فوصل إلى خدمته . فى أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة . فَرَتَّبَهُ ناظرَ الخزانة .

ثم نَقَلَهُ إلى دِمشق ، لما مَلَكَها ثانياً ، من عمه الملك الصالح إسماعيل ، وجعله وزيراً وأميراً . واستمر إلى أن وصل السلطان الملك الصالح إلى دمشق فى شعبان سنة ست وأربعين وستمائة ، فعزله عن الوزارة وسيَّره مع العسكر لحصار حِمْص . ثم عاد فى خدمة السلطان إلى الديار المصرية ، وأقام معه بالمنصورة ـ وقد تَغَيَّرَ عليه لأسْبابٍ اتصلت به عنه ـ ومع ذلك فلم يَزَلْ يُلازِمُ الخدمة . إلى أن مات السلطانُ الملك الصالح بالمنصورة . فجاء إلى مصر ، وأقام بداره إلى أن مات .

---

(١) قرية بصعيد الأعلى على شاطىء غربى نيل . تحت بشمى . وهى على تل عال مشرف .

(ياقوت : معجم البلدان . جـ ١ ـ ٢٧٧)

وكان حسنَ الأخلاق . وله ديوان شِعر وكانت وفاته بمصر فى ليلة الأربعاء ، مستهلّ شعبان ، سنة تسع وأربعين وستمائة . ودفن بسفح المقطم . ومولده بمدينة سَيُوط من صَعِيد مصر ، فى يوم الإثنين ثامن شهر رجب ، سنة اثنتين وتسعون وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى .

واستهلَّت سنة خمسين وستمائة :

والاختلافُ بين المَلِكَيْن : الناصر ـ صاحب دمشق والشام ـ والمُعِزّ صاحب الديار المصرية ـ على حاله ، والعساكر من الطائفتين مُجَرَّدَة ، كل طائفة مُعْتَدَّة للأخرى . ولم يكن فيها من الأخبار ما نذكره .

واستهلَّت سنة إحدى وخمسين وستمائة :

ذكر الصلح بين المَلِكَيْن : المعز والناصر

قال : ولم تزل الفتنةُ بين المِلِكين : المعز والناصر قائمة ، إلى أن وصل الشيخ نجم الدين البادَرَائى رسول الخليفة ، فسعى فى الصلح بينهما .

فوقع الاتفاق : على أن يأخذ الملكُ المعز من الملك الناصر القُدْسَ وغَزة ، وجميعَ البلاد الساحلية ـ إلى حدود نابُلُس . واستَحْلَفَ الشيخ نجمُ الدين المَلِكَيْن على ذلك . فتم الصلح بينهما وانتظم .

وأفرج الملك المعز عن الملك المعظم صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والملك الأشرف صاحب حمص ، وأولاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، وغيرهم . من الأمراء الذين كانوا قد أُسِرُوا فى المُصَافّ ، الكائن فى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وذلك فى المحرم من هذه السنة .

وفى هذه السنة ، لثلاث خَلَوْنَ من شعبان ، قُتل أبو سعد : الحسن بن على بن قَتَادة ـ صاحب مكة ـ شرَّفها الله تعالى .

واستهلَّت سنة اثنتين وخمسين وستمائة :

ذكر خبر عربان الصعيد ، وتوجه الأمير فارس الدين أقطاى إليهم وإبادتهم

كان من خبر العُرْبَان بالصعيد ، أنه لما اشتغل الملك الصالح نجم الدين أيوب وعساكرُه بقتال الفرنج بالمنصورة ، وحصَلَ ما قدَّمْنا ذِكْرَه : من وفاته ، ومقتل ولَدِه الملك المُعَظَّم ، واشتغال الملك المعز بحرب الملك الناصر ، وتجريد الجيوش إلى جِهَتِه ، وعدم الالتفات إلى غير ذلك ـ تمكن العُرْبَان بهذه الأسباب من البلاد ، وكثُر شرُّهُم ، وزاد طغيانهم وبَغْيُهم . وحصل لأهل البلاد منهم ، من أنواع الأذى ونهب الأموال والتعرض إلى الحَرِيم ، وأمثال ذلك ، ما لا حصل من الفرنج أكثرُ منه .

واجتمعوا على الشريف حِصْن الدين بن ثَعْلَب الجَعْفَرِى[١] وأطاعوه ظاهِرا ، وانقادوا له . إلا أنه لا يستطيع دفعَهم عن كل ما يقصدونه من أذى . وأَخَذَ أموالَهم ، وكثُرتْ جُموعهم معه ، حتى زادوا على اثنى عشر ألف فارس ، وستين ألف راجل ، بالسلاح والعُدَد .

فلما تم الصلحُ بين المِلِكين ، وتفرغ وجهُ السلطان الملك المعز من جهة الشام ، صَرَفَ فِكْرَتَه إلى جهتهم ، وانتدب لحربهم الأميرَ فارس الدين أَقْطَاى . واستشار الأميرَ عز الدين أَيْبَك الأَفْرَم الصالِحى فى عِدَّة العسكر الذى يقوم بحربهم ، فأشار بانتخاب ألفى فارس من العسكر ، والتزم أنه يُفرِّقُ بهذه العِدة جموعهم ، ويُبيدهم بها .

فانتخب الأميرُ فارس الدين هذه العِدَّة من العسكر ، وتوجه بهم ـ وصُحْبَتُه الأمير عزالدين المذكور ـ وتوجه إلى جهة الصعيد ، وقصد العُرْبان . وكانوا قد اجتمعوا بمكان يسمى الصَّلْعَا[٢] بمُنْشَاة إخْمِيم ، فى البر الغربى ـ وهى أرض وَسِيعَة ، تَسَعُ عِدَّتَهم . فساق الأميرُ فارس الدين ومن معه من العسكر ، من جهة الحاجز بالبر الغربى ، سَوْقاً عظيماً ، ما سمع الناس بمثلِه ، وانتهى إليهم فى ثلاث علايق ـ وهذه المسافة لا يستطيع البَرِيدُ أن يصل إليها فى مثال هذه المدة ، إلا إن أَجْهَدَ نَفْسَه .

---

(١) ينتهى نسبه إلى «جعفر بن أبى طالب» . وكان من الأشراف الأغنياء بالصعيد . ومقره مدينة ديروط أو دهروط . ولذلك تسمى : ديروط الشريف .

(انظر السلوك للمقريزى جـ ١ ـ ص ٣٨٦ ـ ٨٧ والخطط للمقريزى : جـ ١ ـ ٧١ والخطط التوفيقية : جـ ١١ ـ ص ٣ ـ ٦)

(٢) قرية بمصر بالصعيد الأعلى ، تتبع الآن مركز «سوهاج» .

وطلع عليهم فى صبح اليوم الرابع ، ودَهَمَهم بغْتةً بهذا المكان . فلما شاهَدَ كَثْرَتَهم ، كاد يقف عن ملاقاتهم ، وأَنْكَرَ على الأمير عز الدين ، وقال : لقد غَشَشْتَنا ، فإن هذه العِدةَ التى معنا لا تقوم بهذه الجموع الكثيرة . فقوَّى نَفْسَه ، وقال : أنا أَعْرِفُ هؤلاء ، وهذه بلاد ولايتى . وحَمَلَ عليهم ، ورَمَتْهُم العسكرُ بالنُّشَّاب ، فما كان السَّهْمُ يقع إلا فى أَحَدِهم . فما كان بأسرع من أن انهزموا أقبَح هزيمة ، وأخَذَهم السيفُ . وتفرقت تلك الجموع ، واختفوا ، وغيَّرُوا لِباسهم . وقُتِل منهم فى المعركة والطَّلَبِ خلقٌ كثير .

ولما عايَنَ الشريفُ حِصنُ الدين انهزامَ أصحابه ، بادر بالهزيمة . وحمل معه ألفَ دينار ، واستصحب حَظِيَّة له ، وتوجه إلى الوجه القبلى . ثم قُبِضَ عليه بعد ذلك ـ على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى . وعاد الأمير فارس الدين إلى القاهرة بعسكره ، ومعه جماعة من العُرْبان ، من جملتهم : ابن عم الشريف حصن الدين بن ثعلب ، فشُنِقَ تحت قلعة الجبل . ثم قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاى ، فى هذه السنة .

ذكر خبر الأمير فارس الدين أَقْطَاى ، وما كان من أمره إلى أن قُتل

كان الأمير فارس الدين أَقْطَاى ، الجَمَدَار[1] الصالِحى ، قد استفحل أمرُه فى الدولة المُعِزِّيَّة بالديار المصرية ، وقويت شوكته فى سنة إحدى وخمسين وستمائة .

(١) سبق تفسير هذا اللقب . وهو فارسى مركب من لفظين : جاما ، وهى الثياب ، ودار ومعناها صاحب . فهو صاحب الثياب ، أى المشرف على خزائن الملابس السلطانية وما يتعلق بها .

وانضم إليه الأمراء البَحْرِيَّة واعتَضَدَ بهم . وتطاوَل ، إلى أن خطب ابنة الملك المُظَفَّر صاحب حَمَاه . وكان الرسول فى ذلك الصاحب فخر الدين محمد ، بن الصاحب بهاء الدين على ـ قَبْلَ وزارة والدِه ـ فأُجيب إلى ذلك . وعُقد النكاح ، وحُمِلتْ إليه ، فوصلت إلى دمشق . وقُتِلَ ، قبل وصولها إليه . ولما تزوج بها زادت نفسه قوة ، وعظَّمَه الأمراء ، وخَفَّضُوا من جانب الملك المعز ، وألانَ الملك المعزُّ جانِبَه له ، ولهم .

واستمر الأمرُ على ذلك إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة . فامتدت أطماعه إلى صلب ثغر الإسكندرية ، إقْطَاعاً ، فلم يُمْكِن الملك المعز مخالفته ، لقوة شَوْكَتِه . وتَطَاوَلَ البَحْرِيَّةُ ، واشتطوا فى طلب الإقطاعات والزيادات . واتصل بالملك المعز أنهم يُدَبِّرُون عليه ، وأنهم قد عزموا على الوثُوب ، فبادر عند ذلك بالتدبير والاحتياط .

ولما كان فى يوم الاثنين ـ حادى عشر شعبان ، من هذه السنة ، استدعاه السلطان على العادة ، وكمن له عِدَّة من مماليكه ، بقاعة الأعمدَة . وقرر معهم أنه إذا عَبَر إليه يغتالوه . فحضر فى نفَر يسير ، ثِقَةً منه واسترسالا ، واطِّرَاحاً لجانب السلطان ، وأنه لا يجسُر أن يقدم عليه ، ولم يشعر به خُوشْدَاشِيَّته[1] . فلما قَرُب ، مُنِعَ مماليكُه من الدخول معه ، ووَثَبَ عليه المماليكُ المُعِزِّية فقتَلوه

(١) الخُشْدَاش : الزميل . وهذا اللقب كان شائع الاستعمال بين المماليك . فالمماليك الذين كانوا يتبعون سيداً واحداً كانت بينهم رابطة « الخوشداشية » : أى الزمالة القديمة والتماثل فى التبعية . وهذا اللقب نجده مستعملاً حتى أواخر عصر المماليك .

وحُكِيَ عن عز الدين أَيْبَك الفارِسى ـ أحد مماليكه ـ فى خبر مقتله ، قال : كان قد ركب إلى قلعة الجبل فى يوم مقتله ، واجتمع بالسلطان ، وطلب منه أن يُنْعِمَ على بعض البحرية بمال . فاعتذر الملك المعز أن الخزائن قد خَلَتْ من الأموال ، وقال له : تَوَجَّهْ بنا إلى الخزانة لنشاهدها ، ونتحققَ حالتها . فتوجها جميعاً إلى الخزانة من جهة الدُّور . وإنما فعل المعز ذلك ، لأن الوصول إلى الخزانة من جهة الدورحَرِجُ[1] المَسْلَك ، ويَمُرُّ المارُّ على بعض قاعات الحَرِيم ، فلا يمكن استصحاب الكثير من المماليك . وكان الملك المعز قد كمن فى عَطْفَةٍ من عطفات الدهاليز مملوكَه الأمير سيف الدين قُطُز ـ ومعه عشرة من المماليك المُعِزِّيَّة ، من ذَوى القوة والإقدام . فلما وصلوا إلى ذلك المكان ، تأخر السلطان : واسترسل الأمير فارس الدين على ما هو عليه ، وتقدم إلى المكان . فوثبوا عليه ، وقتلوه . قال : وأمر الملك المعز بغلق قلعة الجبل ، فغلقت .

وركِبَ مماليكُه وحاشيتهُ ـ وكانوا نحو سبعمائة فارس ـ وجماعةٌ من البحرية ، وقَصَدُوا قلعة الجبل ، وظنوا أنه قد قُبِضَ عليه ، ليطلقوه . فلما صاروا تحت القلعة ، أمر السلطان بإلقاء رأسه إليهم ، من أعلى السور فعلموا

---

(١) المكان الحرج : الضيق « القاموس » .

فَوَاتَ الأمر فيه ، فتفرقوا . وكانت هذه الواقعة شبيهةً بواقعة عَمْرو بن سعيد الأَشْدَق مع عبْدِالملك بن مَرْوَان[1] . وتَفرَّقَ شَمْلُ البَحْرِيَّة لمقتله ، وانْتَشَر نظامُهم . وكان من خبره ما نذكره .

ولما قُتِل الأمير فارس الدين أَقْطَاى ، وهَرَبَ البَحرية ومماليكه ، ركب السلطان الملك المعزُّ بشِعار السَّلْطَنَة بالقاهرة . وذلك فى يوم الأحد ، سابع عشرين شعبان المذكور . وجَهَّزَ المِلِكَ الأشرف ، الذى كان قد شَرَكَه معه فى الملك إلى دمشق ـ فى هذا الشهر . واستَقَلَّ بالسلطنة . وانفرد بالأمر ، بعد مقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاى .

ومن المؤرخين من جَعَلَ هذا التاريخَ ابتداء سلطنة الملك المعز ، وجَعَلَه فيما مضى أَتَابِكاً للملك الأشرف مظفر الدين موسى . إلا أن الأمر منذ خَلَعَت شجرُ الدر نفسَها ، كان للملك المعز ، مع تَمَكُّنِ الأمير فارس الدين أَقْطَاى من الدولة وتَحَكُّمِه .

وفى هذه السنة ، أُقْطِعَ الأميرُ جمال الدين أَيْدُ غْدِى العَزِيزِى دِمْياط ـ زِيادةً على إقطاعه ـ وكان مُتَحَصَّلُها يومئذ ثلاثين ألف دينار .

---

(١) فى النسخة (ك) : مع مروان بن الحكم . وهذا خطأ ـ تاريخياً . ولكن فى (ع) كُتِب التصحيح على الهامش . وهذا هو الصواب . فواقعة عمرو بن سعيد كانت مع عبد الملك بن مروان ، لا مع أبيه . وهذه الواقعة هى أن عمرو بن سعيد بن العاص / (وهو أموى) حاول أن ينتزع الخلافة من عبد الملك ، فقُبِض عليه وقُتِل فى القصر .

راجع تفاصيل الواقعة فى : الريس : عبد الملك بن مروان ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥ .

وفيها ، عُزِل قاضى القضاة : بدر الدين السِّنْجَارى ، عن تدريس المدرسة الصالِحِية ، بالقاهرة المُعِزِّيَّة . وفوض ذلك لشيخ الاسلام عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام . وتوجه قاضى القضاة بدر الدين السِّنْجَارِى الى الحِجَاز الشريف ، من جهة البحر ، وعاد فى البر .

وفى هذه السنة ، وصلت الأخبار من مكة ـ شرفها الله تعالى ـ أن النار ظهرت من بعض جبال عَدَن ، وأن شررها يطير فى الليل ويقع فى البحر ، ويصعد منها دخانٌ عظيم فى النهار . فظن الناس أنها النارُ التى أَخْبَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنها تظهر فى آخر الزمان ، وهى من أَشْرَاطِ[1] الساعة . فتاب الناسُ ، وأقلعوا عما كانوا عليه من الظلم والفساد ، وشرعوا فى أفعال الخير والصَّدَقات .

ذكر أخبار الأمراء البحرية ، وما اتفق لهم بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاى

قد رأينا أن نذكر أخبار الأمراء البَحْرِيَّة فى هذا الموضع ـ متتابعة ـ من حين هَرَبِهم ، ولا نقطعها بالسنين ، لتكون أخبارُهم سِيَاقَةً يَتْلُو بعضُها بعضاً .

كان من خبرهم ، أنه لما شاع الخبرُ بمقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاى ، واتصل ذلك بالأمراء خُوشْدَاشِيَّته ـ وفيهم الأمير ركن الدين البُنْدُقْدَارِى ،

(١) أى : علامات .

والأمير سيف الدين قَلاَوون الألفى ، والأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر . والأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدِى ، والأمير بدر الدين بَيْسَرِى الشَّمْسى ، والأمير سيف الدين سُكَرْ ، والأمير عز الدين أَزْدُمَر السَّيْفى . والأمير سيف الدين سُنْقُر الرُّومى ، والأمير سيف الدين بَلَبَان المُسْتَعْرِبى . والأمير سيف الدين بَرَامِق ، وغيرهم من الأمراء ، ومن انضم إليهم من خُوْشَداشِيهم ـ خرجوا من القاهرة ليلا ، وأحرقوا باب القَرَّاطِين ، وتوجهوا إلى الشام . واعْتَقَلَ السلطانُ ـ المَلِكُ المعزُّ ـ من بَقِىَ منهم بالقاهرة .

وتوجه الذين خرجوا من القاهرة حتى نزلوا غَزَّة ، وكاتبوا السلطانَ الملكَ الناصر صاحبَ الشام ، وسألوه أن يَأْذَنَ لهم فى الوصول إليه ، فأجابهم إلى ذلك . ووصلوا إليه ، فأنعم عليهم بالأموال والخِلَع ، وأقطعهم الإِقْطَاعات . وأقاموا عنده يُحَرِّضُونه على قصد الديار المصرية ، فما وَثِقَ بهم . وكان الملك المعز قد كتب إليه وخَيَّلَهُ منهم ، وأَوْهَمَه . فطلب الملكُ الناصرُ من الملك المعز القُدْسَ وجميعَ البلاد الساحلية ـ التى كان قد أخذها منه عند وقوع الصلح ـ بِحُكْمِ أنها كانت جارِيَةً فى إقطاع البحرية ، وأنهم انتقلوا إلى مملكته ، واستقروا فى خدمته ، فأعادها الملك المُعِزُّ إليه . فأَمَّرَ الملكُ الناصر كل من له إقطاع فى هذه البلاد على إقطاعه ، وكَتَب مَنَاشِيرَ بذلك . وأقاموا فى خدمته إلى سنة خمس وخمسين وستمائة .

ثم فارقوه ، لِمَا رأوه من ضعف رأيه ، وتوجهوا إلى نابُلس . وقصدوا المَلِكَ المُغيث صاحب الكَرَك ، فوصلوا إلى خدمته ـ فى عاشر شوال ـ فقَبِلَهم وأكرمهم فالتمسوا منه المساعدةَ على قصد الديار المصرية ، وأوهموه أن الأمراء بالديار المصرية كاتبوهم ، وراسَلوهم فى ذلك . فجمع الملك

المغيثُ من قدر عليه ، وسار بهم وبسائر البَحْرِية ـ وذلك فى سلطنة الملك المنصور نور الدين ، بن الملك المعز . فخرج إليهم الأمير سيف الدين قُطُز المُعِزِّى بالعساكر المصرية ، والتقوا واقتتلوا ـ فى يوم السبت الخامس والعشرين ، من ذى القعدة ، سنة خمس وخمسين وستمائة . فانكسر الملكُ المغيث ، ومن معه من البحرية . واستولى العسكر المصرى على أثْقَالهم . وقُتِل : الأمير عز الدين الرُّومى الصالحى ، وسيف الدين الكافُورى ، وبدر الدين إيغان الأَشْرَفى . وأُسِرَ الأمير سيف الدين قلاوون الألْفى ، والأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدى .

ولما أُسرَ الأمير سيف الدين قلاوون ، ضَمِنَه الأمير سيف الدين قِيزَان المُعِزِّى أستاذ الدار السلطانية ، فما تعرض إليه أحد . وأقام بالقاهرة بُرْهة يسيرة . ثم تسحب واختفى بالحُسَيْنِيَّة ، عند الأمير سيف الدين قَطْلِيجَا الرومى . وقَصَدَ اللحاق بخُوشْدَاشِيَّتِه ، فزَوَّدَه وجَهَّزه ، فتوجه إلى الكَرَك .

ثم فارق البَحْرِيَّةُ الملكَ المغيثَ ، وتوجهوا نحو الغَوْر[1] . فصادفهم الأمراءُ الشَّهْرَزُورِيَّة[2] ، عندما جَفَلُوا من بلادِ الشَّرْق . فاجتمع البحريةُ بهم ، وتزوج الأمير ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِى ـ وهو الملكُ الظاهر ـ منهم . فبلغ الملكَ الناصرَ ذلك ، فجهز جيشاً لقتالهم ، فالتقوا بالغَوْر ،

(١) أى غَوْر الأردن .

(٢) وهم الأمراء الأكراد الذين قدموا من بلاد شهرزور خوفاً من التتر ، كما سبق ذكر ذلك .

واقتتلوا . فانهزم العسكرُ الناصرى . فغَضِب الملك الناصر لذلك ، وخرج بنفسه إليهم . فعلموا عَجزَهم عن مقابلته ، فتوجهوا إلى الملك المغيث بالكَرَك ، وتوجه الشَّهْرَزُورِيَّة إلى الديار المصرية .

واتَّفَقَ للأمير ركنِ الدين البُنْدُقْدَارِى مع الملك المُغِيث حكاية عجيبة . وهو أنه كان فى يده نُتُوءٌ فى اللحم شبه خَرَزَة ، فجلَس فى بعض الأيام بين يدى الملك المُغيث ـ وقد أُتِىَ بلَوْزٍ أخضر وعسل ، فجَعَل يَفْرِكُ اللَّوْزَ على العسل ـ فنظر الملكُ المغيث إلى النتوء الذى فى يده ، فقال : ما هذا يا رُكن ؟ قال : هذه خَرَزَةُ المُلْك ! فتغير وجهُ الملك المغيث ، وعلِم جُرْأته . وقصد قتلَه ، ثم تَركه . أخبرنى بذلك المَوْلَى شرف الدين أبو الروح ، عيسى بن الملك المغيث ، عمن حضَر هذه الواقعة وسَمِعَ ذلك من لَفْظِهِمَا .

قال المؤرخ : ولما بلغ الملكَ الناصرَ عَوْدُ البحرية إلى خدمة الملك المغيث ، كتب إليه يطلب منه تسليمهم ، ويهدده إن لم يفعل . فدافع عنهم . فسار الملك الناصر بنفسه ، ونزل ببركة زَيْزَا[1] ، وعزم منازلة الكَرَكَ ـ إن أصر الملك المغيث على الامتناع من تسليمهم إليه .

وكان الأمير ركن الدين بيبرس البُنْدُقْدَارِى قد تَخَيَّل[2] من الملك المغيث ، للحكاية التى قدمناها . فأرسل إلى السلطان الملك الناصر الأميرَ بهاء الدين أمير أَخُور ليلا[3] ، يطلب منه الإذن فى حضوره إلى خدمته ، ومفارقة

(١) تقدم ذكرها ، وهى فى البلقاء .

(٢) أى توهم أو تخوف .

(٣) وظيفة صاحب هذا اللقب أنه هو المتولى شئون الإسطبلات السلطانية ، من الخيول والإبل ، وما يتعلق بذلك . و « آخور » معناها : المعلف .

(انظر القلقشندى : جـ ٥ ـ ٤٦٠)

الملك المغيث ، وأن يَسْتَحْلِفَه له ولجماعة معه أن لا يغدر بهم ، وأن يكون السفير فى ذلك الأمير عماد الدين بن المجير . فأجاب الملكُ الناصر إلى ذلك . فبعث إليه الأمير ركن الدين الشيخ يحيى ، برسالة ، مضمونها : أن يحلف له ولعشرين من أصحابه ، وأن يقطعه خُبْزَ مائة فارس ، وشرط أن تكون قَصَبة نابُلُس وجِينِين[1] وزرْعِين[2] مما يقطعه له . فأجاب إلى نابُلس لاغير ، وحَلَف له .

فقَدِمَ الأمير ركن الدين إلى الملك الناصر ، فى العشر الأول من شهر رجب ـ وصُحْبَتُه الجماعة الذين حلف لهم ، وهم : الأمير بدر الدين بَيْسَرى الشَّمْسى ، والأمير سيف الدين أَتَامِش المَسْعُودِى ، والأمير علاء الدين طَيَبْرس الوَزِيرِى ، وجمال الدين أَقُش الرُّومى ، وسيف الدين بَلَبَان الدَّاوَدَار ، وعلاء الدين كَشْتُغْدِى الشَّمْسى ، وحسام الدين لاجين الدَّوَادَار ، المعروف بالدَّرْفِيل ، وعلاء الدين أَيْدَغْمُش الحَكِيمى ، وعلاء الدين كَسْتُغْدِى المشرفى ، وعز الدين أَيْبَك الشيخ ، وركن الدين بِيبَرس خاص ترك الصغير ، وسيف الدين بَلَبان المهرانى ، وعلَم الدين سَنْجَر الأَسْعَدِى ، وعلم الدين سَنْجَر الهُمَامى ، وشمس الدين أَبَاز الناصِرى ، وشمس الدين طُمَان ، وعز الدين أَيْبَك العَلاَئى ، وحُسام الدين لاجِين

(١) بليدة بين نابلس وبيسان ، من أرض الأردن .

(معجم البلدان : جـ٣ ـ ١٩٥)

(٢) تقع بين قريتى الفولة والناصرة ، وهما بلدتان بفلسطين .

(النجوم الزاهرة : جـ٧ ـ ٩٧ ـ حاشية ٤)

الشُّقَيرِى ، وسيف الدين بَلَبَان الأَقْسِيسى ، وعلم الدين سلطان الأَلدُكْرِى ـ فأكرمهم الملك الناصر ، ووَفَى لهم ، وخَلَع عليهم وأحسن إليهم ، وأَقْطَعَهم .

ثم أمسك الملكُ المغيث من بَقِىَ عنده من البحرية ، وسيَّرهم إلى الملك الناصر ، وهم : الأمير سيف الدين سُنْقُر الأشقر ، والأمير سيف الدين سُكُز ، والأمير سيف الدين بَرَامِق ـ فأرسلهم الملك الناصر إلى قلعة حلب ، واعتقلهم بها . حتى استولى هولاكو على حلب ، فأفرج عنهم وأضافهم إلى عسكره .

وبقى الأمير ركن الدين البُنْدُقْدَارِى ، والأمير سيف الدين قَلَاوُون ، وغيرهما ، ممن لم يُمْسَك من خُوشْدَاشِيَّتِها ، فى خِدمة الملك الناصر ، إلى أثناء سنة ثمان وخمسين وستمائة . فهارقوه ، لما ملك التتارُ حلب ، وعلِموا عَجْزَه عن ملاقاتهم ، فهارقوه وتوجهوا إلى غَزَّة .

وكان للبحرية فى بعض هذه المدة أحوالٌ يطول شرحها ، حتى أعوزهم القُوتُ فى بعض الأوقات . ثم اجتمعوا بعد مفارقة الملك الناصر ، وتوجهوا إلى خِدمة الملك المظفر سيف الدين قُطُز ، وشهدوا معه حربَ التتار ـ على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى ، فى موضعه .

فَلْنَرْجِعْ إلى سِيَاقَةِ أخبار الملك المعز .

واستهلّت سنة ثلاث وخمسين وستمائة :

ذكر مخالفة الأمير عز الدين أيبك الأفرم وخروجه عن الطاعة . وتجريد العسكر إليه وإلى من وافقه ، وانتقاض أمره

كان الأمير عز الدين أَيْبَك الأَفْرَم الصالِحى أقام فى البلاد ، بعد أن هَزَم الأميرُ فارس الدين أَقْطاى الصالِحى العَرَبَ ـ كما تقدم ـ وتأخر هو لتمهيد البلاد .

فلما قُتِل الأمير فارس الدين أَقْطَاى ، تظاهر بالعصيان ، واستولى على الأعمال القُوصِيَّة ـ بموافقة مُتَوَلِّيهَا الأمير ركن الدين الصَّيْرَمى . واستولى أيضا على الأَعْمَال الإِخْمِيمِيَّة والأَسْيُوطِيَّة ، وقطع الحُمُولَ عن بيت المال بقلعة الجبل من هذه الأعمال ، واقتطع الأموالَ لنفسه . ووافقه الشريفُ حِصنُ الدين بن ثَعْلَب .

فنَدَب السلطانُ العساكرَ لذلك ، وقَدَّمَ عليها الصاحبَ شرف الدين هِبةَ الله بن صاعِد الفائِزى . فتوجه إلى جهة الصعيد ، وظَفِر بالشريف حِصْن الدين بن ثَعْلَب . فأحضره إلى السلطان . فاعتَقَله بقلعة الجبل ، ثم نقله إلى ثغر الإسكندرية ، واعتقله هناك . فلم يَزَلْ فى الاعتقال ، إلى أن شَنَقَه السلطان الملكُ الظاهر ركن الدين ـ على ما نذكره .

وأما الأمير عز الدين الأفرم ، فإنه [ ][1]

وأما الأمير ركن الدين الصَّيْرَمى ـ مُتَوَلِّى الأعمال القُوصِية ـ فإنه كان قد ظن أنه يَستبِدُّ بالأمر ، ويستولى على البلاد ويستمر له ذلك ، وتَخَيَّلَ ذلك بذهنه . فلما انْتَقَضَ عليه هذا الأمرُ ، تَحَيَّلَ فى الهرب ، وتوجه إلى دمشق . والتحق بخدمة السلطان الملك الناصر .

وكان وصوله إلى دمشق فى جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين وستمائة ـ بعد أن نُهِبَتْ أموالهُ ، وقُتِلَتْ رجالهُ . ولما وصل ، أُنْزِلَ بالمدرسة العَزِيزِيَّة[2] على الشَّرَفِ الأعلى ، فقال للفقهاء : اعْذُرُونى ، فأنتم اخلوا لى الجَوْسَق الذى على الميدان ، وما أَنْتَقِلُ إليه إلا بطالِع . وأَحْضَرَ المُنَجِّم ، وأخذ له الطالِع ، وانتقل إلى الجَوْسَق . فاستقل الناس عَقْلَه . ! فإنه وصل من النَّهْب والهَرَب ، والشَّتَات وقتل الرجال ، وهو يتمسك بالطوالِع وأقوال المُنَجِّمِين .

(١) بياض بالنسختين : (ك) و (ع) نحو سطر

(٢) هكذا فى (ك) ولكن فى (ع) : العِزِّيَة والأول هو الصواب .
فالمدرسة العَزِيزِيَّة ـ وقد سبق ذكرها ـ كانت من كُبرى المدارس بدمشق .
وهى تنسب إلى العَزِيز عثمان بن السلطان صلاح الدين

واستهلّت سنة أربع وخمسين وستمائة :

ذكر تفويض قضاء القضاة بالديار المصرية للقاضى : تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف

فى هذه السنة ، فوّضَ السلطانُ ـ الملك المعز ـ قضاء القضاة بمصر والوجه القبلى ، لقاضى القضاة : تاج الدين عبد الوهاب ، بن القاضى الأعَزّ خَلَف ، بن محمود بن بَدْر العَلَامى [1] ـ وهو المعروف بابن بنت الأعَزّ . وكُتِبَ لهَ تقليدٌ شريف مُعِزِّى ، تاريخُه تاسع شهر رمضان . وكان ذلكَ جارِياً [2] فى ولاية قاضى القضاة : بدر الدين يوسف السُّنْجَارى .

فاستقر القاضى بدرُ الدين ـ قاضى القضاة ـ بالقاهرة والوجه البحرى . ثم فُوِّضَ ذلك ، فى بقية هذا الشهر ، لقاضى القضاة تاج الدين ـ المشار إليه ـ بتقليدٍ تاريخهُ لثمان بقين من شهر رمضان من السنة . فكمُلَ له بهذه الولاية قضاءُ القضاة بالمدينتين ، والعَمَلَيْن القبلى والبحرى ، وسائر أعمال الديار المصرية . وعُزِلَ قاضى القضاة : بدر الدين السُّنْجَارِى عن القضاء .

---

(١) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف ، بن محمود بن بدر العَلَامى (نسبة إلى بنى عَلَامَة ، وهم بطنٌ من لَخْم) المعروف بابن بنت الأعز . والأعز كان وزيراً للملك الكامل (وهو الأعز مقدام بن القاضى أبى السعادات أحمد بن شكر ، الذى تقدمت أخباره فى المتن) وكان عبد الوهاب ينسب إلى جده لأمه هذا والقاضى تاج الدين كان « إماماً عالماً فاضلاً » « صالحاً نَزِهاً » ولى المناصب الجليلة كنظر الدواوين والوزارة وقضاء القضاة ، وتدرّس بالشافعى والصالحية . كان مولده فى سنة ٦١٤ ، وتوفى سنة ٦٦٥ هـ

(النجوم الزاهرة : جـ ٧ ـ ٢٢٢ . وحسن المحاضرة : جـ ١ ـ ١٧٤)

ووالده كان يُلَقَّب « بالقاضى الأعز » أيضاً : خلف ـ كما سيَرِد فى المتن .

(٢) فى (ع) : « جار » .

وقد شاهَدْتُ تقليدَىْ قاضى القضاة تاج الدين . ونسخةُ التقليد الأول ـ بعد البسملة ، ومثال العلامة المعزية : ـ

« حَسْبِىَ الله . الحمدُ للهِ مُقِيمِ مَنَارِ الشريعة الهادِية ، وناشرِ أعلامها . ورافع مَحَلِّها على الشرائع ومُعْلِى مَقامِها . وهادى الخَلِيقَة إلى اتباع أَقْضِيَتِها وأَحكامِها . وناصر دينه باتِّساقِها وانتِظامها . ومشيد أركانها بصالحى أَئِمَّتِها وحُكامها ، وجاعلهم أئمةً يَهْدُون بأَمْرِه فى نقْض الأمور وإبرامها . وصَلَّى الله على سيدنا محمد ، خاتم الرسل وإمامها . ومنير المِلَّة بعد إظلامها . وعلى آله وأصحابه ، نجوم سماء المعارف وبُدُور تَمَامِها ـ صَلاةً لا تنقطع مادةُ دوامها ، ولا يأتى النَّفَادُ على لياليها وأيامِها .

أما بعد . فإنا لِماَ فَوَّضَ اللهُ إلينا من أمور بَرِيَّته ، واستَحْفَظَنا إياه من تدبير خَلِيقَتِه ، وآتانا بقُدْرَتِه من اليد الباسِطة ، وجَعَلَنا بينه وبين عِقْدِ خَلْقِه الواسِطة ، وَمَنَحَنَاهُ من السلطان والتَّمْكِين ، وخَصَّنَا به من الفضل المُبِين ـ لا نزال من حُسْنِ التدبير فى تَصْعِيدٍ وتَصْوِيب ، ومن مصالح الإسلام فى تَمْهيد وترتيب ، ومن الرأى الأصيل فى خَبَبٍ وتَقْرِيب [1] ، عالِمِين بأن الله تعالى يَسْأَلُ كلَّ راعٍ عما استَرْعاه ، وكُلَّ ساعٍ عما سعاه ، ويُحَاسِبُه عليه يوم رُجْعَاه ، ويَجِدُ عَمَلَه مكتوباً مُسطَّراً ، وتَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحْضَرًا ـ وكان أَوْلَى الأمور بالنظر ، وأَحَقَّها أن يُصانَ صَفْوُها عن الكَدَر ،

(١) قال فى « القاموس » والخَبَب : ضربٌ من العَدْو » . والتقريبُ كذلك .

مَنْصِبُ الشريعة ، الذى هو مِلاكُ الدين وقِوامُه ، وانتظامُ الإسلام والتئامُه ، والطريقُ التى فَرَض اللهُ اتباعها على خَلْقِه ، والسبيلُ التى من فارقَها فقد خَلَعَ رِبْقَةَ[1] الإسلام من عُنُقه ـ .

ارْتَدْنَا لهذا المنصبِ الشريفِ من يرعاه ويصونُه ، وتجرى على يده حِياطته وتحصينُه . ونَظَرْنا فيمن يقع عليه سَهْمُ الاختيار ، ويُظْهِرُ جوهَره الابتلاء والاختبار . فكان المجلسُ السامى القاضى الأجلُّ ، الإمامُ الصدرُ ، الفقيهُ الكبير العالم العاملُ الفاضل ، الأعزُّ المُرْتَضَى ، الوَرِعُ الكامل المُجْتَبَى ، الأشرفُ السعيد ، تاجُ الدين جلال الإسلام ، مفتى الأنام ، شمس الشريعة ، صدرُ العلماء ، قاضى القضاة ، سيد الحكام ، خالصةُ أمير المؤمنين : عبدُ الوهاب بن القاضى الأجل ، الفقيهِ العالم الأعز ، أبى القاسم خلف ـ أدام الله تأييده وتمكينه ، ورفعتَه وتمهيده ، وقَرَن بالنُّجْحِ قُصُودَه ـ طَلِبَتَنَا المنشودَة ، وإرادتَنا المقصودة . لِماَ جمع اللهُ فيه من الخِلال الفاخرة ، والديانة الجامعة لخير الدنيا والآخرة ، والعِلْمِ الذى أمسى به للهداة علَما ، وعلى أئمة وقته مُقَدَّما . وأصبح كل مانع إليه مُسَلِّماَ . وراح بقِدَاح الفضائل فائزا ، ولكُنُوز العلوم الشريفة حائِزا . فهو فقيهُ مصره ، لا ،

(١) الرِّبْق : حبل فيه عدة عُرَى ، يُشَدُّ به ، كل عروة : رِبْقَة .

(القاموس المحيط)

بل فقيه عَصره . وبَكَّارُ[١] زمانه علما وورعا ، وسَوَّارُ[٢] وقته تَقَمُّصاً بالتقوى وتَدَرُّعاً .

قَدَّمنا خِيرةَ الله تعالى ، وَوَلَّيْنَاه قضاءَ القضاة وحكم الحكام ، بمصر المحروسة ، وجميع الوجه القبلى : من البَرَّيْنِ الشرقى والغربى ، إلى منتهى ثغر عَيْذَاب[٣] ، وما يجاورُه ـ من حدود مملكتنا ، وبلاد دَعْوَتِنا ، وجميع ما فى هذه الولاية من المدارس وأوقافها ، وكلُّ ما كان فى نظر القاضى الفقيه شرف الدين بن عَيْن الدولة ـ رحمه الله ـ من ذلك ، وما استَجَدَّ بعده ، واستقرَّ فى نظر الحكام . وفَوَّضْنَا إليه ذلك التفويضَ التام . وبَسَطْنا يده فى الولاية والعَزْل . وحَكَّمناه فى العقد والحَلّ . فليَسْتَخِرِ اللهَ فى تَقَلُّدِ ما قَلَّدْنَاه ، وقَبولِ ما فَوَّضناه إليه ورَدَدْناه . ولْيَحْكُمْ بينَ الناس بما أرادَ الله . فإن قبولَ ذلك يَجِبُ عليه وُجُوبا ، لما يتحقق أن الله يُجْرِيه فى أحكامه ، ويُقَدِّرُه فى أيامه ، من حِياطة الدين ومصالح المسلمين .

---

(١) يشير إلى القاضى « بَكَّار » بن قُتَيْبَة . من كبار قضاة مصر ، تولى قضاءها سنة ٢٤٦ هـ من قبل المتوكل ، ثم كان القاضى فى أيام أحمد بن طولون وكانت له معه وقائع . وكان فاضلاً نزِهاً تقياً ورعاً .

توفى فى السجن ، وذلك فى سنة ٢٧٠ .

(وفيات الأعيان : جـ ١ ـ ص ٢٥٢)

(٢) يقصد به « سَوَّار بن عبد الله » العَنْبَرى التَّمِيمى . كان من كبار الفقهاء والمُحَدِّثِين . وتولى القضاء ببغداد بالجانب الشرقى بالرصافة . شهد له العلماء بأنه كان ثِقَةً صالحاً . وسئل أحمد بن حنبل عنه ، فقال : ما بلغنى عنه إلا خَيْر . وكانت وفاته ببغداد فى سنة ٢٤٥ هـ .

(تاريخ بغداد : الخطيب البغدادى : جـ ٩ ـ ٢١٠)

(٣) بليدة على ضفة بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) ، هى مُرْسى المراكب التى تقدم من عدن إلى الصعيد . وهى تقع على الشاطىء المصرى ـ تقابل جُدّه على شاطىء الحجاز .

(معجم البلدان جـ ٦ ـ ٢٤٦)

وإذا احتاج الحُكَّامُ ووُلاة الأمور إلى وَصايا يُطال فيها ويُطْنَب ، ويُبالَغ فى توكيدها ويُسْهَب ـ وَجَدْنَاه غَنِياً عن ذلك ، بما سنَّاه اللهُ له ويَسَّره ، وخَلَقَه من كَماله وقَدَّره . ومِثْلُه لا يُوَصَّى ، ولا يُسْتَوْعَبُ له القولُ ولا يُسْتَقْصَى . واللهُ تعالى يُرَقِّيه إلى دَرَجات الكَرَامة ، ويجعلُ فيما فُوِّضَ صَلاحُ الخَاصَّةِ والعَامَّة

والاعتمادُ فيه على العَلاَمة الشريفة ، السلطانية الملكية المُعِزِّيَّة ـ زاد الله علاها وشرفها ، إن شاء الله عز وجل . كُتِبَ فى التاسع من شهر رمضان ، سنة أربع وخمسين وستمائة . الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيّبين الطّاهرين ، وسلم تسليماً كثيراً . وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ونسخةُ التقليدِ الثانى :

« الحمدُ لله ، كافلِ المَزِيدَ لمن شكَرَه ، ورافعِ الدرجات لمن أطاعه فيما نهاه وأَمَرَه ، وهادى أُمَّةَ الحق إلى السبيلِ الذى يَسَّره ، وشَرْعِه الذى ارتضاه لدينه وتَخَيَّرَه . وجاعلِ العلماء ورثةَ أنبيائه ، فيما أباحه من الأحكام وحَظَّرَه .

أَحْمَدُه حَمْداً لا يُحْصَى عَدَدُهُ . وأَشْكُرُه شُكْراً يتجَدَّدُ كلما طال أَمَدُه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، شَهَادَةً تَسْتَنْفِدُ الإِمْكَان . ويَشْهَدُ بالإخلاص فيها المَلَكَان ـ . وأَشْهَدُ أنِ محمداً عبدُه ورسوله ، الذى اصطفاه وانْتَخَبَه . وفَرَض اتباعَه على خلْقه وأَوْجَبَه . وبعثه رَسولاً فى الأُمِّيِّين . وأرسله رَحْمَةً للعالمين .

ونَصَبَ شريعته سبيلاً مُنجِّياً . وطريقاً إلى الرسل مُؤدِّيًا . وشرف رُتْبَتَها وعظَّمَها . وأعلى قَدْرَ من رقى ذِرْوَتَها وتَسَنَّمَها ـ صلى الله عليه ـ ما تعاقَب شمسٌ وقَمَر . وذُكِرَ مُبْتدأً وخَبَرَ وجرى بالكائنات مَشِيئةٌ وقَدَر .

وعلى الأنبياء ، الذين أَخْلَصَهُمْ بخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ، وجعلهم من المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَار . وعلى آله أولى الأَيْدِي والأَبْصَار . وأصحابِه المهاجِرين والأَنْصَار . صَلاةً دائمة الاستمرار . باقِيةً على تعاقُب الليل والنهار .

أما بعدُ ، فإن الله . تعالى ـ جعل شريعةَ نَبِيِّه صِرَاطاً مُتَّبعا وطَرِيقاً مَهْيَعًا[1] ومَحَلاًّ مُرْتَفِعاً . وأنزل بتعظيمها قُرْآنا ، وجعلها بين الحق والباطل فُرْقَانا . فقال مُخَاطِباً لنبيِّه ـ تنبيهاً وتعليماً ، وتَبْجِيلاً لقُدْرَته وتَعظيما : إنا أَنْزَلْنَا إليكَ الكِتَابَ بالحَقِّ ، لِتَحْكُمَ بين الناس بما أَرَاكَ اللهُ ولا تَكُنْ للخَائِنِين خَصِيمًا . وعَظَّمَ قَدْرَ العلماء فى آياته المُحْكَمَات ، وكلماته البيِّنَات ، فقال عزَّ وجل : يَرْفَعُ اللهُ الذين آمَنُوا منكم ، والذين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَات .

فتَعَيَّنَ بذلك على وُلاة الأمور ، من الاجتهاد المَأْثُور ، أن يتَخَيَّرُوا لهذا المَنْصِب الشريف ، من الوُلاة : من هو أَجَلُّهم عِلْما . وأَعْدَلُهُمْ حُكْما ، وأَنْفَذُهُمْ فى الحقِّ سَهْمًا . وأَضْوَاهُم حِساً ، وأشرفُهم نفْسا ، وأصلَحُهم يوماً وأَمْسا . وأَطْهَرُهم وأَوْرَعُهم . وأَجْدَاهم للإسلام وأَنْفَعُهم .

وكنا قد مَثَّلْنَا كِنَانَةَ[2] العلماء بمصرِنا ، فعَجَمْنَا عِيدَانَها . واختبرنا أَعْيانَها . فوَجَدْنَا المجلِسَ العالى : القاضىَ الأجلّ ، الصدرَ الكبير ، الإمامَ

(١) واضحاً متسعاً .

(٢) الكِنانة : وعاء السهام .

العالم العامل الزاهدَ العابد ، الكامل الأوحَد ، المُجتَبىَ المؤيد الأعز الأسعد ، تاجَ الدين جلالَ الإسلام ، ضياءَ الأنام ، بهاءَ المِلَّة ، شمس الشريعة سيدَ الحكام ، قُدْوَةَ العلماء : يَمِينَ الملوك والسلاطين ، قاضىَ قضاة المسلمين ، خَالِصَةَ أمير المؤمنين : عبدَ الوهاب ، بن القاضِى الفقيه ، الأجلِّ الأعز ، أبى القاسم خَلَف ـ أدام الله تأييدَه وبَسْطَتَه ، وتمكينه ورِفعته ـ قد زادت صفاتُه على هذه الصفات ، وأَوْفَتْ عليها أَتَمَّ المُوافَاة . واختَبَرْنَا منه رَجُلاً ، لو عرُضَتْ عليه الدنيا لم يُرِدْها . ولو صَوَّرَ نفسَه لم يَزِدْها . ووَقَعَ على سيادته إجْمَاعُ الحاضِرين والبادِين ، والمَسُودِين والسَّائِدين . وشَهِدُوا بها ، ونحنُ على ذلك من الشاهدين .

ففَوَّضْنَا إليه ما فَوَّضْنَاه : من قضاء القُضاة بمصر المَحْرُوسة ، والأقاليم القِبْلِية ، وما معها . والأوقافِ والمدارس وما جمعها ـ الجارِية فى نظر الحُكْمِ العَزِيز . ثم تَجَدَّدَ لنا نَظَرٌ يَعُمُّ المسلمين شانُه ، ومَنْظَرٌ يَرْمُقُهُمْ بالمَصالح إنْسانُه . وعَلِمْنَا أن هذه الوِلاية بعضُ استحقاقِه ، وأنها قليلةٌ فى جَنْبِ نُصْحِه للمسلمين وإشفاقِه . وأن صدرَه الرحيب لا يضيق بأمثالها ذَرْعَا ، ولا يَعجَزُ ـ بحمدِ الله ـ أن يُرْسِيَها بَصَراً من إيالته وسَمْعَا . إذْ كان قد أحيىَ بها السُّنَّةَ السَّلَفِيَّة ، وأظهر أسرارَ العدْل الخَفِيَّة . وزاد الحَقَّ بنظره وُضوحا ، والمعروفَ دُنُواً والمُنْكَرَ نُزُوحا ـ رأَيْنَا أن نَجْمَعَ إليه قضاء القضاة بالقاهرة المعزية والوجه البحرى ، وما كان يتولاه من قَبْلَه ، من أوقافِ البلاد ومدارسِها ، ورُبُطِها ومَحَارِسِها ، ومَنَابِتِ العلوم ومَغَارِسِها .

وقد أَكْمَلْنَا له بذلك قَضاء القُضاة بجميع الديار المصرية : أَرْجَاءً وأَكْنَافَا ، ومَدَاينَ وأَرْيافَا ، وأَوْسَاطاً وأَطْرَافاً . وجَعَلْنَاهُ الحاكمَ فى أَقْضِيَتِها ،

والمتصرفَ فى أعمالها ومُدَانيها . وأقاصى بلادها وأَدَانِيها . وأطْلَقْنَا يدَه فى أَحكامِها ، وما يراه من تولية وعَزْلٍ لحُكَّامِها . والنظر فيما كان الحُكَّامُ قَبْلَه يتولونه من الوُقُوف . وهو غَنِىٌّ أن يُوَصَّى بنَهْىٍ عن منكر أو أمر بمعروف . لما فيه من صفات الكَمال ، وشريف الخِلال . ولم نستوفِ وصيةً فى عَهْـدنا إليه ولم نَسْتَقْصِها ، واستغنَيْنَا عن مبسوط الأقوال بمُلَخَّصِها ـ تَحَقُّقاً أنه صاحبُ قِياس الشريعة ونَصِّها .

فلْيَحْكُمْ بما فَوَّضْنَاه إليه ، وبَسَطْنَا فيه يدَيْه : من الجَرْح والتَّعْدِيل[1] ، والإقرار والتَّبْدِيل . واللهُ يُوَفِّقُه فيما تولاه قائِلا وفاعلا ، ويُرشده لمَرَاضِيه مسئولا وسائِلا ، ويجعلُ الصلاح للكافَّة به شاملاً . ويَقْرِنُ التقوى بلسانه وقلبه ، ويُلْبِسُه من السعادة مَلْبَساً لا تَتَخَطَّى الخُطوبُ إلى سَلْبه . ويجعله داعياً إلى الله على بَصِيرةٍ من ربه . إن شاء الله عز وجل .

« كُتِبَ لثمانٍ بَقِيَن من شهر رمضان المعظم ، من سنة أربع وخمسين وستمائة . بالإشارة العالية الصاحبِية ، الوَزِيرِيَّة المَوْلَوِيَّة الشَّرَفِيَّة ، ضاعفَ الله عُلاَها . الحمدُ لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله ، وسلم . حسبُنا الله ونعم الوكيل » .

وكَتَبَ الوزيرُ الصاحب شرف الدين الفائِزى ـ على كلٍّ من هذين التقليدين ، تحت خط السلطان فى بيت العَلاَمة ، ما مِثَالُه : « تمثيلُ الأَمْر العالى ـ أعلاه الله وشرَّفه » .

---

(١) أى الحُكْم بعدالة الأشخاص ، أو نفيها عنهم .

وقد نَقَلْتُ ذلك من التقليدَيْن ، كما شاهدتُه . ولم يتعرض المُوَقِّعَ فيهما إلى ذكر جَامِكِيَّة[1] ولا جِرَايَة . والله أعلم .

ولم تَطُلْ مدةُ هذه الولاية . فإنه صُرِفَ فى السنة التى تليها ، سنة خمس وخمسين ـ فى ثالث شهر ربيع الأول ، وقيل بعد ذلك بقليل . والله أعلم .

ذكر ما حدث بالمدينة النبوية
ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ
من الزلازل ، والنار التى ظهرت بظاهرها

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة ، وردت كُتُبٌ من المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ بخبر هذه الحادِثة . من جملتها ، كتاب القاضى شمس الدين سِنَان ، بن عبد الوهاب بن نُمَيْلة الحُسَيْنى ـ قاضى المدينة ـ وإلى بعض أصحابه بدمشق ، مضمونُه :

« لما كانت ليلةُ الأربعاء . ثالث جمادى الآخرة ـ حدث بالمدينة فى الثُّلُثِ الأَخير من الليل ، زلزلةٌ عظيمة ، أَشْفَقْنَا منها ، ودامت بَقِيَّةَ تلك الليلة . تُزَلْزِلُ كل يوم وليلة قَدْرَ عشر نَوْبَات . واللهِ ، لقد زَلْزَلَتْ مرة ، ونحن حول حجرةِ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى اضطرب لها المِنْبَر ، وسمعنا منه صوتَ الحديد الذى فيه ! واضطربت قناديلُ الحَرَم الشريف ! ودامت

(١) الجامكية : المرتب .

الزلزلةُ إلى يوم الجمعة ضُحىً ، ولها دَوِيٌّ مثل دَوِيِّ الرعد القاصف ! ثم طلع ، يومَ الجمعة ، فى طريق الحَرَّة[1] فى رأس قريظة ، على طريق السُّوارِقِيَّةِ[2] بالمقاعد ، مسيرة من الصبح إلى الظهر ـ نارٌ عظيمة مثل المدينة العظيمة ! وما ظَهَرَتْ لنا إلا ليلةَ السبت . وأَشْفَقْنَا منها وخِفْنَا خَوْفاً عظيماً .

وطَلَعْتُ إلى الأمير وكَلَّمْتُه ، فقلت له : قد أحاط بنا العَذاب ، ارْجعْ إلى الله تعالى . فأَعْتَقَ مماليكَه ، وردَّ على جماعةٍ أموالَهم . فلما فَعَلَ هذا ، قلت له : اهبِط الساعةَ معنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فَهَبط ، وبِتْنَا ليلةَ السبت ، والناسُ جميعاً والنسوان وأولادهم ، وما بقى أحد ، لا فى النخيل ولا فى المدينة ـ إلا عند النبى صلى الله عليه وسلم .

وأَشْفَقْنَا منها ، وظهر لها لسانٌ ـ حتى رُؤِيَتْ من مكة ، ومن الفَلَاةِ جميعِها . ثم سال منها نهرٌ من نار ، وأَخَذَ فى وادى أُحَيْلِين[3] ، وسَدَّ الطريقَ . ثم طلَع إلى بَحْرَةِ الحاج ، وهو نهرُ نارٍ يجرى ـ وفوقه جَمْرٌ تسير إلى أن قطعت الوادى ـ وادى الشَّظَاة[4] . وما عاد يَجِيءُ فى الوادى سيلٌ قط ،

---

(١) موضع معروف فى ظاهر المدينة المنورة ، أرضه كالصخر المحروق ، كانت به موقعة الحَرَّة .

(٢) قرية أبى بكر بين مكة والمدينة ، وهى نجدية وكانت لبنى سُلَيْم .

(معجم البلدان : جـ ٥ ـ ١٦٤)

(٣) هكذا ضَبَطه فى « النجوم الزاهرة : جـ ٦ ـ ١٨ » . وهو وادٍ قريب من المدينة .

(٤) وادٍ يأتى من شرق المدينة من أماكن بعيدة عنها ، حتى يصل إلى الحرة .

(المصدر السابق جـ ٧ ـ ١٧)

لأنها حَرَّةٌ ، تجى قامتَيْن وثلاثا عُلُوُّها . وتمت تَسير ، إلى أن سَدَّتْ بعضَ طرق الحاج ، وبعضَ البَحْرَة ، بَحْرَة الحاج . وجاء فى الوادى إلينا منها قَتِير[1] وخِفْنَا أنه يَجِيئُنا . واجتمع الناس ، ودخلوا على النبى صلى الله عليه وسلم ، وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة . فَطُفِىءَ قَتِيرُها الذى يَلِينَا ، بقُدْرَةِ الله سبحانه .

وهى إلى الآن وما نَقَصَتْ ، إلاَّ تُرىَ مثلَ الجِمالَ حجارةً من نار . لها دَوِىٌّ ، ما يَدَعُنا نَرْقُدُ ولا نأكل ولا نشرب . وما أقدر أَصِفُ لك عِظَمَها ، وما فيها من الأَهْوال . وأَبْصَرَها أهلُ التَّنْعِيم[2] ، ونَدَبُوا قاضِيَهم ابن أسعد . وجاء وَعَدَّى إليها ، وما قدر يَصِفُها من عِظَمِها . قال : وكتبتُ الكتاب ، يوم خامس رجب ، وهى على حالِها ، والناس منها خائفون . والشمس والقمر ، من يوم طلعت ، ما يطلعان إلا كاسِفَيْن . نسأل الله العافيةَ .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : بَانَ عندنا بدمشق أَثَرُ الكُسوف من ضَعْفِ نورها على الحِيطان . وكنا حَيَارَى من ذلك ، لا ندرى ماهو ؟ إلى أن اتضح ، وجاء هذا الخبرُ عن هذه النار .

---

(١) دخان فيه نار ، ورائحة الشىء المحترق .

(٢) موضع بمكة فى الحِلّ (خارج الحرم) وهو بين مكة وسَرَف ، على فرسخين من مكة ـ وقيل على أربعة ـ منه يُحْرِم المَكِّيُّون بالعُمْرة .

(ياقوت : معجم البلدان : جـ ٢ ـ ٤١٦)

وجاء كِتابٌ آخر من بعض بنى القَاشَانى بالمدينة ، يذكر فيه خبرَ هذه الحادثة ، نحو ما تقدم ، ويقول :

« ومن قَبِل ذلك بيومين ، سمع الناس صوتاً مثل صوت الرعد ـ ساعة بعد ساعة ـ وما فى السماء غَيْم ، حتى يُظَنّ أنه منه . ثم زُلْزِلَت الأرض فى يوم الأربعاء المذكور آنفا ، فرَجَفَتْ بنا رَجْفَةً لها صوتٌ كدوى الرعد . ففزِع الناسُ إلى المسجد ، وضَجُّوا بالاستغفار والصلاة . ودامت تَرْجُفُ بالناس ، ساعة بعد ساعة ، من ليلة الأربعاء إلى صبح يوم الجمعة . فارتجت الأرض رجةً قوية ، إلى أن اضطرب بنا المسجد ، وسُمِعَ لسقف المسجد صَريرٌ عظيم ! وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة ، إلى قبل الظهر .

ثم ظهرت نارٌ من الحَرَّة تتفجر من الأرض ، فارتاع الناس لها روعة عظيمة . ثم ظهر لها دُخانٌ عظيم فى السماء ، ينعقد ، حتى بقى كالسحاب الأبيض ، يتصل إلى قبيل مَغِيب الشمس من يوم الجمعة . ثم ظهر للنار ألْسُنٌ تصعد إلى السماء حُمْر ، وعَظُمَتْ حتى غَطَّتْ حُمْرةُ النار السماءَ كلَّها . وبقى الناس فى مثل ضوء القمر . وأيقن الناسُ بالهلاك والعذاب . وذَكَرَ من تَوْبَةِ الناس ، وفعل الأمير بالمدينة وعتقه مماليكَه ، ووضعه المُكُوس ، نحوَ ما تقدم .

قال : وبقيت النار تلتهب التهاباً ، وهى كالجبل العظيم ، ولها حِسٌّ كالرعد . فدامت كذلك . فدامت كذلك أياماً . ثم سالت فى وادى أُحَيْلِين[1] ، فتحدرت فى الوادى إلى الشَّظَاة ، حتى لحق سيلانُها بالبَحْرةِ

(١) سبقت الإشارة إليه

بَحْرَةِ الحاج ، والحجارةُ معها تتحدر وتسير ، حتى كادت تقارب حَرَّةَ العَرِيض . ثم سكنت ووقفت أياماً . ثم عاد يخرج من النار حجارةٌ أمامَها وخلفَها ، حتى بنت جَبَلَيْن أمامها وخَلْفَها ، وما بقى يخرج منها من بين الجبلين لسانٌ لها أياماً . ثم انها عَظُمَتْ الآن ، وسنّاها إلى الآن ، وهى تَتَّقِدُ كأعظم ما يكون . ولها صوتٌ عظيم من آخر الليل إلى صحوة فى كل يوم . ولها عجائب ما أقدر أَصِفُها ، ولا أشرحها لك على الكمال . وإنما هذا منها طَرَف . قال : وكتبتُ هذا الكتاب ، ولها شهرٌ وهى فى مكانها ، ما تتقدم ولا تتأخر .

وقال بعضُ أهل المدينة فى ذلك شِعْراً ، وهو :

يا كاشِفَ الضُّرِّ: صَفْحاً عن جَرَائِمِنا ... لقد أحاطت بنا يارَبِّ بَأْسَاءُ
نَشْكو إليكَ خُطوباً لا نُطِيق لها ... حَمْلاً، ونَحْنُ بها ، حقاً أَحِقَّاءُ
زَلازِلاً تَخْشَع الصُّمُّ الصِّلابُ لها ... وكيف يَقْوَى على الزلزال شَمَّاءُ
أقام سَبْعاً يَرُجُّ الأرضَ ، فانصدَعَتْ ... عن مَنْظَرٍ، منه عَيْنُ الشمس عَشْوَاءُ
بَحْرٌ من النار ، تَجْرِى فوقه سُفُنٌ ... من الهِضَاب ، لها فى الأرض إِرْسَاءُ
كأنما فوقه الأَجْبَالُ ، طافيةً ... مَوْجٌ عَلاَهُ لفَرْطِ الهَيْج غُثَّاءُ (١)
يُرَى لها شَرَرٌ كالقَصْرِ طائشةً ... كَأَنَّها دِيَمةٌ تَنْصَبُّ هَطْلاَءُ
تَنْشَقُّ منها قلوبُ الصَّخْر ، إنْ زَفَرَتْ ... رُعْباً ، وَيَرْعدُ مثل السَّعْفِ رِضْوَاءُ
منها تَكاثَفَ فى الجَوِّ الدُّخَانُ إلى ... أن عادتِ الشمسُ منه وهى دَهْمَاءُ

(١) الغُثَّاء (بتشديد الثاء المفتوحة أو بدون ذلك) الهالِك من ورق الشجر المختلط مع زَبَد السيل .

« القاموس المحيط »

قد أثّرتْ سَفْعَةٌ فى البدر لَفْحَتُها ... فَلَيْلَةُ التِّمِّ بعد النور لَيْلاءُ
تُحَدِّثُ النَّيِّراتِ السَّبْعَ أَلْسُنُها ... بما يُلاقى بها تحت الثَّرَى الماءُ
وقد أحاط لَظَاها بالبُرُوج ، إلى ... أن كاد يُلْحِقُها بالأرض إهْوَاءُ
فيالها آيةً[1] من مُعْجِزات رسول ... الله يَعْقِلُها القومُ الألِبَّاءُ
فباسمك الأعظم المَكْنُونِ إن عَظُمَتْ ... منا الذُّنوبُ ، وساء القلبَ أَسْوَاء[2]
فاسْمَحْ وهَبْ وتفضّلْ وامْحُ واعْفُ وجُد
واصْفَحْ[3] ، فكُلُّ لفَرطِ الجهل خطَّاءُ
فقومُ يونسَ لما آمنوا أُمِنُوا ... كشف العذاب ، وعَمَّ القومَ نَعْمَاءُ
ونحنُ أمةُ هذا المصطفى ، ولنا ... منه إلى عفوك المرجوِّ دَعَّاءُ
هذا الرسولُ الذى لولاه ما سُلِكَتْ ... مَحَجَّةٌ فى سبيل الله بيضاءُ
فارْحَمْ وصَلِّ على المختار ، ما خَطَبَتْ ... على عُلاَ مِنْبَرِ الأوراق وَرْقَاءُ

ذكر خبر احتراق مسجد المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفى هذه السنة ـ فى ليلة الجمعة أول شهر رمضان ـ احترق مسجدُ المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) بقية البيت كانت ناقصة من (ك) ، فأكمل من النسخة الثانية (ع) .

(٢) الأبيات التالية لا تبدو فى مستوى الأبيات التى سبقت فى القصيدة ، فربما تكون إضافة من ناظم آخر .

(٣) هذا الشطر مفقود من النسخة (ك) فأكمل البيت من (ع) .

ابتدأ حريقُه من زاويته الغربية ، من الشمال . وكان سببُ ذلك أن أحد القَوَمَة دخل إلى الخزانة ، ومعه نار ، فعَلِقَتْ فى آلات ثَمَّ ، واتصلت بالسقْف بسرعة ، ثم دبَّتْ فى السقوف ، فَأَعْجَلَت الناسَ عن قطعها . فما كان إلا ساعة ، حتى احترقت سُقوف المسجد أجمع ، [ووقعت[1] بعضُ أساطِينِه وذابَ رَصاصُها ـ وذلك قبل أن نام الناس . واحترق سقفُ الحجرة الشريفة] .

قُلْتُ : وفى وقوع هذه النار مُعْجِزَةٌ لنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ، فإن الخلفاء والملوك بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ زادوا فى عِمارة المسجد بأنواع من العمارة ، وتفنَّنُوا فى النقوش والإتْقان ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ كَرِهَ ذلك ، وقال ـ فى مَرضه الذى انْتَقلَ فيه إلى جِوارِ ربه : « لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارى ، اتَّخَذُوا قُبورَ أنبيائهم مساجد » . وقالت عائشةُ ـ رضى الله عنها ـ ولولا ذلك لأُبْرِزَ قبْرُه ـ صلى الله عليه وسلم . فجاءت هذه النار ، فأكلت ماكَرِهَه صلى الله عليه وسلم .

(١) ما بين الحاصرتين ـ وهو سطر ونصف تقريباً ـ ساقطٌ من النسخة (ك) ، فأكمل النقص من (ع) .

واستلّهت سنة خمس وخمسين وستمائة :

ذكر مقتل السلطان الملك المعز وشيء من أخباره ، ومقتل شجر الدر الصالحية

كان مَقْتَلُه ـ رحمه الله تعالى ـ فى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول ، سنة خمس وخمسين وستمائة .

وسبب ذلك أن شَجَرَ الدُّرّ ـ سُرِّيَّةَ[1] الملك الصالح زوجته ـ اتصل بها أنه سيَّرَ يخطب ابنة صاحب الموصل . فتنكرت لذلك . وكان هو أيضاً قد تَغَيَّرَ عليها ، بسبب امتنانها عليه ، وأنها هى التى مَلَّكته الديار المصرية ، وسلمت إليه الخزائن . وعزم المُعِزُّ على قتلها ، فلم يُخفِها ذلك . فبادرت بالتدبير عليه ، واتفقت هى ومحسن الجوجَرى الخادم ، ونصر العَزِيزى ، على قتله .

فلما كان فى هذا التاريخ ، طلع الملك المُعِزُّ من الميدان إلى قلعة الجبل عقيب اللعب بالكرة ـ فأمر بإصلاح الحَمَّام ، وعبر إليها . فدخل عليه محسن الجوجرى ، وغلام له شديد القوة ، فقتلوه فى الحَمَّام !

---

(١) السُّرِّيَّة : الأَمَةُ التى أسكنها صاحبها بيْتاً .

* القاموس المحيط .

وشاع الخبر بقتله ، فى بُكْرَة نهار الأربعاء ، فسُمِّرَ محسن الجوجرى الخادم وغلامه على باب قلعة الجَبَل . وأما نصر العَزِيزى فإنه هرب إلى الشام . وأُحضرت شجر الدر إلى أم نور الدين بن الملك المعز ، فمازالت تَضْرِبُها ـ هى وجواريها وخدمها ـ إلى أن ماتت . وأُلقيت من أعلى السور إلى الخَنْدَق . وبقيت أياماً عُرْيَانة ملقاة فى الخَنْدَق . ثم حُمِلت ودُفنت فى تربتها المجاورة لمشهد السيدة نفيسة .

وكانت شجر الدر هذه سُرِّيَّةَ الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهى والدة خليل ابنه . وكانت قد مَلَكت الديار المصرية ، وخُطِب لها وخرجت تواقيعها ومَنَاشِيرها ، بالأرزاق والمُباشَرات والإقطاعات ـ وقد تقدم ذكرُ شىء منها . ولما ملك السلطان الملك المعز وتزوجها ، ما زالت تخاطب بالسلطنة ، وتخرج تواقيعها بالإطلاقات وإبطال الحوادث وكف المظالم ، فتنفذ كنفوذ التواقيع السلطانية .

وقد شاهدتُ منها توقيعاً على ظهر قصة ، مترجمها على بن هاشم ، مضمونها : « يُقَبِّلُ الأرضَ بالمقام العالى السلطانى الخَاتُونى ، عصمة الدين ، بَسَطَ اللهُ ظِلها فى مشارق الأرض ومغاربها ـ ويُنْهِى أن له خِدمةً على مولانا الشهيد ـ قَدَّس اللهُ روحَه ـ وله مَلِيكٌ اقتناه فى أيامه ، ولم يُسَقَّعْ[1] عليه قَطْ . وفى هذه الأيام التمسوه ، وسأل إجْرَاءه على عادته ، من غير حادث .

(١) أى لم تؤخذ عنه ضريبة .

وخرج التوقيعُ فى ظهرها ، ومثالُ العلامة عليه : والدةُ خليل الصالحية : « المرسوم ، بالأوامر العالية المولوية السلطانية ـ زادها الله شرفاً وعلواً ـ أن يُجْرَى الأمير الأجل الأخص الأمجد الأعز : نور الدين مترجمها ـ أدام الله توفيقه ـ على عادته . ولا يُطْلَب بسبب تَصْقِيعٍ [1] ولا غيره ، ولْيُعْفَ من ذلك ـ رِعايةً لحق خدمته على الدولة الشريفة ، ولقِدَمِ هِجرته وانقطاعه إلى الله تعالى . فلْيُعْتَمَدْ ذلك بعد الخط الشريف أعلاه وثبوته ـ إن شاء الله تعالى . كُتِب فى ثانى عشرين جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وخمسين وستمائة ـ برسالة الطواشى شرف الدين مختص الجَمَدَار ـ أيَّدَه الله تعالى .

وكُتِبَ عليه بالامتثال . ونُفِّذَ حُكْمُه وعُمل بمقتضاه . وإنما شرحنا هذا التوقيع ، لِيُعْلَمَ أن تواقيعها كانت جارِيةً بلفظ السلطنة ، فى الدولة المُعِزِّيَّة .

وكانت مدة سلطنة الملك المعز ست سنين وأحد عشر شهراً ، إلا أربعة أيام . وكان مَلِكا حازماً شجاعاً ، سَئُوساً حَسَن التدبير ـ إلا أنه كان سفَّاكا للدماء . قَتَلَ جماعةً من خُوشْدَاشِيَّتِهِ بغير ذنب ، لِيُقِيمَ ناموسَ مُلْكِهِ .

ووَزَرَ له الصاحبُ الأسعد : شرف الدين هِبةُ الله بن صاعِد الفائِزى . وتَمكَّنَ منه تمكناً عظيماً . وقَدَّمَه على العساكر وصَرَّفَه فى الأموال .

---

(١) نوع من الضرائب أُحدث فى ذلك العصر ، على البيوت والأشخاص . يذكر تارة بالسين وتارة بالصاد . سيأتى ذكره بعد قليل .

وكان الوزير المذكور من قِبْطِ مصر. خَدَمَ المِلِك الفائزَ أخا الملك الكامل كاتِباً، ثم تقدم وترقى وتنقل فى المراتب، إلى أن وزر. وتحول فى الدولة وابتاع المماليكَ لنفسه. وتَعَالى فى أثمانهم، فكان يبتاع المملوك بألف دينار عَيْناً. واجتمع له نحو من سبعين مملوكاً، يركبون فى خدمته ويترلون. وكان يقول فى وزارته: كنت كاتب المصايد بقنطرة سُيوط، بدِرْهم وثلث فى كل يوم، ثم ترقيتُ إلى هذه الغاية.

وكان ظالمَ النفس، أحدث فى وزارته حوادث كثيرة ومُكُوسا. واستناب القاضىَ زين الدين بن الزُّبَيْر، لفضيلته وكفايته ومعرفته باللغة التركية. وكان يَحْفَظُ له نِظامَ المجلس.

ولما قُتِل الملك المُعِزُّ ملك بعده ولدُه الملك المنصور.

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور نور الدين: على بن السلطان الملك المعز وهو الثانى من ملوك دولة الترك بالديار المصرية

مَلَكَ الديارَ المصرية بعد مقتل أبيه ـ رَحِمَه الله تعالى ـ فى يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وستمائة. وذلك باتِّفَاقٍ من الأمراء المُعِزِّيَّة ـ مماليك والده ـ فَحَلَفُوا له، واستَحْلَفُوا

جميعَ العساكر . وجعلوا الأميرَ فارس الدين أَقْطَاى ، المُسْتَعْرِب الصالحى ـ خُوْشداشْ[1] والدِه ـ أَتابكَه ، بحكم صغر سِنِّ الملك المنصور . ثم استقرت الأتابكية ـ بعد ذلك ـ للأمير سيف الدين قُطُزْ ، المُعِزِّى ـ مملوكِ والده .

ووَزرَ له الصاحبُ شرف الدين الفائِزى ، أياما قلائل ، ثم قُتِل . وذلك أن الأمير سيف الدين قُطُزْ عَزَلَهُ عن الوزارة ، وأمر بالحَوْطَة على أمواله وأسبابِه وذَخائره . وكان مُثْرِياً ، وله ودائعُ كثيرة ، فتُتُبِّعَتْ واستُخْرِجَتْ ممن كانت تحت يده . واعتُقِل ، فسأل أن يُعْطِىَ مالاً ، فِدَاءً عن نفسه .

حُكِىَ عن الصاحب بَهاء الدين السِّنْجَارى أنه قال : دخلتُ عليه فى محبِسه ، فسألنى أن أتحدث فى إطلاقه ـ على أن يَحْمِلَ فى كل يوم ألفَ دينار . قال : فقلتُ له : كيف تقدر على هذا ؟ فقال : أقدر عليه إلى تمام سَنَة . وإلى انقضاء سنة يفرج الله ! ولما بَذَلَ هذا المال ، امتنعت والدةُ الملك المنصور من ذلك ، ولم تَرْضَ إلا بقتله . لأنها كانت مَجْفُوَّةً من السلطان الملك المُعِزّ ، وكان قد اتَّخَذَ سَرَارِىَ[2] وجَعَلَهُنَّ عند الوزير شرف الدين ، فتَقِمَتْ ذلك عليه ، وأمرت بقتله . فقُتِل صَبْراً .

(١) ذكرنا تفسير « خُشداش » من قبل ، وهو الزميل ، فى الخدمة والتبعية ، فى نظام المماليك .

(٢) جوارى .

ذكر أخبار الوزراء ، ومن ولى وزارة الملك المنصور إلى أن استقر فى الوزارة قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز

لما صُرِفَ الصاحب شرف الدين الفائزى ، فُوِّضَتْ الوزارةُ بعده للفقيه : نور الدين بن على بن رضوان القَرافى مؤدّب الملك المنصور هذا ، وخُلِعَ عليه خلَعُ الوزراء . فامتنع أن [يَخُطَّ] بقلَمه ، أو يكتب على توقيع أو منشور ، واستمر كذلك عشرين يوماً ، واستَعْفَى . فأرسل إليه قاضى القضاة بدرُ الدين السِّنْجَارِى ، يلتمس منه أن يتحدث له فى الوزارة ، ويَعِدُه أنه لا يخرج عن أمره . فقال للسلطان ، ولوالدته ـ وكانت لا تحتجب عنه ، فيما قيل ـ للأتابك : أنَا لا أَصْلُحُ لهذا المنصِب ، ولا أنفعُ ولا أنتفع به . وأشار بالقاضى بدر الدين .

فعند ذلك فُوِّضَ للفقيه نور الدين هذا نظرُ الأَحْبَاس والأوقاف ، والشافعى والخانقاه والتُّرَب ، وغير ذلك من الأوقاف وفُوِّضَتْ الوزارة لقاضى القضاة : بدر الدين السِّنْجَارى ، فوَلِيَها ثلاثة أشهر وأياماً ، ثم عُزِل .

وفُوِّضَتْ الوزارةُ بعده لقاضى القضاة : تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأَعَزّ ـ وكان قد صُرِفَ عن القضاء قبل ذلك ، وأعيد قاضى القضاء بدر الدين . وكانت وزارته فى العاشر من شهر رمضان ، سنة خمس وخمسين وستمائة .

ونُسخةُ التَّقْليد ـ على ما نَقَلْتُه عنه ـ ومثالُ العلامة السلطانية بعد البسملة :

« الحمدُ لله وبه توفيقى . الحمدُ لله الذى أوضح بعد العَىِّ سبيلَ الرَّشَد . وتدارك من المجد ما أَخْلَقَ من أَبْرَادِه[1] الجُدُد . ونَقَّفَ[2] قَناةَ المُلْكِ حتى لا يُرَى فيها عِوَجٌ ولا أَوَد[3] . واستغنى فى تدبير سلطانه العظيم عن وزيرٍ به يَعْتَضِد .

أحمَدُه على نِعَمٍ سَهَّلَتْ صَعْبا . وسقَتْ على ظَمَإٍ بارِداً عَذْبا . ورَجَعَ بها ما ضاق من الأمور وَاسِعاً رَحْبا . والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد ، الذى أضحى به مَعْهَدُ الإيمان مَعْهُودَا . ونِظامُ المَكْرُمَات مَنْضُودَا . وعلى آله وأصحابه ، الذين كان سَعْيُهُمْ فى الإسلام مَحْمودا ، وأنوارُ مَنَاقِبِهم مُتَوَقِّدَةً لا تعرف خُمودا .

وبعد ، فلما كان المجلسُ السامى ، الصاحبُ الأجلّ ، الصدْرُ الكبير ، الإمام العالم ، الوزيرُ الكامل ، المُجْتَبَى المختار ، تاج الدين ، بهاء الإسلام ، مجدُ الأنام ، شرف الوزراء زين الفضلاء ، رئيسُ الأصحاب ، صفوة الملوك والسلاطين ، مفتى الفِرَق ، خالصةُ أمير المؤمنين : عبد الوهاب

---

(١) الأثواب أو المعاطف .

(٢) سوَّى .

(٣) الْتِوَاء .

ابن القاضى الأعز خَلَف ـ أدام الله سعادتَه ، وقَرَنَ بالتأييد بَدْأَه وإعادَتَه ـ ممن سَلَكَتْ به التَّجْرِبَةُ حَزْناً وسَهْلاً[1] ، وراضَ جامحَ الأمور ناشِئاً وكَهْلا ، وتَمَّتْ كِلماتُ تفضيله بفضائله صِدْقاً وعَدْلا ، وجَدَّدَتْ له مساعيه الحَميدة ملابسَ ثَناء لا تَبْلَى . وأَجْلَى من أَبْكَار مَعَانِيه بُدُوراً لا تَعْرِفُ أُفُولاً ولا كُسُوفاً ، واسْتَلَّ من آرائه شُعَلاً ، فلو طُبِعَتْ لكانت سيوفاً . وانْسَقَ نظامُ بلاغته ، فكأنه نظامٌ فريد . واسْتُعِيدَتْ أَلفاظُه فما أَخْلَقَها العَوْدُ على المستعيد . وحَلَّى بدُرَرِ مَسَاعِيه جِيداً من المُلْكِ عاطِلا ، وعاد رَبْعُ المَكَارم بمناقبه عامراً آهِلا .

رُسِمَ بالأَمْر العالى المَوْلَوِى السلطانى ، المَلَكى المنصورى النُّورى ـ شَرَّفَه الله وأعلاه ، وأَنْفَذَه وأمضاه ـ أن يُفَوَّضَ إليه أمرُ الوزارة ، لِمَا عُلِمَ فيه من السُّودَد الذى اقْتَادَ به صَعْبَ المَكارِم والمَفاخِر ، التى حَازَ منها ما لم يَحُزْهُ الأوائل ، وإن جاء فى الزَّمَن الآخِر . والفضائل التى فاز منها بقَصَبِ السَّبْقِ ، والأَحكامِ التى تَحَلَّى فيها بدُرِّ الأَنَاةِ والرِّفْق . والسياسةِ التى سَلَكَ بها نَهْجَ السبيل إلى الحق . والمعالى التى أَبْدَى فى كَسْبِها ما أبداه ، من ثَغْرِهِ الضاحك ووجهه الطَّلْق . والنزاهة التى أَهَّلَتْهُ لأشرفِ المناصب ، وقضت له بسلامة العواقب ، والصنايع التى غذت مَعَارِفَه عند مُنَاكَرَةِ النوائب ، والمَكارم التى لَحَّتْ فى العُلُوّ ، فكأنها تحاول أَخْذَ ثَأْرٍ من الكواكب

(١) الحزن ضد السهل ، أى الأرض الصعبة .

ولقد أَمْعَنَّا النظَر فى إرتيادهِ . وانتَقَدْنَاهُ من بين الناس ، فلم نَأْلُ جُهْداً فى انتقاده . وخُطِبَ لهذه الرُّتْبَةِ الرفيعة لما أوراه فى المَكْرُمَات من زِناده . وأُهِّلَ لهذا المنصب الشريف الذى يَدَعُ الآباءَ والأبناءَ من حُسَّادِه .

فلْيَتَوَلَّ ما وَلَّيْنَاه من أمر الوزارة ، فهو لها من الأَكْفَاء . وما اصطفيناه إلا هو جَدِيرٌ بهذا الاصطِفاء . ولِمِثْلِ هذه الرتبة يُتخيَّرُ الأَكارِم من الرجال . وإذا تَنَاسَبَتْ الأشياء ، ظَهَرَ عليها نُضْرَةٌ وجَمَال . فلْيُرْهِفْ لتدبيره عَزْمَه الماضِى الضَّرائب . ولْيَسْتُرْ بمحاسن سَعْيِه ما يبدو له من المَعَايِب . وليهتم بأمر الأموال ، فإن الأَغْرَاضَ منها مُسْتَفَادَة . ولْيَوَلَّ من الأُمَنَاء من يستحق منا الحُسْنَى وزِيادة .

ولْيُنْعِمِ النَّظَرَ فى عِمارة البلاد . واستعمال العَدْلِ الذى به تُدَرُّ أرزاق العِبَاد . وبنوره يَهْدِى إلى سبيل المراشد كُلُّ هَادٍ . وعنده يُوجَدُ تصديقُ ظنون الرُّوَّاد والوُرَّاد . ولْيَكُنْ لأحوال وُلاة الأمور مُتفقِّدا ، وللنظر فى أحوالهم مُجَدِّدَا . ولْيَضْرِبْ عليهم بالأَرْصَاد مَغِيباً ومَشْهَدَا . ولْيَصْفَحْ عن من لم يكن منهم للزَّلَّةِ مُتَعَمدا . فما نُؤْثِرُ إلا أن يكون الإحسانُ للناس شامِلا ، والبِرُّ إليهم متواصِلاً . وما تَحْسُنُ السِّيَرُ إلا إذا تَحَلَّتْ بالمناقِب والمَفاخِر . وتضمنت مَحاسِنَها بُطونُ الأوراق وصُدورِ الدَّفَاتر .

ولْيَتَنَاوَلْ من الجَامِكِيَّة والجِرَايَة [1] ، لاستقبال المباشَرة فى الشهر ، من العَيْنِ مائةَ دينار من الجَوَالِى [2] بالصَّرْفِ الحاضر . ومن الغَلاَّت ، من

---

(١) الجامكية : مرتب ثابت . والجرابة عطاء من الطعام أو غيره ، فوق المرتب .

(٢) ما يؤخذ من أهل الذمة . الجزى . جمع جزية والجَوَالى فى الأصل جمع جالية ، ثم أطلقت على أهل الذمة ، ثم على ما يُجْبَى منهم .

الأَهْرَاء المبارَكة بمصر المحروسة ، خمسين إردبا قمحا وشعيرا ـ ثلثين وثلث . ومن الراتب ـ الشاهدِ به الديوانُ المعمور لمن تَقَدَّمَه ـ النصف » .

وعَيَّنَ جِهاتِ الراتب ، فقال : « الخُبْزُ من المَخَابِز ، واللحم مع التَّوَابِل والخُضَر المُثَمَّنَة ، وما هو مُقَرَّرٌ على دار الوِكالة مُشَاهَرَةً ، من عَرْصَتَىْ الفاكهة بالقاهرة ومصر والرِّبَاع ، وغير ذلك . والعَلِيقُ المقررُ على الاِسْطَبْلاَت من الأَهراء أيضاً . وإن تَعَذَّر حُصول الغَلَّةِ المُقَدَّمِ ذكرها ، والعَلِيقِ المذكور ، يُثَمَّنُ بالسعر الحاضر ، وتكون جهته من جهة الجامِكية . فلْيَسْتَعِنْ بهذا المُقَرَّر على كُلَفِ أوقاته . ولْيَصْرِفْه فى وجوه نَفَقَاته ، بعد العَلاَمِة الشريفة أعلاه ، وثبوته بحيث يَثْبُت مِثْلُه ، إن شاء الله تعالى .

وكُتِبَ فى العاشر من شهر رمضان المبارك ، سنة خمس وخمسين وستمائة ، بالإشارة العالية المَوْلَوِيَّة الأَتَابِكِيَّة الفارِسية ـ أدام الله عُلُوَّها . الحمدُ لله وَحْدَه . وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآلِه . وسلامه » .

وكُتِبَ هذا التقليد فى وَرَق بَغْدَادِى فى قَطْعِ الرُّبْع . وعادة تقاليد الوزراء ـ فى وقتنا هذا ـ تُعَظِّمُ أَرْبَابَها فى النُّعُوتِ والكتابة ، أكثر من هذا .

وفى هذه السنة ـ وقيل فى السنة الآتية ـ كانت الوَقْعَةُ بين العساكر المصرية والملك المُغِيث والبَحْرِية ، وانتصر العسكر المِصرى . وانهزم الملك المغيث والبَحْرِية . وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار البحرية . فلا فائدة فى إعادته .

واستهلّت سنة ست وخمسين وستمائة :

فى هذه السنة ، كانت وفاة بهاء الدين أبو الفضل زُهير ، بن محمد بن على بن يحيى بن الحسن ، بن جعفر بن منصور بن عاصِم المُهَلَّبِى[1] الكاتب .

كان من فُضَلاَء عصره . وكان قد خَدَم المِلِكَ الصالح نجم الدين أيوب ، لَمَّا كان ينوبُ عن والدِه الملك الكامل . وتوجه فى خِدمته إلى الشَّرْق ، ولازَمَه إلى أن قُبِضَ على الملك الصالح واعتُقِلَ بالكَرَك . فأقام بنابُلُس مُحافظةً لمخدومه ، إلى أن خلص ، فعاد إلى خِدمته . وحَضَر فى صُحْبَتِه إلى الديار المصرية ، وتمكن منه واطَّلَعَ على سِره .

وكانت وفاته قُبَيْلَ المغرب من يوم الأحد ، رابع عشر ذى القعدة . ودُفن من الغد ، بعد صلاة الظهر ، بتُربته بالقَرَافة الصغرى ، بالقرب من تربة الإمام الشافعى . ومَولده بمكة ـ شرَّفَها الله تعالى ـ فى يوم الأربعاء ، خامس ذى الحجة ، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

وفيها ، تُوُفِّى الإمام الحافِظ زكى الدين أبو محمد عبد العظيم ، بن عبد القوى بن عبد الله بن سلام ، بن سعد بن سعيد المُنْذِرِى .

---

(١) لأنه ينتسب إلى « المُهَلَّب بن أبى صُفْرة » : القائد الكبير فى عصر بنى أمية .

وكانت وفاته بالقاهرة ، فى يوم السبت ، أول الساعة العاشرة ، ثالث أو رابع ذى القعدة ، سنة وخمسين وستمائة . وَ صُلِّى عليه فى يوم الأحد ـ بعد الظهر ـ بالمدرسة الكامِلِية بالقاهرة المُعِزِّيَّة . ثم صُلى عليه تحت القلعة . وصُلى عليه عند قبره قبل العصر . ودفن بسفح المقطم . وكان مولده بفُسْطَاط مصر ، فى غُرَّة شعبان ، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . وانتهت إليه رياسة الحَدِيث فى زمانه ـ رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى الشيخ الفقيه الإمام : أبو إسحاق إبراهيم ، بن يحيى بن أبى المجد ، الأَسْيُوطى الشافعى .

وكانت وفاته بالقاهرة المُعِزِّيَّة ، فى عشية اليوم السابع من ذى القعدة ، من هذه السنة ، ودُفن بسفح المُقَطَّم . ومولدُه فى سنة سبعين وخمسمائة ـ تقريباً . وكان أحدَ المشايخ المشهورين بمعرفة مذهب الشافعى . وكان كثيرَ الإيثار مع الإقْتَار ، والإفْضَال مع الإقْلال ، كريمَ الأخلاق . رحمه الله تعالى .

واستهلّت سنة سبع وخمسين وستمائة :

فى هذه السنة ـ ثانى عشر جمادى الآخرة ـ جُبِىَ التَّسْقِيعُ[1] بالقاهرة .

---

(١) هكذا فى النسختين بالسين . وهى ضريبة فُرضت ، كانت تجبى على البيوت بعد إحصائها . وكان التسقيع يطلق أولاً على الإحصاء . (ذُكرت فى السلوك بالصاد : التصقيع) .

(انظر سلوك ـ زيادة : جـ ١ . ق ٢ ـ ص ٣٨٤ حاشية ٢)

ونرى أن الرسم الثانى أولى ، لأنه ربما يكون نسبة إلى الصُّقع ، أى المكان .

وفيها ، فى شعبان ـ أُمِسك شخص يعرف بالكُورَانى ، فضُرِب ضربا شديداً ، وحُبس على بِدَعٍ رؤيت منه وسُمِعت عنه . ثم جَدَّدَ إسلامَه وتاب ، على يد شيخ الإسلام : عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، وأُطْلِق من الحبس . وكان مُقامه بالجبل الأحمر .

ذكر القبض على الملك المنصور ، وعلى أخيه قاآن ، واعتقالهما

كان القبض على السلطان الملك المنصور ، بن السلطان الملك المُعِزّ ، فى يوم الجمعة ـ السابع والعشرين من ذى القعدة ـ سنة سبع وخمسين وستمائة .

وسبب ذلك أنه تَشاغَل باللهو واللعب ، والمُسابقة بالحَمِير الفُرْه ، بين يديه ، وأمثال ذلك . وكانت أمه تُدَبِّرُ المملكةَ تدبيرَ النساء . فأطمعت الأميرَ سيفَ الدين قُطُزْ المُعِزِّى نفسُه بالمُلْك . واتفق خروجُ خُوشْدَاشِيَّته إلى الصيد ، فانتهز الفرصة ، وقَبَض على الملك المنصور ، وعلى أخيه قاآن ، وعلى والدته . واعتقلهما فى بُرْجِ السِّلْسِلَة[1] بثَغْر دِمْياط ، ثم سُفِّرَ إلى القسطنطينية فى الأيام الظاهِرية الرُّكْنِية . فكانت مدة سلطته سنتين ، وثمانية أشهر ، ويومين .

---

(١) وهو البرج الذى كان مقاماً فى وسط النيل شمالى دمياط ، وبه سلسلتان متصلتان بالبر لمنع السفن . تقدم ذكره فى الحروب الصليبية .

ذكر أخبار السلطان الملك المُظَفَّر سيف الدين قُطُز المُعِزّى . وهو الثالث من ملوك دولة الترك بالديار المصرية

مَلَك الديارَ المصرية فى يوم السبت ، لِلَيْلَتَين بقيتا من ذى القعدة ، سنة سبع وخمسين وستمائة ـ بعد أن قَبَضَ على المِلك المنصور ، بن مولاه الملك المُعِزّ .

قال : ولما مَلَك ، حضر خُوْشَداشِيَّتُه من الصيد ، وتنكروا له ، وامْتَعَضُوا من مُلْكِه . فَقبضَ عليهم واعتقَلَهم ، وأَعْجَلَهُمْ عن التدبير . وهم : الأمير علم الدين سَنْجَر الغَتْمى ، والأمير شرف الدين قِيزَان[1] المُعِزِّى ، وعز الدين أَيْبَك النَّجِيبِى الصغير ، وشمس الدين قَرَا سُنْقُر المُعِزِّى . واعْتَقَل أيضاً شمس الدين الدُّودْ : خال الملك المنصور بن المُعِزّ ، والطَّوَاشى حسام الدين بلال المُغِيثى اللاَّلاَ .

واستَحْلَفَ الأمراء والعساكر ، وأظهر الحزم . واستوزر الصاحب زين الدين بن الزبير . وعزل الأمير حسام الدين بن باذ عن وظيفة شاد الدواوين . وولى الأمير نور الدين بن السديد . واستَمَرَّ بالأمير فارس الدين أَقْطَاى المستعرِب على الأتابكة ، وفوض إليه أمر العساكر .

---

(١) هكذا فى (ع) بالزاى ، ولكن الاسم ورد فى بعض المراجع بالراء .

واحْتَفَل بأمر الجند ، واستعد للجهاد . وأرسل إلى الملك الناصر صاحب الشام ، وطلب منه الاتفاق واجتماع الكلمة . والمظافرة على العدو ، وأن يكونا يدا واحدة على حرب التتار . فحَلَفَ له على ذلك . ثم كان من أمر الملك الناصر ، واضطراب أمره ، وزوال ملكه ، واستيلاء التتار على حلب ودمشق وغيرها ـ ما قدمناه .

ومَلَك التتارُ الشامَ بأَسْرِه . وجَرَّدَ هولاكو كَتُبُغَا نُوينْ فى جيش كثيف ، اختاره من المُغُل ، وبعثه إلى الشام . وكان من أمره ، وأمر جيوش الشام ، وتَحَلُّلِهم بلادَ الشام ، ووصولهم إلى نابُلُس ، وقتل من قدمنا ذكره بها ـ ما شرحنا ذلك فى أخبار الملك الناصر . فلا فائدة فى إعادته .

وفى سنة سبع وخمسين وستمائة .

توفى الأمير مُنِيف بن شِيحَة ، صاحب المدينة النبوية . وقام بعده بالمدينة أخوه : جَمَّاز بن شِيحَه .

وفيها ، توفى الشيخ الفاضل الصَّدْر الكبير فتح الدين أبو العباس : أحمد بن الشيخ جمال الدين أبى عمرو عثمان ، بن أبى الحَوَافِر ـ رئيس الأطباء بالديار المصرية .

وكانت وفاته فى ليلة الخميس ، رابع عشر رمضان ، ودفن بالقرافة . وَوَلِىَ رياسة الأطباء بعده ابنُ أخيه : الصَّدْر شهاب الدين أحمد ، بن محيى الدين رشيد بن جمال الدين عثمان ، بن أبى الحَوَافِر .

واستهلّت سنة ثمان وخمسين وستمائة :

ذكر وصول البحرية والشهرزورية إلى خدمة السلطان الملك المظفر

فى هذه السنة ، فارق الأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِى ـ ومن معه من الأمراء البَحْرِيَّة ـ السلطانَ الملك الناصر صاحب الشام ، لِمَا رأوه من ضعف رأيه ، وتخاذله عن ملاقاة عدوه . وتوجهوا إلى غَزَّة . واجتمعوا هم والأمراء الشَّهْرَزُورِيَّة .

وأرسل الأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس ـ المذكور ـ الأميرَ علاء الدين طَيْبَرْس الوَزِيرِى إلى السلطان الملك المُظَفَّر ، يستأذنه فى الحضور إلى خدمته ـ هو ومن معه ـ ويلتمس إيمانَه لهم . فأجاب الملكُ المظفرُ إلى ما طَلَب . فتوجه من غَزَّة بمن معه . وكان وصولهم إلى القاهرة فى يوم السبت ، الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول .

فرَكِبَ الملكُ المظفر للقائهم ، وأنزل الأميرَ ركن الدين بدار الوزارة . وأقطعة قصبة قَلْيُوب ، لخاصّه . فأشار الأميرُ ركن الدين عليه بحرب التتار . وقوّى عزائمَه على ذلك .

ذكر خبر المُصَافّ[1] الكائن بين السلطان الملك المُظَفَّر ومن معه من الجيوش الإسلامية ، وبين جيش التتار على عَيْنِ جَالُوت[2] . وانهزام التتار وقتل مقدمهم كَتُبُغَا نُوين ، وما يتصل بذلك من الأخبار

لما مَلَك التتارُ الممالك الشامية ، وزالت دولةُ الملك الناصِر صلاح الدين يوسف من الشام ـ كما قدمنا ذكرَ ذلك ـ راسل كَتُبُغَا نُوين ، مُقَدَّمِ جيش التتار ، السلطانَ الملك المُظَفَّر ، وأرسل إليه ، يطالبه ببَذْلِ الطاعة ، وتَعْبِئَة الضِّيَافَة . فقَتَلَ الملكُ المُظَفَّر رُسُلَه ، إلا صبيًّا واحداً ، فإنه استبقاه ، وضمه إلى جملة مماليكه .

واستَعَدَّ للجهاد ، وخرج بعساكر الديار المصرية ، ومن انضم إليه من جيوش الشام ـ الذين فارقوا الملك الناصر ـ ومن حضر إليه من الأمراء البَحْرِيَّة ، والأمراء الشَّهْرَزُورِيَّة ، وغيرهم .

---

(١) أى : الموقعة الكبيرة ، أو الهامة .

(٢) عرف ياقوت هذا المكان الذى حصلت فيه الموقعة التاريخية الحاسمة (وقد حدثت بعد عهده) بقوله : « عين الجالوت : « هى بليدة .. بين بَيْسان ونابُلُس ، من أعمال فلسطين » .

(معجم البلدان : جـ ٦ ـ ص ٢٥٤)

وقد ذكرنا من قبل أن بيسان هى قصبة الغَوْر (أى الأردن) ، ونابُلُس من فلسطين ، شمالىّ القدس . بين الجالوت أو جالوت ـ كما هو الذائع ـ تقع إذن بين الأردن وفلسطين ، من جهة فلسطين .

وراسل الملكَ الأشرفَ مظفر الدين موسى ، صاحبَ حمص ـ وكان قد عاد من جهة هولاكو من حلب ـ وفوّضَ إليه نيابةَ السلطنة بالشام أجمع ، وحلب ، وغير ذلك ، والملكَ السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل ـ وكان قد أخَذ من هولاكو فَرَمَانًا بالصُّبَيْبَة وبَانْيَاس (١) . وسألهما المُظَافَرة والمُعَاوَنة على حرب العدُوّ ، وأن تكون الكلمةُ واحدة .

فتوجه رسوله ، واجتمع بالملك السعيد . فسبَّه وسَبَّ من أرسله ، وقال : من هو الذى يوافقُ هذا الصبى ، أو يدخل فى طاعته أو ينضم إليه ؟! ونحو هذا من الكلام . ففارقَهَ وتوجه إلى الملك الأشرف . فخلا الملك الأشرف بالرسول ، وقبَّلَ الأرضَ بين يديه تعظيما لمُرْسِلِه . وأجلسه مكانه على مرتبتِه وجلس بين يديه ، وسمع رسالته . وقال له : قَبِّلِ الأرضَ بين يدى مولانا السلطان الملك المُظَفَّر ، وأَبْلِغْه عنى أننى فى طاعته وموافقته ، وامتثال أمره . والحمدُ لله الذى أقامه لنُصْرَةِ هذا الدين . ووَعَدَ أنه ، إن حضر المُصَافَّ مع التتار ، انهزم بهم ، إلى غير ذلك . وأَعْطَى الرسولَ ذهبا جيِّدًا ، واعتذر إليه .

فعاد الرسولُ ، وأبلغ الملكَ المظفر عن كل من المَلِكين ما قال له . فعامل كلا منهما ، عند ظفره ، بماذكره .

---

(١) قلعتان بالقرب من دمشق . مر ذكرهما .

قال : وجمع السلطانُ الملكُ المظفر الأمراءَ بالصالِحيَّة[١] ، واستشارهم : أين يكون لقاءُ العدو ؟ فأشاروا أن يكون بالصالِحيَّة . وصَمَّمُوا على ذلك . فوافقهم على رأيهم ظَاهِراً . وركب فى صَبِيحة ليلة المَشُورة من مَنْزِلة الصالِحِية . وحَرَّكَ الكُوسَات[٢] ودخل الرَّمْلَ . فانْجَرت العساكرُ خلفه ، ولم يتخلف منهم أحدٌ عنه . وسار بعساكرِه وجموعه ، حتى انتهى إلى عَيْنِ جَالُوت ـ من أرض كَنْعَان[٣] ، بالقرب من بَيْسَان ، مدينة غَوْرِ الشام .

وأقبل كَتُبُغَا نُوين بجيوش التتار ، ومن انضم إليه . والتقوا واقتتلوا ـ وذلك فى يوم الجمعة ، الخامس والعشرين من شهر رمضان ، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة . وثَبتَ الملك المظفَّر أحسن ثَبَات . حكى بعض من حضر هذه الواقعة قال : كنتُ خلف السلطان الملك المُظَفَّر ، لما التحم القتال ووقعت الصَّدْمةُ الأولى ، فاضطر جناحُ عسكر السلطان ، وتتعتع طَرَفٌ منه . فلما رأى الملك المظفر ذلك ، رمى خُوذَتَه عن رأسه ، وصاح : وا إسلاماه ! وحَمَلَ ، فأعطاه الله تعالى النصر . وكانت الدائرةُ على التتار ، وأخذهم السيف والإسَار . وقُتِلَ كَتُبُغَا نُوين ، فيمن قُتِل . وانهزم مَن سَلِم من التتار ، لا يَلُوون على شىء . وكان الأمير ركن الدين بِيبَرْس البندقدارى ممن شهد هذه الوقعة ، وأبلى يومئذ بلاءً حسناً .

---

(١) بلدة معروفة بمصر ، فى طرف محافظة الشرقية من الشرق .

(٢) الصُّنُوج التى تُدَق ، إيذاناً بمسير ركب السلطان ـ كما تقدم .

(٣) فلسطين .

وكان ممن أُسِرَ من التتار ، فى هذه الوقعة : كَتُبُغَا المَنْصُورى ـ وهو يومئذ شاب ـ وهو الذى مَلَك الديار المصرية ـ بعد ذلك ـ فى سنة أربع وتسعين وستمائة ، ولُقب بالعادل . ووقع فى ذلك حكايةٌ غريبة ، نذكرها ـ ان شاء الله تعالى ـ عند ذكرنا لسلطنة الملك العادل كَتُبُغَا .

قال : ولما تمت الهزيمةُ على التتار ، جاء الملكُ السعيد ـ بن الملك العزيز ـ إلى السلطان الملك المظفر ، مُسْتَأْمِناً . وكان شَهِدَ الوقعة مع التتار . فترَجَّلَ عن فرسه ، وتقدم إلى السلطان ليُقَبِّلَ يدَه . فضربه برجلِه على فَمِه ، فأَدْمَاه . وجاء أحدُ سلاح دارية[1] السلطان ، فضرب عُنُقَه ! وفَعَلَ ذلك به ، مؤاخذةً له على جوابه ، الذى ذكره لرسولِ السلطان .

ذكر مسير السلطان الملك المظفر إلى دمشق ووصوله إليها ، وملكه الممالك الشامية ، وما قرره من ترتيب الملوك والنواب ، وغير ذلك مما اتفق بدمشق

قال المؤرخ : ولما تم النصر ، تقدم السلطان الملك المظفر ، طالباً جهةَ دمشق . واتصل [الخبر] بالزين الحافظى ونواب التتار بدمشق ، ومن كان قد وصل ـ صحبة الملك العزيز فخر الدين عثمان بن الملك المغيث ، صاحب

(١) السلاح دار هو المتولى شئون أسلحة السلطان . دار بمعنى صاحب ـ كما تقدم ، غير مرة .

الكَرَك ـ من جهة هولاكو من توريز[١] ، ليكون شِحْنَةً[٢] بالكَرَك ، وكانوا بدمشق . فخرجوا هاربين إلى هولاكو .

وكان النصارى بدمشق ، فى أيام التتار ، قد استطالوا على المسلمين ، ومدوا أيديَهم ، وبَسَطُوا ألسنتهم فيهم . فلما اتصل خبرُ النصر بالمسلمين ، ثار جماعةٌ من العوام ، وحرقوا كنيسة مريم ، وخربوا بعضها . فأقاموا كذلك من يوم الجمعة إلى يوم الثلاثاء . إلى أن وصل الأمير جمال الدين أقُش المُحَمَّدِى ، بكتاب السلطان الملك المظفر ، ودخل دمشق . ونزل دار السعادة ، وسَكَّنَ الناسَ وطَمَّنَهُم .

ثم وصل السلطانُ فى يوم الأربعاء ، سَلْخ شهر رمضان . ونزل على الجَسُورَة[٣] ، وخَيَّمَ بها . وَعيَّدَ عِيدَ الفِطْر ، ثم دخل إلى دمشق ، فى ثانى شوال ، ومَلَكَ البلاد .

ورتَّبَ النُّوَّابَ فى المماليك الشامية : ففَوَّضَ نيابة دِمشق إلى الأمير ـ علَمِ الدين سَنْجَر الحلَبى ـ الصالِحى . وجعل معه الأميرَ فخر الدين : أبا الهَيْجَا بن خُشْتَرِين . وأقر الملكَ الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته ، بحِمص والرَّحْبة وتَدْمُر . وبعث الملكَ المظفر بن الملك الرحيم ـ بدر الدين

(١) هى نفسها « تبريز » ، ولكنا ابقيناها على رسمها كما هى فى (ع) ، لأن هذه لغة فيها .

(٢) الشِّحْنَة : الحامية التى تُترك فى المدينة لتحفظها ـ كما كان فى اصطلاح ذلك العصر .

(٣) موضع بظاهر دمشق .

لؤلؤ ـ إلى حلب نائباً بها ، ونعته بالملك السعيد ـ لمشاركة التَّغْت . وأقر الملكَ المنصور بن الملك المظفر على مملكته بحَماه . وأقطع البلادَ الشامية والحلبية . وأصلح ما اضطرب من الأمور . وعاد لقصد الديار المصرية ، فقُتِل ـ قبل وصوله إليها .

ذكر مقتل السلطان الملك المظفر سيف الدين قُطُز ، ونبذة من أخباره

كان مقتله ـ رحمه الله تعالى ـ فى يوم السبت ، الخامس عشر من ذى القعدة ، سنة ثمان وخمسين وستمائة ـ وقيل فى سابع عشر الشهر .

وذلك أنه لما قَرَّرَ أمورَ الشام ، ورتب الملوكَ والنواب والممالك ، عاد من دمشق لقصد الديار المصرية ، فى سادس عشر شوال . فلما وصل إلى مَنْزِلَةِ القُصَيْر من منازل الرَّمْل[1] ، ركب إلى الصيد . وكان الأمير بدر الدين أُنُصْ الأَصْفَهَانى ، وجماعة معه ، تظافروا هم والأمير ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِى ، على اغتياله . فقصدوه ـ وهو فى الصيد ـ وقتلوه غِيلَةً !

(١) ذكرها أن الرمل كان يُقصَد به المنطقة التى تقع بين فلسطين ومصر ، وفيها طريق الشام . والقُصَيْر ـ المقصود هنا ـ هو : بلد بمصر بطريق الرمل ، بينه وبين الصالحية مرحلة . وموضعه اليوم قرية الجعافرة إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية .

(انظر : النجوم الزاهرة : جـ ٧ ـ ص ٨٣ و ص ١٠١)

وحُكِىَ فى كيفية قتله : أنه كان قد تغير خاطرُه على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . فلما تقدّم الأمراءُ إليه ، سأله الأمير بدر الدين أُنصْ الرضا عن الأمير ركن الدين . فقال : قد رضيتُ عنه . فترجل الأمير ركن الدين ليُقَبِّلَ يدَه . فلما تناولها قَبَضَ عليها ، وجذبه عن سَرْجِه ، وبَدَرَه أولئك الأمراء بالضرب ، فَقَتَلُوه ـ رحمه الله تعالى .

ويقال : إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله [هم] : الأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدِى ، والأمير سيف الدين بَهَادُر المُعِزِّى ـ خُوشْدَاشُه[1] ـ والأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكَانْ دَار[2] المُعِزِّى ، والأمير سيف الدين بِيغَان الرُّكْنى ، والأمير سيف الدين بَلَبان الهَارُونى ، ومن ذكرنا.

وكان الملك الظاهر يَدَّعى أنه هو الذى قتله بيده . وقال جماعة : إنه لم يباشر قتله ، وإنما كان يَدَّعى ذلك ، افْتِخَاراً . وقد نُقِلَ أن الملك الظاهر لما قَبَضَ على يده ، ضربه الأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكَانْ دَار على عاتِقِه بالسيف ، فأبَانَه . وألقاه الأمير بدر الدين أُنصْ عن فرسه . ثم رماه الأمير سيف الدين بهادُر المُعِزِّى بسهْم ، أتى على روحه ـ رحمه الله تعالى . فكأنه المعنى بقول الشاعر :

وما كانَ إلا السيفَ، لاَقَى ضَرِيبَةً[3] فقَطَّعَهُ ، ثم انثنى فتَقَطَّعَا

---

(١) زميله فى الخدمة والنشأة ـ كما سبق ذكره .

(٢) معنى هذا اللقب : حامل أو صاحب « جوكان » السلطان (أى الصولجان » أثناء لعبة الصوالجة .

(القلقشندى : جـ ٥ ـ ص ٤٥٨)

وهذه هى اللعبة أو الرياضة التى تعرف اليوم باسم « البولو » .

(٣) أى مماثله ونظيره : سَيْفاً مثله .

وكانت مدةُ ملكه أحد عشر شهرا ، وسبعة عشر يوماً .

وأما غير ذلك من أحواله ـ رحمه الله تعالى ـ : فقد حُكِى أنه كان من أولاد الملوك الخُوَارَزْمِيَّة . وأنه مَحْمُود بن مَمْدُود ، ابن أخت السلطان خُوَارَزْم شاه . وإنما أُبيع ، لما استولى التتار على البلاد ، وملكوا مُلْكَ الخُوَارَزْمِيَّة . وقتلوا الرجال وأسروا النساء والصبيان ، وكان هو ممن أُسر وأُبيع . وقد كان هو يُصَرِّحُ بذلك ـ فيما حُكِىَ عنه ـ ويستكتم من يَحْكِيه له .

وقد نقل الشيخُ شمس الدين : محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن إبراهيم ابن عبدالعزيز ، بن أبى الفوارس الجَزَرِى ، ثم الدِّمَشْقِى ـ فى تاريخه : « حوادث الزمان وأنبائه » أن والده أخبره أن الحاج على الفرَّاش أخبره ، قال :

لما كان قُطُزْ فى رِقِّ ابن الزَّعِيم [1] بدِمشق ـ وكان سكنه بالقَصَّاعِين [2] ـ غضب عليه فى بعض الأيام فلَطَم وجهَه ، ولعنه ولعن والدَيْه وجَدَّه . قال : فبكى قُطُزْ بكاءً شديدا ، وجعل ينتحِب طولَ نهاره ، وامتنع من الأكل . وركب أستاذُه بعد صلاة الظهر إلى الخِدمة ، فقال لى : استَرْضِه وأَطْعِمْه ، واعْتِبْه على بكائه .

---

(١) رجل من دمشق .

(٢) درب بدمشق ، إزاء سوق الفسقار (الذى يعرف اليوم باسم سوق مدحت باشا) .

قال الفرّاش : فجئتُ إليه وجعلت ألومه على بكائه من لطمة واحدة ، فكيف لو ضُرِبْتَ ألفَ عصاة أو دَبُّوس ، أو جُرِحْتَ بسيف ؟ ! فقال : والله ما بُكائى وغيظى من أجل لطمة ، وإنما كونه لعن أبى وأمى وجدى . فقلت له : ومن أبوك وجدك وأمك ؟ فقال : والله أبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وجدى خير من جده . فقلت له : أنت مملوك تركى ، كافر بن كافرين .

فقال : والله ، ما أنا إلا مسلمٌ ، ابن مسلِمين : أنا محمود بن ممدود ، ابن أخت خُوَارَزْم شاه ، من أولاد الملوك . قال : فسكَتُّ عنه وطَايَبْتُه . وتَقَلَّبَت به الأحوالُ ، إلى أن مَلَكَ الديار المصرية والشام . ولما ملك دمشقَ أحسن إلى الحاج على الفراش المذكور ، وأعطاه خمسمائة دينار ، ورتب له راتباً جيِّدا .

قال الشيخ شمس الدين : وقد حَكَى لى ولِوالدى ، هذه الحكاية عنه . هذا معنى كلامِه ولَفْظِه .

ومما يُؤَيِّدُ هذه الحكايةَ أيضاً ـ ويشهد لها ـ ما حكاه الشيخُ شمس الدين ـ المذكور ـ عن والده ، قال : حَكَى لى الحاج أبو بكر بن الدُّرَيْهِم الإسْعِرْدِى ، والحاج زكى الدين إبراهيم الجَزَرِى ـ المعروف بالجُبَيْلى ، أستاذ الفارس أَقْطَاى ـ قالا :

كنا عند الأمير سيف الدين قُطُز فى أول دولة أُسْتاذه : الملك المُعِزّ ، وقد حَضَر عنده مُنَجِّمٌ ورد من بلاد المغرب ـ وهو موصوف بالحِذْق فى علم الرَّمْل والفَلَك . فأمر قُطُز أكثر مَنْ عنده من حاشيته بالانصراف ، فانصرفوا .

وهَمَمْنَا بالقيام ، فأَمَرَنَا بالجلوس ، فجَلَسْنا . وما تَرَكَ عنده إلا من يَثِقُ به من خَوَاصِّه . وقال للمُنَجِّم : اضْرِب الرمل . فَفَعل . وحَدَّثَه بأشياء كثيرة ، مما كان فى نفسه .

وكان آخرَ ما قال له : اضرب وانظر من يَمْلِكُ بعد أُستاذى ، ومن يَكْسِرُ التتار ؟ فضَرَبَ ، وحسب حساباً طويلاً ، وبقى يفكر ويَعُدُّ أصابعَه . وقال : قد طَلَعَ معى خمسُ حروف بغير نقط ، وأبوه أيضاً خمس حروف بغير نقط . وأنت اسمك ثلاث حروف ، وابن السلطان كذلك . فقال له : لم لا تقول : محمود بن ممدود ؟ فقال المنجم : لا يقعُ غيرُ هذا الاسم . فقال قُطُز : أنا محمود بن ممدود . وأنا أَكْسِرُ التتار ، وآخذُ بثأر خالى خُوَارَزْم شاه . ثم استَكْتَمَنَا هذا الأمر . وأنعم على المنجم بثلاثمائة درهم ، وصَرَفه .

وحُكِيَ عن المَوْلَى المرحوم تاج الدين أحمد بن الأثير ـ رحمه الله تعالى ـ ما معناه :

أن الملك صلاح الدين يوسف صاحب الشام ـ رحمه الله تعالى ـ لما كان على بَرْزَة[1] ، فى أواخر سنة سبع وخمسين وستمائة ـ وصل إليه قُصَّادٌ[2] من الديار المصرية ، بكتب ، تتضمن أن قُطُز قد تسلطن وملَكَ الديار المصرية ، وقبض على الملك المنصورِ بن أستاذه الملك المعز . قال القاضى تاج الدين : فطلبنى السلطان ـ رحمه الله ـ فقرأتُ عليه الكتب .

(١) قرية كبيرة فى غوطة دمشق . سبق ذكرها ، غير مرة .

(٢) جمع قاصد ، وهو الرسول .

فقال لى : خُذْ هذه الكتب ، وتوجه إلى الأمير ناصر الدين القَيْمُرِى ، والأمير جمال الدين بن يَغْمُور ، وأَوْقِفْ كلاًّ منهما عليها . قال : فأخذتها وخرجت من عنده . فلما بعدتُ عن الدِّهْلِيز ، لقينى حسام الدين البركة خانى [1] ، فسلم على ، وقال ، جاءكم بَرِيدٌ أو قُصَّادٌ من الديار المصرية فَوَرَّيْتُ [2] ، وقلتُ : ما عندى عِلْمٌ بشىء من هذا . قال : قُطُز يتسلطن ، ويملك الديار المصرية ، ويكسر التتار . قال القاضى تاج الدين : فعجِبت من كلامه ، وقلت له : إيش هذا القول ؟ من أين لك هذا ؟

قال : والله ، هذا قُطُز هو خُوشْدَاشى [3] . كنت أنا واياه عند الهَيْجَاوى من أمراء مصر ، ونحن صِبيان . وكان عليه قَمْلٌ كثير ، فكنت أُسَرِّحُ رأسه ـ على أننى كلما أخذتُ عنه قملة ، آخذ منه فَلْساً أو صَفْعَة . فلما كان بعضُ الأيام أخذت عنه قملاً كثيراً . وشرعت أصفعه . ثم قلت فى غُضُون ذلك : والله ما أشتهى إلا أن الله يرزقنى إمْرَةَ خمسين فارسا ، فقال لى : طَيِّبْ قلبك ، أنا أعطيك إمْرَةَ خمسين فارسا . فصفعتُه . وقلت : وَالَكَ [4] ، أنت تعطينى إمرة ؟ ! قال نعم ! فصفعتُه ! فقال لى : وَالَكَ ، إيش يلزم لك إلا إمرة بخمسين فارس . أنا والله ، أُعْطِيك . قلت : وَالَكَ ، كيف تُعطينى ؟ .

---

(١) نسبة إلى « بركة خان » الذى كان مقدم أى رئيس الخوارزمية

(٢) أى أجبتُ بعبارة مبهمة فيها تَوْرِيَة .

(٣) زميلى فى النشأة والخدمة ـ كما تقدم .

(٤) يبدو أنها صيغة من « ويلك » مثل « ويحك » تقال للتعجب .

قال : أَمْلِكُ الديارَ المصرية : قلت : تَمْلِكُ الديار المصرية ؟ ! قال : نعم ، رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المنام ، وقال لى : أنتَ تَمْلِكُ الديارَ المصرية ، وتَكْسِرُ التتار . وقولُ النبي صلى الله عليه وسلم لا شك فيه . فسكَتّ . وكنت أعرف منه الصِّدْقَ فى حديثه وعَدَمَ الكذب .

وتَنَقَّلَتْ به الأحوال ، وارتفع شأنه . إلى أن صار هو المحتكم فى الدولة . وما أشك أنه يملك الديار المصرية ـ مستقبَلاً ـ ويكسِر التتار ـ كما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم ـ فى المنام .

قال القاضى تاج الدين : فلما قال لى هذا القول ، قلت له : والله قد وَرَدَت الأخبار أنه تَسَلْطَنَ فى الديار المصرية . قال لى : والله ، وهو يَكْسِر التتار . فما مضى إلا مدةٌ يسيرة ، حتى خرج وكسر التتار .

قال المولى تاج الدين ـ رحمه الله ـ فرأيت الأمير حسام الدين البركة خانى ، الحاكى لى ـ بعد ذلك ـ بالديار المصرية ، بعد كَسْرَةِ التتار . فسَلَّمَ على وقال لى : تَذْكُرُ ما قلتُ فى الوقت الفُلاَنى ؟ قلت : نعم . قال : والله ، حالَمَا عاد الملك الناصر[1] من قَطْيَا[2] ، ودخلتُ أنا إلى الديار المصرية ، أعطانى إِمْرَةَ خمسين فارساً ، كما قال ـ رحمه الله ـ لا زَايَدَ على ذلك .

وقد ذكر هذه الحكاية الشيخُ قطبُ الدين اليُونينى[3] فى تاريخه ، وقال أيضاً :

---

(١) يقصد : السلطان قُطُز .

(٢) ذُكرت من قبل ، وهى موقع بين العريش والفَرَمَا على ساحل البحر ، فى الطريق من الشام إلى مصر .

(٣) نسبة إلى « يونين » وهى قرية من قرى بعلبك . ووفاته سنة ٧٢٦ هـ .

وتاريخه هو : « الذيل على مرآة الزمان » .

وحَكَى لى الأميرُ عزالدين بن أبى الهَيْجَا ما معناه : أن الأمير سيف الدين بُلْقَاق حدثه ، أن الأمير بدرالدين بَكْتوتُ الأَتَابِكى حَكَى له ، قال :

كنتُ أنا والملك المظفر قُطُز ، والملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس ـ رحمهم الله تعالى ـ فى حال الصِّبَا ، كثيراً ما نكون مجتمعين فى ركوبنا وغير ذلك . فاتفق أن رَأَيْنَا مُنَجِّماً فى بعض الطرق بالديار المصرية . فقال له الملك المظفر : أَبْصِرْ نجْمى . فضرب بالرمل وحَسَب ، وقال له : أنت تملكُ هذه البلاد ، وتكسر التتار ! فشرعنا نَهْزَأُ به . ثم قال له الملك الظاهر : فأَبْصِرْ نجمى . فضرب بالرمل وحسب ، وقال : وأنت تملك الديار المصرية وغيرها . فتزايد استهزاؤنا به ! ثم قالا لى : لابد أن يُبْصِرَ نجمك . فقلت له أَبْصِرْ لى . فضرب وحسب ، وقال لى : وأنت تحصل لك إمرة بمائة فارس ، يعطيك هذا ـ وأشار إلى الملك الظاهر . فاتفق أن الأمر وَقَعَ كما قال . وهذا من عجيب الاتفاق .

قال الشيخ قطب الدين اليُونينى ـ نَفَع اللهُ به ـ :

وكان السلطانُ الملك المُظَفَّر بَطَلاً شجاعاً ، ولم يكن يُوصف بشُح ولا كَرَم ، بل كان متوسطاً . وهو أول من أجترأ على التتار ، وكَسَرَهم ، بعد خُوَارَزْم شاه ، كَسْرَةً عظيمة ، جُبِرَ بها الإسلام .

قال : ومما حُكِيَ لى عنه : أنه قُتِلَ فى يوم المُصَافّ[١] جَوادُه بعَيْنِ جَالُوت ، ولم يُصادِفْ فى تلك الساعة أَحَدٌ من أُوشَاقِيَّتِه[٢] ، الذين معهم جَنَائِبُه ، فبَقِى راجِلا . ورآه بعضُ الأمراء الشجعان ، فترجل عن حصانه وقدمه له ليركبه . فامتنع ، وقال له ما معناه : ما كنتُ لآخذ حِصانك فى هذا الوقت ، وأمنعُ المسلمين الانتفاعَ بك ، وأعرضك للقتل . وحَلَفَ عليه أن يركب فرسَه . فامتثل أمْرَه ، وركِب . ووافاه الأوشاقِيَّة بالجنائب[٣] ، فركب جَنِيباً .

فلامه بعض خَوَاصِّه على ذلك ، وقال : لو صادَفَك ـ والعِياذُ بالله ـ بعضُ المَغُل ، وأنت على الأرض راجِلا ، كنتَ رُحْتَ ، وراح الإسلام ! فقال : ـ أما أنا فكنتُ أروح إلى الجنة ـ إن شاء الله تعالى . وأما الإسلام ، فما كان الله عز وجل ليضيعه . فقد مات الملكُ الصالح ، وقُتِلَ ولدُه الملك المعظم ، والأميرُ فخرالدين بن الشيخ ـ مُقَدَّم العساكر ـ ونَصَرَ اللهُ الإسلام ، بعد اليَأْسِ من نَصْره ـ يُشير إلى نَوْبَةِ المنصورة[٤] .

---

(١) أى الموقعة .

(٢) جمع « أو شاق » ـ ويقال أيضاً أو جاق ـ وهو الذى يتولى ركوب الخيل للتيسير والرياضة .

(صبح الأعشى : جـ ٥ ـ ص ٤٥٤)

(٣) الجَنِيب هو الحصان الذى يؤخذ مع الفارس ، احتياطاً ، ليستبدل به فرسه عند الحاجة .

(٤) أى الموقعة التى حدثت بالمنصورة .

قال : ولما قَدِمَ إلى دمشق بعد الكَسْرة [١] ، أجْرَى الناسَ كافَّة ، على ما كانوا عليه إلى آخر الأيام الناصِرية ، فى رواتِبهم ومُقَرَّرَاتِهم وإطْلاَقَاتِهم . ولم يتعرض إلى مالِ أحد ، ولا إلى مِلْكِه .

ثم تَوَجَّهَ [٢] ، بعد تقريرِ قواعد الشام . فرزقه الله الشهادة ، فقُتِلَ مظلوماً . رحمه الله تعالى

(١) أى هزيمة التتر على أيدى جيش مصر .

(٢) أى إلى مصر .

انتهى الجزء التاسع والعشرون
من كتاب « نهاية الأرب » للنويرى
الحمد لله

فهرس موضوعات

الجزء التاسع والعشرون

من كتاب نهاية الأرب

فى فنون الأدب للنويرى

الصفحة

تمهيـــد ٥

ذكر أخبار السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وسلطنته ٩

ذكر الغلاء الكائن بالديار المصرية فى الدولة العادلية وهو الغلاء المشهور..... ١٢

ذكر وفاة القاضى الفاضل وشئ من أخباره..... ١٣

ذكر الخلف الواقع بين الأمراء الصلاحية والسلطان الملك العادل ١٩

ذكر اتفاق الملوك الأيوبية وما استقر لكل منهم من الممالك..... ٢٦

ذكر خبر الزلزلة الحادثة بالديار المصرية والبلاد الشامية وغيرها ٢٨

ذكر عمارة المسجد الجامع بقاسيون ٣٢

ذكر وفاة الملك المعز صاحب اليمن وقيام أخيه نجم الدين أيوب ٣٢

ذكر حصار ماردين وما حصل من الاتفاق ٣٦

ذكر قصد العادل بلاد الفرنج ٤٠

ذكر انتقال السلطنة من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل ٤١

ذكر ورود رسل الخليفة الناصر لدين الله بالخِلَع للملك العادل وأولاده ووزيره ٤١

الصفحة

ذكر استيلاء الملك الأوحد بن السلطان الملك العادل على خِلاَط ٤٣
ذكر حصار الملك العادل سِنْجار ورجوعه عنها وأخذ نصيبين والخابور ٤٩
ذكر بناء القبة على ضريح الإمام الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ وعمارة السوق .. ٥٣
ذكر عزل الصاحب صفى الدين عبدالله بن على بن شكر وولاية الصاحب الأعز بن شكر..... ٥٥
ذكر حادثة الأمير عزالدين أسامة واعتقاله والاستيلاء على قلاعه ٥٩
ذكر وفاة الملك الأوحد صاحب خلاط واستيلاء أخيه الملك الأشرف عليها ٦٢
ذكر قيام أهل مصر على الملك الكامل ورجعه..... ٦٣
ذكر استيلاء الملك المسعود بن الملك الكامل على اليمن..... ٦٥
ذكر القبض على الصاحب الأعز ٧١
ذكر مصادرة الصاحب صفى الدين بن شكر ونفيه من الديار المصرية ٧٦
ذكر مسير السلطان إلى الشام ٧٨
ذكر قصد الفرنج جِزِين وقتلهم ٨٠
ذكر تخريب حصن الطور ٨١
ذكر وفاة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر : محمد بن أيوب وشئ من أخباره ٨٢
ذكر تسمية أولاد السلطان الملك العادل وما استقر لهم من الممالك والإقطاع... ٨٤
ذكر أخبار السلطان الملك الكامل ناصر الدين بن السلطان الملك العادل سيف الدين ، أبى بكر محمد بن أيوب ٨٧
ذكر نزول الفرنج على ثغر دمياط ٨٧
ذكر حوادث وقعت فى مدة حصار ثغر دمياط ٨٨
ذكر وصول الملك المعظم عيسى ـ صاحب دمشق ـ وإخراج عماد الدين بن المشطوب وما اتفق له بعد خروجه..... ٩٠
ذكر وصول الصاحب صفى الدين بن شكر ووزارته ٩٢
ذكر خراب القدس..... ٩٣
ذكر استيلاء الفرنج على دمياط..... ٩٤
ذكر عود الملك المعظم شرف الدين عيسى إلى الشام وما اعتمده ٩٥
ذكر وفاة ست الشام ابنة أيوب وإيقافها أملاكها ، وتفرقة أموالها ، وما فعله الملك

الصفحة

المعظم مع قاضى الشام ، بسبب ذلك ٩٦
ذكر وصول ملوك الشرق إلى السلطان الملك الكامل وانهزام الفرنج واستعادة ثغر دمياط . وتقرير الهدنة ١١٣
ذكر رجوع السلطان إلى القاهرة وإخراج الأمراء إلى الشام ١١٨
ذكر توجه الملك المسعود بن الملك الكامل من اليمن إلى الحجاز . وما عتمده ١٢١
ذكر ملك الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل مكة ١٢٥
ذكر عصيان الملك المظفر شهاب الدين غازى على أخيه الملك الأشرف وقتاله . وانتصار الملك الأشرف ١٢٦
ذكر وصول الملك المسعود من اليمن ١٢٨
ذكر ابتداء المعاملة بالفلوس بالديار المصرية ١٣١
ذكر وصول رسول الخليفة إلى الملوك أولاد السلطان الملك العادل ، وطلب الصلح بينهم والاتفاق ١٣٥
ذكر هدم مدينة تنِّيس ١٣٩
ذكر الوحشة الواقعة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه المعظم ١٤٠
ذكر وفاة الملك المعظم عيسى ، وشئ من أخباره وسيرته ، وقيام ولده الملك الناصر داود ١٤٣
ذكر تسليم البيت المقدس وما جاوره للفرنج ١٤٩
ذكر توجه السلطان إلى دمشق وحصارها ، وأخذها من ابن أخيه : الملك الناصر داود ، واستقرار الملك الناصر بالكرك وما معها ١٥٣
ذكر تسليم دمشق للملك الأشرف ١٥٥
ذكر أخذ مدينة حَماه وتسليمها للملك المظفر ١٥٦
ذكر وفاة الملك المسعود ، صاحب اليمن ١٥٧
ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك ١٦٢
ذكر استيلاء السلطان الملك الكامل على آمد وحصن كيفا ١٧٠
ذكر توجه رسول السلطان الملك الكامل إلى بغداد ، وعوده هو ورسول الخليفة بالتقليد ١٧٣
ذكر ركوب الملك العادل بشعار السلطنة ١٩٠
ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى بلاد الروم ١٩٨

الصفحة

ذكر إنشاء جامع التوبة بالعُقيبة بدمشق ٢٠٧
ذكر وقوع الوحشة بين السلطان الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف ٢١٦
ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب وقيام ولده الملك الناصر ٢١٧
ذكر وفاة الملك الأشرف وشئ من أخباره وقيام أخيه الملك الصالح إسماعيل وإخراجه من الملك ٢١٨
ذكر مُلك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ـ بن الملك العادل ـ دمشق ، ووصول الملك الكامل إليها وحصار دمشق وأخذها وتعويض الصالح عنها ٢٢٣
ذكر وفاة السلطان الملك الكامل ٢٢٧
ذكر ما اتفق بدمشق بعد وفاة السلطان الملك الكامل فى هذه السنة ٢٢٨
ذكر ما وقع بين الملكين : الناصر والجواد ، وهرب الناصر إلى الكرك ٢٣٠
ذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب ببلاد الشرق فى هذه السنة ٢٣٢
ذكر أخبار السلطان الملك العادل ٢٣٤
ذكر ما وقع فى هذه السنة من الحوادث ـ خلاف ما تقدم ـ ٢٣٦
ذكر القبض على الصاحب صفى الدين مرزوق ومصادرته واعتقاله ٢٣٨
ذكر خروج دمشق عن الملك العادل وتسليمها لأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ٢٣٩
ذكر أخبار الملك الجواد ، وما كان من أمره بعد تسليم دمشق ٢٤٣
ذكر مخالفة الأتراك على السلطان الملك العادل ، وتوجههم إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق ٢٤٩
ذكر وصول الملك الناصر داود ـ صاحب الكرك ـ إلى السلطان الملك العادل .. ٢٥٠
ذكر عود السلطان الملك العادل من بلبيس إلى قلعة الجبل ٢٥٢
ذكر قتال الفرنج وفتح القدس ٢٥٣
ذكر وفاة الملك المجاهد صاحب حمص ٢٥٤
ذكر وصول رسل الخليفة إلى السلطان الملك العادل بالتَّشاريف ٢٥٥
ذكر القبض على السلطان الملك العادل وخَلْعِه ٢٥٦
ذكر أخبار السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل ـ وما كان من أمره بعد وفاة أبيه إلى أن ملك الديار المصرية ٢٥٧
ذكر استيلاء الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن السلطان الملك العادل سيف الدين

الصفحة

أبى بكر محمد بن أيوب ـ على دمشق ٢٦٠
ذكر القبض على الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتقاله بقلعة الكرك ٢٦٣
ذكر إطلاق الملك الصالح من الاعتقال بالكرك ، وما كان من أمره إلى أن ملك الديار المصرية ٢٦٥
ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية وهو السلطان الثامن من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية ٢٦٧
ذكر عود الملك الناصر داود إلى الكرك ٢٦٨
ذكر عدة حوادث وقعت فى سنة سبع وثلاثين وستمائة خلاف ما قدمناه ٢٧١
ذكر مسير الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق منها لقصد الديار المصرية ، وقتاله الملك الناصر صاحب الكرك وعوده إلى دمشق ٢٧٧
ذكر تسليم صَفَد وغيرها للفرنج وما فعله الشيخ عزالدين بن عبدالسلام ـ بسبب ذلك ـ وما اتفق له مع الملك الصّالح ٢٧٨
ذكر صرف قاضى القضاة شرف الدين بن عين الدولة عن القضاء بمصر والوجه القبلى ، وتفويض ذلك لقاضى القضاة بدرالدين السِّنجارى ٢٨٢
ذكر وفاة قاضى القضاة شرف الدين بن عين الدولة ، وشئ من أخباره ٢٨٢
ذكر وصول شيخ الإسلام عبدالعزيز بن عبدالسلام ـ إلى الديار المصرية ، وما اتفق له بعد خروجه من الشام إلى أن وصل ، وتفويض القضاء بمصر والخطابة بها ـ وغير ذلك ـ إليه ، وما فعله ، وعزله نفسه ٢٩٤
ذكر الاتفاق والاختلاف بين الملكين الصالحين : نجم الدين أيوب صاحب مصر ، وعماد الدين إسماعيل صاحب دمشق ٣٠٢
ذكر الواقعة الكائنة بين عسكر مصر ـ ومن معه من الخوارزمية ـ وبين عسكر الشام ـ ومن شايعهم من الفرنج ـ وانهزام الفرنج وعسكر الشام ، على غزه ٣٠٥
ذكر وفاة الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه وملك ولده المنصور ٣٠٨
ذكر استيلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق وأخذها من عمه الملك الصالح إسماعيل ، وعود الصالح إسماعيل إلى بعلبك وما معها ٣١٠
ذكر وفاة الأمير الصاحب معين الدين ٣١٤
ذكر محاصرة الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك دمشق ، وما حصل بها من الغلاء

الصفحة

بسبب الحصار ٣١٤

ذكر وقعة الخوارزمية وقتل مقدمهم ، واستيلاء الملك الصالح على بعلبك وأعمالها ، وصرخد ٣١٩

ذكر استيلاء جيش السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على بعلبك ، وخروج الملك الصالح إسماعيل عنها ٣٢٢

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حمص ، وقيام ولده الملك الأشرف ٣٢٣

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الشام وما استولى عليه فى هذه السفرة ، وما قرره ، وعوده ٣٢٣

ذكر القبض على الأمير عزالدين أيبك المعظمى ، ووفاته ٣٢٧

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق وما اعتمده ٣٢٨

ذكر وفاة الملك المظفر شهاب الدين غازى وقيام ولده الملك الكامل ٣٢٩

ذكر استيلاء الفرنج على ثغر دمياط ٣٣٤

ذكر استيلاء السلطان على قلعة الكرك وبلادها ٣٣٥

ذكر وفاة الملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب ٣٣٦

ذكر خبر الأمير فخر الدين أبى الفضل يوسف بن الشيخ ـ وقتله ٣٣٨

ذكر أخبار السلطان الملك المعظم غياث الدين تُورانشاه وهو التاسع من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية ٣٤٠

ذكر عدة حوادث كانت فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، غير ما تقدم ٣٥٤

ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملِكهم ريدا فرنس ٣٥٥

ذكر مقتل السلطان الملك المعظم ٣٥٩

ذكر ملك شجر الدر : والدة خليل ، سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ... ٣٦٢

ذكر استعادة ثغر دمياط من الفرنج وإطلاق ريدا فرنس ٣٦٣

ذكر خلع شجر الدر نفسها من الملك وانقراض الدولة الأيوبية من الديار المصرية ٣٦٣

الأيوبيون فى غير الديار المصرية ٣٦٤

ذكر استيلاء الملك الناصر على دمشق ٣٦٦

ذكر توجه رسول السلطان الملك الناصر يوسف إلى الديوان العزيز ببغداد . وما جهزه

الصفحة

صحبته من الهدايا والتقادم وما أورده الرسول فى الديوان العزيز من كلامه ٣٧٠
الحرب بين الملك الناصر والملك المعزّ ٣٧٧
ذكر اتصال السلطان الملك الناصر بابنة السلطان علاء الدين كيقباذ ٣٧٩
ذكر سياقة أخبار الملك الناصر ومراسلته هولاكو . وغير ذلك من أحواله ٣٨١
ذكر أخبار دولة التّرك ٤١٤
ذكر أخبار الأتراك وابتداء أمرهم وكيف كان سبب الاستيلاء عليهم . واتصالهم بملوك الاسلام . وما استكثر منهم . وتغالى فى اتباعهم وقدمهم على العساكر ٤١٥
السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالحى ٤١٩
ذكر الحرب الكائنة بين الملك المعز والملك الناصر صاحب الشام . وانتصار المعز ٤٢٠
ذكر الصلح بين الملكين : المعز والناصر ٤٢٦
ذكر خبر عربان الصعيد . وتوجه الأمير فارس الدين أقطاى إليهم وإبادتهم ٤٢٧
ذكر خبر الأمير فارس الدين أقطاى . وما كان من أمره إلى أن قتل ٤٢٩
ذكر أخبار الأمراء البحرية . وما اتفق لهم بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاى ٤٣٣
ذكر مخالفة الأمير عز الدين أيبك الأفرم وخروجه عن الطاعة . وتجريد العسكر إليه وإلى من وافقه ، وانتقاض أمره ٤٣٩
ذكر تفويض قضاء القضاة بالديار المصرية للقاضى : تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف ٤٤١
ذكر ما حدث بالمدينة النبوية من الزلازل . والنار التى ظهرت بظاهرها ٤٤٩
ذكر خبر احتراق مسجد المدينة النبوية ٤٥٤
ذكر مقتل السلطان الملك المعز وشىء من أخباره . ومقتل شجر الدر الصالحية .. ٤٥٦
ذكر أخبار السلطان الملك المنصور نور الدين : على بن السلطان الملك المعز وهو الثانى من ملوك دولة الترك بالديار المصرية ٤٥٩
ذكر أخبار الوزراء ، ومن ولى وزارة الملك المنصور ٤٦١
ذكر القبض على الملك المنصور وعلى أخيه قطز . واعتقالهما ٤٦٨
ذكر أخبار السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى وهو الثالث من ملوك دولة الترك بالديار المصرية ٤٦٩

الصفحة

ذكر وصول البحرية والشهر زورية إلى خدمة السلطان الملك المظفر ٤٧١
ذكر خبر المصاف الكائن بين السلطان الملك المظفر ومن معه من الجيوش الإسلامية .
وبين جيش التتار على عين جالوت . وانهزام التتار وقتل مقدمهم كتيغانوين .
ومايتصل بذلك من الأخبار ٤٧٢
ذكر مسير السلطان الملك المظفر إلى دمشق ووصوله إليها . وملكه الممالك الشامية .
وماقرره من ترتيب الملوك والنواب . وغير ذلك مما اتفق بدمشق ٤٧٥
ذكر مقتل السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز . ونبذة من أخباره ٤٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٨٠/١٩٩٢

ISBN 977- 01- 2946- 1

مركز تحقيق التراث

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
٦٧٧ - ٧٣٣هـ

الجزء الثلاثون

تحقيق
د. محمد عبد الهادي شعيرة

مراجعة
د. محمد مصطفى زيادة

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

أشرف على الطبع والتصحيح

أحمد صلاح زكريا

الباحث الأول بمركز تحقيق التراث

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا هو الجزء الثلاثون من نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى ، وهو يقابل الجزء الثامن والعشرين بتقسيم المؤلف .

ويبدأ هذا الجزء بذكر أخبار السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى (سنة ثمان وخمسين وستمائة) وينتهى بذكر وصول السلطان الملك السعيد ناصر الدين إلى قلعة الجبل ، وما كان من أمره إلى أن انخلع من السلطنة، وتولية أخيه السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش من بعده ، إلى أن تم خلعه (سنة ثمان وسبعين وستمائة) .

وقد اعتمد المحقق والمراجع — رحمهما الله — فى تحقيق هذا الجزء على نسختين :

الأولى : نسخة أيا صوفيا وهى نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٥٥١ معارف عامة وقد رمز لها بالحرف (ا) واعتبرت أصلا .

الثانية : نسخة كوبريلى وهى نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة وقد رمز لها بالحرف (س) .

نسأل الله التوفيق والسداد ،،

مركز تحقيق التراث

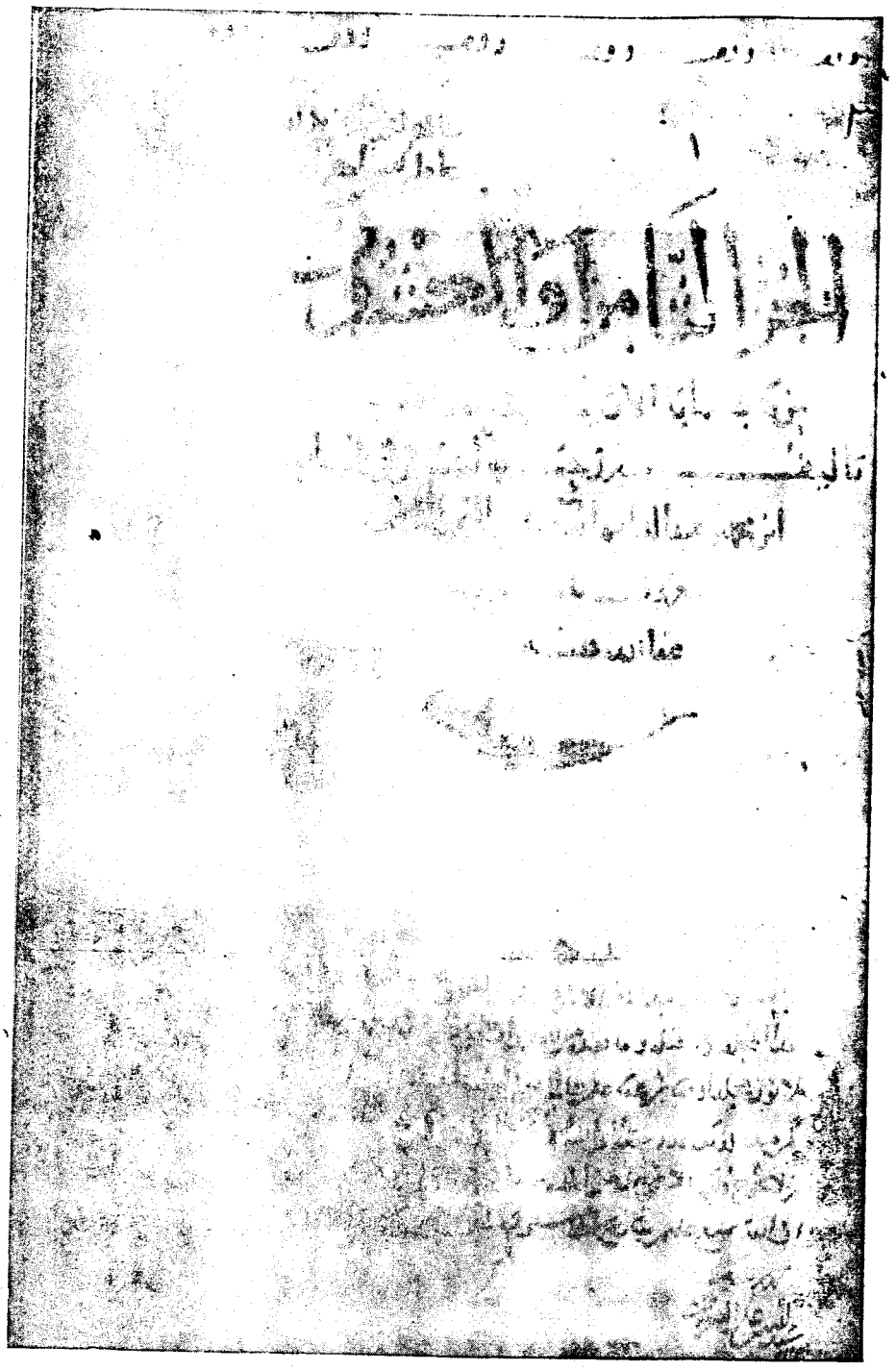

صفحة العنوان من النسخة (١)

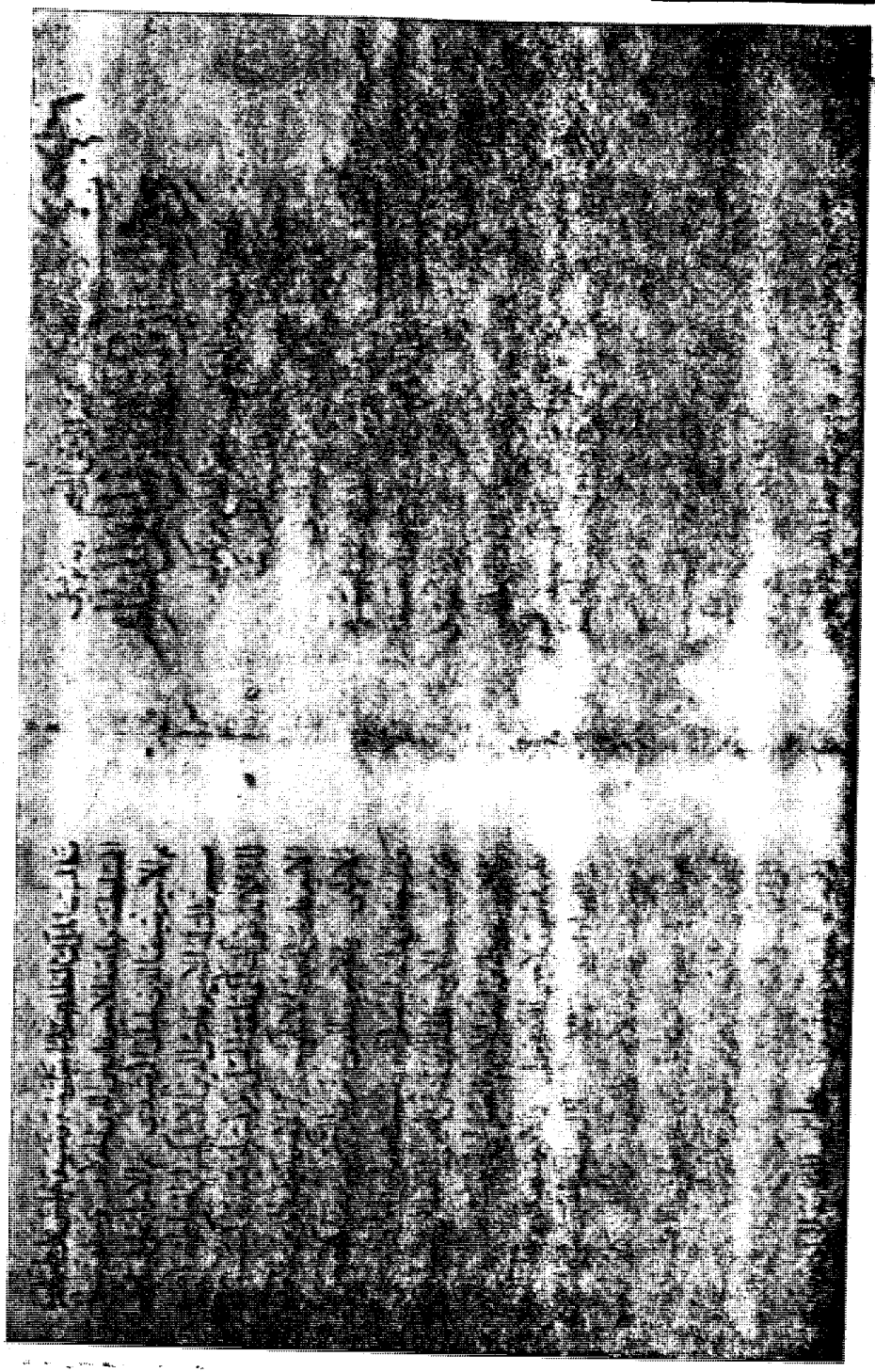

الصفحة الأولى من النسخة (أ)

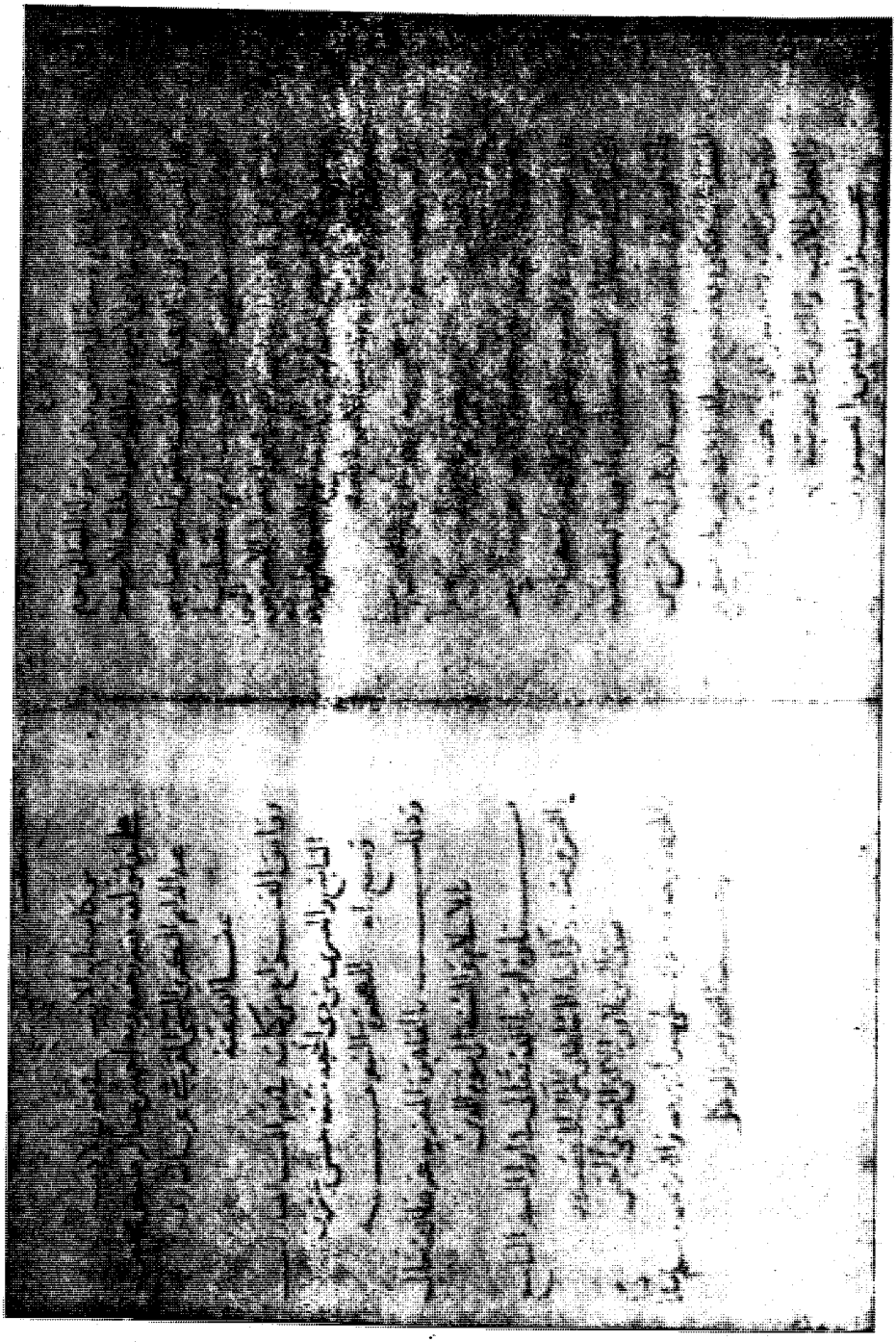

الصفحة الأخيرة من النسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبـــه توفيق

[سنة ثمـان وخمسين وستمائة]

ذكر أخبار السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى

وهو الرابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية المحروسة، وهو تركى الجنس من قبيـلة البرلى ، ملك الديار المصرية والبـلاد الشامية فى يوم السبت المبارك الخامس عشر من ذى القعدة سـنة ثمـان وخمسين وستمائة ، وكان ذلك بمـنزلة القصير[1] من منازل الرمل، فى اليوم الذى قتل فيه السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى .

وذلك أنه لمـا قتل الملك المظفر ساق الأمراء إلى الدهليز ونزلوا به ، وجلسوا كلهم دون طراحة السلطنة ، وتشاوروا فيمن يملكونه[2] عليهم ، فوقع اختيارهم عليه . ويقال إن الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب الصالحى الأتابك قال فى ذلك المجلس : « ينبغى ألا يلى السلطنـة إلا من خاطر بنفسه فى قتـل السلطان وأقدم على هذا الأمر العظيم » فقال الملك الظاهر : « أنا قتلته » ووثب وجلس

---

(١) المقصود قصـير الصالحية ، وهى على مرحلة من مدينة الصالحيـة الحالية واسمها اليوم قرية الجمافرة بمركز فاقوس ، راجع النجوم (ج ٧ ص ١٠١ ، س ١٢ — ١٥) .

(٢) فى الأصل ، وفى نسخة (س) : يملكوه .

على طراحة السلطنة ، فبايعه الأمير فارس الدين المذكور ، وحلف له ، ثم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، ثم الأمراء على طبقاتهم . ثم قال له الأمير فارس الدين الأتابك : « إن السلطنة لا تتم لك إلا بدخولك إلى قلعة الجبل » ، فركب لوقته ، وركب معه الأمير فارس الدين الأتابك ، والامير سيف الدين قلاون الألفى ، والأمير بدر الدين بيسرى[1] الشمسى ، ومماليكه وخواصه .

وتوجه [بيبرس] إلى قلعة الجبل ، ورتب فى مسيره إليها أرباب الوظائف : فرتب الأمير جمال الدين أقش[2] النجيبى الصالحى استاد دارا[3] ، والأمير عز الدين أيبك الأقرم الصالحى أمير جاندار ، والأمير حسام الدين لاجين الدرفيل ، والأمير سيف الدين بلبان الرومى فى الدوادارية ، والأمير بهاء الدين أمير آخور على عادته . ولقيه فى طريقه الأمير عز الدين ايدمر الحلى ، وكان ينوب عن الملك المظفر بقلعة الجبل ، وقد خرج لتلقيه ، فأعلمه الملك الظاهر بما اتفق ، وعرض عليه أن يحلف ، ثم تقدم [ايدمر] إلى القلعة واجتمع بمن بها ، ووعدهم من السلطان المواعيد الجميله فأجابوه ، ولم يزل على باب القلعة إلى أن وصل السلطان إليها ، فدخلها ليلا وتسلمها .

ويقال إنه لما ملك [بيبرس] تلقب بالملك القاهر ووصل إلى قلعة الجبل ولقبه ذلك ، فأشار الصاحب زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب ، وقال إنه ما لقب به أحد فأفلح : لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل أيامه وخلع وسمل .

---

(١) هذا الضبط منقول عن السلوك (جـ ١ ، ص ٤٠٥) .

(٢) كذا فى الأصل بغير ضبط أما صاحب النجوم (جـ ٧ ص ١٥٥) فإنه يرسم الاسم بالواو (أقوش) .

(٣) كذا فى الأصل دائما .

ولقب به القاهر صاحب الموصل فسم . فنقل السلطان لقبه إلى الملك الظاهر والله أعلم .

قال المؤرخ[١] وكانت القاهرة ومصر قد زينتا لقدوم الملك المظفر ، والناس فى سرور لمقدمه إثر هذا النصر العظيم[٢] ، فلم يرعهم إلا ومناد ينادى : « معشر الناس ، رحمكم الله ، ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين » فوجم الناس لذلك ، وتألموا خوفا من شدة البحريه وما كانوا[٣] يعتمدونه من الظلم والسلطنة فى غيرهم ، فكيف وقد صارت فيهم . فعاملهم السلطان بما سرهم به ، وهو أن الملك المظفر كان قد جدد على الناس حوادث[٤] فى سنة ثمان وخمسين وستمائة : منها تصقيع الأملاك وتقويمها وأخذ زكاتها ، وأخذ ثلث الترك الأهلية ، ومضاعفه الزكاة ، وجباية الدينار من كل إنسان ، ومبلغ ذلك ستمائة ألف دينار . فأبطل السلطان [بيبرس] ذلك ، وكتب به توقيعا قرئ على المنابر ، فطابت قلوب الناس .

قال : ولما أصبح السلطان [بيبرس] فى يوم الأحد جلس بالإيوان بقلعة الجبل وحلف العساكر لنفسه ، واستناب مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار[٥]

---

(١) المؤرخ المقصود هنا هو محى الدين بن عبد الظاهر مؤلف السيرة الظاهرية برغم عدم ذكر اسمه ذلك أن النويرى ينقل عن هذه السيرة الظاهرية دون التقيد باللفظ حتى إذا نقل عن غيرها نبه إلى ذلك .

(٢) الإشارة هنا إلى وقعة عين جالوت .

(٣) فى الأصل « كأنه » وما هنا من النسخة « س » .

(٤) الحوادث هنا بمعنى الضرائب الطارئة (انظر دوزى) .

(٥) كذا فى الأصل دائما .

وأقر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب فى الأتابكية .

وكاتب الملوك والنواب والأمراء بالممالك الشامية يخبرهم بما جدده الله تعالى له من أمر السلطنة ، ويطلب منهم بذل الطاعة والموافقة .

واستهلت سنة تسع وخمسين وستمائة

فى هذه [السنة] كان للسلطان فى ابتداء سلطنته أخبار متشعبة متباينة : منها ما هو فى حضرته بمقر ملكه بالديار المصرية ؛ ومنها ما هو بدمشق ، ومنها ما هو بحلب ، وكل ذلك فى هذه السنة ، وبعضه فى أواخر سنة ثمان وخمسين .

وقد رأينا أن نبدأ من ذلك بما كان فى مقر مملكته فى بعض هذه السنة خاصة ، ثم نذكر ما كان بدمشق وحلب من الحوادث والوقائع إلى أن استقرت قواعد سلطنته وتأكدت أسباب دولته ، ثم نذكر ما يشمل المملكة عموما ، ثم نذكر بعد ذلك ما اتفق [له] من الأحوال ، وما رتبه من الأمور ، وما أمر به من العمائر والأوقاف وغير ذلك بمصر والشام ، ونذكر الأخبار والوقائع على حكم السنين نقدم ما قدمه التاريخ ونؤخر ما أخره .

لا نستثنى مما نورده من أخبار دولته إلا الغزوات والفتوحات : فإنا نذكرها مفردة ، ونختم بها أخبار دولته ، فإنها من الفتوحات الجليلة والغزوات المشهورة فأحببنا إيرادها فى موضع واحد ، لئلا تنقطع بغيرها من أخباره ، على ما نقف على ذلك إن شاء الله تعالى .

فأما ما كان من الأخبار والحوادث فى مقر ملكه بالديار المصرية

فمن ذلك ركوب السلطان من قلعة الجبل فى يوم الأثنين سابع صفر من السنة بشعار السلطنة ، وساق خارج المدينة إلى باب النصر ودخل منه ، وشق القاهرة وخرج من باب زويلة إلى قلعة الجبل ، والأمراء وأعيان الدولة مشاة فى خدمته .

ومنه تفويض وزارة الدولة إلى الصاحب بهاء الدين .

ذكر تفويض الوزارة إلى الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن القاضي سديد الدين أبي عبد الله محمد بن سليم المعروف بابن حنا

فى هذه السنة ، فوض السلطان إليه وزارة دولته ، وخلع عليه ، وركب فى خدمته الأعيان والأكابر ، والأمير سيف الدين بلبان الرومى الداودار ، وجماعة من الأمراء ، وذلك فى يوم الأثنين ثامن شهر ربيع الأول وقيل ثانية ، وتمكن [الصاحب بهـاء الدين] من السلطان ودولتـه تمكنا عظيما . وحكى لى بعض الأكابر الثقات [أن] الصاحب بهـاء الدين رأى فى منامه قبل وزارته أنه ذبح السلطان الملك الظاهر ، فقصّ ذلك على من يثق به ممن له معرفة بالتعبير ، فقال له : « تتمكن منه تمكن الذابح من المذبوح » . وكان منـه فى أقرب مـنزلة وأعز مكانة .

ذكر القبض على جماعة من الامراء المعُزّية

وفى شهر ربيع الأول أيضا ، قبض السلطان على جماعة من الأمراء المعزية وسبب ذلك أنه حضر إلى السلطان أحد أجناد الأمير عز الدين الصيقلى[1] وأنهى أن مخدومه فرق جملة من الذهب على جماعة ، وقرر معهم الوثوب على السلطان وقتله ، وكذلك الأمير علم الدين الغُنمى ، والأمير سيف الدين بهادر المعزى ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى النجوم (جـ ٧ ص ١٠٧) الصقلى .

والأمير شجاع الدين بكتوت وغيرهم . فقبض عليهم ، ثم قبض على الأمير بهاء الدين بغدى الأشرف[1] ، فى شهر ربيع الآخر ، واعتقله فلم يزل فى اعتقاله حتى مات .

ذكر تفويض قضاء القضاء

بالديار المصرية لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز

وفى هذه السنة فوض السلطان الملك الظاهر قضاء القضاة بالديار المصرية لقاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف بن بنت الأعز[2] ، وعزل قاضى القضاة بدر الدين السنجارى[3] ، وعوق عشرة أيام ، ثم أفرج عنه وعطل عن الحكم .

ونسخة التقليد السلطانى : « لقاضى القضاة تاج الدين » ومثال العلامة الظاهرية عليه بعد البسملة : « المستعلى بالله » .

« الحمد لله الذى أنار مطالع الهدى ، وصان ما ابتذل من الأمور التى ما أهملت سدى ، وألبس الشريعة المطهرة ثوبا من الشرف مجددا ، وأعلى منارها بمن أضاءت مساعيه ، فلو سرى بها الركب لا هتدى » .

---

(١) مضبوط هكذا بالأصل ، ويذكر صاحب النجوم (ج ٧ ص ٤٣) أنه كان يشغل وظيفة مقدم الحلقة وقتذاك .

(٢) أورد ابن تغرى بردى فى النجوم (ج ٧ ص ٤١ حاشية ٣) هذا الاسم كاملا كالآتى : أبو محمد عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف بن بنت الأعز بن محمود بن بدر بن أبى محمد العلامى الشافعى .

(٣) عن النجوم (ج ٧ ص ٤٢ حاشية ٢) أنه يوسف بن الحسن على السنجارى والنسبة إلى سنجار بشمال العراق .

«أحمده على نعم توالى هطل غمامها ، ومنن أضحت متناسقة عقود نظامها» .

« والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى عزت به أمور الإسلام بعد اهتضامها ، وعلى آله وأصحابه الذين أضحت بهم عرى الدين الحنيف وثيقة بعد انفصامها .

وبعد ، فلما كان المجلس السامى، القاضى الأجل ، الصدر الكبير ، الإمام العالم ، الفقيه الفاضل ، المختار المرتضى ، الصاحب تاج الدين ، عز الإسلام ، مجد الأنام ، شمس الشريعة ، مفتى الفرق ، رئيس الأصحاب ، ذخر الملوك والسلاطين ، قاضى القضاة عبد الوهاب بن خلف ، أدام الله سعادته ونعمته ، ممن أحرز فى الفضايل قصب سبقه ، ووصل سح[1] غمامه فى العلوم الشرعية ببرقه واجتنى ثمارها الدانيه القطوف ، واجتلى أقمار معانيها التى لا تتوارى عنه بالسجوف[2] وسلك سبيلا من العفاف أضحى به وحيدا منفردا ، ومارس أمور الشريعة فنقف منها أودا ، وأهمل فكرته الصافية فحلل منها عقدا ، وأنعم نظره فيها فأوضح له من الضلال رشدا .

رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى ، زاد الله فى علائه ، وضاعف مواد نفاذه ومضائه[3] أن يفوض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة ، لما علم فيه من فضل مازالت ثماره تجتنى ، ومساع حميدة

(١) فى الأصل : « السخ » بالخاء المعجمة ، وهو خطأ والراجح أنه السح بالحاء المهملة بمعنى السيل والصب والانهمار (القاموس المحيط) .

(٢) كذا فى الأصل . والسجوف جمع ، مفرده السجف بفتح السين أو كسرها وهو الستر (القاموس المحيط) .

(٣) فى الأصل « مضايه » . والناسخ من عادته دائما تليين الهمزات .

ما برح بها إلى الخلائق محسنا ، ودين متين يشيد من أمور الآخرة ما بنا ، وسؤدد مازال فيه وفى بيته مستوطنا ، وأوصانى جميلة خصته بنباهة أضحى بها متقدما وآراء مسددة أضاءت من سبل الرشاد ما كان مظلما ، ونزاهة مازالت له خلقا لا تخلقا ، وعفاف ما برح منه مثريا لا معلقا .

فليباشر هذا المنصب الذى أضحى ظل شرفه وارفا ، وكعبة حرمه التى يتوجه إليها من كان باديا أو عاكفا ، عاملا فيه بالتقوى التى يحافظ عليها مسرا ومعلنا ، ويتمسك بأسبابها إذا صد عنها غيره وانثنى ، فهى المعقل الذى لا يستباح له حمى ، والمقام الذى يجد الخائف أمنه فيه محققا لا غيبا مُرَجَّما (١) ، والعصمة التى تنجى من العطب ، والمركب الذى تجد به الأنفس راحتها الكبرى بعد التعب .

وليول من القضاة من يحيي من الحق سننا ، ويميت من الباطل بدعا ، ويكون رجاؤه بالاخرة متصلا ، ومن الدنيا منقطعا ، ليرجع به سبيل الحق بعد ضيقه متسعا ، وشمل الباطل بعزيمته مفترقا لا مجتمعا .

وليتفقد أمر العدول الذين أضحوا على الحقيقة عدولا عن المنهج القويم ، راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف ذميم . ولا يترك منهم إلا شاهدا كان عن المعايب غائبا أو متورعا ، لا يعتمد من الأمور إلا ما كان واجبا ، لتسلم عدالته من وصمة التجريح ، وتظهر مساعيه التى تذلل له من العلا كل جموح .

وأموال الأيتام والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلا ، ومن تحقق أنه يكون عليها قفلا . فطالما ابتذلت أيدى الخونة منها مصونا ، وجعلت

(١) فى الأصل « عيبا مركما » والتعديل يقتضيه السياق المألوف .

العين منهـا أثرا حين مدت إليها عيونا . ولا تخلها من نظر يحفظ منهـا مضاعا ويحسم عنها أطماعا، ويخصها بمزية الزيادة بعد النقصان، ويكتب لها من مخاوف الخونة كتاب أمان .

فقد قلدناك هذه الأحكام التى ترجـو بك الخلاص من تبعاتها ، ورعينا بك حق الرعية ، فلا تخل أمورهـم من مراعاتها ، وامض عزيمتك فى إقامة منار الشريعة بعـد القمود ، واعل همتك فى نظم ما تبدد له من العقود . واجتهد فى أمره الاجتهاد الذى يرقل منـه فى ضافى البرود ، ومتع الخـلائق بأيام بيض من أحكامك غير سود ، ففيك من السؤدد ما ينقاد به المفاخر ، ومن الأوصاف الجميلة ما تتميز به على الأوائل وأن جئت فى الزمن الآخر .

وقد قررنا لك من الجامكية والجراية نظير ما كان مقررا لمن تقدمك ، وهو فى كل شهـر أربعون دينارا صرف أربعين وستمائة وستة وستون درهما ناصرية وثلثان وخمسة وعشرون أردبا غلة نصفين .

فليوصل ذلك إليـه على تمـامه وكماله عند وجوبه واستحقاقه ، بعد العلامة الشريفة أعلاه إن شاء الله تعالى .

وكتب فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وستمائة . الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه الظاهرين وسلامه .

وعين جهة الجامكية على الجوالى بالديار المصرية ، والغلة على الأهراء المباركة بمصر المحروسة .

واستمر [الصاحب تاج الدين] فى القضاء بجميع الديار المصرية إلى شوال من السنة ، فاقتطع منه قضاء مصر والوجه القبلى ، وفوض ذلك إلى القاضى برهان

الدين الخضر بن الحسن بن على بن الخضر السنجارى[1] فى ثالث شوال ، ثم عزل [برهان الدين الخضر] وأعيد قاضى القضاة تاج الدين بتقليد سلطانى تاريخه الثامن من صفر سنة ستين وستمائة . وقد شاهدت هذا التقليد ووقفت عليه .

ذكر ما اعتمده السلطان فى ابتداء سلطنته ورتبه من المصالح وقرره من القربات والأوقاف والعماير

كان مما ابتدأ به ، رحمه الله تعالى وعفا عنه وأنابه ، عمارة الحرم الشريف النبوى وسنذكره .

ثم وصلت الكتب فى سنة تسع وخمسين أن القبة التى بالصخرة الشريفة ببيت المقدس قد تداعت ، فكتب إلى دمشق بتجهيز الصناع إليها وما يحتاج إليه من الآلات ، ونجزت العمارة بها فى سنة ستين .

وكانت عدة ضياع من أوقاف الخليل قد دخلت فى الإقطاعات ، فأمر [السلطان] بارتجاعها ، وعوض الأمراء عنها ، وأعادها إلى الأوقاف ، وأوقف قرية أذنا[2] على الخليل عليه السلام .

ذكر بناء قلعة الجزيرة[3]

كان السلطان الملك المعز قد أمر بهدمها ، وأباح ما بها من الرخام والأصناف

---

(١) عن النجوم (ج ٧ ص ١٤ حاشية ٤) هو برهان الدين أبو محمد الخضر

(٢) كذا فى الأصل ، وكذا فى السلوك أيضا (ج ١ ص ٤٤٥) ، ولم يستطع المحقق أن يجد تعريفا لهذا البلد من المراجع المتداولة .

(٣) المقصود جزيرة الروضة ؛ راجع النجوم (ج ٦ ص ٣٣٠ حاشية ٤) ، وكذلك ج ٧ ص ١٩٢ حاشية ٧) . وكانت مساحة القلعة ٦٥ فدانا ، وكان حدها الجنوبى وقتذاك عند المقياس الحالى .

التى غرم عليها السلطان الملك الصالح الأموال العظيمة ، فرسم السلطان [بيبرس] بعمارتها ، وندب لذلك الأمير جمال الدين بن يغمور ، فشرع فى إصلاح ما استهدم من قاعاتها ، ورتب فيهـا الجاندارية ، وأعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة .

وفرق السلطان الأبراج : فرسم أن يكون برج الزاوية للأمـير سيف الدين قلاون[1] الألفى ، وثانيه للأمير عز الدين الحلى[2] ، والبرج الثالث للأمير عز الدين إيغان[3] ، وبرج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين بيسرى الشمسى . وفرق بقية الأبراج على الأمراء ، ورسم أن تكون بيوتاتهم واسطبلاتهم بها ، وسلم إليهم المفاتيح .

ورسم بعمارة القناطر بجسر شبرمنت بالجيزية وأكثر ما كانت الجيزية تشرق عنه . فبنيت القناطر فى هـذا الجسر تلتقى صدمه المـاء الأولى وتفتح لتصريف الميـاه أولا فأولا (كذا) .

ورسم بعمارة مشهد النصر[4] بعين جالوت ، وكتب بذلك إلى نواب الشام .

وحث على عمارة الأسوار بثغر الاسكندرية وحفر خنادقها ، ورتب جملة من الأموال فى كل شهر تصرف فى نفقة العمائر وبنى مرقبا لثغر رشيد لكشف مراكب الفرنج .

ورسم بردم فم بحر دمياط ، وتوغيره بالقـراتيص ، وتضييقه ليمنـع السفن الكبيرة من الدخول فيه .

---

(١) كذا فى الأصل بواو واحدة دائما ، أما النسخة « س » فترسم الاسم بواوين دائما .

(٢) راجع السلوك (جـ ١ ص ٤٤٥) .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى السلوك (جـ ١ ص ٤٤٥) : « أرغان بالواو بدل الياء » .

(٤) كذا فى الأصل .

ورسم بحفر بحر أشموم طناح ، وندب لذلك الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى فتوجه لذلك وحفر ما يجب حفره ، وغرق المراكب قبلى فم البحر من الجانب الغربى حتى ترد الماء إليه .

واهتم بعمارة الشوانى وأعادها إلى ما كانت عليه من الأيام الكاملية والصالحية .

وأمر بعمارة شوانى الثغرين وأحضرها إلى ساحل مصر ، وكانت تزيد على أربعين قطعة ، وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد والسلالير[1] .

وركب الخليفة والسلطان فى يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة من القلعة إلى ساحل مصر ، وركبا[2] فى الحراريق ، وتفرجا ، وطلعا إلى قلعة الجزيرة وجلسا بمقعد البانياس ، ولعبت الشوانى ، ثم عادا إلى القلعة .

ورسم بعمارة القلاع المنصورة بالبلاد الشامية وهى : قلعة دمشق ، والصلت وعجلون ، وصرخد ، وبصرى ، وبعلبك ، والصبية ، وشيزر ، وشميس[3] ، وكان التتار قد خربوا أسوارها فرسم بإعادة ما استهدم وإصلاح ما تشعث .

ورسم بعمارة مدرسته التى بالقاهرة ، وسيأتى ذكرها ، إن شاء الله تعالى .

هذا ما قرره من المصالح العامة ورتبه من المهمات فى ابتداء سلطنته ، فلنذكر خلاف ذلك من المتجددات .

---

(١) السلالير جمع سلورة وهى نوع من السفن ، انظر السلوك (ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٢)

(٢) فى الأصل : « وركب » .

(٣) كذا فى الأصل . ولم يستطع المحقق أن يجد تعريفا لهذا البلد فى المراجع المتداولة ولعل المقصود شميميش من كورة حمص ، وهذا الاسم الوارد فى السلوك (ج ١ ص ٩٤٦ ، ٩٥٢)

ذكر وصول من يذكر من الملوك إلى خدمة السلطان وما قرره لكل منهم وما عاملهم به من الإحسان

وفى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وردت كتب النـواب بدمشق يذكرون وصول الملك الصالح صاحب الموصل[1] بأهـله وغلمانه وأولاده ، فكتب السلطان إلى النواب بدمشق بالمبالغة فى خدمته وترتيب الإقامات له ولمن معه فى الطرقات من دمشق إلى القاهرة ، فوصل فى شـعبان من السنة ، فتلقاه السلطان وأنزله فى أدر أخليت له .

ثم ورد بعده بأيام الخبر بوصول أخيه الملك المجاهد صاحب الجزيرة[2] فاعتمد السلطان معه نظير ما اعتمـده فى حق أخيه . وكان المـلك المظفـر[3] أخوهما قد اعتقله الأمراء بحلب على ماذكره ، فأفـرج السلطان عنـه وأحضره إلى الديار المصرية ، وذلك قبـل وصولهما إليه ، فلما وصل أخـواه استأذن فى تلقيهما ، فأذن له السلطان فى ذلك .

وأنعم السلطان عليهم بالأموال والخيـول والخلع والحوائص لهم ولأصحابهم وعين جماعة من البحرية برسم خدمتهم والتصرف فى مهماتهم ، ثم رسم السلطان

---

(١) عن السلوك (جـ ١ ص ٤٦٠) وعن النجـوم (جـ ٧ ص ٢٠٠ ، ص ٢٥٦ س ١٣) أنه الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل .

(٢) المقصود هنا جزيرة ابن عمر .

(٣) عن السلوك (جـ ١ ص ٤٦١) وعن النجـوم (جـ ٧ ص ١١٥) أنه الملك المظفر علاء الدين على صاحب سنجار .

بكتابة تقاليدهم ببلادهم . وكان الخليفة قد فوض ذلك إلى السلطان بتقليد على ماذكره إن شاء الله تعالى .

فكتب تقليد الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بالموصل وولاياتها : بالوصا ، والجزيرة [و] مدينة البوازيج[1] ، والزيادة : عقر[2] [و] شوش ، ودارا وأعمالها ، والقلاع العمادية ، [و] كنكور وبلدها .

وكتب تقليد الملك المجاهد سيف الدين إسحق ببلاد الجزيرة وأعمالها وزيادة حرين .

وكتب تقليد الملك المظفر : سنجار وأعمالها .

وكتب لعلاء الملك ولد الملك الصالح تقليد بقلعة الهيثم .

ولما توجه السلطان إلى الشام وخيم بظاهر القاهرة سيرت هذه التقاليد إليهم ومعها أحمال الكوسات والصناجق والأموال . وأعفوا من الحضور والخدمة عليها ، وساروا فى خدمة السلطان إلى الشام فسلطنهم .

وذلك أنه أحضرهم مجلسه وجهز لهم خيل النوبة والعصائب[3] والجمدارية[4] ،

---

(١) عن معجم ياقوت أنه موضع قرب تكريت عند مصب الزاب الأسفل بنهر دجلة ، راجع معجم ياقوت (جـ ٢ ص ٢٩٧) .

(٢) عن معجم ياقوت أنهما مكانان متقاربان قرب جزيرة ابن عمر ، وأنهما ليسا مكانا واحدا وقلعة عقر تعرف أيضا باسم عقر الحميدية ، وأهلها أكراد . ويضرب بهما المثل فى العلو فيقال : أعلى من العقر ، راجع معجم ياقوت (جـ ٦ ص ١٩٤) .

(٣) العصائب جمع عصابة وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرز بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه ، راجع السلوك (جـ ٢ ص ٦٧) .

(٤) الجمدارية هم الذين يقومون على شئون السلاطين الأمراء ويلبسونهم ثيابهم ، راجع السلوك (جـ ٢ ص ٩) .

ولبسوا الخلـع وقبلوا الأرض وخرجوا بشعار السلطنة ، والأتابك فى خدمتهم ، وتوجهوا صحبة الخليفة على ما نذكره .

فاتفق انفصالهم منه فى أثناء الطريق لأسباب جرت ، وتوجه كل منهم إلى مملكته : فأما الملك الصالح فتوجه إلى الموصـل وأقام بها ، فاتفق اجتماع التتار عليها وحصارها . وأما أخواه فإنهما خافا مهاجمة العدو فعادا إلى الشام ،واستأذنا فى الحضـور ، فأذن لهما السلطان فحضرا ، وسألا السلطان إنجـاد أخيهما فجرد الأمير شمس الدين سنقر الرومى وجماعة من البحرية والحلقـة . فتوجهوا فى رابع جمادى الأولى سنة ستين وستمائة ،وكتب [السلطان] إلى دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين طيـبرس[1] ورحل العسكر المصرى والشامى من دمشـق فى عاشر جمادى الآخرة .

ذكر وصول الخليفـة المستعصم بالله إلى الديار المصرية ومبايعته وتجهيزه بالعساكر إلى بلاد الشرق وما كان من أمره إلى ان قتل

قال المؤرخ : وفى العشر الآخر من جمادى الآخر[2] سنة تسع وخمسين وستمائة ورد كتاب علاء الدين طيبرس ،والأمير علاء الدين البندقدار[3] مضمونه أنه وصل

(١) راجع السلوك (جـ ١ ص ٦٠٠) : هو علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى .

(٢) ورد شهر جمادى مذكرا ومؤنثا ، والأصل التأنيث والتذكير جائز مع تقدير لفظ شهر . وقد جرت عادة المؤلف على أن يكتب جمادى الأول ، وجمادى الآخرة .

(٣) راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٩٥) : هو علاء الدين ايدكين البندقدار أستاذ السلطان الظاهر بيبرس .

إلى جهة دمشق فى أول الغوطة رجل ادعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب من خمسين فارسا ، وأن الأمير سيف الدين قليج البغدادى عرف أمراء العرب المذكورين وقال : « بهؤلاء يحصل القصد من العراق » فكتب السلطان بخدمته وتعظيم حرمته وأن يسير صحبته بحجاب . فكان وصوله إلى القاهرة فى يوم الخميس التاسع من شهر رجب من السنة ؛ فخرج السلطان للقائه وساير أهل المدينتين ، وكان يوما مشهودا ، وشق القاهرة وهو لابس شعار بنى العباس ، وطلع إلى القلعة راكبا ، ونزل فى المكان الذى أخلى له .

وفى يوم الاثنين ثالث عشر أحضر السلطان الفقهاء والأئمة والعلماء والأمراء والصوفية والتجار وغيرهم بقاعة العمد ، وحضر الخليفة وأثبت نسبه على ما قدمنا ذكره فى أخبار الدولة العباسية . ولما ثبت النسب بايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ الأموال بحقها وصرفها فى مستحقها ، ثم قلد الخليفة السلطان الملك الظاهر البلاد الإسلاميه وما سيفتحه الله من أيدى الكفار . وكتب بذلك تقليد شريف عن الخليفة للسلطان ، وبايع الناس الخليفة على اختلاف طبقاتهم . وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأخذ البيعة له وأن يخطب باسمه على المنابر وتنقش السكة باسمه .

ولما كان فى يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب خطب الخليفة بالناس فى جامع القلعة (١) ، واهتم السلطان بذلك ونثرت جمل من الذهب والفضة . وحصل

(١) هو جامع قديم كان فى مواضع الجامع الناصرى الحالى القائم إلى جانب جامع محمد على بالقلعة إلى اليوم . وقد ظل الجامع القديم قائما إلى عام ٧٤٨ إلى أن بنى الناصر جامعه الباقى إلى الآن .

الخليفة توقف فى الخطبة .

وفى يوم الإثنين رابع شعبان ركب السلطان إلى خيمة ضربت فى البستان الكبير والناس فى خدمته ، وحملت الخلع صحبة الأمير مظفر الدين[1] وشاج الخاجى وخادم الخليفة . ودخل السلطان إلى خيمة أخرى ولبس الخلعة الخليفية ، وهى عمامة سوداء مزركشة ، ودرّاعة بنفسجى ، وطوق ، وعدة سيوف تقلد منها وحملت خلفه ، ولواءان ، وسهمان كبيران ، وترس ، وغير ذلك مما جرت العادة به . وقدم له فرس أشهب فى رقبته مشدة سوداء ، وعليه كنبوش[2] أسود . وطلب الأمراء وخلع عليهم ، وعلى الصاحب بهاء الدين ، وقاضى القضاة ، وصاحب ديوان الإنشاء الشريف : وهو القاضى فخر الدين بن لقمان ، وطلع ابن لقمان على منبر قد جلل بالأطلس الأصفر ، وقرئ التقليد على كافة الناس وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم[3]

الحمد لله الذى أضفى على الإسلام ملابس الشرف ، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف . وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف . وقيض لنصره ملوكا اتفق عليهم من اختلاف . أحمده على نعمه التى تسرح الأعين منها فى الروض الأنف ، وألطافه التى وقف الشكر عليها فليس عنها منصرف[4] .

(١) كذا فى الأصل راجع السلوك (جـ ١ ص ٤٥٢) .

(٢) الكنبوش هو البردعة التى تكون تحت السرج ، راجع السلوك (جـ ١ ص ٤٥٢) .

(٣) نفس نص المتن وارد فى السلوك (جـ ١ ص ٤٥٣ — ٤٥٤) وفى النجوم (جـ ٧ ، ص ١١١ — ١١٢) . والنص هنا فى نسخة الأصل أضبط لغة وأسلم نسخا .

(٤) التفات من الخطاب إلى الغيبة فى هذه الجملة فقط .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة توجب من المخاوف أمنا ، وتسهل من الأمور ما كان حزنا ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى جبر من الدين وهنا ، وأظهر من المكارم فنونا لافتا ، صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقيـه لا تفنى ، وأصحابه الذين صحبـوه فى الدنيا فاستحقوا الزيادة من الحسنى ، وسلم تسليما » .

« وبعد : فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى سعيه الحميد متقدما ، ودعا إلى طاعته فأجابه من كان مُنْجِدا ومتهما ، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما .

ولما كانت هذه المناقب الشريفـة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى — شرفه الله وأعلاه — ذكرها الديوان العـزيز النبوى[1] تنويها لشريف قدره ، واعترافا بصنعه الذى تنفد العباره ولا تقوم بشكره ، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعـدتها زماتة الزمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان[2] ، وعتب دهرها المسىء فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب ، وأعاده لها سلما بعـد أن كان عليها حربا ، وصرف لها اهتمامه فرجع كل مضيق من أمرها واسـعا رحبا . ومنـح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ، وأظهر من الولاء رغبة فى ثواب الله مالا يخفى ، وأبدى من الاحتفال بأمر الشريعة والبيعه أمرا لو رامه غيره لامتنع عليـه ، ولو تمسك

(١) انظر النجوم (نفس الموضع) حيث توجد ألقاب إضافية .

(٢) كذا فى الأصل .

بحبله متمسك لاتقطع به قبل الوصول إليه ، لكن الله أدخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامه حسابه . والسعيد من خفف حسابه ، فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها فى صحف صنعه ، ومكرمة [قضت[1]] لهذا البيت الشريف النبوى بجمع شمله بعد أن حصل الإياس من جمعه » .

« وأمير المؤمنين يشكر الآن [لك] هذه الصنائع . ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار الجزرية[2] ، والبكرية ، والحجازية ، واليمنية وما يتجدد من الفتوحات فورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حتى أصبحت بالمكارم فردا : وما جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون مستثنى ولا جهة من الجهات تعد فى الأهلى ولا فى الأدنى » .

فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لثقلها حاملا ، وخلص نفسك اليوم لك التبعات ، ففى غد تكون مسئولا عنها لا سائلا . ودع الاغترار بأمر الدنيا ، فما نال أحد منها طائلا ، وما لحظها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا ، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة ، وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمته غير التقوى مردودة لا مقبولة . وأبسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد امر الله بالعدل والإحسان . وكرر ذكره فى مواضع من القرآن ، وكفر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه آثاما ، وجعل يوما واحدا منه كعبادة ستين عاما ماسلمك [أحد][3] سبيل العدل واجتنبت ثماره من أفنان ، ورجع الأمن بعد

(١) الإضافة يقتضيها السياق وتستند إلى نص السلوك أيضا (نفس الموضع) .

(٢) فى النجوم (نفس الموضع) : الفراتية .

(٣) إضافة يقتضيها السياق مستندة إلى نص السلوك (نفس الموضع) .

تداعى أركانه مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث الزمان فكانت أيامه فى الأيام أبهى من الأعياد ، وأحسن من الغرر فى أوجه الجياد ، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد » .

« وهذه الأقاليم المنوطة بنظرك تحتاج إلى حكام وأصحاب رأى من أرباب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم فى أمرك فنقب عليه تنقيبا، واجعل عليه فى تصرفاته رقيبا ، وسل عن أحواله ، ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما اجترم مطلوبا ، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا. وأمرهم بالأناة فى الأمور والرفق ، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق ، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق . وألا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق ، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية إخوانا ، وأن يوسعوهم برا وإحسانا ، وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل لهم الزمان حرمانا ، والمسلم أخو المسلم ، وإن كان أميرا عليه أو سلطانا . فالسعيد من نسج ولاته فى الخير على منواله ، واستنوا بسنته فى تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنه ماتعجز قدرته عن حمل أثقاله » .

« ومما يؤمرون به أن يُمْحَى ما أحدث من سيىء السنن ، وجدّد من المظالم التى هى على الخلائق من أعظم المحن ، وأن يُشترى بإبطالها المحامد، فإن المحامد رخيصة بأغلى الثمن . ومهما جنى منها من الأموال فإنها فانية[1] وإن كانت حاصله، وأجياد الخزائن وإن أصبحت بها خالية فإنما هى الحقيقة عاطلة. وهل أشقى ممن احتقب إثما ، واكتسب بالمساعى الذميمة ذما ، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة له

(١) فى الأصل : « باقية » وهو تصحيف ظاهر .

خصما ، وتحمل ظلم الناس ممـا صدر عنه من أعماله ، وقد خاب من حمل ظلما . وحقيق بالمقام الشريف السلطانى الملكى الظاهرى الركنى أن تكون ظـلامات الأيام مردودة بعدله ، وغرائمه تخفف عن الخلائق ثقلا لاطاقة لهم بحمله[1] ، فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من المـلوك وإن جاء آخرا ، فأحمـد الله على أن وصل إلى جنابك إمامُ هدى ، وأوجب لك مزية التعظيم وتنبيه الخـلائق على ماخصك الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه أمور ينبغى أن تلاحظ وترعى ، وأن توالى عليها حمـد الله ، فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا . وقد تبين أنك صرت فى الأمور أصلا ، وصار غيرك فرعا » .

ومما يجب ذكره : الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، هو والعمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا . وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصّهم بالجنة لالغو فيها ولا تأثيم » .

« وقد تقدمت لك فى الجهاد يد بيضاء أسرعت فى سواد الحساد ، وعرف منك عزمة هى أمضى[2] ممـا تحت ضمائر الأغماد . واشتهرت لك مواقف فى القتال هى أبهى وأشهى إلى القـلوب من الأعياد . وبك صان الله حمى الإسـلام من أن يبتذل ، ويعزمك حفظ على المسلمين نظام هـذه الدول ، وبسيفك الذى أثر فى الكافرين قروحا لا تندمل ، وبك يرجى أن يرجع مقر الخـلافة المعظمة إلى ما كان عليه من الأيام الأول . فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان هاجعا ، وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لاتابعا . وأيد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا » .

(١) فى الأصل « له » .

(٢) فى الأصل « ما » .

« ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبتسم له الثغور ، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها بالنور ، واجعل أمرها على الأمور مقدما ، وسد منها ما غادره العدو متداعيا متهدما . فهذه حصون يحصل منها[الانتفاع](1) وبها تحسم الأطماع ، وهى على العدو داعية افتراق لا اجتماع » .

« وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ، والعدو إليه ملتفتا ناظرا ، لا سيما ثغور الديار المصرية ، فإن العدو وصل إليها رابحا ، ورجع خاسرا ، واستأصلهم الله فيما مضى حتى ما أقال منهم عاثرا » .

« وكذلك الأصطول الذى ترى خيله كالأهلة وركائبه بغير سائق مستقلة ، وهو أخو الجيش السليمانى ، فإن ذلك غدت له الرياح حاملة وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة . وإذا لحظها الظرف سائرة فى البحر كانت كالاعلام ، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع فى أيام» .

« وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب ، وأتاك من أصالة الرأى الذى يريك المغيب ، وبسط بعد القبض منك الأمل ، ونشط من السعاده ما كان قد كسل ، وهداك إلى مناهج الحق وما زلت مهتديا إليها ، وألهمك المراشد فلا تحتاج إلى تنبيه عليها ، والله تعالى يؤيدك بأسباب نصره ، ويوزعك شكر نعمه . فإن النعم تستتم بشكره ، بمنه وكرمه » .

ثم ركب السلطان وشق المدينة بعد أن زينت ، وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبى استاد الدار العالية ، والصاحب الوزير بهاء الدين فى بعض الطريق(2)

(1) الإضافة يقتضيها السياق مع الأستناد إلى نص السلوك (نفس الموضع) .

(2) من النجوم (ج ١ ص ١١١ ، ص١٣) أن الصاحب بهاء الدين حمل التقليد على راسه راكبا ، والأمراء يمشون بين يديه .

وبسط أكثر الطريق للسلطان بالثياب الفاخرة، [و[1]] مشى عليها بفرسه، ووصل إلى القلعه .

وشرع السلطان فى الاستخدام للخليفة : فكتب للأمـير سابق الدين بوزبا أتابك العسكر بألف فارس ، وللأمـير ناصر الدين محمد بن ضيرم الخازندار بمائتى فارس، وللأمير الشريف نجم الدين استاد الدار بخمسمائة فارس . وأمر جماعة من العربان ، وحملت إليهم الطلبخاناة والصناجق ، وأنفق فيهم الأموال لعدة شهور. واشترى السلطان مائة مملوك[2] جمدارية وسلاح دارية للخليفة ، وأعطى لكل واحد منهم ثلاثه أرؤس خيلا وجمـلا لعدته ، ولم يبق أحد ممن تدعو الحاجة إليه من صاحب ديوان وكاتب إنشاء وديوان وأئمه ومؤذنين وغلمان وحكماء وجرائية إلا استخدموا. ولما تكامل ذلك كله تقدم السلطان بتجهيز العساكر .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان من السنة ركب السلطان هـو والخليفة فى السادسة من النهار ، ونزل كل منهما فى دهليزه ، واستمرت النفقه فى أجناد الخليفه .

وفى يوم العيد ركب الخليفة والسلطان تحت الجتر ، وصليا العيد ، وفى هذه الليلة حضر الخليفة إلى خيمة السلطان وألبسه الفتوة بحضور[3] من يعتـبر حضوره فى ذلك .

---

(١) الإضافة يقتضيها السياق .

(٢) زاد نص السلوك (جـ ١ ص ٤٥٨ س ٧) : « مائة مملوك كبارا وصغارا ورتبهم جمدارية» .

(٣) زاد نص السلوك « جـ ١ ص ٤٥٩ ، س ٩ » : وألبسه سراويل الفتوة .

وفى يوم السبت سادس شوال رحلا متوجهين إلى الشام ، فلما وصلا إلى الكسوة خرج عسكر الشام للقائهما ، ودخلا دمشق فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة . ونزل السلطان بالقلعة ، ونزل الخليفة فى تربة الملك الناصر بجبل الصالحية[1] . وجرد الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير شمس الدين سنقر الرومى إلى جهة حلب ، وأمرهم السلطان بالمسير إلى الفرات ، وأنه متى ورد عليهم كتاب الخليفة يطلب أحدا منهم إلى العراق يتوجه إلى خدمته لوقته .

وركب السلطان وودع الخليفة ، وسير إليه الملوك الذين ذكرناهم .

ثم ورد كتاب الخليفة يذكر أنه وصل إلى حديثة وعانا ، وولى فيها[2] ثم كان ما ذكرنا من خروج طائفة من التتار وقتال الخليفة لهم واستشهاده ، رحمه الله تعالى ، على ما قدمناه فى أخباره ، فى أخبار خلفاء الدولة العباسية .

وحسب ما أنفق فى مهم الخليفة والملوك فكان ألف ألف دينار عينا

وفى هذه السنة قبل مسير السلطان إلى الشام ، كتب منشور الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا[3] بالإمرة على جميع العربان ، وأطلق السلطان للعربان الغلال من بلد حلب ، وذلك قبل خروج السلطان إلى الشام .

---

(١) زاد نص السلوك (جـ ١ ص ٤٦٠ س ٣) : « فنزل الخليفة بالتربة الصالحية فى صفح قاسيون » .

(٢) كذا فى الأصل ، وانظر النجوم (جـ ٧ ص ١١٦ س ٥) وانظر السلوك كذلك (جـ ١ ص ٤٦٣) لتحديد الموضع المقصود .

(٣) عن النجوم (جـ ٧ ص ١١٦) هو شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضبة ابن فضل بن ربيعة أبو مهنا أمير آل فضل .

هذا ما كان من الأخبار بالديار المصرية ، فلنذكر ما اتفق بالشام من حين ابتداء سلطنة السلطان الملك الظاهر إلى أن استقرت قواعد ملكه .

ذكر استيلاء الأمير علم الدين سنجر الحلبي على دمشق وسلطنته بها ، وأخذها منه ، وتقرير نواب السلطان بها

قد ذكرنا أن السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز كان قد فوض نيابة السلطنة بدمشق للأمير علم الدين سنجر الحلبي[1] ، فلما اتصل به خبر قتل الملك المظفر وثب على السلطنة بدمشق وحلف العساكر الشامية لنفسه ، ولقب نفسه بالملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنة ، فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الظاهر كتب إليه يقبح فعله ويسترجعه عنه ، فعادت أجوبته بالمغالطة . فأرسل إليه السلطان الأمير جمال الدين أقن المحمدى يستميله[2] ويرده عن تعاطى ما لا يتم له ، وسير إليه صحبته مائة ألف وعشرين ألف درهم وحوائص وخلعا وملابس بألفى دينار عينا . فلما وصل ذلك إليه جلس الأمير علم الدين الحلبى مجلسا عاما للناس وأشهدهم على نفسه أنه قد نزل عن الأمر الذى كان قد استحلف الناس عليه ، وأنه من جملة النواب الظاهرية .

ثم رجع عن ذلك وركب بشعار السلطنة على ما كان عليه أولا ، فركب الأمير علاء الدين ايدكين البندقدار وخرج إلى ظاهر دمشق ، ونادى باسم السلطان الملك الظاهر ومعه جماعة فساق بهم إلى جهة السواد ، فندب الحلبى جماعة لقتالهم ، فانهزم أصحاب الحلبى ، ثم رأى انحراف الناس عنه واتفاقهم عليه ،

(١) عن النجوم (ج ٧ ص ١٥٤ س ١) أنه « يلقب بالكبير » .

(٢) فى الأصل : « يستميله » . وهو سهو .

ففارق دمشق وتوجه إلى قلعة بعلبك . ودخل الأمير علاء الدين البندقدار دمشق، وحلف الناس للسلطان الملك الظاهر وجهز إلى بعلبك من أحضر الحلبى تحت الاحتياط . وكتب بذلك إلى السلطان ، فجدد السلطان المناشير للأمراء والجند، وقرر الحديث فى الأموال ونيابة القلعة للأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى، ورسم باحضار الحلبى ، فلما وصل إليه اعتقله بقلعة الجبل ، ثم أطلقه بعد ذلك وخلع عليه ، واستمر فى الخدمة إلى أن جهزه إلى نيابة حلب . هذا ما اتفق بدمشق .

ذكر ما اتفق بحلب فى أمر النيابة

كان السلطان الملك المظفر قد استناب بالمملكة الحلبية الملك المظفر علاء الدين ابن صاحب الموصل ، ولقبه بالملك السعيد على ما ذكرناه ، فتوجه إلى حلب ، وحصلت منه أمور أنكرها عليه الأمراء، وكان الملك المظفر قطز قد أقطع جماعة من الأمراء العزيزية والناصرية بالبلاد الجبلية ، فلما اتصل بهم قتل الملك المظفر اجتمعوا وقبضوا على الملك السعيد ونهبوا وطاقة ، وكان قد برز إلى الباب المعروف بباب الله[1] للقاء التتار، واستولوا على خزائنه فلم يجدوا فيها مالا طائلا ، فتهددوه بالعذاب إن لم يقر لهم بالمال ، فأخرج لهم من تحت الأشجار مالا كان قد دفنه ، تقدير خمسين ألف دينار مصرية ، ففرقت فى الأمراء[2] واعتقلوا الملك السعيد بالشغر[2]، ثم أفرجوا عنه بعد ذلك، وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزى ، فكتب السلطان إليه تقليد بنيابة المملكة الحلبية .

---

(١) كذا فى الأصل وقد ورد بالأصل أيضا بعد بضع صفحات : « بابلا » (ص ٤٢).

(٢) كذا فى الأصل مضبوطا بضم الشين وبالغين المعجمة . أما « ص » فقد رسمت الأسم بالعين المهملة .

ذكر وصول طائفة من التتار
إلى البلاد الإسلامية
وما فعلوه بحلب وتقـدمهم إلى حمص وقتالهم وانهزامهم
وما كان من خبر عودهم

وفى سنة تسع وخمسين وستمائه بلغ التتار أن الأمراء العزيزية والناصرية قد وقع بينهم اختلاف ، فتجمعوا من كل جهـة وعبروا الفرات ، ولمـا بلغ الملك السعيد خبرهم وأنهم وصلوا إلى جهة البيرة جرد إليهـم جماعة قليـلة من العسكر الحلبى ، وقدم عليهـم سابق الدين أمير مجلس الناصرى ، فنهاه الأمراء العزيزية والناصرية عن ذلك ، واستقلوا العسكر المجرد ، فلم يرجع إلى قولهم ، وصمم على إرساله ، فسار سابق الدين ومن معه حتى قاربوا البيرة ، فصدمهم التتار ، فهرب سابق الدين منهم ودخل البيرة ، بعد أن قتل أكثر من معه . فكان ذلك من أكبر الأسباب التى أوجبت القبض على الملك السعيد ، ثم توجه التتار إلى جهة حلب ، فاندفع الأمير حسام الدين الجوكندار والعسكر الحلبى بين أيديهم إلى جهة حماة ، ووصل التتار إلى حلب فى أواخر سنة ثمـان وخمسين وستمائة وملكوها ، وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا ، واسمها قديما مقر الأنبياء ، فسماها العامة قرنبيا ، فلما اجتمعوا بها بذل التتار فيهم السيف فقتلوا أكثرهم . وتقدم التتار إلى جهة حماة ، ففارقها العسكر الحلبى وصاحبها الملك المنصور إلى حمص ، واجتمعوا هم والملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص ، واتفقوا على قتال التتار ، وانضم إليهم الأمير زامل بن على أمير العربان ، ووصل التتار إلى حمص ، والتقوا واقتتـلوا فى يوم

الجمعة خامس المحرم من السنة[1] فانهزم التتار أقبح هزيمة، وقتل أبطالهم وشجعانهم، فاستشهد فيهم بقول الشاعر :

فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى حمص فى قابل

فإن الحسام الصقيل[2] الذى قتلتم به فى يد القاتل

وقد شاهد جماعة كثيرة فى هذه الواقعة طيورا كثيرة بيضاء تحوم حال القتال .

حكى عن الأمير بدر الدين محمد القيمرى قال: « والله، لقد رأيت بعينى طيورا بيضا وهى تضرب بأجنحتها فى وجوه التتار » . وقد ذكر ذلك جماعة كثيرة حتى بلغ حد التواتر، فما كان بأسرع من انهزام التتار .

قال المؤرخ :

ثم اجتمع من سلم من التتار ونزلوا بسلمية ، وعادوا إلى حماة ، ورحلوا عنها إلى أفامية ، وكان قد وصل إلى أفامية الأمير سيف الدين الديبلى[3] الأشرفى ومعه جماعة فأقام بقلعتها وبقى يغير على التتار ، فرحلوا عن أفامية وعادوا إلى حلب ، فأخرجوا من بها من الرجال والنساء ولم يبق إلا من ضعف عن الحركة واختفى خوفا على نفسه، ثم نادوا فيهم : من كان من أهل حلب فليعتزل . فلم يعلم الناس ما يراد بهم ، فظن الغرباء النجاة لأهل حلب ، وظن أهل حلب نجاة الغرباء ،

---

(١) زاد السلوك (ج ١ ص ٤٤٢ س ١٠) بذكر مكان المعركة : « على الرستن » فى منتصف الطريق بين حماة وحمص ، وراجع معجم ياقوت .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل بغير نقط وما أثبتناه هنا من النسخة « مي » بتقديم الياء المثناه على الباء الموحدة .

فاعتزل بعض كل من الطائفتين مع الأخرى بحسب ما أدّى كل منهم اجتهاده ، فلما تميز الفريقان أخذ التتار الغرباء وتوجهوا بهم إلى بابلى[1] فضربوا أعناقهم ، وفيهم جماعة من أهل حلب وأقارب الملك الناصر ، ثم أعادوا من بقى من أهل حلب إليها ، وسلموا كل طائفة إلى رجل من الأكابر ، ثم أحاطوا بالبلد ولم يمكنوا أحدا يدخل إليه ولا يخرج منه .

ثم فارق التتار حلب فى أوائل جمادى الأول سنة تسع وخمسين وستمائة وكان سبب رحيلهم عنها أن السلطان الملك الظاهر جرد فى العشر الأول من شهر ربيع الأول الأمير فخر الدين الطنبا الحمصى والأمير حسام الدين لاجين الجوكان دار[2] والأمير حسام الدين العين تابى[3] فى عسكر لدفع التتار عن حلب . فلما وصلوا إلى غزة أرسل فرنج عكا إلى التتار يخبرهم فرجعوا وفارقوا حلب .

ولما رحل التتار عن حلب تغلب عليها جماعة من أحداثها خلوها من العسكر، منهم نجم الدين أبو عبد الله بن المنذر ، وعلى بن الأنصارى ، وأبو الفتح ، ويوسف بن معالى ، فقتلوا ونهبوا ، وبلغوا أغراضهم ممن كان فى قلوبهم منهم ضغائن ، فلما قاربوا الأمير فخر الدين الحمصى والأمير حسام الدين العين تابى ، ومن معهما هرب هؤلاء عن حلب . ولما دخلها الأمير فخر الدين الحمصى صادر

---

(١) وترسم أيضا بابلا على ميل تقريبا من مدينة حلب (عن معجم ياقوت) وانظر « باب الله » التى وردت من قبل فى هذا المتن (ص ٣٩).

(٢) عن السلوك (جـ ١ ص ٤٢٩) : هو حسام الدين لاجين بن عبد الله الجوكندار (كذا) العزيزى ؟

(٣) عن السلوك (جـ ١ ص ٣٩٢) : العتابى ؟

أهلها وعذبهم واستخرج منهم ألف ألف درهم وستمائة ألف درهم بيروتية ، وأقام بها إلى أن وصل الأمير شمس الدين أقش البرلى ، ففارقها .

ذكر الغلاء الكائن بحلب

قال الشيخ شمس الدين بن الجزرى فى تاريخه : وفى سنة تسع وخمسين وستمائة بعد أن توجه[1] التتار من البلاد الإسلامية غلت الأسعار بحلب ، وقلت الأقوات فبلغ رطل اللحم سبعة عشر درهما ، ورطل السمك ثلاثين ، ورطل اللبن خمسة عشر ، ورطل الشيرج سبعين ، ورطل الخل ثلاثين ، ورطل الأرز عشرين ، ورطل الحب رمان ثلاثين ، ورطل السكر خمسين ، والحلوى كذلك ، ورطل العسل ثلاثين ، ورطل الشراب ستين ، والجدى الرضيع بأربعين درهما ، والدجاجة بخمسة دراهم ، والبيضة بدرهم ونصف[2] ، والبصلة بنصف درهم ، وباقة البقل بدرهم ، والبطيخة بأربعين درهما ، والتفاحة بخمسة دراهم ، ولم يذكر سعر الخبز والقمح ، ولعل ذلك لعدمه .

قال : وكانت المكاسب كثيرة والدرهم متيسر الحصول .

ذكر اختلاف العزيزية والناصرية ، ومفارقة الأمير شمس الدين أقش البرلى البلاد ، وتولية الحلبى نيابة حلب وعزله ، وعود البرلى إليها وخروجه منها ، ونيابة البندقدار وعود البرلى إليها ثانية وخروجه

وفى سنة تسع وخمسين وستمائة ، بعد وقعة التتار ، اختلف الأمراء العزيزية

(١) توجه بمعنى رحل .

(٢) كذا فى الأصل .

والناصرية ، وحضروا إلى الساحل ، فأعطى السلطان بعضهم الإقطاعات ، وحضر الباقون إلى الديار المصرية ، وكان الأمير شمس الدين أقش البرلى مقطعا مدينـة نابلس من الأيام المظفـرية ، فزاده السلطان بيسان وجعـل لمملوكه قجقار عدة نواحى وتوجه إلى دمشـق . ثم أمر السلطان بإمساك الأمـــير بهاء الدين بغدى الأشرفى فغضب البرلى لذلك ، واجتمع معـه العزيزية والناصرية ، ونزلوا بالمرج وتوجهو إلى حلب . وكان السلطان قد استناب الأمير علم الدين الحلبي بحلب قبل حدوث هذه الواقعة ، وأمّر جماعة وقرر لهم وظائف وهم : الأمير شرف الدين قيران[1] الفخرى وجعله استاذ الدار ، والأمير بدر الدين جماق وجعله أمير جاندار ، والأمير علاء الدين ايدكين الشهابى وجعـله شاد الدواوين . فتوجه الأمـير علم الدين ووصل إلى حلب فى يوم السبت ثالث شـعبان من السنة ووصلت مطالعته إلى السلطان يذكر عبوره إلى حلب ، وأن جماعة من العزيزية والناصرية حضروا إليه يطلبون الأمانات . ولمـا وصـل الحلبي إلى حلب جرد جمـاعه من العسكر خلف البرلى ومن معه من العزيزية والناصرية ، فعطف عليهم العزيزية والناصرية فهزموهم ، فعزل السلطان الحلبي لذلك . وقيل إنه إنمـا عزله لأســباب أخر اتفقت أوجبت عزله . ولمـا عزل الحلبي فارق حلب وعاد إلى دمشق ، فخلت مدينة حلب ، فحضر الأمير شمس الدين البرلى إليها وأقام بها ، وسير الأمير بدر الدين أيدمر الحلى رسولا منه إلى السلطان يبـذل له الطاعة ، فأبى السلطان إلا حضوره إلى الخدمة . وأقام البرلى بحلب إلى أن وصل السلطان إلى دمشق فى سنة تسع وخمسين ، فجرد العساكر إليها ففارقها البرلى وتوجه إلى الفرات ، وعاد العسكر

(١) دون نقط فى الأصل ، والنقط المثبت منقول من « س » ؟

وأغار على بلاد أنطاكية[1] ، وكان فى العسكر صاحب حمص وصاحب حماة ، فأخذت المينا وأحرقت المراكب ، وأخذت الحواصل ، وعادت العساكر إلى القاهرة فى يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ستين وستمائة وصحبتهم مايزيد على مائتين وخمسين أسيرا[2] .

ثم استناب السلطان بحلب الأمير علاء الدين ايدكين البندقدار[3] ، فتوجه إليها وأقام بها . ثم خشى عاقبة عود الأمير شمس الدين اقش البرلى ، ففارق حلب وعاد وأقام بحماة واعتذر أنه إنما فارق حلب لشدة الغلاء وعدم الأقوات .

وكان الأمير شمس الدين البرلى قد أرسل إلى السلطان الأمير علم الدين جكم بكتبه يسأله الصفح ، فلما فارق البندقدار حلب عاد البرلى إليها وكتب إلى السلطان يعتذر من رجوعه إلى حلب ، وأنه مارجع إلا طائعا ، وأن الأمير علاء الدين انفصل عن حلب اختيارا منه ، ولو أقام لما قصده أحد ، وتوالت كتبه بالاعتذار واستأذن فى توجهه إلى الموصل ، والسلطان يغلظ له تارة ويلين أخرى .

ثم جرد السلطان عسكرا صحبه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نجدة لصاحب الموصل ، وانفق فيهم الأموال . فلما اتصل الخبر بالأمير شمس الدين البرلى توجه إلى سنجار والتقى التتار وقاتلهم قتالا شديدا . وكان معه نحو ألف فارس وهم فى جموع كثيرة فلم تساعده المقادير ، وذلك أنه سقط عن فرسه فانكسرت رجله ، فركبه أحد مماليكه وساق يوما كاملا ولم يعلم من معه أن رجله كسرت ، ثم كان من أمره ما نذكره ، إن شاء الله تعالى .

(١) فى الأصل ، بدون نقط و بدون رأس الكاف .
(٢) انظر السلوك (ج ١ ص ٤٧٢) .
(٣) انظر السلوك (ج ١ ص ٤٦٣) .

هذا ما اتفق بالشام وحلب .

ذكر ما اتفق للسلطان بالشام فى مـــدة مقامه بدمشق وما وقع فى سفرته هذه خلاف ما قـدمنا ذكره من أمر الخليفة

من ذلك أنه لمـا وصل إلى دمشق وصل إلى خدمته الملك المنصور صاحب حماة ، والملك الأشرف صاحب حمص والرحبة ، فتلقاهمـا وأكرمهما وأنعـم عليهما بخيل النوبة والعصائب وشعار السلطنة ، وركب كل منهما بمفرده والأمراء مترجلون فى خدمتـه ، وكتب لهما التقاليد ، وزاد الملك الأشرف تل باشر والملك المنصور بلاد الإسماعيلية ، وتوجها إلى بلادهما .

ومن ذلك أن أمراء العربان حضروا إلى خدمة السلطان فأنعم عليهم ووصل أرزاقهم ، وسلم إليهم خفر البلاد ، والزمهم حفظها إلى حدود العراق[1] .

ومن ذلك أنه فوض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيرى ، وكان قبل ذلك بنيابة قلعة دمشق ، والأموال[2] .

ذكر ركوب السلطان إلى الميـــدان بدمشق ولعبـه بالكره ومن كان فى خدمته من المـلوك

قال المولوى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى السيرة الظاهرية : ولعب السلطان فى ميـدان دمشق ، فرأيت فى خدمته جماعة من المـلوك وهم : الملك الصالح صاحب الموصل [و][3] الملك المجاهد صاحب الجزيرة ، [و] الملك المظفر

(١) زاد الســلوك (جـ ١ ص ٤٦٥) : « وكتب منشور الإمرة على جميـع العربان للامير شرف الدين عيسى بن مهنا » .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٥ س ٤) . (٣) إضافة وارات العطف للايضاح .

صاحب سنجار ، [و] الملك علاء الملك . [و] الملك الأشرف صاحب حمص ، [و] الملك الزاهر أسد الدين ، [و] الملك المنصور صاحب حماة [و] الملك الأمجد تقى الدين بن الملك العادل سيف أبى بكر بن أيوب[1] ، [و] الملك المنصور [و] الملك السعيد ، [و] الملك المسعود ، وأولاد الملك الصالح عماد الدين اسماعيل (و) الملك الأمجد وإخوته أولاد الملك الناصر داود ، (و) الملك الأشرف ابن ولد أقسيس [و] الملك القاهر بن الملك المعظم ، وجماعة كثيرة منهم .

قال : وهذا ما لا رآه ملك آخر .

ذكر الصلح مع ملوك الفرنج

لما توجه السلطان إلى الشام سير سيرجوان ديكين ، كند يافا ، يبذل الطاعة . ولما وصل السلطان إلى العوجا سأل الأمان للحضور إلى الدهليز ، فتوجه الأتابك إليه وأحضره إلى السلطان . فأكرمه وكتب له منشورا ببلاده ورده إلى بلده .

قال : ثم وردت رسل ملوك الفرنج يهنون السلطان بالسلامة ومعهم الإقامات الكثيرة .

فلما وصل السلطان إلى دمشق حضر رسول من عكا يسأل أمانا للرسل المتوجهين من ساير البيوت . فكتب إلى متولى بانياس بتمكينهم[2] ، فحضر أكابر الفرنج والتمسوا الصلح ، فتوقف السلطان واشترط شروطا كثيرة فتوقفوا ،

(١) من النجوم (ج ٧ ص ٥ س ١٠) هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك الناصر يوسف بن الملك المسعود أقسيس بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب .

(٢) فى الأصل : بدون رأس الكاف .

فأهانهم وزجرهم . وكان العسكر قد توجه للإغارة على بلاد الفرنج من جهة بعلبك ، فسألوا فى رجوعه وتقرير الصلح على ما كان الأمر عليـه إلى آخر الأيام الناصرية وإطلاق الأسرى ، من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت هذه الهدنة . وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهود عليهم[1] .

وكذلك تقررت الهـدنة لصاحب يافا ومتمـلك بيروت على حـكم الأيام الناصرية ، وأمنت السبل وكثرت الأجلاب .

وشرع السلطان فى جمع الأسارى وسـيرهم إلى مدينة نابلس حفظا للعهود ، والفرنج يكاسرون[2] فى أمر الأسارى . فلما طال ذلك رسم السلطان بنقل الأسارى إلى دمشق واستعمالهم فى العمائر وبقى الحال موقوفا[3] .

ذكر الغارة على العرب والفرنج

قال : ولمـا وصل السلطان إلى الشام جرد الأمـير جمال الدين المحمـدى ، وجرد معـه جماعة من العسكر المنصور ، ورسم لهـم بالإغارة على بلد الفـرنج ، فتوجهوا ونهبوا وكسبوا ، وعادوا سالمين[4] .

وجرد جماعة من البحرية وكتم خبرهم . وكان السلطان بلغه أن جماعة من عرب زبيـد قد كثر فسادهم وأنهـم مخالطون الفرنج وموافقوهـم فى الباطن ويدلونهم على عورات المسلمين ؛ فساق البحرية إليهـم وانتهبوا أموالهم وقتـلوا منهم وذبحوا جماعة كثيرة ، وكفى الله الإسلام شرهم[5] .

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٣/٤) . (٢) بمعنى يماطلون بحسب التعارف فى العامية .
(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٤ س ٤ — ٩) .
(٤) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٤ س — ٩) .
(٥) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٤ — ٤٦٥) .

وفى هذه السنة والسفرة ، عزل السلطان القاضى نجم الدين بن قاضى القضاة صدر الدين بن سنى الدولة عن القضاء بدمشق ، وفوضه للقاضى شمس الدين أحمد ابن بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمكى من العريش إلى سلمية ، وفوض إليه النظر فى جميع الأوقاف بالشام ، منها الجامع والبيمارستان والمدارس وغير ذلك ، وفوض إليه تدريس سبع مدارس وهى : العادلية ، والعذراوية ، والناصرية ، والفلكية ، والركنية ، والإقبالية ، والبهنسية . وكان تدريس هذه المدارس بيد القاضى نجم الدين المعزول ؛ ووكل بالقاضى نجم الدين[1] وأمره أن يتوجه إلى الديار المصريه . وكان مذموم السيرة فى ولايته . ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة جملة من معانيه .

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية

قال : ولما استقرت هذه الأمور عاد السلطان إلى الديار المصرية ، وكان وصوله فى يوم السبت سابع عشر ذى الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة .

ذكر أخذ الشويك

كان السلطان قد جهز الأمير بدر الدين الأيدمرى وصحبته جماعة من العسكر ، وما أعلم أحدا ممن جرد بالجهة التى يتوجهون إليها ؛ فتوجه إلى الشويك وبذل المال والخلع فسلمت إليه . ووصل الخبر بتسليمها فى سادس عشرين ذى الحجة من السنة . وولى نيابتها الأمير سيف الدين بلبان المحتصبى[2] ، واستخدم بها النقباء

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٥ — ص ٦ — ٧) : هو نجم الدين أبو بكر محمد بن أحمد ابن يحيى بن السنى .

(٢) كذا فى الأصل واضحا ، وفى السلوك (جـ ١ ص ٤٤٧ س ١ ؟) : « المختصى » .

والجاندارية ، وأفرد لخاص القلعة ما كان لها إلى آخر أيام الصالحية النجمية .

وفى هذه السنة ، كانت وفاة الصاحب صفى الدين أبى إسحق إبراهيم ابن عبد الله بن هبة الله بن أحمد بن مرزوق العسقلانى ، وكان قد وزر للملك الأشرف ابن الملك العادل بدمشق مدة ، ثم عزل بجمال الدين بن جرير ، وكان تاجرا مشهورا بالثروة و كثرة الأموال . وكان ابتداء أمره كما حكى عنه أنه حكاه عن نفسه قال : أرسلنى والدى إلى القاهرة من مصر لأبتاع له قمحا ، وكان له طاحون بمصر ، فتوجهت إلى دار بعض الأمراء فاشتريت ألف أردب بخمسة آلاف درهم ، وتسلمتها ، وبت فى تلك الليلة بالقاهرة ، وأصبحت فتحسن سعرها فبعتها بسبعة آلاف ، فأوفيت الثمن ، وأخذت ما بقى ، وصرفت به مائة وثلاثين دينارا . وأتيت والدى فسألنى عن القمح ، فقلت : بعته ، فقال : ولم لا أتيت به؟ فقلت له : إنك لم ترسل معى الثمن، حتى ولم تعطنى دابة أركبها، وعندك عشرين دابة ، ماهان عليك أن أركب منها دابة[1] . وكنت قد مشيت من مصر إلى القاهرة فحقدت ذلك عليه . قال : ثم اتجرت فى ذلك المال الذى ربحته من ثمن القمح فبارك الله لى فيه حتى جمعت منه ستمائة ألف دينار عينا ، غير ما اشتريت من العقار والأثاث والخدم والدواب والمسفر وغيره .

وكانت وفاته بمصر ودفن بسفح المقطم . ومولده فى شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة . رحمه الله تعالى .

وفيها توفى الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس بن بدر الدين خماردكين[2] ، وهو صاحب صهيون ، وجده عتيق الأمير مجاهد الدين صاحب صرخد .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) انظر النجوم (جـ ٧ ص ٢٠٦ س ٢ — ٤) .

وكانت وفاته فى ثانى عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وستمائة بقلعة صهيون ودفن بها ، وولى بعده ولده سيف الدين محمد . وكان هو قد ولى صهيون بعد وفاة والده ناصر الدين منكورس فى سنة ست وعشرين وستمائة . وخلف الأمير مظفر الدين من الأموال مالا يحصى كثرة . حكى الشيخ شمس الدين ابن الجزرى فى تاريخه قال : حكى لى الصاحب مجد الدين اسماعيل بن كبيرات الموصلى قال : كان مظفر الدين صاحب صهيون يجلس فى كل يوم فى باب القلعة ويأخذ قطعا من الشمع ويختم عليها بخاتمه ، فمن كان له دعوى على خصمه أو محاكمة جاء إليه وأحضر معه شيئا من المأكول فيضعه فى الدركاه بين يدى الأمير مظفر الدين ، ويأخذ قطعة من ذلك الشمع المختوم ويتوجه إلى خصمه ويقول هذا ختم السلطان ، فيأخذ الخصم معه شيئا أيضا ويحضر إلى بين يديه فيحكم بينهما بنفسه . قال : فسألته عن مقدار ما يحضره الواحد منهم . قال : يأتى كل واحد بحسبه من الرأس الغنم إلى خمس بيضات . ومات وقد ناف على تسعين سنة ، رحمه الله .

وفيها توفى الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عيسى بن درياس المارداني[1] الشافعى ، وكانت وفاته بالقاهرة فى يوم السبت سادس شوال ، ودفن من يومه بسفح المقطم . ومولده فى ليلة الثلاثاء ثانى عشرين شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وخمسمية ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل المارانى ، والتعديل مستند إلى النسخة س ، وإلى شذرات الذهب فى وفيات عام ٦٥٩ هـ ، واسمه : القاضى كمال الدين أبو حامد محمد بن قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك المارداني المصرى الشافعى الضرير ، ويلقبه صاحب النجوم (ج ٧ ص ٢٠٥ س ١٧) « الصدر العدل » .

واستهلت سنة ستين وستمائة

فى هـذه السنة ، فى ثالث عشرين المحرم ، أعرس الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهرى نائب السلطنة الشريفة على ابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كان ، وكان عقد النكاح قد عقد فى ثالث عشر شوال سنة تسع وخمسين وستمائة ، وذلك أن السلطان كان قد استدعى الملوك إخوتها فى اليوم المذكور وعرفهم مكانة الأمير بدر الدين منه ، وأن محله محل الولد ، وخطب أختهم له ، فأجابوا إلى ذلك ، وعقد النكاح . وملكه السلطان فى ذلك اليوم بانياس وقلعتها بالبيع الشرعى . ثم كان البناء بها فى هذه السنة . وعمل العرس بالميدان الأسود . واحتفل السلطان به احتفالا عظيما ، وفوض إليه بعد أيام قلائل النظر فى أمر الجيش : يقطع الإقطاعات ويزيد وينقص ، وفوض إليه أمر الرعايا وكشف ظلاماتهم وغير ذلك .

وفيها ، حصل الصلح بين السلطان والملك المغيث صاحب الكرك[1] ، وكان ولده الملك العزيز فى الاعتقال من الأيام المظفرية . فإن والده كان قد سيره إلى هولاكو كما ذكرنا فاتفق عوده إلى دمشق عند دخول الملك المظفر إليها ، فأمر بإرساله إلى قلعة الجبل واعتقاله بها . فأطلقه السلطان الآن ، وأقطعه دبنان[2] بمنشور ، وحلف السلطان لأبيه . ثم بعد ذلك سير السلطان له صنجقا وشعار السلطنة ، فقبل عقب الصنجق وركب بشعار السلطنة .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٨ س ٥) .

(٢) كذا فى الأصل ، ولم يجد المحقق تعريفا لهذا المكان فى المراجع المتداولة .

وفيها ، انتصب السلطان لعرض العساكر بنفسه وحلّف الناس لولده الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان ، فحلفوا له ، وسيرت نسخ الأيمـان إلى القلاع والممـالك[1] والناس بأجمعهم .

ذكر وصول الأمير شمس الدين سلار البغدادى وشىء من أخباره[2]

وفى نصف شهر رجب سنة ستين وستمائة وصـل الأمير شمس الدين سلار البغدادى من العراق إلى الديار المصرية ، وكان رجلا تركيا من قبيـلة دروت[3] وهو من مماليك الخليفة الظاهر بأمر الله أبى نصر محمـد بن النـاصر لدين الله ، ولاه واسـط والكـوفة والحـلة . فأقام بهـا فى الأيام الظاهرية والمستنصرية والمستعصمية . فلما استولى هولاكو على بغداد وقتـل الخليفة ، اجتمع سلار هذا وصاحب شستر ومن انضم إليهما ، وقاتلوا التتار فلم يكن لهم بهم طاقة لكثرة التتار ، فتوجه إلى برية الحجاز ، فأقام بها نحوا من ستة أشهر ، ثم راسله هولاكو وكتب له فرمانا بإقراره على ما كان عليه فى الأيام المستعصمية ، فحضر إليه فأقره ، فلما أفضت السلطنة بالديار المصرية إلى السلطان الملك الظاهر كاتبه السلطان ، وطلب منه الوصول إليـه مرة بعد أخرى ، فتقرر حضوره إليـه ، وتأخر ذلك إلى أن يتحيل لنفسه ويجمع أمواله ، فاتفق أن السلطان تحدث مع قليج البغدادى فى بعض الأيام فقال له السلطان : خوشداشك سلار يصل إلينا ؟ فقال : هـذا لا يتصور

(١) الإضافة يقتضيها السياق .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٨ س ١١ — ١٤).

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٨ حاشية ٣) .

وقوعه ، لأن سلار من المملوك بالعراق ، فكيف يفارق ما هو فيه ويحضر إلى هذه البلاد ؟ فقال السلطان : متى لم يحضر برضاه أحضرته بغير رضاه . وبعث قاصدا يكتب إليه على أنها أجوبة كتبه ، وبعث قاصدا آخر وقال له : إذا قربت من الأردو فاقتل هذا القاصد واتركه وما معه ، ففعل ذلك . ولما قتل القاصد وجده القراؤل ، فأحضره إلى هولاكو فقرئ ما معه من الكتب فوجدت أجوبة سلار . وكان بمقام هولاكو جماعة من أولاد مماليك الخليفة أخذهم لنفسه وجعلهم خواصا عنده ، فسيروا إلى سلار فى الوقت يعلمونه الخبر ، فعلم أنها مكيدة ، ورسم هولاكو بطلبه إلى الأردو ، فوصل إليه الخبر قبل ورود مرسوم هولاكو بطلبه . وكان حال وصول الخبر إليه يتصيد ، فعلم أنه متى وصل إلى هولاكو قتله ، فساق لوقته إلى أن وصل إلى الديار المصرية . وترك جميع أمواله وذخائره وأهله وأولاده . ولما وصل أكرمه السلطان وعامله بإحسان كثير ، وأنزله بالكبش ، وأمره طبلخاناه ، وأقطعه منية بنى خصيب . فقال للسلطان : لقد ضيع السلطان على المسلمين أموالا عظيمة ، فإنك لو تركتنى حتى أحضر بما جمعته من الأموال والذخائر انتفع بيت المال به ، فإنى جمعت خراج سنتين . فقال له السلطان : إنما كان قصدى حضورك ، ولم أقصد الأموال . ولا تجلس بين يدى . السلطان لا يرفع أحدا عليه[1] . ثم جرده السلطان فى مقابلة الفرنج بساحل عكا ، فكتب إلى السلطان يسأله أن يقيم بالشام فأقطعه نصف [مدينة] نابلس[2] ، وأقام ستة أشهر ثم أعاده [السلطان] إلى الديار المصرية .

(١) تفيد العبارة أن السلطان التفت إلى جماعة الحاضرين وتحدث عن سلار بصيغة الغائب .

(٢) زاد السلوك (جـ ١ ص ٤٦٨ س ١٣) : « وأعطاه إمرة خمسين فى الشام » .

وكان السلطان قبل وصول سـلار البغدادى قد اعتقل الأمـير سيف الدين قليج لأمر صدر منه ، فأطلقه السلطان بغـير شفاعه ، وأحسن إليـه وأعاده إلى الإمرة ولعب معه الكرة .

ذكر عود رسل السلطان من جهة الأنبرور[1]

وفى شعبان سنة ستين وستمائة ، وصل الأمير سيف الدين الكزى[2]، والقاضى أصيل الدين خواجا إمام، وكان السلطان بعثهما إلى الأنبرور ،وذكرا أن الأنبرور أهتم بأمرهما اهتماما عظيما ،وأنه أحضرهما ساعة وصولهما وعرضت عليه الهدية، وكان فى جملتها زرافة فأعجبته إعجابا عظيما ، وشاهد التتار الذين سيروا إليه [ذلك][3]، وذكرا أنه جهز رسولا وهدية تحضر فيها بعد .

وكان فى جمـلة رسله إلى السلطان نفـران من البحرية[4] ، فلما وصلا، أمر السلطان بتأديبهما لمـا بلغه من سـوء اعتمادهما ، وسـيرهما إلى قلعة الجـزيرة يعملان فيها .

ذكر عود رسل السلطان من جهة صاحب الروم ووصول رسله إلى السلطان ، وما قرره السلطان من بلاده .

وفى هذا الشهر ، وصل الأمير شرف الدين الحاكى ، والشريف عماد الدين الهاشمى . وكان السلطان قد سيرهما إلى السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٩).

(٢) كذا فى الأصل وفى السلوك أيضا .

(٣) الإضافة يقتضيها السياق .

(٤) راجع حاشية الدكتور زيادة فى السلوك (جـ ١ ص ٤٦٩ حاشية ٢ ، ٤) .

صاحب الروم ووصل صحبتهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوح[1] رسلان أمير حاجب ، والصدر صدر الدين الخلاطي[2] رسولان منه ، ومعهما كتابه إلى السلطان يذكر أنه نزل للسلطان عن نصف بلاده ، وسيّر درجا فيها علائم بما يقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمّره [وسأل أن][3] يكتب له من جهته منشورا قرين منشور صاحب الروم . فلما وصل الرسل إلى السلطان أكرمهم وجهز جيشا نجدة لصاحب الروم . وأمر بكتب المناشير، وعين الأمير ناصر الدين أغلمش السلاح دار الصالحى لتقدمة الجيش ، وعين له ثلاثمائة فارس ، وأقطعه فى الروم ، وكتب للامير ناصر الدين الرسول المذكور منشورا بثلاثمائة فارس وأقطعه آمد وأعمالها ، وتقرر سفره صحبة العسكر ، وأن يتوجه صدر الدين رفيقه فى البحر صحبة رسل السلطان . ووقع الإهتمام فى كتب المناشير وتجريد الأمراء من الشام وحلب .

وفى شهر رجب من السنه ، وصل الأمير عماد الدين ولد الأمير مظفر الدين صاحب صهيون رسولا من جهة أخيه الأمير سيف الدين ، وصحبته الهدايا الحسنة . فأحسن السلطان إليه وكتب له منشورا فى بلاد حلب بثلاثين فارسا ، وكتب له منشورا آخر فى بلاد الرومية بمائة طواش .

وفى هذه المده ورد كتاب صاحب الروم يذكر أن العدو لما بلغهم اتفاقه مع السلطان ولوا هاربين ، وأنه سير إلى قونيه يحاصرها ليأخذ من بها من أصحاب أخيه .

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٤٦٩ .

(٢) كذا فى الأصل ؛ وفى السلوك (نفس الموضع السابق) : الأخلاطى .

(٣) الإضافة عن متن السلوك للايضاح (نفس الموضع السابق) .

وفى هذا التاريخ ، وصلت كتب الأمير علاء الدين الخزندار مقدم العسكر المتوجه إلى الصعيد بسبب العربان عندما قتلوا الأمير عز الدين الهواش متولى الأعمال القوصية يذكر تبديد شملهم وأبادتهم وأنه أراح المسلمين من فسادهم .

وفى شعبان منها توالى وصول جماعة ممن كان صحبه الأمير شمس الدين أقش البرلى من العزيزية والناصرية ، فأحسن السلطان إليهم ، ولم يؤاخذهم بما كان منهم .

ذكر عود رسل السلطان من جهة الأشكرى
وخبر مسجد القسطنطينية

وفى هذه السنة ، وصل الأمير فارس الدين أقش[1] المسعودى الذى كان توجه رسولا إلى الأشكرى ، وكان الأشكرى قد سير رسولا إلى السلطان يلتمس بطركا للنصارى الملكيين[2] فعين لذلك الرشيد الكحال ، وسير إليه صحبة الأمير فارس الدين المذكور ، فأكرمه الأشكرى وأكرم من صحبه من الأساقفة ، وصادف وصولهم إلى الأشكرى فتح القسطنطينية ، فركب يوما ليفرج فارس الدين المذكور فيها وفى عمارتها . فمر بمكان وقال : هذا جامع ، وقد أبقيته ليكون نوابه للسلطان . فلما سمع السلطان هذا الخبر استبشر به وفرح فرحا عظيما . وأمر لوقته بتجهيز الحصر العبدانى[3] والقناديل المذهبة والستور المرموقه والسجادات والمباخر والعنبر والعود والمسك وماء الورد .

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٧١) .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى السلوك : « الملكية » (نفس الموضع) .

(٣) النسبة إلى عبادان وكانت مشهورة بالحصير معجم ياقوت (جـ ٦ ص ١٠٤) .

وهذا المسجد كانت عمارته فى سنة ست وتسعين للهجرة . وكان قد وقع الصلح مع الروم على أن يبنى بها مسجد جامع[1] فبنى . ولما طالت المدة جعلوه حبسا . وقيل: إن الصلح كان قد تقرر على أن يبنى مسجد قدر جلد بعير، وتقررت العهود على ذلك فعمد المسلمون إلى جلد بعير فقدوه سيورا ومدوها . فأنكر ذلك فقال المسلمون: هذا جلد بعير ، لم نزد عليه شيئا ، وعليه وقع الاتفاق . فسكتوا وقيل : إن بانيه مسلمة بن عبد الملك فى أيام أخيه الوليد . والله أعلم .

ذكر حضور الأمير شمس الدين

أقش البرلى العزيزى إلى الديار المصرية[2]

قد ذكرنا من أخباره وتردده إلى حلب وقتاله التتار فى سنة تسع وخمسين وستمائة ما قدمناه .

قال المؤرخ : ولم يزل السلطان يكاتبه ويرغبه ويعطيه العهود والمواثيق على الوفاء ، وسير إليه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى فى رسالة ، وشافهه باليمين ، فقال له الامير شمس الدين : « قد جاءتنى رسالة هولاكو يطلبنى إليه ، وحلف لى . وهذه رسالة السلطان ويمينه ، وأنا ، والله ، أعلم أن هولاكو يفى ، وأن السلطان لا يفى » . وكان أولاده وأهله بالقاهرة فترجح عنده الحضور لحضر ، ولما وصل إلى دمشق كتب السلطان إلى النواب بخدمته وترتيب الإقامات له فى جميع الطرقات والمنازل إلى أن يصل إلى القاهرة ، وكان متمرضا من

(١) سقطت من الأصل عبارة من نحو سطرين من ١٧ كلمة ، على حين تشمل النسخة «س» كل العبارة الساقطة .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٧٥ و ٤٧٦) .

جراحة فى رجله فجهز إليـه الأدوية واهتم بأمره اهتماما عظيما ، وكان وصوله إلى القاهرة فى ثانى ذى الحجة سـنة ستين وستمائة ، فركب السلطان لتلقيه وحمل إليه من الأموال والأقمشة والخلع والخيول وآلات البيوتات ما لا يكون مثله إلا لملك . ولم يترك شيئا ممـا يحتاجه الأمراء إلا سيره إليه . وكتب له منشورا بستين فارسـا ، وأعطاه طبلخاناه ، وأمر من صحبـه من الأمراء . وأعطى كل واحد منهم بحسب حاله . قال : و لمـا استقر أرسل إلى السلطان يسأله زيادة فى الشام[1] أو فى نابلس أو بـلاد الصلت أو بعلبك أو حران ، وينزل عن البيرة ، و يقول : إن قدرته تعجز عن حفظها ، فشكره السلطان ولم يقبل البيرة منه . وقال : « أنا أرجـو لك الزيادة » وصار السلطان يقربه فيسايره إذا ركب ، و يستشيره إذا جلس ، و يساهمه فى كل شىء حتى فيما يكون بين يديه من الطرف . ولازمه حتى لم يفارقه صيد ولا غيره ، ثم جدد السؤال فى قبول البيرة ، فقبلهـا السلطان منه وأعطاه الرها وغيرها ، وأمر مماليكه . وسافر فى صحبـة السلطان إلى الطـور ثم قبض عليه لاسباب نذكرها ، إن شـاء الله تعالى .

ذكر القبض على علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب السلطنة بالشام[2]

وفى سـنة ستين وستمائة ، بلغ السلطان عن الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيرى النائب بدمشق أمور أنكرها عليه ، فسير الأمير عز الدين الدمياطى ، والأمير علاء الدين أيدغدى الحاج الركنى فتوجها من الديار المصرية فى شوال ،

(١) المقصود دمشق .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٧٢ ص ١٤ — ١٦) .

ودخلا إلى دمشق فى ثالث ذى القعدة . فلما خرج اليهما ليتلقاهما ووصل إلى الأمير عز الدين الدمياطى أهوى ليكارشه على ماجرت العادة به فى السلام، فقبض الدمياطى بيده على عضد طيبرس و بيده الأخرى على سيفه ، وأنزل عن فرسه وركبوه بغلا ، وقيد وأرسل إلى السلطان ووقعت الحوطة على أمواله وحواصله بدمشق ، وكان قد سير جملة منها مع العرب . وكان طيبرس قد أساء السيرة فى أهل دمشق ، وضيق عليهم ، وتسلم الأمير علاء الدين الركنى دمشق ينظر فيها إلى حين حضور نائب مستقل .

ومن عجيب ماوقع فى القبض عليه ماحكاه شمس الدين الجزرى فى تاريخه عن الرشيد فرج الله كاتب البيرتات بدمشق، قال : لما وصل الأمراء الذين قبضوا على طيبرس إلى الكسوة طلبنى وقال: جهز سماطا جيدا لهؤلاء الأمراء ، وأحضره أنت بنفسك واحترز عليه ، فأنا لا أحضره . قلت : لأى سبب يتأخر مولانا عنه ؟ فأسر إلى وقال : إن هؤلاء جاءوا ليقبضوا على قبل دخولهم إلى دمشق . فقلت : يكفيك الله ، وبكيت. فقال : هذا أمر لابد منه ، فأبصر أنت كيف تكون . فخرجت من عنده ، وجهزت السماط كما رسم، وكان من قبض ماتقدم قال الرشيد : فدخلت يوما على الأمير علاء الدين الركنى وهو يحكم بدمشق ، فسألنى عن أشياء تتعلق بالديوان والسماط إلى أن ذكر الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى وأثنى عليه خيرا ، فوجدت مجالا للكلام ، فذكرت له هذه الحكاية . فقال لى : أنا أحكى لك أعجب من هذا : بينا أنا فى دارى بالقاهرة فى وقت القايلة وإذا برسل السلطان تستدعينى إليه، فما شككت حين طلبنى فى غير الوقت المعتاد أنه يقبض على . فأوصيت استادارى بما يعتمده ، وودعت أهلى، وركبت إلى القلعة ، فوافيت الأمير عز الدين الدمياطى وقد طلب كما طلبت ، فتحققنا

جميعا إننا نمسك ، ثم دخلنا على السلطان فوجدناه فى خلوة، فلما أقبلنا عليه نهض قائمـا ، وأكرمنا فقبلنا الأرض بين يديه وزال عنها ما كنا نجـده ، ثم أمرنا بالقرب منه ، فتقدمنا حتى التصقت ركبنا بركبتيه ، ثم أخرج من جيبه ختمة واستحلفنا أننا لا نذيع له سرا ، وأن نفعل ما يأمرنا به ، فحلفنا، فلما تمت اليمين قال : تتوجها الساعة إلى دمشق وتستصحبا معكما العسكر المقيم بغـزة ، وتمسكوا[1] علاء الدين طيبرس نائب الشام ، وتكون أنت مكانه، وإن سمعت هذا الحديث من أحد من خلق الله تعالى قبل أن تفعلاه شنقتكما . فخرجنا من عنده فلما صرنا تحت القلعة إذا بحرفوش يقـول لآخر : هؤلاء رايحـين إلى دمشق يقبضوا على طيبرس نائب السلطنة بها ، فاصفر عند ذلك لونى ولون الدمياطى، وحلفنا جميعا لانصل إلى بيوتنا ، وقال كل منا لاستاذداره أن يلحقـه بهجين وجنيب إلى البئر البيضاء[2] وسقنا من وقتنا إليها . فلحقنا غلماننا وما نحتاج إليـه بعد العصر ، واستمر بنا السير حتى نفذنا أمر السلطان . وهـذا شىء أجراه الله تعالى على ألسنة عوام مصر ، لاينطقون بشىء فى غالب الأوقات إلا ويكون كذلك .

ذكر وصول جماعة من التتار إلى خدمة السلطان[3]

قال المؤرخ : كان السلطان قد جهز كشافة من الأمراء وهم، جمال الدين أقش الرومى السلاح دار من الخواص ومعه الخيول الجياد ، ثم جهـز الأمير علاء الدين أقسنقر الناصرى ، وكتب إلى الشام بأردافهـم ، وأرسـل أمراء

(١) كذا فى الاصل بالعامية .

(٢) البئر البيضاء بين القاهرة وبلبيس انظر السلوك (ج ١ ص ٨٠٥) .

(٣) انظر السلوك (ج ١ ص ٤٧٣ — ٤٧٥) .

العربان فساقوا إلى حدود العراق . وكانت الأخبار من جهة القصاد قد وردت أن هولاكو جمع جمعا كبيرا ولم يعلم قصده ، فاحترز السلطان وسير هذه الكشافة . فأمسكوا من وسط التتار جماعة ،واستطلعوا منهم الأخبار، وكانوا مسلمين ، فأطلقهم الأمير علاء الدين . ولما توالت الأخبار بحركة هولاكو عمل السلطان بالحزم ، وتقدم إلى أهل دمشق بالحضور بأهاليهم لتخف ظهورهم وترخص الأسعار فحضر منهم جماعة كثيرة .

وكتب إلى النواب بحلب بحريق الأعشاب ، وسير جماعة إلى بلاد آمد ومواضع الأعشاب فأحرقوا من المروج مسيرة عشرة أيام ، وكذلك أعشاب بلاد خلاط[1] حتى صارت كلها رمادا. ثم ورد كتاب الأمير الحاج علاء الدين أقسنقر الناصرى أن الكشافة وجدوا جماعة كثيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى باب السلطان ، وأنهم من أصحاب الملك بركة ، وكانوا نجدة عند هولاكو ، فلما وقع بينهما كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه وإن عجزوا عن ذلك يحازوا[2] إلى عسكر الديار المصرية وأنهم يذكرون أن العداوة قد استحكمت بين الملكين هولاكو و بركة ، وأن ولد هولاكو قتل فى المصاف ، وأنهم فوق مائتى فارس ، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم وترتيب الإقامات لهم فى الطرقات وحمل الخلع إليهم و إلى نسائهم، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة ، فوصلوا يوم الخميس رابع عشرين ذى الحجة سنة ستين ، وخرج السلطان للقائهم يوم السبت السادس والعشرين من الشهر . وكان السلطان قد رسم بعمارة أدر ومساكن لهم بقرب اللوق ، فسكنوها ، وحملت إليهم الخلع وسيقت الخيول ، وفرقت فيهم

(١) فى الأصل « خلاصا » ، والتصحيح مستند إلى متن السلوك (ج ١ ص ٤٧٣ س ٧).

(٢) حذف مفعول وقع جائز فى العامية ، واللفظ وارد هنا بمعناه العامى .

الأمـوال ، ولعبوا الكرة مع السلطان ، وأمر أكابرهم بمـائة فارس فما دونها ، ونزل بقيتهم فى جملة بحريته ومماليكه ، وأفردت لهـم جهات يستخرج منها مرتبهم . وأسلموا وحسن إسلامهم . وبلغ التتار ما نال هؤلاء من الإحسان وما شملهـم من الأنعام فتوافدوا جماعة بعـد جماعة ، والسلطان يعتمد مع كل من يحضر منهم مثل ما اعتمد مع من قبلهم .

ذكر إنفاذ الرسل إلى الملك بركة[1]

قال : ولمـا وصلت جماعة التتار إلى السلطان ، واستطلع منهم الحال وعرف أحوال الملك بركة ومقامه والطريق إليه جهز إليه رسله وهم : الأمير سيف الدين كشربك[2] وهو رجل تركى كان جمدار السلطان خوارزمشاه يعرف البلاد واللغات ، والفقيه مجد الدين الروذ راورى ، وسير صحبتهم نفرين[3] من التتار الذين وصلوا إليه من أصحاب الملك بركة . وكتب على أيدى الرسـل كتابا بستميله ويحثه على الجهاد ، ويصف العساكر الإسلامية وكثرتهـم وعدة أجناسهم من الترك وعشاير الأكراد وقبائل العربان ومن أطاعها من الملوك الإسلامية والفرنجية ، ومن خالفها ، ومن وافقها ، ومن عاداها[4] وهادنها ، وأن جميعها فى طاعته وسامعة لإشارته إلى غير

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٧٥) .

(٢) كذا فى الأصـل : « كشربك » بالشين المعجمة والباء الموحدة ، وفى السلوك (جـ ١ ص ٤٧٥) : « كسربك » بالسين المهملة والباء المثناة . ومن قراءات السلوك فى الحاشية « كشتك » بحذف الراء ، وبتاء مثناة فوقية .

(٣) عن السلوك (جـ ١ ص ٤٧٣) أن اسمهما « بلاغا وططرشاه » .

(٤) كذا فى الأصل والراجح أن الأسلوب كان يقتضى : « من عاداها ومن هادنها » .

ذلك من الأغراء بهولاكو وتهوين أمره وتقبيح الغفلة عنه ، وأعلمه بوصول من وصل من التتار وادعائهم أنهم من أصحابه ، وأن الإحسان إليهم إنما هو من أجله . وكان الخليفة الحاكم بأمر الله قد حضر وبويع بحضور الرسل وكتب نسبته وأذهبت وأشهد على ثبوت نسبه ، وسير ذلك إلى الملك بركة . وزود الملك الظاهر الرسل لمدة شهور ، وتوجهوا فى المحرم سنة إحدى وستين . ووصلوا إلى بلاد الأشكرى فأحسن إليهم وصادف وصولهم وصول رسل الملك بركة إلى الأشكرى ، فسيرهم صحبتهم ورجع الفقيه مجد الدين لمرض حصل له ، وتوجه الرسل صحبة رسل الملك بركة : الأمير جلال الدين والشيخ نور الدين على ، ووصلت كتب الأشكرى أن رسل السلطان توجهوا سالمين .

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير جمال الدين النجيبى الصالحى[1]

قال : ولما تسلم الأمير علاء الدين الركنى مدينة دمشق على ما قدمناه اختار السلطان الأمير جمال الدين أقش النجيبى الصالحى لنيابة السلطنة بدمشق ، وجهز معه الصاحب عز الدين عبد العزيز بن وداعة وزير الشام . وكان قد حصل بينه وبين الأمير علاء الدين طيبرس مفاوضات أوجبت حضوره إلى الباب السلطانى صحبة الركاب الشريف فرسم بعوده على وظيفته[2] .

وفى هذه السنة فى ذى القعدة ، خرج أمر السلطان لقاضى القضاة تاج الدين[3] أن يستنيب نوابا من المذاهب الثلاثة ، فاستناب القاضى صدر الدين سليمان

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٤٨٠) .

(٢) فى النسخة « س » فرسم بعوده على عادة وظيفته .

(٣) انظر السلوك (ج ١ ص ٤٧٢) .

الحنفى ، والشيخ شرف الدين عمر السبكى المالكى، والشيخ شمس الدين الحنبلى .

وفيها : اشتد الغلاء بالشام[1]، وأبيعت غرارة القمح بأربعمائة وخمسين درهما، والشعير بمائتين وخمسين ، وأبيع القمح بجهاة من كل مكوك أربعمائة درهم ، ثم غلت سائر الأصناف ، ومات خلق كثير من الجوع .

وفيها : فى ذى الحجة ظهر بالقاهرة عند الركن المخلق معبد وفيه حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى بن عمران عليه السلام ، فجددت عمارته . وهو إلى الآن يعرف بمعبد موسى .

ذكر وفاة شيخ الإسلام عز الدين أبى محمد ابن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم ابن الحسن بن أبى محمد السلمى الدمشقى الشافعى وشىء من أخباره[2]

كانت وفاته ، رحمه الله تعالى، بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة المعزية، فى يوم السبت قبيل العصر التاسع من جمادى الأول سنة ستين وستمائة ، ودفن يوم الأحد قبل الظهر بسفح المقطم . ومولده تقريبا فى سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة ، وولى من المناصب الدينية بدمشق : تدريس زاوية الغزالى ، وخطابة الجامع الأموى . وولى بالديار المصرية : القضاء بمصر والوجه القبلى ، وخطابة جامع عمرو بن العاص ، وتدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة، والنظر فى عمارة

(١) « « (جـ ١ ص ٤٦٦) .

(٢) راجع ابن العماد ، شذرات الذهب ط . مكتبة القدس، القاهرة ، ١٣٥١ هـ فى وفيات عام ٦٦٠ ، وراجع السلوك (جـ ١ ص ٤٧٦) .

المساجد بالقاهرة ومصر . وكان ، رحمه الله تعالى ، أحد أئمة المسلمين ، إليه انتهت الفتيا فى زمانه ، وصنف التصانيف المشهورة ، منها : الإمام فى أدلة الأحكام ، وقواعد الفقه الكبرى ، والوسطى ، والصغرى ، والغاية فى اختصار النهاية ، وجمع بين الحاوى والنهاية ، واختصر الشامل لابن الصباغ ، واختصر الكشاف ، واختصر تفسير ابن عباس والماوردى ، وفسر سورة البقرة فى مجلدة[1] ، وفسر من سورة يس إلى سورة الناس ، واختصر صحيح مسلم فى مجلدين ، وعمل عليهما حواشى مفيدة ، واختصر الرعاية ، وصنف فى الزهد شجرة المعارف ، وغير ذلك من التصانيف المفيدة . وكان ، رحمه الله ، كثير الزهد والإيثار ، لا يعتنى بالملابس ، ولا يكترث بها ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يخشى سطوة ملك ، لم يزل يصدع الملوك بمر الحق ، ويفتى بحكم الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإن خالف ذلك آراء الملوك واعتقادهم ، وكرهوه منه ، ونهوه عنه فلا يرجع عما علمه ، ويطلب المناظرة عليه . واتفقت له وقائع مع الملوك راموا فيها قتله ، فحماه الله تعالى منهم ، وهى وقائع تدل على صلابة دينه ، وحسن يقينه ، وتمسكه من السبب الأقوم بمتينه . منها : واقعته مع الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل صاحب دمشق فى مسألة الكلام . وكان الملك الأشرف قد صحب جماعة من مبتدعة الحنابلة من صغره ممن يقول بالحرف والصوت ، فاستمالوه إلى مذهبهم وقرروه عنده حتى أمتزج بلحمه ودمه ، واعتقد كفر من يعتقد خلافه وأنه مباح الدم . وكان فى ابتداء سلطنته يميل إلى الشيخ عز الدين لما يبلغه عنه ، وقصد حضوره إليه ، والشيخ يأبى ذلك ويمنع منه ولا يجيب إليه . فألق

(١) لا يعقل أن تكفى مجلدة واحدة ، والراجح أن العدد الذى كان قبل التمييز قد سقط .

إلى السلطان من صحبه من الحنابلة أن الشيخ مخالف لرأيه مباين لمذهبـه ، وأنه يقدح فيمن يعتقده ويذمه ويسبه ، فأتهمهـم السلطان فى ذلك ، وطلب منهـم تحقيقه عنده ، فاجتمعوا وكتبوا فتيا فى مسألة الكلام وأرسلوها إلى الشيخ ، وكان قـد اتصل به خبر مكيدتهم ، فلما أتته كتب عليها بمـا يعتقده من تعظيم الله تعالى وتنزيهه وتوحيده ، وأنه حى مريد سميع بصير عليم ، قدير متكلم قديم أزلى ليس بحرف ولا صوت ولا يتصور فى كلامه أن ينقلب مدادا فى الألواح والأوراق ، بل الكتابة من أفعال العباد، ولا يتصور فى أفعالهم أن تكون قديمة، ويجب احترامها لدلالتها على ذاته ، كما يجب احترامها لدلالتها على صفاته . وأطال فى الفتيا وبسط الكلام واستدل ، ونفى عن الإمام أحمـد بن حنبل رحمه الله ، وأكابر أصحابه خلاف ذلك ، وأخرج الفتيا من يده وقـد تحقق ما يؤول أمرها إليه ، فعرضت على السلطان ، ومن عرضها لا يشك أن فيها سفك دم الشيخ . فلما وقف عليها استشاط غضبا وقال : صح عندى ما قالوه عنه ، وتكلم فى حقه بأشنع الكلام ، وكفره ، وكان ذلك فى شهـر رمضان ، وقـد اجتمع على سماطه القضاة والعلماء ، فمـا استطاع أحد منهـم أن يرد عليه لمـا عنده من الحرج . فقال بعضهـم : السلطان أولى بالعفو والصفح لا سيما فى مثـل هذا الشهر ، وموّه آخرون بكلام يوهـم صحة فذهب خصمه ، ثم انفصلوا من المجلس . فنهض فى ذلك الشيخ جمـال الدين أبو عمرو بن الحاجب المـالكى، رحمه الله تعالى ، وهو عالم مذهبـه فى زمانه . واجتمع بالقضاة والأعيان الذين حضروا المجلس ، ووبخهم ولامهم وشدد عليهم النكير كونهم ما ذكروا الحـق وكونهم سألوا العفو والصفح ، وقال : هذا يوهم الذنب ، ولم يزل إلى أن أخذ

خطوطهم بموافقة الشيخ . فعند ذلك التمس الشيخ من السلطان أن يعقد مجلسا للشافعية والحنابلة ويحضره المالكية والحنفية وغيرهم من علماء المسلمين . وقال : الذى يُعتقد فى السلطان أنه إذا ظهر له الحق يرجع إليه ، وأنه يعاقب من موه الباطل عليه ، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل ، تغمده الله برحمته ، فأنه كان قد عزر جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيرا بليغا رادعا وبدّع[1] بهم وأهانهم .

فأجابه السلطان بخطه ما مثاله :

بسم الله الرحمن الرحيم

« وصل إلى ما التمسه الفقيه ابن عبد السلام ، أصلحه الله ، من عقد مجلس وجمع المفتيين والفقهاء . وقد وقفنا على خطه وما أفتى به ، وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الإجتماع به . ونحن فنتبع ما عليه الخلفاء الراشدون الذين [قال] صلى الله عليه وسلم ، فى حقهم . « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » . وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه ويتبع الحق ويتخلص من البدع ، اللهم إلا أن كنت تدعى الاجتهاد فعليك أن تثبت ، ليكون الجواب على قدر الدعوى لتكون صاحب مذهب خامس .

وأما ما ذكرته عن الذى جرى فى أيام والدى ، تغمده الله برضوانه ، فذلك الحال أنا أعلم به منك . وما كان له سبب إلا فتح باب السلامه ، لا لأمر دينى وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جانيه العذاب . ومع هذا فقد ورد فى الحديث

(١) كذا فى الأصل والمعنى بحسب السياق « نكل » وفى النسخة من ورد : « ندد » .

الفتنة نائمة ، لعن الله مثيرها ؛ ومن تعرض إلى إثارتها قابلناه بما يخلصنا من الله ، وما يعضد كتاب الله وسنة رسوله » .

فلما وصلت هذه الرقعة إلى الشيخ قرأها ، وقال للرسول : إذهب فقد وصلت . فقال : تقدمت الأوامر المطاعة السلطانية بإحضار جوابها ، فكتب الشيخ ما مثاله :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

أما بعد حمدا لله الذى جلت قدرته وعلت كلمته وعمت رحمته وسبغت نعمته ، فإن الله تعالى قال لأحب خلقه إليه وأكرمهم لديه : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ (٢) وقد أنزل الله تعالى كتبه وأرسل رسله بنصائح خلقه . فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه . وكان فيما أوصى به خلقه أن قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ (٣) وهو سبحانه وتعالى أولى من قبلت نصيحته وحفظت وصيته . وأما طلب المجلس وجمع العلماء فما حملنى عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدين فقال : « الدين النصيحه » ؛ قيل لمن؟ يا رسول الله : قال : « لله ولكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم » ، فنصح الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ولكتابه بالعمل بمواجبه ، وللائمة بإرشادهم

(١) الحجر آية ٩٢ ، ٩٣ .
(٢) الأنعام آية ١١٦ .
(٣) الحجرات آية ٦ .

إلى أحكامه والوقوف عند أوامره ونواهيه ، ولعامة المسلمين بدلالتهم على ما يقربهم إليه ويؤلفهم لديه . وقد أديت ما علىّ فى ذلك .

والفتيا التى وقعت فى هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة ؛ وما يخالف فى ذلك إلا رعاع لا يعبأ الله بهم ، وهو الحق الذى لا يجوز دفعه ، والصواب الذى لا يمكن رفعه . ولو حضر العلماء مجلس السلطان لعلم صحة ما أقول ، والسلطان أقدر الناس على تحقيق ذلك . وقد كتب الجماعة خطوطهم بمثل ما قلته ، وإنما سكت من سكت فى أول الأمر لما رأوا من غضب السلطان . ولولا ما شاهدوه من غضب السلطان لما أفتوا أولا إلا بما رجعوا إليه آخرا . ومع ذلك فيكتب ما ذكرته فى هذه الفتيا وما ذكره الغير ، ويبعث إلى بلاد الإسلام ليكتب فيها من يجب الرجوع إليه ويعتمد فى الفتيا عليه . ونحن نحضر كتب العلماء المعتبرين ليقف عليها السلطان .

وبلغنى أنهم ألقوا إلى سمع السلطان أن الأشعرى يستهين بالمصحف . ولا خلاف بين الأشعرية وجميع علماء المسلمين أن تعظيم المصحف واجب . وعندنا أن من استهان بالمصحف أو بشىء منه فقد كفر ، وانفسخ نكاحه ، وصار ماله فيئا للمسلمين ، وتضرب عنقه ، ولا يغسل ، ولا يكفن ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن فى مقابر المسلمين ، بل يترك بالقاع طعمة للسباع . ومذهبنا أن كلام الله سبحانه وتعالى قديم أزلى قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق ولا يتصور فى شىء من صفاته أن يفارق ذاته ، إذ لو فارقته لصار ناقصا ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وهو مع ذلك

مكتوب فى المصاحف محفـوظ فى الصـدور مقـروء بالألسنة ، وصـفة الله القديمة ليست بمداد الكاتبين ولا ألفـاظ اللافظين . ومن اعتقد ذلك فقد فارق الدين وخرج عن عقائد المسلمين بل لايعتقد ذلك إلا جاهل غبي ،وربنا المستعان على ما تصفون .

وليس رد البدع و إبطالها من باب إثاره الفتن . فإن الله سبحانه وتعالى أمر العلماء بذلك ، وأمرهم ببيان ما علموه . ومن امتثـل أمر الله ونصر دين الله لا يجوز أن يلعنه رسول الله .

وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس : فأصول الدين ليس فيها مذاهب فإن الأصل واحد ، والخلاف فى الفروع .

ومثل هـذا الكلام مما اعتمدتم فيه قول من لا يجوز أن يعتمد قوله . والله أعلم بمن يعرف دينه و يقف عند حدوده .

و بعد ذلك فأنا نزعم أنا من جمـلة حزب الله وأنصار دينه وجنـده . وكل جندى لا يخاطر بنفسه فليس بجندى .

وأما ما ذكر من أمر باب السلامة ، فنحن تكلمنا فيه بما ظهر لنـا من أن السلطان الملك العادل ، تغمده الله برحمته ، إنما فعـل ذلك إعزازا للدين ونصرة للحق . ونحن نحكم بالظاهر والله يتولى السراير ، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم » .

وكتب الشيخ هذا الجواب مسترسلا بحضرة رسول السلطان، ودفعه إليه. فلما قرأه السلطان اشتد غضبه ،وأرسل إليه أستادداره غرس الدين خليلا برسالة ،

وكان فرس الدين يحب الشيخ و يعتقده ، فحضر إليه وجلس بين يديه ، وتلطف به واستأذنه فى أداء الرسالة ، فقال : أدها كما قيلت لك .

فقال : يقول لك السلطان : «إنا قد شرطنا عليك ثلاثة شروط ، أحدها : ألا تفتى ، والثانى : ألا تجتمع بأحد ، والثالث : أن تلزم بيتك » . فقال له : إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة علىّ ، المستوجبه للشكر لله تعالى على الدوام . أما الفتيا : فإنى والله كنت متبرما بها وأكرهها . وأعتقد أن المفتى على شفير جهنم . ولولا أنى كنت أراها متعينة علىّ لما أفتيت . والآن فقد سقط عنى الوجوب وتخلصت ذمتى ولله الحمد والمنة . وأما ترك اجتماعى بالناس ولزومى لبيتى : فهذا من سعادتى لتفرغى لعبادة الله تعالى . والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيئته واشتغل بطاعة الله تعالى . وهذا تسليك من الحق ، وهدية من الله تعالى إلىّ أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان . والله لو كان عندى خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعتها[1] عليك ونحن على الفتوح ، خذ هذه السجادة صل عليها فقبلها الحاجب وقبلها ، وانصرف إلى السلطان وقص عليه ما قاله الشيخ . فقال لمن حضره : قولوا لى ما أفعل به ، هذا رجل يرى العقوبة نعمة ، أتركوه ، بيننا وبينه الله .

وبقى على ذلك ثلاثة أيام إلى أن ركب الشيخ العلامة جمال الدين الحصيرى شيخ الحنفية حماره وتوجه إلى القلعة ، وكان معظما عند السلطان وقد جمع العلم والعمل ، فلما بلغ السلطان وصوله إلى القلعة أرسل خواصه يتلقونه ، وأمرهم أن يدخلوا به إلى داره على حماره ففعل . ولما رآه السلطان وثب إليه وتلقاه ،

(١) فى الأصل : « تلقيته » .

وأنزله من حماره وأجلسه على تكرمتـه واستبشر به . وكان ذلك عنـد غروب الشمس . فلما أذن المؤذن وصلوا المغـرب قدم السلطان إليـه شرابا وناوله إياه بيـده . فقال: ماجئت إلى طعامك ولا إلى شرابك . فقال : يرسم الشيخ ونحن نمتثل أمره . فقال : أى شئ بينك وبين ابن عبد السلام ؟ هذا رجل لو كان فى الهند أوفى أقصى الدنيا كان ينبغى للسلطان أن يسعى فى حلوله فى بلاده لتتم بركته عليـه وعلى بلاده ويفتخر به على سائر المـلوك . قال : عندى خطه باعتقاده فى فتيا، وخطه أيضا فى رقعة جواب، رقعة سيرتها إليه. فيقف الشيخ عليهما ويكون الحكم بينى وبينه . ثم أحضر الورقتين ، فقرأهما الشيخ وقال : هـذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ونفس المؤمنـين ، وكل ما فيهما صحيح ، ومن خالف ما فيهما وذهب إلى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت فهو حمار . فقال السلطان : نحن نستغفر الله مما جرى ، ونستدرك الفارط فى حقه ، والله لأجعلنه أغنى العلماء .

وأرسـل إليه واسـترضاه ، وطلب محاللته ومخاللته . وتقـدم السلطان إلى الفريقين بالإمساك عن الكلام فى مسأله الكلام وألا يفتى أحد فيهـا بشئ سدا لباب الخصام .

ثم وصل السلطان الملك الكامل إلى دمشق . وكانت الواقعه قـد اتصلت به ، فرام الاجتماع بالشيخ فاعتذر إليه، فطلب أن يكتب له صورة الواقعة مستقصاة، فأمر ولده الشيخ شرف الدين أن يكتب ذلك من أوله إلى آخره ففعل . وأرسله إلى الملك الكامل فقرأه وكتمه . ثم سأل أخاه الملك الأشرف عن الواقعة . فقال: منعت الطائفتين من الكلام فى المسألة، وانقطع بذلك الخصام . فقال له السلطان

الملك الكامل : ليست هذه سياسة حسنة ، تساوى بين أهل الحق والباطل ، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتأمرهم أن يكتموا ما أنزل الله إليهم . كان الطريق أن تمكن أهل السنة أن يلحنوا بحججهم وأن يظهروا دين الله ، إلى غير ذلك من الكلام . وتحقق الملك الأشرف صحة ما قاله الشيخ وصرح بخجله منه ، وصار يترضاه ، ويعمل بفتاويه ، ويأمر أن يقرأ عليه تصانيفه الصغار مثل : اللمحة فى اعتقاد أهل الحق ، ومقاصد الصلاة ، وكرر قراءتها عليه فى يوم ثلاث مرات .

واستمر الحال على ذلك إلى أن مرض الملك الأشرف مرضة موته[1] . وأرسل أكبر أصحابه إلى الشيخ وقال : قل للشيخ محبك موسى بن العادل أبى بكر يسلم عليك ويسألك أن تعوده وتدعو له وتوصيه بما ينتفع به غدا عند الله تعالى . فأبلغه الرسول الرسالة ، فتوجه إلى السلطان فسر برؤيته ، وقال له : اجعلنى فى حل ، وادع لى ، وأوصنى ، وانصحنى : ففعل الشيخ ذلك ، وتحدث معه فى أشياء منها : إبطال المنكرات بدمشق . فأمر بإبطالها ، وتولى الشيخ إزالة بعضها بنفسه ، وأطلق السلطان له ألف دينار عينا ، فردها عليه : هذه اجتماعه لله تعالى ، لا أكدرها بشئ من الدنيا . ثم مات الملك الأشرف إثر ذلك .

ولما حضر الملك الكامل إلى دمشق وانتزعها من أخيه الصالح إسماعيل كما تقدم ، حضر الشيخ إلى مجلس السلطان فأكرمه ، وفوض إليه تدريس زاوية الغزالى بجامع دمشق ثم فوض إليه قضاء القضاة بعد ذلك بدمشق . فاشترط شروطا كثيرة ولم يله . وقيل إنه تولاه مدة يسيره وعزل نفسه .

---

(١) الإضافة يقتضيها السياق .

ثم كانت واقعة مع الملك الصالح عماد الدين إسماعيل [بن العادل[1]] صاحب دمشق [عندما أذن للفرنج فى دخول دمشق وشراء السلاح ... فأفتى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج ... وكان الصالح غائبا عن دمشق فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام . وولى خطابة] دمشق[2]، بعد عز الدين بن عبد السلام ، علم الدين داود بن عمر بن يوسف بن خطيب بيت الآبار .

فلما سلم الملك الصالح صفد والشقيف وغير ذلك للفرنج وصالحهم ، كما تقدم ، امتنع [الشيخ ابن عبد السلام] من الدعاء له على المنبر الجامع بدمشق فكان من خبر عزله واعتقاله وخروجه من الشام ووصوله إلى الديار المصرية وولايته الخطابة بجامع عمرو بن العاص بمصر، والقضاء بمصر والوجه القبلى، وعزله نفسه مرة بعد أخرى ، وغير ذلك من أحواله ما قدمناه فى أخبار الدولة الصالحيه النجمية .

ولم يزل الشيخ، رحمه الله تعالى ، معظما عند الملك الصالح وغيره من الملوك بعده بالديار المصرية يرجعون إلى رأيه ويعتمدون على فتاويه ، ويقف الأكابر عند أوامره إلى أن ملك السلطان الملك الظاهر فزاد فى تعظيمه وإكرامه وبره ، واستشاره فى ابتداء دولته فيما يفعله مما فيه صلاح دولته ، فقال له : إن الدولة لا تقوم إلا بأمرين، أحدهما : قيام الشرع الشريف . والثانى : تحصيل الأموال من وجوهها ، ولا أرى لمنصب القضاء مثل تاج الدين عبد الوهاب ، يريد ابن بنت الأعز ، وللوزارة مثل بهاء الدين على . فرجع السلطان إلى رأيه وتمسك بقوله ، وفوض المنصبين لهما ، فقام كل منهما فى منصبه أحسن قيام . وحمدت عاقبة هذه الولاية ، وشكر سداد هذا الرأى .

(١) الإضافة يقتضيها الإيضاح ، ويؤيدها السلوك (جـ ١ ص ٣٠٤) .

(٢) الإضافة مأخوذة عن السلوك (جـ ١ ص ٣٠٤) بسبب سقط سطرين بين لفظي دمشق .

ولما توفى الشيخ ، رحمه الله تعالى ، تألم السلطان لفقده ، وشيع جنازته أمراء الدولة وأكابرها ، وحملوا نعشه إلى أن وضع فى قبره ، رحمه الله تعالى .

وهذا الذى أوردته من أخبار الشيخ فى مسألة الكلام نقلته من خط ولده الشيخ شرف الدين محمد ، رحمه الله تعالى . وفضائله ومناقبه ، رحمه الله تعالى ، كثيرة . وقد أتينا منها بما يدل على مجموعها .

وفيها : أيضا توفى الصاحب كمال الدين[1] عمر ، ابن قاضى القضاه نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبة الله[2] بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى ابن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبى جراده الحنفى المعروف بابن العديم الحلبى ، كان فاضلا أديبا شاعرا كاتبا رئيسا مؤرخا ، وكانت وفاته بمصر فى العشرين من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة ، ودفن بسفح المقطم ، ومولده بحلب فى العشر الأول من ذى الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

---

(١) عن السلوك (جـ ١ ص ٤٧٦) أنه يكنى بأبى قاسم .

(٢) عن السلوك (نفس الموضع) ورد بعد أحمد بن هبة الله : محمد بن هبة الله .

واستهلت سنة إحدى وستين وستمائة

ذكر البيعة للإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد العباسي[1]

كان وصوله إلى الديار المصرية فى سنة ستين وستمائة فتلقاه السلطان وأكرمه وخدمه ، وأنزله بقلعة الجبل ، وأدر عليه النفقات ، ثم بايعه فى يوم الخميس الثانى من المحرم سنة إحدى وستين وستمائة على ما قدمنا ذكره فى أخبار الدولة العباسية .

ذكر القبض على الملك المغيث صاحب الكرك واعتقاله[2]

كان القبض على الملك المغيث فتح الدين عمر صاحب الكرك فى يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأول سنة إحدى وستين وستمائة . وذلك أن السلطان توجه من قلعة الجبل المحروسه لقصد الشام فى سابع شهر ربيع الآخر من السنة ، وخيم بظاهر القاهرة إلى أن تجهز الناس ، ورحل فى حادى عشر الشهر فوصل إلى غزة المحروسة فوجد والدة الملك المغيث بها ، فأحسن إليها وأنعم عليها ، وأعطاها شيئا كثيرا ، وحصل الحديث معها فى حضور ولدها [الى السلطان[3]] ، وتقررت الأمور سرا ولم يعلم أحد بما تقرر ، وأعاد عليها العطاء والإنعام وعلى كل

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٧٧ — ٤٧٩) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٨١ — ٤٨٢) .

(٣) الإضافة للإيضاح ، وهى منقولة عن السلوك (جـ ١ ص ٤٨١) .

من حضر معها ، وتوجهت وصحبتها الأمـير شرف الدين الجاكى المهندار ، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر من الكرك .

ونظـر السلطان فى أمر أمراء التركمان وخلع عليهـم . وأحضر أمراء العايد وجرم وثعلبة وضمنهم البلاد ، وألزمهم بالعداد[1] وشرط عليهـم إقامة خيل البريد فى المراكز .

ثم سار من غزة ونزل الطـور ، فى ثانى عشر جمادى الأول . وسـير الملك الأشرف صاحب حمـص إلى السلطان يلتمس الإذن له فى الحضور إلى الخدمة فأذن له ، فحضر فى نصف الشهر فتلقاه السلطان وأحسن إليه . وصارت رسل الملك المغيث تتوالى إلى السلطان وهو ينعم عليهم . وخرج [إليه][2] الملك المغيث من الكرك وأقام مدة فى الطريق . وأظهر السلطان من الاحتفال بأمره شيئا كثيرا وخدعه أعظم خديعة . ولمـا وصل الملك المغيث إلى بيسان ركب السلطان لتلقيه فالتقاه وساق الملك المغيث إلى جانبه ، فلما وصل إلى باب الدهلـيز ترجل ودخل إلى الخيمة فأدخل إلى خركاه واحتيط عليـــه وعلى أصحابه . وكان السـلطان قد استدعى قبـل ذلك قاضى القضاة بدمشق والعلماء وأظهر أن ذلك لمبايعته ، ولم يطلع أحد على غير ذلك . فلما وقعت الحوطة على المـلك المغيث أحضر السلطان الملوك والأمراء وقاضى القضاة والشهود والأجناد ورسل الفـرنج وأخرج كتبا من جهة العدو المخذول إليه . وقال الأتابك لمن حضر : « السلطان يسلم عليهـــم ويقول ما أخذت الملك المغيث إلا بهذا السبب » . وقرئت الكتب . وانصرف

(١) العداد : زكاة سنوية تقع على القطعان وتؤديها القبائل العربية والتركمانية .

(٢) الإضافة للإيضاح ، وهى منقولة من السلوك (ج ١ ص ٤٨٢) .

الملك الأشرف ومن حضر . وقال للقاضى وجماعة العلماء : ماطلبتكم إلا بهذا السبب . وكتب مكتوب بصورة الحال ، وكتب فيه القاضى والجماعة . ثم جهز الملك الأشرف وركب السلطان لوداعه .

وفى اليوم الذى قبض فيه على الملك المغيث جلس السلطان بعد انقضاء المجلس وأمر بالكتب إلى الكرك : يعد من فيها بالإحسان ، ويحذرهم عاقبة مخالفته . وسير الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، والأمير عز الدين أيدمر الظاهرى أستاد الدار العالية إلى جهة الكرك وجهز الخلع والأموال ليلحقهما بها[1] ، وجهز الملك المغيث عشية النهار إلى الديار المصرية صحبة من أختاره لذلك ، وأطلق أهله وحاشيته ، وسير حريمه إلى مصر وأطلق لهم الرواتب .

وكان من خبر وفاة الملك المغيث ما قدمناه فى أخباره ، رحمه الله .

وفى هذه المنزلة[2] وصلت رسل دار الدعوة ومعهم الهدايا ووصل ولدا[3] الصاحبين مقدمى الدعوة ، فأحسن السلطان إليهما وتوجها .

وفيها : أغار السلطان على عكا ، وكان من أخبار الفرنج ماذكر إن شاء الله تعالى فى غزوات السلطان وفتوحاته .

ولما رجع السلطان من الغارة توجه إلى نحو الكرك ، وكان رحيله من منزلة الطور فى يوم الأثنين ثالث عشر جمادى الآخرة من السنة . وجرد صحبته جماعة من العسكر وطائفة أخرى صحبة الأمير علاء الدين أمير جاندار إلى الصالحية .

---

(١) كذا فى الأصل بالعامية .

(٢) المقصود منزلة الطور بحسب السياق .

(٣) فى الأصل : « ولد » بالمفرد والتصحيح يقتضيه السياق .

ووصل السلطان إلى القدس الشريف فى يوم الجمعة، فزار تلك الأماكن الشريفة وعاين مايحتاج إليه من العمارة ، وكتب إلى دمشق بتجهيز جميع مايحتاج إليه من الأصناف والصناع . ثم صلى الجمعة ، وتصدق وكتب بحماية الأوقاف ، وتوجه نحو الكرك .

ذكر أخذ الكرك[1]

وفى يوم الخميس ثالث وعشرين جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وستمائة نزل السلطان على الكرك وصحبته العساكر، وأحضرت السلالم الخشب من الصلت وغيرها . وكان السلطان قد استصحب من الديار المصرية جماعة من النجارين والبنائين والنجارين والصناع على أنه يبنى الطور، وأحضر جماعة من دمشق وغيرها وسيروا إلى عين جالوت ، وأشاع أن ذلك لبناء جامع ، ولم يكن ذلك إلا لأجل الكرك . وعزم على الطلوع إليها بنفسه . فخاف أهل الكرك ، ونزل أولاد الملك المغيث ، وقاضى المدينة ، وخطيبها وجماعة من أهلها ، ومعهم مفاتيح الحصن والمدينة ، وطلبوا العوض فحلف السلطان على ما طلبوا وأرضاهم بالعطاء ، وسير الأمير عز الدين أيدمر أستاد الدار ، والصاحب فخر الدين[2] لتسلم الحصن . فطلعا فى ليلة الجمعة وقت المغرب وتسلماه . ودعى للسلطان فى بكرة الجمعة على أسوارها ، ونصبت الصناجق السلطانية على أبراجها . وأصبح السلطان وطلع إلى الحصن فى الثالثة من نهار الجمعة وجلس فى القاعة الناصرية ورتب أحوال الحصن واهتم بأمره ، وعين للقلعة خاصا . وأعطى أولاد الملك المغيث جميع

(١) انظر السلوك (جـ١ ص ٤٩١)

(٢) من السلوك (نفس الموضع) أنه محمد بن الصاحب بهاء الدين على .

ما حواه الحصن من مال وقماش وأثاث ، وكذلك سائر غلمانهم وجميع الأمراء والمغادره والأجناد ، ولم يتعرض لأحد منهم فى شىء[1] ، ونزلوا جميعهم فى ذلك النهار ، وصلى السلطان بها الجمعة وخطب له . ونزل وقت المغرب .

وفى يوم الأحد ، سير إلى الملك العزيز ولد الملك المغيث الخلع والقماش ، وكذلك [إلى[2]] الطواشى بهاء الدين صندل والأمير شهاب الدين بن صعلوك أتابكه .

وكتب السلطان إلى الشام بحمل الغلال والذخائر والأصناف إليها . وطلع إليها يوم الاثنين وكتب المناشير لعربانها ومن بها . وكانت تزيد على ثلثمائة منشور فى وقت واحد ، وعلم عليها ، وثبتت ، وسلمت لأصحابها بعد تحليفهم بين يدى السلطان ، كل هذا فى بعض يوم . وجرد السلطان بها جماعة من البحرية والظاهرية ، واستناب الأمير عز الدين أيدمر أستاد الدار بالكرك ، وأضاف إليه النظر على الشوبك وأعمالها . وحلف مقدمى المدينة وحلف نصارها على الإنجيل . وحمل ما كان معه إلى الحصن من الزردخاناه والأغنام والشعير وغير ذلك من سائر الأصناف والأقمشة وسبعين ألف دينار عينا ، ومائة ألف وخمسين ألف درهم ، وأعطى الأمير عز الدين أستاد الدار ثلاثين ألف درهم وجملة من القماش .

وتوجه السلطان إلى القاهرة فى يوم الأربعاء [تاسع عشر جمادى الآخرة[3]] فكان دخوله إليها فى سابع عشر رجب ، وزينت المدينة أحسن زينة . وشق

(١) فى الأصل : « إلى » وهو غير دقيق .

(٢) الإضافة يقتضيها السياق وهى منقولة من السلوك (جـ ١ ص ٤٩٢) .

(٣) الإضافة ضرورية لفهم نهاية الخبر ، وهى منقولة من السلوك (جـ ١ ص ٤٩٢) .

السلطان المدينة ، وخلع على الأمراء والمقدمين والمغادرة وجميع حاشيته وغلمانه وأمّر ولد الملك المغيث الأكبر : مائة فارس .

ذكر القبض على الأمراء وهم : الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى والأمـــير شمس الدين أقش البرلى والأمير عز الدين الدمياطى ، ومانقل من الأسباب الموجبة لذلك

وفى شهر رجب الفـرد سنة إحدى وستين وستمائة ، قبـض السلطان على الأمراء المذكورين واعتقلهم . وسبب ذلك أن السلطان كان قد أحسن إليهم إحسانا عظيما . وكان مما اعتمده مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى أنه فوض إليه أمر المملكة ، وأنفذ كلمته ، وأطلق له فى كل جمعة خوانين من عنده يمدان بجميع ما يحتاج إليه حتى ماء الورد ، إلى غير ذلك . ورتب له فى كل شهر كَلَّوتَتَين زركشا بمائة دينار عينا ، وكلبنداتها ، كل كلبند بأربعـين دينارا . كل ذلك زيادة على الإقطاعات العظيمة والمرتبات الكثيرة ، وعلى الإنعام ، حتى جامكيات[1] البزدارية والفهادين وعليق خيلهم . واشتغل الرشيدى بالشرب واللهو .

وأما الأمير عز الدين الدمياطى[2] فإن السلطان أعطاه وزاده ، ومن جمـــلة ما كان بيده نصف مدينة غزة زيادة ، وكتب له توقيعا أنه إذا سافر فى جميع المملكة لايمنع شيئا يطلبه فى الشام من غزة إلى الفرات .

---

(١) فى الأصل : « البرددارية » والتصحيح بحثمه السياق .

(٢) فى السلوك (ج ١ ص ٤٩٣) : أنه عز الدين أيبك الدمياطى

وأما الأمير شمس الدين البرلي فقد تقدم ماعامله به عند وصوله واستمر ذلك إلى آخر وقت .

ثم بلغ السلطان أن الرشيدى قد فسدت نيته فجعل عليه عيونا تحفظ جميع مايجرى منه ، فكان مما أنكر السلطان عليه أن الأمير أسد الدين أستاد دار الملك المغيث أخبر السلطان أن كتاب الرشيدى وصل إلى الملك المغيث يقول له لا تحضر ، فإن السلطان يريد أن يمسكك . وكان جواب السلطان : « إن كان الملك المغيث قد حلف للرشيدى فلا يحضر ، وإن كان حلف لى فيحضر » . ولم يظهر للرشيدى شيئا من ذلك . ولما سير السلطان الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى إلى الكرك كتب إلى السلطان يقول : « إننى أمسكت كتابا من الرشيدى بالكرك يقول : « لا تسلموها » ، ويحسن لهم التوقف عن التسليم ويعرض عليهم الاتفاق معه على أن يحضر هو ويتسلمها منهم ويحفظها لهم ، فكتم السلطان ذلك وأمر الأمير بدر الدين بيسرى بالاحتراز والتحفظ . ولما توجه السلطان إلى الكرك جعل على الرشيدى عيونا ، فبلغ السلطان أنه لما نزل الكفرين ونمرين قصد الركوب فى أصحابه ومماليكه[1] ويسبق إلى الكرك فيدخلها هجما . فركب السلطان إليه ونزل عنده ولاطفه وما زحه ، ففاته مادبره ، وحفظ السلطان عليه الطرقات ، ثم نزل السلطان بركة زَيْزَاء ، فبلغه أن الرشيدى قد عزم على الركوب إلى الكرك ، فخدعه السلطان بأن أرسل إليه أحد خواصه يبشره بتسليم الكرك . فلما سمع الرشيدى ذلك وقف عن فعله وخلع على المبشر . فلما رجع السلطان من الكرك ونزل غزة قام ليسبغ الوضوء على العادة ، وتفرقت الخاصكية للوضوء

(١) فى الأصل : « ويسبق » والتصحيح يقتضيه تركيب العبارة

والتهيؤ لصلاة الجماعة . وقام السلطان يتركع قبل الأذان ، وإذا بالرشيدى قد أقبل فى مقدار ثلاثمائة فارس مستعدة من مماليكه والدمياطى والبرلى ، فلما قضى السلطان صلاته شد سيفه ، وقال للأمير شمس الدين سنقر الرومى : ما الذى رأيت؟ فقال : « جماعة ما جاءوا فى خير » . ثم حضر الأمير سيف الدين قلاون الألفى وركب فرسا جيدا ووقف ، واجتمعت الخاصكية . وركب السلطان ، وأتى الرشيدى فوقف بالقرب من السلطان فى مكان ما جرت عادته بالوقوف فيه ، فحضر الأمير عز الدين إيغان الركنى فقال للرشيدى : « أراك فى هذا المكان ، ما هذا مكانك ياسيف الدين » ومازحه ومازال به حتى ساق من ذلك المكان ، وساق الدمياطى والبرلى وتفرقوا . وكان الدمياطى قد جرت منه قضية أخرى وهى أن السلطان لما ملك الكرك وأنزل أولاد الملك المغيث أعطاهم السلطان خلعا وأقمشة وإنعاما كثيرا وأنزلهم فى المنظرة التى فى الوادى تحت الكرك بقرب منزلة السلطان : سير الدمياطى ضواء (١) وجماعة يمشون حولهم بغير أمر السلطان ، ثم حضر فى الليل إليهم جماعة من مماليكه بالسيوف متلثمين فكسروا الصناديق وأخذوا القماش الذى كان السلطان أنعم عليهم به ظنا منهم أن تقوم فتنة وشوشة فى العسكر ولا يعلم أنهم مماليك الدمياطى ، فكشف الله ذلك ، وظهر القماش عند خواص مماليكه ، واطلع السلطان على ذلك ، وتحدث الأمير شجاع الدين المهندار مع الدمياطى فما أنصف من مماليكه ، وقال : « أنا أغرم عنهم » ، وأحضر بعض القماش ، وقرر أن تقوم بدارهم عن بقية ذلك . هذا والسلطان لا يتكلم بكلمة بل كتم ذلك إلى أن استقر بقلعة الجبل فلما أصبح طلب الرشيدى

(١) من طائفة : الضوية أو المشاطية أو أرباب الضوء

فاعتقله ، وطلع الأمراء إلى الخدمة فى اليوم الثانى ، فأمسك الدمياطى والبرلى وأحسن إلى مماليكهم وخواصهم وأقرهم على أخبازهم ، ولم يغير على أحد منهم ولا تعرض على بيوت الأمراء .

ذكر وصول [رسل][1] الملك بركة

قال : ولما وصل السلطان إلى غزة عند عوده من الكرك ، وصل إليه البريد من الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة بالديار المصرية ، يذكر أن رسل الملك بركة وصلوا إلى ثغر الإسكندرية ، وهم الأمير جلال الدين بن القاضى ، والشيخ نور الدين على ومعهما جماعة ، ويخبر بوصول رسل الملك الأشكرى ، ورسل مقدم الجَنَوية ، ورسل السلطان عز الدين صاحب الروم . فكتب بالإحسان إلى جميعهم . ولما استقر السلطان بقلعة الجبل أحضرهم واجتمع بهم بحضور الأمراء وغيرهم ، وقرئت الكتب ومضمونها ، السلام والشكر وطلب الإنجاد على هولاكو والإعلام بما هو عليه من مخالفة يسق[2] جنكزخان ، وأن جميع ما فعله من إتلاف النفوس بطريق العدوان منه ، وأنى قد قمت أنا وأخوتى الأربعة بحربه من سائر الجهات لإقامة منار الإسلام ، والتمس إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هولاكو ، ويوصى على السلطان عز الدين صاحب الروم ويستمد مساعدته . فأنعم السلطان على الرسل إنعاما عظيما ، ورسم بتجهيز الهدية إلى الملك بركة .

---

(١) انظر المسلوك (ج ١ ص ٤٩٥)

(٢) اليسق هو الياسا أو القوانين المنسوبة إلى جنكزخان

قال القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر : وكان فى جملة الهدية ختمة شريفة ذكر أنها خط عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ونمز لقات[1] ، وسجادات وذكر أشياء كثيرة من جملتها زرافة ، وسافرت الرسل فى سابع عشر شهر رمضان سنة إحدى وستين وستمائة .

ذكر توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية[2]

وفى سادس شوال سنة إحدى وستين وستمائة ، توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية ، وذلك بعد أن توجه نحو الصيد وتصيد . وكان دخوله إلى الثغر فى يوم الأربعاء مستهل ذى القعدة ، ودخل من باب رشيد . ورسم بمكتوب برد مال السهمين ، وصلة أرزاق الفقراء ، ووضع المظالم ، ثم لعب الكرة ، وخلع على الأمراء ووصلهم بالأموال والأقمشة . وركب لزيارة الشيخ القبارى[3] والشاطبي وجلس بدار العدل فى يوم الخميس تاسع الشهر وبسط المعدلة وأمر بتطهير الثغر من الخواطى الفرنجيات . ثم رجع السلطان فى حادى عشر الشهر .

وفى آخر ذى العقدة من السنة نزل السلطان إلى القاهرة ، وعاد الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، والأمير علاء الدين أيدغدى الركنى والأمير حسام الدين بركة خان .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٩٨ — ٤٩٩)

(٣) هو الشيخ المقعد محمد بن منصور بن يحيي أبى القاسم القبارى (راجع السلوك جـ ١ ص ٤٩٩ ، ٥٣٣)

وفى ليلة الأربعاء الخامس من ذى الحجة توفى الأمير حسام الدين المذكور ، فحضر السلطان جنازته ومشى فيها .

ذكر وصول التتار المستأمنين[1]

وفى سابع ذى القعدة من السنة ، وردت الكتب من البيرة وحلب أن جماعة من التتار مستأمنه واردة إلى الباب العزيز ، يزيدون على ألف وثلاثمائة فارس من المغل والبهادرية . فكتب السلطان بالإحسان إليهم وتجهيز الإقامات لهم . وفى يوم الخميس السادس والعشرين من ذى الحجة كان وصولهم ، فركب السلطان وتلقاهم ، فنزلوا عندما رأوا السلطان ، وقبلوا الأرض . وكان السلطان قد رسم بعمارة مساكن لهم فعمرت باللوق فنزلوها ، وأحسن إليهم . ثم وردت الكتب بقدوم جماعة أخرى كثيرة منهم ، فاحتفل بهم وركب لتلقيهم . ثم ورد جماعة أخرى فاعتمد معهم من الإحسان نظير أولئك . وكان الواصل إلى الخدمة فى هذه الثلاث مرار من أكابر أمرائهم من يذكر . وهم : كرمون أغا ، وهو الذى فتح بلاد الترك جميعها ، وامتغا أغا[2] ونوكا أغا[3] ، وجبراك[4] أغا ، وقنان أغا ، وطيشور ، وناصغبة[5] ونبتو ، وصجتى[6] وجوجلان ،

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٠١)

(٢) فى السلوك « إمطغية » .

(٣) فى السلوك « نوكيه » .

(٤) فى السلوك « جبرك » .

(٥) فى السلوك « ناصعيه » .

(٦) فى السلوك « صجتى » .

واجقرقا ، وأرقدق[1] وصلاعنة[2] وميقتدم[3] ، واجتمعوا بمن كان قـد وصل قبلهم وهم : صراغان أغا ومن كان قد وصل معه . ثم عرض السلطان عليهم الإسلام فأسلموا على يديه .

وفى هذه السنة أمر السلطان بعمل جامع خام[4] يضرب على يمنة الخيمة السلطانية ، وعمل له محاريب وعدة أبواب ومقصورة برسم السلطان .

وفيها : أمر السلطان بعمارة دار العدل تحت قلعة الجبل ، وتجديد بنائها .

وفيها : وصلت رسل اليمن بتقادم ومعهم هدايا لخواص الأمراء ، فأمر السلطان بإنفادها إلى من عينت له وأذن لهم فى قبولهـا .

وفيها : عرض السلطان العساكر ، وكان يجلس لذلك فى كل خميس واثنين .

وفيها : جهز السلطان عرب خفاجة ، وسير الخلع إلى كبراء العراق ، وكتب إلى صاحب شيراز وغيره بالاغراء بهولاكو .

وفيهـا : توفى الأمير فخر الدين أبو الهيجا[5] بن عيسى بن خشترين الأزكشى الكردى أحد الأمراء بدمشق ، وكان شجاعا أبـلى فى وقعـه عين جالوت بـلاء حسنا ، رحمه الله تعالى .

---

(١) السلوك « ارقرق » .

(٢) فى السلوك « صلاغية » .

(٣) فى السلوك « متقدم » .

(٤) فى السلوك : « يعمل جامع من الثياب المفصلة » (جـ ١ ص ٥٠١) .

(٥) فى السلك (جـ ١ ص ٥٠٢ ، ص ١١) : مجير الدين .

وفيها : توفى الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك المسعود صلاح الدين أقسيس بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب . وكانت وفاته بنابلس فى خامس عشر ذى الحجة سنة إحدى وستين وستمائة ، ومولده بدار الوزارة بالقاهرة فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، وهو الذى كان قد ملك الديار المصرية فى أيام الملك المعز عز الدين أيبك كما تقدم .

فلما ملك السلطان الملك الظاهر أمرّه بالشام ، وخلف ، رحمه الله ، ولدا اسمه ناصر الدين محمد ، ونعته بالملك الكامل .

واستهلت سنة اثنتين وستين وستمائة

ذكر تفويض أمر جيش حماة إلى الطواشى شجاع الدين مرشد الحموى

وفى أول هـذه السنة طلب السلطان الطواشى المذكور[1] وتحدث فى اشتغال[2] صاحب حماه مخدومه بالملاذ واللهو ، وقال : « كتب إليه أو نبهه من هـذه الغفلة ، وسيرت إليه شرف الدين عبد العزيز شيخ الشيوخ فى ذلك فما أفاد ، وقد اعتمدت عليك فى مصلحة هذا البلد ، لما فيك من الديانة والخير والشجاعة » ، والزمه بتكمله الجيش والزام الجنـد باقامة البرك والعدة الكاملة . فالتزم بهـذه الأمور . وكتب تقليده بذلك وتوجه .

ذكر عمارة المدرسة الظاهرية وترتيب الدروس[3]

كان الشروع فى عمارة المدرسة الظاهرية التى هى بالقـاهرة المحروسة بين القصرين فى ابتـداء الدولة فى ثامن شهر ربيـع الآخر سـنة ستين وتفجـر بابها ودهليزها وأبوابها وكتاب السبيل فى أواخر شعبان من السنة المـذكور . ولم يشرع فى بنائها حتى رتب أمور أوقافها . وكان المتولى عمارتها الأمير جمال الدين ابن يغمور ، ورسم له السلطان ألا يستعمل أحدا فيها بغير أجرة . وكان اجتماع

---

(١) زاد السلوك هنا (جـ ١ ص ٥٠٣) « إلى قلعة الجبل » .

(٢) يصف السلوك صاحب حماة بأنه مخدوم الطواشى (نفس الموضع) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٠٤) .

أهل العلم بها فى يوم الأحد الخامس من صفر سنة اثنتين وستين وستمائة . وفوض السلطان تدريس الحنفية للصدر مجد الدين بن الصاحب كمال الدين بن العديم ، وتدريس الشافعية للقاضى تقى الدين بن رزين . وصدر الافراء للفقيه كمال الدين المحلى ، والتصدر لإفادة الحديث النبوى للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى شيخنا . وذكرت الدروس بها فى هذا اليوم ، وحضر السلطان ، ومدت الأسمطة وأنشد الشعراء وخلع عليهم .

وفى صفر من سنة ، خرج السلطان متصيدا إلى جهة الغربية وتوجه إلى ثغر دمياط وزار البرزخ ومر فى عوده ببلاد أشموم[1] ، وتصيد بمنزلة ابن حسون ، وأخذ على بلاد الشرقية .

ذكر وفاة الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص والرحبة[2]

وفى يوم الجمعة حادى عشر صفر من هذه السنة ، توفى الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شيركوه بن الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى [بن مروان] رحمه الله تعالى . ولم يكن له ولد ولا أخ ولا ولى عهد ، فسير السلطان إلى نوابه بتسليمها . فوصل البريد فى سابع عشرين صفر بأن بدر الدين بيليك العلائى أحد الأمراء قد تسلمها ، وحلف الناس بهما للسلطان .

---

(١) فى السلوك (ج ١ ص ٥٠٥) : « المنزلة » .

(٢) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٠٥) .

وفى هـذا التاريخ ورد كتاب الأمـير جمال الدين النجيبى النائب بدمشق يذكر أنه ولى حران للأمير جمال الدين الجاكى ، والرقة لأمـير آخر .

وفى هـذا الشهر : سأل الفرنج نواب السلطان أنهم يأذنون لهم فى زراعة البلاد وتقويتها من أموالهـم وهى جملة كثيرة من الغـلال ؛ فتقررت الهـدنة معهم إلى أيام الحصاد .

وفى هذه السنة ثُمِّن القرط الذى قضمته الخيول السلطانية وجمال المُناخات فكان ثمنه خمسين ألف دينار[1] .

وفيها : استدعى السلطان الأمير علاء الدين الشهابى النائب[2] بحلب وأمره أن يستنيب عنـه الأمير نور الدين بن محلى[3] ففعل ذلك . ولمـا وصل الملك إلى الأبواب السلطانية عزله السلطان عن نيابة حلب ، وأقر الأمـير نور الدين بن محلى فى نيابة حلب فأحسن السيرة ، وعمـر البلاد وأعاد الفلاحين[4] ، وأفرد الخاص على ما كان عليه فى الأيام الناصرية .

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٠٦) .

(٢) هو الأمير علاء الدين أيدكين الشهابى (السلوك ج ١ ص ٥٤٠) .

(٣) هو نور الدين على بن مجلى الهكارى (السلوك نفس الموضع) . ويرد اسم محلى هنا فى متن النويرى دون نقط بالحاء المهملة .

(٤) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٤٠) .

ذكر جلوس السلطان بدار العدل
وما رتبه عند غلو الأسعار[1]

قال : وفى شهر ربيع الآخر من السنة غلت الأسعار [بمصر] وبلغ ثمن الأردب إلى قريب المائة درهم نقرة . فرسم السلطان بالتسعير طلبا للرفق . فاشتد الحال وعدم الخبز . فأمر السلطان أن ينادى باجتماع الفقراء تحت القلعة ، ونزل إلى دار العدل فى يوم الخميس سابع الشهر ، فأول ما تكلم فيه إبطال التسعير . ورسم أن يباع من الأمراء فى كل يوم خمسمائة أردب بما يقدره الله من ويبتين فما دونها تباع على الضعفاء والأرامل . ونزل الحجاب تحت القلعة وكتبت أسماء الفقراء ، وسير إلى كل جهة حاجبا لكتابة الأسماء فى القاهرة ومصر وحواضرها ، ولما تكامل حصر العالم أخذ السلطان ألوفا ، وأعطى لنواب ولده الملك السعيد كذلك ، وأعطى لكل أمير جماعة على قدر عدته ، وفرق على الأجناد ومفاردة الحلقة والمقدمين والبحرية ، وعزل التركمان والأكراد البلدين ، ورسم أن يعطى لكل فقير مئونته مدة ثلاثة شهور ، ويسلم نواب الأمراء والأكابر والتجار الفقراء . ثم قال السلطان : « هؤلاء الفقراء جمعناهم فى هذا اليوم وقد انقضى نصف النهار فليعط كل منهم نصف درهم يتقوت به خبزا ، ومن غد يتقرر الحال » . فانفق فيهم جملة كثيرة بهذا القدر خاصة . وأخذ الصاحب جماعة العميان والأتابك [جماعة][2] التركمان ، ولم يبق أحد من الخواص والحواشى وأرباب المناصب وغيرهم إلا أخذ جماعة . فانحطت الأسعار لذلك وكثر الخبز .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧) .

(٢) الإضافة يقتضيها الإيضاح .

وفى ثالث شهر ربيع الآخر من السنة رسم السلطان بمسامحة بنات الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزى[1] بما وجب للديوان فى تركة أبيهن ، أربعمائة ألف درهم نقرة .

وفى هذه السنة ، قصد متملك الأرمن حلب المحروسة مرة بعد أخرى ، فلم يظفر بشىء ، وخاب سعيه على ما نشرحه إن شاء الله فى غزوات السلطان وفتوحاته[2] .

وفيها : رسم السلطان بحفر خليج الإسكندرية[3] ، وكانت قد اسندت فوهته ، وندب لذلك الأمير عز الدين أمير جاندار فاهتم بذلك وحفر المكان المعروف بالنقيدى ، وأمر ببناء مسجد هناك ليكون تذكرة باقية . وجهز الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستاد الدار العالية وأمره بالاهتمام بأمر جزيرة بنى نصر لما بلغه قلة ريها ، فاحتفل بها كل الأحتفال .

وفيها : فى جمادى الأول ، تقدم أمر السلطان إلى الأمير سيف الدين بلبان الزينى أمير علم بالتوجه إلى الشام للاهتمام بأمر القلاع والبلاد وعرض عساكر حماة وحلب ورجال الثغور ، والنظر فى المهمات الخاصة والعامة ، والزام الأمراء بتكملة العدد والعدة[4] وازاحة الأعذار وأخذ الأهبة للجهاد ، وكتب على يده إلى دمشق بحمل خزانة كبيرة إلى البيرة برسم نفقاتها ، فتوجه لذلك .

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٠٨ — ٥٠٩) .

(٢) انظر السلوك (ج ١ ص ٥١٠) .

(٣) انظر السلوك (نفس الموضع) .

(٤) فى الأصل : « العدة والعدة » (بالتكرار) .

وفى العشر الأوسط من جمادى الاخره حصل الظفر بجاسوسين للتتار، وكانت أخبارهما وحلاهما وصلت إلى السلطان من جهـة القصاد والناصحين بالأردو[1]، وكذلك من كل جهة يصلان إليها، إلى أن ركبا من عكا فى البحر، فلما وصلا إلى ثغر دمياط مسكا وأحضرا إلى بين يدى السلطان فذكر لهما الأماير، فأقرّا، ووجد معهما فرمانين للأتابك من هولاكو، وهو يرغبـه ويستميـله . فطلب السلطان الأتابك وأراه ذلك، ولم يصدق ذلك فيه، ومزق ذلك وحرقه، واستدل بذلك على ضعف هولاكو .

وفى هذه السنة تجُزَ البرج الذى أمر السلطان بعمله فى قارا[2]، وشرع فى بناء برج أكبر منه لحفظ الطرقات وصون الرعية من عوادى الفرنج المجاورين .

وفى جمادى الأول من السنة شرع النواب بالشام فى بناء شقيف تيرون .

وفى الشهر أنعم السلطان على عسكر الساحل الذين هم صحبة الأمير ناصر الدين القيمرى بمائتى ألف درهم فرقت عليه .

ذكر جلوسه بدار العدل وما قرره من مشاركة أمناء الحكم للأوصياء[3]

وفى مستهـل شهر رجب سنة اثنتين وستين وستمائة، جلس السلطان بدار العدل، فتقدم رجل من الأجناد ومعه صغير، فقال: « أنا وصىّ هذا الصغير »

(١) جرى المؤلف على رسم لفظ الأردو بالواو والألف وقـد جرينا نحن على حذف الألف دائما .

(٢) قرية على ٢٦ ميلا من حمص فيما بينها وبين دمشق (معجم البلدان) .

(٣) انظرا السلوك (ط ص ٥١١ ، ٥٢٢) .

وشكا من قضية تتعلق به . فقال السلطان لقاضى القضاة : « أعلم أن الأجناد يموت الواحد منهم فيستولى خوشدا شيته على موجوده ويجعل اليتيم أوشاقية ، ويموت اليتيم فيستولى الوصى على الموجود ، أو يكبر اليتيم ولا يجد شيئا ولا يقوم له حجة على موجوده . وقد يموت الوصى فينغمس مال اليتيم فى ماله ، وأنا أرى ألا ينفرد أحد من الأوصياء بوصية ، وأن يكون نظر الشرع شاملا ، وأموال اليتامى مضبوطة ، وأمناء الحكم يحاققون على المصروف وطلب نواب الأمراء ونقباء العساكر وأمرهم بذلك . واستمرت الحال عليه إلى وقتنا هذا .

ذكر وصول جماعة من عسكر شيراز[1]

وفى جمادى الآخر ، بلغ السلطان أن جماعة من عسكر شيراز وصلوا لقصد الخدمة الشريفة ، فأمر بالإحسان إليهم . ووصلوا فى ثالث شهر رجب ومقدمهم بكلك ورفقته وهم : سيف الدين اقبار جمدار[2] السلطان جلال الدين خوارزم شاه والأمراء الأتابكية غلمان أتابك سعد منهم : سنقر جاه وغيره من الأتابكية . ووصل صحبتهم حسام الدين بن ملاح أمير العراق وجماعة من أمراء خفاجة ، فتلقاهم السلطان وأحسن إليهم ، وأمّر الأمير سيف الدين بكلك وأعطاه طبلخاناه ، وكذلك أمراء خفاجة ، والأمير مظهر الدين وشاح بن مهرى[3] ، وأطلق لحسين ابن ملاح قرية فى الشام ، وجهزهم إلى بلادهم .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥١٢) .

(٢) هو سيف الدين اقبار الخوارزمى (انظر السلوك فى نفس الموضع) .

(٣) ورد فى السلوك : شهرى بالشين المعجمة (نفس الموضع) .

وفى شهر رمضان وصل رسول من الملك[1] شارل أخى الملك افرنسيس وهو صاحب مرشيلية ، وصحبته عدة من السناقر الشهب والأمتعة . ومضمون كتابه المحبة والمشايعة . ووصل كتاب استاد داره يقول : إن مخدومه أمره أن يكون أمر السلطان نافذا فى بلاده ، وأن يكون نائب السلطنة كما هو نائبه .

وفى يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان : قرئ مكتوب بجامع مصر بأبطال ما قرره على ولاية مصر من الرسوم وهى مائه ألف درهـم وأربعة آلاف درهـم [نقـرة[2]] .

وفى هـذا الشهر أحضرت فلوس من جهة قوص وجدت مدفونة فأخذ منها فلس : فإذا عليه صورة ملك واقف، وفى يده اليمنى ميزان، وفى اليسرى سيف ، ومن الوجه الآخر رأس مصور بآذان كبـيرة ، ويداير الفلس سـطور ، فقرأها راهب يونانى : فكان تاريخـه إلى وقت قراءته ألفين وثلاثمـائة سنة . وفيه مكتوب : أنا غياث الملك، ميزان العدل ، والكرم فى يمينى لمن اطاع، والسيف فى يسارى لمن عصى ، وعلى الآخر : أنا غياث الملك، أذنى مفتوحة لسماع كلمة المظلوم ، وعينى مفتوحة أنظر بها مصالح ملكى .

ذكر سلطنة الملك السعيد[3]

وفى يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة اثنتين وستين وستمائة ، حصل الاتفاق على سلطنة الملك السـعيد ، فأركبه السلطان بشـعار السلطنة ، ومشى بنفسه فى

(١) المقصود شارل انجو ملك صقلية (راجع السلوك جـ ١ ص ٥٠٢ حاشية ١) .

(٢) الإضافة يقتضيها الإيضاح وهى منقولة عن السلوك (جـ ١ ص ٥١٤) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٦) .

ركابه وحمل الغاشية . ثم أخذها الأمراء وحملوها وعليهم الخلع الفاخرة ، ورجع السلطان . ولم يزل الملوك والأمراء فى خدمته إلى باب النصر ، ودخلوا القاهرة رجالة يحملون الغاشية ، وقد زينت المدينة أحسن زينة . وشق الملك السعيد القاهرة وأتابكه عز الدين الحلى راكب إلى جانبه . وبسط الأمراء الثياب الأطلس والعتابى وغيرها تحت حوافر فرسه . ولم يزل إلى أن عاد إلى القلعة[1] . وكانت [الثياب[2]] بجملة عظيمة تفرقها المماليك السلطانية وأرباب المنافع .

وكتب له تقليد شريف أنشأه المولى محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر ، وقرئ بحضور الأمراء وقاضى القضاة والعلماء فى سابع عشر الشهر .

وفى العشر الأول من ذى القعدة من السنة ، عرض السلطان الجيش[3] ، وكان قبل ذلك رسم بتكملة العدة والتأهب للغزاة بخاص فى هذا اليوم على الصفة التى بجانب دار العدل عند طلوع الشمس ، وساق كل أمير فى طلبه ، وعليهم لامة الحرب ، وجروا الجنائب عليها عدة الحرب دون غيرها من التشاهير والمراوات المتخذة للزينة . وعبرت العساكر خمسة خمسة . فلما طال الأمر عبروا عشرة عشرة ، وهلك الناس من الزحام . وإنما قصد السلطان عرض العسكر فى يوم واحد حتى لا يقال إن أحدا استعار من أحد شيئا . وكان الناس يدخلون من باب القرافة ويخرجون من جهة الجبل إلى صوب باب النصر إلى الدهليز المضروب هناك . ولما قرب وقت المغرب ركب السلطان وساق فى وسط العساكر فى جماعة يسيرة من سلاح داريته وخواصه ، ونزل إلى الدهليز ، ورتب

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥١٦) .
(٢) الإضافة يقتضيها الإيضاح .
(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥١٧) .

المنازل، ورجع إلى قلعته وقت المغرب . ثم اهتم الناس بعد ذلك باللعب بالقبق، ولبسوا خيولهم التشاهير والبراجم[1] البحرية والمراوات والأهلة الذهب والفضة والأطلس وغير ذلك . وساق السلطان إلى ميدان العيد[2] وبين يديه جنائبه العظيمة وهى مزينة . حكى القاضى محيى الدين عبدالله بن عبد الظاهر فى السيرة الظاهرية قال : قال لى القاضى فتح الدين بن سناء الملك وهو صاحب ديوان الخزائن قبل هذا الوقت بمدة سنة : إن الذى دخل فى المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار، وما تجدد بعد ذلك لا يحصى . قال : وشرط السلطان لكل أمير يصيب القبق فرسا من خيوله بما عليه من التشاهير ، ولكل مفردى أو مملوك أو جندى خلعة تليق بمثله . ودخل الناس بالرماح بكرة النهار ، ثم شفع السلطان ذلك برمى النشاب . وحضر رسل الملك بركة فى ذلك الوقت ووقفوا مع السلطان وشاهدوا ذلك واستعظموه ، وأقام العسكر كذلك أياما .

وفى تاسع عشر ذى القعدة خلع السلطان على الملوك والأمراء والبحرية والحجاب والمفاردة وأرباب المناصب من الوزراء والقضاة وأرباب البيوت[3] . وحضر الناس بالخلع والتشاريف ولعبوا بقية ذلك النهار . فقالت رسل الملك بركة للسلطان : « هذه عساكر مصر والشام ؟ » . فقال : « بل عساكر المدينة خاصه ، غير الذين فى الثغور ، والمجردين والذين[4] فى إقطاعهم » فعجبوا من ذلك.

(١) فى السلوك (جـ ١ ص ٥١٨) : « البرامم » وهى السروج الحربية .

(٢) ومن حاشية فى النجوم (جـ ٦ ص ٦٧ حاشية ١) أن محل ميدان العيد هو اليوم المنطقة الواقعة بين باب النصر وباب الحسينية ، وهى المنطقة التى يخترقها شارع نجم الدين حاليا .

(٣) تعبير السلوك (جـ ١ ص ٥١٩) : « ذوى البيوت » .

(٤) تعبير السلوك (نفس الموضع) : « والذين سافروا فى إقطاعاتهم » .

ذكر ختان الملك السعيد ومن معه

قال : وفى عاشر ذى القعدة من السنة رسم السلطان بعمل سماط عظيم ، ومد بالقلعة لختان الملك السعيد بن السلطان ، فأكل الناس وختن الملك السعيد ثم ختن بعده ابن الأمير عز الدين الحلى ، وابن الأمير شمس الدين سنقر[1] الرومى ، وولد الأمير سيف الدين سكر ، وولد الأمير حسام الدين بن بركة خان ، وولد الملك المجاهد ابن صاحب الوصل ، ثم أولاد الملك المغيث صاحب الكرك الخمسة[2] وولد فخر الدين الحمصى ، وجماعة أخر من أولاد الأمراء . وكان قد تقدم قبل ذلك بكسوة جماعة من الأيتام وأبناء الفقراء بالقاهرة ومصر ، فأحضروا إلى القلعة وختنوا . وحمل السلطان عن الأمراء والخواص كلفة التقادم[3] .

ذكر خبر غازية الخنافة[4]

وفى هذه السنة ظهر بخليج القاهره قتلى ، وفقد جماعة من الناس أتهم بهم معارفهم ، والتبس أمرهم . ودام ذلك شهورا . ثم ظهر أن امرأة حسناء وضيئة تسمى غازية كانت تتبرج بزينة فاخرة وتطمع من يراها من الأحداث فى نفسها ، ومعها امرأة عجوز ، فإذا رأت أحدا قد مال إليها تعرضت له وخاطبته فى أمرها وقالت : هذه لا يمكنها أن تجتمع بأحد إلا فى منزلها خوفا على نفسها . فمنهم من يحمله الغرض على موافقتها فيتوجه معها ، فإذا حصل عندها خرج إليه رجلان

---

(١) هو سنقر الأشقر (راجع السلوك ، جـ ١ ص ٥٢٠) .

(٢) فى السلوك (نفس الموضع) : « الثلاثة » .

(٣) زاد السلوك هنا (جـ ١ ص ٥٢٠) : « التى جرت العادة بها للملوك فى مثل هذا المهم » .

(٤) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢١) .

فيقتلانه ويأخذان[1] لباسه وما معه . وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر مخافة الشعور بهم ، ثم سكنوا خارج باب الشعرية على الخليج ، وكان بالقاهرة ماشطة مشهورة فجاءتها العجوز وقالت لهـا : عندنا امرأة قـد زوجناها ونحتاج إلى قمـاش وحلى تتجمل به بالأجرة على العادة ، فأحضرى لهـا ما يمكنك ونحن نزيدك فى الأجرة ، وواعدتها أن تأتيها ليـلا ففعلت المـاشطة ذلك وأتتها ومعها جارية تحمل القماش والمصاغ ، فوصلتها الجارية وعادت ، فلما دخلت المـاشطة قتلت وأخذوا ما معها ، ثم جاءت الجارية من الغد وطلبت الماشطة فأنكروها ، فتوجهت الجارية إلى متولى المدينة ، فجاء وهجـم الدار ، فوجد فيها الصبّية والعجوز ، فأخذهما وقررهما ، فأقرتا على نفسيهما[2] وعلى رجلين آخرين فحبسهما . وجاء أحد الرجلين يتفقد أمرهما فى الاعتقال فقبض عليـه وعوقب فأقر ودل على رفيقه وعلى رجل[3] طواب كان يحـرق لهم من يقتلونه[4] فى قمين الطوب . فطولع السلطان فى أمرهم ، فأمر بتسمير الخمسة فسمروا تحت القلعة ، وشفع بعض الأمراء فى إطلاق المرأة فأطلقت وفكت المسامير فماتت بعـد أيام . وهدم عوام القاهرة الدار التى كانوا يسكنونها ويقتلون فيهـا . وبنيت مسجداً[5] بمأذنة ، وظهر فى الدار حفيرة فيها قتلى كثيرة .

---

(١) فى الأصل : « يأخذا بحذف النون وهو خطأ » .

(٢) فى الاصل : فاقرا على أنفسهما » بالتذكير ، والعدول إلى التأنيث مما يقتضيه السياق .

(٣) فى هذه الرواية رجل ثالث . أما فى السلوك (فى الموضع الموازى) فلا يوجد رجل ثالث ، بل يكون الطواب هو الرجل الثانى والثالث .

(٤) فى الأصل : « ما يقتلوه » بالعامية ، وقد صحح لأن السياق لا يحتمل الاستعمال العامى فى هذه العبارة .

(٥) فى الأصل : « مسجد » بالرفع .

ذكر وصول رسل الملك بركة

قد ذكرنا[1] أن السلطان كان قد جهز الأمير سيف الدين كشريك والفقيه مجد الدين الروذ راورى إلى الملك بركة، وأنهما توجها فى المحرم سنة إحدى وستين وستمائة . وذكرنا عود الفقيه مجد الدين للمرض الذى أصابه ، فتوجه الأمير سيف الدين ومن معه من المُغُل . وكان اجتماعهم بالأشكرى فى أنبه ، ثم رحلوا إلى القسطنطينية فى عشرين يوما . ومنها إلى اصطنبول[2] ، ومنها إلى دَفْنِسْيا ، وهى ساحل السوادق من جهة الأشكرى ، ثم ركبوا فى البحر إلى البر الآخر ومسيرة ما بين العشرة أيام إلى يومين ، ثم طلعوا إلى جبل يعرف بسوداق ، فالتقاهم والى تلك الجهة فى قرية اسمها القرم[3] ، يسكنها عدة أجناس من القفجاق والروس واللان . ومن الساحل إلى هذه القرية مسيرة يوم ، ثم ساروا من القرم إلى برية يوما واحدا ، فوجدوا بها مقدم عشرة الآف وهو حاكم على تلك الجهات ، ثم ساروا عشرين يوما فى صحراء عامرة بالخركاهات والأغنام إلى بحر إتل ، وهو بحر حلو سعته سعة نهر النيل ، وفيه مراكب الروس ومنزلة الملك بركة على طول ساحله .

قال : وحملت إليهم الإقامات فى طول الطرقات . ولما قاربوا الأردو تلقاهم الوزير شرف الدين القزوينى .

(١) راجع ما سبق ص ٦٤ / ٦٥ من هذا الجزء .

(٢) هنا يميز النص بين القسطنطينية واصطنبول .

(٣) يتحدث القلقشندى (جـ ٤ ص ٤٦٩) عن الطريق البحرى إلى هذه المناطق ويقول ان طريق البحر يبدأ من دمياط إلى الاسكندرية إلى خليج القسطنطينية إلى بحر القرم ثم إلى بحر الأزق (ولعل الأصح بالقاء) وينتهى إلى آخره حيث تقع مدينة الأزق (كذا) ، وحيث يصب نهرتان (يتاء من فوق وألف مماله) أى نهر الدون الحالى . وقد ورد فى السلوك جـ ١ ص ٧٣٨ أن الظاهر بيبرس أرسل هدايا برسم عمارة جامع قرم ، وأمر أن تكتب عليه ألقاب السلطان وأرسل حجارا لنقش ذلك وكتابتها بالأصباغ .

ثم حضروا عند الملك بركة ، وكانوا قد علموا آدابه التى تعتمد معه ، وهى الدخول عليه من جهة اليسار، فإذا أخذت الكتب منهم انتقلوا إلى جهة اليمين، ويكون القعود على الركبتين . ولا يدخل أحد معـه إلى خركاته بسيف ولا سكين ولا عدة ، ولا يطأ برجله عتبة الخركاه ، ولا يقلع الإنسان عدته إلا على الجانب اليسار ، ولا يترك القوس فى القربان، ولا يخليه موترا ولا يخط فى تركاشه نشابا ، ولا يأكل الثلج ، ولا يغسل ثوبه فى الأردو .

قال : ووجد الملك بركة فى خركاه تسع خمسمائة رجل مكسوة لبادا أبيض، مستورة من داخلها بالصندات والخطاى[1] مرصعة بالجواهر واللؤلؤ، وهو جالس على تخت ، وإلى جانبـه الخاتون الكبرى ، وعنده خمسون أو ستون أميرا[2] على كراسى الخركاه . ولما دخلوا إليه أمر وزيره بقـراءة الكتاب ، ثم نقلهـم عن اليسار إلى اليمين ، وسألهم عن النيل، وقال: « سمعت أن عظماء لابن آدم ممتدا على النيل يعبر الناس عليه ؟ » فقالوا : « ما رأينا هذا »

قال : وأخذ قاضى القضاة الذى عنده هذا الكتاب وفسره وبعث به نسخة إلى القان . وقرئ كتاب السلطان بالتركى على من عنده ، ففرحوا به . وأعادوا الرسل بجوابه ، وسير معهم رسله ، فكان وصولهم فى ذى القعدة من هذه السنة .

ذكر توجه السلطان إلى الاسكندرية

وتقديم سيف الدين عطاء الله على عرب برقة

قال : ولما فرغ السلطان من هذا المهم توجه إلى ثغر الإسكندرية متصيدا،

---

(١) كذا فى الأصل.

(٢) فى الأصل « أمرا ».

فعدّى فى ذى القعدة من السنة وسار الى تروجة[١] ، ومنها إلى الحمامات ، وسار إلى منزلة الكرش بالقرب من العقبة الصغرى ، وضرب حلقة هناك ، ووصلت المسيرة إلى قرب العقبة الصغرى ، وعيّد عيد الأضحى ، وصلى صلاة العيد ، ونحر الأضاحى ، وبلغه أن بعض العربان قد عصوا فى البرارى ، فجرد إليهم جماعة ، وحضر جماعة من عرب هوارة وعرب سليم فكتب عليهم الحجج بعمارة البلاد ، وألا يقربوا أحدا من العربان العصاة .

وعاد السلطان إلى الإسكندرية ، وصلى فى الجامع الغربى[٢] ، ولعب الكره بميدانها ، وزار الشيخ الشاطبى[٣] ، ورجع إلى القاهرة فلما وصل إلى تروجة رسم بتقديم سيف الدين عطاء الله بن عزار[٤] على عرب برقة ، وتحدث معه فى أمر العربان وكونهم ينتفعون من مصر بأثمان الخيول المحلوبة والأغنام ، وأنهم يستنتجون الأغنام ويزرعون ولا يقومون بحق الله . فالتزم المذكور بحفظ البلاد واستخراج الزكاة من العربان . وأنعم عليه السلطان بصنجق[٥] ونقارات[٦] ، وتوجه[٧] .

---

(١) موضع خرب يقع اليوم جنوب غربى دمنهور واسمة كوم تروجة ، وكان ينزله فى أيام المماليك عرب تروجه (السلوك جـ ١ ص ٥٠٠) وكان يبدأ منها طريق الى الحمامات (السلوك جـ ١ ص ٥٢٠) .

(٢) راجع عن الجامع الغربى بالاسكندرية النجوم (جـ ٧ ص ٣٦١) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبى المتوفى بالاسكندرية عام ٦٧٢ هـ (عن السلوك جـ ١ ص ٦١٤)

(٤) كذا فى الأصل بزاى معجمة ثم راء مهملة ، وكذلك فى السلوك جـ ١ ص ٥٢٠) .

(٥) صنجق بالصاد ، ويرد اللفظ بالسين أيضا ، وهو لفظ تركى معناه الرمح ، والمراد هنا الراية .

(٦) راجع القلقشندى (جـ ١ ص ٤٧٥) عن النقارات .

(٧) زاد السلوك (جـ ١ ص ٥٢٢) « وتوجه لحفظ البلاد واستخراج الزكاة والعشور من العربان ببرقة » .

قال : ولما وصل السلطان من الإسكندرية وصل شحنة[1] تكريت ومعه جماعة فأحسن إليهم .

ذكر الواقعة الكائنة بين المسلمين والفرنج ببلاد الأندلس — وانتصار المسلمين

كانت هذه الواقعة فى سنة اثنتين وستين وستمائة . وورد الخبر بها إلى الديار المصرية فى سنة ثلاث وستين بمقتضى كتاب ورد فى جمادى الآخرة يتضمن انتصار المسلمين على الفرنج . وأمير المسلمين وسلطانهم يومئذ أبو عبد الله بن الأحمر وكان ألفنش ملك الفرنج قد طلب منه الساحل من طريف إلى الجزيرة ، ومالقة إلى المرية ، وحضر بجموعة ، فاجتمع المسلمون ولقوهم واقتتلوا ، فانهزم الفرنج مرارا ، وأخذ أخو الفنش أسيرا . ثم اجتمع الفرنج فى جموع كثيرة ونزلوا على أغرناطه[2] فقتل المسلمون منهم مقتله عظيمة ، وجمعوا من رءوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس ، وجعلت تلا ، وأذن المسلمون فوقه . وأسر من الفرنج عشرة الآف . وذلك فى يوم الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة . وانهزم ألفنش الى اشبيلية ، وكان قد دفن أباه بجامعها فأخرجه من قبره ، خوفا من استيلاء المسلمين عليها وحمله إلى طليطلة ، واستعاد المسلمون من الفرنج اثنتين وثلاثين بلدا[3] من جملتها اشبيلية ومرسية وشريش وغير ذلك .

---

(١) الشحنة هنا هو صاحب الشرطة بحسب السلوك (جـ ١ ص ٥٢٠ جـ ١ حاشية ٤) .

(٢) فى الأصل : « اغرناطه » .

(٣) فى الأصل : « بلد » بالرفع .

وفى هذه السنة كانت وفاة الأمير حسام الدين لاجين العزيزى الجو كندار[1] بدمشق، ودفن بفسح قاسيون . وقيل إنه سم، وأن مملوكه جمال الدين أيدغدى واطأ عليه . وكان شجاعا كريما متواضعا يحب الفقراء و يكرمهم ويتولى خدمتهم بنفسه ، رحمه الله تعالى .

ذكر مقتل الزين الحافظى[2]

وفى أواخر سنة اثنتين وستين وستمائة، احضر هولاكو زين الدين أبا المؤيد سليمان بن عامر العقريانى ، المعروف بالحافظى ، وقال له ما معناه : قد ثبت عندى خيانتك وتلاعبك بالدول ، وأنك خدمت صاحب بعلبك طبيبا ، فخنته ، واتفقت مع غلمانه على قتله . ثم انتقلت إلى خدمة الملك الحافظ الذى عرفت به ونسبت إليه ، فلم تلبث أن خنته ، وباطنت الملك الناصر حتى أخرجت قلعة جعبر عن يد مخدومك ، ثم انتقلت إلى خدمة الملك الناصر فخنته معى، ثم انتقلت إلىّ ، فأحسنت إليك إحسانا لم يخطر ببالك أن تصل إلى بعضه منى ، وقد شرعت تعاملنى بما عاملت به الملك الناصر . وعدد له ذنوبا أخر من خيانته فى الأموال التى كانت قد ندبه لاستخراجها من البلاد، وأمر بقتله هو وأهله ، فقتل هو وأخوته وأولاده وأقاربه ومن يلوذ بهم ، وكانوا نحو الخمسين لم ينج منهم إلا ولده مجير الدين محمد وولد أخيه اختفى بالسوق وقيل إن السلطان الملك

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٢) والجوكان هو المحجن الذى يضرب به الكرة ، وأنه عبارة عن عصا مدورة طولها نحو من أربعة أذرع ، و برأسها خشبة مخروطة تزيد على نصف ذراع انظر القلقشندى (جـ ٥ ص ٤٥٨) .

(٢) راجع عن الزين الحافظى السلوك (جـ ١ ص ٤٣٢) .

الظاهر تسبب فى قتله ، فأنه أحسن إلى أخيه عماد الدين أحمد ،ورتب له راتبا كبيرا ، وأمره بمكاتبة أخيه واستدعائه ، وأنه إذا وصـل كان له ما يقترحه ، بشرط المواطأة على هولاكو وإفساد من يقدر على إفساده منهـم . فلما وصلت إليـه الكتب حملها إلى هـولاكو وقال : إن صاحب مصر إنمـا يكاتبنى بمثل هذا لتقع الكتب فى يدك فتقتلنى ، وقـد عزمت على أن أكاتب الأمراء القائمين بدولته والأعيان ، وأكيده كما كادنى . فأبى[1] هولاكو ذلك ، فـلم يزل يراجعه حتى أذن له . فكاتب جماعة فعـلم السلطان أنها مكيدة ، فكتب إليـه يشكره على عرض الكتب على هـولاكو ، ويستصوب رأيه فى عرضها لتزول التهمة عنـه ، وأمر القصاد أنهم إذا وصلوا إلى شط جزيرة ابن عمـر يتجردوا من ثيابهم ويتحيلوا فى إخفاء أنفسهم ليظن أنهم قصدوا السباحة ففرقوا، ففعلوا ذلك . وجاء نواب التتار فوجدوا الثياب فأخذوها وجهزوا الكتب إلى هـولاكو فقرأها . وكان ذلك من أسباب قتله ، والله تعالى أعلم .

(١) فى الأصل : رسم الفعل بالألف الياء .

واستهلت سنة ثلاث وستين وستمائة

فى المحرم منها ، وصل الأمير جمال الدين سكز[1] بن الدوادار ، وكان أبوه المجاهد دوادار الخليفة ببغداد ، وكانت له نعمة عظيمة ، فأحسن اليه السلطان وأمره بطبلخاناه .

وفى صفر من السنة ، وقف السلطان الخان بالقدس الشريف ، وقرئ كتاب وقفه بحضور السلطان وقاضى القضاة تاج الدين .

ووقف اسطبلين تحت القلعة يعرف أحدهما بجوهر النوبى ، وحبسهما على وجوه البر .

وفيها فى العشر الآخر من المحرم ، انهى الى السلطان أن جماعة من الأمراء والأجناد اجتمعوا فى دار على أكل ططماج وجرى بينهم كلام كثير أفض الى الغض من الدولة ، فاتصل ذلك بالسلطان وعين له ثلاثة نفرا وسعوا فى الكلام فى ذلك فأمر بتسميرهم ، فسمر أحدهم ، وكحل الثانى ، وقطعت رجل الثالث . وأفرج عن بقيتهم ، وأمر ألا يجتمع أميران فى مكان ، وألا تعمل وليمة ولا ضيافة عن غير موجب ، فحسمت مادة الاجتماعات .

وفى صفر ورد كتاب الأمير عز الدين أيدمر النائب بالكرك أنه رتب راتب الأسمطة والضيافة بحرم الخليل عليه الصلاة والسلام للوافدين . وكان ذلك قد قطع من مدة طويلة .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤ : ٥) حيث سماه بشكر بدل سكز .

وفيهـا فى تاسع عشر شهر ربيع الأول قطع السلطان أيدى جماعة من نواب متولى القاهرة والخفراء وأصحاب الأرباع والمقدمين ، وكانوا ثـلاثة وأربعين رجلا[1] ، وكان سبب ذلك على ما حكاه الصاحب عز الدين بن شداد ، ظهور شلوح ومناسر بالقاهرة وضواحيها ينهبون ويقتلون حتى تعرضوا للعـريان الذين تحت القلعـة ، فارتفعت أصواتهم حتى سمعها السلطان وسأل عن خبرهم فأخبر بصورة الحال ، فلما أصبح أتتـه ورقة الصباح وليس فيها ذكر هـذه الحادثه ، فانكر على متولى القاهرة ، فاعتذر أن نوابه لم يطالعوه بها ، فأمر السلطان بقطع أيديهم فمات بعضهم وسلم البعض .

وحكى غيره ، عن الأمـير عز الدين أيدمر الظاهرى ، أن السلطان خرج ليلة متنكرا وجعل يطوف أزقة القاهرة ، وكان يفعل ذلك ويتفقد أمور الناس وأحوالهـم ويسمع من ألفاظهم ما لاينقل إليـه ، فمر فى بعض أزقة المـدينة فوجد بعض مقدمى[2] الوالى قد أمسك امرأة وهو يتهددها ، وهى تقول له : اتق الله ، والله ما أفعل هذا [ألا][3] من حاجة وأنت تعلم أن عندى خمسة أيتام . فقال : أنا ما أعرف هذا ، ولا بد أفعل وأصنع . فقالت له تقدم عنى ناحية . وخاصمت لباسها وناولته إياه ، وقالت : والله ما أمسك سواه فأخذه وأطلقها . فعرفه السلطان ثم لم تكن له همة إلا أن جمعهم وقطع أيديهم ، وشاهد فيمن قطع ، ذلك المقدم بعينه .

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٤٠).

(٢) فى الأصل : « مقدمين » ، والتصويب مما يقتضيه النحو .

(٣) فى الأصل : « ما » والتصويب مما يقتضيه تركيب الجملة .

وفى هذه السنة توجه السلطان إلى الصيد بجهة العباسة، وذلك بعد عوده من ثغر الإسكندرية ، فرمى البندق ، وأصرع جماعة وادعوا للسلطان[1] ، ومن جملتهم الملك العزيز فخر الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك .

وتوجه السلطان من العباسة إلى قلعة الجبل فأقام ليلة واحدة ، وجهز العساكر، ثم توجه هو بعدها إلى الشام وصرع بشرا[2] بالقرب من رأس الماء ، وذلك فى ثالث شهر ربيع الأول . وكان سبب توجهه ما بلغه من محاصرة التتار البيرة وكان فى هذه السفرة من الغزوات والفتوحات ما نذكره ، إن شاء الله تعالى ، فى موضعه .

وفى هذه السنة رسم السلطان بتبطيل المزر[3] بالديار المصرية وأن تخرب البيوت التى يعمل فيها وتكسر مواعينه ويسقط من الديوان ارتفاعه ، ورسم بتعويض المقطعين عنه . وكتب بذلك إلى الأمير عز الدين الحلى فأبطلها .

ولما فتح السلطان فى هذه السفرة ما نذكره من بلاد الفرنج عاد إلى مقر ملكه، وكان رحيله من أرسوف فى يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة ، ودخوله إلى القاهرة فى يوم الخميس حادى عشر شعبان من السنة، وشق المدينة والأسارى بين يديه ،وعم الناس بالخلع والإنعام،

---

(١) راجع عن : « الادعاء » السلوك (جـ ١ ص ٥٢٣).

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٣) .

(٣) تفرق نصوص هذا العصر بين المزر والقمز والخمر (راجع عن القمز السلوك جـ ١ ص ٦٠٧ ، ٦٢٦) .

من الأمراء والوزراء والمقـدمين والمفاردة والخـواص حتى البرد[1] دارية وجميـع الحاشية، وتصدق بجملة عظيمة من الدراهم والغلال على الفقراء، وفرق كساوى بالجوامع .

ذكر خبر الحريق بالقاهرة ومصر واتهام أهل الذمة وما قرره عليهم من الأموال بسببه[2]

وفى هـذه السنة فى جمادى الآخرة ، وقعت نار بحارة الباطليـة بالقاهرة ، فأ رقب ثلاثا[3] وستين دارا جامعة . ثم كثر الحريق بعد ذلك بمصر حتى احترق من رباعها المشهورة ربع فرح ، وكان وقفا على الأشراف بالمدينة ، وأكثر ربع العـادل وغير ذلك . وكانت توجد لفايف من المشاق والكبريت والأصـناف النفطية على الأسطحه . وشاع الخـبر أن النصارى يفعـلون ذلك لأجل ما فعله السلطان ببـلاد الفرنج من إحراق الكنائس . فجمـع السلطان عنـد عوده من الشام النصارى واليهود ، وأنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهودهـم ، وأمر بتحريقهم . فجمع منهـم عالم كثير تحت القلعة وأحضرت الأحطاب والحلفا . فسأل أهل الذمة مراحـم السلطان ، فقرر عليهم حمـل خمسمائة ألف دينار إلى بيت مال المسلمين ، والتزم بتوزيعها واستخراجها بطرك النصارى ، والتزموا أنهم لا يعودون إلى شىء ممـا كانوا يعتمدونه من المنكرات ، ولا يخرجون عن الذمة وشرطها وحمـل المـال المقرر شيئا بعد شىء .

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٣٤) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٣٥) .

(٣) فى الأصل : « ثلاثة » .

وفى هذه السنة ، اعتقل السلطان الأمير نور الدين زامل بن على[1] ، وكان قد حصل منه إساءات وفتن مرة بعد أخرى . وقبض السلطان عليه ثم أطلقه وأصلح بينه وبين الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ، والأمير أحمد بن حجى ، والأمير هارون ، وحلفهم ، وأعاد إقطاع زامل إليه و إمرته . فلما توجه لم يتأن إلى أن يصل البلاد بل ساق من أوائل الرمل [وهجم على بيوت عيسى[2]] وأفسد ، وأمسك قصاد السلطان ومملوك الأتابك المتوجه إلى شيراز ، وأخذ منهم الكتب ، وتقرب بها إلى هولاكو ، وتوجه إليه وأطمعه فى البلاد فأعطاه إقطاعا فى العراق . وتوجه [زامل] إلى الحجاز فنهب وقتل وانتهك حرمة الأشراف ، وحضر إلى أوائل الشام[3] . وكان السلطان قد أعطى إقطاعه و إمرته لأخيه أبى بكر ، فراسل زامل السلطان فى طلب العفو ، فتقرر حضوره فى وقت معلوم وأنه متى تأخر عنه ليس له عهد ولا أيمان ، فتأخر عن المدة المعينة ثم وصل فاعتقله السلطان .

وفيها : حضر إلى السلطان نعجة قد ولدت خروفا على صورة الفيل له خرطوم طويل وأنياب وإلية خروف .

وفيها : جهز السلطان الأخشاب والحديد والرصاص والآلات والصناع[4] ، فكانوا ثلاثة وخمسين رجلا لإتمام عمارة الحرم الشريف النبوى . وأنفق فيهم الأموال وجهز معهم المئونة ، وندب لذلك الطواشى شهاب الدين محسن الصالحى[5] ،

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٣٥) .

(٢) زاد السلوك هنا (نفس الموضع) : « وهجم على بيوت عيسى » .

(٣) يقابل هذه العبارة فى السلوك (جـ ١ ص ٥٣٦) : « وعاد إلى الشام » .

(٤) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٠٢) مع ملاحظة اختلاف التوقيت والتفصيل .

(٥) يرد اسمه مسافرا مع كسوة الكعبة فى السلوك (جـ ١ ص ٥١٢ س ٢) .

ورضى الدين أبا بكر ، والأمير شهـاب الدين غازى بن فضـل اليغمورى مشدا ، ومحيي الدين أحمـد بن أبى الحسين بن تمام طبيبا إلى البيمارستان الذى بالمدينة ، ومعه أدوية وأشربة ومعاجين ومراهم وسكر لأجل من يعتريه من الجماعة مرض . وكان خروجهم من القاهرة فى سابـع عشر شهر رجب . ووصلوا إلى المدينة فى ثانى شـوال . واستمر العمل فى العمارة إلى سـنة سبع وسـتين وستمائة . وكان السلطان يمدهم بمـا يحتاجون إليه من النفقات والآلات .

وفيهـا : توجه السلطان إلى بحر أشموم ، وغرق عدة مراكب لإصلاحه ، وتولى الحفر بنفسه ، وشاهـد الناس على كتفه قفة مملوءة ترابا . فلم يبق أحد من الأمراء وغيرهم إلا بادر وفعل مثل ذلك . فتنجز ذلك فى ثمانية أيام ، وذلك فى شوال من السنة .

وفى حادى عشرين الشهر رسم السلطان بإبطال حراسة النهار ، وكانت جملة مستكثرة وكتبت التواقيع بإبطالها .

وفى الشهر قرئ مكتوب بجامع أشموم بمسامحة الأعمال[1] الدقهليـة والمرتاحية بأربعة وعشرين ألف درهم عن رسوم الولاية والمـال المستخرج برسم النقيدى[2] .

وفيه توجه شجاع الدين بن الداية الحاجب رسولا إلى الملك بركة[3] ، فى كف غارات الملك بركة عن بلاد الأشكرى حسب سؤاله فى ذلك ، وسـير معه ثلاث

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٨ س ١) .

(٢) النقيدى : موضع قرب فم خليج الإسكندرية .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٨) .

عمر أعتمر بها بمكة المالك بركة . وسير معه قمقمان من ماء زمزم ، ودهن بلسان وغير ذلك .

وفي ذي القعدة وصل الأمير جمال الدين النجيبي نائب السلطنة بالشام فتحدث السلطان[1] معه في مهمات ، وكتب على يده تذكرة[2] ، وعاد في ذي الحجة .

ذكر تفويض القضاة لأربعة حكام[3]

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وستين وستمائة فوض السلطان القضاء بالقاهرة والديار المصرية لأربعة قضاة ، لكل مذهب قاض . وسبب ذلك أن الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي كان يكره قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ويغض منه عند السلطان لتثبته في أحكامه وتأنيه[4] واحترازه ، فاتفق أن السلطان جلس بدار العدل فقدمت له قصة من بيت الملك الناصر تتضمن أنهم ابتاعوا دارا من القاضي بدر الدين السنجاري وأن ورثته بعد وفاته ادعوا أنها وقفت قبل ذلك ، فأخذ الأمير جمال الدين أيدغدي ينقص المتعممين فقال السلطان للقاضي تاج الدين : « هكذا تكون القضاة؟ » . فأجابه بالآية : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[5] . قال : «فكيف العمل في هذا ؟ » . قال : «إذا ثبت الوقف يستعاد

(١) انظر السلوك (ج ١ ، ص ٦٥٠) وكذلك النجوم (ج ٧ ص ٢٨١) .

(٢) التذكرة وثيقة تصدر عن السلطان إلى نوابه بمصر أو بلاد الشام أو إلى قصاده الذين يرسلهم إلى الملوك — وتتضمن التذكرة عادة ما يراد تكليفهم به (راجع السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٥ وكذلك القلقشندي ج ١٣ ص ٧٩ ، ١٠٤) .

(٣) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٣٨ ، ٥٤٢) وكذلك النجوم (ج ٧ ص ١٢١) .

(٤) في الأصل : « وتأنيه » ولا معنى له ، والتصويب يفرضه السياق .

(٥) فاطر آية ١٨ .

الثمن من الورثة من مال مورثهم » . فقال السلطان : « فإن عجزوا عن الثمن ؟ » قال : « الوقف باق على أصله » . فامتعض السلطان لذلك . فلم يتم الكلام حتى تقدم رسول صاحب المدينة النبوية وقال : « حملت كتاب السلطان إلى قاضى القضاة أن يسلم إلى المال الذى تحت يده من الوقف، لأنفقه فى فقراء أهل المدينة، فلم يفعل » . فسأل السلطان القاضى عن ذلك . فقال : « صدق هذا الرجل، أنا لا أعرفه، ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه وأثق بدينه وأمانته، فإن تسلمه السلطان أحضرته بين يديه » . فقال السلطان : « تخرجه من عنقك وتجعله فى عنقى، لا تسلم المال إلا لمن تختاره وترضاه » . وتقدم بعض الأمراء فى المجلس وشكى من القاضى تاج الدين فى قضية أخرى هى شهادة[1] لم يثبتها لبعض أولاد خوشد اشيته فقال القاضى : « لم تأتنى بينة »[2] . فقال الأمير : حضرت البينة فلم تسمعها . فسأله السلطان عن امتناعه من سماع البينة . قال : « لا حاجة إلى ذكر الجواب » . فقال الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى للقاضى نحن نترك مذهب الشافعى لك ويولى السلطان من كل مذهب قاضيا، فرجع السلطان إلى قوله[3] ، وفوض النظر فى الأحكام والقضايا إلى حكام أربعة وهم[4] : قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب المشار إليه، قاضى الشافعية . والشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله ابن صالح بن عيسى السبكى، قاضى المالكية، والقاضى صدر الدين سليمان قاضى الحنفية والشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسى،

(١) الإضافة للإيضاح وهى منقولة عن السلوك (ج ١ ص ٥٣٩)

(٢) فى الأصل : « لم تأتنى »، وهو خطأ

(٣) فى الأصل : قاصد وهو خطأ

(٤) انظر النجوم (ج ٧ ص ١٢٢)

قاضى الحنابلة . وجعل لهم السلطان أن يولوا فى الأعمال نوابا عنهم . وخص قاضى القضاة ، تاج الدين الشافعى ، بالنظر فى أموال الأيتام والأوقاف بمفرده بالديار المصرية ، بتقليد سلطانى نسخته بعد البسملة ، ومثال العلامة السلطانية بين السطرين المستعلى بالله .

«الحمد لله مجرد سيف الحق لمن اعتدى ، وموسع مجاله لمن راح إليه وأغتدى ، وموضح طريقه لمن اقتاد به واقتدى ، ومزين سمائه بنجوم تستمد الأنوار من شمس الهدى ، الذى أعذب لشرعة الشريعة المحمدية ينبوعا ، وأقامها أصلا مد بثمار الرشد فروعا . نحمده على نعمة التى ألزمتنا التشييد [فى][1] مبانى الإنصاف شروعا » .

«ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة نعمر بها من القلوب والأفواه ربوعا . ونصلى على سيدنا محمد الذى بعثه الله إلى العالم جميعا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، صلاة يناجى القائل بها بصيرا سميعا » .

« وبعد : فإن أحق من استوعبت كليات المحامد له بالتبعيض ، وطافت المحامد من كعبة العلم بركن منه طواف المفرض لا طواف المفيض وخلد له إرضاء الأحكام وإمضاء التفويض ، وريش جناحه وإن لم يك بالمهيض ، وفسح مجاله وإن كان الطويل العريض ، ورفع قدره على الأقدار ، وتقسمت من سحائبه الأنواء ، ومن أشعته الأنوار ، ووغزر مدّه فجرت منه فى رياض الرشد الأنهار ، وغدا تخشع لتقواه القلوب ، وتنصب لفتواه الأسماع وترنو لمحياه الإبصار ، من أوفد من إرشاده للامة وللائمة لطفا فاطفا ، وأوقد من علمه جذوة لاتخبو ، ومن عدله قبسا بالهوى لا يطفأ ، وفات النظراء والنظار فلا يرسل أحد

(١) كذا فى الاصل . أما الإضافة فيقتضيها تركيب الجملة .

معه طرفا، ولا يمد إليه حياء منه طرفا، وقد جاز واحتوى من العلوم على ماتفرق فى غيره وغدا[1] خير دليل إلى الحق ، فلا يقتدى فى المشكلات إلا برأى اجتهاده ، ولا يهتدى فى المذاهب إلا بسيره، وأصبح لفلك الشريعة المحمدية قطبا، ولجثمانها قلبا ولسوارها قلبا ، وأضحى لدليلها برهانا ، ولإنسانها عينا ، ولعينها إنسانا ، فكم أرضى بعدله وفضله بنى الأيام عن الأيام ، وكم أغضى مع قدرته على الانتقام ، وكم أمضى حكما لا انفصال لعروته ولا انفصام ، وكم أفضى بالجـور إلى ماله وبالعدل إلى الأيتام ، فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعديه، ولم يداجه لكونه يستر عليه تعبده فى دياجيه ، فهو الحاكم بالحق ولو على نفسه ، والمسترد الحقوق الذاهبة حتى لغده من يومه وليومه من أمسه .

« ولمـا كان المجلس السامى القضائى الإمامى ، العالمى العاملى ، الأشرف الزاهدى الأثيرى المـاجدى الذخيرى الأفضلى الجلالى التاجى ، حجة الإسلام ، شرف الأنام ، مجد الأمة ، فخر الأئمـة ، صدر الشريعة مقتدى الفرق ، رئيس الأصحاب ، لسان الحق ، ذخر الملوك والسلاطين ، ولى أمـير المؤمنين ، قاضى القضاة ، عبـد الوهاب بن القاضى الأجل الأوحد الأعز أبى القاسم خلف ، حرس الله جلاله ، ممن هو فى أحسن هـذه السمات يتصور ، وله أنوار بركات تعد ونجوم السماء بها تتكثر ، وقد تجوهر بالعـلوم فأصبح التاج المجوهر ، وله مزايا السؤدد التى لا يشك فيها ولا يرتاب ، وسجايا الديانة التى إذا دخل غـيره إليها من باب واحد دخل هو إليها من عدة أبواب ، وهو شجرة الأحكام ومصعد كلم الحكام ، ومطلع أنجم شرائع الإسلام ، ومهبط وحى التقدمات والارتسام ومكاظ قضايا الحلام والحرام » .

(١) فى الأصل « وهذا » ذلك أن الجملة هنا تحتاج إلى فعل لا إلى اسم الإشارة

«خرج الأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى ، لا زال ماضيا وبالسداد قاضيا : بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصرية فليحكم جميعها بما أراه الله من مذهب الإمام المطلبى محمد بن إدريس الشافعى، رضى الله عنه ، وأموالى اليتامى على اختلاف أجناسها هى ودائع الأموات ، ودخائر كل ممنوع من التصرفات ، وقد أوصى الله بها ، واوسع المتعدى عليها إنكارا وتحذيرا ، وخوف من أكلها ظلما ، فقال جل وتعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾[1] » .

وقد رأينا أن نخصص المجلس السامى بالنظر فى جميع أمورها وإذ قد غدت ذخر كل منقطع فنجعله من ذخرها ، فلينظر[2] فى جميع أموال الأيتام على اختلاف أجناسها بالقاهرة ومصر المحروستين والديار المصرية بمفرده وبمن يستنيبه عنه ، وليحطها بنظره ، ويضبطها بحسن تأثيره وأثره ، وكذلك ما يختص بمذهبه من الجوامع والمناصب والمساجد والربط والتصديرات والأوقاف ، ينظر فى جميعها ويولى فى أصولها وفروعها ، والأوقاف العامة من الصدقات وغيرها ، ينظر فيها بنفسه وبنوابه ، حافظا لأمورها وملاحظا لتدبيرها ، ومجتهدا فى صلاحها وتثميرها ، وليستصحب من ذلك ما هو ملى باستصحابه ، وليستمر على إقامة منار الحق الذى هو موثق عراه ومؤكد أسبابه ، عالما بأن كل إنارة أضأتها من قبسه وأن استضأنا بها فى دياجى المنى ، وكل ممرة من مغترسه وإن مددنا إليها يد الاجتنا ، وكل جدول هو من بحره وإن بسطت إليه راحة الاغتراف وكل منهج هو من جادته وإن ثنيت اليه أعنة الاستطلاع للافادة والاستكشاف

(١) النساء آية ١٠ .

(٢) فى الاصل فينظر ؛ والتصحيح يحتمه السياق.

وهو بحمد الله المجتهد المصيب ، والمادة للعناصر وإن كان يصيبه منها أوفر تصيب ، والصادق الذى ينبىء بالحق إذا وامرته[1] المراسيم ، ولا ينبؤك مثل خبير ، ووصاياه منها يسترشد ، فلا يفاوض فيها ، ومنه تتعلم فلا نكرر عليه ما يستفاد منه من معانيها ، والله تعالى يسد بأحكامه الذريعة ، ويحمى به حمى الشريعة إن شاء الله تعالى ، وكتب فى ثامن وعشرين ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة بالاشارة العالية المولوية الأتابكية الفارسية وأعزها الله ، الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه » .

ولما فوض السلطان القضاء بالديار المصرية لحكام أربعة ، فعل مثل ذلك بدمشق[2] ، وجهز التقاليد إلى الحكام الذين وقع الاختيار عليهم ، وهم : القاضى شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان الشافعى ، على عادته ، والشيخ زين الدين عبد السلام الزواوى المالكى قاضى المالكية ، والقاضى شمس الدين عبد الله ابن محمد بن عطاء الأذرعى الحنفى قاضى الحنفية ، والشيخ شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبى عمر الحنبلى قاضى الحنابلة ، ووصلت تقاليدهم بذلك فى سادس جمادى الأول سنة أربع وستين وستمائة ، فامتنع المالكى والحنبلى من قبول الولاية والدخول فى باب القضاء ، فطولع السلطان بذلك ، فورد جوابه بإلزامهما ، وأنهما إن استقرا على الامتناع وصمما عليه يعزلا عما بأيديهما من المناصب ويخرجا من بلاد السلطان ، فقبلا الولاية ، وامتنعا من قبول المعلوم المقرر للقضاة وقالا : « نحن فى كفاية عن قبول المعلوم » .

---

(١) كذا فى الأصل ، وامرته (بمعنى أمرته) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٤٢) .

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأقرع

وفى ذى الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة ، قبض السلطان على الأمير شمس الدين سنقر الأقرع . وسبب ذلك أن رسول الملك بركة أحضر معه رجلا ادعى أنه الملك الأشرف بن الملك المظفر شهاب الدين غازى ، فطلب السلطان من يشهد له بصحة ذلك ، فشهد له المذكور ، فبحث السلطان عن أمره ، فوجد الأمير شمس الدين المشار إليه بعث إليه واستدعاه من عند الملك بركة لغرض كان فى نفسه ، فقبض السلطان عليه واعتقله ، واعتقل من شهد له بخزانة البنود .

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الرومى[1] وذنوبه السالفة

وفى رابع وعشرين ذى الحجة من السنة ، أمسك السلطان الأمير شمس الدين سنقر الرومى . وسبب ذلك ، أنه كان له مملوك جميل الصورة ، فبلغه أن السلطان ربما تعرض إليه يفعل ، فغضب لذلك ، وشفع السلطان عنده فيه فلم يقبل شفاعته ، وضربه وحمى سفودا من الحديد وجعله فى دبره فمات ، فطلبه السلطان من وقته واعتقله . وأما ذنوبه السالفة فإنه كان جمدار الملك الصالح ، وكان مؤاخى الملك الظاهر لما كانا فى الخدمة الصالحية وبينهما صداقة ، ولما كان من أمر البحرية ما قدمناه كانا جميعا وكان الملك الظاهر يتفقده بالمال والقماش ، ولما قتل الملك المظفر لم يكن شمس الدين حاضرا ، وأعطاه السلطان الإقطاعات العظيمة فصار يخلو بجماعة بعد جماعة ويفرق عليهم المال الذى ينعم

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٤٠) .

به السلطان عليه ، فاتصل ذلك بالسلطان فأرسل إليه يحذره مع خوشداشيته ، فلم يفد ذلك شـيئا ، وبقى ذلك فى خاطر السلطان ، فلما قتل الآن مملوكه وقبض عليه أرسل يقول : «اشتهى أعرف ذنبى» ، فسير السلطان إليه من عدد ذنوبه ، فتحسر وقال : «آه ، لو كنت حاضرا قتل الملك المظفر حتى أعاند السلطان فى الذى جرى» ، وكان قد تكلم بهذا الكلام وشافه السلطان به فى حال إحسانه إليه ، واستمـر فى الاعتقال إلى أن توفى ، وكانت وفاته فى يوم الأحد عاشر جمـادى الأول سنة ست وسبعين وستمائة .

ذكر وفاة قاضى القضاه بدر الدين السنجارى وشىء من أخباره[1]

وفى هذه السـنة فى يوم السبت رابع عشر شهر رجب : كانت وفاة قاضى القضاة بـدر الدين أبى المحاسن يوسف بن الحسن بن على بن الخضر السـنجارى الشافعى ، رحمه الله تعالى ، فجأة ، وكان قد أكل بطيخا أصفر وسلنجينيا[2] عقب خروجه من الحمام . ودفن فى يوم الأحد بمدرسته بالقرافة بجوار تربة الإمام الشافعى ، وصلى عليه قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز . ومولده بسواد إربل فى رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وكان قاضيا بسنجار ، وكان له على السلطان الملك الصالح من الخدمة بسنجار ما قدمنا ذكره ، فلما ملك الملك

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٤١) والنجوم (جـ ٧ ص ٢١٩ عام ٦٦٣) ، وشذرات الذهب (جـ ٥ ص ٣١٣ أخبار عام ٦٦٣) ، وينسب هذا القاضى أيضا إلى جد له اسمه زرارة فيقال الزرارى .

(٢) المقصود نوع من المأكولات لم يستطع المحقق قراءة اسمه أو التعرف عليه ومن الممكن قراءة اللام كافا بحسب عادة الناسخ .

الصالح دمشق كما تقدم ، ولاه قضاء بعلبك وأعمالها وقرر له معلوما كثيرا ، وكان قد وصل فى صحبته ، ولما ملك الديار المصرية حضر إليه فأكرمه ، وفوض إليه القضاء بمصر والوجه القبلى ، ثم بالقاهرة والوجه البحرى كما تقدم ذكر ذلك . وولى الوزارة كما تقدم أيضا فى أيام الملك المنصور نور الدين بن الملك المعز ، وكان ، رحمه الله تعالى ، مكينا عند السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ يكرهه ، فكتب إلى السلطان الملك الصالح يذكر عنه أنه يأخذ من نوابه الأموال ، ومن يعدله من الشهود ، وأشباه ذلك ، فأجابه السلطان فى طرة كتابه : « ياأخى فخر الدين : للقاضى بدر الدين على حقوق عظيمة لا أقوم بشكرها ، والذى وليناه قليل فى حقه ، وما قمت له بما يجب على من مكافأته » ، فلم يعاوده الأمير فخر الدين فى أمره ، وبقيت هذه الورقة عنده فى جملة أوراقه ، فلما قتل وخلف بنتا صغيرة ، احتاط ديوان الأيتام على موجوده فوجدوا هذه الورقة فحملوها إلى القاضى بدر الدين ، فأوقف الناس عليها ، وكان رحمه الله تعالى ، كريما كثير الاحتمال ، كثير المروءة ، حسن العشرة ، يقبل الاعتذار ، ولا يكافىء على السيئة بمثلها ، بل يحسن لمن ظهرت اساءته ، ويبره بماله ويستميله باحسانه ، إلا أنه شهر عنه فى ولاية القضاء قبول هدايا النواب ، حتى قيل إنه ربما كان قرر على كل منهم ما لا يحمله فى كل مدة فى مقابلة ولايته على قدر الولاية ، وكذلك أيضا من يقصد إنشاء عدالته حتى كثر المعدلون فى أيامه ، ووصل إلى العدالة من ليس من أهلها ، ولما ولى قاضى القضاة تاج الدين أسقط كثيرا من عدوله ، ولقد جاء بعد ذلك زماننا وأدركت بقايا عدوله فكانوا أميز العدول وأجلّ الناس ، ومنهم من لى قضاء القضاة وبلغ ، رحمه الله تعالى ، خمسة وثمانين سنة وثلاثة أشهر ، رحمه الله تعالى .

وفى هذه السنة فى يوم الاثنين مستهل شعبان توفى الأمـير جمال الدين موسى ابن شرف الدين يغمور بن جلدك بلمان[1] بن يغمور استاد دار السلطان الملك الظاهر، وهـو الذى كان ينـوب عن الملك الصالح نجـم الدين أيوب بدمشق، وكان عالى المنزلة عند الملوك الأيوبية ومن بعدهم، ودفن بسفح المقطم، وكان مولده بالقـرية اليغمورية بقرب سمهـود من الأعمال القوصية[2] فى جمادى الآخر سـنة تسع وتسـعين وخمسمائة، وهـو ياروق الأصـل، : وكان عفيـفا كريما سمحا جـوادا، كيسا لطيفا، متواضعا حسن العشرة والسيره، كثـير البر والصدقة، رحمه الله تعالى.

وفى ذى القعدة سنة ثلاث وستين وستمائة أيضا: أمر السلطان بشنق الشريف حصن الدين بن ثعلب الجعفرى[3] بالإسكندرية، فشنق خارج باب البحر، وكان السلطان قد اعتقله بها، وسبب شنقه أن الشريف السرسناى أحد عدول الثغر كان يتردد إليه فى معتقـله لتأنيسه وقضاء حوائجه، فاتصل بالسلطان أنه أعمل الحيلة فى هروبه، وكان الشريف قد حضر إلى مصر لقضاء حوائج حصن الدين فأحضره السلطان وسأله عن ذلك، فأنكره، فأراه الخطـوط الواردة من الإسكندرية بالشهادة عليه بذلك، وأمر بشنقه فشنق تحت قلعة الجبل. وسير السلطان عز الدين أيبك الأغاحصارى[4] إلى الإسكندرية فشنق الشريف حصن الدين.

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٩ ص ١٧) والنجوم (جـ ٧ ص ٢١٨).

(٢) راجع حاشية النجوم (جـ ٧ ص ٢١٨ حاشية ٣) حيث تقول إن الاسم الحالى هو كوم يعقوب وهو اسم قرية تقع مركز تجع حمادى بين سمهود وبخانس إلى الجنوب من سمهود.

(٣) راجع السلوك (جـ ١ ص ٣٨٨).

(٤) كذا بالأصل.

واستهلت سنة أربع وستين وستمائة

فى هـذه السنة توجه الملك السلطان الظاهر إلى الشام فى مستهل شعبان[1] ، واستناب بقلعة الجبل الأمير عز الدين أيدمر الحلى ، وجعله فى خدمة ولده الملك السعيد هو والصاحب بهاء الدين ، وتوجه . وكان فى سفرته هذه من فتوح صفد والغارات على بلاد الفرنج ما نذكره ، إن شاء الله تعالى .

ذكر عمارة جسر دامية[2]

وفى جمادى الأول سـنة أربع وستين وستمائة ، رسم السلطان ببناء جسر على نهر الأردن ، وهـو النهر الذى يشق غور الشام ، ويسمونه الشريعة . وهـذا الجسر هو بقرب داميـة ، فيما بينها وبين فراوى . واتفق فيه أعجـوبة لم يسمع بمثلها : وذلك أن السلطان ندب الأمير جمال الدين بن نهار المهنـدار لعمارته ، ورسم أن يكون خمس قناطر . واجتمـع الولاة لذلك ومنهم : الأمير بدر الدين محمـد بن رحال متولى نابلس وحصلوا الأصناف وجمعـوا الصناع ، وعمروه على ما رسم به السلطان . فلمـا تكاملت عمارته وتفرق ذلك الجمـع اضطرب بعض أركان الجسر ، فقلق السلطان لذلك وأنكر عليهم وأعادهم لإصلاح ذلك . فتعذر عليهم لزيادة المـاء وقوة جريانه ، فأقاموا كذلك أياما وقـد تيقنوا العجز عنه . فلما كان فى الليلة المسفرة عن السابع عشر من شهر ربيع الأولى سنة ست وستين

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٤٤) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٣٨١ ، ص ٥٤٤) حيث تقول الحاشية إن الجسر باق إلى اليوم .

انقطع ماء الشريعة حتى لم يبق بهـا شيء منه ، فتبادروا وأشعلوا النيران الكثيرة والمشاعل واغتنموا هـذه الحادثة وأصلحوا الأركان وقووها ، وأصلحوا منهـا ما لا كان يمكن عمله . وركبوا من يكشف خبر هذه الحـادثة ، فساقوا الخيل فوجدوا كتارا[1] مرتفعا كان يشرف على الشريعة من الجانب الغربى ، والكتار شيء يشبه الجبل وليس بجبل لأن المـاء يحله بسرعة كالطين ، قد سقط فى الشريعة فسدها ، وانسكر المـاء وتحامل على جهة الغور مما وراء السكر ، فعادوا بالخـبر ، وانقطع المـاء من نصف الليل إلى الرابعة من النهار ، ثم تحامل المـاء وكسر ذلك الكتار ، وجاء طول رمح فلم يؤثر فى ذلك البناء لإتقانه ، وحمل المـاء ما كان هناك من آلات العمارة . وهـذه الحـادثة من عجائب الاتفاق . وهذا الجسر باق إلى وقتنا هذا .

وفى جمادى الأولى أيضا تكاملت عمارة الدار الجديدة[2] المرسوم بعمارتها عند باب السر المطل على سوق الخيل . وعمل بها دعوة للأمراء .

وفى هذه السنة اهتم السلطان بحفر خليج الإسكندرية ، وندب الأمير علم الدين المسرورى لذلك ، ثم توجه السلطان بنفسه وباشر الحفر وأزيلت الرملة التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج ، ثم عدى إلى برأبيار ، وغرق المراكب هناك وبنى عليها بالحجارة ، ثم رجع إلى القاهرة .

وفى شهر رمضان من السنة وصـل إلى دمشـق ولد الخليفـة المستعصم بالله المسمى بالمبارك[3] الذى كان عند هولاكو ، وصحبته جمـاعة من أمراء العربان .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٤٤ س ٩) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٤٩ س ١١ — ١٥) .

فأنزله الأمير جمال الدين النجيبي فى أعز مكان . فلما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه جمال الدين بن الدوادار والطواشى مختار، فما عرفاه . وظهر أنه بخلاف ما ادعاه ، فسير إلى مصر تحت الاحتياط .

وفى ذى القعدة وصل شخص آخر أسود ادعى أنه من أولاد الخلفاء ، فسير إلى مصر أيضا .

ذكر الوثوب على الأمير عز الدين الحلى[1] وضربه بالسكين وسلامته وقتل الأمير صارم الدين المسعودى

قال: لما كان فى يوم الاثنين منتصف ذى الحجة سنة أربع وستين وستمائة جلس الأمير عز الدين الحلى بدار العدل ، ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة ، وإذا بإنسان يخترق الصفوف — وبيده قصة — ، فوقف قدامه ، وكان بيده سكين بين أثوابه ، فضرب بها حلق الأمير عز الدين . فأمسكها بيده فجرحت يده ، ثم رفسه برجله ونام على ظهره وقصد أن يضربه مرة أخرى أو يضرب الصاحب . فلما رفع يده جاءت السكين فى فؤاد الأمير صارم الدين قايماز المسعودى فمات لساعته . وكان فخر الدين متولى الجيزة حاضرا فأمسكه ورماه . فوقع على قاضى القضاة ، وضرب بالسيوف فمات . وعرف الضارب أنه من الجانداريه . وكانت به شعبة من الجنون . ولما وصل الخبر بسلامة الحلى إلى السلطان وهو راجع من أقامية أعطى مملوك الحلى ألف دينار عينا ، وأعطى رفيقه ثلاثة آلاف درهم ، وأحسن إلى ورثة المسعودى .

---

(١) فى الأصل : « الحلبي » ، والتصحيح عن السلوك (جـ ١ ص ٥٥٥) حيث يرد نفس الخبر .

وفى هـذه السنة فتحت صـفد على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى . ورجع السلطان منها إلى دمشـق ، وأنعـم على أمرائها وقضاتهـا وأرباب المناصب بالتشاريف .

ونظر السلطان فى أمر الجامع الأموى ومنع من مبيت الفقراء به[1] .

وفيها : أبطل السلطان ضمان الحشيشة وأمر بتأديب أهلها[2] .

وفيها : فى ثالث ذى القعدة توفى الأمير كرمون أغا بدمشق بعد منصرفه من فتح صفد[3] فشهد السلطان جنازته ، ودفن برأس ميدان الحصا عند قباب التركمان .

وفيها : فى ليلة عرفة ، كانت وفاة الأمير جمـال الدين أيدغدى العـزيزى[4] وكان قـد جرح على صفد وبقى مـدة والألم يتزايد به إلى أن مات ، رحمـه الله تعالى .

وكان من أكابر الأمراء ، وسمع الحـديث ، وحدّث ، وكان مشهـورا بالشجاعة والكرم والديانة وسـعة الصدر وكثرة الصدقة ، وكان قـد رتب على نفسه صـلة للفقراء من أرباب البيـوت والزوايا فى كل سـنة تزيد على مائة ألف درهم وألوف أرادب غلة ، هـذا غير صدقاته . وكان مقتصدا فى ملبسه يلبس الثياب القطن من الهندى والبعلبكى وغيره ممـا يباح ولا يكره لبسه . وكان من السلطان بالمنزلة العلية لايخرج عن رأيه ومشورته سيما فى الأمور الدينية وأحوال

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٤٩ س ٧) .

(٢) اجراءات عائلة خاصة بالإسكندرية واردة فى السلوك (جـ ١ ص ٥٥٣) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٤٩ س ٦) .

(٤) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٤ س ٧) .

القضاة . ومما يدل على ذلك : ما تقدم من إشارته بتولية الحكم لأربعة قضاة[1] . فرجع السلطان فى ذلك إلى رأيه ، وفعله لوقته . وكان رحمه الله من حسنات الزمان ، وقد ختم له بالشهادة ، فإنه مات من ألم تلك الجراحة . ودفن فى مقبرة الملك الناصر بسفح قاسيون ، رحمه الله .

(١) راجع ما تقدم (ص ١٧٤ من هذا الجزء) .

واستهلت سنة خمس وستين وستمائة

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية
وبناء الجامع الظاهرى[1]

كان خروج السلطان من دمشق فى يوم الاثنين ثانى المحرم سنة خمس وستين وستمائة . فلما وصل إلى منزلة الفوار فارق العسكر وتوجه إلى الكرك . ولما وصل إلى بركة زيزاء تقنطر عن فرسه ، وذلك فى يوم الأحد ثامن المحرم ، فتأخر هناك أياما ، ونزل إليه الأمير عز الدين نائبه بالكرك فأعطاه ألف دينار ، وخلع عليه وسير الخلع إلى من بالكرك . ثم توجه فى محفة حملها الأمراء والخواص على أكتافهم إلى غزة . ووصل إلى بلبيس فى ثالث عشر صفر فتلقاه ولده الملك السعيد والأمير عز الدين الحلى ، وزينت المدينة لمقدمه .

وفى أول شهر ربيع الأول ركب السلطان فرسه وضربت البشائر لذلك ، ونزل بباب النصر وأقام هناك إلى خامس الشهر ، ثم توجه إلى بركة الحبش لرمى البندق .

وفى شهر ربيع الآخر ، سير السلطان الأتابك والصاحب فخر الدين ولد الصاحب لكشف مكان يعمل به جامعا بالحسينية . فاتفقا على مناخ الجمال السلطانية . فقال السلطان : «أولى ما جعلت ميدانى الذى هو نزهتى جامعا»[2] . وركب فى ثامن شهر ربيع الآخر وصحبته الوزير والقضاة ونزل إلى ميدان قراقوش ،

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٥) عن عودة السلطان .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٦) عن بناء جامع الحسينية .

ورتب أمور بنائه جامعا ، وأن يكون بقية الميـدان وقفا عليه ، ورجـع ودخل مدرسته بالقاهرة .

وفى هـذه السنة أمر السلطان بإنشاء القناطر على بحـر أبى الرجا[1] فانشئت ، وتولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار فحصل الرفق بها للمسافرين وكانوا يجدون شدة وازدحاما بسبب المعادى .

وفى سابع وعشرين شهر ربيـع الآخر وصل الملك المنصور صاحب حماة[2] ، وكان السلطان قـد توجه إلى العباسة فتلقاه إلى رأس المـاء وسـير له ولمن معه التشاريف ، وعاد السلطان إلى قلعته . وطلب صاحب حماة التفرج فى الإسكندرية فسير إليها وسير فى خدمته الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهرى ، فوصل إليهـا وعظـم تعظيما كثـيرا ، ثم عاد ، وتوجه فى خدمة السلطان إلى غزة ثم توجه إلى مملكته .

وفى جمادى الآخرة وصلت رسل صاحب[3] الدعوة وصحبتهم جمـلة من الذهب وقالوا : هذا المـال الذى كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين ، وكان السلطان قد شرط ذلك عليهم عند وصول رسلهم وسؤالهم الصلح وشرطه على بيت الاسبتار فى جملة ما اشترط عليهم .

---

(١) خبر مماثل فى السلوك (جـ ١ ص ٥٦١) عن قنطرة على بحـر أبى المنجا ، والخبر هنا يتعلق بقناطر على بحر أبى الرجا (بالجيم المعجمة من تحت) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٦) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٠) .

ذكر إقامة الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة وشيء من أخباره[1]

وفى يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة أقيمت صلاة الجمعة بالجامع الأزهر . وسبب ذلك أن الأمير عز الدين الحلى خاطب السلطان فى أمره وتبرع بجملة من ماله فى عمارته ، وانتزع أشياء من أوقافه كانت مغصوبة فى أيدى جماعة ، وشرع فى عمارته ، فعمر ما وهى من أركانه وجدرانه وبيضه وبلطه ، وأصلح سقوفه وفرشه . واستجد به مقصورة حسنة ، وعمل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار الظاهرى فيه مقصورة كبيرة ورتب فيها مدرسا وجماعة من الفقهاء الشافعية ، ورتب فيها محدثا يسمع الحديث النبوى والرقائق[2] ، وسبعا لقراءة القرآن . ووقف على ذلك أوقافا ، وولى خطابته زين الدين أدريس ابن صالح بن وهيب المصرى القليوبى ، فاستمر به إلى أن توفى . وكانت وفاته فى ليلة السبت رابع عشرين شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وستمائة ، ومولده سنة ثمان عشرة[3] وستمائة .

وهذا الجامع هو أول مسجد جامع وضع للناس بالقاهرة المعزية ، وفرغ من بنائه وأقيمت فيه الجمعة فى شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلثمائة . فلما ولى العزيز بن المعز جدد به أشياء وعمر به عدة أماكن . ويقال إن به طلسم لا يسكنه بسببه عصفور ولا يفرخ فيه . وفى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة سأل الوزير

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٥٦) مع اختلاف فى التوقيت .

(٢) من الرقائق راجع حاشية السلوك (ج ١ ص ٥٥٧ س ٧ حاشية رقم ١) .

(٣) فى الأصل : « سنة ثمانية عشر » وهو خطأ .

أبو الفرج يعقوب بن كلس الخليفة أن يأذن له فى صـلة رزق جماعة من الفقهاء ، فأذن له . فأطلق لكل منهم كفايته واشترى لهم دارا إلى جانب الجامع ، فإذا كان يوم الجمعـة حضروا إلى الجامع وذكروا فيه دروس فقه وكان أبو يعقوب قاضي الخندق ، وكانوا نيفا وثلاثين فقيها لأن دولة العبيد بين ما كان يستقل فيها بفقيه ، ولمـا عمر الحاكم الجامع نقل الخطبة إليه .

ذكر إنشاء القصر الأبلق بالميدان بظاهر دمشق[1]

وفى سـنة خمس وسـتين وستمائة ، أمر السلطان الملك الظاهر بانشاء القصر الأبلق بالميدان الأخضر بظاهر دمشق ، فعمر على ما هو عليـه الآن . واتفق فى عمارته واقعة غريبـة ، حكى بعض من كان يباشر عمارته ، قال : لمـا انتهت عمارة القنطرة التى بالإيوان ولم يبق من ختمها إلا وضع حجر واحد أسود ، فرفع بالحبال بعد أن نحت وجهز ليوضع فى مكانه وتشـد به القنطرة ، فانقطع الحبـل وسـقط الحجر إلى أرض الإيوان فانكسر ، فتألم المهنـدس لذلك ، ثم دخل إلى مرحاض القصر العتيق لقضاء الحاجه ، [فرأى[2]] فى أحد كراسيه حجرا أسـود منحوتا ، فقاسه فوجده قدر الحجر الذى انكسر سـواء ، فاسـتأذن المهندس ، الأمير جمال الدين النجيبي على قلعه ووضعه فى رأس القنطرة ، فأذن فى ذلك ، فقلع من كرسى المرحاض وجعل فى رأس القنطرة بالإيوان فختمت به . وجاء كأنه عمل لهـا ، ووضع الحجر الذى انكسر مكانه . وهذا من عجيب الإتفاق ، وقد وقع نظير هذه الواقعـة فى أساس سور بغداد وعتبة جامع غزنة ، وتقدم ذكر ذلك .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦١ س ٢) .

(٢) الإضافة للإيضاح وهي منقولة عن النسخة « س » .

ذكر توجه السلطان إلى الشام
وعمارة قلعة صفد [1]

وفى العشرين من جمادى الآخره توجه السلطان إلى الشام فى جماعة من أمرائه وأراح بقية العسكر . ولما وصل إلى غزة وردت إليه رسل الفرنج بهدية [2] وجماعة من أسرى المسلمين . وتوجه السلطان إلى صفد بقصد عمارتها فرتب أمورها . وتوجه إلى دمشق مسرعا عندما بلغه أن التتار عزموا على قصد الرحبة ، فأقام بها خمسة أيام واهتم بأمر الرحبة [3] وعاد الى صفد فى رابع وعشرين شهر رجب ، فقسم الخندق على الأمراء ، وأخذ نصيبا وافرا لنفسه ومماليكه وحاشيته ، وعمل السلطان بنفسه و بيده ، فلم يتوفر أحد من العمل . ولما كملت عمارة قلعة صفد رسم السلطان أن يكتب على أسوارها :

﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ [4] ﴿ أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [5] أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها ، من خلصها من أيدى الفرنج الملاعين ، وردها إلى أيدى المسلمين ، ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين ، فأعادها للإيمان كما بدأها أول مرة ، وجعلها للكفار خسارة

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٨ ثم ص ٥٦٣) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٨ س ٨ — ٩) من قدوم رسل الفرنج .

(٣) من معجم قوت أن الرحبة تقع على الفرات في جنوب قرقيسيا .

(٤) الانبياء آية ١٠٥

(٥) المجادلة آية ٢٢

وحسرة ، ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد ، وبدل الكفر بالإيمان ، والناقوس بالأذان ، والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التى هى أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرءوس ، سلطان الإسلام والمسلمين ومسترد صوال الدين ، مبيد التتار ، فاتح القلاع والحصون والأمصار ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، إسكندر الزمان ، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين، خلد الله سلطانه ، فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الإسلام ، ومن سكنها من المجاهدين المثاغرين على الدوام فليجعل لهذا السلطان فاتحها ومجددها نصيبا من أجره ، ولا يخله[1] من الرحمة فى سره وجهره فى طول عمره ، فإنه جعلها دار يمن وأمان ، بعد أن كانت دار كفر وطغيان ، وصار يقال عمر الله سرحها ، بعد أن كان يقال عجل الله فتحها ، والعاقبة للمؤمنين إلى يوم الدين[2] . »

ولما كملت العمارة طلع السلطان إلى القلعة فرأى بالبرج صنما كبيرا كان الفرنج يقولون إن القلعة فى خفارته ويسمونه أبا جرج ، فأمر بقلعه وتكسيره ، وعمر مكانه محرابا .

ورسم بتجديد عمارة حرم الخليل ، وكتب بذلك إلى دمشق ، وتوجه الأمير جمال الدين بن نهار لذلك ، فجدد الأخشاب والمقاصير والأبواب ، ودهن ما يحتاج منها إلى الدهان ، وجددت الضرائح المقدسة .

(١) فى الأصل : « ولا يخليه » ص ١٣٢ .

(٢) ورد نفس نص النقش فى السلوك (ج ١ ص ٥٦٣) مع اختلافات يسيرة .

ووصلت رسل الفرنج إلى السلطان وهو على صفد ، وتحدثوا معه فى أمر بلادهم ، وأجابوا إلى ماقاله من مناصفة صيدا وهدم الشقيف . ثم أغار على حكا على ماذكره إن شاء الله ، ولم ينتظم أمر الصلح .

ثم حضرت رسل سيس ورسل بيروت[1] ومعهم جماعة من أسرى المسلمين ، وردوا مال التجار .

وفيها : توفى القاضى صدر الدين موهوب بن عمر بن إبراهيم الجزرى الشافعى[2] وهو الذى كان ينوب عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمصر ، وولى القضاء بعده كما قدمنا ذكر ذلك ، وكان فاضلا عالماً بمذهب الشافعى ومشاركا فى غيره من العلوم . وكان فى مبدأ أمره على قضاء جزيرة ابن عمر . وكان كثير المال مرزوقا فى التجارة ، فاكتسب مالا جزيلا فمد صاحب الجزيرة عينه الى أمواله وقصد أخذها ، فبلغه ذلك ، فأرسل أكثر أمواله إلى مصر والشام صحبة التجار ثم هرب واختفى ، ووصل إلى الشام ثم إلى الديار المصرية . ولما ولى الصاحب بهاء الدين الوزارة قصد أذاه فخافه خوفا شديدا .

حكى عنه أنه قال : لما خفت الصاحب بهاء الدين رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فسألنى عن حالى فقلت : يارسول الله ، إنى خائف من الصاحب فقال لى : لاتخف منه وقل له بأمارة كذا وكذا لاتؤذنى ، فإن رسول الله قد شفع فى عندك ، قال : فانتبهت فرحا بمقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما صليت

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٩ س ١٥ ثم حاشية رقم ١ بنفس الصفحة) عن رسل بيروت وسيس .

(٢) وردت تفاصيل أطول فى شذرات الذهب (ص ٣٢٠ وفيات عام ٦٦٥) .

الصبح ركبت دابتى ووقفت للصاحب فى طريقه إلى القلعة ، فسلمت ، عليه وقلت له : معى رسالة ، فقال : ممن هى ؟ قلت : من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لك : بأمارة كذا وكذا لا تؤذنى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد شفع فىّ عندك ، فقال : صدقت أنت ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت اليوم فقد بقيت أتشفع بك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لاحصل لك منى سوء أبدا ، فالمولى يرسم والمملوك يمتثل ، ومن اطلع عليه مولانا وله حاجة[1] من مضرور أو مظلوم ترسل إلى تعرفنى حتى أقضى حاجته بنفسى ، واعتـذر إليه ، وبقى يعظمه ، ولو فسـح فى أجله لولاه القضاء بعـد القاضى تاج الدين ولكنه مات قبله . وكانت وفاته فى مستهل شهر رجب سنة خمس وستين وستمائة . وقيـل بل كانت وفاته فجأة فى تاسع الشهر ، ودفن بسفح المقطم . ومولده فى النصف من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة بالجزيرة . ولما مات ترك مايقارب ثلاثين ألف دينار ، وكان له ابنتان : إحداهما بالجـزيرة ، والأخرى زوجة القاضى بدرالدين ولد القاضى تقى الدين بن رزين ، فورثتاه[2] وشركهما بيت المال ، وكان رحمه الله كثير المروءة والإحسان الى أهل بلده ومن يقصده .

ذكر وفاة قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز[3]
ونبذة من أخبـاره رحمـه الله ومن ولى قضاء
الشافعية وغيره من مناصبه بعد وفاته

وفى السابع والعشرين من شهر رجب الفرد سـنة خمس وستين وستمائة ،

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل : فورثاه وهو خطأ .

(٣) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٦١) والنجـوم (ج ٧ ص ٢٢٢) وشـذرات الذهب (٣١٩ وفيات عام ٦٦٥) .

كانت وفاة قاضى القضاة ، تاج الدين أبى محمد عبد الوهاب بن القاضى الأعز أبى القاسم خلف بن رشيد الدين أبى الثناء محمود بن بدر العلامى (١) — وبنو علامة بطن من لخم — وهو المشهور بابن بنت الأعز والأعز هذا هو جده لأمه ، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام بن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر ، أحد وزراء السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ، وقد تقدم ذكره فى أخبار الدولة العادلية . ومولد القاضى تاج الدين بالقاهرة فى مستهل شهر رجب سنة أربع وستمائة . ولما مات والده الاعز خلف — رحمه الله تعالى — ترك دنيا عريضة ، فيقال إنه خلف اثنى عشر ألف دينار عينا ، وقيل سبعة الآف ، فانفقت والدته ابنة الصاحب الأعز جميع ذلك على نفسها ومن يلوذ بها من أهلها ، ونشأ فلم يجد شيئا من ذلك ، فما شافهها فيه بكلمة ، وكان بارابها ، واشتغل بالعلم ، وولى إعادة المدرسة المعروفة بزين التجار بمصر ، وولى شهادة بيت المال فى الدولة الكاملية . وكان سبب ذلك أن الشريف شمس الدين الأرموى نقيب السادة الأشراف ، رحمه الله تعالى ، كان يلى تدريس المدرسة المذكورة فتوجه من جهة السلطان الملك الكامل فى رسالة واستناب القاضى تاج الدين هذا فى التدريس والنظر ، فأحسن الخلافة عنه وعمّر الوقف وقام بالوظيفة أحسن قيام ، فلما عاد الشريف ووجد الأمر على ذلك ، أنهاه إلى السلطان وشكره وأثنى عليه ، فرسم السلطان الملك الكامل له بمباشرة شهادة بيت المال فباشر ذلك ، وكان إذ ذاك على غاية الفاقة ، وسلك طريقى الضبط والأمانه ، وهذه الوظيفة هى أول مناصبه الديوانية ،

(١) فى الأصل : « بنو » وهو خطأ .

فاشتهر بحسن المباشرة والأحتراز ، فتقدم فى الأيام الصالحية النجمية وما بعدها ، وولى نظـر بيت المـال ، ثم ولى نظـر الدواوين بالديار المصرية فى أيام الملك المعظـم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح ، بتقليد معظمى ، تاريخه لخميس بقين من ذى القعدة سـنة سبع وأربعين وستمائة ، نعت فيه بالحضرة السامية : القاضى ، ثم كتب له منشور كريم خاتونى بأقطاع لخاصه ولأربعة أتباع . وقد رأيت أن أشرح هذا المنشور بنصه وأبين وضعه ليعلم منه كيف كان الرسم والمصطلح فى مثله ، وهـو أن الموقع كتب عن يمين الدرج ما مثاله : (الصالحية) بقلم أغلظ من قلم المنشور ، ثم كتب البسملة بعد هذه اللفظة بقدر أصبعين وكتب تلو البسـملة ما مثاله : خرج الأمر العـالى المولوى السلطانى الخاتونى الصالحى الجلالى العصمى الرحيمى ، زاده الله شرفا ونفاذا ، أن يجرى فى إقطاع المجلس السامى ، القاضى الأجل ، الصدر الكبير ، الرئيس الفقيه ، العالم الإمام ، الفاضل الأوحد ، العامل المرتضى ، الكامل المجتبى ، المختار تاج الدين مجد الإسلام بهاء الأنام اختيار الدولة ، مجتبى الملوك السلاطين ، فخـر الرؤساء ، عـلم العلماء ، شرف الفقهاء ، رضى أمـير المؤمنين عبـد الوهاب بن خلف الناظر بالدواوين المعمورة ، أدام الله رفعته ونعمته ، ما رسم له به الآن من الإقطاع لخاصه ولأربعة أتباع معه فى السنه ما يأتى ذكره .

خاصه : الثلثان من أبواب الهلالى بمدينة الفيوم . كفور سفط رشين خارجا عن بنى شريان (١) ، ومعصرة أبى دخان ، ودبيس ، وهى منشاة ابن مليح ، كوم

(١) كذا فى الأصل ، بدون نقط ، والنقط منقول عن النسخة (ص) .

بنى مؤمنة ، كوم الحمير ، كوم مغنين[1] ، منشأة حراز ، فزونة[2] ، قبالة الجعاف[3] .
وذلك فى الإقطاع لإستقبال مغل سنة سبع وأربعين وستمائة بعد الإعتداد على غايتة بما قبضة من الجامكية لاستقبال المدة من جملة ما يعوض به ، وفى الخدمة مستهل المحرم منها .

أتباعه وعدتهم أربعة فى السنة : ستة عشر ألف درهم ناصرية جهة ذلك من متحصل السدس من بحيرة تنيس لإستقبال تاريخ عرضهم بالديوان المعمور بعد الخط الشريف ، أعلاه الله ، وثبوته حيث ثبتت مثله .

كتب فى ثامن ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وبين السطرين الأول والثانى بخطها ما مثاله : والده خليل .

ورأيت فى هذا المنشور أشياء تستغرب ويستنكر مثلها فى وقتنا هذا : وهو أن بيت العلامة الذى هو بين السطرين كتب فيه الملكة ، وفيه تحت خطها بين السطرين : خط ناظر الدواوين ومثاله : ليثبت بديوان النظر على الدواوين المعمورة إن شاء الله تعالى ، وخط شاد الدواوين : امتثل الخط الشريف ، وبينهما فى بيت العلامة أيضا : خط ناظر الفيوم ومثاله : ليثبت إن شاء الله تعالى بديوان نظر الفيوم . وما معه وفى سامتة السطر الثانى ما مثاله : ليثبت بالديوان المعمور مما يختص بالوجه القبلى ، وأسفل منه ما مثاله : ليثبت

(١) كذا فى الأصل ، مع نقط الغين المعجمة والنون ، أما النسخة (ص) فتقول « كوم معين » بعين مهملة ونون .

(٢) كذا فى الأصل ، مع إهمال نقط النون . أما النسخة « ص » فترسم قروية بالياء المعجمة التحتية .

(٣) كذا فى الأصل بغير نقط .

بالديوان المعمور بالوجه البحرى ، وإلى جانبه عن يساره ليثبت بديوان الجيوش المنصورة إن شاء الله تعالى ، ثم بعد ذلك خطوط الكتاب ، ولعل ناظر الفيوم الذى كتب فى هذا الموضع هو شرف الدين هبة الله الفايزى الذى ولى الوزارة فيما بعد ، فإنه كان ناظر الصناعة والفيـوم فى ذلك الوقت ، والله أعلم .

ثم ولى القاضى تاج الدين نظر بيت المـال فى الأيام المعزية ، بتوقيع تاريخه ثالث عشر صفر سنة إحدى وخمسين وستمائة ، وقرر له فى كل شهر خمسون دينارا ، وفى السنة مائتا أردب واثنى عشر أردبا نصفين ، ثم ولى بعـد ذلك نظـر الدواوين . فهذه مناصبه قبـل أن يلى القضاء والوزارة . ثم ولى قضاء القضاة بمصر والوجه القبلى فى تاسع شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة ، عوضا عن القاضى بدر الدين السنجارى ، وجمـع له القضاء بالقاهرة والوجه البحرى فى الشهر المذكور لثمـان بقين منه ، وعطل القاضى بدر الدين السنجارى عن القضاء . ولمـا ولى القضاء شدد على العدول وأسقط كثيرا منهم ، فكان يكتب الإعجالات بأسقاط عدالة جماعة بعـد جماعة من عدول السنجارى ، ويشهد على نفسه بمـا تضمنته ، فقلق النـاس لذلك ، ولم تطل مدة ولايته هذه ، فإنه عزل فى بعض شهور سنة خمسة وخمسين وستمائة كما قد منا ذكر ذلك ، ثم فوضت إليه الوزارة بالديار المصرية كما تقدم ذكره ، ثم عطل عن الوزارة والقضاء فى الأيام المظفرية ـ قطز ـ إلى أن كانت الدولة الظاهرية الركنية ، ففوض السلطان الملك الظاهر له قضاء القضاة بجميع الديار المصرية فى السابع عشر من جمادى الأول سنة تسع وخمسين وستمائة ، عوضا عن القاضى بدر الدين السنجارى ، ثم أفردت عنه مصر والوجه القبلى فى السنة المـذكورة ، وفوض ذلك إلى القاضى

برهان الدين الخضر السنجارى ، ثم أعيد ذلك إليه فى الثامن من صفر سنة ستين وستمائة . وقد شرحنا مضمون تقاليد هذه الولايات فى مواضعها . وفوض إليه تدريس المدرسة الصالحية النجمية ، بتوقيع ظاهرى تاريخه ثانى عشر جمادى الأول سنة ستين وستمائة بعد وفاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام . ثم فوض إليه النظر العام على الأشراف والأوقاف والأحباس ، ومشهد السيد الحسين ومدرسة الإمام الشافعى، والخانكاه والمشاهد بالباب الشريف وبجميع أعمال الديار المصرية بتوقيع ظاهرى تاريخه السابع من جماد الآخر سنة ستين وستمائة. وفوض إليه تدريس مدرسة الشافعى بتقليد تاريخه نصف ذى الحجة سنة إحدى وستين. ثم قسم القضاء بين أربعة حكام، فكتب له تقليد كما تقدم، تاريخه ثامن عشرين ذى القعدة سنة ثلاث وستين ، وخص بالنظر فى جميع أموال الأيتام بالقاهرة ومصر والديار المصرية بمفرده والأوقاف ، وقد شرحنا ذلك . واستمر كذلك إلى أن مات رحمه الله تعالى . وكان رحمه الله، كثير الاحتراز والتحفظ ، وضبط ناموس الشرع ، وإقامة الحرمة ، وكف الأيدى العادية ، والتطلع على جهات الأوقاف، وأخبار العدول ، وغير ذلك مما هو متعلق بمنصب الشرع الشريف. ولما مات، رحمه الله تعالى، قسم قضاء الشافعية بعده ، ففوض قضاء مصر والوجه القبلى للقاضى محيى الدين بن الصلاح عبد الله بن قاضى القضاة شرف الدين محمد ابن عين الدولة الصفراوى[1] [2] . وفوض قضاء القاهرة والوجه البحرى للقاضى

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٢ س ٢ ـ ٣) حيث يرد أنه محيى الدين عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن على بن صدقة بن حفص المعروف بابن عين الدولة .

(٢) كذا فى الأصل.

تقى الدين محمـد بن الحسين بن رزين[1]. وولى النظـر على ديوان الأحباس القاضى تاج الدين أبو الحسن على بن الشيخ أبى العباس أحمد المعروف بالقسطلانى. وولى تدريس المدرسة الصالحية القاضى صدر الدين أبو حفص عمر ولد قاضى القضاة تاج الدين المشار إليـه . وولى نظر الخانقاه قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ، وولى تدريس مدرسة الإمام الشافعى فخر الدين محمد بن الصاحب بهـاء الدين.

وفيها أيضا: توفى الأمير ناصر الدين الحسين بن عزيز بن أبى الفوارس القيمرى مقـدم الجيش بالساحل[2]، وكانت وفاته فى ثالث شهر ربيـع الأول بالساحل ، ومولده فى سنة ستمائة بقيمر ، وهـو الذى بنى المدرسة الشافعية بدمشق بناحية مادنه[3] فيروز . وكان جوادا كريمـا جليلا مقداما تقـدم على جيوش الشام فى الأيام الصالحية والناصرية ، وكان جميع الأكراد فى طاعته وخدمته . وكان أمره فى الأيام الناصريه أنفـذ من أمر السلطان لانقياد الجيوش إليه . ثم خمـل فى الأيام الظاهرية إلى أن أقطعه السلطان الملك الظاهر إقطاعا بالساحل ، وقدمه على أمراء الساحل ، فصلحت حاله ، وكان مقامه بجنين ، رحمه الله تعالى .

ذكر وصول الشريف بدر الدين مالك بن منيف[4] وإعطائه نصف إمرة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصـلاة والسلام

وفى سنة خمس وستين وستمائة : وصل الشريف بدر الدين مالك بن منيف

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٦٢ س ١).

(٢) سماه السلوك (ج ١ ص ٥٦٢ س ٧ — ٨) : « نائب السلطنة بالساحل » .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٥٨ ، ٥٦٠).

ابن شيحة ، وكان السلطان على صفد ، فشكى من الشريف عز الدين جماز ، وقال : إن المدينة كانت بين أبى وبينه نصفين ، وتوفى والدى وأنا صغير ، فظلمنى وأخذ نصيبى ، وقد جئت مستجيرا بالسلطان فى رد حقى . فكتب السلطان إلى الشريف جماز يأمره بتسليم النصف الذى كان لمنيف لولده مالك ، وكتب تقليده بنصف إمرة المدينة ونصف الأوقاف ، وسلم إليه نصف الأوقاف التى بمصر والشام ، وتوجه . وورد جواب الشريف عز الدين جماز إلى السلطان بامتثال الرسوم ، وأرسل خادمين من خدام الضريح النبوى يشهدان بذلك ، فكتب السلطان إليه يشكره على ذلك .

ثم عاد السلطان إلى مقر ملكه بقلعة الجبل . وكان وصوله إليها فى يوم الثلاثاء رابع عشر ذى الحجة سنة خمس وستين وستمائة .

ذكر تسمير من يذكر بالقاهرة

وفى العشرين من ذى الحجة من السنة بعد عود السلطان إلى الديار المصرية أمر بتسمير جماعة كانوا معتقلين بخزانه البنود منهم : أقش القفجاقى أحد المماليك الصالحية ، وكان قد ادعى النبوة . وأحضر فى شهر رمضان إلى دار العدل ، فأمر نائب السلطنة باعتقاله . فلما حضر السلطان من الشام أنهى إليه أمره فاستحضره وسمع كلامه وأمر بتسميره .

ومنهم : الناصح الواحى كان فى ابتداء أمره ضامن الواحات ، ثم ترقى إلى أن ولى نظر أخميم وأسيوط وغير ذلك بالوجه القبلى . وكان يركب بالطبلخاناه ، وقويت نفسه وكثرت أتباعه واتسعت أمواله . فأرسل السلطان وقبض عليه

وأمر باعتقاله بخزانه البنود ،فانهى إلى السلطان الآن أنه اتفق مع الملك الأشرف ابن شهاب الدين غازى ومـع رجل نصرانى على أن ينقبوا خزانة البنود ويخرجوا منها ويتوجهوا إلى الواحات فيتسلطن بهـا الملك الأشرف ويكون الناصح وزيره والنصرانى كاتبه ، فأمر السلطان بتسميرهم ، فسمروا فى يوم واحد .

واستهلت سنة ست وستين وستمائة

ذكر أخذ الزكاة من عرب الحجاز[1]

كان السلطان قد اهتم بأمر الزكاة من سائر الجهات حتى المغرب والحجاز ، وأذعن عربان بلاد برقة لذلك وقاموا بالزكاة .

وفى صفر سنة ست وستين وستمائة : وصل الأمير ناصر الدين بن محيي الدين الجزرى الحاجب من المدينة النبوية ، وكان قد توجه لاستخراج الزكاة والعشر ، فأحضر صحبته مائة وثمانين جملا وعشرة آلاف درهم فاستقلها السلطان وأمر بردها عليه ، ثم وصل بنو صخر ، وبنو لام ، وبنو عنزة وغيرهم من عربان الحجاز ، والتزموا بزكاة الغنم والإبل ، وتوجه معهم مشدون لاستخراج ذلك . هذا والسلطان على صفد لعمارتها .

ذكر ظهور الماء بالقدس الشريف[2]

وفى سنة ست وستين وستمائة : ورد كتاب قاضى القدس أن الماء انتزح من بئر السقاية وعظمت مشقة الناس ، فنزل رجل إلى البئر وشاهد قناة مسدودة من زمن بخت نصر الذى هدم البيت المقدس ، فأحضر الأمير علاء الدين الحاج الركنى [نائب القدس[3]] بنايين وكشف القناة السليمانية ، ومشوا فيها تحت

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٠)

(٣) الإضافة للايضاح وهو منقولة عن السلوك .

الأرض إلى الجبل الذى تحت الصخرة المقـدسة فوجدوا بابا مقنطرا ففتحوه ، فخـرجت عين ماء كادت تغرقهـم . وكان خروج المـاء فى ذى الحجـة سنة خمس وستين .

ووردت كتاب الأمير الحاج علاء الدين الركنى أنه نقص ماء السقاية الذى ظهرونزح ، ودخل الصناع إليـه فوجدوا سدا ، فنقب فيه الحجارون مقدار عشرين يوما ووجد سقف مقلفط به مائة وعشرون ذراعا بذراع العمل ، فخرج المـاء وملأ القناة .

وفى هذه السنة : وصلت هدية صاحب اليمن[1] ورسله ، وأحضر فيها من الخيل المسومة عشرون فرسا بالبركسطوانات[2] الأطلس المزركشة وفيلة وحمارة وحش عتابية اللون ، وغير ذلك من المسك والعنبر والعود والصينى[3] وغيره ، فقبلت هديته ، وجهزت له هدية وصنجق وخلعة وشعار السلطنة وجوشن وكبش[4] وغيره من آلة الحرب ، وسير إليه طيور جوارح . وكوتب[5] بالمقـام العالى المولوى السلطانى ، وكاتبه السلطان بالمملوك . وتوجه بالهدية فخر الدين المقرى[6] ووصل صحبة أحد رسوليه — وهو ابن المـاكسانى التاجر — بهـا ، وذكر أن[7] والده صاحب اليمن

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٣ س ١٧ وما بعده) .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) كذا فى الاصل .

(٤) فى الأصل ، كبر ، وما هنا عن السلوك (جـ ١ ص ٥٦٣) حيث ورد أن الكبش اسم آلة من الآت الحرب .

(٥) فى الأصل : ، كتب ، والتصحيح يقتضيه السابق .

(٦) كذا فى الاصل

(٧) كذا فى الأصل ، مع أن الرواية لم تذكر الابن قبل ذلك .

سير به للمجاهدين ولوجوه البر ، فأودع ثمنه بالخزانة . ولما توجه السلطان إلى الغزاة أنفق منه جملة فى إقامة مجانيق أفردها لها ، وأفتك ببقيته جماعة من أسارى المسلمين .

ذكر خبر الحبيس النصرانى ومقتله

هذا الحبيس من نصارى مصر ، وكان فى ابتداء أمره من كتاب صناعة الإنشاء ، ثم ترهب وانقطع فى جبل حلوان . فيقال إنه وجد فى مغارة منه مالا لحاكم العبيدى كان قد وضعه هناك ، فتصدق هذا الحبيس على الفقراء من سائر الملل . واتصل بالسلطان خبره فطلبه ، وطلب منه المال ، فقال : « أما أنى أعطيك من يدى إلى يدك فلا يتصور ، ولكنه يصل إليك من جهة من تصادره ولا يقدر على ماتطلبه منه ، فأساعده بمال يحمله إليك » وشفع فيه ، فأطلقه السلطان .

ولما كانت واقعة النصارى المتقدمة ، كان يحضر عند مشد المستخرج ، ومن عجز عن أداء ما قرر عليه ساعده به وأداه عنه ، نصرانيا كان أو يهوديا . وكان يدخل إلى الحبوس ويطلق منها من عليه دين ويقوم بما عليه . وكان يعطى ما ينافر العقول . وتوجه إلى الصعيد ، ودفع عن أهل الذمة أكثر ما قرر عليهم ، وتوجه إلى الإسكندرية ، وعامل أهلها بما هالهم من بذل الأموال . فوصلت فتاوى الفقهاء إلى السلطان بقتله ، وعللوا ذلك : « خوف الفتنة » . فوافق ذلك رأى السلطان فأحضره فى سنة ست وستين وستمائة ، وطلب منه المال وأن يعرفه من أين أصله ، وكيف حصل له ، فلم يعرفه وجعل يغالطه ويدافعه ، إلى أن أيس السلطان منه فعذبه حتى مات . وأخرج من القلعة ورمى

بظاهرها على باب القرافة . وذكر أن مبلغ ما وصل إلى بيت المال وما واسى به من مدة سنين : ستمائة ألف دينار عينا ، مما أحصى بقلم الصيارفة الذين كان يحمل الأموال عندهم ويكتب إليهم أوراقه بما يعطيه . وذلك غير ما كان يعطيه سرا من يده .

ذكر بناء القرية الظاهرية قرب العباســـة

وفى سنة ست وستين وستمائة : مر السلطان على وادى السدير قرب العباسة فأعجبه . فأختار منه مكانا بنى به قرية سماها الظاهرية ، وعمر بها جامعا .

وفيها : توجـــه السلطان إلى الشام . وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى من الفتوحات .

ذكر إيقاع الحوطة السلطانية على الأملاك والبساتين وما تقرر على أربابها من المـــال

وفى سنة ست وستين وستمائة : لما كان السلطان نازلا على الشقيف أمر بإيقاع الحوطة على البساتين والقرى والضياع التى بأيدى أهل دمشق ملكا وحبسا . وقال : « نحن فتحنا هذه البلاد بالسيف ، وانتزعناها من أيدى التتار » . وكان قد تحدث بذلك فى السنة الخالية . وعقد مجلس حضره السلطان والقضاة والفقهاء ، فقال قاضى القضاة شمس الدين بن عطاء الحنبلى : « هذا لا يحل ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه » وقام مغضبا ، فتوقف السلطان ثم تقـدم الآن بإيقاع الحوطة على البساتين . فاتفق وقوع صقعة باردة على البساتين فأحرقت أكثر أشجارها ، فظن أهل

دمشق أن هذه الحادثة تبعث السلطان على الإفراج عنها فلم يفعل ، ولما وصل إلى دمشق وعزم على العود إلى الديار المصرية عقد مجلسا بدار العدل حضره القضاة والفقهاء وأهل البلد ، وأجرى ذكر البساتين وأخرج فتاوى الفقهاء من الحنفية باستحقاقها ، فتوسط الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين عند السلطان على أن يقرر على أصحاب البساتين ألف ألف درهم ، فامتنعوا من ذلك . وقالوا : « لا طاقة لنا بها معجلة » ، وسألوا أن يقسطها ، فامتنع السلطان ، وتمادى الحال إلى أن خرج من دمشق ، ولما وصل إلى منزلة المجون عاوده الصاحب فخر الدين والأتابك والأمراء ، فاستقر الحال أن يعجلوا منها أربعمائة ألف درهم ويعقد لهم بما قبضه نواب السلطان من المغل ، ويقسط ما بقى ، فى كل سنة مائتى ألف درهم ، وكتب بذلك توقيع وقرئ على المنبر بدمشق .

ذكر وصول الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من بلاد التتار والصلح مع التكفور هيتوم صاحب سيس

كان السلطان قد جهز العساكر إلى سيس ، وأمروا ليفون بن هيتوم ولد صاحب سيس على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى ، فترددت الرسل منه إلى السلطان يعرض عليه كل ما تقرر عليه من مال وقلاع . فاقترح السلطان عليه أمورا ، منها أن يحضر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من بلاد التتار ، وأن يرد القلاع التى أخذها من المملكة الحلبية ، فسأل مهلة سنة إلى أن توجه إلى الأردو ، وكشف خبره وأجيب إلى إطلاقه . ثم ورد كتاب صاحب سيس يذكر أنه حصله . وورد كتاب الأمير شمس الدين المذكور بملائم وأماير . فتوقف

صاحب سيس فى الإجابة إلى رد بعض القلاع ، فرد السلطان رسله وكتب إليه : « إنك إذا كنت قسوت على ولدك وولى عهدك ، أنا أقسو على صديق ما بينه وبينى نسب ، ويكون الرجوع منك لامنى . ونحن خلف كتابنا . ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر » . فلما وصل إليه هذا الكتاب والسلطان إذ ذاك على أنطاكية خاف ويذل مارسم به السلطان ، وتقرر الصلح على تسليم قلعة بهسنا والدربساك ومزريان ورعبان والروب وشيح الحديد(١)، وجميع ما كان أخذه من بلاد الإسلام ، وردها بحواصلها كما تسلمها ، وإطلاق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، وأن يطلق السلطان له ولده وولد أخيه وغلمانهما . وأنه يحضر رهينة باسال أخ الملك ، ويسير ريمون أخ زوجة الملك ليفون ، ويبقى باسيل المأسور بن كندا صطبل هو وهؤلاء رهائن على تسليم القلاع . وكتبت الهدنة بذلك فى شهر رمضان بأنطاكية .

وأرسل السلطان الأمير بدر الدين بجكا(٢) الرومى على خيل البريد إلى قلعة الجبل ، فأحضر ليفون وتوجه به إلى أبيه على خيل البريد فى حادى عشر شوال . ثم توجه الأمير سيف الدين بلبان الرومى الداودار إلى سيس لتقرير فصول رسم بها السلطان . ولما وصل ليفون إلى أبيه أطلق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر . وكان السلطان يتصيد بجرود بالقرب من بلاد حمص مما يلى دمشق ، فلما بلغ السلطان قربه ، ركب مختفيا والتقاه وأحضره معه إلى الدهليز وباتا جميعا . ولما أصبح واجتمع الناس للخدمة خرج إليهم السلطان والأمير شمس الدين فى خدمته ، فبهت الناس لرؤيته . وأنعم عليه السلطان بالأموال والخلع والحوائص والخيل

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٨ — ٩) حيث ورد ذكر نفس القلاع ماعدا الروب .

(٢) كذا فى الأصل بدون نقط ، وما هنا منقول عن قراءة السلوك .

والبغال والجمال والمماليك وجميع ما يحتاجه الأمراء . ولما حضر إلى الديار المصرية أمّره ، وبنيت له دار بقلعة الجبل . وأما القلاع المذكورة فتسلمها نواب السلطان ، وأطلقت الرهائن .

ولما ترتبت هذه المصالح وفتحت هذه الفتوحات العظيمه التى نذكرها ، رجع السلطان من أنطاكية ووصل إلى شيزر ، وتوجه منها فى البرية إلى حمص للصيد . ووصل السلطان إلى دار النائب بحمص فى ثلاثة نفر وهم : الأمير بدر الدين بيسرى[1] ، والأمير بدر الدين الخزندار ، والأمير حسام الدين الدوادار . ثم دخل دمشق فى سادس عشرين شهر رمضان والأسرى بين يديه ، وخرج منها فى ثامن عشر ذى القعدة ، وعيد فى أم البارد [وهى السعيدية[2]] ورحل إلى قلعته فى حادى عشر ذى الحجة وحمل عن الناس كلفة الزينة .

وفيها : توفى الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور بن محمد بن محمد ابن محمد بن وداعة الحلبى[3] . وقيل إنه كان فى ابتداء أمره خطيبا بجبلة ، ثم اتصل بالملك الناصر وصار من خواصه ، فولاه شد الدواوين بدمشق ، وكان يعتمد عليه . فلما ملك السلطان الظاهر ولاه وزارة الشام ، فوقع بينه وبين الأمير علاء الدين طيبرس نائب السلطنة مفاوضة اقتضت حضوره إلى الديار المصرية ، ثم أعيد إلى الوزارة بالشام عندما فوض السلطان نيابة السلطنة بدمشق للأمير جمال الدين النجيبى كما تقدم ، فوقع بينه وبينه [خلاف] أيضا ، فكان يهينه ، فكتب إلى السلطان يذكر أن الأموال قد انكسرت ، وأن الشام يحتاج إلى مشد تركى شديد

(١) فى الأصل : « سيرى » والتصحيح من رسم الاسم فى نفس المتن فى مواضع كثيرة .

(٢) الإضافة من السلوك (جـ ١ ص ٥٧١ س ١١) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٧٢) .

المهابة مبسوط اليد وتكون أمور الاموال والولايات والعزل راجعة إليه ، وقصد بذلك رفع يد الأمير جمال الدين النجيبي عن الأموال ،وظن أن المشد يكون بحكمه ولا يتصرف إلا عن أمره . فرتب السلطان فى المشد الأمير علاء الدين كشتغدى[1] الشـقيرى وبسط يده حسب ما اقـترح ابن وداعة ، فـلم يلبث أن وقع بينهما [خـلاف] وكان يهينه بأنواع [الإهانات] ويسبه ، فيشكو ذلك إلى النجيبي فلا يلبى دعوته ، ويقول له : « أنت طلبت مشدا تركيا ، وقد جاء ما طلبت » . ثم كاتب الشقيرى فى حقه ،فورد الجواب بمصادرته ، فصادره وضربه بالمقارع وعصره وعلقه ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، وباع موجوده وأماكن كان قد وقفها وحمل ثمن ذلك ، ثم طلب إلى الباب السلطانى فتوجه ، وحدث نفسه بالعود إلى منصبه ، فأدركته منيته ، فمـات فى ذى الحجـة من السنة ، ودفن فى مستهل المحرم سنة سبع .

---

(١) فى الأصل : « كشغدي » وما هنا منقول عن السلوك تبعا للموضع .

واستهلت سنة سبع وستين وستمائة

فى هذه السنة فى أولها ، جهز السلطان من كان عنده من رسل الملوك فتوجهوا إلى مرسليهم

ذكر تجديد الحلف للملك السعيد

وفى يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة : جلس السلطان فى مرتبته ، وجلس الأمير فارس الدين الأتابك والأمير عز الدين الحلى بين يديه ، والصاحب بهاء الدين، وكاتب الإنشاء . وكان قبل ذلك يتحدث مع الأمراء فى أمر ولد الملك السعيد وتفويض الأمور إليه فأجابوا بالسمع والطاعة . وحلف الأمراء فى هذا اليوم وسائر العساكر المنصورة .

وفى ثالث عشر الشهر ركب الملك السعيد فى الموكب كما يركب والده ، وجلس فى الإيوان، وقرئت عليه القصص . وفى العشرين من الشهر قرئ تقليده بتفويض السلطنة إليه . وهو من إنشاء المولى فخر الدين بن لقمان[1] وخطه .

ونسخته بعد البسملة والعلامة السلطانية الظاهرية :

« الحمد لله الذى أجزل العطاء والمواهب، وضاعف النعماء التى يفيض شعابها، وأمواه العيون نواضب، وضاعف عزا لا يعز معه مقصد، ولا يتعذر معه المطالب، وحلى عطل الأيام بالمحاسن التى تستر بها ما ظهر من المعايب . أحمده على نعمه التى

---

(١) نشر نص هذا التقليد الأستاذ الدكتور زيادة ملحقا بآخر الجزء الأول من السلوك (ص ٩٦٩) .

تجلى بنورها ظلم الغياهب ، والأنطاف التى نظمت من المجد عقدة المتناسق ودره[1] المتناسب » .

« وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تبلغ بها يوم الإشهاد قاصيه المنى ، وتجعل كل صعب هينا . وأشهد أن محمدا عبده الذى صدع بالحق معلنا ، ورسوله الذى أظهر الإسلام وما تباحد عزمه ولا انثنى ، صلى الله عليه وعلى آله الذين شيدوا من المعالى البنا ، وأصحابه الذين أحسنوا والله يحب من من كان محسنا » .

« وبعد : فإنا لما أتانا الله تعالى من السلطان الذى ملك به من العزما جمع ، والقدرة التى قربت[2] من الآمال مانزح ، والمهابة التى ملأت عيون الأعداء بالذل لا الوطف ، والعزايم التى أذكرت من مواقف المهاجرين والأنصار ماسلف ، والهمم التى نهضنا بها لفتح معاقل الكفار ، والجهاد الذى كانت آثارنا فيه من أحسن الآثار ، والغزوات التى كان معروفها منكرا ، والوقائع التى نصر الله فيها حزب الإيمان فأضحى الدهر ينشر حديثه متعطرا ، وشد أزرنا بولدنا الملك السعيد الأجل الكبير العالم العادل ناصر الدين بركه خاقان ، امتع الله الإسلام ببقائه ، وأقر عيون المجد بنصر لوائه ، وتوسمنا فيه مخايل السعادة بادية الغرر ، وظهرت فيه أدلة النجابة ، والأدلة إذا ظهرت لاتستتر ، وبدت فيه مساع أوجبت له مزية التكريم ، وعم فيها فضله فتعين أن يخص بالتعظيم ، ولاحت منه إشارات يعرب عن الرشد ، وتدل أنه فى تدبيره حسن القصد ، وسما نور هلاله فاتفقت

(١) فى الأصل : « فزرة » .

(٢) « الأصل : « قرنت » .

النفوس أن يكون بدرا كاملا ، ووثقت الآمال أن يرجع حاليا كل ما كان عاطلا ، رأينا أن نفوض إليه حكم كل ما أمضى الله فيه حكمنا من البلاد، وتحققنا أن رائد نظرنا فى أمره يصدق فيما اختار من الارتياد . وقلدناه أمر الديار المصرية والبلاد الشامية والقلاع والحصون، وهى: الديار المصرية، البلاد الشامية، البلاد الحلبيه، البلاد الحموية ، البلاد الحمصيه . فهذا الملك إليه ممتد الرواق، ودو نظامه يتزين بحسن الإتساق[1] ، ونواحيه مع اتساعها محروسة بهممه ، فكأنه خصر[2] اشتمل عليه النطاق، ونعم الله محروسه معه بالشكر، مقيده عنده بالإطلاق، والدين الحنيفى من عزمه عالى المنار ، والنفوس واثقة[3] أن تكون بناصره دائمة الانتصار ، وأخبار نصره تحفظها الليالى مما تكرره ألسن السمار ، ومهابته تسرى إلى قلوب الأعداء فتحول منها الأفكار ، والدولة الزاهرة به محاطة[4] الأرجاء ، ومحائب إحسانه متدفق الأنواء ، وآثار نعمة الله فيها ظاهرة ، والله يحب أن يرى على عبده أثر النعماء . والشريعة المطهرة بتأييده نافذة الأحكام ، وأمورها مرعية بهممه التى أضحت المعالى أنها لاتنام . وأطلقنا تصرفه وحكمه فى الخزائن والأموال، وتعيين الإقطاعات فى الغيبه منا والحضور . وأمرنا أن لايرد أمره فى جميع ما يقتضيه رأيه الشريف من الأمور . فبيديه الحل والعقد ، وإلى أبوابه ينتهى القصد . فقد أضحى بحمد الله حلية للجد ، والأيام تزهو به كما تزهو الدرر بواسطة العقد ، وإليه فى الأمور النقض والإبرام . وعليه المعتمد فى فصل

(١) كذا فى الأصل ، بغير نقط .

(٢) فى الأصل : « واقفة » وهو تصحيف .

(٣) فى الأصل « مخلصة » « « ق

(٤) جملة اعتراضية موصولة غامضة .

الأحكام . وإليه ترجع الولاية والعزل ، وهو الفرع الذى زكا ، ولايزكو الفرع إلا إذا كان طيب الأصل . ومن شيمته الأقتداء بنا فى بسط الإحسان والعـدل وإحياء سننا مما يضفيه على الأولياء من ملابس الفضل ، واقتفاء آثارنا فى غزو بلاد الكفار، والمجاهدة التى تطول بها أيدى الكماة بالسيوف القصار ، وإلى الله نرغب أن يوفقه لمراضيه ، ويلهمه رشـده فيما يستقبل من أموره ، ويمضيـه ويؤيده بالنصر الذى تروى أحاديثه وتتلى، ويمده بتوفيقه الذى يرشده من الضلال ناشئا وكهلا ، ويساعده بالتأييد الذى يستجد له ذكرا خالدا لايبـلى ، والظفر الذى تستحلى أحاديثه إذا أعيدت، وإن كان الحديث المستعاد لا يستحلى . ونسأل كل واقف على هـذا التقليد أو من يسمـع به من الأمراء والنواب والعساكر المنصورة ـ أيدهم الله تعالى ـ امتثال أمره ، والقيام بمـا يجب عليه من طاعته فى سره وجهره ، والنهوض فى خدمة ركابه ، والإجتهاد فى تسهيـل ما يصعب من طلابه، والمسير عند سيره تحت علمه، والإلتجاء فى السراء والضراء إلى حرمه، والوفود إلى جنابه المنيع المريـع ، فهو بحمد الله كعبة تحج إليها الآمال ، وحرم يخفف ما على الأعناق من أعباء الخـدم الثقال . والإعتماد على الخط الشريف أعلاه ، وكتب فى عاشر صفر سنة سبع وستين وستمائة » .

وقرئ هـذا التقليد بالإيوان بحضور الأمراء وأعيان الدولة واستمر جلوس الملك السعيد وركوبه .

وفى ثانى عشر جمادى الآخرة ، توجه السلطان إلى الشام واستصحب أكابر الأمراء وجماعة من العسكر المنصـور . وفى غرة شهر رجب شرع السلطان فى النفقة فى الأمراء الذين صحبته ، ونزل أرسوف لكثرة مراعيها .

ووصل إليه رسل أبغا بن هولاكو، فقرئ على السلطان كتابه ، ومعناه الرغبة فى الصلح ، وأعاد الرسل بالجواب ، وكاتب أبغا نظير ما كاتبه به .

ذكر توجه السلطان على خيل البريد إلى الديار متنكرا وعوده إلى مخيمه بخربة اللصوص ولم يعلم من به بتوجهه

قال القاضى عبد الله بن عبد الظاهر فى السيرة الظاهرية عن هذه الوقعة حسبما أملاه السلطان من لفظه : لما خرج السلطان من دمشق، بعد تجهيز رسل أبغا، ودع الأمراء كلهم وتوجهوا إلى الديار المصرية، ولم يبق معه من الأمراء الأكابر غير الأتابك، والمحمدى، والأيدمرى، وابن اطلس خان، وأقش الرومى ، توجه إلى القلاع ،فابتدأ بالصبيبة ومنها إلى الشقيف وصفد، وبلغه وفاة الأمير عز الدين الحلى ، فكتب إلى الأمير شمس الدين آقسنقر استاد الدار بالحضور بالأثقال والعساكر إلى خربة اللصوص والعسكر قد خيم بها . وخطر له التوجه إلى الديار المصرية ،فكتب إلى النواب بالشام بمكاتبة الملك السعيد والإعتماد على أجوبته، ورتب أنه كلما جاء بريد يقرأ عليه ويخرج علائم على دروج بيض تكتب عليها أجوبة البريد ، واستقرت هذه القاعدة مدة .

وفى رابع عشر شعبان أظهر تشويشا، وأحضر الحكماء إلى الخيمة، وحصل احتفال ظاهر بهذا الأمر ، وأصبح الأمراء فدخلوا وشاهدوا مجتمعا فى صورة متألم ، وكتب إلى دمشق باستدعاء الأشربة .

وتقدم إلى الأمير بدر الدين الأيدمرى وسيف الدين بكتوك جرمك الناصرى ،بأنهما يتوجهان إلى حلب على خيل البريد، وودعاه وصحبتهما بريدى ،

وتوجها فى ليلة السبت سادس عشر شعبان ، وأوصاهم أنهـم إذا ركبوا يحيدون إلى خلف الدهليز ليتحدث معهم مشافهة .

وجهز آقسنقر الساقى فى البريد إلى الديار المصرية وأعطاه تركاشة[1] ، وأمره بالوقوف خلف خيمة الجمدارية خلف الدهلـيز . ولبس السلطان جوخة مقطعة وتعمم بشاش دخانى عتيق ، وأراد أن يخرج ولا يعلم به الحرس ، فأخذ قماش نوم لأحد المماليك ، وطلب خادما من خواصه وقال له : ها أنا خارج بهذا القماش فامش أمامى ، فإن سألك أحد فقل : هذا بعض البابية[2] معـه قماش أحد الصبيان حصل له مرض وما يقدر يحضر إلى الخدمة هذه الليلة ، وهذا غلامه خارج إليه بقماشه .

فخرج بهـذه الحيلة ، وتوجه إلى الجهة التى واعد آقسنقر إليها . وكان قـد سير بهاء الدين أمير آخور ومعه أربعة أرؤس من الخيل ، وأمره أن يقف بها فى مكان ، فتوجه إليه ، وأخذ آقسنقر الخيل ، وسير بهاء الدين أمير آخور إلى التل فأحضر الأيدمرى ورفقته ، وساق بهم السلطان وهم لا يعرفونه فلما اختلطوا قال للأيدمرى : « تعرفنى ؟ » قال : « أى والله » ، وأراد النزول لتقبيـل الأرض فمنعه . وقال : لحرمك « تعرفنى » ، فقال : « إيش هذا يا خوند » ؟ فقال له : « لا تتكلم » وكان معهم علم الدين شقير مقدم البريدية فصاروا خمسة ، معهـم أربعة جنائب من خيل السلطان الخاص .

(١) فى الأصل : « دركاشه » وما هنا فى المتن منقول عن السلوك (جـ ١ ص ٥٧٥) .

(٢) أى الذين يعملون فى الطست خاناه .

وساقوا إلى جهة مصر ، فوصلوا إلى القصير المعينى[1] نصف الليل ، فدخل السلطان ليأخذ فرس الوالى ، فقام إليه يهاوشه بأربعين خمسين راجلا ، وقال له : «هذه الضيعة ملك السلطان ما يقدر أحد يأخذ منها فرسا ، فإن رحتم وإلا قاتلنا كم» . فتركوه وتوجهوا إلى بيسان فأتوا دار الوالى وقالوا : « نريد خيلا للبريد » . فقال : « انزلوا خذوا » ، فنزلوا ، وقعد السلطان عند رجلى الوالى وهو نايم . ثم قال للأيدمرى « الخلائق على بابى وأنا على باب هذا الوالى لا يلتفت إلى ، ولكن الدنيا نوب » . وطلب من الوالى كوزا فقال : « ما عندنا كوز ، إن كنت عطشان اخرج واشرب » فأحضر له الأيدمرى كوزا شرب منه . وركبوا فصابحوا جينين ، فوجدوا خيل البريد بها عرجا معقرة ، فركب السلطان منها فرسا ما كاد يثبت عليه من رائحة عقوره . ولما وصلوا العريش قام السلطان والأمير سيف الدين جرمك ونقيا الشعير . فقال السلطان للأيدمرى : « أين السلطنة ، واستاد الدار ، وأمير جاندار ، وأين الخلق الوقوف فى الخدمة ؟ هكذا تخرج الملوك من ملكهم ، وما يدوم إلا الله سبحانه وتعالى » .

ووصلوا إلى قلعة الجبل ليلة الثلاثاء الثلث الأول ، فأوقفهم الحراس حتى شاوروا الوالى . ونزل السلطان فى باب الأسطبل وطلب أمير آخور ، وكان قد رتب مع زمام الأدر[2] أنه لا يبيت إلا خلف باب السر ، فدق السلطان باب السر ، وذكر علايم لزمام الأدر ، ففتح الباب ، وأحضر السلطان رفقته إلى باب السر ، وأقام هو وهم يومى الثلاثاء والأربعاء وليلة الخميس لا يعلم بهم أحد إلا زمام الأدر ،

---

(١) القصير المعينى هو قصر معين الدين ، بغور الأردن انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٧٦) .

(٢) أصله من زمام دار بحسب حاشية فى السلوك (جـ ١ ص ٥٧٧) .

وهو ينظر إلى الأمراء وغيرهم فى سوق الخيل . فلما قـدّم الفرس للملك السعيد يوم الخميس قـدم أمـير آخور للسلطان فرسا . ولمـا خرج الملك السعيد ما أحس إلا والسلطان قد خرج إليه ، فخاف، فلما عرفه قبل الأرض ، وركب السلطان وخرج والوقت مغلس ،فأنكر الأمراء ذلك ووضعوا أيديهم على قبضات سيوفهم وطلعوا[1] فى وجه السلطان فلما حققوه قبلوا الأرض . وساق السلطان إلى ميـدان العيـد ، وعاد إلى القلعة ، فقضى أشغال الناس ، ولعب الـكرة يوم السبت . وتوجه يوم الأحد إلى مصر لرمى الشوانى ، وركب فى الحراريق .

وسافر ليلة الأثنين على البريد. ولمـا قربوا من الدهايز المنصور رد الأيدمرى وجرمك إلى خيامهم ، وأخذ السلطان جراب البريد على يده وفى كفه فوطة ، وتوجه راجلا ودخل من جهة الحراس ، فمانعه حارس وأمسك الحارس أطواقه ونتشه ، فانجذب منـه ودخل من باب الدهايز . وركب عصر يوم الجمعـة ، وحضر الأمراء إلى الخدمة، فأظهر أنه كان متغلث المـزاج ، وضربت البشائر بالعافية ، ولم يدر بهذه الأمور إلا الأتابك وأستاد الدار وخواص الجمدارية .

وفى هـذه السنة فى تاسـع جمادى الآخرة رسم السلطان بأبطال الخواطى[2] من القاهرة ومصر والديار المصرية ، وأمر بحبسهن وتزويجهن .

وفيها أيضا وردت الأخبار أن زلزلة حدثت ببلاد سيس[3] أخربت قـلاعها مثل سرفند كار ، وجحر شعلان ، وقتل بسببها جماعة حتى سال النهر دما .

---

(١) كذا بالعامية ، أما السلوك فإنه أورد « ونظروا » (جـ ١ ص ٥٧٧ س ٩)

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٧٨) .

(٣) انظر السلوك نفس الموضع .

ذكر وفاة الأمير عز الدين أيدمر الحلى
[الصالحى نائب السلطنة[1]]

لما خرج السلطان لسماع رسالة الملك أبغا خرج الأمير عز الدين المذكور فى خدمته ، فلما استقر السلطان طلب دستورا وتوجه إلى دمشق لملاحظة أملاكه ، فلما دخل السلطان إلى دمشق أطلق له شيئا كثيرا ، وزار السلطان فقيرا بجبل الصالحية ومعه الأمير عز الدين ، فقام عز الدين ليجدد الوضوء ، فقال الشيخ للسلطان : « هذا يموت فى هذه الأيام ولا يخرج من دمشق » ، وكان إذ ذاك كالأسد قوة ، فمرض فى اليوم الثانى ، وتوفى فى أوائل شعبان سنة سبع وستين . وحضر ولده[2] إلى الدهليز بخربة اللصوص فأحسن السلطان إليه وسيره إلى القاهرة . ولما وصل السلطان إلى القاهرة أمره بأربعين فارسا .

وفيها : توفى الأمير أسد الدين سليمان بن الأمير عماد الدين داود بن عز الدين موسك[3] الدوادى الهذبانى ، من بيت الإمرة وله اختصاص كبير بالملوك والتقدم عندهم . وجده الأمير عز الدين من أكابر الأمراء الصالحية ، وترك أسد الدين هذه الخدم وتزهد ولازم مجالس العلماء ، ولبس الخشن من الثياب ، وكانت له نعمة عظيمة ورثها من أبيه فأذهبها ، ولم يبق له سوى ريع أملاكه ، فكانت تقوم بكفايته إلى أن توفى فى يوم الثلاثاء مستهل جمادى الأول بدمشق ، ودفن بقاسيون ، وله شعر حسن ، رحمه الله تعالى .

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٨٢) .

(٢) فى الأصل : « ولد » وهو سهو .

(٣) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٨٢) .

ذكر توجه السلطان الملك الظاهر إلى الحجاز الشريف[1]

قال: لما قوى عزم السلطان على الحجاز الشريف كتم ذلك، وأنفق ونفى من جيشه، وجرد جماعة صحبة الأمير جمال الدين أقش الرومى السلاح دار، وهم المتوجهون صحبة السلطان، وجرد العساكر التى بقيت صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر أستاد الدار إلى دمشق. فنزلوا بظاهرها.

وتوجه السلطان إلى الكرك فى صورة أنه يتصيد، فوصل إلى الكرك فى مستهل ذى القعدة، وكان رسم بتجهيز جميع ما يحتاج إليه برسم الحجاز هناك. فسير الثقل فى رابع ذى القعدة، وتوجه السلطان فى السادس من الشهر إلى الشوبك، وتوجه منه فى حادى عشر الشهر، ووصل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فى الخامس والعشرين منه، فزار ورحل فى السابع والعشرين. فقدم مكة، شرفها الله تعالى، فى خامس ذى الحجة، فتصدق بصدقات وافرة وكساوى كثيرة، وبقى كأحد الناس بغير حاجب، ثم غسل الكعبة، وبقى فى وسط البيت، ومن رمى له إحرامه غسله له بما ينصب من الماء فى الكعبة ويرميه إلى صاحبه، ثم جلس على باب الكعبة وأخذ بأيدى الناس ليطلع بهم إلى الكعبة. وتعلق أحد العوام به، فلم يصل إلى يده لازدحام الناس عليه، فتعلق بإحرامه وكاد يرميه إلى الأرض وهو مستبشر بهذا الأمر، وعلق كسوة البيت الشريف ورفعها بيده على أركان البيت الشريف هو وخواصه. وسبل[2] البيت الشريف

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٨٠).

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٨٢ س ٦ — ٧) وكان التسبيل فى مقابل مال وغلال أعطيت لأمير مكة.

لسائر الناس، وتردد إلى الصالحين . وكان قاضى القضاة صدر الدين سليمان معه فى طول الطريق يستفتيه . وكتب إلى صاحب اليمن كتابا ينكر[1] عليه أمورا وكتب فيه : « سطرتها من مكة وقد أخذت طريقها فى سبع عشرة خطوة[2] » يريد بالخطوة المنزلة . وقضى السلطان فرض الحج ومناسكه كما يجب ، وحلق ، ونحر ، وأحسن إلى أميرى مكة ، شرفها الله تعالى : الأمير نجم الدين أبى نمى ، والأمير إدريس بن قتادة ، وإلى صاحب ينبع و[أمير] خليص ، وزعماء الحجاز كلهم. وطلب أميرا مكة نائبا من السلطان، فرتب شمس الدين مروان. وزاد أميرى مكة جملة من الغلال فى كل سنة بسبب تسبيل البيت الشريف ، وزاد أمراء الحجاز، إلا جما ومالك أميرى المدينة ، فإنهما انتزحا من بين يديه .

وخرج السلطان من مكة ، شرفها الله تعالى ، فى ثالث عشر ذى الحجة ، ووصل إلى المدينة فى العشرين منه ، وخرج فى بكرة النهار الثانى ، ووصل إلى الكرك فى يوم الخميس سلخ ذى الحجة .

---

(١) فى الأصل : « يذكر » .(انظر السلوك ج ص ٥٨١)

(٢) فى الأصل : « سبعة عشر خطوة » .

واستهلت سنة ثمان وستين وستمائة

واستهلت سنة ثمان وستين وستمائة والسلطان الملك الظاهر بقلعة الكرك ، فأقام بها حتى صلى الجمعة ، وركب من الكرك بعد الصلاة مستهل المحرم فى مائة فارس جريدة ، وعلى يد كل واحد من أصحابه جنيب ، وساق إلى دمشق . فلما قاربها والناس لا يعلمون شيئا من حاله ولا يجسر أحد يتكلم ، سير أحد خواصه فى البريد بكتب البشاير بسلامته وقضاء حجة إلى دمشق . فأحضر الأمير جمال الدين النجيبي الأمراء وغيرهم ليقرأ عليهم كتاب البشرى ، فبينما هم فى ذلك وقد بلغهم أن السلطان فى الميدان . فتوجه إليه الأمير جمال الدين النجيبي فوجد السلطان قد نزل بالميدان بمفرده ووهب فرسه لإنسان من منادية سوق الخيل عرفه وقبل الأرض بين يديه ، وحضر الأمراء إلى الخدمة وأكلوا شيئا ، وتوجهوا ليستريح السلطان ، فقام وركب فى جماعته اليسيرة وتوجه إلى حلب ، فعادوا إلى الخدمة فلم يجدوا أحدا . ودخل السلطان حلب والأمراء فى الموكب فساق إليهم فما عرفه أحد ، وبقى ساعة ثم عرفه الصرورى[1] ، فنزل الأمراء وقبلوا الأرض ، ونزل بدار السلطنة بحلب ، وشاهد قلعتها ، وعاد منها ، فوصل إلى دمشق فى ثالث عشر المحرم ، ولعب الكرة وركب فى لياته وتوجه إلى القدس والخليل عليه الصلاة والسلام فزار تلك الأماكن المقدسة وتصدق . وكان

---

(١) وردت هذه النسبة مرات ولعلها نسبة إلى الصروات من سواد مدينة الحلة .

العسكر[1] المصرى قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين آفسنقر استاد الدار إلى تل العجول . هذا كله وما غير عباءته التى عليه ، وذلك كله فى عشرين يوما . وركب من تل العجول ووصل إلى قلعة الجبل فى ثالث صفر .

ثم توجه إلى ثغر الإسكندرية فى ثانى عشر صفر ودخل الثغر فى الحادى والعشرين من الشهر . وكان الصاحب بهاء الدين قد سبقه إلى الثغر وجهز الأموال والتعابى من الأقمشة ، فخلع على الأمراء وأنعم عليهم بالتعابى والنفقات . ولعب الكرة بالإسكندرية . وخرج منها إلى الحمامات ، ونزل باللّيونة[2] ، وابتاعها من وكيل بيت المال .

وبلغه حركة التتار فعاد إلى قلعته ، فوصل إليها فى ثامن ربيع الأول سنة ثمان وستين وستمائة .

ذكر توجه السلطان إلى الشام جريدة[3]

قال : ولما بلغ السلطان حركة التتار . وأنهم تواعدوا مع فرنج الساحل ، وأن التتار أغاروا على الساجور بقرب حلب ، وعلى جهة أخرى وأخذوا مواشى العربان ، فأراح العسكر وجرد الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار بجماعة من

(١) فى الأصل : « المعسكر » .

(٢) تذكر حاشية فى السلوك (جـ ١ ص ٥٨٤ حاشية ٢) أنها بلدة من أعمال مرمريط .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٨٤) .

العسكر ليقيموا فى أوائل البلاد الشامية . وركب فى جماعة يسيرة من قلعته ، وذلك فى ليلة الاثنين حادى عشرين شهر ربيع الأول ووصل إلى غزة ، وتوالت الأمطار ، فوصل إلى دمشق فى سابع شهر ربيع الآخر ، ووردت إليه الأخبار برجوع التتار لما بلغهم خروجه ، فأغار على عكا ، واستولى على بلاد الإسماعيلية على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وأقام السلطان بالشام بقية سنة ثمان وستين وستمائة .

وفى هذه السنة نصب الدرابزين على الحجرة الشريفة النبوية . وذلك أن السلطان لما توجه إلى الحجاز رأى الضريح النبوى والزوار تقف إلى جانب الحائط ، فرأى أن يعمل درابزينا ليكون حرما حول الحجرة ، فأمر بعمله ، فعمل وكمل ، وسير إلى المدينة فى سنة ثمان وستين صحبة الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الخليلى ، فنصب .

وفيها : كانت وفاة قاضى القضاة محيى الدين أبى الفضل يحيى بن قاضى القضاة محيى الدين أبى المعالى محمد بن قاضى القضاة زكى الدين أبى الحسن على ابن قاضى القضاة مجد الدين أبى المعالى محمد بن قاضى القضاة زكى الدين أبى الفضل يحيى بن على بن عبد العزيز العثمانى[1] . وكانت وفاته بفسطاط مصر فى رابع عشر شهر رجب سنة ثمان وستين . ودفن بالقرافة .

ومولده بدمشق فى ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ورياسته وأصالته أشهر من أن يأتى عليها .

وفيها : توفى الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على ، وزير الصحبة ، ضحى يوم الاثنين الحادى والعشرين من شعبان ودفن بكرة نهار الثلاثاء

(١) بذكر السلوك (جـ ١ ص ٥٨٩ س ٧) إنه المعروف بابن الزكى القرشى الأموى الشافعى .

بتربتهم بالقرافة . ومولده فى اثنين وعشرين وستمائة بفسطاط مصر ، وفوضت وزارة الصحبة بعده لولده الصاحب تاج الدين محمد .

وفيها : توفى الصاحب الوزير زين الدين أبو يوسف يعقوب بن عبد الرفيع ابن زيد الزبيرى ، المعروف بابن الزبير نسبة إلى الزبير بن العوام الأسدى رضى الله عنه . وكانت وفاته فى ليلة الأربعاء رابع عشر شهر ربيع الآخر . ومولده سنة ست وثمانين وخمسمائة . وكان عالما فاضلا رئيسا يتكلم باللغة التركية . وزر للملك المظفر فظفر ، ثم وزر بعده للسلطان الملك الظاهر أياما ، ثم عزله ، فلزم داره إلى أن مات ، رحمه الله تعالى ، وكان له شعر حسن رقيق .

وفيها : توفى الشيخ الإمام الخطيب أصيل الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن عمر بن على العوفى الأسعردى المولد . قدم دمشق فى الدولة الصالحية وولى الخطابة بها . ثم عزل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وعاد ثم عزل بالقاضى عماد الدين بن الحرستانى . وانتقل إلى الديار المصرية صحبة الملك المظفر فى سفرته التى قتل فيها . وتولى خطابة الجامع الصالحى خارج بابى زويلة . وتولى نيابة الحكم بالشارع الأعظم نيابة عن قاضى القضاة بدر الدين السنجارى . واستمر على الخطابة والحكم إلى أن توفى فى يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وستين فى بيت الخطابة قبل صلاة الجمعة ، وجاء ريس المؤذنين كما جرت العادة فوجده ساجدا وعليه ثياب الخطابة وقد قضى نحبه ، فأحضر ولده فى تلك الساعة وأعلم بموت والده ، فطلع المنبر وخطب وصلى بالناس . ودفن الخطيب فى بكرة يوم السبت بسفح المقطم بقرافة سارية . وكان لطيفا حسن العبادة والصوت . وله تصانيف ونظم ونثر ، رحمه الله تعالى .

واستهلت سنة تسع وستين وستمائة

فى هذه السنة ، توجّه السلطان إلى عسقلان فى سابع صفر فهدمها[1] وعفى آثار عمارتها و رمى حجارتها فى ميناها ، وعاد فوصل إلى قلعته فى ثامن شهر ربيع الأول .

وفيها : هلك الملك الحيير هيتوم بن قنسطنطين صاحب سيس[2] ؛ ووردت مطالعة ولده ليفون فى سابع عشرين شهر ربيع الأول مضمومها : أنه لما كان فى خامس عشرين تشرين الأول ترهب والده وانتقل إلى الدير وخرج عن أمور الدنيا . فلما كان فى نهار الثلاثاء ثامن عشرين تشرين الأول وهو حادى وعشرين ربيع الأول مات وقت مغيب الشمس ، وسأل شموله بالمراحم السلطانية فى ضمه إلى جناح الرحمة . فكتب بتعزيته بأبيه وتهنئته بما صار إليه من الملك ، وإطابة قلبه .

ذكر القبض على الملك العزيز فخر الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك والأمراء الشهرزورية[3]

قد ذكرنا أن السلطان لما تسلم الكرك من المشار إليه بعض القبض على والده أمّره بمائة فارس . واستمر المذكور فى الخدمة الشريفة ولازم السلطان

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٠) .

(٢) انظر السلوك (نفس الموضع) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٥) .

فى أسفاره وغزواته . وكان يلعب معه بالكرة ، ويحضر معه فى أوقات الصيد وغير ذلك من مشاهده العامة . وظهرت منه شهامة ، وأحسن رماية النشاب وأخذ نفسه فى ذلك بمأخذ الفرسان الشجعان . ولما كان السلطان على هدم عسقلان أفرد له جانبا يهدمه ، فمر السلطان عليه فى بعض الأيام وهو قائم يستعمل الرجالة ويحثهم على الهدم ويجتهد فيما هو فيه . فبينما السلطان ينظر إليه ويتأمله إذا انهدم ماتحته من البناء فوثب من مكانه وألقى نفسه إلى الأرض ووثب أخرى فسلم والسلطان ينظر إليه . فعجب السلطان من اهتمامه مع حداثة سنه . ثم عاد إلى ما كان عليه من الهدم ولم يتأثر لذلك . وبينما السلطان فى أواخر هدم عسقلان ورد عليه كتاب نائبه الأمير بدر الدين الخزندار يستحثه على العود إلى قلعة الجبل، ويعلمه أنه لا يأمن وثوب الأمراء الشهرزورية، وأن قدرته تضعف عن مقاومتهم فى غيبة السلطان . وحال ورود كتابه أمر الناس بالرحيل ورجع لوقته إلى الديار المصرية . ولما رجع رمى الملك العزيز بقرة وحش بيده فى أثناء الطريق وحملها إلى السلطان والأمير شمس الدين سنقر الأشقر وغيره من الأمراء عنده . فقال السلطان للأمير شمس الدين المذكور : انظر إلى هذا الصغير وماهو عليه ، والله مايقصر ! . فقال له سنقر الأشقر : لقد ربيت حية صغيرة بين ثيابك تنتفخ بها إذا كبرت . وكان سنقر الأشقر يكره لقبض أبيه عليه وتسليمه للملك الناصر واعتقاله كما تقدم، فأراد مكافأته فى ولده . ولما وصل السلطان إلى قلعة الجبل فى ثامن شهر ربيع الأول ، كما تقدم ، نزل إلى الميدان فى يوم الثلاثاء الثانى عشر من الشهر ولعب بالكرة ، ودخل الملك العزيز على عادته إلى الميدان ولعب بالكرة ، فجاء الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ليأخذ الكرة منه ، والملك العزيز مجتهد فى ضربها ، ورفع جوكانه ليضربها فوقع

فى رأس الأمير شمس الدين ولم يقصد ذلك ، فكاد أن يسقط إلى الأرض لولا [أن] اعتنق عنق فرسه حتى سكن ما به من ألم الضربة . فجاء السلطان إليه وهو يمازحه ، فقال له : « كاد هذا الصغير أن يرميك عن فرسك حتى اعتنقت رقبته . » فنظر إلى السلطان وقال : « والله إن كان اليوم ما رمانى ، فغدا يرميك أنت ، وهذا الصبى والله لك بئس الذخيرة » . فلما كان فى يوم الخميس رابع عشر الشهر جلس السلطان فى مجلسه واستدعى الأمراء الشهرزورية وهم عشرة منهم : الأمير بهاء الدين يعقوبا[1] ، وتوتل ، وسنقران وقبض عليهم ، وقبض على الملك العزيز معهم واعتقلوا ، ثم أحضر الأمراء الشهرزورية وغيرهم وقررهم ، فاعترفوا أنهم قصدوا قتل الملك السعيد ابنه ، وقيامهم بالأمر فإن أطاعهم الناس وإلا أقاموا الملك العزيز ، فسألهم : « هل كان هذا الأمر عن مباطنته ؟ » فحلفوا أنه لم يطلع على ما عزموا عليه ولا باطنهم فيه . واستمر الملك العزيز فى الإعتقال إلى آخر أيام الملك السعيد عندما حوصر بالقلعة فأفرج عنه وعن الأمراء الشهرزورية وغيرهم . وكان قد رزق أولادا فى اعتقاله فى الدولة الظاهرية ، فلما أفرج عنه الملك السعيد أمره أن ينصرف فى حال نفسه ويتوجه إلى الأمراء إن أحب ذلك ، أو يقيم بالقلعة إلى أن ينفصل الأمر . وخرج بعض من أفرج عنهم إلى الأمراء فقبضوا عليهم واعتقلوهم ، فخشى الملك العزيز من ذلك فسأل أن يرجع إلى معتقله ويقيم مع أولاده فرجع إليهم ، فاستمر فى الإعتقال إلى أن ملك الملك الأشرف خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاون فأفرج عنه فى سنة تسعين وستمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٩٥ ص ٧) .

ولنرجع إلى سياقة أخبار الدولة الظاهرية :

وفى عاشر جمادى الآخرة من السنة توجه السلطان إلى الشام وصحبته ولده الملك السعيد[1] ، فكان دخول الملك السعيد إلى دمشق فى ثامن شهر رجب . وخرج هو والأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة . وكان السلطان قد توجه من جهة بعلبك ووصل إلى طرابلس ، فأغار وقتل وفتح صافيتا وحصن الأكراد[2] وحصن عكا وبلاد الإسماعيلية ، وغير ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها فى تاسع شوال : دخل الشيخ خضر شيخ السلطان إلى دمشق ، وجاء إلى كنيسة اليهود وأخرجهم منها وجعلها زاوية ، وحمل لأصحابه بسيسة عشرة قناطير بالدمشق ، فأكلوا منها ، وحضر المغانى تعمل سماعا ورقصوا على بقية البسيسة بأرجلهم ، فما أفلح بعد ذلك . فاجتمع اليهود وخرجوا عن مظالم كانت بينهم ورفعوا أصواتهم بالدعاء وقالوا : « يا محمد بن عبد الله ، نحن فى ذمتك وعهدك ، لادولة لنا ولا سلطان ، فانتصر لنا » . فكانت حادثة السيل ، وخروج الشيخ خضر من الكنيسة على صورة منكرة .

ذكر حادثة السيل بدمشق[3]

وفى ثانى عشر شوال سنة تسع وستين وستمائة ، وهو يوم عيد عنصرة اليهود ، جاء سيل عظيم إلى دمشق فى الساعة الثامنة من النهار ، وعلا على سور دمشق قدر

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٠ س ١٦ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣) .

(٢) أورد الأستاذ الدكتور زيادة (السلوك جـ ١ ص ٥٩١ حاشية ٣) نص كتاب بيبرس إلى صاحب حصن الأكراد الذى هو فى الوقت رئيس فرسان الإسبتار .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٦) .

رمح ، وفى بعض المواضع أحد عشر ذراعا ، ودخل من باب الفراديس بعد أن خرب جسره ، وأخرب جسر بابى السلامة وتوما ، ووصل إلى المدرسة الفلكية وصار فيها مقدار قامة وبسطة . واستمر ثلاث ساعات من النهار وهبط . وكان مبدأ هذا السيل أنه انعقد على جبال بعلبك غيم متكاثف فسمع لرعده دوى هائل فى يوم السبت حادى عشر شوال ، وكان بذلك الوادى ثلوج كثيرة، فوقع المطر على الثلوج فحلها،وسال فى يوم الأحد من جهة عين الفيجة بعد أن رمى فيها صخورا عظيمة ساقها بين يديه ، واقتلع أشجار جوز عادية ، وانتهى إلى دمشق وخرب عدة كثيرة من دور العقيبة،وخرب حيطان الميدان وقطاير(١) البساتين ، وأهلك خلقا كثيرا من الروم والعجم كانوا قد قدموا حجاجا ونزلوا بالميدان ففرقوا عن آخرهم هم و جمالهم ودوابهم ، وأغرق من الحيوانات على اختلاف أجناسها مما لا يعد كثرة ، وردم الأنهار بطين أصفر ، واقتلع الأشجار من أصولها. ودخل السلطان بعد ذلك بأيام إلى دمشق فما وجد بها ماء ولا حماما يدور ، وشرب الناس من الصهاريج والآبار . ويقال إنه هلك بهذا السيل عشرة آلاف نفس ، وأخذ الطواحين بحجارتها .

وحكى أن فقيرا يعرف بالخبر حضر(٢) إلى دار نائب السلطنة بدمشق قبل هذه الحادثة وقال : « عرفوا الأمير أنى أريد أعدو إلى بعلبك » . فقال له الأمير : « رح ،ا جر » . وضحكوا منه . فتوجه ، وعاد وهو ينذر الناس بالسيل . فضحكوا منه ولم يعبأوا بكلامه . فما أحسّوا إلا والسيل قد هجم .

---

(١) القطاير جمع مفرده قطره بضم القاف فى العامية ، وهى جسور تستعمل فى رى البساتين .

(٢) كذا فى الأصل ، بدون نقط .

وفى هذه السنة: عزل قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان عن قضاء دمشق ، وخرج منها فى ذى القعـدة . وكانت مدة ولايته عشر سنين سواء . وقلد القضاء بعده بالشام قاضى القضاة، عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر المعروف بابن الصايغ . وكان تقليده قد كتب والسلطان على طرابلس ، وتأخر إلى أن حضر السلطان إلى دمشق ، وكان وصول السلطان إلى دمشـق فى يوم الأربعاء خامس عشر شوال[1] .

ذكر سفر الشوانى الإسلاميه إلى قبرس وكسرها وأسر من كان بها وخلاصهم

وفى شوال سنة تسع وستين وستمائة : كتب السلطان من الشام إلى الديار المصرية بتسفير[2] الشوانى لقصد قبرس، فأشار ابن حسون برأى كان بئس الرأى، وهو أنه قال : « لو دهنت الشوانى سوادا تشبها بشوانى الفرنج ، وعملت لهـا أعلام بصلبان حتى إذا دخلت إلى بلاد الفرنج يعتقدونها لهم، فتغتنم الغرة منهم» فاتبـع رأيه . وتطاير الناس بذلك ، وسافرت الشوانى فانكسرت بالقرب من قبرس . فورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان وفيه تقريع : « إن الشوانى كسرها الريح وأخذتها ، وهى أحد عشر شـينيا ، وأسرت من فيها » . فكتب السلطان إلى الديار المصرية وهـو بالشام بإنشاء عشرين شينيا ، وإحضار خمس شوانى كانت بقوص. وأجاب [السلطان] صاحب قبرس[3] بتقريع وتوبيخ ،

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٣) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٣) .

(٣) انظر كتاب السلطان إلى الملك أوك صاحب قبرص وقـد أورده الدكتور زيادة فى حاشية السلوك (جـ ١ ص ٥٩٤ حاشية ٣)

ويعلمه أنه فتح القرين، فى كلام كثير تركنا ايراده اختصارا . وبقى القواد فى الأسر هم والرماة . ففادى بهم الفرنج أسرى ، و بقى الإحتياط على الرؤساء وهم ستة نفر ، منهم ريس الإسكندرية ، وريس دمياط ، وأبو العباس المغربى وغيرهم . واستمروا فى الأسر إلى سنة ثلاث وسبعين وستمائة . وقصد السلطان ابتياعهم وسير الأمير فخر الدين المقرى الحاجب إلى صور بسبب ذلك ، فتغالى الفرنج فيهم . وكانوا قد نقلوا إلى عكا وحصل الإحتراز عليهم، وجعلوا فى حبس حصين . فرسم السلطان للأمير سيف الدين بن خطلبا — أحد النواب بصفد — بسرقتهم ، فأرغب الموكلين بهم بالمال حتى دخلوا إليهم بمبارد ومناشير ،وسرقوا من جب القلعة ، وخرجوا فى مركب . وكانت خيل مهيأة ، فركبوا ووصلوا إلى القاهرة ولم يدر بهم أحد بعكا . ثم قامت فتنة بعكا بسببهم .

ذكر عود السلطان إلى قلعته ووصول رسل اليمن، واهتمامه بأمر الشوانى،وما أنعم به من الخلع والخيول على الأمراء والأجناد

قال : وسار السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعة الجبل فى ثانى عشر ذى الحجة سنة تسع وستين، وعند وصوله جهز الأمير شمس الدين آقسنقر استاد الدار بالعساكر إلى الشام ، فخرجوا فى الشهر المذكور .

ووصلت هدية صاحب اليمن فى الشهر [المذكور]وفيها التحف الثمينة وفيل ودب أسود .

ووالى السلطان النزول إلى مصر بنفسه والأمراء فى خدمته لمباشرة عمل الشوانى .

وفى الشهر المذكور خلع وفرق بالميدان على ألف وسبعمائة نفر من الأمراء والحلقة أثمان خيل، وفرق ألفا وثمانمائة وخمسين رأسا، وذلك فى ثانى عشرين الشهر. ثم أعاد العطاء فى الثالث والعشرين منه حتى فرغ الناس وعمهم بالعطاء، ولازم صناعة الإنشاء عدة أيام بسبب الشوانى .

ذكر القبض على من يذكر من الأمراء[1]

وفى هذه السنة فى خامس عشر ذى الحجة أمر السلطان بالقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير علم الدين سنجر الحلبى الكبير ، والأمير جمال الدين أقش المحمدى ، والأمير جمال الدين أيدغدى الحاجبى الناصرى ، والأمير عز الدين إيغان الركنى سم الموت ، والأمير شمس الدين سنقر المساح ، والأمير سيف الدين بيغان[2] الركنى ، والأمير علم الدين سنجر طردح[3] الآمدى وغيرهم ، وحبسوا فى قلعة الجبل .

وسبب ذلك أن السلطان بلغه عنهم وهو بالشقيف أنهم قد عزموا على القبض عليه ، فأسرها فى نفسه إلى أن وصل إلى القاهرة وقبض عليهم واعتقلهم ، ثم أفرج بعد ذلك عن بعضهم .

وفيها : فى سابع عشر ذى الحجة تقدم أمر السلطان بإراقة الخمور[4] فى سائر بلاده ، والوعيد لمن يعصرها بعد ذلك بالقتل والنهب . فأهريقت بأعمال بالديار المصرية

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٥) .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٥ س ١٣ — ١٤) .

وأبطل ضمانها ، وكان فى كل يوم بالديار المصرية خاصة يزيد على ألف دينار، وكتب بذلك توقيع قرئ على الناس بالقاهرة ومصر .

وفى هذه السنة : أمر السلطان بإنشاء جامع بمنشاة المهرانى ، وهى التى على نهر النيل ، والخليج الحاكمى فارق بينهما وبين مصر ، فعمر .

وفيها : توفى قاضى القضاة الشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكى المالكى قاضى قضاة المالكية بالديار المصرية[1] . وكانت وفاته بالقاهرة فى ليلة الأحد الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة تسع وستين وستمائة . ودفن من الغد بمقابر باب النصر . ومولده بالصالحية من الأعمال القليوبية فى ذى الحجة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . وكان رحمه الله تعالى عالما ، وكان قد ولى الحسبة بالقاهرة مدة وعقود الأنكحة ، ثم ولى نيابة الحكم بالقاهرة عن قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز . ثم فوض إليه القضاء أحد الأربعة كما تقدم ذكر ذلك ، رحمه الله تعالى . وولى بعده قضاء المالكية القاضى نفيس الدين أبو البركات محمد بن القاضى المخلص هبة الله بن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر .

وفيها : أيضا توفى القاضى شمس الدين أبو إسحق إبراهيم بن المسلم بن هبة الله ابن البارزى قاضى حماة الشافعى ، رحمه الله ، وولى قضاة حماة فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، واستمر إلى أن توفى الآن .

وفيها : كانت وفاة الملك الأمجد تقى الدين أبى الفضائل عباس بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب . وهو آخر من مات من أولاد الملك

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٩٦) .

العادل ، وكان محترما عند الملوك الأيوبية ، معظما عند السلطان الملك الظاهر ، لا يرتفع عليه أحد فى المجلس ولا الموكب . وكان رحمه الله دمث الأخلاق سمحا كريما عاقلا حازما . وكانت وفاته بدمشق فى يوم الجمعة ثانى عشرين جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون ، وليس له عقب .

وفيها : توفى القاضى كمال الدين أبو السعادات أحمد بن الوزير فخر الدين الأعز أبى الحايل مقدام بن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر . كان أحد الأكابر المشهورين بالديار المصرية متأهل للوزارة وغيرها . وهو خال قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، رحمهما الله تعالى ، وكانت وفاته بالقاهرة فى السادس والعشرين من شهر رمضان . ودفن من الغد من يوم وفاته بسفح المقطم ، وكان يومئذ ناظر بيت المال ، رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى الأمير علم الدين سنجر الصيرفى[1] وكان من أعيان الأمراء بالديار المصرية ، فلما تمكن السلطان الملك الظاهر أخرجه إلى الشام وأقطعه إقطاعا جيدا وزاده عدة قرى ببعلبك ، فتوجه إليها ، فمات فى يوم الأربعاء سادس صفر وهو فى عشر الستين رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى الشيخ العارف قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد ابن نصر بن محمد بن سبعين المرسى الزقوطى[2] ، أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم ، وله تصانيف عدة وجماعة كثيرة ينسبون إليه ، وأقام بمكة سنين كثيرة إلى أن

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٦ س ١١) .

(٢) ترجمته فى شذرات الذهب (وفيات عام ٦٦٩) وفى السلوك (جـ ١ ص ٥٩٧ حاشية ١) وفى النجوم (جـ ٧ ص ٢٣٤) .

توفى بها فى الثامن والعشرين من شوال من هذه السنة، ومولده فى سنة أربع عشرة وستمائة . والزقوطى نسبة إلى حصن من عمل مرسية يسمى زقوطة ، رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى العدل الرئيس زين القضاء أبو المكارم عبد الوهاب بن القاضى الرئيس فخر القضاء أبى الفضائل أحمد بن المرتضى أبى عبد الله محمد بن الجليس أبى المعالى عبد العزيز بن الحسين بن عبد الله بن الحباب التميمى السعدى الأغلبى، سمع وحدّث، وهو من بيت الرياسة والعدالة والفضل بالديار المصرية منذ سكنوها، وهم من ذرية زيادة الله بن الأغلب آخر ملوك بنى الأغلب بأفريقية .

وكانت وفاته بمصر فى التاسع والعشرين من جمادى الأول من السنة . ومولده فى غرة المحرم سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

وفيها : توفى الطواشى الأمير شجاع الدين مرشد الخادم المظفرى عتيق صاحب حماة ومقدم جيشها ، وكان من الشجعان الأبطال ، وكان إذا حمل فى جيش العدو يقول : أين أصحاب الحِصَى . وكان السلطان الملك الظاهر يعتمد عليه لأمانته وشجاعته . وكان يتصرف فى المملكة الحموية تصرف ملوكها للوثوق به .

واستهلت سنة سبعين وستمائة

ذكر توجه السلطان إلى الكرك ثم إلى الشام وعزل الأمير جمال الدين النجيبى عن نيابة دمشق وتولية الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك نيابة السلطنة بالشام واستنابة الأمير علاء الدين أيدكن أستاد الدار بالكرك

وفى سنة سبعين وستمائة: بلغ السلطان أن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وغيره من العربان تغيرت نياتهم وعزموا على الإنضمام إلى التتار. فعلم أنه إن استدعاهم لا يحضرون وينكشف الحال، وإن قصد الشام تسحبوا، فنزل إلى الميدان فى سابع المحرم وفرق على خواصه أربعمائة ألف درهم، واثنى عشر ألف دينار عينا، وستين حياصة ذهبا، وأمر بتجهيز العساكر إلى عكا بعد الربيع. وتوجه السلطان من قلعته بعد المغرب من ليلة تسفر عن سابع وعشرين المحرم فى جماعة يسيرة من خواصه، وخرج من الزعقة[1] فى البرية إلى الكرك وأخفى مقصده، فوصل فى سادس صفر، وطلع إلى قلعة الكرك، وكتب تقليد الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك بنيابة الشام، ولم يعلمه بذلك [حتى تسلم أيدكين نيابة الكرك] بل أفهمه أنه يستنيبه بحصن الأكراد، وتوجه إلى دمشق فوصل إليها فى ثالث عشر الشهر وسير للأمير جمال الدين النجيبى [نائب دمشق] تشريفا وأمره أن

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٩٨) حيث ترد إضافات إيضاحية.

أن يتوجه إلى الديار المصرية، وولى الأمـير عز الدين ايدمر الظاهرى نيابة السلطنة بالشام . وركب السلطان فى ليـلة سادس عشر صفر وتوجه إلى حماة ونزل بظاهرها بالجـوسق ، ونزل صاحب حماة فى خيمة أسوة الناس ، ورتب استاد داره وأمير جانداره وحواشيه فى خدمة السلطان لأنه كان جريدة . فكان أول ما شرع فيـه أمر العربان . وكان سبب نفورهم أشـياء من جملتها أخذ أولادهم رهائن .

ولمـا وصل إلى حماة وجد عثمان بن مانع وعمرو بن مخلول وجماعة من أكابر العربان بفتة فأكرمهم، وما أظهر لهم شيئا، وكتب إلى الأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا يطلب منه فرس فلان ، والفرس الفلانى تسكينا له ،وكان عيسى قد كتب إلى السلطان قبل خروجه من الديار المصرية يستأذن فى الحضور خديعة، فخدعه السلطان ورسم أن لا يحضر حتى يطلب . فكتب إليـه الآن : « إنك كنت طلبت الحضور ، ونحن الآن بحماة ،فإن أردت الحضور فاحضر» . فحضر فسأله السلطان عما نقل عنـه العربان ، فاعترف به ، فرعى له حق الصدق . وأحسن إليه وإلى أمراء العربان ، وأطلق رهائنهم ، وأطلق لعيسى نصف خبزه الذى كان أخذه منه فى سنة ثمـان وستين من سلمية وغيرها ، وهـو مائة ألف وثلاثون ألف درهم ، وأطلق له من حلب ألف مكوك غلة إنعاما ، وأطلق لغيره من العربان من خمسمائة مكوك إلى ما دونها .

وفى مستهل شهر ربيع الأول ، ركب السلطان من حماة بعد العشاء الآخرة ولم يعلم بقصده، وسار على طريق حلب،ثم عرج فأصبح بظاهر حمص ،وتوجه إلى حصنى الأكراد وعكار فكشفهما[1] ، وتوجه إلى دمشق .

(١) انظر السلوك (ج ١ ، ص ٩٩٥ س ١٢ — ١٣).

وورد الخبر أن جماعة من التتار أغاروا على عين تاب ، وتوجهوا إلى عمق حارم[1] فى نصف شهر ربيع الأول، فكتب [السلطان] إلى الديار المصرية بتجريد الأمير بدر الدين بيسرى بثلاثة آلاف فارس، وتوجه بذلك صارم الدين المشرقى، وخرج من دمشق الثالثة من نهار الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأول، ودخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادى عشرينه ، فخرج الأمير بدر الدين بيسرى والعسكر بكرة نهار الأربعاء المذكور .

ووصل الأمير شمس الدين أستاد الدار بالعسكر المجرد وكانوا على جينين وهم خمسمائة فارس . وكان التتار قد أغاروا على حارم والمروج وقتلوا جماعة ، وتأخر ابن مجلى والعسكر الحلبي إلى حماة ، وجفل أهل دمشق ، وبلغت قيمة الجمل ألف درهم ، وأجرته إلى مصر مائتى درهم .

ووصل الأمير بدر الدين بيسرى والعسكر إلى دمشق فى رابع شهر ربيع الآخر ، وتوجه السلطان بالعسكر إلى حلب، وجرد الأمير شمس الدين أستاد الدار وجماعة معه إلى مرعشن ، وجرد الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيرى والأمير شرف الدين عيسى بن مهنا إلى حران والرها ، فتوجها ووصلا إلى حران ، فاتصل الخبر بمن فيها من نواب التتار فخرجوا فالتقاهم الأمير شرف الدين عيسى وطاردهم وطاردوه ، ثم وصل العسكر فخرج عليهم كمينه ، فلما رأوه نزلوا عن خيولهم، وقبلوا الأرض ، وألقوا سلاحهم، فقبضوا عن آخرهم ، فكانوا ستين رجلا . ثم سار الأمير علاء الدين طيبرس إلى حران ، فلما أشرف عليها أغلق من فيها أبوابها وتركوا بابا واحدا ، فخرج منه الشيخ محاسن أحد أصحاب الشيخ

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٦٠٥) .

حياة ومعه جماعة كثيرة ، وذلك فى يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الآخر ، وأخرج لهم طعاما قليلا لأجل البركة ، فتلقاه الأمـــير علاء الدين وترجل له . فلما اجتمع به أخرج له الشيخ مفاتيح حران وقال له : «هذا بلد السلطان فتسلمه» . فقال له : «طيب قلوب الجماعة ويكونون[1] على ماهم عليه إلى أن يصل السلطان» . وعصى برج باب يزيد وفيه شحنة التتار فطلبه فامتنع ، وقال : « إذا جاء السلطان خرجت إليـه » ، فعاد الأمـير علاء الدين طيـبرس ولم يدخل حران ، وعبر الفرات سباحة .

وبعد توجهه فارق أكابر أهـل حران البلد ووصلوا إلى دمشق مثل : أمين الدين بن شقير ، وخطيبها الشـيخ شهاب الدين بن تيمية ، وأولاد بشر ، وابن علوان وغيرهم ، وأقام جماعة كثيرة من أهل حران بحلب وحماة وحمص وتفرقوا فى البلاد ، وبقى جماعة بحران .

فلما كان فى الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة ، وصل جماعة من التتار إلى حران ، فأخربوا أسـوارها وأكثر أصـوافها ودورها ونقضـوا جامعها وأخذوا أخشاب سقوفه ، واستصحبوا معهم من بقى فيها ، فخـربت وأخليت ودثرت إلى الآن . وكانت من المدن الجليلة .

ذكر عود السلطان من حلب ورجوعه إلى الديار المصرية وعوده إلى الشام[2]

وفى آخر شهر ربيع الآخر بلغ السلطان أن الفرنـج أغاروا على قاقون ، وقتلوا

(١) فى الأصل : « ويكون » .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٠١) .

الأمير حسام الدين استاد الدار ، وجرح الأمير ركن الدين بيبرس العجمى الجالق وجرح [بجكا العلائى] والى قاقون . فرحل السلطان من حلب ،ودخل دمشق وبين يديه التتار الذين أسروا من حران . وأما الفرنج فإنهم لما قصدهم العسكر المجرد بقاقون تأخروا عنها ، ووصل الأمير جمال الدين أقش الشمسى بعسكر عين جالوت ، فولوا مدبرين ، ولحقهم العسكر واسترجع منهم تركمانا ،وقتل من رجالتهم وعرقب من خيولهم [خمسمائة رأس] . وخرج السلطان من دمشق فى ثالث جمادى الأول وصحبته العساكر بنية الغارة على الفرنج ، وقصد عكا فتوالت الأمطار وهو على مرج برغوث (١) حتى كاد الناس يهلكون . فانثنى عزمه عن الإغارة . ورد العسكر الشامى وصار إلى الديار المصرية . فوصل إلى قلعة الجبل فى الثالث والعشرين من جمادى الأول وأقام بقلعته أياما .

ثم توجه إلى الجيزية للتنزه فى يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة فى جماعة من أمرائه وخواصه ، فحضر إليه مطالبيه ، وأخبروه أن بناحية بوصير السدر من الجيزية مغارة بها مطالب . فتوجه إليها وأمر بحفرها . فجمع متولى الجيزية جماعة ، فحفروا وأعمقوا ، فأخرجوا قطاطا ميتة ، وكلاب صيد ، وطيورا وغير ذلك من الحيوانات ، وهى ملفوفة فى خرق ، فإذا حلت اللفائف عنها وأصابها الهواء صارت ترابا تذروه الرياح ، ولم يوجد فيها خلاف ذلك . وعاد السلطان من الجيزية فى يوم الثلاثاء العشرين من الشهر .

---

(١) فى الأصل بدون نقط . انظر السلوك (ج ١ ص ٦٠١) ع

ذكر إيقاع الحوطة على القاضى شمس الدين الحنبلى واعتقاله[1]

وفى سنة سبعين وستمائة : أمر السلطان بإيقاع الحوطة على منزل قاضى القضاة شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسى الحنبلى .

وسبب ذلك أن تقى الدين شـبيب الحرانى كان أخـوه ينوب عن قاضى القضاة المشار إليه بالمحلة فعزله ، فغضب أخوه المذكور لذلك ، وكتب رقعة إلى السلطان يقول : « إن القاضى شمس الدين عنده ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام وغيرهم جملة كثيرة ، وقد مات بعض أهلها واسـتولى عليها » . فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك فأنكره وجحد ، فطلب منه اليمين فحلف وتأول يمينه . فعند ذلك أمر السلطان بهجم داره ، فهجمت ووجد فيها كثير مما ادعاه شبيب ، بعضه قد مات أربابه ، فأخذت زكاة ماوجد مدة سنتين . وسلم مابقى لأصحابه . فغضب السلطان عند ذلك على قاضى القضاة ، وأمر باعتقاله ، وتوجه السلطان إلى الشام وهو فى الإعتقال ، فتسلط شبيب عليه حينئذ وادعى أنه حشوى وأنه يقدح فى الدولة . وكتب بذلك محضرا ، فأمر الأمـير بدر الدين الخزندار نائب السلطنة بعقد مجلس ، فعقد له يوم الاثنين حادى عشر شـعبان من السنة واستدعى من شهد فى المحضر ، فنكل بعضهـم عن الشهادة فأطلقـوا ، وشهد الباقون ، فأحرق بهم وجرسوا . ثم تبين للأمير بدر الدين الخزندار تحامل شبيب لمـا ظهـر له من إساءته على القاضى شمس الدين والقدح فيـه ، فأمر باعتقاله

(١) كذا فى الأصل بدون نقط ، انظر السلوك (ج ١ ص ٦٠٢) .

والحوطة على موجوده . وأعاد القاضى إلى الإعتقال فاستمر به إلى أن أفرج عنه فى النصف من شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، [ولم يول السلطان بعده قضاء الحنابلة أحدا][1]

ذكر توجه السلطان إلى الصيد ثم إلى الشام[2]

قال : ولما عاد السلطان من الجيزية ، أقام بقلعة الجبل إلى شهر رجب من هذه السنة ، وخرج متصيدا إلى جهة الصالحية ، فبلغه حركة التتار فرجع إلى القلعة وتجهز .

وخرج إلى الشام فى ثالث شعبان من السنة ، ونزل بمرج قيسارية وحصلت الهدنة مع الفرنج[3] .

ونزل السلطان بمنزلة الروحاء وعيّد بها عيد الفطر ، ورحل منها فى ثانى شوال إلى خربة اللصوص ، ثم توجه إلى دمشق .

ووردت رسل التتار ، وهم رسل صمغار مقدم عسكر التتار بالروم ، ورسل البروناه ، فحضروا بين يدى السلطان وسمع مشافهتهم ، وتضمن الكتاب الذى على أيديهم الرغبة فى الصلح وطلب رسل من السلطان . فجهز إليهم الأمير مبارز الدين الطورى أمير طير ، والأمير فخر الدين المقرى الحاجب ، فتوجها هما

---

(١) الإضافة لتكملة الخبر عن السلوك (جـ١ ص ٦٠٣) .

(٢) انظر السلوك (جـ ٢ ص ٦٠١ ، ٦٠٢) .

(٣) المقصود فرنج عكا حسب نص السلوك (نفس الموضع) .

والرسل فى نصف شوال سنه سبعين، واجتمعا بصمغار، بين سيواس والجسر، فأكرمهم وأوصلوه ما كان معهم من الهـدية ، وهى : قسى تسعة ، ودبابيس تسعة . واعتذروا عن قلتهـا كونهم حضروا على خيل البريد . وفى اليوم الثانى اجتمعا بالبرواناه واعطياه قماشا فاخرا كان السلطان قد سيره إليه خفية ، وسير معهما هدية لأبغا بن هولاكو ، وهى جوشن ريش قنفد ، وخـوذه كذلك ، وسيف ، وقوس ، ودركاش[1] ، وتسع فردات نشابا ، وتوجهـوا صحبة البرواناه إلى الأردو ، وأوصلوا إلى أبغا هديته . وقال له الأمير مبارز الدين الطـورى : « السلطان يسلم عليك و يقول : إن رسل منكوتمـر وردوا إليـه مرارا ، أن السلطان يركب من جهته . ويركب الملك منكوتمـر من جهتـه ، وأين وصلت خيل سلطاننا كان له ، وأين وصلت خيـل منكوتمر كان له » فانزعج أبغا انزعاجا عظيما ، وقام وركب وخرجت الرسل إلى خيامهم ، ثم طلب أمراءه للمشورة[2] ، وبعد ذلك خلع على الرسل وأذن لهم فى السفر فعادوا .

وأما السلطان فإنه أقام بدمشق حتى ضحى بها ، وأحسن إلى صاحب حماة ، وأمر بجلوسه معه بطراحة ومسند وكرسى فى رأس السماط مسامتا للسلطان .

ثم توجه بعد ذلك إلى حصنى الأكراد وعكار[3] وشاهـد العمارة بهما ، وعمل بيده ، وخلع على من بحصن الأكراد من الأمراء وأرباب الوظائف .

وعاد فتصيّـد فى الطريق وخلـع مقـدار خمسمائة تشريف على من أحضر صيدا ، ورجع إلى دمشق فدخلها فى خامس المحرم سنة إحدى وسبعين .

(١) كذا فى الأصل ، والمؤلف يختار الدال دائما بدل التاء .

(٢) فى الأصل « المشهور » ، والتصحيح يقتضيه السياق .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٠٢) .

وفى سنة سبعين وستمائة : كانت وفاة الملك الأمجد أبى الحسن بن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب[1] ، رحمهم الله تعالى ، بدمشق فجأة فى يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى، ودفن بسفح قاسيون وله من العمر ما ينيف على خمسين سنة تقريبا . وكان من الفضلاء ، وله مشاركة فى العلوم ومعرفة بالأدب ، وتنقلت به الأحوال فى عمره ، وصحب الفقراء والمشايخ ، وانتفع بهم وأخذ عنهم. وكان كثير البر لمن يصحبه من المشايخ. وكانت همته عالية ونفسه ملوكية ، وله صبر على المكاره . وكان جميع أهل بيته يعظمونه ويعترفون له بالتقدمة ، حتى عم أبيه الملك الأمجد تقى الدين الذى قدمنا ذكر وفاته . وكان حسن الخط والترسل ، وكان واسطة عقد هذا البيت . فإن أمه ابنة الملك الأمجد مجد الدين حسن بن السلطان الملك العادل الكبير ، تسمى باسم جده . وإلى جده لأمه المذكور ابن الملك العادل ينسب الغور الأمجدى وهو الخميلة ، والنويعمة[2] ، ودامية ، والحمام ، وورثة أولاد الملك الناصر عن أمهم . وتزوج الملك الأمجد هذا ابن الملك الناصر داود ، ابنة الملك العزيز غياث الدين بن الملك الظاهر أخت الملك الناصر صاحب الشام وأولدها ولدا سماه صلاح الدين محمود .

وفيها : توفى الصدر الكبير وجيه الدين أبو عبد الله محمد بن على بن سويد بن معالى بن محمد بن أبى بكر الربعى التغلبى التكريتى التاجر[3] المشهور بسعة المال والثروة

(١) راجع النجوم (جـ ٧ ص ٦٧٠) مع اختلاف فى الاسم .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى النسخة « س » : « البريعمة » .

(٣) انظر النجوم (جـ ٧ ص ٣٣٨ س ٢ ، ٣) .

والجاه ونفوذ الكلمة ، [بلغ] مالم يبلغـه أحد من أمثاله . وكانت كتبه تنفذ عند سائر الملوك ، حتى عنـد ملوك الفرنج بالساحل . وكانت النجابون تأتيه من بغداد إلى دمشق فى مهمات تتعلق بالخلافة . وكانت متاجره لايتعرض إليهـا . وكان خصيصا بالمـلك النـاصر صاحب الشام لا يخـرج عن إشارته ورأيه . وانبسطت يده فى دولته . وكان عنده فضة كثيرة ، مراود وجسرا[1] ، فاسـتأذن الملك الناصر على ضربها دراهم فأذن له ، وجعل دار الضرب بدمشق بيـده ، فضرب منها شيئا كثيرا ، وكانت مغشوشـة ، فخسر الناس فيها أموالهم . ولمـا ملك هولاكو البلاد وصل إليه فرسان من جهته يتضمن تأمينه على نفسه وماله فما وثق به . وفارق دمشق إلى الديار المصرية . وغرم جملة مقارب ألف ألف درهـم بسبب الدراهم المغشوشـة وغيرها . ثم تمكن فى الدولة الظاهرية تمكنا كبيرا ، ووكله السلطان الملك الظاهر ، وجعله وصيه على أولاده من بعده وناظر أوقافه ، وخوطب فى مكاتباته بالمجلس السامى المولوى . وكان مع تمكنه من الملك الناصر لايكتب له عنه إلا الصدر الأجل . وكان سبب تمكنه من السلطان الملك الظاهر ما حكاه شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبى بكر الجزرى فى تاريخه عن والده ، رحمه الله تعالى ، قال : كنت عند وجيه الدين فى داره فى أيام الملك الناصر ، وقد جاء إليه المـلك الظاهر وهو يومئـذ فى خدمة المـلك الناصر من أمرائه ، وشكى إليـه ضعف إقطاعه ، وأنه قد ركبه دين كثير ، وليس عنده كسوة لصغاره ، وسأله أن يتحدث له مع المـلك الناصر ، وكان قد وصل إلى وجيـه الدين فى تلك الساعة من عكا جوخ سقلاط وغيره ، فأعطاه منـه كفاية

(١) كذا فى الأصل كأنه جمع « مرود » وجمع « جسر » .

عشرة أقبية، وخرق كتان فرنجى مائتى دراع، وخمس تقاطيع سكندرى، وتفصيلتين حرير، وألف درهم . وقال له : « ياخوند[1] مهما كان لك من حاجة أو خدمة أطلب ذلك منى ، ولا حاجة بقول السلطان » . قال : والله لقد رأيت الملك الظاهر وقد أهوى إلى أقدام وجيه الدين ليقبلها ، فرعى له السلطان الملك الظاهر حق هذا الإحسان . وملك وجيه الدين المذكور عدة من ضياع دمشق وأملاكها . وكان مع ذلك كله فيما حكى عنه شحيحا على طعامه ، لكنه كان يتكرم بماله . وكانت وفاته بدمشق فى ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شوال سنة سبعين وستمائة . ومولده بتكريت فى ذى القعده سنة تسع وستمائة ، رحمه الله تعالى .

(١) فى الأصل : « يا خوند » .

واستهلت سنة إحدى وسبعين وستمائة

ذكر توجه السلطان إلى الديار المصرية على خيل البريد وعوده إلى الشام

قال : لما عاد السلطان من كشف الحصون فى خامس المحرم من هذه السنة ، استشار خواص الأمراء فى أن التتار تواترت الأخبار بحركتهم ، وأنهم متى قصدوا البلاد والعساكر والخزائن غير حاضرة صعب الأمر ، وعرفهم أنه يتوجه إلى الديار المصرية على البريد .

وركب ليلة السادس من المحرم بعد عشاء الآخرة ، وصحبته الأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير جمال الدين أقش الرومى ، وجبرك[1] السلاح دار ، وجرمك الناصرى ، وسنقر الألفى السلاح دار ، وعلم الدين شقير مقدّم البريدية . فدخل قلعته يوم السبت ثالث عشر المحرم ، ولم يشعر الناس إلا وهو داخل من باب القلعة ، فدخل وتوجه إلى الميدان ولعب الكرة ، وكتب إلى الأمراء المقيمين بالشام أنه سطرها من البيرة ، وصير علائم بخطه ليكتب عليها أجوبة البريد من دمشق إلى الأطراف . وكان الأمير سيف الدين الدوادار بقلعة دمشق لتجهيز الكتب والبريد . وفى يوم الاثنين توجه إلى مصر وركب فى البحر ولعبت الشوانى . وفى ليلة الأربعاء سابع عشرين المحرم جهز العسكر المجرد إلى الشام ،

---

(١) كذا فى الأصل ، انظر السلوك (ج ١ ص ٦٠٤) .

وتوجه هو إلى الشام فى ليـلة التاسع والعشرين من الشهر هو ومن كان معه من الأمراء . ووصل إلى دمشق فى ثالث صفر ، ودخل قلعتها ليلا .

وحضر إليه رسل أبغا وكان مضمون مشافهتهم طلب الاتفاق .

ثم توجه السلطان إلى قلعة البيرة عندما نازلهـا التتار . وكان من انهزامهم ما نذكره إن شاء الله تعالى فى الغزوات والفتوحات .

ثم عاد السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعتـه فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وستمائة .

وفى السابع والعشرين من الشهر: أفرج عن الأمير عز الدين الدمياطى[1] وأنزله بدار الوزارة ورتب له الرواتب ، وكان فى الاعتقال من شهر رجب سنة إحدى وستين وستمائة .

وفى شهر رجب: خلع السلطان على الأمراء والوزراء والقضاة[2] والمقـدمين ، وعم بذلك المسافرين والمقيمين .

وفى هذه السنة: نجزت عمارة قبة الصخرة الشريفة[3] ، وذلك فى يوم عرفة ، وكان السلطان قد توجه إليها وجميـع الصناع لعمارتها كما قدمناه .

ذكر اعتقال الشيخ خضر[4]
والأسباب التى أوجبت ذلك

وفى يوم الاثنين ثانى عشر شوال سنة إحدى وسبعين : أحضر الشيخ خضر

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٠٧) . (٢) انظر السلوك (نفس الموضع) .
(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٠٨ س ١٢) . (٤) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٠٨) .

ابن أبي بكر بن موسى العدوى المهرانى شيخ السلطان إلى قلعة الجبل ، وأحضر جماعة خانقوه على أشياء كثيرة منها اللواط والزنا وغيره ، فتقدم أمر السلطان باعتقاله . وكان سبب ذلك أنه تعاطى أمورا منكرة وأفحش ، ثم شرع يغض من الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة ، والصاحب بهاء الدين ، وانتقل إلى حد المهاجرة لهما بالقول بحضرة السلطان ، وهو أن السلطان أطلق له شيئا فتوقف الأمير بدر الدين فى إمضائه ، فقال له بين يدى السلطان : « كأنك تشفق على السلطان وعلى أولاده ، كما فعل قطز بأولاد الملك المعز » . فخشى عاقبة ذلك . فاتفق هو والصاحب بهاء الدين على التدبير عليه وإطلاع السلطان على ما خفى عنه من حقيقة حاله ، ووافقهما على ذلك الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام ، ورتبه ، وذلك أنه طلب إسماعيل ومظفر نائبه بدمشق وآخر من أتباعه اسمه محمد بن بطيخ وتهددهم أولا ، ثم وعدهم أنهم متى اعترفوا على شيخهم بما يعتمده أحسن إليهم وجعل لهم الرواتب . فذكروا عنه أشياء كثيرة وأشهدوا على أنفسهم بذلك . فكاتب السلطان فى أمره ، فأمر بإرسالهم على خيل البريد فأرسلوا . ولما حضروا بين يدى السلطان سمع كلامهم . ثم أحضره وقال له : « هؤلاء نوابك بالشام ، ما تقول فيهم ؟ » فذكر من خبرهم وصدقهم وأنه رضى بما يقولونه فيه . فذكروا عنه من القبائح والمنكرات وارتكاب المحرمات شيئا كثيرا ، وخانقوه على ذلك . فأطلقهم السلطان وأمر بإيقاع الحوطة على موجوده .

وحكى الشيخ قطب الدين اليونينى فى تاريخه : أنه لما حضر أولئك لمخانقته كان ذلك بحضور الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب الأتابك ، والأمير سيف الدين قلاون ، والأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير سيف الدين قشتمر

العجمى ، فخانقه أصحابه على كل عظيمة لاتصدر من مسلم . فقال : « ما أعرف ما تقولون . ومع هذا ، أنا ما قلت إنى رجل صالح ، أنتم قلتم هذا . فإن كان الذى تقولون صحيح فأنتم كذبتم » . فقام السلطان وقال للأمراء : « قوموا بنا لئلا نحترق بمجاورته » . فقاموا وانتقلوا إلى طرف الإيوان . فاستشار السلطان الأمراء فى أمره ، فقال له الأتابك : « هذا مطلع على أسرار الدولة وبواطن أحوالها وما ينبغى إبقاؤه ، ووافقه من حضر من الأمراء على هـذا الرأى ، وقالوا : ببعض ما قيل عنه يباح دمه . ففهم ما هم فيه ، فقال للسلطان : « اسمع ما أقول لك ، أنا أجلى قريب من أجلك ، وما بينى وبينك إلا مدة أيام يسيرة ، من مات منا لحقه الآخر عن قريب » . فلما سمع السلطان كلامه وجم ، وقال للأمراء : « ما تشيرون فى هذا » ؟ فسكتوا . فقال السلطان : « أرى أن يحبس فى مكان لا يصل إليه أحد ولا يسمع كلامه ، فيكون كمن قبر وهو حى » . ثم أمر به فحبس فى مكان منفرد بقلعة الجبل ، ولم يدخل إليه إلا من يثق السلطان به غاية الوثوق . وكان يرسل إليه الأطعمة الفاخرة والفواكه والملابس ، واستمر فى الإعتقال إلى أن توفى فى سنة ست وسبعين وستمائة قبل وفاة السلطان بأحد وعشرين يوما . وسنذكر إن شاء الله تعالى ، مبدأ أمره وسياقة أخباره عند ذكر وفاته .

وفيها : هرب الأمير عمرو بن مخلول من آل فضل من قلعة عجلون هو وحامد رفيقه . وكان السلطان قد اعتقلهما فى برج من أبراج القلعة ، فحفر حفيرة ملاصقة للسور ووقدوا النار حتى تكلس حجر السور ، فنقباه وخرجا منه ، وقد كانت أعدت لهما خيل سوابق فركباها وتوجها إلى بلاد التتار ، ثم ندما على ما فعلاه ، فكتبا إلى السلطان يسألان مراحمه ، فحلف أنه لا يرضى عنهما إلا أن

يعودا إلى قلعة مجلون ويضعا أرجلهما فى القيود على ما كانا عليه ، ففعلا ذلك . وكان عودهما من بلاد التتار فى ذى الحجة سنة اثنين وسبعين وستمائة . ولما رجعا إلى الطاعة وفعلا ما أمر السلطان به عفا عنهما وأطلقهما وأحسن إليهما .

وفى هذه السنة فى رابع عشرين ذى الحجة : توفى الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الفائز إبراهيم بن الملك السلطان العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ، رحمهم الله تعالى ، فى معتقله بحب خزانة البنود ، ودفن بتربتهم بالقرافة بجوار الإمام الشافعى . ومولده فى صفر سنة ست وستمائه ، رحمه الله تعالى[1] .

وفيها : كانت وفاة الأمير سيف الدين محمد بن الأمير مظفر الدين عثمان ابن الأمير ناصر الدين منكورس بن بدر الدين خُمردكين[2] صاحب صهيون وبرزية فى شهر ربيع الأول . وكانت وفاته بصهيون وقد ناف على ستين سنة ، ودفن بتربة والده . وتسلم صهيون وبرزية بعده ولده الأمير سابق الدين سليمان ، ثم أخذهما السلطان منه فى هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : كانت وفاة الحافظ الخطيب فخر الدين أبى محمد وأبى الفرج عبد القاهر ابن الشيخ علاء الدين عبد الغنى بن محمد بن تيمية الحرانى . وكانت وفاته بدمشق فى ثانى عشر شوال من هذه السنة . ودفن بمقابر الصوفية . ومولده فى سنة ثنتى عشرة وستمائة ، سمع الحديث من جده ومن ابن اللتى ، وخطب بجامع حران وكان فاضلا دينيا ، وهو من بيت معروف بالعلم والفضيلة ، رحمه الله تعالى[3] .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٠٩ حاشية ٢) .

(٢) لا ترجمة له فى السلوك ولا فى النجوم ، وله ترجمة فى شذرات الذهب (جـ ٥ ص ٣٣٥ وفيات عام ٦٧٠) .

(٣) ترجمته فى شذرات الذهب (جـ ٥ ص ٣٣٤ وفيات عام ٦٧٥) .

واستهلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة

ذكر الطلسم الذى وجد بباب القصر بالقاهرة

قال المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، رحمه الله تعالى، فى السيرة الظاهرية : لما كان يوم عاشوراء من هذه السنة وجد ما سنذكره[1] ، وذلك أنه كان قد رسم بنقض علو أحد أبواب[2] القصر المسمى بباب البحر قبالة دار الحديث الكاملية ، لأجل نقل عمد منه لبعض العمائر السلطانية ، فظهر صندوق فى حائط مبنى عليه ، وللوقت أحضرت الشهود وجماعة كثيرة وفتح الصندوق . فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ على كرسى شكل الهرم ، ارتفاعه قدر شبر له أربعة أرجل تحمل الكرسى ، والصنم جالس عليه متوركا ، وله يدان مرفوعتان ارتفاعا جيدا ، يحمل صفيحة يكون دورها قريب الثلاثة أشبار ، وفى هذه الصفيحة أشكال بائنة[3] ، الأوسط صورة رأس بغير جسد ، وعليه دوائر مكتوب عليها كتابة بالقبطى بالقَلَفْطِرِيَّات[4] ، وإلى جانبها فى الصفيحة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة ، وإلى الجانب الآخر شكل على رأسه صليب ، وآخر فى يده عكاز وعلى رأسه صليب وتحت أرجلهما أشكال طيور . وفوق رءوس الأشكال كتابة كثيرة أكثر من

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٠٩) .

(٢) فى الأصل : « باب » .

(٣) كذا فى الأصل ، من الممكن قراءة « نائتة » مع افتراض وجود تصحيف .

(٤) فى الأصل « بلقد قطر يات » ، وبعد صفحة « بلقلفطر يات » والفرق وجود دال أو راء فى نفس الموضع . ويحتم وضع الكلمة فى الجملة أن يكون أولها حرف وال التعرف . ويبقى أصل الكلمة : قد قطريات أو فلفطريات ، ولم يستطع المحقق تحديد المعنى .

نصف الصفيحة. وعلى الأشكال كتابة. ووجد مع هذا الصنم فى الصندوق لوح من الواح الصبيان التى يكتبون فيها فى المكاتب مدهون وجهه الواحد[1] أبيض، ووجهه الآخر أحمر، وفيه كتابة قد تَكَشَّطَ أكثرها من طول المدة وقد بلى اللوح وما بقيت الكتابة تلتئم ولا الخط يفهـم.

قال: والوجه الأبيض مكتوب بقلم الصفيحة القبطىّ. وذكر ما ظهر من الكتابة على الوجه الأحمر وهى ثلاثة عشر سطرا، ذكر ألفاظا غير ملتئمة، إلا أن المفهوم منها على غير التتامة: «الإسكندر ذو الملك يزجر». وذكر ما ظهر فى كل سطر، وأخلى لما تكشط منه مما لا فائدة فى ذكره، والذى شرحه من السطر الثانى عشر ما صورته: «شد أيضا كل أمار[2] أشد به». قال: وقيل إن هذا اللوح بخط الحاكم خليفة مصر. وأعجبُ ما فيه اسم السلطان وهو بيبرس. قال: ولما شاهد السلطان ذلك أمر بقراءته، فعرض على قراء الأقلام، فقرىء، وهو بالقلم القبطى، ومضمونه طلسم عمل للظاهر بن الحاكم، وفيه أسماء ملائكة وعزائم ورُقىً وأسماء روحانية وصور ملائكة، وأكثره حرسٌ للديار المصرية وثغورها وصرف الأعداء وكفهم عن طروقهم إليها، وابتهالٌ إلى الله بأقسام كثيرة بحماية الديار المصرية، وصونها من الأعداء، وحفظها من كل طارق ومن جميع الأجناس.

قال: وتضمن هذا الطلسم كتابه بالقلفطريات[3] وأوفاقٌ وصورٌ وخواصٌ لا يعلمها إلا الله تعالى. وحمل هذا الطلسم إلى السلطان فبقى فى ذخائره.

(١) فى الأصل «الآخر»، وهو لفظ غير مناسب للسياق.

(٢) كذا فى الأصل، مع نقص النقط، والجملة كلها غامضة، ويحتمل أن تحوى إشارة إلى الأسدين اللذين اختارهما بيبرس رمزا يرسم على أسلحته.

(٣) كذا فى الأصل.

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : رأيت فى كتاب عتيق رث[1] سماه مصنفه : وصية الإمام العزيز والد الإمام الحاكم لولده المذكور ، وقد ذكر فيه الطلسمات التى على أبواب القصر . وقال : إن أول الكواكب الحمل ، وهو قلب المريخ ، وشرف الشمس ، وله القوة على جميع سلطان الفلك ، لأنه صاحب السيف ، وله الأمر والحرب والسلطان والقوة ، والمستولى لقوة روحانيته على مدينتنا عندما بنيناها . وقد أقمنا طلسما لساعته ويومه لقهر الأعداء وذل المنافقين ، فى مكان أحكمناه على شُرافة[2] عليه والحصن الجامع لقصره مجاور لأول باب بنيناه . هذا نص ما فى الكتاب ، والله أعلم .

ذكر توجه السلطان إلى الشام[3]

وفى سنة اثنتين وسبعين وستمائة : وردت الأخبار بحركة أبغا بن هولاكو ملك التتار ، فخرج السلطان فى ليلة السادس والعشرين من المحرم ، وصحبته جماعة من أمرائه الخواص ، منهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، والأمير سيف الدين أوتامش[4] السعدى . فلما وصل إلى عسقلان بلغه أن أبغا وصل إلى بغداد وقد خرج إلى الزاب متصيدا ، فكتب إلى القاهرة يستدعى العساكر . فخرج منها يوم السبت حادى عشر صفر أربعة آلاف فارس [مع] مقدميهم : الأمير علاء الدين طيبرس الوزير ، والأمير جمال الدين أقش

(١) كذا فى الأصل دون نقط الثاء .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦١٠) .

(٤) كذا فى الأصل دائما . ويجرى السلوك (نفس الموضع) على عدم إثبات الواو .

الرومى، والأمير شمس الدين أقش المعروف بقَطْلِيجا[1]، والأمير علم الدين سنجر طردح[2]. ورحلوا من البركة فى يوم الاثنين . ثم قويت الأخبار ، وهـو فى أثناء الطريق بحركة التتار ، فكتب السلطان بخـروج العساكر جميعها والعربان من الديار المصرية صحبة بدر الدين بيليك الخزندار ، ورسم بأن جميع من فى مملكته ممن له فرس يركب إلى الغزاة، وأن يُخْرِج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حال أهل البلد ، ويقومون بكلفتهم . ودخل السلطان إلى دمشق فى سابع عشر صفر . وكان رحيل العساكر من القاهرة فى العشرين من صفر ، فوصلوا إلى يافا ، وورد المرسوم بنزولهم قريبا منها ، وركب السلطان من دمشق فى نحو أربعين فارسا جرائد ، ولم يستصحبوا ركاب دار السلطان ولا غـيره[3] . فوصل وقد طُلِّبت العساكر وقاربوا المنزلة ، فاعترضهم السلطان وجماعته وقد ضرب كل منهم على وجهه لثاما ، فظن الحجاب أنهـم من التركمان ، فرسمـوا لهم بالترجل فمـا ترجلوا[4] . وساق السلطان منفردا وجاء من خلف الصناجق وحسر اللثام عن وجهه ، فعرفه السلاح دارية فأفرجوا له ، فدخل وساق فى الموكب فنزل الناس وقبـلوا الأرض ، وساق السلطان ونزل بدهليزه فرتب المصالح . وأصبح فى اليوم الثانى وركب فى موكبـه ، ونزل فقضى حوائج الناس وركب عند المساء ، هو ومن حضر معه وعاد إلى دمشق .

---

(١) كذا فى الأصل ، وكذلك فى السلوك (جـ ١ ص ٦١٠) .

(٢) كذا فى الأصـل ، وقراءات السلوك نفس الموضع هى : طروح ، طردح ، ططح ، والأرجح هو استبعاد وجود واو فى مكان الدال أو الطاء .

(٣) فى الأصل : لغيره .

(٤) فى الأصل : « بالترحل فارتحلو » والتصحيح منقول عن السلوك (جـ ١ ص ٦١١) .

ذكر وصول الملك شمس الدين بهادر صاحب شميصاط[1] وشيء من أخباره

هـذا المذكور هو الملك شمس الدين بهادر بن الملك فرج[2] ، أمير الطست للسلطان جلال الدين خوارزم شاه منكبرتى ، وكان والده قد ملك بعد السلطان جلال الدين قلعة كيران[3] وست قلاع أخرى فى ناحية نقجوان[4]. ووصل إلى بلاد الروم فأقطع أقصرا ، فكاتب شمس الدين هـذا السلطان وراسله ، وتقرب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار العدو ، وذلك فى سنة إحدى وسبعين وستمائة . واتفق السلطان معه على نكتة غريبة قتل بسببها الجاثليق النصرانى ؛ وكان قد أهان المسلمين ببغداد وسكن[5] مواطن الخلافة وأفسد أمور المسلمين . فكتب السلطان كتابا إلى الجاثليق مضمونه : عرفنا محبتك وتوصيتك على النصارى الذين ببلادنا ، وقد أكرمناهم لأجلك ، وعرفنا أخبار المغل الباطنة التى أشرت إليها . وذكر فى الكتاب أمورا موهمة لا أصل لها ، منها : الذى التمسته لمن أشرت قد أجبنا إليه ، وتسليم الأمكنة لمن عنيت قد حلفنا على تسليمها ، والدواء الذى تقرر السعى فى استعماله لمن أشرت إليه قد علم ، والله يقدر ذلك ، والذى طلبته من دهن البلسان والآثار المسيحية[6] قد سيرناها ،

(١) كذا فى الأصل : ويختلف الهجاء من مؤرخ لآخر ، راجع السلوك (ج ١ ص ٦١١) .

(٢) انظر السلوك (ج ١ ص ٦١١) .

(٣) كذا فى الأصل ، مع رسم النون النهائية كالباء النهائية .

(٤) كذا فى الأصل ، بغير نقط .

(٥) كذا فى الأصل .

(٦) كذا فى الأصل .

وسيرنا قطعـة من صليب الصلبوت ، وسـيرنا ذلك إلى الرحبة ، وعرفنا النائب بها الأمارة التى قررت . فأرسل من تثق إليـه بالأمارة ليتسلم ذلك . وسير السلطان هذا الملطف[1] إلى النائب بالبيرة ، ورسم له أن يجهزه صحبـة أرمنى يوصله إلى الجاثليق ، وأنه إذا جهزه يرسل إلى الملك شمس الدين بهادر يعرفه بخبره وحِلْيَته . ففعل ذلك ، وأرسل بهادر من أمسك هـذا القاصد وسير به إلى أبغا . فلما وقف أبغا على الملطف كان فيه هـلاك الجاثليق ، وتقرب شمس الدين بهادر إلى السلطان بأشياء كثيرة مثل ذلك . فشعر التتار به فأمسكوه وتوجهوا به إلى الأردو ، وهربت حاشيته ومماليكه ، فوصلوا إلى باب السلطان وهم يزيدون على ألفى نفر من مماليك وأجناد وغيرهم ، فأحسن إليهم ورتب لهم الرواتب . وأما المـلك شمس الدين بهادر فإنه هرب ونجا بنفسه ووصل البيرة فتلقـاه أهلهـا ، وسير إلى السلطان . وذكر أنه أقام سبعة أيام لم يأكل شيئا . ولمـا وصل تلقاه السلطان وأكرمه وأعطاه الإقطاعات بالديار المصرية وأحسن إليـــه .

ذكر الظفر بملك الكَرْج

وفى سنة اثنتين وسـبعين وستمائة : ظفر السلطان بملك الكرج . وذلك أنه حضر لزيارة بيت المقدس ، فاتصل ذلك بالسلطان ، فأرسل من يعرف حليته فأمسك هو وثلاثة نفر من أعيان الكرج من بين الزوار ، وسير [وا] إلى السلطان وهو بدمشق فطيب قلوبهم ، وعرفهم أنه متيقظ لمن يدخل إلى بلاده ، واحترز عليهـم .

(١) الملطف بحسب السياق : رسالة وبحسب المعنى اللغوى : مايلغ المـراه بلطف (القاموس المحيط) ، وراجع عن الملطفة السلوك (جـ ١ ص ٥٠٢ حاشية ٣) .

ولما سكنت الأخبار عاد السلطان والعساكر فدخل إلى قلعته فى رابع عشرين جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفى شعبان من هذه السنة : رسم السلطان بعمارة جسرين قناطر بالقرب من الرملة لعبور العساكر ، فعمرت .

وفيها : فى يوم السبت عاشر ذى القعدة حضر متولى القرافة إلى مستنيبه الأمير سيف الدين أبى بكر بن اسباسلار متولى مصر، وأخبره أن شخصا دخل إلى تربة الملك المعز وجلس عند القبر يبكى ، فسأله من بالمكان عن بكائه ، فأخبرهم أنه قاءان بن الملك المعز ، وكان الملك المظفر قد أرسله مع أخيه الملك المنصور إلى بلاد الأشكرى كما تقدم ، فأحضر وقيد واعتقل . وطولع السلطان بأمره ، فأحضره وسأله عن أمره ، فذكر أنه عاد إلى الديار المصرية منذ ست سنين ، وأنه يتوكل للجند . فطلب منه من يعرفه ، فذكر أن رجلا معتقلا بالإسكندرية كان يتردد إلى بلاد الأشكرى ، فأمر السلطان باحضاره واعتقال قاءان ، فحبس فى حبس اللصوص بمصر ، وأجرى عليه بعض مماليك المعز نفقة .

وفيها : أفرج السلطان عن الأمير سيف الدين الجوكندار، وكان له مدة فى الاعتقال .

وفى ثانى عشر شهر رمضان من السنة : توجه الملك السعيد إلى الشام[1] ، وجرد السلطان فى خدمته الأمير سيف الدين أستاد دار وجماعة من أكابر الأمراء والخواص . ودخل إلى دمشق فى سادس عشرين الشهر ، ولم يشعر به نائب السلطنة إلا وهو بينهم فى سوق الخيل ، فنزلوا وقبلوا الأرض ، ودخل الملك

(١) انظر السلوك ، (ج ١ ص ٦١٢) .

السعيد القلعة وخلع على الأمراء فى ليلة العيد ، وخلع أيضا على المقدمين والمفاردة والأكابر ، وخرج متصيدا بالمرج ، ثم توجه إلى الشقيف وصفد ، وعاد الى مصر فى حادى عشر شوال منها .

ذكر ختان الملك المسعود نجم الدين خضر ولد السلطان الملك الظاهر[1]

كان ختانه فى يوم عيد الفطر سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وحمل السلطان عن الناس كلفة التقادم والهدايا وشملهم بالخلع والإنعام والعطاء .

ذكر نكتة غريبـــة[2]

وفى هذه السنة : ورد كتاب الفَرْس بن شاور والى الرملة يذكر أنه فى هـذه السنة حصل لأهل البلاد مرض وحمايات[3] من شرب مياه الآبار وزاد ذلك ، فحضر إليه رجل نصرانى فقال : « هذه الآبار قد حاضت كما جرى فى السنة التى جاء التتار فيها إلى الشام ، وأن الفرنج أنفذوا إلى قرية تسمى حابور[4] فى الجبل أخذوا من مائها وسكبوه فى الآبار فزال الوخم . » فلما سمع ابن شاور ذلك سير إلى الضيعة المذكورة وأخذ من مائها وصبه فى الآبار التى بياقا ، وكان الماء قد كثر فيها . فلما سكب الماء فيها نقصت إلى حدها المتعارف[5] . وقيل : إن هذه الآبار إناث تحيض ، وآبار الجبل ذكور .

---

(١) انظر السلوك (جـ ٢ ص ٦١٢) . (٢) انظر السلوك (نفس الموضع) .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى السلوك (جـ ١ ص ٦١٢ س ٢٢) بالدال بدل الراء .

(٥) فى الأصل : « المعارف » .

ذكر ورود كتاب متملك الحبشة[1]

قال القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى السيرة الظاهرية : فى هذه السنة وصل كتاب متملك الحبشة إلى السلطان عطف كتاب صاحب اليمن . وهو يقول: « إن سلطان الحبشة قد قصدنى فى حاجة عند السلطان ، وقد سيرت كتابه عطف كتابى » فكان مضمون كتاب متملك الحبشة إلى السلطان[2] : —

« أقل المماليك ، محرا[3] ملاك يقبل الأرض وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه ، أن رسولا وصل من [جهة] والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ماجاءنا مطران وبلادنا بلاد مولانا السلطان ونحن عبيده . فيرسم مولانا يأمر الأب البطرك يعمل لنا مطرانا رجلا جيدا عالما لايحب ذهبا ولا فضة ، ويسيره إلى مدينة عوان[4] وأقل المماليك يسير إلى أبواب[5] الملك المظفر صاحب اليمن مايلزمه ، وهو يسيره إلى أبواب السلطان . وماكان سبب تأخر الرسل عن الحضور إلى السلطان إلا أنى كنت فى بيكار . والملك داود[6] توفى ، وقد ملك ولده ، يامولانا . وعندى فى عسكرى

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٦١٥) .

(٢) نقل الأستاذ الدكتور زيادة نص نفس هذا الكتاب من ابن أبى الفضائل فى النهج السديد وقد انتفع المحقق به .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) كذا فى الأصل واضحا ، ويقترح الأستاذ الدكتور زيادة قراءة (أسوان أو عدن) راجع السلوك (ج ١ ص ٦١٦ حاشية ١) .

(٥) فى الأصل « بواب » مع اسقاط الألف الأولى .

(٦) فى الأصل « ذاود » وما هنا نقلا من قراءة الدكتور زيادة فى السلوك (نفس الموضع) .

مائة ألف فارس مسلمين . وإنما النصارى كثير لا تعد . وكلهم غلمانك وتحت أوامرك . والمطران [الكبير][1] هو يدعو لك ، وهذه الخلق[2] كلهم يقولون : آمين بطول بقاء عمر سلطاننا[3] مالك مصر ، ويهلك الله عدوه ، ويقول الخلق آمين . وكل من يصل[4] من المسلمين إلى بلادنا أقل المماليك يحفظهم ويسفرهم كما يحبون[5] . وإنما الرسول الذى سيره والى قوص بخدر[6] وهو مريض . وبلادنا بلاد وخمة أى من مرض ما يقدر أحد يدخل إليه ، وأى من شم رائحته يمرض ويموت . والراهب قال : ما يروح [بغير][7] رفيق . ونحن فنحفظ كل من يأتى من المسلمين ، وارسموا فسيروا مطرانا يحفظهم » . أنهى ذلك .

هذا نص كتابه ومخاطبة ملك اليمن له بالسلطان[8] .

قال : فكتب جوابه عن السلطان :

«ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل فى مملكة حطى ملك الحَمَره ، أكبر ملوك الحُبْشان ، الحاكم على مالهم من البلدان ، نجاشى عصره [وفريد مملكته فى دهره] سيف الملة المسيحية ، عضد [دولة] دين النصرانية ، صديق

(١) الإضافة للإيضاح وهى منقولة عن السلوك (نفس الموضع) .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الاصل « مولانا » ثم شطب اللفظ ووضع بدله « سلطاننا » .

(٤) فى الأصل : « هيل » .

(٥) فى الأصل « يحبوا » .

(٦) فى الأصل : « فجور » .

(٧) الإضافة لاغنى عنها وهى منقولة عن السلوك نفس الموضع .

(٨) العبارة تحدد كيفية مخاطبة ملك اليمن لمتملك الحبشة ؟

الملوك والسلاطين سلطان الأمحره ، حرس الله نفسه ، وبنى على الخير أسه . فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه فأما طلب المطران ، فلم يحضر من جهة الملك رسول حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب مولانا السلطان الملك المظفر ورد، مضمونه : أنه وصل من جهته كتاب وقاصد ، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب . وأما ماذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فأخبار البلاد عندنا ، ولاتخفى عنا ، فالله يكثر عساكر المسلمين . وأما وخم بلاده ، فالآجال مقدرة من الله ، وما يموت أحد الا بأجله ، ومن فرغ أجله مات ، وكم من جريح بالسيف عاش وصحيح مات ، والأمر لله فى الجميع » .

وفى هذه السنة : كانت وفاة الصاحب محيى الدين أبى العباس أحمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد ، فى ليلة الأحد التاسع والعشرين من شعبان ؛ ودفن من الغد بسفح المقطم ؛ سمع من جماعة ، وحدّث ودرّس بمدرسة والده [التى أنشأها بزقاق القناديل بمصر](1) وكان منقطعا عن المناصب يحب التخلى والإنفراد كثير الصدقة ، وبنى رباطا بمصر ، ومولده بالفسطاط فى سنة ست وثلاثين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

وفيها : فى ليلة الثلاثاء رابع عشر الآخر توفى الشيخ العالم الزاهد الورع أبو محمد عبد الله بن عمر بن يوسف الحميدى القَصْرى ، ودفن من يومه بالقرافة الصغرى . كان أوحد أهل زمانه فى أصول الدين والفقه ، وله معرفة بكلام الفقراء وأحوالهم رحمه الله تعالى .

---

(1) الإضافة للإيضاح وهى منقولة عن النجوم (جـ ٧ ص ٢٤١) .

وفيها : فى ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر توفى أبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن نهار البكرى، خطيب جامع ابن طولون ، ودفن بالقرافة ، ومولده بالقاهرة فى سنة ثلاث وستمائة، رحمه الله تعالى .

وفيها : فى يوم الأحد رابع عشر المحرم توفى الصدر الرئيس الأصيل مؤيد الدين أبو المعالى أسعد بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن أسـد بن على بن محمد التميمى الدمشقى ، المعروف بابن القـلانسى[1] رئيس دمشق وكبيرها والمشار إليه . وكان متواضعا كريما سمحا جوادا متصدقا[2] حسن السيرة جميل الطريقة طاهر اللسان . وكان السلطان الملك الظاهر قد عرض عليه نظر الشام فلم يقبل، فألزمه بوكالته الخاصة والنظر فى ديوان ولده الملك السعيد ، فباشر ذلك . وكانت وفاته بدمشق ودفن بتربته بسفح قاسيون ، ومولده بدمشق فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى ، وهو والد الصاحب الرئيس عز الدين حمزة .

وفيها : فى ليلة الأربعاء ثالث عشر شـعبان توفى الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ النحاة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائى[3] الجيانى . وكانت وفاته بالمدرسة العادلية بدمشق، ودفن بقاسيون بتربة بنى الصايغ، له التصانيف المفيدة فى علم العربيـة ، وشهرته أكثر من أن يوتى على شرحها ، رحمه الله تعالى .

---

(١) انظر النجوم الزاهرة (جـ ٧ ص ٢٤٤) .

(٢) فى الأصل : « متصبا » .

(٣) انظر النجوم (جـ ٧ ص ٢٤٣) .

واستهلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة

فى هذه السنة : وصل الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمة السلطان[1] ، فأحسن إليه وإلى ولده وأخيه وعاد إلى بلاده .

وفى ثامن صفر منها : توجه السلطان إلى الكرك على الهجن من الطريق البَدْرِيّة ، فوصل إلى الكرك والشوبك . وأقام بالكرك ثلاثة عشر يوما ، وعاد إلى قلعته فى ثانى عشرين شهر ربيع الأول[2] .

وفيها : فى سادس عشر شهر ربيع الآخر توجه السلطان إلى العباسة ، وفى صحبته ولده الملك السعيد ، فصرع الملك السعيد أوزة خِبّية[3] ، وقيل له : « لمن تدعى » ؟ فقال : « لمن أدعو بحياته » . فقبّله السلطان . وعاد السلطان بعد خمسة أيام .

وكان سبب عوده أنه ظفر بكتب من جماعة من الأمراء إلى التتار ، وهم : بَجَمْقاد[4] الحموى ، وتوغان بن مَنْكو ، وسريغا ، وطَنْغرى يُورى ، وطنغرى يَرْمَس ، وأنوك ، وبَرْمش ، ويلبان مجلى ، والبغلائى امارتد ، وبلاغا ، وطَغينى[5] ، وأيبك ، وسَنْجر الحواشى[6] . وقبض عليهم وقررهم فأقروا . وكان آخر العهد بهم .

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٦١٤) .

(٢) انظر السلوك (ج ١ ص ٦١٤) .

(٣) فى الأصل : « جنيه » انظر السلوك (ج ١ ص ٦١٥ س ١ وحاشية ١) .

(٤) كذا فى الأصل : وقراءة السلوك « بجقاز » .

(٥) كذا فى الأصل ، وفى النسخة « س » طعمى .

(٦) كذا فى الأصل . ومن المحتمل قراءة : « الطواشي » .

وفيها : أقبل السلطان على الأمير شهاب الدين يوسف بن الأمير حسام الدين الحسن بن أبى الفوارس القَيْمرَى ، وهو من أعيان الأمراء فى الدولة الصالحيـة النجمية والدولة الناصرية وكان السلطان قد نقم عليه ، فأنه تخيل أنه كان يثبط الملك الناصر عن قتال التتار ، فواخذه بذلك وقطع خبزه ، وعُطّل ، وأطلق له فى كل يوم عشرين درهما ، ودام على ذلك فأعطاه الآن إمرة أربعين .

وفيها : توجه السلطان إلى الشام فى شعبان بجميع العساكر واستخلف بقلعة الجبل الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقانى ، والصاحب بهاء الدين ، واستصحب معه الصاحب تاج الدين وزير الصحبة وكان فى هذه السفرة غزاة سيس على ما نذكر ذلك .

وفيها : رسم السلطان بعمارة ما كان تداعى من منارة الإسكندرية .

وفيها : فى يوم السبت تاسع جمادى الآخرة توفى الأمير فارس الدين آقطاى المستعرب الصالحى الأتابك ، ودفن بالقرافة بالقرب من تربة الإمام الشافعى ، ومشى السلطان فى جنازته ، وحضر دفنه ، وحزن عليه وبكى بكاء شديدا . وكان يستحق ذلك منه ، رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى قاضى القضاة شمس الدين عبد الله بن [محمد بن الحسن بن عطاء ابن الحسن] عطاء الأذرعى الحنفى[1] بدمشق فى يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى . ولما مات عزل قاضى القضاة زين الدين الزَّوَاوى المالكى نفسه من القضاء حال دفنه ، فإنه أخذ بيده من تراب القبر وحثاه عليه وقال : « والله لاحكمت

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦١٩) ، وفى النجوم (جـ ٧ ص ٢٤٦) وهو عبد الله ابن محمد بن الحسن بن عطاء بن الحسن .

بعدك ، فإن لك أربعين سنة تحكم ، ثم هذه مالك»[1] . وعزل نفسه من الحكم ، وبقى نائبه القاضى جمال الدين يوسف الزواوى يحكم على حاله .

وفوض السلطان قضاء الحنفية بعده للقاضى مجد الدين أبى المجد عبد الرحمن ابن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحنفى[2] فوصل إلى دمشق فى يوم الاثنين سلخ ذى القعدة ، وحكم فى ذى الحجة من السنة .

وفيها : توفى الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود[3] الأسدى اليغمورى[4] بالمحلة فى ليلة الأربعاء الحادى والعشرين من شهر ربيع الآخر . كان فقيها أصوليا مشاركا فى علوم كثيرة ، وصحب الأمير جمال الدين بن يغمور فعرف به . وكان قد توجه لزيارة الأمير شهاب الدين بن يغمور بالمحلة فمات . ومات الأمير شهاب الدين بعده بشهرين ويومين ، رحمهما الله تعالى .

وفيها : توفى الأمير سليمان بن الملك السعيد بن الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وكانت وفاته بدمشق فى حادى عشر صفر رحمه الله تعالى .

---

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٥١) .

(٣) هكذا فى الأصل : « يحمود » انظر السلوك (جـ ١ ص ٦١٩) .

(٤) ترجمته فى النجوم (جـ ٧ ص ٢٤٧) وهو الشهير بالحافظ اليغمورى ، وبابن الطحان أيضا ، وهو تكريتى الجد ، موصلى الأب ، ودمشقى المولد ، محلى الوفاة ؛ واسمه أبو المحاسن يوسف ابن أحمد بن محمود (؟) بن أحمد بن محمد .

واستهلت سنة أربع وسبعين وستمائة

استهلت سنة أربع وسبعين وستمائة والسلطان بالشام ، فرسم بإحضار ولده الملك السعيد ، فتوجه الأمير بدر الأمير بيليك الخزندار نائب السلطنة على خيل البريد لذلك ، فى الرابع والعشرين من المحرم . ووصل إلى قلعة الجبل ، فأرسل إليه الملك السعيد ألف دينار وتشريفا . وكان السلطان أيضا قد رسم للأمراء بإحضار أولادهم فتجهزوا .

وتوجه الملك السعيد على خيل البريد ، فى سلخ المحرم ووصل إلى دمشق فى سادس صفر ، وركب السلطان للقائه ، وحضر بعد ذلك طُلبه[1] ومماليكه .

وفى هذه السنة : وصلت رسل برواناه ، وأخبر[2] بقصد التتار البيرة ، وقال إنه اتفق هو وجماعة على أن العساكر إذا أقبلت من بر الشام وشاهدوا الصناجق السلطانية يضع السيف فى التتار ، فلم يف بذلك .

ثم بلغ السلطان حركة التتار ، وأن قصدهم البيرة ، فجمع العساكر من جميع البلاد ، وأقام ينتظر خبرا محققا ، فوصل الخبر أن التتار ، نازلوا البيرة ، فى يوم الخميس ثانى جمادى الآخرة ، وأنهم أقاموا فى تلك الليلة أحد عشر منجنيقا ، واهتموا بالحصار ونصب المجانيق ، وكان مقدمهم إبتاى[3] ، فأنفق السلطان فى

---

(١) طلب ، والجمع أطلاب ، بمعنى فرقة صغيرة من الجيش (راجع السلوك جـ ١ ص ٢٤٨ حاشية ٢) .

(٢) الفاعل : كناية « » والمعنى : أخبر كتاب البرواناه بكذا وكذا .

(٣) كذا فى الأصل .

العساكر وتولى النفقة بنفســه . وخرج بالعساكر ، فلما وصل إلى القُطَيْفة بلغه رحيــل التتار لانقطاع المـيرة عنهم ، فوصل الى حمص ، ثم عاد إلى دمشق فى مستهل شهر رجب متوجها إلى الديار المصرية ، فدخل إلى قلعة الجبـل فى ثامن عشر الشهر .

ذكر شنق الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز[1] وغيره

كان هذا الطواشى المذكور قد تمكن فى الدولة الظاهرية وكبر شأنه ، وتعاظم فى نفسه ، وصار فى غيبة السلطان يركب إلى الميـدان ويلعب بالكرة ويعود إلى القلعة ، ثم تعاطى بعد ذلك ، فيما نقل ، إدمان شرب الخمر فى دور السلطان ، ويجتمع على ذلك مع الخدام : فاتصل ذلك بالسلطان ، فلما عاد أحضره بين يديه ليلا ، وقام السلطان إليه بنفسه ولكمه وقصد أن يؤدبه بالضرب والإخراق[2] ليرتدع بذلك . وكان لهـذا الخادم على السـلطان إدلال كبير ، فحمـله إدلاله على أن خاطب السـلطان بمـا لايليق أن يخاطب به ، فكان ممـا قال له : « هـذا الضرب لايفيدك ، ولكن اشنقنى » . فغضب السلطان وأمر بشـنقه ، فشنق بالميدان الأسود تحت قلعة الجبل فى ليلته ، وشنق إلى جانبه خمسـة من الأجناد كانوا قد تخلفوا عن العرض بحمص ، وشُفع فى جماعة أخر من الجند ، فحبسوا بخزانة البنود .

(١) اسم عنبر من الأسماء الشائعة ، والمشار إليه هنا غير عنبر « مهتار الملك الظاهر الوارد ذكره فى النجوم (جـ ١ ص ١٧٦ س ٣) ، وغـير عنبر مملوك شجر الدر الوارد ذكره فى السلوك (جـ ١ ص ٤٠٣) ، وإنما هو نفســه المذكور فى السلوك فى الخبر الموافى (جـ ١ ص ٦٢٣) لنفس هذا الخبر .

(٢) الإخراق هو إحداث الدهش من خوف أو حياء (القاموس المحيط) .

وأمر السلطان بمن كان يحضر مع صدر الدين[1] من الخدام على الشراب فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وسملت أعينهم .

وقد حكى لى حكاية عجيبة عن هذا الخادم وهى : أن السلطان، قبل وصوله إلى الديار المصرية ، كان قد كتب إلى النائب بقلعة الجبل أن يتقدم بنصب مائة خشبة بالميدان الأسود للشنق فنصبت ، وما علم لمن هى ، فكان الطواشى إذا توجه إلى الميدان يمر على الخشب فينظر إلى خشبة منها ، ويقول : أجد قلبى يحن إلى هذه الخشبة ، وتكرر ذلك منه ، فشنق عليها . وهذا من عجيب الإتفاق فى إحساس الخواطر .

ذكر متجددات اتفقت بعد وصول السلطان إلى الديار المصرية غير ما تقدم ذكره

منها : وصول هدية صاحب أيمن[2] ، ومن جملتها الفيل والكركدن والحمار الوحشى العنابى وأصناف من التحف والبهار وغير ذلك ، فعرض ذلك على السلطان ، وجهز [السلطان] له هدية سنية وسيرها صحبة رسله .

ومنها : تجهيز رسل الملوك ، وهم : رسل الملك منكوتمر ملك البلاد الشمالية ، ورسل الأشكرى ، ورسل الفنش ، ورسل جنوة ، وإرسال الرسل إلى أشبيلية .

---

(١) المقصود : صدر الباز كما ورد فى صدر الخبر نفسه .

(٢) انظر السلوك : (جـ ١ ص ٦٢١) .

ذكر توجه رسل السلطان إلى أشبيلية
وما كان من خبرهم

كان الفُنْش[1] صاحب أشبيلية قد سير رسولا إلى السلطان اسمه دينار ، وعلى يده هدية سنية ورسالة ، مضمونها : استدعاء مودة السلطان ، وذلك قبل هـذا التاريخ . فسير السلطان إليـه الآن رسلا ، وهم : الأمير سيف الدين الجلدكى والأمير عز الدين أيبـك الكبكى[2] ، والفقيه العدل ([3]) الدين الحسين ابن همام بن مرتضى ، وعلى أيديهم هدية سنية وعقاقير . فتوجهوا من القاهرة فى العشر الآخر من شوال وتوجهوا إلى الإسكنـدرية ، وتوجهوا منها فى البحر فى ذى القعدة ، فوصـلوا الى سنقريس[4] ، فعوقهم صاحب برشـنونة أياما ثم أفرج عنهم ، فساروا حتى وصلوا إلى مرعش[5] ، وهى من جمـلة مملكة الفنش ، فأعلم بوصولهم فاستدعاهم ، وكان يومئذ ببنطورية[6] فتوجهوا إليه ، فكانوا كلما مروا ببـلد خرج إليهم أهل البلد وتلقوهم بالأفراح ، إلى أن وصـلوا إلى بنطورية ، فخرج جميع من بها من الخيالة والرجالة والتقوهم بظاهرها ، ثم استدعاهم المـلك بعـد ثلاث وأكرمهم غاية الإكرام ، واستحضرهم فى اليوم الثـانى وأحضروا

(١) الوارد هنا : ألفنش ، والمصطلح عليه : ادفونش ، بالدال أو الذال . وهو لقب يطلق على كل ملوك الفرنج بطليلة و برشلونة انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٢١ حاشية ٢) .

(٢) راجع السلوك (جـ ١ ص ٦٢١ ، ٦٢٦) وكانت وفاته عام ٧٤٣ هـ .

(٣) بياض فى الأصل .

(٤) كذا فى الأصل .

(٥) مرعش فى بلاد الأندلس وهى غير مرعش الثغور الجزرية .

(٦) كذا فى الأصل .

الهدية ، فاستبشر وطابت نفسه وقبلها ، ثم جهز لهم مركبا ببرشنونة[1] فتوجهوا فى البر إليها ، ثم ركبوا منها فى المركب فى آخر ذى الحجة ، فوصلوا إلى الإسكندرية فى صفر سنة خمس وسبعين وستمائة .

ذكر اتصال الملك السعيد بابنة الأمير سيف الدين[2] قلاون

وفى هذه السنة : فى يوم الخميس ثانى عشر ذى الحجة ، عقد نكاح الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان بن السلطان الملك الظاهر على [غازية خاتون] ابنة الأمير سيف الدين قلاون الألفى العلائى الصالحى . وكان العقد بالإيوان بقلعة الجبل على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار ، المعجل منه ألفا دينار ، ومعاملة صرف الدينار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم . وكان الوكيل عن الملك السعيد فى قبول النكاح ، الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة ، والوكيل عن الأمير سيف الدين قلاون ، الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار العالية ، بعد أن ثبت التوكيل فى المجلس عند قاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى . وجرى العقد بين الوكيلين بحضوره ، وحضر السلطان والوزراء والقضاة والأكابر وأعيان الأمراء والمقدمين[3] . وكان الصداق بخط القاضى محيى الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر ، وإنشائه ، وقرأه فى المجلس ، فخلع عليه وأعطى مائة دينار . ونسخه :

---

(١) برشنونة تكتب أيضا برشلونة راجع السلوك (جـ ٢ ص ١٦٣ حاشية ٢) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٢٧) .

(٣) كذا فى الأصل . ومثل هذا الإهمال يتكرر ويؤكد النزوع إلى تغليب العامية .

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة ، ومصدق الفال لمن جعل عنده أعظم بركة ، ومحقق الإقبال لمن أصبح بشهيه سلطانه وصهرة مَلِكَه ، الذى جعل للأولياء من لدنه سلطانا ونصيرا ، وميز أقدارهم باصطفاء تأهيله حتى حازوا نعيما وملكا كبيرا ، وأفرد فخارهم بتقربته حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نورا ، وشرف وَصْلَتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيما وأفضاله كثيرا ، مهيء أسباب التوفيق العاجلة والآجلة ، وجاعل ربوع كل أملاك من الأفلاك[1] بالشموس والبدور والأهلة أهلة ، جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى وصلت لهم النعمة الشاملة ، وحلت عندهم البركة الكاملة . »

« نحمده على [أن][2] أحسن عند الأولياء بالنعمة لاستيداع وأجمل لتأميلهم الاستطلاع ، وكمّل لاختيارهم الأجناس من الغرر والأنواع[3] ، وآتى[4] آمالهم ما لم يكن فى حساب أحسابهم من الإبتداء بالتخويل والابتداع . »

« وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة حسنة الأوضاع ملية بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع . »

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) الإضافة يقتضيها تركيب العبارة .

(٣) كذا فى الأصل . وكان الأفضل أن يقال من « الفروع » لكى يتحقق الازدواج بين المترادفين المتقاربين فى المعنى .

(٤) كذا فى فى الأصل بدون نقط .

«ونصلى على سيدنا محمد الذى أعلا الله به الأقدار وشرف به الموالى والأصهار، وجعل كرمه دارا لهم فى كل دار، ونخره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار، صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار يانعة الثمار.»

«وبعد، فلو كان إفضال[1] كل شىء بحسب المتصل به فى تفضيله[2] لما استصلح البدر شيئا من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئا من الرياض لهطوله، ولا الذكر الحكيم لسانا من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئا من التيجان لحلوله، ولكن ليتشرف بيت يحل به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور، ونضار يتجمل باللآلىء والدرر. وكذلك تجمّلت برسول الله صلى الله عليه وسلم أصهاره من أصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه، تزوج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمّت لهم به مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضى عنهم. والمرتب على هذه القاعدة إفاضة نور يستمده الوجود، وتقرير أمر يقارن سعد الأجنة[3] منه سعد السعود. وإظهار خطبة يقول الثريا لا تنتظام عقودها كيف، وإبراز وصلة[4] يتجمل بترصيع جوهرها متن السيف، الذى يغطيه[5] [على] إيداع هذا الجوهر به كل سيف، ونسج صهارة يتم بها إن شاء الله تعالى كل أمر شديد، ويتفق بها كل توفيق، تخلّقُ الأيام وهو جديد. ويختار لها أبرك طالع، وكيف لا تكون البركة فى ذلك الطالع وهو السعيد، وذلك أن المراحم الشّريفة

(١) فى الأصل: «إيصال»، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) كذا فى الأصل، بدون نقطة الضاد المعجمة.

(٣) فى الأصل: «الأحمية».

(٤) وصلة بضم الواو، بمعنى إقامة صلة (القاموس المحيط).

(٥) فى الأصل: «يعطيه».

السلطانية أرادت أن تخص المجلس السامى الأمير - وذكر نعوته - بالإحسان المبتكر، وتفرده بالمواهب التى تُرْهِفُ بها منه الحـد المنتظر، وأن ترفع من قدره بالصهارة، مثل ما رفعـه صلى الله عليه وسـلم من قدر صاحبيه أبى بكر وعمر، فخطب إليه أسـعد البرية وأمنع من تحميها السيوف المشرفية، وأعزّ من تسبل عليها سـتور العيون الخفية، وتضرب دونها خدور[1] الجـلال الرضية، وتتجمل بنعوتها العقود. وكيف لا، وهى الدرة الألفية. فقال والدها الأمير المذكور: هكذا ترفع الأقدار وتزان، وكذا يكون قران السعد وسـعد القران. وما أسـعد روضا أصبحت هذه المراحم الشريفة السلطانية له خميلة[2]، وأشرف سيفا غدت منطقة بروج سمائها له خميلة، وما أعظمها معجزة آتت الأولياء من لدنها سلطانا، وزادتهم مع إيمانهـم إيمـانا، وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لإبرامها: ليت، وأشرفها عبودية كرمت سلمانها بأن جعلته من أهـل البيت. وإذ قـد حصلت الاستخارة فى رفع قـدر المملوك[3]، وخَصَّصْته بهذه المزية الـتى تقاصرت عنها أمال أكابر الملوك. فالأمر للمليك البسيطة فى رفع درجات عبيده كيف يشاء، والتصدق بمـا يتفوه به هذا الإنشاء، وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب مبارك تحاسدت رماح الخط وأقلام الخَطّ على تحريره، وتنافست مطالع النّـوار ومشارق الأنوار على نظم سطوره، فأضاء نور الجـلالة وأشرق،

(١) فى الأصل: « يصرف درنها حدود ».

(٢) كذا فى الأصل.

(٣) فى الأصل: « الملوك ».

وهطل نوره بالإحسان فأغدق. وتناسبت فيه أجناس من تجنيس لفظ التفضيل، فقال الاعتراف، هذا ما تصدق، وقال العرف، هذا ما أصدق مولانا السلطان — وذكر نعوته وألقابه — أصدقها ما ملأ خزائن الأحساب فخارا وشجرة الأنساب ثمارا، ومشكاة الجلالة أنوارا، وأضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا. فيذل لها من العين المصرى ما هو باسم والده قد تشرف، وبنعوته قد تعرف، وبين يدى هباته وصدقاته قد تصرف ».

ثم كان الدخول بها فى شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة.

واهتم السلطان بذلك اهتماما لم يسمع بمثله، وخلع على جميع أكابر دولته من الأمراء والمقدمين والوزراء والقضاة والكتاب. وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون بتشريف كامل بشربوش كان السلطان قد لبسه ثم خلعه عليه.

ذكر توجه السلطان إلى الكرك
واستبداله بمن فيها من الرجال وعوده (١)

وفى يوم الخميس ثانى عشر ذى الحجة من هذه السنة: حالة انقضاء العقد، ركب السلطان على الهجن وتوجه إلى الكرك فى جمع يسير من جهة البرية، فوصل إلى قلعة الكرك فى ثالث وعشرين الشهر. وكان سبب ذلك أنه بلغه عن بعض رجال القلعة أنهم عزموا على إثارة فتنة ونقل دولة، وأنهم عزموا على الوثوب بنواب السلطان بالكرك فيقتلونهم ويسلمون الحصن لأخ كان للملك القاهر ابن الملك المعظم لأمه، كونه ينسب إلى الملك الناصر، وكان مقيما بالكرك لا يؤبه

(١) انظر السلوك (حـ ١ ص ٦٢٤).

له . فدخل السلطان إلى الكرك بغتة ، واستدعى الرجالة ، وكانوا زهاء ستمائة ، وأمر بالقبض عليهم وشنقهم ، فشفع ما كان معه فيهم ، فأخرجهم من الحصن وقطع أيدى وأرجل ستة نفر منهم من خلاف ، كانوا سبب الفتنة . وكان السلطان قد استخدم رجالا يثق بهم ، وسفرهم إلى غزة ، ولم يعرف أحدا قصده بهم ، فأحضرهم إلى الكرك ورتبهم عوض من كان بها من الرجال . واستدعى السلطان الطواشى شمس الدين صـواب السهيلى الصالحى — وكان يتولى صناعة الإنشاء بمصر — وسلم إليه الحصن ، وفوض[1] إليه النظر فى أمواله وحواصله وذخائره . وخرج متوجهـا إلى دمشق فى يوم الجمعـة ثامن عشرين ذى الحجة سـنة أربع وسبعين وستمائة .

واتفق للسلطان فى هذه السفرة أمور ، وشاهد أبنية ومنازل غريبة فى مسيره من الديار المصرية إلى الكرك . وقد ذكرها المولى محيى الدين بن عبد الظاهر واعتذر فى بسط القول فيهـا[2] لغرابتها . فأحببنا أن نذكر ذلك تلخيصا .

قال : رحل السلطان من قلعته يوم الخميس المذكور فنزل بلبيس ، وأقام إلى قرب وقت العصر ، ورحل فنزل رأس المـاء بوادى السدير ، ورحل منه فى نصف ليلة السبت ، فـنزل الكراع وأقام إلى غروب الشمس ، وحمل المـاء لكفاية يومين ، وتوجه على طريق البدرية ، وساق سوقا عنيفا إلى وقت الفجر من يوم الاثنين ، لم يرح ولم يسترح إلا بقـدر ما تشرب الخيل المـاء وتستوفى العليق ، فنزل جبل بدر ، ثم ركب بعد الإسفار لشدة الوعر فوصل إلى بدر ، ونزل عند العين .

(١) فى الأصل « فوق » .

(٢) فى الأصل : « فيها » .

قال : وهى عين تخرج من جبل أخضر ليس فيه نبات ، منبعها من جهة الغرب تحت جبل شاهق ، وهى شكل مغارة منقوبة ، يدخل الإنسان منها مقدار عشرة خطى ، فيجد عينا تنبع عن يسرة الداخل إليها .

وكان السلطان قبل وصوله إلى العين قد بعث جماعة من العرب وأمرهم أن يجمعوا من ماء العين ما يكون حاصلا للورود ، فصنعوا حول العين حياضا فى الأرض شَكْلَ البرك محوطة بالحجارة ، وملأوها من ماء العين ، فوردها السلطان ومن معه ، وارتفقوا بها ، ولولا ذلك لهلكوا من الأزدحام على الماء . ثم دخل السلطان بنفسه إلى المغارة ، وجلس عند العين ، وكان يملأ لمن معه قِرَبهم بيده ويناول كل قربة لصاحبها حتى ملأوا ما معهم . ثم رحل من بدر فنزل حسنة ، وهى بئر واحدة . ورحل منها حتى انتهى إلى عين تعرف بالمليحة فوردها . ورحل وبات تحت جبل يعرف بنقب الرُّباعى ، فلما أسفر الصبح صعد إلى الجبل وإذا هو جبل عظيم به عقاب صعبة — وهى حجارة رخوة تشبه الرمل المتجمد ، متغيرة الألوان إلى الحمرة والزرقة والبياض — وثم ثقوب فى الجبل يعبر الراكب منها ، وبها أمكنة تشبه السلالم من حجارة . وبها قبر هارون نبى الله أخى موسى ابن عمران ، عليهما السلام ، على يسرة السالك المتوجه إلى الشام . وثم قلعة تعرف بالأصوت[1] صعدها السلطان وشاهدها ، فوجدها من أعجب الحصون وأمنعها لا يكون أحصن منها . ونزل من نقوب الرباعى إلى مدائن بنى إسرائيل ، وهى ثقوب فى الجبال من أحسن الأشكال ذات بيوت بالعمد وأبواب ، وظواهر البيوت مصوقة[2] بالنقوش فى الحجارة بالإزميل ، وكلها مخربة ، بها صور أشكال

(١) لم يستدل المحقق على تعريف بهذه القلعة .

(٢) لعل المعنى هو : مزوقة من التزويق والزخرفة .

وهى على قدر دور الناس المبنيـة الآن ، وداخل هذه البيوت الأواوين المنورة المعقودة والصفف المتقابلة والخزائن والدهاليز والحرميات[1] . وليس ذلك مبنيا بل جميعه منحوت بالحديد أشكال المغاير[2] .

قال : وقد خلق الله تعالى جبلين متقابلين ، بينهما طريق ، وكل جبل منهما كأنه شكل سور مرتفع ، والدور متصلة يمينا وشمالا . ثم خرج السلطان من تلك الأمكنة إلى وادى المـدرة ، ثم منه إلى قرية تعرف بالعذبا[3] ، عرفت بذلك لأن بها العين التى بجسها موسى بن عمـران عليه السلام بعصاه ، وكانت تجـرى دما ، فقال : « عد بأمر الله ماء عذبا » فعادت العـين ماء حلوا رائقا باردا . فبات السلطان بهـا ، ورحل منهـا ليـلة السبت حادى عشرين الشهر ، فوصل قلعـة الشـوبك نصف نهـار الأحد ، وخـيم هناك ، وحضر أمراء بنى عقبة وغـيرهم من أمراء العربان ، وقدموا الخيـول والهجن وغـير ذلك ، ثم رحل من الشـوبك نصف نهـار الاثنين على طريق الحسا ، فوصـل إلى الكرك نصف نهـار الثلاثاء ثالث عشرين الشهـر .

قال : ولمـا كان فى سابع وعشرين الشهر يوم الجمعة خرج السلطان إلى باب قلعة الكرك ، وأحضر رجالها ، وذُكِرَ من خبر إخراجهـم نحوما تقدم .

وفى هـذه السنة : توفى المـلك المسعود جلال الدين عبـد الله بن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب .

---

(١) الحرميات بحسب سـياق الكلام : أجنحة متكاملة من الدور واللفظ مولد غـير موجود فى القاموس .

(٢) المغاير هى المغايرات .

(٣) كذا فى الأصـل ، واسم العـين بحسب السياق يجب أن يكون « العـذبا » كما ورد هنا أو « الدما » كما ورد فى النسخة « س » .

وكانت وفاته بدمشق فى خامس عشر جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون. وكان من أجمل الناس صورة وألطفهم خلقا وأكثرهم أدبا ، كثير المكارم وحسن العشرة ، رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى الصاحب موفق الدين أبو الحسن على بن محمد بن على بن محمد المذحجى الآمدى ، وكان من أعيان الأكابر ممن يرشح للوزارة ، وولى نظر الدواوين ثم رُتب آخرا ناظر الكرك والشوبك ، فباشر ذلك مكرها ، واستمر على ذلك إلى أن مات بالكرك . وكانت وفاته فى ثامن عشر ذى الحجة ، ودفن قريبا من مشهد جعفر التيار رضى الله عنه .

وفيها : فى يوم الأحد ثالث عشر شهر ربيع الأول كانت وفاة الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير بدمشق ودفن بقاسيون[1] .

وفيها : فى العشرين من شهر رمضان توفى الشيخ الإمام الفاضل تاج الدين أبو الحسن على بن الأنجب البغدادى ـ المعروف بابن الساعى ـ المؤرخ خازن كتب المدرسة المستنصرية[2] . كان فاضلا ، وله تاريخ مذيل على تاريخ ابن الأثير الجزرى ، رحمهما الله تعالى .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٢٤ س ٨ ، ٩) .

(٢) راجع شذرات الذهب (ص ٣٤٣ — ٣٤٤ وفيات عام ٦٧٤ هـ) .

واستهلت سنة خمس وسبعين وستمائة[1]

ذكر وصول جماعة من أمراء الروم إلى خدمة السلطان وطاعتهم[2] له

قال : ووصلت الأخبار أن جماعة من أمراء الروم اظهروا طاعة السلطان وتجاهروا بذلك . وأن البرواناه أنفرد عنهم وتقرب إلى التتار ورجع عما كان مشتركا معهم فيه من طاعة السلطان ، وتوجه إلى الأردو وطلب من أكابر أمراء الروم النجاة بأنفسهم[3] . وأخذ[4] الأمير شرف الدين مسعود بن الخطير وأخوه ضياء الدين محمود : السلطان غياث الدين صاحب الروم وتوجها به إلى قلعة نكيدة[5] ، وكاتبوا السلطان. وكذلك الأمير حسام الدين بينجار[6] وولده الأمير بهاء وأولاده[7] ، وجماعة من الأمراء وهم إثنا عشر أميرا ، وطلبوا من السلطان أنه

---

(١) فى الأصل : « وسبعمائة » وهو سهو .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٢١ ، ٦٢٥ فى أخبار عام ٦٧٤ ، ٦٧٥ هـ) .

(٣) فى الأصل : « لأنفسهم » .

(٤) مفعول أخذ هو السلطان كيكاوس بن كيخسرو غياث الدين صاحب الروم ، وقارن أيضا عبارة السلوك (جـ ١ ص ٦٢٩) .

(٥) فى الأصل : « بليدة » بدون رأس الكاف ، وكثيرا ما يحذف الناسخ رأس الكاف .
أما ياقوت فإنه يرسم « نكيدا » بالألف ، ويقول أنها مدينة قديمة صغيرة بينها وبين هرقلة ثلاثة أيام وبينها وبين قيسارية ثلاثة أيام من جهة الشمال .

(٦) ويلقب فى السلوك بالرومى (جـ ١ ص ٦٢٥ س ٥) . وضبط الاسم منقول من السلوك .

(٧) كذا فى الأصل .

يتدارکهم بعسکره . فرکب [السلطان] من الکرك کما تقـدم ، ووصـل إلى دمشق فى رابع عشر المحرم ، فوصل الأمير حسام الدين بينجار والأمير بهاء الدين بهادر وولده [أحمد] (١) ، ثم وصل بعدهما الأمير سيف الدين حَيدَر بك (٢) صاحب الأَبلُستين (٣) ، والأمير مبارز الدين [سوار بن] (٤) الجاشنكير و جماعة من أمراء الروم ، فتلقاهم السلطان بنفسه وأحسن إليهم ووصل حريمهم وأولادهم ، فجهزهم (٥) إلى الديار المصرية . وكتب السلطان إلى الأمير بدر الدين بيسرى والأمير شمس الدين أقش [البرلى] [و] قَطْليجا (٦) ، فحضرا إلى دمشق على خيـل البريد ، فطلب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر (٧) . وتوجه السلطان إلى حلب ، وجهز الأمير سيف الدين بلبان الزينى الصالحى وصحبته جماعة من العسكر ، فوصلوا إلى عين تاب ، وقرر معهم التوجه إلى القلعة التى بها السلطان غياث الدين وابن الخطـير . فورد كتاب الزينى أنه وصل إلى كرصُو (٨) ، فبلغه أن التتار وصـلوا إليها أيضا ، و بقى بينه و بين العدو النهر ، وجالوا بين العسكر و بين قلعة نكيدة ، فرجع العسكر إلى

---

(١) الإضافة من السلوك (جـ ١ ص ٦٢٥ س ٦) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٢٥)

(٣) أبلستين : بالفتح ثم الضم ولام مضمومة وسين مهملة ساكنة ، وتاء مفتـوحة وهى مدينة قريبة من مدينة أصحاب الكهف (معجم ياقوت جـ ١ ص ٨٦) .

(٤) الإضافة من السلوك (جـ ١ ص ٦٢٥ س ٨ — ٩) .

(٥) كذا فى الأصل .

(٦) من ذكره من قبل فى هذا المتن ، وهو غير أقش البرلى ولهذا أضفنا واو العطف .

(٧) كذا فى الأصل . وتبدو الجملة ناقصة .

(٨) ويرسم الاسم أيضا بالقاف « قراصو » : وهو من روافد الفرات .

عين تاب ، وهرب شرف الدين بن الخطير[1] إلى بعض القلاع فتقرب إلى العدو بتسليمه [السلطان] إليهم . وبقى أخوه ضياء الدين فى خدمة السلطان [الظاهر بيبرس] لأنه كان حضر إليه مستنجدا وسير هذا العسكر بسبب حضوره . وأما السلطان غياث الدين فعلم التتار أنه محكوم عليه فعفوا عنه ، وسلموه[2] إلى الصاحب والبرواناه .

وعاد السلطان إلى دمشق ومنها إلى الديار المصرية ، فدخل قلعة الجبل فى رابع عشر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة ، فأقام إلى شهر رمضان من السنة وتوجه إلى الشام فى العشرين من الشهر ، فكانت غزوة الروم ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى ، فى الغزوات .

ذكر ظهور المسجد بجوار دير البغل
وإقامة شعائر الإسلام به

وفى التاسع عشر من شوال من هذه السنة : خرج جماعة إلى دير القصير ، المعروف بدير البغل ظاهر مصر ، فرأوا أثر باب بجوار الدير ، فدخلوا المكان فرأوا آثار محاريب المسلمين ، فأنهوا ذلك إلى الصاحب بهاء الدين ، فتقدم إلى القاضى بهاء الدين ناظر الأحباس أن يتوجه وصحبته نواب الحكم والعدول والمهندسون ومن يعتبر حضوره فى مثل ذلك . فتوجه وصحبته القضاة [و] المشايخ : وجيه الدين البهنسى ، وظهير الدين التَّرْمَنْتَى ، وعلم الدين السمنودى نائب الحكم ، ونظام الدين الخليلى ، وجماعة من المهندسين ، فشاهدوا المكان ورأوا به من

(١) فى الأصل : ابن الخطيب ، والتصحيح من النص نفسه فى صدر الخبر .

(٢) انظر السلوك (ج ١ ص ٦٢٩) .

من الآثار مايدل على أنه مسجد، وشهدوا بذلك عند القاضى علم الدين السنودى فأثبته ، ونقل الحكم إلى قاضى القضاة محيي الدين بن عين الدولة . وطولع الملك السعيد بذلك ، فأمر الصاحب بهاء الدين بعمارته وإقامة من يحتاج إليـه من إمام ومؤذن وزيت وفرش ، فرتب ذلك له ، وهو باق إلى يومنا هذا .

وفى هـذه السنة فى رابع شـوال : كانت وفاة الصاحب بدر الدين جعفر بن محمد بن على بن محمد المذحجى الآمدى (١) بدمشق وهو يومئذ ناظر النظار بها ، ودفن بقاسيون . ومولده فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وكان هو وأخوه موفق الدين من أمناء المباشرين وأرباب الستر على الكتاب ، ولقب كل منهما بالصاحب ، ولم يليا وزارة . ولمـا حضرا من بلاد آمد فى سنة ثلاثين وستمائة هما وابن اختهما شمس الدين ، لمـا نقل الملك الكامل أهل آمد منها . فلمـا عبرا الفـرات قال موفق الدين لهما : « اعلما أننا نقدم على بلاد لانعرف فيها أحدا ، وليس لنـا فيها معين إلا الله تعـالى ، فتعاهدانى والله تعالى ، على الأمانة وألا نخـون السلطان ولا الناس » . فتعاهدوا على ذلك ودخلوا إلى الديار المصرية . وولوا المناصب فوفيا بمـا عاهدا عليه ، ونكث ابن اختهما شمس الدين ، فسلما فى مباشراتهما . وكان شمس الدين كثير النكبات والمصادرات .

وفيها : كانت وفاة الشيخ الصالح برهان الدين أبى إسحق بن سعد الله بن جماعة ابن على بن جماعة الكنانى الحموى بالقدس الشريف يوم عيد الفطر ، رحمـه الله تعالى .

---

(١) ورد ذكر أخيه فى نفس هذا المتن فى وفيات السنة الماضية .

وفيها: كانت وفاة القاضى شرف الدين محمد بن بشكور المصرى الكاتب ، ولى مناصب جليلة ، منها : نظر الجيش ونظر الدواوين بالديار المصرية . وكان بينه و بين الصاحب بهاء الدين مصاهرة ووحشة . وكانت وفاته بداره على الخليج بالقرب من مصر فى ليلة الأحد خامس عشرين جمادى الأولى . ودفن يوم الأحد بالقرافة الصغرى . ومولده سنة ست عشرة وستمائة .

وفيها : توفى الأمير عز الدين إيغان ولا دمر[1] الركنى المعروف بسم الموت فى محبسه بقلعة الجبل ، وسلم إلى أهله فى يوم الخميس ثامن عشر جمادى الآخرة ، فدفن من يومه بمقابر باب النصر . وكان من الأمراء الأكابر ، وقد تقدم[2] ذكر اعتقاله .

هذا آخر ما لخصناه من الحوادث فى الأيام الظاهرية ، فلنذكر الغزوات والفتوحات الظاهرية .

---

(١) كذا فى الأصل . وراجع السلوك (جـ ١ ص ٦٣٣ س ١٦ ، ص ٥٢٣ حاشية ٢) أما وصف « ولا دمر » فلا يوجد له نظير فى السلوك .

(٢) راجع ما تقدم ص ١٨٠ من هذا الجزء .

ذكر غزوات السلطان الملك الظاهر وفتوحاته
وما استولى عليه من البلاد الإسلامية

ولنبدأ من ذلك بذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية مما كان بيد غيره من الملوك وأصحاب الحصون . ثم نذكر الغزوات والفتوحات على مساقها بمقتضى ما يقدمه التاريخ و يؤخره توفية للشرط الذى شرطناه .

ذكر ما استولى عليه من القلاع والحصون والبلاد الإسلامية
وأضافه إلى ممالكه

كان مما استولى عليه السلطان الملك الظاهر من القلاع والحصون والبلاد بعد أن استقر فى الملك : الشوبك ، والكرك ، وقلعة البيرة ، وحمص ، والرحبة . وقد تقدم ذكر ذلك فى أثناء أخباره فلا فائدة فى إعادته . واستولى على خلاف ذلك مما نذكره الآن وهو : سواكن من بلاد اليمن ، وخيبر من بلاد الحجاز ، وقرقيسيا ، وبَلَاطُنس ، وصَهيون ، وبرزية ، وحصون الدعوة من الشام وما والاه .

ذكر فتوح سواكن

كان فتحها فى سنة أربع وستين وستمائة . وسبب ذلك أن صاحبها [الشريف] علم الدين أَسْبَغانى[1] كان قد تعرض للتجار ، وأخذ ميراث من مات

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٠٦ س ٢ ، ص ٥٥٠ س ١٠ — ج ١ ، ص ٥٥٨ س ٢ ص ٧٠٠ س ١١)

منهم فى البحر ومنع أولادهـم منه ، وكوتب فى ذلك وحذر من العود إليه ، فلم تغن المكاتبات شيئا. فرسم الأمير علاء الدين الخزندار متولى الأعمال القوصية والأعمال الإخميمية ، فقصده ، فورد كتابه أنه وصـل إلى ثغر عيذاب وسـير عسكرا إلى سواكن فهرب صاحبهـا ، ثم توجه علاء الدين المذكور إليهـا من عيذاب فى عشرة أيام ، وكان معه من المراكب الكبار والصغار نيف وأربعون مركبا ، ووصل إليه من القصير كلالين[1] مُوَسَّقة بالمقاتلة ، ودخل سواكن وأقام بها ومهدها وقرر أحوالها ، ثم رجع إلى مدينة قوص . ولمـا فارق سواكن عاد صاحبها إليها فقاتله من بها أشد قتال ، وعاد منها .

ذكر فتوح خيبر[2]

كان فتحها فى سنـة اثنتين وستين وستمائة ، وذلك أن أصحابها عبيد على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وصلت كتبهم إلى السلطان يبذلون الطاعة والخدمة ، فسير نجابين تستصبح[3] الأخبار ، وندب الأمـير أمين الدين موسى بن التركمانى ، وجهز الرماة والمقاتلة ، وأنفق فيهم الأموال وجهز الخلع للمقدمين والمشايخ وكتب إلى نائب الكرك بتجهيز أمراء العربان وجماعة من البحرية صحبته ، وجهز الغلال والذخائر لهذه القلعة ، فتوجه الأمير أمين الدولة وافتتحها .

---

(١) نوع من السفن .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٠ — ٥٢١) .

(٣) كذا فى الأصل .

ذكر فتوح قرقيسيا[1]

وقرقيسيا هذه من أقدم المدن ، وكانت تعرف بالزبّاء الملكة . وفيها يقول ابن دريد :

فاستنزل الزباء قسرا وهى فى عقاب لوح الجو أعلا منتما[2]

وكان السلطان قد راسل أهلها ، وسير إليها الأمير كمال الدين الطورى وملكها وأقام بها مدة ، فقصدها التتار ، فعاد كمال الدين إلى السلطان وتركها . وفى شهر رمضان سنة ثلاث وستين وستمائة ، أرسل مقدموها إلى عز الدين السكندرى النائب بالرحبة[3] ، وسألوه عفو السلطان وسيروا رهائنهم . فتوجه إليها جماعة من الخيالة والأخفية ، وساقوا من أول الليل إلى نصفه وباتوا على ماكسين[4] ، فلما أصبح الصبح أحاط بها المسلمون والعسكر وقتلوا من كان بها من عسكر التتار والكرج ، وأسروا من المرتدة نيفا وثمانين نفرا ، وتسلموا الجسر ومراكبه والسلسلة ، فى نصف الشهر .

---

(١) قرقيسياء ، بالفتح ثم السكون ، ويقال بياء واحدة ، وهى معرب كركيسيا ، وعندها مصب الخابور فى الفرات (معجم ياقوت جـ ٧ ص ٥٨) وراجع أيضا السلوك (جـ ١ ص ٥٣٧) .

(٢) بيت شعر .

(٣) إذا قيل الرحبة دون وصف آخر فالمقصود رحبة مالك بن طوق وهى على الفرات أسفل قرقيسيا وقد خصص ياقوت للذكريات التاريخية والطبيعية الرحبة الجغرافية عدة صفحات (جـ ٤ ص ٢٢٦) .

(٤) ماكسين بكسر الكاف بلد بالخابور وقرية من الرحبة من ديار ربيعة معجم ياقوت (جـ ٧ ص ٣٦٦) .

ذكر أخذ بلاطُنُس وخبرها (١)

كانت بلاطنس جارية فى مملكة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام ، فلما دخل التتار البلاد استولى عليها الأمير مظفر الدين عثمان صاحب صِهيون (٢) ، فطلب السلطان منه رد هذا الحصن ، فصار يدافع ويقول : « أنا من جملة النواب » . فلما توجه السلطان إلى أنطاكية سير إليه هدية ردها السلطان عليه ، وسيّر جماعة من عسكر حلب أغاروا عليها . فتوالت رسله (٣) بالإذعان بالتسليم ويطلب قرية توقف عليه ، فعين السلطان له قرية الحلمة (٤) من بلد شيزر، ووقفها عليه وعلى أولاده ، وقرر أن يعطى صاحب بلاطنس شيئا من بلد صهيون فقرر له السلطان منها بلادا تغل ثلاثين ألف درهم (٥)، وتُسلمت بلاطنس منه فى سادس عشر شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة .

وهذا الحصن من جملة معاقل الإسلام الحصينة لأنه برى بحرى سهلى ، ما أخذ بالسيف قط ، بناه رجال يعرفون ببنى الأحمر من أهل الجبال وحصنوه ، فلما سمع بهم قطبان أنطاكية المسمى ببقيطا عاجلهم قبل إتمامه فملكه بالأمان ، وأخذ فى تحصينه وإتمام بنائه ، وذلك فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة . فلما كان

(١) عن بلاطنس راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٧٩ ، ٩٤٥) .

(٢) صهيون بكسر الصاد ، حصن حصين فى طرف جبل استرده صلاح الدين من يد الصليبيين عام ٥٨٤ هـ ، راجع معجم ياقوت ، (جـ ٥ ص ٤٠٢) .

(٣) هنا اضطرب ترتيب الصفحات أثناء التجليد ، وقد صحح الترتيب على أساس التوقيت والسياق والمقارنة بمتن السلوك .

(٤) الحلمة أو الحكمة موضع لم يستطع المحقق التعريف به من الكتب الجغرافية المتداولة .

(٥) فى الأصل : « تعمل » .

فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، خرج روجار صاحب انطاكية فدوخ بلاد الإسلام ، وقصد حصن بلاطنس وفيه بنو ضليعة أولاد أخى القاضى شرف الدين ، فنزل على بلاطنس فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذى الحجة من السنة ، وأجلب عليه فتسلمه فى يوم السبت ثانى عشر المحرم سنة ثنتى عشرة ، وعوضهم عنه بأنطاكية ثلاث قرى . فلما كان فى يوم السبت سابع وعشرين شعبان سنة ثلاثين وخمسمائة وثب أهل بلاطنس على من فيه من الفرنج فقتلوهم ، فاحتمت عليهم القلة . فأرسل أهل الجبال إلى منكجك التركمانى صاحب بكسرائيل[1] يستنجدونه فأتاهم وأقام يحاصرها مدة . فعمل الفرنج الذين بها حيلة عليه ، وراسلوه وبذلوا له تسليمها على شرط أن يخفر نساءهم وأولادهم حتى يصلوا إلى جبلة أو إلى صهيون . فإذا جاءت لهم العلامة بوصولهم سالمين سلموها له ، فلما وصلهم امتنعوا من التسليم . وكان ذلك حيلة منهم ، فإن الأقوات ضاقت عندهم وضاقت الغلة عليهم ، فاستراحوا بخروجهم عنهم وقويت نفوسهم . واتصل الخبر بأنطاكية فسيروا إليها عسكرا دفعه عنها . واستقرت بأيديهم إلى أن ملكها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على ما قدمناه .

ذكر تسليم صهيون وبرزية[2]

وفى سنة إحدى وسبعين وستمائة : تسلم السلطان صهيون وبرزية ، وذلك

(١) فى الأصل : « بكسراسل » والتصحيح عن معجم ياقوت ، والمقصود حصن من سواحل حمص مقابل جبلة ، واسم صاحبه المذكور هنا لم يرد فى الأعلام المذكورة فى السلوك .

(٢) انظر السلوك (جـ١ ص ٦٠٦) ومعجم ياقوت (جـ ٢ ص١٢٦) أن برزية هو نطق العامة أما الأصل فهو برزوية . وهو حصن على سن جبل شاهق قرب الساحل يضرب به المثل فى الحصانة . وقد استرده صلاح الدين من الصليبيين عام ٥٨٤ هـ .

أن صاحبها الأمير سيف الدين محمـد[1] بن الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس[2] بن بدر الدين خمردكين توفى فى هذه السنة كما تقدم ، وكان السلطان يومئذ بدمشق فاستدعى ولده الأمير سابق الدين سليمان[3] فحضر[4] ، وأقطعه إمرة بأربعين فارسا ، فكتب إلى عمه جلال الدين بتسليم القلعـة إلى نواب السلطان بذخائرها ، فتسلموا ذلك فى ثانى عشر شهر ربيع الأول منها . وأقطع السلطان عميه جلال الدين مسعود ومجاهد الدين إبراهيم، كل منهما إمرة عشرة طواشية، ووصل أهل صاحب صهيون إلى دمشق .

ذكر أخبار الإسماعيلية وابتداء أمرهم والاستيلاء على حصونهم

أول من قام بدعوتهم الحسن بن الصباح المعروف بالكيال،وهو من تلامذة ابن عطاش الطبيب . قدم مصر فى زمن المستنصر العبيـدى فى زى تاجر فى سنة ثمـانين وأربعمائة ، ودخل عليه وخاطبه فى إقامة الدعوة ببلاد العجم فأذن له . وكان الحسن كاتبا للرئيس عبـد الرزاق بن بهـرام بالرى . وادعى أنه قال للمستنصر : « من إمامى بعـدك ؟ » فأشار إلى نزار : فمن هنا سموا بالنزارية . وقال ابن السمعانى فى تاريخـه : إنمـا سموا بالإسماعيلية لأن جماعة من الباطنية ينسبون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق لانتساب زعيمهـم المصرى إلى

(١) كذا فى الأصل . وهو فى السلوك (نفس الموضع) : « أحمد » .

(٢) كذا فى الأصل . وهو فى السلوك (نفس الموضع) « منكبرس » .

(٣) فى الأصل : « بليان » والأرجح سليمان لأن أسماء المعروفين من أخوته وأعمامه المذكورين هنا كلها أسماء عربية .

(٤) كذا فى الاصل ، دون نقط .

محمد بن إسماعيل المذكور . وكان أول إظهار دعوتهم بالألموت وطلوع أعلامه في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة . وجرى لنزار ما قدمناه بعد وفاة أبيه ومسك من الإسكندرية وجيء به إلى القصر فكان آخر العهد به . وانفصل أهل الألموت من العبيديين من ذلك الوقت . وشرع الإسماعيلية في افتتاح الحصون ، فأخذوا قلعة وبنوا أخرى وأظهروا شغل السكين . وأول عملهم بالسكين ، أن ابن الصباح كان ذا دين في الظاهر ، وله جماعة من نسبته يتبعونه ، فلما حضر من مصر إلى الألموت وهي حصينة وكان أصحابها ضعفاء ، فقالوا[1] لأصحابها : « نحن قوم زهاد نعبد الله ونشترى منكم نصف هذه القلعة ونقيم معكم نعبد الله » . فاشترى نصفها بتسعة آلاف دينار . ثم قوى واستولى عليها وصاروا جماعة ، فبلغ خبرهم ملك تلك البلاد فقصدهم بعساكره . فقال رجل منهم يعرف بعلى اليعقوبي : « أي شيء يكون لي عندكم إن كفيتكم أمر هذا الجيش » ؟ قالوا : « نذكرك في تسابيحنا » . فقال : « رضيت » . فنزل بهم وقسمهم أرباعا في أرباع العسكر وجعل معهم طبولا . وقال : « إذا سمعتم الصايح فاضربوا الطبول وقولوا[2] يا آل على » ثم هجم بهم على الملك فقتله فصاح أصحابه ، فضرب أولئك الطبول ، فامتلأت قلوبهم خوفا وهربوا لا يلوى منهم أحد على أحد ، وأصبحت خيامهم خالية ، فنقلوا[3] ما فيها إلى القلعة . وسنوا السكين من ذلك الوقت .

(١) في الجملة السابقة تحدث المؤلف عن ابن الصباح وحده بصيغة الغائب ثم عطف هذه الجملة على السابقة متحدثا عن ابن الصباح وعن جماعته بصيغة جمع الغائب .

(٢) في الأصل : « وقول » . والسياق يحتاج إلى جمع المخاطب في صيغة الأمر .

(٣) في الأصل « فنقلوا » .

ثم بعثوا داعيا من دعاتهم يعرف بأبي محمد إلى الشام فـملك قلاعا من بلاد النـاصرية .

ثم ملك بعده سـنان : وهو سنان بن سليمان بن محمد البصرى ، وأصله من قرية من قرى البصرة تعرف بعقر السدن[1] . وأقام فى الشام نيفا وثلاثين سـنة ، وكان يلبس الخشن ، ولا يراه أحد يأكل ولا يشرب ولا يبول ولا يبصق ، بل يجلس على صخرة ، فاعتقدوا فيه التأله .

ثم ولى مكانه أبو منصور بن محمد وكان ابن الصباح ، الذى قدمنا ذكره . [و][2]لمـا قتل نزار طالبوه به ، فقال : « إنه بين أعداء كثيرة والبلاد بعيدة ولا يمكنه الحضـور ، وقـد عزم على أن يختفى فى بطن امرأة ويجىء سالمـا ويستأنف الولاده » . فقنعوا بذلك ، وأحضر لهم جارية قد أحبلها وقال : « إنه قد اختفى فى هذه » ، فعظموها فولدت ابنا سماه حسنا . وقال : « تغير الاسم لتغيير الصورة » . ومات حسن فى سـنة خمس عشرة وخمسمائة ، وخلف ولده محمـدا . ولمحمد ولد اسمه حسن خلف أباه بعد موته . ولمـا سمع ملك خوارزم شاه قصد بلادهـم . فأظهر محمد بن حسن هـذا أنه رأى على بن أبى طالب فى المنام يقول له : « تعيد شعار الإسلام وفرائضه وسننه » فعـرف جماعته بذلك . ثم قال لهـم : « الدين لنا ، نتصرف تارة بوضع التكاليف عنـكم ، وتارة نأخذها منكم » . فقالوا :

---

(١) عقر السدن من قرى البصرة (راجع معجم ياقوت جـ ٦ ص ١٩٦) .

(٢) الإضافة يقتضيها السياق .

« السمع والطاعة » فكتب إلى بغداد وسائر البلاد بذلك ، واستدعى القراء والفقهاء واستخدم أهل قزوين[1] فى ركابه . وسير الخليفة رسولا صحبة رسوله إلى حلب بتقوية يد نوابه[2] وأن يقتل النائب القديم و يولى هذا الواصل ، فخلصوا بذلك من صولة خوارزم شاه .

هذا ابتداء أمر هذه الطائفة . وقد ذكرنا طرفا من أخبارهم فيما تقدم ، فلنذكر سبب الاستيلاء على بلادهم ، وكيف انتزعها السلطان الملك الظاهر منهم .

ذكر استيلاء السلطان على بلاد الإسماعيلية وشىء من أخبارها[3]

وهى مصياف[4] والعليقة والرصافة والكهف والمنيقة[5] والقُدموس والخوابى .

وكان السلطان الملك الظاهر ، رحمه الله ، قد كسر شوكة هذه الطائفة الإسماعيلية ، وأبطل رسومهم التى كانت مقررة لهم على ملوك الديار المصرية ،

---

(١) بفتح ثم سكون ، مدينة مشهورة غربى الرى (طهران الحالية) ، و بينها و بين بلاد الديلم فى الشمال جبل . وتوجد أحاديث كثيرة فى الحث على المقام بقزوين لكونها من الثغور (معجم ياقوت ج ٧ ص ٨١) .

(٢) كذا فى الأصل بدون نقط .

(٣) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٨٦ — ٥٨٧) .

(٤) أو مصياب بحسب قول ياقوت (ج٨ص ٨٩) وهو حصن مشهور للإسماعيلية قرب طرابلس .

(٥) كذا فى الأصل ، بتقديم النون على الياء . وفى السلوك بالعكس تتقدم الياء على النون ، راجع السلوك(ج ١ ص ٥٧٥) .

وقرر عليهم قطيعة[1] يحملونها إلى بيت المـال . ثم لم يرضه ذلك إلى أن استولى على حصونهم وانتزعها من أيديهـم .

وأول ما استولى عليه من حصونهم مصياف : استولى عليها فى العشر الأوسط من شهر رجب سنـة ثمـان وستين وستمائة . وذلك أن السلطان كان قـد حضر فى جمادى الآخرة من هـذه السنة إلى حصن الأكراد[2] وأغار على البلاد الساحلية ، ونزل بالقرب من البـلاد الإسماعيلية ، وحضر إلى خدمته صاحب حماة وصاحب صهيون ، ولم يحضر نجم الدين [حسن][3] ابن صاحب الإسماعيلية ولا ولده شمس الدين . وسـيروا يطلبون أن ينقصوا من القطيعة التى كانوا يقـدمون بهـا للفرنج وأبطلها السلطان وتقررت لبيت المـال . وكان السلطان قبل ذلك قد غضب على صارم الدين ابن [مبارك] الرضى صاحب العليقة[4] لأجلهـم ، فتوصل صاحب صهيون فى إصلاح أمره ، فحضر إلى السلطان فرضى عنـه وقلده بلاد الدعوة[5] استقلالا ، وأعطاه طلبخاناه ، وعزل نجـم الدين وولده من نيابة الدعـوة . ونعت صارم الدين بالصحوبية على عادة نواب الدعـوة ، وتوجه فى سابع عشر جمادى الآخرة

(١) القطيعة ضريبة . راجع السلوك (جـ ١ ص ٢٨٨ حاشية ١) .

(٢) فى معجم ياقوت (جـ ٣ ص ٢٨٤) أن حصن الأكراد حصن منيع على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب ، واسمه جبل الجليل . وكان بعض أمراء الشام جعل فى موضعه قوما من الأكراد طليعة بينه وبين الصليبيين ، وأجرى لهم أرزاقا إلى أن صار الموضع قلعة حصينة سماه باسم ساكنيها ؛ وراجع أيضا السلوك (جـ ١ ص ٥٨٦ حاشية ٢) عن نزول الإسبتارية به عقب الاستيلاء على القدس .

(٣) الإضافة ضرورية للتعريف ، وهى منقولة عن السلوك (جـ ١ ص ٥٨٦) .

(٤) العليقة من حصون الإسماعيلية ، والضبط هنا وفى كل قلاع الإسماعيلية منقول عن السلوك وما ورد فيه من مصادر (نفس الموضع ص ١٤) ؛

(٥) بلاد الدعوة هى بلاد الإسماعيلية .

وصحبته عز الدين العديمى أحد مفاردة الشام لتقرير أمره، وجرد صحبته جماعة من شيزر[1] وغيرها ، فوصلوا إلى مصياف وتحدثوا مع أهلها ، فامتنعوا ، فسير السلطان إليهم ، فسلموها فى العشر الأوسط من شهر رجب .

ومصياف هذه كرسى مملكة الدعوة ، وبها أكابرهم ، ومنها رسلهم إلى الملوك ، فلما علم نجم الدين وولده سرعة هذا الاستيلاء سألوا الحضور . وحضر الصاحب نجم الدين [حسن] وعمره تسعون سنة ، فرحمه السلطان وعفا عنه وولاه النيابة شريكا لابن الرضى لأنه صهره ، وكان أبوه هو المشار إليه . وقرر حمل مائة وعشرين ألف درهم فى كل سنة . وتوجه نجم الدين وبقى ولده ملازما باب السلطان ، وتقرر على صارم الدين بن الرضى حمل ألفى دينار فى كل سنة .

وكانت مصياف قديما بيد الأمير وثاب بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس[2] من أمراء بنى كلاب فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، فملكها ولده ناصر الدين سابق ، فباعها لعز الدين أبى العساكر سلطان بن منقذ فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وجعل فيها الحاجب سنقر ، فقتله الباطنية وملكوا الحصن فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وبقى فى أيديهم إلى الآن .

ذكر فتوح العليقة والرصافة

هذا الحصن من أمنع الحصون ، وكان مختصا بالرضى ، ثم بولده صارم الدين ، فجرت من المذكور أمور أوجبت اعتقاله بمصر ، ورسم للعسكر المقيم

---

(١) شيزر بتقديم الزاى وفتحها : قرب المعرة ، معجم ياقوت (جـ ٥ ص ٣٢٤) .

(٢) فى الأصل : « برداس » ، وهو اسم غير معروف فى الأسماء العربية .

ببـلاطنس[1] بمنازلتها ، وسـير إلى عبد الظاهر النائب بهـا وإلى جماعة من أهلها بالترغيب والترهيب ، فتسلمها نواب السلطان فى يوم السبت حادى عشر شـوال سنة تسع وسـتين وستمائة ، واستخدم بهـا الرجالة ، ثم هجـم نواب السلطان على الرصافة ، وملكت فى آخر الشهر المذكور .

ذكر فتوح بقية حصون الدعوة

كان قد تقرر على الصاحب نجـم الدين عند وصوله إلى السلطان مائة ألف وعشرين ألف درهم فى كل سنة ، واستقر أن يكون هو وولده[2] فى خدمة السلطان ، واستقر شمس الدين فى صحبة ركاب السلطان ، فنسب إليه أنه كاتب الفرنج . فحضر والده نجم الدين فى سـنة تسع وستين وستمائة عنـد فتوح حصن الأكراد فاعتذر عنه ، وتحدث هو وولده المذكور مع الأتابك فى تسليم القـلاع ، وأنهما يحضران إلى باب السلطان ، فأجابهم إلى ذلك . وتوجه شمس الدين إلى الكهف لتدبير أمور أهـله فى عشرين يوما ويعود ، وسافر أبوه فى الخدمة إلى القرين[3] ثم إلى الديار المصرية ، فـما حضر ولده وصار يعتذر[4] عن الحضور . فكتب إليـه السلطان : « أن الذى كنتم سألتموه من تسليم القلاع كأنكم رجعتم عنه ، والوعد الذى وعدناكم نحن ما نخلفه ، من أننا نعطيك إمرة بأربعـين فارسا ، وقد تسلم والدك الإقطاع » . فورد جوابه يعتـذر عن الحضـور ويطلب حصن العليقة ،

(١) هكذا ضبط فى السلوك (جـ١ ص ٥٧٩) نقلا عن معجم البلدان ، هو حصن بين اللاذقية وحلب .

(٢) فى النسخة « س » : أن ولده هو شمس الدين .

(٣) القرين قرب صـفد ، وكان مركزا للفـرسان البنوتون ، راجع السلوك (جـ ١ ص ٩٢٩ حاشية ٣) .

(٤) نسى الأصل إثبات الراء .

وأنه يسلم بقية الحصون . فأجيب إلى ذلك . وسير السلطان الأمير علم الدين سنجر الدوادارى وقاضى حمص فَخَافًا شمس الدين بحصن الكهف ، ثم طالبوه من التسليم[1] فامتنع أهل الكهف عن ذلك باتفاق منه ، فعادت الرسل بذلك . ثم أعيد إليه الأمير علم الدين الدوادارى وعلم الدين شقير مقدم البريدية ، فمنعا من الدخول إلى الكهف ، ولم تؤخذ منهم الكتب . فأمر السلطان بمضايقتهم ، فندم شمس الدين ونزل من الكهف، وجاء إلى السلطان بظاهر حماة فى سادس وعشرين صفر سنة تسع وستين ، فأكرمه السلطان ، فسير ورقة إلى السلطان يقول : « إن أهل الكهف كانوا جهزوا فداوية إلى الأمراء . » فغضب السلطان وأمر بإمساكه فى الوقت وإمساك أصحابه ، وسيروا إلى مصر . واستمرت مضايقة حصونهم ، وأُمسِك والى الدعوة والناظر بسرمين[2] ، وكان لهم أقارب بالخوابى ، فأشار عليهم الأمير سيف الدين بلبان الدوادار بمكاتبة أقاربهم بالتسليم . فحضر منهم جماعة ، وأعطاهم السلطان الخلع والنفقات وأجراهم على رسومهم ، فسلموا حصن الخوابى فى سنة تسع وستين وستمائة . واستمر امتناع أهل الكهف والمنيقة والقدموس من التسليم ، فرسم السلطان للملك المنصور بمضايقة الكهف . واستمر ذلك إلى أواخر سنة إحدى وسبعين وستمائة .

فأما المنيقة : فتسلمها نواب السلطان فى ثالث ذى القعدة من السنة .

والقدموس : حضر جماعة من أكابر أهلها وبذلوا الطاعة وتُسُلِّمت فى ذى القعدة .

---

(١) كذا فى الأصل ، والأصح طالبوه بالتسليم .

(٢) سرمين : بفتح السين وكسر الميم ، من أعمال حلب ، وأهلها فى ذلك الوقت من الإسماعيلية راجع معجم ياقوت (ج ٥ ص ٢٥) .

وأما الكهف : فتسلمه الأمير جمال الدين أقش الشهابى أحد أمراء الشام فى ثانى وعشرين ذى الحجة من السنة ، وسيرت مفاتيحه صحبة رسلهم ورسل صاحب حماة ، وتكمل بذلك قلاع الدعوة .

وأقيمت بهـا الجمع وترضي عن الصحابة رضي الله عنهـم ، وأظهرت شعائر الإسلام بها .

ذكر أخبار هذه الحصون

فأما حصن الكهف : فقد ذكر فى الكتب أنه الكف بغير هاء ، وسمعت أكثر أهل تلك البلاد لاينطقون فى اسمه بالهاء . وكان هذا الحصن فى يد نواب العبيديين ملوك مصر ، فانتزعه الأمير ليث الدولة بن عمرون وأخذه ، وبقى إلى ولاية سيف الدولة بن عمرون[1] ، فذبح على فراشه فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة . وتولى ولده الحسن وهـو خائف ممـا جرى على أبيـه ، فالتجأ إلى الإسماعيلية ، واستدعى قوما منهـم وأسكنهم معـه فى الحصن ليتقوى بهـم على بنى عمه الذين يقصدونه . فأخرجوه من الحصن وملكوه إلى هذا الوقت .

وأما القدموس : فإنه كان فى يد بنى محرز بعد ولاية العبيديين ، وكان آخر بنى محرز ، منير الدولة حمدان بن حسن بن محرز ، فتوفى وملكه بعده ولده علم الدولة يوسف ، فضعف عن حفظه ، فسلمه للإسماعيلية فى سـنة ثلاث وعشرين وخمسمائة .

وأما حصن المنيقة : وهو فى جبل الرواديف ، وبانيه رجل اسمه نصر بن مشرف الروادفى كان قد استولى على جميع المسلمين الساكنين بجبل الرواديف وما يليه ،

(١) كذا فى الأصل .

واستقحل أمره ، فأخذ وحمل إلى أنطاكية ، فاستتيب وأطلق ، فعاد إلى أذية المسلمين والروم ، فأخذ وطلب العفو ، وأعطى ولده رهينة . وتنصح للروم وقال : « إن فى آخر عمل الروم من آخر جبل الرواديف ضيعة تعرف بالمنيقة ، ومكانها يصلح أن يكون به حصن ليحفظ على جميع الأعمال » . فأجابوه إلى ذلك . فقال : « إن المسلمين لايمكنونكم من بنائه ، وإنما أنا أدفع المسلمين عنه ، وأفهمهم أنى أبنيه لنفسى ، فإذا بنيته سلمته لكم » ، فافتر الروم بقوله وأعانوه ، فلما بناه استعصى به ، وشرع فى بناء حصن آخر امنع منه . ثم إن نقيطا قطبان[1] أنطاكية أتى إلى الحصن وحاصره فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، فلم يظفر به ، ثم عاد إليه وملكه وخرب أبرجته إلى الأرض ، ثم عمرت وصارت بعد ذلك للإسماعيليه .

وأما حصن الخوابى : وهو من جبل بهراء[2] ، فإن محمد بن على بن حامد سلمه للروم فى سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، ثم صار للإسماعيلية .

هذا ما أمكن إيراده من أخبار هذه الفتوحات وابتداء أمر هذه الطائفة . فلنذكر خلاف ذلك من الغزوات الظاهرية والفتوحات ، وما يتخلل ذلك ويناسبه من الصلح والمهادنات إن شاء الله تعالى .

---

(١) نقيطا قطبان أنطاكية ، مر ذكره فى هذا المتن .

(٢) كذا فى الأصل ، بغير نقط .

ذكر غزوات السلطان وفتوحاته
وما وقع من المصالحات والمهادنات

ولنبدأ من ذلك بالأمور التى أوجبت انحراف السلطان عن الفرنج بالبلاد الساحلية[1] وأخذ بلادهم .

قد ذكرنا ما كان قد تقرر من الهدنة عند وصول السلطان إلى الشام فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وأن الفرنج لم يفوا بما تقرر من إطلاق الأسرى . فلما وصل السلطان إلى جهة الطور[2] على ما قدمناه فى سنة إحدى وستين عند القبض على الملك المغيث صاحب الكرك ، وكان الفرنج قد شرعوا يحيدون عن الحق ويطلبون زرعين ، والسلطان يجاوبهم «إنكم أخذتم العوض عنها فى الأيام الناصرية ضياعا من مرج عيون[3] ، وقايضتم[4] بها صاحب تبنين[5] » ، ثم وردت رسلهم الآن يهنئون بالسلامة ويقولون : « ماعرفنا بوصول السلطان » . فأجابهم : « إن من يريد يتولى أمرا ينبغى أن يكون فيه يقظة ، ومن خفى عنه هذه العساكر وجهل ماعلمه الوحوش فى الفلاة والحيتان فى المياه من كثرة هذه العساكر ، التى لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر ، ولعل وقع سنابكها

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٨٣) .

(٢) هو جبل مطل على طبرية الأردن عنده قلعة أيوبية راجع معجم ياقوت (جـ ٦ ص ٦٧)

(٣) مرج عيون مكان على الساحل فيه مجال كبير للرعى معجم ياقوت (جـ ٨ ص ١٥)

(٤) فى الأصل : « وقايضتوا » بالعامية .

(٥) تبنين بكسر أوله : بلدة فى جبال بنى عامر مطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور ، معجم ياقوت (جـ ٢ ص ٢٦٤)

قد أصمّ سماع من وراء البحر من الفرنج وفى موفان[1] من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون بها فأى شىء تعلمون » . وانفصل الرسل على هذا الحال .

ووصلت نواب يافا ، ونواب أرسوف[2] بهدية أخذت منهم[3] ، وكانت كتبهم وردت قبل ذلك مضمونها : طلب فسخ الهدنة والندم عليها ، فصارت ترد الآن بقائهم عليها وتمسكهم بالمواثيق .

وجرت أمور ومراسلات يطول شرحها اقتضت تغير السلطان ، ثم كاتبهم السلطان يقول : « أنتم فى أيام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنكم تنجدونه على السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وخرجتم جميعا خدمته ونجدته ، وجرى ما جرى من خذلانه ، وقتلكم وأسركم وأسر ملوككم ومقدميكم . وقد تقضت تلك الدولة ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد وأحسن إليكم ، فقابلتم ذلك بأنكم رحتم إلى الريذ افرانس وأتيتم صحبته إلى مصر وساعدتموه حتى حوى عليكم ما جرى من القتل والأسر ، فأى مرة وفيتم فيها لمملكة مصر . وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام وطاعة ملكها ونصرته ، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لى وأنا لا أحتاج إلى نصرتكم ، فتردّون ما أخذتموه بهذا الطريق ، وتفكون جميع أسرى

(١) فى الأصل : « يرنان » ، وهو تصحيف موفان ، والتصحيح يعتمد على متن السلوك (ج ١ ص ٤٨٣ س ١٦) .

(٢) أرسوف ، بين قيسارية ويافا ، وكان بها خلق من المرابطين أيام الحروب الصليبية ، معجم ياقوت (ج ١ ص ١٩٢) .

(٣) علل متن السلوك (ج ١ ص ٤٨٤) قبول الهدية بأنه كان : « تطييبا » لقلوبهم وتسكينا لهم .

المسلمين، وغير ذلك لا أقبله . » فلما سمعوا هذه المقالة قالوا : « نحن لا ننقض الهدنة ونطلب مراحم السلطان فى استدامتها ، ونفك الأسرى » . فقال السلطان : « كان هذا قبل خروجى فى هذا الشتاء ووصول هذه العساكر[1] » . وانفصلوا على هذه الصورة ، وأمر أنهم لا يبيتون فى الوطاق[2] . ورسم بهدم كنيسة الناصرة وهى أكبر مواطن عبادات النصرانية . فتوجه الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى إليها وهدمها إلى الأرض ، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجية أن يخرج من باب عكا . ثم جرد السلطان الأمير بدر الدين الأيدمرى وصحبته جماعة فتوجهوا إلى جهة عكا وهجموا إلى أبوابها ، ثم توجه الأمير المذكور مرة أخرى فأغار على المواشى واستباح منها شيئا كثيرا ، وأحضر ذلك إلى المخيم المنصور .

ذكر مسير السلطان إلى عكا[3]

وفى ليلة السبت رابع جمادى الآخرة سنة إحدى وستين : ركب السلطان وجرد من كل عشرة فارسا صحبته ، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلى أمير مهمندار[4] فى الدهليز ، وساق من منزلة الطور نصف الليل . فلما أصبح وقف قريب عكا فى الوادى الذى بقربها ، ومنه يشرف عليها . وأمر الناس بلبس السلاح ورتب العساكر وساق وطاف بعكا من جهة البر ، وسير جماعة إلى برج

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٨٤) حيث يرد الخبر مسهبا ، وحيث ترد حجة جديدة ، هى : « إنفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحارا » .

(٢) الوطاق مفرد ، وهو الخيمة راجع السلوك (جـ ١ ص ١٠٤ حاشية ٦) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٥٨) .

(٤) هو صاحب دار الضيافة ومهمته استقبال الرسل الواردين على السلطان راجع السلوك (جـ ١ ص ٤٧٣ حاشية ٣) .

كان قريبا منها فيه جماعة فحاصروه ، وللوقت عملت فيه الثقوب إلى قرب وقت المغرب والفرنج ينظرون من أبواب المدينه وتل الفضول[1] . ثم رجع السلطان إلى الدهليز قريب البرج المذكور عند الماء . ولما أصبح ركب وساق إليها ، وكان الفرنج قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر فى الطريق . ووقف الفرنج صفوفا على التل ، ورتب السلطان العساكر للقتال بنفسه ، وردمت تلك الخنادق بحوافر الخيل وأيدى الغلمان والفقراء المجاهدين . وطلع الناس إلى تل الفضول وانهزم الفرنج إلى المدينة . وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار وقطعوا الأشجار . وساق العسكر إلى أبواب عكا يقتلون و يأسرون ، فقتل جماعة كثيرة من الفرنج فى ساعة واحدة ، وأسرت جماعة بخيولهم ، وجرح أكابرهم ووقعوا فى الخندق بخيولهم ، وهرب من بقى من الفرنج إلى الأبواب . ثم ساق السلطان وقت العصر إلى البرج الذى كان النقابون علقوه ، ووقف حتى رمى وأخرج منه بالأمان أربعة خيالة أخوة ، ونيف وثلاثين راجلا [وبات السلطان على ذلك[2]] . وأصبح السلطان وكشف بلاد الفرنج مكانا مكانا ، ومر على على كنيسة الناصرة[3] ، ثم رجع وجلس على مسطبة كان قد أمر ببنائها قبالة الطور[4] ، وأوقد الشموع وأحضر الصاحب فخر الدين وزير الصحبة[5] ، وجماعة

(١) كذا فى الأصل .

(٢) الإضافة يقتضيها الإيضاح وهى منقولة من السلوك (جـ ١ ص ٤٨٩ ص ٦) .

(٣) فى الأصل : « الناصرية » .

(٤) كذا فى الأصل . والطور فى كلام العرب الجبل ولا يقال للجبل الأجرد طورا ، معجم ياقوت (جـ ٧ ص ٦٦) .

(٥) هو وزير ملازم للسلطان ، راجع السلوك (جـ ١ ص ٦٢٧ حاشية ٢) .

كتاب الدرج[١] ، وكتاب الجيش، والسديد المعز[٢] مستوفى الصحبة[٣] . وجعل الأمير سيف الدين بلبان الزينى أمير علم[٤] جالسا عند ديوان الجيش لكتابة الأمثلة[٥] وتجهيز الطلبخاناه ، والأتابك[٦] بين يدى السلطان . واستدعى من جشاراته[٧] خمسمائة فرس برسم الطلبخاناه وخيول الأمراء ، وأحضرت الخلع الكثيرة ، ولم تزل المثالات والمناشير تكتب والسلطان يعلم ، وكتب بين يديه فى تلك الليلة ستة وخمسون منشورا كبارا بخطب وهو يعلم ، والنائب يكتب ، و [كتاب[٨]] ديوان الجيش يثبتون ، ومستوفى الصحبة ينزل حتى كملت بين يديه . وأصبح السلطان نخلا بنفسه وجهز الطلبخاناه والصناجق والخيل والخلع للأمراء، وجعل الأمير ناصر الدين القمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية، ورحل من الطور وتوجه إلى الكرك وفتحها على ما قدمنا ذكره .

ذكر قصد متملك الأرمن حلب المحروسة

وفى سنة اثنتين وستين وستمائة : وصل هيتوم بن قسطنطين متملك الأرمن

---

(١) من كتاب الدرج وكتاب الدست وغيرهم من موظفى ديوان الإنشاء راجع السلوك (ج ١ ص ٤٨٩ حاشية ٣) .

(٢) الأصل : « المامز » والمطلوب بحسب السياق لقب من ألقاب مستوفى الصحبة .

(٣) راجع عن المستوفى حاشية السلوك (ج ١ ص ١٩٢ حاشية ٢) .

(٤) راجع عن أمير علم السلوك (ج ١ ص ٤٩٠ حاشية ١) .

(٥) كذا فى الأصل ، ويعبر السلوك فى الموضع الموازى : بالمناشير (ج ١ ص ٤٩٠ س ٥)

(٦) لفظ الأتابك مفعول جعل .

(٧) الجشارات هى المرعى انظر السلوك (نفس الموضع س ٥) .

(٨) الإضافة للإيضاح .

من جهـة هولاكو ، وتوجه قبـل دخوله إلى بلاده إلى السلطان ركن الدين صاحب الروم، فعزم [صاحب الروم[1]] على الإيقاع به على غرة ، ثم ينسب ذلك إلى التركمان ، فشعر هيتوم[2] بذلك ، وكان قد استصحب معه قاضى بلاد هولاكو ليصلح بينه وبين صاحب الروم، وأعطاه عطاء كثيرا واستماله ، فقال له هيتوم: «لا أقدر على دخول بلاد الروم حتى تحضر جماعة من التتار يخفرونى[3] » . فكتب القاضى إلى التتار الذين بالروم ، فحضر منهم أربعمائة فارس ، فتوجه بهم إلى السلطان ركن الدين، فخرج إليه وتلقاه مترجلا لأجل القاضى، والأرمنى لم يترجل، وقدم كل منهما للآخر تقدمة ، لكن كانت تقدمة صاحب الروم لهيتوم أكثر ، ثم جاءوا جميعهم إلى هرقـلة[4] وتحالفا واتفقا ، واهتم هيتوم بجمع العساكر لقصد البلاد الإسلامية. وكان فى عسكره من بنى كلاب ألف فارس فقصد عين تاب. وكان السلطان قد اطلع على هذا الأمر لاهتمامه بالاستطلاع على الأخبار ، فسير إلى عسكر حماة وعسكر حمص بالتوجه إلى حلب ، فتوجهوا ، وتوجه جماعة من العسكر المصرى، فأغاروا على الأرمن وأسر أمير من أمراء هيتوم ، وأخذ له مائة جمل من البخاتى فولوا منهزمين، وقتل منهم جماعة، وجرح صاحب حموص[5] قرابة هيتوم الملك جراحة شـديدة ، فكتب الأرمنى إلى التتار الذين بالروم ، وهم

(١) ذكر الفاعل هنا ضرورى للإيضاح .

(٢) هو صاحب أرمينية الصغرى فى بلاد قيلقية، راجع السلوك (ج ١ ص ٥٤٠ حاشية ١) .

(٣) فى الأصل : « يخفرونى » .

(٤) هرقلة مدينة رومية فى آسيا الصغرى غزاها الرشيد وفتحها . و يوجد حصن بنفس الاسم على الفرات بين الرافقة وبالس ، معجم ياقوت (ج ٨ ص ٤٠٤) .

(٥) ويرسم الاسم فى السلوك حيص (راجع السلوك ج ١ ص ٥٤٠ حاشية ١) .

سبعمائة ، فحضروا إليه لقصد الشام ؛ فلما وصلوا إلى مرج[1] حارم وقعت ثلوج شديدة ، وكان الأرمنى قد كتب إلى أنطاكية يطلب نجدة ، فأنجد منها بمائة وخمسين فارسا ، ولبسوا كلهم السراقوجات[2] تشبها بالتتار ، واجتمعوا كلهم بالقرب من مرج حارم فكادوا يهلكون من كثرة الثلوج والأمطار ، وخرج العسكر المنصور لقصدهم ، وانقطعت عنهم المسيرة فتأخروا راجعين ، فعدم من أصحاب الأرمنى مائة وعشرون فارسا، وثلاثون تتريا، وستة من خيالة أنطاكية وجماعة من رجالتهم .

ثم اهتم هيتوم بعد ذلك وجمع العساكر وفصّل ألف قباء تترى وألف سراقوج ألبسها أصحابه ، ليوهم أنهم نجدة من التتار . فجرد السلطان عسكرا من دمشق إلى حمص وجماعة من حماة ، وتوجه الأمير حسام الدين العين تابى فأغار على مرزبان[3] وقتل وأسر وعاد سالما . وتوالت الغارات من جميع الجهات، فتفرق جمع هيتوم ، وعدل العسكر الإسلامى إلى أنطاكية فغنم وقتل وأسر .

وفى جمادى الآخرة منها : أغارت العساكر التى بالساحل صحبة الأمير ناصر الدين القيمرى ووصلت إلى أبواب عكا .

وفى شهر رمضان من السنة : وصل كتاب الأمير ناصر الدين المذكور، يذكر أنه بلغه أن الفرنج توجهوا إلى جهة يافا ، فأمره السلطان بالغارة على قيسارية[4]

(١) حصن كبير مشهور بين حلب وأنطاكية ، معجم ياقوت (ج ٤ ص ١٩٩) .

(٢) يشير السلوك فى فهرست مصطلحات الجزء الأول إلى السراقوج وهو من الثياب بحسب السياق هنا وهناك .

(٣) مرزبان بأرمنية الصغرى .

(٤) قيسارية المقصوده هنا تقع قبالة طبرية . أما عثليث فإنها تسمى أحيانا بالحصن الأحمر وهى حصن ساحلى كان مركزا رئيسيا للداوية (راجع السلوك ج ١ ص ٥١٣ حاشية ١ ، ٢) .

وعثليث ، فساق إلى باب عثليث فنهب وقتـل وأسر ، ثم ساق إلى قيسارية واعتمد فيها مثـل ذلك . فرجع الذين بيافا .

ذكر محاصرة التتار البيرة
وتجريد العساكر وانهزام العدو[1]

كان السلطان قـد توجه إلى جهة العباسة[2] ، فى أوائل سـنة ثلاث وستين وستمائة ، للصيد ورمى البندق كما قدمناه ، فأتته الأخبار أن التتار قد جمعوا ونازلوا البيرة ، وللوقت أمر الأمير بدر الدين الخزندار بالركوب على الخيل السوابق إلى القلعة ، وأنه ساعة وصوله يجرد أربعة آلاف فارس من العسكر الخفيف . ورجع السلطان إلى القلعة فبات ليـلة واحدة ، وجهز الأمـير عز الدين إيغان ، ورسم له بتقدمة العساكر وصحبته الأمـير فخر الدين الحمصى ، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى ، والأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى وجماعة من الأمراء والحلقة[3] . وتوجهت هذه العساكر فى رابع عشر ربيع الأول ، وأمر الأمير جمال الدين أيدغدى الحاجبى بالسفر فى أربعة آلاف فارس أخر ، فخرجوا بعـد العسكر الأول بأربعة أيام ، وشرع السلطان فى التجهيز ، وخرج فى خامس شهر ربيـع الآخر ،

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٣ وما بعدها) ويفرق الجغرافيون بين البيرة الأندلس ويعتبرون ألفها أصلا تحتها كسره . أما البيرة الشام فان أولها ال التعريف وهى بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الشامية (راجع معجم ياقوت جـ ١ ص ٣٢٢ ، جـ ٢ ص ٣٢٠) .

(٢) بلده على طـريق الشام ومصر سميت بعباسه عمة قطر الندى بنت خمارويه ، ثم صارت العباسة متنزها ومتصيدا أيام الأيوبيين (راجع معجم ياقوت جـ ٦ ص ١٠٧) .

(٣) الحلقة طائفة من الطوائف الممتازة من الأجناد (راجع السلوك جـ ١ ص ٥١٩) .

ورحل فى سابع الشهر ، ووصل إلى غزة فى العشرين منه ، فوصلت كتب النواب : إن العدو نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقا . فكتب إلى الأمير عز الدين إيغان يستحثه على سرعة الحركة ، ويقول : «متى لم تدركوا هذه القلعة؟ وإلا سقت إليها بنفسى جريدة» . فساق العسكر وحث السير ، فلما كان فى السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر ، ورد البريد من جهة الأمير جمال الدين النجي نائب السلطنة بالشام وعطف كتابه بطاقة[1] من الملك المنصور صاحب حماة مضمونها : أنه وصل إلى البيرة بالعساكر المنصورة صحبة الأمير عز الدين إيغان ، وأن التتار عندما شاهدوهم هربوا ، ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم ، وانهزموا لا يلوى أحد منهم على أحد . ثم وصلت أربعة من مماليك الأمراء بالبشارة . وورد كتاب الأمير جمال الدين أقوش[2] المغيثى النائب بالبيرة يذكر صورة الحال ، وأنه لما كثر العدو على القلعة وطم الخندق ، حفر أهل البيرة حفيرا قدر قامة ، وعملوا منه سردابا نافذا إلى الأحطاب التى كان العدو رماها فى الخندق فأضرموا فيها النار ، فاحترقت جميعها ، ثم سد المسلمون السرب المحفور . وذكر مصابرة أهل الثغر ، وأن نساء هم فعلن من حسن البلاء فى مصابرة الأعداء مالم يفعله الرجال . ومن جملة ما وصف أن برجا واحدا كان عليه خمسة عشر منجنيقا وثبت شهرين . فكتب السلطان بإطابة قلوب من بالثغر ، وعينت أمثلة[3]

---

(١) البطاقة نوع خاص من الأوامر الديوانية (راجع السلوك جـ ١ ص ٢٨٢ حاشية ٢) ويقابلها فى الإدارة البيزنطية بيناكيون .

(٢) من عادة الناسخ أن يحذف واو أقش غير هذه المرة الوحيدة .

(٣) المثال هو أول سلسلة الأوامر الديوانية الخاصة بمنح الإقطاع وآخر هذه السلسلة المنشور ، وقد يستعمل اللفظان مرادفين من باب التجوز (راجع السلوك جـ ١ ص ٤٩٠ حاشية ٣) .

بالإقطاعات لمن جاهد من البحرية وغيرهم بالبيرة . واستشهد صارم الدين بكتاش الزاهدى[1] أحد الأمراء المجردين بهـا بحجر منجنيق ، وترك موجودا كثيرا وبنتا واحدة ؛ فرسم السلطان بجميع ميراثه لابنته . واهتم السلطان بأمر القلعة ، وكتب إلى جميع القـلاع والولايات[2] بمـا يحملونه إلى هـذا الثغر من الأموال والغـلال والأسلحة والعدد وغير ذلك ، ممـا يحتاج أهـل هذه القلعة إليه لمدة عشر سنين . وكتب إلى الأمراء والملك المنصور صاحب حماة أنهـم لا يتحركون[3] من مكانهـم حتى ينظفوا الخندق وينقلوا الحجارة التى فيـه ، ففعلوا ذلك وأقاموا مدة بسببه . ووردت كتب الأمراء يخبرون أنه لمـا كانت نوبة الأمير عز الدين إيغان والأمير فخـر الدين الحمصى والأمير بدر الدين الأيدمرى وجماعة من البحرية ، وكانت خيلهم ترعى فى الجانب الشامى وهم يعملون ، فأحاط بهـم فرقة من التتار المغل مُلَبِّسين[4] ، فأجمعوا ورموهم بالنشاب وأنكرهم بالجراحات فولوا منهزمين ، وساق العسكر خلفهم فوجد منهم جماعة قـد هلكوا فى الطريق من الجراحات ، وقتـل جماعة فى ذلك اليوم . فاستدعى السلطان من الديار المصرية مائتى ألف درهـم ومائتى تشريف ، وكتب إلى دمشق بتجهيز مائة تشريف ودراهم ، وجهز ذلك إلى البيرة ، وكتب إلى الأمير عز الدين إيغان بأن يحضر أهل القلعة جميعهم من

(١) راجع لسلوك (ج ١ ص ٥٢٥) عن استشهاده .

(٢) فى الأصل : والولاية ؟

(٣) فى الأصل : لا يتحركوا .

(٤) كذا فى الأصل ، ولعل المراد هـو أن هذه الفرقة تحمل ثيابا وعدة خاصة ، وهـذا أنسب للعادات الحربية ، وقد يكون المعنى أنهم أحاطوا بالمسلمين كأنهم يلابسونهم ويخالطونهم .

الأمراء والجند والعوام ويخلع عليهم وينفق فيهم المال حتى الحراس والضوية[1].
ثم عاد الأمراء بعد أن نظفوا الخندق ونقلوا إلى القلعة زلطا كثيرا . ولما وصلوا رسم السلطان أن يكون الأمير جمال الدين المحمدى مقدما على العساكر المصرية والشامية لكبر سنه ، والأمير عز الدين إيغان يتحدث فى المهمات و إطلاق الأموال وترتيب أمور البلاد .

هذا ما أنفق من أمر البيرة . فلنذكر ما افتتحه السلطان من البلاد الساحلية فى هذه السفرة .

ذكر الفتوحات بالبلاد الفرنجية فى هذه السفرة

قال : لما وصلت الأخبار إلى السلطان وهو بالساحل بانهزام التتار، واستقر خاطره من تلك الجهة ، ثنى أعنته الى جهة الفرنج و جرد العزائم نحوهم . وركب من العوجاء بعد رحيل الأطلاب للصيد فى غابة أرسوف . ورتب الحلقة ودخل الغابة وتصيد . ثم ساق إلى أرسوف[2] وقيسارية وشاهدهما وعاد إلى دهليزه[3] ، فوجد أخشاب المجانيق قد وصلت صحبة زرد خاناه . فأمر الأمير عز الدين أمير جاندار أن ينصب عدة مجانيق مغربية وفرنجية ، فعمل فى ذلك اليوم أربع منجنيقات كبارا وعدة من الصغار . وكتب إلى القلاع يطلب المجانيق والصناع والنجارين

(١) هم المكلفون بالإضاءة (راجع السلوك جـ ١ ص ٥٢٥ حاشية ٢) .

(٢) عن الصيد فى غابة أرسوف راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٢٥ س ١٧) .

(٣) الدهليز هو الخيمة التى ترافق السلطان فى الحرب (راجع السلوك جـ ١ ص ٢٤٨ حاشية ١) .

ورسم للعسكر بعمل سلاليم وعين لكل أمير عدة منها ، ورحل إلى قريب عيون الأساور[1] وأمر العسكر بعد العشاء الآخرة بلبس السلاح وأخذ أهبة الحرب ، وركب قريب وقت الصبح وساق إلى قيسارية على حين غفلة من أهلها .

ذكر فتوح قيسارية[2]

نزل السلطان عليها فى يوم الخميس تاسع جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمائة ، وللوقت طاف بها وهاجمها الناس ، وألقوا نفوسهم فى خنادقها ، وعمدوا إلى سكك الخيل الحديد[3] والشُّبح[4] والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب ، ونصبت عليها الصناجق ، وحرقت أبوابها ، فهرب أهلها إلى قلعتها . فنصبت المجانيق على القلعة وهى من أحصن القلاع وأحسنها ، وتعرف بالخضراء . وكان الريدا فرانس حمل إليها العمد الصوان وأتقنها ، ولم ير فى الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع ، لأن البحر حافٌّ بها ، وجايزٌ فى خنادقها ، والنقوب لا تعمل فيها للعمد الصوان المصلبة فى بنائها ، حتى إذا علقت لا تقع . فاستمر الزحف عليها ورمى المنجنيقات وعملت دبابات[5] وزحافات[6] . وكان السلطان يركب فى بعض الدبابات وتجر من

(١) زاد السلوك (جـ ١ ص ٥٢٦ س ٥) أن عيون الأساور من وادى عارة وعرعرة ، وراجع عن الأساور الحاشية رقم ١ بنفس الموضع من السلوك .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٥ — ٥٢٧) .

(٣) العبارة المقابلة فى الخبر الموازى من السلوك أوضح ، قال : « وأخذوا السكك الحديد التى برسم الخيول (السلوك جـ ١ ص ٥٢٦) .

(٤) الشبح بضم الشين جمع شبحة وهى سلسلة يربط بها قدم الحصان (السلوك نفس الموضع) .

(٥) عن الدبابات وكباشها راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٦ حاشية ٨) وهى أبراج متحركة ذوات طوابق .

(٦) فى الأصل : « زحاباتٍ » والتصحيح من السلوك (جـ ١ ص ٥٢٦ حاشية ٥) .

تحته بالعجل حتى يصل إلى الأسوار ويرى النقوب . وأخذ فى بعض الأيام بيده ترسا وقاتل ، وما رجع إلا وفى ترسه عدة سهام . وفى ليلة الخميس منتصف الشهر حضر الفرنج وسلموا القلعة بما فيها ، وتسلق المسلمون إليها من الأسوار وحرقوا الأبواب ودخلوا من أعلاها وأسفلها ، وأذن بالصبح عليها . وطلع السلطان إلى القلعة وقسم المدينة على أمرائه وخواصه ومماليكه وحلقته ، وشرع فى الهدم وأخذ بيده قطاعة وهدم بنفسه وبيده .

وقيسارية هذه من المدن القديمة فتحت فى صدر الإسلام فى سنة تسع عشرة للهجرة ، على يد معاوية بن أبى سفيان ، بعد قتال عظيم ، ولم يكن معاوية أمير الجيش ، إنما كان من قبل أخيه يزيد بن معاوية .

وفى جماد الأول : جرد السلطان الأمير شهاب الدين القيمرى بجماعة من عسكر الساحل لجهة بيسان[1] ، فسير جماعة من العربان والتركمان للإغارة على عكا ، فأغاروا ووصلوا إلى أبوابها وغنموا وعادوا .

ذكر التوجه إلى عثليث[2]

وأخذ حصن الملوحة وحيفا

قال : ولما قارب السلطان الفراغ من هدم قيسارية سير الأمير شمس

---

(١) بيسان ، بفتح م سكون ، مدينة بالأردن بين حوران وفلسطين ، وتوصف بكثرة النخل مع أنها خلت منه ، وإليها ينسب القاضى الفاضل . راجع معجم يا قوت (جـ ٢ ص ٣٣٢) السلوك (جـ ١ ص ٥١ حاشية ٦) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٧) وراجع ما تقدم من هذا الجزء (ص ٢٦١ حاشية ٤) ق

سنقر الألفى الظاهرى ، والأمـير سيف الدين المستعربى . وجماعة نهدوا قلعة للفرنج عند الملوحة[1] وكانت عاصية فدكوها إلى الأرض .

وفى سادس وعشرين جمادى الأولى : توجه السلطان إلى عثليث جريدة ، وسير الأمـير شمس الدين سنقر السلاح[2] دار الظاهرى والأمير عز الدين الحموى ، والأمير شمس الدين سنقر الألفى الظاهرى إلى حيفا ، فساروا إليها ودخلوا قلعتهما ، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب بعد أن قتل منهم وأسر . وأحضرت الأمرى والرؤس ، وأخربوا المدينة وقلعتها وأحرقوا أبوابها ، وذلك جميعه فى يوم واحد .

وأما السلطان فإنه وصل إلى عثليث وأمر بتشعيثها وقطع أشجارها ، فقطعت جميعها وخربت أبنيتها فى ذلك النهار ، وعاد السلطان إلى قيسارية وكمل هدمها .

ذكر فتوح أرسوف[3]

وفى تاسع وعشرين جمادى الأولى من السنة : رحل السلطان من قيسارية وسار إلى أرسوف ، فنازلهـا فى مستهل جمادى الآخرة ، وأمر بنقل الأحطاب فصارت حولهـا كالجبال الشاهقة ، فعملت منها الستائر ، وأمر بحفـر سربين[4] من خندق المدينـة إلى خنـدق القلعة ، وأسقفت بالأخشاب وسلمها لأكابر الأمراء ، وعمل طريق من الخندقين إلى القلعة ، فخرج الفرنج لإحراق الأحطاب

(١) قرب حلب ، راجع معجم ياقوت (جـ ٨ ص ١٥٤) وراجع السلوك (جـ ١ ص ٥٢٧ حاشية ٢) .

(٢) وكذلك يرسم اسم صاحب هذه الوظيفة بدون ألف : « السلحدار » .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٢٨ — ٥٣٠) .

(٤) انظر عن الأسراب حاشية فى السلوك (جـ ١ ص ٥٢٨ حاشية ١)

فطلبهم الأمير سيف الدين قلاون الألفى وغيره ، وقلب على الأحطاب المياه فطفئت[1] النيران . ولما تكامل ردم الخندق بالأحطاب ، تحيل الفرنج ونقبوا من داخل القلعة إلى أن وصلوا إلى تحت الردم وعملوا بتاتى[2] ملآنة أدهانا وشحوما وأضرموا النيران وعملوا فى النقوب المفاتح[3] ، ولم يعلم العسكر بذلك إلا بعد تمكن النيران ، فاحترقت تلك الأحطاب جميعها وكان ذلك فى الليل . وجاء السلطان بنفسه وسكب المياه بالروايا ، فلم تفد شيئا . فعند ذلك تقدم السلطان إلى الأمير شمس الدين سنقر الرومى والأمير بدرالدين بيسرى ، والأمير بدر الدين الخزندار ، والأمير شمس الدين الدكز الكركى ، وجماعة من الأمراء ، وهم نصف الأمراء الصنجقية[4] ، وميمنة الأمراء البحرية ، وميمنة الأمراء الظاهرية ، وميمنة الحلقة ، بأن يأخذوا من مكانهم فى باب السرب من حافات الخندق من جهة سوره حفرا إلى البحر الملح[5] . وتقدم إلى الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، والأمير علم الدين الحلبى ، والأمير سيف الدين كرمون وجماعة الأمراء ، وهم نصف الأمراء الصنجقية من جهة الميسرة وميسرة الحلقة والبحرية ، بأن يحفروا من الجهة الأخرى ، وأن يحفر[وا] من كل ناحية من هذه النواحى سربا يكون حائط خندق وساترا له .

---

(١) فى الأصل : « فطفت النيران » بالعامية .

(٢) بتوت جمع بت بفتح الباء ، وهو كساء مهلهل النسج ، راجع قاموس دمندى .

(٣) فى الأصل : « المتامح » والتصحيح يقتضيه السياق .

(٤) جرى الناسخ على رسم لفظ صنجق بالصاد ما عدا هذه المرة الوحيدة . وراجع عن الصنجق السلوك (جـ ١ ص ١٢٤ حاشية ١) .

(٥) المقصود كما ورد فى السلوك (جـ ١ ص ٥٢٨ ص ١٢) أن السلطان أمر بالحفر من باب السربين إلى البحر .

وتحفر فى هـذا الحائط أبواب يرمى التراب فيها و يترك فى هـذه السروب حتى يساوى أرضها بأرض الخندق ، وعذق[1] هذا الأمر بعز الدين أيبك الفخرى أحد أصحاب الأتابك ، فأستمر العمل فى هـذه الخنادق والسلطان طائف فيها بنفسه و يعمل بيده ، وهو تارة فى السروب ، وتارة فى الأبواب التى تفتح ، وتارة على حافة البحر ، و يرامى مراكب الفرنج ويجر فى المنجنيق و يرمى من الستائر[2] .

وحكى عنه الأمير جمال الدين بن نهار، رحمه الله، قال : «رأيت السلطان فى هذا النهار رمى بثلثمائة سهم نشابا» . واتفق أن السلطان حضر إلى السرب وقعد فى رأسه خلف طاقة يرمى فيها، فخرج جماعة من الفرنج الفرسان ومعهم الرماح بالخطاطيف فلم يشعر إلا وهم على باب السرب ، فقام وقاتلهم يدا بيد ، وكان معـه الأمير شمس الدين سنقر الرومى والأمير بدر الدين بيسرى والأمير بدر الدين الخزنـدار وغيرهم . وصار سنقر الرومى يناوله الحجارة ، فقتـل بها فارسين ، وقطع الأمير حسام الدين الدوادار أحد الخطاطيف بسيفه و جرح فى عضده، ورجع الفرنج على أسوأ حال .

وحضر فى هـذه الغزاة جمـع كبير من العباد[3] والزهاد والفقهاء والفقـراء وأصناف العباد ، ولم يعهد فيها خمـر ولا شىء من الفواحش، بل كانت[4] النساء

---

(١) كذا فى الأصل ، واللفظ لا يناسب الأسـلوب العام ولعل الأصل كان « علق » بمعنى أسـند .

(٢) ستارة والجمع ستائر وهى حيطان من خشب أو ردم للوقاية من قذائف العدو (راجع السلوك جـ ١ ص ١٠٢ حاشية ٣) .

(٣) ، (٤) سقط بعض المتن ، والتكملة من السـلوك اعتمادا على تطابق ألفاظ الأخبار فى متن الكتابين (راجع السلوك جـ ١ ص ٥٢٩) .

الصالحات يسقين الماء ويجرين فى المجانيق. وأطلق السلطان لجماعة من الصالحين الرواتب مثل : الشيخ على المجنون والشيخ إلياس ، وأطلق للشيخ على البكا جملة من المال.

قال : واهتم بأمر المجانيق وأحضرها من دمشق ، وعمل كرمون أغا منجنيقا بسبعة سهام وأثر أثرا حسنا . وكان للأمير عز الدين أيبك الأقرم أمير جاندار فى هذه الغزاة أوفر نصيب ، وهو الذى تولى أمر المجانيق .

قال : ولما أثرت المجانيق فى هذه الأسوار ونجزت الأسربة التى إلى جانب الخندق من الجهتين وفتحت فيها أبواب متسعة حصل الزحف على أرسوف فى يوم الاثنين ثامن شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة ، وافتحت فى يوم الخميس . وذلك أن الباشورة[1] سقطت فى الساعة الرابعة من النهار ، وطلع المسلمون إليها تسلقا[2] ، وما أحس الفرنج بالمسلمين إلا وقد خالطوهم من كل باب . ورفعت الأعلام على الباشورة ، وحفت بها المقاتلة ، وطرحت النيران فى أبوابها . وأعطى السلطان صنجقه للأمير شمس الدين الرومى ، وأمره أن يؤمن الفرنج به من القتل عندما طلبوا الأمان . فلما رآه الفرنج بطلوا القتال ، وسلم الصنجق للأمير علم الدين سنجر المسرورى الحاجب المعروف بالخياط ، ودليت له الحبال من قلعة أرسوف فربطها فى وسطه والصنجق معه ، ونشله الفرنج إلى القلعة فأخذ

---

(١) فى شرح هذا اللفظ راجع السلوك (ج ١ ص ٥٠٠ حاشية ٤) والمقصود سد من التراب .

(٢) فى الأصل : « تسلقا » وهو مصدر غير مسموع .

سيوفهم ، وأحضروا فى الحبال [إلى السلطان[1]] .

ولما خلت القلعة من الفرنج أباحها السلطان للمسلمين بجميع ما فيها من أموال وغلال وذخائر . وكان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض [لشىء[2]] منها إلا لما اشتراه بالمال . وكان فى أسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا فى تلك الساعة وأخذت قيودهم وقيد بها الفرنج . وجرد جماعة من المقدمين يتوجهون مع الأسرى . وسير لكل أمير جماعة ، ولكل مقدم جماعة . وشرع السلطان فى تقسيم أبراج أرسوف على الأمراء ، وجعل هدمها دستورهم[3] ، ورسم بأحضار الأسارى لإخرابها ، فكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ﴾[4] .

ورحل السلطان عن أرسوف بعد استكمال هدمها فى يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة .

ذكر ما ملكه السلطان لأمرائه
من النواحى التى فتحها الله على يده

قال : لما فتح الله تعالى على السلطان قيسارية أمر الأمير سيف الدين الدوادار الرومى بكشف بلادها وتحقيق متحصلاتها ، وعملت أوراق بذلك . ولما فتح الله أرسوف طلب [السلطان] قاضى القضاة بدمشق وجماعة من

---

(١) ، (٢) الإضافة يقتضيها الإيضاح ، وهى منقولة عن السلوك (ج ١ ص ٥٣٠) اعتمادا على تطابق الأخبار والألفاظ .

(٣) الدستور بمعنى الإذن بالإنصراف .

(٤) سورة الحشر آية ٢ .

العدول ووكيل بيت المال ، وتقدم بأن يملك الأمراء [المجاهدون][1] من البلاد التى فتحها الله على يديه ما يأتى ذكره . وكتبت التواقيع لكل منهم ولم يطلعوا عليها ، ولما كملت التواقيع قرئت[2] على أربابها ، وكتب بذلك مكتوب جامع بالتمليك :

ونسخته بعد البسملة :

أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود ، وتمكينه الذى[3] رفلت الملة الإسلامية منه فى أصفى البرود ، وفتحه الذى إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه علمت أنه الأمر ما يسود من يسود .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى جاهد الكفار ، وجاهرهم بأعمال السيف البتار ، وأعلمهم لمن عقبى الدار ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتواصل بالعشى والأبكار .

فإن خير النعم نعمة وردت بعد اليأس ، وجاءت بعد توحشها وهى حسنة الإيناس ، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس ، (وصرعت أبواب الجهاد وقد غلقت فى الوجوه ، وأنطقت السنة المنابر وشفاة المحابر بالبشائر التى ما اعتقد أحد أنه بها يفوه[4]) ، فأكرم بها نعمة على الإسلام وصلات للملة المحمدية

(١) الإضافة يقتضيها الإيضاح . وهى منقولة من السلوك (جـ ١ ص ٥٣٠) .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى السلوك : « فرقت » وهو أفضل . راجع السلوك (نفس الموضع) . أما عن التواقيع والعلامة فارجع إلى السلوك (جـ ١ ص ٣٤٤ حاشية ١ ، ص ٣٦٢ حاشية ١) .

(٣) فى الأصل : « التى » وهو خطأ .

(٤) أهمل السلوك ما بين القوسين من النص .

أسـبابا ، وفتحت للفتوحات أبوابا، وهزمت من التتار والفرنج العـدوين ، ورابطت بين الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين ، وجعلت عساكر الإسلام تـذل الفرنج بغزوهم فى عقر الدار ، وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والأمصار ، وتمـلأ خنادقهم بشاهق الأسوار ، وتقود من فضل عن شبع السيف الساغب فى قبضة القيد إلى حلقات الأسار . ففرقةٌ منها تقتلع للفرنج قلاعا وتهدم حصونا ، وفرقةٌ تبنى ما هدم التتار بالمشرق وتعليه تحصينا . وفرقةٌ تتسلم بالحجاز[1] قلاعا شاهقه وتتسنّم هضابا سامقة ، فهى بحمد الله البانية الهادمة والمفيدة العادمة والقاسمـة الراحمة . كل ذلك بمن أقامه الله للأمـة الإسلامية راحما ، وجرد به سيفا قد شحذت التجارب حديه ففرى ، وحملت رياح النصرة ركابه تسخيرا فسار إلى مواطن الظفر وسرى ، وكونته السعادة ملكا إذا رأته فى دستها قالت تعظيما : « هذا ملك ما هذا بشرا » . وهو مولانا السلطان الأجل العالم العادل المؤيد المنصور ، ركن الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، محيي العدل فى العالمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، سلطان بـلاد الله ، حافظ عباد الله ، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، صاحب القرآن ، ملك البحرين صاحب القبلتين ، خادم الحـرمين الشريفين ، الآمر ببيعـة الخليفتين صلاح الجمهور صاحب البلاد والأقاليم والثغور ، فاتح الأمصار ، مبيد التتار ، ناصر الشريعة المحمدية ، رافع علم الملة الإسلامية ، مقتلع القلاع من الكافرين ، القائم بفرض

(١) كذا فى الأصل ، ومثله فى السلوك أيضا (ج ١ ص ٥٣١ س ٢) .

الجهاد فى العالمين[1] أبو[2] الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين ، جعل الله سيوفه مفاتيح[3] البلاد وأعلامه أعلاما من الأسنة ، على رأسها نار لهداية العباد ، فإنه آخذ البلاد ومعطيها ، وواهبها بما فيها ، وإذا عامله الله بلطفه شكر ، وإذا قدر عفا وأصلح ، فكم وافقه قدر ، وإذا أهدت إليه النصرة فتوحا بسيفه قسمها فى حاضريها لديه متكرما ، وقال الهدية لمن حضر ، وإذا خوله الله تخويلا من بلاد الكفر وفتح على يديه قلاعا جعل الهدم للأصوار ، والدماء للسيف البتار ، والرقاب للإسار ، والنواحى المزروعة للأولياء والأنصار ، ولم يجعل لنفسه إلا ما تسطره الأملاك فى الصحائف لصفاحه[4] من الأجور ، وتطوى عليه طوبات السِّيَر التى غدت بما فتحه الله من الثغور باسمه باسمة الثغور .

فتى جعل البلاد من العطايا فأعطى المدن واحتقر الضياعا
سمعنا بالكرام وقد رأينا[5] عيانا ضعف ما فعلوا سماعا
إذا فعل الكرام على قياس جميلا كان ما فعل ابتداعا

ولما كان — خلد الله سلطانه — بهذه المثابة ، وفتح الفتوحات التى أجزل الله بها أجره وثوابه ، وله أولياء كالنجوم إنارة وضياء ، وكالأقدار نفاذا ومضاء ، وكالعقود تناسقا ، وكالوبل تلاحقا إلى الطاعة وتسابقا ، وكالنفس الواحدة

(١) حذف صاحب السلوك فى هذا الموضع من النص القاب السلطان الملك الظاهر كلها .

(٢) فى الأصل : « أبى » وهو خطأ .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى السلوك « مفاتح » (جـ ١ ص ٥٣١ س ٥) .

(٤) كذا فى الأصل : بصفاحه والتصحيح من نص السلوك حيث ترد نفس الوثيقة (نفس الموضع ص ١١) .

(٥) فى رواية السلوك : « أرانا » .

عبـودية له وتصادقا ، رأى — خلد الله سلطانه — أن لاينفرد عنهم بنعمة ، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهـم تستنقذ ، و بعزائمهـم تستخلص ، وأن يؤثرهم على نفسه ، ويقسم[1] عليهم الأشعة من أنوار شمسه ، و يبقى للولد منهم وولد الولد ما يدوم إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد ، ويعيش الأبناء فى نعمته كما عاش الآباء . وخير الإحسان ما شمـل ، وأحسنه ما خلد ، فخرج الأمر العـالى لا زال يشمل الأعقاب والذرارى ، و ينير إنارة[2] الأنجم الدرارى ، أن يملك جماعة أمرائه وخواصه الذين يذكرون ، وفى هذا المكتوب الشريف يسطرون ، ما يعين من البلاد والقرى والضياع على ما يشرح و يبين من الأوضاع وهو :

المولى الأتابك فارس الدين أقطاى الصالحى	قيل بكمالهـا
الأمير جمـال الدين إيدغدى العزيزى	النصف من زيتـا
الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى	نصف طور كرم
الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهرى	نصف طور كرم
الأمير شمس الدين الدكز[3] الكركى	ربع زيتـا
الأمير سيف الدين قليج البغدادى	ربـع زيتـا
الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحى	أفراسين[4] بكمالهـا

(١) فى الأصل : « نقسمهم » بدون ألف والتصحيح عن السلوك (جـ ١ ص ٥٢١ س ١٥) .

(٢) فى الأصل « ابتارة » .

(٣) كذا فى الأصل ، وهو يطابق قراءة المستشرق كترمر (انظر السلوك جـ ١ ص ٥٢٨ حاشية ٢) وقراءة الدكتور زيادة فى السلوك (جـ ١ ص ٥٢٨ ، ص ٥٣٢ حاشية ٤) هى الذكرة

(٤) كذا فى الأصل : « الفراسين » ، وفى السلوك (جـ ١ ص ٢٦٩ ، ٥٣٢) افراسين بالفاء .

الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحى	باقة الشرقية بكمالها
الأمير عز الدين أيدمر الحلّى[1] الصالحى	نصف قلنسوة
الأمير شمس الدين سنقر الرومى الصالحى	نصف قلنسوة
الأمير سيف الدين قلاون الألفى الصالحى	نصف طيبة الاسم
الأمير عز الدين إيغان الركنى سم الموت	نصف طَيِّبة الاسم
الأمير جمال الدين أقش النجيبى نائب سلطنة الشام	أم الفحم بكمالها من قيسارية
الأمير علم الدين سنجر الحلبى الصالحى	بثان[2] بكمالها
الأمير جمال الدين أقش المحمدى الصالحى	نصف بورين
الأمير فخر الدين الطنبا الحمصى	نصف بورين
الأمير جمال الدين أيدغدى الحاجى الناصرى	نصف بيزين[3]
الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى الصالحى	نصف بيزين
الأمير فخر الدين عثمان بن الملك المغيث	ثلث حلمة[4]
الأمير شمس الدين سلار البغدادى	ثلث حلمة

(١) كذا فى الأصل ، وفى رواية السلوك (ج ١ ص ٥٢٥) : الحلبى .

(٢) كذا فى الأصل ، بالثاء المثلثة . وفى السلوك (ج ١ ص ٥٣٢) بالثاء المثناة .

(٣) كذا فى الأصل ، بغير نقط الزاى ، والنقط من السلوك .

(٤) كذا فى الأصل ، وقد مر لفظ حلبة كاسم موضع من قبل ، وفى السلوك : حلبة .

الأمير صارم الدين صُراغان[1] التترى	ثلث حلمة
الأمير ناصر الدين الفيمرى	نصف البرج الأحمر
الأمير سيف الدين بلبان[2] الزينى الصالحى	نصف البرج الأحمر
الأمير سيف الدين إيتامش السعدى	نصف يمّا
الأمير شمس الدين آقسنقر السلحدار الظاهرى	نصف يمّا
الملك المجاهد سيف الدين إسحق صاحب الجزيرة	نصف دياية[3]
الملك المظفر علاء الدين أخوه صاحب سنجار	نصف ديابة
الأمير بدر الدين محمد بى بن بركة خان	دير الغصون[4] بكمالها
الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار	نصف الشُّويكة
الأمير سيف الدين كرمون أغا [التترى[5]]	نصف الشويكة
الأمير بدر الدين بيليك الوزيرى	نصف طُبَرْس
الأمير ركن الدين منكورس الدوادارى	نصف طبرس
الأمير سيف الدين قشتمر العجمى	علاز بكمالها

(١) كذا فى الأصل ، وفى السلوك : صراغان بالصاد المهملة .

(٢) فى الأصل : بيلان ، والتصحيح من موضع آخر من متن النويرى ومن السلوك (ج ١ ص ٥٣٣ س ٣) .

(٣) كذا فى الأصل : دبابه : بباء مثناه ثم باء موحدة ، وقراءة السلوك : دنابه : بنون وباء .

(٤) كذا فى الأصل ، وقراءة السلوك : دير القصون .

(٥) الإضافة يقتضيها الإيضاح وهى منقولة عن السلوك (نفس الموضع) .

الأمير علاء الدين أخو الدوادار	نصف عرعرا (١)
الأمير سيف الدين سنجق (٢) البغدادى	نصف عرعرا
الأمير سيف الدين دكاجك (٣) البغدادى	نصف فرعون
الأمير علم الدين سنجر الأزكشى	نصف فرعون
الأمير علم الدين سنجر طردح الآمدى (٤)	استابا بكمالها (٥)
الأمير حسام الدين إيتمش بن أطلس خان	سيدا بكمالها
الأمير علاء الدين كندغدى الظاهرى أمير مجلس	الصبر الفوقا (٦)
الأمير عز الدين أيبك الحموى الظاهرى	نصف أرتاح
الأمير شمس الدين سنقر الألفى	نصف أرتاح
الأمير علاء الدين (٧) طيبرس الظاهرى	نصف باقة الغربية
الأمير علاء الدين على سكر (٨)	نصف باقة الغربية

(١) مر من قبل اسم عرعر . قرونا بعيون الأساور .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى السلوك « نفجق » .

(٣) كذا فى الأصل ، وقراءة السلوك : دكجل .

(٤) كذا فى الأصل ، وقد سبق فى هذا المستن ورود نقص الاسم بنقص الرسم . وقراءة السلوك طرطج الأسدى .

(٥) كذا فى الأصل ، مع التحفظ فى النقط وفى السلوك « اقتابه » ومن قراءات السلوك « سباها » .

(٦) كذا فى الأصل ، وكذلك فى أحدى قراءات السلوك وقراءة السلوك المعتمده هى « الصفرا » بكمالها ، وقد مر من قبل نسبة احد الرجال إلى الصفراء « الصفرادى » .

(٧) كذا فى الأصل ، وقراءة السلوك علم الدين .

(٨) كذا فى الأصل وقراءة السلوك : « تنكز » ؟

الأمير عز الدين أيدمر الفخرى الأتابكى	القصير بكمالها
الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الظاهرى	أخصاص بكمالها
الأمير ركن الدين بيبرس المعزى (١)	نصف قفين
الأمير شجاع الدين [طغريل الشبلى (٢)] أمير مهمندار	نصف كفر راعى
الأمير علاء الدين كندغدى الحبيشى مقدم الأمراء البحرية	نصف كفر راعى
الأمير شرف الدين يعقوب بن أبى القاسم	نصف كسفا (٣)
الأمير بهاء الدين يعقوب (٤) بن الشهرزورى	نصف كسفا (٥)
الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستاد الدار العالية	نصف برويكة (٦)
الأمير علم الدين سنجر الحلبى (٧) الغزاوى	نصف برويكة
الأمير علم الدين سنجر أمير جاندار (٨)	نصف حانوتا من أرسوف
الأمير سيف الدين بيدغان الركنى	فرديسيا بكمالها من (٩) قيسارية

(١) كذا فى الأصل ، وقراءة السلوك « المغربى » .

(٢) فى الأصل : سقطت عين طغرل والتصحيح يطابق ما فى السلوك .

(٣) كذا فى الأصل وكذلك فى إحدى قراءات السلوك وقراءة السلوك المعتمدة هى « كستا » بالتاء .

(٤) لم يرد لفظ ابن فى السلوك (ج ١ ص ٥٣٤ س ٢) .

(٥) مكرر كذا فى الأصل وفى السلوك « كستا » بالتاء .

(٦) كذا فى الأصل وكذلك فى إحدى روايات السلوك . وقراءة السلوك المعتمدة « برنيكية » .

(٧) كذا فى الأصل ، وفى السلوك (نفس الموضع) « الحلى » .

(٨) كذا فى الأصل ، وفى السلوك نائب أمير جاندار .

(٩) كذا فى الأصل ، وكذلك فى السلوك .

الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الكرك	ثلث جبلة[1] من أرسوف
الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهرى	ثلث جبلة من أرسوف
[الأمير جمال الدين أقوش السلاح دار الرومى	ثلث جبلة من أرسوف[2]]
الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح	ثلث جلجولية
الأمير بدر الدين بكتوت بجكا الرومى	ثلث جُلْجُولِيَّة
الأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى الصالحى	ثلث جلجولية

وكتب من كتاب التمليك الشرعى الجامع نسخ ، وفرقت لكل أمير نسخة بمكانه ، وخلع على قاضى القضاة ، وتوجه [السلطان[3]] إلى دمشق .

ذكر قصد البرنس صاحب طرابلس حمص

وانهزامه[4]

وفى ثامن صفر سنة أربع وستين وستمائة ، جمع البرنس بيمند بن بيمند[5] جموعه ، واستنصر بالدواية والإسبتار ، وقصد جهة حمص . وكان النائب بها

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى السلوك « حبلة » بالحاء المهملة .

(٢) نبى الأصل سطرا ، فأكمل نقلا من نص السلوك (نفس الموضع) .

(٣) الإضافة للإيضاح و يقتضيها السياق .

(٤) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٤٣ س ١٥ — ١٣ وحاشية ٤) .

(٥) كذا فى الأصل بغير ضبط .

الأمير علاء الدين [سنجر][1] الباقشردى[2] قد اطلع على حركته، فاحترز وجعل الطلائع على المخائض. فقصد البرنس مخاضة[3] بلاله فسبقه الباقشردى إليها وملكها. فلما جاء البرنس ورآها قد ملكت عدل إلى غيرها فقويت نفوس المسلمين، ومدّوا المـاء إليـه وتبعوه فانهـزم، وساقوا خلفه يقتلون ويأسرون وينهبـون إلى أن توغل فى بلاده.

ذكر إغارة العساكر على طرابلس بالشام وفتح قلعة حلبا وقلعة عرقا[4]

وفى سنة أربع وستين وستمائة فى شهر رجب، أهتم السلطان بأمر الغزاة، وطلب الأجناد من إقطاعاتهم من سائر أعمال الديار المصرية. فحضروا بأجمعهم. وخرج السلطان فى مستهل شعبان ورحل فى ثالثه. ولمـا وصـل إلى غزة جرد الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى والأمـير سيف الدين قلاون الألفى وجماعة من العسكر المنصور. وتوجه السلطان لزيارة البيت المقدس والخليل، صـلوات الله عليه، فزار وكشف المظالم ومد سماط الخليل، عليه الصلاة والسلام، وأكل منه وأكل الناس، وفرق جملة من المـال على الأئمـة والفقراء والمؤذنين والعوام

(١) الإضافة للإفادة وهى منقولة عن السلوك (ج ١ ص ٥٤٣).

(٢) كذا فى الأصل وفى السلوك «الباشقردى».

(٣) كذا فى الأصل بدون نقط، وليس لدى المحقق تحديد ممكن.

(٤) كذا فى الأصل وفى السلوك «عرقة وحلباء» (ج ١ ص ٥٤٥ س ٢ حاشية ٦) وعرقة بفتح العين أو كسرها تقع شرقي طرابلس.

وغيرهم وبلغه أن اليهود والنصارى يؤخذ منهم حقوق[1] زيارة الخليل ، والنزول فى المغارة ، فأنكر ذلك ، وكتب مرسوما بمنع أهل الذمة من دخول المقام الشريف . ثم رحل إلى عين جالوت .

وأما العسكر المجرد : فوصلوا إلى حمص فورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس ، فركبوا على غرة من العدو ، فأصبحوا على حصن الأكراد ، وأغاروا إلى ساحل البحر من جهة طرابلس ، ونزلوا على حصن ثيب[2] من عمل حصن الأكراد فأقاموا عليه يوما واحدا ، فأخذوه وأسروا منه جماعة وهرب من كان بحلبا من الفرنج وأخلوها ، فدخلها العسكر وكسبوا منها شيئا كثيرا من نحاس وصناديق وسكر وغيره ، ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم ، فقتلوهم وأخذوا نساءهم . ولما شاهد[3] أهل عرقا ما حل بحلبا نجوا بأنفسهم ، فأخرب العسكر القلعتين ونزلوا على حصن القليعات فتسلموه فى رابع شهر رمضان بالأمان وهدموه ، وعادت العساكر . فنزل الأمير سيف الدين قلاون بالقرب من القليعات ، وسير بالليل بعض المقدمين ليترقب من يخرج من الفرنج ، فوجد خمسين نفرا متوجهين من صافيتا[4] إلى حصن الأكراد أقجية وجرخية[5] فقتلهم جميعا ، وأحضرت رءوسهم . وخرج جماعة من الداوية للغارة على الغلمان الذين يحشون[6] خيل العسكر ، وكان

---

(١) هى ضريبة على الزيارة مثل الحقوق الديوانيه أو السلطانية .

(٢) كذا فى الأصل . وفى موضع آخر من المتن شيب (بالشين بدل الثاء) .

(٣) فى الأصل « شاهدرا » وهو خطأ .

(٤) من قلاع الفرنج الدهرية (راجع السلوك جـ ١ ص ٥٩٠ س ١٦) .

(٥) كذا فى الأصل بدون نقط والمقصود هم رماة البندق ، راجع من المعنى والسياق حاشية ٤ فى السلوك (جـ ١ ص ٤٩٨ ، ٤٥٠ حاشيه ١) .

(٦) لا يزال نفس اللفظ مستعملا فى العامية .

الأمير سيف الدين قلاون قد رتب مع الغلمان جماعة من العسكر، فلما جاء هم الداوية خرج عليهم العسكر فقتلوا بعض الفرنج وأسروا البعض . وسير صاحب صافيتا جاسوسا فأمسك وشنق . وكان فى جملة هـذا العسكر من العربان ألفا[1] فارس وجاهدوا[2] أتم جهاد ، وجرح الأمـير شرف الدين عيسى بن مهنا جرحين . ورسم السلطان أنه من عدم له فرس يعوض عنه رأسين من البقر ، ورسم بتجريد جماعة لحمص وعود العسكر .

ذكر إغارة العسكر على صور[3]

قال : ولمـا نزل السلطان على عين جالوت رحل منها إلى جهة عكا ، وجرد الأمير علاء الدين البندقدار والأمـير عز الدين[4] إيغان الركنى بجماعة من العسكر إلى جهة صور ، فأغاروا عليها وغنموا كثيرا من الجمال والبقر والغنم . وأسر كمندور[5] صاحب سيس ونفران معه كانوا انحازوا إلى برج فأخذوا بالأمان ، وأخذ وزير صور و جماعة من الفرنج . وتوجه الأمـير سيف الدين أوتامش إلى جهة صيدا[6] ، ورسم لهم السلطان بالحضور إلى جهة صفد . وتوجه السلطان إلى عكا ، وجرد الأمير

(١) فى الأصل « الفى » .

(٢) تدل الواو مع هذا الفعل على أن خبر العربان قد لخص من نص أطول .

(٣) راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٤٥) .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى السلوك « أوغان » .

(٥) يرد فى السلوك كند والداوية (جـ ١ ص ٩٦٥ حاشية ٣) والوارد هنا أصح وهو بمعنى مقدم

(٦) صيداء بالمد والقصر مدينة على ساحل دمشق بينها و بين صور ست فراسخ (معجم ياقوت جـ ٣ ص ٤٠٣) .

بدر الأيدمرى والأمير بدر الدين يسرى[1] إلى جهة القرين[2] ، وجرد الأمير فخر الدين الحمصى إلى جبل عاملة[3] ، فأغارت العساكر [على الفرنج][4] من كل جهة ، وحاصر الأمراء القرين ، وأخذت قلعة بالقرب من عكا ، وتوالت المكاسب حتى لم يوجد من يشترى الأبقار والجواميس لكثرتها .

ذكر فتوح صفد[5]

كان السلطان ، قبيل توجهه إلى عكا ، قد رسم للأمير علاء الدين أيدكين الشهابى أحد الأمراء بالشام وجماعة من العسكر أن يتوجهوا إلى بلاد الفرنج ، ولم يُعلم إلى أى جهة . ثم كتب كتابا وأمره أن لا يقرأه إلا إذا ركب هو والعساكر ، وكان مضمونه أن يتوجه إلى صفد ، ويتوجه الأمير فخر الدين الفايزى إلى الشقيف . فتوجه الأمير علاء الدين إليها وأحاط بها إحاطة حافظ لا مقاتل ، ثم جرد الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ومعه دهليز[6]

(١) فى الأصل « سيرى » والتصحيح منقول من السلوك (ج ١ ص ٥٤٥ س ٥) وهذا خطأ يتكرر .

(٢) كذا فى الأصل كأنه تصغير قرن وفى السلوك «القرن» ويضيف ناشر السلوك أن الاشارة إلى قرن الحامرة إحدى قرى دمشق (راجع السلوك ج ١ ص ٥٤٥ س ٦ وحاشية ٥) .

(٣) الإضافة للإيضاح من السلوك (ج ١ ص ٥٤٥ س ٦) .

(٤) جبل عاملة جهة جبلية قرب الساحل فى إقليم صفد ويوجد بها حصن الشقيف (راجع السلوك (ج ١ ص ٣٥٣ حاشية ٤) .

(٥) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٤٥ س ١٠) لمراجعة نفس الخبر .

(٦) فى نفس الخبر الموازى بالسلوك (ج ١ ص ٥٤٥ س ١١) قال « ومعه الدهليز السلطانى » .

إلى صفد ، ثم حضر إليها الأمـير علاء الدين البندقدار والأمـير عز الدين إيغان الركني بعد إغارتهم على صور فنزلوا إليها وضايقوها ، وأقام السلطان على عكا . ثم حضرت عساكر الغارات ، وعمل [السلطان[1]] عدة مجانيق وفرقها على الأمراء ليحملوها ، ثم رحل والعساكر لابسة وساق إلى قريب باب عكا ووقف على تل الفضول ، ثم دخل إلى عين جالوت ، وكان الأمير سيف الدين الزيني قد توجه إلى دمشق لإحضار المجانيق ، فأحضرها وحملت على الرقاب ، وسار السلطان ونزل على صفد في يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة أربع وستين وستمائة . وأنفق السلطان في العساكر ، وأتفق أن الناس تناوشوا القتال فساق الأمـير عز الدين خاص ترك الظاهري وحمل وواصل[2] الطعن ، فتقدم المجارون وأخذوا في النقوب ورمى الزراقون[3] بالنفط فاحترق الباب . وأنعم السلطان على خاص ترك بعشرة آلاف درهم وفرس وجوشن[4] وخلعة . ثم أقيمت المجانيق ورمت في سادس وعشرين الشهر ، وكان وصولهـا في الحادي والعشرين منـه ، ولمـا وصلت إلى جسر يعقوب[5] عجز الجمال عن نقلها ، فندب السلطان الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب ، وخرج [السلطان[1]] بنفسه وخواصه وجر أخشابها بيـده . ووصلت العساكر التي كانت في الغارة ببـلاد طرابلس ، واستمـر الحصار وشرع الناس في الزحف في شوال ، وأمر السلطان بتحريك الطلبخاناه في نصف الليل ،

(١) الإضافة يقتضيها الإيضاح عن طريق ذكر الفاعل .

(٢) في الأصل « ووصل » .

(٣) المفرد زراق لأنه يزرق النفط بمعنى يرميه (راجع السلوك جـ ١ ص ٤٩٨ حاشية ٢) .

(٤) ويقال أيضا جوسن بالسين لا بالشـين ، وهو نوع من الدروع (السـلوك جـ ١ ص ٥٦٧ حاشية) .

(٥) عرف متن السلوك بجسر يعقوب فقال وهو منزلة من صفد (السلوك جـ ١ ص ٥٤٦ س ٢) .

وركب وهجم خندق الباشورة ، فقاتل الفرنج قتالا شديدا ، وأبلى المؤمنون بلاء حسنا واستشهد جماعة من المجاهدين ، وصار الإنسان يرى رفيقه قد قتل فيجره ويقف مكانه ، وتكاثرت النقوب ودخلت[1] النقابون إليها ، وأعطاهم السلطان ثلاثمائة دينار، وصار كل من عمل شيئا جزاه السلطان لوقته عنه بالخلع والمال. وفى أثناء ذلك نظر السلطان إلى الناس وقد تعبوا فى وقت القائلة من القتال، وتفرق بعضهم وهو راكب ملازم، فأمر خواصه بالسوق إلى الصواوين وإقامة الأمراء والجند منها بالدبابيس ، وسبّ الأمراء . وقال : « المسلمون على هذه الصورة وأنتم تستريحون » ورسم بأمساك الأمراء وكانوا نيفا وأربعين أميرا فقيدهم ونقلهم إلى الزردخاناه[2] ، فوقعت الشفاعة فيهم فأطلقهم وأمرهم بملازمة مواضعهم . ووسعت النقوب وشرطت الأسوار، فحرق الفرنج الستائر التى كانت على الباشورة ليحموها[3] من التسلق[4] . فأمر السلطان بضرب الطبلخاناه ، وقام كل أحد إلى جهته ، فضرب المسلمون سكك الخيل[5] فى سفح الباشورة ، فما أصبح الصبح إلا والصناجق على أسوار الباشورة من كل جهة ، واندفع الفرنج إلى القلعة وسلموا الباشورة فى يوم الثلاثاء نصف شوال . وفى هذا اليوم أخذت النقوب فى

---

(١) كذا فى الأصل ؟

(٢) الزردخاناه هى دار السلاح وهى أيضا سجن لأصحاب الرتب (راجع السلوك جـ ١ ص ٣٠٦ حاشية ١) .

(٣) فى الأصل « ليحملوها » .

(٤) فى الأصل « التسايق » وهو مصدر غير مسموع .

(٥) تقدم أنها سكك الحديد التى يرسم الخيل وهى أوتاد تربط إليها الخيول (السلوك جـ ١ ص ٥٢٦ حاشية ٣) .

برج اليتيم[1] وغـيره من أبراج القلعة . فعند ذلك أتت رسل الفـرنج إلى السلطان يسألون الأمان ، فاشترط عليهم ألا يستصحبوا[2] سـلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من الفضيات، ولا يتلفوا[3] ذخائر القلعة بنار ولا هدم، فعادوا لأصحابهم على ذلك. وبقى السلطان يعطى الأمانات من المرامى ويسير المناديل ، وتقرر مع جماعة أنهم يفتحون الأبواب . فتسامع الفرنج بذلك، ووقع بينهم الاختلاف، وحضر خمسة عشر نفرا من القلعة منفردين[4] فى وقت واحد فخلع عليهم ، ونودى فى العسكر بأن لا يرموا أحدا من الفرنج غير الديوية. فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال، وردوا الأمان وقالوا : « ما ندخل فى شرط » ، ورمى الرسل الخلع والمـال المنعم عليهم من الأسوار . ثم أيقنوا بالهـلاك ، فسيروا رسلهم فى يوم الجمعة ثامن عشر الشهر يطلبون ما كانوا طلبـوه أولا ، فامتنع السلطان من ذلك . فأخذ الأتابك منديل جمال الدين أقش القليجى مقدم الجمدارية[5] وأعطاه لهم على أنهم لا يخرجون شيئا[6] ممـا ذكرناه . فتوجه الرسل وصاح الفرنج بعد صلاة الجمعة : « يامسلمين ! الأمان » وفتحت أبواب القلعـة وقت العصر ، وطلعت الصناجق . ووقف السلطان راكبا على باب صفد، ونزل الفرنج أولا فأولا وصاروا جميعهم بين يديه ، وأخرجوا معهم الأسلحة والفضيات[7] وأخفوها فى قماشهم[8]، وأخذوا جماعة من أسرى

(١) كذا فى الأصل بدون نقط .

(٢) فى الأصل « يستصحبون » .

(٣) كذا فى الأصل وقراءة السلوك « يتلفوا » وهى ممكنة أيضا (السلوك جـ ١ ص ٥٤٧ ص ٧).

(٤) فى الأصل : سقطت دال « منفردين » .

(٥) من الجمدارية والجاندارية ، راجع السلوك (جـ ١ ص ١٢٢ حاشية ١) .

(٦) فى الأصل : « شىء » وهو خطأ .

(٧) المقصود هو المال بحسب حاشية ناشر السلوك (جـ ١ ص ٥٤٧ حاشية ٣) .

(٨) المقصود هو الأمتعة أو الصور ، بحسب السياق .

المسلمين وصغارهم على أنهم نصارى . فلم يخف الله ذلك ، ورُسم بتفتيشهم فوجد ذلك معهم فأخذ منهم ، وأنزلوا عن خيولهم، وجعلوا فى خيمة، وقد حصل منهم ما ينقض العهد أن لو كان ، فكيف ولم يكن حقيقة . وأمر السلطان بضرب أعناقهم ، فضربت رقابهم على تل بالقرب من صفد كانوا يضربون رقاب المسلمين فيه . ولم يسلم منهم غير نفرين، أحدهما الرسول بحكم أن السلطان كان قد شرب قمزا فى النقب وخرج إليه الرسول فسقاه منه ، فعفا السلطان عنه وخيّره فى التوجه إلى قومه أو الإقامة عنده ، فاختار المقام فى خدمة السلطان وأسلم[1] ، فأعطاه السلطان إقطاعا ، وأما الآخر فإن الأتابك[2] شفع فيه فأطلقه السلطان . ودخل السلطان القلعة وفرق على الأمراء ما فيها من العدد الفرنجية والجوارى والمماليك ، واستناب فى القلعة الأمير عز الدين العلائى ، وولى الأمير مجد الدين الطورى ومقدم العسكر الأمير علاء الدين أيدغدى السلاح دار ، ونقلت إليها الزردخاناه التى كانت صحبة السلطان ، وصار يحمل النشاب على كتفه ، فنقلت فى أسرع وقت ، وطلب لها الرجال من دمشق ، وتقررت نفقة رجالها فى كل شهر ثمانين ألف درهم . واستخدم على جميع بلادها الأمراء، وعمل بها جامع بالقلعة وجامع فى الربض ، ووقف على الشيخ على المجنون نصف وربع الحفاف[3]

(١) يذكر الدكتور زيادة أن هذا الفارس الذى ترك النصرانية ودخل فى الإسلام كان من الداوية (السلوك جـ١ ص ٥٤٨ حاشية ١).

(٢) من أصل لفظ الأتابك واشتقاقه التركى راجع السلوك (جـ١ ص١٤٦ حاشية ١) وهو هنا القائد العام .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى السلوك « الحباب » (السلوك جـ ١ ص ٥٤٨ س ٧ والحاشية رقم ٢) والحباب عنده هى إحدى بلاد وادى القرى . والأرجح هو أن نبحث عن الموضع فى منطقة صفد .

والربع منها على الشيخ إلياس ، ووقف على قبر خالد بن الوليد قرية منهـا .

ورحل منها إلى دمشق فى سابع وعشرين شوال ، فنزل بالجسورة ، وأمر أن العساكر لا تدخل دمشق بل تتوجه إلى سيس[1] .

ذكر غزوة سيس وأسر ملكها
وقتل أخيه وعمه وأسر ولد عمه

قال : وجهز السلطان الملك المنصور صاحب حماة ، وجرد معـه الأمـير عز الدين إيغان ، والأمـير سيف الدين قـلاون ، ورسم للأمراء بتعظيمه . وتوجهوا فى خامس ذى القعدة من سنة أربع وستين . فوصلوا إلى الدرب ساك[2] ودخلوا الدربند ، وكان الملك المجـير هيتوم بن قسطنطين بن باساك[3] قد ملك ولده ليفون وانقطع هو مترهبا ، فلما طلب[4] المسلمون وقف ليفون فى عسكره وطلب ، وتوهم أن المسلمين لا يقدرون على الطلوع فى الجبال لأن التكفور كان قد بنى على رءوس الجبال أبراجا ، فكانت كقول الشاعر :

وإن يبن حيطانا عليه فإنمـا أولئـك عقالاته لا معاقـله

---

(١) فى الأصـل : « حبس » وهو لفظ لا يناسب السياق ، والتصحيح منقـول عن السلوك (ج ١ ص ٥٥١) .

(٢) كذا فى الأصل ، وهو أرجح من قراءة السلوك « درب بساك » « دير بساك » (السلوك ج ١ ص ٥٥١ س ١٣) .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى السلوك أيضا (راجع السلوك ج ١ ص ٥٦٠ ، ٥٥١) .

(٤) أى : جمع أطلابه واستعد للقتال .

فطلعت العساكر[1] فى رءوس الجبال ، فلما وقعت العين فى العين أسر الملك ليفون ، وقتل أخوه وعمه ، وانهزم كندا سطبل عمه الآخر ، وأسر ولده ، وهرب صاحب حموص[2] . وكان فيهم اثنا عشر ملكا تمزقوا كل ممزق ، وقتلت أبطالهم . وساقت العساكر فى هذا النهار وأقامت على كونجيد[3] من عمل سرفند كار ، ونزلت فى اليوم الثانى بأعمال تل حمدون ، وهى تقتل وتأسر وتحرق . وأحرقوا حموص ، ثم توجهوا إلى نهر جهان فخاضته العساكر ونزلوا بقرب العمودين[4] ، وهى قلعة حصينة شاهقة للداوية . فلما طافت بها العساكر أذعن أهلها لتسليمها وكان فيها ألفان ومائتان نفرا ، فقتل الرجال ، وفرقت السبايا على العساكر . وأحرقت هذه القلعة وما فيها من الحواصل والذخائر . ورحلوا إلى سيس فأخربوها وأقامت العساكر أياما تحرق وتقتل وتأسر . وأقام الملك المنصور صاحب حماة بها . وتوجه الأمير عز الدين إيغان إلى جهة الروم ، والأمير سيف الدين قلاون إلى المصيصة وأدنة و إياس وطرسوس فقتلوا وأسروا وأحرقوا . وهدمت قلعة الداوية المعروفة بالبنية[5] ، وحرقت لهم أماكن كثيرة من حصون و بلاد وهدمت .

---

(١) فى الأصل : « من » .

(٢) كذا فى الأصل ، وقد مر مثله فى موضع آخر . أما السلوك فقرأته « حمص » (السلوك جـ ١ ص ٨٤٥ ص ١ حاشية ١) .

(٣) كذا فى الأصل ، والمفروض أنها قلعة قريبة من هرقلة بحسب متن السلوك (جـ ١ ص ٥١٠ ص ١) .

(٤) يقول ناشر السلوك أنها قلعة ذكرها أبو الفدا (السلوك جـ ١ ص ٥٥٢ ص ٥ حاشية ٥) .

(٥) كذا فى الأصل ، بدون نقط ، وقد أورد المقريزى خبرا موازيا فى السلوك (جـ ١ ص ٥٥٢ ص ٥) خلوا من اسم قلعة الديوية التى هدمت ، وعلق الدكتور زيادة فقال إن القلعة المقصودة هى قلعة العامدين الوارد ذكرها عند أبى الفدا فى المختصر والوارد هنا أصح بالطبع .

ثم عادت العساكر إلى سيس بعد أن غنمت غنائم كثيرة، حتى بيع الرأس البقر بدرهمين ولم يجد من يشتريه ، وأستاقت العساكر الغنائم .

ووردت هذه الأخبار إلى السلطان وهو يتصيد بجرود[1] ، فأعطى المبشر ألف دينار ، ودخل دمشق فتجهز وخرج لتلقى عساكره .

ذكر قتل أهل[2] قارا وسبي ذراريهم

لما توجه السلطان من دمشق ليلقى عساكره الواردة من سيس مر بقارا فى سادس ذى الحجة فأمر بنهبها وقتل من بها .

وكان سبب ذلك أن بعض الركابية كان قد خدم الطواشى مرشد مقدم العسكر بحماة لما عاد من الخدمة السلطانية كما تقدم ، ووصل إلى منزلة العيون مرض بها وبات ولم يشعر به الطواشى . فأتاه رجلان من أهل قارا وتوجها به إليها ليضيفاه ، فأقام عندهما ثلاثة أيام حتى عوفى ، ثم أخذاه بالليل وتوجها به إلى حصن الأكراد فأباعاه[3] بها بأربعين دينارا صورية . واتفق فى تلك السنة توجه بعض تجار دمشق إلى حصن الأكراد لإبتياع أسرى ، فاشترى ذلك الركابى فى جملة ما اشتراه وحمله إلى دمشق وأطلقه ، فخدم بعض الجند وخرج فيمن خرج مع السلطان . فلما وصل إلى قارا حضر الركابى إلى مجلس الأمير

(١) كذا فى الأصل ، وكذلك فى السلوك (جـ ١ ص ٥٥٢ س ١١) .

(٢) فى الأصل ، فى العنوان : « قارى » . وفى الأصل فى المتن : « قارا » ورسم المتن أفضل عادة من رسم العنوان ، وتقع قارا على الطريق من دمشق إلى حمص راجع (السلوك جـ ١ ص ٥٥٣) .

(٣) كذا فى الأصل .

فارس الدين الأتابك وأنهى إليه صورة الحال ، فسأله هل يعرف الذى باعه ؟ قال : « نعم » . فسير معه جاندارية ، فتوجه ووجد أحد الرجلين فقبض عليه وأحضره . فأنهى الأتابك ذلك إلى السلطان فأحضرهما بين يديه ، وتقابلا فأنكر القارى[1] . فقال الركابى : «وأنا أعرف بيته وما فيه» ، فعند ذلك أعترف القارى ، وقال : «ما أنا أفعل هذا جميع من بقارا يفعله» . وكان قد حضر من قارا رهبان بضيافة إلى باب الدهليز ، فأمر السلطان بالقبض عليهم ، وركب بنفسه وقصد الديرة التى خارج قارا ، فقتل من بها ونهبها ، ثم عاد وأمر العسكر بالركوب ، وقصد التل الذى بظاهر قارا من جهة الشمال ، واستدعى أبا العز الريس بها ، وقال له : «نحن بقصد الصيد ، فمر أهل قارا بالخروج بأجمعهم» . فخرج منهم جماعة إلى ظاهر القرية ، فلما أبعدوا عنها ، أمر بضرب رقابهم فضربت ولم يسلم منهم إلا من هرب واختفى بالمغائر والآبار ، وعصى بالأبرجة بها جماعة فأمّنوا وأخذوا أسرى ، وكانوا ألفا وسبعين نفرا من رجل وامرأة وصبى . وانتمى جماعة إلى أبى العز ريسها فأطلقهم السلطان له ، ثم أمر بتوسيط[2] الرهبان الذين حضروا بالضيافة فوسطوا . وتقدم إلى العسكر بنهب قارا فنهبوها[3] ، ثم أمر أن يجعل كنيستها جامعا ، ونقل إليها الرعية من التركمان وغيرهم حتى شحنها بالناس ، ورتب فيها خطيبا وقاضيا ، وكانت قبل ذلك يسكنها النصارى . وكان السبب فى إبقاء الرئيس أبى العز أن السلطان الملك الظاهر لما ساق خلف التتار بعد وقعة عين

(١) أى الرجل المنسوب إلى قارا .

(٢) فى الأصل : « بتوسط » .

(٣) فى الأصل : « فنهب » .

جالوت مر بقارا فخـرج إليه هـذا الرئيس وأضافه ، فـرعى السلطان له ذلك وأحسن إليه .

وبيعث أولاد أهـل قارا فتربّوا بين المماليك وتكلّموا باللغة الـتركية ، ثم صاروا بعد ذلك أجنادا ، وتأمر منهـم جماعة وتولوا الأقاليم الكبار والمناصب بالديار المصرية ، وتمولوا .

قال : ولمـا فرغ السلطان من قتل أهل قارا ونهبها توجه إلى حماة، فعيّد بهـا عيد الأضحى ، وسار منهـا[1] إلى أفامية[2] ، ورحل للقاء العساكر فى ثالث عشر ذى الحجة . وكان قد أُفرِد نصيب السلطان من الغنائم ، ففرق ذلك على عساكره .

وأحسن إلى صاحب سيس ومن معه فى الأسر ، وعاد إلى دمشق فى رابع وعشرين الشهر فدخلها مطلّبا[3] وصاحب سيس وابن عمه وأصحابه بين يديه ، وخلع على المـلوك والأمراء والأكابر ، وسـير لصاحب حماة ولأصحابه الخيـول والخلع والأموال ، وودعه ، وتوجه إلى مملكته .

وخرج السلطان من دمشق فى ثانى المحرم على ما قدمناه .

ذكر وقعة مع الفرنج كانت النصرة فيها للمسلمين[4]

وفى المحرم سنة خمس وستين وستمائة : بلغ العسكر الصفدى أن العدو أجاز

(١) فى الأصل : « معها » .

(٢) أفامية إحدى بلاد حمص وتسمى أيضا قامية (راجع السلوك جـ ١ ص ٥٤٩ حاشية ٤) .

(٣) دخلها مطلبا أى فى استعراض رسمى كل طلب من الأطلاب على حده .

(٤) راجع السـلوك والحواشى الكثـيرة التى أوردها ناشره هنا (جـ ١ ص ٥٥٤ س ١٤ ، ص ٥٥٥ س ١ / ٢) .

على بلد طبرية ، فركب العسكر وطلبوا جهة عكا ، فلما وصلوا إلى وادى عين[1] خرج عليهم الفرنج ، وكان قد وصلهم نجدة من قبرص وغيرها ، فضرب العسكر معهم مصافا فانكسر الفرنج ، وكانت عدتهم ألف ومائة فارس فقتل أكثرهم ، وعملت أعزية عظيمة بعكا لمن قتل من ملوكهم فى هذه الوقعة .

ذكر إغارة السلطان على عكا[2]

قد ذكرنا أن السلطان توجه إلى الشام لعمارة صفد فى سنة خمس وستين وستمائة ، وأن رسل الفرنج أتوه بها وتحدثوا معه فى أمر بلادهم . وأجابوا إلى ما قاله لهم من مناصفة صيدا وهدم الشقيف .

قال : وأنكر السلطان عليهم إغارتهم على مشغر[3] ، وأقيموا قياما مزعجا ، وأمر السلطان العساكر بالركوب خفية[4] للغارة . وركب السلطان ، والفرنج قد اطمأنوا بإرسال رسلهم إليه[5] ، فما أحسّوا إلا والعساكر قد وصلت إليهم . وساق السلطان ونزل على باب عكا بتل الفضول ، وأحضرت إليه رءوس القتلى من كل جهة ، وضرب دهليزه تحت التل وبات فيه ، ثم أصبح على تلك الحالة ، وعاد إلى جهة صفد .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٥٩) .

(٣) كذا فى الأصل بغير نقط ، ولا يوجد فى معجم ياقوت غير مشغرى على أنها قرية من قرى دمشق .

(٤) فى الأصل : « حفية » ويضيف صاحب السلوك أن المسلمين لبسوا ملابس الإسبتارية والداوية (السلوك جـ ١ ص ٥٥٨ س ١٧ حاشية ٢) .

(٥) فى الأصل « إليهم » .

ووصلت رسل سيس بالهدايا فشاهدوا، هم ورسل الفرنج، رءوس القتلى على الرماح . وأحضر جماعة ممن أسر فى هذه الغارة فقتلوا فى صفد .

وطلب السلطان رسل الفرنج وقال : « هذه الغارة قبالة إغارتكم على بلاد الشقيف » . ولم ينتظر أمر الصلح ، فردّ الرسل الفرنجية بغير جواب .

وركب [السلطان[1]] فى حادى وعشرين شعبان من السنة وساق [من صفد[1]] إلى عكا ، فما علموا إلا وهو على أبوابها ، فقسّم الحجارين والناس على البساتين والأبنية والآبار للهدم والقطع . وعمل اليزك بنفسه على باب عكا تحت ذيل التل . وأقام أربعة أيام حتى تكامل الهدم والإحراق والقطع ، وسير إلى طاحون كردانة[2] التى لبيت الإسبتار فهدمها .

وفى هذه الأيام أحضر رسل سيس ورسل بيروت[3] [هدايا] وجماعة[4] من أسرى المسلمين وردوا مال التجار ، وكتبت أجوبتهم وتوجهوا .

وفى شهر رمضان وصل رسل[5] صور وسألوا استمرار الهدنة . فقال السلطان : «أنا مافعلت مافعلت إلا لأنكم قتلتم السابق شاهين غلامى ، وإذا قمتم بديته استمرت الهدنة» . وأحضر أولاد السابق شاهين فقرر ديته خمسة عشر ألف دينار صورية ،

---

(١) الإضافة يقتضيها الإيضاح ، وهى منقولة عن السلوك (جـ ١ ص ٥٥٩) .

(٢) كردانة من قرى عكا بحسب نص السلوك (جـ ١ ص ٧٦٩ س ١١) .

(٣) صاحبة بيروت هى الأميرة إيزابيل ديبلان Isabel d'ibelin

(٤) فى الأصل «و جماعة» وهى مفعول الفعل أحضر والتقدير هدايا وجماعة من أسرى ، و يعتمد هذا الفهم على الخبر الوارد فى السلوك (جـ ١ ص ٥٩٩ س ١٠) .

(٥) فى الأصل «رسول» ، راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٥٩ س ١١ وما بعده) .

أحضر الرسل نصفها وجماعة[1] من أسارى المغاربة[2] واستمهلوا بالبقية . وقال السلطان : «تبنين وهدنين وبلادهما [بلاد[3]] أخذتهما بسيفى وصارت للإسلام فاستقرت للمسلمين » . وأجيبوا إلى الصلح وكتبت الهدنة لمدة عشر[4] سنين .

واستقرت أيضا قاعدة الصلح ببيروت بعد أن تقرر عليهم أن يردوا أموال التجار الذين كانوا أخذوا بمراكب[5] الأنابك وإطلاقهم وثمن المراكب . ثم قبلت هديتهم واستمرت هدنتهم .

ذكر الصلح مع بيت الإسبتار على حصنى الأكراد والمرقب[6]

كان بيت الإسبتار قد تقدم طلبهم لذلك . فاستقر هذا الأمر بشرط أن الفسخ يكون للسلطان وحضرت رسلهم الآن ، والتمسوا أن يحلف لهم السلطان . فقررت الهدنة لعشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وهى ألف ومائتا دينار، ومائة مُدْى[7] حنطة

(١) فى الأصل « وجمع » والسياق يقتضى ذكر شىء يدفع على سبيل الدية .

(٢) يقرأ ناشر السلوك فى إحدى الحواشى « المغازية » (السلوك جـ ١ ص ٥٠٩ حاشية ٤) بمعنى الغازية أو الغزاة .

(٣) الإضافة يقتضيها تركيب الجملة .

(٤) فى الأصل « عشرة » .

(٥) فى الأصل (مركب) والسياق يتطلب ذكر عدد من المراكب .

(٦) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٠) .

(٧) كذا فى الأصل .

وشعيرا ، وعن مملكة حماة وهى أربعـة آلاف دينار ، وعن شيزر وأفامية وهى فى كل سنة على أبو قبيس ستمائة دينار مصرية ، وعلى عينتاب[1] خمسمائة دينار صورية ، والرسم المعروف بالمفادنة ، وهو عن كل فدان مكوكان غلة وستة دراهم . وسير لإستحلاف مقـدم الإسبتار ، الأمـير فخر الدين المقـرى والقاضي شمس الدين ابن قريش كاتب الدرج .

ذكر فتوح يافا[2]

قال : كان الصلح قـد استقر بين السلطان وصاحب يافا جوان ديكين ، فصار نوابه يَتَعدَّون ، وصيروا مُتَجَرِّمَةً فى زى صيادين إلى قطيا . فاتفق هلاك صاحب يافا وقيام ولده جاك[3] بعده .

ولمـا كان السلطان على صفد لعمارتها حضر إليه قسطلان[4] يافا وسأله فى هدنة لولد صاحبها . فامتنع السلطان من ذلك . ثم وصلت الأخبار أن أهل يافا يحملون الميرة إلى عكا ، وكانت ممنوعة عنها . وأقاموا فى يافا حانة وأوقفوا فيها عدة من المسلمات ، واعتمدوا أسبابا ليست فى هدنة .

فلما كان فى سنة ست وستين وستمائة ، خرج السلطان من الديار المصرية متوجها إلى الشام ، وذلك فى مستهل جمادى الآخره ورحل فى ثالثـه فوصل إلى

(١) فى الأصل « عتاب » وفى السلوك عينتاب » وهو أصح .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٤ — ٥٦٥) .

(٣) كذا فى الأصل « بدون نقط تحت الحاء ، وبدون رسم رأس الكاف .

(٤) هو مستحفظ الحصن . راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٢٤ حاشية ٣) .

غزة، وبلغه أن جماعة من الجمالين تعرضوا إلى الزرع فقطع أنوفهم. وبلغه أن علم الدين سنجر الحموى أحد أمرائه، ساق فى زرع فأنزله عن فرسه وأعطاه [وأعطى][1] سرجه ولجامه لصاحب الزرع. ونزل السلطان على العوجاء فحضر إليه القسطلان وأكابر يافا، فعوقوا إلى أن يخرجوا من الدعاوى. فبذلوا للسلطان تسليم المدينة والقلعة على أن يطلقوا بأموالهم وأولادهم. فأجيبوا إلى ذلك.

وركب السلطان فى العشرين من جمادى الآخرة وساق إليها وما أحسّ أهلها إلا والعساكر قد أطاقت بها. وأخذ الأتابك من حصل معه الحديث منهم وحضر به إلى يافا، فما تفاوضوا فى الحديث إلا والعسكر قد طلعتها من كل جانب، وفتحت أبوابها. ثم زحفوا على القلعة فسلمها أهلها فى اليوم الثانى، ومنع السلطان من نهبها، وطلع إلى القلعة وجهز أهلها إلى مأمنهم، وجرد معهم الأمير بدر الدين بيسرى. وشرع فى هدم القلعة فهدمت، وأخذ من أخشابها وألواح رخام وجدت فيها ما أوسق بها مركبا وسيرها إلى القاهرة. ورسم بعمل ذلك الخشب مقصورة فى الجامع الظاهرى بالحسينية والرخام لمحرابه. ورتب السلطان الخفراء على السواحل وألزمهم بدركها، ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يغمس فى غيره، وجعل ما كوله ومشروبه منه. وملك الأمير علاء الدين منها قرية، والأمير علم الدين سنجر الحموى قرية. ورتب إقامة التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها، وقرر عليها خيلا وعدة، ورسم بتجديد مقام الخليل، عليه الصلاة

---

(١) الإضافة يقتضيها السياق اعتمادا على المعنى الوارد فى الخبر الموازى فى السلوك (ج ١ ص ٥٦٤ س ١١).

والسلام ، وعمل مكان الخوان ناحية من الحرم[1] .

وهذه يافا فتحها عمرو بن العاص فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ويقال بل فتحها معاوية ، ذكره البلاذرى . وذكر عز الدين بن عساكر أن الملك طنكى بناها فى سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة ، ونزل عليها السلطان الملك الناصر رحمه الله ، فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . فخرج البطرق[2] وجماعة منها وسألوا السلطان على أنهم يسلموها بالأمان ويكونوا أسارى ، واستمهلوا فى التسليم إلى الصبح[3] فأمهلهم . فوصل ملك الأنكتير فى تلك الليلة إليها ودخل قلعتها ، ونقض ما كان تقرر ، فرحل السلطان عنها ونزل اللاطون[4] . ثم نزل عليها الملك العادل بعساكر ولد أخيه الملك العزيز صاحب مصر ففتحها فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة . هكذا حكاه القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى فتحها ، وقد تقدم أنها من الفتوح الناصرية[5] .

قال : وما حضر الأنبرور فرديك فى أيام الملك الكامل نزلها وحصن قلعتها وبناها . وما حضر الريدافرنس بعد خلاصه من الأسر فى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، عمّر مدينتها وأنفق عليها أموالا كثيرة .

---

(١) الراجح أن المقصود هو أنه أدخل المكان الذى كان يعد فيه سماط تقليدى للخليل ضمن مسجد الحرم الخليلى . وفى مكان الخوان المشار إليه هنا مد سماط عند زيارة بيرس المقدس عام ٦٦٤ هـ . راجع ما تقدم من هذا الجزء ص ١١١ ، ص ٢٨٢ ، وراجع كذلك تفسير ناشر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٥ حاشية ٢) فإنه يرى العكس تماما .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل « الصفح » .

(٤) كذا فى الأصل .

(٥) فى الأصل « الناصري » كما لو كان المتن يقول الفتح الناصري ؟

قال : ولما فرغ السلطان من هدم يافا رحل عنها فى ثامن عشر رجب ، ووصل إلى صفد ثم منها إلى الشقيف .

ذكر فتوح شقيف أرنون (١)

كان السلطان قد كتب إلى الأمير جمال الدين النجيبى ، نائب السلطنة بالشام ، بتجهيز العسكر الشامى إلى أن يحضر بريدى يسير قدامهم . ولما خرج إلى الشام فى هذه السفرة توجه البريدى . وكان السلطان قد قرر مع النجيبى أمارة يمسكها البريدى من يده ، فوصل البريدى وأمسك الأمارة من يده . فأحضر الأمراء للوقت ورسم لهم باتباع البريدى ، فسار بهم إلى بانياس ، فأخرج لهم بريدى آخر كتبا مختومة فى بانياس للأمير علم الدين الحصنى والأمير بدر الدين الأتابكى متضمنة منازلتهم للشقيف ، وأنهم لا يجذبون قتالا ولا غيره ، فما عرف بهم إلا وقد نازلوا الشقيف . وكان جماعة من الفرنج قد توجهوا من الشقيف إلى عكا وصيدا ، فنازله (٢) العسكر قبل حضورهم (٣) ، وسار بعض العسكر إلى جهة صيدا فأسروا وقتلوا . وجهز هذا العسكر أخشاب المجانيق والستائر . ثم جهز السلطان بعد فتوح يافا الأمير بدر الدين بكتوت من عكا (٤) بعسكر مصرى فنزلوا على الشقيف . وتوجه السلطان فوصل إليه يوم الأربعاء تاسع شهر رجب ، فأقام منجنيقين ورمى بهما فى اليوم الثانى من وصوله .

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٦٥) والشقيف كالكهف قرب بانياس من معجم ياقوت (ج ٥ ص ٢٨٤) .

(٢) المقصود نازل العسكر حصن الشقيف .

(٣) المقصود : الفرنج الذين توجهوا من الشقيف إلى عكا صيدا .

(٤) فى الأصل : « بجكا » وما هنا منقول من « س » وسبب الخلط بين عكا وبجكا أن الناسخ لابد أنه رسم أول العين بزلومة خرطومية زخرفية مألوفة عن الخطاطين .

واتفق أن الفرنج الذين بالشقيف كانوا سيروا شخصا إلى عكا لما نزل عليها العسكر الشامى يعلمونهم بحالهم و يذكرون لهم عورات الحصن[1]، فسيروا[2] الجواب. فلما وصل القاصد وحضر إلى السلطان وأحضر رسالة أخوية أهل عكا إليهم[3] [تتضمن إعلام النواب بالشقيفين أن المسلمين لا يقدرون على أخذ الحصن إن احتفظتم به فجدوا فى أمركم[4]] . فحصل التحيل فى قراءتها ، وعلم منها أسماء المقدمين الذين بالشقيف ، فكتبت الأمارات لهم بأسمائهم ورمى بها إلى الحصن بالنشاب . وكتب أحد التراجمة عوض [رسالة] أخوية عكا، وعكس عليهم فيها القضايا . وكان فى الكتاب أن الوزير لا يكون خاطره متغلثا[5] بسبب المصادرة له ، ففى ساعة يمكن تعويضه عن ذلك ، فعكس ذلك : وقيل للمقدم بالشقيف يحترز من الوزير كليام ، ففى قلبه إحنة من مصادرتنا له ، وأغرى بينهم بهذا القول وما يناسبه . ورميت هذه الكتب فى سهم فحصل[6] الاختلاف بينهم ، ووجدوا الأمانات التى كانت كتبت للمقدمين، فأمسكوا جماعة وتوهموا من الوزير. وكان الفرنج لما تسلموا الشقيف من الملك الصالح إسماعيل ، فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، هو وصفد ، عمروا إلى جانبه قلعة أخرى، فعجزوا فى هذا

(١) المقصود حصن الشقيف .

(٢) الفاعل أهل عكا .

(٣) أى إلى أعيان حصن الشقيف .

(٤) الإضافة للإيضاح وهى منقولة عن حاشية لناشر السلوك (ج ١ ص ٥٦٥ حاشية ٣) نقلا عن بن أبى الفضائل فى النهج السديد .

(٥) فى الأصل « متعلثا » وهو خطأ .

(٦) فى الأصل « لحصل » .

الوقت عن حماية جهتين . فلما كان فى ليلة الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب عمدوا إلى هذه القلعة المستجدة وحرقوا جميع ما بها من غلة وقماش وغيره ، وانتقلوا إلى القلعة المستقرة ، وأصبح المسلمون وتسلموها ، وقدمت المجانيق[1] إلى هذه القلعة فى سابع وعشرين الشهر ورمى بها . وأقام السلطان فى سطح برج من أبراجها بالقرب من العدو ، فعرف الفرنج موضعه فرموا حجرا قريبا منه فقتل ثلاثة نفر ، ولم ينتقل السلطان عن موضعه . وكان باب هذه القلعة تجاه باب القلعة الأخرى ، فعمل السلطان سربا طويلا فى أعلى القلعة نازلا إلى أسفلها وصار يتعلق به ويطلع وينزل وهو لابس عدته .

قال . واشتد القتال ، فبينما الناس فى ذلك وإذا بالوزير كليام قد خرج مستأمنا ، ثم سألوا الأمان على نفوسهم وأنهم يؤخذون أسارى ، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال ، فأجاب السلطان إلى ذلك . وفى يوم الأحد سلخ شهر رجب سنة ست وستين وستمائة ، استدعوا الصناجق فرفعت على القلعة . وسير الأمير بدر الدين الخزندار فتسلمها[2] ، وخرج الفرنج إلى الخنادق فقيدوا ، وأخرج النساء والأطفال . وجرد الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى[3] صحبتهم فأوصلهم إلى جهة صور ، وسلم الرجال إلى العساكر[4] .

قال : وهذا الشقيف من أحصن المعاقل وأحسنها وكان مضرة على بلاد الصبيبة . وكان الملك العادل الكبير قد جدده ، وما زال فى يد الإسلام إلى أن سلمه الصالح إسماعيل للفرنج على ما قدمناه .

(١) نصب السلطان عليها ستة وعشرين منجنيقا من السلوك (ج ١ ص ٥٦٥ س ١٠ — ١١) .

(٢) المقصود هو أنه تسلم القلعة .

(٣) الضمير يعود على النساء والأطفال .

(٤) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٦٦) .

قال : ولما قدر الله تعالى فتح الشقيف ، انفق [السلطان] فى جميع العساكر وخلع على الملوك الذين فى خدمته ، مثل : الملك المنصور صاحب حماة وأخيه ، وأولاد صاحب الموصل ، والملك الأمجد بن العادل ، وغيرهم من أولاد الملوك ، وعلى الأمراء والمقدمين ، ومن جرت عادتهم بالخلع . وشرع السلطان فى هدم القلعة المستجدة فهدمت إلى الأرض ورتب الأمير صارم الدين قايماز الظافرى[1] نائبا لهذه القلعة ، ورتب فيها الأجناد والرجالة ، ورتب بها قاضيا وخطيبا[2] ، وأقيمت شعائر الإسلام بهذه القلعة وجميع تلك البلاد ، وولى الأمير سيف الدين بلبان الزينى عمارتها ، وكان قد خرج منها جماعة من المسلمين حالة الحصار فكتب لهم السلطان فدنا وقفا عليهم .

ذكر توجه السلطان إلى طرابلس[3] وإغارته عليها

كان بيمند صاحب طرابلس قد كثر تعديه على بلاد الإسلام ، وأخذ البلاد المجاورة له بعد زوال الأيام الناصرية واستيلاء التتار على الشام ، وكان من أكبر أعوان التتار . فلما رحل السلطان من الشقيف نزل قريبا من جسر بانياس ، وجهز الأثقال إلى دمشق وجرد الأمير عز الدين إيغان بجماعة توجهوا من جهة ، والأمير بدر الدين الأيدمرى بجماعة من جهة أخرى ، فحفظت الطرقات

(١) كذا فى الأصل وفى السلوك (ج ١ ص ٥٦٦) « الكافرى » .

(٢) فى الأصل « قاض وخطيب » بالرفع .

(٣) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٦٦) .

وامتلأت بالعساكر، وتوجه إلى طرابلس على جهة جبال الطنّين[1] ، وكان البرنس قد وعّر الطرقات ، فوصل السلطان فى نصف شعبان وملك هذه الجبال التى يقول فيها المتنبى :

وجبال لبنان وكيف بقطعها ... وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها علىّ مسالكى ... فكأنها بياضها سوداء

وخيم السلطان قريبا من طرابلس واستمر على الركوب إليها ، والعساكر تناوش [أهلها] القتال ويرامونهم[2] بالنشاب ، وافتتح برجا قد عصى فيه جماعة من الفرنج [و] ضرب رقابهم ، وجرد جماعة خربوا الحرث ونهبوا تلك الجبال وأخذوا عدة مغاير بالسيف ، وقطعت الأشجار وهدمت الكنائس وقنى المياه والقناة الرومانية ، وقسم السلطان الغنائم فى العساكر ورحل عن طرابلس فى العشر الآخر من شعبان من السنة .

ذكر فتوح أنطاكية[3]

لما رحل السلطان عن طرابلس لم يطلع أحدا على الجهة التى يقصدها ، فتوجه إلى حمص فى سابع وعشرين شعبان ، وأمر ببناء مسجد بحمص ، ولما وصل إلى حماة رتب العساكر ثلاث فرق : فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخزندار ، وفرقة مع الأمير عز الدين إيغان ، وفرقة صحبة الركاب السلطانى .

---

(١) كذا فى الأصل « جبال الطنين » ولعل الأصح هو الرسم بالظاء المعجمة لأن الاسم يرد فى السلوك الضنين (جـ ١ ص ٧٧٩ ، ص ٩٨٥) .

(٢) فى الأصل « ويراموهم » .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٦٦ ٥٦٧) وخاصة تعليقات المحقق .

فتوجه الأمـير بدر الدين الخزندار إلى السويدية ، وتوجه الأمـير عز الدين لمبغان إلى الدرب ساك ، فقتلوا وأسروا . وتوافوا جميعهـم بأنطاكيـة ، ونزل السلطان أفامية ، ومنها إلى جسر تحت الشغر وبكاس ، وأصبح مغيرا على أنطاكية وذلك فى مستهل شهر رمضان .

وتقدم فى الجاليش[1] الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار ، فصادف جماعة من عسكر أنطاكية وانتشبت الحرب بينهم ، فحمل أحد أجناد الأمير شمس الدين أقسنقر وهو فلان الدين المظفرى على كندا سطيل[2] فأسره وأحضره إلى السلطان ، فأمّره السلطان وأحسن إليه . وأطافت العساكر بأنطاكيـة من كل جانب . وكان النزول عليها بالخيام والثقل ، بكرة يوم الجمعة ثالث شهر رمضان[3] سنة ست وستين وستمائة . ولمـا حضر كنداسطبل إلى السلطان رآه رجلا عاقلا ، فسأل أنه يدخل إلى أنطاكيـة ويتوسط لأهلهـا ، فجرى السلطان على عادته فى الإنذار قبل المهاجمة . فسيّر كنداسطبل [من][4] أحضر ولده رهينـة ، ودخل البلد وتحدث ، وخرج مع جماعة من القسيسين والرهبان ، وأقاموا يترددون ثلاثة أيام فظهر منهم قوة نفس وخوف من صاحبهم البرنس . وفى بكرة السبت أنذرهم بالزحف ، وصبر حتى دخل الأقساء والرهبان إلى أنطاكية ، ورسم بالزحف . فزحفت العساكر وأطافت بالمدينة والقلعة على اتساعها ، وقاتل أهلها قتالا شديدا . فتسور

(١) الجاليش فى السلوك يرد بمعنى راية وبمعنى مقدمة القلب وهو المراد هنا (راجع السلوك جـ ١ ص ٦٩٢ حاشية ٤) .

(٢) راجع نفس الإصطلاح واردا فى السلوك (جـ ١ ص ٩٦٧) .

(٣) نفس التاريخ فى السلوك « فنكلوا بخيامهم فى ثالثة » (جـ ١ ص ٥٦٧) .

(٤) الإضافة لملأ بياض مقدار كلمة واحدة بحسب السياق .

المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ونزلوا المدينة، فهرب أهلها إلى القلعة . وشرعت العساكر فى النهب والقتل والأسر ،وما رفع السيف عن أحد من الرجال بالمدينة ، وكان بها فوق المائة ألف نفر . وأخذ التركمان من الغنائم مالا يحصى . ثم رسم السلطان بحفظ أبواب المدينة والإحتراز عليها . وأما القلعة فاجتمع فيها ثمانية آلاف مقاتل غير الحريم والأولاد ، فتحاشروا بها فات عالم . وأما البالى[1] والوزير الوالى فإنهم لما شاهدوا هذا الحال هربوا رجالة فى الليل ، تدلوا بالحبال ،وأصبح أهل القلعة فما وجدوا أحدا منهم ، ولم يكن بالقلعة ماء ولا طواحين تكفيهم . فسيروا يوم الأحد ثانى يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى . فللوقت طلع السلطان فصادف جميع من فى القلعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة واستغاثوا للسلطان ، فعفا عنهم من القتل ، وأحضرت الحبال فربطوا بها ، وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى ، وكذلك كل مقدم ، والكتاب ينزلون ذلك ، وكتبت كتب البشائر ، ومن جملتها كتاب إلى صاحب انطاكية[2] : نسخته بعد البسملة :

« قد علم القومص الجليل [المبجل المعزز الهمام، الأسد الضرغام، بيمند فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية كبير الأمة العيسوية[3]] بيمند

(١) المقصود هو الـ : Bailli وهى وظيفة من الوظائف الإدارية الفرنسية فى العصور الوسطى .

(٢) نشر هذه الوثيقة ناشر السلوك نقلا عن المخطوطة التى سميناها هنا « س » ومن متن أبى الفضائل فى النهج السديد .

(٣) الإضافة منقولة عن « س » وهى غير موجودة فى الأصل .

المتنقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية [منه] من البرنسية إلى القومصية ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عنده . ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر ، وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال ، واستخدمت الأولاد ، وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الأشجار ، ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق [إن شاء الله] والستائر ، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشى ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب[1] واستخدم الخديم وركب الماشى » .

« هذا وأنت تنظر المغشى عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا قلت فزعا : على هذا الصوت[2] ، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ، وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بلادك ، وما بقيت ماشية إلا وهى لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهى فى ملكنا جارية ، ولا سارية إلا وهى فى أيدى المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعت تلك المغاير[3] التى هى فى رءوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التى هى فى التخوم مخترقة وللعقول خارقة . وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر . وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأمر . وها نحن نبلغك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذى عم » .

(١) فى الأصل « العزب » وصحته العازب .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) المراد أن مغاير الجبال لم تحمك ولم تمنعك من هجومنا .

« كان رحيلنا عنك [و][1] عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان ، ونزولنا أنطاكية فى مستهل شهر رمضان . وفى حالة النزول خرجت عساكرك المبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأمر من بينهم كندا سطبل ، فسأل مراجعة أصحابك . فدخل إلى المدينة ، فخرج هو و جماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا ، فرأيناهم على رأيك فى إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وأن رأيهم فى الخير مختلف ، وقولهم فى الشر واحد ، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت رددناهم وقلنا : « نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الأول فى الإنذار والآخر » فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففى بعض ساعة من شأن المرشان ، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان ، وجاءهم الموت من كل مكان » .

« وفتحناها بالسيف فى الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من أخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شىء من الدنيا ، فما بقى أحد منا إلا وعنده شىء منهم ومنها . فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهى توزن[2] بالقنطار ، وداماتك[3] وكل أربع منهن تباع ، فتشترى من مالك بدينار ، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت

(١) كذا فى الأصل بدون واو العطف التى أضفناها للايضاح .

(٢) فى الأصل « تورث » والواقع أن الناسخ يخلط أحيانا بين رسم الثاء والنون وقد سبق مثل هذا الخلط .

(٣) المقصود « السيدات » .

ونشرت ، وصحفها من الأناجيل المزورة قـد أُثرت[1]، وقبور البطارقة قد بعثرت. ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح ، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ، والبطارقة وقد دهموا بطارقة ، وأبناء الملوك وقد دخلوا فى المملكة . ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك تخترق ، والقتل بنار الدنيا قبل الآخرة تحـترق ، وقصورك وأحوالها قـد حالت ، و كنيسة بولص وكنيسة القسيان قد زلّت كل منها وزالت ، لكنت تقول : « ياليتنى كنت ترابا ، وياليتنى لم أوت بهـذا الخبر كتابا » ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفى تلك النيران بمـاء عبرتك . ولو رأيت مغانيك وقـد أقفرت من معانيك ، ومراكبك[2] وقد أخذت فى السويدية[3] بمراكبك ، فصارت سوانيك من من شوانيك، لتيقنت أن الإله الذى أنطاك[4] أنطاكية منـك استرجعها ، والرب الذى أعطاك قلعتها منك قلعها ، ومن الأرض أقتاعها . ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخـذته من حصون الإسـلام وهو : دير كوش ، وشقيف تلميس ، وشقيف كفردنين ، وجميـع ما كان من بـلاد أنطاكية ، [و][5] استنزلنا أصحابك من الصياصي وأخذناهم بالنواصى،وفرقناهم فى الدانى والقاصى، ولم يبق شىء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر ، فلو استطاع لمـا سمى بالعاصى، وقـد أجرى دموعه ندمًا ، وكان يذرفها عبرة صافية ، فهو أجراها بمـا سفكناه فيه دما » .

(١) فى الأصل « نشرت » .

(٢) استعمل المؤلف لفظ المراكب بمعنيين مختلفين .

(٣) فى الأصل « السوديه » والمقصود هو ميناء قريب من أنطاكية .

(٤) لفظ عامى شائع بمعنى أعطى ، وهو أنسب كما يريد الكاتب من الجناس .

(٥) الإضافة يقتضيها تركيب الجملة .

«وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر، بكونك لم تكن لك فى أنطاكية فى هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلا، وإما أسيرا، وإما جريحا، وإما كسيرا. وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحى، إذا شاهد الأموات، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبّرناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك، لتتحق الأمر على ما جرى. وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تكذب لنا خبرا، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبرا[1]. »

قال: ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب.

ولما تسلم السلطان القلعة سلمها للأمير بدر الدين [بيليك] الخزندار والأمير بدر الدين بيسرى الشمسى. وأما كندا سطبل فإن السلطان أطلقه وأطلق أهله وأقاربه، فاختار التوجه إلى سيس، ففسح له فى ذلك.

ذكر ملخص أخبار أنطاكية

ذهب المفسرون لكتاب الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون[2]﴾ أن القرية أنطاكية.

---

(١) كذا فى الأصل ولا بأس به.

(٢) سورة يس آية ١٣.

وقال أصحاب الأخبار فيها : إن الملك انتيوخس قصد بناء مدينـة يعمرها لتكون نسبتها إليه ، فسير حُكَمَاه ووُزراه[1] لاختيار مكان يكون طيب الهواء والمـاء ، قريبا من البحر والجبل ، فوجدوا هذا المكان . فاختاروه لأنه جبلى بحرى[2] يحكم عليـه الهواء الغربى ، وعيون المـاء العذبة حوله ، والبحيرة الحـلوة شرقيـة ، والبحر المقلوب ، وهو العاصى ، خارج سورها وعليه طواحينها ، وفيه المراكب تحمل الغلات إليها وغير ذلك . فعرفوا ملكهم هـذه الصفات ، فأمر ببنائها ، وأخرج النفقات ، وطلبوا حجـرا جيدا لبنائها ، فوجدوه فى مسافة يومين منها . فاستخدم لهـا من الرجال والبنائين ثمانين ألف رجل وثمانمائة رجل ، ومن العجل ستمائة عجلة ، وألف وتسعمائة حمار ، ومائة زورق لنقل الحجارة ، خارجا عمـا فى ميناه السويدية من العجل والرجال والزوارق التى تحمل الرخام والعمد والقواعد . فنجزت فى ثلاث سـنين ونصف ، وبنيب أسوارها وأبراجها وهى مائة وثلاثة وخمسون برجا ، ومائة وثلاثة وخمسون بدنة ، وسبعة أبواب ، منها خمسة كبار وبابان صغارا[3] . وجعل فيها سبع عوادى ترمى إلى النهر عنـد الوادى المسمى الحسكروت ، وجُعل منه[4] باب فى الجبل ينزل منه إلى المـدينة ، وعليـه قناطر يعبر الناس عليه[5] ، وإذا امتلأ يخرج من تحت السـور ، وساقوا المـاء إليهـا[6] فى قناتين : البوليط[7] والعاوية[8] .

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل « جبلها بحرها » بالنصب وحقه الرفع .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) كذا فى الأصل .

(٥) الضمير يعود على الوادى .

(٦) الضمير يعود على المدينة .

(٧) كذا فى الأصل .

(٨) كذا فى الأصل .

ولما فرغت حضر الملك إليها ورآها، فأكرم الصناع ومدّ لهم طعاما ثلاثة أيام، وأمر ببناء الأدر والدكاكين، فشرع الناس فى بنائها، ووهب كل من يحضر إليها و ينزل حولها خراج ثلاث سنين، و بنى الكنائس وبيوت عباداتهم فاجتمع العالم إليها.

واتفق أن الملك جلس فى بعض الأيام وهو مسرور فرح، فقال له وزيره: «لو عرفت ما أنفقت فى هذه المدينة ما كنت تفرح» فاستيقظ لنفسه، وأمر بعمل حساب ما أنفق فيها سوى الضيافات والجواميس التى أخذت من المروج والبهائم بغير ثمن، فجاءت أربعة آلاف قنطار وخمسين قنطارا ذهبا، فعظم ذلك عنده، وأمسك عن العمارة، وشرع فى بناء مدائن تغل، فبنى سبع مدائن، وأسكن الناس فيها. واستمرت فى يد الملك، ومن ملك بعده، وعمارتها تتزايد، وكل ملك يؤثر بها تأثيرا، ويجدد بها طلسما إلى أن ظهر المسيح عليه السلام.

وما زالت فى يد الروم إلى أن فتحها المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما قدمناه فى خلافته. ولما ولى معاوية بن أبى سفيان نقل إلى أنطاكية فى سنة اثنتين وأربعين جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص، وكان منهم: مسلم بن عبد الله جد عبد الله بن حبيب بن مسلم الأنطاكى. ولم تزل بيد عمال الخلفاء فى الدولتين الأموية والعباسية، ثم استقرت فى يد بنى حمدان. فلما مات سيف الدولة ابن حمدان اتفق أهلها أنهم لا يمكنون أحدا من الحمدانية يدخلها، وولوا شخصا يسمى بفلوش الكردى، وكان قد ورد الغزاة من خراسان خمسة آلاف رجل فأمسكهم وتقوى بهم واشتد أمره، وكان منهم رجل أسود

من الصعاليك يعرف بالزعلى[1] قـد جمع طائفة وسموا نفوسهم بالغزاة . فدخل يوما عليه للسلام، فقتل الكردى وهرب أصحابه، واستولى الأسود على المدينة هو ومن معه . وكان فى بغراس نائب للروم اسمه ميخائيل البرجى و بطرس . فحضرا إليها فى جمع كبير، فعجز المسلمون عن حفظها لاتساعها، فملكها الروم فى يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى الحجـة سنة ثمـان وخمسين وثلثمائة . فطرح المسلمون النار بينهم و بين الروم، وفتحوا باب البحر وخرجوا منه. وأسر الروم جميع من كان بها من المسلمين، فقوى الروم بفتحها، وتوجهوا إلى حلب فصالحهم أهلها وأهل حمص على مال يحمل فى كل سـنة إلى ملك الروم وهو عشرة قناطير ذهبا ، ومن كل مسلم دينار سوى ذوى العاهات ، وأقامت إلى سنة ست وستين وثلثمائة، فسير جعفر بن فلاح غـلامه « فتوحا » إلى أنطاكية فحاصرها خمسة أشهر فـلم يظفر بهـا . وحدثت فى هذه السـنة زلزلة عظيمة هدمت قطعة من سورها فأنفذ ملك الروم ثانيا ، اثنى عشر ألف دينارا وصناعا[2] لإصـلاح ذلك ، فبنيت أحسن ما كانت . و بنى قلعتها لاون بن الفقاس وحصنها ، وكان فى خدمته جماعة من الأرمن ، ومات فكمل عمارتها المـلك بسيل[3] وهو الذى وجد له لمـا مات سـتة آلاف قنطار ذهبا ، ولمـا ولى كان فى حاصل بيت المـال أربعة قناطير لاغير ، وهو الذى ملك أرجيش من بلاد أرمينية فى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، وكان ملكه تسعا وأربعين سنة وأحد عشر شهرا . و بقيت فى أيدى الروم إلى أن فتحها الملك سليمان بن قتلمش السلجقى فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة على ما أوردناه فى

(١) كذا فى الأصل والأذن تفضل الغين المعجمة .

(٢) فى الأصل « وصناع » بالرفع وحقه النصب .

(٣) المقصود هو الإمبراطور البيزنطى Basile

أخبار الدولة السلجقية، وبقيت فى يده إلى أن قتل فى سنة تسع وسبعين وأربعمائة، فصارت بيد وزيره الحسن بن طاهر الشهرستانى يتولى أمرها . فلما استرد السلطان ملكشاه بلاد الشام استردها وضمها إلى الوزير المذكور ، فأقام بها إلى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، ثم فارقها [الوزير] ودخل الروم ، فسلمها لباغى شيان بن ألب [أرسلان] وكانت بنته متزوجة للملك رضوان صاحب حلب .

وحدثت زلزلة بأنطاكية فى التاسع عشر من شعبان سنة أربع وثمانين وأربعمائة خربت دورها وأهلكت خلقا كثيرا ، ورمت من أبراجها نحو السبعين برجا ، فتقدم السلطان بعمارة ما انهدم فى سنة خمس وثمانين .

واستمرت أنطاكية بيد ملوك الإسلام إلى أن ملكها الفرنج فى جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة على ما قدمناه . وكان قد اجتمع عليها جماعة من ملوك الفرنج والملك الكبير المشار إليه منهم اسمه كندفرى ، فقرر أن كل ملك من الملوك يحاصرها عشرة أيام ، ومن فتحت فى نوبته فهى له ، ففتحت فى نوبة ملك منهم اسمه ميمون[1] . فلما اتصل ذلك بملوك الإسلام بالشام اجتمعوا ومقدميهم ظهير الدين طغرتكين صاحب دمشق ، وجناح الدولة حسن صاحب حمص ، وكربغا صاحب الموصل ، وحاصروا أنطاكية ، وكان الفرنج فى قلة ، فسألوا الأمان ليخرجوا منها فلم يجيبوهم ، ووقع تنافس بين المسلمين فخرج الفرنج إليهم فانهزموا من غير قتال . وبقى ميمون مالكها حتى كسره الدانشمند وأسره وقتل أكثر عسكره ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة ، فاشترى نفسه بعد ذلك بمائة ألف دينار ، واستخلف ميمون فيها ولد أخيه طنكرى ،

(١) كذا فى الأصل وعادة الناسخ أن يرسم الأسم « بيمند » ماعدا هذه المرة .

وركب فى البحر وسار إلى بـلاده ليستنجد الفرنج ويعود ، فأهلكه الله تعالى . واستمر طنكرى مالكا لأنطاكيـة وأعمالهـا إلى أن أهلكه الله تعـالى فى ثانى عشر شهر ربيع الأول سنة ست وخمسمائة ، وملكها بعده روجار . وكان طنكى[1] قد استدعاه من بلده وجعـله ولى عهده ، وهو الذى حضر الى بيت المقدس فى ملك بغدوين، وكان بغدوين شيخا كبيرا، فاجتمعا بالبيت المقدس وقررا عهدا: أن من مات منهـم قبل الآخر انتقـل ملكه إلى الباقى منهما. وتزوج روجار بنت بغدوين ، فقتل روجار فى حرب كانت بينه وبين نجـم الدين إيلغازى بن أرتق فى يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وخمسمائة. فقتل روجار[2] وجميع من معه ، فسار بغدوين إلى أنطاكية وملكها ، وأقام بها إلى أن وصل شاب ، فى ثامن عشر شهر رمضان سـنة ست وعشرين وخمسمائة، من الفرنج فى البحر وادّعى أنه ميمون بن ميمون الذى كان صاحب أنطاكية ، فسلم بغدوين أنطاكيه له فملكها . وكان شجاعا مقداما ، وأقام بهـا إلى أن سار نحو الدروب فلقيه ابن الدانشمند فكسره وقتل جماعة من عسكره بأرض عين زربة ، وذلك فى نصف شهر رمضان سـنة أربع وثلاثين وخمسمائة . وملك بعـده الأبرنس ، ولقى الملك العادل نور الدين محـمود بن زنكى على حصن الأكراد فى شهر رجب سـنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فكُسِر المسلمون وقتل جماعة منهـم ، واستولى الفـرنج على أثقالهم . فجمع نور الدين العساكر ،والتقاه فى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين وخمسمائة فقتله وقتل فرسانه واستولى على خيامه . وولى أنطاكية بعـده الأبرنس أرناط ، فأقام إلى أن لقيه مجد الدين أبو بكر نائب

(١) فى الأصل « صنكى » والمقصود طنكر يد النورمندى .

(٢) كرر هذه الجملة وكان يكفي أن يكرر الفعل ولذا بدت العبارة ثقيلة مكررة المعنى .

الملك العادل فى المملكة الحلبية ، وذلك فى صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة فكسره وقتل أصحابه وأخذه أسيرا ، فأقام فى حبس الملك العادل . وملك أنطاكية وهو فى الأسر رجل من ذريته اسمه بيمند[1] وخلص أرناد[2] ، وتزوج صاحبة الكرك وأقام بالحصن حتى ملكه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقتله .

وفى سنة أربع وثمانين وخمسمائة عقد السلطان الملك الناصر الكبير مع بيمند صاحب أنطاكية هدنة لمدة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى آخر آيار ، وحلفا على ذلك ، ورحل الناصر عنها وتوجه إلى حلب على ما ذكرناه فى أخباره . ثم ملكها الأبرنس المعروف بالأسير ، وملكها ابنه من بعده ، ثم ملكها بيمند ولده أيضا ، وهو الذى أخذت منه الآن فى الدولة الظاهرية .

هذا تلخيص خبر أنطاكية من حين عمرت إلى حين فتحت هذا الفتح .

ذكر ما اعتمده السلطان فى قسمة غنائم أنطاكية وإحراقه قلعتها وما افتتحه مما هو مضاف إليها وهو : دير كوش وشقيف كفردنين وشقيف كفر تلميس[3]

قال : ولما فتحت أنطاكية وفرغ الناس من نهبها ، رسم السلطان بإحضار المكاسب للقسمة ، وركب وأبعد عن الخيام ، وحمل ماغنمه وما غنمه مماليكه

---

(١) هكذا يرسم الناسخ عادة اسم بيمند .

(٢) كذا فى الأصل بالدال والأشهر الرسم بالطاء .

(٣) فى الأصل « بليس » والتصحيح من نص خطاب بيبرس إلى صاحب أنطاكية (راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٦٨) .

وخواصه . وقال للأمراء : « ينبغى أن تخلصوا ذمتكم وتحضروا[1] ما غنمتموه ، وأنا أُحلّف الأمراء والمقدمين ، وهم يحلفون أجنادهم ومضافيهم » . فأحضر الناس الأموال والمصاغ من الذهب والفضة ، فطال الوزن ، فقسمت النقود بالكامات والشربوشات[2] ، ولم يبق غلام إلا أخذ . وتقاسم الناس النسوان والبنات والأطفال ، وبيع الصغير بأثنى عشر درهما ، والجارية بخمسة دراهم . وباشر السلطان القسمة بنفسه ، وما ترك شيئا حتى قسمه من الأموال والقماش والمصوغ والدواب والمواشى . ثم ركب إلى قلعة انطاكية وأحرقها وعم الحريق أنطاكية .

وكان صاحب طرابلس قد استولى عند أخذ التتار حلب على دير كوش ، وهو من أمنع الحصون ، وعلى شقيف كفردنين وعلى شقيف[3] كفر تلميس ، وكانت هذه الحصون شجى فى حلق المسلمين . فلما فتحت أنطاكية انقطعت حيلة هذه الحصون فطلبوا الأمان ، على أنهم يسلمون الحصون ويؤسرون ، فسير الأمير بدر الدين بيليك الأشرفى الظاهرى ، فتسلم دير كوش فى ليلة الجمعة حادى عشر شهر رمضان ، وتسلم بقية هذه الحصون .

---

(١) فى الأصل (تخلصون وتحضرون) بإثبات النون فى المرتين .

(٢) فى الأصل « الشربات » والسياق يقتضى ذكر ما ينفع فى الكيل والأرجح « شربوشات » وهى قلانس طويلة تلبس بدل العمامة وقد تستعمل للكيل عند الضرورات كما قد تستعمل الطاقية للشرب فى الريف .

(٣) فى الأصل « كفربلس » راجع ما تقدم فى صدر هذا الخبر .

ذكر صلح القصير على المناصفة (١)

كان القصير للبطرك الكبير خاصة، وزعموا أن بأيديهم خط عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما نزل السلطان فى هذه الجهات بذلوا نصف البلاد للسلطان ، فكتبت لهم هدنة ، وأنضاف إلى مملكة الإسلام نصف بلاد القصير .

ذكر فتوح حصن بغراس (٢) من الديوية

قال : ولما فتح الله تعالى هذه الحصون والجهات على السلطان ولم يبق بتلك الجهات سوى بغراس ، خاف من بها من الديوية ، فانهزموا وتركوه . فجهز السلطان الأمير شمس الدين أقسنقر [الفارقانى] أستاد الدار العالية بعسكر فتسلمه فى يوم السبت ثالث عشر شهر رمضان من السنة ، ولم يجد به سوى امرأة عجوز ، ووجده عامرا بالحواصل والذخائر .

وقال البلاذرى : كانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك فوقفها فى سبيل البر ، ولما قصد المسلمون غزاة عمورية صحبة مسلمة ، حمل هو والعسكر النساء معهم للجد فى القتال . فلما صاروا فى عقبة بغراس عند الطريق المستدقة التى تشرف على الوادى سقط جمل عليه امرأة ، فأمر مسلمة النساء أن يمشين ، فسميت تلك العقبة عقبة النساء . قال : وكان فى تلك الطريق سباع لا يسلك فيها بسببها ، فشكا الناس ذلك إلى الوليد بن عبد الملك فبعث أربعة آلاف جاموسة وخولها ، فانكفأت السباع . ثم بناها بعد ذلك وحصنها أتم تحصين

---

(١) ذكر السلوك الجلاء من القصير عام ٦٧٤ هـ وأهمل أخبار الإجلاء الأخرى ، راجع السلوك (ج ١ ص ٦٢٠) .

(٢) راجع السلوك (ج ١ ص ٥٧٠ ص ١٦ — ١٨) .

الملك نقفور ملك الروم الذى خرج إلى بلاد الإســلام فى آخر سنة سبع وخمسين وثلثمائة وقتل وسبى . ولمـا بنى هـذا الحصن ، الذى هو حصن بغراس . رتّب فيه نائبا له يعرف بالبرجى ، ورتب معه ألف رجل ، وحصن بغراس. ثم ملكه[1] الفرنج وما زالوا يتداولونه ويحصنونه على طول المـدد ، إلى أن ملكه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب ، فى ثانى شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، على ما قدمناه ، ثم ملكه الديوية بعد ذلك .

ذكر الإغارة على صور

كانت قد تقررت مهادنة بين السلطان وبين صاحب صور ، فلما توجهت الرسل إليه حلف على بعضها[2] ، وأسقط فصولا لم يحلف عليها . فلما كان السلطان بالشام ، فى سنة سبع وستين وستمائة ، ووقفت له امرأة ذكرت أنها كانت أسيرة فى صور ، وأنها اشـترت نفسها ثم قطعت على بنت لهـا قطيعة ، وحصلت من أوقاف دمشق مبلغا اشترتها به من صور بمكاتبة عليها خط الفرنج ، ولمـا خرجت بها إلى قرب بلاد صفد سير خلفها جماعة من صور أخذوا البنت منها ونصّروها . فلما سمع السلطان كلامها غضب لله تعالى ، وكتب يطلب هذه البنت ، فاعتذروا بأنها تنصرت . وكان بالنواقير من جهة صفد جماعة [من المسلمين[3]] سـيّر صاحب صور أمسكهم وقتـل منهم نفرين واعتقـل الباقين . وطلبهم السلطان

(١) فى الأصل « ملكها » والإشارة هنا إلى بغراس بالمذكر مرة وبالمؤنث مرة فى الأصـل على أساس أنه حصن بغراس أو قلعة بغراس .

(٢) الضمير يعود على المهادنة التى عقدت فى رمضان عام ٦٦٥ (السلوك جـ ١ ص ٥٥٩) وهى المهادنة التى نقضت بعد سنتين . راجع السلوك (جـ ١ ص ٥٧٩) .

(٣) الإضافة ضرورية للإيضاح .

فأصروا على منعهم ، فركب السلطان فى العشرين من شهر رمضان ، وساق بنفسه ومن معه من العسكر الخفيف ، وتوجه الأمير جمال الدين المحمدى من جهة ، والأتابك من جهة ، ووصلوا إلى صور ، فأمسكوا جماعة من الرجال والنساء والصغار ، وهرب فى ذلك الوقت مملوك للأمير جمال الدين أقش الرومى فنصّره صاحب صور لوقته . وطُلِب منه فدافع عنه ، وأمسك السلطان عن إتلاف زرعه ورد الحريم والأطفال ورجع إلى المخيم وأمهل عليه مدة ، فلما استمر على منع البنت والمملوك ، جرد السلطان جماعة لاستغلال بلاده[1] .

ذكر الإغارة على بلاد كركر[2] وأخذ قلعة شرموشاك

وفى هذه السنة توجهت الغيارة من البيرة وغيرها إلى جهة كركر فأحرقوا بلدها وأخذوا مواشى ، وتوجهوا إلى قلعة بين كركر والكختا[3] اسمها شرموشاك ، فزحفوا عليها وأخذوها وقتلوا رجالها ونهبوا من المواشى شيئا كثيرا ، وأخرجوا من الفلاحين إلى البلاد السلطانية خلقا كثيرا ، وأخذ الخمس من الغنيمة للديوان ورسم بترتيب الناجعين فى البلاد الحمصية والشيزرية وجهات أنطاكية .

ذكر الإغارة على عكا

وفى سنة ثمان وستين وستمائة ، توجه السلطان جريدة إلى الشام ، وكان الفرنج بعكا اعتمدوا أشياء لا يصبر عليها : منها أن أربعة من مماليك السلطان

(١) استعمال نادر بمعنى استنهاب .

(٢) فى الأصل « كزز » وراجع السلوك (ج ١ ص ٥٧٩ س ٩ — ١٠) والمكان قلعة على الفرات بين آن وملطية والاسم بالفرنجية Gargar .

(٣) الكختا قلعة قديمة على نهر كختا : قرب ملطية (السلوك ج ١ ص ٥٧٩ حاشية ٥) .

هربوا ودخلوا عكا ، فلما طلبهم منهم طلبوا العوض عنهم ، فأنكر السلطان ذلك عليهم ، فنصّروهم ، وذلك فى سنة سبع وستين . فكتب السلطان إلى النواب بوقوع الفسخ ، فأغار عليهم الأمير جمال الدين أقش الشمسى فقتل وأسر منهم جماعة . واتفقت حركة للسلطان إلى الحجاز فأطلق الذين أسروا ، وعوّق[1] رسل الفرنج على إحضار المماليك ، وأطلق منهم وزير الإستبار خاصة ، لأنه كان يخدم السلطان . فلما كان فى هذه السنة بلغ السلطان أن الفرنج وصل إليهم سفائن من جهة الريدراكون[2] ، أحد ملوك الغرب ، فيها جماعة من أصحابه وأقاربه وكتبه ، يقول فيها: أنه واعد أبغا بن هولاكو أنه يوافيه بالبلاد الإسلامية، وأنه[3] واصل لمواعدته [من جهة سيس فى سفن كثيرة][4] ، فأرسل الله تعالى ريحا مزعجة كسرت عدة من سفائنه ولم يسمع لهم خبر. وأما أهل عكا فإنهم خرجوا هم ومن وصل إليهم من الغرب إلى ظاهر عكا ، وخيموا وصاروا يركبون [وتوجهت طائفة منهم إلى عسكر جينين وعسكر صفد[5]] ، وبلغهم أن السلطان وصل جريدة فتوهموا أنه لا يقصدهم . واتفق أن السلطان خرج متصيدا إلى جهة الحارسة ، وعاد مسرعا وتوجه على أنه يتصيد فى مرج برغوث[6]. ولما وصل فى أثناء الطريق إلى برج الفلوس[7] سير الأمير عز الدين معن الظاهرى السلاح دار لإحضار السلاح

(١) اللفظ بمعنى احتجز تعليقا لشىء على شىء .

(٢) المقصود الريدراكون البرشلونى (راجع السلوك جـ ١ ص ٥٨٤ حاشية ٥) .

(٣) الضمير هنا يعود على ملك ارغونة وقاعدة ملكه برشلونة (نفس الموضع) .

(٤) الإضافة هنا لاظهار الموضوع وهى منقولة من السلوك (جـ ١ ص ٥٨٥) .

(٥) الإضافة هنا للافادة . نقلا عن السلوك (نفس الموضع)

(٦) موضع بين دمشق وجسر يعقوب السلوك (جـ ١ ص ٥٨٥ حاشية ٣) .

(٧) كذا فى الأصل .

وسير الأمير ركن الدين إياجى لإحضار العسكر الشامى كله ، فتكامل الناس عنده فى مرج برغوث ، فى بكرة نهار الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر ربيع ، وركب وساق فوصل جسر يعقوب عشية النهار ، وساق فأصبح الصبح وهو بأول المرج. وكان قد سير إلى الأمير جمال الدين الشمسى مقدم عسكر عين جالوت ، والأمير علاء الدين أيدغدى مقدم عسكر صفد بالإغارة فى ثانى وعشرينه ، وأنهم ينهزمون قدام الفرنج . فخرج جماعة من الفرنج مقدمهم كندلوفير[1] المسمى زيتون ، وفيهم أقارب الريدرا كون وغيرهم ، ودخل السلطان الكمين . فعندما خرج الفرنج لقتال العسكر الصفدى تقدم الأمير عز الدين إيغان الركنى ، وبعده الأمير جمال الدين الحاجبي، ومعهما أمراء الشام. وساق قدام السلطان الأمير شمس الدين أيتمش السعدى ، والأمير علاء الدين كتدغدى الظاهرى أمير مجلس ومعهما مقدموا الحلقة . وقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال، وأمسك الأمير عز الدين إيغان فارسا اسمه ريمون[2] دكوك . وأما السلطان ومن كان قدامه من الأمراء ، فما وصلوا إلى الأمراء المتقدمين إلا والعدو قد انكسر فلم يحصل لهم اختلاط . وكان القتال شديدا تماسكوا فيه بالأيدى ، وأكمن زيتون فخال العسكر بينهم وأخذوا عليه وعلى أكابر الفرنج حلقة وقتل أخو زيتون، وابن أخت الريدرا كون، وجماعة من الخيالة ، ونائب فرنسيس[3] بعكا ، ولم يعدم من عسكر الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطونبا الفائزى . وعاد السلطان ورءوس القتلى بين يديه إلى صفد، وتوجه منها إلى دمشق ، فدخلها فى يوم الأحد سادس وعشرين الشهر، والأسرى والرءوس بين يديه .

---

(١) ، (٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل « فرسيس » وراجع السلوك (ج ١ ص ٥٨٥) .

ذكر فتوح قلعة صافيتا[1]

وفى سنة تسع وستين وستمائة، توجه السلطان من الديار المصرية فى عاشر جمادى الآخرة وصحبته ولده الملك السعيد ، ودخل الملك السعيد إلى دمشق فى ثامن شهر رجب ، وخرج هو والأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة . وكان السلطان قد توجه من جهة بعلبك وتوجه إلى طرابلس ، فقتل من رعاياها وأسر، واتصلت الغارة بصافيتا ، فطلب من فيها الأمان، ثم نكثوا، فرحل عنهم السلطان وأنزل جماعة حولهم . فسير كمندور[2] أنطرطوس إلى السلطان يشفع فى الإخوة الديوية بصافيتا ، على أنه يأمرهم بالتسليم . فأجابهم السلطان إلى ذلك، فأرسل إليهم فنزلوا ، وكانوا سبعمائة رجل ، خارجا عن النساء والأطفال ، وأحضروا إلى السلطان وهو على حصن الأكراد ، فأطلقهم وجهز معهم من أوصلهم إلى مأمنهم ، وتسلم السلطان صافيتا وبلادها ، وتسلمت الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد ، مثل تل خليفة وغيره .

وقد ذكرنا ما كان قد وقع من المهادنة على حصن الأكراد والمرقب ، ثم اتفق من بيت الإسبتار أمور[3] أوجبت فسخ الهدنة : منها أن السلطان لما أغار على طرابلس فى سنة ست وستين وستمائة ، وكتب إلى النائب بحمص بأن يقيم بحدود حصن الأكراد لدفع الضرر عن بلاد الهدنة ، وكتب إلى عدة جهات بالوصية بهم ، وحضر رسول حصن الأكراد يسأل الوصية ، فأعطاهم علما برنكه .

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٩٠) .

(٢) اصطلاح فرنجى بمعنى مقدم .

(٣) فى الأصل « أمورا » بالنصب وحقه الرفع .

ولما عبرت الأثقال من جهة القصب ، عبر أحد الحرافشة ومعه رفقة له على بستان بقرب تل خليفة المجاور للحصن[1] فأخذوا منه شيئا لا قيمة له ، فأخذهم المقدم [الفرنجى[2]] بتل خليفة وضرب رقاب بعضهم وأمر البعض . فنزل النائب بحمص على تل خليفة وطلب الخصوم . فامتنع النائب بها عن تسليمهم وقال : « أنا قتلت » ، وأساء فى القول . فحاصرهم [نائب حمص] وسير إليهم شجاع الدين عنبر[3] ، فاحتال إلى أن استنزل الخصوم ، وسيروا إلى السلطان . فحضرت رسل من حصن الأكراد تطلبهم ، فأجابهم السلطان إنه لابد من تحقيق هذه الواقعة ، فقوت نفوس الذين فى الحصن . وغلّق النائب [الفرنجى[2]] باب الحصن ومنع الميرة ، وألبس جماعة العدد .

ولما رجع السلطان من طرابلس عند توجهه إلى أنطاكية ومرّ تحت الحصن متوجها إلى حمص ، فسيّر يقول : « ما كان ينبغى لكم تعبرون من ههنا إلا بأمرى » . وقيل لهم : « لأى معنى غلقتم الأبواب ولبستم العدد ، وأنتم صلح ؟ » . فقال : « ما غلقناها إلا شفقة على عسكر السلطان من الفرنج الغرب الذين عندنا ، لأنهم لا يخافون الموت » . فعزّ ذلك على السلطان لأن الغرب الذين عنده عدتهم دون المائة نفر . وكان هذا الأمر مقدمة انحراف السلطان عليهم ، وبقى ذلك فى خاطره . فلما توجه إلى الشام جريدة فى سنة ثمان وستين وتوجه إلى حماة ثم رحل عنها فى ثالث جمادى الآخرة توجه إلى حصن الأكراد

(١) إذا قيل الحصن دون وصف آخر فهو حصن الأكراد .

(٢) الإضافة للتحديد لأن المؤلف يطلق الألقاب العربية على ولاة الحصون الفرنجية .

(٣) فى الأصل « بختر » وهى عبارة عن الحرف عين مع زلومة خرطومية زخرفية ، ويتكرر من مثل هذا الرسم .

بمقدار ما تى فارس بغير عدة ، وصعد جبل الحصن فى أربعين فارسا ، فخرج له جماعة من الفرنج ملبسين ، فحمل عليهم وكسرهـم ، وقتل منهم جماعة ووصل إلى الخندق ، وقال — وهو متنكر لا يعرف من هو — : « قولوا لذلك الرسول الذى حضر سنة طرابلس يخلّى الفرنج الغرب يخرجوا ، فما نحن أكثر من أربعين فارسا بأقبية بيض »(١) . وعاد إلى مخيمه ، ورَعَتْ الخيول المروج والزروع ، فكان ذلك أحد أسباب الإستيلاء على الحصن لأنه ليس له مادة إلا من زرع بلده . فلما توجه السلطان ، فى سنة تسع وتسعين وستمائة إلى الشام ، وأغار على طرابلس كما قدمنا نازل حصن الأكراد ، فى تاسع شهر رجب من السنة وملك أرباض الحصن فى العشرين منه ، وحضر الملك المنصور صاحب حماة ، فتلقاه السلطان وترجل لترجله ، وساق السلطان تحت صناجق صاحب حماة بغير جمدارية ولا سلاح دارية أدبا معه ، وسير إليه دهليزا أمره بنصبه . ووصل الأمير سيف الدين صاحب صهيون ، والصاحب نجم الدين صاحب الدعوة . وفى أواخر شهر رجب ، تكمل نصب عدة مجانيق ، وفى سابع شعبان ، أخذت الباشورة بالسيف ، وفى سادس عشر الشهر ، تشقق برج من أبارج القلعة ، وزحف العسكر وطلع الناس إلى القلعة وتسلموها ، وطلع الفرنج القلعة(٢) [الأخرى] وأحضرت جماعة من الفرنج والنصارى ، فأطلقهم السلطان ، ونقلت المجانيق إلى القلعة ونصبت على القلة . وكتب السلطان كتابا على لسان مقدم الفرنج

---

(١) كذا فى الأصل بالعامية .

(٢) الإضافة للإيضاح ذلك أن السرد يفترض وجود قلعتين سلمتا الواحدة بعد الأخرى ومثل هذا المعنى يرد فى السلوك (جـ ١ ص ٥٩١ س ٢ — ٣) ومتن السلوك واضح لأنه يسمى إحدى القلعتين بالحصن ، و يقابل ذلك فى هذا المتن تسميه إحدى القلعتين بالقلة .

بطرابلس إلى من بالقلعة يأمرهم بالتسليم . ثم طلبوا الأمان ، فكُتب لهم أمان على أنهم يتوجهون إلى بلادهم . وفى يوم الثلاثاء رابع عشرين شعبان ، خرج الفرنج من القلعة وجهزوا إلى بلادهم ، وتسلم السلطان الحصن . ورتب الأمير صارم الدين الكافرى[1] نائبا بحصن الأكراد ، وفوض أمر عمارة الحصن إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم وعز الدين أيبك الشيخ .

وهذا الحصن كان قديما بيد المسلمين ، فلما نازل صنجيل طرابلس كان يشن الغارات على هذا الحصن وما قاربه من الحصون ، ثم قصده فى سنة ست وتسعين وأربعمائة وحاصره وضيق على من به وأشرف على أخذه ، فاتفق قتل جناح الدولة صاحب حمص فطمع فيها ورحل عنه . وهلك صنجيل وملك ابنه ، فجرى على عادة أبيه فى أذية أهل هذا الحصن وإفساد أعماله ، ثم فارقه وتوجه لحصار بيروت . فجاء طنكلى[2] صاحب أنطاكية ونازله ، وأهله فى غاية الضعف ، فسلمه صاحبه إليه ، وكان يرجو أنه يبقيه فيه لأنه اختاره على صنجيل فأنزله وأهله منه ، وأخذه صحبته ، ورتب فيه من يحفظه من الفرنج ، وحكى ذلك ابن عساكر .

وذكر ابن منقذ فى كتاب البلدان أن : نور الدين محمود بن زنكى ، رحمه الله تعالى ، كان قد عامل بعض رجالة التركمان المستخدمين من جهة الفرنج بهذا الحصن ، على أنه إذا قصده نور الدين يثور هو وجماعة من أصحابه فى الحصن ويرفعون علم نور الدين على الحصن وينادون باسمه . وكان هذا التركمانى له أولاد وإخوة قد وثق بهم الفرنج ، وكان الإتفاق

---

(١) يرد فى السلوك نفس الاسم صارم الدين قايماز الكافرى (ج ١ ص ٥٦٦ ، ٥٩١) ولعل الأفضل أن تقرأ الظافرى .

(٢) كذا فى الأصل ويرد فى المتن أحيانا صنكلى وصنكرى وطنكرى .

بينه و بين نور الدين أن يقف على رأس الباشـورة ، فكتم نور الدين هذا الأمر عن أصحابه وتقدم أوائل العسكر النورى فرأوا التركمانى على الباشورة فرموه بالنشاب فمـات ، واشتغل أهله بوفاته ، فلم يـتم لنور الدين ما دبره . ولم يفتحه السلطان الملك الناصر صـلاح الدين . وكان فتحه على يد السلطان الملك الظاهر الآن .

ذكر صلح أنطرطوس والمرقب[1]

قال : وسأل كندور[2] أنطرطوس ومقدم بيت الإسبتار السلطان على الصلح، فأجابهـم على أنطرطوس خاصة ، خارجا عن صفيتا و بلادهـا ، وعلى المرقب . واسترجع منهـم بلدة وأعمالها وما أخذوه فى الأيام الناصرية ، وعلى أن جميع مالهم من المناصفات والحقوق على بلاد الإسلام يتركونه . وعلى أن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان و بين بيت الإسبتار، وعلى أن لاتجدد عمارة بالمرقب ، وحلف لهم السلطان على ذلك ، وتوجه لتحليف المقدم المذكور بأنطرطوس الأمير فخر الدين المقرى الحـاجب ، وأخلى الفرنج برج قرميص[3] ، وأحرقوا مالا أمكنهم حمله من موجودهم ، وتسلم البرج المذكور فى هذه الأيام، وكذلك البرج الذى فى بلدة هـدم الفرنج بعضه وحرقوه ، ورسم السلطان بهـدم باقيـه[4] .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩١) .

(٢) هو مقدم بيت الداوية بحسب حواشى الدكتور زيادة على الخبر الموازى (فى السلوك فى نفس الموضع).

(٣) كذا فى الأصل وقد ورد فى فهرست أعلام السلوك « قرفيص » .

(٤) فى السلوك (جـ ١ ص ٥٩٢) أن الفرنج أخلوا عدة حصون تسلمها السلطان .

ذكر فتوح حصن عكّار[1]

قال : ولما رتب السلطان أمور حصن الأكراد توجه إلى حصن عكار ونازله ، فى يوم الأربعاء سابع عشر رمضان ، ورتب طلوع المجانيق ، وركب بنفسه على الأخشاب فوق العجل فى تلك الجبال إلى أن أوصلها إلى مكان نصبت به ، وشرع فى نصب المجانيق الكبار فى العشرين من الشهر . وفى هذا اليوم ، استشهد الأمير ركن الدين منكورس الدوادارى ، وكان يصلى فى خيمته فجاء حجر منجنيق فمات ، رحمه الله تعالى . وفى التاسع والعشرين من الشهر ، طلب أهل الحصن الأمان ورفعت الصناجق السلطانية على أبراجه ، وفى يوم الثلاثاء سلخ الشهر ، خرج أهل حصن عكار منه ، وجُهزوا إلى مأمنهم ، وعيّد السلطان بالحصن » ورحل إلى مخيمه بالمرج .

وهذا الحصن يعرف بابن عكّار ، وكان بيد المسلمين ، فلما ملك الفرنج طرابلس وغيرها ترددت الرسائل بينهم وبين طغتكين وهو بحمص ، فوقع الاتفاق على أن يكون للفرنج ثلث بلاد البقاع و يتسلمون حصن المنيطرة[2] وحصن عكار ، وإلا يتعرضوا إلى البلاد بغارة . وتقرر معهم أن مصياف وحصن الوادى وحصن الطوبان وحصن الأكراد فى الصلح ، ويُحمل إلى الفرنج مال عنها . فلما تسلم الفرنج الحصنين عادوا إلى ما كانوا عليه من الغارات ، وصار هذا الحصن لما تسلمه الفرنج من أضر شىء على المسلمين المارين من حمص إلى بعلبك ، ولم يكن

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٩٢) .

(٢) المنيطرة مصغر ، بالطاء مهملة حصن بالشام قريب من طرابلس (معجم ياقوت ج ٨ ص ١٨٦) .

له كبير ذكر فيما مضى، إلى أن وصل ريدافرنس[1] إلى الساحل بعد فكاكه من الأسر بمصر فرأه حصنا صغيرا ، فأشار على صاحبه الأبرنس أن يزيد فيه وهو يساعده فى عمارته ،فزاد فيه زيادة كثيرة من جهة الجنوب ، وهو فى واد بين جبال محيطة به من أربع جهاته .

ولما فتحه السلطان الملك الظاهر كتب إلى صاحب طرابلس ما مثاله بعد البسملة[2] :

« قد علم القومص يمند — جعله الله ممن ينظر لنفسه و يفكر فى عاقبة يومه من أمسه — نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار ، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها فى جبال تستصعبها الطيور لأختيار الأوكار ، وكيف صبرنا فى جرها على مناكدة الأوحال ومكابدة الأمطار ، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى ، وكيف هبطنا تلك الأودية التى لو أن الشمس من الغيوم تُرى بها ما كان غير جبالها رشا ، وكيف صارت رجالك الذين ما قصرت فى انتخابهم ، وحسنت بهم استعانة نائبك الذى انتحى بهم[3] » .

وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر ، وأن صوت الناقوس صار عوضه الله أكبر ، ومن بقى من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح ، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوايح ، وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى ، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى ، وليروهم الجراح التى أريناهم بها نفادا ، ولينذروهم لقاء يومهم هذا ،

(١) الإشارة إلى ملك فرنسا لويس التاسع الملقب بالقديس .

(٢) نص هذه الوثيقة نشره الأستاذ الدكتور زيادة فى السلوك (ملحق ٤ ص ٧٩٢ — ٩٧٣) معتمدا على نسخة « س » .

(٣) انتحى بمعنى انسحب ، وانتخى بإعجام الخاء بمعنى ملكته النجدة والشجاعة .

ويفهموكم أنه ما بقى من حياتكم إلا القليل ، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل ، فتعرّف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلّم عليها إلى حين الإجتماع عن قريب ، وتُعلّم أجساد فرسانك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة لاتغيب ، لأن أهل عكار ما سدّوا لها جوعا ، ولا قضت من ريها بدمائهم الوطر ، وما أطلقوا إلا لما عاقب شرب دمائهم . وكيف لا ، وثلاثة أرباع عكار عكر . يعلم القومص هذه الجملة المسرودة[1] ويعمل بها ، وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه ، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده .

وقال المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر :

يا مليك الأرض بشرا ك فقد نلت الإرادة
إن عكار يقينا هى عكا وزيادة

ذكر صلح طرابلس[2]

قال : ولما استقر أمر حصن عكار رحل السلطان من منزلته بالأرزونية هو وجميع العساكر والأثقال ، وساق على عزم حصار طرابلس ، فوردت الأخبار أن ملك الإنكتار وصل[3] إلى عكا ، فى أواخر شهر رمضان من هذه السنة ، وصحبته ثلاثمائة فرس ، وثمانى بطس وشوانى ومراكب تكملة ثلاثين مركبا ، غير ما كان سبقه صحبة استاد داره ، وأنه يقصد الحج . ففتر عزم السلطان ونزل

(١) قرأها ناشر السلوك « المسرودة » وتقرؤها المردية .

(٢) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٩٢) .

(٣) هو البرنس ادورد الذى صار الملك ادورد الأول وصل أولا إلى تونس فلم يجد بها مجالا لموت الملك لويس التاسع فتحول إلى الشام انظر السلوك (نفس الموضع حاشية ٤) .

قريبا من طرابلس جريدة، وتردد الأتابك إلى جهة طرابلس، والأمير سيف الدين الدوادار واجتمعا بصاحبها . وأراد السلطان قطع ما بقى من الأشجار ، فسير البرنس يطلب الصلح وخرج وزراؤه ، وكتبت الهدنة لمدة عشر سنين . وجهز السلطان فخر الدين بن جلبان ، وشمس الدين الاخنائى شاهد الخزانة ومعهما ثلاثة آلاف دينار مصرية لفكاك الأسرى . وتوجه السلطان إلى حصن عكار، ثم عاد إلى مخيمه بالأرزونية، ثم توجه إلى حصن الأكراد، ثم رحل فوصل إلى دمشق فى نصف شوال .

ذكر فتوح القُرين[1]

كان حصن القرين لإسبتار الأرمن[2] ، ولم يكن لهم بالساحل غيره ، وكان من أمنع الحصون وأضرها على صفد ، فتوجه السلطان إليه من دمشق، فى الرابع والعشرين من شوال سنة تسع وستين وستمائة ، ووصل إلى صفد وجهز منها المجانيق وسار إلى القرين ونازله . و بينما السلطان واقف لنصب المجانيق وردت رسل عكار[3] . واتفق أن السلطان [كان[4]] يرمى نشابا على القلعة فتربه طائر فرماه فإذا فيه بطاقة من جاسوس فى العسكر للفرنج مضمونها أخبار السلطان ، وذلك بحضور الرسل ، فسلم السلطان الطائر لهم وقال : « استصحبوه معكم لتقرأ الفرنج

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٥٩٣) و ذكر ناشر السلوك فى الحاشية أن الحصن كان للفرسان التيوتون وكان يسمى (Starkenburg) أو (Mont Fort) بمعنى التية المحصنة

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل بدون راء، و إثبات الراء ضرورى بحسب السياق .

(٤) الإضافة يقتضيها تركيب الجملة .

هـذه البطاقة ، ونحن نفرح بمن يخبركم بأخبارنا» . وفى مستهل ذى القعدة ملك الربض ، وفى ثانيـه أخذت الباشورة ، وأخذت النقوب فى السور ، وشرط السلطان للجارين عن كل حجر ألف درهم . واشـتد القتال ، فحضر رسلهم ، وتقـرر خروجهم وتوجههـم حيث شاءوا ، وأنهـم لا يستصحبـون مالا ولا سلاحا . وكتب الأمان بذلك ، ورفعت الصناجق السلطانية عليها ، وركب السلطان وأصبح على أبواب عكا مُطّلِباً ، فما ترك أحد من الفرنج ، وعاد إلى مخيمه بالقرين ، وأمر بهـدم القلعة ، فتكمل هدمها فى رابع وعشرين ذى القعدة من السنة .

ذكر صلح صور وما تقرر من المناصفة (١)

وحضرت رسل صاحب صور، وحصل الإتفاق على أن يكون لهم من بلاد صور عشرة بلاد خاصا ، وللسلطان خمسـة بلاد يختارها تخصه ، وبقيـة البلاد مناصفة ، وحلف السلطان على ذلك . وجهز الرسل فحلّفوا صاحب صـور على ما تقـرر .

ذكر منازلة التتار البيرة وكسرهم على الفرات وقتـل مقدمهم جنقر (٢)

وفى تاسع شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وستمائة وردت الأخبار بحركة التتار ، فجـرد السلطان الأمـير فخر الدين الحمصى بجماعة من العساكر المصرية والشامية إلى جهة حارم، ثم جهز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى بجماعة

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٥٩٥ س ١ — ٣) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٥٦ — ٦٥٧) ولاحظ الاختلاف فى توقيت الشهر .

من العساكر وجماعة من العربان . وعدّى التتار إلى البر الشامى لقصد الرحبة فتقسم[1] فكر السلطان ليقسمهم على البيرة والرحبة ، ورحل من ظاهر دمشق ، فبلغه رحيل العدو عن الرحبة ، فجدّ فى مسيره ووصل إلى الفرات إلى مخاضة تعرف بمخاضة الحمام ، فوجد التتار قد وقفوا على شط الفرات ، وعدتهم قريب الخمسة آلاف فارس ، ومقدمهم جنقر[2] أحد مقدميهم الكبار وحفظوا فم المخاضة . وكان السلطان قد استصحب عدة مراكب من دمشق وحمص فرست فى الفرات ، وركب فيها الرجالة الأفجية لكشف البر . وعمل التتار مكيدة : وهى أنهم تركوا المخاضة السهلة ووقفوا على مكان بعيد الغور وعملوا الستائر ، فاعتقد المسلمون أن المكان الذى حفظوه هو المخاضة السهلة فخاضوا منه ، وكان العدو قد عملوا سيبا[3] على البر من جانبهم ليقاتلوا من ورائها ، فرتبت العساكر الإسلامية نفوسها بخيولها ، وعاموا أطلابا ، الفارس إلى جانب الفارس ، متماسكين بالأعنة معتمدين على الرماح ، كما قال القائل :

فعمنا إليهم بالحديد سباحة ومن عجب أن الحديد يعوم

وازدحم الناس وانسكر الماء بهم فصار كالجبال . وطلع المسلمون ، والسلطان فى أوائل القوم[4] ، فلم يلبث التتار أن انهزموا أقبح هزيمة ، وقتل مقدمهم جنقر وجماعة كثيرة منهم وأسرت جمعة ، وأقام السلطان إلى العصر وجمع الأسرى ورءوس القتلى وبات فى مكان النصر ، والعساكر لابسة والخيل

(١) كذا فى الأصل بغير نقط .

(٢) فى الأصل حنقر بدون نقط . ولم يجد المحقق وسيلة لتصحيح الاسم .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « القول » وهو سهو

ملجمة . وأصبح يوم الاثنين بمنزلته حتى عاد من كان قد ساق خلف العدو ، واستبرىء أمر العدو ، ثم عادت العساكر ، وكان العود عليهم أشق .

ولما صار السلطان بالبر الشامى بلغه أن التتار الذين كانوا نازلوا البيرة ومقدمهم درباى قد هربوا وتركوا أزوادهم والمجانيق التى معهم ، ورموا النار فى بعض ذلك ، ونزل أهل البيرة وحملوا من ذلك شيئا كثيرا . فنزل السلطان على جبل مشرف قرب البيرة من الجانب الشامى ، وتوجه إليها على الجسر الذى مده العدو وهو جسر كبير تحته المراكب والصوارى والسلاسل ، ومعه جماعة من الأمراء ، وأنعم على النائب بها بألف دينار ، و [الأمير سيف الدين] الصروى[1] المجرد بها بألف دينار ، وعم من بها بالتشاريف ، وأنعم على أهل الثغر بمائة ألف درهم ، وجرد بها جماعة زيادة على من بها ، وعاد إلى مخيمه ، وسار إلى دمشق فدخلها فى ثالث جمادى الآخرة والأسرى بين يديه .

ذكر فتوح كينوك[2]

كان قد كثر فساد أهل كينوك وتعديهم على التجار والقصاد ، وكتب إلى صاحب سيس فى ذلك فلم تفد فيه المكاتبة ، فجرد الأمير حسام الدين العين تابى مقدم العسكر الحلبى إلى كينوك ، فوصل إليها فى ثالث المحرم ، فأخذوا الحوش البرانى ، ودخل الأرمن إلى القلعة ، فقاتلهم المسلمون وملكوها وقتلوا الرجال وسبوا الحريم ، وأغار العسكر على أطراف طرسوس ونهبوا وسبوا .

(١) ورد نفس النسبة من قبل ، والاضافة للإيضاح .

(٢) انظر السلوك (ج ١ ص ٦٠٨ ص ١٠ — ١١) .

وهذه كينوك هى الحدث الحمراء التى بناها سيف الدولة على بن حمدان، ومعنى تسميتها كينوك أى المحترقة. وكان قسطنطين صاحب سيس قد أخذها من ملوك الروم السلجقية وأحرقها. وهى التى يقول فيها المتنبى عند بنائها يمدح سيف الدولة فى قصيدته التى أولها: « على قدر أهل العزم تأتى العزائم »

سل الحدث الحمـراء يعرف لونها ويعـلم أى الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبـل نزوله فلمـا دنا منها سقتها الجمـاجم
بناها علىّ والقنا تقـرع القنـا وموج المنـايا حولهـا متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمـائم

وكان من خبرها: أن سيف الدولة بن حمـدان سار لبنائها، وكان أهلها سلموها بالأمان للدمستق ملك الروم، فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فنزلهـا سيف الدولة فى يوم الأربعاء ثانى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، فخط الأساس من يومه، وحفر أول الأساس بيـده، وأقام حتى كمل بناؤها فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب من السنة.

ذكر إغارة عيسى بن مهنا على الأنبار[1]

وفى سنة اثنتين [وسبعين[2]] وستمائة: رسم السلطان للأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا [أمير العرب[3]] بالإغارة على بلاد العراق، فوصـل إلى الأنبار فوجد بها جمـاعة من التتار، وكان السلطان قـد اختفى أمره[4]، فلما وصل عيسى إلى

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٦١١ س ٨ — ١١).

(٢) ، (٣) الإضافة من السلوك (نفس الموضع).

(٤) المقصود أن أخباره انقطعت عن التتار حتى توهموا أنه هو الذى قدم إليهم بنفسه.

الأنبار توهموا أن السلطان دهمهم ، فعدوا إلى البر الآخر[1] ، واقتتل عيسى وخفاجة ، ودام القتال نصف نهار ، وكانت هذه الإغارة فى ثامن عشر شعبان .

ذكر الإغارة على مرعش[2]

وفى سنة ثلاث وسبعين وستمائة : توجه عسكر حلب صحبة الأمير حسام الدين العين تابى إلى جهة مرعش ، وأغاروا على بلاد سيس ، وحازوا غنائم كثيرة ، وقلعوا أبواب ربض مرعش ، وغرق ربيعة بن الظاهر بن غنام فى نهر هناك .

ذكر غزوة سيس[3]

كان صاحب سيس قد اعتمدوا ما يقتضى فسخ الهدنة التى وقع الإتفاق عليها فى سنة ست وستين عند إطلاق ولده ليفون[4] ، وقطع الهدايا المقررة عليه ، وخالف الشروط من أنه لا يجدد بناء ولا يحصن قلعة ، وصار لا يطالع بخبر صحيح كما تقرر معه ، ثم لم يقتصر على ذلك إلى أن صار يلبس الأرمن السراقوجات ويخيف[5] القوافل ويدعى أنهم من عسكر التتار ، فاقتضى ذلك أخذ كينوك وإخرابها كما ذكرنا ، فتصور[6] صاحب سيس من ذلك . فذكر السلطان لرسوله سوء اعتماده ، وأرسل إليه يعرفه أنه عزم على قصد سيس ، ثم أمر السلطان

(١) زاد السلوك هنا « فانهزموا إلى أينا فرجع إلى بلاده » (جـ ١ ص ٦١١)

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦١٦ ص ٢ — ٣)

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦١٥) .

(٤) فى الأصل « ليون » . وقد أشار المتن إليه باسم « ليفون »

(٥) كذا فى الأصل بغير نقط

(٦) تصور هنا بمعنى توهم وتخيل فى اصطلاح القرن الثامن الهجرى بمعنى توهم وقوع الشر .

فى نفسه قصده ولم يبده لأحد، بل أظهر الحركة إلى الشام، وعرض العساكر فى يوم واحد تحت القلعة، وخرج ثالث شعبان سنة ثلاث وسبعين وستمائة، ووصل إلى دمشق فى سلخ الشهر، وخرج منها فى سابع شهر رمضان بجميع العساكر. ولما وصل إلى حماة خرج الملك المنصور صاحب حماة بعساكره، ثم سار وفى خدمته العساكر والعربان. فجـرد الأمير شرف الدين بن مهنا، والأمـير حسام الدين العين تابى إلى جهة البيرة بصورة جاليش العسكر المنصور فوصلوا إليها. ولما وصل السلطان إلى سرمين رحل منها إلى جهة الدربساك، وأخر الأثقال وبعض العسكر صحبة الأمير شمس الدين سنقر جاه بسرمين، وجرد الأمير عز الدين الأفرم أمـير جاندار، والأمير مبارز الدين الطورى لتمهيد جـوانب النهر الأسـود، فقطعته العساكر بمشقة. ونزل السلطان بين الدربساك و بغراس، وأمر جماعة من مقدمى الألوف أن يتوجه كل منهم إلى جهة، فطلعوا تلك الجبال، وأمر الناس بوقود الشموع فقطعوا تلك الجبال والأوعار والمضايق. وكان السلطان قد حمل ثلاثين مركبا لأجل التعدية، ونزل السلطان داخل باب اسكندرونة خلف السور الذى بناه الملك هيتوم والد ليفون صاحب سيس، ثم رحل إلى قرب المثقب، وملكت العساكر جسر المصيصة وملكوا المصيصة، وغلبت العساكر على ما فيها، وقتلوا من وجدوه بها، وغنم الناس ما لا يحصى كثرة من البقر والجاموس والغنم، وحضر إلى الطاعة جمـاعة كبيرة من التركمـان والعربان بمواشيهم وخيـولهم، فجهزهم السلطان إلى البلاد الإسـلامية، وساق مُطلَباً فى تاسـع وعشرين شهر رمضان، فوصل إلى سيس، فعدل عنها ووصل دَرْبَنْد(١) الروم، ووجد بقايا من حريم

(١) فى الأصل «بند» والتصويب منقول من السلوك (جـ١ ص ٦١٨)

التتار فسبين، وعاد فبات فى تلك الجبال، وعيّد بمدينة سيس، وهى كرسى ملك الأرمن، وبها بستان متملكها ومناظره. فانتهبت مدينة سيس وهدمت وأحرقت وتحصن أهلها بقلعتها. ولما فرغ من إحراق المدينة وهدم قصور التكفور، وعادت الجاليشية بما سبوه من حريم المغول وأولادهم، وسيقت الغنائم، وعاد السلطان ورعت العساكر الزروع. ووصل الأمير جمال الدين المحمدى، والأمير عز الدين الدمياطى إلى طرسوس ووجدوا بها من الخيل والبغال مقدار ثلثمائة رأس فاستاقوها. وتوجه الأمير مبارز الدين الطورى، والأمير عز الدين كرجى إلى قريب البحر وقاتلوا جماعة من العدو، ووجدوا مراكب فى البحر فدخلوا إليها وأخذوها وقتلوا من فيها. ووصل الأمير سيف الدين الزينى إلى قلعة البرزين، ووصل الأمير بدر الدين الأيدمرى إلى أذنة، وغنموا نساء وأطفالا. وأغارت العساكر فى تلك الجبال[1] وقتلوا رجالا كثيرة. ووصل الأمير بدر الدين بيسرى والأمير سيف الدين أيتمش السعدى إلى أياس، وكان خبر العسكر قد وصل إلى من بها من الفرنج فنقلوا أموالهم إلى المراكب فأحرقت العساكر وقتلت جماعة كبيرة فى البر والبحر، وحضر بعد ذلك كتاب والى إسكندرونة يتضمن: أن العساكر لما قصدت أياس ركب جماعة منها من الفرنج والأرمن قريب ألفى نفس هاربين ففرقوا جميعهم، وأخذ الأمير بدر الدين أمير سلاح جشارات خيول. هذا ما يتعلق بغزوة سيس.

وأما العسكر والعربان الذين توجهوا إلى جهة البيرة فوصلوا إلى رأس عين وغنموا غنائم كثيرة، وانهزم من كان فى تلك الجهة من التتار، وعاد العسكر سالما منصورا. ووصل السلطان إلى المصيصة وأحرقت من الجانبين.

---

(١) فى الأصل «من» والتصويب منقول من السلوك (جـ١ ص ٦١٥ س ٦)

ولما تكامل حضور الأمراء بالغنائم وخـروج التركمان والعربان الواصلـين إلى الطاعة من الدربندات، رحل السلطان وعبر على بحيرة بها أغصان ملتفة مثل الغابة وبها جزائر قد تحصن بهـا جماعة من تلك البلاد ونقلوا إليهـا حريمهـم وأموالهم ، فرمى العسكر نفوسهم فيها عـوما بالخيل ، فقتلوا وسبوا . ثم عبروا على تل حمـدون ، وقلعة النقـير فعاثت العساكر فيهما ، وخرج العسكر من الدربندات فشاهدوا الغنائم قد ملأت المروج طولا وعرضا، فوقف السلطان بنفسه وفرق الغنائم وعمّ بها الناس ، وما أخذ لنفسه شيئا منها . ثم سار بعد القسمة فنزل دهلـيزه بحارم .

فقال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر :

يا ملك الأرض الذى عزمه كم عامر للكفر منه خرب
قلبت سيسـا فوقهـا تحتهـا والناس قالوا سيس لا تنقلب

ذكر شيء من أخبار بلاد سيس
وسبب استيلاء الأرمن عليها

المصيصة بناها عبد الملك بن مروان فى أيام أبيه ، فى سنة أربع وثمانـين للهجرة النبوية .

وأما طرسوس فهى من المدن القديمة ، وفيها دفن الخليفة عبد الله المأمون ابن الرشيد كما ذكرنا .

وطرسوس وأذنة وما يليهما تسمى قيليقيا ، وتعرف هـذه البلاد بالدروب والعواصم، وبها كان الغزو والرباط والجهاد والمثاغر، وكانت مضافة إلى مملكة

مصر فى إمارة أحمد بن طولون ومن بعده، حتى استولى الروم عليها كما قدمنا . واستمرت بيد الروم إلى أن استولى عليها مليح بن لاون الأرمنى ، وذلك فى أيام العادل نور الدين الشهيد، بمساعدته ،وهزم [مليح] جيش الروم فقوى عند ذلك البلاد، وكانت هزيمته للروم فى يوم الأحد سلخ شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وأسر من مقدميهم ثلاثين أسيرا ، فأحسن إليه نور الدين وخلع عليه ، وكتب إلى بغداد يعظم أمر الروم ويذكر أن هذا مليح الأرمنى من جملة غلمانه ، وأنه كسر الروم ، ومنّ بذلك على أهل بغداد .

واستمر ملك هذه البلاد فى هذا البيت إلى الآن .

نعود إلى أخبار السلطان الملك الظاهر .

قال: ثم رحل السلطان وخيم بمرج أنطاكية، وانبثت العساكر فى تلك المروج ورعت الأعشاب ، ثم رحل .

ذكر منازلة حصن القصير وفتحه (١)

هذا الحصن مما لم يفتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف ابن أيوب رحمه الله ، وقيل إنه صالح عليه ، وما زال لمن يكون بابا برومية ؛ والبابا خليفة عند الفرنج ينفذ أمره وحكمه فى سائر ملوك الفرنج .

وأمر الحصن راجع إلى بترك (٢) أنطاكية ، والفرنج تميزه وتؤثره . وأهله أهل شره ومنعة وفساد ، وكان مضرة على الفرعة (٣) وتلك الجهات . ولما فتح السلطان

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٦٢٠ س ١٠) .

(٢) ورد فى هذه النسخة لفظ البطرك بالطاء والتاء والكاف والقاف .

(٣) الفرعة « كذا فى الأصل » .

أنطاكية سأل أهل القصير الهدنة والمناصفة، فأجيبوا إلى ذلك كما قدمنا . فما وفوا وأخفوا فى المناصفة . ولما وصل صمغار [مقدم التتار] إلى جهة حارم ضرب أهل القصير البشائر ، ودلوا على الطريق وأمثال ذلك مما يقتضى فسخ الهدنة . وكان السلطان قد رسم للأمير سيف الدين الدوادار بالتردد إلى كليام النائب بالقصير وإظهار مصافاته . واعتمد ذلك وتوجه المذكور إليه فى خامس عشر شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، ومعه جماعة من السلاح دارية بصورة أصحابه ، فوصلوا إلى القصير وأظهر الأمير سيف الدين غضبا كون كليام ما خرج للقائه وقصد الرجوع ، فبلغه ذلك فخرج مسرعا ليسترضيه ويرده . فادركه فامتنع من الرجوع واستدرجه حتى أبعد عن الحصن، ثم قتل من كان معه وأخذ كليام وأحضره إلى السلطان . فكتب إلى أصحابه بالتسليم فما رجعوا إلى كلامه . فجرد السلطان جماعة من أمراء حلب وهم: سيف الدين الصروى[1] وشهاب الدين مروان والى أنطاكية وجماعة من الرجال ، فنازلوا القصير .

وتوجه السلطان إلى دمشق واستصحب كليام معه ، وكان شيخا كبيرا وكان ابنه فى الأسر ، فمات كليام فى الأسر بعد اجتماعه بابنه . ولما اشتد الحصار على القصير وعدموا الأقوات سلموا الحصن المذكور فى يوم الأربعاء ثالث وعشرين جمادى الأولى سنة أربع وسبعين . وحمل أهله إلى الجهات التى قصدوها .

---

(١) راجع ما تقدم ص ٣٣٥ من هذا الجزء .

ذكر وفاة الأبرنس صاحب طرابلس
وما اتفق بعد وفاته (١)

وفى تاسع شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وستمائة : توفى الأبرنس بيمند ابن بيمند صاحب طرابلس . ووصل ملك قبرص ، وهو ابن عم الأبرنس إلى طرابلس لتعزية ولده ، وكان السلطان قد كتب إلى البرنس يقول : « إن اللاذقية ما برحت للمسلمين ، ولما راح صاحب حلب تغلّب أبوك وأخذها ظلما وعتوا ، ونحن لنا فى اللاذقية النصف ، فترك النصف الآخر فإنه من حقوق المسلمين » . فلما سمع الفرنج ذلك قووا البرج ، وخاف المسلمون عاديتهم . فرسم السلطان لركن الدين النائب ببلاطنس بنقل مَنْ باللاذقية من المسلمين إلى البلاد السلطانية . فوصل كتاب نائب البرنس الذى باللاذقية يذكر أنهم ما برحوا فى الطاعة ، وقد عز عليهم خروج من عندهم . ووردت رسل ملك عكا وهو يشفع عند السلطان فى استمرار الصلح ، فترك السلطان الحديث فى اللاذقية . وكان السلطان قد سير عسكرا للحوطة على عرقا ومغل بلادها ، فسير ملك عكا وقبرص يتوسل فى أمرهم ، وسأل إنفاذ من يوثق به لأجل الدعاوى ، ويكون منه إلى نواب السلطان ومن ملك عكا إلى نواب البرنس . فسير الأمير سيف الدين الدوادار فتوجه إلى عرقا . وأقام بها ، فاجتمع عنده نائب بعلبك ، وولاه البر ومشايخ البلاد ومستخدميها ونواب الفرنجية . وكتبت الدعاوى وترددت الرسل . واتفقت وفاة الأمير صارم الدين الظافرى (٢) النائب بحصن الأكراد ، فبقى الفرنج يعتذرون به وأنكروا

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦١٩ س ٨ — ١٠) .

(٢) ترد هذه النسبة بالكاف ولا تتصور إمكان الإنتساب إلى الكفر والأرجح هو الظافرى ، راجع ما تقدم ص ٣٢٧ من هذا الجزء .

الدعاوى، ثم سأل الملك حضور الأمير سيف الدين إلى طرابلس فدخلها فى ثامن المحرم فى تجمل كثير من المماليك السلطانية ومماليكه وأجناده، وتلقاه أبناء الملوك بها، واجتمع بالملك وسلم إليه كتاب السلطان، وتقرر على الفرنج القيام بعشرين ألف دينار صورية وعشرين أسيرا من المسلمين .

ذكر غزوة النوبة[1]

وفى سنة أربع وسبعين وستمائة : كثر تعدى داود متملك النوبة، وحضر إلى قريب أسوان وأحرق سواق . وكان قبل ذلك قد حضر إلى عيذاب ، وفعل الأفعال الشنيعة . وتوجه الأمير علاء الدين الخزندار والى قوص إلى أسوان فلم يدركه وظفر بنائبه الأمير قمر الدين [بقلعة] الدو المسمى صاحب الجبل وجماعة معه ، فجهزهم إلى السلطان فوسطوا . وأمر السلطان بتجريد الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، وصحبتهم جماعة من العسكر ومن أجناد الولايات والعربان بالوجه القبلى . وكان قد حضر ابن أخت ملك النوبة مرمشكد[2] الذى أخذ داود الملك منه . فجهز العسكر المنصور وتوجه [مرمشكد] صحبتهم . فأغار الأمير عز الدين على قلعة الدو وقتل وسبى ، وسار الأمير شمس الدين فى أثره يستأصل[3] شأفة من بقى ، ونزل الأمير شمس الدين بجزيرة ميكائيل وهى رأس جنادل النوبة ، وهى كثيرة الأوعار وفى وسط البحر ، فقتلوا وأسروا . وكان نائب قلعة الدو الذى ولى عوض الموسط

(١) أنظر السلوك (جـ ١ ص ٦٢١ — ٦٢٣) .

(٢) كذا فى الأصل دائما . أما ابن أبى الفضائل فيسميه « شكندة » أما القلقشندى فيسميه « مرقشكنز » . وفى السلوك (الموضع السابق) « مشكد » .

(٣) فى الاصل « يستأثر » .

قد هرب إلى الجزائر، فأعطى أمانا واستمر على نيابته، وحلف لمرمشكد المتوجه صحبة العسكر ما دام على الطاعة . وخاض الأمير عز الدين فى وسط البحر إلى برج فحاصره وأخذه وقتل به مائتين وخمسين نفرا .

ثم ساق العسكر والتقوا الملك داود، وما زال السيف يعمل فيهم حتى أفناهم وما سلم إلا من ألقى نفسه فى البحر، وهرب داود، وأسر أخوه سنكوا[1] . وجُرِّد جماعة من العسكر وساقوا ثلاثة أيام وأمسكوا أم الملك[2] داود وأخته .

وقرروا على الملك مرمشكد المتوجه صحبة العسكر قطيعة فى كل سنة، وعرض على أهل النوبة الإسلام أو القيام بالجزية أو القتل، فاختاروا القيام بالجزية وأن يقوم كل واحد بدينار عينا، وحرقت كنيسة سوس التى كان داود يزعم أنها تحدثه بما يؤديه . وكان داود قد بنى مكانا سماه عيذاب عمره على أكتاف المسلمين [الذين أسرهم من عيذاب وأسوان[3]] وفيه منازل وكنائس، وميدان صوّر فيه قتل المسلمين بعيذاب وأسراهم بأسوان، فمحيت تلك التصاوير منه وخرّب. وتقرر حمل ما هو مخلف عن الملك داود وأقاربه . وكانت إقامة العسكر بدنقلة سبعة عشر يوما حتى تمهدت البلاد واستنقذت أسرى المسلمين المأسورين من أسوان وعيذاب، وألبس مرمشكد التاج على عادة ملوك النوبة، وأجلس بمكان الملك [داود[4]] وحلف اليمين العظيمة عندهم على ما تقرر وهى :

---

(١) كذا فى الأصل بزيادة ألف لا حاجة لها .

(٢) فى الأصل « الولد » والتصحيح منقول عن نص السلوك (ج ١ ص ٦٢٢ ص ٦) .

(٣) الإضافة ضرورية وهى منقولة عن السلوك (ج ١ ص ٦٢٣ س ٤ — ٥) .

(٤) « جماعة وهى منقولة عن السلوك » (ج ١ ص ٦٢٣ س ٧) .

« والله ، والله والله، وحق الثالوث المقدس ، والإنجيل الطاهر ، والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمورية ، والأنبياء المرسلين والحواريين والقديسين، والشهداء الأبرار . وألا : أجحد المسيح كما أجحده بودس[1] ، وأقول فيه مايقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه . وألا : أكون بودس الذى طعن المسيح بالحربة ، أنى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هـذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس ، وأنى أبذل جهـدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وأنى مادمت نائبه لا أقطع ماقـرر علىّ فى كل سـنة تمضى ، وهو مايفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة ، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مُخْلَصاً من كل حـق ، والنصف الآخر أرصـده لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها ، وأن يكون علىّ كل سنة : من الأفيلة ثلاثة ، ومن الزرافات ثلاث ، ومن إناث الفهود خمـس ، ومن الصهب الجياد مائة ، ومن الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة . وإننى أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا ، وأن تفرد بلاد العلى والحيل خاصا للسلطان . وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه سنكوا ولأمه وأقاربه ، ومن قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة ، أحمله إلى الباب العالى مع من يرصد لذلك . وأننى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ، ولا أخفيه ولا أمكن أحدا من إخفائه ، ومتى خرجت عن جميع ماقررته أو شىء من هذا المذكور أعلاه كله كنت بريئا من الله تعالى ، ومن المسيح ، ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دين النصرانية ، وأصلى إلى غير الشرق ، وأكفر بالصليب ، وأعتقد ماتعتقد اليهود »

(١) كذا فى الاصل .

وإنى لا أترك أحدا من العربان ببلاد النوبة ، ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطانى ، ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان فى وقته وساعته ، ولا أنفرد بشىء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة ، وأنى ولىّ من والى السلطان وعدو من عاداه ، والله على مانقول وكيل . »

[ثم هذا عهد آخر صادر من أمير بطاعة مرمشكد وبطاعة بيبرس (١) .]

« وحلّفتُ الرعية أيضا بتلك الجهات بأنهم يطيعون نائب السلطان ، وهو الملك مرمشكد المقيم بدنقلة ، وكل نائب يكون للسلطان أطيعه ولا أرى عليه برأيى ، ولا أخبئ عنه مصلحة ، وكل ما أسمعه من الأخبار الجيدة والردية أطالع نائبه به . ومتى علمت على نائبه الملك مرمشكد أمرا يخالف المصلحة لا أطيعه فيه وأطالع السلطان به فى الوقت والساعة . وأنى لا أدخل فى حكم داود ، ولا أكون معه ، ولا أطالعه بخبر من الأخبار ، ولا أرتضى به ملكاً ، ورضيت بأن أقوم بدينار عينا فى كل سنة خالية على » .

وعاد العسكر وأحضر من النوبة ماذكر ، وهو ماوجد فى كنيسة سوس من الصلبان الذهب وغيرها : أربعة آلاف وستمائة وأربعون دينارا ونصف ، وأوانى فضيات ثمانية آلاف وستمائة وستون دينارا ، والذى أحضر من الرقيق ، سبعمائة رأس .

---

(١) الإضافة ضرورية لتحديد نقطة الفصل بين وثيقتين مختلفتين . الأولى هى نص اليمين الذى حلف به ملك النوبة الجديد ، والثانية هى نص التعهد بالطاعة للملك الجديد .

وقد نشر الدكتور زيادة فى ملاحق السلوك نص الوثيقة الأولى دون الوثيقة الثانية (راجع السلوك ملحق ٥ جـ ١ ص ٩٧٢ — ٩٧٤) .

وأما الملك داود فإنه هرب إلى جهة الأبواب ، فقاتله صاحبها الملك أدر، وقتل ولده ، وأمسكه وسيره إلى السلطان .

ذكر غزوات النوبة فى الإسلام

أول ما غُزيت النوبة فى سنة إحدى وثلاثين للهجرة النبوية، غزاها عبد الله ابن سعد فى خمسة آلاف فارس ، وأصيب فى ذلك اليوم معاوية بن حديج فى عينه ، وأصيب أبرهة الصباح فى عينه ، وكانوا يسمون النوبة : رماة الحدق . وهادنهم عبد الله بن سعد بعد أن وصل دنقلة .

وفى ذلك يقول الشاعر :

لم تر عينى مثـل يوم دنقـلة ... والخيل تعدو بالدروع مثقلة
ترى الحمـاة حولهـا مُجَـدَّلة ... كأن أرواح الجميـع مهمـلة

وقال يزيد بن أبى حبيب : « ليست الموادعة بين أهل مصر والنوبة موادعة هدنة ، وإنمـا هى هدنة أمان ، نعطيهم شيئا من قمح وعدس ، ويعطوننا رقيقا ، ولا بأس بمـا يشترى من رقيقهم » .

وكان البقط المرتب على النوبة وهو الرسم على ما قرر :

فى كل سـنة أربعمائة رأس من الرقيق ، وزرافة واحدة . لأمـير المؤمنين ثلاثمـائة وستون رأسا ، وللنائب بمصر أربعون رأسا .

ويطلق لرسله ، إذا وصلوا بالبقط تاما ، ألف وثلثمائة أردب قمح ، لرسـله منها ثلثمائة .

وقال البلاذرى فى كتاب الفتوحات : « إن المقرر على النوبة أربعمائة رأس ، يأخذون بها طعاما ، أى غلة » .

وألزمهم المهدى العباسى بثلاثمائة وستين رأسا وزرافة .

ثم غُزيت فى زمن هشام بن عبد الملك بن مروان ، ولم تفتح وإنما كان قتال ونهب وسبى .

وغزاها يزيد بن أبى حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، على يد عبد الأعلى بن حميد . وغزاها أبو منصور تكين التركى هى وبرقة فى عام واحد ، ولم تفتح النوبة .

ثم غزاها كافور الإخشيدى ، وكان أكثر جيشه السودان .

فقال الشاعر :

ولما غزا كافور دنقلة غدا بجيش لطول الأرض من مثله عرض
غزا الأسود السودان فى رونق الضحى فلما التقى الجمعان أظلمت الأرض

ثم غزاها ناصر الدولة بن حمدان ، فكبسه السودان ، ونُهب جيشه ، وأخذت أثقاله ، وذلك فى سنة تسع وخمسين وأربعمائة فى أيام المستنصر العبيدى .

ثم غزاها بعد ذلك شمس الدولة توران بن أيوب أخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف فى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، ولم يصل إلا إلى أبريم .

وكل هذه غزوات ، وإنما الفتح هذا .

ذكر غزوة الروم وقتل التتار[1]

قد ذكرنا فى أخبار السلطان فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، طاعة أمراء الروم ووصولهم إلى خدمة السلطان ، وإكرامه لهم وإحسانه إليهم وما عاملهم به . ولما وصل السلطان إلى الديار المصرية فى رابع عشر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة ، أقام بها إلى شهر رمضان منها ثم عزم على السفر . وجهز من وصل إليه من أمراء الروم بالخيول والخيام وغير ذلك ، وتوجه من قلعة الجبل المحروسة ، بعساكر الديار المصرية فى يوم الخميس العشرين من شهر رمضان من السنة . ورتب الأمير شمس الدين آقسنقر أستاد الدار فى النيابة عنه بقلعة الجبل[2] والصاحب بهاء الدين وجعلهما فى خدمة ولده الملك السعيد . واستصحب معه الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين وجعله وزير الصحبة ، وهى أول سفرة سافرها صحبته ، واستصحب أكثر كتاب الإنشاء ، وفوض فى هذا اليوم نظر الجيوش للقاضى عز الدين إبراهيم بن الوزير الأعز فخر الدين مقدام بن شكر ، والشهادة به للقاضى شمس الدين الأرمنتى ، واستصحبهما صحبته .

ثم رحل يوم السبت ثانى عشرين الشهر وصحبته أمراء الروم ، وسار فما مر بمملكة إلا استصحب عسكرها وخزائنها وأسلحتها ، وكان وصوله إلى دمشق فى يوم الأربعاء سابع عشر شوال ، وخرج منها متوجها إلى حلب فى يوم السبت العشرين من الشهر ، وكان وصوله إلى حلب فى يوم الأربعاء مستهل ذى القعدة ،

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٢٧ وما بعدها) .

(٢) يسميه صاحب السلوك نائب الغيبة بقلعة الجبل .

وخرج منها فى يوم الخميس ثانى الشهر إلى حيلان فترك بها بعض الثقل ، وتقدم إلى الأمير نور الدين على بن مجلى[1] نائب السلطنة بحلب أن يتوجه إلى الساجور ، ويقيم على الفرات بمن معه من عسكر حلب ، لحفظ معابر الفرات ، خشية أن يعبر منها أحد من التتار إلى الشام . ووصل إلى الأمير نور الدين ، الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا .

ولما اتصل خبر نزول هذا الجيش بالتتار المقدمين بالعراق جهزوا إليهم جماعة من عرب خفاجة لينالوا من العسكر غِرَّةً ، فاتصل خبرهم بالأمير نور الدين [نائب حلب وهو على الفرات[2]] فركب إليهم وقاتلهم وهزمهم ، وأخذ منهم ألفا ومائتى[3] جمل . ورحل السلطان من حيلان يوم الجمعة ثالث الشهر إلى عين تاب ، ثم إلى دلوك ، ثم إلى مرج الديباج ثم إلى كينوك ، ثم رحل منها إلى كراصو[4] ، ثم إلى اقجا دربند ، فوصله يوم الثلاثاء سابع الشهر فقطعه فى نصف نهار ، وبات فى وطاة هناك . وقدم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فى جماعة من العسكر جاليشا ، فوقع على ثلاثة الآف فارس من التتار مقدمهم كراى ، فهزمهم وأسر منهم وقتل ، وذلك فى يوم الخميس تاسع الشهر . ثم ورد الخبر على السلطان أن عسكر المغل ومقدمهم تتاون[5] وعسكر الروم ومقدمهم [معين الدين] البرواناه قد قربوا من العسكر ، فرتب السلطان عساكره وطلعت العساكر على

(١) كذا فى الأصل وفى السلوك « ابن محلى » بالحاء المهملة .

(٢) الإضافة عن السلوك (جـ ١ ص ٦٢٨ س ١٠) .

(٣) فى الأصل ألف بالرفع وحقه النصب .

(٤) فى الأصل « كل صو » والتصحيح يعتمد على السياق وعلى تحديد خط السير .

(٥) كذا فى الأصل وفى السلوك « تتاورن » براوين .

جبال مشرفة على صحراء موتى[1] من بلد أبلستين، وكان العدو فى تلك الليلة قد بات على نهر جهان[2]، وهو نهر جيحان ، فأقبل المسلمون من علو الجبل ، وترتبت المغل أحد عشر طلبا ، كل طلب منها يزيد على ألف ، وعزلوا عسكر الروم عنهم ، وجعلوه طلبا بمفرده [لئلا يكون مخامرا عليهم[3]] .

وكان أبغا بن هولاكو قد انتخب هذا الجيش من عسكره، وكان فيه جماعة من أكابر مقدمى المغل . فوقف السلطان وتقدم إليهم جماعة من مماليكه وخواصه ، فأخلدت فرقة منهم إلى الأرض وقاتلوا قتالا شديدا ، وحملت فرقة[4] منهم من ميسرتهم واستدارت خلف الصناجق السلطانية ، فحمل السلطان عليهم، فانجلت الحرب عن قتل التتار ، وكان من بقى منهم كما قيل :

فلزهم الطراد إلى قتال أحد سلاحهم فيه القذاره

وكانت وقعة عظيمة مشهورة فتهت فيها المغل .

واستشهد من المسلمين فى هذا اليوم شرف الدين قيران[5] العلائى أحد مقدمى الحلقة ، وعز الدين أخو المحمدى .

---

(١) كذا فى الأصل بنقطة واحدة وفى السلوك بنقطتين (موتى) وعند ابن أبى الفضائل صحراء البلستين (حاشية السلوك جـ ١ ص ٦٢٨ حاشية ٦) .

(٢) وعن حاشية السلوك (جـ ١ ص ٦٣٢ حاشية ١) أن التتار بايتوا ليلتهم على نهر زيان وهو أصل نهر جهان وأن هذا النهر يسمى أيضا جيحان .

(٣) الإضافة ضرورية للتعليل وهى منقولة عن السلوك (جـ ١ ص ٦٢٨ س ١٦) ج

(٤) الضمير يعود على المغول .

(٥) كذا فى الأصل قيران بالياء وبغير الياء فى «س» (انظر السلوك جـ ١ ص ٦٢٩ س ١٢) ج

ونزل السلطان فى المنزلة التى كان العدو نازلا بها ، وأحضرت بين يديه الأسارى من المغل ، فاستبقى السلطان بعض أكابرهم وقتل من بقى منهم ، وأسر جماعة من أكابر أمراء الروم ، ووصل جماعة منهم إلى الخدمة . وكان ممن أسر ووصل من الروم بكلاء[1] بن البرواناه ومعه ولد أخته ، وولد خواجا يونس ، والأمير نور الدين بن جاجا ، والأمير قطب الدين أخو الأتابك ، والأمير سراج الدين جاجا ، وسيف الدين سنقر جاه الزوباشى ، ونصرة الدين صاحب سيواس ، والأمير كمال الدين ، عارض الجيش بالروم ، وحسام الدين بركاول ، قريب البرواناه ، وسيف الدين بن عليشير التركمانى ، والأمير سيف الدين جاليش النائب بالروم ، وهو أمير داد ، ومعناه أمير العدل ، وظهير الدين فتوح[2] مشرف الممالك ، ومرتبته دون الوزارة ، والأمير نظام الدين أوحد بن الأمير شرف الدين بن الخطير وإخوته ، وقاضى القضاة حسام الدين قاضى الروم ، ومظفر الدين بن جحاف ، وأولاد الأمير صارم الدين بن الخطير ، وجماعة من أصحابهم ، وسيف الدين بكتكنا[3] الجاشنكير ، ونور الدين المنجنيقى ، وأولاد رشيد الدين صاحب ملطية[4] كمال الدين وإخوته ، وأمير على صاحب كركر ، وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم وأولادهم ، وأما البرواناه فإنه هرب .

---

(١) كذا فى الأصل ، وراجع عن البرواناه وابنه وغيرهم من أمراء الروم : السلوك (ج ١ ص ٦٢٩) .

(٢) الفاء هنا تقترب من الميم فى الشكل .

(٣) كذا فى الأصل وفى السلوك « سيف الدين قفجاق الجاشنكير » وفى النهج السديد لابن أبى الفضائل « سيف الدين قليج الجاشنكير » (انظر السلوك ج ١ ص ٦٢٩ ص ١٢) .

(٤) فى الأصل « ما طية » .

قال القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى السيرة الظاهرية : وأما البرواناه فأنه شمر الذيل وامتطى هريا أشهب الصبح وأحمر الشفق وأصفر الأصيل وأدهم الليل ، ودخل قيسارية فى وقت السحر من يوم الأحد ثانى عشر الشهر ، فأفهم سلطانها غياث الدين [كيكاوس بن كيخسرو[1]] والصاحب فخر الدين وزيرها ، والأتابك مجد الدين والأمير جلال الدين المستوفى ، والأمير بدر الدين ميكائيل النائب ، والطغرائى وهو ولد أخى البرواناه : أن جيش الإسلام كسر بعض المغل ، وأن بقية المغل انهزموا ، ويخشى أن يدخل المغل قيسارية ويقتلون من بها حنقا على الإسلام ، فأخذهم وأخذ زوجته بنت غياث الدين صاحب أرزن الروم ، وتوجهوا كلهم إلى توقات . ولهذه كرجى خاتون [امرأة البرواناه] أربعمائة جارية استصحبتهن معها . وكانت أم هذه كرجى خاتون ملكة الكرج . وتوقات مكان حصين مسيرة أربعة أيام من قيسارية .

وجرّد السلطانُ الأميرَ شمس الدين سنقر الأشقر بجماعة لإدراك من انهزم من المغل ، والتوجه أمامه إلى قيسارية ، وكتب بتأمين أهلها . فمر بفرقة من التتار معهم البيوت ، فأخذ عنهم جانبا . وحال بينهم الليل ، فمر كل منهم فى جهة .

ورحل السلطان يوم السبت حادى عشر الشهر من مكان المعركة ونزل قريبا من قرية رمّان ، وهى قريب الكهف والرقيم حقيقةً كما نقل ، لا ما يقال إن الكهف والرقيم من عمل بيسان[2] والبلقاء .

---

(١) الإضافة للإيضاح من السلوك (جـ ١ ص ٦٢٩) .

(٢) فى الأصل حسبان .

وقرية رمّان هذه بيوتها مبنية حول سن جبل قائم كالهرم ويطوف بها جبال كأنها أسوار ، ويخرج منها أنهار عليها قناطر لا تسع غير راكب .

واشتدت الأمطار ، ثم سار بكرة النهار إلى الليل ، ونزل بوطأة من أعمال صاروس العتيق ، وبقربها معدن الفضة . فأتى السلطان مُخبر أن التتار فى فجوة هناك فركب بالعساكر فعاقته كثرة الأمطار فعاد وبات بتلك المنزلة . وأصبح فسلك جبالا وعرة ، ومر على قرية أوترال[1] ومنها إلى خان قريب من حصن سمندو ، وكان السلطان قد سير كتابا إلى نائبها ، فقبله وأذعن إلى النزول عنها إن أمره السلطان ، فشكره وأحسن إليه ، وكذلك متولى قلعة درندا ، ووالى دوالوا ، أجابوا كلهم إلى الطاعة . ثم نزل السلطان قرية قريبة من قيسارية شرقى جبل عسيب ، وركب يوم الأربعاء ، نصف ذى القعدة سنة خمس وسبعين وستمائة ، والعساكر فى خدمته ، وخرج أهل قيسارية ، العلماء والأكابر وغيرهم حتى النساء والأطفال فتلقوا السلطان ، وكان دهايز صاحب الروم وخيامه قد نصبت فى وطأة كينجسرو قريبا من المناظر التى لملوك الروم ، فنزل السلطان به ، وارتفعت أصوات العالم بالتهليل والتكبير ، وضربت به نوبة آل سلجق على العادة ، وحضر أصحاب الملاهى فَرُدّوا ، واعتمد السلطان على الأمير سيف الدين جاليش فى النيابة ، وكان أولاد قرمان [أمراء التركمان[2]] قد رهنوا أخاهم الصغير على بك بالروم ، فخرج إلى السلطان فأكرمه ، وطلب منه تواقيع وصناجق له ولأخوته فأعطاه وتوجه ، وكتب السلطان إليهم فى الحضور إلى خدمته ، وأكد فى ذلك .

---

(١) كذا فى الأصل ، ومن الممكن قراءة أوتراك .

(٢) الإضافة للتعريف وهى منقولة عن السلوك (جـ ١ ص ٦٣٠ س ١٣) وأمير التركمان يومئذ هو الأمير شمس الدين محمد بن قرمان (جـ ١ ص ٦٣٣ س ٣ — ٤) .

فكان من خبرهم فى الوصول إلى بلاد الروم بعد رحيل السلطان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

قال : ثم ركب السلطان فى يوم الجمعة سابع عشر الشهر ، وعلى رأســه جتر بنى سلجق ودخل قيسارية . وكانت دار السلطنة قد هيئت لنزوله ، وتخت آل سلجق قد نصب لحلوله ، فجلس فى مرتبة السلطنة بكرة النهار ، وحضر القضاة والفقهاء والوعاظ والقــراء والصوفية وأعيان قيسارية ، وذوو المراتب على العادة السلجقية فى أيام الجمع ، ووقف له أمير المحفل — وهو عندهم ذو حرمة ومكانه ، وعليه أكبر ثوب وأكبر عمامة — فرتب المحفل ، وقرأ القراء ، ثم أنشد أمير المحفل بالعربية والعجمية مدائح فى السلطان . ومد السماط ، فأكل من حضر وانصرفوا . وتهيأ السلطان لصلاة الجمعة وحضر إلى الجامع وصلى ، وخطب الخطباء فى جوامع قيسارية باسمــه ، وهى سبعة[1] جوامع . ثم عاد إلى دار السلطنة وأحضر بين يديه دراهم عليها السكة الظاهرية .

وظهر لمعين الدين سليمان الــبرواناه ولزوجته كرجى خاتون مــوجود عظيم[2] ، فحمل إلى السلطان وكذلك موجود من تزح ؛ ففرق أكثره على أمرائه .

وحكى الصاحب عز الدين بن شداد فى السيرة الظاهرية قال : حكى لى من أثــق به أن البرواناه بعث إلى السلطان لمــا دخل قيسارية يهنئه بالجــلوس على التخت ، فكتب إليه يأمره بالوفود عليه ليوليه ، فكتب إليــه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوما ، وكان مراده أن يصل إلى أبغــا ويحثه على المســير [بنفسه]

(١) فى الأصل « سبع » .

(٢) فى الأصل « موجودا عظيما » بالنصب وحقه الرفع .

والسلطان بالبلاد ، فلم يدر ذلك فى حدس السلطان . فاجتمع تتاون[1] بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر وعرفه قصد البرواناه فى طلبه الانتظار ، وأن مقصده أن السلطان يتربص حتى يدركه أبغا فى البلاد ، فكان ذلك سبب رحيل السلطان عن قيسارية .

ذكر رحيل السلطان عن قيسارية وهرب عز الدين أيبك الشيخى ولحاقه بأبغا وعود السلطان إلى ممالكه

كان رحيل السلطان من قيسارية فى يوم الاثنين العشرين من ذى القعدة ، وقيل فى الثانى والعشرين منه ، لقلة الأقوات ، وقيل للسبب الذى تقدم ذكره ، وجعل على يزكه الأمير عز الدين أيبك الشيخى ، وكان السلطان قد ضربه لسبقه الناس وتقدمه ، فحقد ذلك ، وتسحب يومئذ والتحق بأبغا بن هولاكو .

ونزل السلطان بقيرلو[2] فورد عليه فيها رسول البرواناه ، ومعه رجل آخر اسمه ظهير الدين الترجمان ، وهو يستوقف السلطان عن الحركة ، وما كانوا علموا بقصد السلطان فى مسيره إلى أية جهة ، وكان الخبر قد شاع أن حركة السلطان إلى سيواس . فأجاب السلطان البرواناه : « أن كتبك وكتب غيرك كانت تأتينى واشترطتم شروطا لم تفوا بها ولا وقفتم عندها ، وقد عرفت الروم وطريقه ، وما كان جلوسنا على التخت رغبة فيه إلا لنعلمكم أنه لا عائق لنا عن شىء نريده بحول الله وقوته ، ويكفينا أخذنا أمك وابنك وابن بنتك وما منحناه من النصر الوجيز ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . »

---

(١) مر من قبل هذا الاسم راجع ما تقدم ص ٣٥١ من هذا الجزء .

(٢) كذا فى الأصل « قيرلو » .

ثم رحل ، ونزل خان كيقباد، فلما نزل به بعث الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى إلى قرية رمانة فحرقها ، وقتـل من كان بها من الأرمن وسبى حريمهم ، لأنهم كانوا قد أخفوا جماعة من المغل .

ولمـا رحل السلطان من منزلة روزان كودلوا مرّ فى وطأة خلف حصن سمندو من طريق غير الطريق الذى كان توجه عليها إلى قيسارية ، ويعرف هذا المكان بقزل صـو ، ومعناه النهر الأحمر ، وهـو بعيد المستقى ، كثير الزلق والوحل ، فوقف السلطان وجرد سيفه حتى بسطت جـملة من اللبابيد الحمـر تحت حوافر الخيـل واخفاف الجمال ، ووقف راجلاً حتى عـبر الناس أولا فأولا ، ثم ركب وعبر ونزل فى واد فيـه مرعى ، ثم رحل إلى صحراء فراحا بالقرب من بازار يلوا ، وهذا البازار هـو الذى كانت الخلائق تجتمع إليـه من أقطار الأرض ، ويباع فيه كل شىء يجلب من الأقالـيم .

ثم رحل يوم السبت وسار إلى وطأة أبلستين ومر بمكان المعركه لمشاهـدة رمم التتار ، وحضر جماعة من أهل أبلستين ، وسئلوا عن قتلى التتار ، فقال رجل منهـم : « عددت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين من المغل خاصة فى المعركة غير من قتل خارجها » . ولمـا بلغ السلطان أقجا درنبد بعث الأثقال والخزائن والصناجق صحبة الأمـير بدر الدين بيليك الخزندار ليعبر بها الدربند ، وتأخر السلطان ساقـة العسكر يوم الأحد ، ورحل يوم الاثنين فدخل الدربند ، وحصل للناس مشقة ، ولمـا خرجوا منـه قطعوا النهر الأزرق ، وبات .

ثم رحل السلطان فـنزل قريبا من كينوك ، ثم نزل يوم الثلاثاء سادس ذى الحجة قريبا من حارم ، ونزل بعساكره هناك وعيّد عيد الأضحى ، ووصلت إليه رسل

الأمير شمس الدين محمد بن قرمان أمير التركمان وكتبه بما اعتمده بالروم بعد عود السلطان ، وأنه حضر فى عشرين ألف فارس من التركمان وثلاثين ألف راجل متركشة إلى خدمة السلطان فلم يدركه .

ذكر ما اعتمده الأمير شمس الدين محمد بك بن قرمان أمير التركمان فى البلاد الرومية (١)

كان الأمير شمس الدين المذكور قد باين التتار ونابذهم ، وخرج عن طاعتهم وطاعة الروم ، وانحاز إلى السواحل . فلما بلغه خبر كسرة التتار ووصول السلطان إلى قيسارية جمع جموعا كثيرة من التركمان وقصد أقصرا ، فلم ينل منها طائلا فرحل عنها وقصد قونية فى ثلاثة آلاف فارس ونازلها ، فغلق أهلها أبوابها فى وجهه ، فرفع على رأسه صناجق السلطان التى سيرها مع أخيه على بك ، وبعث إليهم يعرفهم أن السلطان الملك الظاهر كسر التتار ودخل قيسارية وملكها ، فقال أهل البلد : « أما الأبواب فنحن لا نفتحها ، ولكن أحرقوها وأدخلوا فنحن لا نمنعكم » ، فأحرقوا باب الفاخرانى ، وباب سوق الخيل ودخلوا قونية يوم عرفة ، وهو يوم الخميس . وكان النائب بها إذ ذاك أمين الدين ميخائيل . فقصد من معه داره ودار غيره من الأمراء ، والأسواق والخانات فنهبوها ، ثم ظفروا بأمين الدين ، فأخرجوه إلى ظاهر البلد وعذبوه إلى أن استأصلوا ماله ثم قتلوه وعلقوا رأسه داخل البلد ، وامتنع أهل البلد من تسليمها ، فاعملوا الحيلة ، ورتبوا رجلا على أن يتوجه إلى قمين من أقمنة حمام عينوه له ، فإذا رأى هناك شابا رمى نفسه عليه وقبّل رجليه ، فإذا قال له الشاب : « من أين تعرفنى ؟ » ، فيقول :

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٣٠ حاشية ٥) .

« ما أنت عـلاء الدين كيخسروا بن السلطان عز الدين كيقباذ ؟ أنسيت تربيتى لك وحمـلك على كتفى ؟ » . وليكن ذلك بمشهد من العامة ، فلمـا فعل ذلك وسمعت العامة مادار بين الرجل والشاب ازدحموا عليه ، و إذا جماعة من التركمان كان قد رتب معهم أنهم إذا رأوا العامة قد أحدقوابه فيأخذونه[1] من بين أيديهم ويحملونه إلى الأمير شمس الدين محمـد بك ، ففعلوا ذلك ، فلما رآه أقبل عليـه وضمه إليـه ، وعقد له لواء السلطنة وحمل الصناجق على رأسه ، وذلك فى الرابع عشرين ذى الحجة ، فلما رأى أهـل قونية ما فعلوه حملتهم المحبة فى آل سلجوق على متابعتهـم ، ثم نازلوا القلعـة ، فامتنـع من فيها من تسليمها ، فحاصروها ، ثم تقرر بينهم الصلح على تسليمها و يعطى من فيها سبعون ألف درهم[2] ، فدخلوها وأجلسوا عـلاء الدين فيها على تخت الملك ، ثم بلغ ابن قرمان والتركمان أن تاج الدين محمدا ، ونصرة الدين محمود ، ابنا الصاحب فخر الدين خواجا على ، قد حشدا وقصداهم ، فسار [ابن قرمان] إليهما وعلاءالدين معه ، فالتقوا على آمد شهر ، فكسرها وقتلهما ، وقتل خواجا سعد الدين يونس بن سعد الدين المستوفى صاحب أنطاكية ، وهو خال معين الدين البرواناه ، وقتـلوا جلال الدين خسرو بك بن شمس الدين يوناس بكلارتكسى[3] ، وأخذوا رءوسهم وعادوا بهم إلى قونية فى آخر ذى الحجة . واستمروا بقونية إلى أن دخلوا[4] سـنة ست وسبعين وستمائة ، فبلغهم

---

(١) فى الأصل « فيأخذره » ق

(٢) يتوقف تحديد المعنى فى هذه الجملة على أعراب العدد ، والراجح أن الذين استسلموا هم الذين دفعوا المبلغ وتكون القراءة المطلوبة فى هذه الحالة « سبعين ألف درهم » .

(٣) كذا فى الأصل بغير نقط .

(٤) كذا فى الأصل .

أن أبغا وصل بعد خروج الملك الظاهر من الروم إلى مكان الوقعة ، فرحلوا عن قونية إلى جبالهم . وكانت مدة مقامهم بقونية سبعة وثلاثين يوما .

ذكر وصول أبغا إلى بلاد الروم ومشاهدته مكان[1] الوقعة وما فعله بأهل الروم من القتل والنهب

كان البرواناه معين الدين لما تمت الهزيمة على التتار وعليه ، قد كتب إلى أبغا يستنصر به و يستحثه على الوصول إلى بلاد الروم ، فتوجه أبغا إلى الروم ، ولما شارف البلاد خرج إليه البرواناه بمن معه ، وتوجه فى خدمته بالعساكر إلى أن وصل إلى البلستين ، ووقف على موضع المعركة ، فتأسف على المغل و بكى ، ثم قصد منزلة السلطان الملك الظاهر ، فقاسها بعصا الدبوس فعلم عدة من كان نازلا بها من العساكر وأنكر على البرواناه كونه لم يُعرفه جلية حال العسكر ، فاعتذر بأنه[2] ما علم بذلك ، وأن العسكر حضر بغتة ، فلم يقبل عذره . وكان الأمير عز الدين أيبك الشيخ فى خدمة أبغا ، فقال له : « أرنى مكان الميمنة والقلب والميسرة » فأقام[3] له فى كل منزلة رمحا ، فلما رأى بعد ما بين الرماح قال : « ما هذا العسكر الذى حضر معى يكفى هؤلاء » ، وكان فى خدمته من عسكره ثلاثون[4] ألف ، وكان قد سيرهم إلى الشام فأعادهم من كينوك ، وتوجه إلى قيسارية وسأل أهلها فقال : « هل كان مع صاحب مصر جمال ؟ » ، فقالوا : « لم يكن معه

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٢٣) .

(٢) فى الأصل « أنه » .

(٣) فى الأصل « فقام » .

(٤) فى الأصل « ثلاثين » .

إلا خيل و بغال » ، فقال : « هل نهب منكم شيئا ؟ » ، قالوا : « لا ، إلا مشترى بالذهب » ، فقال : « منذكم فارقكم ؟ » قالوا : « منذ خمسة وعشرين يوما » ، فقال : « هم الآن عند جمالهم[1] » . ثم عزم على قتل من بقيسارية من المسلمين ، فاجتمع إليـه القضاة والفقهاء ، وقالوا : « هؤلاء رعية ولا طاقة لهم بدفع عسكر إذا نزل عليهم ، وهم مع الزمان عبيد من ملك » ، فـلم يرجع إلى ذلك ، وأمر بقتل جماعة من أهل البلد ، وقتل قاضى القضاة جلال الدين حبيب ، وأمر عسكره أن يبسط فى المملكة الروميـة ، فقتل من الرعايا ما يزيد على مائتى ألف ، وقيل بلغت عدة من قتل من الرعايا والفلاحين وغيرهم خمسمائة الف من قيسارية إلى أرزن الروم [ولم يقتل أحدا من النصارى[2]] ، ثم عاد أبغا إلى الأردو ، وكان من خبر قتل البرواناه معين الدين ما قدمناه .

نعود إلى سياقة أخبار السلطان الملك الظاهر

قد قدمنا أن السلطان نزل بالقرب من حارم ، وعيّد عيد الأضحى هناك ، وحضر إلى خدمته أمراء بنى كلاب ، ثم نزل السلطان بالقرب من أنطاكية فى مروجها ورحل إلى دمشق ، فكان دخوله إليها فى خامس المحرم سنة ست وسبعين وستمائة وقيـل فى سابعه .

قال المؤرخ : كان السلطان لمـا توجه إلى الروم كلف أهل دمشق جباية مال بسبب إقامة الخيـل[3] ، فحضر إليـه الشيخ محيي الدين النواوى وكلمه فى ذلك

(١) كذا فى الأصل .

(٢) الإضافة ضرورية للفهم وهى منقولة عن السلوك (جـ ١ ص ٦٣٣ س ١٢) .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٤٠ س ٧ ، ٨) .

بكلام خشن، فلاطفه السلطان، وقال له : « يا سيدى : مد يدك أعاهدك أنى متى كسرت العدو فى هذه السفرة أبطل الجباية و يكون خاطرك معى » ، فعاهده على ذلك . فلما فتح البلاد وكتب إلى الشام بالبشارة ، كتب إلى الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعى ، شاد الدواوين بدمشق ، كتابا مضمونه : أنه لا يحل ركابا إلا وقد استخرجت من أهل دمشق مائتى ألف درهم، ومن برّها ثلثمائة ألف درهم ، ومن قراها ثلثمائة ألف درهم ، ومن البلاد القبليه تكملة ألف ألف درهم ، فتبدّل فرح أهل الشام لذلك حزنا ، وتمنوا زوال الدولة ، فما كملت خباية نصف المال حتى مات السلطان .

واستهلت سنة ست وسبعين وستمائة

ذكر وفاة السلطان الملك الظاهر

ركن الدين بيبرس الصالحى رحمه الله تعالى

قال القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى السيرة الظاهرية : ودخل السلطان دمشق فى خامس المحرم وقد رنّح النصر أعطافه (١) ، وروى من دماء الأعداء أسيافه ، وقدامه مقدمو التتار قد ركبوا وهم فى القيود عوض شهب الجياد، وبعد أن كانوا مقترنين صاروا مقرنين فى الأصفاد، ونزل بقصره فى الميدان الأخضر ، معتقدا أن الدنيا فى يده قد حصلت ، والبلاد التى حلها ركابه عنه انفصلت ، وأن سعده استخلص له الأيام وأصفاها ، والممالك شرقا وغربا لو لم يكن بها غيره لكفاها ، وإذا بالمنية قد أنشبت أظفارها ، والأمنية وقد وضعت حوبها [و] (٢) أوزارها ، والعافية وقد شمّرت الذيل ، والصحة وقد قالت لطبيبه : « أهلك والليل » ، ورماح الخط وقد قالت لأقلام الخط : « أصبت فى لبس الحداد من المداد » ، والقلوب وقد قالت عند شق الجيوب : « نحن أحق منك بهذا المراد » ، والحصون وقد قالت لقصره الأبلق : « ما كان بناؤك على هذه الصورة إلا فألا (٣) بما تسود الجدران به عند الفجائع من السواد » .

---

(١) فى الأصل « رنح النصر أعطافه وتصحيحه يستند على المحفوظ المأثور .

(٢) الإضافة يحتمها المعنى .

(٣) رسم الناسخ الفاء أقرب ما تكون إلى الميم وقد مر مثل ذلك .

قال : وكان ابتداء مرضه الذى اعتل به الوجود ، وتباشرت به الأكفان والخدود : ليلة السبت خامس عشر المحرم. فإنه ركب وقت العصر من يوم الجمعة رابع عشرة وكأنه مودع لأخدانه ورؤية موكبه وركوب حصانه ، ونزل والتاث جسمه بعض التياث ، وأصبح وليس عنده ذلك الانبعاث. فلما انقضت مـدة أجله ، وانطوت صحيفة عمله ، قبض الله روحه الزكية ، ورجعت إلى ربها راضية مرضية ، وذلك بعد الزوال من يوم الخميس سابع عشرين المحرم سنة ست وسبعين وستمائة .

وكأن نفوس العالم كانت نفسا ، وأنزل الله السكينة فلا تسمع إلا همسا ، واستصحبت مهابته السكون وخادعت العقول حتى أن ما كان[1] من وفاته كاد كل يحلف أنه ما يكون .

وحمل فى محفة إلى قلعة دمشق فى تلك الليـلة ، وسكنت الشفاة والألسنة ، وتناومت العقول من غير نوم ولا سنة . وجُعل فى بعض القاعات بالقلعة على سرير يوماً إليه بالترحم والسلام ، ولا يزوره غير الملائكة الكرام .

قال المـؤرخ : وتولى غسله وتحنيطه وتصبيره وتكفينه المهتار شجاع الدين عنبر ، والفقيه كمال الدين الإسكندرى المعروف بابن المنبجى ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار ، ثم جعل فى تابوت وعلق فى بيت من بيوت قاعة البحرة بقلعة دمشق . وكانت مدة مرضه ، رحمه الله تعالى ، ثلاثة عشر يوما ، وهى مدة مرض الشهيد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، رحمـه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « ما كانت » .

وأول ما فتحه السلطان بنفسه : فيسارية الساحل ، وآخر ما فتحه فيسارية الروم ، واستمر بقلعة دمشق إلى أن ابتاع ولده السلطان الملك السعيد دار العقيقى بدمشق بستين ألف درهم ، وحصل الشروع فى عمارتها ووضع الأساس فى يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة من السنة . وكانت النفقة على العمارة من ريع أملاكه . وحمل إليها ليلة الرغائب الخامس من شهر رجب سنة ست وسبعين وستمائة ، [و] بعد أن صلى عليه فى صحن جامع دمشق ليلا ، أدخل من باب البريد وخرجوا به من باب النطاقين إلى تربته وتولى حمله الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام والأمير عز الدين الداودار والطواشى صفى الدين جوهر الهندى ، وألحده القاضى عز الدين الشافعى .

ولما تمت له سنة من يوم وفاته عملت له الأعزية بالقرافتين[1] ، ومدت الأسمطة للقراء والفقراء وفرقت على الزوايا ، وحضر الناس على اختلاف طبقاتهم . وقرئ له عدة ختمات ، وعمل له بعد ذلك عدة أعزية بمدرسة الشافعى ، والجامع الطولونى ، والجامع الظاهرى ، والمدارس الظاهرية ، والصالحية ، ودار الحديث الكاملية ، والخانقاه الصلاحية ، والجامع الحاكمى ، وعمل للتكارزة[2] خوان حضره جماعة من الفقراء والصالحين .

مدة حكمه

وكانت مدة ملكه ، رحمه الله تعالى ، سبع[3] عشرة سنة وشهرين واثنى عشرة يوما .

---

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٤٨ — ٦٤٩) .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل : سبعة عشر سنة .

وكان له من الأولاد : السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد قاءان بركه ، وأمه ابنة الأمـير حسام الدين بركه خان بن دولة خان الخـوارزمى[1] ، والملك المسعود نجـم الدين الخضر ، والملك العادل بدر الدين سلامش ، وسبع بنات .

وتزوج أيضا ابنة الأمير سيف الدين نوكية[2] التتارى ، وابنة الأمير سيف الدين كراى التتارى ، وابنة الأمير سيف الدين تماجى[3] التتارى ، وامرأة شهرزورية تزوجها لما قدم غزة وحالف الشهرزورية ، ثم طلقها لما ملك الديار المصرية .

نائبـــه : مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار .

وزراؤه : الصاحب زين الدين بن الزبير مدة يسيرة . ثم استوزر بعده الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنا .

قضاته : وقد تقدم ذكر قضاته فى أخبار دولته .

* * *

(١) كذا فى الأصل وفى السلوك (جـ ١ ص ٦٤٠ س ١٩ ، ص ٦٤٩ س ٣) التترى .

(٢) كذا فى الأصل وفى السلوك « توكلى » (نفس الموضع) .

(٣) « « « وانظر السلوك (نفس الموضع) .

ذكر أخبار السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد بركه قاءان[1] ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار الصالحى وهو الخامس من ملوك دولة الترك .

ملك الديار المصرية والبلاد الشامية، بعد وفاة والده السلطان الملك الظاهر، فى يوم الخميس سابع عشرين المحرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وكان ولى عهد أبيه، على ما قدمناه فى أخبار الدولة الظاهرية[2] ، فى يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة اثنتين وستين وستمائة ، وجُدّد له الحلف ، فى يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة .

قال : ولما توفى السلطان بدمشق كان الملك السعيد بمصر، وكان الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة وأكابر الأمراء قد أخفوا موت السلطان.[3] وكتب الأمير بدر الدين بيليك الخزندار إلى الملك السعيد كتابا بخطه يخبره بوفاة السلطان ، ويعلمه بما دبره من كتمان ذلك إلى أن يصل بالعساكر والخزائن إلى خدمته ، وسأله كتمان الحال إلى أن يصل إليه ، وصير إليه المطالعة على يد الأمير بدر الدين الجوكان دار الحموى، والأمير علاء الدين أيدغمش الحكمى الجاشنكير، فلما وصلا بالمطالعة وأنهيا ما معهما من المشافهة خلع عليهما وأنعم على كل منهما بخمسة آلاف درهم، وأظهر أن ذلك بسبب بشارتهما بعود السلطان إلى دمشق . ثم ركب الأمراء فى بكرة يوم السبت تاسع عشرين الشهر على العادة إلى سوق الخيل بدمشق .

(١) كذا فى الأصل، ويرد فى الأصل أيضا (قا آن) ويرد فى السلوك (جـ ١ ص ٦٤١) قان .

(٢) راجع ما تقدم ص ١٠٠ ، ص ١٥٧ من هذا الجزء .

(٣) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٤١ س ٥) حيث يرد الخبر عن إخفاء وفاة السلطان .

ثم رحلوا من دمشق فى صفر بالجيوش والعساكر ، و بينهم محفـة محمولة ، وجماعة من المماليك السلطانية فى خدمتها يظهرون أن السلطان الملك الظاهر فيها وهو ضعيف ، كل ذلك حفظا للهابة ، وما زال الأمر كذلك إلى أن وصـلوا إلى الديار المصرية ، وكان وصول المحفة والأمراء إلى قلعة الجبل فى يوم الخميس خامس عشرين صفر سنة ست وسبعين وستمائة ، وسلم الأمير بدر الدين الخزندار الخزائن والعساكر للسلطان المـلك السعيد ، وأظهروا عند ذلك وفاة السلطان وحلف الناس للملك السعيد ، واستقر له الملك وعمره يومئذ تسع عشرة[1] سـنة .

وكتب [المـلك السعيد] إلى دمشق وسائر الممالك الشامية يخبر «النواب» بوفاة السلطان وسلطنته ، ويطلب منهم اليمين ، فوصل الأمر[2] فى البريد بذلك إلى دمشق فى يوم الأحد ثالث عشر شهر ربيع الأول ، فجمع النائب عن السلطنة بها وهو الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى ، الأمراء والمقدمين ، وقرىء عليهم كتاب السلطنة فحلفوا ، وحلف جميع العسكر والقضاة والأعيان ، ثم رسم لمتولى دمشق أن يحلف أهل دمشق ، فحلف أهل كل حارة بحضور عدلين ، ورسم لمتولى البريد بذلك ، فحلف أهـل القرى والضياع ، ودامت مدة الحلف بدمشق أحد عشر يوما حتى كملت . ثم خلع على الأمراء والمقـدمين والقضاة والأعيان والنظار وكتاب الإنشاء بدمشق فى سادس عشر الشهر ، وخلع على الأعيان والأكابر بالطرحات ، وما كان قبل ذلك يخلع بالطرحة ، إلا على قاضى القضاة ، وحلف أيضا صاحب حمـاة وأهل بلده ، ونائب حلب وأمراؤها وجندها وأهلها ، وسائر الممالك الشامية لم يختلف منهم أحد ولا توقف عن اليمين .

(١) فى الأصل : تسعة عشر سنة .

(٢) فى الأصل : « الأمراء » والتصحيح يقتضيه السياق .

ذكر وفاة الأمير بدر الدين بيليك الخزندار

كانت وفاته ، رحمه الله تعالى ، بقلعة الجبل فى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وستمائة ، وذلك أنه لما وصل إلى خدمة السلطان الملك السعيد وقف وحلف الأمراء والخواص والأجناد وغيرهم للملك السعيد ، فلما تكامل ذلك توجه إلى والدة السلطان زوجة مخدومه ليعزيها بالسلطان ويهنيها بسلطنة ابنها ، فشكرت فعله وما اعتمده من حق ولدها من حفظ السلطنة عليه ، ثم أخرجت له هنابا فيه مشروب ، وقالت له : « أشرب هذا فأنك قد تعبت فى هذا اليوم وما أكلت شيئا . » فقال لها : « والله لى ثلاثة أيام ما آكل فى كل يوم نصف أوقية طعام خوفا على السلطان الملك السعيد ، ولم أزل أدارى الأمراء منذ وفاة السلطان إلى أن كمل هذا الحلف المبارك » . وتناول الهناب وشرب منه جرعتين وأعاده فى الثالثة لكثرة إلحاحهم عليه ، وتوجه إلى داره فحصل له قولنج ، وانقطع وتزايد به الأمر ، فمات ، رحمه الله تعالى . وهذا الفصل الذى دبرته والدة الملك السعيد من سوء التدبير وقبح المكافأة ، فأنه وقع الخيال عندها وعند ابنها منه ، ولعل هذا الخيال كان غير صحيح : فإنه أحسن السياسة وأجمل التدبير ووفى لمخدومه ، وكان رحمه الله تعالى ، تربية السلطان ، اشتراه وهو مفردى ورباه من صغره ، وكان خزنداره ، ثم أستاد داره فى الإمره ، ونائبه فى السلطنة وكانت مكانته عنده مكينة ، يرجع إلى رأيه ويعتمد عليه فى سائر أحواله ويثق بنصحه ، وتمكن فى الدولة الظاهرية تمكنا عظيما ، وكان له بالديار المصرية إمرة مائة فارس وبالشام إمرة خمسين فارسا ، وجعل له السلطان عند زواجه

بابنه الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قلعة الصبيبة و بانياس وأعمالها والشغر[1] وغير ذلك .

ولما مات وقعت الأوهام فى نفوس الأمراء وتخيلوا ، فإنهم علموا ما أسلفه المذكور من الخدمة للملك السعيد وحفظ الخزائن والعساكر ، وأنه أدى الأمانة فى طاعته .

واستناب السلطان بعد وفاته الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى الظاهرى أستاد الدار ونائب السلطنة بالديار المصرية فى غيبة السلطان ، وأقر الصاحب بهاء الدين على وزارته .

وركب[2] السلطان فى يوم الأربعاء سادس عشر شهر ربيع الأول بشعار السلطنة والأمراء فى خدمته ، وتوجه صوب الجبل الأحمر ، وذلك أول ركوبه ، وخلع على الأمراء والأعيان .

ذكر القبض على من يذكر من الأمراء والإفراج عنهم ومن مات منهم

كان من سوء التدبير الذى اعتمده السلطان الملك السعيد : أنه قبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيمرى[3] الشمسى فى يوم الجمعة حادى عشرين شهر ربيع الأول ، واعتقلهما بقلعة الجبل ، وكانا من أكبر الأمراء ، وأخصهم بصحبة السلطان والده ، فتغيرت لذلك قلوب الأمراء ،

(١) فى الأصل : الشمرا ،

(٢) عن ركوب الملك السعيد راجع السلوك (جـ ١ ص ٦٤٣) .

(٣) فى الأصل سيرى وهو خطأ يتكرر .

ثم اجتمع مماليكه ومماليك الأمير بدر الدين بيليك الخزندار، وحسنوا له القبض على نائبه الأمير شمس الدين آقسنقر [الفارقانى] واستعانوا بالأمير سيف الدين كوندك الساقى، وأمسكوه وهو جالس عند باب القلعة[1] وسحبوه إلى الدور وضربوه ونتفوا لحيته ، وذلك فى يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واعتقل فلم يلبث إلا قليلا ومات .

ثم أفرج عن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر و بدر الدين بيسرى[2] فى يوم السبت ثانى جمادى الأولى وخلع عليهما وأعادهما إلى ما كانا عليه .

ثم قبض على خاله الأمير بدر الدين محمد بَىْ بن الأمير حسام الدين بركه خان فى يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة ، واعتقله بقلعة الجبل ، فغضبت أخته والدة السلطان لذلك ، وأنكرته على ابنها ، فأفرج عنه فى ليلة الثلاثاء خامس عشرين الشهر وخلع عليه وأعاده إلى ما كان عليه . وشرع فى خلال ذلك فى تقديم مماليكه وترجيحهم وسماع آرائهم .

قال : ولما صدرت منه هذه الأفعال اجتمع الأمراء وتشاوروا ، وقصدوا أن يتوجهوا إلى الشام ، ثم رجعوا عن ذلك و بعثوا إلى السلطان وقد اجتمعوا فى يوم خميس، وامتلأت بهم القلعة، وأنكروا فعله، وحذروه عاقبة ما يطرق إليه، فلاطفهم وحلف لهم أنه لا يريد بهم سوءا ، وتولى الأمير بدر الدين الأيدمرى اليمين ، فسكنت خواطرهم ، واستقر الحال مدة لطيفة .

وكان السلطان لما قبض على الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى رتب فى النيابة بعده الأمير شمس الدين آقسنقر الألفى المظفرى ، فلم يرضه الخاصكية لأنه غير

(١) هو باب من أبواب القلعة بناه الملك الظاهر بيبرس راجع السلوك (ج ١ ص ٦٤٤ حاشية ٦).

(٢) فى الأصل « سيرى » .

ظاهرى . واتفق أنه ولى خوشداشه الأمير علم الدين سنجر المظفرى ، المعروف بأبى خرص، نيابة المملكة الصفدية، وزاده على إقطاع النيابة نواحى من الخاص السلطانى، وهى أريحا وكفرين ونمرين من الغور ، فأوهموا السلطان منه وزعموا أنه يقصد إقامة المظفرية ولا تؤمن غائلته ، فعزله عن قريب ،وولى الأمير سيف الدين كوندك الساقى نيابة السلطنة [لأنه ربى معه فى المكتب[1]] وقيل إن ولايته كانت فى سنة سبع وسبعين . ولما فوضت إليه النيابة أمر الوزير الصاحب بهاء الدين أن يجلس بين يديه والا يوقع إلا بأمره .

وتقدم من المماليك السعيدية الأمير حسام الدين لاجين[2] الزينى ، وانضم إليه الخاصكية ، وقويت شوكته وأخذ لخوشداشيته الإقطاعات ، ونافس النائب . فضم النائب إليه الأمراء الأكابر ، ومال إليهم واستجلبهم ، هـذا كله فى سـنة ست وسبعين وستمائة ، و بعضه فى سنة سبع على ما قيل .

وفى سنة ست وسبعين وستمائة أيضا فى يوم السبت سابع ذى القعدة : برز السلطان الملك السعيد بالعساكر إلى منزلة مسجد التبن[3] لقصـد الشام ، ثم انتقل بخواصه من هذه المنزلة فى يوم السبت حادى عشر الشهر ونزل بالميدان السعيدى وعادت العساكر إلى منازلهم وبطلت الحركة .

وفيها : فى شهر رمضان طلعت سحابة عظيمة بصفد، لمع[4] منها برق عظيم خارق،

---

(١) الإضافة للتعليل وهى منقولة من السلوك (جـ ١ ص ٦٤٤ س ٢ — ٤) .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) يقع هذا المسجد قرب المطرية بحسب حاشية ناظر السلوك (جـ ١ ص ٦٨٤ حاشيه ٣) .

(٤) فى الأصل « بلغ »

وسطع منها لسان كالنار ، وسمع صوت رعد هائل ، ووقع على منارة جامعها صاعقة شقت المنارة من رأسها إلى أسفلها شقا يدخل فيه الكف .

وفيها : سأل قاضى القضاة صدر الدين سليمان [بن أبى العز[1]] الحنفى أن يؤذن له فى الإقامة بدمشق مدرسا ومجاورا لتربة السلطان ، فأذن له ، فأقام بدمشق . وفوض قضاء الحنفية بالديار المصرية لنائبه القاضى معز الدين .

ذكر عزل قاضى القضاة محيي الدين عبد الله بن محمد بن عين الدولة وإضافة عمله إلى قاضى القضاة تقى الدين بن رزين[2]

وفى يوم الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة من هذه السنة ، عزل القاضى محيي الدين أبو الصلاح عبد الله بن قاضى القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة الصفراوى[3] عن القضاء بمصر والوجه القبلى . وسبب ذلك أنه كان قد حصل له فالج منذ خمس سنين ، فأقعد وعجز عن الكتابة ، وكان يعلّم عنه كاتب الحكم ، فعزل الآن . وأضيفت ولايته إلى القاضى تقى الدين بن رزين ، وعطل القاضى محيي الدين وانقطع بمنزله إلى أن مات ، وكانت وفاته بمصر فى رابع شهر رجب ، وقيل فى خامسه من سنة ثمان وسبعين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

وفيها : فوض السلطان الملك السعيد قضاء القضاة بدمشق والشام أجمع من العريش إلى سلمية لقاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان الشافعى ، وعزل القاضى عز الدين بن الصايغ ، وتوجه القاضى شمس الدين إلى دمشق فى سابع

(١) انظر السلوك (جـ١ ص ٦٤٨) .

(٢) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٤٧) .

(٣) كذا فى الأصل .

وعشرين ذى الحجة ، فوصل إليها فى ثالث عشرين المحرم ، وخرج الناس للقائه إلى غزة . ومنهم من وصل إلى الصالحية ، وكانت الشفاعة قد قويت بولايته قبل وقوعها .

وفيها : كانت وفاة قاضى القضاة الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن الشيخ العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى[1] الحنبلى ، فى يوم السبت ثانى عشرين المحرم سنة ست وسبعين ، ودفن يوم الأحد بتربة عمه الحافظ عبد الغنى . وكان مولده فى يوم الأحد رابع عشر صفر سنة ثلاث وستمائة بدمشق ، ولما أفرج عنه بعد القبض عليه كما تقدم ، لزم بيته بالمدرسة الصالحية وتوفر على اشتغال الطلبة إلى أن توفى . وكان كريما سمحا كثير العبادة والذكر ، وولى أيضا مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقاهرة ، رحمه الله تعالى .

ذكر وفاة الشيخ خضر وشىء من أخباره[2]

وفى سابع المحرم سنة ست وسبعين وستمائة : كانت وفاة الشيخ خضر ابن أبى بكر بن موسى العدوى المهرانى شيخ الملك الظاهر فى معتقله بقلعة الجبل ، ودفن بسفح المقطم .

وقد حكى الشيخ شمس الدين محمد بن مجد الدين إبراهيم الجزرى فى تاريخه ، « حوادث الزمان وأنبائه » ، مبدأ أمره ، وكيف تنقلت به الحال ، فقال : كان فى مبدأ أمره يخدم الأكابر ببلد الجزيرة ، ثم استخدم لِشَيْلِ زبائل دور

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٤٨ س ٤ — ٧) .

(٢) راجع شذرات الذهب (ص ٣٥١ ، وفيات عام ٦٧٦ هـ) . وراجع ما تقدم ص ١٩٨ من هذا الجزء .

السلطنة والقلعة بجامكية وجراية . ثم ذكر عنه أنه أفسد بعض جوارى الدور ، فرسم بخصيه ، فهرب إلى حلب ، وخدم بابا عند ابن قراطابا فأحبل جارية ، فطلب فهرب إلى دمشق ، والتجأ إلى الأمير ضياء الدين القيمرى ، وأقام بمغارة فى زاويته بجبل المزة ، فيقال إنه اجتمع بجماعة من الصالحين وبشروه بما يكون منه ومن السلطان الملك الظاهر . واتفق اجتماع الملك الظاهر به فى مدة مقامه بدمشق فى خدمة الملك الناصر فبشره بالملك . وكان الشيخ خضر قد احتوى على عقل الأمير سيف الدين قشتمر العجمى أحد الأمراء البحرية ، فكان يخبره بسلطنة الملك الظاهر قبل وقوعها ، ويخبره بأكثر ما وقع ، ثم اجتمع به الأمير سيف الدين ايتامش[1] السغدى فأخبره أيضا بخبر الملك الظاهر ، ثم كان من سلطنة الملك الظاهر ما قدمناه ، وصار هو فى صحبة قشتمر العجمى ، وخرج معه عند خروج السلطان إلى الشام بسبب الملك المغيث صاحب الكرك ، فلما نزل السلطان على الطور سأل عنه الأمير سيف الدين قشتمر العجمى فأخبره أنه قد انقطع فى مغارة عند قبر أبى هريرة ، رضى الله عنه ، فتوجه السلطان إليه واجتمع به ، فأخبره بوقائع كثيرة لم يخرم[2] ، فاغتبط به ولازمه ، وبقى السلطان إذا حاصر بلدا من البلاد الساحلية والجبلية يخبره الشيخ بما يكون من أمره فيها ، وبالوقت الذى يفتح فيه ، فلا يخرم ذلك . ولما قصد السلطان أن يتوجه إلى الكرك فى سنة خمس وستين وستمائة استشاره فى ذلك فأشار عليه ألا يتوجه إليها فى هذه السفرة ، وأن يتوجه إلى الديار المصرية فخالفه وتوجه إليها ، فانكسرت فخذه ببركة زيزا قبل وصوله كما قدمنا ذكر ذلك . ولما رأى السلطان ذلك منه عظم عنده وبنى

(١) كذا فى الأصل .

(٢) كذا فى الأصل بالعامية بمعنى الخطأ فى التقدير .

له زاوية بظاهر القاهرة بالحسينية بجـوار أرض الطبالة ، ووقف عليها أحكارا بجملة كثيرة ، وبالقدس زاوية ، وبدمشق زاوية بالمـزة ، وببعلبك زاوية ، وبحماة زاوية ، ثم هدم كنيسة اليهود بدمشق ، وهى الكنيسة العظمى عندهم ، وجعلها زاوية كما تقدم ، وهدم كنيسة النصارى بالقـدس ، وقتل قسيسها بيده وعملها زاوية ، وهدم كنيسة الروم بالإسكندرية ، وهى كرسى كنائسهم يعقدون فيها البتركية ، ويزعمون أن رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام فيها[1] ، وهو عندهم يحنا المعمدانى الذى عَمّد المسيح بن مريم ، وجعلها مسجدا وبنى فيها المحاريب وسماها المدرسة الخضراء ، وفتح لهـا شبابيكا إلى الطريق ، ورتب فيها فقراء من جهته ، وكذلك فى جميع زواياه : جعل بكل زاوية منها فقراء يقطعون المصانعات ويحمون أرباب الجرائم من اللصوص وغيرهم ، ويتعاطون الفسق .

قال : ولقـد سأله مرة والدى إبراهيم[2] فقال : « يا أخبى ، اشتهى أعرف كيف كان سبب وصلتك إلى هذه المنزلة ؟ » ، فقال له : « والله لا أقول لك حتى تقول لى الذى تعرف منى » ، فقال له : « أعرفك شيخ نحس ، نفوك من الجزيرة ثم من حلب ومن دمشق ، وما رأيتك إلا وقد صرت فى هذه المنزلة » ، فقال : « والله العظيم صدقت ، وما صدقنى أحد فى الحديث إلا أنت يا أخى ، لمـا هربت من الجزيرة طلعت إلى جبل الجودى ، فبقيت احتطب فى كل يوم جرزة[3] حطب أبيعها بدرهـم ونصف ، فلمـا كان فى بعض الأيام إذا أنا بفقير عريان ليس عليـه لباس ، وقـد أنبت الله له شعرا على جسده ، يستر عورته ،

(١) فى الأصل « فيها » والتصحيح يستند إلى السياق .

(٢) ليس المقصود والد المؤلف بل المقصود والد صاحب الرواية الذى نقل عنه النويرى .

(٣) جرزة بمعنى حزمة (القاموس المحيط) .

فقال لى : « ياخضر ، ايش تعمل ؟ » ، قلت : « أحتطب » فقال : « تعال غدا إلى هذا المكان وخذ منه جرزتين حطب[1] ، بع الواحدة لنفسك والأخرى اشتر لى بثمنها مومى ومقصا ومشطا ، » . فقلت : نعم . فلما كان الغد قصدت ذلك المكان فوجدت به جرزتين حطبا ، فبعت إحداهما واشتريت له ما طلب ، وبعث الأخرى لنفسى ، فلما اجتمعت به قال لى : « اذهب إلى الشام ، فسوف يكون لك مع[2] ملكه شأن عظيم » . فقدر الله تعالى أنى سكنت هذه المغارة بالمزة ، فحصل لى اجتماع بالسلطان الملك الظاهر لما كان فى خدمة الملك الناصر ، وفتح على بأن بشرته بالملك ، فلما ملك كان سبب الوصلة بينى وبينه الأمير سيف الدين قشتمر العجمى . قال : « وكان ذلك الفقير قد أخبرنى بجميع ما يقع لى فى عمرى وبجميع ما يقع للسلطان واقعة بعد أخرى » .

قال : قال والدى : وكان فى ذلك الوقت قد حصل لى وجع فى ظهرى ، فقلت له : إن ظهرى يؤلمنى فمسح بيده على ظهرى ، فسكن الوجع ، فقال : « يا مجد الدين ، سكن الوجع أم لا ؟ » . قال : فقلت : أما الوجع فقد سكن ، وأما أنى اعتقد أنك رجل صالح فلا ، وإنما هذا من جملة السعادة التى حصلت لك . ثم كان من قبض السلطان عليه واعتقاله ما تقدم ذكره ، ولم يزل فى اعتقاله إلى أن مات . قال : ولما عاد السلطان من غزاة الروم إلى دمشق كتب باطلاقه فورد البريد بعد وفاته .

وكان واسع الصدر كريم النفس ، يعطى الدراهم والذهب الكثير ، ويصنع له الطعام فى قدور كبيرة مفرطة فى الكبر ، وكانت أحواله غير متناسبة والأقوال

(١) كذا فى الأصل « بالحطب » .

(٢) فى الأصل « لك ذلك » وهذا الحذف يقتضيه تركيب العبارة .

فيه مختلفة ، فمن الناس من يثبت صلاحه ، ومنهم من يرميه بالعظائم ، وكان يكتب إلى صاحب حماة وغيره من الأمراء فى أوراقه إليهم : خضر نياك الحمارة ، وكتب بذلك إلى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ورقة ، فأغضى عنها ، ثم أخرى كذلك ، فلما وصلت إليه الورقة الثالثة أحضر رسوله وقال له : « قل له ، والله لئن وصل إلى ورقة منه بعد هذه فيها مثل هذا : أحضرته إلى مجلس الحكم وقابلته بما يستحقه بمقتضى ما كتب به خطه » ، فامتنع بعد ذلك من مكاتبته . ومات وله نيف وخمسون سنة ، وكان ربع القامة ، كث اللحية ، فى لسانه عجمة ، سامحه الله وإيانا .

وفيها : كانت وفاة الأمير جمال الدين أقش المحمدى الصالحى[1] بالقاهرة فى ليلة الخميس ثالث عشر ربيع الأول ، ودفن من الغد بتربته بالقرافة الصغرى ، وقد ناهز سبعين سنة . وكان السلطان قد نقم عليه وحبسه مدة ثم أفرج عنه وأعاده إلى الإمرة ، وكان رحمه الله تعالى عديم الشر .

وفيها : توفى الأمير عز الدين أيبك الدمياطى الصالحى النجمى أحد الأمراء الأكابر المقدمين . وكان السلطان الملك الظاهر قد اعتقله كما تقدم ثم أفرج عنه ، وكانت وفاته بالقاهرة فى ليلة الأربعاء تاسع شعبان ، ودفن بتربته التى أنشأها بين القاهرة ومصر ، المجاورة لحوض السبيل المعروف به ، وقد ناف على سبعين سنة ، وكان كريما جدا ، له مروءة تامة ، رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى الأمير عز الدين أيدمر العلائى ، وكان ينوب عن السلطنة بقلعة صفد ، فجرى بينه وبين النواب مفاوضة أدت إلى أن طلب الدستور من

(١) أقش المحمدى الصالحى غير أقش النجيبى الصالحى ، بحسب هذا النص وبحسب نص المتن ص ٣٨٧ من هذا الجزء ، وراجع أيضا السلوك (جـ ١ ص ٦٥٠) .

السلطان لينهى مصالح ، فأذن له فحضر إلى الديار المصرية فأدركته منيته ، فتوفى فى ليلة الأربعاء سابع عشر شهر رجب ، ودفن فى يوم الأربعاء بالقرافة الصغرى . وكان عفيفا أمينا محبا للعلماء والفقراء ، وهو أخو الأمير علاء الدين أيدكن الصالحى العمادى ، رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى الأمير شمس الدين بهادر المعروف بابن صاحب صهيون ، وكان قد قدم إلى خدمة السلطان الملك الظاهر قبل وفاته بثلاث سنين ، فأحسن إليه وأكرمه ، وكانت وفاته بالقاهرة فى ليلة الأحد العشرين من شعبان ، ودفن من الغد بتربته التى أنشأها خارج باب النصر ، وقد ناف على أربعين سنة ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، كانت وفاة الملك القاهر جمال الدين أبى محمد عبد الملك بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد ابن أيوب ، فجأة فى يوم السبت خامس عشر المحرم من غير مرض ، بل كان راكبا بسوق الخيل بدمشق فاشتكى ألماً فى فؤاده ، فعاد إلى منزل[1] كريمته زوجة الملك الزاهد[2] مجير الدين داود بن صاحب حمص ، فأدركته منيته ، فمات عند دخوله إليها ، وقيل إنه مات فى باب الدار قبل الدخول إليها ، ودفن بسفح قاسيون . وكان مولده فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وكان رحمه الله تعالى رجلا جيدا شجاعا بطلا مقداما ، سليم الصدر حسن الأوصاف كريم الأخلاق ، لين الكلمة كثير التواضع ، حسن الإعتقاد فى الفقراء والصالحين ، وكان يلبس

(١) فى الأصل : منزله .

(٢) برسم الناسخ الدال كالراء .

ملابس العرب ويتزيا[1] بزيهم ويركب كركبهم ويتخلق بأخلاقهـم فى كثير من أفعاله ، رحمه الله .

وقد حكى الشيخ قطب الدين اليونينى[2] ، نفع الله به ، فى تاريخه ، فى سبب وفاته ، قال : حكى لى تاج الدين نوح بن شيخ السلامية[3] حكاية غريبة معناها : أن أن الأمـير عز الدين أيدمر العلائى نائب السلطنة بقلعة صفد حدثه بها ، قال : كان السلطان الملك الظاهر مولعا بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم ، فأخبر أنه يموت بدمشق فى هـذه السنة ، سنة سبع وستين وستمائة ، بالعم ملك[4] ، فحصل عنـده من ذلك أثر كبير . قال : وكان الملك الظاهر عنـده حسد شديد لمن يوصف بالشجاعة أو بذكر جميـل ، ولمـا دخل[5] الملك القـاهر إلى الروم صحبة السلطان ظَهَر يوم المصاف عن شجاعة ، وظهرت نكايته فى العدو حتى تعجب من فعله من شاهده ، ورآه الملك الظاهر فتأثر منه ، وانضاف إلى ذلك أن السلطان حصل منه فى ذلك اليوم فتور على خلاف عادته ، وظهر عليه النـدم كونه تورط فى بلاد الروم — بكلمة المـلك القاهر فى ذلك الوقت — بكلام فيـه إشارة إلى الإنكار وتقبيح فعله ، فأثر ذلك عنده أثرا آخر ، فلما عاد من غزاته وسمع الناس يلهجون بمـا فعله الملك القاهر تأثر من ذلك أيضا ، وتخيل فى ذهنه أنه إذا سمّه فمات هو الذى ذكره أرباب النجوم لأنه يطلق عليه اسم ملك وله ذكر ، فأحضره

(١) فى الأصل « يتزايا » بزيادة ألف .

(٢) وعنه أيضا أخذ صاحب السلوك (جـ ١ ص ٦٣٥ ، ٦٣٦) .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) يرد مثل ذلك التنبؤ فى السلوك (جـ ١ ص ٦٣٥ س ١٥) بنفس ألفاظه .

(٥) فى الأصل داخل ، بزيادة ألف .

السلطان عنده لشرب القمز ، وأعد له سما فى ورقة وجعلها إلى جانبه ، من غير أن يطلع على ذلك أحدا ، وللسلطان هنايات ثلاثة تختص به مع ثلاثة من سقاته ، لا يشرب فيها غيره إلا من يكرمه و يناوله أحدها من يده ، واتفق قيام الملك القاهر لقضاء الحاجة ، فجعل السلطان ما فى الورقة فى هناب وأمسكه بيده ، فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه فقبل الأرض وتناوله وشرب ما فيه . وقام الملك الظاهر لقضاء الحاجة فأخذ الساقى الهناب من يد الملك القاهر وملأه على العادة وهو لا يشعر بما وضعه السلطان فيه ، فلما عاد السلطان تناول ذلك الهناب فشرب ما فيه وهو لا يظن أنه الذى جعل فيه ما جعل ، فلما شربه أحس واستشعر وعلم أنه قد شرب من ذلك الهناب الذى فيه آثار السم وبقاياه وتخيل وامتد به المرض ومات كما تقدم . وأما الملك القاهر فمات من غد ذلك اليوم . وذكر الأمير عز الدين العلائى أنه بلغه ذلك من مُطلع لا يشك فى أخباره ، والله تعالى أعلم .[1]

وفيها : قتل الأمير عز الدين أيبك الموصلى الظاهرى ، كان نائب السلطنة بحمص ثم نقله السلطان إلى نيابة السلطنة بحصن الأكراد وما معه ، وكان ذا صرامة ونهضة وذكاء ومعرفة ، وكان يتشيع ، قتل غيلة ليلة الأربعاء سابع عشرين شهر رجب .

وفيها : كانت وفاة الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع محيى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف الدين بن مرى بن الحسن بن الحسين بن حزام بن محمد النواوى[2]

(١) انظر السلوك (جـ ١ ص ٦٣٥ ، ٦٣٦)

(٢) فى السلوك « جـ ١ ص ٦٤٨ حاشية ٢ » نسبة إلى قرية (نوى) . وفى بدائع الزهور لابن أياس ، تحقيق محمد مصطفى (جـ ١ ، القسم الأول ، ص ٣٦٤) أن مولده ببلدة نوى بدمشق .

الشافعى . وكانت وفاته عند أبيه بنوى فى يوم الأربعاء خامس عشر شهر رجب سنة ست وسبعين وستمائة ، ومولده بنوى فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، فيكون مدة عمره خمسا[1] وأربعين سنة تقريبا . وكان رحمه الله تعالى كثير الورع والزهد واسع العلم له مصنفات مشهورة مفيدة منها : كتاب الروضة فى الفقه ، عليه تعتمد الشافعية وبه يحتجون غالبا ، وشرح مسلم ، ورياض الصالحين ، وكتاب الأذكار ، وشرح التنبيه ، ومات قبل أن يكمله . ولم يكن فى زمانه مثله فى ورعه وزهده ، وكان لا يأكل إلا مما يأتيه من جهة أبيه من نوى ، فكان يخبز له الخبز بها ويُقمرّ ويرسل إليه فيأكل منه ، وما كان يجمع بين إدامين ، فيأكل إما الدبس أو الخل أو الزيت أو الزبيب ، ويأكل اللحم فى كل شهر مرة . وكان يتولى دار الحديث الأشرفية ، فيجمع المباشر للوقف جامكيته بها ، ثم يستأذنه فيما يفعل بها إذا اجتمعت ، فتارة يشترى بها ملكا ويوقفه على المكان ، وتارة يشترى بها كتبا ويوقفها ويجعلها فى خزانة المدرسة المذكوره . وكان لا يقبل لأحد هدية ، ولا يأكل لأحد من أهل دمشق طعاما ولا غيره ، وكان رحمه الله تعالى يواجه السلطان الملك الظاهر بالإنكار عليه فى أفعاله ، ويلاطفه السلطان ويحمل جفوة كلامه ويخاطبه ياسيدى ، رحمه الله تعالى . وعاش والده الحاج شرف بعده إلى سنة إحدى وثمانين فمات فى سابع عشر صفر ، وقيل فى سنة اثنتين وثمانين ، ودفن بنوى ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل « خمسة » .

واستهلت سنة سبع وسبعين وستمائة

ذكر توجه السلطان إلى الشام وإقامته بدمشق وتجريد العساكر[1]

فى هذه السنة : توجه الملك السعيد إلى الشام وصحبته أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر، ووالدته ابنة الأمير حسام الدين بركة خان، واستصحب الأمراء والعساكر. وكان رحيله من قلعة الجبل فى ذى القعدة، ووصل إلى دمشق فى يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة من السنة. ولما حل ركابه بدمشق أمر بأبطال الجبايات والمظالم التى كانت حدثت فى الدولة الظاهرية، فاستبشر الناس بذلك .

ولما استقر السلطان بدمشق جرد العساكر المصرية والشامية ، فجرد الأمير سيف الدين قلاون الألفى الصالحى فى عشرة آلاف، وأمره أن يتوجه إلى جهة سيس، وجرد الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى فى عشرة آلاف وأمره أن يتوجه إلى قلعة الروم، وأقام هو بدمشق فى مماليكه وخواصه، ونائبه الأمير سيف الدين كوندك . وأقام بدمشق من الأمراء الأكابر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير علم الدين سنجر الحلبى ، وكان السلطان قد أفرج عنه بعد وفاة والده الملك الظاهر وأحسن إليه .

---

(١) انظر السلوك (ج ١ ص ٦٤٩ ، ٦٥٠) .

قالوا : وأراد السلطان بتجريد الأمراء الأكابر وإبعادهم عنـه أن يتمكن فى غيبتهم من التدبير عليهم ، وعزم أنهم إذا عادوا قبض عليهم وأقطع أخبازهم لمماليكه ، وظن أن ذلك يتم له ، والمقادير بخلاف ظنه . فتوجه الأمراء إلى الغزاة [وفى نفوسهم من ذلك إحن[1]] وكان من أمرهم عند عودهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

[ذكر] أمر شاد الدواوين

وفى هـذه السنة فى رابع عشرين ذى الحجة : حصل بين الأمـير بدر الدين بكتوت الأقرعى شاد الدواوين بدمشق ، وبين نائب السلطنة بها ، مفاوضة أدت إلى شـكواه إلى السلطان ، فانتصر الأمراء لنائب السلطنة ، فـرسم بتفويض شاد الدواوين بالشام إلى الأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، وكان من جملة الأمراء بحلب ، وخلع عليه وأقطع خبز الأقرعى ، ونقل الأقرعى إلى حلب على إقطاع الدوادارى .

وفى هذه السنة ، فى ليلة يسفر صباحها عن يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذى القعدة وهى سنة سبع وسبعين وستمائة : ولد مؤلف هذا الكتاب وجامعه ، فقير رحمة ربه أحمد[2] بن عبـد الوهاب بن محمـد بن عبد الدايم بن عبادة[3] بن على

(١) الإضافة للتعليل وهى منقولة من السلوك (جـ ١ ص ٦٥٠ س ٥) .

(٢) كذا فى الأصل . والعبارة دالة على أن النسخ تم فى حياة المؤلف ، أما فى النسخة « س » التى أنجزت بعد موت المؤلف فإن العبارة هى « الشيخ الفاضل شهاب الدين أحمد » .

(٣) فى الأصل « منحيا » والتصحيح معتمد على عدة أمثلة تشبه فيها العين ذات الزلومة الخرطومية الزخرفية باء وجيما ، ومعتمد على ورود ذكر جد وحيد اسمه عباده (راجع السلوك جـ ٢ ص ٣٦٣) .

ابن طراد بن خطاب بن نصر بن إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر بن هلال بن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق عبد الله ابن عتيق ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن صاحبه ، وأبى أصحابه ، وجد صاحبه ، والخليفة من بعده ، وهو ثانى اثنين ابن أبى قحافة عثمان ، رضوان الله عليهم ، بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، عرف مؤلفه بالنويرى ، عفا الله عنه ولطف به ، وكان مولده بمدينة أخميم من صعيد مصر فى التاريخ المذكور .

وفى هذه السنة : كانت حوادث ووفاة جماعة من أرباب المناصب ، وولاية غيرهم ، نذكرها الآن فى هذا الموضع . ولا نشترط فى إيرادها الترتيب ، بل نوردها بمقتضى المناصب ، فمن ذلك :

[ذكر] وفاة الأمير جمال الدين أقش النجيبى الصالحى

كانت وفاته بالقاهرة فى يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر . وكان يلى أستاد دارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . وتولى أستاد دارية السلطان الملك الظاهر فى ابتداء سلطنته ، ثم نقله إلى نيابة السلطنة بالشام كما تقدم . وكان رحمه الله تعالى ، دينا كثير الإحسان إلى الرعية والرفق بهم . وكان يكره السعاية فى الناس ، ومن سعى عنده بأحد أبعده ، وكان يحب أهل الخير ويقربهم . وأنشأ بدمشق مدرسة للشافعية وخانقاه للصوفية على الميدان بالشرف الأعلى ، وخانا للسبيل بميدان الحصا . ووقف بالديار المصرية وقفا على المجاورين .

ولم يرزق فى عصره ولدا . وكان عظيم الشكل والخلقـة ، كبير البطن ، جهورى الصوت ، أكولا ، رحمه الله تعالى .

ذكر وفاة الصاحب بهاء الدين

وفى هـذه السنة : كانت وفاة الصاحب الوزير بهاء الدين [أبو الحسن[1]] على بن محمد بن سليم المعروف بابن حِنا ، بمصر وقت آذان العصر من يوم الخميس سلخ ذى القعدة . ودفن يوم الجمعة قبل الصـلاة بتربته بالقرافة . ومولده بمصر فى سنة ثلاث وستمائة ، ومات وهو جد جد[2] . وكان فى ابتداء أمره فى دكان يبيع الخام ، ثم تنقلت به الأحوال وباشر فى الديوان السلطانى حتى انتهى إلى هـذه الغاية . وكان من رجال الدهر حزما وعزما وتدبيرا ، وكتابة وتحصيلا للأموال ، وقياما بمصالح الدولة ، وكان شـديد الغيرة على منصبه ، فإذا تعرض أحد من المتعممين المباشرين إلى الإجتماع بالسلطان عمل على إتلافه[3] ، وكذلك[4] من يجتمع بأكابر الأمراء من هذه الطائفة ، ويحسن إلى من يتصل بخدمته وخدمة أولاده ، وينتمى إليهم ويقدمهم ، وكان حسن الظن بالفقراء والمشايخ كثير الإكرام لهم ولا يمل من حوائجهم ، ويتشفع الناس عنده بهم فلا يردهم ، وكان أمينا فى وزارته ، ما تكلم عليه ولا على أولاده بخيانة وإنمـا كانوا كلهم يتجهون تجـاه الغل[5] ويزرعون فاتسعت بذلك أحوالهم وكثرت أموالهم ، وعمروا الأبنية العظيمة

(١) الإضافـة عن السلوك (جـ ١ ص ٦٥١ س ٥) وراجع شـذرات الذهب (ص ٣٥٨ ، وفيات عام ٦٧٧ هـ) .

(٢) العبارة مألوفة فى العامية . (٣) فى الأصل « تلاقة » .

(٤) فى الأصل « وذلك » .

(٥) الكتابة غير مقروءة وأقرب قراءة : « يتجهون تجاه الغل » : أى الكسب ، وفى الأصل بدون نقط « يتجرون تجاه العل » .

والمساكن البديعة والمتنزهات ، وعمر هو مدرسة بزقاق القناديل بمصر ، ووقف عليها أوقافا ، وكان كثير الصدقة ، والتزم صوم الدهر فى وزارته . وكان يثيب الشعراء[1] على مدائحهم ، وامتدحه الشيخ رشيد الدين الفارقى فقال : —

وقايل فى الورى نبه لها عمرا فقلت إن علينا قد تنبه لى

ما لى إذا كنت محتاجا إلى عمر من حاجة فليتم حسبى انتباه على

وكان متمكنا من السلطان الملك الظاهر ، يصرح باعتقاد بركته ، حتى رام جماعة من الأمراء الأكابر خوشداشية السلطان أذاه عند السلطان وذكر معايبه فى أوقات ، فكان السلطان إذا تنسم ذلك[2] منهم أو من أحدهم بادره السلطان بذكر محاسنه وأنه فى بركته ، فيقف من يقصد أذاه عن ذلك . ولما مات وصل الخبر إلى السلطان وهو بمنزلة الكسوة ، فأمر بإيقاع الحوطة على الصاحب تاج الدين ولد ولده ، وكان صحبته ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار ، وأرسله إلى مصر ، ورسم أن يستخرج من أخيه الصاحب زين الدين مائة ألف دينار ، ومن الصاحب عز الدين بن الصاحب محيى الدين مائة ألف دينار . وفوض السلطان وزارته للصاحب برهان الدين الخضر السنجارى ، وفوضت[3] وزارة الصحبة للصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء فى هذا التاريخ ، ودخل إلى دمشق متوليا .

---

(١) فى الأصل « الشعر » والتصويب يقتضيه السياق .

(٢) كذا فى الأصل بالعامية .

(٣) فى الأصل « وفوضت إليه » والحذف يقتضيه السياق .

[ذكر] وفاة مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمـــر بن العـــديم

وفيها : توفى القاضى مجد الدين [أبو محمد][1] عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم قاضى الحنفية بدمشق ،وكانت وفاته بدمشق فى يوم الثلاثاء سادس شهر ربيـع الآخر ، ومولده بحلب فى جمادى الأولى سـنة أربع عشرة وستمائة . وكان رجلا دينا صالحا فاضلا لطيفا، وتولى تدريس المدرسة الظاهرية بالقاهرة كما تقدم ، وخطابة الجامع الظاهرى بظاهر القاهرة ، ثم نقل إلى قضاء دمشق كما تقـدم . ولمـا مات فوض قضاء القضاة الحنفية بدمشق لقاضى القضاة الشيخ صدر الدين أبى الربيع سليمان بن أبى العز بن وهيب الحنفى،وكان قاضى القضاة الحنفية بالديار المصرية ، وتوجه فى الصحبة الظاهرية إلى غزوة الروم ، فلمـا عاد واتفقت وفـاة السلطان سأل أن يكون مدرسا بدمشق ومجاورا لتربة السلطان ، ففوض إليه تدريس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وكان ابتداء جلوس المدرسين بها فى ثالث صفر من هـذه السنة ، وولى تدريس الشافعية بها الشيخ رشيد الدين الفارقى،واستمر القاضى صدر الدين فى القضاء أربعة أشهر ومات. وكانت وفاته بدمشق فى ليلة الجمعة سادس شعبان ، ودفن بسفح قاسيون بتربته وكان له ، رحمه الله، التصانيف المفيدة فى مذهبـه ، ولمـا مات فوض القضاء بعده بدمشق لقاضى القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنوشروان قاضى ملطية ، وكان قدحضر إلى الشام صحبة السلطان الملك الظاهر ، ففوض

---

(١) الكنية منقولة عن السلوك (جـ ١ ص ٦٥٤ س ١) وراجع شذرات الذهب (ص ٢٥٨ ، وفيات عام ٦٧٢ هـ) .

إليه القضاء بدمشق فى التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وسبعين وستمائة ، وقيل فى شوال منها .

وفيها : كانت وفاة الشيخ تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن شاها نشاه ابن غسيان بن محمد بن جلب راغب المعروف بابن ميسر المصرى[1] ، وكان فاضلا جمع تاريخا لمصر ، وقد نقلنا عنه مواضع فيما سلف من كتابنا هذا ، وكانت وفاته بمصر فى يوم السبت ثانى عشر المحرم ، ودفن بسفح المقطم . ومولده فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأول سنة ثمان وعشرين وستمائة بمصر ، رحمه الله تعالى .

[ذكر] وفاة الشيخ العارف نجم الدين أبو المعالى محمد بن الخضر الشيبانى الحريرى[2]

وفيها فى ليلة الأحد رابع عشر شهر ربيع الآخر : توفى الشيخ العارف المحقق نجم الدين أبو المعالى محمد بن الخضر بن سوار بن اسرائيل الشيبانى الحريرى بدمشق ، ودفن بقبة الشيخ أرسلان بمقبرة باب توما . ومولده فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستمائة بدمشق ، وكان دينا صالحا كريما متواضعا فاضلا أديبا ناظما ، وله ديوان شعر ، وشعره كثير المعانى ، رحمه الله تعالى .

---

(١) كانت له وزارة الصحبة بدمشق (راجع السلوك ج ١ ص ٦٧٠ — ٦٧١) .

(٢) راجع شذرات الذهب (ص ٢٩٩ وفيات عام ٦٢٧ هـ) حيث ورد أنه صاحب المقامات

واستهلت سنة ثمان وسبعين وستمائة

[استهلت] والسلطان الملك السعيد بدمشق ، وفى خدمته من الأمراء من ذكر والعساكر مجردة كما تقدم .

وفى هذه السنة فى ثامن المحرم : فوضت وزارة دمشق للصاحب فتح الدين عبد الله بن القيسرانى الحلبى ، وركب والرؤساء والأكابر فى خدمته وباشر من يومه .

وفيها فى شهر ربيع الأول : وقع بين الأمراء الخاصكية وبين الأمير سيف الدين كُوُنْدُك[1] نائب السلطنة فتنة ، كان سببها أن السلطان الملك السعيد أكثر من الإنعام على الخاصكية وأوسع فى العطاء لهم ، فاتفق أنه أنعم على بعضهم بألف دينار ، فتوقف النائب فى إمضاء المرسوم ، فاجتمع المنعم عليه ببقية خوشداشيته وعرفهم ذلك ، فاجتمعوا وحضروا إلى الأمير سيف الدين كوندك واسمعوه ما يكره ، ودخلوا إلى السلطان وصمموا على عزله ، فأجابهم إلى ذلك . فخرجوا إليه ليوقعوا به ويقبضوا عليه أو يقتلوه . وكان ذلك بحضور الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، فمنعهم من ذلك وأخذه وضمه إليه . فخرج منشور السلطان له فى اليوم الثانى بأمرة أربعين فارسا بحلب ، فاستمر عند الأمير شمس الدين سنقر الأشقر سبعة أيام . ووردت الأخبار بعود الأمراء .

---

(١) الضبط نقلا عن ناشر النجوم من عقد الجمان ، ويضبط أيضا بضم الدال نقلا من النجوم (ج ٧ ص ٢٦٦) .

ذكر عود الأمراء من الغزاة
وظهور الوحشة والمنافرة بينهم وبين السلطان الملك السعيد
وتوجيههم إلى الديار المصرية

قال : ولما عاد الأمراء من الغزاة وقصدوا العبور إلى دمشق ، أرسل إليهم الأمير سيف الدين كوندك يخبرهم بجلية الخبر و يعلمهم بما تقرر سرا . ثم ركب وخرج إليهم وتلقاهم ، واجتمع بالأمير سيف الدين قلاون الألفى ، و بدر الدين بيسرى الشمسى ، وتحدث معهما فأقاما بالمرج[1] بمن معهما من الأمراء ولم يعبرا [إلى] دمشق ، وسيرا إلى السلطان يقولان له : «إن الأمير سيف الدين كوندك حضر إلينا وشكا من لاجين الزينى شكاوى كثيرة ، ولا بد لنا من الكشف عنها ، فيسيره السلطان إلينا لنسمع كل[2] منهما وننصف بينهما» . فلم يعبأ [السلطان] بقولهما ، وكتب إلى الأمراء الظاهرية الذين معهما أن يفارقوهما و يعبروا الى دمشق . فوقع القاصد بالكتب إلى الأمير سيف الدين كوندك فأحضره إلى الأمراء وأوقفهم على الكتب ، فتحققوا سوء رأيه فيهم . ورحلوا من وقتهم من المرج ونزلوا بالجسورة[3] وأظهروا الأمور الدالة على الخلاف . وندم السلطان و بعث الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير شمس الدين سنقر التكريتى الظاهرى أستاد الدار إليهم ، وتلطف بهم وقصد رجوعهم ، فما وافقوا على الرجوع .

---

(١) المرج المقصود موضع قرب دمشق ، و يفرق نص النجوم (جـ ٩ ص ٢٦٦) بين مرج عذراء ومرج الصفر والمرج .

(٢) كذا فى الأصل : بالرفع ، وحقه النصب .

(٣) موضع بظاهر دمشق .

ثم خرجت إليهم[1] والدة السلطان إلى منزلة الكسوة ، واجتمعت بالأمراء وسألتهم الرجوع فما رجعوا . وساروا إلى الديار المصرية ، فوصلوا إليها ونزلوا تحت الجبل فى شهر ربيع الآخر ، فاتصل بالأمراء المقيمين بالقلعة قدومهم ، وكان بها الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جاندار ، والأمير علاء الدين أقطوان الساقى ، وسيف الدين بلبان الزريقى ، فتقدموا إلى متولى القاهرة بغلق أبوابها فغلقت ، وبنى خلف أكثرها الحيطان . فأرسلوا إلى الأمراء الذين بالقلعة فى فتح الأبواب ليعبر العسكر إلى بيوتهم ، فنزل الأمير عز الدين الأفرم ، والأمير علاء الدين أقطوان إلى الأمراء ليجتمعا بهم ، فقبض عليهما الأمير سيف الدين كوندك ، وأرسل الأمراء ففتحوا أبواب المدينة . ودخل الناس إلى بيوتهم بأثقالهم . ولما قبض على الأمير عز الدين الأفرم وعلاء الدين أقطوان نقلان الى دار الأمير سيف الدين قلاون بالقاهرة . وأغلق الأمير سيف الدين بلبان الزريقى أبواب القلعة واستعد للحصار .

ذكر وصول السلطان إلى قلعة الجبل وما كان من أمره إلى أن انخلع من السلطنة

قال المؤرخ : ولما رأى السلطان توجه الأمراء إلى الديار المصرية وانفرادهم عنه ، جمع من كان بدمشق من بقايا العسكر المصرى والعساكر الشامية ، واستدعى العربان وأنفق[2] الأموال فيهم بدمشق ، وسار إلى الديار المصرية . وكان رحيله من دمشق فى يوم الجمعة ثانى شهر ربيع الآخر ، وسلم قلعة دمشق إلى الأمير

(١) انظر النجوم (ج ١ ص ٢٦٧ س ٣) .

(٢) فى الأصل « نفق » وتلك عادة المؤلف دائما عند استعمال هذا الفعل .

علم الدين سنجر الدوادارى وجعله نائبا إلى حين عود الأمـير عز الدين أيدمر النائب ، فلما وصل السلطان إلى غزة تسلل أكثر العربان وتفرقوا، ولم يصل إلى بلبيس ومعه من العسكر الشامى إلا اليسير . فأعطى من بقى منهم دستورا ، فعادوا صحبة الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام، وكان وصولهم فى مستهل جمادى الأول . وكان الأمير سيف الدين قلاون لما عاد من غزاة سيس جرد من العسكر الشامى بحلب الأمير ركن الدين بيبرس العجمى الجالق الصالحى، والأمير عز الدين أزدمر العلائى ، والأمير شمس الدين قراسنقر المعزى ، والأمير جمال الدين أقش الشمسى وغيرهم فى نحو ألفى فارس ، فلما اتصل بهم خبر هذا الاختلاف رجعوا إلى دمشق فى شهر ربيع الآخر وقد موا عليهم الأمير جمال الدين أقش الشمسى . ووصل الأمير عز الدين أيدمر النائب بالشام إلى دمشق هو ومن معـه فخرج الأمراء الذين وصلوا من حلب يتلقونه . فلما التقوه سبه الأمـير ركن الدين الجالق والأمير عز الدين أزدمر العلائى وقالا له : « كيف فارقت السلطان » . فلما وصلوا إلى باب الجابية[1] أخذه الأمير جمال الدين أقش الشمسى إلى داره وقال له : « تكون بدارى إلى أن يرد مرسوم السلطان، ولا تكون سبب إقامة فتنة» . فتوجه معـه إلى داره فأقام عنده إلى عشية النهـار ، وجاء الأمـير ركن الدين الجالق وأزدمر العـلائى إلى الأمـير جمال الدين أقش الشمسى بعد صـلاة العصر وأخذا الأمـير عز الدين النائب من عنده وتوجها به إلى القلعـة وسلماه إلى الأمير علم الدين سنجر الدوادارى فتسلمه منهما وجعله بقاعة البحرة، ورسم عليه ومكنه من دخول الحمام . فجاء الأميران إلى القلعة فى يوم الاثنين بعد

(١) هو أحد أبواب دمشق (راجع النجوم جـ ٧ ص ٢٨٧ حاشية ١) .

العصر واجتمعا بالدوادارى وأنكرا عليه كونه مكنه من دخول الحمام ، وقالوا : « تسلمه إلينا نتوجه به إلى الديار المصرية » ، فقال : « إنه ما جاءنى ولا جاء كم مرسوم بالقبض عليه . وقد قبضتم عليه ووصل إلى عندى ، فكيف أسلمه إليكما وبأى عذر اعتذر إلى السلطان » . فأغلظوا له فى القول . فلما أنكر حالهم وثب من بينهما وأمر رجاله بالقلعة بغلق أبوابها . فوثب الأميران وجردا سيوفهما وخرجا على حمية ، وأغلق الدوادارى باب قلعة دمشق .

هذا ما كان بالشام .

أما الملك السعيد فانه لم يبق معه من الأمراء الأكابر إلا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير علم الدين الحلبى ، والبقية من المماليك السعيدية ، كلاجين الزينى ومن يجرى مجراه ، فلما وصل إلى قرب المطرية فارقه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وانفرد عنه وعن الأمراء .

قال : ولما بلغ الأمراء أن السلطان يقصد طلوع القلعة من وراء الجبل الأحمر ركبوا ليمنعوه من الوصول إلى القلعة ، فجاء سحاب أسود وأظلم الوقت حتى أن الإنسان لا يرى رفيقه الذى يسايره ، فطلع السلطان إلى القلعة ، وما رآوه . ولما استقر بها حاصره الأمراء وأحاطوا بالقلعة ، واتفق أن لاجين الزينى أنكر على الأمير سيف الدين بلبان الزريقى وشتمه ، فتغير خاطره ونزل من القلعة وانحاز إلى الأمراء ، وتسلل المماليك من القلعة واحدا بعد واحد ونزلوا إلى الأمراء . وأشار الأمير علم الدين سنجر الحلبى على السلطان بالإفراج عن المعتقلين ، فأفرج عن الأمراء الشهرزورية وغيرهم ، واستشار السلطان الأمير المشار إليه فيما يفعل ، فقال : « أرى أن آخذ المماليك السلطانية وأهجم بهم على الأمراء وافرق شملهم » . فلم

يوافقه على ذلك وتمادى الأمر أسبوعا ، فأرسل السلطان إلى الأمراء وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه من الملك . فالتمس من الأمير سيف الدين قلاون والأمير بدر الدين بيسرى أن يعطوه قلعة الكرك، فأجاباه إلى ذلك . ونزل من القلعة بعد أن حلفوه ألا يتطرق إلى غيرها وأن لا يكاتب أحدا من النواب ولا يستميل أحدا من الجند . وحلفوا له أنهم لا يؤذونه فى نفسه ولا يغيرون عليه . وسفروه لوقته صحبة الأمير سيف الدين بيغان[1] الركنى وجماعة يوصلونه إلى الكرك. فأوصلوه إليها وتسلمها من الأمير علاء الدين أيدكين الفخرى النائب بها ، وتسلم ما بها من الأمـوال والذخائر . وكان خروجه من السلطنة فى شهر ربيع الآخر سنة ثمـان وسبعين وستمائة . فكانت مدة سلطنته بعد وفاة والده سنتين وشهرين وأياما .

ثم ملك بعـده أخوه السلطان الملك العادل بدر الدين سُلامش[2] بن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيـبرس الصالحى وهو السادس من ملوك دولة الترك بالديار المصرية .

ملك بعـد خلع أخيه السلطان الملك السعيد فى شهر ربيع الآخر سـنة ثمـان وسبعين وستمائة . وذلك أنه لمـا سُفِّر الملك السعيد إلى الكرك عرضت السلطنة على الأمير سيف الدين قـلاون فأبى ذلك ، وقال : « لم أخلع الملك طمعا فى السلطنة إلا حفظا للنظام ، وألفـةً لأكابر الأمراء أن يتقـدم عليهم الأصاغر ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى النجوم بيدغان « بالدال لا بالباء » (النجوم جـ ٧ ص ٢٧٠ س ١١٦ ص ٢٧٤ س ١) .

(٢) ضبط الاسم بفتح السين أو ضمها وبكسر الميم أو ضمها نقلا عن النجوم (جـ ٧ ص ٢٨٦ حاشية ٢) .

والأولى ألا تخرج السلطنة عن الذرية الظاهرية ، فأقام بدر الدين سلامش هذا وله من العمر سبع سنين ، وخطب له على المنابر ، وضربت السكة باسمه ، ودبر الأمر سيف الدين قلاون أتابكية الدولة . ولم يكن للملك العادل معه غير مجرد الاسم . وأقر الصاحب برهان الدين السنجارى[1] على الوزارة وعزل قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن زين على القضاء بالديار المصرية ، وفوضه إلى القاضى صدر الدين عمر بن قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وذلك فى جمادى الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة . وعزل القاضى شمس الدين بن شكر المالكى ، والقاضى معز الدين الحنفى عن القضاء . ثم أعيدا بعد مدة يسيرة . وفوض قضاء الحنابلة للقاضى عز الدين المقدس الحنبلى . واستناب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بالشام وسيره إلى دمشق . وكان وصوله إليها فى يوم الأربعاء ثانى جمادى الآخرة . وحال وصوله طلب الأمير علم الدين سنجر الداوادارى نائب قلعة دمشق وأمره بتسليم القلعة للأمير سيف الدين الصالحى . حسب مارسم به ، فتسلمها واستمر نائبا بها .

وفى يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة أمر الأمير شمس الدين بالقبض على الصاحب فتح الدين ابن القيسرانى وإيقاع الحوطة على موجوده وسير إلى الأبواب السلطانية تحت الإحتياط .

قال : وأخذ الأمير سيف الدين قلاون فى القبض على الأمراء الظاهرية[2]

---

(١) هو الصاحب برهان الدين أبو محمد الخضر بن الحسن بن على السنجارى الشافعى (النجوم ج ٨ ص ٧٢ ، ص ١٣) .

(٢) من القبض على الأمراء الظاهرية ، راجع النجوم (ج ٧ ص ٥٨ ص ٢٩٢ ص ٩) .

وهو فى أثناء ذلك يدير الأحوال ويفرق الأمـوال ويوس الممالك ويمهد لنفسه المسالك .

وأما الأمير بدر الدين بيسرى فإنه إشتغل بالشرب واللهو . فاجتمعت آراء الأمراء على استقلال الأمير سيف الدين قـلاون بالسلطنة ، فأجابهم إلى ذلك ، وخلع الملك سلامش من السلطنة . فكان (كذا) مدة وقوع اسم السلطنة عليه مائة يوم[1] .

وكان حسن الصورة ، جميل الهيئة ، كثير السكون والحياء والعقل والأدب والتأنى على صغر سنه .

* * *

(١) نفس المسألة يرم فى النجوم (ج ٧ ص ٥٥ حاشية ١) .

نجز السفر الثامن والعشرون من كتاب

نهاية الأرب فى فنون الأدب

على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم البكرى التميمى القرشى ، عرف بالنويرى عفا الله عنه .

ووافق الفراغ من كتابته فى يوم السبت المبارك التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة خمس وعشرين وسبعمائة للهجرة النبوية .

وذلك بالقاهرة المعزية عمرها الله تعالى بالإسلام والسنة إلى يوم الدين .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول السفر التاسع والعشرين منه :

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الألفى الصالحى النجمى

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فهرس موضوعات الجزء الثلاثون

من كتاب نهاية الأرب للنويرى

تقـــديم ٥

سنة ثمـان وخمسين وستمائة ١٣ — ١٥

ذكر أخبار السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ... ١٣

سنة تسع وخمسين وستمائة ١٧ — ٥١

ذكر تفـويض الوزارة إلى الصاحب الوزير بهـاء الدين على بن القاضى سديد الدين أبى عبد الله محمد بن سليم المعروف بابن حنا ١٨

ذكر القبض على جماعة من الأمراء المعزية ١٨

ذكر تفويض قضاء القضاء بالديار المصرية لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ١٩

ذكر ما اعتمده السلطان فى ابتداء سلطنته ورتبه من المصالح وقرره من القربات والأوقاف والعمائر ٢٣

ذكر بنـاء قلعـة الجزيرة ٢٣

ذكر وصـول من يذكر من المـلوك إلى خدمة السلطان ، وما قرره لكل منهم وما عاملهم به من الإحسان ٢٦

ذكر وصول الخليفة المستعصم بالله إلى الديار المصرية ومبايعته وتجهيزه بالعساكر إلى بلاد الشرق وما كان من أمره إلى أن قتل ٢٨

ذكر استيلاء الأمير علم الدين سنجر الحلبي على دمشق وسلطنته بها ، وأخذها منه وتقرير نواب السلطان بها ٣٨

ذكر ما اتفق بحلب من أمر النيابة ٣٩

ذكر وصول طائفة من التتار إلى البلاد الإسلامية ، وما فعلوه بحلب وتقدمهم إلى حمص وقتالهم وانهزامهم ، وما كان من خبر عودهم ... ٤٠

ذكر الغلاء الكائن بحلب ٤٣

ذكر اختلاف العزيزية والناصرية ، ومفارقة الأمير شمس الدين أقش البرلى البلاد ، وتولية الحلبي نيابة حلب وعزله ، وعود البرلى إليها وخروجه منها ، ونيابة البندقدار وعود البرلى إليها ثانية وخروجه ٤٣

ذكر ما اتفق للسلطان بالشام فى مدة مقامه بدمشق ٤٦

ذكر ركوب السلطان إلى الميدان بدمشق ولعبه بالكرة ومن كان فى خدمته من الملوك ٤٦

ذكر الصلح مع ملوك الفرنج ٤٧

ذكر الغارة على العرب والفرنج ٤٨

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية ٤٩

ذكر أخذ الشوبك ٤٩

سـنة ستين وستمائة ٥٣ — ٧٧

ذكر وصـول الأمير شمس الدين سـلار البغدادى وشىء من أخباره ٥٤

ذكر عود رسل السلطان من جهة الأنيرو ٥٦

ذكر عود رسـل السلطان من جهـة صاحب الروم ووصول رسله إلى السلطان ، وما قرره السلطان من بلاده ٥٦

ذكر عود رسل السلطان من جهة الأشكرى ، وخبر مسجد القسطنطينية ٥٨

ذكر حضور الأمير شمس الدين أقش البرلى العزيزى إلى الديار المصرية ٥٩

ذكر القبض على علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب السلطنة بالشام ٦٠

ذكر وصـول جماعة من التتار إلى خدمة السلطان ٦٢

ذكر إنفاذ الرسـل إلى الملك بركة ٦٤

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير جمـال الدين النجيبى الصالحى ٦٥

ذكر وفاة شيخ الإسلام عز الدين أبى محمد بن عبد العزيز بن عبد السلام ابن أبى القاسم بن الحسن بن أبى محمد السلمى الدمشقى وشىء من أخباره ٦٦

سنة إحدى وستين وستمائة ٧٩ — ٩١

ذكر البيعة للإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد العباسى ٧٩

ذكر القبض على الملك المغيث صاحب الكرك واعتقاله ٧٩

ذكر أخذ الكرك ٨٢

ذكر القبض على الأمراء وهم : الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير شمس الدين أقش البرلى ، والأمير عز الدين الدمياطى وما نقل من الأسباب الموجبة لذلك ٨٤

ذكر وصول رسل الملك بركة ٨٧

ذكر توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية... ... ... ٨٨

ذكر وصـــول التتار المستأمنين ٨٩

سنة اثنتين وستين وستمائة ٩٣ — ١١٠

ذكر تفويض أمر جيش حماة إلى الطواشى شجاع الدين مرشد الحموى ٩٣

ذكر عمارة المدرسة الظاهرية وترتيب الدروس ٩٣

ذكر وفاة الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص والرحبة ٩٤

ذكر جلوس السلطان بدار العدل وما رتبه عند غلو الأسعار ٩٦

ذكر جلوسه بدار العدل وما قرره من مشاركة أمناء الحكم للأوصياء ٩٨

ذكر وصول جماعة من عسكر شيراز ٩٩

ذكر سلطنة الملك السعيد ١٠٠

ذكر ختان الملك السعيد ومن معه ١٠٣

ذكر خبر غازية الخناقة ١٠٣

ذكر وصول رسل الملك بركة ١٠٥

ذكر توجه السلطان إلى الإسكندرية وتقديم سيف الدين عطاء الله على عرب برقة ١٠٦

ذكر الواقعة الكائنة بين المسلمين والفرنج ببلاد الأندلس، وانتصار المسلمين ١٠٨

ذكر مقتل الزين الحافظى ١٠٩

سنة ثلاث وستين وستمائة ١١١ — ١٢٦

ذكر خبر الحريق بالقاهرة ومصر واتهام أهل الذمة، وما قرره عليهم من الأموال بسببه ١١٤

ذكر تفويض القضاة لأربعة حكام ١١٧

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأقرع ١٢٣

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الرومى وذنوبه السابقة ... ١٢٣

ذكر وفاة قاضى القضاة بدر الدين السنجارى وشىء من أخباره ... ١٢٤

سنة أربع وستين وستمائة ١٢٧ — ١٣١

ذكر عمارة جسر دامية ١٢٧

ذكر الوثوب على الأمير عز الدين الحلى وضربه بالسكين وسلامته وقتل الأمير صارم الدين المسعودى ١٢٩

سنة خمس وستين وستمائة ١٣٣ — ١٤٨

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية وبناء الجامع الظاهرى ... ١٣٣

ذكر إقامة الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة وشىء من أخباره ١٣٥

ذكر إنشاء القصر الأبلق بالميدان بظاهر دمشق ١٣٦

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعمارة قلعة صفد ١٣٧

ذكر وفاة قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، ونبـذة من أخباره رحمه الله ، ومن ولى قضاء الشافعية وغيره من مناصبه بعـد وفاته ١٤٠

ذكر وصول الشريف بدر الدين مالك بن منيف وإعطائه نصف إمرة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ١٤٦

ذكر تسـمير من يذكر بالقـاهرة ١٤٧

سـنة ست وستين وستمائة ١٤٩ — ١٥٦

ذكر أخذ الزكاة من عرب الحجاز ١٤٩

ذكر ظهور المـاء بالقدس الشريف ١٤٩

ذكر خبر الحبيس النصرانى ومقتله ١٥١

ذكر بناء القـرية الظاهرية قرب العباسة ١٥٢

ذكر إيقاع الحوطة السلطانية على الأملاك والبساتين وما تقرر على أربابها من المـال ١٥٢

ذكر وصـول الأمير شمس الدين سنقر الأشـقر من بلاد التتار . والصلح مع التكفور هيتوم صاحب سيس ١٥٣

سنة سبع وستين وستمائة ١٥٧ — ١٦٧

ذكر تجـديد الحلف للملك السعيد ١٥٧

ذكر توجه السلطان على خيـل البريد إلى الديار متنـكرا وعوده إلى مخيمه بخـربة اللصوص ولم يعلم من به بتوجهه ١٦١

ذكر وفاة الأمير عز الدين أيدمر الحلى الصالحى نائب السلطنة ١٦٥

ذكر توجه السلطان الملك الظاهر إلى الحجاز الشريف ١٦٦

سنة ثمـان وستين وستمائة ١٦٩ — ١٧٢

ذكر توجه السلطان إلى الشام جريدة ١٧٠

سنة تسع وستين وستمائة ١٧٣ — ١٨٣

ذكر القبض على الملك العزيز فخـر الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك والأمراء الشهرزورية ١٧٣

ذكر حادثة السـيل بدمشق ١٧٦

ذكر سفر الشوانى الإسلامية إلى قبرس وكسرها وأسر من كان بهـا وخلاصهـم ١٧٨

ذكر عـود السلطان إلى قلعته ووصول رسـل اليمن واهتمامه بأمر الشوانى ، وما أنعم به من الخلع والخيول على الأمراء والأجناد ١٧٩

ذكر القبض على من يذكر من الأمراء ١٨٠

سنة سبعين وستمائة ١٨٥ — ١٩٥

ذكر توجه السلطان إلى الكرك ثم إلى الشام وعزل الأمير جمال الدين النجيبى عن نيابة دمشق وتولية الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك نيابة السلطنة بالشام واسـتنابة الأمير علاء الدين أيدكن أسـتاد الدار بالكرك ١٨٥

ذكر عود السلطان من حلب ورجوعه إلى الديار المصرية وعوده إلى الشام ١٨٨

ذكر إيقاع الحوطة على القاضي شمس الدين الحنبلي واعتقاله ١٩٠

ذكر توجه السلطان إلى الصيد ثم إلى الشام ١٩١

سنة إحدى وسبعين وستمائة ١٩٣ — ٢٠٣

ذكر توجه السلطان إلى الديار المصرية على خيل البريد وعوده إلى الشام ١٩٣

ذكر اعتقال الشيخ خضر والأسباب التي أوجبت ذلك ١٩٨

سنة اثنتين وسبعين وستمائة ٢٠٣ — ٢٠٤

ذكر الطلسم الذي وجد بباب القصر بالقاهرة ٢٠٣

ذكر توجه السلطان إلى الشام ٢٠٥

ذكر وصول الملك شمس الدين بهادر صاحب شميصاط وشيء من أخباره ٢٠٧

ذكر الظفر بملك الكرج ٢٠٨

ذكر ختان الملك المسعود نجم الدين خضر ولد السلطان الملك الظاهر ٢١٠

ذكر نكتة غريبة ٢١٠

ذكر ورود كتاب متملك الحبشة ٢١١

سنة ثلاث وسبعين وستمائة ٢١٥ — ٢١٧

سنة أربع وسبعين وستمائة ٢١٩ — ٢٣١

ذكر شنق الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز وغيره ... ٢٢٠

ذكر متجددات اتفقت بعد وصول السلطان إلى الديار المصرية غير ما تقدم ذكره ٢٢١

ذكر توجه رسل السلطان إلى أشبيلية وما كان من خبرهم ٢٢٢

ذكر اتصال الملك السعيد بابنة الأمير سيف الدين قلاون ٢٢٣

ذكر توجه السلطان إلى الكرك واستبداله بمن فيها من الرجال وعوده ٢٢٧

سنة خمس وسبعين ومستمائة ٢٣٣—٢٣٧

ذكر وصول جماعة من أمراء الروم إلى خدمة السلطان وطاعتهم له ٢٣٣

ذكر ظهور المسجد بجوار دير البغل ، وإقامة شعائر الإسلام به ... ٢٣٥

غزوات السلطان الملك الظاهر

وفتوحاته وما استولى عليه من البلاد الإسلامية

ذكر ما استولى عليه من القلاع والحصون والبلاد الإسلامية وأضافه إلى ممالكه ٢٣٩

ذكر فتوح سواكن ٢٣٩

ذكر فتوح خيبر ٢٤٠

ذكر فتوح قرقيسيا ٢٤١

ذكر فتوح بلاطنس وخبرها ٢٤٢

ذكر تسليم صهيون وبرزية ٢٤٣

ذكر أخبار الإسماعيلية وابتداء أمرهم والإستيلاء على حصونهم ... ٢٤٤

ذكر استيلاء السلطان على بلاد الإسماعيلية وشيء من أخبارها ... ٢٤٧
ذكر فتوح العليقة والرصافة ٢٤٩
ذكر فتوح بقية حصون الدعوة ٢٥٠
ذكر أخبار هذه الحصون ٢٥٢
ذكر غزوات السلطان وفتوحاته وما وقع من المصالحات والمهادنات ٢٥٥
ذكر مسير السلطان إلى عكا... ... ... ٢٥٧
ذكر قصد متملك الأرمن حلب المحروسة... ... ... ٢٥٩
ذكرة محاصرة التتار البيرة وتجريد العساكر وانهزام العدو ٢٦٢
ذكر الفتوحات بالبلاد الفرنجية فى هذه السفرة ٢٦٥
ذكر فتوح قيسارية ٢٦٦
ذكر التوجه إلى عثليث وأخذ حصن الملوحة وحيفا ٢٦٧
ذكر فتوح أرسوف ٢٦٨
ذكر ما ملكه السلطان لأمرائه من النواحى التى فتحها الله على يده ٢٧٢
ذكر قصد البرنس صاحب طرابلس حمص وانهزامه ٢٨١
ذكر إغارة العساكر على طرابلس الشام وفتح قلعة حلبا وقلعة عرقا ٢٨٢
ذكر إغارة العسكر على صور ٢٨٤
ذكر فتوح صفد ٢٨٥
ذكر غزوة سيس وأسر ملكها وقتل أخيه وعمه وأسر ولد عمه ... ٢٩٠

ذكر قتل أهل قارا وسبي ذراريهم ٢٩٢

ذكر وقعة مع الفرنج كانت النصرة فيها للمسلمين ٢٩٤

ذكر إغارة السلطان على عكا ٢٩٥

ذكر الصلح مع بيت الإسبتار على حصنى الأكراد والمرقب ٢٩٧

ذكر فتوح يافا ٢٩٨

ذكر فتوح شقيف أرنون ٣٠١

ذكر توجه السلطان إلى طرابلس وإغارته عليها ٣٠٤

ذكر فتوح أنطاكية ٣٠٥

ذكر ملخص أخبار أنطاكية ٣١١

ذكر ما أعتمده السلطان فى قسمة غنائم أنطاكية و إحراقه قلعتها .
وما افتتحه مما هو مضاف إليها وهو : دير كوش وشقيف كفر دنين
وشقيف كفر تلميس ٣١٧

ذكر صلح القصير على المناصفة ٣١٩

ذكر فتوح حصن بغراس من الديوية ٣١٩

ذكر الإغارة على صور ٣٢٠

ذكر الإغارة على بلاد كركر وأخذ قلعة شرموشاك ٣٣١

ذكر الإغارة على عكا ٣٣١

ذكر فتوح قلعة صافيتا ٣٢٤

ذكر صلح أنطرطوس والمرقب ٣٢٨
ذكر فتوح حصن عكار ٣٢٩
ذكر صلح طرابلس ٣٣١
ذكر فتوح القرين ٣٣٢
ذكر صلح صور وما تقرر من المناصفة ٣٣٣
ذكر منازلة التتار البيرة وكسرهم على الفرات وقتل مقدمهم جنقر ٣٣٣
ذكر فتوح كينوك ٣٣٥
ذكر إغارة عيسى بن مهنا على الأبتار ٣٣٦
ذكر الإغارة على مرعش ٣٣٧
ذكر غزوة سيس ٣٣٧
ذكر شيء من أخبار بلاد سيس وسبب استيلاء الأرمن عليها ٣٤٠
ذكر منازلة حصن القصير وفتحه ٣٤١
ذكر وفاة الأبرنس صاحب طرابلس وما اتفق بعد وفاته ٣٤٣
ذكر غزوة النوبة... ... ... ٣٤٤
ذكر غزوات النوبة فى الإسلام ٣٤٨
ذكر غزوة الروم وقتل التتار ٣٥٠
ذكر رحيل السلطان عن قيسارية وهرب عز الدين أيبك الشيخى
ولحاقه بأبغا وعود السلطان إلى ممالكه ٣٥٧

ذكر ما اعتمده الأمير شمس الدين محمد بك بن قرمان أمير التركمان في البلاد الرومية... ... ... ٣٥٩

ذكر وصول أبغا إلى بلاد الروم ومشاهدته مكان الوقعة وما فعله بأهل الروم من القتل والنهب ٣٦١

العودة إلى سياقة أخبار السلطان الملك الظاهر ٣٦٢

سنة ست وسبعين وستمائة ٣٦٥ - ٣٨٤

ذكر وفاة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي رحمه الله تعالى ٣٦٥

مـــدة حكمـــه ٣٦٧

ذكر أخبار السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد بركه قاءان بن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار الصالحي وهو الخامس من ملوك دولة الترك ٣٦٩

ذكر وفاة بدر الدين بيليك الخزندار ٣٧١

ذكر القبض على من يذكر من الأمراء والإفراج عنهم ومن مات منهـــم ٣٧٢

ذكر عزل قاضي القضاة محيي الدين عبد الله بن محمد بن عين الدولة وإضافة عمله إلى قاضي القضاة تقي الدين بن زين ٣٧٥

ذكر وفاة الشـــيخ خضر وشيء من أخباره ٣٧٦

سنة سبع وسبعين وستمائة ٣٨٥ - ٣٩١

ذكر توجه السلطان إلى الشام وإقامته بدمشـق وتجريد العساكر ٣٨٥

ذكر أمر شاد الدواوين ٣٨٦

ذكر وفاة الأمير أقش النجيبى الصالحى ٣٨٧

ذكر وفـاة الصاحب بهـاء الدين ٣٨٨

ذكر وفاة مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب بهاء الدين عمر بن العديم ١٩٠

ذكر وفاة الشيخ العارف نجم الدين أبو المعالى محمد بن الخضر الشيبانى الحـــريرى ٣٩١

سنة ثمـان وسبعين وستمائة ٣٩٣ - ٤٠٠

ذكر عود الأمراء من الغزاة وظهور الوحشة والمنافرة بينهم وبين السلطان الملك السعيد وتوجيههـم إلى الديار المصرية ٣٩٤

ذكر وصول السلطان إلى قلعة الجبل وما كان من أمره إلى أن انخلع من السـلطنة ٣٩٥

فهـرس موضوعات الكتاب ٤٠٣

التعريف بمصطلحات المتن ٤١٧

التعريف بمصطلحات المتن (*)

أتابك :

أطلق هذا اللقب فى أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام ، على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعا ، وكان يسمى أتابك العساكر .

الأخوة الإسبتارية :

من الطوائف الدينية العسكرية ، وهى تدين للبابا مباشرة بالطاعة وزاد ما يجرى بذله لها من الأراضى ، وجعل لها معظم رجال الكنيسة عشر ما يرد إليهم من دخل .

الأخوة الداوية :

أو الفرسان الداوية ، وفكرة إنشاء هذه الطائفة فكرة دينية وعسكرية ، واتخذوا الصليب الأحمر شعارا لهم فجعله الفرسان على أرديتهم البيضاء واتخذه الأجناد على ستراتهم السوداء .

اردو :

لفظ مغولى معناه المعسكر .

أستادار (الأستدارية) :

هو الذى يتولى شئون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته وتنفذ فيه أوامره ، وهو فارسى مركب .

أمراء العربان :

فرقة من العساكر غير النظامية فى الجيش ، وكانت تؤلف طلائع الجيش النظامى . وهم مشاة أو فرسان .

(*) لوحظ أن بعض مصطلحات المتن تحتاج إلى مزيد من التعريف ، فتم حصرها والتعريف بها . ولمزيد من الايضاح راجع « التعريف بمصطلحات صبح الأعشى » للاستاذ محمد قنديل البقلى ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٨٤ م .

امير جاندار :

وظيفته أن يستأذن على دخول الأمراء الخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر .

أمير مجلس :

هو الذى يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم . ولا يكون إلا واحدا . ومن عمله أيضا أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير فى الترتيب وغيره .

البرواناه :

لفظ فارسى معناه فى الأصل الحاجب . وقد أطلق فى دولة السلاجقة الروم بأسيا الصغرى على الوزير الأكبر .

البريدى :

هو الذى يحمل البريد، وله رؤساء يسمون مقدمى البريد .

البشارة :

كثيرا ما يذكر المؤرخون هذه العبارة بعد إيراد حادث سار . والبشائر أيضا تعنى الرسائل التى كان السلاطين يبعثون بها إلى البلاد والأعمال فى الأعياد والمواسم والحوادث السارة .

البطاقة :

نوع من المكاتبات تحمل على أجنحة الحمام ، وتكتب على ورق خاص رقيق للغاية من صنف الورق الشامى يعرف بورق الطير .

بطريك :

لقب يكتب به عن الأبواب السلطانية للملوك المسيحيين والمتدينين منهم خاصة . وكان يكتب بهذا اللقب إلى رئيس الروم .

البقط :

يطلق البقط على المال الذى فرضه المسلمون على النوبة بعد فتحهم لها .

ويعرف المقريزى فى خططه البقط بقوله : « البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم » .

التركاش :

لفظ فارسى الأصل ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب .

التشاريف :

ملابس خاصة ينعم بها السلطان ، وهى على طبقات أعلاها ما هو مختص بالأمراء المقدمين من النواب وغيرهم .

التكفور :

لفظ أرمنى معناه المتوج ، وقد أطلقه الأرمن على ملوكهم .

التوقيع :

جاءت التسمية من التوقيع على حواشى القصص وظهورها كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كتاب الدست أو من جرى مجراهم بما يعتمد فى القضية التى رفعت القصة بسببها .

الجاشنكير :

هو الذى يتحدث فى أمر السماط مع الأستادار ويتذوق الشراب قبل السلطان فى الولائم والأسمطة خوفا من أن يدس فيه سم أو نحوه وهى كلمة فارسية مركبة من لفظين .

الجاندارية :

فئة من مماليك السلطان أو الأمير ، ووظيفته أن يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان .

جرائد الجند :

الجريدة الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها .

الجمدار :

موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ملابسه .

الجوكان :

هو المحجن الذى تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان أيضا ، واللفظ فارسى .

الجوكندار :

لقب يطلق على الذى يحمل الجوكان مع السلطان فى لعب الكرة .

الخاصكية :

هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف .

الخركاة :

الجمع خركاوات . وهى كالبيت تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة تغشى بالجوخ ونحوه وتحمل فى السفر لتكون فى الخيمة لتقى العسكر من البرد .

خشداش :

الخشداشية هم الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد ، فبنت بينهم رابطة الزمالة القديمة .

الدبوس :

آلة حربية ، وفى محيط المحيط « الدبوس هراوة مدملكة الرأس فى طرفها كتلة صغيره » .

الدربند :

تجمع دربندات ، لفظ فارسى ومن معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة .

الدوادار :

اسم فارسى مركب من لفظين ، أحدهما عربى ومعناه الدواة ، والثانى دا ومعناه ممسك . وصاحب وظيفة الدوادارية هو الذى يحمل دواة السلطان أو الأمير ويتولى أمرها مع ما يلحق ذلك من المهمات نحو تبليغ الرسائل عن السلطان أو الأمير وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد .

الركابية :

وهم الذين يحملون السلاح حول

الخليفة أو السلطان عند ركوبه فى المواكب ولهم زى خاص بهم .

الريدا فرنس :

لقب ملك فرنسا ، ولفظه : ريد تعريب للكلمة الفرنسية Roi بمعنى ملك .

الريدارغون :

لقب يلقب به الملوك من غير المسلمين ، وخاصة ملوك بلاد أرغون وهى البلاد الرومية . وقد ورد فى ألقاب صاحب القسطنطينية .

الزردخاناه :

دار السلاح ، وهى كلمة فارسية مركبة وتعنى أيضا السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب .

السلاح دار :

هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذى هو فى خدمته . ومن وظيفته أيضا الإشراف على السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك .

السماط :

معناه المائدة السلطانية ، أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين .

السنجق :

لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، والجمع سناجق ، وهى رايات صفر صغار يحملها السنجقدار .

شاد الدواوين :

كانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها وعادته أمرة عشرة .

الشوانى :

جمع شينى أو شينية وهى سفن حربية كبيرة وتجمع أيضا شون ويقابلها فى الفرنسية Galire ويظهر أن الشوانى كانت أكبر السفن الحربية فى مصر وأكثرها استعمالا .

الصاحب :

فى أصل اللغة اسم للصديق ، وهو من القلب الوزراء المدنيين اختصوا به دون العسكريين .

العلامة السلطانية :

هى ما يكتبه السلطان بخطه على صورة إصطلاحية ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .

القصة :

هى الطلب أو الإلتماس و يرفعها صاحب الحاجة أو الشكوى إلى السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصة دار .

القومص :

اسم ملك طرابلس من الإفرنج .

كاتب الجيش :

يعاون ناظر الجيش ، و يعاونه مجموعة من الكتاب .

كاتب الدرج :

هم الطبقة الثانية من موظفى ديوان الإنشاء وسموا كتاب الدرج لكتابتهم المناشير والتواقيع والتقاليد ونحو ذلك فى دروج الورق .

كاتب الدست :

هم الطبقة الأولى من موظفى ديوان الإنشاء وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان .

المراسيم السلطانية :

يكتبها مستوفى الصحبة و يعلم عليها السلطان وتصدر المراسيم السلطانية كذلك باعتماد الرسل .

مستوفى الصحبة :

يشارك الوزير ويوصى بإلزام الكتاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها ،

المنجنيق :

جمعها منجينقات وهى من أسلحة الحصار وقد عرفها المماليك وتقدمت صناعتها على أيديهم .

المهتار :

لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت .

النائب :

من موظفى الديوان يقوم برفع الحسابات أو الكتابة عليها .

الوالى :

هو الذى يشرف على الولاية ، ويقابل فى أيامنا (المحافظ) وكان الوالى يعين بمرسوم من السلطان ، وكان عمل الولاة الأساسى هو القيام بأعمال الشرطة وحفظ النظام .

اليزك :

ويجمع أيزاك ومعناها الطلائع .

مطبعة دار الكتب ١٠٨٧٥ / ١٩٩٠ / ٣٣٠٠

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤٥٧ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى ISBN 977 - 01 - 2445 - 1

مركز تحقيق التراث

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
٦٧٧ - ٧٣٣هـ

الجزء الحادي والثلاثون

تحقيق
د. الباز العريني

مراجعة
د. عبد العزيز الأهواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٤١٢هـ = ١٩٩٢م

أشرف على الطبع والتصحيح

أحمد صلاح زكريا

الباحث الأول بمركز تحقيق التراث

أشرف على الطبع والتصحيح

أحمد صلاح زكريا

الباحث الأول بمركز تحقيق التراث

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يسر مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب أن يقدم الجزء الحادى والثلاثين من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى .

وهذا الجزء يقابل الجزء التاسع والعشرين من مخطوطة كوبريللى المحفوظة بدار الكتب تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة .

وبالمخطوط اضطراب فى ترتيب الصفحات مما أدى إلى اختلال السياق بين الصفحات ٦٧ ، ٨٧ وقد أجرى ترتيب صفحات المخطوط بما يتفق مع الترتيب الزمنى للأحداث[1] . وبالمخطوط أيضا الكثير من الأخطاء اللغوية وقد جرى تصويبها بالمتن مع الإشارة إليها بالهامش .

ويشير النويرى إلى تاريخ تأليفه لهذا الجزء بقوله : « ..... إلى حين وضعنا لهذا الجزء ، وذلك فى سلخ شهر رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة »[2] .

كما يشير أيضا إلى ما اتخذه من نهج فى كتابته ، بأن يورد أولا ما وقع من أحداث بالغة الأهمية فى داخل المملكة ، ثم يذكر ما جرى من الغزوات والفتوحات ، حسب ترتيبها الزمنى ، ثم يشرح بعد ذلك حوادث السنين ، وما وقع فيها من الولاية والعزل والأخبار والوفيات إلى انقضاء الدولة المنصورية[3] .

---

(١) انظر ص ٢٣٥ من هذا الجزء .

(٢) انظر ص ٥٩ من هذا الجزء .

(٣) انظر ص ١٣ من هذا الجزء .

والنويرى فى كل ذلك لم يختلف عن ابن الفرات ، إلا فى ترتيب الأحداث ، أما المـادة التاريخية فتكاد تكون متطابقة .

والمعروف أن ابن الفرات عاش فى زمن لاحق لزمن النويرى ولعله نقل عنه ، أو استخدم مصدرا رجع إليه النويرى ولم يشر إليه ابن الفرات ، وسوف تجرى الإشارة إلى هذا التطابق فى مواضعه .

وهـذا الجزء يبدأ بذكر أخبار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى ، وهـو السابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية ، وجلوسه على تخت السلطنة بقلعـة الجبـل فى يوم الأحد العشرين من شهر رجب الفرد سنة ثمـان وسبعين وستمائة .

وينتهى بذكر وصول رسل غازان ملك التتار إلى البلاد الشامية ، وحضورهم بين يدى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بقلعة الجبـل عشية نهار الثلاثاء سادس عشر ذى الحجة سـنة سبعمائة ، وما وصـل على أيديهم من المكاتبـة وما أجيبوا به .

نسأل الله التوفيق والسداد ،،

مركز تحقيق التراث

جمادى الآخر ١٤١٢ هـ

ديسمـــبر ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

هو حسبي وكفى

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى

وهو السابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية . وهو من خالصة القفجاق[1]، من قبيلة برج أغلى[2] . وكان مملوك الأمير علاء الدين أقسنقر الساقى العادلى . اشتراه بألف دينار ، فعرف بالألفى . واتفقت وفاة أستاذه[3] فى الأيام الصالحية، فى يوم الجمعة ، الثامن والعشرين ، من شهر رجب ، سنة ثمان وسبعين وستمائة،

---

(١) القفجاق أو القبجاق ، فى بعض المصادر العربية ، فرع من الترك ، مساكنهم الأصلية حوض نهر إرتش ، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر إتل (الفلجا) فى جنوبى الروسيا الحالية ، فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق ، كما عرفت به دولة المغول المسماة بالقبيلة الذهبية .

انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ — ٤٦٨ .

المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٦٦٣ ، En. Isl. Art. Kipcak.

(٢) ضبط هذان اللفظان من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ١٤١ .

(٣) الأستاذ فى المصطلح المملوكى ، هو السيد الذى ينتمى إليه المملوك و ينتسب إليه ، ولذا يعتبر تاجر المماليك أول أستاذ للمملوك الذى يجلبه من خارج الدولة المملوكية . وينتقل المملوك من أستاذ إلى آخر ، غير أن أهم الأساتذة هو الذى يستقر المملوك فى حوزته بالشراء ، و يظل حتى عتقه ، و يرتبط المملوك بأستاذه الذى اعتقه بروابط وثيقة ، و يظل وفيا مخلصا له حتى آخر يوم فى حياته .

انظر العريفى : الفروسية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ص ١٨٠ — ١٨١ .

فارتجع إلى المماليك السلطانية[1] هو وجماعة من خشداشيته[2] ، فهم يعرفون بالعلائية .

وكان السلطان الملك المنصور هذا ، فى جملة البحرية الذين خرجوا من الديار المصرية ، بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاى . ثم تنقلت به الحال إلى هذه الغاية . ملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وما مع ذلك . وجلس على تخت السلطنة ، بقلعة الجبل ، فى يوم الأحد ، العشرين من شهر رجب الفرد ، سنة ثمان وسبعين وستمائة . واستحلف[3] الأمراء والمقدمين ، ومن جرت العادة باستحلافه . وخُطب له على المنابر ، وكتب إلى دمشق ، وإلى سائر الممالك يخبرهم بذلك . فوصل البريد إلى دمشق فى الثامن والعشرين من الشهر . وساق

(١) المماليك السلطانية وهم أصلا جند السلطان الذين ينشأون فى الطباق ، ويتولى السلطان تربيتهم : ثم أصبحوا مؤلفين من أربع فئات : الأولى تشمل مشتريات السلطان المستقر فى الحكم ، ويطلق على الثانية المماليك السلطانية لانتماء أفرادها إلى السلاطين المتقدمين ، والثالثة ، السيفية ، وهى فئة المماليك الذين ينتمون إلى الأمراء السابقين ، والرابعة ، المماليك القراصنة أو القراتيس ، وهم الذين قضت الأحوال بعدم تأميرهم إلا بعد مدة طويلة ، قضوها فى الرق والجندية ، فى خدمة بعض السلاطين ، فعاشوا متمتعين بمكانة خاصة ، إذ أعتبروا فى منزلة أمراء الخمسات لقدم هجرتهم وصلتهم بالديوان ، واستحقاقهم للأمرات الكبيرة دون الوصول إليها .

انظر : العريفى ، الفروسية فى عصر سلاطين المماليك ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) الخشداش والخجداش ، معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش أى الزميل فى الخدمة أو الرق أو العتق . وكلما كثرت خشداشية أمير من الأمراء ازدادت مكانته .

انظر : العريفى ، الفروسية فى عصر سلاطين المماليك ص ١٨٤ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٨٨ حاشية ٣ ، وابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ، ص ١٨٣ .

(٣) فى الأصل واستخلف ، وما هنا من تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٢ .

[بعض مماليك الملك المنصور[1]] من باب الأسطبل السلطانى ، بظاهر قلعة الجبل إلى دمشق ، فى يومين وسبع ساعات . وحلف الناس له بالشام . وخطب له على منابر دمشق ، فى يوم الجمعة ثانى شعبان .

وكان من أول ما اعتمده السلطان عند جلوسه على تخت السلطنة ، أنه أمر بإبطال زكاة الدولية[2] ، بالديار المصرية ، وكانت قد اجحفت بالرعية . وأفرج عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم[3] الصالحى ، ورتبه فى نيابة السلطنة . فتولاها مدة يسيرة ، ثم استعفى منها فأعفاه ، وفوض نيابة السلطنة بعده ، لمملوكه الأمير حسام الدين طرنطاى ، وذلك فى يوم السبت الثالث والعشرين من شهر رمضان من السنة . وأقر الصاحب برهان الدين [السنجارى[4]] على الوزارة ، ورتب مملوكه الأمير علم الدين سنجر الشجاعى فى شد الدولة .

وكان أول ركوب السلطان الملك المنصور بشعار السلطنة ، فى يوم السبت

---

(١) مابين الحاصرتين جرت إضافته من ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٣١١ .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٦٤ ، والمواعظ والأعتبار جـ ١ ص ١٠٦ : وهى مال مقرر على كل مستخدم للدواليب (الآلات) فى الرى أو الغزل أو صناعة السكر انظر : المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٦٤ حاشية ٢

Quatremére: Histoire des Sultans Mamlouks del' Egypte. Vol. II I. P. 2 No 3.

(٣) فى الأصل الأقرم ، وماهنا هو الصواب نقلا من جميع المصادر العربية ، وسوف يجرى تصويبه فى كل المواضع ، دون الإشارة إلى ذلك .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٢ .

الثالث من شعبان . وكتب إلى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بركوبه ، والكتاب بخط القاضى تاج الدين بن الأثير ، جاء منه[١] :

ولا زالت أيامه بمحابها تهنى[٢] ، وترى من النصر ما كانت تتمنى ، وتتأمل آثارها فتملأها حسنا . وتشاهد من أماير الظفر مايوسع على العباد أمنا ، ويستزيد الحمد على ماوهب من الملك ، الذى أولى كُلاًّ مِنَّا مِنَّا .

المملوك يهدى من لطيف أنبائه ، ووظائف دعائه[٣] ، وما استقر من عوارف الله لديه ، وما حباه به من النعم ، التى ملأت يديه ، ما يستروح بنسيمه ، ويستفتح لسان الحمد بتقديمه ، وتزداد[٤] به مسرة نفسه[٥] وابتهاجها ،

---

(١) الملحوظ أن النطق يكاد يكون تماما بين عبارات النويرى وعبارات ابن الفرات . والمعروف ان ابن الفرات عاش فى زمن لاحق لزمن النويرى ، ولعله نقل عنه ، أو استخدم مصدرا رجع إليه النويرى ولم يشر إليه ، وسوف يرى الإشارة إلى هذا التطابق فى مواضعه . وسمى المقريزى (السلوك جـ ١ ، ص ٦٦٤) هذا القاضى باسم عماد الدين إسماعيل بن تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير ، وقد باشر أبوه أحمد الإنشاء بدمشق ، ثم بمصر للملك الظاهر بيبرس ، وهو من أسرة أقامت بحلب خدم أفراد منها السلاطين الأوائل للدولة المملوكية الأولى . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ٨٧ حاشية ٢ .

(٢) فى الأصل بمجابيها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٢ انظر ما يلى .

(٣) الملحوظ أن المؤلف جرى على إهمال الهمزات ، وأبدل بها حروفا محدودة مناسبة فى أواسط الكلمات ، وحذفها فى أواخرها . وقد أصلح كل ذلك بغير تعليق إلا إذا كان هناك مايدعو إليه . غير أن فى النسخة أخطاء جوهرية نتيجة لخطأ الناسخين وإهمالهم مما أخرج كلمات عديدة عن المعنى المقصود ، فقام المحقق على تصويبها ، بالإفادة من المصادر الأخرى .

(٤) فى الأصل يزدار ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ .

(٥) فى الأصل بنفسه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ .

وتزدان عقود السعود ، وإنما يزين اللآلئ فى العقود ازدواجها ، وتقوى به قوى العزائم ، وتمثله الأعداء فى أفكارها ، فتكاد تجر ذيول العزائم ، وتبعث الآمال على تمسكها بالنصر، وتظهر منه المحاب التى[1] لو قصدت الأقلام لحصرها ، لعجزت عن الحصر . وهو أن العلم الكريم ، قد أحاط بالصورة التى استقرت ، من دخول الناس فى طاعة المملوك ، واجتماع الكلمة عليه ، واستقلاله بأمر السلطنة المعظمة .

ولما كان يوم السبت ، الثالث من شعبان المبارك ، سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ركب المملوك بشعار السلطنة ، وأبهة الملك ، وسلك المجالس العالية ، الأمراء والمقدمون والمفاردة[2] والعساكر المنصورة ، من آداب الخدمة ، وإخلاص النية ، وحسن الطاعة كل[3] مادل على انتظام الأمر واتساق عقد النصر .

ولما قضينا من أمر الركوب وطرا[4] ، وأنجزنا للأولياء وعدا من السعادة منتظرا ، عدنا إلى قلعة الجبل المحروسة ، والأيدى بالأدعية الصالحة لنا مرتفعة ، والقلوب على محبة أيامنا مجتمعة ، والآمال قد توثقت بالعدل واستمراره ، والأبصار قد استشرفت من التأييد مطالع أنواره . وشرعنا من الآن فى أسباب الجهاد ، وأخذنا فى كل ما يؤذن ، إن شاء الله تعالى ، بفتح ما بأيدى العدو من البلاد .

---

(١) فى الأصل الذى ، وما هنا ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ .

(٢) المفاردة ، جمع مفردى ، فئة تختلف عن المماليك والأجناد ، وتؤلف جانبا من الحلقة السلطانية ؛ والمعروف أن الحلقة لفظ يطلق على جند السلطان الأيوبى ، من الأحرار والمماليك ؛ وظلت الحلقة جند السلطان المختارين أوائل عصر المماليك انظر : العرين . الفروسية ص ١٣٤

(٣) فى الأصل كما ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ .

(٤) فى الأصل وطراه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ .

ولم يبق إلا أن تثنى[1] الأعنة، وتسدد[2] الأسنة، ويظهر ما فى النفوس، من مضمرات المقاصد المستكنة .

[ورسمنا[3]] بأن تزين دمشق المحروسة ، وتضرب البشائر فى البلاد ، وأن يسمعها كل حاضر وباد، والله تعالى ، يجعل أوقاته بالتهانى مفتتحة ، ويشكر مساعيه ، التى ما زالت فى كل موقف ممتدحة ، إن شاء الله تعالى ، والحمد لله وحده .

ذكر عزل الصاحب برهان الدين السنجارى عن الوزارة، وتفويضها للصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان وغير ذلك .

وفى هذه السنة، فى السادس والعشرين، من شهر رمضان ، عزل السلطان، الصاحب برهان الدين الخضر السنجارى عن الوزارة ، ولزم مدرسة أخيه قاضى القضاة بدر الدين، بالقرافة الصغرى . واستوزر السلطان بعده، الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان .

وفيها ، فى شعبان ، رسم السلطان باعفاء تقى الدين توبة[4] التكريتى بيع[5] الخزانة بدمشق ، من هذه الوظيفة ، وأن يسامح بما عليه من البواقى[6] . وفوض إليه

(١) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ تثنى .

(٢) فى الأصل تشد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ .

(٣) ما بين الحاصرتين ، جرت إضافته من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ .

(٤) فى الأصل بويه التكريتى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ .

(٥) كذا فى الأصل ، وابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٣ ، ولم يتيسر معرفة المقصود بهذه العبارة ، وأشار المقريزى (السلوك جـ ١ ، ص ٦٦٥) ، إلى هذا الحادث على هذا النحو . وأعفى تقى الدين توبة التكريتى من البواقى ، وفوض إليه نظر الخزانة بدمشق .

(٦) البواقى لفظ اصطلاحى كان يطلق على ما يتأخر كل سنة عند الضمان والمتقبلين من مال الخراج المقريزى ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ، ص ٨٢ .

نظر الخزانة بدمشق فباشرها ، واستمر إلى خامس شوال منها . ثم فوض إليه وزارة الشام ، وخلع عليه خلع الوزراء .

وفيها ، فى أواخر شوال ، حضر الأمير عز الدين ايدمر الظاهرى ، من دمشق ، تحت الاحتياط ، وجرد معه جماعة ، فلما وصل إلى قلعة الجبل اعتقل [بها[1]] .

وفيها ، فوض السلطان نيابة قلعة دمشق لمملوكه الأمير حسام الدين لاجين السلاح دار ، وهو المعروف بلاجين الصغير ، فوصل إليها وسكنها ، وذلك فى العشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، فتخيل منه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، نائب السلطنة بالشام . وكان من خروجه من طاعة السلطان ، وسلطنته بدمشق ما نذكره .

وقد رأينا أن نذكر أخباره[2] ، وما كان من أخبار أولاد السلطان الملك الظاهر بالكرك فى هذا الموضع إلى آخر أخبارهم ، ليكون ذلك سياقة . ثم نذكر الغزوات والفتوحات فى الأيام المنصورية بجملتها ، على توال واتساق ، بمقتضى ما يقدمه التاريخ . ثم نشرح بعد ذلك حوادث السنين ، وما وقع فيها من الولاية والعزل والأخبار ، والوفيات ، إلى انقضاء الدولة ، على ما نقف على ذلك إن شاء الله تعالى فى مواضعه .

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٥٩

(٢) يشير النويرى إلى ما اتخذه من نهج فى كتابته ، بأن يورد أولا ما وقع من الأحداث بالغة الأهمية فى داخل المملكة ، ثم يذكر ما جرى من الغزوات والفتوحات ، حسب ترتيبها الزمنى ، ثم يشرح بعد ذلك حوادث السنين ، وما وقع فيها من الولاية والعزل والأخبار والوفيات إلى انقضاء الدولة المنصورية ، وهو فى كل ذلك لم يختلف عن ابن الفرات إلا فى ترتيب الأحداث ، أما المادة التاريخية فتكاد تكون متطابقة .

ذكر أخبار الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وخروجه عن طاعة السلطان ، وسلطنته بدمشق ، وما كان من أمره إلى أن عاد للطاعة ، ورجع الى الخدمة السلطانية

قد قدمنا أن السلطان الملك المنصور، فى زمن أتابكيته ، فى سلطنة الملك العادل [بدر الدين](١) سلامش ، جهزه إلى الشام ، نائبا عن السلطنة بدمشق ، وكان قد نقل الأمير جمال الدين أقش الشمسى من دمشق إلى نيابة السلطنة بحلب . فلما ملك السلطان الملك المنصور، واستقر بالسلطنة، خطر ببال الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، أن يستبد بسلطنة الشام ، ويصير الأمر على ما كان عليه فى أواخر الدولة الأيوبية . فجمع الأمراء الذين عنده ، وأوهمهم أن الأخبار وصلت إليه ، أن السلطان الملك المنصور قد قتل ، وهو يشرب الخمر(٢) . ودعاهم إلى طاعته ، واستحلفهم لنفسه . فأجابوه(٣) ، وحلفوا له ، وتلقب بالملك الكامل ، وركب بشعار السلطنة ، [وأبهة الملك](٤) ، بدمشق ، وذلك فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وسبعين وستمائة . وفى الوقت ، قبض على الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، نائب السلطنة بقلعة دمشق ، وعلى الصاحب

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٢

(٢) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٢ القمز .

والقمز نبيذ يعمل من لبن الخيل واللفظ تترى الأصل . انظر Dozy : Supp. Dict. Ar. وما به من المراجع .

Jame - Pool : A Historry of Egypt P. 273

(٣) فى الأصل فأجابوا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٢ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٢ .

تقى الدين توبة . وجهز الأمير سيف الدين بلبان الحبيشى[١] ، إلى سائر الممالك الشامية والقلاع ، ليحلف من بها من النواب وغيرهم . واستوزر الصدر مجد الدين أبا الفدا إسماعيل بن كسيرات [الموصلى[٢]] ، وجعل وزير الصحبة الصدر عز الدين أحمد بن ميسّر [المصرى[٣]] ، وانتقل بأهله من دار السعادة ، التى يسكنها نواب السلطنة [بدمشق[٤]] ، إلى القلعة . وأمر عند انتقال أهله ، بغلق باب النصر ، وفتح باب سر القلعة ، المقابل لدار السعادة ، بجوار باب النصر ، [ففعلوا ذلك[٥]] . فتطاير الناس له بأشياء ، وقالوا : أغلق باب النصر ، وانتقل من دار السعادة ، وسكن القلعة ، وولى وزارته ابن كسيرات ، فهذا لايتم أمره ، وكان كذلك .

ذكر التقاء العسكر المصرى والعسكر الشامى ، وانهزام عسكر الشام ، وأسر من يذكر من أمرائه فى المرة الأولى .

كان السلطان الملك المنصور ، قد جهّز الأمير عز الدين أيبك الأفرم إلى الكرك [على سبيل الإرهاب[٦]] ، عندما بلغه وفاة الملك السعيد ، على ماذكر ذلك ، إن شاء الله . فبلغ الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، أنه خرج من الديار

(١) فى الأصل الحبشى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ١٦٢ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ص ٦٨١ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٢ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٢ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٢ .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٧ .

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٧ .

المصرية ، فى طائفة من عساكرها ، فظن أنه يقصده . فكتب إليه ينهاه عن التقدم ، ويقول : « إنى مهدت الشام ، وفتحت القلاع ، وخدمت السلطان ، وكان الاتفاق بينى وبينه ، أن أكون حاكما على ما بين الفرات والعريش ، فاستناب أقوش[1] الشمسى بحلب ، وعلاء الدين الكبكى بصفد ، وسيف الدين بلبان الطباخى بحصن الأكراد . وآخر الحال أنه يسيّر إلىّ من يقصد مسكى[2] » .

واتبع سنقر الأشقر كتابه ، بتجريد العساكر . فلما وصل الكتاب إلى الأمير عز الدين الأفرم ، كتبت مطالعة[3] إلى السلطان ، وجهّز الكتاب [الذى أرسله سنقر الأشقر[4]] عطفها[5] . فكتب السلطان إلى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، وكتب إليه أيضا الأمراء خوشداشيته ، يقبحون عليه فعله ، ويحضونه على الرجوع إلى الطاعة . وتوجه بالكتب الأمير سيف الدين بلبان الكريمى العلائى خوشداشة[6] ، فوصل إلى دمشق فى ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وستمائة . فخرج إليه سنقر الأشقر ، وتلقاه وأنزله عنده ، بقلعة دمشق وأكرمه . ومع

---

(١) هذا الاسم يرد عادة بالرسمين أقش وأقوش فى جميع المصادر ، ولذا سوف يبقى على الصورة التى يرد بها فى المتن .

(٢) يطابق ما ورد فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٥٠ .

(٣) مطالعة ، المكاتبة الرسمية . انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ١٦ ، ابن عناتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٠ Dozy ; Supp . Dict . Ar.

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٨ .

(٥) عطف المقصود هنا أنه أرفق الكتاب .

(٦) هذا الاسم يرد فى الكتاب برسم ، خشداش ، وخوشداش وخجداش وكلها بمعنى واحد . انظر ما سبق . ص ٨ حاشية ٢ .

ذلك ، لم يصغ إلى قوله ، ولا رجع إلى ما أشار به خوشداشيته .

قال:[1] ولما وصل كتاب سنقر الأشقر إلى الأمير عز الدين الأفرم، رجع إلى غزة. وعاد الأمير بدر الدين الايدمرى من الشوبك، بعد أخذها، على ما نذكره، إن شاء الله تعالى ، فاجتمعا على غزة .

وجمع سنقر الأشقر العساكر، من حلب وحماه وحمص . واستدعى على الكبكى من صفد، والعربان من البلاد، وجهّز جماعة من عسكر الشام ، وقدم عليهم الأمير شمس الدين قراسنقر المعزى ،فتوجه إلى غزة . والتقوا هم والعسكر المصرى . فانكسر عسكر الشام ، وأسر جماعة من أعيان الأمراء ، منهم بدر الدين كنجك[2] الخوارزمى ، وبهاء الدين يحك الناصرى ، وناصر الدين باشقرد الناصرى ، وبدر الدين بيليك الحلبى ، وعلم الدين سنجر التكريتى ، [وسنجر البدرى][3] ، وسابق الدين سليمان صاحب صهيون، وسُيِّروا إلى السلطان، فأحسن إليهم ، وخلع عليهم ، ولم يؤاخذهم .

ذكر تجريد العساكر إلى دمشق، وحرب سنقر الأشقر وانهزامه ، وإخلائه دمشق ، ودخول العسكر المصرى[4] إليها

قال : ولما وصل خبر الكسرة ، إلى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، المنعوت بالملك الكامل ، بدمشق ، أخذ فى الأهتمام وجمع العساكر . وكتب

(١) الواضح أن النويرى ينقل عن مؤرخ سابق له ، ولم يشر إلى اسمه صراحة ، بل اكتفى بذكر لفظة قال . . وكل ما أورده النويرى ، فصله ابن الفرات .

(٢) فى الأصل كجحك ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٧٥ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٨ .

(٤) فى الأصل المنصورى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٩ .

إلى الأمراء الذين بغزة، [من جهة الملك المنصور][1] ، يعدهم ويستميلهم، وعين لكل منهم قلعة . وعسكر بظاهر دمشق . بجرّد السلطان ، الأمير علم الدين سنجر الحلبي ، والأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ، بالعساكر ومن معهما من مضافيهما . فاجتمعا بالأميرين عز الدين الأفرم ، وبدر الدين الايدمرى ومن معهما . وساروا، والمقدم عليهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي .

وكان سنقر الأشقر ، قد برز من قلعة دمشق ، بعساكر الشام فى ثانى عشر صفر ، سنة تسع وسبعين وستمائة ، ونزل بالجسورة . ووصل العسكر المصرى إلى الكسوة . وترتبت الأطلاب وتقدمت . والتقى العسكران بالجسورة ، فى خامس عشر الشهر . وعند اللقاء انهزم عسكر حماه والعسكر الحلبي . وانحاز جماعة من الشاميين إلى العسكر المصرى . وحمل [سنجر][2] الحلبي على سنقر الأشقر ، فانهزم لوقته . وصحبه من الأمراء الأخصاء به ، الأمير عز الدين ازدمر الحاج، والأمير علاء الدين الكبكى ، والأمير شمس الدين قراسنقر المعزى ، والأمير سيف الدين بلبان الحبيشى[3] . وكان [سنقر الأشقر][4] ، من عشية يوم الجمعة ، ثالث عشر صفر ، قد جهز أولاده وحريمه وحواصله إلى صهيون . فلما انهزم توجه به العرب إلى الرحبة[5] ، وكان من خبره ما نذكره .

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٩ .

(٢) الإضافة للتوضيح م

(٣) انظر ما سبق ص ١٥ ، حاشية ١ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٧٠ .

(٥) بشير ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، وبيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٥٢ ، إلى من قدم إلى سنقر الأشقر من أمراء العرب ، أمثال : الأمير أحمد بن حجى ، ملك العرب بالبلاد القبلية ، والأمير عيسى بن مهنا ، ملك العرب بالبلاد الشرقية ، والشمالية ، وهو الذى لازم خدمته ، ومر به بعد كسرته ، على بيوته ، ونزل به وبمن معه على الرحبة .

قال : ولما انهزم سنقر الأشقر غلقت أبواب المدينة[١] ، مخافة أن ينهبها العسكر المصرى . وامتنعت القلعة أيضا . ونزل الأمير علم الدين الحلبى بالقصر الأبلق ، بالميدان الأخضر ، وبات العسكر حوله إلى اليوم الثانى . فجاء الأمير سيف الدين الجوكندار[٢] ، وهو نائب القلعة ، من جهة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، إلى الأمير ركن الدين بيبرس العجمى الجالق ، والأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، والصاحب تقى الدين توبة ، وهم فى الاعتقال بالقلعة ، وحلّفهم أنهم لا يؤذونه إذا أخرجهم ، ولا يؤذون أحدا من مستخدمى[٣] القلعة ، وأمنوا الناس . وكان الأمير علم الدين [الحلبى][٤] قد نادى ظاهر دمشق بالأمان ، ثم فتح الأمير حسام الدين لاجين [المنصورى][٥] باب الفرج ، ووقف عليه ، ومنع العسكر المصرى من الدخول إلى المدينة خوفا أن يشعثوا[٦] . ثم نودى بإطابة قلوب الناس ، وأمر بالزينة ودق البشائر .

وكتب الأمير علم الدين سنجر الحلبى ، إلى السلطان بالنصر . وسير الأمراء الذين قبض عليهم ، فأحسن إليهم ، ولم يؤاخذهم . وتوجه بالبشائر إلى السلطان

---

(١) المقصود مدينة دمشق . ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٧١

(٢) يتكرر ورود هذا الاسم برسم الجوكان دار والجوكندار وكلاهما صحيح ، والجوكندار هو الذى يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة . والجوكان هو المحجن الذى تضرب به الكرة ، ويعبر عنه بالصولجان أيضا . وكانت الجوكان عصى مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع ورأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد على نصف ذراع . انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ، ص ٤٥٨

(٣) فى الأصل مستخدمين ، وما هنا هو الصواب لغويا ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٧١ المستخدمين بالقلعة .

(٤) الإضافة للتوضيح .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٧١ .

(٦) فى ابن الفرات جـ ٧ ، ١٧١ (يشغبوا)

الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، أمير سلاح ، فأنعم السلطان عليه . وأمّره بعشرة طواشية[1] . ثم كان من أمر دمشق وأخبار أهلها ، وما استقر من أمر النيابة بها ، ماذكره إن شاء الله تعالى ، فى حوادث السنين .

ذكر توجه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الى صهيون وتحصنه بقلعتها

قال : لما انهزم الأمير شمس الدين المشار إليه ، من دمشق ، كما تقدم توجه إلى الرحبة ، ففارقه أكثر من كان معه ، وامتنع الأمير موفق الدين خضر الرحبي ، النائب بقلعة الرحبة ، من تسليمها إليه . فعند ذلك كاتب أبغا بن هولاكو[2] ، ملك التتار ، يعرفه بما وقع بين العساكر الإسلامية من الاختلاف ، وحثه على قصد البلاد بجيوشه ، ووعده الانحياز[3] إليه ، والإعانة والمساعدة على ذلك وكتب إليه[4] ، الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ، بمثل ذلك وكان ماذكره إن شاء الله تعالى .

قال : وكان سنقر الأشقر ، لما تغلب على الشام ، كاتب نواب القلاع .

---

(١) الطواشية ، والمفرد طواشى ، ويقصد به هنا الجندى الفارسى ، ويتقاضى راتبا يتفاوت بين ٧٠٠ ، ١٠٠٠ دينار ، ويبلغ فى بعض الأحوال ١٢٠ دينارا . وله برك ، وغلام يحمل سلاحه فى الحرب . انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ، ص ٨٦

(٢) يقابل ماورد فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٥٤ .

(٣) فى الأصل الانحياز ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٩ ، ص ١٧ .

(٤) المقصود هنا أبغا أيضا .

فمنهم من أطاعه، ومنهم من امتنع عليه . وكان ممن أطاعه، نائب صهيون وبرزية[1] وبلاطنس والشغر وبكاس[2]، وشيزر وعكار[3] وحمص . فلما انهزم [سنقر الأشقر[4]]، جرّد السلطان خلفه جيشا صحبة الأمير حسام الدين [ايتمش[5]] بن أطلس خان . فبادر هو، وعيسى بن مهنا، بالهرب إلى صهيون، وذلك فى جمادى الأولى[6] من السنة المذكورة . وعاد ابن أطلس خان ومن معه ، واستمر سنقر الأشقر بصهيون .

ذكر انتظام الصلح بين السلطان الملك المنصور، وبين سنقر الأشقر، وما استقر بينهما، وانتقاض ذلك، وأخذ صهيون منه

وفى سنة ثمانين وستمائة ، انتظم الصلح بين السلطان الملك المنصور ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر . وذلك أن السلطان جرّد الأمير عز الدين أيبك الأفرم، والأمير علاء الدين كشتغدى[7] الشمسى إلى شيزر، فترددت الرسائل بين السلطان وبين سنقر الأشقر، وطلب منه تسليم شيزر، فطلب منه الشغر وبكاس،

(١) برزية ، حصن قرب اللاذقية ، على سن جبل شاهق . والرسم المثبت هنا هو ما تردده العامة ، والصحيح برزويه ، انظر ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ، ص ٥٦٥ .

(٢) فى الأصل الشعره، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ص ١٧٢ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٧ .

(٣) فى الأصل عكاره ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٧٢ عكا ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٧ ، و بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٤٥٤ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٧٢ .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٧٢ .

(٦) فى الأصل الأول ، وما هنا هو الصواب ، ولم يحفل الناسخ بأصول اللغة ولذا جرى تصحيح ما تصادف وقوعه من الأخطاء النحوية ، دون الإشارة إلى ذلك ، إلا إذا اقتضت الأحوال بالإشارة .

(٧) فى الأصل كشغدى ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٧ .

وكانتا قد أخذتا منه، وطلب معهما [فامية](١)، وكفرطاب [وأنطاكية](٢) وبلادها، فأجيب إلى ذلك. وتقرر أن يقيم [شمس الدين سنقر الأشقر](٣)، على هذه البلاد، [وعلى ما بيده قبل ذلك من البلاد، وهى صهيون وبلاطنس واللاذقية](٤) بستمائة(٥) فارس، لنصرة الإسلام، وإن الأمراء الذين معه، إن أقاموا عنده، يكونون من أمرائه، وإن حضروا إلى السلطان يكونون آمنين، ولا يؤاخذون.

وحضر عنده الأمير علم الدين سنجر الدوادارى، بنسخة اليمين على ما تقرر، فحلف السلطان على ذلك. وكتب له تقليدا بالبلاد، وسأل [سنقر الأشقر](٦)، أن ينعت بلفظ الملك، فما أجاب السلطان إلى ذلك، ونعت بالإمرة. وسير السلطان، الأمير فخر الدين [أباز](٧) المقرى [الحاجب](٨) فحلفه، وسير إليه السلطان من الأقمشة والأوانى والأنعام شيئا كثيرا. وانتظم الصلح والاتفاق.

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٠٩، والمقريزى: السلوك جـ ١، ص ٦٨٧.

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٠٩ والمقريزى: السلوك جـ ١ ص ٦٨٧.

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٠٩.

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٠٩.

(٥) فى الأصل، وفى ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٠٩ (ستمائة)، وما هنا من المقريزى: السلوك جـ ١، ص ٦٨٧ للتوضيح.

فالمعروف أن مرتبة أمير مائة كانت أعلا مراتب الأمراء فى دولة المماليك، ينال صاحبها إقطاعا يعيش عليه مائة فارس. وكلما تزايد عدد الفرسان، زاد إقطاع الأمير. وما يقصده الأمير سنقر الأشقر هنا، أن يعطيه السلطان من الاقطاعات ما يساوى إقطاعات ستة من أكابر الأمراء. (المقريزى: السلوك، جـ ١، ص ٦٨٧ حاشية ١).

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٠٩

(٧) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٠٩ والمقريزى: السلوك جـ ١، ص ٦٨٨

(٨) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٠٩ والمقريزى: السلوك جـ ١، ص ٦٨٨

وحضر مع السلطان فى مصاف[1] حمص، وعاد إلى صهيون على ما نذكره إن شاء الله تعالى ؛ واستمر ذلك إلى سنة أربع وثمانين وستمائة .

فلما حضر السلطان لحصار المرقب ، وهى بالقرب من صهيون ، لم يحضر الأمير شمس الدين إلى خدمة السلطان . فتنكر السلطان لذلك ، وحنق [عليه][2] بسببه . وأرسل سنقر الأشقر ولده ناصر الدين صمغار إلى خدمة السلطان يتلافى ذلك، فمنعه السلطان من العود إلى والده. واستمر إلى سنة ست وثمانين وستمائة. فجرد السلطان نائبه [بالديار المصرية][3] ، الأمير حسام الدين طرنطاى ، إلى صهيون ، فى جماعة كثيرة من العساكر ، فنازلها ، وراسله فى تسليمها ، وذكر له مواعيد السلطان له . فامتنع من ذلك ، فضايقه ، ونصب المجانيق حتى أشرف على أخذ حصن صهيون عنوة . فلما رأى [الأمير شمس الدين سنقر الأشقر][4] ذلك ، أرسل فى طلب الأمان والأيمان . فحلف له الأمير حسام الدين طرنطاى، إن السلطان لا يضمر له سوءا . فنزل إلى الأمير حسام ، وسلّم إليه الحصن . فأخبرنى[5] من ذكر أنه شهد كيف كان نزوله إليه، وما عامل كل منهما الآخر به ،

---

(١) فى الأصل مصنف ، وما هنا هو الصحيح . فالمعروف أن سنقر الأشقر ، اشترك مع السلطان المنصور قلاوون فى قتال التتار عند حمص فى هذه السنة ، ٦٨٠ هـ (انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٩٣).

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٩ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٩

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٩ .

(٥) اورد ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٩ العبارة على النحو التالى . . حكى من ذكر أنه شهد كيف نزولا . والرواية مطابقة لما أورده النويرى ، ولم يختلف عنه إلا فى تغيير الضمير . وفى ذلك دليل على اتفاقهما فى مصدر واحد .

فقال: بينما الأمير حسام الدين جالس فى خيمته، إذ قيل له، هذا الأمير شمس الدين قد جاء. فوثب وأسرع المشى، وخرج إليه وتلقاه، فترجل الأمير شمس الدين. وخلع الأمير حسام الدين قباء كان عليه، وبسطه على الأرض، ليمشى الأمير شمس الدين عليه. فرفعه الأمير شمس الدين عن الأرض، وقبّله ولبسه. فأعظم الأمير حسام الدين طرنطاى ذلك، وعامل الأمير شمس الدين بأتم الخدمة وغاية الأدب. ورتّب فى الحصن نائبا وواليا ورجّاله. وسار هو والأمير شمس الدين إلى الديار المصرية. فلما قرب من قلعة الجبل، ركب السلطان وولداه الملك الصالح علاء الدين على، والملك الأشرف صلاح الدين خليل، وأولاد الملك الظاهر، والعساكر. وتلقاه الأمير شمس الدين وتعانقا، وطلعا إلى القلعة، وحمل السلطان إليه الخلع والأقمشة والحوائص الذهب والتحف، وساق إليه الخيول، وأمّره بمائة فارس، وقدّمه على ألف. واستمر فى الخدمة السلطانية، من أكابر أمراء الدولة.

فهذا ما اتفق له، فى خروجه وعوده على سبيل الاختصار. ثم كان من أخباره بعد ذلك، ما نذكره إن شاء الله تعالى فى مواضعه. فلنذكر حال الملك السعيد وأخيه المسعود.

ذكر خبر الملك السعيد
وما كان من أمره بالكرك واستيلائه
على الشوبك واستعادتها منه.

قال المؤرخ[1]: لما توجه الملك السعيد إلى الكرك، كان السلطان الملك

(١) لازال النويرى يشير إلى المصدر الذى أخذ عنه، دون أن يذكر صراحة اسم المؤلف وعنوان الكتاب، على أنه يلجأ عادة إلى تلخيص الرواية، بينما حرص ابن الفرات على الاسهاب والتفصيل؛ واكتفى هنا بان قال: قال المؤرخ.

المنصور، قد شرط عليه، أنه لا يكاتب الأمراء، ولا يفسد العساكر، ولا يتطرق إلى غير الكرك. فلما استقر بها حركه مماليكه، وحسنوا له التطرق إلى الحصون وأخذها، أولا فأولا، فوافقهم على ذلك. وكاتب النواب وصير الأمير حسام الدين لاجين، رأس نوبة الجمدارية، إلى الشوبك، فتغلب عليها، وأقام بها. فكاتبه السلطان الملك المنصور، ونهاه فلم ينته، فجرد الأمير بدر الدين بيليك الايدمرى إلى الشوبك، فنزل عليها، وضايق أهلها، وتسلمها فى العاشر من ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة، ورتب بها نائبا وعاد عنها.

ذكر وفاة الملك السعيد، وقيام أخيه الملك المسعود خضر مقامه بالكرك.

قال[1]: وفى سنة ثمان وسبعين وستمائة، ركب الملك السعيد، إلى الميدان بالكرك، ولعب بالكرة، فتقنطر عن فرسه، فصدع وحمّ [أياما قلائل][2]، فمات. وكانت وفاته، رحمه الله تعالى، فى ثالث عشر ذى القعدة، من السنة.

وعمل السلطان الملك المنصور له عزاء، بقلعة الجبل، فى الثانى والعشرين من الشهر. وحضره وعليه ثياب البياض، وحضر الأمراء والقضاة والعلماء، والوعاظ. ولما توفى صُبِّر، ووضع فى تابوت مدة، ثم حمل إلى التربة الظاهرية بدمشق، وذلك فى سنة ثمانين وستمائة، ووصلت والدته إليها فى ثامن

(١) يكتفى النويرى بالإشارة إلى مرجعه، بأن يورد لفظة « قال ».

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ١٦.

عشرين شهر ربيع الآخر ، والسلطان الملك المنصور يوم ذاك بالشام . فادخل التربة الظاهرية ليلاقى تابوت ، ولم يدخلوا به من باب المدينة ، وإنما رفعوا تابوته من أعلا السور ، ودلّوه من الجانب الآخر ، ووضع فى قبرة ، وألحده القاضى عز الدين بن الصائغ ، كما ألحد والده .

وحضر السلطان الملك المنصور فى بكرة دفنه إلى التربة الظاهرية ، ومعه القضاة والعلماء والقراء والوعاظ ، وأظهر الحزن عليه ، وذلك فى سلخ شهر ربيع الآخر[1] . ومولده بمنزلة العش[2] ، من ضواحى القاهرة ، فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة .

قال[3] : وكان الملك السعيد ، لما استقر بالكرك ، رتب فى النيابة بها الأمير علاء الدين ايدغدى الحرانى الظاهرى ، لما فارقه الأمير علاء الدين الفخرى النائب بها إلى الديار المصرية . فلما مات اتفق [نائبه الأمير علاء الدين ايدغدى] الحرانى[4] ومن معه ، وأقاموا أخاه خضرا مقامه ، ولقب بالملك المسعود . فشرع المماليك ، الذين حول الملك المسعود نجم الدين خضر ، فى سوء التدبير ، ففرقوا أموال الذخائر[5] ، وأرادوا أن يستجلبوا بها الناس ، وانضم إليه كل من قطع رزقه . وتوجه منهم جماعة إلى الصلت فاستولوا عليها ،

(١) هذه الرواية تتفق مع رواية ابن الفرات جـ٧ ، ص ٢١١ ، غير أن النويرى يحرص دائما على تلخيص ما يقع تحت يده من المصادر .

(٢) منزلة العش ، من ضواحى القاهرة (ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٩١) .

(٣) الراجح أنه يشير إلى المصدر الذى ينقل عنه .

(٤) ما بين المعقوفتين للتوضيح @

(٥) الذخائر ، المقصود بها هنا المؤن .

وأرسلوا إلى صرخد ، وقصدوا الاستيلاء عليها ، فعجزوا عن ذلك . وشرعوا فى استفساد الناس ، وتسامع بهم العربان والطماعة ، أنهم يبذلون الأموال ، فقصدوهم من كل الجهات، وهم يبذلون الأموال لمن يقصدهم و يصل إليهم. فكان جماعة من العربان وغيرهم يقصدونهم من أطراف البلاد ، و يجتمعون و يحضرون إلى الملك المسعود ، و يبذلون له الطاعة ، و يتقربون إليه بالنصيحة . فإذا وثق بهم ، وأنفق فيهم الأموال ، وحصلوا عليها ، و بلغوا الغرض مما راموه تسللوا وفارقوه ، وعادوا من حيث جاءوا وتفرقت جماعاتهم . وهو ومن عنده لايرجعون عن بذل المال لمن يصل إليهم ، إلى أن فنيت أكثر تلك الذخائر ، التى كانت بالكرك ، التى حصنها السلطان الملك الظاهر ، وجعلها بهذا الحصن ذخيرة لأوقات الشدائد ، فنفقوها فيما لا أجدى نفعا ، بل جلب ضررا ، وغلّت الخواطر . ثم كاتبوا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر[نائب السلطنة بدمشق][1] فى الموافقة [معهم][2] . واتصل ذلك بالسلطان ، فجرد الأمير عز الدين أيبك الأفرم إلى الكرك على سبيل الإرهاب . وكان بينه و بين الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ماقدمناه[3] .

ذكر الصلح بين السلطان والملك المسعود وانتقاض ذلك و إخراجه من الكرك .

وفى سنة ثمانين وستمائة، وردت رسل الملك المسعود إلى السلطان فى طلب الصلح ، والزيادة على الكرك ، وأن يكون له ما كان للناصر داود ، فلم يجبه

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٠

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ١٦٠ .

(٣) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٦٠ .

السلطان إلى ذلك ، ولا إلى إقامته بالكرك بالأصالة . وترددت رسائله إلى السلطان ، وسأل أن يقر بيده الكرك وأعمالها من حد الموجب[1] إلى الحسا[2] . فأجابهم السلطان ، وحلف لهم ، والتمسوا شروطا : منها تجهيز الإخوة الذكور والإناث ، أولاد الملك الظاهر إلى الكرك ، وردّ الأملاك الظاهرية عليهم ، وتمّ الصلح وحلف السلطان عليه .

وتوجه الأمير بدر الدين بيليك المحسنى السلاح دار ، والقاضى تاج الدين ابن الأثير ، إلى الكرك ، وحلفا الملك المسعود . وكوتب من ديوان الإنشاء ، كما يكاتب صاحب حماه ، واستمر الأمر على ذلك إلى سنة اثنتين وثمانين [وستمائة][3] ، فبلغ السلطان أنهم نقضوا ما كان قد تقرر . وحضر الأمير علاء الدين ايدغدى الحرانى ، نائب الملك المسعود بالكرك ، وأنهى إلى السلطان ما اعتمدوه ، مما يغلّب الخواطر . فكتب السلطان إلى الملك المسعود ومن معه ينهاهم عن ذلك ، فلم ينتهوا . فجرد إلى الكرك فى هذه السنة[4] الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، أمير سلاح ، وأمره بمراسلتهم ، فراسلهم ، فلم يرجعوا عن اعتمادهم ، فضايق الكرك ، ورعت خيول العسكر تلك الزراعات كلها ، ثم عاد عن الكرك .

وتراخى الأمر ، واستمر الملك المسعود بالكرك إلى سنة خمس وثمانين وستمائة . فجرد السلطان الملك المنصور ، الأمير حسام الدين طرنطاى ، نائب السلطنة ،

---

(١) الموجب ، وهو بلد بين القدس والبلقاء . (ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ، ص ٦٧٨ .

(٢) الحسا ، وهو واد قرب الكرك . Le Strange : Palestine Under Moslems P. 450.

(٣) الإضافة للتوضيح .

(٤) أورد ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١ ، هذا الخبر فى أحداث سنة ٦٨٣ .

بجيش كثيف ، وأمره بمنازلة الكرك ومحاصرتها[1] فتوجه إليها ، وأحضر آلات الحصار ، من الحصون الإسلامية ، وضايقها وقطع المسيرة عنها . واستدعى بعض الرجّالة[2] ، وأحسن إليهم ، فوافقوه[3] على الملك المسعود . فلما رأى الملك مسعود نجم الدين خضر ، وأخوه بدر الدين سلامش الحال على ذلك ، أرسل الملك المسعود إلى الأمير حسام الدين طرنطاى ، فى طلب الأمان ، فأمّنه عن السلطان . فقال لا بد من أمان السلطان وخاتمه . فطالع الأمير حسام الدين السلطان بذلك ، فأرسل السلطان بأمانه الأمير ركن الدين بيبرس الداوادار المنصورى ، فاجتمع بهما ، وأبلغهما أمان السلطان ، فنزلا من قلعة الكرك ، إلى الأمير حسام الدين طرنطاى ، وذلك فى صفر سنة خمس وثمانين [وستمائة[4]] .

فرتب الأمير حسام الدين ، عز الدين أيبك الموصلى المنصورى ، فى نيابة السلطنة بالشوبك منذ استعيدت من الملك السعيد .

ورحل الأمير حسام الدين طرنطاى ، وولدا الملك الظاهر صحبته ، فلما وصلوا إلى الديار المصرية ، وقربوا من قلعة الجبل ، ركب السلطان ، وتلقاهما وأقبل عليهما ، وطلعا إلى القلعة ، وذلك فى يوم الثلاثاء ثانى عشر ربيع الأول . وأمّر كلا منهما [إمرة[5]] مائة فارس . واستمرا يركبان معه فى الموكب والميدان ، ونزلهما[6] منزلة أولاده . ثم بلغه عنهما ما تنكر له ، فقبض عليهما واعتقلهما ، وبقيا فى الاعتقال فى أيام السلطان الملك الأشرف ، فسيرهما إلى القسطنطينية .

(١) فى الأصل وحصاراتها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٥ .
(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ص ٣٥ رجالة الكرك .
(٣) فى الأصل ، فوافقه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٥ .
(٤) الإضافة للتوضيح .
(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ص ٣٧ .
(٦) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٧ ، وأنزلهما .

هذا ما كان من أخبار هؤلاء المناوئين فى الملك، فلنذكر الفتوحات والغزوات، ونوردها فى الترتيب، على حكم السنين، إن شاء الله تعالى.

ذكر الفتوحات والغزوات التى شهدها السلطان بنفسه، والتى ندب إليها عساكره المؤيدة

ذكر[1] عبور التتار إلى الشام، والمصاف الذى وقع بينهم وبين العساكر المنصورة، بحمص وانهزام التتار.

قال المؤرخ[2]: وفى سنة ثمانين وستمائة، وردت الأخبار بدخول منكوتمر[3]، إلى بلاد الروم، بعساكر المغل، وأنه نزل بين قيسارية وابلستين، فتوجه كشافة من عين تاب، فوقعوا بفرقة من التتار بالقرب من صحراء هوتى[4]، الذى كسر الملك الظاهر التتار عليها. فظفروا منهم بإنسان يسمى حلتار بهادر[5] [أمير[6]] آخور أبغا ابن هولاكو، كان قد توجه لكشف المروج، فأمسكوه وأحضروه إلى السلطان

(١) هذا العنوان، يندرج تحت العنوان السابق الذى يتعلق بفتوحات السلطان المنصور قلاون وغزواته.

(٢) دأب النويرى على الإشارة إلى المصدر الذى استقى منه المعلومات، بما أورده من عبارات قال، وقال المؤرخ. وتطابق رواية النويرى مع رواية ابن الفرات (جـ ٧ ص ٢١٢ — ٢٥٣)، مما يدل على استقائهما من مصدر واحد.

(٣) فى الأصل من كوتمر، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢١٢. وهذا الرسم هو الذى يرد عادة فى المصادر العربية. وهو أخ أبغا بن هولاكو (المقريزى، السلوك جـ ١، ص ٦٩٠).

(٤) صحراء هوتى كذا فى الأصل، وفى المقريزى: السلوك جـ ١، ص ٦٢٨ وفى ابن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٥٩ صحراء البلستين، وهى الابلستين وهى مدينة ببلاد الروم اسمها الحالى البستان وهى قريبة من انيسوس. (ياقوت: معجم البلدان جـ ١، ص ٩٤).

(٥) فى ابن الفرات جـ ٧، ص ٢١٣ حلتار، واكتفى المقريزى: السلوك جـ ١، ص ٦٩٠، بأن أشار إلى أن كشافة السلطان أسروا من التتر شخصا، وبعثوا به إلى السلطان.

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢١٣.

إلى دمشق . فوانسه السلطان ، وسأله عن الأخبار ، فذكر أنهم فى عدد كثير يزيدون على ثمانين ألف فارس من المغل ، وعزمهم أنهم يقصدون البلاد ، قولا جزما ، ويركبون من منزلتهم أول شهر رجب .

ثم ورد الخبر فى جمادى الآخرة ، أنهم ركبوا من منزلتهم ، وأنهم يسيرون برفق ، وأن فرقة منهم توجهت صحبة أبغا إلى الرحبة ، ومعه صاحب ماردين ، فسير السلطان كشافة إلى الرحبة ، صحبة بجكا[1] العلائى . وركب السلطان من دمشق ، ووصل العدو المخذول إلى صوب حارم . وراسل السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأشقر عدة مراسلات ، إلى أن تقرر أنه ينزل من صهيون بمن معه للغزاة ، بشرط أن يعود إليها ، إذا انقضى المصاف . فنزل ووافى السلطان على حمص ، هو ومن كان عنده من الأمراء ، وهم ايتمش السعدى ، وازدمر الحاج ، وسنجر الداوادارى ، وبجق البغدادى ، وكراى ، وشمس الدين الطنطاش وابنه ، ومن معهم من الظاهرية . ففرح المسلمون بحضورهم ، وكان ذلك قبل المصاف بيومين .

ثم ورد الخبر أن منكوتمر على حماه بعساكر التتار ، فى ثمانين ألف ، منهم خمسون ألف من المغل ، وبقيتهم مرتدة وكرج[2] وروم وأرمن[3] وفرنج ، وأنه نفر

---

(١) فى الأصل نجكا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٣ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٩١ .

(٢) كانت فئة الكرج بقيادة ملكهم دمزى الثانى . انظر
Allen: A History of theGeorgian People P. 118 note 3.

(٣) كان الأرمن بقيادة ملكهم ليون — انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٩٢ حاشية ١ .

إليهم مملوك من مماليك الأمير ركن الدين بيبرس العجمى الصالحى الجالق، ودلهم على عورات المسلمين وأخبرهم بعددهم .

ورحلوا ليلة الخميس عن حماه ، ورتبوا جيشهم . فكان طرف ميمنتهم حماه، وطرف ميسرتهم[ ][1]، وساقوا طالبين اللقاء، والمقدم عليهم من قبل أبغا ، منكوتمر [بن][2] هولاكو ، أخو أبغا .

ورتب السلطان الملك المنصور عساكره، وبات المسلمون على ظهور خيولهم . واتفق أن شخصا من عسكر التتار، دخل حماه، وقال للنائب بها: «اكتب الساعة إلى السلطان، على جناح طائر، وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل فى القلب، منهم أربعة وأربعون ألف من المغل وهم طالبون القلب ، وميمنتهم قوية جدا ، فتقوى ميسرة المسلمين ، وتحترز على الصناجق» . فكتب النائب بذلك إلى السلطان . فلما قرأ الكتاب ركب عند إسفار الصباح ، فى يوم الخميس رابع عشر شهر رجب ، سنة ثمانين وستمائة ، وهو يوم اللقاء . ورتب العساكر المنصورة الإسلامية ، على ما نذكره، بمقتضى ما أورده الأمير ركن الدين بيبرس الداوادار المنصورى فى تاريخه[3] وهو :

---

(١) بعد ميسرتهم بياض بالأصل ، ولم يستطع المحقق بما لديه من المصادر التى اعتمدت فى شرح الوقعة ، أن يملأ هذه الفجوة ؛ ولم يرد فى ابن الفرات (جـ ٧ ، ص ٢١١) الذى تطابق روايته ما أورده النويرى ، واكتفى بالإشارة إلى الميسرة ، وكذا جرى بيبرس الدوادار ، فى زبدة الفكرة على نهج ابن الفرات .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٥ .

(٣) هذه العبارة واردة بنصها فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٥ ، وفى ذلك دليل على ما لجأ إليه ابن الفرات من النقل عن النويرى أو المصدر الذى استند إليه وهو بيبرس الدوادار . انظر ما يلى :

الميمنة المنصورة[١] ، فيها الملك المنصور صاحب حماه ، والأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى والأمير عز الدين أيبك الأفرم ، والأمير علاء الدين كشتغدى[٢] الشمسى ومضافوهم[٣] ، والأمير حسام الدين لاجين نائب الشام والعسكر الشامى . وفى رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا وآل فضل وآل مرى ، وعربان الشام ، ومن انضم إليهم .

الميسرة المباركة ، فيها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ومن معه من الأمراء ، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى ، والأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح ، والأمير علم الدين سنجر الحلبى ، والأمير بجكا العلائى ، والأمير بدر الدين بكتوت العلائى ، والأمير سيف الدين خبرك[٤] التترى ، ومن معهم من المضافين . وفى رأس الميسرة التركمان بجموعهم وعسكر حصن الأكراد .

ذكر الجاليش وهو مقدمة القلب[٥] ، فيه الأمير حسام الدين طرنطاى ، نائب السلطنة ، ومن معه من مضافيه ، والأمير ركن الدين اياجى[٦] الحاجب ، والأمير

(١) وردت العبارة بخط كبير ، على الصورة التى وردت فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ولذا جرى وضع خط تحتها .

(٢) فى الأصل السعدى ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٩٢ .

(٣) فى الأصل ومضافيهم ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٥ حبرك ، وفى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١١٤ ب جبرك .

(٥) الملحوظ أنه فى ترتيب العساكر فى الجيش ، أورد الناسخ بخط كبير اسم أحد كبار الأمراء ، بعد عنوان الوضع العسكرى الذى ينتمى إليه كالميمنة والميسرة والجاليش ، للدلالة على مكانته بين سائر الأمراء .

(٦) فى الأصل اباجى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٦ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٩٣ .

بدر الدين بكتاش بن كرمون ، ومن معهم من المماليك السلطانية . ووقف السلطان تحت الصناجق ، وحوله مماليكه وألزامه وأرباب الوظائف .

وأشرفت كراديس التتار . وكان الملتقى بوطأة حمص ، بالقرب من مشهد خالد بن الوليد . فالتقى الجمعان ، فى الساعة الرابعة ، من نهار الخميس ، وجاءت ميسرة العدو ، تجاه الميمنة الإسلامية ، وصدموا[1] الصدمة الأولى ، فثبت المسلمون . وانكسرت ميسرة التتار كسرة تامة ، وانتهت إلى القلب الذى للتتار ، وبه منكوتمر .

وأما الميسرة الإسلامية ، فصدمتها ميمنة التتار ، فلم تثبت لترادف كراديسهم . وساق التتار وراء المسلمين ، حتى انتهوا إلى تحت حمص . ووقعوا فى السوقة والعوام ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا . ولم تعلم المسلمون ما تهيأ لليمنة من النصر ، ولا علم التتار ما أصاب ميسرتهم . فاستقل بعض من انهزم إلى دمشق ، وبعضهم إلى قرب صفد . ومنهم من وصل غزة .

ولما رأى التتار ، أنهم قد استظهروا ، نزلوا[2] عن خيولهم فى المرج الذى عند حمص ، وأكلوا الطعام ، ونهبوا الأثقال[3] والوطاقات[4] ، والخزانة . وانتظروا

(١) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ص ٢١٦ وصدموها .

(٢) فى الأصل ولوا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٦

(٣) الأثقال ، جمع ثقل وهو متاع الفارس والجندى ، وما يتعلق به من الحشم ة
Dozy : Supp Dict. Ar.

(٤) الوطاقات ومفردها وطاق (وفى التركية أوتاق وأوطاق ، وأوتاع) وليس المقصود بالوطاق الخيمة فحسب ، بل خيام عديدة تعتبر معسكر الجيش Dozy: supp. Dict. Ar.

قدوم بقيتهم ، فلما ابطأوا عنهم ، أرسلوا من يكشف خبرهم ، فعاد الكشافة وأخبروهم [أن][1] منكوتمر هرب ، فركبوا خيولهم ، وكروا راجعين .

هذا والسلطان ثابت فى موقفه ، فى نفر يسير من المماليك ، والعساكر قد تفرقت . منهم من تبع التتار الذين انهزموا ، ومنهم من استمر به الهرب . فلما رجعت ميمنة التتار ، أمر السلطان أن تلف الصناجق ، وتبطل الكوسات[2] ، فمروا ولم يقدموا عليه . وأخذوا على طريق الرستن ، ليلحقوا بأصحابهم . [وعندما تقدموه قليلا ، ساق عليهم ، فانهزموا لا يلوون على شىء . وكان ذلك تمام النصر ، وهو عند غروب الشمس من يوم الخميس . ومرّ هؤلاء المنهزمون من التتار نحو الجبل ، يريدون منكوتمر . وكان ذلك من تمام نعمة الله على المسلمين وإلا لو قدر الله أنهم رجعوا على المسلمين ، لما وجدوا فيهم قوة . ولكن الله نصر دينه ، وهزم عدوه مع قوتهم وكثرتهم . وانجلت هذه الواقعة عن قتل كثيرة من التتر لا يحصى عددهم][3] . وكتبت البطائق بالنصر .

وعاد السلطان من يومه إلى المنزلة ، [بعد انفصال الحرب][4] . وكان قد فرق ما بالخزانة من الذهب ، فى أوساط مماليكه ، فسلم بجماته . وبات السلطان بالمنزلة ليلة الجمعة . فلما كان عند السحر ، ثار صياح بالوطاقات ، فظن الناس عود العدو ، فركب السلطان ومعه من وكان بالوطاقات ، فانكشف الخبر بعد

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٦

(٢) فى الأصل الكوتثينات ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٧

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٧ — ٢١٨ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٦٩٥

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٨

ساعة ، أن جماعة من العسكر ، الذين تبعوا التتار عند الهزيمة رجعوا . وقتل من التتار فى الهزيمة ، أكثر من الذين قتلوا فى المصاف ، واختفت منهم طائفة بجانب[1] الفرات . فأمر السلطان أن تضرم النيران بالأزوار[2] التى على الفرات ، فأحرق أكثر من اختفى فيها . وهلكت فرقة منهم ، كانوا سلكوا درب سلمية .

ولما وصلت البطائق إلى الرحبة ، بخبر النصر وهزيمة التتار ، كان أبغا ملك التتار يحاصرها ، فدقت البشائر ، وأعلن الناس بالنصر ، ففارقها أبغا وتوجه إلى بغداد .

وعاد الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى صهيون . ورجع إلى الخدمة السلطانية ممن كان معه ، ايتمش السعدى ، وسنجر الداوادارى وكراى التتارى وولده ، وتماجى[3] ، وجماعة من الأمراء الذين كانوا عنده . وعاد السلطان إلى دمشق ، فكان وصوله إليها ، فى يوم الجمعة ثانى عشر شهر رجب الفرد . وامتدحه الشعراء ، وأكثروا المدائح والهناء بهذا النصر .

وخرج السلطان من دمشق ، عائدا إلى الديار المصرية ، فى يوم الأحد ثانى شعبان . وكان وصوله إلى قلعة الجبل ، فى يوم السبت الثانى والعشرين من الشهر ، فزينت له المدينة . ودخل ، وبين يديه الأسرى ، وبعضهم يحمل صناجقهم المكسورة وطبولهم . وخلع السلطان على الأمراء والأكابر .

(١) فى الأصل بجنب ، وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢١٨ والمقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٦٩٥

(٢) الأزوار والأزيار ، جمع زارة ، وهى الأجمة ذات الماء والحلفاء والقصب (لسان العرب)

(٣) فى الأصل تماحى ، وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٢١ .

واستشهد فى هذه الواقعة من الأمراء من نذكر : منهم الأمير عز الدين ازدمر الحاج . وهو الذى جرح منكوتمر ، وكان من أعيان الأمراء ، وكانت نفسه تحدثه أنه يملك. والأمير بدر الدين بكتوت [الخازندار ، والأمير سيف الدين بلبان الرومى الداوادار الظاهرى ، والأمير شهاب الدين توتل[1]] الشهرزورى ، رحمهم الله تعالى .

هذا ما كان من خبر هذه الواقعة .

ذكر فتوح قلعة قطيبا[2]

وهذه القلعة كانت فى الزمن الأول محسوبة فى جملة قلعة آمد ، ثم صارت فى يد ملك الروم ، وصارت فى يد العدو المخذول [من[3]] التتار ، وفيها نوابهم . وكانت مُضِرَّة بقلعة كركر والثغور المجاورة لها ، وما كان يمكن أخذها بحصار ، فتلطف النواب ، واستمالوا من كان بها .

فلما كان فى سنة اثنتين وثمانين وستمائة . خلت هذه القلعة من الغلال . فجرد السلطان إليها رجالة كركر ، فضايقوها . فسأل[4] أهلها مراحم[5] السلطان فأجيبوا إلى ملتمسهم . وتسلمها نواب السلطان ، وأحضروا إليها جماعة من الرجالة من

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٩ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٩٦

(٢) انظر الأن النويرى ، جعل الفتوحات تحت عنوان واحد ، وخص كل فتح بعنوان بخط كبير ، جرت كتابة العنوانات بالخط العادى ، على أن يكون تحتها خطوط .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٣ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٦٩٦

(٤) فى الأصل ، فسألوا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٣ .

(٥) فى الأصل ، تراحم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٣ .

قلعة البيرة وعين تاب والروندان . وجعل فيها مايحتاج إليه من الغلال والسلاح والعدد . وصارت من حصون الإسلام المنيعة .

ذكر فتوح ثغر الكختا

وفى سنة اثنتين وثمانين وستمائة أيضا ، فتحت قلعة الكختا . وهى من أمنع الحصون وأعلاها وأتقنها بنية[1] . فاجتهد السلطان فى تحصيلها وإضافتها إلى الحصون الإسلامية . ووعد من بها المواعيد الجميلة . فأجابوا بالسمع والطاعة . وقتلوا النائب بها ، وهو الشجاع موسى . وراسلوا نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الحلبية ، وبذلوا تسليم القلعة . فجهز إليهم الأمير جمال الدين الصرصرى[2] ، والأمير ركن الدين بيبرس السلاح دار ، والأمير شمس الدين أقش الشمسى العيتابى ، ومن معهم . فتسلموا الحصن ، وحلفوا من به للسلطان ولولده الملك الصالح ، والبسوهم التشاريف ، ثم جهزوا من كان بها ، طائفة بعد أخرى إلى الأبواب الشريفة السلطانية . فأحسن السلطان إليهم ، وأقطع منهم من يستحق الإقطاع ، وجهزت إليها الزردخانات ، وآلات الحصار ، واستقرت فى جملة الحصون الإسلامية . وصارت هذه القلعة شجى فى حلق الأرمن ، وحصل الاستظهار بها على الغارات .

وذكر الإغارة على بلاد سيس

وفى سنة اثنتين وثمانين وستمائة أيضا ، كتب السلطان إلى نائب السلطنة

(١) فى الأصل بنة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٣ .

(٢) فى الأصل الصرودى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٤ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٤١٣ .

بالمملكة الحلبية ، أن يوجه من يغير[1] على بلاد سيس ، بسبب ما كان الأرمن اعتمدوه ، من إحراق جامع حلب ، لما جاءوا صحبة التتار . وجرد السلطان عسكرا من الديار المصرية ، ومن عسكر الشام لذلك . فتوجهوا وأغاروا ، ووصلوا إلى مدينة أياس ، فقتلوا من أهلها جماعة ، ونهبوا وخربوا . فلما عادوا ووصلوا إلى باب اسكندرونه ، أتاهم عسكر الأرمن فاقتتلوا . فانهزم الأرمن ، وتبعهم العسكر إلى تل حمدون ، واقتلعوا جماعة من خيالتهم ، وعاد العسكر الإسلامى بالظفر والغنيمة .

ذكر فتوح حصن المرقب

وفى سنة أربع وثمانين وستمائة ، توجه السلطان الملك المنصور إلى المرقب ، ونازله فى أوائل شهر ربيع الأول . وذلك أن أهله فعلوا ما يوجب نقض الهدنة ، التى كانت حصلت بينهم وبين السلطان ، على ما نذكرها فى حوادث السنين ، ولم يتفقوا عند شروطها . فحاصر السلطان الحصن ، وعملت النقوب ، وأشرفت الفرنج على أنه يفتح عنوة . فطلبوا الأمان ، وسلموا الحصن . فتسلمه السلطان ، وذلك فى الساعة الثامنة من نهار الجمعة سابع[2] عشر شهر ربيع الأول . وكان هذا الحصن لبيت الاسبتار ، وجهز أهله إلى طرابلس .

ذكر غزوتى النوبة الأولى والثانية

كانت الغزوة الأولى فى سنة ست وثمانين وستمائة . وذلك أن السلطان الملك المنصور ، جهز الأمير علم الدين سنجر المسرورى ، المعروف بالخياط ، متولى

(١) فى الأصل يغار ، وما هنا هو الصواب لغويا ؟

(٢) فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٨ تاسع عشر شهر ربيع الأول ؟

القاهرة والأمير عز الدين الكوراني، وجماعة من أجناد الولايات، بالوجه القبلي والقراغلامية[1]. وجرد الأمير عز الدين أيدمر السيفي، السلاح دار، متولي الأعمال القوصية، بعدته ومن عنده من المماليك السلطانية، المركزين بالأعمال القوصية، وأجناد مركز قوص، وعربان الإقليم وهم: أولاد أبي بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وجماعة من العربان الريسية[2] وبني هلال. فتوجه الأمير علم الدين الخياط بنصف الجيش من البر الغربي. وتوجه الأمير عز الدين ايدمر بالنصف الثاني من البر الشرقي، وهو الجانب الذي فيه مدينة دنقلة. وكان متملك النوبة في ذلك الوقت اسمه سماموون[3]، وكان ذا دهاء ومكر وبأس، بالنسبة إلى أمثاله.

فلما وصل الجيش إلى أطراف البلاد، أخلا سماموون البلاد، وأرسل إلى نائبه بجزائر ميكائيل وعمل الدر[4]، وهو جريس[5] - ويسمى من يتولى هذه الولاية، عند النوبة، صاحب الجبل[6] - فأمره بإخلاء البلاد التي تحت يده أمام الجيش. فكانوا يرحلون أمام الجيش منزلة بمنزلة، إلى أن انتهوا إلى متملك النوبة بدنقلة.

---

(١) القراغلامية. وهم سائر الأجناد. العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ١٥٤ حاشية ٢

(٢) كذا في الأصل، وفي ابن الفرات جـ ٨، ص ٥٢ البرلسية ولم يرد في المصادر ما يحقق هذا الاسم.

(٣) في الأصل سامون، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٥٣، والمقريزي: السلوك جـ ١، ص ٧٣٧ انظر ما يلي حيث ورد الاسم صحيحا.

(٤) كذا في الأصل، والمقريزي: السلوك جـ ١، ص ٧٣٧.

(٥) كذا في الأصل، والمقريزي: السلوك جـ ١، ص ٧٣٧

(٦) في الأصل الخيل، وما هنا من المقريزي: السلوك جـ ١، ص ٦٢٢.

فأقام بها إلى حيث وصل الأمير عز الدين ومن معه ، فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم سماموت ، وقتل من أصحابه خلق كثير . واستشهد من المسلمين أناس قلائل .

ولما انهزم [سماموت[1]] ، تبعه الجيش إلى مسيرة[2] خمسة عشر يوما من دنقلة ، فادركوا جريس ، فأخذوه ، وأخذوا ابن خاله متملك النوبة ، وهو من أعيان أصحابه ، وممن يرجع[3] إليه الملك . فرتب الأمير عز الدين ، ابن أخت الملك ملكا ، ورتب جريس فى النيابة عنه ، وجرد معهما جماعة من العسكر ، وقدر[4] عليهما قطيعة ، يحملونها إلى الأبواب السلطانية فى كل سنة . وعاد الجيش [بعد أن[5]] غنموا غنائم كثيرة من الرقيق ، والخيل ، والجمال ، والأبقار ، والأكسية .

ولما فارق الجيش النوبة وعاد ، وتحقق سماموت عودهم ، رجع إلى دنقلة ، وقاتل من بها ، وهزمهم واستعاد البلاد . فحضر الملك المستجد وجريس ، ومن كان معهما من العسكر المجرد ، إلى الأبواب السلطانية ، وأنهوا ما اتفق من سماموت . فغضب السلطان لذلك ، وجرد جيشا كثيفا .

ذكر تجريد الجيش فى المرة الثانية إلى النوبة

قال[6] : وجرد السلطان الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، أمير جاندار إلى

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٣ .

(٢) فى الأصل ميسرة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٣ .

(٣) فى الأصل جمع ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٣ .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٣ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٣٧ قرر .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٣ .

(٦) يشير هنا إلى المصدر الذى نقل عنه .

النوبة ، وصحبته من الأمراء ، الأمير سيف الدين قبجق المنصورى ، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار ، والأمير عز الدين أيدمر ، متولى الأعمال القوصية . وجرد أيضا من أطلاب[1] الأمراء ، من نذكر : طُلُبْ الأمير زين الدين كتبغا المنصورى ، وطُلُبْ الأمير بدر الدين بيدرا ، وطُلُبْ الأمير سيف الدين بهادر ، رأس نوبة الجمدارية ، وطُلُبْ الأمير علاء الدين الطيبرس ، وطُلُبْ الأمير شمس الدين سنقر الطويل . وسار أجناد المراكز بالوجه القبلى ، ونواب الولاة من العربان بالديار المصرية ، من الوجهين القبلى والبحرى ، وعدتهم أربعون ألف راجل . وجهز معهم متملك النوبة ، ونائبه جريس .

وكان توجه الجيش من الأبواب السلطانية ، فى يوم الثلاثاء ، [ثا][2] من شوال ، سنة ثمان وثمانين . وصحب هذا الجيش من الحراريق والمراكب الكبار والصغار ، لحمل الأذواد ، والزردخاناة والأثقال ، ما يزيد على خمسمائة مركب .

ولما وصل العسكر إلى ثغر أسوان ، مات متملك النوبة ، فدفن بأسوان . وطالع الأمير عز الدين الأفرم [السلطان][3] بذلك . فأرسل إليه ، من أولاد أخت الملك داود رجلا ، كان بالأبواب السلطانية . ورسم له أن يملكه

---

(١) الأطلاب ومفردها طلب ، والطلب أصلا هو الأمير الذى له علم معقود وطبلخاناة ، ويخضع لأوامره مائتا فارس أو مائة أو خمسون فارسا . وإذ شاع استخدام هذا اللفظ اصطلاحا فى مصر والشام زمن الأيوبيين ، صار يطلق على فئة من الجيش كثيرة العدد ، يتولى قيادتها أحد الأمراء انظر Dozy: snpp. Dict. Ar. وما به من المراجع . المقريزى ، المواعظ والاعتبار ج ١ ، ص ٨٦ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٨٣ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٨٣ .

بالنوبة، فأدركهم على خيل البريد، قبل رحيل العسكر من أسوان . ولما وصل إليهم أنقسم العسكر نصفين على العادة . فكان الأمير عز الدين الأفرم، والأمير سيف الدين قبجاق[1]، ونصف العسكر ونصف العربان بالبر الغربى، والأمير عز الدين أيدمر، متولى الأعمال القوصية، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، ونصف العسكر ونصف العربان بالبر الشرقى .

وتوجهوا ورسموا الجريس نائب النوبة أن يتقدمهم، منزلة بمنزلة، ومعه أولاد الكنز، أمراء أسوان، ليطمئنوا أهل البلاد ويؤمنوهم[2]، ويجهزوا الإقامات للعسكر . فكان الجيش إذا وافى بلدا، خرج من بها من المشايخ وأعيانها، وقبلوا الأرض بين يدى الأمراء، وأخذوا أمانا واستقروا ببلدهم، وذلك من الدر إلى جزائر ميكائيل، وهى البلاد التى كانت تحت يد جريس، صاحب الجبل[3] . وأما ما عدا ذلك من البلاد، التى لم يكن لجريس عليها ولاية، فإنها أخليت[4]، طاعة لمتملك النوبة . فكان العسكر ينهب ما يجده بها، ويقتل من تخلف من أهلها بها، ويرعون[5] زروعهم، ويحرقون[6] سواقيهم ومساكنهم، إلى أن انتهوا إلى مدينة دنقلة . فوجدوا الملك قد أخلاها، وأجلى أهلها، ولم يجد الأمراء بها إلا شيخا كبيرا وعجوزا . فسألوهما عن أخبار الملك، فذكرا أنه توجه إلى جزيرة وسطى، فى بحر النيل، مسافتها من دنقلة خمسة عشر يوما . واتساع هذه الجزيرة

(١) سبق أن ورد هذا الاسم برسم قبجق، وسوف يبقى كلا اللفظين دون الإشارة إليهما .

(٢) فى الأصل يأمنوهم، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٨٣ .

(٣) انظر ما سبق ص ٤٠ حاشية ٤ .

(٤) فى الأصل أخلت، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٨٣ .

(٥) فى الأصل، ويرعوا، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) فى الأصل، ويحرقوا، وما هنا هو الصواب لغويا .

مسافة ثلاثة أيام طولا . فتبعهم الأمير عز الدين ومن معه إلى الجزيرة المذكورة ولم يصحبهم حراق ولا مركب ، لتوعر البحر بالأحجار . فلما انتهوا إلى قبالة الجزيرة ، شاهدوا بهاعدة من مراكب النوبة ، وجمعا كثيرا . فسألوهم عن الملك ، فأخبروهم أنه بالجزيرة المذكورة ، فعرضوا عليه الدخول فى الطاعة والحضور ، وبذلوا له الأمان ، فأبى ذلك . فأقام العسكر ثلاثة أيام ، وأوهموه[1] أنهم أرسلوا يطلبون المراكب والحراريق ، ويعدون إليه ويقاتلونه . فانهزم من الجزيرة إلى جهة الأبواب ، وهى مسافة ثلاثة أيام من الجزيرة ، وليست داخلة فى مملكته . ففارقه من كان معه من السواكرة[2] ، وهم الأمراء ، وفارقه أيضا الأسقف والقسوس ، ومعه الصليب الفضة ، الذى يحمل على رأس الملك ، وتاج المملكة ، وطلبوا الأمان ، ودخلوا تحت الطاعة . فأمنهم عز الدين المتولى ، وخلع على أكابرهم ، ورجعوا معه إلى دنقلة ، وهم فى جمع كثير . ولما وصلوا إليها ، عدّى الأمير عز الدين الأفرم ، والأمير سيف الدين قبجاق ، إلى البر الشرقى ، دون من معهما من العساكر .

واجتمع الأمراء بدنقلة ، ولبست العساكر آلة الحرب ، وطلّبوا من الجانبين وزينت الحراريق فى البحر . ولعب الزارقون بالنفط ، ومدّ [الأمراء[3]] الأخوان [السماط[4]] فى كنيسة أسوس[5] ، وهى أكبر كنيسة بدنقلة . فلما أكلوا الطعام ، ملّكوا الملك الواصل من الأبواب السلطانية . والبسوه التاج ،

(١) فى الأصل ، وأرهموا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩١ .
(٢) السواكرة ، أمراء النوبة . المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٥٢
(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩١ .
(٤) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٥٢
(٥) كنيسة أسوس ، ضبط هذا الاسم على منطوقه فى Quatremèra. op: Cit. II. I. P.108 حيث جاء أيضا أن هذه التسمية مأخوذة من لفظ عيسى Jesus .

وحلّفوه للسلطان . وحلّفوا له أهل البلاد . وتقرر عليه البقط[1] المستقر أولا ، والبقط هو المقرر . وجرّد عنده طائفة من العسكر[2] . وقدّم عليهم ركن الدين بيبرس العزى ، أحد مماليك الأمير عز الدين متولى قوص .

وعاد العسكر ، وكان وصوله إلى القاهرة فى جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة ، وكانت مدة غيبته منذ خرج من ثغر أسوان ، إلى أن عاد إليه ستة أشهر ، وغنموا غنائم كثيرة .

فلما عاد العسكر من دنقلة ، حضر سمامون إليها ليلا ، وصار يقف على باب كل سوكرى[3] بنفسه ويستدعيه . فإذا خرج ورآه ، قبّل الأرض بين يديه وحلف له . فما طلع الفجر حتى ركب معه جميع العسكر النوبى . فزحف بهم على دار الملك ، وقبض على الملك . وأرسل إلى ركن الدين بيبرس [العزى][4] . أن يتوجه إلى مخدومه ، بحيث لا يلتقيان[5] . فتوجه ركن الدين ، ومن معه إلى قوص . [واستقر[6] الملك] سمامون بدنقلة . وأخذ الملك

(١) فى الأصل النقط ، وماهنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٩١ ، والمقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥ ، والبقط ، ماتقرر من الإتاوة على بلاد النوبة منذ فتحها أيام إمارة عمرو بن العاص على مصر وذلك وفقا للمعاهدة المعقودة فى رمضان سنة ٣١ هـ (مايو ٦٥٢) . وتألفت من أعداد من الرقيق والهدايا ، على أن النوبيين كانوا يتلقون من القمح والشعير والنبيذ والملابس والخيول والهدايا ما يعتبر مقابلا للبقط انظر : En. Isl. Art. Bàkr.

(٢) فى المقريزى . السلوك ج ١ ، ص ٧٥٢ : وعينوا طائفة عنده من العسكر تقيم عنده .

(٣) سوكرى ، انظر ماسبق ص ٤٤ حاشية ٢ .

(٤) الإضافة عن المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٧٥٣ .

(٥) فى الأصل يلتقيا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٩٢ .

الذى ملكه العسكر ، فعراه من ثيابه ، وذبح ثورا ، وقد جلده [سبورا][1] ، ولفها عليه طَرِيّة ، وأقامه مع خشبة . فيبست عليه تلك السبور فمات . وقُتل جريس أيضا .

وكتب سمامون إلى السلطان الملك المنصور يستعطفه ويسأله الصفح عنه ، والتزم[2] أن يقوم بالبقط[3] المقرر فى كل سنة ، وزيادة عليه . وأرسل من الرقيق والتقادم عدة كثيرة ، فوصل ذلك فى أواخر الدولة المنصورية . وحصل اشتغال السلطان بما هو أهم من النوبة . فاستقر سمامون بالنوبة إلى أيام العادلية الزينية كتبغا ، وكان من أمره ، ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر فتوح طرابلس الشام

كان فتح طرابلس ، فى الساعة السابعة ، فى يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وثمانين وستمائة ، عنوة . وذلك أن السلطان الملك المنصور توجه إلى الشام ، فى شهر المحرم من هذه السنة ، وعزم على غزو طرابلس . لأن أهلها كانوا قد نقضوا قواعد الصلح ، ونكثوا أسباب[4] الهدنة . فكتب

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٢ .

(٢) فى الأصل والزم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٢ .

(٣) فى الأصل النقط ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٢ .

(٤) المعروف أنه تقرر عقد هدنة فى ١٦ يولية سنة ١٢٨٢ ، بين المنصور قلاون وبوهمند السابع كونت طرابلس لمدة عشرة سنوات ، كيا يتفرغ لقتال المغول ، وليمنع تحالفهم مع الفرنج فى عكا وطرابلس ، على أن ما وقع من النزاع على وراثة الحكم فى طرابلس ، بعد وفاة بوهمند السابع سنة ١٢٨٧ ، وانحياز الاسبتارية بحصن المرقب إلى جانب الملك الأرمنى ليو ، والمغول ، كل ذلك حمل المنصور قلاون على التدخل فى أحداث طرابلس ، ومهاجمتها سنة ١٢٨٩ . انظر
Runciman; The Hisfory of the Crusdes pp 381-408.

السلطان إلى النواب بالممالك الشامية ، والحصون الإسلامية ، بتجهيز الجيوش إليها ، وإنفاذ المجانيق وآلات الحصار .

ووصل السلطان إلى دمشق ، بعساكر الديار المصرية ، فى يوم الاثنين ثالث عشر صفر من هذه السنة . وتوجه منها فى العشرين من الشهر ، ونازل طرابلس بالجيوش وحاصرها . ووالى الزحف والحصار والرمى بالمجانيق . وعملت النقوب ، فنقبت[1] الأسوار ، وافتتحت عنوة فى التاريخ المذكور . وكانت مدة المقام عليها ، أربعة وثلاثين يوما . وكانت عدة المجانيق التى نصبت عليها ، تسعة عشر منجنيقا ، وهى فرنجية ستة ، [و[2]] قرابغا ثلاثة عشر . وعدة الحجارين والزراقين ألف وخمسمائة نفر .

ولما فتحت المدينة ، فرت طائفة من الفرنج إلى جزيرة تعرف بجزيرة[3] النخلة ، حيال طرابلس فى البحر ، لايتوصل إليها إلا فى المراكب . فكان[4] من

(١) فى الأصل ، فنقبت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٨٠ .

(٢) الإضافة للتوضيح . والمنجنيق لفظ أعجمى معرب ، وهو آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما مهم طويل ، رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، تقذف منه الحجارة ، فما أصاب شيئا إلا أهلكه . والمنجنيقات زمن صلاح الدين على أنواع ثلاثة ، منها العربى ، والتركى ، والفرنجى . وفى زمن المماليك ، جرت الإشارة إلى نوع آخر ، وهو المعروف بقرابغا ، وهو المغولى . انظر : ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٨٠ ، حاشية ٢ وما بها من المراجع .

(٣) فى الأصل بحرية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٨٠ . واسم هذه الجزيرة فى المراجع الأوربية سنت نقولا St. Nicholas ، انظر

King: The knights Hospitrllers in the Holy Land. P.118,

وأشار أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر جـ ٥ ، ص ٩٠ إلى أنه كان بهذه الجزيرة كنيسة تسمى كنيسة سنطماس (St. Thames) وأنه شهد القتال مع والده الملك الأفضل ، وابن عمه الملك المظفر صاحب حماه (انظر المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٤٧ حاشية ٢) .

(٤) فى الأصل ، وكانت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٨٠ .

السعادة الأزلية للسلمين ، أن البحر زجر وانطرد عن طرابلس فظهرت للناس المخائض . فعبر الفارس والراجل إلى هذه الجزيرة ، وأسروا وقتلوا من فيها ، وغنموا ما كان معهم . وكان جماعة من الفرنج قد ركبوا فى مركب وتوجهوا ، فألقتهم الريح إلى الساحل ، فأخذهم الغلمان والأوشاقية . وقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون غنائم كثيرة .

وكان السلطان أمر بإبقاء المدينة ، وإنزال الجيش بها . فأشير عليه أن هدمها أولى من بقائها ، فأمر بهدمها فهدمت . وكان عرض سورها بمقدار ما يسوق عليه ثلاثة فرسان بالخيل . ووصل إلى الزردخاناة السلطانية من الأسرى ، ألف أسير ومائتا أسير . واستشهد عليها من المسلمين ممن يعرف ، الأمير عز الدين معن[1] ، والأمير ركن الدين منكورس الفارقانى ، ومن الحلقة ، خمسة وخمسون نفرا ، رحمهم الله تعالى .

وحكى[2] الشيخ قطب الدين اليونينى فى تاريخه قال : ولما فتح السلطان طرابلس ، تسلم أنفة[3] ، وأمر بإخراب حصنها ، وكان حصنا منيعا . وأبقى على أخت البرنس صاحب طرابلس قريتين من قراها .

---

(١) فى الأصل معن وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٠ والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٤٧

(٢) ما أورده النويرى عن هذا الحادث يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٨٠

(٣) أنفة بلد على الساحل ، شرقى جبل صهيون . ياقوت : معجم البلدان .

قال، وحضر إلى السلطان، وهو بظاهر طرابلس ولد سيركى صاحب جبيل،[1] وكان صاحب طرابلس قتل أباه فى سنة إحدى وثمانين وستمائة . فخلع السلطان عليه، وأقر جبيل عليه، على سبيل الإقطاع، وأخذ منه معظم أموالها . وتسلم السلطان البترون[2]، وجميع ما بتلك الخط من الحصون والمعاقل . ثم عاد السلطان بعد النصر إلى دمشق ، وكان من خبره ما نذكره ، إن شاء الله تعالى فى حوادث السنين .

ذكر أخبار طرابلس الشام ، منذ فتحها المسلمون فى خلافة عثمان الى وقتنا هذا

وإنما ذكرناه فى هذا الموضع ملخصا مختصرا ، لتكون أخبارها مجتمعة[3] ، فنقول و بالله التوفيق :

كان ابتداء فتح طرابلس ، أنه لما استخلف عثمان بن عفان

(١) كان صاحب جبيل تلك السنة ، بارثولوميو امبرياكو Barhalomew Embriaco يطمع فى الظفر بكونتية طرابلس ، وقد صارت إليه جبيل ، بعد أن تزوجت ابنته من ابن عمه بعارص ، ابن جاى الثانى (سيركى فى المصادر العربية) . اليونينى : مرآة الزمان حوادث سنة ٦٨١ هـ . والذى لقى مصرعه على يد بوهيمند السابع سنة ٦٨١ ، وقدم إلى قلاون ممثلون لبار تلميون وهو جنوى والبندقية . وأشار البنادقة ، إلى أنه متى سيطرت جنوة على طرابلس ، فسوف تسيطر على الشرق الأدنى ، وسوف يخضع لها تجارة الإسكندرية ، و إذ أدرك قلاون ما يجرى من أحداث فى طرابلس وانتقاض الهدنة من جانب الفرنج ، عزم على الاستيلاء على طرابلس انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١٦ ، ٣٢٠ — ٣٢١ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٤٧

stevenson: The Crusaders in the East p. 349
Runciman: op. cit III PP.404-405
Gronsset: op cit III. PP. 740-742

(٢) كذا فى الأصل ، وفى ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ٣٢٢

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٦

رضى الله عنه، وأقر معاوية بن أبى سفيان على الشام ، وجه معاوية إلى طرابلس سفيان بن نجيب[1] الأزدى ،وكانت إذ ذاك ثلاث[2] مدن مجتمعة ، فبنى فى مرج على أميال منها حصنا ، سمى بحصن سفيان . وقطع الميرة عن أهل طرابلس ، وحاصرها . فلما اشتد الحصار على أهلها ، اجتمعوا فى أحد الحصون الثلاثة ، وكتبوا إلى ملك الروم ، يسألونه أن يمدهم ، أو يبعث إليهم بمراكب ينهزمون فيها . فسير إليهم مراكب كثيرة ، فركبوها ليلا وهربوا . فلما أصبح سفيان ، وتقدم لقتالهم على عادته ، وجد الحصن خاليا ، فملكه ، وكتب إلى معاوية بالفتح . فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود ، وهو الحصن الذى فيه المينا ثم بناه عبد الملك بن مروان وحصنه .

وكان معاوية يوجه فى كل سنة جماعة من الجند ، يشحنها بهم ، ويوليها نائبا . فإذا غلق[3] البحر ، عاد الجند وبقى النائب فى جماعة يسيرة . فما برح أمرها كذلك ، حتى ولى عبد الملك بن مروان . فقدم بطريق فى بطارقة الروم ، ومعه خلق كثير . فسأل أن يعطى الأمان ، على أن يقيم بها ، ويؤدى الخراج ، فأجيب إلى ذلك . فلم يلبث غير سنتين أو أكثر بأشهر ، عند عود الجند منها ، حتى أغلق بابها ، وأسر من بقى بها من الجند ، وعدة من اليهود ، وتوجه هو وأصحابه إلى بلاد الروم . فقدر الله ، عز وجل

(١) فى الأصل مخنف ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٥ ، ص ٧٦ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ٣٢٢

(٢) فى الأصل ثلاثة ، وما هنا هو الصواب لغويا ، وفى ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ٣٢٢ ثلاثة حصون .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧

أن ظفر به المسلمون بعد ذلك ، فى البحر وهو متوجه فى مراكب كثيرة ، فأسر وأحضر إلى عبد الملك ، فقتله وصلبه . وقد قيل إنه إنما كان تغلبه عليها ، وقتل من بها ، بعد وفاة عبد الملك . ثم فتحها الوليد بن عبد الملك .

ولم يزل فى طرابلس نواب الخلفاء ، مدة أيام بنى أمية ، وأيام بنى العباس ، إلى أن استولى العبيديون ملوك مصر على دمشق ، على ما قدمنا ذكر ذلك فى أخبارهم[1] . فأفردوا طرابلس عن دمشق ، وكانت قبل ذلك مضافة إليها . وولوا عليها من جهتهم ريان[2] الخادم ، ثم سند الدولة ثم أبا السعادة ، ثم على بن عبد الرحمن بن حيدرة ، ثم نزال[3] ، ثم مختار الدولة بن نزال[4] . [ثم تغلّب عليها قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار[5]] . ولم يزل بها إلى أن توفى ، فى سنة أربع وستين وأربعمائة . وكان ابن عمار هذا ، رجلا عاقلا ، سديد الرأى . وكان شيعيا ، من فقهائهم . وكانت له دار علم بطرابلس ، فيها مايزيد على مائة ألف كتاب وقفا . وهو الذى صنّف كتاب « ترويح الأرواح ومصباح السرور والأفراح » ، المنعوت بجراب الدولة[6] . ولما مات [أمين الدولة[7]] ، كان بطرابلس ، سديد الملك بن منقذ ، هرب من محمود بن صالح . فساعد جلال الملك أبا الحسن على بن محمد بن عمار وعضده بمماليكه ، وبمن كان معه من

(١) عدل ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧ ، العبارة ، على النحو الذى يتفق مع كتابته بأن جعلها « على ما هو مذكور فى أخبارهم »

(٢) فى الأصل زيان ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧

(٣ ، ٤) فى الأصل بزال ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧ ، وابن الاثير : الكامل جـ ٩ ، ص ٦٠

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧

(٦) فى المكتبة الأهلية فى باريس ، مخطوطة برقم 3527 بهذا العنوان — انظر Brockelman : Geschichte der arabischen literatur supp. I P. 599.

(٧) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧

أصحابه . فأخرجوا أخا أمين الدولة من طرابلس ، وولى جلال الملك . فلم يزل متوليا عليها، حتى مات فى سلخ شعبان، سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وملكها بعده أخوه فخر الملك عمار بن محمد [بن عمار][1] ، واستقر بها ، إلى أن نازلها صنجيل ، واسمه ميمنت[2] وهو ميمون . وصنجيل[3] اسم مدينة نسب إليها . فنزل صنجيل بجموعه على طرابلس ، فى شهر رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وحاصرها وضايقها ، وابتنى عليها حصنا ، يقاتل أهلها منه ، ويعرف به إلى وقتنا هذا .

فبعث فخر الملك الهدايا والتحف إلى الملوك واستنجدهم واستنصرهم ، فلم ينجده أحد منهم . فلما أيس منهم، بذل لصنجيل فى رحيله عنه أموالا ، وبعث إليه مرة ، فلم يجبه إلى ذلك . فلما ضاق ذرعا بالحصار ، وعجز عن دفعه ، خرج من طرابلس، بعد أن استناب بها ابن عمه، أبا المناقب ، ورتب معه سعد الدولة فتيان ابن الأغر . وانفق[4] فى العسكر ستة شهور . وسار يقصد السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقى . فجلس أبو المناقب فى بعض الأيام ، وعنده وجوه طرابلس وأكابرها ، فخلط فى كلامه . فنهاه سعد الدولة بلطف فجرد سيفه ، وضرب سعد الدولة فقتله . وانهزم من كان فى المجلس . وقام أبو المناقب ، وصعد على السور ، وصفق بإبطيه ، فأمسكه أهل البلد وحبسوه ، ونادوا

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧ .

(٢) كذا فى الأصل ، وابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧ ، والواضح ان المقصود هنا هو ريموند سان جيل Sanit Gilles ، كونت تولوز الذى اشترك فى الحملة الصليبية الأولى . انظر Runciman : op. Cit. I . p 106 .

(٣) فى الأصل صنجيل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٧ ، وأورد النويرى هذا اللفظ فيما بعد فى صورته الصحيحة .

(٤) فى الأصل نفق ، وما هنا هو الصواب .

بشعار الأفضل أمير الجيوش ، [شريك الخليفة الفاطمى صاحب مصر][1] ، وذلك فى شهر رمضان سنة خمسمائة .

ثم مات صنجيل فى ثامن وعشرين رمضان ، وتولى مكانه مقدم اسمه السردانى[2] . ولما نادى أهل طرابلس بشعار الأفضل ، [وبلغه ذلك][3] حضر إليهم جيشا فى البحر ، وقدم عليهم تاج العجم . فلما وصل إلى طرابلس ، أخذ جميع الأموال ، وما يحفظ به البلد . وبلغ الأفضل أنه يقصد العصيان بطرابلس . فقبض على ما كان حصّله ، وولّى بدر الدولة ابن أبى الطيب الدمشقى . فوصل إلى طرابلس ، وكان أهلها قد ضاقت صدورهم ، من طول الحصار . ثم رأوا من خلفه[4] ، ما رغبهم عنه ، ونفرهم منه ، فعزموا على طرده . ثم رأوا إبقاءه ، لأنهم لاملجأ لهم إلا من جهة المصريين .

ثم وصلت مراكب من مصر بالغلات والرجال ، فقرر المذكور مع مقدم[5] الأسطول ، القبض على أعيان البلد ، وأصحاب فخر الملك بن عمار وحريمه . فأخذهم وسيّرهم فى البحر إلى مصر . وبعث معهم ما كان فى طرابلس من السلاح والذخائر ، ما لم يكن عند أحد من الملوك مثله . وبعث مائة ألف دينار عينا . فلما وصلوا إلى مصر ، اعتقل [الأفضل][6] أهل بنى عمار .

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٨ .

(٢) السردانى ، المعروف أن ريموند صنجيل مات فى ٢٨ فبراير سنة ١١٠٥ ، ولم يبلغ طفله الفونسو جوردان إلا بضعة شهور . فاختار أجناده وليم جوردان كونت سردانى ، ابن عم ريموند ، الذى قدم حديثا ، ليتولى الإمارة . انظر Runciman op. cit. II p. 51. أسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٥٠ حاشية ٦٢

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٨ .

(٤) فى الأصل تخلفه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٨ .

(٥) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٨ مقدّمى .

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٨ .

وأما فخر الملك بن عمار ، فإنه وصل إلى بغداد ، واجتمع بالسلطان محمود . وأقام ببغداد ، فما تهيأ له منه ما طلبه ، وبلغه رجوع أمر طرابلس إلى المصريين ، وأن حريمه وأمواله وذخائره وسلاحه نقل إلى مصر . فرجع إلى دمشق ، فدخلها فى نصف المحرم ، سنة اثنتين وخمسمائة ، فأكرمه أتابك طغتكين[1] صاحب دمشق . فسأله أن يعينه على الدخول إلى جبله ، فسير معه عسكرا فدخلها .

وأما الفرنج ، فإنهم لازموا الحصار ، وضايقوا البلد حتى ملكوه ، وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا ، وذلك فى يوم الثلاثاء ثالث ذى الحجة سنة اثنتين وخمسمائة . وقد تقدم أن أخذها كان فى يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ثلاث وخمسمائة ، والله أعلم .

وحكى[2] أن السبب فى أخذ طرابلس ، أنه لما ضايقها الفرنج ، كتب من بها إلى الديار المصرية ، يستنجدون الخليفة ، ويسألونه الميرة ، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة . فبينما هم فى ذلك ، إذا بمركب قد أقبل ، فما شكوا أن فيه نجدة . فطلع منه رسول ، وقال قد بلغ الخليفة ، أن بطرابلس جارية حسنة الصورة ، وأنها تصلح للخدمة . وقد أمرنا بإرسالها إليه ، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهى . فعند ذلك آيسوا من نصره ، وضعفت قواهم ، وخارت نفوسهم وذلوا ، وملكها الفرنج [فى التاريخ المذكور[3]] . وكانت مدة الحصار سبع سنين وأربعة أشهر .

(١) فى الأصل طغرلين ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ : ص ٧٨ .

(٢) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٨ ، والملحوظ أنه لم تجر الإشارة إلى المصدر الأصلى ، بل اكتفى النويرى وابن الفرات ، بإيراد لفظة حكى .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٨ .

ولما ملكها السردانى ، تحكم[1] فيها واستقل بملكها . فبينما هو كذلك ، وإذا بمركب[2] قد وصل إليها ، وفيه صبي ادّعى أنه ولد الملك صنجيل ، واسمه تبران[3] ، ومعه مشايخ من أصحاب والده ، يخدمونه ويدبرون أمره . فطلعوا إلى السردانى ، وقالوا له هذا ولد صنجيل ، وهو يريد تسليم[4] مدينة والده التى فتحها عسكره . فأنكر السردانى ذلك ، وقام ورفس الصبي وأخرجه . فأخذه أصحابه ، وجعلوا يطوفون به على الفرسان . فرحموه ، وتذكروا أيمانهم لأبيه ، وقالوا : إذا كان نهار الغد ، ونحن عنده ، فاحضروا وتحدثوا معه ، ففعلوا . وتحدث الصبي ابن صنجيل ، فصاح به السردانى ، فقام الفرسان كلهم على السردانى ، وأخرجوه من المملكة ، وسلموها إلى الصبي [ابن صنجيل[5]] . فأقام ملكا حتى قتله بزواج[6] ، وذلك فى يوم الأحد ، لأربع خلون من شهر رجب ، سنة إحدى

(١) فى الأصل وتحكم ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٧٨ .

(٢) فى الأصل « وإذا هو بمركب » ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٧٩ .

(٣) المقصود هنا برتران Bertrand ، وهو ابن غير شرعى لريموند كونت تولوز ، وتولى أمر أملاكه فى تولوز ، أثناء وجود ريموند فى الشرق . فلما توفى ريموند ، حرص الابن الشرعى الفونسو جوردان على أن يحوز ارثه فى جنوب فرنسا ، فتنازل من أملاكه فى الشرق لبرتران ، الذى ارتحل إلى الشرق سنة ١١٠٨ ، فى اسطول حتى ينتزع أملاكه من وليم جوردان . ولقى المساعدة من ملك بيت المقدس ، بأن تكون له طرابلس بعد فتحها سنة ١١٠٩ . انظر

Runcilman: op. cit II P61, 65-70.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣ .

(٤) كذا فى الأصل وابن الفرات ج ٨ ، ص ٧٩ ، والمقصود هنا تسلم مدينة والده . انظر الحاشية السابقة .

(٥) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٧٩ ، والمقصود هنا بوزابن ـ برترافد الذى ولى كونتية طرابلس بعد وفاة ابيه سنة ١١١٢ .

(٦) فى الأصل برواج ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٧٩ ، وهو الذى قتل بوثر سنة ١١٣٧ . انظر .

Runciman: op. Cit. II. pp202-203 .Grousset: op. cit II pp. 367-368

العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ج ١ ، ص ٤٤٣ .

وثلاثين وخمسمائة . وقتل أكثر أصحابه ، وأسر بطرس الأعور . واستخلف فى طرابلس ولد القومص بدران[1] ، فأسره أتابك زنكى ، [لما كان فى صحبة متملك القدس فلك[2] بن فلك ، وذلك بالقرب من قلعة بعرين ، فطلع الملك وجماعة معه إلى قلعة بعرين ، فحاصرهم زنكى][3] وضايقهم ، فصالحه الملك على تسليم حصن بعرين ، واستخلص القومص صاحب طرابلس وجميع الأسرى . وعاد القومص إلى طرابلس ، وأقام حتى وثب عليه الإسماعيلية ، فقتلوه . فتولى بعده ريمند[4] ، وهو صبى ، وحضر الحرب مع الفرنج على حارم . فكسرهم الملك العادل نور الدين [محمود[5]] الشهيد [بن زنكى] ، وقتل منهم[6] مقتلة عظيمة وأسر . وكان من أسر ، القومص ريمند ، وذلك فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وبقى فى اعتقاله إلى أن ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . فأعتقه فى

(١) المقصود هنا ريموند الثانى الذى ولى كونتية طرابلس بعد أبيه بوزمند سنة ١١٣٧ ، ولقى مصرعه على أيدى الإسماعيليه سنة ١١٥٢ انظر Seltan: History of Crusades. I, p. 535

(٢) وهو فولك أنجو الذى حكم مملكة بيت المقدس من ١١٣١ حتى ١١٤٣ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٩ . دارت هذه المعركة عند حصن بعرين فى يوليه سنة ١١٣٧ ، وأحرز زنكى انتصارا باهرا انظر : ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٣ — ٣٤ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٠ — ٩٢ .
William : of Tyre II pp. 91 - 92 Grousset: op. cit II pp. 72 - 73.
Runciman: op. cit II pp. 203 - 204,205 .

(٤) وهو ريموند الثالث كونت طرابلس ١١٥٢ — ١١٨٧ ، وقع فى أسر نور الدين محمود سنة ١١٦٤ وبقى فى الأسر حتى ١١٧٤ ، بجرى إطلاق سراحه ، بعد أن بذل فدية كبيرة ، انظر
Seltan: op. Cit I. P. 524, 561
Runciman op. Cit. II pp 369 - 370,390
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٩٩ — ٢٠٠
ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢٢ — ١٢٦
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣١٨ — ٣٢٤
العريفى : الشرق الأوسط جـ ١ ، ص ٦٧١

(٥ ، ٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٩

تاسع عشرى شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة[1] . وبقى المُلْكُ بيده[2] ، ويد أولاده من بعده ، إلى أن فتحت هذا الفتح المبارك [سنة ثمان وثمانين وستمائة[3]] فى الأيام المنصورية وهدمت المدينة[4] .

واستقر العسكر على عادته بحصن الأكراد والنائب عن السلطنة الأمير سيف الدين بلبان الطباخى المنصورى ، وكان اليزك[5] ينزل إلى طرابلس ، من حصن الأكراد . ثم عمّر المسلمون مدينة مجاورة للنهر . واختلفوا[6] بها ، وعمّروا فيها حمامات وقياسر ومساجد ومدارس للعلم . وأجريت المياه فى دورها بقساطل[7] وعمرت دار السلطنة ، ينزلها نائب السلطنة بالمملكة ، وهى عالية مشرفة على المدينة .

واستمر الأمير سيف الدين الطباخى فى النيابة ، إلى أن نقل إلى حلب ، فى الدولة الأشرفية ، فى سنة إحدى وتسعين وستمائة . وولاّها [السلطان[8]] الأمير سيف الدين طغريل الإيغانى ، فأقام أياما ، واستعفى فاعفاه السلطان الملك الأشرف . ورتب فى النيابة ، الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصورى ، فبقى فى النيابة إلى الأيام العادلية الزينية كتبغا المنصورى ، فعزله عنها فى سنة أربع وتسعين وستمائة . ودفن بتربته التى أنشأها ، وهى بجوار حمامه بطرابلس

(١) فى الأصل عشرين وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٩ .

(٢) انظر ما سبق ص ٥٦ حاشية ٤ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٩ .

(٤) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٩ .

(٥) اليزك : لفظ فارسى ، المقصود به الطلائع والكشافة .

(٦) كذا فى الأصل : وابن الفرات جـ ٨ : ص ٧٩ : ولعل المقصود اختطوا بها .

(٧) القساطل ، والمفرد قسطل ، وهو انبوب من الخزف يجرى فيه الماء .

(٨) الإضافة للتوضيح .

وفوضت النيابة بها بعده إلى الأمير سيف الدين كرت الحاجب ، فلم تطل أيامه إلى أن كان من دخول التتار البلاد ، ما نذكره إن شاء الله تعالى ، فى أخبار الدولة الناصرية ، فشهد الوقعة وعدم ، وربما استشهد رحمه الله تعالى . ثم فوضت النيابة بعد خروج التتار من الشام ، إلى الأمير سيف الدين قطلبك المنصورى ، فتوجه إليها ، وأقام بها ، إلى سنة سبعمائة . واستعفى من النيابة فأعفى ، واستقر فى جملة الأمراء بدمشق .

وفوضت نيابة السلطنة إلى الأمير سيف الدين استدمر كرجى المنصورى ، فاستمر بها إلى سنة تسع وسبعمائة.[1] وعمر بها حماما عظيما، أجمع التجار ومن يجوب البلاد ، أنه ما عمر مثله فى بلد من البلدان ، وعمر قيسارية وطاحونا . وأنشأ مماليكه بها مساكن حسنة البناء ، تجرى إليها المياه بالقنوات ، وتجرى فى طباقها، وعمر أيضا بعض القلعة ، وأقام أبراجا . وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس . وتمكن استدمر تمكنا كثيرا، وناصر عدّه من مماليكه ، ثم نقل إلى حماه .

وفوض السلطان الملك الناصر نيابة المملكة الطرابلسية وما معها إلى الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحاجب ، كان المعروف بالحلبى فاقام بها إلى أن توفى فى ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة عشر وسبعمائة.[1] وفوضت النيابة بها إلى الأمير جمال الدين أقش الأفرم، فأقام بها إلى مستهل المحرم سنة ثنتى عشرة وسبعمائة وفارقها ، وتوجه إلى بلاد التتار ، على ما نذكر ذلك ، إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة الناصرية .

---

(١) فى الأصل : وتسعمائة ؛ وما هنا هو الصواب .

وفوضت النيابة بعده إلى الأمير سيف الدين كستاى الناصرى ، فأقام بها ، إلى أن توفى فى شهر رجب سنة ست عشرة وسبعمائة . وفوضت النيابة بعده إلى الأمير شهاب الدين قرطاى الصالحى ، وهو النائب بها الآن ، إلى حين وضعنا[1] لهذا الجزء ، وذلك فى سلخ شهر رجب ، سنة خمس وعشرين وسبعمائة . وسنذكر إن شاء الله تعالى ، أخبار هؤلاء النواب فى موضعها من هذا الكتاب على ما سنقف عليه . وإنما أوردناها فى هذا الموضع ، لتكون اخبار طرابلس سياقة ، وإن كانت على سبيل الإجمال والاختصار . ولنرجع إلى سياقة أخبار الدولة المنصورية .

(١) فى الأصل وضعها ، وما هنا هو الصواب ، فالمعروف أن النويرى هنا يتحدث عن تأليف الكتاب .

ذكر ما اتفق فى الدولة المنصورية على حكم السنين خلاف ما ذكرناه من إقامة النواب ، ومهادنة الفرنج ، والحوادث الغريبة ، التى يتعين ايرادها والوفيات

سنة ثمان وسبعين وستمائة

[٦٧٨ = ١٢٧٩]

قد قدمنا بعض حوادث هذه السنة ، فى ابتداء الدولة المنصورية ، وبقى منها تتمة نذكرها فى هذا الموضع .

فى هذه السنة فوض السلطان الملك المنصور نيابة السلطنة ، بحصن الأكراد ، وما معه من الفتوحات ، لمملوكه الأمير سيف الدين بلبان الطباخى .

وفيها ، فى ذى القعدة ، فوض نظر الدواوين بدمشق ، للصدر[1] جمال الدين إبراهيم بن صصرى ، وذلك بعد وفاة الناظر بها ، القاضى علم الدين محمد بن العادلى . وكانت وفاته فى يوم الأربعاء خامس عشرين شوال . وتوفى أيضا قبله ، أخوه القاضى تاج الدين ناظر حلب ، بها فى حادى عشرين شهر رمضان .

---

(١) المقصود بالصدر : صدر الدين .

وفى هذه السنة، توفى الأمير بدر الدين محمد ابن الأمير حسام الدين بركة خان الخوارزمى ، خال الملك السعيد . وكانت وفاته بدمشق ، فى تاسع شهر ربيع الأول . وصلى عليه الملك السعيد ، بسوق الخيل ، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى .

وفيها ، لما كان العسكر ببلاد سيس ، فى الأيام السعيدية ، توفى جماعة من الأمراء ، أصحاب الطباخانات ، منهم سيف الدين البطاح ، وعلم الدين بلبان المشرفى[1] ، وناصر الدين بلبان النوفلى ، وسيف الدين جمق[2] ، وسيف الدين قلاحا الركنى ، وجمال الدين أقش الشهابى وغيرهم ، رحمهم الله تعالى .

وفيها ، فى يوم الأحد ، ثامن شوال ، توفى شيخ الشيوخ شرف الدين أبو بكر عبد الله ابن شيخ الشيوخ تاج الدين ، أبى محمد عبد السلام ، ابن شيخ الشيوخ عماد الدين عمر بن على بن محمد حمويه بدمشق ، ودفن بقاسيون ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل المشرق ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٧٤ .

(٢) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٧٤ حق .

واستهلت سنة تسع وسبعين وستمائة

[٦٧٩ — ١٢٨٠]

فى هذه السنة ، فى يوم الاثنين خامس المحرم ، توفى الأمير جمال الدين أقش الشمسى ، نائب السلطنة بالمملكة الحلبية . وهو خوشداش[1] الأمير بدر الدين بيسرى ، كلاهما كان مملوك الأمير شمس الدين سراسنقر الكاملى . ففوض بعد وفاته ، نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية ، للأمير علم الدين سنجر الباشقردى .

وفى هذه السنة ، كان من خبر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، وانهزامه من دمشق ، وتوجهه إلى صهيون ما قدمناه . وكان بدمشق بعد مفارقته لها ، أمور نذكرها فى هذا الموضع .

ذكر ما تجدد بدمشق ، بعد أن فارقها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر .

لما انهزم الأمير شمس الدين ، المشار إليه ، كما تقدم ، دخل العسكر المصرى إلى دمشق . ونزل الأمير علم الدين سنجر الحلبى بالقصر الأبلق ، بالميدان الأخضر . وكان هو المشار إليه فى الولاية والعزل ، والعطاء والمنع وغير ذلك . فرسم بإيقاع الحوطة على مجد الدين إسماعيل بن كسيرات ، وزير سنقر الأشقر ، وجمال الدين بن صصرى ناظر الدواوين بدمشق ، وأخذ خطوطهما بجملة .

---

(١) فى الأصل حواش دائش ، وما هنا هو الصواب ، وهذا اللفظ يرد أيضا برسم خشداش ، وخجداش ، ولا يتطلب ذلك التغيير أو التعديل انظر ما سبق ص ٨ حاشية ٢ .

ورسم على قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان . وضرب زين الدين وكيل بيت المال، ومحيي الدين بن النحاس . ثم ورد بعد ذلك كتاب السلطان بأمان أهل دمشق .

ذكر تفويض[1] نيابة السلطنة بالشام للأمير حسام الدين لاجين، وشدّ الدواوين للأمير بدر الدين بكتوت العلائى، والوزارة للصاحب تقى الدين توبة التكريتى .

كان الأمير بدر الدين بكتوت العلائى، قد وصل إلى دمشق، فى جملة الجيش المجرّد إليها، لدفع سنقر الأشقر عنها، صحبة الأمير علم الدين الحلبى. فلما استقر أمر دمشق للسلطان، تحدث فى نيابة السلطنة بدمشق . واستند فى ذلك، إلى أن السلطان الملك المنصور، لما جرده رسم له بها[2] مشافهة . إلا أنه كان فى نيابته يلزم الأدب مع الأمير علم الدين الحلبى . واستمر الأمر على ذلك، إلى حادى شهر ربيع الأول من هذه السنة . فلما كان فى هذا اليوم، ورد من الباب السلطانى، سبعة نفر على خيل البريد، ومعهم تقليد للأمير حسام الدين لاجين [الصغير[3]] المنصورى، بنيابة السلطنة بالشام، وتقليد للأمير بدر الدين بكتوت العلائى، بشد الدواوين، وتقليد للصاحب تقى الدين توبة التكريتى بوزارة الشام، ولكل منهم تشريف[4]، وتشريف[5] لصاحب حماه .

(١) يتفق النويرى مع ابن الفرات، فى العنوان والرواية، وفى ذلك ما يؤيد ما سبق الإشارة إليه من الاستناد إلى مصدر واحد .

(٢) فى الأصل «به» وما هنا هو الصواب، وبه يستقيم المعنى .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ص ١٧٦ .

(٤، ٥) فى الأصل تشريفا، وما هنا هو الصواب لغويا .

فلما كان فى يوم الخميس ، ثانى عشر الشهر ، اجتمع سائر الأمراء بالميدان الأخضر . ولبس الأمير حسام الدين لاجين تشريف النيابة ، [ولبس][1] الأمير بدر الدين بكتوت تشريف الشد . وركب الأمير علم الدين الحلبى ، والأمير عز الدين الأفرم ، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى ، وسائر الأمراء والعساكر المصرية والشامية ، وساقوا كلهم فى خدمة الأمير حسام الدين . فلما انتهوا إلى باب سر القلعة ، ترجلوا بأجمعهم ، وقبّل الأمير حسام الدين عتبة باب السر ، ثلاث مرات . ثم تقدم الأمير علم الدين الحلبى ، [والأمير][2] عز الدين الأفرم ليعضداه حتى يركب ، ويمشيان فى خدمته ، إلى دار السعادة . فسلك سبيل الأدب معهما ، وامتنع من الركوب ، واستمر ماشيا ، والأمير علم الدين عن يمينه ، والأمير عز الدين الأفرم عن يساره ، وبقية الأمراء والعساكر ، بين يديه ، وكذلك القضاة والأعيان والأكابر . ولم يزل ماشيا ، إلى أن دخل دار السعادة ، وجلس بها فى رتبة النيابة ، وقرىء تقليده . ثم خلع فى هذا النهار ، بعد الظهر ، على الصاحب تقى الدين توبة ، وأعطى دواة الوزارة بالشام .

ذكر عزل قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان عن القضاة بدمشق واعادته ، وما اتفق فى هذه السنة الحادثه

كان السلطان الملك المنصور ، قد رسم بشنق قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان لأنه بلغه أنه أفتى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، بجواز قتال

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) الإضافة للتوضيح .

السلطان . فلما ورد كتاب السلطان بأمان أهل دمشق ، قرىء بحضور القاضي شمس الدين . فقال الأمير علم الدين الحلبي : هذا كتاب أمان لمن سمعه ، وقد سمعه القاضي ، فهو آمن . ثم عزله في حادي عشر صفر ، وفوض القضاء لقاضي القضاة، نجم الدين ابن قاضي القضاة صدر الدين سني الدولة . وكان ابن خلكان بالمدرسة العادلية ، فطالبه القاضي نجم الدين بإخلاء مسكنها ليسكن فيه ، وكرّر عليه الطلب . وكان ابن سني الدولة ، قد أرسل إلى حلب ، لاحضار أهله . فاتفق وصولهم إلى ظاهر دمشق ، في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول . فخرج لتلقيهم ، ورسم على القاضي شمس الدين بن خلكان ، إلى أن ينتقل من المدرسة ، وضيق عليه ، وبقي في شدة بسبب ذلك . وسئل ابن سني الدولة ، أن يمهل عليه أياما ، إلى أن ينتقل إلى مكان آخر ، فامتنع وشدد في ذلك ، وصمم عليه .

وبقي القاضي شمس الدين في الترسيم ، إلى الرابعة من النهار المذكور ، وهو يجمع كتبه ، ويعبّي قماشه للنقلة، ونقل بعضه . فبينما هو كذلك ، وإذا بجماعة من الجاندارية حضروا في طلبه ، فظن أن ذلك بسبب خلو المكان فأراهم أنه يهتم[1] في النقلة . فقالوا له ، أنك لم تُطلب لذلك ، وإنما قد حضر بريدية من باب السلطان ، فطلبت لذلك . وظن أن الطلب لأمر، هو أشد من النقلة . وخاف، وتوجه إلى نائب السلطنة . فإذا كتاب السلطان قد ورد ، وهو ينكر ولاية ابن سني الدولة القضاء وهو أطروش . ويقول[2] نحن بيننا وبين القاضي شمس الدين

(١) في الأصل « مهم » بدون نقط ، وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ١٧٤

(٢) في الأصل ونقول ، وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ١٧٥

معرفـة ، من الأيام الصالحية . وسيّر إليـه تقليدا بالقضاء على عادته . فرجع إلى المدرسـة قاضيا واستقر بها . وعدّت هذه الواقعة من الفرج بعد الشدة. ويقال إن ابن سنى الدوله كان قد أعطى الحلبى على ولايته القضاء ألف دينار ، والله أعلم .

ذكر إعادة الصاحب برهان الدين السنجارى إلى الوزارة وعزله

وفى هذه السنة ، فى أواخر جمادى الآخرة ، أعيـد الصاحب برهان الدين الخضر السنجارى إلى الوزارة ، وعزل الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، فعاد إلى ديوان الإنشاء . وكتب من جملة الكتاب ، وتصرف عن أمر صاحب الديوان . وولى الصاحب برهان الدين الوزارة ، واستمر إلى أن عزل وقبض عليه ، وعلى ولده وأُلْزِمه ، فى شهر ربيع الأول سنة ثمـانين وستمائة . واعتقل إلى يوم عرفة من السنة ، فأفرج عنه فى اليوم المذكور ولزم داره .

وفيها ، جرد السلطان ، الأمير عز الدين أيبك الأفرم لحصار[1] شيزر ، وبها الأمير عز الدين أيبك كرجى من قبل الأمير شمس الدين سنقر الأشقر . فبينما هو يحاصرها ، وردت الأخبار ، أن التتار قد وصلوا على ثلاث فرق[2] : [فرقة][3] من جهة الروم ، ومقدمتهم[4] صمغار[5] ، وتنجى[6] ، وطونجى[7] ، وفرقة من الشرق ومقدمتهم

(١) فى الأصل لحار وما هنا هو الصواب وبه يستقيم المعنى .

(٢) فى الأصل ثلاثه وما هنا هو الصواب لغويا

(٣) الإضافة يتطلبها التوضيح ، انظر ما يلى .

(٤) فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٠ ومقدمهم

(٥) هذا الاسم وارد بهذا الرسم فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٥ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٩١

(٦) فى الأصل ورد هذا الرسم وسحى وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٥ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨١

(٧) فى الأصل طرنجى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٥ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨١ .

بيـدو[1] بن طوغاى[2] بن هولاكو ، وصحبته صاحب ماردين ، والفرقة الثالثة فيها معظم العسكر ، شرة[3] المغل صحبة منكوتمر بن هولاكو . فرحل الأمير عز الدين عن شيزر ، وكتب السلطان إلى سنقر الأشقر يستميله ، وذلك قبل انتظام الصلح بفتح إلى السلم ، ونزل من صهيون ، على عزم إنجاد[4] المسلمين . وجفل عسكر حلب وحماه وحمص . ولم يحصل قتال التتار هذه السنة .

ذكر[5] تفويض السلطنة ولاية العهـد للملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور

فى هذه السنة ، فى شهر رجب[6] ، فوّض السلطان الملك المنصور ولاية عهده وكفالة السلطنة لولده السلطان الملك الصالح علاء الدين أبى الفتح على ، وذلك عندما عزم على التوجه للقـاء التتار . وركب [الملك الصالح[7]] بالقاهرة بشعار السلطنة ، وخطب له على سائر المنابر بعد والده . وكُتب تقليده بذلك ، وهو من إنشاء المـولى محيى الدين عبد الله بن عبـد الظاهر وبخطه ، أجاد فيه وأبلغ ، تركنا إيراده اختصاراً[8] .

(١) فى الأصل بيدر ، وماهنامن ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٥ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨١

(٢) فى الأصل طرغاى ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨١

(٣) فى الأصل وشره ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٥ والمقصود شرار المغل حسبما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨١

(٤) فى الأصل وإيجاد ، وما هنا هو الصواب لغويا

(٥) هذا العنوان يتفق مع العنوان الوارد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٦

(٦) فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٦ ، وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٩ فى سابع عشر جمادى الآخرة

(٧) الإضافة للتوضيح

(٨) وردت صورة لهذا التقليد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٨٧ — ١٩٠ ، وفى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ، ص ١٧٣ — ١٧٧ .

وفيها ، فى شهر رمضان ، عزل السلطان القاضى صدر الدين عمر ابن قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، عن القضاء بالديار المصرية . وكان قد سلك فى ولايته ، طريق الخير والصلاح والصلابة ، وتحرى الحق والعدل فى أحكامه . ثم مات رحمه الله تعالى ، فى عاشر المحرم سنة ثمانين وستمائة . ولما عزل ، أعيد قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين إلى القضاء بالديار المصرية[1] .

ذكر توجه السلطان إلى غزة ، وعوده إلى الديار المصرية

وفى هذه السنة ، توجه السلطان إلى الشام ، وصحبته العساكر الإسلامية ، لدفع التتار ، فوصل إلى غزة . وكان التتار قد وصلوا[2] إلى عين تاب وبغراس والدر بساك ، وتقدموا إلى حلب ، فوجدوها خالية ، وقد جفل العسكر وأهلها منها ، فأحرقوها وذلك فى العشر الأوسط من جمادى الآخرة . ولما بلغهم اهتمام السلطان وخروجه ، تفرقوا إلى مشاتيهم . وعاد السلطان إلى الديار المصرية ، لاستحقاق الربيع .

وجرد الأمير بدر الدين بكتاش النجمى إلى حمص ، والأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحى ، إلى الساحل لحفظ البلاد من الفرنج .

وفيها ، كتب الأمير سيف الدين بلبان الطباخى ، نائب السلطنة الشريفة بحصن الأكراد ، إلى السلطان يستأذن فى غزو الفرنج بالمرقب ، لأنهم لما بلغهم

---

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ١٩٥ .

(٢) فى الأصل وصل ، وما هنا هو الصواب لغويا .

قدوم التتار ، قويت نفوسهم ، وامتد طمعهم . فأذن السلطان له فى ذلك . فجمع جيوش الحصون ، وأمر التركمان والرجالة ، واستصحب المجانيق وآلات الحصار . وتقدم إلى حصن المرقب ، ونزل بالقرب منه ، فاختفى أهله ، ولم يتحركوا فى مبدأ الحال . فقوى طمع العسكر فيهم ، وتقدموا إلى جانب الحصن ، فرشقهم الفرنج بالسهام والجروخ[1] من أعلا الحصن ، وسهام المسلمين لاتصل[2] إليهم . فاضطرب العسكر ، وأمرهم الطباخى أن يتأخروا عن الحصن ، فظنوها هزيمة وولوا ، فما أمكنه إلا أن يتبعهم . وخرج الفرنج فى أعقابهم ونالوا من المسلمين ، وجرحوا منهم جماعة ، ونهبوا وأسروا جماعة من الرجالة . وبلغ السلطان ذلك ، فانكره وكبر لديه ، وعزم على السفر .

ذكر توجه السلطان الى الشام .

وفى سنة تسع وسبعين وستمائة أيضا ، عاد السلطان إلى الشام . وكان خروجه من قلعة الجبل ، فى مستهل ذى الحجة . ونزل بها ولده الملك الصالح ، ورتب فى خدمته الامير علم الدين سنجر الشجاعى ، لاستخراج الأموال ، وغير ذلك .

وفى هذه السنة ، فى ذى الحجة ، وصل الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا من العراق ، إلى خدمة السلطان . وعاود الطاعة ، وسأل الصفح ، عن ما فرط من ذنبه ، من إعانة سنقر الأشقر ، وما كان عزم عليه من الانضمام إلى التتار ، وكان اجتماعه بالسلطان بمنزلة الروحاء . ولما وصل إلى الخدمة ، ركب السلطان إليه ، وتلقاه وأكرمه ، وبالغ فى إكرامه وأحسن إليه .

---

(١) الجروخ : والمفرد جرخ ، نوع من القسى يرمى عنه السهام والنفوط ، ويقال لمستخدمه من الجند جرخى .

(٢) فى الأصل لا يصل وماهنا هو الصواب لغويا .

وفيها ، فى يوم الأربعاء ، وقت العصر ، رابع عشر المحرم ، توفى الشيخ نور الدين أبو الحسن على ابن الشيخ جلال الدين أبى العزائم همام ابن راجى الله سرابا بن أبى الفتوح ناصر بن داود الشافعى ، إمام الجامع الصالحى بظاهر القاهرة ، خارج باب زويلة ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، رحمه الله تعالى . وولى الإمامة بالجامع الصالحى بعده ، ولده الشيخ تاج الدين أبو محمد عبد الله محمد .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء ، ثانى عشر شوال ، توفى الأديب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن على المصرى ، المعروف بالخرّاز الشاعر المشهور ، مولده بمصر ، سنة إحدى وستمائة . سمع أبا الفضل أحمد بن محمد الحباب ، وروى وسمع من غيره . وكان أديبا فاضلا ، جيد البديهة حلو المجون ، حسن المحاضرة ، كثير النادرة ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى الأمير سيف الدين أبو بكر ، المعروف بابن اسباسلار ، متولى مصر . وكان قد سمن ، وأفرط به السمن ، حتى منعه الأطباء من الرقاد على فرش وطى ، ومن النوم إلا إغفاء ، وقالوا إنه متى استغرق فى النوم مات . فكان كذلك إلى أن مات . وكانت وفاته فى شهر ربيع الآخر ، ودفن بتربته بالقرافة . وله فى ولايته بمصر أخبار كثيرة مشهورة من المصريين ، سامحه الله تعالى .

وفيها ، توفى الأمير نور الدين على بن عمر الطورى . كان من أبطال المسلمين وشجعانهم وفرسانهم . وله صيت عظيم عند الفرنج ، ومعرفة بالبلاد الساحلية ومرابطة وآثار جميلة ، ومواقف محمودة . وكان ممن جمع الله له ، بين قوة البدن والقلب . كان يقاتل بلت (١) حديد ، لا يستطيع الشباب حمله ، ولازم المرابطة

(١) اللت ، لفظ فارسى ، وجمعه لتوت ، ومعناه القدوم أو الفأس الكبيرة ، محيط المحيط ، Dozy ; Supp. Dict. Ar.

ببلاد الساحل ، فى وجه العدو سنين كثيرة . وكان كريما دينًا ، وتنقل فى الولايات بالشام . وكان محترما فى الدول ، مكرما عند الملوك ، يعرفون قدره ، وحضر المصاف الكائن بين عسكر مصر وسنقر الأشقر ، فجرح ووقع تحت حوافر الخيل . ومات فى أواخر صفر أو أوائل شهر ربيع الأول ، بجبل الصالحية وقد ناف على تسعين سنة ، رحمه الله تعالى .

واستهلت سنة ثمانين وستمائة

[٦٨٠ — ١٢٨١]

ذكر ما تقرر من المهادنات مع الفرنج و بيت الاسبتار (١)

فى هـذه السنة ، وصل إلى السلطان ، وهو بمنزلة الروحاء ، رسل الفرنج يسألون تقرير الهـدنة ، والزيادة على الهـدنة الظاهرية . وما زالوا يترددون إلى أن تقررت الهـدنة ، بين السلطان وولده معا ، ومع مقـدم (٢) بيت الاسبتار ،

---

(١) هذا العنوان يقابل العنوان الوارد عند ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٤ .

(٢) الاسبتار ، من الطوائف الدينية العسكرية . فالمعروف أنه حدث سنة ١٠٧٠ أن أنشأ جماعة من الأمالفيين ، اشتهروا بالتقوى والصلاح ، دارا فى بيت المقدس ، لينزل بها الحجاج الفقراء . وأجاز والى بيت المقدس من قبـل الخليفة الفاطمى المستنصر لقنصـل آمالفى ، بأن يختار موضعا مناسبا ، يقيم عليه الدار التى اتخـذت داعما لهـا ، القديس حنا المتصدق بطريرك الإسكندرية فى القرن السابع الميلادى . وكان معظم القائمـين على هذه الدار من الرهبان الأمالفيين ، وخضعوا لإدارة مقدم ، استمد سلطته من الهيئات البنـدكتية بفلسطين . وكان جيرار مقـدما على هـذه الدار عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس .

استطاع جيرار أن يقنع حكومة الفرنج بأن توقف على هذه الدار أحباسا . وانضم إلى طائفته عدد كبـير من الحجاج ، الذى اشتهروا فى المصادر العـربية باسم الاسبتارية والاسبتار . وأضحى الاسبتار مستقلين ، ولم يخضعوا إلا للبابا فحصلت طائفتهم على هبات كثيرة — وتطورت هذه الطائفة ، فصار من أهم واجباتها اعداد الفرسان الذى يلتزمون الزهد والتقشف والطهارة والطاعة ، و ينذرون أنفسهم للقتال . وجعلوا شارتهم قطعة من النسيج الأبيض يرسم الصليب فوق سترتهم التى يختفى تحتها السلاح .

والواضح أن مقدمى طائفتى الاسبتارية ، والداوية ، كانوا أمراء مستقلين لهم قادتهم واستحكاماتهم وجيوشهم الخاصة ، ومن أملاك الاسبتار ، معظم بلاد طرابلس .

انظر العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية جـ ١ ، ص ٣٥٧ — ٣٥٩

Rey : Ies Colonies Franques de Syne anx xII et xIII sieeles p. 110, 113.

وجميع الإخوة الاسبتارية ، [بعكا[1]] ، لمدة عشر سنين كوامل متتابعات ، وعشرة شهور ، وعشرة أيام ، وعشرة ساعات ، أول ذلك يوم السبت ثانى عشر المحرم سنة ثمانين وستمائة ، الموافق للثالث من شهر أيار ، سنة ألف وخمسمائة واثنتين وتسعين للإسكندر بن فيلبس[2] اليونانى ، [وذلك[3]] على جميع بلاد السلطان ، وما اشتملت عليه من الأقاليم والممالك والقلاع والحصون ، والمدن والبلاد والقرى ، والمزارع والأراضى ، والموانى والبحور ، والمرامى والثغور ، وسائر البلاد من الفرات إلى النوبة ، وعلى التجار المسافرين فى البر والبحر ، والسهل والجبل ، فى الليل والنهار ، وعلى قلعة المرقب ، والربض المرقبى بحقوقه وحدوده .

وتقررت الهدنة مع متملك طرابلس ، بيمند[4] بن بيمند ، لمدة عشر[5] سنين كوامل متواليات ، أولها يوم السبت السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة ، الموافق للخامس من تموز سنة ألف وخمسمائة واثنتين وتسعين ، للإسكندر . وذلك على بلاد السلطان الملك المنصور والملك الصالح ولده ، قريبها وبعيدها ، سهلها وجبلها ، غورها ونجدها ، قديمها ومستجدها ، وما هو مجاور

---

(١) الإضافة من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٠٤ .

(٢) فى الأصل فيلس ، وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٠٥ وفى ملحق ٦ الوارد فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٩٧٤ — ٩٧٧ .

(٣) الإضافة يتطلبها السياق — انظر ما يلى .

(٤) المقصود هنا بوهمند السابع ، الذى خلف على الحكم أباه بوهمند السادس ، وانعقدت الهدنة فى ١٦ يولية سنة ١٢٨١ .

(٥) فى الأصل عشرة ، وما هنا الصواب لغويا .

لطرابلس ومحادد لها ، من المملكة البعلبكية ، وجبالها وقراها الدخلية[١] والجبلية ، وجبال الضنيين والقصبين[٢] ، وما هو من حقوق ذلك ، وعلى الفتوحات المستجدة : وهى حصن الأكراد وافليس والقليعات وصافيتا ، وميعار ، واطليعا ، وحصن عكار ومرقية[٣] ، ومدينتها وبلادها ، ومناصفاتها ، وهى بلاد اللكمة[٤] ، وجميع بلاد هذه الجهات التى ذكرناها ، ومناصفات المرقب التى دخلت فى الصلح مع بيت الاسبتار وبلده ومدينته ، وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى ، وبلاد الست وبلاطنس وبلادها ، وقرقص وبلادها[٥] ، وجبلة ولاذقية وأنطاكية والسويدية وبلاد ذلك ، وحصن بغراس ، وحصن ديركوش وصهيون وبرزية ، وحصون الدعوة[٦] ، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية ، وما سيفتحه الله تعالى ، على يد السلطان ويد ولده ، وعلى الموانى والسواحل والأبراج وغير ذلك ، وعلى بلاد الإبرنس[٧] ، وعلى طرابلس وما هو

(١) كذا أيضا فى بيبرس المنصورى ؛ زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٩٥ وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٥ ، ولعل المقصود القرى الواقعة على طريق القوافل والرحلة Dozy. Supp Dict Ar

(٢) فى بيبرس المنصورى ص ١٩٦ العضيين .

(٣) فى الأصل ومن فيه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٥ و بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٢٥ أ .

Grousset : Histoire des Croissades III . P. G 98.

(٤) فى الأصل وفى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٥ ، وبيبرس المنصورى : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٢٥ أ .

(٥) فى بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٢٥ أ قرقص .

(٦) حصون الدعوة ، وهى حسبما أورده بيبرس المنصورى جـ ٩ ، ص ١٢٥ أ : القدموس والكهف والمنيقة والخوابى ، والرصافى ، والقليعة ، والعليقة .

(٧) بلاد الابرنس ، وهى طرابلس ، وما هو داخل بها ، ومحسوب منها ، بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٢٥ أ .

داخل فيها ، وأنفه والبترون وجبيل و بلاد ذلك ، وعرقا و بلادها المعينة فى الهدنة ، وعدتها إحدى وخمسون ناحية ، وما هو للخيالة والكنائس وعدتها أحد وعشرون بلدا ، وما هو للفارس روجار دلا[1] لولاى ، من قبل طرابلس ، يكون مناصفة ، وعلى أن يستقر برج اللاذقية وميناؤها فى استخراج الحقوق والجنايات[2] والغلات وغيرها مناصفة ، ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية[3] ، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية[4] ، من غلمان السلطان ليحفظ الحقوق ، ستة عشر نفرا وهم : المشد والشاهد والكاتب وثلاثة[5] غلمان لهم ، وعشرة رجالة فى خدمة المشد ، ويكون لهم فى الجسر بيوت يسكنونها ، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس ، وإنما يمنعون[6] مايجب منعه من الممنوعات ، ولايمنعون[7] مايكون من عرقا ، من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها ، لايعارضهم المشد فيه . وماعدا ذلك مما يعبر[8] من بلاد السلطان ، يؤخذ عليه الحقوق . ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للإبرنس ولا غيره ، إلا [و] يؤخذ الموجب عليها ؛

(١) لعل المقصود أملاك Roger de la Calee سهد القليعات انظر
Grousset. op. Cit IIIP. 688

(٢) الجنايات ، ما تقرر من أموال على سبيل العقوبة ، على أشخاص مذنبين
Dozy: Supp .Dict .Ar

(٣) الهدنة الظاهرية ، وهى التى عقدها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٦٩ (١٢٧٠ م) مع برهمند السادس صاحب طرابلس ، انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٧٢ — ملحق ٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١٥٢ .

(٤) وكذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٦ .

(٥) فى الأصل ، وابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٦ ، ثلاث

(٦) فى الأصل ؛ وابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٦ يمنعوا

(٧) فى الأصل ، وابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٦ ولا يمنعوا

(٨) فى الأصل يغير ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٦ ، وبيبرس المنصورى جـ ٩ ، ص ١٢٥ ب

وعلى أن البرنس لا يستجد خارج ما وقعت الهدنة عليه ، بناء يدفع ولا يمنع ، وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل فى البلاد ، التى وقعت الهدنة عليها ، وعلى الشوانى من الجهتين أن تكون آمنة ، كل طائفة من الأخرى . ولا ينقض ذلك بموت أحدهما . ولا بتغييره ، وأن لا يُحسِّن لأحد من أعداء مولانا السلطان ، ولا يتفق عليه ، برمز ولا خط ، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة . وتقررت الحال على ذلك وعادت الرسل ، وتوجه الأمير فخر الدين أياز الحاجب ليحلف الفرنج ومقدم بيت الاسبتار . على ما انعقد عليه الصلح ، فحلفهم .

ذكر حادثة[1] الأمير سيف الدين كوندك ومن معه ، والقبض عليه

وفى هذه السنة ، بلغ السلطان وهو بمنزلة الروحاء ، أن الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية ، قد توافقوا على الغدر به . ووصلت إلى السلطان كتب المناصحين من عكا يقولون له احترز على نفسك ، فإن عندك جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتلك ، وكاتبوا الفرنج ، وقالوا لهم لا تصالحوا فالأمر لا يبطىء . وعزم كوندك ومن معه ، أن يهجموا بالليل على السلطان فى الدهليز ويغتالونه . ووافقهم جماعة من الظاهرية الجوانية[2] . فاحترز السلطان

(١) هذا العنوان يطابق الوارد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٦

(٢) فى الأصل الخوابية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٧

ورحل[1] من الروحاء . وتقدم وتلاطف الأمر ، حتى اجتمع[2] الأمراء عنده بحمرة[3] بيسان ، فوبخ كوندك ومن معه ، وذكر لهم ما اعتمدوه من مكاتبة الفرنج فاعترفوا بذلك ، وقرّوا به . وسألوه العفو . فأمر السلطان بالقبض عليهم ، فقبض [على][4] كوندك[5] وايدغمش الحكيمى وبيبرس الرشيدى ، وساطلمش السلاح دار الظاهرى فى الدهايز ، وأمر السلطان بإعدامهم . وسير إلى الخيام فأمسك من كان قد وافقهم من [الأمراء][6] البرانيين والمماليك الجوانية ، وكانوا ثلاثة وثلاثين نفرا ، وخاف جماعة فهربوا ، فساق العسكر خلفهم . فأحضر بعضهم من جبال بعلبك ، وبعضهم من ناحية صرخد .

وفيها ، هرب الأمير سيف الدين أيتمش[7] السعدى . وسيف الدين بلبان

---

(١) فى الأصل ودخل ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٧ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٦

(٢) فى الأصل اجمع ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٧

(٣) فى الأصل بحمرة بيسان ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٧ وابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٣٢٢ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٧

(٥) فى الأصل اوندك ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ : ص ٢٠٧ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٦ .

(٦) الاضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٧ والأمراء البرانيون والبرانية ، هم الذين لم يكونوا من الخاصكية المعروفين بالجوانية — المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ، ص ٢١٧ : أما الخاصكية فهم الذين يلازمون السلطان ، ويتجهزون فى المهمات الشريفة ، والمتقربون فى المملكة — المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٤٤ حاشية ٤

(٧) فى الأصل ايتامش ، والرسم المثبت هنا هو الذى يرد عادة فى المخطوطات ، وفى هذا الكتاب أيضا . انظر مايلى .

المارونى[1] ، وجماعة من البحرية الظاهرية . والتتار الوافدية[2] ، يقال كانوا نحو ثلثمائة فارس . وتوجهوا إلى صهيون ، ولحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، وذلك قبل انتظام الصلح الذى قدمناه . وجرد السلطان خلفهم ، الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، والأمير ركن الدين بيبرس طقصوا[3] وجماعتهم فلم يدركوهم .

ورحل السلطان إلى دمشق ، وكان وصوله إليها فى يوم السبت العشرين من المحرم ، وهو أول دخوله إليها . وكان من انتظام الصلح بين السلطان والأمير شمس الدين سنقر الأشقر والملك المسعود ما قدمناه[4] . وكانت الوقعة مع التتار على حمص ، وقد تقدم ذكرها فى الغزوات[5] .

وفى هذه السنة ، فى يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم ، والسلطان بدمشق ، فوّض السلطان قضاء القضاة بدمشق ، على مذهب الإمام الشافعى ، لقاضى القضاة عز الدين بن الصائغ ، وعزل القاضى شمس الدين أحمد ابن خلكان . وفوّض أيضا قضاء الحنابلة بدمشق للقاضى نجم الدين أحمد ابن الشيخ شمس الدين عبد الرحمن الحنبلى . وكان القضاء على مذهب أحمد ، قد

(١) فى الأصل الحدونى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٧ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٦

(٢) التتار الوافدية ، والمستأمنة أو المستأمنون ، هم طوائف من التتار قدمت إلى مصر فى العصر المملوكى الأول ، وكانوا أحرارا ، ودخل عدد كبير منهم فى خدمة الأمراء ، ولم يلحق بفرق المماليك السلطانية والخاصكية إلا عدد قليل منهم والعريفى : الفروسية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ص ٢٠٥

(٣) فى الأصل تقصوا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٠٧ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ٦٨٦

(٤) انظر ما تقدم ص ٢١ ، ص ٢٧ من هذا الجزء (المصحح) .

(٥) انظر ما تقدم ص ٣٠ من هذا الجزء (المصحح) .

شغر[1] ، منذ عزل الشيخ شمس الدين نفسه من القضاء ، وتوجه إلى الحجاز ، فى سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ففوضه السلطان الآن لولده المذكور ، بإشارة والده وخلع على القاضيين ، واشترط القاضى عز الدين شروطا ، فأجيب إليها .

وفيها ، فى العشر الأوسط من شهر ربيع الأول ، دارت الجهة المفردة[2] بدمشق وأعمالها وضمنت . فقيل[3] إنها ضمنت فى كل سنة بسبعمائة ألف درهم . ثم تزايد فيها الضمان حتى بلغت ألفى ألف درهم فى كل سنة . فلما كان فى يوم الأحد ، الخامس والعشرين من الشهر ، خرج مرسوم السلطان بإراقة الخمور وإبطال [هذه] الجهة [الخبيثة] فبطل ذلك ولله الحمد[4] .

وفيها ، فى شعبان ، فوض السلطان شاد الدواوين بالشام ، للأمير علم الدين سنجر الدوادارى و [فوض[5]] نظر النظار للقاضى تاج الدين عبد الرحمن بن الشيرازى .

---

(١) فى الأصل ، من غير نقط ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٠٨ ؛ والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٧

(٢) الجهة المفردة : المقصودة بها هنا ضريبة مفرده ، جرى اشهارها فى المزاد لمن يتعهد بها . المقريزى ؛ السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٨ حاشية ٥ ، Quatremère: op. Cit. ii. I. P.31

(٣) فى الأصل فقال ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٠ ، قيل ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٤) هذا الخبر أورده محقق كتاب ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٢١٠ ، حاشية ، لأنه لم يرد الأعلى الهامشين الأيسر والأيمن من المخطوطة . ولعل ناسخ الكتاب لم يفطن إلى وضع علامة تشير إلى ما سقط مهراعته الكتابة كما يفعل كثير من النساخ . والإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢١٠ حاشية ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ص ٦٨٨

والملحوظ أيضا أن الاتفاق يكاد يكون تاما بين رواية النويرى ، ورواية ابن الفرات ، وفى ذلك دليل على استنادهما إلى مصدر واحد ، أفاد كل منهما منه بأسلوبه الخاص .

(٥) الإضافة يتطلبها السياق .

وفى هذه السنة ، وصلت رسل الملك المظفر يوسف بن عمر ، صاحب اليمن إلى السلطان بالهدايا والتحف . وكان من جملة سؤال صاحب اليمن أن يرسل السلطان إليه قميص أمان[1] ، ويكتب عليه هو وابنه الملك الصالح ، فأجابه السلطان إلى ذلك . وجهّز له هدايا وتحفا وقطعة زمرد وخيلا من خيل التتار الأكاديش[2] ، وشيئا من عددهم[3] .

وفيها ، فى شهر رمضان ، قبض السلطان على الأمير ركن الدين أياجى[4] الحاجب . وفى ذى القعدة ، قبض على الأمير سيف الدين أيتمش[5] السعدى ، وجماعة من الأمراء ، وقبض بدمشق على الأمير سيف الدين بلبان الهارونى ،

(١) أورده بيبرس المنصورى : (زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٢٣ ، أ — ب) نسخة هذا الأمان ومنه يتضح أن ملك اليمن كان يبغى عقد حلف مع السلطان المنصور قلاون ، ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر صاحب اليمن المحروس : إنا داعون له ، ولأولاده ، مسالمون من سالمهم معادون من عاداهم ناصرون من نصرهم ، خاذلون من خذلهم لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضيناه لأنفسنا وإنا لا نقبل فى حقه سعاية ساع ولا قول واش ، ولا تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا ، مادام ملازما لشروط مودتنا ، التى شافهنا بها الأمير مجد الدين .

والمعروف أن الأمير مجد الدين ابن أبى القاسم كان من رسل ملك اليمن . (انظر ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٢٨) .

(٢) الأكاديش جمع أكديش ، وهو لفظ فارس الأصل ، معناه الإنسان أو الحيوان الذى من يكون أبوه من جنس وأمه من جنس آخر ، وأطلقه المؤرخون على خيول التتار ، لاستخدامها فى حمل الأثقال Dozy: supp. Dict. Ar. Quatremere: op. Cit. II. 1. p. 46. note 37.

(٣) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٢٨

(٤) فى الأصل اباجى ، وما هنا فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٢٨

(٥) انظر ما سبق ص ٧٨ هامش ٧ .

وسنقر الكردى وغيرهم . وكان أيتمش والهارونى، قد عادا إلى الخدمة من جهة سنقر الأشقر بعد المصاف ، كما تقدم ذكر ذلك[1] .

وفيها ، رسم السلطان بإبطال زكاة الدولبة[2] ، والزكاوات المقررة بالديار المصرية . وكان الناس يجدون مشقة كبيرة لذلك ، لأن المال كان ينفد والزكاة باقية ، وإذا مات رجل طولب ورثته بالزكاة المقررة عليه .

ذكر وفاة قاضى القضاة تقى الدين رزين ، وولاية القاضى وجيه الدين ، واستعفائه من قضاء القاهرة ، وولاية القاضى شهاب الدين الخوبى[3] .

وفى هذه السنة ، فى ليلة الأحد ثالث شهر رجب ، كانت وفاة قاضى القضاة ، تقى الدين أبى عبد الله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى بن عيسى ، ابن موسى بن نصر الله بن هبة الله العامرى الشافعى ، ودفن بالقرافة . ومولده فى يوم الثلاثاء ، ثالث شعبان سنة ثلاث وستمائة بحماه ، رحمه الله تعالى . وفضائله وعلومه مشهورة ، وسماعاته عالية . ولما مات ، فوّض السلطان قضاء

---

(١) فى ابن الفرات . جـ ٧ ، ص ٢٣٤ ، كما قدمنا شرحه ، وفى ذلك ما يؤيد ما سبق الإشارة إليه ، من التطابق بين روايات النويرى وابن الفرات .

(٢) زكاة الدولبة . مال مقرر على كل ما يستخدم من آلات رى الأراضى ، وغزل الحرير ، وصناعة السكر . Doze ; Supp. Dict. Ar

(٣) الأصل الحوبى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٤٧ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٠٦ ولعله ينتمى إلى خوبة من بلاد اذربيجان (ياقوت : معجم البلدان) .

القضاة بالديار المصرية ، للقاضى وجيه الدين عبد الوهاب بن حسين البهنسى المهايى ، فى سلخ شعبان ، فولى ذلك إلى آخر جمادى الآخرة ، سنة إحدى وثمانين [وستمائة][1] . ثم استعفى من قضاء القاهرة والوجه البحرى ، وذكر أنه يضعف عن الجمع بين قضاء المدينتين والوجهين . فأعفى من قضاء القاهرة والوجه البحرى ، وفوض السلطان ذلك إلى القاضى شهاب الدين الخويى[2] ، وكان يلى قضاء الغربية . فنقل إلى قضاء[3] القضاة بالقاهرة والوجه البحرى . واستمر إلى أن نقل إلى الشام ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وفيها ، توفى قاضى القضاة ، نفيس الدين أبو البركات محمد ، ابن القاضى المخلص ، ضياء الدين هبة الله ابن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر المالكى ، قاضى قضاة المالكية بالديار المصرية ، فى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة ، ومولده فى سنة خمس وستمائة . وَوَلِّى القضاء من بعده للقاضى تقى الدين أبى على الحسين ، فى سنة تسع وستين وستمائة . ولما مات ، فوّض السلطان القضاء بعده ، للقاضى تقى الدين أبى علىّ الحسين ابن الفقيه شرف الدين أبى الفضائل عبد الرحيم ابن الفقيه الإمام مفتى[4] الفرق جلال الدين أبى محمد عبد الله ابن شاس الجذامى السعدى المالكى .

---

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) انظر ما سبق ص ٨٢ ، حاشية ٣ .

(٣) فى الأصل قاضى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٤٧ .

(٤) فى الأصل سنى الفرق ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٣٥ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٠٤ .

وفيها ، توفى قاضى القضاة نجم الدين أبو بكر محمد ابن قاضى القضاة صدر الدين أبو العباس أحمد ابن قاضى القضاة شمس الدين أبى البركات[1] يحيى ابن هبة الله ، المعروف بابن سنى الدولة . وكانت وفاته بدمشق ، فى ثامن المحرم ، ودفن بتربة جده ، بقاسيون ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى ثالث عشر شهر ربيع الآخر توفى الشيخ الصالح مجد الدين عبد العزيز ابن الحسين بن إبراهيم الخليلى الدارى بدمشق ، ودفن بقاسيون[2] . وهو والد الصاحب الوزير فخر الدين عمر الخليلى .

وفيها ، فى سحر يوم الجمعة ، ثامن ذى الحجة ، توفى الشيخ الإمام ، بقية العلماء ، علم الدين أبو الحسن محمد ابن الإمام أبى على الحسين بن عتيق بن عبد الله بن رشيق الربعى المالكى الفقيه ، شيخ مشايخنا . ودفن بالقرافة ، وكانت جنازته مشهودة . ومولده فى يوم الأحد ، العشرين من شهر رجب ، سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمصر[3] ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى الأمير بهاء الدين ابن الأمير حسام الدين بيجار[4] ، وكان من أعيان الأمراء وأكابرهم . وكانت وفاته بغزة ، وهو منصرف إلى الديار المصرية ،

---

(١) فى الأصل أبو الركات وما هنا هو الصواب من ناحية الإعراب .

(٢) انظر ترجمته فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٠٤

(٣) انظر ترجمته فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٤١

(٤) فى الأصل بدون نقط ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٦٦ بيجار ، ٢٣٧ ، وفى أصل السلوك جـ ٧ ، ص ٦٢٥ حاشية ٣ ، بجار . وما هنا جرى ضبطه من ابن الفرات ، واليونينى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ، ص ٢٠٢ .

فى رابع عشر شعبان ، وهو فى عشر السبعين تقريبا ، ووالده الأمير حسام الدين البايبرتى باق[1] ، وقد كف بصره .

وفيها ، توفى الأمير شمس الدين سنقر الألفى . وهو الذى ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية ، بعد الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقانى كما تقدم . وكانت وفاته فى معتقله بثغر الإسكندرية ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى الأمير نور الدين أحمد ، ويدعى رباله ، ابن الملك الظاهر على ابن الملك العزيز محمد ، ابن الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . وأمه زوجة الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى المعروفة ، بوجه القمر . وكانت وفاته بالقاهرة ، فى شوال ، و[كان][2] عمره يومئذ ستا وعشرين سنة . وكان بديع الحسن ، تام الخلقة ، عنده شجاعة وكرم وسكون ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى موفق الدين خضر بن محاسن الرحبى ، النائب بالرحبة . وكان يعد من رجال الدهر شجاعة وإقداما وحزما ، وتدبيرا ومكرا ، وحيلا ومداراة وسياسة . وكان فى بدايته حماسا[3] بالرحبة ، لإنسان من أهلها ، فمات ، فتزوج بامرأته ، وحاز موجوده ، فصلحت حاله . وخدم من جملة قراغلامية[4] الرحبة لما كانت الرحبة للملك الأشرف ، صاحب حمص . وخدم النواب بالرحبة ،

(١) كذا أيضا فى ابن الفرات ج ٧ ، ص ٣٧ ، نسبة إلى بايبرت ، ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٩ .

(٢) الإضافة للتوضيح .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٣٨ ، ولعل المقصود هنا جمّاز وهو الشخص الذى يقوم بعمل القساطيط وآلة الجمازات (الرواحل) — انظر .
Dozy: Supp. Dict Ar.

(٤) قراغلامية انظر ماسبق ص ٤٠ حاشية ١

وتنقلت به الأحوال ، وترقى إلى أن ولى نيابة السلطنة بالرحبة . وكانوا بعد ذلك يسمونه الموفق صاحب الرحبة . فلما كان فى هـذه السنة ، حضر إلى دمشق ، يتقاضى مواعيد كانت سبقت له من السلطان بالإمرة ، فمات بدمشق ، ودفن بمقابر باب الصغير ، وعمره نحو سبعين سنة ، رحمه الله .

واستهلت سنة إحدى وثمانين وستمائة

[٦٨١ = ١٢٨٢]

ذكر تفويض نيابة السلطنة بحلب للأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى

فى هذه السنة ، فوض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية ، إلى الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار المنصورى . فاستأذن السلطان فى عمارة جامع مدينة حلب وقلعتها ، وكان التتار قد أخربوهما[1] فأذن له فى ذلك ، فعمّرهما[2] أحسن ما كانا .

وفيها ، فى حادى شهر ربيع الآخر ، فوّض السلطان الوزارة للقاضى الصاحب نجم الدين حمزة بن محمد الأصفونى ، وكان قبل ذلك يلى نظر الدواوين . وكان فى ابتداء ترقيه يلى نصف مشارفة الأصل[3] ، بالأعمال القوصية . ثم ولى فى الدولة الظاهرية ، نظر الأعمال القوصية ، ثم وضع إلى نظر الأعمال الأخميمية . ثم تنقّل فولى نظر النظار بالديار المصرية ، ثم الوزارة . ولم تطل مدة وزارته ، فإنه مات بعد سنة من يوم وزارته ، رحمه الله تعالى . وفوضت الوزاره بعده ، للأمير علم الدين سنجر الشجاعى المنصورى .

---

(١) فى الأصل أخربوها ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥٠ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٠٨ .

(٢) فى الأصل فعمرها ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥٠ ، والمقريزى . السلوك جـ ١ ، ص ٧٠٨ .

(٣) مشارفة الأصل ، من وظائف الديوان ، ولأهمتها انقسمت إلى مشارفة أصل ، ومشارفة مباشرة ، وما يتحصل من الأموال ينتهى إلى المشارف بعد الفراغ من تسجيلها . انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢ ، ٣٣ ، والنويرى . نهاية الأرب جـ ٨ ، ص ٢٠٤ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ، ص ٤٦٦

وفيها، وفد إلى خدمة السلطان ، شخص من أولاد الأويراتية[1] ، يسمى الشيخ على . كان قد دخل فى دين الإسلام ، وخدم المشايخ ، وعانى أسباب الرياضة والانقطاع . فظهرت له كرامة من كرامات الفقراء ، فتبعه جماعة من أولاد المغل . فخرج بهم من تلك البلاد إلى الشام ، ثم إلى الديار المصرية . ومثلوا بين يدى السلطان، فأحسن إليهم ، منهم الأقوش وتمر وعمر، ثلاثة إخوة ، وجويان[2] وجماعة ، رتب السلطان بعضهم فى جملة الخاصكية، وتنقلوا إلى الإمرة. ثم ظهر من الشيخ على أمور أنكرت عليه فسجن ، ثم سجن الأقوش ، ومات تمر وعمر فى الخدمة .

وفى هذه السنة ، فى صفر ، قبض السلطان على الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، والأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى وغيرهما ، واعتقلوا . واستمر الأمير بدر الدين بيسرى فى الاعتقال إلى الدولة الأشرفية، فأفرج عنه ، على ما نذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وفيها ، فى يوم عرفة ، قبض بدمشق على الأمير عز الدين أيبك كرجى ، والأمير علم الدين الروباسى[3]، والأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير عز الدين أيدمر

---

(١) فى الأصل الأويرانية ، وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٥٥ ، والأويراتية أو الكالموك ، جماعة من الواقدية ، كانت تنزل أصلا منطقة بغداد ، وصل منهم إلى الرحبة سنة ٦٩٥ (١٢٩٥ م) نحو عشرة آلاف بيت من عسكر بيدو بن طرغاى بن هولاكو ، صحبة طرغاى زوج حفيدة هولاكو ، بعد أن تعرضوا لهجمات صاكرغازان ، فبادر نائب دمشق لاستقبالهم بناء على أوامر السلطان كتبغا . ولما وصلوا إلى القاهرة، بالغ كتبغا فى إكرامهم وأنزلهم بالحسينية، وأنعم على مقدميهم بالتقادم والإقطاعات . انظر العرينى . الفروسية فى مصر ص ٢٥ ، المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨١٢ .

(٢) فى الأصل حوبان ، وماهنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٥٠

(٣) فى الأصل الزوباشى ، وماهنا من ابن الفرات ج ٧ ، ٢٥١ .

الظاهرى . نائب السلطنة ، والده بدمشق كان[1] ، وعلى زين الدين ابن الشيخ هدى[2] ، واعتقلوا .

وفيها ، فى حادى عشرين ، شهر رمضان احترق سوق اللبادين وسوق جيرون بدمشق ، إلى حيطان الجامع . واتصل الحريق إلى حمام الصحن ، ودار الخشب . وكان ابتداء الحريق من وقت المغرب ، واستمر ثلاثة أيام ، وركب بسببه نائب السلطنة وسائر الأمراء ، والعسكر ، والمجارين والنجارين ، حتى خرّبوا[3] قدام النار فانقطعت . واحترق سوق الكتبيين ، فكان ما احترق فيه لشمس الدين إبراهيم الجزرى الكتبى ، خمسة عشر ألف مجلد ، غير الكراريس والأوراق . وكان سبب هذا الحريق ، أن بعض الذهبيين[4] غسل ثوبه ونشره ، وجعل تحته مجمرة نار وتركها ، وتوجه للفطور ، فتعلقت النار بالثوب ، واتصلت ببارية[5] كانت معلقة ، ومنها إلى السقف . وسلم أربعة دكاكين من ناحية درج اللبّادين .

ذكر وصول رسل أحمد سلطان ، وهو توكدار ابن هولاكو ، ملك التتار .

وفى هذه السنة ، وصل رسل أحمد سلطان بن هولاكو ، وهو الذى ملك بعد أبغا ، وهم قطب الدين محمود الشيرازى ، قاضى سيواس ، والأمير بهاء الدين

(١) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥١ ، والواضح أن العبارة مضطربة ، والمقصود أن والده كان نائب السلطنة بدمشق .

(٢) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥١ وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٠٩ الشيخ على .

(٣) فى ابن الفرات جـ ٧ : ص ٢٥٠ أخربوا .

(٤) الذهبيون ، جماعة يشتغلون بطلاء المعدن بالذهب . القاموس المحيط .

(٥) البارية ، الحصير المنسوج ، القاموس المحيط .

أتابك السلطان مسعود صاحب الروم ، والصاحب شمس الدين محمد ابن الصاحب ، وهو من أصحاب صاحب ماردين . وعند ورود الخبر بوصولهم إلى البيرة ، أمر السلطان ، الاحتراز عليهم ، بحيث لايشاهدهم أحد . فساروا بهم فى الليل ، إلى أن حضروا بين يدى السلطان . واحضروا كتابا من أحمد سلطان ، يتضمن أنه قد ملك التتار ، وهو مسلم . وقد أمر ببناء المسجد والمدارس والأوقاف ، وأمر بتجهيز الحاج ، إلى غير ذلك من أنواع وجوه البر والقربات . وطلب اجتماع الكلمة ، وإخماد نار الفتن والحروب . وذكر أن أصحابه وجدوا جاسوسا فى زى الفقراء فسكوه ، وإن عادة مثله القتل . وجهزه إلى الأبواب السلطانية . وقال إنه لاحاجة إلى الجواسيس ولا غيرهم ، بعد الاتفاق واجتماع الكلمة ، إلى غير ذلك مما فيه استجلاب خاطر السلطان . وظهرت رغبته فى الصلح ، وأنه كتب من واسط ، فى جمادى الأولى . فاجابه السلطان جوابا حسنا ، يتضمن تهنئته بالإسلام ، وأجابه إلى ما طلب من الصلح ، وأعاد رسله مكرمين . فوصلوا إلى حلب فى سادس شوال ، وتوجهوا إلى بلادهم[1] .

وفيها ، بنى السلطان ببنت[2] سكتاى بن قراجين بن جنغان نوين . وكان سكتاى هذا ، قد ورد إلى الديار المصرية ، هو وقرمشى ، فى سنة أربع وسبعين وستمائة ، صحبة بيجار[3] الرومى ، فى الدولة الظاهرية . وهذه هى والدة السلطان الملك الناصر .

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٠٧ — ٧٠٨ ، وبيبرس المنصورى : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٣١ أ — ١٣٧ أ .
انظر أيضا ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٣٣٥ وما بعدها .

(٢) فى الأصل بيت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥١ .

(٣) فى الأصل بانيجار وما هنا من اليونينى ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٠٢ . انظر ما سبق ص ٨٤ حاشية ٤ .

وفيها ، تزوج الملك الصالح ابن السلطان الملك المنصور بمنكبك[١] ، ابنة الأمير سيف الدين نوكية بن شان[٢] قطمان . وكان نوكيه إذ ذاك معتقلا بثغر الإسكندرية . فرسم السلطان بالإفراج عنه ، وأحضره إلى الأبواب العالية ، وشمله الإنعام . وتقرر العقد على خمسة آلاف دينار عينا ، قُدِّم منها ألفا دينار .

وفيها ، استقرت الهدنة بين السلطان والمقدم افرير كليام ديباجوك[٣] ، مقدم بيت الديوية بعكا والساحل وديوية[٤] انطرطوس[٥] ، لمدة عشر سنين ، أولها خامس المحرم ، سنة إحدى وثمانين وستمائة .

ذكر الظفر بملك من ملوك الكرج وإمساكه .

وفيها ، بلغ السلطان الملك المنصور ، أن ملكا من ملوك الكرج ، خرج من بلاده ، لزيارة القدس الشريف ، ويعود خفية ، واسمه توما سوطياس[٦] كلياري . ووضعت له صفته ، ومعه رفيق يسمى طيبغا بن انكوار ، وأنهما ركبا المراكب من ساحل

---

(١) في الأصل مبلبك وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥١ .

(٢) في ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥١ سان قطمان

(٣) في الأصل ديباخول ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٥٢ ، والمقريزي : السلوك جـ ١ ، ص ٩٨٦ ، وهو مقدم الداوية بعكا ، انظر Grousset : op. cit P. 689 - 690

(٤) في الأصل ديومه وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥٢ .

(٥) في الأصل انطروس ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥٢ .

(٦) في الأصل توما سوطياس كلياري ، وفي ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥١ ورد بهذا الرسم توبا صوطيا كلياري ، وفي المقريزي : السلوك جـ ١ ، ص ٧١٠ ، موفاطنا بن كلياري ، وفي الترجمة الفرنسية للسلوك Touma Sauta Fils de Kalliari ، وما هنا جرى تصويبه من المصادر المتقدمة Quatremère : op. cit II. I. P. 56

بوط[1]، فحفظت عليه الطرقات من كل جهة ، فلم يصل إلى موضع إلا وخبره قد سبق إلى السلطان. فلما وصل إلى القدس الشريف ، أمسك هو وترجمانه[2] ، وأحضرا[3] إلى الديار المصرية ، واعتقلا بها .

وفى هذه السنة ، ولى القاضى بدر الدين محمد ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن جماعة الكنانى الشافعى ، تدريس المدرسة القيمرية . وذكر الدرس بها ، فى تاسع عشر شوال . وحضر دروسه القضاة والعلماء .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء ، ثامن شهر رجب ، كانت وفاة الشيخ الإمام العالم الزاهد ، زين الدين أبى محمد عبد السلام بن على بن عمر الزواوى المالكى ، بدمشق . ومولده بظاهر بجاية فى سنة تسع أو ثمان وثمانين وخمسمائة . ووصل إلى دمشق فى سنة ست عشرة وستمائة ، وأقام بها إلى حين وفاته . وولى القضاء فى الدولة الظاهرية ، بعد امتناع منه ، كما تقدم . ولم يأخذ عنه جامكية ، ولا لبس تشريفا . ثم عزل نفسه ، فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة . وحلف ألا يلى القضاء بعدها . فأقر السلطان نائبه وصهره القاضى جمال الدين يوسف ، وقد تقدم ذكر ذلك فى مواضعه . وكان رحمه الله تعالى ، كثير التواضع ، يشترى حاجته ويحملها[4] بنفسه .

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥١ حاشية ١ بوط بدون نقط .

(٢) فى الأصل فترجمانه ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥٢ ، نبض عليه وعلى ترجمانه ، وما هنا جرى تصويبه من ابن الفرات .

(٣) فى الأصل وأحضروا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥٢ .

(٤) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥٦ .

وفيها ، فى يوم الأحد سادس عشرين شعبان ، توفى الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن شيخ الإسلام ، عز الدين أبى محمد عبد العزيز بن عبد السلام ، ودفن بتربة والده بالقرافة . ومولده بدمشق ، فى سنة خمس وستمائة ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى الملك الظاهر شادى ابن الملك الناصر داود ابن الملك المعظم سيف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل ، سيف الدين أبى بكر محمد ابن أيوب . وكانت وفاته بالغور ، فى السابع والعشرين من شهر رمضان . ونقل إلى البيت المقدس ، فدفن به . ومولده بقلعة دمشق ، بعد صلاة الجمعة ، سابع عشر ذى الحجة ، سنة خمس وعشرين وستمائة .

وفيها ، توفى القاضى شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان البرمكى . الشافعى الاربلى . وكان وفاته بالمدرسة النجيبية بدمشق ، فى عشية يوم السبت سادس عشر شهر رجب . ومولده بمدينة إربل ، فى يوم الخميس بعد صلاة العصر ، حادى عشر ، شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وستمائة . وقد تقدم ذكر ولايته[1] القضاء بالشام . وكان رجلا عالما ، وحاكما عادلا ، وأديبا بارعا ، ومؤرخا جامعا ، وكريما سمحا ، جوادا مداريا . يحب الرفق بالناس ، وكان طاهر المجلس ، لا يغتاب أحد أحدا فى مجلسه . وله مناقب مشهورة ، وحكايات مذكوره ، تدل على حسناته وستره ، رحمه الله تعالى[2] .

---

(١) فى الأصل ولاية ، وما فى المتن به يستقيم المعنى .

(٢) هذه الترجمة واردة فى ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٥ وفى ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٤ وفى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٧١١ .

وفيها ، توفى الشيخ الصالح ، أبو الفدا إسماعيل بن إسماعيل بن جوسلين البعلبكى بها ، فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من صفر . ومولده سنة أربع وستمائة . سمع صحيح البخارى ، على ابن الزبيدى واسمعه ، رحمه الله تعالى (١) .

وفيها ، كانت وفاة السديد هبة الله النصرانى القبطى المعروف بالماعز ، ستوفى الصحبة بالديار المصرية . وكان قد تمكن فى هذه الوظيفة عند الملك الظاهر، وتقدم على أبناء جنسه. وله معرفة تامة بالديار المصرية والبلاد الشامية، لم يشاركه أحد فى زمانه من أبناء جنسه كلهم ، قد أقر له بالفضل فى صناعته، وكان متعففا عن الأموال ، وعنده ستر على الكتاب والمتصرفين . ولما مات ، رتب السلطان فى وظيفته ، ولده الأسعد جرجس . وتمكن الأسعد فى الدولة المنصورية تمكنا كثيرا ، ما سمع بمثله لمثله .

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٥٦ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ٣٥٦ .

واستهلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة

[٦٨٢ - ١٢٨٣ / ١٢٨٤]

فى هذه السنة ، توجه السلطان إلى البحيرة ، لحفر الخليج المعروف بالطيرية[١] . وتوجه صاحب حماه فى خدمته ، وكان قد وصل إلى الأبواب السلطانية فى هذه السنة . لحفر هذا الخليج، وكان طوله ستة آلاف [و[٢]] ستمائة قصبة ، وعرضه ثلاث قصبات ، وعمقه أربع قصبات ،بالقصبة الحاكية[٣] . وكان نجازه فى عشرة أيام ، وروى بسببه من أعمال البحيرة[٤] ، ما لم يكن يروى قبله ، فى سنة من السنين .

وفيها، فى عاشر شهر ربيع الأول، فوّض السلطان إلى الصاحب برهان الدين الخضر السنجارى ، النظر والتدريس ، بمدرسة الإمام الشافعى [بالقرافة[٥]] ، بالجامكية[٦] والجراية[٧] . والرسم الشاهد به ، كتاب الوقف الصلاحى ، يوسف

---

(١) فى الأصل الطبرية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٦٠ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧١٢ ، وترعة الطبرية تخرج من النيل قرب قرية مباة بهذا الأسم ، وهى الأن ترعة الحاجر . انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ٧١٢ حاشية ٢ ،

Omar Tousson: Anciens Branches du Nil pp. 106 - 107

(٢) فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٦٠ ، وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ٧١٢ ، وخمسمائة.

(٣) القصبة الحاكية من المقاييس المستعملة فى تقدير مساحة الأراضى الزراعية فى مصر ، وقد جرى تحريرها زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى فنسبت إليه ، ومقدارها ستة أذرع .

انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٤٤٦ .

(٤) فى الأصل البحرية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٦٠ .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٢ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧١٣ .

(٦،٧) فى الأصل بالحاكية والخزانة ، وما هنا من ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٢٧٢ .

ابن أيوب ، رحمه الله تعالى ، وهو من [معلوم[1]] التدريس ، فى كل شهر أربعون دينارا معاملة ، صرف [كل[2]] دينار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم وعن النظر عشرة دنانير [والجراية[3]] ، والرسوم فى كل يوم ، من الخبز ستون[4] رطل ، بالرطل المصرى ، وراويتان[5] من الماء الحلو . وكانت هذه المدرسة ، خلت من مدرس ، من ثلاثين سنة ، وأكتفى فيها بالمعيدين[6] ، وهم عشرة . واستمر الحال على ذلك ، إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة . فولى تدريسها قاضى القضاة تقى الدين بن رزين ، عند عزله من القضاء . وقرر له نصف المعلوم . ثم انتقلت بعد وفاته إلى غيره بربع المعلوم ، وبقى الأمر على ذلك إلى الآن[7] ، ففوضت إليه بتوقيع شريف سلطانى منصورى .

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعوده

وفى هذه السنة توجه السلطان إلى الشام ، فى النصف من جمادى الأولى ، ووصل إلى غزة ، فى سابع جمادى الآخرة . وأقام بها أياما ، ثم رحل[8] إلى دمشق . فدخلها فى ثامن شهر رجب ، ونزل بالقلعة .

---

(١) الإضافة من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٧٢ .

(٢) الإضافة من الفرات ج ٧ ، ص ٢٧٢ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٧٢ .

(٤) فى الأصل ستين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) فى الأصل راوتين وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) فى الأصل بالمعتدين وما هنا ، هو الصواب ، من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٧٢ .

(٧) الملحوظ المطابقة التامة بين النويرى وابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٧٢ ، فهذه العبارة وردت بالذات عند كليهما ، على الرغم من أنهما يعيشان فى زمنين مختلفين ، فالنويرى سابق على ابن الفرات .

(٨) فى الأصل دخل وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٧٤ .

ذكر عزل قاضى القضاة عز الدين ابن الصائغ الشافعى عن القضاء ، وتولية قاضى القضاة بهاء الدين يوسف بن الزكى

كان سبب عزل قاضى القضاة عز الدين ابن الصائغ عن القضاء بدمشق ، أن تاج الدين بن السنجارى قاضى [قضاة[1]] حلب ، أثبت[2] محضرا ، أن الطواشى ريحان الخليفتى ، أودع شرف الدين بن الإسكاف ، ثمانية آلاف دينار ، وأن ذلك انتقل إلى يد القاضى عز الدين المذكور بحكم الوصية . فطلب القاضى عز الدين ، فى يوم الجمعة حادى عشرين شهر رجب ، وكان قد حضر إلى الجامع الأموى ، لسماع خطبة القاضى جمال الدين بن عبد الكافى ، وكان قد ولى الخطابة والإمامة بدمشق . فتوجه من الجامع إلى القلعة ، وحضر[3] إلى الأمير بدر الدين الأقرعى مشد الصحبة ، والقاضى شهاب الدين بن الواسطى ، الناظر بالصحبة . فرسم المشد على القاضى بمسجد الحبالة[4] ، ولم يصل الجمعة . ثم شدد عليه الأمر ، وعزل عن القضاء فى يوم الأحد ثالث عشرين الشهر . وفوض القضاء للقاضى بهاء الدين يوسف ابن القاضى محيى الدين بن الزكى . ومنع الناس عن الدخول على القاضى عز الدين والاجتماع به ، إلا من لابد منه . ثم ادعى

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥

(٢) فى الأصل است ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥

(٣) فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥ وأحضر

(٤) فى الأصل الخيالة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥

عليه أن عنده حياصة[١] وعصابة[٢] ، القيمة[٣] عنهما خمسة وعشرون[٤] ألف دينار ، وأنهما كانا عند عماد الدين ابن الشيخ محيى الدين بن العربى[٥] ، للملك الصالح إسماعيل بن أسد الدين شيركوه ، وانتقل ذلك إلى عماد الدين ابن الصائغ ، ومنه إلى أخيه القاضى عز الدين . ثم ادعى عليه ، أن الأمير ناصر الدين ابن الأمير عز الدين أيدمر ، نائب السلطنة ، والده ، كان أودع عنده جملة كثيرة ، واشتد عليه الأمر ، ووكل الملك الزاهر[٦] فى مطالبته ، فظهر الأمر بخلاف ذلك . وهو أن القاضى عز الدين أثبت عداوة تاج الدين السنجارى ، الحاكم [بحلب[٧]] ، وعجز الخصم عن تحقيق حال العصابة والحياصة ، ومافيهما من اللؤلؤ والبلخش[٨] . وظهرت براءته من الوديعة بأمور يطول شرحها . وانتصر له الأمير حسام الدين لاجين ، نائب السلطنة بالشام . واستمال حسام الدين طرنطاى ، فخاطبا السلطان فى أمره فأفرج عنه ، فى ثامن عشرين شعبان من السنة ، واستمر معزولا إلى

(١) فى الأصل خاصة ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥

(٢) العصابة ، راية عظيمة من الحرير ، مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان أو الأمير (القلقشندى صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٧ — ٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٤٤٣ حاشية ١

(٣) فى الأصل القيامة ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥

(٤) فى الأصل وعشرين وماهنا هو الصواب لغويا

(٥) فى الأصل ابن المغربى وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥

(٦) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥

(٧) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٥

(٨) البلخش ، من الأحجار الكريمة ، يستخرج من موضع يقع بالقرب من بذخشان بإقليم ما وراء النهر ، وهو أحمر شفاف يضاهى الياقوت فى اللون والرونق ، ويقل عنه فى الصلابة ؛ ومنه ما يميل إلى البياض ، ومنه ما يميل إلى اللون البنفسجى ، ومنه ما يزيد وزن القطعة الواحدة على المائة درهم ، ويقبل الناس على شراء البلخش لحسنه . انظر ابن الأكفانى ، نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ص ١٥ — ١٦ — نشر الأب أنستاس مارى الكرملى القاهرة ١٩٣٩ . وانظر كذلك كتاب أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار للتيفاشى ص ٢٥٧ ، تحقيق د . محمد يوسف حسن ، د . محمود بسيونى خفاجة ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٧ (المصحح) .

أن مات ،وكانت وفاته بحميص، ظاهر دمشق، فى عشية يوم الأحد ، تاسع شهر ربيع الآخر ، سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وقد بقى من النهار ساعة . ودفن فى يوم الاثنين بتربته بقاسيون ، رحمه الله تعالى .

وأما السلطان ، فإنه أقام بدمشق ، إلى أن رتب أحوالها ، وقدر مصالحها ثم عاد إلى الديار المصرية، وكان استقلال ركابه من دمشق ، فى يوم الأربعاء ثانى شهر رمضان ، ووصل إلى قلعة الجبل ، فى الخامس والعشرين من الشهر .

وفيها ، وصلت رسل عكا ، وتقررت الهدنة مع الديوية والاسبتار والملك [المنصور](١) لعشر سنين ، وعشرة شهور ، وعشرة أيام ، وعشر ساعات . أولها خامس شهر ربيع الأول منها .

وفيها ، تزوج السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور باردكين ابنة الأمير سيف الدين نوكيه ، وهى أخت زوجة أخيه الملك الصالح .

ذكر وصول الشيخ عبد الرحمن ومن معه من جهة احمد سلطان ، ووفاة مرسلهم،وما كان من خبرهم

وفى هذه السنة ، وصل الشيخ عبد الرحمن ، من جهة أحمد سلطان ملك التتار ، وصحبته صمداغوا(٢) ، والأمير شمس الدين محمد بن التيتى(٣) ، المعروف بابن الصاحب وزير صاحب ماردين، وجماعة فى صحبتهم نحو مائة وخمسين نفرا .

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٦٢ ، وقد أورد نص هذه الهدنة (جـ ٧ ، ص ٢٦٢ — ٢٧٢) ونقل Quatremère ; op. Cit. 11 1 pp. 179 هذا النص من كتاب اسمه سيرة السلطان قلاون — انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٨٥ — ملحق ٨ ؟

(٢) فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٩ صمداعوا

(٣) فى الأصل من غير نقط ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٩

وكان هذا الشيخ قدوة أحمد سلطان ملك التتار . وهو الذى استسلمه ، وقرر قواعد الصلح بينه و بين السلطان ، و بلغ منه مبلغا عظيما ، إلى أن كان يقف بين يديه ، وظهرت منه أمور للغل استمالهم بها . وتحدث فى سائر الأوقاف وعظم ذكره ببلاد الشرق . وركب بالجتر[1] والسلاح دارية والجمدارية . وظن أنه إذا حضر إلى السلطان تمكن منه ، و يتم له فى هذه المملكة ، ما تم له بالعراق . فلما وصل إلى البيرة ، تلقاه الأمير جمال الدين أقش الفارسى ، أحد الأمراء بحلب ، ومنعه من حمل الجتر والسلاح ونكب به عن الطريق المسلوك ، إلى أن أدخله إلى حلب ، ثم إلى دمشق . كان وصوله إلى دمشق ، فى ليلة الثلاثاء ، ثانى عشر ذى الحجة ، ولم يتمكن أحد من الناس أن يراه ولا يكلمه .

ولما وصل إلى دمشق ، أنزل فى قلعتها بقاعة رضوان ، إلى أن وصل السلطان إلى دمشق . و يقال إنه رتب للشيخ ولمن معه ، فى كل يوم ألف درهم نفقة وأطعمة وحلوى ، وغير ذلك بألف درهم أخرى . واستقر بالقلعة ، إلى أن وصل السلطان إلى دمشق ، فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ، فاستدعاهم ليلا . ووقف بين يدى السلطان ألف مملوك وخمسمائة مملوك ، عليهم الأقبية الأطلس الأحمر ، بالطرز[2] . والكلوتات[3] الزركش . ووقد بين يديه ألف شمعة وخمسمائة

(١) الجتر : من شعار السلطنة ، و يعرف أيضا بالمظلة ، التى هى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب (انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ : ص ٧ — ٨) .

(٢) الطرز ، المقصود هنا أنها معلمة ومرقة بالزركش (القاموس المحيط) ؛ انظر Grohman: Tivaz (E n .1 s)

(٣) الكلوتات : مفردها كلوته ، وهى غطاء الرأس ، تلبس وحدها أو بعمامة ، وتسمى أيضا كلفة وكلفتاة ، وكلفتة ، و يقابلها فى الفرنسية Calotte وهى فارسية الأصل ، واستحدث سلاطين الأيوبيين لبس الكلوته بمصر ، فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رءوسهم بغير =

شمعة. وحضر الشيخ عبد الرحمن والأمير صمداغوا وشمس الدين ابن الصاحب، وأدوا الرسالة فسمعها السلطان، وأعادهم إلى مكانهم، ثم استحضرهم مرة ثانية وثالثة، حتى استوعب ما عندهم من الأخبار، وماوردوا به من الرسالة. ثم أعلمهم السلطان فى المرة الثالثة، أن مرسلهم قد قتل، وجلس على تخت المملكة أرغون بن أبغا. وكانت القصاد قد وصلت بهذا الخبر.

ونُقلوا من قاعة رضوان، إلى بعض قاعات القلعة، ورُتب لهم بقدر الكفاية. ثم سيّر إليهم الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، استاذ الدار، وقال: قد رسم السلطان بانتقالكم إلى غير هذا المكان، فليجمع كل واحد منكم قماشه، ففعلوا ذلك. فلما صاروا فى دهاليز الدار فتشوا، فأخذ منهم جملة كثيرة من اللؤلؤ وغيره. ويقال إنه كان بيد الشيخ عبد الرحمن سبحة لؤلؤ، قيمتها تزيد على مائة ألف درهم، فأخذت فى جملة ما أخذ، واعتقلوا. فمات الشيخ عبد الرحمن، فى ثامن عشرين شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين بقلعة دمشق، ودفن بمقابر الصوفية. وهذا الشيخ المذكور، هو تلميذ شيخ الإسلام موفق الدين الكواشى، ثم رباه الشيخ المشار إليه، واشتغل عليه وخدمه. وقيل إنه علم منه الاسم الأعظم، ويقال إن الشيخ أعطاه كتابا فى علم السيمياء[1]. وقال له توجه بهذا إلى النهر واغسله،

= عمائهم، وكذلك كان يفعل امراؤهم وجندهم ومماليكهم، وظل هذا التقليد مستمرا إلى أواسط دولة المماليك البحرية، حينما أضاف السلطان المنصور قلاون لبس الشاش على الكلوتة انظر القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤، ص ٥ — ٦، المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٩٨، السلوك جـ ١، ص ٤٩٣ حاشية ١، Dozy : Supp. Dict. Ar

(١) فى الأصل السمياء، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧، ص ٢٧٨ والسيمياء لفظ مشتق من سيماء، وإيما بمعنى العلامة والشارة اما اللفظ الذى جرى الاصطلاح عليه، بأنه من أنواع السحر، فإنه مشتق من لفظة سريانية بمعنى العلامات والحروف. واللفظ معنيان، الأول بمعنى السحر والطلسمات، =

فأخذه وأخفاه. وعاد إلى الشيخ، وأخبره أنه غسله. ثم اشتغل بهذا العلم، وتوجه إلى التتار، واجتمع بالخوانين وأراهم من هـذا العلم، ما اقتضى تمسكهم به، وحظى عند والدة السلطان أحمد، فى صِغَر أحمد، وتألّف به. فلما ملك التتار، حكّمه فى سائر ممالكه. ورسم له أن يركب بالجتر، فركب به، ثم جهزه فى هذه الرسالة فمات. وبقى أصحابه فى الاعتقال مدة، وضُيِّق عليهم. ثم كتب الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام، إلى السلطان بسببهم، فرسم بإطلاقهم. واستمر الأمير شمس الدين فى الاعتقال، ونقل إلى قلعة الجبل، واعتقل بها مدة طويلة. ثم أفرج عنه بعد ذلك، وولى نيابة دار العدل بالديار المصرية.

وفى سنة اثنتين وثمانين أيضا، وصل من جهة تدان منكو[1]، الجالس على كرسى الملك، ببيت بركة، نفران من فقهاء القفجاق، وهما مجد الدين أطا ونور الدين وأحضرا على أيديهما كتابا من جهته بالخط المغلى، فقرئ فكان مضمونه، أنه دخل فى دين الإسلام، وأنه أقام شرائع الملة المحمدية، وأوصى على الفقيهين[2] الواصلين بكتابه، وأن يساعدا[3] على الحج المبرور. وذكرا من ألسنتهما مشافهة، أن الملك سأل السلطان، أن ينعته نعتا، يتسمى به من أسماء المسلمين،

= وهى استعدادات تقتدر النفوس البشريه بها على التأثيرات فى عالم العناصر. والمعنى الثانى ويسميه ابن خلدون علم اسرار الحروف، ومحاولة الفلاة من المتصوفة الإفادة منه فى كشف حجاب الحس، وظهور الخوارق على أيديهم. انظر ابن خلدون: المقدمة طبعة القاهرة ١٩٣٠ ص ٤٢٢

Macdonld: Simya. En. I s.

(١) فى الأصل تدان مسكو، وما هنا من المقريزى، السلوك ج ١، ص ٧٠٨، ٧١١ حاشية ٢، ٧١٦، ولى دولة القبجاق بعد وفاة أخيه منكوتمر فى جمادى الآخرة سنة ٦٨٠، وامتد حكمه حتى سنة ٦٨٦، (المقريزى: السلوك ج ١، ص ٧٠٨ حاشية ٢

Lame poole, : Muhammadan Dynastes p. 230

(٢) فى الأصل الفقهاء، وما هنا يتطلبه اللغة.

(٣) الأصل يساعدوا، وما هنا يتطلبه اللغة.

ويرسل إليه علما خليفتيا ، وعلما سلطانيا ، يقاتل بهما أعداء الدين . فجهز السلطان الفقيهين[١] إلى الحجاز ولما عادا جهزهما[٢] إلى مقصدهما[٣] .

وفيها ، أمسك تبرك[٤] ، كان بالحدث من جبال طرابلس . وكانت شوكته قد قويت ، وانضم إليه جماعة كثيرة من أهل تلك الجبال ، وتحصن بالحدث . فقصده التركمان ، وتحيلوا عليه ، حتى تمكنوا منه وأسروه وأحضروه[٥] ، وكفى الله المسلمين شره .

وفيها ، خرج صاحب[٦] قبرص غازيا ، لقصد الساحل ، فرمته الريح إلى جهة بيروت ، فخرج منها ، وقصد الإغارة على تلك الجهات . فكمن له أهل جبل الحروب ، وخرجوا عليه ، فقتلوا وأسروا من جماعته ثمانين رجلا ، وأخذوا له شيئا كثيرا من المال والخيل والبغال ، وركب فى البحر ، وتوجه إلى صور ، ولم يلبث أن هلك .

وفيها ، وصل إلى السلطان رسول أبو نكيا[٧] ، ملك سيلان ، وأحضر كتابا

---

(١) فى الأصل الفقهاء ، وماهنا يتطلبه اللغة

(٢) فى الأصل جهزهم ، وماهنا يتطلبه اللغة

(٣) فى الأصل مقصدهم ، وماهنا يتطلبه اللغة

(٤) تبرك ، كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٧ ، ورد بهذا الرسم « برل »

(٥) فى الأصل وحضروه ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٧

(٦) كان على رأس هذه الحملة الملك هيو الثالث ، ملك قبرص وبيت المقدس وكان ذلك الملك قد انسحب من الشام إلى قبرص ، منذ سنتين ، لكثرة مؤامرات القوى الصليبية ضده . فعاد تلك السنة إلى الشام ، يريد محاولة استرداد حقوقه فى مملكة بيت المقدس من مغتصبيها من الصليبيين .
المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧١٦ حاشية ٣ .
انظر King : The Knights Hospitrllers in the Holy Land p. 280

(٧) أبو نكيا ملك سيلان ، وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧١٣ ، أبو نكية . والمعروف أن الدولة المملوكية أخذت منذ زمن السلطان بيبرس البندقدارى تهتم بشئون التجارة مع الشرق ، وأحس =

فى حُق مِنْ ذَهب . وقال الرسول ، وهو الحاج أبو عثمان ، هـذا الكتاب بخط الملك ، فلم يوجد من يقرأه . فسألوا عن مضمونه . فقال مضمونه . إن سيلان مصر ، ومصر سيلان ، وأنه قـد ترك صحبة صاحب اليمن ، فى محبـة السلطان . وقال أريد رسولا من جهة السلطان ، يُحْضِره رسولى ، ورسولا يقيم[(١)] فى عدن[(٢)] . والجواهر واليواقيت واللؤلؤ عندى كثير ، والمراكب والقماش وغـيره عندى . والبقـم والقرفة وجميـع ما يجلبه الكارم[(٣)] [عندى[(٤)]] . والرماح الكثيرة[(٥)] عنـدى . وعندى الفيلة[(٦)] . ولو طلب السلطان كل سنة عشرين مركبا ، سيرتها إليه وأطلق

= ملك اليمن ، وقتذاك ، وهو المظفر يوسف ، بأهمية إنشاء علاقات تجارية فى الشرق أيضا ، فأرسل إلى ملك سيلان يعرض عليه حلفا تجاريا ، غير أن ملك سيلان آثر التجارة مع مصر ، ولهذا أرسل سفارته إلى السلطان قلاون عن طريق الخليج العربى والعراق والشام ، حتى تتجنب إجتياز بلاد اليمن .

انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧١٣ حاشية ٣ ،

Heyd : Historie du Commerce du Levant I. P. 426.

(١) كذا فى الأصل ، ووردت العبارة فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٦١ على هذا النحو : ويسأل أن يحضر إليه رسول من عنـد مولانا السلطان صحبة رسـله إلى عنده ، ورسول آخر إلى عدن ، ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق (هورمز) .

(٢) فى الأصل مقيم ، وما هنا نستقيم به المعنى .

(٣) الكارم ، فئة من التجار ، تعمل فى تجارة البهار الوارد إلى مصر من الهند ، وكان معظمهم فى الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلامية ، التى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربى ، فنسبوا إلى أصلهم الجغرافى بعد تحـريفه إلى « الكارم » ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر .

انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٤٦١ ، ٤٦٨ .

Heyd : op. cit IIP . 59

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٦١ .

(٥) فى الأصل لشانها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٦١ .

(٦) فى الأصل الفيول ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٦١ .

تجار السلطان . وأنا لى سبع[1] وعشرون قلعة، [وفيها معادن[2] :] جواهر ويواقيت. والمغاص[3] ، وكل ما يحصل منها فهولى . فاكرم السلطان هذا الرسول ، وكتب جوابه وجهزه .

وفيها ، نجزت عمارة تربة ، كان السلطان قد رسم [لشاد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى[4]]بعمارتها لوالده وولده الملك الصالح ، بالقرب من مشهد السيدة نفيسة وعمرت . ونزل السلطان وولده إليها ، وتصدقا ، ورتبا وقوفها . ورسم السلطان بعمل تربة ومدرسة وبيمارستان بالقاهرة .

ذكر عمارة التربة المنصورية والمدرسة والبيمارستان ومكتب السبيل

قال[5] ، ولما رأى السلطان الملك المنصور التربة الصالحية ، أمر بانشاء تربة

---

(١) فى الأصل سبعة وعشرين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٦٢ .

(٣) فى الأصل المغاضات ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٦٢ .

(٤) ما بين القوسين جرى نقله إلى هذا الموضع حتى يستقيم المعنى ، ويتفق فى ذلك مع ابن الفرات جـ ٧ : ص ٢٧٧ ، على حين أن الرواية الأصلية مضطربة ، ونصها .

« وفيها نجزت عمارة تربة ، كان السلطان قد رسم بعمارتها لوالده وولده الملك الصالح ، بالقرب من مشهد السيدة نفيسة ، وعمرت لشاد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . »

(٥) العنوان والرواية واردة فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٨ ، ولم يشر النويرى إلى مصدره ، بل اكتفى بلفظة « قال » وتردد ذلك مرات عديده . وسار على نهجه ابن الفرات ، وفى ذلك دليل على ما سبق الإشارة إليه من علاقة بين النويرى وابن الفرات ، والراجح أن ابن الفرات نقل عن النويرى ، أو عن مصدره .

[له[1]] ، ومدرسة و بيمارستان ومكتب سبيل . فاشتريت الدار القطبية[2] ، وما يجاورها — وهى بين القصرين — من خالص مال السلطان ، وعوض سكان الدار القطبية[3] بالقصر المعروف بقصر الزمرد . وكان انتقال الدار القطبية[4] منها إلى قصر الزمرد ، ثانى عشر ربيع الأول من السنة[5] .

ورتب الأمير علم الدين الشجاعى مشدا على العمارة ، فاظهر من الاهتمام بالعمارة والاحتفال ، ما لم يسمع بمثله . فعمرت فى أيسر مدة ، ونجزت العمارة فى شهور سنة ثلاث وثمانين وستمائة . وإذا شاهد الرائى هذه العمارة العظيمة ، وسمع أنها عمرت فى هذه المدة القريبة ، ربما أنكر[6] ذلك .

ولما كملت العمارة ، وقف السلطان من أملاكه القياسرو والرباع[7] ، والحوانيت والحمامات ، والفنادق والأحكار وغير ذلك ، من[8] الضياع بالشام ، ما يحصل من أجر ذلك وريعه وغلاته ، فى كل شهر جملة كثيرة . وجعل أكثر ذلك على البيمارستان ثم [التربة بالقبة[9]] . ورتب وقف المدرسة ، إلا أنه يقصر عن كفايتها . ورتب لمكتب السبيل ، من الوقف بالشام ما يكفيه .

ولما تكامل ذلك ، ركب السلطان وشاهده ، وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء ، والقضاة والعلماء . فأخبرنى بعض من شهد السلطان ، وشهد عليه ،

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٨ .

(٢ ، ٣ ، ٤) فى الأصل القبطية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٨ .

(٥) المقصود سنة ٦٨٢ هـ .

(٦) فى الأصل انكرت ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٧) فى الأصل « الدباغ » ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٧٨ .

(٨) فى الأصل « والضياع » ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٨٨ .

(٩) فى الأصل القبة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩ .

عليه ، أنه استدعى قدحا من الشراب فشربه . وقال قد وقفت هذا على مثلى ، فمن دونى . وأوقفه السلطان على الملك والمملوك ، [والجندى والأمير والوزير][1] والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى . وجعل لمن يخرج منه ، من المرضى ، عند برئه كسوة . ومن مات جهّزه ، وكُفن ودفن. ورتب فيه الحكماء الطبائعية[2] والكحالين والجرائحية والمجبرين ، لمعالجة الرمدى والمرضى والمجرحين والمكسورين من الرجال والنساء . ورتب[3] به الفراشين والفراشات ، والقومة ، لخدمة المرضى ، وإصلاح أماكنهم وتنظيفها ، وغسل ثيابهم ، وخدمتهم فى الحمام . وقرر لهم على ذلك ، الجامكيات الوافرة .

وعملت التخوت والفرش والطراريح والأنطاع والمخدات واللحف والملاوات لكل مريض فرش كامل . وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم . فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها ، وجعلت قاعة للرمدى ، وقاعة للجرحاء ، وقاعة لمن أفرط به الامهال ، وقاعة للنساء ، ومكان حسن للممرورين[5] من الرجال ومثله للنساء ، والمياه تجرى فى أكثر هذه الأماكن . وأفردت أماكن ، لطبخ الطعام ، والأشربة والأدوية ، والمعاجين وتركيب الأكحال ، والشيافات[6] ،

(١) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٩ .

(٢) فى الأصل . . الطبايعة . . وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٩ ، بعد إثبات الهمزة والطبايعية ، وهم الطبائعية ، والمفرد طبائعى ، وهو المعروف الآن باسم طبيب الأمراض الباطنية .

(٣) ابتداء من هذا الموضع ، انفرد النويرى بإيراد التفاصيل ، لأنه تولى البيمارستان .

(٤) فى الأصل « الحايات » .

(٥) المقصود بالممرورين ، والمفرد ممرور ، من غلبت عليه المرة وهى المادة الصفراء ، تفرزها المرارة (محيط المحيط) .

(٦) الشيافات ، والأشياف أيضا ، جمع شياف ، وهو دواء مسحوق ، يستعمل للعيون ، والشياف أيضا دواء يجعل قمعا أو تليسة أو فرزجه (Suppositoire) ، لمعالجة أمراض المستقيم . انظر : Dozy; supp. Dict. A r.

والسفوفات ، وعمل المراهم والأدهان ، وتركيب الترياقات[١] ، وأماكن لحواصل العقاقير ، وغيرها من هذه الأصناف المذكورة . ومكان يفرق منه الشراب . وغير ذلك من جميع مايحتاج إليه . ورُتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء ، لإلقاء درس طب ، ينتفع به الطلبة ، ولم يحصر[٢] السلطان ، أثابه الله ، هذا المكان المبارك بعده فى المرضى ، يقف عندها المباشر ، ويمنع من عداها ، بل جعله سبيلا ، لكل من يصل إليه ، فى سائر الأوقات ، من غنى وفقير . ولم يقتصر أيضا فيه ، على من يقيم به للمرضى ، بل يرتب لمن يطلب ، وهو فى منزله مايحتاج إليه ، من الأشربة والأغذية والأدوية ، حتى أن هؤلاء زادوا فى وقت من الأوقات ، على ماتبين ، غير من هو مقيم بالبيمارستان .

ولقد باشرته[٣] فى شوال سنة ثلاث وسبعمائة ، وإلى آخر رمضان سنة سبع وسبعمائة . فكان يصرف منه ، فى بعض الأيام ، من الشراب المطبوخ خاصة ، مايزيد على خمسة قناطير بالمصرى ، فى اليوم الواحد ، للمرتبين والطوارىء ، غير السكر والمطابيخ من الأدوية وغير ذلك من الأغذية والأدهان والترياقات وغيرها ورتب فى البيمارستان من المباشرين والأمناء ، من يقوم بوظائفه ، واتباع ما يحتاج إليه من الأصناف ، وضبط مايدخل إلى المكان ، ومايخرج منه خاصة ، من غير أن يكون لهم تعلق فى استخراج الأموال . وإنما يبتاعون الأصناف ، ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج ، ويكتبون فى كل شهر ، عمل استحقاق[٤]

(١) فى الأصل الدرقات ، والدرياقات . وماهنا من المجوهى ، كامل الصناعة فى الطب ج ٢ ، ص ٥٣٦ — ٥٢٧ (مطبعة بولاق ١٢٩٤ = ١٨٧٧) وهو دواء مركب من عناصر مختلفة ، وهو على أنواع ، يستخدم كل منها فى معالجة المرض الذى ركب من أجله .

(٢) فى الأصل يحضر ، وماهنا يستقيم به المعنى .

(٣) ظل النويرى متوليا لهذا البيمارستان نحو أربع سنوات .

(٤) عمل استحقاق ، المقصود هنا إجراء سجل أو جريدة بما هو مستحق لأرباب الجامكيات والجرايات انظر : النويرى ، نهاية الأرب ج ٥ ، ص ٢٧٨ . Dozy: supp Dict. Ar

لسائر أرباب الجامكيات والجرايات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين ، يكتبه[١] العامل ، ويكتب عليه الشهور . ويأمر الناظر بصرفه ، ويخلد [فى[٢]] ديوان الصندوق[٣] ويصرف على حكمه . وهذه الطائفة من المباشرين بالبيمارستان ، هم مباشرو الإدارة .

وأما مباشرو[٤] الصندوق والرباع ، فإليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف ، فى الخلق والسكون والمعطل ، واستخراج الأموال ، ومحاسبات المستأجرين وصرف الأموال ، بمقتضى حوالة مباشرى الإدارة ، ومباشرة العمارة ، وعمل الاستحقاق لا يتصرفون فى غير ذلك ، كما لا يتصرف مباشرو الإدارة ، فى صرف الأموال ، إلا حوالة[٥] بأوراقهم .

وأما العمارة ، فلها مباشرون ينفردون بها ، من ابتياع الأصناف ، واستعمال الصناع[٦] ، ومرمة[٧] الأوقاف ، وغير ذلك مما يدخل فى وظيفتهم ، كما يفعل فى الإدارة ، وينقل عليهم من الصندوق من المال ، ما يصرفونه لأرباب الأجر

(١) فى الأصل بكتبة ، وما هنا يستقيم به المعنى . (٢) الإضافة يقتضيها الأسلوب .

(٣) صندوق المستخرج ديوان الصندوق ، وهو حسبما ورد فيما بعد يختص بالنظر فى جهات الأوقاف ، وما طرأ عليها من زيادة أو ركود أو تعطيل ، وفى استخراج الأموال ، ومحاسبات المستأجرين وصرف الأموال . انظر Dozy: supp. Dict .Ar.

(٤) فى الأصل مباشرى ، وما هنا هو الصواب لغويا

(٥) الحوالة وثيقة تجيز لحاملها أن ينال ما هو مستحق له من المرتبات ، من المتحصل من جهة من الجهات المقررة له بها — انظر النويرى : نهاية الأرب ج ٥ ، ص ٢١٩ .

(٦) فى الأصل « الصباغ » . Dozy: supp. Dict. Ar.

(٧) فى الأصل برمة ، وما هنا هو الصواب ، انظر وصف المدرسة الناصرية والقبة التى كل انشاءهما السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٣ (١٣٠٣) نقلا من النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٣٠ ، ص ٣٤١ ب وما يليها انظر الجزء ٣١ من نهاية الأرب تحقيق الأستاذ فهيم شلتوت الجارى طبعه بمركز تحقيق التراث (المصحح) — وورد هذا الوصف فى ملحق ١٧ ، فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ١٠٤٠ — ١٠٥٠ .

خاصة . ويكتبون فى كل شهر ، عمل استحقاق ، بثمن الأصناف وأرباب الأجر ، ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق ، وما وصل إليهم من المال ويسوقونه إلى فائض أو متأخر .

وترفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حسباناتهم ، مباومة ومشاهرة ومساناة إلى الناظر (١) والمستوفى (٢) .

هذا ما يتعلق بالمارستان .

وأما القبة المباركة المنصورة ، وهى التربة (٣) ، فإنه رُتِّب فيها خمسون مقرئا ، يقرأون كتاب الله تعالى ، ليلا ونهارا بالنوب . وجُعِل لكل منهم ، فى كل شهر عشرون درهما . ورتب بها إمام ، على مذهب الإمام أبى حنيفة ، رحمه الله تعالى ، وله فى كل شهر ثمانون درهما من أصل الوقف ، وفى كل سنة فى ليلة ختم صلاة قيام رمضان ، خلعة من خزانة السلطان ، كاملة مسنجبة (٤) مقتدرة (٥) ورُتِّب بها ريس (٦) ومؤذنون (٧) ، يعلنون الأذان ، بالمأذنة الكبرى ، ويقيمون

(١) الناظر : وهو عادة رئيس ديوان الجيش ، ويختص بالنظر فى أصول ما يتحصل من الأموال وما يجرى صرفه ، والفائض منها والمتأخر ، وتقدير الخراج ، والكشوف الجيشية . ويفحص ما يقوم به الموظفون من الأعمال والحسابات (النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ، ص ٢٩٠

(٢) المستوفى . ويلى الناظر فى الوظيفة ، ومن أعماله مطالبة المستخدمين بما يجب عليهم دفعه من الحسابات فى أوقاته ، ويراجع ما يرد عليه من الحساب ويستوفيه ، ويضبط ايرادات الدولة ومصروفاتها .

انظر النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ، ص ٣٠١ — ٣٠٢ ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ، ص ٤٦٦ Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) هذه العبارة جعلها الناسخ بخط كبير لتوضيح أهميتها ، ويصح الاكتفاء هنا بجعل خط تحتها .

(٤) فى الأصل مسنجية . وما هنا هو الصواب ، ذلك أنه جرى اتخاذها من فراء السنجاب انظر الدميرى : حياة الحيوان ج ٢ ، ص ٤١ .

(٥) فى الأصل مقتدرة — وما هنا هو الصواب ، لاتخاذها من جلد القندر أو السمور . الدميرى : حياة الحيوان ج ١ ، ص ٢٦٣

(٦) فى الأصل مؤذنين

(٧) فى الأصل يقلبون وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٠

الصلاة ، ويبلغون خلف الإمام . وهم سبعة نفر . الرئيس، وله فى كل شهر أربعون درهما ، والمؤذنون ستة ، لكل منهم فى كل شهر ستون درهما .

ورتب بها درس تفسير لكتاب الله تعالى ، فيه مدرس[1] يلقيه ، رتب له فى كل شهر [مائة درهم ، وثلاثة وثلاثون درهما وثلث درهم ، ومعيد[2] له] فى كل شهر أربعون درهما ، وطلبة عدتهم ثلاثون [نفرا[3]] ، لهم فى كل شهر ثلاثمائة درهم ، ودرس حديث يذكر فيه حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، له مدرس ومعيد وطلبة ، لهم فى كل شهر نظير ما لمدرس التفسير ومعيده وطلبته ، وزيادة على ذلك قارىء ، يقرأ الحديث ، بين يدى المدرس ، فى أوقات الدروس ، ويقرأ ميعادا[4] للعوام بين يديه أيضا ، فى صبيحة كل يوم أربعاء ، رتب له فى كل شهر ثلاثون درهما . ورُتِّب لخازن كتبها فى كل شهر أربعون درهما ، ولخزانة كتبها من الختمات الشريفة ، والربعات المنسوبة الخط ، وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة ، والطب والأدبيات ، ودواوين الشعر شىء كثير[5] . ورُتب بها [ا][6] لخدام أزمة ، يقيمون بالقبة ، لحفظ حواصلها ، ومنع من يعبر إليها فى غير أوقات الصلوات ، وهم ستة ، لكل منهم فى كل شهر خمسون درهما ، وغير هؤلاء من القومة والفراشين والبوابين .

---

(١) فى الأصل درس ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠

(٤) ميعاد اللعوام ، المقصود هنا درس فى الدين يجرى القاؤه على العوام . انظر

(٥) فى الأصل شيئا كثير ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) فى الأصل ، وابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠ لخدام ، وما هنا يستقيم به المعنى .

وأما المدرسة المباركة المنصورية ، فإنه رتب بها إماما شافعى المذهب ، له فى كل شهر ثمانون درهما ، وريسا[1] ومؤذنين[2] ، يعلنون بالأذان بالمئذنة الكبرى المذكورة ، هم ومؤذنو[3] القبة بالنوبة[4] ، وهم ريس وأربعة مؤذنين[5] ، لهم فى كل شهر نظير مالمؤذنى القبة . ورُتّب بها متصدر لإقراء كتاب الله ، عز وجل ، ورتب له فى كل شهر أربعون درهما . ورتب بها دروس للمذاهب الأربعة ، الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ، لكل طائفة مدرس ، له فى كل شهر مائتا درهم ، وثلاثة معيدين لكل منهم خمسة وسبعون درهما ، وغير هؤلاء من القومة والفراشين وبواب[5] .

وأما مكتب السبيل ، فإنه رُتّب فيه فقيهان يعلمان [ستين[6]] صغيرا من أيتام المسلمين ، كتاب الله تعالى . ورتب لهما جامكية فى كل شهر ، وجراية فى كل يوم ، وهى لكل منهما فى كل شهر ثلاثون درهما ، وفى كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال ، وكسوة فى الشتاء ، وكسوة فى الصيف . ورُتّب للأيتام ، لكل منهم ، فى كل يوم رطلان خبزا ، وكسوة فى الشتاء ، وكسوة فى الصيف . وتنوّع

---

(١) فى الأصل ريس ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) فى الأصل وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥ مؤذنون وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل بالتربة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥ .

وما يلفت النظر هنا أن الأخطاء اللغوية وقع فيها كل من النويرى وابن الفرات ، وهذا يؤكد صلتهما بمصدر أو مصادر اطلع كل منهما عليها .

(٤) فى الأصل مؤذنون ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥ ونواب بجوامك مختصة بهم .

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥ .

للسلطان ، أجزل الله ثوابه ، فى وجوه البر والقربات . وهذه الجهات المباركة المبرورة باقية مستمرة ، يزيد وقفها وينمو ، بحسن[1] نية واقفها . قدّس الله روحه ، ونوّر ضريحه .

ولنرجع إلى بقية حوادث سنين اثنتين وثمانين وستمائة .

وفيها ، كانت وفاة الشيخ الإمام ، عماد الدين أبو الفضل محمد ابن قاضى القضاة ، شمس الدين أبى نصر محمد بن هبة الله الشيرازى ، ببستانه[2] بالمزه ، فى فى يوم الاثنين ، سابع عشر صفر . وصلى عليه بعد صلاة العصر ، بجامع الجبل ، ودفن بتربة فيها قبر أخيه علاء الدين ، رحمهما الله تعالى . وكان شيخ الكتابة ، أتقن الخط المنسوب ، وبلغ فيه مبلغا عظيما ، حتى يقال إنه أتقن قلم[3] المحقق ، وكتبه أجود من شيخ الصناعة ابن البواب[4] .

---

(١) فى الأصل الحسن ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠ .

(٢) فى الأصل بنستانه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٦ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ٧١٨ .

(٣) فى الأصل علم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٦ ، أشار القلقشندى ، صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ١٥ — ١٣٢ إلى أنواع الخطوط المستعملة فى ديوان الإنشاء ، ومنها الخط المنسوب ، نسبة للساحة التى يخط عليها قلم الطومار ، ومنها قلم المحقق ، الذى تجرى فى طغراوات كتب القانات .

(٤) ابن البواب ، وهو أبو الحسن على بن هلال ، من أشهر الخطاطين ببغداد ، هذب طريقة ابن مقلة فى الكتابة ، وكساها رونقا وجمالا . نسخ القرآن بهذه ٦٤ مرة ، ومنها نسخة بالخط الريحانى محفوظة بمكتبة لا له لى بالقسطنطينية .

ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ، ص ٣٤٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ١٤ ، الزركلى : الأعلام جـ ٥ ، ص ١٨٣ .

وفيها ، توفى الصاحب مجد الدين أبو الفدا إسماعيل بن إبراهيم بن أبى القاسم ابن أبى طالب بن كسيرات الموصلى . وكانت وفاته فى سابع عشرين شهر رمضان ، بداره بجبل الصالحية . وكان رحمه الله كثير المروءة ، واسع الصدر ، كثير الهيبة والوقار ، جميل الصورة ، حسن المنظر والشكل ، كثير التعصب لمن يقصده ، محافظا على مودّة أصحابه وقضاء حوائجهم ، كثير التفقد لهم ، وأصله من الموصل ، من بيت الوزارة . كان والده ، وزير الملك المنصور عماد الدين زنكى ابن الملك العادل نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر . ثم باشر نظر الخزانة ، للملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ [صاحب الموصل][1] ثم نقله إلى نظر الجزيرة العمرية[2] ، لما فتحها . ووصل إلى الشام صحبة الملك المجاهد سيف الدين اسحاق ، لما وصل فى الدولة الظاهرية . وسكن دمشق ، وولى نظر البر بها[3] . ثم نقل إلى نظر نابلس ، ثم أعيد إلى دمشق فباشر نظر الزكاة بها . ثم انتقل إلى صحابة الديوان بالشام ، إلى أن ملك سنقر الأشقر دمشق ، فاستوزره كما تقدم . وتعطّل[4] بعد ذلك عن المباشرة ، وسكن داره التى أنشأها بجبل قاسيون ، جوار البيمارستان ، فكان بها إلى أن مات .

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٣ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧١٥ — ٧١٩ .

(٢) المقصود جزيرة ابن عمر ، وهى بلدة شمال الموصل ، يحيط بها نهر دجلة إلا من جهة واحدة واكتملت إحاطة الماء بها ، بعد حفر خندق استمد ماءه من دجلة ، وينتمى إليها ابن الأثير العلماء الأدباء . انظر . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) نظر البر — يتحدث متولى هذه الوظيفة فى أمر الشرطة ، فى ظاهر دمشق ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ١٥٧

(٤) فى الأصل عطل وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٣ .

قال شمس الدين الجزرى[(١)] : قلت له يوما – وقد أضرته[(٢)] البطالة – يامولانا لو ذكرت واحدا من أصحابك الأمراء ، حتى يذكر بك السلطان ، أو نائب السلطنة ، فكاتب فى أمرك فإن لك خدما[(٣)] وتفضلا[(٤)] على الناس ، فنظر إلى وأنشد :

لذ خمولى وحلا مره وصانى عن كل مخلوق
نفسى معشوقى ولى غيرة تمنعنى عن بذل معشوقى[(٥)]

وفيها ، فى يوم الخميس عاشر شهر رمضان ، توفى الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ، ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب . وكانت وفاته بدمشق ، وصلى عليه بعد صلاة الجمعة ، ودفن بالتربة المعظمية . وكان رحمه الله تعالى ، قد جمع بين الرئاسة والفضيلة ، والعقل الوافر ، والخصال الجميلة . وكان محبوب الناس ، محبوب الصورة ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى سادس عشر بن شعبان ، توفى القاضى عز الدين إبراهيم ابن الصاحب الوزير الأعز ، فخر الدين أبى الفوارس مقدام ابن القاضى كمال الدين أبى السعادات ، أحمد بن شكر [المصرى[(٦)]] . وكان قد ولى نظر الجيوش ، بالديار المصرية ، فى شهر رمضان ، سنة خمس وسبعين وستمائة ، كما تقدم ، رحمه الله تعالى .

(١) هذا مصدر اشترك فيه النويرى وابن الفرات .
(٢) فى الأصل وأضربه البطالة ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٣
(٣) فى الأصل خدم ، وماهنا هو الصواب لغويا .
(٤) فى الأصل تفضل ، وماهنا هو الصواب لغويا .
(٥) هذه الترجمة واردة فى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٣
(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨١ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٠ .

وفيها ، توفى الشيخ الإمام العلّامة ، العابد الزاهد ، شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام ، أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسى ، شيخ الحنابلة بالشام . وكان قد ولى قضاء القضاة على كره منه ، فى سنة أربع وستين كما تقدم . ثم ترك الحكم ، وتوفر على العبادة والتدريس ، وأشغال الطلبة ، والتصنيف . ويقال إنه قطب بالشام . واستدل على ذلك بحرائى[1] توافقت عليها ، جماعة تعرفه[2] ، فى سنة سبع وسبعين وستمائة أنه قطب ، وكان أوحد زمانه . وكانت وفاته فى يوم الاثنين ، سلخ ربيع الآخر منها . ودفن بقاسيون ، بتربة والده ، قدس الله روحه . ومولده فى السابع والعشرين من المحرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة . ولما مات رثاه المولى الفاضل شهاب الدين محمود كاتب الإنشاء بقصيدة أولها .

ما للوجود وقد علاه ظلام ... أعراه[3] خطب أم عداه سرام

أم قد أصيب بشمسه فغدا وقد ... لبست عليه حدادها الأيام

جاء منها :

لكم الكرامات الجليلات التى ... لاتستطيع جحودها الأقوام

وهى قصيدة تزيد على ستين بيتا ، ورثاه جماعة ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل بمرأى ، وماهنا من ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٢٨٦ .

(٢) فى الأصل بفرقة ، وما هنا من ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٢٨٦ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٠ .

(٣) فى الأصل أغراه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٦ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٠ .

وفيها ، توفى الأمير علاء الدين كندغدى[1] المشرق الظاهرى ، المعروف بأمير مجلس . كان من أعيان الأمراء بالديار المصرية . وظهر قبل وفاته بمدة يسيرة ، أنه باق على الرق . فاشتراه السلطان الملك المنصور بجملة وأعتقه ، وقربه لديه . وكان شجاعا بطلا مقداما . وكانت وفاته بالقاهرة ، فى يوم الجمعة مستهل صفر . ودفن بمقابر باب النصر ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى الأمير شهاب الدين أحمد بن حجى بن يزيد البرمكى ، أمير آل مرى[2] ، وكانت وفاته ببصرى . وكانت غاراته تنتهى إلى أقصى نجد والحجاز . وأكثرهم يؤدون[3] إليه إتاوة فى كل سنة ، فمن قطعها منهم أغار عليه . وكان يدعى أنه من نسل جعفر البرمكى ، من العباسة أخت الرشيد . ويقول إنه تزوجها ورزق منها أولادا . ولما جرى على البرامكة ما جرى ، هرب أولاده منها إلى البادية ، فأحدهم جده ، والله أعلم . وكان يقول للقاضى شمس الدين بن خلكان [البرمكى[4]] ، أنت ابن عمى . وكانت بينهما مهاداة . وانتفع ابن خلكان به وباعتنائه ، عند السلطان .

وفيها ، فى سابع عشرين المحرم ، كانت وفاة القاضى شمس الدين عيسى ابن الصاحب برهان الدين الخضر[5] السنجارى . كان ينوب عن والده فى الوزارة

(١) كذا فى الأصل وفى ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٥ . وفى ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ٣٥٨ كشتندى المشرق .

(٢) كذا فى الأصل وفى القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ص ١١١ : آل مرا .

(٣) فى الأصل يردون ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٢ .

(٥) فى الأصل الخضرى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٢٨٥ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢١ .

الأولى ، فى سنة ثمان وسبعين وستمائة . وولى نظر الأحباس ، ونظر خانقاه سعيد السعداء . ثم ولى بعد ذلك تدريس المدرسة الصلاحية المعروفة بزين التجار[1] ، ثم قبض عليه مع والده ، بعد انفصاله من الوزارة الثانية ، كما تقدم . فلما أفرج[2] عنه سكن المدرسة المعزية بمصر ، وكان بها إلى أن توفى . وكان حسن الصورة والشكل ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى سادس عشر شوال ، توفيت زوجة السلطان الملك المنصور ، والدة ولده ، الملك الصالح علاء الدين على ، رحمهما الله تعالى .

وفيها ، فى يوم الأحد ، ثانى عشر جمادى الأولى ، توفى الشيخ ظهير الدين جعفر بن يحيى بن جعفر القرشى الترمنتى الشافعى ، مدرس المدرسة القطبية بالقاهرة ، وأحد المعيدين بمدرسة الشافعى ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى يوم السبت ، ثانى عشر بن شهر رجب ، توفى الأمير علم الدين سنجر أمير جاندار ، أحد الأمراء بالديار المصرية . وكانت وفاته بدمشق لما كان السلطان بها . ودفن بظاهرها ، عند قباب التركمان ، بميدان الحصار[3] ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل البحار ، وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٨٥ .

(٢) فى الأصل فرج ، وما هنا من ابن الفرات ج ٧ ، ص ٢٨٥ .

(٣) وكذا فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٧٢١ وفى ابن الفرات ج ٧ ص ٢٨٤ : ميدان الحصا .

واستهلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة

[٦٨٣ = ١٢٨٤]

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعوده

فى هذه السنة ، توجه السلطان الملك المنصور إلى الشام ، وكان وصوله إلى دمشق ، فى يوم السبت ثانى عشر جمادى الآخرة ، ونزل بقلعتها . وكان جل توجهه إلى الشام ، بسبب رسل السلطان أحمد ، فاستحضرهم وسمع رسالتهم ، كما قدمنا ذكر ذلك[1] . وأقام السلطان بدمشق ، إلى أن رتب أحوالها . وعزل الأمير علم الدين سنجر الداوادارى ، من وظيفته شاد الدواوين بدمشق ، وأضاف هذه الوظيفة إلى الأمير شمس الدين سنقر الأعسر ، وكان استاذ دار السلطنة بالشام . فاجتمع له شاد الدواوين واستاذ الدارية . ونقل أيضا الأمير ناصر الدين الحرانى ، من ولاية مدينة دمشق إلى نيابة السلطنة بحمص ، وأضاف ولاية مدينة دمشق ، إلى الأمير سيف الدين طوغان ، متولى البر[2] . ثم عزم على الرحيل ، والعود إلى مقر ملكه ، فبرز الأمراء أثقالهم إلى ظاهر قلعة دمشق ، فكانت حادثة السيل .

ذكر حادثة السيل بدمشق

وفى يوم الأربعاء ، العشرين من شعبان ، سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، الموافق لأول تشرين الثانى ، وهو خامس هاتور ، أمطرت السماء ، فى أول

---

(١) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤

(٢) انظر ما سبق ص ١١٤ من هذا الجزء .

الليل، وتوالى المطر وهطل وكثر، واشتد صوت الرعد، وتوالى البرق طول الليل إلى أول النهار. ثم أقبل السيل وارتفع، حتى بلغ إلى حد السيل الذى ذكرناه فى سنة تسعة وستين وستمائة[1]. وحمل جميع أثقال من برز ثقله من الأمراء المصريين والجند، وحمل الخيل والجمال والصناديق وغير ذلك. فيقال إنه عدم للأمير بدر الدين بكتاش النجمى، ما تزيد قيمته على أربعمائة ألف درهم وخمسين درهم، وصدم السيل باب الفراديس، فكسر أقفاله، وما خلفه من المتاريس، ودخل الماء إلى المدرسة المقدمية، وبقى كذلك حتى ارتفع النهار. ثم جف[2] الماء فى يومى الأربعاء والخميس. ثم جاء مطر شديد، وهو دون المطر الأول، فهدم عدة مساكن، فى جبل قاسيون، وبظاهر دمشق وحواضرها[3]. ثم انحط الماء، وتوجه السلطان بعد أن نضب الماء، إلى الديار المصرية. واستقل ركابه من دمشق، فى يوم السبت الثالث والعشرين من شعبان، ووصل إلى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر رمضان من السنة.

ذكر وفاة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وشىء من أخباره، وأمر ولده الأمير حسام الدين مهنا

فى هذه السنة، كانت وفاة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حذيفة أمير العرب. وصُلّى عليه بدمشق صلاة الغائب، فى يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الأول. وقد ذكرنا ابتداء إمرته، فى إبتداء الدولة الظاهرية. وكان رحمه الله رجلا دينا خيرا، انتفع الإسلام به، فى مواطن كثيرة. وصلحت العربان

(١) انظر جـ ٣٠، ص ١٧٦ من نهاية الأرب تحقيق د. محمد عبد الهادى شعيره، مركز تحقيق التراث، ١٩٩٠. (المصحح).

(٢) فى الأصل خف، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٧

(٣) فى الأصل، وظواهرها، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٧

فى أيامه ، وقل فسادهم ، بل كاد[1] يعدم ، مع لينه وحسن سياسته . وكانت الإمرة قبله لابن عمه الأمير على بن حذيفة . وكان كثير السفك للدماء ، ويقتل مفسدى[2] العرب ، بأنواع القتل ، فكانت له قدر كبيرة منصوبة ، لا تزال على النار مملوءة ماء ، والنار توقد تحتها ، فمتى وقع له مفسد من العرب ألقاه فيها حيًّا ، فيسقط لحمه لوقته . وقتل خلقا كثيرا بذلك وبغيره من أنواع العذاب . هذا والفساد فى أيامه مستمر ، وأمر العرب لا يزداد إلا شدة . فلما ولى الأمير شرف الدين عيسى بعد وفاته ، أنزل القدر وامتنع من سفك دم إلا بحكم الله . فعلم الله صدق نيته ، وأصلح له من أمر العرب ما فسد فى أيام غيره ، وصلحت سيرتهم فى أيامه ، وانحسمت مادة أذاهم للقفول[3] وغيرها ، منًّا من الله تعالى .

ولما مات رحمه الله تعالى ، فوض السلطان إمرة العرب بعده ، لولده الأمير حسام الدين مهنا . وزاده السلطان إقطاعا ، وبسط يده ، فسلك سبيل والده فى الخير والإحسان . وأطاعه العرب كافة ، وعظم شأنه عند الملوك وغيرهم . وهو على ذلك إلى وقتنا هذا ، الذى وضعنا فيه هذا الكتاب[4] .

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماه وولاية ولده الملك المظفر

فى حادى عشر شوال من هذه السنة ، توفى الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن الملك المظفر ، تقى الدين محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك

(١) فى الأصل كان ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٣ .

(٢) فى الأصل مفسدين وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل للفقول ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٣ والقفل اسم الجمع والقافلة الرفقة (القاموس المحيط) .

(٤) فى هذا إشارة إلى تحديد زمن تأليف كتاب نهاية الأرب .

المظفر تقى الدين عمر ابن شاهانشاه بن أيوب ، صاحب حماه ، رحمه الله تعالى. ومولده فى الساعة الخامسة ، من يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول ، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . فتكون مده حياته ، إحدى وخمسين سنة ، وستة أشهر ، وأربعة عشر يوما . وملك حماه يوم السبت ثامن جمادى الأولى ، سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، وهو اليوم الذى توفى فيه والده ، فتكون مدة مملكته بحماه ، إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام .

ولما ورد الخبر بوفاته ، رسم السلطان الملك المنصور ، بتفويض ملك حماه ، لولده الملك المظفر تقى الدين محمود ، وأجراه مجرى والده فى التشاريف والمكاتبات . وجهّز إليه التشريف والتقليد ، صحبة الأمير جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب ، وجهّز معه عدة تشاريف لعمه الملك الأفضل ، وابن عمه الأمير عماد الدين ، وجماعة من أهل بيته وأمرائه .

وفيها ، فى نصف ذى الحجة ، توجه السلطان إلى الشام .

وفيها ، فى ثالث شهر رمضان ، توفى الملك السعيد فتح الدين عبد الملك ، ابن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ، رحمه الله تعالى . ودفن بتربة جدته ، والدة السلطان الملك الصالح ، داخل دمشق .

وفيها ، توفى قاضى القضاة نجم الدين أبو محمد عبد الرحيم ابن قاضى القضاة شمس الدين أبو الطاهر إبراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله بن حسان بن محمد بن منصور بن أحمد البارزى ، الجهنى الشافعى ، الحموى ، قاضى حماه . وكانت وفاته ليلة الخميس عاشر ذى القعدة ، سنة ثلاث وثمانين وستمائة . ومولده

يوم الأربعاء ، السادس والعشرين ، من المحرم سنة ثمان وستمائة بحماه . وتوفى بطريق الحجاز ، وحمله أولاده إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفن بالبقيع . وكان رحمه الله تعالى ، ممن صنّف التصانيف المفيدة ، وسمع وحدّث ، وولى قضاء حماه ، بعد أبيه مدة طويلة . ثم عزل مدة يسيرة . وله نظم حسن ومشاركة فى العلوم الكلامية والحكمية ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى قاضى القضاة جمال الدين أبو يعقوب يوسف بن أبى محمد عبد الله بن عمر الزواوى ، قاضى المالكية بدمشق . وكانت وفاته بطريق الحجاز ، قبل الحج بالقرب من تبوك ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى القاضى ناصر الدين أبو العباس أحمد بن أبى المعالى ، محمد ابن منصور بن أبى بكر قاسم بن مختار الجذامى[1] الجروى[2] المالكى الإسكندرى المعروف بابن المنير . وكانت وفاته بالإسكندرية ، فى ليلة الخميس ، مستهل شهر ربيع الأول . ودفن بتربة والده ، عند الجامع الغربى . ومولده بالإسكندرية ، فى ثالث ذى القعدة ، سنة عشرين وستمائة . وكان فاضلا عالما ، وله اليد الطولى فى علم العربية والأدب ، جيد النظم . باشر بالثغر عدة جهات . ثم ولى القضاء بالثغر ، وولى الخطابة مدة يسيرة . ثم نكب فى سنة ثمانين وستمائة . وهجم داره ، ويقال إن الذين هجموا الدار ، أدخلوا معهم قنانى خمر ، تحت ثيابهم ، وادعوا أنها وجدت عنده ، فعزل عن مناصبه . ثم توجه إلى باب

(١) فى الأصل الجداى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢ .

(٢) فى الأصل الحروى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٧ .

السلطان . وسعى فيمن سعى به ، فنال بعضهم . وأعيدت إليه مناصبه ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى الأمير شمس الدين محمد ابن الأمير بدر الدين أبى المفاخر باخل ابن عبد الله بن أحمد الهكارى ، متولى ثغر الإسكندرية . وكانت وفاته بالثغر ، فى يوم السبت حادى عشر شهر رجب . ودفن يوم الأحد ، عند رباطه خارج باب رشيد ، رحمه الله تعالى[1] .

وفيها ، فى ليلة الجمعة ، ثالث عشرين ذى الحجة ، توفى الشيخ الصالح العارف القدوة ، أبو القاسم ، وينعت وقار الدين ، بن أحمد بن عبد الرحمن المراغى . والمراغة التى ينسب إليها ، [بلدة][2] معروفة باقليم[3] إخميم ، من البر[4] الغربى . ودفن بالقرافة ، بزاويته المشهورة ، فى يوم الجمعة ، بعد الصلاة ، رحمه الله وأبانا .

---

(١) انظر ترجمته فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥ — ١٦ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤ .

(٣) فى الأصل بلد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤ .

(٤) فى الأصل من البلد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤ .

واستهلت سنة أربع وثمانين وستمائة

[٦٨٤ – ١٢٨٥]

والسلطان الملك المنصور متوجه إلى الشام . فوصل إلى دمشق فى يوم السبت ، ثانى عشر المحرم . وتوجه إلى المرقب ، وافتتح الحصن على ما تقدم ذكره .

ذكر مولد السلطان الملك الناصر

كان مولده المبارك الميمون ، بقلعة الجبل ، فى يوم السبت الخامس عشر من شهر المحرم ، سنة أربع وثمانين وستمائة ، الموافق للثامن والعشرين من برمهات من شهور القبط . وطالع الوقت السرطان . فوردت البشائر على والده[1] السلطان بمولده ، وهو بمنزلة خربة[2] اللصوص ، قبل وصوله إلى دمشق . فاستبشر السلطان بمولده ، وتيمن به ، وبلغ مقصوده ، من فتح المرقب .

وفيها ، بعد عود السلطان من فتح المرقب ، دخل إلى الخزانة بدمشق ، فى يوم الخميس سابع جمادى الأولى . وولى القاضى محيي الدين بن النحاس الوزارة بدمشق ، عوضا عن الصاحب تقى الدين [توبة التكريتى[3]] . وكان

---

(١) فى الأصل والدة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٢ .

(٢) خربة اللصوص ، موضع يقع على الطريق بين دمشق وبيسان ، انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٨١ حاشية ١ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٩٢ ، فى Rec. Hist. Or. V.

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢ والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٢٩ .

محيي الدين إذ ذاك ، ناظر الخزانة . فخلع عليه خلعة الوزارة ، وكانت الخلعة جبة عتابى[١] حمراء ، وفوقها فرجية زرقاء ، مسنجبة[٢] مقندرة وطرحة[٣] . وعزل الأمير سيف الدين طوغان ، عن ولاية مدينة دمشق ، وأقره على ولاية[٤] البر خاصة . وولى مدينة دمشق الأمير عز الدين محمد بن أبى الهيجا ، فى يوم الجمعة ، خامس عشر جمادى الأولى . ثم توجه إلى الديار المصرية ، فى بكرة نهار الاثنين ، ثامن عشر الشهر . ووصل إلى قلعة الجبل ، فى يوم الثلاثاء تاسع عشرين شعبان . وكان قد أقام مدة بتل العجول .

وفيها ، وصلت رسل ملوك الفرنج ، وأحضروا بين يدى السلطان ، فى يوم الثلاثاء سابع شهر رمضان . وقدموا ما معهم من التقادم ، وهى : ما هو من جهة الأنبرور[٥] ، ما حمله اثنان وثلاثون جملا[٦] ، سنجاب وسمور أربعة عشر ، [و] سقلاط خمسة ، [و] أطلس وبندق ثلاثة عشر . وما هو من جهة الجنوية ، سارسينا[٧] حملان[٨] ، [و] سنافرسة ، [و] كلب أبلق ، ذكر أنه

(١) فى الأصل عنابى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢ .

(٢) فى الأصل منسجبة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢ .

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢ طراحة . وهى قطعة من الملابس التى تميز زى الطبقة الرفيعة من رجال الدين الموظفين ، وهى عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ويلتفت حول الرقبة ويسترسل على الكتفين . الملابس المملوكية ص ٩٣ تأليف ل . ا . ماير ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٢ (المصحح) .

(٤) البر : المقصود هنا حسبما أورده القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٩٧ ، ضواحى دمشق التى تؤلف وحدة إدارية مستقلة .

(٥) فى الأصل الأنبروز ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٢ ، والمقريزى السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٩ وكان امبراطور الدولة الغربية تلك السنة هو دودلف هبسبرج (١٢٧٣ — ١٢٩١)
Rec. Hist. Crois. Hist. Or. T. I.P. 348

(٦) فى الأصل حمالا ، وما هنا هو الصواب .

(٧) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢ .

(٨) فى الأصل حلين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

أكبر من الأسد . وما هو من جهة الأشكرى[1] ، حمل أطلس ، وأربعة أحمال بسط . فقبلت تقادمهم ، وأجروا على عاداتهم فى الإحسان والصلة .

وفيها ، وصل رسول صاحب اليمن ، وصحبته الهدايا والتقادم ، وأحضر إلى بين يدى السلطان ، فى يوم السبت مستهل ذى القعدة ، وأحضر من الهدية على ما نقل ، ما هو[2] : خدام[3] أزمة ثلاثة عشر ، خيل فحول عشرة ، فيل واحد ، كركدن واحد ، نعاج يمنية ثمانية ، طيور ببغاء ثمانية[4] ، قطع عود كبار ثلاثة ، حملت كل قطعة منها على رجلين ، رماح قنا أربعون حمل جمل . ومن أصناف البهار ما حمل على سبعين جملا ، ومن القماش ما حمل على مائة قفص ، ومن تحف اليمن ما حمل على مائة طبق نحاس ، فقبل ذلك [منه[5]] ، وأنعم على رسله وعليه على العادة .

وفيها ، فى سادس ذى الحجة ، وقع الحريق بقلعة الجبل المحروسة ، فاحترقت الخزانة السلطانية والقاعة الصالحية .

---

(١) والأشكرى ، هو امبراطور الدولة البيزنطيه ، وكان وقتذاك اندرونيكوس الثانى بالبولوغش (١٢٨٣ — ١٣٣٢) . Andrmicus II Paleoloyus

وهو الذى أورده العينى : عقد الجمان جـ ٥٦ حوادث ٦٨٢ ، على أنه اندرونيكوس ، الذى تتوج ولقب الدوقس الأنجالوس ، الثارلوغس .

(٢) فى الأصل وهو ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٣) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٩ ، ثلاثة عشر طواشيا ، وتقابل خدام أزمة .

(٤) فى الأصل ثلاثة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٨ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٩ .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٩ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٩ .

وفيها ، فى سلخ شهر رمضان ، كانت وفاة الأمير سيف الدين أيتمش[1] السعدى فى محبسه .

وفيها ، كانت وفاة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى ، بالقاهرة ، ودفن بتربته بالشارع الأعظم .

وفيها ، فى يوم الأربعاء ، سابع عشر صفر ، توفى الصاحب المشير عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد الأنصارى الحلبى ، بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم . وكان فاضلا دينا ، رئيسا مؤرخا ، معظّما عند الأمراء الأكابر محبوبا إليهم . ولازم الصاحب بهاء الدين مدة حياته . وكان الأمراء الأكابر يحملون إليه فى كل سنة دراهم وغلة وكسوة وغير ذلك ، رحمه الله تعالى[2] .

وفيها ، فى منتصف شعبان توفى الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير افتخار الدين أباز[3] بن عبد الله الحرانى ، بمدينة حمص ، وهو يومئذ نائب السلطنة بها ، وحمل إلى دمشق ، ودفن بقاسيون ، فى يوم الخميس سابع عشر الشهر[4] .

وفيها ، فى يوم الأربعاء ، سلخ شعبان ، توفى الطواشى شبل[5] الدولة كافور الصفوى الخزندار بقلعة دمشق . ودفن يوم الخميس مستهل شهر رمضان ، بتربته بسفح قاسيون . كان رجلا صالحا ، كثير الصدقة والمعروف والإحسان ، رحمه الله تعالى ، والحمد لله وحده[6] .

---

(١) فى الأصل ايباش ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٣ أيتامش ، وهذا هو الرسم الذى يرد كثيرا فى هذا الكتاب وسائر المصادر العربية المعاصرة .

(٢) انظر ترجمته فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٣) فى الأصل ابان ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٤ .

(٤) انظر ترجمته فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٤ .

(٥) فى الأصل سهل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٣ .

(٦) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٣ .

واستهلت سنة خمس وثمانين وستمائة

[٦٨٥ - ١٢٨٦]

فى هذه السنة ، أعيد الأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، إلى شد الشام ، عوضا عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر . وباشر الديوان فى بكرة يوم الاثنين خامس عشر المحرم .

وفيها ، فى سلخ ربيع الآخر ، وصل تقى الدين توبة التكريتى من الديار المصرية إلى دمشق . وقد أعيد إلى الوزارة بالشام ، عوضا عن الصاحب محيى الدين بن النحاس .

ذكر حادثة غريبة اتفقت بحمص

وفى هذه السنة ، فى سابع عشر صفر ، ورد إلى الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، نائب السلطنة بالشام ، كتاب من الأمير بدر الدين بكتوت العلائى وكان مجردا بحمص ، وصحبته من عسكر دمشق ألفا[1] فارس ، من مستهل هذه السنة ، مضمونه بعد البسملة :

يقبل الأرض وينهى أنه لما كان فى يوم الخميس رابع عشر صفر ، وقت العصر ، حصل بالفسولة[2] إلى جهة عيون القصب ، غمامة سوداء إلى الغاية ،

---

(١) فى الأصل ألفى ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) الفسولة ، منزل للقوافل بين حمص وقارا بالشام بالقرب : معجم البلدان ج ٣ ، ص ٨٠٢ — ٨٠٣ .

وأرعدت رعدا كثيرا زائدا . وظهر من الغمامة شبه دخان أسود ، من السماء متصل بالأرض ، وصور من الدخان ، صورة أصلة[١] هائلة ، مقدار العمود الكبير ، الذى لا يحضنه جماعة من الرجال ، وهى متصلة بعنان السماء ، تلعب بذنبها فيتصل بالأرض ، شبه الزوبعة الهائلة . وصارت تحمل الحجارة الكبار المقادير ، وترفعها فى الهواء ، كرمية سهم نشاب وأكثر . وصار وقعها[٢] ، وتلاطم الحجارة بعضها ببعض[٣] ، يسمع له صوت هائل ، من المكان البعيد . ومابرح ذلك مستمرا فى قوته ، واتصل بأطراف العسكر المنصور . وماصادف شيئا إلا رفعه فى الهواء ، كرمية نشاب وأكثر . وما صادف شيئا من الأشياء ، من السروج والجواشن[٤] ، والعدد والسيوف ، والتراكيش[٥] والقسى ، والقماش والشاشات[٦] . والكلوتات[٧] ، والنحاس ، والأسطال ، إلا صار طائرا فى الهواء كشبه الطيور .

---

(١) الأصلة حية قصيرة ، وتساور الإنسان وتنفخ ، فلا تصيب شيئا بنفخها إلا أهلكته (لسان العرب) .

(٢) فى الأصل وقفها ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ٣٧ .

(٣) فى الأصل بعضها بعض ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٧ .

(٤) الجواشن ، ومفردها جوشن ، وهو الدرع (محيط المحيط) .

(٥) التراكيش ، والمفرد تركاش ، لفظ فارسى الأصل ، ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب . انظر Dozy : supp. Dict. Ar.

(٦) فى الأصل الشابشات ، وما هنا ابن الفرات جـ ٨ ص ٣٧ .

(٧) الكلوتات والمفرد كلوتة ، وهى غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة ، واستحدث الأيوبيون لبس الكلوتة بمصر ، وكانت من الجوخ الأصفر . ومنذ بن السلطان المنصور قلاون ، أضاف إليها الشاشات — المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٨ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥ — ٦ . انظر الملابس الملوكية — المرجع السابق — ص ٥١ وما بعدها (المصحح) .

ومن جملة ذلك ، أنه كان فى اسطبل المملوك ، خرج آدم ملآن تطابيق[1] بيطارية حمله فى الهوا والجو ، كرمية نشاب . ودفع من جملة مادفعه ، عدة من الجمال بأحمالها ، قدر رمح وأكثر . وحمل جماعة من الجند والغلمان ، وأهلك شيئا كثيرا من السروج ، التى صدفها[2] ، والرماح ، وطحن ذلك ، إلى أن بقى لا ينتفع به . وأتلف شيئا كثيرا مما صادفه فى طريقه ، وأضاع[3] أشياء كثيرة من العدد والقماش ، لمقدار مائتى نفر من الجند وأصحاب الأمراء ، إلى أن صاروا بغير عدة ، ولا قماش[4] . وغابت تلك الحية عن العين ، فى عنان السماء ، فتوجهت فى البرية ، صوب الشرق . والذى عدم من قماش الجند ، منه ما راح فى الغمامة السوداء ، ومنه ما أخذه بعض الجند ، مع أن المملوك ركب بنفسه ، ودار فى المعسكر المنصور ، واستعاد[5] كثيرا مما عدم ، وبعد هذا ، عدم ما تقدم ذكره . وهذه الوقعة ما سمع بمثلها أبدا ، ثم وقع بعد[6] هذا يسير من مطر . ثم إن اللواحيق[7] الكبار ، حملها الهواء وهى منصوبة ، وصارت مرتفعة فى الجو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) تطابيق والمفرد تطبيقه ، صفيحة من الحديد ينعل بها حافر الدابة لوقايته . انظر القاموس المحيط Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٨ ، والمقصود صادفها .

(٣) فى الأصل وضاع ، وماهنا به يستقيم المعنى .

(٤) فى الأصل قناش ، ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٨ .

(٥) فى الأصل واستمار ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٣٨ .

(٦) فى الأصل بعدها ، وما هنا يستقيم به المعنى .

(٧) فى الأصل الواجبق ، وما هنا هو الصواب ، والمفرد لحوقى وهو الإناء الذى يجرى فيه تسوية الطعام . Dozy : Supp. Dict. Ar.

وفى هذه السنة ، فى جمادى الأولى ، أفرج السلطان عن الأمير شمس الدين قطلبجا أخى الرومى .

وفيها ، رسم السلطان بهدم القبة الظاهرية ، التى بقلعة الجبل بالرحبة . فحصل الشروع فى هدمها ، فى يوم الأحد ، عاشر شهر رجب . وأمر ببناء قبة فى مكانها ، فعمرت ، وكان الفراغ منها فى شوال [من هذه السنة][1] .

ذكر توجه السلطان الى الكرك وما رتبه من أمر النيابة وعوده

فى هذه السنة ، فى يوم الخميس ، سابع شهر رجب ، توجه السلطان إلى غزة ، ثم توجه من بعدها جريدة[2] إلى الكرك ، فوصل إليها فى شعبان ، وصعد إلى قلعتها ، ورتب أحوالها . ورسم بتنظيف البركة التى فيها من الطين ، فنظفت . وعمل فيها جميع من كان فى خدمة السلطان ، من المماليك والحاشية مدة سبعة أيام . واستناب بها الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصورى . ونقل الأمير عز الدين الموصلى منها إلى نيابة السلطنة بغزة ، وتقدمة العسكر بها . ولم يطل مقامه بها ، فإنه نقل منها إلى نيابة قلعة صفد .

وعاد السلطان من الكرك ، ونزل بغابة أرسوف ، فأقام بها إلى أن وقع الشتاء ، وأمن حركة العدو ، وعاد إلى الديار المصرية . وكان وصوله إلى قلعة الجبل ، فى يوم الاثنين رابع عشر شوال منها .

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٥ ، ص ٣٨ .

(٢) جريدة — المقصود هنا أنه سار دون أن يصحب معه متاعه وغلمانه وحشمه (انظر ما ورد من المعانى المختلفة لهذا اللفظ فى Dozy : Supp. Dict. Ar.

وفيها ، فى شوال ، أفرج عن الأمير بدر الدين بكتوت الشمسى ، والامير جمال الدين أقوش الفارسى .

ذكر وفاة قاضى القضاة وجيه الدين ، وتفويض القضاء بمصر والوجه القبلى ، لقاضى القضاة ، تقى الدين ابن بنت الأعز

فى هذه السنة ، فى يوم الأربعاء ، مستهل جمادى الأولى[1] ، كانت وفاة قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب ابن القاضى سديد الدين الحسين المهلبى ، المعروف بالبهنسى ، قاضى القضاة بمصر والوجه القبلى . وولى بعده ، قاضى القضاة ، تقى الدين بن عبد الرحمن ابن بنت الأعز ، فى يوم الأربعاء خامس عشر الشهر . وكان قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى القاضى شهاب الدين الحوبى[2] .

ذكر وفاة قاضى القضاة تقى الدين بن شاس المالكى وتفويض القضاء لقاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى

وفى هذه السنة ، فى ذى القعدة ، كانت وفاة قاضى القضاة تقى الدين الحسين ابن الفقيه شرف الدين أبى الفضل عبد الرحيم ابن الفقيه الإمام مفتى الفرق جلال الدين أبى محمد عبد الله بن شاس الجذامى السعدى المالكى ، قاضى قضاة المالكية بالديار المصرية . وفوض السلطان القضاء بعده ، على مذهب الإمام مالك بن أنس ، لقاضى القضاة زين الدين أبى الحسن على ابن الشيخ

(١) فى الأصل الأول ، وما هنا هو الصواب . وقع الناسخ أو المؤلف فى أخطاء لغوية عديدة من هذا القبيل ، وجرى تصويبها دون التنبيه إلى ذلك .

(٢) فى الأصل الخسوبى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٥ ، ص ٣٩ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٣٢ .

رضى الدين أبى القاسم مخلوف ابن الشيخ تاج الدين أبى المعالى ناهض النويرى المالكى ، وهو يومئذ ناظر الخزانة السلطانية . وكان فى ابتداء ترقيه بلى أمانة الحكم العزيز بالقاهرة . فاتفق أن السلطان الملك المنصور ، فى حال إمرته ، ابتاع منه ، من تركة بعض الأمراء ، عدة بجملة ، كانت الغبطة فيها للأيتام . فطالبه القاضى زين الدين بالمال ، فتوقف عن أدائه ، وقصد ردما ابتاعه . وتحدث فى ذلك مع القاضى زين الدين فامتنع عن رده . واقتضى الحال ان شكاه للملك الظاهر ، والزم بالقيام بالثمن . فبقى ذلك فى خاطر السلطان . فلما ملك ، انتفع بذلك عنده غاية النفع ، ورتبه فى الخزانة ، ووثق به ، وتمكن عنده تمكنا عظيما . ثم فوض إليه القضاء ، وأقره[1] معه على الخزانة . واستمر فى القضاء إلى أن توفى ، على ما نذكره ، إن شاء الله تعالى ، فى أخبار الدولة الناصرية .

ذكر وفاة قاضى القضاة بهاء الدين بن الزكى وشىء من أخباره

وفى هذه السنة ، فى يوم الاثنين ، حادى عشر ذى الحجة ، توفى بدمشق قاضى القضاة بهاء الدين أبو الفضل يوسف ، ابن قاضى القضاة محيي الدين أبى الفضل يحيى ، ابن قاضى القضاة محيي الدين أبى المعالى محمد ، ابن قاضى القضاة ، ركن الدين أبى الحسن على ابن قاضى القضاة ، مجد الدين أبى المعالى محمد ابن قاضى القضاة ركن الدين أبى الفضل يحيى بن على بن عبد العزيز العثمانى الأموى القرشى ، المعروف بابن الزكى ، قاضى قضاة الشافعية بدمشق . اجتمع فيه وله ما لم يجتمع فى غيره ، ولا له . كان من أحسن الناس صورة ،

(١) فى الأصل وأقبره : وما هنا به يستقيم المعنى .

وأكملهم قواما، رهيئة وهيبة. وكان من العلماء الفضلاء فى المذهب وعلم الأصولين[1] والعربية، والمنطق، وعلم الكلام، والحساب، والفرائض، والنظم، وعلم البيان، وحل المترجم[2]، والكتابة الجيدة الحسنة، مع الذكاء المفرط. وكان له دنيا عريضة من المال والعقار. وكانت داره بباب البريد، من أحسن الدور بدمشق وبستانه بالسهم الأعلى من أصح الغوطة وأطيبها هواء. وضيعته الملك قرية الميدانية، من غوطة دمشق. [وكانت[3]] زوجته من أحسن النساء صورة و [كان[4]] أولاده تامّين الصورة. وجُمع له من المدارس بدمشق أجلها، وهى العزيزية والتقوية والفلكية والعادلية والمجاهدية والكلّامسة وغيرها. وأنظار أوقاف كثيرة، وقضاء قضاة دمشق وسائر أوقافها. فلما كمل له ذلك. أتاه الموت الذى لاحيلة فيه ولا دافع له، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفى الأديب الفاضل، الشاعر المجيد، شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم بن يوسف بن أحمد الأنصارى اليمنى المحتد[5] المصرى الدار والمولد، الشافعى الصوفى، المعروف بابن الخيمى، الشاعر المشهور، المبرز على نظرائه. وكانت وفاته بالقاهرة المعزية، بمشهد الحسين، فى التاسع والعشرين من شهر رجب الفرد، سنة خمس وثمانين وستمائة. ومولده تخمينا[6] فى سنة اثنتين

(١) فى الأصل الأصولين وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٤٧

(٢) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨، ص ٤٧

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ٤٨

(٤) الإضافة للتوضيح

(٥) فى الأصل المحتدى، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٢٤

(٦) فى الأصل تخمينا، وفى ابن الفرات جـ ٨، ص ٤٦ بخمينا، والمثبت هنا هو الصواب.

وستمائة . روى عن ابن باقا ، وسمع من ابن البنا وغيره ، وحدّث . وكان يعانى الخدم الديوانية، وله نظم كثير جيد . فمنه قصيدته المشهورة البائية، التى ادعاها الشيخ نجم الدين بن اسرائيل . وقد رأينا أن نذكر هذه القصيدة ، وما وقع فى أمرها، وما قيل فى وزنها ورويها، وكيف حكم بها للذكور. وأول[1] القصيدة:

يا مطلبا ليس لى فى غيره أرب ... إليك آل التقصى وانتهى الطلب

وما طمحت لمرأى[2] أو لمستمع ... إلا لمعنى إلى علياك ينتسب

وما أرانى[3] أهلا أن تواصلنى ... حسبى علوا ، بأنى فيك مكتئب

لكن ينازع شوقى تارة أدبى ... فأطلب الوصل، لما يضعف الأدب

ولست أبرح فى الحالين ذا قلق ... باد وشوق له فى أضلعى لهب

وناظر كلما كفكفت أدمعه ... صونا لحبك يعصينى وينسكب

ويدعى فى الهوى دمعى مقاسمتى ... وجدى وحزنى ونجوى وهو مختضب[4]

كالطرف يزعم توحيدا لحبيب ولا ... يزال[5] فى ليله للنجم يرتقب

ياصاحبى قد عدمت المسعدين فما ... عدنى على وصبى لا مسّك الوصب

---

(١) هذه التفاصيل واردة فى ترجمة كاملة للشاعر ، فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٢ - ٤٦ .

(٢) فى الأصل لمرأ ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٢ .

(٣) فى الأصل رآنى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٢ وابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٢ متخضب .

(٥) فى الأصل يراك وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٢ .

بالله إن جزت كثبانا بذى سَلَم[1] قف بى عليها ، وقل لى هذه الكثب
ليقضى الخد فى أجراعها وطرا من تربها وأؤدى بعض ما يجب
ومل إلى البان من شرقى كاظمة فلى إلى البان من شرقيها طرب
وخذ يمينا لمغنى[2] تهتدى بشذا نسيمه[3] الرطب إن ضلت بك النجب
حيث الهضاب[4] وبطحاها يروضها دمع المحبين لا الأنداء والسحب
اكرم به منزلا تحميه هيبته عنى وأنواره لا الصمر والقضب
دعنى أعلل نفسا عز مطلبها فيـ ـه ، وقلبا لعذر[5] ليس ينقلب
ففيه عاهدت قدما حب من حسنت به الملاحة واعتزت به الرتب
دان وأدنى وعز الحسن يحجبه عنى وذلى والإجلال والرهب
أحيا إذا مت من شوق لرؤيته لأننى لهواه فيه منتسب
ولست أعجب من حبى[6] وصحته من صحتى إنما سقمى هو العجب
يالهف نفسى[7] لو يجدى تلهفها عونا ووا حربا[8] ، لو ينفع الحرب

---

(١) فى الأصل ، وابن الفرات جـ ٤ ص ٤٢ جنت ، وما هنا من ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٢) فى الأصل لمغنى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٣ .

(٣) فى الأصل بشيمة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٣ .

(٤) فى الأصل الرضاب وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٣ .

(٥) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٣ لغدر .

(٦) فى ابن شاكر : فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣١ جسمى .

(٧) فى الأصل لم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٣ .

(٨) فى الأصل حزنا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٣ .

يمضى الزمان وأشواق مضاعفة ... يا للرجال ولا وصل ولا سبب
هبت لنا نسمات من ديارهم ... لم يبق فى الركب من لا هزه الطرب
كدنا نطير سرورا من تذكرهم ... حتى لقد رقصت من تحتنا النجب
يا بارقا بأعالى[1] الرقتين بدا ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب[2]
أما خفوق[3] فؤادى فهو عن سهب ... وعن خفوقك[4] قل لى ما هو السبب
و يانسيما سرى من جو كاظمة ... بالله قل لى كيف البان والعذب
وكيف جيرة ذاك الحى هل حفظوا ... عهدا أراعيه إن شطوا و إن قربوا
أم ضيعوا ومرادى منك ذكرهم ... هم الأحبة إن أعطوا و إن سلبوا
إن كان يرضيهم ابعاد عبدهم ... فالعبد منهم بذاك البعد مقترب
والهجر إن كان يرضيهم بلا سبب ... فإنه من قبيل الوصل محتسب

ولما بلغت هذه القصيدة نجم الدين محمد بن إسرائيل ، ادعاها لنفسه . فاجتمع هو وابن الخيمى بعد ذلك بحضرة جماعة من الأدباء ، وجرى الحديث فى ذلك ، فأصر ابن إسرائيل على أنها له . فتحاكما إلى الشيخ شرف الدين عمر ابن الفارض ، رحمه الله ، وكان يومئذ هو المشار إليه فى معرفة الأدب ونقد الشعر . فأشار أن ينظم كل واحد منهما أبياتا على الوزن والروى فنظم ابن الخيمى :

(١) فى الأصل بأمل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٢ ، ومن ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٢) فى الأصل الشبب وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٣ وابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٣) فى الأصل حقوق وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٢ .

(٤) فى الأصل حقوقك ، وما هنا من الفرات جـ ٨ ، ص ٤٢ .

لله قـــوم بجـرعاء الحمى غيب جنوا علىّ ، ولما أن جنوا عتبوا

يا قوم[1] هم أخذوا قلبي فلم يخطوا وانهم غصبوا عيشي هام غضبوا

هم العريب بنجد مذ عرفتهـم لم يبـق لى معهم مال ولا نسب

شاكون للحرب لكن من قدودهم وفاترات اللحاظ السمر والقضب

فما ألمّوا بحى[2] أو ألم[3] بهـــم إلا أغاروا على الأبيات وانتهبوا

عهدت فى دمن[4] البطحاء عهد هوى إليهـــم وتمادت[5] بيننا حقب

فما أضاعوا قديم العهد بل حفظوا لكن لغيرى ذاك العهد قد نسبوا

مَن منصفى من لطيف فيهم خنج لدن القـوام لاسرائيـل ينتسب[6]

مبدل القول ظلما لا يفى بمـــوا عيد الوصال ومنه الذنب والغضب

فى لثغـة الراء منه صدق نسبته والمن منه برور الوعد والكذب

موحد فيرى كل الوجـــود له ملكا ويبطل ما يقضى به النسب

فعن عجائبـه حدث ولا حرج ما ينتهى فى المليح المطلق العجب

بدر ولكن هلالا لاح اذهـو بالوردى[7] من شفق الخدين منتقب

فى كاس مبسمه من حلو ريقته خمـــر ودر ثناياه بها حبب

---

(١) فى ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ٢ ، ص ٢٣٢ بارب .

(٢) فى الأصل بحى ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٤ .

(٣) فى الأصل إذ ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٤ .

(٤) فى الأصل زمن ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٤ .

(٥) فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٤ وعادت .

(٦) فى الأصل تنسب وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٤ .

(٧) فى الأصل بالدردى وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٤ .

فلفظه أبدا سكران[1] يسمعنا ... من معرب اللحن ماينسى له الأدب
تجنى[2] لواحظه فينا ومنطقه ... جنايه يجتنى من مُرّها الضرب
قد أظهر السحر[3] فى أجفانه سقما ... البرء منه إذا ماشاء والعطب
حلو الأحاديث وألفاظ ساحرها ... تلق[4] إذا نطق الألواحُ والكتب
لم يبق منطقه قولا يروق لنا ... لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب
فداؤه[5] ما جرى فى الدمع من مهج[6] ... وماجرى فى سبيل الحب محتسب
ويح المتيم شام بارق من أضم ... فهزه كاهتزاز البارق الخرب
واسكن البرق من وجد ومن كلف ... فى قلبه فهو فى أحشائه لهب
فكلما لاح منه بارق بعثت ... قطر المدامع من أجفانه سحب
وما أعادت نسيمات الغوير له ... أخبار ذى الأثل إلا هزة الطرب
واهًا له أعرض الأحباب عنه وما ... أجدت وسائله الحسنى ولا القرب

ونظم الشيخ نجم الدين محمد بن اسرائيل [رحمه الله تعالى][7] .

لم يقض من حبكم بعض الذى يجب ... قلب متى ماجرى تذكاركم يجب

---

(١) فى الأصل سلوان ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٤ ، وابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) فى الأصل يحيي وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٤

(٣) فى الأصل من ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٤

(٤) فى الأصل يلقى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٤

(٥) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٤ مداده

(٦) فى الأصل ملج وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٤ ، وابن شاكر الكتبي فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣٣

(٧) الإضافة من ابن الفرات جـ ٢ ، ص ٤٤

ولى ، وَفِى لرسم الدار بعدكُم دمع متى جادضلت بالحيا السحب (١)

أحبابنا والمنى تدنى مزاركم (٢) وربما حال من دون المنى الأدب (٣)

مارابكم من حياتى بعد بعدكم وليس لى فى حياة بعدكم أدب

قاطعتمونى فأحزانى مواصلة وحلتم (٤) فحلالى فيكم التعب

[رحتم بقلبى وما كادت لتسلبه لولا قدودكم الخطية السلب] (٥)

يا بارقا ببراق (٦) الحزن لاح لنا أأنت أم أسلمت أقمارها النقب

ويانسيما سرى والعطر يصحبه أجزت (٧) حين مشين الخرد (٨) العرب

أقسمت بالمقسمات الزهر (٩) يحجبها سمر العوالى والهندية القضب

لكدت تشبه برقا من ثغورهم مادر (١٠) دمعى لولا الظلم والشنب

وجيرة جار فينا حكم معتدل منهم ولم يعتبوا لكنهم عتبوا

---

(١) فى الأصل صلت ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٥

(٢) فى الأصل مرازتكم ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٥

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٦ الأرب .

(٤) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٥

(٥) الإضافة من ابن شاكر ، فوات الوفيات جـ ٣ ، ص ٢٢٣ .

(٦) فى ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣٣ . ببريق .

(٧) فى الأصل احرت ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٥ .

(٨) فى الأصل الحرد وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٥

(٩) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٥ تحجبها .

(١٠) كذا فى الأصل وابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٥ أما فى ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٣٢ بادر .

ماحيلتى قـربونى من محبتهـم وحال دونهم التقريب والخبب[1]

وعُرِضنا على الشيخ شرف الدين بن الفارض ، فأنشد مخاطبا لابن اسرائيـل عجز بيت من أبيات ابن الخيمى :

* لقد حكيت ولكن فاتك الشنب *

وحكم بالقصـيدة لابن الخيمى . واسـتحسن بعض من حضر المجلس من الأدباء أبيات ابن اسرائيل ، وقال : من ينظم مثل هذه الأبيات ، ما الحامل له على ادعاء ما ليس له ؟. فقال ابن الخيمى : هذه سرقة عادة ،لا سرقة حاجة . وانفصل المجلس . وفارق الشيخ نجم الدين بن إسرائيل من وقته الديار المصرية ، وتوجه إلى الشام . ولمـا بلغت هذه الواقعة القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان وهو إذ ذاك يتولى نيابة الحكم بالقـاهرة ، خلافة عن قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ، رحمهما الله تعالى ، أرسـل إلى الشـيخ شهاب الدين ابن الخيمى ، يطلب منـه الأبيات التى نظمهـا ، وادعاها ابن اسرائيـل ، فذيلهـا بأبيات وهى :

إن كان يرضيهم إبعاد عبـدهم فالعبد منهم بذاك البعد مقترب

والهجر إن كان يرضيهم بلاسبب فإنه من لذيذ الوصـل محتسب

وإن هم احتجبوا عنى فإن لهـم فى القلب مشهور حسن ليس يحتجب

---

(١) فى الأصل والخنب وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٥ .

التقريب والخنب ، التقـريب نوع من العـدو ، بأن يرفع الفرس يديه معا ، ويضعهما معا ، أما الخبب ، فهو الاسراع فى المشى ، بأن ينقل الفـرس أيامنه جميعا وأياسره جميعا ، (القـاموس المحيط) .

قد نزّه[1] اللطف والإشراق بهجته ... عن أن تمنعها[2] الأستار والحجب

لا ينتهى نظرى منهم إلى رتب ... فى الحسن إلا ولاحت فوقها رتب

وكلما لاح معنى من جمالهم ... لبّاه شوق إلى معناه منتسب

أظلّ[3] دهرى ولى من حبهم طرب ... ومن أليم اشتياقى نحوهم حرب

فالقلب يا صاح منى بين ذاك وذا ... قلب لمعروف شمس الدين منتهب

إن الحديث شجون فاستمع عجبا ... حديث ذا الخبر[4] حسنا كله عجب

وشرع فى مدحه وذكر أوصافه . إلى نهاية سبعة وثلاثين بيتا ، تركنا ايراد بقيتها اختصاراً[5] . وشعره ، رحمه الله تعالى ، كثير جيد مشهور . فلنرجع إلى سياق أخبار الدولة المنصورية .

---

(١) فى الأصل نوه ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٥

(٢) فى الأصل يمنعها ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٥

(٣) فى الأصل أطل ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ص ٤٥

(٤) وكذا أيضا فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٥

(٥) هذه العبارة بنصها ، أوردها ابن الفرات ج ٨ ص ٤٦ ، وهذا دليل آخر على اقتباسه من النويرى أو من مصدر النويرى .

واستهلت سنة ست وثمانين وستمائة

[٦٨٦ = ١٢٨٧]

فى هذه السنة ، تسلم الأمير حسام الدين طرنطاى صهيون ، وعاود الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الطاعة[1] . وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيها ، كانت غزوة النوبة الأولى . وقد تقدم ذكرها .

ذكر تفويض قضاء القاهرة والوجه البحرى للقاضى برهان الدين السنجارى ، ونقلة القاضى شهاب الدين الحوى إلى الشام ووفاة السنجارى ، وإضافة قضاء القاهرة للقاضى تقى الدين ابن بنت الأعز

كان سبب هذه الولايات ما قدمناه ، من وفاة قاضى القضاة بدمشق ، بهاء الدين بن الزكى ، فى حادى عشر ذى الحجة ، سنة خمس وثمانين . فلما اتصل خبر وفاته بالسلطان ، رسم بتعيين قاض للشام . فعين قاضى القضاة شهاب الدين الحوى[2] لذلك ، فيما بلغنى ، القاضى شرف الدين إبراهيم[3] بن عتيق ، وكان إذ

---

(١) أورد المقريزى فى السلوك ج ١ ، ص ٧٢٤ — ٧٢٥ الرواية بالتفصيل ، وهى تلخيص واضح لما ورد فى النويرى . انظر أيضا بيبرس الدوادار المنصورى : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٤٩٢ وما بعدها .

(٢) فى الأصل الحوبى ، وما هنا من ابن الفرات ، ج ٨ ص ٤٨ ، والمقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٧٢٤

(٣) فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ٤٨ شرف الدين محمد .

ذاك ينوب عنه ، وأحضره لذلك . وسعى قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز ، أن ينقل القاضى شهاب الدين الخوبى إلى الشام ، ويستقل هو بقضاء المدينتين والعملين، فنتج سعيه الآن فى أخذ الطرفين . وذلك أن القاضى شهاب الدين الخوبى ، طلع فى يوم الأحد ، خامس عشر المحرم ، من هذه السنة ، إلى قلعة الجبل ، وصحبته القاضى شرف الدين بن عتيق ، الذى عينه لقضاء الشام . وحضر قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز المجلس ، وطلب [السلطان][1] قاضى القضاة برهان الدين الخضر السنجارى ، فخلع عليه ، وفوض له قضاء القاهرة والوجه البحرى ونقل القاضى شهاب الدين الخوبى إلى قضاء الشام ، فتوجه إلى دمشق ، فى ثالث عشر صفر ، ووصل إليها فى يوم الاثنين ثالث عشر شهر ربيع الأول . وأما القاضى برهان الدين ، فإنه جلس للحكم بالقاهرة بالمدرسة المنصورية . وتقدم فى الجلوس بدار العدل ، على قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز، فتألم لذلك ، وندم على سعيه فى نقلة القاضى شهاب الدين الخوبى إلى الشام، وسعى أن يتوفر من حضور دار العدل. فبينما هو فى ذلك ، توفى قاضى القضاة برهان الدين السنجارى . وكانت وفاته فى تاسع صفر من السنة ، بالمدرسة المعزّية بمصر ، ودفن بتربة أخيه بدر الدين بالقرافة . فكانت مدة ولايته أربعة وعشرين يوما ، ومولده فى سنة ست عشرة وستمائة . ولما مات ، فوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحرى لقاضى القضاة ، تقى الدين عبد الرحمن ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز . وخلع عليه ، وجمع له القضاء بالمدينتين والعملين . وبلغنى أنه صلى على القاضى برهان الدين ، وعليه خلعة القضاء[2] .

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٨

(٢) هذه الرواية تطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٤٩ ، ٥٨ وفى ذلك دليل على ما بين المصدرين من الاتفاق .

ذكر خبر واقعة ناصر الدين بن المقدسى واعيان دمشق ، ومصادرة أكابر دمشق ، وتوكيل ناصر الدين بن المقدسى عن السلطان

وفى هذه السنة ، وصل ناصر الدين محمد ابن الشيخ عبد الرحمن المقدسى ، إلى الأبواب السلطانية . وكان قد حضر ، ليرفع[1] على قاضى القضاة بهاء الدين ابن الزكى أمورا . فاتفقت وفاة قاضى القضاة كما تقدم ، فبطل عليه ما دبره من أمره ، فعدل عن ذلك إلى غيره . واجتمع بالأمير علم الدين [سنجر[2]] الشجاعى ، وزير الدولة ، وتحدث معه فى أمر بنت[3] الملك الأشرف موسى ابن السلطان الملك العادل ، وأنها أباعت أملاكها بدمشق ، وأنه ثبت أنها حالة البيع كانت سفيهة ، وقد حجر عليها عمها الملك الصالح ، عماد الدين إسماعيل ، ويستعيد الاملاك ممن ابتاعها ، ويرجع عليهم بما تسلموه من الريع ، فى المدة الماضية ، ويشترى هذه الأملاك للخاص[4] السلطانى ، فأجابه إلى ذلك . وكتب يطلب سيف الدين أحمد السامرى من دمشق ، وكان قد ابتاع منها

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٠ ، ليرافع قاضى القضاة .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٠ .

(٣) فى الأصل بيت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٠ والمقصود هنا ، حسبما ورد فى المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٥ ، حاشية ٢ ، ملكة خاتون ، أوصى لها أبوها بجميع جواهره ، ووقف دار السعادة وبستان النيرب ، وتزوجها الجواد يونس ، ثم طلقها ، فتزوجها المنصور محمد ابن الصالح إسماعيل ، فولدت له ولدين ، وتوفيت سنة ٦٩٤ .

(٤) فى الأصل الخاص ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٠ ، والمقريزى . السلوك جـ ١ ، ص ٧٢٥ .

حرزما[1] . فحضر فى شهر رمضان ، والسلطان إذ ذاك بغزة ، فسيره إلى الديار المصرية . فطلب منه ابتياع حرزما ، فادعى أنه وقفها من مدة . فعند ذلك ، سطر محضر ، يتضمن ابنة الملك الأشرف ، كانت فى مدة كذا وكذا سفيهة ، وذلك فى زمن البيع . ولم تزل مستمرة السفه ، إلى تاريخ كذا وكذا . ثم صلحت واستحقت رفع الحجر عنها من مدة كذا وكذا . ولفق بينة شهدت بذلك ، وثبت على أخذ قضاء القضاة بالديار المصرية ، وقد شاهدت[2] أنا هذا المحضر . ولما ثبت ذلك فى وجه سيف الدين السامرى ، بطل البيع من أصله . ثم طولب[3] بما تحصل[4] له من الريع ، لمدة عشرين سنة ، وكان مائتى ألف درهم وعشرة آلاف درهم ، بعد الاعتداد له ، بنظير الثمن الذى دفعه . فاشترى منه سبعة عشر سهما ، من قرية الزنبقية ، بسبعين ألف درهم ، وحمل مائة ألف وأربعين ألف درهم . وقوض السلطان وكالته ، لناصر الدين المقدسى المذكور ، فشرع فى أذى أهل دمشق وأعيانها ، فطلب جماعة منهم ، فى سنة سبع وثمانين ، وهم الصدر عز الدين حمزة بن القلانسى ، والصدر نصير الدين بن سويد ، وشمس الدين ولد جمال الدين بن يمن ، وجمال الدين بن صصرى . وطلب أيضا قاضى القضاة حسام الدين الحنفى ، والصاحب تقى الدين توبة ، وشمس الدين ابن غانم ، فصودر هؤلاء . فأخذ من الصدر عز الدين بن القلانسى ، فيما قيل ،

(١) حرزم ، اسم بلدة تقع بين ماردين ودنيسر ، من أعمال الجزيرة (ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ، ص ٢٣٩) .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥١ ، على الرغم من اتفاق روايته مع النص الوارد فى النويرى ، والواضح أن النويرى وقف على المحضر الذى جرى تحريره .

(٣) فى الأصل طولب له ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٤) فى الأصل يحصل ، وما هنا به يستقيم المعنى .

مائة ألف درهم وخمسون ألف درهم، ومن جمال الدين بن صصرى، ثلاثمائة ألف درهم، قيمة ملك ودراهم. وحمل [من][1] نصير الدين ثلاثون ألف درهم، ومن ابن يمن، عن قيمة أملاك، مائة ألف درهم وتسعون[2] ألف درهم، ومن شمس الدين بن غانم خمسة آلاف درهم، ومن قاضى القضاة حسام الدين ثلاثة آلاف درهم. واعتذر أكابر الدماشقة، أنهم حضروا على خيل البريد، وأن أموالهم وموجودهم بدمشق. وسألوا أن يقرر عليهم ما يحملونه. فطلب الأمير علم الدين [سنجر الشجاعى وزير الديار المصرية[3]]، جماعة من تجار الكارم[4]، وأمرهم أن يقرضوا الدماشقة مالا يحملونه، ففعلوا ذلك. وكتب عليهم الحجج، وأعيدوا إلى دمشق، وقاموا بالمبلغ لأربابه. وإنما فعل الأمير علم الدين الشجاعى ذلك، خشية أنهم إذا توجهوا إلى دمشق، استشفعوا فيسامحوا. فأراد أن يكون ذلك فى ذمتهم، لغير بيت المال. ثم عاد الدماشقة إلى دمشق، وولى جمال الدين بن صصرى نظر الدواوين بدمشق، وذلك فى سنة سبع وثمانين وستمائة.

---

(١) الإضافة يتطلبها السياق.

(٢) فى الأصل تسعين، وما هنا به يستقيم المعنى.

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ٦٢.

(٤) الكارم، ويقال أيضا الكارمية والأكارمية، فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الوارده إلى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن. وكان معظمهم فى الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلامية، الواقعة بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربى، فنسبوا إلى موطنهم بعد تحريف اللفظ إلى الكارم، ثم صار هذا الاسم يطلق على الذين يمارسون هذه التجارة بمصر. انظر Dozy: supp. Dict. Ar، القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، جـ ٤ ص ٣٢، جـ ٥ ص ٢٤ — ٢٨١. Heyd. op. cit II. p. 59

وفى سنة ست وثمانين وستمائة أيضا، توجه السلطان إلى جهة الشام، واستقل وكابه من قلعة الجبل، فى يوم الخميس سابع عشرين شهر رجب، ووصل إلى غزة، وأقام بتل العجول، ثم عاد إلى قلعة الجبل. وكان وصوله إليها، فى يوم الاثنين ثالث عشرين، شوال من السنة.

وفيها، فى تاسع عشر محرم، كانت وفاة علاء الدين ابن الملك الناصر، صاحب الشام، الذى كان فى الاعتقال. وكان قد اعتقل، فى أوائل الدولة المنصورية، فى سابع عشر رمضان، سنة ثمان وسبعين وستمائة. وكان قد حصل له مرض المالنخوليا. فلما اشتد به، قتل نفسه. ومولده فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

وفيها، فى ليلة السبت، الثامن والعشرين، من شهر المحرم، توفى الشيخ الإمام، قطب الدين أبو بكر، محمد بن أحمد بن على بن الحسين بن عبد الله ابن أحمد بن ميمون القيسى الشاطبى، المعروف بابن القسطلانى، بالمدرسة الكاملية، دار الحديث بالقاهرة، وهو مدرسها، ودفن من الغد، بالقرافة الصغرى. وكانت جنازته مشهورة، رحمه الله تعالى.(١)

وفيها، كانت وفاة الأمير سيف الدين قجقار(٢) المنصورى، نائب السلطنة بالمملكة الصفدية. وكان السلطان قد رباه فى صغره، كالولد، رحمه الله تعالى.

---

(١) وردت له ترجمة مسهبة فى ابن الفرات جـ ٨، ص ٥١ — ٦١.

(٢) فى الأصل قخفار، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٥٩.

وفيها، كانت وفاة الأمير علم الدين سنجر الباشقردى الصالحى بالقاهرة ، فى ليلة الثلاثاء ، تاسع عشر ، شهر رمضان ، ودفن بالقرافة . وكان من أكابر الأمراء المقدمين بالديار المصرية . وتولى نيابة السلطنة بحلب كما تقدم[1] ، وعزل بالأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى .

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٣ .

واستهلت سنة سبع وثمانين وستمائة

[٦٨٧ - ١٢٨٨]

ذكر عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى عن الوزارة ومصادرته ، وتفويض الوزارة لقاضى القضاة ، تقى الدين ثم إلى الأمير بدر الدين بيدرا

وفى هذه السنة، فى يوم الخميس، ثانى عشر شهر ربيع الأول، عزل السلطان الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، عن الوزارة ، وصادره وأخذ أمواله . وكان سبب ذلك ، أن النجيب المعروف بكاتب بكجرى ، أحد مستوفى[1] الدولة ، برزله ، وانتدب لمرافعته ، بموافقة تقى الدين بن الجوجرى ، ناظر[2] الدواوين ومباطنته[3] له ، وحاققه[4] بين يدى السلطان . وكان من جملة ما حاققه[5] عليه ، وأضرى السلطان به ، أنه قال للسلطان بحضوره ، إنه أباع جملة من الرماح والسلاح ، الذى كان فى الذخائر السلطانية للفرنج . فاعترف الأمير علم الدين بذلك . وقال نعم أنا بعته بالغبطة[6] الوافرة ، والمصلحة الظاهرة . فالغبطة أنى

---

(١) فى الأصل مستوفين ، وما هنا من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٧٣٩ .

(٢) فى الأصل ناضر ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٦٣ .

(٣) فى الأصل ومناطسه ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٦٣ .

(٤ ، ٥) فى الأصل وخانقه ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٦٣ ، والمقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٧٣٩ .

(٦) الغبطة ، المقصود هنا الربح والمكسب . Dozy: supp. Dict. Ar

أبعتهم من الرماح والسلاح ، ما عتق وفسد ، وقل الانتفاع به ، وبعته بأضعاف قيمته . والمصلحة ، ليعلم الفرنج أنا نبيعهم السلاح هوانا بهم ، واستحقارا لأمرهم ، وعدم مبالاة بهم . فكاد السلطان يصغى إلى ذلك . فأجابه النجيب عن ذلك ، بأن قال له يا مكثل[1] ، الذى خفى عنك أعظم مما لمحت هذا الكلام ، الذى صورته أنت بخاطرك ، وأعددته جوابا . وإنما الفرنج والأعداء لا يحملون بيع السلاح لهم ، على ما ظننت أنت وزعمت . وإنما الذى يشيعونه بينهم وينقله الأعداء إلى أمثالهم ، أن يقولوا ، قد احتاج صاحب مصر ، حتى باع سلاحه لأعدائه ، أو ما هذا معناه من الكلام . فعند ذلك أحتد السلطان عليه ، غاية الاحتداد ، واشتد غضبه ، وأمر بمصادرة الأمير علم الدين ، على حملة كثيرة من الذهب ، والزمه أن لا يبيع فيما طلب منه ، شيئا من خيله وسلاحه ولا [من[2]] مدة الإمرة ورختها[3] ، وأنه لا يحمل المطلوب منه إلا عينا ، ففعل ذلك . وبلغ السلطان ، أن الأمير علم الدين ، قد ظلم الناس وصادرهم ، وأن فى اعتقاله جماعة كثيرة ، قد مر عليهم شهور وسنون ، وباعوا موجو دهم ، وصرفوه فى أجرة المترسمين[4] عليهم .

(١) فى الأصل بامتكل ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ص ٦٣ ، والمقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٧٤٠ . والملحوظ أن عبارة السلوك هنا أيضا مشابهة فى ترتيبها وألفاظها لما يقابلها فى نهاية الأرب . والمكثل : السلة والقفة . Dozy: Supp. Dict. Ar

(٢) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٦٣ .

(٣) الرخت ، لفظ فارسى معناه المتاع ، وهو المقصود هنا فى هذا الموضع . انظر ما ورد من المعانى الأخرى . Dozy: Supp. Dict. Ar. والمقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٤) الترسيم ، الأمر الذى يصدر من الجهة المختصة بالتحفظ على شخص ، فى موضع ومنعه من الفرار ، وهو من العقوبات العسكرية . Dozy : supp. Dict. Ar.

واحتاج بعضهم إلى أن استعطى من الناس بالأوراق[1] . فرسم السلطان للأمير بهاء الدين بُعْدى[2] الدوا دار ، أن يكشف أمر المصادرين ، ويطالع السلطان به . فخرج إليهم وسألهم ، فذكروا ما هم فيه من الضرورة والفاقة ، فأعلم السلطان بخبرهم . فرسم[3] للأمير حسام الدين طرنطاى بالكشف عنهم ، فأفرج عن جميعهم . ثم أفرج عن الأمير علم الدين فى يوم الأربعاء ، تاسع شهر ربيع الآخر من السنة .

ولما عزل السلطان الأمير علم الدين عن الوزارة ، فوضها[4] السلطان للأمير بدر الدين بيدرا ، فى يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأول فى السنة . ثم فوضت الوزارة لقاضى القضاة ، تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز ، فى يوم الخميس التاسع عشر من شهر ربيع الآخر ، مضافة إلى ما بيده من قضاء القضاة ، ونظر الخزائن . ولم يترك نظر الخزانة ، فربما جلس فى اليوم الواحد فى دست الوزارة ، ومجلس الحكم ، وديوان الخزانة . واستمر على ذلك مدة يسيرة ، ولم يوف منصب الوزارة حقه العادى ، لتمسكه بظاهر الشرع الشريف . ثم توفر من الوزارة ، وفوضت للأمير بدر الدين بيدرا المنصورى ، وكان أمير مجلس السلطان ، ثم نقل إلى الاستادارية ، ثم إلى الوزارة ، واستقر كذلك إلى آخر الدولة المنصورية .

(١) فى الأصل بالأوراق ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٣ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٤٠ والأوراق جمع ورقة ، ومعناها الصك يكتبه المدين للدائن — انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ٧٤٠ ، حاشية ٦ . Quatremère ; op . cit II. I. p 94.

(٢) فى الأصل عدى بدون نقط ، والرسم المثبت هنا وارد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٣ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٤١ .

(٣) فى الأصل فأمر ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٣ .

(٤) فى الأصل فرضها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ٦٣

وفيها ، فى ليلة يسفر[1] صباحها عن يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول ، وقع الحريق ، فى خزائن السلاح والمشهد الحسينى بالقاهرة ، ثم طفىء .

وفيها ، بنى السلطان الملك المنصور بابنة[2] الأمير شمس الدين سنقر التكريتى[3] الظاهرى ، وأفرج عن والدها من الاعتقال ، وأمره بالشام . ثم فارقها السلطان ، فقيل فى سبب فراقه لها ، إن والدها زوج أختها من أحد مماليكه ، فكره السلطان ، وأنف منه ، وفارقها بسببه . وقيل ، بل تعاطت نوعا من الكبر وأقامت لها من الجوارى سلاح دارية وجمدارية وسقاة[4] وغيرهن ، مما يتعلق[5] بالسلطنة ، ففارقها السلطان لذلك . ولما انقضت عدتها ، أمر السلطان أن تزوج لأردى أولاد الأمراء سيرة ، نكاية لها . فكشف عن سير أولاد الأمراء ممن اشتهر بسوء السيرة ، فوقع الاتفاق على جمال الدين يوسف بن صنقر الألفى ، فزوجت منه .

وفى هذه السنة ، ولى القاضى بدر الدين محمد ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن جماعة الشافعى الكنانى ، قضاء القدس الشريف ، والخطابة [به[6]] . وتوجه من دمشق ، فى رابع شوال ، ووصل إلى القدس فى يوم الاثنين حادى عشر الشهر . وولى الخطابة بالقدس ، بعد وفاة الشيخ قطب الدين أبى الذكاء عبد المنعم

(١) ما ورد هنا يطابق تماما ما جاء فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٥

(٢) فى الأصل بابنته ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٩

(٣) فى الأصل البكريتى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٩

(٤) فى الأصل وسعاة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٩

(٥) فى الأصل يتعلقن ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٩

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٤

ابن يحيى بن إبراهيم القرشى . وكانت وفاته ، رحمه الله تعالى ، بالقدس الشريف فى يوم الجمعة ، سابع عشر شهر رمضان ، من هذه السنة[1] .

وولى بعد القاضى بدر الدين ، تدريس المدرسة القيمرية ، القاضى علاء الدين أحمد ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز . وجلس لإلقاء الدرس بها ، فى يوم الأحد تاسع عشر شوال .

وفيها ، فى شهر رمضان ، فوضى نظر الحسبة بدمشق للصدر شمس الدين ابن السلعوس . ووصل توقيعه بذلك من الأبواب السلطانية ، عوضا عن شرف الدين أحمد بن عز الدين عيسى بن الشيرحى[2] . وكان ابن الشيرحى قد وليها ، فى جمادى الآخرة من السنة .

وفيها ، فوض قضاء المالكية بدمشق ، لقاضى القضاة جمال الدين الزواوى[3]

ذكر توجه ناصر الدين بن المقدسى [إلى دمشق[4]] ، وما فوض إليه من مناصبها ، وما اعتمده

فى هذه السنة ، توجه ناصر الدين بن المقدسى ، من الأبواب السلطانية ، إلى دمشق . وقد فوض له السلطان الملك المنصور وكالته[5] ، ونظر الأوقاف

(١) انظر ترجمة له فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٤ — ٧٥

(٢) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٤٥ ، السيرجى .

(٣) فى الأصل الزاوى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧١ والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٤٥

(٤) الإضافة يقتضيها السياق — انظر ما يلى

(٥) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٤١ متحدثا فى وكالة السلطان .

بدمشق والشام أجمع . ومن جملة ذلك ، نظر الجامع الأموى ، والبيمارستانات الثلاثة ، ونظر الأشراف والأمرى ، والأيتام والصدقات ، والأسوار والخوانق والربط وغير ذلك . وحضر صحبته مشدان ، من الأبواب السلطانية ، وهما بدر الدين القشتمرى ، وصارم الدين الأيدمرى . فتردد الناس إلى خدمته ، وخافوا شره . ولزم أرباب السعايات والمرافعات بابه . وشرع يتتبع الناس فيما ابتاعوه من الأملاك ، وقصد إثبات سفه من أباع ، وأن يسلك فى ذلك ، الطريق الذى سلكه فى أمر ابنة الملك الأشرف[1] . فامتنع القضاة بدمشق ، من موافقته على ذلك ، وعضدهم الأمير حسام الدين نائب السلطنة . فمنع ناصر الدين القضاة الجامكية المرتبة لهم على مصالح الجامع الأموى . فلم يردهم ذلك إلا امتناعا من موافقته على أغراضه . وشرع فى عمارة الأملاك السلطانية ، واستجد حوانيتا على جسر باب الفراديس من الجانبين . وأصلح الجسر ، قبل عمارة الحوانيت . ثم أصلح باب الجابية[2] الشمالى ، وكان مستقلا فهدمه وعمره . ولم يكن له حسنة ، غير إصلاح هذين الجسرين والباب ، ومساطب الشهود بباب الجامع[3] .

وفى هذه السنة ، فى شهر رمضان المعظم ، كبس بدر بن النفيس[4] النصرانى الكاتب بدمشق ، وعنده إمرأة مسلمة ، وهم يشربون الخمر . فطلع الأمير حسام الدين نائب السلطنة بدمشق بذلك . فأمر أن يحرق النصرانى ، فبذل فى نفسه جملة من المال ، وسأل مخدومه الأمير سيف الدين كجكن فى أمره ،

(١) انظر ما تقدم ص ١٤٧ من هذا الجزء (المصحح) .

(٢) فى الأصل الحانية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٥ .

(٣) انظر ترجمة ضافية له فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٤) هذا الاسم ورد فى الأصل بهذه الصورة تدربن التعيس وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧١ ، والواضح أن هذا الخطأ نجم من اهمال الناسخ .

فلم يجب نائب السلطنة إلى إبقائه . وأضرمت له نار بسوق الخيل ، وألقى فيها. وأما المرأة ، فقطع بعض أنفها ، وشفع فيها فأطلقت .

وفى هذه السنة ، فى مستهل رجب ، توفيت الست[1] غازية خاتون زوجة الملك السعيد ، ودفنت عند والدتها ، بالقبة الصالحية ، بجوار مشهد السيدة نفيسة ، بظاهر القاهرة

ذكر وفاة الملك الصالح وتفويض ولاية العهد إلى الملك الأشرف

فى هذه السنة ، فى يوم الجمعة رابع شعبان ، توفى الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور ، وكانت علته[2] دوسنطاريا كبدية . وصلى عليه بالقلعة ، قاضى القضاة، تقى الدين ابن بنت الأعز، وصلّى خلفه والده السلطان الملك المنصور ، وأخوه الملك الأشرف ، وصلى عليه خارج القلعة ، قاضى القضاة معز الدين الحنفى . ودفن بتربته المجاورة لمشهد السيدة نفيسة . وحصل لوالده السلطان عليه من الآلم ، مالا مزيد عليه . وخلف ولدا واحدا ، من زوجته منكبك ابنة الأمير سيف الدين نوكيه ، وهو الأمير مظفر الدين موسى ، وله أخبار ، ترد إن شاء الله تعالى[3] .

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٥ ، حاشية ٣ ، ورد خبر وفاتها فى حوادث سنة ٦٨٧ هـ .

(٢) فى الأصل عليه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٦٩ .

(٣) هذه الرواية تقابل ما جاء فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٠ .

ولما مات الملك الصالح ، فوض السلطان ولاية العهد بعده ، لولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل (١) . وركب بشعار السلطنة ، فى حادى عشر شعبان من قلعة الجبل ، إلى باب النصر . وشق المدينة ، وخرج من باب زويلة ، وعاد إلى القلعة ، والأمراء فى خدمته . وكتب بذلك إلى الشام ، وسائر البلاد ، وخطب له بولاية العهد ، بعد أبيه على عادة أخيه الملك الصالح . وكتب تقليده فتوقف السلطان على الكتابة عليه . وسنذكر ذلك ، إن شاء الله تعالى ، فى أخبار الملك الأشرف (٢) .

وفى هذه السنة ، توفى الأمير بدر الدين الأيدمرى الصالحى ، فى ليلة يسفر صباحها عن يوم الاثنين ، خامس المحرم . وتوفى الأمير فخر الدين اياز (٣) المعروف بالمعزى (٤) الحاجب ، فى ليلة يسفر صباحها ، عن يوم الجمعة ، العشرين من شهر ربيع الأول ، وذلك عقيب عوده من الحجاز . وكان رحمه الله تعالى ، من حسنات الدهر . وكانت الملوك تعتمد عليه فى المهمات الجليلة . وتوفى الأمير سيف الدين بلبان العلائى الصالحى النجمى ، المعروف بقول الله كريم الدين ، رحمه الله تعالى ، فى يوم الثلاثاء سادس عشرين جمادى الآخرة منها ، ودفن بتربته بالقرافة الصغرى . وهو خوشداش السلطان الملك المنصور ، وسنقر الأشقر

(١) فى الأصل ولد ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٠ ، والمقريزى « السلوك جـ ١ ، ص ٧٤٥ .

(٢) يطابق ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٠ ، والواضح أن ابن الفرات أفاد من النويرى أو من المصدر الذى رجع إليه .

(٣) فى الأصل أياز وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٤

(٤) فى الأصل المقرى ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٤ ق

وغيرهما ، كانوا كلهم مماليك الأمير علاء الدين أقسنقر الساقى العادلى . وكان السلطان يرعى له حق الخوشداشية ويكرمه . ويزوره إذا مرض فى منزله ، رحمه الله تعالى .[1]

وفيها ، توفى القاضى الخطيب ، فخر الدين عبد العزيز ابن قاضى القضاة عماد الدين عبد الرحمن بن السكرى . وكانت وفاته بالمدرسة المعروفة بمنازل العز بمصر ، فى رابع عشرين شوال . ومولده فى سنة أربع وستمائة ، رحمه الله تعالى .[2]

(١) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٤ .

(٢) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٧٥ .

واستهلت سنة ثمان وثمانين وستمائة

[٦٨٨ — ١٢٨٩]

فى هذه السنة ، فى المحرم ، توجه السلطان إلى الشام ، وافتتح طرابلس ، وقد ذكرنا ذلك فى الفتوحات .

ولما افتتح السلطان طرابلس ، جهّز الأمير حسام الدين طرنطاى ، إلى المملكة الحلبية ، بطائفة من العسكر . وكان قد وصل إلى[1] [السلطان[2]] ، وهو بطرابلس ، رسل صاحب سيس ، يسألون مراحم[3] السلطان ، ويطلبون مراضيه . فطلب منهم السلطان تسليم مرعش ، وبهسنا والقيام بالقطيعة[4] على العادة ، وخلع عليهم وأعادهم . ورحل عن طرابلس ونزل على حمص ، وأقام بها أيّاما . فعادت رسل سيس بهدية كثيرة ، واعتذارات عن تسليم مرعش وبهسنا ، وبذل جملة كثيرة من المال فى كل سنة . فرحل السلطان عن حمص ، ودخل إلى دمشق ، فى يوم الاثنين خامس جمادى الأولى .

ذكر ما اتفق بدمشق من المصادرات

كان السلطان قد استصحب [معه[5]] فى هذه السفرة ، الأمير علم الدين

---

(١) فى الأصل إليه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٨١

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٨١ .

(٣) فى الأصل تراحم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٨١ .

(٤) القطيعة ، ما يفرضه السلطان على ولاية أو ناحية من المال سنويا ، أو ما يقرره فى أحوال غير عادية كالغرامة الحربية . انظر . Quatremère : op. cit. l. I P. 14. note 85.

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٨٢

سنجر الشجاعى ، بعد عزله من الوزارة . فلما عاد إلى دمشق من طرابلس ، أمره أن يتحدث فى تحصيل الأموال بدمشق ، ومكّنه من ذلك ، فأوقع الحوطة ، على الصاحب تقى الدين توبة . فوجد له أخشابا[1] كثيرة وبضائع وسكّرا ، فطرح ذلك على أهل دمشق ، بأضعاف قيمته . فكان يحفظ لمن يطرح عليه منه الربع فما دونه . فحصل من ذلك تقدير خمسمائة ألف درهم . وكان غرضه بذلك ، أن يطلع السلطان ، على أن تقى الدين توبة قد حصل الأموال الكثيرة ، لعداوة كانت بينهما . ثم شرع فى مصادرات الناس ، فهرب أكثر الدماشقة إلى القرى والضياع ، واختفوا منه . وطلب نجم الدين عباس الجوهرى ، بسبب ضيعة كان قد اشتراها من ابنة الملك الأشرف ، بالبقاع العزيز . فطولب بما أخذه من ريعها ، فكان خمسمائة ألف درهم ، فحمل جوهرا ، قُوِّم له ، بثمانين ألف درهم . فشدّد عليه الطلب ، فجاء إلى مدرسته التى أنشأها بدمشق ، وحفر فى دهاليزها ، وأخرج خونجاه[2] ذهب ، مرصعة بالجوهر ، وعليها قرقة[3] مرصعة ، فقوم ذلك بأربعمائة ألف درهم ، وسبك الذهب ، وكان سبعة آلاف دينار ، ونقل الجوهر إلى الخزانة .

وأظهر السلطان للأمراء ، أن إقامته بدمشق ، لانتظار الأمير حسام الدين طرنطاى . فوصل فى سابع عشر شهر رجب . وتلقاه السلطان بالعساكر ، وأقام بدمشق ، إلى يوم الخميس ثانى شعبان . فتوجه فى هذا اليوم إلى الديار المصرية ،

---

(١) فى الأصل احسانا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٥٢ .

(٢) خونجاه ، وخونجا ، أو خونجه ، لفظ فارسى معناه مائدة صغيرة .
Dozy: supp. Dict. Ar.

(٣) لعل المقصود هنا القرق وهو الخف . Dozy: supp. Dict. Ar.

بعد أن حصل الإحجاف بأهل دمشق ، واستصحب تقى الدين توبة مقيّدا . فلما وصل إلى حمراء بيسان[1] ، مرّ عليه الأمير حسام الدين طرنطاى ، والأمير زين الدين كتبغا ، وهو بالزردخاناة ، فسبهما أقبح سب ، وكانت هذه عادته ، وذكر ما فُعل به ، وهما يضحكان من سبه لهما . فتوجها إلى السلطان ، وسألاه فى أمره ، وضمناه فأفرج عنه ، وأخذاه عندهما . فتألم الأمير علم الدين الشجاعى لذلك ألما شديدا . وكان قد كتب إلى نابلس والقدس وبلد الخليل والبلاد الساحلية ، يطلب الولاة والمباشرين ، وأن يجهزوا إلى غزة . فلما حصل الإفراج عن تقى الدين توبة ، غضب الشجاعى وأظهر حردا ، وامتنع من الحديث [فى المصادرين][2] ، فكان ذلك من الألطاف بمن طُلِب . ووصل السلطان إلى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء .

وفى هذه السنة ، فى يوم الثلاثاء [ثا][3] من عشرى[4] شعبان ، وقت الظهر توفى بدمشق الملك المنصور شهاب الدين محمود ابن الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل .

وفيها ، كانت وفاة الأمير علاء الدين الكبكى بالقدس الشريف ، فى شهر رمضان ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل حرابيسان ، وما هنا من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٦٨٦ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٨٢ .

(٣) فى الأصل من ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٨٥ .

(٤) فى الأصل عشر ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٨٥ .

واستهلت سنة تسع وثمانين وستمائة

[٦٨٩ - ١٢٩٠]

فى هذه السنة ، فى أولها توجه الأمير حسام الدين طرنطاى ، ومعه جماعة من الأمراء والعساكر ، إلى الوجه القبلى . فوصل إلى منزلة طوخ دمنوا[1] ، قبالة مدينة قوص . وتصيّد فى هذه السفرة ، ومهد البلاد ، وقتل جماعة من العربان ، وحرق بعضهم بالنار ، وأخذ خيولهم وسلاحهم ورهائن أكابرهم ، وعاد إلى قلعة الجبل .

وفيها ، فى شهر ربيع الأول ، استدعى السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر ، من دمشق ، على خيل البريد . فلما وصل إلى بابه أكرمه ، وقال له : اعلم أنى ما اشترتيك ، وأمّرتك ، وولّيتك شاد الدواوين بالشام ، إلاّ ظنا منى ، أنك تنصحنى وتحصل أموالى ، وتنهض فى مصالح دولتى ، فالتزم بتحصيل الأموال . فخلع عليه ، وفوّض له ، مضافا إلى شدّ الشام ، الحصون بسائر الممالك الشامية والساحل ، وديوان الجيش . فعاد إلى الشام ، وكان وصوله

---

(١) يتفق مع ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٠ ، وابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٦٤ ؛ وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٥١ (طوخ) ، وفى قاموس جغرافى القطر المصرى طبعة بولاق ١٨٩٩ ص ٤٤٠ ، ما يشير إلى أن طوخ من نواحى مركز قوص مديرية قنا ، وفى ص ١٨٦ ، دمنو من نواحى مركز سوهاج مديرية جرجا . وفى الخطط التوفيقية جـ ١٣ ، ص ٦١ طوخ البلاص ، من نواحى مركز قوص ، على الشط الغربى للنيل ، بين البلاص ونقادة .

والراجح أنه جرت نسبتها إلى ناحية مجاورة ، تمييزا لها عن سائر النواحى المعروفة بهذا الاسم . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى القسم الثانى جـ ٤ ، ص ١٨٧) .

إلى دمشق ، فى يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الآخر ، وتعاظم فى نفسه وكثر تجبره[1] .

وفيها ، أمر السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين جرمك[2] الناصرى ، وذلك فى جمادى الأولى .

وفيها ، جهز السلطان الأمير سيف الدين التقوى ، إلى طرابلس ، واستخدم معه ستمائة فارس بطرابلس . وهو أول جيش استخدم بها . وكان الجيش قبل ذلك بالحصون .

ذكر ايقاع الحوطة على ناصر الدين المقدسى وشنقه

وفى هذه السنة ، فى جمادى الآخرة ، برز أمر السلطان بالكشف على ناصر الدين بن المقدسى وكيله بالشام . فورد المرسوم إلى دمشق ، فى ثانى عشرين الشهر ، فكشف عليه ، فظهرت له مخازى كثيرة . وسر الناس بذلك ، فرسم عليه ، وطولع السلطان بما ظهر عليه . فورد الجواب ، فى يوم الجمعة ، تاسع عشر شهر رجب ، أن يستخرج منه ، ما التمسه ، فطولب بذلك ، وضرب بالمقارع ، فى يوم ورود المرسوم . وشرع فى بيع موجوده ، وحمل ثمنه ، واستمر كذلك ، وهو بالمدرسة العذراوية فى الزسيم ، إلى يوم الخميس ثانى شعبان . فورد المرسوم السلطانى ، يطلبه إلى الأبواب السلطانية . فلما اجتمع الناس ، بكرة نهار الجمعة ،

---

(١) فى الأصل تحـيره ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٠ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٥١ .

(٢) فى الأصل حرمك ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩١ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٥١ .

دخلوا عليه ، فوجدوه قد شنق ، فحضر أولياء الأمر والقضاة والشهود ، وشاهده على تلك الصورة ، وكتبوا محضرا بذلك . ودفن ، واستراح الناس من شره .

وفى هذه السنة ، رسم السلطان لنائب السلطنة[1] بالشام ، والأمير شمس الدين الأعسر ، لعمل مجانيق ، وتجهيز زردخاناة ، لحصار عكا . فتوجه الأمير شمس الدين الأعسر ، إلى وادى مربين[2] ، وهو بين جبال عكار وبعلبك ، وفيه من الأخشاب وأعواد المجانيق ، أشياء كثيرة[3] لا يمكن أن يوجد مثلها فى غيره . وأخبرنى[4] جماعة أثق بأخبارهم ، فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، وأنا يوم ذاك ، بالقرب من هذا الوادى ، أن به عودا قائما طوله أحد وعشرون ذراعا ، بذراع العمل ، ودوره كذلك ، وأنهم حققوا ذلك ، بأن صعد رجل إلى أعلاه ، ودلّى حبلا إلى الأرض ، من أعلاه ، وأداروا الحبل عليه ، فجاء سواء ، لا يزيد ولا ينقص . فتوجه الأمير شمس الدين إلى هذا الوادى ، وقرر على ضياع المرج[5] والغوطة بدمشق مال ، من ألفى درهم إلى خمسمائة درهم ، كلّ ضيعة بحسب متحصلها ، لأجرة جر أعواد المجانيق ، وكذلك ضياع بعلبك والبقاع . وجبى[6] المال ، ونال أهل بعلبك والبقاع شدة عظيمة ، بسبب ذلك . وبينا الأمير شمس الدين بالوادى

---

(١) المقصود به الأمير حسام الدين لاجين . ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٣ .

(٢) فى الأصل مربين وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٣ .

(٣) فى الأصل ، شياء كثيرا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) أورد ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٣ هذه الرواية بصيغة الغائب ، وفى ذلك دليل على الأفادة من النويرى الذى تحدث بصيغة المتكلم ، كما هو وارد فى المتن .

(٥) فى الأصل المرخ ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٣ .

(٦) فى الأصل وجنى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٣ .

المذكور ، وهو مهتم فى قطع الأعواد وجرها ، سقط عليه ثلج عظيم ، فركب خيله ، وخرج منه . وأعجله كثرة الثلج وترادفه ، عن نقل أثقاله وخيامه ، فتركها ونجا[1] بنفسه ، ولم يلو على شىء . ولو تأخر بسببها ، واشتغل بحملها هلك هو ومن معه ، وارتدمت أثقاله بالثلوج ، وبقيت تحتها إلى فصل الصيف ، وتلف أكثرها[2] .

وفى هذه السنة أيضا، فوض السلطان تقدمة العسكر بغزة والأعمال الساحلية، إلى الأمير عز الدين أيبك الموصلى ، عوضا عن الأمير شمس الدين أقسنقر كرتيه . فتوجه إليها من دمشق ، فى رابع شهر رجب .

وفيها ، فى شعبان ، اشتد الحر بحماه، حتى شوى اللحم على بلاط الجامع، على ما حكاه الشيخ شمس الدين الجزرى[3] فى تاريخه . ووقعت نار فى دار صاحب حماه فاحترقت ، وأرسل الله ريحا واشتدت ، فقويت النار واستمرت يومين وبعض الثالث ، وما قدر أحد أن يتقدم إليها ، فاحترقت الدار بما فيها ، وكان صاحب حماه فى الصيد .

---

(١) فى الأصل نجى ، وسوف يجرى تصويب ما يقع من أخطاء إملائية دون الإشارة إلى ذلك .

(٢) الرواية واردة بالنص فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٣ — ٩٤ . وجاءت مختصرة فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٥٤ . والملحوظ أن ما أورده هنا ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٣ ، عن تعرض التجار المسلمين الذين قدموا إلى عكا ، بمقتضى الهدنة القائمة ، للهجوم من الفرنج ، واعتبار ذلك انتهاكا للهدنة ، ومن الأسباب التى أوجبت فتح عكا ، أورده النويرى بعد ذكر أحداث أخرى . انظر ما يلى .

(٣) هذا المصدر الذى رجع إليه النويرى ، أورده أيضا ابن الفرات جـ ٥ ، ص ٩٣ ، وفى ذلك دليل على العلاقة الوثيقة بين النويرى وابن الفرات فى رواياتهما .

وفيها ، فى شعبان ، خرج مرسوم السلطان إلى الشام ، أن لا يُستخدم أحد من أهل الذمة ، اليهود والنصارى ، فى المباشرات الديوانية[1] ، فصرفوا منها . وورد مثال[2] بالإفراج عن المعتقلين .

وفيها ، ثار[3] جماعة من الفرنج بعكا ، فقتلوا جماعة من تجار المسلمين بها ، كانوا قدموا للتجر ، تمسكا بالهدنة ، وذلك فى شعبان . فادعى أهل عكا ، أن ذلك إنما فعله الفِرنج الغُرْب ، وأنه ليس برضاهم . فكان ذلك من أكبر الأسباب التى أوجبت أخذ عكا ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى[4] .

ذكر وفاة قاضى القضاة نجم الدين المقدسى الحنبلى وتفويض القضاء بدمشق بعده للشيخ شرف الدين المقدسى

وفى هذه السنة ، فى يوم الثلاثاء ، ثانى عشر جمادى الأولى ، توفى قاضى القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد ابن قاضى القضاة شمس الدين أبى محمد عبد الرحمن المقدسى ، قاضى الحنابلة بدمشق . فعين [الأمير حسام الدين لاجين[5]] نائب السلطنة ثلاثة ، وكتب فى حقهم إلى السلطان ، وهم الشيخ زين

---

(١) المباشرات الديوانية ، المقصود ممارسة الأعمال الحكومية Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) المثال ، وثيقة رسمية ، يرد فيها مقدار الاقطاع الذى يختص به الفارس المملوكى — القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٥٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ٩١ حاشية ٢ .

(٣) فى الأصل سار ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٢ .

(٤) انظر ما سبق ص ١٧٠ حاشية ٢

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩١ .

الدين بن المنجا[١] ، والشيخ تقى الدين سليمان ، والشيخ شرف الدين الحسن . فورد المثال السلطانى ، فى غرة جمادى الآخرة ، لنائب السلطنة ، أن يفوض القضاء بدمشق للقاضى شرف الدين الحسن ابن الخطيب شرف الدين أبى العباس أحمد بن أبى عمر بن قدامه المقدسى . ففوض إليه نائب السلطنة القضاء ، حسب الأمر السلطانى . وكُتب تقليده عن نائب السلطنة ، وخلع عليه فى يوم الاثنين تاسع الشهر . وجلس بجامع دمشق ، وحكم بين الناس ، على عادة القضاة قبله .

وفيها ، توفى الشيخ الإمام العالم ، رشيد الدين أبو حفص عمر بن اسماعيل ابن مسعود الفارقى الشافعى . وكانت وفاته بالمدرسة الظاهرية بدمشق ، فى يوم الأربعاء ، رابع شهر المحرم ، ودفن بمقابر الصوفية . ويقال إنه وجد مخنوقا[٢] ، وكان من العلم والفضيلة بالمكان المشهور ، وشهرته بذلك تغنى عن[٣] وصف محاسنه ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى ليلة الأحد الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ، توفى الطواشى شرف الدين مختص[٤] الظاهرى ، مقدم المماليك السلطانية ، فى الدولة الظاهرية والسعيدية والمنصورية ، ودفن من الغد بالقرافة . وكان مهيبا سلطا على المماليك السلطانية ، مبسوط اليد فيهم ، ذا حرمة وافرة ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩١ ابن منجا .

(٢) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) فى الأصل عمن ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٥ .

(٤) وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٥ ، شرف الدين مختص بن عبد الله الظاهرى .

ذكر وفاة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون ، رحمه الله

كانت وفاته ، رحمه الله تعالى ، بمنزلة مسجد تبر[1] ، وهى المنزلة الأولى ، وذلك فى العشر الأخير من شوال ، فدامت به علته إلى أن مات ، رحمه الله تعالى ، وحمل إلى قلعة الجبل ليلا ، واستمر بها إلى آخر يوم الخميس غرة المحرم سنة تسعين وستمائة[2] . ففى هذا اليوم [قال][3] : أرسل السلطان الملك الأشرف ، إلى التربة المنصورية بالقاهرة جملة يصدق بها . فلما كان فى ليلة الجمعة المسفرة عن ثانى المحرم ، نقل رحمه الله تعالى ، من القلعة إلى تربته التى أنشأها بالقاهرة وأدخل من باب البرقية ، وصُلِّىَ عليه بالجامع الازهر ، ثم حمل منه إلى التربة . ونزل قبره الأمير بدر الدين بيبدرا ، والأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وفرق فى صبيحة ذلك اليوم ، جملة من الذهب على القراء . وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنه وشهرين وأربعة عشر يوما .

---

(١) فى الأصل التبن ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٧ التبن ، وما هنا من المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٥٥ . وهذا المسجد ، حسبما أورده المقريزى فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ، ص ٤١٢ ، يقع خارج القاهرة مما يلى الخندق وتسميه العامة التبن ، وهو خطأ ، وهو قريب من المطرية . وتبر أحد كبار الأمراء فى أيام كافور الأخشيدى . انظر أيضا ، المقريزى . السلوك جـ ١ ، ص ٦٨٤ حاشية ٣ .

(٢) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٧ ، ويرتبط هذا اللفظ بالمصدر الذى أفاد منه كل من النويرى وابن الفرات .

وخلّف من الورثة ، أولاده الخمسة ، وهم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ، وهو الذى ملك بعده ، والسلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ، وهو سلطان هذا العصر[1] ، والأمير أحمد — مات فى سلطنة أخيه الملك الأشرف — وابنتان ، وهما دار مختار الجوهرى ، واسمها التطمش ، ودار عنبر الكمالى ، وزوجته والدة السلطان الملك الناصر .

ذكر تسمية نواب السلطان الملك المنصور ووزرائه

ناب عن السلطان الملك المنصور ، رحمه الله تعالى ، بأبوابه الشريفة فى أول سلطنته ، الأمير عز الدين ايبك الأفرم الصالحى ، ثم استعفى كما تقدم . واستقر فى نيابة السلطنة ، الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى ، واستمر إلى أن كانت وفاة السلطان . وناب عن السلطان بدمشق ، بعد استعادتها من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، الأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصورى ، المعروف بالصغير . وناب عن السلطنة بالمملكة الحلبية فى ابتداء الدولة ، الأمير جمال الدين أقش الشمسى ، إلى أن مات ، ثم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى إلى أن عزل ، وولى الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكان[2] دار المنصورى إلى آخر الدولة . وناب عن السلطنة بحصن الأكراد ، الأمير سيف الدين بلبان الطباخى المنصورى ، وبالكرك الأمير عز الدين أيبك

(١) حرص ابن الفرات ، فيما يورده من الأحداث ، على أن يخفى فى أحوال كثيرة المصدر الذى يستمد منه رواياته . ففى الرواية التى تطابق ما أورده هنا النويرى عن أسرة المنصور اللاون ، تجنب الإشارة إلى عبارة سلطان هذا العصر ، نظرا لأنه متأخر فى الزمن عن النويرى (ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٧) .

(٢) هذا الاسم سوف يرد بهذه الصورة ، أو بصورة أخرى ، الجوكندار .

الموصلى ، ثم الأمير ركن الدين بيبرس الداوادارى[١] المنصورى . وناب عن السلطنة بالمملكة الصفدية فى ابتداء الدولة ، الأمير علاء الدين الكبكى وغيره ، وتقدم ذكرهم . وناب عن السلطنة بغزة وحمص ، جماعة قد تقدم ذكرهم .

وأما الوزراء ، فوزر للسلطان ، رحمه الله تعالى ، ستة [نفر[٢]] ، أربعة من [أرباب[٣]] الأقلام ، وهم الصاحب برهان الدين الخضر[٤] السنجارى مرة بعد أخرى ، والصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، والصاحب نجم الدين[٥] حمزة بن محمد الأصفونى ، وقاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وقد تقدم ذكر ولا يتهم فى أثناء أخبار الدولة . ومن الأمراء [اثنان[٦]] الأمير علم الدين سنجرى الشجاعى ، كان يتولى شد الدولة المنصورية وتدبيرها . فإذ شغرت[٧] الوزارة من متعمم ، جلس مكان الوزير ، وكتب على عادة الوزراء ، وولّى وعزل ، واستخدم وصرف . ثم استقل بالوزارة ، بعد وفاة الصاحب نجم الدين حمزة بن الأصفونى[٨] . وكان فى وزارته وشده ، كثير العسف والمصادرات ، محصلا للأموال من وجوهها وغير وجوهها

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ص ٩٦ ، والمقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٥٥ ، الداوادار .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٦

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٦

(٤) فى الأصل خضر ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٦

(٥) فى الأصل برهان الدين نجم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ٩٦ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٥ ، انظر ما يلى .

(٦) الإضافة للتوضيح

(٧) فى الأصل سفرت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٦

(٨) فى الأصل الأصونى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٦

شديدا على المباشرين . فقد أوقع الرعب فى قلوبهم ، حتى كرهه الخاص والعام ، وتمنوا زوال الدولة بسببه ، واستمر فى الوزارة إلى أن عزل كما تقدم . وولى الأمير بدر الدين بيدرا المنصورى إلى آخر الدولة .

وولى القضاء فى الأيام المنصورية ، بالديار المصرية والشامية ، جماعة قد تقدم ذكرهم (١) .

وملك السلطان الملك المنصور ، من المماليك الأتراك والمغل وغيرهم ، ما لم يملكه ملك بالديار المصرية فى الإسلام قبله . فيقال إن عدتهم بلغت اثنى عشر ألفا ، وتأمّر منهم فى الأيام المنصورية جماعة كثيرة . ومنهم من ناب من السلطنة الشريفة فى الممالك الشامية والديار المصرية . ومنهم من استقل بالسلطنة وخطب له على المنابر ، وضربت السكة باسمه ، على ما نذكر ذلك فى مواضعه إن شاء الله تعالى . وبقايا المماليك المنصورية إلى الآن ، هم أعيان الأمراء فى وقتنا هذا (٢) .

ولما مات الملك المنصور ، ملك بعده ولده الملك الأشرف .

---

(١) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٦

(٢) يشير ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٨ ، إلى أنهم أعيان الأمراء فى دولة الناصر محمد بن قلاون وأورد المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٥٦ أن المنصور قلاون أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة من الأص والجركس ، جعلهم فى أبراج القلعة ، وسماهم البرجية وكان جميل الصورة ، مهيبا عريض المنكبين ، قصير المنن ، فصيحا بلغة الترك والقبجاق ، قليل المعرفة بالعربية .

ذكر أخبار السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحي

وهو الثامن من ملوك دولة الترك بالديار المصرية، ملك الديار المصرية والبلاد الشامية، وما أضيف إلى ذلك من الممالك الإسلامية والأقطار الحجازية، بعد وفاة والده السلطان الملك المنصور رحمه الله تعالى.

وكان جلوسه على تخت السلطنة بقلعة الجبل المحروسة، فى يوم الأحد المبارك السابع من ذى القعدة، سنة تسع وثمانين وستمائة، ولم يختلف عليه اثنان. لأن الأمراء، أرباب الحل والعقد، ونواب السلطنة بسائر الممالك، مصرا وشاما، مماليك والده، ومن عداهم من الأمراء الصالحية، لم يظهر منهم إلا الموافقة والطاعة والانقياد، والمبادرة إلى الحلف. وقد تقدم[1] أن السلطان الملك المنصور كان قد جعل له ولاية العهد من بعده، بعد وفاة أخيه الملك الصالح علاء الدين على، وركّبه بشعار السلطنة، وتأخرت كتابة تقليده، وطلب ذلك مرة أخرى، والسلطان يتوقف فى الإذن بكتابة التقليد. ثم تحدث مع السلطان الملك المنصور فرسم بكتابته، فكتب - وقد شرحنا مضمونه فى الجزء الثامن من كتابنا هذا[2] - فلما قدم إلى السلطان، ليكتب عليه، توقف وأعاده[3] إلى القاضى فتح الدين ابن عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء، ولم يكتب عليه. فأرسل الملك الأشرف إلى القاضى فتح الدين، يطلب التقليد، فاعتذر أنه

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨، ص ٩٨

(٢) انظر الجزء الثامن، صفحة ١١١، طبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٣١ (المصحح).

(٣) فى الأصل وأعاد، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ٩٨

لم يقدمه للعلامة . وقدّمه ثانيا إلى السلطان ، فردّه . وقال يافتح الدين : أنا ما أولى خليلا على المسلمين . ثم أرسل الملك الأشرف يطلبه ، فخشى [فتح الدين][1] أن يقول إن السلطان امتنع من الكتابة عليه ، واعتذر أيضا . وخاطب السلطان فى معناه ، وقدمه إليه ، فرماه به . وقال : قد قلت لك أنى ما أولى خليلا على المسلمين . فأخذ التقليد بغير علامة ، وخرج . واتفق فى خلال ذلك ، خروج السلطان ووفاته .

فلما تسلطن الملك الأشرف ، طلب فتح الدين بن عبد الظاهر ، وقال له : أين تقليدى . فأقام وأحضره إليه ، وهو بغير علامة السلطان ، واعتذر أن السلطان الملك المنصور ، شغلته الحركة والفكرة فى أمر العدو عن الكتابة عليه . فقال له السلطان الملك الأشرف : يافتح الدين ، إن السلطان امتنع أن يعطينى ، فأعطانى الله . ورمى له التقليد ، فكان عنده بغير علامة . ثم عند ابنه المرحوم علاء الدين ، إلى أن مات رحمه الله تعالى[2] .

قال بعض الشعراء يمدحه :

فداك[3] يا عادل يامنصف ... أرجى من الغيث الذى يوصف

أغنى عباد الله عن نيلهم ... بجودك البحر الذى يعرف

أطاعك الناس اختيارا وما ... أذلهم رمح ولا مرهف

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٨ .

(٢) يقابل ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) فى الأصل بذاك ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٩ .

كم ملكت مصر مـلوك وكم جادوا وما جادوا ولا أسرفـوا[1]

حتى أتى المنصـور أنسى الورى بفعـله سـائر ما أسـلفوا

ما قدمـوا مثـل تقاه[2] ولا مثـل الذى خلفه خلفـوا

فته[3] على الأملاك فخـرا بمـا نلت فأنت المـلك الأشرف

قال[4] ، وخلع الملك الأشرف على سـائر الأمراء وأرباب المناصب . ثم ركب بشعار السلطنة ، فى يوم الجمعة بعد الصلاة ، الثانى عشر من الشهر . وسيّر بالميدان الأسود ، والأمراء والعساكر فى خدمته . وطلع إلى قلعة الجبل ، قبـل أذان العصر . ويقال إن الأمـير حسام الدين طرنطاى ، كان قـد قصد اغتيال الملك الأشرف ، فى يوم ركوبه ، وأنه عزم على قتله عند ابتـداء التسيير ، إذا قرب من باب الإصطبل[5] ، وأن السلطان شعر بذلك . فلما سيّر السلطان أربعة ميادين ، والأمير حسام الدين ومن وافقه عند باب سارية . فلما انتهى السلطان إلى رأس الميدان ، وقرب من باب الإصطبل ، وفى ظن الناس أنه يعطف إلى جهة باب سـارية . ليكمل التسيير على العادة ، عطف إلى جهة القلعـة ، وأسرع وعبر من

(١) فى الأصل : جاء البيت على هذا النحو :

كم ملكت مصر ملوكا ملوك وكم جادوا وما جادوا ولا أسرفوا

وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٩ .

(٢) فى الأصل بقاه ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٩ .

(٣) فى الأصل فيه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٩ .

(٤) وفى هذا إشارة إلى المصدر عند النويرى وابن الفرات .

(٥) الميادين ، من التداريب العسكرية التى كان يمارسها الفرسان المماليك حتى يكتسبوا المهارة والبراعة فى طرق الكر والفر فى القتال ، انظر كتاب الجهاد والفروسية ص ١١ ب ، ١٢ أ (مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٣ م) .

باب الإسطبل[1] . ولما عطف ، ساق الأمير حسام الدين ومن معه . ملء[2] الفروج ، ليدركه[3] . فما وصل إلى باب الإسطبل . إلا والسلطان قد دخل منه ، وحف به مماليكه وخواصه ، فبطل على طرنطاى ما دبره . وبادر السلطان بالقبض عليه .

ذكر القبض على الأمير حسام الدين طرنطاى وقتله وعلى الأمير زين الدين كتبغا واعتقاله

لما استقل السلطان الملك الأشرف فى السلطنة ، وقف الأمير حسام الدين طرنطاى ، بين يديه فى نيابة السلطنة ، على عادته مع السلطان الملك المنصور أبيه[4] . وكان الملك الأشرف يكره الأمير حسام الدين طرنطاى أشد الكراهية لأمور: منها ما كان يعامله به من الاطراح لجانبه ، والغض منه ، واهنة[5] نوابه ، وأذى من ينسب إليه . ومنها ترجيح جانب أخيه ، الملك الصالح على جانبه ، والميل إليه . ولما مات الملك الصالح ، وانتقلت ولاية العهد بعده ، إلى الملك الأشرف مال إليه من كان يميل عنه ، وتقرب إلى خاطره من كان يجفوه[6] . ولم يزد ذلك

(١) ترددت كتابة الاسطبل ، بالرسم اصطبل أيضا .

(٢) فى الأصل الفروح ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٠ .

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٠ ليدركوه .

(٤) فى الأصل ابنه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٠ .

(٥) كذا فى الأصل ، وابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٩ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٥٧ إهنة ، والواضح أن المقصود إهانة .

(٦) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٩٩ يحقره .

الأمير حسام الدين إلا تماديا فى الإعراض عنه ، وجريا على عادته ، فى أذى من ينتسب إليه . وأغرى السلطان الملك المنصور ، بناظر الديوان الأشرف ، شمس الدين محمد بن السلعوس ، حتى ضربه وصرفه على ماذكر ذلك ، وعامله بمثل هذه المعاملة ، والملك الأشرف لا يستطيع دفع ذلك ، لتمكن الأمير حسام الدين ، من السلطان الملك المنصور ، ويكتم ما عنده منه ، ويصبر[1] من ذلك ، على مالا يصبر[2] مثله على مثله .

فلما ملك السلطان الملك الأشرف ، تحقق الأمير حسام الدين أنه يحقد عليه أفعاله ، وأن خاطره لايصفو له . فشرع فى إفساد نظامه سرًّا ، وإخراج الأمر عنه . وتحقق السلطان ذلك ، ووشى به بعض من باطنه . فلما نزل السلطان من الركوب فى يوم الجمعة ، الثانى عشر من ذى القعدة ، استدعاه فدخل عليه ، وهو يظن أن أحدا لايجسر أن يقدم عليه ، لمهابته فى القلوب ، ومكانته من الدولة ، وظن أن السلطان لا يبادره بالقبض عليه . ولما استدعاه [السلطان][3] ، نهاه الأمير زين الدين كتبغا المنصورى ، عن الدخول على السلطان وحذّره ، وقال له : والله أخاف عليك منه ، فلا تدخل عليه ، إلا فى عصبة وجماعة ، تعلم أنهم يمانعون عنك أن لو وقع أمر . وقال له : — فيما حكى لى[4] — والله لو كنت نائما ، ما جسر[5] خليل ينبهنى . وقام ودخل على السلطان ، فحمل زين الدين كتبغا

(٢،١) فى الأصل يصير ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٠ .

(٣) الإضافة يتطلبها السياق .

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٠ ، فيما حكى له . والرواية بخاصيلها ، وردت مع تغيير يسير فى ترتيبها فى ابن الفرات ، والملحوظ أن ابن الفرات حرص على أن يغير ما يورده النويرى بصيغة المتكلم ، إلى صيغة الغائب .

(٥) فى الأصل جلس ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٠ .

الإشفاق عليه ، أن دخل معه . فلما صار طرنطاى بين يدى السلطان ، وكان قد قرر مع الأمراء الخاصكية[1] القبض عليه ، فبادروا إلى ذلك ، وقبضوا على يديه ، وأخذوا سيفه . فصرخ كتبغا ، وجعل يقول : «إيش عمل ، إيش عمل» ، يكرر ذلك . فأمر السلطان بالقبض على كتبغا ، فقبض عليه واعتقل ، ثم أفرج عنه بعد ذلك .

وأما طرنطاى ، فإنه لما قبض عليه ، أمر بقتله ، فقتل . وقيل إنه عوقب بين يدى السلطان حتى مات . وقيل كانت وفاته فى ثامن عشر ذى القعدة ، وبقى ثمانية أيام ، بعد وفاته . ثم أخرج من القلعة ، ليلة الجمعة سادس عشرين الشهر ، وقد لف فى حصير ، وحمل على جنوية[2] ، إلى زاوية الشيخ أبى السعود . فغسله الشيخ عمر السعودى ، وكفنه ودفنه ، خارج الزاوية . وبقى كذلك ، إلى أن ملك الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، فأمر بنقله إلى تربته التى أنشأها بالقاهرة ، بمدرسته التى بجوار داره بخط المسطاح[3] .

---

(١) الخاصكية : قسم من المماليك السلطانية ، يختارهم السلطان من الأجلاب الذين دخلوا خدمته صغارا ، ويجعلهم حرسه الخاص . ولما لهم من الحظوة عند السلطان ، سبقوا غيرهم فى الظفر بالامرة والوظائف الهامة . ومن الدليل على ثقة السلطان فيهم ، أنهم يدخلون عليه فى خلوته بغير إذن ، ويتوجهون فى المهمات الشريفة ، ويتأنقون فى مركوبهم وملبوسهم .

انظر Demanliynes : op. cit, p. p xxx iii, L xclx

ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ Quatremère ; op. cit. I. 2. P. 158 N. 3.

(٢) جنوية ، وهى النقالة ، التى تحمل الجرحى والموتى .

انظر : Dozy: supp. Dict. Ar

(٣) يشير ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠١ ، إلى أن داره ، بجوار مدرسته الحسامية الآن (زمن ابن الفرات) ، تجاه سوق الجوارى داخل القاهرة المحروسة . وجعلها المقريزى ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ، ص ٣٨٦ ، فى هذا الموضع ، قريبا من حارة الوزيرية ، وباب الخرقة .

ولما قبض السلطان عليه ، ندب الأمير علم الدين سنجر الشجاعى لإيقاع الحوطة على[1] موجوده ، واستصفاء أمواله ، لما كان بينهما من العداوة . فنزل الشجاعى إلى دار طرنطاى التى بالقاهرة ، وحمل ما فى خزانته وذخائره . وطلب ودائعه ، ونبش مواضع من داره ، وشعثها . وحمل من أمواله إلى الخزائن وبيت المال جملة عظيمة ، يقال إن جملة ما حمل من ماله ، ستمائة ألف دينار عينا ، ومن الدراهم سبعة عشر ألف رطل ومائة رطل بالمصرى ، ومن العدد والأقمشة والخيول والمماليك ما لا يحصر قيمته كثرة ، ويقال إنه كان قد جمع ذلك وادخره ، لطلب السلطنة لنفسه ، فلم ينل ما تمناه[2] .

ووقف الأمير علم الدين الشجاعى ، بعد القبض على طرنطاى ، أياما قلائل ، من غير أن يخلع عليه خلع النواب ، ولا كتب تقليده ، ولم يشتهر ذلك . ثم فوضت النيابة ، للأمير بدر الدين بيدرا .

ذكر تفويض نيابة السلطنة الشريفة للأمير بدر الدين بيدرا المنصورى

لما قبض على الأمير حسام الدين طرنطاى كما تقدم ، قام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، بوظيفة النيابة أياما قلائل ، كما ذكرناه . ثم فوض السلطان النيابة عن السلطنة ، للأمير بدر الدين بيدرا المنصورى . وخلع عليه ، على عادة نواب السلطنة ، وأجرى عليه ، ما كان جاريا على الأمير حسام الدين طرنطاى ، من الإقطاعات وغيرها .

(١) فى الأصل مع ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٠١ .

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٠١ .

وفى هـذه السنة ، رسم السلطان بطلب الأمير شمس الدين سنقر الأعسر ، شـاد الدواوين بالشام ، فوصـل البريد إلى دمشق يطلبه ، فى رابع ذى الحجة منها ، فتوجه إلى الأبواب السلطانيـة ، فى ثامن الشهر . ولمـا وصـل إلى بين يدى السلطان ، ضربه مرة بعـد أخرى ، وبـقى فى الترسـيم ، إلى أن حضر الصاحب شمس الدين [بن السلعـوس][1] فسلّمه إليـه . وولّى شاد الدواوين بدمشـق ، الأمير سـيف الدين طوغان المنصورى . وأعاد السلطان الصاحب تقى الدين توبة التكريتى إلى وزارة الشام . فوصل إلى دمشق ، فى خامس المحرم ، سنة تسعين وستمائة . وأوقع الحوطة على موجود الأمير شمس الدين سنقر الأعسر . حسب المرسوم السلطانى .

وفيها ، رسم السلطان الملك الأشرف ، باحضار الأمير بدر الدين بكتوت العلائى ، من حمص إلى الباب السلطانى ، فى ذى الحجة ، فحضر .

وفيها ، فى ذى الحجة ، رسم السلطان بتجديد تقليد الأمير حسام الدين لاجين المنصـورى ، نائب السلطنة بالشـام ، فكُتب . وزاده السلطان على إقطاعه المسـتقر ، إلى آخر الأيام المنصورية ، خرستا[2] ، وجهز ذلك على يد مملوكه شمس الدين أقسنقر الحسامى . وأعطى أقسنقر إمرة عشرة طواشية[3] . فوصل إلى دمشق فى ثامن عشر ذى الحجة من السنة .

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٢ .

(٢) فى الأصل حرسا دون نقط : وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٣ وهى قرية كبيرة فى وسط بساتين دمشق على طريق حمص ، بينها وبين دمشق ما يزيد على فرسخ . ياقوت : معجم البلدان

(٣) الطواشية ، الفرسان الذين يحوزهم الأمير فى الطاعة .

وفيها ، فى الخامس والعشرين من ذى الحجة ، كان وفاة الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيرى . وكان ديناً كثير الصدقه والمعروف ، قليل الأذى ، وخلّف أموالا عريضة ، فأوصى بثلاثمائة ألف درهم من ماله ، تنفق فى العساكر وأوقف مدرسة بمصر ، على طائفة الشافعية والمالكية . وأوقف خانا بظاهر دمشق ، على الصدقات ، ريعه فى كل شهر تقدير خمسمائة درهم ، وله آثار حسنة ، رحمه الله تعالى (١) .

(١) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٥ . ص ١٠٣

واستهلت سنة تسعين [وستمائة][1]

[٦٩٠ - ١٣٩١]

فى هـذه السنة ، فى سادس المحـرم ، أفرج السلطان عن الملك فخر الدين عثمان ابن الملك[2] المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل ، سيف الدين أبى بكر ، ابن الملك الكامل ابن الملك العادل صاحب الكرك والده . وكان قد اعتقل فى الدولة الظاهرية ، فى رابع عشر ، شهر ربيع الأول ، سنه تسع وستين وستمائة ، كما قدمنا ذكر ذلك[3] . وكانت مـدة اعتقاله عشرين سنة ، وتسعه أشهر ، واثنين وعشرين يوما . ولما أفرج السلطان عنه ، رتّب له راتبا جيدا . ولزم داره ، واشتغل بالمطالعة والنسخ ، وانقطع عن السعى ، إلا لجمعة أو الحمام ، أو ضرورة لابد منها[4] .

ذكر تفويض الوزارة للصاحب شمس الدين ابن السلعوس وشىء من أخباره

كان الصاحب شمس الدين محمـد بن فخـر الدين عثمان بن أبى الرجا ، بن

---

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) الاسم : حسبما ورد فى النص : فخر الدين عثمان ابن الملك فتح الدين المغيث فخر الدين عمر وما هنا من ابن الفرات جـ ٢ ، ص ١٠٦ ؛ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٥

(٣) انظر نهاية الأرب جـ ٣٠ ، ص ١٧٣ وما بعدها . تحقيق د . محمد عبد الهادى شعيره مركز تحقيق التراث ، ١٩٩٥ (المصحح)

(٤) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٦

السلعوس قد توجه إلى الحجاز الشريف ، قبيل وفاة السلطان الملك المنصور . فاتفقت وفاة السلطان وسلطنة الملك الأشرف فى غيبته . فكتب السلطان إليه كتابا يعلمه أنه قد ملك ، و يستحثه على سرعة الوصول إليه . فوصل إليه كتاب السلطان ، وهو فى أثناء الطريق ، وقد عاد من الحجاز الشريف . فاجتمع من كان بالركب ، من الأعيان والكتاب ، وانضموا إليه ، وركبوا فى خدمته ، وسايروه وعاملوه من الآداب بما يعامل به الوزراء وعظموه ، فكان كذلك ، إلى أن وصل إلى باب السلطان . وكان وصوله ، فى يوم الثلاثاء ، العشرين من المحرم سنة تسعين وستمائة . فاجتمع بالسلطان ، ففوض إليه السلطان الوزارة ، فى يوم الخميس ، الثانى والعشرين من الشهر ، وخلع عليه . وكان الأمير علم الدين سنجر الشجاعى يتحدث فى الوزارة فى هذه المدة ، قبل وصوله ، من غير تقليد ولا تشريف .

وكان شمس الدين [بن السلعوس[1]] هذا ، تاجرا من أهل دمشق ، ولم يكن من التجار المياسير . ولكنه كان يأخذ نفسه بالحشمة والرئاسة . حتى كان التجار فيما بينهم ينعتونه بالصاحب[2] استهزاء به . ثم تعلق بالخدم ، وانتمى[3] إلى تقى الدين توبة التكريتى وزير دمشق ، فى الدولة المنصورية ، فاستخدمه فى بعض الجهات . وتنقل إلى أن ولى نظر الحسبة بدمشق ، فى شهر رمضان ، سنة سبع وثمانين وستمائة كما تقدم[4] . ثم ولى نظر ديوان الملك الأشرف بالشام .

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٦

(٢) فى الأصل الصاحب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٦

(٣) فى الأصل وانتمى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٦

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٦ « كما قدمنا » وفى ذلك دليل على التطابق بين روايته ورواية النويرى .

فأظهر الأجتهاد ، واستأجر للملك الأشرف ضياعا بالشام ، وعمل له متجرا ، وحصل من ذلك أموالا ، فتقدم عند الملك الأشرف ، ومال إليه .

وحضر إلى باب الملك[1] الأشرف ، فى صفر ، سنة ثمان وثمانين وستمائة . واستناب عنه فى نظر الحسبة [بدمشق[2]] والديوان الأشرف ، القاضى تاج الدين أحمد ابن القاضى عماد الدين محمد بن الشيرازى . ولما حضر إلى باب الملك الأشرف[3] ، نقله إلى نظر ديوانه نيابة ، عوضا عن تاج الدين بن الأعمى . وخلع عليه خلع الوزارة . واستمر فى نظر ديوان الملك الأشرف ووكالته ، إلى جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة . فاتفق أن الملك الأشرف ، خلع عليه خلعة سنية ، تشبه خلع الوزراء . فرآه السلطان الملك المنصور ، وعليه تلك الخلعة ، فأنكر هيئته ، وسأل الأمير حسام الدين طرنطاى عنه . فقال هذا وزير الملك الأشرف ، وذكر مساوئه[4] للسلطان . فغضب السلطان الملك المنصور لذلك[5] ، وأنكره . وأمر باحضاره ، فأحضر بين يديه ، فأنكر عليه كونه خدم ولده ، بغير أمره ، ولا أمر نائبه ، ولا وزيره . وأمر السلطان بنزع الخلعة ، التى ألبسها ، فنزعت . وسلمه إلى شاد الدواوين [يومئذ[6]] ، وهو الأمير زين الدين أحمد الصوابى ، وأمر بمصادرته ، والإخراق

(١ ، ٣) فى الأصل السلطان الملك ، وقد جرى حذف لفظة السلطان لأن الأشرف لم يكن وقتذاك سلطانا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ ؛ ولم يلبث النويرى ، أن استدرك هذا الخطأ بعد سطرين . انظر ما يلى

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧

(٤) فى الأصل مساويه ، وجرى تصويب الأخطاء الإملائية دون الإشارة إلى ذلك .

(٥) فى الأصل لذكره ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ .

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ .

به ، وضربه . وأرسل إليه الأمير حسام الدين طرنطاى ، أن يوقع به الأهنة والإخراق ، ويبادر بضربه . وأرسل إليه الملك الأشرف ، إلى[1] [مشد الدواوين][2] ، يستوقفه عند[3] ذلك ، ويتوعده إن ناله منه سوء[4] . فخاف للشد المذكور غائلة الملك[5] الأشرف ، وتوقف عن الإخراق به . ورسم عليه فى قاعة ، كان المشد يجلس فيها ، فى وقت استراحته . ثم تلطف الملك الأشرف فى أمره ، مع الأمير حسام الدين طرنطاى ، وراسله[6] بسببه . وتكررت رسائله إليه ، وإلى غيره فى معناه ، حتى حصلت الشفاعة [فيه[7]] عند السلطان ، فأطلقه . وأمر السلطان بصرفه ، فصرف ، ولزم داره . وكانت هذه الواقعة من أضرر شىء على الأمير حسام الدين طرنطاى ، ومن أكبر أسباب القبض عليه وقتله .

واستمر الصاحب شمس الدين بداره إلى زمن الحج ، فتوجه إلى الحجاز الشريف . واتفقت وفاة السلطان الملك المنصور ، وسلطنة الملك الأشرف ، كما تقدم ، فكتب إليه يعلمه بذلك . ويقال إن السلطان كتب بخطه إليه ، بين سطور الكتاب ، ياشقير ، يا وجه الخير ، عجل بالسير ، فقد ملكنا . ويقال إنه لما حملت إلى السلطان الملك الأشرف ، أموال طرنطاى ، ووضعت بين يديه ، جعل يقلبها ويقول :

---

(١) فى الأصل إليه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ .

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ عن .

(٤) فى الأصل سوءا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ .

(٥) انظر ما تقدم ص ١٨٩ ، هامش ١ .

(٦) فى الأصل وأرسله ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ .

(٧) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٧ .

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى

ثم يقول أين أنت يا ابن السلعوس .

فلما وصل [ابن السلعوس][1] إلى السلطان ، فوض إليه الوزارة ، ومكّنه من الدولة تمكينا عظيما، ما تمكن وزير قبله مثله فى دولة الترك. وجرّد فى خدمته جماعة من المماليك السلطانية ، يركبون فى خدمته ، ويترجلون فى ركابه ، ويقفون بين يديه ، ويمتثلون أوامره . فعظم بذلك شأنه ، وتعاظم فى نفسه واستخف بالناس . وتعدى أطوار الوزراء، حتى كان أكابر الأمراء يدخلون إلى مجلسه، فلا يستكمل[2] لهم القيام . ومنهم من لا يلتفت إليه . وكان فى بعض الأوقات يستدعى أمير جاندار[3] وأستاذ الدار ، على كبر مناصبهما . فكان إذا استدعى أحدا منهما[4] ، يقول اطلبوا فلانا أمير جاندار ، وفلانا[5] أستاذ الدار ، يسمى كل واحد منهما باسمه ، دون نعته . ثم ترفّع عن هذه الرتبة إلى الاستخفاف بنائب السلطنة[الأمير بيدرا][6] ،وعدم الالتفات إلى جهته ومشاركته فى بعض وظيفته، والاستبداد عنه ، ومعارضته فيما يقصد فعله ، وتعطيل ما يؤثره . هذا ، والأمير بدر الدين بيدرا يصبر على جفاه ، ولا يمكنه مفاجأته لما يشاهده من ميل

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) فى الأصل يستكل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٩١ .

(٣) فى الأصل خازندار ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٤) فى الأصل منهم ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) فى الأصل فلان ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٩٢ .

السلطان إليه . حتى أخبرنى[1] شهاب الدين بن عبادة : قال : رأيت الصاحب شمس الدين فى بعض أيام المواكب ، قد قام من مجلس الوزارة ، يقصد الدخول إلى الخزانة ، فصادف ذلك خروج الأمراء من الخدمة ، هم ونائب السلطنة . فكان الأمراء الأكابر يبادرون إلى خدمته ومنهم من يقبل يديه ، وكلهم يخلى له الطريق ، ويومىء بالرجوع بين يديه ، فيشير إليه بالانصراف . فلما وطىء عتبة[2] باب القلة برجله ، توافى[3] هناك ، هو والأمير بدر الدين ، نائب السلطنة . فسلّم كل منهما على الآخر ، وأومأ له بالخدمة ، إلا أن النائب خدم الوزير ، أكثر من خدمة الوزير له . قال : لقد رأيته ، وقد رجع مع الصاحب ، ولم يسامته فى مشيه ، بل كان النائب يتقدمه يسيرا ، ويميل بوجهه إلى جهة الصاحب ويحدثه . فكانا كذلك إلى أن وصلا إلى المصطبة ، التى يجلس عليها أستاذ الدار وناظر البيوت ، وهى من داخل الباب الثانى ، من باب القلة لجهة الخزانة ، على باب الفراش خاناه قديما . وهذا الموضع[4] الآن[5] ، هو أحد أبواب[6] الجامع الذى عمر فى أيام السلطان الملك الناصر . وسنذكر إن شاء الله تعالى ، خبر هذا الجامع فى

(١) حرص ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ على تغيير صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب ، بأن أورد عبارة : حتى حكى عن شهاب الدين ، وفى ذلك دليل على الاقتباس من النويرى أو عن مصدر نقل عنه النويرى .

(٢) فى الأصل عنه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٣) فى الأصل توفى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٤) فى الأصل وهو . وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ١٠٩ .

(٥) هذه الرواية تطابق نص ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٦) فى الأصل إيوان وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

الأيام الناصرية . قال[1] : فلما أنتهيا إلى ذلك المكان ، مسك الصاحب بدر الدين بيدرا ، نائب السلطنة ، وأشار إليه بالرجوع . قال : وسمعت الصاحب يقول له : « بسم الله يا أمير بدر الدين » ، لم يزده على ذلك ، وهذا أمر لم يسمع بمثله[2] ، والذى شاهدته أنا ، غير مرة ولا مرتين ، أن الصاحب كان إذا أراد الركوب إلى القلعة ، اجتمع ببابه[3] نظار النظار وشاد الدواوين ووالى القاهرة ووالى مصر ، ومستوفى[4] الدولة ، ونظار الجهات ، ومشدّى[5] المعاملات ، وغير هؤلاء من الأعيان . ثم يحضر قضاة القضاء الأربعة ومن يتبعهم . فإذا اجتمع هؤلاء كلهم ببابه ، عرّفه حجابه أن الموكب قد كمل . وكان كمال الموكب عندهم ، حضور قضاة القضاة الأربعة ، فيخرج عند ذلك ، ويركب ويسوق الناس بين يديه على طبقاتهم . فيكون أقرب الناس إليه ، قاضى القضاة الشافعية ، وقاضى القضاة المالكية[6] ، يكونان أمامه . وأمامهما قاضيا القضاة الحنفية والحنبلية[7] ، ثم نظار النظار والأعيان ، ومستوفى[8] الدولة ، ونظار الجهات على قدر مراتبهم . ويستمر القضاة معه ، إلى أن يستقر فى المجلس . فينصرفون ثم يعودون عشية النهار إلى القلعة ، ويركبون فى موكبه بين يديه إلى أن يصل إلى داره ، حتى إنه تأخر ليلة بالقلعة إلى قرب

(١) يشير إلى رواية ابن عبادة ، الواردة أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٣) فى الأصل نبابه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٤) فى الأصل مستوفين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) فى الأصل مشدين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) فى الأصل المالكى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٧) فى الأصل الحنفى والحنبلى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٩ .

(٨) فى الأصل مستوفين وما هنا هو الصواب .

العشاء الآخرة ، وغلق باب القلعة . وانقلب موكب الصاحب ، إلى جهة باب السلطان ، وجاء القضاة ووقفوا على بغالهم ، بظاهر باب الإسطبل السلطانى ، ولم ينصرفوا حتى خرج وركب ، وساقوا فى خدمته ، إلى داره على عادتهم ، لم يخلوا بها . وكان لا ينتصب قائما لبعض أكابرهم، ولم ينتظم هذا لوزير قبله . ولما عظم موكبه ، وبقى الأكابر ، يزدحمون فى شوارع القاهرة ، ويضيق بهم لكثرة من معه ، ويزدحم الغلمان ، انتقل إلى القرافة ، وسكنها بسبب ذلك[1] . ثم كان من أمره ما نذكره ، إن شاء الله تعالى فى موضعه .

ذكر القبض والإفراج على من نذكر من الأمراء ، وعنه[2]

وفى يوم الجمعة ، سابع صفر ، أمر السلطان بالقبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير سيف الدين جرمك الناصرى ، وعدّد لهما ذنوبا كثيرة . وكان مما عدّه على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، أن قال هذا ما أحسن إليه أحد ، إحسان طرنطاى ، فإنه مازال يدافع عنه السلطان [المنصور][3] ويمنعه من القبض عليه ، إذا أراده . ويقول له ، والله لا يقبض عليه ، حتى يقبض على قبله . ووفى له طرنطاى بما عاهده عليه ، بصهيون ، لما استنزله منها . ولم يرع له حق هذا الإحسان العظيم والذب عنه . وكان [هو][4] أكبر أسباب القبض عليه ، فإنه أفشى سره .

(١) يقابل ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٠٨ .

(٢) كذا فى الأصل . ولعل المقصود الإشارة إلى المصدر الذى نقل عنه .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١٠ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ٨ ، ص ١١٠ ، والمقريزى : السلوك جـ١ ، ص ٧٦٢ — ٧٦٣ .

وأفرج السلطان فى هذا اليوم، عن الأمير زين الدين كتبغا المنصورى، وأعاد عليه إمرته، وأنعم عليه إنعاما كثيرا. وكان قد قبض عليه، كما تقدم لما همّ بالمدافعة عن طرنطاى.

ذكر فتوح عكا وصور وصيدا وحيفا

قد ذكرنا أن السلطان الملك المنصور، والد السلطان، كان قد أهمه أمر عكا وتجهز لغزوها. وخرج لذلك، وعاجلته المنية، دون الأمنية. فلما استقر أمر السلطان الملك الأشرف، وخلا وجهه، ممن كان يقصد مناوأته، صرف اهتمامه إلى عكا وغزوها. وندب العساكر من الديار المصرية، وسائر الممالك والحصون. وأمر نواب السلطنة بالممالك الشامية والساحلية، ونواب القلاع والحصون، بتجهيز الزردخانات وأعواد المجانيق والحجارين وغيرهم. وندب الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير جاندار لذلك. فتوجه من الباب السلطانى، ووصل إلى دمشق، فى سلخ صفر. فجهزت أعواد المجانيق من دمشق، وبرزت إلى ظاهرها فى مستهل شهر ربيع الأول، وتكامل ذلك، فى يوم الخميس ثانى عشر الشهر. وتوجه بها الأمير علم الدين سنجر الداوادارى، أحد الأمراء بالشام، ثم فرقت على الأمراء مقدمى[1] الألوف، فتوجه كل أمير ومضافوه[2] منها، بما أمر بنقله. ثم توجه الأمير حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بالشام، فى آخر الجيش[3]، ببقية العسكر، فى يوم الجمعة، العشرين من شهر ربيع الأول. وندب

(١) فى الأصل مقدمين، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١١.

(٢) فى الأصل مضافيه، وما هنا هو الصواب لغويا.

(٣) فى الأصل الخميس، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١١.

السلطان أيضا ، الأمير سيف الدين طغريل الايقانى[1] إلى الحصون والممالك يستنجدهم[2] على سرعة تجهيز المجانيق والآلات ، فبادر النواب إلى ذلك .

ووصل الملك المظفر صاحب حماه إلى دمشق ، فى ثالث عشرين شهر ربيع الأول ، بعسكر حماه ، وصحبته مجانيق وزردخانات[3] . ووصل الأمير سيف الدين

(١) فى الأصل الابغانى ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١١ ، والمقريزى : السلوك ج١ ، ص ٧٩٣ .

(٢) فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١١ يستحثهم .

(٣) رافق المؤرخ أبو الفدا ، قريبه المظفر صاحب حماه ، فى هذه الحملة . وأثبت فى مؤلفه (المختصر فى أخبار البشر ج ٥ ، ص ٩٤ — ٩٨) ما قام به وما شاهده من وقعة عكا ، وهو يوضح بذلك أساليب الحرب فى تلك العصور . ونصه « فتوجه الملك المظفر صاحب حماه ، وعمه الملك الأفضل ، وسائر عسكر حماه صحبته إلى حصن الأكراد . وتسلمنا منه منجنيقا عظيما يسمى المنصورى حمل مائة عجلة ، ففرقت فى العسكر الحموى ، وكان المسلم إلى منه عجلة واحدة ، لأنى كنت إذ ذاك أمير عشرة . وكان سيرنا بالعجل فى أواخر فصل الشتاء ، واتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا ، بين حصن الأكراد ودمشق ، فقاسينا من ذلك ، بسبب جر العجل ، وضعف البقر وموتها بسبب البرد ، شدة عظيمة . وسرنا بسبب العجل ، من حصن الأكراد إلى عكا شهرا ، وذلك سير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة . وكذلك أمر السلطان بجر المجانيق وآلات الحصار من جميع الحصون إليها ، فاجتمع على عكا من المجانيق الكبار والصغار ، ما لم يجتمع على غيرها .

وكان نزول العساكر الإسلامية عليها ، فى أوائل جمادى الأولى ، من هذه السنة . واشتد عليها القتال ، ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها ، بل كانت مفتحة ، وهم يقاتلون فيها . وكانت منزلة الحموية برأس الميمنة على عادتهم . فكنا على جانب البحر ، والبحر من يميننا إذا واجهنا عكا . وكان يحضر إلينا مراكب مقببة بالخشب ، الملبسين جلود الجواميس ، وكانوا يرموننا منها بالنشاب والجروخ . وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ، ومن جهة يميننا من البحر . وأحضروا بطسة ، وفيها منجنيق يرمى علينا وعلى خيمتنا من جهة البحر . فكنا منه فى شدة عظيمة ، حتى اتفق فى بعض الليالى هبوب رياح قوية ، فارتفع المركب وانحط بسبب الموج ، وانكسر المنجنيق الذى فيه ، بحيث أنه انحطم ولم ينصب بعد ذلك . وخرج الفرنج فى أثناء هذا الحصار بالليل ، وكبسوا العسكر ، وهزموا اليزكية ، —

بلبان الطباخي ، نائب السلطنة بالفتوحات ، بعساكر الحصون وطرابلس ومامعها ، بالمجانيق والزردخانات ، فى رابع عشرين الشهر . ووصل سائر النواب ، وتوجهوا إلى عكا . هذا ما كان من أمر نواب الممالك الشامية وعساكرها[1] .

وأما السلطان الملك الأشرف ، فإنه لما عزم على التوجه إلى عكا ، أمر بجمع[2] القراء والعلماء والقضاة والأعيان ، بتربة والده السلطان الملك المنصور . فاجتمعوا فى ليلة الجمعة ، الثامن والعشرين من صفر ، وباتوا بالقبة المنصورية ، يقرأون القرآن . وحضر السلطان إلى التربة فى بكرة النهار ، وتصدق بجملة من المال والكساوى ، ثم عاد إلى قلعة الجبل . واستقل ركابه منها ، فى ثالث شهر ربيع الأول . وجهز السلطان آدره العالية[3] إلى دمشق ، فوصلوا إلى قلعتها ، فى يوم الاثنين ، سابع شهر ربيع الآخر . ووصل السلطان إلى المنزلة بعكا ، فى يوم الخميس ، ثالث شهر ربيع الآخر . ووصلت المجانيق إلى عكا فى اليوم الثانى ،

= واتصلوا إلى الخيام ، وتعلقوا بالأطناب . ودفع منهم فارس فى حوبة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك ، وتكاثرت عليهم العساكر . فولى الفرنج منهزمين إلى البلد . وقتل عسكر حماه عدة منهم .

فلما أصبح الصبح ، علق الملك المظفر صاحب حماه عدة رءوس الفرنج فى رقاب خيلهم التى كسبها العسكر منهم ، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف . واشتدت مضايقة العسكر لعكا ، حتى فتحها الله تعالى لهم ، فى يوم الجمعة السابع عشرين جمادى الآخرة بالسيف .

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١١ ، والمقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٦٣ — ٧٦٤ .

(٢) فى الأصل بجميع ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١١ ، والمقريزى السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٥ .

(٣) فى الأصل اودة العالية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١١ ، وفى المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٦٤ ، سير حريمه ، وهو المقصود من هذه العبارة .

من وصوله ، وهى اثنان وتسعون منجنيقا ، [ما بين افرنجى وقرابغا وشيطانى][1] ، فنصبت وتكامل نصبها فى أربعة أيام ، وأقيمت الستائر .

وكان الفرنج ، لما بلغهم اهتمام السلطان وعزمه ، كاتبوا ملوك البحر ، وسألوهم إنجادهم ، فأتوهم من كل مكان . واجتمع بعكا منهم جموع كثيرة ، فقويت نفوسهم ، ولم يغلقوا أبواب البلد . واستمر الحصار وعملت النقوب ، إلى السادس عشر من جمادى الأولى[2] .

فلما كان فى يوم الجمعة السابع عشر من الشهر ، أمر السلطان أن تضرب الكوسات جملة واحدة ، وكانت [على][3] ثلثمائة جمل . فلما ضربت ، هال أهل عكا ما سمعوه منها . وزحف السلطان بالعساكر ، قبل طلوع الشمس من هذا اليوم . فما ارتفعت الشمس ، إلا والصناجق السلطانية على أسوارها .

ولما أشرف المسلمون على فتح عكا ، وتحقق من بها ذلك ، خرجت طائفة منهم ، نحو عشرة آلاف رجل مستأمنين ، فرقهم السلطان على الأمراء ، فقتلوا عن آخرهم . وأرسل السلطان جماعة من الأمرى ، إلى الحصون الإسلامية .

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٢ .

(٢) أشار ابن الفرات صراحة إلى المصدر الذى نقل عنه ، وهو تاريخ الجزرى ، وتطابق روايته (جـ ٨ ، ص ١١٢) ما ورد فى النويرى . ولما كان النويرى والجزرى متعاصرين ، فيجوز انهما افادا من مصدر واحد . والجزرى هو محمد بن إبراهيم بن أبى بكر المتوفى ٧٣٩ (١٣٣٨) ، ومن كتبه فى التاريخ كتاب كبير اسمه جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، ثلاثة مجلدات يبتدىء أولها سنة ٧٢٦ ، وينتهى آخرها سنة وفاة المؤلف ، انظر : المقريزى : السلوك جـ ٢ ، ص ٤٧١ ، ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ ٣ ، ص ٣٠١ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٢٧٤ ، الزركلى : الأعلام جـ ٦ ، ص ١٨٩ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ١١٢ ، والمقريزى . السلوك ص جـ ١ ٧٦٥ .

وكانت مدة الحصار على عكا ، منذ حل ركاب السلطان ، إلى أن فتحت ، أربعة وأربعين يوما . واستشهد من الأمراء على حصارها ، الأمير علاء الدين كشتغدى[(١)] الشمعى ، ونقل إلى جلجولية[(٢)] ودفن بها ، والأمير عز الدين أيبك المعزى[(٣)] ، نقيب العساكر[(٤)] ، والأمير جمال الدين آقش الفتمى[(٥)] ، والأمير بدر الدين بيليك المسعودى ، والأمير شرف الدين قيران السكرى ، وأربعة من مقدمى[(٦)] الحلقة ، وجماعة يسيرة من العسكر .

وكانت عكا بيد الفرنج ، منذ استرجعوها من السلطان ، الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وإلى هذا التاريخ ، مائة سنة وثلاث سنين ، وأمر السلطان الآن بإخرابها ، فخربت[(٧)] .

وفتح الله تعالى على يد السلطان ، فى بقية الشهر ، من المدن المشهورة الساحلية ، صور ، وصيدا ، وحيفا ، وعثليث ، بغير قتال . وذلك أن الله تعالى ،

---

(١) فى الأصل كشندى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٢ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٥ .

(٢) فى الأصل حلجولية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٢ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٥ .

(٣) فى الأصل العزى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٢ .

(٤) فى الأصل تنقيب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٢ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٥ .

(٥) فى الأصل العيمى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٢ والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٦٥ .

(٦) فى الأصل مقدمين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٧) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٢ والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٦٥ .

الرعب فى قلوب أهلها الرعب، لما فتحت عكا، وعلموا أنهم لا يقدرون على حفظها، ففارقوها ونجوا بأنفسهم . فملكها السلطان ، فأمر بهدمها جميعها فهدمت . ثم فتحت صيدا وبيروت ، على يد الأمير علم الدين الشجاعى ، على ما نذكره[1] إن شاء الله تعالى .

وأكثر الشعراء ذكر هذا الفتح . فكان[2] ممن امتدح السلطان ، وذكر هذا الفتح من الشعراء ، الشيخ الفاضل بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنبجى[3] التاجر المقيم بالقاهرة ، فقال :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل ... وفُتّ شأو ملوك الأعصر الأول

وحزت رق العلى بالجد مجتهدا ... وحزت غاياتها سبقا على مهل

ونلت بالحول دون الناس منفردا ... ما لم ينله ملوك الأرض بالحيل

فطل بدولتك الميمون طائرها ... فإنها غرة فى أوجه الدول

واسعد بهمتك العليا التى وصلت ... لك السعود بحبل غير منفصل

فأنت للدين والدنيا صلاحهما ... وفيهما حمل ضيم غير محتمل

فكم بلغت مرادا بت[4] تأمله ... بعزمك الباتر العارى من الفشل

---

(١) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٣ .

(٢) فى الأصل من ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٤ .

(٣) فى الأصل المسيحى ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٧ ب - ١٧١ ، حيث وردت القصيدة منسوبة إلى بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنبجى البزار بالقاهرة انظر أيضا المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٧ حاشية ٢ .

(٤) فى الأصل أنت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٤ .

وكم فتحت حصونا طالما رجعت ... لليأس[1] عنها الملوك الصيد فى خجل[2]

حرزت[3] من حكمة الغراء ما عجزت ... عنه الملوك بعزم غير منتثل

عقيلة المدن أمست من حصانتها ... وصونها من ليالى الدهر فى عقل

وقد دعتها ملوك الأرض راغبة ... وعطفها عنهم بالتيه فى شغل

صدت عن الصيد لا تلوى فلم تطل ... الأوهام منها إلى وصل ولم تصل

أم لهم[4] برة كم رام خطبتها ... بعل سواك[5] ، فلم تذعن ولم تنل

حتى أمرت فأمست وهى طائعة ... بعد الإباء لأمر منك ممتثل

مازال غيرك فيها طامعا وعلى ... يديك ، قد كان هذا الفتح فى الأزل

فتحا[6] تطاول عن ثر[7] يحوط به ... وصفا ، وعن نظم شعر محصد الطول

قصدتها فأصيبت بعدما جمعت ... فى أهلها من أسود الغيل بالغيل

فى جحفل لجب[8] كالليل أنجمه ... تبدو لرائيه من قضب ومن أسل

تمم المهامه من وعر ومن أكم[9] ... وطبق الأرض من سهل ومن جبل

---

(١) فى الأصل للناس ، وماهنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٤ .

(٢) فى الأصل فى محل ، وماهنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٤ .

(٣) فى الأصل حرزت ، وماهنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٤ .

(٤) فى الأصل مره وماهنا من بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٨٧

(٥) فى الأصل بل ، وماهنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٤ .

(٦) فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٤ ، فتح (المصحح) .

(٧) فى الأصل سر ، وماهنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٤ .

(٨) فى الأصل لحت ، وماهنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٤ .

(٩) فى الأصل وهد ، وماهنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٤

تخالهم وجياد الخيل تحتهم ... للبأس (١) فى الروع آسادا على قلل (٢)
لاتنظر العين منهم إن هم لبسوا ... لامات حربهم يوما، سوى المقل
صدمتها بجيوش لو صدمت بها ... صم الجبال، أزالتها ولم تزل
فأصبحت بعد عز الملك خاضعة ... من ذلة الملك طول الدهر فى سمل
أمست خرابا واضحى أهلها رمما ... وسطرتها يد الأيام فى المثل
فَسَلْبُ (٣) بزتها (٤) عنها وقد عطلت ... ألذ للطرف من حَلْى ومن حلل
ومحو آثارها منها وقد خربت ... أشهى (٥) الى النفس من روض الربى الخضل
بالأشرف السيد السلطان زال (٦) عنا ... التثليث وابتهج التوحيد بالجدل
تدبير (٧) ذى حكم (٨) فى عز منتقم ... وعمر مقتبل فى رأى مكتهل
راحت وقد سلبت أرواحهم بشبا ... الهندى أموالهم من (٩) جملة النفل
هدمت ماشيدوا، فرقت ماجمعوا ... نقضت ما ابرموه غير محتفل
وعندما أصبحت قفرا بلادهم ... من السواحل بعد الأهل فى العطل (١٠)

(١) فى الأصل الناس ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٤ .
(٢) فى الأصل تلل : وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ : ص ١١٤ .
(٣) فى الأصل سلبت ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٤ .
(٤) فى الأصل برتها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٤ .
(٥) فى الأصل الرى ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٤ .
(٦) فى الأصل راد : وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٥ .
(٧) فى الأصل تدمير : وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٥ .
(٨) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٥ ، ذى حلم .
(٩) فى الأصل فى ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٥ .
(١٠) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٥ عطل (المصحح) .

رحلت عنها، ولكن كم ألمت بها ... من خوف بأسك جيشا غير مرتحل
لازلت ذا رتب فى المجد سامية ... وسؤدد بنواصى الشهب متصل

وقال المولى شهاب الدين أبو الثنا محمود الحلبى كاتب الانشاء، لما عاين النيران فى جوانب عكا. وقد تساقطت أركانها، وتهدمت جدرانها.

مررت بعكا بعد تخريب سورها ... وزند أوار النار فى وسطها وار[1]
وعاينتها بعد التنصر قد غدت ... مجوسية الأبراج تسجد للنار

وقال أيضا:

الحمد لله زالت دولة الصُّلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها ... فى البحر للشرك ممتد البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدى الخطوب بها ... دهرا وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت ... فى البر والبحر ما ينجى سوى الهرب
كانت تخيلها آمالنا فترى ... إن التفكر فيها أعجب العجب
أم الحروب فكم [قد][2] أنشأت فتنا ... شاب الوليد بها هولا ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها ... دارا، وأدناهما أنأى[3] من القطب
خرقاء[4] أمنع سوريها وأحصنه ... غُلْبُ الكماة، وأقواه على النوب

(١) فى الأصل وارى: وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١٥.
(٢) الإضافة يتطلبها وزن الشعر.
(٣) فى الأصل أنأ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١٦
(٤) فى الأصل خرق، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١٦

مصفح بصفاح ، حولها شرف ... من الرماح وأبراج من اليلب (١)

مثل الغمامة (٢) تهدى من صواعقها ... بالنبل أضعاف ما تهدى (٣) من السحب

كأنما كل برج حوله فلك ... من المجانيق يرمى الأرض بالشهب

ففاجأتها جنود الله يقدمها ... غضبان (٤) لله لا للملك والنشب

ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم ... يدعون رب الورى سبحانه بأب

كم رامها ورماها قبله ملك ... جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب

لم يلهه ملكه ، بل فى أوائله ... نال الذى لم ينله الناس فى الحقب

لم ترض همته إلا التى قعدت ... للعجز عنها ملوك العجم والعرب

فأصبحت وهى فى بحرين مائلة ... ما بين مضطرم نارا (٥) ومضطرب

جيش من الترك ترك الحرب عندهم ... عار ، وراحتهم ضرب من الوصب

خاضوا إليها الردى والبحر فاشتبه الـ ... أمران واختلفا فى الحال والسبب

تسنموها فلم يترك (٦) ثباتهم (٧) ... فى ذلك الأفق برجا غير منقلب

تسلموها فلم تخل الرقاب بها ... من فتك منتقم أو كف منتهب

---

(١) اليلب ، هنا الفولاذ من الحديد ، ومن معانى اليلب البيض التى تصنع من الجلود ، تتخذ وتنسج وتوضع على الرءوس خاصة (تاج العروس) .

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦ الغمايم

(٣) فى الأصل يهدى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦

(٤) فى الأصل عصبان ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦

(٥) فى الأصل نار ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦

(٦) فى الأصل تنزل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦

(٧) فى الأصل ثبابهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦

أتوا حماها فلم تدفع وقد وثبوا ... عنها مجانيقهم شيئاً[1] ولم يثب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت ... من الفتوح[2] وما قد خُطّ في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
كانت تُمَنّى بك الأيام عن أمم ... والحمد لله شاهدناك عن كثب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم[3] ... لله أي رضى في ذلك الغضب
وأطلع الله جيش النصر فابتدرت ... طلائع الفتح بين السمر والقضب
وأشرف المصطفى الهادي البشير على ... ما أسلف[4] الأشرف السلطان من قرب
فقرّ عينا بهذا الفتح وابتهجت ... ببشره[5] الكعبة الغراء في الحجب
وسار في الأرض مسرى الريح سمعته ... فالبر في طرب والبحر في حرب
وخاضت البيض في بحر الدماء فما ... أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وغاص[6] زرق القنا[7] في زرق أعينهم ... كأنها شطن يهوى[8] إلى قلب
توقدت وهي تروى في نحورهم ... فزادها الري في الإشراق واللهب[9]

---

(١) في الأصل مسها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦
(٢) في ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦ ، به .
(٣) في الأصل بدأيهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦
(٤) في الأصل أشرف ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦
(٥) في الأصل بنشره ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦
(٦) في الأصل وغاض ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦
(٧) في الأصل الفتى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦
(٨) في الأصل تهوى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٦
(٩) في الأصل والليب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧

أجرت إلى البحر بحرا من دمائهم فراح كالراح[1] إذ غرقاه كالحبب[2]
وذاب من حرّها عنهم حديدهم فقيدتهم[3] به ذعرا يد الرهب[4]
تحكمت فسطت فيهم قواضبها قتلا وعفت لحاويها عن السلب
كم أبرزت بطلا كالطود قد بطلت حواسه فغدا كالمنزل الخرب
كأنه وسنان الرمح يطلبه برج هوى ووراه كوكب الذنب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت بك الممالك واستعلت على الوثب
ما بعد عكا، وقد لانت مريكتها لديك شيء تلاقيه[5] على تعب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها مدت إليك نواصيها بلا نصب
كم قد دعت، وهى فى أسر العدا زمنا صيد الملوك فلم تسمع[6] ولم تجب[7]
ليتها[8] يا صلاح الدين معتقدا بأن ظنّ صلاح الدين لم يخب
أسلت فيها كما سالت دماؤهم من قبل إحرازها بحرا من الذهب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت منه لسرّ[9] طواه الله فى الكتب

(١) فى الأصل كالرياح ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١٧
(٢) الحبب ، الفقاقيع التى تطفو كأنها القوارير (القاموس المحيط) .
(٣) فى الأصل فقتدهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧
(٤) فى الأصل الذهب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧
(٥) فى الأصل يلاقيه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧
(٦) فى الأصل يسمع ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧
(٧) فى الأصل يجب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١٧
(٨) فى الأصل لقيتها ، وما هنا من الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧
(٩) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧ بسر .

وجئتها بجيوش كالسيول على ... أمثالها بين أجام من القضب (١) (٢)

وحطتها (٣) بالمجانيق (٤) التى وقفت ... أمام أسوارها فى جحفل لجب

مرفوعة نصبوا أضعافها قبلت (٥) ... للجزم والكسر منها كل منتصب

ورضتها بنقوب ذللت شمما ... منها وأبدت محياها بلا نقب

وبعد صبحتها بالزحف فاضطربت ... رعبا وأهوت بخديها (٦) إلى الترب

وغنت (٧) البيض فى الأعناق فارتقصت (٨) ... أجسادها لعبا منها مع اللعب

وخلقت بالدم الأسوار فابتهجت ... طيبا ولولا دماء القوم لم تطب (٩)

وأبرزت كل خود (١٠) كاعب نثرت (١١) ... لها الرؤوس وقد زفت بلا طرب

باتت (١٢) وقد جاورتنا ناشزا وغدت ... طوع الهوى فى يدى جيرانها الجنب

ظنوا بروج البيوت الشم تعقلهم (١٣) ... فاستعقلتهم ولم تطلق ولم تهب

---

(١) فى الأصل من ، وما هنا من الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧

(٢) فى ابن الفرات القصب جـ ٨ ، ص ١١٧

(٣) فى الأصل وخطتها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧

(٤) فى الأصل كالمجانيق ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧

(٥) فى الأصل فبقت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧

(٦) فى الأصل بحزبها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧

(٧) فى الأصل وعفت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧

(٨) فى الأصل فارتفضت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٧

(٩) فى الأصل يطب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١

(١٠) فى الأصل جود ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٨ .

(١١) فى ابن الفرات بترت جـ ٨ ، ص ١١٨ .

(١٢) فى ابن الفرات مانت جـ ٨ ، ص ١١٨ .

(١٣) فى الأصل يعقلهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٨ .

فأجزتهم ولكن للسيوف لكى ... لا يلتجى أحد منهم إلى هرب

وجالت[1] النار فى أرجائها وعلت ... فاظفأت ما بصدر الدين من كرب

أضحت أبا لهب تلك البروج وقد ... كانت بتعليقها حمالة الحطب

وأفلت[2] البحر منهم من يخبر من ... يلقاه من قومه بالويل والحرب

وتمت النعمة العظمى وقد ملكت ... بفتح صور بلا حصر ولا نصب

أختان فى أن كلا منهما جمعت ... صليبة الكفر لا أختان فى النسب

لما رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب

إن لم يكن ثم كون البحر منصبغا ... بها إليها والألسن اللهب[3]

فالله أعطاك ملك البر وابتدأت ... لك السعادة ملك البحر فارتقب

من كان مبدأه[4] عكا وصور معا ... فالصين أدنى إلى كفيه من حلب[5]

علابك الملك حتى إن قبته ... على الثريا غدت ممدودة الطنب

فلا برحت عزيز النصر مبتهجا ... بكل فتح قريب المنح مقترب

وعمل الشعراء فى هذا الفتح قصائد كثيرة ، اقتصرنا[6] منها ، على ما أوردناه ، فلنذكر خلاف ذلك .

(١) فى الأصل حالت ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٢) فى الأصل أفلت ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٨

(٣) لم يرد هذا البيت فى ابن الفرات ، والواضح أنه مكسور ولا يستقيم نظما .

(٤) فى الأصل مبدأ ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٥) فى الأصل جب ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٦) فى الأصل اختصرنا ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١١٨ .

ذكر القبض على الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام

وفى هذه السنة ، والسلطان على حصار عكا ، قُبض على الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، نائب السلطنة بالشام . وسبب ذلك ، أن الأمير علم الدين سنجر الحموى المعروف بأبى خرص[1] ، سعى إلى السلطان به ، ثم أوهم الأمير حسام الدين المذكور من السلطان ، وقال إنه قد عزم على القبض عليك ، فحمله الخوف على أنه ركب من الوطاق[2] بعكا ليلا ، وقصد الهرب . فركب الأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، وساق خلفه . فأدركه ، وقال له ، بالله لا تكن سبب هلاك هذا الجيش ، فإن هذا البلد قد أشرف [الناس[3]] على فتحه . ومتى علم الفرنج بهروبك ، قويت نفوسهم ، وركب العسكر خلفك ، وانصرفت عزائم السلطان عن حصار عكا إليك . فوافقه ، ورجع إلى خيمته ، وظن أن ذلك يستتر ، ولا يشعر السلطان به . وكان [ذلك[4]] ، فى ثامن جمادى[5] الأولى . فلما كان فى اليوم الثانى من هذه الحادثة ، خلع السلطان عليه ، وطيّب قلبه ، ثم قبض عليه

---

(١) فى الأصل حرص ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٨ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٧ .

(٢) الوطاق ، وفى التركيه أوتاق ، وأوطاق ، وأوتاغ ، لم يقصد بهذا اللفظ الخيمة فحسب ، بل يطلق على ما يتألف منه المعسكر من خيام انظر Dozy, Supp. Dict. Ar. Quatremère: op. Cit. I. P. 197

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٩ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٩ .

(٥) فى الأصل الأول ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٩ .

فى اليوم الثالث ، وجهّزه إلى قلعة صفد ، تحت الاحتياط ، ثم جُهّز منها إلى قلعة الجبل .

ذكر رحيل السلطان عن عكا ودخوله إلى دمشق وما قرره من أمر النيابة بها، وبالكرك وغير ذلك

ولما قضى السلطان الوطر من فتح عكا وما يليها ، عاد إلى دمشق . فكان وصوله إليها ، فى الساعة الثالثة من يوم الاثنين ، ثانى عشر جمادى الآخرة ، ودخل دخولا ما دخله ملك قبله . وزينت البلد أحسن زينة ، ونزل بالقلعة . وفى يوم دخوله إلى دمشق ، فوض نيابة السلطنة بالشام [إلى](1) الأمير علم الدين سنجر الشجاعى المنصورى . ورتب الأمير جمال الدين أقش الأشرفى فى نيابة الكرك ، عوضا عن الأمير ركن الدين بيبرس الدوادارى المنصورى ، بحكم استعفائه من النيابة بها . وأقره السلطان فى جملة الأمراء بالديار المصرية(2) .

وفى هذا اليوم ، قبض السلطان على الأمير علم الدين سنجر أرجواش المنصورى النائب بقلعة دمشق . وسبب ذلك ، أنه وقف بين يدى السلطان ، وكان الأمير شرف الدين [بن](3) الخطير الرومى ، يكثر من البسط بين يدى السلطان على الأمراء وغيرهم . ويقصد بذلك أن يشرح خاطر السلطان ويضحكه . وكان السلطان فى بعض الأوقات ، ينظر إليه نظرا يفهم منه مراد السلطان فى البسط على من يشير إليه . فنظر إليه السلطان وأومأ إليه أن يبسط على أرجواش . فنظر ابن الخطير

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٩ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٧ .

(٢) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٩ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٩ .

إلى علم الدين أرجواش، وكان لا يعرف البسط ولا يعانيه، ولا يزال فى تصميم. فقال[1] ابن الخطير للسلطان: كان لوالد الملوك بالروم، حمار أشهب أعور، أشبه شيء بهذا الأمير علم الدين، فضحك السلطان، وغضب أرجواش، وقال هذه صبيانية، فاشتد غضب السلطان لذلك، وأمر بالقبض عليه. وضرب بين يدى السلطان ضربا كثيرا مؤلما. ثم أمر أن يقيد و يلبس عباءة، و يستعمل مع الأسرى، ففعل به ذلك. ثم رسم بحمله على خيل البريد، إلى الديار المصرية مقيدا. فتوجه البريدية به، وحصلت الشفاعة فيه، فرد من أثناء الطريق. ثم أفرج السلطان عنه، بعد أن أوقع الحوطة على موجوده، وكان يحتوى على جملة كثيرة من الأموال والعدد. وأعاده السلطان إلى نيابة القلعة، فى شهر رمضان، فاستمر بها إلى أن مات.

وفى يوم الأحد، ثامن عشر جمادى الآخرة، رتب السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، فى شد الشام على عادته، وكان قد أفرج عنه قبل ذلك. ونقل الأمير سيف الدين طوغان، من الشد إلى ولاية البر، على عادته الأولى[2].

وفيها، فى يوم الأربعاء، ثانى عشر شهر رجب، ولى القاضى محيي الدين ابن النحاس نظر الشام، عوضا عن تقى الدين توبة، و بطل اسم الوزارة بدمشق. وولى شرف الدين أحمد بن عز الدين عيسى بن الشيرجى، نظر الحسبة، عوضا عن تاج الدين بن الشيرازى، فى ثانى عشر الشهر[3].

---

(١) فى الأصل مقال، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١١٩.

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٢٠.

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٢٠، ثامن عشر.

ذكر فتوح برج صيدا

كان قد بقى بصيدا برج عاص[1]، فندب السلطان لحصاره، الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، فتوجه لذلك، فى يوم الثلاثاء رابع شهر رجب. ووصل إلى صيدا وحاصر البرج، وافتتحه فى يوم السبت، خامس عشر الشهر. وعاد الأمير علم الدين إلى دمشق، بعد فتحه، على خيل البريد، فوصل إليها عند رحيل السلطان إلى الديار المصرية، وذلك فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. وكان وصوله إلى قلعة الجبل، فى يوم الاثنين تاسع شعبان، ودخل من باب النصر وخرج من باب زويلة[2].

ذكر فتح بيروت

لما توجه السلطان إلى الديار المصرية، أمر الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، أن يتوجه إليها، فتوجه وأفتتحها فى يوم الأحد ثالث عشرين شهر رجب. وذلك أن الأمير علم الدين سنجر وصل إليها، وكانت داخلة فى الطاعة، فتلقاه أهلها وأنزلوه بقلعتها. فأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إلى قلعتها، ففعلوا ذلك، وظنوه شفقة عليهم. فلما صاروا بالقلعة، قبض على الرجال، وقيدهم وألقاهم فى الخندق، وملك البلد. وعاد الأمير علم الدين إلى دمشق، فوصل إليها، فى يوم الجمعة سابع عشرين شهر رمضان من السنة. ولم يبق بالساحل أجمع، من الفرنج أحد، وخلا الساحل بجملته منهم. ولم يتأخر بالبلاد

(١) فى الأصل وكذا فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٢١ برجا عاصيا، وما هنا هو الصواب لغويا.

(٢) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٢١.

[الشامية[1]] غير فلاحيها النصارى ، وهم داخلون فى الذمة ، يؤدون الجزية .

ولما فتح السلطان هذا الفتح[2] ، أوقف منه ضياعا على تربة والده السلطان الملك المنصور ، وهى : الكابرة من عكا ، وتل[3] المفتوح منها ، وكردانه[4] وضواحيها[5] منها . ومن ساحل صور معركه ، وصريفين[6] . وأوقف على تربته ضياعا ، وهى قرية[7] الفرج من عكا ، وقرية شفرعمر منها ، وقرية الحمراء[8] منها ، وقرية طبرنية[9] من ساحل صور .

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢١ .

(٢) فى الأصل وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢١ الفتوح ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢١ تل المفشوخ ، وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٩ تل الميشوح .

(٤) فى الأصل كرداتية ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢١ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٩ .

(٥) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢١ وطواحينها .

(٦) فى الأصل وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢١ صديقين ، وما هنا من المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٩ .

(٧) فى الأصل قلعة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٨ .

(٨) فى الأصل الحيراء ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٩

(٩) فى الأصل طبرنته ، وما هنا من المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٨ .

وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ ، هامش ٢ ما يلى : غير واضحة فى الأصل ، وفى السلوك (ص ٢٣٤ ق ، ص ٢٩) : « طبرشية » وقد تكون « طبردبة » (المصحح) .

ذكر إنفاذ ولدى السلطان الملك الظاهر ووالدتهما إلى بلاد الأشكرى[1]

وفى هـذه السنة ، أمر السلطان ، بإخراج ولدى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وهما الملك المسعود نجم الدين خضر ، والملك العادل بدر الدين سلامش ، من الاعتقال[2] ، وجهزهما ووالدتهما إلى ثغر الإسكندرية ، صحبة الأمير عز الدين أيبك الموصلى ، استاذ الدار العالية . فتوجه بهم ، وسفّرهم منها فى البحر المالح ، إلى القسطنطينية . فلما وصلاها ، أحسن الأشكرى إليهما ، وأجرى عليهما ما يقوم بهما و بمن معهما . فاتفقت وفاة الملك العادل بدر الدين سلامش هنا ، فصبّرته والدته بالصبرة[3] ، وجعلته فى تابوت ، ولم تدفنه ، إلى أن عادت به إلى الديار المصرية ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى[4] .

ذكر الإفراج عن الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى وغيره من الأمراء

وفى هذه السنة ، فى يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان ، أمر السلطان بالإفراج عن الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى النجمى . وكان السلطان الملك

(١) الأشكرى ، وهو الأمبراطور البيزنطى ، وكان وقتذاك اندرونيكوس الثانى بالبولوغش (١٢٨٣ — ١٣٢٢) — انظر . Camb. med. Hist. TV. P. 593

(٢) انظر ما سبق ص ٢٧ — ٢٩ من هذا الجزء (المصحح)

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٠ بالصبر .

(٤) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٠ .

المنصور ، قد اعتقله فى أوائل دولته ، كما تقدم ذكر ذلك[١] ، فأفرج السلطان عنه الآن . وكُتِب له إفراج شريف سلطانى ، ونسخته بعد البسملة[٢] :

« الحمد لله على نعمه الكاملة ، ومراحمه الشاملة ، وعواطفه التى أضحت بها بدور الإسلام بازغة غير آفلة ، ومواهبه التى تجول وتجود وتحيى رميم الآمال [فى يومها][٣] بعد رمسها بأمسها ، فى أضيق اللحود[٤] ، ويقر لها بالفضل كل جحود » .

« أحمده حمدا يعيد سالف النعم ، ويفيد آنف الكرم الذى خص وعم . ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، شهادة تؤدى[٥] حقوقها ونجتنب[٦] عقوقها . ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، المبعوث بمكارم الأخلاق ، والموصوف بالعلم والحلم على الإطلاق ، صلاة لا تزال عقودها حسنة الانساق ، ونسلم تسليما كثيرا » .

« وبعد ، فإن أحق من عومل بالجميل ، وبلغ من مكارم هذه الدولة القاهرة ، الرجا والتأميل ، من إذا ذكرت أبطال الإسلام ، كان أول مذكور . وإذا وصفت الشجعان ، كان إمام صف كل شجاع مشهور . وإذا تزينت سماء الملك بالنجم ، كان بدرها المنير . وإذا اجتمع ذوو الآراء على امتثال أمر ، كان

(١) انظر ص ٨٨ من هذا الجزء (المصحح) .
(٢) أورده أيضا ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .
(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .
(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ (من اللحود) « المصحح » .
(٥) فى الأصل تؤدى وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .
(٦) فى الأصل يجتنب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .

خير مشير، و إذا عدت أوصاف أولى الأمر كان أكبر أمير . كم تجملت[1] المواكب بحلوله[2] بأعلى قدر ، وتزينت[3] المراتب منه بأبهى بدر . وهو المقر الأشرف العالى المولوى الأميرى[4] الكبيرى — وذكر القابه ، [فقال[5]] — البدرى بيسرى الشمسى الصالحى النجمى الملكى الأشرفى . فهو الموصوف بهذه الأوصاف والمدح[6] ، [و[7]] المعروف بهذه المكارم والمنح » .

« فلذلك ، اقتضى حسن الرأى الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى[8] الأشرفى الصلاحى ، لا زالت الكُرب فى أيامه تُكْشَف ، والبدور تكتمى[9] فى دولته الغراء ، إشراقا[10] ولا تخسف ، أن يفرج عنه فى هذه الساعة ، من غير تأخير ، و يمثل بين يدى المقام الأعظم السلطانى بلا استئذان نائب ولا وزير ، إن شاء الله تعالى » .

وجعل هذا الإفراج فى كيس أطلس أصفر ، وختم عليه بخاتم السلطان ،

---

(١) فى الأصل تحملت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢

(٢) فى الأصل بانحلوله ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .

(٣) فى الأصل وترتبت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .

(٤) لم ترد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ (المصحح) .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .

(٦) فى الأصل البدح ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .

(٧) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .

(٨) فى الأصل المالكى وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .

(٩) فى الأصل تكمى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ .

(١٠) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٢ شرفا .

وتوجه به إلى باب الجب[1] ، الأمير بدر الدين بيدرا ، والأمير زين الدين كتبغا ، وجماعة من أكابر الأمراء . وأخرج الأمير بدر الدين من الجب ، وقرىء عليه هذا الإفراج ، ورسم بكسر قيده ، واحضر له التشريف السلطانى . فقال [بيسرى] : لايفك القيد من رجلى ، ولا ألبس التشريف ، إلا بعد أن أتمثل بين يدى السلطان ، وصمم على ذلك . فأعلم السلطان بذلك ، فرسم بفك قيده ، وأن يُحضَر إلى بين يدى السلطان بملبوسه ، الذى كان عليه فى الجب . فحضر إلى بين يدى السلطان ، فانتصب له قائما . وتلقاه وأكرمه ، وألبسه التشريف ، وأجلسه إلى جانبه ، وأنعم عليه بالأموال والأقمشة ، وأمّره لوقته ، بمائة فارس ، وأقطعه إقطاعا وافرا ، من جملته منية بنى[2] حصيب ، دريستا[3] ، بالجوالى والمواريث[4] الحشرية ، وقرّبه السلطان لديه ، وأدناه إليه . وكان يخلو به ويؤانسه ويبرّه ، ويضاعف له الإنعام ، حتى أن الأمير بدر الدين بيسرى ، انتسب إلى الأشرفيه .

---

(١) الجب ، بئر بقلعة الجبل ، جرى اتخاذه سجنا للأمراء ، وكان المسجون يقاسى فيه ما هو كالموت أو أشد منه ، لأنه مظلم كريه الرائحة ، كثير الحشرات . (المقريزى : المواعظ والأعتبار جـ ٢ ، ص ١٨٨ — ١٨٩) .

(٢) اورد ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ١٩٢ ، هذا الموضع ، بأقليم الأشمونين (محافظة المنيا الحالية) .

(٣) دريستا ، وبالرسم الفارسى دربسته ، ومعناها الجنة بأكلها . والمقصود هنا أنه جعل له هذه الناحية بأكلها . انظر Steingass : Persian- English Dictionary

(٤) المواريث الحشرية ، هى تركات من يموت ولا وارث له ، أو له وارث لايستغرق ميراثه ، وكان لها ديوان معروف باسم ديوان المواريث الحشرية ، اختص ناظره بكل ما يتعلق بها . انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٣ .

وكان فيما مضى من عمره فى الأيام الظاهرية وغيرها ، يكتب بيسرى الشمسى ، فصار[1] يكتب بيسرى الأشرف .

وفيها ، فى يوم الجمعة رابع شهر رمضان ، أفرج السلطان عن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، والأمير ركن الدين بيبرس صقصوا[2] ، والأمير شمس الدين سنقر الطويل ، من الأعتقال ، وأمرهم على عادتهم[3] .

وفيها ، أمر السلطان بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الداوادارى ، فقبض عليه من دمشق ، وجهز إلى الأبواب السلطانية مقيدا . وكان وصوله إلى قلعة الجبل فى يوم الخميس ، سابع عشر شهر رمضان .

ذكر عزل قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز عن القضاء ومصادرته

وفى هذه السنة ، عزل السلطان قاضى القضاة ، تقى الدين عبد الرحمن ابن قاضى القضاة ، تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز . من منصب القضاء ، بالديار المصرية ، لأمور ، منها ما كان فى نفس الصاحب شمس الدين الوزير منه ، [ومنها أنه[4]] كان فى الدولة المنصورية ، يراعى خاطر الملك الصالح ،

(١) فى الأصل ، صار ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٣ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٦٩ — ٧٧٥ .

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٣ طقصوا . (المصحح) .

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٣ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٠ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٣ .

ويقدمه على الملك الأشرف . فذكر الوزير السلطان بذلك ، فعزله وانتدب لمرافعته[1] جماعة ، وشهد عليه آخرون بأمور برأه الله منها . وأوغلوا فى الكلام عليه ، ورموه بالعظائم . وكان محاشا منها[2] . فرسم عليه ، وصودر ، ونكل به .

وكان قصد الوزير الإخراق به ، بالضرب ، فحماه الله تعالى منه ، ثم تشفع[3] فيه الأمير بدر الدين بيدرا ، نائب السلطنة ، مع ما كان بينهما من الشحناء ، فأفرج السلطان عنه . وكان سبب هذه الشفاعة ، أن الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، أمير سلاح ، كان له اعتناء بقاضى القضاة تقى الدين ، فلما امتحن بهذه المحنة ، ورسم بمصادرته ، ضمّه إليه ، وعزم على سؤال السلطان فى أمره ، والشفاعة فيه . وكان السلطان قد قبض على الأمير سنجر الحموى ، المعروف بأبى خرص[4] ، وكان للأمير بدر الدين بيدرا به اعتناء ، فتحدث مع الأمير بدر الدين أمير سلاح ، أن يشفع فيه ، فاعتذر عن ذلك ، أنه يقصد أن يشفع فى قاضى القضاة ولا يمكنه أن يشفع فى اثنين فى وقت واحد . فاتفقا أن [الأمير] يشفع[5] فى قاضى القضاة . وأمير سلاح يشفع فى أبى خرص . فشفعا فيهما . فأفرج عنهما[6] .

---

(١) فى الأصل ، لمرافقته ، وماهنا بن ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٦ .

(٢) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٣ .

(٣) فى الأصل يتقع ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٧ .

(٤) فى الأصل حرص ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٧ . والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٣ .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٧ .

(٦) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٧ .

ذكر تفويض القضاء بالديار المصرية
لقاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى

لما عزل السلطان، قاضى القضاة تقى الدين عن القضاء، أشار الصاحب شمس الدين ابن السلعوس الوزير، بتفويض القضاء، للقاضى بدر الدين أبى عبد الله محمد ابن الشيخ برهان الدين أبى إسحاق إبراهيم بن أبى الفضل سعد الله ابن جماعة بن على بن جماعة بن حازم بن صخر بن عبد الله الكنانى الشافعى الحموى. وكان يتولى قضاء القدس الشريف والخطابة كما قدمنا. فاستدعاه الصاحب شمس الدين، فى يوم الأربعاء، تاسع شهر رمضان، فتوجه البريد إليه. وكان وصوله إلى القاهرة فى يوم الاثنين، رابع عشر شهر رمضان، سنة تسعين وستمائة. وكانت ولايته من قبل السلطان الملك الأشرف، فى يوم الخميس، سابع عشر الشهر. وفوض إليه مع القضاء، وتدريس المدرسة الصالحية، خطابة جامع الأزهر، وغير ذلك. وهذه ولاية قاضى القضاة بدر الدين الأولى[1].

وفى هذه السنة، فى شوال، أمر السلطان بإخراج الخليفة الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد، وأن يخطب للناس[2] بجامع القلعة، ويذكر السلطان فى خطبته. فخطب فى رابع عشرين شوال. وعليه شعار بنى العباس، وهو متقلد سيفا. فلما فرغ من الخطبة. لم يصلّ بالناس. وقدم قاضى القضاة بدر الدين، فصلى بهم صلاة الجماعة. واستمر يخطب بالقلعة، واستناب عنه بجامع الأزهر القاضى صدر الدين عبد البر ابن قاضى القضاة تقى الدين بن وزين.

---

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٢٧.

(٢) فى الأصل له، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٢٨، والمقريزى: السلوك جـ ١، ص ٧٧٣ — ٧٧٤.

وفيها ، فى ليلة الإثنين ، رابع ذى القعدة أمر السلطان باجتماع القضاة والفقهاء والأعيان والقراء ، بتربة والده السلطان الملك المنصور ، فاجتمعوا . وبات نائب السلطنة والوزير بالقبة المنصورية فى تلك الليلة . فلما كان وقت السحر ، من يوم الجمعة ، وحضر السلطان والخليفة إلى التربة ، والخليفة لابس السواد ، وخطب الخليفة خطبة بليغة . حرض فيها على أخذ العراق ، وكان يوما مشهودا . وتصدق السلطان بصدقات وافرة ، وعاد هو والخليفة إلى قلعة الجبل[1] .

وكتب السلطان إلى دمشق أن يُعْمَلَ مهم[2] ، مثل ماعمل بالقبة المنصورية . فاهتم[3] الأمير علم الدين الشجاعى نائب السلطنة بدمشق بذلك . وجمع الناس له فى ليلة الإثنين ، حادى عشر الشهر ، بالميدان الأخضر ، أمام القصر الأبلق . واجتمع الناس لتلاوة القرآن ، من ظهر يوم الأحد إلى نصف الليل ، من ليلة الإثنين . ثم تكلم الوعاظ ، وانصرف الناس فى بكرة النهار[4] .

ذكر متجددات كانت بدمشق

فى هذه السنة ، فى شوال شرع الأمير علم الدين الشجاعى ، نائب السلطنة بدمشق ، فى عمارة آدر[5] بقلعتها اقترحها السلطان عليه . واهتم بذلك ، وطلب الرخام

(١) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٤ .

(٢) فى الأصل منهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ .

(٣) فى الأصل فاهتم به ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١١٩ ، انظر مايلى .

(٤) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ .

(٥) آدر ، المنصوص بهذا اللفظ الدور السلطانية الواقعة بداخل القلعة بالقاهرة (المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٠ ، والقلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٣٧٦ .

من سائر الجهات . وكملت عمارة ذلك ، فى آخر سنة إحدى وتسعين .

وفيها ، فى تاسع شوال ، أمر السلطان الملك الأشرف بالقبض على الأمير سيف الدين قرارسلان[1] ، وجمال الدين أقوش الأفرم المنصوريين . فقبض عليهما الأمير علم الدين الشجاعى واعتقلهما بالقلعة . وأقطع السلطان إقطاعيهما[2] للأميرين عز الدين أزدمر العلائى ، وشمس الدين سنقر المسّاح .

وفيها ، فى ثانى شوال ، أمر الأمير علم الدين الشجاعى ، بإخراب ما على جسر الزلابية بدمشق ، من الحوانيت ، وبإخراب جميع ما هو مبنى على نهر بانياس[3] ونهر المجدول من تحت القلعة ، إلى باب الميدان الأخضر ، وإلى الخانقاه ، فأخربت المسايح[4] ودار الصناعة ، وبيوت ومساكن وخانات ودار الضيافة ، وحمام كان بنى للملك السعيد ، والمسايح[5] التى على نهر بردى ، والسقاية التى تعرف بالعجمى ، وسقاية أرجواش ، ولم يبق غير المساجد[6] .

وفيها ، فى يوم الخميس ، ثالث عشر ذى الحجة ، زاد الأمير علم الدين [الشجاعى] فى الميدان الأخضر الصغير ، الذى فيه القصر الأبلق ، مقدار سدسه من جهة الشمال إلى قريب النهر ، حتى صار بين حائط الميدان والنهر مقدار ذراع ونصف ذراع بالعمل[7] . وقسم الحيطان على الأمراء والأجناد وبعض

(١) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٨ .

(٢) فى الأصل إقطاعهما وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٨ .

(٣) فى الأصل باناس ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٨ .

(٤)،(٥) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٨ ، ولعلها المسابح .

(٦) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٨ .

(٧) ذراع العمل ، المقصود هو الذراع المتعارف عليه فى القياس . Dozy:Supp. Dict. Ar.

عوام البلد ، وعمل هو بنفسه ومماليكه ، فلم يوفر أحد نفسه من العمل ، فكانت عمارة ذلك فى يومين[1] .

وفيها ، فى العشر الآخر[2] من ذى الحجة ، قبض على الشيخ سيف الدين الرجيحى[3] وهو من ذرية الشيخ يونس . وجهز من دمشق إلى الباب السلطانى ، على خيل البريد .

وفى هذه السنة ، فى أوائلها ، كملت عمارة قلعة حلب . وكان الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورى ، نائب السلطنة بحلب ، قد شرع فى عمارتها فى الأيام المنصورية ، فكملت الآن ، وكتب عليها اسم السلطان الملك الأشرف . وكان هولاكو قد خربها كما تقدم ذكر ذلك[4] .

وفيها ، فى يوم الخميس ، ثالث عشر رجب ، كانت وفاة الأمير بهاء الدين يمك[5] الناصرى ، مقدم الميسرة بدمشق ، ودفن بسفح قاسيون ، بمقبرة الرباط الناصرى . وكان رجلا عاقلا قليل الاجتماع بالناس[6] .

---

(١) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ .

(٢) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ .

(٣) كذا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٤ ، نسبة إلى رجيح ، موضع ببلاد العرب . ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ، ص ٧٥٦ .

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ كما قدمنا شرحه ، ولا تختلف كثيرا عن عبارة النويرى .

(٥) فى الأصل بك ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٤ .

(٦) درج ابن الفرات على أن يفرد للوفيات موضعا خاصا ، على حين أن النويرى ، أوردها فى خاتمة الأحداث .

وفيها ، كانت وفاة الأمير سابق الدين لاجين العمادى ، رحمه الله تعالى . كان يتولى الأعمال القوصية قديما ، فى الدولة المعزية[1] ، إلى أوائل الظاهرية . وعمر بمدينة قوص مدرسة معروفة به . ثم ولى فى الدولة الظاهرية الأعمال الشرقية . وكانت وفاته بالقاهرة ، فى العشر الآخر[2] من شهر رمضان منها ، وذلك بعد عزله من الأعمال الشرقية ، وعمر نحو اثنتين وثمانين سنة . وكان دينًا خيرا ، كثير الصدقة والإحسان ، أمينا عفيفا ، ماسمع عنه ، أنه ارتكب معصية قط ، ولا شرب خمرا ، ولا ارتشى ، ولا أتى مكروها . وكان محترما عند الملوك . وأصله مملوك الصاحب عماد الدين ، وزير صاحب الجزيرة . ثم انتقل مع أستاذه فى أواخر الدولة الكاملية ، وتقدم فى الدولة الصالحية وما بعدها ، وولى الولايات . وكانت الولايات يومذاك لايصل إليها إلا أكابر الأمراء وثقاتهم ، رحمه الله[3] تعالى .

وفيها ، فى العشرين الأخر ، من شهر رمضان ، توفى الأمير علاء الدين أيدكين الصالحى ، نائب السلطنة بصفد بها ، رحمه الله[4] تعالى .

وفيها ، كانت وفاة الأمير سيف الدين قطز المنصورى . وكان من أكابر المماليك المنصورية ، وأكابر الأمراء . وكانت وفاته بحمص . وكان مجردا بها ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل على ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٣ .

(٢) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٣ .

(٣) انظر ترجمته فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٤) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٣ .

واستهلت سنة إحدى وتسعين وستمائة

[٦٩١ = ١٢٩١/١٢٩٢]

فى هذه السنة ، فى يوم الجمعة ، رابع عشر صفر ، وقع بقلعة الجبل حريق عظيم فى بعض الخزائن ، وأتلف شيئا كثيرا من الذخائر والنفائس والكتب[1] .

وفيها ، فى يوم الخميس ، حادى عشر شهر ربيع الأول ، أمر السلطان أن يجمع القراء والعلماء والأكابر ، بالقبة المنصورية ، لقراءة ختمة شريفة ، فاجتمع الناس لذلك . ونزل السلطان من الغد ، لزيارة قبر والده ، وتصدق بأموال جزيلة .

وفيها ، فى تاسع عشرين شهر ربيع الأول ، فى يوم الجمعة ، خطب الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد ، بجامع قلعة الجبل ، خطبة بليغة ، حث فيها على الجهاد ، وأمر بالنفير ، وصلّى بالناس الجمعة .

ذكر توجه السلطان إلى الشام[2]

وفى هذه السنة ، فى الساعة الثامنة من يوم السبت ، ثامن شهر ربيع الآخر استقل ركاب السلطان إلى جهة الشام ، بجميع العساكر . فوصل إلى دمشق ، فى يوم السبت سادس جمادى الأولى ، وأمر بالنفقة على جميع العساكر فى ثامن

---

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٥ ؛ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٧

(٢) هذا العنوان يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٥

الشهر ، ووصل صاحب حماه لتلقى السلطان[1] . ثم عرض السلطان الجيوش ، وقدمهم[2] أمام ركابه إلى جهة حلب ، وتوجه هو من دمشق فى الساعة الخامسة من يوم الاثنين ، سادس عشر جمادى الأولى ، ووصل إلى حلب فى ثامن عشرين الشهر[3] .

ذكر فتوح قلعة الروم وتسميتها قلعة المسلمين[4]

كان فتوح هذه القلعة ، فى يوم السبت ، حادى عشر رجب ، سنة إحدى وتسعين وستمائة . وذلك أن السلطان رحل من حلب بسائر العساكر المصرية والشامية ، فى رابع جمادى الآخرة ، ونزل على قلعة الروم ، يوم الثلاثاء ثامن الشهر وحاصرها وضايقها ، ونصب عليها عشرين منجنيقا ، خمسة منها إفرنجية ، وخمسة عشر قرابغا وشيطانية[5] . ورمى بالمجانيق ، وعملت النقوب ، فيسّر الله فتحها . وكانت مدة المقام عليها ، إلى أن فتحت ، ثلاثة وثلاثين يوما . وكان للأمير علم الدين الشجاعى فى فتحها النصيب الأوفى ، فإنه تحيّل فى عمل سلسلة بالقرب من شراريف القلعة ، [وأوثق طرفها بالأرض ، فتمسك الجند بها ، وطلعوا إلى القلعة][6] . وكان ممن طلع إلى القلعة ، سيف الدين أقجبا ، أحد مماليك

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٦ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٧ ، وأبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٥ ، ص ١٠٢

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٦ وقدم الجيش الشامى أمام ركابه إلى حلب .

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٦ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٧ — ٧٧٨

(٤) العنوان يتفق مع ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٦

(٥) أنواع المجانيق — انظر ما سبق ص ٤٧ حاشية ٢

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٦ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٧٨

الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، أمير سلاح ، ولم يكن من أعيان مماليكه ، بل كان فى خدمة ولده صلاح الدين خليل . فتحيل وطلع إلى سور القلعة ، وقاتل قتالا شديدا ، وجرح ثم رجع ، والسلطان ينظر إليه . فسأل عنه ، فعرف به ، فأرسل إليه خلعة ، وأنعم عليه بمال ، ووعده بإقطاع ، وأمر أستاذه الأمير بدر الدين ، أن يذكر السلطان به ، إذا عاد إلى حلب ، فلم يفعل . ثم صار بعد ذلك ، من جملة مقدمى الحلقة . وتأمّر بعد ذلك ، فى سنة تسع عشرة وسبعمائة بطبلخاناة ، وتولى عمل الفيوم من الديار المصرية . وفتحت القلعة عنوة[1] ، وقتل من كان بها من المقاتلة ، وسبيت النساء والذرية ، ووجد فيها بطرك الأرمن ، فأخذ أسيرا . ومحا السلطان عن هذه القلعة ، تسميتها بالروم ، وسماها قلعة المسلمين . ووصل إلى الزردخاناة السلطانية ، من الأسرى ألف أسير ومائتا أسير . واستشهد عليها من الأمراء : الأمير شرف الدين بن الخطير ، وشهاب الدين بن ركن الدين أمير جاندار . ورتب السلطان الأمير علم الدين الشجاعى لعمارة القلعة ، وأمره بإخراب ربضها وإبعاده عنها . فتأخر لذلك ، وصحبته عسكر الشام[2] .

ولما تم هذا الفتح ، أنشئت كتب البشائر إلى الممالك . وكان مما كتب إلى دمشق ، كتاب عن السلطان إلى قاضى القضاة شهاب الدين الحلوى[3] ونسخته :

---

(١) المطابقة تكاد تكون تامة بين النويرى وابن الفرات جـ ٨ : ص ١٣٦ — ١٣٧

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ : ص ١٤١ — ١٤٢ : والمقريزى : السلوك جـ ١ : ص ٧٧٨

(٣) فى الأصل الحلوبى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ١٣٦ وفى تاريخ سلاطين المماليك ص ١٠ : ابن الخربى . ولعله ينتمى الى خوى ، من مدن أذربيجان . انظر ، بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — جـ ٨ : ص ٥٤ حاشية ٣

بسم الله الرحمن الرحيم ، أخوه خليل بن قلاوون .

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى ، القاضى الأجل ، — وذكر القابه ونعوته — . خصه الله بأنواع التهانى ، وأتحفه بالمسرات التى تُعوِّذُ بالسبع المثانى . وأورد على سمعه ، من بشائر نصرنا وظفرنا ، ما يستوعب فى وصفه ومدحه الألفاظ والمعانى .

نبشره[1] بفتح ماسطرت الأقلام إلى الأقاليم أعظم من بشائره ، ولا نشرت برد المسرات ، بأحسن من إشارته وأشائره . ولا تفوهت ألسنة خطباء هذا العصر على المنابر ، بأفصح من معانيه ، فى سالف الدهر وغابره ، وهو البشرى بفتح قلعة الروم ، والهنا لكل من رام بالإسلام نصرا ببلوغ مارام وما يروم . [وَقَصُّ[2]] أحسن قصص هذا الفتح المبين ، والمنح الذى تباشر به سائر المؤمنين ، ونُساوى فى الإعلان والإعلام به كل من قرّعينا من الأبعدين والأقربين . ونخصّ بمسرى مبشراته الحكام ليعّموا بنشرها عامة الناس . ونفرض لكل ذى مرتبة عليّه منه نصيبا يجمع من الابتهاج والأنواع والأجناس . وذلك أنا ركبنا لغزوها ، من مصر ، وقد كان مَنْ قبلنا من الملوك ، يستبعد مداها ، ويناديها فلا يجيب إلا بالصد والإعراض صداها ، ويسائل عن جبالها[3] ، فتحيل فى الجواب على النسور المهومة ، ويستشير[4] أولى الرأى فى حصرها ، فلا يسمع إلا الأقوال المتلوبة والأراء

(١) فى الأصل تبشره ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٧ .

(٢) فى الأصل وابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٧ ، ومن ، وما هنا به يستقيم المعنى

(٣) فى الأصل خبائها ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٧ . وفى تاريخ سلاطين المماليك ص ١١ .

(٤) فى الأصل يستبشر ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٧ .

المتلومة . ومازلنا نصل السرى[١] ، ونرسل الأعنة إلى نحوها ، فتمدّ الجياد أعناقها إليها مدا ، ينقطع بين قوتها وقوته السير . واستقبلنا من جبالها[٢] كل صعب المرتقى ، وعر[٣] المنتقى ، شاهق لا يلقى[٤] به مسلك ولا يلتقى . فما زالت العزائم الشريفة تسهل[٥] حزونه ، والشكائم تفجر[٦] بوقع السنابك على حجارته[٧] عيونه[٨] ، والجياد المطهمة ترتقى ، مع امتطاء متونها بدروع الحديد متونه . فلما أشرف عليها منا أشرف سلطان ، جعل جبلها دكا ، وحاصرناها حصارا ألحقها بعكا وأخواتها ، وإن كانت أحصن من عكا . ونصبنا عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور ، وتقبض[٩] الأرواح من الأجسام وإن ضرب بينها وبينهم بسور ، وتفترس أبراجها بصقور صخور افتراس الأسد الهصور . هذا والقوب تسرى فى بدناتها سريان الخيال ، وإن كانت جفونها المسهدة ، وعمدها الممددة وحفظتها المجندة ، ورواسيها على جبل الفرات موطدة . وقد خندقوا عليها خندقا

(١) فى الأصل اليسرى ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٥ وتاريخ سلاطين المماليك ص ١١ .

(٢) فى الأصل حباتها ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ .

(٣) فى الأصل وعز ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ .

(٤) فى الأصل يلتقى ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ .

(٥) فى الأصل تستهل ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٧ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١١ .

(٦) فى الأصل تجرى ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١١ .

(٧) فى الأصل حجارتها . وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ .

(٨) فى الأصل عيونه ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٥ .

(٩) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ ، وتقتنص .

جرت فيه الفرات من جانب ونهر مرزبان من جانب، ووضعها واضعها على رأس جبل يزاحم الجوزاء بالمناكب، وسفح صرحها الممدد فكأنه عرش لها على الماء وإذا رمقها طرف رائيها اشتبهت عليه بأنجم السماء. وما زالت المضايقة تقص[1] من حبلها[2] أطرافه، وتستدر[3] بحلبها[4] أخلافه، وتقطع بمسائل جلاد معاولها وجدالها خلافه. وتورد عليها من مهامها كل إيراد لايجاوب إلا بالتسليم، وتقضى عليها بكل حكم لاتقابل توبته إلا بالتحكيم.

ولما أذن الله بالفتح الذى أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب، والمنح الذى أضفى[5] على أهل الإيمان من المجاهدين أثواب الثواب. فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره، فى يوم السبت حادى عشر شهر رجب الفرد. فسبحان من سهل صعبها، وعجل كسبها، وأمكن منها ومن أهلها، وجمع شمل الممالك الإسلامية بشملها. فالمجلس السامى يأخذ حظه من هذه البشرى، التى بشرت بها ملائكة السماء، ملك البسيطة وسلطان الأرض. وتكاثر على شكرها كل من أرضى الله طاعة وأغضب من لم يرض، من ذوى الإلحاد[6]، وممن حاد الله [و] حاد،

(١) فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٣٨: تعض.

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٣٨ جبلها.

(٣) فى الأصل وتسد، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٣٨، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١١.

(٤) فى الأصل عليها: وما هنا من ابن الفرات جـ ٨: ص ١٣٨: وتاريخ سلاطين المماليك ص ١١.

(٥) فى الأصل أصفى، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨: ص ١٣٨، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٣.

(٦) فى الأصل الايجاد، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٣٨، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٢.

وممن ينتظر من هذا الإيعاز[١] إنجاز الإبعاد ، فلا ينجيه الإمضاء[٢] هربا ولا الإبعاد . فإنه بفتح[٣] هذه القلعة وتوقلها[٤] ، وحيازة ثغرها ومعقلها ، تحقق من بسيحون وجيحون ، أنهم بعد فتح باب الفرات ، بكسر أقفال هذه القلعة لا يرجون أنهم ينجون[٥] .

وما يكون بعد هذا الفتح ، إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم والعراق ، وملك البلاد من مغرب الشمس إلى مطلع الإشراق . والله تعالى يمدنا من دعواته الصالحه ، بما تعدو به مقود الآمال حسنة الانساق ، إن شاء الله .

كتب يوم الفتح المبارك سنة إحدى وتسعين وستمائة ، حسب المرسوم الشريف[٦] .

وكُتب عن الأمير علم الدين الشجاعى ، نائب السلطنة بدمشق ، إلى قاضى القضاة ، شهاب الدين الحوبى[٧] أيضا . وهو من إنشاء الفاضل شرف الدين القدسى ، ما مثاله بعد البسملة :

---

(١) فى الأصل الإبعاد وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٢ .

(٢) فى الأصل الإنضاء ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٢ .

(٣) فى الأصل بفتح ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ .

(٤) فى الأصل توقلتها ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ .

(٥) فى الأصل يرجون ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ .

(٦) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٢

(٧) فى الأصل الحوبى ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٨ ، وفى تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣ شهاب الدين بن الخوبى .

ضاعف الله مسار الجناب العالى المولوى الفضائى الشهابى — وذكر القابه ونعوته — ولا زالت وفود البشائر إليه تترى ، وعقود التهانى تُنَضّ(١) إليه نظما ونثرا . وفواتح الفتح تتلى عليه لكل آية نصر يسجد لها القلم فى الطرس شكرا ، وتشتمل على أسرار الظفر فيأتى الإسماع من غرابتها بما لم يحط به خبرا(٢) . وتتحفه(٣) بظهور أثر المساهمة فتهدى إليه سرورا وأجرا .

المملوك يستفتح من حمد الله على ما منح من آلائه ، وفتح على أوليائه ، ووهب(٤) من الإعداء على أعدائه ، ويسرّ من الظفر الذى أيد فيه بنصره وأمدّ بملائكة سمائه ، ما يستديم الإنجاد بحوله ، ويستزيد به الأمداد من فضله وطوله . ويوالى(٥) من الصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما يستدر(٦) به أخلاف الفتوح ، ويسترهف بيمنه الصوارم التى هى على من كفر بالله ورسوله دعوة نوح . ويهدى من البشائر ما تختال به أعطاف المنابر سرورا ، ويتعطر بذكره أفواه المحابر حبورا ، وترشف(٧) الأسماع موارد وارده ، فيستحيل فى قلوب الأعداء

(١) فى الأصل تفض ، وفى تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣ تفضى لديه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٨ .

(٢) فى الأصل مما ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٩ وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٣ .

(٣) فى الأصل ، ويتحفه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٩ .

(٤) فى الأصل ورهب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٩ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٣ .

(٥) فى الأصل وتوالى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٩ .

(٦) فى الأصل يسترد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٩ .

(٧) فى الأصل ويرشف ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٩ .

نارا وفى قلوب الأولياء نورا . ويبادر مساهمة الحاضر فى استماعه كل باد[1] فينقلب إلى أهله مسرورا .

وينهى أنه أصدرها والنصر قد خفقت بنوده ، وصدقت وعوده ، وسار بمختلفات البشائر فى كل قطر بريده . والأعلام الشريفة السلطانية ، قد امتطت من قلعة الروم صهوة لم تذل لراكب . وحلت من قنتها[2] وقلتها بين الذروة والغارب . وأراقت أسنتها من دمائهم ما ترك الفرات[3] لايحل[4] لشارب . ومدّ الأيمان بها أطنابه ، وأجملت السيوف المنصورة الشرك أن يضم للرحلة أثوابه . واستقرت بها قدم الإسلام ثابتة إلى الأبد ، وقتلت بأرجائها ، سيوف أهل الجمعة ، حتى رق أهل السبت لأهل[5] الأحد . وأذهب الله عنها التثليث حتى كاد حكم الثلاثة أن يسقط من العدد ، وتبرأ منهم من كان يغرهم بامداده ، حتى الفرات لمجاورتهم ، ودّت النقص خوفا أن يطلق على زيادتها اسم المدد . ونطق بها الأذان فخرس[6] الجرس . وعلت بها كلمة الإيمان ، فأضحت لها بعد الإبتذال آية الحرس . وأسمعت دعوة الحق ما حولها من الجبال فسمعت وهى الصم ، ولبت الداعى بلسان الصدى الناطق عن شوامخها الشم .

(١) فى الأصل باد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ . وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٣ .

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ قبتها .

(٣) فى الأصل الفرات ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ .

(٤) فى الأصل لاتحل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ .

(٥) فى الأصل لأحد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٣ .

(٦) فى الأصل يجرس ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٢٩ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٣ .

وكانت هذه القلعة المذكورة للثغور الإسلامية بمنزلة الشجى فى الحلق[1]، والغلة فى الصدر، والخسوف الطارئ على طلعة البدر. لاتخلو من غل تضمره، فى لين تظهره، وغدر تستره، فى عذر تورده وتصدره. وقد سكن أهلها إلى مخادعة الجار، وموادعة التتار، وممالاتهم على الإسلام بالنفس والمال، ومساواتهم لهم حتى فى الزى والحال. يمدونهم بالهدايا والألطاف، ويدلونهم على عورات الأطراف. وهم يتقون بمسالمة الأيام، ويدعون أن قلعتهم لم تزل من الحوادث فى زمام، ويغترون بها. ولولا السطوات الشريفة، لحق بمثلها أن يغتر. ويسكنون إلى حصانتها كلما أومض فى حلك[2] السحب برق ثغرها المفتر.

وهو حصن صاعد منحدر، بارزه مستدير، لايطأ إليه السالك إلا على المحاجر، ولاتنظره العيون حتى تبلغ[3] القلوب الحناجر. كأنه فى ضمائر الجبال حب يقتل وهو كامن، ويجرف الظاهر وهو باطن. قد أرخت عليه الجبال الشواهق ذوائبها، ومدت عليه الغمائم أطنابها ومضاربها. وقد تنافست فيه الرواسى الرواسخ فأخفاه بعضها عن بعض وتقاسمته العناصر فهو للنكاية والرفعة والثبات ومجاورة الفرات مشترك بين النار والهواء والماء والأرض. وقد امتدت الفرات من شرقيها كالسيف فى كف طالب ثأر، واكتنفها من جهة الغرب نهر آخر استدار نحوها كالسور وانعطف معها كالسوار. وفى قنة[4] قلتها جبل يرد الطرف وهو كليل،

---

(١) فى ابن الفرات، جـ ٨، ص ٣٩. العبارة هكذا: بمنزلة الشجى فى الحلق والنشوه فى الحلق والعلة. (المصحح).

(٢) فى الأصل حلل، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ١٣٩

(٣) فى الأصل تبلغه، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٣٩.

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٣٩ قمة

ويصل[1] النظر إلى تخيل[2] هضابه فلا يهتدى إلى تصورها بغير دليل ، وكذلك من شرقها وغربها ، فلا تنظرها الشمس وقت الشروق[3] ، ولا يشاهد بها [القمر] وقت الأصيل . وحولها من الأودية خنادق لا يعرف فيها الهلال إلا بوصفه ، ولا الشهر إلا بنصفه .

وأما الطريق إليها فيزل[4] الذرعن متنها . ويكل طرفُ الطرف عن سلوك سهلها فضلا عن حزنها . وبها من الأرمن عصب جمعهم التكفور[5] ، ومن التتار فرق زيادتهم للتغوير[6] ، قد بذلوا دونها النفوس ، وتدرعوا للذب عنها لبوس .

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ يصل .

(٢) فى الأصل يخيل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٤ .

(٣) عبارة « وقت الشروق ... » وردت فى ص ٨٧ من المتن الأصلى بدلا من ص ٦٧ . وترتب على ذلك أن اختل السياق بين ص ٦٧ ، ٨٧ ، ولذا جرى ترتيب الصفحات ، بما يتفق مع الترتيب الزمنى للأحداث ، وهنا وضحت أهمية ابن الفرات فى تقويم العبارات وتنظيمها .

(٤) فى الأصل فنزل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٤ .

(٥) فى الأصل تربها ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٤ .

(٦) فى الأصل ، وابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ التكسير ، وما هنا من تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤ .

والتكفور لفظ أرمنى ، أصله Tayavor ، ومعناه الملك . ولم يطلقه المؤرخون العرب فحسب على ملوك سيس (أرمينيا الصغرى) ، بل قصدوا به أيضا الأباطرة البيزنطيين فى القسطنطينية ، انظر Dozy: Supp: Dict. Ar.

(٧) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ التصوير .

وأقدموا على شرب كأس الحمام ، خوفا أن يكفرهم التكفور ؛ ويحرمهم خليفتهم الحاكم بها ، كتبغا نميكوص (١) . وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم ، وفسح فى ميدان الضلالة آمالهم ، فلما تراءت الفئتان ، نكص على عقبية ، وترك (٢) كلا منهما يعض من الندم يديه (٣) . وحين أمر مولانا السلطان ، خلّد الله سلطانه ، الجيوش المنصورة بالنزول عليها ، والهجوم من خلفها ومن بين يديها ، ذللت مواطىء جيادها صهوات تلك الجبال . وأحاطت بها من كل جانب إحاطة الهلال بالهلال . وسلكوا إليها تلك المخارم (٤) ، وقد تقدمهم (٥) الرعب هاديا وأقدموا على [قطع (٦)] تلك المسالك والمهالك ، بالأموال والأنفس ، ثقة بأنهم لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا . فلم يكن بأسرع من أن طار إليهم الحمام ، فى أجنحة السهام . وخضبت (٧) الأحجار تلك الغاده العذراء (٨) للضرورة ،

---

(١) كذا فى الأصل . وفى تاريخ سلاطين المماليك ص ١٥ ، كيتبغا نميكوص

(٢) فى الأصل وزل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥ .

(٣) فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ منهم ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) فى الأصل المخارم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ١٤٠ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥

(٥) فى الأصل تقدم منهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥ .

(٧) فى الأصل خضبت ، وما هنا بن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥

(٨) فى الأصل العادة العدراء ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥

وللضرورات أحكام . وأزالت النقابة[1] عنها نقاب احتشامها ، ودبّت فى مفاصلها دبيب السقم فى عظامها ، مع أنها مستقرة على الصخر الذى لا مجال فيه للحديد ، ولكن الله أعز بالنصر سلطاننا فجاءت أسباب الفتح على ما يريد . وأقيمت المجانيق المنصورة أمامها فأيقنوا بالعذاب الأليم ، وشاموا بروق الموت من عواصف أحجارها التى ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم . وساهموها صلاة الخوف ، فلسهامهم الركوع ، ولبروجهم السجود ، ولقلعتهم التسليم . ولم تزل تشن عليهم غارة بعد غارة ، وتسقيهم على الظمأ صوب[2] أحجارها ، وإن من الحجارة ، وهى مع ذلك تظهر الجلد والجلد ، وتغضب غضب الأسير ، على القد . وتخفى ما تكابد من الألم ، وتشكو بلسان الحال شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ، إلى أن جاءت[3] من الأنجاد[4] ما كانوا يأملون . وسطت مجانيقنا[5] على مجانيقهم فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . وكلما سقطت أسوارها ، وتهتكت بيد النقوب[6] أستارها ، وتوهم الناظر أنها هانت ، رآها المباشر فى تلك الحالة

(١) فى الأصل إزالة وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠

(٢) فى الأصل صوت وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥

(٣) فى الأصل خاب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥

(٤) فى الأصل الإيجاد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١

(٥) فى الأصل مجانيقهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١

(٦) فى الأصل النقوب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥

أشد ما كانت ، وثبتت على الرمى والارتماء ، وعزت[1] على من اتخذ نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء ، واستغنت بمكان السور ، وانفضت أحجارها على أسوار الحرب انقضاض النسور .

وكان الفتح المبارك فى صباح يوم السبت ، حادى عشر رجب الفرد ، سنة إحدى وتسعين وستمائة بالسيف عنوة . فشفت[2] الصوارم من أرجاس الكفر العلل[3] بقمع[4] العدي وكبتها . وسطا خميس الأمة يوم السبت ، على [أهل[5]] يوم الأحد ، فبارك الله لخميس الأمة فى سبتها .

فليأخذ [القاضى[6]] من هذه البشرى ، التى أصبح الدين بها عالى المنار ، بادى الأنوار . ضارب مضارب دعوته على الأقطار ، ذاكرا بموالاة[7] الفتوح أيام الصدر الأول من المهاجرين والأنصار . وليشعها على رءوس الإشهاد

---

(١) فى الأصل وعزب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٥

(٢) فى الأصل فسقت ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٦

(٣) فى الأصل الفلل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٦

(٤) فى الأصل بقمع ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٦ .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٦

(٦) الإضافة يتطلبها السياق .

(٧) فى الأصل موالات ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٦

ويجعلها فى صحف الفتوح السالفة بمنزلة المعنى فى القرينة والمثل فى الاستشهاد ، ويمد الجيش بهمته التى تهف الهمم ، وأدعيته التى تساعد الساعد وتؤيد اليد وتقدم القدم . ويشارك بذلك فى الجهاد حتى يكون فى نكاية الأعداء على البعد كسهم أصاب ورامية بذى سلم . ويستقبل من البشائر بعدها ما تكون له هذه بمنزلة العنوان فى الكتاب ، والأحاد فى الحساب ، وركعة النافلة بالنسبة إلى الخمس ، والفجر الأول قبل طلوع طلعة الشمس .

والله تعالى يجعل شهاب فضله لامعا ، ونور علمه فى الأفاق ساطعا ، ويتحفه من مفرقات[1] التهانى بكل ما يغدو[2] لشمل المسرات جامعا ، إن شاء الله تعالى .

كتب فى يوم الفتح المذكور[3] .

وكتب غير ذلك من كتب البشائر ، اقتصرنا منها على ما أوردناه[4] .

ثم رحل السلطان من قلعة الروم إلى حلب ، فأقام بها بقية شهر رجب ، ونصف شعبان . وعزل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى عن نيابتها ، ورتب بها الأمير سيف الدين بلبان الطباخى المنصورى . وجعل الأمير عز الدين أيبك الموصلى شاد الدواوين .

---

(١) فى الأصل تقربات وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٦ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٦

(٢) فى الأصل بعد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ١٦

(٣) هذه الرواية بأكملها تقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٣٩ — ١٤١

(٤) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤١

وقيل إنه ولاه قلعة الروم وما جمع إليها[1] ، فامتنع من قبول هذه الولاية . فغضب السلطان وأمر بالقبض عليه ، وفوض ذلك إلى الأمير جمال الدين أقش الفارسى فبقى بها أياما وتوفى ، فأعاد السلطان الأمير عز الدين الموصلى . ورحل السلطان عن حلب إلى دمشق ، فكان وصوله إليها ، فى يوم الثلاثاء العشرين من شعبان فأقام بها بقية شعبان وشهر رمضان وبعض شوال .

وفيها ، حصل لجمال العسكر مرض ، سلّت منه حتى جافت الوطاقات منها . ولم يجد الأمراء من الجمال مايحملون عليه أثقالهم ، فحملوها على البغال والأكاديش .

ذكر توجه الأمير بدر الدين بيدرا وبعض العساكر الى جبال الكسروان واضطراب العسكر

وفى هذه السنة ، فى شعبان توجه الأمير بدر الدين بيدرا بمعظم العساكر المصرية ، وصحبته من الأمراء الأكابر ، الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكى ، والأمير بدر الدين بكتوت العلائى وغيرهم ، وقصد جبال الكسروان . وأتاهم من جهة الساحل ، الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا ، والأمير عز الدين أيبك الحموى وغيرهما . والتقوا بالجبل ، وحضر [إلى][2] الأمير بدر الدين بيدرا من أثنى عزمه[3] . وكسر حدته . فحصل الفتور فى أمرهم ، حتى تمكنوا من بعض

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٠ قلعة المسلمين

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٢

(٣) فى الأصل أنى ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٢

العسكر ، فى تلك الأوعار ، ومضايق الجبال ، فنالوا منهم . وعاد العسكر شبه المنهزم ، وطمع أهل تلك الجبال ، فاضطر الأمير بدر الدين إلى إطابة قلوبهم والإحسان إليهم . وخلع على جماعة من أكابرهم ، فاشتطوا فى الطلب ، فأجابهم إلى ما التمسوه ، من الإفراج عن جماعة منهم ، كانوا قد اعتقلوا بدمشق ، لذنوب وجرائم صدرت منهم . وحصل للكسروان من القتل والنهب والظفر ، مالم يكن فى حسابهم . وحصل للأمراء والعسكر من الألم لذلك ، ما أوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة ، ونسبوه إلى أنه إنما أهمل أمرهم ، وفتر عن قتالهم ، حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه ، وأنه تبرطل منهم وأخذ جملة كثيرة ، ولهج الناس بذلك . وتوجه الأمير بدر الدين بيدرا بالعساكر إلى دمشق . فتلقاه الملك الأشرف ، وأقبل عليه وترجل لترجله عند السلام [عليه][1] . فلما خلا به ، أنكر عليه سوء اعتماده وتفريطه فى العسكر ، فعرض لذلك ، حتى أشاع[2] الناس أنه سق . ثم عوفى فى العشر الأوسط من شهر رمضان ، فتصدق السلطان بجملة كثيرة ، شكرا لله تعالى على عافيته ، وأطلق جماعة كثيرة ممن كان فى السجون . وتصدق هو أيضا بجملة ، ونزل عن كثير مما كان قد اغتصبه من أملاك الناس ، بالإيجار[3] الذى هو على غير الوجه الشرعى . وجمع العلماء والقضاة والقراء والمشايخ ، فى العاشر من شهر رمضان ، بالجامع بدمشق لقراءة ختمة . وأشعل[4] الجامع فى هذه الليلة ، كما

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٣

(٢) فى الأصل شنع ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٣

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٣ بالانجار

(٤) فى الأصل أشغل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٣

يشغل[1] فى نصف شعبان .

ذكر هرب الأمير حسام الدين لاجين والقبض عليه واعتقاله ، والقبض على طقصوا[2]

وفى هذه السنة ، فى ليلة عيد الفطر ، هرب الأمير حسام الدين لاجين من داره بدمشق . فنودى عليه ، من أحضره فله ألف دينار ، ومن أخفاه شنق . وركب السلطان فى خاصكيته وجماعة من الأمراء . وترك سماط العيد ، وساق فى طلبه ، وعاد بعد العصر ، ولم يظفر به[3] .

واتفق أنه التجأ إلى طائفة من العرب كان يثق بصحبتهم . فقبضوا عليه وجىء به إلى السلطان فاعتقله . وقبض أيضا على الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا ، وجهز إلى قلعة الجبل . وكان السبب فى القبض على طقصوا ، أنه كان قد تكلم على الأمير بدر الدين بيدرا . وقال إنه ارتشى من الكسروان . فوجد بيدرا عليه ، وأسرها فى نفسه ، وتربص به الدوائر . فلما قبض على الأمير حسام الدين لاجين ، خاطب بيدرا السلطان فى القبض على طقصوا ، لأن لاجين كان قد تزوج ابنته ، فقبض عليه .

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام والفتوحات وعود السلطان إلى الديار المصرية

وفى هذه السنة ، فوض السلطان نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير عز الدين أيبك

(١) فى الأصل يشغل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٣

(٢) فى الأصل تقصو ، وما هنا هو الرسم المعروف فى كل المصادر المعاصرة ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٣

(٣) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٤

الحموى الظاهرى، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى. وفوّض نيابة السلطنة بالفتوحات[1] للأمير سيف الدين طغريل الإيغانى[2]، عوضا عن الأمير سيف الدين بلبان الطباخى، بحكم انتقاله إلى نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية كما تقدم[3]. ثم عاد السلطان إلى مقر ملكه بقلعة الجبل. وكان رحيله من دمشق، فى الثلث الآخر من ليلة الثلاثاء عاشر شوال. وكان قد رُسم لأهل الأسواق بدمشق أن يخرج كل واحد منهم، وبيده شمعة يوقدها، عند ركوب السلطان، فخرجوا بأجمعهم. ورتبوا من باب النصر [أحد أبواب دمشق][4]، إلى مسجد القدم. ولما ركب السلطان، اشتعلت تلك الشموع، وساق وهى كذلك إلى نهاية ذلك الجمع. وكان وصول السلطان إلى قلعة الجبل، فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة.

ذكر عدة حوادث

كانت فى خلال فتح قلعة الروم وقبله وبعده

فى هذه السنة، فى أواخر شهر ربيع الآخر، ورد البريد من الرحبة إلى دمشق، يخبر أن طائفة من التتار، أغاروا على ظاهر الرحبة، واستاقوا مواشى كثيرة. فجرد نائب السلطنة إليها جماعة من عسكر دمشق، فى ثامن عشرين الشهر[5].

---

(١) الفتوحات، المقصود بالفتوحات ما استولى عليه السلطان من الصليبيين من الممتلكات مثل طرابلس وحصن المرقب وما إليها، وجعل منها نيابة خاصة.

(٢) فى الأصل الإيغانى، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٤٤.

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٤٤ كما قدمنا شرحه.

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٤٥

(٥) على الرغم من التوافق بين النويرى وابن الفرات فى الروايات، غير أن الاختلاف واضح بينهما فى ترتيبها. النويرى اهتم أولا بإيراد الأحداث الهامة، دون أن يراعى فيها الترتيب الزمنى، بينما التزم ابن الفرات الترتيب الزمنى فى رواية الأحداث — انظر ابن الفرات جـ ٨، ص ١٣٥.

وفيها ، فى العشر الأوسط من جمادى الأولى ، تزوج الأمير شمس الدين سنقر الأعسر ، بابنة الصاحب شمس الدين بن السلعوس ، على صداق مبلغه ألف دينار وخمسمائة دينار عينا ، عجّل من ذلك خمسمائة دينار .

وفيها ، بعد أن توجه السلطان إلى قلعة الروم بأيام يسيرة ، تسوّر عبد أسود إلى أسطحة أدر الحرم السلطانية بقلعة دمشق . فأُمسِك وقُرِّر ، فذكر أن أحد المؤذنين بجامع القلعة نصب له سلّما ، وأصعده إلى هناك . فطولع السلطان بذلك ، فورد المرسوم بقطع أطرافهما وتسميرهما ، ففعل ذلك بهما[1] .

وفيها ، فى شعبان طلّق الملك المظفر ، صاحب حماه ، زوجته ، وهى ابنة خاله الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، ابن الملك العزيز محمد ، ابن الملك الظاهر غازى ، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فعاب الناس عليه ذلك ، واستقبحوه [منه[2]] . وتوجهت هى من حماه إلى الديار المصرية ، فتوفيت بعد وصولها إليها بعشرين يوما .

وفيها ، بعد أن توجه السلطان من دمشق إلى الديار المصرية ، استعفى القاضى محيى الدين بن النحاس ، من مباشرة نظر الدواوين بالشام ، فأعفى من ذلك . ورتب فى نظر الخزانة عوضا عن أمين الدين بن هلال . ورتب فى نظر الدواوين جمال الدين إبراهيم بن صصرى .

وفيها ، أفرج السلطان عن الأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، بعد عوده من قلعة الروم ، وأمر بإحضاره من الديار المصرية إلى دمشق ، فأحضر . فخلع عليه السلطان ، واستصحبه معه إلى الديار المصرية وأمّره .

(١) هذا الخبر لم يرد فى ابن الفرات .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٢ .

وفيها، رتب السلطان الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار المنصورى، فى تقدمة المماليك السلطانية[1].

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وجرمك الناصرى ووفاتهما، ووفاة طقصوا والإفراح عن الأمير حسام الدين لاجين

وفى هذه السنة، لما عاد السلطان إلى الديار المصرية، قبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير سيف الدين جرمك الناصرى. وأمر باعدامهما، وإعدام طقصوا ولاجين. فكان الذى تولى خنق لاجين، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى، فتلطف به، وانتظر أن تقع به شفاعه. فشفع فيه الأمير بدر الدين بيدرا، فأمر السلطان بالإفراج عنه، وهو يظن أنه قدمات[2]. فسلّمه الله تعالى، لما كان له فى طى الغيب ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى[3]. وقيل إن السلطان قبض على سنقر الأشقر من دمشق.

وفيها، فى منتصف شهر رمضان، توفى القاضى فتح الدين محمد ابن القاضى محيى الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء. وكانت وفاته بدمشق، ودفن بسفح قاسيون. ومولده فى أحد الربيعين[4]، سنة ثمان وثلاثين وستمائة. وكان قد تمكّن فى الدولة المنصورية، والدولة

(١) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٤٥.

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٤٥ — ١٤٦.

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٤٦، إشارة إلى ما سوف يذكر بعد، وهو السلطنة بالديار المصرية والشام والبلاد الشامية.

(٤) فى الأصل الربيعين، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٥٢.

الأشرفية تمكنا كثيرا ، وتقدم على أبيه وغيره . ولما اعتل ، رحمه الله ، كتب إلى أبيه :

إن شئت تنظرنى وتنظر حالتى قابل إذا هب النسيم قبولا
لتراه مثلى رقة ولطافة[1] ولأجل قلبك لا أقول عليلا
وهو الرسول إليك منى ليتنى كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

ولما مات ، أجرى السلطان الملك الأشرف جامكيته وجرايته وراتبه ، على ولده القاضى ، علاء الدين على[2] ، واستقر فى جملة كتاب الإنشاء . وَوَلِىَ صحابة ديوان الإنشاء ، بعد وفاة القاضى فتح الدين ، القاضى تاج الدين أبو الظاهر أحمد ابن القاضى شرف الدين أبى البركات سعيد بن الشمس لدين أبى جعفر محمد ابن الأثير الحلبى التنوخى ، فلم يلبث إلا شهرا أو قريبا من شهر ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى . وكانت وفاته ، يوم الخميس تاسع عشر شوال من هذه السنة ، بظاهر غزة ، ودفن هناك رحمه الله تعالى . وولى بعده صحابة ديوان الإنشاء ، ولده القاضى عماد الدين إسماعيل ، واستمر إلى آخر سنة اثنتين وتسعين وستمائة[3] .

وفيها ، فى يوم السبت العشرين من شوال ، توفى الأمير سابق الدين الميدانى بدمشق ، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى .

---

(١) فى ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ٣٥ ، نحافة .

(٢) فى الأصل على الدين ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٤ .

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٤٤ .

واستهلت سنة اثنتين وتسعين وستمائة

[٦٩٢ - ١٢٩٢ / ١٢٩٣]

فى هذه السنة ، فى أولها فوض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والحصون ، إلى الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصورى ، عوضا عن الأمير سيف الدين طغربل الإيغانى[1] ، بحكم استعفائه من النيابة ، وسؤاله . فوصل إلى دمشق فى سابع عشرين المحرم ، وصحبته خمسة أمراء بطبلخاناة ، وتوجه إلى جهته .

وفيها ، فى صفر ، حصل ببلاد غزة والرملة ولد[2] والكرك ، زلزلة[3] عظيمة ، كان معظمها بالكرك ، فإنها هدمت ثلاثة أبراج من قلعتها . فندب الأمير علاء الدين أيدغدى الشجاعى من دمشق ، وصحبته الصناع لعمارة ما انهدم بالكرك .

وفيها ، أمر السلطان بالقبض على الأمير عز الدين أزدمر العلائى ، أحد الأمراء بدمشق : فقُبض عليه ، وجهز إلى الأبواب السلطانية فى غرة شهر ربيع الأول[4] .

---

(١) فى الأصل الإبغانى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٣ .

(٢) فى الأصل الد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٣) فى الأصل كرك ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٤) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٥ .

ذكر توجه السلطان إلى الصعيد

وفى هذه السنة، توجه السلطان إلى جهة الصعيد للصيد ، واستصحب معه الصاحب شمس الدين [بن السلعوس[1]] ، وترك الأمير بدر الدين بيدرا بقلعة الجبل . وانتهى السلطان إلى مدينة قوص، وتصيد بها . وأمر الحجاب والنقباء أن ينادوا[2] فى العسكر أن يتجهزوا لغزو اليمن . ثم عاد السلطان إلى قلعة الجبل .

ولما كشف الصاحب شمس الدين [بن السلعوس[3]] الوجه القبلى فى هذه السفرة ، وجُدت الجهات الجارية فى ديوان الأمير بدر الدين بيدرا من الاقطاعات والمشتروات[4] والحمايات[5] ، أكثر مما هو جار فى الخاص السلطانى . ووجد الشون[6] السلطانية[7] بنواحى الوجه القبلى ، خالية من الغلال والحواصل ، وشون الأمير بدر الدين بيدرا مملوءة . فأنهى ذلك إلى السلطان وأطلعه عليه ، فتغير السلطان على بيدرا . واتصل هذا الخبر به ، فقصد تلافيه . وجهز للسلطان تقدمة عظيمة ، كان من جملتها ، خيمة أطلس معدنى أحمر ، بأطناب ابريسم[8]

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٣ .

(٢) فى الأصل بيادروا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٣) الإضافة للتوضيح .

(٤) فى الأصل المستروات ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٥) فى الأصل الحامات ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

والحمايات ، هى مكوس يفرضها الأمير على بعض الأراضى والمتاجر والمراكب لحمايتها . القلقشندى ، صبح الأعشى جـ ١٣ ، ص ١٥٧ (المصحح).

(٦) فى الأصل الشئون ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٧) فى الأصل السلطانى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٨) فى الأصل ابريسم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

بأعمدة صندل ، محلاة ومفصلة[1] بالفضة المذهبة ، وبسطها[2] ببسط الحرير ، وما يناسب هذه الخيمة من التقادم . وضرب هذه الخيمة بالعدوية[3] ، فنزل السلطان بها ساعة من نهار ، وما أظهر البشاشة للتقدمة[4] ، ولا استحسنها مع عظمها . ثم ركب وطلع إلى قلعة الجبل ، وارتجع بعض جهات بيدرا الخاص [السلطانى][5]

ذكر توجه السلطان الى الشام وأخذ بهسنا من الأرمن ، واضافتها الى الممالك الإسلامية

وفى هذه السنة ، بعد عود السلطان من جهة الصعيد ، تجهز بعساكره إلى إلى الشام . وأمر الأمير بدر الدين بيدرا ، أن يتوجه بالعساكر إلى دمشق على الطريق الجادة[6] . وتوجه الصاحب بالخزانة إليها ، وركب السلطان على الهجن ، وفى خدمته جماعة من الأمراء والخاصكية . وتوجه إلى الكرك وشاهد حصنها ورتب أموالها ، وتوجه منها إلى دمشق . فكان وصوله إليها ، فى تاسع جمادى الآخرة . ووصل نائب السلطنة والصاحب قبله بثلاثة أيام .

ولما حلّ ركابه بدمشق ، أمر بتجهيز العساكر إلى بلاد سيس ، فوصل رسل صاحب سيس ، يسألون مراحم السلطان وعواطفه ، ويبذلون له الرغائب .

---

(١) فى الأصل مفضة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٢) فى الأصل وبسط ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٣) العدوية ، بلدة صغيرة خارج القاهرة ، وكانت حسبما ورد فى ابن دقاق ، كتاب الانتصار جـ ٥ ، ص ٤٣ ، بالقرب من بركة الحبش ، وهى ما بينها وبين طرا على الضفة الغربية للنيل .

(٤) التقدمة ، المقصود هنا الهدية .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٤ .

(٦) فى الأصل الجاد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٥ .

فاتفق الحال على أن يسلموا لنواب السلطان بهسنا ومرعش وتل حمدون . فأعاد السلطان رسله ، وصحبتهم الأمير سيف الدين طوغان والى بر دمشق ، فتسلمها وبلادها . ووصل البريد بذلك فى العشر الأول من شهر رجب . ودقت البشائر لذلك . ورتب السلطان فى نيابة السلطنة ببهسنا[1] ، الأمير بدر الدين بكتاش المنصورى ، وعين لها قاضيا خطيبا . واستخدم بها رجالا وحفظة . ثم وصل الأمير سيف الدين طوغان، وصحبته رسل سيس ، بالحمل والتقادم . وكان وصولهم إلى دمشق، فى ثامن عشرين شهر رجب بعد عود السلطان ، فتوجهوا إلى الديار المصرية .

وهذه بهسنا من أعظم القلاع وأحصنها ، ولها ضياع كثيرة . وهى فى فم الدربند[2] ، وكانت بيد ملوك الإسلام بحلب ، إلى أن ملك هولاكو حلب . وكان النائب بها من جهة الملك الناصر ، الأمير سيف الدين العقرب ، فأباعها لصاحب سيس ، بمائة ألف درهم ، أعطاه منها ستين ألف درهم ، وتسلمها الأرمن [أهل سيس][3] ، وبقيت فى أيديهم إلى الآن[4] .

ذكر القبض على الأمير حسام الدين مهنا ابن عيسى وأخوته

وفى هذه السنة ، فى ثانى[5] من شهر رجب ، توجه السلطان من دمشق إلى

(١) فى الأصل بهنسا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٥ .

(٢) فى الأصل الدر بند ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٥ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٦ .

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٦ ، إلى أن حل ركاب السلطان الأشرف .

(٥) فى الأصل ثامن وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٦ ؛ انظر ما يلى .

حمص ، بجماعة من العساكر ، وأعاد ضعفة العساكر إلى الديار المصرية . ثم توجه السلطان من حمص إلى سلمية ، فى ضيافة الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى. فلما قدّم للسلطان ضيافته ، أمر بالقبض عليه ، وعلى إخوته فقبض عليهم[1] ، وهو على الطعام ، وجهّزه تحت الاحتياط ، صحبة الأمير حسام الدين لاجين ، فوصل به إلى دمشق ، فى يوم الأحد سابع شهر رجب . ووصل السلطان إلى دمشق ، فى بقية النهار . وجعل السلطان إمرة العرب ، بعد القبض على مهنا ، لابن عمه الأمير محمد بن أبى بكر على بن حذيفة[2] . ثم أمر السلطان الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة ، أن يتوجه بالعساكر إلى الديار المصرية ، هو والصاحب شمس الدين والخزانة ، كما حضرا [من حمص][3] . فتوجها من دمشق فى يوم الخميس حادى عشرة شهر رجب . وتوجه السلطان بعدهما ، ببعض الأمراء والعساكر . وركب من دمشق فى الساعة السابعة من يوم السبت ثالث عشر الشهر . وأراد بذلك الانفراد بنفسه وخواصه ، والأنفراد بهم[4] فى الصيد ، وأن لايشتغل بالعساكر . ووصل إلى غزة ، فى بكرة يوم الأربعاء سابع عشر الشهر . ووصل إلى القاهرة فى الثامن والعشرين من شهر رجب[5] .

ذكر هدم قلعة الشوبك

وفى هذه السنة ، فى شهر رجب ، أمر السلطان الأمير عز الدين أيبك

---

(١) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٦ .

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٦ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٧ .

(٤) كذا فى الأصل ، ولم ترد هذه العبارة فى ابن الفرات .

(٥) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٧ .

الأفرم ، أمير جاندار أن يتوجه إلى قلعة الشوبك ويهدمها ، وذلك عند توجه السلطان من دمشق إلى حمص . فراجعه فى ذلك ، وبيّن له فساد هذا الرأى ، فانتهره ، فتوجه إليها وهدمها ، وأبقى القلة . وكان هدمها من الخطأ ، وسوء التدبير ، فإن القلاع والحصون معاقل الإسلام ، وذخائر المسلمين ، وإليها يلجأون فى أوقات الشدائد والحصارات ، ومنازلة الأعداء ، وهو أمر لا يؤمن[1] .

[وبعد عود السلطان إلى الديار المصرية[2]] ، رسم السلطان للأمير سيف الدين طوغان ، أن يتوجه إلى نيابة السلطنة ، بقلعة المسلمين[3] ، عوضا عن الأمير عز الدين أيبك الموصلى المنصورى . وولى الأمير سيف الدين استدمر[4] كرجى بر دمشق[5] ، عوضا عن طوغان .

ذكر حادثة السيل ببعلبك

وفى هذه السنة ، فى رجب ، وصل كتاب النائب ببعلبك ، يخبر أنه وقع على مدينة بعلبك ، أمطار وثلوج كثيرة جدا ، وأن المطر كان ينزل [وكأنه[6]] قد جبل بطين ، وأن السيل وصل إلى باب بعلبك ، المسمى بباب دمشق ،

---

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٦ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٧ .

(٣) قلعة المسلمين هى قلعة الروم ، وجرى إطلاق هذا الاسم بعد أن تم الاستيلاء عليها ، وتقع فى غربى نهر الفرات ، بالقرب من البيرة ، وأميرها من الأرمن ، (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٤) فى الأصل أسدمر ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٧ .

(٥) فى الأصل تردومر وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٧ .

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٧ .

وعلا حتى وصل إلى شرفات السور . ثم انحدر بعد ذلك ، واقتلع كروما كثيرة ، ونقل أحجارا وصخورا ، وطم أكثر الطرقات ، وأنه أحصى ما أفسد ببعلبك ، وكانت قيمته تزيد على مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار .

وفيها ، أمر السلطان ، بالقبض على الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، أمير جاندار ، فقبض عليه في شوال ، ووقعت الحوطة على موجوده وحواصله بالديار المصرية والشام .

ذكر ختان الملك الناصر ، وما حصل من الأهتمام بذلك

وفي هذه السنة ، أمر السلطان بالأهتمام ، لختان أخيه الملك الناصر ، ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور ، وأن ينصب القبق[1] تحت قلعة الجبل مما يلي باب النصر . فنصب في العشرين من ذي الحجة ، ورماه الأمراء والأكابر ومن له ولمثله عادة بذلك . وفرّق السلطان الأموال على من أصابه . وكان ممن

---

(١) القبق لفظ تركي معناه القرعة ، ووصف المقريزي : المواعظ والاعتبار لعب القبق ، بأن القبق عبارة عن خشبة عالية ، تنصب في براح من الأرض ، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، ويقف الرماة بقسيهم ، يرمون بالسهام جوف الدائرة ، لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك ، تمرينا لهم على احكام الرمي ، ويعبر عن هذا بالقبق في لغة الترك . وأشار Dozy: supp. Dict. Ar. في وصفة للقبق ، إلى أن في رأس الصاري (الخشبة) شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف ، ويكون في القرعة طائر وتتبارى اللاعبون وهم على ظهور الخيل في رمي الهدف بالنشاب . فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام ، حاز السبق ، وأخذ القرعة مكافأة له .

المقريزي : السلوك جـ ١ ، ص ٥١٨ حاشية ٦

أصابه الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى . فرماه ما لم يرمه[1] غيره قبله . وذلك أنه كان قد اقترح سرجا وطىء الرادفة[2] جدا . فلما رآه السلطان ، قال له قد كبرت يا أمير بدر الدين ، فاقترحت هذا السرج . ليسهل عليك الركوب . فقال : إن كان المملوك قد كبر، فقد رزقت ستة أولاد ، وهم فى خدمة السلطان ولم أكن أقترح[3] هذا السرج إلا لأجل القبق. ثم ساق الأمير بدر الدين نحو صارى القبق . والعادة جارية أن الرامى لا يرميه إلا إذا صار بجانب الصارى . فساق إلى أن تعدى الصارى ، فما شك الناس أنه فاته الرمى . ثم استلقى على ظهر فرسه ، حتى صار رأسه على كفل الفرس ، فرماه وهو كذلك ، بعد أن تعداه ، فأصاب القرعة وكسرها . فصرخ الناس لذلك واستعظموه . وظهرت للسلطان فائدة السرج ، فأمر أن ينعم عليه بما بقى فى ذلك الوقت ، من المال المرصد للإنعام فأعطيه ، وكان خمسة وثلاثين ألف درهم . وخلع عليه ، وعظم فى صدور الناس ، زيادة عما عندهم من تعظيمه . وعلموا عجزهم عن الإتيان بما أتى به ، وفعل ما فعله[4] .

ثم كان الختان المبارك ، فى يوم الاثنين ، الثانى والعشرين من ذى الحجة . ونثر الأمراء الذهب الكثير فى الطشوت حتى امتلأت[5] .

---

(١) فى الأصل يرم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص١٥٨

(٢) فى الأصل المرادفة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٧

(٣) فى الأصل يقترح ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٥٧

(٤) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص١٥٨

(٥) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ص ، ١٥٨

وفيها ، فى ليلة الثلاثاء حادى عشر صفر ، توفى الأمير الصالح شمس الدين أبو البيان ، نبا ابن الأمير نور الدين أبى الحسن على ابن الأمير شجاع الدين هاشم ابن حسن بن حسين ، أمير جاندار المعروف بابن المحفدار[1] ، بداره بالروضة ، قبالة مصر ، بعد أن صلى العشاء الآخرة ، بسورة[2] (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) فلما فرغ من الصلاة ، سجد سجدة ، فمات فى سجدته ، وكانت عادته أن يسجد عقيب صلاته ، ويدعو الله فى سجوده . ودفن من الغد فى القرافة بتربته ، بقرب تربة الإمام الشافعى . وكان رحمه الله تعالى ، دينا حسن السيرة والوساطة ، احتوى[3] على أوصاف جميلة ، يثق الملوك به ويعلمون خيره وديانته ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى ليلة الأربعاء ، ثانى عشر جمادى الآخرة ، توفى الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، ابن الملك القاهر ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادى بن مروان ، ببستانه المعروف ببستان سامه[4] ، بالسهم ، ظاهر دمشق . وصلى عليه ظهر يوم الأربعاء بالجامع المظفرى ، ودفن بتربته بسفح قاسيون ، رحمه الله تعالى[5] . ذكر وفاته[6] الشيخ شمس الدين الجزرى[7] .

---

(١) فى الأصل المحتدار ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٤

(٢) سورة الإنسان .

(٣) فى الأصل لعتوى ، وما هنا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٤ ؛ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ١٨ ، ٢٠

(٤) كذا أيضا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦١

(٥) أشار ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦١ إلى أن الجزرى أورده فى تاريخه

(٦) فى الأصل وفاة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦١

(٧) هذه العبارة جعلها الناسخ الأصلى عنوانا لخبر لم يورده ، إذ أنها ليست إلا تكملة للخبر السابق . انظر ما سبق

وفيها، توفى القاضى محيي الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر. كانت وفاته بالقاهرة فى يوم الأربعاء ثالث رجب الفرد ، ودفن بالقرافة ، رحمه الله تعالى . وفضائله وشهرته بالرئاسة والآداب[1]، تغنى عن شرح . وقد قدمنا من كلامه فى كتابنا هذا ، ما يقف عليه فى مواضعه ، وله شعر رقيق .

فمن شعره قوله :

ما غبت عنك لجفوة وملالِ ... يوما ولا خطر السلو ببالى

يا ما نعى طيبَ المنام وَما نحى ... ثوب السقام وتاركى كالالِ

عن من أخذت جواز منعى ريقك الـ ... ـحسول ياذا المعطف العسال

عن ثغرك النظّام[2] أم عن شعرك الـ ... ـفحام أم عن جفنك الغزّالى

فأجابنى أنا مالك شرعَ الهوى ... والحسنُ أضحى شافعى وجمالى

وشقائق النعمان أينع نبتها ... فى وجنتى وحماه رشقُ نبالى

والصبر أحمد للمحبّ إذا ابتلا ... ه الحبُ فى شرع الهوى بسؤال

وعلى أسارى الحبّ فى حكم الهوى ... بين الأنام عرفت بالقفّال[3]

وتفقّه العشاق فىّ فكلّ منْ ... نقل[4] الصحيح أجزته[5] بوصالى[6]

---

(١) فى الأصل والأذان وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٢

(٢) فى الأصل العظام ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٢

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٢ بالعقال .

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٢ ، يقل .

(٥) فى الأصل أحزنه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٢ .

(٦) الملحوظ التطابق بين النويرى وابن الفرات ، فيما اقتبساه من شعر محيي الدين بن عبد الظاهر ، وفى ذلك دليل أيضا على دراستهما لمصادر مشتركة .

وفيها ، فى يوم الخميس ، سابع عشر شعبان ، كانت وفاة قاضى القضاة معز الدين النعمان بن الحسن بن يوسف[1] ، قاضى الحنفية بالديار المصرية ، ودفن يوم الجمعة بالقرافة . وولى قضاء الحنفية بعده ، قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفى .

وفيها ، كانت وفاة الملك الأفضل نور الدين على ابن الملك المظفر محمود ، وهو عم الملك المظفر ابن الملك المنصور صاحب حماه . وقد تقدم ذكر نسبه فى مواضع من كتابنا هذا[2] . وتوفى بدمشق فى يوم الاثنين ، مستهل ذى الحجة . وصُلّى عليه بجامعها ، فى الثالثة من النهار ، ونقل لوقته إلى حماه ، فدفن بها ، رحمه الله . وهو والد الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه فى وقتنا هذا[3] .

وفيها ، كانت وفاة الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، ابن الملك المسعود صلاح الدين أقسيس[4] ، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ، ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ، قبل العصر من يوم الخميس ، خامس شهر رجب من السنة .

ومولده بالكرك ، بعد العشاء الآخرة ، من ليلة الأربعاء سادس عشر شوال ، سنة تسع وخمسين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٢ معين الدين ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٤٤ .

(٢) وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٢ ، ونسبه مذكور فى عدة تراجم من أهل حماه .

(٣) لم يرد هذا الخبر فى ابن الفرات .

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٢ أقش . وأقسيس اسم عرف به الملك المسعود ، الذى كان آخر ملوك بنى أيوب باليمن ، انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ، ص ٣٠ . المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٣٦٩ .

واستهلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة

[٦٩٣ - ١٢٩٣ / ١٢٩٤]

ذكر مقتل السلطان الملك الأشرف

صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور

سيف الدين قلاوون رحمهما الله تعالى

كان مقتله رحمه الله ، فى يوم السبت ثانى عشر المحرم ، سنة ثلاث وتسعين وستمائة . وذلك أنه توجه إلى الصيد بجهة البحيرة . وركب من قلعة الجبل فى ثالث المحرم، وعزم على قصد الحمامات الغربية . وتوجه الصاحب شمس الدين [ابن السلعوس[1]] إلى ثغر الإسكندرية ، لتحصيل الأموال ، وتجهيز تعابى[2] الأقمشة . فوجد نواب الأمير بدر الدين بيدرا بالثغر قد استولوا على المتاجر والاستعمالات[3] وغير ذلك . فكاتب السلطان بذلك ، وعرفه أنه لم يجد بالثغر

---

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) تعابى الأقمشة ، ترجمها Quatremère : op. cit 1. 2. p - 23 على أنها ثياب ، وترجمها Dozy : supp. Dict. Ar. على أنها قطع قماش ، ولعل المقصود هنا ، ما يختص به الفارس من المتاع ، ويدل على ذلك ما ورد فيما بعد من الاهتمام بالاطلاقات .

(٣) الاستعمالات – لعل المقصود هنا المعاملات ، وهى ما يختص بالتجارة من أمور ، حسبما أشار Dozy : supp. Dict. Ar. إلى أن المقصود بالمعاملة

ما يكفى الإطلاقات[1]، على جارى العادة . فغضب السلطان لذلك غضبا شديدا، واستدعى بيدرا بحضور الأمراء، وأغلظ له فى القول، وشتمه وتوعده. فتلطف بيدرا فى الجواب حتى خرج من بين يدى السلطان، وجمع أعيان الأمراء من خوشداشيته، وهم الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريان وغيرهما. فاتفقوا على الوثوب به . وكان السلطان قد أعطى الأمراء الأكابر دستورا، أن يتوجهوا إلى إقطاعاتهم، وانفرد هو بخاصكيته . وفى أثناء ذلك، ركب السلطان فى نفر يسير من مماليكه للصيد بقرب الدهليز، بمنزلة تروجة[2]. فانتهز بيدرا الفرصة، وركب وصحبته لاجين وقراسنقر وبهادر، رأس نوبة، وأقسنقر الحسامى، ونوغيه[3]، ومحمد خواجا، وطرنطاى الساقى، والطنبغا، رأس نوبة، ومن انضم إليهم . وتوجهوا نحو السلطان، وكان بينهم وبينه مخاضة، فخاضوها وقدموا عليه . فقيل إن بيدرا ضربه بالسيف، فالتقاه بيده، فلم يعمل عملا طائلا . فسبّه لاجين، وضربه بالسيف ضربة هدلت كتفه، وأخذته السيوف حتى قتل، فى التاريخ الذى ذكرناه .

---

(١) الإطلاقات، جمع إطلاق، وهو حسبما نقله

Quatremére: op. cit II. 2. p: 65 n. 26

«إما تقرير عدل لما قرره أحد الملوك السالفة، أو ابتداء فى معروف أو زيادة فى إحسان على ما كان مقررا» ومن معانيه أيضا قطعة أرض تمنح وتعفى من جميع أنواع الضرائب. Dzy: supp. Dict .Aro المقريزى: السلوك جـ ١، ص ٧٨٨، حاشية ٤

(٢) فى الأصل تزوجه، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٦٧ .

(٣) فى الأصل ترعيه، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٦٥ .

وحكى عن شهاب الدين أحمد بن الأشل، أمير شكار، فى كيفية مقتل السلطان. قال: لما رحل[1] الدهليز والعسكر، جاء الخبر إلى السلطان أن بنزوجة طيرا كثيرا، فساق، وأمرنى أن أسوق فى خدمته، فسقت معه. وقال لى: عجّل بنا، حتى نسبق الخاصكية. فسقنا فرأينا طيرا كثيرا، فصرع منه بالبندق. ثم التفت إلىّ، وقال لى: أنا جيعان، فهل معك ما آكل. فقلت: والله ما معى غير رغيف واحد وفروج فى صولق[2]، ادخرته لنفسى. فقال: ناولنيه، فناولته له، فأكله جميعه. ثم قال لى: امسك فرسى، حتى أنزل أبول. وكنت كثير البسط معه. فقلت: ما فيها حيلة، السلطان راكب حصان، وأنا راكب حِجْر[3]، وما يتفقان. فقال لى: انزل أنت، واركب خلفى حتى أنزل أنا.

قال: فنزلت وناولته عنان فرسى، فامسكه. وركبت خلفه. ثم نزل وقعد على عجزه وبال، وبقى يعبث بذكره، ويمازحنى. ثم قام، وركب حصانه، ومسك فرسى حتى ركبت. فبينا أنا وهو نتحدث، وإذا بغبار عظيم قد ثار نحونا. فقال لى السلطان: اكشف لى خبر هذا الغبار، ما هو. قال: فسقت وإذا أنا بالأمير بدر الدين بيدرا والأمراء معه. فسألتهم عن سبب مجيئهم. فلم يكلمونى ولا التفتوا إلىّ، وساقوا على حالهم، حتى قربوا من السلطان. فابتدره الأمير بدر الدين بيدرا، وضربه بالسيف. فقطع يده. ثم ضربه لاجين على كتفه فحله، وسقط إلى الأرض. وجاء بهادر، رأس نوبة، فوضع السيف

(١) فى الأصل دخل، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٦٧.

(٢) الصولق، جراب أو كيس من جلد، يربط على الجانب الأيمن من الحياصة، توضع به حاجات السفر من الزاد. Dozy: supp. Dict. Ar.

(٣) فى ابن الفرات جـ ٨، ص ١٦٧: حجرة. والحجر أنثى الخيل.

فى دبره ، [وأتكأ عليه][1] حتى أطلعه من حلقه ، واشترك من ذكرنا من الأمراء فى قتله[2] .

وهذه الحكاية تدل على أن السلطان ، كان قد انفرد من مماليكه ، ولم يكن معه غير شهاب الدين أمير شكار، الحاكى . وبقى الملك الأشرف ملقى فى المكان، الذى قتل فيه يومين . ثم جاء [الأمير عز الدين ايدمر العجمى[3]] متولى تروجة وأهلها إليه ، وحملوه إليها فى تابوت . وغسلوه فى الحمام وكفنوه ، وجعلوه فى تابوت، ووضعوه فى بيت المال ، فى دار الولاية بتروجة، إلى أن حضر من القاهرة الأمير سيف الدين كوجبا[4] الناصرى . فنقله فى تابوته إلى تربته ، التى أنشأها بظاهر القاهرة، بجوار مشهد السيدة نفيسة، ودفن بها فى عصر يوم الخميس[5] الثانى والعشرين من صفر ، من هذه السنة . وكانت مدة سلطنته، ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام .

وكان رحمه الله تعالى ، ملكا شجاعا كريما ، خفيف الركاب ، مظفرا فى حروبه . ولم يخلف ولدا ذكرا، وإنما مات عن بنتين، وزوجته أردكين[6] أمهما

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٨ .

(٢) هذه الرواية أوردها المقريزى فى السلوك جـ ١ ، ص ٧٨٨ — ٧٩١ وتاريخ سلاطين المماليك ص ٢٧ — ٢٨ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٨ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٩٠ .

(٤) فى الأصل كوجبا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٨ .

(٥) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٨ الجمعة .

(٦) فى الأصل ادركين ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٩ .

ابنة الأمير سيف الدين نوكيه . وورثه معهن[1] أخواه السلطان الملك الناصر ، ودار مختار الجوهرى .

ذكر خبر الأمير بدر الدين بيدرا ومن معه من الأمراء الذين وافقوه ، وما كان منهم ، ومقتل بيدرا .

قال[2] : ولما قتل السلطان الملك الأشرف ، عاد الأمير بدر الدين بيدرا ، ومن معه من الأمراء إلى الوطاق . فتقرر بينهم أن السلطنة تكون لبيدرا ، ولقب الملك القاهر ، وقيل[3] الملك الأوحد . ثم ركبوا وقبضوا على الأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ، أمير جاندار ، وقصدوا قتلهما . فشفع فيهما بعض الأمراء . وكان بالدهليز السلطانى من الأمراء : الامير سيف الدين برلغى[4] ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار ، والأمير بدر الدين بكتوت العلائى ، وجماعة من المماليك السلطانية . فركبوا فى آثار بيدرا ومن معه . وكان الأمير زين الدين كتبغا المنصورى فى الصيد ، فبلغه الخبر ، فلحق بهم . وجدوا فى طلب بيدرا ومن معه[5] .

(١) فى الأصل معهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٩ .

(٢) الإشارة هنا إلى المصدر الذى استمد منه روايته . ولم ترد هذه الإشارة فى ابن الفرات .

(٣) فى الأصل قتل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٩ .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٩ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٩١ برغلى ، انظر ما يلى .

(٥) فى الأصل معهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٩

فنحقوه على الطرانة[١]. فلما التقى الجمعان، أطلق بيدرا الأميرين[٢] اللذين[٣] كان قد قبض عليهما، ليكونا عونا له، فكانا عونا عليه.

وتقدم الأمراء، وحملوا على بيدرا حملة منكرة، فانهزم هو ومن معه، فأدركوه فقتل. وهرب لاجين وقراسنقر، قد خلا[٤] القاهرة واختفيا[٥] بها، ثم ظهرا[٦] بعد ذلك، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وحكى الأمير سيف الدين أبو بكر بن الجمقدار[٧]، نائب أمير جاندار. قال: ارسلنى السلطان أول النهار، إلى الأمير بدر الدين بيدرا، أن يتوجه فى تلك الساعة، بالعسكر، ويسوق تحت الصناجق، فأتيته فأخبرته بما أمر به السلطان، فنفر فى [وجهى][٨]، وقال

(١) الطرانة: موضع، لا يزال معروفا بين البلاد المصرية، وتقع على الشاطئ الغربى لفرع الدلتا الغربى (فرع رشيد): من قرى مركز كوم حمادة محافظة البحيرة (ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٨، ص ١٦ حاشية ١ على مبارك: الخطط التوفيقية جـ ١٣، ص ٣٤.

(٢) فى الأصل الأمراء، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٦٩. المقريزى السلوك جـ ١، ص ٧٩٢

(٣) فى الأصل الذى، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٦٩، والمقريزى السلوك جـ ١، ص ٧٩٢

(٤) فى الأصل فدخلوا، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧١

(٥) فى الاصل واختفوا، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧١

(٦) فى الأصل ظهر: وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧١

(٧) فى الأصل المحفدار، وما هنا من ابن الفرات جـ٨، ص ١٦٧، ١٦٩ والمقريزى، السلوك جـ ١، ص ٧٩٢

(٨) الإضافة من ابن الفرات جـ٨، ص ١٦٧

السمع والطاعة . ثم قال : لم يستعجلنى[1] ؟ ورأيت فى وجهه أثر الغيظ والغضب[2] ، ومالم أعهده منه . ثم تركته ، وتوجهت إلى الزردخاناة وحملتها ، وحملت ثقلى . وتوجهت أنا ورفيقى الأمير صارم الدين [الفخرى][3] والأمير ركن الدين [بيبرس][4] أمير جاندار . فبينما نحن سائرون[5] عند الماء ، إذ نحن بنجاب سائق ، فأخبرنا بمقتل السلطان . فتحيرنا[6] فى أمرنا ، وإذا بالصناجق السلطانية قد لاحت وقربت . والأمير بدر الدين [بيدرا[7]] تحتها ، والأمراء محدقون به . فتقدمنا وسلمنا عليه . فقال له الأمير ركن الدين بيبرس ، أمير جاندار ، ياخوند ، هذا الذى فعلته كان بمشورة الأمراء . فقال : نعم ، أنا فعلته بمشورتهم وحضورهم ، وها كلهم حاضرون . وكان من جملة من معه ، الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير شمس الدين قراسنقر ، والأمير بدر الدين بيسرى ، وأكثر الأمراء سائقون معه . ثم شرع يعدد مساوئ السلطان [الأشرف[8]] ومخازيه ، واستهتاره بالأمراء ، ومماليك أبيه ، وإهماله لأمور المسلمين ، ووزارته ابن السلعوس . قال : ثم سألنا ، هل رأيتم الأمير زين[9] الدين كتبغا ؟ . قلنا : لا . فقال له بعض الأمراء :

(١) فى الأصل كم : وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٧

(٢) فى الأصل يستعجلونى : وما هنا من ابن الفرات جـ٨ ، ص ١٦٧

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٧

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٧

(٥) فى الأصل وكذا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٩ سائرين : وما هنا هو الصواب لغويا . والملحوظ أن رواية النويرى متصلة بينما وردت رواية ابن الفرات فى موضعين ، ص ١٦٧ ، ١٦٩

(٦) فى الأصل فتجهرنا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٦٩

(٧) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٠

(٨) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٠

(٩) فى الأصل ركن الدين ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٠

يا خوند ، هل كان عنده علم من هذا الأمر الذى وقع ؟ فقال: نعم ، وهو أول من أشار به . فلما كان فى اليوم الثانى ، إذا نحن بالأمير زين الدين كتبغا ، قد جاء فى طُلْب كبير[1] ، فيه من المماليك السلطانية نحو ألفى فارس ، وجماعة من العسكر والحلقة ، والأمير حسام الدين أستاذ الدار ، فالتقوه بالطرانة فى يوم الأحد أول النهار . ففوّق الأمير زين الدين كتبغا نحو بيدرا سهما ، وقال له يا بيدرا ، أين السلطان . ثم رماه به ، ورمى جميع من معه . فقتل بيدرا ، وتفرق جمعه . وكانت الإشارة أن أصحاب كتبغا ، شدوا مناديلهم من رقابهم إلى تحت أباطهم ، ليعرفوا من غيرهم . ثم حمل رأس بيدرا إلى القاهرة ، وطيف به[2] . هذا ما كان من خبر مقتل بيدرا .

ولما قتل السلطان ، كان الأمير علم الدين سنجر الشجاعى نائب السلطنة ، بقلعة الجبل ، فاحترز على المعادى ، وأمر أهلها أن لايعدّوا بأحد من الجند من برالجيزة إلى ساحل مصر[2] . ثم حضر الأمراء الذين قتلوا بيدرا ، وهم الأمير زين الدين كتبغا ، والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والأمير سيف الدين برلغى ، والأمراء الخاصكية ، وهم الأمير سيف الدين طغجى ، والأمير عز الدين[3] طقطاى ، والأمير سيف الدين قطبية ، وغيرهم من المماليك السلطانية . فراسلوا الأمير علم الدين [سنجر[4]]

(١) فى الأصل كثير ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٠ .

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٠ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٩٢ .

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧١ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ص ٧٩٣ .

(٤) فى الأصل سيف الدين ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧١ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٩٣ .

(٥) الإضافة للتوضيح .

الشجاعى فى طلب المعادى ، فأرسلها إليهم ، فعدّوا بجملتهم ، وطلعوا إلى القلعة . واجتمعوا واتفقوا كلهم مع الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، على أن تكون السلطنة ، للسلطان ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور . فنصبوه فى السلطنة ، وكان ما نذكره .

ذكر أخبار السلطان الملك الناصر ، ناصر الدين محمد ، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى .

وهو التاسع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية . وأمّه أشلون خاتون ابنة سكناى بن قراجين[1] بن جنكاى[2] نوين ، ملك الديار المصرية والممالك الشامية والساحلية والحلبية والفراتية ، وغير ذلك مما هو مضاف إلى هذه الممالك من القلاع والحصون والثغور والأعمال .

وجلس على تخت السلطنة بالديار المصرية ، بقلعة الجبل ، بعد مقتل أخيه ، السلطان الملك الأشرف ، صلاح الدين خليل ، وذلك فى رابع عشر المحرم ، سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وعمره يومذاك تسع سنين سواء ، فإن مولده فى يوم السبت ، خامس عشر المحرم ، سنة أربع وثمانين وستمائة كما تقدم ، وذلك باتفاق الأمراء المنصورية ، ومن بقى من الأمراء الصالحية النجمية وغيرهم ، وإجماعهم على سلطنته[3] .

---

(١) فى الأصل قراجين ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧١ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٩٣ .

(٢) فى الأصل جيفان ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٢ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٩٤ .

(٣) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٢ .

واستقر أن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصورى ، نائب السلطنة الشريفة ، والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزير الدولة ومدبّرها ، والأمير ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار، وأعطى إمرة مائة فارس وتقدمة ألف، وجعل إليه أمر ديوان الإنشاء فى المكاتبات والأجوبة والبريد. وحصلت الثقة فى العساكر ، واستُحلِفُوا للسلطان الملك الناصر[1] ، فحلفوا بأجمعهم .

هذا ما كان بالديار المصرية ومقر السلطنة .

وأما الشام ، فإنه كُتِب عن السلطان الملك الأشرف كتاب إلى نائب السلطنة بدمشق، وجهز مع الأمير سيف الدين ساطلمش، وسيف الدين بهادر التتارى . فوصلا به إلى دمشق، فى يوم الجمعة رابع عشرين المحرم من هذه السنة. ومضمونه : أنا قد استنبنا أخانا[2] ، الملك الناصر، ناصر الدين محمدا ، وجعلناه ولى عهدنا ، حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدّو ، يكون لنا من يخلفنا . ورسم فيه ، أن يحلف الناس له ، ويقرن اسمه باسم السلطان فى الخطبة. فجمع نائب السلطنة الأمير عز الدين أيبك الحموى الظاهرى الأمراء والمقدمين والقضاة والأعيان، وحلفوا على ذلك[3] . وخطب له فى يوم الجمعة هذا بولاية العهد ، بعد الملك الأشرف . وكان ذلك بتدبير الأمير علم الدين الشجاعى . واستمر الحال على ذلك ، والخطبة للملك الأشرف، [ثم][4] من بعده لأخيه الملك الناصر، بولاية العهد، إلى حادى عشر

(١) فى الأصل السلطان ، وما هنا هو الصواب ، ويتفق مع السياق انظر ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٢ .

(٢) فى الأصل وكذا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٢ أخينا ، وما هنا هو الصواب .

(٣) فى الأصل « بعد » وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٣ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٣ .

شهر ربيع الأول فورد المثال السلطانى الناصرى بالخطبة له استقلالا بالسلطنة، فخطب له فى دمشق، فى يوم الجمعة، الحادى عشر، من الشهر المذكور. وورد البريد إلى الشام، بإيقاع الحوطة على موجود الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير بدر الدين بيدرا وغيرهم من الأمراء [أصحاب بيدرا[1]] فى اليوم الثامن من ورود المرسوم الأول بالخطبة للسلطان بولاية العهد، فوقعت الحوطة على موجودهم وحواصلهم.

ذكر خبر الأمراء الذين وافقوا بيدرا على قتل السلطان الملك الأشرف

لما استقر الحال فى سلطنة السلطان الملك الناصر، أمر بطلب الأمراء الذين وافقوا بيدرا على قتل أخيه الملك الأشرف. فأول من وجد منهم، الأمير سيف الدين بهادر رأس نوبة، والأمير جمال الدين آقش الموصلى الحاجب، فضربت رقبتاهما[2] وأحرقت جثتاهما بالمجاير[3]. ثم حصل الظفر بعدهما بسبعة من الأمراء وهم: طرنطاى الساقى، و[سيف الدين[4]] الناق [الساقى[5]] الحسامى [ويقال له عناق[6]] السلاح دار، و[سيف الدين[7]] اروس [الحسامى[8]] السلاح دار،

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧٣.

(٢) فى الأصل رقابهما، وما هنا هو الصواب، انظر ما يلى.

(٣) فى الأصل بالمجابر، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧٣ والمجاير جمع جيارة، وهى الفرن التى تحرق فيها الجير Dozy: supp. Dict. Ar.

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧٣.

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧٣، والمقريزى: السلوك جـ ١، ص ٧٩٥.

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧٣.

(٧) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧٣، والمقريزى: السلوك جـ ١ ص ٧٩٥.

(٨) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٧٣، والمقريزى: السلوك جـ ١ ص ٧٩٥.

و [شمس الدين][1] أقسنقر الحسامى ، و [علاء الدين][2] الطنبغا الجمدار ، [وناصر الدين][3] محمد خواجا ، فاعتقلوا بخزانة البنود[4] . وكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، يتوجه إليهم و يعاقبهم ، و يقررهم على من باطنهم . واستمر ذلك إلى يوم الاثنين خامس صفر . ثم قطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمروا على الجمال ، وطيف بهم ، وأيديهم فى أعناقهم ، وماتوا شر ميتة . ثم وجدوا بعد بقفر الساقى ، فشنق فى سوق الخيل . وأما الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير شمس الدين قراسنقر ، فإنهما هربا واختفيا . وكان من أمرهما ، ما نذكره إن شاء الله تعالى . هذا ما كان من أمر هؤلاء .

ذكر أخبار الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس الوزير وما كان من امره ، منذ فارق السلطان الملك الأشرف الى أن مات

كان الصاحب شمس الدين المذكور ، قد توجه إلى ثغر الإسكندرية كما ذكرنا ، وطالع السلطان فى حق الأمير بدر الدين بيدرا ، بما أوجب هذه الفتنة العظيمة . ولما وصل الصاحب[5] إلى الإسكندرية ، ضيق على أهل الثغر ، وشدّد

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٣ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٣ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٣ .

(٤) خزانة البنود من منشئات الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، بين قصر الشوك و باب العيد ، لخزن أنواع البنود من الرايات والأعلام ، وأنواع السلاح والآلات الحربية . ثم احترقت سنة ٤٦١ هـ . ثم صارت بعد ذلك حبسا للأمراء والوزراء والأعيان إلى أن زالت الدولة الفاطمية . وظلت زمن الأيوبيين تستخدم سجنا للأمراء والمماليك ، ثم جرى اتخاذها منازل للأسرى من الفرنج ، واستمرت على هذا النحو زمن المماليك . (انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ، ص ٤٢٣) .

(٥) فى الأصل السلطان ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٤ .

عليهم الطلب . وعزم على مصادرة أعيانهم ، وذرى الأموال منهم . وأمر بإيجاد مقارع لعقوبة أهل الثغر . فبقى الناس من ذلك فى شدة عظيمة ، لا يرجون خلاصا إلا ببذل الأموال والأبشار ؛ وأهان متولى الثغر .

فبينما الناس على مثل ذلك ، إذ وقعت بطاقة لمتولى الثغر ، فى عشية النهار، تتضمن خبر مقتل السلطان . فكتمها المتولى عن الصاحب وغيره ، وصبر إلى أن دخل الليل ، وجاء إلى باب الصاحب ، واستأذن عليه ، فأذن له . فوقف بين يديه على عادته . فقال له الصاحب : ما الذى جاء بك فى هذا الوقت ، هل ظهرت لك مصلحة يعود نفعها ؟ فقال: يا مولانا ، لم يخف عن علمك أن أهل هذا الثغر غزاة مرابطون ، وما قصد أحد أذاهم، فتم له مقصوده ، والذى يراه المملوك ، أن يحسن مولانا إليهم ، ويطيب خواطرهم ، ويفرج عنهم — هذا اللفظ أو معناه[1] — فسبه الصاحب أقبح سب . وهم أن يوقع به ،والوالى لا يزيده أن يقول : مولانا يروض نفسه ، فلا فائدة فى هذا الحرج . والصاحب يزيد فى سبه ، والإغلاظ له ، ويتعجب من إقدامه على مخاطبته بمثل هذه الألفاظ . فلما أفرط [الصاحب[2]] فى سبه ، وزاد به الحرج ، تقدم إليه بالبطاقة . وقال يقف مولانا على هذه . فلما قرأها ، سقط فى يده ، وخاطبه بياخوند . فقال له المتولى: ما الذى تختار. فقال: الخروج من هذه الساعة . فلم يؤاخذه المتولى ، بما صدر منه فى حقه وفتح له باب المدينة، وأخرجه وعرض عليه أن يجهز معه من يوصله القاهرة فامتنع . وخرج من الثغر فى ليلته . ولو أصبح به لقتله أهله .

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٥ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٥ .

واستمر به السير إلى أن وصل إلى القاهرة ليلا . فبات بزاوية[1] الشيخ جمال الدين ابن الظاهرى ، ولم ينم فى معظم الليل . وركب بكرة النهار من الزاوية ، وجاء إلى داره ، وهو على حاله وهيئته . وحضر للسلام عليه القضاة وأعيان الدولة ونظارها . فعاملهم بما كان يعاملهم به من الكبر ، وعدم القيام لأكابرهم . ثم استشار بعض الناس فيما يفعل . فأشار بعضهم عليه ، بالاختفاء إلى أن تسكن هذه الفتنة ، وتستقر القاعدة . فقال هذا لانفعله ولا نرضاه لعامل من عمالنا . فكيف نختاره لأنفسنا . واستمر على ذلك خمسة أيام .

وكانت رسالة دور السلطان الملك الأشرف قد خرجت إلى الأمير زين الدين كتبغا ، مضمونها الشفاعة فى أمره ، وأنه لا يؤذى . وذكروه بمحبة السلطان له . وأنهم إنما قاموا فى طلب ثأر السلطان ، وقتل أعدائه . و[أما[2]] هذا فهو أخلص أولياء السلطان بخدمته ، وأدومهم على طاعته — هذا اللفظ أو معناه — . فسكن أمره فى هذه الأيام الخمسة الماضية . فغضب الأمير علم الدين الشجاعى ، واجتمع بالأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة وغيره من أكابر الأمراء . وقال : هذا الصاحب هو الذى أوقع بين السلطان ومماليكه وأمرائه ونائبه . وإنما قُتل السلطان بسبب هذا ، فاتبع رأيه فيه .

---

(١) هذه الزاوية خارج باب البحر ، على الخليج الناصرى . كانت أول الأمر تقع على النيل ، فلما انحسر عن ساحل المقس ، صارت تشرف على الخليج الناصرى . وهذه الزاوية تنتمى إلى أحمد ابن محمد بن عبد الله أبى العباس جمال الدين الظاهرى . وكان أبوه عتيق الملك الظاهر شهاب الدين غازى . مات سنة ٦٩٦ هـ بالقاهرة . المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ، ص ٤٣١ . السلوك جـ ١ ، ص ٧٩٦ حاشية ٦ .

(٢) الإضافة يتطلبها استقامة المعنى .

فلما كان فى اليوم السادس ، وهو اليوم الثانى والعشرين من المحرم ، طلع [الصاحب شمس الدين بن السلعوس[1]] إلى قلعة الجبل ، فحضر إلى الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة ، فسلّمه للأمير علم الدين الشجاعى ، فسلّمه الشجاعى للأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى ، وكان من أعدائه ، ليطالبه بالأموال فضربه ضربا شديدا . فأنكر عليه الأمير علم الدين . ثم سيّره إلى الأمير بدر الدين المسعودى ، شاد الدواوين ، وهو نشو ابن السلعوس . فإنه كان قد طلب من دمشق للمصادرة ، لما قتل مخدومه الأمير حسام الدين طرنطاى ، وكان يتولى ديوانه بالشام . فأحسن الصاحب إليه ، وأفرج عنه ، وولاه شد الدواوين بالديار المصرية . فلما سلّم إليه ، عاقبه واستصفى أمواله . وكان يجلس لمصادرته وعقوبته فى المدرسة الصاحبية[2] التى بسويقة الصاحب بالقاهرة . ولم يزل يعاقبه إلى أن مات تحت الضرب ، وقيل إنه ضرب بعد موته ، ثلاثة عشر مقرعة ، ولم يعلم أنه مات . وكانت وفاته فى يوم السبت عاشر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، ودفن بالقرافة[3] .

ذكر الخلف الواقع بين الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزين الدين كتبغا ، ومقتل الشجاعى .

كان الأمير علم الدين الشجاعى قد استمر فى الوزارة وتدبير الدولة ، وأحكم

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٦ .

(٢) تنسب هذه المدرسة إلى الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ، وزير السلطان العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ وما بعدها .

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٨ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٩٦ ، ٧٩٧ .

أمرها، وهابه الناس . فلما كان فى يوم الخميس ، ثانى عشرين صفر ، من هذه السنة ، اجتمع الأمراء بمساطب باب القلعة على العادة ، ينتظرون فتح باب القلعة ، ليركبوا فى خدمة الأمير زين الدين كتبغا ، نائب السلطنة . فلم يشعروا إلا وقد خرجت رسالة على لسان الأمير جاندار ، يطلب جماعة من الأمراء، وهم سيف الدين قبجاق ، وبدر الدين عبد الله السلاح دار ، وسيف الدين قبلاى[1] ، وركن الدين عمر [السلاح دار[2]] أخو تمر ، وسيف الدين كرجى ، وسيف الدين طرنطى ، فدخلوا إلى الخدمة السلطانية . وقام الأمراء للركوب ، فبينما هم يسيرون تحت القلعة ، بالميدان الأسود ، جاء اثنان من ألزام الأمير علم الدين الشجاعى ، وهما الأمير سيف الدين قنغر[3] ، وولده حاروشى[4] . فأخبرا الأمير زين الدين كتبغا أن الأمراء الذين استدعوا اعتقلوا ، وأن الشجاعى قد دبّر الحيلة عليك وعلى الأمراء ، إذا طلعتم إلى القلعة ، ودخلتم إلى الخوان أن يقبض عليكم . فعرّف كتبغا الأمراء الذين معه فى المواكب الصورة . فتوقفوا عن الطلوع إلى القلعة ، وتوهموا أن الشجاعى اتفق مع الأمراء المنصورية والأمراء البرجية ، والمماليك السلطانية . وكان بالموكب الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار ، والأمير سيف الدين برلغى ، أمير مجلس ، فأمسكوهما فى الموكب ، وأرسلوهما إلى ثغر الإسكندرية .

(١) فى الأصل ، قباى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٩ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٧٩ .

(٣) فى الأصل قبمر ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٠ .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٠ ، والمقريزى : السلوك جـ ٢ ، ص ٧٩٩ جاورجى ، واللفظ الأقرب للنطق التترى حاورشى . انظر ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٤١٣ .

وأخبرنى الأمير ركن الدين[1] بيبرس ، فى ليلة الثامن من شوال سنة سبع وسبعمائة ، أنه ضرب على رأسه بدبوس ، وأرانى[2] أثر الضربة .

وكان قد ذكر لى ذلك ، فى أثناء ذكره لسالف خدمة السلطان ، وما لقيه وقاساه .

ولما مسكا ، حصلت مفاوضة بين الأمير علم الدين سنجر البندقدارى ، وبين الأمير زين الدين كتبغا . فقال البندقدارى له : أين لاجين ، أحضره . فقال : ما هو عندى . فقال : بل هو عندك . فجرد البندقدارى سيفه ليضرب به كتبغا ، فضربه بدر الدين بكتوت الأزرق ، مملوك كتبغا بسيفه ، حل كتفه ثم ألقوه عن فرسه ، وذبح بسوق الخيل .

وتوجه الأمير زين الدين كتبغا ومن معه من الأمراء ، إلى الباب المحروق وخرجوا منه ونزلوا بظاهر السور ، وأمروا مماليكهم وألزامهم وأجنادهم أن يلبسوا عددهم . وأرسل الأمير زين الدين كتبغا نقباء[3] الحلقة ، وطلب المقدمين فحضروا إليه ، وراسل السلطان [الملك[4] الناصر] ، فى طلب الأمير علم الدين الشجاعى . وقال إن هذا قد انفرد برأيه فى القبض على الأمراء . وبلغنا عنه ما أنكرناه ، ونختار حضوره ليحاقق عما نقل عنه . فامتنع عن الحضور . ثم

(١) المقصود هنا هو بيبرس الدوادار صاحب كتاب زبدة الفكرة نظرا لما تعرض له من الأذى من قبل السلطان خليل بن قلاوون .

والواضح هنا أن ابن الفرات ينقل عن النويرى ، لمطابقة روايته عبارة النويرى . ابن الفرات جـ ٨ ص ١٨٠ . وكل ما فعله ابن الفرات أنه عدل فى العبارة إلى صيغة الغائب ، بدلا من صيغة المتكلم .

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٠ ، ولم يزل أثر الضربة فى رأسه ، ولجأ إلى ذلك ليتفق مع سياق العبارة .

(٣) فى الأصل بنقباء ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٠

(٤) الاضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨١

طلع السلطان على البرج الأحمر ، وتراءى للأمراء ، فنزلوا وقبلوا الأرض من مواقفهم[1] . وقالوا نحن مماليك السلطان ، ولم نخلع يدا عن طاعة ، وليس قصدنا إلا حفظ نظام الدولة ، واتفاق الكلمة ، وإزالة أسباب المضار والفساد عن المملكة . واستمر الحصار سبعة أيام ، وكان الشجاعى ينزل إليهم ، ويناوشهم القتال ، ومعه طائفة من الأمراء وهم : الأمير سيف الدين بكتمر ، السلاحدار ، وسيف الدين طفجى[2] ، وجماعة من المماليك السلطانية . ثم فارقه الأمراء والمماليك ، فكانوا يتسللون عشرة عشرة . فلما رأى حاله انتهت إلى هذه الغاية ، قال إن كنت أنا الغريم ، فأنا أتوجه إلى الحبس طوعا منى ، وأبرأ إلى الأمراء مما نقل إليهم عنى . وحضر إلى باب الستارة السلطانية ، وحلّ سيفه بيده ، وذهب نحو البرج . وتوجه معه الأمير سيف الدين الأقوش ، والأمير سيف الدين صمغار ، ليحبساه بالبرج الجوانى . فوثب عليه مملوك الأقوش ، فقتله وحز رأسه . وأنزلوه إلى الأمير زين الدين كتبغا ، وقد لُفّ فى بقجة . فأمر بأن يطاف برأسه القاهرة ومصر ، وظواهرهما . فطاف به المشاعلية على رمح ، واشهروا[3] قتله . ثم طلع الأمير زين الدين كتبغا والأمراء إلى القلعة ، فى يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر ، وأفرج عن الأمراء الذين اعتقلوا ، وجددت الأيمان ، وأنزل من كان بالأبراج والطباق ، من المماليك السلطانية ، الذين اتهموا بهذه الفتنة . فأُسْكِنَتْ طائفة

---

(١) فى الأصل موافقتهم ؛ وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨١

(٢) فى الأصل طفجى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨١ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٠٠ . يرد هذا اللفظ بالرسمين فى المخطوط . وسوف يجرى تصريفه على هذا الرسم ، دون الاشارة إلى ذلك فى الحواشى .

(٣) فى الأصل واشتهروا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٣ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٠١

منهم فى مناظر الكبش ، وطائفة فى دار الوزارة ، وطائفة فى الميدان الصالحى والميدان الظاهرى . واعتقل منهم جماعة . وكان من خبرهم ، بعد ذلك ، ما نذكره فى سنة أربع وتسعين وستمائة .

ذكر عدة حوادث كانت فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة خلاف ما قدمناه ، من ولاية وعزل وغير ذلك ، والوفيات

فى هذه السنة ، فى تاسع عشر صفر ، عزل قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة الشافعى عن القضاء بالديار المصرية . وأعيد قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز إلى القضاء . واستقر قاضى القضاة بدر الدين فى تدريس مدرسة الشافعى ومشهد الحسين . فلم يزل كذلك ، إلى أن توفى قاضى القضاة ، شهاب الدين محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخويى[1] قاضى القضاة الشافعى بدمشق . وكانت وفاته بدمشق فى يوم الخميس ، خامس عشر ، شهر رمضان من هذه السنة . ومولده فى رابع عشرين شوال ، سنة ست وعشرين وستمائة ، وقيل فى رجب من السنة . ففوض [الملك الناصر محمد بن قلاوون[2]] ، القضاء بعد وفاته لقاضى القضاة ، بدر الدين بن جماعة ، فتوجه إلى الشام . وكان وصوله إلى دمشق فى رابع عشر ذى الحجة من السنة .

وفيها ، فى تاسع عشرين صفر فوضت الوزارة للصاحب الوزير تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين على ، المعروف

---

(١) فى الأصل الخوبى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٩ وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٠١ الشهير بابن الخويى :

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٥

بابن حنا . وفوضت وزارة الصحبة ، لابن عمه الصاحب عز الدين ابن الصاحب محيي الدين ابن الصاحب بهاء الدين ، وكانا يجلسان جميعا فى شباك الوزارة ، ويوقع الصاحب تاج الدين[1] .

وفيها ، فى سلخ صفر . أفرج عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى . وكان الملك الأشرف قد اعتقله ، فى يوم السبت ثانى شوال ، سنة اثنتين وتسعين وستمائة .

وفيها ، فى يوم عيد الفطر ، ظهر الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريان ، من الاستتار[2] ، وكانا عند هربهما ، أطلعا الأمير سيف الدين بخاص الزينى ، مملوك كتبغا على حالهما . فأعلم أستاذه بهما ، وتلطف فى أمرهما . فتحدث الأمير زين الدين كتبغا مع السلطان ، فعفا عنهما ، وأمّرهما كما كانا أول مرة . وتلطّف كتبغا فى إظهار لاجين تلطفًا حسنا . وهو أنه تحدث مع الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، أمير سلاح فى إحضاره . فركب معه ، ووقف تحت قلعة الجبل ، ولم يزل إلى أن أذن له ، وأصلح بينه وبين الأمراء والمماليك السلطانية ، وزال ما بينهم من الوحشة . وكان كتبغا فى أمر لاجين ، كالباحث عن حتفه[3] بظلفه[4] . فإنه فعل معه ، ما نذكره إن شاء الله تعالى[5] .

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٣

(٢) انظر ما سبق ص ٢٦٤ ، ٢٧٠ من هذا الجزء (المصحح)

(٣) فى الأصل حقه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٤ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٠٣ .

(٤) فى الأصل مطلقه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٤ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٠٣ .

(٥) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٤ .

وفى هـذه السنة ، قصر النيـل فلم يوف ، وانتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعا، وثلث ذراع. فارتفعت بسبب ذلك الأسعار. وكان من الغلاء ما نذكره بعـد[1] .

وفى هذه السنة ،فى رابع عشرين ربيع الأول، كانت وفاة الملك شهاب الدين[2] غازى ابن الملك المعز مجير الدين يعقوب ابن السلطان الملك العادل سيف الدين ابى بكر محمد بن أيوب ، بداره بالخور بدمشق ، ودفن بتربتهم بقاسيون، رحمهم الله تعالى .

وفيهـا ، كانت وفاة الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان الأسعردى . وقد قدمنا ذكر وزارته مرة بعـد أخرى . وكان إذ عزل عن الوزارة ، أخذ دواته وعاد إلى ديوان الإنشاء ، وكتب من جملة الكتاب . وأصله من المعدن[3] ، من أعمال أسعرد[4] . فلما فتح الملك الكامل آمـد ، كان ابن لقمان يكتب على عرصة الغلة ، وينوب عن ناظر البيوت بهـا . وكان بهاء الدين زهير ، صاحب ديوان الإنشاء للملك الكامل ، وبعده للملك الصالح ، وهو يومئذ وزير الصحبة . فكانوا يستدعون من صاحب أسعرد أصنافا، فتأتى الرسائل بالأصناف بخط ابن لقمان ،

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٥ ما سنذكره إن شاء الله .

(٢) فى الأصل يسبق ، شهاب الدين بياض ، ولم يرد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٩ ما يدل على سقوط لقب أوكنية لهذا الاسم ، ولعل ذلك راجع إلى غفلة الناسخ .

(٣) فى الأصـل المدر ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٦ والمعدن بلد بارمينية قرب منبع نهر دجلة ، وسميت بهذا الاسم لما كان مناجم النحاس والحديد بقربها .

Quatremére : op - Cit ii i P , 33 Nore 30

(٤) فى الأصل سعرد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٨٦ ، ووردت فى صور عديدة ، سعرت ، أو اسعرت ، وهى مدينـة تقع على نهر الرزم الذى ينبع من بحيرة وان بارمينية ، ويلتقى بنهر دجلة عند تل فافان انظر ليسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٥ — ١٤٦ .

فتعرض على بهاء الدين زهير ، فيعجبه خطه وعبارته . فطلبه لحضر إلى خدمته ، وتحدث معه ، فأعجبه كلامه ، وسأله عن جامكيته . فقال دون دينارين فى الجهتين ، فعرض عليه أن يسافر صحبته [إلى الديار المصرية][1] ، فأجاب إلى ذلك . وسر به ، فاستصحبه معه ، وناب عنه بديوان الإنشاء إلى الأيام الصالحية . ثم استقل بعد ذلك بصحابة ديوان الإنشاء ، ووزر كما تقدم . ولما انفصل من الوزارة [قال][2] : جاءت فما كثّرت ، وراحت فما أثّرت . وله نظم حسن ، وقد قدمنا ذكر شىء من كلامه ، رحمه الله تعالى .[3]

وفيها ، فى يوم الخميس ، منتصف جمادى الآخرة ، توفى الأمير بدر الدين بكتوت العلائى ، وكانت وفاته بالقاهرة . وقد عظم شأنه ، وسمت همته ، حتى تعرض لطلب بعض الأكابر الأمراء الخاصكية الأشرفية ، مقدمى[4] الألوف . فيقال أنه سق سما فمات ، سامحه الله تعالى .

وفيها ، فى يوم الخميس ، خامس شعبان ، توفى الملك الحافظ غياث الدين أبو عبد الله محمد ابن الملك السعيد معين الدين بن شاهانشاه ابن الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهانشاه بن أيوب ، وصُلّى عليه بعد صلاة الجمعة بجامع دمشق ، ودفن بتربة ابن المقدم ، بمقبرة باب الفراديس ، رحمه الله .[5]

---

(١) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٨٦ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٨٦ .

(٣) هذه الترجمة تطابق ما ورد فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٨٦ .

(٤) فى الأصل مقدمين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) يقابل ما ورد فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٨٩ .

واستهلت سنة أربع وتسعين وستمائة

[٦٩٤ ـ ١٢٩٤ / ١٢٩٥]

ذكر الفتنة التى قصد المماليك السلطانية اثارتها

لما كان فى ليلة العاشر من المحرم، من هذه السنة، تجمعت المماليك السلطانية، الذين فى الكبش، ومناظر الموادين[1]، وحرقوا باب السعادة، ودخلوا منه إلى المدينة. وطلبوا خوشداشيتهم المعتقلين [بها[2]]، الذين بدار الوزارة، للركوب معهم، فما أجابوهم لذلك. فكسروا خزانة البنود، وأخرجوا من كان بها من خوشداشيتهم، ونهبوا الإسطبلات التى تحت القلعة. وركبوا الخيول، وداروا عليها تحت القلعة، من جهة سوق الخيل، طول الليل. فلما كان من الغد، ركب الأمراء الذين فى القلعة وقصدوهم، وتصافّوا واقتتلوا يسيرا. ثم جاء الأمير سيف الدين الحاج بهادر، السلاح دار، الحلبى، وهو يومئذ أمير حاجب، فهزمهم فتفرّقوا فى ضواحى القاهرة وشوارعها، فأُخذوا وجِئ بهم. وجلس الأمير زين الدين[3] كتبغا بباب القلعة، وضربت رقاب بعضهم بين يديه، وفرق بعضهم على الأمراء، وغرّق بعضهم سرا. وكانت هذه الحادثة سببا لحركة الأمير زين الدين وركوبه فى السلطنة.

---

(1) فى الأصل الموازين، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٨٩.

(2) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٩١.

(3) فى الأصل ركن الدين، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨، ص ١٩٢.

ذكر سلطنة السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، وهو العاشر من ملوك دولة الترك بالديار المصرية .

كان جلوسه على تخت السلطنة فى يوم الأربعاء[1] ، حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة . وكان سبب ذلك ، أنه لما ملك السلطان الملك الناصر ، واستقر هو فى نيابة السلطنة كما تقدم ، شرع يمهد القواعد لنفسه فى مدة نيابته ، ويقرر[2] الأحوال ، ويستميل الأمراء . فلما كان فى أول هذه السنة ، انقطع فى دار النيابة ، بقلعة الجبل ، وادّعى الضعف . وإنما كان انقطاعه لتقرير أمر السلطنة له . وركب السلطان الملك الناصر ، وجاء إلى دار النيابة للسلام عليه وعيادته فلما اتفقت فتنة المماليك المتقدمة ، جلس [الأمير زين الدين كتبغا[3]] فى اليوم الثانى منها ، بدار النيابة . وجمع الأمراء ، وذكر لهم أن ناموس السلطنة ، وحرمة المملكة ، لايتم لصغر سن السلطان الملك الناصر . فاجتمعت آراء الأمراء على إقامة الأمير زين الدين كتبغا فى السلطنة . وحلفوا له ، وقُدم له فرس النوبة بالرقبة الملوكية ، وعليها ألقابه . وركب من دار النيابة ، قبل أذان العصر ، من هذا اليوم . ودخل من باب القلة[4] إلى الأدر السلطانية ، والأمراء مشاة فى خدمته . ودخل على تخت السلطنة ، وتلقب بالملك العادل . وحجب السلطان الملك الناصر ، وجعله فى بعض القاعات هو وأمه . وعامله بما لا يليق أن يعامله

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٢ يوم الثلاثاء .

(٢) فى الأصل وتقرر ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٣ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٣ .

(٤) فى الأصل القلعة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨٠٩ .

به . فكانت مدة سلطنة السلطان الملك الناصر هذه – وهى السلطنة الأولى – سنة واحدة إلا ثلاثة أيام . ولم يكن له فى هذه المدة من الأمر شىء . وإنما جرى عليه أمر السلطنة ، وخطب باسمه على المنابر ، وضربت السكة باسمه . وأما غير ذلك من الأمر والنهى ، والولاية والعزل ، والإطلاق والمنع ، والتأمير وإعطاء الإقطاعات ، وغير ذلك من الأوامر ، فللأمير زين الدين كتبغا النائب ، الملقب الآن بالملك العادل[1] .

وفى يوم الخميس ثانى عشر المحرم ، مد [الملك العادل زين الدين كتبغا][2] سماطا عظيما ، وجلس على عادة الملوك . ودخل الأمراء إليه ، وقبلوا يده ، وهنوه بالسلطنة وخلع على الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، وفوض إليه نيابة السلطنة ، وجعل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى ، أمير جاندار ، والأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبى ، أمير حاجب . وأمر أن تجهز الخلع لسائر الأمراء والمقدمين ، وللوزير ابن الصاحب تاج الدين وابن عمه عز الدين ، وقضاة القضاة وأرباب المناصب ، ومن جرت عادتهم بالخلع ، والمماليك السلطانية الذين كانوا بدار الوزارة ، كونهم لم يوافقوا خوشداشيتهم ، على إقامة الفتنة .

وركب الناس بالتشاريف ، فى يوم الخميس ، تاسع عشر المحرم . ولما جلس على تخت السلطنة ، كتب إلى نائب السلطنة بدمشق ، وسائر النواب بالممالك

(١) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٢ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٢ .

الشامية والأعمال، يخبرهم بخبر سلطنته، ويطلب منهم بذل اليمين. وكل أجاب بالسمع والطاعة، وبادر إلى الحلف، وما اختلف عليه اثنان.

ومن غريب ما حكى فى أمر الملك العادل هذا، أن هولاكو لما استولى على حلب، وملك الشام أجمع، كما تقدم، وعزم على تجريد العساكر إلى الديار المصرية، أحضر نصير الدين الطوسى[1]، وقال له: تكتب أسماء مقدمى عساكرى، وتنظر أيهم يملك مصر، ويجلس على تخت السلطنة بها. فكتب أسماءهم، وحسب ودقق النظر، فما ظهر له، أنه يملك الديار المصرية إلا كتبغا، فذكر ذلك لهولاكو. وكان كتبغا نوين صهر هولاكو، فقدّمه على العساكر وسيّره، فقتل فى وقعة عين جالوت، كما تقدم. وكان كتبغا هذا، فى عسكر كتبغا نوين، فسبى وهو شاب. ولعله كان فى سن بلوغ الحلم أو نحوه. وأخّر الله السلطنة بالديار المصرية لهذا الامم. وكان بين الحادثين ست وثلاثون[2] سنة.

ولما ملك [كتبغا[3]]، شرع فى تأمير مماليكه وتقدمتهم. فكان أول من أمر

---

(١) هذه الرواية أوردها ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة جـ ٨، ص ٥٥ — ٥٦، نقلا عن المؤرخ الشيخ شمس الدين الجزرى، الذى يعتبر المصدر الذى استمد منه النويرى وابن الفرات روايات عديدة. ونصير الدين الطوسى، من البارزين فى شتى العلوم فى عصره، لاسيما الفلك؛ ولد بطوس ٥٩٧ (١٢٠١ م)، اقام عند الإسماعيلية فى آلموت مدة، وهو الذى أغرى رئيس الإسماعيلية بالتسليم إلى هولاكو، وقد دخل نصير الدين فى خدمة هولاكو، وهو الذى اقنعه بقتل الخليفة المستعصم العباسى (المقريزى: السلوك جـ ١، ص ٤٢ حاشية ٥).

(٢) فى الأصل ستة وثلاثين، وما هنا هو الصواب لغويا.

(٣) الإضافة للتوضيح.

منهم أربعة ، وهم سيف الدين بخاص[1] ، وجعله أستاذ الدار ، وسيف الدين اغرلو[2] وبدر الدين بكتوت الأزرق ، وسيف الدين قطلوبك[3] . وركب هؤلاء بالإمرة فى يوم واحد . وركب هو بشعار السلطنة على عادة الملوك فى يوم الأربعاء ، مستهل شهر ربيع الأول . وأقر نواب السلطنة على حالهم فى الأيام الناصرية وفوّض الوزارة بدمشق للصاحب تقى الدين توبة التكريتى على عادته ، فى الأيام المنصورية . وكان وصوله إلى دمشق ، لمباشرة هذه الوظيفة ، فى سادس عشر صفر . وكتب السلطان له توقيعا ، برد ما أخذ منه ، فى[4] الدولة الأشرفية .

ذكر تفويض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر بن الخليلى

وفى يوم الثلاثاء ، خامس عشرين جمادى الأولى[5] من هذه السنة ، عزل السلطان الصاحب تاج الدين ، وفوض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الخليلى . وكان هذا الصاحب فخر الدين قد ولى نظر ديوان الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور . فلما مرض

(١) فى الأصل بنجاص ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٥ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٠٨

(٢) هذا الاسم يرد عادة بالرسمين : اغرلو ، واغرلوا ، ويكتفى بالرسم الوارد بالمتن ، وهو المعروف فى معظم المصادر العربية .

(٣) فى الأصل قطليك وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٠٨ وسائر المصادر العربية

(٤) فى الأصل من ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٥ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٠٨ .

(٥) فى الأصل الأول ، وما هنا هو الصواب لغويا .

واشتد به الوجع ، دخل الصاحب فخر الدين عليه وبكى ، وأظهر الألم الشديد وقال أخشى إن قدر الله تعالى أمرا محتوما ، والعياذ بالله ، أن أوذى ، ويتمكن منى الأمير علم الدين الشجاعى. وطلب الملك الصالح والده السلطان الملك المنصور وأوصاه أن لا يتعرض إليه . ولا إلى أحد من ديوانه بأذية[1] ، وأن لا يمكن الأمير علم الدين الشجاعى منهم . فلما مات الملك[2] الصالح ، أحسن السلطان [المنصور][3] إليه ، وولاه نظر النظار بالديار المصرية ، ونظر الصحبة ، ثم عزل فى الدولة الأشرفية . وباشر نظر ديوان الملك العادل ، فى مدة نيابته عن السلطنة ، وفوض إليه نظر الدواوين ، ثم الوزارة[4] .

وفى هذه السنة ، قصر النيل ولم يوف ، فحصل الغلاء واشتد البلاء بالديار المصرية . وتوقف الغيث بالشام ، فاستسقى الناس ، مرة بعد أخرى . وأجدبت برقة وأعمالها ، وبلاد المغرب ونواحيها . وعمّ الغلاء أكثر البلاد والممالك ، شرقا وغربا وحجازا . واختصت مصر من ذلك البلاء العظيم . وبلغ سعر القمح عن كل أردب مائة درهم وخمسين درهما ، والشعير مائة درهم . واستمر إلى سنة خمس وتسعين وستمائة[5] .

---

(١) فى الأصل بأذنه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٦

(٢) فى الأصل السلطان الملك ، والواضح أن لفظة سلطان زائدة ، لأن الملك الصالح لم يكن سلطانا .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٦ .

(٤) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٦ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٠٨

(٥) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨١٠

وفيها ، فوض السلطان قضاء العساكر بالشام ، للقاضى نجم الدين محمد بن صصرى وكان بالديار المصرية . فعاد إلى دمشق متوليا هذه الوظيفة ، وكان وصوله إليها فى يوم الثلاثاء سادس عشرين[1] شهر رمضان .

وفيها ، فوض السلطان الملك العادل ، الخطابة والإمامة ، بالجامع الأموى بدمشق ، لقاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، مضافا إلى ما بيده من القضاء والتدريس . فصلى بالناس صلاة الظهر ، من يوم الخميس الخامس من شوال ، وخطب يوم الجمعة السادس من الشهر ، واجتمع له القضاء والخطابة ، ولم يجتمع ذلك لقاضى قبله بدمشق ، فيما عرفناه . ونقل إلينا[2] .

ذكر القبض على الأمير عز الدين أيبك الخزندار نائب السلطنة بالفتوحات ، وولاية الأمير عز الدين أيبك الموصلى المنصورى

وفى هذه السنة ، رسم السلطان الملك العادل ، بالقبض على خوشداشه ، الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصورى ، نائب السلطنة ، بالفتوحات الطرابلسية . وندب لذلك أميرين ، فتوجها إلى دمشق على خيل البريد ، فوصلا إليها ، فى تاسع عشرين شوال . وجرد من دمشق الأمير عز الدين أيبك كرجى ، والأمير سيف الدين استدمر كرجى[3] بسبب ذلك . فلما توجهوا إليه ، لم يمتنع[4] عليهم ، وقال : قد كنت عزمت على مفارقة هذه المملكة . والتوجه إلى باب

(١) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٠٩ سادس عشرى رمضان .

(٢) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٨ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٠٩

(٣) فى الاصل كجى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٩

(٤) فى الأصل نائب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ١٩٩

السلطان ، فقبض عليه . وكان وصوله إلى الأبواب السلطانية ، فى يوم الخميس حادى عشرين ذى القعدة من السنة ، فاعتقل . واستمر فى الاعتقال ، إلى يوم الخميس رابع عشرين صفر سنة خمس وتسعين وستمائة . ولما قبض عليه ، فوضت نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات ، للامير عز الدين أيبك الموصلى المنصورى (١) .

وفيها أيضا ، رسم بالحوطة على القاضى مجد الدين يوسف بن القباقبى ناظر المملكة الطرابلسية . وندب الأمير شمس الدين الأعسر لذلك . فتوجه إلى طرابلس ، فى العشر الأوسط ، من شوال ، وأوقع الحوطة على موجوده . فيقال إنه وجد فى جشاره (٢) ، ما ينيف على سبعين رأس بغالا وا كاديش جياد . وجهز إلى الديار المصرية ، فتكمل حمله ، فيما أدعاه ألف ألف درهم . ثم أعيد بعد ذلك إلى نظر المملكة الطرابلسية ، وكأنه لم يصادر (٣) . فبلغنى أنه جلس ليلة ، وهو يضحك مع أصحابه بطرابلس . فقال له بعضهم : أخذ منك ألف ألف درهم ، وأنت تضحك . فقال : والله أقدر أنفق فى جيش مصر — وأرى أن هذا الكلام (٤) ، إن كان قاله ، فهو من التغالى فى القول — والله أعلم .

---

(١) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٩

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٨ دشارة ، والجشار هنا ، وجمعه جشارات وجشير ، ويقال الدشار أيضا ، الخيل والأبقار التى تساق الى المراعى ، وتبقى بها مادة دون أن تعود ليلا إلى حظائرها . Dozy: supp. Dict. Ar.

(٣) فى الأصل يصادره ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٨ .

(٤) أورد ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٨ عبارة قريبة من هذه الرواية ، ورفضها « وهذا الكلام إن كان قاله حقيقة ، فهو من التغالى فى القول » .

ذكر وفاة الملك المظفر يوسف بن عمر صاحب اليمن

وفى هـذه السنة ، كانت وفاة الملك المظفر شمس الدين أبى المظفر يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمـر بن على بن رسول ، صاحب اليمن ، فى شهر رمضان ، بقلعة تعز . وكان جوادا شهما ، عفيفا عن أموال الرعايا ، قليل التطلع إلى ما بأيديهـم ، حسن السيرة فيهم ، يمنع أصحابه من التطرق إلى ظلم أحد . وكانت مدة ملكه ، بالبلاد اليمانية ، نحو خمس[1] وأربعين سنة .

وكان للملك المظفر من الأولاد خمسة ، وهم الملك الأشرف ممهد الدين عمر ، والملك المؤيد هزبر الدين داود ، والواثق إبراهيم ، والملك المسعود تاج الدين حسن ، والملك المنصور زين الدين أيوب . وللملك المسعود هـذا ولد اسمه أسد الإسلام محمد . وللملك المنصور ولد اسمـه مأمور[2] الدين عيسى . ولما مات الملك المظفر هذا ، ملك بعده ولده الملك الأشرف ممهد الدين عمر ، وهو ولى عهده . فلما ملك نازعه أخوه الملك المؤيد هزبر الدين داود فى الملك . وكان المؤيد يوم ذاك ببلاد الشحر ، فجمع جمعا من الجحافل ، وتوجه إلى ثغر عدن ، وحاصر الثغر ثلاثة عشر يوما . وكان متوليه الأمير سيف الدين بن برطاس ، فملك المؤيد الثغر ، واستولى على مابه . فاقترض أموال التجار وأموال الأيتام التى بمـودع الحكم . وتوجه من ثغر عدن نحو تعز . فجرد الملك الأشرف لقتاله الشريف على بن عبد الله ، بجماعة من الجيش ، وولده جلال الدين بن الأشرف . فتوجهوا والتقوا ، فيما بين تعز وعدن ، بمكان يسمى الدعيس . واقتتلوا فخـذل الجحافل المؤيد ، وتفرقوا عنه ، وبقى فى نفر يسير . فتقدم إليه جلال الدين ابن أخيه ، وأشار عليه بالدخول

(١) فى الأصل خمسة ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) فى الأصل تأمور ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٧ .

فى الطاعة ، وحذر عاقبة المخالفة . وقال له : الملك الأشرف أخوك ، ولا يقتلك ، وأنت بينك و بين الأشراف حرب قبل هـذا الوقت ، فإن ظفروا بـك قتلوك . وأشار عليـه بعض أصحابه بمثـل ذلك ، فرجع إلى قولهم ، ورجع إلى الطاعة . فأراد جلال الدين أن يتوجه به إلى والده [الملك الأشرف[1]] على حاله . فامتنع عليه الشريف على بن عبد الله ، وقال : إن أمر هذا الجيش إلىّ . وقيّد المؤيد ، وحمـله إلى قلعة تعز ، فاعتقله بها إلى أن مات الملك الأشرف . وكانت وفاته فى سنة ست وتسعين وستمائة . فأخرج من الاعتقال ليلا ، قبل دفن أخيه ، فأمر بدفنه . وأصبح الحراس بالقلعة ، فدعوا للملك المؤيد ، وترحّموا على الملك الأشرف وكان مُلْك المـؤيد باتفاق عمته الشمسية ، وقيامها فى أمره . واستمر فى الملك إلى أن مات ، فى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى ، فى موضعه .

وفيهـا ، فى يوم السبت ، رابع شهر ربيع الأول ، توفى الأمـير بدر الدين بكتوت الأفرعى بدمشق ، ودفن بمقابر باب الصغير .

وفيها ، كانت وفاة الصاحب عز الدين ابن الصاحب محيى الدين أحمـد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين على بن محمد ، رحمهم الله تعالى .

وفيها ، فى شهر رجب توفى بالقاهرة ، الأمـير بدر الدين بكتوت الفارسى الأتابكى ، رحمه الله تعالى .

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ١٩٨ .

وفيها ، فى وقت السحر ، من يوم السبت عاشر شعبان ، توفيت ملكة خاتون ، ابنة الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب . وهى زوجة الملك المنصور ابن الملك الصالح إسماعيل وأم ولديه . وهى التى كان ناصر الدين بن المقدسى أثبت سفهها فى الدولة المنصورية ، واستعاد أملاكها من سيف الدين المسامرى وغيره ، كما تقدم ذكر ذلك ، رحمهما الله تعالى .

واستهلت سنة خمس وتسعين وستمائة

[٦٩٥ = ١٢٩٥ / ١٢٩٦]

فى هـذه السنة ، اشتد الغلاء بالديار المصرية ، وكثر الوباء وانتهى سعر القمح إلى مائة درهم وسبعة وستين درهما، عن كل أردب ، وقيل إنه بلغ مائة وثمانين . وأعقب ذلك وباء عظيم . وغلت الأسعار فى سائر الأصناف . وبلغ ثمن الفروج عشرين درهما . وسمعت أن بعض الناس اشترى فراريج لمريض عنده ، فوزن لحمها ، فكان بوزن[1] الدراهم التى اشتراها بها . فتقوّم عليه لحم الفراريج ، الدرهم بدرهم فضة . وبيعت البطيخة ، الرطل بأربعة دراهم نقرة . وابيعت السفرجلة ، بثلاثين درهما، هذا بالقاهرة ومصر . وأما الصعيد الأعلى ، وهو عمل قوص وما يجاوره ، فإن القمح لم يزد ثمنه ، على خمسة وتسعين درهما الأردب . وأعقب هذا الغلاء بالقاهرة فناء عظيم . كان يحضر من يخرج من باب المدينة من الأموات فى اليوم الواحد، فيزيد على سبعمائة أو نحوها، هذا من داخل المدينة ، من أحد الأبواب . والقاهرة بالنسبة إلى ظواهرها ، كالشارع[2] الأعظم ، والحسينية والأحكار ، جزء لطيف . وعجز الناس عن دفن الأموات أفرادا ، فكانوا يحفرون الحفرة الكبيرة ، ويرص[3] فيها الأموات ، من الرجال والنساء ، ويُجعل الأطفال بين أرجلهم، ويردم عليهم . وبعض الأموات

---

(١) فى الأصل بوزن ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٨

(٢) فى الأصل الشارع ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٨

(٣) فى الأصل يرض ، وفى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١٠ ، وما هنا يستقيم به المعنى .

لم يجدوا من يواريهم فى قبورهم ، فأكلتهم الكلاب ، وأكل الأحياءُ الكلاب . وكان الفناء أيضا بالأعمال البرانية [عن القاهرة ومصر][1] ، حتى خلت بعض القرى وأطراف المدينة ، لفناء أهلها بالموت .

ثم انحطت الأسعار بالديار المصرية فى شهر رجب ، ونزل سعر القمح إلى خمسة وثلاثين درهما الأردب ، والشعير بخمسة وعشرين [درهما الأردب][2] وكان أكبر أسباب هذا الغلاء وتزايده بالديار المصرية ، خلو الأهراء[3] السلطانية من الغلال ، وذلك أن السلطان الملك الأشرف ، كان قد فرّق الغلال ، وأخلى الأهراء منها بالإطلاقات للأمراء وغيرهم ، حتى نفد ما فى الأهراء . وقصر النيل بعد ذلك ، فاحتاج وزير الدولة إلى مشترى الغلال للؤونة والعليق ، فتزايدت الأسعار بسبب ذلك .

وفيها أيضا ، قلّ المطر بدمشق وبلاد حوران ، وجفّ الماء حتى شق ذلك على المسافرين . فكان المسافر يسقى دابته بدرهم ، ويشرب بربع درهم . فلما اشتد ذلك على الناس ، أشار قاضى القضاة ، بدر الدين محمد بن جماعة ، بقراءة صحيح البخارى بدمشق . وتقرر الاجتماع لسماعه بالجامع الأموى ، تحت النسر فى سابع[4] صفر . وطُلِب الشيخ شرف الدين الغزارى لقراءته . فانزل الله تعالى

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١

(٢) الإضافة للتوضيح

(٣) الأهراء السلطانية : الشون التى يرد إليها الغلال والأنيات الخاصة بالسلطان ومنها يصرف ما تحتاجه الأصطبلات الشريفة والمناخات السلطانية .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٣٣ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ، ص ٤٦٤

(٤) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١١ ، تاسع

الغيث فى تلك الليلة قبل الشروع فى القراءة . ثم قرىء الصحيح ، ووقع المطر فى آخر يوم من كانون الأول ، واستمر يومين وبعض ليلة ، فاستبشر الناس بذلك وتزادف نحو جمعه . ثم جاء بعد ذلك ثلج كثير ، فى مستهل شهر ربيع الأول . ثم ارتفع السعر ، وبلغ [سعر[1]] القمح ، عن كل غرارة مائة درهم ، وخمسة وستين درهما . [واشتد الغلاء بالحجاز[2]] أيضا فأبيعت غرارة الشعير بالمدينة ، بسبعمائة درهم ، وغرارة القمح بألف [درهم[3]] . وأبيعت بمكة ، شرفها الله تعالى ، بألف درهم ومائة درهم . ثم جاء المطر بدمشق فى ثانى جمادى الآخرة .

ذكر حادثة عجيبة بالشام

وفى هذه السنة ، فى العشر الأول من المحرم ، استفاض بدمشق وشاع ، وكثر الحديث عن قاضى جبة أعسال[4] ، من قرى دمشق ، أنه تكلم ثور بقرية من قرى جبة أعسال . وهو أن الثور خرج ليشرب من ماء هناك ، ومعه صبى فلما فرغ من شربه ، حمد الله ، فتعجب الصبى . وحكى ذلك لمالك الثور ، فشك فى قوله . وخرج فى اليوم الثانى بنفسه ، فلما شرب الثور ، حمد الله . وحضر فى اليوم الثالث جماعة ، وسمعوه يحمد الله ، بعد شربه . فكلمه بعضهم ، فقال الثور : إن الله كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدباء ولكن بشفاعة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أبدلها الله بالخصب . وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم ،

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١١ .

(٢) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨١٥ .

(٣) الإضافة للتوضيح .

(٤) فى الأصل بحبة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١١ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨١١ . انظر ما يلى .

أمره بتبليغ ذلك ، وأنه قال له يا رسول الله ، ما علامة صدق عندهم . قال : «إنك تموت عقيب الأخبار» . — قال الحاكى لذلك — ثم تقدم الثور إلى مكان مرتفع فسقط ميتا . فأخذ أهل القرية من شعره للتبرك ، وكفن ودفن . حكى هذه الحادثة ، شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزرى فى تاريخه حوادث الزمان[1] ، والله علم .

وفيها ، فى العشر الأوسط ، من شهر ربيع الآخر ، قتل بدمشق جماعة بالليل فى الدروب . ومعظم من قتل ، من حراس الدروب ، واستمر ذلك عدة ليال . وفى كل يوم يوجد قتيل واثنان . ولم يعدم لأحد شىء[2] ، مع ذلك ، ولا سرق منزل . فاحترز متولى المدينة فى ذلك . وبقى يركب طول الليل ، فى جماعة كثيرة ، ويطوف البلد ، والأمر يتزايد . فلما كان فى العشر الأوسط ، من جمادى الأولى ، مُسك فقير مولّه ، فاعترف أنه هو الذى قتل الحراس ، فسمر وبقى يومين ، ثم خنق فى اليوم الثالث .

ذكر وفود الأويراتية من بلاد التتار

فى هذه السنة ، وردت طائفة من التتار ، تسمى الأويراتية ، ومقدمهم

---

(١) التطابق تام بين النويرى وابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠٣ . ومن إشارة النويرى وابن الفرات للصدر ، تبين أن أحدهما أو كليهما رجع إليه . وهذا المصدر هو تاريخ الجزرى ، المعروف «التاريخ المسمى بحوادث الزمان وأنبائه» ، ومؤلفه محمد بن إبراهيم بن أبى بكر الجزرى الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٨) م . انظر ابن حجر العسقلانى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ ٣ ، ص ٢٠١ ، والزركلى : الأعلام جـ ٦ ، ص ١٨٩

Brockelman : Gesch. Ar. Litter. Supp. II P. 45

(٢) فى الأصل شيئا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

طرغاى ، ووصلوا إلى الشام . وكانوا على ما قيل ، ثمانية عشر ألف بيت[1] .
وكان السبب فى هزيمتهم[2] من بلادهم ، أن طرغاى ، هذا المذكور ، كان متفقا مع بيدو ابن طرغاى على قتل كيختو . فلما صار الملك إلى غازان ، خافه طرغاى على نفسه ، أن يقتله بعمه كيختو . وكان مقيما بتمانه[3] [بين بغداد والموصل][4] .
وكان اشتيغا مقيما بتمانه بديار بكر . فأرسل غازان بولاى ومعه تمان[5] إلى ديار بكر ، عوضا عن اشتيغا ، وأوصاه بحفظ الطرقات على طرغاى ، وأن يساعد من يندب لقتله ، ثم جهز غازان أميرا يسمى قطغوا فى ثمانين فارسا للقبض على طرغاى ومن معه ، من أكابر قبيلة أويرات . فاتفق طرغاى ، ومن معه من الأمراء ، وهم الوص و ككباى[6] ، وقتلوا قطغوا ومن معه . وعبروا الفرات[7] إلى جهة الشام ، فتبعهم بولاى بتمانه ، فقاتلوه وهزموه ، وقتلوا أكثر من معه .

ولما وردت مطالعات نواب الشام إلى السلطان الملك العادل بوصولهم ، اهتم بأمرهم . وكتب إلى [نائب السلطنة بدمشق][8] ، أن يتوجه الأمير علم الدين

(١) فى الأصل بينا وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) فى الأصل هزيمتهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٤ .

(٣) فى الأصل بتمانه ، وما هنا هو الصواب ، والتمان والتومان فرقة من الجيش ، ويرد أيضا برسم طومان ، وهو الفرقة التى يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل انظر

Quatremère : op. Cit. II 2. p. 152.

(٤) فى الأصل من بغداد ، وما هنا إضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٤ .

(٥) فى الأصل تمانا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) فى الأصل ككناى وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٤ انظر ما يلى .

(٧) فى الأصل الفراة ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٤ .

(٨) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٤ .

سنجر الدوادارى ، بجماعة إلى الرحبة لتلقيهم[1] . فتوجه من دمشق فى غرة شهر ربيع الأول . ثم توجه بعده ، الأمير شمس الدين سنقر الأعسر ، شاد الدواوين بالشام ، ليلقاهم أيضا . وجهّز السلطان أيضا ، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، من الديار المصرية إلى دمشق ، بسبب ذلك ، فوصل إليها فى ثانى عشرين شهر ربيع الأول . ثم أردفه بالأمير سيف الدين بهادر الحاج الحلبى الحاجب ، فأقاما بدمشق ، إلى أن وصل أعيان الأويراتية إلى دمشق ، صحبة الأمير شمس الدين الأعسر . وكان وصولهم فى يوم الاثنين ، ثالث عشرين شهر ربيع الأول ، وعدتهم مائة وثلاثة عشر نفرا ، والمقدم عليهم طرغاى ، ومن أكابرهم الوص وككباى . فتلقاهم نائب السلطنة والأمراء ، واحتفل بقدومهم[2] احتفالا كبيرا . ثم توجه بهم الأمير شمس الدين قرا سنقر ، إلى الديار المصرية فى يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول . وتوجه بعده الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحاجب ، على خيل البريد إلى الأبواب السلطانية ، فى حادى عشر الشهر . ولما وصلوا إلى باب السلطان بالغ فى إكرامهم ، وأحسن إليهم ، وخلع عليهم ، وأمّرهم بالطبلخاناة . وهم على دين الكفرة ، ويأكلون فى شهر رمضان ، ولا يذبحون الخيل ذبيحة ولا نحرا ، بل يربطون الفرس ، ويضربونه على وجهه حتى يموت ، فيأكلونه بعد ذلك . وكانوا يجلسون مع الأمراء بباب القلة ، فأنفت نفوس الأمراء من ذلك وكرهوه ، حتى أوجب ذلك خلع السلطان ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) فى الأصل ليلقيهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٤ .

(٢) فى الأصل لقدومهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٤ .

وأما بقية الأوبراتية ، فإن السلطان كتب إلى الأمير علم الدين سنجر الدوادارى أن يتوجه بهم إلى الساحل فينزلهم به ، فتوجه بهم . ولما مرّوا بدمشق ، أنزلهم بالمرج ، ولم يُمكّن أحدا منهم من دخول المدينة . ورسم بإخراج الأسواق إليهم للبيع والشراء بالمرج ، إلى الكسوة والصنمين[1] . وفعل ذلك فى كل منزلة إلى أن وصل بهم إلى أراضى عثليث ، وامتدّوا[2] فى بلاد الساحل . ورسم[3] السلطان باقامة الأمير علم الدين [سنجر[4]] الدوادارى معهم ، إلى أن يحضر السلطان إلى الشام ، ومات منهم خلق كثير . وأخذ الأمراء أولادهم الشباب للخدمة ، وكانوا من أجمل الناس ، وتزوج الجند وغيرهم من بناتهم . ثم انغمس من بقى منهم فى العساكر ، وتفرقوا فى الممالك الإسلامية ، ودخلوا فى دين الإسلام . وبقاياهم فى الخدمة إلى وقتنا هذا[5] .

ذكر وفاة قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز وتفويض القضاء للشيخ ابن دقيق العيد .

وفى هذه السنة ، فى يوم الخميس ، سادس عشر جمادى الأولى ، توفى

---

(١) فى الأصل والصنفين ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٥ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨١٢ .

والصنمين قرية من أعمال دمشق ، فى أوائل حوران ، بينها و بين دمشق مرحلتان ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ، ص ٤٢٩ .

(٢) فى الأصل واشتدوا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٥ .

(٣) فى الأصل ورسم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٥ .

(٤) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨١٣ .

(٥) يطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٥ .

قاضى القضاة ، تقى الدين أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضى القضاة تاج الدين أبى محمد عبد الوهاب بن بنت الأعز، قاضى القضاة الشافعى، بالديار المصرية ، ودفن بالقرافة ، فى تربة والده ، رحمهما الله . وفى يوم وفاته ، توفى كاتبه نور الدين بن السومى ، وكان خصيصا به . وحملت جنازتاهما[1] معا .

وقد قدمنا من ذكر أخبار قاضى القضاة تقى الدين هذا وولاياته القضاء والوزارة ونظر الخزائن، ما نستغنى الآن عن إعادته، رحمه الله تعالى. ولما مات، فوض السلطان قضاء القضاة بالديار المصرية ، لشيخنا[2] الإمام العلامة، تقى الدين بقية المجتهدين أبى الفتح محمد ابن شيخ الإسلام مجد الدين على بن وهب بن مطيع القشيرى، المعروف بابن دقيق العيد . وكانت ولايته فى يوم السبت ثامن عشر الشهر المذكور . ولما ولى القضاء كان كثير التطلع إلى أخبار نوابه بالأعمال[3] البرانية . وكان يذكرهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات ، من عواقب الغفلة والإهمال . فكان مما كتب به، إلى بعض نوابه ، فى سنة سبع وتسعين . وقيل إنه كتب إلى جميع النواب مثل ذلك . وكان مضمون كتابه الذى نقلت[4] نسخته هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الفقير إلى الله تعالى ، محمد بن على .

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة

(١) فى الأصل جنازتيهما ؛ وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٥ الشيخ الإمام .

(٣) الأعمال البرانية ، المقصود بها الأقاليم الخارجة عن مصر والقاهرة وضواحيها .

(٤) التطابق تام بين ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٦ والنويرى وكلاهما أورد كتاب ابن دقيق العيد .

عليها ملائكة غلاظٌ شدادٌ لا يَعْصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[1] .
هذه المكاتبة إلى، فلان ، وفقه الله لقبول النصيحة ، وأناه لما يقربه قصدا صالحا ، ونية صحيحة . أصدرناها إليه ، بعد حمد الله الذى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[2] ، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور ، تذكرة بأيام الله ، ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[3] . وتحذره[4] صفقة من باع الآخرة بالدنيا ، فما أحد سواه مغبون . عسى أن يرشده بهذا التذكار وينفعه وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، فإنى أخاف أن يتردى ، فيجز من ولاه ، والعياذ بالله ، معه .

والمقتضى لإصدارها ما لحناه[5] من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم عن القيام بما يحبُّ الرب على المربوب ، ومن أنسهم بهذه الدار وهم يزعجون عنها ، ومن علمهم بما بين أيديهم من عقبة كؤود ، وهم لا يتحققون[6] منها ، ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء[7] الأمانة ، على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار ، وهمم[8] نحيفة . والله إن الأمر لعظيم ، وإن الخطب لجسيم ، ولا

(١) سورة التحريم آية ٦ .

(٢) سورة غافر ، آية ١٩ .

(٣) سورة الحج ، آية ٤٧ .

(٤) فى الأصل بحذره ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧

(٥) فى الأصل لحياه ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧

(٦) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧ يتخففون .

(٧) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧ هنا

(٨) فى الأصل وهم ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧

أرى مع ذلك أمنا ولا قرارا ، ولا راحة ، اللهم [إلا][1] رجلا[2] نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همّه وهمته على حظ نفسه من دنياه . فغاية مطالبه[3] الحياة والمنزلة فى قلوب الناس وتحسين الزى[4] والملبس ، والركبة والمجلس ، غير مستشعر[5] خيبة حاله ، ولا ركاكة مقصده . فهذا لا كلام معه ، فإنك لا تسمع الموتى ، وما أنت بمسمع من فى القبور . فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه ، فالمحروم من أمله غير مرحوم . وما أنا وأنتم أيها النفر ، إلا كما قال حبيب العجمى ، وقد قال له قائل : ليتنا لم نخلق فقال قد وقعتم فاحتالوا . وإن خفى عليك بعض هذا الخطر ، وشغلتك الدنيا ، أن تقضى من معرفته الوطر . فتأمل [من][6] كلام النبوة القضاة ثلاثة ، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن خاطبه مشفقا عليه : لا تأمرن على اثنين ، ولا تلين مال اليتيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[7] .

وما أنا والسير فى متلف يبرح بالذكر الضابط

هيهات جف القلم ، ونفذ أمر الله ، ولا راد لما حكم . ومن هناك شمّ الناس فى الصدّيق رضى الله عنه ، رائحة الكبد المشوى . وقال الفاروق : ليت أم عمر

---

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧

(٢) فى الأصل أرجل ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل مطالب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧

(٤) فى الأصل الرأى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧

(٥) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧ خسة

(٦) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٠٧

(٧) ما حدث من الاضطراب فى ترتيب لوحات المخطوطة الأصلية ، أدى إلى بتر الروايات واضطرابها ، وبفضل ابن الفرات تم تقويم النصوص والعبارات . انظر ما سبق الإشارة إليه ص ٢٢٥ من هذا الجزء .

لم تلده . واستسلم عثمان وقال من أغمد سيفه، فهو حر. وقال علىّ : — والخزائن بين يديه مملوءة — من يشترى منى سيفى هذا ، ولو وجدت ما اشترى به رداء ما بعته . وقطع الخوف نياط قلب عمر بن عبد العزيز، فمات من خشية العرض. وعلق بعض السلف فى بيته سوطا، يؤدب به نفسه إذا فتر. أفترى ذلك سدى ؟ أو وضح إنا نحن المقربون وهم البعداء ؟ وهذه أحوال لا توجد فى كتاب السلم ولا الإجارة[1] ولا الجنايات . نعم إنما تنال بالخضوع والخشوع ، وبأن تظمأ وتجوع ، وتحمى عينك الهجوع . ومما يعينك على الأمر الذى دعوت إليه ، ويزودك فى سيرك إلى الغرض[2] عليه ، أن تجعل لك وقتا تعمره بالفكر والتدبير ، وأناة تجعلها معدة لجلاء قلبك . فإنه [إن[3]] استحكم صداه ، صعب تلافيه[4] . واعرض عنه من هو أعلم بما فيه ، واجعل أكثر همومك لاستعداد المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد . فإنه يقول ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون[5] ﴾ .

---

(١) فى الأصل الاجادة ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢٠٧ ، وكتاب السلم والإجارة من موضوعات الفقه الإسلامى . فالسلم هو بيع شىء غير موجود بالذات ، بثمن مقبوض فى الحال ، على أن يوجد الشىء ويسلم المشترى فى أجل معلوم .

انظر عبد الرزاق السنهورى ، الوسيط فى شرح القانون المدنى ، ١٩٦٠ ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

أما الاجارة فالمقصود بها ما يؤدى عن كراء الأرض من تمر أو زرع أو مال متفق عليه .

انظر ابن حجر العسقلانى ، كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، القاهرة ١٣٣ هـ ، ص ١٥٩ .

(٢) فى الأصل العرض ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢٠٧

(٣) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢٠٧

(٤) فى الأصل بلاقيه ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢٠٧

(٥) سورة الحجر ، آية ٩٢ ، ٩٣

ومهما وجدت من همتك قصورا ، واستشعرت من نفسك عما بدا إليها نفورا ، فاجار إليه وقف ببابه واطلب منه ، فإنه لا يعرض عمن صدق ، ولا تعزب[1] عن علمه[2] خفايا الضمائر ، ألا يعلم من خلق

وهذه نصيحتى إليك ، وحجتى بين يدى[3] الله ، إن فرطت ، عليك ، اسأل الله لى ولك ، قلبا واعيا ، ولسانا ذاكرا ، ونفسا مطمئنة ، بمنه وكرمه .

وفى هذه السنة ، عزل القاضى جمال الدين بن الشريشى نفسه من نيابة الحكم بدمشق ، عن قاضى القضاة بدر الدين [بن جماعة][4] ، وذلك فى الجمعة ، رابع عشرين شهر رجب . فوقع اختيار قاضى القضاة ، بدر الدين [بن جماعة][5] فى النيابة عنه ، على القاضى جمال الدين سليمان بن عمر بن سالم الأذرعى[6] ، المعروف بالزرعى قاضى زرع[7] . فاحضره منها واستنابه بدمشق ، وذلك فى يوم الاثنين تاسع عشر شوال من السنة .

وفيها ، قدمت والدة الملك العادل بدر الدين سلامش ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس من بلاد الأشكرى[8] ، إلى دمشق . وكان وصولها

(١) فى الأصل يعزب ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢٠٨

(٢) فى الأصل عمله ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢٠٨

(٣) فى الأصل من ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢٠٨

(٤) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢١٢

(٥) الإضافة من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢١٢

(٦) فى الأصل الأدرعى ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢١٢

(٧) زرع ، من بلاد حوران والغوطة جنوبى دمشق ، وهى وحدة إدارية (محل) مستقلة . القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٤ ، ص ١٠٨

(٨) الأشكرى ، وهو امبراطور الدولة البيزنطية بالقسطنطينية ، وكان وقتذاك اندرونيكوس الثانى بالولوغس ١٢٨٣ — ١٣٣٤ ، الذى تقدمت الإشارة اليه .

انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧١٤ حاشية ٧

فى حادى عشر رمضان . ونزلت بدار الحديث الظاهرية بدمشق . وأرسل إليها نائب السلطنة الأمير عز الدين أيبك الحموى الظاهرى ، التحف والهدايا والألطاف ، وخدمها أتم خدمة . ثم توجهت من دمشق إلى القاهرة فى عشية الجمعة ، ثامن عشر رمضان .

ذكر توجه السلطان الملك العادل وعزل نائب السلطنة بدمشق الأمير عز الدين الحموى ، وتولية الأمير سيف الدين أغرلوا[1] العادلى وغير ذلك

وفى هذه السنة ، توجه السلطان الملك العادل إلى الشام بجميع العساكر . وكان استقلال ركابه من قامة الجبل ، فى يوم السبت سابع عشر شوال ، بعد الزوال . ووصل إلى دمشق فى الساعة الخامسة من يوم السبت ، خامس عشر ذى القعدة ، والأمير بدر الدين بيسرى حامل الجتر[2] على رأسه . وحضر فى خدمته نائب السلطنة ، الأمير حسام الدين لاجين ، والصاحب فخر الدين بن الخليلى ونزل

(١) هكذا فى الأصل المنسوخ المحقق ، وكذا فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١٤ (أغرلوا) ، أما فى المخطوط (اعزلوا) ، وفى المنهل الصافى تحقيق د . محمد محمد أمين جـ ٢ ، ص ٤٦٢ (أغزلو) ، وفى زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة تحقيق د . زبيدة محمد عطا جـ ٩ ، ص ٢٩٢ (اعرلو) ، وفى السلوك تحقيق د . محمد مصطفى زيادة جـ ١ ، ص ٨١٧ ، وكذا فى الدرر الكامنة جـ ١ ، ص ٣٩٠ (أغراو) (المصحح) .

(٢) الجتر ، لفظ فارسى معرب ، يقصد به المظلة ، وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب ، تحمل على رأس السلطان فى المواكب ، وهى من رسوم الملك ، ومن بقايا الدولة الفاطمية — القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧ — ٨ .

الوزير بدار الملك الزاهر . وفى يوم وصوله إلى دمشق ، توجه إلى زيارة قبر والده ، الشيخ مجد الدين بجبل الصالحية . فلقيه القاضى تقى الدين سليمان الحنبلى ، وسلّم عليه ، فعرّف به . فأمر أن يركب بغلته الجنيب ، فركبها ، وحضر معه إلى تربة والده . فلما فرغ من القراءة ، ولّاه الصاحب قضاء القضاة على مذهبه ، فقبل . وخلع عليه فى بكرة النهار ، وعلى بقية القضاة . وكان قاضى الحنابلة قبله ، القاضى شرف الدين الحسن ابن الشيخ شرف الدين عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسى قد توفى ، وكانت وفاته فى أول ليلة الخميس ، الثانى والعشرين من شوال ، ودفن ضحى يوم الخميس ، رحمه الله تعالى[1] .

ولما استقر السلطان بدمشق ، خلع على الأمراء والمقدمين ، وعلى الصاحب تقى الدين توبة ، والشيخ نجم الدين بن أبى الطيب ، وولّاه وكالة بيت المال ، وعلى شهاب الدين الحنفى .

ثم شرع الصاحب فخر الدين فى مصادرات الولاة والمباشرين . ورسّم على الأمير شمس الدين الأعسر شاد الدواوين [بدمشق][2] ، وعلى الأمير سيف الدين استدمر كرجى[3] والى البر ، وعزله عن ولاية البر . وولّى الأمير علاء الدين ابن الجاكى عوضه ، وطلب منهما الأموال ، ورسّم على سائر المباشرين ، وطلب من كل منهم جامكية سنة . واستخرج من شهاب الدين بن السلعوس ثمانين ألف درهم ، وكان الأمير شمس الدين صنقر الأعسر باقيا على ولايته ، وهو الذى تولّى

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١٣ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١٣

(٣) فى الأصل كجى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١٣ .

المستخرج من المصادرين ، استدمر وغيره . وهو مع ذلك يحمل ما تقرر عليه من الأموال[١] .

وفى يوم الاثنين رابع عشر ذى القعدة ، وصل الملك المظفر صاحب حماه إلى خدمة السلطان بدمشق ، فتلقاه السلطان وأكرمه . ثم جرد السلطان جماعة من العسكر المصرى ، وعسكر دمشق إلى جهة حلب[٢] .

وفى يوم الجمعة ، ثامن عشرين ذى القعدة ، حضر السلطان إلى جامع بنى أمية وصلى به الجمعة . وخلع على الخطيب قاضى القضاة بدر الدين [بن جماعة[٣]] ، وزار مصحف عثمان .

وفى يوم الاثنين مستهل ذى الحجة ، حضر الأمير عز الدين الحموى الظاهرى ، نائب السلطنة بدمشق ، إلى خدمة السلطان . فأنكر عليه سوء اعتماده ، وطمع نفسه ، وما بلغه عنه من بسط يده فى أخذ المصانعات[٤] . وأخذ السلطان خيوله المسومة وأمواله وأقمشته ، ثم عزله عن النيابة ، وفوضها لمملوكه الأمير سيف الدين أغرلوا العادلى ، وباشر النيابة من يومه . ثم خلع بعد ذلك على الأمير عز الدين الحموى ، وأنعم عليه بإقطاع أغرلوا بالديار المصرية . وانتقل الحموى عند عزله من دار السعادة ، ونزل بداره المعروفة بالجيشى التى بالقصاعين .

---

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١٣

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١٣

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢١٣

(٤) المصانعات : المقصود بها هنا أموال الرشوة والمداراة ؛ فى محيط المحيط صانعه رشاه وداراه وداهنه . وفى Dozy: Supp. Dict. Ar أمثلة عديدة للدلالة على ما يؤديه الشخص من الأموال ، حتى لا يتعرض للأذى والضرر .

وفيها، فى ثامن ذى الحجة، فوض السلطان وزارة الشام، لوكيله شهاب الدين الحنفى، عوضا عن تقى الدين توبة، وكان قبل ذلك بل الحسبة بدمشق. وخلع عليه خلعة الوزارة فى يوم عيد الأضحى. ثم توجه السلطان فى ثامن [عشر][1] ذى الحجة، إلى جهة حمص، وتصيّد فى تلك الجهة. ودخل حمص فى تاسع عشر ذى الحجة، وحضر إليه نائب السلطنة بحلب، وبقية النواب. وانسلخت السنة، والسلطان بمخيمه على جُوْسِيه[2]، وهى قرية من قرى حمص، كان قد اشتراها.

وفى هذه السنة، توفى الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى، أمير جاندار. وكانت وفاته بمصر، فى يوم الأربعاء، السادس والعشرين من صفر سنة خمس وتسعين وستمائة. ودفن بتربته بالرصد. وكان رحمه الله تعالى، كثير الخير والإحسان إلى خلق الله تعالى. وعمّر المدارس والمساجد والجوامع، وله بإسنا من عمل قوص، مدرسة موقوفة على طائفة الشافعية. وبقوص مدرسة على ساحل البحر كذلك، وبجوار المدرسة مسجد له، يجتمع فيه الفقراء الأعجام القرندلية[3] فى شهر رمضان من كل سنة، ويذبح لهم فى كل يوم رأس غنم،

(١) الإضافة من ابن الفرات جـ٨، ص ٢١٤، وفى المقريزى: السلوك جـ ١، ص ٨١٧، ثانى عشر.

(٢) كذا جرى ضبطها فى المقريزى: السلوك جـ ١، ص ٨١٧.

(٣) القرندلية، أو القلندرية، طائفة تنتمى إلى الصوفية، نشأت بإيران، وامتد أثرها إلى الشام ومصر منذ زمن الأيوبيين، فكان أربابها من الأعاجم، على أنهم لم يتقيدوا بآداب المجالسات، ولم يحفلوا بالصوم والصلاة، والتزموا ألا يدخروا شيئا ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا. وزعموا أنهم قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى، ولم يتطلعوا إلى طلب مزيد، ويعتبرون طيب القلب رأس مالهم. أنظر المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٢، ص ٤٣٢ — ٤٣٣.

وما يحتاجون إليه من التوابل[1] والخبز . وله بمصر مدرسة ، وبكرسى الجسر جامع ، وبالرصد جامع ، وغير ذلك من الأماكن الشريفة المبرورة . ووقف عليها الأوقاف المبرورة الوافرة ، رحمه الله تعالى .

وتوفى أيضا بالديار المصرية جماعة من الأمراء ، منهم الأمير بدر الدين بيليك الحسنى أبو شامة ، وهو الذى كان ينـدب إلى الكشف بالوجه القبـلى بالديار المصرية ، فى الدولة المنصورية ، وما بعدها ، رحمه الله تعالى[2] .

(١) فى الأصل التابل ، وما هنا من ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢١٥ .

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات ج ٨ ، ص ٢١٦ .

واستهلت سنة ست وتسعين وستمائة

[٦٩٦ – ١٢٩٦ / ١٢٩٧]

والسلطان الملك العادل بمخيمه على جُوْسِيَه . ثم رحل منها وعاد إلى دمشق، فدخلها فى يوم الأربعاء ثانى المحرم . وفى يوم الجمعة، حضر السلطان إلى الجامع، وصلى بالمقصورة ، وأخذ من الناس قصصهم . ورأى شخصا بيده قصة ، فتقدم إليه بنفسه خطوات ، وأخذ القصة منه[1] .

وفيها ، أمّر السلطان الملك العادل ، الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك السعيد ابن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل سيف الدين بن أبى بكر محمد بن أيوب ، وجعله من أمراء الطبلخاناة بدمشق ، وذلك فى يوم الخميس سابع عشر المحرم .

وفيها ، فى يوم الاثنين ، حادى عشرين المحرم ، قبض على الأمير سيف الدين استدمر كرجى[2] ، واعتقل بالقلعة ، وعزل الأمير سيف الدين سنقر الأعسر ، عن وظيفة الشد ، وولى عوضه الأمير فتح الدين بن صبره .

ذكر عود السلطان الملك العادل إلى الديار المصرية وخلعه من السلطنة ورجوعه إلى دمشق

وفى بكرة نهار الثلاثاء ، الثانى والعشرين من المحرم ، توجه السلطان بعساكره

---

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٠ ، والمقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨١٨ .

(٢) فى الأصل كجى ، وما هنا من المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨١٨ انظر ما سبق ص ٣٠٦ حاشية ٣ .

نحو الديار المصرية ، وقد أجمع أكابر الأمراء على خلعه . فلما انتهوا إلى منزلة[1] العوجا ، جلس السلطان فى الدهليز ، وحضر الأمراء إلى الخدمة ، وطلب الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى طلبا مزعجا . وكان قد توجه إلى الزيارة ، فلما حضر ، لم يقم له على عادته . ويقال إنه كلمه بكلام غليظ ، ونسبه إلى أنه كاتب التتار ، وحصل بينهما مفاوضة ، ثم نهض السلطان من المجلس .

وقام الأمراء ، واجتمعوا فى خيمة الأمير حسام الدين لاجين ، نائب السلطنة ، وتكلموا فيما وقع . فسأل الأمير بدر الدين بيسرى ، الأمير حسام الدين عن موجب إغلاظ السلطان له . فقال : إن مماليكه قد كتبوا عنك كتبا إلى التتار ، وأحضروها إليه ، ونسبوك إلى أنك كتبتها ، ونيته إذا وصل إلى قلعة الجبل ، أن يقبض علىّ وعليك ، وعلى أكابر الأمراء ، ويقدم مماليكه . فأجمعوا عند ذلك على خلعه[2] . وركب الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير شمس الدين قرا سنقر ، والأمير سيف الدين قبجاق ، والأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبى الحاجب ومن انضم إليهم . واستصحبوا معهم حمل نقارات[3] ، وساقوا إلى باب الدهليز . وحركت النقارات حربيا ، وذلك فى يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم ، سنة ست وتسعين وستمائة . فلما مروا بخيمة بكتوت الأزرق العادلى

(١) فى الأصل مجلس ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢١ ، ويشير المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨١٩ إلى أن هذا الموضع قريب من الرملة .

(٢) فى الأصل إلى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢١ .

(٣) كانت النقارات ، وواحدتها نقارة ، من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة بمصر ، منذ أيام الفاطميين . وكانت تحمل على عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث . (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٤٧٥) . وكانت النقارات تحمل فى ركاب السلاطين إلى الحرب ، فتستخدم فى إصدار الأوامر ، وفى الإيذان ببدء القتال ، كما هو واضح بالمتن .

قتلوه . وركب بتخاص[1] العادلى ، وتوجه إلى باب الدهليز فقتلوه أيضا . ولما شاهد الملك العادل ذلك ، خرج من ظهر الدهليز، وركب فرس النوبة ، وعبر على القنطرة التى على ماء العوجا، وساق ركضا، وأدركه خمسة أو ستة من مماليكه . واستقر به السير إلى دمشق . ودخل قلعتها، فكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى[2] .

ذكر سلطنة السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى

وهو السلطان الحادى عشر من ملوك الترك ، بالديار المصرية . وهو من مماليك السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون . اشتراه فى زمن إمرته[3] مرتين . وكان من مماليك الملك المنصور نور الدين على ابن الملك المعز [أيبك[4]] ، فلما سُفِّر إلى بلاد الأشكرى، تأخر بالقاهرة، فاشتراه السلطان الملك المنصور ، فى أيام إمرته بسبعمائة وخمسين درهما . ثم تبيَّن له بعد ذلك أنه من مماليك الملك المنصور ابن الملك المعز ، وقيل له إنه غائب ولا يصح بيعه إلا من حاكم [شرعى[5]] ، فاشتراه ثانيا من قاضى القضاة ، تاج الدين بن بنت الأعز ،

(١) فى الأصل بنجاص ، وماهنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢١ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٠ .

(٢) هذه الرواية تطابق ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢١ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨١٩ — ٨٢٠ .

(٣) فى الأصل امرأته ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٢ .

(٤) الإضافة من المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٠ .

(٥) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٢

بما يزيد عن ألف درهم . و باعه على الغائب ، بالغبطة له . وقد شاهدت أنا عهديته[1] فى جملة عُهَد المماليك المنصورية السيفية، وشذّ عنى تحقيق الثمن الثانى ، إلا أنه يزيد على ألف درهم . ولعل ذلك ألف وخمسون درهما . وكان يوم ذاك يدعى شقير . كذا رأيت عهديته (لاجين المدعو شقير)، وكان فى البيت المنصورى يعرف بلاجين الصغير . وتأمر وناب عن السلطنة بدمشق ، وهو لايعرف بين الناس إلا بلاجين الصغير[2] . وسألت بعض أكابر الأمراء من المماليك المنصورية ، الذين كانوا فى خدمة السلطان ، فى زمن إمرته ، عن لاجين الكبير، الذى مُيِّز هذا بالصغير بسببه ، فما عرفوه . ولعل هذه الشهرة وقعت عليه وقوع اللقب ، والله أعلم .

وتنقل لاجين هذا فى خدمة السلطان الملك المنصور ، من وظيفة الأوشاقية إلى السلاح دارية . ولما قبض عليه السلطان الملك الأشرف ، بعد عزله من نيابة الشام ، ثم أفرج عنه وجعله سلاح دارا كما كان ، فى خدمة أبيه السلطان الملك المنصور ، قبل أن يستنيبه بدمشق . وقد تقدم من أخباره وتنقلاته ، ما نستغنى الآن عن إعادته[3] .

مُلِّك بمنزلة العوجاء من بلاد الساحل . وذلك أنه لما هرب الملك العادل كتبغا من الدهليز ، وتوجه إلى نحو دمشق ، فى الثامن والعشرين من المحرم ، سنة ست وتسعين وستمائة ، اجتمع الأمراء وتشاوروا فمن ينصب فى السلطنة .

---

(١) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٢ ، عهدتيه .

(٢) فى الأصل بذلك ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٢ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٢١ .

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٣ .

فاتفقوا على إقامته فى السلطنة ، وتلقب بالملك المنصور . وشرط الأمراء عليه شروطا فقبلها والتزمها . منها أن يكون معهم كأحدهم ، وأن لاينفرد برأى دونهم ، وأن لايبسط أيدى مماليكه فيهم ، ولا يقدمهم عليهم ، وحلّفوه على ذلك ، فحلف عليه . فقال له الأمير سيف الدين قبجاق المنصورى : — وكان من جملة الأمراء المشار إليهم — نخشى أنك إذا جلست فى المنصب ، تنسى هذا الذى تقرر بيننا وبينك ، وتقدم مماليكك ، وتُحوِّل[1] منكوتمر . فكرر الحلف أنه لايفعل [ذلك][2] ، ولا يخرج عمّا التزمه . فعند ذلك ، حلفوا له وركب بشعار السلطنه ، وتوجه بالعساكر نحو الديار المصرية .

ولما وصل إلى غزة ، حمل الأمير بدر الدين بيسرى الجتر على رأسه . ثم رحل منها ، وكان وصوله إلى قلعة الجبل ، وجلوسه على تخت السلطنة ، فى يوم الجمعة عاشر صفر ، سنة ست وتسعين وستمائة . ثم ركب بشعار السلطنة ، وشَقّ المدينة فى يوم الخميس سادس عشر صفر[3] .

ورتب فى نيابة السلطنة [بالديار المصرية[4]] مقر ملكه ، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، وجعل الأمير سيف الدين سلار أستاذ الدار ، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار أمير جاندار ، والأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبى حاجبا . واستمر الصاحب فخر الدين بن الخليل فى الوزارة برهة ،

---

(١) فى الأصل وتحوّل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٣ .

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٣ .

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٤ .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٤ .

ثم عزله على ما نذكره إن شاء الله . وفوض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير سيف الدين قبجاق المنصورى .

هذا ما كان بالديار المصرية ، فلنذكر أخبار الملك العادل [كتبغا][1]

ذكر أخبار الملك العادل وما اعتمده بدمشق[2]
وما كان من أمره إلى أن انتقل إلى صرخد

لما فارق الملك العادل الدهليز والأمراء، توجه إلى دمشق . وقدم قبله أحد مماليكه ليعلم مملوكه الأمير سيف الدين أغرلوا نائب السلطنة بدمشق ما تجدد، ويخبره بوصول السلطان . فوصل [أمير شكار][3] فى بكرة نهار الأربعاء ، سلخ المحرم . فجمع [نائب السلطنة بدمشق][4] الأمراء ، وركب جماعة من العسكر، وأمرهم بالوقوف خارج باب النصر .

ثم وصل الملك العادل إلى دمشق ، فى وقت العصر من اليوم المذكور ، ومعه أربعة أو خمسة من مماليكه . ودخل إلى القلعة ، واستقر بها ، وحضر إلى خدمته الأمراء ، وخلع على جماعة . وأمر بإيقاع الحوطة على حواصل الأمير حسام الدين لاجين ونوابه[5] . ثم وصل الأمير زين الدين غلبك العادلى[6] فى

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) يقابل العنوان الوارد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٤

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٤

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٤

(٥) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٥

(٦) فى الأصل العادل ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٥

يوم الخميس ، مستهل صفر ، بجماعة يسيرة من المماليك العادلية . وجلس شهاب الدين الحنفى وزير الملك العادل فى الوزارة بالقلعة . ورتب أحوال السلطنة. وأمّر العادل جماعة من دمشق ، ووضع بعض المكوس[1] ، وقرىء بذلك توقيع فى يوم الجمعة سادس عشر صفر .

وفى يوم السبت رابع عشرين الشهر ، وصل الأمير سيف الدين بكتكن وجماعة من الأمراء ، كانوا معه بالرحبة مجردين ، فلم يدخلوا دمشق ، وتوجهوا إلى جهة ميدان الحصا . وأعلن باسم السلطان الملك المنصور [حسام الدين لاجين][2] ، وخرج إليه الأمراء بدمشق ، طائفة بعد طائفة . فلما علم الملك العادل بذلك ، وتحقق انحلال أمره ، وتخاذل الناس عنه ، وثبات قدم الملك المنصور فى السلطنة ، وانضمام الناس إليه ، أذعن إلى الطاعة ، والدخول فيما دخل الناس فيه . وقال للأمراء : السلطان الملك المنصور ، هو خوشداشى ، وأنا فى خدمته وطاعته ، وأنا أكون فى بعض القاعات بالقلعة إلى أن يكاتب السلطان ، ويرد جوابه بما يقتضيه رأيه فى أمرى . فعند ذلك اجتمع الأمراء بباب الميدان ، وحلفوا بأجمعهم للسلطان الملك المنصور ، وكتبوا إليه بذلك .

وتوجه البريد إليه بالخبر ، ودخل الأمير سيف الدين جاغان إلى القلعة ورتب من يحفظ الملك العادل بها ، إلى أن يرد جواب السلطان [المنصور][3] فى أمره ، وغلقت أبواب دمشق ، فى يوم السبت خلا باب النصر . وركب عسكر دمشق بالسلاح ، وأحاطوا بالقلعة حفظا لها ، وخوفا أن يخرج الملك العادل منها ،

(١) فى الأصل بين ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٥

(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٦

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٦

ويقصد جهة أخرى قبل ورود جواب السلطان فى أمره[١] . ثم دقت البشائر فى وقت العصر من يوم السبت المذكور ، وأعلن باسم السلطان الملك المنصور . وقرأ المؤذنون فى ليلة الأحد الخامس والعشرين من الشهر بالمآذن ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء[٢] ﴾ إلى آخر الآية . ودعوا للملك المنصور ، ودعا له قارىء المصحف ، بعد صلاة الصبح وضربت البشائر على أبواب الأمراء ، وأظهروا الفرح والسرور بسلطنته ، وفتحت أبواب البلد وزينت ، وفتح[٣] الناس حوانيتهم .

وفى يوم الأحد المذكور ، اجتمع القضاة بدار السعادة ، وحضر الأمراء والعساكر ، وحلفوا للملك المنصور ، وتولى التحليف القاضى شمس الدين بن غانم ، بحضور الأمير سيف الدين أغرلوا ، نائب السلطنة ، وحلف هو أيضا ، وأظهر السرور بسلطنة الملك المنصور . وقال : السلطان ، أعز الله تعالى نصره ، هو الذى عينى لنيابة السلطنة ، وأستاذى كان قد استصغرنى ، فأشار هو بى ، فأنا نائب السلطان الملك المنصور . ثم توجه هو والأمير سيف الدين جاعان إلى الأبواب السلطانية[٤] .

وخطب للملك المنصور حسام الدين لاجين ، بجوامع دمشق ، فى يوم الجمعة ، مستهل شهر ربيع الأول ، سنة ست وتسعين وستمائة . وكان الأمير شمس الذى سنقر الأصسر ، قد حضر من جهة السلطان الملك المنصور إلى ظاهر

---

(١) يقابل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٦

(٢) سورة آل عمران ، آية ٢٦ .

(٣) فى الأصل وفتحوا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٧

(٤) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٧

دمشق ، فى ليلة الأحد رابع صفر . وأرسل إلى الأمراء كتبا كانت معه ، وحلف جماعة منهم . وتوجه إلى قارا[1] فى ليلته ، وكان بها جماعة من الأمراء المجردين ، فاجتمع بهم ، وقرّر الأمر معهم ، وكتب إلى السلطان بذلك . ثم رجع وأقام بلد بجماعته ، حفظا للبلاد بتلك الجهة[2] . فلما بلغه[3] استقرار الأمور بدمشق ، توجه إليها ، ودخلها فى يوم الخميس ، سابع عشرين صفر . فتلقاه الناس ، واشتعلت الشموع لمقدمه نهارا ، وحضر الأكابر والأعيان إلى خدمته . ونودى بدمشق ، من له مظلمة ، فليحضر إلى دار الأمير شمس الدين [سنقر الأعسر[4]].

ثم وصل الأمير حسام الدين أستاذ الدار إلى دمشق ، بجماعة من العسكر . وجمع الأمراء بدار السعادة ، بحضور القضاة . وقرئ عليهم كتاب السلطان ، يتضمن استقراره فى الملك ، وجلوسه على تخت السلطنة ، بقلعة الجبل ، واجتماع الكلمة عليه ، وركوبه بالخلع الخليفية ، والتقليد من أمير المؤمنين ، الحاكم بأمر الله ، أبى العباس أحمد[5] .

ثم وصل الأمير سيف الدين جاغان الحسامى ، من الأبواب السلطانية ، فى عشية يوم الاثنين ، حادى عشر شهر ربيع الأول . ودخل فى بكرة نهار الثلاثاء ،

---

(١) قارا ، وهى قرية جنوبى حمص ، على مسافة ستة وثلاثين ميلا منها ، وتقع على الطريق بين حمص ودمشق (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٦ والملحوظ ما كان من اختلاف بين النويرى وابن الفرات فى ترتيب الأحداث .

(٣) فى الأصل بلغته ، وما هنا هو الصواب ، ويتفق مع ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٧ ، الذى أورد الخبر فى موضعين .

(٤) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٧ .

(٥) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٧ .

إلى قلعة دمشق ، هـو والأمير حسام الدين أستاذ الدار ، والأمير سيف الدين كجكن ، وقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، واجتمعوا بالملك العادل . فحلف للسلطان الملك المنصور يمينا مستوفاة مغلظة ، أنه فى طاعة السلطان الملك المنصور وموافقته ، وإخلاص النيـة له ، وأنه رضى بالمكان الذى عينه له ، وهو قلعة صرخد ، وأنه لا يُكاتِب ولا يستفسد أحدا ، إلى غير ذلك ، مما اشترط عليه . ثم وصل الأمير سيف الدين قبجاق المنصورى ، نائب السلطنة بالشام ، إلى دمشق فى يوم السبت سادس عشر شهر ربيـع الأول ، ونزل بدار السعادة ، على عادة النـــواب (١) .

وخرج الملك العادل ، من قلعة دمشق ، وتوجه إلى صرخد ، فى ليلة الثلاثاء تاسع عشر ، شهر ربيع الأول . وتوجه معه مماليكه ، وجرد معه جماعة من العسكر الشامى ، إلى أن وصـل إلى قلعة صرخد .

فكانت مـدة سلطنة الملك العادل ، منذ جلس على تخت السلطنة ، بقلعـة الجبل ، فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة ، وإلى أن فارق الدهليز بمنزلة العوجا ، وتوجه إلى دمشق ، فى يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم ، سنة ست وتسعين وستمائة ، سنتين وسبعة عشر يوما ، وإلى أن خلع نفسه من السلطنة بدمشق ، فى يوم السبت رابع عشرين صفر ، شهرا واحدا ، وأحد عشر يوما (٢) .

ولمـا وصل الأمير سـيف الدين جاغان إلى دمشق ، أحضر على يديه توقيعا

---

(١) يقابـل ماورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٨ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ٨٢٥ — ٨٢٦ .

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .

للصاحب تقى الدين توبة ، بوزارة دمشق على عادته ، وتوقيعا للقاضى أمين الدين بن حلال ، بنظر الخزانة ، عوضا عن تقى الدين توبة ، وتوقيعا للشيخ أمين الدين العجمى بنظر الحسبة بدمشق . فباشر كل منهم ما فوض إليه . ثم خلع على الأمراء والمقدمين ، والقضاة ، وأعيان الدولة بدمشق ، فى يوم الاثنين ثانى شهر ربيع الآخر . فيقال إن عدة التشاريف التى فرقت ستمائة تشريف[1] .

ذكر الإفراج عن جماعة من الأمراء

وفى هذه السنة ، أفرج السلطان الملك المنصور عن جماعة من الأمراء المعتقلين ، وهم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والأمير سيف الدين برلغى الأشرفى ، والأمير شمس الدين الركن السلاح دار ، وغيرهم من المماليك السلطانية . وأعطى الأمير ركن الدين بيبرس [الجاشنكير[2]] إمرة بالديار المصرية ، والأمير سيف الدين برلغى إقطاعا بدمشق ، فتوجه إليها .

وفيها ، أمّر السلطان الملك المنصور جماعة من مماليكه ، وهم الأمير سيف الدين منكوتمر ، والأمير علاء الدين ايدغدى شقير ، والأمير سيف الدين بيدوا[3] ، والأمير سيف الدين جاغان ، والأمير سيف الدين بهادر المعزى .

ذكر تجديد عمارة الجامع الطولونى
وترتيب الدروس به ، والوقف على ذلك

وفى هذه السنة ، أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بتجديد

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ والمقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٢٦ .
(٢) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .
(٣) فى الأصل بيدرا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٩ ، والمقريزى : السلوك ١ ، ص ٨٢٦ — ٨٢٧ .

عمارة الجامع الطولونى . وندب لذلك الأمير علم الدين سنجر الدوادارى . وأقر لعمارته من خالص ماله ، عشرين ألف دينار عينا . فاهتم الأمير علم الدين، المشار إليه ، بعمارته وعمارة أوقافه . وابتاع السلطان من بيت المال منية أندونه[1] ، من الأعمال الجيزية ، ووقفها على المدرسين والمشتغلين وأرباب الوظائف بالجامع . ورتب فيه درسا لتفسير كتاب الله العزيز ، ودرسا لحديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ودروسا للفقه على المذاهب الأربعة . وجعل لهذه الدروس مدرسا لكل طائفة ، ومعيدين وطلبة . ورتب دروسا للطب[2] ، وميعادا[3] للرقائق[4] ، وشيخا للسبحة ، ومكتب سبيل ، وغير ذلك من أنواع البر . ورتب لهم الجامكيات المتوفرة ، واستمر ذلك إلى الآن[5] .

وفى هذه السنة ، نقل السلطان ، الخليفة الحاكم بأمر الله أبا العباس[6] أحمد

---

(١) كذا فى ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٩٠ ، عرفت بهذا الاسم نسبة إلى أندونه كاتب أحمد المدائنى ، زمن أحمد بن طولون بمصر ، وهى بمحافظة الجيزة الحالية ، المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١٠ ، ص ٢٨ ، مبارك : الخطط التوفيقية . جـ ١٦ ، ص ٥٩ .

(٢) فى الأصل للطلب ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٣) الميعاد ، وهو درس دينى للوعظ والإرشاد ، والحث على التقوى . المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٧ حاشية ٣ .

(٤) فى الأصل الرقايق ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .

والرقائق ، والمفرد رقيقة ، لفظ اصطلاحى يطلق فى كتب الحديث على باب خاص من أبواب الحديث النبوى . وسميت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم ، لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه ، ما يجعل القلب رقيقا رحيما . انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٥٥٧ . حاشية ١ .

(٥) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٢٩ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٧ .

(٦) فى الأصل أبى العباس ، وما هنا هو الصواب لغويا .

العباسى أمير المؤمنين ، من البرج الذى كان يسكنه بقلعة الجبل إلى مناظر الكبش . وأجرى عليه وعلى أولاده الأرزاق الواسعة ، ووصله بالصلات الجزيلة ، وصار يركب معه فى الموكب . والتمس الخليفة من السلطان الإذن فى الحج ، فأذن له فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، وجهزه بما يحتاج إليه (١) .

ذكر تفويض القضاء بالديار المصرية والشام لمن يذكر .

وفى هذه السنة ، حضر إلى الأبواب السلطانية جماعة من قضاة القضاة والأعيان بدمشق ، منهم قاضى القضاة حسام الدين الحنفى الرومى ، وقاضى القضاة جمال الدين المالكى ، والقاضى إمام الدين القزوينى ، والرئيس عز الدين حمزة بن الفلانسى وغيرهم . فلما وصلوا ، أكرمهم السلطان ، وأحسن إليهم ، وخلع عليهم . وفوض إلى قاضى القضاة حسام الدين الحنفى قضاء القضاة بالديار المصرية ، وعامله بما لم يعامل به أحدا من الإكرام ، والتقريب والبر والتشاريف . وأقر ولده القاضى جلال الدين على قضاء الشام . وفوض إلى القاضى إمام الدين القزوينى الشافعى ، قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام الشافعى . وكُتِب تقليده فى رابع جمادى الأولى ، عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة . واستقر بيد القاضى بدر الدين الخطابة بالجامع الأموى بدمشق ، وتدريس المدرسة القيمرية ، وأعيد القاضى جمال الدين الزواوى المالكى إلى دمشق على عادته ، وخلع عليهما ، فكان وصولهما إلى دمشق فى ثامن شهر رجب . وجلس القاضى إمام الدين للحكم بالمدرسة العادلية ، وامتدحه الشعراء . فكان ممن امتدحه الشيخ كمال الدين بن الزملكانى بقصيدته التى أولها :

---

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣٠ ، والمقريزى السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٨ .

تَبَدّلت الأيام من عسرها يسرا فأضحت ثغور الشام تفتر بالبشرى (١)

وأما الرئيس عز الدين حمزة بن القلانسى ، فإنه تأخر بالديار المصرية مدة، ثم عاد إلى دمشق ، فوصلها فى الخامس والعشرين من شهر رمضان . وقد خلع عليه خلع الوزراء ، تشريفا كاملا بطرحة ومنديل هنكرى (٢) مزركش ، وخلع على ولديه . واستعاد [له (٣)] من ورثة السلطان الملك المنصور، ما كان قد صودر به ، وأُخذ منه فى الأيام (٤) المنصورية . وأثبت ذلك فى وجه وكيل الورثة المنصورية ، وتعوض عنها أملاكا ، من الأملاك المنصورية . فذكر أن قيمتها أضعاف ما أخذ منه ، منها حصة بقرية الرمثا (٥) وغير ذلك .

وفيها ، ولى الأمير سيف الدين جاغان الحسامى شد الشام ، و باشر ذلك فى يوم الاثنين العشرين من شهر رجب ، عوضا عن الأمير فتح الدين بن صبره (٦) .

ذكر تفويض الوزارة بالديار المصرية للأمير شمس الدين سنقر الأعسر .

وفى هذه السنة ، تقدم أمر السلطان بطلب الأمير شمس الدين سنقر الأعسر المنصورى ، من دمشق ، على خيل البريد . فركب منها فى سابع عشر جمادى الآخره . ووصل إلى الأبواب السلطانية فى الشهر المذكور ، فأكرمه السلطان

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣١ .

(٢) فى الأصل هفكرى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣١ .

(٣) الإضافة من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣١ .

(٤) فى الأصل باقى ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣١ .

(٥) فى الأصل الزمنا ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣١ .

(٦) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣١ .

وأحسن إليه ، وشرّفه وأمّره بالديار المصرية . ثم فوض إليه الوزارة ، وتدبير الدولة ، بالديار المصرية والممالك الشامية[1] .

وكان جلوسه فى دست الوزارة ، فى السادس والعشرين ، من شهر رجب . وعزل الصاحب فخر الدين بن الخليلى ، وسلّم إليه ، ليستخرج منه مالا[2] . واستمر فى الوزارة إلى يوم السبت ثالث عشرين ذى الحجة ، فقبض عليه لأمور أنكرها السلطان ، وظهرت له منه .

ذكر القبض على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب السلطنة ، وتفويض نيابة السلطنة للأمير سيف الدين منكوتمر .

وفى هذه السنة ، فى يوم الثلاثاء منتصف ذى القعدة ، قبض السلطان على نائبه وخوشداشه ، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى واعتقله . وأمر بإيقاع الحوطة على موجوده وحواصله ، بالديار المصرية والبلاد الشامية . وفوّض السلطان ، بعد القبض عليه ، نيابة السلطنه بمقر ملكه ، لمملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى[3] .

وفى هذه السنة ، بعد القبض على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، ركب السلطان الملك المنصور إلى الميدان ، للعب بالكرة ، فتقنطر به فرسه ، فسقط إلى الأرض ، وانكسر أحد جانبى يديه وبعض أضلاعه . ووجد شدّة

(١) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣٢ .

(٢) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٩ .

(٣) يقابل ما ورد فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣٢ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٩ .

عظيمة لذلك . واحتاج المجبرون إلى كسر عظم الجانب الآخر من يده ، لأجل صحة الجبر ، فإنه لا يجبر[1] أحد الجانبين ، و إن انجبر قصر عن الجانب الآخر ، فتعذّر[2] الانتفاع باليد ، واضطُرّ إلى ذلك ، وتوقف عن الإجابة إليه . فدخل عليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر — وكان ذلك قبل القبض عليه — وقال له : أنا حصل لى مثل هذا ، فلما احتجت إلى كسر النصف الآخر ، ضربته بدقماق حديد[3] ، فانكسر ثم جبر . وكلّمه فى ذلك بكلام فيه غلظ واستخفاف . ولم يسلك ما جرت العادة به من الآداب الملوكية . فكان هذا من أسباب القبض عليه كما تقدم .

واستمر السلطان على الانقطاع لهذه الحادثة ، إلى أن كملت صحته ، وصح ما جبر من يده وجسده . ثم ركب فى حادى عشر صفر ، سنة سبع وتسعين وستمائة فاستبشر الناس بذلك ، ودقّت له البشائر بمصر والشام .

وفى سنة ست وتسعين وستمائة ، فى الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول كانت وفاة الشيخ الإمام ، السيد الشريف ضياء الدين مفتى المسلمين ، أبى الفضل جعفر ابن الشيخ العارف القطب اتفاقا ، عبد الرحيم بن أحمد بن مجنون الحسينى الشافعى ، رحمه الله . وكان قد ولى وكالة بيت المال ، فى أول الدولة المنصورية ، مدة لطيفة ، ثم عزل نفسه .

---

(١) فى الأصل لا يتجبر ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣٢ .

(٢) فى ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣٢ فيتعذر .

(٣) فى الأصل جديد ، وما هنا من ابن الفرات جـ ٨ ، ص ٢٣٢ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٠ .

وفيها ، فى ليلة الثلاثاء ، سادس عشرين ربيع الأول ، توفى الشيخ الإمام الحافظ جمال الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ محمد بن عبد الله الظاهرى ، وولده محمد ، عتيق السلطان الملك الظاهر غازى . ودفن بتربته بمقبرة باب النصر ، ظاهر القاهرة ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، فى يوم الاثنين ثامن عشر شعبان ، توفى الصدر سيف الدين أحمد ابن محمد بن جعفر الساوى بدمشق ، ودفن بداره ، جوار المدرسة الكروسية ، داخل دمشق . وكان كبير الأمل فى النفوس ، مشهور المكانة عند الخليفة المستعصم بالله وغيره . وقد تقدم ذكره فى الدولة المنصورية . وكان حسن الشعر إلا أنه كان كثير الهجاء . وأهاجيه مشهورة ، منها الأرجوزة التى عملها فى مباشرى[1] الدولة المنصورية الناصرية بدمشق ، وهى مشهورة .

وفيها ، فى ليلة الخميس الثالث والعشرين من ذى القعدة ، كانت وفاة الأمير عز الدين أزدمر العلائى ، أحد الأمراء بدمشق . وهو أخو الحاج علاء الدين طيبرس الوزيرى ، رحمهما الله تعالى .

وفيها ، كانت وفاة الصاحب محيى الدين أبى عبد الله محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن النحاس الأسدى . وكانت وفاته ببستانه بالمزة ، فى سلخ ذى الحجة ودفن فى مستهل المحرم . ولى الوزارة بالشام مرارا . ولما توفى ، كان مدرسا بالمدرسة الريحانية والظاهرية وناظر الخزانة ، رحمه الله تعالى .

---

(١) فى الأصل مباشرين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

واستهلت سنة سبع وتسعين وستمائة

[٦٩٧ = ١٢٩٧ / ١٢٩٨]

ذكر وصول الملك المسعود نجم الدين خضر ومن معه من القسطنطينية إلى الديار المصرية[1]

كان السلطان قد كتب إلى الأشكرى ، صاحب القسطنطينية ، فى سنة ست وتسعين وستمائة ، إذ تجهزوا أولاد الملك الظاهر إلى الديار المصرية مكرمين ، هم ومن معهم . فجهز إليه الملك المسعود نجم الدين خضر ووالدته . وأحضر الملك العادل سلامش فى تابوت مصبرا ، وكان قد مات بالقسطنطينية . وكان وصولهم فى هذه السنة ، فأكرمهم السلطان ، وأحسن إليهم . وكان قد تزوج إحدى بنات الملك الظاهر ، فلذلك كتب بإحضارهم ، ودفن الملك العادل بدر الدين سلامش . ثم استأذن الملك المسعود السلطان فى الحج ، فأذن له ، فحج فى هذه السنة . وجهزه السلطان بما يحتاج إليه . ولما عاد ، سكن القاهرة المعزية .

وفى هذه السنة ، كتب تقليد الأمير سيف الدين قبجاق المنصورى ، بنيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، وجهز إليه إلى دمشق ، فوصل إليه فى يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الأول ، يزينه التشريف السلطانى والسيف والحياصه والفرس . ويقال إنه تولى نيابة دمشق فى هذه المدة الماضية بغير تقليد ، فوصل

---

(١) انظر ما سبق ص ٢١٤ من هذا الجزء (المصحح) .

إليه الآن ، فجدّد الحلف للسلطان بحضور القضاة والأمراء . وركب بكرة نهار الخميس ، وعليه التشريف ، وقبّل عتبة باب السر بقلعة دمشق على العادة .

ذكر توجه الملك السلطان الناصر إلى الكرك وإقامته بها

وفى هذه السنة ، جهز السلطانُ الملك المنصور حسام الدين [الملكَ السلطان الناصر[1]] إلى الكرك ، فتوجه إليها ، وتوجه فى خدمته الأمير سيف الدين سلار أستاذ الدار ، فوصل إليها فى رابع شهر ربيع الأول . فأخبرنى قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ، عن خبر إرساله إلى الكرك . قال : طلبنى الملك المنصور حسام الدين ، وقال لى : « إعلم أن السلطان الملك الناصر ابن أستاذى ، وأنا والله فى السلطنة مقام النائب عنه . ولو علمت أنه الآن يستقل بأعباء السلطنة ولا تنخرم هذه القاعدة ، ويضطرب الأمر ، أقمته وقمت بين يديه . وقد خشيت عليه فى هذا الوقت ، وترجح عندى إرساله إلى قلعة الكرك . فيكون بها إلى أن يشتد عضده ، ويكون من الله الخير . والله ما أقصد بإرساله إليها إبعاده ، ولكن حفظه ، [وأما[2]] السلطنة فهى له » . وأمثال هذا الكلام . قال : فشكرته على ذلك ، ودعوت له . ولعل السلطان الملك المنصور ، إنما قال هذا القول تطييبا لقلب قاضى القضاة ، لا حقيقة ، وكان فى طى الغيب كذلك .

ولما توجه السلطان الملك الناصر إلى الكرك ، توجه فى خدمته جماعة من مماليكه ومماليك أبيه السلطان الملك المنصور ، منهم الأمير سيف الدين بهادر الحموى المنصورى وهو أكبرهم سنا . وهو القائم فى خدمته مقام اللالا ، والأمير

(١) الإضافة تتطلبها السياق ، وتتفق مع ما ورد فى المقريزى « السلوك » ج ١ ، ص ٨٣٢

(٢) الإضافة يقتضيها السياق .

سيف الدين أرغون المنصورى الناصرى الدوادار ، وكان قد تربى فى خدمة السلطان من صغره ، وسيف الدين طيدمر جوباش[1] ، رأس نوبة الجمدارية وغيرهم .

وكان النائب بالكرك يوم ذاك ، الأمير جمال الدين أقش الأشرفى المنصورى وكان فى خدمة السلطان الملك الناصر بالكرك ، وهو باق على نيابته بها .

ذكر القبض على الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى وغيره

وفى هذه السنة ، فى سادس شهر ربيع الآخر ، قبض السلطان على الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى . واعتقله بالقاعة الصالحية ، بقلعة الجبل . وكان مكرما فى اعتقاله ، وأحضر إليه زوجته المنصورية ، والدة أحمد ابن السلطان الملك المنصور . وكان سبب ذلك أن السلطان ندبه فى هذه السنة لكشف جسور الجيزية واتقانها . وهذه الوظيفة بالنسبة له إطراح[2] كثير له ولعظامته[3] ، وإن كانت كثيرة فى حق غيره . فتوجه إلى الجيزية بسائر مماليكه وألزامه . فاجتمع معه جمع كثير ، يقال إنهم كانوا نحو سبعمائة . وكان يحضر إلى الخدمة فى يومى الاثنين والخميس ، ويعود إلى مخيمه . فلما تكامل اتقان الجسور ، استأذن فى عمل ضيافة للسلطان هناك . فأذن له واهتم لها اهتماما كثيرا . وحصل بسببها جملة من الأغنام والأصناف وغير ذلك . وقرر مع السلطان أنه يحضر هذه الضيافة . فأوهم نائبه الأمير سيف الدين منكوتمر[4] ، السلطان من خروجه وحذره منه .

(١) فى الأصل بحق باش ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٢

(٢) فى الأصل اطراحا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل وعظامته ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) فى الأصل مكتومر ، وماهنا هو الصواب .

وأحضر بهاء الدين أرسلان ، أستاذ دار الأمير بدر الدين بيسرى ، وهو ابن مملوكه بدر الدين بيليك ، أمير مجلس . وكان قد ربى أرسلان هذا كالولد . فلما كبر قدّمه على جماعة من أكابر مماليكه الذين كانوا فى منزلة أبيه ، وجعله أستاذ داره ، وأحسن إليه إحسانا كثيرا ، فخدعه الأمير سيف الدين منكوتمر ولاطفه ووعده بإمرة طبلخاناة ، إن هو أنهى إلى السلطان ، أن مخدومه الأمير بدر الدين بيسرى يقصد اغتياله . فأطمعت أرسلان نفسه ، بما وعده منكوتمر ، ووافقه على ما قصده . وحضر إلى السلطان وأوهمه من أستاذه أنه إن حضر ضيافته قبض عليه وقتله . ثم عضّد ذلك أن الأمير بدر الدين بيسرى ، أرسل إلى منكوتمر يطلب منه الدهليز السلطانى ، لينُصَبَ فى مكان المهم ، ولم يشعر بما وقع . فرُسم بتسليم الدهليز لمماليك الأمير بدر الدين بيسرى ، وأن يتوجه مقدم الفراشين السلطانية ومن معه لنصبه ، ولم يطلع السلطان على ذلك . فلما حمّل الدهليز السلطانى على الجمال ، ومرّ به المماليك والغلمان ، تحت القلعة ليتوجهوا به إلى الجيزية ، رآه السلطان من القلعة . فأرسل إلى الأمير سيف الدين منكوتمر ، وسأله عن أمره ، فأنكر أن يكون اطلع على شىء من حاله . وقال إن مماليك بيسرى أخذوه من الفراش خاناة السلطانية من غير استئذان . ثم قال للسلطان ، هذا مما يحقق صدق ما نقل عنه ، وأغراه به . فأمر السلطان بإعادة الدهليز إلى الفراش خاناة[1] .

وكان الحامل للأمير سيف الدين منكوتمر على ذلك أن أستاذه الملك المنصور حسام الدين ، كان قد عزم على أن يجعله ولىّ عهده بعده ، كما فعل السلطان الملك المنصور والملك الظاهر بأولادهما ، ويقرن اسمه مع اسمه فى الخطبة ، لأن لاجين لم يكن له ولد ذكر . فتحدث فى ذلك مع الأمير بدر الدين بيسرى ، فأنكره غاية

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٤

الإنكار ، وأجاب عنه بأقبح جواب ، وردّه بأشنع ردّ . فكان مما حكى أنه قال للسلطان : اعلم أن مماوكك هذا الذى أشرت إليه ، لايصلح للجندية ، وقد أمرّته وقدمته ، فصبر الناس لك على هذا . وجعلته نائب السلطنة ، ومشّيت الأمراء والجيوش فى خدمته ، فأجابوا إلى ذلك ، طاعة لك ، وطلبا لرضاك ، مع ما تقدم من أيمانك عند السلطنة ، أنك لاتقدم مماليكك على الأمراء ، ولا تمكنهم منهم . ثم لم تقنع له بما خوّلته فيه ، ومكنته منه ، ورفعته من قدره ، حتى تقصد أن تجعله سلطانا مثلك ، هذا لايوافقك الناس عليه أبدا . وحذره من ذلك غاية التحذير ، ونهاه عنه ، وعن الحديث فيه مع غيره . ولعمرى لقد بالغ فى النصحية[1] له . فأعلم السلطان منكوتمر ، بما دار بينه وبين الأمير بدر الدين بيسرى فى أمره ، وبما أجاب به فى معناه . فرأى منكوتمر أنه منعه مُلْكاً عظيما ، وسلبه أمرا جسيما . وعلم أنه لايتم له هذا الأمر ، الذى أشار به السلطان ، ولايتمكن منه ، مع بقاء بيسرى وأمثاله من الأمراء . فشرع فى التدبير عليهم ، وأغرى مخدومه بهم . وابتدأ بالتدبير على بيسرى . وعلم أنه إن ينقل[2] عنه أمرا ، ربما أن السلطان لا يتلقاه بقبول ، فأخذه من مأمنه . وتحيّل على أستاذ داره أرسلان ، حتى أنهى عنه ما أنهاه . ثم عضد ذلك بواقعة الدهايز ، فتحقق ما نقل عنه . ولما وقع ذلك ، أطلع عليه بعض الأمراء الأكابر ، فراسلوا الأمير بدر الدين بيسرى ، وأعلموه ، بما اطلعوا عليه وكان ممن راسله فى ذلك ، الأمير سيف الدين طقجى الأشرفى وغيره من الأمراء ، وحذروه من السلطان ، وحلفوا له على الموافقة والمعاضدة . فلم يرجع إلى قولهم ، ولا أصغى

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٣ .

(٢) فى الأصل ، يقتل : وما هنا به يستقيم المعنى .

إليهم . ثم أرسل إليه سيف الدين أرغون ، أحد مماليك الملك المنصور ، وخاصكيته وأقربهم عنده ، يخبره أن السلطان قد عزم على القبض عليه ، ويحذره من الحضور إلى الخدمة ، وإنه إن حضر يكون فى أهبة واستعداد . وكان الحامل لأرغون على ذلك ، أن أستاذه أمرّ غيره من مماليكه ، ولم يؤمره بطبلخاناة مع اختصاصه به ، وإنما أعطاه إمرة عشرة[1] ، فوجد فى نفسه . ومن العجب أن كل واحد ، من السلطان وبيسرى ، أُتِى فى هذا الأمر من مأمنه ، وأذاع سره أخص الناس به . فإن أرسلان كان من بيسرى بالمكان الذى ذكرناه ، كأعز أولاده عنده ، وأرغون هذا كان من أخص المماليك المنصورية الحسامية ، حتى لقد بلغنى أنه أعطاه فى يوم واحد ، سبعين فرسا ، وغير ذلك . فحمل أرسلان الطمع بالإمرة ، و [حمل][2] أرغون الغيرة من تقديم أمثاله عليه . ففعلا ما فعلا ، ونقلا ما نقلا .

وحضر الأمير بدر الدين بيسرى إلى الخدمة ، فى يوم الاثنين السادس من شهر ربيع الآخر . فأخبرنى ركن الدين بيبرس الجمدار ، أحد المماليك[3] البدرية ، الذين كانوا معه ، يوم القبض عليه ، أنه لما عبر إلى الخدمة ، تلقاه السلطان قائما على عادته . وجلس إلى جانبه ، وبالغ السلطان فى إكرامه . ولما قدم السماط ، امتنع الأمير بدر الدين من الأكل ، واعتذر بالصوم . فأمر

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٥ .

(٢) الإضافة للتوضيح . وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٦ : كان أرسلان ابنا لبدر الدين بيلبك أمير مجلس ، وكان بدر الدين هذا مملوكا للأمير بيسرى كالولد حتى كبر ، وقدمه على أكابر مماليكه وعمله أستاذداره . .

(٣) فى الأصل مماليك ، وما هنا هو الصواب .

السلطان برفع مجمع من الطعام لفطوره ، فرفع له . وبقى السلطان يحادثه سرا ، ويؤانسه ويشغله عن القيام، إلى أن رفع السماط . وخرج الأمراء ، وقام الأمير بدر الدين معهم على عادته . فلما انتهى إلى بعض الإيوان ، استدعاه السلطان ، فعاد إليه . فقام له أيضا وجلس معه ، وحدّثه طويلا . والحجاب والنقباء يستحثون الأمراء على الخروج[1] . ثم قام [بيسرى][2] ، فاستدعاه [السلطان][3] أيضا ، فعاد إليه . وقام السلطان له ، وجلس معه وتحدثا .

قال الحاكى لى : ورأيت السلطان قد ناوله شيئا من جيبه ، ما أعلم ما هو ، فتناوله الأمير بدر الدين ، ووضعه فى جيبه ، وقبّل يد السلطان وفارقه . وقد خلى المجلس والدهاليز إلا من المماليك السلطانية . فلما خرج، أتاه الأمير سيف الدين طقجى، والأمير علاء الدين ايدغدى شقير الحسامى ، وعدلا به إلى جهة أخرى . وقبض ايدغدى شقير على سيفه ، وأخذه من وسطه ، ونظر إليه طقجى وبكى عند القبض عليه . وتوجها به إلى المكان الذى جهز لاعتقاله به . ولم يزل الأمير بدر الدين معتقلا إلى أن مات ، فى الدولة الناصرية على ما نذكره إن شاء الله تعالى[4] .

وقبض السلطان أيضا على الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبى الحاجب، وقُتِل الأمير سيف الدين كرد أمير آخور إلى الحجبة[5] . وقُبِض على الأمير شمس

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٥ .

(٢) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٥ .

(٣) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٥ .

(٤) يقابل ماورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٥ .

(٥) فى الاصل الحجبة ، وماهنا به يستقيم المعنى .

سنقر شاه[1] الظاهرى . وقبض أيضا فى أواخر السنة على الأمير عز الدين أيبك الحموى الظاهرى .

[وفى جمادى الأولى[2]] ، أمر السلطان بمصادرة القاضى بهاء الدين بن الحلى ناظر الجيوش المنصورة ، وأخذ خطه بألف ألف درهم ، وعزله عن الوظيفة[3] . أُحضر عماد الدين بن المنذر ، ناظر جيش الشام ، فولّاه النظر . وكان قد جلس فى نظر الجيش ، فيما بين عزل بهاء الدين وحضور ابن المنذر ، القاضى أمين الدين المعروف بابن الرقاقى . فلما وصل ابن المنذر ، فوض إليه النظر . ومرض أمين الدولة ، وانقطع فى داره لما حصل له من الألم[4] .

وفى هذه السنة ، أقيمت الخطبة وصلاة الجمعة بالمدرسة المعظمية بسفح قاسيون ، ولم تكن قبل ذلك ، وخطب بها مدرسها شمس الدين بن الشرف بن العز الحنفى ، فى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر ، باتفاق الملك الأوحد ناظر المدرسة[5] .

ذكر إعادة الصاحب فخر الدين عمر بن الخليلى الى الوزارة

وفى هذه السنة ، فى جمادى الأولى ، رسم السلطان بإعادة الصاحب الوزير فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز الخليلى إلى الوزارة فعاد ،

(١) فى الأصل سنقر جاه ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٣ ؛

(٢) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٦ ، وفى الأصل بياض ؛

(٣) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٦ ؛

(٤) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٦ ؛

(٥) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٦ ؛

وصادر ألزام الأمير شمس الدين [صنقر[1]] الأعسر[2] .

ذكر تجريد العساكر إلى سيس وما فتح من قلاعها

وفى هذه السنة ، جرّد السلطان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى الصالحى أمير سلاح ، والأمير حسام الدين لاجين الرومى ، أستاذ الدار ، والأمير شمس الدين آقسنقر كرتاى[3] ، ومن معهم من مضافيهم . وأمرهم أن يتوجهوا إلى بلاد سيس . فتوجهوا من القاهرة ، فى جمادى الأولى ، والمقدم على الجيش أجمع الأمير بدر الدين [بكتاش[4]] أمير سلاح .

وكان وصولهم إلى دمشق فى يوم الخميس ، خامس جمادى الآخرة ، وتوجهوا منها فى ثامن الشهر . وجرّد معهم من عسكر دمشق ، الأمير ركن الدين بيبرس العجمى الجالق ، والأمير سيف الدين كجكن ، والأمير بهاء الدين قرا أرسلان المنصورى ومضافيهم[5] . وجرد العسكر الصفدى ، ومقدمه الأمير علم الدين [ايدغدى][6] الإلدكزى[7] . وجرّد جماعة من العسكر الطرابلسى ، والملك المظفر صاحب حماه بعسكرها .

(١) الإضافة من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٦ .

(٢) يقابل ماورد فى المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٦

(٣) فى الأصل كرتية ، وماهنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٨

(٤) الإضافة من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٧

(٥) يقابل ماورد فى المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٨

(٦) الإضافة من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٨ ، ص ٩

(٧) فى الأصل الإلزكرى ، وماهنا من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ٩

ولما اتصل خبر تجريد العسكر بصاحب سيس ، جهز رسله إلى الأبواب السلطانية ، يستعطف السلطان ، ويسأل مراحمه ، فلم تُجْدِ[1] رسالته نفعا . ووصلت هذه العساكر إلى حلب . وأردف السلطان هذه العساكر بالأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، أحد مقدمى العساكر بالديار المصرية ، ومضى فيه ، فخرج مسرعا ، وأدرك الجيش بحلب . وجرد من العسكر الحلبى الأمير علم الدين المعروف بالزغلى و[الأمير علم الدين سنجر الحلبى[2]] ، ومضافيهما . وتوجهت هذه الجيوش بجملتها إلى بلاد سيس . فلما نزلوا بالعمق ، افترقت العساكر فرقتين . فتوجه الأمير بدر الدين بكتاش ، أمير سلاح ، والأمير حسام الدين أستاذ الدار ، والأمير ركن الدين الجالق ، والأمير بهاء الدين قرا أرسلان ، والعسكر الصفدى من عقبة بغراس إلى باب اسكندرونة ، ونازلوا تل حمدون . وتوجه الملك المظفر صاحب حماه ، والأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، والأمير شمس الدين آقسنقر كرتاى[3] ، وبقية الجيش من عقبة المريت[4] . وصار نهر جيحان[5] بين الفريقين وكان دخولهم إلى درند سيس ، فى يوم الخميس ، رابع شهر رجب .

(١) فى الأصل يجد ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٢) فى الأصل الحلبى ، وما هنا هو الاسم بالكامل ، المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٨

(٣) فى الأصل كرتيه ، وما هنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٨

(٤) فى الأصل عقبة المربى ، وما هنا من

Howorth: History of the Mangols Part III p.430

حيث أوردها بالرسم Merit

(٥) فى الأصل بهر ، وما هنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٨ ، وهو المعروف بنهر جيحان ، الذى ينبع من مرتفعات أرمينية الصغرى ، ويصب فى البحر المتوسط فى خليج آياس ، انظر لسترنج بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦٣ — ١٦٤ .

ولما صاروا ببلاد سيس ، اختلف الأمير بدر الدين أمير سلاح ، والأمير علم الدين الدوادارى ، فأشار أمير سلاح بالحصار ومنازلة القلاع . وأشار الدوادارى بالإغارة والإقتصار عليها . وقال أنا المقدم على هذه الجيوش كلها ، وأنا آخركم عهدا بالسلطان ، وإنما رسم السلطان بالإغارة . فاضطر أمير سلاح ومن معه ، لموافقة الدوادارى ، وقطعوا جهات من مخاضة العمودين ، وتوجهوا للإغارة . فتوجه صاحب حماه والدوادارى ، ومن معهما إلى سيس نفسها . وتوجه أمير سلاح ومن معه إلى ناورزه[1] ، وأقاموا عليها يوما وليلة . ورحلوا إلى أذنة ، واجتمعت الطائفتان[2] بها ، بعد أن قتلوا من ظفروا به من الأرمن ، واستاقوا ما مرّوا به من الأبقار والجواميس . وعادوا من أذنة إلى المصيصة بعد الإغارة ، وأقاموا بها ثلاثة أيام ، حتى نصبوا جسرا مرت العساكر عليه ، ورجعوا إلى بغراس ، ثم إلى مرج أنطاكية . وأقاموا ثلاثة أيام ، ورحلوا إلى جسر الحديد بأرض الروج[3] ، عازمين على العود إلى الديار المصرية ، بالعساكر[4] المصرية إلى مستقرها .

وكان الأمير بدر الدين أمير سلاح ، لما نازعه الدوادارى فى التقدمة ، ومنعه من الحصار ، وصمم على الأقتصار على الإغارة ، قد كتب إلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخى ، نائب السلطنة بالمملكة الحلبية ، يعلمه بما وقع والتمس منه مطالعة السلطان بذلك . فطالع بصورة الحال ، فورد الجواب من السلطان ، والعساكر

(١) ناورزه ، وهى مدينة Anazarbus من مدن أرمينية الصغرى جنوب مدينة سيس ، انظر لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦١ Howorth : op. Cit. III. p. 431.

(٢) فى الأصل الطائفتين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) الروج قرية تقع غرب حلب ، بينها وبين المعرة (ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ، ص ٨٢٥) .

(٤) فى الأصل والعساكر ، وما هنا به يستقيم المعنى .

بالروج ، يتضمن الإنكار على الأمير علم الدين للدوادارى ، كونه ادّعى التقدمة على الأمير بدر الدين أمير سلاح ، واقتصر على الإغارة ، وأن الدوادارى إنما خرج مقدما على مضافيه خاصة ، وإن التقدمة على سائر الجيوش للأمير بدر الدين أمير سلاح . ورسم السلطان أن العساكر لا تعود ، إلا بعد فتح تل حمدون . وإن عادت قبل فتحها ، فلا إقطاع لهم بالديار المصرية ، إلى غير ذلك من الحث على فتحها . فعند ذلك ، عطفت العساكر من الروج إلى جهة حلب ، ووصلوا إليها ، وأقاموا بها ثمانية أيام ، وتجهّزوا منها بما يحتاجون إليه . ودخلوا إلى بلاد سيس بأثقالهم ، وعبروا بجملتهم من عقبة بغراس . وجرّد الأمير بدر الدين [بكتاش[1]] أمير سلاح ، الأميرين سيف الدين بجكن ، وبهاء الدين قرا أرسلان ، إلى إياس ، فأكمن لهم الأرمن فى البساتين ، فلم تتمكن العسكر من قتالهم ، ورحلوا شبه المنهزمين ، فأنكر أمير سلاح عليهم وسبّهم ، فاعتذروا بضيق المسلك والتفاف الأشجار ، وعدم التمكن من العدو . ثم رحل بجميع الجيش ، ونزل على تل حمدون ، فوجدها خالية ، وقد انتقل من بها من الأرمن إلى قلعة نُجيمة ، فتسلمها ، فى سابع شهر رمضان ، وسلمها للأمير علم الدين الشيبانى ، النائب ببغراس .

ولما دخل الجيش إلى بلاد سيس ، جرّد الأمير سيف الدين الطباخى ، نائب السلطنة بحلب ، طائفة من عسكرها ، ومن انضم إليهم من التركمان وغيرهم ، ففتحوا قلعة مرعش ، فى عاشر شهر رمضان أيضا . ثم جاء الخبر إلى العسكر أن واديا تحت قلعة نجيمة وحموص[2] قد امتلأ بالأرمن ، وأن المقاتلة من قلعة

(١) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٩ .

(٢) فى الأصل حيمص ، وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٤٠ ، حميص ، وما هنا من ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٠٢ وتقع هذه القلعة شرق تل حمدون . ووردت باسم حموص (Hamus) انظر Le strange: Palestine Under Moslems p, 543

نجيمة يحمونهم . فندب إليه طائفة من العسكر ، فرجعوا ولم يبلغوا غرضا . ثم [سيّر][1] طائفة ثانية ، فرجعوا كذلك[2] . فرحل الأمراء بجملتهم فى نفر من أعيان الجيش وأقويائه ، وقاتلوا أهل نجيمة ، حتى ردوهم إلى القلعة .

ثم تقدم الجيش إلى الوادى ، وقتلوا من به من الأرمن ، وأسروا ونهبوا ، ونازلوا قلعة نجيمة ، ليلة واحدة . ثم خرج العسكر إلى الوطاة[3] ، وبقى صاحب حماه وأمير سلاح ، فى مقابلة من بالقلعة ، حتى خرج العسكر ، خشية أن يخرج أهل نجيمة ، فينالوا من أطراف العسكر . ثم خرجوا بجملتهم واجتمعوا بالوطاة . فوصل البريد بكتب السلطان ، يتضمن أنه بلغه أن تل حمدون أخليت ، وأنها أخذت بغير قتال ولا حصار ، وانتقل من بها إلى قلعة نجيمة . وأمر بمنازلة قلعة نجيمة وحصارها ، إلى أن تفتح ، فعادت العساكر إليها وحاصروها . واختلف أمير سلاح والدوادارى أيضا ، فقال الدوادارى : إن هذا الجيش بجملته إذا نازل هذه القلعة ، لايظهر من اجتهد وقاتل ، ممن تخاذل وعجز . والقتال عليها إنما هو من وجه واحد . والرأى أن يتقدم فى كل يوم مقدم ألف ، ويزحف بجماعته ليظهر فعله ، واستقل القلعة واستصغرها وحقّر أمرها . وكان فى جملة كلامه أن قال : أنا آخذ هذه القلعة فى مجرى . فاتفق الأمر على أن يتقدم الدوادارى بألفه ، للزحف فى أول يوم . فزحف بمن معه حتى لاحف[4] السور . فأصابه حجر منجنيق فى مشط رجله ، فقطعه وسقط إلى الأرض . فتبادر الأرمن بالنزول إليه ،

(١) الإضافة من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٤٠ .

(٢) فى الأصل لذلك ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٣) الوطاة ، المقصود هنا السهل الذى يجتازه الناس فى يسر .

(٤) المقصود أنه زحف حتى صار فى لحف السور أى جانبه (محيط المحيط) .

وكادوا يأسرونه ، فحمل أمير سلاح بجماعته ، حتى حجزهم عنه . وأخرج الدوادارى على جنوية[1] ، وحمل إلى وطاقه[2] . وعادوا إلى حلب ، ثم توجه منها إلى الديار المصرية . وقد سكنت نفسه ، ونقصت حرمته عما كانت عليه ، وكان قبل ذلك له حرمة وافرة . وقتل الأمير علم الدين سنجر طقصبا الناصرى ، على هذه القلعة . وزحف الأمير شمس الدين آقسنقر كرتاى[3] فى اليوم الثانى ، وانتهى إلى سور القلعة ونقبه ، وخلّص منه ثلاثة أحجار . واستشهد من مماليكه وأجناده أحد عشر رجلا ، ونفران من الحجارين .

ثم زحف أمير سلاح ، وصاحب حماه ، وبقية الجيش . ورتّبهم أمير سلاح طوائف ، طائفة تتلو أخرى . وقرر معهم ، أن يردف بعضهم بعضا . وتقدموا بالجنويات ، حتى وصلوا إلى السور ، وأخذوا مواضع النقوب[4] ، وأقاموا الستائر[5] . ولازموا الحصار عليها واحدا وأربعين يوما . وقد اجتمع بها جمع كثير من الفلاحين والنساء والصبيان من أهل القرى المجاورة لها ، فقلّت المياه بالقلعة . فاضطر الأرمن إلى إخراجهم منها ، فأخرجوهم فى ثلاث دفعات . فأخرجوا فى المرة الأولى مائتى رجل ، وثلاثمائة امرأة ومائة وخمسين صبيا . فقتل العسكر الرجال ، وتفرّقوا النساء والصبيان . ثم أخرجوا فى المرة الثانية مائة وخمسين

---

(١) الجنوية — أنظر ما سبق ص ١٨٢ حاشية ٢ .

(٢) الوطاق — انظر ما سبق ص ٢٠٩ حاشية ٢ .

(٣) فى الأصل كرتبه ، وما هنا من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٤٠ .

(٤) فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٤٠ ، وأخذوا فى النقب .

(٥) الستائر . ومفردها ستارة ، ستار من الخشب ، يتخذ مواضعهم خلفه المقاتلون فى حالتى الهجوم والدفاع . انظر ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٨٠ .

Dozy: supp. Dict Ar.

رجلا ، ومائتى امرأة ، وخمسة وسبعين صبيا ، ففعلوا بهم كذلك . ثم أخرجوا جماعة أخرى فى المرة الثالثة . ولم يتأخر بالقلعة الا المقاتلة ، وقلّت عندهم المياه ، حتى اقتتلوا بالسيف على الماء ، فسألوا الأمان فأعطوه ، وسلموا القلعة فى ذى القعدة من السنة . وخرجوا منها ، وتوجهوا إلى مأمنهم[1] .

وفى أثناء هذا الحصار ، وصلت إلى العسكر مفاتيح النقير[2] وجعبر شغلان وسرقند كار وزنجفره وحمّوص[3] ، وتتمة أحد عشر حصنا من حصون الأرمن . وسلم الأمير بدر الدين أمير سلاح هذه[4] الفتوح إلى الأمير سيف الدين استدمر كرجى[5] أحد الأمراء بدمشق ، وجعله نائبا بها . فلم يزل [استدمر[6]] بهذه الحصون ، إلى أن بلغه حركة التتار وقربهم ، فأباع ما بها من الحواصل وتركها خالية ، فاستولى الأرمن عليها .

ولما تكامل هذا الفتح ، عادت العساكر إلى حلب ، ونزلوا بها ، ليريحوا خيولهم . وترادف عليهم الأمطار وتزايدت ، حتى سكنوا الخانات والدور . ثم أردفهم السلطان بتجريدة أخرى ، من الديار المصرية ، صحبة الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ، والأمير سيف الدين طقطاى ، والأمير مبارز الدين أوليا

---

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٤١ .

(٢) فى الأصل النقيره ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٤١ .

(٣) فى الأصل حيمص ، انظر ما سبق ص ٣٤٠ ، حاشية ٢ .

(٤) فى الأصل هذا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) فى الأصل استدمد كرجى ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٤١ .

(٦) الإضافة للتوضيح .

ابن قرمان ، والأمير علاء الدين ايدغدى شقير الحسامى . فوصلوا إلى دمشق ، فى ذى القعدة ، وتوجهوا إلى حلب ، وأقاموا بها مع العسكر . وجهز صاحب سيس رُسُلاً إلى الأبواب السلطانية يسأل عواطف السلطان ومراحمه[1] . واستمر العسكر بحلب ينتظرون ما يرد عليهم ، من أبواب السلطان . فأقاموا عليها شهورا ، إلا الأمير حسام الدين أستاذ الدار ، فإنه توجه إلى الأبواب السلطانية ، على خيل البريد . وكان عود هـذا العسكر إلى الديار المصرية ، ووصوله إلى القاهرة ، فى منتصف شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وتسعين وستمائة ، بعد مقتل السلطان بثلاثة أيام على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر حادثة غريبة ظهر فيها آية من آيات الله عز وجل

وفى سنة سبع وتسعين وستمائة ، فى العشر الأول ، من جمادى الأولى[2] ، ورد على السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ، مطالعة مضمونها : أن شخصا بقرية جينين[3] ، من الساحل الشامى ، كانت له زوجة ، فتوفيت إلى رحمة الله تعالى . فحملت بعد تغسيلها وتكفينها ودفنت . فلما عاد زوجها من المقبرة ، تذكر أن منديله وقع فى القبر ، وفيه جملة من الدراهم . فأتى إلى فقيه فى القرية ، فاستفتاه فى نبش القبر . فقال له فى ذلك يجوز نبشه وأخذ المال منه . ثم تداخل الفقيه المفتى فى ذلك شىء فى نفسه . فقام وحضر معه إلى القبر ، فنبش الزوج القبر ليأخذ المال ، والفقيه على جانب القبر . فوجد الزوج زوجته مقعدة[4]

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٤١ .

(٢) فى الأصل الأول ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل جنبين ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٣٧ .

(٤) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ٨٣٧ جالسة .

مكتوفة بشعرها ، ورجليها مكتوفتين بشعرها ، [فحاول حل كتافها][1] ، فلم ينحل له ذلك ، فأمعن في ذلك ، فخسف به و بزوجته . ولم يوجد أو لم يعلم الخسف منتهى . وأما الفقيه فإنه أقام مغشيا عليه يوما وليلة أو ليلتين . — نسأل الله أن يسترنا ولا يفضحنا ، وأن لا يؤاخذنا بسوء أفعالنا — . ولما وردت المطالعة على السلطان بهذه الحادثة ، عرضها على شيخنا قاضى القضاة تقى الدين ابن دقيق العيد وغيره . وكتب يستعلم عن سيرة هذه المرأة والزوج المخسوف بهما ، فما علمت ما ورد عليه من الجواب فى ذلك[2] .

ذكر روك[3] الإقطاعات بالديار المصرية وتحويل السنة

وفى سنة سبع وتسعين وستمائة أيضا ، رسم السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ، بروك الإقطاعات والمعاملات والنواحى والجهات بالديار

(١) الإضافة من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٣٧ .

(٢) أشار إلى هذا الحادث المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٣٧ .

(٣) الروك فى كتب المؤرخين ، مصدر الفعل الثلاثى راك ، ومعناها فى الأصل مسح أراضى الزراعة فى بلد من البلاد ، لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت المال ، والمعروف أن الخراج كان المصدر الرئيسى للدخل ، ومنه تصرف أعطية الجند ، ورواتب الولاة وموظفى الدولة . وكان خراج مصر مقسما إلى أربعة وعشرين قيراطا ، توزع على القرى بما يناسب طاقتها .

وكانت جباية الخراج معرضة للتعديل ، فإذا زادت عمارة البلاد وتوافر زرعها ، زادت الجباية ، فان قل أهلها وأجدبت أرضها وخربت ، نقصت . ولعل ذلك من أسباب تكرار مساحة أرض مصر .

ولما حل النظام الإقطاعى بمصر ، ظلت النسبة الخراجية جارية على النظام الجديد ، وهى أربعة وعشرون قيراطا ، للسلطان منها أربعة قراريط ، وللأجناد عشرة قراريط ، وللأمراء عشرة . انظر : المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٤٦ — ٨٤٧

وانظر أيضا التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، محمد قنديل البقلى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ ، ص ١٦٤ — ١٦٥ (المصحح)

G. Demombynes: La syrie. à L' Epouque de Mamlouk, Gauthner, Paris 1923, Introd. P. xxxix .

المصرية . وندب لذلك من الأمراء، الأمير بدر الدين بيليك[1] الفارسى الحاجب، والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى ، المعروف بالبريدى .

وتوجه الكشاف إلى الأقاليم البرانية ، بالوجهين القبلى والبحرى ، ومسحوا البلاد مساحة روك، وحرروا الجهات وعادوا . وانتصب لهذا جماعة من الكتاب، كان المشار إليه فيهم ، تاج الدين عبد الرحمن المعروف بالطويل ، وهو أحد مستوفى[2] الدولة ، من مسالمة[3] القبط ، وممن يشار إليه فى معرفة صناعة الكتابة، ويعتمد على قوله ، ويرجع إليه فيها ، فرتب ذلك على حسب ما اقتضاه رأى السلطان فى تقريره .

واستقر فى الخاص السلطانى الأعمال الجيزية والأطفيحية وثغر الإسكندرية وثغر دمياط ومنفلوط وكفورها ، وهو ، والكوم الأحمر من الأعمال القوصية ، وفى كل إقليم بلاد .

وتقرر إقطاع نيابة السلطنة من أعظم الإقطاعات وأكثرها متحصلا . فكان من جملته بالأعمال القوصية ، مرج بنى همـيم وكفورها ، وسمهود وكفورها ، ودواليبها ومعاصرها ، وحرجة[4] مدينة قوص وأدفو . وهذه النواحى يزيد متحصلها

(١) فى الأصل إلك ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٥٤٣

(٢) فى الأصل مستوفين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) المسالمة ، لفظ يطلق على كل رجل دخل فى الإسلام حديثا من النصارى وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى بالبلاد الاسلامية . انظر . Dozy: supp. Dict. Ar .
Quatremère: op. cit. III .2. p. 66. nôte 27.

(٤) حرجة ، الحرجة الموضع الذى يلتف شجره ، والخراج السلطانية بالوجه القبلى تشمل جهات عديدة ، فى البهنسا ، وفى الأشمونين ، وفى أخميم ، وفى شرقى قوص . انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين . ص ٣٤٤ — ٣٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان .

من الغلال خاصة ، على مائة ألف وعشرة آلاف أردب ، خارجا عن الأموال والقنود[1] والأعسال والتمر والأحطاب وغير ذلك . وفى كل إقليم من الديار المصرية نواحى ومعاصر ، فكان فى خاصه سبع[2] وعشرون[3] معصرة ، لاعتصار قصب السكر.

وكان نجاز الروك فى ذى الحجة سنة سبع وتسعين وستمائة . واستقبل به سنة ثمان وتسعين الهلالية[4] . وحولت السنة الخراجية من سنة ست وتسعين إلى سنة سبع وتسعين . وهذا التحويل جرت به العادة ، بعد انقضاء ثلاث وثلاثين سنة ، تحول سنة ، وهو التفاوت فيما بين السنة الشمسية والقمرية . فيجمع من ذلك فى طول السنة ، ما ينغمس به سنة . وهو حجة ديوان الجيش فى اقتطاع التفاوت الجيشى . وقيل إن قوله تعالى : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا[5] ﴾ ، إن التسعة هى هذا التفاوت[6] ، ما بين السنتين ، والله تعالى أعلم . وهذا التحويل لا ينقص بسببه شىء من الأموال البتة ، وإنما هو تحويل بالأقلام خاصة[7].

---

(١) القند : لفظ فارسى معرب ، وهو عسل قصب السكر . انظر الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٧ ، ابن سيده : المخصص جـ ٥ ، ص ٣ ، الجواليقى : المعرب ، ص ٢٦١

(٢) فى الأصل سبعة ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل عشرين ، وما هنا هو الصواب لغويا

(٤) يوافق العام الهجرى ٦٩٨ أوله من التاريخ الميلادى ٩ أكتوبر ١٢٩٨ : دائرة معارف الشعب : القاهرة ، ١٩٥٩ : ص ٢٢٨ (المصحح).

(٥) سورة الكهف ، آية ٢٥ .

(٦) جرت العادة أن تسقط من استحقاق أرباب الإقطاعات فى كل سنة ، أحد عشر يوما وربع يوم ، وهى التفاوت بين السنة الشمسية والقمرية ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٥ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٧) يقابل ما أورده بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٤٢

ولما نجز هذا الروك، أقطعت البلاد للأمراء والأجناد دربسته[1]، لم يستثن منها غير الجوالى[2] والمواريث الحشرية[3]، فإن ذلك جعل فى جملة الخاص السلطانى. واستثنيت الرزق الأحباسية[4] المرصدة لمصالح الجوامع والمساجد، والربط والزوايا، والخطباء والفقراء. واستقرت فى سائر البلاد على ما يشهد به ديوان الأحباس. وما عدا ذلك من سائر الأموال وغيرها، دخل فى الإقطاع.

وفى هذه السنة، كانت وفاة الأمير عز الدين الجناجى، نائب السلطنة ومقدم العسكر بغزة. وكان قبل وفاته قد أودع عند فخر الدين الاعزازى التاجر بقيسارية الشرب بدمشق صندوقا، ولم يطلع على ذلك إلا خزنداره. وكان الصندوق المودع عنده قبل ذلك وديعه، عند بعض أصحاب الأمير المذكور، فأخذ منه، ثم أودعه عند فخر الدين. واتفقت وفاة خزندار الأمير، وهو الذى اطلع على الوديعة قبل وفاة مخدومه بأيام. ثم مات الأمير، فلما اتصلت وفاته بفخر الدين الاعزازى، اجتمع بقاضى القضاة إمام الدين الشافعى بدمشق، وعرفه خبر الوديعة. فأمره بالتأنى فى أمرها، حتى تثبت وفاة المذكور، ويتحقق أمر ورثته، ففعل ذلك. وفى أثناء ذلك، طلب الأمير سيف الدين جاغان،

---

(١) فى الأصل، وفى المقريزى: السلوك حـ ١، ص ٥٤٤، دربستا، وما هنا هو الصحيح، إذ أن دربسته لفظ فارسى معناه هنا كاملا. Steingass · Pers. Eng Dict

(٢) الجوالى: ما يؤديه أهل الذمة من الجزية وفقا للأحكام الشرعية، فلا يؤديها النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين. انظر التفاصيل فى ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ٣١٧ — ٣١٨

(٣) المواريث الحشرية: ما يؤول إلى بيت المال من المواريث التى لم يستحقها كلها أو بعضها أحد من الورثة. ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ٣١٩

(٤) الرزق الأحباسية، الأموال المرصودة لأرباب المعاشات.

Dozy: supp. Dict. Ar.

شاد الدواوين بالشام ، الوديع الأول وطالبه بما عنده من الوديعة . فادعى أن الجناجى استعاد ذلك منه ، فلم يصدقه ، وقصد ضربه وعقوبته ، بسبب ذلك . فأتاه فخر الدين المذكور واعترف أن الوديعة عنده ، وأحضر الصندوق إلى الديوان السلطانى . وفُتِح واعتبر ما فيه ، فكان فيه من الذهب اثنان وثلاثون[1] ألف دينار ، ومائتا[2] دينار ، وأربعة[3] وثلاثون دينارا ، وحوائص ذهب ، وطرز زركش بتتمة خمسين ألف دينار ، هكذا نقل إلىّ ثقة .

وفيها ، توفى الأمير سيف الدين بلبان الفاخرى ، أمير نقباء العساكر المنصورة بالأبواب السلطانية ، وكانت وفاته فى رابع عشر ربيع الآخر . وأعطى إقطاعه سيف الدين بكتمر الحسامى الطرنطاى أمير آخور . وكان السلطان ، قبل ذلك أمرّه بعشرة طواشية ، فنقله الآن إلى إمرة الطبلخاناة . ثم تنقّل بعد ذلك فى المناصب والنيابات عن السلطنة والوزارة وغير ذلك ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى مواضعه .

وفيها ، فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى ، كانت وفاة الأمير سعد الدين كوجا الناصرى . وكان يتولى نيابة دار العدل ، وتولى ثغر الإسكندرية وكان بيده إمرة عشرة طواشية .

---

(١) فى الأصل اثنين وثلاثين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) فى الأصل ومائتى ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل أربعة وثلاثين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

وفيها، توفيت الخاتون الجليلة الكبرى ، نسب خاتون ، ابنة الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر أيوب، فى العشر الأوسط فى ،شهر ربيع الأول . ودفنت عند والدها بقاسيون ،رحمهما الله تعالى .

واستهلت ثمان وتسعين وستمائة

[٦٩٨ - ١٢٩٨ / ١٢٩٩]

فى هذه السنة ، فى أولها جهز السلطان الأمير جمال الدين أقش الأفرم ، والأمير سيف الدين حمدان بن صلغاى[1] إلى الشام ، وأمرهما أن يتوجها إلى دمشق ، ويخرجا نائب السلطنة الأمير سيف الدين قبجاق[2] وبقية العسكر إلى البلاد الحلبية . فوصلا إلى دمشق على خيل البريد ، فى يوم الأربعاء سابع المحرم . فتجهز الأمير سيف الدين قبجاق نائب السلطنة ، وخرج بسائر عساكر دمشق حتى بحرية القلعة ، وجماعة الأمير علم الدين سنجر أرجواش نائب القلعة ، وتأخر بدمشق الأمير سيف الدين جاغان . وكان خروج نائب السلطنة من دمشق ، فى عشية الأربعاء ، رابع عشر المحرم ، وبات بالميدان الأخضر . وركب فى بكرة النهار ، وتوجه بالعساكر إلى جهة حمص . وكان سبب هذه الحركة ظاهرا ، أن السلطان بلغه أن التتار قد عزموا على الدخول إلى البلاد الإسلامية بالشام . وعلم الأمير سيف الدين قبجاق ، أن الأمر ليس كذلك . فإن القصاد قبل ذلك بيسير ، حضروا إليه من بلاد الشرق ، وأعلموه أن التتار كانوا قد تجهزوا وعزموا على الحضور إلى الشام . فلما كانوا باثناء الطريق ، وقعت عليهم صواعق كثيرة ، وأهلكت منهم خلقا كثيرا ، فتفرقوا فى مشاتيهم ، ولم يرد خلاف ذلك .

---

(١) فى بيبرس الدوادار : فى بدة الفكرة ص ٣٣٦ صلغيه

(٢) فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٥٣ قبجق

والقصاد لا تصل إلى الباب السلطانى بالديار المصرية ، إلا بعد الإجتماع بنائب السلطنة بدمشق، فاستشعر الأمير سيف الدين قبجاق السوء، وعلم أن هذه الحركة إنما هى تدبير[1] عليه، وعلى غيره من الأمراء . فأوجب ذلك توجههم إلى التتار.

ذكر مفارقة من تذكر من نواب السلطنة والأمراء الخدمة السلطانية، ولحاقهم بقازان ملك التتار

وفى هذه السنة، فى شهر ربيع الآخر، توجه الأمير سيف الدين قبجاق المنصورى، نائب السلطنة بالشام، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، أحد مقدمى الجيوش المنصورة المصرية، والأمير فارس البكى الساقى، نائب السلطنة بالمملكة الصفدية، والأمير سيف الدين بزلار، والأمير سيف الدين عزار [الصالحى][2]، إلى بلاد التتار، والتحقوا بملكها قازان محمود .

وسبب ذلك أن الأمير سيف الدين منكوتمر، نائب السلطنة، ثقلت عليه وطأة الأمراء الأكابر . وقصد القبض عليهم أولا، و إقامة خوشداشيته ليصفو له الوقت، و يخلص له الأمر، ويتمكن السلطان بما قصده من تفويض ولاية العهد بعده له . فحسّن للسلطان القبض على من تقدم ذكرهم، فقبض عليهم . ثم شرع فى التدبير على من بالشام من الأمراء والنواب، الذين يعلم منهم الممالأة[3] والمناوأة . فجهز الأمير علاء الدين ايدغدى[4] شقير إلى حلب، كما تقدم، وأردفه بالأمير سيف الدين حمدان بن صلغاى، وعلى يده كتاب إلى نائب السلطنة

(١) فى الأصل تدبيرا وما هنا هو الصواب لغويا

(٢) الاضافة من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩، ص ٣٣٧

(٣) فى الأصل المماثلة، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) فى الأصل ايدغي، وما هنا من المقريزى : السلوك ج ١، ص ٨٥٣

بالمملكة الحلبية ، بالقبض على الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ، [وعلى][1] الأمير فارس الدين البكى ، والأمير سيف الدين طقطاى ، والأمير سيف الدين بزلار ، والأمير سيف الدين عزار . ومن يَعْذُر عليه القبض عليه ، يتحيَّل فى سقيه . فسقى الأمير سيف الدين طقطاى فمات بحلب ، فى أول شهر ربيع الأول . واتصل الخبر ببقية الأمراء ، فاحتاطوا لأنفسهم ، واحترزوا فى ماكلهم ومشربهم وملبسهم . وأعمل الأمير سيف الدين الطباخى الحيلة فى القبض عليهم ، وذلك بعد خروجهم من سيس . فجهز سماطا ، واحتفل به ، وتحدث مع الأمراء أن يتوجهوا معه ، ويحضروا السماط ، فامتنعوا من ذلك ، واعتذروا له ، وتوجهوا إلى خيامهم . فلم تجمع[2] هذه المكيدة . وكان السلطان قد كتب إلى الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ، أن يجهز طُلْبَه وأثقاله إلى المملكة الطرابلسية ، ويكون نائبا عن السلطنة بها ، وذلك بعد وفاة الأمير عز الدين أيبك الموصلى . وأن يحضر هو بنفسه إلى الأبواب السلطانية ، على خيل البريد ، ليوصيه السلطان مشافهة . فأظهر البشر لذلك ، وعلم أنه خديعة .

ولما كان فى مساء النهار ، الذى عمل الطباخى فيه السماط ، اجتمع الأمير سيف الدين الطباخى النائب بحلب ، والأمير سيف الدين كجكن ، والأمير علاء الدين ايدغدى شقير ، وأرسلوا إلى الأمير بكتمر السلاح دار والبكى ومن معهما ، يطلبونهم للحضور لمشورة . وأن سبب هذا الاجتماع ، أن بطاقة وردت فى البيرة فى أواخر النهار ، تتضمن أن التتار أغاروا على ماحول البيرة ، فأجابوا بالامتثال ، وأنهم يحضرون إلى الخدمة فى إثره . فعاد ، وركبوا فى الوقت على حميته .

(١) الإضافة للتوضيح .
(٢) كذا فى الأصل ، والمقصود لم تنجح أو تنجح هذه المكيدة .

فأما بزلار فإنه ساق هـو وخمسة نفر ، وعبر الفـرات إلى رأس العين وانتهى إلى سنجار فتوفى بها . وأما الأمير سـيف الدين بكتمر السلاح دار ، والأمير فارس الدين البكى ، والأمير سـيف الدين عزار ، فإنهم توجهوا إلى حـمص ، واجتمعوا بالأمير سـيف الدين قبجاق ، وأطلعوه على جلية الحال ، وحلفـوه لأنفسهم ، وحلفـوا له . وكتب إلى السلطان يعلمه بما وقع من الاختـلاف ، وبوصول الأمراء إليه ، ويسأل لهم الأمان ، وأن يطيب السلطان خواطرهم . وسيّر بذلك الأمير سيف الدين بلغاق[1] ابن الأمير سيف الدين كونجك الخوارزمى على خيل البريد . فوصل إلى دمشق ، فى يوم السبت خامس شهر ربيع الآخر ، وتوجه منها إلى باب السلطان .

وكتب الأمير سـيف الدين قبجاق إلى الأمير سـيف الدين جاغان ، وهو بدمشق ، يطلب منه أن يرسل إليـه مالا وخلعا من الخزانة ، لينفـق المـال على الأمراء ، ويخلـع عليهم ، ويطيب خواطرهم . فلم يجب إلى ذلك . وكتب إليه يلومه على إغفاله أمر الأمراء ، الذين وصلوا إليه ، وهم طلبـة السلطان ، وكونه تمكن من القبض عليهم ، ولم يفعل . وكتب إليه الأميران سيف الدين كجكن ، وعلاء الدين ايدغدى شقير ، وهما يلومانه وينكران عليـه كونه أقر هؤلاء الأمراء عنده ، مع تمكنه من القبض عليهم ، وقد علم خروجهم على الطاعة وأغلظا له فى القول ، وتواعداه ، أنه متى لم يقبض عليهـم ، حضروا إليـه ، وقبضوا عليـه وعليهم . وكاشفاه فى القول مكاشـفة ظاهرة . فتسلّل[2] عن الأمير

(١) فى الأصل بلقاك ، وماهنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٥٥ .

(٢) فى الأصل وتقلل ، وماهنا من المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨٥٥ .

سيف الدين قبجاق من معه من العسكر الشامى ، وعادوا إلى دمشق ، أولا فأولا . فكتب إلى جاغان فى ذلك ، وأن يردّهم إليه ، فلم يفعل . وشكر [جاغان[1]] من حضر .

فرأى الأمير سيف الدين قبجاق أن أمره قد انتقص ، و بلغه أن العسكر المجرد بحلب قد توجه نحوه . فركب فى ليلة الثلاثاء ، ثامن شهر ربيع الآخر من حمص ، هو والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ، والأمير فارس الدين البكى ، والأمير سيف الدين عزار ، وقبضوا على الأمير علاء الدين أقطوان النائب بحمص ، واستصحبوه معهم إلى القريتين ، ثم أخذوا فرسه وأطلقوه . وتوجهوا فى جماعة ، يقال إن عدة من صحبهم من ألزامهم ومماليكهم خمسمائة فارس . وتوجهوا لا يلوون على شىء ، وتعقبهم الأمير سيف الدين كجكن والأمير علاء الدين ايدغدى شقير ، فى طائفة من العسكر إلى الفرات ، فما أدركوهم ، ووجدوا بعض أثقالهم فأخذوها[2] .

ثم ورد عليهم الخبر بقتل السلطان ، فانحلت عزائمهم ، وتفللت آراؤهم . وساق سيف الدين بلبان القصاص البريدى إلى رأس عين ، ولحق الأمير سيف الدين قبجاق بها . وأعلمه بمقتل السلطان ، وسأله الرجوع بمن معه . وحلف له على صحة ما أخبره به ، فظن أن ذلك مكيدة . ثم تحقق الحال بعد ذلك وقد تورط ، وصار فى بلاد العدو ، فلم يمكنه الرجوع .

ولما وصل الأمراء إلى رأس عين ، بلغ مقدم التتار بتلك الجهة خبر وصولهم ، فخافهم . ثم تحقق أنهم حضروا إلى خدمة الملك قازان ، فحضر إليهم وأكرمهم ،

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٥٥ .

وخدمهم صاحب ماردين ، وقدّم لهم أشياء كثيرة . وقصد بولاى مقدم التتار ، بتلك الناحية ، أن الأمراء يتوجهون[1] إلى جهة قازان على خيل البريد . ويتأخر من معهم من أتباعهم وألزامهم عن الوصول إلى البلاد ، حتى يرد المرسوم . فامتنع قبجاق من ذلك ، وأبى إلا الدخول بالطُّلْب[2] والجماعة الذين معه ، فامتنع التتار عليه . فيقال إنه أخرج إليهم كتاب الملك قازان إليه ، وهو فى بالشت[3] ذهب . فعند ذلك خضعوا له ، ومكّنوه مما أراد ، من الدخول بالطُّلْب . وتوجهوا كذلك ، ودخلوا إلى الموصل بطُلْبين[4] ، والتقاهم أهل البلد . وتوجهوا من الموصل ، وانتهوا إلى بغداد . فخرج إليهم عسكر المغل والخواتين والتقوهم . ثم توجهوا إلى قازان ، وهو يومئذ بأرض السهب[5] من أعمال واسط . فأكرمهم وأحسن إليهم ، وأوجب ذلك وصول قازان بجيوشه إلى الشام على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل يتوجهوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) الطلب ، انظر ما سبق ص ٤٢ حاشية ١ .

(٣) بالشت ، لفظ فارسى ، معناه الوسادة والحشية ، ولعل المقصود هنا ، حقيبة بزركش ذهب تحفظ بها الرسائل الهامة ، انظر Steingass : Pers. Eng. Dict .
ويشير المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٧٢ إلى أن قبجاق كان مدة نيابته لدمشق ، يكاتب قازان ، وعندما عزم على اللحاق به استدعى منه طمغا البريد التى يركب بها الأمراء عندهم ، فبعثها قازان إليه ، وصارت عنده ، حتى ركب من ماردين لحملها إليه . وهذه الرواية قريبة من رواية النويرى بالمتن ، فالطمغا والتمغا ، لفظ تركى الأصل ، معناه هنا أمر ملكى ، ومن معانيه أيضا علامة متفق عليها ، مصنوعة من الذهب أو الفضة .

(٤) فى الأصل مطلبين ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٥) السهب ، كورة فى إقليم واسط . ياقوت : معجم البلدان .

ذكر مقتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ونائبه منكوتمر

كان مقتلهما فى ليلة يسفر[1] صباحها عن يوم الجمعة ، الحادى عشر من شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وتسعين وستمائة . وسبب ذلك ، أن السلطان كان قد فوّض الأمور إلى مملوكه نائبه الأمير سيف الدين منكوتمر ، وقصد التخلى والراحة والدعة ، وعزم على أنه إذا خلى وجهه من الأمراء ، وقبض على من يخشى غائلته منهم ، فوّض إليه أمر السلطنة ، واحتجب هو ، على قاعدة الخلفاء . وإنما كان يمنعه من ذلك ، وجود أكابر الأمراء ، الذين لا يوافقونه[2] على الرأى هذا . فلما قبض على من ذكرنا من أكابر الأمراء ، وأبعد من بقى منهم بالتجريد إلى جهة الشام ، استخف حينئذ منكوتمر ، بمن بقى منهم ، واستبد بالأمر . وآخر ذلك ، أن السلطان رسم له أنه إذا كُتِب مرسوم سلطانى بإنعام أو غيره ، بغير إشارته ، يقطعه بعد العلامة السلطانية . فثقلت وطأته على الناس ، وأنفت نفوس الأمراء من ذلك ، وكرهوا بقاء الدولة ، وأحبوا زوالها بسببه ، مع إحسان السلطان إلى كثير منهم[3] . وكان الأمير سيف الدين كرجى ، أحد الأمراء المماليك السلطانية ، قد اختص بخدمة السلطان ، وتقدم عنده ، وجعله مقدما على المماليك السلطانية ، على ما كان عليه الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، فى الدولة الأشرفية . فبقى كرجى هو الساعى فى مصالح المماليك

(١) الملحوظ أن المؤلف اتخذ فى الكتابة أسلوبا مختلفا عما سبق أن درج عليه فيما أورده من روايات.

(٢) فى الأصل يوافقوه ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) وردت هذه الرواية ، مع بعض التعديل ، فى ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٩٨ .

السلطانية والمتلقى لمصالحهم ، فانضموا إليه ودخلوا تحت طاعته ، وقويت شوكته بهم ، وشوكتهم به . فثقل ذلك على منكوتمر ، وعمل على إبعاده . وحسّن إلى السلطان أن يبعثه إلى نيابة السلطنة بالفتوحات ببلاد سيس[1] .

وكان قد تقدم من الأمراء ، قبل كرجى ، الأمير سيف الدين تمربغا ، فعمل عليه منكوتمر وأبعده وأخرجه إلى الكرك . ثم نقله من الكرك إلى طرابلس ، فى جملة الأمراء ، فمات بها . فلما اتصل الخبر بكرجى ، حضر إلى بين يدى السلطان ، وتضرر واستعفى من هذه الولاية فأعفاه السلطان ، وشرع فى العمل على منكوتمر . واتفق أن الأمير سيف الدين طقطاى ، أحد الأمراء الخاصكية ، وهو نسيب الأمير سيف الدين طقجى ، خاطب منكوتمر فى أمر فأغلظه فى القول ، وسبّه ، فشكا ذلك إلى الأمير سيف الدين طقجى[2] ، فأسرّها فى نفسه . واجتمع هؤلاء الأمراء ، وتشاكوا فيما بينهم ، وذكروا سوء سيرة منكوتمر فيهم ، وقبح فعله واستخفافه بهم . وعلموا أنهم لا يتمكنون[3] منه ، مع بقاء السلطان مخدومه ، فاجتمع رأيهم على اغتيال السلطان .

فلما كان فى هذه الليلة المذكورة ، جلس السلطان يلعب الشطرنج مع إمامه [نجم الدين] بن[4] العسال ، وكان قد تقدم عنده ، وعنده قاضى القضاة

---

(١) يقابل ما ورد فى ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

(٢) فى الأصل طقجى ، وما هنا جرى اثباته بهذا الرسم ، وفقا للصورة التى سبق وروده عليه ، وسوف تتخذ هذه الصورة دون الإشارة إلى ذلك . والمعروف أن هذا الاسم وارد بكل من الصيغتين بمواضع شتى . انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٥٥ حاشية ٥ .

(٣) فى الأصل يتمكنوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٥٦ .

حسام الدين الحنفى[1] ، وكانت له عادة بالمبيت عند السلطان فى بعض الليالى ، فدخل عليه كرجى على عادته ، فسأله السلطان عما فعل . فقال : قد أغلقت على الصبيان فى أماكن مبيتهم، وكان قد رتب بعضهم فى أماكن من الدهاليز . فشكره السلطان ، وأثنى عليه . وذكر للقاضى حسام الدين خدمته للسلطان ، وملازمته الخدمة . فقبّل كرجى الأرض، ثم تقدم لإصلاح الشمعة التى بين يدى السلطان، فأصلحها وألقى فوطة خدمة كانت بيده على نمجاة[2] السلطان . وكان سلاح دار النوبة قد وافقه وباطنه على قتل السلطان . ثم قال كرجى للسلطان : ما يصلى مولانا السلطان العشاء ، فقال نعم ، وقام للصلاة . فأخذ السلاح دار النمجاه من تحت الفوطة . فعند ذلك ، جرد كرجى سيفه، وضرب السلطان به على كتفه، فأراد السلطان أخذ النمجاه فلم يجدها . فقبض على كرجى ، ورماه تحته ، فضربه السلاح دار بالنمجاه على رجله ، فقطعها . فانقلب [السلطان][3] على ظهره، وأخذته السيوف ، حتى قتل . وهرب ابن العسال الإمام إلى خزانة ، وصرخ قاضى القضاة حسام الدين عند ضرب السلطان ، لا يحل [هذا لكم][4] ، فهم كرجى بقتله . ثم تركه ، وأغلق كرجى الباب عليه ، وعلى السلطان .

---

(١) هو حسام الدين الرازى الذى ولى قضاء قضاة الحنفية سنة ٦٩٢ ، واستمر إلى أن قتل لاجين سنة ٦٩٨ ، فنقل إلى قضاء دمشق . انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٢٨ — ٧٢٩ .

(٢) النمجاه ، بالهاء ، خنجر مقوس شبه السيف القصير ، وهو معرب اللفظ الفارس نهمجه. ويقال أيضا نمجا ونمجه، ونمشا ونمشاه ، ونمشه . انظر Dozy: Supp. Dict. Ar. المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٥٧ حاشية ١ .

(٣) الإضافة للتوضيح .

(٤) الإضافة من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٥٧ .

ثم خرج [كرجى][1] إلى الأمير سيف الدين طقجى ، وقد استعد هو أيضا ، وهو ينتظر ما يفعله كرجى ، فأعلمه بقتل السلطان . ثم توجهوا إلى دار النيابة ، وقد أغلقت . فطرق كرجى الباب ، واستدعى الأمير سيف الدين منكوتمر برسالة السلطان ، فأنكر حاله ، واستشعر السوء ، وامتنع من الإجابة . ثم قال له : كأنكم قتلتم السلطان ، فقال : نعم قتلناه ، وسبّه . فعند ذلك ذلّ منكوتمر ، وضعفت نفسه ، واستجار بالأمير سيف الدين طقجى ، فأجاره وحلف له أنه لا يؤذيه ، ولا يمكن من أذاه ، فاطمأن ليمينه وخرج إليهم . فأرسلوه إلى الجب ، وأنزلوه إليه ، فلما رآه الأمراء ، قاموا إليه ، وظنوا أن السلطان نقم عليه ، وسألوه عن الخبر . فأخبرهم بقتل السلطان ، فسبوه ، وذكّروه بسوء فعله ، وقصدوا قتله ، ثم تركوه .

ثم رجع كرجى بعد اعتقال منكوتمر إلى مجلسه . وقال لطقجى : نحن ما قتلنا السلطان لإساءة صدرت منه إلينا ، وإنما قتلناه بسبب منكوتمر ، ولا يمكن ابقاءه . ثم قام ، وتوجه إلى الجب ، وأخرجه وذبحه من قفاه على باب الجب[2] .

فكانت مدة سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين ، منذ فارق الملك العادل الدهليز ، وحلف الأمراء له بمنزلة العوجا ، فى يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم سنة ست وتسعين وستمائة ، و إلى أن قتل فى هذه الليلة ، سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما ، ومنذ خلع الملك العادل نفسه بدمشق ، وحلف له ، واجتمعت الكلمة عليه بمصر والشام ، فى يوم السبت رابع عشرين صفر من السنة

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) يقابل ما ورد فى المقريزى ، السلوك ج١ ، ص ٨٥٨ ، و بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ج٩ ، ص ٣٤٧ .

المذكورة إلى هذا التاريخ الذى قتل فيه ، سنتين وشهرين إلا ثلاثة عشر يوما . ودفن بتربته بالقرافة ، ودفن نائبه منكوتمر بالتربة أيضا .

وكان رحمه الله تعالى ملكا عادلا ، يحب العدل ويعتمده ، ويرجع إلى الخير ويميل إليه ، ويقرب أهله . وكان حسن العشرة ، يجتمع بجماعة من المتعممين والعوام ، ويأكل طعامهم . وكان أكولا ، ولم يكن فى دولته وأيامه ما يعاب وينكر ، إلا انقياده إلى مملوكه نائبه منكوتمر ، والرجوع إلى رأيه ، وموافقته على مقاصده حتى كان عاقبة ذلك قتلهما . واثرت موافقته له ، من الفساد على العباد والبلاد وسفك دماء المسلمين ، ما لم يستدرك . وذلك أن الأمراء الذين فارقوا الشام ، وتوجهوا إلى التتار خوفا منه ، أوجب توجههم إلى قازان ، وصوله إلى الشام وخراب البلاد ، وسفك الدماء ، على ما نذكره بعد فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وبلغنى أن الملك المنصور هذا مازال يستشعر القتل ، منذ قتل السلطان الملك الأشرف ، وأنه فى يوم الخميس بعد العصر ، العاشر من شهر ربيع الآخر ، وهو اليوم الذى قتل فيه عشيته ، أحضر إليه ندب نشاب[1] ميدانى ، من السلاح خاناة السلطانية . فجعل يقلبه فردة فردة ، ويفتل كل فردة منها ، ويقول عند فتلها ، من قتل قتل ، وكرر هذا القول مرارا . فقتل بعد أربع ساعات من كلامه أو نحوها . وأجرى الله هذا الكلام على لسانه ، والنفوس حساسة فى بعض الأحيان .

---

(١) الندب : الحزمة من النشاب . Dozy: Supp. Dict. Ar

وحكى لى بعض من أثق به ، عن الأمير بدر الدين بكتوت العلائى حكاية عجيبة تتعلق به ، وبالسلطان الملك الأشرف ، أحببت ذكرها فى هذا الموضع ، فالشىء بالشىء يذكر .

قال بكتوت العلائى : كنت فى خدمة السلطان الملك الأشرف فى الصيد ، وأنا يومئذ والأمير حسام الدين لاجين سلاح دارية ، نحمل السلاح خلف السلطان . فاجتمعنا بحلقة صيد ، وكانت النوبة فى حمل السلاح[1] خلف السلطان للأمير حسام الدين . وقد تقدمت إليه أنا ، فى مكان من الحلقة ، وإذ أنا بلاجين قد أدركنى ، وأعطانى سلاح السلطان . وقال : خذ السلاح ، وتوجه إلى السلطان ، فإنه قد رسم بذلك . فأخذت السلاح ، وتوجهت إلى خدمة السلطان . وساق لاجين فى مكانى الذى كنت به من الحلقة . فلما انتهيت إلى السلطان ، وجدته وهو على فرسه ، وقد جعل طرف عصا المقرعة على رأس النازين[2] ، والطرف بجهته ، وكأنه فى غيبة[3] من حسه . فلما جئت قال لى : يا بكتوت والله ، التفت إلى ورائى ، فرأيت لاجين خلفى ، وهو حامل سلاحى ، والسيف فى يده . فخيل إلىّ أنه يريد أن يضربنى به ، فنظرت إليه ، وقلت له يا أشقر[4] ، أعط السلاح لبكتوت يحمله ، وتوجه أنت مكانه . قال بكتوت العلائى : فقلت للسلطان ، أعيذ مولانا السلطان بالله ، أن يخطر هذا بباله ، ولاجين أقل من هذا ، وأضعف نفسا أن يخطر هذا بباله ، فضلا [عن][5] أن يُقدِم عليه ، وهو

(١) فى الأصل السلطان ، وما هنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٥٥ .

(٢) النازين ، وهو السرج حسبما ورد فى المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٦٠ .

(٣) فى الأصل عينه ، وما هنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٦٠ .

(٤) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٦٠ ياشقير .

(٥) الإضافة من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٦٠ .

مملوك السلطان ، ومملوك السلطان الشهيد ، وتربية بيته الشريف . هذا معنى كلامه .

قال : وشرعت أصرفه عن هذا . فقال لى : والله ما عرفتك إلا ما خطر لى وتصورته . قال بكتوت العلائى : فخشيت على لاجين ، كون هذا السلطان يتخيل هذا الأمر فيه ، وينكفه عنه . وأردت أن أنصحه ، فاجتمعت به فى تلك الليلة فى خلوة . وقلت له : بالله عليك ، تجنب هذا السلطان ، ولا تكثر من حمل السلاح ، ولا تنفرد معه . فسألنى عن موجب هذا الكلام . فأخبرته بما ذكره السلطان لى ، وبما أجبته . فشرع يضحك ضحكا كثيرا ويتعجب . فقال ، ما ضحكى إلا من إحساسه ، والله لما نظر إلىّ ، وقال لى يا أشقر[1] كنت قد عزمت على تجريد سيفه وقتله به . قال بكتوت العلائى : فعجبت من ذلك غاية العجب . ولنرجع إلى سياقة الأخبار بعد مقتلهما ، إن شاء الله تعالى .

ذكر ما اتفق بعد مقتل الملك المنصور ونائبه منكوتمر ، من الحوادث والوقائع المتعلقة بأحوال السلطنة بمصر والشام ، إلى أن عاد السلطان الملك الناصر

لما قتل الملك المنصور حسام الدين لاجين ، ونائبه الأمير سيف الدين منكوتمر ، كان بالقلعة من الأمراء ، غير طقجى وكرجى ، الأمير عز الدين أيبك الخزندار ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير [وسيف الدين سلار الأستادار[2]] ، والأمير حسام الدين لاجين الرومى أستاذ الدار ، وكان قد وصل

(١) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٦٠ باشقر .

(٢) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٦٠ .

على خيل البريد من حلب ، بعد خروجه من بلاد سيس ، والأمير جمال الدين آقش الأفرم ، وكان قد عاد من دمشق ، بعد إخراج نائبها والعسكر منها إلى حمص ، كما تقدم ، والأمير بدر الدين عبد الله السلاحدار ، والأمير سيف الدين كرد[1] الحاجب ، هؤلاء الأمراء المشار إليهم . فاجتمعوا ، واتفقت آراؤهم على مكاتبة السلطان الملك الناصر وإحضاره من الكرك ، وإعادة السلطنة إليه ، وأن يكون الأمير سيف الدين طقجى الأشرفى نائب السلطنة ، وانفصل الحال على ذلك .

ثم سمت بالأمير سيف الدين طقجى نفسه ، إلى طلب السلطنة لنفسه ، وتقرير النيابة لكرجى . وتأخر الإرسال إلى السلطان الملك الناصر . وركب الأمير سيف الدين طقجى فى يوم السبت حادى عشر[2] ، شهر ربيع الآخر ، فى موكب النيابة ، والأمراء فى خدمته . وعاد إلى القلعة ، وجلس . ومدّ السلطان السماط ، وقد تفوه الناس له بالسلطنة ، ولكرجى بالنيابة[3] .

حكى تاج الدين عبد الرحمن الطويل ، مستوفى الدّولة ، قال : طلبنى الأمير سيف الدين طقجى ، وسألنى عن إقطاع نيابة السلطنة ، فذكرت له بلاده

---

(١) فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٦٠ كرت .

(٢) هكذا فى الأصل المنسوخ المحقق ، وبمتابعة التواريخ التى وردت فى الصفحات ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ من هذا الجزء يتبين أن يوم السبت يوافق ثانى عشر ربيع الآخر (المصحح) .

(٣) ما أورده النويرى هنا مختصرا ، جاء بالتفصيل فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٦٦ ، إذ وصف ما دار من الحديث بين الأمراء على السماط ، حول السلطنة ، واستدعاء الملك الناصر . فقام كرجى وقال : « يا أمراء ! أنا الذى قتلت السلطان لاجين ، وأخذت ثار أستاذى ، والملك الناصر صغير ، ما يصلح ، ولا يكون السلطان إلا هذا » — وأشار لطقجى — ، « وأنا أكون نائبه ، ومن خالف فدونه » فسكت الأمراء كلهم إلا كرت الحاجب ، فإنه قال : « يا خوند ! الذى فعلته أنت قد حلفه الأمراء ، ومهما رسمت ماثم من يخالف » ، وانفضوا .

وعبرها[1] ومتحصلاتها ، وما انعقدت عليه جملة ذلك ، فاستكثره ، وقال هذا كثير ، وأنا لا أعطيه لنائب . ورسم أن يوفر منه جملة ، تستقر فى الخاص. ولم يبرز المرسوم بذلك . ثم خرجت من عنده ، فطلبنى كرجى ، وسألنى عن إقطاع النيابة ، كما سألنى طقجى ، فأخبرته بذلك . فاستقلّه ، وقال أنا ما يكفينى هذا ، ولا أرضى به . وشرع يسأل عن بلاد يطلبها زيادة على إقطاع منكوتمر .

قال : فعجبت من ذلك ، كونهما جعلا فكرتهما وحديثهما فى هذا الأمر ، قبل وقوع سلطنة هذا ، ونيابة هذا[2] .

ذكر مقتل سيف الدين طقجى[3] وسيف الدين كرجى

كان مقتلهما فى يوم الإثنين ، رابع عشر شهر ربيع الآخر ، من السنة المذكورة . وذلك أن الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، أمير سلاح ، وصل من غزاة سيس ، فى هذا اليوم ، هو ومن معه . وقد اتصل به خبر مقتل السلطان فاتفق الأمراء الأكابر على الخروج لتلقيه ، وعرضوا ذلك على الأمير سيف الدين طقجى ، وأشاروا أن يركب معهم . فامتنع من ذلك ، وأظهر عظمة وكبراً . فقالوا له إن عادة الملوك تتلقّى أكابر الأمراء ، إذا قدموا من الغزاة ، سيما مثل هذا الأمير الكبير ، الذى هو بقية الأمراء الصالحية . وقد طالت غيبته ، وفتح هذه الفتوح . ولاطفوه ، إلى أن ركب معهم ، وخرج للقائه . فلما التقوا ،

---

(١) فى الأصل غيرها ، وما هنا به يستقيم المعنى ، والمقصود بالعبرة .

(٢) هذه الرواية أوردها باختصار المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٦٦ .

(٣) فى الأصل الطقجى ، وما هنا هو الرسم المعروف لهذا الاسم .

سلّموا عليه ، وسلّم عليهم . ثم قال الأمير بدر الدين [بكتاش][1] ، أمير سلاح ، للأمراء : « أنا عادتى إذا قدمت من الغزاة ، يتلقانى السلطان . وكيف ما أجرانى على عادتى » . وكان قد علم بمقتل السلطان . وإنما أراد بذلك فتح باب الحديث . فقال له طقجى : — وهو إلى جانبه — « السلطان قتل » . فقال : « ومن قتله » . قال بعض الأمراء : « قتله كرجى ، وهذا » . — وأشار إلى طقجى — فقال : « لا بد من قتل قاتله » ، ونفر فى طقجى ، وقال له : « لا تسوق إلى جانبى » . فرفس طقجى فرسه ، وبرز عنه . فحمل عليه أحد المماليك السلطانية ، فضربه بسيفه ، فقتل . واتصل خبر مقتله بكرجى ، وكان قد تأخر فى طائفة من المماليك السلطانية ، تحت القلعة . فهرب وقصد جهة القرافة فأدركوه عند قبور أهل الذمة ، ببساتين الوزير ، فقتل هناك ، ولقى عاقبة بغيه[2] .

قضى الله أن البغى يصرع أهله وأن على الباغى تدور الدوائر

ولما قُتل الأمير سيف الدين طقجى ، توجه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح إلى[3] داره بالقاهرة[4] ، واستقر بها . وكانت غيبته فى غزوة سيس هذه ، أحد عشر شهرا وأياما . وحضر إليه بعض الأمراء الأكابر ، واستشاره فى أمر السلطنة . فأشار بإعادة السلطان الناصر ، ووافق رأيه رأيهم واتفقت الآراء على أن ترجع الحقوق إلى نصابها ، وتقر السلطنة الشريفة بيد

---

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) وردت هذه الرواية مع بعض التعديل : فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٦٩ — ٨٦٩ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٩ ، ص ١٠٤

(٣) فى الأصل دوره ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٦٩

(٤) فى الأصل بالقصر ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٦٩

من هو أحق وأولى بها ، وتعود السلطنة إلى من نشأ في حجرها وليدا ، وتخول من منصبها الشريف طارفا وتليدا . وندبوا الأمير سيف الدين آل[1] ملك الجوكندار[2] ، والأمير علم الدين سنجر الجاولى ، فتوجها إلى خدمة السلطان الملك الناصر بالكرك ، على خيل البريد ، لإحضاره . وطالعه الأمراء بما وقع ، وما اجتمعت الآراء عليه .

وبقى الأمر بالديار المصرية مشتركا ، بعد مقتل طقجى ، بين الأمراء ، إلى أن وصل السلطان الملك الناصر من الكرك . وكانت الكتب تصدر ، وعليها خط ستة من الأمراء وهم : الأمير سيف الدين سلار ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والأمير عز الدين أيبك الخزندار ، والأمير جمال الدين آقش الأفرم ، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار ، والأمير سيف الدين كرد[3] الحاجب . وصدرت الكتب فى بعض الأوقات ، وعليها خط ثمانية ، خط هؤلاء الستة والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار ، والأمير بدر الدين[4] عبد الله السلاح دار .

---

(١) فى الأصل الملك ، وما هنا من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٩٦٩

(٢) فى الأصل الجوكان دار ، وما هنا من المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٨٦٩ ويرد هذا الإسم بهذين الرسمين ، على أن الصورة المثبتة فى المتن هى التى ترد عادة فى المصادر العربية ، ولذا سوف يجرى اثبات الاسم بهذا الرسم ، دون الإشارة إلى ذلك .

(٣) فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٩٦٩ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٠٥ ، كرت .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٩٦٩ ، وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٠٥ ، جمال الدين .

وجلس الأمير عزالدين أيبك الخزندار ، فى ابتداء الأمر فى مرتبة النيابة . فإن الأمراء دعوا له حق التقدمة فى خدمة البيت المنصورى . وكان له رأى فاسد فى مملوك ، كان عند الأمير سيف الدين طقجى ، اسمه تسنّاى[1] ، فطلبه وهو فى المجلس بالدركاه ، بباب القلعة ، وألحّ فى طلبه فأحضر إليه . فلما رآه ، لم يتمالك عند رؤيته ، أن لفّ شعره على يده ، وقام من الدركاه ، وخدم الأمراء ، وتوجه بالصبى إلى داره . وكان غرضه من المناصب والتقدم فى الدولة ، تحصيل هذا المملوك ، فاشتغل به عما سواه ، وفارق المجلس ، وقد ظفر بما تمناه . فعلم الأمراء عند ذلك ، سوء تدبيره ، وقلة دينه ، وأنه لا يعتمد عليه فى شىء ، ولا يصلح للتقدم ، وأنه لم يكن فيه من الصبر ، عن غرضه الفاسد ، التأنى بعض ساعة ، حتى ينقضى ذلك المجلس ، ويتفرق ذلك الجمع الكثير ، وشاهدوا فعله بحضرتهم ، وعدم تحاشيه منهم . فتقدم الأمير سيف الدين سلار عند ذلك وصار يجلس فى مرتبة النيابة ، إلى أن حضر السلطان الناصر من الكرك .

هذا ملخص ما كان بالديار المصرية .

وأما دمشق وما اتفق بها ، بعد توجه الأمير سيف قبجاق ، نائب السلطنة بها ، منها :

فإن الأمير سيف الدين بلغاق[2] الخوارزمى ، لما توجه إلى الديار المصرية ، من جهة الأمير سيف الدين قبجاق — كما قدمنا ذكر ذلك — وصل إلى القاهرة ، فى يوم السبت ثانى عشر ، شهر ربيع الآخر ، بعد مقتل الملك المنصور [لاجين][3] ،

(١) فى الأصل بستاى ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٦٩

(٢) فى الأصل بلقاق ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ : ص ٨٧٠

(٣) الإضافة للتوضيح .

فاجتمع بالأمير سيف الدين طقجى ، وهو صاحب الأمر يومئذ ، وأوصله ما كان على يده من المطالعات من جهة الأمير سيف الدين قبجاق ، فقرئت عليه . وقال نكتب بإطابة قلبه ، وقلوب الأمراء . ثم كان من قتل طقجى ما قدمناه . فكتب الأمراء الثمانية على يده إلى الأمراء بدمشق ، بما وقع من قتل السلطان ونائبه منكوتمر ، وطقجى وكرجى . وأن الحال قد استقر على عود الدولة الناصرية ، وإطابة قلوب الأمراء . فوصل إلى دمشق فى يوم السبت ، تاسع عشر الشهر ، وكان المتحدث بها يومئذ الأمير سيف الدين جاغان الحسامى . فقبض الأمير بهاء الدين قرا أرسلان المنصورى السيفى على جاغان وحسام الدين لاجين الحسامى ، وكان قد ولى بردمشق ، فى أوائل سنة ثمان وتسعين وستمائة ، واعتقلهما بقلعة دمشق . وأوقع الحوطة على نواب الأمراء الأربعة المقتولين ، وحواصلهم بدمشق . وجمع الأمراء بدمشق ، وحلّفهم للسلطان الملك الناصر ، وتحدث بدمشق حديث نواب السلطنة . ولم تطل مدته ، فإنه مات فى ثانى جمادى الأولى[1] ، فيقال إنه سقى .

ثم وردت كتب الأمراء ، مدبرى[2] الدولة بالديار المصرية إلى دمشق ، فى يوم السبت ، رابع جمادى الأولى[3] ، وهى مؤرخة بالسادس والعشرين من شهر ربيع الآخر ، أن يستقر الأمير سيف الدين قطلبك[4] المنصورى السيفى ، فى وظيفة الشد بالشام ، عوضا عن جاغان . فباشر فى يوم الاثنين بعد العصر ، وكان الملك المنصور لاجين قد جهّزه إلى حلب ، يتحدث فى الأموال والحصون ، ويشارك

(١ ، ٣) فى الأصل الأول ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) فى الأصل مدبرين ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٠ قطلوبك .

الأمير سيف الدين الطباخى فى الأمر، فوصل إلى دمشق، ونزل بالقصر الأبلق. واتفق قتل السلطان وهو بدمشق، فلم يمكنه التوجه إلى حلب وأقام بالميدان. فلما ورد هذا الكتاب، انتقل من القصر، وسكن دار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، وتحدث فى الأموال وغيرها. و بقى هو المشار إليه، إلى أن وصل إلى نائب السلطنة بدمشق.

ذكر عود السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى السلطنة ثانيا

قد ذكرنا أن الأمراء أرسلوا إلى خدمة السلطان الأمير سيف الدين آل[1] ملك الجوكندار[2]، وعلم الدين سنجر الجاولى، فتوجها إلى السلطان، فوجداه يتصيد بجهة بحور الكرك. فلما شاهداه ترجلا، وقبلا الأرض بين يديه، وقدما إليه مطالعات[3] الأمراء، وأعلماه بهذه الحوادث. فركب من وقته وعاد إلى الكرك، وتجهز منها، وركب إلى الديار المصرية.

وكان وصوله إلى قلعة الجبل، فى يوم السبت الرابع من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة. وجلس على تخت[4] السلطنة، فى يوم الاثنين سادس الشهر

(١) فى الأصل الملك، وما هنا من المقريزى: السلوك حـ ١ ص ٨٧٣، انظر ما سبق ص ٣٦٧ حاشية ١.

(٢) فى الأصل الجوكان دار: وما هنا من المقريزى: السلوك حـ ٢ ص ٨٧٣، انظر ما سبق ص ٣٦٧ حاشية ٢.

(٣) انظر ما سبق ص ١٦ حاشية ٣.

(٤) تخت، وهو سرير الملك، وهو منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذى يجلس فيه، وهذا المنبر مستند إلى الحائط، ويجلس عليه السلطان فى الأيام العامة، القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤، ص ٦ — ٧.

المذكورة فكأنه المعنى بقول القائل :

قد رجع الحق إلى نصابه وأنت من دون الورى أولى به
ما كنت إلا السيف سلته يد ثم أعادته إلى قرابه

وركب فى ثانى عشر الشهر بشعار السلطنة . ولما جلس ، استشار الأمراء الأكابر ، فيمن يرتبه فى النيابة والوظائف . فوقع الاتفاق على أن يكون الأمير سيف الدين سلار المنصورى الصالحى نائب السلطنة بالأبواب الشريفة ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار العالية ، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار المنصورى أمير جاندار ، والأمير جمال الدين آقش الدوادارى الأفرم الحاجب ، نائب السلطنة بالشام ، والأمير سيف الدين كرد[1] الحاجب ، نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية ومامعها ، عوضا عن الأمير عز الدين أيبك الموصلى المنصورى ، وكان قد توفى إلى رحمة الله تعالى ، فى صفر من هذه السنة . وأحضر الأمير سيف الدين قطلبك[2] المنصورى من الشام ، ورتب أمير حاجب بالأبواب السلطانية . وأقر السلطان الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلى على وزارته . وخلع السلطان على الأمراء والأعيان ، على جارى العادة .

وتوجه الأمير جمال الدين آقش الأفرم إلى دمشق ، على خيل البريد ، فكان وصوله إليها ، فى يوم الأربعاء ثانى عشرين جمادى الأولى . وأفرج عن الأمير سيف الدين جاغان الحسامى ، فى يوم الأربعاء ، تاسع عشرين الشهر ، حسبما رسم به من الأبواب السلطانية . فتوجه إلى الديار المصرية ، فوجد البريد وهو فى أثناء الطريق ، بإعادته إلى الأمرة بدمشق ، فعاد واستقر .

(١) فى المقريزى ، السلوك جـ ١ : ص ٨٧٣ كرت ، انظر ما سبق .

(٢) فى المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٣ قطلوبك انظر ما سبق .

وفى يوم الخميس حادى عشر جمادى الآخرة ، خلع على الأمراء والأعيان بدمشق ، ولبسوا تشاريف السلطان . ووصل طلب نائب السلطنة ، الأمير جمال الدين فى هذا اليوم ، فتلقاه والأمراء فى خدمته ، وعليه التشاريف ، ودخل دخولا حسنا .

وفيها ، فى شهر رجب ، توجه الأمير سيف الدين كرد[1] الحاجب ، لنيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية .

وفيها ، رسم السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين بجكن ، أحد الأمراء الأكابر المقدمين بدمشق . فقبض عليه فى يوم الجمعة ، ثانى عشرين شهر رجب ، واعتقل بقلعة دمشق . ثم جُهِّز إلى الأبواب السلطانية مقيدا ، ثانى شهر رمضان ، هو وحمدان وأخوه ، ولدا صلغاى . وجرد معهم مائة فارس من عسكر الشام . فوصلوا بهم إلى الأبواب السلطانية[2] .

ذكر الإفراج عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وتفويض الوزارة إليه

وفى هذه السنة ، فى شهر رمضان ، أفرج عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر العزّى المنصورى ، وفوض إليه وزارة المملكة الشريفة ، وتدبير الدولة بالديار المصرية ، وعزل الصاحب فخر الدين الخليلى[3] .

---

(١) فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٧٢ كرت .

(٢) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٧٨ .

(٣) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٧٨ .

ذكر وفود سلامش بن أفال بن بيجو[1] وأخيه قطقطوا ومن معهما ، وعود سلامش وقتله

كان سلامش هذا ، قد جهزه قازان[2] ملك التتار إلى بلاد الروم ، مقدما على تمان[3] ، وقيل بل كان معه خمسة وعشرون[4] ألف فارس . وأمره قازان أن يأخذ عساكر الروم ، ويتوجه إلى الشام من جهة سيس ، وأن قازان يحضر بنفسه ، ببقية جيوشه من جهة الفرات ، وأن يكون اجتماعهم على حلب ، ثم يعبرون[5] بجملتهم إلى الشام . فلما وصل سلامش إلى بلاد الروم ، خلع طاعة قازان ، وحدثته نفسه بالملك ، وكاتب ابن قرمان أمير التركمان ، فأطاعه وانضم إليه فى عشرة آلاف فارس . وكتب إلى السلطان [المنصور لاجين[6]] ، يستنجده على قازان . ووصل برسالته وكتبه إلى الأبواب السلطانية ، مخلص الدين الرومى . فكتب السلطان إلى دمشق بتجهيز العساكر لنصرته وإنجاده .

---

(١) فى الأصل بجول ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٤ ، وفى ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٨ حاشية ١ : بنجو .

(٢) كذا فى الأصل ، وورد بصورة غازان فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٨ وسائر المصادر العربية .

(٣) التمان والطومان ، انظر ما سبق ص ٢٩٧ حاشية ٣

(٤) فى الأصل عشرين ، وما هنا هو الصواب لغويا . انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١١٧ .

(٥) فى الأصل يعبروا ، وما هنا هو الصواب لغويا . انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١١٧ .

(٦) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٦ .

ولما اتصل بقازان خبر خروجه عن الطاعة ، انثنى عزمه عن قصد الشام ، فى هذه السنة . وجرد العساكر إلى سلامش فى أوائل جمادى الآخرة ، وكانوا خمسة وثلاثين ألفا ، مع ثلاثة[1] مقدمين ، ومرجعهم إلى بولاى[2] . فتوجهوا إلى سلامش ، وكان قد جمع نحو ستين ألف فارس . وهو يحاصر سيواس ، فإنها كانت قد عصت عليه . فأتته العساكر فى شهر رجب ، والتقوا ، ففارقه من كان معه من عسكر التتار ، والتحقوا ببولاى ، وكذلك عسكر الروم ، ولحق التركمان بالجبال . وبقى سلامش فى دون خمسمائة فارس ، ففر من سيواس إلى بلاد سيس ، ووصل إلى بهسنا[3] فى أواخر شهر رجب[4] ، ثم وصل إلى دمشق فى يوم الخميس ، ثانى عشر شعبان ، وصحبته الأمير بدر[5] الدين الذردكاش نائب بهسنا[6] ، فتلقته عساكر دمشق بأحسن زى صحبة نائب السلطنة بدمشق .

ثم توجه سلامش إلى الأبواب السلطانية ، فى يوم الأحد خامس عشر شعبان ، على خيل البريد ، فوصل إلى الأبواب السلطانية ، وهو وأخوه قطقطوا ،

---

(١) فى الأصل ثلاث ، وما هنا هو الصواب لغويا . انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١١٨ .

(٢) فى الأصل مولاى ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٧ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١١٥ .

(٣) فى الأصل بهنسا ، وما هنا من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١١٩ والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٧ .

(٤) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٨٧ .

(٥) فى الأصل عز الدين ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٧ ، انظر ما يلى .

(٦) فى الأصل بهنسا وما هنا هو الصواب انظر ما سبق أعلاه حاشية ٣ .

فأكرمهما السلطان والأمراء ، وأحسنوا إليهما . وخيّر [سلامش][1] بين المقام بالديار المصرية أو العود . فسأل أن يجرد السلطان معه جيشا ، ليتوجه إلى بلاد التتار ، ويأخذ عياله[2] ، ويرجع إلى خدمة السلطان . فجهزه السلطان إلى حلب . ورسم أن يجرد معه الأمير سيف الدين بكتمر الجلمى[3] ، وأعانه[4] . فوصل إلى دمشق فى الحادى والعشرين من شهر رمضان . وتوجه فى الثالث والعشرين من الشهر ، صحبة الأمير بدر الدين الذردكاش . ولما وصل إلى حلب ، جرد معه الأمير سيف الدين بكتمر الجلمى حسب المرسوم . فساروا إلى بلاد سيس ، فشعر بهم صاحبها والتتار الذين بتلك الأعمال . فأخذوا عليهم الطرق والمضايق ، والتقوا واقتتلوا ، فقتل الجلمى ، ولجأ[5] سلامش إلى بعض القلاع . فأرسل قازان فى طلبه ، واستنزله فحمل إليه فقتله .

واستقر قطقطو[6] ومخلص الدين الرومى فى الخدمة الشريفة السلطانية بالديار المصرية . فأنعم السلطان على قطقطو بإقطاع ، وعلى مخلص الدين براتب .

---

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) فى الأصل لعياله ، وما هنا هو الصواب لغويا . وفى المقريزى . السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٧ ، ويحضر بعياله .

(٣) فى الأصل الحلبى ، وما هنا من المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٧٨ ، ومن بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٤٠ .

(٤) فى الأصل وأعاده ، وما ورد بالمتن به يستقيم المعنى .

(٥) فى الأصل ونجا ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٤٠ ، وفى المقريزى ، السلوك جـ ١ ص ٨٧٧ وفر .

(٦) كذا فى الأصل ، وفى بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٢٤٠ ، وورد بالرسم قطقطوا أيضا فى مواضع عديدة ، انظر ما سبق .

وفى هذه السنة ، فى شهر رمضان ، وصل رسول صاحب سيس ورسول صاحب القسطنطينية بتحف وهدايا ، وتقادم للسلطان . فوصلوا إلى دمشق فى رابع الشهر ، وتوجهوا منها إلى الأبواب السلطانية ، فى سادسه[1] . ويقال إن مضمون رسالة صاحب القسطنطينية ، الشفاعة فى صاحب سيس ، والله أعلم .

ذكر وصول مراكب الفرنج الى ساحل الشام وتكسير بعضها[2] ، ورجوع ما[3] سلم منها[4]

وفى هذه السنة ، فى العشر الأخر من شعبان ، وصل إلى بيروت مراكب كثيرة . وبطش[5] للفرنج فيها جماعة كثيرة من المقاتلة ، يقال إن البطش كانت ثلاثين بطشة ، فى كل بطشة منها ، نحو سبعمائة . وقصدوا أن يطلعوا من مراكبهم إلى البر ، وتحصل إغارتهم على بلاد الساحل . فلما قربوا من البر ، أرسل الله عز وجل عليهم ريحا مختلفة . ففرقت بعض هذه المراكب ، وتكسر بعضها . ورجع من سلم منهم على أسوأ حال ، وكفى الله تعالى شرهم . وحكى عن

---

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٨

(٢) فى الأصل بعضهم ، وما هنا هو الصواب لغويا

(٣) فى الأصل من ، وما هنا هو الصواب لغويا

(٤) فى الأصل منهم ، وما هنا هو الصواب لغويا

(٥) البطشة : والبطسه ، السفينة الكبيرة ، وأشار ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٥١ إلى أن صلاح الدين أمر سنة ٥٨٧ هـ بتعبيه بطشة عظيمة هائلة ببيروت ، مشحونة بالآلات والأسلحة والنار والرجال والمقاتلة لتدخل إلى عكا وكانت عدة المقاتلة بها ستمائة وخمسين رجلا

Dozy: Supp. Dict. Ar.

الريس ببيروت ، أنه قال : والله لى خمسون سنة[1] ، ألازم هذا البحر ، فما رأيت مثل هذه الريح ، التى خرجت على هذه المراكب ، وليست من الرياح المعروفة عندنا[2] .

وفى هذه السنة ، عزل قاضى القضاة حسام الدين الرومى الحنفى عن القضاء بالديار المصرية ، وأعيد إلى القضاء بدمشق عوضا عن ولده القاضى جلال الدين. وكان وصوله إلى دمشق فى يوم الخميس ، سادس ذى الحجة . ولما عزل فوض القضاء بالديار المصرية ، على مذهب الإمام أبى حنيفة ، للقاضى شمس الدين أحمد السروجى الحنفى ، على عادته .

وفيها ، كانت وفاة الأمير الزاهد بدر الدين الصوابى فجأة فى ليلة الخميس ، تاسع جمادى الأولى ، ودفن بسفح قاسيون بكرة النهار . وكان أميرا دينا صالحا ، خيرا كثير البر والصدقة . وروى الحديث النبوى ، وكان له فى الإمرة نحو أربعين سنة . وكان من مقدمى الألوف وأمراء المائة بالشام ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، كانت وفاة بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى النجمى ، الأمير الكبير المشهور فى معتقله ، بالقاعة الصالحية ، بقلعة الجبل المحروسة ، وأخرج ودفن بتربته . وكان الملك الناصر ، لما عاد الى المُلك ، رسم بالإفراج عنه . فوقف الأمراء فى ذلك ، وحسّنوا للسلطان[3] إبقاءه على ما هو عليه . فرجع إلى رأيهم وأبقاه[4] ، فمات بعد ذلك بمدة يسيرة . وكان رحمه الله تعالى ، كريم النفس ، عالى الهمة ، يعطى الكثير ويستقله ، وكان عليه فى أيام إمرته لجماعة كثيرة من

(١) فى الأصل خمسين ، وما هنا هو الصواب لغويا

(٢) يقابل ما ورد فى المقريزى السلوك ج ١ ، ص ٨٧٥

(٣) انظر ما سبق ص ٣٤١ — ٣٤٥ من هذا الجزء (المصحح) .

(٤) فى الأصل ابقاؤه ، وما هنا هو الصواب لغويا .

مماليكه وأولادهم ، وخدامه ، الرواتب الوافرة من اللحم والتوابل والجرايات والعليق . فرتب لبعضهم فى كل يوم سبعين رطلا من اللحم بالمصرى ، وما يحتاج إليه من التوابل والخضراوات والحطب، وسبعين عليقة ، ولأقلهم خمسة أرطال، وخمس علائق ، ولبعضهم عشرين رطلا وعشرين عليقة ، هذا زيادة من جهته على مالهم من الإقطاعات السلطانية. وبلغ ما يحتاج إليه فى كل يوم بسماطه ودوره المرتب عليه فيما بلغنى ، ثلاثة آلاف رطل لحم ، وثلاث[1] آلاف عليقة . وكان ينعم بألف دينار عينا ، وبألف أردب غلة، وبألف قنطار من العسل . ويتصدق على الفقراء بألف درهم وخمسمائة درهم . ولا يعطى أقل من ذلك إلا فى النادر عند التعذر . ولا يفعل ذلك عن امتلاء[2] ولا سعة . ما زال عليه لأرباب الديوان أربعمائة ألف درهم ، وأكثر من ذلك . وإذا وفى دينا ، اقترض خلافه ، يتكرم بذلك . ولا يتجاسر أحد من مماليكه وألزامه أن يعدله عن ذلك ، ولا يشافهه فى الإمساك عنه ، والاختصار منه. وإن كلمه أحد منهم ، أنكر عليه ، وربما ضربه وأهانه ، وعزله عن وظيفته ، وإن كان أستاذ دار أو مباشرا عنده . وكانت مكارمه كثيرة مشهورة وعطاياه وصلاته وافره مذكورة ، ما رأى أهل عصره من أمثاله فى المكارم والعطايا والإنفاق والهبات والصلات مثله ، رحمه الله تعالى ، ومات وعليه من الديون ، ما يزيد على أربعمائة ألف درهم ، ورتب بعده من موجوده وأملاكه ، رحمه الله تعالى[3] .

(١) فى الأصل ثلاثة ؛ وما هنا هو الصواب لغويا

(٢) فى الأصل ملاءة ؛ وما هنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٧٩

(٣) انظر ترجمته فى المقريزى ، السلوك حـ ١ ، ص ٨٧٩ — ٨٨٠ ، والمواعظ والاعتبار جـ ٢ ، ص ٦٩ . وانظر أيضا ترجمته فى المنهل الصافى ، (المرجع السابق) ، حـ ٣ ، ترجمة رقم ٧٤١ . وعقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، للعينى ، تحقيق د . محمد محمد أمين ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٩٠ . القسم الثالث ، ص ٤٠٥ ، ٤٨٢ (المصحح) .

ذكر وفاة الملك المظفر صاحب حماه

وفى يوم الخميس ، الحادى والعشرين من ذى القعدة ، كانت وفاة الملك المظفر تقى الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ، بها . ودفن ليلة الجمعة ، آخر الليل عند أبيه رحمهما الله تعالى . ومولده فى الساعة العاشرة، من ليلة الأحد ، خامس عشر المحرم ، سنة سبع وخمسين وستمائة . وأمه عائشة خاتون بنت الملك العزيز غياث الدين محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب . فيكون عمره ، رحمه الله تعالى ، إحدى وأربعين سنة وعشر أشهر وسبعة أيام ، ومدة ملكه بحماه خمس عشرة سنة[1] وشهرا واحدا ويوما واحدا ، رحمه الله تعالى . وانقطع ملك حماه بعده من البيت الأيوبى سنين[2] ، إلى أن أعاده السلطان الملك الناصر فى سلطنته الثالثة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى موضعه . ولما مات ، فوضت نيابة السلطنة بحماه إلى الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، كما تقدم ، وتداولها جماعة من النواب يأتى ذكرهم ، إن شاء الله تعالى ، فى مواضعه .

وفيها ، توفى الملك الأوحد نجم الدين يوسف ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب ، رحمهم الله تعالى ، فى ليلة الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى الحجة بالقدس الشريف ، ودفن من الغد برباطه عند باب خطّه شمالى الحرم ، وكان

---

(١) فى الأصل خمسة عشر سنة ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) انظر أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، طبعة القاهرة ١٣٢٥ ، ج ٤ ، ص ٤١ - ٤٢

من المشهورين بالجلالة والتقدم فى المجالس ، وعند الملوك ؛ وكان كثير الإحسان إلى الضعفاء ، رحمه الله تعالى[(١)] .

وفيها ، توفى نجم الدين أيوب ابن الملك الأفضل على ابن الملك الناصر داود بدمشق ، وصلى عليه يوم الجمعة ، رابع عشر ذى الحجة ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، كانت وفاة الشيخ الإمام حجة العرب بهاء الدين أبى عبد الله محمد بن إبراهيم ابن محمد بن نصر بن النحاس الحلبى النحوى بالقاهرة ، فى يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى ، فى الثالثة من النهار ، وأخرج من الغد ، ودفن بالقرافة ، ومولده بحلب ، فى يوم الأربعاء ، سلخ جمادى الآخرة ، سنة سبع وعشرين وستمائة ، رحمه الله تعالى[(٢)] .

وفيها ، توفى تقى الدين توبة بن على بن مهاجر التكريتى ، فى ليلة الخميس ، ثانى جمادى الآخرة بدمشق . ودفن بتربته بسفح قاسيون رحمه الله تعالى[(٣)] .

وفيها ، كانت وفاة الأمير جمال الدين آقش المغيثى ، متولى البيرة ، وكان له بها نحو أربعين سنة[(٤)] .

ذكر توجه السلطان إلى الشام

وفى هذه السنة ، تواترت الأخبار بحركة التتار ، فندب السلطان الجيوش المصرية وجردها ، وكان قد جرد فى جمادى الآخرة ، الأمير سيف الدين بلبان

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨٨١ .

(٢) وردت له ترجمة وافية فى ابن شاكر : فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ١٧٢ — ١٧٤ وانظر ترجمته أيضا فى عقد الجمان ، (المرجع السابق) القسم الثالث ، ص ٤٧٧ (المصحح) .

(٣) يقابل ما ورد فى المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨٨١ .

(٤) يقابل ما ورد فى المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٨٧٩ .

الحبيشي ومضافيه ، والأمير بدر الدين عبد الله السلاح دار ومضافيه ، والأمير جمال الدين آقش الموصلي المعروف قتال السبع ، والأمير مبارز الدين الرومي أمير شكار ومضافيه ، فوصلوا إلى دمشق ، في سابع شهر رجب . فلما قويت الأجناد الآن ، جرّد الأمير سيف الدين قطلبك الحاجب ومضافيه ، والأمير سيف الدين نوكيه التتاري ومضافيه ، فوصلوا إلى دمشق في يوم الاثنين رابع عشرين ذي الحجة . ثم توجه السلطان بعد ذلك ، بالعساكر المنصورة . فاستقل ركابه الشريف من قلعة الجبل في الرابع والعشرين من ذي الحجة . واستناب في غيبته بقلعة الجبل المحروسة ، الأمير ركن الدين بيبرس الدواداري المنصوري .

واستهلت سنة تسع وتسعين وستمائة

[٦٩٩-١٢٩٩ / ١٣٠٠]

والسلطان الملك الناصر متوجه[1] بالجيوش إلى الشام ، فوصل إلى غزة فى المحرم . ونزل بتل العجول .

ذكر الفتنة التى أثارها الأويراتية بهذه المدينة[2]

لما حل ركاب السلطان بمنزلة تل العجول ، اتفق جماعة من الأويراتية ، الذين وفدوا إلى الديار المصرية ، فى الأيام العادلية الزينية ، مع الأمير سيف الدين برلطاى[3] ، أحد الأمراء المماليك السلطانية الذين كانوا بدار الوزارة ، على إثارة فتنة . فبينما الأمراء فى الموكب ، لم يشعروا إلا وقد شهر برلطاى سيفه ، وحمل نفسه ، وكرّ صوب الدهليز المنصور السلطانى ، فأمسك ، وسيره السلطان إلى الأمراء ، فقتل لوقته . وقبض على جماعة من المماليك السلطانية ، وسيروا إلى قلعة الكرك ، واعتقلوا بها . وقبض على جماعة من الأويراتية ، فشنقوا بظاهر غزة . وكان من أتهم بمباطنتهم قطلوبرس[4] العادلى ، فطُلب فلم يوجد ، واختفى مدة ، ثم حصل الظفر به ، بعد ذلك ، فشنق بسوق الخيل تحت القلعة .

---

(١) فى الأصل متوجها ، وما هنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٨٢ .

(٢) انظر عقد الجمان ، (المرجع السابق) ، القسم الثالث ، ص ٤٦٢ — ٤٦٩ حيث وردت حوادث تلك الفتنة بالتفصيل (المصحح) .

(٣) فى المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٨٣ برنطاى وفى عقد الجمان ، المرجع السابق ، القسم الثالث ، ص ٤٦٣ برنطيه (المصحح) .

(٤) كذا فى الأصل ، والمقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٨٤ .

وأقام السلطان [الناصر[1]] بهذه المنزلة مدة ، ثم رحل منها ، وتوجه نحو دمشق ، فوصل إليها فى يوم الجمعة ، ثامن شهر ربيع الأول ، ونزل بقلعتها . وهذه السفرة، هى أول وصول السلطان الملك الناصر إلى دمشق، وحال وصوله ، أمر بخروج العسكر الشامى، فخرج من دمشق ، وتلته العساكر المصرية . ثم توجه السلطان فى أعقابهم ، إلى جهة حمص، لقتال التتر ، ودفعهم عن الشام ، وكان رحيله من دمشق، فى وقت الزوال، من يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع الأول[2] .

ذكر وقعة غازان[3] ملك التتار بمجمع المروج[4] ببلاد حمص

كانت هذه الوقعة فى يوم الأربعاء، الثامن والعشرين، من شهر ربيع الأول، سنة تسع وتسعين وستمائة . وذلك أن السلطان الملك الناصر ، لما رحل من دمشق ، إلى جهة حمص ، تواترت الأخبار بوصول التتار[5] إلى وادى الخزندار . فسار السلطان إليهم ، وحث السير . فقطع ثلاث مراحل ، فى مرحلة واحدة ، فأشرف على مجمع المروج ، وقد تعبت خيول العساكر الإسلامية ، وركب غازان فى جيوش التتار ، ومن أنضم إليها من الكرج والأرمن وغيرهم ، ومعه الأمير سيف الدين قبجاق ، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ، والأمير فارس

---

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) يقابل ما ورد فى المقريزى « السلوك » جـ ١ ، ص ٨٨٦ .

(٣) يرد هذا الاسم أيضا برسم قازان ، والواقع أن غازان وقازان كلاهما اسم لملك التتار، انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١١٨ .

(٤) مجمع المروج ، موضع يقع فى وادى الخازندار ، بين حماه وحمص ، انظر ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٤٧ .

(٥) هذا الاسم يرد أيضا برسم التتر فى مواضع عديدة انظر ما سبق .

فارس الدين البكى ، والأمير سيف الدين عزاز[1] . والتقى الجمعان فى الخامسة من النهار المذكور . فحملت الميسرة الإسلامية على ميمنة التتار ، فهزمتها أقبح هزيمة ، وقتل من التتار خلق كثير . فلما عاين غازان انهزام ميمنته ، اعتزل فى نحو ثلاثين فارسا ، وعزم على الفرار . فمنعه الأمير سيف الدين قبجاق ، وثبته ومناه بالظفر[2] . وكان قصده بذلك ، فيما قال بعد عوده ، القبض على غازان عند استمرار الهزيمة بجيوشه .

ثم ركبت فرقة من التتار ، كانت لم تشهد الحرب ، واجتمعوا كراديس[3] ، وحملوا حملة منكرة . وقصدوا قلب العساكر الإسلامية ، وضعفت الميمنة الإسلامية ، عن لقاء ميسرتهم . فكان من الهزيمة ما كان ، وذلك بعد العصر من اليوم المذكور .

ذكر تسمية من استشهد وفقد ، فى هذه الوقعة من المشهورين

كان من استشهد وفقد من الأمراء والمشهورين ، فى هذه الوقعة ، الأمير سيف الدين كرد ، نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية ، والأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير عز الدين أيدمر الحلبي ، أحد الأمراء بالديار المصرية ، والأمير سيف الدين بلبان التقوى ، من أمراء طرابلس ، والأمير ركن الدين بيبرس العثمى[4] ، النائب بحصن المرقب ، والأمير صارم الدين أزبك ، النائب بقلعة

(١) كذا فى الأصل ، انظر ما سبق .

(٢) انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٨٧ .

(٣) كراديس جمع كردوس أو كردوسة ، وهى الفرقة الحربية الراكبة ، والقطعة العظيمة من الخيل (محيط المحيط) . Dozy : Supp . Dict. Ar

(٤) فى الأصل الغيمى ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٨٨ ، وبيبرس الدواداري : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٥٨ .

بلاطنس ، والأمير بدر الدين بيليك المنصورى المعروف بالطيار ، من أمراء دمشق ، قتل فى عوده بعد الوقعة ، والأمير سيف الدين نوكيه[1] التتارى ، والأمير جمال الدين أقش كرجى الحاجب ، والأمير جمال الدين أقش المطروحى ، حاجب الشام[2] . فقدوا نحو ألف فارس من الحلقة والمماليك السلطانية وأجناد الأمراء ومماليكهم . وهؤلاء الأمراء ، منهم من استشهد فى المعركة ، ومنهم من أصابته جراحة ، فمات بعد انفصال الوقعة فيعد شهيدا[3] ، ومنهم من عدم ولم تحقق وفاته . وعدم قاضى القضاة حسام الدين الحنفى الرومى ، والقاضى عماد الدين إسماعيل ابن الأثير الموقع[4] . وقتل من التتار فيما قيل نحو أربعة عشر ألف[5] .

ولما تمت الهزيمة ، وشاهد غازان من قتل من أصحابه وكثرتهم ، وقلة من قتل من العساكر الإسلامية ، بالنسبة إلى من قتل من التتار ، ظن أن هذه الهزيمة مكيدة ، واستجرار[6] لعساكره ، فتوقف عن اتباع العساكر الإسلامية ، حتى تبين له صحة الهزيمة . ثم سار من مكان الوقعة إلى حمص ، وبها الخزائن السلطانية ،

---

(١) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٨٨ ، نوكاى .

(٢) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٨٨ ، وبيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٥٨ .

(٣) يقابل ما ورد فى بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٥٨ .

(٤) فى الأصل الأمير ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٨٨ ، والموقع هو الذى يكتب المكاتبات والولايات فى ديوان الإنشاء السلطانى ، وكان يعرف من قبل باسم كاتب الدرج ، القلقشندى ، صبح الأعشى جـ ٥ ، ص ٤٦٥ .

(٥) فى الأصل ألفا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) فى الأصل استجرارا وما هنا هو الصواب لغويا .

فسلمها متوليها محمد بن الصارم ، من غير ممانعة ، ولا مدافعة[١] . ثم رحل عنها إلى جهة دمشق ونزل بالغوطة[٢] .

ذكر ما اتفق بدمشق بعد الوقعة ومفارقة العساكر الإسلامية فى مدة استيلاء التتار عليها ، إلى أن فارقوا البلاد ، وعادوا إلى الشرق

كانت[٣] الأخبار وصلت إليهم بانهزام الجيوش الإسلامية ، وتحققوها فى يوم السبت ، مستهل شهر ربيع الآخر . فتوجه من أمكنه السفر إلى الديار المصرية فى هذا اليوم . فكان ممن توجه قاضى القضاة إمام الدين الشافعى ، وقاضى القضاة جمال الدين الزواوى المالكى ، وابن الشيرازى ، ومتولى مدينة دمشق ، ومتولى برّها ، ومحتسب المدينة ، وجماعة كبيرة من أهل البلد ، ممن قدر على الانتزاح . وفى ليلة الأحد ، أحرق المعتقلون بسجن باب الصغير بابه ، وخرجوا منه ، وكانوا نحو مائة وخمسين . وتوجهوا إلى باب الجابية ، وكسروا الأقفال ، وخرجوا منه . وبقى البلد لاحامى له ، ولا ممانع عنه . فاجتمع أكابر دمشق ، فى يوم الأحد الثانى من الشهر ، بمشهد علىّ بالجامع الأموى . واتفقوا على أن يتوجهوا إلى الملك غازان ، ويسألوا[٤] الأمان لأهل البلد . فتوجه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، وهو الخطيب يومئذ ، والشيخ تقى الدين بن تيمية ، والشيخ زين الدين الفارقى ، والقاضى نجم الدين بن صصرى ، والقاضى

(١) يقابل ما ورد فى بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٠٩ .

(٢) كان الذهبى مؤلف كتاب تاريخ الإسلام بدمشق ، لما دخلها غازان ، ولم يورد شيئا من هذا الحادث . انظر JRAS Oct. 1936 .

(٣) فى الأصل كان أن ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٤) فى الأصل ويسألون ، وما هنا هو الصواب لغويا .

شمس الدين الجزرى، والقاضى جلال الدين ابن القاضى حسام الدين، وفخر الدين ابن الشيرجى، وعز الدين بن الزكى، ووجيه الدين بن منجا، والرئيس عز الدين حمزة بن القلانسى، وابن عمه الصدر شرف الدين، وأمين الدين بن شقير الحرانى، والشريف زين الدين بن عدنان، ونجم الدين بن أبى الطيب، وناصر الدين بن عبد السلام، وشريف الدين بن الشيرجى، وشهاب الدين الحنفى، والشيخ محمد ابن قوام البالسى، وجلال الدين أخو القاضى إمام الدين، وجماعة كبيرة من القراء والفقهاء والعدول. وتوجهوا بعد صلاة الظهر، من يوم الاثنين، ثالث الشهر، واجتمعوا بالملك غازان، وهو عند النبك[1]، وهو سائر. ونزلوا عن مراكبهم. وقبّل بعضهم الأرض، فوقف غازان بفرسه لهم. وترجل جماعة من التتار عن خيولهم. وتكلم الترجمان بينهم وبين الملك غازان، وسألوا الأمان لأهل دمشق. وكان المخاطب له عن أهل دمشق، فخر الدين بن الشيرجى. فقال غازان: الذى حضرتم بسببه[2] من الأمان قد أرسلناه قبل وصولكم. وقدموا ما كان معهم من المأكول، فلم يكن له وقع عندهم. وأذن لهم فى الرجوع إلى دمشق، فرجعوا. وكان وصولهم بعد صلاة العصر، من يوم الجمعة، سابع الشهر. ولم يُخطب فى هذه الجمعة لسلطان[3].

وكان قد وصل إلى دمشق، فى يوم الخميس، سادس[4] الشهر أربعة من التتار،

---

(١) فى الأصل البنك، وما هنا من المقريزى: السلوك ج ١، ص ٨٨٩ والنبك قرية بين حمص ودمشق. ياقوت: معجم البلدان ج ٤، ص ٧٣٩.

(٢) فى الأصل نسبه، وما هنا من المقريزى: السلوك ج ١، ص ٨٨٩.

(٣) يقابل ما ورد فى المقريزى: السلوك ج ١، ص ٨٨٩.

(٤) فى الأصل المنسوخ المحقق «ثالث» والصواب ما أثبت. انظر ما سبق وما يلى. (المصحح).

من جهة غلزان ، ومعهم الشريف القمى[1] . وكان قد توجه قبل توجه الجماعة ، هو وثلاثة من أهل دمشق إلى غلزان ، فعاد وبيده أمان لأهل دمشق .

ثم وصل بعد صلاة الجمعة ، الأمير إسماعيل مع جماعة من التتار . فنزلوا بالبستان الظاهرى ، بطريق القابون . ثم ركب [الأمير] إسماعيل فى يوم السبت ، ودخل إلى دمشق ، وجاء إلى مقصورة الخطابة بالجامع الأموى ، لقراءة[2] الفرمان[3] . وقرأه[4] أحد العجم الواصلين صحبة الأمير إسماعيل ، وبلغ عنه المجاهد المؤذن ، ومضمونه : —

بقوة الله تعالى ، ليعلم أمراء التومان[5] والألوف والمائة ، وعموم عساكرنا المنصورة ، من المغول والتازيك[6] والكرج[7] وغيرهم ، ممن هو داخل تحت زبقة

---

(١) فى الأصل القيمى ، وما هنا من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٩٠ .

(٢) فى الأصل بقراءة ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٣) الفرمان ، لفظ فارسى قديم ، ومعناه الأصل الأمر . ثم اتسع استعماله فصار مرادفا للرسوم السلطانى أو التقليد En. Is. Ferman.

(٤) فى الأصل وقراءة ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٥) التومان والطومان ، وهو الفرقة التى يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل . انظر .

Quatremère: op. cit. II. 2. p. 152.

(٦) فى الأصل التاريك ، وما هنا أورده Quatremère: op. cit. II. 2. p. 154. وكان هذا اللفظ يطلق أصلا على العرب والمسلمين عامة ، ثم استعمله المغول للدلالة على أهل فارس فقط . وهذا المعنى هو المقصود هنا . انظر . المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ١٢ ، ١٠ ، حاشية ٣ .

Quatremère: op. cit. II. 2.p. 152.

(٧) الكرج ، أمة من المسيحيين ، مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس ، وكانت انحاز معظمهم ، وأغار عليهم خوارزم شاه جلال الدين سنة ٦٢١ فانتزع تفليس منهم . انظر ياقوت : معجم البلدان .

Allen: History of the Georgian People pp. 85-112.

طاعتنا . إن الله لما نوّر قلوبنا بنور الإسلام ، وهدانا إلى ملة النبي ، عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين[1] ﴾ .

ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالأيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام ، وكان أحدهم إذا تولى ، سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومدّ الأيدى العارية ، إلى حرمهم وأموالهم ، والتخطى عن جادة العدل والإنصاف ، وارتكابهم الجور والإعساف ، حملتنا الحمية الدينية ، والحفيظة الإسلامية ، على أن توجهنا إلى تلك البلاد ، لإزالة هذا العدوان ، وإماطة هذا الطغيان ، مستصحبين الجم الغفير من العساكر .

ونذرنا على أنفسنا ، إن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد ، أزلنا العدوان والفساد ، وبسطنا العدل والإحسان فى كافة العباد ، ممتثلا للأمر الإلهى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون[2] ﴾ . وإجابة لما ندب إليه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين الدين ، يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » . وحيث كانت طويتنا

(١) سورة الزمر ، آية ٢٢ .

(٢) سورة النحل ، آية ٩٠ .

مشتملة على هذه المقاصد الحميدة والنذور الأكيدة[1] . منّ الله علينا بقبلج[2] تباشير النصر المبين، والفتح المستبين . وأتمّ علينا نعمته، وأنزل علينا سكينته، فقهرنا العدو الطاغية، والجيوش الباغية، ونزقناهم أيدى سبا ، ومزقناهم كل ممزق، حتى جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا فازدادت صدورنا انشراحا للإسلام، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام ، منخرطين فى زمرة من حبّب إليهم الإيمان ، وزينه فى قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، فضلا من الله ونعمة .

فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة ، والنذور المؤكدة. فصدرت مراسمنا العالية ، أن لا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طباقاتها لدمشق وأعمالها ، وسائر البلاد الإسلامية الشامية ، وأن يكفوا أظفار التعدّى عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم ، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه ، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة ، وآمال[3] مفسوحة بعمارة البلاد ، وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة وغير ذلك. وكان هذا الهرج العظيم، وكثرة العساكر ، فتعرّض[4] بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم ، إلى نهب بعض الرعايا وأسرهم ،

(١) فى الأصل البدور ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ص ٣٦٨ — ٣٧٢ انظر أيضا المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ١٠١٢ (الملحق ١٢) .

(٢) فى الأصل بقبلج ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ص ٣٦٨ — ٣٧٢ انظر أيضا المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ١٠١٢ (الملحق ١٢) .

(٣) فى الأصل وأما ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٦٩ — ٣٦٢ انظر أيضا المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ١٠١٢ (الملحق ١٢)

(٤) فى الأصل تعرض ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٦٠ — ٣٦٣ انظر أيضا المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ١٠١٢ (الملحق ١٢)

فقتلناهم ليعتبر الباقون ، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر ، وغير ذلك من الفساد ، وليعلموا أنا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البته ، وأن لا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان ، على اختلاف أديانهم ، من اليهود والنصارى والصابئة . فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم ، من الوظائف الشرعية ، لقول علىّ عليه السلام : « إنما يبذلون الجزية ، لتكون أموالهم كأموالنا ، ودماؤهم كدمائنا » . والسلاطين موصون على أهل الذمة الطيعين[1] ، كما هم[2] موصون على المسلمين ، فإنهم من جملة الرعايا . قال صلى الله عليه وسلم : « الإمام الذى على الناس ، راع عليهم وكل راع مسئول عن رعيته » .

فسبيل[3] القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا ، الاستبشار بهذا النصر الهنى والفتح السنى ، وأخذ الحظ الوافر من السرور ، والنصيب الأكبر من البهجة والحبور ، مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة ، والمملكة الظاهرة ، آناء الليل وأطراف النهار .

وكتب فى خامس ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وستمائة .

ولما قرىء هذا الفرمان ، حصل للناس بعض الطمأنينة ، وجلس التتار بالمقصورة إلى أن صلوا العصر ، وعادوا إلى منزلتهم بالهسنان الظاهرى . وأغلق الأمير علم الدين سنجر أرجواش أبواب قلعة دمشق ، وامتنع بها فى أول هذه الحادثة .

---

(١) فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة حـ ٩ ، ص ٣٧١ — ٣٧٢ للطيعين .

(٢) فى الأصل هو ، وما هنا هو الصواب .

(٣) فى الأصل فسئل ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة حـ ٩ ، ص ٣٧٣ .

واجتمع أهل دمشق فى يوم الأحد تاسع الشهر بالقيمرية، واجتمعوا فى تحصيل الخيل والبغال والأموال ، ليرضوا بها التتار ، ونزل غازان ملك التتار بالغوطة ، فى يوم الاثنين العاشر من الشهر ، وأحدقت الجيوش بالغوطة ، وقتلوا طائفة من أهل القرى .

ووصل الأمير سيف الدين قبجاق، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، وغيرهما فى هذا اليوم ، ونزلوا بالميدان . ولما مروا بالقلعة ، خاطبوا الأمير علم الدين سنجر أرجواش، نائب القلعة ، وأشاروا عليه بتسليمها ، فسبهم أقبح سب (١) .

وفى بكرة نهار الثلاثاء ، حادى عشر الشهر ، ورد مثال الأمير إسماعيل نائب التتار ، يأمر العلماء والمشايخ والرؤساء ، أن يتوجهوا إلى القلعة ، ويتحدثوا مع نائبها فى تسليمها ، وأنه متى امتنع من ذلك ، دخل الجيش البلد ونهبها ، وسفكت الدماء . فاجتمع جماعة كثيرة إلى باب القلعة ، وسألوا الأمير علم الدين [سنجر أرجواش] (٢) ، أن يرسل إليهم رسولا ، فامتنع وسبهم أقبح سب . وقال : قد وردت علىّ بطاقة من السلطان ، أنه جمع الجيوش بغزة ، وكسر الطائفة التى اتبعتهم من التتار ، والسلطان يصل من قريب بعساكره (٣) .

ثم دخل قبجاق دمشق فى يوم الأربعاء ثانى عشر الشهر ، وجلس بالمدرسة العزيزية ، وأمر العلماء والأكابر بمراجعة أرجواش فى تسليم القلعة ، فتوجهوا

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٩٠

(٢) الإضافة للتوضيح .

(٣) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٩٠

إليـه ، فلم يسمع كلامهم . و كُتِبَ فى هذا اليوم بالعزنية فرامانات من شيخ الشيوخ [نظام الدين محمود بن على الشيبانى][1] ، ومقـدم من مقدمى التتار ، ذكر أنه رضيع الملك غازان ، ومن قبجاق ، فـلم تُجد نفعا .

وفى يوم الجمعة رابع عشر الشهر [ربيع الآخر][2] خطب لغازان على منبر دمشق ، بما رسم لهم به من الألقاب والنعوت وهى « مولانا السلطان ، الملك الأعظم ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مظفر الدنيا والدين ، محمود غازان » . وصلى بالمقصورة جماعة من المغل . وحضر إلى المقصورة ، عقيب الصلاة الأمير سيف الدين قبجاق ، وصعد هـو والأمير إسماعيل ، إلى سدّة المؤذنين . واجتمع جمع كثير من عامة الناس تحت النمر[3] . وقـرئ عليهم تقليد بتولية الأمير سيف الدين قبجاق الشام أجمع ، وعيّن فيه مدينة دمشق وحلب وحماه وحمص وغير ذلك ، من الأعمال والجهات . وجعل إليـه ، أن يولى القضاة ، والحكماء والخطباء ، وغيرهـم . ونثر على الناس الذهب والدراهم ، فاستبشر الناس بولاية قبجاق ، ظنا منهم أنه يرفق بهم . وحضر فى هذا اليوم شيخ الشيوخ نظام الدين محمود بن على الشيبانى ، إلى المدرسة العادلية . وأحضرت إليـه ضيافة ، وأظهر العتب[4] على أهل البلد ، كونهم لم يترددوا إليه . وذكر أنه يصلح أمرهم ، ويتفق معهم ، على ما يفعل ، فى أمر القلعة . فقال بعض من حضر [إن][5] الأمير سيف الدين قبجاق يخرّب[6] أمر

(١) الإضافة من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩١

(٢) الإضافة للتوضيح .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى تاريخ سلاطين المماليك ص ٦٦ .

(٤) فى الأصـل ، العنت ، وما هنا من المقـريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩١ وتاريخ سلاطين المماليك ص ٦٨ .

(٥) الإضافة من تاريخ سلاطين المماليك ص ٦٨ .

(٦) فى الأصل يخبر ، وما هنا من تاريخ سلاطين المماليك ص ٦٨ .

متولى القلعة . فقال [شيخ الشيوخ][1] : « خمسمائة من قبجاق ما يكونون فى خانمى » ، وعظّم نفسه تعظيما كثيرا .

وفى يوم السبت خامس عشر الشهر . ابتدئ بنهب جبل الصالحية ، وما به من الدور والمدارس وغيرها . فتوجه الشيخ تقى الدين بن تيمية إلى شيخ الشيوخ ، فركب إليهم فى يوم الثلاثاء . فلما وصل إلى جبل الصالحية ، هرب من به من التتار ، ودخل أهل الجبل إلى دمشق عرايا فى أسوأ حال[2] .

وتوجه التتار إلى قرية المزة[3] ، فنهبوها وسبوا أهلها . وتوجهوا إلى داريا[4] ، وفعلوا كذلك ، وقتلوا جماعة من أهلها ، وقتل أهلها جماعة من التتار . فتوجه الشيخ تقى الدين بن تيمية . يوم الخميس إلى الملك غازان ، وهو بتل راهط[5] ، فدخل عليه ليشكو له ما جرى من التتار بعد أمانه ، فلم يمكّن[6] من ذلك . وقيل له : إن شكوت إليه أمرا ، يقتل[7] بعض المغل ، فيكون ذلك سبب الإختلاف ، وتدور الدائرة على أهل دمشق . فعدل الشيخ عن الشكوى إلى الدعاء ، وفارقه واجتمع بالوزير [ين] سعد الدين ، ورشيد الدين ، وتحدث معهما . فذكرا[8] أن

(١) الإضافة للتوضيح . انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩١ .

(٢) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩٢ .

(٣) المزة ، قرية كبيرة فى وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نفسها ، نصف فرسخ (ياقوت : معجم البلدان) .

(٤) داريا ، وهى قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة . (ياقوت : معجم البلدان) .

(٥) الراجح أن المقصود هنا مرج راهط ، من نواحى دمشق . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٦) كذا فى الأصل ، وفى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩٢ فلم يمكنه الاجتماع به .

(٧) فى الأصل يقتل ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٨) فى الأصل فذكر ، وما هنا هو الصواب لغويا .

جماعة من المقدمين الأكابر ، لم يصل إليهم من مال دمشق شىء ، ولا بد من إرضائهم . وأمر الوزير بإطلاق الأسرى .

ثم اشتد الأمر على أهل دمشق ، فى طلب الأموال وحصار القلعة ، وجاء منجنيقى ، فالتزم بأخذ القلعة ، وقرر أن يكون نصب المجانيق عليها بالجامع الأموى . فأجمع أرجواش رأيه ، أنه متى نصب المجانيق بالجامع ، رمى عليها بمجانيق القلعة . وكان ذلك يؤدى إلى هدم الجامع . فانتدب رجال من أهل القلعة ، بعد أن تهيأت أعواد المجانيق ، ولم يبق إلا نصبها ، وخرجوا بالحمية الإيمانية ، وهجموا الجامع ، ومعهم المناشير ، فأفسدوا ما تهيأ من أعواد المجانيق . ثم جددوا غيرها ، واحترزوا عليها . وحضر جماعة من المغل يبيتون بالجامع . فيقال إنهم انتهكوا حرمته ، وارتكبوا فيه المحارم ، من شرب الخمور والزنا ، وطرح القاذورات والنجاسات ، وقل حضور الناس فيه ، حتى أنه لم تقم فيه صلاة العشاء الآخرة ، فى بعض الليالى . ونهب التتار سوق باب البريد .

وتحول الناس من حول الجامع ، وزهدوا فى قربه لمجاورة التتار . فانتدب رجل من أهل القلعة ، وبذل نفسه ، والتزم بقتل المنجنيقى ، وخرج إلى الجامع ، والمنجنيقى بين المغل ، وهو فى ترتيب العمل . فتقدم إليه ، وضربه بسكين فقتله . وهجم رجال القلعة ، فتفرق المغل عن القاتل ، وحماه أصحابه ، فلجأ[1] إلى القلعة ، وبطل على التتار ما دبروه من عمل المجانيق . واضطر أرجواش إلى هدم ما حول القلعة ، من المساكن والمدارس والأبنية ودار السعادة ، وطواحين باب

(١) فى الأصل فنجى ، وما هنا به يستقيم المعنى .

الفرج ، وغير ذلك ، كل ذلك احترازا على حفظ القلعة ، وأن يتطرق العدو إليها . وحصل من إفساد التتار والأرمن وإخرابهم الأماكن ، بإفسادهم الصالحية ، وحرق جامع التوبة[1] بالعقيبة[2] وغير ذلك[3] ، ما بقيت آثاره ، بعد ذهاب العدو زمنا طويلا . ثم أعاد المسلمون ذلك ، والحمد لله تعالى ، إلى أحسن ما كان .

واشتد الأمر على أهل دمشق فى طلب الأموال ، فى أواخر شهر ربيع الآخر ، وأوائل جمادى الأولى ، وطلب من البلد ما لا يتحمله أهله . وتولى استخراج الأموال ، والمطالبة بها من أهل دمشق ، صفى الدين السنجارى ، وولد الشيخ محمد ابن الشيخ على الحريرى . وغلت الأسعار بدمشق هذه المدة[4] .

ثم رجع غازان إلى بلاد الشرق ، فى يوم الجمعة ، ثانى عشر جمادى الأولى ونزل قطلوشاه[5] نائبه بدمشق وجماعة كثيرة من التتار معه ، وجعل نيابة الشام إلى الأمير سيف الدين قبجاق ، ونيابة حلب وحمص إلى الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ، ونيابة صفد وطرابلس والسواحل إلى الأمير فارس الدين البكى ولما توجه غازان ، استصحب الوزير معه ، من أكابر دمشق بدر الدين

(١) فى الأصل خرق ، وما هنا به يستقيم المعنى . انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩٣

(٢) فى الأصل التربة ، وما هنا من المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٩٣ .

(٣) فى الأصل العقبية ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩٣ .

(٤) أورد المقريزى فى السلوك جـ ١ ، ص ٨٩٣ ، تفاصيل من ارتفاع أسعار السلع المختلفة ، لم تجر الإشارة إليها فى نهاية الأرب

(٥) فى الأصل قطلوشا ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩٣ وتاريخ سلاطين المماليك ص ٧٥

ابن فضل الله ، وعلاء الدين على ابن الصدر شرف الدين محمد بن القلانسى ، وشرف الدين بن الأثير .

وفى يوم السبت ثالث عشر[1] جمادى الأولى ، رسم التتار بإخلاء المدرسة العادلية ، ووقف جماعة منهم على بابها يفتشون من يخرج منها ، ويأخذون ما أحبوا من أمتعتهم ، وعجز أهلها عن نقل أكثر أثاثهم . ودخل التتار إليها ، عقيب خروجهم منها ، وكسروا أبواب البيوت ، ونهبوا ما بها ، وأخلى التتار ما حول القلعة ، وطلعوا إلى الأسطحة ، ورموا منها النشاب على القلعة . فعند ذلك ، أمر أرجواش بإحراق ذلك كما تقدم . وكان إحراق المدرسة العادلية فى الحادى والعشرين من جمادى الأولى .

وفى يوم الجمعة تاسع عشر الشهر ، قرىء[2] على سدة الجامع كتابان : أحدهما يتضمن تولية الأمير سيف الدين قبجاق النيابة بالشام[3] ، والثانى يتضمن تولية الأمير ناصر الدين يحيى بن جلال الدين شد الشام . وتضمن أحد الكتابين أن يصرف ما كان لخزائن السلاح ، من مال الجامع فى مصالح السبيل إلى الحجاز الشريف . ويتضمن أيضا أن غازان يعود إلى الشام فى فصل الخريف[4] ، ويتوجه إلى الديار المصرية ، وأنه توجه [إلى البلاد[5]] ونزل نائبه قطلوشاه فى ستين ألف فارس لحماية الشام ، إلى غير ذلك مما تضمنه .

(١) فى الأصل ثالث وما هنا من المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٨٩٥

(٢) فى الأصل قرأ ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٣) أورد بيبرس الدوادار فى كتابه زبدة الفكرة ج ١ . ص ٣٧٢ — ٣٧٥ نص الكتاب ولذا جرى جعله ملخصا فى آخر هذا الجزء .

(٤) هذه الإشارة وردت فى الكتاب الثانى ، وأثبتها مؤلف كتاب تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٠ ونصها : أننا توجهنا إلى البلاد ، وتركنا بالشام ستين ألفا من جيشنا لحفظه ، وأننا فى فصل الخريف ، نرجع إلى البلاد ، قاصدين الديار المصرية (انظر المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٨٩٥ حاشية ٣ .

(٥) الإضافة من تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٠ ، انظر الحاشية السابقة .

واستمر قطلوشاه بعد توجه غازان أياما يحاصر القلعة، فلم يتهيأ له منها ما يريد، فجمع له قبجاق مالا من أهل البلد، فأخذه وعاد إلى بلاد الشرق. وكان رحيله فى يوم الثلاثاء[1] الثالث والعشرين من جمادى الأولى. وتوجه الأمير سيف الدين قبجاق لوداعه. وعاد فى يوم الخميس الخامس والعشرين من الشهر، ودخل إلى دمشق، من باب شرقى، وشق البلد، وخرج من باب الجابية، وكانا مغلقين فى مدة مقام التتار، ففتحا له الآن، ونزل بالقصر الأبلق.

وعاد الأمير يحيى بن جلال الدين والصفى السنجارى بجماعة من التتار، وشقوا البلد، وتوجهوا إلى القصر أيضا. ثم نودى فى البلد، فى يوم الجمعة، أن يتوجه الناس إلى ضياعهم وقراهم. وكان قد نودى فى أول هذا النهار، أن لا يخرج أحد إلى الجبل والغوطة[2]، وأن لا يخاطر بنفسه، ولا يغرر بنفسه.

وفى تاسع عشر جمادى الأولى، دخل الأمير سيف الدين قبجاق، ومن معه إلى المدينة، ونزلوا بدار الأمير سيف الدين بهادر آص، وما يجاورها من الأدر، بقرب مأذنة فيروز.

وفى يوم الثلاثاء، مستهل جمادى الآخرة، وثانيه، نودى فى دمشق بأمر الأمير سيف الدين قبجاق أن يخرج الناس إلى أماكنهم[3]. وانضم إلى قبجاق

---

(١) فى المقريزى: السلوك ج ١ ص ٨٩٦، فى يوم الاثنين ثانى عشره جمادى الأولى.

(٢) فى الأصل والخواطر، وما هنا من المقريزى: السلوك ج ١، ص ٨٩٦.

(٣) فى الأصل فى، وما هنا هو الصواب

جماعة من الجند فى أول هذا الشهر ، يركبون فى خدمته ، ويترجلون فى ركابه ، وفتحت أبواب البلد ، إلا ما بجوار القلعة منها .

وفى يوم الجمعة رابع الشهر ، ضربت البشائر بالقلعة . وفى يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة ، أمّر الأمير سيف الدين قبجاق ، أستاذ داره علاء الدين ، وطاجار ، وركبا بالشرابيش[1] والطبلخاناة[2] . ثم أمّر ثلاثة فى العشر الأوسط من الشهر ، وركبوا بالشرابيش والطبلخاناة . وأمر بإدارة الخمارة بدار ابن جراده ، فأظهرت الخمور والفواحش ، وضمنت فى كل يوم ألف درهم[3] ، واستمر الحال على على ذلك بقية جمادى الآخرة وبعض شهر رجب .

وكان غازان قد جرد من عسكره عشرين ألف فارس ، صحبة بولاى[4] ، وأشبقا[5] وحجك[6] وهو لاجو ، فنزلوا بالأغوار ، وشنوا الغارات ونهبوا ، ووصلت غاراتهم إلى بلد القدس والخليل ، ودخلوا إلى غزة ، وقتلوا بجامعها خمسة عشر نفرا من

---

(١) الشرابيش والمفرد شربوش . قلنسوة على شكل مثلث ، تجعل على الرأس بغير عمامة . ويتخذها الجندى من الأتراك بعد تأميره . وبطل استعمال الشربوش بمصر . زمن المماليك الجراكسة . المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ٩٩ Dozy : Supp. Dict.Ar
انظر أيضا الملابس المملوكية (المرجع السابق) ص ٥١ (المصحح)

(٢) فى الأصل الطليخاناة ، وما هنا هو الصواب .

(٣) يقابل ماورد فى المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٩٦ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ٧٨

(٤) فى الأصل ، وفى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٧١ ، مولاى ، وما هنا من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ، ص ١٢٨

(٥) فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٧١ اشقا

(٦) فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٧١ حنجك .

المسلمين[1] ، ثم رجعت هـذه العساكر إلى دمشق ، وعادت إلى بلاد الشرق ، في ثاني شهر رجب ، واستصحبوا معهم أمين الدين بن شقير الحرّاني .

وعاد التتار بجملتهم في ثامن شهر رجب ، لما بلغهم اهتمام السلطان ، وخروج العساكر . ولم يفتح غازان شيئا من القلاع الشامية ، بل امتنعت بجملتها ، اقتداء بقلعة دمشق . وتمسك نواب القلاع من تسليمها ، واعتذروا أنهم لا يمكنهم ذلك إلا بعد تسليم قلعة دمشق ، فسلمت القلاع بجملتها .

ثم توجه الأمير سيف الدين قبجاق والأمراء إلى خدمة السلطان الملك الناصر على ما نذكره .

ولما توجه قبجاق من دمشق ، دبّر أمر البلد الأمير علم الدين أرجواش . وأعيدت الخطبة بدمشق ، باسم السلطان في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب . وكانت انقطعت من سابع شهر ربيع الآخر ، فانقطعت مائة يوم . وفي هـذا اليوم أبطل ما كان جدّد من المنكرات ، وأغلقت الخمارات ، وأريق ما فيها ، وكسرت المواعين ، وشقت الظروف[2] . وتولى ذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية وأصحابه .

هذا ما كان بدمشق ، فلنذكر ما اعتمده السلطان عند عوده .

ذكر ما اعتمده السلطان الملك الناصر عند عوده إلى الديار المصرية من الاهتمام بأمر الجيوش والعساكر

لما كان من أمر هذه الحادثة ما قدمناه ، رجع السلطان من مكان الوقعة

(١) يقابل ما ورد في بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٧٨ .

(٢) الظروف جمع ظرف وهو الوعاء ، القاموس المحيط (المصحح)

إلى الديار المصرية . وتفرقت العساكر ، فأخذت كل فرقة طريقا . وكان وصول السلطان إلى قلعة الجبل ، فى يوم الأربعاء ، ثانى عشر شهر ربيع الآخر ولم يصحبه فى هذه السفرة إلا بعض خواصه ، والأمير سيف الدين بكتمر الحسامى أمير آخور ، والأمير زين الدين قراجا ، فى نفر يسير . وخدم الأمير سيف الدين بكتمر ، المشار إليه ، السلطان فى هذه السفرة أتم خدمة . فكان يركبه وينزله ، ويُشَدّ خيله ، ويشترى لها العليق ، ويسقيها ، إلى غير ذلك من أنواع الخدمة.[1]

ثم ترادفت الجيوش إلى الديار المصرية متفرقة . ووصل النواب بالممالك الشامية . وكان فيمن وصل الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى . فمشى فى خدمة نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار ، وجاس بين يديه ، وكان يُرَمِّل علامته إذا كتب . ووصلت العساكر ، وعدمت خيولهم وأقمشتهم وأموالهم ، وأثقالهم وأسلحتهم . فجرد السلطان الأهتمام ، وأخرج الأموال الكثيرة ، وأنفق فى الجيوش ، ووسع عليهم ، وسلّم إلى كل نائب من نواب الشام نفقة عسكره . فسلم إلى الأمير جمال الدين أقش الأفرم نفقة عسكر الشام ، وإلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخى نفقة عسكر حلب ، وإلى الأمير سيف الدين كراى المنصورى نفقة عسكر صفد . وسلّم نفقة عسكر طرابلس[2] إلى الأمير شرف الدين قيران الدوادارى ، ثم إلى الأمير سيف الدين قطلبك . وكانت النفقة فى الجيوش ذهبا . ورخص سعر الذهب بالديار المصرية ، حتى بلغ صرف الدينار سبعة عشر درهما وارتفعت أسعار العدد والسلاح والأقمشة والدواب . ومع ذلك فلم تمض الأيام

(١) يقابل ماورد من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٩٦ .

(٢) فى الأصل الطرابلسى ، وماهنا هو الصواب .

القلائل على العسكر، حتى كملت عدتهم وخيولهم، وجميع مايحتاجون إليه من الأسلحة والأقمشة.[1]

وجهّز السلطان إلى نواب الحصون بالشام أجمع القصاد بالملطفات يعلمهم ماهو عليه، من الاهتمام وسرعة حركة ركابه، ويحثهم على حفظ الحصون. فوصلت القُصّاد إليهم، فامتثلوا ذلك، وحفظوا الحصون، فحفظت وسلمت، ولله الحمد والمنة. وأحسن السلطان إلى نواب الحصون، وكافأهم على اهتمامهم بها وحفظها. ولما تكامل ماتحتاجه العساكر، توجه السلطان بهم، لقصد الشام.

ذكر توجه السلطان بالعساكر إلى جهة الشام، ووصوله إلى منزلة الصالحية وإرسال الجيوش إلى دمشق والممالك الشامية، وعود الأمراء الى الخدمة السلطانية ورجوع السلطان إلى قلعة الجبل، وماتقرر من أمر النواب

وفى تاسع شهر رجب، من هذه السنة، توجه السلطان بجميع العساكر

(١) يقابل ماورد فى المقريزى: السلوك ج ١، ص ٨٩٦ انظر أيضا بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ج ٩، ص ٣٧٩.

والنواب إلى الشام ، لدفع التتار . فاتصل به عود التتار ومفارقتهم الشام ، فأقام بالصالحية . وتوجه نائبه الأمير سيف الدين سلار ، وأستاذ داره الأمير ركن الدين بيبرس إلى الشام ، وصحبتهما سائر النواب والأمراء . ورحلوا من الصالحية فى الثانى العشرين من هذا الشهر . وكانت الملطفات[1] قد سيرت إلى الأمراء : سيف الدين قبجاق ، وسيف الدين بكتمر ، وفارس الدين البكى ، بالحضور إلى الخدمة السلطانية ، ومراجعة الطاعة ، واستدراك مافرط ، فأجابوا بالسمع والطاعة . وبادروا بالحضور إلى الخدمة الشريفة السلطانية ، واجتمعوا بالأمراء بمنزلة سكرير[2] . وتوجهوا إلى خدمة السلطان ، وهو مقيم بمنزلة الصالحية ، وذلك فى العاشر من شعبان . فركب السلطان وتلقاهم وأكرمهم وأحسن إليهم ، وعاد وهم فى خدمته إلى قلعة الجبل . وكان وصوله إليها فى رابع عشر شعبان ، وأسكن الأمراء المذكورين بالقلعة ، وأجرى عليهم الإقامات ، وشملهم بالإنعام[3] .

وأما الأمير سيف الدين سلار والعساكر ، فإنهم توجهوا إلى دمشق . وكان وصول الأمير جمال الدين أقش الأفرم نائب السلطنة بدمشق إليها بالعسكر[4] الشامى ، فى يوم السبت عاشر شعبان .

---

(١) الملطفات ، رسائل كانت تكتب عادة إلى الأمراء للرضية والمدح أو التغرير والتأمين ، تمهيدا لما يزمعه السلطان لهم من عقوبة أو قتل أنظر Dozy : Supp. Dict. Ar. المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٥٢ حاشية ٧ .

(٢) فى الأصل ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٢٢ سكرير ، وفى ابن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٥٢٥ سكر ، ولعل المقصود بلدة السكرية الواردة فى Le Strange : Palestine under Moslems P. P. 527,547 . وهى على مسافة مرحلة من الرملة .

(٣) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٠ .

(٤) فى الأصل العساكر ، وما هنا به يستقيم المعنى .

وفى يوم الأحد وصل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب السلطنة بحلب بعساكرها ، وكان قد فوض إليه نيابتها، والأمير سيف الدين قطلبك نائب الفتوحات الطرابلسية جميعا[1] .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشر الشهر ، وصلت ميسرة الجيوش المصرية، ومقدمها الأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار . وفى يوم الأربعاء ، رابع عشر الشهر ، وصل قلب الجيش ، وفيه الأمير سيف الدين سلار ، نائب السلطنة الشريفة . والمماليك السلطانية ، والعادل زين الدين كتبغا المنصورى فى خدمته . ونزلت العساكر بالمرج[2] .

وقرر الأمير سيف الدين سلار النواب بالممالك على ما رسم به السلطان له عند سفره . فأقر الأمير جمال الدين أقش الأفرم على عادته بدمشق . وفوض إلى الأمير زين الدين كتبغا الملقب — كان — بالملك العادل، نيابة السلطنة بالمملكة الحموية[3]، عوضا عن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى المذكور ، وذلك بحكم أن الأمير سيف الدين بلبان الطباخى استعفى من النيابة بحلب واستقر فى جملة الأمراء المقدمين بالديار المصرية، على اقطاع الأمير شمس الدين آقسنقر كرتيه[4]، بحكم وفاته . وفوض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات إلى الأمير سيف الدين قطلوبك[5] المنصورى . وأعاد الأمير سيف الدين كراى المنصورى إلى نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية على عادته .

---

(١) انظر المقريزى : السلوك جـ١ ، ص ٩٠٠ .
(٢) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠١ .
(٣) انظر ما ورد فى ابى الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ، ص ٤٤ .
(٤) فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠١ كرتاى .
(٥) يرد هذا الاسم أيضا بالرسم قطلبك ، انظر ما سبق .

وفوّض قضاء القضاة الشافعية بدمشق لقاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الحموى ، فى خامس شهر شعبان ، بحكم وفاة القاضى إمام الدين عمر ابن القاضى سعد الدين بن الكرجى القزوينى القونوى . وكانت وفاته بالقاهرة ، فى يوم الثلاثاء خامس عشرين ، شهر ربيع الآخر ، ودفن بالقرافة . وفوّض قضاء القضاة الحنفية ، لقاضى القضاة شمس الدين محمد ابن الشيخ صفى الدين الحريرى ، فى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من الشهر .

وفوّض شاد الدواوين بالشام ، إلى الأمير سيف الدين أجقبا المنصورى . وولى بردمشق للأمير عز الدين أيبك التجيبى . وفوّض حسبة دمشق لأمين الدين الرومى ، إمام المنصور لاجين (١) .

وأقام الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ، والأمير ركن الدين بيبرس بدمشق ، إلى أن استقرت أحوالها ، وترتبت وظائفها . ثم رجعا إلى الديار المصرية . وكان رحيلهما من دمشق بالجيوش المصرية المنصورة ، فى يوم السبت ثامن شهر رمضان . ووصلا إلى خدمة السلطان بقلعة الجبل ، فى يوم الثلاثاء ، ثالث شوال . ولما وصلا ، فوّض إلى الأمير سيف الدين قبجاق نيابة السلطنة بالشوبك . وأعطى الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار إمرة مائة فارس وتقدمة ألف ، بالديار المصرية ، والأمير فارس الدين البكى الساقى ، إمرة بدمشق . واستقرت الحال على ذلك .

---

(١) يقابل ما ورد فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠١ .

ذكر ما اعتمده الأمير جمال الدين [أقش][1] نائب السلطنة بدمشق ، بعد عود العساكر المصرية .

لما عاد الأمير سيف الدين سلار والعساكر المصرية من دمشق ، وخلا وجه الأمير جمال الدين أقش الأفرم ، نائب السلطنة بالشام ، تتبع مَنْ أذى المسلمين عند التتار ، وتجاهر بذلك . فعامل كلاً[2] منهم بما نذكره ، مما أدى إليه اجتهاده ، واقتضاه رأيه وتدبيره . فكحّل الحاج مندوبه[3] ، وسمر الشريف[4] القمى ، وابن العونى[5] البرددار ، وابن خطلبشا[6] المزى ، وحملهم على الجمال ، ثم أطلق ابن العونى ، بعد ثلاثة أيام . وشنق كاتب مسطبة الولاية بدمشق ، وإبراهيم مؤذن بيت لهيا[7] ، ورجلا من اليهود . وقطع لسان ابن طاعن ، وقطع يد ورجل أحد من أمرهم[8] قبجاق ، فمات بعد ثلاثة أيام . وكحّل الشجاع همام ، فمات بعد ليلة .

ثم توجه فى العشرين من شوال إلى جبال الكسروان والدرزية[9] ، وقصد

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) فى الأصل كل ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) فى الأصل التشريف ، وما هنا من المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٩٠٢ .

(٥) كذا فى الأصل .

(٦) كذا فى الأصل .

(٧) بيت لهيا ، وهى قرية بغوطة دمشق (ياقوت : معجم البلدان) .

(٨) فى الأصل أمره ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٩) الدرزية أو الدروز من فئات سكان لبنان ، انتشروا أيضا فى جبل كسروان المتصل بجبال لبنان ، ونزل الدروز أيضا حول دمشق ، وفى جبال حوران . واسمهم مشتق من درزى ، أحد دعاة الباطنية الذين قالوا بألوهية الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وكان درزى من أصل فارسى ، واسمه =

استئصال شأفتهم ، لما عاملوا به العساكر الإسلامية، عند هزيمتها ، من السلب والأذى . فالتزموا برد ما أخذوه من أقمشة العسكر، وحمل ما ترد عليهم ، وعاد إلى دمشق ، فى يوم الأحد ثالث ذى القعدة من السنة .

وألزم أهل دمشق أرباب الحوانيت بتعليق الأسلحة فى حوانيتهم ، وأمروا برماية النشاب ، ونودى بذلك . وحضرت رسالة قاضى القضاة بذلك إلى فقهاء المدارس . وعرض عوام البلد فى الحادى والعشرين من القعدة ، فحضروا بالسلاح . وقدم على أهل كل سوق رجلا منهم . ثم عرض السادة الأشراف ، فى يوم الخميس رابع عشرين الشهر ، بالعدّة الكاملة ، مع نقيبهم نظام الملك .

وفى هذه السنة ، كانت وفاة الأمير الطواشى حسام الدين جلال المغيثى الجلالى ، نسبة إلى الملك المغيث ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت وفاته فى تاسع شهر ربيع الآخر ، بمنزلة السوادة (١) ، وحمل إلى قطيا (٢) ، ودفن بها . وكان قد مرض بدمشق ، فأعيد ، ولم يشهد الوقعة . وكان رحمه الله تعالى دينا خيرا .

= محمد بن إسماعيل ، قدم إلى مصر سنة ٤٠٨ (١٠١٧ م) ، ووصل فى خدمة الحاكم بأمر الله ، ودعا إلى ألوهيته ، وألف فى ذلك كتابا قرأه بالجامع الأزهر بالقاهرة ، فأحدث ضجة بين الناس ، فخرج من مصر ، ولجأ إلى جبال لبنان ، حيث نشر مذهبه . ومات سنة ٤٦٠ (١٠٢٠) انظر

En. Is. Arts. Drnzes, Darazi, Hamaza

المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٢ حاشية ٣ .

(١) السواده ، وهى من بلاد إقليم الشرقية ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٨٦ ، وتعتبر من قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية .

(٢) قطيا : قرية فى الطريق من مصر إلى الشام فى وسط الرمل ، قرب الفرما . (ياقوت : معجم البلدان) .

وفيها ، توفى القاضى علاء الدين أحمد ابن قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن خلف بن بدر العلائى . وكانت وفاته ... ...[1]

وصليت عليه فيمن صلى ، وكانت جنازته مشهودة ، ودفن بتربتهم بالقرافة رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى الأمير سيف الدين جاغان الحسامى بأرض البلقاء من الشام .

وفيها ، توفى الأمير علم الدين سنجر الدوادارى بحصن الأكراد ، فى ثالث شهر رجب وكان قد انصرف من الوقعة ، والتحق بحصن الأكراد ، فمات به ، رحمه الله تعالى .

وفيها ، توفى والدى ، رحمه الله تعالى ، تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن أبى عبد الله ، محمد بن عبد الدائم بن منجا بن على البكرى ، التيمى القرشى المعروف بالنويرى . وقد تقدم ذكر باقى نسبه ، عند ذكر مولدى فى سنة سبع وسبعين وستمائة[2] . وكانت وفاته رحمه الله ، قبل أذان المغرب ، من يوم الخميس الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وتسعين وستمائة ، بالمدرسة الصالحية النجمية ، بقاعة التدريس المالكية . وكان ابتداء مرضه ، فى يوم الأربعاء ، الرابع عشر من الشهر . ومولده بمصر بالمدرسة المعروفة بمنازل العز سنة ثمان عشرة وستمائة . ومات رحمه الله تعالى ، ولم تفته صلاة . ولقد توضأ لصلاة

(١) فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ٤ . ٩ ، ورد أسمه كاملا ، وهو علاء الدين أحمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلائى ، المعروف بابن بنت الأعز الشافعى . ولم يذكر من التفاصيل ما يسد البياض الوارد فى الأصل وانظر أيضا ترجمته فى المنهل الصافى (المرجع السابق) ج ١ ، ص ٣٧٨ (المصحح)

(٢) انظر النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ، ص ٣٨٦ . (المصحح) .

العصر ، من يوم وفاته أربع مرات ، وكان به ذرب ، ثم صلى صلاة العصر جالسا . ومات قبل أذان المغرب من يومه . وكان آخر كلامه ، بعد أن دعا الله تعالى لى بخير ، التلفظ بالشهادتين . ثم قبض رحمه الله تعالى ، ودفن من الغد ، فى يوم الجمعة الثالثة من النهار ، بتربة قاضى القضاة زين الدين المالكى ، بالقرافة ، رحمه الله تعالى وإيانا .

واستهلت سنة سبعمائة يوم الجمعة

[٧٠٠ ـ ١٣٠٠ / ١٣٠١]

والسلطان الملك الناصر بقلعة الجبل ، ومدبرو[1] الدولة ، ونواب المملكة من ذكرناهم .

ذكر جباية المقرر على أرباب الأملاك والأموال بالديار المصرية والشام

وفى هذه السنة ، فى أولها قرر ناصر الدين محمد [بن][2] الشيخى ، أحد الأمراء بالديار المصرية ، ومتولى القاهرة ، أن يستخرج من أرباب العقارات والأموال مالاً[3] سماه مقرر الخيالة[4] ، وانتصب لإستخراج ذلك بدار العدل ، تحت قلعة الجبل . وأحضر أرباب الأموال والأملاك ، وقرر على كل منهم بحسب قدرته ، واستخرج من ذلك تقدير مائة ألف دينار[5] . وتعدّى ضرره إلى سائر الناس ، حتى أراد [أن][6]

---

(١) فى الأصل ومدبرى ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) الإضافة من المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٦ ٩ .

(٣) فى الأصل مال ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) مقرر الخيالة ، ضريبة تقررت سنة ٦٩٩ هـ على سائر الناس بالقاهرة والأقاليم ، لينفق منها على إعداد العساكر وتجهيزهم لقتال التتار ، زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون . انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩٨ ، وفى المتن ما يدل على أن هذه الضريبة التزم بأدائها أرباب العقارات والأموال .

(٥) انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٨٩٨ .

(٦) الإضافة للتوضيح .

يستخرج من العدول[1] الجالسين بسوق الوراقين ، من كل عدل عشرين دينارا ، ومن كل عاقد[2] أربعين دينارا . فنهض قاضى القضاة زين الدين المالكى فى ذلك ، وتحدث مع الأمراء فى ذلك . وذكر ضرورة العدول وفاقتهم واحتياجهم ، وأن جلوسهم فى سوق الوراقين ، لتحصيل أقواتهم ، ولو قدروا على القوت ماجلسوا ، وقام فى ذلك أتم قيام ، حتى اندفعت عنهم هذه المظلمة ، وأعفوا[3] منها . واستخرج من سائر الأعمال والبلاد والقرى بالديار المصرية أموال ، قررت على كل بلد من البلاد المقطعة ، واستخرجت الأموال من الرعايا والفلاحين .

وأما دمشق ، فإنه رُسم باستخراج أجرة أربعة أشهر من أرباب الأملاك والأوقاف التى بدمشق وظاهرها ، ومن الضياع ، التى ضمانها أكثر من أمدائها ثلث ضمانها . وإن كانت أمداؤها أكثر من ضمانها ، استخرج عن كل مدى ، ستة دراهم وثلثا درهم — والمدى أربعون ذراعا فى مثلها ، يكون تكسيره ألف ذراع وستمائة ذراع ، بذراع العمل[4] — فنال الناس من ذلك شدة . وكان المال المطلوب ، عن ماتحصل فى سنة تسع وتسعين وستمائة .

وفيها ، فى المحرم ، كثرت الأراجيف بحركة التتار ، فجفل أهل الشام أجمع ، منهم من التجأ إلى الحصون ، وأكثرهم وصلوا إلى الديار المصرية ، حتى امتلأت

(١) العدول ، ومفردها عدل ، وهو الشاهد (المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٧ .

(٢) العاقد ، هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها : كعقود البيع والزواج : وهو دون القاضى فى الرتبة . المقريزى : السلوك جـ ١ : ص ٥٠١ حاشية ٣ .
Dozy ; Supp. Dict Ar.

(٣) انظر المقريزى : السلوك جـ ١ : ص ٩٠٧

(٤) ذراع العمل : مقياس طوله ثلاثة أشبار ، بشبر رجل معتدل . انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٤٤٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ : ص ٩٠٧ حاشية ٤ .

القاهرة ومصر منهم . وكان سعر القمح ، قبل وصول هذه الجفول ، عن كل أردب عشرين درهما . فنزل إلى خمسة عشر درهما ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى[1] .

ذكر توجه السلطان الملك الناصر بالعساكر إلى الشام وعوده

لما كثرت الأراجيف وقويت الشناعة ، بقرب التتار ، توجه السلطان بالعساكر إلى الشام . واستقل ركابه من منزلة مسجد التبن[2] ، وهي المنزلة الأولى من قلعة الجبل ، في يوم السبت ثالث عشر صفر ، ووصل إلى غزة ، ونزل بمنزلة بدعرش[3] ، وأقام بها . وتوالت الأمطار وكثرت ، واشتد البرد ، وانقطعت الأجلاب عن العسكر ، حتى عدمت الأقوات . واستمر السلطان بهذه المنزلة إلى سلخ شهر ربيع الآخر . ثم عاد إلى القاهرة ، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الاثنين ، حادي عشر جمادى الأولى ، بعد أن جرد من منزلته بدعرش[4] ، الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ومضافيه ، والأمير بهاء الدين يعقوبا الشهرزوري

(١) المقريزي : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٨ ، ٩٠٩ .

(٢) مسجد التبن . أشار المقريزي : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ، ص ٤١٢ ، إلى مسجد تبر ، الذي يقع خارج القاهرة : قريبا من المطرية ، والمعروف قديما بالبئر والجيزه . وتسميه العامة خطأ مسجد التبن . وتبر هو أحد الأمراء الأكابر ، زمن كافور الأخشيدي — انظر المقريزي : السلوك جـ ١ : ص ٦٥٤ حاشية ٣ .

(٣، ٤) كذا في الأصل : وفي تاريخ سلاطين المماليك ص ٨٣ . وأشار بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ : ص ٣٨٨ إلى أن هذا الموضع هو المنزلة المعروفة بماء العوجا ، قرب دمشق ، انظر أيضا المقريزي ، السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٨ : وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١٣١ حاشية ٢ . والمعروف أن السلطان الناصر عاد ، بعد أن عاين سوء الأحوال الجوية . بيبرس الدوادار زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٦٩ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١٣١ .

ومضافيه.. فتوجهوا إلى دمشق بألفى فارس ، فوصلوا إليها ، فى سابع جمادى الأولى[1] .

ولما ظهر بدمشق عود السلطان إلى الديار المصرية ، خرج من بقى من الدماشقة إلى الديار المصرية . وذلك أن متولى دمشق ، كان يمر بالأسواق فيقول للناس : مايجلسكم هاهنا ، وأى شىء تنتظرون ، وأشباه هذا الكلام[2] . ثم نودى بدمشق فى تاسع جمادى الأولى ، من أقام ، فدمه فى عنقه ، ومن عجز عن السفر فليتحصن بالقلعة[3] .

وفى مدة مقام السلطان بمنزلة بدعرش ، توفى الأمير سيف الدين بلبان الطباخى . واستعفى الأمير سيف الدين كراى المنصورى[4] من نيابة السلطنة بصفد ، فاعفى منها ، وأقطع إقطاع الأمير سيف الدين الطباخى بالديار المصرية . وفوضت نيابة المملكة الصفدية إلى الأمير سيف الدين تخاص[5] المنصورى ، أحد أمراء الشام .

ذكر وصول غازان إلى الشام وعوده
وما فعلته جيوشه

كان من خبر غازان فى هذه السنة ، أنه وصل بجيوشه إلى بلاد حلب ،

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٩

(٢) انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ، ص ١٣٢ .

(٣) هذه العبارة : وردت مع شىء يسير من التعديل فى المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٩ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ١٣٢ .

(٤) فى الأصل من ، وماهنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٩ انظر مايلى .

(٥) فى الأصل بخاص ، وما هنا من بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٨٩ .

ونزل بقرون حماه إلى بلاد سرمين . وبعث معظم جيوشه إلى جبال أنطاكية وجبال السماق[1] . فنهبوا من الدواب والأغنام والأبقار شيئا كثيرا . وسبوا من النساء والصبيان وأسروا من الرجال خلقا كثيرا . وكانوا فى سنة تسع وتسعين وستمائة لم يصلوا إلى هذه الجهة ، فظن الناس أنهم لا يقصدونها[2] فى هذه السنة . فاجتمع بها خلق كثير ، فقُتلوا وأُسِروا وسُبوا . ورخصت الأسرى من المسلمين ، حتى أبيع الأسير والأسيرة بعشرة دراهم . واشترى الأرمن منهم خلقا كثيرا ، وسيروا فى المركب إلى بلاد الفرنج . وأرسل الله تعالى على غازان وجيوشه أمطارا كثيرة وثلوجا ، حتى هلك كثير منهم . فرجع بعساكره إلى بلاد الشرق ، وقد نفق من خيولهم مالا تحصى كثرة ، فرجعوا شبه المكسورين . وعجزت كل طائفة من المسلمين والتتار ، عن ملاقاة الأخرى . وكان رجوعهم فى جمادى[3] الآخرة . وغلت الأسعار فى هذه السنة بدمشق ، فابيعت غرارة القمح بثلثمائة درهم ، ووطل اللحم بتسعة دراهم ، ثم رخصت الأسعار[4] .

وفيها ، استعفى الأمير سيف الدين قطليك المنصورى من نيابة المملكة الطرابلسية ، فأعفى . وفوضت النيابة بها إلى الأمير سيف الدين استدمر كرجى[5] .

(١) جبال السماق ، سلسلة مرتفعات عظيمة بجهات حلب ، تقع بها مدن كبيرة وقرى وقلاع للاسماعيلية . ولعلها اتخذت هذا الاسم لكثرة ما ينبت بها من أشجار السماق التى تقارب أشجار الرمان فى الطول ، وتحمل عناقيد ذات حب صغير شديد الحموضة ، إنظر ياقوت . معجم البلدان جـ ٢ ص ٢١ ، ومحيط المحيط .

(٢) فى الأصل لا يقصدوها : وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ، ص ١٣٢ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩٠٩ ، وتاريخ سلاطين المماليك ص ٨٤ .

(٥) فى الأصل استدمركبى ، وما هنا من المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩١٤ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ١٥٧

وفيها ، فنيت الأبقار بالديار المصرية فناء ، لم يسمع بمثله . وحكى لى أن بعض مشايخ البلاد باشموم طناح ، كان يملك ألف رأس وأحد وعشرين رأسا من بقر الخيس[1] ، فمات منها ألف رأس وثلاثة رءوس ، وبقى له ثمانية عشر رأسا ، وغلت الأبقار بعد هذا الفناء ، حتى كادت تعدم . وبيع الثور منها بألف درهم وما يقارب هذا الثمن . واستعمل الناس فى السواقى بالديار المصرية لإدارتها ، الخيل والجمال والحمير[2] .

ذكر خبر أهل الذمة وتغيير لباسهم
وما تقرر فى ذلك ، والسبب الذى أوجبه

فى هذه السنة ، وصل وزير بلاد المغرب[3] إلى الديار المصرية ، بسبب الحج . وتكلم مع الأمراء فى أمر أهل الذمة ، وذكر ما هم فيه من الذل والصغار ببلاد المغرب ، وأنهم لا يمكنونهم[4] من ركوب الخيل والبغال ، ولا يستخدمونهم[5] فى المناصب ، وذكر أشياء كثيرة من هذا القول . فرسم أن يعقد مجلس بحضور الحكام ، وندب لذلك قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى ، فجلس بالمدرسة الصالحية . وحضر القاضى مجد الدين بن الخشاب ، وكيل بيت المال ، وجماعة من الفقهاء ، وأحضر بطرك النصارى[6] وجماعة من أساقفتهم ، وأكابر قسيسيهم ، وأعيان ملتهم

(١) فى الأصل الجيش ، وما هنا من ابن دقماق : نواتين الدواوين ص ٣٥١

(٢) انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩١٣ — ٩١٤

(٣) كان سلطان المغرب وقتذاك أبا يعقوب يوسف بن يعقوب المرينى ، الناصر لدين الله ، (٦٨٥ — ٧٠٦ هـ) انظر تاريخ سلاطين المماليك ص ٩٧

(٤) فى الأصل يمكنوهم ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) فى الأصل يستخدموهم ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) المقصود بالنصارى هنا طائفة القبط من المصريين ، وكان بطاركهم وقتذاك بوطرس الثانى .

وديان اليهود وأكابر ملتهم ، وسئلوا عما أقروا عليه فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، من عقد الذمة . فلم يأتوا عن ذلك بجواب . وبحث الفقهاء فى ذلك ، فاقتضت المباحث الشريفة بين العلماء ، أن يميز النصارى بلبس العمائم الزرق غير الشعرى[1] ، واليهود بلبس العمائم الصفر . وتميز نساء أهل كل ملة كذلك بعلامة تظهر . ولا يركبون[2] الخيول ولا يحملون[3] سلاحا ، ويركبون الخيول الحمر بالأكف[4] عرضا من غير تزيين لها ولا قيمة ، ويتجنبون[5] أوساط الطرق للمسلمين فى مجالسهم[6] عن مرانبهم ، ولا يرفعون[7] أصواتهم على أصوات المسلمين . ولا يعلو بناؤهم على بناء المسلمين ، ولا يظهرون[8] شعانينهم[9] ، ولا يضربون[10] بالنواقيس . ولا يتصرون مسلما ولا يهودونه . ولا يشترون من

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل لا يركبوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل ولا يحملوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٤) الأكف جمع أكاف ، وهو برذعة الحمار (القاموس المحيط)

(٥) فى الأصل يتجنبوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) هذه اللفظة تجعل العبارة مضطربة ، وما ورد فى كتاب الجزية ، الذى كتبه عمر بن الخطاب لأهل الذمة ، يشير إلى « أنهم لا يتصدرون فى المجالس » انظر الشيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٧١ ولعل العبارة « و ينزلون فى مجالسهم ... » انظر أيضا تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة مخطوطة دار الكتب رقم ١٩٧٢٧ ب لوحة رقم ١٤١ (المصحح)

(٧) فى الأصل ولا يرفعوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٨) فى الأصل ولا يظهروا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٩) عيد الشعانين ، و يطلق عليه أيضا عيد الزيتونة « أحد أعياد القبط فى مصر ويقع فى سابع أحد من صومهم الكبير ، الذى يسبق عيد الفصح ، وفيه يخرجون بسعف النخيل ، ويرون أنه يوم ركوب المسيح بالقدس ، والناس بين يديه يسبحون ، وهو يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر . انظر : المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ٢٥ .

(١٠) فى الأصل ولا يضربوا ، وما هو هنا الصواب لغويا :

الرقيق مسلما ولا من سباه مسلم، ولا من[1] جرت عليه سهام المسلمين . ومن دخل منهم الحمام يميز نفسه بعلامة عن المسلمين، بجرس فى حلقه . ولا ينقشون[2] فصوص خواتيمهم بالعربية[3] ، ولا يعلمون[4] أولادهم القرآن ، ولا يستخدمون[5] فى أعمالهم الشاقة مسلما ، ولا يرفعون[6] النيران . ومن زنى منهم بمسلمة قتل .

وقال بطرك النصارى بحضرة جماعة العدول : «حرمت على أهل ملتى وأصحابى مخالفه ذلك ، والعدول عنه» . وقال رئيس اليهود وديانهم : «أوقعت الكلمة على أهل ملتى وطائفتى فى مخالفة ذلك ، والخروج عنه»[7] .

ونظمت المكاتيب بذلك ، ورسم بحمل الأمراء[8] على حكمها . وكتب إلى سائر أعمال الديار المصرية بإجرائهم على ذلك . وكتب إلى [أمراء[9]] الشام بذلك ، فالتزموا به فى شعبان من السنة .

وتقرر بدمشق أن تلبس النصارى العمائم الزرق ، واليهود العمائم الصفر ، والسامرة العمائم الحمر . واستقر ذلك فى سائر المملكة . إلا بالكرك ، فإن النائب بها الأمير جمال الدين آقش الأشرفى ، رأى إبقاءهم على حالتهم . واعتذر أن أهل

(١) فى الأصل ما ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٣١ ، وهو الصواب لغويا .

(٢) فى الأصل ولا ينقشوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٣) فى الأصل بالعربى ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٣١ .

(٤) فى الأصل ولا يعلموا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) فى الأصل ولا يستخدموا وما هنا هو الصواب لغويا .

(٦) فى الأصل ولا يرفعوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٧) يقابل ما ورد فى المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٩١٠ ـ ٩١١ .

(٨) فى الأصل الأمر ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٩) الإضافة يتطلبها السياق ـ انظر ما يلى .

الكرك نصارى ، وأن المسلمين بها قليل ، وأن هذا القدر[1] يؤدى إلى ظهور كثرتهم للغريب ، وما أشبه هذه الأعذار . فاستقر ذلك بالكرك والشوبك إلى الآن.[2]

وأخبرنى الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصورى فى سنة إحدى وسبعمائة وهو يومئذ أستاذ الدار السلطانية وشاد الدواوين بدمشق ، قال : ركبت فى الموكب مع الأمير جمال الدين آقش الأفرم ، نائب السلطنة بها ، فمر بنا طائفة من أهل الذمة ، بالأقمشة النفيسة والعمائم اللانس[3] . قال : فشق ذلك علىّ كونهم لم يتميزوا بعلامة . فذكرت ذلك لنائب السلطان ، وقررت معه أن يأمر بتغيير هيأتهم ، وأن تلبس النصارى العمائم الزرق ، واليهود العمائم الصفر ، والسامرة[4] العمائم الحمر . وتقرر أن يطالع فى ذلك ، فورد مثال السلطان بذلك ، قبل وصول المطالعة إليه ، ووافق تاريخ تلبيسهم بالديار المصرية ، التاريخ الذى حدثت نائب السلطان فيه بسببه . ولما منعوا من الاستخدام بالديار المصرية ، أسلم جماعة كثيرة من أعيانهم ، لأجل مناصبهم . فاستمروا بعد إسلامهم على ما كانوا عليه[5] .

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها الفرار

(٢) انظر ما ورد عن ذلك ، فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٩١٢

(٣) كذا فى الأصل ، واللانس لفظ فارسى ، يقصد به الحرير الموصلين .
انظر . Steingass ; Persian — English Dict .

(٤) السامرة طائفة من اليهود ، لها توراة اختصت به ، غير التوراة المعروف عند طائفتى الربانيين والقرائين ، فضلا عن مخالفتها لها فى كثير من الأصول (انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ، ص ٢٥٣ — ٢٧٠)

(٥) كان مؤلف كتاب تاريخ سلاطين المماليك معاصرا لهذه الأحداث ، ومع أنه أورد فى كتابه ص ٨٨ وما يليها خطبة له عن هذا الموضوع ، فإنه لم يورد من التفاصيل ما أورده النويرى .

وقد وقفت على كتاب « الدر الثمين فى مناقب المسلمين ومثالب المشركين » ، تصنيف محمد بن عبد الرحمن بن محمد الكاتب[1] . وهو كتاب خدم به السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، رحمه الله تعالى[2] .

وقد رأيت أن أذكر منه نبذة فى هذا الموضع ، لتعلقه به ، فالشىء بالشىء يذكر . جاء فى[3] الكتاب المذكور ، فى صدره ، بعد تفويض السلطان الملك الناصر المشار إليه ، نثرا ، والاستشهاد بأبيات من الشعر فى معناه . ثم قال : وكان مولانا الملك الناصر ، خلد الله ملكه ، وأبقى دولته ، لما ملّكه الله الديار المصرية والشامية وما قاربها . ووعده على لسان عدله ، أن يفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها . انتصر لله ، وتعصب لدينه ، واجتهد فى رضاه ، والعمل بحكم كتابه ، وسنة نبيه ، ولحقته الحمّية الإسلامية ، وسار السيرة العمرية . وأمر بصرف الذمة وأن لا يتصرفوا ما بقيت هذه الأمة . وسطرها الكاتبان[4] فى صحائف حسناته . وأثبتها المؤرخون فى محاسن سيرته ، ونظمها الشعراء فى مدائح عقد مدائحه . وشغله النظر فى مصالح الإسلام ، عن تميم هذا الاهتمام ، والأعمال بخواتيمها .

---

(١) لم يرد للمؤلف كتاب بهذا العنوان فى Brockelman .

(٢) الملحوظ أن عبد الرحمن بن نصر الشيزرى مؤلف كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة أورد بابا عن الحسبة على أهل الذمة يشتمل على فصلين ، تضمنا قدرا كبيرا من المعلومات الواردة فى نهاية الأرب . والمعروف أن الشيزرى كان معاصرا للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولعله وضع كتابه فى الحسبة بناء على طلبه ، إذ أهدى إليه كتابه النهج المسلوك فى سياسة الملوك — انظر : الشيزرى : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، مقدمة الناشر ، ص ٦ ا — ١٠٧ .

(٣) فى الأصل من ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٤) كذا فى الأصل ، لعل المقصود بالكاتبين ، العماد الكاتب ، والمؤلف الذى نقل عنه النويرى هذا النص .

ونرجو من الله ، أن يبادر بتكميلها وتتميمها . ولقد قيل إن الشريف مسعود بن الحسن المعروف بالبياضى ، رؤى فى المنام بعد موته ، فقيل له ما فعل الله بك . قال : غفر لى بأبيات قلتها ، وكتبت بها إلى الراضى وهى :

يا ابن الخلائف من قريش والأولى ... طهرت أصولهم من الأدناس
قلدت أمر المسلمين عدوهم ... ما هكذا فعلت بنو العباس
حاشاك من قول الرعية أنه ... ناس لقاء الله أو متناسى
ما العذر إن قالوا غدا هذا الذى ... ولّى اليهود على رقاب الناس
أتقول كانوا وفّروا أموالهم ... قبيوتهم قفر بلا آساس
لاتذكرن إحصاءهم ما وفّروا ... ظلما وتنسى مُحْصَى الأنفاس
وخَف القضاء غدا إذا وافيت ما ... كسبت يداك اليوم بالقسطاس
فى موقف ما فيه إلا شاخص ... أو مهطع أو مُقْنِع للراس
أعضاؤهم فيه الشهود وسحتهم ... نار وخازنهم شديد الباس
إن عطل اليوم الديون مع الغنى ... فغدا يؤديها مع الإفلاس .
لاتعتذر عن صرفهم بتعذر المـ ... تصرّفين الحُذّق الأكياس
ما كنت تفعل بعدهم لو أهلكوا ... فافعل وعُدّ القوم فى الأرماس ،

ثم قال المصنف محمد بن عبد الرحمن : قرأت أن النصيحة من الدين . وقرأت : ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ (١) . ثم ذكر ما ورد فى كتاب الله تعالى

(١) سورة الذاريات آية ٥٥ .

من التحذير، فبدأ بقوله تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير﴾[3].

ثم ذكر نسخة كتاب كتب إلى عمر بن الخطاب، عن أهل الذمة، فقال: قال عبد الرحمن بن عثمان: كتبنا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى نصارى أهل الشام ومصر ما نسخته:

«هذا كتاب لعبد الله عمر، أمير المؤمنين، من نصارى أهل الشام ومصر.

لما قدمتم علينا، سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا، وأهل ملتنا. وشرطنا على أنفسنا، أن لا نحدث فى مدائننا، ولا فيما حولها، ديرا ولا كنيسة، ولا قلاية[4]، ولا صومعة لراهب[5]. ولا نجدد[6] ما خرب منها، ولا ما كان فى خطط

(١) سورة البقرة: آية ١٠٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٠٩.

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٠.

(٤) فى الأصل قلية، وما هنا من الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ والقلايا، وجمعها قلاية، بناء مرتفع ينفرد فيه راهب واحد، لينصرف إلى العبادة الإنعزالية، وقد لا يكون للقلاية باب ظاهر، إمعانا فى العزلة. انظر الخفاجى: شفاء الغليل ص ١٦٦.

(٥) فى الأصل راهب، وما هنا من الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١.

(٦) فى الأصل يجدد، وما هنا من الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١.

المسلمين ، وأن نوسع[1] للمارة ولبنى السبيل . وأن ننزل[2] من مررنا من المسلمين ثلاث ليال ، نطعمهم . ولا نأوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم عينا على المسلمين .[3] ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو إليه أحدا . ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول فى دين الإسلام ، إن أراد .[4] وأن نوقر المسلمين ، ونقوم لهم فى مجالسنا ، إذا أرادوا الجلوس . ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم ، فى قلنسوة ، ولا عمامة ولا نعلين ، ولا فرق شعر . ولا نتسمى بأسمائهم ، ولا نتكنى بكناهم . ولا نركب بالسروج[5] ، ولا نتقلد السيوف[6] ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله . ولا ننقش على خواتمنا[7] بالعربية . وأن نجز[8] مقادم رؤوسنا . ونلزم زيّنا حيث كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ، وأن لا نظهر صلباننا ، ولا نفتح كنفنا[9] فى طرق[10] المسلمين ولا أسواقهم . ولا نضرب بنواقيسنا ، فى كنائسنا ، فى شىء من حضرة المسلمين . ولا نخرج [فى][11] شعانيننا ، ولا طاغوتنا . ولا نرفع

(١) فى الأصل توسع ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ .

(٢) فى الأصل ، ينزل ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ .

(٣) فى الأصل المسلمين ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٤) فى الأصل أرادوا ، وما هنا هو الصواب .

(٥) كذا فى الأصل وفى ، الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ ، السروج .

(٦) فى الأصل بالسيوف ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ .

(٧) فى الأصل خواتيمنا ، وما هنا هو الصواب ، من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ .

(٨) كذا فى الأصل ، وفى الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبه ص ١٢١ ، وأن لا نجز .

(٩) فى الأصل كنفنا ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب ص ١٢١

(١٠) فى الأصل طريق ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ .

(١١) الإضافة من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١

أصواتنا مع موتانا . ولا نوقد النيران فى طرق المسلمين ولا أسواقهم . ولا نجاورهم بموتانا . ولا نتخذ[1] من[2] الرقيق، من جرت عليه سهام المسلمين . ولا نطلع [عليهم][3] فى منازلهم ، ولا تعلو منازلنا منازلهم . فلما أتيت أمير المؤمنين عمر بالكتاب زاد فيه : « ولا نضرب أحدا من المسلمين » .

شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان . فإن نحن خالفنا فى شىء مما اشترطناه لكم علينا ، وضمناه عن أنفسنا ، وأهل ملتنا ، فلا ذمة لنا عليكم ، وقد حل بنا ما حل بغيرنا ، من أهل المعاندة والشقاق . فكتب عمر رضى الله عنه : امض ماسألوه ، والحق فيه حرفين ، اشترطهما عليهم ، مع ماشرطوه ، أنه من ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده[4] .

قال عبد الرحمن بن عثمان : وأجمع العلماء بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، على أنه متى نقض الذمى عهده ، بمخالفة شرط من هذه الشروط

(١) فى الأصل نتحدث ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ .

(٢) فى الأصل ما ، وما هنا من الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١ .

(٣) الإضافة من الشيزرى نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢١

(٤) فى الأصل اشترطها ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٥) هذا الإشهاد على أهل الذمة ورد على هذه الصورة فى الشيزرى كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢٠ — ١٢٢ . وقد انفردت به مخطوطة فيينا عن سائر المخطوطات ، لذا جرى جعله ملحقا بالكتاب . وما ورد فى الباب التاسع والثلاثين عن الحسبة على أهل الذمة : يعتبر رواية أخرى لهذا الإشهاد . انظر الشيزرى كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، مقدمة الناشر ، ص ١٠٦ — ١٠٧ ، ١٢٠ — ١٢٢

وما ورد فى نهاية الأرب من كتاب الدر الثمين فى مناقب المسلمين ومثالب المشركين ، تصنيف محمد بن عبد الرحمن بن محمد الكاتب وما انطوى عليه من هذا الاشهاد ، يدل على أن مؤلف هذا الكتاب ، هو مؤلف كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة .

المأخوذة عليهم، فالإمام مخيّر فيه بين القتل والأسر. ويلزمهم مع ذلك أن يتميزوا عن المسلمين فى اللباس والزى، ولا يتشبهون بهم[1] فى أمر من أمور زيهم. ويشدّون الزنانير[2] فى أوساطهم . ويكون فى رقابهم خواتم رصاص أونحاس أو جرس ، يدخل معهم فى الحمام . وليس لهم أن يلبسوا العمائم والطيلسان .

وأما المرأة فتشد الزنار من تحت الإزار، وقيل من فوق الإزار وهو الأولى . ويكون فى عنقها خاتم رصاص ، يدخل معها الحمام. ويكون أحد خفيها أسود، ليبقى مشتهرا ظاهرا ، والآخر أبيض .

ويركبون الحمير بالأكُف ، ولا يركبون بالسروج. ولا يتصدرون فى المجالس ولا يبدأون بالسلام . ويلجأون إلى أضيق الطرق . ويُمنعون أن يعلو بناؤهم على أبنية المسلمين ، وتجوز المساواة ، وقيل لاتجوز ، بل يُمنعون . ويجعل الإمام عليهم رجلا يكتب أسماءهم وحلاهم ، ويستوفى عليهم ما يؤخذون[3] به من هذه الشرائط . وإن زنى منهم أحد بمسلمة، أو أصابها بنكاح ، برئت منه الذمة . وقال أبو هريرة : أمر أمير المؤمنين عمر بن خطاب ، رضي الله عنه ،

---

(١) فى الأصل يتشبهوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) الزنانير، ومفردها زنار، وهو حزام يشده المسيحى فى وسطه تمييزا له عن المسلم ، أبو يوسف كتاب الخراج ص ١١٧ .

(٣) فى الأصل يأخذوا ، وما هنا هو الصواب لغويا .

بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة ، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام[1] . وسيّر عروة بن محمد ، فهدم الكنائس بصنعاء . وصانع القبط على كنائسهم بمصر ، وهدم بعضها ، ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل بعثة النبى ، صلى الله عليه وسلم . هذا آخر ما لخصناه من الكتاب المذكور[2] . فلنرجع إلى تتمة حوادث سنة سبعمائة .

ذكر وصول رسل غازان ملك التتار وما وصل على أيديهم من المكاتبة وما أجيبوا به

وفى هذه السنة ، فى ذى القعدة ، وصل رسل غازان إلى البلاد الشامية[3] ، وهم الأمير ناصر الدين على خواجا ، والقاضى كمال الدين موسى بن يونس ، ورفيقهما . فوصل البريد من حلب بوصولهم . فرسم بتوجه الأمير سيف الدين كراى المنصورى لإحضارهم . فتوجه على خيل البريد فأحضرهم إلى الأبواب السلطانية . وكان وصولهم إلى قلعة الجبل ، فى ليلة الاثنين ، خامس عشر ذى الحجة . وأحضروا بين يدى السلطان ، فى عشية نهار الثلاثاء . فخطب كمال الدين خطبة فى معنى الصلح ، واتفاق الكلمة ، ورغب فيه . ثم أخرج كتابا نسخته[4] :

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى ، وميامين الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان .

---

(١) فى الأصل يهدم ، وما هنا هو الصواب لغويا .

(٢) أورد قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة فى كتابه « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » (المرجع السابق) بابا كاملا — الباب السابع عشر — فى عقد الذمة وأحكامه أو ما يجب بالتزامه ، والمعروف أن ابن جماعة كان معاصرا لتلك الأحداث سنة ٧٠٠ هـ (المصحح)

(٣) فى الأصل الإسلامية ، وما هنا من بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٩٥

(٤) أورده المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٩١٥ وصفا تفصيليا لاجتماع رسل غازان بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، واكتفى بتلخيص كتاب غازان إلى السلطان وتتفق روايته مع رواية ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٨ ، ص ١٣٥ — ١٣٦

ليعلم السلطان الملك المعظم الناصر ، أنه فى العام الماضى ، بعض عساكرهم[1] المفسدة ، دخلوا أطراف بلادنا ، وأفسدوا فيها ، لعناد الله وعنادنا ، كماردين ونواحيها ، وجاهدوا الله بالمعاصى فيمن ظفروا به من أهلها ، وأقدموا على أمور بديعة ، وارتكبوا آثاما شنيعة ، من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة . فأنفنا من تهجمهم[2] ، وغرنا من تقحمهم[3] . وأخذتنا الحمية الإسلامية ، فحدتنا[4] على دخول بلادهم ، ومقاتلتهم على فسادهم . فركبنا بمن كان لدينا من العساكر ، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر . وقبل وقوع الفعل منا ، واشتهار الفتك عنا ، سلكنا سنن سيد المرسلين ، واقتفينا آثار المتقدمين[5] . واقتدينا بقول الله : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[6] ﴾ . وأنفذنا صحبة يعقوب السكرجى ، جماعة من القضاة والأئمة والثقات ، وقلنا : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة[7] ﴾ .

فقابلتم ذلك بالإصرار ، وحكمتم عليهم وعلى المسلمين بالأضرار ، وأهنتموهم وسجنتموهم ، وخالفتم سنن الملوك فى حسن السلوك . فصبرنا[8] على تماديكم فى غيكم ، وخلودكم إلى بغيكم ، إلى أن نصرنا الله ، وأراكم فى أنفسكم قضاه . ﴿ أفأمنوا مكر

(١) كذا فى الأصل وفى بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩١ .

(٢) فى الأصل تنحمهم ، وما هنا من بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩١ .

(٣) فى الأصل تفخمهم ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩١ .

(٤) فى الأصل فحدينا ، وما هنا من بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩١ .

(٥) فى الأصل المقدمين ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩١ .

(٦) سورة النساء : آية ١٦٥ .

(٧) سورة النجم : الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

(٨) فى الأصل ، وصبرنا ، وما هنا بن بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩١ .

الله فلا يأمن مكر الله[1] ﴾ . وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال ، وآل بهم الأمر إلى ما آل ، أنهم ربما تداركوا الفارط فى أمرهم ، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم ، وأوجه[2] إلينا وجه عذرهم ، وأنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية ، رسلا لإصلاح تلك القضية . فبقينا بدمشق غير متحنحين ، وتنبطنا تنبط المتملكين المتمكنين . فصدهم عن السعى فى صلاح حالهم التوانى ، وعللوا نفوسهم عن اليقين بالأمانى .

ثم بلغنا ، بعد عودنا إلى بلادنا ، أنهم القوا فى قلوب العساكر والعوام ، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام ، أنهم فيما بعد يلقوننا[3] على حلب أو الفرات . وأن عزمهم مصر على ذلك لا سواه . فجمعنا العساكر وتوجهنا للقياهم . ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم ، وقلنا ولعلهم وعساهم[4] . فما طلع لهم بارق ، ولا ذرّ شارق . فتقدمنا[5] إلى أطراف حلب ، وتعجبنا من بطئهم غاية العجب . فبلغنا رجوعهم[6] بالعساكر ، وتحققنا نكوصهم عن الحرب . وفكرنا فى أنه متى تقدمنا بعساكرنا الباهرة وجموعنا العظيمة القاهرة ، ربما أخرب البلاد مرورها ، وباقامتهم فيها فسدت أمورها . وعم الضرر العباد ، وانخراب البلاد . فعدنا بُقْيا عليها ، ونظرة لطف من الله إليها .

(١) سورة الأعراف : آية ٩٩

(٢) كذا فى الأصل ، وفى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩١ .

(٣) فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٢ .

(٤) فى الأصل ولعل ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٢

(٥) فى الأصل ، فقدمنا ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٢ .

(٦) فى الأصل رجوعه ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٢ .

وها نحن الآن [أيضا][1] مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون[2] غرار[3] عزماتنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب ، وعازمون بعد الإنذار ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[4]

وقد سيرنا حاملى هذا الفرمان : الأمير الكبير ناصر الدين على خواجه ، والإمام العالم ملك القضاة ، كمال الدين موسى بن يونس . وقد حملناهما كلاما يشافهاهم[5] به . فليثقوا[6] بما تقدمنا به إليهما . فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما ، لنكون كما قال الله تعالى: ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾[7] . فيعدوا[8] لنا الهدايا والتحف . فما بعد الإنذار من عاذر . وإن لم يتداركوا الأمر ، فدماء المسلمين وأموالهم مطلوله[9] بتدبيرهم ، ومطلوبة منهم عند الله على طول[10] تقصيرهم .

---

(١) الإضافة من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٢ .

(٢) فى الأصل مشحدون ، وما هنا من بيبرس الدوادار جـ ٩ ، ص ٣٩٢ .

(٣) فى الأصل هرار ، وما هنا من بيبرس الدوادار جـ ٩ ، ص ٣٩٢ .

(٤) سورة الإسراء : آية ١٥ .

(٥) فى الأصل تشافهاهم ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٢ .

(٦) فى الأصل فليثقوا ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٢ .

(٧) سورة الأنعام : آية ١٤٩ .

(٨) فى الأصل فتعدوا ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٣ .

(٩) كذا فى الأصل وفى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٣ .

(١٠) فى الأصل فى ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٣ .

فليمعن السلطان لرعيته النظر فى أمره . فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ولاه الله أمرا من أمور هذه الأمة ، واحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم . احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره » . وقد أعذر من أنذر ، وانصف من حذّر . والسلام على من اتبع الهدى .

كتب فى العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا [محمد][1] المصطفى وآله الطاهرين[2] .

فقرئ كتابه ، ورسم بإنشاء جوابه ، فكتب . وهو من إنشاء المولى القاضى علاء الدين على ابن المولى المرحوم فتح الدين محمد ابن القاضى المرحوم محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر . وأعاد السلطان رسله ، من غير أن تصحبهم رسولا ، بل استحضرهم بمنزلة الصالحية ، وأنعم عليهم وجهزهم ، فتوجهوا فى سنة إحدى وسبعمائة .

ونسخة الجواب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، وميامين الملة المحمدية .

أما بعد حمد الله ، الذى جعلنا من السابقين الأوّلين ، الهادين المهتدين ، التابعين لسنة سيد المرسلين ، بإحسان إلى يوم الدين . والصلاة على سيدنا محمد والسلام على آله وصحبه الذين فضل الله من سبق منهم إلى الإيمان فى كتابه

(١) الإضافة من بيبرس الدوادار « زبدة الفكرة جـ ١ ، ص ٣٩٣ .

(٢) هذه الرسالة مطابقة لمرسالة الواردة فى بيبرس الدوادار « زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

المكنون ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾[1] بإقبال دولة السلطان الملك الناصر .

كلام محمد بن قلاوون :

« ليعلم[2] السلطان المعظم ، محمود غازان ، أن كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام . ورعينا له حق القصد ، فتلقيناه منّا بسلام . وتأملناه تأمّل المتفهم لدقائقه ، المستكشف عن حقائقه . فألفيناه قد تضمن مؤاخذت[3] بأمور ، هم بالمؤاخذه عليها أحرى ، معتذرا فى التعدى بما جعله ذنوبا لبعض ، طالب بها الكل . والله تعالى يقول : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[4] .

أما حديث إغارة من أغار على ماردين من رجّالة بلادنا المتطرفة ، وما نسبوه إليهم من [الإقدام[5] على] الأمور البديعة والآثام[6] الشنيعة ، وقولهم : إنهم أنفوا من تهجمهم ، وغاروا من تقحمهم ، واقتضت الحميّة ركوبهم فى مقابلة ذلك ، فقد تلمّحنا هذه الصورة التى أقاموها عذرا فى العدوان ، وجعلوها سببا إلى ما ارتكبوه من طغيان . والجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين ، لم يحصل من المهادنه [و[7]] الموادعة ، ما يكف يدها الممتدة ، ولا يفتر همها المستعدّة . وقد

(١) سورة الواقعة ، آية ١٠ ، ١١ .

(٢) فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ، ٣٩٦ فليعلم ركنك فى صبح الأعشى جـ ٤٧ ص ٢٤٣ (المصحح) .

(٣) فى زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٦ مؤاخذة (المصحح) .

(٤) سورة الأنعام : آية ١٦٤ .

(٥) الإضافة من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٦ .

(٦) فى الأصل الآثار ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٦ . وصبح الأعشى جـ ٧ . ص ٢٤٤ (المصحح) .

(٧) الإضافة من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٦ .

كان أباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والشقاق[1]، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق. ولم يزل ملك ماردين ورعيته[2] منفذين[3] ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم، متولين كبر مكرهم، والله تعالى يقول: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[4].

« وحيث جعلتم هذا ذنبا، موجبا للحمية الجاهلية، وحاملا على الانتصار، الذى زعمتم أن همتكم به ملية، فقد كان [هذا][5] القصد، الذى ادعيتموه[6]، يتم[7] بالانتقام من أهل تلك الأطراف، التى أوجب ذلك فعلها، والاقتصار على أخذ الثار ممن ثار اتباعا لقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[8]، لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة، على اختلاف الأديان وتطأوا[9] البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس، الذى هو ثانى بيت الله الحرام، وشقيق مسجد رسول الله، عليه الصلاة والسلام. وإن احتججتم أن زمام الغارة[10] بيدنا[11]، وسبب تعديهم من سننا. فقد أوضحنا الجواب عن ذلك، وأن عدم الصلح والموادعة، أوجب سلوك هذه المسالك ».

(١) فى بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٣٩٦، النفاق (المصحح).

(٢) فى بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٣٩٧ ورعاياه.

(٣) فى الأصل متعدين؛ وما هنا من بيبرس الدوادار جـ ٩، ص ٣٩٧ وصبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٤ (المصحح).

(٤) سورة المائدة: آية ٥١.

(٥) الإضافة من بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٣٩٧ وصبح الأعشى جـ ٧، ص ٢٤٤ (المصحح).

(٦) فى الأصل اذعتموه، وما هنا من بيبرس الدوادار؛ زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٣٩٧، وصبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٤.

(٧) فى الأصل أنتم، وما هنا من بيبرس الدوادار؛ زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٣٩٧ وصبح الأعشى جـ ٧، ص ٢٤٤

(٨) سورة الشورى: آية ٤٠.

(٩) فى الأصل وتطوا، وما هنا من بيبرس الدوادار؛ زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٣٩٧

(١٠) فى الأصل العبارة، وما هنا من صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٤ (المصحح).

(١١) فى الأصل بيدينا، وما هنا من بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٣٩٧.

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين واقتفاء آثار المتقدمين ، فى انفاذ الرسل أولا ، فقد تلمحنا هذه الصورة ، وفهمنا ما أوردوه من الآيات[1] المسطورة . والجواب عن ذلك أن هؤلاء الرسل ما وصلوا إلينا [إلا][2] وقد دنت الخيامُ من الخيام ، وناضلت السهام السهام ، وشارف القومُ القوم . ولم يبق للقاء إلا يومٌ أو بعضُ يوم ، وأشرعت[3] الأسنةُ من الجانبين ، ورأى كلُّ خصمه رأى العين . وما نحن ممن لاحت[4] له رغبة راغب ، فتشاغل عنها ولهى ، ولا ممن يُسالم فيقابل[5] ذلك بجفوة النفار[6] ، والله تعالى يقول : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها[7] ﴾ . كيف والكتاب بعنوانه . وأمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، يقول : « ما أضمر إنسانٌ شيئا إلا ظهر ، فى صفحات وجهه وفلتات لسانه » .

ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوفُ وادعةٌ فى أغمادها ، والأسنة[8] مستكنّة فى أعوادها ، والسهام غير مفوقة ، والأعنة غير مطلقة ، لسمعنا خطابهم وأعدنا جوابهم .

---

(١) فى الأصل الآثار ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٧ .

(٢) الإضافة من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٧ .

(٣) فى الأصل اسرعت ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ٣٩٧ .

(٤) فى الأصل لاحب ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٧ .

(٥) فى الأصل فيقاتل ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٧ .

(٦) فى الأصل البقار ، وما هنا من زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٩ ، ص ٣٩٧ .

(٧) سورة الأنفال : آية ٦١ .

(٨) فى الأصل والألسنة ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٧ .

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم[1] ، وأبدوه من غليظ كلمهم فى قولهم : فصبرنا على تماديكم فى غيكم ، وإخلادكم إلى بغيكم . فأى صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافحه ، قبل إرسال رسل المصالحه ، وجاس خلال الديار قبل ما زعمه من الإنذار والأعذار ؟ وإذا فكروا فى هذه الأسباب ، ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب ، علموا[2] العذر فى تأخير[3] الجواب ، وما يتذكر[4] إلا أولوا الألباب .

وأما ما تحججوا[5] به مما[6] اعتقدوه من نصره ، وظنوه من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب [فى[7]] كل كرة الكرة . . فلو تأملوا ما ظنوه ربحا ، لوجدوه هو الخسران المبين . ولو أنعموا النظر فى ذلك ، لما كانوا به مفتخرين ، ولتحققوا أن الذى انفق لهم ، كان غرما[8] لا غنما ، وتدبروا معنى قوله تعالى ، ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما[9] ﴾ . ولم يخف عنهم من أبلته[10] السيوف الإسلامية منهم . وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا ، التى لو كانت مجتمعه عند اللقاء ، ما ظهر خبر عنهم .

(١) فى الأصل قدمهم ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٨ .

(٢) فى الأصل عملوا ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٨ .

(٣) فى الأصل تأن ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٨ .

(٤) فى الأصل يذكر ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٨ .

(٥) فى صبح الأعشى جـ ٧ ، ص ٢٤٥ تبجحوا (المصحح)

(٦) فى الأصل فيا ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٨ .

(٧) الإضافة من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٨ .

(٨) فى الأصل عزما ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٨

(٩) سورة آل عمران : آية ١٧٨

(١٠) فى الأصل انلته ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٩ وفى صبح الأعشى جـ ٧ ، ص ٢٤٥ نالته (المصحح)

فإنا كنا فى مفتتح ملكنا ، ومبتدإ أمرنا ، حللنا بالشام للنظر فى أمور البلاد والعباد. فلما تحققنا خبركم ، وقفونا أثركم ، بادرنا نُقُدُّ[1] أديم الأرض سيرا ، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضررا وضيرا ، ونؤدى من الجهاد السنة والفرض ونعمل بقوله تعالى: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض[2] ﴾ فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة ، وثوقا بقوله تعالى: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة[3] ﴾ وإلا فأكابركم[4] يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية، التى كم وطئت موطئا يغيظ الكفار. فكُتِب لها[5] [به] عمل صالح ، وسارت فى سبيل الله ، ففتح الله عليها أبواب المناجح . وتعددت أيام نصرتها[6] ، التى لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس ، ولما قدرتم [على[7]] أن تنكروها ، وفى تعب من يجحد ضوء الشمس . ومازال الله لنا نعم المولى ونعم النصير. وإذا راجعتموهم قصّوا عليكم نبأ الاستظهار ، ولا ينبئك مثل خبير .

وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب ، وتجرى المواقف التى هى بتقدير الله ، فلا فخر فيها للغالب ، ولا عار على المغلوب . وكم من ملك استظهر عليه ،

---

(١) فى الأصل بقد ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٩٩

(٢) سورة آل عمران : آية ١٣٣ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٤٩ .

(٤) فى الأصل فأكثركم ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٩٩ .

(٥) الإضافة من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٩٩

(٦) فى الأصل نصرها . وما هنا من بيبرس الدوادار زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٩٨

(٧) الإضافة من بيبرس الدواودر : زبدة الفكرة ج ٩ : ص ٣٩٨ وفى صبح الأعشى ج ٧ ، ص ٢٤٦ بدون تلك الإضافة (المصحح)

ثم نصر[1] ، وعاوده التأييد . فجبر بعدما كسر ، خصوصا ملوك هذا الدين ، فإن الله تكفل لهم بحسن العقبى . فقال سبحانه : ﴿ والعاقبة للتقين[2] ﴾ .

وأما إقامتهم الحجة علينا ، ونسبتهم التفريط إلينا ، فى كوننا لم نُسَيِّرْ إليهم رسولا ، عندما حلوا[3] بدمشق فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية ، لم نزد على أن اعتددنا[4] وجمعنا جيوشنا من كل مكان ، وبذلنا فى الاستعداد غاية الجهد والإمكان وأنفقنا جزيل الأموال فى العساكر والجحافل ، ووثقنا بحسن الخلف ، لقوله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل[5] ﴾ .

ولما خرجنا من الديار المصرية ، وبلغنا خروج الملك من البلاد ، لأمر حال بينه وبين المراد ، توقفنا[6] عن المسير ، توقف من أغنى رُعْبُه عن حث الركاب ، وتثبتنا تثبت الراسيات ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب[7] ﴾ وبعثنا طائفة من العساكر لمقاتلة من أقام بالبلاد ، فما لاح لنا منهم بارق ولا ظهر . وتقدمت فتخطفت من حمله على التأخر الغرر ، ووصلت الفرات فما وقفت للقوم على أثر .

---

(١) فى الأصل نصر ، وما هنا من يوبرس الدرادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ : ص ٣٩٩

(٢) سورة القصص : آية ٨٣

(٣) فى يوبرس الدرادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٣٩٩ : عند حلولنا .

(٤) فى صبح الأعشى جـ ٧ ، ٢٤٦ ، اعتدينا (المصحح)

(٥) سورة البقرة : آية ٢٦١

(٦) فى الأصل فوقفنا : وما هنا من يوبرس الدرادار : زبدة الفكرة جـ ٩ : ص ٤٠٠

(٧) سورة النمل : آية ٨٨

وأما قولهم : أننا ألقينا فى قلوب العساكر والعوام ، أنهم فيما بعد يلتقوننا[(١)] على حلب أو الفرات ، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا[(٢)] إلى الفرات وإلى حلب ، مرتقبين وصولنا . فالجواب عن ذلك ، أنه من حين بلغنا حركتهم ، جزمنا ، وعلى لقائهم عزمنا[(٣)] ، وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الواجب الطاعة على كل مسلم ، المفترض المبايعة والمتابعة على كل منازع ومسلم ، طائعين لله ولرسوله فى أداء فرض[(٤)] الجهاد ، باذلين فى القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد ، عالمين أنه لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته . ومن والاه[(٥)] فقد خفظه الله وتولاه . ومن عانده أو عاند من أقامه ، فقد أذله الله .

فحين وصلنا إلى البلاد الشامية ، تقدمت عساكرنا إلى[(٦)] السهل والجبل ، وتبلغ بقوة الله تعالى فى النصر الرجاء والأمل . ووصلت أوائلها إلى أطراف حماه وتلك النواحى[(٧)] ، فلم يقدم أحدمنهم عليها . ولا جسر أن يمد [حتى[(٨)]] ولا الطرف إليها . فلم نزل مقيمين ، حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد ، وإخلافه موعد اللقاء ، والله لا يخلف الميعاد . فعدنا لاستعداد جيوشنا التى لم تزل تندفع فى

(١) فى الأصل يلتقونا : وما هنا من بيبرس الدرادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٤٠٠ فى صبح الأعشى جـ ٧ ، ص ٢٤٧ يتلقونا (المصحح) .

(٢) فى الأصل ووصلوا : وما هنا من بيبرس الدرادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٤٠٠

(٣) فى الأصل عرضا ، وما هنا من بيبرس الدرادار : زبدة الفكر جـ ٩ : ص ٤٠٠

(٤) فى صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٧ مفترض (المصحح) .

(٥) فى الأصل ولاه : وما هنا من بيبرس الدرادز : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٤٠٠

(٦) فى صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٧ تملأ (المصحح) .

(٧) فى الأصل اللواحى : وما هنا من بيبرس الدرادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٤٠٠

(٨) الإضافة من بيبرس الدرادار : زبدة الفكرة جـ ٩ : ص ٤٠٠ وكذلك صبح الأعشى جـ ٧ ، ص ٢٤٧ (المصحح) .

ولما اتصل خبر تجريد العسكر بصاحب سيس ، جهز رسله إلى الأبواب السلطانية ، يستعطف السلطان ، ويسأل مراحمه ، فلم تجد[1] رسالته نفعا . ووصلت هذه العساكر إلى حلب . وأردف السلطان هذه العساكر بالأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، أحد مقدمى العساكر بالديار المصرية ، ومضى فيه ، فخرج مسرعا ، وأدرك الجيش بحلب . وجرد من العسكر الحلبى الأمير علم الدين المعروف بالزغلى و[الأمير علم الدين سنجر الحلبى[2]] ، ومضافيهما . وتوجهت هذه الجيوش بجملتها إلى بلاد سيس . فلما نزلوا بالعمق ، افترقت العساكر فرقتين . فتوجه الأمير بدر الدين بكتاش ، أمير سلاح ، والأمير حسام الدين أستاذ الدار ، والأمير ركن الدين الجالق ، والأمير بهاء الدين قرا أرسلان ، والعسكر الصفدى من عقبة بغراس إلى باب اسكندرونة ، ونازلوا تل حمدون . وتوجه الملك المظفر صاحب حماه ، والأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، والأمير شمس الدين آقسنقر كرتاى[3] ، وبقية الجيش من عقبة المريت[4] . وصار نهر جيحان[5] بين الفريقين وكان دخولهم إلى دربند سيس ، فى يوم الخميس ، رابع شهر رجب .

(١) فى الأصل يجد ، وما هنا به يستقيم المعنى .

(٢) فى الأصل الحلبى ، وما هنا هو الاسم بالكامل ، المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٨

(٣) فى الأصل كرتيه ، وما هنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٨

(٤) فى الأصل عقبة المربى ، وما هنا من

Howorth: History of the Mangols Part III p.430

حيث أوردها بالرسم Merit

(٥) فى الأصل بهر ، وما هنا من المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٨٣٨ ، وهو المعروف بنهر جيحان ، الذى ينبع من مرتفعات أرمينية الصغرى ، ويصب فى البحر المتوسط فى خليج أياس ، انظر لسترنج بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦٣ — ١٦٤ .

إلى أحد من المسلمين يد أضراره . هذه سنة أهل الإسلام ، وفعل من يريد لملكه الدوام .

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا ، وأرسلوا به عنان قلمهم وأطلقوا ، وما أبدوه[1] من الاهتمام بجمع عساكرهم ، وتهيئة المجانيق ، إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل ، فالله تعالى يقول : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[2] .

وأما قولهم : وإلا فدماء المسلمين مطلوله ، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب ، وأولاهم بأن [لا][3] يصدر إليهم عن ذلك جواب ، ومن قصد[4] الصلح والإصلاح ، كيف يقول هذا القول ، الذى عليه فيه من جهة الله ، ومن جهة رسوله أى جناح؟ . وكيف يضمر هذه النية ، ويتبجح بهذه الطوية ؟ ولم يخف مواقع الزلل [من][5] هذا القول وخلله ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول « نية المرء أبلغ من عمله » . وبأى طريق تهدر دماء المسلمين ، التى من تعرض إليها ، يكون الله له فى الدنيا والآخرة مطالبا وغريما ، ومؤاخذا بقوله تعالى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾[6] .

وإذا كان الأمر كذلك ، فالبشرى لأهل الإسلام ، بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد ، وجمع العساكر التى يكون لها الملائكة الكرام ،

(١) فى الأصل أنذروا ، وما هنا من بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٤٠٢ وفى صبح الأعشى جـ ٧ ، ص ٢٤٨ ، أبدوا (المصحح) .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٧٣ .

(٣) الإضافة من صبح الأعشى جـ ٧ ، ص ٢٤٨ (المصحح) .

(٤) فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٤٠٢ قصدة .

(٥) الإضافة يتطلبها السياق .

(٦) سورة النساء : آية ٩٣ .

إن شاء الله تعالى من الأنجاد، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد، المتكاثرة المدد، الموعودة بالنصر، الذى يحفها فى الظعن والإقامة، الواثقة بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة». المبلغة فى نصر دين الله آمالا، المستعدة لإجابة داعى الله إذ قال: ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾[1].

وأما رسلهم، وهم [فلان وفلان[2]]، فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا، وأكرمنا وفادتهم، وغزرنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم هذا، مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم. وأنهم ما دفعوا لأفواه الخطوب إلا لما ارتكبوه من ذنوب. وما كان ينبغى أن يُرسَلَ مثل هؤلاء لمثلنا من مثله. ولا يتندب لهذا الأمر المهم إلا من يُجمع على فصل خطابه وفضله.

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة، لعوضناهم بأحسن منها. ولو أتحفونا بتحفة لقابلناهم[3] بأجمل عوض عنها. وقد كان عمهم الملك أحمد[4]، راسل والدنا السلطان الشهيد وناجاه[5] بالهدايا [والتحف[6]] من مكان بعيد. وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب، وأتى البيوت من أبوابها، بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب.

(١) سورة التوبة: آية ٤١.
(٢) الإضافة من بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٤٠٣.
(٣) فى صبح الأعشى، جـ ٧، ص ٢٤٩ لقابلناها (المصحح).
(٤) المقصود هنا السلطان أحمد تكدار. انظر ما سبق.
(٥) فى الأصل، وفاجاه، وما هنا من بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٤٠٣.
(٦) الإضافة من بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٤٠٣ وصبح الأعشى جـ ٧، ص ٢٤٩ (المصحح).

والآن، فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها، فنقول: إذا جنح الملك للسلم، جنحنا لها، وإذا دخل فى الملّة المحمدية، ممتثلا ما أمر الله به، مجتنبا ما عنه نهى، وانضم فى سلك الإيمان، وتمسك بموجباته، تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنانّ، وتجنّب التشبه بمن قال الله عز وجل فى حقهم: ﴿ قل لا تمنّوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾[2]. وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولا من جهته يرتّل آيات الصلح ترتيلا، ويروّق خطابه وجوابه، حتى يتلو كل أحد عند عوده ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾[3]. صارت حجّتنا وحجّته المركبة على[4] من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك فى سائر الممالك، ومظافرتنا له تكسب[5] الكافرين هوانا، والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى: ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[6]. وينتظم إن شاء الله تعالى شمل الصلح، أحسن انتظام. ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة[7] بعروة ولا انفصال لها ولا انفصام. وتستقر قواعد الصلح، على ما يرضى الله ورسوله علية أفضل الصلاة والسلام، إن شاء الله تعالى.

(١) فى صبح الأعشى، جـ ٧، ص ٢٤٩ انتظم (المصحح).

(٢) سورة الحجرات: آية ١٧

(٣) سورة الفرقان: آية ٢٧.

(٤) فى صبح الأعشى جـ ٧، ص ٢٥٠ مركبة (المصحح).

(٥) فى الأصل بكسب، وما هنا من بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٢٩ ص ٤٠٤

(٦) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(٧) فى الأصل والمضافرة، وما هنا من بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة جـ ٩، ص ٤٠٤ وفى صبح الأعشى جـ ٧، ص ٢٥٠ المظافرة (المصحح).

كتب فى ثامن وعشرين المحرم سنة إحدى وسبعمائة[١] .

وفى سنة سبعمائة ، ولى الأمير فارس الدين البكى الساقى نيابة السلطنة بحمص .

وفيها ، توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وزير الدولة ومدبرها ، إلى الممالك الشامية لكشفها ، ووصل إلى المملكة الحلبيـة ، وعاد إلى الديار المصرية ، فى سنة إحدى وسبعمائة ، وعزل عن الوزارة فى غيبته[٢] .

وفيها ، توجه الأمير سيف الدين بكتمر الجوكان دار ، أمير جاندار ، إلى الحجاز الشريف ، وتصدق بصدقات عظيمة . فيقال إنه أنفق فى هـذه السفرة خمسة وثمانين ألف دينار عينا[٣] .

وفى هذه السنة ، توفى الأمـير عز الدين ايدمر الظاهرى ، وهو الذى ناب عن السلطنة بالشام ، فى الدولة الظاهرية والسعيدية . وكانت وفاته برباطـه بجبل الصالحية ، فى يوم الأربعاء ثانى شهر ربيع الأول ودفن هناك رحمه الله تعالى[٤] .

وفيها ، توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، أخو قاضى القضاة بدر الدين . وكانت وفاته بحماه فى سابع

---

(١) هذا الكتاب يطابق ماورد فى بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٣٩١ — ٤٠٤ ، والقلقشندى ، صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٢ — ٢٥٥ .

(٢) انظر : تاريخ سلاطين المماليك ص ٩٧ ، والمقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩١٧ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ٤٠٥ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩١٧ .

(٤) تاريخ سلاطين المماليك ص ٩٥ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٩١٧

واستهلت ثمان وتسعين وستمائة

[٦٩٨ = ١٢٩٨ / ١٢٩٩]

فى هذه السنة ، فى أولها جهز السلطان الأمير جمال الدين أقش الأفرم ، والأمير سيف الدين حمدان بن صلغاى[1] إلى الشام ، وأمرهما أن يتوجها إلى دمشق ، ويخرجا نائب السلطنة الأمير سيف الدين قبجاق[2] وبقية العسكر إلى البلاد الحلبية . فوصلا إلى دمشق على خيل البريد ، فى يوم الأربعاء سابع المحرم. فتجهز الأمير سيف الدين قبجاق نائب السلطنة ، وخرج بسائر عساكر دمشق حتى بحرية القلعة ، وجماعة الأمير علم الدين سنجر أرجواش نائب القلعة ، وتأخر بدمشق الأمير سيف الدين جاغان . وكان خروج نائب السلطنة من دمشق ، فى عشية الأربعاء ، رابع عشر المحرم ، وبات بالميدان الأخضر . وركب فى بكرة النهار ، وتوجه بالعساكر إلى جهة حمص . وكان سبب هذه الحركة ظاهرا ، أن السلطان بلغه أن التتار قد عزموا على الدخول إلى البلاد الإسلامية بالشام . وعلم الأمير سيف الدين قبجاق ، أن الأمر ليس كذلك . فإن القصاد قبل ذلك بيسير ، حضروا إليه من بلاد الشرق ، وأعلموه أن التتار كانوا قد تجهزوا وعزموا على الحضور إلى الشام . فلما كانوا باثناء الطريق ، وقعت عليهم صواعق كثيرة ، وأهلكت منهم خلقا كثيرا ، فتفرقوا فى مشاتيهم ، ولم يرد خلاف ذلك .

---

(١) فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ص ٣٣٦ صلغيه

(٢) فى المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٨٥٣ قبجق

كمل الجزء التاسع والعشرون من كتاب

نهاية الأرب فى فنون الأدب

وافق الفراغ من كتابته ، فى يوم الاثنين السادس من شهر رمضان سنة ست وستين[1] وستمائة ، على يد الفقير إلى الله تعالى عبد المنعم بن شرف الدين السلبلاوينى .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول السفر الموفى ثلاثين

واستهلت سنة إحدى وسبعمائة للهجرة النبوية

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ،

وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) كذا فى الأصل ، وهذا التاريخ ليس دقيقا ، فالمعروف أن النويرى قد ولد سنة ٦٧٧ ، فليس معقولا أن تجرى الكتابة ، والنويرى لم يولد بعد .

فهرس موضوعات الجزء الحادى والثلاثون من
كتاب نهاية الأرب للنويرى

تقديم ٥

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى ٧

ذكر عزل الصاحب برهان الدين السنجارى عن الوزارة، وتفويضها للصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وغير ذلك ١٢

ذكر أخبار الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وخروجه عن طاعة السلطان، وسلطنته بدمشق، وما كان من أمره إلى أن عاد للطاعة، ورجع إلى الخدمة السلطانية ١٤

ذكر التقاء العسكر المصرى والعسكر الشامى وانهزام عسكر الشام، وأسر من يذكر من أمرائه فى المرة الأولى ١٥

ذكر تجريد العساكر إلى دمشق، وحرب سنقر الأشقر وانهزامه، وإخلائه دمشق، ودخول العسكر المصرى إليها ١٧

ذكر توجه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى صهيون وتحصنه بقلعتها ٢٠

ذكر انتظام الصلح بين السلطان الملك المنصور وبين سنقر الأشقر ، وما استقر بينهما وانتقاض ذلك وأخذ صهيون منه ٢١

ذكر خبر الملك السعيد وما كان من أمره بالكرك واستيلائه على الشوبك واستعادتها منه ٢٤

ذكر وفاة الملك السعيد ، وقيام أخيه الملك المسعود خضر مقامه بالكرك ٢٥

ذكر الصلح بين السلطان والملك المسعود وانتقاض ذلك ، وإخراجه من الكرك ٢٧

ذكر الفتوحات والغزوات التى شهدها السلطان بنفسه والتى ندب إليها عساكره المؤيده

ذكر عبور التتار إلى الشام ، والمصاف الذى وقع بينهم وبين العساكر المنصورة بحمص وانهزام التتار ٣٠

ذكر الميمنة المنصورة ٣٣

ذكر الجاليش ، وهو مقدمة القلب ٣٣

ذكر فتوح قلعة قطيا ٣٧

ذكر فتوح ثغر الكحخنا ٣٨

ذكر الإغارة على بلاد سيس ٣٨

ذكر فتوح حصن المـرقب ٣٩
ذكر غزوتى النوبة الأولى والثانية ٣٩
ذكر تجريد الجيش فى المـرة الثانية إلى النوبة ٤١
ذكر فتوح طرابلس الشام ٤٦
ذكر أخبار طرابلس الشام ، منذ فتحها المسلمون فى خلافة عثمان إلى وقتنا هذا ٤٩
ذكر ما اتفق فى الدولة المنصورية على حكم السنين خلاف ما ذكرناه من إقامة النواب ، ومهادنة الفرنج ، والحوادث الغريبة ، التى يتعين إيرادها ، والوفيات سنة ثمـان وسبعين وستمائة ٦١
سنة تسع وسبعين وستمائة ٦٤ — ٧٢
ذكر ما تجـدد بدمشق بعد أن فارقها الأمـير شمس الدين سـنقر الأشقر ٦٤
ذكر عزل قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان عن القضاة بدمشق واعادته ، وما اتفق فى هذه السنة الحادثه ٦٥
ذكر تفويض السلطنة ولاية العهـد للملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور ٦٨
ذكر توجه السلطان إلى غزة ، وعوده إلى الديار المصرية ٦٩
ذكر توجه السلطان إلى الشام ٧٠

سنة ثمانين وستمائة ٧٣ — ٨٦

ذكر ما تقرر من المهادنات مع الفرنج وبيت الاسبتار ٧٣

ذكر حادثة الأمير سيف الدين كوندك ومن معه ، والقبض عليه... ٧٧

ذكر وفاة قاضى القضاة تقى الدين رزين ، وولاية القاضى وجيه الدين ، واستعفائه من قضاء القاهرة ، وولاية القاضى شهاب الدين الحوبى... ... ... ٨٢

سنة إحدى وثمانين وستمائة ٨٧ — ٩٤

ذكر تفويض نيابة السلطنة بحلب للأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ٨٧

ذكر وصول رسل أحمد سلطان ، وهو تو كدار بن هولاكو ، ملك التتار ٨٩

ذكر الظفر بملك من ملوك الكرج وإمساكه... ... ... ٩١

سنة اثنتين وثمانين وستمائة ٩٥ — ١١٨

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعوده ٩٦

ذكر عزل قاضى القضاة عز الدين بن الصائغ الشافعى عن القضاء ، وتولية قاضى القضاة بهاء الدين يوسف بن الزكى ٩٧

ذكر وصول الشيخ عبد الرحمن ومن معه من جهة أحمد سلطان ، ووفاة مرسلهم ، وما كان من خبرهم ٩٩

ذكر عمارة التربة المنصورية والبيمارستان ومكتب السبيل ١٠٥
العودة إلى بقية حوادث سنة اثنتين وثمانين وستمائة ١١٣

سنة ثلاث وثمانين وستمائة ١١٩ — ١٢٤

ذكر توجه السلطان إلى الشام ١١٩
ذكر حادثة السيل بدمشق ١١٩
ذكر وفاة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وشيء من أخباره ،
وأمر ولده الأمير حسام الدين مهنا ١٢٠
ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماه وولاية ولده الملك المظفر ... ١٢١

سنة أربع وثمانين وستمائة ١٢٥ — ١٢٨

ذكر مولد السلطان الملك الناصر ١٢٥

سنة خمس وثمانين وستمائة ١٢٩ - ١٤٣

ذكر حادثة غريبة اتفقت بحمص ١٢٩
ذكر توجه السلطان إلى الكرك وما رتبه من أمر النيابة وعوده ... ١٣٢
ذكر وفاة قاضي القضاة وجيه الدين ، وتفويض القضاة بمصر
والوجه القبلي ، لقاضي القضاة تقي الدين بن بنت الأعز ١٣٣
ذكر وفاة قاضي القضاة تقي الدين بن شاس المالكي ، وتفويض
القضاة لقاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي ١٣٣
ذكر وفاة قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي ، وشيء من أخباره ... ١٣٤

سنة ست وثمـانين وستمائة ١٤٥ - ١٥١

ذكر تفويض قضاء القـاهرة والوجه البحرى للقاضى برهان الدين السنجارى ، ونقـلة القاضى شهاب الدين الخـوبى إلى الشام ، ووفاة السنجارى ، وإضافة قضاء القاهرة للقاضى تقى الدين بن بنت الأعز... ١٤٥

ذكر خبر واقعة ناصر الدين بن المقدسى وأعيان دمشق ، ومصادرة أكابر دمشق ، وتوكيل ناصر الدين بن المقدسى عن السلطان ١٤٧

سنة سبع وثمـانين وستمائة ١٥٣ - ١٦١

ذكر عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى عن الوزارة ومصادرته ، وتفويض الوزاة لقاضى القضاة تقى الدين ، ثم إلى الأمـير بدر الدين بيـدرا ١٥٣

ذكر توجه ناصر الدين بن المقـدسى إلى دمشق وما فوض إليـه من مناصبها ، وما اعتمده ١٥٧

ذكر وفاة الملك الصالح وتفويض ولاية العهد إلى الملك الأشرف ١٥٩

سنة ثمـان وثمـانين وستمائة ١٦٣ - ١٦٥

ذكر ما اتفق بدمشق من المصادرات ١٦٣

سنة تسع وثمـانين وستمائة ١٦٧ - ١٨٥

ذكر إيقاع الحـوطة على ناصر الدين المقدسى وشنقه ١٦٨

ذكر وفاة قاضى القضاة نجـم الدين المقدسى الحنبلى وتفـويض القضاء بدمشق بعده للشيخ شرف الدين المقدسى ١٧١

ذكر تسمية نواب السلطان الملك المنصـور ووزرائه ١٧٤

ذكر أخبار السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصـور سـيف الدين قـلاوون الصالحى ١٧٧

ذكر القبض على الأمير حسام الدين طرنطاى وقتـله ، وعلى الأمير زين الدين كتبغا واعتقـاله ١٨٠

ذكر تفويض نيـابة السلطنـة الشريفـة للأمير بدر الدين بيـدرا المنصـــورى ١٨٣

سنة تسعين وستمائة ١٨٧ - ٢٢٤

ذكر تفويض الـوزارة للصاحب شمس بن السلعـوس وشىء من أخبـاره ١٨٧

ذكر القبـض والإفراج على من نذكر من الأمراء ١٩٤

ذكر فتوح عكا وصـور وصيدا وحيفا ١٩٥

ذكر القبض على الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنـة بالشام ٢٠٩

ذكر رحيل السلطان عن عكا ودخوله دمشق ، وما قرره من أمر النيابة بهـا ، وبالكرك وغير ذلك ٢١٠

ذكر فتـوح برج صـيدا ٢١٢

ذكر فتح بيروت ٢١٣

ذكر إنفاذ ولدى السلطان الملك الظاهر ووالدتهما إلى بلاد الأشكرى ٢١٤

ذكر الإفراج عن الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى، وغيره من الأمراء ٢١٤

ذكر عزل قاضى القضاة تـقى الدين بن بنت الأعز عن القضاء ومصـادرته ٢١٨

ذكر تفويض القضاء بالديار المصرية لقاضى القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة الشافعى ٢٢٠

ذكر متجددات كانت بدمشق ٢٢١

سنة إحدى وتسعين وستمائة ٢٢٥ — ٢٤٦

ذكر توجه السلطان إلى الشام ٢٢٥

ذكر فتوح قلعـة الروم وتسميتها قلعة المسلمين ٢٢٦

ذكر توجه الأمير بدر الدين بيـــدرا وبعض العساكر إلى جبـال الكسروان واضطراب العسكر ٢٤٠

ذكر هرب الأمـير حسام الدين لاجين والقبـض عليه واعتقاله، والقبض على طقصـوا ٢٤٢

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام والفتوحات، وعود السلطان إلى الديار المصرية ٢٤٢

ذكر عدة حوادث كانت فى خلال فتح قلعة الروم وقبله وبعده ... ٢٤٣

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وجرمك الناصرى ووفاتهما ، ووفاة طقصوا ، والإفراج عن الأمير حسام الدين لاجين ... ٢٤٥

سنة اثنتين وتسعين وستمائة ٢٤٧ — ٢٥٧

ذكر توجه السلطان إلى الصيد ٢٤٨

ذكر توجه السلطان إلى الشام وأخذ بهسنا من الأرمن وإضافتها إلى الممالك الإسلامية ٢٤٩

ذكر القبض على الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى وأخوته ٢٥٠

ذكر هـــدم قلعة الشوبك ٢٥١

ذكر حادثة السيل ببعلبـك ٢٥٢

ذكر ختان الملك الناصر ، وما حصل من الاهتمام بذلك ٢٥٣

سنة ثلاث وتسعين وستمائة ٢٥٩ — ٢٨٠

ذكر مقتل السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمهما الله... ... ... ٢٥٩

ذكر خبر الأمير بدر الدين بيدرا ومن معه من الأمراء الذين وافقوه وما كان منهـم ، ومقتل بيدرا ٢٦٣

ذكر أخبار السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمـد ابن السلطان المـلك المنصـور سيف الدين قـلاوون الألفى الصالحى ٢٦٧

ذكر خـبر الأمراء الذين وافقوا بيـدرا على قتل السلطان المـلك الأشرف ٢٦٩

ذكر أخبـار الصاحب شمس الدين محمـد بن السلعوس الوزير ،
وما كان من أمره منذ فارق السلطان الملك الأشرف إلى أن مات ... ٢٧٠
ذكر الخلف الواقع بين الأمرين علم الدين سنجر الشجاعى وزين
الدين كتبغا ومقتـل الشجاعى ٢٧٣
ذكر عدة حوادث كانت فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، خلاف
ما قدمناه ، من ولاية وعزل وغـير ذلك والوفيات ٢٧٧

سنة أربع وتسعين وستمائة ٢٨١ — ٢٩١

ذكر الفتنة التى قصد المماليـك السلطانية إثارتها ٢٨١
ذكر سلطنة السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى، وهو
العاشر من مـلوك دولة الترك بالديار المصرية ٢٨٢
ذكر تفويض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر بن الخليلى ٢٨٥
ذكر القبض على الأمـير عز الدين أيبك الخزنـدار نائب السلطنة
بالفتوحات، وولاية الأمير عز الدين أيبك الموصلى المنصورى ٢٨٧
ذكر وفاة الملك المظفر يوسف بن عمر صاحب اليمن ٢٨٩

سنة خمس وتسعين وستمائة ٢٩٣ — ٣٠٩

ذكر حادثة عجيبـة بالشام ٢٩٥
ذكر وفود الأويراتية من بلاد التتار ٢٩٦
ذكر وفاة قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز ،
وتفويض القضاء للشيخ ابن دقيق العيـد ٢٩٩

ذكر توجه السلطان الملك العادل ، وعزل نائب السلطنة بدمشق الأمير عز الدين الحموى ، وتولية الأمير سيف الدين أغرلوا العادلى ، وغير ذلك ٣٠٥

سنة ست وتسعين وستمائة ٣١١ — ٣٢٧

ذكر عـود السلطان الملك العـادل إلى الديار المصرية وخلعـه من السلطنة ورجوعه إلى دمشق ٣١١

ذكر سلطنـة السلطان المـلك المنصور حسام الدين لاجين المنصـورى ٣١٣

ذكر أخبار الملك العادل وما اعتمده بدمشق ، وما كان من أمره إلى أن انتقـل إلى صرخد ٣١٦

ذكر الإفـراج عن جماعة من الأمراء ٣٢١

ذكر تجديد عمارة الجامع الطولونى ، وترتيب الدروس به ، والوقف على ذلك ٣٢١

ذكر تفويض القضاء بالديار المصرية والشام لمن يذكر ٣٢٣

ذكر تفويض الوزارة بالديار المصرية للأمـير شمس الدين سـنقر الأعسر ٣٢٤

ذكر القبض على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب السلطنة ، وتفويض نيابة السلطنة للأمـير سيف الدين منكوتمر ٣٢٥

سنة سبع وتسعين وستمائة ٣٢٩ - ٣٥٠

ذكر وصول الملك المسعود نجم الدين خضر ومن معه، من القسطنطينية إلى الديار المصرية ٣٢٩

ذكر توجه الملك السلطان الناصر إلى الكرك وإقامته بها ٣٣٠

ذكر القبـض على الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى وغيره ٣٣١

ذكر إعادة الصاحب فخر الدين عمر بن الخليـلى إلى الوزارة ٣٣٦

ذكر تجريد العساكر إلى سيس وما فتح من قلاعها ٣٣٧

ذكر حادثة غريبة ظهر فيها آية من آيات الله عز وجل ٣٤٤

ذكر روك الإقطاعات بالديار المصرية وتحـويل السنة ٣٤٥

سنة ثمـان وتسعين وستمائة ٣٥١ — ٣٨١

ذكر مفارقة من نذكر من نواب السلطنة والأمراء الخدمة السلطانية ولحـاقهم بقازان ملك التتار ٣٥٢

ذكر مقتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ونائبه منكوتمـــر ٣٥٧

ذكر ما اتفق بعد مقتل الملك المنصور ونائبه منكوتمر من الحوادث والوقائع المتعلقة بأحـوال السلطنة بمصر والشام، إلى أن عاد السلطان الملك النـاصر ٣٦٣

ذكر مقتل سيف الدين طقجى وسيف الدين كرجى ٣٦٥

ذكر عود السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى السلطنة ثانيا... ... ... ٣٧٠

ذكر الإفراج عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وتفويض الوزارة إليـــه ٣٧٢

ذكر وفود سلامش بن أفال بن بيجو وأخيه قطقطوا ومن معهما ، وعود سلامش وقتله ٣٧٣

ذكر وصول مراكب الفـرنج إلى ساحل الشام وتكسير بعضهـا ، ورجوع ما سلم منها ٣٧٦

ذكر وفاة الملك المظفـر صاحب حماه ٣٧٩

ذكر توجه السلطان إلى الشام... ... ... ٣٨٠

سنـة تسـع وتسعين وستمائة ٣٨٣ — ٤١٠

ذكر الفتنة التى أثارها الأويراتية بهذه المدينة (تل العجول) ... ٣٨٣

ذكر وقعة غازان ملك التتار بجمع المروج ببلاد حمص ٣٨٤

ذكر تسمية من استشهد ونقد فى هذه الوقعة من المشهورين ٣٨٥

ذكر ما اتفق بدمشق بعد الوقعـة ومفارقة العساكر الإسلامية فى مدة استيلاء التتار عليها ، إلى أن فارقوا البـلاد وعادوا إلى الشرق ... ٣٨٧

ذكر ما اعتمده السلطان الملك الناصر عند عوده إلى الديار المصرية من الاهتمام بأمر الجيوش والعساكر ٤٠١

ذكر توجه السلطان بالعساكر إلى جهـة الشام ووصوله إلى منزلة الصالحية وإرسال الجيوش إلى دمشق والممالك الشامية، وعـود الأمراء

إلى الخدمة السلطانية ، ورجوع السلطان إلى قلعة الجبل ، وما تقرر من أمر النواب ٤٠٣

ذكر ما اعتمده الأمير جمال الدين أقش نائب السلطنة بدمشق ، بعد عود العساكر المصرية ٤٠٧

سنة سبعمائة ٤١١ - ٤٤٣

ذكر جباية المقرر على أرباب الأملاك والأموال بالديار المصرية والشام ٤١١

ذكر توجه السلطان الملك الناصر بالعساكر إلى الشام وعوده ٤١٢

ذكر وصول غازان إلى الشام وعوده ، وما فعلته جيوشه ٤١٣

ذكر خبر أهل الذمـــة وتغيير لباسهم وما تقرر فى ذلك ، والسبب الذى أوجبـــه ٦٤١

ذكر وصول رسل غازان ملك التتار وما وصـــل على أيديهم من من المكاتبة وما أجيبـــوا به ٤٢٦

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٣٤٠ / ١٩٩١

الترقيم الدولى ISBN 977 - 01 - 2911 - 9

مطبعة دار الكتب ٢٥٦٣ / ١٩٩١ / ٣٣٠٠